الإصدار (٤٤)

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

دراسة موضوعية لـ (٣٥٤) موضوعًا قرآنيًا

موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

دراسة موضوعية لـ (٣٥٤) موضوعًا قرآنيًا

إشراف وتحرير
مركز تفسير للدراسات القرآنية

آدم عليه السلام - الإحسان

المجلد الأول

ح وقف مركز تفسير للدراسات القرآنية، ١٤٤٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مركز تفسير للدراسات القرآنية
موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. / مركز تفسير للدرسات القرآنية. - الرياض، ١٤٤٠هـ
٣٦ مج.
ردمك: ٤-٦٤-٨١٧٥-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ١-٦٥-٨١٧٥-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)
١- القرآن - التفسير الموضوعي أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٧ ٢٩٢٩/ ١٤٤٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies
المملكة العربية السعودية - الرياض - حي الياسمين - طريق أنس بن مالك
٠٩٦٦١١٢١٠٩٦٢٠ ٠٩٦٦١١٢١٠٩٧١٣ ٢٤٢١٩٩ ١١٣٢٢
www.tafsir.net info@tafsir.net

هذه الموسوعة برعاية
مؤسسة الشيخ عبدالله بن زيد الفنيم الخيرية

تقرأ في هذا المجلد

تقديم معالي د. صالح بن عبدالله بن حميد	٧
تقديم المشرف العام على الموسوعة	١١
تقديم مؤسسة الغنيم الخيرية	١٣
مُقَدِّمَة	١٥
فرق العمل في المشروع	٢٧
آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ	٣٥
الآيَاتُ الكَونِيَّةُ	٨٥
الابتلاء	١٣٥
إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ	١٦١
الأُبوَّة	٢١١
الاتِّبَاعُ	٢٣٩
الاتِّخَاذُ	٢٨٧
الاجْتِمَاعُ	٣٢١
الأَجَلُ	٣٨١
الإِحْسَانُ	٤١٩

تقديم معالي د. صالح بن عبدالله بن حميد

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعة بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد تنوعت جهود المفسرين في بيان القرآن الكريم عبر القرون، ولا تزال الهمم تسمو والعقول تبتكر طرقًا كثيرة لتقريب معاني القرآن الكريم بوسائل تناسب حاجات الناس والزمان، قال الطاهر بن عاشور رحمه الله : «إن معاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الأطراف موزعة على آياته، فالأحكام مبينة في آيات الأحكام التي بها صلاح الناس في أنفسهم وصلاحهم في مجتمعهم، والآداب في آياتها، والقصص في مواقعها، وربما اشتملت الآية الواحدة على فنين من ذلك أو أكثر».

وقد كان للعلماء كبير العناية وفائقها بكتاب الله الكريم حتى تنوعت تآليفهم صياغة ومضامين، وهذا التنوع بجملته يشكل منهجًا فريدًا في تحليل النصوص القرآنية من جوانب عدة في ذات النص وما يجاوره.

يقول البيهقي رحمه الله: «فإن خاتم كتب الله المنزلة على أنبيائه المرسلين. خص به خاتم رسل الله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقد حوى من علوم الهداية ما لا يتصور المزيد عليه، حتى استنهض همم علماء هذه الأمة، في التوسع في تبيين تلك العلوم من ثنايا القرآن الكريم، فألفوا كتباً فاخرة في تفسير الذكر الحكيم، على مناهج من الرواية والدراية، وعلى أنحاء من وجوه العناية، فمنهم من عنى بغريب القرآن، فألف في تبيين مفردات القرآن كتبًا عظيمة النفع، ومنهم من اهتم بمشكل الإعراب، فتوسع في تبيين وجوه الإعراب على لهجات شتى القبائل العربية، ومنهم من نحا نحو توجيه وجوه القراءات المروية تواترًا. وشواذ القراءات المروية في صدد التفسير، ومنهم من ألف في مشكل معاني القرآن وأجاد، ومنهم من خدم آيات المواعظ والأخلاق، ومنهم من شرح آيات التوحيد والصفات، ومنهم من أوضح آيات الأحكام، في الحلال والحرام، ومنهم من خص جدل القرآن بالتأليف، إلى غير ذلك من علوم أشار إليها كل من ألف في علوم القرآن من العلماء الأجلاء».

كما يؤكد رحمه الله أثر التخصص في بيان مكنونات كتاب الله وانعكاسها على أصالة ما

يدون: «وأما من اختط لنفسه أن يبين ناحية خاصة من القرآن فيكون عمله أتم فائدة، وليس الخبر كالمعاينة، ومن جمع بين علوم الراوية والدراية يكون بيانه أوثق، وبالتعويل أحق، ومن يكون مقصرا في شيء منها يكون التقصير باديا في بيانه مهما خلع عليه من ألقاب العلم ولأئمة الاجتهاد رضى الله عنهم استنباطات دقيقة من آيات الأحكام بها تظهر منازلهم في الغوص، وبها يتدرج المتفقهون على مدارج الفقه، فتجب العناية بها كل العناية لتثمر ثمرتها كما ينبغي».

والدراسة الموضوعية والتخصصية المشار إليها في السطور الآنفة هي أوقع المناهج وأعمقها للكشف عن علل النصوص ومناسباتها وحكمها وهديها ودلالاتها وظلالها، باستخدام منظار القرآن نفسه طلباً لإدراك ملكة التعرف على المقاصد القرآنية.

فلا غرابة في مدى تأثير كتاب الله تعالى على النهوض بالملكة العلمية فهو مجمع الكليات ومكنز المعاني الحاكمة لكل النصوص الشرعي منها والاجتهادي.

يقول الشاطبي رحمه الله في هذا الشأن: «إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه، لأنه معلوم من دين الأمة. وإذا كان كذلك، لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مرّ الأيام والليالي نظراً وعملاً لا اقتصاراً على أحدهما».

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن».

وقال أيضًا: «جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن».

فهذا القرآن بقاعدته وأصله وما فيه من موارد الحق ومصدريته يتضح منه مظاهر إعجازه قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: «فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعا إلى ثلاث جهات:

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في

أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض».

وإن التفسير الموضوعي هو الأقدر على أن يُجَلِّي وجوهًا جديدة للإعجاز القرآني الذي لا تنقضي عجائبه ولا يَخْلَق على كثرة الرد ، وإذا كان فهم القرآن يتوقف على إدراك ما تدل عليه آياته من طريق العبارة، والتعرف على مرامي ألفاظه بالإشارة، وإدراك لطائفه ومن ثم بلوغ حقيقته على وجهها، فإن تَمَثُّل أوقعِ طرق فهم القرآن إنما يأتي من طريق التفسير الموضوعي الذي تجتمع عنده خيوط غيره من فنون التفسير جملة.

كما أن هذا النوع من التفسير ينظر إلى موضوع معين في القرآن كله ليجلّي جوانبه ويحدد ملامحه ويربطه بالحياة، ومن ثم يرتب المجال لكل دارس كي يربط تخصصه بهدايات الوحي ويصنع الحياة على عينه؛ فالفقيه يجد مَعِينَهُ في آيات الأحكام، والمفكر يلتقي بالموارد القرآنية التي يبحث عنها في مظان التدبر وإعمال النظر، والاقتصادي يقف على آيات المال والإنفاق والثروة والإعمار، وعالم الكونيات يرى مطلوبه في آيات الفلك والنجوم وحركة الكواكب والليل والنهار، والباحث التربوي يلقى ضالته في آيات الإرشاد والوعظ والتوجيه والاعتبار، والمؤرخ يعثر على أخبار الأمم السابقة ودروس العبر القرآنية وأحوال الأقوام والدول، وباحث الاجتماع يجمع ثروة هائلة من الآيات الدالة على سنن الابتلاء والتمكين والاستدراج والزوال، وأحوال العمران.

وتأتي هذه الموسوعة العلمية التفسيرية التي بين يديك أيها القارئ الكريم تحت عنوان: (موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) لتكون إضافة للمكتبة القرآنية تلبي حاجات مختلف الشرائح الراغبة في بيان معاني ما اشتمل عليه القرآن الكريم من القضايا الكبرى، حيث اشتملت على (٣٥٤) موضوعًا قرآنيًّا تمثل معظم موضوعات القرآن الرئيسية والفروعية التي تمس حاجات الناس، وقد كتبت وفق منهجية علمية منضبطة تحت إشراف علمي متخصص من فريق المركز العلمي، وقد شارك في الكتابة والتحكيم والمراجعة أكثر من مائتي باحث من مختلف الجامعات الإسلامية، ونأمل أن يوفق الله لترجمة هذه الموسوعة للغات الأخرى لتسد فراغًا في المكتبات تمس حاجة المسلمين وغيرهم لمعرفتها، والاطلاع على ثراء القرآن الكريم بالموضوعات الحيوية التي لا تقوم حياة الناس

بدونها.

فالشكر لله عز شأنه الذي أعان على إتمام هذه الموسوعة، ثم الشكر لفريق العمل في المركز على جهدهم المبذول في سبيل إنجازها، كما أشكر مؤسسة الشيخ عبدالله بن زيد الغنيم على دعمها للمشروع تأليفاً وطباعة وتوزيعها، سائلاً الله تعالى أن ينفع بهذه الموسوعة، وأن يتقبلها بقبول حسن إنه سميع مجيب.

كتبه

أ. د. صالح بن عبدالله بن حميد

إمام المسجد الحرام وخطيبه

تقديم المشرف العام على الموسوعة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وببركة عونه وتوفيقه تتكامل الأعمال والحسنات، فله الحمد واجبا، وله الدين واصبا. والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا ونبينا ومعلمنا الخير محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، وبعد :

فقد كانت هذه الموسوعة إحدى توصيات مؤتمر علمي عام ١٤٣١هـ، والآن هي -بفضل الله وتوفيقه - بين يديك أخي القارئ الكريم في حُلةٍ قشيبةٍ تبهج قلوب طلاب العلم بمختلف تخصصاتهم العلمية، فهي زاد للمتخصص في الدراسات القرآنية في تدريسه وتعليمه، وللخطيب في خطبته، وللاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي وغيرهم ممن يرغبون في معرفة ماذا قال القرآن الكريم في هذا الموضوع أو ذاك، وقد اشتملت هذه الموسوعة العلمية على (٣٥٤) موضوعًا شملت كل موضوعات القرآن الرئيسية والفرعية، تم ترتيبها وتنظيمها بطريقة متقنة، تزود القارئ بالمعلومات بطريقة سلسة، وبأسلوب سهل ميسر، يفهمه المثقف غير المتخصص، وينتفع به العالم المتخصص على حدٍ سواء، كما زودت الموسوعة بفهارس علمية كاشفة ليصل الباحث للمقصود بأيسر طريق وأسرعه. وقد حرصنا على إخراج الموسوعة مطبوعةً طباعة فاخرة، وإخراجها في موقع الكتروني يربط بين أجزائها ويتيح التعليق عليها، وتلقي المقترحات والأفكار لتطويرها، كما حرصنا على إخراجها في تطبيق على الهواتف الذكية ليكون قريبًا من المستخدم في متناول يده.

والعلماء يُعرِّفون التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بأنه (الكشف الكلي عن مراد الله في قضية قرآنية حسب الطاقة)[1]، ويقسمونه إلى أنواعٍ أهمها هو دراسة موضوعٍ من خلال القرآن الكريم، وهو ما تخصصت فيه هذه الموسوعة التي بين يديك، حيث درست (٣٥٤) موضوعًا قرآنيًّا، حرصت اللجنة العلمية أن تغطي موضوعات القرآن التي يشكل حديثُ القرآن عنها موضوعًا يمكن الكتابة فيه.

لقد مرت هذه الموسوعة بمراحل متعددة منذ البدء بها حتى تمامها، تخللتها بعض الصعوبات والعقبات التي يسر الله بفضله وتوفيقه تجاوزها، واكتسب فريق العمل في هذه الموسوعة خبرةً ثمينةً في التعامل مع المشروعات العلمية الكبيرة، صقلت مهاراته جيدًا، وأكسبته خبرةً لا تقدر بثمن، والمركز بصدد إعداد دراسة علمية تأصيلية للتفسير الموضوعي

(١) انظر: منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دراسة نقدية، سامر رشواني ص٤٥.

تصف الواقع وتنقده، وتستثمر الخبرة المكتسبة من تنفيذ هذه الموسوعة لتكون بين يدي طلاب العلم وثيقةً علمية تضاف للدراسات التأصيلية في هذا الحقل العلمي القرآني المبارك.

جزى الله شيخي وأستاذي الجليل أ.د.مصطفى مسلم خير الجزاء على حماسه وتشجيعه وحسن ظنه بالمركز لتنفيذ هذه الموسوعة، فهو صاحب فكرتها ورئيس لجنتها العلمية الاستشارية، وجزى الله أصحاب الفضيلة أعضاء اللجنة العلمية الاستشارية على جهودهم وحسن بلائهم، وأخص منهم أخي د.عبدالحكيم القاسم الذي استجاب لي بأن يكون أمينًا للجنة في بدء عملها، فعمل دون تردد بهمة عالية ونشاط كبير، ثم لأخي الكريم المبدع د.عبدالرحمن الأهدل مدير مشروع الموسوعة حيث تسلَّم العملَ وتفرَّغَ له وأعاد تنظيمه وتخطيطه على أحسن وجه، وتابعه حتى تم على هذا الوجه من الإتقان والإحسان، بل إنه قدَّم رسالةً علمية للماجستير في تخصص إداري في هذه الموسوعة[1]، وناقش بحثه للدكتوراه في التفسير الموضوعي، وهو يعمل في الموسوعة كذلك، فالحمد لله على توفيقه للمركز وله، وأسأل الله له المزيد من النجاح والتوفيق، وأهنئه على نجاح الموسوعة وتمامها، وهذا ليس نهاية المطاف فتطويرها مشروع جديد لا بد من العمل عليه والعناية به.

كما أشكر أخي الكريم الجواد الشيخ سعد بن عبدالله بن غنيم مدير عام مؤسسة الشيخ عبدالله بن زيد الغنيم على دعمه لإنجاز هذه الموسوعة دعمًا سخيًّا وطباعتها ونشرها بين طلاب العلم كما هي عادته الكريمة في هذه المؤسسة المباركة في دعم طلاب العلم بطباعة الكتب ذات القيمة العالية فجزاه الله خيراً ورحم الله والديه وتقبل هذا العمل بقبولٍ حسن.

اللهم بارك في هذه الموسوعة، وانفع بها طلاب العلم، واجعلها من العلم النافع، والصدقة الجارية لكل من شارك فيها بقليل أو كثير يا رب العالمين.

المشرف العام على الموسوعة

أ.د.عبدالرحمن بن معاضة الشهري

مدير عام مركز تفسير للدراسات القرآنية

(١) عنوان البحث: تطبيق إدارة الجودة في مشاريع الموسوعات العلمية، دراسة حالة مشروع موسوعة التفسير الموضوعي.

تقديم مؤسسة الغنيم الخيرية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

فإن مؤسسة الشيخ عبدالله بن سعد الغنيم الخيرية في غاية الابتهاج بدعمها تأليف ونشر (موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) بشراكة علمية مباركة مع مركز تفسير للدراسات القرآنية، هذا المركز العلمي المبارك الذي حقق نجاحات كبيرة في خدمة طلبة العلم وخدمة القرآن الكريم وعلومه.

وهذا المشروع - كما يظهر من الاطلاع على منهجه، وخطوات العمل فيه، وفريق العمل الواسع الذي قام بتنفيذه = يعد نقلة نوعية في تقريب موضوعات القرآن للدارسين، والخطباء، والدعاة، والمثقفين بمنهجية علمية رصينة، ولغة سهلة ميسرة يفهمها الجميع، وسيكون في إتاحته بمختلف الوسائل بطباعته للقراء، وعلى شكل تطبيق إلكتروني لمستخدمي التطبيقات الإلكترونية، وبوابة إلكترونية تفاعلية ما يحقق له المزيد من النفع والانتشار وتلبية حاجة جميع الفئات بإذن الله.

نسأل الله أن يبارك في هذه الموسوعة، وأن يتقبلها في الأعمال الصالحة، وأن تكون من العلم النافع، والصدقة الجارية التي يبقى أجرها للواقف رحمه الله وللقائمين على المؤسسة والمركز، ونسأل الله أن يديم على هذه البلاد المباركة نعمة الأمن والإيمان، وأن تبقى منارة لخدمة الإسلام والقرآن في كل مكان،،

مدير المؤسسة

سعد بن عبدالله الغنيم

مُقَدِّمَة

عناصر الموضوع

قصة الموسوعة	١٧
أهداف الموسوعة	١٨
جمهور الموسوعة	١٨
مميزات الموسوعة	١٨
موضوعات الموسوعة	١٩
عقبات مشروع الموسوعة	١٩
فريق العمل في مشروع الموسوعة	٢١
قواعد العمل في مشروع الموسوعة	٢١
ضوابط كتابة بحوث الموسوعة	٢٢

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله الطيبين، وصحابته الأكرمين.

أما بعد:

فإن التفسير الموضوعي من أجل الدراسات القرآنية المتعلقة بالقرآن الكريم، فهو يقرب الناس من القرآن، ويكشف لهم عن موضوعاته الرئيسة، ويصحح لهم كثيرًا من التصورات.

والتفسير الموضوعي اتجاهٌ ظهر في هذا العصر، وبدأت تظهر ملامحه منذ نصف قرن تقريبًا، وأصبح مادة مقررة في كثير من الجامعات.

فكانت الحاجة ماسة إلى موسوعة تعنى بجمع قدر كبيرٍ من موضوعات القرآن الكريم، تكتب وفق منهجية علمية، ولغة واضحة ويسيرة يفهمها كل أحد.

قصة الموسوعة:

بينما كنا في مؤتمر (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، واقع وآفاق) الذي عُقِدَ في جامعة الشارقة عام (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، اجتمعت مع أ.د.عبدالرحمن بن معاضة الشهري وجرى الحديث عن فكرة إنشاء موسوعة قرآنية تتناول موضوعات القرآن الكريم، بعد أن تم الانتهاء من موسوعة التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم.

فأبدى استعداده وتحمسه للفكرة، وعُقِدت عدة اجتماعات لمناقشة الفكرة.

وتم الاتفاق على أن يتم تنفيذ المشروع بالتعاون بين مركز تفسير للدراسات القرآنية وكرسي القرآن وعلومه بجامعة الملك سعود.

وفي بداية عام (١٤٣٢هـ) تم تشكيل لجنة علمية لوضع تصور علمي للمشروع، واقتراح موضوعات للكتابة فيها، ووضع خُطَطٍ للموضوعات، ومناقشة الخطط المقترحة من الباحثين.

وفي منتصف عام (١٤٣٢هـ) أعلن عن مشروع الموسوعة في موقع ملتقى أهل التفسير. وبدأنا باستقبال طلبات المشاركة إلا أنها كانت ضعيفة نوعًا ما، فقمنا بحملة تسويقية

لاستقطاب الباحثين في التفسير وعلوم القرآن للمشاركة في الموسوعة.

والحمد لله كانت نتائج الحملة مثمرة، حيث حُجِزَتْ جميع الموضوعات التي كانت متاحة للحجز.

وها نحن بعد مرور سبع سنوات، نقطف ثمار الموسوعة، فتخرج في ثوبها الأول تحتوي على (٣٥٤) موضوعًا، في (٣٦) مجلدًا.

أهداف الموسوعة:

١. عرض موجز لأهم موضوعات القرآن الكريم.
٢. الإسهام في إيجاد مشاريع علمية يشترك فيها المتخصصون في الدراسات القرآنية.

جمهور الموسوعة:

تستهدف الموسوعة فئتين من الناس:

الأولى: المتخصصون في مجال الدراسات القرآنية؛ من أساتذة الجامعات والكليات، والمعاهد العلمية، وطلاب الدراسات العليا، والباحثين في المراكز البحثية.

الثانية: غير المتخصصين؛ من الدعاة إلى الله، وأئمة المساجد، وخطباء الجمعة، وعامة الناس.

وحرصًا على تيسير الوصول للموسوعة لأكبر قدر من المستفيدين منها بأيسر الطرق، وأكثرها انتشارًا، فقد جعلت مخرجات الموسوعة في ثلاثة قوالب:

١. كتاب ورقي ملون، يمتاز بإخراج جميل وأنيق.
٢. موقع الكتروني، يستفيد منه الباحثون في جميع أنحاء العالم.
٣. تطبيق الكتروني، يعمل على الأجهزة الذكية.

مميزات الموسوعة:

وقد حرص القائمون على المشروع أن تمتاز الموسوعة بعدة مميزات، منها:

- يكتبها مجموعة من الباحثين المميزين، ويحكِّمها نخبة من المتخصِّصين في الدراسات القرآنية.
- تكتب بلغة عصرية، وتعالج قضايا العصر.
- تُحَكَّم بحوثها وفق المعايير العلمية المتعارف عليها.

موضوعات الموسوعة:

عُنيت موسوعة التفسير الموضوعي بدراسة أهم الموضوعات التي تحدث عنها القرآن الكريم، وقد بلغ عدد موضوعات الموسوعة في طبعتها الأولى (٣٥٤) موضوعًا.

يتم دراستها وفق منهجية علمية معتمدة في الجامعات الإسلامية، بشكل موجز، يعرض لأهم القضايا المتعلقة بهذا الموضوع، مع إدراكنا لصعوبة الاختصار في بعض الموضوعات التي تحدث القرآن الكريم عنها كثيرًا.

وأما ضابط الموضوع القرآني: فهو أن يكون موضوعًا تحدث عنه القرآن؛ إما بألفاظه الصريحة، أو بمعانيه، ويدخل في ذلك الأعلام أو الأقوام الذين تحدث عنهم القرآن.

ولا يدخل في نطاق الموسوعة دراسة المصطلح القرآني، أو الأساليب القرآنية.

ترتيب موضوعات الموسوعة والإحالة بينها:

روعي في ترتيب الموسوعة الأمور الآتية:

١. رتبت موضوعات الموسوعة في النسخة الورقية ترتيبًا ألفبائيًّا، حتى يسهل الوصول إلى الموضوع.
٢. أما الموقع الالكتروني، فجعل الترتيب على ثلاث خيارات: حسب الأحرف، وحسب المجلدات، وحسب الموضوعات الرئيسة.
٣. روعي في الترتيب الألفبائي فك التضعيف عن الحرف المشدد، واعتباره حرفين، فقدم ـ مثلًا ـ الشرب على الشر، والشكر على الشك.
٤. يذكر في نهاية كل موضوع الموضوعات ذات الصلة به.
٥. في المواضع المشتركة بين بحثين أو أكثر: يتم الإحالة من الموضع المختصر إلى المطول، فمثلًا أحيل في بحث الإنسان في موضوع خلق آدم عليه السلام إلى بحث آدم عليه السلام: مراحل خلق آدم. وإذا كان في كلا الموضعين فائدة مختلفة أحيل في كلٍّ منهما إلى الآخر.

عقبات مشروع الموسوعة:

أثناء تنفيذ أي مشروع تظهر بعض العقبات والمشاكل، ولم يخلُ مشروع موسوعة التفسير الموضوعي من هذه العقبات والمشاكل، فظهر بعض العقبات العلمية، والإدارية، والمالية. لكن الله عز وجل منَّ علينا وتجاوزناها، فله الحمد والشكر.

ومن أبرز العقبات الإدارية التي واجهها المشروع:

١. عدم الجدية لدى بعض الباحثين، فربما حجز موضوعًا للكتابة فيه، فإذا انتهت مدة الكتابة طلب تمديد المدة، فإذا انتهى التمديد اعتذر عن المشاركة.

٢. عدم التزام كثير من الباحثين بالمواعيد المتفق عليها، مما ساهم في تأخر المشروع.

٣. صعوبة المتابعة الإدارية للباحثين والمحكمين، مع كثرة أعدادهم، واختلاف بلدانهم.

ومن أبرز العقبات العلمية التي واجهها المشروع:

١. اختلاف أساليب الباحثين، وتنوع طرائقهم في الكتابة، نظرًا لاختلاف بلدانهم، وأعمارهم، ومدارسهم العلمية.

٢. عدم التزام كثير من الباحثين بالضوابط العلمية التي أرسلت لهم.

٣. التباين والاختلاف في المعالجة خاصة في المبحث الأول (مبحث التعريفات)، مما اضطرنا إلى إعادة صياغته بصورة موحدة.

٤. اختلاف أساليب الباحثين في العزو والتوثيق اختلافًا كبيرًا، مما اضطرنا إلى إعادة صياغة العزو التخريج في جميع الموسوعة وتوحيدها، مع توحيد اسم الكتاب واسم المؤلف قدر المستطاع، وقد أخذنا منا هذا العمل وقتًا طويلًا.

٥. الخروج عن البحث في الموضوع القرآني، إلى البحث في المصطلح القرآني.

وخلال سنوات العمل استقبلنا ما يزيد عن (٤٣٠) بحثًا، رَدَدْنَا منها حوالي (٧٠) بحثًا؛ لأسباب مختلفة، منها:

١. الإخلال بالأمانة العلمية؛ كأن يكون البحث تلخيصًا لرسالة علمية، أو ينقل من بحثٍ ما صفحاتٍ دون عزو أو توثيق، ونحو ذلك مما له مساس بالأمانة العلمية.

٢. غلبة الطابع الخطابي والإنشائي في بعض البحوث، وبُعْده عن الأسلوب العلمي في المعالجة الموضوعية.

٣. اختلاف صياغة البحث وطريقة معالجته عن باقي أبحاث الموسوعة، مما جعلنا نعتذر عن قبوله.

وغير ذلك من الأسباب.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن اللجنة العلمية قَبِلَتْ في بعض الموضوعات أكثر من بحث، ثم حصل بينها مفاضلة، واختير أحسنها دراسة، وأقربها لمنهج العمل في الموسوعة.

فريق العمل في مشروع الموسوعة:

مما تمتاز به مشاريع الموسوعات العلمية على اختلاف تخصصاتها: كثرة المشاركين فيها، واحتياجها إلى عدة فرق مختلفة المهام.

وقد عمل على إعداد هذه الموسوعة عدة فرق، منها:

- اللجنة الاستشارية.
- اللجنة العلمية.
- فريق إدارة المشروع.
- الباحثون.
- المحكمون.
- فريق التصحيح والمراجعة.

وقد بلغ عدد الباحثين الذين أرسلوا لنا بحوثًا (٢١٧) باحثًا، من مختلف دون العالم الإسلامي، من ماليزيا شرقًا إلى المغرب غربًا.

وعدد الباحثين الذين قبلنا بحوثهم (١٦٦) باحثًا، تدرجت مستوياتهم العلمية، من طالب ماجستير إلى أستاذ دكتور.

وأما لجنة التحكيم فقد بلغ عدد أعضائها (١٠٠) محكَّمًا.

قواعد العمل في مشروع الموسوعة:

وضعت إدارة الموسوعة مجموعة من القواعد والضوابط لإدارة عمليات المشروع، نذكرها هنا لعل أحدًا يستفيد منها، ومن أبرزها:

- يتم إعداد خطط موضوعات الموسوعة من خلال فريق إدارة المشروع، ويتم اعتمادها من اللجنة العلمية، حتى تكون ذات طابع واحد.
- الأولوية في قبول طلبات المشاركة للمتخصصين في الدراسات القرآنية، ويمكن قبول مشاركة المتخصصين في الدراسات الإسلامية، إذا كانوا من الباحثين المميزين.
- يراعى في اختيار المحكم أن يكون أستاذًا، أو أستاذًا مشاركًا في تخصص التفسير وعلوم القرآن، إلا إذا كان ذا صلة بموضوع البحث، كأن يكون كتب فيه بحثًا أو رسالة، أو كان متميزًا وناقدًا، فيتجاوز عن هذا الشرط.
- يمكن الإفادة في تحكيم البحوث من المتخصصين في غير التفسير وعلوم القرآن، إذا

كان البحث له علاقة بمجال تخصصهم، فيستفاد من أستاذ الفقه إذا كان الموضوع له جانب فقهي، وهكذا..

- يراعى في اختيار المُحَكَّمين أن يكونا من مدرستين مختلفتين.
- إذا أوصت لجنة التحكيم بقبول البحث، فإنه يقبل.
- إذا أوصت لجنة التحكيم بردِّ بحث، فإنه يردّ.
- إذا اختلف المحكَّمان؛ فردَّ أحدهما البحث، وقبل الآخر البحث، فيحال البحث إلى اللجنة العلمية، لتنظر في البحث، ويعتبر قرار اللجنة العلمية فاصلاً في الموضوع.

وحرصًا من إدارة الموسوعة على تجويد العمل فيها، فقد صممت خريطة انسياب للعمل، يمر فيها البحث بعدة مراحل، يتخللها محطات اختبار وفحص.

ضوابط كتابة بحوث الموسوعة:

وضعت اللجنة العلمية مجموعة من الضوابط لكتابة بحوث الموسوعة، وهي:

أولاً: هيكل بحوث الموسوعة:

- يتكون هيكل بحوث موسوعة التفسير الموضوعي من مباحث، وتحتها مطالب، ولا يوجد فيه فصول أو أبواب.
- الفهرس المطلوب هو فهرس المراجع والمصادر فقط، ترتب مراجعه بالحروف، ويذكر في كل مرجع المعلومات الآتية على الترتيب: اسم الكتاب، والمؤلف، ودار النشر، وسنة النشر، ورقم الطبعة إن وجد، ومكان النشر.

ثانيًا: طرق العزو والتخريج في الموسوعة:

- عزو الآيات في صلب البحث، وليس في هامشه، بهذا الشكل [السورة: رقم الآية]، نحو: [البقرة: ١٢٣].
- باقي أنواع العزو والتخريج تكون في الهامش، وليس في الأصل.
- إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما، فإنه يكتفى بتخريجه منهما، وإذا كان في السنن الأربعة ومسند أحمد، فيكتفى بتخريجه منها، وإن كان خارجها فيكتفى بتخريجه من مصدرين من مصادر كتب الحديث، مع مراعاة الأقدمية والأهمية، ونقل حكم أحد الأئمة على الحديث صحة أو ضعفًا.
- صيغة التخريج كالآتي: أخرجه المؤلف في كتابه (اسم الكتاب)، كتاب كذا، باب كذا،

جزء/ صفحة، رقم ().ويذكر الحكم على الحديث إذا كان خارج الصحيحين.

- تعزى الأبيات الشعرية إلى قائلها إن وجد، ويكتفى بالعزو لديوان الشاعر ، فإن لم يوجد فلمصدر واحد من كتب الأدب أو اللغة.
- ليس من منهج العمل في الموسوعة التعريف بالأعلام الواردة في البحث، ولا البلدان، ولا المصطلحات (عدا مصطلح البحث)، إلا ما دعت الحاجة إليه.
- عند العزو إلى الكتب، يكتفى بذكر اسم الكتاب، والمؤلف، ورقم الجزء والصفحة، نحو: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥/ ٣٣.

ثالثًا: التعريف اللغوي والاصطلاحي:

- يخصص المبحث الأول من بحوث الموسوعة للتعريف بموضوع البحث لغة واصطلاحًا، وطريقة القرآن في استعمال هذا المصطلح، وذكر الفرق بينه وبين المصطلحات القريبة منه، وكذلك المصطلحات المقابلة له.
- يتم تلخيص المهم من كلام أئمة اللغة عند تعريف المصطلح لغة، مما له علاقة بموضوع البحث، مع الإشارة إلى المعنى الأصلي لجذر الكلمة المراد شرحها، وعلاقة المعنى المراد في البحث بالمعنى الأصلي، وينبغي الاستفادة من كتب غريب القرآن.
- المراد بالتعريف الاصطلاحي: ذكر المعنى المصطلحي الذي يدور حوله البحث، لا ذكر تعاريف أهل الفنون لهذا المصطلح.
- المراد بالاستعمال القرآني للمصطلح: هو بيان المعاني التي استخدم فيها القرآن الكريم المصطلح، وبيان مدى العلاقة بين هذا الاستخدام، والمعنى الأصلي للمصطلح، وذلك بتتبع المفردة القرآنية بكافة اشتقاقاتها، واستقصاء معانيها ودلالاتها.

رابعًا: ضوابط علمية:

- جمع الآيات المتعلقة بالموضوع القرآني، لتكون محلاً للدراسة ولبيان وجهة القرآن في الموضوع المدروس من خلالها.
- ليس من منهج الموسوعة سرد الآيات المتعلقة بالموضوع في موضع واحد، وإنما تذكر في مواضعها من البحث.
- لابد أن يغلب على البحث الطابع القرآني، فتستمد عناوينه من آيات القرآن الكريم، ويغلب على مصادره كتب الدراسات القرآنية.

- تصاغ عناوين البحث بطريقة علمية سليمة.
- يستعان بالقراءات القرآنية المتواترة في دراسة موضوع البحث.
- يراعى عند البحث دفع ما يوهم الاختلاف والتعارض بين آيات الموضوع الواحد، أو بينها وبين أصول قرآنية أو نبوية أخرى ذات صلةٍ ما بالموضوع.
- يُحمل النص المطلق على المقيد، والعام على الخاص، والمجمل على المبين.
- ليس من المناسب عند الحديث عن آية أو أكثر الاقتصار على نقل نص أو أكثر من كتب التفسير، دون تعليق أو توضيح.
- التركيز على إبراز الجوانب التي عالجها القرآن في موضوع البحث، وبيان أهميتها وتأثيرها، وعلاقتها بمقاصد القرآن الكريم.
- عدم التوسع في ذكر الأحكام الفقهية، أو النكت البلاغية، أو الفوائد النحوية، أو غير ذلك مما يخرج البحث عن مقصوده، وإنما يذكر منها ما تدعو الحاجة إليه.
- ربط البحث بالواقع الذي نعيشه اليوم، عند وجود مناسبة لذلك.
- التعرض للنظريات المخالفة للمنهج القرآني في موضوع البحث، كنظرية داروين، أو غيرها، والرد عليها باختصار.
- تجنب الأقوال الشاذة في التفسير، والاكتفاء بالأقوال المحتملة القريبة.
- عدم الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة، والاكتفاء بالأحاديث الصحيحة والحسنة.
- لابد من أصالة المراجع وخصوصًا كتب التفسير التحليلي، وتكون هذه المصادر الرئيسية التي يعتمد عليها البحث، ولا مانع من الاستفادة من الكتب المعاصرة.
- تجنب الإطالة في النصوص المنقولة، وإن كان لابد فتختصر.
- لا ينبغي الاكتفاء بالنقل عن مصدر واحد في أي مطلب من مطالب البحث، ولا بد من تعدد المصادر وتنوعها.
- يمنع سرقة مطلب أو أكثر من بحث آخر، ويتعرض فاعله إلى إلغاء بحثه وردّه.
- يقتصر على مذهب السلف الصالح في مسائل العقيدة.
- تجنب الإسراف في الكلام الإنشائي الخطابي، وإنما تركز العبارة وتختصر بما يناسب العمل الموسوعي.

وبعد..

فإن العمل الموسوعي يمتاز بحاجته المستمرة إلى التطوير والتحسين، ولا يقف الحد في مراجعة المكتوب وتطويره، بل أيضًا الزيادة عليه، فموضوعات القرآن الكريم كثيرة جدًّا، لا تكاد تحصر.

وإدارة الموسوعة تسعد باستقبال ملحوظات القراء، وأفكارهم، وآرائهم، للاستفادة منها في الطبعة الثانية إن شاء الله تعالى.

ويمكن إرسال المقترحات والملحوظات على ايميل الموسوعة: info@modoee.com.

أو من خلال موقع الموسوعة : modoee.com.

وفي الختام نشكر الله عز وجل أولًا، الذي يسَّر وسهّل تنفيذ هذا المشروع العلمي الكبير.

ونشكر مركز تفسير للدراسات القرآنية وكرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود، على جهدهم المتميز في إدارة العمل في الموسوعة، وإنجازها في هذا الوقت رغم العقبات الكثيرة التي مرت بها الموسوعة.

ونشكر كل من ساهم في إنجاز هذا المشروع، وعلى رأسهم أ.د. عبدالرحمن بن معاضة الشهري، فقد بذل جهدًا كبيرًا في الدعم والمؤازرة، فكتب الله أجره، ورفع قدره.

ونشكر د. عبدالرحمن الأهدل (مدير المشروع) على حسن إدارته للمشروع، والقيام بأعبائه.

ونشكر مؤسسة الشيخ عبدالله بن زيد الغنيم الخيرية، وعلى رأسهم الشيخ سعد بن عبدالله الغنيم على رعايتهم لهذا المشروع.

نسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء، ويبدلهم خيرًا مما أنفقوا.

والحمد لله أولًا وآخرًا.

رئيس اللجنة الاستشارية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم محمد

فِرَق العمل في المشروع

عناصر الموضوع

اللجنة الاستشارية	٢٨
اللجنة العلمية	٢٨
فريق إدارة المشروع	٢٨
المحكّمون	٢٨
الباحثون	٣٠
فريق المراجعة والتصحيح والتحرير	٣٣

اللجنة الاستشارية

١. أ.د. مصطفى مسلم محمد.
٢. أ.د. فهد عبدالرحمن الرومي.
٣. أ.د. محمد عبدالرحمن الشايع.
٤. أ.د. زيد عمر عبدالله العيص.
٥. أ.د. ناصر محمد المنيع.
٦. أ.د. عبدالرحمن معاضة الشهري.
٧. د. عبدالحكيم القاسم.

اللجنة العلمية

١. أ.د. مصطفى مسلم محمد.
٢. أ.د. زيد عمر العيص.
٣. أ.د. أحمد سعد الخطيب.
٤. د. عبدالحكيم القاسم.
٥. د. عبدالله الجيوسي.
٦. د. عبدالرحمن سالم الأهدل.
٧. د. توفيق علي زبادي.

فريق إدارة المشروع

١. أ.د عبدالرحمن بن معاضة الشهري.
٢. د. عبدالحكيم القاسم.
٣. د. عبدالرحمن سالم الأهدل.
٤. د. توفيق علي زبادي.
٥. عبدالمحسن يزيد العنقري.
٦. بشير إبراهيم النهاري.

المحكّمون

١. أ.د. إبراهيم صالح الحميضي السعودية
٢. أ.د. أبوبكر الطيب كافي الجزائر
٣. د. أحمد البراء الأميري سوريا
٤. د. أحمد الرقب الأردن
٥. د. أحمد بزوي الضاوي المغرب
٦. أ.د. أحمد حسن فرحات سوريا
٧. أ.د. أحمد خالد شكري الأردن
٨. أ.د. أحمد سعد الخطيب مصر
٩. د. أحمد قاسم كسار العراق
١٠. أ.د. أحمد محمد الشرقاوي مصر
١١. أ.د. أحمد محمد مفلح القضاة الأردن
١٢. أ.د. بدر بن ناصر البدر السعودية
١٣. د. توفيق علي زبادي مصر
١٤. أ.د. جمال مصطفى عبدالحميد مصر
١٥. د. جهاد محمد النصيرات الأردن
١٦. د. حاتم عابد القرشي السعودية
١٧. أ.د. حامد محمد عثمان مصر
١٨. أ.د. حسن محمد شبالة اليمن
١٩. أ.د. حسن عبد الغني أبوغدة سوريا
٢٠. د. حسن عبدالجليل العبادلة الأردن
٢١. أ.د. حسين بن علي الحربي السعودية
٢٢. أ.د. حمزة حسن سليمان السودان
٢٣. أ.د. حيدر محمد المنصوري السودان
٢٤. د. رانيا محمد نظمي السعودية
٢٥. د. رمضان خميس الغريب مصر

٢٦. أ.د. رياض محمود قاسم فلسطين
٢٧. أ.د. زاهر عواض الألمعي السعودية
٢٨. أ.د. زكريا إبراهيم الزميلي فلسطين
٢٩. أ.د. زياد خليل الدغامين الأردن
٣٠. أ.د. زيد عمر عبدالله العيص الأردن
٣١. د. سالم غرم الله الزهراني السعودية
٣٢. أ.د. سعود عبدالله الفنيسان السعودية
٣٣. أ.د. سليمان القرعاوي السعودية
٣٤. أ.د. سليمان محمد الدقور الأردن
٣٥. أ.د. شحادة احميدي العمري الأردن
٣٦. د. شعبان رمضان محمود مقلد مصر
٣٧. أ.د. صالح عسكر الجزائر
٣٨. أ.د. صالح يحيى صواب اليمن
٣٩. أ.د. صديق أحمد مالك السودان
٤٠. أ.د. صلاح الدين عوض السودان
٤١. أ.د. صلاح الخالدي الأردن
٤٢. أ.د. طه عابدين طه السودان
٤٣. أ.د. عادل إبراهيم رفاعي السعودية
٤٤. أ.د. العباس حسين الحازمي السعودية
٤٥. أ.د. عبد الجليل حسن الديب مصر
٤٦. أ.د. عبد الحميد أحمد هنداوي مصر
٤٧. أ.د. عبد السلام الجار الله السعودية
٤٨. أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي اليمن
٤٩. د. عبد الغني حيدر فارع اليمن
٥٠. د. عبدالحكيم القاسم السعودية
٥١. د. عبدالحي يوسف السودان
٥٢. د. عبدالرحمن سالم الأهدل اليمن
٥٣. د. عبدالرزاق السعدي الأردن
٥٤. أ.د. عبدالستار فتح الله سعيد مصر
٥٥. أ.د. عبدالسلام حمدان اللوح فلسطين
٥٦. أ.د. عبدالفتاح محمد خضر مصر
٥٧. د. عبدالله موسى أبو المجد مصر
٥٨. د. عبدالمحسن زابن المطيري الكويت
٥٩. أ.د. عبدالوهاب لطف الديلمي اليمن
٦٠. د. عبير عبد الله النعيم السعودية
٦١. أ.د. عثمان جمعة ضميرية سوريا
٦٢. أ.د. عرفات محمد عثمان مصر
٦٣. د. عصام الحميدان السعودية
٦٤. أ.د. عصام العبد زهد فلسطين
٦٥. د. عفاف عبدالغفور حميد العراق
٦٦. د. علي الأمين عوض الله السودان
٦٧. د. عماد يعقوب حمتو فلسطين
٦٨. د. عودة عبدد عودة عبدالله فلسطين
٦٩. د. عيادة أيوب الكبيسي العراق
٧٠. د. عيسى ناصر الدريبي السعودية
٧١. أ.د. فهد عبدالرحمن الرومي السعودية
٧٢. د. مبروك بهي الدين رمضان مصر
٧٣. د. مجاهد مصطفى بهجت العراق
٧٤. د. مجاهد محمد هريدي مصر
٧٥. د. محسن حامد المطيري السعودية
٧٦. د. محسن سميح الخالدي فلسطين
٧٧. د. محمد الأمين إسماعيل السودان
٧٨. د. محمد سريع السريع السعودية
٧٩. د. محمد عبالعزيز العواجي السعودية

٨٠. د. محمد أحمد شحاتة مصر
٨١. د. محمد أديب أمرير سوريا
٨٢. د. محمد بن عبدالله الربيعة السعودية
٨٣. د. محمد خازر المجالي الأردن
٨٤. د. محمد خليل جيجك تركيا
٨٥. د. محمد عبد العزيز المسند السعودية
٨٦. د. محمد عبدالفتاح سلام مصر
٨٧. د. محمد عبداللطيف عبدالعاطي مصر
٨٨. د. محمد عبدالله الدويش السعودية
٨٩. أ.د. محمود الحريري الأردن
٩٠. أ.د. محمود أحمد الأطرش سوريا
٩١. أ.د. محمود هاشم عنبر فلسطين
٩٢. د. مختار عمر الشنقيطي موريتانيا
٩٣. أ.د. مساعد مسلم آل جعفر العراق
٩٤. أ.د. مصطفى مسلم محمد سوريا
٩٥. د. مصلح عبدالكريم إندونيسيا
٩٦. أ.د. ناصر عبدالكريم العقل السعودية
٩٧. أ.د. ناصر محمد المنيع السعودية
٩٨. أ.د. نجم عبد الرحمن خلف العراق
٩٩. د. وفاء عبد الله الزعاقي السعودية
١٠٠. أ.د. وليد مُحمَّد العليُّ الكويت

الباحثون

١. د. إبراهيم طلبة حسين مصر
٢. إبراهيم عبدالقادر أمين الوزان مصر
٣. د. إبراهيم علي عامر مصر
٤. د. ابراهيم عيسى صيدم فلسطين
٥. إبراهيم محمد حسانين مصر
٦. د. أبوبكر محمد البخيت مصر
٧. أحلام محمد علي طوير فلسطين
٨. أحمد إبراهيم الجابري مصر
٩. د. أحمد سليمان بشايرة الأردن
١٠. أحمد السيد أحمد عبد الرازق مصر
١١. د. أحمد قاسم كسار العراق
١٢. أحمد محمد البيك فلسطين
١٣. أ.د. أحمد محمد الشرقاوي مصر
١٤. أحمد محمود كحيل فلسطين
١٥. أحمد مصباح رزق فلسطين
١٦. د. أحمد بن مصطفى الفران سوريا
١٧. د. أسامة عبدالوهاب الحياني العراق
١٨. إسلام ديب قنيطة فلسطين
١٩. إسلام عبدالعاطي عليان مصر
٢٠. آسو رضا أحمد العراق
٢١. أشرف بن علي جبر الحافلي اليمن
٢٢. د. أشرف محمد زيدان الدليمي العراق
٢٣. أكرم إسماعيل علي النجار اليمن
٢٤. أمجد وفيق محمد أبو مطر فلسطين
٢٥. آمنة جمال كحيل فلسطين
٢٦. انتصار عطوة الفرا فلسطين
٢٧. د. أنور أحمد زعزع مصر
٢٨. د. أنور محمود المرسي مصر
٢٩. إياد راضي أبو سعدة فلسطين
٣٠. أيام عبدالناصر خلة فلسطين
٣١. إيمان بنت الطاهر فرطاس الجزائر

٣٢. إيمان محمد عامر فلسطين
٣٣. د. بشار عبداللطيف علوان العراق
٣٤. بشرى غني حمد العراق
٣٥. بهاء حسن زعرب فلسطين
٣٦. تامر شحات محمد المظالي مصر
٣٧. د. توفيق علي زبادي مصر
٣٨. د. جلول إبراهيم السالمي الجزائر
٣٩. جمال سعد أحمد إبراهيم فلسطين
٤٠. د. حاتم عابد القرشي السعودية
٤١. أ.د. حامد محمد عثمان مصر
٤٢. د. حسن مولود بومرواني المغرب
٤٣. د. حسين شرفة الجزائر
٤٤. د. حمدان لافي العنزي السعودية
٤٥. أ.د. حمزة حسن سليمان السودان
٤٦. حمزة عبد الفتاح قاسم فلسطين
٤٧. د. حنان محمد أحمد عثمان السودان
٤٨. أ.د. حيدر محمد المنصوري السودان
٤٩. د. خليل إسماعيل الياس العراق
٥٠. أ.د. داتؤ ذو الكفل محمد يوسف ماليزيا
٥١. د. دريد عبد الجليل الشاروط العراق
٥٢. راجي محسن الهلالات الأردن
٥٣. د. رضوان جمال الأطرش الأردن
٥٤. د. رمضان خميس الغريب مصر
٥٥. رهيفة موسى إبراهيم فلسطين
٥٦. د. رياض محمود قاسم فلسطين
٥٧. د. زكريا إبراهيم الزميلي فلسطين
٥٨. د. زينب علي محمد السيد مصر
٥٩. سامر ناجح عبد الله سمارة فلسطين
٦٠. سامي حسين أبو وردة فلسطين
٦١. د. سامي محمود أحمد فلسطين
٦٢. د. سردار رشيد حمة صالح العراق
٦٣. سعيد طه خضر فلسطين
٦٤. سماح محمد عابد المولد السعودية
٦٥. سمير علي محمد غياث اليمن
٦٦. سمية عبدالسلام اللوح فلسطين
٦٧. د. شعبان رمضان محمود مقلد مصر
٦٨. صادق محمد الهادي اليمن
٦٩. د. صالح عسكر الجزائر
٧٠. د. صبري منصور عبد العزيز مصر
٧١. د. صلاح الدين عوض محمد السودان
٧٢. ضياء نعمان السوسي فلسطين
٧٣. د. طارق سعد شلبي مصر
٧٤. د. طه ياسين ناصر الخطيب العراق
٧٥. عادل محمد إبراهيم أبو الهيثم مصر
٧٦. عامر مصطفي قاسم فلسطين
٧٧. عائشة صلاح الفرا فلسطين
٧٨. عبد الباسط محمد الأسطل فلسطين
٧٩. عبد الجواد محمد الأسطل فلسطين
٨٠. د. عبد الحفيظ بن الطاهر هلال الجزائر
٨١. د. عبد الحميد أحمد هنداوي مصر
٨٢. عبد الرحمن عبدالله الوجيه اليمن
٨٣. عبدالرؤوف أحمد عبدالغفور فلسطين
٨٤. عبد السلام رزق الواوي فلسطين
٨٥. أ.د. عبدالسلام حمدان اللوح فلسطين

٨٦. عبد العزيز علي محمد غياث اليمن
٨٧. أ.د. عبدالفتاح محمد خضر مصر
٨٨. عبداللطيف محمد خضر مصر
٨٩. د. عبدالله بالقاسم الشمراني السعودية
٩٠. أ.د. عبدالله الخطيب لبنان
٩١. د. عبدالله رفاعي محمد أحمد مصر
٩٢. عبد الله سليمان أبو تيلخ فلسطين
٩٣. عبد الله علي محمد العبدلي اليمن
٩٤. د. عبد الله علي الملاحي فلسطين
٩٥. عبدالله محسن الحضرمي اليمن
٩٦. د. عبدالله موسى أبو المجد مصر
٩٧. د. عبد المجيد محمد الغيلي اليمن
٩٨. د. عبدالمحمود يوسف الصافي السودان
٩٩. عبده قايد أحمد الذريبي اليمن
١٠٠. د. عبده عبد الله المعلمي اليمن
١٠١. عبير سليمان السوسي فلسطين
١٠٢. عبير مشبب الأحمري السعودية
١٠٣. د. عثمان جمعة ضميرية سوريا
١٠٤. د. عدنان الحموي سوريا
١٠٥. د. عدنان بن عبدالسلام الأسعد العراق
١٠٦. د. عرفات محمد عثمان مصر
١٠٧. د. عصام العبد محمد زهد فلسطين
١٠٨. د. عفاف عبدالغفور حميد العراق
١٠٩. د. علي عبدالله السكاكر السعودية
١١٠. د. علي محمد حسن علي مصر
١١١. د. عودة عبد عودة عبدالله فلسطين
١١٢. أ. د. عيادة أيوب الكبيسي العراق
١١٣. فريد فرج زيارة فلسطين
١١٤. د. قاسم كسار الجنابي العراق
١١٥. د. قايد صالح الكربي اليمن
١١٦. د. ماجد رجب سكر فلسطين
١١٧. مازن رشاد الحلو فلسطين
١١٨. د. مازن موفق الخيرو العراق
١١٩. د. مبروك بهي الدين رمضان مصر
١٢٠. د. محسن سميح الخالدي فلسطين
١٢١. د. محسن محمد قطب معالي مصر
١٢٢. د. محمد أبوبكر عبدالرحمن السودان
١٢٣. د. محمد خليل جيجك تركيا
١٢٤. محمد زايد المطيري السعودية
١٢٥. د. محمد السيد محمد يوسف مصر
١٢٦. د. محمد شافعي مفتاح مصر
١٢٧. د. محمد شريف عياش فلسطين
١٢٨. د. محمد صالح زربة اليمن
١٢٩. د. محمد صالح الغربي المغرب
١٣٠. محمد عبد الخالق خلة فلسطين
١٣١. محمد عبدالشفوق الأسطل فلسطين
١٣٢. أ.د. محمد عبدالعزيز العواجي السعودية
١٣٣. محمد عبدالله العبدلي اليمن
١٣٤. د. محمد عبدالنبي الأزهري مصر
١٣٥. د. محمد عطا الله العزب مصر
١٣٦. محمد علي صالح إدريس اليمن
١٣٧. د. محمد مصطفى السيد لبنان
١٣٨. محمود أحمد الأسطل فلسطين
١٣٩. د. محمود أحمد الأطرش سوريا

١٤٠. محمود أحمد العسكري مصر
١٤١. د. محمود سعد مهدي مصر
١٤٢. د. محمود عبد الجليل روزن مصر
١٤٣. د. محمود هاشم عنبر فلسطين
١٤٤. مروان بن علي النقبي الإمارات
١٤٥. معاذ محمد عبدالله الحسن الأردن
١٤٦. ممدوح كامل علي محمد مصر
١٤٧. منار عمر الحلو فلسطين
١٤٨. د. منال منصور القرشي السعودية
١٤٩. د. منصور صالح الجادعي اليمن
١٥٠. د. ناصر أحمد العاهمي اليمن
١٥١. د. ناصر بن سعود القثامي السعودية
١٥٢. د. نجلاء سليم الصاعدي السعودية
١٥٣. د. نجلاء عبدالعزيز الرشيد السعودية
١٥٤. د. نجبة غلام نبي الباكستاني السعودية
١٥٥. د. نصار منصور عبد الرحيم مصر
١٥٦. د. نمر محمد أبو عون فلسطين
١٥٧. هاني علي محمد عفيفي اليمن
١٥٨. هاني محمود سليمان درغام مصر
١٥٩. هديل محمد المنيراوي فلسطين
١٦٠. د. هويدا عبدالقادر الخطيب مصر
١٦١. وائل عمر بشير فلسطين
١٦٢. د. وائل محمد علي جابر السعودية
١٦٣. وداد رياض حمد فلسطين
١٦٤. د. وفاء دخيل الله الخطابي السعودية
١٦٥. د. وليد عبدالماجد كساب مصر
١٦٦. يوسف عبد الفتاح بدوي فلسطين.

فريق المراجعة والتصحيح والتحرير

١. د. عبدالرحمن سالم الأهدل.
٢. د. محمد عطا الله العزب.
٣. د. توفيق علي زبادي.
٤. صادق محمد الهادي.
٥. إبراهيم كبير الأركاني.
٦. محمد دل عمر.
٧. محمد زكريا الأركاني.
٨. منصور سعيد بن رشيد.
٩. فوزي عبدالصمد فطاني.
١٠. بدرية علي الحطامي.
١١. أحمد علي أحمد .
١٢. خالد عفت محمد.
١٣. عبدالعزيز عبدالعاطي.
١٤. محمد حمدي عبدالحميد.
١٥. أحمد عبدالفتاح عبدالعزيز.
١٦. يوسف محمد يوسف.
١٧. عبدالرحمن أحمد عزب.
١٨. هشام أحمد السيد.
١٩. محمود عبدالتواب جمعة.
٢٠. عبدالتواب بدوي عبدالسلام.
٢١. عصام حمدي محمد.
٢٢. د. أحمد عبدالموجود سيد.
٢٣. كارم محمود طلبة.
٢٤. يوسف علي يوسف.
٢٥. محمد علي رسلان.
٢٦. خالد محمود الرباط.

آدم عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بآدم عليه السلام	٣٦
ذكر آدم عليه السلام في القرآن الكريم	٣٩
فضائل آدم عليه السلام	٤٠
خلق آدم والحكمة منه	٤١
آدم والملائكة	٥١
آدم والجنة	٥٦
آدم وإبليس	٦١
توبة آدم	٦٨
آدم وزوجه	٧١
ذرية آدم	٧٣
موت آدم عليه السلام	٨١
الدروس المستفادة من قصة آدم	٨١

التعريف بآدم عليه السلام

أولًا: آدم لغةً:

(أدم) الهمزة والدال والميم أصلٌ واحدٌ، وهو الموافقة والملاءمة، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمغيرة بن شعبة عندما خطب امرأة: (اذهب فانظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)[1].

قال الكسائي: يؤدم يعني أن يكون بينهما المحبة والاتفاق، وقيل: إنه الإدام أي: الطعام، يقال: طعامٌ مأدومٌ، وقيل: الأسوة، أدمة أهلي، أي: أسوتهم، والأدمة: الوسيلة.

والأدمة أحسن ملاءمةً للحم من البشرة، ولذلك سمي آدم عليه السلام؛ لأنه أخذ من أدمة الأرض.

والعرب تقول مؤدمٌ مبشرٌ، أي: قد جمع لين الأدمة وخشونة البشرة، فأما اللون الآدم؛ فلأنه الأغلب على بني آدم، وناسٌ تقول: أديم الأرض وأدمتها وجهها، وأدم أدما وأدمة اشتدت سمرته فهو آدم وهي أدماء وجمعها أدم، والآدمي: هو الإنسان نسبة إلى آدم أبو البشر[2].

ويقول أبو حيان: «آدم: اسمٌ أعجميٌ كآزر وعابر، ممنوع الصرف للعلمية والعجمة، ومن زعم أنه أفعل مشتقٌ من الأدمة، وهي كالسمرة، أو من أديم الأرض، وهو وجهها، فغير صوابٍ؛ لأن الاشتقاق من الألفاظ العربية قد نص التصريفيون على أنه لا يكون في الأسماء الأعجمية، وقيل: هو عبريٌ من الإدام، وهو التراب»[3].

ورد محمود أبو سعدة على هذا الادعاء بقوله: «إن اليهود يدعون أنه علم عبري، ليس له جذر في العبرية إلا (أدم) أي احمر أي المجبول من الحمراء وهو الدال على تربة الأرض عند العبرانيين، وهذا لا يصح بالطبع، وإنما الصحيح هو أن العبرية لم تشتق (أدما) من الجذر العبري (أدم)، وإنما نقلتها نقلًا عن العربية (الأدمة)، اسمًا جامدًا لا اشتقاق له عندها، أما آدم

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها، ١/ ٥٩٩، ح١٨٦٥.
وصححه الألباني. في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ١٠.
(٣) البحر المحيط، ١/ ٢٢٣.

العربي فهو غزير المعاني، من معانيه الامتزاج والخلط»[1].

ويقول القرطبي في تفسيره: «قيل: هو مشتقٌ من أدمة الأرض وأديمها وهو وجهها، فسمي بما خلق منه، قاله ابن عباسٍ، وقيل: إنه مشتقٌ من الأدمة وهي السمرة. واختلفوا في الأدمة، فزعم الضحاك أنها السمرة، وزعم النضر أنها البياض، وعلى هذا الاشتقاق جمعه أدمٌ وأوادم، كحمرٍ وأحامر، ولا ينصرف بوجهٍ، وعلى أنه مشتقٌ من الأدمة جمعه آدمون، ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه، قلت: الصحيح أنه مشتقٌ من أديم الأرض، قال سعيد بن جبيرٍ: إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، ذكره ابن سعدٍ في الطبقات»[2]، وما ذهب إليه القرطبي هو ما تطمئن له النفس.

ثانيًا: التعريف بآدم عليه السلام:

هو أول مخلوق من البشر، خلقه الله بيده، وخلق حواء من ضلعه الأيسر، وسمي آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض[3].

كنيته: أبو البشر، وقيل: أبو محمدٍ، كني بمحمدٍ خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم، قاله السهيلي، وقيل: كنيته في الجنة أبو محمدٍ، وفي الأرض أبو البشر[4].

أجمع أهل الأثر أن آدم عليه السلام خلق يوم الجمعة، وكساه الله لباسًا من ظفره، وأسجد له ملائكته[5].

ثالثًا: صفة آدم عليه السلام:

مما ذكر من صفات آدم عليه السلام: أن طوله ستون ذراعًا في السماء، وعرضه سبعة أذرع، وذلك ما ورد عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (يدخل أهل الجنة الجنة جردًا، مردًا، بيضًا جعادًا، مكحلين، أبناء ثلاثٍ وثلاثين، على خلق آدم، طوله ستون ذراعًا في عرض سبعة أذرعٍ)[6].

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله

(١) انظر: العلم الأعجمي في القرآن، ١/ ١١٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٧٩.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٥/ ٤٣٣.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٧٩.
(٥) انظر: أخبار الزمان، المسعودي، ص٧١.
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب صفة الجنة والنار، باب ما ذكر في صفة الجنة، وما فيها مما أعد لأهلها، ١٣/ ١١٤، قال الألباني: حديث صحيح.

عليه وسلم قال: (كان طول آدم ستين ذراعًا في سبعة أذرع عرضًا، وفي رواية: فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)[1].

وكان عليه السلام وافر الشعر، فعن أبي بن كعبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أباكم آدم كان طوالًا، كان كالنخلة السحوق، ستين ذراعًا كثير الشعر موارى العورة، فلما أصاب الخطيئة في الجنة خرج منها هاربًا، فلقيته شجرةٌ فأخذت بناصيته فحبسته، فناداه ربه تعالى: أفرارًا مني يا آدم؟ قال: لا بل حياءً منك بما جنيت، فأهبط آدم إلى الأرض، فلما حضرته الوفاة بعث الله عز وجل إليه من الجنة مع الملائكة بكفنه وحنوطه، فلما رأتهم حواء ذهبت لتدخل دونهم، فقال: خلي بيني وبين رسل ربي، ما أصابني الذي أصابني إلا فيك، ولا لقيت الذي لقيت إلا منك. فلما توفي غسلوه بالماء والسدر، وترًا وكفنوه في وترٍ من الثياب، ثم لحدوه ودفنوه، وقالوا: هذه سنة ولد آدم من بعده)[2].

رابعًا: عمر سيدنا آدم عليه السلام:

ورد أنه عليه السلام عاش ألف سنة إلا أربعين عامًا، فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أول من جحد آدم عليه السلام، إن الله عز وجل لما خلق آدم مسح ظهره، فأخرج منه ما هو من ذراري إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلًا يزهر[3]، فقال: أي رب، من هذا؟، قال: هذا ابنك داود، قال: أي رب، كم عمره؟، قال: ستون عامًا، قال: رب زد في عمره، قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عامًا، فكتب الله عز وجل عليه بذلك كتابًا، وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم وأتته الملائكة لتقبضه، قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عامًا، فقيل: إنك قد وهبتها لابنك داود، قال: ما فعلت! وأبرز الله عز وجل عليه الكتاب، وشهدت عليه الملائكة)[4].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، ١٦/ ٥٣٢.
وصححه المحقق.

(٢) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة، ٥/ ١٥٥٦، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٥.
قال الحاكم: هذا حديث حسن الإسناد.

(٣) يزهر: صفا لونه وأضاء، وزهر الرجل: ابيَضّ وجهه.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٥٨.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٤٣.
قال أحمد شاكر: «وما نرى في هذا الحديث شيئًا من النكارة، أما أنه غريب، بمعنى أنه لم يروه غيره، فعسى، ولكن مجيء معناه من حديث أبي هريرة قد يذهب بغرابته».

ذكر آدم عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر آدم عليه السلام في القرآن الكريم (٢٥) مرة، في (٩) سور.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	٣١-٣٧
الأعراف	١١-٢٥
طه	١١٥-١٢٣

وقال الألباني: «حسن صحيح».
وانظر: المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة ١/ ١٥٦.

فضائل آدم عليه السلام

كرم الله عز وجل سيدنا آدم عليه السلام تكريمًا عظيمًا، ويظهر هذا التكريم في النقاط الآتية:

١ . خلقه الله بيده.

فقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾ [ص: ٧٥].

٢ . نفخ فيه من روحه.

فقال تعالى: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

٣. فضله على الملائكة، فأسجدهم له.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: ٢٩].

٤ . شرفه بالعلم.

فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

٥. شرفه بتعليم الملائكة، فجعله معلمًا لهم.

فقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: ٣٣].

وروى البخاري ومسلمٌ عن أنس بن مالكٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء)[(١)].

يقول ابن كثير: «فهذه أربع تشريفاتٍ: خلقه له بيده الكريمة، ونفخه فيه من روحه، وأمره الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء. ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا: أنت آدم أبو البشر الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»[(٢)].

والتشريفة الخامسة وهي أنه سبحانه وتعالى جعله معلمًا للملائكة.

ومما ينبغي الإشارة إليه: أنه عليه السلام نبي مكلم من أنبياء الله تعالى، وذلك فيما رواه ابن حبان في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن آدم أنبي هو؟ قال: (نعم نبي مكلم)[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها)، رقم ٤٤٧٦، ٦/ ١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، رقم ٣٢٢، ١/ ١٨٠.

(٢) البداية والنهاية ١/ ٧٨.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٩٦

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٢٥٤٦، ٣٥/ ٤٣١، وابن حبان في صحيحه، رقم ٦١٩٠، ١٤/ ٦٩.
وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

خلق آدم والحكمة منه

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

ويقول أيضًا: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[ص: ٧١].

إن قصة خلق آدم أخذت في كتاب الله طابعًا مميزًا، اختلف عن بقية القصص القرآني؛ ذلك لأنها لم تتكلم عن نبي فحسب، بل تتكلم عن بدء الخليقة بأسرها، تتكلم عن أبي البشر آدم عليه السلام، الذي نحن جميعًا ذرية له، فناسب المقام أن يأتي الخطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بكاف الخطاب المتصلة بصفة الربوبية لله تعالى، ذلك أن هذا النبي الكريم هو أكرم خلق الله على الله، والذي هو من ذرية آدم عليه السلام.

وفي ذلك يقول أبو حيان رحمه الله: «تنبيهٌ على شرفه واختصاصه بخطابه، وهزٌّ لاستماع ما يذكر بعد ذلك من غريب افتتاح هذا الجنس الإنساني، وهذا تنويعٌ في الخطاب، وخروجٌ من الخطاب العام إلى الخطاب الخاص، وفي ذلك أيضًا إشارةٌ لطيفةٌ إلى أن المقبل عليه بالخطاب له الحظ الأعظم والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها، إذ هو في الحقيقة أعظم خلفائه، ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه، وجعل أفضل أنبيائه أَمَّ بهم ليلة إسرائه، وجعل آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه، فهو المقدم في أرضه وسمائه، وفي داري تكليفه وجزائه»[(١)].

يقول الإمام محمد رشيد رضا: «وقد قص الله علينا في هذه الآيات خبر النشأة الإنسانية، ومثل لنا المعاني في صورٍ محسوسةٍ، وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار، كما هي سنته في مخاطبة الخلق وبيان الحق؛ لأنها بحسب قانون التخاطب: إما استشارةٌ وذلك محالٌ على الله تعالى، وإما إخبارٌ منه سبحانه للملائكة واعتراضٌ منهم ومحاجةٌ وجدالٌ، وذلك لا يليق بالله تعالى أيضًا، ولا بملائكته، ولا يجامع ما جاء به الدين من وصف الملائكة ككونهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم: ٦]»[(٢)].

(١) البحر المحيط، ١/ ٢٢٥.
(٢) تفسير المنار، ١/ ٢١٠.

أولًا: إعلام الملائكة بخلق آدم:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

يخبر الله عز وجل ملائكته الكرام بحدث في ملكوت الله عظيم ألا وهو: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

ولعل هناك حكمة عظيمة في هذا الإخبار؛ ذلك أن الله سبحانه لا يُسْأل عما يفعل، وليس لملك ولا لمخلوق أن يسأل؛ ولكن الله عز وجل هو الذي باشر بالإخبار، فردت الملائكة ردًا في ظاهره اعتراض، وليس لها أن تعترض، وهي التي وصفها ربها فقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، فكانت الإجابة الفصل من الله عز وجل: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكان الاستسلام والإذعان من الملائكة لله ربها سبحانه وتعالى، فقالت: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

الحكمة من إخبار الله للملائكة بخلق آدم:

تكلم المفسرون في الحكمة أقوالًا عديدة، تتآلف فيما بينها لتتناسب مع عظمة الله وعصمة الأنبياء، فيرى البيضاوي أنه: «تعليم المشاورة، وتعظيم شأن المجعول، بأن بشر عز وجل بوجود سكان ملكوته، ولقبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم، وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك»[(١)].

أما الزمخشري فيقول: «ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم، وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيًا عن المشاورة»[(٢)].

فنقول: إن الله أعلمها قبل الخلق حتى لا تعترض بعد خلقه فتهلك، وحتى يعلم خلقه المشاورة وهم محتاجون إليها، وحتى يستخرج ما عندهم فيجيبهم عليه فيعرفهم حكمته في الخلق، ومن ثم يؤدبهم بالأدب الذي يريد سبحانه.

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٦٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ١/ ١٢٤.

ردة فعل الملائكة من إخبار الله لهم بخلق آدم عليه السلام:

لما أخبر الله ملائكته بالخلق قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة: ٣٠].

«فظاهر الآية أنهم استنكروا استخلاف بني آدم في الأرض؛ لكونهم مظنةً للإفساد فيها»[(١)].

وقيل: تعجبٌ من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير، ولا يريد إلا الخير[(٢)].

وقيل: إنه ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

وإنما هو سؤال استعلامٍ واستكشافٍ عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم ﴿مَن يُفْسِدُ﴾ في الأرض ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، فإن كان المراد عبادتك، فنحن ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ولا يصدر منا شيءٌ من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟

قال الله تعالى مجيبًا لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها، ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم[(٣)].

وتعجب الملائكة إما من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعًا، الاستخلاف، والعصيان.

وقيل: على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟ وقال آخرون: على جهة الاسترشاد والاستعلام، هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟[(٤)].

فاحتمل استفهام الملائكة عدة وجوه: إما الاستفهام المحض لعلمهم المسبق بطبيعة هذا الخليفة، أو التعجب من العصيان، أو التعجب من استخلاف العاصي، أو أنه أفاد الاستعلام والاسترشاد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فهو على جهة الاستفهام، كأنهم أرادوا ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ الآية، أم نتغير عن هذه الحال؟ أو من التمدح ووصف حالهم، أو الاسترشاد والاستعلام هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٧٤.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ١٢٤.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢١٦.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ١١٧.

أو غيره؟ أو من التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله من يعصيه، وعلى هذا أدبهم بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

هل تعلم الملائكة الغيب؟ من أين عرفوا أن الخليفة سيفسد في الأرض ويسفك الدماء حين تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ فيكون ذلك أيضًا من وجوه:

- إما من إخبار الله لهم.
- أو من جهة اللوح.
- أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم.
- أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة.
- أو أنهم عرفوا طبيعة المادة وفيها الخير والشر[2].

وقال ثعلب وغيره: «إنما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض»[3].

وخلاصة القول: إن الملائكة لا تعلم الغيب، وإنما سبب علمها بإفساد بني آدم يرجع إلى ما يلي:

الوجه الأول: أن الله تعالى أعلمهم بطبيعة ذرية آدم عليه السلام، وأنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وعن ابن عباس وابن مسعود: أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾، قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضًا.

الوجه الثاني: أنهم فهموا من لفظ (خليفة): أن في بني آدم من يفسد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، والفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم.

الوجه الثالث: أن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء؛ وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم، يقول ابن عباس: «كانت الجن قبل بني آدم في الأرض فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم قبيلًا من الملائكة قتلهم وألحق فلهم بجزائر البحار ورؤوس الجبال، وجعل آدم وذريته خليفة»[4].

ولعل أصح هذه الأقوال: ما ورد أن هناك حذفًا دل عليه ما بعده؛ تجنبًا للتكرار، فكأن الآية: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾ من شأنه أن ﴿يُفۡسِدُ﴾ ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾،

(١) المصدر السابق ١/ ١١٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ١٧٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ١٢٤، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٢٦.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١١٧.
(٤) المصدر السباق.

وإلا فلا يمكن أن يكون توقعًا أو قياسًا، أو غير ذلك مما ورد عند المفسرين. حتى ذهب بعضهم إلى وجود بشر قبل آدم.

ثانيًا: مراحل خلق آدم:

أخبر الحق سبحانه وتعالى عن خلق آدم عليه السلام في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وكذلك ورد الحديث عن خلق آدم في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن خلال الآيات القرآنية الكريمة وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في خلق آدم عليه السلام يمكن أن نقول بأن خلق آدم عليه السلام مر في ثلاثة أطوارٍ رئيسةٍ هي:

١. طور التخليق.
٢. طور التصوير.
٣. طور نفخ الروح [(١)].

الطور الأول: طور التخليق:

ويتضمن أربع مراحل رئيسة، هي:

المرحلة الأولى: التراب.

يعد التراب المرحلة الأولى والبداية الحقيقية لخلق الإنسان الأول، أي: آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

فهذه الآية صريحة في أن آدم عليه السلام خلق من تراب، فالهاء في قوله: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ تعود على آدم عليه السلام.

وقد أشار القرآن الكريم في آياتٍ أخرى منه إلى خلق آدم من ترابٍ: فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠].

وقال جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر: ١١].

المرحلة الثانية: من طينٍ.

وهذه هي المرحلة الثانية التي يصير فيها التراب طينًا.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧].

والطين ناتج عن خلط التراب بالماء، والماء يمثل عنصرًا أساسيًا في كافة الكائنات الحية، وذلك تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ويلاحظ أن هذا الطين بالنسبة للإنسان الأول، وهو آدم عليه السلام، كان: طينًا لازبًا. يصور ذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ

(١) انظر: مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن ص١٦.

﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١].

واللازب: هو الثابت شديد الثبوت[(١)].

المرحلة الثالثة: خلقه من حمأ مسنونٍ.

بعد ذلك يتغير الطين اللازب إلى أن يصير طينًا متغير الرائحة أسود، وهو ما سماه القرآن الكريم بالحمأ المسنون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر: ٢٨].

فالحمأ: جمع حمأة، وهو الطين الأسود المتغير[(٢)]، والمسنون: قيل: إنه المصور من سنة الوجه، وهي صورته. وقيل: المسنون المنتن المتغير، من قولهم قد أسن الماء إذا تغير[(٣)]. والمعنى متقارب، فإن هذا الطين المنتن المتغير الأسود حين تماسك صوره الله تلك الصورة الإنسانية.

المرحلة الرابعة: خلقه من صلصالٍ كالفخار.

والمراحل السابقة مجتمعة أدت إلى مرحلة الصلصال هذه.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].

والصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي: صوتٌ إذا قرع بشيء[(٤)].

وهذا الصلصال يشبه الفخار إلا أنه ليس فخارًا؛ لأن الفخار مطبوخ بالنار بخلاف الصلصال، فهو طين يابس غير مطبوخ بالنار.

هذا هو الطور الأول- طور التخليق- بمراحله الأربعة السابق ذكرها، وفي هذه المراحل رد على بعض الشبهات التي أثيرت حول القرآن الكريم في إخباره عن خلق آدم بألفاظ مختلفة، فتعبر الآيات القرآنية الكريمة عن تكامل هذه المراحل دونما أية شبهة للتعارض أو التناقض، حيث بدأت بالتراب الذي أضيف إليه الماء فصار طينًا، ترك الطين قليلًا فأصبح طينًا لازبًا، ثم تحول هذا الطين إلى حمأ مسنون، فلما يبس هذا الطين سمي صلصالًا.

الطور الثاني: طور التصوير.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١]. ويلاحظ من خلال

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٤٤٩.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٨، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٥٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٩٣٧، التسهيل، ابن جزي الكلبي ١/ ٤٥١.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٥٧-١٥٨.
(٤) انظر: جامع البيان ٢٢/ ١٩١، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٥٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٩٣٧.

هذه الآية الكريمة أن مرحلة التصوير ثانية بعد الخلق، حيث عطفت جملة صورناكم بحرف (ثم) الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق[1]، فبعد أن خلقه الله من الطين، صوره وسواه وجعله تمثالًا مجسمًا على صورة الإنسان، وهذا قبل أن ينفخ فيه الروح.

الطور الثالث: طور نفخ الروح.

بعد أن سوى الله عز وجل الإنسان الأول وصوره، وهو آدم عليه السلام أراد أن يبث فيه الحياة، نفخ فيه من روحه، فصار بشرًا حيًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر:٢٨-٢٩].

وقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ - ٧٢].

والنفخ: إجراء الريح في الشيء. والروح: جسمٌ لطيفٌ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم. وحقيقة الإضافة (روحي) إضافة خلقٍ إلى خالق؛ فالروح خلقٌ من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا، كقوله: أرضي، وسمائي، وبيتي، وناقة الله، وشهر الله. ومثله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١][2].

وإنما سمى إجراء الروح فيه نفخًا؛ لأنها جرت في بدنه مثل جري الريح فيه[3].

[انظر: الإنسان: خلق الإنسان]

ثالثًا: تعليم آدم الأسماء كلها:

إن هذا التعليم بمثابة محطة مميزة في حياة آدم عليه السلام؛ إذ أكرمه الله بالسر الإلهي العظيم الذي أودعه فيه وهو يسلمه مقاليد الخلافة. سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض، ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، والمشقة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه[4].

﴿وَعَلَّمَ﴾ معناه: عرف. وتعليمه هنا: إلهام علمه ضرورةً. ويحتمل أن يكون بواسطة ملكٍ وهو: جبريل عليه السلام، وقرئ: ﴿وعلم﴾ غير مسمى الفاعل. والأول أظهر[5].

والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٠٨.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٠٠.

(٤) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، ١/ ٥٧.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٧٩.

على أن ما مر من المقالة المحكية إنما جرت بعد خلقه عليه السلام بمحضرٍ منه، وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام بأن قيل إثر نفخ الروح فيه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ إياه ﴿خَلِيفَةً﴾ فقيل: ما قيل[1].

والأسماء واحدها اسم، وهو: ما به يعلم الشيء، والمراد به: أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه؛ لكونه معلومًا مدلولًا عليه بذكر الأسماء؛ لأن الاسم لابد له من مسمى، ثم عرضهم، أي: عرض المسميات، وفيه تغليب العقلاء.

الأسماء التي علمها الله عز وجل آدم عليه السلام:

أكثر المفسرون من سرد الأقوال المختلفة في هذه الأسماء ومن ذلك:

قيل: كل شيء حتى القصعة والقصيعة.

وقيل: خلق الله كل شيء من الحيوان والجماد وغير ذلك، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فقال: يا آدم هذا بعير وهذا فرس وهذه شاة حتى أتى على آخرها[2].

وقيل: أسماء الملائكة وأسماء ذريته.

وقيل: علمه اللغات كلها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ يعني: تلك الأشخاص[3].

قال ابن عباس: «هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس، إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها»[4].

وقيل: اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وقال الربيع بن أنسٍ: أسماء الملائكة. وقيل: أسماء ذريته، وقيل: صنعة كل شيءٍ، قال أهل التأويل: إن الله عز وجل علم آدم جميع اللغات، ثم تكلم كل واحدٍ من أولاده بلغةٍ، فتفرقوا في البلاد، واختص كل فرقةٍ منهم بلغةٍ[5].

وعن ابن عباس قال: «علم الله آدم أسماء الخلق، والقرى والمدن والجبال، والسباع، وأسماء الطير، والشجر، وأسماء ما كان وما يكون، وكل نسمة الله عز وجل بارئها إلى يوم القيامة، وعرض تلك الأسماء على الملائكة»[6].

وذكر البخاري عن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء) وذكر

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٨٣.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٦.
(٣) المصدر السابق ١/ ٣٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٢٣
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٨٥، معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٨٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٨٢.
(٦) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ١/ ١٧٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١١٩.

تمام الحديث[1].

والأولى بتأويل الآية: أن تكون الأسماء التي علمها آدم أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة وإن كان غيره جائزًا؛ لاتساع الكلمة (الأسماء كلها)، إضافة إلى أنه دل على المسميات بضمير جمع الذكور العقلاء فقال: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ولم يقل عرضها؛ لأن في جملة هذه المسميات أنواعًا من العقلاء: كالملائكة، والإنس[2].

وقال ابن عطاءٍ: «لو لم يكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها، وهذا واضحٌ»[3].

ويحتمل أن يكون التعليم بواسطة ملكٍ وهو: جبريل عليه السلام، أو بتكليم قبل هبوطه الأرض، فلا يشارك موسى عليه السلام في خاصته.

رابعًا: أول من تكلم اللغة العربية:

قيل: أول من نطق بالعربية جبريل، ويرد عليه بأن جبريل أول من نطق بالعربية من الملائكة.

وقيل: إن اسماعيل هو أول من نطق بها، ويرد على ذلك بأنه أول من نطق بها من ولد ابراهيم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب صفة الجنة والنار، رقم ٤٤٧٦، ٢/ ١٤٤٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي ١/ ٩٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٧٩.

وقيل: يعرب بن قحطان.

والصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام، والقرآن يشهد له، فقال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: ٣١].

واللغات كلها أسماءٌ فهي داخلةٌ تحته، وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولًا على أن المذكور أول من تكلم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرنا والله أعلم، وكذلك جبريل أول من تكلم بها من الملائكة، وألقاها على لسان نوحٍ بعد أن علمها الله آدم أو جبريل[4].

خامسًا: الحكمة من خلق آدم وذريته:

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح؛ فإن حواء خلقت من ضلع آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا، وهو أصل خلق حواء»[5].

ويمكن استنباط الحكمة من ذلك: إن الله تعالى خلقه من التراب والطين لإظهار عظيم قدرته، «والمقصود من ذكر هذه

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٨٤.
(٥) الجواب الصحيح، ٤/ ٥٥.

الأشياء: التنبيه على عجيب صنع الله تعالى؛ إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعًا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة»[1].

إن الله خلق هذا الإنسان لأمر عظيم، خلقه ليكون مستخلفًا في الأرض، مالكًا لما فيها، ودوره في الأرض إذن وفي أحداثها وتطوراتها هو الدور، وليس تابعًا للتطورات التي تحدثها الآلة في علاقات البشر وأوضاعهم كما يدعي أنصار المادية المطموسون، وكل قيمة من القيم المادية لا يجوز أن تطغى على قيمة الإنسان، فكرامة الإنسان أولًا، والنعمة التي يمتن الله بها على الناس هنا ليست مجرد الإنعام عليهم بما في الأرض جميعًا، ولكنها -إلى ذلك- سيادتهم على ما في الأرض جميعًا، هي نعمة الاستخلاف والتكريم فوق نعمة الملك والانتفاع العظيم، فيقرر أن الله خلق كل ما فيها لهم، فهنا في هذا الجو تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض، ومنحه[2].

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

«وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتسخير له كل شيء في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه، فهناك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض، والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته؛ كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس، وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم.

ويوحي قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة في الأرض، أو من إلهام البصيرة، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق، ثم هم بفطرتهم البريئة التي لا تتصور إلا الخير المطلق، يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له، هو وحده الغاية المطلقة للوجود، وهو وحده العلة الأولى للخلق، وهو متحقق بوجودهم هم، يسبحون بحمد الله ويقدسون له»[3].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٤٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن الكريم ١/ ٥٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ٥٣-٥٤.

آدم والملائكة

أخبر الله عز وجل الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة، فأجابت بقولها لله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[البقرة: ٣٠].

تعجب الملائكة من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، أو كان ذلك على طريق الاستعظام للاستخلاف، والعصيان معًا. أو على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟ أو على جهة الاسترشاد والاستعلام؟ هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟[(١)] كما مر في إعلام الملائكة بخلق آدم من الكلام السابق.

فأجابهم الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من المصلحة في استخلافه مما هو خفي عنكم، وأعلم كيف تصلح الأرض، وكيف تعمر، ومن هو أصلح لعمارتها، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها[(٢)].

أولًا: تعليم آدم الملائكة أسماء الأشياء:

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[البقرة: ٣٣].

عقد الرب سبحانه وتعالى امتحانًا للملائكة؛ لإظهار عجزهم، وإبطال زعمهم أنهم أحق بالخلافة من خليفته، بعد أن علم آدم أسماء الأشياء والأجناس المادية من نبات وجماد وإنسان وحيوان، مما تعمر به الدنيا، ثم عرض مجموعة المسميات على الملائكة، وقال لهم: أخبروني بأسماء هؤلاء، إن كنتم صادقين في ادعائكم أنكم أحق بالخلافة من غيركم، فعجزوا، وقالوا: يا رب ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل صنع[(٣)].

يقول الإمام الطبري: «إن الله جل ثناؤه عرف ملائكته -الذين سألوه أن يجعلهم الخلفاء في الأرض- أنهم من الجهل بمواقع تدبيره ومحل قضائه، قبل إطلاعه إياهم عليه، على نحو جهلهم بأسماء الذين عرضهم عليهم، إذ كان ذلك مما لم يعلمهم فيعلموه، كما علم آدم أسماء ما عرض على الملائكة، ومنعهم علمها إلا بعد تعليمه إياهم.

﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم﴾ يقول: فلما أخبر آدم الملائكة بأسماء الذين عرضهم عليهم، فلم يعرفوا أسماءهم، وأيقنوا خطأ قيلهم:

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ١١٧.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٢٦
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ١٢٦.

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾، قال لهم ربهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والغيب: هو ما غاب عن أبصارهم فلم يعاينوه»[1].

والأمر ﴿أَنبِئُونِي﴾: تعجيز؛ لأن المأمور يعلم أن الآمر عالمٌ بذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنكم أفضل من هذا المخلوق إن كان قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ إلخ تعريضًا بأنهم أحقاء بذلك، أو ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في عدم جدارة آدم بالخلافة، قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[البقرة: ٣٠].

للتفويض أو الإعلان للسامعين من أهل الملأ الأعلى بالبراءة من شائبة الاعتراض، وإذا انتفى الإنباء انتفى كونهم صادقين في إنكارهم خلافة آدم[2].

ثم قال المولى جل جلاله: أخبرهم يا آدم بأسماء الأشياء التي عجزوا عن علمها، فلما أخبرهم بكل أسماء تلك الأشياء، أدركوا السر في خلافة آدم وذريته، وأنهم لا يصلحون للاشتغال بالماديات، والدنيا لا تقوم إلا بها، إذ هم خلقوا من النور، وآدم خلق من الطين، والمادة جزء منه.

وحينئذ قال تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ﴾ ما غاب في ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عنكم، وما حضر أيضًا، ولا أجعل الخليفة في الأرض عبثًا، وأعلم ما تظهرون وما تكتمون من نحو قولكم فيما روي عن ابن عباس: لن يخلق الله خلقًا أكرم عليه منا، فنحن أحق بالخلافة في الأرض[3].

ويقول ابن عباس في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ﴾- مع علمي ﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾- ما تظهرون بألسنتكم، وما كنتم تخفونه في أنفسكم، فلا يخفى علي شيء، سواءٌ عندي سرائركم وعلانيتكم، والذي أظهروه بألسنتهم ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوه، وهو قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ والذي كانوا يكتمونه: عن ابن عباس وابن مسعود: المراد ما كتمه إبليس في نفسه من الكبر والكفر، والتكبر عن طاعته، أو كتمان الملائكة بينهم لن يخلق الله خلقًا إلا كنا أكرم عليه منه[4].

قالوا -يعني الملائكة-: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهًا لك، وذلك لما ظهر عجزهم ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أي: إنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ﴾ أي: بخلقك وهو من

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٤٩٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤١٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ١٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧١، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٢٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٠٠، المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ١٢٣.

أسماء الصفات التامة وهو المحيط بكل المعلومات ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: في أمرك، القاضي العدل والمحكم للأمر؛ كيلا يتطرق إليه الفساد[1]، وفي هذا اعتراف من الملائكة بقصور علمهم واعتذار لله عز وجل.

ثانيًا: أيهما أفضل بنو آدم أم الملائكة؟

اختلف العلماء في أيهما أفضل الملائكة أم بنو آدم؟ على قولين: فذهب قومٌ إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، وأكثر أهل السنة على ذلك، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة[2].

وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل، واحتج من فضل الملائكة بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم: ٦].

واحتج من فضل بني آدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[البينة: ٧].

بالهمز، من برأ الله الخلق، وقوله عليه السلام: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم)[3].

وبما جاء في أحاديث من أن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهي إلا بالأفضل.

وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خيرٌ منهم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة، وليس ها هنا شيء من ذلك[4].

ثالثًا: سجود الملائكة لآدم:

والسجود معناه في كلام العرب: التذلل والخضوع، وغايته وضع الوجه على الأرض، سجد إذا تطامن، وكل ما سجد فقد ذل، والإسجاد: إدامة النظر. وسجد إذا طأطأ رأسه[5].

ويكون السجود تعظيمًا وتقربًا إلى من سجد له، وهذا سجود عبادة ولا يكون إلا لله وحده في جميع الشرائع.

ويكون سجود تحية وتكريم، وهذا ما أمر الله به الملائكة لآدم فسجدوا له تكريمًا، وهو منهم عبادة لله سبحانه بطاعتهم له إذ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٦.
(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية، السفاريني، ٢/ ٣٩٨.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم ٣٦٤١، ٥/ ٤٨٥، والترمذي في سننه، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم ٣٥٣٥، ٥/ ٤٣٦. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٨٩.
(٥) المصدر السابق، ١/ ٢٩١، فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٧٨

أمرهم بالسجود.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾[البقرة: ٣٤].

ويقول أيضًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾[الأعراف: ١١].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[الكهف: ٥٠].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾[طه: ١١٦].

ويقول أيضًا: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[ص: ٧٢- ٧٣].

إنه التكريم في أعلى صوره لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء لقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله، ولقد سجد الملائكة امتثالًا للأمر العلوي الجليل[1].

يقول ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾[البقرة: ٣٤].

«عطفٌ على جملة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠] عطف القصة على القصة، وإعادة ﴿إِذْ﴾ بعد حرف العطف المغني عن إعادة ظرفه تنبيهٌ على أن الجملة مقصودةٌ بذاتها؛ لأنها متميزةٌ بهذه القصة العجيبة فجاءت على أسلوبٍ يؤذن بالاستقلال والاهتمام، ولأجل هذه المراعاة لم يؤت بهذه القصة معطوفةً بفاء التفريع فيقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وإن كان مضمونها في الواقع متفرعًا على مضمون التي قبلها فإن أمرهم بالسجود لآدم ما كان إلا لأجل ظهور مزيته عليهم؛ إذ علم ما لم يعلموه... وإظهار لفظ الملائكة ولفظ آدم هنا دون الإتيان بضميريهما كما في قوله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾[البقرة: ٣٢].

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾[البقرة: ٣٣].

لتكون القصة المعطوفة معنونةً بمثل عنوان القصة المعطوف عليها، إشارةً إلى جدارة المعطوفة بأن تكون قصة مقصورة غير مندمجةٍ في القصة التي قبلها. وأسنده إلى ضمير العظمة ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وأتى به في الآية السابقة مسندًا إلى رب النبيء ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠] للتفنن، ولأن القول هنا تضمن أمرًا بفعلٍ فيه غضاضةٌ على المأمورين فناسبه إظهار عظمة الآمر، وأما القول السابق بمجرد إعلام من الله بمراده ليظهر رأيهم، ولقصد اقتران

(١) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ١/ ٥٧.

الاستشارة بمبدأ تكوين الذات الأولى من نوع الإنسان المحتاج إلى التشاور، فناسبه الإسناد إلى الموصوف بالربوبية المؤذنة بتدبير شأن المربوبين. وأضيف إلى ضمير أشرف المربوبين وهو النبيء صلى الله عليه وسلم كما تقدم في: (إعلام الله الملائكة بخلق آدم)»[1].

ويقول الإمام الطبري: «خطابٌ من الله جل ثناؤه لخاصٍ من الملائكة دون الجميع، وأن الله إنما خصهم بقيل ذلك امتحانًا منه لهم وابتلاءً؛ ليعرفهم قصور علمهم وفضل كثير ممن هو أضعف خلقًا منهم من خلقه عليهم، وأن كرامته لا تنال بقوى الأبدان وشدة الأجسام، كما ظنه إبليس عدو الله»[2].

طبيعة سجود الملائكة لآدم عليه السلام:

القول الراجح في المراد بالسجود: هو أن السجدة كانت لآدم عليه السلام تعظيمًا له وتحيةً له كالسلام منهم عليه، وهو وضع الجبهة على الأرض، وقد كانت الأمم السالفة تفعل ذلك كما يحيي المسلمون بعضهم بعضًا بالسلام، وقال قتادة في قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠].

كانت تحية الناس يومئذٍ سجود بعضهم لبعضٍ، لكنه محرم في شريعتنا.

ووقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل تعليمه الأسماء أم بعده؟

ظاهر السياق: أولًا التعليم، ثم الأمر بالسجود، ثم إسكانه الجنة، ثم إخراجه منها وإسكانه الأرض[3].

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٤٢٠-٤٢١.
(٢) جامع البيان ١/ ٤٥٦.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١/ ٧٨.

آدم والجنة

إتمامًا لمجموع النعم التي أكرم الله بها آدم عليه السلام، خلقه الله بيديه، وعلمه الأسماء كلها، وجعله معلمًا للملائكة، وأسجد له الملائكة، أسكنه الجنة، وأباح له الثمرات كلها، عدا شجرة واحدة نهاه عنها، فهل التزم بأمر الله تعالى؟ وهل كان هذا السكن دائمًا في الجنة أم مؤقتًا؟ هذا ما سنراه في السطور القادمة إن شاء الله تعالى، وسنرى ما جرى معه في الجنة بإذن الله تعالى.

أولًا: السكن في الجنة:

يقول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ويقول أيضًا: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

تبين الآيات التكريم الإلهي للإنسان، وهو هنا المقام في الجنة في بدء الخليقة، ولكن اقتضت الحكمة الإلهية إقامته في الأرض، وتكليفه القيام برسالة مهمة، هي تعمير الكون، وإظهار مزية الإنسان في مجاهدة الشيطان وأهوائه، وقد سيقت هذه القصة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما يلاقي من الإنكار؛ ليعلم أن المعصية من شأن البشر، وأنهم إذا كلفوا بشيء بالرغم من تكريمهم غاية الإكرام قد لا يمتثلون[1].

﴿ٱسْكُنْ﴾ معناه: لازم الإقامة، ولفظه لفظ الأمر، ومعناه الإذن، و﴿أَنتَ﴾ تأكيد للضمير الذي في ﴿ٱسْكُنْ﴾، ﴿وَزَوْجُكَ﴾ عطف عليه، والزوج امرأة الرجل[2]، وهذا دليل على أن آدم عليه السلام وزوجه سكنا الجنة.

الإقامة في الجنة بين الديمومة والتأقيت:

إن التعبير بلفظ: ﴿ٱسْكُنْ﴾ يحمل في طياته الخروج، بل فيه تنبيه على الخروج؛ لأن السكنى لا تكون ملكًا، فدخولهما في الجنة كان دخول سكنى لا دخول إقامةٍ، ذلك أنه لو قال رجلٌ لغيره: أسكنتك داري لا تصير الدار ملكًا له، وله أن يخرجه منه إذا انقضت مدة الإسكان، فههنا لم يقل الله تعالى: وهبت منك الجنة، بل قال: أسكنتك الجنة، وإنما لم يقل ذلك؛ لأنه خلقه لخلافة الأرض، فكان إسكان الجنة كالتقدمة على ذلك[3]، فهو معنًى عرفيٌّ، والواجب الأخذ بالمعنى العرفي إذا لم تثبت في اللفظ حقيقةٌ شرعية[4].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٣٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٤٥١.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

كما أن في حظره تعالى على آدم الشجرة ما يدل على أن سكناه في الجنة لا يدوم؛ لأن المخلد لا يحظر عليه شيء، ولا يؤمر ولا ينهى[1]، وينبغي أن يعلم أن الله تعالى خلق آدم للأرض؛ بدليل الآية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ولو لم يعص لخرج على غير تلك الحال[2].

هل الجنة التي دخلها آدم هي جنة الخلد؟

الجمهور: أن هذه الجنة هي دار الثواب وأنها جنة الخلد، وهو الذي تشهد به ظواهر الآيات والأخبار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، والدليل عليه أن الألف واللام في لفظ: ﴿الْجَنَّةَ﴾ لا يفيدان العموم؛ لأن سكنى جميع الجنان محالٌ، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق، والجنة التي هي المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب، فوجب صرف اللفظ إليها.

وعلق بعضهم: أن الكل ممكنٌ، والأدلة النقلية ضعيفةٌ ومتعارضةٌ، فوجب التوقف وترك القطع، ولا تعدو أنها ظواهر كثيرةٌ، لكنها تفيد غلبة الظن، وليس لهذه القضية تأثيرٌ في العقيدة، والله أعلم[3].

السكن في الجنة بين التكليف والإباحة:

اختلفوا في فعل الأمر ﴿اسْكُنْ﴾ أمر تكليفٍ أو إباحةٍ، فعن قتادة أنه قال: إن الله تعالى ابتلى آدم بإسكان الجنة كما ابتلى الملائكة بالسجود؛ وذلك لأنه كلفه بأن يكون في الجنة يأكل منها حيث شاء ونهاه عن شجرةٍ واحدةٍ أن يأكل منها.

وقال آخرون: إن ذلك إباحةٌ؛ لأن الاستقرار في المواضع الطيبة النزهة وأكل الطيبات لا يدخل تحت التعبد، ولا يكون قوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] أمرًا وتكليفًا، بل إباحةً.

والأصح أن ذلك الإسكان مشتملٌ على ما هو إباحةٌ، وعلى ما هو تكليفٌ؛ أما الإباحة: فهو أنه -عليه الصلاة والسلام- كان مأذونًا في الانتفاع بجميع نعم الجنة، وأما التكليف: فهو أن المنهي عنه كان حاضرًا، وهو كان ممنوعًا عن تناوله[4].

ثانيًا: النهي عن أكل الشجرة:

يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ويقول أيضًا: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٨.
(٢) انظر: إيجاز البيان، أبو القاسم النيسابوري ١/ ٨٨.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٦، ١/ ٢٩٩.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٥١.
مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٨١.

﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

أباح الله عز وجل لآدم وحواء الجنة بكل ما فيها من الثمرات، فقال عز وجل: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[البقرة: ٣٥].

وقال: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩].

لكنه نهاهما عن شجرة واحدة، فقال لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ولعل الله عز وجل أراد لآدم بهذا المنع أن يتميز عن غيره من المخلوقات المسوقة حيث تبرز الإرادة، إذ لا تظهر الإرادة في حالة الإباحة التامة، فلابد من المنع حتى تظهر هذه الإرادة، كما قال سيد قطب، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ معناه: لا تقرباها بأكل؛ لأن الإباحة فيه وقعت، وقال بعض الحذاق: إن الله لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظة تقتضي الأكل وما يدعو إليه وهو القرب[(١)].

وربما كانت هذه الشجرة ترمز للمحظور الذي لابد منه في حياة الأرض، فبغير محظور لا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، فالإرادة هي مفرق الطريق، والذين يستمتعون بلا إرادة، هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل الآدميين[(٢)].

ما هي الشجرة التي نهى الله آدم عن قربانها؟

قيل في تعيينها أقوالٌ كثيرة، ليس فيها ما يعضده خبر؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلًا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة، والصواب: أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة -إما: بعينها، أو جنسها-[(٣)]، فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها[(٤)]، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها، وذلك علم إن علمه عالم لم ينتفع علمه به، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم[(٥)].

ثالثًا: خروجه من الجنة:

لابد أن نتنبه جيدًا حتى لا يقال: إن معصية آدم هي التي أخرجت البشر من الجنة؛ لأن الله تعالى قبل أن يخلق آدم حدد مهمته فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فآدم عليه السلام مخلوق للخلافة في الأرض، ومن صلح من ذريته يدخل جنة الخلد في الآخرة، ومن دخل جنة الخلد عاش في النعيم خالدًا[(٦)].

يقول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٧.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٥٥.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٢٠.
(٦) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٢٦٠.

[البقرة: ٣٦].

ويقول أيضًا: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

بعد أن أسكن آدم وحواء الجنة أتاهما الشيطان فقال لهما: هل أدلكما على شجرة إن أكلتما منها خلدتما فلم تموتا، وملكتما ملكًا لا ينقضي فيبلى؟ فحلف لهما على أنه ناصح لهما فيما ادعاه من الكذب، فأكلا من الشجرة التي نهيا عنها، وأطاعا أمر إبليس، وخالفا أمر ربهما فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما، فأقبلا يشدان عليهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]. يعني: أوقعهما في الزلل وحملهما عليه.

وقرئ: ﴿فَأَزَالَهُمَا الشيطان﴾ أي: نحاهما، وتوجيه قوله: ﴿عَنْهَا﴾ على القراءة الأولى: عن الوصية، وعن الجنة على القراءة الأخرى[(٢)].

﴿وَنَادَيْنَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ قال لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ وتتجاوز عنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في العقوبة، فتاب الله عليهما، وأوحى إليهما: أن ﴿اهْبِطُوا﴾ من الجنة آدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يكون إبليس لهما عدو، وهما لإبليس عدو، ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى منتهى آجالكم وإبليس إلى النفخة الأولى، قال الله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ يعني: في الأرض ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ عند منتهى آجالكم ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ يوم القيامة[(٣)].

رابعًا: نتيجة المعصية:

لما عصى آدم ربه فأكل من الشجرة عاقبه الله بعدة عقوبات، ومنها ما يلي:

١. الإخراج من الجنة.

قيل: ﴿اهْبِطُوا﴾ خطابٌ لآدم وحواء، والمراد: هما وذريتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلا كأنهما الإنس كلهم، والدليل عليه قوله: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣].

ويدل على ذلك قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨- ٣٩].

وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم[(٤)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٨٨.

(٢) انظر: درج الدرر، عبد القاهر الجرجاني ١/ ٤٩.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢/ ٣٢.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٢٨.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ لحكمة غالية اقتضتها القدرة الإلهية أن يسكن آدم وزوجه الجنة، مع أنه خلق للاستخلاف في الأرض، فلما عصى آدم ربه أخرجه من الجنة، فكان الأمر بالهبوط من الجنة إلى الأرض، وكان في ذلك انحطاط رتبة المأمور، ولذلك لم يؤنسه بالنداء، أو الإقبال عليه بالنداء بخلاف قوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ والمخاطب بالأمر بالإخراج آدم وحواء، والمراد: هما وذريتهما، أو هؤلاء وإبليس، ويكون الخطاب بلفظ الجمع وإن وقع على التثنية نحو: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

ذكره ابن الأنباري، ورجحه الزمخشري، والدليل عليه قوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣].

ويدل على ذلك قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ [البقرة: ٣٨] الآية، وما هو إلا حكمٌ يعم الناس كلهم، وفي قول من أدخل إبليس معهما ضعفٌ؛ لأنه كان خرج قبلهما [(١)].

٢. نزع اللباس وكشف العورة.

ما ذكره جل وعلا في آية طه من ترتب بدو سوءاتهما على أكلهما من تلك الشجرة، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقد دلت الآية السابقة على أن آدم وحواء كانا في سترٍ من الله يستر به سوءاتهما، وأنهما لما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنهما انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلة، فبدت سوءاتهما، وصارا يحاولان ستر العورة بورق شجر الجنة، كما قال: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، أي: شرعا يلزقان عليهما من ورق الجنة بعضه ببعضٍ ليسترا به عوراتهما.

أما تعيين اللباس الذي كان عليهما، فهو من الاختلاف الذي لا طائل تحته، ولا دليل على الواقع فيه، وغاية ما دل عليه القرآن: أنهما كان عليهما لباسٌ يسترهما الله به. فلما أكلا من الشجرة نزع عنهما فبدت لهما سوءاتهما [(٢)].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٢٦٣.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٤/ ١١٣.

آدم وإبليس

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١١].

ذكر الله تعالى قصة آدم عليه السلام مع قصة إبليس في سبع سور: البقرة، والأعراف والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص[(١)].

شاء الله عز وجل أن يبتلي إبليس بآدم ويبتلي آدم بإبليس، فلما خلق الله آدم جعل إبليس يطوف بهذا المخلوق، ويقول: لأمر ما خلقت، وبدأ يحرض الملائكة عليه، ويعلن أنه إن أُمِرَ بطاعة هذا المخلوق فلن يطيع، إعلان عن المعصية وإصرار عليها قبل أن يكلفه الله بالأمر.

أولًا: امتناع إبليس عن السجود لآدم:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤].

ويقول أيضًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١١-١٢].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾[طه: ١١٦].

ويقول أيضًا: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[ص: ٧٣-٧٦].

والإباء: امتناع باختيار، والتكبر: أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلب ذلك التشبع[(٢)].

حقيقة إبليس:

عن الحسن قال: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس»[(٣)]. وقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[الكهف: ٥٠].

أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارجٍ من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما عن عائشة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (خُلِقَت الملائكة من نور، وخُلِقَ

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ١٥٣.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧٦٩٩.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٦٠٥.
وصحح إسناده ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٣١.

إبليس من مارج من نار، وخُلِقَ آدم مما وصف لكم)[1].

فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك؛ فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى على أنه من الجن، أي: أنه خُلِق من نار، كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

عن ابن عباس: «كان إبليس من حي من أحياء الملائكة، يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، قال: وكان اسمه الحارث، وكان خازنًا من خزان الجنة، وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت»[2].

والراجح وما تميل له النفس أنه ليس من الملائكة للأدلة الآتية:

١. أن الله عز وجل وصف الملائكة كما في سورة التحريم: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وإبليس هذا عصى الله عز وجل ولم يأتمر بأمره.

٢. أن الله عز وجل أخبر أنه خلق آدم عليه السلام من طين، وإبليس اعترف بنفسه فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [ص: ٧٦].

٣. والملائكة كما هو معلوم خلقت من نور.

٤. جاء مصرحًا به في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠].

٥. أن الله عز وجل لم يجعل للملائكة ذرية، والملائكة أيضًا ليس فيهم ذكور ولا إناث بخلاف إبليس -عليه لعنة الله- فهو من الجن، ومنهم ذكور وإناث، فله ذرية ويتناسلون كما هو معلوم بدليل الآية[3].

وهل كان قبل إبليس كافر أو لا؟

قيل: إن إبليس أول من كفر.

وقيل: كان قبله قوم كفار وهم الجن الذين كانوا في الأرض.

وهل كفر إبليس جهلًا أم عنادًا؟ على قولين بين أهل السنة، ولا خلاف أنه كان عالمًا بالله تعالى قبل كفره، فمن قال: إنه كفر جهلًا قال: إنه سلب العلم عند كفره، ومن قال: كفر عنادًا قال: كفر ومعه علمه[4].

ومما يدلل على أن إبليس مأمور بالسجود لآدم، أنه إذا علم أن الأكابر مأمورون بالتذلل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم ٦٩٩٢، ٤/ ٤٩٢٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ١٠٠.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٣٤، تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٥٥.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٣٥.

لأحد والتوسل به، علم أن الأصاغر أيضًا مأمورون به[1]، فإبليس مأمور بالسجود مع الملائكة، إما بطريقة العلو؛ لأنه فاق الملائكة وأطاع الله مختارًا وألزم نفسه الطاعة، وصار يزهو على الملائكة، وإما بالدنو؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبلة[2].

سبب عصيان إبليس وامتناعه عن السجود:

قال الحسن البصري: «قاس إبليس وهو أول من قاس».

وقال محمد بن سيرين: «أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقايس»[3].

لقد نظر إبليس في نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى في نفسه أنه أفضل من آدم، فامتنع عن السجود له مع وجود الأمر الإلهي له ولسائر الملائكة بالسجود.

وهنا قاعدة مهمة في القياس: فالقياس إن كان مقابلًا للنص كان فاسد الاعتبار، ثم هو فاسد في نفسه، فإن الطين أنفع وخير من النار، ففيه الرزانة، والحلم، والأناة، والنمو.

والنار فيها: الطيش، والخفة، والسرعة، والإحراق.

فإبليس ذكر الصلصال والحمأ، ولكنه لم يذكر النفخة العلوية التي تلابس هذا الطين[4].

ومن هنا نعلم أن إبليس استحق الطرد من رحمة الله لعصيانه أمر الله عز وجل؛ لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به، وترفعه في مخالفة الأمر الإلهي.

ثانيًا: وسوسة إبليس لآدم في الجنة:

يقول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢].

ويقول أيضًا: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢٠-١٢١].

«الوسوسة والوسواس: الصوت الخفي من ريح، والوسواس: حديث النفس

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٧٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧٦٩٩.
(٣) أخرج الأثرين الطبري في تفسيره ١٢/ ٣٢٧.
(٤) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ٤/ ٢١٤١.

والوسواس: هو الشيطان. وكل ما حدثك ووسوس إليك، فهو اسمٌ»[1].

يقول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

«الزلة هي سقوطٌ في المعنى؛ إذ فيها خروج فاعلها عن طريق الاستقامة، وبعده عنها، وقرأت: (فأزالهما)، ومعنى الإزالة: التنحية»[2]، و﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: حولهما وزحزحهما عن الجنة، أو حملهما على الزلة بسبب الشجرة، و﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: إبليس الذي لم يسجد ولم يخضع، وقد وسوس لهما بما ذكر في سورتي الأعراف وطه حتى أوقعهما في الزلل وحملهما على الأكل من الشجرة فأكلا ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: من ذلك المكان أو النعيم الذي كانا فيه، فكان الذنب متصلًا بالعقوبة اتصال السبب بالمسبب[3].

ظهرت مهمة الشيطان وعداوته لآدم وذريته، والله تعالى يقول: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أوقعهما في الزلة، وهي العثرة أو الكبوة، وهو الميل والعدول[4]، كيف حدث ذلك والله تعالى قد نصح آدم وزوجه ألا يتبعا الشيطان، وأبلغه أنه عدو لهما، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

فالعداوة معلنة ومسبقة، ولنفرض أنها غير معلنة، ألم يشهد آدم الموقف الذي عصى فيه إبليس أمر الله ولم يسجد له؟ ألم يعرف تكبره عليه، قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كل هذا كان ينبغي أن ينبه آدم إلى أن إبليس لن يأتي له بخير أبدًا، ولم يكتف الله عز وجل بهذه الدلالات، بل أخبر آدم أن الشيطان عدو له ولزوجه.

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من ماذا أخرجهما؟ من العيش الرغيد، واسع النعمة في الجنة، ومن الهدوء والاطمئنان في أن رزقهما يأتيهما بلا تعب[5].

فقال إبليس كاذبًا: إن من يأكل من هذه الشجرة يصبح ملكًا، ويصبح خالدًا لا يموت. ووسوسة الشيطان تتم بكلام كاذب لتزيين المعصية، والشيطان لا يهمه أي معصية ارتكبت؛ وإنما يريدك عاصيًا على أي وجه، ولكن النفس عندما توسوس لك بالمعصية، تريد شيئًا بذاته، وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان، ووسوسة النفس؛ فالشيطان يريدك عاصيًا بأي ذنب، فإن امتنعت في ناحية أتاك من ناحية أخرى، فقد قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٥٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٢٦٠.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٣١-١٧.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٢٨.
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٢٦٦.

﴿لَا يَبْلَىٰ﴾ ولكن هذه المحاولة لم تفلح، فقال لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ وفات على آدم أنه لو كان هذا صحيحًا لأكل إبليس من الشجرة، ولم يطلب من الحق سبحانه وتعالى أن يمهله إلى يوم الدين[1].

أما كيف تتم الوسوسة؟ فلا ندري؛ لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه، ولكننا نعلم -بالخبر الصادق- أن إغواءه على الشر يقع في صورة من الصور، وإيحاء بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات، وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقاط الضعف الفطرية في الإنسان، وأن هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر، وما يكون لكيده الضعيف حينئذ من تأثير[2].

وقد رويت أخبار في صفة استزلال إبليس عدو الله آدم وزوجته حتى أخرجهما من الجنة، وأولى ذلك بالحق ما كان لكتاب الله موافقًا، وقد أخبر الله تعالى ذكره عن إبليس أنه وسوس لآدم وزوجته ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾، أنه قد باشر خطابهما بنفسه، إما ظاهرًا لأعينهما، وإما مستجنًا في غيره، وقد استخدم إبليس في إيقاع آدم عليه السلام في شباكه شيئين:

أولهما: عرض الإغراءات الخطيرة، وهي الملك والخلود في الجنة.

ثانيهما: القسم بالحلف الكاذب[3].

عداوة إبليس لآدم:

عن جابر بن عبد الله: «أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض هبط بالهند، وأن رأسه كان ينال السماء، وأن الأرض شكت إلى ربها عز وجل ثقل آدم عليه السلام، فوضع الجبار عز وجل يده على رأسه فانحط منه سبعون ذراعًا، فلما أهبط قال: رب هذا العبد الذي جعلت بيني وبينه عداوة إن لم تعينني عليه لا أقوى عليه. فقال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به ملكًا. قال: رب زدني. قال: أجازي بالسيئة السيئة، وبالحسنة عشرًا إلا ما أزيد. قال: رب زدني. قال: باب التوبة له مفتوح ما دام الروح في الجسد. فقال إبليس: يا رب، هذا العبد الذي أكرمته إن لم تعينني عليه لا أقوى عليه. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك. قال: رب زدني. قال: تجري مجرى الدم وتتخذ في صدورهم بيوتًا. قال: رب زدني. قال: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[الإسراء: ٦٤][4].

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦٧.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٦٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٣١
(٤) أخرجه ابن منده في التوحيد، ذكر خلق

إن عداوة إبليس آدم وذريته، حسده إياه، واستكباره عن طاعة الله في السجود له، فهي كفرٌ بالله[1].

يقول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

ويقول أيضًا: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٨].

ويقول أيضًا: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٧٥-٨٣].

ويقول: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

لم يزل الشيطان دائبًا جادًا مشمرًا في عداوة بني آدم عليه السلام منذ كان أبوهم طينًا، فقال تعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

فلما سأله الله عز وجل عن سبب امتناعه من السجود واستكباره عن أمر ربه فقال سبحانه له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

فأجاب الخبيث مفتخرًا بأصله طاعنًا على ربه تعالى في حكمته وعدله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فعامله الجبار بنقيض ما قصده وأذاقه وبال حسده، وأثمر له استكباره الذل الأبدي الذي لا عز بعده: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وقال: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].

وقال: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥].

فطلب الإنظار ليأخذ بزعمه من آدم وذريته بالثأر، ولا يعلم أنه بذلك إنما يزداد من غضب الجبار، وقد علم أنه لا سبيل له إلا على حزبه وتابعيه من الكفار، الذين هو إمامهم في الخروج عن طاعة الله

آدم عليه السلام، رقم ٨٢، ١/ ٢٢٥.
قال ابن منده: «هذا إسنادٌ صحيحٌ».

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٣٧.

والاستكبار ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٧٩- ٨٠].

أجابه الله تعالى إلى طلبته ليمتحن عباده اختبارًا وابتلاءً: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [تبارك: ٢].

فقابل النعمة بالكفران، وأقسم ليستعملن مدته، وليستغرقن حياته في إغواء ذرية آدم الذين كان طرده وإبعاده بسببهم؛ إذ لم يسجد لأبيهم، ولا رأى أن ذلك باستكباره عن أمر ربه، بل قدس نفسه اللئيمة، وأسند الإغواء إلى ربه مخاصمةً ومحادةً ومشاقةً: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦- ١٧].

ولم يقل اللعين: «من فوقهم» لعلمه أن الله تعالى من فوقهم، قال الله سبحانه: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقد علم الرجيم ذلك فقال آيسًا منهم: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

ثم لما سعى إلى آدم وحواء زوجه في الجنة ودلهما على تلك الشجرة التي نهاهم الله عز وجل عنها أن يقربوها، وأباح لهم ما سواها من الجنة، فاستدرجهم اللعين بخداعه، وغرهم بتلك اليمين الفاجرة: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

فنفذ قضاء الله تعالى وقدره بأكلهما منها: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وظن اللعين أنه قد أخذ بثأره من آدم وأنه قد أهلكه معه، ولم يعلم بفضل الله عز وجل وسعة رحمته الذي لا يقدر أحدٌ على شيءٍ منه: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

فلما عاتبهما الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

فلم يعترضا على قضاء الله وقدره، ولم يحتجا بذلك على ارتكاب ما نهى الله عنه، ولم يخاصما به كما قال اللعين مواجهًا ربه بقوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦].

بل اعترفا بقدرة الله عليهما، وأقرا بظلمهما لأنفسهما، وصرحًا بافتقارهما إلى ربهما وبكمال غناه عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ثم أراد الله سبحانه أن يهبطهم إلى دارٍ أخرى، هي دار الامتحان والابتلاء، ونصب الحرب في هذه الدار؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ

﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ فقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٣٨-٣٩].

ثم كان من كيد الشيطان إلقاؤه الفتنة بين ابني آدم، وقتل أحدهما الآخر[(١)].

بداية العداوة بين الشيطان والإنسان:

ابتداؤها من الشيطان، وسببه تكريم الله بني آدم؛ لما رأى إبليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم، فعاداه الله تعالى، والأولى منه لؤمٌ، والثانية من الله كرمٌ، أما الأول: فلأن الملك إذا أكرم شخصًا ولم ينقص من الآخر شيئًا، فعداوة من يعادي ذلك المكرم لا تكون إلا لؤمًا، وأما الثاني: فلأن الملك إذا علم أن إكرامه ليس إلا منه؛ وذلك لأن الضعيف ما كان يقدر أن يصل إلى بعض تلك المنزلة لولا إكرام الملك، يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك فيحسن التعذيب عليه فيعاديه إتمامًا للإكرام، ثم إن كثيرًا من الناس على مذهب إبليس إذا رأوا واحدًا عند ملكٍ محترمًا بغضوه وسعوا فيه إقامةً لسنة إبليس[(٢)].

[انظر: الإنسان: الإنسان والشيطان]

توبة آدم

أكل أدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها، وعصيا الله عز وجل فأخرجا من الجنة، فانتابهما من الحسرة والألم ما الله أعلم به، ويبدأ العتاب الرباني: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الأعراف: ٢٢].

وهنا يبدأ آدم عليه السلام بالتضرع والرجوع إلى الله عز وجل. يقول الله تعالى حاكيًا حال آدم وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

فأكرمه الله عز وجل بقبول التوبة، يقول الله عز وجل: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

ولقد أجمع الحجة من العلماء على توجيه التلقي إلى آدم دون الكلمات[(٣)]، والتلقي هنا معناه: الأخذ والقبول، أي: يتقبله ويأخذه[(٤)].

(١) انظر: معارج القبول، الحكمي ٢/ ٤٦٠.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٩٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٤٣.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٢٤.

أولًا: الكلمات التي تلقاها آدم من ربه:

اختلف أهل التأويل في أعيان الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

فعن ابن عباسٍ: «قال آدم: أي رب، ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن أنا تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم، قال: فهو قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]»[(١)].

وعن ابن عباسٍ قال: «لما أصاب آدم الخطيئة فزع إلى كلمة الإخلاص، فقال: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا، وظلمت نفسي، فاغفر لي وأنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا وظلمت نفسي، فتب علي إنك أنت التواب الرحيم»[(٢)].

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذارًا وتنصلًا، وكلمات الحق سبحانه قبولًا وتفضلًا، وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له: أفِرَارًا منَا يا آدم؟ كذلك قوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، وقوله: أمخرجي أنت من الجنة؟ فقال: نعم، فقال أتردني إليها؟ فقال: نعم[(٣)].

وقيل إنها: جاءت في القرآن مفسرة في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ومن المعلوم أن من هو دون آدم من الكفار والفساق، إذا تاب أحدهم إلى الله توبة نصوحًا تاب الله عليه، وإن لم يقسم عليه بأحد، ونبينا ما أمر أحدًا في توبته بمثل هذا الدعاء[(٤)].

نفذ قضاء الله تعالى وقدره بأكلهما منها: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وظن اللعين أنه قد أخذ بثأره من آدم وأنه قد أهلكه معه، ولم يعلم بفضل الله عز وجل وسعة رحمته الذي لا يقدر أحدٌ على شيءٍ منه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

فلما عاتبهما الله تبارك وتعالى، لم يعترضا على قضاء الله وقدره، ولم يحتجا بذلك على ارتكاب ما نهى الله عنه، ولم يخاصما به.

بل اعترفا بقدرة الله عليهما، وأقرا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٤٣، والحاكم في المستدرك، ذكر آدم عليه السلام، رقم ٢٢٠٠، ٤/ ٥٩٤.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٨٩.

(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٨٢.

(٤) انظر: المنتقى من منهاج الاعتدال، الذهبي ٤٣٩.

بظلمهما لأنفسهما، وصرحا بافتقارهما إلى ربهما وبكمال غناه عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ثم أراد الله سبحانه أن يهبطهم إلى دارٍ أخرى، هي دار الامتحان والابتلاء[١].

وإن هذه الكلمات تتضمن الإقرار والاستغفار، ومن ندم واستغفر وتاب، غُفِرَ له، وإن كان دون آدم عليه السلام، فحصل بها المقصود ولم يحتج لغيرها[٢].

فأما آدم فسأل التوبة فتيب عليه، وأما إبليس فسأل النظرة، فأُنظِر[٣].

ثانيًا: الخطيئة الموروثة لبني آدم:

فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة، فالخطيئة فردية والتوبة فردية، فليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده -كما تقول نظرية الكنيسة-.

فخطيئة آدم كانت خطيئةً شخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية، والطريق مفتوح للتوبة.

يحمل كل إنسان وزره، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد وعدم اليأس والقنوط، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢][٤].

(١) انظر: معارج القبول، الحكمي ٢/ ٤٦١.
(٢) انظر: منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، تامر متولي، ص ٥٠١.
(٣) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، أبو الحسين اليمني ٣/ ٦٥٩.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠-٦١.

آدم وزوجه

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[النساء: ١].

ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾[الأعراف: ١٨٩].

يا بني آدم خلقكم: فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم، والعطف في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يعطف على محذوف، كأنه قيل: من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها، وخلق منها زوجها. والمعنى: شعبكم من نفس واحدة أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ نوعي جنس الإنس.

والثاني: أن يعطف على ﴿خَلَقَكُم﴾، والمعنى: خلقكم من نفس آدم، وخلق منها أمكم حواء، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ غيركم من الأمم الفائتة للحصر.

والذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها، فكان خلقه إياهم من نفس واحدة موجبًا للتقوى وداعيًا إليها؛ لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة[١].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٦١

أولًا: خَلْق حواء:

في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد أمرًا فليتكلم بخيرٍ أو ليسكت، واستوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلعٍ، وإن أعوج شيءٍ في الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء خيرًا)[٢].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلعٍ، وإن أعوج شيءٍ في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء)[٣].

وعن ابن عباسٍ: «أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائمٌ، ولأم مكانه لحمًا»[٤].

وقيل: إنه لم يؤذه أخذ الضلع شيئًا، ولو آذاه لما عطف رجل على امرأة أبدًا[٥].

ومنهم من قال: إنها خلقت من تراب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي:

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، باب الوصية بالنساء، رقم ١٤٦٨، ٢/ ١٠٩١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، باب خلق آدم صلوات الله عليه، رقم ٣٣٣١، ٤/ ١٣٣.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره، ١/ ٥١٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٩٣.

من جنسها.

والقول الأول أقوى؛ بدليل الآيات[1]، وجمهور المفسرين: على أن المراد بالنفس الواحدة آدم، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء[2].

واختلفوا في الوقت الذي خلقت فيه حواء:

ذهب بعضهم إلى أنها خلقت بعد أن أدخل آدم الجنة.

فذكر السُدِي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: أن الله تعالى لما أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فبقي فيها وحده وما كان معه من يستأنس به، فألقى الله تعالى عليه النوم، ثم أخذ ضلعًا من أضلاعه من شقه الأيسر، ووضع مكانه لحمًا، وخلق حواء منه، فلما استيقظ وجد عند رأسه امرأة قاعدة فسألها من أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي، فقالت الملائكة: ما اسمها؟ قال: حواء. ولِمَ سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي[3]، أو أنها أم كل حي، أي: أم الأحياء، كما أن سياق الآيات يدل على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

وذهب آخرون: أنها خلقت قبل دخول آدم الجنة، وأدخلا الجنة معًا[4].

إن من التكريم الإلهي للإنسان إسكان آدم وحواء في الجنة في بدء الخلق، فقد أمر الله تعالى آدم وزوجه حواء بسكنى الجنة، والتمتع فيها حيث شاءا، والأكل منها أكلا هنيئًا لا عناء فيه، أو واسعًا لا حد له. ونهاهما عن الأكل من شجرة معينة، فكان الأكل منها ظلمًا لأنفسهما، وتجاوزًا لأمر الله ومخالفة نهيه، ولكن الشيطان عدوهما أزلهما عنها، أذهبهما وأبعدهما عن الجنة، وأخرجهما من ذلك النعيم، بعد أن أغواهما بالأكل من الشجرة، فحولهما من الجنة، قائلًا لهما: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢١].

فتغلبت عليهما وساوس الشيطان، وخرجا من الجنة إلى الأرض، وشقاء الدنيا، وقد نشأت بعدها العداوة بين البشر والشيطان: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٧٧-٤٧٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٣٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٤٥١.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٥١.

وقال الله لهما: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، بعضكم عدو بعض، ولكم استقرار في الأرض وتمتع بنعمها وخيراتها إلى مدة معينة من الزمان. فألهم الله آدم كلمات، فعمل بها هو وزوجته، فقالاها، وتابا توبة خالصة، والكلمات هي قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

فتقبل الله منهما التوبة؛ لأنه كثير القبول لتوبة عباده، وكرر الأمر بالهبوط من الجنة هو وزوجه للتأكيد[١].

[انظر: الإنسان: خلق حواء]

(١) التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي ١/ ٢٣-٢٦.

ذرية آدم

إن الله خلق آدم وأخرج من ظهره ذريته كالذر، وأحياهم، وجعل لهم عقلًا وإدراكًا، وأخرج من ظهور بني آدم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم، وهم في عالم الأرواح، وقد كرم الله بني آدم أن استخلفهم في الأرض؛ لإعمارها ولإقامة حدود الله، وأخذ عليهم الميثاق.

أولًا: نداءات الله لبني آدم:

من خلال استقراء آيات كتاب الله نجد أن الآيات القرآنية التي نادى الله بها البشر بصيغة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ خمس آيات، هي:

١. قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٢٦].

هناك تلازم بين شرع الله اللباس؛ لستر العورات والزينة، وبين التقوى، كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان، فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري[٢].

(٢) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ٣/ ١٢٧٨.

قال عبد الرحمن بن أسلم: «يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى»[1].

فاللباس: ستر العورات، والرياش: ما يتجمل به ظاهرًا، فالأول: ضروريات، والثاني: مكملات. وفي الآية دليلٌ على وجوب ستر العورة، وقيل: بل فيها دلالةٌ على الإنعام فقط، بل إن من جملة الإنعام ستر العورة، فبين أنه سبحانه وتعالى جعل لذريته ما يسترون به عوراتهم[2].

٢. قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

تنبيه لبني آدم بأن الشيطان عدو الإنسان، فيجب التنبه لمخاطره وتذكر عهد الله وميثاقه بأن نعبده وحده لا شريك له، ونزكي النفس بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة؛ لنحقق السعادة الأبدية في الآخرة، ونؤدي الرسالة في هذه الحياة على الوجه الأكمل[3].

لا يصرفنكم الشيطان عن الدين ولا يمتحننكم بأن لا تدخلوا الجنة، كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها.

﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حال إخراجهما، فكان سببًا في أن نزع عنهما.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ﴾ هو تعليلٌ للنهي، وتحذيرٌ من فتنته، بأنه بمنزلة العدو المداجي، يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون.

وقيل: إن عدوًا يراك ولا تراه، لشديد المؤنة إلا من عصم الله.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده ونسله، قال مجاهدٌ: يعني الجن والشياطين، ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾[4]، وعطف ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ على الضمير في ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾ المؤكد بـ﴿هُوَ﴾، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشأن[5].

وفي الآية دليلٌ على وجوب ستر العورة وتحذير من زوال النعمة، كما نزل بآدم[6].

٣. قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

هذا خطاب عام لجميع العالم وأمروا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها، والزينة هاهنا: الثياب الساترة، ويدخل فيها ما كان من الطيب للجمعة والسواك، وكل ما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٤٥٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٨٢.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٦٤٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٨٦.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٩٨.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٨٦.

وجد استحسانه في الشريعة ولم يقصد به مستعمله الخيلاء، ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عند كل موضع سجود فهي إشارة إلى الصلوات وستر العورة فيها، ويدخل معها مواطن الخير كلها[1].

٤. قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ [الأعراف: ٣٥].

هذا هو عهد الله لآدم وبنيه، وهذا هو شرطه في الخلافة عنه سبحانه في أرضه التي خلقها وقدر فيها أقواتها، واستخلف فيها هذا الجنس، ومكنه فيها؛ ليؤدي دوره وفق هذا الشرط وذلك العهد، وإلا فإن عمله ردٌّ في الدنيا لا يقبله ولا يمضيه مسلم لله، وهو في الآخرة وِزْرٌ، جزاؤه جهنم لا يقبل الله من أصحابه صرفًا ولا عدلًا.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لأن التقوى تنأى بهم عن الآثام والفواحش، وأفحش الفواحش الشرك بالله، واغتصاب سلطانه وادعاء خصائص ألوهيته، وتقودهم إلى الطيبات والطاعات وتنتهي بهم إلى الأمن من الخوف والرضى عن المصير[2].

٥. قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠].

اتفق العقلاء على أن الشيطان يأمر بالشر، وإن اختلفوا في حقيقته وكيفيته[3]، ونداؤهم هنا ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فيه من التبكيت ما فيه، فإن الشيطان ظاهر العداوة لكم، بدءًا من أبيكم آدم عليه السلام[4].

وقوله: ﴿لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ معناه: لا تطيعوه؛ ذلك أن المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب، بل الانقياد لأمره والطاعة له، فالطاعة عبادةٌ، وطاعة الشيطان في مخالفة أمر الله، أو ترك أمر الله.

وجملة: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل لما قبلها من النهي عن طاعة الشيطان وقبول وسوسته[5].

ثانيًا: تكريم بني آدم:

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٦٢].

أرأيت هذا الذي فضلته علي، وكرمته، يعني: آدم، ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: أجل موتي، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ لأستأصلنهم، ولأستولين عليهم بالإغواء والإضلال، وأصله من احتناك الجراد الزرع،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٩٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ٣/ ١٢٨٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٩٩، فتح البيان، القنوجي ١١/ ٣١١.
(٤) انظر: في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب ٥/ ٢٩٧٢، التفسير المنير، الزحيلي ٢٣/ ٣٧.
(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي ١١/ ٣١١.

وهو أن تأكله وتستأصله بأحناكها وتفسده، ثم يسمى الاستيلاء على الشيء وأخذ كله احتناك، أوهو مأخوذ من تحنيك الدابة، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتنقاد[1].

يقول سيد قطب: «لأستولين عليهم وأحتويهم، وأملك زمامهم، وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم. ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية، عن حالته التي يكون فيها متصلًا بالله، فيرتفع ويسمو، ويعتصم من الشر والغواية»[2].

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿كَرَّمْنَا﴾ جعلهم ذوي كرم، بمعنى: الشرف والمحاسن الجمة، كما تقول: ثوب كريم وفرس كريم؛ أي: جامع للمحاسن، وليس من كرم المال في شيء[3]، وما جاء عن أهل التفسير من تكريمهم وتفضيلهم بأشياء ذكروها، هو على سبيل التمثيل لا الحصر[4].

مظاهر تكريم الله لبني آدم:

١. اختص الله الإنسان بأن خلقه بيديه، ونفخه فيه من روحه، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

وهذا يدل على علو مكانة الروح التي حلت في الإنسان، وعن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قال: قالت الملائكة: يا ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها، ويتنعمون، ولم تعطنا ذلك، فأعطناه في الآخرة، فقال: وعزتي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له كن فكان[5].

٢. الصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

٣. تسخير الكون للإنسان دون ثمن يدفعه، مثل استخدامه لضياء الشمس ودفئها، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

٤. حملهم في البر والبحر، ورزقهم من كل غذاء نباتي أو حيواني، وتفضيلهم على كثير من خلقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١١٥، التسهيل، ابن جزي الكلبي ١/ ٤٥٠.
(٢) في ظلال القرآن الكريم، ٤/ ٢٢٣٨.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٨٠.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٩٣، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٥٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٠١.

﴿كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

٥. تحميله الأمانة، ونفي الجبر عنه، وإعطاؤه الحرية كاملة، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٦. إعطاؤه حق المساواة لكل فرد مع الأخرين، فلا يتفاضل أحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٧. يأتي التكريم الأعظم في الآخرة بما أعده الله للطائعين من الكرامة في دار المقام، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ﴾[(١)].

ثالثًا: أخذ الميثاق على بني آدم:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والميثاق: العهد المؤكد باليمين، من الوثاقة وهي الشدة في العقد والربط[(٢)]، في هذا إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أخرج من أبناء آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم، وهم في عالم الأرواح، أليس الله سبحانه وتعالى هو ربكم وخالقكم؟ فشهدوا جميعًا وقالوا: بلى أنت ربنا وخالقنا[(٣)]. وخلق الناس على فطرة التوحيد مقرر في آية أخرى، هي قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦]، يقول الطبري: «خلقًا بعد ذلك، قال: فلما أخذ عليهم الميثاق أماتهم، ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة، فذلك قول الله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾»[(٤)].

واختلفوا في كيفية الإخراج وهيئة المخرج والمكان والزمان[(٥)].

والميثاق: هو إقرار من الناس جميعًا

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة من الباحثين ٤/ ١١٣٥-١١٣٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٦، في ظلال القران الكريم، سيد قطب ١/ ٥١، ٥٢.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٥١٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٢٠.

(٥) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢١٨.

-قبل أن يخلقوا وقبل أن يكونوا أناسًا- بالولاء لله، والاعتراف بربوبيته، وهو إقرار ضمن الإقرار العام للوجود كله بالانقياد لله، والولاء له، ويمكن أن يكون الميثاق الذي بايع به المسلمون رسول الله إذ دخلوا في الإسلام، فقد كانت بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة على السمع والطاعة في المكره والمنشط، أي: في الضراء والسراء[1].

وقد اختلف العلماء في كيفية أخذ الميثاق على رأيين:

أما السلف من المفسرين فقالوا: إن الله خلق آدم وأخرج من ظهره ذريته كالذر، وأحياهم وجعل لهم عقلًا وإدراكًا، وألهمهم ذلك الحديث وتلك الإجابة، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم، فأقروا بذلك.

وأما الخلف فقالوا: هذا من قبيل التمثيل والتصوير، والمجاز والاستعارة فلا سؤال ولا جواب، وإنما أقام الله الأدلة الكونية على وحدانيته وربوبيته للكون كله، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾[2].

فالمراد من الآية أن الله تعالى جعل الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد حجة مستقلة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ﴾ أي: لم ننبه إليه، وهو أولى الآراء بالصواب[3]، وسبب الإشهاد لمنع اعتذارهم يوم القيامة بغفلتهم عن التوحيد، أو بادعائهم التقليد، والله لا يقبل عذرهم أبدًا؛ لأن التقليد في الاعتقاد وأصول الدين لا يجوز.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

أي شيء يحول بينكم وبين الإيمان بالله، وهذا رسول الله ﴿يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾؟ فلقد دعاكم الله سبحانه وتعالى إلى الإيمان من قبل، وأخذ ميثاقكم وأنتم في ظهور آبائكم، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم ما زلتم على إيمانكم بالله الذي وثقه معكم وأنتم في ظهور آبائكم، فما لكم لا تؤمنون بما يدعوكم إليه الرسول من إيمان، وهو إنما يدعوكم إلى هذا الإيمان الذي آمنتم به من قبل؟[4].

وظاهر الآية متناقض، ولو كانوا لا يؤمنون بالله كيف يقرون بالله وبالرسول؟ لكنه يخرج على وجهين:

أحدهما: أي: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾؟ أي: بقدرة الله على بعثكم وإحيائكم بعد

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/١٠٤٦.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/٢١٨، التفسير المنير، الزحيلي ٩/١٥٨.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/١٥٩.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٤/٧٥٠-٧٥٤.

موتكم.

والثاني: أي عذر لكم في ترك الإيمان بالله تعالى والرسول دعاكم، وقد أتاكم من الآيات والحجج ما يدفع عنكم العذر، ويزيح عنكم الشبه؟[1].

وهذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والخطاب للكفار[2].

رابعًا: الاستخلاف في الأرض:

يقول الإمام الطبري: «الخليفة، مستخلف في الأرض، ومصير فيها خلفًا»[3].

والخلائف: جمع خليفة، وهو: آدم وذريته، والهاء للمبالغة والتأكيد، وهذا اسمٌ لمن يخلف الغير، ويقوم مقامه فيما أسند إليه، وآدم خلف الملائكة في اتخاذ الأرض مسكنًا[4].

وقال الحسن البصري: «خلفًا يخلف بعضهم بعضًا، وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم، ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله»[5]، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وهو من يخلف غيره ويقوم مقامه في تنفيذ الأحكام، وقيل: أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه، وقال ابن كثير: والظاهر أنه لم يرد آدم عينًا؛ إذ لو كان ذلك، لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فإنهم أرادوا: أن من هذا الجنس من يفعل ذلك[6].

واختلف المفسرون واللغويون في سبب تسمية خليفة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الله لما خلق الأرض أسكنها الجن، ولما خلق السماء أسكنها الملائكة، ثم لما خلق آدم أزعج الجن إلى أطراف الأرض، فهو خليفة الجن في الأرض.

القول الثاني: أنه سمي خليفة؛ لأنه يخلفه غيره فيكون مكانه.

القول الثالث: أنه سمي خليفة؛ لأنه خليفة الله في الأرض لإقامة أحكامه وحدوده، وهو الذي رجحه البغوي، وتبعه الخازن والرازي والسمعاني، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وهو المتعين إن شاء الله[7].

ومعلومٌ أن أعلى الناس منصبًا عند الملك من كان قائمًا مقامه في الولاية والتصرف، وكان خليفةً له فهذا يدل على أن آدم عليه السلام كان أشرف الخلائق[8].

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٩/ ٥١٦.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ١٣/ ٤٠٠-٤٠١.
(٣) انظر: جامع البيان ١/ ٤٤٨.
(٤) انظر: درج الدرر، عبد القاهر الجرجاني ١/ ١٣٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٥١.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٢٨.
(٧) انظر: درج الدرر، عبد القاهر الجرجاني ١/ ١٣٨.
(٨) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٤٤٣.

﴿فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الآية يخاطب الله تعالى داود عليه السلام بأنه استخلفه حاكمًا بين الناس في الأرض، فله السلطة والحكم، وعليهم السمع والطاعة، ثم بين الله تعالى له قواعد الحكم والاستخلاف تعليمًا لغيره من الناس:

١. ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: فاقض بين الناس بالعدل الذي قامت به السماوات والأرض، وهذه أولى وأهم قواعد الحكم.

٢. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي: لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار؛ لذا قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال والانحراف عن جادة الحق، والعبرة من هذا الموضوع: الوصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق، ولا يحيدوا عنه، فيضلوا عن سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ أي: بعد من تقدمك من الأنبياء عليهم السلام، وقيل: حاكمًا من قبلي لتحكم بين عبادي بالحق، وأوصاه بألا يتبع في الحكم هواه[1].

فكل نبي استخلفه الله في عمارة الأرض وسياسة الناس، لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه؛ لذلك لم يستنبئ ملكًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩][2].

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٢٥٢.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٦٨.

موت آدم عليه السلام

عن الحسن، قال: رأيت شيخًا بالمدينة يتكلم فسألت عنه، فقالوا: هذا أبي بن كعبٍ، فقال: إن آدم عليه السلام لما حضره الموت قال لبنيه: أي بني، إني أشتهي من ثمار الجنة، فذهبوا يطلبون له منها، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطٌ، ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل، فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون؟ قالوا: أبونا مريضٌ واشتهى من ثمار الجنة، قالوا لهم: ارجعوا قد قضى أبوكم. فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم، فلاذت بآدم، فقال: إليك عني إنما أتيت من قبلك، خلي بيني وبين ملائكة ربي تبارك وتعالى، فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له وألحدوا له، وصلوا عليه، ثم دخلوا قبره فوضعوه في قبره ووضعوا عليه اللبن، ثم خرجوا من القبر ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم[1].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ١/ ٣٤٤.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

الدروس المستفادة من قصة آدم

١. الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب.

٢. استدل بعض العلماء بآية ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ على أن اللغات كلها توقيفية، بمعنى أن الله تعالى خلق علمًا ضروريًا بتلك الألفاظ وتلك المعاني، وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني.

٣. تعليم آدم الأجناس التي خلقها الله، دال على فضل العلم؛ فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم عليه السلام، إلا بأن أظهر علمه، فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم، لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء، لا بالعلم.

٤. قصور علم المخلوقات أمام علم الخالق، وأن فعل الخالق لا يخلو من الحكمة والفائدة، وأن علم الملائكة محدود لا يتناول جميع الأشياء، والواجب على من سئل عن علم لم يعرفه أن يقول: الله أعلم، لا أدري، اقتداء بالملائكة والأنبياء وفضلاء العلماء.

٥. التنبيه على عجيب صنع الله تعالى؛ إذ

أخرج من هذه الحالة المهينة نوعًا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة.

٦. أن الله تعالى أراد تمييز آدم عن جميع خلقه بأن يخلقه بيده الكريمة مباشرة، وهذا لا يكون إذا كان خلقه من العدم، فالملائكة والجن مخلوقون من العدم، ولا يقال فيهم: إنه خلقهم بيده.

٧. الإنسان وإن كرمه الله، لكنه ضعيف، عرضة للنسيان، كما نسي آدم أوامر الله ونواهيه، فأطاع إبليس عدوه، وأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها.

٨. إن التوبة والإنابة إلى الله سبيل الظفر برحمة الله الواسعة، فإن آدم الذي عصى ربه تاب وقبل الله توبته، فعلى العاصي أو المقصر المبادرة إلى التوبة والاستغفار دون قنوط ولا يأس من رحمة الله ورضوانه ومغفرته.

٩. الكبر والعناد والإصرار على الإفساد أسباب لاستحقاق السخط الإلهي، واللعنة والغضب والطرد من رحمة الله، فإن إبليس الذي أبى السجود، وأصر على موقفه، وعاند الله، وتحدى سلطانه بإغراء الإنسان وصرفه عن إطاعة الله، غضب الله عليه وطرده من الجنة إلى الأبد، وأوعده بنار جهنم.

١٠. قد يرتكب الإنسان معصية مخالفًا أمر الله في حال النسيان والسهو عن عهد الله بطاعته، والنسيان مرفوع عنا الحرج والإثم فيه. قال ابن زيد: «نسي آدم ما عهد الله إليه في ذلك اليوم، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس».

١١. أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتشريف وتكريم، لا سجود عبادة، وأبى إبليس السجود مع الملائكة تكبرًا واستعلاء وحسدًا.

١٢. الجنة ذات نعيم مطلق، فلا تعب ولا عناء في الحصول على الملذات والرغبات، بخلاف الدنيا التي تمتاز بالتعب والكد لتحصيل المطلوب.

١٣. كانت وسوسة الشيطان لآدم بالأكل من الشجرة سببًا في المخالفة والإخراج من الجنة والهبوط إلى الأرض، ونزع اللباس.

١٤. لا يجوز الحديث عن ذنوب الأنبياء إلا بالقدر المذكور في القرآن الكريم أو السنة النبوية الثابتة، فقد أخبر الله بوقوع بعض الأخطاء من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن أنفسهم، وتنصلوا منها، واستغفروا منها وتابوا، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم قليلة نادرة، وكانت عن خطأ أو نسيان، أو تأويل.

١٥. من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة، فإن العلماء أجمعوا على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم، فيقول: تلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت، وقد قدر الله علي ذلك. والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته.

١٦. لقد اجتبى الله تعالى آدم وهداه بعد العصيان، فإن وقع هذا قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب؛ لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، وإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه، لم يضر ما سلف منهم من الذنوب.

١٧. أمر الله تعالى آدم وزوجه حواء بالهبوط إلى دار الدنيا، والدنيا دار تكليف وتنافس وتزاحم، وسبيل التقويم والتميز: الالتزام بهداية الله.

١٨. لا عذر للكافر يوم القيامة بعد أن أتته الآيات والدلائل على إثبات وحدانية الله وقدرته ووجوب العمل بشرعه، فإذا ما تركها ولم ينظر فيها، ترك في العذاب في جهنم، وهكذا يعاقب كل من أعرض عن القرآن، وعن النظر في مصنوعات الله.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الإنسان، الشيطان، الملائكة، النبوة

الآيات الكونيّة

عناصر الموضوع

مفهوم الآيات الكونية	٨٦
الألفاظ ذات الصلة	٨٨
حكمة القسم بالآيات الكونية	٨٩
استدلال القرآن بالآيات الكونية	٩٣
أساليب القرآن في الحث على التفكر	١٠٤
الآيات الكونية في المثل القرآني	١١٢
الإشارات الإعجازية لعلوم الكون في القرآن	١٢٠
ضوابط التفسير العلمي للآيات المتعلقة بالكون	١٣١

مفهوم الآيات الكونية

أولًا: المعنى اللغوي:

فأما لفظ الآية:

فتطلق في اللغة العربية على إطلاقين:

الأول: إن الآية هي: العلامة، وهذا هو المشهور في كلام العرب [(١)].

قال الراغب: «الآية هي: العلامة الظاهرة، وحقيقته لكل شيء ظاهر، وهو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته، إذ كان حكمهما سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات، فمن علم ملازمة العلم للطريق المنهج، ثم وجد العلم علم أنه وجد الطريق، وكذا إذا علم شيئًا مصنوعًا علم أنه لا بد له من صانع» [(٢)].

الثاني: إن الآية تأتي بمعنى الجماعة، يقولون: جاء القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم [(٣)].

وأما لفظ الكون:

فالكون لغة: الوجود المطلق العام، واسم لما يحدث دفعة، كحدوث النور عقب الظلام مباشرة، وقيل: الكون حصول الصورة في المادة بعد أن لم تكن حاصلة فيها [(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عُرِفت الآية بعدة تعريفات، أهمها:

عرفها ابن عطية بقوله: «الآية: العلامة المنصوبة للنظر والعبرة» [(٥)].

وعرفها البيضاوي بقوله: «الآية في الأصل: العلامة الظاهرة، ويقال للمصنوعات من حيث إنها تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته» [(٦)].

وعرفها ابن عاشور بقوله: «الآية: أصلها العلامة الدالة على شيء، من قول أو فعل،

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٦٨، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٦١، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ١٢٢.

(٢) المفردات ص١٠١.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٦٨، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٦٢.

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٨٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٠٦.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٢، وانظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ٤٥٦.

(٦) أنوار التنزيل ١/ ٧٤.

وآيات الله الدلائل التي جعلها دالة على وجوده، أو على صفاته، أو على صدق رسله، ومنه آيات القرآن التي جعلها الله دلالة على مراده للناس»[1].

وقال الشنقيطي: «الآية تطلق في القرآن العظيم على إطلاقين:

الأول منهما: إطلاق الآية على الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة:٢٥٢].

وأما الثاني: فهو إطلاق الآية على الآية الكونية القدرية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران:١٩٠].

أي: علامات كونية قدرية، يعرف بها أصحاب العقول السليمة أن خالقها هو الرب المعبود وحده جل وعلا»[2].

وأما الكون اصطلاحًا فهو: مجموع الموجودات الكائنة من مختلف صور المادة والطاقة والزمان والمكان وما تتشكل عليه من كافة الجمادات والأحياء[3].

ثالثًا: معنى الآيات الكونية:

الآيات الكونية هي: الآيات المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كونه الله تعالى فكان، وذلك: السماوات والأرض والجبال والسهول والأنهار والشمس والقمر والنبات والحيوان والجماد، وخلق الإنسان، وآيات الله عز وجل في الآفاق، وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات[4].

(١) التحرير والتنوير٦/ ٢٨٧.
(٢) أضواء البيان٣/ ٢٢٣.
(٣) ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تعريف الكون، استحضر في ٠٦/ ٠/ ٢٠١٥م.
(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٤١.

الألفاظ ذات الصلة

١ العلامة:

العلامة لغةً:

العلامة لغةً: بتخفيف اللام المفتوحة الأمارة وعلامة الشيء ما يعرف به[(١)].

العلامة اصطلاحًا:

ما يستدل به من آثار، سواء كان على طريق، أو أي شيء[(٢)].

الصلة بين الآية والعلامة:

أن الآية هي العلامة الثابتة من قولك: تأييت بالمكان إذا تحبست به وتثبت، والآية تشمل العلامة والدليل القاطع[(٣)].

٢ الأمارة:

الأمارة لغةً:

هي: العلامة[(٤)].

الأمارة اصطلاحًا:

التي يلزم من العلم بها الظن بوجود المدلول، كالغيم بالنسبة إلى المطر، فإنه يلزم من العلم به الظن بوجود المطر[(٥)]، وقد يطلق على الدليل القطعي أيضًا[(٦)].

الصلة بين الآية والأمارة:

إن الأمارة هي العلامة الظاهرة، ويدل على ذلك أصل الكلمة، وهو الظهور، ومنه قيل: أمر الشيء إذا كثر ومع الكثرة ظهور الشأن، ومن ثم قيل: الأمارة لظهور الشأن[(٧)].

---

(١) انظر: دستور العلماء، القاضي نكري٢ / ٢٦٨.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية٢/ ٦٢٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٧١.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس١/ ١٣٩، لسان العرب، ابن منظور ٤ / ٣٣.
(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٣٦.
(٦) انظر: معجم مقاليد العلوم، السيوطي، ص ٧٧، دستور العلماء، القاضي نكري ١/ ١٢١.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٧٢.

حكمة القسم بالآيات الكونية

إن المتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله تعالى قد أقسم بكثير من الآيات الكونية في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات:٢٠-٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [الطارق:١-٦].

وقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر:١-٥].

وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ [البلد:١-٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس:١-٩].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل:١-٤].

وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى:١-٣].

وقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين:١-٤].

وأسلوب القسم في القرآن الكريم طريق من طرق توكيد الكلام وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلم، إذ يؤتى به لدفع إنكار المنكرين أو إزالة شك الشاكين[(١)].

ويمكن بيان الحكمة في القسم بالآيات الكونية فيما يأتي:

١. إن القسم بالآيات الكونية في القرآن الكريم له حكم عظيمة، ومقاصد كثيرة، وفي طياته مواطن للعظة والعبرة، ومجالات رحبة للتأمل والنظر، ولطائف خفية يكتشفها المؤمن بنور بصيرته، فيزداد بها يقينًا يسمو به إلى مراتب العارفين بربهم جل جلاله وعز شأنه.

٢. إن القسم في القرآن الكريم لا يكون

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص ٣١٨.

إلا باسم معظم في ذاته أو لمنفعة فيه، أو للتنبيه على كوامن العبرة فيه، فقد أقسم الله تعالى بالنجم والشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، والخيل، والتين والزيتون، وطور سنين، والبلد الأمين، وغير ذلك من مخلوقاته، لكونها إما معظمة عند الله تعالى أو لما فيها من دلائل القدرة، وآيات العظمة، أو مواطن العبرة [(١)].

٣. إن إقسام الله تعالى بهذه الأمور ينبئ عن شرفها، وأن فيها فوائد دينية ودنيوية، مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد، أو توجب الحث على الشكر.

قال القرطبي: قد يقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه، ويقسم بأفعاله لقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾ [الليل:٣] ، ويقسم بمفعولاته، لعجائب صنعه، كما قال: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ [الشمس:١]. وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾ [الشمس:٥]. وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق:١] [(٢)].

قال ابن القيم: «وقد تضمن هذا القسم الأقسام بالخالق والمخلوق فأقسم بالسماء وبانيها والأرض وطاحيها والنفس ومسويها، وقد قيل إن مصدرية فيكون الأقسام بنفس فعله تعالى فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده، ولما كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار أمرًا يشهد الناس حدوثه شيئًا فشيئًا ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث كان العلم بذلك منزلًا منزلة ذكر المحدث له لفظًا فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة» [(٣)].

٤. إن القسم بالآيات الكونية في القرآن الكريم توكيد، أو تعظيم، أو تنبيه على ما فيها من عظات وعبر، ونفع وضرر [(٤)].

فمن التوكيد، نحو قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات:١-٦].

ومن التعظيم: قوله تعالى: ﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

ومن التنبيه: قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ [النجم:١-٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص ٣١٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٤١، التفسير المنير، الزحيلي ٢٧ / ٩٨.
(٣) التبيان في أقسام القرآن ص ١٨.
(٤) انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص ٣٢٠.

﴿شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة:٣٨-٤١].

وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير:١٥-٢٠] (١).

٥. أقسم الله عز وجل بهذه المخلوقات لما فيها من عجائب الصنعة الدالة عليه، وأراد أن ينبه عباده دائمًا بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة، حتى يتأمل المكلف فيها، ويشكر عليها؛ لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى (٢).

قال الإمام ابن القيم: «ومن ذلك قسمه سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [الليل:١-٣].

وقد تقدم ذكر القسم عليه وأنه سعي الإنسان في الدنيا وجزاؤه في العقبى، فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله؛ إذ هو من آياته الدالة عليه فأقسم به وقت غشيانه وأتى بصيغة المضارع؛ لأنه يغشى شيئًا بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة، ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس:٣-٤].

وأقسم به وقت سريانه، وأقسم به وقت إدباره وأقسم به إذا عسعس، فقيل: معناه أدبر، فيكون مطابقًا لقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر:٣٣-٣٤].

وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار، وعلى الأول يكون القسم واقعًا على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته.

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الأقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه ذكره وأنثاه.

وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية؛ كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها.

وأقسم سبحانه بزمان السعي، وهو الليل والنهار، وبالساعي وهو الذكر والأنثى على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى، وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليلٌ على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه سبحانه لا يسوِي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسوِ بين الليل والنهار،

(١) المصدر السابق ص ٣٢١.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣٠/ ٢٦١.

والذكر والأنثى»[1].

٦. إن القسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد. فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة، وإنما أقسم الله بمخلوقاته؛ لأنها تدل على بارئها، وهو الله تعالى، وللإشارة إلى فضيلتها ومنفعتها؛ ليعتبر الناس بها[2].

٧. إن الله سبحانه أقسم بكثير من مخلوقاته العظيمة، دلالة على عظم مبدعها، لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة، وكمال الحكمة، وفرط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته، ألا يترك عباده سدى عظات بالغة، وآيات ناطقة بوحدانية الله تعالى وعظيم قدرته على تصريفها، وإرسالها نعمة على قوم، ونقمة على آخرين، وجعل فيها الحياة للإنسان والحيوان والنبات، وصنفها وفق حكمته أصنافًا شتى، وجعل لكل صنف منها وظيفة كونية خاصة، فمنها ما يذرو النبات ويحركه؛ لينمو ويزدهر، ومنها ما يحمل السحب المثقلة بالماء، ومنها ما يجري بهذه السحب في يسر وخفة إلى حيث شاء الله جل جلاله، ومنها ما ينزل المطر من هذه السحب بقدر معلوم إلى أماكن محدودة. ومنها... ومنها[3].

٨. إن هذه الأقسام التي أقسم الله بها ما هي إلا دعوة للتأمل والنظر في كل آية من آيات الكون الدالة على خالقها سبحانه وحكمته وقدرته[4]، فمن ذلك أن الله تعالى «أقسم بالشمس: إما على التنبيه منها على الاعتبار المؤدي إلى معرفة الله تعالى، وإما على تقدير ورب الشمس، والضحى: ارتفاع ضوء الشمس وإشراقه، قاله مجاهد»[5].

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن، ص ٥٥.
(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ٣٠٣.
(٣) تفسير المراغي ٢٧/ ١٥٠.
(٤) دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص ٣٢٥.
(٥) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٥٩٤.

استدلال القرآن بالآيات الكونية

أولًا: الوحدانية:

استدل القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى بالآيات الكونية.

قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٣-١٦٤].

فهذه الآيات تدل على أنه واحد عز وجل، فأما آية السماء فمن أعظم الآيات؛ لأنها سقف بغير عمد، والآية في الأرض عظيمة فيما يرى من سهلها وجبلها وبحارها، وما فيها من معادن الذهب والفضة والرصاص والحديد اللاتي لا يمكن أحد أن ينشئ مثلها، وكذلك في تصريف الرياح، وتصريفها أنها تأتي من كل أفق فتكون شمالًا مرة وجنوبًا مرة، ودبورًا مرة وصبًا مرة، وتأتي لواقح للسحاب.

فهذه الأشياء وجميع ما بث الله في الأرض دالة على أنه واحد، كما قال عز وجل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله غيره؛ لأنه لا يأتي بمثل هذه الآيات إلا واحد[1].

قال ابن كثير: «﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، واختلاف الليل والنهار، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء:٣٣].

وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ [الحديد:٦] أي: يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا»[2].

وكذلك قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٣٧، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٩٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٤٤.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية:٣-٦].

والمعنى: وفي خلق الله إياكم أيها الناس، وخلقه ما تفرق في الأرض من دابة تدب عليها من غير جنسكم ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: حُجَجًا وأدلةً لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرون بها، ويعلمون صحتها[1].

وفي السماوات والأرض آيات ودلائل كثيرة، منها:

- يدل خلقها على خالق لها؛ لأنه لا يكون بناء بغير بانٍ.
- أنها أعظم الخلق.
- أنها محكمة على اتساق ونظام، وهذا يدل على أن صانعها واحد.
- أنها ممسكة مع عظمها وثقل جرمها بغير عمد.

والآيات والبراهين في خلق الإنسان كثيرة، منها:

- خلق الإنسان على ما هو به من وضع كل شيء في موضعه لما يصلح له، وذلك يقتضي أن الصانع عالم بموضع المصالحة.
- جعل الحواس الخمس على الهيئة التي تصلح لها، كل هذا في تدبير محكم[2].

وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝٤٤ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٦﴾ [النور:٤٤-٤٦].

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الدلائل على الوحدانية، وذلك؛ لأنه لما استدل أولًا بأحوال السماء والأرض، وثانيًا بالآثار العلوية، استدل ثالثًا بأحوال الحيوانات»[3].

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝٢٥ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۝٢٦ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الروم:٢٥-٢٧].

فجملة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم:٢٥]، من أفانين الاستدلال على الوحدانية والبعث، ومن طرائق الموعظة لتطرية نشاط السامعين لهذه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري٢٢/ ٥٩.

(٢) انظر: النكت في القرآن الكريم، القيرواني ص ٤٤٥.

(٣) مفاتيح الغيب٢٤ / ٤٠٦.

الدلائل الموضحة المبينة [1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان:٢٥].

ففي الآية إلزام للكافرين على إقرارهم بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر، وأن لا يعبد معه غيره.

ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم، وإذا نُبِّهُوا عليه لم يتنبهوا أن الله هو الغني عن حمد الحامدين، المستحق للحمد، وإن لم يحمدوه [2].

قال الإمام الرازي: «الآية متعلقة بما قبلها من وجهين أحدهما: أنه تعالى لما استدل بخلق السماوات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين أنهم معترفون بذلك غير منكرين له، وهذا يقتضي أن يكون الحمد كله لله؛ لأن خالق السماوات والأرض يحتاج إليه كل ما في السماوات والأرض، وكون الحمد كله لله يقتضي أن لا يعبد غيره، لكنهم لا يعلمون هذا» [3].

وقوله عز وجل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٣٧-٤٠].

قال الإمام الرازي: «لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي، فإن دلالة المكان والزمان مناسبة؛ لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر والزمان لا تستغني عنه الأعراض؛ لأن كل عرض فهو في زمان، ومثله مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧].

ثم قال بعده: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩]- حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضًا، لكن المقصود أولًا هناك إثبات الوحدانية، بدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت:٣٧]» [4].

والآيات الكونية التي استدل بها القرآن على وحدانية الله تعالى كثيرة، وإنما يكفي من ذلك التمثيل.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور٢١ / ١١٨.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري٣ / ٥٠٠.
(٣) مفاتيح الغيب٢٥ / ١٢٦.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي٢٦ / ٢٧٥.

ثانيًا: أحقية الله للعبادة:

استدل القرآن الكريم على أحقية الله تعالى للعبادة بالآيات الكونية.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

فقد استدل القرآن الكريم على أحقية الله تعالى بالعبادة بآيات كونية، وهي أنه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

والمعنى: أن الذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم، وهو يقدر على ضركم ونفعكم أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضر[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

استدل القرآن بالآيات الكونية وهي خلق الجن والأنس على أحقية الله تعالى للعبادة، والمعنى: وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي[(٢)]، «أي: لينقادوا ويخضعوا لي، وانقيادهم وخضوعهم هو استمرارهم على مشيئته وحكمه، وهو معنى خضوع السماوات والأرضين وطواعيتها وانقيادها»[(٣)].

وفي الآية بين تعالى أنه ما خلق الخلق إلا ليشتغلوا بعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

فلما شرح أحوال الشمس والقمر والنهار والليل، كان المعنى: إنما خلقت هذه الأشياء لتنتفعوا بها، فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي، وإذا كان كذلك، فكل من ورد عرصة القيامة، سألته، هل أتى بتلك الخدمة والطاعة، أو تمرد وعصى[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري١/ ٣٦٢.

(٢) انظر: المصدر السابق٢٢/ ٤٤٤.

(٣) تفسير القرآن، السمعاني٥/ ٢٦٤.

(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل١٢/ ٢٢٥.

﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٢-٦٧].

«يقول تعالى ذكره: الله الذي له الألوهة من كل خلقه الذي لا تصلح العبادة إلا له، خالق كل شيء، لا ما لا يقدر على خلق شيء، وهو على كل شيء وكيل، يقول: وهو على كل شيء قيم بالحفظ والكلاءة»[1].

ويخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته، وقوله عز وجل: له مقاليد السماوات والأرض، قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة، وقال السدي: له مقاليد السماوات والأرض أي خزائن السماوات والأرض، والمعنى على كلا القولين: أن أَزِمَّة الأمور بيده تبارك وتعالى، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير[2].

ثالثًا: قدرة الله:

ذكر الله تعالى بعض الآيات الكونية؛ كالمطر والسحاب والظلمات والبرق والرعد.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة:١٩-٢٠].

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، مما يدل على أن هذه الآيات دليل على قدرة الله تعالى.

كما استدل القرآن الكريم بآية تقليب الليل والنهار، وآية كل دآبة على كمال قدرته.

قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور:٤٤-٤٥].

وقد أمر الله تعالى بالنظر إلى آية كونية، وهي آية المطر للاستدلال على قدرته سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم:٥٠].

والمعنى: أي: انظروا نظر استبصار واستدلال، واستدلوا بذلك على أن من قدر على ذلك قادرٌ على إحياء الموتى[3].

(١) جامع البيان، الطبري٢١/ ٣٢٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٧ / ١٠٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي١٤/

وقوله عز وجل: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء:٩٩].

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أولم ينظر هؤلاء القائلون من المشركين: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء:٩٨] بعيون قلوبهم، فيعلمون أن الله الذي خلق السماوات والأرض، فابتدعها من غير شيء، وأقامها بقدرته، قادر بتلك القدرة على أن يخلق مثلهم أشكالهم، وأمثالهم من الخلق بعد فنائهم، وقبل ذلك، وأن من قدر على ذلك فلا يمتنع عليه إعادتهم خَلْقًا جديدًا، بعد أن يصيروا عظامًا ورفاتًا»[1].

رابعًا: البعث:

ذكر القرآن الكريم الآيات الكونية في معرض الاستدلال على البعث والحشر إلى الله تعالى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٥-٢٨].

فقد ذكر القرآن من الآيات الكونية السماوات والأرض والشجر والأقلام وجعلها دليلًا على أن الخلق والبعث ما هو إلا كنفس واحدة.

وذكر الإمام الرازي: «من الدلائل الدالة على إمكان الحشر: الاستدلال باقتداره على السماوات على اقتداره على الحشر، وذلك في آيات، منها في سورة سبحان: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء:٩٩].

وقال في يس: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس:٨١].

وقال في الأحقاف: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣].

ومنها في سورة ق: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا

(١) جامع البيان، الطبري١٧/ ٥٦٢.

﴿رَوَاسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾ [ق:٣-١٥].

فهذه الآيات الكونية المذكورة في هذه الآيات أقامها القرآن الكريم دليلًا على البعث والحشر، وعرض هذه الآيات الكونية العظيمة في أسلوب الاستفهام التقريري، الذي يقرر حقيقة البعث والنشور، وفيها إشارة إلى أن الذي خلق هذه الآيات الكونية العظيمة هو الذي يبعث الخلق ويحشرهم إليه.

خامسًا: صدق القرآن:

استدل القرآن الكريم على صدق القرآن الكريم بالآيات الكونية.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [السجدة:١-٩].

فقد ذكر الله تعالى الآيات الكونية في خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وآية خلق الإنسان من طين، وغيرها من الآيات الكونية في معرض الاستدلال على صدق القرآن الكريم، ووجه الاستدلال بهذه الآيات الكونية: أنها سيقت في معرض الإثبات لصدق القرآن وأنه ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه ولا مرية، وأنه منزل من رب العالمين.

ثم قال تعالى مخبرًا عن المشركين ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ أي: اختلقه من تلقاء نفسه، ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي: يتبعون الحق[1].

والمعنى: بل هو الحق والصدق من عند ربك أنزله إليك، لتنذر قومك بأس الله وسطوته أن تحل بهم على كفرهم به،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٢٠.

وإنه لم يأتهم نذير من قبلك، ليبين لهم سبيل الرشاد، وأن محمدًا لم يختلقه كما يزعمون[1].

وقد ذكر الله تعالى الآيات الكونية دليلًا على صدق القرآن.

قال سبحانه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ [التكوير:١-١١].

فقد أخبر الله تعالى عن مصير الآيات الكونية في الآخرة، فقال: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي: إذا كورت الشمس، وأمحي ضوؤها، وسقطت حين خراب العالم الذي يعيش فيه الحي في حياته الدنيا، ولا يبقى في عالمه الآخر الذي ينقلب إليه شيءٌ من هذه الأجرام.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: وإذا النجوم تناثرت وذهب لألاؤها.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: وإذا الجبال قلعت عن الأرض، وسيرت في الهواء حين زلزلة الأرض، فتقطع أوصالها وتقذف في الفضاء، وتمر على الرؤوس مر السحاب.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي: وإذا النوق العشار -وهي أكرم الأموال لديهم، وأعزها عندهم- أُهمِلَت، ولم يعن بشأنها؛ لاشتداد الخطب، وفداحة الهول.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: ماتت وهلكت، تقول العرب إذا أضرت السنة بالناس وأصابتهم بالقحط والجدب: حشرتهم السنة. أي: أهلكتهم، وهلاكها يكون من هول ذلك الحادث العظيم.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: فجر الزلزال ما بينها حتى اختلطت وعادت بحرًا واحدًا، وقد يكون المراد من تسجيرها إضرامها نارًا. فإن ما في باطن الأرض من النار يظهر بتشققها وتمزق طبقاتها العليا، وحينئذ يصير الماء بخارًا، ولا يبقى إلا النار[2].

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: وإذا زوجت الأرواح بأبدانها حين النشأة الآخرة[3].

وهذا الإخبار عن مصير الآيات الكونية في يوم القيامة كتوطئة للقسم بالآيات الكونية في الحياة الدنيا على صدق القرآن.

قال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾ [التكوير: ١٥-١٩].

ومعنى: الخنس والكنس في النجوم أنها تطلع جارية، وكذلك تخنس، أي: تغيب،

(١) تفسير المراغي ٢١/ ١٠٣.

(٢) المصدر السابق ٣٠/ ٥٤.

(٣) المصدر السابق ٣٠/ ٥٥.

وكذلك تكنس تدخل في كناسها، أي: تغيب في المواضع التي تغيب فيها، فهما بمعنى واحد.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ يقال: عسعس الليل، إذا أقبل، وعسعس، إذا أدبر، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إذا امتد حتى يصير نهارًا بينًا.

وجواب القسم بالآيات الكونية المذكورة في الآيات هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني: أن القرآن نزل به جبريل عليه السلام[1].

قال الإمام القرطبي: «﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾ هي الكواكب الخمسة الدراري: زحل والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة، فيما ذكر أهل التفسير، والله أعلم، وهو مروي عن علي رضي الله عنه، وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان: أحدهما: لأنها تستقبل الشمس، قاله بكر بن عبد الله المزني، الثاني: لأنها تقطع المجرة، قاله ابن عباس»[2].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الواقعة:٧٧-٨٠].

ومواقع النجوم فيها أقوال:

الأول: المشارق والمغارب أو المغارب وحدها، فإن عندها سقوط النجوم.

الثاني: هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها.

الثالث: مواقعها في اتباع الشياطين عند المزاحمة.

الرابع: مواقعها يوم القيامة حين تنتثر النجوم.

وأما مواقع نجوم القرآن، فهي قلوب عباده وملائكته ورسله وصالحي المؤمنين، أو معانيها وأحكامها التي وردت فيها[3].

ومواقع النجوم آية كونية علمية تؤكد صدق القرآن، وقد ذكر الله تعالى أن هذا القسم الذي أقسم به قسم عظيم لو تفكرون في مدلوله فإنه عظيم الخطر بعيد الأثر.

وهذا القسم للإشادة بشأن القرآن، وأنه كثير المنافع وأنه محفوظ في لوح مصون لا يطلع عليه غير المقربين من الملائكة[4].

ومن الآيات الكونية التي يستدل بها على صدق القرآن، قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصلت:٥٣].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٩١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي١٩/ ٢٣٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي٢٩/ ٤٢٦.
(٤) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٦٢.

اختلف المفسرون في بيان معنى هذه الآية على أقوال كثيرة، وحاول كل مفسر أن يفسر الآية بما يتفق مع فهمه والواقع الذي يمكن أن تنزل عليه الآية[1]، وأحسن مَنْ بَيَّنَ معنى الآية بحيث تكون شاملة وعامة، وتتناول المعنى الذي يعتبر راجحًا هو الإمام الرازي حيث قال: «وفي تفسير قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] قولان:

الأول: أن المراد بآيات الآفاق: الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والإضلال والظلمات... وقد أكثر الله منها في القرآن.

وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الأجنة في ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة، والتركيبات الغريبة، كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١].

يعني: نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم، ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزه عن المثل والضد.

فإن قيل: هذا الوجه ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يقتضي أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن، وسيطلعهم عليها بعد ذلك، والآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك. فثبت أنه تعذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه.

قلنا: إن القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء، إلا أن العجائب التي أودعها الله تعالى في هذه الأشياء مما لا نهاية لها، فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زمانًا فزمانًا، ومثاله: كل أحد رأى بعينه بنية الإنسان وشاهدها، إلا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة، وأكثر الناس لا يعرفونها، والذي وقف على شيء منها، فكلما ازداد وقوفًا على تلك العجائب والغرائب، فصح بهذا الطريق قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

والقول الثاني: أن المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة، وبآيات أنفسهم فتح مكة.

والقائلون بهذا القول رجحوه على القول الأول؛ لأجل أن قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يليق بهذا الوجه، ولا يليق بالأول، إلا أنا أجبنا عنه بأن قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ لائقٌ بالوجه الأول، كما قررناه.

فإن قيل: حمل الآية على هذا الوجه

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٦١.

بعيد؛ لأن أقصى ما في الباب أن محمدًا صلى الله عليه وسلم استولى على بعض البلاد المحيطة بمكة، ثم استولى على مكة، إلا أن الاستيلاء على بعض البلاد لا يدل على كون المستولي محقًا، فإنا نرى أن الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الإسلام وعلى ملوكهم، وذلك لا يدل على كونهم محقين.

ولهذا السبب قلنا: إن حمل الآية على الوجه الأول أولى، ثم نقول: إن أردنا تصحيح هذا الوجه، قلنا: إنا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد صلى الله عليه وسلم على تلك البلاد على كونه محقًا في ادعاء النبوة، بل نستدل به من حيث إنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن مكة أنه يستولي عليها، ويقهر أهلها، ويصير أصحابه قاهرين للأعداء، فهذا إخبارٌ عن الغيب، وقد وقع مُخْبَرُه مطابقًا لخبره، فيكون هذا إخبارًا صدقًا عن الغيب، والإخبار عن الغيب معجزة، فبهذا الطريق يستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقًا»[1].

أي: أن الله سبحانه وتعالى سيكشف لعباده بعضًا من آياته؛ ليتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق،.وكيف يتبين لهم أنه الحق؟ ذلك أن حقائق الكون التي سيصلون إليها بعد مئات السنين، أو آلاف السنين بنشاطات الذهن، سيجدون القرآن قد أشار إليها، وحينئذ يتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق؛ لأن الذي قال هو الله، والذي خلق هو الله[2].

وتدل الدلائل على أن العلماء الذين درسوا الآيات الكونية في القرآن فيما بعد، وطبقوها على ما وصل إليه العلم في زمانهم؛ في الفلك، أو الطب، أو الطبيعة، أو الكيمياء، أو الأحياء، وغيرها من العلوم، وجدوا تطابقًا وتوافقًا علميًا رائعًا، أكد لهم أن القرآن كتاب الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لذلك كان علماء الفلك وعلماء الطب أكثر الناس إيمانًا بعظمة الخالق المبدع، وأسبقهم إقرارًا بألوهيته؛ لما رأوه رأى العين من أن القرآن الكريم الذي نزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، كان هو نهاية العلم الذي يصلون إليه، كلما جَدَّ جديدٌ في بحثهم، وهذا هو العلم الذي جاء به النبي الأمي محمد، الذي لم يكن هو ولا قومه ولا عصره يعرف شيئًا من فلك، أو جيولوجيا، أو كيمياء، أو طب، أو غير ذلك[3].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٧٣

(٢) انظر: معجزة القرآن، الشعراوي ص ٤٢.

(٣) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٥٤.

أساليب القرآن في الحث على التفكر

أولًا: الأمر الصريح:

من أساليب القرآن في الحث على التفكر في الكون الأمر الصريح، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١].

قال الإمام أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السماوات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعتبرًا، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يغنيكم عما سواه من الآيات»[1].

وهذه الآية أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع وغير ذلك من آيات السماوات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك[2].

أي: انظروا بالتفكر والاعتبار ماذا في السماوات والأرض من الآيات والعبر التي تدل على وحدانيته ونفاذ قدرته كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، وكل هذا يقتضي خالقًا مدبرًا سبحانه[3].

قال الإمام الرازي: «والدلائل إما أن تكون من عالم السماوات أو من عالم الأرض، فالدلائل السماوية هي حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب، وما يختص به كل واحد منها من المنافع والفوائد، والدلائل الأرضية هي: النظر في أحوال العناصر العلوية، وفي أحوال المعادن وأحوال النبات وأحوال الإنسان خاصة، ثم ينقسم كل واحد من هذه الأجناس إلى أنواع لا نهاية لها. ولو أن الإنسان أخذ يتفكر في كيفية حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة، لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد، ولا شك أن الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل في القرآن المجيد، فلهذا السبب ذكر قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) جامع البيان١٥/ ٢١٤.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية٣/ ١٤٥.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي٢/ ٣٥٣.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ ولم يذكر التفصيل، فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية، حتى إن العاقل يتنبه لأقسامها، وحينئذ يشرع في تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية والبشرية، ثم إنه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتأمل بَيَّنَ بعد ذلك أن هذا التفكر والتدبر في هذه الآيات لا ينفع في حق من حكم الله تعالى عليه في الأزل بالشقاء والضلال»[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت:٢٠].

«يقول تعالى مخبرًا عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ثم وجدوا وصاروا أناسًا سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيّارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: (كن) فيكون»[2].

وإنما أمر بالسير في الأرض؛ لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحوياتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها، فيرى كثيرًا من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جَالَ نظر فكره في تكوينها بعد العدم، جولانًا لم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه؛ لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله، اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها، حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائبًا عن بصره، جالت في نفسه فكرة الاستدلال، فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل، فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة.

وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي؛ لأن السائر ليس له من قرار في طريقه، فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل، فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن، وأنه قادرٌ على إيجاد أمثالها، فهو بالأحرى قادرٌ على إعادتها بعد

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، مفاتيح الغيب١٧/ ٣٠٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٢٤٤.

عدمها[1].

قال محمد إسماعيل إبراهيم: «وها هو القرآن يدعونا إلى التفكر في بدء الخلق منذ أن تصلبت قشرة الأرض الخارجية وتكونت عليها القارات والمحيطات، لذلك اجتهد علماء الجيولوجيا أن يقرأوا تاريخ الأرض من طبقات الصخور الرسوبية التي تراكمت عليها، وفي طياتها الكثير من بقايا الكائنات الحية التي عاشت عليها، سواء كانت لحيوان أو نبات، وهذه البقايا المتحجرة هي ما نسميه اليوم بالحفريات، وهي في واقعها سجل حافل بتاريخ الخليقة منذ بدايتها، وقد استطاع العلم بوسائله المتقدمة أن يقرأ كثيرًا من صفحات هذا السجل، ويعرف حقائق كثيرة عن نشأة الأرض وتطوراتها خلال الأزمنة الجيولوجية»[2].

كما أمر الله تعالى بالسير في الأرض لمعرفة الآيات الكونية التي حلت بالأمم السابقة.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام:١١-١٣].

والمعنى: سيروا في الأرض لتعرفوا أحوال أولئك الأمم، وتفكروا في أنهم كيف أهلكوا لما كذبوا الرسل وعاندوا، فتعرفوا صحة ما توعظون به، وفي السير في الأرض، والسفر في البلاد، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها تكملة للاعتبار، وتقوية للاستبصار[3].

ثانيًا: التعقيب على الآيات الكونية بما يقتضي استنهاض العقول وتوجيه الأفهام:

عقب القرآن الكريم على الآيات الكونية بما يقتضي استنهاض العقول وتوجيه الأفهام نحو النظر والبحث في الآيات الكونية التي ذكرها.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس:٥-٦].

ويلاحظ أن الله ختم هذه الآيات الكونية بقوله: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما يبين لهم، ويفقهون ما يميز لهم[4].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٠.
(٢) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٦٨.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٢١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٠٢.

وختم الآيات الكونية الثانية بقوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ أي: لأدلة وحججًا وأعلامًا واضحة لقوم يتقون الله، فيخافون وعيده ويخشون عقابه على إخلاص العبادة لربهم[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران:١٨٩-١٩٠].

وختم هذه الآيات المذكورة بما يستنهض العقول للتفكير فيها بقوله: ﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وهي العقول، أي: لمن عقل مواضع الحجج، وفهم عن الله أدلته على وحدانيته.

فأعلم تعالى ذكره عباده، بأن الأدلة والحجج إنما وضعت معتبرًا لذوي العقول والتمييز، دون غيرهم من الخلق، إذ كانوا هم المخصوصين بالأمر والنهي، والمكلفين بالطاعة والعبادة، ولهم الثواب، وعليهم العقاب[2].

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِۚ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗاۖ وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾ [الأنعام:٩٥-٩٩].

وزاد سبحانه في ختم هذه الآيات على ما ختم به الآيات السابقات بقوله: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾.

يقول تعالى: قد بينا الحجج، وميزنا الأدلة والأعلام وأحكمناها ﴿لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾، مواقع الحجج ومواضع

(١) انظر: المصدر السابق١٥/ ٢٤.

(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٢٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٨.

العبر، ويفهمون الآيات والذكر، فإنهم إذا اعتبروا بما نبهتهم عليه من إنشائي من نفس واحدة ما عاينوا من البشر، وخلقي ما خلقت منها من عجائب الألوان والصور، علموا أن ذلك من فعل من ليس له مثل ولا شريك فيشركوه في عبادتهم إياه[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

والمعنى: «إن في إنزال الله من السماء الماء الذي أخرج به نبات كل شيء، والخضر الذي أخرج منه الحب المتراكب، وسائر ما عدد في هذه الآية من صنوف خلقه لآيات، يقول: في ذلكم، أيها الناس، إذا أنتم نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه، علمتم أن له مدبرًا ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجج وبرهان وبيان لقوم يؤمنون»[2].

وقوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾ [النحل:١١-١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾ [النحل:٦٥-٦٩].

وقوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري١١/ ٥٧٢.
(٢) انظر: المصدر السابق١١/ ٥٨٢.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾ [الروم:١٩-٢٤].

وفي ختم هذه الآيات الكونية دعوة للتفكير فيها.

قال الإمام ابن جرير في تفسير الآية: «إن فيما وصفت وذكرت من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء، لدلالات وحججًا وعظات، لقوم يتفكرون فيها، فيستدلون ويعتبرون بها، فيعلمون أن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا لمن خلقها ودبرها دون غيره من الآلهة والأصنام التي لا تقدر على ضر ولا نفع ولا لشيء غيرها، إلا لمن أنشأ ذلك فأحدثه من غير شيء تبارك وتعالى وأن القدرة التي أبدع بها ذلك، هي القدرة التي لا يتعذر عليه إحياء من هلك من خلقه، وإعادة ما فني منه وابتداع ما شاء ابتداعه بها»[1].

وقال الإمام ابن جرير في قوله تعالى: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأن المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج ويتفكرون فيها، فيعتبرون بها ويتعظون. ولم يرد به: الذين يسمعون بآذانهم، ثم يعرضون عن عبره وعظاته»[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [الجاثية:٣-٦].

وختم الله تعالى هذه الآيات بما يستنهض العقول نحو اليقين، والمعنى: إن في خلق الله إياكم أيها الناس، وخلقه ما تفرق في الأرض من دابة تدب عليها من غير جنسكم ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ يعني: حججًا وأدلة لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرون بها، ويعلمون صحتها[3].

قال الإمام الرازي: «إنه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاثة مقاطع أولها: يؤمنون، وثانيها: يوقنون، وثالثها: يعقلون، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل: إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين، بل أنتم من طلاب الحق واليقين، فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين، فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل»[4].

(١) جامع البيان، الطبري١٦/ ٣٣٠، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ١٣٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤.

(٢) جامع البيان١٥/ ١٤٥.

(٣) انظر: المصدر السابق ٢٢/ ٥٩.

(٤) مفاتيح الغيب٢٧/ ٦٧١.

وفي الجملة إن الله تعالى ختم هذه الآيات الكونية بما يدعو إلى العلم واليقين، واستخدام العقول والتفكر في هذه الآيات الكونية بما يؤدي إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإخلاص العبادة له سبحانه.

ثالثًا: النعي على تاركي التفكر في الآيات الكونية:

نعى القرآن الكريم على تاركي التفكر في الآيات الكونية ووصفهم بأنهم فارغو العقول لا يفكرون في ما حولهم، وشنع عليهم تركهم التفكر.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم:٨-١١].

وأمر بالنظر في ملكوت السماء والأرض وبالتفكر فيهما قائلًا: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق:٦].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨][1].

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ أي: «أولم يثبتوا التفكر في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة، فيتفكروا بها في مصنوعات الله، حتى يعلموا أنها ما خلقت عبثًا، والتفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقوله: اعتقده في قلبك، أو: أو لم يتفكروا في أنفسهم، التي هي أقرب إليهم من غيرها، وهم أعلم بأحوالها، فيتدبروا ما أودعها الله تعالى، ظاهرًا وباطنًا، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازي فيه، على الإحسان إحسانًا، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق مثلها، وأنه لا بد لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت، فيعلموا أن ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، أي: ما خلقها باطلًا وعبثًا من غير حكمة ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة البالغة، وتنتهي إلى أجل

(١) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٢٥٣.

مسمى وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، بالثواب والعقاب، فيخرب هذا العالم، ويقوم عالم آخر، لا انتهاء لوجوده»[1].

فقد نعاهم وشنع بذكر ووصفهم بأنهم مكذبون وكافرون بهذه الآيات ووبخهم وتهكم عليهم.

فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء:٣٠-٣٢][2].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

وفي الآية نعي لمن لا يتفكر في الآيات الكونية.

قال أبو جعفر الطبري: «يقول جل وعز: وكم من آية في السماوات والأرض لله، وعبرة وحجة، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السماوات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، يقول: يعاينونها فيمرون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهة لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء، فدبرها»[3].

كما نعى الله من لم ينظر في الآيات الكونية بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق:٦-٨].

والمعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ يقول تعالى ذكره: أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد بلائهم: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾، فسويناها سقفًا محفوظًا، وزيناها بالنجوم، ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ يعني: وما لها من صدوع وفتوق، قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ والرواسي الجبال ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾: أي من كل زوج حسن المنظر وقوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾ يقول: فعلنا ذلك تبصرة لكم أيها الناس نبصركم بها قدرة ربكم على ما يشاء، ﴿وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ يقول: وتذكيرًا من الله عظمته وسلطانه، وتنبيهًا على وحدانيته ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٢٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢١/ ٣١.
(٣) جامع البيان ١٦/ ٢٨٥.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٣١.

﴿مُنِيبٍ﴾ يقول: لكل عبد رجع إلى الإيمان بالله، والعمل بطاعته [1].

الآيات الكونية في المثل القرآني

ضرب الله تعالى بالآيات الكونية مثلًا للعبرة والعظة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة:١٧-٢٠].

فالآيات الكونية في الآية هي: النار والظلمات والصيب الذي هو المطر والرعد والبرق والصواعق، وهذا المثل ضربه الله تعالى للمنافقين في تجملهم بظاهر الإسلام وحقنهم دماءهم بما أظهروا، فمثل ما تجملوا به من الإسلام كمثل النار التي يستضيء بها المستوقد، وقوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ معناه، إطلاع الله المؤمنين على كفرهم، فقد ذهب منهم نور الإسلام بما أظهر الله عز وجل من كفرهم، ويجوز أن يكون ذهب الله بنورهم في الآخرة، أي: عذبهم، فلانور لهم؛ لأن الله جل وعز قد جعل للمؤمنين نورًا في الآخرة، وسلب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري٢٢ / ٣٣٢.

الكافرين ذلك النور، والدليل على ذلك قوله: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد:١٣][(١)].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ ثنى الله سبحانه وتعالى في شأنهم بتمثيل آخر لزيادة الكشف والإيضاح، شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوقد نارًا، وإظهار الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، وهنا شبه دين الإسلام بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصواعق[(٢)].

وفي هذا المثل شبه سبحانه وتعالى حالهم بأمرين: كل واحد منهما تشبيهٌ قائمٌ بذاته.

أولهما: إنه سبحانه وتعالى شبه حالهم بحال قوم أصابهم مطر شديد ينصب عليهم انصبابًا، صحبه غمام بعد غمام، فيه ظلمة بعد ظلمة، وفيه رعد وبرق، وفيه الإنذار بالعذاب الشديد، فهم في خوف ووجل يحسبون كل صيحة فيها الموت، ويجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت.

وفي هذا تصوير لنفس منافقة، فهي نفس تائهة فارغة، دائمًا لا تستقر على أمر، ولا تطمئن على قرار، فهم في اضطراب؛ لأنهم لا يؤمنون بشيء، والإيمان هو المطمئن دائمًا، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

وإذا كان التشبيه السابق يصور حالهم في طلب الدليل وعدم الأخذ به؛ لغلبة الهوى، وسيطرة الشهوة، والجحود الموروث، فهذا التشبيه يصور حالهم من هلع مستمر، وخوف من غير مخوف، ولذلك يقول بعض علماء النفس: إن النفاق منشؤه ضعف في النفوس[(٣)].

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٦].

قال الإمام الرازي: «ولما كان كل بق وبعوضة داعيًا إلى معرفة الذات والصفات قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦].

ذلك؛ لأن هذه البعوضة بحسب حدوث ذاتها وصفاتها تدعو إلى قدرة الله، وبحسب تركيبها العجيب تدعو إلى علم

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج١/ ٩٣، التفسير الوسيط، الواحدي١/ ٩٣.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي١/ ٥٧.
(٣) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ١٨٦.

الله، وبحسب تخصيص ذاتها وصفاتها بقدر معين تدعو إلى إرادة الله، فكأنه تعالى يقول: مثل هذا الشيء كيف يستحيا منه»[1].

ومعنى الآية: إنه تعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها، فهو لا يستصغر شيئًا يضرب به مثلًا، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها.

كما ضرب المثل بالذباب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:٧٣].

وغير ذلك من أمثال الكتاب العزيز[2].

كما ضرب الله تعالى مثلًا بالكلب لمن ترك العمل بكتاب الله وآياته، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٧][3].

يقال: لهث الكلب يلهث لهثًا ولهاثًا إذا دلع لسانه، قال مجاهد: هذا مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به، والمعنى: أن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، فالحالتان عنده سواء، كحالتي الكلب، فإنه إن طرد وحمل عليه بالطرد كان لاهثًا، وإن ترك وربض كان لاهثًا، وهذا التمثيل لم يقع لكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أحسن ما يكون وأبشعه[4].

قال الإمام الرازي: «واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مشبهًا بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث، وفي تقرير هذا التمثيل أن كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث في حال الإعياء، وفي حال الراحة، وفي حال العطش، وفي حال الري، فكان ذلك عادة منه وطبيعة، وهو مواظب عليه كعادته الأصلية، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، فكذلك من آتاه الله العلم

(١) مفاتيح الغيب٣٢/ ٣٢٨.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي١/ ٢٧٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري١٣/ ٢٧١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٢/ ٣٩١.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي٢/ ٤٢٨.

والدين وأغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقي نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة»[1].

وضرب الله مثلًا للحق وأهله والباطل وحزبه بقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد:١٧].

قوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: الماء والذهب والفضة والحديد والرصاص والصفر والنحاس، قوله: ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يبقى ولا يذهب، جعل هذا مثلًا للحق والباطل في القلوب، يعني: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع ويهلك، والحق كالماء وكهذه الأشياء يمكث ويبقى في القلوب[2].

هذا مَثَلٌ ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلًا لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء، فتسيل به أودية الناس، فيحيون به، وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلى منه، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى به، وأن ذلك ماكث في الأرض باقٍ بقاءً ظاهرًا، يثبت الماء في منافعه، وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب، والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزبد السيل الذي يُرمى به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب[3].

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطرًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرًا من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علمًا كثيرًا، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبدٌ عالٍ عليه، هذا مثل.

(١) مفاتيح الغيب١٥/ ٤٠٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني٣/ ٨٨.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري٢/ ٥٢٣.

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية، أي: ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل متاعًا، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه، كذلك يضرب الله الحق والباطل، أي: إذا اجتمعا، لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة، ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣].

وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلًا من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[1].

وضرب الله عز وجل مثلًا للإيمان به بالشجرة الطيبة، وضرب مثلًا للكفر به بالشجرة الخبيثة، والشجرة من الآيات الكونية.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٦].

فجعل مثل المؤمن في نطقه بتوحيده والإيمان بنبيه واتباع شريعته، كالشجرة الطيبة، فجعل نفع الإقامة على توحيده كنفع الشجرة الطيبة التي لا ينقطع نفعها وثمرها، وجاء في التفسير أن الشجرة الطيبة النخلة، والدليل على أن هذا المثل يراد به توحيد الله، والإيمان بنبيه وشريعته قوله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧][2].

قال الإمام ابن كثير: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله، كشجرة طيبة وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٤.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣ / ١٦٠.

قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء»[1].

وضرب الله مثلًا لحالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية بقوله تعالى: ﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥].

قال الإمام الماوردي: «قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: معناه الله هادي السماوات والأرض، قاله ابن عباس وأنس.

الثاني: الله مدبر السماوات والأرض، قاله مجاهد.

الثالث: الله ضياء السماوات والأرض، قاله أُبيٌّ.

الرابع: منور السماوات والأرض، فعلى هذا فبما نورهما به ثلاثة أقاويل:

أحدها: الله نور السماوات بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء.

الثاني: أنه نور السماوات بالهيبة ونور الأرض بالقدرة.

الثالث: نورهما بشمسها وقمرها ونجومها، قاله الحسن، وأبو العالية.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: مثل نور الله، قاله ابن عباس.

الثاني: مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن شجرة.

الثالث: مثل نور المؤمن، قاله أُبيٌّ.

الرابع: مثل نور القرآن، قاله سفيان.

فمن قال: مثل نور المؤمن، يعني في قلب نفسه، ومن قال: مثل نور محمد، يعني في قلب المؤمن، ومن قال: نور القرآن، يعني في قلب محمد، ومن قال: نور الله، فيه قولان:

أحدهما: في قلب محمد.

الثاني: في قلب المؤمن.

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أن المشكاة كُوَة لا منفذ لها والمصباح السراج، قاله كعب الأحبار.

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٢.
والآثار أخرجها الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٦٨، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٤١.

الثاني: المشكاة القنديل والمصباح الفتيلة، قاله مجاهد.

الثالث: المشكاة موضع الفتيلة من القنديل الذي هو كالأنبوب، والمصباح الضوء قاله ابن عباس.

الرابع: المشكاة الحديد الذي به القنديل وهي التي تسمى السلسلة والمصباح هو القنديل، وهذا مروي عن مجاهد أيضًا.

الخامس: أن المشكاة صدر المؤمن والمصباح القرآن الذي فيه والزجاجة قلبه، قاله أُبيٌّ.

والمشكاة لفظ حبشي معرب.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يعني أن نار المصباح في زجاجة القنديل؛ لأنه فيها أضوأ، وهو قول الأكثرين.

الثاني: أن المصباح القرآن والإيمان، والزجاجة قلب المؤمن، قاله أُبيٌّ.

﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أما الكوكب ففيه قولان:

أحدهما: أنه الزهرة خاصة، قاله الضحاك.

الثاني: أنه أحد الكواكب المضيئة من غير تعيين، وهو قول الأكثرين.

وأما ﴿دُرِّيٌّ﴾ فتأويلها أنه مضيء يشبه الدر لضيائه ونقائه»[1].

قال القاضي أبو بكر بن العربي: «لا خلاف بين المحققين الذين ينزلون التفسير منازله، ويضعون التأويل مواضعه من غير إفراط ولا تفريط، أن هذا مثل ضربه الله لنوره، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلًا تنبيهًا لخلقه إلا ببعض خلقه؛ لأن الخلق بقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم، ولولا ذلك ما عرف الله إلا الله وحده، وأنور المصابيح في الدنيا مصباح يوقد من دهن الزيتون، ولا سيما إذا كانت مفردة قد تباعد عنها الشجر فخلصت من الكل، وأخذتها الشمس من كل جانب، فذلك أصفى لنورها، وأطيب لزيتها، وأنضر لأغصانها، وذلك معنى بركة هذه الشجرة التي فهمها الناس»[2].

وضرب الله مثلًا للذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، بآية كونية هي العنكبوت في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، اتخذت بيتًا لنفسها، كيما يكنها، فلم يغن عنها شيئا عند حاجتها إليه بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا

(١) النكت والعيون ٤/ ١٠١.

(٢) أحكام القرآن ٣/ ٤٠٤.

﴿يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤١-٤٣].

فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله، وحل بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئًا، ولم يدفعوا عنهم ما أحل الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم [(١)].

وذلك أن بيت العنكبوت لا بيت أضعف منه، فيما يتخذه الهوام في البيوت، ولا أقل وقاية منه من حر أو برد، والمعنى: أن أولياءهم لا ينقصونهم، ولا يرزقونهم ولا يدفعون عنهم ضررًا، كما أن بيت العنكبوت غير موق للعنكبوت [(٢)].

كما ضرب الله تعالى مثلًا كونيًا بالجبل في خشوعه لو أنزل عليه القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١].

قال الإمام ابن جرير: «يقول تعالى: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله، فأمر الله عز وجل الناس إذا أنزل عليهم القرآن، أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾» [(٣)].

أي: أنه لو جعل في الجبل تمييز، وأنزل عليه القرآن لخشع وتشقق وتصدع من خشية الله مع صلابته ورزانته، حذرًا من أن لا يؤدي حق الله عز وجل في تعظيم القرآن، والكافر يعرض عما فيه من العبر كأن لم يسمعها، يصفه بقساوة القلب، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون [(٤)].

والآيات الكونية التي ضرب الله تعالى بها المثل كثيرة، وفيما سبق كفاية وغنية.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠ / ٣٨.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٦٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٢٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٠١.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٦٦.

الإشارات الإعجازية لعلوم الكون في القرآن

تضمن القرآن الكريم إشارات إعجازية لعلوم الكون في علم الفيزياء وعلم الجيولوجيا، وفي علم الكيمياء، وفي علم الأحياء، ويمكن بيان ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: الإشارات الإعجازية في الفيزياء:

إن مصطلح الفيزياء مشتق من كلمة إغريقية معناها الأشياء الطبيعية، وعلم الفيزياء أو علم الطبيعة هو: العلم المختص بدراسة المادة والطاقة، وأسباب سلوكها المشاهد وكيفية إنتاج الطاقة، وكيفية التحكم فيها، وكيف يؤثر بعضهما في الآخر على مدى الزمان والمكان[1].

والآيات التي تضمنت إشارات لعلم الفيزياء كثيرة منها:

١. قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة:٥] تشير الآية إلى سرعة الضوء.

ففي سنة ١٦٧٦م قدم الفلكي «أولاس رومر» الدليل على أن سرعة الضوء غير لحظية كما ذكرت ذلك الموسوعة البريطانية، واستمرت بعده القياسات ثلاثة قرون إلى أن اعتمدت في باريس سنة ١٩٨٣ أثناء انعقاد المؤتمر الدولي للمعايير حيث قدرت سرعة الضوء في الفراغ بـ: ٢٩٩٧٩٢,٤٥٨ كم/ ثانية، هذا ما توصل إليه العلماء في أواخر القرن العشرين، كما ذكرت أيضًا الموسوعة البريطانية.

والقرآن الكريم قد أعطى معادلة دقيقة تؤكد صحة ما وصل إليه المؤتمر الدولي للمعايير في باريس عام ١٩٨٣م.

وصاحب هذا الاكتشاف هو أحد العلماء المسلمين المتخصصين في الفيزياء وهو الدكتور محمد دودح مستشار لدى هيئة الإعجاز العلمي، حيث استنبط من قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة:٥] أن الأمر المقصود به في الآية هو الأمر الكوني الفيزيائي في حياتنا الدنيا، وقد قال بهذا أيضًا من قبله بعض المفسرين: فعن قتادة ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ من أيامكم ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ يقول: مقدار مسيره في ذلك اليوم ألف سنة مما تعدون من أيامكم من أيام الدنيا خمسمائة سنة نزوله، وخمسمائة صعوده فذلك ألف سنة، وعن الضحاك: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: تعرج الملائكة إلى السماء، ثم تنزل في

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية، ١٧/ ٦٧٣.

يوم من أيامكم هذه، وهو مسيرة ألف سنة، وعن عكرمة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من أيام الدنيا، وعن ابن عباس في قوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ من أيامكم هذه، مسيرة ما بين السماء إلى الأرض خمسمائة عام[1].

وأما قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فقد ذكر البغوي والخازن وغيرهم أن: السنة مبنية على سير القمر ومعنى ذلك أن العرب كانت تعتمد في حساب الزمن على الحساب القمري، كما كانوا يعبرون عن المسافة بالزمن؛ كأن يقولوا: مسافة ثلاثة أيام، والقرآن نزل بلغة العرب فقال: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[2].

والمعادلة القرآنية = المعادلة العلمية

في يوم كان مقداره (زمن يوم أرضي) الزمن ألف سنة مما تعدون (بالحساب القمري) = ١٢٠٠٠ دورة قمرية المسافة.

الأمر الكوني = ألف سنة مما تعدون ١٢٠٠٠ دورة قمرية / زمن يوم أرضي

السرعة = المسافة / الزمن.

وجه الإعجاز في الآية القرآنية:

هو أنها اعتبرت الحد الأقصى للسرعة الكونية في الفراغ تعادل دوران القمر حول مداره اثنتي عشرة ألف دورة، ومن ثم استنبط الدكتور محمد دودح المعادلة التي تعطي الرقم الصحيح لحساب سرعة الأمر الإلهي، وقد توصل الدكتور محمد دودح إلى أن الرقم القرآني ينطبق تمامًا مع الرقم الذي أعلنه المؤتمر الدولي للمعايير في باريس سنة ١٩٨٣م وهو ٢٩٩٧٩٢,٤٥٨ كم/ ثانية[3].

٢. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠].

تشير الآية إلى أصل تكوين السماء والأرض، وهي من موضوعات علم الفيزياء.

فقد بين القرآن أن السماوات والأرض كانتا شيئًا واحدًا، وأن الأرض انفصلت عن السماء وتكونت فيها القشرة الأرضية، وكان عليها الماء، ومنه كانت الأحياء التي خلقها الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٦٧.
وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٦٥، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤٣١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١١٦، لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٥.
وانظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٢٠١.

(٣) انظر: بحث الإعجاز الفيزيائي في القرآن الكريم، د. محمد دودح.

﴿فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء:٣٠-٣٢].

والنص الكريم صريح في أن السماوات والأرض كانت كونًا واحدًا، وفصل الله تعالى جزءًا منه وهو الأرض، وكانت فيها هذه الحياة التي يحياها الحيوان والطير في السماء، والسمك في الماء، والزرع في الفيحاء.

وإذا كان العلماء اليوم يقررون أن الكون ابتدأ خلقه بالسديم، وهو يشبه الدخان، فقد صرح القرآن الكريم قبل ذلك، وقبل أن يعلموا.

فقال الله تعالى في خلق السماوات والأرض: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت:٩-١٢][1].

ويبين سبحانه أن السماء والأرض كانت دخانًا، وهو السديم الذي يقوله العلماء وقد اجتهد علماء الفلك والطبيعة في وضع نظريات متعددة لكيفية حدوث هذا الانفصال، ومنها نظرية الانفجار العظيم، ولا داعي للخوض في تلك النظريات.

واستطاع علماء الجيولوجيا بوسائلهم المتخصصة أن يعطوا تاريخًا مطلقًا لبدء وجود الأرض بكيانها المستقل عن بقية الأجرام السماوية، وقدروا أنه كان منذ حوالي أربعة آلاف وخمسمائة مليون عام من أعوامنا المعروفة[2].

٣. قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥].

يشير إلى أن الضغط الجوي يقل بالارتفاع عن سطح الأرض.

فقد عكف العلماء على دراسة الهواء وغازاته، ثم حاولوا قياس ارتفاعه ومعرفة مقدار تخلخله واستعانوا أخيرًا بأحدث وسائلهم -الصواريخ- لمعرفة الحقيقة كاملة، ولكن الحقيقة لم تتكشف بكامل صورتها حتى الآن أمام أعينهم، حتى بعد هذه الجهود المتتالية إنهم حاولوا تذليل

(١) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص٣٧١.

(٢) انظر: القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص٣٠.

الجو وتعبيد مسالكه، فوقفت دونهم صعاب تغلبوا عليها بالعلم، ومن بين الصعاب مسألتان أشار إليهما كتاب الله الأعظم[1]:

الأولى: صعود الإنسان في السماء.

الثانية: ما يحدث للإنسان في أثناء هذا الصعود.

ويَصْحَب الصعود في الجو أربع ظواهر:

- قلة الضغط.
- قلة الأوكسجين.
- برودة الجو وتقلب درجة الحرارة.
- انعدام الوزن إذا تغلغل الإنسان في الفضاء.

فكلما ارتفع الإنسان قل الضغط فتخلخل الهواء وهذا يسبب للإنسان ضيقًا في التنفس يمتد كلما زاد الارتفاع، وقد يؤدي نقص الضغط إلى تمدد الغازات في معدة الطيار وأمعائه فيسبب له تقلصات عنيفة.

وهناك أيضًا حدوث انتفاخ يدفع الحجاب الحاجز إلى أعلى فيضغط على القلب والرئتين مما يسبب الإغماء للطيار أحيانًا، وكذلك يكون الطيار معرضًا لنوبات حادة من السعال؛ لأن الهواء في الارتفاع الشاهق تنقصه الكثافة الكافية لتنظيف قناة التنفس من المواد المهيجة لها، وينتج عن قلة الضغط ظاهرة أخرى، فكلما ارتفع الإنسان إلى أعلى نقص الضغط الجوي، على حين يظل الضغط الداخل للجسم كما هو، فيختل التوازن بين الضغطين:

- الضغط الداخلي للجسم الذي يظل دون تغير.
- الضغط الخارجي للهواء الذي يأخذ في التناقص تدريجيًا.

فإذا وصل الإنسان إلى ارتفاع عظيم لم يصبح في الإمكان حفظ التوازن بين هذين الضغطين، فينبثق الدم من فتحات الأنف والفم وتنفجر طبلة الأذن إلى الخارج، ويصحب ذلك اختناق ثم وفاة أكيدة[2].

٤. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء:٣٢].

تقرر هذه الآية الكريمة أن السماوات وما فيها من أجرام حافظة لكيانها ومتماسكة فيما بينها ولا خلل يعتورها ومحفوظة من أن تقع على الأرض، هي كل ما علانا، وهي تبدأ بالغلاف الهوائي الذي يحمي أهل الأرض من كثير من أهوال الفضاء التي لا تستقيم معها الحياة بأي حال، مثل: الشهب، والنيازك، والأشعة الكونية، وفوق الأرض الغلاف الهوائي الذي تحتفظ به الأرض بقوة الجاذبية، ولا سبيل إلى فقده في خضم

(١) انظر: معجزات القرآن العلمية، حامد حسين قدير ص١٨٠.

(٢) انظر: معجزات القرآن العلمية، حامد حسين قدير ص ١٨.

الفضاء المتناهي، وفوق الغلاف الهوائي أجرام السماء على أبعاد مختلفة وتدور دوراتها المنتظمة في أفلاكها منذ أن خلقها الله تعالى.

وقانون الجاذبية توجد في الكون نظم لها قوانين لا تتبدل ولا تتغير منذ الأزل، ومن أول هذه القوانين قانون الجاذبية الذي يعمل على تجميع شتات الأجزاء المادية المتقاربة في أبعاد دقيقه محددة، ولولا قوة هذا القانون لسقطت الكائنات في هاوية الفضاء، ويتركز ثقل الأرض في مركز تكورها، أي: أن الأرض تجذب الأجسام التي عليها نحوه، وقد اكتشف هذا القانون نيوتن العالم الإنجليزي الذي لاحظ يومًا أن تفاحة سقطت من شجرتها على الأرض، فأخذ يفكر في سبب سقوطها إلى أن وصل إلى قانون الجاذبية الذي يثبت أن كل جسم مادي يجذب غيره من الأجسام المادية بقوة تزيد أو تنقص حسب الكتلة والمسافة بينهما، وهذا هو القانون الذي يربط الأجرام السماوية ويحفظ تماسكها وانتظامها في مداراتها[1].

٥. قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

وتشير الآية إلى أن المسافات بين النجوم عظيمة، وهي مما يدرسه علم الفيزياء.

يقسم المولى تبارك وتعالى بمواقع النجوم؛ لأن القسم بمواقعها يوجه الانتباه إلى أن المسافات بين النجوم تبلغ حدودًا لا يتصورها الخيال، فمثلًا: نجد أن أقرب نجم إلينا في مجرتنا وهي: الشمس تبعد عنا بمقدار (٥٠٠) ثانية ضوئية، بينما النجم الذي يليها في القرب يبعد عنا بمقدار أربع سنوات ضوئية تقريبًا، والسنة الضوئية تدل على مدى المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة، علمًا بأن سرعة الضوء تساوى(٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية، ثم إن هناك مدلولًا علميًا آخر عن مواقع النجوم، وهي أن موقع الشمس موقع بالغ الدقة في وضعه لكي تستقيم معه الحياة على كوكبنا الأرضى؛ لأنها لو تقدمت عن موضعها الحالى لاحترقت الأرض من شدة حرارتها، ولو تأخرت عن موضعها لبردت الأرض وتجمدت فيها البحار والمحيطات وتصير غير صالحة لحياة البشر عليها[2].

والآيات التي تشير إلى علم الفيزياء كثيرة، وإنما يكفي في ذلك ما يؤدي الغرض.

(١) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٧٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٦٢.

ثانيًا: الإشارات الإعجازية في الجيولوجيا:

الجيولوجيا هو: علم طبقات الأرض، وتكوينها والقوى التي تغيرها، وتحاول الجيولوجيا أن توضح كيف تشكلت الأرض وكيف تتغير، ويقوم العلماء الذين يسمون (الجيولوجيون)، بدراسة الصخور والترب والجبال والأنهار والمحيطات والكهوف، بالإضافة إلى الأجزاء الأخرى من الأرض[1].

وهناك آيات في كتاب الله تعالى تشير إلى علم الجيولوجيا منها ما يأتي:

١. قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٤].

فالآية تشير إلى طبقات القشرة الأرضية، فمن عجائب قدرة الله أن في الأرض قِطَعٌ يجاور بعضها بعضًا، وهي مختلفة التربة؛ بعضها قاحل، وبعضها خصب، وإن اتحدت التربة ففيها حدائق مملوءة بكروم العنب، وفيها زرع يحصد، ونخيل مثمر، وهي مجتمعة ومتفرقة، ومع أنها تسقى بماء واحد يختلف طعمها، وإن في ذلك دلائل واضحة على قدرة الله تعالى لمن له عقل يفكر به[2].

٢. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ:٦-٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجر:١٩].

فالآية تشير إلى دراسة الجبال وهي من صميم علم الجيولوجيا، فالجبال أوتاد، وهي رواسي، وهي ضمان لثبات القشرة الأرضية ومنعها من أن تضطرب ويختل توازنها[3].

٣. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق:٦].

والآية تشير إلى كيفية البناء لهذه المجرات، وكيف تتشكل وكيف تزين السماء كما تزين اللآلئ العقد، وتأمل أيضًا ماذا يقول البيان الإلهي مخاطبًا هؤلاء العلماء وغيرهم من غير المؤمنين: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق:٦] حتى الفراغ بين المجرات والذي ظنه العلماء أنه خالٍ

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية ٨/ ٨٨٦.

(٢) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ١٤٤، القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص ١٤.

(٣) انظر: القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص ٧٢.

تمامًا، اتضح حديثًا أنه ممتلئ تمامًا بالمادة المظلمة، وهذا يثبت أن السماء خالية من أية فروج أو شقوق أو فراغ[1].

ثالثًا: الإشارات الإعجازية في الكيمياء:

الكيمياء هي: علم يدرس المواد الطبيعية والاصطناعية لتحديد تراكيبها ومكوناتها والتغيرات التي تحدث عندما تتحد مع بعضها لتشكل مواد أخرى[2].

وهناك آيات تشير إلى علم الكيمياء منها:

١. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء:٣٠] فالآية من أبلغ ما جاء في القرآن في تقرير حقيقة علمية أدرك العلماء سرها فمعظم العمليات الكيماوية اللازمة للحياة والنمو تحتاج إلى الماء، وهو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات[3].

ويقرر العلم الحديث في تفسير هذه الآية الكريمة أن الماء يدخل في بناء أي جسم حي إذ هو في الحقيقة قوام حياته، فالماء في نظر العلم هو المكون الأصلي في تركيب مادة الخلية، والخلية هي وحدة البناء في كل شيء حي نباتًا كان أو حيوانًا، كما أن علم الكيمياء في أبحاثه الحديثة قد أثبت أن الماء عنصر لازم وفعال في كل ما يحدث من التحولات والتفاعلات التي تتم داخل الأجسام، فهو إما وسط، أو عامل مساعد، أو داخل في هذا التفاعل أو ناتج عنه، وتقول الآيات الكريمة في قصة خلق آدم أبي البشر عليه السلام أنه خلق من طين، والطين هو خليط من الماء والتراب، أي: أن الماء عنصر أساسي في تكوين أي شيء حي[4].

٢. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

اشتملت الآية الكريمة على إشارات إلى علم الكيمياء وكثير من النواحي الطبية التي اكتشفها الطب الحديث والتي تعتبر من معجزات القرآن العلمية، لقد أثبتت جميع المعامل الطبي العالمية أن عسل النحل يشتمل على مواد تعالج الكثير من الأمراض، كما أن له مفعولًا كبيرًا في شفاء الكثير من الأمراض؛ لأنه يقتل الكثير من

(١) انظر بحث: البناء الكوني عبارة قرآنية يرددها علماء الغرب، بقلم المهندس عبد الدائم الكحيل، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة منشور على الموقع، استحضر في: ٢١/ ٠١/ ٢٠١٥م.

(٢) انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٠/ ٣٧٨.

(٣) انظر: معجزات القرآن العلمية، حامد حسين قدير ص ١٧٧.

(٤) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٨٥.

الميكروبات، ثم هو يحتوي على نسبة عظيمة من الفيتامينات والجلوكوز على أنه ضد التسمم الناشئ من أمراض التسمم البولي، والاضطرابات المعدية، والمعوية، وأكبر منشط للكبد، وأن التحليل العلمي للآية الكريمة يقتضي منا أن نتحدث عن مشتملات العسل على الترتيب الآتي:

أولًا: الخمائر.

ثانيًا: الأملاح المعدنية الموجودة في العسل.

ثالثًا: العسل قلوي.

رابعًا: الفيتامينات الموجودة في العسل.

وبتقدم علم الكيمياء أمكن تحليل العسل ومعرفة تركيبه الكيماوي بدقة كبيرة، فالعسل يتكون أساسًا من سكري العنب والفواكه، وعدد كبير من الأملاح المعدنية، والخمائر والفيتامينات، والمركبات النباتية الفعالة ونسبة من الماء.

وجميع السكريات التي تدخل الجسم معقدة التركيب ولا يمكن للجسم أن يستفيد منها إلا بعد تحليلها.. أما عسل النحل فإن الجسم سيفيد منه سريعًا[(١)].

٣. وقوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم:٢٥].

أثبت التحليل العلمي للرطب أنه يحتوي على مادة تخفف ضغط الدم عند السيدات الحوامل، وتؤثر تأثير كبيرًا في مساعدة السيدات الحوامل على سهولة الولادة، وقد قدم الدكتور عبد العزيز شرف بحثًا علميًا عن الرطب وتأثيره على الحامل أثبت فيه أن التمر يقوي انقباضات عضلات الرحم وخصوصًا في الشهور الأخيرة من الحمل، ويقول الدكتور شرف أنه استرشد في بحثه هذا بالآية القرآنية الكريمة من سورة مريم ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾.

ويقول أيضًا: إن الرطب له تأثيره الخاص على حركة الأمعاء، على أن الرطب يعادل اللحم في قيمته الغذائية ويتفوق عليه بما يعطيه من سعرات حرارية ومواد معدنية وسكرية، بالإضافة إلى أنه غني بالكلسيوم والفسفور والحديد ويحتوي على غالبية الفيتامينات الهامة، كما أنه يفيد في وقاية الجسم، وعلاجه من أمراض العيون وضعف البصر والأمراض الجلدية والأنيميا ولين العظام[(٢)].

(١) انظر: حول الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، محمد المهدي محمود ص٢٩.

(٢) انظر: حول الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، محمد المهدي محمود ص ٣٥.

رابعًا: الإشارات الإعجازية في الأحياء:

علم الأحياء هو: علم طبيعي يعنى بدراسة الحياة والكائنات الحية والنباتات، بما في ذلك هياكلها ووظائفها ونموها وتطورها وتوزيعها وتصنيفها، والأحياء الحديثة هي ميدانٌ واسعٌ يتألف من العديد من الفروع والتخصصات الفرعية، لكنها تتضمن بعض المفاهيم العامة الموحدة التي تربط بين فروعها المختلفة وتسير عليها جميع الدراسات والبحوث، ينظر إلى الخلية في علم الأحياء عمومًا باعتبارها وحدة الحياة الأساسية، والجين باعتباره وحدة التوريث الأساسية، والتطور باعتباره المحرك الذي يوجد الأنواع الجديدة[1].

١. من الآيات التي تشير إلى هذا العلم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [الحج:٥].

وفي هذه الآيات الكريمات بين سبحانه وتعالى كيف ابتدأ خلق الإنسان من طين، ثم جاءته الأطوار المختلفة حتى آل إلى القبر، ثم كيف خلق الأحياء في الأرض من نبات وحيوان، واهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، وأن كل ذلك دليل على قدرة المنشئ علام الغيوب، بديع السماوات والأرض، وأنه على ما يشاء قدير.

٢. وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾ [الطارق:٥-٨].

ظهر من الدراسات الطبية الحديثة أن الصلب هو منطقة العمود الفقري للرجل وأن الترائب هي عظام الصدر للمرأة، كما أظهرت للتحاليل الكيمائية أن الماء الدافق هو سائل الرجل المنوي الذي يحتوي على الحيوانات الحية في النطفة، وقد سمي دافقًا؛ لأنه يندفع وقت الملامسة الجنسية من ذكر الرجل وحده دون الأنثى التي لا يتدفق منها سوى إفرازات تسيل لمجرد تليين الجهاز التناسلي وترطيبه[2].

٣. وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ

(١) انظر: علم الأحياء من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، استحضر في: ٢١/ ٠١/ ٢٠١٥م.

(٢) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل ص ٩٤.

﴿وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم:٤٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء:٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان:١٠].

وقد دل علم الأحياء على أن الكائنات الحية تنقسم إلى ذكر وأنثى، سواء في الحيوان والنبات، وقد يكون الذكر والأنثى في الزهرة الواحدة أو الشجرة الواحدة أو في شجيرات، ويتم التلقيح إما بالريح أو الطير، وسبحان الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وخلق الأزواج ظاهرة مطردة في الأحياء كلها، النبات فيها كالإنسان، ومثل ذلك غيرهما.. قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس:٣٦].

فنعم الخالق العظيم الذي خلق الأزواج من كل شيء.. من أنفسنا كبشر، ومن الحيوان والطير والنبات.. ومن الأشياء التي تحيط بنا من ماء وهواء وسحاب ومن الذرات التي لا نراها بالعين المجردة.. وإنها لوحدة تشي بوحدة اليد المبدعة، التي توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس والخصائص والسمات، في هذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله، وقد أصبح معلومًا أن الهواء مكون من التزاوج بين الأكسجين وأكسيد الكربون، وأن الماء مكون من التزاوج من الهيدروجين والأكسجين.. وأن دم الإنسان يكون من التزاوج بين الكريات الحمر والكريات البيض.. وأن الذرة أصغر ما عرف من أجزاء المادة مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربي: سالب وموجب، يتزاوجان ويتحدان.. كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية، تتألف من نجمين مرتبطين يشد كلاهما الآخر، ويدوران في مدار واحد كأنما يوقعان على نغمة رتيبة[1].

٤. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

النبات طعام البشر وطعام الأنعام، فالنبات طعام للبشر بصورة مباشرة، وبصورة غير مباشرة حينما يأكل ما أحل الله له من حيوان البر وحيوان البحر.

جعل الله في النبات جمالًا وبهجة يشعر بها البشر، وجعلها الله زخرفًا وزينة، قال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ

(١) انظر: مملكة النبات، حامد قنيبي ص ١١٦.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧﴾ [ق:٧].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس:٢٤][1].

فالآيات السابقة بيان لقدرة الله وعظمته في الإبانة عن منشأ النبات وتعدده، والارتباط الوثيق بين الحيوان والنبات؛ فالكائن الحي لا يتغذى إلا من أصله الذي تكون منه؛ ولذا أمر الإنسان أن يتدبر قصة طعامه، الذي هو ألصق شيء به، وسيجد أنه من الطين والماء.

إن الله صب الماء من السماء صبًا، ثم شق الأرض بجذر النبات، شقه شقًا فأنبت فيها حبًا وعنبًا وقضبًا.

وصب الماء في صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان في كل بيئة، وفي أي درجة كان من درجات المعرفة والتجربة، والله الذي لا شريك له هو الذي صب الماء، وهو الذي قدر أن يكون الماء العامل الأول في خلق كل نبات، ولنا عود لهذا الموضوع بعد قليل.

ثم تأتي المرحلة التالية لصب الماء، وهي شق الأرض شقًا بجذر النبات؛ لتتكون الجذور الممتدة خلال التربة، أو أن يشق النبت تربة الأرض شقًا بقدرة الله الخالق، وينمو على وجهها، ويمتد في الهواء فوقها، وربما شقت النبتة الصفراء الملتوية الهشة الأرض الصلبة الجافة، أو الصخرة العاتية نافذة إلى أعلى مكونة الساق والأوراق.

إذن على الإنسان أن ينظر إلى طعامه الذي به قوامه، كيف تفضل الله به عليه؛ فصار في أشد الحاجة إليه، وكيف حول الله له بعض عناصر الأرض طعامًا هنيئًا في شكل جميل ولون جذاب، وطعم مستساغ حلو المذاق.

وجعل الله هذا الأصل الواحد أزواجًا وأشكالًا، من حيث هو مأكول كالقمح والذرة والفول وغيرها من البقول، أو هو فاكهة لذيذة كالعنب والنخيل، وغير هذا كثير مما يؤكل قضبًا؛ كالقثاء والتفاح، وهذه الحدائق الفيح الملتفة الأغصان، وهذه السهول الخضر.. كلها متاع للإنسان والأنعام[2].

(١) انظر: القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص ١٥٦.

(٢) انظر: مملكة النبات، حامد قنيبي ص ١٠٩.

ضوابط التفسير العلمي للآيات المتعلقة بالكون

قبل بيان ضوابط التفسير العلمي للآيات الكونية يستحسن بيان معنى التفسير العلمي، فهو كما عرفه الدكتور فهد الرومي بأنه: «اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي، على وجه يظهر به إعجاز للقرآن»[(١)].

وعرفه الشيخ عبد المجيد الزنداني بأنه: «الكشف عن معاني الآية أو الحديث، في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية»[(٢)].

وقد انقسم المفسرون في حكم التفسير العلمي للآيات الكونية إلى ثلاثة أقوال:

١. المؤيدون للتفسير العلمي.
٢. المعارضون.
٣. المعتدلون.

وهذا الرأي الثالث هو الرأي المختار.

فلا رفض مطلق ولا قبول مطلق بل وسط بين طرفين وجمع بين حقيقتين حقيقة قرآنية ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك، وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والمشاهدة القطعيين.

وقد وضع العلماء القائلون بالتفسير العلمي ضوابطًا للتفسير العلمي وهي:

١. ألا تطغى تلك المباحث على المقصود الأول من القرآن وهو الهداية والإعجاز، وذلك حتى لا يكون التفسير أشبه بكتب العلوم والفنون منه بكتب التفسير.
٢. أن تذكر تلك العلوم؛ لأجل تعميق الشعور الديني لدى المسلم والدفاع عن العقيدة ضد أعدائها.
٣. أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة العلمية، ويلفتهم إلى جلال القرآن ويحركهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم الذي سخره الله للناس.
٤. أن لا تذكر هذه الأبحاث على أنها هي التفسير الذي لا يدل النص القرآني على سواه، بل تذكر لتوسيع المدلول، وللاستشهاد بها على وجه لا يؤثر بطلانها فيما بعد على قداسة النص القرآني؛ ذلك أن تفسير النص القرآني بنظرية قابلة للتغيير والإبطال يثير الشكوك حول الحقائق القرآنية في أذهان الناس كلما تعرضت نظرية للرد أو البطلان[(٣)].

(١) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي ٢/ ٥٤٩.
(٢) انظر: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد المجيد الزنداني وآخرون ص٣٣.
(٣) انظر: دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي

٥. أن يلاحظ في امتزاج التفسير بتلك العلوم ما يلائم العصر ويلائم الوسائط؛ لأن تلك الأبحاث العلمية والأدبية قد تكون مفيدة إذا شرح بها القرآن في عصور الثقافة أو لجمهور من المثقفين بعلوم الكون والمادة.

٦. ينبغي «ألا نقطع برأي في تفاصيل ما يعرض له القرآن من الكونيات إلا إن كان لنا عليه دليل وبرهان لا شك فيه ولا نكران وإلا وجب أن نتوقف عن هذه التفاصيل ونكل علمها إلى العالم الخبير قائلين ما قالت الملائكة حين أظهر الله لهم على لسان آدم ما لم يكونوا يحتسبون: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة:٣٢]»[(١)].

٧. ألا تفسر آية كونية في القرآن إلا من طريقين:

الطريق الأول: المتخصصون في الدراسات الطبيعية (الكونية).

الطريق الثاني: المتخصصون في الدراسات التفسيرية.

وذلك من خلال هيئة علمية يجتمع فيها الفريقان بحيث يضع الطبيعيون الحقائق العلمية التي توصل إليها العلم الحديث، ومن ثم يضع المفسرون التفسير الذي يتوافق مع القرآن الكريم، مع اعتبار الضوابط الأخرى المذكورة سابقًا، إلا إذا كان العالم بالعلوم الكونية ممن يجمع بين علوم القرآن وعلوم الكون فيمكنه تفسير الآيات إذا كان أهلًا لذلك.

٨. ألا تفسر الآيات الكونية إلا بيقينيات العلم والحقائق الثابتة دون النظريات والفروض [(٢)] التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، أما الحدسيات والظنيات فلا يجوز أن يفسر بها القرآن؛ لأنها عرضة للتصحيح والتعديل إن لم تكن للإبطال في أي وقت[(٣)].

٩. ضرورة التقيد بما تدل عليه اللغة العربية، فلا بد من أن تراعى معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي.

١٠. البعد عن التأويل في بيان إعجاز القرآن العلمي.

١١. أن لا تجعل حقائق القرآن موضع نظر، بل تجعل هي الأصل: فما وافقها قبل

ص ٢٩٧.

(١) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني ٢/ ٣٥٧.

(٢) انظر: التفسير العلمي للآيات الكونية، بكر زكي عوض ص ٣٦.

(٣) انظر: خلاصة بحث التفسير العلمي للقرآن بين المجيزين والمانعين، محمد الأمين ولد الشيخ، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

وما عارضها رُفِض.

وقد اهتم علماء المسلمين بهذا الجانب من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، وأن جهودًا كبيرة قد بذلت في هذا المجال، ولعل من أبرز ما تمخضت عنه هذه الجهود: إنشاء هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في إطار رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، تلك الهيئة التي حددت أهداف نشاطها فيما يلي:

أولًا: وضع القواعد والمناهج، وطرق البحث العلمي التي تضبط الاجتهادات في بيان الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

ثانيًا: إعداد جيل من العلماء والباحثين لدراسة المسائل العلمية والحقائق الكونية في ضوء ما جاء في القرآن والسنة.

ثالثًا: صبغ العلوم الكونية بالصبغة الإيمانية، وإدخال مضامين الأبحاث المعتمدة في مناهج التعليم في شتى مؤسساته ومراحله.

رابعًا: الكشف عن دقائق معاني الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء الكشوف العلمية الحديثة، ووجوه الدلالة اللغوية، ومقاصد الشريعة الإسلامية دون تكاليف.

خامسًا: إمداد الدعاة والإعلاميين في العالم: أفرادًا ومؤسسات بالأبحاث المعتمدة للانتفاع بها، كلٌّ في مجاله.

سادسًا: نشر هذه الأبحاث بين الناس بصورة متناسبة مع مستوياتهم العلمية والثقافية، وترجمة ذلك إلى لغات المسلمين المشهورة، واللغات الحية في العالم، وكان من إصدارتها من الكتب في هذا المجال ما يأتي:

١. علم الأجنة في ضوء الكتاب والسنة للشيخ عبد المجيد الزنداني، وآخرين (مطبوع).
٢. المصب والحواجز بين البحار في القرآن الكريم للشيخ عبد المجيد الزنداني (مطبوع).
٣. تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للشيخ عبد المجيد الزنداني (مطبوع).
٤. من أوجه الإعجاز العلمي في عالم النحل. د. عبد المنعم الحفني.
٥. إعجاز القرآن الكريم في وصف أنواع الرياح والسحاب والمطر للشيخ عبد المجيد الزنداني وآخرين.
٦. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الارتفاعات العالية والإحساس بالألم للشيخ عبد المجيد الزنداني وآخرين.
٧. الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم. د. صادق الهلالي ود. حسين اللبيدي.
٨. من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن

الكريم في عالم النبات. د. قطب فرغلي ود. السيد زيدان.

٩. من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار للشيخ عبد المجيد الزنداني وآخرين، إلى غير ذلك من الكتب، والأشرطة المرئية[١].

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الرياح، السحاب، السماء، الشمس، الظل، القمر، الليل، النهار

(١) انظر: من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم النبات، قطب فرغلي والسيد زيدان ص ٤٦-٤٧، عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم/ محمد السيد جبريل ص ٦٤.

الابتلاء

عناصر الموضوع

مفهوم الابتلاء	١٣٦
الابتلاء في الاستعمال القرآني	١٣٧
الألفاظ ذات الصلة	١٣٨
الفرق بين الابتلاء والعقوبة	١٤٠
الابتلاء سنة إلهية	١٤٣
أنواع الابتلاء	١٤٥
الابتلاء في الدعوة إلى الله	١٥٠
الحكمة من الابتلاء	١٥٣
المعينات على اجتياز الابتلاء	١٥٦

مفهوم الابتلاء

أولًا: المعنى اللغوي:

«الباء واللام والواو والياء، أصلان: أحدهما: إخلاق الشيء، والثاني: نوع من الاختبار، ويحمل عليه الإخبار أيضًا، قال ابن الأعرابي: يقال ابتليته فأبلاني، أي: استخبرته فأخبرني»[(١)].

«وأبلى في الحرب بلاء حسنًا إذا أظهر بأسه حتى بلاه الناس وخبروه»[(٢)].

قال ابن منظور: «بلوت الرجل بلوًا وبلاءً، وابتليته: اختبرته، وبلاه يبلوه بلوًا، إذا جربه واختبره، وابتلاه الله: امتحنه... وبلي بالشيء بلاءً وابتلي، والبلاء يكون في الخير والشر، يقال: ابتليته بلاءً حسنًا وبلاءً سيئًا»[(٣)].

فالبلاء والابتلاء، والفتنة، والامتحان، والاختبار خمسة ألفاظ مختلفة تشترك في الدلالة على معنى واحد هو الاختبار.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، ولذا قال الشوكاني: الابتلاء: «الامتحان والاختبار، أي: ابتلاه بما أمره به»[(٤)].

وقال الزحيلي: «الابتلاء هو الاختبار، أي: معرفة حال المختبر بتكليفه بأمور يشق عليه فعلها أو تركها؛ ليجازيه عليها»[(٥)].

وقال الكفوي: «الابتلاء: التكليف في الأمر الشاق، ويكون في الخير والشر معًا، ولكنهم عادة ما يقولون: في الخير أبليته إبلاء وفي الشر: بلوته بلاءً»[(٦)].

وقال المناوي: «البلاء كالبلية: الامتحان، وسمي الغم بلاء؛ لأنه يبلي الجسد»[(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٩٢.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٧٧.
(٣) لسان العرب ١٤/ ٨٣.
(٤) فتح القدير ١/ ١٥٠.
(٥) التفسير المنير ١/ ٣٠٢.
(٦) الكليات ١/ ٢٩.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٨٢.

الابتلاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بلو) في القرآن (٣٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (٣٤) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧	﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم:١٧]
الفعل المضارع	٢٠	﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥]
فعل الأمر	١	﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:٦]
اسم	٦	﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات:١٠٦]
اسم فاعل	٢	﴿إِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون:٣٠]

ولم يختلف معنى (الابتلاء) في القرآن الكريم عن معناه اللغوي الذي يدور حول الاختبار والامتحان.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص١٣٥-١٣٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الفتنة:

الفتنة لغةً:

قال ابن فارس: «الفاء والتاء والنون أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار. من ذلك الفتنة. يقال: فتنت أفتن فتنا. وفتنت الذهب بالنار، إذا امتحنته»[(١)].

الفتنة اصطلاحًا:

«أصل الفتنة الامتحان والاختبار، واستعملت في الشرع في اختبار كشف ما يكره»[(٢)].

الصلة بين الابتلاء والفتنة:

مما سبق يتضح لنا الصلة بين الابتلاء والفتنة؛ فالكلمتان تكادان أن تكونا مترادفتين، فأصلهما اللغوي واحد وهو الامتحان والاختبار، إلا أن الفتنة أعم من الابتلاء.

٢ المصيبة:

المصيبة لغةً:

تعني النائبة وكل أمر مكروه[(٣)]، وجاء في لسان العرب أنها تعني الشدة[(٤)].

المصيبة اصطلاحًا:

هي البلية وكل أمر مكروه ينزل بالإنسان[(٥)].

الصلة بين الابتلاء والمصيبة:

المصيبة هي أداة من أدوات الابتلاء.

٣ الاختبار:

الاختبار لغةً:

قال الجوهري: «خبره -بالكسر-: إذا بلوته واختبرته»[(٦)]، «وقد اختبره وتخبره. يقال: من

(١) مقاييس اللغة ٤/ ٤٧٢.
(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١١/ ١٧٦.
(٣) انظر: المفردات، الأصفهاني ص٣٧٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٣٤.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٣٤، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٢١٥.
(٦) الصحاح ٢/ ٦٤٢.

أين خبرت هذا الأمر؟ أي: من أين علمت»[1].

الاختبار اصطلاحًا:

ويمكن تعريف الاختبار بأنه: أي محك أو عملية يمكن استخدامها بهدف تحديد حقائق معينة أو تحديد معايير الصواب أو الدقة أو الصحة سواء في قضية معروضة للدراسة أو المناقشة أو لفرض معلق لم يتم التثبت منه بعد.

الصلة بين الابتلاء والاختبار:

الابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية والاختبار وقوع الخبر بحاله في ذلك[2]، والاختبار أصل من أصول الابتلاء ومحك من محكاته، فالابتلاء والاختبار قد يكونان بالخير وقد يكونان في الشر.

٤ التمحيص:

التمحيص لغةً:

الميم والحاء والصاد: أصل واحد صحيح يدل على تخليص شيء وتنقيته. ومحصه تمحيصًا: خلصه من كل عيب، محص الله العبد من الذنب: طهره منه ونقاه، ومحصت الذهب بالنار: خلصته من الشوب[3]، والتمحيص: الابتلاء والاختبار[4].

التمحيص اصطلاحًا:

قال مجاهد: «هو بمعنى: الابتلاء، وحقيقة معنى التمحيص: التطهير من الذنوب، تقول العرب: محص عنا ذنوبنا، أي: طهرنا من الذنوب»[5].

التمحيص: التنقية والتخليص من العيوب[6].

الصلة بين الابتلاء والتمحيص:

الابتلاء يقتضي امتحان واختبار ينتهي بنتائج سلبية أو إيجابية، والتمحيص تطهيرٌ، أي: إن نتيجته إيجابية دائمًا.

---

(١) تاج العروس، الزبيدي ١١/ ١٢٥.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٢١٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠٠.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١٠٥٦.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٦٢.
(٦) التحرير والتنوير ٤/ ١٠٤.

الفرق بين الابتلاء والعقوبة

قد يختلط الأمر في التفريق بين العقوبة والابتلاء؛ والناظر إلى آيات الذكر الحكيم يقف على الفرق بينهما؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قال الواحدي: «فمن صبر على هذه الأشياء استحق الثواب ومن لم يصبر لم يستحق»[(١)].

فقد جعل للنجاح في الابتلاء علامة، ألا وهي الصبر والإيمان والاستقامة على المنهج السليم، واشتداد البلاء دليل على شدة الإيمان وقوته، لذلك كان الأنبياء أشد الناس بلاءً؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: (الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل، فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة)[(٢)].

أما العقوبة فسبب وقوعها الذنوب والمعاصي والانحراف عن المنهج، وكلما زادت الذنوب والمعاصي، وكبر حجم الانحراف، اشتدت العقوبة.

قال تعالى: ﴿وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وقد يظن العبد أن ابتلاء الله له بالإنعام والإكرام علامةٌ على حب الله له ورضاه عنه، بينما يظن التضييق في الرزق إشارة إلى غضب الله وعدم رضاه عنه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

قال السمعاني: «أي: أنا كريم عليه حيث أعطاني هذه النعم»[(٣)].

وهذا مفهوم خاطئ؛ فالرضا والغضب منوطان بتصرف الإنسان حال الابتلاء.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

واجتياز الابتلاء بنجاح هو طريق للإمامة والتمكين، بينما الفشل فيه فعقوبته الحرمان

(١) الوجيز، ص ١٤٠.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٧٨.
قال محقق المسند: «إسناده حسن».
(٣) تفسير القرآن ٦/ ٢٢١.

من ذلك.

قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فإبراهيم عليه السلام جعل للناس إمامًا؛ لأنه نجح في كل ما ابتلي به وامتحن، بينما الذين يفشلون في ذلك يحرمون هذه الإمامة، ولا ينالون ذلك العهد.

قال الزحيلي: «فجازاه الله تعالى أحسن الجزاء، وقال له: إني جاعلك للناس رسولًا وإمامًا تؤمهم في دينهم، ويأتمون بك في هذه الخصال»[(١)].

والبلاء والابتلاء كلاهما امتحان واختبار، ويكونان بالسراء والضراء، ويقعان شرعًا وقدرًا، فالتكاليف الشرعية فعلًا كانت أو تركًا، وكذلك مقادير الخير والشر، كل ذلك مما يمتحن به العبد، وإن كان استعمال الابتلاء في الشر والضر والأمور الشاقة أغلب.

قال الخازن: «الابتلاء يكون في الخير وفي الشر، وإذا أطلق كان في الشر غالبًا، فإذا أريد به الخير قيد به»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «لما كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمي بلاء، كأنه يخلق النفس، ثم شاع في اختبار الشر؛ لأنه أكثر إعناتًا للنفس»[(٣)].

معالم العقوبة:

المعلم الأول: لا عقوبة من الله عز وجل إلا بذنب.

والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر.

المعلم الثاني: العقوبة تنقسم إلى قسمين من حيث الصورة:

القسم الأول: عقوبة ظاهرة حسية، وهي ما كانت في قالب ضراء.

القسم الثاني: عقوبة خفية معنوية، وهي ما كانت في قالب سراء في الحال، وإن كان مآلها الضراء لا محالة باعتبار العاقبة، فكما أن العقوبة الظاهرة تكون بالضراء، فقد تكون بقالب سراء، ومن ذلك عقوبة المعرض عن ربه بإقبال الدنيا عليه؛ استدراجًا له وعقوبته بوحشة في قلبه حين يذنب، وعقوبته بإتباع السيئة بسيئة أخرى.

المعلم الثالث: العقوبة تنقسم إلى قسمين من حيث المقاصد:

القسم الأول: عقوبة مخففة، وتسمى الكفارة، وهي العقوبة الناتجة عن محبة الله للعبد وإحسانه إليه من حيث العاقبة، وذلك كالعقوبات التي تكون كفارة للمؤمن كقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:

(١) التفسير المنير ١/ ٣٠٣.
(٢) لباب التأويل ٢/ ٤١٨.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٤٩٣.

١٢٣].

وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

والمقصود بالمصيبة هنا هي المصائب الجارية مجرى العقوبة والجزاء على الذنب لا مطلق المصيبة، ومن العقوبة المخففة: العقوبة التي يراد منها التنبيه والتذكير لعل المسيء يتوب، وهذه عامة للمسلم بإطلاق ولغير المسلم في الحياة الدنيا.

ومنها قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

القسم الثاني: العقوبة المغلظة، وهذه تكون ناتجة عن غضب الله تعالى على عبده ومقته وبغضه له، وهذه تكون لإتلاف العبد ومحقه وقطع دابره وهذه للكفار والمنافقين والمشركين[(١)].

وخلاصة الفرق بين الابتلاء والعقوبة كما جاء في فقه الابتلاء:

١. من حيث زمن الوقوع، فإن الابتلاء يكون في الدنيا، وأما العقاب فإنه يكون في الدنيا والبرزخ والآخرة.

٢. من حيث السبب والباعث، فإن الابتلاء يكون لاختبار حال الإنسان، كما في قوله سبحانه: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك: ٢].

٣. أو يكون تكفير السيئات، أما العقاب فلا يكون إلا جزاء على الذنب.

٤. الابتلاء عام للمكلفين من الجن والإنس، فهو يقع على الأنبياء والصالحين، كما في الحديث: (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل). أما العقاب فإنه خاص؛ إذ يقع على أهل الذنوب والمعاصي فقط[(٢)]. وقد يقع العقاب على الإنس والجن، والصالحين والعصاة، كما حصل في غزة أحد، وغزوة حنين.

(١) انظر: فقه الابتلاء وأقدار الله المؤلمة، البدراني ص ١٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٠.

الابتلاء سنة إلهية

الابتلاء سنة إلهية لا بد منها، والله عز وجل يكشف الحقائق عبر هذه الابتلاءات.

فالابتلاء يكون من الله وحده لعباده المؤمنين، تمحيصًا لإيمانهم، واختبارًا لقدرتهم على الثبات على هذا الدين الحنيف.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:٢-٣].

قال المراغي: «ولقد اختبرنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصبناهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ»[(١)].

وهذه السنة الإلهية لا ينجو منها أحد، بل ربما زاد بعض البشر على بعض في البلاء، إذ يرتبط الابتلاء بقيم متعددة؛ كالصبر واليقين والثبات والتفاؤل والتوكل والثقة بالله، لذلك يلحق الإنسان من البلاء بقدر تحمله وتغلل تلك القيم في قلبه.

وهو ما يوحي به قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة)[(٢)].

والابتلاء يكون لاختبار صدق الإيمان، أو للتمييز بين من يثبت، ومن لا يثبت على إيمانه، وقد يكون لزيادة الإيمان.

أولًا: اختبار صدق الإيمان:

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ٢].

فلابد من اختبار صدق الإيمان، فليس كل من ادعى الإيمان بلسان، آمن قلبه، فهناك المنافقون الذين يبطنون الكفر، ويظهرون الإسلام.

قال الشنقيطي: «إن الناس لا يتركون دون فتنة، أي: ابتلاء واختبار، لأجل قولهم: آمنا، بل إذا قالوا: آمنا فتنوا، أي: امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء»[(٣)].

(١) تفسير المراغي ٢٠/ ١١٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٧٨.
قال محقق المسند: اسناده حسن.

(٣) أضواء البيان ٦/ ١٥٥.

ثانيًا: ابتلاء الثبات على الإيمان:

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١].

زلزالٌ لبيان الثبات، أو عدمه.

قال الرازي: «﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أي: أزعجوا وحركوا، فمن ثبت منهم كان من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، ويذكر الله تطمئن مرة أخرى، وهم المؤمنون حقًا»[1].

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

زلزلوا ليظهر من يثبت، ومن ينقلب على عقبيه.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

وقال أيضًا: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال ابن عاشور: «استئناف لإيقاظ المؤمنين إلى ما يعترض أهل الحق وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيه لهم على أنهم إن كانوا ممن توهنهم الهزيمة فليسوا أحرياء بنصر الحق»[2].

وهذا كله ابتلاءٌ لاختبار الثبات على الإيمان.

ثالثًا: ابتلاء زيادة الإيمان:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٦].

وهو بلاء ليس لأي أحد، ومثاله: ابتلاء إبراهيم لمنصب الخلة بذبح ولده.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٦].

قال القاسمي: «إن هذا لهو البلاء المبين، أي: الاختيار البين الذي يتميز ويتفاضل فيه المخلص من غيره. إشارة إلى أن هذا الأمر كان ابتلاء وامتحانًا لإبراهيم في صدق الخلة لله، وتضحية أعز عزيز لديه، وأحب محبوب عنده، لأمر ربه تعالى»[3].

(١) مفاتيح الغيب ٢٥/ ١٦١.

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ١٨٩.

(٣) انظر: محاسن التأويل ٨/ ٢١٩.

أنواع الابتلاء

يبتلي الله العبد بنوعين من الابتلاء: أولاهما: الابتلاء بالخير والشر، وثانيهما: الابتلاء بالأمر والنهي؛ وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: الابتلاء بالخير والشر:

الابتلاء يكون بالخير والشر، بالسراء والضراء، بالسعادة والشقاء، بالراحة والرفاهية والكد والتعب، فيبتلى الإنسان بما يسره وبما يسوؤه، ولا يكون بالضراء فقط، فلابد أن يكون صابرًا على الضراء، شاكرًا على السراء.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٢].

وقال أيضًا: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨].

الابتلاء بالخير أشد وأثقل من الابتلاء بالشر؛ فالابتلاء بالشر معلوم ومشهور، أما الآخر فلا يظنه كثير من الناس ابتلاء، فهم لا يعلمون أن ما أنعم الله به عليهم من بركة في المال أو الأولاد أو الصحة، وما إلى ذلك من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، إنما هو اختبار وامتحان من الله، فالمنعم جل وعلا يستودع هذه النعم عند أصحابها ليرى كيف يتصرفون فيها، أيتكبرون ويفسدون في الأرض، مثل ما فعل فرعون، أم يبخلون ويمنعون ما أمر الله به، مثل ما فعل قارون، أم يسخرون علمهم الذي أنعم الله به عليهم في الرياء والاستعلاء على الخلق، ولا يتقون الله فيه، مثل ما فعل بلعام بن باعوراء.

يمتحن الله عبده بالمصائب، أو بالخيرات من مال وجمال وقوة وسلطان؛ فإن كان امتحانه بالشر فعليه أن يقابل ذلك بالصبر، وإذا كان ابتلاؤه بالخير فعليه أن يقابل هذا بالشكر. فلقد أقسم سبحانه أنه سيبلو عباده بالمكاره والمصائب؛ ليظهر صبرهم واحتسابهم ورضاهم بما قدره عليهم.

فقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وهناك نماذج قرآنية لذلك الابتلاء، منها:

١. إبراهيم عليه السلام:

لقد ابتلي إبراهيم عليه السلام في أبيه الذي كان يصنع أصنامًا تعبد من دون الله، وابتلي في جسمه فقذف في النار.

قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٨-٦٩].

وابتلي إلى ذلك بابتلاء من نوع خاص، وهو تحميله أمانة الإمامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وابتلي في ولده و فلذة كبده فأمر بذبحه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٦].

فلقد ابتلى الله إبراهيم ابتلاءً شديدًا، أمره بأن يذبح ولده الحبيب، «وكان ذلك الولد عزيزًا على أبيه؛ لأنه فلذة كبده وإنسان عينه، وقد جاء من الله بعد الدعاء وبشارة الملائكة به فكان له مزيد فضل، وعلو كعب، ومع ذلك فقد صدع إبراهيم لأمر ربه»[1].

وقد كان هذا الابتلاء ابتلاءً بالشر والمكروه.

قال القرطبي: «قال أبو زيد: هذا من البلاء الذي نزل به في أن يذبح ابنه، قال: وهذا من البلاء المكروه»[2].

٢. قارون:

وفي هذا النموذج كان الابتلاء بالخير؛ فقد آتى الله قارون المال الكثير امتحانًا وابتلاءً، ولكنه فشل في ذلك الاختبار، فكان من الخاسرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

لقد نصحه قومه بأن يستعمل المال - الذي ابتلاه الله به - في ما يرضي الله.

قال الزحيلي: «استعمل ما وهبك الله

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ٢١٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٠٦.

من هذا المال الجزيل، والنعمة الطائلة، في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة، فإن الدنيا مزرعة الآخرة»[1].

ولكنه فشل في الاختبار، فكانت النتيجة قول الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١].

٣. بنو إسرائيل:

جاء الاختبار الأكبر لبني إسرائيل، وذلك عندما قال لهم موسى: يا قوم، ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا تتراجعوا ولا ترتدوا على أعقابكم فتصبحوا من الخاسرين.

قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢١].

فأرسلوا أناسًا منهم ليستطلعوا الأمر، فوجدوا فيها قومًا أقوياء جبارين، فخافوا أن يدخلوا الأرض المقدسة، وقالوا لموسى: لن ندخل يا موسى حتى يخرجوا منها، فلتذهب أنت مع ربك فقاتلا إننا هنا قاعدون.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

فكان عقابهم أنهم يتيهون في الأرض أربعين سنةً؛ جزاءً وفاقًا[2]؛ فلقد كان ابتلاء بني إسرائيل واختبارهم بأن أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة، ولكنهم فشلوا في ذلك الابتلاء والاختبار فكانت العقوبة أن تاهوا أربعين سنة.

٤. أيوب عليه السلام:

لقد ابتلي أيوب عليه السلام بالمكروه ابتلاءً عظيمًا بماله، وأولاده، وجسده، وقد صبر وحمد الله ونجح في الابتلاء، وقد كان ابتلاؤه لرفع درجته عند الله.

قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

إن قصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء. والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل، وهي في هذا الموضع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء؛ لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه، ورعايته لهم في الابتلاء. سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح، أو بالنعمة في قصة داود وسليمان، أو بالضر كما في حال أيوب.

(١) التفسير المنير ٢٠/ ١٦٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦/ ٨٨.

وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ ووصف ربه بصفته: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبرًا على بلائه، ولا يقترح شيئًا على ربه، تأدبًا معه وتوقيرًا؛ فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع العصور. بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئنانًا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال. وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء. ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾.

رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، ورزقه مثلهم، وقيل هم أبناؤه فوهب الله له مثليهم، أو أنه وهب له أبناءً وأحفادًا.

﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾؛ فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومنة، ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ تذكرهم بالله وبلائه، ورحمته في البلاء وبعد البلاء، وإن في بلاء أيوب لمثلًا للبشرية كلها وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها. وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار، والإشارة ﴿لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها؛ فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء، وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان[1].

[انظر: الفتنة: الفتن والمحن بالشر والخير]

ثانيًا: الابتلاء بالأمر والنهي:

الابتلاء بالأمر والنهي أمر عظيم؛ إذ به تعرف الأحكام حلالها وحرامها، وقد بدأت كتب الفقه بها.

يقول السرخسي: «فأحق ما يبدأ به في البيان الأمر والنهي؛ لأن معظم الابتلاء بهما وبمعرفتهما تتم معرفة الأحكام، ويتميز الحلال من الحرام»[2].

لقد بين الله للناس أن خلقهم وخلق السماوات والارض وخلق الموت والحياة وكل الأمور التي قدرها لهم لابتلائهم أيهم أحسن عملًا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [الملك: ٢].

يقول الطبري: «ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع»[3].

والابتلاء بالأمر والنهي يسمى الابتلاء التشريعي، حيث يتعلق بأفعال المكلفين من حيث الحلال والحرام، والالتزام بما أمر الله

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٩٢.
(٢) أصول السرخسي ١/ ١١.
(٣) جامع البيان ٢٣/ ٥٠٥.

من عدمه؛ وذلك مثل ابتلاء الله لإبراهيم عليه السلام بالإمامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وابتلائه بذبح ابنه، ولما استجاب لأمر ربه، وتهيأ لتنفيذ الذبح، سمى الله ذلك التكليف البلاء المبين.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٦].

ومن الابتلاء بالتكليف ما حدث لأصحاب القرية من بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قال الطبري: «كان اعتداؤهم في السبت: أن الله كان حرم عليهم السبت، فكانوا يصطادون فيه السمك»[(١)].

قال ابن كثير: «واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة»[(٢)].

وقال أيضًا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

قال القشيري: «يخبر عما ألزمهم من مراعاة الحدود، وما حصل منهم من نقض العهود، وعما ألزمهم من التكليف، ولقاهم به من صنوف التعريف»[(٣)].

ومنه ما يكون ابتلاءات ابتلى المؤمنون بها أو الرسل لا عقوبة لهم، ولكن ليتم التشريع بها، مثل: ابتلاء عائشة رضي الله عنها بحادثة الإفك، وابتلاء النبي صلى الله عليه وسلم في زوجته وانقطاع الوحي عنه، فجاء لنا من رحم هذا الابتلاء آيات وتشريعات وأحكام وعبر، ما لا يأتي إلا من مثل هذا الابتلاء.

(١) جامع البيان ١٣/ ١٨٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٩٣.
(٣) لطائف الإشارات ١/ ٥٨٠.

الابتلاء في الدعوة إلى الله

لابد للناس عامة وللمؤمنين خاصة، ولحملة الدعوة على وجه أخص، إذا أرادوا أن ينجحوا في دعوتهم من الصبر على الابتلاءات والمتاعب، والتي تتمثل في أذى الناس بالقول والفعل، فليس هناك شيء أشد على نفس الرجل المخلص في دعوته، البريء من الهوى، المحب الخير للناس من أن يمحض لهم النصح فيتهموه بما ليس فيه، وأن يدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة فيردوه بالقوة، ويعظهم بالحسنى، فيستقبلوه بالسوء، ويجادلهم بالتي هي أحسن، فيقاوموه بالتي هي أخشن، ويدلهم على الخير فيقذفوه بالشر.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فكثيرًا ما يمتد الطغيان إلى الأموال فينهبها، وإلى الأبدان فيعذبها، وإلى الحريات فيسلبها، بل يتعدى الأمر إلى الأنفس فيقتلها، وقد أقسم الله تعالى في القرآن على وقوعه على الداعين إلى الله حيث خاطبهم بذلك ليوطنوا أنفسهم على الصبر الجميل.

قال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ويكون ابتلاء الدعاة إلى الله بصورٍ عدة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولًا: الاستهزاء والسخرية:

إن أسلوب الاستهزاء والسخرية بالدعاة والنيل منهم، وتحطيمهم أسلوب قديم، سلكه جميع الطواغيت مع الرسل وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١١].

وأسلوب السخرية والاستهزاء بالدعاة إلى الله، لم يتوقف لحظة من اللحظات في الصراع القائم بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان عبر التاريخ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١].

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما بين مبالغة المشركين في إنكار نبوته، وإيراد الشبهات في ذلك، بين بعد ذلك أنهم إذا رأوا الرسول اتخذوه هزوًا، فلم يقتصروا على ترك الإيمان به، بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار»[1].

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٧٤.

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

قال الجزائري: «وتفيد الآية أن الاستهزاء والسخرية بالرسل والدعاة سنة بشرية لا تكاد تتخلف؛ ولذا وجب على الرسل والدعاة الصبر على ذلك، وفي الآية بيان عاقبة التكذيب والاستهزاء، وهو هلاك المكذبين المستهزئين»[(١)].

ثانيًا: الاتهام بالكذب:

من صور الحملات الإعلامية المسعورة التي يشنها الأعداء ضد الرسل والدعاة، اتهامهم بالكذب والافتراء والاختلاق، والتشنيع عليهم؛ لتشويه صورتهم، وإثارة الشكوك حولهم، حتى يفقد الناس ثقتهم بهم، بعدم الإيمان بهم أو اتباعهم، أو الدعوة إلى ما جاءوا به.

قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص: ٤].

فقد كذبوه ورموه بالسحر؛ وقالوا: إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته[(٢)].

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥].

قال الألوسي: «لم يقتصر قولهم في حق الرسول صلى الله عليه وسلم: هل هذا بشر مثلكم، وفي حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم إنه سحر، بل قالوا عن القرآن: إنه تخاليط أحلام»[(٣)].

ثالثًا: التعذيب بالضرب والجلد:

حتى يرهب أعداء الله وأولياء الشيطان أولياء الرحمن -كما يتوهمون وتسول لهم أنفسهم - يزمجرون ويزبدون، ويهددون بالويل والثبور، وعظائم الأمور لكل من تسول له نفسه مخالفتهم، والسير على طريق غير طريقهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء: ١١٦].

«أي: المرجومين بالحجارة، وهو توعد بالقتل»[(٤)].

وقال أيضًا: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١].

ولقد ناقش إبراهيم عليه السلام أباه آزر نقاشًا موضوعيًا علميًا يدعوه فيه إلى عبادة الله وتوحيده، ويقدم له الحجة تلو الحجة، والدليل مع الدليل بأسلوب رفيق مع الأدب الجم والاحترام للأبوة، فيرد عليه الأب:

(١) أيسر التفاسير ٢/ ٤٠.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧١٤.
(٣) روح المعاني، ٩/ ١٠.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٤١٣.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: ٤٦].

رابعًا: التهديد بالقتل والتنكيل:

حين يعجز الطواغيت عن منع الدعاة من الاستمرار في دعوتهم للناس، وعن صدهم عن دينهم وعن دعوتهم، بالرغم من كل الإغراءات التي يقدمونها لهم ولأتباعهم، لا يبقى أمامهم سوى التصفية الجسدية، والتنكيل بالمخلصين المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦].

وهكذا عندما يعجز الطواغيت عن المعارضة بالحجة يلجؤون إلى قتل خصمهم، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالعقوبة[1]، وفي سورة طه يقف الطاغية فرعون يهدد السحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون.

قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١].

قال الرازي: «فيه اعتدادٌ باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به»[2].

(١) انظر: مدارك التنزيل ٣/ ٢٠٧.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٢/ ٧٧.

الحكمة من الابتلاء

للابتلاء فوائد عظيمة وحكم جليلة، يمن بها الله على من أحب من عباده، ومن هذه الحكم: تكفير السيئات ورفع الدرجات، والتمحيص والتنقية والتهيؤ لحمل أعباء الدعوة.

أولًا: تكفير السيئات ورفع الدرجات:

قد ينزل البلاء على العباد رفعًا للدرجات، أو وضعًا للآصار و تكفيرًا للخطايا والسيئات؛ فمن ما يكون لرفع درجات العباد، و يراد لهم الخير به ما رواه البخاري في صحيحه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: **(من يرد الله به خيرًا يصب منه)**[(١)].

أي: يبتليه بالمصائب والمحن ليرفع درجاته و يزيد في حسناته على ما يكون من صبره و احتسابه.

ومن ذلك أيضًا قوله عليه الصلاة والسلام: **(إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له منه)**[(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في المرض رقم ٥٦٤٥، ٧/ ١١٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٣٣٨، ٣٧/ ٢٩.

ومما يكون لتكفير السيئات ما جاء في الحديث المتفق على صحته عند الشيخين أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: **(ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها)**[(٣)].

قال الإمام المناوي رحمه الله شارحًا هذا الحديث في فيض القدير: **(ما من مصيبة)** أي: نازلة، وأصلها الرمي بالسهم ثم استعيرت لما ذكر **(إلا كفر الله بها عنه)** ذنوبه أي: محي خطيئاته بمقابلتها[(٤)].

قال الإمام الغزالي رحمه الله: قال عيسى عليه السلام: لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض عليه لما يرجوه من ذلك من كفارة خطاياه[(٥)].

ويعاقب المؤمن بالبلاء على بعض الذنوب فتكون في حقه كفارة وعقوبة مخففة ظاهرها القسوة وباطنها الرحمة، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(ما يصيب المسلم من هم، ولا حزن، ولا وصب، ولا نصب، ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)**[(٦)].

قال الألباني: صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب كفارة المرض، رقم ٥٦٤٠، ٧/ ١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٧٢، ٤/ ١٩٩٢.

(٤) انظر: فيض القدير ٥/ ٥٠١.

(٥) فيض القدير ٤/ ٤٦٨.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض،

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده أو في ماله أو في ولده حتى يلقى الله سبحانه وما عليه خطيئة)[1].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

قال الزحيلي: «والقصد من الابتلاء رفع الدرجات؛ لأن الأنبياء معصومون عن الذنوب والآثام، ويكون حصول المصيبة من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة»[2].

والمؤمن ينظر إلى الابتلاء أنه نعمة ورحمة من الله على عباده، يتعهدهم بالابتلاء المرة بعد المرة؛ لينقيهم، ويطهرهم، ويذهب عنهم رجز الشيطان، ويربط على قلوبهم، ويثبت به الأقدام، وكذلك ينظر إليه أنه دليل رضى ومحبة من الله لعباده؛ فإن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، لا لحبه لابتلاء عبده بل لما في هذا الابتلاء من عواقب حميدة قد يجهلها العبد نفسه، فدخول الجنة في الغالب يسبقه الابتلاء.

قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قال الرازي: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة بمجرد تصديقكم الرسول قبل أن يبتليكم الله بالجهاد وتشديد المحنة والله أعلم»[3].

فكلما صلب إيمان المرء وقوي يقينه؛ اشتد بلاؤه، فمن رضي؛ فله الرضى من الله عز وجل.

ثانيًا: التمحيص:

المحص: التخليص والتنقية والاختبار والابتلاء، ومنه محص الشيء، يمحصه محصًا، أي: يخلصه مما يشوبه[4]؛ «فالتمحيص ههنا كالتزكية والتطهير»[5].

سنة التمحيص نتيجة طبيعية لسنة الابتلاء؛ فالمؤمن من جهة يتعرض للمحنة، فيصقل معدنه من أثرها، وينضج بها كما ينضج الطعام بالنار، والمنافق من جهة ثانية لا يستطيع الصمود أمام الفتنة، فتخور قواه، وتنحل عراه، وينكص على عقبيه، ولهذا جعل الله تعالى التمحيص معبرًا لتنقية الصف المؤمن من أدعياء الإيمان، فيقع به التمييز بين الدر الثمين والخرز الخسيس.

كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ

باب كفارة المرض، رقم ٥٦٤٠ /٧/ ١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٧٢، ٤/ ١٩٩٢.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب كفارة المريض، رقم ٤٩٤، ص ١٧٤.

(٢) التفسير المنير ٢٥/ ٧٦.

(٣) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٦.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٩٠.

(٥) المفردات، الراغب ص ٦٧١.

﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

«أي: يختبركم بما جرى عليكم، وليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وعلى ضوء سنة التمحيص تتحقق سنة أخرى، وهي سنة التمكين، إذ يمكن الله عز وجل للمؤمنين في الأرض بعد أن يثبتوا جدارتهم واستحقاقهم للنصر بلجوئهم إليه وحده في وقت المحنة، وتجردهم له وتطلعهم إليه في زمن الشدة، مستيقنين من نزول النصر بعد الأخذ بكافة الأسباب المأمور بها شرعًا من صبر وتقوى وإعداد[(٢)].

وهناك الكثير من الآيات الدالة على الاختبار والتمحيص، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال أيضًا: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: ٩٤].

فالمؤمن يبتلى في هذا الباب بأن يكون الحرام بين يديه سهل ميسور تناله يده ليعلم الله هل يخافه أم لا؟

[انظر: الفتنة: الحكمة من الفتنة وسبل النجاة منها]

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٦.
(٢) انظر: منهج النبي صلى الله عليه وسلم في السيرة الصحيحة، محمد محزون ص ٣٩.

المعينات على اجتياز الابتلاء

لا بد للعبد أن يكون له زادٌ عظيمٌ يستعين به في مواجهة الابتلاءات والمحن؛ حتى يتمكن من النجاح، والاستفادة من ذلك الابتلاء، ومن أهم المعينات على ذلك:

أولًا: الاستعانة بالله:

إن الاستعانة بالله تعالى من أجل العبادات وأفضلها، والتي أمر الله بها عباده للحصول على عطائه وكرمه، قال الله تعالى ذاكرًا عبده موسى عندما نصح قومه بالاستعانة بالله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فأمرهم بالاستعانة بالله عندما ابتلاهم بعدوان فرعون وملئه تسلية لهم وتسكينًا.

قال الزمخشري: «قال موسى لقومه استعينوا بالله قال لهم ذلك- حين قال فرعون: سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا- يسكنهم ويسلبهم، ويعدهم النصرة عليهم، ويذكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم»[(١)].

وقال الماتريدي: «استعينوا بالله بالنصر لكم والظفر، واصبروا على أذاهم والبلاء»[(٢)].

ولقد قرأ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عند خروجه من بيته مهاجرًا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩].

مستعينًا به على ابتلائه بكيد المشركين؛ فأخرجه الله من بين أيديهم سالمًا محفوظًا.

ولقد نجح يعقوب في ابتلائه بفقده فلذة كبده وقرة عينه يوسف عليه السلام، حيث استعان بالله على ذلك، وتجلى ذلك في قوله: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف: ١٨].

قال الزمخشري: «﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أي: أستعينه على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف، والصبر على الرزء فيه»[(٣)].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ عطف على جملة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فتكون محتملة للمعنيين المذكورين من إنشاء الاستعانة، أو الإخبار بحصول استعانته بالله على تحمل الصبر على ذلك»[(٤)].

ثانيًا: التقوى:

إن من أكثر المعينات على الابتلاء، أن يتحلى المبتلى بالتقوى.

(١) الكشاف ٢/ ١٤٣.
(٢) تأويلات أهل السنة ٤/ ٥٤١.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٥٢.
(٤) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٤٠

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ [الطلاق:٢].

وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [الطلاق:٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾ [الطلاق:٥].

قال القرطبي: «قال الكلبي: ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة. يجعل له مخرجًا من النار إلى الجنة. وقال الحسن: مخرجًا مما نهى الله عنه. وقال أبو العالية: مخرجًا من كل شدة»[(١)].

وقال سيد قطب: «مخرجًا من الضيق في الدنيا والآخرة، ورزقًا من حيث لا يقدر ولا ينتظر. وهو تقرير عام، وحقيقة دائمة»[(٢)].

لقد أكد الله هذه الحقيقة في ثلاث آيات متتالية لترسخ في النفوس.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

قال السعدي: «أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها»[(٣)].

قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه صهيب: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له)[(٤)].

عندما ابتلى الله المؤمنين بقتال المشركين كافة أمرهم بملازمة التقوى التي تعينهم على اجتياز ذلك الابتلاء، ووعدهم جراء ذلك بأن يضمن لهم النجاح في الابتلاء والنصر في المعركة، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾ [التوبة: ٣٦].

قال الرازي: «تأويله أنه ضامن لهم النصر»[(٥)].

وقال السعدي: «بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سركم وعلنكم والقيام بطاعته، خصوصًا عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين»[(٦)].

ثالثًا: الصبر:

الصبر خلق عظيم يعين على دفع البلاء واجتياز الابتلاء بإذن الله تعالى، «فما على العبد إلا أن يستعين بربه أن يعينه، ويجبر مصيبته.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٥٩.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أمر المؤمن كله خير، رقم ٧٦١٠، ٨/ ٢٢٧.
(٥) مفاتيح الغيب ١٦/ ٤٤.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٣٦.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ومن كانت معية الله معه فهو حقيق أن يتحمل ويصبر على الأذى»[(١)]، ومن كانت معية الله معه يعينه على اجتياز الابتلاء؛ بل وينصره ولا يخذله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

قال الواحدي: «أي: إني معكم أنصركم ولا أخذلكم»[(٢)].

وروى مسلم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يصيب المؤمن من مصيبة، حتى الشوكة، إلا قص بها من خطاياه، أو كفر بها من خطاياه)[(٣)].

يجتمع للمؤمن عند الضراء، ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي هي أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه، لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب، والتمرن على الصبر، هانت عليه وطأة المصيبة، وخف عليه حملها[(٤)].

رابعًا: الاحتساب:

الاحتساب هو طلب الأجر من الله تعالى بالصبر على البلاء مطمئنة نفس المحتسب غير كارهة لما نزل بها من البلاء[(٥)]، وهو من المعينات للعبد على تحمل الابتلاء، ويكون على ثلاثة أنواع:

١. احتساب الأجر من الله تعالى عند الصبر على المكاره.

وخاصة فقد الأبناء إذا كانوا كبارًا، ومثاله: قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

٢. احتساب الأجر من الله تعالى عند عمل الطاعات.

كما في صوم رمضان إيمانًا واحتسابًا، وكذا في سائر الطاعات، وقد وردت آيات كثيرة بهذا المعنى منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى

(١) عقيدة المسلم، سعيد القحطاني، ٢/ ٩٢٠.
(٢) الوجيز ص ١٣٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، رقم ٦٦٥٨، ٨/ ١٥.
(٤) انظر: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، عبد الرحمن آل سعدي، ص٩٧.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٦٠، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٢٦٧.

نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة: (من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه)[(١)].

٣. احتساب الله ناصرًا ومعينًا للعبد عند تعرضه لأنواع الابتلاء من منع عطاء أو خوف وقوع ضرر.

ومعنى الاحتساب في هذا النوع الاكتفاء بالمولى عز وجل ناصرًا ومعينًا، والرضا بما قسمه للعبد إن قليلًا أو كثيرًا[(٢)].

ومثاله: قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

يتعرض الإنسان لأنواع من الابتلاءات والأمور التي تكرهها نفوسهم، ولا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، إلا من جهة احتساب الأجر بالنسبة للمؤمنين.

فالمسلم يمرض وكذا الكافر، ويموت أحباؤه وأقرباؤه، وكذا الكافر؛ لكن ثمة فرقًا مهمًا بينهما؛ ألا وهو ما يرجوه المؤمن من الأجر إن هو صبر واحتسب ورضي.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤].

قال الزمخشري: «فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم، مع أنكم أولى منهم بالصبر؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة»[(٣)].

خامسًا: الإيمان بالقدر:

ذكر العلماء منافع كثيرة للإيمان بالقدر، وعلى رأسها: الصبر على أقدار الله تعالى وابتلائه، «فالإيمان بالقدر يغرس في نفس المؤمن حقائق الإيمان المتعددة، فهو دائم الاستعانة بالله، يعتمد على الله ويتوكل عليه مع فعل الأسباب، وهو أيضًا دائم الافتقار إلى ربه، يستمد منه العون على الثبات، ويطلب منه المزيد»[(٤)].

والمؤمن يعلم علم اليقين أن الله تعالى لا يفعل إلا الذي يصلح عباده ولو جهل الإنسان مورده ومصدره؛ فإنه في الإصلاح قطعًا وأنه خير له.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صام رمضان إيمانا واحتسابًا، رقم ١٩٠١، ٣/ ٢٦.

(٢) انظر: نضرة النعيم ٢/ ٥٦.

(٣) الكشاف ١/ ٥٦١.

(٤) أركان الإيمان، علي بن نايف الشحود، ص١٤٧.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال أيضًا: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء:١٩].

فالمؤمن يؤمن بذلك كله ويسلم الأمر إلى الله.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

قال الواحدي: «قال علقمة: ومن يؤمن بالله في المصيبة، أي: يعلم أنها من الله يهد قلبه للاسترجاع والتسليم لأمر الله»[1].

الإيمان بالقضاء السابق والتقدير الماضي يعين العبد على أن ترضى نفسه بما يصيبه فيصبر على المصائب، ففي المصائب الشرعية يجب الاستغفار، وفي المصائب الكونية يجب الصبر[2].

موضوعات ذات صلة:

الأذى، الاستهزاء، الثبات، الضر، الفتنة، المرض، النعم

ا

(١) تفسير القرآن ٥/ ٤٥٢.
(٢) شرح الرسالة التدمرية، محمد بن عبد الرحمن الخميس، ص٤٥٢.

إبراهيم عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بإبراهيم عليه السلام	١٦٢
ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم	١٦٤
مكانة إبراهيم عليه السلام	١٦٥
صفاته وأخلاقه عليه السلام	١٧٣
دعوته عليه السلام	١٨٤
محاجته عليه السلام لقومه وللملك	١٩٣
إبراهيم عليه السلام والبيت الحرام	١٩٦
إبراهيم وذريته عليهم السلام	٢٠١
الدروس المستفادة من قصة إبراهيم	٢٠٧

التعريف بإبراهيم عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

ورد ذكر نسب نبي الله إبراهيم عليه السلام في موضعين من كتابه -جل وعلا-، وفي كل موضع كان ذكره باعتبار خاص، وذلك كما يلي:

الموضع الأول: جاء على سبيل التشريف وذلك في سورة آل عمران، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣- ٣٤].

وفي هاتين الآيتين ذكر اصطفاء الله للأنبياء المذكورين على العالمين بالنبوة، وأخبر أنهم يرجعون لأصل واحد، فآل عمران من إبراهيم، وإبراهيم من نوح، ونوح من آدم، فآدم أبو البشر الأول، وهو الذي خلقه الله بيده، وأسجد له الملائكة، ونوح هو أبو البشر الثاني، وهو أطول الأنبياء عمرًا، قضاه في تبليغ دين الله، وإبراهيم أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، وصاحب الهجرات العديدة لله، في سبيل إعمار الأرض بعبادة الله وتوحيده كما سيأتي، فهم ذرية طيبة بعضها من بعض عليهم السلام.

الموضع الثاني: جاء في سورة الأنعام، وهو على سبيل ذكر النسب من حيث الأصل وفرعه، وأن إبراهيم هو ابن آزر الذي هو تارخ كما هو عند جمهور المفسرين وعلماء الأنساب، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

هذا ما ورد في القرآن، أما ما ورد في كتب التاريخ والأنساب، فقد جاء ذاكرًا للآباء بين آزر ونوح زيادة على ما جاء في القرآن على النحو التالي:

هو إبراهيم نبي الله عليه السلام ابن آزر واسمه تارخ بن ناحور بن شاروخ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، لا يختلف جمهور أهل النسب، ولا أهل الكتاب في ذلك إلا في النطق ببعض هذه الأسماء[1].

(١) انظر: البداية والنهاية،ابن كثير، ١/ ١٦٠، تاج العروس، الزبيدي، ٣١/ ٢٨٠.

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

ذكر الإمام الطبري في تاريخه أماكن كثيرة ذكرها أهل العلم من أن مولد سيدنا إبراهيم عليه السلام كان فيها، غير أنها في مجملها تبين أن ميلاده كان في أرض العراق، وقد كان النمرود هو حاكمها، وكان اسمه زرهي بن طهما سفان [(١)]، وقد ظهر ملكه وملك قومه بالمشرق قبل ملك فارس، وبلغ فيما ذكره أهل التاريخ مشارق الأرض ومغاربها، ونسب الطبري في أثر عن بعض الصحابة، ولم يسمهم، أن النمرود بن كنعان هو أول ملوك الأرض شرقها وغربها، وأن الذين ملكوا الأرض كلها أربعة: نمرود، وسليمان بن داود، وذو القرنين، وبختنصر: مؤمنان وكافران[(٢)].

والنمرود هو الذي جاء ذكره في القرآن في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري،١/ ٢٣٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٣٤.

ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم (٦٩) مرة، في (٢٥) سورة.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	١٢٥-١٢٧، ٢٥٨، ٢٦٠
الأنعام	٧٤-٨٠
هود	٦٩-٧٥
مريم	٤١-٥٠
الحج	٢٦-٢٩
العنكبوت	١٦-١٨، ٣١-٣٢
الزخرف	٢٦-٢٨
الذاريات	٢٤-٣٧
الممتحنة	٤

مكانة إبراهيم عليه السلام

منزلة نبي الله إبراهيم عليه السلام بين الأنبياء:

أما عن منزلته بين الأنبياء، فهو أحد أولي العزم من الرسل، وهم حسب الترتيب في الفضل: محمد صلى الله عليه وسلم وهو أفضلهم، وأعلاهم منزلة، ويأتي بعده إبراهيم عليه السلام، ثم موسى، ثم عيسى، ثم نوح، والله أعلم[1]، وقد اجتهد أحد الشعراء فجمعهم في بيت شعر قال فيه[2]:

أولو العزم نوح والخليل بن آزر
وموسى وعيسى والحبيب محمد

وقد ذكرهم الله مجتمعين في كتابه مرتين.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء جميعًا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين. وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون[3].

١ . مرتبة الخلة.

والخلة هي أعلى منزلة بلغها عبد عند الله تبارك وتعالى، ولم يثبت في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنه قد حازها إلا اثنان:

الأول: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بما رواه عنه جندب رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمسٍ، وهو يقول: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلٌ، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا؛ لاتخذت أبا بكرٍ خليلًا)[4].

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس، ص٦٤، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان، ص١٧٩.
(٢) الكليات، الكفوي، ص٦٥١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد،

الثاني: إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد أصبح ذكر هذه المنزلة مصروفًا عند ورودها في الكلام له عليه السلام، وكأنها صارت علمًا عليه؛ فيقال إبراهيم الخليل، أو خليل الله إبراهيم، أو الخليل، فلا يعلم أنه يراد غيره عليه السلام وهذا لأنه مذكور في القرآن من قول الله عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلا؛ لأنه وفى بما أمر به، وصبر على ما ابتلي به»[(١)].

٢. الملة الخالدة.

شرع لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم ذكرًا نقوله في الصباح والمساء، نقر فيه باتباعنا لما أمرنا الله به في كتابه، فنحن نقول: (أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين)[(٢)] كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهو امتثالًا منه ومنا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وذلك أنه باتباع ملته ينال شرف الانتساب إليه، وخاب وخسر من دنس دينه بالشرك، أو التحريف والتضليل والتزييف، فلا يمكن أن يكون من أتباعه، فملته هي الملة المائلة عن طريق الشرك، المستقيمة على طريق التوحيد، الحنيفية السمحة، أحب الأديان إلى الله، التي التزمت ما جاءها من عند مولاها.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة)[(٣)].

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

آمنوا بكل ما جاءهم من عند الله، متبعين لا مبتدعين، يتأولون القرآن والسنة بأفعالهم لا بأهوائهم، وذلك بتطبيقه في حياتهم واقعًا عمليًا.

٣. جعل النار عليه بردًا وسلامًا عليه الصلاة والسلام.

إن عداوة المبطلين والمعاندين لأهل الحق سنة ماضية، وطريقة متبعة، ضاربة

باب النهي عن بناء المساجد على القبور، ١/ ٣٧٧، رقم ٥٣٢.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، ٢٤/ ٧٧. وصححه شعيب الأرناؤوط.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ١/ ١٦.

بجذورها في أعماق التاريخ، منذ أن أرسل الله الرسل عليهم السلام لأهل الشرك في الأرض، فحين يعجز أهل الباطل عن الدفاع عن باطلهم، ولا يقبلون الاستسلام والانقياد للحق.

ويسعون في إظهار باطلهم في صورة يخدعون بها أهل الحق؛ ليوهموهم أن الباطل حق، والحق باطل، بزخرفة القول، والإغراءات المادية، وأساليب الترغيب والترهيب؛ فإنهم يلجؤون إلى الأساليب القمعية في أشنع صورها، ولا يدخرون عذابًا إلا واستعملوه في التنكيل بمخالفيهم.

وقد كان إبراهيم عليه السلام ممن بلغت عداوة قومه له مداها، والرغبة في الانتقام منه منتهاها، حين حطم آلهة قومه الجوفاء من كل مضمون للألوهية باطنًا، والعارية من كل موجب للربوبية ظاهرًا، فدعاهم، واستهداهم، وخاطبهم بكل ألوان الخطاب المقنعة، وأقام عليهم الحجج الدامغة، ولكنهم زين لهم سوء عملهم؛ فافتعل تلك المشكلة المثقلة، التي أوقفتهم حائرين ضالين، أعماهم حبهم لآلهتهم عن اكتشاف انتفاء قدرتها، وامتهان قدرها؛ فهالهم قهرها؛ فطارت لذلك عقولهم، وانخلعت له قلوبهم؛ فعموا وصموا، وتساءلوا عمن قام بهذه الفعلة النكراء، فتذكروا ما كان من إبراهيم عليه السلام من التوعد والوعيد لها؛ فانقلبت لديهم الموازين، وجعلوا التعدي على آلهتهم فعلًا لا يفعله إلا أعظم الظالمين، فجعلوا شركهم عدلًا، وتوحيد إبراهيم عليه السلام ظلمًا.

فقرروا الانتقام؛ فاستنفروا كل قوتهم، وجمعوا جماعتهم؛ ليوقعوا عليه نقمتهم؛ فقابلهم الله تبارك وتعالى بأن عطل ناموسًا من نواميس الكون وقوانينه، ردًا على قلب الموازين الذي فعلوه؛ فجعل النار التي من سنتها أن يكون أثرها إتلافًا وإحراقًا، أن تصير نعيمًا وسلامًا وإشراقًا، فقد كانت هذه الحادثة صفحة مشرقة من صفحات التاريخ، نتلو خبرها في كتاب الله عز وجل إلى قيام الساعة، وذلك حين نصر الله عز وجل نبيه ووليه إبراهيم عليه السلام، على أعدائه الطغام.

وخبر هذه الحادثة جاء في قوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧١].

فقد جاءوه يرعدون ويزبدون، ويهددون ويتوعدون؛ فقابلهم بكل ثبات، وسخر منهم في موطن لا يسخر فيه من عدوه إلا العظماء، وذلك أنهم سألوه لا على سبيل الاستجواب، وإنما من باب إثارة الذعر والإرهاب؛ فقابلهم بثبات الواثق من نصر الله سبحانه وتعالى له عليهم، وأحال التهمة لكبير آلهتهم، ودعاهم -استهزاءً بهم- لسؤال صنمهم؛ علهم يجدون عنده ما يهدأ به روعهم، ويذهب بعلمه غيظهم؛ فأخزاهم الله عز وجل، ورد كيدهم في نحرهم، ورفع مكانة إبراهيم عليه السلام، وحط قدرهم، ونجاه من كيدهم، هو ومن آمن به، وأبدلهم أرضًا خيرًا من أرضهم، ونزلًا خيرًا من نزلهم، ومكانة ورفعة خيرًا من نسبهم؛ فجعل منهم الأنبياء صلوات وسلام عليهم من ربهم.

٤. إجابة دعواته:

إبراهيم عليه السلام مستجاب الدعوة وسوف نذكر نموذجًا واحدًا منه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٤١].

ففي هذا المقطع من سورة إبراهيم يتبين

من دعائه عليه السلام أهم ما يجب أن يحرص المسلم على سلامته مع توفيقه فيه، أولًا وآخرًا، ولنستعرض ما جاء من ذلك في دعائه عليه السلام:

- **الأمن في الأوطان.**

وما كان إبراهيم عليه السلام وهو إمام الحنفاء؛ ليسأل ربه هذا السؤال مقدمًا حب الوطن على توحيد الله، فما سأله إلا وهو مؤمن بربه موحد له، فهو يعلم أنه لا أمن بلا إيمان، وهو صاحب المقولة التي جاءت عنه في كتاب الله.

قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨١-٨٣].

فهو قد سأل الله هذا الدعاء بمقتضى إيمانه بالله، والقيام بما افترضه عليه.

وقد ورد ذكر دعاء له في سورة البقرة يوضح فيه إبراهيم عليه السلام ذلك، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ ليظهر ما تقرر في نفسه أن الذي يستحق هذا الأمن إنما هم الموحدون، إلا أن الله سبحانه وتعالى أعطى إبراهيم ما سأله إياه لمؤمنهم وكافرهم؛ لأنه أرحم بخلقه من إبراهيم- وليس أحد أوفى بعهده منه سبحانه وتعالى، فقد تكفل لهم بالأرزاق، فجاء قوله جل جلاله في تمام الآية: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

- **الثبات على التوحيد الذي هو سبب كل خير.**

ونعمة الإسلام هي النعمة العظمى التي تصبح بها كل هبة نعمة، وبدونها كل عطية نقمة، وإبراهيم عليه السلام يعلم أنه لا معصوم من الضلال إلا من عصمه الله، فعلى رفعة قدره، وعلو منزلته عند الله، إلا أنه لم يأمن على نفسه من الشرك، وهذا أمر لابد وأن يتنبه له كل مسلم، وعليه كان دعاء إبراهيم عليه السلام ووصيته هو ويعقوب عليهما السلام لبنيهما عند الموت.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

فالتوحيد هو أمان الأمة، وحصن الناس أفرادًا وجماعات من عقاب الله تبارك

وتعالى، عن معاذ بن جبلٍ قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟)، قال: الله ورسوله أعلم، قال: (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حقهم عليه؟)، قال: الله ورسوله أعلم، قال: (أن لا يعذبهم)[1].

وما يجب أن يحرص عليه المسلمون هو النجاة من عقاب الله في الدنيا والآخرة، وذلك بألا يلبسوا إيمانهم بظلم الشرك، أو أن يقدموا محبة أي شيء -مهما كان- على محبة الله، بل يلزمهم توحيده؛ ليتحقق لهم الأمن، والذي يعد المطلب الأساس والأهم لجميع المخلوقات، فكلها تسعى لتحقيقه، ولم ولن يتسنى لها ذلك إلا بالاستجابة إلى أمر الله، والسير بمقتضى النواميس التي وضعها الله لها، وهذا أمر قد أدركته الجمادات، ولم يدركه أكثر الناس الذين وهبهم الله العقل، لكنهم عطلوه وأهملوه.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

❁ أن يجمعه مع أتباعه، ويغفر لمن عصاه.

يعلم إبراهيم أن رحمة الله لا حد لها، وأن عفوه عظيم، وعلى ذلك سأل ربه أن يرفع من درجة أتباعه؛ ليجمعهم به، وأن يغفر لمن عصاه ويهديه، وذلك أن الله أخبره أنه سيرزقهم في الدنيا؛ فطمع أن يشملهم برحمته في الآخرة، فقال عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولكن الله أرحم بعباده من إبراهيم عليه السلام فهو لا يعذب إلا من تمرد عليه[2]؛ فاستجاب الله جل جلاله له بقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

❁ الدعاء للذرية.

بعد أن استجاب إبراهيم عليه السلام لأمر ربه، وذهب بهاجر وإسماعيل عليهما السلام إلى بلاد الحجاز، وهي غير مأهولة، وما كان ذلك إلا لأنه علم أن الله سبحانه وتعالى قد قدر لهم أن يحيوا هذا المكان الذي هو أشرف بقعة على وجه الأرض؛ فلم يرض عليه السلام أن تكون مهجورة، خالية من طاعة الله، وجعل هذا هو علة مجيئه بهم؛ فأشفق عليهم من الوحشة التي سيعانون منها، فغريزة الإنسان أن يعيش اجتماعيًا، غير معزول.

فقال كما أخبر المولى جل وعلا عنه:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله، ٩/ ١١٤، رقم ٧٣٧٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٢٦.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

فالحال التي هم عليها في هذا المكان تستدعي الصبر، فهم مفارقون لراعيهم، وليس عندهم طعام ولا شراب ولا أنيس، فأراد من الله أن يجمع لهم بين عبادتي الشكر والصبر، وهو بذلك يحيل الأمر إلى عالمه، ويفوض الأمر إلى صاحبه، غير مفتئت على الله، مظهرًا لله إيمانه العميق بأن الله يعلم ما يدعوه فيه.

فيقول فيما يحكيه القرآن عنه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

فهو يعلم حال أهل إبراهيم عليهم السلام حيث هم، ثم يقر معلنًا إثبات الحمد لربه على نعمه التي أسبغها عليه، ومن جملتها ما رزقه به من الذرية، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

اعترافًا بالفضل لربه، واستزادة من الكرم بحمده، وثناءً على الله بلطفه به، إذ إنه سمع دعاءه فأجاب.

وهي إجابة باقية إلى يومنا هذا، فإنك تجد كل مسلم، وهو يهوي قلبه إلى ذلك المكان، معمور بحب آل إبراهيم، وآل محمد عليهم الصلاة والسلام.

❁ **الدعاء بالتثبيت على العبادة، له ولذريته.**

فضل الصلاة عظيم، وشأنها خطير، وهذا ما ظهر من دعاء إبراهيم ربه بأن يثبته وذريته عليها ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[إبراهيم: ٤١].

وكذلك الدعاء الذي هو أقوى ما يتسلح به الإنسان، إن كان أهلًا لأن يجيب الله دعوته؛ لذلك جاء في دعائه في ختام الآية: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ وليس هنالك ما هو أجدر بأن يحرص عليه المسلم من ثباته وذريته على دين الله جل وعلا.

❁ **الدعاء بالمغفرة له ولوالديه.**

ولا يزال على أمل وطمع فيما فيه كل الرجاء، ألا وهو رحمة الله تبارك وتعالى؛ فيدعو معولًا على ذلك بالمغفرة له ولوالديه، فلم ييأس من ذلك ما دام الله لم يعلمه بالمنع منه، فبقي على رجائه فيه، إلى أن ثبت له أن والديه من المبعدين عن رحمة الله تعالى وتقدس، وعلى ذلك جاء قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١].

٥. ثناء الناس عليه:

أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين عامة أن يذكروا نبيه إبراهيم وآل بيته، عليهم الصلاة والسلام، في كل صلاة بما أكرمهم الله سبحانه وتعالى به من

الصلاة عليهم والتسليم والتبريك[1].

كما جاء عن أبي سعيدٍ الخدري، قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك، فكيف نصلي؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمدٍ عبدك ورسولك، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم)[2].

وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩].

وهو يثني عليه عند ورود ذكره في القرآن، والأمم التي جاءت بعده تشهد بفضله وتعترف بنبوته، وتنتسب إليه، حتى أنزل الله أن هذا شرف لا يناله إلا من اتبعه عليه السلام، ردًا على اليهود والنصارى الذين زعموا أنه على دينهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَاأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٨].

وما كان ذلك إلا فضلًا من الله عليه؛ وذلك لما قام به من أمر الله، في ذلك البلاء العظيم الذي سيأتي الحديث عنه لاحقًا بإذن الله تعالى.

(١) انظر: الأم، الشافعي، ١/ ١١٧، المجموع، النووي، ٣/ ٤٦٥، المغني، ابن قدامة المقدسي، ١/ ٥٤١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إن تبدوا شيئًا أو تخفوه)، ٦/ ١٢٠، رقم ٤٧٩٧.

صفاته وأخلاقه عليه السلام

أولًا: صفاته وأخلاقه مع الله:

عند الحديث عن الصفات التي يتخلق بها الناس، والأخلاق التي يتحلون بها، تنصرف الأذهان إلى الصفات والأخلاق الكائنة بين الإنسان وبين الناس، ويغفلون عن صفات العبد وأخلاقه مع ربه وخالقه، والأصل في الإنسان أن ينظر إلى حسن خلقه مع الله جل جلاله أولًا وقبل كل شيء؛ لأن من حسن خلقه مع الله، قطعًا سيكون حسن الخلق مع عباد الله، أما من لم يكن حسن الخلق مع الله؛ فالغالب عليه أن يكون سيء الخلق مع مخلوقات الله.

إذ إن الإنسان بطبعه ظلوم جهول، يميل إلى الطغيان بسبب ظلمه، ولا يعرف حدوده وحقوقه بسبب جهله، وهو إن لم يكن منضبطًا بضوابط الإيمان، ولم يظهر منه الظلم، وتعدي الحدود والاعتداء على الحقوق؛ فذلك غالبًا ما يكون لعجزه، وفي المجمل، فمن كان متصفًا بالفسق، أو الكفر، أو واقعًا في أعظم الظلم؛ فإنه -وإن تحلى بكل مكارم الأخلاق فيما بينه وبين الناس- يبقى سيء الخلق.

وأما عن سيدنا خليل الله عليه السلام، فقد جمع بين حميد الصفات، وكريم الأخلاق مع الله جل وعلا، وجميل الصفات، ونبيل الأخلاق مع عباد الله، وقد ذكر الله من حميد صفاته، وكريم أخلاقه مع ربه في القرآن ما يلي:

١. الاستسلام والانقياد لأمر الله.

وقد ظهرت هذه الصفة منه في مواقف كثيرة نذكر منها:

- إخلاص العبادة لله، والخضوع له بالطاعة.

يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١][(١)].

- إعلان براءته من أبيه وقومه والآلهة التي كانوا يعبدون من دون الله.

وقد كان إعلان البراءة من الآلهة أولًا حين قال الله عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨].

وحين علم أنهم لن يكون منهم الإيمان بالله؛ تبرأ منهم جميعًا، كما جاء في قول الله تعالى عنه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ لذلك جعل الله منه أسوة حسنة للمسلمين[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان ،الطبري ٣/ ٩٢.
(٢) انظر: المصدر السابق.

- إسكانه زوجه وولده في مكة، ولم يكن فيها زرع، ولم يكن فيها سبب الزرع وهو الماء، وما ينتج عن وجود الزرع، وهو وجود الإنسان.

ويخبرنا الله عن شأن هذا الموقف، وأنه كان استجابة من إبراهيم عليه السلام لأمر الله في قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

- إقدامه على ذبح ولده البكر إسماعيل عليهما السلام.

وجاء خبر هذه الحادثة في سورة الصافات: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٧][1].

٢. أواه.

وقد وصفه الله بهذه الصفة في قوله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة:١١٤].

والأواه هو كثير التأوه؛ لكمال رأفته وشفقته ورحمته بنفسه وبغيره[2].

٣. منيب.

وهذا الوصف جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ [هود:٧٥].

والمنيب هو «الرجاع إلى الله بمعرفته ومحبته، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه»[3].

٤. قانت.

ذكر الله تعالى من صفات إبراهيم (القنوت) قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠].

والقنوت: هو طول القيام في الصلاة، وليس هذا عندهم، بل هو في دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

وجاء عن جابرٍ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفضل الصلاة طول القنوت)[4].

وما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام يؤكد أن هذا الدين الذي جاء به هو عين الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام.

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢١٨.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٠٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٨٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت، ١/ ٥٢٠، رقم ٥٢٠.

سئلت عائشة رضي الله عنها، كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان؟ فقالت: (ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعةً يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا)[1].

٥. حنيف.

جاءت في سياق الرد على أهل الكتابين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠].

والحنيف: «هو المستقيم من كل شيء»[2]، وهو المخلص دينه لله وحده، والحنيفية هي ملة الإسلام[3].

٦. شاكر.

وهذه الصفة أيضًا من جملة ما جاء في سورة النحل، يقول تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢١].

والشاكر هو المعترف بفضل الله تعالى وإنعامه عليه، والقائم بما أنيط بهذا الإنعام من واجبات، وأدى ما عليه فيها من حقوق[4].

٧. صديق.

ومن الصفات التي وصف بها إبراهيم عليه السلام (الصديقية).

قال الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

وروى أحمد بسنده عن أم كلثوم بنت عقبة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أعده كاذبًا، الرجل يصلح بين الناس، يقول: القول ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول: في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها)[5].

والحق أن ذلك لم يكن إلا في مقامٍ الكذب فيه أبلغ في تحصيل الخير من الصدق، وأقوى في دمغ الباطل بالحق، وهو مع ذلك لم يكن قوله كذبًا من كل وجه.

وقد بَيَّنَ النبي صلى الله عليه وسلم المواطن التي كذب فيها إبراهيم عليه السلام، فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذباتٍ، ثنتين في ذات الله، قوله:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل، ٢/ ٥٣، رقم ١١٤٧.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٠٤.
(٣) انظر: المصدر السابق، ٣/ ١٠٧.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي، ٨/ ٢٥٨.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ٢٤٥، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، ٤/ ٢٨١، رقم ٤٩٢١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٠٤.

إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدةٌ في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبارٍ ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك)[1].

وتفصيل هذا له مساحة واسعة في كتب التفسير[2].

٨. وفيٌّ.

وهي صفة كان إبراهيم أهلًا لها؛ حيث بلغ في طاعته لربه، وتبليغ رسالته، رتبة الكمال، وما قام به من ذبح ابنه الذي نجاه ربه، وجاء نعته بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

وهذا الوفاء هو الوفاء بعهده مع الله جل جلاله، من الإيمان والطاعة.

٩. أمة.

وصف القرآن الكريم براهيم بأنه كان إمامًا في الخير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير، هاديًا مهتديًا[3].

واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة. ويحتمل أنه كان إمامًا يقتدى به في الخير[4].

ثانيًا: صفاته وأخلاقه في نفسه ومع الناس:

لقد اتصف نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام بصفات وأخلاقيات كثيرة، وذلك مع نفسه، ومع الناس من حوله، ما أهله ليجعل الله سبحانه وتعالى منه أسوة لهم يقتدون به، ويسيرون على ما سار عليه من صفات وأخلاق، وسنشير إلى ذلك في النقاط التالية:

١. الإمامة.

وصفه الله بذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

والإمامة هي إمامة الدين، وجعلها الله عز وجل له في زمانه ولمن بعده من الناس، ولم يكن ربنا سبحانه وتعالى قد جعلها لأحد قبله من الأنبياء، ومازال متبوعًا إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، ٤/ ١٤١، رقم ٣٣٥٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦٣، الوجيز، الواحدي ص٩١٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥١.

(٤) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٠١.

يومنا هذا بعبادة الحج ومناسكه.

٢. الحكمة.

لما حسد اليهود رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم؛ فضحهم الله سبحانه وتعالى، وأخزاهم بأن جعل الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من جنس ما آتاه الله إبراهيم من الكتاب المنزل، وما أوحى إليه من الحكمة الملهمة.

يقول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

فهو يثبت الحكمة لنبيه إبراهيم عليه السلام، وأن مثلها قد أوتي محمد صلى الله عليه وسلم.

والحكمة: هي فعل الشيء الأحسن، على الوجه الأقوم، في الوقت الأنسب.

٣. الحلم.

وتظهر هذه الصفة في إبراهيم من خلال دوامه على الاستغفار لوالده مع إعلان والده العداوة له، فإن عداوة والده له لم تمنعه من الاستغفار له، ورجاء الهداية له، لكن عندما أعلمه الله أن أباه لن يؤمن، وأنه عدوٌ لله؛ تبرأ منه، ووالى من هو أولى بالولاية، وهو الله سبحانه وتعالى.

يقول الله تبارك وتعالى في ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وكذلك حينما جادل عن قوم لوط رغبة في تأخير العذاب عنهم أيضًا وصفه الله جل جلاله بهذه الصفة.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤- ٧٥].

٤. بر الوالدين.

حيث إن أبر البر بالوالدين أن يكون الولد سببًا في دخولهما الجنة، وهذا ما حرص عليه إبراهيم عليه السلام؛ حيث لاقى ما لاقاه من أذى والده، وعداوته له ولربه، إلا أنه كان يستغفر له ولأمه.

يقول تعالى حكاية عنه أنه كان يقول في دعائه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

٥. الرشد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه.

كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا

﴿إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[الأنعام: ٨٣][1].

٦. الكرم.

بين الله سبحانه وتعالى اتصاف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفة بما أورده في كتابه عنه في وصف استقباله للضيف.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٧][2].

وقد أظهرت الآية صفة الكرم من خلال النقاط التالية:

- وصف الله ضيفه بأنهم مكرمون، وكان ذلك بألوان من الإكرام تظهر في أقوال وأفعال إبراهيم عليه السلام معهم.
- استقباله لهم، حين قالوا له «سلامًا» بالنصب على الحالية؛ فأجابهم بقوله: «سلامٌ» بالرفع على الابتداء؛ فيكون قولهم جملة فعلية تدل على حدوث السلام، حال مجيئهم له هذه المرة، أما قوله فهو جملة اسمية تدل على الثبوت والاستمرار للسلام في كل وقت.
- فعله حين راغ، يظهر منه أنه لم يشعرهم بعزمه على التأخر، أو صنع الطعام؛ الأمر الذي قد يتحرج بسببه الضيف.
- الإسراع في إحضار الضيافة؛ لأن الله عطف المجيء على الروغان بالفاء، ولم يعطف بحرف آخر من حروف العطف؛ لأن هذا الحرف يفيد عدم تراخي المعطوف عن المعطوف عليه، والذي يعبر عنه بالترتيب والتعقيب، مما يشعر بأن طعام الضيفان قد أعد مسبقًا.
- كان ما جاءهم به من الطعام عجل سمين، فلم يكن عجلًا ضعيفًا، وكان يكفيه أن لو جاءهم بكبش أن يكون كريمًا معهم.
- تقريب الطعام إليهم، ما يشعر أنه فعله بدون تكلف ولا تكليف، وهذا أكمل إكرامًا من الذي يضع الطعام في مكان، ثم يطلب من الضيوف أن ينتقلوا إليه.
- دعوتهم إلى الأكل بقوله «ألا»، وهو حرف يفيد العرض بلطف.

٧. صاحب القلب السليم.

هو وصف لم يوصف به أحد في القرآن الكريم إلا إبراهيم عليه السلام، وهو في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤].

فهو صاحب القلب السليم.

وقد ظهرت سلامة قلب إبراهيم عليه السلام من خلال عدة مواقف، جمعها الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٠٥.
(٢) انظر: الرسالة التبوكية، ابن القيم، ص٦٣.

سبحانه وتعالى بعد ذكره لهذه الصفة في سورة الصافات، نذكر أهمها فيما يلي:

- **إنكار الشرك بالله.**

وبدا ذلك في قول الله جل جلاله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٦].

وذلك أن الشرك هو أعظم الظلم، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] [(١)].

- **الدعوة إلى توحيد الله عز وجل.**

وقد تمثل ذلك في قول الله عز وجل على لسان إبراهيم: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:٨٧] فهي دعوة إلى توحيد الله جل جلاله، ففي سؤاله هذا تذكير بربوبية الله لجميع المخلوقات، فالعالمين جمع عالم وهي تعني: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى، وفيه تذكير بأن الله جل جلاله متصف بكامل الصفات؛ لأن السؤال عن الظن سؤال عن الاعتقاد حول ما يعتقدونه من صفات الله عز وجل، وفيه تنبيه على أنه لا يستحق العبادة إلا الله جل جلاله[(٢)].

- **أمره بالمعروف وإنكاره للمنكر، بالقلب وباللسان وباليد.**

فإنكاره بالقلب ظهر في قول الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩].

حيث جاء في تفسيرها أنه يشق عليه رؤية ما يفعلونه من أعمال الشرك؛ لشدة إنكاره لها، وهذا أمر لا شك أنه يؤلم كل مؤمن موحد بالله تبارك وتعالى، وأما إنكاره باللسان ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥- ٩٦].

حيث بين لقومه سفاهة فعلهم، وكذلك أنكر باليد ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣] حين قام بتحطيم الآلهة[(٣)].

- **ثباته على دين الله مهما كانت التحديات.**

ويظهر ذلك من خلال قول الله عز وجل عنه: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٤ ٩٨].

حيث جاءوه مسرعين مستنفرين على هيئة مفزعة مريعة، فما عبئ بثورتهم، ولم يرهبه هجومهم، واستهزأ بهم، وسخر من آلهتهم بأسلوب مفحم، كما جاء في موضع آخر من كتاب الله ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم، ١/ ٨، الداء والدواء، ابن القيم، ص١٢٢.

(٢) انظر: فتح القدير،الشوكاني، ٣/ ٢٤١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨٢.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٩٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٠٥، أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ١١٨.

﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وكرر إنكاره عليهم بقوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦][1].

❁ **هجرته من البلد التي لا يعبد فيها الله، وبراءته من أهلٍ لا يعبدون الله.**

وذلك حين أعلن عن هجرته، وهذا ما برز في قول الله جل جلاله: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

فالموحد لله جل جلاله لا رابطة بينه وبين أي شيء إلا رابطة ترضي الله عز وجل، فإن لم يجد في قومه، أو في وطنه، أو أي أمر من أمور الدنيا ما يعينه على طاعة ربه، أو وجد فيه ما يصده عن دين الله؛ فهو يهجره ويتركه، ويبحث له عن مكان آخر يعبد ربه فيه.

يقول الله تبارك وتعالى في حق أقوام ضلوا، وعصوا ربهم بسبب استضعافهم في البلد التي كانوا فيها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧][2].

وإن كان الأهل هم من يصدونه عن دينه؛ تبرأ منهم.

يقول تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

❁ **تقديم حب الله على كل حبٍ سواه.**

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

من المسلم به أن ولدًا يولد لرجل بعد انتظار عشرات السنين، وبعد دعاء الله عز وجل بأن يرزقه الله إياه، ويكون ولدًا بارًا بأبيه؛ فلن يكون في الوجود أعز على قلب أبيه منه، فما بالكم فيمن هذا حاله ويأتيه الأمر بذبح ولده؟! كيف هي درجة الابتلاء بمثل هذا الأمر؟!

ومع ذلك استجاب لربه، راضيًا مطمئنًا؛ تضحية بأعز مخلوق، من أجل إرضاء الله، أين أصحاب المعاصي -مهما بلغت درجة تعلق قلوبهم بها-، أو شدة حاجتهم إليها، هل يمكن أن تقارن درجة تضحيتهم بترك هذه المعاصي، بهذا الابتلاء الذي قال فيه الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٢/ ٤٤٠، روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١١٨.
(٢) انظر: تفسير المراغي، ٢٣/ ٧١.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٥-١٠٧].

إن الذي يمر بابتلاء من الله عز وجل ويكون شأنه مع هذا الابتلاء مرضيًا لمولاه جل جلاله لا يمكن أن تكون عاقبته مؤلمة، فابتلاء الله سبحانه وتعالى لعبده ربما يكون مصحوبًا بألم متفاوت الدرجات بحسب صلاح العبد.

سأل سعد بن أبي وقاص النبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاء؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقةٌ ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئةٌ)[1].

لكن هذا الألم إذا ما قورن مع لذة العاقبة التي سيكافئه الله عز وجل بها؛ فإنه لا وزن له[2].

- **تربية ولده على الاستجابة لأمر الله وإعانته على طاعة الله مهما كلف الأمر.**

وكان إبراهيم صلى الله عليه وسلم يعلم أن ابنه سيستسلم لأمر الله، ويكون عونًا لأبيه عليه، ولو حصل له من العلم ما يخالف ذلك؛ لما عرض الأمر عليه يشاوره فيه.

وذلك ما جاء في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. قرئت بالفتحتين في قوله: ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ على سبيل عرض الأمر على ولده واستشارته؛ لثقته بأن رد إسماعيل -الذي رباه على الامتثال لأمر ربه- سيأتي مرضيًا عند الله عز وجل؛ وهو بذلك يتقرب لله عز وجل بعبادتين ظهرتا في هذا الموقف:

الأولى: تربيته لولده تربية أثمرت سرعة الامتثال والطاعة، مهما كلف الأمر.

والثانية: عبادة تنفيذ الأمر.

وفي القراءة الثانية بالضم والكسر على الحث والتحضيض لإسماعيل صلى الله عليه وسلم على الامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى، وهي بمعنى: فانظر ماذا تري ربك من الامتثال، والصبر على أمر الله جل جلاله، في موطن لم تسبق إلى مثله، وهنا أيضًا تظهر عبادتان الأولى: حث ولده على التضحية بحياته؛ إرضاءً لربه برضى نفس،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٤/ ٦٠١، رقم ٢٣٩٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ٢/ ١٣٣٤، رقم ٤٠٢٣.
وصححه الألباني.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي، ص١٤٣، محاسن التأويل، القاسمي، ١/ ٤٦٢.

وثبات وصبر، والثانية: تنفيذه للأمر[1].

- **الامتثال لأمر الله وتنفيذه على الهيئة التي أمر الله بها.**

وقد ظهر ذلك الامتثال بتمامه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣].

أمر بالذبح؛ فامتثل بالذبح، ولم يلجأ إلى طريقة أخرى مثل قطع رأسه مرة واحدة، أو دفعه من فوق جبل، أو دفنه حيًا، -حال غيبوبة؛ ليهون عليه الأمر-، ولم يأت بطريقة أشد قسوة مثل التقطيع أو التحريق مبالغة في التقرب لله، بل امتثل الأمر كما هو، مبتعدًا بذلك عن التفريط والإفراط.

وفي هذا وقفة مع أهل البدع، والمناهج المحدثة في عبادة الله:

ففريق منهم يفرطون في شأن العبادات -بحسب شهواتهم ومصالحهم-، لا وفق ما تقتضيه قواعد الشريعة ومقاصدها.

وفريق آخر يزيدون من التشديد في العبادات على قصد المبالغة في التعبد لله عز وجل -بحسب أهوائهم وأذواقهم-.

والوسطية: هي الإتيان بالعبادات والطاعات على الوجه الذي أمر الله به.

فينظر إن كان في إتيانها على الوجه الذي أمر الله به ما يتعارض مع مقاصد الشريعة، بحيث يترتب عليه مشقة غير محتملة وحرج على الناس، أو يترتب عليه ضرر وخطر على حياة العبد؛ فإن الأمر يخفف على وجه مأذون فيه، وفق قواعد الشريعة وأصولها.

وإن لم يترتب عليها شيء مما سبق؛ فلا يبالغ في العبادة، ولا يشدد فيها، إنما يأتي بها العبد على الوجه المأمور، من غير زيادة ولا نقصان، زعمًا أن في الإتيان به على هذه الكيفية مزيد تقرب لله عز وجل؛ فإن أعظم التقرب لله جل جلاله هو امتثال الأمر كما أمرنا به تبارك وتعالى[2].

- **عدم إضمار الغل والغش والحقد والحسد لعباد الله، سليم من التعالي والتكبر على عباد الله، وهكذا هي صفات المحسنين.**

يقول الله عز وجل في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٠].

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**)[3].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٤٥، التسهيل، ابن جزي، ٢/ ١٩٦.

(٢) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ص١٢٢، أثر الإيمان في تحصين الأمة، عبد الله الجربوع، ١/ ٤١٢، حقيقة البدعة وأحكامها، سعيد الغامدي، ١/ ٣٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب،

ينهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ما يفضي إلى إعراض الناس عن الحق؛ مبينًا لنا خطر هذه الأخلاق على أمة متماسكة، أنها إذا فشت فيها؛ فإنها ستذهب بدينها الذي هو سبب عزتها، وفي حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم: (دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم)[1].

- سالم من التعظيم لنفسه والعجب؛ لأنه يرجو لنفسه أن يكون من جملة عباد الله.

وقد من الله بتحقيق رجائه فقال جل جلاله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١١].

يرجو هذا الرجاء، وقد جعله الله إمامًا يعدل أمة؛ فهو سليم من الحرص على الدنيا، سليم من كل مرض وعيب، سليم من كل داء وعطب مما ذكره الله في كتابه، أو جاء ذم صاحبه في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول صلى الله عليه وسلم: (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ)[2].

باب قوله: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن)، ٨/ ١٩، رقم ٦٠٦٦.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد والورع، باب رقم ٥٦، ٤/ ٦٦٤، رقم ٢٥١٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٦٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة النار، باب صفات أهل الجنة وأهل النار، ٨/ ١٦٠، رقم ٧٣١٢.

دعوته عليه السلام

أولًا: معالم دعوته:

جاء في الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء إخوةٌ لعلاتٍ، أمهاتهم شتى ودينهم واحدٌ)[1].

وفيه تفسير لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فجاءت دعوته على هذا السنن، دعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ونبذ الشرك وشريعة الشيطان، وقد برزت معالمها على النحو التالي:

١. إعلان التوحيد.

وقد أعلن ذلك في مواقف عديدة، وبعبارات متنوعة، ذكرها القرآن في مواضع متفرقة، نذكر منها ما جاء في سورة العنكبوت.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:١٦].

حيث إنه أمرهم بعبادة الله وحده، محذرًا إياهم من عقابه.

٢. إنكار الشرك.

فقد أنكر عليه السلام أن يكون حق الألوهية لغير الله، يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٧٤].

فوصف هذا الفعل بالضلال، لو فعله أي أحد كائنًا من كان، فهو يخاطب أباه وقومه.

٣. البراءة من الشرك وأهله.

تبرأ من قومه ومن أفعالهم بعد أن رأى إصرارهم على ما هم عليه من عبادتها.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

٤. إعلان العداء لهم ولآلهتهم.

عندما تيقن من خبر الله له أنهم لن يتركوا عبادتهم للأصنام، أعلن العداوة بينه وبين معبوداتهم.

يقول الله مخبرًا عنه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٥-٧٧].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٣.

٥. الهجرة من البلد الذي يعادي دين الله.

وذلك حينما أوقدوا له النار؛ بسبب ما كان يدعوهم إليه من التوحيد، ونبذ الشرك بالله تبارك وتعالى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٧-٩٩].

ثانيًا: أساليب دعوته:

التنويع في أساليب الدعوة أمر هدى الله إليه رسله وأنبياءه؛ فإن لكل مقام مقالًا، ولكل حادثة حديثًا، والأسلوب الذي يحسن استعماله في موطن؛ لا يصلح أن يستعمل في موطن آخر، وهذا من الحكمة التي آتاها الله إبراهيم عليه السلام؛ فقد استعمل مع قومه أساليب نظرية في دعوتهم، وأخرى عملية، سنعرض لها على النحو التالي:

١. الأساليب النظرية.

❁ الحوار.

يقص علينا القرآن الكريم ما دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه من حوار حول عبادة غير الله.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم:٤١-٤٨].

حوار عذب هادئ رصين، ملؤه الحنان والعطف والشفقة، سمته الأدب والبر والتقدير، وهذا من جهة إبراهيم[(١)].

وفي المقابل الفظاظة والجفاء والغلظة من جهة والده، وتظهر السمات سالفة الذكر في أسلوب إبراهيم عليه السلام من خلال ما يلي:

نادى والده مستعملًا في ندائه تاء الاحترام (أبت) بدلًا من استعمال ياء الإضافة.

لم ينعت أباه بالجهل، بل أشعره بأنه يعترف بما لديه من علم، لكنه أخبره أنه قد أتاه الله علمًا زائدًا على الذي عنده.

طلب منه أن يتبعه؛ معللًا ذلك بأنه قد عرف طريق الحق، ولم يذكر له أنه على طريق عوجاء.

ذكر له الداعي الذي دعاه لهذا الحوار-

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ١١.

الأمر الذي قد يراه أبوه جرأة منه عليه-، وهو الخوف والإشفاق على أبيه من عذاب الله تعالى.

قوله له بعد التهديد والوعيد الذي قابله به: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

❁ التعريض والإشارة.

وذلك في يوم اجتماع لقومه يعظمون فيه النجوم، خرج معهم وأظهر أنه سيفعل مثل فعلهم، وما كان ذلك عن إيمان، وإنما مجاراة لهم؛ ليبين لهم ضعف عقولهم، إذ لم يتفكروا ولم يتبصروا، فالمعبود الذي يستحق العبادة لا ينبغي له أن يتغيب عن عبيده، ولما كانت النجوم تظهر وتختفي؛ كان هذا دليلًا على نقصها وعجزها[1].

يقول الله سبحانه وتعالى عن هذا الأسلوب وكيف وظفه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

وكان من حكمته أن قد بدأ بالأصغر؛ ليبين أنه إن لم يستمر في الظهور؛ فلا يستحق أن يعبد، ثم ثنى بما هو أكبر، وهو القمر، فلربما كان هو الأبقى الذي يستحق العبادة؛ لأنه أقدر على الظهور، فلما غاب؛ بين لهم أنه جدير بالكفر بعبادته، ثم التفت إلى الشمس وقد كانت منافعها أكثر، لكنها جرت على سنة سابقيها من الاختفاء؛ فكانت لها نفس النتيجة، وهي عدم استحقاق العبادة.

❁ الدعوة إلى التبصر والتدبر.

كان إبراهيم أمة كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنه، فقد استنفد كل الأساليب والوسائل في دعوة أبيه وقومه، وذكر الله جل جلاله أمثلة عليها.

ومن هذه الأمثلة قوله عز وجل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٨.

[الشعراء: ٦٩-٨٢].

دعاهم إلى النظر والتأمل في طبيعة آلهتهم، فهل لديها ما يوجب لها العبادة من مقومات الألوهية، فهل هي تسمع دعاءهم؟ وهل يمكنها جلب المنافع لهم؟ أم هل يمكنها دفع المضار؟ فأجابوه: بأن هذا فعلٌ عهدوا عليه آباءهم، فهم متبعون لهم على هذه الطريقة؛ فأخبرهم بأن هذا لا يبرر فعلهم، وهو فوق ذلك يعلن العداء لكل معبود عبده قومه وآباؤهم، إلا أن يكون المعبود هو الله؛ لأنه وحده الذي بيده الرزق، وهو الذي بيده الشفاء من الأمراض، وهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يغفر الذنوب جميعًا يوم القيامة، ففيه الرجاء لفعل هذا؛ فهو حقيق بالعبادة[1].

- المحاجة والمجادلة.

ويظهر هذا الأسلوب في موقفين ذكرهما القرآن:

الموقف الأول: حين خوفه قومه من آلهتهم أن تصيبه بسوء:

يقول الله سبحانه وتعالى في عرض هذا المشهد: ﴿وَحَاجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

الموقف الثاني: مع النمرود:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

- الاستهزاء والتهكم.

وقد ذكر الله له ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: عند دعوتهم له؛ ليشهد عيدهم الديني:

ويصف المولى هذا المشهد قائلًا: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ٨٩ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: ٨٨-٩٢].

ولنا وقفة مع هذه الآيات الثلاث، حيث إن المفسرين اختلفوا في سبب قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ على أقوال كثيرة؛

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٩٢.

ليخرجوها مخرج الصدق، وهو بلا شك مقصد حسن.

لكنه يتعارض مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذباتٍ، ثنتين في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدةٌ في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبارٍ ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك)[1].

وذهب بعض العلماء إلى رد الحديث، وتضعيفه، وهو مروي في الصحيحين.

إن الناظر في اختلاف المفسرين في هذه المسألة يجدها على أقوال[2]، وإن كانت محمولة على الاعتذار لنبي الله إبراهيم عليه السلام، إلا أنها تضعف عن النهوض للتوفيق بين ما يرونه وبين قول النبي صلى الله عليه وسلم في إبراهيم عليه السلام.

والذي يؤكد أن الكذب هنا هو المراد حقيقة، وذلك في حديث الشفاعة الذي جاء فيه قول إبراهيم عليه السلام حين يأتيه الناس؛ ليشفع لهم: (فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أنهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟، فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذباتٍ)[3].

ولكنه كذب لا يذم فاعله؛ كغيره من الأنواع التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أعده كاذبًا، الرجل يصلح بين الناس، يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها)[4].

وما واحد من هذه المواطن في الشرف بمكانة، مثل المواطن الذي كذب فيها إبراهيم عليه السلام، إذن هو كذب مشروع، ومأجور عليه صاحبه، وما كان من اعتذار لإبراهيم عليه السلام عن الشفاعة، -معللًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، ٤/ ١٤١، رقم ٣٣٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، ٧/ ٩٨، رقم ٦٢٢١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٦٣، الوجيز، الواحدي، ص٩١٢، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ذرية من حملنا مع نوح)، ٦/ ٨٤، رقم ٤٧١٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ٢٤٥، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، ٤/ ٢٨١، رقم ٤٩٢١.
وصححه الألباني، صحيح الجامع ٢/ ١٢٠٤.

ذلك بهذه المواقف-، إلا حياؤه من الله عز وجل؛ لأنه كان بإمكانه أن يأتي بالعزيمة؛ لبيان الحق في تلك الأقوال مباشرة، وتحمل تبعات ذلك في سبيل الله سبحانه وتعالى، والله جل جلاله أعلم.

وتوجيه القول بأن ما صدر من إبراهيم إنما هو كذب؛ أن قوم إبراهيم عليه السلام حينما دعوه لحضور عيدهم، -وكانوا قومًا يعظمون النجوم-؛ فنظر إلى النجوم قائلًا: إني سقيم أعجز عن حضور عيدكم، فإن كانت هذه النجوم التي تعظمونها قادرة على شفائي؛ أذهب معكم، حينها تولوا عنه مدبرين، حيث إنه أفحمهم بحجته، وقد علموا أنه إنما قال ما قال على سبيل الاستهزاء؛ فتركوه؛ حتى لا ينغص عليهم عيدهم، ويسمعهم ما يكرهون في آلهتهم.

وهي ليست بالأمر الغريب على إبراهيم عليه السلام، فقد سبق له أن خاطبهم بالطريقة نفسها، حينما بين لهم عدم صلاحية الشمس والقمر والنجم للعبادة، حيث أوهمهم بقوله كما يبينه لنا القرآن: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[الأنعام: ٧٦].

مرة في الكوكب، ومرة في القمر، ومرة في الشمس، وهو لا يريد بقوله هذا أنه آمن بها، وإنما أراد التدرج معهم؛ لبيان عدم صلاحيتها للألوهية.

وهذه كانت قبل قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وفي مرة أخرى حينما سألوه عمن حطم آلهتهم، قال: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣].

وهذه حدثت بعد قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وقد توسطت هذه الحادثة، تلكما الحادثتين، وهما من قبيلٍ واحد، وقد أشبهتهما هذه الحادثة؛ فلا يمتنع أن تكون من جنسهما، أي: أنه قال هذا القول على سبيل الاستهزاء والله سبحانه وتعالى أعلم.

الموقف الثاني: قبل تحطيم الأصنام:

حين دخل على الأصنام، وقرابين قومه التي قربوها إليها موضوعة أمامها؛ فسأل الأصنام، -وهو يعلم أنها لن تجيبه-، فكان سؤالًا على سبيل الاستهزاء بفعل قومه، فهو يعلم أنه لا ذنب لحجر -لا اختيار له فيما صنع به من التعظيم-؛ ليكون ندًا لله عز وجل.

يقول الله تبارك وتعالى مخبرًا لنا عن هذا الموقف: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١- ٩٣].

ثم قام بتحطيمها لا عقوبة لها، ولكن تبكيتًا لقومه، وتنفيذًا لوعيده الذي توعدهم به، واستحضارًا بهذا الفعل لعقولهم؛ لعلهم يرشدون حين يرون آلهتهم وهي محطمة، لم تستطع الدفاع عن نفسها[1].

(١) انظر: مراح لبيد، عمر الجاوي، ٢/ ٣٠٤.

الموقف الثالث: بعد تحطيم الأصنام:

بعد ذهاب قوم إبراهيم عليه السلام إلى عيدهم فعل إبراهيم عليه السلام ما كان قد توعدهم به من كيد للأصنام، فقام بتحطيمها، ثم لما رجعوا؛ وجدوا ما حل بها، فتساءلوا عمن فعل هذا بها؟، ثم تذكروا أن إبراهيم عليه السلام قد ذكرها وتوعدها، فذهبوا إليه؛ ليتثبتوا منه، وقد أضمروا الكيد به، والانتقام لآلهتهم من فعلته.

وقد كان بينهم هذا الحوار، حيث يقول الله عز وجل: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٧].

قالوا له: هل أنت الفاعل بآلهتنا ما نراه يا إبراهيم؟ فأجابهم إجابة يعلم أنها ليست بحق، ولكنه أراد بهذه الطريقة أن يوقفهم على ما فيه نقص عقولهم بمنهاج عملي، ولنا معه وقفة، فهو لما قال لهم: إن الفاعل هو أكبر أصنامهم، وأشار عليهم بأن يسألوه هو بدلًا من أن يسألوا إبراهيم عليه السلام، وهو يقول لهم ذلك مستهزئًا بعجز آلهتهم؛ لعلمه القاطع بعدم قدرتها على الإجابة، توقفوا مع قول إبراهيم عليه السلام، وفهموا مراده.

لكن سرعان ما انقلبوا رأسًا على عقب؛ فقد أقروا بعجز آلهتهم، ثم لم يلبثوا أن تركوا التأمل في طبيعة أصنامهم، واحتجوا لأنفسهم على إبراهيم عليه السلام بما أراده أن يكون حجة عليهم، فإذا بلغ منهم الأمر هذا المبلغ؛ فأي رجاء حينئذٍ في هداية قوم احتجوا بالباطل البين -الذي هو حجة على بطلان الباطل-؛ فجعلوا به الباطل حقًا؟

فجاء رد إبراهيم عليه السلام بالتضجر منهم ومن عقم تفكيرهم، متسائلًا كيف تقبلون على أنفسكم أن تكونوا عبادًا لشيء لا يحصل لكم منه نفع، ولا يحل بكم منه ضر؟! وأكبر دليل أنه لا يستطيع أن يشفي غليلكم في إجابة هذا السؤال الذي أنتم بحاجة ملحة لمعرفة إجابته، أين عقولكم؟!![1].

٢. الأساليب العملية.

- **اعتزالهم ورفض المشاركة في أعيادهم.**

هذا خبر إبراهيم عليه السلام حين دعاه قومه للاحتفال بعيدهم، وكيف رد عليهم، يقول الله عز وجل: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِّى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٧/ ٢٠٢.

[الصافات: ٨٨-٩٠].

قد مر معنا في الأساليب النظرية أن إبراهيم عليه السلام قد استعمل مع قومه في هذه الحادثة أسلوب التعريض والاستهزاء في عبادة النجوم، وبيان عدم قدرتها على الثبات على حال الظهور، وعجزها عن تحقيق الخير الذي يرجوه الإنسان من معبوده.

وقد كان الموقف الأخير حين جاءوا إليه لدعوته لأن يشاركهم في عيدهم؛ فرفض وتهكم بهم وبعيدهم ومعبودهم؛ ففروا من أمامه؛ لعلمهم أنهم لو مكثوا عنده مزيدًا من الوقت؛ لأسمعهم مما يكرهون في آلهتهم أكثر.

فجاء التعبير القرآني بقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾، فشبههم بالذي يفر من الزحف موليًا دبره للعدو خوفًا، لا من الهزيمة؛ فإنه لا يفعل ذلك انهزامًا، ولكن خوفًا من القضاء عليه.

وهم قد خافوا من أن يقضي إبراهيم عليه السلام على فرحتهم إذا قضى على صحة معتقدهم، وأبطل دينهم وحجتهم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد آتاه الحجة الدامغة في مواقف المحاجة والمناظرة[1].

❁ **تحطيم الأصنام.**

يذكر الله عز وجل هذا الموقف من فعل إبراهيم عليه السلام بعد إقامة الحجة منه على قومه في مواطن كثيرة، وبعد سابق وعيدهم على أنه سيكيد أصنامهم، وبيان عدم خوفه منها، واستنفاد كل الأساليب النظرية في بيان الحق، فقد قام بأسلوب من نوع آخر، إنه الأسلوب العملي في إبطال الباطل، إنه تحطيم مصدر الخوف المانع لهم من اتباعه، والإثبات بطريق عملي حسي قاطع، شاخص أمام أعينهم، وماثل بين يدي عقولهم، وشاهد يسمعهم أن هذه الآلهة التي يعبدونها لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا؛ فحري بهم أن يهجروها، وجدير بهم أن يهملوها، ولكن ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

ويأتي بيان الحال التي ترك عليها الأصنام في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٥٨].

وإبقاء الكبير أيضًا كان من أجل تقوية الحجة على عجزهم، وذلك أنهم قد يظنون أن الحادث قد وقع بشكل مفاجئ؛ فلم تكن الفرصة للنجاة أو الدفاع عن النفس قد توفرت لديها، وهذا إنما يأتي على سبيل المجاراة لعقولهم العقيمة؛ وإلا فإن من

(١) انظر: المصدر السابق ٨/ ٢١٦.

كان يستحق الألوهية يجب أن يكون محيطًا بعلم الحوادث قبل وقوعها، ولا يمكن بحال أن تغيره أو تؤثر فيه، فإن وجود الكبير والحال هذه دليل على عجزه عن الدفاع عن حاشيته[1].

❁ الهجرة.

بعد أن استفرغ إبراهيم عليه السلام وسعه، وبذل كل جهده، في إصلاح قومه، إلى أن انقطع أمله منهم، وذلك بعد أن بلغ بهم الإصرار والعناد مبلغًا، دفعهم إلى الكيد له، والسعي في قتله شر قتلة؛ هجرهم.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

ويقول أيضًا: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

ولم يكن مراده الهجرة إلى الله سبحانه وتعالى من الأرض إلى السماء؛ ليصير إلى جوار ربه، ولا الهجرة من بلد أهله وقومه إلى بلد آخر من أجل الدنيا، وإنما هجرة من الأرض التي يعبد غير الله عز وجل فيها إلى أرض يستطيع فيها عبادة ربه وحده لا شريك له[2].

ولم يلجأ إلى هذا الفعل بمجرد أذى لحق به، فلطالما آذاه وقومه، ولكن الأمر قد بلغ النهاية، كما حدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أرادوا قتله، حينها أذن له بالهجرة.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٧٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ٢٣/ ٧١.

محاجته عليه السلام لقومه وللملك

أولًا: محاجته عليه السلام لأبيه وقومه:

١. محاجته لأبيه.

إن أعلى رتب الكمال البشري تكون حيث كمال الرجل بأخلاقه، وإن الوالدين هم أولى الناس بتحسين الأخلاق معهم بعد رسل الله عليهم السلام، وقد صور لنا القرآن هذا الخلق الحسن فيما دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه، وتقدم بيان هذا في ما سبق، حين تعرضنا لأسلوب الحوار في الدعوة.

وكان حوارًا أقام فيه إبراهيم الحجة على والده، ببطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام، كما أخبر الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

فقد أقام الحجة في هذا المقام، ببيان معالم العجز التفصيلية في آلهة أبيه، والمقتضية ممن له مسحة عقل، وملحة رشد أن يتبرأ من عبادتها؛ فهي عاجزة عن السمع لمن ناداها، عمياء عن رؤية من تقرب إليها وتولاها، ولا تغني شيئًا عمن استجداها، وما هي في حقيقتها إلا عبادة للشيطان، ومعصية للرحمن، وموالاة للعدو الأول للإنسان، فماذا كانت حجة الوالد، التهديد والوعيد، والطرد المديد، وهذه حجة من بغى وطغى، ليس فيها حق ولا هدى[1].

٢. محاجته لقومه.

كانت دعوة إبراهيم عليه السلام الدعوة إلى ترك ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام والتصديق بالنجوم وهجرهما، والتوجه إلى الله جل جلاله بالتوحيد الخالص، وكان قومه يخافون من أن يكون للأصنام والنجوم تأثير في مقادير الناس؛ فحذروه من أن يصيبه من شؤم فعله على حد تعبيرهم ما يكره؛ فرد عليهم أنهم أهل لهذا الخوف بما اعتقدوه في أصنامهم من هلاوس، وما أحدثه الشيطان في نفوسهم من وساوس.

أما إبراهيم عليه السلام فهو في أمان من هذه الهواجس، فمن خاف الله سبحانه وتعالى؛ أمنه الله جل جلاله من كل شيء،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٩٤.

ومن خاف غير الله عز وجل؛ أخافه الله تبارك وتعالى من كل شيء[1].

يقول الله سبحانه وتعالى في عرض هذا الحوار: ﴿وَحَاجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٠-٨٣].

أعطى الله عز وجل إبراهيم عليه السلام الحجة في كل موطن؛ فكان الأعلى دائمًا على من وقف أمامه، وقد عجز قومه عن إقامة الدليل على صحة ما يعتقدونه؛ فلجأوا إلى أسلوب الإرهاب والتخويف بآلهتهم، فجاءهم الجواب من إبراهيم عليه السلام بأن الله سبحانه وتعالى قد هداه، فهو على غير شاكلتهم، لا يخاف إلا أن يقضي الله جل جلاله أمرًا أراد به أن يهلك أحدًا من خلقه، ولو أنهم كانوا يعقلون؛ لعلموا أن الله عز وجل وحده هو الذي يستحق أن يخشى بالغيب.

أما آلهتهم فليس هناك أدنى مبرر للخوف منها، فعلى الأقل هي لا تسمع؛ فهي صماء، لا تبصر؛ فهي عمياء، لا تنطق؛ فهي بكماء، لا تعقل؛ فهي بهماء، لا تتحرك؛ فهي شلاء، ولا تعبر؛ لأنها عجماء، فلا علم لها بأي شيء، ولم يمنحها الله جل جلاله القدرة على أي فعل مما يحذرون، والله سبحانه وتعالى هو السميع البصير، حكيم في أفعاله وأوامره ونواهيه، عطاؤه كلام، ومنعه كلام، وخلقه كلام، يفعل ما يشاء بقدرته، ويقضي ما يريد بحكمته، عالم الغيب والشهادة، وهو الرحمن الرحيم، فمن الذي يستحق أن ينطبق عليه وصف الخوف؟، الذي آمن بالله جل جلاله وكفر بكل إله سواه، أم من كفر بالله واتخذ من الأصنام والنجوم إله!![2].

الحق الساطع واليقين القاطع هو أن الذين آمنوا بالله، ولم يشركوا به هم أحق الناس بالأمن، ولو أن قومه يعقلون أو يرشدون؛ لسلموا لهذا الأمر وصدقوه، وآمنوا به واتبعوه، وهذا الحديث الذي جاء على لسان إبراهيم عليه السلام هو من توفيق الله جل جلاله له، ومن حجته التي ألهمه إياها، أو أوحى بها إليه.

٣. محاجة الملك.

إنه النمرود، الذي ملك الأرض شرقها وغربها، وكان الناس في ذلك الزمان قد

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري،٢/ ٤٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري،١١/ ٤٨٨.

أصابهم الجدب، وكانوا يذهبون إليه؛ ليأخذوا ما يحتاجونه من الطعام والشراب؛ فيمتحنهم بهذا السؤال: من ربك؟ فمن قال له: أنت ربي؛ أعطاه، وكان فيمن جاءه إبراهيم عليه السلام فسأله: من ربك؟ فجاء جواب إبراهيم كما ذكر القرآن.

وكانت بينهما تلك المناظرة، والتي ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨][(١)].

يذكر الله سبحانه وتعالى أمرًا عجب منه عز وجل، وذكره على سبيل التعجيب لقارئ القرآن منه، وهو أن عبدًا من عبيده، أنعم عليه وملكه على الأرض؛ فقابل هذا الفضل بالكفر بدل الشكر، وإنه ادعى الربوبية، وامتحن الناس فيها، وكانوا يجيبونه لما أراد، إلى أن جاءه إبراهيم عليه السلام؛ فدعاه لما دعا إليه الناس؛ فأجابه على غير ما أراد، وبين له أنه مربوب لمن يستحق الربوبية بكونه يملك الإحياء والإماتة؛ فعارض المغرور قول إبراهيم؛ بأنه يملك ما نسبه إبراهيم عليه السلام إلى ربه، فهو بإنفاذه حكم القتل على أحد يميته، وبإيقاف هذا الحكم عن محكوم عليه به يحييه، ولكن إبراهيم عليه السلام الذي آتاه الله الحجة، وأيده بالمحجة، عدل عن النزول إلى مناقشة هذا الغباء، واختار طريق الإفحام، بالاحتجاج بأمر لا يطيقه بشر، فقال له: إن ربي يأتي كل يوم بالشمس من المشرق؛ فافعل ضد هذا أنت وأت بها من المغرب، فألجم وأفحم، وأبلس وأخرس، فكيف يكون لغبي أن يحاجج نبيًا؟! وهل يجوز لأخرق أن ينال البيرق؟! إنها حجة الله جل جلاله وتقدست أسماؤه.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري،٥/ ٣٥، تفسير القرآن،أبو المظفر السمعاني،١/ ٢٦.

إبراهيم عليه السلام والبيت الحرام

أولًا: إبراهيم عليه السلام وإعمار البلد الحرام:

كان إبراهيم عليه السلام أمة، كما أخبر الله عنه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

فقد أحيا توحيد الله عز وجل في الأرض بعد خلوها منه عند البشر، وشرق في الأرض وغرب من أجل هذا المقصد، حتى البلد الحرام في ذلك الزمان كان قد خلا ممن يعبد الله جل جلاله فيه؛ فذهب إليه بولده الوحيد، وزوجه الضعيفة، وأسكنهما في مكان قفر، ليس فيه معلم من معالم الحياة.

وجاء خبر هذا في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٧-٣٨].

وتفسير هذا جاء في صحيح البخاري:

قال ابن عباسٍ: (أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل عليه السلام وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحةٍ، فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ، وليس بها ماءٌ.

فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماءٌ، ثم قفى إبراهيم عليه السلام منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل عليه السلام فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا.

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: رب ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ حتى بلغ - ﴿يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل عليه السلام ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا

أقرب جبلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مراتٍ.

قال ابن عباسٍ: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فذلك سعي الناس بينهما) فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت صهٍ - تريد نفسها -، ثم تسمعت، فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء -، لكانت زمزم عينًا معينًا).

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقةٌ من جرهم، أو أهل بيتٍ من جرهم، مقبلين من طريق كداءٍ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماءٍ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عليه السلام عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس).

فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبياتٍ منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأةً منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم عليه السلام بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل عليه السلام، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٍ، نحن في ضيقٍ وشدةٍ، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل عليه السلام كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك

فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهدٍ وشدةٍ، قال: فهل أوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم عليه السلام ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخيرٍ وسعةٍ، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ولم يكن لهم يومئذٍ حبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل عليه السلام قال: هل أتاكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، أتانا شيخٌ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخيرٍ، قال: فأوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل عليه السلام يبري نبلًا له تحت دوحةٍ قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد)[1].

وهكذا بدأ إعمار البلد الحرام، إلى أن أراد الله سبحانه وتعالى أن يتم بناء المسجد الذي سيكتمل به الإعمار، والحديث عنه في ما يلي.

ثانيًا: إبراهيم عليه السلام وبناء الكعبة:

يأتي الحديث في سورة البقرة عن سيدنا إبراهيم، وبيان فضل الله سبحانه وتعالى عليه بجعله إمامًا للناس، إلى أن ذكر بناء المسجد الحرام، وعقب بعد ذلك بتكرار الثناء على إبراهيم وتأكيد إمامته، بحيث لا يقبل الله جل جلاله ملة غير الملة التي كان عليها، وأن الله سبحانه وتعالى اصطفاه، وبين السبب لذلك؛ أنه قد أسلم لربه بما أمره به.

وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب...، ٤/ ١٤٢، رقم ٣٣٦٤.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٣١].

قال ابن عباسٍ: (ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام، فقال لأهله: إني مطلعٌ تركتي، فجاء فوافق إسماعيل عليه السلام من وراء زمزم يصلح نبلًا له، فقال: يا إسماعيل، إن ربك أمرني أن أبني له بيتًا، قال عليه السلام: أطع ربك، قال عليه السلام: إنه قد أمرني أن تعينني عليه، قال عليه السلام: إذن أفعل، أو كما قال عليه السلام: قال فقاما فجعل إبراهيم عليه السلام يبني، وإسماعيل عليه السلام يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

قال: حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧])[1].

وهكذا شرف الله عز وجل إبراهيم وولده إسماعيل ببناء أعظم بيت على وجه الأرض، ليكون به الإعمار لأرض الله كلها، فما من مسلم يريد الصلاة في بقعة من بقاع الأرض إلا وهو يتوجه إلى المسجد الحرام الكعبة.

ولم يقتصر إعماره للبلد الحرام على هذا الحد، بل إنه توجه إلى الله جل جلاله بهذا الدعاء ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وهذه الدعوة هي التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه العرباض بن سارية أنه قال: (إني عند الله مكتوبٌ: خاتم النبيين وإن آدم لمنجدلٌ في طينته وسأخبركم بأول أمري دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج لها نورٌ أضاء لها منه قصور الشام)[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، ٤/ ١٤٤، رقم ٣٣٦٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٧٩، رقم ١٧١٥٠.
وصححه الألباني، في تعليقه على مشكاة المصابيح، ٣/ ١٦٠٤، رقم ٥٧٥٩.

والذي نراه اليوم من عمران في الدنيا كان بدعوة منه عليه السلام، فكان محمد صلى الله عليه وسلم هو الرسول الذي دعا بمجيئه إبراهيم عليه السلام، وها هي أمته تعمر ذلك المكان وقلوبها تهوي إليه، عمارة بتوحيد الله وتعظيمه، بما علمهم إياه الرسول من الكتاب والحكمة، وزكاهم به من تنقيتهم من الشرك والبدع والمعاصي.

[انظر: مكة: إبراهيم عليه السلام ومكة]

ثالثًا: إبراهيم عليه السلام وفريضة الحج:

عهد الله جل جلاله لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بعد بناء بيته الحرام بتطهيره وتهيئته للقاصدين له تعبدًا بألوان العبادات، من الاعتكاف والصلاة، ثم أمر إبراهيم عليه السلام بعد ذلك أن ينادي بالناس لحج بيته الحرام.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].

وقبل ذلك كان قد دعا بدعوة أجابه الله سبحانه وتعالى بما أمره به في هذه الآية، يقول الله جل جلاله مخبرًا عن دعوته تلك بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فكانت فريضة الحج فريضة ماضية إلى يوم القيامة من لدن إبراهيم عليه السلام إلى قيام الساعة، ومناسكها هي مناسك إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان ذلك ثمرة دعائهما، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨-١٢٩].

وهي التي علمنا إياها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: (خذوا عني مناسككم لعلي لا أراكم بعد عامي هذا)[1].

وما زالت قلوب الناس تهوي لأدائها، ويأتون لأهل هذا البلد بالأرزاق معهم، ويجدون فيها كما نسمع ونرى في هذا الزمان من كل الثمرات في الموسم الواحد، وهذا كله من كرم الله جل جلاله على إبراهيم وذريته.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ٥/ ٢٠٤، رقم ٩٥٢٤، وأصله في مسلم بلفظ: خذوا مناسككم.

إبراهيم وذريته عليهم السلام

أ،ولًا: التبشير بالذرية الصالحة:

مضت سنة الله سبحانه وتعالى أن يكافئ على الإحسان بالأحسن، وأن من ترك شيئًا من أجله؛ أن يعوضه الله خيرًا منه، كما جاء في الحديث المسمى بحديث الأعرابي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إنك لن تدع شيئًا اتقاء الله إلا أعطاك الله خيرًا منه)[1].

وقد هجر إبراهيم عليه السلام أباه وقومه؛ فأبدله بالذرية الصالحة، وجعل النبوة فيها، كما هجر العراق؛ فأبدله الله بيت المقدس ومكة، وقد جاءته البشارة بالذرية الصالحة، على كبره، وتقدم سنه.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٩٩-١٠١].

وهي البشارة بإسماعيل عليه السلام، ومن بعدها البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

وقد جاء لنا وصف البشارة بإسحاق، والحالة التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، والتي كانت عليها زوجه سارة عند البشارة.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

وما أعظمها من نعمة، أفردها إبراهيم عليه السلام بالحمد لربه جل جلاله؛ استشعارًا منه بعظمتها عليه، حيث أخبر الله عز وجل عنه بذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وذلك أنها جاءته على حال عجز، وانقطاع أمل ممن هو في مثل حاله، الأمر الذي دعا سارة رضي الله عنها أن تعجب منه؛ فذكروها بأنها إرادة الله الذي ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وزادوهم بالدعاء والرحمة من الله تبارك وتعالى على ما قاموا به من حق الله جل جلاله، وصبروا.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/ ٣٤٢، رقم ٢٠٧٣٩.
وصححه الألباني، في السلسلة الضعيفة،١/ ٦٢ في كلامه عن الرقم٥.

ثانيًا: النبوة في ذريته:

وجعل الله في ذريته عليه السلام النبوة والرسالة كما جعلها في ذرية نوح عليه السلام.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وقد خصه الله بالذكر في هذا الأمر في موضع آخر من كتابه حيث يقول جل جلاله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عددًا ممن كان من الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكرم الناس فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم) فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا)[1].

فالإجابة الأولى كانت من النبي صلى الله عليه وسلم باعتبار الإيمان الذي هو ميزان التفاضل بين عامة الناس، فلما أخبر الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا ليس مقصدهم من السؤال؛ كانت الإجابة الثانية، حيث إن يوسف نبي، ابن يعقوب نبي، ابن إسحاق نبي، ابن إبراهيم النبي خليل الله -عليهم جميعًا الصلاة والسلام-، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، والإجابة الثالثة كانت باعتبار خيرية الصفات التي جبلت عليها العرب بحسب القبائل وما اختصت به.

الشاهد من الحديث الإجابة الثانية التي تبين منها أن اتصال النسب بالنبوة إلى إبراهيم عليه السلام جعل حامله أكرم الناس نسبًا، فهي ذرية طيبة من أصل طيب.

يقول الله جل جلاله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، ٤/ ١٤٠، رقم ٣٣٥٣.

﴿نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

فهم صفوة الله من خلقه، وكانوا بعد إبراهيم كلهم من ذريته، عليه وعليهم الصلاة والسلام، وعلى رسولنا أطيب الصلاة وأفضل السلام.

ثالثًا: قصة الذبيح:

الذبيح هو أحد أبناء إبراهيم عليه السلام، وقد زعم اليهود أنه إسحاق عليه السلام، وقد استندوا في ذلك لنص موجود في التوراة المحرفة عندهم يقول: «اذبح ولدك بكرك، ووحيدك إسحاق»[(١)]، وهو أمر يختلف مع ما جاء في شريعتنا، وعليه فهو مما ينبغي رده-وإن حصلت الموافقة لهم في ذلك من بعض علماء المسلمين-، إلا أن جمهور أهل العلم على أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه السلام.

ولا يعد هذا انتقاصًا من قدر إسحاق عليه السلام، فقد تقدم في الحديث الذي مر آخرًا من أنه كريم ابن كريم، ولا يزعجنا -نحن كمسلمين- أن يكون إسحاق عليه السلام هو الذبيح -إن ثبت هذا بما يدفع كون الذبيح هو إسماعيل عليه السلام-.

لكن القول بهذا الأمر مردود من وجوه عديدة ذكرها ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان[(٢)] في بيان بطلان النص آنف الذكر المثبت في توراتهم.

وقد جاء ذكر هذا الأمر في سورة الصافات بما يجزم أن الذبيح إنما هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق عليه السلام.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠١-١١٢].

فعطف بالبشارة الثانية على البشارة الأولى عطفًا يقتضي التغاير؛ فكانت النتيجة أن الأول غير الثاني، وكانت الثانية مصرحة بأن المبشر به هو إسحاق عليه السلام، أي: أن المبشر به الأول الذي هو الذبيح هو غير إسحاق عليه السلام، فيكون إسماعيل عليه السلام، وهو الولد البكر لإبراهيم عليه السلام، -وعليهم جميعًا صلوات الله وسلامه-، وهذا فيه رد

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ٣٥٥.

(٢) انظر: المصدر السابق.

على أهل الكتاب، ومن اشتبه عليه الأمر من المسلمين[1]، حيث وقعت من بعضهم الموافقة لليهود في هذا القول[2]، ومن أراد التوسع في الاطلاع على مزيد من أوجه الرد؛ فلينظر إغاثة اللهفان، وفيها من الفوائد والعبر ما سنذكره -إن شاء الله- لاحقًا.

رابعًا: الدعاء لذريته:

جعل الله سبحانه وتعالى غريزة حب البقاء، والنساء في الأثر، والتناسل والتوالد، غريزة في الإنسان، يشاركه فيها الحيوان، لكنه ينفرد عن الحيوان إذا ما أراد بهذا الأمر الحفاظ على ما خلقه الله عز وجل من أجله، وهو إعمار الأرض بالتوحيد وعبادة الله جل جلاله، وهذا ما كان عليه أنبياء الله سبحانه وتعالى، والصالحون من عباده؛ فنجد أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام لما علم بأن الله اصطفاه، واختاره لمهمة الإمامة للناس؛ أحب أن يجعل الله هذا في نسله وذريته؛ فأراد منهم أن يكونوا خالصين مخلصين لرب العالمين.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فأرضاه الله سبحانه وتعالى، بأن بين له أن هذا كائن له في ذريته لمن قام بحقه مثل ما قام إبراهيم الذي كافأه الله به بحقه، أما الظالمون فلن تنالهم دعوته عليه السلام.

لما علم إبراهيم عليه السلام أن ذريته سيكون منهم الظالم؛ جاء دعاؤه لهم بعد ذلك يخص به الصالحين منهم، وذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فأخبره الله سبحانه وتعالى أنه قد تكفل بالرزق لمن آمن ومن كفر، لكن تذكيرًا منه لنبيه عليه السلام، وبيانًا لنا، أن الذي يتوعد الله به من كفر به- وإن كان له من المتاع في الدنيا ما يغتر به- هو العذاب المقيم في نار جهنم، المكان الذي لا يملكون أن يتحولوا عنه إلى غيره[3].

إن من المواطن التي يرفع فيها الدعاء إلى الله تبارك وتعالى، ويقبله جل جلاله، الموطن الذي يكون العبد فيه قائمًا بطاعة الله، ويتأكد هذا الأمر عندما تكون هذه الطاعة من فرائد الطاعات.

وقد كان الأنبياء أفقه الناس بهذا؛ لذلك

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٤/ ٣٣١، التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٣/ ١٤٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٧٩، زاد المسير، ابن الجوزي،٣/ ٥٤٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٢.

لما أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة، وأعانه على ذلك ولده إسماعيل عليه السلام؛ استجابة لله جل جلاله، استثمروا هذا المقام العظيم الذي اختارهم الله عز وجل له، وسألا ربهما بهذا الدعاء.

يقول الله سبحنه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩].

ما أعظمه من نفع، قصداه لمن يأتي من نسلهما، الإسلام النعمة العظمى، والمنحة الكبرى، التي تكون به سعادة الأولى والأخرى، وبيان المناسك التي يرضاها الله عز وجل، وأن يكرمهم وينعم عليهم برسول أمين، يتلو عليهم كلام رب العالمين، ويزكي نفوسهم بما تزكو به نفوس المؤمنين، عليهما من الله صلاة وتسليم؛ بما أقاماه أو كانا سببًا في إقامته من الدين القويم.

وقد ذكرنا أيضًا في ما سبق ما كان من دعائه حين ترك إسماعيل وأمه هاجر عند بيته الحرام، والذي ذكره الله في سورة إبراهيم، وقد جاء فيه من دعائه، بالثبات على التوحيد، وتحقيق الأمن للبلد الحرام، وأن ييسر الله سبحانه وتعالى لهم من يؤنسهم من تلك الوحشة من الناس، وأن يرزقهم من الثمرات، وأن يجعلهم من المقيمين الصلاة، وممن امتن الله جل جلاله عليهم بإجابة الدعاء.

خامسًا: وصية إبراهيم عليه السلام لذريته:

إذا شعر الإنسان بدنو أجله؛ فإنه يتفقد أحوال من يحب، وإن كان موسرًا؛ فإنه يوصي لهم؛ حتى لا يدعهم عالة يتكففون الناس، فعلم إبراهيم عليه السلام ما أكرمه الله جل جلاله به من الرضا واستجابة الدعاء؛ فدعا لهم بكل خير ينفعهم في الدنيا والآخرة، وهذه تركته لهم، وكان يعلم عليه السلام أن الرفعة والمكانة التي أكرمه الله بها مردها إلى النعمة العظمى، التي حباه الله عز وجل بها، وهي نعمة الإسلام؛ فأثابه في عاجل الدنيا، بأن جعل الملة التي رضيها الله سبحانه وتعالى منسوبة إليه، فلا يقبل سبحانه وتعالى من عبد غيرها، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣١].

وقد أخبره الله عز وجل أن من ذريته من سيكون ظالمًا لنفسه؛ فأوصاهم بما

يحبه لهم من الخير، وأسباب حفظ نعمة الله جل جلاله عليهم، وهي أن يكونوا على الحالة التي وفقه الله سبحانه وتعالى إليها، بأن يسلموا لله رب العالمين[1]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

وأن يظلوا على العهد الذي فارقهم عليه إلى أن يموتوا؛ ليكونوا من صفوة الله الذين اصطفاهم من عباده على العالمين، وقد صدقوه فيها؛ فكانت وصية يعقوب لأولاده أيضًا.

وقد أخبر الله عز وجل عن هذه الوصية التي أوصى بها إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

وقد ورث هذه الوصية أبناؤه، ممن هم على طريقته وهداه؛ لما عندهم من العلم بأهمية هذه الوصية، فأخذ يعقوب عليه السلام العهد من أولاده؛ بأن يكونوا على ما كان عليه إبراهيم عليه السلام، وأبناؤه إسماعيل وإسحاق، وهم آباء يعقوب الذي كان على ما كانوا عليه، وهذا فيه رد على اليهود والنصارى الذين زعموا أن إبراهيم عليه السلام كان على ملتهم، وفيه رد على المشركين ببيان الملة الحنيفية الخالصة من كل ألوان الشرك وأنواعه، وهي التي كان عليها أبوهم إسماعيل عليه السلام ابن إبراهيم عليه السلام[2].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٥٠٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٦.

الدروس المستفادة من قصة إبراهيم

١. يرفع الله جل جلاله العبد على قدر ما يبذل في سبيله، ما استقام على الشريعة، ولا يمكن أن ينال الرفعة بغير ذلك، وهو بذل الجهد مع الاستقامة على الشريعة.

٢. من ترك شيئًا لله؛ عوضه الله عز وجل خيرًا منه، لما هجر إبراهيم عليه السلام قومه من أجل الله سبحانه وتعالى؛ اتخذه الله خليلًا.

٣. إمامة الدين لا تنال إلا بالصبر واليقين[1]، فإبراهيم عليه السلام لما صبر، وكان من الموقنين؛ صار إمامًا للعالمين.

٤. من أحيا ذكر الله؛ أحيا الله ذكره، وهذا ما رأيناه مع إبراهيم عليه السلام.

٥. حين يدعو العبد الناس لتوحيد ربهم -أجابوه أو لم يجيبوه-؛ يكافئه الله جل جلاله بإجابة الدعاء.

٦. أهل الإيمان أحق من في الوجود بالأمن.

٧. أمن الأوطان لا يتحقق إلا بالقيام بحق الإيمان.

٨. التوحيد أعظم نعم الله على العبيد.

٩. دعاء إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل ألا يعبد الأصنام، ووصيته لأبنائه؛ يفيدنا أن المؤمن على خطر إلى أن يتوفاه الله على الإسلام.

١٠. أهل الإيمان والتوحيد بعضهم أولى ببعض؛ لذلك كنا أولى بإبراهيم من اليهود والنصارى، وكذلك أولى بموسى وعيسى منهم.

١١. أهمية الدعاء للذرية بخيري الدنيا والآخرة، والابتعاد عن الدعاء عليهم.

١٢. حسن البر والمعاملة مع الوالدين -وإن كانا على غير الإسلام-، ويجب أن يكون مقترنًا بالحرص على إسلامهم، ودعوتهم له بالحكمة والأدب؛ فإن أبر البر أن يكون العبد سببًا في عتق والديه من النار.

١٣. المؤمن الحق يستسلم لله في كل شؤونه، وينقاد له في كل أموره.

١٤. أشد ما يتأذى به المؤمن، ويتألم من أجله؛ إعراض الناس عن دين الله سبحانه وتعالى؛ غيرة عليه، وشفقة عليهم.

١٥. من صفات المؤمن طول القنوت بين يدي الله عز وجل؛ راجيًا عفوه ورضاه.

١٦. من استقام على توحيد الله جل جلاله، وأكثر من عبادته؛ هو رجل بأمة، خاصة إذا كثرت الفتن.

(١) انظر: الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٢٦١.

١٧. من كان موقنًا بوعد الله، متوكلًا عليه حق توكله؛ قد يغير الله سبحانه وتعالى من أجله نواميس الكون، فالنار التي أوقدت انتقامًا؛ صارت بردًا وسلامًا.

١٨. الوفاء بمعناه الحقيقي هو أن يوفي العبد بعهد ربه، وأن يقدمه ويقدم حبه وحب كل شيء أمر بحبه على ما تحبه النفس وتهواه.

١٩. التجارة مع الله هي الأربح على الإطلاق، أتم إبراهيم عليه السلام كلماتٍ ابتلاه الله بها؛ فجعله إمامًا للناس، وأورثها الله جل جلاله لذريته من بعده.

٢٠. على المؤمن أن يكون حكيمًا كريمًا، بارًا راشدًا، شجاعًا كريمًا.

٢١. المراد بسلامة القلب: أن يقوم العبد بما قام به إبراهيم عليه السلام من أعمال أهلته لذلك، وهي كما يلي:

- إنكاره للشرك.
- التوحيد والدعوة إليه.
- هجرة المنكرات وأهلها وأماكنها.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- الثبات على دين الله عز وجل -مهما كانت التحديات-.
- تقديم حب الله على حب من سواه.
- تربية الأبناء على التوحيد، والاستجابة لأمر الله جل جلاله مهما كلفت من ثمن.
- عدم إضمار الغل والغش، والحقد والحسد لعباد الله تبارك وتعالى.
- أن يكون خليًا من أمراضه: التعالي والكبر، والأشر والبطر والعجب.

٢٢. معالم الدعوة ومرتكزاتها الأساسية في قصة إبراهيم عليه السلام:

- إعلان التوحيد.
- إنكار الشرك.
- البراءة من الشرك وأهله.
- موالاة الحق وأهله
- العداء لكل من عبد من دون الله سبحانه وتعالى ولعابديه.

٢٣. هجرة البلد والأهل والعشيرة؛ إذا لم يتمكن العبد من القيام بتوحيد ربه، وطاعته فيها.

٢٤. التنويع في أساليب الدعوة؛ لأن الناس ليسوا على طريقة واحدة في الفهم والإدراك والتفكير، فيخاطب كل فريق بما يتناسب معه من أسلوب، فالدعوة فن؛ فينوع ما بين الحوار، والتعريض، والدعوة إلى التبصر والتأمل، المجادلة بالتي هي أحسن، وقد يلجأ إلى الاستهزاء الهادف المنضبط بالآداب السامية، فلا يكون الغرض منه الإحراج، وإنما يكون الإيضاح وبيان

الحقائق، وهذه أساليب نظرية.

٢٥. هناك أساليب عملية قد يلجأ إليها الداعية، وهي: أن يعتزل الناس عند قيامهم بالمنكرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باليد واللسان والقلب،-حسب المصلحة الراجحة-، والهجران والإعراض بالكلية.

٢٦. الجدل له آداب لابد وأن يتحلى بها الداعية، منها:

- الشجاعة.
- أن يكون الجدال هادفًا.
- إغفال المهاترات، وعدم مجاراة الطرف الآخر فيها.
- إظهار النصح، وحب الخير.
- عدم إظهار الرغبة في قهر الطرف الآخر.
- أن يكون بالدليل والبرهان.

٢٧. هجر إبراهيم عليه السلام أرض العراق لله؛ فأبدله الله عز وجل بها خير بقاع الأرض، وأكثرها بركة، بيت المقدس والبلد الحرام.

٢٨. هدم إبراهيم عليه السلام الأصنام؛ فأكرمه الله جل جلاله ببناء المسجد الحرام.

٢٩. أذن في قومه ببطلان الشرك، وتحقيق التوحيد؛ فأكرمه الله سبحانه وتعالى بالأذان بالتوحيد، وتلبية الناس له إلى قيام الساعة.

٣٠. بشره الله بالذرية، وأكرمه بها في وقت هو أحوج ما يكون إليها، وأعانه على تربيتها، جزاءً له على ترك قومه وأهله من أجل الله.

٣١. صلاح الآباء يحفظ الله به الأبناء.

٣٢. أثر الدعاء في صلاح الأبناء عظيم، يجدر بكل عاقل ألا يغفله.

٣٣. أنفع الوصايا وأعظمها، هي الوصية بالثبات على الدين.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، النبوة، مكة

الأبوّة

عناصر الموضوع

مفهوم الأبوة	٢١٢
الأبوة في الاستعمال القرآني	٢١٣
الألفاظ ذات الصلة	٢١٤
الأبوة الأولى	٢١٦
أنواع الأبوة في القرآن الكريم	٢١٨
اتباع الآباء	٢٢٣
آثار اتباع الأبوة في الدنيا والآخرة	٢٢٥
صلاح الآباء وأثره على الأبناء	٢٣٠
الأبوة والأحكام الشرعية	٢٣٢
عاطفة الأبوة	٢٣٥
الأبوة يوم القيامة	٢٣٧

مفهوم الأبوة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل الأب في اللغة: التهيؤ والقصد، يقال: أب الرجل، إذا تهيأ للذهاب وقصد، والأب: النزاع إلى الوطن، ويقال: أبوة القوم، أي: كنت لهم أبًا، والأب: الوالد، والأبوان: الأب والأم، أو الأب والجد، أو الأب والعم، أو الأب والمعلم، أو الجد والجدة، ولا يرد الأب بمعنى المربي أو العم إلا بقرينةٍ[(١)].

ويتبين مما سبق أن الأبوة كلمة تحتمل عددًا من معاني التهيؤ والقصد للاحتضان الاجتماعي والتربوي، والتعبدي، وكافة مناحي الاحتضان، وإن كان أخص خصوصيات الأبوة هو أبوة الدم؛ إذ إنها حقيقته.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر غير واحدٍ تعريفًا اصطلاحيًا للأب، ويتضح أن ثمة فرقًا بين الأب والأبوة، فقد يكون أبًا في الدم، ويتنصل من واجباته تجاه بنيه في الأبوة من تهيؤ كامل بقصد للاحتضان التربوي والاجتماعي والتعبدي بما ينفع عند الله تعالى.

ومن التعريفات الاصطلاحية التي ذكرت الأب، ما يأتي:

تعريف الجرجاني رحمه الله بأنه: «حيوان يتولد من نطفته شخص آخر من نوعه»[(٢)].

ولم يختلف تعريف الكفوي عن تعريف الجرجاني، حيث قال: «إنسان تولد من نطفته إنسانٌ آخر»[(٣)].

وعرفه المناوي رحمه الله بأنه: «كل من كان سببًا لإيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره»[(٤)].

---

(١) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٥٧-٥٨، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٣٥، الكليات، الكفوي، ص٢٥.
(٢) التعريفات، ص٧.
(٣) الكليات، ص٢٥.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، ص٣٥.

الأبوة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أبو) في القرآن الكريم (١١٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٤٦	﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٠]
المثنى	٧	﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف:٨٠]
الجمع	٦٤	﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]

وأطلقت الأبوة في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الوالد بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾ [عبس:٣٤-٣٥].

الثاني: العم: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:١٣٣]. وإسماعيل كان عم يعقوب.

الثالث: الجد: ومنه قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]. أي: جدكم.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهمزة، ص٨-١٠.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ١١٤، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٥٩-٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوالد:

الوالد لغةً:

الأب، وتوالدوا، أي: كثروا وولد بعضهم بعضًا، ويقال: الوالدان، أي: الأب والأم معًا[١].

الوالد اصطلاحًا:

ما تولد واستبقي من نطفته ما يتوقع ذهابه بصورة منه، تخلف صورة عنه[٢].

الصلة بين الأب والوالد:

الوالد أخص من مصطلح الأبوة؛ إذ إن الأبوة تعني كل معاني التهيؤ والقصد للاحتضان بكافة أنواعه، فتجوز أن تكون في حق الجد والعم والمربي، أما الوالد فهو الأب الأدنى.

٢ الوالدة:

الوالدة لغةً:

الأم، يقال: ولدت المرأة ولادًا وولادةً، وأولدت: حان ولادها[٣]، وولدته أمه ولادة وإلادةً على البدل، فهي والدة على الفعل، ووالدٌ على النسب[٤].

الوالدة اصطلاحًا:

هي التي تضع ولدها المولود[٥].

الصلة بين الأب والوالدة:

الأب الأقرب هو زوج الوالدة التي تضع المولود.

٣ الأم:

الأم لغةً:

أم الشيء أصله، والأم: الوالدة[٦].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٦٧، مختار الصحاح، الرازي، ص٣٤٥.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٣٣٣.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٤٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٦٧.
(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٣٤٠.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٨٦٣.

الأم اصطلاحًا:

اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم الدنيا ومن فوقها وإن علون[1].

الصلة بين الأب والأم:

الأم والأب منهما يتكون الولد، فهما الوالدان اللذان يقومان على رعاية الأبناء.

٤ الجد:

الجد لغةً:

الاجتهاد والعظمة والقطع، كما يقال: جد في سيره، وتطلق غالبًا على أبي الأب وأبي الأم وإن علا[2].

الجد اصطلاحًا:

أبو الأب وأبو الأم وإن علا.

الصلة بين الأب والجد:

الجد إذا كان في معنى النسب فإنه والد الأب، أو والد الوالدة، وإن علا، وإذا كان في معنى التقدير فإن الأب والجد كليهما يقدر؛ بل إنه يجوز أن يطلق عليهما (الأبوان).

٥ العم:

العم لغةً:

مأخوذ من الشمول، ويطلق على أخي الأب، ويجمع على أعمام وعمومة، وتطلق العمومة على الجماعة الكثيرة من الناس[3].

العم اصطلاحًا:

أخو الأب الذي يشمل صفات الأبوة في التهيؤ والقصد للاحتضان بكافة أنواعه.

الصلة بين الأب والعم:

العم والأب يتفقان في جواز إطلاق الأب على كليهما، وإن كانت حقيقة الأبوة في الأب الأدنى، كما يجوز إطلاق الأبوين عليهما معًا، ويختلفان في النسب بأن كل واحد منهما له أحكام خاصة، من ذلك المصاهرة والمحارم، وغير ذلك.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ١٠٨.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٩٢.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٣/ ٦٢٩.

الأبوة الأولى

تبين من خلال التأمل في الآيات القرآنية أن الأبوة الأولى كانت في حق أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، باعتباره أبًا للبشر، وأن أولى أبوات المسلمين الموحدين هي أبوة أبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم، باعتباره أبًا للمسلمين.

أولًا: أبوة آدم عليه السلام للبشر:

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

حيث تحدثت هذه الآية الكريمة عن فتنة أبي البشرية، نبي الله تعالى آدم عليه السلام، التي أغوي بها من قبل الشيطان الرجيم.

فقد بينت الآية السابقة أن الله تعالى أنزل على بني آدم لباسًا يستر العورات، وأن لباس التقوى هو خير من لباس الثياب، وأن ذلك الإنزال للباس إنما هو من آيات الله تعالى، الذي له صفات الكمال الدالة على فضله، ورحمته لعباده، ثم انتقال من الخطاب إلى الغيبة؛ لئلا يقول أحد، إن الحث على التذكر خاص بالمخاطب، ويدعي أنه المسلمون فقط.

ثم تأتي هذه الآية الكريمة؛ لتنادي نداءً آخر لبني آدم، مفاده التحذير من مغبة الوقوع في الفتنة والضلالة، التي يحرص على غرسها ذلك الشيطان، الذي تعهد بإغواء بني آدم، كما أغوى أباهم عليه السلام، وكانت نتيجة تلك الفتنة التي وقع في شركها أبونا آدم صلى الله عليه وسلم أن نزع منه الذي سترهما الله تعالى به، ما داما حافظين لأنفسهما من مواقعة ما نهيا عنه، فإن الشيطان وجنوده يرون البشر، أما البشر فلا يستطيعون رؤية الشياطين بما جعل الله تعالى لهم من خفة الأجساد، أو عدم الألوان.

والسؤال الذي يطرح، لماذا سلط علينا هؤلاء الشياطين، هذا التسليط العظيم، الذي لا يكاد يسلم معه أحد؟، والجواب أن الله تعالى سلط هؤلاء الشياطين، وجعلهم أولياء للذين لا يجددون الإيمان؛ لأن بين أولئك الذين لا يتفقدون إيمانهم وبين الشياطين تناسبًا في الطباع، من الشهوة والأهواء، وغريزة السيطرة والحسد والحرص، فتوجب هذه الطباع اتباعًا منهم لمصائد ومكائد الشياطين[1].

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة ذكر الأبوين في حق آدم صلى الله عليه وسلم،

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٧/ ٣٨١، ٣٨٢، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ص١٩٦.

وزوجه رحمها الله؛ لبيان أن الجد والجدة يجوز أن يطلق عليهما مصطلح الأبوين.

ثانيًا: أبوة إبراهيم عليه السلام للمسلمين:

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

فقد ذكرت الآية السابقة المؤمنين في نداء خاص لهم أن يتذللوا لله تعالى، وينكسروا له بالركوع والسجود، وأن يعبدوه عبادةً تمتلئ ذلًا وحبًا لله تعالى، وأن يجتهدوا في فعل الخيرات؛ حتى يتحصلوا على النجاح في الدنيا والآخرة، ويستمر الأمر للمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة؛ لأن يجاهدوا حق الجهاد أنفسهم، ومن ثم الكفار والظلمة، على كافة أشكالهم وأنواعهم[(١)].

وحق الجهاد هو ما كان في سبيل الله تعالى، وليس في سبيل أحد من المخلوقات، فالله تعالى اختار المسلمين من أتباع الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم؛ لحمل دينه، وما جعل الله تعالى على المسلمين في جميع أمور الدين من ضيق بتكليف ما يشق القيام به، كما كان على من قبلنا، فالله تعالى وسع دينكم أيها المسلمون توسيع ملة أبيكم إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

ويجوز أن يكون المعنى: فاتبعوا ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام.

ويجوز أن يكون المعنى: وما جعل عليكم في الدين من حرج، أعني: ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام.

وتستأنف الآية الكريمة ببيان عظمة مكانة المسلمين عند الله تعالى، بأن الله تعالى وحده هو الذي سماهم المسلمين من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة[(٢)]؛ ليكون الرسول محمد صلى الله عليه وسلم شهيدًا على المسلمين يوم القيامة؛ لتبليغ هذا الدين.

وتكونوا أنتم أيها المسلمون شهداء على الناس بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغهم به؛ فالمطلوب منكم هو أن تلتزموا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تسألوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يسخط منه الله تعالى ويكره، فالله تعالى حتمًا هو الناصر ولا ناصر غيره، فهو نعم المولى ونعم النصير

(١) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي، ٤/ ١٣٩.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٧/ ٢٧٩.

للمسلمين الصادقين[1].

وفي الآية بيان أن نبي الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو أبو المسلمين؛ لأن حرمته على المسلمين مثل حرمة الوالد[2]، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا لكم مثل الوالد)[3]، وبذلك يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أبًا لأمته.

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي، ١٥/ ٥١٢-٥١٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٥١٠.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، بداية مسند أبي هريرة، ٧/ ١٨٣، رقم ٧٣٦٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمة، ١/ ٢٠٨، رقم ٣١٣.
قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

أنواع الأبوة في القرآن الكريم

يتناول هذا المبحث أنواع الأبوة في القرآن من حيث الصلاح والضلال، فمن الآباء من يتصف بالصلاح، ويكونون عونًا لأبنائهم في طاعة الله تعالى، ويجعلهم الله سببًا في نجاتهم من غضب الله تعالى، ومن عقابه، ويوجد آباء ضالون يكونون سببًا في وقوع الأبناء في غضب الله تعالى وفي عقابه.

أولًا: الأبوة الصالحة:

ذكر القرآن الكريم نماذج متعددة من الأبوة الصالحة، ويمكن الوقوف على نموذجين، أحدهما لنبي الله تعالى يعقوب صلى الله عليه وسلم مع ابنه النبي يوسف صلى الله عليه وسلم وإخوته، والآخر للقمان الحكيم رحمه الله.

أما النموذج الأول، فقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

حيث بين الله تعالى في الآية السابقة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه جل جلاله أعلمه عن نبأ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، إذ إنه قال لأبيه يعقوب عليه السلام: يا أبت إني رأيت في منامي أحد عشر كوكبًا -ورؤيا الأنبياء

وحي-[1]، رأيتهم لي ساجدين، وتأتي الآية التالية؛ لتبين أن نبي الله يعقوب صلى الله عليه وسلم كان يشعر من بنيه حسد نبي الله يوسف صلى الله عليه وسلم، وبغضهم له، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم؛ حتى لا يشعل بذلك غل صدورهم[2].

وإن تفضيل نبي الله يعقوب عليه السلام لابنه النبي يوسف عليه السلام كان تفضيلًا شرعيًا، وليس لأجل دنيا، وهذا توجيهٌ للآباء عمومًا، بأن تكون المفاضلة بين الأبناء على أساس الدين، ومقدار التمسك به.

كما أنه يلاحظ تحسس الأب لنوايا أبنائه، ومراقبة العلاقة بين الأبناء، كما بينت الآية ذلك، من خلال بيان تصرف يعقوب عليه السلام مع الرؤيا التي قصها عليه ابنه النبي يوسف عليه السلام.

وإن أبناء نبي الله يعقوب عليه السلام يظهر أنهم لم يكونوا أنبياء؛ إذ إن الحسد الدنيوي وعقوق الآباء وتعريض مؤمن للهلاك والتوافر على قتله ليس من صفات الأنبياء[3]، بل إن فعل كل ما سبق معصوم منه النبيون والمرسلون.

وإن عداوة الشيطان للإنسان عمومًا بينة واضحة، لا تخفى على أحد من البشر، فهو يدخل الناس في عداوة مطلقة مع الحق، ويحرف العلاقة الحميمة المفترضة بين الوالد وولده؛ لتصبح علاقة سيئة يشوبها الخلاف والشقاق، كما أظهرت الآيات كيد أبناء نبي الله يعقوب عليه السلام لأخيهم نبي الله يوسف عليه السلام.

وأما النموذج الثاني، فقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٢-١٩].

حيث تبين هذه الآيات الكريمة أن الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٥٥٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ٢٢٠.
(٣) انظر: المصدر السابق.

تعالى قد أعطى لقمان الحكيم رحمه الله نعمة الفقه والعقل والإصابة في القول في غير نبوة؛ حتى يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة، فأما المؤمن مثل لقمان رحمه الله فيشكر؛ إذ إن نتيجتها راجعة إليه[1].

فـ «من جعل كفر النعم مكان شكرها، فإن الله غني عن شكره، غير محتاج إليه، حميد مستحق للحمد من خلقه؛ لإنعامه عليهم بنعمه التي لا يحاط بقدرها، ولا يحصر عددها، وإن لم يحمده أحد من خلقه، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال»[2].

واذكر يا أيها النبي حين قال لقمان الحكيم لابنه، مرغبًا له في التوحيد، وصاده عن الشرك: يا بني لا تشرك بالله.

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، فيجوز ﴿إِنَّ﴾ تعليلية، وتكون الجملة من قول لقمان الحكيم رحمه الله، ويجوز أن تكون تقريرية، وتكون من قول الله تعالى؛ لتقرير هذه الحقيقة[3].

وأثناء ذكر القرآن الكريم لوصية لقمان الحكيم رحمه الله يأتي كلام مستأنف في آيتين؛ لبيان توصية الله تعالى وأمره للإنسان بوالديه اللذين هما الأب والأم، حملته أمه ضعفًا على ضعف، وإرضاعه في عامين، أن اشكر لي يا أيها الإنسان باتباعك لديني التوحيدي، وأن اشكر لوالديك اللذين هما سبب وجودك بعد قدري، وإلي المرجع والمآل، فإن التزمت الشكر لي ولوالديك، فأجزيك الخير كله، وإلا فإن عذابي شديد.

وإن جاهداك على أن تشرك بالله تعالى، وأن تجعل مع الله ندًا في استحقاق العبادة فيما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما في ذلك، ولكن لا يمنعك عدم طاعتهم في الشرك من مصاحبتهما في الأمور الدنيوية، من البر بهما، والحرص على تهنئتهما في الحياة المعيشية، ودعوتهم المتكررة إلى النجاة من غضب الله تعالى، أما الاتباع في الدين فهو اتباع طريق من أناب إلى الله تعالى بالتوحيد، ثم إلى الله تعالى مرجعك أيها الابن، ومرجع أبويك، ومرجع من أناب إلى الله تعالى بالتوحيد، فينبئ الجميع عند رجوعهم بما كانوا يعملون من خير أو شر[4].

ثم تأتي الآية السادس عشرة من السورة؛ لبيان تكملة الخطاب الموجه من لقمان الحكيم رحمه الله إلى ابنه، بقوله: «يا بني: إن الحسنة أو السيئة للإنسان إن تكن مثلًا

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٣/ ٣٧٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٧٣.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٧١، ٧٢.

في الصغر كحبة الخردل، فتكن في أخفى مكان كقلب صخرة أو في السماوات أو في الأرض يظهرها الله ويحاسب عليها، إن الله لطيف لا تخفى عليه دقائق الأشياء، خبير يعلم حقائق الأشياء كلها»[(١)].

ثم تأتي الآية السابع عشرة من السورة؛ لبيان استمرار دعوة لقمان الحكيم رحمه الله لابنه، بضرورة الصبر على ما يصيب الداعية من الأذى في سبيل الله تعالى، إذا هو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فإن الصبر على المحن يورث المنح، ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات العبادات، وعماد الخير كله، فإن فعل ذلك مما جعله الله تعالى عزيمة، وأوجبه على عباده، وحتمه على المكلفين، ولم يرخص في تركه[(٢)].

ثم يستمر الوعظ من لقمان الحكيم رحمه الله لابنه كما وضحته الآية الثامن عشرة، فيقول الله تعالى عن لقمان الحكيم رحمه الله: ولا تمل وجهك يا بني عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك؛ احتقارًا منك لهم، واستكبارًا عليهم، ولا يكن مشيك في الأرض بين الناس في حال المختال المتبختر، فإن الله تعالى لا يحب كل متكبر متباهٍ في نفسه، وهيئته وقوله[(٣)].

ثم يستمر لقمان في النصح لابنه كما وضحته الآية التاسع عشرة، بقوله: يا بني ليكن مشيك ذا قصدٍ في النية والعمل؛ ففي النية لا تسع إلا في الخير، وفي العمل ليكن المشي باعتدال وتوسط، فإذا التزمت بالوقار في المشي فأتم ذلك بغض الصوت، وإنقاصه، وعدم ارتفاعه، وإن كان في حسن يستحسنه السامعون؛ فإن أنكر الأصوات هو صوت الحمير عمومًا[(٤)].

وإن لقمان الحكيم رحمه الله كان شديد الغيرة على أولى الناس به، وهم الأبناء؛ حيث إنه رحمه الله برهن على شكره لله تعالى، وعدم كفره بنعمة الحكمة التي أعطيها من الله تعالى، من خلال الانطلاق للدعوة إلى الله تعالى، وأول ما بدأ بابنه، فدعاه إلى الله تعالى، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤].

ويظهر من قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، حيث كررها لقمان رحمه الله ثلاث مرات، اللين في العبارات كلها.

وتفيد هذه الآيات ضرورة ترتيب الداعية أبًا كان أو غير أب للأولويات في دعوته؛ حيث إن لقمان الحكيم رحمه الله بدأ بوعظ ابنه بترك الشرك، والتحلي بالتوحيد، ثم التعرف إلى قدرة الله تعالى، ثم الأمر بإقامة

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ص٦١٤.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي، ١٠/ ٢٨٧.
(٣) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص٤١٢.
(٤) انظر: الفواتح الإلهية، الشيخ علوان، ٢/ ١٣٣.

الصلاة التي هي صلة بين العبد وربه، ثم الأمر بالمعروف الذي هو تعاون على الخير، ثم النهي عن المنكر، الذي هو تعاون على اجتناب المنكرات والشرور، ثم الصبر في ذلك للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأجل الله تعالى، والتزامًا بالواجب، ثم التأدب مع الناس، فهو قدوة لهم، فإذا تكلم أو كلمه أحد لا يميل وجهه عنهم، ولا يتبختر، بل يتوسط في مشيته، ويخفض صوته، حتى لو كان يتكلم في حسن.

ويلاحظ أن ذكر الوصية بالوالدين في ثنايا قصة لقمان مع ابنه، بما يبين واجب الآباء على الأبناء.

ثانيًا: الأبوة الضالة:

ذكر القرآن الكريم في أكثر من موضع قصة نبي الله تعالى إبراهيم صلى الله عليه وسلم مع أبيه آزر، حيث إن الأب كان كافرًا، هو وقومه يعبدون من دون الله تعالى، فأشفق إبراهيم عليه السلام على أبيه من أن يقع في غضب الله تعالى، سيما في أخص خصوصيات العبادة، وهي توحيد الله تعالى.

فقال الله تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٧].

حيث تبين هذه الآيات الكريمة أن نبي الله تعالى أوتي الرشد والعلم والعناية والحفظ والرعاية من الله تعالى، ومن علامات ذلك أنه أشفق على أبيه وقومه، وقال: ما هذه الأشياء المصورة المصنوعة المشبهة بخلق من خلائق الله تعالى، التي أنتم لها مقبلون، وملازمون لها ومعظمونها[1].

فأجابه أبوه وقومه: إننا وجدنا آباءنا لها عابدين، فبقينا على ذلك الأمر، فأجابهم إجابة الراشد المعلم من الله تعالى: لقد كنتم في عبادتكم هذه أنتم وآباؤكم الذين ابتدعوا والتزموا تلك العبادة في خطأ بين؛ حيث تعبدون حجارة لا تضر ولا تنفع، وتقليد من هو في خطأ بين يعتبر خطأً بينًا.

فظن أبوه وقومه في بداية الأمر أن نبي الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم يلاعبهم، وأرادوا أن يتأكدوا فقالوا: أجئتنا بعلم مستند على دليل قطعي أم أنت في هذا القول من اللاعبين؟

فأجابهم: إن ربكم الذي هو رب

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي، ٥/ ٤٩٠.

السماوات والأرض الذي خلقهن على غير مثالٍ سبق، وأنا على تلكم الحقائق من الشاهدين، بما آتاني الله تعالى من وحيٍ ورشدٍ وعلم، وأقسم بالله تعالى أن يفعلَ بالأصنام التي يعبدونها سوءًا، أو يجتهد في كسرها بنوعٍ من الاحتيال[1].

وإن التقليد الأعمى للآباء قد يورث نار جهنم؛ لذلك فإن الأبوة عند المسلمين يجب أن ترتكز على حسن الصحبة في شئون الدنيا لآباء الدم، ومن ثم حسن الصحبة في شئون الآخرة لآباء العلم والدعوة سواء أكانوا آباء دم أو غيرهم.

وأهل الباطل آباء كانوا أو غير ذلك، لا يمتلكون حجة، بقدر ما يسيطر عليهم الجهل المركب، حيث إن الآيات تبين أنهم سألوه: هل تقول حقًا أم أنت من اللاعبين؟

ويؤكد هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦].

اتباع الآباء

يركز هذا المبحث على بيان معالجة القرآن الكريم لظاهرة اتباع الأبوة، سواء أكانت الأبوة صالحة أم ضالة؛ إذ قد يتولد على اتباع الأبوة الصالحة أبناء خيرين محبين للدين، وقد يتولد أبناء سوء، وهذا على التغليب، وليس الحصر.

أولًا: اتباع الأبوة الصالحة:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

حيث تأتي هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام، وابنه إسماعيل عليه السلام حين دعوا أن يتقبل الله تعالى منهما رفع القواعد من البيت الحرام، وأن يجعلهما الله تعالى مسلمين له، ومن ذريتهما أمةً مسلمة لله تعالى، وأن يريهما مناسكهما، وأن يتوب عليهما إنه هو التواب الرحيم، وأن يبعث في هذه الأمة رسولًا منهم، يتلو عليهم آيات الله تعالى ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فإن الله تعالى هو العزيز الحكيم.

ثم ذكر الله تعالى بعض مناقب إبراهيم عليه السلام، بأن الله تعالى اصطفاه في

(١) انظر: التفسير المظهري، ٦/ ٢٠٢- ٢٠٣.

الدنيا، وأنه في الآخرة لمن الصالحين، حيث قال له ربه: أسلم، فأسرع إلى الإجابة بدون تردد: أسلمت لله تعالى، الذي هو رب العالمين، ولم يكتف أبونا إبراهيم عليه السلام بقوله هذا، بل وصى بها بنيه، وقد وصى بذلك أيضًا حفيده يعقوب عليه السلام، حينما قال: إن الله تعالى اختار لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

ثم تأتي هذه الآية الكريمة؛ لتبين بأسلوب استفهام أنكم تدعون الشرك في حق يعقوب عليه السلام وبنيه، وكأنكم كنتم حضورًا في ذلك الوقت، بمعنى أنكم تقولون ما لا علم لكم بذلك، بل إن الله تعالى يخبر أن وصيته عليه السلام كانت بخلاف ما قالت اليهود، حيث قال: ما تعبدون بعد موتي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، فنحن نعبد إلهًا واحدًا هو إلهكم جميعًا، ونحن له مخلصون في التوحيد[1].

ويلاحظ من خلال هذه الآية شدة الحرص من نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام على أولاده، حيث كان يحتضر، وكانت وصيته الاطمئنان على حال التوحيد لله تعالى عند أبنائه، فسألهم وأجابوه أنهم يعبدون إلهه وإله آبائه (الأب الأدنى، والعم، والجد)، فهم على ذات الطريق.

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ١/ ١٩٦.

ثانيًا: اتباع الأبوة الضالة:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف:٢٢-٢٤].

إن الآيات السابقة تعلم المسلمين كيفية المحاورة والمجادلة لهؤلاء المعاندين من المشركين، ثم تأتي هذه الآية الكريمة؛ لتبين أن الله تعالى آتاهم كتابًا، وليس لهم حجة إلا تقليد آبائهم، فقالوا: إنا وجدنا آباءنا على دين، فنحن نتبعه، حتى جعلوا أنفسهم باتباع آبائهم مهتدين.

ثم أخبر الله تعالى أن أمثالهم من السابقين كانوا إذا أرسل فيهم رسول يقولون -سيما الملوك والأشراف والجبابرة-: إنا وجدنا آباءنا على دين، وإنا مقتدون بهم، مهتدون على هديهم[2].

وتأتي الآية التالية؛ لتبين رد الله تعالى على هؤلاء المعاندين بقوله: قل يا محمد أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم، وإن جئتكم بأهدى منه؟ فأبوا أن يقبلوا ذلك، و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا

(٢) انظر: التفسير البسيط، الواحدي، ٢٠/ ٢٨-٣٠.

﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1].

ويلاحظ في هذه الآيات أن اتباع الآباء يجب أن يكون ضمن ضوابط الشرع الحنيف، فإذا كان الأبوان أهل ضلالة، يجب أن يسرع الابن الصالح إلى دعوتهما إلى الله تعالى، لا أن يلحق بهما، وبمعتقدهما، سيما إذا وجد أهدى مما وجد عليه أبويه، وفي هذا دعوة إلى تقديم تحكيم النقل من القرآن والسنة على أي أمرٍ دونه.

وإن الآيات تبين أن عقلية الكفار واحدة، في كل زمان ومكان؛ إذ إن مسوغ كفرهم، هو اتباعٌ لهدي آبائهم، دون إعطاء العقل والروح مساحة الاستماع والإصغاء إلى دين الله تعالى.

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٢٥٥.

آثار اتباع الأبوة في الدنيا والآخرة

أولًا: آثار اتباع الأبوة الصالحة في الدنيا والآخرة:

١. الآثار في الدنيا:

١. السعادة الزوجية.

قال الله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [القصص:٢٦-٢٨].

فإن اتباع المرأة الصالحة لأوامر أبيها، وتربيتها الناصحة التي لاحظت من خلال القوة والأمانة في نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم، وحفاظها على عفتها وطهارتها، وعدم مزاحمة الرجال، فهي تمشي على استحياء، وتتعلم من أبيها كيف ترد المعروف بما هو أفضل، حينما قالت له: إن أبي يدعوك لزيارته؛ ليثيبك على ما قدمت من خير، كما أنه يلاحظ على المرأة المسلمة أنها ما خافت على من تتزوج، إذا كان يحفظ لها دينها وعرضها، بل يزيدها إيمانًا وشرفًا

في الدنيا والآخرة.

وهو ما بينته الآيات السابقة، حينما قدم موسى صلى الله عليه وسلم على أبيهما، وقص عليه قصته، فهدأ أبوهما من روع موسى عليه السلام، وبشره، بأنه نجا من القوم الظالمين، عندها تجرأت تلك المرأة المسلمة العفيفة، وطلبت من أبيها أن يجزيه، فلبى أبوها طلبها، ولا غرو؛ إذ إن هذا الطلب يقرب إلى الله تعالى، ويجعل البشر يسيرون في المسار الصحيح، الذي ينفعهم عند الله تعالى، وقال له: أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين، ويستفاد من ذلك، جواز جلوس المرأة ساعة رغبة الأهل نكاحها من رجل عفيف صالح؛ إذ إن الأب ما طلب النكاح إلا بعد أن علم كل قصته، واستبشر بنبوته.

وكان المهر أن يرعى غنمه ثماني سنوات، فإن أتم عشر سنوات، فباختياره، وليست السنتان بعد الثمانية داخلتين في المهر[1]، فكان الصدق في الحال، من قبل نبي الله موسى عليه السلام، بأنه لا يريد أن يسرع في القبول بالعشر السنوات، ثم لا يستطيع، فيكون من الكاذبين في الوعود، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك، فهو النبي المعصوم.

٢. تعجيل الفرج.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٧].

فإن أدب نبي الله إسماعيل صلى الله عليه وسلم مع ربه بالتزامه طاعة والده النبي إبراهيم صلى الله عليه وسلم، بعد أن أخبره بالرؤيا، واستشاره؛ ليرى أيجزع أم يصبر، فكانت الإجابة هي استسلامه هو ووالده لأمر ربهما، ولا شك أنه امتحان صعب، كما بينته هذه الآيات، وعندها نزل الفرج دونما نزول قطرة دم من إسماعيل، وفدى الله تعالى إسماعيل عليه السلام بكبش عظيم[2].

٣. جمع شمل الأسرة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٦٠٥.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٥٤٩.

﴿يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

حيث تبين هاتان الآيتان أنه حينما رحل يعقوب عليه السلام إلى مصر، وسار بأهله حتى وصل إليها، ففي لحظة دخوله عليه السلام مع أهله استقبله يوسف عليه السلام في مدخل مصر، وعجل به الحنان والشوق إلى أبيه وأمه التي هي زوج أبيه، فقربهما إليه، وطلب منهما ومن أهله أن يقيموا في مصر آمنين سالمين بإذن الله، وسار الركب داخل مصر حتى بلغ دار يوسف عليه السلام، فدخلوها وصدر يوسف أبويه، فأجلسهما على سرير، وغمر يعقوب وأهله شعور بجليل ما هيأ الله لهم على يدي يوسف؛ إذ جمع به شمل الأسرة بعد الشتات ونقلها إلى مكان عظيم من العزة والتكريم.

فحيوه تحية مألوفة تعارف الناس عليها في القديم للرؤساء والحاكمين، وأظهروا الخضوع لحكمه، فأثار ذلك في نفس يوسف ذكرى حلمه وهو صغير، فقال لأبيه: هذا تفسير ما قصصت عليك من قبل من رؤيا، حين رأيت في المنام أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدين لي، قد حققه ربي، وقد أكرمني وأحسن إلي، فأظهر براءتي، وخلصني من السجن، وأتى بكم من البادية؛ لنلتقي من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي، وأغراهم بي.

وما كان لهذا كله أن يتم لولا تقدير الله، فهو المدبر والمسخر لكل أمر، نافذ الإرادة، وهو المحيط علمًا بكل شيء، البالغ حكمه في كل تصرف وقضاء[1].

٤. العفو عن سيئات الأبناء مهما عظمت.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩٧].

حيث طلب بنو يعقوب صلى الله عليه وسلم من أبيهم أن يسأل الله تعالى لهم أن يعفو عنهم، ويستر ذنوبهم، فهم المقرون بأنهم كانوا خاطئين فيما فعلوا بيوسف عليه السلام وشقيقه، فوعدهم أنه سوف يستغفر لهم الله تعالى رب يعقوب عليه السلام وكل الخلق[2].

٥. القدوة الصالحة للتعلم من الأخطاء وعواقبها.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

فإن التحذير من فتنة الشيطان قرن بشاهد عملي يكشف عن فتنه لأبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وقد سبقت الإشارة إليه.

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ص٣٤٩.

(٢) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص٢٤٧.

٢. الآثار في الآخرة:

١. النجاة من غضب الله تعالى، ومن عذابه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

ووقاية الأهل والأولاد، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا أقام أوامر الله في نفسه، وفيما يدخل تحت ولايته من الزوجات والأولاد، وغيرهم[(١)].

٢. إلحاق الذرية بالآباء في الجنة.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى في المبحث التاسع.

ثانيًا: آثار اتباع الأبوة الضالة في الدنيا والآخرة

١. الآثار في الدنيا:

١. التكذيب بالحق وعدم الاستجابة له.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٨- ٦٩].

أي: أفلم يتدبروا القرآن[(٢)]، ويتفكروا بما فيه، أم جاءهم ما لم يأت لآبائهم الأولين، أم أنهم لم يعرفوا نسب الرسول صلى الله عليه وسلم، فهم له جاحدون حاسدون؛ بل يقولون به جنون، بل جاءهم بالحق الذي لا ينكرونه، ولكن أكثرهم يتعامل مع الحق بجحود[(٣)]، ولا شك أن اتباع هدي الآباء هو الذي أورثهم إلى هذه المعاندة، وهذا التكذيب، بما يستحقون بعده غضب الله تعالى.

٢. قلب الحقائق والتدليس فيها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٧٨].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن الكفار قالوا لموسى صلى الله عليه وسلم: هل جئتنا لتصرفنا وتحولنا عما وجدنا عليه آباءنا، فقد وجدناهم عبدة أوثان، ونحن على دينهم، وتريد أن يكون لك ولهارون الملك والسلطان في الأرض، وما نحن لكما بمصدقين، وإنما سمي الملك كبرياء؛ لأنه أعظم ما يطلب من أمر الدنيا[(٤)].

٣. اتباع الأبناء لعاطفة الدم، لا لتحكيم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٧٤.

(٢) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة، ص٢٥٦.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٤٨٦.

(٤) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٢/ ٢٦٩.

العقل، المؤيد بالدليل الشرعي.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

فإن العاطفة التي سيطرت على عقول وقلوب الأبناء، دونما هداية تذكر، فعميت قلوبهم وعقولهم، واتبعوا ما وجدوا عليهم آباءهم من عبادة غير الله تعالى.

٤. افتراء الكذب على الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨].

فقد احتج هؤلاء المشركون بأمرين: أولهما تقليد الآباء، والآخر الافتراء على الله تعالى، فكانت إجابة القرآن الكريم على الأمر الثاني لفعل الفاحشة، بأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء[(١)]، وإن تقليدهم الأعمى لآبائهم جعلهم يؤمنون بعد حقبة من الزمن من هذا التقليد الأعمى بأن التزامهم بالفحشاء أصبح أمرًا يبنى على دليل وإقرار من الله تعالى.

٥. التقليد الأعمى للشرك بالله.

قال تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٤].

يقول القرطبي رحمه الله: «فنزعوا إلى التقليد من غير حجة ولا دليل»[(٢)].

٢. الآثار في الآخرة:

ولعل أوضح هذه الآثار هو الاستجابة لدعوة الشيطان إلى دخول جهنم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١].

أي: وإذا قيل لهؤلاء الكفار من قبل الأنبياء أو الدعاة عمومًا: اتبعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن الذي ملئ هدىً وموعظة، وشفاء لما في الصدور، عندها يكون رد هؤلاء الكفار: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة غير الله تعالى.

فيأتي الرد القرآني: أفيتبعونهم، وإن الشيطان يدعوهم إلى العذاب الأبدي في السعير يوم القيامة؟[(٣)]، ولا شك أن تقليد آبائهم كان مدخلًا عظيمًا لفتنة الشيطان التي تسوق أتباعه إلى جهنم.

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ١٠٩- ١١٠.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٤٠٠.

صلاح الآباء وأثره على الأبناء

إن مكانة الأبوة الصالحة بلغت ذروتها في ديننا الحنيف، فقد سجل القرآن الكريم هذه المكانة؛ لتبلغ بركتها حفظ الأبناء غالبًا، بحسب درجة الإيمان التي يلتزمها الأب من جهة، وبحسب التقدير الإلهي الذي لا يعلم حكمته إلا الله تعالى من جهة أخرى.

أولًا: حفظ الأبناء بصلاح الآباء:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢].

وتأتي هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن رحلة العلم، التي قضاها نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم مع الخضر عليه السلام، وتجيب هذه الآية عن المرحلة الثالثة من مراحل التعلم، حينما مرا على قرية، فأبى أهلها أن يضيفوهما، فوجدا جدارًا شارف على الانقضاض، فأقامه الخضر عليه السلام، فقال نبي الله موسى عليه السلام مستغربًا: إن كنت قائمًا هذا الجدار فخذ أجرتك، ففارقه الخضر عليه السلام؛ لأنهما اتفقا على ألا يسأله عن شيء حتى يخبره الخضر عليه السلام ابتداءً، حيث تذكر هذه الآية إخبار الخضر عليه السلام لنبي الله موسى عليه السلام عن قصة الجدار بأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحت هذا الجدار كنزٌ لهما، وكان أبوهما من أهل الصلاح، حيث ذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، فقدر الله تعالى أن يبقى هذا الجدار حتى يبلغا أشدهما ورشدهما، وهيأ لذلك الأسباب، فأعلم الخضر عليه السلام بعلمه وتقديره، وكل هذا رحمة من الله تعالى، رب كل شيء.

ثم يبين الخضر عليه السلام درسًا في التأدب مع الله تعالى، فيقول: وما فعلت ذلك الأمر عن رغبةٍ عشوائية مني، بل إن ذلك بتقدير الله تعالى، ويختم الآية بقوله: ذلك الأمر والأمران السابقان اللذان سألتني عنهما، هم جميعًا تأويل الذي لم تستطع أن تصبر على الوصول إلى معرفته في الوقت المناسب[(١)].

ويستفاد من هذه الآية أمور أن الله تعالى يحفظ للرجل الصالح ولده، وولد ولده، بل وعشيرته التي هو فيها[(٢)].

ثانيًا: لا يلزم من صلاح الآباء صلاح الأبناء:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَهِىَ

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٦/ ١٨٨.
(٢) انظر: المصدر السابق.

﴿تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:٤٢- ٤٣].

وردت الآيتان الكريمتان في سياق الحديث عن عقاب قوم نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم.

فيقول الله تعالى: إن السفينة التي صنعها نوح صلى الله عليه وسلم كانت تجري بالمؤمنين، وأهله، إلا امرأته، ومن كلٍ زوجين، وكانت الأمواج كالجبال الشاهقة، فنادى نوح صلى الله عليه وسلم ابنه الذي كان كافرًا، وكان هذا الابن في معزل عن دين أبيه، ولم يركب السفينة، فقال له أبوه عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾، فتهلك، فرد عليه ابنه، والعجب والغرور يملآن فؤاده: سأصير وألتجئ إلى جبل يمنعني من الغرق، فقال له أبوه صلى الله عليه وسلم: لا عاصم اليوم إلا من رحمه الله تعالى[1]، وحال بين نبي الله نوح عليه السلام وابنه فكان هذا الابن الكافر من المغرقين[2].

ويستفاد من هذه الآية شفقة الأب الصالح -سيما إذا كان نبيًا من أولي العزم، مثل نوح عليه السلام-، إلا أن الشفقة تكون في حدود الالتزام بالولاء الشرعي، وعدم الانحراف عنه؛ فالحرص على دعوة الأبناء، والوصول بهم إلى السلامة من غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه مطلبٌ إلهي، أمر به القرآن الكريم في أكثر من آية، لعل أوضحها هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٤٥٠.
(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٥/ ٣٤٠١.

الأبوة والأحكام الشرعية

تعلق بموضوع الأبوة كثير من الأحكام الشرعية، ومنها: الميراث، والنسب والمصاهرة، والأكل في بيوت الآباء، وإبداء النساء لزينتهن، ونفي أبوة التبني.

أولًا: الميراث:

ورد في القرآن الكريم ما يبين نصيب ميراث الأب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١].

فقد بينت الآيات السابقة فرضية الميراث، وذكر الله تعالى في رأس هذه الآية بعضًا من أحكامها، ويستمر بيان حكم الميراث المفصل، فيذكر حكم ميراث الأب والأم، فإن كل واحدٍ منهما يأخذ السدس، إن كان للولد الميت ولدٌ، فإن لم يكن للولد الميت أولاد، وورثه أبواه فإن الأم لها الثلث، وللأب الباقي، وإن كان للولد الميت بنت أو أكثر، وزاد بعد الفرض نصيب، فإنه يكون للأب، إضافة إلى السدس الذي كان له، ويبقى للأم حينها السدس فقط.

ثم يبين الله تعالى أن هذه القسمة تكون بعد تنفيذ الوصية الشرعية إن وجدت، والله تعالى يبين أنه لو رد تقدير الإرث إلى عقول البشر، واختيارهم لحصل من الضرر ما لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لنقص العقول، وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان، فلا يدرون أي الأولاد أو الوالدين أنفع لهم، وأقرب لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية، فهذه فريضة فرضها الله تعالى على الناس، وقد أحاط بكل شيء، وأحكم ما شرعه وقدره[1].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدلل على الوصية للأبوين والأقربين، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠].

فبعد أن بينت الآية التي سبقتها الحكمة من القصاص، وهي الحياة لأبناء المجتمع، وغرس الطمأنينة بعد بيان الرادع للقتل، تبين هذه الآية الكريمة فرضية الوصية حين الاحتضار بشيء من المال المتروك للورثة، لصالح الوالدين والأقربين.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية نسخت بقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٩٦، التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٢٧٥.

[النساء:١١][1].

ثانيًا: النسب والمصاهرة:

ورد في القرآن الكريم ما يبين حكم النسب في حق الأب، من خلال بيان الحرمة المترتبة على النسب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢].

حيث إن هذه الآية الكريمة تبين إبطال عادةٍ عند العرب، حيث كان الرجل منهم يتزوج امرأة أبيه من بعده، وكان ذلك نكاحًا جائزًا عند العرب، فحرمه الله تعالى، ونهى عنه، وتجاوز عما سلف، وبين تعالى أنه من يفعل بعد ذلك سيكون قد فعل محرمًا، وحلت عليه البغضاء الشديدة، وقبح ذلك الفعل طريقًا[2].

وورد في القرآن الكريم ما يبين حكم النسب في حق الأم، وذلك في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ [النساء:٢٣].

فحرمت الأم كزوجة، وورد في هذه الآية ما يدلل على حرمة أمهات الرضاعة، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في ابنة عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنها وعن أبيها: (لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة)[3].

ثالثًا: الأكل في بيوت الآباء:

ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

ففي هذه الآية الكريمة بيان رخصة أكل

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ١/ ١٩٩.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي، ص٢٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، والرضاع المستفيض، والموت القديم، ٣/ ١٧٠، رقم ٢٦٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، ٢/ ١٠٧١، رقم ١٤٤٧.

المسلم في بيته، وبيت أبيه، وبيت أمه، وبيت إخوانه، وبيت أخواته، وبيت العم، وبيت العمة، وبيت الخال، وبيت الخالة، وهذا الترتيب دليل على أن جواز الأكل يكون حسب الأقرب فالأقرب، أما الأخذ من المال الذي يباح للعاجز، فهو من يمتلك المفاتيح بتمكين من المالك، كالخادم، أو النائب عن المالك في المال، ومن هو صديق، فهو يأخذ نفقته من مال صديقه، وإن الأخذ في هاتين الحالتين لا يكون كالذي سبق، إنما يكون بتبرع شخصي؛ للصلة الوثيقة[1].

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أن بيت الأب قدم في النفقة وفي الطعام، وفي السلام، فهو مباحٌ بعد بيت الإنسان نفسه، ثم يليه بيت الأم، وهكذا الأقرب فالأقرب.

رابعًا: إبداء النساء لزينتهن:

وقد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

حيث تذر هذه الآية الكريمة المؤمنات من إظهار محاسنهن إلا لأزواجهن والأقارب، الذين يحرم عليهم التزوج منهن، وفي مقدمتهم الآباء، وآباء الأزواج[2].

وفي ذلك إشارة إلى تقديم الأب وأب الزوج في الحفاظ على الشرف، وأنهما الأكثر عفةً سيما في حق البنت أو زوجة الابن.

خامسًا: نفي أبوة التبني:

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥].

حيث بينت الآية السابقة أن الله تعالى ما جعل أهل التبني أبناء للذين تبنوهم، وأن هذا التبني هو قول من تبنى، وأن الله تعالى يقول الحق الذي لا يجيز لكم التبني، وأن الله تعالى هو الذي يهدي إلى طريق ذلك

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ١٠/ ٥٢٣٢.

(٢) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ص٥٢٢.

الحق، ثم تأتي هذه الآية الكريمة؛ لتأمر الذين تبنوا أن يدعوا هؤلاء الأولاد بأسماء آبائهم في الدم، فإن ذلك أعدل عند الله تعالى، فإن لم يعلم آباؤهم، فقولوا: أخونا فلان، أو ولينا فلان، وليس عليكم إثمٌ، إن أخطأ الرجل بعد النهي، فنسبه إلى الذي تبناه ناسيًا، فليس عليه في ذلك إثم، ولكن الأمر الذي يحاسب عليه الإنسان هو أن يدعوهم إلى غير آبائهم، قاصدًا ذلك من قلبه[1].

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٣/ ٣٨٧.

عاطفة الأبوة

إن العاطفة القلبية صفة لازمة ثابتة للأبوين؛ إذ إن الله تعالى جعلها مسوغًا لصبر الوالدين على أولادهما، في الرعاية والتربية والحب والحنان، فهي عاطفة فطرية، فطر الله تعالى الوالدين، وجعل الإسلام لها ضوابط ومحاذير.

وفي هذا المبحث توضيح لذلك من خلال مسألتين:

أولًا: عاطفة الأبوة فطرة:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف:١٣].

أي: إن مجرد ذهابكم به يؤلمني، من شدة مفارقته علي، وقلة صبري عن رؤيته، فيريبني أن تتركوه بإهمالكم به، وانشغالكم عنه بالرعي والصيد، فأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه لاهون، بصيدكم ولعبكم ورميكم[2]، ولا شك أن نبي الله يعقوب عليه السلام قد أظهر بلسانه ما يجول بعاطفته القلبية، التي فطرها الله تعالى عليه، فهو بشر في هذه الصفة الأبوية.

وقد وردت آية كريمة، تبين عاطفة الأم الفطرية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ

(٢) انظر: بيان المعاني، عبد القادر العاني، ٣/ ١٨٢.

﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:١٠].

أي: وصار قلب أم موسى صلى الله عليه وسلم فارغًا من كل شيء إلا من أمر موسى صلى الله عليه وسلم، كأنها لم تهتم بشيء سواه، فإن كادت لتصيح شفقة عليه من الغرق، أو الهلاك، لما سمعت بوقوعه في يد فرعون، فطار عقلها من فرط الجزع والدهش، ولولا عناية الله تعالى، وتثبيته لها لاعترفت بأنه ابنها، من شدة عاطفتها الفطرية، بل إن تثبيتها كان بالربط على القلب؛ لتنال صفة الإيمان بالله تعالى[1].

ثانيًا: الموازنة بين عاطفة الأبوة، وعقيدة الولاء:

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٣٢-٢٤].

أي: «يا أيها المؤمنون، لا تتخذوا من آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وعشيرتكم وأزوجكم نصراء لكم، ما داموا يحبون الكفر، ويفضلونه على الإيمان، ومن يستنصر بالكافرين فأولئك هم الذين تجاوزوا الطريق المستقيم»[2].

وقل: يا محمد صلى الله عليه وسلم إن كان تفضيلكم للآباء والأبناء والإخوة والزوجات والأقرباء والأموال التي جمعتموها، والتجارة التي تخافون عدم رواجها، والبيوت الجميلة التي أقمتم فيها، كل هذا مقدمًا في التفضيل على حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيله، فانتظروا غضب الله تعالى، ومن عقابه ونكاله بكم، والله لا يوفق الخارجين عن طاعته[3].

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي، ١٠/ ٩٣.

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ص٢٦١.

(٣) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص١٩٠.

الأبوة يوم القيامة

يؤكد هذا المبحث على بيان حال الأبوين يوم القيامة، بين فرار من التزامه تجاه ابنه، أو فرار من التزام الابن تجاه أبيه، فلا فداء يذكر؛ إذ إن الناس بين جنة ونار، ولا يبقى هناك إلا الملك الجبار، الذي يحاسب ويفتش، ويغفر ويرحم، فإذا كان الآباء صالحين، واجتهدوا في صلاح الأبناء، فإن الله تعالى من رحمته يلحق الذرية بآبائهم في الجنة.

وفي هذا المبحث توضيح لذلك، من خلال المسائل الآتية:

أولًا: الفرار:

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾ [عبس:٣٤- ٣٥].

فقد بينت الآية السابقة أنه إذا جاء يوم القيامة، ويرى المرء أعز أقاربه، وأخصهم لديه، وأولاهم بالحنو والرأفة والعطف، من: أخ، وأم، وأب، وزوجة، وولد، عندها يفر منهم ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل[1].

وفي تقديم الأخ على الأم والأب والزوجة والولد؛ أسباب، منها أن الله تعالى بدأ بالأقل، وختم بالأكثر؛ لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل من تقدم ذكره، وإنما يفر منهم؛ لاشتغاله بنفسه[2].

ثانيًا: الفداء:

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج:١١].

فقد بينت الآية السابقة أن يوم القيامة لا يسأل صديقٌ صديقه الحميم، وتأتي هذه الآية الكريمة؛ لتبين أنه «يبصر بعضهم بعضًا، فيتعارفون، أو يبصر المؤمنون الكافرين، أو يبصر الكافرون الذين أضلوهم في النار، أو يبصر المظلوم ظالمه، والمقتول قاتله»[3]، فيحب أو يتمنى الكافر المشرك لو يفتدي بأعز أقاربه في الدنيا، من بنيه أولًا، ثم زوجه وأخيه، وعشيرته أو أمه التي تربيه[4].

ثالثًا: إلحاق الذرية بالآباء في الجنة:

يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

أي: «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم في منزلتهم في الجنة، وإن لم يبلغوا عمل آبائهم؛ لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٣٠/ ٧٥.

(٢) انظر: التسهيل، ابن جزي، ٢/ ٤٥٤.

(٣) تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، ٣/ ٣٦٢.

(٤) انظر: المصدر السابق.

بينهم على أحسن الأحوال، وما نقصناهم شيئًا من ثواب أعمالهم، كل إنسان مرهون بعمله، لا يحمل ذنب غيره من الناس»[1].

ويستفاد من هذه الآية عظيم بركة الآباء الصالحين؛ إذ إن صلاحهم واجتهادهم في إصلاح أبنائهم جعلهم جميعًا في منزلة واحدة في الجنة، فالآية هنا تبين أن الآباء هم بوابة الأمان للأبناء، إن اتبعوا آباءهم بالإيمان بالله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

آدم، إبراهيم، الاتباع، الأمومة

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص٥٢٤.

الاتباع

عناصر الموضوع

مفهوم الاتباع	٢٤٠
الاتباع في الاستعمال القرآني	٢٤١
الألفاظ ذات الصلة	٢٤٢
أنواع الاتباع	٢٤٣
الأساليب القرآنية في عرض الاتباع	٢٧١
عواقب الاتباع وآثاره في الدنيا الآخرة	٢٧٦

مفهوم الاتباع

أولًا: المعنى اللغوي:

«التاء والباء والعين: أصل واحدٌ لا يشذ عنه من الباب شيء، وهو التلو والقفو، يقال: تبعت فلانًا، إذا تلوته واتبعته، وأتبعته إذا لحقته»[(١)].

يقال: «تبع الشيء تبعًا وتباعًا في الأفعال، وتبعت الشيء تبوعًا وتباعًا في الأفعال، وتبعت الشيء تبوعًا سرت في أثره، واتبعه وأتبعه، وتتبعه: قفاه وتطلبه متبعًا له.. والتابع: التالي، والجمع: تبع وتباع وتبعة، والتبع: اسم للجمع.

والتبع: يكون واحدًا وجماعة، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

يكون اسمًا لجمع تابع، ويكون مصدرًا، أي: ذوي تبع... والتبعة والتباعة: ما اتبعت به صاحبك من ظلامة ونحوها.

والتَبِعَة والتِبَاعَة: ما فيه إثم يتبع به... والتبابعة: ملوك اليمن، واحدهم: تُبَع، سموا بذلك؛ لأنه يتبع بعضهم بعضًا، كلما هلك واحدٌ قام مقامه آخر، تابعًا له على مثل سيرته... وقيل: فلان متتابع العلم، إذا كان علمه يشاكل بعضه بعضًا لا تفاوت فيه»[(٢)].

فالمعنى اللغوي يدور حول الاقتفاء والاقتداء، واللحاق بشيء أو شخص والسير خلفه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الشرباصي: «والمعنى الأخلاقي للاتباع هو: أن يميز الإنسان الخبيث من الطيب، وأن يتبين طريقه على بصيرة، وأن يعرف من تقدمه على طريق الحق والصدق، فيتخذه أسوة وقدوة، فيمضي اللاحق على سنن السابق، فتوجد عند الإنسان روح الاتباع، وينأى بنفسه عن ضلال الابتداع..... وخير اتباع ينبغي أن يتحلى به المرء ويلتزمه ويحرص عليه، اتباع هدي الله، والتزام صراطه المستقيم؛ لأن ذلك طريق الأمان والاطمئنان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]»[(٣)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٦٢.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٢٧.
(٣) موسوعة أخلاق القرآن، الشرباصي ٥ / ١٣٨.

الاتباع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (تبع) في القرآن (١٦٩) مرة[(١)]، والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧٥	﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]
الفعل المضارع	٦٠	﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]
فعل الأمر	٢٤	﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]
المصدر	٤	﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء:١٥٧]
اسم الفاعل	٣	﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة:١٤٥]
اسم المفعول	٢	﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء:٥٢]
اسم مشتق	١	﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء:٦٩]

وقد استعمل القرآن الكريم الاتباع بمعناه اللغوي، وهو: أن يقفو المتبع أثر المتبع تارة بالجسم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه:٧٨]. أي: فساروا في أثر موسى وبني إسرائيل، وتارة بالارتسام والائتمار.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٦]. يعني: في الدين[(٢)]. ولم يخرج عن هذا المعنى.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٤٩-١٥٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب التاء ص ٣٦٠-٣٦٣.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص١٥٥-١٥٦، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٦٢،

الألفاظ ذات الصلة

١ الأسوة:

الأسوة لغةً:

الأسوة: القدوة [١]. قال الأزهري: «فلان يتأسى بفلانٍ، أي: يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدي به، وكان في مثل حاله. والقوم أسوة في هذا الأمر، أي: حالهم فيه واحدة» [٢].

الأسوة اصطلاحًا:

«الاتباع للفعل، والاقتداء بالفاعل» [٣].

أو: «الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره؛ إن حسنًا وإن قبيحًا» [٤].

الصلة بين الاتباع والأسوة:

أن في كليهما اتباعًا ولحوقًا في تنفيذ المنهج إلا أن الأسوة يراعى في الإنسان جانب القدوة؛ ليحصل الاقتداء به.

٢ الطاعة:

الطاعة لغةً:

أصل مادة (طوع) تدل على الإصحاب والانقياد، يقال: طاعه يطوعه إذا انقاد معه [٥].

الطاعة اصطلاحًا:

قال ابن عاشور: «الطاعة: امتثال الأمر والنهي» [٦].

الصلة بين الاتباع والطاعة:

قد يأتي الإنسان بالطاعة وهو كاره، بخلاف الاتباع فهو دليل حب [٧].

نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٨٥-٨٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٢٩٣.

(١) انظر: مجمع بحار الأنوار، الكجراتي ١/ ٥٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٦٣٥، مختار الصحاح، الرازي ص ١٨.

(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ٩٥.

(٣) تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي ص ٤٣.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٥١، الكليات، الكفوي ص ١١٤.

(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣١.

(٦) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٩/ ٣٠٣.
وانظر للمزيد: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٣٤، الحدود الأنيقة، زكريا الأنصاري ص٧٧.

(٧) انظر مقال: تفنيد زعم القرآنيين بأنه لا طاعة للنبي، ممدوح أحمد فؤاد، موقع رابطة أدباء الشام.

أنواع الاتباع

لقد اتضح من المعنى اللغوي والاستعمال القرآني للفظة الاتباع أنها تدور حول معنيين:

أحدهما: يتعلق بالاتباع المبني على الدليل والبرهان.

والآخر: مبني على التقليد بلا دليل.

وإزاء ذلك؛ قمت بتقسيم الاتباع إلى عنوانين رئيسين هما: الاتباع المحمود والاتباع المذموم، ويدخل تحت هذين العناوين عددٌ من العناوين الفرعية التي تندرج تحتهما مما يتعلق بهما.

أولًا: الاتباع المحمود:

عرض القرآن الكريم اتباع الوحي والأنبياء عرضًا تناوله من جميع جوانبه، فمن ذلك:

- أمر الأنبياء باتباع الوحي.

وهذا شيء مهم؛ فقبل أن يأمر الأنبياء أتباعهم باتباع الوحي؛ أمروا هم باتباعه، ليعلم أن الوحي حجة على جميع الخلق ويجب أن يكون الأنبياء قدوة فيمتثلوا هم الأمر باتباع الوحي.

وقد اقترن الأمر باتباع الوحي بأمور أخرى، ومنها:

١. الإعراض عن المشركين.

لأن الإعراض عن المشركين من متممات اتباع الحق، فلا يتم للمرء الاتباع إلا بالإعراض عن المشركين، قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦].

هذا الوحي «هو الحق الذي لا مرية فيه»[1]، وقد أكده بقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وهذا يعني: أنه من عند الله، وليس من عند غيره من البشر، وهو مؤكد آخر لإيجاب اتباع الوحي.

وصياغة المرء حياته على اتباع الحق تتناقض مع عقيدة المشركين، فقد يشغبون عليه بالقول و الفعل، أو الترغيب والترهيب، وهذا هو الصراع الأبدي معهم، لذا؛ أمر بالإعراض عنهم، وتحقيق العبودية الحقة لله تعالى.

٢. النهي عن اتباع الهوى.

ولاشك أن اتباع الهدى يتناقض مع اتباع الهوى، فلا يجتمع الهوى والهدى في قلب أحدٍ، وحين يحضر اتباع الهدى يزول الهوى ويضمحل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

قال ابن جرير: «على طريقة وسنة ومنهاج من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٦٩.

رسلنا»[1].

وعليه؛ فالله أمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يسير على هذا المنهاج الواضح المعالم فيتبعه، وهذه الشريعة تقتضي كل مايحبه الله ويرضاه، «وكل عمل وحب وذوق ووجد وحال لا تشهد له هذه الشريعة التي جعله عليها؛ فباطل وضلال، وهو من أهواء الذين لايعلمون»[2].

٣. الأمر بالصبر على الأذى.

وذلك لأن المرء حين يلزم نفسه باتباع الحق؛ فإنه سوف يلقى عنتًا من نفسه أولًا، حيث من طبع النفس الميل نحو الهوى واللذة، ثم ما يلقى الإنسان من الأذى من الآخرين على اختلاف أنواعه؛ لا بد أن يصبر عليه.

قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩].

فالله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتبع الوحي في الاعتقاد والعلم والعمل والدعوة[3]، وأن يتمسك به ويصبر بعد ذلك على ماسوف يناله من الأذى، وكلما كان المرء أشد اتباعًا للوحي؛ ناله من الأذى الشيء الكثير، وهو مأمور بالصبر، ولذلك كان الأنبياء أشد الناس بلاء؛ لكونهم أشدهم في اتباع الوحي.

٤. اطلاع الله على ما انطوت عليه الأفئدة.

بحيث يجرد المرء اتباعه خالصًا لله وحده، ولا يكون لحظ نفسه أو الدنيا شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢].

ففي الآية وعيدٌ يفيد أن الله مطلع على جميع أعمالكم ومجازيكم عليها، كما أن فيها إشارة إلى ضرورة المسارعة في امتثال الأمر، وعدم التريث في تطبيقه، «والأمر له صلى الله عليه وسلم؛ أمرٌ لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن، كما هو مأمورٌ باتباعه»[4].

٥. الأمر باتباع الأنبياء السابقين.

يؤكد الاقتداء بهم، لكونهم معصومين، وقد زكاهم الله سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

ولا يخفى أن ملة إبراهيم التي أمر باتباعها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هي الحنيفية المسلمة، والاتباع هنا: هو في التوحيد وأصول الشريعة، كما أن التعبير

(١) جامع البيان، الطبري ٢٥/ ١٤٦.
(٢) بدائع التفسير، ابن القيم ٤/ ١٤٧.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٣/ ١٨٧.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦٠.

القرآني أشار إلى أن «الأمر باتباع ملة إبراهيم لا اتباع إبراهيم عليه السلام»، وبهذا نفهم أن علينا اتباع المنهج لا اتباع الأشخاص، فالنبي صلى الله عليه وسلم أخذ الوحي عمن أخذ عنه إبراهيم عليه السلام.

٦. صحة الطريق.

وهي أمرٌ مهم لمن يسلك طريق الاتباع؛ لأن هذا الطريق يمر بالسعادة والفلاح في الدنيا، وينتهي برضوان الله تعالى وجنته في الآخرة، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣].

الاستمساك: هو شدة المسك، والسين والتاء للمبالغة والتأكيد، وعليه؛ فالله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بشدة التمسك بالوحي على كل الأحوال ورغم كل الظروف، لأن الله سبحانه قد ضمن له صحة الطريق، وهذا فيه تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم أيما تثبيت، فلا يضجر ولا يألم، كما أن فيه تثبيتًا لأتباع الأنبياء من الدعاة والمصلحين من بعده ليسيروا في طريقه.

- الإخبار عن امتثالهم الأمر.

إن الأنبياء عليهم السلام هم قدوة البشر، وحين يأمرون أتباعهم بشيء؛ فلابد أن يكونوا أول وأولى من يحقق هذا الأمر في أعلى مراتبه و في درجة الكمال منه، ولذلك فقد أخبر الله تعالى عن امتثالهم الأمر باتباع في آيات كثيرة، ومن ذلك:

١. اقتران الخبر بالدعوة إلى التفكير.

وهذا من المواضع الكثيرة التي حثنا فيها القرآن على التأمل والتفكر، والبحث عن الدليل والبرهان في أمورنا، خاصة العقدية منها، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: إنه ماهو إلا «عبد يمتثل أمر مولاه، ويتبع ما أوحاه»[(١)]، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعمل إلا بالوحي؛ فإنه ليس لأحد من أمته أيضًا أن يعمل إلا بالوحي.

ثم يعقب ذلك بسؤال مهم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وفيه تشبيه حال «من لا يفقه الأدلة ولا يفكك بين المعاني المتشابهة؛ بحالة الأعمى، الذي لا يعرف أين يقصد، ولا أين يضع قدمه، وشبهت حالة من يميز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة القوي البصير؛ حيث لا تختلط عليه الأشباح»[(٢)].

٢. اقتران الخبر بالثناء على الوحي.

حيث يكون اتباع الوحي سببًا لتنوير بصيرة متبعيه وهدايتهم إلى الطريق

(١) روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٥٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٤٣.

المستقيم، بل ويكون اتباع الوحي سببًا في رحمتهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

فالنبي صلى الله عليه وسلم مقتصر على اتباع الوحي لا غير، لا يطلب غير آياته آية، ولا بعد حجته حجة، لماذا؟ لأنه ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال الزمخشري: «أي حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب»[(١)].

وهذه البصائر هي لمن آمن فقط؛ لأن «المؤمن مهتدٍ بالقرآن، متبع له سعيد في دنياه وأخراه، وأما من لم يؤمن به؛ فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة»[(٢)].

٣. عدم اتباع الوحي مقرونٌ بالمعصية.

وهو الضد من اتباع الوحي، فكما أن اتباع الوحي سببٌ لوجود البصيرة والهداية والرحمة؛ فإن ترك الوحي واتباع سبل الضلال سببٌ للمعصية والعذاب، في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٥].

تبين الآيات نتيجة عدم اتباع الوحي ألا وهي المعصية، وهذا لتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ربه، فما بال أولئك الذين نبذوا الوحي وراءهم ظهريًا!

٤. اقتران الخبر بالنذارة.

وفيه تخويفٌ للناس، بأنهم إن لم يتبعوا الوحي فليحذروا العاقبة السيئة لذلك، ولذلك فقد ألزم النبي صلى الله عليه وسلم نفسه باتباع الوحي.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف:٩].

وعلى هذا؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم قد حصر عمله باتباع الوحي فقط، ومعنى ذلك: «الاستسلام والتبري من علم المغيبات والوقوف مع النذارة من عذاب الله عز وجل»[(٣)].

❁ أمر الأمة باتباع الوحي والأنبياء.

بعد أن تقرر آنفًا أن الأنبياء أمروا باتباع الوحي أولًا، وأنهم امتثلوا هذا الأمر علمًا وعملًا ودعوة -؛ جاء دور أمر الأمة باتباع الأنبياء ومن ثم اتباع الوحي؛ لأن اتباع الأنبياء يقود إلى اتباع الوحي فهم واسطته إلينا.

جاء الأمر باتباع الوحي:

١. مقرونًا بالمحبة والمغفرة.

وهو نتيجة طبيعية له، فإن اتباع الحق

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٣/ ٦٧.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١٥/ ١٤.

والوحي آية محبة الله تعالى، وقد أكدت هذه المعاني في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

إذًا فالآية جاءت لبيان حقيقة الاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم، وكيف يكون صادقًا. يقول ابن كثير رحمه الله: «هذه حاكمة على من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله»[(١)].

٢. مقرونًا بالاهتداء.

فاتباع الوحي هو اتباع لما جاء من عند الله تعالى، وما كان كذلك؛ فإنه حقٌّ لامرية فيه، وصواب لاضلال فيه، كما في قصة صاحب (يس)، حيث طلب من قومه اتباع المرسلين، وأثبت أنهم مهتدون، كما أثبت ذلك في سورة الأعراف، حيث الاتباع يؤدي إلى الهداية.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠ ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إن مايدعو إليه هؤلاء الأنبياء هو الإيمان بالله ورسوله، ولذلك فقد أثنى الله تعالى على ذلك، ثم طلب منهم متابعته متابعة تامة في الأقوال والأفعال[(٢)]، مرتبًا على هذه المتابعة الهداية، «تنبيهًا على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه؛ فقد بعد في خطط الضلالة»[(٣)].

٣. صحة الطريق.

وهو أمرٌ مر بنا آنفًا، حيث امر الأنبياء باتباع الوحي نظرًا لصحة الطريق الذي يجب عليهم أن يسلكوه، وهاهم الآن يدعون إلى اتباع الوحي مستشهدين بصحة الطريق أيضًا، تأمل معي مخاطبة إبراهيم عليه السلام أباه قائلًا: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣].

وتأمل أيضًا خطاب محمد صلى الله عليه وسلم لقومه قائلًا: ﴿وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف: ٦١].

ففي الآيتين خطاب لنبيين كريمين، وفي كلا الخطابين ضمان لصحة الطريق حيث لا اعوجاج فيه ولا ظلام، أوله في الدنيا وآخره في الجنة، إذا هم اتبعوه.

٤. بطلان عقائد الشرك.

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٢٦.

(٣) أنوار التنزيل ،البيضاوي ٣/ ٣٨.

وهذه عكس سابقتها، فإن صحة طريق تعني بطلان غيره من الطرق، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٥].

وما تضمنته هذه الآية؛ انطلاق من المسلمات، وذلك أنهم مجمعون على صحة دين إبراهيم عليه السلام، ولذلك أمروا باتباعه، لأنه كان «معرضًا عن كل مايخالف التوحيد متبرئًا من الشرك وأهله»[(١)].

وصحة اتباع إبراهيم عليه السلام ستقود بلا شك إلى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن العقيدة واحدة.

٥. الأمر بالطاعة.

فإن الاتباع وحده لا يكفي، بل لا بد أن ينضاف إليه طاعة الله تعالى واتباع أوامر أنبيائه عليهم السلام، ولذلك جاء على لسان هارون عليه السلام حين أضل السامري بني إسرائيل، واتخذوا العجل بعد ذهاب موسى عليه السلام، أن دعاهم إلى الاتباع والطاعة، فقال لهم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠].

قال ابن عاشور: «دعاهم إلى معرفة الرب الحق، ثم دعاهم إلى اتباع الرسول؛ إذ كان رسولًا بينهم، ثم دعاهم إلى العمل بالشرائع»[(٢)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١٩٢.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٩٠.

❁ اتباع الوحي.

عرض القرآن اتباع الوحي من خلال عدة طرق موضوعية، ويمكن إبراز أهمها بما يلي:

١. اقتران الأمر باتباع الوحي بالنهي عن اتباع غيره.

وفي ذلك حصرٌ لمصدر التشريع؛ إذ لا يمكن للمرء اتباع الوحي وسواه في آن، فإن اتباع أحدهما يلغي الآخر، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أخرج أحمد بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه قال: (خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطًا، ثم قال: هذا سبيل الله، وهذه السبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣])[(٣)].

ولعل في نسبة الصراط إلى الله إشارة «إلى عصمة هذا الصراط من الزلل؛ لأن

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٤٣٥-٤٦٥، وأخرجه الحاكم في مستدركه، ٢/ ٣١٨.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

كونه صراط الله يكفي في إفادة أنه موصلٌ للنجاح؛ فلذلك صح تفريع الأمر باتباعه على مجرد كونه صراط الله»[1]، ولذلك جاء النهي عن اتباع السبل الأخرى، وهي كثيرة، سواء أكانت من العقائد الباطلة أو أي طريق تابع للهوى، «فإن مقتضى الهوى متعدد، لاختلاف الطبائع والعادات»[2].

٢. اقتران الأمر باتباع الوحي بالثناء عليه.

وهو أمرٌ تكرر آنفًا أيضًا، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥].

جاء الثناء على الوحي من عدة وجوه في الآية، فمنها:

١. إن هذا الكتاب نزل من عند الله، وليس من عند البشر، دل عليها قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

٢. إن هذا الكتاب مباركٌ، أي: «كثير الخيرات»[3].

٣. إن هذا الكتاب سببٌ للرحمة لمن اتبعه؛ لأن أكبر «سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علمًا وعملًا،... وفي هذه الآيات؛ دليلٌ على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم هداية تامة»[4].

❁ اتباع الصالحين:

الصالحون: «جمع صالح، وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته»[5]، ولما كان هذا الخلق عظيمًا؛ وصف الله به عددًا من الأنبياء في آياتٍ كثيرة، فقد دعا نبي الله إبراهيم عليه السلام بأن يكون من الصالحين: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٨٣].

ومثله نبي الله يوسف عليه السلام وسليمان عليه السلام، كما أثنى الله على عدد من الأنبياء بهذه الصفة فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٨٥].

وما دامت للصالحين تلك المنزلة، فقد نتساءل كيف يمكن الوصول إليها؟

إن الوصول إلى هذه المنزلة لا يكون إلا باتباع الصالحين، غير أن هذا الاتباع مقيد بقيد موافقتهم للشريعة، وأما ماخالفوا فيه؛ فإنهم لايتابعون عليه؛ فالحق أحق أن يتبع.

وسوف يكون الحديث عن الصالحين من خلال مايلي:

١. اتباع الصحابة رضي الله عنهم.
٢. اتباع الدعاة والعلماء.
٣. اتباع الآباء الصالحين.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٧٣.
(٢) معالم التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٩٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢/ ٢٣٤.
(٥) جامع البيان، الطبري ٥/ ١٦٣.

❁ اتباع الصحابة رضي الله عنهم.

لما كانت السعادة في اتباع الرسل؛ فإن أولى الناس بالاتباع بعد الرسل «هم أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك»[1]، ولا أحد أعلم بحال المرسلين إلا أقرب الناس إليهم وهم أصحابهم.

وقد أثنى الله عليهم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ومنها: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

كما أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[2].

قال الشنقيطي متحدثًا عن آية التوبة: «صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسان؛ أنهم داخلون معهم في رضوان الله تعالى والوعد بالخلود في الجنات، والفوز العظيم»[3]، وأما اتباعهم؛ فهو اتباعٌ كاملٌ؛ بالاعتقادات والأقوال والأعمال[4].

وقد ساق ابن القيم أدلة وجوب اتباع الصحابة رضي الله عنهم من ستة وأربعين وجهًا[5].

بقي أن أشير إلى أن اتباع الصحابة رضي الله عنهم دائر مع الحق وجودًا وعدمًا؛ فإن ما يقولونه أو يفعلونه يعرض على الكتاب والسنة، فإن وافقهما قبل، وإن خالفهما رد.

❁ اتباع الدعاة العاملين:

أقصد بالدعاة العاملين: أولئك الربانيين الذين علموا الحق ودعوا إليه، وصبروا على الأذى الذي نالهم في سبيله.

ساق القرآن ثلاث جوانب في هذا السياق، ومنها:

١. مؤمن آل فرعون.
٢. صاحب (يس).
٣. اتباع المؤمنين.

مؤمن آل فرعون:

تحكي لنا هذه القصة حال رجل عرف الحق فآمن به، ودعا إليه، وكان يكتم إيمانه، ويجادل عن موسى عليه السلام مع أعظم طغاة الأرض فرعون.

والقصة طويلة، لكن المقصود أنه دعاهم إلى توحيد الله تعالى والإيمان بموسى عليه

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٢٦.
(٢) أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب فضائل أصحاب النبي، رقم ٣٦٥٠.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤٧٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٣٦.
(٥) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ٤/ ١٢٣-١٥٢.

السلام، وحذرهم من الشرك الذي يقود على النار.

قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠﴾ [غافر: ٣٨ ٤٠].

لم يدعهم الرجل إلى تقليده، بل دعاهم إلى اتباع الحق، ولذلك فإن هذا الرجل إنما اتبع لأنه دعا قومه إلى الحق، لا لأنه دعا إلى نفسه. ثم دعاهم مرة أخرى فقال: ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢﴾ [غافر: ٤١ ٤٢].

والخلاصة أن هذا الرجل مؤمن آل فرعون- واجه الشرك وأهله - الذي تمثل بفرعون وملئه يدعوهم على إلى عبادة إله لاشريك له، واتباع موسى عليه السلام، حتى انقسم الناس إلى قسمين لا ثالث لهما: «إما محمدي موسوي، أو فرعوني»[1].

قصة صاحب (يس):

قص الله علينا قصة هذا الرجل الذي جاء إلى قومه يدعوهم إلى الله تعالى، وقومه هم أصحاب القرية الذين أرسل الله إليهم ثلاثة من الرسل فكذبوهم جميعًا محتجين بكونهم بشرًا، وفي أثناء الحوار يجيء رجل من أقصى المدينة يسعى ليناظر هؤلاء المعاندين، ويبين لهم حقيقة توحيد الله وعبادته وحده، ومما قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾ [يس: ٢٠ ٢٥].

طلب منهم هذا الرجل أن يتبعوا المرسلين، «فنبه على موجب الاتباع، وهو كون المتبوع رسولًا لمن لا ينبغي أن يخالف ولا يعصى»[2].

وأخبرهم بأنه يعبد إلهًا واحدًا، وليس هناك شيء يمنع من عبادة الله تعالى، الذي فطرنا جميعًا وإليه مرجعنا جميعًا، وهذا فيه رد وردع لهم للرجوع عن الشرك من خلال التذكير بالبعث.

وكما في قصة مؤمن آل فرعون؛ فإن هذا الرجل لم يدعهم إلى نفسه، بل دعاهم إلى توحيد الله ونبذ الشرك، واتباع القوم له إنما هو اتباع للحق وليس لشخصه.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/ ٢٥٣.

(٢) بدائع التفسير، ابن القيم ٣/ ٤٧٧.

❁ اتباع المؤمنين:

لم يقتصر اتباع الصالحين على قصتين في القرآن فقط، بل إن القرآن دعا إلى اتباع كل من ينيب على الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٥].

قال ابن كثير: «يعني المؤمنين»[(١)].

وخصها ابن القيم بالصحابة فقط، فقال: «وكل الصحابة منيبٌ إلى الله، فيجب اتباع سبيله، وأقواله واعتقاداته من أكبر سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى؛ أن الله تعالى قد هداهم وقد قال: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]»[(٢)].

والظاهر والله أعلم أن الآية عامة، وأنها تعني الاقتداء بكل منيبٍ إلى الله، أي: راجع إليه، مقلعٍ عن الشرك والمعاصي، وهذا يعني كل إنسانٍ هذا شأنه من عباد الله الصالحين، «واتباع سبيلهم؛ أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله التي هي انجذاب دواعي القلب وإرادته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن فيما يرضي الله ويقرب منه»[(٣)].

❁ اتباع الآباء الصالحين:

إن منزلة الآباء عند أبنائهم منزلة عظيمة، ومحبة الابن لأبيه والأب لابنه كبيرة، وقد أمر الابن بطاعة أبيه في مواطن كثيرة، ولكن هذه الطاعة تزول إذا أمر الوالدان أو أحدهما بمعصية الله، فإنه لا طاعة لهما.

إن اتباع الآباء - شأنه شأن بقية أنواع الاتباع - مقيد باتباع الحق، فما دام الأب متبعًا للحق؛ فإنه يتبع، ومتى جانب الصواب؛ فإنه يترك ولا يتابع في ذلك، مع الاحتفاظ بتقديره واحترامه.

قال يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: ٣٨].

إن من اتبع طريق المرسلين، وابتعد عن طريق الضالين؛ «فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه مالم يكن يعلم، ويجعله إمامًا يقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد»[(٤)].

ثم شرع يبين من هؤلاء الآباء: إنهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهؤلاء كلهم أنبياء كما لايخفى -، وهذا هو السبب الأول في اتباعهم، إنهم معصومون وعلى الحق دائمًا[(٥)].

وأما السبب الثاني؛ فقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، فقد «طهر آباءه عن الكفر»[(٦)]، وبين أنهم على ملة التوحيد بالدلالة العكسية لعدم الشرك، حتى أصبح

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٥٤.
(٢) إعلام الموقعين ٤/ ١٣٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦/ ٧٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٩٦.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ١١١.

التوحيد «كالسجية لهم، عرف بها أسلافه بين الأمم، وعرف بها نفسه»[1].

وتأمل كيف يكون حرص الأنبياء على عقيدة أبنائهم، فهم يتابعون ذلك حتى وهم في أخريات حياتهم ساعة الاحتضار.

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

ولا يكفي أن يكون ذلك في الدنيا، بل إن الأبناء يلحقون آباءهم، وينالون شرف الاتباع في الدنيا باللحاق بآبائهم المؤمنين في الآخرة، وعنده تكتمل سعادة الآباء والأبناء.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١].

حيث يخبر الله تعالى عن تمام نعيم أهل الجنة، بإلحاق الأبناء بالآباء، لكن هذا ليس لكل ابن، إنه للأبناء الذين اتبعوا آباءهم بالإيمان فقط، «فعطف الاتباع بالواو؛ يقتضي أن يكون المعطوف بها قيدًا أو شرطًا في ثبوت الخبر، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ»[2].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٧٣.
(٢) بدائع التفسير، ابن القيم ٤/ ٢٦٢.

وعلى هذا؛ فالإيمان شرط لاتباع الأبناء الآباء؛ لأن الآباء في الغالب سببٌ في هداية أبنائهم بعد توفيق الله بتربيتهم وتعليمهم وتهذيبهم.

ولذلك فإن هذا الأب الذي ربى ذريته على الإيمان؛ يتمنى رؤية أبنائه معه في الجنة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقر بهم عينه»، ثم قرأ الآية[3].

وعند أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يارب: أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك)[4].

[انظر: القدوة: الآباء الصالحون]

ثانيًا: الاتباع المذموم:

لاشك أن مظاهر الاتباع المذموم كثيرة، وذلك ليس بدعًا من القول؛ فإن السبل الموصلة إلى جهنم كثيرة، بينما سبيل الجنة واحد هو اتباع الوحي الذي نزل على الأنبياء عليهم السلام.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٥٩.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٥٠٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالدين، رقم ٣٦٦٠.
وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، رقم ٢٩٥٣.

وتتكرر مظاهر الاتباع المذموم بحسب الأزمنة والأمكنة، وتتنوع طرائقها، وبعضها يتمسح بمسوح الدين غير أن قائده يظل الهوى أو الشيطان أو كلاهما، أو غيرهما من مظاهر الاتباع المذموم.

❁ اتباع الشيطان:

حين يتأمل المرء دعاء امرأة عمران العظيم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران: ٣٦].

يتعجب من هذا الدعاء، «فاستجاب الله لها، فأعاذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلًا»[(١)].

وأعاذها وأعاذ ذريتها من بعدها من الشيطان الرجيم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه).

ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[(٢)].

و الحذر والتحذير من الشيطان والخوف من وسوسته واجب، فحتى الأنبياء لم يسلموا من وسوسة الشيطان، لكن الله سبحانه عصمهم، والأدلة والأمثلة على ذلك كثيرة.

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٣٩.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، رقم ٢٣٦٦.

قال الراغب: «وسمي كل خلق ذميم للإنسان شيطانًا»[(٣)].

ولذلك فقد ميز الله الشيطان بصفات كاشفة كثيرة، جعلته شديد الوضوح لكل من يبحث عن الحق، ومن ذلك أنه وصف بالكفور كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الإسراء: ٢٧].

والمريد، المتعري من كل خير، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ [الحج: ٣].

كما أنه يؤز بالإغواء والإضلال، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ [مريم: ٨٣].

ومن الطبيعي أن يوالي غير المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧].

إلى غير ذلك من الآيات، وهي كثيرة جدًا.

لكن المهم أن الشياطين لا يريدون سوى الضلال والإضلال، وصرف الناس عن طريق الحق، وتزيين الباطل.

أما أثر اتباع الشيطان؛ فيمكن إجماله في جملة من الآثار، ومنها:

١. الكفر والضلال.

ولا نتوقع من الشيطان غير ذلك، كما لا نتوقع منه إلا كل ما هو مؤذٍ ومضرٍ بالإنسان.

(٣) المفردات، ص ٤٥٥.

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦].

نقل الطبري عن مجاهد قوله: «﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾: عامة الناس»[(١)].

وكما هو واضح من الآية، يوسوس الشيطان للإنسان بأن يكفر، فإذا فعل؛ تركه وتبرأ منه، «وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم بغرور إلى مايضرهم، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاق بهم أسباب الهلاك؛ تبرأ منهم وتخلى عنهم»[(٢)]، ولا لوم عليه؛ لأنه عدوٌ يخطط للإيقاع بخصمه، لكن اللوم على من يتبعه ويتبع وسوسته.

وأما الضلال فقريب من الكفر ومتممٌ له، وحين يقع المرء في الضلال؛ فإنه واقعٌ في الكفر لا محالة، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]. والكفر داخل ضمن الضلال.

٢. الردة والانتكاس.

وهذا يقع لكثيرٍ ممن عرف الحق وحاد عنه بداعي الهوى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد: ٢٥].

تحكي الآية صفة من تبين لهم الحق ثم منعتهم شهوات نفوسهم على اختلافها من اتباعه، فارتدوا على أدبارهم، بسبب تسويل الشيطان وتزيينه لهم طريق الباطل، وإيهامهم أن في هذا الطريق إرضاء لشهواتهم وأشباعًا لغرائزهم، ولذلك أسبابٌ كثيرة، لكن الشيطان يقع على رأس هذه الأسباب.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

٣. الصد عن سبيل الله.

حين يقع المرء في الكفر والضلال والردة والانتكاس؛ يتطور أمره إلى أن يصد الناس عن اتباع الحق، ويسعى بكل ما أوتي إلى جعل الناس يسيرون في طريق الضلال والهوى، وهذا من تاثير الشيطان عليه، وتزيينه لسوء العمل، كما يحكي القرآن ذلك على لسان الهدهد مخاطبًا نبي الله سليمان: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٤].

ظاهر الآية يدل على أن سبب ضلال

(١) جامع البيان ٢٨/ ٥١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥٣.

القوم؛ صد الشيطان إياهم عن السبيل، فهم لايهتدون للسجود لله تعالى، قال ابن القيم: «ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك؛ وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لاينبغي السجود إلا له»[1]، ويقترب من الصد تزيين الباطل، وهو كثير في القرآن.

٤. الجدال بغير علم.

وهي نتيجة أخرى للصد عن سبيل الله، حيث يبدأ المرء في الدفاع عن مبدئه الفاسد وضلاله المستحكم، وسبب هذا اتباعه الشيطان، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ [الحج: ٣].

تتحدث الآية عن قوم يجادلون في الله جدالًا مبنيًا على جهل، «أي: جدلًا ناشئًا عن سوء نظر وتفكير، فلا يعلم ما تقتضيه الألوهية من الصفات»[2].

وهؤلاء القوم تبعٌ لكل شيطان مريد، سواء أكان من شياطين الجن أو الإنس من أئمة الكفر والضلال؛ فإن هؤلاء هم الذين صدوهم عن الحق.

وكم يجد المرء من العنت في مجادلة هؤلاء الأتباع؛ لأنهم ليس لديهم نقل تحاكمهم إليه ولاعقلٌ، فإذا ما جاءته الحجة الدامغة وأوقفته؛ زعم أنها لم تخف على شيطانه الذي يتبعه، فإن قبلها ذلك المتبوع، وإلا فلا حجة.

٥. إيقاع العداوة والبغضاء.

وهذه من أحب الصفات إلى الشيطان أن يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: ٩١].

إن الشيطان يهيئ للعداوة والبغضاء بين الناس عن طريق الخمر والميسر؛ لأنهما من أسرع الوسائل في حصولها، وفي الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم)[3].

قال النووي: «أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء، والحروب والفتن ونحوها»[4].

(١) بدائع التفسير ٣/ ٣٣٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٩٢.
(٣) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا، رقم ٢٨١٢.
(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ١٥٧.

وأعظم التحريش عند الشيطان أن يفرق بين المرء وزوجه[1].

ولذلك فالمطلوب من الإنسان الحذر من الشيطان ومزالقه التي توصل إلى العداوة والبغضاء بالقول والفعل.

٦. إلقاء الرعب في قلوب المسلمين.

في غزوة أحد تولى بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الزحف.

فجاءت هذه الآية تحكي قصتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥٥].

في الآية بيان سبب التولي يوم الزحف، وأنه إنما كان استزلال الشيطان لهم، بسبب بعض ذنوبهم السالفة، وكانت هذه الذنوب سببًا خفيًا وراء التولي، وقد نقل ابن كثير عن بعض السلف: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها»[2].

٧. نسيان ذكر الله.

وهذا أمر طبيعي، فإن من استولى عليه الشيطان؛ أنساه ذكر الله، كما في قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

إن هذا القرين هو الذي ينسي المرء ذكر الله تعالى - بكل أنواعه، ولعل المقصود أن هؤلاء القوم نتيجة استيلاء الشيطان عليهم وغلبته على نفوسهم؛ أنساهم ذكر الله، فلم يعودوا يذكرونه بألسنتهم، ولم يعودوا يتذكرونه بأفعالهم.

٨. التناجي المذموم.

وهي إحدى الصفات المذمومة التي يزين فعلها لبني آدم حتى يعمق بينهم العداوة والبغضاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة: ١٠].

والمتأمل للآية يلاحظ قصر النجوى بـ(إنما) على الشيطان، فهو المختص بها وهي المختصة به، يوسوس إلى قلوب العباد بوساوسه الخبيثة ليحزن الذين آمنوا، لما يقع في نفوسهم من خوف الشر.

وقد ورد في السنة عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كانوا ثلاثة؛ فلا يتناجى اثنان

(١) انظر: ما أخرجه مسلم عن جابر أيضًا في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا، رقم ٢٨١٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٨٢.

دون الثالث)[1]، ولذلك فالمطلوب تفويت الفرصة على الشيطان، حتى لا يوقع العداوة والبغضاء بين الناس.

٩. التبذير.

لا يحب الشيطان إلا أن يوقع المرء بشر أفعاله؛ لأنه لا يريد له الخير، وكل من أمعن في اتباعه؛ بالغ في إيقاعه في الخطأ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٧].

التبذير صفة مذمومة، منشؤها الشيطان، حتى عد المبذرون إخوان الشياطين، نتيجة ملازمتهم لهم واتباعهم إياهم، «وقد زيد تأكيد ذلك بلفظ ﴿كَانُوٓا۟﴾ المفيد أن تلك الإخوة صفة راسخة فيهم، وكفى بحقيقة الشيطان كراهة في النفوس واستقباحًا»[2].

١٠. دخول النار.

هذا الأثر قاصمة الظهر، وهو الذي لا نطيق؛ لأن اتباع الشيطان يؤدي بالمرء إلى السعير.

ألم يقل الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١]؟.

لنتأمل في الاستفهام الذي يظهر منه التعجب، ومعناه: أيتبعون الشيطان وهو يدعوهم إلى عذاب السعير؟

إن العاقل لا يفعل ذلك بلا شك، وهذا يدل على أن هؤلاء القوم ليست لهم عقولٌ، وهو في حد ذاته ذمٌّ لهم، ولكن: أين عقولهم؟ لقد سيطرت عليها الشهوات واتباع الهوى، فتبعوا الشيطان مع علمهم بعداوته الشديدة لهم.

❁ اتباع الآباء الضالين.

إن حب الابن لأبيه مغروسٌ في نفسه، وهو من أعراف الأقوام، وآدابهم الاجتماعية، فالطفل «يشعر بأن أباه أعظم الناس وأحقهم بالإجلال والتعظيم»[3].

هذا؛ وقد كان العرب إذا قضوا حجهم وقفوا عند الجمرة، وطفقوا يتفاخرون بالآباء، ويذكرون أيام أسلافهم في الكرم والشجاعة ونحو ذلك، حتى قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠].

إذن فمحبة الابن لأبيه أمرٌ معتبرٌ شرعًا، وقد حث عليه الإسلام في مواضع كثيرة، ولكن يجب ألا تطغى هذه المحبة على الحد الطبيعي، بحيث تكون سببًا في رد الحق، وعدم اتباعه بحجة اتباع الآباء.

وحين تتأمل دعوات الأنبياء؛ تجد أنها بدأت بدعوة الآباء أولًا، وأوضح الأمثلة

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث، رقم ٦٢٨٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٨٠.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٢٢٦.

على ذلك: دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه، وقد صورها القرآن في مواضع كثيرة.

ومن المهم الإشارة إلى أن الراغب الأصفهاني عد العلماء والمعلمين داخلين في مفهوم الآباء، فقال: «الأب: الوالد، ويسمى كل من كان سببًا في إيجاد شيء أو صلاحه أو ظهوره أبًا،...، وسمي معلم الإنسان أبًا لما تقدم ذكره.

وقد حمل قوله تعالى: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢] على ذلك؛ أي: علماؤنا الذين ربونا بالعلم بدلالة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]» [(١)].

وعلى هذا؛ فالمعنى يأخذ بعدًا أوسع من المعنى القريب للأب.

هذا وقد توسع القرآن في الحديث عن هذه ظاهرة اتباع الآباء، عارضًا أقوالهم، ومن هذه المظاهر:

١. اتباع الآباء في الشرك.

لقد كان اتباع الآباء سببًا رئيسًا في رد دعوات الأنبياء عليهم السلام إلى التوحيد.

فهذا نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه إلى التوحيد؛ فيجيبه الملأ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وحين سأل إبراهيم عليه السلام قومه عن سبب عبادتهم الأصنام؛ أجابوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٥٣].

ومثل ذلك نبي الله هود عليه السلام دعاهم إلى توحيد الله فأجابوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠].

وكذا نبي الله صالح وشعيب وموسى عليهم السلام حتى نصل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، حيث رد عليه كفار قريش بهذا الرد.

ثم يبين لنا القرآن أن هذه المقولة هي مقولة جميع الأمم لرسلهم، فيقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهذا فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ليعلم أن كل ما يلاقيه من صدود وإعراض عن دعوته؛ قد لقيه الأنبياء جميعًا مع أقوامهم، وأن ردهم كان واحدًا، وهو يعكس طبيعة المعرضين: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٣].

٢. اتباع الآباء في التحليل والتحريم.

فاتباع الآباء في الشرك هو اتباع لهم في العقائد، وإذا كانوا قد اتبعوهم في العقائد؛ فمن باب الأولى أن يتبعوهم في الشرائع،

(١) المفردات، الراغب ص ٥٧.

وما يتعلق بها من التحليل والتحريم، والإخلال بالأحكام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٦٨ ١٧٠].

جاء الأمر بالاستمتاع بما أحل الله والابتعاد عما حرم، وقد عبرت عنه الآية باتباع خطوات الشيطان.

قال الشاطبي: «فكأنهم استندوا إلى دليل جملي وهو الآباء؛ إذ كانوا عندهم من أهل العقل، وقد كانوا على هذا الدين، وليس إلا لأنه صوابٌ فنحن عليه؛ لأنه لو كان خطأ؛ لما ذهبوا إليه»[1].

وبهذا نفهم أن الشرك الذي كان عليه الآباء أصبح في نظر هؤلاء ندًا لاتباع الحق، كما أصبح مصدرًا للتشريع، كما نفهم أن هؤلاء القوم ليس لديهم أدنى استعداد للبحث في شيء خارج عما وجدوا عليه آباءهم ألبتة.

٣. اتباع الآباء في المجادلة بغير علم.

وهي صفة ناشئة عن محبة الابن لأبيه، فإنه سوف يدافع عما يراه حقًا، ودفاعه هذا دفاعٌ بغير علم، إذ كيف يتبع أباه في شيء فيه حتفه؟ ومعلومٌ أن اتباع الآباء لو كان في أمرٍ من أمور الدنيا، ورأوا بطلانه؛ لم يقبلوا به، فكيف بأمرٍ من أمور الدين؟!

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ [لقمان: ٢٠ ٢١].

نعى الله سبحانه عليهم المجادلة بغير علم، وهذه المجادلة «مع كونها من غير علم؛ فهي في غاية القبح؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى كلام الله، وهو يأخذون بكلام آبائهم، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بونٌ عظيم، فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء»[2].

٤. اتباع الآباء في فعل الفاحشة.

وإذا كان هؤلاء القوم يتبعون آباءهم في التحيل والتحريم؛ فإنهم يتبعونهم فيما يتفرع عن ذلك، ألا وهو فعل الفواحش.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

(١) الاعتصام، الشاطبي ١/ ١٦٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٣٤.

الفاحشة في الأصل: اسم «للعمل الذميم.. وغلبت الفاحشة في الأفعال الشديدة القبح، وهي التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضر أو فساد»[1].

وكما تلاحظون؛ فإن القوم لم يكتفوا باتباع آبائهم في فعل الفاحشة، بل تعدوا ذلك إلى أمر عظيم زاعمين أن الله أمرهم بها.

ولا يخفى أن هذين القولين هما النتيجة الحتمية للولاية الشيطانية المذكورة قبل هذه الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

٥. اتباع الآباء في رد دعوات الأنبياء.

تلك أسوأ صفة، وهي سببٌ لجميع الصفات الأخرى، حيث كان اتباع الآباء سببًا في رد دعوات الأنبياء، وحين يرد الإنسان دعوة النبي؛ فلاشك أنه سيقع في ضلال مبين، وتأمل إجابة قوم موسى عليه السلامَ حين جاءهم بالبينات حيث قالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [القصص: ٣٦].

وكان لقريش الإجابة نفسها: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ: ٤٣].

إن هؤلاء القوم حين واجههم القرآن بحججه وبيناته؛ أحسوا بخطورة ذلك عليهم، لأنهم لا يعتمدون إلا على تقاليد بالية يتمسكون بها، وهي قولهم: إن هذا النبي يريد أن يصد الناس عما كان يعبد آباؤهم، وهم يشعرون أنهم قاوموا الحجة بالحجة، وما دروا أنها حجة ساقطة مرجعها التقليد الأعمى!

ولم يكتف القرآن بعرض ردود القوم؛ بل بين أن الأنبياء والقرآن ردوا عليهم، وأظهروا عوار تفكيرهم من خلال عدة أمور، ومنها المناقشة العقلية والتنزل للخصم، والتذكير بالله تعالى وبنعمه، والتحقير والتوبيخ، والتعجب والإنكار، والتذكير بقدرة الله عليهم وأخيرًا التهديد بالعذاب.

❁ اتباع الطواغيت من السادة والكبراء.

حين نأتي على دعوات الأنبياء عليهم السلام؛ نجد أن دور الملأ واضحًا في صد الناس عن دين الله، والملأ: «جماعة يجتمعون على رأي فيملؤون العيون رواءً ومنظرًا، والنفوس بهاءً وجلالًا»[2].

لقد كان اتباع الطواغيت من الكبراء من أسباب الصدود عن الحق، والتمرد على الأنبياء وعصيانهم، فهاهو ذا نوحٌ عليه السلام يناجي ربه: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: ٢١].

لقد عصى القوم نوحًا عليه السلام

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٢.

(٢) المفردات، الراغب، ص ٧٧٦.

فلم يستجيبوا له، على الرغم بأنه وعدهم بالمغفرة وأن يرسل السماء عليهم مدرارًا بالمطر، ويمدهم بالمال والولد وتتحول أراضيهم على جنات وأنهار. وإضافة إلى العصيان؛ اتبعوا رؤساءهم في الكفر وعدم اتباع دعوة نبي الله نوح عليه السلام.

قال الألوسي: «والظاهر أن اتباع عامتهم وسفلتهم لأولئك الرؤساء وفي وصفهم بذلك؛ إشعارٌ بأنهم اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد، لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع في الجملة»[1].

ثم ننتقل إلى هود عليه السلام وكيف كذبه قومه اتباعًا لكبرائهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود: ٥٩] وكما هو واضح؛ فالآية بينت لنا ثلاثة أمور: جحودهم آيات الله، وعصيانهم الرسل واتباع الجبابرة المعاندين.

قال الراغب: «الجبار: في صفة الإنسان: يقال: لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لايستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم»[2]، وأما العنيد؛ فيقول: «المعجب بما عنده، والمعاند: المباهي بما عنده»[3].

ويتردد مثل هذا الكلام في قصة صالح وشعيب مع قومهما، وقد ساقها القرآن بتفاصيلها، وكانت النتيجة أن هذا التكذيب كان سبب العذاب.

ويبقى أن أشير إلى فرعون الذي بلغ منزلة عالية في الكبر عن الحق، ونتيجة لذلك؛ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٩].

ولذلك يقول تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود: ٩٧].

لقد أرسل الله موسى عليه السلام بالحجج والآيات الباهرة والظاهرة إلى فرعون وملئه، فاتبع القوم أمر فرعون في تكذيب موسى عليه السلام، ورد ما جاء به من الحق، ولذلك رد الله عليهم مباشرة بقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾؛ لأن من يكذب الأنبياء ويرد دعوتهم لا يمكن أن يكون أمره رشيدًا، «وإنما هو غيٌّ صريح، وضلالٌ ظاهر مكشوفٌ، وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويغويهم»[4].

[انظر: القدوة: الكبراء والرؤساء]

❁ اتباع الباطل.

الباطل عامٌّ في كل ما هو خلاف الحق،

(١) روح المعاني ١٥/ ٧٦.
(٢) المفردات، الراغب، ص ١٨٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٥٩٠.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٣٣.

والحق راجعٌ للوحيين: الكتاب والسنة، ولذلك؛ فالمؤمن يتبع الحق دائمًا، والكافر يتبع ضده وهو الباطل.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾ [محمد: ١ ٣].

يبين الله في الآيات حال فريقين من الناس من خلال بيان النتيجة ثم تفصيل السبب الموصل إليها، ففي الأولى؛ يبين الله سبحانه وتعالى إضلال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، ثم يبين تكفيره لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم، ثم يبين علة هذا الإضلال بأنه كان بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله واتباعهم الباطل.

والملاحظ أنه تكرر الاسم الموصول (الذي) عدة مرات، وهذا له فائدة بلاغية ذكرها الجرجاني، وملخص كلامه: إن الإنسان حينما يؤتى له بصفات رجلٍ ما، فيمدح عليها دون أن يذكر اسمه؛ فإنه لابد أن يتساءل: هل سمع بهذه الصفات؟ وهل حصل معناها؟ وكيف ينبغي أن يكون هذا الرجل حتى يحصل المدح أو يبتعد عن الذم؟ (١)

وعليه؛ فالمستحقون للذم هم الذين يتبعون الباطل، واتباعهم الباطل كان سبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله، ولذلك؛ أضل أعمالهم، بينما المستحقون للمدح متبعو الحق، وسبب ذلك إيمانهم بالله وعملهم الصالح، ولذلك كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم.

ويرخي ختام الآيات بظلاله على العمل، فبين إضلال العمل، وتكفير السيئات وصلاح البال؛ بونٌ شاسع، حيث يأتي إضلال الأعمال بضياع وضنك وشقاوة في الدنيا والآخرة، بينما يأتي تكفير السيئات وإصلاح البال بسعادة نفسية وبدنية في الدنيا والآخرة.

❁ اتباع الهوى.

إن أعظم مظاهر الاتباع المذموم؛ اتباع الهوى؛ فكم صد أقومًا عن الحق، وكم صرف آخرين إلى الباطل، وحين نتأمل سير الأنبياء؛ نجد أن كثيرًا ممن عارضهم من أقوامهم إنما كان بسبب الهوى، ألست ترى أن اتباع الآباء في أصله اتباعٌ للهوى.

والهوى: «ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سمي ذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، وقد توسع في ذلك، ص ١٨٢-١٨٥.

داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»[1].

وعرفه بعضهم بأنه: «ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع»[2].

وكعادة القرآن في معالجة هذه المواضيع؛ فإنه يطرقها من جميع جوانبها؛ فقد تحدث عن خطورة الهوى في الحكم والقضاء والشهادة، وأنه يؤدي إلى أن يكون إلهًا يعبد.. إلخ، كما تحدث عن أشخاص معينين أضلهم هواهم، وحذر من اتباع العوى، ولم يغفل بيان خطورة اتباع الهوى، ومن مظاهر اتباع الهوى ما يأتي:

١. اتباع الهوى في الشرك.

إن اتباع الهوى في الشرك أعظم الأنواع، حيث يعبد المرء ما سوى الله سبحانه وتعالى تبعًا لهواه.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٩ ٢٣].

أبانت الآيات أن تلك الأصنام التي عبدت من دون الله، وسميت بأسماء مخترعة ليس عليها دليلٌ ولا برهان؛ إنها لم تأت إلا من قبل الظن والهوى، «لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحيٍ جاءهم من الله، ولا من رسوله الله أخبرهم به»[3].

ومما يزيد أمر اتباع الهوى في الشرك وضوحًا: قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: ٢٨ ٢٩].

٢. اتباع الهوى في الحكم والقضاء.

القضاء والحكم بين المتخاصمين مظنة وقوع الميل لأحد الأطراف، مالم يعصم الله القاضي من ذلك، وقد يكون هذا الميل لأمر من أمور الدنيا أو لحظ من حظوظ النفس، ولأهمية ذلك.

فقد أمر الله سبحانه نبيه داوود عليه السلام بالحكم بين الناس بالحق وحذره من اتباع الهوى.

فقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

(١) المفردات، الراغب، ص ٨٤٩.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٧.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٨٤.

وإذا جاء الأمر للأنبياء بذلك على أهميتهم وعصمتهم من الخطأ، فما بالك بمن سواهم!.

وفي الآية تقسيم واضح لطريق الحكم بين الناس: إما الحق، وهو الوحي المنزل، وإما الهوى، وهو كل ما سوى الوحي.

ثم بين أن اتباع الهوى علة للضلال عن سبيل الله، لأن الفاء في قوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ «تدل على العلية» [1]، ومن ثم؛ فإن الضلال موصلٌ إلى العذاب الشديد يوم القيامة، والمحصلة: «إن متابعة الهوى توجب سوء العذاب» [2].

وكما خاطب الله نبيه داوود عليه السلام بالبعد عن الهوى في الحكم؛ خاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم قائلًا له: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ومعلومٌ أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس واقعًا في الهوى، لكن القصد أن يتقرر هذا الأمر عند الناس، فلا يقعوا فيه، وهذا فيه تشديد على متبعي الهوى، حتى لو كان ذلك لمصلحة كما قد يرى ويسوغ البعض.

٣. اتباع الهوى في الشهادة.

بعد أن تحدثت عن اتباع الهوى في الحكم؛ آتي إلى أمر مقترن به وهو الشهادة، سواء أكان ذلك أمام القاضي أو الحاكم، أو في التعاملات الأخرى بعيدًا عن الحكم والقضاء من خلال ذم شخص أو جماعة أو مدحهما.

قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

إن أول ما يقابل القارئ نداء المؤمنين، فهو يخاطبهم بأحب الأوصاف إليهم، ويخاطبهم لأنه قد يقع منهم الجور على الرغم من إيمانهم، وتكون الشهادة حتى على النفس والوالدين والأقربين، ولا شك أن هذا أمر صعب أن تشهد على نفسك ووالديك والأقربين منك، قال الطبري: «وذلك أن يكون عليه حقٌّ لغيره، فيقر لله به، فذلك قيامٌ منه له بالشهادة على نفسه، وهذه الآية عندي تأديبٌ من الله جل ثناؤه عباده المؤمنين» [3].

ويؤيد هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٢٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ١٧٥.
(٣) جامع البيان ٥/ ٣٢١.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ففي الآية الأولى حديث عن العدل مع الأقربين خوف الميل لهم، وفي هذه الآية حديث عن العدل مع الأعداء خوف الجور عليهم، واتباع الحق يضبط ذلك، واتباع الهوى يميل إلى إحدى الطرفين.

٤. اتباع الهوى في العبادة والدعوة.

يوجه الله نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يدعو إلى ملة التوحيد التي شرعها له، ويستمسك بها ويثبت عليها، فكم من إنسان يظهر الدعوة إلى الله وهو في الحقيقة إنما يدعو لنفسه.

ولذلك يقول تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

كما ينهاه عن اتباع أهوائهم؛ لأنها مخالفة للاستقامة على طريق الحق.

ومن خلال الآية؛ يلمس المرء صرامة في النهي عن اتباع الأهواء، وذلك لتبتعد هذه الدعوة عن أماكن الانزلاق ومواضع الاضطراب، وتبقى واحدة موحدة؛ مرجعها الأول والأخير هو الوحي، حيث الصفاء والنقاء والبعد عن الأهواء.

هذا ما كان من أمر الدعوة؛ أما ما كان من أمر الشريعة والعبادة.

فيقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

هذه الآية - على إيجازها حوت معاني عظيمة؛ وذلك أنها بينت أن شريعة الإسلام أفضل الشرائع؛ لأنها الخاتمة لجميع الشرائع السابقة من جهة، ولأنها من عند الله تعالى من جهة ثانية، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباعها، والمقصود بذلك المداومة على اتباعها، ودعوة الأمة إلى ذلك، وعدم التفريط فيها إلى الأهواء الأخرى.

وفي مقابل ذلك؛ فإن كل مالم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فهو باطلٌ وضلالٌ، وهو من أهواء الذين لا يعلمون.

٥. اتباع الهوى في الصد عن الحق.

لا يتوقف اتباع الهوى عند حد، بل يمتد ليشمل الصد عن الحق، لأن الحق نقيض الهوى، فلا يكتفي البعض بعدم اتباع الحق بل يتجاوزون ذلك للصد عنه.

وقد حذر الله نبيه موسى عليه السلام من اتباع الذين يصدون عن الحق: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥ ١٦].

قال ابن كثير: «المراد بهذا الخطاب:

آحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في الدنيا، وعصى مولاه، واتبع هواه»[1].

وقد وضحت الآية نتيجة اتباع هؤلاء بكلمة واحدة وهي قوله: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾، قال ابن كثير: «أي: تهلك وتعطب»[2].

عبادة الهوى:

إن كثرة اتباع الهوى؛ تصير المرء عبدًا لهواه يعبده من دون الله، ويصدر في أقواله وأفعاله من الهوى الظاهر أو الخفي، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣ ٤٤].

ويقول تعالى أيضًا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

ففي الآيتين نجد الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم -وهو عامٌ لجميع أفراد الأمة- ينعي على أولئك الذين اتخذوا الهوى إلهًا، والتعبير بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ يفيد الحصر، أي «لم يتخذ لنفسه إلهًا إلا هواه»[3]، ويقول الزمخشري: «أي هو مطواعٌ لهوى النفس، يتبع ماتدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه»[4].

وتأمل التعقيب في الآيتين، ففي الآية الأولى؛ وصفهم بالأنعام بل أضل منها، وفي الآية الثانية؛ بين أن الله ختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة؛ ولأن الله ختم على سمعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة؛ صاروا كالأنعام، بل أضل من ذلك، ولعل هذا سبب عدم سمعهم وعقلهم الذي عبرت عنه الآية الثانية، فهل يتوقع لهم الهداية بعد ذلك؟

[انظر: الهوى: مجالات اتباع الهوى]

- اتباع الظن.

لابد من معرفة الظن المقصود؛ فقد عرفه الراغب بقوله: «الظن: اسم لما يحصل عن إمارة، ومتى قويت؛ أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًا؛ لم يتجاوز حد التوهم، والظن في كثير من الأمور مذموم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾»[5] [يونس: ٣٦].

والظن يختلف من حيث القوة والضعف[6]، ولكن تبقى الظنون جميعًا تحت سقف اليقين، تقترب منه أو تبتعد عنه.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٥٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٧٥.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٣٩.
(٥) المفردات، ص ٥٣٩.
(٦) الكليات، الكفوي، ص ٥٩٤.

ولقد عرض القرآن الكريم لمظاهر اتباع الظن من جوانبها المختلفة، ومنها:

١. اتباع الظن في الشرك.

إن عبادة الله سبحانه وتعالى ينبغي أن تقوم على اليقين، وبخاصة في أمور العقائد، و ألا يتطرق إليها أدنى شك أو شبهة، لأنها متعلقة في الأصل بالقلب، فما بالك إذا بنيت على ظنون وأوهام وشبهات، وحين يتطرق الظن إلى العقائد؛ بطل كونها من عند الله تعالى، كما بطل الاحتجاج بها؛ لأنها أصبحت مدخلًا لكل طاعنٍ، ومرتعًا لكل مبطلٍ، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: ٣٦].

لقد جاءت الآية بعد مناظرة طويلة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركين في إثبات من يملك الرزق، ومن يملك الإحياء والإماتة، والهداية.

وقد تبين أن هذه الآلهة المزعومة لا تملك من ذلك شيئًا؛ لأنها ليس لها من حق في التصرف والتدبير، وبذلك حجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم جاءت هذه الآية عقب الآيات السابقة لتبين أن هؤلاء القوم إنما يعبدون ويتبعون الظن، أي: ظنهم بأن هذه الآلهة تنفع أو تشفع، وأنها حقًا آلهة.

وفي مقابل شركهم بالله واتباعهم الظن؛ نجد أنهم يحتجون على هذا العمل بحجة داحضة باطلة ألا وهي القدر، أي: أن الله شاء لهم ذلك: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والمعنى: «هل عندكم بدعواكم ما تدعون على الله من رضاه بإشراككم في عبادته ماتشركون، وتحريمكم من أموالكم ما تحرمون، على يقين من خبر من يقطع الخبر عذره، أو حجة توجب لنا اليقين من العلم فتخرجوه لنا»[1].

٢. اتباع الظن في الإضلال عن سبيل الله.

لم يكتف هؤلاء المشركون بضلالهم عن سبيل الله؛ بل أرادوا إضلال غيرهم، وهذا كما مر طبيعة كل امريء أن يدعو الناس إلى معتقده، وأن يصد الناس عن اتباع المعتقدات التي تشغب أو تشوش على معتقده، وهؤلاء هم غالبية الناس.

يقول تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٧٩.

ينهى الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم عن طاعة هؤلاء المشركين، وهم أكثر من في الأرض.

قال ابن عباس: «الأرض هنا: الدنيا»[1].

ثم بين سبب النهي عن طاعتهم باتباعهم الظن، «وكثيرٌ من المفسرين يقولون: المراد من ذلك الظن رجوعهم في إثبات مذاهبهم إلى تقليد أسلافهم، لا إلى تعليلٍ أصلًا»[2].

٣. اتباع الظن في تحريف الأسماء.

وكما في اتباع الهوى؛ ابتدع المشركون بدعة أخرى ما أنزل الله بها من سلطان، أضافوها لاتباع الهوى؛ وذلك بتحريف الأسماء، فمدحوا من لايستحق المدح باشتقاقهم أسماء لآلهتهم من أسماء الله تعلى، وذموا من لايستحق الذم؛ إذ سموا الملائكة تسمية الأنثى، وفي كلا الأمرين لا مستند لهم إلا اتباع الظن.

تأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٩ ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٧ ٢٨].

ففي الأولى اشتقوا لآلهتهم أسماء من أسماء الله دون دليلٍ، وفي الثانية سموا الملائكة إناثًا دون دليلٍ أيضًا، وكل مستندهم الخرص والظن.

٤. اتباع الظن في عدم التثبت.

إن من يتبع الظن في الأمور العظام وهي أمور العقيدة ولايبني عقيدة على مستمسك صحيحٍ وصريح من الوحي؛ فلا شك أن أعماله يغلب عليها عدم التثبت، وهي نتيجة طبيعية؛ لأنه لا يبحث عن الدليل والبرهان؛ بل مبنى عمله على الحدس والخرص، ويعظم الأمر حين يكون الظن في مسألة العقائد.

وهذا ما توضحه الآية: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧ ١٥٨].

فالآية تنفي قتل المسيح أو صلبه، وتثبت أنهم في شبهة من ذلك على الرغم من تظاهرهم باليقين.

والحاصل أن كل الغيبيات؛ لا تقبل إلا بنص صحيح صريح، ولا يقبل فيها مجرد

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/ ١٣٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٣٣.

اتباع الظنون والأوهام، أيًا كان مصدر ذلك، وهو ما يورث العقائد الباطلة.

❁ اتباع الشهوات.

إن اتباع الشهوات متفرع عن اتباع الهوى، فما الشهوة إلا بضعة من الهوى وبعض منه، يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم: ٥٩].

جاءت هذه الآية بعد جملة من الآيات تحدثت عن الأنبياء وذكرت صفاتهم، ثم ذهب هؤلاء القوم وجاء بعدهم قومٌ أضاعوا الصلاة و نتج عن ذلك أن اتبعوا الشهوات.

قال القرطبي: «الشهوات: عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه، ويلائمه ولا يتقيه»[(١)].

«ويفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة أن: الخلف الطيبين لايضيعون الصلاة ولايتبعون الشهوات»[(٢)].

هذا وإنه من المعلوم أن من ابتلي بأمر؛ فإنه يحب أن يكون الناس على شاكلته ومنهجه، ولذلك فإن من ابتلي بالشهوات يود أن يسير الناس كلهم في هذا الطريق، وأن يبتعدوا عن طريق الاستقامة.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [النساء: ٢٧].

قررت الآية إرادتين: إرادة الله التوبة على عباده، وإرادة الذين يتبعون الشهوات أن نميل إليها، وتأمل في قوله ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ولم يقل: «يريد الله أن يتوب عليكم»، حيث «قدم المسند إليه على الخبر الفعلي؛ ليدل على التخصيص الإضافي، أي: هو الله وحده، وهو الذي يريد أن يتوب عليكم، أي: يحرضكم على التوبة والإقلاع عن المعاصي»[(٣)].

إذًا؛ هذا مايريده الله منا، إنه يريد أن يلم شعثنا ويجمع تفرقنا، ويقرب بعيدنا، وهذا مراد الله تعالى وتلك مراد أتباع الشهوات والشيطان، فأي الإرادتين أحق بالاتباع؟

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٨٢.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٤/ ٣١٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ٢١.

الأساليب القرآنية في عرض الاتباع

المتأمل في الآيات القرآنية التي عرضت موضوع الاتباع بشقيه المحمود والمذموم يلاحظ أنها استخدمت أساليب لغوية وبلاغية غاية في الروعة.

ولقد كانت هذه الأساليب تتخذ جانب الحث والدعوة والطلب في جانب الاتباع المحمود، فترغيب فيه مطلقًا.

و تستخدم جانب النهي والزجر والإنكار في جانب الاتباع المذموم، فتحذر منه مطلقًا.

أولًا: أسلوب الطلب للحث على اتباع الخير:

أسلوب الطلب أحد أساليب القرآن الكريم في الحث على الاتباع المحمود، ويتضمن الطلب أنواعًا كثيرة، لكن حديثي سوف يركز هنا على الأمر والاستفهام فقط.

أسلوب الأمر:

جاء في الكليات تعريف الأمر بأنه: «استعمال صيغة دالة على طلب من المخاطب على طريق الاستعلاء....»[1]، وسوف أعرض كيف جاء الأمر بالاتباع.

لقد عرض القرآن آيات الأمر بأساليب كثيرة، ومن هذه الأساليب مايلي:

١. جاء الأمر بالاتباع ردًا على المشركين حين قالوا عن القرآن: إنه تقاليد بالية، وعن محمد صلى الله عليه وسلم بأنه درس الآيات على الآخرين، وكأن في ذلك تحصينًا لتصرفات النبي صلى الله عليه وسلم من النقض والنقد، والدعوة للاعتصام بالوحي فقط.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥-١٠٦].

ولذلك جاء الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم بألا يلتفت ولا يأبه بذلك، وأن يلتزم الوحي واتباعه، ويعرض عن المشركين، ولايلتفت لأقوالهم.

٢. جاء الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم باتباع الوحي في خاصة نفسه، وإذا كان اتباع الوحي أمر به وطبقه النبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه، فلأن يأمر به الناس من باب الأولى.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩].

٣. قد يجيء الأمر بالاتباع بعد بيان أهمية الدين الذي هو عليه الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ

(١) الكليات، الكفوي، ص ١٧٦-١٨١.

﴿فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ [الجاثية: ١٨].

«وبين قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ محسن المطابقة بين الأمر والاتباع، والنهي عن اتباع آخر»[1].

٤. إن الله قد اختصنا بأن أنزل علينا أفضل الكتب، وجعل هذا كتاب مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، وكتابٌ هذه صفاته؛ لا بد من اتباعه.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥].

أثنى الله على هذا الكتاب، ولما «بين أن إنزال الكتب رحمة منه، لأن غايتها الدلالة على منزلته، فتمتثل أوامره وتتقى مناهيه وزواجره؛ بين أنه لم يخص تلك الأمم بذلك، بل أنزل على هذه الأمة كتابًا، ولم يرض لها كونه مثل تلك الكتب، بل جعله أعظمها بركة وأبينها دلالة»[2]، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ ولما كان هذا شانه أمر باتباعه.

٥. وما دامت هذه الشريعة أفضل الشرائع وهذا الكتاب أفضل الكتب؛ فلا بد من اتباعه، ولا يتصور سوى ذلك، حيث لا يحيد عن اتباعه إلا مفتونٌ أو جاهل، لأنه يؤدي إلى الصراط المستقيم، ولا عجب أن نؤمر باتباعه في آياتٍ كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال الزمخشري: «ولأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه»[3]، كما جاء في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [مريم: ٤٣].

وقوله صلى الله عليه وسلم لقريش: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [الزخرف: ٦١] وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣﴾ [الزخرف: ٤٣].

٦. ومادام أن هذا النوع من الاتباع يؤدي إلى الصراط المستقيم؛ فهو بالتأكيد يؤدي إلى محبة الله ومغفرته، إضافة إلى هداية العباد للصواب، فأما المحبة والمغفرة؛ فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران: ٣١].

وأما الهداية للصواب، ففي قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٤٨.
(٢) نظم الدرر، البقاعي، ٧/ ٣٢٩.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٨.

ثانيًا: أسلوب الاستفهام الإنكاري:

الاستفهام: طلب الفهم، وله عددٌ من الأدوات، وقد تستعمل هذه الأدوات في غير معناها الحقيقي، وتفهم من سياق الكلام بقرينة.

١. ورد الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

والسر في هذا الاستفهام الإنكاري «ليتنبه السامع، حتى يرجع على نفسه، فيخجل ويرتدع، ويعيى بالجواب؛ إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل مالا يقدر عليه،... وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، وإما لأنه جوز وجود أمرٍ لا يوجد مثله»[١].

كما يبين هذا الاستفهام أنه لا أحد أحسن ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، وإسلام الوجه كناية عن إخلاص العبد لربه، وانقياده وإذعانه له، ثم أردف ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ومع إسلام الوجه والإحسان؛ اتباع ملة إبراهيم حنيفًا، بمعنى أنه «اتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، وأمر به نبيه من بعده»[٢].

واختصاص إبراهيم عليه السلام بالاتباع بوصفه «وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له؛ فإنه انتهى إلى درجة الخلة، التي هي أرفع مقامات المحبة»[٣].

وعلى تعريف الجرجاني؛ يتبين أنه لا دين أفضل من دين الإسلام، ولا متابعة أتم من متابعة ملة إبراهيم الحنيفية عليه السلام.

٢. وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٢ ٩٣].

فالآية تحكي تعارض مصلحتين:

أحدهما: مصلحة حفظ العقيدة، بما تعني هذه الكلمة من اتباع موسى عليه السلام.

والأخرى: مصلحة حفظ وحدة بني إسرائيل، وعدم تفرق جامعتهم.

وبين هاتين المصلحتين؛ «حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمة»[٤].

فقدم المصلحة الثانية على الأولى، فغضب موسى عليه السلام؛ «لأن مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح المجتمع»[٥]، ووفق كلام الجرجاني الآنف؛ فلعل مراجعة موسى عليه السلام لهارون عليه السلام تنبيه له ليعرف موضع الخطأ.

ومثل ذلك؛ قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ١١٩.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٥/ ٢٩٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٥٧٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٩٣.
(٥) المرجع السابق.

﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣].

يتعجب المرء من دقة القرآن في عرض هذه المقارنات بطريقة تحبب في أحدهما وتبغض بالأخرى، وهذا أحد معاني «المثاني في القرآن» بذكر الشيء وضده[(١)]، كما في الآية.

وهذا الأسلوب؛ فيه مقابلة بين فريقين، فريق في الجنة، وهم من اتبع رضوان الله، وفريق في السعير، وهم من لم يتبعوا رضوان الله، فباؤوا بسخطه.

وحين يتأمل العاقل الحكيم هذه المتقابلات التي عرضت لحال الفريقين ومصيرهم؛ فإنه بلاشك لابد أن يختار اتباع رضوان الله على ولاية الباطل المؤدية إلى سخط الله ومن ثم جهنم وبئس المصير.

ثالثًا: أسلوب الثناء على الذين يتبعون أحسن القول:

إن من أهم الأساليب التي تحث على فعل شيء ونحبب فيه؛ الثناء على فاعليه، حيث يعطي ذلك قدوة وتأسيًا بهم، يقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

قد يسأل سائل: من هؤلاء الذين وصفهم الله بالهداية وجعلهم أصحاب العقول وضمن لهم البشرى؟ وكيف الطريق لاستحقاق هذه الرتبة؟ فيجاب هم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

وفي الآية ثناء على قوم يسمعون كل شيء من القول، لكنهم يتبعون أحسنه.

قال ابن تيمية: «والمحمودون الذين أثنى الله عليهم؛ هم المتبعون لذلك استماعًا وتدبرًا وعملًا»[(٢)].

والتعبير بالفعل المضارع في ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ و ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ دالٌّ على التجدد، قال الجرجاني: «وبيانه أن موضوع الاسم على أنه يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء، وأما الفعل؛ فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئًا بعد شيء»[(٣)].

وعليه؛ فالتعبير يدل على تجدد الاستماع، الأمر الذي يؤدي إلى تجدد الاتباع، مما يجعل المرء طيلة عمره متابعًا للوحي.

رابعًا: أسلوب النهي عن اتباع الشر:

النهي: طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وقد يخرج النهي عن هذه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٥.

(٢) الاستقامة، ابن تيمية، ١/ ٢٧٧.

(٣) دلائل الإعجاز، ص (١٧٤).

الصيغة إلى صيغ مجازية أخرى[1].

وحين نعود إلى الآيات التي جاء فيها أسلوب النهي؛ نجد نوعين من النهي:

١. النهي غير المعلل، وذلك بأن ينهى عن الاتباع المذموم دون بيان علة النهي أو سببه.
٢. النهي المعلل، وذلك ببيان علة النهي وسببه.

والنهي المعلل يراعي أسلوب الإقناع وحاجات بعض الناس إليه، نظرًا لاعتمادهم على المنطق والحجة والبرهان، وأما غير المعلل؛ فيراعي أن يلتزم المرء بالنهي التزامًا بأمر الله سبحانه وتعالى وإخلاصًا له.

كما نلاحظ على الآيات توجه النهي إلى الأنبياء عليهم السلام قبل أن يتوجه إلى الأمة، وإن كانوا المقصودين بذلك، مع الإشارة إلى وجود بعض الآيات التي توجهت إلى الأمة مباشرة.

النهي غير المعلل:

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢].

يأمر موسى عليه السلام أخاه هارون بأمر وهو: إصلاح الدين بالرفق والإحسان، كما ينهاه عن أمر وهو: عدم اتباع سبيل المفسدين، وهذا تأكيد للأمر بالإصلاح، إذا لايجتمع الإصلاح واتباع سبيل المفسدين.

قال ابن عاشور: «فلا جرم أن كان قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ جامعًا للنهي عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد، وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعمل المفسد إن لم يكن مما اعتاده، وتجنب الاقتراب من المفسد ومخالطته»[2].

وقريبٌ من هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٩] حيث أمرهما بالاستقامة على الحق والبعد عن سبل الضلال.

النهي المعلل:

ورد النهي المعلل في مواضع كثيرة من القرآن، وقد تنوعت العلة، فمنها:

١. النهي عن اتباع الشيطان بسبب عداوته للإنسان.
٢. النهي عن اتباع الشيطان بسبب أمره بالسوء والفحشاء.
٣. النهي عن الاتباع المذموم لكونه سبب التفرق.

وقد مرت جميعها ومر الحديث عنها مفصلًا بما يغني عن إعادته هنا، وحاصل الكلام أن الله سبحانه وتعالى حذر وزجر عن الاتباع المذموم بشتى أنواعه مبرزًا خطورته، وقبح من يسلك هذا المسلك.

(١) انظر: المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، ٢/ ١٠٣.

(٢) التحرير والتنوير، ٩/ ٨٧.

عواقب الاتباع وآثاره في الدنيا الآخرة

إن من يسر الله له تجريد الاتباع الحق للوحيين الكتاب والسنة وابتعد عن سبل الضلال الأخرى؛ فلاشك أنه سيجد حلاوة ذلك في جملة من الثمرات في الدنيا والآخرة، التي ربما كانت من عاجل بشرى المؤمن.

وبإزاء ذلك؛ فإن من ابتلوا باتباع سبل الغواية؛ سيجدون علقم ذلك ومره في الدنيا والآخرة، وهي ربما تكون من عاجل شؤم المعصية.

وهذه عادة القرآن بل عادة هذه الشريعة أن تثيب الطائع وتعاقب العاصي، وألا تجعلهما في منزلة واحدة في الدنيا والآخرة.

أولًا: آثار الاتباع المحمود:

إن أي إنسان حين يعمل عملًا؛ فإنه ينتظر جزاءًا وأجرة دنيوية من البشر، أو أخروية من الله سبحانه وتعالى.

وانطلاقًا من ذلك؛ فإن أصحاب الاتباع المحمود لابد أن يجدوا نتائج وآثار اتباعهم في الدنيا والآخرة، مع الإشارة إلى صعوبة الفصل في ذلك بين الدنيوي والأخروي لتداخل الأمرين، والتقسيم هنا تقسيم فني بحت.

فمن آثار الاتباع المحمود:

١. الهداية.

وأي شيء يبحث عنه المرء بعد ذلك إن كان الله قد ضمن له الهداية؟ إذ الهداية تشمل تيسير الطريق الصحيح للمرء قولًا وفعلًا، وهذا في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وضح الله في الآية أنه يهدي بهذا الكتاب أقوامًا، لكن من هؤلاء القوم؟ تجيبنا الآية بأنهم ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، وأما من كان همه «تقرير ما ألفه ونشأ عليه، وأخذه من أسلافه، مع ترك النظر والاستدلال؛ فمن كان كذلك؛ فهو غير متبع لرضوان الله»[(١)].

إذن فهذه صفة من يهديهم الله، ولكن يبقى سؤال آخر إلى أين يهديهم: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، فسبيل السلام «استعارة لطريق الحق»[(٢)]، ولا شك أن هذه الطريق موصلة إلى دار السلام «المنزهة من كل آفة والمؤمنة

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٥٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ١٥١.

من كل مخافة»[1].

ثم زاد الأمر وضوحًا فقال: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، والظلمات هذه كثيرة، تشمل الشرك والبدعة والمعصية والجهل والغفلة، والنور هو نور الإيمان والسنة.

قال ابن كثير: «أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة»[2].

وإذا هداهم الله سبحانه سبل السلام وأخرجهم من الظلمات إلى النور؛ فقد تكفل لهم بالسعادة والهداية في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع مافيه أن لايضل في الدنيا ولايشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية»[3].

٢. الفلاح.

إن من جرد الاتباع للوحي وللرسول صلى الله عليه وسلم فقد ضمن القرآن الكريم له الفلاح، وهي عامةٌ في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويقترب السلام من الفلاح، وربما يشمل سلامًا داخليًا وسعادة للإنسان مع نفسه، كما يشمل السلام في الآخرة، ودخوله دار السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [طه: ٤٧].

وقد اختلف المفسرون في معنى السلام هل هو تحية أم لا؟، وإذا كان ليس بتحية؛ فإن «المقصود من الكلام ترغيب المخاطبين في الاهتداء بتصديق الرسول، واتباع ماجاء به في التكاليف والأحكام، وبشارة المهتدين بكونهم من أهل الجنة»[4]، والحصول على الجنة أعلى مراتب الفلاح بلاشك.

٣. الثبات على الحق.

إن المتأمل لسيرة الأنبياء والمصلحين؛ يجد أن من أهم عوامل ثباتهم على الحق اتباع الوحي، وكلما اقترب الإنسان من الوحي وازداد اتباعًا للحق؛ ازداد ثباتًا وتمسكًا به بتوفيق الله تعالى؛ لأن المرء يأوي إلى ركن شديد.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٧٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٥.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره، ١٦/ ٢٢٥.
(٤) حاشية زاده على البيضاوي، ٣/ ٣١٨.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: لما فوضوا أمورهم إليه، واعتمدوا بقلوبهم عليه؛ أعطاهم من الجزاء أربعة معان: النعمة، والفضل، وصرف السوء، واتباع الرضا، فرضاهم عنه، ورضي عنهم»[1]، وهذا يوضح أن الاتباع سببٌ رئيس للثبات على الحق.

٤. الكفاية والنصرة.

إن من كان الله وليه فحسبك بهذه الولاية، حيث سيجد النصرة والغلبة على أعدائه، سواء أكان هؤلاء الأعداء الشيطان أم غيره.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤].

ففي الآية دلالة على أن الله كافٍ رسوله صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنين «وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين»[2].

«وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شروطها»[3].

وإذا حصلت الكفاية؛ فأي قوة من البشر يمكنها الوقوف أمام قوة الله سبحانه وتعالى؟.

وقد حصل ذلك مع رسول الله موسى عليه السلام وهارون حين أخذ الله على نفسه العهد بنصرة هذين النبيين، ومنع عدوهما من الوصول إليهما، وهكذا كان.

قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

فقد قطعت الآية الشك والتردد في قلوب بعض الذي لايزالون يترددون في وعود الله تعالى، وأنه ناصرٌ عباده المؤمنين، ومعلٍ كلمته لامحالة.

٥. الدخول في ولاية الأنبياء.

إن الناس يبحثون عن شخص ذي قوة أو مال أو جاه ليدخلوا في ولايته ويلجؤوا إليه، مع العلم أن ولاية البشر قد يعتريها النقص والتقلب والضعف أحيانًا، لكن هناك من ولايته لا تعادلها ولاية في القوة، ولايعتريها التغير، وشرطها الوحيد: الاتباع.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٤٠٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٣٧.
وفي الآية خلاف، وللاستزادة يمكن الرجوع إلى: بدائع التفسير، ابن القيم ٢/ ٣٤١، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤١٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ٣/ ٩٠.

﴿الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨].

قال ابن عاشور: «و(أولى) اسم تفضيل، أي: أشد وليًا، أي: قربًا،... أي: أخص الناس بإبراهيم وأقربهم منه»[(١)]، فمن ياترى هؤلاء الذين اختصوا بالقرب من نبي الله إبراهيم عليه السلام وولايته؟ إنهم الذين اتبعوه، «يعني: الذين سلكوا طريقه ومنهاجه، فوحدوا الله مخلصين له الدين، وسنوا سننه، وشرعوا شرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به»[(٢)]، ثم لا تقتصر هذه الولاية على أتباع إبراهيم عليه السلام، حيث ختام الآية يقول ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فمن كان الله مولاه؛ فأي ولاية يحتاج بعد ذلك؟

٦. عدم الخوف والحزن.

كل هذه المقدمات السابقة تؤدي إلى نتيجة مثمرة لمتبعي الوحي، وهي عدم الخوف والحزن، وهي عبارة عن علاج نفسي للإنسان، فالخوف هو من شيء قد يقع، والحزن هو من شيء وقع، والمرء في حياته يعيش بين هذين الأمرين، فإذا ضمن له أحدٌ عدم حصول ذلك؛ حاز السعادة، قال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

ففي الآية إخبار بأن من اتبع هدى الله؛ فلاخوف عليه ولن يحزن.

والتعبير بقوله: ﴿مِّنِّي هُدًى﴾ و﴿هُدَايَ﴾ فيه إشارة إلى أن الهدى إنما هو من الله سبحانه وتعالى؛ «لأن الهدى بالنظر إلى ذاته موجب الاتباع، وبالنظر إلى أنه أضيف إليه تعالى - إضافة تشريف أحرى وأحق أن يتبع»[(٣)]، والنتيجة أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قال ابن سعدي: «فرتب على هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن...، فنفاهما عمن اتبع الهدى، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا؛ ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه؛ حصل له المن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن، والضلال والشقاء»[(٤)].

٧. التوبة والمغفرة.

هي نتيجة لكل من ألزم نفسه السير في طريق الاتباع الحق، والبعد عما سواه من طرق الغواية والضلال، حيث يرضى الله عنه، ويرزقه التوبة والمغفرة، ولأهمية ذلك؛ هاهم الملائكة يطلبون المغفرة من الله تعالى لمن اتبع الهدى وآمن به.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٧٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٧.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١/ ٢٣٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٥.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧].

قال الطبري: «فاصفح عن جرم من تاب من الشرك بك من عبادك، فرجع إلى توحيدك، واتبع أمرك ونهيك...، وقوله ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ يقول: وسلكوا الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه، ولزموا المنهاج الذي أمرتهم بلزومه، وذلك الدخول في الإسلام»[(١)].

وقد استجاب الله دعاء الملائكة، فغفر لمتبعي الرسول صلى الله عليه وسلم.

كما قول الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾ [التوبة: ١١٧].

قال ابن القيم: «هذا من أعظم ما يعرف العبد قدر التوبة وفضلها عندالله، وأنها غاية كمال المؤمن؛ فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات[(٢)]، بعد أن قضوا نحبهم وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله، وكان غاية أمرهم ان تاب الله عليهم، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلميوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم[(٣)]، ولاً يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله وعرف حقوقه عليه، وعرف ماينبغي له من عبوديته»[(٤)].

إذًا فقد ضمن لهم التوبة في الآية، وما كانوا ليستحقوا هذه المنزلة وهم المهاجرون والأنصار- إلا بسبب اتباعهم للرسول صلى الله عليه وسلم في أشد الحالات، والتي عبر عنها بساعة العسرة.

ثانيًا: آثار الاتباع المذموم:

إذا كان لاتباع الحق ثمرات كثيرة، كما مر بنا؛ فإن عدم اتباع الحق يؤدي إلى عقوبات ومفاسد كثيرة في الدنيا والآخرة، وهو ما سوف نستعرضه في السطور القادمة، ومن هذه العواقب:

١. المعصية والفساد.

لاشك أن اتباع غير الحق يؤدي إلى معصية الله، ولأن سبل غير الحق كثيرة ومتعددة، فإنها تملأ الأرض، وحين يكثر أتباع الباطل، تكثر المعاصي ويعم الفساد الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾

(١) جامع البيان، ٢٤/ ٤٤.
(٢) يقصد غزوة تبوك.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم ٤٤١٨.
(٤) بدائع التفسير ٢/ ٣١٨.

[المؤمنون: ٧١].

وقد اختلف العلماء في معنى (الحق) في الآية، فقيل: إن الحق هو الله سبحانه وتعالى، وقيل: هو الصواب [(١)].

وأيًا ماكان المعنى يتبين أنه لو ورد الشرع به لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن؛ لأن الهوى مبني على الشهوة، وعند ذلك تختلف أمزجة الناس، فيضطرب هذا الكون العظيم المحكم؛ لأنه قام على العدل.

قال ابن عاشور: «وعلم من قوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أن كراهة أكثرهم للحق ناشئة عن كون الحق مخالفًا أهواءهم، فسجل عليهم أنهم أهل هوى، والهوى شهوةٌ ومحبةٌ لما يلائم غرض صاحبه» [(٢)].

وحين يكثر الفساد؛ يكون ذلك سبب طبع الله على قلوب العباد، ألم يقل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦]

يتعجب المرء من فعل هؤلاء القوم، فيأتيه الجواب مباشرة: إن سبب ذلك؛ طبع الله على قلوبهم نتيجة اتباع الهوى.

قال ابن سعدي: «أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم التي لا يهوون فيها إلا الباطل» [(٣)].

٢. التكذيب والضلال.

إن من عواقب الاتباع المذموم أنه يؤدي إلى التكذيب، فهو علةٌ له، والتكذيب مؤدٍ إلى الضلال لا محالة؛ لأن المرء حين يكذب الحق فسوف يضل بلاشك.

قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القمر: ٣].

فالآية تثبت أن القوم كذبوا، وهذا التكذيب «لا دافع لهم إليه إلا اتباع ماتهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه» [(٤)]، وإلا فقد ظهر لهم من البراهين والحجج القواطع على يديه مايدل على صدق نبوته وأن الواجب الإيمان به واتباع دعوته، ولذلك؛ جاء في موضعٍ آخر تأكيد هذا الأمر، وهو أن اتباع الهوى مؤدٍ إلى التكذيب.

فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعدم اتباع أهواء الذين كذبوا.

فقال تعالى ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠].

إن هذا الهوى - وكما ظهر - أنه أدى إلى التكذيب وإنكار البعث وأدى إلى الشرك،

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٨٠٤-٨٠٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ٩٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٨٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٧/ ١٧٢.

وهذا عين الضلال.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام: ٥٦].

وقد أكد النهي عن اتباع الهوى بقوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾، فإنه إن اتبعتكم على أهوائكم فلاشك أنني ضال، «وتقديم جواب (إذًا) على (إذًا) في هذه الآية للاهتمام بالجواب، ولذلك الاهتمام أكد بـ (قد) مع كونه مفروضًا، وليس بواقع، للإشارة إلى أن وقوعه محقق لو تحقق الشرط المقدر الذي دلت عليه إذًا»[1].

٣. الحرمان من ولاية الله.

باديء ذي بدء؛ يمكن القول: إن الله جعل ولاية أتباع الباطل وسلطانهم مقرونة بالشياطين.

فقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

وحين يتولى الشيطان الإنسان؛ يوقعه في سوء عمله.

لكن ذلك فحسب؛ بل إنه نزع ولايته سبحانه وسلطانه عن متبعي أهواء المبطلين، ومتبعي غير الحق.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

ويقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٧].

إن الأمر في الآيتين للرسول صلى الله عليه وسلم وللأمة من باب الأولى، بالتحذير من اتباع الهوى، وحين يستبدل المؤمن الهوى بالهدى؛ فهذا مؤذنٌ بنزع ولاية الله عنه.

قال الطبري: «ليس لك من ولي يلي أمرك، وقيمٍ يقوم به، ولا نصيرٍ ينصرك من الله، فيدفع ماينزل بك من عقوبته ويمنعك من ذلك إن أحل بك ذلك ربك»[2].

ويرى ابن عاشور أن هذه الجملة أكدت بعشر مؤكدات[3]. وقد أفادت هذه المؤكدات عظم التحذير وخطورته.

وكما نزع عنهم الولاية في الآية الأولى؛ نزع عنهم الوقاية من العذاب في الثانية، وعلى المرء أن لا يأمن بعد ذلك مكر الله، فإنه إن تنزع عنه ولاية الله؛ تنزع عنه وقايته من العذاب.

٤. الاحتكام إلى الهوى.

حين يحدث كل الذي سبق؛ يصبح

(١) المصدر السابق ٧/ ٢٦٢.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥١٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٦٩٥.

المرء أسيرًا لهواه وشهوته، يسير معها كيف سارت، ويدور معها حيث دارت، وهنا يحدث الفساد؛ لأن الهوى هو الذي يسير الناس.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: ١١٦].

تحكي الآية صنفًا من الناس ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يقرب إلى الآخرة، واشتغل بالمال والملذات وأمور الدنيا والرئاسة، وعند ذلك لم ينفعهم نصح الناصحين ولا وجود المصلحين؛ لأنهم ساروا خلف أهوائهم التي عبرت عنها الآية بـ ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾، وكان هذا الأمر سببًا في استئصالهم، وتأمل قوله: ﴿وَاتَّبَعَ﴾ إذ يعني: الانقطاع للترف، والإقبال عليه، إقبال المتبع لمتبوعه[1].

٥. التخاصم.

وكل الذي ذكرته آنفًا؛ إنما هو في الدنيا، أما في الآخرة؛ فإن ظاهرة التخاصم بين المتبوعين وأتباعهم واضحة جلية، ذكرها القرآن في مواضع كثيرة على شكل حوار بين الضعفاء والمستكبرين تارة، وبين القرناء وقرنائهم أخرى، وبين أول من يدخل النار وآخر من يدخلها ثالثة.

ولنتأمل هذا الحوار: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

لاشك أن صدق المتبوعين قد وضع على المحك في هذا الموقف؛ لأنه سوف يظهر هزالهم وافتضاح أمرهم، وخجلهم أمام أتباعهم، وانظر إلى مذلة الأتباع أمام متبوعيهم، حتى في هذا الموقف الذي تنقطع فيه الوشائج والصلات تجدهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، فهم يظهرون تبعيتهم لهم، ليكون ذلك أدعى لشفاعتهم لهم عند الله، وما دروا أن كبراءهم بحاجة إلى من يشفع لهم، وهم مشغولون عنهم بما هم فيه من العذاب، عندها يجيب الكبراء: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾، فهم يعتذرون لأتباعهم بأنهم لو استطاعوا النفع لنفعوا أنفسهم، أما وإنهم لم يستطيعوا ذلك؛ فإنهم لن يقدروا على نفع غيرهم، وهذا الاعتراف من السادة يدل على قدر من الذل والهوان، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ فإن العذاب واقعٌ لامحالة، ولايغني عنه الجزع والصبر.

(١) انظر: المصدر السابق، ١٢/ ١٨٥.

ولم تكف الخصومة في الموقف؛ بل أعادوها في النار، حيث نجد كلًا من الفريقين يدلي بحجته؛ لعلها تنقذه من النار: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧ ٤٨].

إن اللجوء إلى الكبراء في مثل هذا الموقف يدل على طبيعة قد تأصلت في الأتباع، حيث إنهم يلجؤون إليهم في ملمات الأمور ومهماتها، فيقفون معهم؛ عندها ظنوا أنهم سيقفون معهم هنا، فكان الرد صاعقًا: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ «تتنزل بمنزلة بدل الاشتمال من جملة ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾، فكلتا الجملتين جوابٌ لهم مؤيسٌ من حصول التخفيف عنهم، والمعنى: نحن مستورون في العذاب، وهو حكم الله، فلا مطمع في التفصي من حكمه، فقد جوزي كل فريق بما يستحق»[1].

٦. التبرؤ.

هذا الأثر مبنيٌّ على سابقه ونتيجة طبيعية له، فإنه لا تكفي الخصومة، وحين تحدث الخصومة؛ يحدث التبرؤ، ويرمي كل فريق على الآخر بالتهمة ظانًا منه أنه سوف يسلم منها، وستكون له حجة أمام الله تعالى، فضلًا عن تبرئه من العمل أصلًا.

وقد صور القرآن مشاهد كثيرة في ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

لقد حدثت الخصومة وعاين القوم العذاب، وكان للفريقين، فلم يخص أحد دون الآخر بشيء، وعند ذلك تبرأ المتبوعون من الأتباع، وتنصلوا من جميع الوعود التي وعدوهم إياها، ولعل سبب التبرؤ تقطع الأسباب، وذلك أن «الآيس من كل وجه يرجو به الخلاص مما نزل به وبأوليائه من البلاء؛ يوصف بأنه تقطعت به الأسباب»[2]، لأنه خاب أمل القوم، ولم يتوقعوا ذلك من متبوعيهم، كما أن المتبوعين لم يحسبوا حسابًا لهذا العذاب والنكال.

إن هذه الثمرة هي ثمرة العلائق التي قامت على الباطل، فقد رأوا أعمالهم حسرات، وخلدوا في نار جهنم.

وقريب من ذلك ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١٦٠.
والتفصي: التخلص.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٤/ ١٨٩.

﴿بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ٦].

وغيرها كثير.

وكما عرضت لنموذج الخصومة الجماعية والتبرؤ الجماعي، فثمة نموذج للتبرؤ الفردي، وهو تبرؤ الشيطان من أتباعه الذين أغواهم وأضلهم، ثم حين يشاهد عذابهم يوم القيامة؛ فإنه يتبرأ منهم، ويلقي باللائمة عليهم، ويبرز لهم عدم قدرته على نفعهم في هذا الحال، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فبعد تلك الخصومة والتبرؤ؛ يقوم الشيطان الذي هو أصل كل فساد خطيبًا في أتباعه يوم القيامة بعد أن حقق ما يصبو إليه، وضمن دخولهم جنة، فيتحدث إليهم ويزيدهم حسرة وهمًا على حسرتهم وهمهم، وتبدو صورتهم مثيرة للاشمئزاز، وصورته واضحة أمامهم قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، فقد بين لكم الطريق في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وأظهر لكم أن ثمة جزاءً وحسابًا، وجنة للمطيع وعذابًا للعاصي، فصدقكم، ووعدتكم فأخلفتكم، ولكن الخطأ خطؤكم، حين اتبعتموني واستجبتم لوساوسي! ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

كانت هذه كلمات الشيطان لهم، في الوقت الذي يقوم نبينا محمدٌ صلى الله عليه وسلم فيشفع للأمة بإخراجها من النار، أو تخفيف العذاب عن العصاة.

٧. حبوط العمل:

بعد كل ما مضى من اتباع طرق الباطل والهوى، والبعد عن طريق الحق والهدى، ماذا نتوقع أن تكون النتيجة؟ ليست إلا سخط الله تعالى، وحبوط أعمالهم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨].

هذا الأثر نتيجة حتمية لأعمال هؤلاء القوم؛ لأن حبوط العمل يعني: الخسران في الآخرة، وماذا يبقى للمرء بعد حبوط عمله؟ وبمن يستغيث؟ إنه والحالة هذه ليس أمامه

سوى العاقبة الأخيرة من عواقب الاتباع المذموم، ألا وهي:

٨. الحسرة والندم.

هذا الذي تبقى لهم، مع أنه لن يغني عنهم من الله شيئًا، لكنه محاولة لإلهاء النفس عما أحاط بها من العذاب، ومحاولة لتسويغ الماضي سيء الذكر، ولذلك فقد نقل لنا القرآن تحسرهم وندمهم في مواضع كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

لقد وصل التحسر والندم بهذا الرجل الظالم درجة بلغت أن يعض على يديه من شدة ندمه على مافات، حين ترك اتباع طريق الرسول صلى الله عليه وسلم، واتبع بعض قرناء السوء من شياطين الإنس والجن الذين أضلوه وصدوه عن ذكر الله.

والعض: «عبارة عن الندم لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك»[(١)].

ولا شك أن ظاهر الآية وسبب النزول يوحيان بأن المقصود شخصٌ واحدٌ، إلا أن الأولى تعميمه في كل من هذه حاله، كما رجحه ثلة من المفسرين.

يقول الرازي: «كما بينا أن الظلم غير مخصوص بشخص واحد، بل يعم جميع الظَلَمَة؛ فكذا المراد بقوله: (فلانًا) ليس شخصًا واحدًا، بل كل من أطيع في معصية الله»[(٢)].

والحاصل: ندم هؤلاء القوم على عدم متابعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم متابعة توصلهم إلى النجاة لو لزموها، وهذا كافٍ في إبراز مدى العقوبة التي سوف تحل بكل ما من هذه شأنه.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، التقليد، الشيطان، القدوة، الهوى، الوحي

(١) المفردات، الراغب، ص ٥٧٠.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٤/ ٦٦.

الاتخاذ

عناصر الموضوع

مفهوم الاتخاذ	٢٨٨
الاتخاذ في الاستعمال القرآني	٢٨٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٠
الاتخاذ في حق الله تعالى	٢٩١
أنواع الاتخاذ	٢٩٦
أسباب الاتخاذ	٣٠٤
أساليب القرآن في عرض الاتخاذ	٣٠٨
عاقبة الاتخاذ	٣١٥

مفهوم الاتخاذ

أولًا: المعنى اللغوي:

الاتخاذ مصدر من تخذ يتخذ، كعلم يعلم: بمعنى: أخذ، تخذت الشيء واتخذته، وقرئ: (لتخذت) و(لاتخذت)، وهو افتعل من تخذ، فأدغم إحدى التاءين في الأخرى[1]، يقال: تخذت مالًا، أي: كسبته، ألزمت التاء كأنها أصلية، والأصل من الأخذ[2].

ورأى ابن الأثير أنها ليس من الأخذ في شيء، فإن الافتعال من الأخذ: ائتخذ؛ لأن فاءه همزةٌ، والهمزة لا تدغم في التاء[3]. والأكثرون على أن أصله من الأخذ، ومعنى الأخذ والتخذ واحدٌ، وهو حوز الشيء وتحصيله[4].

ومن خلال ما سبق يتبين أن الاتخاذ يتمركز معناه اللغوي حول الكسب والحوز والتحصيل.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الاتخاذ اصطلاحًا: هو «الاقتناء»[5]، «والاتخاذ: أخذ الشيء لأمر يستمر فيه، مثل الدار يتخذها مسكنًا، والدابة يتخذها قعدة»[6].

والمتدبر في المعنيين اللغوي والاصطلاحي يجد اتصالًا بينهما؛ حيث إن المعنى الاصطلاحي أخذ الشيء والاستمرار فيه، وهذا مرتبط بمعنى الاتخاذ اللغوي الذي هو الكسب والحوز والتحصيل مع الاستمرار في الأخذ، وهذا هو الاقتناء.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ١/ ٣٣١، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ١٤٦، مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٤١.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٤/ ٢٩٨.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/ ١٨٣.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٣٧٠، ٩/ ٣٧٨.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١/ ٣٧.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.

الاتخاذ في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (أ خ ذ) في القرآن (٢٧٣) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٢٨) مرة [(١)].
والصيغ التي ورددت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦٦	﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]
الفعل المضارع	٥٣	﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧]
فعل الأمر	٥	﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل:٦٨]
المصدر	١	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة:٥٤]
اسم فاعل	٣	﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف:٥١]

وجاء الاتخاذ في القرآن بمعناه في اللغة، وهو: الافتعال من الأخذ، وهو: التناول للشيء والحوز والاختيار والجعل [(٢)].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]. يعني: اختار الله إبراهيم مصافيًا [(٣)].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٦-٢٠.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١٤.
(٣) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٥٠- ٥٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأخذ:

الأخذ لغة:

الأخذ مصدر أخذ، الهمزة والخاء والذال أصل واحد تتفرع منه فروع متقاربة في المعنى، يقال: أخذت الشيء آخذه أخذًا، أي: تناولته[١].

الأخذ اصطلاحًا:

الأخذ خلاف العطاء، وهو حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارة بالتناول، وتارة بالغلبة والقهر، ومنه أخذته الحمى، وفلان يأخذ مأخذ فلان يذهب مذهبه ويسلك مسلكه[٢].

الصلة بين الأخذ والاتخاذ:

الأخذ هو تحصيل الشيء، أما الاتخاذ فهو أخذ الشيء والاستمرار فيه مثل الدار يتخذها مسكنًا[٣]، فالاتخاذ اقتناء واجتباء.

٢ الإبعاد:

الإبعاد لغة:

الإبعاد بكسر الهمزة وسكون الباء من أبعد، والأصل بعد بالضم بعدًا فهو بعيد، أي: تباعد، وأبعده غيره، وباعده، وبعده تبعيدًا، والبعد ضد القرب[٤].

الإبعاد اصطلاحًا:

التنحية[٥]، وترك الشيء بعيدًا.

الصلة بين الإبعاد والاتخاذ:

الإبعاد من الألفاظ المقابلة للاتخاذ، فالاتخاذ أخذ الشيء وقصده واعتماده والاستقامة عليه، أما الإبعاد تنحية الشيء وتركه بعيدًا.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٨، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ١/ ٦٧، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.
(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٥٣، معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي، ١/ ٣٩.
(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي، ١/ ٣٩.

الاتخاذ في حق الله تعالى

إن المتأمل في الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن الاتخاذ، يجد أن الاتخاذ في حقه سبحانه، منه ما هو مثبت في حقه، ومنه ما هو منفي، وسنوضح ذلك فيما يلي.

أولًا: الاتخاذ المثبت في حق الله تعالى:

إن المستقريء لآيات الاتخاذ في حق الله سبحانه وتعالى يجد أن الله سبحانه وتعالى أثبت لنفسه اتخاذ الخليل واتخاذ الشهداء، ولم ينسب لنفسه اتخاذًا سوى ذلك، فالاتخاذ المثبت في حق الله بمعنى الاختيار، فالله عز وجل اختار إبراهيم خليلًا، ويختار من يشاء من عباده ليكون شهيدًا.

١. اتخاذ الخليل.

لقد اتخذ الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام خليلًا، والخلة كمال المحبة، وسيدنا إبراهيم عليه السلام أهلًا لذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ مجاز يفيد اصطفاءه واختياره واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله.

والخليل: هو الذي يخالك، أي: يوافقك في خلالك، أو يسايرك في طريقك، أو يسد خللك كما تسد خلله، وهو المحب لمن يحبه، من الخلة وهى المودة والمحبة التي تتخلل النفس وتمازجها[(١)].

فالآية الكريمة تدل على اختيار الله إبراهيم خليلًا، وفيها تأكيد على وجوب اتباع ملته؛ لأن من كانت له هذه المنزلة من الزلفى عند الله بأن اتخذه خليلًا، كان جديرًا بأن تتبع ملته وطريقته، فالله امتن على إبراهيم بسلامة الفطرة والاعتقاد، وقوة العقل وصفاء الروح، وكمال المعرفة بالله، وشدة العزيمة وعلو الهمة في محاربة الوثنية والشرك، حتى صار من أولي العزم، فهو خليل الرحمن، عدو الشيطان[(٢)].

إن اتخاذ الله سبحانه وتعالى إبراهيم خليلًا لشدة محبة ربه سبحانه وتعالى له؛ لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها، لا لحاجته إلى مخالته وللتكثر به والاعتضاد، وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٥٦٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٣٧، تفسير المراغي، ٥/ ١٦٣.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٥٦٩، التفسير المنير، الزحيلي، ٥/ ٢٨٧.

العباد له، حتى انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال أيضًا: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧][(١)].

يقول ابن القيم: «ولما كانت الخلة مرتبة لا تقبل المشاركة امتحن الله -سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده، لما أخذ شعبة من قلبه، فأراد -سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره فامتحنه بذبح ولده، والمراد: ذبحه من قلبه لا ذبحه بالمدية، فلما أسلما لأمر الله وقدم محبة الله تعالى على محبة الولد، خلص مقام الخلة وفدى الولد بالذبح، وقيل: إنما سميت خلة لتخلل المحبة جميع أجزاء الروح»[(٢)].

ولم يختص إبراهيم عليه السلام بخلة الرحمن سبحانه وتعالى ، بل شاركه فيها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فعن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلٌ؛ فإن الله تعالى قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكرٍ خليلًا...)[(٣)]، وقد استحق كلا النبيين عليه السلام هذه المنزلة؛ لما لهما من الصفات، والأفعال العظيمة الجميلة.

٢. اتخاذ الشهداء.

إن الحق سبحانه المتعال الغني عن الخلق غنى مطلق في سياق تكريمه للشهداء، يجعلهم ممن يتخذهم، فقد أثبت الله لنفسه اتخاذ الشهداء.

قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فالله يميز بين المؤمنين والمنافقين، ويكرم من أكرم من أهل الإيمان بالشهادة[(٤)]، فالشهادة اختيار وإكرام واصطفاء من الله، والشهداء اتخاذ من الله يتخذهم لنفسه.

والشهداء جمع شهيد، وهو من قتل من المسلمين بسيف الكفار في المعركة، واختلفوا في معنى الشهيد: فقيل: الشهيد الحي؛ لأن أرواحهم حية حضرت دار السلام وشهدتها، وأرواح غيرهم لا تشهدها، وقيل: سمي شهيدًا؛ لأن الله تعالى شهد له بالجنة، وقيل: سموا شهداء؛ لأنهم يشهدون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٤٠٢.

(٢) روضة المحبين، ١/ ٤٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم٥٣٢، ١/ ٣٧٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٤٣.

على الأمم؛ لأن الشهادة تكون للأفضل فالأفضل من الأمة؛ لأن منصب الشهادة منصب عظيم، ولفضل الشهداء العظيم يتخذهم الله، والاتخاذ دائمًا هو أن يأخذه إلى جانبه لمزية له ورفعة لمكانته[1].

«﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وهو تعبير عجيب عن معنى عميق، إن الشهداء لمختارون يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه سبحانه، فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد، إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص، إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ليستخلصهم لنفسه سبحانه، ويخصهم بقربه، ثم هم شهداء يتخذهم الله، ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس، يستشهدهم فيؤدون الشهادة، يؤدونها أداء لا شبهة فيه ولا مطعن عليه، ولا جدال حوله، يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق وتقريره في دنيا الناس.

يطلب الله سبحانه منهم أداء هذه الشهادة على أن ما جاءهم من عنده الحق؛ وعلى أنهم آمنوا به وتجردوا له وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه، وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق، وعلى أنهم هم استيقنوا هذا فلم يألوا جهدًا في كفاح الباطل، وطرده من حياة الناس، وإقرار هذا الحق في عالمهم، وتحقيق منهج الله في حكم الناس، يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون، وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت، وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال، وكل من ينطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقال له: إنه شهد، إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها، ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهًا، ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله، فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد، وأخص خصائص العبودية التلقي من الله.

ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد صلى الله عليه وسلم، بما أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يعتمد مصدرًا آخر للتلقي إلا هذا المصدر، ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض، كما بلغها محمد صلى الله عليه وسلم، فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس والذي بلغه عنه محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج السائد والغالب والمطاع، وهو النظام الذي يصرف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢١٨، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٠٢، تفسير الشعراوي، ٣/ ١٧٨٤.

فهو إذن شهيد، أي: شاهد، طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها، واتخذه الله شهيدًا، ورزقه هذا المقام، هذا فقه ذلك التعبير العجيب، ويتخذ منكم شهداء، وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»[1].

ثانيًا: الاتخاذ المنفي في حق الله تعالى:

كما أن الله سبحانه وتعالى أثبت لنفسه اتخاذًا، فقد جاءت آيات قرآنية أخرى تنفي صورًا من الاتخاذ عن الله سبحانه وتعالى، ومنها اتخاذ الزوجة والولد والظهير والمعين.

١. اتخاذ الزوجة.

لقد نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه اتخاذ الزوجة، فهو منزه عن المماثلة بخلقه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

فالآية الكريمة تنفي عن الله اتخاذ الصاحبة أي: الزوجة، تعالت عظمة ربنا وجلاله، ما اتخذ زوجة ولا ولدًا[2].

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: «والمعنى: أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة العظيمة عالية، فلا تكون له صاحبة ولا ولد؛ لأن الصاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد، فقال النفر من الجن: علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفًا ضعف خلقه، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وقاع شيء يكون منه ولد»[3]، ويؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فماذا يريد الحق من الصاحبة؟ إنه لا يريد شيئًا، فلا الولد ولا الصاحبة يزيدان له قدرة تخلق، ولا حكمة ترتب، ولا علمًا يدبر، ولا أي شيء، وخلاف هذا التصور عبث[4]، فالله منزه عن اتخاذ الزوجة سبحانه وتعالى ذلكم الله لا إله إلا هو، فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص.

٢. اتخاذ الولد.

الأدلة على نفي اتخاذ الله سبحانه وتعالى للولد كثيرة، منها: قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [مريم: ٣٥].

فالله سبحانه وتعالى منزهٌ عن اتخاذ الولد، وهو غني عن العالمين؛ إذ اتخاذ الولد افتقار إليه، والله سبحانه وتعالى هو

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٨١.
(٢) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ١/ ٥٧٢.
(٣) جامع البيان، ٩/ ٣٣٠.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي، ٦/ ٣٨٣٨.

الغني فلا يفتقر إلى أحد، فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمعين[1].

ونفى القرآن الكريم ما ينسبه المشركون لله سبحانه وتعالى من اتخاذه الولد، تعالى الله عز وجل عما يقولون علوًا كبيرًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾[البقرة: ١١٦].

قال أهل الكتاب والمشركون من اليهود والنصارى وغيرهم: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، والملائكة بنات الله!!

سبحانه وتعالى وتنزيهًا له عما يدعون، بل له كل ما في السماوات والأرض ومنهم هؤلاء، الكل قد خلقهم الله، كلٌّ له منقادون إن طوعًا وإن كرهًا، وهو الذي أبدع السماوات والأرض وما فيهن، وإذا أراد أمرًا -فلا راد لقضائه- كان وتحقق من غير امتناع، فمن له كل ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا، ومن له كل ما في الكون كائنًا ومنقادًا، ومن أبدع السماء والأرض والوجود كله، ومن إذا أراد أمرًا كان ووجد من غير امتناع أو إباء، من كان هذا شأنه أيحتاج إلى الولد أو الوالد؟ ومن كان هذا شأنه يكون له جنس؟ أم هو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد؟!»[2].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨- ٨٩].

والإد: هو المنكر العظيم والأمر الفظيع[3].

﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢] فهو الغني فلا يفتقر إلى أحد، وهو الملك فكل ما سواه مملوك، وهو الحي الذي لا يموت، وهو الوارث الباقي، تعالى ربنا وتقدس[4].

٣. اتخاذ الظهير والمعين.

وإن من الاتخاذ المنفي عن الله سبحانه وتعالى: اتخاذه الظهير والمعين.

قال تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فالله ينفي اتخاذه الشياطين والكفار أنصارًا وأعوانًا، والعضد يستعمل كثيرًا في معنى العون؛ لأنه قوام اليد، والاعتضاد: التقوي وطلب المعونة، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد[5].

ومعنى الآية: «أي ما أحضرت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض، حين

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٩٣، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٣٠٨، شرح العقيدة الواسطية، محمد الهراس، ١/ ٨٣.

(٢) التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ٧٠.

(٣) انظر: المفردات، الراغب، ص ٦٩.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٥٨.

(٥) انظر: المصدر السابق ١١/ ٢.

خلقتهما، ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: وما أشهدت بعضهم أيضًا خلق بعض منهم، ونفي الإشهاد كناية عن نفي الاعتضاد بهم والاستعانة على خلق ما ذكر أبلغ؛ إذ من لم يشهد فأنى يستعان به؟ فأنى يصح جعله شريكًا؟ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: وما كنت متخذهم أعوانًا لخلق ما ذكر، بل تفردت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير، أي: وإذا لم يكونوا عضدًا في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء في العبادة؟ واستحقاق العبادة من توابع الخالقية»[1].

وخص سبحانه وتعالى المضلين بالذكر، زيادة في ذمهم وتوبيخهم، وتقريعًا لأمثالهم؛ لأنه سبحانه وتعالى ليس له أعوان ولا أنصار لا من المضلين ولا من المهتدين[2].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

أي: ما لله من هؤلاء من معين على خلق شيء، بل الله المنفرد بالإيجاد، فهو الذي يعبد، وعبادة غيره محال، والظهير: هو المعين الذي يسند ظهر من يستعين به، فهم ليسوا شركاء لله، ولا أعوانًا له، وإنما هم عبيد مسخرون لجلاله وقدرته[3].

(١) محاسن التأويل، القاسمي، ٧/ ٤٢.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٥/ ٢٧٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٢٩٥، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١١/ ٨٠٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٨٩، تيسير

أنواع الاتخاذ

إن المتأمل في معاني الآيات التي تحدثت عن الاتخاذ في حق المخلوق يجد أن الاتخاذ إما أن يكون محمودًا وإما أن يكون مذمومًا، فالمحمود مدحه الله ومدح أهله، ودعا إليه، والمذموم ذمه الله وذم أهله، وحذرنا منه.

أولًا: الاتخاذ المحمود:

اشتملت كثير من الآيات التي تتحدث عن الاتخاذ في القرآن الكريم على معنى الاتخاذ المحمود، وفيما يلي نذكر بعض صور الاتخاذ المحمود.

١ . اتخاذ الله سبحانه وتعالى وكيلًا.

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه، وهو أمر للمسلمين جميعًا باتخاذ الله وكيلًا.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

فهذا اتخاذ محمود، فالله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب وما بينهما من العالم، لا ينبغي أن يعبد إله سواه، فهو المستحق للعبادة، ولا وكيل سواه؛ لذا أمرنا الله باتخاذه وكيلًا ومدبرًا في كل أمورنا، نعتمد عليه ونلجأ إليه ونفوض إليه الأسباب[4].

يقول الشوكاني: «﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: إذا عرفت أنه المختص بالربوبية فاتخذه وكيلًا، أي: قائمًا بأمورك، وعول عليه في جميعها، وقيل: كفيلًا بما وعدك من الجزاء والنصر»[1].

٢. اتخاذ مقام إبراهيم مصلى.

أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يتخذوا مقام إبراهيم عليه السلام ؛ تكريمًا له لإخلاصه، وليكون قدوة للناس، وهذا اتخاذ محمود، فهو أمر من الله، قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

على إرادة القول، أي: وقلنا: اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه، وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب، ومقام إبراهيم: الحجر الذي فيه أثر قدميه، والموضع الذي كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه، وقيل: الحرم كله مقام إبراهيم[2].

ويطلق مقام إبراهيم على الكعبة؛ لأن إبراهيم عليه السلام كان يقوم عندها يعبد الله تعالى، ويدعو إلى توحيده، ويطلق مقام إبراهيم على الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنائه الكعبة ليرتفع لوضع الحجارة في أعلى الجدار، وقد ثبتت آثار قدميه في الحجر، وهذا الحجر يعرف إلى اليوم بالمقام، وكان إبراهيم عليه السلام قد وضع المسجد الحرام حول الكعبة ووضع الحجر الذي كان يرتفع عليه للبناء حولها، فكان المصلى على الحجر المسمى بالمقام، فذلك يكون المصلى متخذًا من مقام إبراهيم على كلا الإطلاقين، ولم يكن الحجر الذي اعتلى عليه إبراهيم في البناء مخصوصًا بصلاة عنده، ولكنه مشمول للصلاة في المسجد الحرام، ولما جاء الإسلام بقي الأمر على ذلك إلى أن كان عام حجة الوداع أو عام الفتح دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام ومعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم سنت الصلاة عند المقام في طواف القدوم[3].

٣. اتخاذ النحل للجبال بيوتًا.

لقد أوحى الله للنحل أن تتخذ الجبال بيوتًا، وهنا أكثر من كونه أمرًا فهو وحي، إذًا هو اتخاذ محمود.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

أودع الله في النحل إدراكًا لصنع محكم مضبوط منتج شرابًا نافعًا: إنه العسل، فقد افتتحت الآية بفعل أوحى لما في أوحى

الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩٢.

(١) فتح القدير ٥/ ٣٨١.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ١٨٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٧١٠.

من الإيماء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيرًا عجيبًا وعملًا متقنًا وهندسة في الجبلة[1]، ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: اجعلي لك بيوتًا في الجبال تأوين إليها، واتخاذ البيوت هو أول مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل فإنها تبني بيوتًا بنظام دقيق، وأشير إلى أنها تتخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العرش دون بيوت الحشرات الأخرى؛ وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة[2].

يقول سيد قطب: «والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إياها الخالق، فهو لون من الوحي تعمل بمقتضاه، وهي تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفى، وهي تتخذ بيوتها -حسب فطرتها- في الجبال والشجر وما يعرشون، أي: ما يرفعون من الكروم وغيرها، وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق»[3].

٤. اتخاذ الشيطان عدوًا.

أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يتخذوا الشيطان عدوًا؛ لأنه يسعى دائمًا لإيقاعهم بالفساد، فاتخاذ الشيطان عدوًا هو اتخاذ محمود، يجنب العبد الوقوع في مكائد الشيطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

أمر الله باتخاذ العدو عدوًا، وتلك عداوة مودعة في جبلته كعداوة الكلب للهر؛ لأن جبلة الشيطان موكولة بإيقاع الناس في الفساد وأسوأ العواقب في قوالب محسنة مزينة، ومن لوازم اتخاذه عدوًا العمل بخلاف ما يدعو إليه لتجنب مكائده ولمقته بالعمل الصالح، حيث أعقبت الآية الأمر باتخاذ الشيطان عدوًا بتحذير من قبول دعوته، وحث على وجوب اليقظة لتغريره، وتجنب توليه بأنه يسعى في ضر أوليائه وحزبه، فيدعوهم إلى ما يوقعهم في السعير[4].

يقول سيد قطب: «الشيطان يغر ويخدع؛ فلا تمكنوه من أنفسكم ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾، والشيطان قد أعلن عداءه لكم وإصراره على عدائكم ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لا تركنوا إليه، ولا تتخذوه ناصحًا لكم، ولا

(١) انظر: المصدر السابق، ١٤/ ٢٠٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ٢٠٦، تفسير المراغي، ١٤/ ١٠٤.
(٣) في ظلال القرآن، ٤/ ٢١٨١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٢٦٠.

تتبعوا خطاه، فالعدو لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل! وهو لا يدعوكم إلى خير، ولا ينتهي بكم إلى نجاة: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعي إلى عذاب السعير؟! إنها لمسة وجدانية صادقة، فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان، فإنه يتحفز بكل قواه وبكل يقظته وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات، يتحفز لدفع الغواية والإغراء، ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه، ويتوجس من كل هاجسة، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذي أقامه له ليتبين، فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم! وهذه هي الحالة الوجدانية التي يريد القرآن أن ينشئها في الضمير»[1].

ثانيًا: الاتخاذ المذموم:

اشتملت كثير من الآيات التي تتحدث عن الاتخاذ في القرآن الكريم على معنى الاتخاذ المذموم، نذكر منها ما يلي:

١. اتخاذ الأولياء والآلهة من دون الله.

إن اتخاذ الأولياء من دون الله هو اتخاذ مذموم، ذمه القرآن الكريم، فلما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به، وأخبر بذم من أشرك به واتخذ من دونه وليًا.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فالذين يتخذون من دون الله آلهة يتولونهم بعبادتهم ودعائهم لتشفع لهم وتقربهم لله، قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص والتوحيد، وتجرأوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، فهؤلاء وصفهم الله بالكذب والكفر[2]، وقد ضرب الله مثل من اتخذ من دون الله وليًا معتمدًا عليه يحتمي بحماه، يقصد به التعزز والتقوي والنفع، وهو لا يجلب له نفعًا ولا يدفع عنه ضرًا، بحال العنكبوت اتخذت بيتًا؛ لتحتمي به من الأخطار، وهي لا تدري أن هذا البيت لا يقي حرًا ولا بردًا.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

«فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٩٢٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١٧.

باتخاذه إلا ضعفًا، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفًا إلى ضعفهم، ووهنًا إلى وهنهم»[1].

ومن الاتخاذ المذموم اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله، وهذا شرك بالله، فلا يجوز طاعتهم.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

هذه الآية في اليهود الذين اتخذوا علماءهم، والنصارى الذين اتخذوا رهبانهم سادة لهم يطيعونهم في معصية الله، فيحلون ما أحلوه لهم مما حرمه الله، ويحرمون ما حرموه لهم مما أحله الله، بالإضافة لاتخاذهم المسيح ابن مريم ربًا من دون الله، والله أمرهم ألا يعبدوا ويطيعوا إلا إلهًا واحدًا هو الله سبحانه وتعالى ، وأما طاعة الرسول وسائر من أمر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله، وهذا الأمر من الله دليل على بطلان اتخاذهم[2].

وكذلك نهى الله عن اتخاذ الأصنام شفعاء من دون الله، فهي لا تملك نفعًا ولا ضرًا، فالشفاعة لله وحده.

قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣- ٤٤].

أي: قل لهم يا محمد: أتتخذون الأصنام والقربان شفعاء من دون الله، وهي لا تملك شيئًا ولا تعقل؛ لأنها جمادات، فهذا استفهام إنكاري لهذا الاتخاذ الباطل، فالشفاعة لله وحده، ولا شافع إلا من شفاعته[3].

٢. اتخاذ الكفار واليهود والنصارى أولياء من دون المؤمنين.

فقد نهى الله سبحانه وتعالى المسلمين من اتخاذ الكفار أولياء بموالاتهم ونصرتهم ومحبتهم، بل لابد من التبرؤ منهم، واتخاذ المؤمنين أولياء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

هذا نهي من الله لعباده المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين، الذين يتخذون

(١) المصدر السابق ص ٦٣١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٢٠٨، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٧٨.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٢٦٣.

الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فيكونوا مثلهم في ركوب ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه، فيقول لهم -جل ثناؤه-: لا توالوا الكفار فتؤازروهم من دون أهل ملتكم ودينكم من المؤمنين، فتكونوا كمن أوجبت له النار من المنافقين[1].

وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وهذا نهي من الله لعباده المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أعوانًا وأنصارًا يبادلونهم المحبة والمناصرة على إخوانهم المؤمنين، وأعلمهم تعالى أن من يفعل ذلك فقد برئ الله تعالى منه، وذلك لكفره وردته، حيث والى أعداء الله وعادى أولياءه[2].

ونهى الله سبحانه وتعالى أيضًا من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء وحلفاء، فهذا الاتخاذ المذموم يسبب سخط الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

فيتوجب على أهل الإيمان عدم اتخاذ أعداء الإسلام من اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاءً، وألا يسروا إليهم بأسرارهم ولا يطمئنوا لمودتهم، فهم لن يخلصوا لهم؛ لأنهم أولياء بعضهم بعضًا، ثم توعد من يواليهم أو يعينهم أو يستنصر بهم، فإنه في الحقيقة منهم، أي: من جملتهم، وكأنه مثلهم، وليس من صف المؤمنين الصادقين، وهذا تغليظ من الله وتشديد على المنافقين الذين يتصادقون مع اليهود والنصارى المخالفين في الدين؛ لأن موالاتهم تستدعي الرضا بدينهم[3].

٣. اتخاذ الدين والرسول لهوًا ولعبًا.

إن من الاتخاذ المذموم ما يفعله الكفار من اتخاذ دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لهوًا ولعبًا، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم يستهزؤون برسول الله صلى الله عليه وسلم متى رأوه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

وهذا القول صدر عن أبي جهل، على سبيل التنقص والازدراء والاستهزاء -قبحهم الله-، فهذا اتخاذ مذموم[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٩/ ٣٣٦.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٣٠٦.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٦/ ٢٢٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٣٥.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن من أسباب دخول النار الإعراض عن دين الله والاستهزاء به، واتخاذه لهوًا ولعبًا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

ومعنى: ﴿ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا﴾ أي: بالإعراض والاستهزاء لمن يدعوهم إلى الإسلام، لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخريًا، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم بزخرفها، واعتقادهم أنها الغاية القصوى، والنسيان في هذه الآية هو بمعنى الترك، أي: نتركهم في العذاب[1].

٤. اتخاذ القرآن مهجورًا.

القرآن الكريم هو دستور هذه الأمة، أمرنا الله بالتعبد بتلاوته وحفظه وتطبيق أوامره ونواهيه، واتخاذه دستورًا ومنهج حياة؛ لذا كان هجرانه اتخاذًا مذمومًا، سواء هجرانه بعدم الإيمان به، أو ترك تلاوته أو الغفلة عنه، أو بهجر العمل به والاحتكام إليه، وقد اشتكى رسولنا صلى الله عليه وسلم قومه إلى الله سبحانه وتعالى لهجرانهم القرآن وتكذيبهم له.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

الآية تتضمن شكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم حال قومه مع القرآن، والمعنى: إن قومي اتخذوا هذا القرآن الذي جئت به إليهم، وأمرتني بإبلاغه وأرسلتني به مهجورًا، أي: متروكًا بالكلية لم يؤمنوا به، ولا قبلوه بوجه من الوجوه، ولم يرفعوا إليه رأسًا، ولم يتأثروا بوعظه ووعيده، بل أعرضوا عنه مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه، وقالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر، وهذا هجران مذموم[2].

وقد عبر في الآية بالاتخاذ مع أن الهجر ترك؛ لأن «فعل الاتخاذ إذا قيد بحالة يفيد شدة اعتناء المتخذ بتلك الحالة، بحيث ارتكب الفعل لأجلها وجعله لها قصدًا، فهذا أشد مبالغة في هجرهم القرآن من أن يقال: إن قومي هجروا القرآن. واسم الإشارة في هذا القرآن لتعظيمه، وأن مثله لا يتخذ مهجورًا، بل هو جدير بالإقبال عليه والانتفاع به»[3]، فحري بنا أن نقبل عليه، ونتخذه صاحبًا وأنيسًا، لا مهجورًا، فحق

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٤٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٢٧، فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٨٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٨٢، البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ٩٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩/ ١٧.

المؤمن أن يكون كثير التعهد له، عاملًا به؛ ليكون شفيعًا له يوم القيامة.

٥. اتخاذ الأخدان.

لقد شرع الله لنا الزواج ونهانا عن اتخاذ الأخدان، فالمباح لنا هو الزواج بالحرائر المؤمنات العفيفات، وكذلك الكتابيات، بشرط إتيانهن مهورهن، بقصد الإحصان والإعفاء، لا بالسفاح وارتكاب الفواحش والزنى العلني، أو الزنى السري، وهو اتخاذ الاخدان[١].

قال تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾[المائدة: ٥].

أي: عاقدين عليهن عقدة النكاح المتوقفة على المهر والولي والشهود وصيغة الإيجاب والقبول، لا مسافحين بإعطاء المرأة أجرة وطئها فقط بدون عقد مستوف لشروطه، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أيضًا بأن تنكحوهن سرًا بحكم الصحبة والصداقة والمحبة، إذ ذاك هو الزنى، فلا يحل بأجرة، ولا بغير أجرة[٢].

وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يعيرون من يزني في العلانية ولا يعيرون من يزني سرًا، فحرم الله زنى السر والعلانية[٣]، كما شرط ديننا على النساء أن يكن محصنات، وألا يتخذن الأخدان.

قال تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾[النساء: ٢٥].

أخدان جمع خدن، وهو الخليل، وكان من نساء الجاهلية من تتخذ خدنًا تزني معه خاصة، ومنهن من كانت لا ترد يد لامس، ومعنى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: غير مجاهرات بالزنا، ولا مسراتٍ له، وكان الزنا في الجاهلية منقسمًا إلى هذين القسمين[٤].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٦/ ٩٥.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٥٩٥.
(٣) تفسير السمرقندي،، ١/ ٣٧١.
(٤) انظر: التسهيل في علوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ١/ ١٨٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ١٦٧.

أسباب الاتخاذ

إن لكل اتخاذ أسبابًا تؤدي إليه، حري بنا أن نميز بينها، ونتبع كل اتخاذ محمود، ونأخذ بأسبابه ونسلك كل سلوك يؤدي إليه، ونتجنب كل اتخاذ مذموم، ونبتعد كل البعد عن أسبابه، والتي من شأنها أن تجلب غضب الله وعقابه.

أولًا: أسباب الاتخاذ المحمود:

إن للاتخاذ المحمود أسبابًا حريٌّ بنا اتباعها، نذكر أهمها:

١. الإيمان.

إن من أهم أسباب الاتخاذ المحمود هو الإيمان، فالإيمان يدفع صاحبه لكل أمر محمود، ولكل فعل أمر به الشرع ودعا إليه، والمؤمن أكثر الناس حبًا لله، وحبه لربه يدفعه للإخلاص له في عبادته وعدم الشرك معه.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

فالآية الكريمة تبرز أن المؤمنين أشد الناس حبًا لله، وهذا مدح لأهل الإيمان؛ لأن إيمانهم دفعهم لهذا الحب الخالص، وهذا الحب يدفعهم لتوحيده واتخاذ الله إلهًا واحدًا، لا شريك له، ويدفعهم أيضًا للابتعاد كل البعد عن اتخاذ الند كبعض الناس يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم ويشركون مع الله في حبهم، فيسوونهم مع الله في المحبة والطاعة، فهم مشركون بهذا الحب الذي لا يصدر من مؤمن موحد؛ لأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئًا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره[(١)].

إنه الإيمان الصادق بالله الذي يدفع المؤمن للاتخاذ المحمود، «فإن المؤمنين لا يحبون شيئًا حبهم لله، لا أنفسهم ولا سواهم، لا أشخاصًا، ولا اعتبارات، ولا شارات، ولا قيمًا من قيم هذه الأرض التي يجري وراءها الناس، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أشد حبًا لله، حبًا مطلقًا من كل موازنة، ومن كل قيد، أشد حبًا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه، والتعبير هنا بالحب تعبير جميل، فوق أنه تعبير صادق، فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هي صلة الحب، صلة الوشيجة القلبية، والتجاذب الروحي، صلة المودة والقربى، صلة الوجدان المشدود بعاطفة الحب المشرق

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ١٠٠، تفسير المراغي، ٢/ ٣٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٩.

الودود»[1].

٢. اتباع سبيل الهدى.

وإن من أسباب الاتخاذ المحمود اتباع سبيل الهدى، وطاعة الله فيما أمر والامتناع عما نهى، فالله سبحانه وتعالى أمرنا باتخاذه وكيلًا.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

هذا أمر من الله باتخاذه وكيلًا، وعدم اتخاذ الأولياء والآلهة والشفعاء من دونه، فمن أطاعه واتبع سبيل الهدى فاز وربح بهذا الاتخاذ المحمود، فإن من دلالة هذه الآية أن من حقق التوحيد واتبع سبيل الهدى اتخذ الله وكيلًا.

يقول ابن عاشور: «وإذا كان الأمر باتخاذه وكيلًا مسببًا عن كونه لا إله إلا هو كان ذلك في قوة النهي عن اتخاذ وكيل غيره، إذ ليس غيره بأهل لاتخاذه وكيلًا»[2].

«وهكذا المؤمن الكامل لا يتوكل إلا عليه سبحانه وتعالى ولا يعتمد على سواه، ولا ينقطع عن كل ذلك؛ لأنه رب المشرق والمغرب وما بينهما، لا إله غيره، وكيف يكون غير ذلك؟! وكل ما في الكون شرقه وغربه شاهد عدل على وحدانية الله، وأنه لا إله غيره، ولا معبود سواه، إذا كان الأمر كذلك فاتخذه وكيلًا»[3].

٣. الانتفاع بالتذكر.

إن الانتفاع بالتذكرة سبب يدفع للاتخاذ المحمود، فالإنسان مدعو للانتفاع بالتذكرة والموعظة، فمن ينتفع بالتذكرة والموعظة فإنه سيتخذ سبيل الإيمان والرشاد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩] أي: من كان يريد أن يتخذ إلى ربه سبيلًا فقد تهيأ له اتخاذ السبيل إلى الله بهذه التذكرة، والتذكرة هي الموعظة؛ لأنها تذكر الغافل عن سوء العواقب، فالانتفاع بالتذكرة سبب للاتخاذ المحمود[4].

ثانيًا: أسباب الاتخاذ المذموم:

١. الكفر.

إن من أهم أسباب الاتخاذ المذموم هو الكفر بالله والنفاق -والعياذ بالله-، فالكافر كفره يصرفه إلى كل مذموم، وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك، ففي سياق ذكر صفات منافقي أهل الكتاب وما استحقوه من لعنة من الله؛ لأنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يبين الله سبحانه وتعالى أن سبب هذا الاتخاذ المذموم أنهم لم يؤمنوا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٥٤.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٦٧.
(٣) التفسير الواضح، محمد الحجازي، ٣/ ٧٦٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٢٧٧.

بالله ولا بنبيه.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨١].

فالآية تبين أن عدم إيمان الذين يتولون المشركين سبب في اتخاذهم المشركين أولياء، فإن الإيمان بالله ورسوله وازعٌ عن توليهم قطعًا، ومانع لهم عن هذا الاتخاذ المذموم[(١)].

٢. مخالفة أوامر الله واتباع سبيل الضلال.

إن مخالفة أوامر الله توقع المرء في الاتخاذ المذموم، فلما خالف اليهود والنصارى أوامر الله سبحانه وتعالى، وقد أمرهم بعبادته وعدم الشرك به، وقعوا بالشرك.

قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

فالآية توضح أن مخالفتهم لأمر الله وعدم التزامهم بأمره كان سببًا في هذا الاتخاذ المذموم وهو اتخاذ الأحبار، أي: العلماء، وعيسى ابن مريم أربابًا وآلهة من دون الله.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الذي يتكبر عن آياته ولا يؤمن بها ويتبع سبيل الضلال، ويعرض عن سبيل الهداية، فإنه سيتنكب الطريق، فيصبح لا يميز طريق الحق من طريق الباطل، فيتخذ سبيل الغي طريقًا ويترك طريق الرشد؛ لأنه كذب بآيات الله، وغفل عن معطيات الإيمان.

قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

يقول الشعراوي: «وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها، وحين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلًا؛ لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم؛ لأنها تمكنت منهم، ولكن سبيل الغي يطلق العنان لشهوات النفس، ولا يكون كذلك إلا إذا غفل عن معطيات الإيمان الذي يحرمه من شيء ليعطيه أشياء

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٧٠.

أثمن»[1].

ويقول السعدي في بيان سبب اتخاذهم سبيل الغي، وعدم اتخاذهم سبيل الرشد، «﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ فردهم لآيات الله، وغفلتهم عما يراد بها واحتقارهم لها، هو الذي أوجب لهم سلوك طريق الغي، وترك طريق الرشد»[2].

٣. اتباع غواية الشيطان.

وإن من أسباب الاتخاذ المذموم: اتباع غواية الشيطان، فالشيطان يسعى في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم؛ ليضلهم، وقد نهانا الله عن اتباع غواية الشيطان، وعن اتخاذه وليًا، بل دعانا لاتخاذه عدوًا؛ لأنه يضل الناس ليكونوا من حزبه ثم يكونوا من أصحب السعير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

يقول ابن عاشور: «وأعقب الأمر باتخاذ الشيطان عدوًا بتحذير من قبول دعوته وحثٍ على وجوب اليقظة لتغريره وتجنب توليه بأنه يسعى في ضر أوليائه وحزبه، فيدعوهم إلى ما يوقعهم في السعير، وهذا يؤكد الأمر باتخاذه عدوًا؛ لأن أشد الناس تضررًا به هم حزبه وأولياؤه، وجملة ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ تعليل لجملة ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾»[3].

فإن اتباع غواية الشيطان تسبب اتخاذه وليًا من دون الله، وتوقع العبد في اتباع كل مذموم، «ذلك الشيطان الذي لعنه الله، والذي صرح بنيته في إضلال فريق من أبناء آدم، وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة في طريق الغواية، من لذة كاذبة، وسعادة موهومة، ونجاة من الجزاء في نهاية المطاف! كما صرح بنيته في أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة، وشعائر سخيفة، من نسج الأساطير، كتمزيق آذان بعض الأنعام؛ ليصبح ركوبها بعد ذلك حرامًا، أو أكلها حرامًا -دون أن يحرمها الله- ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير شكلها في الحيوان أو الإنسان، كخصاء الرقيق، ووشم الجلود، وما إليها من التغيير والتشويه الذي حرمه الإسلام»[4].

قال تعالى: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٨-١١٩].

(١) تفسير الشعراوي، ٧/ ٤٣٥٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٠٢.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٦١.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٧٦٠.

«وقد جعل الإسلام المعركة الرئيسة بين الإنسان والشيطان، ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذي ينشئه في الأرض والوقوف تحت راية الله وحزبه، في مواجهة الشيطان وحزبه، وهي معركة دائمة لا تضع أوزارها؛ لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التي أعلنها منذ لعنه وطرده، والمؤمن لا يغفل عنها، ولا ينسحب منها، وهو يعلم أنه إما أن يكون وليًا لله، وإما أن يكون وليًا للشيطان وليس هنالك وسط، والشيطان يتمثل في نفسه وما يبثه في النفس من شهوات ونزوات، ويتمثل في أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة، والمسلم يكافحه في ذات نفسه، كما يكافحه في أتباعه، معركة واحدة متصلة طوال الحياة، ومن يجعل الله مولاه فهو ناجٍ غانم، ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك»[1].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٧٦١.

أساليب القرآن في عرض الاتخاذ

استعمل القرآن الكريم أساليب متعددة في عرض الاتخاذ، نذكر هذه الأساليب خلال السطور الآتية مع ذكر أمثلة على كل أسلوب.

أولًا: الخبر:

ورد الاتخاذ في القرآن الكريم بأسلوب الخبر في عدد من الآيات القرآنية؛ للإخبار عن موضوعات عدة منها:

١. الإخبار عن اتخاذ المنافقين مسجد ضرار؛ لإلحاق الأذى والضرر بالمؤمنين، والتفريق بينهم، وتقوية للكفر[2]، وهذا اتخاذ مذموم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

٢. الإخبار عن حرمة اتخاذ الأخدان للمسلمين والمسلمات، والإرشاد للزواج[3].

قال تعالى: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ [المائدة: ٥].

(٢) انظر: تفسير المراغي، ١١/ ٢٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٧٤، ٢٢١.

وقال تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

٣. الإخبار عن اتخاذ مريم للحجاب ساترًا لها؛ للتفرغ للعبادة[(١)].

قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

٤. الإخبار أن الله غني عن اتخاذ الولد، وتنزهه سبحانه وتعالى عن الشريك والولد والصاحبة، وأن الملائكة هم عباد لله مكرمون.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

٥. الإخبار عن شكوى الرسول صلى الله عليه وسلم عن قومه باتخاذهم القرآن مهجورًا، تلاوة وعلمًا وعملًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

٦. الإخبار عن المشركين الذين اتخذوا آلهة يتولونها من دون الله، فالله يحصي أفعالهم ويجازيهم بها يوم القيامة[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦].

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي، ٢/ ٤٤٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٥٠٢.

٧. الإخبار عن اتخاذ المنافقين أيمانهم الكاذبة وقاية وسترًا يستترون بها من نسبتهم إلى النفاق؛ لحفظ أموالهم وحقن دمائهم[(٣)].

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

ثانيًا: النهي:

ورد الاتخاذ في القرآن الكريم بأسلوب النهي في عدد من الآيات القرآنية؛ للنهي عن أفعال عدة، هي من الأفعال المذمومة التي نهى القرآن الكريم عن اتخاذها، ومن أمثلة ذلك:

١. النهي عن اتخاذ آيات الله هزوًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١].

٢. نهي المؤمنين من أن يتخذوا من الكفار بطانة وأخلاء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

٣. النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟

(٣) انظر: تفسير المراغي، ٢٨/ ١٠٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٦٤.

﴿الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

٤. نهي المؤمنين أن يتخذوا آباءهم وإخوانهم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

٥. النهي عن الشرك مع الله، واتخاذ الآلهة مع الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

٦. النهي عن اتخاذ الأيمان وسيلة خداع ومكر، بإظهار الوفاء بالعهد وإبطان النقض[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

٧. نهي المؤمنين أن يتخذوا عدو الله وعدوهم أولياء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٢١٣.

ثالثًا: الأمر:

ورد الاتخاذ في القرآن الكريم بأسلوب الأمر في عدد من الآيات القرآنية، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١. أمر الله للمسلمين بأن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢. أمر الله للمسلمين أن يتخذوا الشيطان عدوًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

٣. أمر الله لنبيه أن يتخذه وكيلًا، فيتوكل عليه وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

فهذا أمر بتخصيص الله بالتوكل عليه[(٢)].

وبذلك نرى أن الآيات أمرت باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، واتخاذ الله وكيلًا، وكذلك اتخاذ الشيطان عدوًا، وهذه من أمثلة الاتخاذ المحمود، الذي أرشدنا القرآن إليه.

رابعًا: النفي:

استعمل القرآن الكريم أسلوب النفي في

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٥٥.

عرض الاتخاذ، في:

١. نفي الولد عن الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء: ١١١].

«والمراد: نفي الناصر له على وجه مؤكد، فإن الحاجة إلى الناصر لا تكون إلا من العجز عن الانتصار للنفس»[(١)].

وكذلك نفى الله عن نفسه الولد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾[الفرقان: ٢].

حيث نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة بنات الله، وعما قالت اليهود: عزير ابن الله، وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله، تعالى الله عن ذلك[(٢)].

وجاء النفي أيضًا عن اتخاذه الولد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ [مريم: ٣٥].

ففي هذه الآية «نفى سبحانه وتعالى عن نفسه الولد، أي: ما كان من نعته اتخاذ الولد»[(٣)].

٢. نفي اتخاذ المجاهدين الخلص بطانة من الكفار.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦].

«والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه؛ حتى يتبين الخلص منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة، أي: بطانة، من الذين يضادون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين»[(٤)].

خامسًا: الثناء على أهل الاتخاذ المحمود:

من الأساليب التي استعملها القرآن الكريم في عرض الاتخاذ: هو الثناء، فقد أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالثناء عليه لتنزهه عن اتخاذ الولد، فالله سبحانه وتعالى له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل نقص.

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١١١].

ومعنى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾: الثناء عليه بما هو أهله[(٥)]، «وقل: الحمد لله والثناء بالجميل على الفعل الجميل لله سبحانه وتعالى الذي لم يتخذ ولدًا فهو ليس محتاجًا إليه، واتخاذ الولد من صفات الحوادث وهو

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥/ ٢٣٩.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٢.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٣/ ٦٣.
(٤) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٢٥٣.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ١٣٩.

منزه عنها، ولم يكن له شريك في الملك؛ لأنه غير محتاج إليه، ولو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا، ولم يكن له ولي من الذل، أي: لم يكن له ناصر من الذل ومانع له منه، ولم يوال أحدًا من أجل الذل؛ إذ هو القادر المقتدر الخالق صاحب النعم جل جلاله وكبره تكبيرًا، وعظمه تعظيمًا يتناسب مع جلاله وقدسيته، والله أكبر ولله الحمد»[1].

ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المؤمنين من الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

يقول ابن عاشور: «هؤلاء هم المؤمنون من الأعراب وفاهم الله حقهم من الثناء عليهم»[2].

يقول الزمخشري في بيان قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾: «ألا إنها شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنتين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ﴾ وما في السين من تحقيق الوعد، وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان، إذا خلصت النية من صاحبها»[3].

وبذلك نرى أن الآيات مدحت من يستحق المدح من أهل الاتخاذ المحمود.

سادسًا: ذم أهل الاتخاذ المذموم:

لقد ذم الله سبحانه وتعالى أهل الاتخاذ المذموم، ومثال ذلك ذم الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون مغرمًا.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٨].

فهذه الآية تبين أن من الأعراب من يعد نفقته التي ينفقها في جهاد مشرك، أو في معونة مسلم، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده ﴿مَغْرَمًا﴾، أي: غرمًا لزمه، لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع به عن نفسه عقابًا[4].

وهذا اتخاذ مذموم، ذمه الله بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ والسَّوْء -بفتح السين- مصدر ساءه يسوءه سوءًا، إذا فعل به ما يكره، وقيل: المفتوح بمعنى الذم، والمضموم بمعنى العذاب والضرر، والدوائر جمع دائرة، وهي ما يحيط بالإنسان

(١) التفسير الواضح، محمد الحجازي، ٢/ ٤٠٢.
(٢) التحرير والتنوير، ١١/ ١٥.
(٣) الكشاف، ٢/ ٣٠٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٤٣٠.

من مصيبة ونكبة، تصورًا من الدائرة المحيطة بالشيء من غير انفلاتٍ منها، وإضافة الدائرة إلى السوء من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة، وفي هذا التعبير ما فيه من الذم لهؤلاء المنافقين؛ لأنه سبحانه وتعالى جعل السوء كأنه دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم، وتدور بهم، فلا تدع لهم مهربًا أو منجاة من عذابها وضررها[(١)].

وذم الله الذين يتخذون الصلاة هزوًا ولعبًا، بتحقير عقولهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

يقول ابن عاشور: «﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ تحقير لهم؛ إذ ليس في النداء إلى الصلاة ما يوجب الاستهزاء فجعله موجبًا للاستهزاء سخافة لعقولهم»[(٢)].

فهذا ذم للاتخاذ المذموم وأهله، وهو تسفيه لهؤلاء الذين يحادون الله ورسوله، ويهزءون ممن يولي وجهه إلى الله، راكعًا وساجدًا، ولو عقلوا لعلموا أنهم بعملهم هذا، يحاربون الله ويصدون الناس عن أداء حقه عليهم من الولاء لجلاله، والشكران لنعمه، إنهم ظلموا أنفسهم ظلمًا فوق ظلم[(٣)].

يقول ابن كثير: «هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هزوًا يستهزئون بها، ولعبًا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد»[(٤)].

وكذلك ذم الله قوم موسى الذين اتخذوا العجل إلهًا يعبدونه من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

«أكد سبحانه وتعالى ذمهم بقوله: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي: اتخذوا العجل معبودًا لهم وهم يشاهدونه لا يكلمهم بأي كلام، ولا يرشدهم إلى أي طريق، ولا شك أنهم بهذا الاتخاذ كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير الله، وبوضعهم الأمور في غير مواضعها»[(٥)].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٠٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠/ ١٨٢، التفسير الوسيط، الطنطاوي، ٦/ ٣٨٨.
(٢) التحرير والتنوير، ٦/ ٢٤٢.
(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٣/ ١١٢٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٤٠.
(٥) التفسير الوسيط، طنطاوي، ٥/ ٣٨٠.

سابعًا: الاستفهام الإنكاري:

ورد الاتخاذ في القرآن الكريم بأسلوب الاستفهام الإنكاري في عدد من الآيات، ومن أمثلة ذلك:

- الاستنكار على الذين ادعو أنه لن تمسهم النار، أتخذوا عهدًا عند الله حتى لا يعذبهم[1]؟

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

- استنكار إبراهيم عليه السلام على أبيه آزر لاتخاذه أصنامًا آلهة من دون الله، وهي لا تضر ولا تنفع[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

- أمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يستنكر على الذين اتخذوا من دونه -وهو الخالق- أولياء لا يملكون النفع والضر لأنفسهم، فكيف سينفعون غيرهم؟[3].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

- الاستنكار على من اتخذ إبليس وذريته أولياء من دون الله، واستبدال من خلقهم وأنعم عليهم بعدوهم[4].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

- استنكار الرجل الصالح ناصح أهل القرية على نفسه أن يتخذ آلهة من دون الله، وذلك من تمام التعريض بالمخاطبين استنكارًا عليهم بجعل الأوثان آلهة لا تدفع ضر ولا تشفع[5].

قال تعالى: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

وهكذا نجد أن الاستفهام في المواضع السابقة جاء لإنكار اتخاذ مذموم فعله المتخذون؛ فاستحقوا استنكار فعلهم.

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٧٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/ ٣١٢.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ١٢.
(٤) انظر: المصدر السابق، ٥/ ٢٢٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٣٦٨.

عاقبة الاتخاذ

إن الاتخاذ أمر اختياري يتخذه المتخذ، ولما أمرنا الله باتخاذ كل محمود ونهانا عن اتخاذ كل مذموم، جعل لكل اتخاذ عاقبة، إما ثواب وإما عقاب، فمن اتخذ اتخاذًا محمودًا أفلح وفاز، ومن اتخذ اتخاذًا مذمومًا خسر وخاب.

أولًا: عاقبة الاتخاذ المحمود:

إن أهل الإيمان الذين التزموا أوامر الله وانتهوا عما نهى، هم أصحاب الاتخاذ المحمود، الذين يتخذون الله وليًا ووكيلًا، ويتخذوا القرآن دستورًا ومنهج حياة، ويتبعوا سبيل الهدى ويتخذوه طريقًا، هؤلاء عاقبتهم الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، فيحيون حياة طيبة في الدنيا، ويظلهم الله برحمته في الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠].

وقد بين الله سبحانه وتعالى عاقبة أهل الإيمان من الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله، فقد أثنى على فعلهم، ووعدهم برحمته.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

فهذا وعد من الله سبحانه وتعالى لهم، بإدخالهم في رحمته التي هي الجنة، فإنه يغفر ذنوبهم أولًا، ويدخلهم الجنة ثانيًا، هذه سنته -تعالى في أوليائه، يطهرهم ثم ينعم عليهم بجواره[(١)].

يقول الشعراوي: «ورحمة الله هي نعيم مقيم، وهي دائمة وباقية ببقاء الله الذي لا يحد، أما الجنة فباقية وخالدة بإبقاء الله لها، إذن: فدخولك في رحمة الله أعلى من دخولك جنته، فحين يقال: «دخل في الرحمة» فمعنى ذلك أن الرحمة ستظله إلى ما لا نهاية»[(٢)].

وعاقبة أهل الإيمان، أصحاب الاتخاذ المحمود، مغفرة من الله، حيث بين الله هذه العاقبة الحسنة بعد أن دعا إلى اتخاذ الشيطان عدوًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٤١٧.
(٢) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٤٤١.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[فاطر: ٦-٧].

فالآيات تبين أن الناس انقسموا إلى مؤمنين وكافرين بحسب اتخاذهم للشيطان عدوًا أو وليًا، فالذين كفروا ولم يلتزموا أوامر الله، واتخذوا الشيطان وليًا لهم عذاب شديد في نار جهنم، أما الذين آمنوا وعملوا بمقتضى الإيمان بالتزامهم بأمر الله، واتخذوا الشيطان عدوًا، لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير يحصل به المطلوب، وهذا أجر كل من اتخذ اتخاذًا محمودًا، أرضى به ربه جل جلاله [(١)].

إن أهل الاتخاذ المحمود هم أهل الفردوس، ونعم العاقبة لهم، فلما بين الله سبحانه وتعالى في كتابه عاقبة الكافرين وأن جزاءهم جهنم وبئس المصير، الذين اتخذوا آيات الله ورسله هزوًا، بين عاقبة أهل الإيمان أصحاب الاتخاذ المحمود، الذين آمنوا بآيات الله واتخذوها دستورًا، وآمنوا برسل الله واتخذوهم أنبياء وقدوة لهم.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف: ١٠٥-١٠٧].

يبين الله في الآيات بطريق الوعد لا الوعيد مآل المؤمنين الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرة، فالذين آمنوا وعملوا بمقتضى إيمانهم من الأعمال الصالحة، ولم يتخذوا آيات الله ورسله هزوًا كما فعل الكفار، هم أهل الفردوس جعلها الله لهم نزلًا وإكرامًا[(٢)].

«والمراد بجنات الفردوس: أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كمل فيه الإيمان والعمل الصالح، والأنبياء والمقربون، ويحتمل أن يراد بها: جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين؛ لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نزل، وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل وأكبر، وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٨٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٤٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٥٠.

والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة.

وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم!! فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها، وأدومها وأكملها، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علمًا حقيقيًا يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانًا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية»[1].

اللهم اجعلنا من أهل الفردوس يا رب العالمين.

ثانيًا: عاقبة الاتخاذ المذموم:

كما أن لأهل الاتخاذ المحمود عاقبة حميدة وحسنة، فإن أهل الاتخاذ المذموم لهم عاقبة سيئة، فالجزاء من جنس العمل، فلا يستوي من اتخذ الله وليًا ووكيلًا، ومن اتخذ آلهة من دونه، ولا يستوي من اتخذ القرآن دستورًا، ومن اتخذه مهجورًا.

وأول عاقبة لصاحب الاتخاذ المذموم الذي ظلم نفسه، هو الندم، فيوم القيامة يندم الظالم ويعض على يديه؛ لأنه لم يتخذ مع الرسول سبيلًا، واتخذ طريق الغي سبيلًا له، واتخذ من أهل الشر أخلاء، أضلوه عن طريق الحق.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[الفرقان: ٢٧-٢٨].

وعض الظالم على يديه، كناية عن الحسرة والندم، على ما فاته من خير، ولا يمكنه حينها دركه، وسبب الحسرة التي تملأ قلب الظالم في هذا اليوم، وهو أنه قد كان على طريق مخالف لطريق النبي، وأنه دعي إلى الإيمان فأبى، ولم يتخذ مع الرسول سبيلًا، بل اتخذ سبيله مع الضالين من أمثاله، الذين أغووه، وأغواهم، فكانوا حزبًا على النبي والمؤمنين[2].

فالعبد مدعو ليتدارك ما فاته، قبل الوقت الذي لا يمكنه ذلك، وليتخذ كل ما من شأنه أن يكون سعادة له، لا ما يجلب له الندم وغضب الله سبحانه وتعالى ، فالذين

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٨٨.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١٠/ ١١.

يتخذون كل مذموم ينالهم غضب من ربهم عاقبة وجزاء على عملهم، فالذين اتخذوا العجل إلهًا من دون الله يعبدونه، سينالهم غضب من الله، وذلة في الدنيا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

«إنه حكم ووعد، إن القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، ذلك مع قيام القاعدة الدائمة: إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته، وإذن فقد علم الله أن الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا توبة موصولة وأنهم سيرتكبون ما يخرجهم من تلك القاعدة، وهكذا كان، فقد ظل بنو إسرائيل يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة ويسامحهم الله المرة بعد المرة، حتى انتهوا إلى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ كل المفترين إلى يوم الدين، فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله، من بني إسرائيل، ومن غير بني إسرائيل، ووعد الله صادق لا محالة، وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة»[(١)].

هذا هو مصير كل من اتخذ كل مذموم ومحرم نهانا شرعنا أن نتخذه، غضب من الله، وعذاب في جهنم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ٩-١٠].

فكل مستكبر مكذب بآيات الله ومستهزئ بها، يناله عذاب الله، هذا ما بينته الآيات وهي تصف مصير كل من اتخذ آيات الله هزوًا، واتخذ من دون الله وليًا، بأن لهم عذابًا ذا إهانة، يتكافأ مع استكبارهم واستهزائهم، فالجزاء من جنس العمل، ومن ورائهم جهنم، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئًا من الأموال والأولاد، فتلك مواقف لا ينفع فيها مال ولا بنون، بل يفر المرء فيها من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ولا يغني عنهم ما اتخذوهم أولياء من دون الله كالأصنام وسائر المعبودات الباطلة، ولهم في جهنم عذاب عظيم لا يعرف قدره أحد من الخلق[(٢)].

والآيات في كتاب الله كثيرة تبين أن عاقبة كل اتخاذ مذموم، هو العذاب والعقاب الرباني، وبئس العقاب الذي يستحقه من خالف أمر ربه، واتبع طريق الضلال، وهذا ترهيب من هذا السبيل، فحريٌّ بنا تجنب هذا السبيل المذموم، وكل ما من شأنه أن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٣٧٥.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي، ٣/ ٤٢٦.

يجلب غضب الله وسوء العاقبة، والسعي دائمًا لكل ما يرضي الله، ويكون سببًا في النجاة والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

موضوعات ذات صلة:

الأخذ، الصحبة، المحبة

الاجتماع

عناصر الموضوع

مفهوم الاجتماع	٣٢٢
الاجتماع في الاستعمال القرآني	٣٢٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٤
أسباب الاجتماع	٣٢٦
أنواع الاجتماع	٣٤٨
معوقات الاجتماع المحمود	٣٦٣
الاجتماع يوم القيامة	٣٧٠

مفهوم الاجتماع

أولًا: المعنى اللغوي:

(جمع) الجيم والميم والعين أصل واحد، يدل على تضام الشيء، يقال: جمعت الشيء جمعًا، وجمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعًا، وجمعه وأجمعه فاجتمع.

واجتمع القوم واستجمعوا بمعنى: تجمعوا، وانضم بعضهم إلى بعض، واتحدوا واتفقوا.

و(الجماعة) العدد الكثير من الناس، والشجر والنبات، وطائفة من الناس يجمعها غرض واحد.

و(الاجتماع) علم الاجتماع، علم يبحث في نشوء الجماعات الإنسانية ونموها وطبيعتها وقوانينها ونظمها، ويقال: رجل اجتماعي مزاول للحياة الاجتماعية، كثير المخالطة للناس.

و(المجتمع) موضع الاجتماع.

و(المجمع) موضع الاجتماع والملتقى، ومنه: مجمع البحرين، ومؤسسة للنهوض باللغة أو العلوم أو الفنون ونحوها (محدثة)[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الجرجاني الاجتماع بأنه: تقارب أجسام بعضها من بعض[2].

وعرفه السيوطي بقوله: الاجتماع: وجود أشياء كثيرة يعمها معنىً واحد[3].

وقال المناوي: الاجتماع: مجاورة جوهرين في حيزين، ليس بينهما ثالث، وضده الافتراق، وهو وقوع جوهرين بينهما حيز[4]. وكذا قال الكفوي[5].

ولا يختلف معنى الاجتماع في الاصطلاح عن المعنى الذي يفيده في أصل اللغة، وإن كان مقصود الشرع من الاجتماع هو ما يحمد شرعًا، وهو أن يلتقي المسلمون، وينضم بعضهم إلى بعض، ولا يتفرقوا.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٤٧٩ لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٥٣، تاج العروس، الزبيدي، ٢٠/ ٤٥١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ١٣٦.

(٢) التعريفات، ص١٠.

(٣) معجم مقاليد العلوم، ص١٣٧.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، ص٣٨.

(٥) الكليات، ص٤٦.

الاجتماع في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ (الاجتماع) في القرآن، ولكن ورد جذره، وهو: (جمع)، والذي يعني: تأليف المتفرق وانضمامه[1].

ولكن القرآن الكريم تحدث عن الاجتماع والتوحد وجمع الكلمة، من خلال الحديث عن الائتلاف، ونبذ الفرقة، والاعتصام بحبل الله.

(١) ١ انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٩١٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللقاء:

اللقاء لغةً:

الملاقاة، وتوافي الاثنين متقابلين، ولقيته لقوةً، أي: مرةً واحدةً، ولقاءةً، ولقيته لقيًا ولقيانًا، واللقية فعلةٌ من اللقاء، والجمع لقى[١].

اللقاء اصطلاحًا:

قال الرازي: وصول أحد الجسمين إلى الآخر؛ بحيث يماسه بشخصه[٢].

وقال الراغب: مقابلة الشيء ومصادفته معًا، وقد يعبر به عن كل منهما[٣].

الصلة بين الاجتماع واللقاء:

اللقاء حسي، أما الاجتماع فقد يكون حسيًا، وقد يكون معنويًا.

وأيضًا فاللقاء: هو الاجتماع على وجه المقاربة والاتصال، والاجتماع قد يكون على غير المقاربة والاتصال[٤].

٢ الاعتصام:

الاعتصام لغةً:

العصم: الإمساك، والاعتصام: الاستمساك، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣]. أي: تمسكوا بعهد الله[٥].

والاعتصام بحبل الله: هو ترك الفرقة، واتباع القرآن[٦].

الاعتصام اصطلاحًا:

ولا يختلف معنى الاعتصام في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٦٠، مختار الصحاح، الرازي، ص ٢٨٤، تاج العروس، الزبيدي، ٣٩/ ٤٧٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٩٢.
(٣) المفردات، ص٧٤٥.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ص٤٦٧.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤١٨، تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٢٠٥.
(٦) المفردات، الراغب، ص ٥٦٩ ، لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ١٣٥، تاج العروس، الزبيدي، ٣٣/ ١٠١.

الصلة بين الاجتماع والاعتصام:

الاعتصام: الاستمساك بالشيء، والمقصود: الاستمساك بحبل الله، وهو بهذا الاعتبار وسيلة للاجتماع، وطريق إليه؛ ولهذا يقال: الاستمساك بحبل الله سبب للاجتماع.

٣ الاختلاف:

الاختلاف لغةً:

ضد الاتفاق[١]، وهو منازعة تجري بين المتعارضين؛ لتحقيق حقٍ أو لإبطال باطل[٢].

الاختلاف اصطلاحًا:

عرفه الراغب بقوله: «والاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله»[٣].

الصلة بين الاجتماع والاختلاف:

الخلاف والاختلاف هو المضادة والمعارضة، وعدم المماثلة، وهو بهذا المعنى ضد الاجتماع، الذي جاء الحث عليه في نصوص القرآن الكريم.

٤ التفرق:

التفرق لغةً:

خلاف التجمع، تفرق القوم وتفارقوا، والاسم الفرقة[٤].

والتفريق: خلاف التجميع، يقال: فرق الشيء تفريقًا وتفرقة: بدَده، وهو متعدٍ، أما التفرق فلازم. والتفريق أبلغ من الفرق؛ لما فيه من معنى التكثير[٥].

التفرق اصطلاحًا:

لا يخرج معناه عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الاجتماع والتفرق:

التفرق خلاف التجمع، وهو ضد الاجتماع، الذي جاء الحث عليه في القرآن الكريم.

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٨٠٨.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص ١٠١.
(٣) المفردات، ص ٢٩٤.
(٤) انظر: المخصص، ابن سيده، ٣/ ٣٦٠.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٩١٨.

أسباب الاجتماع

أسباب الاجتماع التي يجتمع الناس عليها كثيرة، منها:

أولًا: الاجتماع لهدف واحد:

من أسباب الاجتماع أن يجتمع الناس على هدف واحد، ومن هذه الأهداف:

١. الاجتماع للعبادة.

حث الله تعالى على صلاة الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس عند مناجاة الله، وإيجاد الألفة بين المؤمنين؛ ولأنه عند اجتماعهم يتشاورون في دفع ما ينزل بهم من البأساء، أو يجلب لهم السراء[(١)].

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

ومما يدل على فضل الاجتماع على هذه العبادة، وهي الصلاة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:١٠٢].

قال ابن كثير: «فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا صليت بهم إمامًا في صلاة الخوف، وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة، كما دل عليه الحديث، فرادى ورجالًا وركبانًا، مستقبلي القبلة، وغير مستقبليها، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد، وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما ساغ ذلك»[(٢)].

والحاصل أن الله تعالى جعل للمسلمين مناسبات دينية يومية وأسبوعية وسنوية يجتمعون فيها، ومن هذه الاجتماعات الأسبوعية يوم الجمعة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة:٩].

فأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة، من حين ينادى لها، والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها، والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: اتركوا البيع إذا

(١) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٠٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٠٠.

نودي للصلاة، وامضوا إليها، فإن ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من آكد الفروض ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين فقد خسر الخسارة الحقيقية من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة[1].

وإنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، وفيه كمل جميع الخلائق[2]. أو لأنه جمع في هذا اليوم خلق آدم[3]. وقيل: لأن الله تعالى فرغ فيه من خلق الأشياء، فاجتمعت فيه المخلوقات، وقيل: لاجتماع الجماعات فيها[4]. وهذه الأقوال كلها صحيحة.

فالحاصل: أن يوم الجمعة يوم يجتمع المسلمون، وما سميت جمعة إلا لما فيها من الاجتماع، وقد اشترط العلماء العدد في صلاة الجمعة، واختلفوا في أقل عدد تنعقد به الجمعة، على أقوال كثيرة، بلغت ثلاثة عشر قولًا، ومحل بسطها كتب الفقه.

فصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة التي لا تصح إلا جماعة، وهي صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون، ويلتقوا، ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله، وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام في الإعداد للدنيا والآخرة في التنظيم الواحد، وفي العبادة الواحدة، وكلاهما عبادة، وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية...، وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل هذه الصلاة، والحث عليها، والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب[5].

وأمر الله المسلمين بالسعي إلى ذكر الله؛ لأن الغالب في الجُمع أن يكون فيها ذكر الله سبحانه وتعالى، وذكر جنته وناره، وفي قوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: من أجل الاجتماع والصلاة وذكر الله.

وفيه: تذكرة بأمر أعظم، وهو أنه سيأتي يوم عظيم يجتمع الناس فيه، وهو يوم المعاد، وهذا اليوم نعته الله جل وعلا بقوله: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤] فيترك الإنسان البيع في الدنيا، ويلجأ إلى الله في مثل هذا اليوم العظيم تذكرة لنفسه باليوم الذي يغدو الناس فيه بين يدي رب العالمين، والإنسان لا بد أن يكون له باعث من نفسه.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١١٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٤٣٤.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٨٤.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٥٦٩.

ومن صور الاجتماع: الاجتماع في الحج، ففي الحج يجتمع المسلمون من جميع أقطار العالم، في مكان واحد، وزمان واحد، وقد أمر الله قريشًا أن يفيضوا من حيث تفيض جماعة الناس حرصًا على الاجتماع، واقتداء بأبيهم إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة:١٩٩].

فالحج هو مؤتمر المسلمين الجامع الذي يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام، متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام، عرايا من كل شيء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة، ولا يميز فردًا عن فرد، ولا قبيلة عن قبيلة، ولا جنسًا عن جنس، إن عقدة الإسلام هي وحدها العقدة، ونسب الإسلام هو وحده النسب، وصبغة الإسلام هي وحدها الصبغة[1].

والمقصود: أن الاجتماع مقصد عظيم، يظهر فيه وحدة المسلمين، وجمع كلمتهم، ووحدة صفهم، وهذا المقصد العظيم يظهر جليًا في صلاة الجماعة التي تتكرر في اليوم خمس مرات في المساجد، فهي اجتماع مصغر، يلتقي فيه أصحاب الحي في اليوم خمس مرات في بيت من بيوت الله عز وجل، يؤدون فريضةً من فرائض الله، ثم يأتي اجتماع أكبر وهو يوم الجمعة، وهو اجتماع أسبوعي، ثم يأتي اجتماع في السنة مرتين وهو الاجتماع لصلاة العيدين (عيد الفطر وعيد الأضحى) ثم يأتي الحج، وهو الاجتماع السنوي للمسلمين، وهو واجب في العمر مرة، وفي هذا الاجتماع منافع كثيرة.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى كثيرًا من المنافع التي تترتب على الاجتماع في الحج، فمنها: تعرف المسلمين على بلاد بعضهم، وعلى أحوالهم، ويتعرف التاجر على مواطن التجارة في البلدان المختلفة، ويتعرف على ما يحتاج إليه المسلمون في كل مكان من بقاع الأرض، بالإضافة إلى أن هذا الاجتماع مظهرٌ من مظاهر وحدة المسلمين؛ لأنهم يظهرون بلباس واحد، ويجتمعون في مكان واحد، يدعون ربًا واحدًا، ويقومون بأعمال واحدة، ولا فرق بين غنيهم وفقيرهم، فهذا مظهر أيضًا من مظاهر اجتماعهم، ووحدة كلمتهم.

ومن الاجتماعات الموسمية، والمناسبات العبادية العظيمة: صوم رمضان، فهو عبادة موسمية من مواسم الخير، تكون في شهر رمضان، تقترب فيه القلوب إلى بارئها، وتفتح فيه أبواب الجنة، وانظر كيف جاء الأمر به بشكل جماعي، حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] أي: فُرِضَ

(١) انظر: المصدر السابق، ١/ ٢٠٠.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء والأمم، وأولهم آدم عليه السلام[1].

وفي هذه الآية: إشعار بوحدة الدين أصوله ومقصده، وتأكيد لأمر هذه الفرضية، وترغيب فيها.

والمقصود: أن الله سبحانه يعلم أن التكليف أمر تحتاج النفس البشرية فيه إلى عون، ودفع واستجاشة لتنهض به، وتستجيب له، مهما يكن فيه من حكمة ونفع، حتى تقتنع به، وتتعود عليه؛ ولهذا فإن كثيرًا من العبادات اتخذت طابع الجماعية.

ففي هذه الفريضة -الصوم- نجد أن التكليف بدأ بذلك النداء الحبيب إلى المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المذكر لهم بحقيقتهم الأصيلة، ثم يقرر لهم بعد ندائهم ذلك النداء أن الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله في كل دين، وأن الغاية الأولى هي إعداد قلوبهم للتقوى، والشفافية والحساسية، والخشية من الله[2].

٢. الاجتماع لقتال الكفار.

أمر الله تعالى بالاجتماع عند قتال الكفار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء:٧١] أي: مجتمعين جيشًا واحدًا.

ومعنى الآية: الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين؛ ليكون ذلك أشد على عدوهم، وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده، أو نحو ذلك.

وثُباتٍ: جماعات متفرقة، سرية بعد سرية، وفرقة بعد فرقة، إظهارًا للجرأة ﴿أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعًا﴾ مجتمعين، كركبة واحدة...، والغرض النهي عن التخاذل، وإلقاء النفس إلى التهلكة[3].

قال القاسمي: «﴿أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعًا﴾ إيقاعًا للمهابة بتكثير السواد، ومبالغة في التحرز عن الخطر، قال الحاكم: اتفق العلماء على أن ذلك موكول إلى اجتهاد الإمام»[4].

وقال الآلوسي: «قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين جماعة واحدة»[5].

ومما جاء في الاجتماع في القتال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف:٤] أي: صافين أنفسهم[6].

والصف: عدد من أشياء متجانبة منتظمة الأماكن، فيطلق على صف المصلين، وصف الملائكة، وصف الجيش في ميدان القتال، فالجيش إذا حضر القتال كان صفًا،

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٦٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ١/ ١٦٨ بتصرف.
(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٤٤٦.
(٤) محاسن التأويل ٣/ ٢٢١.
(٥) روح المعاني ٣/ ٧٨.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٧٥.

من رجالة أو فرسان، ثم يقع تقدم بعضهم إلى بعض فرادى أو زرافات، فالصف هنا: كناية عن الانتظام والمقاتلة عن تدبر، وأما حركات القتال فتعرض بحسب مصالح الحرب في اجتماع وتفرق، وكر وفر، وانتصب (صفًا) على الحال، بتأويل: صافين، أو مصفوفين[1].

ثم قال: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ لاصق بعضه ببعض، وقيل: أريد به استواء نياتهم في حرب عدوهم، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رص بعضه إلى بعض، وهو حال أيضًا[2].

وقد اختلف علماء التفسير في المراد بالبنيان المرصوص، فنقل بعضهم عن الفراء: أنه المتلاحم بالرصاص لشدة قوته، والجمهور: أنه المتلاصق المتراص المتساوي.

والواقع أن المراد بالتشبيه هنا هو وجه الشبه، ولا يصح أن يكون هنا هو شكل البناء، لا في تلاحمه بالرصاص، وعدم انفكاكه، ولا تساويه وتراصه؛ لأن ذلك يتنافى وطبيعة الكر والفر في أرض المعركة، ولكل وقعة نظامها حسب موقعها.

قال الشنقيطي: «والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن وجه الشبه المراد هنا: هو عموم القوة والوحدة»[3].

والحاصل: أن في الآية الحث على الجهاد في سبيل الله صفًا متراصًا متساويًا، من غير خلل يقع في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب، به تحصل المساواة بين المجاهدين، والتعاضد وإرهاب العدو، وتنشيط بعضهم بعضًا، والمرصوص: المتلاصق بعضه ببعض، والتشبيه في الثبات، وعدم الانفلات.

فليس هو مجرد القتال؛ ولكنه هو القتال في سبيله، والقتال في تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف، والقتال في ثبات وصمود ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

٣. الاجتماع على إبطال الحق.

لما جاء موسى عليه السلام إلى فرعون بالمعجزة، وكانت قلب العصا ثعبانًا، وإظهار اليد البيضاء، جمع فرعون السحرة، وحشروهم من المدائن، يعني من القرى، واختار الطاغية الكافر وجماعته تكذيب هذه المعجزة الخارقة، وادعى كون موسى ساحرًا، فتشاور مع كبار رجال دولته، فأشاروا بالمبارزة بين سحرة مصر المهرة وبين موسى.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٧٦.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٧٥.
(٣) أضواء البيان، ٨/ ١٠٦.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشعراء:٣٦-٣٩].

وتم جمع السحرة من أنحاء المملكة، قيل: كانوا سبعين رجلًا أو ثلاثة وسبعين، ودل قوله: ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان.

فقرر أن يكون مكان الاجتماع -للمناظرة والمغالبة في زعمه- مكانًا سوى، وأصح الأقوال في قوله: ﴿سُوًى﴾ على قراءة الكسر والضم: أنه مكان وسط، تستوي أطراف البلد فيه لتوسطها بينها، فلم يكن أقرب للشرق من الغرب، ولا للجنوب من الشمال، وهذا هو معنى قول المفسرين مكانًا سوى، أي: نصفًا وعدلًا؛ ليتمكن جميع الناس أن يحضروا[1].

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ﴾ أي: بأيسر أمر؛ لما له عندهم من العظمة ﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ واليوم المعلوم: يوم الزينة، وميقاته: وقت الضحى؛ لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى -صلوات الله عليه- من يوم الزينة في قوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه:٥٩][2].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: كافة؛ حثًا لهم على الإسراع إلى الاجتماع بأمر فرعون، وامتحانًا لهم هل رجعوا عن دينه ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي: اجتمعوا، وعبر بالاستفهام حثًا على الاجتماع.

كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق؟ إذا أراد أن يحركه، ويحثه على الانطلاق، كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ أي: في دينهم، إن غلبوا موسى[3].

وهدف هذا الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة، ولمن تكون الغلبة، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور، وطلبًا أن يكون بمجمع من الناس، حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده؛ لأنه يعلم أن حجة الله هي الغالبة، وحجة الكافرين هي الداحضة، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين، والانقهار للمبطلين[4].

ولعل معنى: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي: اجتماعًا أنتم راسخون فيه؛ لكونه بالقلوب كما هو بالأبدان، كلكم ليكون أهيب لكم[5].

والحاشرون: هم الذين يتولون جمع السحرة وحشدهم وحشرهم إلى ساحة فرعون، والتعبير بالحشر هنا يشير إلى أن الأمر عظيم، وأنه لا بد له من حشر الناس

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٨.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣١١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١٥.
(٥) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٣١.

إليه، ويبعثهم سراعًا من كل أفق، ليلقوا موسى، ويقفوا في وجه هذا الخطر الذي دهمهم به.

وحُشر السحرة على عجل، وأقبلوا من كل أفق، وغصت بهم ساحة فرعون، وما كانوا قد رأوا رأى العين ما كان من فعل موسى بعصاه ويده مع فرعون، وإن كانوا قد سمعوا به، وتصوروه على ما روي لهم، ومن هنا وقع في أنفسهم أنه ساحر مثلهم، وأنه إذا كان على شيء من القوة بالنسبة لهم، فإن في جمعهم هذا ما يتغلب على كل قوة.

ومن هنا أيضًا وقع في أنفسهم أنهم أصحاب الموقف المنتظر بينهم وبين موسى، فكانت لهم بذلك دالة على فرعون، وقد أطمعهم فيه ما وجدوه عليه من ذلة وانكسار، فجاءوا إليه يسألونه الأجر مقدمًا، ويسألونه الجزاء الذي لهم عنده، بعد أن يكون لهم الغلب! ولا يملك فرعون في هذا الموقف إلا أن يستجيب لهم، ويترضى مشاعرهم، حتى يبذلوا كل ما يملكون من حول وحيلة، إنهم الآن لا يعملون إلا بأجر، وقد كانوا من قبل هذا الموقف عبيدًا مسخرين! فليس الأجر وحده، ولا المال وحده هو الذي سيبذله لهم، إن هم انتصروا على موسى، وأبطلوا كيده، وأفسدوا تدبيره، ولكن لهم إلى هذا المال الوفير الذي سيغدقه عليهم أن يقربهم إليه، ويدنيهم منه، ويجعلهم أعوانه، وأصحاب الكلمة والرأي عنده، ولا يذكر القرآن هنا اجتماع السحرة بموسى، والاتفاق معه على موقع المعركة وزمانها؛ فذلك متروك لتقدير من يتلو هذه القصة، وتصوره لملء هذا الفراغ الذي لا يغيب عن فطنته[1].

والحاصل: أن هذا من لطف الله أن يري العباد بطلان ما موّه به فرعون الجاهل الضال المضل أن ما جاء به موسى سحر، قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن، من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد.

وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون إلا عتوًا وضلالًا وتماديًا في غيه وعنادًا، فقال للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الشعراء:٤٩] يتعجب ويعجب قومه من جراءتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرته ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [الشعراء:٤٩] هذا وهو

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٤٥٣.

الذي جمع السحرة، وملأه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى، ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهيلهم، ومع ذلك فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه، فلا يستنكر على أهل هذه العقول أن لا يؤمنوا بالحق الواضح، والآيات الباهرة؛ لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان إنه على خلاف حقيقته صدقوه[1].

ثانيًا: الاجتماع على قاسم مشترك:

ومن أسباب الاجتماع بين الناس وجود قاسم مشترك يجمع بينهم، ويؤلف بين قلوبهم، ومن هذه القواسم المشتركة:

١. الدين.

الدين من أعظم الأسباب الموحدة بين الناس، بل هو السبب الأول، وقد أمر الله عباده أن يتمسكوا به، ويجتمعوا عليه، وعلى هذا بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين، والألفة والجماعة، وترك الفرقة.

قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

أي: وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

فذكر في هذه الآية الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على هذا الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، وهي إقامة الدين، وعدم التفرق فيه.

وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعته من وجوه:

الأول: أن للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس، وتوافقت على واحد قوي التأثير.

الثاني: أنها إذا توافقت صار كل واحد منها معينًا للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود، أما إذا تخالفت تنازعت، وتجادلت فضعفت، فلا يحصل المقصود.

الثالث: أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم؛ لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج، والقتل والنهب؛ فلهذا السبب أمر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال:٤٦][2].

فالعقيدة أقوى الروابط التي تربط بين الناس، وبخاصة إذا سلمت وصحت وقويت في نفس صاحبها، ومنشأ ذلك أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩١.

(٢) انظر: مفاتح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٨.

صاحب العقيدة القوية يرى نفسه مفردًا بسبب هذه العقيدة عن الناس، وحيدًا بينهم، غريبًا فيهم، فهو في مسيس الحاجة إلى من تسكن إليه نفسه، ويأنس به قلبه، ويشتد به أزره، وليس في ذلك إلا رجل اعتقد مثل عقيدته، وآمن بمثل ما آمن به، هنالك تلتئم الروحان، ويتحد القلبان، وتسكن ثائرة النفس، ويستشعر كل منهما بالآخر روح الأنس، ويود أحدهما لو يفتدي الآخر بالدنيا وما فيها، وما قيمة الدنيا وما فيها إذا خلت من أنيس يرتاح إليه القلب، وتسكن معه النفس؟! هذا هو منشأ الوحدة والارتباط في نفوس أهل العقيدة الواحدة، والمبدأ المتفق.

وإنك لترى بين الناس روابط كثيرة من نسبية وعصبية؛ وصداقة ومعرفة، واشتراك في تجارة؛ أو مصلحة؛ أو غاية مما يرتبط بهذه الأغراض الزائلة، فترى كل الروابط سريعة الزوال، وشيكة الانحلال، على حين ترى أهل العقيدة الواحدة على قلب واحد، وشعور واحد[1].

والحاصل: أن من الأسباب التي تربط بين الناس الدين والعقيدة المشتركة؛ ولهذا عظم الله أمر الاجتماع عليه، وأتبع ذلك التعظيم بالنهي عن الافتراق فيه، فقال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: في الدين، تفرقًا عظيمًا؛ بما أشار إليه إثبات التاء، وكأن ذلك إشارة إلى التحذير من التفرق في الأصل.

فإن التفرق سبب الهلاك، والاجتماع سبب النجاة[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنها على شيء، وهذه الأمة اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين، في قديم الدهر وحديثه»[3].

وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «وهذه حالة ذميمة من أحوال أهل الشرك، يراد تحذير المسلمين من الوقوع في مثلها؛ فإذا اختلفوا في أمور الدين الاختلاف الذي يقتضيه الاجتهاد، واختلفوا في الآراء والسياسات لاختلاف العوائد؛ فليحذروا أن يجرهم ذلك الاختلاف إلى أن يكونوا شيعًا متعادين متفرقين، يلعن بعضهم بعضًا، ويذيق بعضهم بأس بعض»[4].

والمقصود: أن الله تعالى أوجب علينا إقامة الدين، بالتمسك بكتابه وسنة نبيه،

(١) انظر: نظرات في كتاب الله ص ٤٥٠ بتصرف.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٧/ ٢٦٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣١٧.

(٤) التحرير والتنوير ٢١/ ٩٦.

والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادًا وعملًا؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة، وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف.

ومع أهمية الاجتماع يبقى أن الاجتماع المأمور به إنما هو بالقلوب الجاعلة لهم كالجسد الواحد، ولا يضر فيه صرف بعض الأوقات إلى المعاش، وتنعيم البدن ببعض المباحات.

ويبين الشافعي رحمه الله أن اجتماع الأبدان ليس بمعتبر ولا مقصود، بل المقصود والمعتبر الاجتماع على طاعة الله ورسوله، والاجتماع على الحق، فيقول بعد أن بين أن الأمر بلزوم جماعة المسلمين ليس له إلا معنى واحد؛ ذلك أنه: إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان قوم متفرقين، وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين؛ ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئًا، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى إلا ما عليهم جماعتهم من التحليل والتحريم، والطاعة فيهما، ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها[1].

(١) الرسالة، ١/ ٤٧٦.

ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:٢١٣].

فأخبر الله عز وجل في هذه الآية أن الناس كانوا أمة واحدة، أمة مجتمعة على ملة واحدة، ودين واحد، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[2].

وقيل: إن وقت كون الناس أمة واحدة على دين التوحيد يوم استخرج ذرية آدم من صلبه، فعرضهم على آدم، يقول أبي بن كعب رضي الله عنه: «كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم، ففطرهم يومئذٍ على الإسلام، وأقروا له بالعبودية، وكانوا أمة واحدة مسلمين كلهم، ثم اختلفوا من بعد

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٦.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٩.

آدم[1].

فالله سبحانه إنما بعث الرسل، وأنزل الكتب عند الاختلاف، فالأصل في البشرية هو الاجتماع على التوحيد الخالص لله عز وجل، والأصل أن الناس كانوا مجتمعين على الدين الواحد، دين التوحيد، وأنه ما إن دب الشرك في الأمة إلا وقارنته الفرقة، فاستلزم بعثة الأنبياء والرسل رحمة من الله تعالى بالناس، وإعذارًا لهم، فهو سبحانه كما في الحديث: (لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين)[2].

٢. الإيمان.

ومن القواسم المشتركة التي تجمع بين الناس: الإيمان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات:١٠].

يعني: كالإخوة في التعاون؛ لأنهم على دين واحد[3].

وفي الآية بيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب، والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها، ولم يتقاصر عن غايتها، ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته، ويركبوا الصعب والذلول مشيًا بالصلح، وبثًا للسفراء بينهما، إلى أن يصادف ما وهى من الوفاق من يرقعه، وما استشن[4] من الوصال من يبله، فالأخوة في الدين أحق بذلك، وبأشد منه[5].

و(إنما) للحصر، أي: لا أخوة إلا بين المؤمنين، وأما بين المؤمن والكافر فلا؛ لأن الإسلام هو الجامع؛ ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين، ولا يكون لأخيه الكافر[6].

قال الزجاج: «أَعْلَمَ الله عز وجل أن الذين يجمعهم وأنهم إخوة إذا كانوا متفقين في دينهم، فرجعوا في الاتفاق في الدين إلى أصل النسب، لأنهم لآدم وحواء، ولو اختلفت أديانهم لافترقوا في النسب، وإن كان في الأصل أنهم لأب وأم»[7].

فالصلة التي ينبغي أن تقوم بين المؤمنين هي صلة أخوة ومودة، دون نظر إلى لون أو جنس أو وطن، فقد جمعهم الإسلام في نسب يعلو على نسب الدم والجنس

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا شخص أغير من الله، ٩/ ١٢٣، رقم ٧٤١٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٣٢٧.
(٤) قوله: «استشن» في الصحاح: تشنن الجلد يبس، واستشن الرجل: هزل.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٦٦.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٧.
(٧) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٦.

والوطن، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وإنه لمن قلب الأوضاع أن ينعزل المؤمن بشعوره هذا من المودة والأخوة عن إخوانه المؤمنين، وينحاز إلى الكفار، يعطيهم ولاءه ومودته وأخوته، والإسلام الذي يدعو إلى الحب والسلام إذ يدعو أتباعه إلى التراحم والتواد والتآخي فيما بينهم، لا يجعل ذلك على حساب الصلات الأخوية التي ينبغي أن تكون بين المسلم وبين سائر الناس[1].

يقول القاسمي: «وتسمية المشاركة في الإيمان أخوة تشبيه بليغ، أو استعارة شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد؛ لأن كلًا منهما أصل للبقاء؛ إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان»[2].

والحاصل: أن المؤمنين بسبب إيمانهم إخوة، أي: في التوالي والتعاضد والتراحم؛ ولهذا فالمؤمنون قلوبهم على قلب رجل واحد فيما يعتقدونه من الإيمان، وأما المنافقون فقلوبهم مختلفة، كما قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر:١٤] فإذا كان المؤمنون إخوة أمروا فيما بينهم بما يوجب تآلف القلوب واجتماعها، ونهوا عما يوجب تنافر القلوب واختلافها، وهو إصلاح ذات البين.

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٤٢٩.

(٢) محاسن التأويل، ٨/ ٥٢٩.

حتى الملائكة يجمعهم بالمؤمنين الإيمان؛ ولهذا يستغفرون للذين آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧] وفي هذا تنبيهٌ على أن المشاركة في الإيمان يوجب النصح والشفقة وأن تخالف الأجناس؛ لأنها أقوى المناسبات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وهذه الأخوة الدينية مما يحسدنا عليها جميع أهل الملل، فهي لا تزال أقوى فينا منها فيهم ترافدًا وتعاونًا، وعاصمة لنا من فوضى الشيوعية، وأثرة المادية وغيرها، على ما منيت به شعوبنا من الضعف، واختلال النظام، واختلاف الجنسيات والأحكام[3].

ومما يترتب على هذه الأخوة: أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف؛ وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة، وهو إجراء صارم وحازم كذلك[4].

ومما يبين هذه الصلة الإيمانية: قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١].

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٧٢ بتصرف.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤٣.

إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة، طبيعة الوحدة، وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير، ودفع الشر.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وتحقيق الخير، ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون، ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفًا واحدًا، لا تدخل بينها عوامل الفرقة، وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولا بد عنصر غريب عن طبيعتها وعن عقيدتها، هو الذي يدخل بالفرقة، ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها، السمة التي يقررها العليم الخبير ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض[1].

وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة، إن الجاهليات تجعل الرابطة آنًا هي الدم والنسب، وآنًا هي الأرض والوطن، وآنًا هي القوم والعشيرة، وآنًا هي اللون واللغة، وآنًا هي الجنس والعنصر، وآنًا هي الحرفة والطبقة! تجعلها آنًا هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشترك، وكلها تصورات جاهلية -على تفرقها أو تجمعها- تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي! والمنهج الرباني القويم -ممثلًا في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، وفي توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه، قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير، والمعلم الواضح البارز في مفرق الطريق[2].

٣. الهدى.

ومن القواسم المشتركة التي يجتمع الناس عليها: الهدى.

قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف:٣٠].

وقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل:٣٦].

فهؤلاء صنفان وجمعان، فالأولون اجتمعوا على الهدى، والآخرون اجتمعوا على الضلالة، وشتان بين الجمعين والفريقين.

والفريق يصدق بالجماعة الكثيرة[3].

وهذا كله إنذار من الوقوع في الضلالة، وتحذير من اتباع الشيطان، وتحريض على توخي الاهتداء الذي هو من الله تعالى، كما

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٥ بتصرف.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ١٨٣.

دل عليه إسناده إلى ضمير الجلالة في قوله: ﴿هَدَى ٱللَّهُ﴾.

فيعلم السامعون أنهم إذا رجعوا إليه فريقين، كان الفريق المفلح هو الفريق الذين هداهم الله تعالى، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

وأن الفريق الخاسر هم الذين حقت عليه الضلالة، واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩][1].

إنها لقطة واحدة عجيبة، تجمع نقطة البدء في الرحلة الكبرى، ونقطة النهاية، نقطة الانطلاق في البدء، ونقطة المآب في الانتهاء...، وقد بدأوا الرحلة فريقين: آدم وزوجه، والشيطان وقبيله، وكذلك سيعودون، الطائعون سيعودون فريقًا مع أبيهم آدم، وأمهم حواء، المسلمين المؤمنين بالله، المتبعين لأمر الله، والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله، يملأ الله منهم جهنم، بولائهم لإبليس، وولايته لهم، وهم يحسبون أنهم مهتدون.

لقد هدى الله من جعل ولايته لله، وأضل من جعل ولايته للشيطان، وها هم أولاء عائدين فريقين: ﴿فَرِيقٗا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥].

وهذا فيه إشارة إلى أن الهدى من الأمور التي تجمع بين الناس.

فقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿لَجَمَعَهُمۡ﴾ جميعًا ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ وَالْهُدَى هنا بمعناه الخاصِ؛ لأن الْهُدَى يُطْلَقُ في القرآنِ إطلاقين: يطلق إطلاقًا عامًا، ويطلقُ إطلاقًا خاصًا، أما الهدى بمعناه العام: فهو إبانةُ الطريقِ وإيضاحُها وتوضيحُ الخيرِ من الشَرِ، ومنه بهذا المعنى في القرآنِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ [فصلت:١٧] أي: أَوْضَحْنَا لهم طريقَ الخيرِ وَالشَرِ بَيِنَةً على لسانِ نَبِيِنَا صالحٍ، وليس هذا الْهُدَى (هُدَى تَوْفِيقٍ) وإنما هو (هُدَى بَيَانٍ) فَقَطْ، بدليلِ قولِه: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] وأما الْهُدَى بمعناه الخاصِ فهو: التوفيقُ إلى ما يُرْضِي اللَهَ.

والحاصل: أن من العوامل المشتركة بين الخلق الاجتماع على الهدى، كاجتماع الملائكة، والأنبياء وأتباعهم.

وسلب الاجتماع على الهدى لا ينافي اتباع البعض لهذا الهدى، فالاجتماع على الهدى مطلوب شرعًا، وحاصل واقعًا، إلا أن تحقق ذلك بيد الله الهادي سبحانه ﴿وَلَوۡ

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٩٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٢٨١.

﴿شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥]

أي: ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه، إما بأن يجعل الإيمان ضروريًا لهم كالملائكة، وإما بأن يخلقهم على استعداد واحد للحق والخير، لا متفاوتي الاستعداد، مختلفي الاختيار باختلاف العلوم والأفكار والأخلاق والعادات؛ ولكنه شاء أن يجعلهم على ما هم عليه من الاختلاف والتفاوت، وما يترتب على ذلك من أسباب الاختيار[1].

وقيل: لو شاء الله لجمعهم عليه بأن يأتيَهم بآيةٍ ملجئةٍ إليه، ولكن لم يفعلْه لخروجه عن الحِكْمة[2].

٤. الكفر.

ومن القواسم المشتركة: الكفر، وقد أخبر الله تعالى أن الكفار بعضهم من بعض، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [المائدة:٥١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال:٧٣].

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أي: في النصرة والتعاون على قتال المسلمين، فهم في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين، وإن كانوا مللًا كثيرة، يعادي بعضها بعضًا؛ إلا أن بعضهم أعوان بعض وأنصاره، وأحق به من المؤمنين بالله ورسوله، وإنما جعل بعضهم من بعض؛ لأن دينهم واحدٌ، وطريقتهم واحدة.

قال ابن جرير: «قوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ عنى بذلك: أن بعض اليهود أنصار بعضهم على المؤمنين، ويد واحدة على جميعهم، وأن النصارى كذلك بعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم وملتهم، معرِفًا بذلك عباده المؤمنين أن من كان لهم أو لبعضهم وليًا فإنما هو وليُّهم على من خالف ملتهم ودينهم من المؤمنين، كما اليهود والنصارى لهم حَزْب، فقال تعالى ذكره للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضًا بعضكم أولياء بعض، ولليهودي والنصراني حربًا؛ كما هم لكم حرب، وبعضهم لبعض أولياء؛ لأن من والاهم فقد أظهر لأهل الإيمان الحربَ، ومنهم البراءة، وأبان قطع وَلايتهم»[3].

ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ هو تقرير لحكم واقع بين الكافرين، وهو أنهم على ولاء فيما بينهم، وأنهم حزب واحد، مجتمع على عداوة المؤمنين، ناصب لحربهم، راصد للفرصة الممكنة له منهم، وليس في هذا

(١) تفسير المراغي ٧/ ١١٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٢٩.
(٣) جامع البيان، ١٠/ ٣٩٩.

الذي يقرره القرآن الكريم دعوة لجماعات الكافرين أن يكونوا على هذا الولاء الذي بينهم، وإنما هو تقرير لأمر واقع، يرى منه المؤمنون كيف يجتمع أهل الضلال على الضلال؟! وكيف يقوم بينهم الولاء والتناصر؟! فأولى للمؤمنين ثم أولى لهم أن يجتمعوا على الإيمان، وأن يتناصروا على الحق والخير[1].

فالكفار -كما نعلم- وكما تحدثنا الآية الكريمة بعضهم أولياء بعض، فإن لم يتجمع المؤمنون ليترابطوا، ويكونوا على قلب رجل واحد، فالكفار يتجمعون بطبيعة كفرهم ومعاداتهم للإسلام، وإن لم يتجمع المسلمون بالترابط، نجد قول الحق تحذيرًا لهم من هذا ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ [التوبة:٦٧].

فالمنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، المنافقون في كل زمان، وفي كل مكان، تختلف أفعالهم وأقوالهم؛ ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية، ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة، تلك سماتهم الأصيلة، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس، وهم حين يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دسًا وهمسًا وغمزًا ولمزًا[2].

فقوله: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ يعني: في الاجتماع على الضلال، كما قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١] أي: في الاجتماع على الهدى[3].

قال البغوي: «قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي: هم على دين واحد، وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق»[4].

فالمنافقون والمنافقات وصفهم الله بقوله: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي: أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبني على التقليد والاتباع، فهم يقلدون بعضهم بعضًا، وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر فكلهم شر، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير، أو يحاول رَدَهم عن النفاق، بل هم يمضون في تيار الشر إلى آخر مدى.

ولما كان مرضهم واحدًا، وهو الكفر الباطني كان سلوكهم متشابهًا، قال الإيجي في تفسير هذه الآية: أي: هم على دين وطريق واحد، وبعضهم مشابه ومقارب من

(١) التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٦٨٦.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٣.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٣.

(٤) معالم التنزيل، ٤/ ٧١.

بعض، كأبعاض الشيء الواحد[1].

والحاصل: أن المنافقين يربط بينهم عامل مشترك، وهو أن بعضهم يشبه بعضًا في الشك والنفاق والارتياب، ولكن لا صلة بينهم ولا تآلف؛ إذ الولاية والصلة والأخوة هي من صفات المؤمنين أصحاب العقائد الراسخة.

فإن قيل: لمَ قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ وقال في وصف المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ما الحكمة في ذلك؟

أجيب: بأنه لما كان نفاق الأتباع حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر لسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة، قال فيهم: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة، وهوى النفس، وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض، فظهر الفرق بين الفريقين، وظهرت الحكمة[2].

والمقصود: أن الكفر صفة مشتركة قد جمعت بين الكافرين، كما أن الشك والنفاق والارتياب صفة مشتركة قد جمعت بين المنافقين، كما أن المؤمنين بعضهم من بعض، أي: بعضهم أولياء بعض في الاجتماع على الهدى.

(١) جامع البيان، الإيجي ٢/ ٨٠.
(٢) السراج المنير، الشربيني ١/ ٦٣١.

٥. العاقبة.

ومما يجمع الناس العاقبة المشتركة، سواء كانت خيرًا أو شرًا، وقد أخبر الله تعالى أن المجرمين تجمعهم عاقبة واحدة، وهي أنهم جميعًا في العذاب، التابع والمتبوع.

قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف:٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الصافات:٣٣].

فذكر العذاب الذي سيحل بهم جميعًا رؤساء ومرؤوسين، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: إن الفريقين المتسائلين حينئذٍ مشتركون في العذاب لا محالة، كما اشتركوا في الضلال والغواية.

فَحُقَّ لهؤلاء أن يجتمعوا ويشتركوا هم وقرناؤهم في العذاب، كما كانوا مشتركين ومجتمعين في سببه، وهو الكفر والمعاصي، فقد اجتمعوا واشتركوا؛ ولكنه بئس الاجتماع والاشتراك.

ولا يخفف هذا الاجتماع والاشتراك عنهم شيئًا من العذاب؛ لأن لكل واحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر من العذاب[3].

فكأن الله تعالى منعهم التأسي بما يُسَهِل

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٧٣ بتصرف.

على الإنسان المصيبة والعقوبة، فإنه إذا كان في مصيبة فرأى غيره في مثلها سهل عليه، كما قالت الخنساء في أخيها صخر[1]:

وَلَوْلا كَثْرة البَاكِين حَوْلي
على إِخْوانِهم لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُون مثلَ أخِي ولكِنْ
أُسلِي النَفْس عَنهُ بالتَأسِي

ففي هذا حرمان التأسي، وهي نعمة يسلبها الله أهل النار؛ ليكون أشد لعذابهم، فإن التأسي قد يخفف كثيرًا عن المتأسي من حزنه[2].

وقد بين الله تعالى أن حصول الشركة في هذا العذاب لا يفيد التخفيف، كما كان يفيده في الدنيا، والسبب فيه وجوه:

الأول: أن ذلك العذاب شديد، فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر، فلا جرم أن الشركة لا تفيد الخفة.

الثاني: أن قومًا إذا اشتركوا في العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه، فيحصل بسببه بعض التخفيف، وهذا المعنى متعذر في القيامة.

الثالث: أن جلوس الإنسان مع قرينه يفيده أنواعًا كثيرة من السلوة، فبين تعالى أن الشيطان وإن كان قرينًا إلا أن مجالسته في القيامة لا توجب السلوة، وخفة العقوبة[3].

بل إن الإنسان إذا قرن في العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشد في ألمه وحسرته؛ ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم التي أضلتهم.

قال معمر عن سعيد الجريري: بلغنا أن الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبر شفع بشيطانه فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار، فذاك حين يقول: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨].

وقد أخبر الله تعالى عن حنق الكفار على من أضلهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت:٢٩].

فإذا قرن أحدهم بمن أضله في العذاب كان أشد لعذابه، فإن المكان المتسع يضيق على المتباغضين باقترانهما في المكان الضيق، وأخبر الله تعالى عن اختصام الكفار مع من كان معهم من الشياطين، ومن عبدوه من دون الله تعالى[4].

ومع اشتراكهم في العذاب إلا أن للمتبوعين عذابًا زائدًا للإغواء، ولكن الزيادة لا تنافي الاشتراك في أصل الشيء كما دلت عليه أدلة أخرى؛ لأن المقصود هنا بيان عدم إجداء معذرة كلا الفريقين وتنصله.

قال السعدي: «ولكنه من المعلوم أن

(١) البيتان في ديوانها ص ٧٢.
(٢) غرائب التفسير، النيسابوري ٢/ ١٠٦٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٣٣.
(٤) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٩٩.

عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨].

فهذه الآيات ونحوها دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله مخلدون في العذاب، مشتركون فيه، وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة»[1].

والمقصود: أن المجرمين اجتمعوا على هذه العاقبة السيئة، وهي الاشتراك في العذاب، كما اشتركوا في سببه في الدنيا، ولكن لن ينفعهم اشتراكهم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكُهم فيها؛ لتعاونِهم في تحملِ أعبائِها، وتقسمِهم لعنائِها؛ لأنَ لكل منهم ما لا تبلغُه طاقتُه كما قيلَ؛ لأنَ الانتفاعَ بذلكَ الوجهِ ليسَ مما يخطرُ ببالِهم.

بل إن في هذا الاجتماع تعذيب وحسرة، فمن قذفه عصيانه لله ولرسوله في النار، فإن له من العذاب ما يمنعه عن الأنس بغيره، فهو وحيد لا يجد لذة في الاجتماع بغيره ولا أنسًا، فلما كان لا يتمتع بمنفعة من منافع الاجتماع كان كأنه وحيد.

فالعذاب إذن كامل، لا تخففه الشركة، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون! ولهذا تقع الملاحاة بين الأتباع والمتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من الأتباع، وتتقطع بينهم أسباب التقارب والتواصل، ويترامون بالعداوة والبغضاء! والأتباع والمتبوعون هنا: هم جميعًا من أهل الضلال، أما الأتباع فهم العامة، وأما المتبوعون فهم العلماء وأصحاب القيادة الدينية فيهم؛ إذ هم الذين زينوا للعامة هذا الضلال، وهم الذين حرفوا لهم الكلم عن مواضعه، فأهلكوهم وهلكوا معهم جميعًا.

فالمشهد هنا بين الأتباع والمتبوعين قائم على شفير جهنم التي يساق إليها الأتباع والمتبوعون معًا؛ ولما كان هؤلاء المتبوعون هم الذين زينوا لأتباعهم هذا الضلال الذي أوردهم موارد الهلاك، فقد وقع في أنفسهم حين رأوا العذاب الذي ينتظرهم أن أتباعهم سوف يتعلقون بهم، ويسوقونهم للقصاص منهم، بتهمة التحريض والغواية لهم، عندئذٍ بادر هؤلاء المتبرعون، وتبرؤوا من أتباعهم، ونفضوا أيديهم من كل صلة بهم!

وحين يجد الأتباع أنهم وقادتهم حصب جهنم، كما يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يتضاعف حزنهم، وتشتد

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٨.

حسرتهم، ويقطع اليأس نياط قلوبهم، حين لم ينالوا منالًا من هؤلاء الذين غرروا بهم، وأوردوهم هذا المورد الوبيل!

وإذ ذاك تنطلق ألسنتهم بكلمات تتميز غيظًا ويأسًا: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧].

فهم إنما يتمنون -في يأس مغلق- أن يردوا هم ورؤساؤهم إلى هذه الدنيا ليراجعوا حسابهم معهم، على ضوء ما تكشف لهم في هذا الموقف؛ وليصموا آذانهم عن كل دعوة باطلة يدعونهم إليها، أما تبرؤهم منهم في الآخرة فإنه لا يجدى نفعًا، فقد دعوا إلى الضلال وأجابوا.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الخطاب هنا للفريقين، التابعين والمتبوعين، إنه لن ينفعهم اشتراكهم جميعًا في العذاب، ولن يشفى ما بصدور الضالين من نقمة وحنق على من كانوا سببًا في إغوائهم وإضلالهم، أن يلقى هؤلاء المغوون ما يلقون من عذاب وبلاء[1].

٦. التناسب.

ومن العوامل المشتركة التي تجمع بين الناس: الاشتراك في صفة واحدة أو أكثر، سواء أكانت حسنة أم سيئة.

قال تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣].

يعني: الغالب أن المائل إلى الزنا والتقحب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في نكاح فاسقة من شكله، أو مشركة، والمسافحة لا يرغب في نكاحها الصلحاء، وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها فاسق مثلها، أو مشرك، فإن المشاكلة سبب الائتلاف والاجتماع، كما أن المخالفة سبب الوحشة والافتراق.

وقدم الزاني في هذه الآية لأن الرجل أصل في النكاح من حيث أنه هو الطالب، ومنه تبدأ الخطبة؛ ولأن الآية نزلت في فقراء المهاجرين الذين رغبوا في نكاح موسرات كانت بالمدينة من بقايا المشركين لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية، فاستأذنوا رسول الله في ذلك فنفر عنه ببيان أنه من أفعال الزناة، وخصائص المشركين، كأنه قيل: الزاني لا يرغب إلا في نكاح إحداهما، والزانية لا يرغب في نكاحها إلا أحدهما، فلا تحوموا حوله، كيلا تنتظموا في سلكهما، أو تتسموا بسمتهما[2].

فالآية تفيد نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية، ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني، واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٣/ ١٣٣ بتصرف..

(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ١١٦.

الدال على شدة الاستبعاد: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبذلك تقطع الوشائج التي تربط هذا الصنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة[1].

والحاصل: أن الزاني لا يطأ إلا زانية، أي: لا يتهيأ له الحصول على من يشاركه هذا الإثم إلا امرأة فاسدة فاسقة مثله، فهو فاسد فاسق، لا يستجيب له إلا فاسدة فاسقة، أو مشركة لا تؤمن بالله، ولا تخشى حسابًا أو جزاء، فهي لهذا مستخفة بكل معنى من معاني الخلق والفضيلة؛ إذ لا ترجو بعثًا، ولا تطمع في ثواب، ولا تخشى من عقاب، وكذلك الشأن في الزانية، إنها لا تدعو إليها إلا فاسدًا فاسقًا، يستجيب لها، ويواقع المنكر معها، أو مشركًا لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، وفي هذا تغليظ لهذا الجرم، واستخفاف بأهله، وأنهم أهل سوء، يجتمع بعضهم إلى بعض، فليس فيهما صالح وفاسد، وإنما هما كائنان فاسدان، ينجذب بعضهما إلى بعض، كما ينجذب الذباب إلى القذر والعفن.

فالآية الكريمة تحكي بأسلوب بديع ما تقتضيه طبيعة الناس في التآلف والتزاوج، وتبين أن المشاكلة في الطباع علة للتلاقي، وأن التنافر في الطباع علة للاختلاف.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[2][3].

ومن الأدلة على أن من أسباب الاجتماع التناسب والتجانس في بعض الصفات: قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦].

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ أي: إن الخبيثات لا يرغب فيهن إلا الخبيثون، والآية مبنية على الآية السابقة: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ لأن الخبيثات والخبيثين هم الزواني ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ وهم العفائف؛ فلا يجوز أن يتزوج عفيف إلا عفيفة مثله، ولا أن تتزوج عفيفة إلا عفيفًا مثلها، وهذه هي سنة النفوس الفاضلة، والخلق الكامل، هذا ولم تخرج أوامره تعالى وإرشاداته لخلقه عن أسمى الأخلاق التي تصبو إليها الإنسانية، وتنتظم بها الأسر، فلا يختلط الخبيث بالطيب، ولا يدنس العفيف نفسه بمخالطة البغي، ولا تنزل العفيفة إلى درك الزاني الفاجر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الطيبون والطيبات

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣٦، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة ٤/ ٢٠٣١، رقم ٢٦٣٨.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٨٠.

﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: مما يقوله فيهم الخبيثون والخبيثات، الوالغون في الأعراض، الطاعنون في الكرامات[1].

وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال:٣٧] أي: ويجعل الله الخبيث بعضه منضمًا متراكبًا على بعض، بحسب سنته تعالى في اجتماع المتشاكلات، واختلاف المتناكرات[2].

فقوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: الفريق الكافر ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: من الفريق المؤمن ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: يجمعه متراكمًا بعضه على بعض[3].

فيجمع الله الخبيث على الخبيث فيلقي به في جهنم، وتلك غاية الخسران، والتعبير القرآني يجسم الخبيث حتى لكأنه جِرم ذو حجم، وكأنما هو كومة من الأقذار، يقذف بها في النار، دون اهتمام ولا اعتبار ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ وهذا التجسيم يمنح المدلول وقعًا أعمق في الحس، وتلك طريقة القرآن الكريم في التعبير والتأثير[4].

فيجمع الله بين من كانوا يجتمعون في هذه الدنيا على الباطل، ويستحبون الاجتماع معهم أن يجمعوا في عذاب الآخرة، على ما كانوا يستحبون الاجتماع في الملاهي والطرب في هذه الدنيا ويجتمعون على ذلك؛ فيجمع بين أولئك وبين قرنائهم في جهنم، ويقرن بعضهم إلى بعض في العذاب، كما قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: من مات منهم على الكفر ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦] أي: يجمعون، وعلة هذا الجمع أن يميز الله تعالى الخبيث من الطيب، فالطيبون وهم المؤمنون الصالحون يعبرون الصراط إلى الجنة دار النعيم، وأما الخبيث وهم فريق المشركين فيجعل بعضه إلى بعض فيركمه جميعًا كومًا واحدًا، فيجعله في جهنم.

(١) انظر: أوضح التفاسير ١/ ٤٢٦ بتصرف.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ٢٠٦.
(٣) السراج المنير، الشربيني ١/ ٥٦٩.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٠٧.

أنواع الاجتماع

ليس كل اجتماع محمودًا شرعًا، ولا كل فُرقة منهي عنها شرعًا، فهناك اجتماع محمود، واجتماع مذموم، وهناك فُرقة محمودة، وفرقة مذمومة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الاجتماع بالإخوان قسمان، أحدهما: على مؤانسة الطبع، وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب، ويضيع الوقت، الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة، والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها»[1].

وقد ذكر العلماء أن الاجتماع على ضربين: اجتماع أجسام، واجتماع معانٍ، وهي الأخلاق والأهواء، وجعل افتراق الأهواء كافتراق الأجسام[2]، وهذه تنقسم إلى ما هو محمود، وما هو مذموم.

وقد سميت سورة من القرآن باسم سورة (الزُمر)، أي: الجماعات، وفيها ذُكر الاجتماع بنوعيه المحمود والمذموم، وفيها عرض لحال من اجتمعوا في الدنيا على الخير زُمرًا، وحال من اجتمعوا في الدنيا على الشر زُمرًا، وحال الفريقين حين يردون الآخرة.

(١) الفوائد، ص ٥٢.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٢٣٧.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١].

وقال في الفريق الآخر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر:٧٣].

و﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعات، والواحد: زمرة، ويقال: تزمر القوم إذا اجتمعوا، وزمرتهم، أي: جمعتهم، وأصله: أن يساق كل فريق على ما أحبوا، وكانوا في الدنيا جماعة جماعة، وأمة أمة، وعلى ما يجتمعون في هذه الدنيا، أهل الخير على أهل الخير، وأهل الشر على أهل الشر، وسروا بالاجتماع في ذلك، لكن أهل الخير يساقون إلى الجنة على ما كانوا يجتمعون في هذه الدنيا مسرورين، وأهل الكفر يساقون إلى النار على ما كانوا يجتمعون في هذه الدنيا على الشر حزنين مغتمين[3].

قال ابن القيم رحمه الله: وتأمل ما في سَوْقِ الفريقين إلى الدارين ﴿زُمَرًا﴾ من فرحة هؤلاء بإخوانهم، وسيرهم معهم كل (زمرة) على حدة، كلُ مشتركين في عمل، متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين، أقوياء القلوب، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك

(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٧١٠.

يؤنس بعضهم بعضًا، ويفرح بعضهم ببعض، وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ يلعن بعضهم بعضًا، ويتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدًا واحدًا، فلا تهمل تدبر قوله: ﴿زُمَرًا﴾[1].

أولًا: الاجتماع المحمود:

الاجتماع المحمود هو الذي يكون على الحق، والتعاون عليه ونصرته، والاجتماع على الأعمال الصالحة، ويمكن القول: إن الاجتماع المحمود هو كل ما تتحقق به المصالح والواجبات الشرعية، وتندفع به المضار والمفاسد، وقد أمر الله تعالى في القرآن بالاجتماع والائتلاف والاتفاق، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:١٠٣] يريد بذلك: تمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله.

والحبل لفظ مشترك، وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو إما تمثيل أو استعارة، أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام، أو بالقرآن، والمعاني كلها متقاربة متداخلة، وذكر ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن حبل الله هو: الجماعة، وذكر بأسانيده أقوالًا أخرى عن السلف في تفسير معنى (حبل الله) منها: القرآن، والإخلاص لله وحده، والإسلام[2]، وهذه الأقوال مؤداها واحد، ونتيجتها واحدة، فإن الاعتصام بالقرآن، والإخلاص لله وحده، والتمسك بالإسلام الصحيح الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها مما ينتج عنه تآلف المسلمين، واجتماعهم، وترابطهم، وتماسك مجتمعهم.

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «فإن الله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفرقة، فإن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة»[3].

وزاد الله الأمر تأكيدًا حيث قال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي: بعد الاجتماع، فالافتراق نقيض الاجتماع، قال الراغب الأصفهاني: قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ حث على الألفة والاجتماع الذي هو نظام الإيمان، واستقامة أمور العالم[4].

ثم أمرهم بتذكر نعمته عليهم، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣].

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٥٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٧٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٥٩.

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٧٦٨.

قال الزمخشري: «كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام، وقذف فيها المحبة، فتحابوا، وتوافقوا، وصاروا إخوانًا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد، قد نظم بينهم، وأزال الاختلاف، وهو الأخوة في الله»[1].

وقال السيوطي: «إذ كنتم تذابحون فيها، يأكل شديدكم ضعيفكم، حتى جاء الله بالإسلام، فآخى به بينكم، وألف به بينكم، أما والله الذي لا إله إلا هو إن الألفة لرحمة، وإن الفرقة لعذاب»[2].

وهذا يدل على أن الاعتصام والاجتماع أصل عظيم في الإسلام.

يقول شيخ الإسلام: «وهذا الأصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا، وأن لا يتفرق هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة»[3].

وفي قوله: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ دليل على أن الاجتماع المطلوب والمرغوب، والثابت والدائم، هو الاجتماع على الدين، فدين الله دين الاجتماع والخير، فإذا خرج الناس عن هذا الدين إلى الآراء الهدامة، والأفكار المنحرفة تفرقوا شيعًا وأحزابًا، وصار بعضهم عدوًا لبعض، يكفر بعضهم بعضًا، ويفسق بعضهم بعضًا، ويبدع بعضهم بعضًا.

فالمذاهب الهدامة، والآراء الضالة، والأفكار المنحرفة كلها تدعو إلى الفرقة والاختلاف، فتحول الأمة إلى كيانات متناحرة، يعادي بعضهم بعضًا، كما وصف الله اليهود، حيث قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤].

لكن المؤمنين خلاف ذلك تمامًا، فهم أهل مودة وتناصح ومحبة في الظاهر والباطن، يحب بعضهم بعضًا، ويوالي بعضهم بعضًا.

ونهى الله تعالى عن ضد الاجتماع، وهو الاختلاف والتفرق شيعًا وأحزابًا، المؤدي إلى العداوة والبغضاء والفشل والإتلاف، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

وهذه الآية تحض على الاجتماع، وقد بينَ القرآن في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، ومعاداة البعض للبعض منشؤه إنما يكون من ضعف العقول، كما قال في اليهود: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٩٥.
(٢) الدر المنثور، ٢/ ٢٨٧.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٣٥٩.

﴿يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر:١٤].

ثم كأن قائلًا قال: ما الموجب الذي صير قلوبهم شتى، أي: مختلفة متنافرة؟! وهم أمة واحدة متفقة في الأهداف والأغراض؟ فبين العِلة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

وليس المراد هنا نفي العقل من أصله، وإنما نفي كمال العقل، يعني: أن عقولهم ليست ناضجة كما ينبغي، أما هم في الحقيقة فمن جملة العقلاء، وهذا يدل على أن هذه الفِرَق -التي تدعي الإسلام- المختلفة، التي يبغض بعضها بعضًا، وإن تجاملت في ظاهر الأمر أن سبب ذلك إنما هو ضعف العقول في بعضها، وقد يكون المختلفان أحدهما عنده عقل كامل يدعو إلى الطريق المستقيم بعقله المستقيم، والآخر ضعيف العقل يَفِر من تلك الطريق ويخالف، فهذا من ضعف العقل[1].

فواضحٌ جدًا أن التنازع هو أحد أسباب الهزيمة الرئيسة، كما أن تجنبه من أسباب النصر الرئيسة، ومن ينظر إلى الواقع، ويعتبر بمسيرة التاريخ يدرك أن الفشل والخذلان الذي لحق بالأمة كان سببه الفرقة والخلاف، فهذه الآية تأتي ضمن عوامل النصر الحقيقية: من الثبات، وذكر الله، وطاعة الله ورسوله، وتجنب الشقاق والنزاع والصبر، والحذر من البطر والرياء.

ولا يتنازع الناس إلا بسبب تعدد القيادات، وبسبب الهوى، حينما يجعل كل واحد من نفسه قائدًا وموجهًا، ولا يقبل من غيره ذلك، ثم يركبه الهوى في تحسين ذاته ونفسه، فيرى من نفسه الحق المطلق، أما مجرد اختلاف أوجه النظر في المسألة الواحدة فليس من أسباب التنازع، لو تجرد صاحب النظر عن الهوى والإعجاب بالنفس.

فإذا وقع التنازع بسبب الهوى والعُجب تغيرت النفوس، وخُدش صفاء الأخوة، فكان الانتصار للنفس لا للحق والصواب، وللذات لا للجماعة والأمة، فتذهب القوى بتشتيتها، وتضعف بتمزيقها، فلو وقعت الهزيمة لم يكن أمرًا عجبًا.

ومن الآيات الواردة في النهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام:١٥٩].

فقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: أنت منهم برئ، وهم منك براء، أي: لم تتلبس بشيء من مذاهبهم، والعرب تقول: إن فعلت كذا فلست مني ولست منك، أي: كل واحد منا برئ من صاحبه[2].

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٢/ ٥٣٤ بتصرف.

(٢) التفسير الوسيط للواحدي ٢/ ٣٤٢.

وفي هذا غاية الحث على الاجتماع، ونهاية التوعد على الافتراق[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفًا له؛ فإن الله بعث رسوله بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق؛ فمن اختلفوا فيه ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فرقًا، كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله قد برأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مما هم فيه»[2].

وقال السعدي: «دلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أصل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية»[3].

وكذلك نهانا الله أن نكون ممن فرقوا دينهم، فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم:٣٢].

وقال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون:٥٣].

وهذا نهي عن التفرق، وهو في نفس الوقت أمر بالاجتماع والتوحد على الحق والدين.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران:١٠٥].

وانظر كيف جمع بين ﴿تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ قال بعضهم: تفرقوا واختلفوا معناهما واحد، وذكرهما للتأكيد، وقيل: بل معناهما مختلف، ثم اختلفوا فقيل: تفرقوا بالعداوة، واختلفوا في الدين، وقيل: تفرقوا بسبب استخراج التأويلات الفاسدة من تلك النصوص، ثم اختلفوا بأن حاول كل واحد منهم نصرة قوله ومذهبه، والثالث: تفرقوا بأبدانهم؛ بأن صار كل واحد من أولئك الأحبار رئيسًا في بلد، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق، وأن صاحبه على الباطل[4].

وأريد بالذين تفرقوا واختلفوا: الذين اختلفوا في أصول الدين من اليهود والنصارى من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق، وقدم الافتراق على الاختلاف للإيذان بأن الاختلاف علة التفرق، وهذا من المفادات الحاصلة من ترتيب الكلام، وذكر الأشياء مع مقارناتها...، وفيه: إشارة إلى أن الاختلاف المذموم والذي يؤدي إلى الافتراق هو الاختلاف في أصول الديانة الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضًا، أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المبنية على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار

(١) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٣٣٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٧٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٨٢.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣١٦.

والأعصار، وهو المعبر عنه بالاجتهاد، وإذا تقصينا تاريخ المذاهب الإسلامية لا نجد افتراقًا نشأ بين المسلمين إلا عن اختلاف في العقائد والأصول، دون الاختلاف في الاجتهاد في فروع الشريعة[1].

ومن الآيات الواردة في النهي عن التفرق قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى الدين في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾[2].

قال السعدي: «ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل، وتحزبكم أحزابًا، وتكونون شيعًا، يعادي بعضكم بعضًا مع اتفاقكم على أصل دينكم، ومن أنواع الاجتماع على الدين، وعدم التفرق فيه ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها، وعدم التفرق»[3].

ومن الآيات التي تحث المؤمنين على الاجتماع قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات:١٠].

وهذه الأخوَة لا يمكن أن تتحقق إلا بالاجتماع، ونبذ الفرقة.

فالمسلمون مأمورون بالاجتماع، وبمحبة بعضهم بعضًا، والسعي إلى ما تأتلف به القلوب، يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١].

فالمؤمن ولي للمؤمن، ولاية تقتضي المحبة والمودة والنصيحة والتوجيه والدعوة للخير.

والحاصل: أن هذه الآيات تدل على وجوب الاجتماع والائتلاف وفضله، والحث عليه، وتحريم التفرق والاختلاف، وسوء عاقبته، فقد أوجب الله على المسلمين أن يكونوا إخوة مجتمعين على الحق، متحابين متعاونين على البر والتقوى،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٤٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٦١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٥٤.

متناهين عن الإثم والعدوان، وشرع لهم ما يقوي هذه الأخوة والمحبة من الاجتماع على الصلوات والخمس والجمع والأعياد والحج، كما شرع لهم تبادل التحية والسلام والمصافحة، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة والنصيحة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتبادل الهدايا، وكل هذا من أسباب المحبة والألفة، وإزالة العداوة والبغضاء.

وقد ذكر القرآن أنواعًا من الاجتماعات المحمودة، منها:

١. الاجتماع على طاعة الله تعالى.

فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والأمر لأمته أيضًا: أن يجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيًا، من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].

يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود -رضي الله عنهم-؛ وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك[(١)]، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢] وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء[(٢)].

والحكمة من الحث على الاجتماع على الطاعة: أن الاجتماع على الهدى تثبيتٌ وقوة، وأن كثرة السائرين على الطريق تورث الأُنس، وتهوِن مشقة السير، بخلاف الانفراد في السير فإنه يورث الوحشة، ويستجلب الملل، فالإنسان إذا كان معه سالكون لم يستوحش، وكلما كثر السالكون شاع الأمن، ورسخت الطمأنينة، أما السالك وحده فإنه قد يستوحش، وقد يضعف، وقد يسقط، وقد تأكله الذئاب، ويد الله مع الجماعة، وإنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصية، وهذا الأمر حاصل لمن سلك سبل الدنيا، ولمن سلك سبل المبادئ والقيم سواء بسواء، وهو في الثانية أظهر وأخطر[(٣)].

فالاجتماع على الهدى، وسير المجموعة على الصراط دليل قوة، فإذا كثر السالكون يزيد الأنس، ويقوى الثبات، وكلما كثر السالكون كان ادعى للاطمئنان

(١) أخرج هذه الرواية الطبري في تفسيره ١١/٣٧٦، والبيهقي في شعب الإيمان ١٣/٩٦، رقم ١٠٠٠٩، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٩٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٢.

(٣) انظر: لمسات بيانية، فاضل السامرائي ص ٥٧.

والاستئناس، والاجتماع رحمة، والفرقة عذاب، ومما يشير إلى الأنس بالاجتماع، وطبيعة حب النفس للاجتماع، ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [النساء:١٣].

فـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ جاءت بصيغة الجمع؛ لأن المؤمنين في الجنة يستمتعون بالأنس ببعضهم.

وقوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء:١٤].

فـ﴿خَٰلِدًا﴾ جاءت بصيغة المفرد، فيزيد على عذاب الكافر عذاب الوحدة، فكأنما عذبه الله تعالى بشيئين: النار، والوحدة[1].

والمقصود: أن الاجتماع لا يحمد إلا إذا كان على الحق.

ولهذا لما شرع الله تعالى لعباده أحسن شرع وأكمله وأعظمه أمرهم بالاجتماع عليه، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى:١٣].

قال ابن كثير: «أي: وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف»[2].

فالأنبياء كلهم والأمم -أمم الأنبياء- مأمورة بذلك، كلهم مأمورون بالاجتماع، لكن المراد هنا: الاجتماع على الحق والخير، فإذا اجتمعت الأمة على الحق الذي هو لا إله إلا الله، ومنافاة البدع جملة وتفصيلًا، ومنافاة الشر والفجور، حينئذٍ هذا هو الاجتماع المطلوب، وليس الاجتماع على أيِ بدعة أو على أيِ باطل وشر.

٢. الاجتماع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله.

ومن الاجتماعات المحمودة: الاجتماع على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير.

قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فقوله: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر.

وسواء أكان الأمر موجهًا إلى الأمة الإسلامية كلها، أو إلى جماعة منها، فإن معطيات هذا الأمر واحدة، حيث تكون الأمة كلها منقادة للقيادة الرشيدة فيها، وهي

(١) المصدر السابق ص ٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٩٥.

جماعة العلماء العاملين بعلمهم، الداعين إلى الخير، الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، وبهذا تصبح الأمة كلها على هذا الطريق المستقيم.

فالأمة في هذه الآية بمعنى الجماعة، والمعنى: ولتكن منكم أيها المسلمون أمة لها كيان ونظام، أمة مؤتلفة الأعضاء، موحدة الجهات، لا ترهب أحدًا، ولا تخاف شيئًا، دينها قول الحق، ورفع الظلم، ولو كان عند سلطان جائر، لا تخشى في الله لومة لائم، لها رئاسة وقانون، كل ذلك قد أشارت إليه كلمة واحدة وهي (أمة) إذ هناك فرق بين قولك: جماعة وأمة، فعلى المسلمين جميعًا واجب تكوين تلك الأمة؛ لتكون بهذا الوضع، وعلى الأمة المكونة واجب أن تقوم بمهمة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والذب عن حياض الدين، ورفع منارة الحق والعدل.

فالمسلمون جميعًا مكلفون بتكوين جماعة خاصة للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فهذه الجماعة المكونة بهذا الوضع السابق لها حق الإشراف والتكوين والتوجيه والحساب والعمل على خدمة المسلمين، وهذا أشبه بمجلس الأمة! وعلى الأمة جميعًا اختيار طائفة خاصة تقوم بتلك المهمة على سبيل الوجوب، وفي سبيل قيامها بواجبها يجب أن تتوافر فيها شروط العلم الديني، والعلوم التي يحتاج إليها من يخاطب الناس، ويؤثر فيهم مع التقوى والتخلق بأخلاق الأنبياء، وأن يكون الداعية مثلًا أعلى في الخلق الكامل، ولنا في رسول الله أسوة حسنة.

ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المسلمون ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ اختلافًا كثيرًا، كما حصل لليهود والنصارى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الواضحات التي تهديهم إلى السبيل لو اتبعوها، وما ذلك إلا لأنهم تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولم تكن فيهم أمة تهديهم إلى الخير، وترشدهم إلى الطريق[1].

والمقصود: أن من الاجتماعات المأمور بها الاجتماع على الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا مستفاد من قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾. والأمة مأخوذة من أمَّ بمعنى قصد؛ والجماعة من الناس التي تربطها رابطة، وتجمعها جامعة تسمى أمة؛ لأن كل واحد منها يؤم المجموع ويقصده، ويعتمد عليه في مدلهم الأمور.

ولقد جاء في مفردات الراغب الأصفهاني في معنى الأمة ما نصه: «والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر؛ إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعها

(١) التفسير الواضح، حجازي ١/ ٢٦٢.

أمم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] أي: كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسُّرْفة[١]، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقتها كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع»[٢].

وفي الآية إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله، وإرشاد الخلق إلى دينه، كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ الخ، أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة.

ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء، وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين[٣].

فلا بد إذن من جماعة مجتمعة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته، فهناك (دعوة) إلى الخير، ولكن هناك كذلك (أمر) بالمعروف، وهناك (نهي) عن المنكر، وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن الأمر والنهي لا يقوم بهما إلا ذو سلطان، هذا هو تصور الإسلام للمسألة، إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى، سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، سلطة تتجمع وحداتها، وترتبط بحبل الله، وحبل الأخوة في الله، سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر، وتحقيق هذا المنهج يقتضي (دعوة) إلى الخير، يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج، ويقتضي سلطة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر فتطاع[٤].

(١) السُّرْفة: بضم السين، وسكون الراء: دويبة تتخذ بيتًا من دقاق العيدان، فتدخله وتموت، ومنه المثل: أصنع من سُرْفة.
انظر: القاموس المحيط ص ٨١٩.
(٢) المفردات، ص ٨٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٢.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٤٤٤ بتصرف.

ثانيًا: الاجتماع المذموم:

الاجتماع وإن كان مطلوبًا شرعًا، ومحمودًا عقلًا، إلا أنه لا يختلف عاقلان في أن التفرق والتبدد أولى من الاجتماع على الشرور، والاتفاق على الفجور؛ وعلى الباطل والبدع والضلال، وقد حكى لنا القرآن أمثلة كثيرة على الاجتماع على الباطل والشر، ومن هذه الأمثلة:

١. الاجتماع على المكر والخداع.

كاجتماع بني يعقوب، حين أجمعوا أمرهم على المكر بيوسف عليه السلام، وجعله في غيابة الجب.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف:١٥] وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢].

والاجتماع والإجماع هو الإعداد والعزيمة على الأمر، فهؤلاء اجتمعوا على رأي واحد، واتفقوا على فكرة واحدة، ولكنها في خانة الباطل، وفي المكر والخداع، وبمن؟! بأقرب الناس إليهم! اجتمعوا صفًا واحد ضد أخ لهم؛ حسدًا وبغيًا، فما أقبحه من اجتماع! ويا ويله من تلاقٍ!

ومعنى الآية: وما كنت لدى إخوة يوسف في الوقت الذي أجمعوا فيه أمرهم على التخلص من يوسف بأي ثمن، وهم يحتالون على إخراجه من بين يدي أبويه؛ ليلقوه في غيابة الجب؛ تخلصًا منه، حيث رأوا أنه حجب عنهم وجه أبيهم، وذهب بعطفه وحنانه دونهم.

قال ابن جرير: أي: وما كنت حاضرًا عند إخوة يوسف إذ أجمعوا واتفقت آراؤهم، وصحت عزائمهم، على أن يلقوا يوسف في غيابة الجب؛ وذلك كان مكرهم الذي قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[1].

فهم قد تشاوروا كثيرًا، وتعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه، واستقر رأيهم بعد تكرر المشاورة على ما فعلوا به، واتفقوا عليه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أن يصل أحد إلى علمها إلا بتعليم الله له إياها.

٢. الاجتماع على الإفساد في الأرض.

من الاجتماع المذموم الاجتماع على الفساد.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل:٤٨-٤٩].

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٨٣.

«يقول تعالى ذكره: وكان في مدينة صالح، وهي حِجر ثمود، تسعة أنفس، يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وكان إفسادهم في الأرض كفرهم بالله، ومعصيتهم إياه، وإنما خص الله -جل ثناؤه- هؤلاء التسعة الرهط بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وإن كان أهل الكفر كلهم في الأرض مفسدين؛ لأن هؤلاء التسعة هم الذين سعوا في عقر الناقة، وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود»[1].

فهؤلاء اجتمعوا على الإفساد في الأرض، وقتل الناقة، وتعاهدوا وتقاسموا على ذلك، قال ابن كثير: «يقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم، أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان أيضًا -قال ابن كثير-: قلت: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس:١٤].

وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩].

وقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف:٧٧].

فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضا جميعهم بذلك، والله أعلم»[2].

وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة، فكأنه قيل: تسعة أنفس، والفرق بين الرهط والنفر: أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة، أو من السبعة إلى العشرة، والنفر من الثلاثة إلى التسعة...، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام، وكانوا من أبناء أشرافهم، وقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح؛ مع أنك قد تجد بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح[3].

هؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد وللإفساد، بحيث لم يعد بها متسع للصلاح والإصلاح، فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته، وبيتوا فيما بينهم أمرًا، وهو قتله عليه السلام.

ومن العجب أن يتداعوا إلى القسم بالله مع هذا لشر المنكر الذي يبيتونه! وهو قتل صالح وأهله بياتًا، وهو لا يدعوهم إلا لعبادة الله! وإنه لمن العجب كذلك أن يقولوا: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ [النمل:٤٩] ولا حضرنا مقتله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فقد قتلوهم في الظلام، فلم يشهدوا هلاكهم، أي: لم يروه بسبب الظلام! وهو احتيال

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٤١.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٧٢.

سطحي، وحيلة ساذجة، ولكنهم يطمئنون أنفسهم بها، ويبررون كذبهم، الذي اعتزموه للتخلص من أولياء دم صالح وأهله، نعم من العجب أن يحرص مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين! ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والالتواءات، وبخاصة حين لا تهتدي بنور الإيمان، الذي يرسم لها الطريق المستقيم، كذلك دبروا، وكذلك مكروا، ولكن الله كان بالمرصاد يراهم ولا يرونه، ويعلم تدبيرهم، ويطلع على مكرهم، وهم لا يشعرون ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾ [النمل:٥٠][1].

وكما في كل جماعة رأس أو رؤوس تقودها، وتتولى تدبير أمرها، فكذلك كان في هذه الجماعة أكثر من رأس، لقد كان فيها تسعة رؤوس، كلهم فاسد، لا يدعون إلا إلى الشر، ولا يعملون إلا فيما هو شر.

والحاصل: أن هؤلاء النفر قد اجتمعوا وائتمروا فيما بينهم، على أن يهلكوا صالحًا وأهله، فأقسموا على ذلك، وجعلوا لتنفيذ هذه المؤامرة وقتًا هو الليل، ثم اتفقوا كذلك على الموقف الذي يلقون به ولي الدم لصالح وأهله؛ وذلك بأن ينكروا أنهم شهدوا مصرع صالح ومن معه.

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤٥.

٣. الاجتماع على الكفر والاستهزاء بدين الله.

ومن الاجتماعات المذمومة التي ذمها الله في القرآن: اجتماع الكفار والمنافقين على السخرية والاستهزاء بدين الله.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٤٠﴾ [النساء:١٤٠].

ونظيره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام:٦٨].

فهؤلاء اجتمعوا على الكفر، وهو الاستهزاء بالدين، والخوض في آيات الله بالباطل، فنهى الله عز وجل عن مجالستهم، وحضور اجتماعهم المشؤوم.

ثم زاد الأمر تخويفًا بقوله: إن جالستموهم ورضيتم باستهزائهم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: في الكفر[2].

قال أبو جعفر: وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع، من المبتدعة والفسَقة، عند خوضهم في باطلهم[3].

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٤١٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٢١.

وفي الآية وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله، أو بحججه، أو برسله، وأن لا يقعد معهم؛ لأن في القعود إظهار عدم الكراهة؛ وذلك لأن التكليف عام لنا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يجب الإعراض، وترك الجلوس معهم إذا لم يطمع في قبولهم، فإذا انقطع طمعه إذًا فلا فائدة في دعائهم، ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سببًا في ترك الخوض، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف إذا كان وقوفه يوهم عدم الكراهة[1].

ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ نهي للمسلمين عن الجلوس في هذا المجلس القائم على تلك الصفة، وليس نهيًا عامًا مطلقًا على تجنب الجلوس مع المنافقين والكافرين، ففي ذلك إعنات للمؤمنين، فقد تستدعي أحوالهم أن يكونوا بحيث لا منصرف لهم عن الحياة مع هذه الجماعة، وتبادل المنافع معها!

على أن من السلامة لدين المؤمن أن يتجنب مجالس هؤلاء القوم ما استطاع، فإذا مست هذه المجالس دينه بما يسوء كان أمرًا لازمًا عليه أن يتحول عن هذه المجالس في الحال، ولا يخلط نفسه بها، وإلا حمل وزره من الإثم الذي يتعاطاه فيها أهل النفاق والكفر، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: لا فرق بينكم أيها المؤمنون وبين هؤلاء الأئمة الذين يهزءون بآيات الله، ويسخرون منها، إذا أنتم استمتعتم إلى هذا المنكر ولم تنكروه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ تهديد ووعيد بهذا المصير المشئوم الذي ينتظر الكافرين والمنافقين، ومن يلوذ بالكافرين والمنافقين، ويركن إليهم، ويستمع للزور الذي يدور بينهم[2]. يريد: كما أنهم اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا؛ فكذلك يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة[3].

وهذا هو حضور الزور المنهي عنه، والزور كلُ مَا خالف الحق، فمعنى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢] أي: لا يحضرون الباطل، في أي لون من ألوانه، قولًا أو فعلًا أو إقرارًا.

لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص:٥٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ إشارة إلى ما نزل قبل هذا من

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٩٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩٣٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٤٧.

قرآن في مثل هذا الموقف، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

فهذه الآية هي توكيد لهذا التنبيه الذي سبق نزول القرآن به من قبل، وتحذير جديد لأولئك الذين لم ينتهوا عما نهوا عنه، والخطاب في الآية موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أمر ملزم لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان النبي إمامهم وقدوتهم[1].

٤. الاجتماع على الخمر والميسر.

ومن الاجتماع المذموم الاجتماع على الخمر والميسر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩١].

فلما كان الظاهر فيمن يشرب الخمر أنه يشربها مع جماعة، ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه، ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم، فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الألفة والمحبة إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب إلى الضد؛ لأن الخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل، وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب، وتلك المنازعة ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش؛ وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء، فالشيطان يسول أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد الألفة والمحبة، وبالآخرة انقلب الأمر، وحصلت نهاية العداوة والبغضاء.

وأما الميسر ففيه بإزاء التوسعة على المحتاجين الإجحاف بأرباب الأموال؛ لأن من صار مغلوبًا في القمار مرة دعاه ذلك إلى اللجاج فيه عن رجاء أنه ربما صار غالبًا فيه، وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال...، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيرًا مسكينًا، ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا غالبين له، فظهر من هذا الوجه أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم[2].

والمقصود: أن كل اجتماع لم يؤسس على طاعة الله، ولم يكن على نور من الله، فهو اجتماع مذموم، واجتماع يؤول إلى الحسرة والندامة، وتنقلب الألفة إلى نفرة، والمحبة إلى عداوة، والكثرة إلى قلة.

وقد أخبر الله تعالى عن بعض أهل الأعراف أنهم ينادون رجالًا من المشركين يعرفونهم بعلاماتهم، فيقولون لهم: ﴿مَا

(١) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ٩٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.

﴿أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٨] يعني: ما أغنى عنكم جمعكم واجتماعكم وكثرتكم، ولا استكباركم عن الإيمان.

قال الرازي: والمراد بالجمع: إما جمع المال، وإما الاجتماع والكثرة ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ والمراد: استكبارهم عن قبول الحق، واستكبارهم على الناس المحقين، وهذا كالدلالة على شماتة أصحاب الأعراف بوقوع أولئك المخاطبين في العقاب، وعلى تبكيت عظيم يحصل لأولئك المخاطبين بسبب هذا الكلام، ثم زادوا على هذا التبكيت وهو قولهم: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف:٤٩] فأشاروا إلى فريق من أهل الجنة، كانوا يستضعفونهم، ويستقلون أحوالهم، وربما هزأوا بهم، وأنفوا من مشاركتهم في دينهم، فإذا رأى من كان يدعي التقدم حصول المنزلة العالية لمن كان مستضعفًا عنده قلق لذلك، وعظمت حسرته وندامته على ما كان منه في نفسه[1].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٥١.

معوقات الاجتماع المحمود

١. اتباع الهوى.

من أسباب عدم الاجتماع ومعوقاته: اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥].

فقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فيه إشارة إلى أن الأهواء والبدع تفرق؛ ولقد جاء الأمر صريحًا لمحمد صلى الله عليه وسلم باتباع الشرع الحنيف، والنهي عن اتباع الهوى كما في الآية السابقة، وكما في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية:١٨].

ولهذا كان السلف يعدون كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء، ويذمونهم بذلك.

قال أبو العالية: «تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الإسلام يمينًا وشمالًا، وعليكم بسنة نبيكم، والذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء»[2].

(٢) انظر: ذم الكلام وأهله، الهروي ٥/ ١٧.

وصدق أبو العالية رحمه الله، فهذه الأهواء المذمومة قد فرقت الأمة، وفككت كيان الجماعة المسلمة، والمتأمل لأسباب الفرقة يجد أنها تدور في رحاها بين الجهل وبين اتباع الهوى، والظلم؛ لذلك لا اجتماع للأمة إلا بوحدتها على كتاب الله تعالى، وسنة نبيه الكريم، والتزام صراطه المستقيم علمًا وعملًا، حقًا وعدلًا، وترك الأهواء.

٢. اتباع السُبُل:

ومن معوقات الاجتماع: اتباع السبل المتفرقة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

فقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾ الإشارة إلى معهود لدى المخاطبين، أو إلى ما جاء في السورة، وهو الإسلام والقرآن، وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

ونلحظ إضافة الصراط إلى الله في كثير من الآيات، كما في هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٢٦].

وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ﴾ [الأعراف: ١٦].

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

وقوله: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤].

وقوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣]. وكأنه يقول: ولأن هذا صراطي فهو علة للاتباع[(١)].

و﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال من ﴿صِرَٰطِي﴾ مؤكدة لمعنى إضافته إلى الله[(٢)].

﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾ والسُبُل الأديان المختلفة، أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد، ومقتضى الهوى متعدد؛ لاختلاف الطبائع والعادات[(٣)].

فذكر تعالى أن له سبيلًا واحدة سماها: صراطًا مستقيمًا؛ لأنها أقرب طريق إلى الحق والخير والسلام، وأن هناك سبلًا متعددة، يتفرق متبعوها عن ذلك الصراط، وهي طرق الشيطان، فطريق الحق هو الوحدة والإسلام، وطرق الشيطان هي مثارات التفرق والخصام، وهي معروفة في كل الأمم، ولكن الشيطان يزين طرقه، ويسول للناس المنافع والمصالح في التفرق.

قال القاسمي: «فجمع سبل الباطل، ووحد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٤٨.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٦٢.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨٩.

﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها»[(١)].

وقد بين العلة في ذلك ابن القيم في أحسن بيان، حيث قال: وذكر الصراط المستقيم منفردًا، معرفًا تعريفين:

- تعريفًا باللام.
- وتعريفًا بالإضافة.

وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فوحد لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له...، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله[(٢)].

وكذلك وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة، كما قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨].

إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق، وانتشار الباطل وتفرده وتشعبه[(٣)].

والحاصل: أنه تعالى وحَد لفظ (صراطه) و(سبيله) وجمع (السبل) المخالفة؛ ووجه المناسبة في ذلك أنه لما كان الهدي شيئًا واحدًا غير متشعِب السبل ناسبه التوحيد؛ ولما كان الضلال له طرقٌ متشعبةٌ ناسب الجمع.

والمقصود: أن من الأسباب المانعة من الاجتماع اتباع السبل، وهي الطرق المختلفة في الدين، وأن السبيل الوحيد للنجاة من ذلك هو اتباع صراط الله الذي وصفه بالاستقامة، فلا يضل سالكه، ولا يهتدي تاركه، فاتبعوه وحده، ولا تتبعوا السبل الأخرى التي تخالفه، وهي كثيرة، فتتفرق بكم عن سبيله، بحيث يذهب كل منكم في سبيل ضلالة منها ينتهي بها إلى الهلكة؛ إذ ليس بعد الحق إلا الضلال، وليس أمام تارك النور إلا الظلمات.

(١) محاسن التأويل، ١/ ٢٦٢.
(٢) التفسير القيم ص ١٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٥ بتصرف.

٣. التحزَب.

ومن معوقات الاجتماع: التحزب والتعصب.

قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون:٥٣]

وقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم:٣٢].

يعني: كان الناس أمة واحدة على دين واحد، وهو دين الإسلام، كما قال: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون:٥٢].

والمعنى: وإنَ دينكم -يا معشر الأنبياء- دين واحد، وهو الإسلام، وأنا ربكم، فاتقوني بامتثال أوامري، واجتناب زواجري، فتفرَق الأتباع في الدين إلى أحزاب وشيع، جعلوا دينهم أديانًا، بعدما أُمروا بالاجتماع، كل حزب معجب برأيه، زاعم أنه على الحق، وغيره على الباطل، وفي هذا تحذير من التحزب والتفرق في الدين.

ولهذا قال هنا: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ والتقطع يقتضي التحزب، وقديمًا كان التحزب مسببًا لسقوط الأديان والأمم، وهو من دعوة الشيطان التي يلبس فيها الباطل في صورة الحق، والحزب: الجماعة المجتمعون على أمر من اعتقاد أو عمل، أو المتفقون عليه[1].

وجيء بفاء التعقيب في قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ لإفادة أن الأمم لم يتريثوا عقب تبليغ الرسل إياهم بقولهم: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون:٥٢].

بل تقطعوا أمرهم بينهم سريعًا، فاتخذوا آلهة كثيرة، فصار دينهم متقطعًا قطعًا، لكل فريق صنم، وعبادة خاصة به.

والكلام مسوق مساق الذم؛ ولذلك قد تفيد الفاء مع التعقيب معنى التفريع، أي: فتفرع على ما أمرناهم به من التوحيد أنهم أتوا بعكس المطلوب منهم، فيفيد الكلام زيادة على الذم تعجبًا من حالهم، ومما يزيد معنى الذم تذييله بقوله: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ أي: وهم ليسوا بحال من يفرح[2].

والتفرق والتباين يُعد من العذاب الذي تصاب به الأمم، وهو الداء العضال الذي أصاب أهل الإسلام-، كما قال تعالى: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ [الأنعام:٦٥] هذا عذاب للأمم يحل وحدتها، وينثر جمعها، وهو أشد أنواع العذاب عندما يتفاقم، ويكون الهوى المتبع، والشح المطاع، وإعجاب كل امرئٍ وكل جماعة بنفسها وطريقتها ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٧٣ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ٧٣.

﴿فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣] فعندئذٍ تنفك العرى، وتنحل الأواصر، ويقوم المنكر، ويذهب المعروف، ولا سماع لصوت الحق[(١)].

والحاصل: أن التحزب يؤدي إلى التعصب، وهو من أسباب عدم اجتماع الأمة، وتفرقها إلى جماعات وأحزاب، وكل طائفة وفرقة من هؤلاء تحدث بدعًا وأفكارًا، تفرح بها، وتظن أنها على الحق، وأن الصواب معها دون غيرها.

حتى يصير أمرهم بينهم كما قال الله: ﴿زُبُرًا﴾ والزبر: جمع زبرة، والزبرة قطعة من الحديد، وقد شبهت الجماعات المختلفة في نزاعها بزبر الحديد، من حيث إن كل واحدة شديدة في التمسك بما عندها؛ كأنها صلب الحديد، لا تترك رأيها، كما لا تتفرق زبر الحديد.

أي: اختلفوا متقطعين متنابزين غير مجتمعين في أمرهم، بحيث لا متسع للالتقاء فيما بينهم، يتحزبون في تفكيرهم: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: كل جماعة متحزبة متعصبة لما عندها، فرحة به، وتحسب أنه الحق الذي لا ريب فيه، وهو الضلال المبين، وإن التحزب لفكرة يدفع إلى التعصب لها، والتعصب يعمي ويصم، وتقديم الجار والمجرور ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ لبيان أهميته عندهم[(٢)].

٤. البغي.

ومن معوقات الاجتماع: البغي، وقد اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغيًا بينهم، وظلمًا وعدوانًا من أنفسهم.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣].

وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧].

فقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ بغيًا: مفعول لأجله، أي: لأجل البغي، أو بسبب أنهم بغى بعضهم على بعض حدثت الفرقة بينهم.

فهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة؛ ولكنهم فعلوا ذلك للبغي، وطلب الرياسة، فحملتهم الحمية النفسانية، والأنفة الطبعية على أن ذهب كل طائفة إلى

(١) زهرة التفاسير ٥/ ٢٥٣٧.

(٢) انظر: زهرة التفاسير ١٠/ ٥٠٨٤ بتصرف.

مذهب، ودعا الناس إليه، وقبح ما سواه؛ طلبًا للذكر والرياسة، فصار ذلك سببًا لوقوع الاختلاف، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل[1].

ورحم الله الإمام الرازي فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: «والمقصود من هذه الجملة التعجب من أحوالهم؛ لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وها هنا صار مجيء العلم سببًا لحصول الاختلاف؛ وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والبغي»[2].

ومعنى الآيات: أي: لم يكن اختلاف هؤلاء المختلفين من اليهود من بني إسرائيل في كتاب الله الذي أنزله عن جهل منهم به، بل كان اختلافهم فيه، وخلافُ حكمه من بعد ما ثبتت حجته عليهم بغيًا بينهم، وطلبَ الرياسة من بعضهم على بعض، واستذلالًا من بعضهم لبعض[3].

وقال بعض العلماء: خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم العلم، فالمفترض أن يكونوا على علم، فإن تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف، وأولى بوصف الكفر، والإعراض عن دين الله تبارك وتعالى.

والحاصل: إن من أسباب التفرق وعدم الاجتماع البغي، والبغي: تجاوز الحق إلى الباطل في كل شيء، يقال: بغى فلان على فلان إذا اعتدى عليه؛ ولهذا قال ها هنا في هذه الآيات: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بالتوحيد، فهم ما اختلفوا بسبب عدم الحجة أو البيان، وإنما ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسدًا وظلمًا وعدوانًا.

فقد بغى بعضهم على بعض، وظلم بعضهم بعضًا، وعلا بعضهم على بعض، وغار بعضهم من بعض، وحسد بعضهم بعضًا على ما أعطاهم الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء:٥٤].

فطلبوا الدنيا بالدين، فضاع منهم دينهم، وضاعت منهم دنياهم وأخراهم.

ولولا بغيهم ونصرهم مذهبًا على مذهب، وتضليلهم من خالفهم؛ بتفسيرهم نصوص الدين بالرأي والهوى، وتأويل بعضه أو تحريفه؛ لما حدث هذا الاختلاف[4].

والعبرة من هذا القصص: أن نبتعد عن الخلاف في الدين، والتفرق فيه إلى شيع

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ٧/ ٤٦٧ بتصرف.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٨١ بتصرف.
(٤) تفسير المراغي ٣/ ١٢٠.

ومذاهب، كما فعل من قبلنا، ولكن وا أسفاه! وقعنا فيما وقع فيه السالفون، وتفرقنا طرائق قددًا، وأصابنا من الخذلان والذل بسبب هذا التفرق ما لا نزال نئن منه، ونرجو أن يشملنا الله بعفوه ورحمته، ويمدنا بروح من عنده، فيسعى أهل الإيمان الصادق في نبذ الاختلاف والشقاق، والعودة إلى الوحدة والاتفاق، حتى يعود المسلمون إلى سيرتهم الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، ومن تبعهم بإحسان.

٥. كيد الأعداء.

ومن الأسباب الصارفة عن الاجتماع: كيد الأعداء وتربصهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧].

فقوله: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يفرقون به جماعتهم؛ لأنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد قباء، وجاءوا يخدعون النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله، ربما جاء السيلُ، فيقطع بيننا وبين الوادي، ويحول بيننا وبين القوم، ونصلي في مسجدنا، فإذا ذهب السيل صلينا معكم! وبنوه على النفاق[1].

والمنصوبات المتعاطفة هنا ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا﴾ هي مفعول لأجله، تكشف عن السبب الذي لأجله بني هذا المسجد، وهو للمضارة، لا للنفع، وللكفر لا للإيمان، ولإيواء من حارب الله ورسوله، لا لدعوة من آمن بالله ورسوله.

وليكون مأوى يأوي إليه المنافقون، ويدارون نفاقهم بالاجتماع فيه، والاستظلال بظله، ثم ليفرقوا بين المؤمنين، حيث لا تجتمع جماعتهم في مكان واحد، بل يتوزعهم المسجدان المتجاوران، فيقل بذلك جمعهم، وتصغر في الأعين جماعتهم، الأمر الذي يخالف ما يدعو إليه الإسلام من جمع المسلمين في صلاة الجماعة والجمعة والعيدين، لتتوحد مشاعرهم، وتمتلئ العيون مهابة، وإجلالًا لهم[2].

والحاصل: أن هؤلاء المنافقين عملوا على التفريق بين المؤمنين المقيمين هنالك، فإنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد قباء، وفي ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون، وجمع الكلمة، وهي أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية، ومن ثم كان تكثير المساجد، وتفريق الجماعة منافيًا لأغراض الدين ومراميه، ومن الواجب أن يصلي المسلمون الجمعة في مسجد واحد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، فإن تفرقوا عمدًا كانوا آثمين.

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٧٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٦/ ٨٩٥.

ومن هذا يعلم أن بناء المساجد لا يكون قربة يتقبلها الله إلا إذا دعت الحاجة.

فهؤلاء الأعداء سعوا جاهدين بمكر وكيد ليشقوا صف المؤمنين، ويفرقوا جماعتهم بهذه الخطة، وهذا الكيد العظيم، وهو بناء هذا المسجد، الذي من أعظم البواعث من بنائه هو تفريق المؤمنين.

ولذا قال تعالى في الباعث: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن ذلك التفريق هو إبعاد فريق من المؤمنين عن الجماعة التي يؤمها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، يغرونهم بالتأثير فيهم، رجاء أن يقتطعوا من المؤمنين من يضمونهم إليهم؛ إذ بعدوا عن النور الكاشف لخداعهم، وإفسادهم، فيخلو لهم الجو ليخادعوهم، وينجح خدعهم.

والمقصود: أن من معوقات الاجتماع بين المؤمنين سعي الأعداء في التفريق بينهم، كما أراد هؤلاء المنافقين من بناء المسجد، وهو أن يفرقوا بين المؤمنين وبين رسول الله، حتى إذا جاءهم العدو وجدهم متفرقين، فيكون أيسر وأهون عليهم في الكسر عليهم، والظفر بهم من أن كانوا مجموعين.

وهكذا أعداء اليوم يعدون العدة، ويرسمون الخطط، ويعقدون اللقاءات والمؤتمرات والدراسات للتفريق بين المسلمين، وضرب بعضهم ببعض، ويمكرون ليل نهار في تقطيع أوصال هذه الأمة.

الاجتماع يوم القيامة

سمي يوم القيامة يوم الجمع لاجتماع الخلائق فيه في مكان واحد للحساب؛ فإن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين إلى عرصات القيامة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩].

يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفًا هائلًا عظيمًا، وينبئهم بما عملوا، فحينئذٍ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرفع أقوام إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم والحزن والعذاب الشديد؛ وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون[1].

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٧.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المرسلات:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء:٨٧].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧].

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى:٧].

وقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٩].

وقد بَيَّنَ تعالى شمول ذلك الجمع لجميع الدواب والطير في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨].

والآيات الدالة على الجمع المذكور كثيرة[(١)].

فيوم القيامة يوم الجمع، والعجيب أنه أيضًا يوم الافتراق.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم:١٤].

فهو يوم الجمع في أول ما يبعثون ويحشرون، ثم يفرق بينهم تفريقًا لا اجتماع بينهم أبدًا؛ قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

فهو يوم الجمع في حال ووقت، ويوم الافتراق في حال ووقت آخر، وبعض أهل التأويل يقولون: قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ العابد والمعبود، والتابع والمتبوع، بعدما كانوا مجتمعين في الدنيا، وهو ما ذكر في آية أخرى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥].

فهذا تفرقهم على قول بعضهم، والوجه فيه ما ذُكر بدءًا[(٢)].

والمقصود: أن أعظم الاجتماعات على الإطلاق اجتماع هذا اليوم، وهو المعاد الأعظم؛ ولهذا سمي يوم الجمع الذي لا أكبر منه جمعًا.

وسمي بذلك؛ لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر[(٣)].

وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد.

وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله[(٤)].

وقيل: يجتمع فيه أهل السماوات وأهل

(١) أضواء البيان ٧/ ٤٦.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٢٥٧ بتصرف.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٣٧.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢١٠.

الأرض، أو يجمع بين الظالم والمظلوم[1]. وقيل: لأنه يجمع فيه بين كل نبي وأمته. وقيل: لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات، وعقاب أهل المعاصي[2]. وكلها أقوال صحيحة، تحتملها الآية.

١. يوم الجمع: جمع المخلوقات في أرض المحشر.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

ومعنى الجمع لهذا اليوم: الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة؛ مثل قوله: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

أي: مشهود فيه أهل السماوات والأرضين، فاتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به، كقوله: في محفل من نواصي الناس مشهود، أي: كثير شاهدوه، ولو جعل اليوم مشهودًا في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه، فإن سائر الأيام كذلك[3].

ومجيء الخبر جملة اسمية في الإخبار عن اليوم يدل على معنى الثبات، أي: ثابت، جمع الله الناس لأجل ذلك اليوم، فيدل على تمكن تعلق الجمع بالناس، وتمكن كون ذلك الجمع لأجل اليوم حتى لقب ذلك اليوم يوم الجمع في الآية السابقة...، وعطف جملة: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ على جملة ذلك يوم مجموع له الناس لزيادة التهويل لليوم بأنه يشهد، وطوي ذكر الفاعل إذ المراد يشهده الشاهدون؛ إذ ليس القصد إلى شاهدين معينين، والإخبار عنه بهذا يؤذن بأنهم يشهدونه شهودًا خاصًا، وهو شهود الشيء المهول؛ إذ من المعلوم أن لا يقصد الإخبار عنه بمجرد كونه مرئيًا؛ لكن المراد: كونه مرئيًا رؤية خاصة، ويجوز أن يكون المشهود بمعنى المحقق، أي: مشهود بوقوعه، كما يقال: حق مشهود، أي: عليه شهود، لا يستطاع إنكاره، واضح للعيان، ويجوز أن يكون المشهود بمعنى كثير الشاهدين إياه لشهرته، كقولهم: لفلان مجلس مشهود[4].

فما أعظمه إذن من جمع! وما أكبره من حشر! حتى الملائكة التي تملأ السماء، والتي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك، والسماء التي بهذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدودًا، والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباءة الطائرة في الفضاء! فهل هذا يقرب شيئًا للتصور البشري عن عدد الملائكة؟ إنهم من بين الجمع في يوم الجمع! وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن!

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٣٦.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٦١.

٢. الجمع بين المتخاصمين.

وأخبر الله تعالى أنه يجمع بين عباده المتخاصمين يوم القيامة، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذي لا يجور فيه، ولا يظلم مثقال ذرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ:٢٦].

أي: قل لهم: إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب، ثم يقضي بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، وهنالك يُجزى كل عامل بما عمل، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وستعلمون يومئذٍ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية[(١)].

فهذا الجمع يوم القيامة في صعيد واحد من أجل إقامة العدل الإلهي، ووضع الموازين القسط، كما قال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

ولهذا قال سبحانه ها هنا: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يحتاج إلى شهود تعرفه المحق من المبطل.

ففي أول الأمر يجمع الله بين أهل الحق وأهل الباطل؛ ليلتقي الحق بالباطل وجهًا لوجه؛ وليدعو أهل الحق إلى حقهم، ويعالج الدعاة دعوتهم، وفي أول الأمر تختلط الأمور وتتشابك، ويصطرع الحق والباطل، وقد تقوم الشبهات أمام البراهين، وقد يغشى الباطل على الحق؛ ولكن ذلك كله إلى حين، ثم يفصل الله بين الفريقين بالحق، ويحكم بينهم حكمه الفاصل المميز الحاسم الأخير ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ الذي يفصل ويحكم عن علم وعن معرفة بين المحقين والمبطلين.

وهذا هو الاطمئنان إلى حكم الله وفصله، فالله لا بد حاكم وفاصل ومبين عن وجه الحق، وهو لا يترك الأمور مختلطة إلا إلى حين، ولا يجمع بين المحقين والمبطلين إلا ريثما يقوم الحق بدعوته، ويبذل طاقته، ويجرب تجربته، ثم يمضي الله أمره، ويفصل بفصله.

والله سبحانه هو الذي يعلم ويقدر متى يقول كلمة الفصل، فليس لأحد أن يحدد موعدها، ولا أن يستعجلها، فالله هو الذي يجمع، وهو الذي يفتح ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[(٢)].

فإذا عجز الخلق عن أن يتبينوا من المحق ومن المبطل، ومن هم أهل الهدى؟ ومن هم أصحاب الضلال في هذه الخصومة

(١) تفسير المراغي ٢٢/ ٨١.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٠٥.

في الله القائمة بين الخلق؟ إذ عجزوا عن أن يحكموا في هذه القضية في الدنيا فإن القضية ستحال إلى الآخرة، وسيفصل فيها أحكم الحاكمين، يوم يجمع الله الناس جميعًا، فهو الحكم العدل، الذي يحكم عن علم محيط بكل شيء؛ ولهذا جيء بصيغة المبالغة (فتاح).

فجملة ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تذييل بوصفه تعالى بكثرة الحكم وقوته، وإحاطة العلم؛ وبذلك كان تذييلًا لجملة ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ المتضمنة حكمًا جزئيًا، فذيل بوصف كلي، وإنما أتبع ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾ بـ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ للدلالة على أن حكمه عدل محض؛ لأنه عليم لا تحف بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز، واتباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب[1].

وقد كثرت الآيات في هذا المعنى، ومنها:

قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ [الشورى:١٥].

وقوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

وقوله: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧].

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:١٢٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٣].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج:٦٩].

٣. الجمع في المصير بين المتشابهين في الأعمال.

يأمر الله عز وجل يوم القيامة بجمع الكفار والظالمين وأزواجهم، ومن كان على شاكلتهم وأمثالهم وأشباههم من رجال ونساء، وآلهتهم التي كانوا يعبدونها، كما تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات:٢٢-٢٤].

والحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد[2]. فيأمر الله بجمع هؤلاء الأصناف الثلاثة في موقف الحساب، وهم:

- الظالمون.
- وأزواجهم.
- والأشياء التي كانوا يعبدونها من دون الله من الأوثان والأصنام وغيرها.

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٩٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٤٤.

والعلة ظاهرة في حشر الصنفين الأوليين ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ لكن لماذا تُحشر المعبودات من الملائكة، ومن آدمي رضي بذلك، ومن صنم ووثن، وغيرها؟ والجواب: زيادة لهم في الحسرة والتخجيل على شركهم ومعصيتهم مع عدم نفعهم وعجزهم، وتوبيخًا لهم، وإظهارًا لسوء حالهم، ومن أجل أن يتبرأ من لم يرض منهم بذلك.

فالصنف الأول ممن يجمع ويحشر: الظالمون: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ظلم الكفر والشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

ولذلك كان الشرك أعظم أنواع الظلم، فظلموا الحق في النفس، وظلموا ما كان يجب ألا يظلموا أنفسهم فيه، فأنكروا خالقهم وقدرته وإرادته، وأنكروا كونه جل جلاله لا يحتاج إلى معين، ولا وزير ولا مساعد، ولا شريك له ولا ند، لا في ذات ولا في صفات ولا في أفعال.

قال الرازي: «ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله، وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر؛ وذلك يدل على أن كل وعيد ورد في حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار، ومما يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]»[(١)].

والصنف الثاني: أزواجهم:

ومعناه: ونظراءهم وضرباءهم، تقول: عندي من هذا أزواج، أي: أمثال، وكذلك زوجان من الخفاف، أي: كل واحد نظير صاحبه؛ وكذلك الزوج المرأة، والزوج الرجل، وقد تناسبا بعقد النكاح، وكذلك قوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص:٥٨][(٢)].

فالزوج: هو اسم لشكله، واسم لضده، اسم لهما جميعًا، يحتمل قوله: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: أشكالهم وقرناؤهم من الجن والإنس والشياطين، يأمر الملائكة أن تجمع بين من كانوا يجتمعون في هذه الدنيا، ويستحبون الاجتماع معهم أن يجمعوا في عذاب الآخرة، على ما كانوا يستحبون الاجتماع في الملاهي والطرب في هذه الدنيا، ويجتمعون على ذلك؛ فعلى ذلك يجمع بين أولئك وبين قرنائهم في جهنم، ويقرن بعضهم إلى بعض في العذاب؛ كقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف:٣٦][(٣)].

قال الرازي: «اختلفوا في المراد بأزواجهم، وفيه ثلاثة أقوال:

الأول: المراد بأزواجهم: أشباههم، أي:

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٣٢٨.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٠١.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٥٥٥.

أحزابهم ونظراؤهم من الكفر، فاليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، والذي يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه، وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ [الواقعة:٧] أي: أشكالًا وأشباهًا.

الثاني: أنك تقول: عندي من هذا أزواج، أي: أمثال، وتقول: زوجان من الخف؛ لكون كل واحد منهما نظير الآخر، وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين؛ لكونهما متشابهين في أكثر أحكام النكاح، وكذلك العدد الزوج سمي بهذا الاسم؛ لكون كل واحد من سميه مثالًا للقسم الثاني في العدد الصحيح.

القول الثاني: في تفسير الأزواج أن المراد: قرناؤهم من الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾ [الأعراف:٢٠٢].

والقول الثالث: أن المراد: نساؤهم اللواتي على دينهم»[1].

إلا أن جمهور أهل العلم منهم: عمر وابن عباس رضي الله عنهم على أن المراد به: أشباههم ونظراؤهم، فعابد الوثن مع عابد الوثن، والسارق مع السارق، والزاني مع الزاني، واليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني وهكذا، وإطلاق الأزواج على الأصناف مشهور في القرآن، وفي كلام العرب؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف:١٢].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ [يس:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه:١٣١] إلى غير ذلك من الآيات[2].

والصنف الثالث مما يجمع: المعبودات.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

وفيه قولان:

الأول: المراد: ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت، ونظيره قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤].

قيل: المراد بالناس عباد الأوثان، والمراد بالحجارة: الأصنام التي هي أحجار منحوتة، فإن قيل: إن تلك الأحجار جمادات، فما الفائدة في حشرها إلى جهنم؟

أجيب: بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة في توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها؛ ولقائل أن يقول: هب أن الله تعالى يحيي تلك الأصنام إلا أنه لم

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٣٢٨.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٣٠٩.

يصدر عنها ذنب، فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها؟ والأقرب أن يقال: إن الله تعالى لا يحيي تلك الأصنام، بل يتركها على الجمادية، ثم يلقيها في جهنم؛ لأن ذلك مما يزيد في تخجيل الكفار.

القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٣ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ما عبدوا، فلما قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين.

وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس:٦٠].

والقول الأول أولى؛ لأن الشياطين عقلاء، وكلمة (ما) لا تليق بالعقلاء[1].

والمقصود: أن الله تبارك وتعالى يجمع الذين كفروا بالله في الدنيا، وعصوه وأزواجهم وأشياعهم على ما كانوا عليه من الكفر بالله، وما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة.

يحشر المشركون وأشباههم في الشرك، ومتابعوهم في الكفر، ومشايعوهم في تكذيب الرسل، وقرناؤهم من الشياطين، يحشر كل كافر مع شيطانه، كذلك يحشر أصحاب المعاصي مع بعضهم، فيجمع أهل الزنا معًا، وأهل الربا معًا، وأصحاب الخمر معًا، وهكذا.

قال صاحب الظلال: احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين، فهم أزواج متشاكلون، وفي الأمر على ما فيه من لهجة جازمة تهكم واضح في قوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣].

فما أعجبها من هداية خير منها الضلال! وإنها لهي الرد المكافئ لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم؛ وإذ لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم! وها هم أولاء قد هُدوا، هُدوا إلى صراط الجحيم، ووقفوا على استعداد للسؤال، وها هو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتقريع في صورة سؤال بريء!

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ [الصافات:٢٥]؟!

ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا، وأنتم هنا جميعًا؟! وكلكم في حاجة إلى الناصر المعين؟! ومعكم آلهتكم التي كنتم تعبدون! ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام! إنما يرد التعليق والتعقيب[2].

ويدخل في (أزواجهم) قرناءهم وأشكالهم، ومن عمل مثل أعمالهم، ومن أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير، وكذلك في هذه الطريقة من أعان صاحب معصية في معصيته، أو صاحب زلة على زلته كان

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٢٨ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٨٦.

مشاركًا له في عقوبته، واستحقاق طرده وإهانته.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأزواج: الأمثال والأشباه والنظائر، أي: مأخوذ من المزاوجة والمشاكلة، تقول: وزاوج الرجل المرأة فأصبحت ندًا وشريكًا له في حياته، وكذلك هؤلاء في ظلمهم وفي كفرهم وفي شركهم، وانفرد الحسن البصري، فقال: أزواجهم نساؤهم، وزوجاتهم المشركات اللاتي متن على الشرك؛ ليزداد عذاب البعض بالبعض، وعلى كل فلا حاجة لهذا التفسير، سواء كانت زوجة أو غير زوجة، فإن كانت مشركة فهي من أمثاله، وهي من أشكاله، اجتمعت به أو لم تجتمع، فهم سيحشرون في مكان واحد، ويفصلون عن المسلمين.

ويدخل في ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات:٢٢] إبليس وشيطان وحيوان، وجمادات؛ لتكون حجة الله البالغة عليهم، فهؤلاء الذين كنتم تعبدون سيتبرؤون منكم ومن عبادتكم، فإن كانوا يعبدون الملائكة أو رسلًا أو صالحين، فإنهم أيضًا يقفون معهم.

وكما قال الله لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

فيحشرون معهم للبراءة منهم، فالصالحون لا يحشرون معهم إلى النار، ولكن يقفون معهم، ليتبرؤوا منهم؛ وليدركوا إذ ذاك -ولات حين إيمان- أنهم عاشوا على ضلال، عاشوا على باطل، ولكن اعترافهم فاته الزمن، وفاته الوقت، وكما يقولون: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، لقد قطعوا بالوفاة وبالموت، وبعد أن يحشروا ويكبلوا في السلاسل يقول الله لملائكته: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ أي: دلوهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣] إلى الطريق البين الواضح الذي يوصل إلى جهنم، وقد تكون جهنم بعيدة عليهم، فتأتي الملائكة تحشرهم وتسحبهم زحفًا على وجوههم إلى أن يدخلوا النار، وبئس المصير.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات:٢٢].

يقتضي حضورهم معهم في المحشر، وآية الأنعام فيها سؤالهم عن شركائهم ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام:٢٢]؟

والجواب: هم حاضرون بالفعل، محشورون معهم مصداقًا للآية التي في سورة الصافات.

لكن المقصود هنا بتقدير مضاف، فقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ يعني: أين نفع شركائكم؟

وأين شفاعة شركائكم؟!

فهم بمنزلة الغُيَب؛ لأن الحاضر الذي لا نفع ولا فائدة من حضوره هو مثل الغائب، ومثل الميت، ومثل المعدوم؛ لأنهم عدموا ما رجوا منهم من الشفاعة.

فالمقصود هو التوبيخ والتقريع، وأن يقرر في نفوسهم أن ما كانوا يرجونه ميؤوس منه، وثمرة هذا أنهم يعلمون في الدنيا أنه تقوم عليهم الحجة، فيعملون عقولهم ليستحضروا ما هم عليه من الضلال، وأن هؤلاء الذين يرجون شفاعتهم سوف ييئسونهم ويخذلونهم؛ وذلك تنبيه لهم في دار الدنيا على فساد هذه الطريقة[1].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ من الهدى العام، أي: دلوهم وأرشدوهم إلى صراط الجحيم، أي :طريق النار ليسلكوها إليها، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ راجع إلى الثلاثة: الذين ظلموا، وأزواجهم، وما كانوا يعبدون من دون الله.

وقد دلت هذه الآية أن الهدى يستعمل في الإرشاد والدلالة على الشر، ونظير ذلك في القرآن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج:٤].

ولذلك كان للشر أئمة يؤتم بهم فيه؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١][2].

موضوعات ذات صلة:

الاختلاف، الأخوة، الأمة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم ٥٠/ ١٥.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٣١٠.

الأجل

عناصر الموضوع

مفهوم الأجل	٣٨٢
الأجل في الاستعمال القرآني	٣٨٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٨٤
حقيقة الآجال	٣٨٦
أجل الإنسان	٣٩٤
أجل الأمم	٣٩٩
أجل الكون	٤٠٣
الأجل في العبادات والمعاملات	٤٠٧
الأجل في الآخرة	٤١٥

مفهوم الأجل

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (أ ج ل) تدل على خمس معانٍ مختلفة، كل واحدةٍ أصلٌ في نفسها[١].

وأما (الأَجَل): فغاية الوقت، سواء في الموت، أو الدين، وغير ذلك[٢].

ويقال للمدة المضروبة لحياة الإنسان: أجل، فيقال: دنا أجله، عبارة عن دنو الموت[٣].

واسْتَأْجَلْتُه فَأَجَلَنِي، جعلني إلى مدةٍ[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يطلق الأجل في الاصطلاح على الوقت الذي ينتهي عنده الأجل[٥].

ويطلق على مدة الحياة كلها[٦].

فالأجل: الوقت الذي قدر الله تعالى فيه انقضاء الأشياء الكونية والشرعية، أو الموعد الذي حدده غاية لمعاملاتهم.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٤.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٦/ ١٧٨، تهذيب اللغة، الأزهري، ١١/ ١٣٢.
(٣) المفردات، الراغب الأصبهاني، ص ٦٥.
(٤) الصحاح، الجوهري ٤/ ١٦٢١.
(٥) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، الجمل، ١/ ٥٨.
(٦) الكليات، الكفوي ١/ ٤٩.

الأجل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أجل) في القرآن (٥٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (٥٥) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت بها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢﴾ [المرسلات:١٢]
اسم المفعول	١	﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥]
الاسم المفرد	٥١	﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت:٥]
الاسم المثنى	١	﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ [القصص:٢٨]

وجاء الأجل في الاستعمال القرآني بالمعنى اللغوي، وهو: المدة المضروبة للشيء؛ سواء أكانت مضروبة لحياة الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾ [يونس:٤٩].

أو لعدة المرأة كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٢]. أو غير ذلك[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٤-١٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهمزة ص٢٥-٢٦.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١٠٨-١٠٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ٦٧-٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ العمر:

العمر لغةً:

أصل مادة (ع م ر) تدل على معنين:

أحدهما: بقاءٌ وامتداد زمانٍ.

والآخر: شيءٌ يعلو، من صوتٍ أو غيره.

فالأول العُمُر، وهو الحياة، وهو العَمْر أيضًا[١].

العمر اصطلاحًا:

اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، والتعمير: إعطاء العمر بالفعل أو بالقول على سبيل الدعاء[٢].

الصلة بين الأجل والعمر:

فرق العسكري بينهما بقوله: الأجل: هو آخر مدة العمر المضروبة في علمه تعالى، فهو لا يتبدل، والعمر: هو ما يتبدل ويحتمل الزيادة والنقصان»[٣].

٢ الوقت:

الوقت لغةً:

وقت: قال الليث: الوقت: مقدارٌ من الزمان. وكل شيءٍ قدرت له حينًا فهو موقت، وكذلك ما قدرت غايته فهو موقت. والميقات: مصدر الوقت... ويقال: وقتٌ موقوتٌ وموقت[٤].

الوقت اصطلاحًا:

المقدار المحدود من الزمن[٥].

الصلة بين الأجل والوقت:

وبالنظر في تعريف الوقت وتعريف الأجل نجد أن بينهما خصوصًا وعمومًا مطلقًا، فكل

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ١٤٠.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ٢٤٧.
(٣) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ١٨.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري، ٩/ ١٨٩.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٣٤٠.

وقتٍ أجلٌ على اعتبار أن الوقت هو: نهاية الزمان المفروض للعمل [١].

وهذا هو الأجل كما رأينا سابقًا -، وليس العكس فليس كل أجل وقتٌ على اعتبار أن الوقت هو: المقدار من الدهر [٢].

٣ المدة:

المدة لغةً:

مددت الشيء فامتد والمادة الزيادة المتصلة، ومد الله في عمره. ومده في غيه، أي أمهله وطول له... ورجلٌ مديد القامة، أي: طويل القامة، ومدةٌ من الزمان: برهة منه [٣].

المدة اصطلاحًا:

هي حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها مع تلاصق أجزائها وتعاقب أبعاضها [٤].

الصلة بين الأجل والمدة:

أما الفرق بينهما فالأجل في الأصل موضوع للمدة المضروبة للشيء.

قال الله تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر:٦٧]. في المدة المضروبة لحياة الإنسان [٥].

وعليه فالأجل نهاية المدة المعلومة.

(١) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ٩٤٥.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) الصحاح، الجوهري، ٢/ ٥٣٧.
(٤) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ٨٧٤.
(٥) بصائر ذوي التمييز، الفيروزابادي، ٢/ ١٠٨.

حقيقة الآجال

ارتبطت الآجال التي قدرها الله تعالى ارتباطًا وثيقًا بقدر الله في هذا الكون، فبعضها قد استأثر الله بعلمه وبعضها قد عرفه لخلقه وبعضها قد وضعه البشر مواقيت بينهم، وكل ذلك بحكمة الله وعلمه وتقديره وأسرار حكمته وتشريعه.

أولًا: العلم بالآجال:

ظهر لنا من التعريف القرآني للأجل أن الأجل إما أن يكون كونيًا أو شرعيًا مقدرًا من الله تعالى، أو أن يكون أجلًا مضروبًا بين الناس بعضهم بعضًا، وعليه فإن العلم بالأجل فرعٌ عن هذه الأقسام على النحو الآتي:

١. آجال اختص الله بعلمها.

وهي الآجال التي قدرها الله تعالى في هذا الكون والحياة الدنيا والآخرة من الخلق والتكوين والعمر والموت والعذاب والإهلاك والبعث والقيامة ومقادير السماوات والأرض والأفلاك.

قال تعالى في بيان استئثاره بعلم أجل الخلق والموت والنشور ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام: ٢].

ومعنى قوله ﴿عِندَهُ﴾ أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ۝٤٤﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤][1].

وقال جل ثناؤه في تقدير وقوع الهلاك على الأمم المستحقة له: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣﴾ [العنكبوت: ٥٣].

«يقول تعالى ذكره: ويستعجلك يا محمد هؤلاء القائلون من قومك: لولا أنزل عليه آية من ربه بالعذاب، ويقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولولا أجل سميته لهم فلا أهلكهم حتى يستوفوه ويبلغوه، لجاءهم العذاب عاجلًا.

وقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وليأتينهم العذاب فجأة، وهم لا يشعرون بوقت مجيئه قبل مجيئه»[2].

أما أجل الحياة وانقضاؤها بالموت ففيه آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢١٤.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٥٤.

﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠﴾ [الأنعام: ٦٠].

«يعني تعالى ذكره: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾، يثيركم ويوقظكم من منامكم ﴿فِيهِ﴾ يعني: في النهار، و(الهاء) التي في ﴿فِيهِ﴾ راجعة على ﴿بِالنَّهَارِ﴾ ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، يقول: ليقضي الله الأجل الذي سماه لحياتكم، وذلك الموت، فيبلغ مدته ونهايته[1].

وقد كتب الله لهذه الدنيا أجلًا وختامًا هو وقت البعث والنشور لا يعلم وقته إلا هو.

قال جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤﴾ [هود: ١٠٣-١٠٤].

أي: ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناسٍ معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة. ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: لمدةٍ مؤقتةٍ لا يزاد عليها ولا ينتقص منها[2].

وبين سبحانه أنه خلق الأفلاك وقدر سيرها وانقضاء أجلها بعلمه: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

(١) المصدر السابق، ١١/ ٤٠٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣٠٠.

يقول جل ثناؤه: كل ذلك يجري في السماء ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: لوقت معلوم، وذلك إلى فناء الدنيا وقيام القيامة التي عندها تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنكدر النجوم[3] [4].

ومما استأثر الله بعلمه من آجال الخلق والتكوين أيضًا مدة مكث الجنين في رحم أمه، قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

والأجل: الأمد المجعول لإتمام عملٍ ما، والمراد هنا: مدة الحمل... ولكل مولودٍ مدةٌ معينةٌ عند الله لبقائه في رحم أمه قبل وضعه. والأكثر استكمال تسعة أشهرٍ وتسعة أيام، وقد يكون الوضع أسرع من تلك المدة لعارضٍ، وكلٌّ معينٌ في علم الله تعالى[5].

مراتب الغيب: إن لعلم الغيب مراتب، أعلاها: ما اختص بعلمه الله وحده، ومن الغيب ما أطلع عليه ملائكته، ولكنه غيبٌ بالنسبة لبقية الملائكة وللبشر عمومًا، فهذا غيب نسبي.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا في تفسيره، لقوله تعالى ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]. حيث بين علة

(٣) تكوير الشمس: ذهاب ضوئها، وانكدار النجوم: انتثارها وذهاب نورها. انظر: التفسير الميسر، نخبة من المفسرين، ص ٥٨٦.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٦/ ٣٢٦.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ٢٠٠.

تقييد الأجل المسمى الثاني بـ(عنده) فقال: أما قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

فالأجل الأول هو أجل كل عبدٍ؛ الذي ينقضي به عمره، والأجل المسمى عنده هو: أجل القيامة العامة. ولهذا قال: ﴿مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ فإن وقت الساعة لا يعلمه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌ مرسلٌ، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

بخلاف ما إذا قال: ﴿مُّسَمًّى﴾ كقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البقرة: ٢٨٢].

إذ لم يقيد بأنه مسمًى عنده فقد يعرفه العباد، وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد وأجله وعمله وشقيٌ أو سعيدٌ، كما قال في الصحيحين عن ابن مسعودٍ قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفةً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلماتٍ فيقال: اكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌ أو سعيدٌ، ثم ينفخ فيه الروح)[1].

فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يعلمه الله لمن شاء من عباده. وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو[2].

٢. آجالٌ شرعها الله لبعض معاملات البشر.

وهي بطبيعة الحال آجالٌ عرفها الله عباده ليتعبدوه بالتزامها واتباعها فهي معلومة مرقومة جعلها الله آجالًا لبعض العبادات والمعاملات كعدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها وكتابة الدين ووقت نحر الهدي.

قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: ٣٣].

والأجل المسمى هو وقت نحرها، وهو يومٌ من أيام منًى. وهي الأيام المعدودات[3].

٣. ما ضربه الناس بينهم من آجال باختيارهم.

وهو معلوم أيضًا بطبيعة الحال كسابقه، ولكنه يخالفه في أن القسم الثاني أجلٌ شرعيٌ مقدرٌ من عند الله وهذا أجلٌ وضعه البشر فيما بينهم وقد ورد عليه مثال واحدٌ في كتاب الله تعالى وهو الأجل الذي جعله أبو المرأتين اللتين سقا لهما نبي الله موسى عليه السلام على موسى.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٨، ٤/ ١١١.

(٢) مجموع الفتاوى، ١٤/ ٤٨٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ٢٥٨.

إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص:٢٧-٢٨].

﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ أي: تصير أجيرًا عندي، ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ أي: ثماني سنين، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالًا شاقة، وإنما استأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه... فـ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام - مجيبًا له فيما طلبه منه -: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك، ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدنا عليه[1].

فهذا عقدٌ بين أبي المرأتين وموسى عليه السلام بأن يكون مهر تزويج موسى لابنته عملًا، وليس الأجل المضروب هنا أجلًا شرعيًا؛ كونه اندرج في معاملة شرعية، وهي مهر الزواج فالمهر هو العمل وليس الأجل ولم يرد في شرع الله تأقيتٌ لأي عملٍ يكون مهرًا، فالتأقيت هنا عقدٌ بشري والدليل على ذلك أن الرجل خير موسى بين أجلين.

ثانيًا: الأجل بين المحو والإثبات:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد:٣٨-٣٩].

لكل أجلٍ كتابٌ، يقول: لكل أمرٍ قضاه الله كتابٌ قد كتبه فيه، وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، تقديره أي: لكل كتابٍ أجلٌ ومدةٌ أي: الكتب المنزلة لكل واحدٍ منها وقتٌ ينزل فيه[2].

لم يقع الخلاف بين السلف في معنى ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ إلا على قولين متقاربين كما رأيت أعلاه، ولكن الخلاف الكبير وقع بينهم في معنى المحو والإثبات في الآية التي تليها والمتصلة بها اتصالًا وثيقًا.

قال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

وسأسوق باختصار أقوالهم قبل أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦١٤.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢٦.

أحاول الوقوف على أرجحها وأكثرها ارتباطًا بالنص القرآني:

سعيد بن جبيرٍ وقتادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه.

ابن عباسٍ: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة.

عمر وابن مسعود: يمحو السعادة والشقاوة أيضًا، ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء.

الضحاك والكلبي: يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيءٍ ليس فيه ثوابٌ ولا عقابٌ.

عطية عن ابن عباسٍ: هو الرجل يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالةٍ، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بطاعة الله، فيموت وهو في طاعة الله عز وجل، فهو الذي يثبت.

الحسن: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: من جاء أجله يذهب به، ويثبت من لم يجئ أجله إلى يوم أجله.

سعيد بن جبيرٍ: يمحوا الله ما يشاء من ذنوب العباد فيغفرها، ويثبت ما يشاء فلا يغفرها.

السدي: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: القمر، ويثبت يعني الشمس، بيانه قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم، فمن أراد موته محاه فأمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه، بيانه قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢][1].

ويمكن إجمال هذه الأقوال في اتجاهات خمسة هي:

١. أن الآية تتحدث عن القدر الذي كتبه الله تعالى سواء في اللوح المحفوظ أو كتبته الملائكة في الصحف.
٢. أن الآية تتحدث عن الشرائع السماوية نسخًا وإثباتًا.
٣. أن الآية تتحدث عن كتابة الحسنات والسيئات على الأعمال.
٤. أن الآية تتحدث عما نفذ من قضاء الله تعالى وما لم يزل مؤجلًا في الأزل.
٥. أن الآية تتحدث عن أحداث كونية لبعض مخلوقات الله كالأفلاك والروح.

ولكي نحاول ترجيح أولى الأقوال بمعنى الآية فإننا ينبغي أن نقف على سياق الآية، فإن السياق من المقيدات والمحددات كما هو معلوم عند أهل التفسير، فهذه الآيات تتحدث عن رجوع الأمر إلى الله في كل

(١) المصدر السابق.

شأن، حتى في شأن أوليائه الأنبياء وشأن المعجزات التي يأتون بها تأييدًا لدعوة الله، فحتى هذا النبي الذي إنما يأتي بالمعجزات نصرة لدين الله وتأييدًا له، لا يمكن أن يأتي بهذه الآية إلا بإذن الله تعالى وتقديره.

يقول ابن كثير: وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨].

أي: لم يكن يأتي قومه بخارقٍ إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مدةٍ مضروبةٍ، كتابٌ مكتوبٌ بها، وكل شيءٍ عنده بمقدارٍ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠][1].

إذًا فأرجح الأقوال في تفسير المحو والإثبات هو القول الأول المتعلق بما قدره الله تعالى وكتبه على عباده، ولكن ما معنى المحو والإثبات هنا؟ وهل يتغير قدر الله كما يظهر من لفظ الآية؟

لن نخوض في أقوال العلماء في هذه المسألة التي خاضوا فيها كثيرًا، وهي من مسائل العقيدة في مبحث القضاء والقدر ولكننا نختار ألصق الأقوال بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة فقال:

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٤٠٣.

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه)[2].

وقد قال بعض الناس: إن المراد به: البركة في العمر بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير، قالوا: لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان، فيقال لهؤلاء: تلك البركة، وهي الزيادة في العمل والنفع، هي أيضًا مقدرةٌ مكتوبةٌ وتتناول لجميع الأشياء، والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلًا في صحف الملائكة فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب.

ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته، فأراه إياهم فرأى فيهم رجلًا له بصيصٌ فقال: من هذا يا رب؟ فقال: ابنك داود، قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنةً، قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنةٍ، قال: فقد وهبت له من عمري ستين سنةً، فكتب عليه كتابٌ، وشهدت عليه الملائكة، فلما حضرته الوفاة قال: قد بقي من عمري ستون سنةً، قالوا: وهبتها لابنك داود، فأنكر ذلك

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم ٢٠٦٧، ٣/ ٥٦.

فأخرجوا الكتاب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فنسي آدم فنسيت ذريته، وجحد آدم فجحدت ذريته)[1].

فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنةً ثم جعله مائةً.

وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال: اللهم إن كنت كتبتني شقيًا، فامحني واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت[2].

والله سبحانه عالمٌ بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له، وما يزيده إياه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها، فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف، ولا يبدو له ما لم يكن عالمًا به، فلا محو فيه ولا إثبات[3].

وقد ساق الألوسي شواهد كثيرة على تحقق وقوع المحو والإثبات في قضاء الله عز وجل، نذكر بعضها هنا من كلامه:

«ورأيت في نسخة لبعض الأفاضل كانت عندي وفُقِدَت في حادثة بغداد، ألفت في هذه المسألة، وفيها أنه ما من شيء إلا ويمكن تغييره وتبديله حتى القضاء الأزلي، واستدل لذلك بأمور:

١. منها: أنه قد صح من دعائه صلى الله عليه وسلم في القنوت: (وقني شر ما قضيت)[4]، وفيه طلب الحفظ من شر القضاء الأولي، ولو لم يمكن تغييره ما صح طلب الحفظ منه.

٢. ومنها: ما صح في حديث التراويح من عذره صلى الله عليه وسلم عن الخروج إليها، وقد اجتمع الناس ينتظرونه لمزيد رغبتهم فيها بقوله: (خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها)[5]، فإنه لا معنى لهذه الخشية لو كان القضاء الأزلي لا يقبل التغيير، فإنه إن كان قد سبق القضاء بأنها ستفرض فلا بد أن تفرض، وإن سبق القضاء بأنها لا تفرض فمحال أن تفرض على ذلك الفرض، على أنه قد جاء في حديث فرض الصلاة ليلة المعراج بعد ما هو

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، رقم ٣٠٧٦، ٥/ ٢٦٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الدولابي في الكنى والأسماء، رقم ٨٧٢، ٢/ ٤٨١.

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١٤/ ٤٩٠ - ٤٩٢.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر، جزء من رقم ١٤٢٥، ٢/ ٥٦٣.
قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب قيام شهر رمضان، جزء من رقم ١٣٧٣، ٢/ ٥٢٤.
قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

ظاهر في سبق القضاء بأنها خمس صلوات مفروضة لا غير، فما معنى الخشية بعد العلم بذلك لولا العلم بإمكان التغيير والتبديل.

٣. ومنها: ما صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يضطرب حاله الشريف ليلة الهواء الشديد حتى أنه لا ينام، وكان يقول في ذلك: (أخشى أن تقوم الساعة)، فإنه لا معنى لهذه الخشية أيضًا مع إخبار الله تعالى أن بين يديها ما لم يوجد إذ ذاك؛ كظهور المهدي، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك مما يستدعي تحققه زمانًا طويلًا، فلو لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أن القضاء يمكن تغييره، وأن ما قضي من أشراطها يمكن تبديله، ما خشي صلى الله عليه وسلم من ذلك.

٤. ومنها: أن المبشرين بالجنة كانوا من أشد الناس خوفًا من النار، حتى أن منهم من كان يقول: «ليت أمي لم تلدني»، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول: «لو نادى منادٍ: كل الناس في الجنة إلا واحدًا، لظننت أني ذلك الواحد»، وهذا مما لا معنى له مع إخبار الصادق وتبشيره له بالجنة، والعلم بأن القضاء لا يتغير.

٥. ومنها: أنه لولا إمكان التغيير لَلُغِيَ الدعاء؛ إذ المدعو به إما أن يكون قد سبق القضاء بكونه، فلا بد أن يكون، وإلا فمحال أن يكون، وطلب ما لا بد أن يكون، أو محال أن يكون، لغوٌ مع أنه قد ورد الأمر به، والقول بأنه لمجرد إظهار العبودية والافتقار إلى الله تعالى وكفى بذلك فائدة، يأباه ظاهر قوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠].

٦. وأيضًا: أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله تعالى يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر»[(١)][(٢)].

ثالثًا: أسرار إخفاء الآجال:

كما ذكرنا سابقًا فإن من الأجل ما استأثر الله بعلمه، ومنه ما يعلمه البشر فما هي الأسرار والحكم التي تكون وراء إخفاء هذه الآجال عن البشر؟

لقد أخفى الله تعالى الآجال المرتبطة بحياة الإنسان؛ من انقضاء عمرٍ، وحلول عذابٍ، ويوم بعثٍ ونشورٍ، وإنما كان هذا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، رقم ١٨١٣، ١/ ٦٦٩.
حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم ٧٧٣٩، ٢/ ١٢٧٩.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٦١ - ١٦٢.

لحكمٍ كثيرة، لعل من أهمها فتح باب الاجتهاد والعمل، وإغلاق باب التفريط والتسويف وطول الأمل، فإن العبد الذي لا يدري متى ينقضي عمره وينتهي أجله، يبقى في ترقبٍ دائمٍ، وتوقعٍ مستمرٍ لمفارقة هذه الدنيا، وبالتالي فإن صاحب كل ذي عقلٍ ينبغي أن يستعد ليوم الحساب، ويتأهب ليوم الفراق الذي لا يعرف متى وقوعه، فهذا يحمله على دوام التأهب، والحرص على ألا يغادر إلا وهو على عمل خير وخاتمة رشد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

قال ابن عاشور: «وهذا المركب مستعملٌ في غير معناه؛ لأنه مستعملٌ في النهي عن مفارقة الدين بالإسلام مدة الحياة، وهو مجازٌ تمثيليٌ علاقته اللزوم، لما شاع بين الناس من أن ساعة الموت أمرٌ غير معلومٍ كما قال الصديق [(١)]:

كل امرئٍ مصبحٌ في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

فالنهي عن الموت على غير الإسلام يستلزم النهي عن مفارقة الإسلام في سائر أحيان الحياة»[(٢)].

(١) البيت ينسب إلى حكيم النهشلي، كان يرتجز به وهو يقاتل.
انظر: نهاية الأرب، النويري، ١٥/ ٣٨١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٣١.

أجل الإنسان

الإنسان هو المخلوق الذي كرمه الله تعالى في هذا الكون، وشرفه بعبادته، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، واتصاله بذلك بوحي السماء، ولذا كان لهذا الإنسان النصيب الأعظم في كتاب الله تعالى؛ هدايةً وعنايةً وتربيةً وبيانًا وإرشادًا، وقد حظيت مراحل خلق هذا الإنسان وحياته بالبيان القرآني، بدءًا بإيجاده من عالم الذر، ومرورًا بخلقه في بطن أمه وخروجه، وحياته على وجه هذه الأرض، وليس انتهاءً بموته وإقباره، بل خروجه ونشوره يوم البعث.

وسيتناول هذا المبحث ما قدره الله تعالى من آجال الإنسان منذ تكوينه في بطن أمه حتى مفارقته هذه الدنيا.

أولًا: أجل الخلق والتكوين:

يقول الله تعالى في معرض الحث على التفكر في مخلوقاته من الإنسان والسماوات والأرض: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم: ٨].

يقول تعالى منبهًا على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يعني به: النظر

والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدًى ولا باطلًا، بل بالحق، وأنها مؤجلةٌ إلى أجلٍ مسمى وهو يوم القيامة[1].

وقد بين الله تعالى أن أجل هذا الإنسان مكتوب معلوم قبل أن يخرج هذا الإنسان للحياة.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: ٦٧].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ عبارة تتردد في الأدراج المذكورة كلها، فمن الناس من يموت قبل أن يخرج طفلًا، وآخرون قبل الأشد، وآخرون قبل الشيخوخة، وقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي: هذه الأصناف كلها مخلوقة ميسرة ليبلغ كل واحد منها أجلًا مسمى لا يتعداه ولا يتخطاه[2].

ثانيًا: أجل وضع الجنين:

قدر الله تعالى وقتًا معلومًا مقدرًا لكل نسمة تنشأ من نطف ابن آدم وتستقر في الأرحام، فهي تمر في خلقها وتقديرها هذا في أطوارٍ كَتَبَها الله تعالى، وقدر لكل نطفة ما شاء من هذه الأطوار نقصًا أو تمامًا، وكل ذلك مؤجلٌ معلوم عند الخالق البارئ البديع.

يقول تعالى ذاكرًا هذه الأطوار وقدره سبحانه وتعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥].

قال: يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلاكم، استعظامًا منكم لذلك، فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم عليه السلام من تراب، ثم إنشاءنا لكم من نطفة آدم، ثم تصريفنا لكم أحوالًا، حالًا بعد حال، من نطفة إلى علقة، ثم من علقة إلى مضغة، لكم معتبرًا ومتعظًا تعتبرون به... المخلقة المصورة خلقًا تامًا، وغير مخلقة: السقط قبل تمام خلقه... فمن كنا كتبنا له بقاء وحياة إلى أمد وغاية، فإنا نقره في رحم أمه إلى وقته الذي جعلنا له أن يمكث في رحمها، فلا تسقطه، ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٧٥.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٥٦٨.

من رحمها أذنا له بالخروج منها، فيخرج[1].

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المراحل لتكوين الجنين في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق، قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلماتٍ، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم ينفخ فيه الروح)[2].

فهذه مراحل تكوين الجنين في رحم أمه، ولكن الأجل المذكور في هذا الحديث والذي يؤمر الملك بكتابته ليس هو أجل وضع الجنين نقصًا أو اكتمالًا في بطن أمه وإنما هو أجل عمر من قدر له الحياة.

ثالثًا: أجل حياة الإنسان:

حياة الإنسان مقدرة معلومة البداية والنهاية، فهي تقدير العزيز العليم، فهو سبحانه ما خلقنا عبثًا، بل لمهمة عظيمة هي عبادته وإقامة شريعته، وجعل هذه الدنيا دار اختبار ومرورٍ لدار الجزاء والقرار، فكان من حكمته سبحانه أن يجعل لكل إنسان أجلًا مقدرًا تتم فيه حياته، وينقضي فيه إعذاره.

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام: ٢].

«وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ قال سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عباسٍ: «﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ يعني: الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يعني: الآخرة».

وهكذا روي عن مجاهدٍ، وعكرمة، وسعيد بن جبيرٍ، والحسن، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطية، والسدي، ومقاتل بن حيان، وغيرهم.

وقول الحسن في رواية عنه: «﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ وهو ما بين أن يُخلق إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث». هو يرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسانٍ، وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها»[3].

ولما كانت مسألة الآجال وانتهاء الأعمار مما يخشاه البشر كثيرًا ويؤملون عدم ورودها، فقد أكد الله تعالى على حتميتها بحيث إن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر، بل هو مكتوب من عند الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ

(١) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٥٦٧ ٥٦٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٨، ٤/ ١١١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢١٤.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

جيء في هذا الحكم بصيغة الجحود للمبالغة في انتفاء أن يكون موتٌ قبل الأجل... ومثل هذه الحقائق تلقى في المقامات التي يقصد فيها مداواة النفوس من عاهاتٍ ذميمةٍ، وإلا فإن انتهاء الأجل منوطٌ بعلم الله لا يعلم أحدٌ وقته، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]... والمراد بـ(إذن الله): تقديره وقت الموت، ووضعه العلامات الدالة على بلوغ ذلك الوقت المقدر، وهو ما عبر عنه مرةً بـ(كن)، ومرةً بقدرٍ مقدورٍ، ومرةً بالقلم، ومرةً بالكتاب.

والكتاب في قوله: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ يجوز أن يكون اسمًا، بمعنى: الشيء المكتوب، فيكون[1].

وقال أيضًا: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١١].

جاءت هذه الآية تعقيبًا على أمنية العبد أن يؤخر الله أجله ولو شيئًا يسيرًا يبادر فيه إلى العمل الصالح، ولكن هيهات، فهذا أمر مقضي لا يتأخر، ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي: وبادروا إلى الإنفاق من بعض ما رزقناكم، في سبيل الخير العام... من قبل مجيء أسباب الموت ومشاهدة علاماته، فيقول الواحد منكم: هلا أمهلتني يا رب، وأخرت موتي إلى مدة أخرى قصيرة، فأتصدق بمالي، وأكن من الصالحين المستقيمين، وهذا دليل على أن كل مفرط أو مقصر في عمل الخير يندم عند الاحتضار...

وقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠] مطالبةٌ بالعودة إلى الدنيا والإمهال، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ﴾ تعالى أي نفس عن الموت أو قبض الروح إذا حضر أجلها، وانقضى عمرها، والله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها، بالخير خيرًا، وبالشر شرًا، وهذا حض على المبادرة لعمل الخير، ومسابقة الأجل بالعمل الصالح، إن الندم من أي إنسان على التفريط وطلب العودة إلى الدنيا لتدارك التقصير عما فاته، لا يفيد الإنسان شيئًا، فلات ساعة مندم، فقد تم القضاء، ونفذ الأمر، ولا أمل في النجاة إلا بالعمل الصالح. وهذا حض على المبادرة لعمل الخير، ومسابقة الأجل بالعمل الصالح[2].

رابعًا: الإعجاز العلمي وتحديد الآجال:

برز الإعجاز القرآني في كتاب الله تعالى بحديثٍ دقيقٍ عن مراحل تكوين الجنين في رحم أمه بحيث جاءت متطابقة تطابقًا تامًا مع ما اكتشفه العلم الحديث عبر كل

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ١١٤.

(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢٦٦٨.

وسائل التكنولوجيا المتطورة من تصوير وفحص جيني وكيميائي وغير ذلك، وقد مر بنا آية من كتاب الله ذكرت أطوار الجنين في رحم الأم، وبينت أن كل هذه الأطوار بدءًا وإتمامًا أو نقصًا وسقطًا إنما هي آجال أجلها وكتبها الله عز وجل بعلمه وحكمته، يقول الدكتور محمد علي البار: من خلال آيات القرآن نستطيع أن نحدد معالم أطوار الجنين الإنساني وهي: (١) نطفة، (٢) علقة، (٣) مضغة مخلقة وغير مخلقة، (٤) عظام، (٥) لحم يكسو العظام، (٦) التسوية والتصوير (خلق آخر) والتعديل، (٧) نفخ الروح [(١)].

وقد اتضح هذا الإعجاز القرآني في العصر الحديث، وتجلت بكل وضوح مراحل وأطوار خلق الجنين، فإن ثمة علمٌ تاريخه حديثٌ، اسمه علم الأجنة، وهو علم تكون الجنين في رحم الأم، وقد تقدم هذا العلم في السنوات الأخيرة تقدمًا كبيرًا، حتى أصبح بإمكان الأطباء والعلماء أن يصوروا الجنين وهو في الرحم في مراحل نموه وتطوره، فهناك صورةٌ للجنين في الأسبوع الثالث، وصورةٌ في الأسبوع الرابع، وصورةٌ في الأسبوع الخامس، وصورةٌ في الأسبوع السادس، ويعنينا من كل هذه الصور صورةٌ للجنين في رحم الأم وهو في بداية الأسبوع السادس، ماذا نرى؟ نرى الأنف مختلطًا بالفم، متصلًا بالعين، نرى اليد كأنها مجدافٌ قصيرٌ، نرى الرأس ملتصقًا بالجذع، هذه صورة الجنين في بداية الأسبوع السادس، فإذا انتهى هذا الأسبوع ابتعد الرأس عن الجذع، وتوضحت معالم العينين، ومعالم الأنف، ومعالم الفم، وملامح اليدين، والرجلين، هذه الملامح هي ملامح نهاية الأسبوع السادس، والأسبوع سبعة أيام، فإذا ضربنا سبعةً بستةٍ، فالناتج هو: اثنان وأربعون (٤٢).

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلةً، بعث الله إليها ملكًا، فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكرٌ أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجله، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص**)[(٢)(٣)].

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد علي البار، ص ٣٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم ٢٦٤٥، ٤/ ٢٠٣٧.

(٣) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، ١/ ٨٧.

أجل الأمم

جعل الله الناس شعوبًا وقبائل وأممًا ليتعارفوا وتكون بينهم الحياة الطيبة يعمرون هذه الأرض بعبادة الله وبنشر الحق والخير، ولكن الشياطين اجتالتهم وحملت بعض الأمم على بعض فاستكبروا وعتو وسعوا بالباطل في هذه الأرض، ونسوا سنن الله في خلقه فجاءت آيات الكتاب العزيز كي تذكر الأمم بأن الله تعالى جعل لهم أعمارًا وآجالًا إليها ينتهون، وجعل لمن عتا منهم عقوبة بها يرتدعون.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

ولكل جماعة اجتمعت على تكذيب رسل الله، ورد نصائحهم، والشرك بالله، مع متابعة ربهم حججه عليهم أجل.

«يعني: وقت لحلول العقوبات بساحتهم، ونزول المثلات بهم على شركهم، فإذا جاء الوقت الذي وقته الله لهلاكهم، وحلول العقاب بهم لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يمتعون بالحياة فيها عن وقت هلاكهم وحين حلول أجل فنائهم ساعة من ساعات الزمان ولا يتقدمون بذلك أيضًا عن الوقت الذي جعله الله لهم وقتًا للهلاك»[1].

أولًا: فناء الأمم.

ومما هو معلوم مكتوب في أم الكتاب، آجال الأمم والشعوب وما قد قدر لها من آثار على وجه هذه الأرض، فكم من أمةٍ اندرست واندثرت آثارها، وكم من شعوبٍ تتابع بعضها على ديار بعض، وكم من أمةٍ أبقاها الله دهرًا وأمدها، وهكذا.

يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩].

لكل قوم ميقاتٌ لانقضاء مدتهم وأجلهم، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم لا يستأخرون عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون، ولا يستقدمون قبل ذلك، لأن الله قضى أن لا يتقدم ذلك قبل الحين الذي قدره وقضاه[2].

ثانيًا: هلاك الأمم.

وإن لم يكن اندثار الأمم بفنائها واندراسها مع مرور الزمان جاء فناؤها بهلاكها عقوبةً من عند الله تعالى على انحرافها وسيرها في طريق الشيطان.

يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [الحجر: ٤-٥].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٠٥.

(٢) المصدر السابق، ١٥/ ١٠٠.

يخبر تعالى أنه ما أهلك قريةً إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيهٌ لأهل مكة وإرشادٌ لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك[1].

وقد تتتابع العقوبات على أمة ما قبل أن يحين هلاكها فلا يكون تتابعها أو شدتها مظنة لتعجيل هلاكهم، فإن أجل الهلاك لا يتقدم مهما زادت العقوبات.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣٦].

حين نزل العذاب الشديد وتواترت ألوان العقاب على فرعون وقومه الكافرين من الجراد والضفادع والدم وطوفان الماء وغيرها من الآيات التسع، حينئذ اضطرب قوم فرعون واشتد فزعهم، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربه، بسبب ما عهد الله عنده من النبوة والرسالة والكرامة والمحبة وصلة العهد مع الله من طاعة موسى ونعمه عليه، وأقسموا له: لئن كشفت عنا بدعائك ذلك العذاب، لنصدقن برسالتك، ونؤمنن بما جئت به من عند ربك، ولنرسلن معك بني إسرائيل إلى حيث تتوجه وتريد، ليتمكنوا من عبادة ربهم كما شاؤوا.

وهذا عهد من فرعون وملئه الذين بيدهم الحل والعقد، ولكن قوم فرعون لما كشف الله عنهم العذاب، وأزال عنهم العقاب مرة بعد مرة، مؤقتًا إلى أجل محدود، منتهون إليه حتمًا، فمعذبون فيه، وهو الغرق، إذا هم ينقضون العهد ويحنثون في كل مرة، ولم ينفعهم ما تقدم في حقهم من الإمهال.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي: غاية كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك والموت، في الغرق المنتظر... ولما كشف الله العذاب (وهو الرجز) عن قوم فرعون من قبل مرات ومرات، ولم يقلعوا عن كفرهم وجهلهم، ثم حان الأجل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٥٢.

المؤقت لعذابهم، انتقم الله منهم، بأن أهلكهم بالغرق في البحر؛ بسبب تكذيبهم بآيات الله التي نزلت عليهم كلها، وكانوا غافلين عنها وعما يتبعهم من العذاب في الدنيا والآخرة[1].

ثالثًا: استعجال العذاب لا يغير أجله.

يستعدي ابن آدم بجهله، ويستعجل وقوع العذاب بطيشه، ويسيء الظن بربه فيظن أن ربه لا يقدر عليه، فتدفعه رعونته إلى أن يطلب من الرسل أن ينزل الله بهم العذاب، ولكن الله تعالى برحمته الواسعة يمهلهم إلى أجلهم المكتوب لهم.

يقول سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، نزلت في النضر بن الحارث حين قال: فأمطر علينا حجارة من السماء، ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، قال ابن عباسٍ: ما وعدتك أني لا أعذب قومك، ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة، كما قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر:٤٦]. وقال الضحاك مدة أعمالهم؛ لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب، وقيل: يوم بدرٍ، ﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ يعني: العذاب، وقيل: الأجل، ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه[2].

ورحمة الله تعالى سابقة سابغة فهو لا يعاجل المستعجل بالعقوبة رحمة به ورأفة بعباده، وقد بين سبحانه سبب عدم معاجلة المستعجل بالعقوبة وحكمة تأجيل الآجال والعذاب.

يقول: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١١].

وهذا إجمال ينبىء بأن الله جعل نظام هذا العالم على الرفق بالمخلوقات واستبقاء الأنواع إلى آجالٍ أرادها، وجعل لهذا البقاء وسائل الإمداد بالنعم التي بها دوام الحياة، فالخيرات المفاضة على المخلوقات في هذا العالم كثيرةٌ، والشرور العارضة نادرةٌ ومعظمها مسببٌ عن أسبابٍ مجعولةٍ في نظام الكون وتصرفات أهله... فهذه الجملة معطوفةٌ على جملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ٧] الآية.

فحيث ذكر عذابهم الذي هم آيلون إليه ناسب أن يبين لهم سبب تأخير العذاب عنهم في الدنيا لتكشف شبهة غرورهم وليعلم الذين آمنوا حكمةً من حكم تصرف الله في هذا الكون.

فبينت هذه الآية أن الرفق جعله الله

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٧١٤ ٧١٥.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٥٦٤.

مستمرًا على عباده غير منقطعٍ عنهم؛ لأنه أقام عليه نظام العالم إذ أراد ثبات بنائه، وأنه لم يقدر توازي الشر في هذا العالم بالخير؛ لطفًا منه ورفقًا، فالله لطيفٌ بعباده، وفي ذلك منةٌ عظيمةٌ عليهم، وأن الذين يستحقون الشر لو عجل لهم ما استحقوه لبطل النظام الذي وضع عليه العالم [(١)].

ومن جهة موازية فإن الله تعالى يبين أن الآجال لا ترتبط بحجم ظلم البشر وطغيانهم وفسادهم وإفسادهم على هذه الأرض، وإلا لو كان ذلك كذلك ما بقي على وجهها أحد.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أي: بشركهم ومعصيتهم، ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لم يترك على ظهر الأرض من دابة، ودل الإضمار على الأرض؛ لأن الدواب إنما هي على الأرض، يقول: أنا قادر على ذلك. ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت معلوم، ويقال: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ لأنه لو أخذهم بذنوبهم لمنع المطر، وإذا منع المطر لم يبق في الأرض دابة إلا أهلكت، ولكن يؤخر العذاب إلى أجل مسمى.

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لو عذب الله الخلائق بذنوب بني آدم، لأصاب العذاب جميع الخلائق، حتى الجعلان في جحرها، ولأمسكت السماء عن الأمطار، ولكن يؤخرهم بالفضل والعفو». ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: أجل العذاب ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي: لا يتأخرون عن الوقت ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدمون قبل الوقت [(٢)].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ١٠٦.

(٢) تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٧٩٩.

أجل الكون

أبدع الله سبحانه وتعالى هذا الكون بعلمه وقدرته، وبدأه بأمره وإرادته، وقدر له أجلًا تكون فيه نهايته، وقضى فيه سننه ونواميسه وقوانينه التي بها يكون حفظه واستمراريته، وقد حظي هذا الكون بعناية خاصة في آيات كتاب الله تعالى توجيهًا للنظر فيه وتدبر إتقان صنعته لإدراك عظمة الباري وتمام حكمته، وقد برزت حكمة الله تعالى وتجلت في تلك الدقة المتناهية في هذه الصنعة المنسجمة على عظم حجمها وارتفاع سمائها وانبساط أرضها، فجعل لهذا الكون برمته قدرًا وأجلًا دقيقًا دقةً ما زال البشر يطلعون على جانب ضئيل منها ويكتشفون في كل يوم جديدًا عنها.

أولًا: أجل الأجرام السماوية:

أجل السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم هو المدة التي قدرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتثرت العوالم وقامت القيامة[1].

وقد بين سبحانه هيمنته على هذه العوالم وتسخيرها إلى أجلٍ مسمى حيث يقول: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]» والتسخير حقيقته تذليل ذي عملٍ شاقٍ أو شاغلٍ بقهرٍ وتخويفٍ أو بتعليمٍ وسياسةٍ بدون عوضٍ، فمنه تسخير العبيد والأسرى، ومنه تسخير الأفراس والرواحل، ومنه تسخير البقر للحلب، والغنم للجز. ويستعمل مجازًا في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عملٍ عجيبٍ أو عظيمٍ من شأنه أن يصعب استعماله فيه، بحيلةٍ أو إلهامٍ تصريفًا يصيره من خصائصه وشؤونه، كتسخير الفلك للمخر في البحر بالريح أو بالجذف، وتسخير السحاب للأمطار، وتسخير النهار للعمل، والليل للسكون، وتسخير الليل للسير في الصيف، والشمس للدفء في الشتاء، والظل للتبرد في الصيف، وتسخير الشجر للأكل من ثماره حيث خلق مجردًا عن موانع تمنع من اجتنائه مثل الشوك الشديد.

وقد أطلق التسخير في السماوات والأرض والشمس والقمر مجازًا على جعلها خاضعةً للنظام الذي خلقها الله عليه بدون تغييرٍ، مع أن شأن عظمها أن لا يستطيع غيره تعالى وضعها على نظامٍ محدودٍ منضبطٍ... والجري: المشي السريع استعير لانتقال الشمس في فلكها وانتقال الأرض حول الشمس وانتقال القمر حول الأرض، تشبيهًا بالمشي السريع لأجل شسوع المسافات التي تقطع في خلال ذلك.

وزيادة قوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للإشارة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ٨١.

إلى أن لهذا النظام الشمسي أمدًا يعلمه الله، فإذا انتهى ذلك الأمد بطل ذلك التحرك والتنقل، وهو الوقت الذي يؤذن بانقراض العالم، فهذا تذكيرٌ بوقت البعث.

فيجوز أن يكون ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ ظرفًا لغوًا متعلقًا بفعل ﴿يَجۡرِي﴾، أي: ينتهي جريه، أي: سيره عند أجلٍ معينٍ عند الله لانتهاء سيرهما، ويجوز أن يكون ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ متعلقًا بفعل ﴿وَسَخَّرَ﴾ أي: جعل نظام تسخير الشمس والقمر منتهيًا عند أجلٍ مقدرٍ[1].

لطيفة لغوية:

ورد جري الأجرام السماوية متعديًا بحرف (اللام) ثلاث مرات في كتاب الله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الرعد: ٢] [فاطر: ١٣] [الزمر: ٥].

وورد مرة واحدة متعديًا بـ(إلى) وذلك في [لقمان: ٢٩].

وقد نحا كثير من اللغويين إلى تعاقب الحروف فقالوا: إن (اللام) بمعنى (إلى) والعكس.

ولكن هناك فرق تعبيري تصويري لطيف يشير إليه النيسابوري في تفسيره حيث يقول: وقوله هاهنا - أي: في موضع سورة لقمان-: ﴿يَجۡرِي إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، وقوله في فاطر والزمر ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الزمر: ٥] [فاطر: ١٣] يؤول إلى معنًى واحد، وإن كان الطريق مغايرًا؛ لأن الأول معناه انتهاؤهما إلى وقت معلوم، وهو للشمس آخر السنة، وللقمر آخر الشهر...

والثاني: معناه: اختصاص الجري بإدراك أجل معلوم كما وصفنا. ووجه اختصاص هذا المقام بـ(إلى) وغيره بـ(اللام): أن هذه الآية صدرت بالتعجيب فناسب التطويل[2].

وقد وضح الشيخ الشعراوي هذا المعنى بقوله: وفي هذه الآية ورد التعبير بلفظ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [لقمان: ٢٩]، وفي مواضع أخرى ورد بلفظ: ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الرعد: ٢] بـ(اللام) بدلًا من (إلى)، وكذلك في سورتي فاطر والزمر.

ولكل من الحرفين معنى:

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ [لقمان: ٢٩] تعطينا الصورة لمشية الشمس والقمر قبل وصولهما الأجل.

إنما ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [فاطر: ١٣] أي: الوصول المباشر للأجل[3].

وكأن هذا الحرف (إلى) يدعو الإنسان إلى أن ينظر ويتفكر في سير هذه الأجرام الباهرة العظيمة؛ كي يدرس جريانها ومسارتها، ويقف على عظمة خالقها أكثر فأكثر.

(١) المصدر السابق، ٨/ ١٦٩، ٢١/ ١٨٦.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري، ٥/ ٤٣٠.

(٣) تفسير الشعراوي، ١٩/ ١١٧٤١.

ثانيًا: الإعجاز العلمي وتحديد أجل الكون:

مما لا ريب فيه أن هذا الكون قائمٌ على نظام دقيق بديع ينبئ عن خالق عليم حكيم، ومما بات معلومًا لدى العلماء تضمن هذا الكتاب العزيز إشارات بينة على حقائق كونية باهرة يكتشف العلم في كل يوم منها قدرًا يزيد اليقين بصدق هذا الكتاب الحكيم، وقد ذكر القرآن الكريم كما مر أعلاه أن الله تعالى جعل لهذا الكون بأجرامه وسمواته وأرضه قدرًا معلومًا وأجلًا محتومًا يسير في كنفه هذا الكون العظيم إلى أن يبلغ أجلًا مسمًى تنقضي عنده الدنيا بأجرامها.

وقد أشارت النظريات العلمية الحديثة التي تفسر نشوء الكون إلى هذه الحقيقة؛ إذ إن البراهين كلها تشير إلى أن هذا الكون كله في حركة تمدد دؤوب مستمرة، وقطعًا فإن هذا التمدد سيصل إلى نقطة يتلاشى عندها الكون، وتنبئ الأجهزة التي يستخدمها علماء الفلك بأن المجرات والنجوم والكواكب جميعًا في حركة دائبة، وأن هذه الحركة تؤدي إلى تمدد مستمر...

ومن هذه الحسابات، أن سرعة تمدد الجزء الذي تدركه حواسنا من هذا الكون هي ٢٣٥ مليون ميل في الدقيقة، وأن هذا التمدد قد نشط من ١٨ ألف مليون سنة من السنين التي نعرفها على الأرض، وأنه بدأ بانفجار هائل تعارف العلماء على تسميته: (بج بانج/ Big Bang)، وكل المجرات وما تضمنه من أجرام تتحرك في نظام وتوقيت رباني محكم، بما يؤكد التوزان المطلق الذي شاء الرحمن أن يكون في كل مخلوقاته، كبيرها وصغيرها، فهناك تجاذب بين الأجرام السماوية والأرض، كالتجاذب بين الأرض والأجسام الواقعة على سطحها، وهناك توازن بين قوى التجاذب بحيث لا تختل حركة الأجرام في دورانها في أفلاكها[1].

يقول الدكتور محمد دودح: عرض القرآن الكريم لأهوال نهاية العالم في صور بيانية تعكس الحقيقة بتلطف؛ والتي بالكاد أوشكت أن تدركها الفيزياء الفلكية اليوم، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧].

المعنى المتبادر: أن يفسح جو الأرض والمعهود بالزرقة حين يبدأ في التفسخ والتلاشي عن كتلة حمراء ضخمة ملتهبة تتأجج وتغطي معظم السماء، بدلا عن الشمس؛ أشبه في اللون والتضخم بوردة حمراء تتفتح، وفي الالتهاب والسيولة واللمعان والتموج بزيت الدهان وهو يتأجج على النار، ونطالع في التصورات العلمية

(١) القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية، ص٢٧.

المتوقعة لمصير الشمس؛ أنها ليست من الضخامة بحيث تنتهي إلى ما يسمى فيزيائيًا ثقب أسود Black Hole، أو إلى ما يسمى نجم نيوتروني Neutron Star؛ وإنما تنتفخ وتتحول إلى عملاق أحمر Red Giant من شدة الحرارة، يبلغ قطره من ١٥ إلى ٤٥ مرة مثل قطر الشمس حاليًا، ويعادل لمعانه حوالي مائة مرة أو أكثر مثل لمعان الشمس، ويبتلع في طريقه ما يجاوره، والحد الذي يحدد مصير النجم بعد انفجاره قيمته ١,٤ قدر كتلة الشمس (حد تشاندراسيخار)، يتحول النجم دونه لقزم أبيض؛ وهذا هو حال الشمس.

وفي المقابل يعرض القرآن الكريم لمشاهد تكمل الصورة؛ كإبادة الكواكب وجمع الشمس والقمر وانشقاق الجو لينفتح المشهد على عملاق أحمر ينتفخ من شدة الانفجار ويدفع بألسنة النار في كل صوب مثل وردة حمراء تتفتح أوراقها؛ وكزيت الدهان يتأجج ناثرًا قطرات حارقة، وتقترب الشمس فتطال الأرض وتصهر كل ما عليها، وتصبح عملاقًا أحمر ووردة حمراء في الأسفل.

وتنفجر الأرض وتطرح ما فيها من أثقال وتتخلى عن كل ما عليها؛ وتمحى كل مظاهر الحياة، ولا وجود حينئذ لبشر يشاهد فخلى الوصف من المشاهد؛ وفي الختام تنكمش الشمس وتطوى كلفافة وتكور لتصبح قزمًا أبيض White Dwarf ثم تموت، ويمنح السياق فسحة كبيرة لتتصور المخيلة ما لم تصرح به الكلمات من مشاهد القدرة المفزعة؛ التي أحالت كل العالم خراب [1].

(١) مصير الشمس في ضوء القرآن، مقال للدكتور محمد دودح، نشر بتاريخ ١/ ٥/ ٢٠١٤م على موقع صوت القرآن: quran-m.com.

الأجل في العبادات والمعاملات

وكما جعل خالق هذا الكون لمخلوقاته أجلًا ينتهون إليه وقدرًا معلومًا يصيرون إليه، فقد جرت سنته هذه أيضًا في ما شرع وقدر لعباده فجعل شرائعه قائمة على آجال تنضبط بها أحوال الناس من عبادات ومعاملات بينهم، ولذا فإننا نجد هذه الآجال في الكتاب العزيز على نوعين: آجال في العبادات، وآجال في المعاملات.

ويعرف الفقهاء الأجل بأنه: المدة المستقبلة التي يضاف إليها أمرٌ من الأمور، سواءٌ كانت هذه الإضافة أجلًا للوفاء بالتزام، أو أجلًا لإنهاء التزام، وسواءٌ كانت هذه المدة مقررةً بالشرع، أو بالقضاء، أو بإرادة الملتزم فردًا أو أكثر.

وهذا التعريف يشمل:

أولًا: الأجل الشرعي، وهو المدة المستقبلة التي حددها المشرع الحكيم سببًا لحكم شرعي، كالعدة.

ثانيًا: الأجل القضائي: وهو المدة المستقبلة التي يحددها القضاء أجلًا لأمرٍ من الأمور كإحضار الخصم، أو البينة.

ثالثًا: الأجل الاتفاقي، وهو المدة المستقبلة التي يحددها الملتزم موعدًا للوفاء بالتزامه (أجل الإضافة)، أو لإنهاء تنفيذ هذا الالتزام (أجل التوقيت) سواءٌ كان ذلك فيما يتم من التصرفات بإرادةٍ منفردةٍ أو بإرادتين[1]. [2]

والذي ورد في كتاب الله تعالى من هذه الآجال هو الأجل الشرعي ويكون في العبادات، والأجل الاتفاقي وهو في المعاملات.

أولًا: الأجل في العبادات:

تميزت العبادات في شريعة الإسلام بانضباطها بأوقات وأماكن وأحوال مخصوصة فالصلاة والزكاة والصوم والحج، أمهات العبادات هذه كلها ذوات أوقات بدء وانتهاء متناهية في الدقة والانضباط، وهذه العبادات وغيرها مما هو بين العبد وربه، ولكن هناك عبادات تكون في المعاملات بين الناس كالزواج والطلاق والوصية والميراث، وهذه معاملات شرع الله تعالى فيها أحكامًا تعبدية وضبطها بآجال معلومة كي لا يقع فيها الخطأ أو تعمد الضرر؛ إذ إن هذه الأمور مما يكون للنفس

(١) الإرادتان هما الإيجاب والقبول، وهذا من شأنه أن يرتب التزامًا في جانب كلٍ من الطرفين كالبيع والإجارة والمزارعة، أما الإرادة الواحدة فهو إيجاب الطرف الملتزم وحده كالوقف والوصية لغير معينٍ والضمان والهبة. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويت، ٦/ ١٤٦.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ٢/ ٥.

فيها حظ الأثرة وحب جلب المنفعة ولو على حساب الآخرين، وهي مما يقع فيه الخلاف كثيرًا بين الناس، ولذا فإنك ترى أن القرآن الكريم اعتنى بشكل بين بضبط آجال أحوال انقضاء الحياة الزوجية سواء بالطلاق أو الوفاة، وكذلك ذكر أجل انقضاء المنفعة بالأنعام التي تهدى إلى الحرم حتى لا يتجاوز فيها الأنسان فيظلم الفقير.

١. أجل المرأة المتوفى عنها زوجها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤].

يعني: شرعًا؛ فما وجد من متوفى عنها زوجها لم تتربص فليس ذلك من الشرع، فجرى الخبر على لفظه... والتربص: هو الانتظار، ومتعلقه ثلاثة أشياء: النكاح، والطيب والتنظف، والتصرف والخروج... والمقصود بهذه العدة براءة الرحم من ماء الزوج؛ فامتناع النكاح إنما هو لأجل الماء الواجب صيانته أولًا. وامتناع عقد النكاح إنما هو لاستحالة وجوده شرعًا على محل لا يفيد مقصوده فيه وهو الحل... وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يعني: انقضت العدة.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ هذا خطابٌ للأولياء، وبيان أن الحق في التزويج لهن.

﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: من جائزٍ شرعًا، يريد من اختيار أعيان الأزواج، وتقدير الصداق دون مباشرة العقد؛ لأنه حقٌّ للأولياء[1].

٢. أجل المطلقة.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة:٢٣١-٢٣٢].

وهاتان آيتان تجيئان في سياق الحديث عن الطلاق وأحكامه في سورة البقرة.

يقول الصابوني متحدثًا عن أجل المطلقة: يقول الله تعالى ما معناه: الأزواج المطلقات اللواتي طلقهن أزواجهن لسبب من الأسباب على هؤلاء انتظار مدة من

(١) أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٢٧٩ - ٢٨٤.

الزمن هي مدة (ثلاثة أطهار)، أو (ثلاث حيض)؛ لمعرفة براءة الرحم حتى لا تختلط الأنساب، وأزواجهن أحق بهن في الرجعة من الأجانب، إذا لم تنقض عدتهن، وكان الغرض من هذه الرجعة (الإصلاح) لا (الإضرار) ولهن من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف على أزواجهن، مثل الذي عليهن من الطاعة فيما أمر الله عز وجل [(١)].

ويأتي الأجل في الآية الأولى احترازًا عن فعل كان يفعله العرب في الجاهلية ويفعله كثير من الناس عمومًا وهو مضارة المرأة بجعلها معلقة لا زوجة ولا مطلقة فقد.

أخرج الطبري بسنده عن الحسن أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ قال: «كان الرجل يطلق المرأة ثم يراجعها ثم يطلقها ثم يراجعها، يضارها، فنهاهم الله عن ذلك» [(٢)].

ولذا فقد أمر تعالى في الآية بأحد فعلين: إما الإمساك بإحسان، أو التسريح بإحسان.

أما الأجل في الآية الثانية فيأتي احترازًا عن فعل يكون من جهة أهل المطلقة عضلًا ومنعًا لها أن تعود إلى زوجها نكاية فيه لما حصل بينهم من سوء وطلاق آنفًا، وقد نزلت هذه الآية في معقل بن يسار وأخته رضي الله عنهما، فعن الحسن أن أخت معقل بن يسارٍ طلقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها، فأبى معقلٌ»، فنزلت: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] [(٣)].

إشكال:

قال الشيخ الشنقيطي: ظاهر قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] انقضاء عدتهن بالفعل، ولكنه بين في موضعٍ آخر أنه لا رجعة إلا في زمن العدة خاصةً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ لأن الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ راجعةٌ إلى زمن العدة المعبر عنه بثلاثة قروءٍ [(٤)] في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فاتضح من تلك الآية أن معنى ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن انقضاء العدة، وأشرفن على بلوغ أجلها [(٥)].

---

(١) تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، ١/ ٣٢١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن)، رقم ٤٥٢٩، ٦/ ١٦.

(٤) قروء: جمع قرء بالفتح والضم، ويطلق في كلام العرب على الحيض وعلى الطهر فهو من الأضداد.
انظر: تفسير آيات الأحكام، الصابوني، ١/ ٣١٨.

(٥) أضواء البيان، الشنقيطي، ١/ ١٤٩.

٣. أجل المطلقة الحامل.

يقول تعالى في عدة المطلقة ذات الحمل: ﴿وَالَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطلاق: ٤].

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ أجل الشيء الانتفاع بها على هذا القول، وأجله أيضًا آخر مدته، والمراد بالأجل هنا: آخر المدة التي تتربصها المرأة، أي: آخر عدتهن أن يضعن حملهن، وظاهر هذا أن المعتدة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل، سواء أكانت معتدة عن طلاق أم عن وفاة[(١)].

وقد دل على أن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها هي وضع حملها: حديث سبيعة بنت الحارث الأسلمية، فعن عبد الله بن عتبة قال: أن سبيعة بنت الحارث أخبرته: (أنها كانت تحت سعد ابن خولة، وهو من بني عامر بن لؤيٍ، وكان ممن شهد بدرًا، فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حاملٌ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها[(٢)]، تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعككٍ، رجلٌ من بني عبد الدار، فقال لها: ما لي أراك تجملت للخطاب، ترجين النكاح؟ فإنك والله ما أنت بناكحٍ حتى تمر عليك أربعة أشهرٍ وعشرٌ، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي)[(٣)].

وفي ختام ذكر هذه الآجال يؤكد القرآن الكريم على الالتزام بها والوقوف عندها حتى تستقيم أحوال العباد، ولا يتجرأ من يتجرأ على حدود الله وحرمات الناس وأعراضهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾ [البقرة: ٢٣٥].

إن المرأة في عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت، وبمشاعر أسرة الميت، ومرتبطة

(١) تفسير آيات الأحكام، السايس، ٧٨٤.

(٢) تعلت من نفاسها: أي ارتفعت وطهرت. ويجوز أن يكون من قولهم: تعلى الرجل من علته إذا برأ: أي خرجت من نفاسها وسلمت. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣/ ٢٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، رقم ٣٩٩١، ٥/ ٨٠.

كذلك بما قد يكون في رحمها من حمل لم يتبين، أو حمل تبين والعدة معلقة بوضعه.. وكل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة. لأن هذا الحديث لم يحن موعده، ولأنه يجرح مشاعر، ويخدش ذكريات.

ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض -لا التصريح- بخطبة النساء، أبيحت الإشارة البعيدة التي تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها... كذلك أبيحت الرغبة المكنونة التي لا يصرح بها لا تصريحًا ولا تلميحًا؛ لأن الله يعلم أن هذه الرغبة لا سلطان لإرادة البشر عليها، وقد أباحها الله لأنها تتعلق بميل فطري، حلال في أصله، مباح في ذاته، والملابسات وحدها هي التي تدعو إلى تأجيل اتخاذ الخطوة العملية فيه. والإسلام يلحظ ألا يحطم الميول الفطرية إنما يهذبها، ولا يكبت النوازع البشرية إنما يضبطها، ومن ثم ينهى فقط عما يخالف نظافة الشعور، وطهارة الضمير... ولم يقل: ولا تعقدوا النكاح، إنما قال: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾، زيادة في التحرج، فالعزيمة التي تنشئ العقدة هي المنهي عنها، وذلك من نحو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧]، توحي بمعنى في غاية اللطف والدقة، وهنا يربط بين التشريع وخشية الله المطلع على السرائر. فللهواجس المستكنة وللمشاعر المكنونة هنا قيمتها في العلاقات بين رجل وامرأة، تلك العلاقات الشديدة الحساسية، العالقة بالقلوب، الغائرة في الضمائر.

وخشية الله، والحذر مما يحيك في الصدور أن يطلع عليه الله هي الضمانة الأخيرة، مع التشريع، لتنفيذ التشريع [(١)].

٤. أجل الشعائر.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج:٣٢-٣٣].

فضمير الغائب (ها) هنا في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ عائد على الشعائر وبحسب اختلاف أهل التفسير في معنى الشعائر اختلفوا في معنى الأجل المرتبط بها، وقد سرد الطبري أقوالهم وجمع بينها كما يلي:

القول الأول: عنى بالشعائر: البدن، واختلفوا في منافعها؛ فقال قومٌ: منافعها قبل تسميتها بدنة وقبل تقليدها أو إيجابها فتكون منافعها بشرب ألبانها وركوب ظهورها وأخذ نتاجها وأولادها، وعليه يكون الأجل المسمى هو وقت إيجابها بتسميتها بدنة أو هديًا فينقطع بذلك الانتفاع بها.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٢٥٥ - ٢٥٦.

وقال آخرون: إن المنافع هنا بعد اتخاذ البدن هدايا وإيجابها، ويكون الانتفاع بها على هذا القول بركوب ظهورها عند الحاجة، وشرب ألبانها عند الاضطرار؛ وعليه يكون الأجل المسمى في الآية هو نحرها.

القول الثاني: عنى بالشعائر: شعائر الحج، وهي الأماكن التي ينسك عندها لله، وهؤلاء أيضًا اختلفوا في المنافع؛ فقال قومٌ: التجارة عند هذه الشعائر والبيع والشراء والتسبب، وعليه يكون الأجل المسمى الخروج من هذه الأماكن إلى غيرها.

وقال آخرون: المنافع هنا: هي العمل لله بما أمر من مناسك الحج، وعليه يكون الأجل المسمى انقضاء أيام الحج التي ينسك لله فيها [(١)].

ثم قال الطبري بعد سرد هذه الأقوال: وقد دللنا قبل على أن قول الله تعالى ذكره: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ معني به: كل ما كان من عمل أو مكان جعله الله عَلَمًا لمناسك حج خلقه، إذ لم يخصص من ذلك جل ثناؤه شيئًا في خبر ولا عقل، وإذ كان ذلك كذلك فمعلوم أن معنى قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ في هذه الشعائر منافع إلى أجل مسمى، فما كان من هذه الشعائر بُدنًا وهَدْيًا، فمنافعها لكم من حين تملكون إلى أن أوجبتموها هدايا وبدنًا، وما كان منها أماكن ينسك لله عندها، فمنافعها التجارة لله عندها، والعمل بما أمر به إلى الشخوص عنها، وما كان منها أوقاتًا بأن يطاع الله فيها بعمل أعمال الحج ويطلب المعاش فيها بالتجارة، إلى أن يطاف بالبيت في بعض، أو يوافي الحرم في بعض ويخرج عن الحرم في بعض [(٢)].

الأجل في المعاملات:

لا تستقيم معاملات الناس فيما بينهم إلا بوضوح أركانها وأطرافها وكمها وكيفها، فالنفس مفطورة على حب التملك، وإذا أطلق لها العنان في هذا التملك ظلمت غيرها وتعدت، ولذا فقد قضت حكمة الله تعالى أن يجعل بين الناس في معاملاتهم حدودًا وآجالًا تنضبط بها هذه المعاملات، وقد جاءت هذه الآجال في باب المعاملات عامة غير مقيدة بأوقات ومدد كتلك التي رأينا في باب العبادات؛ لأن المعاملات ترجع إلى ما يتعارفه الناس بينهم إلا ما حرمه الشارع الحكيم، فالأصل كما يقول الأصوليون في باب المعاملات الحل، إلا ما حرمه الشارع الحكيم، وقد ورد الحديث عن الأجل في باب المعاملات في موضعين،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٦٢٣-٦٢٥.

(٢) المصدر السابق، ١٨/ ٦٢٦.

أحدهما يرتبط ببيع السلم أو الأجل، والآخر في المعاملات المتعلقة بالشركات والإجارة والمضاربة ونحوها.

١. الأجل في البيوع الآجلة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وحقيقة الدين: عبارةٌ عن كل معاملةٍ كان أحد العوضين فيها نقدًا والآخر في الذمة نسيئةً، فإن العين عند العرب ما كان حاضرًا، والدين ما كان غائبًا.

قال الشاعر [(١)]:

وعدتنا بِدِرْهَمَيْنَا طِلاءً
وشِواءً معجلًا غير دين

وعلى هذا المعنى يدخل في هذه الآية كل بيع نسيئة مما يصح فيه الأجل؛ كبيع سلعة حاضرة بنقود مؤجلة، أو بسلعة أخرى مؤجلة، وكبيع سلعة مؤجلة، أي: إلى أجلٍ مسمًى مع معرفة الجنس والنوع والقدر بثمن حال، وهو السلم [(٢)].

والأجل المسمى هو المضبوط المبين بالأيام أو الشهور أو بأي طريقة ترفع الجهالة عن وقت انقضاء هذا الأجل، فقد كان أهل المدينة إبان قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبايعون بأجل مجهول وبكيل مجهول أيضًا فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث، فقال: (من أسلف في شيءٍ، ففي كيلٍ معلومٍ، ووزنٍ معلومٍ، إلى أجلٍ معلومٍ) [(٣)].

وقال ابن عمر: كان أهل الجاهلية يتبايعون لحم الجزور إلى حبل الحبلة. وحبل الحبلة: أن تنتج الناقة ثم تحمل التي نتجت. فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك [(٤)].

وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن السلم الجائز أن يسلم الرجل إلى صاحبه في طعامٍ معلومٍ موصوفٍ، من طعام أرضٍ عامةٍ لا يخطئ مثلها، بكيلٍ معلومٍ، إلى أجلٍ معلومٍ، بدنانير أو دراهم معلومةٍ، يدفع ممن ما أسلم فيه قبل أن يفترقا من

(١) البيت منسوب إلى شخص يدعى الأقيشر.
انظر: المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، ابن السري الكندي الرفاء، ص ١٥٢.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٧٧٣.

(٢) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس، ١٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب السلم، باب السلم في وزن معلوم، رقم ٢٢٤٠، ٣/ ٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب السلم، باب السلم إلى أن تنتج الناقة، رقم ٢٢٥٦، ٣/ ٨٧.

مقامهما الذي تبايعا فيه[1].

٢. الأجل في الشركات.

قال تعالى في قصة نبي الله موسى عليه السلام مع شعيب: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص:٢٦-٢٨].

هذه الآيات تتحدث عن جمع عقد النكاح مع عقد الإجارة، وما يعنينا في بحثنا هذا عقد الإجارة وتحديدًا ضرب الأجل فيه، وقد عرف الفقهاء الإجارة بأنها عقد معاوضةٍ على تمليك منفعةٍ بعوضٍ[2]، وبما أن الإجارة عقد معاوضة فإننا يمكن أن ندخل كل عقود المعاوضة في حكم الآية من حيث ثبوت الأجل فيها، وعقود المعاوضة هي: عقد البيع بأنواعه من المقايضة والسلم والصرف، وعقد الإجارة والاستصناع، والصلح والنكاح والخلع، والمضاربة والمزارعة والمساقاة والشركة ونحوها[3].

وقد اتفق الفقهاء على صحة الأجل (فيما يقبل التأجيل) إذا كان الأجل معلومًا، فأما كيفية العلم به فإنه يحتاج فيها إلى أن يعلم بزمانٍ بعينه لا يختلف من شخصٍ إلى شخصٍ ومن جماعةٍ إلى جماعةٍ، وذلك إنما يكون إذا كان محددًا باليوم والشهر والسنة... وإنما اتفقوا؛ لأن جهالة الأجل تفضي إلى المنازعة في التسلم والتسليم، فهذا يطالبه في قريب المدة، وذاك في بعيدها، وكل ما يفضي إلى المنازعة يجب إغلاق بابه، ولأنه. سيؤدي إلى عدم الوفاء بالعقود، وقد أمرنا بالوفاء بها[4].

[انظر: الوقت: الوقت في الأحكام الشرعية]

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٨٧.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١/ ٢٥٢.

(٣) المصدر السابق، ٣٠/ ٢٣٤.

(٤) المصدر السابق، ٢/ ٣٣.

الأجل في الآخرة

وهذا هو أجل الآجال ومنتهى العمر والأعمال، فكل شيء عند الله بمقدار، إليه يرجع الأمر كله، أوله وآخره، علنه وسره، فإن الله سبحانه بواسع علمه وحكيم صنعته جعل لهذه الحياة أجلًا عنده تنقضي، ووقتًا إليه تنتهي، إنه يوم القيامة، يوم البعث والنشور.

أولًا: أجل يوم القيامة:

وقد وردت الآيات الكثيرة في كتاب الله تعالى التي تبين أن يوم القيامة مؤخرٌ إلى وقت معلوم محدود.

يقول سبحانه: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: ٩٩].

أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروبًا ومدةً مقدرةً لا بد من انقضائها.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤].

وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا تماديًا في باطلهم وضلالهم [(١)].

وقد قضى الله تعالى هذا الأجل منذ الأزل ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام: ٢].

عن سعيد بن جبيرٍ في قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ قال: إلى يوم القيامة.

وروي عن سعيد بن جبيرٍ، وعطية، والضحاك، وعكرمة، والسدي، وعطاءٍ الخراساني، والربيع بن أنسٍ نحو ذلك [(٢)].

وأجل يوم القيامة جاء مانعًا من تعجيل العذاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ هي آخر الأمم.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه: ١٢٩].

بين تعالى الوجه الذي لأجله لا ينزل العذاب معجلًا على من كذب وكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ، والتقدير: ولولا كلمةٌ سبقت من ربك وأجلٌ مسمًى لكان لزامًا.

ولا شبهة في أن الكلمة هي إخبار الله تعالى ملائكته وكتبه في اللوح المحفوظ، أن أمته عليه السلام وإن كذبوا فسيؤخرون ولا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١١٣.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٤/ ١٢٦١.

يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال[1].

وأجل القيامة آتٍ لا محالة لا يحابي أحدًا أو ينتظر أحدًا.

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت:٥-٦].

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملًا موفرًا، فإن ذلك كائنٌ لا محالة لأنه سميع الدعاء بصير بكل الكائنات...

وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [الجاثية: ١٥].

أي: من عمل صالحًا، فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غنيٌّ عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا[2].

ثانيًا: أجل النعيم والعذاب:

وكما اقتضت سنة الله الحكيم العليم بمجازاة المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، فإن هذا الجزاء مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأجل انقضاء الدنيا وحلول البعث الذي فيه الحساب حيث يصير الناس إلى فريقين أهل النعيم وأهل العذاب والجحيم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود:١٠٣-١٠٨].

يخبر الله تعالى عن تأخير يوم القيامة وعذابه إلى أجل معين: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: ما نؤخر إقامة القيامة إلا لانتهاء مدة محدودة في علمنا، لا يزاد عليها ولا ينقص منها، وهي عمر الدنيا، لإعطاء الفرصة الكافية للناس لإصلاح أعمالهم، وتصحيح عقيدتهم.

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ أي: فمن أهل الجمع من الناس في ذلك اليوم شقي معذب لكفره وعصيانه، ومنهم سعيد منعم في الجنان لإيمانه واستقامته، كما أخبر تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

فمن أريد له الشر فعمل الشر، فهو من أهل الشقاوة، ومن أريد له الخير فعمل

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ٢٢/ ١١٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٣٨.

الخير، فهو من أهل السعادة، وكل ميسر لما خلق له... ثم بين الله تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال عن الفريق الأول:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ أي: فأما الأشقياء فهم في جهنم مستقرهم ومثواهم، بسبب اعتقادهم الفاسد وعملهم السيء، لهم من الهم والكرب وضيق الصدر زفير وشهيق، تنفسهم زفير، وإخراجهم النفس، وشهيق، لما هم فيه من العذاب، كما ذكر ابن كثير، مع أن الزفير في العادة هو إخراج النفس، والشهيق: رده.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها على الدوام، مدة بقاء السماوات والأرض، والمراد: التأبيد ونفي الانقطاع، على سبيل التمثيل وقول العرب: أفعل كذا أو لا أفعله ما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وما تغنت حمامة.

ثم ذكر الله تعالى جزاء الفريق الثاني وهم السعداء: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ أي: وأما أهل السعادة وهم أتباع الرسل، فمأواهم الجنة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، مدة دوام السماء والأرض، بمشيئة الله تعالى، عطاء غير منقطع ولا ممنوع، ولكنه ممتد إلى غير نهاية، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق: ٢٥].

قال ابن كثير: معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائمًا، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفس.

فكلٌّ من جزائي أهل النار وأهل الجنة دائمٌ بمشيئة الله تعالى.

فعذاب أهل النار في النار دائمًا مردود إلى مشيئته تعالى، وأنه بعدله وحكمته موافق لأعمالهم.

وثواب أهل الجنة في الجنة بحسب مشيئته تعالى أيضًا، جزاء بما كانوا يعملون.

إلا أنه تعالى أورد فرقًا في ختام آية كل من الفريقين، فقال عقب بيان حال الأشقياء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كما قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال عقب بيان حال السعداء: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ تطييب القلوب، والإشارة إلى أن جزاء المؤمنين هبة منه تعالى وإحسان دائم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة: (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)[1].

وجاء في الصحيحين: (يؤتى بالموت في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم ٥٦٧٣، ٧/ ١٢١.

صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت)[1] [2].

موضوعات ذات صلة:

الدين، الطلاق، العبادة، الوقت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وأنذرهم يوم الحسرة)، رقم ٤٧٣٠، ٦/ ٩٣.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ١٤٩-١٥٣.

الإحسان

عناصر الموضوع

مفهوم الإحسان	٤٢٠
الإحسان في الاستعمال القرآني	٤٢١
الألفاظ ذات الصلة	٤٢٢
الإحسان في حق الله تعالى	٤٢٥
مجالات الإحسان	٤٣٣
جزاء المحسنين	٤٤٩

مفهوم الإحسان

أولًا: المعنى اللغوي:

الإحسان لغة: مصدر حسن، والحسن: ضد القبح ونقيضه، والإحسان: ضد الإساءة[١]، قال ابن فارس: «(حسن) الحاء والسين والنون أصل واحد، فالحسن ضد القبح، يقال: رجل حسن وامرأة حسناء وحسانة، والمحاسن من الإنسان وغيره: ضد المساوي»[٢]. وهو مصدر أحسن يحسن إحسانًا، ويتعدى بنفسه، أو بغيره، تقول: أحسنت كذا، إذا أتقنته، وأحسنت إلى فلان، إذا أوصلت إليه النفع[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

قال الراغب: الإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا عَلِمَ عِلْمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا»[٤].

وقال ابن العربي: «الإحسان مأخوذ من الحسن، وهو كل ما مدح فاعله»[٥].

وعرف الإمام القرطبي الإحسان بأنه: «إتقان العبادة ومراعاتها بأدائها المصححة والمكملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع، وحالة الاستمرار»[٦].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٣/ ١١٧.
(٢) مقاييس اللغة ٢/ ٥٧.
(٣) انظر: تعليق محب الدين الخطيب على فتح الباري ابن حجر ١/ ١٦٤.
(٤) المفردات، ص٢٣٥.
(٥) أحكام القرآن١/ ١٦٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن١٠/ ١٦٧.

الإحسان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حسن) في القرآن (١٩٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٠٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٧	﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٥٤]
الفعل المضارع	٢	﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾[النساء:١٢٨]
فعل الأمر	٢	﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[القصص:٧٧]
أفضل التفضيل	٣٦	﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[النساء:٥٩]
المصدر	١٢	﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[البقرة:٢٢٩]
اسم الفاعل	٣٩	﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[البقرة:١١٢]

وجاء الإحسان في الاستعمال القرآني بمعنى: إجادة العمل وإتقانه وإخلاصه، وهو ضد الإساءة. ويأتي متعديًا بنفسه، كقولك: أحسنت كذا، و في كذا، إذا حسنته وكملته، ومتعديًا بحرف جر، كقولك: أحسنت إلى كذا، أي: أوصلت إليه ما ينتفع به[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الحاء، ص٤٣٣-٤٣٧.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٥٧، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٦٨-٧٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإفضال:

الإفضال لغةً:

هو: الإحسان، يقال: ورجل مفضال وامرأة مفضالة على قومها إذا كانت ذات فضل سمحة، وأفضل عليه وتفضل بمعنى[(١)]، قال ابن فارس: «(فضل) الفاء والضاد واللام أصل صحيح يدل على زيادة في شيء، من ذلك الفضل: الزيادة والخير[(٢)]».

الإفضال اصطلاحًا:

يستعمل لمطلق النفع[(٣)].

وقد وردت آيات في كتاب الله تعالى تدل على أن الإفضال هو الإحسان

منها قوله تعالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤]

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء: ٧٣].

فالمراد به بالفضل في الآيتين: الإحسان من الله بالعافية والسلامة والغنيمة ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: «والله ذو إحسان وطول عليهم بصرف عدوهم الذي كانوا قد هموا بالكرة إليهم، وغير ذلك من أياديه عندهم وعلى غيرهم بنعمه عظيم عند من أنعم به عليه من خلقه»[(٤)].

الصلة بين الإحسان والإفضال:

أن في كليهما نفعًا للغير لكن الإحسان لفظ عام؛ لأن فيه معنى الإتقان والإحكام، وفيه معنى الإحسان من العبد مع الله تعالى.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور١١/ ٥٢٤.
(٢) مقاييس اللغة٤/ ٥٠٨.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص٦٨٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري٧/ ٤١٤

٢ الامتنان:

الامتنان لغةً:

الامتنان لغة: الإحسان والإنعام، من عليه يمن مَنًّا: أحسن وأنعم، والاسم المنة، والمن القطع، ويقال النقص[١].

الامتنان اصطلاحًا:

إحسان المحسن غير معتد بالإحسان، وفي أسماء الله تعالى: الحنان المنان، أي: الذي ينعم غير فاخر بالإنعام[٢]، قال ابن الأثير: «هو المنعم المعطي من المن في كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه»[٣].

الصلة بين الإحسان والامتنان:

أن الامتنان هو الإحسان والإنعام وأن الإحسان أعم منه.

٣ الإنعام:

الإنعام لغةً:

من النعمة، بالفتح، وهي المسرة والفرح والترفه، ومعنى قولهم: أنعمت على فلان، أي: أصرت إليه نعمة[٤]، والنعيم والنعمى والنعماء والنعمة، كله: الخفض والدعة والمال، وهو ضد البأساء والبؤسى. والتنعم: الترفه، والاسم النعمة، ونعم الرجل ينعم نعمة، والنعمة: اليد البيضاء الصالحة والصنيعة والمنة وما أنعم به عليك، ونعمة الله، بكسر النون: ما أعطاه الله العبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه إياه؛ كالسمع والبصر[٥].

الإنعام اصطلاحًا:

إيصال النعمة والإحسان إلى الغير[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٤١٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٤١٨.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر٤/ ٣٦٥.
(٤) انظر: المصدر السابق ٥/ ٨٣.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٢/ ٥٧٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٣/ ٥٠٢.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي، ص ٩١٢، التوقيف على مهمات التعاريف المناوي ص٦٥.

الصلة بين الإحسان والإنعام:

أن الإنعام لا يكون إلا من المنعم على غيره؛ لأنه متضمن بالشكر الذي يجب وجوب الدين، ويجوز إحسان الإنسان إلى نفسه، تقول لمن يتعلم العلم: إنه يحسن إلى نفسه، ولا تقول: منعم على نفسه، والإحسان متضمن بالحمد ويجوز الحامد لنفسه[١].

٤ الإكرام:

الإكرام لغةً:

الإكرام والتكريم لغة هو: أن يوصل إلى الإنسان بنفع لا تلحقه فيه غضاضة، أو يوصل إليه بشيء شريف[٢].

الإكرام اصطلاحًا:

الإكرام والتكريم اصطلاحا هو: التفضيل والاحترام[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفي الإكرام المذكور في الآية أقوال: روي عن ابن عباس أنه قال: هو أكلهم باليد، وسائر الحيوانات يأكلون بأفواههم، وقيل: امتداد القامة وانتصابها، والدواب منكبة على وجوهها، وقيل: بالعقل والتمييز، وقيل: بأن سخر جميع الأشياء لهم، وقيل: بأن جعل فيهم خير أمة أخرجت للناس، وقيل: بالخط والقلم[٤].

الصلة بين الإحسان والإكرام:

أن الإكرام هو الإحسان مع التفضيل والتشريف.

(١) انظر: معجم الفروق اللغوية، العسكري، ص ٨١.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٣ / ٣٣٧.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس وحامد قنيبي، ص١٤٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٦٢.

الإحسان في حق الله تعالى

إن الإحسان في حق الله تعالى يتمثل في كون الإحسان صفة من صفات الله تعالى، وفي إحسان الله تعالى الخلق، وفي إحسان الله تعالى في الرزق، وفي إحسان الله تعالى في الحكم، وفي إحسان الله تعالى في الأجر والثواب، وبيان ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: الإحسان من صفات الله تعالى:

إن الإحسان صفة من صفات الله عز وجل الفعلية الثابتة بالكتاب والسنة، والإحسان في حق الله تعالى يأتي بمعنيين:

١. الإنعام على الغير، وهو زائد على العدل، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

٢. الإتقان والإحكام، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ [التغابن: ٣][1].

الدليل من القرآن الكريم:

- قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨].
- وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].
- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧].
- وقوله جل شأنه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ [التغابن: ٣].

الدليل من السنة النبوية:

- ما رواه أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا حكمتم؛ فاعدلوا، وإذا قتلتم؛ فأحسنوا؛ فإن الله محسن يحب الإحسان)[2].
- ما رواه شداد بن أوس رضي الله عنه؛ قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين؛ أنه قال: (إن الله عز وجل محسن يحب الإحسان، فإذا قتلتم؛ فأحسنوا القتلة)[3][4].

---

(١) انظر: الصفات الإلهية تعريفها، أقسامها، محمد بن خليفة التميمي، ص ٦٥.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم٥٧٣٥ ٦/ ٤٠.
صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم١٨٢٤، ١/ ٣٧٤.

(٣) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه رقم٨٦٠٣، ٤/ ٤٩٢، والطبراني في المعجم الكبير رقم ٧١٢١، ٧/ ٢٧٥.
صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم ١٨٢٤، ١/ ٣٧٤.

(٤) انظر: صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب

والمحسن من أسماء الله تعالى، ومعناه: «إن المحسن مشتق من أحسن يحسن إحسانًا، ومعناه: أن الإحسان وصف لازم له لا يخلو موجود من إحسانه طرفة عين، فلا بد لكل مكون من إحسانه إليه بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، والله جل وعلا يحب من خلقه أن يتقربوا إليه بمقتضى معاني أسمائه، فهو الرحمن يحب الرحماء، وهو الكريم يحب الكرماء، وهو المحسن يحب المحسنين»[1].

وبعبارة أخرى: فإن المحسن في صفات الله معناه: المنعم المتفضل الذي أحسن للناس عقيدة ودينًا وأحسن لهم خلقًا ورزقًا وأحسن لهم مثوبة وأجرًا كرمًا منه وتفضلًا، وبهذا يتبين أن اسم الله المحسن من صفات الذات الثابتة بالسنة النبوية.

ومن خلال الأدلة السابقة يتبين أن الإحسان من صفات الله الفعلية الثابتة بالقرآن والسنة، والصفات الفعلية هي: التي تتعلق بالمشيئة والقدرة، ومنها: الخلق - الرزق الإحسان العدل، وضابط: الصفات الفعلية أنها هي التي تنفك عن الذات، على معنى أن الله إذا شاء لم يفعلها، وأن الصفات الذاتية لا تنفك عن الذات، أما الصفات الفعلية يمكن أن تنفك عن الذات، ولكن مع ذلك فإن كلا النوعين يجتمعان في أنهما صفات لله تعالى أزلًا وأبدًا لم يزل ولا يزال متصفًا بهما ماضيًا ومستقبلًا P لائقان بجلال الله عز وجل[2].

ثانيًا: الإحسان في الخلق:

إن الله تعالى أحسن في الخلق بصفة عامة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾ [السجدة: ٧].

والإحسان في الخلق معناه: أتقن كل شيء وأحكمه، هو مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: ٥٠].

فلم يجعل خلق البهائم في خلق الناس، ولا خلق الناس في خلق البهائم ولكن خلق كل شيء فقدره تقديرًا، قال مجاهد ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾: أعطى كل شيء خلقه، قال: الإنسان إلى الإنسان، والفرس للفرس، والحمار للحمار[3].

يقول تعالى مخبرًا: إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، وقال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾

والسنة، علوي السقاف، ص٥٠.

(١) انظر: بحث: إثبات أن المحسن اسم من أسماء الله الحسنى، د. عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر، منشور في مجلة البحوث الإسلامية العدد٣٦ص٣٧٤ الإصدار ربيع الأول- جمادي الثانية لسنة ١٤١٣هـ.

(٢) انظر: الصفات الإلهية تعريفها، أقسامها، محمد بن خليفة التميمي، ص ٦٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧٠.

قال: أحسن خلق كل شيء، كأنه جعله من المقدم والمؤخر[1].

أما الإحسان في خلق الإنسان على وجه الخصوص، فقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ [التغابن: ٣].

يقول: ومثلكم فأحسن مثلكم، وقيل: أنه عني بذلك تصويره آدم، وخلقه إياه بيده[2].

قال القرطبي: «﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني: آدم عليه السلام، خلقه بيده كرامة، له، قاله مقاتل، الثاني: جميع الخلائق، معنى التصوير: أنه التخطيط والتشكيل. فإن قيل: كيف أحسن صورهم؟ قيل له: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه صورة، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور، ومن حسن صورته أنه خلق منتصبًا غير منكب، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤]»[3].

والمعنى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

وكقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤][4].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤].

قال الإمام ابن جرير: «ومعناه: في أعدل خلق، وأحسن صورة، قال ذلك ابن عباس، وقال آخرون: بل معنى ذلك: لقد خلقنا الإنسان، فبلغنا به استواء شبابه وجلده وقوته، وهو أحسن ما يكون، وأعدل ما يكون وأقومه، وقال آخرون: قيل ذلك لأنه ليس شيء من الحيوان إلا وهو منكب على وجهه غير الإنسان. قال ذلك عن ابن عباس: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ قال: خلق كل شيء منكبًا على وجهه، إلا الإنسان.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: إن معنى ذلك: لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأعدلها»[5].

ولهذا أنكر الله تعالى على من يدعو من لا يخلق فضلًا عن أن يكون محسنًا في الخلق، قال تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝١٢٥﴾ [الصافات: ١٢٥].

والمعنى: ﴿أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾ هو علم لصنم كان من ذهب وكان طوله

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤١٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٣٤.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٥٩.
(٥) جامع البيان ٢٤/ ٥٠٧.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٤٣.

عشرين ذراعًا وله أربعة أوجه، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياء، وكان موضعه يقال له: بك، فركب وصار بعلبك، وهو من بلاد الشأم، ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن المقدرين[1].

ثالثًا: الإحسان في الرزق:

إن الله سبحانه وتعالى أحسن في الرزق كما أحسن في الخلق.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: قال شعيب لقومه: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيان وبرهان من ربي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله، والبراءة من عبادة الأوثان والأصنام، وفيما أنهاكم عنه من إفساد المال ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، يعني: حلالًا طيبًا»[2].

قال الماوردي: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ فيه تأويلان: أحدهما: أنه المال الحلال، قاله الضحاك، قال ابن عباس، وكان شعيب كثير المال، الثاني: أنه النبوة، ذكره ابن عيسى[3]، قال الإمام ابن كثير: «قيل أراد النبوة وقيل أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين»[4].

وقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ٦٧].

فقد رزق الله تعالى من ثمرات النخيل والأعناب، الرزق الحسن، وهو يؤكل من الأعناب والتمور[5]، قال ابن عباس: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك، فأقره الله وجعله حلالًا للمسلمين[6].

قال الماوردي: «قوله عز وجل: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

فيها أربعة تأويلات:

أحدها: أن السكر: الخمر، والرزق الحسن: التمر والرطب والزبيب، وأنزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، ثم حرمت من بعد، قال ابن عباس: السكر: ما حرم من شرابه، والرزق الحسن: ما حل من ثمرته، وبه قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير:

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي٣/ ١٣٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ٤٥٣.
(٣) انظر: النكت والعيون٢ / ٤٩٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٢٩٦.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ٢٠٩.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٧/ ٢٢٨٨.

والسكر: الخمر، والنبيذ المسكر.

واختلف من قال بهذا هل خرج مخرج الإباحة أو مخرج الخبر على وجهين:

أحدهما: أنه خرج مخرج الإباحة ثم نسخ، قاله قتادة.

الثاني: أنه خرج مخرج الخبر أنهم يتخذون ذلك وإن لم يحل، قاله ابن عباس.

الثاني: أن السكر: النبيذ المسكر، والرزق الحسن: التمر والزبيب، قاله الشعبي والسدي، وجعلها أهل العراق دليلًا على إباحة النبيذ.

الثالث: أن السكر: الخل بلغة الحبشة، الرزق الحسن: الطعام.

الرابع: أن السكر: ما طعم من الطعام، وحل شربه من ثمار النخيل والأعناب، وهو الرزق الحسن، وبه قال أبو جعفر الطبري»[1].

وإحسان الله تعالى في الرزق لا يقتصر على الدنيا، بل ذلك يشمل أيضًا الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الحج: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق: ١١]

أي: رزقهم الله الجنة التي لا ينقطع نعيمها، ولا يزول[2].

ويعني بالرزق: ما رزقهم فيها من المطاعم والمشارب، وسائر ما أعد لأوليائه فيها، فطيبه لهم[3].

رابعًا: الإحسان في الحكم:

بين الله تعالى أنه أحسن الحاكمين، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

قال تعالى موبخًا اليهود الذين أبوا قبول حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ولهم من اليهود، ومستجهلًا فعلهم ذلك منهم، ومن هذا الذي هو أحسن حكمًا، أيها اليهود، من الله تعالى ذكره عند من كان يوقن بوحدانية الله، ويقر بربوبيته؟ يقول تعالى ذكره: أي حكم أحسن من حكم الله، إن كنتم موقنين أن لكم ربًا، وكنتم أهل توحيد وإقرار به؟[4].

والمعنى: أن الجاهلية كانوا يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضيع، وكانت اليهود تقيم الحدود على الضعفاء الفقراء، ولا يقيمونها على الأقوياء الأغنياء، فضارعوا الجاهلية في هذا الفعل[5].

(١) انظر: النكت والعيون، ٣/ ١٩٨.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٨٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٣١٦.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٤.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وفي الآية ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعَدَلَ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم.

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء[1].

وبمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

وردت آيات في كتاب الله تعالى، منها: قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ۝٥٧﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأعراف: ٨٧].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦/ ٢١٤.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [يونس: ١٠٩].

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، أي: أن الله خير من يفصل وأعدل من يقضي؛ لأنه لا يقع في حكمه ميل إلى أحد، ولا محاباة لأحد[2]، يعني: أنه حاكم منزه عن الجور والميل والحيف[3].

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۝٤٥﴾ [هود: ٤٥].

يعني: أنت وعدتني أن تنجي أهلي ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني: وأنت أحكم الحاكمين بالعدل[4].

قال الزمخشري: «أي: أعلم الحكام وأعدلهم؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل»[5].

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨].

أي: أتقن الحاكمين صنعًا في كل ما خلق، وقيل: أحكم الحاكمين: قضاء بالحق، وعدلًا بين الخلق[6].

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٣٣.
(٥) انظر: الكشاف ٢/ ٣٩٨.
(٦) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٤١١.

قال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين: ٨]: «يقول تعالى ذكره: أليس الله يا محمد بأحكم من حكم في أحكامه، وفصل قضائه بين عباده؟»[١].

خامسًا: الإحسان في الأجر والثواب:

إن الإحسان في الأجر والثواب من الله تعالى لمن آمن وعمل صالحًا ثابت في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

يعني: الإحسان الذي كانوا يعملون في الدنيا، فيجزيهم بأحسن أعمالهم، ويبقى سائر الأعمال فضلًا[٢].

قال الماوردي: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يجازى على أحسن الأعمال وهي الطاعة، دون المباح منها.

الثاني: مضاعفة الجزاء وهو الأحسن، كما قال تعالى ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]»[٣].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥١٦.
(٢) تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٩٠.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢١٢.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٨].

وفي الآية تقرير وتنبيه على كمال القدرة، ونفاذ المشيئة، وسعة الإحسان؛ لأن ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كناية عن السعة، وأنه لا يدخل تحت حساب الخلق وعدهم[٤].

والمراد بـ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾: أعمالهم الحسنة الصالحة؛ لأنها أحسن ما عملوا؛ لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ٧].

والمعنى: ولنثيبنهم على صالحات أعمالهم في إسلامهم، أحسن ما كانوا يعملون في حال شركهم مع تكفيرنا سيئات أعمالهم[٦].

وقيل: نعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن، كما قال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠][٧].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٩١.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن السعدي، ص ٥٦٩.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١١.
(٧) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٥٠.

﴿الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني: أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، وكلها حسن، والأحسن بمعنى الحسن، فيثيبهم عليها، وتتجاوز عن سيئاتهم، فلا نعاقبهم عليها، ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، وهو قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢][1].

وقوله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٨].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني بذلك تعالى ذكره: فأعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم، من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم، وعلى جهاد عدوهم، والاستعانة بالله في أمورهم، واقتفائهم مناهج إمامهم على ما أبلوا في الله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾، يعني: جزاء في الدنيا، وذلك: النصر على عدوهم وعدو الله، والظفر، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾، يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنة ونعيمها»[2].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري٧/ ٢٧٥.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن الله إليه في الآخرة[3].

والمعنى: هل ثواب خوف مقام الله عز وجل لمن خافه، فأحسن فى الدنيا عمله، وأطاع ربه، إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربه، بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا[4].

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥].

أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملًا موفرًا[5].

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٥ / ١٠٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري٢٣/ ٦٧.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٦٢.

﴿ٱلدُّنۡيَاۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: ١٤].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ أي: حسن المرجع والمنقلب، وهي الجنة[1].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري٦/ ٢٥٨.

مجالات الإحسان

مجالات الإحسان في القرآن الكريم أربعة، هي: الإحسان في الاعتقاد، والإحسان في العبادة، والإحسان في المعاملات، والإحسان في الأخلاق، ويمكن بيان ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: الإحسان في الاعتقاد:

العقيدة هي: الأمور التي تصدق بها النفوس وتطمئن إليها القلوب، وتكون يقينًا عند أصحابها لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك مما جاء عن الله تعالى في كتابه الكريم وصح عن رسوله في سننه[2].

والإحسان في الاعتقاد يكون بتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، فالإحسان بتوحيد الربوبية هو بإفراد الله تعالى بالوحدانية، والإقرار بأنه واحد في أفعاله، لا شريك له فيها، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وتدبير الأمور والتصرف في الكون، وغير ذلك مما يتعلق بربوبيته.

قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ١-٤][3].

(٢) انظر: الإحسان في ضوء الكتاب والسنة النبوية، أحمد الغامدي، ص١٩٠.

(٣) انظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني، ص ٩.

فتوحيد الربوبية هو: توحيد الله تعالى بأفعاله، والإقرار بأنه خالق كل شيء ومليكه، وإليه يرجع الأمر كله في التصريف والتدبير، فهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو الذي يرسل الرسل، ويشرع الشرائع، ليحق الحق بكلماته، ويقيم العدل بين عباده شرعًا وقدرًا إلى غير ذلك مما لا يحصيه العد، ولا تحيط به العبارة، وهذا النوع من التوحيد قد أقرت به الفطرة، وقام عليه دليل السمع والعقل[(١)].

والإحسان في توحيد الألوهية: يكون بتوحيده بأفعال العبادة، كالدعاء والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر، وغيرها من أنواع العبادة التي يجب إفراده بها، فلا يصرف منها شيء لغيره، ولو كان ملكًا مقربًا، أو نبيًا مرسلًا، فضلًا عمن سواهما.

وبمعنى آخر فتوحيد الإلهية: هو إفراد الله بالعبادة: قولًا، وقصدًا، وفعلًا، فلا ينذر إلا له، ولا تقرب القرابين إلا إليه، ولا يدعى في السراء والضراء إلا إياه، ولا يستغاث إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، إلى غير ذلك من أنواع العبادة[(٢)].

والإحسان في توحيد الأسماء والصفات: هو إثبات كل ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات على وجه يليق بكماله وجلاله، دون تكييف أو تمثيل، ودون تحريف أو تأويل أو تعطيل، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به.

كما قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

فجمع في هذه الآية بين الإثبات والتنزيه، فالإثبات في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ والتنزيه في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فله سبحانه وتعالى سمع لا كالأسماع، وبصر لا كالأبصار، وهكذا يقال في كل ما ثبت لله من الأسماء والصفات[(٣)].

وقد وردت في القرآن آيات تدل على الإحسان في الاعتقاد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

فالآية تدل على أن الإحسان في الاعتقاد هو لمن استسلم وجهه لله فانقاد له بالطاعة، مصدقا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند ربه وهو محسن، يعني: وهو عامل بما أمره به ربه، محرم حرامه

(١) انظر: مذكرة التوحيد، عبد الرزاق عفيفي، ص ٢٧.

(٢) انظر: مذكرة التوحيد، عبد الرزاق عفيفي، ص ٢٧.

(٣) انظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني، ص ٩.

ومحلل حلاله، ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ يعني بذلك: واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وأمر به بنيه من بعده وأوصاهم به، ﴿حَنِيفًا﴾ يعني: مستقيمًا على منهاجه وسبيله[1].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: ٢٢].

أي: من أسلم فقد استمسك بقول: لا إله إلا الله، وهي العروة الوثقى[2]، وذلك بأن يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى وهو محسن؛ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع[3].

ثانيًا: الإحسان في العبادة:

عرف شيخ الإسلام ابن تيمية العبادة، بأنها: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة»[4].

والإحسان في العبادة يكون بالإخلاص لله تعالى فيها، وقد أمر الله تعالى بالإخلاص في العبادة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

والإسلام قد أسبغ على أعمال الإنسان كلها صفة العبادة، إذا تحقق فيها شرطا قبول العمل، وهما:

أولًا: الإخلاص: بأن يكون العمل خالصًا لوجه الله الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

فينوي العبد أن يكون عمله، وقوله وإعطاؤه، ومنعه، وحبه، وبغضه لله وحده، لا شريك له؛ إذ الأعمال لا تقوم إلا بالنيات، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات)[5]؛ فالنية تتحكم في العمل، وتقلبه

(١) جامع البيان، الطبري٩/ ٢٥٠.
وانظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٢٠.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٤/ ١٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣١٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي١٤/ ٧٤.
(٤) العبودية، ابن تيمية، ص ٤٤.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي صلى الله عليه وسلم، رقم١، ١/ ٦، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إلى عبادة[1].

ثانيًا: المتابعة: بأن يكون العمل على منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهديه القويم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

فالأعمال لا اعتبار لها إلا إذا كانت على الوجه الذي رسمه الشرع، فقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد)[2].

وكل عمل بلا متابعة، فإنه لا يزيد عامله إلا بعدًا من الله؛ فإن الله عز وجل إنما يعبد بأمره، لا بالأهواء، ولا الآراء، والمسلك الحسن ليس في إخلاص العمل لله عز وجل فحسب، ولا في متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فقط، بل في مجموعهما معًا، فإن الله عز وجل ذكر العمل الصالح، فقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

والعمل الصالح هو الخالص الصواب، فإذا جمع العمل هذين الشرطين، كان عبادة[3].

وبخصوص الإحسان في أعمال الحج.

قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٧].

قال ابن جرير: «لم يصل إلى الله لحوم بدنكم ولا دماؤها، ولكن يناله اتقاؤكم إياه إن اتقيتموه فيها فأردتم بها وجهه، وعملتم فيها بما ندبكم إليه وأمركم به في أمرها وعظمتم بها حرماته ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ قال: ما أريد به وجه الله، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: يقول: وبشر يا محمد الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا بالجنة في الآخرة[4]، والمحسنون هم المخلصون في أعمالهم»[5].

ولا يقتصر الإحسان على أعمال الحج فقط، بل يشمل جميع العبادات؛ لعموم قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

فإن من معاني الإحسان في الآية: أداء

(١) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص ٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على جور، فالصلح مردود، رقم ٢٦٩٧، ٣/ ١٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم ١٧١٨، ٣/ ١٣٤٣.

(٣) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص ٩٣.

(٤) جامع البيان١٨/ ٦٤١.

(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي٧/ ٢٤٨.

الفرائض والإخلاص لله تعالى فيها[1].

ثالثًا: الإحسان في العلاقات الاجتماعية:

إن الإحسان في المعاملات في القرآن يأتي في أمور هي:

١. الإحسان إلى الوالدين.

أمر الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما والإنفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما، وللإحسان ضدان، الإساءة وعدم الإحسان، وكلاهما منهي عنه[2].

فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومعنى قضى في الآية: أمر ووصّى، قال ابن عباس: «يريد: وأمر ربك، ليس هو قضاء حكم»، وهو قول مجاهد، والحسن، وقتادة، وعامة المفسرين[4]، وقرن الأمر بالإحسان إلى الوالدين بعبادته وحده جل وعلا يدل على شدة تأكد وجوب بر الوالدين[5].

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥].

والمعنى: ووصينا ابن آدم بوالديه أمرناه بالإحسان إليهما في صحبته إياهما

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٥٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٨.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٧٩.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢ / ٤٩، التفسير الوسيط، الواحدي٣/ ١٠٢.
(٥) انظر: أضواء البيان الشنقيطي٣ / ٨٥.

أيام حياتهما، والبر بهما في حياتهما وبعد مماتهما[1].

٢. الإحسان إلى الزوجة والأولاد.

إن الإحسان إلى الزوجة يكون بالمعاشرة بالمعروف فقد ورد الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

فقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨][2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقًا، وخيركم خيركم لنسائهم)[3].

والإحسان إلى الزوجة كما يكون في حال الزوجية يكون كذلك في حال الطلاق، قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فالإمساك الذي هو بمعروف بعد الطلقة الثانية هو أن يحسن صحابتها، أو تسريح بإحسان، قال ابن عباس رضي الله عنه: أن يسرحها بإحسان، فلا يظلمها من حقها شيئًا، بأن يوفيها حقها ولا يؤذيها ولا يشتمها، وقال: من خالع امرأته فأخذ منها شيئًا أعطاها، فلا أراه سرحها بإحسان[4].

كما جعل الله تعالى من الإحسان إلى الزوجة بعد الطلاق أن أمر لها بالمتعة، وهي عطية يعطيها الزوج لمطلقته.

قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦-٢٣٧].

أي: هذا التمتيع حق ثابت على المحسنين الذين يحسنون إلى أنفسهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١١٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٤٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٢.

(٣) اخرجه الترمذي في سننه، أبواب الرضاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١١٦٢، ٣/ ٤٥٨، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم ١٩٧٨، ١/ ٦٣٦.
والحديث صححه الترمذي، والبوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ١١٨، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم ٣٢٦٥، ١/ ٦٢٠.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٢/ ٤١٩.

بامتثالهم لأوامر الله، وبترضيتهم لنفوس هؤلاء المطلقات اللاتي تأثرن بسبب هذا الفراق. فالآية الكريمة ترفع الإثم عن الرجال الذين يطلقون النساء قبل الدخول بهن وقبل تسمية المهر لهن، متى كانت المصلحة تستدعي ذلك، وتبين الحقوق التي للمرأة على الرجل في هذه الحالة[1].

بل نبه الله تعالى الزوج بأن لا ينسى الإحسان إلى الزوجة حتى بعد الطلاق فقال سبحانه في آخر الآية: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

والمعنى كما قال الإمام البيضاوي: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ «أي: ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع تفضلكم وإحسانكم»[2].

أما الإحسان إلى الأولاد، فيدل عليه عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

فقد أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى بعد الوالدين، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله[3]؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عام يشمل الأصل وهو الأبوان وما يتصل بالمرء من ناحيتهما من أصولها وفصولهما، ويشمل الفصل وهو الأبناء والبنات وما يتصل به منهما من فصول، غير أن الوالدين لمزيد العناية بهما خصصا بالذكر في الآيات المتقدمة، وإن كانا داخلين في هذا العموم[4].

فيكون الإحسان إلى الأولاد بجميع أنواع الإحسان المادية والمعنوية من تربيتهم تربية حسنة وتعليمهم والتلطف بهم ورحمتهم والإنفاق عليهم والعدل بينهم في العطايا والهبات.

لما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: تصدق علي أبي ببعض ماله، فقالت

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٥٤٢.
(٢) أنوار التنزيل ١/ ١٤٧.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٥٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٨.
(٤) انظر: تفسير ابن باديس، ص ٧٩.

أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليشهده على صدقتي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفعلت هذا بولدك كلهم؟) قال: لا، قال: (اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم)، فرجع أبي، فرد تلك الصدقة[1].

٣. الإحسان إلى الأقارب.

إن المراد بالأقارب: من تربطك بهم صلة القرابة سواء أكانوا من المحارم أم لا[2].

وقد أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى بعد الوالدين، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦][3].

وإنما أمر بالإحسان إلى ذي القربى استبقاء لأواصر الود بين الأقارب، إذ كان العرب في الجاهلية قد حرفوا حقوق القرابة فجعلوها سبب تنافس وتحاسد وتقاتل[4].

قال الرازي: «ومعلوم أن الإحسان إلى هؤلاء إنما يكون بالمال، ثم ذم المعرضين عن هذا الإحسان فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]»[5].

وقد جعل الله تعالى لذوي القربى حقًا في مال القريب، قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٦].

قال ابن عطية: «اختلف المتأولون في «ذي القربى»، فقال الجمهور: الآية وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم، خوطب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، والمراد: الأمة، وألحق في هذه الآية ما يتعين له من صلة الرحم وسد الخلة والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه، قال بنحو هذا الحسن وعكرمة وابن عباس وغيرهم، وقال علي بن الحسين في هذه: هم قرابة النبي عليه السلام، أمر النبي عليه السلام بإعطائهم حقوقهم من بيت المال»[6].

قال ابن الجوزي: في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ «فيه قولان:

أحدهما: أنه قرابة الرجل من قبل أبيه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، رقم ١٦٢٣، ٣/ ١٢٤٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٣٣١.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٥٠ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٨.
(٤) التحرير والتنوير ٥/ ٤٩.
(٥) مفاتيح الغيب ١٠/ ٧٨.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠.

وأمه، قاله ابن عباس، والحسن، فعلى هذا في حقهم ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المراد به: برهم وصلتهم.

والثاني: النفقة الواجبة لهم وقت الحاجة.

والثالث: الوصية لهم عند الوفاة»[1].

وإن من حكمة التربية أن يبدأ من الأوامر بما تعين فطرة النفوس الإنسانية على قبوله ببداهة الفكرة أو بشعور العاطفة، وكلتا هاتين يحبب للنفس إيتاء حق القريب فابتدى به في الأمر ليكون تقبلها له أسهل ومبادرتها للامتثال أسرع، فاذا سخت النفوس بإيتاء حق القريب ومرنت عليه اعتادت الإيتاء وصار من ملكاتها فسهل عليها إيتاء كل حق، ولو كان لأبعد الناس. وشيء آخر، وهو أن الأقارب قد تكون بينهم المنافسات والمنازعات لقرب المنازل، أو تصادم المنافع أو التشاح على المواريث ما لا يكون بين الأباعد، فيقطعوا حق القرابة ويهدموا بناء الأسرة، ويعود ذلك عليهم أولًا بالوبال، ويرجع ثانيًا على مجتمعهم بالتضعضع، فكان هذا من جملة ما يقتضي الابتداء بحقهم إلى المقتضيات المتقدمة الأخرى[2].

وللقرابة حقان: حق الصلة، وحق المواساة، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥][3].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: يسألك أصحابك يا محمد، أي شيء ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟، وعلى من ينفقونه فيما ينفقونه ويتصدقون به؟ فقل لهم: ما أنفقتم من أموالكم وتصدقتم به، فأنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل، فإنكم ما تأتوا من خير وتصنعوه إليهم فإن الله به عليم، وهو محصيه لكم حتى يوفيكم أجوركم عليه يوم القيامة، ويثيبكم على ما أطعتموه بإحسانكم عليه، والخير الذي قال جل ثناؤه في قوله: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ﴾، هو المال الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من النفقة منه، فأجابهم الله عنه بما أجابهم به في هذه الآية»[4].

٤. الإحسان إلى اليتامى والمساكين.

أمر الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى والضعفاء والمساكين في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـٔٗاۖ

(١) زاد المسير ٣/ ٢٠.
(٢) انظر: تفسير ابن باديس ص ٧٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٧٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٩١.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

قال ابن عادل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣]: «وظاهر الآية يدل على أن الإحسان إلى ذي القربى واليتامى والمساكين كان واجبًا على بني إسرائيل في دينهم، وكذا القول الحسن للناس كان واجبًا عليهم؛ لأن أخذ الميثاق يدل على الوجوب، وذلك لأن ظاهر الأمر للوجوب، والأمر في شرعنا أيضًا كذلك من بعض الوجوه»[(١)].

والمسكين: هو المتخشع المتذلل من الفاقة والحاجة، والمسكنة هي ذل الحاجة والفاقة[(٢)].

وفي الآيتين السابقتين يبين به الله سبحانه أصحاب الحقوق الواجبة على الإنسان نحوهم، إما لصلة قرابة تجمعهم إليه، وتجعلهم بعضًا منه، أو تجعله بعضًا منهم.. وإما لصلة إنسانية عامة، تلك الصلة التي تقوم على أساس أن الفرد عضو فى الجسد الاجتماعي كله، وأن كل عضو سليم فى هذا الجسد من واجبه أن يحمل بعض أعباء الأعضاء المريضة فيه، شأن الجسد حين تضعف فيه حاسة، أو تعجز عن العمل، فتتولى أقرب الحواس إليها، وأشكلها بها، أداء وظيفتها بوجه أو بآخر حتى يستقيم للجسد أمره[(٣)].

٥. الإحسان إلى الجيران.

أمر الله تعالى بالإحسان إلى الجيران، فقال سبحانه: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

فقوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه. ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين فقال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: القريب، يعني: الذي بينك وبينه قرابة ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي: الغريب الذي ليس بينك وبينه قرابة، قاله ابن عباس، وقال نوف الشامي: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ المسلم

(١) اللباب في علوم الكتاب٢/ ٢٤٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري٢/ ٢٩٢.
(٣) انظر: المصدر السابق٢/ ٢٩٣.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ اليهودي والنصراني، وقال جابر الجعفي عن الشعبي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهم: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: المرأة، وقال مجاهد أيضًا في قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ يعني: الرفيق في السفر[(١)].

قال القرطبي: «وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلمًا كان أو كافرًا، وهو الصحيح، والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه. روى البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما زال يوصيني جبريل بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)[(٢)]»[(٣)].

والجوار ضرب من ضروب القرابة، فهو قرب بالمكان والسكن، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب، فيحسن أن يتعاون الجاران، ويكون بينهما الرحمة والإحسان، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر فلا خير فيهما لسائر الناس، وقد حث الدين على الإحسان في معاملة الجار عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»[(٤)].

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام، وزاده الإسلام توكيدًا بما جاء في الكتاب والسنة، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه، ودعوته إلى الطعام، وتعاهده بالزيارة والعيادة إلى نحو ذلك[(٥)].

٦. الإحسان إلى عموم الناس.

أمر الله تعالى بالإحسان إلى عموم الناس، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

فقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

أي: كلموهم طيبًا، ولينوا لهم جانبًا.

ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٢/ ٢٦١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، رقم ٦٠١٤، ٨/ ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم ٢٦٢٥، ٤/ ٢٠٢٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٥/ ١٨٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم ٤٨، ١/ ٦٩.

(٥) انظر: تفسير المراغي٥/ ٣٦.

عن المنكر بالمعروف[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

والمعنى: قل لعبادي المؤمنين يقولوا للكافرين الكلمة التي هي أحسن، قال الحسن: يقولون له: يهديك الله، إن الشيطان هو الذي يفسد بينهم؛ لأنه عدو للإنسان ظاهر العداوة[2].

وفي الآية يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، أي: فربما أصابه بها[3].

وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة، قال ابن جرير الطبري: «وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]»[4].

٧. الإحسان في الجهاد.

إن الإحسان في الجهاد من صفات المحسنين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

يقول تعالى: والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله كذبًا من كفار قريش،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير١/ ٢٠٩.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي٣/ ١١٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٥/ ٨٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم٤/ ٥٢٦.

المكذبين بالحق لما جاءهم فينا، مبتغين بقتالهم علو كلمتنا، ونصرة ديننا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة، وذلك إصابة دين الله الذي هو الإسلام الذي بعث الله به محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: وإن الله لمع من أحسن من خلقه، فجاهد فيه أهل الشرك، مصدقًا رسوله فيما جاء به من عند الله بالعون له، والنصرة على من جاهد من أعدائه[1].

وقد تكفل الله تعالى بأنه لايضيع من أحسن في الجهاد.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

كما يكون الإحسان في الجهاد بالإنفاق في سبيل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

أي: أنفقوا في سبيل الله فمن أنفق في سبيل الله فهو محسن، فقوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥] وكل ما أمر الله به من الخير فهو في سبيل الله وأكثر ما يستعمل في الجهاد، لأنه السبيل الذي يقاتل فيه[2].

﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أي: بالإنفاق على من تلزمكم مؤنته ونفقته. وقيل: أحسنوا في الإنفاق ولا تسرفوا ولا تقتروا، نهوا عن الإسراف والإقتار في الإنفاق. وقيل: معناه: وأحسنوا في أداء فرائض الله تعالى. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: يثيبهم على إحسانهم[3]..

كما يكون الاحسان في الجهاد بالالتزام بتعاليم الإسلام في قتال أعدائه، وذلك بعدم المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ، الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، لما رواه بريدة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرًا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: **(اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم،**

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٣.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٦٦، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٩٣.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٢٣.

وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله، ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا)[1].

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنه قال: (إن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي صلى الله عليه وسلم مقتولة، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان)[2].

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون، ففي وصية أبي بكر رضي الله عنه لأسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام: «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم له»[3].

رابعًا: الإحسان في الأخلاق:

إن الإحسان في الأخلاق يكون بالتخلق بالقرآن الكريم في الأقوال والأفعال وجميع التصرفات، فإن أحسن الناس خلقًا هو من يتخلق بالقرآن، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عنه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

والمعنى: أنت على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن[4]، أي: على الخلق الذي أدبك

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، رقم ١٧٣١، ٣/ ١٣٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قتل الصبيان في الحرب، رقم ٣٠١٤، ٤/ ٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، رقم ١٧٤٤، ٣/ ١٣٦٤.

(٣) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني٢/ ٤٦٠.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٥/

الله به مما نزل به القرآن من الإحسان إلى الناس، والعفو، والتجاوز، وصلة الأرحام، وإعطاء النصفة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك.

وفي حديث سعد بن هشام، قال: أتيت عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: (كان خلقه القرآن). أما تقرأ القرآن، قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤][(١)(٢)].

وما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥].

قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣] أي: كلموهم طيبًا، ولينوا لهم جانبًا، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصري في قوله تعالى ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ فالحسن من القول يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحلم ويعفو ويصفح، ويقول للناس حسنًا كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾ [النساء: ٨٦].

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾.

التحية: هي دعاء بطول الحياة، والمراد بالتحية هاهنا: السلام، يقول: إذا سلم عليكم مسلم فأجيبوا بأحسن مما سلم أو ردوها كما سلم، فإذا قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وإذا قال:

٢٠٤.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٤٦٠١، ٤١/١٤٨، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٣٨٤٢، ٢/٥٤١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
ولم يتعقبه الذهبي، وصححه الارناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد٤١ / ١٤٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦ / ١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٠٦.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب (إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا)، رقم ٤٨٣٨، ٦/ ١٣٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير١/ ٢٠٩.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد مثله، روي أن رجلًا سلم على ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئًا، فقال ابن عباس: إن السلام ينتهي إلى البركة[1].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، أي: فربما أصابه بها[2].

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

«يقول تعالى آمرًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة، وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى.

وقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]»[3].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٦٩، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٠.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٥٢٦.

جزاء المحسنين

إن جزاء المحسنين يكون في الدنيا: بالإحسان من الله تعالى، ورضاه ومحبته، ومعيته، ورحمته، والذكر الحسن في العالمين، وبأن الله لا يضيع أجر المحسنين، وبالبشارة بالخير، والمجازاة بأحسن ما كانوا يعملون، ويكون جزاء المحسنين في الآخرة بالجنة ونعيمها، وبيان ذلك في المطلبين الآتيين:

أولًا: جزاء المحسنين في الدنيا:

١. الإحسان من الله تعالى.

إن الله تعالى أحسن على الإنسان بجميع النعم تفضلًا منه وكرمًا.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

يقول تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أيها الناس ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجم وسحاب ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر وماء وبحر وفلك، وغير ذلك من المنافع، يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم، لغذائكم وأقواتكم وأرزاقكم وملاذكم، تتمتعون ببعض ذلك كله، وتنتفعون بجميعه، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1].

والإسباغ: الإفاضة والشمول، عن سعة وكثرة. والنعم السابغة: الكثيرة المتعددة والنعم الظاهرة: ما يعرفها الإنسان، ويلمسها بحواسه، أو يدركها بعقله والنعم الباطنة، هي ما لا يعلمه الإنسان من أسرار هذا الوجود الذي يعيش فيه[2].

وقد أحسن الله للإنسان في خلقه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

وأحسن إليه بالصحة والعافية، وذلك على المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل: ٣٠].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٤٧.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٥٧٦.

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

فحسنة الدنيا المذكورة في الآيتين هي الحسنة: الصحة والعافية[١].

قال الماوردي: «وفيما أريد بالحسنة التي لهم في الدنيا أربعة أوجه: أحدها: العافية والصحة، قاله السدي. الثاني: ما رزقهم الله من خير الدنيا، قاله يحيى بن سلام، الثالث: ما أعطاهم من طاعته في الدنيا وجنته في الآخرة، قاله الحسن، الرابع: الظفر والغنائم، حكاه النقاش. ويحتمل خامسًا: إن الحسنة في الدنيا الثناء وفي الآخرة الجزاء»[٢].

ومن إحسان الله تعالى على العبد الإحسان المعنوي المتمثل في السعادة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١].

قال المفسرون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: عني به: كل من سبقت له من الله السعادة من خلقه أنه عن النار مبعد[٣].

وقيل: الآية عامة في كل من سبقت لهم من الله السعادة.

وقال أكثر المفسرين: عني بذلك: كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره[٤].

والحسنى: الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن؛ إما السعادة، وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة، يروى أن عليًا رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: أنا منهم، وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه[٥].

ومن المفسرين من قال: إن المراد: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني: عزيرًا والمسيح والملائكة ﴿عَنْهَا﴾ عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم لم يرضوا بعبادتهم، وقيل: المراد بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾: جميع المؤمنين لما روي أن عليًا رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: « أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف»[٦].

والواجب على العبد تجاه إحسان الله تعالى في الدنيا ما يأتي:

١. الإحسان في الاعتقاد والعبادة وجميع الأعمال.

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٦٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ١٩٦.
(٢) النكت والعيون٥/ ١١٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري١٨/ ٥٣٨.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣١٨.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري٣/ ١٣٧.
(٦) انظر: مدارك التنزيل، النسفي٢/ ٤٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٥/ ٣٣١.

وفي معناها وجوه:

أحدها: هل جزاء التوحيد غير الجنة، أي: جزاء من قال: لا إله إلا الله إدخال الجنة.

ثانيها: هل جزاء الإحسان في الدنيا إلا الإحسان في الآخرة.

ثالثها: هل جزاء من أحسن إليكم في الدنيا بالنعم وفي العقبى بالنعيم إلا أن تحسنوا إليه بالعبادة والتقوى.

وأما الأقرب فإنه عامٌّ، فجزاء كل من أحسن إلى غيره أن يحسن هو إليه أيضًا[1].

٢. الشكر للمحسن سبحانه وذلك بالاعتراف بذلك.

كما قال يوسف عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠].

أي: وقد أحسن بي ربي إذ أخرجني من السجن، وسما بي إلى عرش الملك، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون فى شظف العيش وخشونته، ونقلكم إلى الحضر حيث تعيشون في نعم الاجتماع ونشر الدين الحق، وتتعاونون على ترقي العلوم والصناعات[2].

وكذلك ببذل الإحسان إلى الآخرين من المستحقين والمساكين.

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

٢. رضا الله سبحانه.

بين سبحانه أنه يرضى عن المحسنين في إتباع السلف الصالح.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: والذين سبقوا الناس أولًا إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين، الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم والأنصار الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾، يقول: والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طلب رضا الله ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾»[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي٢٩/ ٣٧٧.

(٢) تفسير المراغي١٣/ ٤٤.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤ / ٣٥٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري١٤/ ٤٣٤.

قال الزجاج: «﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ تأويله: والله أعلم أن الله رضي أفعالهم، وأنهم رضوا ما جازاهم الله به»[1].

هو عرض كاشف لمنزلة هؤلاء الصفوة من عباد الله، وأن الله رضي عنهم، بما كان منهم من إحسان، وأنهم رضوا، بما أرضاهم الله به، ونعموا فيه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ رضوان فوق رضوان من عند الله، يحفهم به، ويزيدهم نعيمًا إلى نعيم؛ إذ جعل الله سبحانه وتعالى رضاهم عنه بما أعطاهم معادلًا لرضاه عنهم، حتى لكأنه سبحانه وتعالى، يتبادل الرضا معهم، فيرضى عنهم، ويرضون عنه. فسبحانه، ما أعظم لطفه، وما أوسع فضله، وما أكرم عطاءه، وأسبغ إحسانه[2].

٣. محبة الله تعالى.

أثبت الله تعالى محبته للمحسنين في الدنيا بصفة عامة، قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وذلك جزاء من قال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨][3].

وفي معرض الحث على الإنفاق في سبيل الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

والمعنى: أحسنوا أيها المؤمنون في أداء ما ألزمتكم من فرائضي، وتجنب ما أمرتكم بتجنبه من معاصي، ومن الإنفاق في سبيلي، وعود القوي منكم على الضعيف ذي الخلة، فإني أحب المحسنين في ذلك[4]، أي: أنفقوا في سبيل الله فمن أنفق في سبيل الله فهو محسن[5].

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فإن الله يحب من عمل بهذه الأمور التي وصف أنه أعد للعاملين بها الجنة التي عرضها السماوات والأرض، والعاملون بها هم المحسنون، وإحسانهم، هو عملهم بها، أي: وذلك الإحسان، وأنا أحب من

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٢/ ٤٦٦.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب٦/ ٨٨٢.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن١/ ٣٠٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري٣/ ٥٩٥.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج١/ ٢٦٦، التفسير الوسيط، الواحدي١/ ٢٩٤.

عمل به[1]، لفظ: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ للجنس، فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، وقد تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء[2].

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

قال أبو جعفر الطبري: «وهذ أمر من الله عز ذكره نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالعفو عن هؤلاء القوم الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليه من اليهود. يقول الله جل وعز له: اعف، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين هموا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرمهم بترك التعرض لمكروههم، فإني أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه»[3].

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ظاهره الأمر بالمعروف والصفح عنهم جميعهم، وذلك بعث على حسن التخلق معهم ومكارم الأخلاق.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: يجوز أن يعفو عنهم في غدرة فعلوها ما لم ينصبوا حربًا، ولم يمتنعوا من أداء جزية[4].

٤. معية الله تعالى.

أخبر الله تعالى بأنه مع المحسنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

يقول تعالى ذكره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الله في محارمه فاجتنبوها، وخافوا عقابه عليها، فأحجموا عن التقدم عليها.

﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ يقول: وهو مع الذين يحسنون رعاية فرائضه، والقيام بحقوقه، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه[5].

والمراد من هذه المعية: المعية بالحفظ والنصرة والحراسة والمعونة[6]، وهذه معية خاصة كقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

وقوله لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصديق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري٧/ ٢١٥.
(٢) انظر: الموسوعة القرآنية، جعفر شرف الدين ٩/ ٢٥٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري١٠/ ١٣٤.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان٤/ ٢٠٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري١٧/ ٣٢٧.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٥١، تفسير القرآن، السمعاني٣/ ٢١١.

ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: تركوا المحرمات، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أي: إن الله لمع من أحسن من خلقه، فجاهد فيه أهل الشرك، مصدقًا رسوله فيما جاء به من عند الله بالعون له، والنصرة على من جاهد من أعدائه[2].

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تأويله إن الله ناصرهم؛ لأن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ الله معهم، يدل على نصرهم، والنصرة تكون في علوهم على عدوهم بالغلبة بالحجة والغلبة بالقهر والقدرة[3].

وروي عن ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وإن الله لمع المحسنين، بالنصر والمعونة في دنياهم وبالثواب والمغفرة في عقباهم[4].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤ / ٥٢٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري٢٠/ ٦٣.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٤/ ١٧٤ التفسير الوسيط، الواحدي٣/ ٤٢٦.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٦٨، مدارك التنزيل، النسفي٢/ ٦٨٨.

٥. رحمة الله تعالى.

إن من جزاء الإحسان في الدنيا، أن يكون العبد قريبًا من رحمة الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

في الآية تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته القريبة من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفًا وطمعًا، فقرب مطلوبكم منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم.

قال ابن القيم[5]: في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: «له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه:

- فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان.
- ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، فهو السبب في قرب الرحمة منهم.
- ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين.

(٥) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٣/ ٨٦١.

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم؛ لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بعدًا ببعد، وقربًا بقرب، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان هاهنا: هو فعل المأمور به، سواء كان إحسانًا إلى الناس، أو إلى نفسه. فأعظم الإحسان: الإيمان والتوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالًا ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً، فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه)[1].

وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به وإنما كتب رحمته: للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، والذين يتبعون رسوله، فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ يعني: هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه؟

قال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة؟».

٦. الذكر الحسن في العالمين.

إن من جزاء الإحسان في الدنيا: أن الله تعالى يجعل للمحسن ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا في الناس في حياته وبعد موته.

قال تعالى مبينًا بقاء ذكر المحسنين، وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السلام، فقال في نوح عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات: ٧٧-٨١].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي: لقينا له ثناء حسنًا وذكرًا جميلًا فيمن بعده من الأنبياء والأمم. وقيل: أن يصلى عليه إلى يوم القيامة[2].

قال الماوردي في قوله عز وجل: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾» فيه ثلاثة أوجه: أحدها:

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٤/ ٣٠٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ١٤٧.

معناه أبقى الله الثناء الحسن في الآخرين، قاله قتادة. الثاني: لسان صدق للأنبياء كلهم، قاله مجاهد، الثالث: هو قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قاله الفراء»[1].

وعلل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسنًا، ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا؛ ليريك جلالة محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه[2].

وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١﴾ [الصافات: ١٠٨-١١١]

وقوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وأبقينا عليه فيمن بعده إلى يوم القيامة ثناء حسنًا[3].

قال الإمام الماوردي: «فيه قولان: أحدهما: الثناء الحسن، قاله قتادة. الثاني: هو السلام على إبراهيم، قاله عكرمة»[4].

وقال تعالى في إل ياسين: ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٢٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾ [الصافات: ١٢٧-١٣٢].

أي: وأبقينا عليه الثناء الحسن في الآخرين من الأمم بعده[5].

وقال في موسى وهارون: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢١﴾ [الصافات: ١١٤-١٢١].

أي: وتركنا عليهما في الآخرين بعدهم الثناء الحسن عليهما: وذلك أن يقال: سلام على موسى وهارون.

ثم جعل سبحانه ذلك الذكر والثناء عامًا لكل محسن، وذلك في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: هكذا نجزي أهل طاعتنا، والعاملين بما يرضينا عنهم ﴿إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٢﴾ [الصافات:١٢٢] يقول: إن موسى وهارون من عبادنا المخلصين لنا الإيمان[6].

أي: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من انقاد لأمر الله؛ إنه من عبادنا المؤمنين أي: الذين أعطوا العبودية حقها، ورسخوا في

(١) النكت والعيون٥/ ٥٣.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري٤/ ٤٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري٢١/ ٩٠.
(٤) النكت والعيون٥/ ٦٣.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري٢١/ ٩٩، تفسير القرآن، السمعاني٤ / ٤٠٣.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري٢١ / ٩٥.

الإيمان بالله وتوحيده[1]، وهذه سنته تعالى في المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم[2].

قال ابن عاشور: «والمعنى: إنا مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين. وفي هذا تنويه بنوح عليه السلام بأن جزاءه كان هو المثال والإمام لجزاء المحسنين على مراتب إحسانهم وتفاوت تقاربها من إحسان نوح عليه السلام وقوته في تبليغ الدعوة. فهو أول من أوذي في الله فسن الجزاء لمن أوذي في الله، وكان على قالب جزائه، فلعله أن يكون له كفل من كل جزاء يجزاه أحد على صبره إذا أوذي في الله، فثبت لنوح بهذا وصف الإحسان، وهو النعمة السابعة. وثبت له أنه مثل للمحسنين في جزائهم على إحسانهم»[3].

٧. لا يضيع الله أجر المحسنين.

أخبر الله تعالى في آيات كثيرة أنه لا يضيع أجر المحسنين، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٥].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: واصبر، يا محمد، على ما تلقى من مشركي قومك من الأذى في الله والمكروه، رجاء جزيل ثواب الله على ذلك، فإن الله لا يضيع ثواب عمل من أحسن فأطاع الله واتبع أمره، فيذهب به، بل يوفره أحوج ما يكون إليه»[4].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: وهكذا وطأنا ليوسف في الأرض، يعني: أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، يقول: يتخذ من أرض مصر منزلًا حيث يشاء، بعد الحبس والضيق ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ من خلقنا، كما أصبنا يوسف بها، فمكنا له في الأرض بعد العبودة والإسار، وبعد الإلقاء في الجب ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، يقول: ولا نبطل جزاء عمل من أحسن فأطاع ربه، وعمل بما أمره، وانتهى عما نهاه عنه، كما لم نبطل جزاء عمل يوسف إذ أحسن فأطاع الله»[5].

(١) انظر: فتح القدير الشوكاني٤ / ٤٦٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٠٥.
(٣) التحرير والتنوير٢٣ / ١٣٤.
(٤) جامع البيان١٥ / ٥٢٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري١٦/ ١٥١.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠].

أي: أن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فأطاع الله، واتبع أمره ونهيه، بل نجازيه بطاعته وعمله الحسن جنات عدن تجري من تحتها الأنهار[1]، كما في الآية التي بعدها: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: ٣١].

قال ابن الجوزي: «ومعنى: ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي: لا نترك أعماله تذهب ضياعًا، بل نجازيه عليها بالثواب»[2].

٨. البشارة بالخير.

إن البشارة هي: إعلام الرجل بما لم يكن به عالمًا مما يسره من الخبر، قبل أن يسمعه من غيره، أو يعلمه من قبل غيره[3]، والأغلب في البشارة إطلاقها على الإخبار بالخير المنتظر في المستقبل[4].

فقد جعل الله تعالى القرآن الكريم بشارة للمحسنين بحسن عاقبتهم بسبب إيمانهم وإحسانهم.

قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف: ١٢].

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الأجود أن يكون (بشرى) في موضع رفع على الابتداء، والمعنى: وهو بشرى للمحسنين، ويجوز أن يكون بشرى في موضع نصب على المصدر على معنى: لينذر الذين ظلموا ويبشر المحسنين بشرى[5].

أي: وهذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مصدق لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، ومصدق لغيره من الكتب السماوية السابقة وأمين عليها، وقد أنزلناه بلسان عربي مبين، امتنانًا مِنَا على من بعث الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وهم العرب.

وجعل الله تعالى من وظيفة هذا الكتاب: الإنذار للظالمين بسوء المصير إذا ما أصروا على ظلمهم، والبشارة للمحسنين بحسن عاقبتهم بسبب إيمانهم وإحسانهم[6].

وقد أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يبشر المحسنين بالخير.

(١) انظر: المصدر السابق، ١٨/ ١٦.
(٢) انظر: زاد المسير ٣/ ٨٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٩٣.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١ / ٣٨٢، تفسير الشعراوي ١٤ / ٨٨٣٥.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٤١.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٣/ ١٨٨.

قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٧].

قال الطبري: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾: «يقول: وبشر يا محمد الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا بالجنة في الآخرة»[(١)].

وقال الماوردي: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: بالقبول. والثاني: بالجنة[(٢)].

٩. المجازاة بأحسن ما كانوا يعملون.

إن من جزاء الإحسان في الدنيا المجازاة بأحسن ما كانوا يعملون.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾، وسائر ما ذكر ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، في سبيل الله ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾، مع رسول الله في غزوه ﴿وَادِيًا﴾ إلا كتب لهم أجر عملهم ذلك، جزاء لهم عليه، كأحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم التي كانوا يعملونها وهم مقيمون في منازلهم»[(٣)].

وقال الرازي: ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون وفيه وجهان:

الأول: أن الأحسن من صفة فعلهم، وفيها الواجب والمندوب والمباح والله تعالى يجزيهم على الأحسن، وهو الواجب والمندوب، دون المباح.

والثاني: أن الأحسن صفة للجزاء، أي: يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل، وهو الثواب[(٤)].

﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيرًا لأجرهم[(٥)].

وخلاصة ذلك إنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر جزاء أحسن من جزائهم على أعمالهم الجليلة في غير الجهاد بالمال

(١) جامع البيان ١٨/ ٦٤١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤ / ٢٨.
(٣) جامع البيان ١٤/ ٥٦٥.
(٤) مفاتيح الغيب ١٦/ ١٧٠.
(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٧١٧.

والنفس، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة فى غيره من أنواع المبرات، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فما عداه من الأعمال الصالحات[1].

وقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٦-٩٧].

أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧][2].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يجازى على أحسن الأعمال وهي الطاعة، دون المباح منها، الثاني: مضاعفة الجزاء وهو الأحسن، كما قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠][3].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥][4].

ثانيًا: جزاء المحسنين في الآخرة:

إن جزاء المحسنين في الآخرة هي الجنة ونعيمها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم عند ربهم يوم القيامة، ما تشتهيه أنفسهم، وتلذه أعينهم ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا الذي لهم عند ربهم، جزاء من أحسن في الدنيا فأطاع الله فيها، وائتمر لأمره، وانتهى عما نهاه فيها عنه.

وجزى هؤلاء المحسنين ربهم بإحسانهم، كي يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا في الدنيا من الأعمال، فيما بينهم وبين

(١) انظر: تفسير المراغي ١١ / ٤٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٤٨٧.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢١٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٦.

ربهم، بما كان منهم فيها من توبة وإنابة مما اجترحوا من السيئات فيها ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ يقول: ويثيبهم ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا (يعملون) مما يرضى الله عنهم دون أسوئها[1].

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤] لهم عند الله من الجزاء والكرامة ما يشاءون، ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤] في أقوالهم وأعمالهم. ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٥] أي: أعطاهم ما شاءوا، ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الزمر: ٣٥] يسترها عنهم بالمغفرة، ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم، ولا يجزيهم بالمساوي[2].

ذلك هو جزاؤهم، وجزاء المحسنين كلهم، والمحسنون هم: الذين أحسنوا الاعتقاد والقول والعمل.

وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: من الذنوب والآثام والخطايا والسيئات، أي: وفقهم للإحسان ويسره لهم، ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا وسيئه ويجزيهم أجرهم على إيمانهم وتقواهم وإحسانهم في ذلك بأحسن ما كانوا يعملون وحسنه أيضًا، وإنما يضاعف لهم الأجر، فتكون الحسنات الصغيرة كالكبيرة، فأصبح الجزاء كله على الأحسن، والذي كانوا يعملون هو كل ما شرعه الله تعالى لعباده وتعبدهم به من الإيمان وسائر الطاعات والقربات[3].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

قال الطبري في قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: «يقال لهم: كلوا أيها القوم من هذه الفواكه، واشربوا من هذه العيون كلما اشتهيتم، ﴿هَنِيئًا﴾ يقول: لا تكدير عليكم، ولا تنغيص فيما تأكلونه وتشربون منه، ولكنه لكم دائم، لا يزول، ومريء لا يورثكم أذى في أبدانكم، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: هذا جزاء بما كنتم في الدنيا تعملون من طاعة الله، وتجتهدون فيما يقربكم منه.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: إنا كما جزينا هؤلاء المتقين بما وصفنا من الجزاء على طاعتهم إيانا في الدنيا، كذلك نجزي ونثيب أهل الإحسان فى طاعتهم إيانا، وعبادتهم لنا في الدنيا على إحسانهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٩٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٨١.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٤٨٧.

لا نضيع في الآخرة أجرهم»[1].

أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم، ثم قال تعالى مخبرًا خبرًا مستأنفًا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل[2].

وقال سبحانه في جزاء من أحسن الاعتقاد والعمل: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٤-٨٥].

أي: فكافأهم الله تعالى بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم، ﴿جَنَّاتٍ﴾ تجرى من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: باقين في تلك الجنات بقاء لا موت معه، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العطاء الجزيل الذي منحه الله لهم ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المؤمنين المخلصين في أقوالهم وأعمالهم[3].

قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦].

قال الماوردي: «قوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ يعني: عبادة ربهم. ﴿الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فيه خمسة تأويلات: أحدها: أن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وهذا قول أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري. والثاني: أن الحسنى واحدة من الحسنات، والزيادة مضاعفتها إلى عشر أمثالها، قاله ابن عباس، الثالث: أن الحسنى حسنة مثل حسنة، والزيادة مغفرة ورضوان، قاله مجاهد والرابع: أن الحسنى الجزاء في الآخرة والزيادة ما أعطوا في الدنيا، قاله ابن زيد. والخامس: أن الحسنى الثواب، والزيادة الدوام، قاله ابن بحر، ويحتمل سادسًا: أن الحسنى ما يتمنونه ، والزيادة ما يشتهونه»[4].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، لا يغشى وجوههم كآبة، ولا كسوف، حتى تصير من الحزن كأنما علاها قتر. والقتر: الغبار، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، ولا هوان ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، يقول: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، هم أهل الجنة وسكانها ومن هو فيها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، يقول: هم فيها ماكثون أبدًا، لا تبيد، فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين فتتنغص عليهم لذتهم»[5].

(١) جامع البيان٢٤/ ١٤٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٨ / ٣٠٥.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي٤ / ٢٥٨.
(٤) النكت والعيون٢ / ٤٣٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ٧٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ١٥.

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قال ابن عباس: «للذين قالوا: لا إله إلا الله الجنة»، وزيادة: وهي النظر إلى وجه الله في قول أبي بكر الصديق، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة، وابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي.

ونحو ذلك فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي عن صهيب، قال: عن صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل). ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»[(١)] [(٢)].

قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، قالت فرقة وهي الجمهور: الحسنى: الجنة والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل، وروي في نحو ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه صهيب، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وحذيفة وأبي موسى الأشعري وعامر بن سعد وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: «الزيادة» غرفة من لؤلؤة واحدة.

وقالت فرقة: الحسنى: هي الحسنة، و الزيادة: هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة فدونها حسبما روي في نص الحديث، وتفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذا قول يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول، وطريق ترجيحه أن الآية تتضمن اقترانًا بين ذكر عمال الحسنات وعمال السيئات، فوصف المحسنين بأن لهم حسنى وزيادة من جنسها، ووصف المسيئين بأن لهم بالسيئة مثلها فتعادل الكلامان، وعبر عن الحسنات بـ(الحسنى) مبالغة؛ إذ هي عشرة،

وقال الطبري: الحسنى عام في كل حسنى فهي تعم جميع ما قيل.

ووعد الله تعالى على جميعها بالزيادة، ويؤيد ذلك أيضا قوله: أولئك أصحاب الجنة، ولو كان معنى الحسنى الجنة، لكان في القول تكرير بالمعنى، على أن هذا ينفصل عنه بأنه وصف المحسنين بأن لهم الجنة، وأنهم لا يرهق وجوهم قتر ولا ذلة.

ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ على جهة المدح لهم، أي: أولئك مستحقوها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم ١٨١، ١/ ١٦٣.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٤.

وأصحابها حقًا وباستيجاب، و﴿يَرْهَقُ﴾ معناه: يغشى مع ذلة وتضييق، والقتر: الغبار المسود[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما رواه صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فو الله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرّ لأعينهم)[2]»[3].

موضوعات ذات صلة:

البر، التقوى، التطوع، العطاء

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم ١٨١، ١/ ١٦٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٢٩.

الإحصان

عناصر الموضوع

مفهوم الإحصان	٨
الإحصان في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
أنواع الإحصان	١٢
شروط نكاح المحصنات	١٧
إكراه المحصنات على البغاء	٣١
من نماذج المحصنات في القرآن	٣٧
عاقبة رمي المحصنات بالزنى	٤٠
أثر الإحصان على الفرد والمجتمع	٤٥

المجلد الثاني

مفهوم الإحصان

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (حصن) في المعاجم اللغوية حول معاني المنع والحفظ والحياطة والحرز والحماية والعناية سواء الحسي منها أو المعنوي، وقد تجتمع هذه المعاني في الشيء الواحد حسيًا ومعنويًا. فكل ما أحرز وحفظ ومنع فهو محصن وكل ما أحرز وحفظ ومنع فهو محصن، ومنها: المرأة والرجل والأمة: وامرأة حصانٌ، بفتح الحاء: عفيفةٌ بينة الحصانة، والحصن بالضم العفة وكذا الإحصان[1]. وحاصنة الرجل: امرأته؛ والضاد لغة فيه[2]، والمحصنات: العفائف من النساء.

والأمة: إذا زوجت جاز أن يقال قد أحصنت؛ لأن تزويجها قد أحصنها، وكذلك إذا أعتقت فهي محصنة؛ لأن عتقها قد أعفها. وكذلك إذا أسلمت فإن إسلامها إحصانٌ لها.

وعليه فالمرأة تكون محصنة بالإسلام والعفاف والحرية والتزويج.

والرجل: ورجلٌ محصنٌ: متزوج[3]، وحكى ابن الأعرابي: أحصن الرجل تزوج، فهو محصن، بفتح الصاد. رجلٌ محصن: أي عفيف، ومحصن: أحصنته امرأته.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يختلف تعريفه في الاصطلاح بحسب نوعيه: الإحصان في الرجم، والإحصان في القذف.

إحصان الرجم: الحال التي يستغني بها المكلف عن الوقوع في الزنى وتوجب عليه الرجم فيه.

إحصان القذف: الحال التي تثبت بها عفة المقذوف مع ما يستوجب تحقق الفرية واستحقاق الحد على القاذف[4].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٩.
(٢) المغرب في ترتيب المعرب، المطرزي ١/ ٢٠٧
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١٢١
(٤) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ٣٧، التعريفات، الجرجاني ص ٤٠، دستور العلماء، القاضي نكري ١/ ٣٨.

الإحصان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حصن) في القرآن الكريم (١٨) عشرة مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[الأنبياء:٩١]
الفعل المضارع	٩	﴿لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾[الأنبياء:٨٠]
اسم الفاعل	٤	﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾[النساء:٢٤]
اسم المفعول	٩	﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾[النساء:٢٤]
مصدر	١	﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[النور:٣٣]
اسم	١	﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾[الحشر:٢]

وجاء الإحصان في القرآن الكريم على أربعة أوجه[٢]:

أحدها: العفة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[الأنبياء:٩١]. أي: عفت عن الفاحشة[٣].

والثاني: الحرية: ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾[النساء:٢٥]. المراد بهن الحرائر[٤].

والثالث: التزوج: ومنه قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾[النساء:٢٤]. أي: المتزوجات[٥].

والرابع: الإسلام[٦]: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾[النساء:٢٥][٧].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٠٦.
(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١/ ٤١٧.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٤٦٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٣٢.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٥١٦.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري، ٨/ ١٩٥.
(٧) وهو أحد القولين، وروي ذلك عن عبد الله بن مسعود، وابن عمر، وأنس، وغيرهم.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزواج:

الزواج لغةً:

(زوج) الزاء والواو والجيم أصلٌ يدل على مقارنة شيءٍ لشيءٍ، من ذلك الزوج زوج المرأة، والمرأة زوج بعلها، وهو الفصيح، ويقال: لفلانٍ زوجان من الحمام، يعني: ذكرًا وأنثى[(١)].

الزواج اصطلاحًا:

هو: عقد يقصد به حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر وائتناسه به طلبًا للنسل على الوجه المشروع، أو هو: عقد يرد على ملك المتعة قصدًا[(٢)]، أو هو: عقد يفيد حل استمتاع كل من العاقدين بالآخر على الوجه المشروع[(٣)].

الصلة بين الإحصان والزواج:

الزواج هو وسيلة الإحصان المشروعة في الشريعة الإسلامية.

٢ العفة:

العفة لغةً:

قال ابن منظور: «العفة: الكف عما لا يحل ويجمل[(٤)].

العفة اصطلاحًا:

قال الراغب: «العفة حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر»[(٥)].

الصلة بين الإحصان والعفة:

من لم يستطع الإحصان بالزواج فعليه لزوم العفة.

انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٢٨.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٥.

(٢) انظر: كنز الدقائق، النسفي ٢/ ١٧٤ مع شرحه النهر الفائق.

(٣) انظر: الأحوال الشخصية، أبو زهرة، ص١٧.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٥٣.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٤٤٠.

٣ الزنا:

الزنا لغة:

زنأ في الجبل إذا صعد، والزناء: الضيق والضيق جميعًا، وكل شيءٍ ضيق زناءٌ[١]، والزنا يمد ويقصر: زنى يزني زنىً، مقصور، وزناءً ممدودٌ، والمرأة تزاني مزاناةً وزناء أي: تباغي[٢].

الزنا اصطلاحًا:

هو اسم لوطء الرجل امرأةً في فرجها من غير نكاحٍ ولا شبهة نكاحٍ بمطاوعتها. أو هو: إدخال فرجٍ في فرجٍ مشتهًى طبعًا محرمٍ شرعًا[٣].

الصلة بين الإحصان والزنا:

يختلف عقوبة الزاني المحصن وغيره في الشريعة الإسلامية؛ تغليظًا وتخفيفًا.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٩١
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٠٢٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٨٧٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٥٩، التفسير المنير، الزحيلي، ١٨/ ١٣٢.

أنواع الإحصان

قسم العلماء الإحصان إلى نوعين: إحصان الرجم، وإحصان القذف، وقد عرفنا كلًا منهما فيما سبق، والفرق بين إحصان الرجم وإحصان القذف، أن الأول حال للجاني، والثاني حال للمجني عليه.

وعليه فالمحصن في حد الزنى غير المحصن في حد القذف[1].

ويترتب على هذا الفرق أنه لا يتحقق حال الإحصان في حد الزنى إلا بوجود النكاح الصحيح، والوطء، والتكليف حال الوطء، كما لا يتحقق حال الإحصان في حد القذف إلا بالعفة عن الزنى، وسنفصل القول عن هذين النوعين من خلال النقاط الآتية:

أولًا: إحصان الرجم:

ذكرنا فيما سبق أن إحصان الرجم يعني الحال التي يستغني بها المكلف عن الوقوع في الزنى وتوجب عليه الرجم فيه، وهذا يعني ما أجمع عليه العلماء أن الرجم لا يكون إلا على من زنى وهو محصن.

ويفسر التعريف السابق لمعنى إحصان الرجم بأن يكون المكلف البالغ الحر العاقل قد جامع في عمره، ولو مرة واحدة، في نكاح صحيح، والرجل والمرأة في هذا سواء، وكذلك المسلم، والكافر، والرشيد، والمحجور عليه لسفه.

وأجمع أهل العلم على أن من زنى، وهو محصن يرجم، ولم نعلم بأحد من أهل القبلة خالف في رجم الزاني المحصن، ذكرًا كان أو أنثى، إلا ما حكاه القاضي عياض وغيره عن الخوارج، وبعض المعتزلة كالنظام وأصحابه، فإنهم لم يقولوا بالرجم، وبطلان مذهبهم واضح من النصوص الصحيحة الصريحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعده[2].

وقد روى الشيخان في صحيحيهما: أن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة سمع عبد الله بن عباس يقول: قال عمر بن الخطاب، وهو جالس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله قد بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل، أو الاعتراف)**[3].

(١) المطلع على ألفاظ المقنع البعلي ص ٤٥٣.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنى، ٨/ ١٦٨، رقم ٦٨٢٩، ٦٨٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود،

قال الشنقيطي رحمه الله: فهذا الحديث الذي اتفق عليه الشيخان، عن الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دليل صريح صحيح على أن الرجم ثابت بآية من كتاب الله، أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأها الصحابة، ووعوها، وعقلوها وأن حكمها باق؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم فعله والصحابة رضي الله عنهم فعلوه بعده[1].

وقد ثبت الرجم بفعل النبي صلى الله عليه وسلم كما ثبت بقوله، وكذلك بإجماع الصحابة والتابعين فقد ثبت بالروايات الصحيحة التي لا يتطرأ إليها الشك، وبطريق التواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام حد الرجم على بعض الصحابة كماعز، والغامدية، وأن الخلفاء الراشدين من بعده قد أقاموا هذا الحد في عهودهم، وأعلنوا مرارًا أن الرجم هو الحد للزنى بعد الإحصان.

ثم ظل فقهاء الإسلام في كل الأعصار وفي كل الأمصار مجمعين على كونه حكمًا ثابتًا، وسنة متبعة وشريعة إلهية قاطعة، بأدلة متضافرة لا مجال للشك فيها أو الارتياب[2].

هذا الرجم الثابت شرطه الإحصان بالمعنى الذي ذكرناه سابقًا، ولما ارتبط هذا المعنى بتلك الحال سمي هذا النوع من الإحصان إحصان الرجم.

وشروط الإحصان أقصد إحصان الرجم، الذي يجب على من توفرت فيه وزنى إقامة الحد، هي: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والعقد الصحيح، والوطء المباح الذي لا شبهة فيه، وعبر بعضهم عن الأخيرين بالتزوج بنكاح صحيح، ودخول معتبر[3].

وزاد بعضهم: أن لا يبطل إحصانهما بالارتداد، وأن يكون كل واحد من الزوجين مساويًا للآخر في شروط الإحصان، فلو تزوج الحر المسلم البالغ العاقل أمة أو صبية أو مجنونة أو كتابية ثم دخل بها فلا يصير محصنًا، وهو بعيد[4].

وقال بعضهم في شرط الإسلام: بل يرجم الكافر لحديث اليهوديين اللذين زنيا بعد الإحصان ورجمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم[5]، وقصة رجمهما مشهورة مع صحتها؛ كما هو معلوم.

ولا يشترط الإحصان في الرقيق، فيقام

باب رجم الثيب في الزنى، ٣/ ١٣١٧، رقم ١٦٩١ واللفظ له.

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٧٢.

(٢) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١ / ٢٩٧.

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة الحسني ٥/ ٧٣.

(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي١٨/ ٨٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد ١ / ٤٤٦، رقم ١٣٢٩، و ٤٥٥٦، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

الحد على من أحصن، ومن لم يحصن منهم، لقول علي رضي الله عنه: (يا أيها الناس، أقيموا على أرقائكم الحد، من أحصن منهم ولم يحصن، فإن أمةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم زنت، فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: أحسنت)، وفي رواية قال له: اتركها حتى تماثل[1].

ثانيًا: إحصان القذف:

وأما إحصان القذف فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٤-٥].

يخبر الله جل ثناؤه بأن الذين ينتهكون حرمات المؤمنين، فيرمون العفائف الشريفات الطاهرات بالفاحشة، ويتهمونهن بأقدس وأثمن شيء لدى الإنسان فينسبونهن إلى الزنى، ثم لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهداء عدول، يشهدون عليهن بما نسبوا إليهن من الفاحشة فاجلدوا الذين رموهن بذلك ثمانين جلدة، لأنهم فسقة كذبة يتهمون الأبرياء، ويحبون إشاعة الفاحشة، وزيدوا لهم في العقوبة بإهدار كرامتهم الإنسانية، فلا تقبلوا شهادة أي واحد منهم ما دام مصرًا على بهتانه، وأولئك عند الله من أسوأ الناس منزلة وأشدهم عذابًا، لأنهم فساق خارجون عن طاعة الله عز وجل، لا يحفظون كرامة مؤمن، ويقعون في أعراض الناس شأن أهل الضلال والنفاق، الذين يسعون لتهديم المجتمع الإسلامي وتقويض بنيانه، وأما إذا تابوا وأنابوا وغيروا سيرتهم وأصلحوا أحوالهم، ورجعوا عن سلوك طريق الغي والضلال فاعفوا عنهم واصفحوا، واقبلوا اعتذارهم، وردوا إليهم اعتبارهم، فإن الله غفور رحيم، يقبل توبة عبده إذا تاب وأناب وأصلح حاله[2].

وقد نصت هذه الآية على بيان حكم القاذف للمحصنة، وهي: الحرة البالغة العفيفة، وأنه يترتب على قذفه هذا ثلاثة أمور، وذلك إذا لم يأت بأربعة شهداء يشهدون برؤيتهم الواقعة:

الأول: أن يجلد ثمانين جلدة هو ومن معه إذا لم يتموا أربعة شهداء.

الثاني: أن ترد شهادته أبدًا.

الثالث: أنه فاسق ليس بعدل لا عند الله،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب تأخير الحد عن النفساء، ٣ / ١٣٣٠ ١٧٠٥، وانظر: روح المعاني ١٨/ ٨٢. وتفسير سورة النور ١/ ١٤.

(٢) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١ / ٣١٦.

ولا عند الناس[1].

وإن كانت الآية قد نصت على قذف الذكور للإناث، إلا أن الإجماع منعقد على أن قذف الرجل داخل في الآية بالمعنى، فقذف الذكور للذكور، أو الإناث للإناث، أو الإناث للذكور لا فرق بينه وبين ما نصت عليه الآية، للجزم بنفي الفارق بين الجميع[2].

وذكر الله تعالى في الآية النساء لأنهن أهم، ورميهن بالفاحشة أشنع، وأنكر للنفوس[3].

وللقذف عند العلماء شروط تسعة:

شرطان في القاذف وهما:

١. العقل.
٢. البلوغ.

وشرطان في المقذوف به:

١. وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه حد؛ كالزنى واللواط.
٢. أو بنفي الولد عن أبيه.

وخمسة في المقذوف:

١. العقل.
٢. البلوغ.
٣. الإسلام.
٤. الحرية.
٥. الإحصان وهو بمعنى العفة عن الفاحشة التي رمي بها، كان عفيفًا من غيرها أم لا[4].

واتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنى كان موجبًا للحد، فإن عرض وكان يفهم منه معنى القذف فهمًا واضحًا من القرائن فإن صاحبه يحد؛ لأن الجناية على عرض المسلم تتحقق بكل ما يفهم منه ذلك فهمًا واضحًا، ولئلا يتذرع بعض الناس لقذف بعضهم بألفاظ التعريض[5].

ومن حرص شريعة الإسلام على الستر وعدم إشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم، أن الزنى هو الحكم الوحيد الذي يفتقر إلى أربعة شهداء دون سائر الحقوق؛ رحمة من الله بعباده وسترًا لهم[6].

ويشترط في الشهود الأربعة على واقعة الزنى أن يكونوا جميعًا رجالًا، ولا شهادة للنساء في الحدود لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء:١٥][7].

وأن يروا الفرج في الفرج كالمرود[8] في

(١) انظر: تفسير سورة النور، ابن تيمية ص ٣٧، ٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٤.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٨٩.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٧٢.
(٤) انظر: المصدر السابق نفسه.
(٥) انظر: المصدر السابق ١٢/ ١٧٣- ١٧٤، أضواء البيان ٦/ ٩٤- ٩٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٧٦.
(٧) انظر: روح المعاني، الألوسي١٨/ ١٠٨
(٨) المرود: هو الميل الذي يوضع في المكحلة. انظر: عون المعبود على سنن أبي داود لشمس

المكحلة، وأن تكون رؤيتهم في موطن واحد، وإن اضطرب أحدهم في شهادته جلد الثلاثة الباقين، كما فعل عمر رضي الله عنه في قصة المغيرة، حيث شهد عليه أبو بكرة الثقفي، وأخوه نافع، وشبل بن معبد وزياد بن أبيه بالزنى، فلما استشهدهم عمر اضطرب زياد، فلم يشهد بصراحة الزنى، فجلد عمر الباقين[1].

واتفق أهل العلم على أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٥] لا يرجع على الجلد؛ لأنه قد حصل، واختلفوا هل يرجع الاستثناء على عدم قبول الشهادة والفسق، فإذا تاب قبلت شهادته ورفع عنه الفسق، أم أن الاستثناء يعود على الجملة الأخيرة، فيرفع عنه الفسق، ولكن لا تقبل شهادته أبدًا.

قال بالأول الجمهور، وبالثاني أبو حنيفة، واستدل للجمهور بأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحدًا في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب، وبأن التوبة تجب ما قبلها، والزاني نفسه إذا تاب قبلت توبته.

واستدل من خالفهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ [النور:٤]، وأن الضمير يعود لأقرب مذكور، والصواب قول الجمهور[2].

وحد القذف لا يقام على القاذف إلا إذا طلب المقذوف إقامة الحد عليه؛ لأنه حق له[3].

ومن قذف جماعة بكلمة واحدة فعليه حد واحد؛ لأن الحد إنما وجب بإدخال المعرة والنقص على المقذوفين، فإذا حد حدًا واحدًا ظهر كذب القاذف، وزالت المعرة، وحصل به شفاء الغيظ بحده، أما من رمى جماعة بكلمات، فإنه يتعدد عليه الحد بعدد الكلمات التي قذف بها؛ لأنه قذف كل واحد قذفًا مستقلًا لم يشاركه فيه غيره، ولو حد حدًا واحدًا لم يظهر به كذبه على الثاني، ولا تزول عنه به المعرة[4].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٨٤ و ١٢/ ١٧٨.
الحق العظيم آبادي ١٢/ ٧٢.

(٢) انظر: تفصيل المسألة في: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٧٨- ١٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٤- ٤٢٥، فتح القدير، الشوكاني٤/ ١٣، ١٤، أضواء البيان، الشنقيطي٦/ ٨٩- ٩٢.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٠١.

(٤) انظر: المصدر السابق ٦/ ١٠٤- ١٠٧.

شروط نكاح المحصنات

الشروط العامة للنكاح تنقسم إلى أقسام نذكرها ملخصة للإفادة، ومظانها في كتب الفقه، وهي تنقسم إلى أربعة أقسام:

١. شروط الانعقاد: وهي الشروط الخاصة بأركان العقد وبها يوجد العقد وبدونها ينعدم ويعتبر باطلًا، وهي شروط في العاقد والمعقود عليه وصيغة العقد.

٢. شروط الصحة: وهي الشروط التي يصح بها العقد ويترتب عليه آثاره، وبدون هذه الشروط يفسد العقد، مثل: التأبيد في العقد، ووجود الولي والشهود، وعدم الإكراه، وأن تحل المرأة للرجل.

٣. شروط اللزوم: وهي الشروط اللازمة لبقاء العقد واستمراره، وبدونها يكون العقد جائزًا، ويقع خيار الفسخ لمن له حق الخيار، مثل: الكفاءة والصداق.

٤. شروط النفاذ: وهي التي بها تترتب الآثار على العقد، وبدونها يكون العقد موقوفًا على إجازة من له حق الإجازة، وهي خاصة بزواج الفضولي، ومن ليس له ولاية على الزوجين.

لكن الذي يعنينا هنا الشروط الخاصة المنبثقة من آيات نكاح المحصنات من المؤمنات الحرائر والإماء ومن نساء أهل الكتاب وسبايا الجهاد، سنعرض لذلك كله من خلال المطالب الآتية:

أولًا: المحصنات من المؤمنات:

١ . شروط نكاح الحرائر.

أما الشروط التي حددها الشرع في جواز زواج المسلم من المسلمة الحرة فهي على النحو التالي:

الشرط الأول: الإحصان.

والمحصنات، أي: العفيفات المحصنات لفروجهن، فوجود العفة في المرأة شرط للزواج منها.

قال الله عز وجل: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥].

والخِدِين: الخليل الذي يزني بالمرأة تحت أي اسم.

وقال عز وجل: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣].

فاقتضى هذا أن الزاني لا يطأ إلا مثله من الزواني أو المشركات، كما أنه لا يطأ الزانية أو المشركة إلا زانٍ مثلها أو مشرك، وقد حرم الله الزنى على المؤمنين والمؤمنات، فلا يتزوج زانٍ امرأة عفيفة، إلا بعد أن يتوب إلى الله التوبة النصوح بشروطها المعلومة، ولا يتزوج زانية من عفيف إلا بعد توبتها التوبة النصوح بشروطها المعلومة.

الشرط الثاني: إذن الولي.

والمراد أن يكون النكاح بإذن من له الولاية على المرأة، والأصل فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل)[1].

الشرط الثالث: وجوب الصداق للزوجة ما لم تهبه لزوجها.

والأصل في وجوبه قول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء:٤].

وقوله عز وجل: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠]. يعني: صداقهن.

ويدل بمفهومه أن النكاح بدون الأجور فيه جناح، وأما وقد جاء النص بهذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

فهبة المرأة نفسها بدون صداق خاص به صلى الله عليه وسلم، فقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يحله لغيره صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، ظاهر في أن النكاح لا يصح إلا بإتيان الأجور.

وقد جاء ما يدل على صحة العقد بدون إتيان الصداق كما في قوله تعالى ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة:٢٣٦].

وقد ذكر الفقهاء حكم المفوضة أنه إن دخل بها فلها صداق المثل، ويدل لإطلاق الأجور على الصداق قوله تعالى في نكاح الإماء لمن لم يستطع طولًا للحرائر: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء:٢٥]. وفي نكاح أهل الكتاب قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائدة:٥].

وقوله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وبهذا كله يرد على من استدل بلفظ الأجور على نكاح المتعة في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤][2].

وأهل السنة والجماعة مجمعون على أن المقصود بالأجور المهور خلافًا للإمامية

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ١ / ٦٣٤ رقم: ٢٠٨٣. قال الألباني: صحيح.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٨ / ١٠١ - ١٠٢.

الذين يستدلون بذلك على جواز زواج المتعة، وهو التفسير الذي نعارضه استنادًا إلى تحريم زواج المتعة عام خيبر وأبيح بعدها، ثم حرم وجدد الرسول صلى الله عليه وسلم النهي عنه وأكده يوم الفتح ويوم أوطاس وفي حجة الوداع[1].

٢. شروط نكاح المملوكات.

أباح الله تعالى نكاح الإماء المملوكات بثلاثة شروط: اثنان منها في الناكح، والثالث في المنكوحة.

فأما اللذين في الناكح:

١. عدم القدرة على نكاح الحرة بألا يجد مهر حرة، ولا ثمن أمة.

قال في التحرير: «وكان نكاح الإماء المسلمات مشروطًا بالعجز عن الحرائر المسلمات»[2].

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

والآية تفيد بمضمونها أنه لا يحل الزواج من الإماء، إلا إذا كان المسلم الحر ليس في قدرته أن يتزوج امرأة حرة، ومذهب الشافعي أن يكون غير واجد لما يتزوج به الحرة المؤمنة من الصداق، وهو معنى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

فعدم استطاعة الطَول عبارة عن عدم ما ينكح به الحرة، كما يقول الرجل: لا أستطيع أن أحج إذا كان لا يجد ما يحج به[3].

فإن قيل: الرجل إذا كان يستطيع التزوج بالأمة يقدر على التزوج بالحرة الفقيرة، فمن أين هذا التفاوت؟

قلنا: كانت العادة في الإماء تخفيف مهورهن ونفقتهن، لاشتغالهن بخدمة السادات، وعلى هذا التقدير يظهر هذا التفاوت.

٢. خوف العنت.

وهو المذكور في آخر الآية وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

أي: بلغ الشدة في العزوبة، أو خوف الزنى، وهذا قول ابن عباس والشعبي وابن جبير ومسروق ومكحول وأحمد ومالك والشافعي، وقد روي عن علي والحسن وابن المسيب ومجاهد والزهري، قالوا: ينكح الأمة وإن كان موسرًا[4].

وأما الشرط الذي في المنكوحة:

أن تكون الأمة مؤمنة لا كافرة[5]؛ لقوله: ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٩/ ١٨٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٤٦١.
(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٣٩٤.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٨-٥٩.
(٥) لباب التأويل، الخازن ١/ ٥١١.

فالقيد الأول مستفاد من قوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ أي: من فتيات المسلمين، لا من فتيات غيركم، وهم المخالفون في الدين، والقيد الثاني من وصف الفتيات بالمؤمنات.

أما فائدة القيد الأول فهي أن الولد تابع للأم في الحرية والرق، وحينئذٍ يعلق الولد رقيقًا على ملك الكافر[(١)].

وهو قولٌ جائزٌ، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار، وإليه ذهب مالكٌ والشافعي وأحمد، فإن الأمة إذا كانت كافرة كانت ناقصة من وجهين: الرق والكفر، ولا شك أن الولد تابع للأم في الحرية والرق، وحينئذ يعلق الولد رقيقًا على ملك الكافر، فيحصل فيه نقصان الرق ونقصان كونه ملكًا للكافر[(٢)]، وما ذكرناه هو المطابق لمعنى الآية، ولا يخلو ما عداه عن تكلف لا يساعده نظم الآية[(٣)].

وأما فائدة القيد الثاني، فالحذر من اجتماع النقصانين الكفر والرق.

وهذا قول مجاهد وسعيد والحسن ومذهب مالك والشافعي، وجوز أصحاب الرأي للحر نكاح الأمة[(٤)].

أما أبو حنيفة فإنه يقول بجواز نكاح الأمة ولو كانت كتابية، إن لم يكن عنده زوجة حرة، فإن كان متزوجًا بحرة؛ فإنه لا يجوز له أن يتزوج أمة مطلقًا لا مسلمة ولا كتابية، وإن عقد عليها كان عقده باطلًا.

وقد بنى حكمه هذا على أساس تفسيره للطَول بأنه الزواج بحرة، وعنده أن نكاح الأمة المؤمنة أفضل من الكتابية، فحمل التقييد في الآية على الفضل، لا على الوجوب، قياسًا على جواز نكاح الحرة الكتابية، بالإجماع مع وصف الحرائر أيضًا بالمؤمنات[(٥)].

ومعظم علماء الإسلام على أن هذا الوصف جريًا على الغالب، ولعل الذي حملهم على ذلك أن استطاعة نكاح الحرائر الكتابيات طول، إذ لم تكن إباحة نكاحهن مشروطة بالعجز عن الحرائر المسلمات، وكان نكاح الإماء المسلمات مشروطًا بالعجز عن الحرائر المسلمات، فحصل من ذلك أن يكون مشروطًا بالعجز عن الكتابيات أيضًا بقاعدة قياس المساواة. وعلة ذلك أن نكاح الأمة يعرض الأولاد للرق، بخلاف نكاح الكتابية[(٦)].

وأما المالكية والشافعية فقد قالوا: الطَول: السعة والقدرة على المهر والنفقة، فمن عجز عن مهر الحرة ونفقتها وهو قادر على الزواج من أمة فإنه يجوز له الزواج بها،

(١) غرائب القرآن، النيسابوري ٢ / ٤٧٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ١٤٢٤.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٦٣.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦/ ٣١٩.
(٥) غرائب القرآن، النيسابوري ٢ / ٤٧٨.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣ / ٤٦١.

ولو كانت عنده زوجة حرة.

نكاح إماء أهل الكتاب:

ويتصل بهذا الشرط مسألة نكاح إماء أهل الكتاب، ففي قوله عز وجل: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[المائدة: ٥].

ذهب مجاهد وأكثر الفقهاء إلى أن الإحصان في هذه الآية بمعنى الحرية وأجازوا نكاح كل حرة، مؤمنة كانت أو كتابية فاجرة كانت أو عفيفة، وحرموا إماء أهل الكتاب أن يتزوجهن المسلم بحال، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

فشرط في نكاح الإماء الإيمان.

وقال آخرون: إنما عنى الله تعالى بالمحصنات في هذه الآية العفائف من الفريقين إماءً كن أو حرائر، فأجازوا نكاح إماء أهل الكتاب بهذه الآية، وحرموا البغايا من المؤمنات والكتابيات، وهذا قول أبي ميسرة والسدي.

وقال الشعبي: إحصان اليهودية والنصرانية أن تغتسل من الجنابة، وتحصن فرجها[(١)].

وتخصيص جواز نكاح الإماء بالمؤمنات لغير واجد طول الحرة، هو مذهب أهل الحجاز. فلا يجوز له نكاح الأمة الكتابية، وبه قال: الأوزاعي، والليث، ومالك، والشافعي. وذهب العراقيون أبو حنيفة وأبو يوسف وزفر ومحمد والحسن بن زياد والثوري ومن التابعين الحسن ومجاهد إلى جواز ذلك. ونكاح الأمة المؤمنة أفضل، فحملوه على الفضل لا على الوجوب كما بينا من قبل. واستدلوا على أن الإيمان ليس بشرط بكونه وصف به الحرائر في قوله: ﴿أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

وليس بشرط فيهن اتفاقًا، لكنه أفضل[(٢)].

استدل من أباح نكاح الإماء بلا شرط، ونكاح العبد الحرة، بعموم الآية: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٢].

وأنت تعلم أنها لم تبق على العموم، والذي أميل إليه أن الأمر لمطلق الطلب، وأن المراد من الإنكاح المعاونة والتوسط في النكاح، أو التمكين منه، وتوقف صحته في بعض الصور على الولي يعلم من دليل آخر[(٣)].

وجوز أبو حنيفة ذلك لعموم قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣].

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٢٢٩.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٨ / ١٤٨.

وقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:٣٢].

وقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥].

والمراد بهذا الإحصان العفة.

والجواب أن آيتنا خاصة، والخاص مقدم على العام؛ ولأنها دخلها التخصيص فيما إذا كان تحته حرة، واتفقوا على أنه لا يجوز وطؤها بملك اليمين[(١)].

ظاهر قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

يقتضي كون الإيمان معتبرًا من الحرة، فعلى هذا لو قدر على طول حرة كتابية، ولم يقدر على طول أمة مسلمة؛ فإنه يجوز له أن يتزوج بالأمة، وأكثر العلماء على أن ذكر الإيمان ندب في الحرائر، ولا فرق بين الأمة المؤمنة والكتابية في كثرة المؤمنة وقلتها[(٢)].

ونلاحظ هنا:

أن التعبير عن الإماء بقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

تكريم لهؤلاء الأرقاء، وإعزاز لإنسانيتهن، وتعليم للمسلمين أن يلتزموا الأدب في مخاطبتهم لأرقائهم، ولذا ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، ولكن ليقل: فتاي وفتاتي)[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [النساء:٢٥].

جملة معترضة سيقت بين إباحة النكاح من الإماء المؤمنات وبين صورة العقد عليهن تأنيسًا للقلوب، وإزالة للنفرة عن ناكح الإماء ببيان أن مناط التفاخر إنما هو الإيمان لا التباهي بالأحساب والأنساب[(٤)]، فقد تكون الأمة أشد أيمانًا وأعظم ديانة من غيرها.

وهذا التشريع الإسلامي ما هو إلا تسهيل من الله ورفعٌ للحرج[(٥)] ومن رحمة الله تعالى بعباده وهو إباحة نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر لمن خشي الضرر على نفسه.

يصبح المعنى التشريعي بعد هذا

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦ / ٣١٩.
(٢) المصدر السابق ٦ / ٣٢٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب التطاول على الرقيق، ٢/ ٩٠١، رقم ٢٤١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة ٢ / ٩٠١، رقم ٢٢٤٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) الوسيط، سيد طنطاوي، ١ / ٩١٦.
(٥) تيسير التفسير تفسير القطان ١ / ٢٨٣.

البيان السابق: فمن لم يستطع منكم نكاح الحرائر المؤمنات فله أن يتجاوزهن إلى ما يستطيع من المملوكات المؤمنات، والله أعلم بحقيقة إيمانكم وإخلاصكم، ولا تستنكفوا من نكاحهن، فأنتم وهن سواء فى الدين، فتزوجوهن بإذن أصحابهن، وأدوا إليهن مهورهن التي تفرضونها لهن، حسب المعهود بينكم فى حسن التعامل وتوفية الحق، واختاروهن عفيفات، فلا تختاروا زانية معلنة ولا خليلة، فإن أتين الزنى بعد زواجهن فعقوبتهن نصف عقوبة الحرة، وإباحة نكاح المملوكات عند عدم القدرة جائز لمن خاف منكم المشقة المفضية إلى الزنى، وصبركم عن نكاح المملوكات مع العفة خير لكم، والله كثير المغفرة، عظيم الرحمة[1].

ثانيًا: المحصنات من أهل الكتاب:

اتفق العلماء على أنه لا يجوز تزويج المسلمة للكافر مطلقًا، وأنه لا يجوز تزويج المسلم للكافرة إلا أن عموم هذه الآيات خصصته آية «المائدة»، فأبانت أن المسلم يجوز له تزوج المحصنة الكتابية خاصة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

فقوله تعالى عاطفًا على ما يحل للمسلمين: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ صريح في إباحة تزويج المسلم للمحصنة الكتابية، والظاهر أنها الحرة العفيفة، أي: العفيفات من أهل الكتاب، وهذا قول جمهور العلماء، وبه قال الأئمة الأربعة[2].

فالحاصل أن التزويج بين الكفار والمسلمين ممنوع في جميع الصور، إلا صورة واحدة، وهي تزوج الرجل المسلم بالمرأة المحصنة الكتابية، والنصوص الدالة على ذلك قرآنية، كما رأيت.

والمعنى الإجمالي للآية: وأحل لكم أيها المؤمنون نكاح المحصنات، وهن الحرائر من النساء المؤمنات، العفيفات عن الزنى، وكذلك نكاح الحرائر العفيفات من اليهود والنصارى إذا أعطيتموهن مهورهن، وكنتم أعفاء غير مرتكبين للزنى، ولا متخذي عشيقات، وأمنتم من التأثر بدينهن. ومن يجحد شرائع الإيمان فقد بطل عمله، وهو يوم القيامة من الخاسرين[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(١) المنتخب في تفسير القرآن، لجنة من علماء الأزهر ١ / ١٣٣.

(٢) تفسير آيات الأحكام ١ / ١٢٥.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من علماء الأزهر ٢ / ١٧٩.

[النور:٣٢].

يدل على لزوم تزويج الأيامى من المملوكين الصالحين، والإماء المملوكات، وظاهر هذا الأمر الوجوب؛ لما تقرر في الأصول[١].

وقوله تعالى ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

أمر المؤمنين بفك عصمة زوجاتهم الكوافر فطلّق عمر بن الخطاب يومئذ زوجتين، وطلّق طلحة بن عبيد الله زوجته أروى بنت ربيعة، وعصم الكوافر عام في كل كافرة، فيشمل الكتابيات لكفرهن باعتقاد الولد لله، كما حققه الشيخ الشنقيطي رحمة الله تعالى، ولكن هذا العموم قد خصص بإباحة الكتابيات في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥].

أي: الحرائر، وبقيت الحرمة بين المسلم والمشركة بالعقد على التأبيد[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:١-٤].

ذكر هنا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم جاءت ﴿مِنْ﴾ وجاء بعدها ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ مما يشعر بأن وصف الكفر يشمل كلًا من أهل الكتاب والمشركين، كما يشعر مرة أخرى أن المشركين ليسوا من أهل الكتاب، لوجود العطف، وأن أهل الكتاب ليسوا من المشركين.

وهذا المبحث معروف عند المتكلمين وعلماء التفسير، واتفقوا على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وأن المشركين هم عبدة الأوثان، والكفر يجمع القسمين، وأهل الكتاب مختص باليهود والنصارى، ولكن الخلاف هل الشرك يجمعهما أيضًا أم لا؟

فبين الفريقين عموم وخصوص، عموم في الكفر، وخصوص في أهل الكتاب لليهود والنصارى، وخصوص في المشركين لعبدة الأوثان.

ولكن جاءت آيات تدل على أن مسمى الشرك يشمل أهل الكتاب أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٥٢٩.
(٢) المصدر السابق ٨/ ١٠٠.

﴿إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٠-٣١].

فجعل مقالة كل من اليهود والنصارى إشراكًا، وجاء عن عبد الله بن عمر منع نكاح الكتابية، وقال: وهل كبر إشراكًا من قولها: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف:٤].

فهو وإن كان مخالفًا للجمهور في منع الزواج من الكتابيات، إلا أنه اعتبرهن مشركات.

ولهذا الخلاف والاحتمال وقع النزاع في مسمى الشرك هل يشمل أهل الكتاب أم لا؟ مع أننا وجدنا فرقًا في الشرع في معاملة أهل الكتاب، ومعاملة المشركين فأحل ذبائح أهل الكتاب، ولم يحلها من المشركين، وأحل نكاح الكتابيات، ولم يحله من المشركات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١].

وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

وقال: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠].

بين ما في حق الكتابيات قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [المائدة:٥].

فكان بينهما مغايرة في الحكم.

وقد جمع الشيخ محمد الأمين رحمه الله تعالى بين تلك النصوص في دفع إيهام الاضطراب عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

مفاده أن الشرك الأكبر المخرج من الملة أنواع وأهل الكتاب متصفون ببعض دون بعض إلى آخر ما أورده رحمه الله[1].

ولعل في نفس آية: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ فيها إشارة إلى ما ذكره رحمة الله تعالى من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:٣٠].

أي: يشابهونهم في مقالتهم وهذا القدر اتصف به المشركون من أنواع الشرك.

الثاني: تذييل الآية التالية بعد حكاية فعلهم الشنيع بصيغة المضارع ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

بينما وصف عبدة الأوثان في سورة البينة بالاسم ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

فظاهره أن الأمة لا يجوز نكاحها، ولو عند الضرورة إلا إذا كانت مؤمنة بدليل قوله: ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، فمفهوم

(١) انظر: دفع إيهام الاضطراب، الشنقيطي ص ١٥٩- ١٦٠.

(٢) انظر: تتمة أضواء البيان، عطية سالم ٩ / ٣٩-٤٠.

مخالفته أن غير المؤمنات من الإماء لا يجوز نكاحهن على كل حال، وهذا المفهوم يفهم من مفهوم آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

فإن المراد بالمحصنات فيها الحرائر على أحد الأقوال، ويفهم منه أن الإماء الكوافر لا يحل نكاحهن، ولو كن كتابيات، وخالف الإمام أبو حنيفة رحمه الله فأجاز نكاح الأمة الكافرة، وأجاز نكاح الإماء لمن عنده طول ينكح به الحرائر؛ لأنه لا يعتبر مفهوم المخالفة كما عرف في أصوله رحمه الله[(١)].

ثبوت الشرك في أهل الكتاب مع حل نسائهم:

وأما كون أهل الكتاب فيهم شرك كما ذكره الله فهذا متفق عليه بين المسلمين كما نطق به القرآن، كما أن المسلمين متفقون على أن قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٨٢].

أن النصارى لم يدخلوا في لفظ (الذين أشركوا)، كما لم يدخلوا في لفظ (اليهود)[(٢)]، وإن كان فيهم الشرك للتمييز بينهم وبين مشركي العرب.

إباحة نساء أهل الكتاب متأخر:

إذا قدر أن لفظ «المشركات» و «الكوافر» يعم الكتابيات: فآية المائدة خاصة وهي متأخرة نزلت بعد سورة البقرة والممتحنة باتفاق العلماء، والخاص المتأخر يقضي على العام المتقدم باتفاق علماء المسلمين؛ لكن الجمهور يقولون: إنه مفسر له.

فتبين أن صورة التخصيص لم ترد باللفظ العام. وطائفة يقولون: إن ذلك نسخ بعد أن شرع. وإذا فرضنا النصين خاصين، فأحد النصين حرم ذبائحهم ونكاحهم، والآخر أحلهما. فالنص المحلل لهما هنا يجب تقديمه؛ لأن سورة المائدة هي المتأخرة باتفاق العلماء فتكون ناسخة للنص المتقدم[(٣)].

شروط الزواج من الكتابيات:

أما الشروط التي حددها الشرع في جواز زواج المسلم من الكتابية هي نفسها الشروط التي ذكرناها في شروط زواج المسلم من المسلمة الحرة، وهي: الإحصان بمعنى العفة، وإذن الولي، ووجوب المهر.

فشرط الإحصان الأصل فيه قول الله تبارك تعالى في الآية السابقة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[المائدة:٥].

فوجود العفة في المرأة شرط للزواج

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ١ / ٢٣٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٣٢، الجواب الصحيح، ابن تيمية ٣/ ١١٦.
(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٣٥/ ٢١٥.

منها سواء كانت مسلمة أو كتابية، فالكتب السماوية كلها توجب عفاف المرأة ولا مجال لأي قول خلاف ذلك.

ولابد هنا من وقفة للتأكيد على شرط الإحصان، وإضافة شرط آخر للزواج من الكتابية.

❁ إذا فقد شرط الإحصان في نكاح الكتابية.

لابد هنا من التأكيد على أن صفة الإحصان التي أباح الله بها للمسلم أن يتزوج الكتابية في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[المائدة:٥].

إذا فقدت؛ فذلك يدل على عدم جواز زواج المسلم بالكتابية التي لا توجد فيها صفة الإحصان، وقد اختلف في صفة الإحصان هذه على قولين:

القول الأول: أن المراد بها العفة، فإذا كانت الكتابية عفيفة لم تقارف الفاحشة جاز نكاحها، وممن فسر الإحصان بالعفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه عندما كتب إليه حذيفة بن اليمان: (أحرام هي- يعني الكتابية - كتب إليه عمر قائلًا: لا، ولكني أخاف أن تواقعوا المومسات منهن، قال أبو عبيدة: يعني العواهر)[1].

وقال مطرف عن الشعبي في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥].

قال: (إحصان اليهودية والنصرانية: أن تغتسل من الجنابة وأن تحصن فرجها)[2].

وممن قال بذلك: السدي، ومجاهد وسفيان.

القول الثاني: أن المراد بالإحصان هنا الحرية، أي: يجوز نكاح الكتابية الحرة دون الأمة وإن كانت قد أتت بفاحشة إذا تابت منها، بشرط أن تكون بموضع لا يخاف الناكح فيه على ولده أن يجبر على الكفر.

وقد رجح هذا القول ابن جرير الطبري، وذكر القائلين به في تفسيره[3].

وعلى كلا القولين فإن الكتابية التي في دار الكفر وليست في دار الإسلام يرجح جانب الحذر منها، لما في بيئتها من الفساد الواضح.

وكيف تكون عفيفة من توصم بالعار والأمراض النفسية إذا بلغت سنًا معينًا، ولم تجد من يعيش معها معيشة غير مشروعة، كما يعيش الزوج مع زوجته؟

وكيف لا يخشى من عدم عفة امرأة تختلط بالأجانب في الخلوة كما مضى؟!!!

(١) أخرجه الطبري في تفسيره، ٣/٧١٦، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب ما جاء في تحريم حرائر أهل الكتاب، ٧/ ١٧٢.

قال ابن كثير في تفسيره ١/ ٥٠٧: «وهذا إسناد صحيح».

(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٢ / ٣٢٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ٦ / ١٠٧- ١٠٨.

❁ أن تكون الولاية للمسلم إذا تزوج الكتابية المحصنة.

والحاصل في هذا الزمان: أن من يتزوج من بلدٍ كافر فإنه يتزوجهن وفق قوانينها، فيطبقون عليه نصوص قوانينهم، وفيها من الظلم والجور الشيء الكثير في هذا الباب، ولا يعترفون بولاية المسلم على زوجته وأولاده، وإذا ما غضبت المرأة من زوجها هدمت بيته، وأخذت أولادها بقوة القانون، فينشأ أولاده على الكفر.

وأيضًا فإن النبي صلى الله عليه وسلم رغبنا بذات الدين من المسلمات، فلو كانت مسلمة توحد الله لكنها ليست ذات دينٍ وخلق فإنه لا يرغب بزواجها؛ لأن الزواج ليس هو الاستمتاع بالجماع فقط؛ بل هو رعاية لحق الله وحق الزوج، وحفظٌ لبيته وعرضه وماله، وتربية لأولاده، فكيف يأمن من يتزوج كتابية على تربية أبنائه وبناته على الدين والطاعة، وهو تاركٌ لهم بين يدي تلك الأم التي تكفر بالله تعالى وتشرك معه آلهة؟

فعلى الإنسان المسلم العاقل أن يتخير لنطفته أين يضعها، وأن ينظر نظرًا مستقبليًا لحال أولاده ودينهم، وألا يعميه عن النظر الواعي شهوةٌ جارفةٌ، أو مصلحةٌ دنيويةٌ عاجلةٌ، أو جمال ظاهري خادع، فإنما الجمال جمال الدين والأخلاق[1].

فلابد من إضافة هذا الشرط لشروط نكاح المسلم من الكتابية، لأهميته وخاصة مع فساد أحوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى فيه هذا الزمان.

المحصنات من سبايا الجهاد:

السبايا: هن النساء المتزوجات اللواتي يقعن سبايا في ملك المسلمين في حرب يدافعون بها عن الدين، وأزواجهن كفار في دار الكفر، فحينئذ ينحل عقد زواجهن، ويكن حلالًا للمسلمين بالشروط المعروفة في كتب الفقه.

ويقول أبو حنيفة: إن من سبي معها زوجها فلا تحل لغيره، لأنه لا بد من اختلاف الدار بين الزوجين، دار الإسلام ودار الكفر[2].

ومذهب مالك أن السبي يهدم النكاح، سواء سبي الزوجان الكافران معًا، أو سبي أحدهما قبل الآخر، وقال ابن المواز: لا يهدم السبي النكاح[3].

لذا ورد أن الآية: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

نزلت في سبايا أوطاس، وهي وقعة كانت بعد موقعة حنين، فسبى فيها المسلمون

(١) راجع في ذلك: حكم زواج المسلم المغترب من الكتابيات، فضل الله ممتاز، موقع الملتقى الفقهي، السبت ٢٩ محرم ١٤٣٦، ٢٢ نوفمبر ٢٠١٤.

(٢) أيسر التفاسير، أسعد حومد ١ / ٥١٧.

(٣) التسهيل، ابن جزي ١ / ٢٤٦.

النساء والذراري، فتحرج المؤمنون في غشيان أولئك النسوة، ومنهم المتزوجات، فأذن لهم في غشيانهن بعد أن تسلم إحداهن وتستبرأ بحيضة، أما قبل إسلامها فلا تحل؛ لأنها مشركة[1].

إن الاستمتاع بالجارية بالوطء أو مقدماته لا يكون مشروعًا، إلا أن تكون مملوكة للرجل الحر ملكًا تامًا كاملًا، وهي التي ليس له فيها شريك، وليس لأحد فيها شرط أو خيار، ويشترط ألا يكون فيها مانع يقتضي تحريمها عليه، كأن تكون أخته من الرضاعة، أو موطوءة فرعه أو أصله، أو تكون متزوجة، أو أختًا لأمة أخرى يطؤها، أو مشركة غير كتابية. فإذا استوفت ذلك كله جاز له وطؤها بملك اليمين لا بعقد الزوجية.

والجارية التي يتخذها سيدها للوطء تسمى سرية، فإذا حبلت من سيدها وأتت بولد، ولو سقط سميت أم ولد، وعتقت بعد موت سيدها.

أما وطء الأمة الكافرة بملك اليمين، فإنها إن كانت كتابية فجمهور العلماء على إباحة وطئها بالملك، لعموم قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٦].

ولجواز نكاح حرائرهم فيحل التسري بالإماء منهم، وليس في وطئها مع إباحة التزوج بهن نزاع، بل في التزوج بها خلاف مشهور، والقول بجواز التزوج بهن مع المنع من التسري بهن لم يقله أحد ولا يقوله فقيه[2].

وقد أجمع العلماء على حل ذلك، ثم إن حل نكاحهن يقتضي حل التسري بهن من طريق الأولى والأحرى، وذلك أن كل من جاز وطؤها بالنكاح جاز وطؤها بملك اليمين بلا نزاع، وأما العكس فقد تنازع فيه العلماء؛ وذلك لأن ملك اليمين أوسع[3].

وأما إن كانت الأمة المملوكة له مجوسية، أو عابدة وثن، ممن لا يحل نكاح حرائرهم؛ فجمهور العلماء على منع وطئها بملك اليمين، قال ابن عبد البر: وعليه جماعة فقهاء الأمصار وجمهور العلماء، وما خالفه فهو شذوذ لا يعد خلافًا، ولم يبلغنا إباحة ذلك إلا عن طاوس.

قال الشيخ عطية سالم رحمه الله في تقييده لأضواء البيان: الذي يظهر من جهة الدليل والله تعالى أعلم، جواز وطء الأمة بملك اليمين، وإن كانت عابدة وثن أو مجوسية؛ لأن أكثر السبايا في عصره صلى الله عليه وسلم من كفار العرب، وهم عبدة أوثان، ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرم وطأهن بالملك لكفرهن

(١) الدر المنثور، السيوطي ٢ / ٤٧٨.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٣٢/ ١٨٣.

(٣) المصدر السابق ٣٢/ ١٨٤.

ولو كان حرامًا لبينه، بل قال صلى الله عليه وسلم: (لا توطأ حاملٌ حتى تضع ولا غير ذات حملٍ حتى تحيض حيضةً)[1]، ولم يقل حتى يسلمن، ولو كان ذلك شرطًا لقاله، وقد أخذ الصحابة سبايا فارس وهن مجوس، ولم ينقل أنهم اجتنبوهن حتى أسلمن.

قال ابن القيم: «ودل هذا القضاء النبوي على جواز وطء الإماء الوثنيات بملك اليمين، فإن سبايا أوطاس لم يكن كتابيات، ولم يشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم في وطئهن إسلامهن، ولم يجعل المانع منه إلا الاستبراء فقط، وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع مع أنهم حديثو عهد بالإسلام ويخفى عليهم حكم هذه المسألة، وحصول الإسلام من جميع السبايا، وكن عدة آلاف بحيث لم يتخلف منهن عن الإسلام جارية واحدة مما يعلم أنه في غاية البعد، فإنهن لم يكرهن على الإسلام، ولم يكن لهن من البصيرة والرغبة والمحبة في الإسلام ما يقتضي مبادرتهن إليه جميعًا، فمقتضى السنة وعمل الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده جواز وطء المملوكات على أي دين كن»[2].

وقد أشار سيد قطب إلى حكمة هذا التشريع عند حتمية وجود سبايا كوافر في المجتمع المسلم، فكيف يصنع بهن؟ إن الفطرة لا تكتفي بأن يأكلن ويشربن، فهناك حاجة فطرية أخرى لا بد لهن من إشباعها وإلا التمسنها في الفاحشة التي تفسد المجتمع كله وتدنسه! ولا يجوز للمسلمين أن ينكحوهن وهن مشركات، لتحريم الارتباط الزوجي بين مسلم ومشركة، فلا يبقى إلا طريق واحد هو إحلال وطئهن بلا نكاح ما دمن مشركات، بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن؛ وانقطاع صلتهن بأزواجهن في دار الكفر والحرب»[3].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في وطء السبايا، ٢/ ٢١٣، رقم ٢١٥٩، من حديث أبي سعيد الخدري.
وصححه الألباني.

(٢) زاد المعاد، ٥/ ١٢١-١٢٠.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٨٦.

إكراه المحصنات على البغاء

أجمع العلماء على حرمة فعل الجاهلية من إكراه الفتيات على فاحشة الزنى، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

ووجه الدلالة أن النهي صريح في الآية، كما أنها تشمل حكمًا آخر هو أن الله تعالى قد أسقط الإثم عمن أكرهت على الزنى.

ومن هنا اتفق العلماء على أنه لا حد على امرأة مستكرهة؛ وذلك لأنها لم تقصد ولم ترض بالزنى[(١)].

ويترتب على ذلك محو كل الآثار الضارة المترتبة على هذا الإكراه، ومنها الكسب غير المشروع، حيث حرمت الآية الكريمة كسب المال، وتحصيله عن طريق امتهان فاحشة الزنى والترويج لها، نظرًا لما فيها من تضييع للنسل وإفساد للمجتمع، وفي هذا دلالة على أن مصلحة المال متأخرة في الاعتبار والأهمية، عن سائر الكليات الأخرى[(٢)].

والآية انتقال إلى نوع من التشريع من شؤون المعاملات بين الرجال والنساء التي لها أثر في الأنساب، ومن شؤون حقوق الموالي والعبيد، وهذا الانتقال لمناسبة ما سبق من حكم الاكتساب المنجر من العبيد لمواليهم وهو الكتابة فانتقل إلى حكم البغاء.

وسبب نزول هذه الآية: أن جاريتين كانتا لعبد الله بن أبي بن سلول المنافق يقال لهما معاذة ومسيكة قد أسلمتا، فأمرهما بالزنى لتكسبا له بفرجيهما، كما هي عادة أهل الجاهلية قبل الإسلام، فشكتا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور:٣٣].

أي: لأجل مال قليل يعرض لكم ويزول عنكم بسرعة[(٣)].

وقوله: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

أي: لهن رحيم بهن؛ لأن المكره لا إثم عليه فيما يقول ولا فيما يفعل فامتنع المنافق من ذلك[(٤)].

والبغاء مصدر: باغت الجارية، إذا تعاطت الزنى بالأجر حرفة لها، فالبغاء الزنى بأجرة، واشتقاق صيغة المفاعلة فيه للمبالغة والتكرير ولذلك لا يقال إلا: باغت الأمة، ولا يقال: بغت، وهو مشتق من البغي بمعنى الطلب؛ لأن سيد الأمة بغى بها كسبًا،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٨٣.
(٢) معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية ٤/ ١٨٦.
(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ١/ ٢٢٠.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٥٧٠.

وتسمى المرأة المحترفة به بغيًا[1].

وقد كانت في المدينة إماء بغايا منهن ست إماء شابات جميلات لعبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق، وهن: معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة، وكان يكرههن على البغاء بعد الإسلام طلبًا لكسبهن، وفيه نزلت الآيات الكريمة المتقدمة[2].

قال ابن العربي: روى مالك عن الزهري أن رجلًا من أسرى قريش في يوم بدر قد جعل عند عبد الله بن أبي، وكان هذا الأسير يريد معاذة على نفسها، وكانت تمتنع منه؛ لأنها أسلمت، وكان عبد الله بن أبي يضربها على امتناعها منه، رجاء أن تحمل منه - أي: من الأسير القرشي- فيطلب فداء ولده، أي: فداء رقه من ابن أبي، ولعل هذا الأسير كان موسرًا له مال بمكة، وكان الزاني بالأمة يفتدي ولده بمائة من الإبل يدفعها لسيد الأمة، وأنها شكته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية[3].

والبغاء الذي كان منتشرًا في الجاهلية كان على نوعين:

الأول: البغاء في صورة النكاح.

الثاني: البغاء العام في الإماء والحرائر.

أما الأول: فكانت تحترفه بعض الإماء اللواتي لم يكن لهن من يكفلهن، أو الحرائر اللواتي لم يكن لهن بيت، أو أسرة تضمهن، فكانت إحداهن تجلس في بيت، وتتفق في آن واحد مع عدة رجال، على أن ينفقوا عليها، ويقوموا على أمرها ويقضوا منها حاجتهم، فإذا حملت ووضعت أرسل إليهم حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت وهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحبت باسمه، فيلتحق نسبه به، فهذا نوع من البغاء كان يتناكح به أهل الجاهلية.

وقد أثبتت عائشة رضي الله عنها أن الإسلام هدم أنكحة الجاهلية الثلاثة، وأبقى النكاح المعروف، ولكنها لم تعين ضبط زمان ذلك الهدم[4].

وأما البغاء العام: فكان معظمه بواسطة الإماء، وربما وقع من بعض الحرائر أيضًا وهو أيضًا على وجهين:

الأول: أن بعض السادة كانوا يفرضون على إمائهم مبلغًا كبيرًا من المال يتقاضونه منهن في كل شهر، فكن يكسبن بالفجور؛ لأنه لا يمكنهن أن يدفعن ما فرضه عليهن سادتهن بحرفة طاهرة، فكن يحترفن البغاء.

والوجه الثاني: أن بعض العرب كانوا يجلسون الفتيات الشابات من إمائهن في

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٧٧.
(٢) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١ / ٣٩٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٣٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠ / ٥٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ٥/ ١٩٧٠، رقم ٤٨٣٤.

الغرفات، وينصبون على أبوابهم رايات، تكون علمًا لمن أراد أن يقضي منهن حاجته، وكانت بيوتهن تسمى المواخير، وكانوا يستدرون من ورائهن المال، فإذا أبت إحداهن أو تعففت عن ممارسة هذه الرذيلة ضربها سيدها وأكرهها على مزاولة الحرفة، حتى لا ينقطع عنه ذلك المورد الخبيث، الذي كان يكسبه المال الوفير.

وكان بمكة تسع بغايا شهيرات يجعلن على بيوتهن رايات مثل رايات البيطار ليعرفهن الرجال، وهن كما ذكر الواحدي: أم مهزول جارية السائب المخزومي، وأم غليظ جارية صفوان بن أمية، وحية القبطية جارية العاصي بن وائل، ومزنة جارية مالك بن عميلة بن السباق، وجلالة جارية سهيل بن عمرة، وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي، وشريفة جارية ربيعة بن أسود. وقرينة أو قريبة جارية هشام بن ربيعة، وقرينة جارية هلال بن أنس.

وقالوا: إن عبد الله بن أبي كان قد أعد معاذة لإكرام ضيوفه، فإذا نزل عليه ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الكرامة له، فأقبلت معاذة إلى أبي بكر فشكت ذلك إليه، فذكر أبو بكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم، أبا بكر بقبضها فصاح عبد الله بن أبي: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مماليكنا، فأنزل الله هذه الآية، أي: وذلك قبل أن يتظاهر عبد الله بن أبي بالإسلام.

قال في التحرير والتنوير: وتقدم أن من البغايا عناق ولعلها هي أم مهزول كما يقتضيه كلام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[النور:٣].

ولم أقف على أن واحدة من هؤلاء اللاتي كن بمكة أسلمت وأما اللائي كن بالمدينة فقد أسلمت منهن معاذة ومسيكة وأميمة، ولم أقف على أسماء الثلاث الأخر في الصحابة فلعلهن هلكن قبل أن يسلمن[(١)].

وجميع هذه الآثار متظافرة على أن هذه الآية كان بها تحريم البغاء على المسلمين والمسلمات المالكات أمر أنفسهن[(٢)].

ولا ريب أن الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ موجه إلى المسلمين، فإذا كانت قصة أمة ابن أبي حدثت بعد أن أظهر سيدها الإسلام، و كان هو سبب النزول فشمله العموم لا محالة، وإن كانت حدثت قبل أن يظهر الإسلام فهو سبب ولا يشمله الحكم؛ لأنه لم يكن من المسلمين يومئذ، وإنما كان تذمر أمته منه داعيًا لنهي المسلمين عن إكراه فتياتهم على

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٥٦.
(٢) المصدر السابق.

البغاء، وأيًا ما كان فالفتيات مسلمات؛ لأن المشركات لا يخاطبن بفروع الشريعة[1].

وقد كان إظهار عبد الله بن أبي الإسلام في أثناء السنة الثانية من الهجرة فإنه تردد زمنًا في الإسلام، ولما رأى قومه دخلوا في الإسلام دخل فيه كارهًا مصرًا على النفاق، ويظهر أن قصة أمته حدثت في مدة صراحة كفره، لما علمت مما روي عن الزهري من قول ابن أبي حين نزلت: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مماليكنا، ونزول سورة النور كان في حدود السنة الثانية، فلا شك أن البغاء الذي هو من عمل الجاهلية استمر زمنًا بعد الهجرة بنحو سنة.

ولا شك أن البغاء يمت إلى الزاني بشبه، لما فيه من تعريض الأنساب للاختلاط، وإن كان لا يبلغ مبلغ الزنى في خرم كلية حفظ النسب، من حيث كان الزنى سرًا لا يطلع عليه إلا من اقترفه، وكان البغاء علنًا، وكانوا يرجعون في إلحاق الأبناء الذي تلدهم البغايا بآبائهم إلى إقرار البغي بأن الحمل ممن تعينه. واصطلحوا على الأخذ بذلك في النسب، فكان شبيهًا بالاستلحاق، على أنه قد يكون من البغايا من لا ضبط لها في هذا الشأن، فيفضي الأمر إلى عدم التحاق الولد بأحد.

ولا شك في أن الزنى كان محرمًا تحريمًا شديدًا على المسلم من مبدأ ظهور الإسلام، وكانت عقوبته فرضت في حدود السنة الأولى بعد الهجرة، بنزول سورة النور.

ولا يعقل أن يكون البغاء محرمًا قبل نزول هذه الآية؛ إذ لم يعرف قبلها شيء في الكتاب والسنة يدل على تحريم البغاء؛ ولأنه لو كان كذلك لم يتصور حدوث تلك الحوادث التي كانت سبب نزول الآية؛ إذ لا سبيل للإقدام على محرم بين المسلمين أمثالهم؛ ولذلك فالآية نزلت توطئة لإبطاله كما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣] توطئة لتحريم الخمر البتة، وهو الذي جرى عليه المفسرون مثل: الزمخشري والفخر بظاهر عباراتهم دون صراحة بل بما تأولوا به معاني الآية، إذ تأولوا قوله: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ بأن الشرط لا يراد به عدم النهي عن الإكراه على البغاء، إذا انتفت إرادتهن التحصن، بل كان الشرط خرج مخرج الغالب؛ لأن إرادة التحصن هي غالب أحوال الإماء البغايا المؤمنات؛ إذ كن يحببن التعفف، أو لأن قصة سبب نزول الآية كانت معها إرادة التحصن[2].

والداعي إلى ذكر القيد تشنيع حالة البغاء في الإسلام بأنه عن إكراه، وعن منع من التحصن، ففي ذكر القيدين إيماء إلى حكمة

(١) السابق ١٨/ ١٧٩.

(٢) السابق ١٨/ ١٨٠.

تحريمه وفساده وخباثة الاكتساب به.

وذكر ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لحالة الإكراه؛ إذ إكراههم إياهن لا يتصور إلا وهن يأبين وغالب الإباء أن يكون عن إرادة التحصن، هذا تأويل الجمهور ورجعوا في الحامل على التأويل إلى حصول إجماع الأمة على حرمة البغاء، سواء كان الإجماع لهذه الآية أو بدليل آخر انعقد الإجماع على مقتضاه، فلا نزاع في أن الإجماع على تحريم البغاء، ولكن النظر في أن تحريمه هل كان بهذه الآية.

أقول: إن ذكر الإكراه جرى على النظر لحال القضية التي كانت سبب النزول.

والذي يظهر من كلام ابن العربي أنه قد نحا بعض العلماء إلى اعتبار الشرط في الآية دليلًا على تحريم الإكراه على البغاء بقيد إرادة الإماء التحصن، فقد تكون الآية توطئة لتحريم البغاء تحريمًا باتًا، فحرم على المسلمين أن يكرهوا إماءهم على البغاء؛ لأن الإماء المسلمات يكرهن ذلك، ولا فائدة لهن فيه، ثم لم يلبث أن حرم تحريمًا مطلقًا، كما دل عليه حديث أبي مسعود الأنصاري: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن مهر البغي)[1].

فإن النهي عن أكله يقتضي إبطال البغاء، وقد يكون هذا الاحتمال معضودًا بقوله تعالى بعده: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

ونقل ابن عاشور عن الأصفهاني: وقيل إنما جاء النهي عن الإكراه، لا عن البغاء؛ لأن حد الزنى نزل بعد هذا، وهذا يقتضي أن صاحب هذا القول يجعل أول السورة نزل بعد هذه الآيات، ولا يعرف هذا، وقوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بتكرهوا أي: لا تكرهوهن لهذه العلة، ذكر هذه العلة لزيادة التبشيع كذكر ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، و﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو الأجر الذي يكتسبه الموالي من إمائهم، وهو ما يسمى بالمهر أيضًا[2].

وقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو صريح في أنه حكم متعلق بالمستقبل؛ لأنه مضارع في حيز الشرط، وهو صريح في أنه عفو عن إكراه.

وأما صورة الإكراه: فإنما يحصل الإكراه متى وجد التخويف بما يقتضي تلف النفس كالتهديد بالقتل، أو بما يوجب تلف عضو من الأعضاء، وأما باليسير من الخوف فلا تصير مكرهة. فحال الإكراه على الزنى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ثمن الكلب، ٥/ ٤٩٥، رقم ٢٢٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن ومهر البغي، ٣/ ١١٩٨، رقم ١٥٦٧، ولفظه: (نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨١.

كحال الإكراه على الكفر، وقد قال تعالى فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[النحل:١٠٦].

وقد ذكر بعض المفسرين أن الله تعالى إنما ذكر إرادة التحصن من المرأة؛ لأن ذلك هو الذي يصور الإكراه، فأما إذا كانت هي راغبة في الزنى لم يتصور إكراه.

وقال بعضهم: خرج مخرج الأغلب؛ إذ الغالب أن الإكراه إنما يكون عند إرادة التحصن.

والمقصود به التقبيح والتشنيع على هذا المنكر الفظيع الذي كان يعمله أهل الجاهلية، حيث كانوا يكرهوا الفتيات على البغاء مع إرادتهن للتعفف[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

قيل: غفور لهن.

وقيل: غفور لهم.

وقيل: لهن ولهم.

والراجح عفور لهن. وإلى ذلك ذهب البغوي[(٢)]، القرطبي[(٣)]، ابن كثير[(٤)]، البيضاوي، المحلي، الشوكاني، وابن عاشور[(٥)]، والشنقيطي.

وقال رحمه الله: «وأظهرها أن المعنى غفور لهن؛ لأن المكره لا يؤاخذ بما أكره عليه، بل يغفره الله لعذره بالإكراه، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. ويؤيده قراءة ابن مسعود، وجابر بن عبدالله، وابن جبير: (فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم)[(٦)].

ذكره عنهم القرطبي[(٧)].

وذكره الزمخشري[(٨)] عن ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين، أن الموعود بالمغفرة والرحمة هو المعذور بالإكراه دون المكره؛ لأنه غير معذور في فعله القبيح، وذلك البيان المذكور بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]»[(٩)].

قال ابن عاشور: «فلا يخطر بالبال أن الله غفور رحيم لهم - أي المكرهين- بعد أن نهاهم عن الإكراه؛ إذ ليس لمثل هذا التبشير

(١) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩١.
(٢) مختصر البغوي ٢/ ٦٤٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٥٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٩.
(٥) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٦٣، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٢٩٥، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨١، ١٨٢.
(٦) وقد قدم الشنقيطي في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنه لا يبين القرآن بقراءة شاذة، وربما ذكر القراءة الشاذة استشهادًا لقراءة سبعية كما هنا، انظر: مقدمة أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٥.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٢٥٥.
(٨) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٣٣.
(٩) أضواء البيان، ٦/ ٢١٩.

نظير في القرآن، وأما الإماء المكرهات فإن الله غفور رحيم لهن»[1].

وبناء على ما تقرر عند علماء الأصول[2] من أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، فإن الروايات الواردة في سبب نزول الآية تدل على تعرض بعض الإماء للإكراه على الزنى وشكاتهم ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم[3]، وهذا يدل دلالة واضحة على القول الراجح في الآية أن المغفرة لهن[4].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨١-١٨٢.
(٢) انظر: البحر المحيط، الزركشي ٣/ ٢١٦، شرح مختصر الروضة، الطوفي ٢/ ٥٠٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٠٣، أسباب النزول، الواحدي ص٣٢٨، لباب النقول، السيوطي ص ٢٩٣.
(٤) انظر: ترجيحات الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان ١/ ٤٧.

من نماذج المحصنات في القرآن

أبرز نموذج ذكره القرآن الكريم هو: مريم عليها السلام، مدحها القرآن بذلك، بل وامتن الله عليها برعايتها وتربيتها منذ نذرتها أمها وهي في بطنها إلى ربها، فأنبتها الله عز وجل نباتًا حسنًا، وهيأها لهذا العمل بإعدادها وتربيتها على حسن العبادة والسجود والركوع والقنوت لله.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣].

وتكرر فعل ﴿اصْطَفَاكِ﴾؛ لأن الاصطفاء الأول اصطفاء ذاتي، وهو جعلها منزهة زكية، والثاني بمعنى التفضيل على الغير. فلذلك لم يعد الأول إلى متعلق. وعدي الثاني. ونساء العالمين نساء زمانها، أو نساء سائر الأزمنة. وتكليم الملائكة والاصطفاء يدلان على نبوءتها والنبوءة تكون للنساء دون الرسالة.

وإعادة النداء في قول الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي﴾ لقصد الإعجاب بحالها؛ لأن النداء الأول كفى في تحصيل المقصود من إقبالها لسماع كلام الملائكة، فكان النداء الثاني مستعملًا في مجرد التنبيه الذي

ينتقل منه إلى لازمه وهو التنويه بهذه الحالة والإعجاب بها[1]؛ لذا وصوها بالمحافظة على الصلاة بعد أن أخبروها بعلو درجتها وكمال قربها إلى الله تعالى؛ لئلا تفتر ولا تغفل عن العبادة[2]، قال مجاهد: لما قيل لها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي﴾ قامت حتى ورمت قدماها[3].

هذا الإعداد الذي أعدها الله وهيأها به لتكون وابنها آية للعالمين ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١].

نحا بها نحو الكمال البشري، ففي الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد)[4].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون)[5].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون. وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[6].

وهذا المذكور في الكتاب والسنة إثبات لعفتها وطهارتها ونقائها.

قال ابن عطية: «واختلف الناس في الفرج الذي أحصنت مريم، فقال الجمهور: هو فرج الدرع الذي كان عليها، وأنها كانت صينة، وأن جبريل عليه السلام: نفخ فيها الروح من جيب الدرع، وقال قوم من المتأولين: هو الفرج الجارحة، فلفظة ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾: إذا كان فرج الجارحة متمكنًا حقيقة، والإحصان: صونه، وفيه هي مستعملة، وإذا قدرنا فرج الدرع فلفظ ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾ فيه مستعارة من حيث صانته، ومن حيث صار مسلكًا لولدها وهو مدح بالكناية دلالة على الطهر والنقاء فالثوب

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٧٤.
(٢) جامع لطائف التفسير ١٣ / ١٥٦.
(٣) توفيق الرحمن، فيصل آل مبارك ١ / ٣٦١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك) ٨ / ٥٣٨، رقم ٣٤٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة، ٧/ ١٣٢، رقم ٦٤٢٤.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب فضل خديجة رضي الله عنها، رقم ٣٨٧٨.
وصححه الألباني.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه)، ٣/ ١٢٦٦، رقم ٣٢٥٠.

المحصن فتحاته أو جيوبه يدل ذلك على نقاء وطهر صاحبه[1].

وفي رأيي أن القائلين بالفرج الجارحة هنا على خطأ بيّن، فالقرآن الكريم عند تناوله موضوع الفرج الجارحة يتناوله بطريقة عالية من الأدب الراقي، من حيث استخدامه للرمز ولا يمكن أن يخالف هنا، فيكون الكلام عن نفخ في فرج حقيقي ظاهرًا مكشوفًا.

وما ذهبنا إليه هو ما رجحه في أضواء البيان أن النفخ كان في جيب درعها فوصل إلى جوفها، فصار بسببه حملها عيسى عليه السلام[2]، وبهذا فسر في الكشاف آية النفخ[3].

وأوضح ابن تيمية أن نفخ جبريل في جيب الدرع على أنه الفرج مخالف لصريح القرآن، ورجح أنه نفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها[4].

وكذلك قال الله تعالى في حقها: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم:١٢].

فقوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ فعلى الأرجح أنه نسبها إلى حال أهلها وعائلتها من كونهم من القانتين، فهي من هؤلاء الموصوفين بالقانتين فاقتضى استخدام جمع المذكر تغليبًا، وإشارة على أن عبادتها في نفس مستوى عبادة الرجال عمومًا.

قال أبو السعود في تفسيره: «﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ أي: من عداد المواظبين على الطاعة، والتذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى عدت من جملتهم، أو من نسلهم، لأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام»[5].

ولما حدثت المعجزة وولدت مريم عيسى عليه السلام، عرض بنو إسرائيل بالقذف، فقالوا: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨].

فمدحوا أباها، ونفوا عن أمها البغاء، وعرضوا لمريم بذلك، ولذلك سماه الله بهتانًا.

قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦].

وكفرهم معروف، والبهتان العظيم هو التعريض لها، والمعنى ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغيًا، وأنت خلافهما، وقد أتيت بهذا الولد، لذلك أخذ فقهاء المالكية من ذلك أن المعرة إذا حصلت بالتعريض وجب أن يكون قذفًا كالتصريح،

(١) المحرر الوجيز، ٥/ ٣٠٩.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٩٠
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٣٤.
(٤) مجموع فتاوى، ابن تيمية ٥/ ٢٦٧.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٧٠.

والمعول على الفهم[1].

والثابت في عقيدة المسلمين في مريم عليها السلام أنها محصنة عفيفة طاهرة مطهرة عذراء، خلق الله ابنها عيسى عليه السلام بكلمة منه، دون أب، والله على كل شيء قدير، فقد خلق آدم عليه السلام دون أب وأم، وقد أراد الله إكرامها بأن تكون مظهر عظيم قدرته في مخالفة السنة البشرية لحصول حمل أنثى دون قربان ذكر، ليرى الناس مثالًا من التكوين الأول كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩][2].

وكل معجزة ظهرت من عيسى عليه السلام كما أنها نعمة في حقه، فكذلك هي نعمة في حق أمه؛ لأنها تدل على براءة ساحتها مما نسبوها إليه واتهموها به وحمل مريم ما كان من الرجال كسائر النساء، وإنما كان بروح منه[3].

عاقبة رمي المحصنات بالزنى

إشاعة الفاحشة ورمي المحصنات له عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة، حيث يقول جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور:١٩].

ويقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٢٣-٢٥].

ظاهر النصوص والواضح من منطوق الآيات السابقة أن لحد القذف عقوبتين: عقوبة في الدنيا هي إقامة الحد، وعقوبة في الآخرة هي اللعنة والعذاب العظيم والفضيحة بشهادة أعضائهم عليهم، علاوة على الحسرة والندامة بجديد العلم من أحوال الآخرة الظاهرة وما ينكشف من أمرها عيانًا بيانًا وسنفصل الحديث في هذا من خلال المطلبين التاليين:

أولًا: عاقبته في الدنيا:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

أفاد بلفظه ثلاث عقوبات: عقوبة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٧٣.
(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ١٠٠.
(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣٦٧.

بدنية من إقامة الحد بجلده ثمانين جلدة، وعقوبتان معنويتان بعدم قبول شهادته، والحكم بفسقه.

١. الجلد.

أثبت الله عز وجل عقوبة القاذف ثمانين جلدة، ويتبين لنا من هذه الآية الكريمة أن المراد بالرمي في قوله: ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، هو الرمي بالزنى، أو ما يستلزمه كنفي النسب، وأن عموم هذه الآية ظاهر في شموله لزوج المرأة إذا رماها بالزنى، فقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ من ألفاظ العموم، وقوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ من ألفاظ العموم، فدخل فيهما كل قاذف بالزنى[(١)]، وكل مقذوفة سواء أكانت زوجةً أم لا، ولذلك لما قذف هلال بن أمية امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك ابن سحماء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (البينة أو حد في ظهرك)[(٢)]، فأجرى عليه النبي صلى الله عليه وسلم لفظ العموم، وطالبه بالبينة، فقال هلال: والذي بعثك بالحق، إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور:٦-٧]. فوقعت الملاعنة بينه وبين امرأته، ونص الحديث أن الآية الأخرى وهي المخصصة نزلت متراخيةً عن اللفظ العام في الآية الأولى، وبين الله جل وعلا فيها أن زوج المرأة إذا قذفها بالزنى خارج من عموم هذه الآية، وأنه إن لم يأت الشهداء، تلاعنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ [النور: ٦][(٣)].

قال القرطبي: « قال أبو جعفر النحاس: من أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية إنه عامٌ لجميع الناس؛ القذفة من ذكر وأنثى، ويكون التقدير: إن الذين يرمون الأنفس المحصنات؛ فدخل في هذا المذكر والمؤنث... إلا أنه غلب المذكر على المؤنث[(٤)].

ثم إن الله بين كونهن مؤمنات غافلات لإيضاح صفاتهن الكريمة، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٣-٢٥].

(١) أيسر التفاسير، أسعد حومد ١ / ٢٦٧٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة ٢/ ٩٤٩، رقم ٤٧٤٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٥ / ٤٢٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢١٠.

ووصفه تعالى للمحصنات في هذه الآية بكونهن غافلات ثناء عليهن بأنهن سليمات الصدور نقيات القلوب لا تخطر الريبة في قلوبهن لحسن سرائرهن، ليس فيهن دهاء ولا مكر؛ لأنهن لم يجربن الأمور فلا يفطن لما تفطن له المجربات ذوات المكر والدهاء، وهذا النوع من سلامة الصدور وصفائها من الريبة من أحسن الثناء، وتطلق العرب على المتصفات به اسم البله مدحًا لها لا ذمًا[1].

اتفق العلماء على وجوب الحد بالتصريح بالقذف، واختلفوا في التعريض به، وحاصل حجة من قالوا بأن التعريض بالقذف لا يوجب الحد: أن التعريض محتمل لمعنى آخر غير القذف، وكل كلام يحتمل معنيين لم يكن قذفًا.

وذهب جماعة آخرون من أهل العلم إلى أن التعريض بالقذف يجب به الحد، وهو مذهب مالك وأصحابه. وروى الأثرم وغيره، عن الإمام أحمد أن عليه الحد، يعني المعرض بالقذف، قال: وروي ذلك عن عمر رضي الله عنه، وبه قال إسحاق إلى أن قال: وقال معمر: إن عمر كان يجلد الحد في التعريض.

واحتج أهل هذا القول بأدلة منها ما ذكره القرطبي، قال: والدليل لما قاله مالك: هو أن موضوع الحد في القذف، إنما هو لإزالة المعرة التي أوقعها القاذف بالمقذوف، وإذا حصلت المعرة بالتعريض، وجب أن يكون قذفًا كالتصريح والمعول على الفهم[2].

٢. عدم قبول شهادته.

ولما كان رمي المحصنات من أعظم الإثم في النيل من عرضهن، وحيث لم يأتوا بالبينة على رميهم لهن بالشهود، كان الجزاء من جنس العمل؛ ألا تقبل لهم شهادة أبدًا، لا في هذا الجانب ولا في غيره، فالشهادة كل لا يتجزأ.

ذهب الشعبي والضحاك وغيرهم إلى أن المحدود في القذف وإن تاب لا تقبل شهادته[3]؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٤].

واختلف الفقهاء اختلافًا كبيرًا في قبول شهادة القاذف بعد التوبة، يراجع في كتب الفقه وخلاصته: أن المقرر في أصول المالكية، والشافعية والحنابلة أن الاستثناء إذا جاء بعد جمل متعاطفات، أو مفردات متعاطفات، أنه يرجع لجميعها إلا لدليل

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥ / ٤٣٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢ / ١٧٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤؛ فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٣.

من نقل أو عقل يخصصه ببعضها[1]، والله عز وجل أمر بضرب شاهد الزور ثمانين جلدة حدًا على شهادة الزور؛ وأمر أن لا تقبل شهادته؛ وسماه فاسقًا؛ ثم استثنى حال التوبة، والاستثناء في سياق الكلام يرجع إلى أول الكلام وآخره؛ إلا أن يفرق بين ذلك خبر، وقد روي قبول شهادة القاذف، بعد توبته عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن ابن عباس رضي الله عنه، وعن عطاء وطاوس ومجاهد، وسئل الشعبي عن القاذف فقال: يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته؟![2]. أما الإمام أبو حنيفة فيقول برجوع الاستثناء للجملة الأخيرة فقط فينتفي عنه الفسق حال التوبة ولا تقبل شهادته على التأبيد[3].

٣. الحكم عليه بالفسق.

وشأن الفاسق أن يعتزله الناس وينبذه المجتمع، والمحدود في القذف ليس من أهل الولاية ولا الشهادة عند الحنفية، ففسقه مؤبد عندهم لا ترفعه توبته، وهو بمثابة الفاسق قبل التوبة عند الجمهور، إلا في مسألة واحدة وهي صحة حلفه أيمان القسامة كالعد، وإذا ثبت فسق المرء لم يقبل خبره في أمور الديانة، ولا تقبل فتاواه إن كان عالمًا. ولا تصح في الولايات المالية، كالنظر على الوقف، والوصية، والعمل على الزكاة وخرص الثمار، وكذا الولاية على النفس، وهكذا ولاية القضاء، لا تصح ولايته، وإذا ولي وحكم لم ينفذ حكمه، وعلى الإمام تعيين قاض آخر مكانه؛ يتصفح قضاءه السابق، فما وافق الحق أمضاه، وما جانبه نقضه. أما الولاية الكبرى فلا تصح تولية الفاسق فيها، ولا العهد إليه بها، وشهادة الفاسق مردودة مطلقًا سواء كان فسقه بارتكاب كبيرة، أو ببدعة، وإذا قبل الحاكم شهادته وحكم به لم يصح الحكم، وكل هذا وغيره الكثير مظانه في كتب الفقه.

ثانيًا: عاقبته في الآخرة:

ذكر الله عز وجل عاقبة رمي المحصنات في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٣- ٢٥].

ولم يغلظ الله تعالى في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في إفك ما رميت به عائشة رضي الله عنها فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر، وما

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥ / ٤٣١.
(٢) الأم، الإمام الشافعي ٢/ ١٣٥.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٣١.

ذلك إلا لأمر عظيم[1]، لم يذكر فيه توبة[2]، ثم رتب عليه اللعنة في الآخرة وهي الطرد من رحمة الله، حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبدًا[3].

وفي هذه الآية دليل على كفر من سب، أو اتهم زوجة من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بسوء، ولهم مع ذلك عذابٌ عظيم هائل لا يقادر قدره؛ لعظم ما اقترفوه من الجناية، إن لم يتوبوا، فيعذبون[4].

واستحقاق هذا العذاب يدل على أن جريمتهم من كبائر الذنوب، بل ومن السبع الموبقات كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: (اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[5].

ومن العقوبة في الآخرة تقرير الحساب وما يتم فيه من استنطاق واستجواب[6] ومن نوقش الحساب عُذب العذاب العظيم، الذي لا تحيط العبارة بوصفه[7]. بالإضافة إلى الفضيحة بين يدي الخلائق يوم القيامة والندم والحسرة.

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٩٨.

(٢) أخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني، باب ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، عن ابن عباس أنه قرأ سورة النور ففسرها فلما أتى على هذه الآية: إن الذين يرمون المحصنات الغافلات قال: هذه في عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجعل لمن فعل ذلك توبة وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم التوبة، ثم قرأ: إن الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى قوله: إلا الذين تابوا ولم يجعل لمن قذف امرأة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم توبة، ثم تلا هذه الآية: لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم. فهمَ بعض القوم أن يقوم إلى ابن عباس فيقبل رأسه لحسن ما فسر.
انظر: الدر المنثور، ٦ / ١٦٥ التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي ٢/ ٢٥٤.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من علماء الأزهر ٦/ ٢٢٧.

(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٩٨.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رمي المحصنات، ٧/ ١٦٢، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٦٤، رقم ٢٧٢.

(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٥٦١.

(٧) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٦٣.

أثر الإحصان على الفرد والمجتمع

لا شك أن للإحصان بشقيه ومعانيه أثرًا على الفرد وعلى المجتمع؛ لأنه مرتبط بالغريزة الجنسية التي هي من أقوى الغرائز وأعنفها، فما لم يكن لها متنفس عن طريق نظيف شريف تمردت وطغت. ونزعت بالإنسان إلى شر منزع[(١)].

ففي إحصان الرجم: جعل الإسلام الزواج هو أقصر طريق لتحصن المسلم وتحقيق العفة وأسلم طريقة لإرواء الغريزة وإشباعها ليهدأ البدن من الاضطراب، وتسكن النفس عن الصراع، ويكف النظر عن التطلع إلى الحرام، وتطمئن العاطفة إلى ما أحل الله لها، وتحصل بأكمل الجهات وهو النكاح الصحيح فيعتبر حصولها من كامل آيات الله[(٢)].

وهذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

وبذلك يصلح أفراد المجتمع وينبثق من هذا الصلاح مجتمع قوي متماسك نظيف عفيف.

شرع الله الزواج لحكم سامية، وغايات نبيلة، وفوائد جليلة، ومنافع كثيرة دنيا وأخرى، وهو من هدي القرآن للتي هي أقوم[(٣)]، وأمر بتيسير أسبابه؛ لأنه هو الطريق السليم للتناسل، وعمران الأرض بالذرية الصالحة. ولم يشأ الله تبارك وتعالى أن يترك الإنسان كغيره من المخلوقات. فيدع غرائز تنطلق دون وعي. ويترك الاتصال بين الذكر والأنثى فوضى لا ضابط له، كما هو الحال عند الحيوان. بل وضع النظام الملائم الذي يحفظ للإنسان كرامته، ويصون له شرفه. فجعل اتصال الرجل بالمرأة اتصالًا نظيفًا طاهرًا قائمًا على أساس التراضي والتفاهم. وبهذا وضع للغريزة طريقها المأمون، وحمى النسل من الضياع، وصان المرأة أن تكون دميةً بين أيدي العابثين أو كلًا مباحًا لكل راتع.

ومن جمال التشريع القرآني أن ضبط هذه الغريزة مرتبط بالإيمان؛ إذ الزنا عديل الشرك في القبح والإيمان قرين العفاف والتحصن[(٤)].

مجتمع يقوم على هذا الأساس الأخلاقي والتشريع السامي تنتشر فيه العفة، ويزكو فيه الإحصان وتتماسك لبناته ويستعصي على الاختراق من أعدائه، لذلك جاء التشريع

(١) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩٣.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٥ / ١٤٧.
(٣) انظر: الأنوار الساطعات لآيات جامعات، السلمان ٣ / ٢٦.
(٤) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ١٣٤.

بتيسير أسباب الزواج، وتسهيل طرقه، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها، وأمر بإزالة جميع العقبات من وجهه، ولا يجوز أن يكون الفقر عائقًا في طريق بناء البيوت، وتحصين النفوس بالتزويج، وقد تكفل الله عز وجل بإغنائهم إن هم اختاروا طريق العفة النظيف ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٢].

ويجب على الأمة أن تعينهم على الزواج، وأن تهيئ لهم أسبابه، وتبذل كل ما لديها من جهودٍ حتى لا يبقى في المجتمع عضو أشل، أو عضو غير نافع[(١)].

وإلى أن تتهيأ للشباب فرصة الزواج، جاء الأمر الإلهي لهم بالاستعفاف عن الحرام حتى يغنيهم الله من فضله ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٣].

والاستعفاف طلب العفة، والمعنى ليجتهد في العفة وقمع الشهوة، وفي الآية إرشاد للعاجزين عن مبادي النكاح وأسبابه إلى ما هو أولى لهم وأحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء، والعفة حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر[(٢)].

ومن الكذب والزور ما يقوله بعض أدعياء العلم اليوم من أن الكبت والحرمان يولدان عن الإنسان عقدًا نفسية وأضرارًا جسمية، وأن عليه أن يخفف طغيان الغريزة بالاتصال الجنسي ولو عن طريق البغاء.

إنهم يجعلون الزنى ضرورة اجتماعية لاتقاء الأمراض الجسدية والتخلص من أضرار الكبت والحرمان ويزعمون أن هذا هو الطريق السليم، لمعالجة طغيان الغريزة، وحماية الإنسان من العقد النفسية، التي قد تؤدي به إلى الجنون.

وهذا النهي عن إكراه الفتيات على البغاء - وهن يردن العفة - ابتغاء المال الرخيص، كان جزءًا من خطة القرآن في تطهير البيئة الإسلامية، وإغلاق السبل القذرة للتصريف الجنسي، ذلك أن وجود البغاء يغري الكثيرين لسهولته ولو لم يجدوه لانصرفوا إلى طلب هذه المتعة في محلها الكريم النظيف[(٣)].

أما ما يقال من أن البغاء صمام أمن يحمي البيوت الشريفة؛ لأنه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية إلا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج، أو تهجم الذئاب المسعورة على الأعراض إن لم تجد هذا الكلأ المباح، أو ما يقال باسم الحرية الشخصية، فالتفكير

(١) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩٣.
(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ١٠٦.
(٣) انظر: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩٤.

على هذا النحو قلبٌ للأسباب، فالميل الجنسي يجب أن يظل نظيفًا، بريئًا موجهًا إلى إمداد الحياة بالأجيال الصالحة، وعلى الجماعات أن تصلح نظمها الاقتصادية بحيث يكون كل فرد فيها في مستوى يسمح له بالحياة المعقولة وبالزواج، فإن وجدت بعد ذلك حالات شاذة عولجت هذه الحالات علاجًا خاصًا، وبذلك لا يحتاج إلى البغاء وإلى إقامة مقاذر إنسانية يمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس فيلقي فيها بالفضلات تحت سمع الجماعة وبصرها[١].

إن النظم الاقتصادية هي التي يجب أن تعالج بحيث لا تخرج مثل هذا النتن. ولا يكون فسادها حجةً على ضرورة وجود المقاذر العامة في صور آدمية ذليلة... وهذا يصنعه الإسلام بنظامه المتكامل النظيف، العفيف، الذي يصل الأرض بالسماء ويرفع البشرية إلى الأفق المشرق الوضيء المستمد من نور الله[٢].

أما المجتمعات التي تنظم بيوت الدعارة باسم الحرية وتحت حماية القانون بشكل فاضح مكشوف، فسرعان ما تنهار وتتفشى فيها الأمراض والأوجاع، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (ما ظهرت الفاحشة في قوم فعملوا بها إلا أصيبوا بالأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم)[٣].

وهذا من أعلام النبوة[٤].

أما من حيث العقوبة والتي من خصائصها في الشريعة الإسلامية أنها جوابر وزواجر ففرقت الشريعة الإسلامية بين حد البكر فخففت العقوبة في الأول فجعلتها مائة جلدة، وغلظت العقوبة في الثاني فجعلتها الرجم بالحجارة حتى الموت، وذلك لأن جريمة الزنى بعد الإحصان التزوج أشد وأغلظ من الزنى المحض في نظر الإسلام فالجريمة التي يرتكبها رجل محصن من امرأة محصنة عن طريق الفاحشة أشنع وأقبح من الجريمة التي يرتكبها مع البكر؛ لأنه قد أفسد نسب غيره ودنس فراشه وسلك لقضاء شهوته طريقًا غير مشروع مع أنه كان متمكنًا من قضائها بطريق مشروع فكانت العقوبة أشد وأغلظ[٥].

أما إحصان القذف: فصورة الفرد في الإسلام محصن بالإسلام، حريته مقيدة بالشرع ليست حرية حيوانية مطلقة، عف اللسان لا يتطاول على أعراض الناس،

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩٤.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ٢/ ١٣٣٢، رقم ٤٠١٩. وحسنه الألباني.
(٤) انظر: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩٣.
(٥) المصدر السابق ١/ ٢٩٦.

محاط بتشريعات تحافظ عليه أولًا من أن ينفلت إلى الهاوية التي يخسر بها الدنيا والآخرة، كما تحافظ على المجتمع الذي يعيش فيه بحيث تصلح البيئة بما يصلح به الفرد، قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٤].

ويهدف هذا الحد إلى صون أفراد المجتمع، ووقايتهم من الإساءة إليهم بالقول، وقذفهم بما ليس فيهم من سمات سيئة، أو أفعال فاضحة.

إن تعطيل هذا الحد يعطي الفرصة لضعاف النفوس، ومن تسول لهم أنفسهم قذف الآخرين بالتهم، الأمر الذي يترتب عليه عدم أمن الفرد على عرضه، مما يصيبه بالتوتر وتوقع المكاره. وقد يدفعه هذا إلى الرد بالمثل على من قذفه، فتكون حرب تقاذفية بين أفراد المجتمع، لا يأمن، من جرائها أحد على عرضه، فتتقطع الصلات، ويصل الأمر إلى طلاق الزوجات، وشك الابن في الانتساب إلى أبيه، وشك الأب في نسب الابن إليه. وهكذا، تفقد المودة والرحمة بين أفراد الأسرة الواحدة، وتتمزق الأسرة وينهدم المجتمع من جراء تهمة بلا بينة[1].

وحين يقام الحد ويجلد القاذف على الملأ، ويعرف الناس كذبه وافتراءه، ولا تقبل له شهادة، ويعرف عنه أنه فاسق، فإن خطره سوف ينحسر، فلن يستطيع النيل من الآخرين، وإذا كرر القذف، تكررت العقوبة. كما يكون في إقامة الحد عليه ردع لكل من تسول له نفسه الإساءة إلى سمعة المسلمين أو النيل من أعراضهم[2].

ولعل في قصة حديث الإفك، التي تحكي قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الحصان الرزان بنت الصديق رضي الله عنه وزوج الرسول صلى الله عليه وسلم دليلًا عمليًا، ملموسًا ومحسوسًا، على أن لا أحد محصن ضد ألسنة السوء، ولو كان في طهر أم المؤمنين وعفتها. ولعظم هذه الجريمة، كانت براءة السيدة عائشة من فوق سبع سماوات، قرآنًا يتلى إلى يوم الدين، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ

(١) انظر: الأثر النفسي لتطبيق الحدود الشرعية، مجموعة من الباحثين، ص ٢٤١، ضمن موسوعة مقاتل من الصحراء.

(٢) المصدر السابق.

ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ
أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ
وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ
هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا
بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ
أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور:١١-١٧].وليكن في هذه القصة عبرة، لمن تسول له نفسه الخوض في الأعراض، وصبر واحتساب، لمن يبتلى بهذا البلاء العظيم، فالعرض مداد عزة الإنسان وكرامته[١].

موضوعات ذات صلة:

الزنا، العفة، الفواحش، النكاح

(١) المصدر السابق.

الاختلاف

عناصر الموضوع

مفهوم الاختلاف	٥٢
الاختلاف في الاستعمال القرآني	٥٣
الألفاظ ذات الصلة	٥٤
الاختلاف سنة الله تعالى في الخلق	٥٦
أنواع الاختلاف	٥٧
أسباب الاختلاف	٦٠
آثار الاختلاف	٦٤
وسائل رفع الاختلاف	٦٦

مفهوم الاختلاف

أولًا: المعنى اللغوي:

كلمة (اختلاف) تعد مصدرًا من الفعل (اختلف)، وهذا الفعل من الناحية الصرفية فعل يدل على التفاعل والمشاركة، أي: لا يكون إلا بين اثنين فأكثر.

قال صاحب القاموس: «والخلاف: المخالفة...واختلف: ضد اتفق»[1]، أي: «لم يتفق في الرأي، يقال: اختلف بين كذا وكذا»[2].

وذكر الزبيدي أن «الخلفة، بالكسر: الاسم من الاختلاف، أي: خلاف الاتفاق، أو مصدر الاختلاف، أي: التردد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان:٦٢]»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الاختلاف في الاصطلاح لا يختلف عن المعنى اللغوي، «فالاختلاف والمخالفة -في الاصطلاح-: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضد؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين»[4].

وقال المناوي: «الاختلاف: افتعال من الخلاف، وهو تقابل بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه، ذكره الحرالي»[5].

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٨٠٨.
(٢) تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دوزي ٤/ ١٧٨.
(٣) تاج العروس، الزبيدي ٢٣/ ٢٥١.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٩٤.
(٥) التوقيف، المناوي ص ٤١.

الاختلاف في الاستعمال القرآني

ورد (الاختلاف) في القرآن الكريم (٥٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٩	﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣]
الفعل المضارع	١٦	﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل:٣٩]
المصدر	٧	﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون:٨٠]
اسم الفاعل	١٠	﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]

وجاء الاختلاف في القرآن بمعناه في اللغة، وهو: ضد اتفق، وهو أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الأول في فعله أو حاله[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٣٩، ٢٤١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٩٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ التفرق:

التفرق لغةً:

خلاف التجمع، تفرق القوم وتفارقوا، والاسم الفرقة[١].

والتفريق: خلاف التجميع، يقال: فرق الشيء تفريقًا وتفرقة: بدده، وهو متعدٍ، أما التفرق فلازم. والتفريق أبلغ من الفرق؛ لما فيه من معنى التكثير[٢].

التفرق اصطلاحًا:

لا يخرج معناه عن المعنى اللغوي.

الصلة بين التفرق والاختلاف:

التفرق هو أشد أنواع الاختلاف، وثمرة من ثماره النكرة؛ لأن من الاختلاف ما لا يصل إلى حد الافتراق، وهو أكثر أنواع الخلاف بين الأمة.

٢ المنازعة:

المنازعة لغةً:

المنازعة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (نزع)، وتأتي بمعنى الجذب؛ يقال: نزع القوس إذا جذبها، ومنه نزع الإنسان إلى أهله، ومنه تنازع القوم اختصموا وبينهم نزاعةٌ أي: خصومةٌ في حق، ومنه قوة العزيمة في الرأي والهمة؛ يقال للرجل الجيد الرأي: إنه لجيد المنزعة، ومنه القلع؛ يقال: نزعت الشيء من مكانه نزعًا إذا اقتلعته[٣].

المنازعة اصطلاحًا:

المخاصمة والمخالفة القائمة على التنازع والتجاذب لنفي ما عند الآخر ومحوه، سواء أكان حقًا أم باطلًا، والموصلة في الغالب إلى الفشل والانتكاس[٤].

الصلة بين المنازعة والاختلاف:

الاختلاف لا يحمل معنى المنازعة، فقد يحصل الاختلاف ولا تحصل المنازعة، أما المنازعة فهي اختلاف مع معاداة ومخاصمة.

(١) المخصص، ابن سيده ٣/ ٣٦٠.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩١٨.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٣٢، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٤٩- ٣٥١.
(٤) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٦/ ١١٣.

٣ الاجتماع:

الاجتماع لغة:

التئام الشيء، وضم بعضه إلى بعض، وهو خلاف التفريق[(١)].

الاجتماع اصطلاحًا:

هو اجتماع الناس، وعدم تفرقهم، واجتماع القلوب بائتلافها، وعدم تفرقها.

الصلة بين الاجتماع والاختلاف:

الاختلاف السائغ بين المسلمين يمكن أن يحصل معه الاجتماع، ولا يكون سببًا في تفرقهم، وأما إذا كان ذلك مؤديًا إلى تفرقهم وتمزق وحدتهم وعدم اجتماعهم فإنه بذلك يكون مذمومًا.

٤ الاعتصام:

الاعتصام لغة:

العصم: الإمساك، والاعتصام: الاستمساك.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران:١٠٣] أي: تمسكوا بعهد الله[(٢)].

والاعتصام بحبل الله: هو ترك الفرقة، واتباع القرآن[(٣)].

الاعتصام اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الاعتصام في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

الصلة بين الاعتصام والاختلاف:

الاعتصام: الاستمساك بالشيء، افتعالٌ منه، والمقصود الاستمساك بحبل الله، وهو بهذا الاعتبار وسيلة للاجتماع، وطريق إليه؛ ولهذا يقال: الاستمساك بحبل الله سبب للاجتماع، وعصمة من الخلاف والتفرق.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٧٩ ، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٥٣.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٤١٨، تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٢٠٥.
(٣) المفردات، الراغب ص ٥٦٩، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٣٥.

الاختلاف سنة الله تعالى في الخلق

إن الاختلاف سنةٌ إلهية بين جميع المخلوقات! ليس البشر وحدهم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام:١٤١].

وقال عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور:٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم:٢٢].

وعن الاختلاف العلمي والفكري يقول رب العزة: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

«ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك:

فيه الدلالة القاطعة على أن الله -جل وعلا- واحد، لا شبيه له ولا نظير ولا شريك، وأنه المعبود وحده.

وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدرة وإرادة الفاعل المختار -سبحانه-، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته -جل وعلا-، كما أوضح ذلك في قوله: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد:٤].

فالأرض التي تنبت فيها الثمار واحدة؛ لأن قطعها متجاورة، والماء الذي تسقى به ماء واحد، والثمار تخرج متفاضلة، مختلفة في الألوان والأشكال والطعوم، والمقادير والمنافع.

فهذا أعظم برهان قاطع على وجود فاعل مختار، يفعل ما يشاء كيف يشاء، سبحانه جل وعلا عن الشركاء والأنداد»[1].

وحكمة أخرى لهذا الاختلاف في الخلق؛ أشار لها أثرٌ لأبي بن كعب رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٢] قال: (ورفع عليهم

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٤٢.

آدم عليه السلام فجعل ينظر إليهم فرأى الغني والفقير، وحسن الصورة ودون؛ ذلك فقال: رب! لولا سويت بين عبادك! قال: إني أحببت أن أشكر)[1].

فالغني يرى الفقير ثم يشكر الله الذي أغناه، والصحيح يرى المريض ثم يشكر الله الذي عافاه، والمهتدي يرى الضال ثم يشكر الله الذي هداه.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٢٣٢.
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٤٤.

أنواع الاختلاف

«قضت مشيئة الله تعالى خلق الناس بعقول ومدارك متباينة، إلى جانب اختلاف الألسنة والألوان والتصورات والأفكار، وكل تلك الأمور تفضي إلى تعدد الآراء والأحكام، وتختلف باختلاف قائليها، وإذا كان اختلاف ألسنتنا وألواننا ومظاهر خلقنا آية من آيات الله تعالى؛ فان اختلاف مداركنا وعقولنا وما تثمره تلك المدارك والعقول آية من آيات الله تعالى كذلك، ودليل من أدلة قدرته البالغة»[2]، لكن هذا الاختلاف ليس على درجة واحدة، بل منه المحمود ومنه المذموم، وهذا ما سنوضحه في هذا المبحث بعون الله تعالى.

أولًا: الاختلاف المحمود:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣].

فالاختلاف في هذه الآية لا نستطيع أن نقول: إنه شرٌّ كله، أو مذموم بإطلاق!

بل من خالف الكفار في كفرهم وضلالهم؛ فآمن بالله تعالى، وصدق رسله،

(٢) أدب الاختلاف في الإسلام، طه العلواني ص ٢٤.

واستسلم لشريعته؛ فخلافه هذا ممدوح محمود محبوب لله تعالى، ومن خالف المؤمنين في إيمانهم بربهم وتصديقهم برسله واستسلامهم لشريعته؛ فخلافه هذا شر ووبال عليه في الدنيا والآخرة[1].

قال الله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:٢١٣].

ولذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق، فإنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[2].

وفي هذا السياق يقول ابن القيم رحمه الله: «فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان ومع من كان -ولو كان مع من يبغضه ويعاديه- ورد الباطل مع من كان -ولو كان مع من يحبه ويواليه- فهو ممن هدى لما اختلف فيه من الحق؛ فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلًا، وأقومهم قيلًا، وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا -أي: فيما بينهم- فاختلافهم اختلاف رحمة وهدى، يقر بعضهم بعضًا عليه ويواليه ويناصره، وهو داخل في باب التعاون والتناظر الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم؛ بالتناظر والتشاور، وإعمالهم الرأي وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب»[3].

ثانيًا: الاختلاف المذموم:

النوع الثاني من الاختلاف هو الذي «يكون المختلفون كلهم مذمومين، وهم الذين اختلفوا بالتأويل، وهم الذين نهانا الله سبحانه عن التشبه بهم في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وهم الذين تسود وجوههم يوم القيامة وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/ ١٥٥، الصواعق المرسلة، ابن القيم ٢/ ٥١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧٠.

(٣) الصواعق المرسلة ٢/ ٥١٦-٥١٧.

﴿ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ١٧٦﴾ [البقرة:١٧٦].

فجعل المختلفين كلهم في شقاق بعيد، وهذا النوع هو الذي وصف الله أهله بالبغي، وهو الذي يوجب الفرقة والاختلاف، وفساد ذات البين، ويوقع التحزب والتباين»[(١)].

وفي هذا المعنى يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم:٣١-٣٢].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ٤﴾ [البينة:٤].

قال الشافعي: «فإنما رأيت الله ذم الاختلاف في الموضع الذي أقام عليهم الحجة ولم يأذن لهم فيه»[(٢)].

ومن صور الخلاف المذموم في القرآن الكريم: مخالفة المسلمين في أصل إيمانهم وعقيدتهم في الله تعالى وأنبيائه ورسله وشرائعه ونحو ذلك؛ فمن فعل ذلك فهو داخل في هذا الاختلاف المذموم، قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

أي: لا تختلفوا في التوحيد والإيمان بالله، وطاعة رسله وقبول شرائعه؛ فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع، وتوافقت فيها الأديان؛ فلا ينبغي الخلاف في مثلها[(٣)].

وقال الآمدي رحمه الله: «فيجب حمل ما ورد من ذم الاختلاف والنهي عنه: على الاختلاف في التوحيد والإيمان بالله ورسوله، والقيام بنصرته، وفيما المطلوب فيه القطع دون الظن...»[(٤)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣] ما يشير لذلك.

قال الإمام الجصاص: «﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ يعني بالإسلام، وفي ذلك دليل على أن التفرق المذموم المنهي عنه في الآية هو في أصول الدين والإسلام لا في فروعه، والله أعلم»[(٥)].

ومما يلتحق بالصورة السابقة للخلاف المذموم: خلاف الخوارج والرافضة والمعتزلة والقرآنيين وغيرهم من أهل البدع لأهل السنة والحق؛ مما قد يصل في بعض صوره إلى الكفر والعياذ بالله.

والمخالفون فيه خالفوا جمهور

(١) المصدر السابق ٢/ ٥١٤.
(٢) جماع العلم، ص ٤٤.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٠٧.
(٤) الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي ٤/ ١٥.
(٥) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٣١٥.

المسلمين في أصول المسائل التي يقوم عليها المعتقد والأحكام، فأصولهم فاسدة، ومن ذلك: تقديم العقل على النقل، أو القول بعصمة الأولياء أو أئمة أهل البيت، أو ترك الاحتجاج بالسنة.

وهذا النوع هو الذي يؤدي إلى فرقة الأمة وتشرذمها، وجاءت النصوص القرآنية والنبوية في التحذير منه، ومن ذلك: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

قال ابن عاشور: «إلا من رحم ربك: أي: فعصمهم من الاختلاف، وفهم من هذا: أن الاختلاف المذموم المحذر منه هو الاختلاف في أصول الدين الذي يترتب عليه اعتبار المخالف خارجًا عن الدين وإن كان يزعم أنه من متبعيه.

فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمة قصمه، وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكل وسيلة من وسائل الحق والعدل؛ بالإرشاد والمجادلة الحسنة والمناظرة.

فإن لم ينجع ذلك فبالقتال كما فعل أبو بكر في قتال العرب الذين جحدوا وجوب الزكاة، وكما فعل عليٌّ في قتال الحرورية الذين كفروا المسلمين، وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف»[1].

أسباب الاختلاف

والمقصود بالاختلاف هنا، والذي سنبحث عن أسبابه في القرآن: هو اختلاف الأفكار والعقائد ونحوها -لا اختلاف الألسن والألوان ونحوها- ومن أعظم أسباب هذا الاختلاف هو:

أولًا: فساد النية:

وينطوي تحتها أمور، منها:

١. البغي.

قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٦-١٧].

قال الزجاج: «أي للبغي، لم يختلفوا؛ لأنهم رأوا البصيرة والبرهان»[2].

وقال الله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٣-١٤].

فالله تعالى «لما بين أنه أمر كل الأنبياء

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ١٨٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٨٧.

والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه؛ كان لقائل أن يقول: فلماذا نجدهم -أي الأمم- متفرقين؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة! فحملتهم الحمية النفسانية، والأنفة الطبعية على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب، ودعا الناس إليه، وقبح ما سواه طلبًا للذكر والرياسة، فصار ذلك سببًا لوقوع الاختلاف»[1].

٢. الحسد.

الحسد نوعان: محمود ومذموم، «المحمود تمنى مثل ما تراه لغيرك وهذا يسمى الغبطة، والمذموم: أن تتمنى زواله عنه وانتقاله إليك وهو الحسد بالحقيقة»[2].

لهذا جاء في حديث ابن مسعود في الصحيح: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)[3].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٨.
(٢) مشارق الأنوار، القاضي عياض ١/ ٢١١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم ٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم ٨١٦.

قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾ [البقرة:١٠٩].

أي: حسدوا رسول الله تعالى أن كرمه الله تعالى بالرسالة دونهم! ثم حسدوا العرب الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم دونهم! فتأمل كيف استولى عليهم الحسد حتى دعاهم إلى مخالفة رسول الله تعالى في ما يدعو إليه، ومخالفة سبيل المؤمنين الذين آمنوا بنبوته عليه الصلاة والسلام! حتى قال تعالى لهؤلاء المكذبين من أهل الكتاب: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖ﴾ [البقرة:١٣٧].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ «إعلام منه لهم بأنهم لم يؤمروا بذلك في كتابهم، وأنهم يأتون ما يأتون من ذلك على علم منهم بنهي الله إياهم عنه»[4].

«﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ وكان هذا قبل آية القتال، ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ بعذابه؛ القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النضير»[5].

(٤) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٠١.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٥٥.

وكما حمل الحسد هؤلاء المكذبين من أهل الكتاب حتى خالفوا رسول الله والمؤمنين؛ فقد حمل الحسد كذلك مشركي العرب؛ حتى قالوا عن من آمن برسول الله من فقراء المسلمين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام:٥٣]!

«والحسد يكون أعظم ما يكون: إذا كان الحاسد يرى نفسه أولى بالنعمة المحسود عليها، فكان ذلك الداعي فتنة عظيمة في نفوس المشركين؛ إذ جمعت كبرًا وعجبًا وغرورًا بما ليس فيهم، إلى احتقارٍ للأفاضل وحسدٍ لهم، وظلم لأصحاب الحق، وإذ حالت بينهم وبين الإيمان والانتفاع بالقرب من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم»[1].

«واعلم أن الحسد ربما أفضى إلى التنازع والتقاتل»[2]؛ كما يظهر ذلك جليًا في قصة ابني آدم ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة:٢٧-٣٠].

وفي قصة يوسف عليه السلام مع إخوته؛ حين قالوا بعدما حسدوه: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ [يوسف:٩].

٣. اتباع الهوى.

قال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

فانظر كيف جعلوا أهواءهم هي الفيصل والحكم، وخالفوا بها أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام «وإنما كانوا كذلك؛ لإرادتهم الرفعة في الدنيا، وطلبهم لذاتها، والترؤس على عامتهم، وأخذ أموالهم بغير حق، وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك؛ فيكذبونهم لأجل ذلك، ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين! ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم»[3].

وقال سبحانه لرسوله الكريم: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القصص:٥٠].

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٢٥٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٦٤٨.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٥٩٦.

ثانيًا: ترك الوحي:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ [المائدة:١٤].

«قال الحسن: فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى، ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ في التوحيد والنبوة، ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بالأهواء المختلفة، والجدال في الدين، قال مجاهد وقتادة: يعني بين اليهود والنصارى، وقال قوم: هم النصارى وحدهم صاروا فرقًا! منهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية، وكل فرقة تكفر الأخرى»[1].

«فإن قيل: كيف أغريت بينهم العداوة وهم لم يزالوا إلبًا على المسلمين؟

فجوابه: أن العداوة ثابتة بينهم في الدين بانقسامهم فرقًا، وذلك الانقسام يجر إليهم العداوة وخذل بعضهم بعضًا، ثم إن دولهم كانت منقسمة ومتحاربة، ولم تزل كذلك، وإنما تألبوا في الحروب الصليبية على المسلمين، ثم لم يلبثوا أن تخاذلوا وتحاربوا، ولا يزال الأمر بينهم كذلك إلى الآن، وكم ضاعت مساعي الساعين في جمعهم على كلمة واحدة، وتأليف اتحادٍ بينهم، وكان اختلافهم لطفًا بالمسلمين في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، على أن اتفاقهم على أمة أخرى لا ينافي تمكن العداوة فيما بينهم، وكفى بذلك عقابًا لهم على نسيانهم ما ذكروا به»[2]، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤].

ولا شك أن في آية ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ﴾ تحذيرًا لهذه الأمة من سلوك مسلك أهل الكتاب في نسيان دين الله تعالى.

ثالثًا: اختلاف الأفهام:

ومن أسباب الاختلاف أيضًا: اختلاف أفهام الناس ومداركهم، ومما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

«فمعنى قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ﴾ أنه ألهمه وجهًا آخر في القضاء هو أرجح؛ لما تقتضيه صيغة التفهيم من شدة حصول الفعل أكثر من صيغة الإفهام، فدل على أن

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٤٩.

فهم سليمان في القضية كان أعمق، وذلك أنه أرفق بهما، فكانت المسألة مما يتجاذبه دليلان فيصار إلى الترجيح، والمرجحات لا تنحصر، وقد لا تبدو للمجتهد، والله تعالى أراد أن يظهر علم سليمان عند أبيه ليزداد سروره به، وليتعزى على من فقده من أبنائه قبل ميلاد سليمان»[(١)].

وممكن أن يضرب هذا النموذج في قصة داود وابنه سليمان عليهما السلام مثالًا على اختلاف الأفهام المحمودة؛ حيث إنه لم يحصل جراء اختلاف فهمهما شر بينهما أو نزاع.

قال ابن القيم رحمه الله: «ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه؛ لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم: بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكلٌّ من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله؛ لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية، ولكن إذا كان الأصل واحدًا، والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المسلوكة واحدة؛ لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافًا لا يضر»[(٢)].

آثار الاختلاف

لاشك أن للاختلاف آثارًا تنجم عنه، لكن وصف تلك الآثار يرجع إلى وصف ذلك الاختلاف؛ فإن اختلافًا محمودًا كانت آثاره كذلك، وإن كان اختلافًا مذمومًا كانت آثاره كذلك.

والذي يهمنا هنا: هو تسليط الضوء على آثار الاختلاف التي ذكرها القرآن الكريم، فنقول:

من الآثار التي ذكرها القرآن الكريم للاختلاف ما يلي:

أولًا: الفشل وذهاب الريح.

قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

وماذا بعد الفشل وذهاب الريح، إلا تسلط الأعداء على المسلمين وسومهم سوء العذاب! قال قتادة: «لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم»[(٣)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها: كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها»[(٤)].

وقال ابن تيمية في موضع آخر: «وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١١٨.
(٢) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٢/ ٥١٩.
(٣) الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٧٦.
(٤) الفتاوى الكبرى، ٢/ ١٠٩.

ومشايخها؛ وأمرائها وكبرائها؛ هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة:١٤].

فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به؛ وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب»[1].

ثانيًا: الشقاق.

قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة:١٧٦].

ثالثًا: إلغاء كل ما لدى الخصم من حق.

قال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة:١١٣].

قال ابن عطية: «وفي هذا من فعلهم كفر كل طائفة بكتابها؛ لأن الإنجيل يتضمن صدق موسى وتقرير التوراة، والتوراة تتضمن التبشير بعيسى وصحة نبوته، وكلاهما تضمن صدق محمد صلى الله عليه وسلم، فعنفهم الله تعالى على كذبهم، وفي كتبهم خلاف ما قالوا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تنبيه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم على ملازمة القرآن والوقوف عند حدوده»[2].

«أما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإنه يقتضي أن من تقدم ذكره يجب أن يكون عالمًا لكي يصح هذا الفرق، فبين تعالى أنهم مع المعرفة والتلاوة إذا كانوا يختلفون هذا الاختلاف؛ فكيف حال من لا يعلم!»[3].

رابعًا: التفرق والتحزب.

قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم:٣١-٣٢].

«﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ جعلوه أديانًا مختلفة لاختلاف أهوائهم، ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ فرقًا كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

(١) مجموع الفتاوى، ٣/ ٤٢١.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٩٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٠.

فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقًا»[1].

خامسًا: العذاب العظيم في الآخرة.

وسواد الوجه كذلك -والعياذ بالله-، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٥-١٠٦].

«يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ يا معشر الذين آمنوا ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ من أهل الكتاب، ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في دين الله وأمره ونهيه، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ من حجج الله فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحق فيه؛ فتعمدوا خلافه! وخالفوا أمر الله، ونقضوا عهده وميثاقه جراءة على الله! ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ يعني: ولهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم ﴿عَذَابٌ﴾ من عند الله ﴿عَظِيمٌ﴾، يقول جل ثناؤه: فلا تتفرقوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم؛ فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم»[2].

(١) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٧٠٠.
(٢) جامع البيان، الطبري٧/ ٩٢.

وسائل رفع الاختلاف

الاختلاف الذي حذرنا الله تعالى منه في كتابه الكريم هو شرٌ كله، وكما أنه سبحانه قد نهانا عنه وحذرنا منه؛ فقد أرشدنا وهدانا إلى سبل اجتنابه والوقاية منه، و«من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١].

ويقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥].

وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهى عن الفرقة والاختلاف»[3]، فإذا وقع الاختلاف فقد هدانا الله تعالى في كتابه الكريم إلى أمور نرفع به عنا الاختلاف والنزاع، منها:

أولًا: الاعتصام بحبل الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا الأصل العظيم -وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا وأن لا يتفرق- هو من أعظم أصول

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٢٨/ ٥١.

الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة»[1].

وعندما يتأمل المسلم هذه الآية العظيمة يجد فيها مؤكدات كثيرة لوجوب الاعتصام بحبل الله تعالى، فتأمل معنا:

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾ واو الجماعة هنا يعم كل المؤمنين الذين ناداهم الله في الآية السابقة لهذه الآية، ﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ لا بشيء سواه، وسواء كان حبل الله هو القرآن أو الرسول أو الدين؛ فيبقى مفهومه: أن نترك أهواءنا وأطماعنا ومصالحنا الشخصية التي هي غير معصومة للشيء المعصوم، الذي هو القرآن أو الرسول أو الدين أو كل هذه الأمور، قال «عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الصراط محتضر؛ تحضره الشياطين، ينادون: يا عبد الله! هلم هذا الطريق! ليصدوا عن سبيل الله؛ فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله هو كتاب الله»[2].

ثم قال سبحانه: ﴿جَمِيعٗا﴾! مع أنه قد فهم معنى العموم من ضمير الجماعة في قوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾! لكنه التوكيد والتأكيد على هذا الأمر العظيم.

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أيضًا قد فهم هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾! لكنه كذلك مزيدٌ من التوكيد والتأكيد والاهتمام بهذا الأمر الجليل.

ومن الآيات ذات الصلة بهذا الأمر: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾ [النحل:٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ [الشورى:١٠].

وقوله عز وجل: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

ونحوها من الآيات التي تبين أن الله تعالى أنزل كتابه وأرسل رسوله ليرجع الناس إليهما ويعتصموا بهما من الفرقة والاختلاف والتنازع.

ثانيًا: الإصلاح.

قال الله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النساء:١١٤].

والمعروف: هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو: الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٣٥٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٧٢.

الإصلاح بينهما؛ ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به، ثم أخبر جل ثناؤه بما وعد من فعل ذلك فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾...ولا حد لمبلغ ما سمى الله ﴿عَظِيمًا﴾ يعلمه سواه!»[1].

ولعظيم أمر الإصلاح بين الناس أحل الشارع الحكيم الكذب من أجل ذلك؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا، أو يقول خيرًا»[2].

ثالثًا: الجدال بالتي هي أحسن.

وهو «دفع المرء خصمه عن إفساد قوله؛ بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة»[3].

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت:٤٦].

وليس الجدال خاص بأهل الكتاب! بل هو عام للكفار والمؤمنين؛ بهدف إحقاق الحق وإبطال الباطل.

وعن جدال المؤمنين يقول تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة:١].

بل ذكر الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام أنهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود:٣٢]!

لذا قال الشوكاني رحمه الله: «فأما الجدال لاستيضاح الحق، ورفع اللبس، والبحث عن الراجح والمرجوح، وعن المحكم والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال إلى المحكم؛ فهو من أعظم ما يتقرب المتقربون، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧]»[4].

أما الجدال المنهي عنه فهو «الجدال بالباطل، والقصد إلى دحض الحق كما في قوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر:٥]»[5].

رابعًا: المباهلة.

وهي: «الملاعنة[6]، وهو أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٠١، ٢٠٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٦٩٢، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٦٠٥.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص ٧٤.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٥٢.
(٥) المصدر السابق.
(٦) قال الزمخشري: «ومأخذها من الإبهال وهو الإهمال والتخلية لأن اللعن والطرد والإهمال من وادٍ واحد» الفائق في غريب الحديث ١/ ١٤٠.

على الظالم منا»[1].

قال سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران:٦١].

والمباهلة وسيلة من وسائل رفع الاختلاف بين المختلفين التي ذكرها القرآن الكريم؛ ليتضح للناس المحق من المبطل.

قال ابن كثير -مرجحًا لمعنى المباهلة-: «وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة:٦-٨].

فهم -عليهم لعائن الله- لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى! دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين، فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم.

وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى -بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعنادهم- إلى المباهلة.

فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عينٌ تطرف! فعند ذلك جنحوا للسلم، وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون؛ فضربها عليهم»[2].

وهذه المباهلة ليست خاصة مع الكفار والمشركين؛ بل قد يتباهل المسلمون في بعض المسائل، كما دعى ابن عباس رضي الله عنه إلى مباهلته في بعض مسائل الفرائض[3].

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ١٦٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٣٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، ١٠ / ٢٥٥، رقم١٩٠٢٤، والبيهقي في السنن الكبرى، ٧/ ٦٣٠، رقم١٥٢٥٠.

خامسًا: مقاتلة البغاة:

نعم! فمن وسائل رفع النزاع والاختلاف التي ذكرها القرآن الكريم: مقاتلة الطائفة الباغية التي تخالف المسلمين فتبغي عليهم بالقتال، قال الله سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات:٩-١٠].

وقد ذكرت هذه الآية وسلتين من وسائل رفع الخلاف: الإصلاح ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، ثم المقاتلة ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ فهو قتال له سببه، وله غايته المحددة المعروفة.

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَإِن﴾ إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين، فإن قيل: فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم؟! نقول قوله تعالى: ﴿وَإِن﴾ إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلا نادرًا، غاية ما في الباب أن الأمر على خلاف ما ينبغي!»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «قوله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ فإن الله سبحانه أمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين: أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله، حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم، حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقروا بحكم الله»[2].

قال الرازي: «فالواجب على الأمير دفعهم، وإن كان هو الأمير؛ فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها، وشرطه: أن لا يثير فتنة مثل التي في اقتتال الطائفتين أو أشد منهما»[3].

هذه هي الوسائل التي هدانا إليها القرآن الكريم -أو غالبها- لرفع الخلاف والنزاع الذي يقع بيننا -نحن المسلمين- وبين الكفار، أو بين المسلمين بعضهم البعض، فطوبى لمن جعل هذا الكتاب العظيم نبراسه وهاديه في السلم والحرب، والصلح والخلاف، والرضا والغضب...الخ، إذن لقد أفلح في الدنيا والآخرة وأنجح.

موضوعات ذات صلة:

الاجتماع، الأخوة، الأمة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٩٢، ٢٩٣.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٤.

الأخذ

عناصر الموضوع

مفهوم الأخذ	٧٢
الأخذ في الاستعمال القرآني	٧٣
الألفاظ ذات الصلة	٧٤
الأخذ في حق الله عز وجل	٧٧
سُنة الله في الأخذ	٨٨
أخذ الظالمين والمترفين	٩٤

مفهوم الأخذ

أولًا: المعنى اللغوي:

الهمزة والخاء والذال أصل واحد تتفرّع منه فروعٌ متقاربة في المعنى، فالأصل حَوْز الشيء وجبْيُه وجمعه وتحصيله، وذلك تارةً بالتناول، وتارةً بالقهر، وهو خِلَافُ الْعَطَاءِ.

ولفظة «أخذ» في اللغة لها اشتقاقات متعددة تتقارب في المعنى، فتأتي بمعنى الحصول على الشيء بالتناول أو القهر، والأخذ بالذنب بمعنى العذاب والعقاب والإهلاك، واتخذت بمعنى كسبت، والإخاذ الغُدُر وأيضًا تقال لمن يأخذ أرضًا ويتملكها، والأخيذ تقال للأسير وللشيخ الغريب، والأَخيذةُ ما اغْتُصِبَ من شيء فأُخِذَ وقد يأتي الأخذ بمعنى الرمد، ويقال: أخذ إخذهم، أي: سلك طريقهم ومنهجهم، وتطلق الأخذة على الرقية[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يختلف معنى «أخذ» باختلاف السياق الذي ورد فيه المصطلح، ففي كل سياق يحمل معنى مختلفًا وفقًا للسياق الذي ورد فيه، وقد اتفق العلماء والمفسرون على معنى أخذ في السياق الواحد.

ومن معاني الأخذ: وقوع العذاب والإهلاك والاستئصال والعقوبة نتيجة الشرك بالله تعالى، وجحود آياته، وتكذيب رسله، ونتيجة الظلم الشديد[(٢)].

كما يأتي الأخذ بمعنى الحوز للشيء وتحصيله[(٣)]، فالأخذ إمَا أن يكون خلاف العطاء، وهو ما كان باليد كالعطاء، وإما أخذ قهر، ومنه أخذ الأرواح، وأخذ العهود والمواثيق، وهذا المعنى ظاهر، والمعنيُ هنا المعنى الأوَل، وكلاهما صفة لله تعالى[(٤)].

«فمعنى الأخذ: أن تحتوي الشيء، واحتواؤك له معناه أنك أقوى من تماسكه في ذاته، أو استمساك غيره به، وقد يكون الأَخْذ بلا ذنب»[(٥)].

---

(١) انظر:مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٦٢، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٣٣٠.

(٢) انظر:جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٧٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ٩٦.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٧، الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨، تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٣٦٣.

(٤) انظر: صفات الله، علوي بن عبد القادر السَقَاف، ١/ ٥٣.

(٥) تفسير الشعراوي، ١٣/ ٨٠٢١.

الأخذ في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أخذ) في القرآن الكريم (٩) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٩	﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]

وجاء الأخذ في القرآن بمعنى العقوبة[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢].

والمفاعلة فيه للمبالغة[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٦٠١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٦٠١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاتخاذ:

الاتخاذ لغةً:

أخذت الشيء آخذه أخذًا: تناولته، والمفعول متخذ، والاتخاذ: افتعال أيضًا من الأخذ، وهو مصدر من باب الافتعال، واستخذ أرضًا: اتخذها، والتأخاذ كالتذكار تفعال من الأخذ[١].

الاتخاذ اصطلاحًا:

أخذ الشيء لأمر يستمر فيه، مثل: الدار يتخذها مسكنًا والدابة يتخذها قعده ويكون الاتخاذ التسمية والحكم[٢].

الصلة بين الأخذ والاتخاذ:

الأخذ: مصدر جاء بمعنى العذاب والحصول على الشيء، والاتخاذ: أخذ الشيء لأمر يستمر فيه، مثل: الدار يتخذها مسكنًا، والدابة يتخذها قُعدة، والاتخاذ التسمية والحكم[٣].

٢ التناول:

التناول لغةً:

النون والواو واللام أصل صحيح يدل على إعطاء، ونولته: أعطيته، ونالت المرأة بالحديث والحاجة: سمحت، أو همت، و(النوال) العطاء، و(النائل) مثله، يقال: (نال) له بالعطية من باب قال و(ناله) العطية، و(نوله تنويلا) أعطاه نوالًا، و(ناوله) الشيء (فتناوله)، وناولته فتناوله: أخذه[٤].

التناول اصطلاحًا:

النيل إدراك الشيء ولحوقه يقال: نالني من فلان معروف، أي: وصل إلي، وأما النول بالواو فمعناه التناول يقال: نلته، أي: تناولته[٥]، وقد يأتي التناول بمعنى آخر وهو الإهانة والتعرض بالأذى قولًا أو فعلًا، كقولك: فلما خرج تناوله بعض الخصوم، وتناولاه من الذكر

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٨، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢، القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص٣٣٠.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٦٨٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٠٦٦.
(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي، ٢/ ٢٨٣

عبثًا بما لم يكن أهلًا له[١].

الصلة بين الأخذ والتناول:

التناول أخذ القليل المقصود إليه، ولهذا لا يقال: تناولت كذا من غير قصد إليه، ويقال: أخذته من غير قصد[٢].

٣ البطش:

البطش لغةً:

الباء والطاء والشين أصل واحد، وهو أخذ الشيء بقهر وغلبة وقوة والتناول بشدة عند الصولة، والأخذ الشديد في كل شيء بطش، بطش يبطش ويبطش بطشًا[٣].

البطش اصطلاحًا:

البَطْشُ: الأَخذ الْقَوِيُّ الشَدِيدُ، والبَطْشة: السَطْوة والأَخذُ بالعُنْف[٤].

الصلة بين الأخذ والبطش:

البطش هو إحدى طرق الأخذ، فهو الأخذ القوي الشديد، وقد يطلق الأخذ على تناول الشيء بدون شدة أو قهر، بخلاف البطش الذي لا يكون إلا بالشدة والقهر، فلفظة البطش تدل على مضمون الشدة والغلبة.

٤ الإهلاك:

الإهلاك لغةً:

الهاء واللام والكاف: يدل على كسر وسقوط، والهلاك: السقوط، ولذلك يقال للميت هلك، والهلك الشيء الهالك، واستهلك المال: أنفقه وأنفده، والتهلكة: كل ما عاقبته إلى الهلاك[٥].

الإهلاك اصطلاحًا:

«هلاك النفس، حالة الإنسان البعيد عن طريق الخلاص أو النجاة، أو المنغمس في

(١) انظر: تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي، ١٠/ ٣٣٨.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٦٢، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٦، لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٢٦٧.
(٤) الصحاح، الجوهري، ٣/ ٩٩٦.
(٥) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٧ ، لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٥٠٣- ٥٠٨، القاموس المحيط، ص٩٥٨.

الرذيلة»[1]، والإهلاك يكون بافتقاد الشيء عنك وهو عند غيرك موجود، أو هلاك باستحالة وفساد[2]، فهو حالة توحي بانتهاء الشيء واستنفاذه سواء كان دمارًا أو موتًا أو استهلاكًا ونفاذًا، وهو نهاية لكل من سلك طريقًا بعيدًا عن طريق الحق والنجاة.

الصلة بين الأخذ والإهلاك:

يشترك الإهلاك مع الأخذ في معنى وقوع العقوبة والعذاب والاستئصال في حق أهله، وحصول ذلك يكون لنفس السبب، وهو: الشرك بالله والظلم وجحود آيات الله وتكذيب رسله.

(١) تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي، ١١/ ١٩.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، ٥/ ٣٣٨.

الأخذ في حق الله عز وجل

يتناول هذا المبحث الأخذ في حقه تعالى، ومن ذلك نفي استيلاء السِنَة والنوم عن الله، كما تناول المواثيق التي أخذها الله على بني آدم، والمواثيق التي أخذها الله على الأنبياء بتبليغ رسالاته بأمانة وصدق، والمواثيق التي أخذها الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يؤمنوا برسله وكتبه وأن يبلغوا ما في كتبه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وعدم تحريفها، إلا أنهم نقضوا هذه المواثيق إلا من عصمه الله منهم.

أولًا: تنزيه الله عن السِنَة والنوم:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾[البقرة: ٢٥٥].

نفى الله عز وجل في هذه الآية أن تأخذه سِنَة ولا نوم، ولم يقل: لا ينام؛ لأن النوم يكون باختيار، والأخذ يكون بالقهر، والنوم من صفات النقص التي اتصفت به المخلوقات، فهي تحتاج إلى النوم من أجل الاستراحة من تعب سبق واستعادة القوة لعمل مستقبل، ولما كان أهل الجنة كاملي الحياة، كانوا لا ينامون[1]، «والسِنَة والنوم من الأوصاف المستحيلة في حق الله تعالى، فإن النوم أخو الموت، ومن تأخذه السِنَة والنوم لا يكون قيومًا دائمًا بنفسه، مقيمًا لغيره، فإن السنة والنوم يناقض ذلك»[2]، والسِنَة ما كان من العين فإذا صار في القلب صار نومًا، وقال السدي: السِنَة: ريح النوم الذي يأخذ في الوجه فينعس الإنسان، وهي أول النوم، والنوم معروف وهو فتور يعتري أعصاب الدماغ من تعب إعمال الأعصاب من تصاعد الأبخرة البدنية الناشئة عن الهضم والعمل العصبي، فيشتد عند مغيب الشمس ومجيء الظلمة فيطلب الدماغ والجهاز العصبي الذي يدبره الدماغ استراحة طبيعية فيغيب الحس شيئًا فشيئًا وتثقل حركة الأعضاء، ثم يغيب الحس إلى أن تسترجع الأعصاب نشاطها فتكون اليقظة.

ونفي استيلاء السِنَة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير، وإثبات لكمال العلم، فحياة النائم في حالهما حياة ضعيفة، وهما يعوقان عن التدبير وعن العلم بما يحصل في وقت استيلائهما على الإحساس، وفي هذه الجملة تأكيد لما قبلها، وإقرار لمعنى الحياة والقيومية الدائمة الكاملة، وفي لفظ الأخذ غلبة ما، فلذلك حسنت في هذا الموضع بالنفي.

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص٧٦.

(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني الحنبلي، ص٢٦٣.

فالله عز وجل لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم؛ لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيومًا، فهو الدائم على حال، والقيوم على جميع الأنام، ولو نام كان مغلوبًا مقهورًا؛ لأن النوم غالب النائم وقاهره، ولو وسن لكانت السماوات والأرض وما فيهما دكًا؛ لأن قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته، والنوم شاغل المدبر عن التدبير، والنعاس مانع المقدر عن التقدير بوسنه ، وهذا توكيد لقيامه سبحانه على كل شيء، وقيام كل شيء به، ولكنه توكيد في صورة تعبيرية تقرب للإدراك البشري صورة القيام الدائم، في الوقت الذي تعبر فيه هذه الصورة عن الحقيقة الواقعة من مخالفة الله سبحانه لكل شيء[1].

جاء في الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات فقال: (إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[2].

وينبغي أن يُعلم أن النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمال إلاَ إذا تضمَن إثباتًا ، فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنًا لإثبات مدحٍ كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فإنه يتضمن كمال الحياة والقيام[3]، فالله عز وجل لا ينام، أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، وإلا لكان ذلك نقصًا في حياته وقيوميته.

ولهذا أردف هذين الاسمين بنفي السِنَة والنوم، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء ولا يغيب عنه شيء، وجل عن أن يشبهه الأنام في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله؛ لأن الصفات تابعة لموصوفها فكما أن ذاته لا تشبه الذوات فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقات[4].

«وفي ذلك نفي النقائص عن الله المتضمن لإثبات الكمالات»[5].

فحياة الله عز وجل غير قابلة للزوال ولا للنقص ولا للابتداء، بخلاف حياة الإنسان فإنه وإن حاول أن يمتنع عن النوم فلابد أن يأخذه النوم أو يهلك، فالحاصل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٥/ ٣٨٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٢٧٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٩.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام: (إن الله لا ينام)، رقم ٢٩٤.
(٣) العواصم والقواصم، ابن الوزير، ٤/ ١٣٤.
(٤) انظر: معارج القبول، حافظ الحكمي، ١/ ٢٠٨.
(٥) تقريب التدمرية، ابن عثيمين، ص١٥.

أن الله له الحياة الكاملة أزلًا: ابتداء وانتهاء واستمرارًا، فابتداء حيث لم تسبق، وانتهاء حيث لا يلحقها زوال، واستمرارًا حيث إنها حياة كاملة لا يعتريها سِنَة ولا نومًا ولا نقصًا بأي نوع من أنواع النقص[1].

ثانيًا: أخذ الميثاق:

١. أخذ ميثاق النبيين.

بعد أن اصطفى الله تعالى الأنبياء كلفهم بتبليغ رسالته لأقوامهم، وأخذ منهم ميثاقًا غليظًا أن يبلغوا هذه الرسالة بأمانة وإخلاص، وأن يصدق بعضهم بعضًا، فجميعهم يحملون الرسالة نفسها، فأقروا على ذلك الميثاق، وشهد الله معهم على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

تتحدث الآية عن أخذ الله ميثاق النبيين صلوات الله عليهم فيخاطب النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر وقت أخذه تعالى لميثاق الأنبياء.

وقد اختلف في تفسير الميثاق على أقوال:

الأول: أن الله أخذ ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضًا بالإيمان، ويأمر بعضهم بعضًا بذلك، فهذا معنى النصرة له، والإيمان به.

وهو ظاهر الآية، فحاصله أن الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر وينصره.

والقول الثاني: أن الله أخذ ميثاق الذين مع النبيين.

والثالث: أن في الكلام حذفًا، والمعنى: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتعلمن الناس لما جاءكم من كتاب وحكمة ولتأخذن على الناس أن يؤمنوا.

وقوله: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾ هو من الإقرار، سمي العهد إصرًا لما فيه من التشديد والمعنى: وأخذتم على ذلك عهدي، ويستأنف الحديث بقوله: ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ وكأنه أراد القول: ماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل: قالوا: أقررنا. وإنما لم يذكر أحدهم الإصر اكتفاء بذلك[2].

قوله: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أي: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار.

وقيل: الخطاب فيه للملائكة.

﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا من

(١) انظر: شرح العقيدة السفارينية، ابن عثيمين، ص١٧١.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١ / ٥٣٧.

الشاهدين على إقراركم ذلك.

وإدخال (مع) على المخاطبين، لأنهم المباشرون للشهادة حقيقة، وفيه من التأكيد والتحذير مالا يخفى.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عما ذكر بعد ذلك الميثاق، والتوكيد بالإقرار والشهادة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتولون المتصفون بالصفات القبيحة ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة من الكفرة[1].

فمما سبق يتبين لنا أن الله سبحانه أخذ موثقًا جليلًا كان هو شاهده وأشهد عليه رسله، موثقًا على كل رسول، أن صدق الأنبياء الذين سبقوه وكتبهم فهي جميعها من عند الله، أن يؤمن به وينصره، ويتبع دينه، فجميعهم من المنبع نفسه، وجعل هذا عهدًا بينه وبين كل رسول.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

يخاطب المولى عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم قائلًا: واذكر حين أخذنا من النبيين جميعًا ميثاقهم، ومنك يا محمد خصوصًا، ومن نوح وابراهيم وعيسى عليهم السلام، وقد أخذ الله ذلك الميثاق ليسألهم يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم ووفوا به، فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم وكانوا مؤمنين، أو ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم؛ لأن من قال للصادق: صدقت، كان صادقًا في قوله، أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم به أممهم، وتأويل مسألة الرسل: تبكيت الكافرين بهم، و قدم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على نوح ومن بعده؛ وذلك لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم، فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين: قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه، وقال: مِيثَاقًا غَلِيظًا؛ للدلالة على عظم الميثاق وجلالة شأنه في بابه، وقيل: الميثاق الغليظ: اليمين بالله على الوفاء بما حملوا، وقد أكد الله على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين، فقد أعد للمؤمنين جنات النعيم كما أعد للكافرين عذابًا أليمًا[2].

فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، ونحن نشهد أن الرسل قد بَلَغُوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٥٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٣٢.

وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلي، الذي لا لبس فيه، ولا شك، ولا امتراء، وإن كذبهم مَنْ كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومَنْ خالفهم فهو على الضلال[1].

٢. أخذ ميثاق بني آدم.

خلق الله عز وجل بني آدم، وكرمهم على سائر المخلوقات، وجعلهم مستخلفين في الأرض، لإعمارها وإفراده بالعبادة، فأخذ عليهم الميثاق وهم في عالم الذر بأنه هو ربهم وهو وحده المستحق للعبادة والطاعة، وأشهدهم على ذلك، لتكون حجة عليهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢].

يخاطب المولى عز وجل في هذه الآية نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم قائلًا له: واذكر يا محمد ربك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به.

ولهذه الآية تأويلان:

أحدهما: قول البعض: وإذ أخذ ربك من بني آدم عليه السلام من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، فقال الله وملائكته شهدنا عليكم بإقراركم بأن الله ربكم كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

والثاني: قال آخرون: ذلك خبر من الله عن قِيل بعض بني آدم لبعضٍ حين أشهد الله بعضهم على بعض، وقالوا: معنى قوله: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وأشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك[2].

واختلف في هذه الآية، هل هي خاصة أو عامة، فقيل: الآية خاصة؛ لأنه تعالى قال: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾، فخرج من هذا الحديث من كان من ولد آدم عليه السلام لصلبه.

وقيل: هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء.

وقيل: بل هي عامة لجميع الناس؛ لأن كل أحد يعلم أنه كان طفلًا فغذي وربي، وأن له مدبرًا وخالقًا.

فهذا معنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

ومعنى ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: إن ذلك واجب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ألفاظ الآية تقتضي أن الأخذ إنما كان من بني آدم،

(١) انظر:تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٨٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣ / ٢٢٢.

وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظ.

ووجه النظم على هذا: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم، وإنما لم يذكر ظهر آدم عليه السلام؛ لأن المعلوم أنهم كلهم بنوه، وأنهم أخرجوا يوم الميثاق من ظهره.

فاستغنى عن ذكره لقوله: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ بالجمع؛ لأن الذرية لما كانت تقع للواحد أتى بلفظ لا يقع للواحد فجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يشركها فيه شيء وهو الجمع؛ لأن ظهور بني آدم استخرج منها ذريات كثيرة متناسبة، أعقاب بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله، فجمع لهذا المعنى[1].

والقول في ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ لدلالة حالهم على الاعتراف بالربوبية لله تعالى.

وحاصل المعنى: أن الله خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلة الوحدانية، وجعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلع إلى إدراك ذلك، وتحصيل إدراكه إذا جرد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها.

والمقصود من قصة أخذ العهد تذكير المشركين بما أودع الله في الفطرة من التوحيد.

وهذا الأسلوب هو من تحويل الخطاب عن مخاطب إلى غيره، وليس من الالتفاف لاختلاف المخاطبين، والمعنى: أن ذلك لمَا جُعل في الفطرة عند التكوين كانت عقول البشر منساقة إليه، فلا يغفل عنه أحد منهم فيعتذرَ يوم القيامة إذا سئل عن الإشراك، بعذر الغفلة؛ فهذا إبطال للاعتذار بالغفلة، ولذلك وقع تقدير حرف نفي أي: أنْ لا تقولوا، وعُطف عليه الاعتذار بالجهل دون الغفلة بأن يقولوا: إننا اتبعنا آباءنا وما ظننا الإشراك إلا حقًا، فلما كان في أصل الفطرة العلمُ بوحدانية الله بطل الاعتذار[2].

٣. أخذ ميثاق أهل الكتاب.

بعد أن أرسل الله النبيين إلى أهل الكتاب، وأنزل عليهم الكتب السماوية بما فيها من تشريع، أخذ على أهل الكتاب ميثاق تبيينها للناس وتعليمهم إياها، ولكنهم قاموا بتحريف الكتب السماوية؛ وفقًا لأهوائهم، وتركوا شريعة الله السليمة وراء ظهورها ورفضوا الاحتكام لها، كما أخذ علي بني إسرائيل ميثاقًا بعدم الشرك بالله وعدم تكذيب الأنبياء، ولكنهم كعادتهم لا عهد لهم ولا ذمة، وخير دليل على ذلك قتلهم للأنبياء ومعاداتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما يفعلونه من معاداة للإسلام والمسلمين اليوم في فلسطين، واعتدائهم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٣١٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٦٥.

على حرمات بيوت الله، وسعيهم الحثيث لهدم المسجد الأقصى، فلا أمان لهم إلى يوم القيامة، وكذلك أخذ المواثيق على النصارى باتباع عيسى عليه السلام ولكنهم أشركوا بالله واتخذوا من المسيح إلهًا لهم، فألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

تحدثت الآيات السابقة عن شُبه اليهود التي حاولوا من خلالها الطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فرد عليها ثم أتبعه بهذه الآية؛ وذلك لأنه تعالى أوجب في التوراة والإنجيل على أمة موسى وعيسى عليهما السلام أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دين محمد صلى الله عليه وسلم وصدق نبوته ورسالته، والمراد منه التعجب من حالهم، كأنه قيل: كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صدق نبوته ودينه.

وكان أهل الكتاب يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم وكان من طرق إيذائهم له أنهم كانوا يكتمون ما في التوراة والإنجيل من الدلائل الدالة على نبوته فكانوا يحرفونها و يذكرون لها تأويلات فاسدة، أما عن كيفية أخذ الميثاق كان ذلك من خلال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث أوردوا الدلائل في جميع أبواب التكاليف وألزموهم قبولها، فالله سبحانه وتعالى إنما أخذ الميثاق منهم على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فذلك التوكيد والإلزام هو المراد بأخذ الميثاق.

والمراد من البيان ذكر تلك الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة والإنجيل، والمراد من النهي عن الكتمان أن لا يلقوا فيها التأويلات الفاسدة والشبهات المعطلة، وظاهر هذه الآية وإن كان مختصًا باليهود والنصارى فإنه لا يبعد دخول المسلمين فيه أيضًا؛ لأنهم أهل القرآن وهو أشرف الكتب[1]، فنبذ أهل الكتاب هذا الميثاق وراء ظهورهم، بدلوا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا الفانية، فكانوا في هذه الصفقة مغبونين، حيث جعلوا العَرَض الفاني بدل النعيم الباقي في الآخرة، فبئس الشراء شراؤهم، وبئست هذه المبادلة، وقد قال النبي: صلى الله عليه وسلم: (من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[2].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ١٠٥.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم ٢١٣٥، ٢/ ٣٣٦.

وإذا أخبر العالم الديني بحكم شرعي فعليه أن يكون أمينًا في نقله حاذقًا في فهمه، فلا يحرفه ولا يبدله، ولا يبتر منه شيئًا، ولا يدلس ويعمي الأمور ويغطي الحقائق، ولا يطلب الثناء على ما فعل من بيان الخبر المشوه أو الحكم المبدل، وهو في هذا كاذب دجال[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: ٨٣، ٨٤].

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى: واذكر أيها النبي حين أخذنا ميثاق بني إسرائيل، بأن ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، وبأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا، وأن تصلوا رحمه، وتعرفوا حقه، وأن تتعطفوا على اليتامى بالرحمة والرأفة، وبالمساكين: أن تؤتوهم حقوقهم التي ألزمها الله أموالكم، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وفي ذلك بيان حقوق سائر الأمة، وهي النصيحة لهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم، وإقامة الصلاة تكون بأدائها بحقوقها الواجبة عليكم فيها، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وذلك لإصلاح شئون المجتمع، فقد كان يجب عليهم زكاة في أموالهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

هذا خبر من الله عن يهود بني إسرائيل، أنهم نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه، بعدما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له، بأن لا يعبدوا غيره، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويتعطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمروا عباد الله بما أمرهم الله به ويحثوهم على طاعته، ويقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم فخالفوا أمره في ذلك كله، وتولوا عنه معرضين، إلا من عصمه الله منهم، فوفى لله بعهده وميثاقه[2].

ثم أتبع ذلك بالنهي عن سفك بعضهم دم بعض، وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثرًا شريفًا يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه، حتى

قال الترمذي: «حديث صحيح».

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٢٧١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٩٢.

إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده، فهذه الأحكام لا تزال محفوظة عند الإسرائيليين في الكتاب وإن لم يجروا عليها في العمل.

قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه يخاطبهم بما كان من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله، وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى عليه السلام.

ثانيهما: أن المراد الحاضرون أنفسهم، أي: أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم، ولا تنكرونه بألسنتكم، بل تشهدون به وتعلنونه، فالحجة ناهضة عليكم به[1].

ولكن اليهود اعتادوا الغدر، واستماتوا في حب المادة، أعرضوا قصدًا وعمدًا عن تنفيذ الأوامر الإلهية، وعن العمل بالميثاق.

فهذا هو طبع بني إسرائيل القتل والغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود وتحريف الكتب السماوية، وذلك منذ أن خلقوا مرورًا بزمن النبي صلى الله عليه وسلم ووصولًا إلى زماننا هذا فطبعهم وأخلاقهم الفاسدة لا تتغير.

فلا بد أن يحرص المسلمون على معرفة طبائعهم ومكائدهم حتى يتحرزوا الوقوع فيها.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:١٤].

لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه، الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكرهم نعَمَه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم، وطردًا عن بابه وجنابه، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح.

قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾، أي: ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/٣٠٨.

والمواثيق على متابعة الرسول ومناصرته، ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، أي: ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود[1]، فألصقنا بهم العداوة وسلطنا بعضهم على بعض.

﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ أشار بهذا إلى اليهود والنصارى لتقدم ذكرهما، وقيل: أشار إلى افتراق النصارى خاصة، لأنهم أقرب مذكور؛ وذلك أنهم افترقوا إلى اليعاقبة والنسطورية والملكانية؛ أي: كفَر بعضهم بعضًا.

ومن أحسن ما قيل في معنى ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ أن الله عز وجل أمر بعداوة الكفار وإبغاضهم، فكل فرقة مأمُورة بعداوة صاحبتها وإبغاضها؛ لأنهم كفار.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ تهديدٌ لهم؛ أي: سيلقون جزاء نقض الميثاق[2].

«ولقد وقع بين الذين قالوا: إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله سبحانه في كتابه الصادق الكريم، وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله، سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة، أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية، أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات، وهي ماضية إلى يوم القيامة»[3].

ثالثًا: أخذ نواصي الدواب:

قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦].

أي: أنه ليس من شيء يدب على الأرض، إلا والله مالكه، وهو في قبضته وسلطانه ذليلٌ له خاضعٌ.

والناصية عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس، ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته.

والمعنى: هي في قبضته وتنالها بما شاء قدرته، فهو آخذ بناصيتها يحييها ويميتها، وهو مالكها والقادر عليها، ويقهرها؛ لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته.

وإنما خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٦٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١١٧.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦ / ٨٦٠.

ذلك إذا وصفت إنسانًا بالذلة والخضوع فيقولون: ما ناصية فلان إلا بيد فلان.

أي: أنه مطيع له يصرفه كيف شاء، فخاطبهم بما يعرفون في كلامهم، وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض، بما فيها الدواب من الناس، وهذه صورة حسية تناسب الموقف، وتناسب غلظة قوم هود وشدتهم، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وغلظ حسهم ومشاعرهم.

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي، الذي كان عليه نبي الله هود عليه السلام، فهو يجد هذه الحقيقة واضحة.

إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر، وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهرًا.

إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه، لا تدع في قلبه مجالًا للشك في عاقبة أمره ولا مجالًا للتردد عن المضي في طريقه.

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبدًا.

إن ربي على طريق الحق يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بمعصيته، ولا يظلم أحدًا، ولا يقبل إلا الإسلام.

فلا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم، ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل، فهو لا يخفى عليه مستتر، ولا يفوته هارب[1].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٣٦٣، الكشف والبيان، الثعلبي، ٥/ ١٧٤، الوجيز، الواحدي، ص٥٢٤.

سُنة الله في الأخذ

يتناول هذا المبحث بيان سُنة الله في الأخذ، فيظهر عدله ورحمته، فجل شأنه لا يؤاخذ بالنسيان والخطأ الغير متعمد، ولا يؤاخذ بأيمان اللغو، وإنما يؤاخذ الإنسان على ما كسب قلبه من عزم ونية، وعلى أيمانه المنعقدة، كما أنه تعالى لا يؤاخذ الإنسان إلا بعد إقامة الحجة عليه، وإزالة الأعذار، ولا يؤاخذ إلا بعد انتهاء الأجل المحدد، فيؤخرهم إلى أجل معلوم عنده ليحاسبهم، فيغفر لمن تاب وأناب، ويعذب من جحد وعاند.

أولًا: أسباب الأخذ:

١ . يؤاخذ بالأيمان المنعقدة.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩].

بعد أن بينت الآية الكريمة أن الله عز وجل لا يؤاخذنا على اللغو في الأيمان؛ بينت أن الله يؤاخذنا على الأيمان المنعقدة، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ فمعناه: يؤاخذكم ويحاسبكم على ما أكدتم من الأيمان، فمن قصد الأمر فحلف بالله وعقد على اليمين قلبه متعمدًا فعندها تلزم فيه الكفارة إذا حنث بإجماع، وكفارة حنث اليمين هي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة.

والمُكفِر في اليمين مُخيَر بين هذه الثَلاث، فمن لم يجد فعليه صيام ثلاثة أيام وهي الكفارة التي يعاد إليها في اليمين المعقودة عند عدم استطاعة الكفارات الأخرى، ثم أمر الله بحفظ الأيمان وذلك بمعنى لا تكثروا من الحلف، واحفظوها عن الحنث إذا لم يكن ما حلفتم عليه خيرًا، لئلا يذهب تعظيم اسم الله عن قلوبكم، يبين الله لكم آياته وشرائعه لعلكم تشكرون نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج[(١)].

«فعلى المؤمن أن يحترم عهد الله وميثاقه، ويعظم ذات الله وجلاله، فيبتعد عن كل مظاهر الإخلال بهيبة الله وقدسيته، وإذا حلف بالله تعالى وجب عليه صون يمينه إذا كان الأمر المحلوف عليه قربة أو طاعة، وجاز له مخالفة مقتضى اليمين بل يجب إذا كان المحلوف عليه معصية»[(٢)].

(١) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب، ٣/ ١٨٥٠، الوجيز، الواحدي، ١/ ٣٣٣.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٤٩٢.

٢. يؤاخذ بما كسبت القلوب.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

بعد أن بيَن الله عز وجل أنه تعالى لا يؤاخذ باللغو في اليمين، بَيَنَ تعالى أن المؤاخذة تكون على ما قصده القلب وعزمه، وكسب القلب هو العقد والنية، وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

والله غفور لمن حنث وكفر بيمينه، حليم حيث رخص لكم في ذلك ولم يعاقبكم، غفور لعباده فيما لغوا من أيمانهم التي أخبر أنه لا يؤاخذكم عليها.

ولو شاء آخذهم وألزمهم للكفارة في العاجل والعقوبة عليها في الآجل.

حَلِيمٌ يعني في ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة.

والحليم ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل ولا عصيان عاص ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة[1].

٣. يؤاخذ بعد إقامة الحجة وإزالة العذر.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٩].

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به أن عليه غضبًا من الله، وذلك لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، ولهم عذاب عظيم في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة؛ لأجل الدنيا.

أولئك طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها، ولا أبصروا الآيات التي يستدل بها على الحق، فهم غافلون عما يراد بهم، فلا غفلة أعظم من غفلتهم هذه لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ١/ ١٤٨، النكت والعيون، الماوردي، ١/ ٢٨٧.

﴿مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهًا لما أصابه من ضرب وأذى، ولكن قلبه يأبى ما يقول، بل مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

قال أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر: أخذ المشركون عمار بن ياسر، فعذبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟) قال: مطمئنًا بالإيمان. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فإنْ عادُوا فَعُدْ)[1].

وقد أجمع العلماء على أنه من أكره على الكفر إكراهًا ملجيًا يجوز له أن يتلفظ بما أُكره عليه مطمئنًا قلبه بالإيمان بهذه الآية[2].

قال تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩].

يعني بذلك جل ثناؤه: فإن أخطأتم الحق، فضللتم عنه، وخالفتم الإسلام وشرائعه، من بعد مجيء الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق، واتضحت لكم صحة أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون، فاعلموا أن الله ذو عزة، غالب قادر على أنواع الانتقام، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم أمره ومعصيتكم إياه دافع، وحكيم فيما يفعل بكم من عقوبته على معصيتكم إياه، بعد إقامته الحجة عليكم، وفي غيره من أموره، فهو لا ينتقم إلا بالحق[3].

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

رتب الله عز وجل الثواب العظيم على الموافقة، كما رتب العقاب الشديد على المخالفة والمشاقة، ووكل المخالف إلى نفسه بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعانده فيما جاء به ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلًا أن يبقيه في ضلاله حائرًا ويزداد ضلالًا إلى ضلاله.

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٠٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٦٠٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٥٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٥٩.

بها ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه ويعصمه من السوء[1].

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

هذه الآية فيها إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، سبحانه أعدل العادلين لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة، وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه، فسبحانه منزه عن الظلم، فعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اختصمت الجنة والنار فذكر الحديث إلى أن قال: (وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأنه ينشئ للنار خلقًا فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ ثلاثًا...)[2]، فإن هذا إنما جاء في الجنة؛ لأنها دار فضل، وأما النار؛ فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه[3].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٥/ ٤٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قوله تعالى: (إن رحمة الله قريب من المحسنين)، رقم ٧٤٤٩، ٩/ ١٣٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٥٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٥٥.

٤. يؤاخذ عند انتهاء الأجل المقدر.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بيَن أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة؛ إظهارًا للفضل والرحمة والكرم، فقال: ولو يؤاخذ الله الكفارَ بكفرهم ومعاصيهم ما ترك عليها، أي: على الأرض وإن لم يذكر فقد دل عليها ذكر الناس وذكر الدابة، فإن الجميع مستقرون على الأرض، لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى معلوم عنده وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم أو أجل عذابهم، وفي هذا التأخير حكمة بالغة منها الإعذار إليهم وإرخاء العنان معهم، ومنها حصول من سبق في علمه من أولادهم فإذا جاء أجلهم الذي سماه لهم حقت عليهم كلمة الله سبحانه في ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه، والساعة المدة القليلة، فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه[4].

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦١٣، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٢٢٧.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

بعد أن هدد المشركين بجريان سنته فيهم، بإهلاكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم، ذكر حلمه بعباده وأنه لو آخذهم بما كسبوا من الذنوب وعملوا من الخطايا، ما ترك على ظهر الأرض من دابة من الدواب التي تدب كائنة ما كانت، أما بنو آدم فلذنوبهم، وأما غيرهم فلشؤم معاصي بني آدم، قال ابن مسعود: «كاد الجُعَل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم»، ولكن يؤجل عقابهم إلى وقت محدد، وهو يوم القيامة، فإذا جاء أجلهم فإن الله يحاسبهم ويوفي كل عامل جزاء عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فهو البصير بحال عباده لا يخفى عليه شيء من أمرهم، دق أو جل، ظهر أو بطن، وفي هذا تسلية للمؤمنين ووعيد للكافرين، وتذكير لهم عن أن يغرهم تأخير المؤاخذة فيحسبوه عجزًا أو رضًا من الله بما هم فيه، اللهم أحسن أعمالنا ظواهرها وبواطنها، وتقبل منا ما نعمل مما يرضيك إنك أنت الخبير البصير[(١)].

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

والمعنى: وربك يا محمد الساتر على ذنوب عباده بعفوه إذا تابوا منها ذو الرحمة بهم، ولو آخذ هؤلاء المعرضين عن آياته بما اكتسبوا من الذنوب والآثام بالعذاب في الدنيا لعجل لهم ذلك، لكنه برحمته وعفوه لم يعجل لهم ذلك، بل لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدا لهم، أنزل بهم بأسه[(٢)].

ثانيًا: موانع المؤاخذة:

١. لا يؤاخذ باللغو في الأيمان.

قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

اللغو من اليمين: هو الساقط الذي لا يعتد به، وما تعوده الناس في الكلام «لا والله» و«بلى والله»، فأما إذا حلف على شيء أنه كان حاصلًا جدًا ثم ظهر أنه لم يكن

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٣٦١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٥٢.

فقد قصد الإنسان بذلك اليمين المتصل تصديق قوله وربط قلبه بذلك فلم يكن لغوًا البتة، وقد ذكر سبحانه وتعالى قبل هذه الآية النهي عن كثرة الحلف فذكر عقيب ذلك حال هؤلاء الذين يكثرون الحلف على سبيل الاعتياد في الكلام على سبيل القصد إلى الحلف، وبين أنه لا مؤاخذة عليهم ولا كفارة؛ لأن إيجاب الكفارة والمؤاخذة عليهم يفضي إما إلى أن يمنعوا عن الكلام أو يلزمهم في كل لحظة كفارة وكلاهما حرج في الدين، ويؤيد هذا المعنى ما روته عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٥].

فِي قَوْلِ الرَّجُلِ: لاَ وَاللَّهِ وَبَلَى وَاللَّهِ[(١)]، فهذه الآية تبين أن الله لا يؤاخذ بما يجري على الألسنة من الأيمان اللاغية، التي يتكلم بها العبد، من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه[(٢)].

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

تؤكد هذه الآية أن الله عز وجل لا يؤاخذنا على أيمان اللغو أيضًا، فاللغو ما لَا يقصد به اليمين، وما لَا تكسبه القلوب، ولا يوثَق به الكلام بالامتناع عن الفعل، أو توكيد إيقاع الفعل في المستقبل، لَا مؤاخذة عليه، فهو يجري على الألسنة من غير قصد الحلف[(٣)].

٢. لا يؤاخذ بالنسيان غير المتعمد الخطأ.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

توضح الآية الكريمة أن الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا ما يسعها فلا يجهدها، ولا يضيق عليها في أمر دينها، فيؤاخذها بهمة إن همت، ولا يؤاخذها بوسوسة إن عرضت لها، ولا بخطرة إن خطرت بقلبها[(٤)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ)[(٥)].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم)، رقم ٤٦١٣، ٦/ ٥٢.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري، ١/ ٦١٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٠١، فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٢٦٤.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٤١، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٥/ ٢٣٣٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ١٣١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم ٥٢٦٩، ٧/ ٤٦.

﴿أَخْطَأْنَا﴾ المراد هنا أي: لا تعاقبنا بما أدى بنا إلى النسيان أو الخطأ من تفريط وقلة مبالاة؛ لأن المؤاخذة إنما هي بالمقدور، والنسيان والخطأ ليس بمقدورين، ويجوز أن يراد النسيان نفسه والخطأ، أي: لا تؤاخذنا بهما كما آخذت به من قبلنا[1].

وأما الأحكام الدنيوية المتعلقة بهما فالصحيح أنها تختلف بحسب الوقائع، فقسم لا يسقط باتفاق؛ كالغرامات والديات والصلوات المفروضات، وقسم يسقط باتفاق؛ كالقصاص والنطق بكلمة الكفر، وقسم ثالث مختلف فيه؛ كمن أكل ناسيًا في رمضان أو حنث ساهيًا، وهذا يدل على أن أحكام العباد وحقوق الناس ثابتة[2]، وعلى ذلك فإن الخطأ والنسيان والإكراه معفو عنها بأمر الله تعالى، لكن ينبغي معرفة أن ما نسي من الواجبات فإنه يقضى إذا لم يفت سببه، فإذا نسي الإنسان أن يصلي فإنه يصلي إذا ذكر لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك)[3].

(١) انظر: السراج المنير، الشربيني، ١/ ١٩١، فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٥٣.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ١٣٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكر، رقم ٥٩٧، ١/ ١٢٢.

أخذ الظالمين والمترفين

يتناول هذا المبحث نماذج من أخذ الظالمين والمترفين؛ كفرعون وقومه، وعاد وثمود، وأقوام لوط، ونوح، وشعيب، وموسى، وتوضيح وسائل أخذهم وإهلاكهم الذي حل بهم لكفرهم وطغيانهم وتكذيبهم لآيات الله ورسله؛ كالغرق، والصيحة، والصاعقة، والريح الصرصر العاتية، وفي هذا كله عبرة وعظة وآيات للجاحدين والظالمين والعاصين الله ورسله.

أولًا: نماذج من أخذ الظالمين والمترفين:

١. أخذ فرعون وقومه وجنوده:

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

بين الله تعالى أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم، وأنه لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا عند حلول العقوبة بهم، كسُنَّة آل فرعون وعادتهم، فقد كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل، فأخذهم الله بذنوبهم عدلًا منه لا ظلمًا، والله شديد العقاب على من كفر وأتى الذنوب على اختلاف أنواعها

وتعدد مراتبها، وهو أخذ الانتقام في الدنيا، وهذه سنته الجارية في الأمم السابقة، وقد ضرب الله هذا المثل عبرة وموعظة؛ لأنهم إذا استقروا الأمم التي أصابها العذاب، وجدوا جميعهم قد تماثلوا في الكفر، وكفى بهذا الاستقراء موعظة لأمثال مشركي العرب، وقد تعين أن يكون المشبه به هو وعيد الاستئصال والعذاب في الدنيا[1].

٢. أخذ ثمود:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصِلت:١٧].

بيَن الله تعالى في هذه الآية مصير ثمود وهم قوم صالح عليه السلام، فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بينا لهم طريق الهدى، وأنا قادرون على البعث وعلى كل شيء فلا شريك لنا، وكان بيان ذلك بالناقة البيان فأبصروا ذلك بأبصارهم، فكرهوا ذلك لما يلزمه من ترك طريق آبائهم، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ والضلال الناشئ عن عمى البصر أو البصيرة أو هما معًا ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: أوجدوا من الأفعال والأقوال ما يدل على حب ذلك وعلى طلب حبه فعموا فضلوا، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾ أي: بسبب ذلك داهيةُ العذابِ وقارعةُ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي: المهين والمخزي، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة[2].

٣. أخذ عاد:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦-٨].

هذه الآيات بينت العذاب الذي وقع على عاد، وهم قوم هود، حيث أهلكهم الله تعالى هلاكًا ساحقًا بريح شديدة الصوت، شديدة البرد، قاسية شديدة الهبوب، ووصفها بالعاتية: التي عتت عن الطاعة فلم يقدروا على ردها لشدة هبوبها، بل أهلكتهم حيث سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام لا تنقطع ولا تهدأ، وكانت تقتلهم بالحصباء، متتابعات، تحسمهم حسومًا وتفنيهم وتذهبهم موتى كأنهم أعجاز نخل خاوية ساقطة، فلم يبق لهم أثرًا، وذلك العقاب نتيجة تكذيبهم بيوم القيامة، وكفرهم بالله وبرسله وآياته، وفي هذا تخويف لأهل مكة وغيرهم، فهذا هو مصير كل من يسلك طريقهم[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٢٢٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٧٤.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ١٦٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٩.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٣٤، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٨٤.

٤. أخذ قوم لوط:

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ *... فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٥٨- ٧٤].

لما كثر فساد قوم لوط عليه السلام وعظم شرهم، أرسل الله الملائكة بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه، ويكذبون لوط عليه السلام حين يعدهم به، ونجى الله لوط وأهله وأمرهم أن يخرجوا من المدينة والناس نيام، فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلًا فنجو، أما قوم لوط فقد أقسم الله أنهم لفي سكرتهم يعمهون في ضلال وغفلة، وأوقع العذاب على قومه وامرأته، فأخذتهم صيحة العذاب وقت شروق الشمس حين كانت العقوبة عليهم أشد، فقلب عليهم مدينتهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل تتبع فيها من شذ من البلد منهم، وفي هذا عبرة وعظة للمتأملين المتفكرين، الذين لهم فكر وروية وفراسة، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصًا هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرأوا على أشنع السيئات[(١)].

٥. أخذ قوم نوح:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥].

ذكر الله تعالى في الآيات السابقة لهذه الآية أن القرآن هداية الله للعالمين، ثم أعقبه بذكر المجادلين المعاندين، وبيّن أنه لا يجادل في هذا القرآن بعد وضوح آياته وظهور إعجازه إلا الجاحدون لآيات الله، المعاندون لرسله، فيجب على العاقل ألا يغتر بتصرفهم وتقلبهم في هذه الدنيا ونعيمها، فما هم عليه من النعيم متاع زائل، فالله يمهلهم ولا يهملهم، بل إن أخذه بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر.

وفي الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، ووعيد شديد للكفار، فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم؛ كقوم نوح وقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم، حيث همت كل أمة من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به وجادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق.

فأخذهم الله وأهلكهم بعقاب يستحق العجب والإعجاب، ومع الأخذ في الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك[(٢)]، فهذا

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٥/ ٥٣٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب،

هو حال كل المكذبين بالرسل في كل زمان.

٦. أخذ قوم شعيب:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

في الآيات السابقة لهذه الآية ذكر لقصة شعيب عليه السلام مع قومه أهل مدين، كيف أنهم كانوا في ضلال وشرك، يتهالكون على كسب الحطام بأنواع الرذائل، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بعبادة الله وتوحيده، ونهاهم عن أن يبخسوا الناس أشياءهم في الكيل والميزان، فهم في نعمة كبيرة وسعة، فقد كان يخشى عليهم زوال هذه النعمة، فلم يستجيبوا له بل كانت ردودهم استهزاء به وبدعوته، فهو لا يريد إلا إصلاح نفوسهم، ولكنهم أصروا على ما هم عليه، فأخبرهم أن ينتظروا عذابًا من الله يهلكهم نتيجة كفرهم، ولما جاء أمر الله تعالى نجّى شعيبًا والذين آمنوا معه وذلك رحمة من الله، وأخذت الذين ظلموا الصيحة، فهلكوا وأصبحوا في ديارهم ميتين[(١)].

٧. أخذ قوم موسى:

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٥٣].

تبيّن هذه الآية أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابًا من السماء مكتوبًا؛ كما جاء موسى بني إسرائيل بالتوراة، قالوا له: إن موسى جاء بالألواح من عند الله، فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، فأعلمه الله عز وجل أنهم قد سألوا موسى عليه السلام أكبر من هذا ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: رؤية منكشفة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: صعقوا بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم، وعظيم ما سألوا موسى عليه السلام مما ليس لهم أن يسألوا مثله[(٢)].

٥/ ٣٠٦٦.

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ١٢٣.

(٢) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب، ٢/ ١٥١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٤٦.

ثانيًا: وسائل أخذ الظالمين والمترفين:

١. أخذ المجرمين والمترفين في الدنيا.

❁ الأخذ بالجدب ونقص الثمار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:١٣٠].

أراد بالسنين هنا القحط والجدب، أي: ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة ونقص من الثمرات يعني: وإتلاف الغلات بالآفات، لعلهم يتعظون وترق قلوبهم؛ فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب، وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير[(١)].

❁ الأخذ بالغرق.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٤٠].

بينت الآيات عاقبة فرعون وقومه، بعد أن استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله؛ فأخذ فرعون وجنوده فنبذناهم في اليم.

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء:١٠٣].

فكانت شر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بعقوبة الآخرة، فهذه هي دعوة للتأمل في حال وعاقبة الظالمين المتكبرين[(٢)].

❁ الأخذ بالريح.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة:٦-٨].

وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر، أي: باردة تحرق ببردها كإحراق النار، قطعتهم وأذهبتهم، فهي القاطعة بعذاب الاستئصال، فلم تبق منهم أحدًا[(٣)]، كما قال تعالى في قوم عاد: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩].

❁ الأخذ بالطوفان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ۖ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤].

وهنا يحكي عاقبة قوم نوح، فبالرغم من طول مقامه فيهم إلا أن هذا المكوث ما زادهم إلا شكًا في أمره، وجهلًا بحاله،

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٣٩.

(٢) انظر: النكت والعيون، تفسير الماوردي، ٤/ ٢٥٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦١٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٢٥٩.

ومريةً في صدقه، واستمر نوح في نصحهم، فأمره الله باتخاذ السفينة، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحدًا، وصدق وعده، ونصر عبده، سبحانه فلا تبديل لسنته في نصرة دينه[1].

❁ أخذ الظالمين بالرجفة.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨].

توضح الآية ما حل بثمود قوم صالح عليه السلام بعد أن عقروا الناقة، واستعجلوا العذاب، «جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد»[2].

كما أخبر عن حال قوم شعيب في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١].

❁ أخذ المترفين بالعذاب.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٤].

بيَنت الآية السابقة أن المشركين يحسبون أن إمداد الله لهم بالمال والبنين هو خير يسوقه إليهم ورضا منه عنهم، وبينت أن لهؤلاء الكفار أعمالًا لا يرضاها الله من المعاصي، فابتلاهم الله عز وجل بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف، والمترفون أشد الناس استغراقًا في المتاع والانحراف والذهول عن المصير، وها هم يفاجؤون بالعذاب الذي يأخذهم أخذًا، فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجؤار، مستغيثين مسترحمين، وذلك في مقابل الترف والغفلة والاستكبار والغرور، فبذلك يتضح للجميع مصير من يكفر بالله ويتكبر على رسله ويكذبهم إلى قيام الساعة، وهذا المصير واقع لا محال في يوم من الأيام[3].

❁ أخذ المجرمين بالصاعقة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥].

تبيَن الآية جراءة قوم موسى على الله وعلى رسوله، حيث إنهم قالوا بأنهم لن يؤمنوا حتى يروا الله جهرة، فأخذتكم صاعقة الموت أو الغشية العظيمة، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وقوع ذلك، كلٌ ينظر إلى صاحبه[4].

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات:٤٤].

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٤٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٤٨، معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٤٢٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢.

❁ أخذ الظالمين بالصيحة.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٧].

من الأقوام الذين أخذهم الله بالصيحة ثمود قوم صالح عليه السلام، وقوم شعيب عليه السلام، والصيحة: المرة من الصوت الشديد، والمراد بها هنا صيحة الصاعقة التي نزلت بقوم صالح عليه السلام فأحدثت رجفة في القلوب وزلزلة في الأرض، وصعق بها جميع القوم، فأصبحوا في ديارهم ساقطين على وجوههم مصعوقين لم ينج منهم أحد[(١)].

كما قال تعالى فيما أصاب مدين قوم شعيب: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

❁ الأخذ بالريح العقيم.

قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١].

يقول تعالى ذكره: وَفِي عَادٍ آية وعبرة، إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ يعني بالريح العقيم: التي لا تلقح الشجر[(٢)]، «ولا السحاب ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة، ثم قيل: هي الْجَنُوب، وقيل: هي الدَّبُور»[(٣)]، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ)[(٤)].

فهذه هي قدرة الله تعالى وهذا هو عذابه الذي يوقعه على الأمم الظالمة والكافرة، فعلى أمثال هذه الأمم أن يأخذوا العبرة والعظة من الأمم السابقة.

ثانيًا: أخذ المجرمين والمترفين في الآخرة.

توعد الله عز وجل المجرمين والمترفين بالعذاب الأليم في الآخرة؛ لكفرهم به وتكذيبهم أنبياءه، وفيما يلي توضيح لألوان من العذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة.

١. أخذ المجرمين بالنواصي والأقدام:

بين الله تعالى أن الملائكة تعرف المجرمين يوم القيامة بعلامات تميزهم عن غيرهم، فتأخذهم الملائكة من شعورهم وأقدامهم وتلقي بهم في نار جهنم والعياذ بالله، وهذا هو مصيرهم لظلمهم أنفسهم بالكفر والتمادي في الظلم.

قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١٢/ ١٠٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٤٣٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٤٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (وإلى عاد أخاهم هودًا)، رقم ٣٣٤٣، ٢/ ١٠٣٠.

﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرَّحمن:٤١].

«يقول تعالى ذكره: تعرف الملائكة المجرمين بعلاماتهم وسيماهم التي يسومهم الله بها من اسوداد الوجوه، وازرقاق العيون»[١].

فتأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار، قيل: تسحبهم الملائكة إلى النار تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه وتارة تأخذ بقدميه، وتسحبه على رأسه[٢]، وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان، حيث تجمع الأقدام إلى الجباه، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار، فهل حينذاك من تكذيب أو نكران[٣]، هذه هي نهاية المجرمين يوم القيامة والعياذ بالله.

٢. أخذ المجرمين والمترفين إلى جهنم بالأغلال:

توعد الله عز وجل المجرمين بالعذاب الأليم في جهنم يوم القيامة، ووصف في كثير من الآيات هذا العذاب، ورسم الصورة والحال التي سيكون عليها المجرمون عند تعذيبهم، يوم لا ينفع مال ولا بنون، والآيات التالية توضح ذلك العذاب:

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٥٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٥١.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٧/ ٣٤٥٧.

قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقَة:٣٠-٣٢].

تتحدث هذه الآيات عن المجرمين يوم القيامة، فتصف مصيرهم في هذا اليوم، وتبين العذاب الذي كان ينتظرهم لكفرهم بالله، فمصيرهم جهنم التي سعرت لهم ولأمثالهم، تلتهمهم فلا تشبع، «تتصاعد حسراتهم، ويتضاعف أنينهم ليلهم ونهارهم، فليلهم ويل ونهارهم بعاد، تكدرت مشاربهم، وخربت أوطان أنسهم، ولا بكاؤهم يُرحم، ولا أنينهم يُسمع»[٤].

فيأمر الله عز وجل الزبانية بأخذ كل مجرم وكافر للعذاب فيقول: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ بالأغلال الضيقة الثقيلة، ثُمَّ الْجَحِيمَ المسعر العظيم المعهود الذي يعد لأصحاب الثروة والجاه من الكفرة، صَلُّوه اطرحوه»[٥]، « ليصلى حرها، ثم أدخلوه في سلسلة حلق منتظمة طولها سبعون ذراعًا تلف على جسمه، لئلا يتحرك»[٦].

فكل آية من هذه الآيات كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض، وتنقض في جلال مذهل، وفي هول مروع، ثم

(٤) لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ٦٢٦.
(٥) الفواتح الإلهية، النخجواني، ٢/ ٤٤١.
(٦) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٩٩.

يعقب ذلك كلمة القضاء الجليل، من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب[1]، «وكيف لا يعذب الكافر كذلك؛ إِنَّهُ من غاية نخوته وتجبره قد كانَ لا يُؤْمِن ولا يذعن باللَّه الْعَظِيم المستحق للعبودية والإيمان عتوًا وعنادًا، ولا شك أن من تعظم على الله العلي العظيم قد استحق أسوأ العذاب وأشد النكال»[2].

فهذا عقاب كل المجرمين والمترفين يوم القيامة، فقد توعدهم الله في الدنيا وسيقع وعيده يوم القيامة.

ثالثًا: صفات أخذ الظالمين والمترفين:

١. أَخْذًا وَبِيلًا.

قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٦].

بعد أن أرسل الله رسوله موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، ولم يستجيبوا لدعوته، بل امتنعوا عن الإجابة، وعصوا موسى عليه السلام وكذبوه، والمعصية هي الكفر، فكان عقابهم من الله واقع لا محال، فهذا وعده لكل من يعصون رسله ويكذبونهم، وتبيّن هذه الآية ما وقع على فرعون وقومه نتيجة عصيانهم الرسول حيث قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، والوبيل هو: الشر، والمعنى: أخذناه أخذًا شديدًا، وأهلكناه ومن معه جميعًا، فأُغرق فرعون وعُذب هو ومن معه، وأقروا في عذاب مستقر حتى يُبعثوا إلى النار يوم القيامة كما توعدهم الله[3].

وهذه الآية توضح عاقبة كل من عصى الرسل، وخاصًا رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو المبعوث للناس كافة، وتبين أن عذاب الله واقع لا محالة وإن أَمْهَلهم، كما وقع على فرعون وقومه من قبل.

٢. أَخْذَةً رَابِيَةً.

قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠].

تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية عن حال عاد وثمود، ومن قبلهم فرعون وقومه، حيث أرسل لهم موسى عليه السلام وأراهم من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق، ولكنهم مع ذلك جحدوا وكفروا ظلمًا وعلوًا، وجاء من قبله من المكذبين قوم لوط، حيث وقع منهم الكفر والتكذيب والظلم والمعاندة، وارتكاب الفواحش والفسوق، كل أولئك وقع عليهم العذاب من الله تعالى نتيجة كفرهم وعصيانهم الرسل، فلم يبق لهم باقية، بل أخذهم أخذة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٩/ ٣٦٧٥.
(٢) الفواتح الإلهية، النخجواني، ٢/ ٩٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٦٩٣، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٢٠٤.

رابية، أي: أخذة نامية بالغة الشدة، زائدة على الأخذات وعلى عذاب الأمم[1].

٣. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

هذه الآية الكريمة تشير إلى استئصال القرى الظالمة الكافرة، فقد أخذهم الله أخذًا موجعًا لا يطاق، وهذا تهديد وتحذير من عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه، وليحذر كل ظالم وكل كافر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال[2].

٤. أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢].

أرسل الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام لفرعون وقومه، فكانوا رسل الله ونذره لهم، ولكنهم كذبوهم وكذبوا بآيات الله ومعجزاته العظيمة الدالة على صدقهم وصدق ما جاءوا به، فوقع عليهم عقاب الله تعالى نتيجة تكذيبهم الرسل والآيات، فقد أخذهم الله أخذ غالب في انتقامه، قادرٍ على إهلاكهم لا يعجزه شيء، فأبادهم وأغرقهم الله ولم يبق لهم مخبرًا ولا عينًا ولا أثرًا، وفي هذا تحذير الناس المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم من عاقبة تكذيبهم وكفرهم[3].

موضوعات ذات صلة:

الجزاء، الحساب، العذاب، الميثاق

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ١٠/ ٢٧، فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٣٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٤٢٧، أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٧٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٤٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٨١، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٢٧١.

الإخلاص

عناصر الموضوع

مفهوم الإخلاص	١٠٦
الإخلاص في الاستعمال القرآني	١٠٨
الألفاظ ذات الصلة	١٠٩
منزلة الإخلاص ودرجاته	١١١
صور الإخلاص	١١٤
وسائل تحقيق الإخلاص	١٢٠
ثمرات الإخلاص	١٣٠

مفهوم الإخلاص

أولًا: المعنى اللغوي:

(خلص) الشيء صار (خالصًا) وبابه دخل، و(خلص) إليه الشيء وصل، و(خلصه) من كذا (تخليصًا) أي: نجاه (فتخلص)، و(خلاصة) السمن بالضم ما خلص منه، وكذا (خلاصته) بالكسر، و(أخلص) السمن طبخه، و(الإخلاص) أيضًا في الطاعة ترك الرياء، وقد (أخلص) لله الدين، و(خالصه) في العشرة صافاه، وهذا الشيء (خالصةٌ) لك أي: خاصةٌ، و(استخلصه) لنفسه استخصه، و(المخلص): الذي أخلصه الله جعله مختارًا خالصًا من الدنس، و(المخلص): الذي وحد الله تعالى خالصًا، و(المخلصون) المختارون، و(المخلصون) الموحدون، وضد الإخلاص الشرك، والرياء، وابتغاء غير وجه الله [(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف العلماء الإخلاص بتعريفات عدة منها ما يأتي:

قال الجنيد: الإخلاص «ما أريد به الله من أي عمل كان»[(٢)].

قال ابن القيم: الإخلاص «تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين»[(٣)].

عرفه الشيخ العثيمين بقوله: «الإخلاص هو التنقية، والمراد به أن يقصد المرء بعبادته وجه الله عز وجل، والوصول إلى دار كرامته، بحيث لا يعبد معه غيره لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا»[(٤)].

وقال الجرجاني في أحد تعاريفه للإخلاص: «ستر بين العبد وبين الله تعالى، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوًى فيميله» [(٥)].

فالمعنى الاصطلاحي خص ببعض معانيه اللغوية.

ثالثًا: الفرق بين المُخْلِص والمُخْلَص:

المُخْلِصُون - بكسر اللام - جمع مُخْلِص، وهو الذي أخلص عبادته لله تعالى فلم يشرك

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٩٤، لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ٢٦.
(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي، ص ٩٩.
(٣) مدارج السالكين، ٢/ ٩١.
(٤) شرح ثلاثة الأصول، ص ٣٧.
(٥) التعريفات، ص ١٤.

به شيئًا، فهو بهذا اسم فاعل.

وأما المُخْلَصُون - بفتح اللام - فهو جمع مُخْلَص، أي: من أخلصه الله تعالى واختاره، فهو اسم مفعول، وقد قرئ قول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤] بكسر اللام وبفتحها.

قال ابن جرير الطبري: بفتح اللام من المخلصين بتأويل أن يوسف من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا واخترناهم لنبوتنا ورسالتنا، بكسر اللام بمعنى أن يوسف من عبادنا الذين أخلصوا توحيدنا وعبادتنا فلم يشركوا بنا شيئًا غيرنا[1].

فالمُخْلِص من كانت أعماله خالصةً لله، أي: يقوم بها لله فقط، ولا يقوم بها لغيره لا بالانفراد، أي: لغير الله فقط، ولا بالشركة، أي: لغير الله ولله معًا، وقد وردت في هذا المعنى آيات عديدة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت:٦٥].

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر:١٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ [الزمر:١٤].

أما المُخْلَص -بصيغة المفعول- فهو من طبعه الله بطابع الإخلاص، أي: ختمه ومهره بختم الإخلاص، فاستخلصه وجعله خالصًا وأيد إخلاصه، ووردت في هذا المعنى أيضًا آيات عديدة.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٨٢-٨٣].

وفي هذه الآية يقسم الشيطان بعزة الله تعالى بعد أن طرده الله من الجنة لما رفض السجود لآدم (عليه السلام) أنه سيقوم بإغواء بني آدم كلهم، ولكنه استثنى منهم عباد الله المخلصين، فإن من استخلصهم الله تعالى ووقع على إخلاصهم، لا يقدر إبليس على إغوائهم، ولما تحدث الله عن أنبيائه وصفهم بالإخلاص، قال الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم:٥١].

(١) انظر: جامع البيان، ١٦/ ٥٠.

الإخلاص في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خلص) في القرآن (٣٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾ [ص:٤٦]
الفعل المضارع	١	﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف:٥٤]
اسم الفاعل	١٨	﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر:٢]
اسم المفعول	٩	﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾ [مريم:٥١]
مصدر	٧	﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤﴾ [البقرة:٩٤]

وجاء الإخلاص في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: تنقية الشيء وتهذيبه، وأخلص الدين: أمحضه، والمخلص الذي اختاره الله[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم ص٤٧٩.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٠٨، لسان العرب، ابن منظور٧/ ٣٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ النية:

النية لغةً:

(نوي): نويته أنويه قصدته والاسم النية، والنية: القصد[١]، وخصت النية في غالب الاستعمال بعزم القلب على أمرٍ من الأمور[٢].

النية اصطلاحًا:

مجرد القصد إلى الشيء أو الإرادة له من دون اعتبار أمر آخر[٣]، وهي توجه القلب نحو العمل، وليس من ذلك بشيء[٤].

الصلة بين الإخلاص والنية:

بينهما علاقة وطيدة حيث إن الإخلاص يعني قصد الله سبحانه وتعالى في العبادة، والنية تعني القصد والعزم على الأمر ، ويلاحظ أن بينهما عمومًا وخصوصًا فالنية أعم، إذ هي تشمل النية الحسنة والسيئة، بخلاف الإخلاص الذي يختص بالنية الصالحة الحسنة فقط.

٢ القصد:

القصد لغةً:

إتيان الشيء تقول: (قصده) وقصد له وقصد إليه كله بمعنًى واحدٍ، و(قصد) قصده أي: نحا نحوه، القصد: استقامة الطريق، قصد يقصد قصدًا، فهو قاصد[٥].

القصد اصطلاحًا:

استقامة الطريق[٦]، وقيل: المعنى دون اللفظ[٧]، وقيل القصد: إرادة المتكلم مع إدراك معنى الكلام وما يترتب عليه من التزامات؛ لأن الألفاظ تعبر وتدل على ما في النفس، لتترتب الأحكام عليها[٨].

(١) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب، ص ٣٦٣.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٣٢.
(٣) انظر: الروضة الندية ، القنوجي، ١/ ٢٢٦.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٨٣١.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٣٥٣.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٧٢.
(٧) انظر: التبصرة في أصول الفقه، الشيرازي، ص ٣٤٦.
(٨) انظر: القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، الزحيلي، ٢/ ٧٩٦.

الصلة بين القصد والإخلاص:

أن القصد بمعنى الإرادة، والإخلاص أيضًا يأتي بمعنى إرادة العبد ربه في عبادته دون غيره، فالإخلاص له صلة وثيقة بالقصد.

٣ الرياء:

الرياء لغةً:

يقال فلانٌ (مراءٍ)، وقومٌ (مراءون)، والاسم (الرياء) يقال: فعل ذلك رياءً وسمعةً، إظهار غير ما في الباطن[١].

الرياء اصطلاحًا:

العمل لرؤية الناس والسمعة لأجل سماعهم[٢] وقيل: الرياء هو أن يعمل المرء العمل ظاهره أنه لله ولكنه في الباطن يريد به مدح الناس له.

الصلة بين الرياء والإخلاص:

أن الرياء من الألفاظ المقابلة للإخلاص، فالرياء يقصد منه إرضاء الناس، أما الإخلاص يقصد منه ابتغاء وجه الله تعالى.

٤ الشرك:

الشرك لغةً:

هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعدًا، عينًا كان ذلك الشيء، أو معنى[٣].

الشرك اصطلاحًا:

عبادة غير الله تعالى[٤]، وقيل: الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أو التقرب إلى غيره بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه[٥].

الصلة بين الإخلاص والشرك:

أن الشرك من الألفاظ المقابلة للإخلاص، فالشرك يعني عبادة غير الله تعالى معه، أما الإخلاص فهو توجه العبد إلى ربه دون غيره.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ١١٥، لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٣٥٩.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان عبد الوهاب، ص ٤٥٢.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٥١.
(٤) انظر: دحض شبهات على التوحيد، عبد الله بن خميس، ص ٣٣.
(٥) انظر: صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، محمد السهسواني، ص١٦٠.

منزلة الإخلاص ودرجاته

حفل القرآن الكريم بالآيات العديدة التي تتحدث عن الإخلاص، وبيان منزلة المخلصين، والأجر الذي أعده لهم، كما تحدث العلماء عن درجات الإخلاص في العبادات ومنهم ابن القيم رحمه الله، وسوف نتعرف في هذا المبحث على منزلة الإخلاص ودرجاته في القرآن الكريم.

أولًا: منزلة الإخلاص

يعد الإخلاص من أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان، وأعظمها قدرًا ومنزلة، بل إن أعمال القلوب عمومًا أهم من أعمال الجوارح، ويكفي أن العمل القلبي هو الفرق بين الإيمان والكفر، فالساجد لله والساجد للصنم كلاهما قام بالعمل نفسه، لكن القصد يختلف، وبناء عليه آمن هذا وكفر هذا.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في بيان أهمية أعمال القلوب:«وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبته لله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين لله، والشكر له والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك»[1].

فالإخلاص له منزلة عظيمة في كتاب الله سبحانه وتعالى، فهو مضمون دعوة الرسل وحقيقة الدين.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

يقول الإمام السعدي في تفسيره لهذه الآية: «قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله»[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [الملك:٢].

قال الفضيل بن عياض في هذه الآية:«أخلصه وأصوبه»، قلت: ما أخلصه وأصوبه؟ قال:إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة[3].

وقال سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر:٢].

أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى عبادته، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريكٌ ولا عديلٌ ولا نديدٌ؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ

(١) أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية، ص ٣٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٩٣٢.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعالبي، ٩/ ٣٥٦.

﴿الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣].

أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله، وحده لا شريك له[(١)].

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ [الزمر:١٤].

قل إني أمرت بإخلاص الدين وأمرت بذلك لأن أكون أول المسلمين، أي: مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة، ولمعنى: أن الإخلاص له السبقة في الدين، فمن أخلص كان سابقًا[(٢)].

ثانيًا: درجات الإخلاص:

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين درجات الإخلاص[(٣)]:

الدرجة الأولى: إخراج رؤية العمل عن العمل والخلاص من طلب العوض على العمل، ويقصد بهذه الدرجة تصفية العمل من كل شوبٍ بحيث لا يخالط عمله أي عرض من أعراض الدنيا الزائلة، أي: لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب النفس إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو غير ذلك.

ويعرض للعامل في عمله ثلاث آفاتٍ: رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه.

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه الآفات، فالذي يخلصه من رؤية عمله مشاهدته لمنة الله عليه وفضله، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٩].

فالخير الذي يصدر منها إنما هو من الله وبه، لا من العبد، ولا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور:٢١].

فكل خيرٍ في العبد فإنما هو فضل الله ومنته، فالذي يخلص العبد من هذه الآفة: معرفة ربه، ومعرفة نفسه، والذي يخلصه من طلب العوض على العمل: علمه بأنه عبدٌ محضٌ، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضًا ولا أجرةً؛ إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضلٌ منه وإنعام.

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

الأول: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيها.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية.

الدرجة الثانية: الخجل من العمل مع

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٨٤.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ١١٨.
(٣) انظر: مدارج السالكين، ٢/ ٩٣.

بذل المجهود، وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود، ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠].

أي: خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، فلا ينجيهم ما فعلوا من ذلك من عذاب الله، فهم خائفون من المرجع إلى الله[1].

واشتملت هذه الدرجة على خمسة أشياء: عملٌ، واجتهادٌ فيه، وخجلٌ، وحياءٌ من الله عز وجل، وصيانةٌ عن شهوده منك، ورؤيته من عين جود الله سبحانه ومنه.

الدرجة الثالثة: إخلاص العمل بالخلاص من العمل، تدعه يسير سير العلم، الكلام: أنك تجعل عملك تابعًا لعلمٍ، موافقًا له، ناظرًا إلى الحكم الديني الأمري، متقيدًا به ناظرًا إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سببًا وكسبًا. ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهدًا للحكم الشرعي، فيكون قائمًا بالأمر والنهي فعلًا وتركًا، سائرًا بسيره، وبالقضاء والقدر، إيمانًا وشهودًا وحقيقةً، فهو ناظرٌ إلى الحقيقة، قائمٌ بالشريعة.

قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

أي: وما تشاءون الاستقامة أو غيرها، إلا إذا شاءها وأرادها الله تعالى رب العالمين؛ إذ مشيئة الله تعالى هي النافذة، أما مشيئتكم فلا وزن لها إلا إذا أذنت بها مشيئته تعالى[2].

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن كل مشيئة لا قيمة لها ولا وزن، إلا إذا أيدتها مشيئة الله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان:٢٩-٣٠].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٤٤.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١٥/ ٣٠٦.

صور الإخلاص

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه صورًا متعددة للإخلاص؛ كإخلاص الدين لله تعالى، والإخلاص في العقيدة، والعبادة، والشعائر، والدعاء، والعلم والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما ستتحدث عنه في هذا المبحث.

١. إخلاص الدين لله.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥].

لما كان المراد الإخلاص الذي هو أشرف الأشياء، عبر عنه بالوجه الذي هو أشرف الأعضاء فقال: ﴿وَجْهَهُۥ﴾، أي: الجهة التي يتوجه إليها بوجهه، أي: قصده كله ﴿لِلَّهِ﴾ فلا حركة له وسكنة ولا عمل ولا عبادة إلا فيما يرضاه، لكونه الواحد الذي لا مثل له[١].

و قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر:٢].

يقول الطبري في تفسيره: « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إنا أنزلنا إليك يا محمد الكتاب، يعني بالكتاب: القرآن (بالحق) يعني بالعدل، يقول: أنزلنا إليك هذا القرآن يأمر بالحق والعدل، ومن ذلك الحق والعدل أن تعبد الله مخلصًا له الدين، لأن الدين له لا للأوثان التي لا تملك ضرًا ولا نفعًا»[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: إخلاص الدين له يخرج على وجهين:

الأول: أن يخلص له الدين، ويصفى، لا يشرك فيه غيره، ويكون من خلوصه وصفائه.

والثاني: الدين الخالص هو الدائم[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١﴾ [فصلت:٣٠-٣١].

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وحدوا الله و﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على التوحيد أو على لزوم الطاعة وأداء الفرائض، أو على إخلاص الدين والعمل إلى الموت، أو استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم، أو استقاموا سرًا كما استقاموا جهرًا ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت، أو عند الخروج من قبورهم ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ أمامكم

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٥/ ٤١٢.

(٢) جامع البيان، ٢١/ ٢٤٨.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٥٩١.

﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

ثم بشرهم بالجنة؛ لأن الاستقامة على منهاج الحق والخير وطاعة الله تعالى، دليل على الإخلاص في الدين، والانحراف عن ذلك المنهاج أمارة واضحة على الجهالة وقلة الوعي وضعف الإدراك، والجبن والمهانة، والانصياع للذات والأهواء والشهوات، فما استقام أحد إلا نجا وأفلح، وكان متماسك الشخصية، قوي العزيمة والإرادة، وما ضل أحد إلا هلك ودمر نفسه، وكان خائر العزيمة، ضعيف الإرادة، لذا كان الدين سبيلًا لخير الإنسان، وإبعاده عن الشرور والآثام، فجاء القرآن الكريم يحض على الاستقامة[1].

٢. إخلاص العقيدة.

إذا تأملنا القرآن الكريم، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة، نصل إلى حقيقة واضحة كل الوضوح، أن غالب آيات القرآن الكريم جاءت في تقرير عقيدة التوحيد، توحيد الإلوهية، والربوبية، والأسماء والصفات، والدعوة إلى إخلاص العبادة والدين لله وحده لا شريك له، وتثبيت أصول الاعتقاد.

ولقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب وقته في تقرير الاعتقاد والدعوة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة والطاعة.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة:١٣٩].

يقول ابن كثير: «يقول الله تعالى مرشدًا نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي: أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، وأنتم برآء منا»[2].

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يقول: فمن يخاف ربه يوم يلقاه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية، ولا يجعل له شريكًا في عبادته[3].

٣. إخلاص العبادة.

من صور الإخلاص التي لابد للمسلم أن يحرص على تحقيقها الإخلاص في العبادة، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يخلص

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢٣٠٤، تفسير العز بن عبد السلام، ٣/ ١٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٤٥١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ١٣٥.

في عبادته لربه.

قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر:٢] أي: فاعبد الله وحده مخلصًا له في عبادتك، ولا تقصد بعملك إلا الله ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣].

أي: ألا فانتبهوا أيها الناس: إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم؛ لأنه المتفرد بصفات الألوهية، المطلع على السرائر الضمائر[1]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر:١١].

أي: «إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له»[2]، وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بإخلاص العبادة له، فقال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۝١٤﴾ [الزمر:١٤].

أمرٌ بأن يعيد التصريح بأنه يعبد الله وحده تأكيدًا لقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر:١١].

لأهميته، وإن كان مفاد الجملتين واحدًا؛ لأنهما معًا تفيدان أنه لا يعبد إلا الله تعالى باعتبار تقييد أعبد الله الأول بقيد مخلصًا له الدين، وباعتبار تقديم المفعول على أعبد الثاني فتأكد معنى التوحيد مرتين ليتقرر ثلاث مراتٍ، وتمهيدًا لقوله: فاعبدوا ما شئتم من دونه[3].

٤. إخلاص الشعائر.

يعتبر الإخلاص في الشعائر التعبدية التي فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده من صور الإخلاص، فالمسلم إن أخلص في صلاته وصيامه وحجه وزكاته، فإنه يبتعد عن الرياء الذي يفسد العبادة، ويبقى في معية ربه وحفظه وتوفيقه، فلا بد أن تكون حياة المسلم كلها ابتغاء وجه الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

يقول ابن عاشور: «جعل صلاته لله دون غيره تعريضًا بالمشركين؛ إذ كانوا يسجدون للأصنام، ولذلك أردف بجملة لا شريك له، والنسك حقيقته العبادة ومنه يسمى العابد الناسك»[4].

قال بعض العلماء: المراد بالنسك هنا النحر؛ لأن الكفار كانوا يتقربون لأصنامهم بعبادةٍ من أعظم العبادات: هي النحر، فأمر الله تعالى نبيه أن يقول إن صلاته ونحره كلاهما خالصٌ لله تعالى، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾، وقال بعض العلماء: النسك جميع العبادات،

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٦٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٨٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٣/ ٣٥٩.
(٤) التحرير والتنوير، ٨/ ٢٠١.

ويدخل فيه النحر، وقال بعضهم: المراد بقوله: وانحر وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر في الصلاة[1].

ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله.

وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: ما يفعل الإنسان في حياته، وما يجريه الله علي، وما يقدر علي في مماتي، الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداعًا مني، وبدعًا أتيته من تلقاء نفسي، بل ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرًا حتمًا، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة[2].

٥. إخلاص الدعاء.

الدعاء صورة من صور الإخلاص لله تعالى، ومن أسباب استجابة الدعاء الإخلاص.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ [الأعراف:٢٩].

يقول السعدي في تفسيره: «﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: توجهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصًا «الصلاة» أقيموها، ظاهرًا وباطنًا، ونقوها من كل نقص ومفسد، ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له. والدعاء يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه»[3].

و قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤﴾ [غافر:١٤].

هذا خطاب للموحدين يأمرهم تعالى بالاستمرار على توحيد الله في عباداته والإخلاص لله تعالى في كل أعمالهم، ولو كره الكافرون ذلك منهم فإنه غير ضائرهم[4].

٦. إخلاص العلم والدعوة.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾ [مريم:٥١].

هذا أمر من الله عز وجل بذكر موسى بن عمران عليه السلام على جهة التشريف له، وأعلمه بأنه كان مخلصًا في دعوته وعبادته، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر «مخلصًا» بكسر اللام وهي قراءة الجمهور أي: أخلص نفسه لله، وقرأ حمزة والكسائي

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١/ ٥٤٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٨٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٨٦.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٥٢١.

وعاصم «مخلصًا» بفتح اللام وهي قراءة أبي رزين ويحيى وقتادة، أي: أخلصه الله للنبوءة والعبادة[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل:١٥].

ولقد آتينا داود وسليمان علمًا أي: أعطينا كل واحد منهما طائفة خاصة به من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص به كل واحد منهما، كصنعة الدروع، ومنطق الطير. أو: علمًا لدنيا، وقالا أي: كل واحد منهما، شكرًا لما أوتيه من العلم: الحمد لله الذي فضلنا بما آتانا من العلم على كثيرٍ من عباده المؤمنين. قال النسفي: وهنا محذوف، ليصلح عطف الواو عليه، ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه: الفاء، كقولك: أعطيته فشكر، وتقديره: آتيناهما علمًا، فعملا به، وعرفنا حق النعمة فيه، وقالا: الحمد لله الذي فضلنا على كثيرٍ، والكثير المفضل عليه: من لم يؤت علمًا، أو: من لم يؤت مثل علمهما، وفيه: أنهما فضلا على كثير، وفضل عليهما كثير، وفي الآية دليلٌ على شرف العلم، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلًا على كثير من عباده، وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم في الشرف والمنزلة؛ لأنهم القوامون بما بعثوا من أجله، وفيها: أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله تعالى على ما أوتوه[2].

والإخلاص في الدعوة إلى الله هو تجريد القصد لله تعالى، وطلب مرضاته دون سواه، وهو روح الأعمال وأساس قبولها عند الله، ولا يتحقق الإخلاص في الدعوة إلا عندما يتأكد الداعية أن قصده رضا الله تعالى، ويتجرد من الانقياد وراء حظوظ النفس ونوازع الهوى ومطالب الذات، ويحرر نفسه من قيود الرياء، وطلب الشهرة أو المدح أو الظهور أو السمعة، أو حب التصدر والرئاسة والجاه، ويتخلص من السعي خلف شهوة المال والجاه، وطلب المنزلة في قلوب الناس واستقطابهم، أو السعي وراء أي متاع من متع الدنيا وجعل الدعوة وسيلة له.

٧. الإخلاص في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤].

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصديةً لهذا الشأن، وإن كان ذلك

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٢٠.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ١٨٠.

واجبًا على كل فردٍ من الأمة بحسبه[1].

كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[2].

ولابد للمسلم أن يحرص على أن يبتغي من عمله هذا وجه الله، وأن يكون مخلصًا لربه حتى يكون من الفائزين عند رب العاملين.

قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤].

لا خير في كثير من نجوى الناس جميعًا إلا من أمر بصدقة أو معروف، والمعروف: هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، أو إصلاح بين الناس، وهو الإصلاح بين المختصمين، بما أباح الله الإصلاح بينهما، ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة، على ما أذن الله وأمر به، ثم أخبر جل ثناؤه بما وعد من فعل ذلك فقال: «ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا»، يقول: ومن يأمر بصدقة أو معروف من الأمر، أو يصلح بين الناس «ابتغاء مرضاة الله»، يعني: طلب رضى الله بفعله ذلك «فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا»[3]، أي: في الدنيا والآخرة.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٩١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب النهي عن المنكر، ١/ ٥٠.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٩/ ٢٠١.

وسائل تحقيق الإخلاص

المؤمن بحاجة ماسة لوسائل عديدة لتحقيق الإخلاص، فقد ذكر الله في كتابه وسائل من خلالها يتحقق الإخلاص عند المؤمن في عبادته وطاعته، ومنها تعظيم الله سبحانه وتعالى، والدعاء في السر والعلن، ومحاربة الهوى، والعبادات السرية، ومخالفة الشيطان.

١. تعظيم الله عز وجل.

إن تعظيم الله سبحانه أساس الفلاح، وكيف يفلح ويسعد قلب لا يعظم ربه وخالقه وسيده ومولاه، ومن عظم الله عرف أحقية الله عز وجل بالذل والخضوع والخشوع والانكسار، وعظم شرعه، وعظم دينه، وعرف مكانة رسله، ومن عظم الله سبحانه وقدره حق قدره تحقق فلاحه ونجاحه وسعادته في دنياه وأخراه، وهذا التعظيم لله سبحانه يعد أساسا متينا يقوم عليه دين الإسلام، بل إن أصل العبادة في الإسلام هو التعظيم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢].

بعد أمر الله تعالى إبراهيم الخليل بالنداء للحج، أوضح الله ثواب تعظيم أحكام الله ومناسك الحج، وذلك هو المأمور به من الطاعات في أداء مناسك الحج، وتعظيم حرمات الله: وهي كل ما لا يحل هتكه، ومن يعظم أحكام الله بتعلمها واجتناب المعاصي والمحرمات، والتزام المأمورات فله الثواب الجزيل، الشامل أمرين: فعل الطاعة في حد ذاتها، واجتناب المحظور الحرام. وتعظيم شرائع الله خير محض للإنسان[(١)].

ومن أسماء ربنا وخالقنا ومولانا الحسنى « العظيم »، وهو جل وعلا عظيم في أسمائه، وعظيم في صفاته، وعظيم في أفعاله، وعظيم في كلامه، وعظيم في وحيه وشرعه وتنزيله، بل لا يستحق أحدٌ التعظيم والتكبير والإجلال والتمجيد غيره، فيستحق على العباد أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذل له والخوف منه، ومن تعظيمه سبحانه أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ومن تعظيمه وإجلاله أن يخضع لأوامره وشرعه وحكمه، وأن لا يعترض على شيء من شرعه.

وهو جل وعلا عظيم مستحق من عباده أن يعظموه جل وعلا حق تعظيمه، وأن يقدروه جل وعلا حق قدره، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦٤٣.

[الزمر:٦٧].

يقول ابن كثير في تفسيره: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيءٍ، المالك لكل شيءٍ، وكل شيءٍ تحت قهره وقدرته[(١)].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعودٍ، قال: «جاء حبرٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبعٍ، والأرضين على إصبعٍ، والجبال والشجر على إصبعٍ، والماء والثرى على إصبعٍ، وسائر الخلق على إصبعٍ، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبًا مما قال الحبر، تصديقًا له، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾»[(٢)].

فقد ذهبت عقول هؤلاء المشركين حين صرفوا ذلهم وخضوعهم وانكسارهم ورجاءهم وخوفهم ورغبهم ورهبهم وحبهم وطمعهم إلى مخلوقات ضئيلة، وكائنات ذليلة، لا تملك لنفسها شيئًا من النفع والضر، فضلًا عن أن تملكه لغيرها، وتركوا الخضوع والذل للرب العظيم والكبير المتعال، والخالق الجليل تعالى الله عما يصفون، وسبحان الله عما يشركون، وهو وحده المستحق للتعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل، وهذا خالص حقه.

فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبين غيره فيه، ومن اتخذ الشركاء والأنداد له ما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، سبحانه وتعالى الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، ووجلت القلوب من خشيته، وذلت له الرقاب، تبارك الله رب العالمين، وإن من أعظم ما يعين العبد على تحقيق عبودية التعظيم للرب: أن يتفكر في مخلوقات الله العظيمة وآياته - جل شأنه - الجسيمة الدالة على عظمة مبدعها وكمال خالقها وموجدها.

يقول جل شأنه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح:١٣-٢١].

يقول النسفي في تفسيره: ما لكم لا ترجون لله وقارًا، أي: لا تخافون لله

(١) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١١٣.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الفتنة، ٤/ ٢١٤٧.

عظمة[1].

وإن تفكر المؤمن وتأمله في آيات الله العظيمة ومخلوقاته الباهرة تهدي قلبه وتسوقه إلى تعظيم خالقه، تفكر في هذه الأرض التي تمشي عليها والجبال المحيطة بك، إن نظرة منك متجردة إلى هذه الأرض متفكرًا فيها تجد أنها مخلوقات عظيمة؛ عظمة تبهر القلوب، فإذا ما وسعت النظر ونظرت فيما هو أعظم من ذلك.

وتأملت في السماء المحيطة بالأرض تتضاءل عندك هذه العظمة؛ عظمة الأرض بالنسبة إلى عظمة السماء، ثم إذا تأملت فيما هو أعظم وهو السماوات السبع المحيطة بهذه الأرض يزداد الأمر عظمة.

ثم إذا تأملت في ذلكم المخلوق العظيم الذي قال الله عنه في أعظم آية في كتاب الله.

قال جل شأنه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

يقول السعدي: وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتهما وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: يثقله ﴿حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي يتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء[2].

وإن تعظيم الله جل شأنه فرع عن المعرفة بالله جل وعلا؛ فكلما كان العبد أعظم معرفة بالله كان أشد لله تعظيمًا وأشد له إجلالًا وأعظم له مخافة وتحقيقًا لتقواه جل شأنه، وإذا عظم القلب ربه خضع له سبحانه وانقاد لحكمه وامتثل أمره وخضع له جل شأنه، وجميع صنوف الانحرافات وأنواع الأباطيل والضلالات في جميع الناس منشؤها من ضعف التعظيم لله أو انعدامه في القلوب، وسيندم جميع هؤلاء يوم لقاء الله، فهو يوم عصيب لمن كان لا يؤمن بالله العظيم.

(١) مدارك التنزيل، ٣/ ٥٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ١١٠.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ [الحاقة:٢٥-٣٢].

وسبب سوء العاقبة والهلاك والعذاب عدم إيمانه بعظمة الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣﴾ [الحاقة:٣٣].

٢. الدعاء.

الدعاء أحد الوسائل المعينة على تحقيق الإخلاص، حيث يتوجه العبد إلى ربه طلبًا للعون والمساعدة والنصرة، وقد جاء الدعاء على لسان كثير من الأنبياء والرسل عليهم السلام، فهذا نبي الله زكريا توجه لربه وأخلص في دعائه فسرعان ما ا الاستجابة.

قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠].

فاستجبنا له، أي: دعاء زكريا عليه السلام، ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه، أي: أصلحناها للولادة بعد عقرها، معجزة وكرامة له، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى، المتعلقة بالأنبياء المذكورين، أي: كانوا يبادرون في كل باب من الخير. وإيثار (في) على (إلى) للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير. لأن (إلى) تدل على الخروج عن الشيء والتوجه إليه ويدعوننا رغبًا ورهبًا، أي: ذوي رغب ورهب، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة. وكانوا لنا خاشعين، أي: مخبتين متضرعين[1].

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾ [لقمان:٣٢].

وذكر تعالى حال الناس، عند ركوبهم البحر، وغشيان الأمواج كالظل فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ انقسموا فريقين:

فرقة مقتصدة، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.

وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي: غدار، ومن غدره، أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر ولم يف بذلك، ﴿كَفُورٍ﴾ بنعم الله، فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٧/ ٢٢٠.

القيام التام بشكر نعم الله[1].

في هذا الموقف والسفينة تشرف على الغرق يكون الإنسان في حالة من الإخلاص التام لله عز وجل، وتأمل معنى هذه الآية التي تلخص لنا الأحاسيس التي يمر بها من يركب السفينة منذ أول لحظة وحتى اللحظة التي تسبق الغرق: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ يجريكم ويحملكم، وقرأ أبو جعفرٍ وابن عامرٍ: «ينشركم» بالنون والشين من النشر وهو البسط والبث، ﴿فِي الْبَرِّ﴾، على ظهور الدواب، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على الفلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: في السفن، تكون واحدًا وجمعًا ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ يعني: جرت السفن بالناس، رجع من الخطاب إلى الخبر، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينةٍ، ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي: بالريح، ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ﴾ أي: جاءت الفلك ريحٌ، ﴿عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب، ولم يقل ريحٌ عاصفةٌ، لاختصاص الريح بالعصوف. وقيل: الريح تذكر وتؤنث. ﴿وَجَاءَهُمُ﴾ يعني: ركبان السفينة، ﴿الْمَوْجُ﴾ وهو حركة الماء واختلاطه، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ دنوا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك، ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحدًا سوى الله. وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ يا ربنا، ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾ الريح العاصف، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك بالإيمان[2].

وإذا أراد المؤمن أن يستجيب الله دعاءه فلا بد أن يخلص في الدعاء، وإذا أراد أن يتقبل عبادته فليخلص هذه العبادة لله، هكذا أمر الله نبيه بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر:٢].

٣. مخالفة الهوى.

تعتبر مخالفة الهوى وسيلة من وسائل تحقيق الإخلاص، والمتأمل في كتاب ربنا يجد أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر الهوى إلا مذمومًا، فاتباع الهوى سبيل المضلين، ومخالفة الهوى درب المخلصين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله، وهو هداه الذي بعث به رسوله، وهو السبيل إليه.

وقد حذر الله سبحانه وتعالى أنبياءه من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٥٢.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ١٢٨.

اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

فإن أصل الهوى محبة النفس، ويتبع ذلك بغضها، ونفس الهوى وهو الحب والبغض الذي في النفس لا يلام عليه؛ فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على اتباعه.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣].

يقول السعدي: «يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الرجل الضال الذي ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فما هويه سلكه سواء كان يرضي الله أو يسخطه. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله تعالى أنه لا تليق به الهداية ولا يزكو عليها. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يعي الخير ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد يهديه وقد سد الله عليه أبواب الهداية وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله ولكن هو الذي ظلم نفسه وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم فتسلكونه وما يضركم فتجتنبونه»[1].

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغض، ووجد وإرادة، وغير ذلك، فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو ممن اتبع هواه[2]، فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله، ويتوكل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه، ويثبته على الهدى والتقوى، ولا يتبع الهوى، كما قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [الشورى:١٥].

وقد بين سبحانه وتعالى أن مخالفة الهوى سبب من أسباب الفوز والفلاح.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

فالغفلة والشهوة أصل الشر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل، وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعًا أن ذلك يضره ضررًا راجحًا، انصرفت نفسه عنه بالطبع؛ فإن الله تعالى جعل في

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٧٧.
(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ص ١٥.

النفس حبًا لما ينفعها، وبغضًا لما يضرها، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضررًا راجحًا، بل متى فعلته كان لضعف العقل[1].

يقول ابن القيم: «من سار مع العقل، وخالف طريق الهوى، ونظر إلى العواقب، أمكنه أن يتمتع من الدنيا أضعاف ما تمتع من استعمل الشهوات؛ فأما المستعجل فيفوت على نفسه حظ الدنيا والذكر الجميل، ويكون ذلك سببًا لفوات مراده من اللذات»[2].

إن انقياد الإنسان واتباعه للشهوة يجعله في مصاف الحيوانات، ويجلب له الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة، إذا تمكنت الشهوة من الإنسان وملكته وانقاد لها كان بالبهائم أشبه منه بالناس؛ لأن أغراضه ومطلوباته وهمته تصير أبدًا مصروفة إلى الشهوات واللذات فقط، وهذه هي عادة البهائم، ومن يكون بهذه الصفة يقل حياؤه، ويكثر خرقه، ويستوحش من أهل الفضل، ويبغض أهل العلم، ويود أصحاب الفجور، ويستحب الفواحش، ويسر بمعاشرة السخفاء، ويغلب عليه الهزل وكثرة اللهو، وقد يصير من هذه الحالة إلى الفجور، وارتكاب الفواحش، والتعرض للمحظورات، وربما دعته محبة اللذات إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها، وربما حملته على الغضب والتلصص والخيانة وأخذ ما ليس له بحق؛ فإن اللذات لا تتم إلا بالأموال والأعراض، فمحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجوهها، جسرته شهوته إلى اكتسابها من غير وجوهها، ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحد، فهو أسوأ الناس حالًا، ويصبح من الأشرار الذين يخاف خبثهم، ويصير واجبًا على متولي السياسات تقويمهم وتأديبهم، وإبعادهم ونفيهم[3].

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: صاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في الأمر ولا يطلبه أصلًا، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، فليس قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العلياء، بل قصده الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء، ليعظم هو ويثنى عليه، أو لغرض من الدنيا، فلم يكن لله غضبه، ولم يكن مجاهدًا في سبيل الله، بل إن أصحاب الهوى يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهدًا معذورًا لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم، وإن كان جاهلًا سيء القصد، ليس له علم ولا حسن

(١) انظر: الحسنة والسيئة، ص ٦١.
(٢) صيد الخاطر، ص ٤٦٣.
(٣) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين، ٩/ ٣٧٥٢.

قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله[1].

٤. العبادات السرية.

تعتبر العبادات السرية أحد الوسائل لتحقيق الإخلاص، فالله سبحانه وتعالى فرض علينا العبادات من صلاة وزكاة وصيام وقيام وصدقة إلى غير ذلك من العبادات، ورتب سبحانه وتعالى الأجر والثواب على من أخلص في عبادته لربه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة:٥].

«فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد، وخص الصلاة والزكاة [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم»[2].

الواجب على الإنسان أن يكون عبدًا لله، وأن يخلص العبادة لله جل وعلا، وخاصة في العبادات السرية، وألا يكون قلبه وعمله مفرقًا بين معبودات شتى، والله لا يقبل من العباد إلا أن يعبدوه وحده، وكل القرآن في هذا المعنى؛ لأن القرآن لا يخلو إما أن يكون في أوصاف الله حتى يدعو ذلك إلى تعظيمه وتوقيره، ويدخل في أوصافه أفعاله تعالى وتقدس، أو يكون الأمر صراحة أن نخلص له العبادة، كقوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:٣١].

فهذا واضح جدًا، أو يكون في الأوامر والنواهي التي هي من حقوق هذا التوحيد، مثل: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم وفعل الخيرات كلها.

٥. مخالفة الشيطان.

قد بين الله تعالى في كتابه الكريم مكايد الشيطان وطرق إغوائه للإنسان، فقال في محكم التنزيل حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ

(١) انظر: نضرة النعيم، ٩/ ٣٧٥٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩٣١.

﴿١٧﴾ [الأعراف:١٤-١٧].

يقول ابن كثير في تفسيره: يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: كما أغويتني، قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي[1].

إن هذه الآيات الجليلة تبين لنا معالم حربٍ مشتدةٍ بين الشيطان وجنده من جهة، وبين أولياء الله وعباده من جهة أخرى، وهذه الحرب الشعواء لا عاصم للمؤمن منها، إلا استعانته بربه عز وجل، وبدأ الشيطان بغواية حينما أخرجه الله من الجنة، منذ أن خلق الله سبحانه نبيه آدم - عليه السلام - ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه:١٢٠].

ومن يومها والحرب سجالٌ بين الشيطان وبين أولياء الله تعالى.

ومن مكايد الشيطان:

١. الوسوسة.

وهي حديث النفس، والصوت الخفي، والوسوسة من أعظم مكائد الشيطان؛ إذ لا يزال بالإنسان يوسوس له ويشككه حتى يخرجه من عقيدة الإسلام، كما جاء في (الصحيحين) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ ومن خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا وجد أحدكم ذلك، فليقل: آمنت بالله ورسله، فإن ذلك يذهب عنه)[2].

٢. النسيان.

فينسي الإنسان ذكر ربه، ومجالسة الصالحين، والذب عن هذا الدين، والرد على المخالفين والمستهزئين.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

٣. التحريش وإيقاع العداوة بين المسلمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة:٩١].

فتقع الشحناء بين المسلمين، وبين الإخوة والأصدقاء فيتفرقوا أحزابًا شيعًا؛ وكل ذلك من الشيطان.

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ٤ / ١٢٣.

٤. التخويف.

فيخوف الإنسان من طاعة ربه؛ فإذا أراد بذل مالٍ في سبيل الله خوفه بالفقر ووعده به.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وإذا أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر خوفه الشيطان من سوء العاقبة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥].

٥. القول على الله بغير علم.

قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩].

٦. التزيين لفعل المعصية.

بالنظر لما حرم الله؛ كالنظر مثلًا للمرأة الأجنبية، وهو بريد الزنا، ولأن النساء حبائل الشيطان؛ فيجب على الإنسان دحر كيده، بما ثبت من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه)[(١)].

ومما سبق تبيَن أن للشيطان مكائد متعددة، ولكن الإسلام أرشدنا إلى مخالفة الشيطان وطرق الوقاية من الوقوع في غوايته ووساوسه ومن هذه الأمور ما يأتي:

١. الاستعاذة بالله سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨].

٢. البسملة.

فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أما إن أحدكم إذا أتى أهله وقال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فرزقا ولدًا لم يضره الشيطان)[(٢)].

٣. سجود التلاوة.

فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله - وفي رواية أبي كريبٍ يا ويلي - أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار)[(٣)].

٤. عدم اتباع خطوات الشيطان.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب من أبصر امرأة فوقعت في قلبه، ٤/ ١٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس، ٤/ ١٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا قرأ ابن آدم السجدة، ١/ ٦١.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة:١٦٨].

يقول السعدي: «نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر، وفسوق، وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوائب، والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضًا تناول المأكولات المحرمة، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقبح الأشياء، وأعظمها مفسدة فقال: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾»[1].

ثمرات الإخلاص

إن الله سبحانه وتعالى بين في كتابه، أن من يحقق الإخلاص في دينه يجد ثمرات في الدنيا والآخرة لهذا الإخلاص؛ كقبول العمل، والتأييد الإلهي، والنجاة من الهلاك، والتمكين في الأرض، والنجاة من إضلال الشيطان وغوايته، وصرف السوء والفحشاء، والنجاة من النار، والفوز بالدرجات العلا في الجنة.

أولًا: الثمرات الدنيوية:

١. قبول العمل.

من ثمرات الإخلاص قبول العمل، فحينما يتقرب المسلم إلى ربه بالعبادات والأعمال الصالحة ويكون بذلك مخلصًا فيها لله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى يقبل عمله، ويثني عليه ويمدحه.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء:١٢٥].

وقد يتقرب المخلص إلى ربه بعمل فيخطئ في تأديته، ويضعه في غير موضعه، فتأتي نيته الصالحة شفيعًا، فتصحح له خطأه، وتكمل له نقصه، وفي هذا جاء حديث الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال رجلٌ: لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقته،

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٠.

فوضعها في يد سارقٍ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على سارقٍ، فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانيةٍ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانيةٍ، فقال: اللهم لك الحمد، على زانيةٍ؟ لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي غنيٍ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غنيٍ، فقال: اللهم لك الحمد، على سارقٍ وعلى زانيةٍ وعلى غنيٍ، فأتي به فقيل له: أما صدقتك على سارقٍ فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله)[1].

٢. التأييد الإلهي.

يعتبر التأييد الإلهي ثمرة من ثمرات الإخلاص، وإن المخلص مؤيد من الله، منتصر به سبحانه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

وعلى قدر إخلاص المرء لربه، وتجرده له، يكون مدد الله تعالى وعونه وكفايته وولايته، وإن الإمداد على قدر الاستعداد، إمداد الله بالنصر والتأييد، أو بالتوفيق والتسديد، على حسب ما في القلوب من تجريد النية.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال:٧٠].

يقول السيوطي: «﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيمانًا وإخلاصًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء بأن يضعفه لكم في الدنيا ويثيبكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[2].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨].

يقول الواحدي في تفسيره: «﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكانوا ألفًا وأربعمائة، ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية على أن يناجزوا قريشًا ولا يفروا، ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني: سمرة كانت هنالك، وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص والوفاء ﴿فَأَنزَلَ﴾ الله ﴿السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وهي الطمأنينة وثلج الصدر بالنصرة من الله تعالى لرسوله ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فتح خيبر»[3].

وقد وعد الله سبحانه المؤمنين الذين أخلصوا بالأجر العظيم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غنيٍ وهو لا يعلم، ٢/ ١١٠.

(٢) تفسير الجلالين، ص ٢٣٨.

(٣) الوجيز، ص ١٠١٠.

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٦].

يقول ابن كثير: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: بدلوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قل[1].

٣. النجاة من الهلاك.

ومن ثمرات الإخلاص في الدنيا نزول الفرج والنجاة من الهلاك والكرب والشدة، بحسب مشيئة الله تعالى وقدره، وقد تعجب لو قلت لك: إن الله تعالى يفرج بالإخلاص عن المشرك لو أخلص لله قليلًا، مع أنه مشرك، فما ظنك بالمؤمن الذي ينبغي أن تكون حياته كلها مبنية على الإخلاص، وأن يجتهد في تحقيق الإخلاص في كل عمل، إذا كان الله تعالى يفرج عن المشرك لو أخلص قليلًا، فإنه سبحانه لا شك يفرج عن المؤمن الذي يتحرى الإخلاص في عمله، وينجيه مما ينزل به من شدائد، وكل بحسب قدر إخلاصه وتوكله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان:٣٢].

يقول الطبري في تفسيره: يقول تعالى ذكره: وإذا غشي هؤلاء الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان في البحر -إذا ركبوا في الفلك- موج كالظلل، وهي جمع ظلة، شبه بها الموج في شدة سواد كثرة الماء، وشبه الموج وهو واحد بالظلل، وهي جماع؛ لأن الموج يأتي شيء منه بعد شيء، ويركب بعضه بعضًا كهيئة الظلل.

وقوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وإذا غشي هؤلاء موج كالظلل، فخافوا الغرق، فزعوا إلى الله بالدعاء مخلصين له الطاعة، لا يشركون به هنالك شيئًا، ولا يدعون معه أحدًا سواه، ولا يستغيثون بغيره، قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ مما كانوا يخافونه في البحر من الغرق والهلاك إلى البر، وقوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يقول: فمنهم مقتصد في قوله وإقراره بربه، وهو مع ذلك مضمر الكفر به[2].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة:١٠٩].

يقول السعدي: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: على نية صالحة وإخلاص ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بأن كان موافقًا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٤٢.

(٢) جامع البيان ٢٠/ ١٥٦.

والمتابعة، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾ أي: على طرف، ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: بال، قد تداعى للانهدام، ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم[1].

٤. التمكين في الأرض.

إن الله سبحانه وتعالى وعد عباده المؤمنين المخلصين بالنصر والتمكين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥].

فإن الله سبحانه وعد من أقام الإيمان وحرص على العمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدًا بالنسبة إلى غيرهم، فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا، مخلصين له في العبادة، ولا يخافون أحدًا إلا الله، فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح[2].

لذلك جعل الله سبحانه وتعالى من ثمرات الإخلاص تحقيق النصر والتمكين في الأرض، وإلا فسيكون مصيرنا في معاركنا مع أعدائنا مرهونًا بمعايير القوة الطبيعية وحدها، ونحرم أنفسنا من الفوز بمعونة الله تعالى ومعيته، انظر إلى الصحابة رضي الله عنهم، كيف فتح الله تعالى لهم البلاد، حتى بلغوا في سنوات قليلة حدود الصين شرقًا والأندلس غربًا، والقسطنطينية شمالًا، مع

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٧٣.

أنهم لم يكن لهم من عدة الحروب وعتادها ما كان للفرس والروم، ولم تكن القوة بينهم وبين عدوهم متكافئة، فعدوهم كان يملك أضعاف ما يملكون من قوة بشرية وحربية، ولكن لأنهم أسسوا حركتهم في نشر الإسلام على الإخلاص، وأقاموها على فقه في الإعداد والتوكل، تحقق على أيديهم النصر المنشود.

بالإخلاص يفتح الله لك أبواب الهداية في كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

فحددت الآية أولًا طريق الجهاد والمجاهدة، فقال تعالى: «جاهدوا فينا»، ثم بينت الآية نتيجة هذا الطريق المبني على الإخلاص: «لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين»، والمخلص موعود بالنجاحين، النجاح في الدنيا والنجاح في الآخرة، وليس هناك من طريق يجمع النجاح في الدنيا والآخرة غير طريق الإخلاص، فقد ينال غير المخلص مراده وينجح في تحقيق هدفه الدنيوي، لكنه لن يحصل على نجاح الآخرة وثوابها.

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء:١٣٤] «من كان يريد» بعمله «ثواب الدنيا»؛ «فعند الله ثواب الدنيا والآخرة» لمن أراده لا عند غيره.

ثانيًا: الثمرات الأخروية:

١ . النجاة من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾ [الليل:١٧-٢١].

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ يبعد عن عذابها ﴿الْأَتْقَى﴾ بمعنى التقي[1]، فالمؤمن الذي يقوم بالأعمال الصالحات ستكون له النجاة من العذاب الدنيوي والأخروي، وحينما يحل العذاب بقوم ظالمين، فإن الله ينجي الذين ينهون عن السوء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف:١٦٥].

ومن ثمار الإخلاص النجاة من العذاب، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر:٦١].

ومنها أن الله عز وجل ضمن لمن اتقاه أن لا يخاف مما يستقبل، ولا يحزن على ما مضى، فقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا

(١) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ص ٨١١

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٣٥].

وإن مما يدلل على أهمية هذا الأمر أن دعاة الحق والإيمان والسنة، حينما يدعون الناس وأنفسهم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإلى الاقتداء بمنهج السلف الصالح في كل أمورهم العلمية والعملية، فإنهم إنما يدعون الأمة إلى الدواء الذي يشفي بإذن الله تبارك وتعالى من كل داء، ويكفي عن كل علاج؛ إنه الدواء الذي يستأصل جميع الأمراض من قلوب العباد وأمراض الأمم عامة، ويمنع أسباب الانهيار التي يتعرض لها الفرد أو تتعرض لها الأمة، مما يحقق لها النجاة من العذاب في الآخرة.

٢. الدرجات العليا في الجنة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه:٧٥-٧٦].

يقول الطبري في تفسيره: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ موحدًا لا يشرك به، ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول: قد عمل ما أمره به ربه، وانتهى عما نهاه عنه، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ يقول: فأولئك الذين لهم درجات الجنة العلى.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحات، فأولئك لهم الدرجات العلى، ثم بين تلك الدرجات العلى ما هي، فقال: هن ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ يعني: جنات إقامة لا ظعن عنها ولا نفاد لها ولا فناء، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يقول: تجري من تحت أشجارها الأنهار، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة؛ فالجنات من قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ مرفوعة بالرد على الدرجات[1].

فلا بد للمؤمن أن يتطلع دائمًا إلى الدرجات العلا، وأن يجعل هدفه في الحياة هو رضى الله عز وجل، والعمل من أجل الفوز بالجنة، أو بالأحرى الفوز بالفردوس الأعلى، وأن يعمل ما استطاع جاهدًا على تحقيق هذه الأهداف السامية.

موضوعات ذات صلة:

التوحيد، الرياء، الشرك، الصدق

(١) جامع البيان، ١٨/ ٣٤٢.

الأخوة

عناصر الموضوع

مفهوم الأخوة	١٣٨
الأخوة في الاستعمال القرآني	١٣٩
الألفاظ ذات الصلة	١٤٠
أنواع الأخوة في القرآن	١٤٢
أحكام وعلاقات مرتبة على الأخوة	١٥٣
العلاقات الاجتماعية بين الإخوة	١٦٢
فوائد من قصص الإخوة في القرآن	١٦٤

مفهوم الأخوة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأخ: أصله أخو بالتحريك؛ لأنه جمع على آخاء مثل آباء، والذاهب منه واو؛ لأنك تقول في التثنية أخوان... وقد يتسع فيه فيراد به الاثنان؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ [النساء:١١].

وهذا كقولك: إنا فعلنا، ونحن فعلنا، وأنتما اثنان، وأكثر ما يستعمل الإخوان في الأصدقاء، والإخوة في الولادة[١].

والأخ -في الحقيقة- هو: كل من جمعك وإياه صلب أو بطن، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في الصنعة أو في معاملة أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات، والأخت كالأخ، وقيل: الإخوة جمع الأخ من النسب، والإخوان جمع أخ من الصداقة[٢].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تقدم معنا أن الأخ هو كل من جمعك وإياه صلب أو بطن ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في الصنعة أو في معاملة أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات والأخت كالأخ.

والذي يهمنا هو تعريف الأخوة بمعناه العام وهي أخوة النسب، وفي القرآن الكريم بمعنى خاص وهي الأخوة الإسلامية.

فالأخوة عمومًا دون تخصيص:

هي: مشاركة شخص لآخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صنعة أو في معاملة أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات[٣].

والأخوة هي الميثاق الذي يربط بين الأفراد، وهذا معنى عام فهي ربط بين الأقرباء وغيرهم بأي نوع من أنواع الصلة بينهم.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٨/ ١٤١.
(٢) الكليات، الكفوي ص ٦٣.
(٣) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٢/ ٩٢.

الأخوة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أخو) في القرآن (٩٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٦٠	﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف:٧٧]
المثنى	٢	﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٣]
الجمع	٣٤	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات:١٠]

وجاءت الأخوة في القرآن على ستة أوجه[٢]:

أحدها: الأخ من الأب والأم أو من أحدهما: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ [النساء:١١]. يعني: الأخ من النسب.

الثاني: أخوة القبيلة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:٦٥]. يعني:منهم.

الثالث: الأخوة في الدين: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]. يعني: في الدين.

الرابع: الأخوة في المودة والمحبة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر:٤٧].

يعني: جمعتهم المودة والمحبة.

الخامس: الصاحب: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [ص:٢٣]. يعني: صاحبي.

السادس: الشبه: ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]. يعني: شبهها.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص ١٤٣٣.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٨٤، ٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخلة:

الخلة لغة:

(الخليل) الصديق والجمع (أخلاءٌ)[١].

وهي أخص من الأخوة[٢].

الخلة اصطلاحًا:

أخوة خاصة لأخ معين من بين سائر الإخوان لشدة الموافقة بينه وبين أخيه. وهي أعلا مراتب المحبة[٣].

الصلة بين الأخوة والخلة:

الخلة مرتبة فوق مرتبة الأخوة وغيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

والخليل: المخال، وهو الذي يخالك، أي: يوافقك في خلالك، أو يسايرك في طريقك، أو يسد خللك كما تسد خلله، أو يداخلك خلال منازلك وحجبك[٤].

فلشدة قرابته من أخيه والتصاقه به وموافقته ومسايرته ومداخلته؛ صار خليلًا له.

فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه أن لفظ الخلة: عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة، وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن أخوة الإسلام... الحديث»[٥]؛ إذ الخليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرًا وباطنًا[٦].

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد بن علي المقري ١/ ٩٦.
(٢) فتح الباري، العسقلاني ١٠/ ١٥٤.
(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٣٢.
(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٠١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم ٤٦٦، ١/ ١٦٢.
(٦) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ص ٦٥١.

٢ الصداقة:

الصداقة لغة:

الصداقة: صدق الاعتقاد في المودة، وذلك مختص بالإنسان، وقوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء:١٠١]، إشارة إلى قوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف:٦٧][(١)].

الصداقة اصطلاحًا:

قوة المودة مأخوذة من الشيء الصدق وهو الصلب القوي، وقال أبو علي رحمه الله: الصداقة اتفاق القلوب على المودة، ولهذا لا يقال: إن الله صديق المؤمن كما يقال إنه حبيبه وخليله[(٢)].

الصلة بين الأخوة والصداقة:

قال ابن عباس: الصديق أوكد من القرابة[(٣)].

ورفع الشارع الحرج في الأكل من بيت الصديق؛ لأنه أرضى بالتبسط وأسر به من كثير من ذوي القرابة[(٤)].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني١/ ٤٨٠.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ١٢١.
(٣) روائع البيان، الصابوني٢/ ٢١٧.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ٥٥٧.

أنواع الأخوة في القرآن

أولًا: الأخوة في العقيدة:

الأخوة في العقيدة هي أعظم الأخوات كما مر معنا، ويمكن أن نجعلها في قسمين رئيسين:

١. الأخوة بين أهل العقيدة الإسلامية الصحيحة.

والعقيدة التي نريدها: الإيمان الجازم بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد، والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبما يتفرع عن هذه الأصول ويلحق بها مما هو من أصول الدين.

وقد أطلق كثير من السلف على العقيدة الصحيحة اسم «السنة»، وذلك لتمييزها عن عقائد ومقولات الفرق الضالة؛ لأن العقيدة الصحيحة وهي عقيدة أهل السنة والجماعة مستمدة من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، التي هي مبينة للقرآن[1].

وقد وردت في ذلك آيات تحمل في مضمونها الأمر المباشر أو الحث أو مدح هذه الأخوة.

بيان حقيقة الأخوة: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

ومن أفضل ما قال المفسرون: وهذه الصورة النظيفة الرضية الواعية، وهي تبرز أهم ملامح التابعين، كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان.

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار- ولم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية في المدينة، إنما كانوا قد جاءوا في علم الله وفي الحقيقة القائمة في هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان- سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة، لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان، مع الشعور برأفة الله ورحمته، ودعائه بهذه الرحمة، وتلك الرأفة، وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود، تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها، في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف، وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب وتتفرد وحدها

(١) تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين ص١٠.

في القلوب، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة، كما يذكر أخاه الحي، أو أشد، في إعزاز وكرامة وحب، ويحسب السلف حساب الخلف، ويمضي الخلف على آثار السلف، صفًا واحدًا وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان، تحت راية الله تغذ السير صعدًا إلى الأفق الكريم، متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم.

إنها صورة باهرة، تمثل حقيقة قائمة كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم، صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها... صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله، بريئة الصدور من الغل، طاهرة القلوب من الحقد[1].

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضًا.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر:١٠] دليل على المشاركة في الإيمان، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضًا، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضرًا وغائبًا، حيًا وميتًا، ودلت الآية الكريمة على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده[2].

إنها أخوة الإيمان، الأخوة التي ليس لها

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٧ وهذا النقل، وإن طال، مهم في هذا الباب لحسن صياغته وجمعه وحلاوة تعبيره.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٠٤.

نظير، وما لنا عنها ولا بها بديل.

كلهم يترحمون على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم، ويسلكون طريق الشفقة على جميع المسلمين، ويستغفرون لهم، ويستجيرون من الله أن يجعل لأحد من المسلمين في قلوبهم غلًا، أي: حقدًا، ومن لا شفقة له على جميع المسلمين فليس له نصيب من الدين[1].

فهي عامة في جميع التابعين والآتين بعدهم- المهاجرين والأنصار- إلى يوم الدين[2].

وهي أخوة تتوارثها الأجيال من السلف للخلف، بل تدوم إخوتهم إلى مماتهم حتى يجمعهم الله عليها مرة أخرى في دار كرامته أبد الآبدين.

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر:٤٧] وهذا من أعظم كمال اللذات حيث يكون الإنسان خالدًا مخلدًا، وحيث يكون هو وإخوانه ورفقاؤه في ذلك النعيم ليس بين اثنين منهم شحناء، ولا عداوة، ولا حقد، ولا حسد، ولا مخاصمة، وكل هذا من كمال النعيم[3].

لمن تبذل الأخوة؟ الأصل أنها تبذل لكل من قام بالعقيدة الصحيحة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠] أي: الجميع إخوة في الدين[4]، أو تاب مما كان عليه من اعتقاد باطل وعاد للإسلام الحق، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة:١١].

يقول: إن تركوا اللات والعزى، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١١]. قال ابن زيد: افترضت الصلاة والزكاة جميعًا لم يفرق بينهما وقرأ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١١].

وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: رحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه[5].

وهذا بيان أن يقوموا بكل ما أمر الإسلام به، دون تهاون في حق الله الذي أمرنا به.

فإن تابوا: مما هم عليه من الكفر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين أي: فهم إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، فعاملوهم معاملة الإخوان، وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه[6].

ويفهم من مفهوم الآية: أنهم إن لم يقيموا الصلاة لم يكونوا من إخوان المؤمنين،

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٥٦٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٢.
(٣) العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٢٦٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٥٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٢٨.
(٦) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٣٧٠.

ومن انتفت عنهم أخوة المؤمنين فهم من الكافرين؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠][(١)].

ويدل على أن من أظهر لنا الإيمان وأقام الصلاة وآتى الزكاة فعلينا موالاته في الدين على ظاهر أمره مع وجود أن يكون اعتقاده في المغيب خلافه[(٢)].

٢. أخوة المنافقين وأهل العقائد الفاسدة.

والأصل فيهم أنهم قد اجتالتهم الشياطين، ولعبت بهم يمنة ويسرة هم ومن كان على شاكلتهم، أو تعاون معهم في غيهم.

وأن فريق الكافرين يزيدهم الشيطان غيًا إلى غيهم إذا ركبوا معصية من معاصي الله، ولا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه عن التمادي فيها والزيادة منها، فهم أبدًا في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيدهم أبدًا، لا يقصر الإنسي عن شيء من ركوب الفواحش، ولا الشيطان من مدهم منه[(٣)].

وقد جاءت الآيات التي تحدثت عن أخوتهم السيئة؛ للتحذير منها والتنفير عنها.

ذكر أخوتهم على سبيل الذم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران:١٥٦].

وظاهر من مناسبة هذه الآيات في سياق المعركة، أن هذه كانت أقوال المنافقين الذين رجعوا قبل المعركة، والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا في الإسلام ولكن ما تزال بين المسلمين وبينهم علاقات وقرابات[(٤)].

فينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب، لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٥٦].

أي: سافروا للتجارة ونحوها ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أي: كانوا في الغزو ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ أي: في البلد ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أي: ما ماتوا في السفر، وما قتلوا في الغزو[(٥)].

فهم بكفرهم هذا ليسوا بإخوان، ومع

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٤٧.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢٧٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٥٧.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٩.

ذلك فأخوتكم فيما بينكم ليست على طريقتهم.

فلا تكونوا كالمنافقين الذي ينهون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله والضرب في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله، ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا: لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا[1].

فأخوة المؤمنين واضحة المعالم، وأخوة غيرهم سراب بقيعة لا حقيقة له.

بيان زيف أخوتهم، وأنه اجتماع وقت للإضرار بالمؤمنين:

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر:١١].

يعني بني النضير، وأخوتهم معهم أخوة دين واعتقاد، أو أخوة صداقة وموالاة؛ لأنهم كانوا معهم سرًا على المؤمنين[2].

ولما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين، ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم، فقال: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [الحشر:١١] والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لكل من يصلح له، والذين نافقوا هم: عبد الله بن أبي وأصحابه، وجملة: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الحشر:١١].

مستأنفة لبيان المتعجب منه، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار، وجعلهم إخوانًا لهم لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان في الكفر[3].

فقولهم هذا: لإخوانهم الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر، ولأنهم كانوا يوالونهم ويواخونهم، وكانوا معهم على المؤمنين في السر[4].

فأثبت الله أن لهم أخوة؛ لكنها ليست على مرضات الله وليست كما وجه إليها رسوله صلى الله عليه وسلم؛ بل هي مغايرة لذلك تمامًا.

فهذه الأخوة قامت على الكفر بالله، ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم، والإضرار بعباد الله المؤمنين، فلسيت بأخوة على الحقيقة بل لها اشتراك لفظي كما يقال، ولقد ذكرت بصورتها البشعة؛ ليجتنبها عباد الله المؤمنين في أخوتهم، فأخوتهم قائم على أمر الله ورسوله.

ثانيًا: الأخوة في النسب:

أصل الأخوة النسب كما سبق، وأخوة

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٩٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٨٢.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٧١.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٨٢.

النسب إما لأشقاء أو غير أشقاء، ومن الآيات التي وردت في ذلك:

ذكر العلاقة بين الإخوة في النسب عمومًا:

قال تعالى-حاكيًا عن أهوال يوم القيامة-: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ [عبس:٣٤].

وبدأ بالأخ، ثم بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين؛ لأنهم أقرب وأحب[١].

فالأخ ليس أحب إلى أخيه من والديه؛ إنما الاعتماد عليه في المهمات أكثر منهما.

قال قتادة: الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب من هول ذلك اليوم[٢].

وهذا الترتيب في الأهل يتناسب مع سياق الآيات، ففي سورة عبس المشهد هو مشهد الفرار يخلو المرء بنفسه ويفر المرء أولًا من الأبعد إلى الأقرب إلى قلبه، يفر أولًا من أخيه ثم من أمه وأبيه ثم من صاحبته وبنيه الذين هم أقرب الناس إلى قلبه، أما في سورة المعارج فالمقام مقام عذاب وليس فرار؛ فيرى المرء مشهد عذاب فوق ما تصوره ولا يقبل المساومة فيبدأ يفدي نفسه بالأقرب إلى قلبه ثم الأبعد؛ لذا بدأ ببنيه أعز ما عنده ثم صاحبته وأخيه ثم فصيلته ثم من في الأرض جميعًا[٣].

فهم إخوة أشقاء، أو إخوة لأب، أو إخوة لأم؛ فيجتمعون في إخوة النسب.

حكم يعم الإخوة جميعًا وهو بيان للمحرمات عليهم من النساء:

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء:٢٣].

عن ابن عباس قال: يحرم من النسب سبع ومن الصهر سبع، ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣] فهذه النسب[٤].

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء كما هو نص الآية الكريمة[٥].

(١) المصدر السابق، ٤/ ١٨٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٩٣.
(٣) لمسات بيانية، السامرائي ١/ ٦٩٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٩١١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٦.

فكل هؤلاء اللواتي سماهن الله تعالى وبين تحريمهن في هذه الآية، محرمات، غير جائز نكاحهن لمن حرم الله ذلك عليه من الرجال، بإجماع جميع الأمة[1].

فتحرم الأخوات، وبنات الأخ وبنات الأخت أبدًا.

بل يحرم الجمع بين أختين، وحكمته دفع الغيرة عمن يريد الشرع بقاء تمام المودة بينهما، وقد علم أن المراد الجمع بينهما فيما فيه غيرة، وكذلك في التسري[2].

تجريم الضرر بالأخ من النسب أو غيره:

فحرم الله القتل بين المؤمنين وشنعه بقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وكان قصة ذلك قتل أحد ابني آدم لأخيه، وتحيره في مواراته ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة:٣١].

يقول تعالى مبينًا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور، وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله، بغيًا عليه وحسدًا له، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين... وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن[3].

فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه، وليجيش خاطر القتل في نفسه! فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة في هذا المجال... مجال العبادة والتقرب[4].

والأصل أنه لا يجوز الإتيان بشيء يضر بحقوق الأخ القريب أو البعيد.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند[5].

ثالثًا: الأخوة من الرضاعة:

كما أن الأخوة من النسب، فهي كذلك من الرضاع ولها الحكم ذاته، والذي ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٦٦٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٣٠١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٧٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٣٥٠.
(٥) الحيوان، الجاحظ ٣/ ٤٩٦.

﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء:٢٣].

فقوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ وهي الأخت لأب وأم، التي أرضعتها أمك بلبان أبيك؛ سواء أرضعتها معك أو ولدت قبلك أو بعدك، والأخت من الأب دون الأم، التي أرضعتها زوجة أبيك، والأخت من الأم دون الأب، التي أرضعتها أمك بلبان رجل آخر... وهما محرمتان بالقرآن، ولم يذكر من المحرم بالرضاعة في القرآن سواهما، والأم أصل والأخت فرع؛ فنبه بذلك على جميع الأصول والفروع[(١)].

والأبناء ثلاثة: ابن نسب، وابن رضاع، وابن تبن.

فأما ابن النسب فمعلوم، ومعلوم حكمه.

وأما ابن الرضاع فيجري مجرى الابن في جملة من الأحكام معظمها التحريم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»، و ابن التبني كان في صدر الإسلام ثم نسخ[(٢)].

فنص في هذه الآية على حرمة الأمهات والأخوات من جهة الرضاعة إلا أن الحرمة غير مقصورة عليهن؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) وإنما عرفنا أن الأمر كذلك بدلالة هذه الآيات، وذلك لأنه تعالى لما سمى المرضعة أمًا والمرضعة أختًا؛ فقد نبه بذلك على أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب، وذلك لأنه تعالى حرم بسبب النسب سبعًا:

- اثنتان منها هما المنتسبتان بطريق الولادة وهما الأمهات والبنات.
- خمس منها بطريق الأخوة وهو الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت.

ثم إنه تعالى لما شرع بعد ذلك في أحوال الرضاع ذكر من هذين القسمين صورة واحدةً تنبيهًا بها على الباقي، فذكر من قسم قرابة الولادة الأمهات ومن قسم قرابة الأخوة الأخوات، ونبه بذكر هذين المثالين من هذين القسمين على أن الحال في باب الرضاع كالحال في النسب، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أكد هذا البيان بصريح قوله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[(٣)] فصار صريح الحديث مطابقًا لمفهوم الآية وهذا بيان لطيف[(٤)].

ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء:٢٣].

فكل أقارب الأم المرضع أقارب

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٧٤.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٨٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، رقم ٢٦٤٥، ٢/ ٧٩٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٢٥.

للرضيع، فالمرضعة تصبح أمًا للرضيع، وبنتها أخته، وزوجها أبوه، وأولادها إخوته[1].

قلت: وكذلك ما تفرع عنهن أو تفرع عنه، فانظر لجلال الله وجمال شريعته.

وأثبت تعالى الأخوة بين بنات المرضعة وبين المرضع والحرمة بينهما مطلقًا من غير فصل بين أخت وأخت، وكذا بنات بناتها وبنات أبنائها وإن سفلن؛ لأنهن بنات أخ المرضع وأخته من الرضاعة، وهن يحرمن من النسب كذا من الرضاعة، ولو أرضعت امرأة صغيرين من أولاد الأجانب صارا أخوين لكونهما من أولاد المرضعة فلا يجوز المناكحة بينهما إذا كان أحدهما أنثى، والأصل في ذلك أن كل اثنين اجتمعا على ثدي واحد صارا أخوين أو أختين أو أخًا وأختًا من الرضاعة[2].

والمرضوع يصبح ولدًا لزوج المرضعة، فلو عنده أولاد من زوجة أخرى أصبح المرضوع أخًا لهم؛ فيجري بينهم ما للرضاع من أحكام.

والأصل في هذا ما ذكره ابن كثير بقوله: ذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم.

قال الترمذي[3]: «باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين»: حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة، عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أم سلمة قالت: قال رسول صلى الله عليه وسلم: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام»، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم: أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئًا[4].

وعددها: خمس رضعات عن أكثر أهل العلم، وفيه أقوال في كتب الفقه.

ورضاع الكبير: منسوخ عند فقهاء الأمصار[5].

فتكون الأخوة من الرضاع: ما كانت في الحولين الأولى من الحياة، وبلغ عددها خمسًا فأكثر، ولا اعتبار برضاع الكبير؛ لأن الحكم فيه منسوخ.

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٣١٢.
(٢) بدائع الصنائع، الكاساني ٤/ ٢.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان في الصغر، رقم ١١٥٢، ٣/ ٤٥٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦١.
(٥) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٦٧.

رابعًا: الأخوة في الأوطان والعشيرة:

جاء ذكر الأخوة في القرآن الكريم بمعنى أخوة الأوطان والديار، وهي من حقوق الجوار كذلك التي نبه عليها الإسلام، وجعلها حقًا من حقوق الأخوة.

فهم إخوة قوم أو عشيرة ديارهم واحدة ومساكنهم متقاربة، ومنه قول قريط[1]:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

ويمكن تقسيمها كالتالي:

١. أخوة الأوطان:

وفي القرآن الكريم وردت بهذا المعنى آيات قليلة وإن كانت في حق الأنبياء.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الشعراء:١٦١].

وجعل لوط أخًا لقومه ولم يكن من نسبهم وإنما كان نزيلًا فيهم، إذ كان قوم لوط من أهل فلسطين من الكنعانيين، وكان لوط عبرانيًا وهو ابن أخي إبراهيم ولكنه لما استوطن بلادهم وعاش فيهم وحالفهم وظاهرهم جعل أخًا لهم[2].

ولذا قال الله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ [ق:١٢-١٣].

ومن ذلك ما ذكره الله عن هود عليه السلام: فقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف:٦٥].

أخاهم بمعنى: واحدًا منهم كما يقولون: (يا أخا العرب) وإنما أرسل منهم؛ لأنهم أفهم لقوله من قول غيره، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله، وأرغب في اقتفائه[3].

وكذلك قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود:٥٠].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء:١٢٤].

أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، قال ابن عباس: أي: ابن أبيهم،-وتقدم أنه ليس كذلك- وقيل: أخاهم في القبيلة، وقيل: أي: بشرًا من بني أبيهم آدم، وفي مصنف أبي داود أن أخاهم هودًا صاحبهم[4].

وسماه أخًا تنبيهًا على إشفاقه عليهم شفقة الأخ على أخيه، وعلى هذا قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف:٧٣].

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف:٦٥].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥][5].

(١) العقد الفريد، ابن عبدربه ٣/ ١٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٧٨.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٨، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١١٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٦٨.

فأخوة الأوطان تحمل الأخ على العيش مع إخوانه في ديارهم، وتقديم الخير لهم، ورفع الضر عنهم، والتعاون معهم، ودفع الصائل عنهم، فله ما لهم وعليه ما عليهم، وهذا ما نبه عليه الإسلام في اهتمامه الأعظم بحقوق الجار خاصة إن كانوا مسلمين أقرباء.

٢. أخوة العشيرة:

وأخوة العشيرة[١] هي أخوة نسب لكنها ليست الأخوة المعتادة، فتكون بين الأشقاء أو غير الأشقاء أو بين الرضعاء، أو أبناءهم مجتمعين في عشيرة واحدة.

والعشيرة تنقسم فيها فخوذ الناس على مراتب النسب، وتكون نسبتها لأب مشهور من نسل والد قديم أشهر منه، وتطلق على قوم تعاشروا في ظروف معينة وكانت بينهم أمور تجمعهم.

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذر عشيرته الأقربين، أي: الأدنين إليه[٢]، فلما دعاهم دعا عشيرته الذي ينتمي وإياهم إلى جد واحد، فخص الأقربين؛ لأن الاهتمام بشأنهم أولى، وهدايتهم إلى الحق أقوم[٣].

ويمكن الاعتماد في هذا الجزء على البيان المتقدم في أخوة النسب.

(١) العشيرة: الجماعة أو القبيلة.
وقيل: الأدنى إلى الرجل من أهله، وهم ولد أبيه وجده.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٥٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٦٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٨.

أحكام وعلاقات مرتبة على الأخوة

أولًا: الميراث:

من أعظم ما جاء به الإسلام قضية الميراث، بل وصل من حب الأخوة المؤمنين في بداية الإسلام أن يرث الأخ في الله أخاه، خاصة الذين آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، ثم نسخ ذلك.

ولا ميراث للإخوة والأخوات مطلقًا مع الابن أو ابن الابن أو الأب وفي ميراثهم مع الجد خلاف، ويورثون مع البنات إلا الإخوة لأم ويسقط الأخ لأب مع الأخ لأبوين[1].

وفي بيان ذلك يقول الله: ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء:١٢].

يعني بقوله جل ثناؤه: «وله أخ أو أخت»، وللرجل الذي يورث كلالة أخ أو أخت، يعني: أخًا أو أختًا من أمه[2].

وقوله تعالى: وله أخ أو أخت أي: من أم كما هو في قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكذا فسرها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فيما رواه قتادة عنه فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث[3].

وميراث الأخوة له تفاصيل مرتبة عند الفقهاء وعلماء الفرائض.

فلم يجز أن يقطع على مراد الله تعالى إلا بالإجماع المتيقن الثابت إذا لم نجد نصًا مفسرًا؛ فوجب بهذا أن لا يرث الإخوة كيف كانوا، إلا حيث يعدم كل من ذكرنا، إلا أن يوجب ميراث بعضهم نص صحيح فيوقف عنده، وليس ذلك إلا في موضعين فقط: وهو الأخ الشقيق، أو للأب مع الابنة فصاعدًا، وأخت مثله معه فصاعدًا، ما لم يستوف البنات الثلثين، والموضع الثاني: الأخت كذلك مع البنت، أو البنات حيث لا عاصب للميت فقط وبالله تعالى التوفيق[4].

وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم، وميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب مذكور في قوله عز وجل:

(١) انظر: الدراري المضيئة، الشوكاني ٢/ ٤٢٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٦٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤١٧.

(٤) انظر: المحلى، ابن حزم ٨/ ٢٨٥.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء:١٧٦].

فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف، والباقي من الثلثين للأخت أو الأخوات لأب وهو السدس تكملة الثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات للأب كما تقدم في البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالًا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين[(١)].

وللأخ ميراث من أخيه معروف عند علماء الفرائض، وذلك لقوة الصلة بين الإخوة ومراعاة الإسلام لحالها بعد وفاة أحدهما.

ثانيًا: حرمة النكاح:

حرم القرآن الكريم نكاحًا وأحل آخر -ولا يحل إلا طيبًا- لترتيب التعايش بين المؤمنين، وأهم ما حرم نكاحه بين الأخوة ما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء:٢٣].

فكانت المحرمات -بالأخوة- على الأخ بلفظ الآية ما يأتي:

١. الأخوات: من أم أو أب أو منهما[(٢)].
٢. أخوات الأب والأم وهما العمة والخالة: فإن العمة والخالة بمنزلة الأم[(٣)].
٣. بنات الأخ وفروعها: شقيقًا كان أو غير شقيق.
٤. بنات الأخت وفروعها: شقيقة أو غير شقيقة.

ولفظ البنات: شامل لبنات البنات وبنات بناتهن وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين، وهو نص قرآني صحيح في استواء بنات بنيهن وبنات بناتهن[(٤)].

١. الأخت من الرضاعة و ما تفرع عنها: وهي التي أرضعتها أمك بلبان أبيك، سواء أرضعتها معك أو مع من قبلك أو بعدك من الإخوة والأخوات[(٥)]،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٠.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٦٦.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٦٣٨.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٠٥.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٧١٤.

قلت: وكذلك من رضعت من أمها وإن سفلت.

٢. الجمع بين أختين: في الوطء بنكاح أو ملك يمين من نسب أو رضاع، لما فيه من قطيعة الرحم إلا ما قد سلف في الجاهلية فإنه معفو عنه[(١)].

ومن أعظم وأروع دلالات الحب التي وردت في هذا الباب، حب لم يقتصر في رجال المسلمين فحسب، بل فهمته نساؤهم كذلك، حتى بذلت الأخت المسلمة لأختها في النسب أو غيره من الخير أمورًا فاقت علاقات الأمم جميعًا.

فقد ورد أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله؟ هل لك في أختي؟ قال: «فأفعل ماذا؟» قالت: فتنكحها، قال: «أختك؟» قالت: نعم، قال: «أو تحبين ذاك؟» قالت: لست بمخلية بك، وأحب من شركني في خير أختي، قال: «فإنها لا تحل لي» قالت: فوالله لقد أخبرت أنك تخطب درة - أو ذرة -(شك زهير)، بنت أبي سلمة، قال: «بنت أم سلمة؟» قالت: نعم، قال: «أما والله لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأباها ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن، ولا أخواتكن»[(٢)].

والمحرمون -بالأخوة- على الأخت بمفهوم الآية ما يلي:

١. الأخ وأبناؤه: شقيقًا أوغير شقيق وكذلك من الرضاعة.
٢. إخوة أبيها: من النسب أو الرضاع.
٣. إخوة أمها: من النسب أو الرضاع.
٤. كل أصل وفرع من طريق الأخ يحرم بالنسب أو الرضاع.

لقد حث القرآن الكريم على الأخوة ولم يتركها هملًا، بل شيد لها أعظم بنيان ثابت الأركان، فلن تجد فيه أمرًا أو نهيًا إلا لتكون هذه الأخوة دائمة الوصال محكمة الحبال، تجمع أحبابها لينعموا في ظل كبير يسمى «الأخوة الإسلامية».

ثالثًا: الإصلاح بين الإخوان:

وأول الإصلاح ما هيأه الله سبحانه من إصلاح حال عباده المؤمنين بفضله وبرحمته، فإنه قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

يعني: فأصبحتم بتأليف الله عز وجل بينكم بالإسلام وكلمة الحق، والتعاون على نصرة أهل الإيمان، والتآزر على من خالفكم من أهل الكفر، إخوانًا متصادقين، لا ضغائن

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٧٣.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، رقم ٢٠٥٦، ٢/ ٣٧٧.

بينكم ولا تحاسد[1].

وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

إلى آخر الآية، وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان، وقد امتن عليهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم، بما فضل عليهم في القسم، بما أراه الله فخطبهم فقال: (يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟) فكلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن[2].

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام -من الركيزة الأولى- أساسها الاعتصام بحبل الله -أي: عهده ونهجه ودينه- وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة! قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائمًا، وهو هنا يذكرهم هذه النعمة[3].

ومتى ما حصل لهذه الأخوة خلل أو خدش يخشى تفاقمه أوجب الله على جميع المؤمنين السعي بالصلح بين المؤمنين جماعات وفرادى.

فقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات:٩-١٠].

يقول تعالى ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٥٣.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم ٤٣٣٠، ٣/ ١٣٠٦.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٤٤.

﴿عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ يقول: فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله له، وعليه وتعدت ما جعل الله عدلًا بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ يقول: فقاتلوا التي تعتدي، وتأبى الإجابة إلى حكم الله ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يقول: حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ يقول: فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل: يعني بالإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلًا بين خلقه[1].

ويقول تعالى ذكره لأهل الإيمان به ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله وحكم رسوله، ومعنى الأخوين في هذا الموضع: كل مقتتلين من أهل الإيمان، وبالتثنية قرأ قراء الأمصار، وذكر عن ابن سيرين أنه قرأ بين إخوانكم بالنون على مذهب الجمع، وذلك من جهة العربية صحيح، غير أنه خلاف لما عليه قراء الأمصار ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وخافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل، وفي غير ذلك من فرائضه، واجتناب معاصيه، ليرحمكم ربكم، فيصفح لكم عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه بطاعته[2].

تنبيهات:

الأول: الاقتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا، والركون إلى الهوى، والانجذاب إلى الجهة السفلية، والتوجه إلى المطالب الجزئية، والإصلاح إنما يكون من لزوم العدالة في النفس التي هي ظل المحبة، التي هي ظل الوحدة، فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما، على تقدير بغيهما، والقتال مع الباغية على تقدير بغي إحداهما، حتى ترجع؛ لكون الباغية مضادة للحق، دافعة له.

الثاني: في الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغي، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل، لقوله حتى تفيء.

الثالث: في الآية فوائد: منها أنهم لم يخرجوا بالبغي عن الإيمان، وأنه أوجب قتالهم، وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم، وإجازة كل من منع حقًا عليه، ووجوب معاونة من بغي عليه، لقوله: ﴿فَقَٰتِلُوا۟﴾ [الحجرات:٩].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٨٦.

(٢) المصدر السابق، ١١/ ٣٨٩.

وعلى وجوب تقديم النصح، لقوله: فأصلحوا بينهما، وعلى السعي في المصالحة، وذلك ظاهر.

الرابع: وجه الجمع في اقتتلوا، مع أنه قد يقال: مقتضى الظاهر (اقتتلتا) هو الحمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس، والنكتة في اعتبار المعنى أولًا، واللفظ ثانيًا عكس المشهور في الاستعمال، ما قيل: إنهم أولًا في حال القتال مختلطون مجتمعون، فلذا جمع أولًا ضميرهم، وفي حال الإصلاح متميزون متفارقون، فلذا ثنى الضمير ثانيًا وسر قرن الإصلاح الثاني بالعدل، دون الأول؛ لأن الثاني لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة، أو لإبهام أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم[1].

وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين[2].

والمراد بالناس المرغب في الإصلاح بينهم في قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤] هم المسلمون خاصة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠].

وقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩].

فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر[3]، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١] يدل على أن من رجا صلاح ما بين متعاديين من المؤمنين أن عليه الإصلاح بينهما[4].

و﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، أي: لا أخوة إلا بين المؤمنين، وأما بين المؤمن والكافر فلا؛ لأن الإسلام هو الجامع ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ولا يكون لأخيه الكافر، وأما الكافر فكذلك؛ لأن في النسب المعتبر الأب الذي هو أب شرعًا، حتى أن ولدي الزنا من رجل واحد لا يرث أحدهما الآخر، فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لا يفيد الأخوة، ولهذا من مات من الكفر- أي: أهل الكفر- وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله (أي: لا يترك إرثه ليتقوى به الكفار فيأخذه أخوه المسلم لا للإرث ولكن لينفق في مصالح المسلمين غير المحترمة والله أعلم) للكفار، ولو كان

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٢٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٤٣.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٠٧.
(٤) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٨٥.

الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار، كما أن مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث، فإن قيل: قد ثبت أن الأخوة للإسلام أقوى من الأخوة النسبية، بدليل أن المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الأخ الكافر من النسب، فلم لم يقدموا الأخوة الإسلامية على الأخوة النسبية مطلقًا حتى يكون مال المسلم للمسلمين لا لأخوته من النسب؟ نقول: هذا سؤال فاسد؛ وذلك لأن الأخ المسلم إذا كان أخًا من النسب فقد اجتمع فيه أخوتان فصار أقوى والعصوبة لمن له القوة، ألا ترى أن الأخ من الأبوين يرث ولا يرث الأخ من الأب معه فكذلك الأخ المسلم من النسب له أخوتان فيقدم على سائر المسلمين، والله أعلم[(١)].

وقد قال ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى مكان كذا وكذا، أو فعل كذا وكذا، فله كذا وكذا» فتسارع إليه الشبان، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح الله عليهم، جاؤوا يطلبون ما قد جعل لهم النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لهم الأشياخ: لا تذهبون به دوننا، فإنا كنا ردءًا -أي: معينين- لكم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١][(٢)].

ولو اختصم الإخوة ولم يعلم بهم أحد ولم يصلوا إلى نتيجة، فينبغي عليهم البحث عن المصلحين وإشهار القضية فيهم ليتمكنوا من الإصلاح فيها، وهذا كما ذكره الله -عن المختصمين الذين جاءا داود عليه السلام ليصلح بينهم- بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص:٢٣].

فنص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره[(٣)].

والمراد أخوة الدين، أو أخوة الصداقة والألفة، أو أخوة الشركة والخلطة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص:٢٤].

كل واحدة من هذه الأخوات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم[(٤)].

والأصل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأمته منهج الأخوة الصحيح، بأسهل الأمور ابتداءً من طلاقة الوجه، إلى نهيه عن المعاملات التي تضر بالأخوة ليكونوا عباد الله إخوانًا، فجعل في هذا قاعدة أساسية ذكرها بقوله صلى الله عليه وسلم: (سباب المسلم فسوق، وقتاله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٨٣.
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الصلح، ذكر السبب الذي من أجله أنزل الله (وأصلحوا ذات بينكم)، رقم ٥٠٩٣، ١١/ ٤٩١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٣٦.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٣.

كفر)[1].

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقوق الأخوة بين المسلمين في حرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم يوم النحر فكانت قاعدة عظيمة يسير عليها أهل الإيمان في إخوتهم، ويحافظ عليها جميع المسلمين في تعاطفهم ومودتهم[2].

خامسًا: الولاء والنصرة:

مما لا شك فيه أن الأخوة أصل الولاء، وقد بيّن الله الولاء الحقيقي ولمن يكون فقال عز وجل: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة:٢٢].

فلا تجد يا محمد قومًا يصدقون الله، ويقرون باليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله وشاقهما وخالف أمر الله ونهيه ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ يقول: ولو كان الذين حادوا الله ورسوله آباءهم ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[3].

ووردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء، وهذا النهي الأكيد، والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد، من إيراده الإنشاء[4].

فكأنك تقول: إن هذا بين الإخوة يكون أو لا يكون إن كان خبرًا، لكنه جاء بلفظٍ إنشائي يفيد النفي، وهو أن المؤمن الحق لا يواد أخاه في شيء مع محادته لله عز وجل.

فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان: إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان، والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان، فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد، ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر، وهمَّ الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم، متجردين من علائق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم ٤٨، ١/ ٤٠.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ٢١٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٥٧.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥٦٦.

الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة، وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله[1].

فهذا أصل في الولاء والنصرة وأنها كائنة بين العشيرة ومنهم الإخوان، شريطة الإيمان بالله واليوم الآخر، ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب:٥].

يقول الله تعالى ذكره: انسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم لآبائهم، يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألحق نسب زيد بأبيه حارثة، ولا تدعه زيد بن محمد.

وقوله: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقول: دعاؤكم إياهم لآبائهم هو أعدل عند الله، وأصدق وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم ونسبتكم لهم إلى من تبناهم وادعاهم وليسوا له بنين، فعن قتادة في قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي أعدل عند الله.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فإن أنتم أيها الناس لم تعلموا آباء أدعيائكم من هم فتنسبوهم إليهم، ولم تعرفوهم، فتلحقوهم بهم، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ يقول: فهم إخوانكم في الدين، إن كانوا من أهل ملتكم، ومواليكم إن كانوا محرريكم وليسوا ببنيكم[2].

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى، المتضمنة للقول الباطل فقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ﴾ أي: الأدعياء ﴿لِآبَآئِهِمْ﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعدل، وأقوم، وأهدى.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ الحقيقيين ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي: إخوتكم في دين الله، ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالاة على ذلك، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم، لا يجوز فعلها.

وأما دعاؤهم لآبائهم، فإن علموا، دعوا إليهم، وإن لم يعلموا، اقتصر على ما يعلم منهم، وهو أخوة الدين والموالاة، فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم، عذر في دعوتهم إلى من تبناهم؛ لأن المحذور لا يزول بذلك[3].

فالنصرة والولاء للأخوة في الدين، أما ما عداهم فلا أخوة لهم ولا نصرة ولا ولاء، والباب متسع للجميع؛ لأن المؤمنين

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ١٥٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٣.

والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

ولو لم يعلم آباؤهم فهم إخوة في الدين؛ لأن هذه الأخوة كفى بها شرفًا، ويكفي المؤمنين هذه العزة التي من الله بها عليهم.

العلاقات الاجتماعية بين الإخوة

ذكر القرآن الكريم -من خلال الحديث عن الأخوة والعلاقات التي تكون بين الإخوة- أمورًا بين فيها بعض الأحكام التي تضبط العلاقات الاجتماعية وتجعلها تسير بيسر وسهولة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

أي: لأن هؤلاء محارمهن الذين تؤمن الفتنة من قبلهم[1].

وكل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج[2].

فالإخوان ها هنا: أشقاء، أو لأب، أو

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٩٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٠٦.

لأم[1]،أو بالرضاع؛ لأنه لم يحدد الأخوة بالنسب، فيدخل الإخوة من الرضاع فيهم.

فيجوز للمرأة أن تكشف على أخيها وأبنائه وأبناء أخواتها ولو سفلوا؛ لأنهم في الحكم سواء وهم محارم المرأة في هذه الحالة، وهذا لرفع الحرج عنهم وعنهن ولاحتياج ذلك في الزيارات والمناسبات ولقاء بعضهم البعض.

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور:٦١].

كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه، فتتحفه المرأة بشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم[2].

ولما علم بالعادة أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب[3]، أباح الله لهم الأكل في بيوتهم متى أرادوا.

وهؤلاء معروفون[4]، فهم أهل بيت واحد وإن تباعدت بهم الديار.

وكذلك في شأن الحجاب قال الله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب:٥٥].

فلما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم[5]؛ لأنهم ذوو أرحام أصيلة وأخوة صحيحة.

ولما نزلت آية الحجاب شق عليهن- نساء النبي صلى الله عليه وسلم- وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار، فأنزل الله عز وجل هذه الآية للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة[6].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٢٤.
(٣) تفسير المراغي ٦/ ١٣٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٠٠.
(٦) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ١٦٩.

فوائد من قصص الإخوة في القرآن

أولًا: قصة يوسف وإخوته:

هو: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: من أكرم الناس؟ قال: (أكرمهم أتقاهم)، قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك، قال: (فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله...) الحديث[1].

وهو أحد أبناء يعقوب، وله شقيق واحد، والباقون إخوته من أبيه[2].

مكانته عند والده:

كان يوسف وأخوه بنيامين من أم واحدة، وكان يعقوب شديد الحب ليوسف، وكان إخوة يوسف يرون منه من الميل إليه ما لا يرونه لأنفسهم[3].

وجعلوا أخاه معه في مرتبة الحب عند أبيهم.

وهذا ما جعلهم يحسدون يوسف، وبيّن الله ما آل إليه أمرهم في الحسد وتشاورهم في التخلص منه، حتى اتفق الجميع على مشورة ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف:١٠].

رؤيا يوسف عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:٤-٦].

تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلًا سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه... فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل حسدًا منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥].

أي: يحتالوا لك حيلة يردونك فيها[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (أم كنتم شهداء...)، رقم ٣٣٧٤، ٢/ ١٠٤٢.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٣٥٠ وقال: «وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم، وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول».

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٥٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٤٧.

وإنما قال يعقوب ذلك؛ لأنه قد كان تبين له من أخوته قبل ذلك حسدًا[1].

فكان ما قرروه من الخروج به، ورميه في البئر، والكذب على والدهم، فتولى الله أمره، فصار معبرًا للرؤى، ومكن الله له في الأرض حتى صار حفيظًا على خزائن مصر ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

وقد نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا نقع في مثل هذا، فعن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»[2]، فبيَن لنا أن الوصول إلى الإضرار بالإخوة لا يأتي إلا بالتدرج، فمن تنبه لخطوات الشيطان أول الأمر عاد إلى رشده وعرف حق أخيه، ومن اتبع خطوات الشيطان وترك الهدي القويم ضل عن الحق وتدرجت به الخطوات؛ حتى توصله إلى الإضرار بإخوانه ومخالفة أمر الله ورسوله.

وصول إخوة يوسف عليه السلام ودخولهم عليه:

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون[3] طعامًا، وذلك بعد إتيان سني الجدب وعمومها على سائر العباد والبلاد.

وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينًا ودنيا.

فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف:٥٩].

أي: أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته؛ من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٥٩].

وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم؟ فقالوا: كنا اثني عشر رجلًا، فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا.

فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف:٥٩] أي: قد أحسنت نزلكم وقراكم، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف:٦٠]

أي: فلست أعطيكم ميرة، ولا أقربكم بالكلية، عكس ما أسدى إليهم أولًا.

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٥٠.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم، رقم ٤٩١٠، ٥/ ١٣٥.
(٣) أي: يأتون بالطعام، والمائر: هو الذي يأتي بالطعام.
انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٣.

فاجتهد في إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف:٦١].

أي: سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن.

﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف:٦١].

أي: وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة، في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف:٦٣-٦٨][1].

فهذا من أهم ما فعله يوسف مع إخوته دون تجريح، أو شفاء غليل، أو معاملة بالمثل، بل أحسن استقبالهم وجهز متاعهم، ورتب للقاء أخيه الأصغر بكل هدوء وطمأنينة، فهو يعلم أن الله معه وسيوفقه، فعاملهم بما يرضي الله لينال من الله ما يرضيه.

دخولهم على يوسف مع شقيقه:

عندما طلبوا من أبيهم اصطحاب أخيهم للذهاب معهم إلى مصر من أجل الميرة؛

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

وبعد عهود ومواثيق قبل أبوهم ذلك، وأوصاهم بوصايا تعينهم في السفر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:٦٩].

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أي: لا تأسف

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٣٨٤.

على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا معظمًا[1].

احتواؤه لشقيقه والاجتهاد في إصلاح حال والده:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف:٧٠] وهي خطة منه عليه السلام ليحتوي أخاه بين يديه لأمر قادم.

عن ابن عباس: تعرف إليه أنه أخوه، وهو الظاهر، وهو قول ابن إسحاق وغيره، أعلمه أنه أخوه حقيقة واستكتمه، وقال له: لا تبالي بكل ما تراه من المكروه في تحيلي في أخذك منهم[2].

ويقال: لئن نسب يوسف أخاه للسرقة فقد تعرف إليه بقوله: إني أنا أخوك -سرًا-، فكان متحملًا لأعباء الملامة في ظاهره، محمولًا بوجدان الكرامة في سره[3].

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف:٧٦].

أي: ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق، لإيصال يوسف إلى أربه، رحمة منه وفضلًا، وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك، وإلا، لاستبد بما شاء، وهذا من وفور فطنته وكمال حكمته[4].

﴿۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف:٧٧].

وبهذه الطريقة المحكمة استطاع يوسف احتواء أخيه، وأمرهم كبيرهم أن يعودوا لأبيهم ويخبروه بما حصل وقال عن نفسه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

فازداد حزن يعقوب وذكره هذا الحدث بفقدان يوسف من قبل، وكل هذا بسوء التعامل بين الأخوة، و اتباع الشيطان، والكيد بمن آتاه الله من فضله.

فقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٦٠.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣١٠.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ١٩٦.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢١٠.

يوسف يحزن لحال إخوته فيسعفهم:

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، وقد أضرت بهم المجاعة، ونفدت منهم النقود، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد، يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف:٨٨].

وعند ما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته، فقد انتهت الدروس، وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال، فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم، ولم يطلع عليه أحد إلا الله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٨٩-٩٠].

مفاجأة! مفاجأة عجيبة، يعلنها لهم يوسف ويذكرهم في إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دفعة الجهالة، ولا يزيد سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه، معللًا هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله في الجزاء.

اعتراف الأخوة بالخطأ على أخيهم والتوبة من ذلك:

أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف، ويجللهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسنًا إليهم وقد أساؤوا، حليمًا بهم وقد جهلوا، كريمًا معهم وقد وقفوا منه موقفًا غير كريم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف:٩١].

اعتراف بالخطيئة، وإقرار بالذنب، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان، يقابله يوسف بالصفح والعفو وإنهاء الموقف المخجل، شيمة الرجل الكريم، وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩٢].

لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم، فقد انتهى الأمر من نفسي ولم تعد له جذور، والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم

الراحمين[1].

فالعزيز الحق عزيز بحق، وليس من عادة الكرام سرعة الانتقام، بل العفو عند المقدرة.

فلما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق-بسبب ما وقعوا فيه من الظلم لأخيهم أولًا ومعصية والدهم لحقدهم عليه- وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم[2].

ومهما يكن من غي وسفه، فالاعتراف بالخطأ فضيلة، والرجوع إلى الرشد فلاح.

قبول الأخ لاعتذار إخوته وإكرامهم أينما كانوا:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٩١] أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٩١].

وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف[3].

فقال لهم: لا تعيير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو[4]، وهذه نعمة تحمد، وخلة تدوم، وصفة تلازم، فكانت هذه تيجان خلق مضافة إلى تيجان الملك.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

فلم يقل: «نزغ الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد

(١) بتصرف: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٢٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٦٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٩١.

وضمائرهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها[1].

إخوة يقتدى بهم في الإصلاح وحسن العفو:

فلله ما أعظم الحسد في إفساده وداد الإخوان، وما أقبح الولوج في طاعة الشيطان، فمن حرم غيره حقه حرمه الله كذلك، ومن استغنى عن أخيه فقد يحتاج إليه في أصعب اللحظات، ومن قدر على الظفر من إخوانه بعد ظلمهم له فليحسن القضاء، والعظيم يبقى في محله إن لم يزدد رفعة وسموًا، أعطاهم حين منعوه، ووصلهم حين قطعوه، وعفا عنهم بعد إذ ظلموه، وتلك جماع الأخلاق.

جمعها يوسف عليه السلام في أحسن قصص، وجعلها رايات للسائرين، ومنارات للعارفين، ومقامات تنفع العامل بها إلى يوم الدين.

وقد اعترف إخوة يوسف بتعمد خطئهم، فكان دليلًا على صدق التغيير للأفضل.

فقالوا لأخيهم يوسف عليه السلام: إنا كنا-بلا استثناء- أي: والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك، وآثمين في أمرك، والخاطئ: الذي يتعمد الخطيئة[2]، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف[3].

وصار هذا منهجًا عمليًا في تطبيق الصحابة رضي الله عنهم، فهم خير سلف لخير خلف.

فعن المعرور بن سويد، قال: مررنا بأبي ذر بالربذة وعليه برد وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية»، قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه، قال: «يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[4].

قصة موسى وأخيه وهارون ودور أخته في طفولته.

موسى عليه السلام: وهو موسى بن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٠.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ٥٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، رقم ٣٠، ١/ ١٥.

عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام[1].

وفي بداية عمره وزمان ولادته، علا فرعون في الأرض وطغى على بني إسرائيل «يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين».

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه.

وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها[2].

ولما وضعته أمه؛ قال الله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص:٧].

دور أخته الكبرى في حياته:

عن ابن عباس ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١].

أي: قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرًا، أحي ابني أو قد أكلته دواب البحر وحيتانه؟ ونسيت الذي كان الله وعدها، وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:١١] يقول تعالى ذكره: فقصت أخت موسى أثره، فبصرت به عن جنب: يقول فبصرت بموسى عن بعد لم تدن منه ولم تقرب، لئلا يعلم أنها منه بسبيل[3]، قال الله:

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص:١٢-١٣].

فكانت أعظم أخت سعت لرد الوليد لوالدته، وأحسنت لأخيها وهو طفل رضيع، فالأخوة باب واسع، للولوج إلى بيت جميل.

بركة موسى على أخيه هارون:

حين كبر موسى عليه السلام، وفر من بلده بعد قتل القبطي، ووصل مدين وتزوج منها، ثم عاد لأرضه أوحى الله إليه أن يدعو فرعون وقومه إلى توحيد الله.

فخاف مما مضى عليه السلام وقال لله: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤] أي: معينًا لي.

وهارون اسمٌ أعجميٌ غير منصرف،

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٤٥٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٥٦ .
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٧ .

وقيل: معرب أرون، والأرن: النشاط، سمي به لنشاطه بالطاعة، ثم قيل: هارون.

وقد سماه الله تعالى في التنزيل بعشرة أسماء تصريحًا وتعريضًا:

١. وزيرٌ: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾ [طه:٢٩].

٢. أخٌ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف:١٥١].

٣. رسولٌ: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧].

٤. مرسلٌ: ﴿فَأَرْسِل إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

٥. نبيٌّ: ﴿أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم:٥٣].

٦. ردءٌ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ [القصص:٣٤].

٧. أفصح: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص:٣٤].

٨. مصدقٌ: ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص:٣٤].

٩. خليفةٌ: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف:١٤٢].

١٠. هارون: اسمه.

وقد ذكره الله تعالى بهذا الاسم في مواضع من التنزيل:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء:٤٨]. ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف:١٢٢]، [الشعراء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف:١٤٢].

وقوله تعالى: ﴿هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِل إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان:٣٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى)[(١)].

فكان مدح موسى لأخيه هارون بشيء صحيح يعلمه منه واقعًا، ولم يزد ثناءً عليه.

فطلب أن يعينه الله بمعين من أهله، هارون أخيه، فهو يعلم عنه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء الأعصاب، وكان موسى عليه السلام قويًا؛ فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه يشد أزره ويقويه ويتروى معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم عليه[(٢)].

واستجاب الله له فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم:٥٣] ليشد أزره في أداء الرسالة[(٣)]، أي: وأجبنا سؤاله

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٦/ ٧٦.
والحديث أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب علي رضي الله عنه، رقم ٣٧٠٦، ٣/ ١١٤٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣٣.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٠٨.

وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبيًا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤].

وقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦]

وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء:١٣-١٤].

ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًا[١].

وفي هذه الشفاعة بيان الحرص العظيم من الأخ لأخيه في حب الخير له.

وجعله الله منة من منته عليه فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [الفرقان:٣٥].

عن قتادة: عونًا وعضدًا[٢]، يوازره في الدعوة وإعلاء الكلمة ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة؛ لأن المتشاركين في الأمر متوازرون عليه[٣].

هارون عليه السلام وزيرًا لأخيه موسى عليه السلام:

صار خطاب القرآن الكريم يتوجه بالأمر للأخوين عليهما السلام، وذلك بعد إشراك الله لهارون في الرسالة ليكون عضدًا لأخيه، فقال الله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧].

فالله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام[٤]، والمراد أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرًا لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلاة، ومما يؤيد هذا قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس:٨٧].

أي: التي أمركم الله بإقامتها فإنه يفيد أن القبلة هي: قبلة الصلاة إما في المساجد، أو في البيوت لا جعل البيوت متقابلة، وإنما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهارون، ثم جعله لهما ولقومهما في قوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس:٨٧].

ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك، فقال: وبشر المؤمنين؛ لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء، ثم جعله عامًا في استقبال القبلة، وإقامة الصلاة؛ لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصًا بموسى؛ لأنه الأصل في الرسالة وهارون تابع له، فكان ذلك تعظيمًا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٦٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٠٤.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٢٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩١٣.

للبشارة وللمبشر[1].

وهذا من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولًا: إذ كان موسى وهارون هما الرسولين المطاعين، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء، وإذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما، ثم جمع الضمير فقال: وأقيموا الصلاة؛ لأن إقامتها فرض على الجميع، ثم وحده في قوله: وبشر المؤمنين أن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردءًا ووزيرًا، وكما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولًا واحدًا كقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف:٤٦].

فهذا الرسول هو الذي قيل له: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧][2].

ولقد ذكر الله موسى بالقوة وكان يأخذه الغضب، إلا أن ذلك لا يمنع من معرفة حقوق الأخ لأخيه حتى يكون الأخ مع أخيه نفسًا واحدة كما تقدم.

خلافة هارون أخاه موسى حين ذهب للقاء ربه عز وجل:

قال الله: ﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف:١٤٢].

أي: كن خليفتي فيهم، قال موسى هذا لما أراد المضي إلى المناجاة -فقال لهارون- وأصلح أمر بني إسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد أحوالهم ولا تتبع سبيل المفسدين، أي: لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عونًا للظالمين[3].

وهذا مع اعتماد موسى على أخيه؛ لكن لا بد من التوجيه لأخيه وإرشاده للسياسة الحسنة، والتحذير من طرق سبيل المفسدين، لكنهم خالفوا موسى وهارون، والخلاف شر كما يقال، وقد يكون سببًا في نزاع الأخوة.

التفاهم عند وجود الخطأ والتثبت بين الأخوة:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف:١٥٠].

«أخذ برأس أخيه يجره إليه»، فإن ذلك كان من فعل نبي عليه السلام، لموجدته على أخيه هارون في تركه أتباعه، وإقامته مع بني إسرائيل في الموضع الذي تركهم فيه، كما قال جل ثناؤه مخبرًا عن قول موسى عليه السلام له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾﴾

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٥٣.
(٢) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ٣٠٩.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٤٤.

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ٩٣﴾ [طه:٩٢-٩٣]؟

وحين أخبره هارون بعذره فقبل عذره، وذلك قوله لموسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٩٤﴾ [طه:٩٤].

وقال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف:١٥٠][1].

ونسبه إلى الأم -في سورة طه- مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور؛ استعطافًا له وترقيقًا لقلبه[2]، فذكر له هارون أمورًا تبين أنه اجتهد في إصلاحهم، فلما خالفوه لم يستطع عليهم، لكنه لم يرض بما فعلوه ولم يقرهم على مخالفاتهم لأنبيائهم.

فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ٩٠﴾ [طه:٩٠] فعند ذلك ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف:١٥١].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح؛ فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح)[3].

فلا بد لمن ظن فيه الخطأ أن يبين لأخيه ما يجب أن يزول عنه، وأن يكون العذر صحيحًا، مع مراعاة حال أخيه خاصة في غيرته لله، والأخ الناصح ينظر في عذر أخيه ويتأمله ليقبله، ولقد قبل موسى عليه السلام عذر أخيه مباشرة لعلمه بصدقه في ذلك.

لذا قال هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٩٤﴾ [طه:٩٤].

فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم فلو تبعتك لتركت ما أمرتني بلزومه وخشيت لائمتك و ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ حيث تركتهم وليس عندهم راع ولا خليفة؛ فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء فندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف:١٥١][4].

فكان موسى عليه السلام فاتحة خير

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٨.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٥٢.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة طه، رقم ٣٤٣٥، ٢/ ٤١٢.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
ولم يتعقبه الذهبي.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٦.

لأخيه هارون، فصارا أخوين في النسب والدين والرسالة، وقد امتن الله عليهما بذلك، وجعلهما قدوة لمن بعدهما، وخلد ذكرهما في العالمين، فكانت هذه الأخوة الحميمة والخصال العظيمة أرقى شيء بقي لنا ﴿بِمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٨].

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، البنوة، الصحبة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة

الأذى

عناصر الموضوع

مفهوم الأذى	١٧٨
الأذى في الاستعمال القرآني	١٧٩
الألفاظ ذات الصلة	١٨٠
أنواع الأذى	١٨٢
الآثار المترتبة على الأذى في العبادة	١٨٥
الأذى في سبيل الله	١٨٦
إيذاء الله ورسوله	٢٠٠

مفهوم الأذى

أولًا: المعنى اللغوي:

الأذى: كل ما تأذيت به، ورجل أذيٌّ، أي: شديد التأذي، وآذى الرجل فعل الأذى، والأذي كغني؛ الشديد التأذي، ومصدره؛ أذىً، وكذلك أذاةً، وأذيةً[(١)].

و«منه الأذى؛ وهو الموج المؤذي لركاب البحر»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الأذى ما يصل إلى الحيوان من الضرر؛ إما في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته؛ دنيويًا كان أو أخرويًا»[(٣)].

وذكر المناوي قريبًا من ذلك؛ فقال في التوقيف: «الأذى ما يصل إلى الحيوان من ضرر، أو مكروه في نفسه، أو بدنه، أو فتته؛ دنيويًا أو أخرويًا»[(٤)].

وعرفه الدكتور أحمد مختار في المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن وقراءته؛ بأنه الضرر[(٥)].

ويظهر من تعريف الأصفهاني والمناوي أنهما قصراه على الحيوان، ولعلهما يقصدان بالحيوان كل ما كان حيًا؛ وخاصة الإنسان، في حين أن الآيات التي ذكرت الأذى، تحدثت عن الأذى الذي يقع على الإنسان، وعليه فإن الأذى هو الضرر الذي يلحق بالإنسان في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته.

فالعلاقة بين المعنيين للفظ: أنه خص في الاصطلاح بالضرر الذي يقع على الإنسان أو الحيوان، بخلاف المعنى اللغوي فإنه يعم كل ضرر.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي، ٨/ ٢٠٦، مختار الصحاح، الرازي، ص١٦، لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٢٧.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ١/ ٢٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التوقيف، المناوي، ١/ ٤٦.

(٥) انظر: المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن وقراءاته، د. أحمد مختار، ص٦٧.

الأذى في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أذي) في القرآن الكريم (٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب:٦٩]
الفعل المضارع	٩	﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١]
فعل الأمر	٤	﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ [النساء:١٦]
المصدر	٩	﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة:٢٢٢]

وجاء الأذى في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: ما يصل إلى الإنسان من الضرر[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧١.

الألفاظ ذات الصلة

١ السوء:

السوء لغةً:

الشر والفساد وكل آفة، قال الكفوي في معناه: السوء جرى مجرى الشر، ويحمل معنى الشدة والذنب والضر والفقر والزنا والشرك والهزيمة[١].

السوء اصطلاحًا:

«كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية، والأخروية، ومن الأحوال النفسية، والبدنية، والخارجة، من فوات مال، وجاه، وفقد حميم»[٢].

الصلة بين السوء والأذى:

السوء نوع من أنواع الأذى الذي يمكن أن يتعرض له الإنسان.

٢ المصيبة:

المصيبة لغةً:

تعني النائبة وكل أمر مكروه[٣]،وجاء في لسان العرب أنها تعني الشدة[٤].

المصيبة اصطلاحًا:

هي البلية وكل أمر مكروه[٥].

الصلة بين المصيبة والأذى:

أن المصيبة لا تكون إلا ضراء، والضر قد يلحق الإنسان الأذى أو لا يلحقه.

(١) انظر: الكليات، ص٥٠٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٤١.
(٣) انظر: المصدر السباق، ص٣٧٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٣٤.
(٥) انظر: المصدر السابق.

٣ الضرر:

الضرر لغة:

ضد النفع من ضر يضر ضرًا، وهو سوء الحال[١].

الضرر اصطلاحًا:

«كل ما كان من سوء حال وفقر أو شدة»[٢].

الصلة بين الضرر والأذى:

لا يلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه قد لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك[٣].

(١) انظر: المصدر السابق، ٤/ ٤٨٣.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ١٠/ ٨٢٣.

أنواع الأذى

بيَن سبحانه في كتابه العزيز الهدف من هذه الحياة، والحكمة من تقدير الموت والحياة، فقال عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك:٢].

ولن يكون ابتلاء وامتحان دون معاناة، فكانت الحياة البشرية شاقة كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد:٤].

فيعيش الإنسان في «مشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة»[(١)]، التي يصدق على كثير منها مسمى الأذى، الذي يعود بعضه إلى طبيعة الإنسان، ويحدث بعضه الآخر تحت ظروف صحية، أو نتيجة لسلوك معين يصدر من الإنسان نفسه.

أولًا: الأذى الطبيعي:

الأذى الطبيعي: هو ما كان من طبيعة الأشياء، ومن لوازمها، ومثاله: ما نراه من طبيعة البشر، حيث خلق الله الإنسان، وجعل منه الذكر والأنثى، وجعل من طبيعة الأنثى؛ وبما يتوافق مع دورها في الحياة، أن يأتيها الحيض في فترات محددة، «فالحيض خلقة في النساء، وطبع معتاد معروف منهن»[(٢)].

وهو أذى كما أخبر القرآن في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة:٢٢٢]؛ فهو أي: الحيض من «دواعي الصفات البشرية، والحاجات الإنسانية»[(٣)]، ولأنه أذىً وقذر؛ وجدنا أن النفس السوية تتحاشاه، بل كانت الأمم السابقة تغالي في الأمر؛ فلا تخالط الحائض، وتبعدها؛ فعن أنس رضي الله عنه (أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت...)[(٤)].

فجاء الإسلام ليهذب هذا الأمر الطبيعي، فحيث إنه من طبيعة الأشياء فإن خالق الأشياء «أراد أن تكون عملية الحيض في المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها، وحياة الإنجاب، وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض»[(٥)].

فبيَن بذلك كيفية التعامل المتزن مع هذا الأمر الطبيعي، الذي هو في حقيقته أذى للزوج والزوجة، وعقب سبحانه بتأكيد محبته للتائبين وللمتطهرين، فجمع بذلك بين طهارة الباطن، وطهارة الظاهر، لترسم

(١) مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٦٤٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٨٢.
(٣) روح المعاني، الألوسي، ١/ ٥١٩.
(٤) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب اصنعوا كل شيء إلا النكاح، رقم ٦٢٠، ١/ ١٦٩.
(٥) تفسير الشعراوي، الشعراوي، ١/ ٩٦٦.

الآيات منهجًا تربويًا في تهذيب النفوس وتقويم السلوك.

ثانيًا: الأذى المرضي:

الأذى المرضي: والحديث هنا عن الأذى الذي يصيب الإنسان نتيجة مرض طارئ؛ فيسبب له الألم، والمعاناة، ومن هنا فهذا الأذى طارئ، يصيب الجميع الصالح والسيء، الصغير والكبير، الرجل والمرأة، الغني والفقير، إذا توافرت مسببات المرض، من إهمال بالنظافة، أو استهتار بطرق الوقاية من الأمراض، أو غير ذلك من أسباب قد تكون خارجة عن إرادة الإنسان، وتحدث القرآن عن جانب من هذا الأذى الذي قد يحدث أثناء أداء عبادة الحج، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦].

«والمراد بالأذى من الرأس ما فيه من قمل أو جراح ونحو ذلك»[(١)]، فالآية بينت فيما بينت بعضًا من محظورات الإحرام، ومنها حلق الرأس، «وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك، لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض، ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية»[(٢)]، على تفصيل في ذلك، فالأذى الذي يصيب الإنسان من هذا الباب هو من الأذى المرضي.

ثالثًا: الأذى المشروع:

الأذى المشروع: يقع الإنسان تحت طائلة المسائلة نتيجة تصرفاته الخاطئة، وحسب حجم الخطأ الذي ارتكبه يتلقى عقابًا مكافئًا، وهو وسيلة تأديبية أباح الإسلام اللجوء إليها؛ لتقويم سلوك معوج، ومن المؤكد أنها تسبب أذى للإنسان، ولكنه أذى مشروع؛ لأنه من باب التأديب، ومع ذلك فالأمر ليس على إطلاقه، إنما يتم وفق ضوابط شرعية؛ ومن الأمثلة على الأذى المشروع قوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء:١٦].

حيث بينت الآية أن من يرتكب فاحشة الزنى؛ «يؤذى بالشتم والتعيير والضرب بالنعال، فكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد والرجم»[(٣)].

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٢٢٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٣٥.

فهذا سلوك خاطئ أباح الشرع إيذاء صاحبه تأديبًا له، وزجرًا، «فالأذية بالقول والفعل والحبس، قد شرعه الله تعزيرًا لجنس المعصية الذي يحصل به الزجر»[1]، وكل أذىً يتعرض له الإنسان -تأديبًا وعقوبة وفق الضوابط الشرعية-هو من الأذى الشرعي.

رابعًا: الأذى غير المشروع:

الأذى غير المشروع: هو الأذى الذي يصيب الإنسان دون وجه حق، ولا يقره الإسلام؛ ولهذا اعتبر غير مشروع، فقد يتعرض الشخص للأذى من قبل أقرانه، أو منافسيه، أو خصومه، وقد يناله الأذى بسبب مواقفه، ومبادئه، وكل هذا أذىً غير مشروع، ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران:١٩٥] فهؤلاء المهاجرون كل جريرتهم أنهم آمنوا بالله وحده؛ فتعرضوا «للأذية من المشركين بسبب إيمانهم بالله، وعملهم بما شرعه لعباده»[2]، ومثلهم عبر التاريخ الإنساني كثير؛ تعرضوا للأذى والاضطهاد بسبب مواقفهم الإيمانية، ومبادئهم النبيلة.

ومن أمثلته أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤] فترى المنفق يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأوجب عليه حقًا له، ويتطاول عليه بسبب ما أعطاه[3]؛ مما يسبب له الأذى، فالمتصدق وإن كان قدم مساعدة لغيره؛ إلا أنه بمنه، وتطاوله في الكلام سبب أذىً لصاحبه، وهو أذى غير مشروع؛ بدليل التحذير الإلهي ببيان أن ذلك السلوك يضيع، ويبطل أجر الصدقة.

وخلاصة القول أن مثل هذا النوع من الأذى؛ الواقع على الإنسان -كما في المثالين المذكورين- يعد من الأذى غير المشروع، الذي توعد الله فاعله بالعقاب.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٧١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٤٧٤.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٢١٧.

الآثار المترتبة على الأذى في العبادة

إن الأذى الذي يتعرض له المكلف، أو يصدر منه في حق الآخرين؛ ينعكس على عبادته، فينقلها حينًا من العزيمة إلى الرخصة، ويحولها في حين آخر من الصحة إلى البطلان.

ومن الآثار المترتبة على الأذى ما يأتي:

أولًا: التخفيف والتيسير:

يترتب من وقوع الأذى على المكلف؛ التخفيف والتيسير في العبادة، فمثلًا: «يحرم على المتلبس بالإحرام أن يزيل شعر رأسه بالحلق، أو القص أو غيرهما»[1].

لكن إذا أصابه أذىً في رأسه من قمل أو غيره؛ جاز له أن يحلق أو يقصر، فترتب التخفيف والتيسير بسبب الأذى، وقد جاء بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦].

و يؤكد هذا الفهم ما جاء في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(لعلك آذاك هوامك)**[2]، قال: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك بشاة)**[3].

فكان التخفيف والتيسير بسبب العذر، وهو الأذى الذي أصاب الصحابي رضي الله عنه.

ثانيًا: بطلان العمل:

يترتب على الأذى غير المشروع؛ إذا وقع من المكلف، بطلان عمله، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

فحذرت الآية المؤمن المتصدق من المن وهو «أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه»[4]، وكذلك حذرت من الأذى، والمقصود به هنا «أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم إليه»[5].

وقد سبق بيان الفرق بينهما حيث إن الأذى أعم من المن؛ لأن المن جزء من الأذى؛ لكنه نص عليه لكثرة وقوعه.

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري، ١/ ٥٨٤.

(٢) هوامك: جمع هامة بالتشديد ويطلق على ما يدب من الحيوان كالقمل وشبهه. انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ٢٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، أبواب المحصر، باب قول الله تعالى: (فمن كان منكم مريضًا أو به أذًى من رأسه)، رقم ١٨١٤، ٣/ ١٠.

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٥٨.

(٥) المصدر السابق.

وبينت الآية أنه يؤدي إلى بطلان أجر الصدقة، تمامًا كذلك المنافق الذي ينفق ماله رياءً، وسمعةً؛ فلا أجر له.

والرياء هو «القول أو الفعل الذي لا يقصد معه الإخلاص، وإنما يقصد به التظاهر وحب الثناء»[1]، والعلاقة بينها أن النتيجة واحدة وهي بطلان العمل، «فالمن والأذى والرياء تكشف عن النية في الآخرة؛ فتبطل الصدقة؛ كما يكشف الوابل عن الصفوان، وهو الحجر الكبير الأملس»[2].

ولقد بينت السنة فداحة هذا الفعل من المن، وما يترتب عليه من أذى، فكان العقاب أن الله يعرض عنهم ولا يكلمهم يوم القيامة.

كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**). قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرار، قال أبوذر رضي الله عنه: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: (**المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**)[3].

(١) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ٦/ ١١٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣١٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم إسبال الإزار، والمن بالعطية، رقم ١٧١، ١/ ١٠٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣، ١/ ٧، من حديث عائشة رضي الله عنها.

الأذى في سبيل الله

إن الأذى في سبيل الله سنة إلهية ثابتة مع الأنبياء وأتباعهم ليمحص إيمانهم، ويزيد في درجاتهم، ولا بد من مواجهة الأذى سواء بالصبر أو التوكل والاحتساب، أو بالإعراض عن سفاهة المؤذين، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: الأذى في سبيل الله سنة إلهية:

من اللحظة الأولى التي بعث فيها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اتضحت أبعاد هذه الرسالة، ولقد صرح ورقة بن نوفل بذلك وهو يقول: (**يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذع ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم، قال: نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي**)[4].

فهي إذن سنة ثابتة فطن لها ورقة بن نوفل، وأدركها الرسول صلى الله عليه وسلم.

وتتابعت الآيات بعد ذلك تؤكد عظم هذه الأمانة، وتبعاتها الثقيلة فقال سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل:٥].

كما بينت وجود المستهزئين، والحماية الإلهية منهم، فقال سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر:٩٤-٩٥].

ووجه النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام إلى هذا الفهم؛ فلقد روى البخاري في صحيحه عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة؛ قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: (كان الرجل في من قبلكم؛ يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب؛ وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر؛ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت؛ لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1].

فهذه النصوص وأمثالها تؤكد أن تعرض مسيرة الصالحين للأذى سنة إلهية، فمهمتهم ثقيلة والمستهزئون كثر، والمتتبع لمواقف الأذى في سبيل الله -الواردة في القرآن- يدرك ذلك، حيث يقرر المولى عز وجل هذه السنة التي لا تتبدل ولا تتغير، فيقول سبحانه: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦].

فالآية تؤكد أن وقوع الأذى حتمي، وتستعرض أصنافًا منه «كالبلاء في الأنفس؛ مثل: القتل والأسر والجراح، وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب، وفي الأموال؛ كالإنفاق في سبيل الخير، وما يقع فيها من الآفات، وكذلك ما يسمعون من أهل الكتاب من المطاعن في الدين الحنيف، وصد من أراد الإيمان، وتخطئة من آمن»[2]، كما وضحت الأطراف التي يقع منها الأذى، سواء من المشركين، أو أهل الكتاب، وكيفية مواجهته.

وفي موضع ثانٍ تبين الآيات كذلك؛ أن تكذيب الرسل هو ديدن الأمم السابقة؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾ [الأنعام:٣٤].

«وهذا تسلية من الله تعالى ذكره؛ لنبيه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦١٢، ٤/ ٢٠١.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٤٩.

محمد صلى الله عليه وسلم، وتعزيةٌ له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إياه؛ على ما جاءهم به من الحق من عند الله»[1].

فأكد لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه قد كذبت رسلٌ من قبله أرسلهم إلى أممهم، فنالوهم بمكروه، فصبروا على تكذيب قومهم إياهم، ولم يثنهم ذلك من المضي لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم[2].

وفي موضع آخر تؤكد الآيات تعرض الرسل للأذى على يد أقوامهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم:١٢].

وفي بيان إصرار هؤلاء الأقوام على محاربة رسلهم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم:١٣].

فهذه أنواع من الأذى الذي تعرض له الرسل عبر مسيرة الدعوة إلى الله فبين سبحانه «أن الكفار توعدوا الرسل بالإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي»[3]، وهذا ما فصلته الآيات في مواضع أخرى، فقوم شعيب عليه السلام هددوه بالطرد، وأخبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨].

والموقف ذاته مع لوط عليه السلام كما أخبر سبحانه: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل:٥٦].

وتكرر الموقف نفسه من كفار قريش فوصفت الآيات ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء:٧٦].

وذكرت به تارة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠].

وموسى عليه السلام من قبل يتهم ويشهر به في محاولة لتلويث سمعته؛ حتى يعجز عن تبليغ دعوة الله، وأشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف:٥].

إن الأمثلة السابقة تبين بوضوح أن الأمم السالفة كذبت المرسلين، وأتباعهم، وتناولتهم بصنوف الأذى المختلفة، فهي سنة الله التي تتمثل في دعوة صادقة؛ تتعرض للأذى من المدعوين، ويقابل أصحابها ذلك بالصبر، والتقوى، والتوكل على الله؛ حتى

(١) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٣٣٥.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٢٤٤.

تكتمل أركانها بالنصر الموعود منه سبحانه.

ثانيًا: أسباب الأذى في سبيل الله:

يمكن استعراض أسباب الأذى الذي يتعرض له الدعاة المصلحون فيما يلي:

١. الأذى بسبب الإيمان بالله.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج:٨].

ولعله من أبرز الأسباب؛ حيث ينقم الطغاة دومًا من المؤمنين؛ بسبب إيمانهم بالله عز وجل، ومن هنا يتفننون في أساليب الأذى، التي قد تصل إلى حد الإبادة الجماعية، وحفر الخنادق للحرق والتنكيل، كما صورت ذلك سورة البروج؛ فبعد أن ذكرت فظائع المجرمين؛ بينت بوضوح سبب ذلك التنكيل في قوله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج:٨].

«فهؤلاء الكفار الجبابرة ما أنكروا عليهم ذنبًا إلا إيمانهم، ولا عابوا على المؤمنين إلا أنهم صدقوا بالله»[(١)]، وهذا الفعل منهم «- أي: حضورهم الإحراق- دليل على أنهم قوم غلاظ الأكباد، قساة القلوب، تمكن الكفر والباطل منهم، وتجردوا عن الإنسانية، وفقدوا الرحمة»[(٢)]، وقد جاءت الآيات تبين ذلك في مواضع أخرى، وقرنتها بالأذى الواقع على المؤمنين، ففي معرض الحديث عن سحرة فرعون، وردهم على تهديداته بالصلب والتنكيل، يقول سبحانه على لسانهم: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾ [الأعراف:١٢٦].

فما أنكر منهم فرعون، وما وجد عليهم، إلا من أجل أن آمنوا[(٣)]، فبينوا بقولهم السابق أن عقاب فرعون لا غضاضة عليهم منه، لأنه لم يكن عن جنايةٍ تصمهم؛ بل كان على الإيمان بآياتٍ؛ لما ظهرت لهم[(٤)].

وهذا يؤكد بجلاء سبب الأذى الواقع على المؤمنين، وهو إيمانهم بالله عز وجل.

وكذلك عند بيان سبب عداء أهل الكتاب للمؤمنين وضحت الآيات ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ۝٥٩﴾ [المائدة:٥٩].

فهذا هو سبب النقمة، وحقيقة العداء بينهم وبين المسلم، الذي يتولد عنه الأذى بكافة أشكاله فهم «يعادونه لعقيدته ودينه، قبل أي شيء آخر، وهم يعادونه هذا العداء الذي لا يهدأ؛ لأنهم هم فاسقون عن دين الله، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٣٠/ ١٥٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٥٦- ٥٧.

دين الله»[1].

وتمثل الأذى في هذه الحالة في الاستهزاء بشعائر الدين، ويبين ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة:٥٧-٥٨].

«والدين هو ما عليه المرء من عقائد وأعمالٍ ناشئةٍ عن العقيدة، فهو عنوان عقل المتدين، ورائد آماله، وباعث أعماله، فالذي يتخذ دين امرئٍ هزؤًا؛ فقد اتخذ ذلك المتدين هزؤًا، ورمقه بعين الاحتقار؛ إذ عد أعظم شيءٍ عنده سخريةً، فما دون ذلك أولى»[2].

وهذا الاستهزاء في حقيقته محاولة لتشويه الإسلام، كخطوة أولى في الصد عنه.

٢. الأذى بسبب العجز عن مواجهة منطق الدعاة.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس:١٨].

يتصور العصاة دومًا أن بإمكانهم مواجهة منطق الحق؛ الذي ينادي به المصلحون؛ فيعمدون في البداية إلى مقارعة الحجة بالحجة، إما اعتقادًا بصواب منطقهم؛ نتيجة الغفلة التي عاشوا فيها تحت موروثات الآباء والأجداد؛ كما وصفهم سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس:٦].

أو اغترارًا بأنفسهم، كما حدث مع أصحاب القرية الذين ضربهم الله مثلًا في سورة يس، بل قد يصل الأمر بهم إلى تهيئة الأجواء لتلك المناظرة الفكرية، كشأن فرعون عندما دعا الناس وحشرهم في يوم الزينة ليروا فشل موسى عليه السلام حسب ظنه.

فأما أصحاب القرية فقد حاججوا الرسل؛ اعتقادًا منهم بأن الله لا يبعث رسلًا من البشر، وتصوروا بهذا الفهم المغلوط أن حجتهم قوية، ونقلت الآيات هذا في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس:١٥].

فحاججوا الرسل قائلين: «ما أنتم أيها القوم إلا أناس مثلنا، ولو كنتم رسلًا كما تقولون، لكنتم ملائكة»[3]، «وهذه شبهة كثيرٍ من الأمم المكذبة»[4]، فرد عليهم الرسل ببيان أن الله سبحانه يعلم حقيقتهم،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٩٠٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ٢٤١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٥٠١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٦٩.

وأكدوا من جديد أنهم لمرسلون، وبينوا بكل تواضع، ومنطق سليم، أن مهمتهم تقتصر على البلاغ، والبلاغ المبين، كما أخبر القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ [يس:١٦-١٧].

«فراجعتهم الرسل بأن ردوا العلم إلى الله وقنعوا بعلمه، وأعلموهم أنهم إنما عليهم البلاغ فقط، وما عليهم من هداهم وضلالهم»[(١)]، دون أن يسألوهم أجرًا، أو مقابلًا ماليًا، أو شيئًا من الزعامة أو السلطان أو الجاه، كما حاجج عنهم الرجل الصالح؛ الذي جاء من أقصى المدينة، تاركًا مصالحه؛ لينافح عن الدعاة، «فوصفهم بما يرغبهم في اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوي»[(٢)].

وذكرت الآيات ذلك في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس:٢١].

وهنا عندما أدرك أصحاب القرية أنهم عاجزون عن مواجهة منطق الحق، لجأوا -وبدون مواربة- إلى منطق القوة، فكان التهديد الواضح، والتصريح بالرجم، والعذاب الأليم؛ إن لم يتوقف الرسل عن ممارسة مهمتهم، كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس:١٨].

«أي: لئن لم تتركوا هذه الدعوى، وتعرضوا عن هذه المقالة؛ لنرجمنكم بالحجارة، وليمسنكم منا عذابٌ شديدٌ فظيعٌ»[(٣)].

وهكذا «لما ضاقت بهؤلاء المكذبين الحيل، وأعيتهم الحجج؛ لجئوا إلى التهديد والوعيد»[(٤)]، فهذا هو أسلوب المخالفين العاجزين دومًا، إذا شعروا بعجزهم عن مواجهة منطق الحق الصارخ، تحولوا دون وازع من ضمير، أو خلق، أودين، أو حتى مبادئ - تعارفوا عليها بينهم- إلى القمع والقتل والتنكيل.

وهذا المشهد يتكرر مع فرعون؛ الذي صور له صلفه، وغروره، أنه قادر على دحض منطق موسى عليه السلام فحشد الناس وجمعهم، «الميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم»[(٥)].

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٩/ ٥٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٦٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٤١٨.
(٤) تفسير المراغي، ٢٢/ ١٥٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٣٠١.

في مشهد سجله القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ [طه:٥٨-٦٠].

ثم كانت المواجهة الحاسمة التي اجتثت ما يأفكون، كما أخبر سبحانه: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧-١١٨].

«فلما عجز فرعون عن دفع الحجة بالبرهان؛ عدل إلى البطش والفتك بالسنان، وهكذا حال كل ضال مبتدع؛ إذا أعيته الحجة مال إلى التهديد والوعيد»[(١)]، فكشر عن أنيابه، وتوعد السحرة بالصلب والتنكيل، وحرضته حاشيته على قتل المسلمين بقولهم: «أتترك موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض؛ بالخروج عن دينك، وترك عبادة آلهتك!! وفي هذا إغراءٌ لفرعون بموسى وقومه، وتحريضٌ له على قتلهم، وتعذيبهم»[(٢)]، فوعدهم بأن يطالهم البطش، وبيّن القرآن هذا التعنت والطغيان في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٧].

إن هذه المشاهد وغيرها تبين أن العجز عن مواجهة حجة الأنبياء والمصلحين كان سببًا من أسباب الأذى الذي وقع، ولا زال يقع على الدعاة والمصلحين في كل زمان ومكان.

٣. الأذى بسبب تأييد أهل الحق.

قال تعالى: ﴿ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ [غافر:٢٥].

إن من الأسباب التي تدفع الطغاة إلى إيقاع الأذى بالناس؛ تأييدهم لأهل الحق، حيث كان الأذى عقابًا لهم على مواقفهم النبيلة، ومحاولة لدفعهم للتخلي عن هذه المواقف، وكذلك للحيلولة دون أن يلحق بهم آخرون.

وهذه المعاني واضحة في النموذجين السابقين، نموذج أصحاب القرية ونموذج فرعون، ففي نموذج فرعون كان التنسيق بينه وبين حاشيته على تعذيب من آمن مع موسى عليه السلام بتقتيل الأبناء واستحياء النساء، عقابًا لهم على مواقفهم، كما أخبر سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [غافر:٢٥].

فقالوا غيظًا وحنقًا وعجزًا عن المعارضة:

(١) صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٤٣٢.
(٢) المصدر السابق.

أعيدوا عليهم ماكنتم تفعلونه بهم أولًا؛ كي تصدوهم عن مظاهرة موسى عليه السلام[1].

إذن هي المظاهرة لموسى عليه السلام وتأييده، التي أججت حقد فرعون وحاشيته، ودفعتهم إلى هذا الكيد، والتآمر، المحكوم بالضلال والفشل.

وكذلك في ذات النموذج، ومع السحرة كان العقاب بسبب تأييدهم لموسى -عليه السلام- كما قال سبحانه على لسان فرعون وهو يتوعد السحرة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف:١٢٤]. «فرجع فرعون في مقالته هذه إلى الخذلان، والغشم[2]، وعادة ملوك السوء إذا غولبوا»[3]، فيلجأون إلى «التعذيب والتشويه والتنكيل، وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح»[4].

وأما في نموذج أصحاب القرية؛ كان الصدح بالحق من الرجل المؤمن؛ متمثلًا في الدفاع عن الرسل، وبيان صواب موقفهم، حتى ارتفع بمستوى التأييد إلى تبني رأيهم، ومواصلة مهمتهم، كما أخبر سبحانه عنه؛ وهو يكمل رسالتهم: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس:٢١-٢٥].

فناله منهم ما ناله؛ عقابًا له على موقفه الداعم للحق، فكان الأذى في واحدة من أشنع صور التنكيل، كما ذكر الطبري في تفسيره أنهم «وثبوا عليه، فوطئوه بأقدامهم حتى مات»[5].

وفي مثال ثالث: يتضح كيف يتفنن الحاقدون على الإسلام في إلحاق الأذى بكل من يساند الحق ويتبناه، فيقدمون - في أسلوب خسيس- على محاصرة الصالحين؛ بمحاربتهم في أرزاقهم، عقابًا لهم على تبنيهم للحق، فكان حصار قريش الجائر لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم في شعب أبي طالب، وامتد الحصار ليشمل كل من يتوقع منه مساندة المسلمين من الكفار أنفسهم، واستمر هذا الأسلوب الخسيس يستخدم على مدى الأيام؛ في محاولة لتجويع المسلمين؛ ليسهل من ثم تركيعهم،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ٣١٥.
(٢) الغشم: الظلم والغصب.
انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٤٣٧، والمراد عاد فرعون إلى ظلمه.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٤٤٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٣٥١.
(٥) جامع البيان، ٢٠/ ٥٠٨.

فكان تواصي المنافقين بعدم الإنفاق، فكانوا يقولون لأهل المدينة: لا تنفقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقراء المسلمين، ومن كانوا في رعايته من أهل الصفة، ومن كانوا يلحقون بالمدينة من الأعراب[1].

كما أخبر سبحانه وتعالى عنهم في قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون:٧].

فكانت هذه المحاولات عقابًا للمسلمين على مواقفهم وتأييدهم للحق.

إن هذه الأمثلة -وكثير غيرها- لتبين بجلاء، أن من أسباب الأذى الواقع على المسلمين؛ مساندتهم وتأييدهم لأهل الحق من الدعاة والمصلحين، فالداعية أوذي بسبب دعوته، وأتباعه أوذوا بسبب اتباعهم للحق الذي يدعو إليه.

٤. الأذى بهدف تشويه الدعوة والداعية.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف:٥].

وينصب هذا الأذى على الدعوة والداعية على حد سواء، فتارة يشوهون صورة الداعية، وأخرى يشوهون حقيقة الدعوة؛ فأما الداعية فإن النيل من عرضه وشرفه وسمعته، شكل من أشكال الأذى؛ يهدف إلى تعطيله عن ممارسة رسالته الشريفة، وبث الإشاعات للطعن في نزاهته، وبالتالي لا يلتفت لكلامه أحد، ولا يثق في دعوته مدعو.

ومن الأمثلة الواضحة على هذا اللون من الأذى؛ ما وقع في حق موسى عليه السلام من قومه بني إسرائيل بهدف تشويه شخصيته، للحيلولة بينه وبين دعوة الناس، وقد ذكر سبحانه ذلك الأذى تارة في موضع تحذير المؤمنين من الوقوع في مثل ذلك السلوك الشيطاني من الإساءة لنبيهم، كما أساء اليهود من قبلهم؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب:٦٩].

وتارة أخرى على لسان موسى عليه السلام وهو يعاتب قومه على هذا الاتهام الباطل، رغم معرفتهم بحقيقته وصدق رسالته، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف:٥].

أما محاولات تشويه الدعوة؛ فمن الأمثلة عليها ما فعله اليهود « ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ٢٤٦.

مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين»[1].

فيكون ذلك دافعًا للآخرين ليحجموا عن الدخول في الإسلام وقد فضح القرآن أسلوبهم الرخيص هذا في مواجهة منطق الحق فقال سبحانه: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِالَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران:٧٢].

ثالثًا: أساليب مواجهة الأذى:

إن تعرض أصحاب الدعوات الصالحة للأذى؛ هو سنة إلهية على مر الأزمان والعصور، والله سبحانه لم يترك أولياءه يواجهون كل هذا الكيد، والمكر، ويتعرضون لأشكال شتى من الأذى؛ دون أن يمنحهم عدة المواجهة، فدلهم سبحانه على طرق، وأساليب مقاومة هذا الأذى، ويتضح ذلك من خلال الآيات التي تحدثت عن الأذى في سبيل الله؛ حيث نستقرئ منها بعض الأساليب، وبيان ذلك فيما يلي:

١. التقوى.

إن اعتبار التقوى من أساليب مواجهة الأذى أمر بدهي؛ فما دمت تصدح بالحق، وتتلقى هذا الأذى بسبب ما تنادي به، وتدعو إليه من مبادئ فاضلة؛ فمن باب أولى أن تتبناه منهجًا في حياتك، وأن تحرص عليه قبل الآخرين الذين تدعوهم إليه، استجابة لقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف:٢-٣].

وهذا يعني وأنت الداعي إلى الحق أن تكون أكثر من الآخرين قربًا إلى الله وخشية منه وتقوى له سبحانه، فالتقوى هي التي تمنحك القدرة على تحمل الأذى في سبيل فكرتك ولهذا «ندب الله تعالى عباده إلى الصبر والتقوى، وأخبر أنه من عزم الأمور، أي: من أشدها وأحسنها»[2].

فقال سبحانه: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦].

ويمكن فهم دور التقوى في مجال مواجهة الأذى في سبيل الله من خلال ما يلي:

١. صاحب التقوى يلازمه شعور بأنه يتلقى الأذى بسبب قضيته العادلة، وبقدر ما يكتنفه من خشية لله وخوف من عقابه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٥٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٥٥١.

ورجاء لمغفرته بقدر ما يزداد صلابة وقدرة على التحمل، فهي «دليل على قوة الإرادة، ومضاء العزيمة، وعلو الهمة»[(١)].

٢. صاحب التقوى يدرك أن أي ضعف أو رضوخ تحت وطأة الجلاد سيكون على حساب قضيته العادلة، وقد يؤدي إلى سيطرة الظلم وضياع الحقوق ولن يبقى للمتقين مكان لممارسة منهج الله وشعائره التي تعكس مدى تقواهم لله، فهي إذن دعوة إلى «أن تتخذوا الوقاية بطلب رضا الله تعالى، ورجاء ما عنده، وأن تستعدوا، وتدفعوا الاعتداء بالحق، وتعملوا على الخروج من المحنة، فليس شأن المؤمن استسلامًا للمصائب تنزل به، بل شأنه صبر من غير جزع، وعمل من غير طمع، وجد وجهاد ودفع للشر»[(٢)].

٣. التقوى تحول بين صاحبها وبين تجاوز الحد في الرد على المعتدي المؤذي فتحميه من الهبوط إلى مستواه، فالأصل أن «تتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله»[(٣)].

٤. يمارس الطغاة الأذى على الصالحين ليدفعوهم للتخلي عن إيمانهم خوفًا من الأذى، فإذا تحلى الداعية بالتقوى فهو لا يخشى إلا الله، ومن يخشى الله لا يهاب أحدًا سواه، فكيف سيؤثر فيه الأذى؟ ومن هنا كانت التقوى خير معين على مواجهة الأذى، فقد بين سبحانه أن التقوى والصبر من الأمور التي أمر بها؛ لأنها تؤدي إلى النجاح، فالصبر والتقوى بهما النجاح في الأمور[(٤)].

وهناك من يتحمل الأذى؛ دون أن يعود ذلك إلى تقواه، بل حرصًا على مصالحه، كما تحدثت الآيات عن الذين ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله، فيكابدون معاناة فقد الأموال، ويتحملون ذلك لا عن تقوى؛ وإنما عن حقد، وغيظ دفين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦﴾ [الأنفال:٣٦].

وهذا يجعل التقوى فارقة؛ بين دائرة الذين يؤذون في سبيل الله، وغيرهم من

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ١٩٦.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣/ ١٥٤١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٦٠.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣/ ١٥٤١.

أصحاب الأهداف الهابطة، ويمنحنا فهمًا أوسع للحكمة من ذكر صفة التقوى ضمن وسائل مواجهة الأذى في سبيل الله.

٢. الصبر.

أكد القرآن في أكثر من موضع أن الابتلاء أمر حتمي ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد:٣١].

ولتجاوز الإبتلاء والنجاح في الاختبار لابد أن يتسلح المسلم بالصبر، فمن المؤكد أن أي معاناة يتعرض لها الإنسان تتطلب منه قدرًا من الصبر؛ حتى يتمكن من تجاوزها، وهذا يجعل الصبر واحدًا من أساليب مواجهة الأذى، وقد صرحت به الآيات في أكثر من موضع؛ مرتبطًا بالأذى كما سبق في قوله تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦].

ومن المواضع الأخرى الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام:٣٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٨-١٢٩].

قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١٢].

وبالتأمل في هذه الآيات يتبين لنا بوضوح أن الصبر عامل مهم من عوامل مواجهة الأذى فآية سورة (الأنعام) «تضمنت عرض الأسوة التي ينبغي الاقتداء بها على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجيته أن يأتيه مثل ما أتاهم من النصر إذا امتثل ما امتثلوه من الصبر»[1].

فالصبر في مواجهة الأذى طريق يرجى بها تحقيق النصر، ورفع الأذى عن المؤمنين.

ويتكرر الأمر في آية سورة الأعراف على لسان موسى عليه السلام والذي يبين لقومه أن الاستعانة بالله، والصبر هما سبيل مواجهة تهديدات فرعون، فقال لهم: استعينوا بالله وحده، واطلبوا العون والتأييد منه على رفع ذلك الوعيد عنكم، واصبروا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٨٧.

ولا تحزنوا، فالله هو المعين على الشدائد، والصبر سلاح المؤمن ومفتاح الفرج[1].

وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج[2].

أما في آية سورة إبراهيم نجد الرسل عليهم السلام يستعينون بالصبر في مواجهة أذى أقوامهم، وذلك لأنه دعامة قوية في التغلب على أذى الطغاة، فيعلنون موقفهم معتمدين على الله قائلين: «لنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى؛ احتسابًا للأجر، ونصحًا لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير»[3].

٣. التوكل على الله.

في مواجهة الأذى لابد من التوكل على الله فهو المعتمد، وهو المقصود سبحانه في كل الحوائج وبدون معيته فالضياع محتوم والقدرة على المواجهة معدومة، ولهذا صرح به الرسل وهم يتحدون أقوامهم، وذكر الله ذلك على لسانهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١٢].

«فلا سبيل أمام الأنبياء إلا الصبر على الأذى والاعتصام بالله وتفويض الأمر إليه والتوكل التام عليه، فإن الصبر مفتاح الفرج، ومطلع الخيرات، والتوكل على الله والاعتماد على فضله محقق للنصر والفتوح»[4]، «فأمام هؤلاء الأقوياء المتعنتين لابد من اعتماد على القوي القادر القهار»[5]؛ «فليستمر المؤمنون، ويثبتوا على توكلهم على الله، وليثقوا به، وليتحملوا كل أذى في سبيل مرضاته، ففي ذلك الخير كله والنجاة الأبدية في عالم الآخرة»[6].

٤. الاحتساب.

وذلك باحتساب الأجر على الله، وباليقين بأن الله حسبه وكافيه، فمن العوامل المعينة على مواجهة الأذى؛ شعور الإنسان أن ما يتعرض له من أذى يقابله الأجر الكبير من الله، فهو يحتسب ما يصيبه من أذى عند الله؛ مما يهون عليه شدة العذاب، وقسوة الجلاد، كما أن إدراكه بأن الله كافيه شرور المتربصين، يزيده عزمًا على المضي في نشر دعوة الحق، ولذلك وجه الله نبيه عليه الصلاة والسلام إلى الاعتماد عليه في وجه

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ٥٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٠٠.
(٣) المصدر السابق، ص٤٢٢.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٣/ ٢٢٢.
(٥) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٨/ ٤٠٠٤.
(٦) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١١٨٦.

متاعب الدعوة، وإعراض الناس عنه، فقال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩].

وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل مضطهد بأن الله «يعينك عليهم ويكفيك أمر توليهم وما يتبعه من عداوتهم وصدهم عن سبيله»[(١)].

وقد لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام -رضوان الله عليهم- إلى هذا الدعاء، في مواجهة ما بلغهم من أخبار عن تجمع جيش قريش لهم، بعد غزوة أحد كما قال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩].

أما في رجاء الأجر، واحتساب تكاليف الاستجابة لنداء الحق عند الله، نجد المؤمنين يتوجهون إلى الله بالدعاء، أن يجزيهم أجر استجابتهم لرسالة الإيمان؛ بكل ما تحمله الاستجابة من تكاليف، كما قال سبحانه مخبرًا عنهم: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩٣-١٩٤].

فكانت الاستجابة من الله عز وجل كما أخبر سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران:١٩٥].

ومن المؤكد أن استشعار الداعية لمعية الله، ويقينه بجزيل الأجر؛ استشعاره هذا يمنحه إرادة قوية في مواجهة الأذى.

٥. الإعراض عن المؤذي.

وهذا منهج آخر ووسيلة مختلفة في مواجهة الأذى تتلخص في إعراض الداعية عن المؤذي كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب:٤٨].

«أي: لا تكترث بما يصدر منهم من أذى إليك؛ فإنك أجل من الاهتمام بذلك»[(٢)]، فإن تجاهلك للمؤذي يرفع من قيمتك ومكانتك، وقد يرفع من شأنك عند المدعوين الآخرين فيكون سببًا في هدايتهم.

(١) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٥٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٥٨.

إيذاء الله ورسوله

تعرض النبي عليه الصلاة والسلام خلال رحلته المباركة إلى كثير من الأذى؛ عبر أساليب متعددة، فمن السخرية به، والتكذيب لرسالته، إلى الأذى الجسدي له، ولمن تبعه، وقد ورد في ذلك روايات كثيرة؛ تصف هذه المحن التي تعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

١. السخرية والتكذيب: فعن سخريتهم وتكذيبهم قال سبحانه مبينًا ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين:٢٩-٣١]. وكذلك ما رواه البخاري عن جندب بن سفيان رضي الله عنه، قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين - أو ثلاثًا - فجاءت امرأةٌ فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين - أو ثلاثةٍ - فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى:١-٣][1].

٢. الأذى الجسدي: أما عن الأذى الجسدي الذي تعرض له النبي عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام، ما رواه البخاري بسنده إلى (عروة بن الزبير، قال: سألت عبد الله بن عمرٍو، عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: رأيت عقبة بن أبي معيطٍ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكرٍ حتى دفعه عنه، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨])[2].

ومن المؤكد أن الأذى الذي يتعرض له الصحابة؛ كان يؤلم النبي صلى الله عليه وسلم ولهذا نصحهم بالهجرة إلى الحبشة، فكانت الهجرة الأولى إليها.

وباستعراض الآيات التي تحدثت عن إيذاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتناولت ذلك بلفظ الأذى، يمكن أن تكتمل الصورة أكثر:

أولًا: بالتأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ما وعدك ربك وما قلى)، رقم ٤٩٥٠، ٣/ ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذًا خليلًا)، رقم ٣٦٧٨، ٥/ ١٠.

﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٦-٥٨].

يمكن ملاحظة بعض الأمور:

١. قبل أن يتحدث القرآن عن أذى النبي عليه الصلاة والسلام بينت الآيات عظم مكانته وشرفه صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب:٥٦] «فلما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه»[(١)]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب:٥٧].

٢. والأذى هنا «يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له، أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذى»[(٢)]. الذين يؤذون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في الآية «هم اليهود والنصارى والمشركون، أما اليهود فإنهم قالوا: يد الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وإن الله ثالث ثلاثة، وقال المشركون: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه، وسبوا رسول الله، وكسروا رباعيته وقالوا: مجنون شاعر كذاب»[(٣)]، وقد استدل الواحدي على صحة هذا التفسير بما رواه مسلم عن عبد الله ابن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أحدٌ أصبر على أذًى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له ندًا، ويجعلون له ولدًا، وهو مع ذلك يرزقهم، ويعافيهم، ويعطيهم)[(٤)]. ثم أضاف الواحدي مبينًا حقيقة معنى يؤذون الله: أي «يخالفون أمر الله، ويعصونه، ويقولون في وصفه ما هو منزه عنه، والله تعالى لا يلحقه أذى، ولكن لما كانت المخالفة فيما بيننا، والخروج عن أمر الله، يسمى إيذاء له؛ خاطبنا الله بما نعرفه في تخاطبنا»[(٥)]، وفي إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم إضافة إلى ما سبق من قولهم: مجنون وشاعر وكذاب، كذلك «قيل: هو كسر رباعيته، وشج وجهه الكريم

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٤٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٧١.
(٣) البسيط، الواحدي، ١٨/ ٢٩٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل، رقم ٧١٨٢، ٨/ ١٣٣.
(٥) البسيط، ١٨/ ٢٩٠.

يوم أحد، وقيل: طعنهم في نكاح صفية، والحق هو العموم فيهما»[1].

٣. جاء التعبير عن أذى الله عز وجل، وأذى رسوله صلى الله عليه وسلم معًا؛ في حين أفرد للحديث عن أذى المؤمنين آية أخرى، فقال سبحانه بعد الوعيد للذين يؤذون الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٨].

٤. فالأول -أي: ذكرهما معًا-: فإضافة إلى ما ذكر في معنى أذى الله عز وجل، فإنه سبحانه جعل أذى النبي عليه الصلاة والسلام أذى له؛ تشريفًا لمنزلته[2] صلى الله عليه وسلم. وأما الثاني -أي: إفراد أذى المؤمنين-: فلعل ذلك «لأن أذى الله ورسوله، لا يكون إلا غير حق أبدًا، وأما أذى المؤمنين والمؤمنات، فمنه»[3]«حق كالحد والتعزير ومنه باطل»[4]، كما أن «أذية الرسول صلى الله عليه وسلم ليست كأذية غيره؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يؤمن العبد بالله، حتى يؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم وله من التعظيم، الذي هو من لوازم الإيمان، ما يقتضي ذلك، أن لا يكون مثل غيره، وإن كانت أذية المؤمنين عظيمة، وإثمها عظيمًا»[5]، ولهذا عقب بذكرها.

٥. بيّن سبحانه أن من يتجرأ على إيذاء الله عز وجل، وإيذاء رسوله صلى الله عليه وسلم عقابه «الطرد والإبعاد من رحمته، وجعل ذلك في الدنيا والآخرة؛ لتشملهم اللعنة فيهما، بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم، ومماتهم، إلا واللعنة واقعة عليهم، ومصاحبة لهم، وأعد لهم مع ذلك اللعن، عذابًا مهينًا يصيرون به في الإهانة في الدار الآخرة، لما يفيده معنى الإعداد من كونه في الدار الآخرة»[6].

ثانيًا: وفي موضع آخر نرى كيف يثبت الله نبيه صلى الله عليه وسلم ويسليه؛ ليتجاوز به آلام الأذى، ووقعها المحزن على النفس، فالأذى ليس سهلًا، حتى وإن كان مجرد تكذيب واتهام، ناهيك عن الأذى الجسدي، فقال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١١٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، ٢/ ٥٨٩.
(٣) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٥٩.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٤٤.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٧١.
(٦) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٤٧.

مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام:٣٣-٣٤].

وهنا نجد المواساة للنبي عليه الصلاة والسلام والتثبيت، والوعد بالنصر، فالمواساة لأنهم «لا يكذبونك في الحقيقة؛ وإنما يكذبون الله بجحود آياته»[(١)]، والتثبيت لأن هذا التكذيب حدث للأنبياء من قبلك، والوعد بالنصر حيث إنها إرادة الله التي لا مبدل لها، «فلما سلاه تعالى بأنهم بتكذيبك إنما كذبوا الله تعالى، سلاه ثانيًا بأن عادة أتباع الرسل قبلك، تكذيب رسلهم، وأن الرسل صبروا، فتأس بهم في الصبر»[(٢)].

ثالثًا: وفي موضع ثالث تعرض لنا الآيات بعض السلوكيات التي تصدر من بعض المسلمين، وتسبب أذىً للنبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب:٥٣].

فالآية تفصل في سلوك اجتماعي؛ يجب معرفة الصواب فيه، والتصرف بما هو لائق بخصوصه، فتبين كيفية التعامل مع بيوت النبي صلى الله عليه وسلم؛ من حيث دخولها أولًا، وتناول الطعام فيها ثانيًا، والتعامل المؤدب النظيف مع زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، وعليهن رضوان الله.

وقد كان ذلك لحادثة رواها البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: (لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا؛ فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت، فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٣] الآية)[(٣)].

وهذا تصحيح لسلوك خاطئ؛ أراد الله

(١) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ١٨.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٤٩٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (لا تدخلوا بيوت النبي)، رقم ٤٧٩١، ٦/ ١١٨.

سبحانه أن يعلمهم، ويعلم من بعدهم، فقد كانوا يجلسون عند النبي صلى الله عليه وسلم قبل الطعام، وبعد الطعام، يتحدثون عنده طويلًا، وكان يؤذيه ذلك، ويستحي أن يقول لهم قوموا، إذ أن دخول بيته بغير إذن، والقعود لانتظار الطعام، يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم فيستحي منهم أن يخرجهم منها، فيحتمل صلى الله عليه وسلم إطالتهم كرمًا منه، ويصبر على الأذى في ذلك، فعلم الله من يحضره الأدب، فصار أدبًا لهم ولمن بعدهم[(١)].

أما في مسألة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وهو أذىً آخر تحركت له حساسية عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما روى البخاري عن أنس، قال: قال عمر رضي الله عنه: قلت: (يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب)[(٢)]، فأذن الله «في مسألتهن من وراء حجاب، في حاجة تعرض، أو مسألة يستفتين فيها، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى، وبما تضمنته أصول الشريعة»[(٣)].

فالأمر إذًا ليس مقصورًا على أذى الكفار، بل هناك ممارسات يومية، قد تسبب الأذى للداعية، من المحيطين به، وعلينا أن نتنبه لهذا، ونقوم سلوكنا نحو الأفضل؛ لا أن نكون مصدر إزعاج لبعضنا البعض.

موضوعات ذات صلة:

الاستهزاء، الثبات، الضر، الفتنة، المرض، المن

(١) انظر: البسيط، الواحدي، ١٨/ ٢٨٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (لا تدخلوا بيوت النبي)، رقم ٤٧٩٠، ٦/ ١١٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٢٢٧.

الأرض

عناصر الموضوع

مفهوم الأرض	٢٠٦
الأرض في الاستعمال القرآني	٢٠٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٠٨
الأرض ودلائل التوحيد	٢١٠
خلق الأرض	٢١٤
الأرض والإنسان	٢١٧
الأرض بين النعيم والعذاب	٢٢٧
الأرض يوم القيامة	٢٣٢
لمسات إعجازية في الأرض	٢٣٥

مفهوم الأرض

أولًا: المعنى اللغوي:

الهمزة والراء والضاد ثلاثة أصول، الأول كل شيء يسفل ويقابله السماء، والثاني الزكمة، يقال: رجل مأروض، أي: مزكوم، والثالث الرعدة، يقال: فلان به رعدة، أي: رعشة، والأصل الأول هو الذي يكثر تداوله، وأما الأصلان الآخران فلا ينقاسان بل يوضع كل واحد منهما حيث وضعته العرب، وكلمة أرض مفرد جمعها أرضون[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

بتتبع تعريفات الأرض اصطلاحًا، يلاحظ وجود ارتباط وثيق بين التعريف اللغوي الأول للأرض والتعريف الاصطلاحي لها، فكلمة الأرض تعني التربة، وتعني كذلك المكان الذي تستقر عليه القدم[(٢)]، وهذان المعنيان يرتبطان بالمعنى اللغوي الأول للأرض، فالتربة تقع في الأسفل بالنسبة للإنسان والحيوان والنبات وغيرهم، وكذا الأمر بالنسبة للمكان الذي تستقر عليه القدم، فالقدم لا تسقر إلا على ما هو أسفل منها.

وبالنظر في التعريفات الاصطلاحية للأرض يمكن القول أن أشمل هذه التعريفات هو ما ذكره علماء الجغرافيا والبيئة، وقد وضعوا لها التعريف الآتي:

«الأرض هي أحد الكواكب التسعة التي تدور حول الشمس، وهي الثالثة بالنسبة للقرب من الشمس، والثالثة من حيث درجة اللمعان إذا ما شوهدت من عند الشمس، والخامسة بين المجموعة الشمسية من حيث الحجم»[(٣)].

وعلى الرغم من شمولية هذا التعريف للأرض من الناحية الفلكية، إلا أنه يحتاج إلى إضافة بعض الأمور حتى يكون أدق وأشمل، وبالتالي فإن من الممكن القول بأن التعريف الأشمل والأدق للأرض اصطلاحًا هو: أحد الكواكب التي تدور حول الشمس، والذي هيأه الله تعالى ليكون الإنسان فيه خليفة، وليعيش عليه العديد من المخلوقات، وهو ثالث الكواكب من حيث القرب من الشمس، وهو الثالث من حيث درجة اللمعان، والخامس من حيث الحجم قياسًا بكواكب المجموعة الشمسية.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٨٠، المحكم، ابن سيده ١/ ٣٦٩.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد عمر ١/ ٨٤.
(٣) المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، محمد محمود محمدين ص ١٠٩.

الأرض في الاستعمال القرآني

وردت كلمة (الأرض) في القرآن الكريم (٤٦١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
معرفة	٤٥٩	﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣]
منكرة	٢	﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسف:٩]

وجاءت كلمة الأرض في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الجرم المعروف المقابل للسماء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

الثاني: الجنة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر:٧٤].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٦ - ٣٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهمزة ص ٥٣ - ٦٣.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٥٣ - ٥٦، الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص١٥٨، ١٦٠، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، ص٧٦ - ٧٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ السماء:

السماء لغة:

السماء في اللغة: يقال لكل ما ارتفع وعلا قد سما يسمو، وكل سقف فهو سماء، ومن هذا قيل للسحاب: السماء، لأنها عالية[(١)].

السماء اصطلاحًا:

سماء كلّ شيء: أعلاه، ومنه هذه السماء المعروفة التي فوقنا[(٢)].

الصلة بين الأرض والسماء:

صلة السماء بالأرض من حيث إن الأرض مهبط لما ينزل من السماء، والسماء مصعد لما يرفع إليها من الأرض، وقد ذكرتا مقترنتين في القرآن الكريم بألفاظ متقاربة في مواضع كثيرة.

قال ابن القيم: وأما الأرض فأكثر ما تجيء مقصودًا بها معنى التحت والسفل دون أن يقصد ذواتها وأعدادها، وحيث جاءت مقصودًا بها الذات والعدد أتى بلفظ يدل على البعد كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

وفرق ثان وهو أن الأرض لا نسبة لها إلى السموات وسعتها، بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء فهي وإن تعددت وتكبرت فهي بالنسبة إلى السماء كالواحد القليل فاختير لها اسم الجنس[(٣)].

٢ الفلك:

الفلك لغة:

كل شيء دائر، والفلك مجرى الكواكب وتسميته بذلك لكونه كالفلك، قال الله عز وجل: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] وفلكة المغزل ومنه اشتق فلك ثدي المرأة، وفلكت الجدي إذا جعلت في لسانه مثل فلكة يمنعه عن الرضاع[(٤)].

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ١١٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٢٧.
(٣) بدائع الفوائد، ابن القيم ص ١٤٩.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٥٤، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٧٨.

الفلك اصطلاحًا:

والفلك واحد أفلاك النجوم. وفي حديث ابن مسعود: (تركت فرسي كأنه يدور في فلك). كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذي تدور عليه النجوم. قال ابن زيد: الأفلاك مجاري النجوم والشمس والقمر، وهي بين السماء والأرض[1].

الصلة بين الفلك والأرض:

الفلك جزء كبير تحت السماء الدنيا فيه كل ما يزينها من نجوم وكواكب، والأرض كوكب من تلك الكواكب السيارة في الفلك.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٨٦.

الأرض ودلائل التوحيد

إن من أبرز ما تميزت به الآيات القرآنية التي عنيت بذكر مخلوقات الله تعالى، وبعظيم صنعه جل وعلا في هذه المخلوقات هو الدعوة إلى الاعتقاد بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف، وبالأخص ما يتعلق من هذه المبادئ بمسألة التوحيد بأنواعه الثلاث (الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات)، وفيما يأتي بيان لما ركزت على إبرازه وتقريره الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الأرض من دلائل التوحيد:

١. دليل على ربوبيته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وقد استدلت هذه الآية القرآنية الكريمة على وحدانية الله تعالى من خلال تقريرها:

١. ربوبية الله تعالى من خلال بيانها أنه سبحانه هو:

- الخالق للسماوات السبع التي أبهرت بعظمتها كل من تعرف على خصائصها.
- الخالق للأرض التي يعيش الناس عليها و فيها يجدون كل مستلزماتهم التي لا يستطيعون العيش بدونها.

٢. بعضًا من أسماء الله تعالى وصفاته، والمتمثلة بأنه سبحانه:

- المتصف بالاستواء على العرش الذي يفوق كافة المخلوقات عظمة وجمالًا.
- المدبر للأمور جميعها.

٣. وحدانية الله تعالى في ألوهيته.

وبذلك تكون الآية القرآنية قد بدأت بتقرير عقيدة توحيد الربوبية، ثم قررت بأنه سبحانه قد استوى على العرش، وأنه مالك التدبير، ثم ختمت بتوجيه الأمر للعباد بضرورة إفراد الله تعالى بكل صور العبادة[1].

٢. دليل على قدرة الله تعالى على البعث والنشور.

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٣- ٣٤].

استدلت هاتان الآيتان الكريمتان على قدرة الله تعالى على البعث والنشور من خلال الاستدلال بما هو مشاهد على ما هو غيبي غير مشاهد، فاستدلت على عقيدة البعث والنشور الغيبية، بحقيقة إحياء الأرض الميتة التي لا نبات فيها ولا حياة بعد نزول الأمطار عليها، فتصبح ذات زرع

(١) انظر: بيان التوحيد الذي بعث الله به الرسل، ابن باز ص١٧.

وخضرة بعد أن كانت قاحلة لانبات فيها ولازرع.

وبالتالي فإن الآيتين الكريمتين قد استخدمتا الأرض لإثبات عقيدة البعث والإيمان بالآخرة استخدامًا يقنع ذوي الألباب بقدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة، فكما أن الله تعالى قد أحيا الأرض الميتة، فهو سبحانه سيحيي الأموات، وسيبعثهم من قبورهم للحشر والحساب.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥-٧].

تبرهن هذه الآيات الكريمة على عقيدة الإيمان بالآخرة من خلال وصف حالتي الأرض قبل نزول الأمطار وبعدها، فالأرض في موسم الجفاف قبل أن ينزل عليها الغيث تكون هامدة، أي: يابسة لا نبات فيها ولا حياة[1]، أما بعد نزول الأمطار النافعة على ذات الأرض فإنها تصبح مصدرًا للحياة لما تخرجه من الزرع، وما تخزنه من الماء العذب، وعملية الإحياء هذه للأرض بعد موتها برهان على عملية البعث يوم القيامة؛ لأن الله تعالى الذي أخبر بأنه أحيا الأرض الميتة، وجعل ذلك واقعًا مشاهدًا للخلق هو الذي أخبر بأنه سيبعث الناس من قبورها للحساب في الآخرة، وهذا ما تم التأكيد عليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

يقول ابن أبي زمنين في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الحج:٦]: «إن الذي أخرج من هذه الأرض الهامدة ما أخرج من النبات قادرٌ على أن يحيي الموتى»[2].

٣. تسبيح الأرض.

مما لا شك فيه أن تسبيح المخلوقات جميعها لله سبحانه دليل على وحدانيته جل وعلا، فلو لم يكن سبحانه وحده الخالق الرازق المدبر لشؤون جميع المخلوقات لما سبحت له، ولما قدسته.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

و الأرض من ضمن المخلوقات العظيمة الخلق التي تسبح بحمد الله تعالى كما هو مبينٌ في الآية الكريمة.

(١) انظر: تحفة الأريب، أبو حيان الأندلسي ص٣٠٥.

(٢) تفسير القرآن العزيز٣/ ١٧٢.

يقول سيد قطب في بيان معنى فاصلة الآية الكريمة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾: «وذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب الكوني المسبح بحمد الله، بينما البشر في جحود وفيهم من يشرك بالله، ومن ينسب له البنات، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه. والبشر أولى من كل شيء في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد. ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر. ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظهم ويزجرهم»[1].

٤. الله هو المالك المتصرف في الأرض.

أثبتت آيات الذكر الحكيم أن الله تعالى هو المالك المتصرف في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

وتعد ملكية الله تعالى للأرض والسماوات من أقوى الأدلة على وحدانيته جل وعلا؛ وذلك لأنه لو كان هنالك مالك لهما غير الله تعالى لفسدت أحوالهما.

قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٢].

وبالتالي فإن صلاح أمر الأرض والسماوات يعني أن المتصرف فيهما هو واحد أحد لا شريك له[2].

٥. إحاطة علم الله تعالى بما في الأرض.

بينت آيات القرآن الكريم في غير موضع أن الله تعالى بكل شيء عليم، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النور: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

وتعد هذه الآيات الكريمة غيض من فيض إذا ما كان المراد هو الحديث عن اهتمام القرآن الكريم بصفة العلم الثابتة لله تعالى، ويعد علم الله تعالى بالأمور كلها وبالأخص ما يحدث منها على وجه الأرض

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣١.

(٢) انظر: معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ٣/ ٢٦٠.

من أقوى الأدلة على وحدانية الله تعالى، فلو أنه سبحانه لم يكن يعلم ما يحدث على الأرض للزمه شريك يزوده بما يخفى عليه من المعلومات حتى لا يقع في الظلم عند تقسيم الأرزاق، أوعند التشريع، أوعند الحساب، أو....إلخ، وبالتالي فلما ثبت للعباد قطعًا عدم وقوع الظلم من الله تعالى في أي أمر من الأمور، تبين أنه سبحانه واحد لا شريك له ولا مثيل.

٦. وراثة الله تعالى للأرض.

يعد انفراد الله تعالى بميراث السماوات والأرض من أبرز ما يدلل على وحدانيته جل وعلا، إذ لو كان معه إله غيره لقاسمه هذا الميراث، وبالتالي فإن تقرير آيات القرآن بتفرد الله تعالى بميراث السماوات والأرض دليل على وحدانيته جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وتقديم الجار والمجرور (لله) يأتي بغرض التخصيص، وبالتالي فلا منازع ولا شريك له سبحانه في الإرث للسماوات والأرض[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

يقول النسفي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «أي: نتفرد بالملك والبقاء عند تعميم الهُلْك والفناء»[(٢)].

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٣٧٣.

(٢) مدارك التنزيل٢/ ٣٣٧، والهلك بمعنى الهلاك.

خلق الأرض

خلق الله تعالى الأرض وجعلها مهيأةً ليعيش عليها عباده، فوفر لهم فيها كل ما يلزمهم من مأكل ومشرب ومسكن وملبس و.....إلخ، وهذه النعمة لا تقتصر على العباد المكلفين وإنما تتعدى ذلك لتعم كافة المخلوقات التي تعيش على الأرض، وقد ذكر القرآن الكريم عدة خصائص زود الله تعالى بها الأرض حتى تكون صالحة لمعيشة ما عليها من مخلوقات، ومن هذه الخصائص ما يأتي:

١. الرتق والفتق.

الرتق لغةً هو إصلاح الفتق[١]، أما الفتق فهو الشق[٢].

ذكر القرآن الكريم أن السماء والأرض كانتا رتقًا ففتقهما الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقد ذكر المفسرون ثلاثة أقوال في معنى الرتق والفتق هي:

أحدها: أن السماء كانت رتقًا لا تمطر، وأن الأرض كانت رتقًا لا تنبت، ففتق الله تعالى السماء بالمطر، وفتق الأرض بالنبات.

الثاني: أن السماء والأرض كانتا رتقًا، أي: متلاصقتين، ففتقهما الله تعالى.

الثالث: أن الله تعالى فتق الأرض من الأرض ست أرضين، فصار المجموع سبعًا، وأنه تعالى فتق من السماء ست سماوات، فصار المجموع سبعًا[٣].

وسواءٌ أكان المراد بالرتق والفتق هو واحد من المعاني الثلاثة السابقة الذكر، أو كان المراد بهما جميع المعاني الثلاثة السابقة، فإن الحاصل الآن هو أن السماء تمطر، والأرض تنبت، وأن السماوات سبعًا، وكذلك الأرض، وأن السماء والأرض منفصلتين، وهذه الأمور جميعها هي مما أنعم الله تعالى به على عباده.

٢. المد والبسط والدحو.

المد في اللغة يعني الجذب والمطل، يقال: رجل مديد الجسد، أي: طويل[٤]، والبسط في اللغة يعني النشر[٥]، والدحو في اللغة يعني البسط[٦].

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى قد مد الأرض، وأنه قد بسطها، وأنه قد دحاها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٥/ ٣٣١.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٤/ ١٥٣٩.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ١٨٩.
(٤) انظر: المحكم، ابن سيده ٩/ ٢٨٧.
(٥) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٩/ ١٤٢.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٥١.

﴿فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩].

قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠].

والألفاظ الثلاثة كلها تدور حول المد والبسط.

فأما مد الأرض؛ فهو بسطها طولًا وعرضًا[(١)].

وأما بسطها؛ أي: جعلها ممهدة مهيأة للاستقرار[(٢)].

وأما دحو الأرض؛ أي: بسطها[(٣)].

وهذا المد والبسط للأرض من أعظم النعم، فلولا أن الله جعلها مبسوطة لما تمكن سكانها من التنقل بسهولة ويسر بين الأماكن المختلفة لقضاء الحاجات المتعددة، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩- ٢٠].

فجملة تسكنوا في قوله تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا﴾ في محل نصب مفعول لأجله، أي: أن الله تعالى قد بسط الأرض بغرض تمكين الناس من اتخاذ المسالك والطرق التي تربط بين الأماكن ذات الصلة بحاجاتهم.

٣. التذليل.

التذليل في اللغة: هو التسهيل[(٤)].

ذكر القرآن الكريم أن الله عز وجل قد ذلل الأرض.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقد ذكر المفسرون أن معنى كلمة ذلولًا الواردة في الآية الكريمة، أي: سهلة مهيأة للمشي في طرقاتها[(٥)].

وبالنظر في آية الملك يمكن القول بأن الله تعالى لما من على عباده بأن جعل لهم الأرض مذللة، أعقب ذلك بـ:

- الأمر بالمشي وتحصيل الرزق، فالأمران مرتبطان مع بعضهما، فلو أن الله تعالى لم يذلل الأرض لشق على الناس التنقل في طرقاتها وبالتالي لشق عليهم أيضًا كسب أقواتهم وأرزاقهم.
- الدعوة إلى ضرورة توظيف هذه النعمة في طلب الرضا من الله تعالى، وذلك من خلال فاصلة الآية الكريمة، والتي قال تعالى فيها: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: المرد والمرجع يوم الدين، ويتحقق ذلك بالالتزام بما يأتي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري١٦/ ٣٢٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢٣/ ٦٣٧.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٥٨.
(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي١/ ٢١٠.
(٥) انظر: لباب التأويل، الخازن٤/ ٣٢٠.

١. السعي لطلب الرزق بالحلال، وذلك امتثالًا لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

٢. إعطاء الطرقات حقوقها التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (إياكم والجلوس على الطرقات)، فقالوا: ما لنا بدٌّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: (فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها)، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمرٌ بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر)[(١)].

٣. بالإضافة إلى لزوم التواضع أثناء المشي خلالها، وذلك تأدبًا بما أدب به لقمان الحكيم ابنه وهو يعظه.

قال تعالى حكاية لأحدى مواعظه لولده: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨ - ١٩].

٤. كما يضاف إلى ما تقدم ابتغاء العلوم النافعة من خلال السير في الطرقات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة)[(٢)].

٥. إماطة الأذى عن الطريق، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضعٌ وسبعون - أو بضعٌ وستون - شعبةً، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان)[(٣)].

٤. السعة.

السعة في اللغة هي خلاف الضيق، والغنى.

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى قد جعل في الأرض السعة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

والسعة في هذه الآية بمعنى وفرة في الرزق، وتمكين للدين[(٤)].

وتعد السعة من أعظم ما من الله تعالى به على عباده حيث تتيح الفرصة للمؤمنين للانتشار في الأرض والحصول على وسائل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب أفنية الدور والجلوس فيها، والجلوس على الصعدات، رقم ٢٤٦٥، ٣/ ١٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب فضل طلب العلم، رقم ٢٦٤٦، ٥/ ٢٨.
قال الترمذي: حديث حسن.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم ٥٨، ١/ ٦٣.

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٥٧.

التمكين والعزة، وتوظيف هذه الوسائل في بناء المجتمع المسلم الملتزم بأحكام الشريعة السمحة، كما كان المجتمع الذي بناه الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة.

٥. الزخرف والتزيين.

الزخرف في اللغة هو الذهب، والشيء المزخرف هو الشيء المزين[(١)]، والتزيين في اللغة هو التجميل[(٢)].

ذكر القرآن الكريم أن الأرض تتزخرف وتتزين وتتجمل.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ومعنى أخذت الأرض زخرفها وازينت، أي: تجملت بالنباتات والأزهار ذات الألوان الجميلة الزاهية[(٣)].

(١) انظر: مجمع بحار الأنوار، محمد طاهر الكجراتي ٢/ ٤٢٠.
(٢) انظر: مجمع اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر مختار ٢/ ١٠١٧.
(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٣٠.

الأرض والإنسان

خلق الله تعالى الأرض وجعلها مأوى للإنسان، ووفر له فيها كافة مستلزماته ومتطلباته من مأكل ومشرب وكسوة، كما أودع فيها من الكنوز ما يكفل للبشرية الرفاهية والسعادة، ولا تتوقف علاقة الإنسان بالأرض عند حد المعيشة فحسب وإنما تربطه بها عدة عناصر سيأتي بيانها بإذن الله تعالى فيما يأتي من مطالب.

أولًا: النشأة والخلق:

خلق الله تعالى الإنسان من طين الأرض.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: ٧١].

وقد وصف الله تعالى الطين في موضع آخر من كتابه العزيز بأنه طين لازب، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١].

والطين اللازب هو الطين اللزق[(٤)]، ومعلوم أن التراب هو أصل الطين، وأن التراب جزء من الأرض، أي: أن أصل الإنسان ونشأته من الأرض.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ

(٤) انظر: معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن الكريم، حسن الجمل ٣/ ٦٧.

بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢].

يقول الخازن في بيان معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾: «يعني خلق أباكم آدم من التراب»[(١)].

وقال تعالى في بيان أصل الخلقة للإنسان: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة:٧-٩].

والمعنى: أي أن الله تعالى قد خلق آدم من من طين فلما نفخ فيه الروح صار لحمًا ودمًا وعظمًا[(٢)]، ثم صار نسله من الماء الضعيف وهو عبارة عن مني الرجل والمرأة[(٣)].

وهذه الخلقة العجيبة للإنسان تبرز مدى الارتباط بين الإنسان والأرض، فكما أن الأرض تحتوي على الماء والتراب، فإن الإنسان قد خلق من الطين الذي يحتوي على التراب والماء، وكما أن جسد الإنسان يحتوي على المواد الصلبة كالعظم، فإن الأرض تحتوي على أجزاء صلبة كالصخور، وكما أن جسد الإنسان يحتوي على المواد السائلة كالدماء، فإن الأرض تحتوي عناصر سائلة كالماء وهكذا، كما بينت نصوص السنة أن العلاقة بين الإنسان والأرض تمتد إلى حد التشابه والتقارب، وأن الاختلاف في خصائص وصفات البشر إنما يعود إلى الاختلاف في خصائص وصفات العناصر التي تتكون منها التربة، وقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب»[(٤)].

والترابط بين الأرض والإنسان لا تقتصر على المنشأ فحسب، وإنما يتعدى الأمر ذلك إلى المنتهى والمستقر بعد الموت.

قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

يقول الإمام الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾: «وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم، فنصيركم ترابًا، كما كنتم قبل إنشائنا لكم بشرًا سويًا»[(٥)]، كما يتعدى الأمر ذلك ليصل إلى الإخراج من القبور يوم القيامة للحساب، وهذا هو

(١) لباب التأويل ٤/ ٢١٢.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٤٤٩.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤١٨.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، رقم ٤٦٩٣، ٤/ ٢٢٢. وصححه الألباني.
(٥) جامع البيان ١٨/ ٣٢١.

المراد بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، يقول الإمام النسفي في بيان معنى الإخراج مرة أخرى: «والمراد بإخراجهم أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ويردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر»[1].

مما سبق يمكن القول بأن علاقة الإنسان بالأرض هي علاقة قديمة قدم الإنسان نفسه حيث إن نشأته كانت منها، ومرقده عند موته يكون في باطنها، وبعثته يوم القيامة يكون من مكان قبره فيها.

ثانيًا: تهيئتها للسكن والاستقرار:

إن من أقوى الأدلة على وجود الله تعالى ورحمته عنايته بسائر مخلوقاته، وتتجلى عنايته جل وعلا بخلقه توفيره لهم كل ما يحتاجون إليه لشؤون بقائهم ومعيشتهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر خلق الله تعالى الجمل ووفر له ما يلزمه ليتمكن من العيش في البيئة الصحراوية القاسية كالسنام الذي يخزن فيه الغذاء، والأمعاء التي يخزن فيها المياه، والخف الذي يعينه على السير في الصحراء دون أن تغوص أقدامه في رمال الصحراء، وغير ذلك مما ييسر له المعيشة في الظروف الصحراوية القاسية، ومن الأمثلة أيضًا أن الله تعالى لما خلق الإنسان وفر له ما يحتاجه على هذه الأرض من مسكن وملبس ومأكل ومشرب ودواء وغير ذلك، وفيما يأتي تفصيل لبعض مظاهر تهيئة الله تعالى الأرض للإنسان:

أما عن المسكن والملبس.

فقد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠- ٨١].

والمعنى المستفاد من هاتين الآيتين هو أن الله تعالى يمن على عباده بأن جعل لهم من بيوتهم مأوًى ومكانًا يستقرون فيه، كما جعل لهم الجلود التي يأخذونها من الأنعام بعد ذبحها بيوتًا كالخيام والفساطيط تنفعهم في حلهم وترحالهم، وجعل لهم كذلك من أشعار وأوبار هذه الأنعام أثاثًا وأمتعةً كالوسائد والبسط والأغطية وغير ذلك مما يعين الناس على قضاء حوائجهم المتعددة، كما يمن الله تعالى على عباده بأن جعل لهم مما خلق كالأشجار والأبنية والتلال أماكن يستظلون بها من شدة الحرارة، وأنه قد جعل

(١) مدارك التنزيل ٢/ ٣٦٩.

لهم كذلك من الجبال مواضع يسكنونها، كما جعل لهم ملابس تقيهم شدة الحر والبرد، وذلك كالملابس القطنية والصوفية وغيرها، وملابس تقيهم إصابات الحروب كالدروع وغيرها مما يتقى به من ضربات الأعداء[1].

وأما عن المأكل والمشرب.

فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦].

وفي الآية الأولى يمن الله تعالى على عباده بأن يسر لهم اصطياد ما يقتاتون عليه من الأسماك وأنواع المأكولات البحرية من البحار[2].

وفي الآيات الآتية يمن الله تعالى على مريم عليها السلام بأن رزقها ماء يسري تحتها لتشرب منه، ورطبًا غضًا مكتمل النضج لتأكله[3]، ومن تمام فضل الله تعالى على عباده أن أحل لهم الطيبات، وجعلها كثيرة، وحرم عليهم الخبائث، وجعلها قليلة محدودة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويعتبر قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ نصًا فيما يحل ويحرم من الأطعمة، فلا عبرة لمن تلذذ بأكل ما حرم الله تعالى من المطعومات[4]، وقال تعالى أيضًا: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١].

فالحلال لايحتاج إلى نص لمعرفة حله، بينما الحرام يحتاج إلى نص شرعي لمعرفة حرمته.

وتهيئة الله تعالى للأرض لا تقتصر عند توفيره جل علا المسكن والملبس والمأكل والمشرب بل تعدى الأمر ذلك ليشمل حتى الزينة.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

والمعنى أن الله تعالى يبين لعباده أنه ينبغي عليهم أن يتزينوا ويتجملوا بما أباح لهم من اللباس، وأن يتمتعوا بما أحله لهم مما يستطيبونه من المأكل والمشرب[5]،

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٩٣.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة٣/ ١١٤.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني٣/ ٣٨٩.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن٢/ ١٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري١٠/ ١٥٦.

وهذا مما يدلل على عظيم ما أنعم الله تعالى به على عباده.

ثالثًا: الاستخلاف فيها وعمارتها:

خلق الله تعالى الأرض، وجعل الإنسان فيها خليفة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ولتحقيق الخلافة في الأرض لابد من تحقق أمرين هما:

١. العبادة الحقة.

ولا تتحقق العبادة الحقة إلا باخلاص النية فيها لله تعالى، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»[(١)]، وباتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم مبعوثون من رب العزة جل وعلا منذرين ومبشرين.

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وقد أرسل الله تعالى رسله إلى أقوامهم خاصة، وأرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، وقد جاء ذكر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهرٍ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً، وبعثت إلى الناس كافةً، وأعطيت الشفاعة»[(٢)].

ويتصل دور الأنبياء والرسل عليهم السلام بتحقيق العبادة الحقة، من خلال قيامهم بدور المعلم الذي يعلم العباد كيفية أداء العبادات التي يريدها الله تعالى منهم، وأحكامها، ومواقيتها، وكل ما يتعلق بها من أمور شرعية، وذلك ما دعا النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى توجيه الأمر للمسلمين من أمته بالاقتداء به عند قيامهم بأداء العبادات، ومن ذلك على سبيل المثال، أنه لما أراد أن يحج دعا الناس إلى الاقتداء به قائلًا: «لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»[(٣)]،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، ٤/ ٢٢٨٩، رقم٢٩٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (جعل لي الأرض مسجدًا وطهورًا)، ١/ ٩٥، رقم ٤٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، وبيان قوله صلى الله عليه وسلم: (لتأخذوا

لذلك فإنه لا ينبغي لمسلم أن يؤدي شيئًا من العبادات بطريقة تختلف مع الطريقة التي أدى بها النبي صلى الله عليه وسلم تلك العبادات، وأمر الناس بالالتزام بها، كما لا يجوز لمسلم أن يبتدع عملًا لم يأت به الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يؤديه على أنه من العبادات، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو ردٌّ»[1]، وبالتالي فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال ما كان غير موافق للشرع.

٢. عمارة الأرض.

وترتبط عمارة الأرض بطلب العلوم المختلفة، والله تعالى قد أودع في الأرض من السنن والقوانين التي يؤدي الكشف عنها، والتعرف على خصائصها، إلى ابتكار الصناعات والاختراعات المتعددة التي تعود بالنفع على البشرية، وقد أسند الله تعالى مهمة عمارة الأرض لعباده.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۖ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

والمراد باستعمار الله تعالى عباده في الأرض أنه أوكل إليهم مهمة العمارة والبناء والقيام بما يجلب النفع والسعادة للبشرية[2]، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلمٍ يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقةً، وما سرق منه له صدقةٌ، وما أكل السبع منه فهو له صدقةٌ، وما أكلت الطير فهو له صدقةٌ، ولا يرزؤه أحدٌ إلا كان له صدقةٌ)[3].

والحديث يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حث العباد على بذل الجهود من أجل العمل على ما يعود بالنفع على كافة ما يدب على وجه الأرض.

رابعًا: النهي عن الإفساد فيها:

من أشد الأصناف ذمًا في القرآن الكريم هم الذين يفسدون في الأرض، وينشرون فيها الخراب والدمار.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

ويأتي هذا الذم الإلهي للمفسدين في الأرض؛ نظرًا لأن هؤلاء المفسدين يقومون بأعمال تتنافى مع الغاية التي خلق الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ٣/ ١٨٤، رقم٢٦٩٧.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي٦/ ١٤٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، ٣/ ١١٨٨، رقم١٥٥٢.

تعالى من أجلها الإنسان على هذه البسيطة وهي الإصلاح والتعمير والصلة، وقد ذكر المفسرون لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ تفسيرات مفادها أن الخراب والفساد أمران مرتبطان بالمفسدين في الأرض، سواءٌ أكانوا ولاةً يحكمون، أو كانوا أناسًا عاديين، فإذا كانوا ولاةً فإنهم يفسدون من خلال أخذ الرشاوى، وظلم الناس بأكل الحقوق، وغير ذلك، وإذا كانوا أناسًا عاديين فإنهم يفسدون في الأرض من خلال أكل الربا، وتقطيع الأرحام، وسفك الدماء، وغير ذلك مما يغضب الله تعالى[1].

وقد جاءت الآية التالية لتبين نتيجة الإفساد في الأرض وهي الإبعاد عن رحمة الله تعالى[2]، ولتجنب هذه العقوبة المريرة لابد من امتثال العباد لأمر الله تعالى لهم، والذي يقضي بعدم الإفساد في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والمعنى أن الله تعالى ينهى عباده في هذه الآية الكريمة عن الإفساد في الأرض، سواءٌ بنشر الخراب والدمار، أو بالإعراض عن أحكام الشريعة الإسلامية، وذلك بعد أن أصلحها لهم بما أنعم به عليهم فيها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومركب، وبما بينه لهم من الشرائع والأحكام التي تنظم حياتهم وتجلب سعادتهم[3].

ومما يبرز مدى أهمية الإصلاح في الأرض ارتباط صلاح أحوال الأرض باصلاح من عليها، وفساد أحوالها بفساد من عليها، ومن الأدلة على ذلك ما يأتي:

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

والمعنى أن الله تعالى يظهر لعباده أسباب سوء أحوال الأماكن التي يقع فيها ما حرم الله تعالى، وتتمثل هذه الأسباب باقتراف الناس للذنوب والمعاصي في تلك الأمكنة[4].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

تبين هذه الآية الكريمة أن الإيمان والتقوى هما السبيل إلى جلب البركات من السماء والأرض، وذلك من خلال استعمال أسلوب الشرط الذي يفيد امتناع تحقق الجواب (جلب البركات من السماء

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٤٥.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٦٢.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢١١.
(٤) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٢٧.

والأرض) لامتناع تحقق الشرط (الإيمان والتقوى)، وقد الله تعالى على هذا الأمر في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وبناءً على ما تقدم فإنه لابد للعباد من القيام بأمرين لتجنب سخط الله تعالى عليهم، وتبديل أحوالهم الحسنة بأحوال سيئة، وهذان الأمران هما:

١. تحقيق العبادة، وهو الغاية التي خلق الله تعالى الإنسان من أجلها، مع الإصلاح في الأرض وتعميرها، ومحاربة المفسدين فيها.

٢. المبادرة إلى التوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

تتحدث هاتان الآيتان الكريمتان عن أحد أشنع أصناف الذين يسعون في الأرض فسادًا، ويتمثل هذا الصنف في قطاع الطرق المحاربين لأولياء الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وذكرت الآية الأولى الحد الذي يقام على أولئك المفسدين في الأرض في حال القبض عليهم في الدنيا، كما ذكرت سوء عاقبتهم في الآخرة، ثم بينت الآية الثانية من يستثنى من أولئك المفسدين في الأرض، وهم التائبون الذين يبادرون إلى التوبة من قبل أن يلقى القبض عليهم ويقام عليهم حد الحرابة، فهؤلاء يقبل الله تعالى توبتهم، ويغفر لهم زلتهم[(١)].

خامسًا: توريث الأرض للصالحين:

بينت آيات القرآن الكريم في غير موضع أن الله تعالى يورث الأرض لعباده الصالحين الذين يعلون كلمته، ويطبقون شرعه، ويناصرون أولياءه، ويحاربون أعداءه، ومن هذه المواضع ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويتضح من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى قد قرر في شرائعه أن وراثة الأرض أمر يتوقف على إيمان وتقوى وصلاح ورثتها، ومن الشواهد التي تدلل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

(١) انظر: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ١/ ٣١٤.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

ومفاد الآيتين الكريمتين أن الله تعالى قد أورث المؤمنين الأرض التي كان يهود بني قريظة يسكنونها، وذلك عقب غزوة بني قريظة والتي كان سببها خيانة بني قريظة للرسول صلى الله عليه وسلم وتآمرهم مع الأحزاب ضد المسلمين، وبالتالي فإن فساد بني قريظة أدى إلى انتزاع أرضهم منهم، وتوريثها للمؤمنين الصالحين.

ومن الشواهد أيضًا قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

ومفاد هذه الآية الكريمة أن العبد التقي هو الذي يحصل على الإقامة والخلود في الجنة[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن الوعد الإلهي للمؤمنين الثابتين على دينهم المداومين على عمل الصالحات بالتمكين في الأرض، وقد يكون التمكين للأفراد كما حصل لنبي الله تعالى يوسف.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

وقد يكون للجماعات كما حدث مع الرسل وأتباعهم من المؤمنين لما صبروا على أذى الكافرين لهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

سادسًا: السعي في الأرض:

من عناية الله تعالى بمن خلق على هذه الأرض أن جعلها ممهدةً مذللةً لهم.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وأمر الإباحة الذي وجهه الله تعالى لعباده بقوله: فامشوا في مناكبها، عقب منه سبحانه عليهم بتذليله الأرض لهم فيه بيان ارتباط التذليل للأرض بإمكانية المشي

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٤٦.

والسعي فيها، فتذليل الأرض يسر للعباد السعي فيها والتنقل بين أرجائها، وبما أن الله تعالى قد خلق العباد على هذه الأرض وأسند إليهم مهمتي العبودية والاستخلاف، فلابد أن يكون سعيهم في الأرض مقيدًا بما يرضي الله تعالى.

وقد أثنى الله تعالى على الذين يسعون في الأرض لينشروا فيها الخير والفضيلة، وفي المقابل ذم الذين يسعون فيها لنشر الفساد والرذيلة، وفيما يأتي عرض لبعض الآيات التي مدحت السعاة للخير، وذمت السعاة للشر:

أولًا: من الآيات التي امتدحت السعاة في الأرض بالخير.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

تذكر هذه الآية الكريمة حكاية رجل صالح أتى قومه ناصحًا لهم بأن يتبعوا هدي رسل الله تعالى، ويؤمنوا بربهم جل وعلا، فكانت عاقبته أن أكرمه الله بدخول الجنة جزاء سعيه بالخير.

قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وتتحدث هذه الآية الكريمة عن العاملين في هذه الدنيا خيرًا، وشكر سعيهم يكون بقبول حسناتهم، والتجاوز عن سيئاتهم[(١)].

قال تعالى في شأن المصلحين في الأرض: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

ثانيًا: من الآيات التي ذمت السعاة في الأرض بالشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن صنف ذميم من الناس، وهؤلاء هم الذين يحاربون أولياء الله تعالى، ويقطعون عليهم الطريق، فيروعونهم ويسلبونهم ويقتلونهم، وهؤلاء قد جعل الله تعالى لهم عقوبة في الدنيا وتتمثل في حد الحرابة، كما جعل لهم عقوبة في الآخرة وتتمثل في عذاب النار العظيم، وما ذلك إلا جزاءً على سوء سعيهم في الأرض[(٢)].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٢٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢٩.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن طغيان اليهود في الأرض، فهم الذين أساؤوا إلى ربهم جل وعلا، فنسبوا لله تعالى البخل على الرغم من أنهم يعيشون على أرضه، ويتقلبون في نعمه،كما تجاوزوا ذلك إلى نشر الفتن، والسعي في الأرض فسادًا، وهذا ما أدى إلى حلول الغضب الإلهي عليهم.

الأرض بين النعيم والعذاب

خلق الله تعالى الأرض لينعم الناس بالعيش عليها، مع العلم بأن العيش الطيب مشروط بالمداومة على الإخلاص في العبادة لله تعالى، والإحسان في العمل وفق ما أمر جل وعلا، يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وعلى الرغم من معرفة الناس لهذا الأمر إلا أن كثيرًا من الناس أعرضوا عن ذكر ربهم، فسلط الله تعالى عليهم المعيشة الضنك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

ومن الناس من تمادوا في ظلمهم وطغيانهم حتى حق عليهم عذاب الله تعالى، فأزال الله تعالى ما بهم من نعمة وأهلكهم، وفيما يأتي نصوص من القرآن تؤكد حصول النعيم للمتقين، والعذاب للمفسدين:

أولًا: نعيم الله في الأرض:

لقد ركزت آيات القرآن على بيان ما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين من النعيم في الآخرة؛ وذلك لأن نعيم الدنيا لا يقارن أبدًا بنعيم الآخرة.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

ومع ذلك فإن آيات القرآن الكريم لم تغفل الحديث عما أكرم الله تعالى به عباده المؤمنين على الأرض في الدنيا، وفيما يأتي عرض لبعض تلك الآيات:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

تتحدث هذه الآية عن مصير المؤمنين الأتقياء، حيث يورثهم الله تعالى أرض الجنة جزاء حسن أعمالهم في الدنيا[1].

وقد تكرر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام الوعد لأقوامهم بالتنعم في خيرات الأرض إن آمنوا واتقوا، ومن الآيات التي ذكرت ذلك:

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وقد جاءت هذه الدعوة على لسان هود عليه السلام أثناء هدايته قومه[2]، كما جاءت على لسان نوح عليه السلام دعوة مشابهة لقومه.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقد بينت آيات القرآن الكريم أن التنعم في الأرض لا يقتصر على المؤمنين فحسب، وإنما يشمل غيرهم من الناس، ولكن الفرق بين تنعم المؤمنين وتنعم غيرهم أن الله تعالى يبدل نعمة غير المؤمنين إلى نقمة إذا استمروا وتمادوا في غيهم وطغيانهم، وذلك كما حدث لأصحاب القرون الأولى كعاد وثمود وغيرهم، بينما لا يحدث ذلك للمؤمنين، ولا يعني عدم حدوث النقمة للمؤمنين أن نعيم الدنيا دائم مستقر لهم، وإنما قد يصيبهم شيء من البلاء من باب الاختبار والامتحان لهم، وبيان صبرهم وثباتهم.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

ولكن ما يميز المؤمنين في فترة بلائهم أنهم يكونون على ثقة ويقين بأن الله تعالى معهم ينصرهم ويؤيدهم، وذلك راجع إلى أمرين هما:

- إيمانهم بأن الله تعالى سيجعل لهم بعد العسر يسرًا؛ لذلك فهم على ثبات رغم

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٦٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الإيجي ٢/ ١٨١-١٨٠.

ما بهم من بلاء، وقد جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: (كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصبٍ، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1].

- علمهم بما أعده الله تعالى لهم من جزيل الثواب ووفير الأجر على صبرهم وتحملهم في سبيله.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقد أخبر الله تعالى عن حال الصابرين في الآخرة في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

يقول الشوكاني في تفسير هذه الفاصلة من الآية الكريمة من سورة الزمر: «أي: يوفيهم الله أجرهم في مقابلة صبرهم بغير حسابٍ»[2].

ثانيًا: عذاب الله في الأرض:

كثيرًا ما تحدثت آيات القرآن الكريم عن عذاب الله تعالى في الأرض، وهذا يدل على كثرة من أهلك الله تعالى من الأقوام الظالمة.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

ومن المعلوم أن التعاطي السلبي مع عوامل الفساد في الأرض يؤدي بشكل حتمي إلى الظلم والفساد، وهذا الأمر هو الذي تسبب في فساد الأمم وغفلتها ومن ثم هلاكها، وقد بين الله تعالى أنه لا يرضى لعباده الفساد والكفر والفجور، بل يرضى لهم الصلاح والاستقامة.

قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقد حذر ربنا جل وعلا من اتباع أهل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٤/ ٢٠١، رقم ٣٦١٢.

(٢) فتح القدير ٤/ ٥٢١.

الغواية وعباد الشهوات.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وعلى الرغم من ذلك البيان والتحذير إلا إن أكثر الناس يتركون ما يرضى الله تعالى لهم من الخير، واتبعوا من يأمرهم بما لا يرضى لهم ربهم جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

فكانت النتيجة الحتمية نزول العذاب بهؤلاء الكفرة، وفيما يأتي صور من عذاب الله تعالى في الأرض:

١. خسف الله تعالى الأرض بقارون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٧٦ - ٨١].

وفيما يأتي عرض لما ذكرته الآيات الكريمة من عناصر الفساد التي خسف الله تعالى بسببها الأرض بقارون:

- البغي في الأرض بغير الحق، والتمادي في ظلم الضعفاء، ومحاولة إغوائهم.
- الفرح المذموم، والمراد به فرح البطر الذي ينسي أن المنعم هو الله تعالى، وأن الواجب على العبد هو شكر هذه النعمة[1].
- عدم الاستجابة لنصح الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من أهل العلم والصلاح والتقوى، واحتقارهم.
- إنكار فضل الله تعالى، والكفر به، ونسبة الفضل إلى الذات.
- عدم الاعتبار بما حل في أصحاب القرون السابقة ممن أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وكفرهم.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧١١.

- التكبر في الأرض، والمبالغة في إظهار الزينة بغية الإفساد في الأرض.

فكانت نتيجة ذلك كله أن خسف الله تعالى بقارون وبداره الأرض، والخسف هو: الذهاب في الأرض، وخسف الله الأرض بقارون وداره أي: غيبه فيها[1].

وقد استثنى الله تعالى أهل الإيمان من العذاب لوجود الدعاة الصالحين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد أفصح القرآن الكريم في غير موضع عن استثناء الله تعالى لأهل الورع والتقوى من العذاب الذي ينزل بالمفسدين من أقوامهم، فعلى سبيل المثال: فقد أهلك الله تعالى قوم نوح عليه السلام، وأنجى نوحًا عليه السلام ومن معه في الفلك، وقد أهلك الله تعالى قوم لوط عليه السلام، وأنجى لوطًا عليه السلام ومن معه من المؤمنين، ولكن ومع ذلك إلا إنه قد يهلك الله قومًا وفيهم الصالحون، وذلك إذا عم الفساد.

فعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج يومًا فزعًا محمرًا وجهه، يقول: (لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعه الإبهام، والتي تليها، قالت فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[2].

٢. ومن قصص العذاب في الأرض ما حدث مع ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٨].

وفيما يأتي عرض لما ذكرته الآيات الكريمة من عناصر الفساد التي أهلك الله تعالى بسببها ثمود بالصيحة:

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، ٤/ ٢٢٠٨، رقم ٢٨٨٠.

١. إنكار ألوهية الله تعالى وحده.
٢. الإعراض عن اتباع الرسول الذي بعثه الله تعالى.
٣. التنكر لنعم الله تعالى عليهم.
٤. الاستكبار في الأرض بغير الحق.
٥. المجاهرة بالسوء.
٦. الغرور بالنفس، والاستخفاف بعذاب الله تعالى.
٧. سوء التعامل مع آيات الله تعالى الدالة على صدق رسوله.

وقد أدت هذه العوامل من الفساد إلى هلاك ثمود، كما أدت غيرها من العوامل إلى إهلاك أقوام آخرين، وبالتالي فإن الله تعالى قد أنعم على خلقه بوافر النعم، ولكنهم بدلوا هذه النعم بنقم أهلكتهم، وجعلتهم عبرة لمن بعدهم.

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٢ - ٥٤].

الأرض يوم القيامة

ذكر الله تعالى في غير موضع من كتابه العزيز آيات كريمة بين فيها أحوال الأرض يوم القيامة حيث تطرأ عليها تغيرات كبرى تبدل معلمها؛ وذلك التغيير يأتي تناسبًا مع هول الحالة التي يكون عليها الموقف يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ - ٢].

ومما ذكرته آيات القرآن الكريم من أحوال للأرض يوم القيامة ما يأتي:

١. الرج.

قال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤].

الرج لغةً: من رج الراء والجيم أصل يدل على الحركة المضطربة[(١)].

من الأحداث المهولة التي تحدث للأرض يوم القيامة أنها تهتز وتضطرب من شدة ذلك اليوم العظيم.

يقول الخازن في تفسير الآية الكريمة:

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٨٤، والمحكم، ابن سيده ٧/ ٢٠٢.

«أي: إذا حركت وزلزلت زلزالًا وذلك أن الله عز وجل إذا أوحى إليها اضطربت فرقًا وخوفًا»[(١)].

٢. الدك.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].

الدك لغةً: من دك الدال والكاف أصلان أحدهما يدل على الانسطاح، يقال: الأرض الدكاء، أي: المنسطحة المستوية، والأصل الثاني يدل على الدق، يقال: دككت الشيء، أي: دققته[(٢)].

ومن أهوال يوم القيامة التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز دك الأرض، أي: تحطيمها ودق أجزائها بأجزائها حتى تصير مستويةً[(٣)].

٣. المد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣].

المد لغة: الميم والدال أصل واحد يدل على الزيادة والوصل والإطالة والجذب؛ يقال لما يكتب به مداد؛ لأنه يمد بالماء، ويقال أيضًا: رجل مديد الجسد، أي: طويل، وحرف المد هو الحرف الذي يزاد في صوته، والمدد للجيش هو ما يتم تزويد الجيش به من رجال وعتاد[(٤)].

ومما ذكر القرآن من أحوال الأرض يوم القيامة أنها تمد، وذلك بمعنى أنه تزداد مساحة سطحها.

يقول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾: «وإذا الأرض بسطت، فزيد في سعتها»[(٥)].

٤. الزلزلة.

قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

الزلزلة لغةً: هو الهز والاضطراب بشدة، يقال: زلزل الشيء زلزلةً أو زلزالًا، ويقال زلزل الشخص، أي: أزعجه وخوفه وحذره[(٦)].

وزلزلة الأرض تعني: أنها تتحرك وتضطرب بشدة حتى يتكسر كل ما عليها، ويخرج كل ما في باطنها[(٧)].

٥. إخراج الأثقال.

قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢].

(١) لباب التأويل ٤/ ٢٣٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٥٩، جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ١١٤.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٦٧، تفسير جزء عم، مساعد الطيار ص ١٤٣.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٦٩، المحكم، ابن سيده ٩/ ٢٨٧.
(٥) جامع البيان ٢٤/ ٢٣٢.
(٦) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٢٠١، معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد عمر ٢/ ٩٩٠.
(٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٤/ ٢١٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ٥٤٢.

الثقل في اللغة هو: ميزان الشيء، يقال: ثقل الشيء ثقلًا فهو ثقيل، وثقل المسافر هو ما يحمله معه من متاع، وثقل مفرد جمعها أثقال[1].

وإخراج الأرض أثقالها يوم القيامة يعني: أن تقوم الأرض بإخراج ما فيها من أثقال وأحمال.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ [الانشقاق: ٣- ٤].

إلقاء الأرض ما بداخلها يشمل الموتى من المخلوقات وبالذات المكلفين منهم؛ وذلك لمحاسبتهم على ما قدموا في الحياة الدنيا[2].

وقد صرحت بذلك آيات القرآن الكريم في مواضع منها:

- قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس: ٥١- ٥٢].
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤].
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

٦. التبديل.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

التبديل لغةً: الباء والدال واللام أصل واحد يدل على التغيير وقيام الشيء مقام شيء آخر، بدل فلان موقفه تجاه أمر، أي: غير موقفه تجاهه[3].

تبديل الأرض يوم القيامة يعني: حدوث تغيرات كبرى تجعل منها أرضًا جديدةً غير الأرض التي عهدها الناس في الدنيا، وسواءٌ أكان التبديل للأرض بتغيير معالمها فقط، أو بتغيير ذاتها كليًا، وذلك على ما اختلف عليه المفسرون[4]، فإن الأمر بالنسبة للناس شديد الهول؛ لأنهم سيرون ما يجعلهم كالسكارى من شدة ما سيعاينون.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢].

(١) انظر: كتاب العين، الفراهيدي ٥/ ١٣٧.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٥٩٧.
(٣) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٣٠٠، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢١٠.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٥.

لمسات إعجازية في الأرض

من الله تعالى على البشرية بكتاب معجز فيه ما يدل على صدق الوحي والنبوة مما لا يدع مجالًا لأي منصف نزيه يبحث عن الحق في أمور الدين والعقيدة إلا أن يقر بعلو منزلة هذا الكتاب، ثم يتبع هذا الإقرار بالإيمان بالله تعالى الذي أنزل هذا الكتاب، وبرسوله الذي شرح ووضح للناس تعاليم هذا الكتاب، ولابد لمن أراد التطرق إلى موضوع الإعجاز القرآني، أو ما يتصل به من جوانب، من أن يسرد تعريفات أهمها ما يأتي:

الإعجاز: هو في اللغة من العجز الذي بمعنى الضعف[1].

أما في الاصطلاح فهو بمعنى عدم قدرة القوم عن الإتيان بمثل المعجزة التي تحداهم بها نبيهم.

إعجاز القرآن: وهو عجز المكلفين جميعًا وفرادى عن معارضة معجزة القرآن الكريم[2].

وقد سجل الله تعالى ذلك العجز بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

(١) انظر: كتاب العين، الفراهيدي ١/ ٢١٥.
(٢) انظر: نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد معبد ص١٠١.

ذكر العلماء للمعجزة عدة تعريفات منها:

١. تعريف الدكتور مساعد طيار: «آية النبي المختصة به، الخارقة للعادة، التي لا يقدر الخلق على الإتيان بمثلها، الدالة على صدق النبي تارة، وعلى غير ذلك تارة»[3].

٢. تعريف الأستاذ محمد معبد: «هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة»[4].

وبالنظر في التعريفين السابقين يمكن القول بأنهما لم يشتملا على كافة الجوانب التي تتوافر في المعجزة، وبالتالي فإن أدق وأشمل تعريف للمعجزة هو أمر خارق للعادة، يجريه الله تعالى على يد مدع النبوة، على وفق مراده، تصديقًا له في دعواه، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، وذلك كله في زمن التكليف بالنبوات.

وفيما يأتي عرض لبعض المواضع القرآنية ذات اللمسة الإعجازية، والدلالات العلمية والغيبية المبرهنة على صدق الوحي والنبوة:

قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢].

جاءت هذه الآية القرآنية الكريمة لتصف للعباد ما حدث لقوم نوح عليه السلام لما

(٣) الإعجاز العلمي إلى أين؟ ص١٦.
(٤) نفحات من علوم القرآن ص١٠٢.

جاءهم عذاب الله تعالى في الدنيا عقب تكذيبهم لنبيهم.

وقد جاء الوصف القرآني في أبلغ صورة يمكن التعبير من خلالها عن الحالة التي كانت عليها الأرض حين حل العذاب بقوم نوح عليه السلام.

فالله تعالى قال: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾، ولم يقل: (وفجرنا عيون الأرض)، والسر في ذلك أن تقديم الأرض على العيون يبين أن كل الأرض انفجرت بالمياه، ولو قال: وفجرنا عيون الأرض، لما تفجرت المياه إلا من المواضع التي جعلها الله تعالى في الأرض عيونًا من قبل أن يحل العذاب بقوم نوح عليه السلام، وبالتالي لكان وصف العذاب أخف في التأثير على السامع[1].

وقال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: ٤].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

تقدم ذكر الأرض على السماوات في الآية رقم (٤) من سورة طه، بينما تقدم ذكر السماوات على الأرض في الآية رقم (١٢) من سورة الطلاق، وتقدم ذكر السماوات على الأرض راجع إلى أن تتمة خلق السماوات كان قبل دحو الأرض، وتقدم ذكر الأرض على ذكر السماوات راجع إلى أن الله تعالى قد بدء خلق الأرض قبل أن يسوي السماوات.

وقد ذكر القرآن الكريم أن خلق السماوات والأرض قد كان على مراحل.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ - ١١].

وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝٣٢﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وخلاصة ما بينته الآيات الكريمة أن الأرض قد خلقت في أربعة أيام، وأن السماوات قد خلقت في يومين، أما التفصيل فإن الله تعالى قد خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فخلقها في يومين، ثم دحا الأرض في يومين[2].

(١) انظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ص١٠٢.

(٢) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ٧/ ٣٢٦.

وقال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: ٢-٥].

تتحدث الآية الثانية من سورة الروم عما جرى بين الفرس والروم حيث دخلتا في حرب غلبت على إثرها الروم مقابل الفرس، وقد انعكست هذه النتيجة إيجابيًا على نفوس المشركين فاستبشروا خيرًا، والسر في استبشارهم يرجع إلى نظرتهم لطبيعة طرفي القتال؛ فالفرس يعبدون النار وقد هزموا الروم وهم أهل كتاب، وبالتالي فقد رأى المشركون أن هذا الأمر يقاس عليهم، فهم عبدة أصنام والمسلمون حملة قرآن، وأي معركة ستدور بينهم وبين المسلمين ستكون النتيجة فيها لصالحهم كما حصل مع نظرائهم في المعتقد الفرس.

فجاءت هذه الآية لتخبر عما حدث، ثم جاءت الآية الثالثة لتخبر بما سيحدث بين الفرس والروم من جديد، وذلك أنه ستحدث معركة أخرى خلال سنوات معدودة وستكون النتيجة فيها لصالح الروم، فأبطل بذلك استنتاج المشركين، وخاب ظنهم، ثم جاءت الآيتان التاليتان من سورة الروم لتنسفا بشرى المشركين وتبدلانها بخيبة أمل كبيرة، حيث إنهما أخبرتا بأن الله تعالى سينصر عباده المؤمنين على أعدائهم المشركين من كفار قريش في المستقبل، وقد تحقق انتصار المسلمين فعلًا عقب نزول هذه الآيات حين حدثت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة[1].

وقد دلت آيات سورة الروم على صدق الوحي والنبوة من خلال أمور هي:

- الإخبار بأن المكان الذي دارت فيه المعركة بين الفرس والروم، والذي غلبت فيه الروم هو أدنى بقعة على سطح الأرض، ويقع بين العراق والشام، وينخفض عن مستوى سطح البحر بعمق٣٩٥م، وهذا ما لم يكن مكتشفًا بالوسائل التي كانت معروفة زمن نزول القرآن[2].
- الإخبار بأن الروم سيخوضون حربًا مع الفرس خلال سنوات معدودات، وسيكون النصر فيها حليفًا للروم، وهذا ما حدث بعد نزول آيات سورة الروم ببضع سنين، وبالتالي فلو لم يكن القرآن من عند الله تعالى لما تمكن أحد من الإخبار بما سيحدث مستقبلًا.
- بشارة الله تعالى للمؤمنين بالنصر على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٦.
(٢) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي ٢/ ٦٣٦.

المشركين قبل حصول غزوة بدر، وهذا أيضًا من الغيب الذي لا سبيل لمعرفته إلا من خلال الوحي.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

تمثل هذه الآية الكريمة وصفًا علميًا لهيئة الأرض، فالأرض وإن كانت منبسطة فهي بيضاوية أيضًا، وانبساطها مع بيضاويتها راجع إلى اتساعها وكبر حجمها، وقد أثبت العلم أن الأرض تشبه البيضة، فهي عبارة عن كرة منبعجة من وسطها كما البيضة تمامًا[1].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن الأرض والسماوات حيث كانتا عبارة عن كتلة واحدة يتصل بعضها ببعض على هيئة دخان أو جزيئات غازية، ثم انفصلتا عن بعضهما البعض، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة قبل أن يكتشف العلماء ذلك بقرون عديدة، وما يؤكد أن السماوات والأرض كانتا عبارة عن دخان أو سديم قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

وقد أثبت العلماء حديثًا أن الكون قد تكون من مواد غازية[2].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، البحر، الجبال، السماء، الماء، النبات

(١) انظر: الإعجاز العلمي إلى أين؟، مساعد الطيار ص١٢١.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص٣٧١.

الاستئذان

عناصر الموضوع

مفهوم الاستئذان	٢٤٠
الاستئذان في الاستعمال القرآني	٢٤١
الألفاظ ذات الصلة	٢٤٢
الاستئذان لدخول البيوت	٢٤٤
الاستئذان في النكاح	٢٥٣
الاستئذان في الجهاد	٢٥٥
الاستئذان للانصراف عن الأمر الجامع	٢٦٩

مفهوم الاستئذان

أولًا: المعنى اللغوي:

الهمزة والذال والنون أصلان أحدهما أذن كل ذي أذنٍ، والثاني العلم، وهو من استأذن يستأذن استأذانًا، والاستئذان يعني طلب الحصول على الإذن، واسم الفاعل مستأذِن، واسم المفعول مستأذَن، وإذن مفرد جمعها أذون، يقال: أذن له في الدخول أي: سمح وأباح له الدخول، والأذان هو الإعلام، وبالتالي فالمقصود بالاستئذان هو طلب السماح والإباحة والرخصة والإعلام[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني في تعريف الإذن: هو «فك الحجر وإطلاق التصرف لمن كان ممنوعًا شرعًا»[2].

والتعريف الأدق للإذن هو: السماح باعتقاد الشيء، أو قوله، أو فعله مع إمكانية ترتب ثواب أو عقاب على إتيان المأذون به، أو تركه.

وبالتالي يكون تعريف الاستئذان اصطلاحًا: طلب السماح باعتقاد الشيء، أو قوله، أو فعله مع إمكانية ترتب ثواب أو عقاب على إتيان المأذون به، أو تركه.

مما سبق يظهر الترابط الوثيق بين تعريفي الاستئذان اللغوي والاصطلاحي، فكلاهما ضمن إطار السعي للحصول على الرخصة، والإباحة، وعدم الممانعة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٧٥، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ١/ ٧٧- ٧٩.
(٢) التعريفات، ص١٦.

الاستئذان في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (أ ذ ن) في القرآن الكريم (١٣٣) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة:٨٦]
الفعل المضارع	٩	﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب:١٣]

وجاء الاستئذان في القرآن بمعناه في اللغة وهو: طلب الإذن[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٥- ٢٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإباحة:

الإباحة لغة:

من بوح، والباء والواو والحاء أصل واحد وهو الظهور، والإباحة مفرد، وهي ضد المحظور، وهي مصدر أباح، يقال: أباح الشيء: أي أحله، ويقال: أباح السر: أي أظهره ونشره وجهر به، ويقال: أباح الفعل: أي سمح وأجاز الإتيان به، والإباحة: هي التخيير بين الفعل والترك[١].

الإباحة اصطلاحًا:

هي السماح بإتيان الفعل دون قيد أو شرط[٢].

الصلة بين الاستئذان والإباحة:

تستخدم كلمة استئذان لكل ما يتم طلب السماح به عن طريق السماع، أما كلمة إباحة فتستخدم لما يسمح به عقلًا أو سماعًا[٣].

٢ الإجازة:

الإجازة لغة:

من جوز الجيم والواو والزاء أصلان أحدهما يدل على قطع الشيء والآخر يدل على وسطه، والإجازة مصدر أجاز، والإجازة مفرد وجمعها إجازات، والمقصود بها: الإذن أو الرخصة[٤].

الإجازة اصطلاحًا:

هي رفع الحرج عن إتيان الفعل[٥].

الصلة بين الاستئذان والإجازة:

الاستئذان: هو طلب السماح بالفعل قبل إيقاعه، أما الإجازة: فهي السماح بالفعل بعد إيقاعه[٦].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس١/ ٣١٥، تاج العروس، الزبيدي٦/ ٣٢٣، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ١/ ٢٦٠.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٨.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري١/ ٢٢٨.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس١/ ٤٩٤، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر٢/ ٤٢٠.
(٥) انظر: فصول البدائع، شمس الدين الفناري ٢/ ٣٥.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٣٣.

٣ الاستئناس:

الاستئناس لغة:

من أنس الهمزة والنون والسين أصلٌ واحد، والاستئناس من أنس يأنس فهو آنس، وهو طلب الأنس، ومعنى أنس: ظهر، وألف، واطمأن، يقال: أنس بفلان، أي: اطمأن إليه[١].

الاستئناس اصطلاحًا:

هو عبارة عن السكينة الحاصلة من جهة المجالسة[٢].

الصلة بين الاستئذان والاستئناس:

يظهر من خلال تعريفي الاستئذان والاستئناس أن الاستئذان هو طلب الإذن، بينما الاستئناس هو طلب الطمأنينة، وإذا أريد بالاستئناس طلب الإذن، فهذا يعني أن يكون الطلب مصحوبًا بالطمأنة للمستأذن.

٤ المنع:

المنع لغة:

من منع الميم والنون والعين أصل واحد، والمنع من منع يمنع منعًا، أي: حرم، يقال: منعه من السفر، أي: حرمه إياه، ويقال: منع الشرع التدخين، أي: حرم الشرع التدخين، والمقصود بالمنع الحرمان والتحريم والصد والحجب والإمساك[٣].

المنع اصطلاحًا:

هو عدم السماح بإتيان الممنوع[٤].

الصلة بين الاستئذان والمنع:

بالنظر في تعريفي الاستئذان والمنع يمكن القول بأن الفارق بينهما هو أن الاستئذان هو طلب السماح بإتيان المأذون فيه، بينما المنع فهو عدم السماح بإتيان الممنوع.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٥، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ١/ ١٢٨.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي، ص١١٥.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس٥/ ٢٧٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢١٢٨.
(٤) انظر: تفسير ابن عرفة، ٣/ ٧٧.

الاستئذان لدخول البيوت

مما يدركه كل عاقل أن البيت هو مكان الراحة والسكون والتستر وقضاء الحاجات المتعددة، وبالتالي فإن الإنسان يعمل في بيته الكثير مما يواريه عن أنظار الآخرين؛ لذلك فقد جعل الله تعالى أحكامًا وآدابًا خاصة تضمن عدم التعدي على خصوصيات الآخرين عند دخول بيوتهم، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: الاستئذان لدخول بيوت الآخرين:

١. البيوت المسكونة.

شرع الله تعالى لعباده جملة من آداب الاستئذان عند الرغبة في دخول بيوت الآخرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨﴾ [النور: ٢٧-٢٨].

ينهى الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين عباده عن دخول بيوت الآخرين إلا بعد الحصول على الإذن منهم للدخول إلى بيوتهم، والتسليم عليهم، ثم يوجه الله تعالى عباده إلى عدم الدخول في حال لم يجدوا أحدًا في البيوت التي قصدوها للزيارة أو غير ذلك، ويوجههم كذلك إلى الرجوع في حال طلب أصحاب تلك البيوت منهم ذلك[(١)].

ويستفاد من الآيتين السابقتين جملةً من الآداب، منها:

١. عدم جواز دخول بيوت الغير إلا بعد الحصول على موافقتهم.

٢. السلام قبل الاستئذان أو بعده.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

والمعنى أن الله تعالى ينهى عباده عن دخول بيوت الآخرين إلا بعد الاستئذان والسلام على أهل تلك البيوت[(٢)].

ويلاحظ أن الله تعالى قد عطف جملة (تسلموا) على جملة (تستأنسوا) باستخدام حرف العطف (الواو)، ومن المعلوم أن الواو كحرف عطف إنما تفيد العطف والمشاركة[(٣)]، وهذا يعني أن السلام قد يسبق الاستئذان، وقد يلحقه، فمن ذهب إلى

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٥٤٠-٥٤٢.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٠٧.
(٣) انظر: أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك، ابن هشام ٣/ ٣١٧.

أن الاستئذان يسبق السلام يكون قد وافق الترتيب الوارد في الآية الكريمة من سورة النور.

ومن ذهب إلى أن السلام يسبق الاستئذان يكون قد وافق ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه فيمن يستأذن قبل أن يسلم قال: (لا يؤذن له حتى يبدأ بالسلام)[1].

وقيل: إذا وقع بصر المستأذن على أحد أفراد البيت المقصود قدم السلام، وإلا فيقدم الاستئذان[2].

٣. عدم جواز النظر إلى عورات البيوت، وقد حرص الإسلام على التيسير على الناس عند قضائهم لحوائجهم المختلفة دون التسبب بالأذى أو الإحراج للآخرين، ومن ذلك تشريعه خلق غض البصر عما لا يليق بالمؤمن أن ينظر إليه.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠-٣١].

ومما لا يخفى على أحد ما لغض البصر من فوائد جمة، أهمها: تهذيب النفس، وتوطيد العلاقات بين أفراد المجتمع، وتعويد الأفراد على المحافظة على خصوصية الآخرين، وعدم التسبب بالإحراج لهم.

والمناسبة بين آيتي غض البصر وما قبلها من الآيات التي فصلت أحكام الاستئذان هي:

لما شرع الله تعالى أحكام الاستئذان لدخول بيوت الآخرين، ناسب أن يضبط الاستئذان بآداب، منها: غض البصر عن النظر إلى ما لا ينبغي للمؤمن أن ينظر إليه حين دخوله إلى بيوت الغير.

وجاء في السنة المطهرة عن سهل بن سعدٍ، قال: اطلع رجلٌ من جحرٍ في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، ومع النبي صلى الله عليه وسلم مدرًى يحك به رأسه، فقال: (لو أعلم أنك تنظر، لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر)[3].

والحجر هو الثغر، والحجر جمع حجرة، والمدري حديدة يمشط بها الشعر[4].

يقول البقاعي: «إياكم ومشتبهات الأمور، فإذا وقفتم للاستئذان فلا تقفوا تجاه الباب،

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب الاستئذان غير السلام ص٣٦٦، رقم ١٠٦٦. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن٣/ ٢٩١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر ٨/ ٥٤، رقم ٦٢٤١.
(٤) انظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني ٢٢/ ٨٣.

ولكن على يمينه أو يساره؛ لأن الاستئذان إنما جعل من أجل البصر، وتحاموا النظر إلى الكوى التي قد ينظر منها أحد من أهل البيت ليعرف من على الباب: هل هو ممن يؤنس به فيؤذن له، أو لا فيرد»[1].

٤. عدم جواز تخويف الآخرين عند قصد بيوتهم، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

والاستئناس هو طلب الأنس[2]، وحصول الأنس إنما يكون في التلطف عند الاستئذان، والتسليم على من في البيوت المدخول فيها، وبالتعريف بالذات، وبتحديد الغرض من الزيارة وغير ذلك من الأمور التي تدخل الأنس لأصحاب البيوت المراد دخولها، وقد علم الله تعالى هذا الأدب الرفيع للملائكة عليهم السلام حين أرسلهم إلى نبيه إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٥١-٦٠].

توضح هذه الآيات أن الملائكة عليهم السلام سلموا على إبراهيم عليه السلام حينما أرسلهم إليه ربهم جل وعلا، ثم ساقوا له البشرى، ثم عرفوه بما أسند إليهم من مهمات بخصوص قوم لوط المجرمين، وطمأنوه على سلامة نبي الله لوط عليه السلام من العذاب الذي سيحل بقومه[3].

٥. وجوب الإحسان إلى الضيف الذي أحسن الاستئذان، ويتمثل ذلك الإحسان فيما يأتي:

- وجوب رد التحية بمثلها أو بما هو أحسن منها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

وقد علم ربنا جل وعلا عباده حسن الرد على التحية من خلال بيان أفضلية سلام نبيه إبراهيم عليه السلام من سلام الملائكة الذين أرسلوا إليه على هيئة ضيوف.

قال تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥].

(١) نظم الدرر، ١٣/ ٢٥٢.
(٢) انظر: معجم وتفسير لغوي لألفاظ القرآن، حسن الجمل ١/ ١٢٠.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٥٤٩.

فسلام الملائكة يقدر بـ (نسلم سلامًا) فجاء على تقدير وجود الفعل (نسلم)، بينما رد إبراهيم عليه السلام للتحية فجاء بالاسم (سلام) أي: سلامٌ ثابتٌ، ومن المعلوم أن الخطاب بالاسم يدل على الثبوت بينما الخطاب بالفعل يدل على التجدد[1].

- وجوب إكرام الضيف، وقد علمنا ذلك ربنا جل وعلا من خلال بيان سلوك نبيه إبراهيم عليه السلام مع ضيفه.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٦].

كما علمنا ذلك الخلق الرفيع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)[2].

- في حال عدم التمكن من استقبال الضيف فيجب أن يكون رده حسنًا.

٦. في حال عدم حصول المستأذن على الإذن لدخول البيت المقصود بالزيارة فعليه أن يرجع، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المقام: (إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له، فليرجع)[3].

٧. عدم جواز الدخول إلى البيوت المأهولة بالسكان أثناء فترة غيابهم عنها.

٨. مراعاة حال أهل البيت عند الاستئذان، ومما لا شك فيه أن أحوال العباد في تقلب مستمر، وبالتالي فقد يكون المرء في حال لا يمكنه من مخالطة الناس ومجاملتهم، وقد حصل ذلك فعلًا مع نبي الله لوط عليه السلام.

وقد حكى القرآن الكريم قصة ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

والمعنى أنه قد أصاب لوط عليه السلام الهم والضيق لما بعث الله تعالى إليه الملائكة على هيئة ضيوف؛ لخوفه من أن يخزيه قومه في ضيفه، فما كان من الملائكة إلا أن طمأنوه وبشروه بالنجاة هو ومن صلح من أهله من الهلاك الذي سيحل بقومه الفجرة[4].

ويفهم من قصة لوط عليه السلام أنه

(١) انظر: المصدر السابق ١١/ ٦٥٤٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ٨/ ١١، رقم ٦٠١٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب الاستئذان، ٣/ ١٦٩٤، رقم٢١٥٣.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٥٢، فتح البيان، القنوجي ١٠/ ١٨٩.

ينبغي على الناس مراعاة الظروف التي يمر بها الآخرين والتي قد تكون عصيبة في كثير من الأحيان.

ومن هذا الباب دعا القرآن الكريم الزائرين إلى عدم الإلحاح على الآخرين عند الاستئذان منهم لدخول بيوتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨].

ويفهم من الآية الكريمة أنه في حال لم يُسمح للمستأذن بالدخول وطلب منه الرجوع، فعليه أن يلبي دون انزعاج؛ وذلك مراعاة لأحوال أهل البيت المقصود بالزيارة[(١)].

يقول سيد قطب رحمه الله: «ارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم، أو النفرة منكم. فللناس أسرارهم وأعذارهم. ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملابساتهم في كل حين»[(٢)].

وقد علم رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم أدب مراعاة أحوال الناس عند زيارتهم فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيدٍ الخدري، قال: كنت في مجلسٍ من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعورٌ، فقال: استأذنت على عمر ثلاثًا، فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فليرجع). فقال: والله لتقيمن عليه ببينةٍ، أمنكم أحدٌ سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبي ابن كعبٍ: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم فقمت معه، فأخبرت عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك[(٣)].

ويفهم من هذا الحديث الشريف أنه لا بد من أن يراعى عند الاستئذان أمران، هما:

١. أن يكون الاستئذان مسمعًا؛ ولذا كان التكرار ثلاثًا.
٢. عدم الإلحاح في طلب الإذن؛ ولذا كان الأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجوع في عدم إعطاء الإذن بعد الاستئذان ثلاثًا.

٢. البيوت غير المسكونة.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥١٨، لباب التأويل، الخازن٣/ ٢٩١.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٠٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثًا، ٨/ ٥٤، رقم٦٢٤٥.

﴿تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور: ٢٩].

يبين الله تعالى لعباده أنه يباح لهم الدخول إلى البيوت الغير مسكونة بسبب ترك أصحابها لها، وذلك للانتفاع بها من خلال النوم فيها، أو تناول الطعام بداخلها أو غير ذلك من الحاجيات المأذون بها شرعًا[(١)].

ويستفاد من الآية السابقة جملةً من الآداب، منها:

- يجب تحري المباحات في حال طلب الانتفاع بالبيوت غير المسكونة، والحذر من استخدامها في المحرمات، يفهم ذلك من قوله تعالى في فاصلة الآية التي تحدثت عن جواز الانتفاع بالبيوت غير المسكونة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، فذكر الله تعالى ذلك ليحذر المؤمنون من استغلال تلك البيوت لارتكاب المحرمات[(٢)].
- من الأدب المحافظة على البيوت الغير مسكونة صالحة لانتفاع الآخرين بها بعد الانتفاع بها لقوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾.
- جواز الدخول إلى الأماكن العامة دون استئذان؛ لكون هذه الأماكن معدة لاستقبال الزوار في جميع الأوقات التي تفتح هذه الأماكن أبوابها.

ثانيًا: الاستئذان داخل البيت بين أفراد الأسرة وخدمهم:

١. إذا كانت الأبواب مفتوحة قبل البلوغ.

علم الله تعالى عباده ضرورة المحافظة على نعمة الولد، ومن ذلك تعويدهم على عدم النظر إلى العورات، وعلى التأدب عند دخول الغرف، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨].

يوجه الله تعالى في هذه الآية الكريمة عباده المؤمنين إلى ضرورة تعليم العبيد والإماء والأطفال الصغار الذين لم يبلغوا سن الاحتلام أدب الاستئذان في أوقات ثلاث، الأول وقت ارتداء الثياب قبل صلاة الفجر، والثاني وقت القيلولة حين يكون تخفيف الملابس وقت الظهيرة، والثالث في موعد النوم بعد صلاة العشاء، ثم بين الله تعالى أن الأوقات الثلاثة المذكورة هي

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٩١.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٥٤٣.

أوقات عورة، أما في غير هذه الأوقات فلا داعي للاستئذان عند الدخول إلى الغرف ما دامت الأبواب مفتحة، فهي أوقات حركة وتنقل ومخالطة بين الآباء وأولادهم، وكذا بين الأسياد وعبيدهم.

ويستفاد من الآية السابقة ما يأتي:

١. جواز دخول العبيد والإماء والأطفال الصغار الذين لم يبلغوا سن الحلم على أسيادهم وأوليائهم دون استئذان في جميع الأوقات عدا الأوقات الثلاث التي ذكرتها الآية الكريمة.

٢. ضرورة تعويد الأطفال على عدم النظر إلى العورات والمحرمات عمومًا حتى يسهل عليهم التحلي بخلق غض البصر عند البلوغ، وهذا ما عود عليه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين، فعن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: «أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل بن عباسٍ يوم النحر خلفه على عجز راحلته، وكان الفضل رجلًا وضيئًا، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم للناس يفتيهم، وأقبلت امرأةٌ من خثعم وضيئةٌ تستفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطفق الفضل ينظر إليها، وأعجبه حسنها، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل، فعدل وجهه عن النظر إليها، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله في الحج على عباده، أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: (نعم)[1]».

٣. ضرورة عدم إزعاج الغير في الأوقات التي تخصص للراحة بالعادة، فإذا كان من الواجب على الأطفال والعبيد والإماء أن يستأذنوا قبل الدخول على أوليائهم، فكيف بغيرهم من الناس.

٤. ضرورة مخالطة الآباء لأبنائهم، والأسياد لعبيدهم وإمائهم؛ من أجل تربيتهم على الأخلاق الطيبة، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾، وكيف للطفل أن يتعلم آداب الاستئذان إذا لم يتلق ذلك عن والديه، وكذا الأمر بالنسبة للعبد والأمة فيجب على الأسياد أن يخصصوا الأوقات الكافية لتعليمهم وتعويدهم على محاسن الأخلاق.

٥. ضرورة الإحسان عند اختيار الزوج أو الزوجة، فكيف للأب والأم أن يعلما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب ٨/ ٥١، رقم٦٢٢٨.

الأبناء محاسن الأخلاق إذا لم يكونا ذوي أخلاق حسنة، وفي هذا المقام يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض، وفسادٌ عريضٌ)[1]. هذا عند اختيار الزوج، أما عند اختيار الزوجة، فقال صلى الله عليه وسلم: (تنكح المرأة لأربعٍ: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك)[2]، فكلا الحديثين الشريفين يحثان على اختيار ذي الخلق للزواج، وذلك حرصًا على إنتاج جيل صالح.

٢. إذا كانت الأبواب مفتوحة بعد البلوغ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يجب على الأبناء الذين بلغوا سن الحلم أن يلتزموا خلق الاستئذان قبل دخولهم إلى غرف آبائهم أو إخوانهم، سواءٌ أكانت الأبواب مفتوحة أو مغلقة، وذلك في جميع الأوقات[3].

ويستفاد من الآية السابقة ما يأتي:

١. وجوب استئذان الأطفال والرقيق على آبائهم وأسيادهم إذا بلغوا سن الحلم.

٢. وجوب استئذان البالغين من أفراد الأسرة عند دخولهم على بعضهم البعض، فقد جاء عن عطاءٍ قال: سألت ابن عباسٍ فقلت: أستأذن على أختي؟ فقال: نعم. فأعدت فقلت: أختان في حجري وأنا أمونهما وأنفق عليهما أستأذن عليهما؟ قال: نعم أتحب أن تراهما عريانتين؟! ثم قرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾[النور: ٥٨]. قال: فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا في هذه العورات الثلاث. قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩]. قال ابن عباسٍ: فالإذن واجبٌ. زاد بن جريج: على الناس كلهم[4].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، ٣/ ٣٨٦، رقم١٠٨٤.
وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ٧/ ٧، رقم٥٠٩٠.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٢٠٨-٢٠٧.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب

٣. من السنة للزوج أن يعلم زوجته بإرادته الدخول عليها من خلال التنحنح أو الطرق على الباب أو ذكر الله تعالى أو غير ذلك من سبل الإعلام، وذلك كي تستعد الزوجة لاستقبال زوجها بصورة تدخل السرور إلى قلب الزوج، وقد جاء عن الإمام أحمد بن حنبل أنه استحب لمن دخل على زوجته أن يتنحح[(١)].

٤. ضرورة الإقرار بكمال علم الله تعالى وحكمته من خلال التأمل في عظمة تشريعاته، والتي منها خلق الاستئذان.

٣. إذا كانت الأبواب مغلقة في أي وقت، وفي أي سن، قبل البلوغ أو بعده.

شرع الله تعالى خلق الاستئذان حتى لايقع البصر على ما لا يحل النظر إليه من العورات، وقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنما جعل الاستئذان من أجل البصر)[(٢)].

ومن المعلوم أن الفرد من الأسرة إذا أغلق باب غرفته على نفسه، فإنه يقصد بذلك منع الآخرين من باقي أفراد الأسرة والمتواجدين في البيت من النظر إليه، أو إلى ما ينوي القيام به، لذلك فإنه من الواجب على جميع من في البيت صغارًا كانوا أو كبارًا ألا يدخلوا إلى الغرف المغلقة إلا بعد الاستئذان والسماح لهم بالدخول.

يستأذن على أخته، رقم١٠٦٣، ص ٥٩٥. وصحح إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(١) انظر: الآداب الشرعية، ابن مفلح، ١/ ٤٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر، ٨/ ٥٤، رقم٦٢٤١.

الاستئذان في النكاح

حث الله تعالى عباده المؤمنين على النكاح، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

كما حث عليه أيضًا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: (من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاءٌ)[(١)].

ومعنى الباءة هو القدرة على القيام باستحقاقات الزواج، أما معنى الوجاء فهو الوقاية[(٢)]، وحتى يؤدي النكاح الأغراض المرجوة منه يجب أن يبنى على أصول وقواعد راسخة، ومن ضمن تلك الأصول والقواعد، النكاح بالاستئذان، أي: بطلب الإذن بنكاح المرأة من وليها، لذلك قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

يبيح الله تعالى في هذه الآية الكريمة لمن لا يستطيع نكاح الحرائر من النساء بسبب قلة ذات اليد، ويخشى على نفسه الفتنة أن ينكح المؤمنات من الإماء، شريطة أن يكن عفيفات غير عاهرات ولا متسترات بالزنا مع أصدقائهن السريين، وأن يطلبهن الراغب في نكاحهن من أهلهن، وأن تدفع إليهن مهورهن بالمعروف.

ثم يبين الله تعالى حكم الأمة إذا ارتكبت فاحشة الزنا وهو خمسون جلدة، ثم يعقب الله تعالى بحث المؤمنين على الصبر والتريث حتى يتمكنوا من نكاح الحرائر[(٣)].

ويستفاد من الآية السابقة مجموعة من الأحكام، وهي كما يأتي:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة، ٣/ ٢٦، رقم١٩٠٥.

(٢) انظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني ٩/ ٨٩-٨٨.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٦٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٧٤.

١. من أهم وأولى أولويات التشريع الإسلامي صيانة المجتمع المسلم من انتشار الرذيلة بين أفراده.

٢. يجوز للمؤمن أن ينكح الأمة إذا خاف على نفسه العنت، أي: في حال خشي على نفسه الفتنة.

٣. وجوب دفع المهور للإماء في حال نكاحهن، ويجب ألا يقل المهر عن المتعارف عليه من مهور مثيلاتها من الإماء.

٤. وجوب الاستئذان من أهل الأمة وأخذ موافقتهم في حال الرغبة في نكاحها.

٥. تجلد الأمة خمسين جلدة إن ارتكبت الزنا.

٦. الأولى بالمؤمن أن يصبر ويتريث حتى يأتي الوقت الذي يتمكن فيه من نكاح الحرة، فنكاحها أفضل من نكاح الأمة.

ولا يقتصر الاستئذان في النكاح على استئذان ولي المرأة المراد الزواج بها، وإن كان ذلك أمرًا ضروريًا؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **(أيما امرأةٍ نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطلٌ، فنكاحها باطلٌ، فنكاحها باطلٌ)**[1].

وإنما يتعدى ذلك إلى ضرورة الحصول على موافقة المرأة نفسها بكرًا كانت أم ثيبًا، وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **(الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر يستأذنها أبوها في نفسها، وإذنها صماتها)**[2].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، ٢/٣٩٨، رقم١١٠٢.
قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق، والبكر بالسكوت، ٢/ ١٠٣٧، رقم١٤٢١.

الاستئذان في الجهاد

يهدف الإسلام العظيم إلى إخراج الناس من الظلام إلى النور، ومن الجور إلى العدل، وليس لذلك أن يتحقق إلا بالقضاء على أعداء الإسلام، ولا يكون القضاء على أعداء الإسلام إلا بالجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس.

أولًا: ليس من صفات المؤمنين الاستئذان في الجهاد:

المؤمنون الأتقياء هم أكرم العباد عند الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وليس من المتوقع أبدًا من المؤمن التقي الذي شرفه الله تعالى، ورفع قدره من بين العباد أن يتخلف عن المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى، ونصرة الحق، ثم يرضى بحياة الذلة والهوان، وهذا ما أقره الحق جل وعلا في قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٨٩﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩].

وهذا الإخلاص الذي ترجمته فعال المؤمنين في كل المواطن التي كانت تتطلب البذل والفداء هو السبب الذي أكسبهم رضا الله تعالى عنهم.

قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [الفتح: ١٨].

وفي سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ما يشهد للمؤمنين الأتقياء بالمسارعة والمسابقة في ميدان الجهاد في سبيل الله تعالى، وعدم خذلان الحق وأهله، ومن ذلك ما يأتي:

١. في غزوة بدر.

في غزوة بدر لما طلب النبي صلى الله عليه وسلم المشورة من الصحابة الكرام وكان يريد رأي الأنصار منهم، (فقام سعد ابن معاذ رضي الله تعالى عنه، وقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: (أجل)، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء.

لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله)[1].

٢. في غزوة مؤتة.

في غزوة مؤتة لما علم جيش المسلمين بما أعده لهم الروم، وأخذ المسلمون يتشاورون في أمرهم، فأشار عليهم الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بقوله: «يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهورٌ وإما شهادةٌ»[2].

فعلت حينها همم المسلمين، وانطلقوا لمواجهة عدوهم ذو العدد والعدة، غير مبالين بما قد يصيبهم في سبيل الله تعالى.

٣. في غزوة تبوك.

في غزوة تبوك لما حرض النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله تعالى، أخذ الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم بالتسابق للبذل والفداء، فجاء عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بنصف ماله، وجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه بكل ماله، ولم يبق لأهله شيئًا من المال وأوكل أمرهم لله تعالى، وجاء عثمان رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بألف دينار، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها في حجره ويقول: (ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين)[3].

وجاء فقراء المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم راجين منه صلى الله عليه وسلم أن يحملهم معه إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، فلما اعتذر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حملهم تولوا عنه وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا على ما ظنوا أنه قد فاتهم من الأجر عند الله تعالى[4].

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١-٩٢].

ولا يقتصر بذل وعطاء المؤمنين على الرجال فقط، بل تعدى الأمر ذلك ليشمل الصغار والنساء أيضًا، فهذا رسول الله صلى

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٦١٥.
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ٤٥٩.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، وله كنيتان، يقال: أبو عمرو، وأبو عبد الله، ٦/ ٦٧، رقم ٣٧٠١.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
(٤) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ٥/ ٢١٨.

الله عليه وسلم يعرض عليه الغلمان يوم أحد ليأذن لهم بالمشاركة بالغزو فيردهم لصغر سنهم، فيؤتى برافع بن خديج رضي الله عنه، وكان أحد الغلمان، فيقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه رامٍ، ويتطاول رافع رضي الله عنه على خفيه، فيأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشاركة في الغزوة، ثم يؤتى بسمرة بن جندب رضي الله عنه وكان أيضًا صغير السن، فيقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن سمرة يصرع رافعًا، فيطلب منهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتصارعا فيصرع سمرة رافعًا، فيأذن الرسول صلى الله عليه وسلم لكليهما بالمشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى[1].

وهذه الصحابية الجليلة أم سليم رضي الله عنها تأتي يوم حنين ومعها خنجر، فيسألها أبو طلحة رضي الله عنه عن هذا الخنجر الذي تحمله، فتقول له: «خنجرٌ أخذته معي، إن دنا مني أحدٌ من المشركين بعجته به»[2].

فهؤلاء هم المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان، والتقوى، والإحسان في طاعة الله تعالى، والتقرب إليه، والجهاد في سبيله، وذلك امتثالًا لما أمرهم الله تعالى به في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وما كان ذلك الإقبال على الله تعالى من قبل المؤمنين الصادقين، إلا سعيًا منهم لنيل رضا الله تعالى، وإلا ليكون تعالى معهم ناصرًا ومؤيدًا، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ثانيًا: استئذان المنافقين عن الجهاد:

تحدثت آيات القرآن الكريم عن أساليب المنافقين في المرواغة للتنصل من تنفيذ ما يصدره الشارع الحكيم من أوامر وتشريعات، خصوصًا ما كان منها يعلي منزلة المؤمنين، ويحط مكانة الكافرين، وفي مقدمة تلك التشريعات الجهاد في سبيل الله تعالى الذي يعد من أبرز ما يظهر المنافقين على حقيقتهم، ويكشف زيفهم، فهم يتكرون دائمًا الآليات التي تعفيهم من المشاركة في جهاد أعداء الله تعالى.

وقد وضع القرآن الكريم حدًا لهؤلاء المنافقين الذين يستأذنون للتخلف عن الجهاد بأعذار واهية تارة، وأخرى يتظاهرون برغبتهم المشاركة في الجهاد، فبين أحوالهم، وحذر منهم، وبيان ذلك كما يأتي:

(١) انظر: المغازي، الواقدي ١/ ٢١٦.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٩٠٤.

استئذان المنافقين للتخلف عن الجهاد:

شرع الله تعالى الجهاد في سبيله لتبقى كلمته هي العليا، وليبقى أهل الإيمان في عزة وكرامة، ولما كان الجهاد بذل وتضحية وعطاء فقد لزم معه التمييز بين المؤمن الصادق المطمئن، وبين المنافق الكاذب المضطرب، فالمؤمن الصادق الواثق بنصر الله تعالى يقدم على البذل والتضحية في سبيل الله تعالى بلا تردد، فكان بذلك جديرًا بشهادة الله تعالى على صدقه وثباته.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وأما المنافق الكاذب المرتاب فيبحث له عن مخرج ينفذ من خلاله إلى التهرب من البذل والتضحية في سبيل الله تعالى، كما تظهر على قسمات وجهه علامات الجبن والخوف لمجرد سماعه لآيات الدعوة إلى القتال في سبيل الله تعالى، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠].

وهؤلاء توعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم في الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: ٧- ٨].

ومن الأعمال التي يعكف هذا الصنف السيئ من الناس عليها الاستئذان لعدم مشاركة المؤمنين في الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد ذكرت غير آية من كتاب الله تعالى ذلك العمل السيء.

١. إبراز تخاذل منافقي المدينة عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى مع المؤمنين في غزوة الخندق.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً

عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ [الأحزاب: ١٢-١٩].

يذكر الله تعالى لعباده ما كان من المنافقين يوم الخندق حيث إنهم أخذوا بالتشكيك بوعد الله تعالى لعباده المؤمنين بنصرهم وتمكينهم، كما أنهم قاموا ببث الفتنة بين صفوف المؤمنين من خلال تحريضهم على التراجع عن مواجهة الأحزاب، كما أنهم قاموا بالاستئذان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمح لهم بملازمة بيوتهم بحجة أن بيوتهم منكشفة للأعداء.

ثم بيَن الحق جل وعلا أن بيوتهم ليست كذلك، وأن القضية أنهم يسعون للفرار من المشاركة مع المؤمنين في الجهاد في سبيل الله تعالى، ثم يكشف الله تعالى عن جاهزية المنافقين التامة لاعتناق أي معتقد شركي في حال كان هذا هو السبيل للنجاة من بطش الأحزاب، وذلك مع أنهم سبق لهم وأن عاهدوا الله تعالى أن يثبتوا أمام الأعداء، وألا يفروا أبدًا.

ثم يبين سبحانه أن هؤلاء المنافقين سيسألون عن عهودهم يوم القيامة، وسيحاسبون عليها أشد الحساب، ثم يبين الله تعالى أن الفرار من ملاقاة الأعداء لا يطيل عمرًا، ولا يرد سوءًا، وأنه لا راد لأمره أبدًا، سواءٌ أراد لعباده شرًا من هزيمةٍ أو هلاكٍ أو نحو ذلك، أو أراد لهم خيرًا من نصرٍ أو نجاةٍ أو نحو ذلك؛ فهو سبحانه الولي والنصير.

ثم يبين سبحانه أنه على علم تام بأعمال المنافقين الخبيثة وصفاتهم القذرة والتي تتمثل بتثبيط المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله تعالى، واعتذارهم عن المشاركة فيه بأعذار واهية أو كاذبة، وعدم قتالهم للمشركين إذا تواجدوا في الغزوات مع المؤمنين، وارتعابهم الشديد عند ملاقاة الأعداء، وتعمدهم الإساءة للمؤمنين ورسولهم صلى الله عليه وسلم، وكل ذلك فضلًا عن كفرهم بالله تعالى.

ثم بيَن سبحانه أن عقوبة أولئك المنافقين هي إحباط العمل في الآخرة، وأن تنفيذ هذه العقوبة هو أمر يسير عليه سبحانه؛ فهو على كل شيءٍ قدير[1].

ومما يستفاد من الآيات الكريمة ما يأتي:

١. يعكف المنافقون على تشكيك المؤمنين بوعد الله تعالى لهم بالنصر والتمكين، ومن أبرز الشواهد على ذلك ما كان من المنافقين يوم الأحزاب حين قاموا بعملين أساسيين هما:

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤١٦-٤١٨.

- تثبيط المؤمنين عن الرباط مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرب من الخندق.
- الاستئذان من رسول الله صلى الله عليه وسلم للمكوث في البيوت بحجة أنها عورة، والحق أنها ليست بعورة.

٢. المنافقون على أتم الجاهزية لاعتناق أي معتقد مخالف للعقيدة الإسلامية في حال تم عرض ذلك عليهم من قبل أعداء الإسلام.

٣. المنافقون كاذبون فيما يصدر عنهم من عهود ومواثيق في عدم التولي عن نصرة الإسلام.

٤. الفرار من أرض المعركة لا يطيل عمرًا، والبقاء فيها لا يقصر أجلًا.

٥. النفع والضرر بيد الله تعالى وحده، وليس لأحد أن يدفع ضررًا أو نفعًا كتبه الله تعالى. ويؤكد هذا المعنى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله ابن عباس رضي الله عنهما: (يا غلام إني أعلمك كلماتٍ، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1].

٦. يعمد المشركون إلى تثبيط المسلمين عن نصرة الدين، وذلك من خلال تحقير إمكانات قوى الإيمان، مقابل تعظيم إمكانات قوى الكفر.

٧. المنافقون إما أن تظهر عليهم علامات الخوف والجبن الشديدين في أوقات الشدة، وإما أن يسلطوا ألسنتهم الحادة للسخرية من الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وكيل الشتائم لهم.

٢. إبراز تخاذل منافقي الأعراب عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى مع المؤمنين، والتعذر لذلك باعذار كاذبة.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

يبين الله تعالى موقف الأعراب السلبي من الخروج للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث إنهم كانوا يقدمون له الأعذار الواهية ليقعدوا عن الجهاد في سبيل الله تعالى ونصرة الدين، ثم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب رقم٥٩، رقم٢٥١٦، ٤/ ٢٤٨.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

توعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم لكفرهم وفجورهم[1].

ويستفاد من الآية الكريمة ما يأتي:

- ضعفاء الإيمان يختلقون الأعذار للتخاذل عن نصرة الحق، وهذا ليس من صفات المؤمنين الصادقين.
- يسلب الله تعالى ضعفاء الإيمان الحكمة في القول، فتكون عباراتهم مضطربة، وحججهم واهية.
- العذاب الأليم هو المصير الذي ينتظر الكاذبين على الله تعالى، ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

٣. إبراز تخاذل منافقي المدينة عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٤٢-٥٠].

يبين الله تعالى لعباده أن المنافقين لا يترددون في الخروج إلى الأسفار التي يجنون منها المرابح الدنيوية، أما الأسفار التي يبتغى فيها وجه الله تعالى ونصرة الدين فيختلقون الأعذار الواهية لعدم الخروج فيها رغبةً منهم في خذلان الحق، وفرارًا من البذل والتضحية في سبيل الله تعالى، ثم يعاتب الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم على سماحه للمنافقين بالتخلف عن الخروج في غزوة تبوك وكان الأولى هو عدم السماح لهم بالتخلف؛ لأن في ذلك كشفًا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤١٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٨٠.

لنفاقهم، ثم يبين الله تعالى أن المؤمنين الصادقين لا يختلقون الأعذار للتخلف عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى، وأن الاستئذان للتخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى هو سمة المرتابين من الذين لايؤمنون بالله تعالى ولا باليوم الآخر، كما يبين أن هؤلاء المرتابين يبيتون النية لعدم المشاركة مع المؤمنين في الجهاد، والدليل على ذلك هو امتناعهم عن الإعداد للخروج مع المجاهدين.

ويبين أيضًا أن عدم خروج المنافقين إلى الجهاد يصب في مصلحة المؤمنين؛ لأن وجود المنافقين في صفوف المؤمنين من أبرز عوامل الاضطراب والخلل لتلك الصفوف.

ثم يحذر الله تعالى المؤمنين من الانجرار خلف هؤلاء المتخاذلين عن نصرة الحق من خلال الاستماع أو التداول والنقل لأقوالهم التي يعمدون من خلالها إلى بث الفتن، وتثبيط العزائم أثناء فترات الصراع بين الإيمان والكفر من قبل أن يأذن الله تعالى للحق أن ينصر، ولكلمته أن تعلو.

ثم يبرز الله تعالى خبث المنافقين من خلال عرضه لما قاله بعضهم ليستأذنوا للتخلف عن الخروج للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن أحد المنافقين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ائذن لي في التخلف عن المشاركة في جهاد الروم؛ لئلا أفتتن في نسائهم الجميلات فأقع في المحظور، ثم يبين الله تعالى أن المنافقين قد وقعوا أكثر المحظورات خطورة، وأشدها عقوبة حين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان[1].

ويستفاد من الآيات السابقة ما يأتي:

١. المنافقون لا يترددون في الخروج إلى الأسفار التي يجنون منها المرابح الدنيوية، أما الأسفار التي يبتغى فيها وجه الله تعالى ونصرة الدين فيختلقون الأعذار الواهية لعدم الخروج رغبةً في خذلان الحق، وفرارًا من البذل والتضحية في سبيل الله تعالى.

٢. المنافقون يحلفون بالله تعالى الأيمان الكاذبة ليعتذروا عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى.

٣. الأولى ألا يأذن القائد المسلم للمتخاذلين عن الجهاد في سبيل الله تعالى ونصرة الحق، يفهم ذلك من معاتبة الله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم على إعطائه الإذن للمنافقين للقعود عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى في غزوة تبوك، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٦٩.

﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

٤. المؤمن لا يستأذن للقعود عن نصرة دين الله تعالى وإعلاء كلمته.

٥. التردد في اتخاذ قرار الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى ونصرة الحق علامة من علامات النفاق.

٦. استئذان المنافقين لعدم الخروج للجهاد أمر ناجم عن حيرتهم وشكهم المصحوب بالقلق.

٧. ترك الإعداد للجهاد في سبيل الله تعالى ماديًا ومعنويًا دليل واضح على نيتهم المبيتة لخذلان الحق وأهله وهذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ فلو هي أداة امتناع لامتناع، فامتنع الجواب (إعداد العدة) لامتناع الشرط (إرادة الخروج).

٨. يكره الله تعالى خروج المنافقين في صفوف المؤمنين الصادقين المجاهدين، للأسباب الآتية:

- لخبث نواياهم تجاه الإسلام والمسلمين.
- لأن موقفهم يكون متخاذلًا عند المواجهة مع الأعداء، وهذا قد يؤدي إلى انكشاف ظهر المسلمين، وربما يؤدي إلى انهزامهم أمام أعدائهم.
- لأنهم يبثون روح الهزيمة في نفوس المؤمنين، وربما يؤدي ذلك إلى تقاعس البعض ممن لم يستقر الإيمان في قلوبهم.

٩. المنافقون لا يفترون من السعي للقضاء على الدولة الإسلامية، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، في هذه الآية الكريمة يذكر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بموقف المنافقين في غزوة أحد، حيث رجع رأس النفاق عبد الله بن سلول بجزء من الجيش رغبةً منه في انهزام المسلمين والقضاء على دولتهم.

١٠. المنافقون يستاؤون من انتصار المؤمنين، وحصول المسرات لهم، وفي المقابل يفرحون بانهزام المسلمين، وحصول المكاره لهم.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٣ - ٩٦].

يبين الله تعالى لعباده أن الإثم في الاستئذان عن الجهاد إنما يكون على الذين يستأذنون للتخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى مع قدرتهم على البذل والعطاء، ليقعدوا في بيوتهم كما يقعد النساء والصبيان، ثم يعقب سبحانه ببيان أن تخلف أولئك الأغنياء مرتبط بالكفر والطغيان والغفلة عن وخامة العاقبة المترتبة على تخلف المقتدرين عن الجهاد في سبيل الله تعالى.

ثم يبين سبحانه أن المنافقين يستقبلون المؤمنين العائدين من الغزو بالاعتذارات لعدم مشاركتهم في الجهاد في سبيل الله تعالى، ثم أعقب سبحانه بتلقين المؤمنين الرد على هؤلاء المنافقين، والمتمثل في تكذيبهم وإعلامهم بأن الله تعالى قد كشف أمرهم وكذبهم، وأن الله تعالى مطلع على أعمالهم في الدنيا، وأن مردهم إليه في الآخرة وحينها سيخبرهم بما قدموا من أعمال في الدنيا، ثم سيحاسبهم عليها.

ثم يبين سبحانه للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين المتخلفين عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيحلفون للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الأيمان الكاذبة لتبرير تخلفهم عن الغزو معهم، وبالتالي عدم حصول التأنيب لهم، فأرشد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى ترك تأنيبهم، وتخليتهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، وسوء العاقبة.

ثم يؤكد الله تعالى أن علة الأيمان التي يحلفها المنافقون هي محاولة كسب رضا المؤمنين عنهم، ثم عقب سبحانه ببيان أنه لو رضي المؤمنون عن المنافقين، فإن ذلك الرضى لا يستلزم رضاه جل وعلا عن أولئك المتخاذلين المتخلفين عن الجهاد والبذل والتضحية[1].

ومما يستفاد من الآيات السابقة ما يأتي:

١. لا عذر عند الله تعالى للذين يتخلفون عن الجهاد في سبيله بأموالهم وأنفسهم وهم قادرون على البذل والتضحية نصرة للإسلام والمسلمين.
٢. الكفر بالله تعالى، والغفلة عن جزائه، والجهل بعذابه، هي الأسباب التي أدت بالمنافقين إلى التخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى.
٣. اختلاق الاعتذارات الكاذبة أو الواهية هو من طباع المنافقين لتبرير تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٩٥- ٣٩٧.

تعالى.

٤. أنسب الردود على المنافقين هو مطالبتهم بالكف عن تقديم الأعذار، ومقاطعتهم، والإعراض عنهم.

٥. الغاية من الأيمان التي يحلفها المنافقون للمؤمنين هي محاولة نيل رضاهم.

٦. لا يرضى الله تعالى عن المنافقين؛ لأنهم كفروا به، وتخلفوا عن نصرة دينه.

ولا تقتصر أعمال المنافقين الخبيثة على التخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى، بل تتعدى ذلك إلى محاولة حث المؤمنين على التخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى، ومن الآيات التي تحدثت عن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

ومما يستفاد من الآية السابقة ما يأتي:

١. ينتاب المنافقين حالةٌ من الفرح حينما يقعدون عن المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وعلة ذلك أنهم كارهون للإسلام الذي يحمل أتباعه مسؤولية المحافظة على أمن وعزة وكرامة المجتمع الذي وضعت أسسه، وأرست دعائمه أحكام الشريعة الإسلامية، وبالتالي فهم يبخلون على المؤمنين مع امتلاكهم لمقومات الدعم والنصرة.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة: ٨٥- ٨٦].

يبين الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين عدم انتفاع المجرمين بأموالهم، ولا أولادهم ففي الدنيا يكونون عليهم همًا وغمًا، وعند الموت حسرةً، ويوم القيامة عند السؤال ندامةً، كما يبين الله تعالى أن موقف زعماء ووجهاء المنافقين عند نزول سورة تأمر بالإيمان والجهاد في سبيل الله تعالى، وهو الاستئذان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمح لهم بالقعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى على الرغم من كثرة أموالهم، ورجاحة عقولهم[(١)].

٢. يكره المنافقون أن يكون هنالك أيًا من مصادر الدعم المادي أو المعنوي، ويسعون جاهدين لقطع كافة سبل الإمداد عنهم، يظهر ذلك جليًا من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤١١، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٤٤٢، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٩٤.

خلال أمرين، هما:

- الإمساك عن توفير أي دعم للمؤمنين من أجل تقوية شوكتهم.
- تحريض من يمكنهم تحريضه من المسلمين لعدم المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى.

فرح المنافقون بتخلفهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى في غزوة تبوك، وشعروا أنهم قد حققوا إنجازًا عظيمًا على صعيد محاربة الإسلام، وزعزعة صفوف المسلمين، ولكن سرعان ما فضحت آيات سورة التوبة خباياهم، ووصفتهم بما يميزهم عن المؤمنين، وعاقبتهم على تخلفهم عن غزوة تبوك.

فقال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ۚ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٨١ - ٨٣].

تبيّن الآيات الكريمة موقف المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم من الجهاد والمجاهدين، أما موقفهم من الجهاد فهو الكراهية، سواءٌ أكان الجهاد بالمال أو بالنفس، أما موقفهم من المجاهدين فهو السعي لتثبيطهم عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى، فردت عليهم الآيات ببيان أن فرحهم وضحكهم سيعقبه الوبال والهلاك لهم في الآخرة، كما أمرت الآيات النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم ألا يسمح لهم بالخروج للجهاد في سبيل الله تعالى بسبب تخلفهم عن الجهاد في غزوة تبوك بدون أي عذر مقبول[(١)].

ويستفاد من الآيات ما يأتي:

١. الفرح بالتخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس من أظهر علامات النفاق.
٢. الصبر على مشقة الجهاد في سبيل الله تعالى في الدنيا خير من الصبر على عذاب الله في الآخرة، كما أن الله تعالى يؤمِن المجاهد في سبيل الله تعالى من نار جهنم في الآخرة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله عز وجل ودخان جهنم في منخري مسلمٍ أبدًا)[(٢)].

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٤٣٩-٤٤٠.
(٢) أخرجه النسائي في المجتبى، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، ٦/ ١٤، رقم٣١١٣. وصححه الألباني.

٣. العذاب الأليم هو المصير الذي سيلقاه المنافقون يوم القيامة، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

٤. عاقب الله تعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج في غزوة تبوك بعدم السماح لهم بالخروج للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدًا.

قال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾[التوبة: ٨٣].

ثانيًا: من يشرع لهم بالاستئذان عن الجهاد:

على الرغم من أن الشريعة الإسلامية قد حثت على المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وحذرت من مغبة ترك هذه العبادة العظيمة، إلا أنها سمحت لفئات من المؤمنين بعدم المشاركة في ما لا يطيقونه من أعمال الجهاد التي يقوى عليها غيرهم من الأقوياء، وهؤلاء الأصناف هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢].

كما جاء ذكر أصناف أخرى في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧].

وتفصيل هذه الأصناف كما يأتي:

١. الضعفاء.

يشمل لفظ الضعفاء عدة أصناف منها: صغار السن لضعف أبدانهم، والمجانين لضعف عقولهم، والطاعنين في السن لوهن أجسادهم، والنساء لعدم قدرتهن على حمل السلاح ومواجهة الأعداء، وأصحاب العاهات التي تحول دون القدرة على القيام بأعمال الجهاد الشاقة[(١)].

وقد جاء عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ٩٥].

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت فكتبها، فجاء عبد الله ابن أم مكتوم، فشكا ضرارته[(٢)]، فأنزل الله تعالى:

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٢٢٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٨٠.

(٢) شكا ضرارته أي: فقدانه البصر الذي يمنعه من الجهاد في سبيل الله تعالى.

﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥][1].

٢. المرضى.

والمراد هنا بالمرضى هم أصحاب الأمراض التي تحول بينهم وبين القدرة على القيام بأعمال الجهاد في سبيل الله تعالى[2].

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن بالمدينة لرجالًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض)[3].

٣. الذين لا يجدون ما ينفقون.

وهؤلاء هم الفقراء الذين لا يملكون التكاليف التي تمكنهم من المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى، فهؤلاء معذورون شرعًا لعدم المشاركة في الجهاد حتى وإن كانت لديهم القدرة البدنية على مواجهة الأعداء.

يقول سيد طنطاوي في شرح معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ «هم الفقراء القادرون على الحرب، ولكنهم لا يجدون المال الذين ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا يجدون الرواحل التي يسافرون عليها إلى أرض المعركة»[4].

٤. الذين اعتذر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اصطحابهم للجهاد في غزوة تبوك لعدم توفر ما يحملهم عليه من الركوبة.

وهؤلاء قوم جاؤوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل غزوة تبوك ليحملهم معه لغزو الروم فاعتذر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدم قدرته من توفير الركوبة لهم، فتولوا وهم يبكون، وهذا ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢][5].

فهؤلاء لا إثم عليهم لعدم مشاركتهم في الجهاد في سبيل الله تعالى.

وقد ذكر الله تعالى هذه الأصناف لتمييزهم عن الذين لم يقبل الله تعالى أعذارهم الواهية للقعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى، ولطمئنة هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين حبسهم العذر عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى على أجرهم عند

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)، ٦/ ٤٨، رقم٤٥٩٣.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٦/ ٣٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، ٣/ ١٥١٨، رقم١٩١١.

(٤) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٦/ ٣٧٩.

(٥) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٦٢.

الله تعالى.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو راجع من غزوة تبوك: (إن بالمدينة أقوامًا، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم)، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة، حبسهم العذر)[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إلا كانوا معكم) فيه دليل على أنه من حبسه العذر عن القيام بأعمال الخير مع نيته فيها، فقد وقع أجره على الله تعالى[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، ٦/ ٨، رقم٤٤٢٣.

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ٤٨.

الاستئذان للانصراف عن الأمر الجامع

الإسلام هو دين الجماعة فهو أمر عظيم لا يقوى على تحمل أعبائه وتحقيق مقاصده الأفراد، وللحفاظ على الجماعة وصيانة حقوقها فقد حث الإسلام على لزومها، وحذر من مفارقتها، وجعل الاستئذان شرطًا للانسحاب منها لقضاء بعض الحاجيات المختلفة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

يبين الله تعالى أن الأدب هو الصفة الأبرز للمؤمنين، فهم لا يغادرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد أخذ الإذن والموافقة منه صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر الله تعالى أن التربية الإيمانية هي السبب في تأدب أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم لإعطاء الإذن للمؤمنين إذا أراد ذلك، كما يحثه على الاستغفار للمؤمنين، ثم يعلل الله تعالى حثه نبيه صلى الله عليه وسلم على الاستغفار للمؤمنين بأنه تعالى

متصفٌ بالمغفرة والرحمة[1].

ويستفاد من الآية السابقة ما يأتي:

١. وجوب المحافظة على النظام عند حضور الجماعة، وهذا يقتضي عدم الانسحاب من الجماعة إلا بموافقة زعيمها.

٢. وجوب مراعاة ظروف أفراد الجماعة من قبل سيدهم، وهذا يقتضي إعطاءهم الإذن حال استئذانهم لقضاء بعض مصالحهم.

٣. وجوب اتصاف المسؤول عن الجماعة بالرحمة، وهذا يقتضي الدعاء لهم بالخير، وكذلك الاستغفار لهم.

كما ذم الله تعالى المنافقين لانسحابهم من مجالس النبي صلى الله عليه وسلم وجعل من هذا الخلق الذميم علامة فارقة تميز بين المؤمن والمنافق.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ينهى الله تعالى عباده عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كدعاء بعضهم لبعض، ثم يبين الله تعالى عادة المنافقين المنافية للأدب الواجب التزامه مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وهو التسلل للانسحاب من مجالسه صلى الله عليه وسلم خفية من دون أن يطلبوا الإذن لذلك، ثم يعقب الله تعالى بتحذير أولئك الذين يخالفون أمر الله تعالى بوجوب لزوم الأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم، من مغبة غضبه، وقسوة عقوبته[2].

ويستفاد من هذه الآية ما يأتي:

١. وجوب توقير رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذكره، سواءٌ بالقول أو بالكتابة أو بالإشارة، وذلك بنعته برسول الله أو بأي نعت يليق به صلى الله عليه وسلم وكذا بالصلاة عليه.

٢. الذهاب من مجالس العلماء والدعاة دون استئذانهم أمر فيه سوء أدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وكذا الأمر بالنسبة للدعاة، فالرسول صلى الله عليه وسلم داعية إلى الله تعالى، يشهد لذلك ما قاله الله تعالى مخاطبًا الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٢٨، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٢١.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٠٧، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٤/ ٤٦٨.

٣. إهانة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أبرز الأسباب الموجبة لغضب الله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

البيوت، الجهاد، العلاقات الاجتماعية

الاستدراج

عناصر الموضوع

مفهوم الاستدراج	٢٧٤
الاستدراج في الاستعمال القرآني	٢٧٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٧٦
الاستدراج سنة إلهية	٢٧٨
الحكمة من الاستدراج	٢٨٣
مجالات الاستدراج	٢٨٩
مظاهر الاستدراج	٢٩٦
نماذج قرآنية في الاستدراج	٣٠٢
عاقبة المستدرجين	٣٠٩

مفهوم الاستدراج

أولًا: المعنى اللغوي:

يورد أهل اللغة وأصحاب المعاجم لفظة الاستدراج تحت مادة (درج)، والتي تأتي في اللغة بعدة معانٍ، كما يلي:

١. بمعنى المضي والذهاب والرجوع، قال ابن فارس: «درج، الدال والراء والجيم أصلٌ واحد يدل على مضي الشيء والـمضي في الشيء، من ذلك قولهم: درج الشيء، إذا مضى لسبيله، ورجع فلانٌ أدراجه، إذا رجع في الطريق الذي جاء منه»[(١)].

٢. بمعنى المنزلة والرتبة: جاء في لسان العرب: «درج البناء ودرجه، بالتثقيل: مراتب بعضها فوق بعضٍ، واحدته درجة ودرجةٌ مثال همزةٍ، الأخيرة عن ثعلبٍ، والدرجة: الرفعة في المنزلة»[(٢)].

٣. بمعنى اللف والطي والإدخال: قال في بصائر ذوي التمييز: «والإدراج: لف شيء في شيء، يقال: أدرج فلان في أكفانه. ودرجه في الأمر تدريجًا، أي: جره إليه قليلًا قليلًا. واستدرج الله المرء: جره قليلًا قليلًا إلى العذاب»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الجرجاني الاستدراج بقوله: «الاستدراج: أن يجعل الله تعالى العبد مقبول الحاجة وقتًا فوقتًا إلى أقصى عمره للابتدال بالبلاء والعذاب»[(٤)].

وقال الكفوي: الاستدراج: «هو أن يعطي الله العبد كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعدًا من الله تعالى»[(٥)].

وتعريف الكفوي أقرب لمعنى الاستدراج في القرآن، والذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾ [الأعراف:١٨٢].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٧٥.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٦٦.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٩٢.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص٢٠.
(٥) الكليات، الكفوي ص١١٣.

الاستدراج في الاستعمال القرآني

ورد (الاستدراج) في القرآن مرتين[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٤]

وجاء (الاستدراج) في القرآن الكريم بصيغة صرفية واحدة، هي صيغة الفعل المضارع، مبدوءة بسين الاستقبال ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، والهاء مفعوله.

ومما يلاحظ في هذه الصيغة القرآنية تناسبها واتفاقها مع مدلول الاستدراج ومعناه، فطول الكلمة وكثرة حروفها - في تسعة حروف-، وطول فترة نطقها لوجود السكون في السين والدال، كل ذلك يتناسب مع معنى الاستدراج وهو الإمهال والإنظار للكافرين، ويوحي «بطول المدة، مدة عدم انصياعهم، وخصوصًا في صيغة (استفعل) ففيها تصيير لهم، وحركة جعلية متمهلة، وهذا ما يوحي به توالي المقاطع وتعددها مما يجسم طول فترة الغفلة التي يكون فيها الكافرون»[2].

وهذا كله من جمال اللفظ القرآني وإعجازه، وأيضًا فإن مجيء مادة الاستدراج بصيغة الفعل المضارع يدل على استمرار وتجدد هذه السنة الإلهية في الخلق، وهو أمر مشاهد في كل زمان في إمهال الله تعالى للظلمة والكافرين واستدراجهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص ٥٠٠.
(٢) انظر: جمالية المفردة القرآنية، ياسوف ص١٨٥.
وانظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبدالسلام الراغب ص٣٩٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإمهال:

الإمهال لغة:

من مهل، بمعنى «التؤدة والسكون، يقال: مهل في فعله، وعمل في مهلة، ويقال: مهلًا، نحو: رفقًا... وأمهلته: رفقت به»[١].

الإمهال اصطلاحًا:

التؤدة والسكون[٢]، فهو يتفق مع المعنى اللغوي للكلمة.

الصلة بين الإمهال والاستدراج:

الذي يظهر أن بين الإمهال والاستدراج عمومًا وخصوصًا، فالإمهال أعم من الاستدراج من جهة السبب، فقد يمهل الله تعالى الإنسان ليتوب، وقد يمهله ليزداد إثمًا، وهو أخص من الاستدراج من جهة أنه نوع من أنواعه، فالاستدراج يكون بإمهال بالعقوبة وتأخيرها، ويكون بغير ذلك كالإمداد والإنعام.

٢ الإملاء:

الإملاء لغة:

«(ملي) الميم واللام والحرف المعتل كلمةٌ واحدةٌ. هي تدل على الزمن الطويل. وأقام مليًا، أي: دهرًا طويلًا»[٣].

الإملاء اصطلاحًا:

«هو الإمهال والتأخير»[٤].

الصلة بين الإملاء والاستدراج:

أن الإملاء: هو الإمهال والتأخير، والاستدراج: هو أنه كلما جدد العبد خطيئة جدد الله له نعمة، وأنساه الاستغفار إلى أن يأخذه قليلًا قليلًا، ولا يباغته، وعلى هذا بينهما عموم وخصوص، إذ كل استدراج إملاء وليس كل إملاء استدراجًا[٥].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٨٠.
(٢) التوقيف، المناوي ص٣١٩.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٤٦.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص ٧٢.
(٥) انظر: المصدر السابق.

٣ الكيد:

الكيد لغةً:

هو المكر والخبث، والحيلة، والحرب[١].

الكيد اصطلاحًا:

«إرادة مضرة الغير خفيةً وهو من الخلق الحيلة السيئة، ومن الله سبحانه وتعالى التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق»[٢].

الصلة بين الكيد والاستدراج:

الكيد هو إرادة مضرة الغير بحيلة خفية، والاجتهاد في ذلك، وهو نوع من أنواع الاستدراج.

٤ المكر:

المكر لغة:

«الخديعة والاحتيال، وقال الليث: احتيالٌ في خفيةٍ»[٣].

المكر اصطلاحًا:

قال المناوي: «المكر: من جانب الحق: إرداف النعم مع المخالفة، وإبقاء الحال مع سوء الأدب، وإظهار الكرامات من غير جد. ومن جانب العبد: إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر»[٤].

الصلة بين المكر والاستدراج:

المكر من الله استدراج بالنعم، فالمكر فيه استدراج وفيه زيادة أيضًا على الاستدراج بحيث يكون قلب ذلك المستدرج آمنًا من كل جهة[٥].

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٣١٦.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٨٩، التوقيف، المناوي ص٢٨٦.
(٣) تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ١٤٧.
(٤) التوقيف، المناوي ص٣١٢.
(٥) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح آل الشيخ ص٣٨٤.

الاستدراج سنة إلهية

من سنن الله تعالى في عباده - والتي لا تتبدل ولا تتغير- سنة الاستدراج، فالله تعالى أمر عباده بطاعته وامتثال أوامره، وحذرهم من معصيته ومخالفة أمره، فإن هم أطاعوه، فازوا وسعدوا في الدنيا والآخرة، وإن خالفوه ولم يستجيبوا لأمره، ذكّرهم الله تعالى، وحذرهم من عقابه.

ثم سلط عليهم البلاء والضراء حتى يردهم إليه وإلى طاعته، فإن تمادوا في إعراضهم وكفرهم رغم تذكير الله لهم ودعوته إياهم فإن الله تعالى يبدلهم مكان السيئة الحسنة ويوسع عليهم ويمدهم في طغيانهم، ويمهلهم، حتى إذا ازدادوا كفرًا وفجورًا، ونسوا لقاء ربهم أخذهم الله بغتة -وهم لا يشعرون- إلى عقابه الشديد، وهذا هو معنى استدراجه تعالى وكيده ومكره بمن عصاه وكفر به، وهي سنته الباقية في كل من يمضي على منوالهم.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

فأخبر تعالى عن سننه في الأمم الماضية المكذبة الكافرة في إمهاله لهم واستدراجه إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجله في إهلاكهم واستئصالهم، فأحل بهم عقوبته، وأنزلت بساحتهم نقمته، وتركهم لمن بعدهم أمثالًا وعبرًا[1].

قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، وهذه الآية نزلت بعد معركة أحد تسلية وتعزية للمسلمين على ما أصابهم فيها، وبيان أن ما حدث للكفار من بعض الظفر بالمسلمين هو من استدراج الله تعالى بهم.

قال الإمام الطبري: «فسيروا - أيها الظانون، أن إدالتي[2] من أدلت من أهل الشرك يوم أحد على محمد وأصحابه، لغير استدراج مني لمن أشرك بي، وكفر برسلي، وخالف أمري - في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم، ممن كان على مثل الذي عليه هؤلاء المكذبون برسولي والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آل إليه غب خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلموا عند ذلك أن إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد، إنما هي استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢٨، البسيط، الواحدي ٥/ ٦١٢.

(٢) الإدالة: الغلبة، يقال: اللهم أدلني على فلانٍ وانصرني عليه. و دالت الأيام، أي: دارت والله يداولها بين الناس. و تداولته الأيدي أخذته هذه مرةً وهذه مرةً.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٠٩.

إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم: من تعجيل العقوبة عليهم، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي»[1].

فبيَن تعالى أن الاستدراج سنة من سننه مع الكافرين والعصاة من خلقه، وقد أوضح الله تعالى معنى هذا الاستدراج في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٤-٩٦].

«أي: إن سنتنا قد جرت - ولا مبدل لها - أننا إذا أرسلنا نبيًا في قوم وكذبوه أنزلنا بهم الشدائد والمصائب»[2].

قال: ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ «أي: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة، ونحو ذلك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم»[3]، «ثم إذا لم يفد فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ فأدر عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلاء ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كثروا، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء»[4].

قال ابن عاشور: «والمعنى أنا نأخذهم بما يغير حالهم التي كانوا فيها من رخاء وصحة، عسى أن يعلموا أن سلب النعمة عنهم أمارة على غضب الله عليهم من جراء تكذيبهم رسولهم فلا يهتدون، ثم نردهم إلى حالتهم الأولى إمهالًا لهم واستدراجًا فيزدادون ضلالًا، فإذا رأوا ذلك تعللوا لما أصابهم من البؤس والضر بأن ذلك التغيير إنما هو عارض من عوارض الزمان وأنه قد أصاب أسلافهم من قبلهم ولم يجئهم رسل»[5].

قال الخازن في معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾، «يعني أنهم قالوا: هكذا عادة الدهر قديمًا وحديثًا لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فإنهم لم يتركوا دينهم مما أصابهم من الضراء والسراء»[6].

وما أجمل ما قاله سيد قطب في تعقيبه على هذه الآيات وبيان سنة الله تعالى في

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢٨.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ١١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٧.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٨.
(٦) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٣٠.

الاستدراج، قال رحمه الله: «هذه وقفة في سياق السورة للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقفة لبيان سنة الله التي جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين في كل قرية... وهي سنة واحدة يأخذ الله بها المكذبين ويتشكل بها تاريخ الإنسان في جانب منه أصيل، أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله...

فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء، وفتح عليهم الأبواب، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون، كل ذلك للابتلاء، حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص، وإلى الغفلة وقلة المبالاة، وحسبوا أن الأمور تمضي جزافًا بلا قصد ولا غاية، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل؛ لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير: ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾! أخذهم الله بغتة، وهم سادرون في هذه الغفلة»[1].

وقد بيّن الله تعالى هذا المعنى لسنة الاستدراج في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، أي: «فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ما رقت ولا خشعت.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي[2]، وجيء بـ (لولا) ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان -ومنها الشرك- لهم.

فالاستدراك في الآية على المعنى لبيان الصارف لهم عن التضرع. وأنه لا مانع لهم إلا ذلك[3]، ولما كان حالهم كذلك من الإعراض وقسوة القلب، استدرجهم الله تعالى بنعمه وكثرة الخيرات، وأملى لهم، كما قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥٣٤، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٥٩.

قال الحافظ ابن كثير: «أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذًا بالله من مكره؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ أي: من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾، أي: على غفلة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من كل خير»[1].

وفي الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج).

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤].[2]

فبيَن صلى الله عليه وسلم أن الاستدراج هو الفتح بالنعم مع الإقامة على المعصية، أما الفتح بالنعم مع الإيمان والتقوى فهي رحمة من الله تعالى بالمؤمنين، وسنة من سننه في إكرام أهل طاعته في الدنيا والآخرة، وقد بيَن الله تعالى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

فبعد أن بيَن تعالى أن الإنعام على سبيل الاستدراج، بيَن أنه يكون أيضًا على سبيل الإكرام لأهل الإيمان والتقوى.

وهكذا يبين الله تعالى لنا سنته في استدراج المكذبين بآياته من الأمم الكافرة والظالمة، كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].

«قال الأزهري: أي: سنأخذهم قليلًا قليلًا من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون إليه، ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون، وقال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة»[3].

قال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم:٤٤].

قال الفخر الرازي: «ذرني وإياه، يريد كله إلي، فإني أكفيكه، كأنه يقول: يا محمد حسبك انتقامًا منه أن تكل أمره إلي، وتخلي بيني وبينه، فإني عالم بما يجب أن يفعل به قادر على ذلك»[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٦.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٣١١، ٢٨/ ٥٤٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم ٥٥٣، ١/ ١٥٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦١٥.

وقال ابن كثير: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، وهذا تهديد شديد، أي: دعني وإياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف أستدرجه، وأمده في غيه وأنظر ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم:٤٥]، أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَيْدِي مَتِينٌ﴾، أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي[1].

فصرح تعالى بتهديده ووعيده لأهل التكذيب والعناد بالكيد لهم واستدراجهم، ولا شك أن من هدده رب العالمين بذلك، فهو من أخسر الخاسرين في الدنيا والآخرة.

قال الخازن: «وقيل في معنى الآية: كلما أذنبوا ذنبًا جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار والتوبة، وهذا هو الاستدراج؛ لأنهم يحسبونه تفضيلًا لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب إهلاكهم فعلى العبد المسلم إذا تجددت عنده نعمة أن يقابلها بالشكر، وإذا أذنب ذنبًا أن يعاجله بالاستغفار والتوبة»[2].

ومراد الإمام الخازن: أي حتى لا يكون ذلك الإنعام استدراجًا فاشكروا الله على نعمه، واستغفروه من ذنوبكم.

واستدراجه تعالى ليس قاصرًا على الأمم فحسب، وإنما يقع على الأفراد أيضًا.

قال تعالى مبينًا استدراجه لبعض الأفراد: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾ [الزمر:٤٩-٥٠].

فأخبر الله تعالى عن الإنسان «أنه في حال الضراء يضرع إلى الله عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوّله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله تعالى خصيص لما خولني هذا!»[3].

وقال الخازن: «﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يعني من الله تعالى، علم أني له أهل، وقيل: على خير علمه الله عنده، ثم قال تعالى في رد ما قاله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يعني تلك النعمة استدراج من الله تعالى وامتحان وبلية، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أنها

(١) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٠٠.

(٢) لباب التأويل، ٤/ ٣٣١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٠٥.

استدراج من الله تعالى»[1].

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، كقارون، كما ذكر تعالى ذلك عنه في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

وهكذا بين الله تعالى أن الاستدراج سنة من سننه مع عباده أممًا وأفرادًا.

وهذه السنة الإلهية الحكيمة لها علاقة وثيقة بالسنن الإلهية الأخرى، كعقوبة الظالمين والانتقام منهم، فالله تعالى يملي للظالم ويمهله ليزداد بذلك بغيًا وإثمًا، ثم يأخذه بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر، وسنة الابتلاء والامتحان، ليبتلي عباده في إيمانهم وصبرهم.

الحكمة من الاستدراج

أولًا: الإمهال للتوبة.

من حكمة الله تعالى في استدراج عباده أن يردهم إلى التوبة والإنابة إليه، وهو من رحمته تعالى بهم، فيمهلهم الله وينظرهم، ويبتليهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إليه، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة:١٢٦].

وهي في سياق الحديث عن المنافقين وفضائحهم، وقد تضمنت توبيخهم وتقريعهم والإنكار عليهم في إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق مع ما يصيبهم من البلايا والأمراض.

قال السعدي رحمه الله: «قال تعالى -موبخًا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق-: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم، فيتركونه، فالله تعالى يبتليهم -كما هي سنته في سائر الأمم- بالسراء والضراء وبالأوامر

(١) لباب التأويل، ٤/ ٦٠.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٢٤.

والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون»[1].

وقال البقاعي رحمه الله: «فالآية ذامة لهم على عدم التوبة بإصابة المصائب لعدم تذكر أنه سبحانه ما أصابهم بها إلا بذنوبهم ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

كما أن أحدهم لا يعاقب فتاه إلا بذنب وما لم يتب فهو يوالي عقابه»[2].

وقال الواحدي: «قال أهل المعاني: وهذه الآية بيان عما يوجبه تقلب الأحوال مرة بعد مرة من تذكر العبرة التي تدعو إلى إخلاص الطاعة والتوبة من كل خطيئة لشدة الحاجة إلى من يكشف البلية ويسبغ النعمة»[3].

وهكذا يبين الله تعالى توبيخه وإنكاره على من لم يعتبر بحصول البلاء ونزول الضراء وتغير الأحوال في تجديد التوبة والإنابة إليه.

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١].

أي: لنذيقنهم من عذاب الدنيا بالقتل والأسر والجدب سنين والأمراض قبل عذاب الآخرة لعلهم يرجعون إلى الإيمان[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف:٤٨].

وغير ذلك من الآيات التي توضح استدراج الله تعالى لهم بالعقاب ليتوبوا وينيبوا، قبل أن يدركهم العذاب الأكبر يوم القيامة.

وهذا النوع من الاستدراج هو النوع الأول الذي أشار إليه ابن الحاج رحمه الله في قوله: «الاستدراج اسم لمعنيين فأحد المعنيين: استدراج عقوبة للسيئة تنبيهًا على الإنابة، والمعنى الثاني استدراج لا إنابة فيه، ولا رجوع، فنعوذ بالله من الاستدراج»[5].

ثانيًا: الزيادة في الإثم.

ومن حكم استدراج الله تعالى للكفرة والمجرمين من خلقه أن يزدادوا إثمًا وجرمًا، فيزيد الله عقابهم بذلك، فالله تعالى يمهل الكافرين وينظرهم -استدراجًا منه تعالى- حتى يصلوا إلى درجة عظيمة من الإثم، ثم يعاجلهم بالعقوبة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٦.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٥٣.
(٣) البسيط، الواحدي ١١/ ١٠٢.
(٤) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٥٤٧.
(٥) المدخل، ابن الحاج ٣/ ٦٩.

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾ [آل عمران:١٧٨].

وهذه الآية نزلت عقب غزوة أحد، تسلية للمؤمنين على ما وقع لهم فيها من بلاء، وبيانًا لسنة الله تعالى في استدراج الكفرة والمنافقين، أي: ليعلم المؤمنون أن إملاء الله تعالى لأهل الكفر ببقائهم ونجاتهم من سيوف المسلمين يوم أحد إنما هو من استدارج الله تعالى لهم وكيده بهم.

وذلك أنهم يزدادون بهذا الإمهال إثمًا وجرمًا، فيزيد الله بذلك في عقابهم، ويشهد لهذا المعنى قراءة الفعل ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ في الآية بتاء الخطاب الفوقية[1]، أي: لا تحسبن يا محمد صلى الله عليه وسلم[2].

وفي ذلك تحسير لأهل الكفر وتثبيط لعزائمهم، فلا يظنون أن ما هم فيه من الإمهال والإنظار خير لهم[3]، بل هو استدراج يعقبه عذاب ونكال، ويشهد لهذا المعنى قراءة الفعل ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ في الآية بياء الغيبة التحتية.

وكل ذلك مما يجنيه الكافر على نفسه بإعراضه عن طاعة ربه والتزام أمره، مع إرسال الله رسله ونذره إليه، فلما أعرض ونأى بجانبه، استدرجه الله إلى العذاب الشديد والنكال العظيم، فأمهله وزاد في عمره، ووسع في رزقه، وألهاه بدنياه، ونعمه فيها، حتى إذا جاءت ساعة أجله، أخذه الله وهو على حاله غافلًا ساهيًا قد كبل بالخطايا والآثام.

ومن أجل هذه الحكمة أخر الله تعالى إبليس وأنظره إلى يوم البعث لما طلب من الله تعالى ذلك.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٣٨﴾ [الحجر:٣٦-٣٨].

قال ابن كثير: «لما تحقق الغضب الذي لا مرد له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدراجًا له وإمهالًا»[4].

ثالثًا: الزيادة في الضلال.

ومن حكم استدراج الله تعالى للكفرة والمجرمين من خلقه أن يزدادوا ضلالًا وانحرافًا، وذلك عقوبة لهم على زيغهم وانحرافهم، واختيارهم سبيل الضلال وسلوكه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الصف:٥].

(١) قرأ حمزة بتاء الخطاب، والباقون بياء الغيبة. انظر: البدور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي ص٧٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٨٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٦٢.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٤٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٥.

أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1]، فالله تعالى لا يهدي من أراد الضلالة وسعى لها، بل إن الله تعالى يمد أهل الضلال في ضلالهم حتى يزدادوا بذلك عذابًا وعقابًا.

قال تعالى في وصف الكفار عند سماعهم آياته تتلى عليهم: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥﴾ [مريم:٧٣-٧٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات: «يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ أي: أحسن منازل، وأرفع دورًا، وأحسن نديًا وهو مجمع الرجال للحديث، أي: ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟ كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾ [الأحقاف:١١].

وقال تعالى على لسان قوم نوح: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء:١١١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام:٥٣].

ولهذا قال تعالى -رادًا عليهم شبهتهم-: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ أي: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا وأمتعة ومناظر وأشكالًا»[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾، أي: «قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، القائلين إذا تتلى عليهم آياتنا: أي الفريقين منا ومنكم خير مقامًا وأحسن نديًا، من كان منا ومنكم في الضلالة جائرًا عن طريق الحق،... فليطول

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٥٧.

له الله في ضلالته، وليمله فيها إملاء»[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم:٧٥].

قال أبو زهرة رحمه الله: «يقول تعالى ردًا على المشركين في غرورهم بالمال والبنين ومتعة الجاه والسلطان: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم يأمره سبحانه وتعالى بأن يبين لهم الحق وسنة الله تعالى في أمر الضلالة والهداية، فهو سبحانه يمد الذين أرادوا الضلالة وسلكوا سبيلها وأخذوا في أسبابها، يمدهم فيها مدًا حتى يحسبوا أن الأمر إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٣].

يمهلهم سبحانه ويتركهم في غيهم يعمهون، ويزيدهم بالمال ويعطيهم، حتى يفرقهم الغرور ويجعلهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وقال تعالى بلفظ الأمر: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ جاء الخبر على صيغة الأمر؛ لبيان أن ذلك بإرادة الله وكأنه يأمره به أمرًا، وهو استدراج من الله تعالى لهم... وأكد سبحانه إمهالهم واستدراجهم بالعطاء بوفرة عليهم بالمصدر (مدًا)»[2].

وقد بين الله تعالى في الآيات التي تلي هذه الآية شيئًا من مدهم في ضلالهم، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣].

أي: سلطناهم عليهم بالإغواء، وقيضناهم لهم[3]، قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تر يا محمد أنا أرسلنا الشياطين على أهل الكفر بالله (تؤزهم) يقول: تحركهم بالإغواء والإضلال، فتزعجهم إلى معاصي الله، وتغريهم بها حتى يواقعوها (أزا) إزعاجًا وإغواء»[4].

وجعل تعالى ذلك لهم جزاءً على إعراضهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف:٣٦].

قال الشنقيطي عند تفسير لآية سورة مريم: «في معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، وكلاهما يشهد له قرآن: الأول: أن الله جل وعلا أمر نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يقول هذه الكلمات كدعاء المباهلة بينه وبين المشركين، أي: قل يا نبي

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤٣.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٦٨٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٥٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٥١١.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٥١.

الله لهؤلاء المشركين الذين ادعوا أنهم خير منكم، من كان منا ومنكم في الضلالة - أي الكفر والضلال عن طريق الحق.

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: فأمهله الرحمن إمهالًا فيما هو فيه حتى يستدرجه بالإمهال ويموت على ذلك ولا يرجع عنه، بل يستمر على ذلك حتى يرى ما يوعده الله، وهو: إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين، كقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤].

أو بغير ذلك، وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم على ذلك الكفر، وعلى ذلك التفسير فصيغة الطلب المدلول عليها باللام في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ على بابها، وعليه فهي لام الدعاء بالإمهال في الضلال على الضال من الفريقين، حتى يرى ما يوعده من الشر وهو على أقبح حال من الكفر والضلال، والوجه الثاني: أن صيغة الطلب في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾، يراد بها الإخبار عن سنة الله في الضالين، وعليه فالمعنى: أن الله أجرى العادة بأنه يمهل الضال ويملي له فيستدرجه بذلك حتى يرى ما يوعده، وهو في غفلة وكفر وضلال»[1].

ثم قال رحمه الله: «قوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

دليل على رجحان القول الثاني في الآية المتقدمة، وأن المعنى: أن من كان في الضلالة زاده الله ضلالة، ومن اهتدى زاده الله هدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله في الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وقوله: ﴿بَل طَّبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:١٥٥]»[2].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٨٧، بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٤٨٩.

مجالات الاستدراج

للاستدراج مجالات عدة منها: الكفر، والنفاق، والظلم، والفسق والمعاصي.

أولًا: الكفر:

الكافرون هم أعظم الخلق استدراجًا إلى عقاب الله تعالى، وعذابه الأليم، وهو الخلود في نار جهنم، وأكثر الخلق اغترارًا بإمهال الله لهم وإنعامه عليهم، وما ذلك إلا لكفرهم وجهلهم بربهم وسننه، فالله تعالى يعجل لهم طيباتهم في الدنيا ويمهلهم ويؤخرهم إلى أن يأتيهم ذلك العذاب الأليم الذي توعدهم به، وأعده لهم، وهم في غفلتهم وطغيانهم، ويحسبون أن ذلك الإمهال خيرٌ لهم، قال الله تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦].

فمن شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى له: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] يؤخرون له ويستدرجون.

وقال تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم أيضًا: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾﴾ [آل عمران:١٩٦].

«أي: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه، من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجًا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٧]»[2].

وقال الطبري: «نهى الله تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم عن الاغترار بضربهم في البلاد، وإمهال الله إياهم مع شركهم وجحودهم نعمه، وعبادتهم غيره، وخرج الخطاب بذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، والمعني به غيره من أتباعه وأصحابه»[3].

والمقصود من هذه الآية التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٣.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٩٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٩٣.

به قليلًا ويعذبون عليه طويلًا[1].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد:١٢].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان:٢٣-٢٤].

قال الشعراوي: «هذا التمتع بزينة الحياة الدنيا ما هو إلا استدراج لهم لا تكريم، وقلنا: إنك لا تلقي بعدوك من على الحصيرة مثلًا، إنما تعليه وترفعه ليكون أخذه أليمًا وشديدًا، كذلك الحق سبحانه يمتعهم، لكن لفترة محدودة لتكون حسرتهم أعظم إذا ما أخذهم من هذا النعيم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف:١٨٢].

وقال: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق:١٧].

أي: «قليلًا حتى أهلكهم»[3]، وهي آيات صريحة في استدراجه تعالى لهم.

وقد أخبر تعالى في كتابه عن بعض من استدرجهم من أهل الكفر والتكذيب، وكيف أنه أمهلهم وأمدهم بالمال الكثير والنعيم الكبير، من ذلك قوله تعالى عن الوليد بن المغيرة أحد زعماء كفار قريش وساداتهم: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر:١١-١٧].

قال المفسرون[4]: نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة يتوعده الله ويهدده.

قال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، «أي: دعني واتركني وهي كلمة تهديد ووعيد، والمعنى دعني والذي خلقته حال كونه وحيدًا في بطن أمه لا مال ولا ولد، هذا على أن وحيدًا منتصب على الحال من الموصول أو من الضمير العائد المحذوف، ويجوز أن يكون حالًا من الياء في ذرني، أي: دعني وحدي معه»[5].

ثم عدد الله تعالى نعمه عليه، ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾، أي: رزقه مالًا واسعًا كثيرًا، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾، لا يغيبون، أي: حضورًا عنده لا يسافرون في التجارات، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم[6]،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٢.
(٢) تفسير الشعراوي، الخواطر ١٩/ ١١٧١٤.
(٣) البسيط، الواحدي ٢٣/ ٤٢٢.
(٤) انظر: البسيط، الواحدي ٢٢/ ٤١٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٧١.
(٥) فتح البيان، القنوجي ١٤/ ٤٠٦.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٦٥.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤﴾ أي: «بسطت له في العيش والجاه والرياسة، ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾ أي: من المال والولد والجاه، أو من النعيم الأخروي. وهذا أظهر لقوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا يكون ما يأمل ويرجو؛ لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة هم المتقون، لا هو، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾ أي: معاندًا للحجج المنزلة والمرسلة»[1].

قال السعدي في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾ «أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا»[2].

وهذا من استدراج الله تعالى له أن مده بالنعم والآلاء رغم كفره وعناده، حتى ظن الوليد أن ذلك لمرضاة الله عنه وحبه له، ومن ثم طمع بأمثال ذلك في الآخرة، فأنكر الله تعالى ذلك عليه وبيّن بطلانه، بل وتوعد الوليد بالعذاب الشديد في قوله: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦﴾ [المدثر:٢٦].

أي: سأغمره فيها من جميع جهاته، ثم هول تعالى ذلك وفخمه فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ [المدثر:٢٧].

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المدثر:٢٨].

أي: تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم، ثم تبدل، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون[3]، فبيّن تعالى أن ما أوتيه الوليد بن المغيرة من الأموال والأولاد والرياسة لا يغني عنه في الآخرة شيئًا، ولا يدل على رضا ربه عنه، وإنما هو استدراج له حتى يبقى على كفره وغيه.

وقال تعالى في حق أبي لهب - وهو من سادات قريش وزعماء الكفر -: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ [المسد:١-٢].

فتوعده تعالى بالخسران، وبين تعالى أن ماله لا يغني عنه من عذاب الله شيئًا، وهكذا يبين الله تعالى استدراجه لأهل الكفر وإمدادهم في الحياة الدنيا.

وقد بين تعالى أن أهل الكفر والشرك يغترون بهذا الاستدراج، ويحسبونه من الخير لهم، ومن رضا الله عنهم وعن طريقتهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ:٣٥].

وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

قال ابن كثير: «يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟! كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحۡنُ

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٩٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٦٧.

﴿أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاء؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾»[1].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٦].

والآيات عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، والمعنى: أي قل يا محمد: هل نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟

ثم فسرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: عملوا أعمالًا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون، وهو من استدراج الله تعالى لهم، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾، أي:جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير[2].

ثانيًا: النفاق:

ومن مجالات الاستدراج: النفاق.

قال تعالى عن المنافقين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة:٩]إلى قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

فالمنافقون يظنون أنهم بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر يخادعون المؤمنين، ويطلعون على أسرارهم، ويأمنونهم على أنفسهم، ويشاركونهم في إجراء أحكام الإسلام عليهم، وما علم المنافقون أنهم في حقيقة الأمر لا يخدعون إلا أنفسهم، «إذ ضرر عملهم لاحقٌ بهم، فهم يغرون أنفسهم بالأكاذيب ويلقونها في مهاوى الهلاك والردى»[3]، فالله تعالى يمهلهم ويمدهم في طغيانهم وغيهم استدراجًا إلى ما أعده لهم من عذابه الأليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

يقول سيد قطب: «وهذه لمسة أخرى

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٢٠٢.

(٣) تفسير المراغي ١/ ٥٠.

من لمسات المنهج للقلوب المؤمنة. فإن هذه القلوب لا بد أن تشمئز من قوم يخادعون الله. فإن هذه القلوب تعرف أن الله سبحانه- لا يخدع - وهو يعلم السر وأخفى، وهي تدرك أن الذي يحاول أن يخدع الله لا بد أن تكون نفسه محتوية على قدر من السوء ومن الجهل ومن الغفلة كبير. ومن ثم تشمئز وتحتقر وتستصغر كذلك هؤلاء المخادعين! ويقرر عقب هذه اللمسة أنهم يخادعون الله ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي: مستدرجهم وتاركهم في غيهم لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم، تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا»[1].

ثالثًا: الظلم:

ومن مجالات الاستدراج الظلم والبغي، فالظالمون يتسلطون على الضعفاء والمساكين، ويسلبونهم حقوقهم، ويقهرونهم ويستعبدونهم، ومن ذلك ما قصه الله تعالى في كتابه من نبأ فرعون طاغية زمانه مع بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص:٤].

قال المفسرون: يخبر تعالى عن فرعون مصر أنه تكبر وتجبر وطغى، وجعل أهل تلك البلاد أصنافًا، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته، وكان يستضعف طائفة منهم، وهم بنو إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، فكان فرعون يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، أي: يستبقيهن أحياءً، إهانة لهم واحتقارًا، وبنو إسرائيل مستضعفون عاجزون عن دفع الأذى عن أنفسهم[2].

وقد أملى الله تعالى لفرعون وأمهله حتى يزداد إثمًا وبغيًا، ويزداد بنو إسرائيل صبرًا وثوابًا، ثم إذا جاء أجله الذي أجله الله له أخذه أخذ عزيز مقتدر، وجعله عبرة لمن يعتبر.

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٨٣- ٧٨٤، وانظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٧٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٨٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢١.

٢٥-٢٦].

وقد بيَن الله تعالى إمهاله للظالمين واستدراجه لهم في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٨].

أي: «وكثير من القرى كانت ظالمة بإصرار أهلها على الكفر، فأمهلتهم، ولم أعاجلهم بالعقوبة فاغتروا، ثم أخذتهم بعذابي في الدنيا، وإلي مرجعهم بعد هلاكهم، فأعذبهم بما يستحقون»[(١)].

وجاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته).

قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢][(٢)].

فالله تعالى يمهل الظالم إلى وقت عذابه، ولكنه لا يهمله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

أي: لا تحسبه إذ أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عدا، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة[(٣)]، «يقال شخص بصر فلان أي فتحه فلم يغمضه»[(٤)].

قال القاسمي: «﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: بإمهالهم متمتعين بشهواتهم، ولا يعجل عقوبتهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي ترتفع فيه أبصار أهل الموقف، لهول ما يرون، فلا تقر أعينهم في أماكنها ولا تطرف»[(٥)].

والجملة تعليل للنهي السابق في الآية، وفيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم، بل سنة الله سبحانه في إمهال الظالمين والعصاة[(٦)].

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم، ومجيئهم إلى المحشر، فقال: ﴿مُهْطِعِينَ

(١) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ص٣٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إن أخذه أليمٌ شديدٌ)، رقم ٤٦٨٦، ٦/ ٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٣، ٤/ ١٩٩٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٥.

(٤) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٣٣٦.

(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٢١.

(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٣٨.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: «يقوم الظالمون من قبورهم مسرعين لإجابة الداعي رافعي رؤوسهم لا يبصرون شيئًا لهول الموقف، وقلوبهم خالية ليس فيها شيء؛ لكثرة الخوف والوجل من هول ما ترى»[1].

رابعًا: الفسق وسائر المعاصي:

ومن مجالات الاستدراج الفسق وسائر المعاصي، فإن الله عز وجل يوسع على الفساق العصاة مع انهماكهم في معصيته، وييسر أمورهم، وما ذلك إلا من استدراجه تعالى لهم، حتى يترك هؤلاء العصاة الغافلون التوبة والإنابة مما فعلوه، ويتمادوا في معاصيهم وآثامهم، فيأخذهم بغتة.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج).

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤][2].

فيبين النبي صلى الله عليه وسلم أن بسط الدنيا للعاصي ليس دليلًا على كرامته على الله عز وجل أو محبة الله عز وجل له، بل الحقيقة أن ذلك من مكر الله عز وجل به واستدراجه له، فيعطيه الله من الدنيا ما يحب، ويبسط له الأرزاق، حتى ينسيه التوبة والإنابة، وما ينفع العاصي ما هو فيه من النعيم يوم القيامة شيئًا، كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

ومن استدراجه تعالى للعصاة أن ييسر لهم أسباب المعصية ويعينهم عليها.

يقول الشيخ ابن عثيمين: «انتبه لهذا الاستدراج من الله عز وجل إذا يسر الله لك أسباب المعصية، فلا تفعل، فإن الله ربما ييسر أسباب المعصية للإنسان فتنة له، أرأيتم أصحاب السبت من بني إسرائيل يسرت لهم أسباب المعصية فتنة، وهي أن الله حرم عليهم صيد السمك يوم السبت، فكانت الحوت تأتي يوم السبت شرعًا على وجه الماء، وبكثرة عظيمة، لكنهم ملتزمون لم يصيدوا السمك في يوم السبت، فلما طال عليهم الأمد عجزوا عن ملك أنفسهم، فرجعوا إلى طبيعتهم وهي الغدر والحيلة والمكر، فاحتالوا على صيد السمك، صاروا

(١) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ص٢٦١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٣١١، ٢٨/ ٥٤٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم ٥٥٣، ١/ ١٥٨.

يجعلون شباكًا يوم الجمعة فتأتي الحيتان وتدخل في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوا الحيتان، وهذه حيلة واضحة، فقلبهم الله قردة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة:٦٥].

وفي صدر هذه الأمة حرم الله على المحرمين الصيد، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥].

فبعث الله الصيد عليهم وهم محرمون تناله أيديهم ورماحهم[(١)]، يعني أن الذي يمشي على الأرض يمسكونه باليد، مثل: الأرنب والغزال، يمسكه الواحد باليد، والطائر الذي كان لا ينال إلا بالسهم لأنه بعيد، صار يطير وكأنه على الأرض، الرمح يدركه، فتنة، فهنا يسر الله لهم أسباب المعصية، لكن الصحابة رضي الله عنهم، وهم خير الناس لم يأخذ أحد منهم صيدة واحدة رضي الله عنهم، بينما بنو إسرائيل تحيلوا وخادعوا الله، أما سلف هذه الأمة، وفقنا الله لموافقتهم في الدنيا في أعمالهم، وفي الآخرة في مساكنهم فإنهم لم يأخذوا»[(٢)].

مظاهر الاستدراج

أولًا: الفتح بالنعم:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤].

أي: لما نسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من فنون النعماء استدراجًا منا لهم[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥].

فنهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يستحسن شيئًا مما أنعم به على المنافقين من كثرة الأموال والأولاد؛ لأنها استدراج من الله تعالى لهم، يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بما يلقون في جمعها من المشقة، وفي حفظها من الوجل، وفي إنفاقها من الكره، وفيها من المصائب[(٤)]، «ويميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم - عياذًا بالله

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة:٩٤].

(٢) تفسير سور الحجرات - الحديد، ابن عثيمين ص٢٨١.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٣٣.

(٤) انظر: البسيط، الواحدي ١٠/ ٤٩١، ٤٩٣، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٢٤٩، التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٨٧٢.

من ذلك -، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه»[1].

قال أبو السعود: «﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة، وأصل الزهوق الخروج بصعوبة»[2].

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر:٨٧-٨٨].

قال الشنقيطي: «لما بين تعالى أنه آتى النبي صلى الله عليه وسلم السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك أكبر نصيب، وأعظم حظ عند الله تعالى، نهاه أن يمد عينيه إلى متاع الحياة الدنيا الذي متع به الكفار؛ لأن من أعطاه ربه جل وعلا النصيب الأكبر والحظ الأوفر، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيب الأحقر الأخس، ولاسيما إذا كان صاحبه إنما أعطيه لأجل الفتنة والاختبار.

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٠-١٣٢].

والمراد بالأزواج هنا: الأصناف من الذين متعهم الله بالدنيا»[3].

«والمعنى: لا تحفل- أيها الرسول الكريم- ولا تطمح ببصرك طموح الراغب في ذلك المتاع الزائل، الذي متع الله تعالى به أصنافًا من المشركين فإن ما بين أيديهم منه، شيء سينتهي عما قريب، وقد آتاهم الله تعالى إياه على سبيل الاستدراج والإملاء، وأعطاك ما هو خير منه وأبقى، وهو القرآن العظيم»[4].

وقال تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

ونزلت هذه الآية في سادات كفار قريش، الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم طرد فقراء المسلمين الذين -يدعون الله غدوًا وعشيًا- من حوله[5]، فأمر الله نبيه صلى

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٧٤.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣١٥.
(٤) الوسيط، طنطاوي ٨/ ٧٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٨.

الله عليه وسلم بالصبر على أهل الإيمان من الذاكرين العابدين، ونهاه عن طاعة أهل الكفر ممن استدرجهم تعالى بنعمه، وأغفلهم بها عن ذكره.

قال ابن كثير: «﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعًا له، ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١]»[1].

وهكذا يبين تعالى أن هذا الإنعام على بعض الكفار دون المؤمنين ليس حبًا لهم أو رضًا عنهم، وإنما أغفلهم الله بها عن ذكره وطاعته ولقائه، استدراجًا منه تعالى لهم.

وقد بيّن الله تعالى اغترار بعض عباده واستدراجهم بما أنعم عليهم من النعم، من ذلك قوله تعالى مخبرًا عن أهل الكفر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف:١١].

أي: أنكروا أن يمن الله على الضعفاء والفقراء من المؤمنين بالإيمان -إن كان خيرًا - دونهم، زعما منهم أنهم أحق بكل خير منهم.

قال الشنقيطي: «مرادهم أن فقراء المسلمين وضعفاءهم - كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم - أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير، وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير؛ لزعمهم أن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه، وأن ذلك التفضيل في الدنيا يستلزم التفضيل في الآخرة»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ:٣٤-٣٧].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله إذا أرسل رسولًا في قرية من القرى، كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٤.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٢٠.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي: ممن اتبع الحق، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: أولا لسنا بمبعوثين، فإن بعثنا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.

فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه، ليس دليلًا على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه، وليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه.

وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفًا، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»[1].

وهكذا بيّن تعالى اغترار أهل الكفر بما أنعم عليهم من الأموال والأولاد، ويحسبونه دليلًا على صحة اعتقادهم، وما ذلك إلا من استدراج الله تعالى لهم.

وقد رد الله تعالى عليهم في عدة مواضع من كتابه، ومن ذلك قوله جل شأنه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام:٦].

قال ابن كثير: «قال تعالى واعظًا ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعًا، وأكثر أموالًا وأولادًا واستغلالًا للأرض وعمارة لها.

فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود، ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾، أي: شيئًا بعد شيء، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾، أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجًا وإملاء لهم، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترحوها، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: جيلًا آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم فهلكوا كهلاكهم.

فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٤٠.

ثانيًا: الإطالة في العمر:

ومن مظاهر استدراج الله تعالى: الإطالة في العمر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء:٤٢-٤٤].

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي: من هو الذي يحفظكم ويحرسكم بالليل في حال نومكم والنهار في حال تصرفكم في أموركم غير الرحمن[1]، أي: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه.

ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾، استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾، أي: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم متعوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء»[2].

قال البيضاوي: «إضراب عما توهموا ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم، وهو الاستدراج والتمتيع بما قدر لهم من الأعمار، أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه ولذلك عقبه بما يدل على أنه أمل كاذب فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾، أرض الكفرة، ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، بتسليط المسلمين عليها، وهو تصوير لما يجريه الله تعالى على أيدي المسلمين، ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، رسول الله والمؤمنين»[3].

فحاصل معنى الآيات: «أي: لا تلتفت- أيها الرسول الكريم- إلى هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم، والذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع، فإننا قد كلأناهم برعايتنا بالليل والنهار، ومتعناهم وآباءهم من قبلهم بالكثير من متع الحياة الدنيا، حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر والإصرار على

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٥٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٤٤.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٥٢.

الكفر. وسنأخذهم في الوقت الذي نريده أخذ عزيز مقتدر، فإن ما أعطيناه لهم من نعم إنما هو على سبيل الاستدراج لهم»[1].

ثالثًا: تأخير العقاب:

ومن مظاهر استدراج الله تعالى لعباده تأخير عقابه عنهم، فيتهاونون في معصيته ويتجرؤون عليها، أو يستحلونها -كحال أهل الشرك والكفر- ويعتقدون أنهم على حق في ارتكابها، وما ذلك إلا من استدراجه تعالى لهم، ليزدادوا إثمًا وضلالًا، ولو أن الله تعالى عاجل كل مسيء بالعقوبة لما بقي على ظهر الأرض منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر:٤٥].

قال السعدي: «ذكر تعالى كمال حلمه، وشدة إمهاله وإنظاره أرباب الجرائم والذنوب، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: لاستوعبت العقوبة، حتى الحيوانات غير المكلفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ يمهلهم تعالى ولا يهملهم و﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر»[2]، وقد كان أهل الكفر يغترون بإمهال الله لهم وإمساك العذاب عنهم، وقد ذكر تعالى ذلك في عدة مواضع من كتابه، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

أي: يقولون إن كان محمد صلى الله عليه وسلم على حق، فلم لا يعذبنا الله، وما علموا أن ذلك من استدراج الله لهم، قال ابن كثير: «هذا من كثرة جهلهم وعتوهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة»[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود:٨].

ولذلك كانوا يستعجلون العذاب من النبي صلى الله عليه وسلم إنكارًا لوقوعه، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد على المشركين قائلًا: ﴿قُلْ لَّوْ أَنَّ

(١) الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢١٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٧.

عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

[الأنعام:٥٨].

«أي: لو أن في قدرتي وإمكاني العذاب الذي تتعجلونه، بأن يكون أمره مفوضًا إلي من قبله تعالى، لقضي الأمر بيني وبينكم، بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم»[1].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

«أي: بحالهم وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب، ولذلك لم يفوض الأمر إلي ولم يقض بتعجيل العذاب»[2].

وهكذا بين الله تعالى استدراجه بعض خلقه بتأخيره العقاب عنهم، ليزدادوا إثمًا وضلالًا.

نماذج قرآنية في الاستدراج

ذكر القرآن الكريم نماذج كثيرة للمستدرجين في قصص الأمم، وواقع الجماعات والأفراد، ليعتبر منها أولو الأبصار والألباب، ويتعرفوا على سنن الله في خلقه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

[يوسف:١١١].

ومن تلك النماذج:

أولًا: قارون:

وهو من المستدرجين بالمال والثروة.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص:٧٦].

قال ابن عاشور رحمه الله: «كان من صنوف أذى أئمة الكفر للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ومن دواعي تصلبهم في إعراضهم عن دعوته اعتزازهم بأموالهم، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١].

أي: على رجل من أهل الثروة، فهي عندهم سبب العظمة ونبزهم المسلمين

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٧٩.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٦١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٤٣.

بأنهم ضعفاء القوم، وقد تكرر في القرآن توبيخهم على ذلك كقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل:١١].

وقد ضرب الله الأمثال للمشركين في جميع أحوالهم بأمثال نظرائهم من الأمم السالفة، فضرب في هذه السورة لحال تعاظمهم بأموالهم مثلًا بحال قارون مع موسى عليه السلام[(١)]، أي: كما أن إنعامنا على قارون بالأموال العظيمة، - والتي كانت في غاية الكثرة حتى إن مفاتح خزائنها لتثقل الجماعة القوية عن حمل هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟[(٢)]، كما أن ذلك الإنعام العظيم عليه لم يكن إلا استدراجًا له، بدليل قوله تعالى في آخر قصته: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١].

فكذلك أنتم يا كفار قريش وما أوتيتم من الأموال، والتي هي أقل مما أوتي قارون، وأيضًا كما كان قارون يقول عن نفسه وما أوتيه من مال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

أي: إنما أعطاني الله هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي، فتقديره: إنما أعطيته لعلم الله في أني أهل له[(٣)]، وهو من استدراج الله له، كذلك أنتم يا كفار قريش تقولون، وتفخرون بأموالكم، وقد رد القرآن الكريم على قارون.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

«أي: قد كان من هو أكثر منه مالًا، وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لكثرة ذنوبهم»[(٤)].

وقد بيّن الله تعالى في قصة قارون اغترار بعض قوم قارون بحاله، واعتقادهم أن ذلك من الخير العظيم الذي أوتيه.

قال سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص:٧٩].

ثم بيّن تعالى أن أهل العلم يعلمون أن ذلك من استدراج الله تعالى، وأن ثواب الله خير وأبقى لمن آمن وعمل صالحًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٧٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٤.
(٤) المصدر السابق ٦/ ٢٥٥.

﴿صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ [القصص:٨٠].

وهكذا يضرب الله الأمثال لاستدراجه عباده، لعلهم يعتبرون بذلك.

ثانيًا: فرعون وملأه:

ومن المستدرجين بالقوة والملك من الأمم السابقة فرعون وملأه.

قال تعالى حاكيًا عن موسى دعاءه عليهم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس:٨٨].

قال ابن كثير: «هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلمًا وعلوًا وتكبرًا وعتوًا، قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أي: جزيلة كثيرة، ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ بفتح الياء[1]، أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجًا منك لهم...

وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ بضم الياء، أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم، ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: أي: أهلكها... ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، قال ابن عباس: أي اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء»[2].

وقد اختلف المفسرون في اللام في ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ على أقوال، اختار منها ابن جرير الطبري وأبو حيان[3] أنها لام (كي).

قال الإمام الطبري: «ومعنى الكلام: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه، ويضلوا عن سبيلك عبادك، عقوبة منك. وهذا كما قال جل ثناؤه: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧]»[4].

وقال أبو السعود: «وقيل: اللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت، أو للعلة؛ لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على

(١) قرأ الكوفيون بضم الياء، والباقون بفتحها. انظر: البدور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي ص١٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٠.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٦/ ٩٩.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٧٩.

الضلال»[1].

وهكذا ذكر الله تعالى استدراجه لآل فرعون بما أعطاهم من الأموال والزينة في الحياة الدنيا، ثم أهلكهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

ثالثًا: صاحب الجنتين:

ومن أمثلة استدراج الله تعالى للعصاة ما جاء في قصة صاحب الجنتين، وقد ذكرها تعالى في سورة الكهف في سياق الرد على كفار قريش الذين كانوا يفتخرون بأموالهم على فقراء المسلمين وضعفائهم، ويمتنعون عن الجلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم والاستماع له بسبب وجود هؤلاء الفقراء في مجلسه، وقد أنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

قال الشنقيطي: «أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة: أن يصبر نفسه، أي: يحبسها مع المؤمنين الذي يدعون ربهم أول النهار وآخره مخلصين له، لا يريدون بدعائهم إلا رضاه جل وعلا، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين كعمار، وصهيب، وبلال، وابن مسعود ونحوهم، لما أراد صناديد الكفار من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطردهم عنه، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين»[2].

وما علم كفار مكة أن كثرة أموالهم، وما هم فيه من النعم، هو من استدراج الله لهم، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يضرب لكفار قريش قصة صاحب الجنتين مثلًا لذلك الاستدراج، وأن إيتاء الله الأموال لبعض عباده، وتركهم يفتخرون بها على غيرهم، لا يدل على حبه تعالى لهم، ورضاه عنهم.

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف:٣٢-٣٣].

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فبيّن الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيًا والغني فقيرًا، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته، وهي حاصلة لفقراء المؤمنين، وبيّن ذلك

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٧٤.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦٣.

بضرب هذا المثل المذكور في الآية»[1].

وقال الحافظ ابن كثير: «يقول الله تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلًا برجلين، جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾، أي: أخرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾، أي: ولم تنقص منه شيئًا، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾، أي: والأنهار تتخرق فيهما هاهنا وهاهنا»[2].

ثم ذكر تعالى حوارًا دار بين هذين الرجلين، بيّن تعالى فيه ظلم صاحب الجنتين لنفسه، وافتخاره على صاحبه، قال سبحانه: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦].

أي: قال «صاحب هاتين الجنتين لصاحبه ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس، ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا»[3].

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾، قيل: إنه أخذ بيد أخيه المؤمن يطوف به فيها ويريه أثمارها[4]، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، أي: «بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾، وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى، ولا تفرغ، ولا تهلك، ولا تتلف، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة»[5].

قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، أي: «أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته، قال الزجاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ اللام هي الموطئة للقسم، والمعنى: أنه والله إن يرد إلى ربه فرضًا وتقديرًا كما زعم صاحبه، واللام في ﴿لَأَجِدَنَّ﴾، جواب القسم والشرط، أي: لأجدن يومئذ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾»[6].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤٠٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٦) فتح البيان، القنوجي ٨/ ٥٢.

قال أبو السعود: «ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقادٌ أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه، ولم يدر أن ذلك استدراجٌ»[1].

وقد بيّن الله تعالى عاقبة استدراجه لهذا الكافر المكذب، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢].

فأخبر الله تعالى عن ذلك الرجل الكافر الظالم لنفسه، الذي كان يظن أن بساتينه وثماره لن تبيد أبدًا، وأنه أوتيها لخير فيه واستحقاق لها، وأنه إن رد إلى ربه على فرض وقوع ذلك فسيجد أعظم وأفضل من هذه الجنة، - وما ذاك إلا من استدراج الله تعالى له - فأخبر الله تعالى عن عاقبة استدراجه له في الدنيا، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، أي: أحاط الهلاك بصنوف ثماره وأشجاره كما يحيط القوم بعدوهم فيهلكونهم عن آخرهم[2].

قال الفخر الرازي: «﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وهو عبارة عن إهلاكه بالكلية، وأصله من إحاطة العدو؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل إهلاك ومنه قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦]»[3]، «والمعنى: أتلف ماله كله بأن أرسل على الجنة والزرع حسبان من السماء فأصبحت صعيدًا زلقًا، وهلكت أنعامه وسلبت أمواله، أو خسف بها بزلزال أو نحوه»[4].

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾، أي: يقلب كفيه ظهرًا لبطن أسفًا وتحسرًا على ذهاب نفقته التي أنفقها في جنته وعمارتها وتزيينها، وقد ضاعت هباءً، وذهبت سدى، ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، وجنته ساقطة ومتهدمة على دعائمها وعلى سقوفها، والمقصود أن الجنة بجميع ما اشتملت عليه، صارت حطامًا وهشيمًا تذروه الرياح[5].

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، أي: أخبر الله تعالى أنه لما سلبه ما أنعم به عليه، وحقق ما أنذره به أخوه المؤمن في الدنيا، ندم على شركه حين لا تنفعه الندامة[6]، وقال الزمخشري: «علم أنه أتي من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركًا، حتى لا يهلك الله بستانه»[7].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٢٢.
(٢) انظر: البسيط، الواحدي ١٤/ ٢٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٧٦٩.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٢٦، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٧، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٧٣، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٤١، التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥٢١.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨٦.
(٧) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٢٤.
وانظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٧/ ١٨١.

رابعًا: الكافر المغتر بماله وولده:

ومن نماذج المستدرجين، الكافر المغتر بماله وولده.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم:٧٧-٨٠].

قال المفسرون: نزلت الآية في العاص بن وائل[١] أحد زعماء المشركين بمكة، روي عن خباب رضي الله عنه، قال: (كنت قينًا[٢] في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائلٍ دينٌ، فأتيته أتقاضاه، قال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، فقلت: (لا أكفر حتى يميتك الله، ثم تبعث[٣]، قال: دعني حتى أموت وأبعث، فسأوتى مالًا وولدًا فأقضيك). فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾[٤].

والآيات -وإن كانت نازلة في كافر معين- فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة[٥] استدراجًا من الله تعالى له.

والمعنى: أن الله تعالى يعجب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم من مقالة هذا الكافر الذي يزعم رغم كفره وإعراضه، أنه سيجازى في الآخرة أموالًا وأولادًا، قال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، «واللام في ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هي الموطئة للقسم، كأنه قال: والله لأوتين في الآخرة مالًا وولدًا»[٦]، والنون للتوكيد، وقال في قسمه الحانث (لأوتين)، أي: أنه بإرادته وقدرته الواهمة سيكون له مال[٧].

وهذا كله من غروره وجهله، واستدراج الله تعالى له، قال الشوكاني: «أي: انظر إلى حال هذا الكافر، وتعجب من كلامه وتأليه

(١) انظر: البسيط، الواحدي ١٤/ ٣١٠.
(٢) قينًا: أي حدادًا أو صائغًا.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ١٣٥.
(٣) قال ابن حجر: «قوله: فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله، ثم تبعث، مفهومه أنه يكفر حينئذ، لكنه لم يرد ذلك؛ لأن الكفر حينئذ لا يتصور، فكأنه قال لا أكفر أبدًا، والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص بأنه لا يؤمن به»، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني ٨/ ٤٣٠.
(٤) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ذكر القين والحداد، ح٢٠٩١، ٣/ ٦٠، صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]. الآية، ح٢٧٩٥، ٤/ ٢١٥٣.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٩.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤١١.
(٧) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٦٨٢.

على الله، مع كفره به، وتكذيبه بآياته»[1].

ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله، ويبين غروره وجهله، فقال: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾؟ ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾، وهو حرف ردع وزجر، أي: ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾، أي: سنحفظ عليه ما يقوله فنجازيه في الآخرة، ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: نزيده عذابًا فوق عذابه مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أو نطول له من العذاب ما يستحقه، وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء، ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾، أي: نميته فنرثه المال والولد الذي يقول إنه يؤتاه ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، أي: يوم القيامة لا مال له ولا ولد، بل نسلبه ذلك، فكيف يطمع في أن نؤتيه[2].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤١١.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٤١٢.

عاقبة المستدرجين

أولًا: عاقبة المستدرجين في الدنيا:

للاستدراج عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، وقد بيّن الله تعالى في كتابه العزيز عاقبة المستدرجين ومآلهم، تحذيرًا من سلوك طريقهم وولوج سبيلهم، والوقوع فيما وقعوا فيه من الخسران العظيم.

ومن هذه العواقب في الدنيا: أن يأخذهم الله تعالى أخذًا شديدًا مفاجئًا لهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

«والبغتة فعلةٌ من البغت وهو الفجأة، أي: حصول الشيء على غير ترقب عند من حصل له وهي تستلزم الخفاء»[3].

ومعلوم أن الأخذ فجأة أشد إيلامًا وإفزاعًا مما يسبقه استعداد وتحضر، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي: انقطع رجاؤهم؛ لأن العذاب كان بغتة حصل الإبلاس لهم، كالذي يتعلل لما يقع له بقوله: كانت فجأة، أي: ليس بوسعي أن أستعد أو أحتاط لذلك، قال الفراء: «المبلس: اليائس المنقطع رجاؤه، ولذلك قيل للذي يسكت

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣١.

عند انقطاع حجته، ولا يكون عنده جواب: قد أبلس»[1]، وقال الألوسي: «أنزلنا بهم العذاب ﴿بَغْتَةً﴾، أي فجأة ليكون أشد عليهم وأفظع هولًا... ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي آيسون من النجاة والرحمة... ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: آخرهم... فالمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد... ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك، فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها، فهذا منه تعالى تعليم للعباد أن يحمدوه على مثل ذلك»[2].

وقال المراغي: «أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كونهم مبغوتين، إذ فاجأهم على غرة من غير سبق أمارات ولا إمهال للاستعداد أو للهرب، فإذا هم مبلسون، أي: يائسون من النجاة»[3].

وقال الواحدي: «قال أهل المعاني: (إنما أخذوا في حال الرخاء ليكون أشد لتحسرهم علي ما فاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف في ضروب اللذة إلى حال البلية والنقمة)»[4].

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أمثلة كثيرة في أخذه المستدرجين وانتقامه منهم في الدنيا، كفرعون وقومه أغرقهم الله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف:١٣٦].

وعاد أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، وثمود أهلكهم بالصيحة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة: ٥-٦].

وقارون خسف به الأرض.

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١].

وصاحب الجنتين دمر تعالى عليه جنتيه.

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢].

وغيرهم الكثير.

وقال الله تعالى مسليًا نبيه صلى الله عليه وسلم في تكذيب قومه له: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ

(١) معاني القرآن، الفراء ١/ ٣٣٥.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٦٨.
(٣) تفسير المراغي، ٧/ ١٢٥.
(٤) البسيط، الواحدي ٨/ ١٤١.

﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج:٤٢-٤٦].

أخبر تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنه كما كذبك قومك فقد كذبت الأمم والأقوام السابقة أنبياءهم، فأمليت لهم، وأمهلتهم، وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، «أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟!»[1].

ثم أخبر تعالى عما كانت عليه تلك الأمم، وأولئك الأقوام من النعيم والمتع التي استدرجهم تعالى بها، فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي: كم من قرية أهلكها الله بالعذاب الشديد، لظلمها بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، فسقطت عروشها، وأصبحت ديارها وقصورها خرابًا بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة، وصارت آبارها التي كانت يزدحم عليها الخلق لشربهم، وشرب مواشيهم، متروكة قد عدم منها الوارد والصادر، وأصبح أهل هذه القرى عبرة لمن اعتبر[2].

كما حذر تعالى عباده من هذه العاقبة الوخيمة فقال عز شأنه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

والمعنى أنه تعالى ينكر على أهل القرى المكذبة لرسلها عدم خوفهم من بأسه الشديد وعقابه الأليم، أن يأتيهم وقت بياتهم وهم غارقون في نومهم؟ أو وقت ضحى النهار وانبساط الشمس، وهم منهمكون فيما لا نفع فيه لهم؟[3].

ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، أي: أفأمن هؤلاء المكذبون استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، فإن مكر الله لا يأمنه، إلا القوم الهالكون[4].

وهكذا يحذر الله تعالى عباده من وقوع عقابه الأليم بهم.

ثانيًا: عاقبة المستدرجين في الآخرة:

ومن عواقب المستدرجين في الآخرة، العذاب الأليم والنكال العظيم في نار جهنم وبئس المصير.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٧.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٠.
(٣) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص٢٢١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٧٨.

قال تعالى في حق فرعون وقومه: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر:٤٦].

فبيّن الله تعالى عذابهم في البرزخ بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾، وبيّن عذابهم في الآخرة بقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[1]، وقال تعالى في حق الوليد بن المغيرة: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦﴾ [المدثر:٢٦].

أي: أدخله جهنم[2].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

يقول تعالى - مبينًا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم-: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾، ونعمة الله هي إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم، وصدهم غيرهم حتى ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾، وهي النار حيث تسببوا بإضلالهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم بدر، ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾، أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾[3].

وبيّن تعالى أنه يضاعف العذاب للمستدرجين في الآخرة.

قال تعالى في حق العاص بن وائل: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدٗا ٧٧ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ٨٠﴾ [مريم:٧٧-٨٠].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله ﴿كَلَّاۚ﴾: ليس الأمر كذلك، ما اطلع الغيب، فعلم صدق ما يقول، وحقيقة ما يذكر، ولا اتخذ عند الرحمن عهدًا بالإيمان بالله ورسوله، والعمل بطاعته، بل كذب وكفر.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾، يقول: ونزيده من العذاب في جهنم بقيله الكذب والباطل في الدنيا، زيادة على عذابه بكفره بالله»[4].

وهكذا يبين الله تعالى عاقبة المستدرجين

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٩.
(٢) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٧٧.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤٨ بتصرف يسير.

في الدنيا والآخرة، ويحذر بذلك عباده من استدراجه وكيده لمن عصاه وأعرض عن طاعته.

موضوعات ذات صلة:

الابتلاء، الفتنة، العذاب

الاستطاعة

عناصر الموضوع

مفهوم الاستطاعة	٣١٦
الاستطاعة في الاستعمال القرآني	٣١٧
الألفاظ ذات الصلة	٣١٨
الاستطاعة شرط التكليف	٣٢٠
أنواع الاستطاعة	٣٢٣
عدم الانتفاع بأدوات الاستطاعة	٣٣٧
نفي الاستطاعة عما يعبد من دون الله	٣٤٤

مفهوم الاستطاعة

أولًا: المعنى اللغوي:

طوع: الطاء والواو والعين أصل صحيح واحد يدل على الإصحاب والانقياد، يقال: طاعه يطوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره، وأطاعه بمعنى طاع له، والاستطاعة مشتقة من الطوع، كأنها كانت في الأصل الاستطواع، فلما أسقطت الواو جعلت الهاء بدلًا منها، واسطاعه وأسطاعه واستاعه وأستاعه: أطاقه، فاستطاع على قياس التصريف، وأما اسطاع - موصولة - فعلى حذف التاء لمقاربتها الطاء في المخرج فاستخف بحذفه، والاستطاعة القدرة على الشيء[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «اسم للمعاني التي بها يتمكن الإنسان مما يريده من إحداث الفعل، وهي أربعة أشياء: بنية مخصوصة للفاعل، وتصور للفعل، ومادة قابلة لتأثيره، وآلة إن كان الفعل آليًا، كالكتابة، فإن الكاتب يحتاج إلى هذه الأربعة في إيجاده للكتابة، ولذلك يقال: فلان غير مستطيع للكتابة»[2].

الاستطاعة: «هي عرض يخلقه الله تعالى في الحيوان، يفعل به الأفعال الاختيارية»[3].

(١) انظر: مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ١/ ٤٣١ ، المحكم، ابن سيده ٢/ ٣١٢، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٤٢.
(٢) المفردات، ص٥٣٠.
(٣) التعريفات، الجرجاني ١٩، كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ١/ ٧٢.

الاستطاعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طوع) في القرآن (١٢٩) مرة، يخص موضوع البحث منها (٤٢) مرة[(١)].
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٥	﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف:٩٧]
الفعل المضارع	٢٧	﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:١٢٩]

وجاءت الاستطاعة في الاستعمال القرآني بمعناها في اللغة: الإطاقة ووجود ما يصير به الفعل متأتيًا؛ سواء تعلق ذلك بالقدرة القلبية أو البدنية أو المالية أو غيرها من المعاني التي بها يتمكن الإنسان مما يريده من إحداث الفعل[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٩- ٤٣١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٧٢٣- ٧٢٦.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٩٠- ٩١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١٨٧- ١٨٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٨٨- ٨٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٤٢١- ٤٢٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ القدرة:

القدرة لغة:

الطاقة والقوة على الشيء والتمكن منه، والغنى والثراء، يقال: رجل ذو قدرة ذو يسار وغنى[(١)].

القدرة اصطلاحًا:

«هي الصفة التي تمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة، والقدرة: صفة تؤثر على قوة الإرادة»[(٢)].

الصلة بين الاستطاعة والقدرة:

الاستطاعة أخص من القدرة، فكل قادر مستطيع، وليس كل مستطيع قادرًا، ولهذا لا يوصف الله عز وجل بالاستطاعة؛ لكون القدرة أعم من الاستطاعة[(٣)].

٢ الوسع:

الوسع لغةً:

و س ع: (وسعه) الشيء بالكسر يسعه (سعة) بالفتح، و (الوسع) و(السعة) بالفتح الجدة والطاقة جدة الرجل، أي على قدر سعته لا يدخر وسعًا: يفعل أقصى ما يقدر عليه[(٤)].

الوسع اصطلاحًا:

الوسع وهو «قدر ما تسع له القوة، وهو بمنزلة الطاقة، وهو نهاية مقدور القادر، ولا يصح ذلك إلا لله تعالى»[(٥)].

قال الزمخشري: «إن الوسع هو ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه، ولا يحرج فيه، فالله لا يكلف النفس إلا ما يتسع فيه طوقها، وتيسير عليها دون مدى غاية الطاقة والمجهود، فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من شهر ويحج أكثر من حجة»[(٦)].

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٩ / ٤٠، مختار الصحاح، الرازي ص ٢٤٨، المصباح، الفيومي ٢/ ٤٩٢.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٧٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٤٧، ١١٠.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٠٣، مختار الصحاح، الرازي، ص٣٣٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢٤٤٠.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٥٦٧.
(٦) الكشاف ١: ٤٠٨.

الصلة بين الاستطاعة والوسع:

الوسع أخص من الاستطاعة، فالوسع ما يستطيع المرء فعله بلا مشقة[1]، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦].

٣ الإطاقة:

الإطاقة لغة:

هي القدرة على عمل الشيء[2].

الإطاقة اصطلاحًا:

هي القدرة على الاحتمال[3].

الصلة بين الاستطاعة والإطاقة:

لم يفرق علماء اللغة بين الإطاقة والاستطاعة وعند تعريفهم للإطاقة كانت بمعنى الاستطاعة[4]، أما في العرف فتطلق الاستطاعة للإنسان خاصة، والإطاقة تكون عامة للإنسان والحيوان والجماد[5].

٤ العجز:

العجز لغة:

العجز، الضعف، و أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر، أي: مؤخره كما ذكر في الدبر، وعجز عن الأمر، يعجز عجزًا وعجوزًا وعجزانًا، فهو عاجز[6].

العجز اصطلاحًا:

القصور عن فعل الشيء وعدم القدرة[7].

الصلة بين الاستطاعة والعجز:

العجز هو نقيض الاستطاعة.

---

(١) انظر: الكليات، الكفوي، ص١٠٩.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٠/ ٢٣٢.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص ١٤١ ، شمس العلوم، نشوان الحميري ٧/ ٤١٩٢.
(٤) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٥، مختار الصحاح، الرازي، ص ١٩٣.
(٥) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢١/ ٤٦٣.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ٨٨٣، مجمل اللغة، ابن فارس، ص ٦٤٨، تاج العروس، الزبيدي ١٥/ ٢٠٠.
(٧) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٨٦.

الاستطاعة شرط التكليف

لقد كلفنا الشرع الحكيم بالعديد من التكاليف، وأعطانا سبحانه وتعالى القدرة على القيام بها، فهناك أشياء نحن مجبرون عليها لا اختيار لنا بها، مثل: الأرزاق والصحة، ومثل: عمل أجهزة الجسم، فالقلب مثلًا نحن لا نستطيع إيقافه وتشغيله متى نشاء، فهذه أمور بيد الله وحده.

أما التكاليف التي فرضت علينا من أوامر ونواهٍ فقد جعل سبحانه وتعالى فينا القدرة والاستطاعة على فعلها.

فالاستطاعة هي مناط التكليف بواجبات الشريعة بعد العقل والعلم، فالعاقل العالم بالحكم الشرعي لا يجب عليه الفعل إلا إذا كان مستطيعًا قادرًا عليه[(١)].

فالاستطاعة التي هي مناط التكليف، وحدها قدر المستطاع وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران: ٩٧][(٢)].

قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[المجادلة: ٤].

ومثل قوله صلى الله عليه وسلم: (صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب)[(٣)].

فبين الله سبحانه وتعالى المقدار الذي كلف البشرية به، هو الاستطاعة الدائمة، فنحن لا نكلف إلا المستطاع الذي لا يشق أداؤه، وهذا هو المعنى الذي يتفق مع الحقائق الإسلامية والسنن المروية الثابتة، وإن أفضل الأعمال في الإسلام ما يدوم، وما يمكن أن يستمر الشخص عليه من غير إجهاد ومشقة.

فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: (أدومها وإن قل) وقال: (تكلفوا من الأعمال ما تطيقون)[(٤)].

وذلك لا يكون إلا في دائرة المستطاع.

فالحج فريضة على كل مسلم ولكن ليس أي مسلم، فليس كل عالم بفريضة الحج يجب عليه أداؤه إلا المستطيع، فالاستطاعة شرط أساسي للحج، وكذلك بقية واجبات الدين ومنها الجهاد والصيام.

ومن الأدلة العامة في ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:

(١) انظر: القضاء والقدر، عمر الأشقر، ص ٩٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٣٢٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب إذا لم يطق قاعدًا صلى على جنب، ٢/ ٤٨، رقم ١١١٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ٨/ ٩٨، رقم ٦٤٦٥.

٢٨٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)[١].

فإن لم يستطع المسلم سقط عنه الواجب، ومنه قاعدة (لا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة).

لكن إن كان الواجب المعجوز عنه له بدل وجب الانتقال إلى بدله؛ فإن لم يكن له بدل سقط، وإن عجز عن بدله سقط، مثال ذلك: إذا عجز عن الطهارة بالماء سقط عنه وجوب التطهر بالماء، لكن ينتقل إلى التيمم؛ فإن عجز سقط التيمم أيضًا[٢].

وفي الحديث الصحيح قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون)[٣].

ومن المعلوم أن الله عز وجل لا يكلف ما لا يطاق؛ لأن هناك من هو عاجز لا يقوى على أداء التكليف، فلا يكلف المقعد بأن يصلي قائمًا، ولا يكلف المريض بالصيام، ولا يكلف الأعمى بالجهاد والقتال، لخروج ذلك عن المقدور.

فالاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع، ألفاظ متقاربة، وقال البعض: إن الاستطاعة مع الفعل أو قبله، والصواب أنها نوعان: نوع قبله وهو المصححة للتكليف التي هي شرط فيه، ونوع مقارن له، فليست شرطًا في التكليف وهو قول عامة أهل السنة، وهو الوسط[٤].

وشرط الاستطاعة وجودها حقيقة لا حكمًا، والمقصود بوجودها حقيقة: وجود القدرة على الفعل من غير تعسر، ومعنى وجودها حكمًا القدرة على الأداء بتعسر[٥].

والذي قاله عامة أهل السنة أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي وإلا لكانت أوامر الله عز وجل ونهيه لا طائل منها تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وأما الاستطاعة التي تتقدم الأفعال هي القدرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وهي مناط التكليف.

فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج، ولم يعاقب أحدًا على ترك الحج! وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٣٠، رقم ١٣٣٧.

(٢) انظر: تفسير الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين ٣/ ٤٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، ١/ ٥٤٠، رقم ٧٨٢.

(٤) انظر: شرح الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص ٤٣٣، الموافقات، الشاطبي ٢/ ٢٠٥.

(٥) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ١/ ٣٣٢.

دين الإسلام.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى، لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى، ولم يعاقب من لم يتق! وهذا معلوم الفساد[(١)].

والنوع الثاني: الاستطاعة التي تكون مع الفعل، ويكون بها الفعل، فهذه ليست مناطًا للتكليف؛ بل يمنحها الله لمن يشاء، وهي التي تحصل بالتوفيق والهداية الخاصة، وهي المنفية عن الكفار في مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾[هود: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[الكهف: ١٠٠ - ١٠١][(٢)].

وعدم الاستطاعة هنا ليس بظلم لهم بل هي قمة العدل، إن القرآن العظيم بين أن هذا الطبع وهذا الختم والإزاغة عن الحق لا يأتي الإنسان إلا بسبب ذنب من ذنوبه، فهو جزاء وفاق على بعض الذنوب، فالعبد إذا سارع إلى الكفر، وتكذيب الرسل - عليهم السلام- وإلى ما يغضب الله عاقبه بأن زاده ضلالًا فوق ضلاله، وظلامًا على ظلامه، وجاءه هذا الطبع بسبب كفره وبغيه وتمرده على الله عز وجل[(٣)].

فالشرع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى توابع هذه الاستطاعة، فإن كان الفعل ممكنًا مع مفسدة راجحة وضرر محتمل لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله، أو يصلي قائمًا مع زيادة مرضه، فإن كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجحة، فكيف يكلف مع العجز؟![(٤)].

وبهذا ندرك أن الله عز وجل الذي خلقنا أعلم بقدرتنا ومدى استطاعتنا على القيام بالتكاليف التي أمرنا بها، فهو عز وجل لم يكلفنا بما هو فوق طاقتنا، ولم يأمرنا بشيء لا نستطيع القيام به، فجعل سبحانه للتكاليف التي أمرنا بها حدًا معينًا وهي الاستطاعة، وإذا صدر التكليف حين الاستطاعة ثم فقدت هذه الاستطاعة حين الأداء، أوقف هذا التكليف إلى حين الاستطاعة.

(١) انظر: شرح الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص ٤٣٤- ٤٣٧.
(٢) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٢/ ٢١١، شرح العقيدة الطحاوية، عبد الرحمن البراك، ص٣٢٧.
(٣) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ٣٩.
(٤) انظر: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية ٣/ ٤٩.

إذن هناك استطاعتان: الاستطاعة المشترطة للفعل، وهي الاستطاعة الشرعية وهي التي عليها مناط الأمر والنهي، والثواب، والعقاب، وعليها يتكلم الفقهاء، وهي الغالبة في عرف الناس.

أما الاستطاعة المقارنة للفعل الموجبة له هي الاستطاعة الكونية، وهي التي عليها مناط القضاء والقدر، وبها يتحقق وجود الفعل.

ونستدل من الآيات السابقة:

١. هناك أمور لا خيار لنا فيها مثل الصحة والرزق.
٢. الاستطاعة أوجدها الله عز وجل في كل مسلم حسب قدراته لتأدية الأوامر الشرعية.
٣. إن شرعنا الحكيم ييسر على العباد، ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وما جعل علينا في الدين من حرج، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه، فهذا في الشرع غير مستطيع، لأجل حصول الضرر عليه، وإن كان قد يسمى مستطيعًا.

أنواع الاستطاعة

من فضل الله عز وجل على عباده أنه جعلهم قادرين على أداء التكاليف التي كلفوا فيها، وجعل فيهم الاستطاعة على أدائها، وعذر من لم يستطع القيام بها، فإن الله عز وجل لم يكلفنا ما لا طاقة لنا به ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وتتنوع الاستطاعة وتختلف أيضًا من شخص لآخر كل حسب استطاعته، والاستطاعة أنواع: استطاعة قلبية، واستطاعة بدنية، وأخرى مالية.

أولًا: الاستطاعة القلبية:

إن الذي يتحكم فيما يحققه الإنسان، ومدى إقباله على الشيء أو إدباره منه شيء واحد وهو الاستطاعة القلبية، وهي الاستطاعة النابعة من الذات فإن بها يتميز الناس في سلوكهم و مع الله -سبحانه وتعالى- وعبادتهم له عز وجل، وإن الشارع الحكيم لم يحمل الناس على شيء خارج قدرتهم واستطاعتهم خصوصًا في بعض الأمور، مثل: الجهاد مع الأعداء والجهاد مع النفس والصبر والعدل وغير ذلك.

ففي جهاد الأعداء يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:

٦٠].

لقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة هنا بالقدرة على الرمي[(١)].

ولكن الجهاد أيضًا يحتاج إلى الاستعداد النفسي، فالجهاد والموت في سبيل الله، وترك الأهل والدنيا بملذاتها، يحتاج إلى قدرة كبيرة لفعل ذلك، وهذه القدرة متباينة من شخص لآخر؛ لذلك قال تعالى: (ما استطعتم) فكلٌّ حسب طاقته وقدرته القلبية.

وكان لنا في سيدنا عثمان بن عفان أسوة حسنة في قدرته على التخلي عن الغالي والنفيس في سبيل الله، وترك كل أمواله تحت تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشد الأوقات صعوبة[(٢)].

والتضحية بالروح أيضًا قدرات تتفاوت من شخص لآخر فكل حسب استطاعته.

وفي الجهاد مع النفس يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فجاءت هذه الآية موضحة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

حيث إن فيها تخفيفًا ويسرًا على العباد، وإن جهاد النفس له درجات، لذا لم يقع التحديد بهذا القياس بل وقع التحديد بالاستطاعة[(٣)].

عن السدي قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]. فلم يطق الناس هذا، فنسخه الله عنهم، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦][(٤)].

وفي رأي آخر: هي محكمة لا نسخ فيها، قال ابن عباس: «قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] أنها لم تنسخ، ولكن حق تقاته أن يجاهد لله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم»[(٥)].

والراجح أنه لا نسخ فيها حيث إن الآية الثانية موضحة وشارحة للأولى ولا تعارض

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، ٣/ ١٥٢٢، رقم ١٩١٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، ٥/ ٦٢٦، رقم ٣٧٠١، والحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ٣/ ١٠٧، رقم ٤٥٥٣. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.
وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٨، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١٠/ ١٤٥٥.

(٤) جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٩.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٤٤.

في فهمها.

إن البشر لا بد أن يؤخذوا بالتدرج في أمورهم كلها، فهم لا يستطيعون الامتناع فجأة عما ألفوا، ولا الامتثال الفوري لما لم يعتادوا، لذلك كانت حكمة الله عز وجل في التدرج في الأحكام الشرعية حتى يتعدى القلب وينفذ بكل خضوع لأوامره سبحانه وتعالى، ومثال ذلك: التدرج في تحريم الخمر؛ إذ نزل على أربع مراحل، وكذلك التدرج في فرض الصلاة والصيام، وكان على مراحل أيضًا.

ولعلمه عز وجل بطبيعة من خلق من البشر، وحكمته في التشريع لهم؛ شرع للفرائض البدنية مقدمات تكون قبلها إذا حافظ المكلف عليها فإنها تهيئ قلبه وتعينه عليها، وتجعله يشعر بلذة العبادة؛ ذلك أن القلوب والأبدان تحتاج إلى ترويض وتدريب على فعل الطاعات، والبعد عن المحرمات، وينبغي تهيئتها لذلك حتى تجد لذة في الامتثال؛ ولئلا يكون فعل الطاعة أو الكف عن المحرم ثقيلًا عليها.

ففي الصلاة شرع الله تعالى الوضوء، وجعله شرطًا لها، وشرع التبكير إلى المسجد، والمشي إليه بسكينة ووقار، والدنو من الإمام، وجعل ذلك من سننها، بل يحسب ذلك صلاة له، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا يزال أحدكم في صلاةٍ ما دامت الصلاة تحبسه لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة)**[1].

كل هذه الأعمال لأجل أن تكون لدى المصلي الاستطاعة القلبية لأداء الصلاة بخشوع وطمأنينة.

وفي نسك الحج والعمرة يتهيأ المسلم قبل أداء هذه المناسك ليستطيع قلبه التلذذ بهذه الشعائر وذلك عن طريق السفر الطويل، واتخاذ ملابس أخرى للنسك غير ملابسه التي اعتاد عليها، ويلبي في الميقات، ويستمر مهللًا في طريقه إلى مكة، فلا يدخلها إلا وقد تهيأ قلبه لأداء نسكه، وامتلأ خشوعًا وشوقًا لبيت الله الحرام.

إن كل عمل يريد صاحبه أن يحقق نجاحًا فيه فإنه يحتاج إلى قناعة به، واستعداد نفسي له، وقدرة قلبية وجسدية على تحقيقه، والتهيئة النفسية والذهنية والجسدية للعمل الصالح في رمضان قبل دخوله سبب لقوة العزم، والجد في استثمار رمضان، والاجتهاد في أنواع الطاعات.

لذا كان الصيام في شهر شعبان مقدمة تهيئ المكلف لصيام رمضان، فلا يدخل عليه رمضان إلا وقد روض نفسه على الكف عن الحرام، وألف الصيام والقرآن وكثرة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، ١/ ٤٦٠، رقم ٦٤٩.

الذكر والصلاة، فيستشعر حينها عظمة هذه العبادة، وذلك لأن القلوب قد تهيأت فلا تصاب بالملل والتعب من هذه العبادة[1].

والعدل من الأمور التي تحتاج إلى استطاعة قلبية لتحقيقه على أرض الواقع، وهذه الاستطاعة ليس لها حد معين، فلكل شخص حده الذي يستطيع الإتيان به، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١٢٩].

الحديث في هذه الآية عن زواج التعدد فقد نفى الله عز وجل الاستطاعة في العدل من قبل الرجل، فلابد أن يميل قلبه لواحدة دون الأخرى و إذا تحول قلب الرجل عن المرأة لا يعطيها حقها في الفراش، هذا معنى: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا)، المقصود به المحبة القلبية والفراش؛ لأن هذا فرع على عمل القلب، فالإنسان إذا كره بقلبه لا يمكن للجوارح أن تأتي بخلاف ما في القلب لكن المطلوب العدل في القسمة والنفقة وهذا في المستطاع وليس للقلب علاقة به[2].

فعدم الاستطاعة المقصود بها هنا العجز القلبي، وشيء طبيعي جدًا أن الإنسان لا يسأل عن هذا العجز القلبي؛ لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل فيقول: (**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**)[3].

إن كان هذا هو حال رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم فما هو حال عامة البشر فهذا دليل على استيلاء النقص والقصور على جملة البشر، والقلوب ليست بأيدينا، إنما هي بيد الرحمن عز وجل، كما قال صلى الله عليه وسلم: (**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء**).

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**)[4].

والاستطاعة القلبية مطلوبة من الداعية

(١) انظر: صفحات رمضانية، عبد الكريم العمري، ص٥٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري٩/ ٢٨٤، تفسير السمرقندي١/ ٣٤٤، الهداية، مكي بن أبي طالب٢/ ١٤٨٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٥/ ٤٠٧.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب النكاح، باب في القسمة بين النساء، ٣/ ١٤١٦، رقم ٢٢٥٣، والحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ٢/ ٢٠٤، رقم ٢٧٦١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، ٤/ ٢٠٤٥٩، رقم ٢٦٥٤.

إلى الله عز وجل في معترك الحياة الدعوية، حيث يجب أن تكون له قدرة على الصبر على مشاق الدعوة وصعوباتها وألا يستسلم بسهولة ويأتي منها قدر استطاعته.

وها هو سيدنا شعيب عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[هود: ٨٨].

أي: بقدر طاقته، إبلاغهم وإنذارهم، فهو عليه السلام ليس قادرًا على إجبارهم على الطاعة ولا يريد إلا فعل الصلاح ما استطاع فهو بشر وله حد لطاقته وتحمله مشاق هذه الدعوة العظيمة[(١)].

قال القرطبي في هذه الآية: «أي: ما أريد إلا فعل الصلاح، أي: أن تصلحوا دنياكم بالعدل وآخرتكم بالعبادة، وقال: ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة. و «ما» مصدرية، أي: إن أريد إلا الإصلاح جهدي واستطاعتي»[(٢)].

والصبر خلق عظيم وهو من صفات الأنبياء عليهم السلام وهو يحتاج إلى استطاعة قلبية على التحمل والتجمل به في كل جوانب الحياة، سواء كان الصبر على الطاعة أو الصبر على المعصية.

وفي قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر لدليل على أن التعلم يحتاج إلى الصبر الذي يحتاج بدوره إلى استطاعة قلبية لممارسته، حيث طلب موسى عليه السلام اتباع الخضر للتعلم منه فما كان رد الخضر: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧].

يريد أنه يرى منه أمورًا لا يقره عليها والخضر لابد من أن يفعلها، فيتضايق موسى لذلك ولا يطيق الصبر، وعلل له عدم استطاعته الصبر بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨].

قال الخضر لموسى إنك يا موسى إذا اتبعتني ورافقتني، فلن تستطيع معي صبرًا، بأي وجه من الوجوه؛ لأن الصبر على المجهول من الصعب بمكان[(٣)].

وفعلًا لم يصبر سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم على أفعال العبد الصالح.

فكان في كل مرة ينبهه لما قاله له سابقًا ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[الكهف:٧٥].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٤٤، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٩٠.
(٣) انظر: تفسير القران العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨١.

ثانيًا: الاستطاعة البدنية:

هي سلامة الجسد عن الآفات المانعة من التكليف، والمراد منها استطاعة التكليف: وهي سلامة الأسباب ووسائل الوصول لتحقيق التكليف[1].

وهي مشترطةٌ في وجوب الواجبات البدنية، كوجوب الطهارة، وأداء الصلاة على الوجه الأكمل، وفي الصوم، وفي الحج، وفي النذر البدني كالصلاة والصوم، وفي الكفارات البدنية كالصيام، وفي النكاح، وفي الحضانة، وفي الجهاد.

قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

أجمع العلماء على أن الاستطاعة البدنية شرط لوجوب العبادات، فالقيام للصلاة ركن من أركان الصلاة لا تصح إلا به للمستطيع، أما المريض الذي لا يقدر على القيام فيسقط عنه هذا الركن ويستطيع الصلاة وهو جالس فإن لم يستطع وهو مضجع فالدين الإسلامي دين يسر.

والحج فريضة واجبة على المسلمين لمن استطاع، وفسر علماء الأمة على أن الاستطاعة هنا استطاعة مالية واستطاعة بدنية[2].

عن ابن عباس رضي الله عنه (أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: نعم)، وذلك في حجة الوداع[3].

قال الشافعي رحمه الله أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرأة الخثعمية بالحج عن أبيها، دلت على أن قول الله عز وجل: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

على معنيين:

الأول: أن يستطيع الحج بنفسه وماله.

والثاني: أن يعجز عنه بنفسه بسبب أمر عارض كالكبر، أو المرض، أو إعاقة جسدية لا يقدر معها على الثبوت على المركب والسفر، ويكون من يطيعه إذا أمره بالحج نيابة عنه، إما بمقابل شيء يعطيه إياه وهو قادر على ذلك، وإما بغير شيء وهذه إحدى الاستطاعتين[4].

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٣/ ٢٠٨٢.

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٢/ ٧٣٩.

(٣) صحيح البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب الحج عمن لا يستطيع الثبوت على الراحلة، ٣/ ١٨، رقم ١٨٥٤.

(٤) انظر: الأم، الشافعي ٢/ ١٣٢.

فقالت طائفة: الآية على العموم؛ إذ لا نعلم خبرًا ثابتًا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا إجماعًا لأهل العلم يوجب أن نستثني من ظاهر الآية، فعلى كل مستطيع الحج يجد إليه السبيل بأي وجه كانت الاستطاعة الحج على ظاهر الآية[1].

وقال بعض العلماء: إن الاستطاعة هي صحة وقوة الجسد[2].

وفي سياق قصة يأجوج مأجوج كان هناك حديثٌ عن الاستطاعة البدنية حيث لم يستطيعوا تسلق الجدار ولا نقبه من أسفل.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[الكهف: ٩٧].

هذا السد الذي تم بناؤه بمساعدة مجموعة من الضعفاء، وكان بناء هذا السد بصورة قوية تحدت طاقة العدوان في كل من يأجوج ومأجوج، وقد حاول كل منهما أن يصعد فوق السد ليتغلب عليه، ولكنه كان فوق طاقة كل منهما فلم يستطيعا اختراقه[3].

ولكن سيأتي اليوم الذي يستطيع فيه يأجوج ومأجوج من اختراقه، كما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعن زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: (لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بأصبعيه السبابة والإبهام)، قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[4].

والصوم يحتاج الى استطاعة بدنية كي يستطيع الإنسان الاستمرار بالصيام دون أن يكون هناك مشقة أو ضرر يمسه، فإن الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعها، والصيام استطاعة بدنية محضة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[المجادلة:٤].

أي: من لم يستطع صوم الشهرين الذي هو استطاعة بدنية لعذر من الأعذار فليطعم ستين مسكينًا.

وقال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٨٤].

اختلف علماء المسلمين في هذه الآية بين نسخ وعدمه، فقيل: إن الآية تتحدث

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٧٤.
(٢) انظر: الاستذكار، ابن عبدالبر ٤/ ١٦٥، نيل الأوطار، الشوكاني ٤/ ٣٤١.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني ٢/ ٤٣٦، تفسير الشعراوي، ٨/ ٤٨٧٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، ٩/ ٦١، رقم ٧١٣٥.

عن المريض الذي يقع عليه اسم المرض وهو يستطيع الصوم خُيِر بين الصيام وبين أن يفطر ويفتدي ثم نسخ.

وذهب جماعة منهم: أن الآية محكمة غير منسوخة، ومعناها وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب، ثم عجزوا عنه عند الكبر فعليهم الفدية بدل الصوم[(١)].

قال بعض المفسرين: إنها ليست بمنسوخة والمقصود هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينًا، والفدية والجزاء هو القدر الذي يبذله الإنسان، يقي به نفسه من تقصير وقع منه في عبادة ونحوها، ويجب على من أفطر في رمضان ولم يقدر على القضاء، لكبر أو مرض لا يرجى برؤه أن يطعم مكان كل يوم مسكينًا مدًا من غالب قوت أهل البلد[(٢)].

وعن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[البقرة: ١٨٤].

في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ثم ضعف، فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكينًا[(٣)].

فمعنى يطيقونه: يتحملونه بمشقة كبيرة إما لكبر سن أو مرض لا يرجى برؤه[(٤)].

فعلى تفسير الإطاقة بالجهد فالآية مراد منها الرخصة على من تشتد عليه مشقة الصوم في الإفطار والفدية، وقد سموا من هؤلاء: الشيخ الهرم، والمرأة المرضع، والحامل، فهؤلاء يفطرون ويطعمون عن كل يوم يفطرونه؛ لأن الصوم شاق عليهم[(٥)].

وللمريض حالتان: إن كان لا يستطيع الصوم كان الإفطار له عزيمة، وإن كان يطيقه مع تضرر ومشقة كان رخصة، وإن الله يحب الأخذ بالرخص، وبهذا قال الجمهور[(٦)].

حين طلب بنو اسرائيل من نبيهم ملكًا يقاتلون تحت إمرته، بعث الله عز وجل لهم طالوت، وسار بهم بجانب النهر طلب منهم ألا يشربوا منه، باستثناء غرفة باليد، أطاعه عدد وعصيه الأغلب؛ لأن الطاقة الجسدية لديهم لم تتحمل الجوع والعطش والتعب، فكانوا فريقين فريق تحمل واستطاع تنفيذ الأمر، وفريق لم يستطع، ولما جاوز طالوت النهر وتركه هو والذين آمنوا معه، وهم القليل الذي نفذ أمره، وصدق إيمانهم بربهم، ونظروا إلى كثرة عدوهم وهم قليلون فأوجس بعضهم خيفة، وقالوا: لا قدرة لنا

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١١١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ٦/ ٢٥، رقم ٤٥٠٥.
(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٦٠.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٦٦.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٧.

على محاربتهم، فضلًا عن غلبتهم[1].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وإن كان القائلون من المؤمنين معه، المنفذين لأمره في اغتراف الغرفة الواحدة من النهر، إلا أنهم قالوه إنما إظهارًا لواقع الحال، ورجاء المعونة من الله عز وجل، وليس نكوصًا وامتناعًا عن القتال[2].

ورأي آخر أنهم قالوه خيفة وجبنًا بعدما رأوا عدد وقوة العدو، أن كيف سيطيقون النصر عليهم وعلى كثرتهم[3].

فردت عليهم الفئة الواثقة بنصر الله، والمخلصة منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

والمراد منه تقوية قلوب الذين قالوا لا قدرة لنا على قتالهم والنصر عليهم، ليعرفوا أنما العبرة ليست بكثرة العدد، إنما العبرة بالتأييد الإلهي، والنصر السماوي الذي لا يأتي إلا من عند الله.

ثالثًا: الاستطاعة المالية:

والاستطاعة المالية: هي قدرة الشخص في القيام بأداء الواجبات المالية، مثل: الزكاة، وصدقة الفطر، والهدي في الحج، والنفقة، والجزية، والكفارات المالية، والنذر المالي، والكفالة بالمال، والإنفاق في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٦ - ٣٨][4].

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

الحج هو فرضٌ واجبٌ لله على من استطاع من أهل التكليف السبيل إلى حج بيته

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن كثير ١/ ٥٠٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٥١٣، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١/ ٤٢٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٥٥.
(٤) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٣/ ٢٠٨٣.

الحرام، ولقد فسر علماء التفسير المقصود بالاستطاعة هنا -بالإضافة إلى الاستطاعة البدنية - بالاستطاعة المالية، فتشمل البدن والمال والراحلة والطريق، حتى يتمكن المسلم من أداء فريضة الحج[(١)].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران: ٩٧]. قيل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: (الزاد والراحلة)[(٢)].

كذلك يدخل ضمن الاستطاعة المالية أن يكون معه نفقته ونفقة عياله ومن تلزمه نفقتهم وكسوتهم لذهابه ورجوعه، وألا يكون عليه دين[(٣)].

فلا حج على المريض والمقعد والمفلوج والأعمى وإن وجد قائدًا، والشيخ الكبير الذي لا يثبت على الراحلة بنفسه، والمحبوس، والممنوع من قبل السلطان الجائر عن الخروج إلى الحج؛ لأن الله تعالى شرط الاستطاعة لوجوب الحج[(٤)].

وفي سياق الحديث عن النفقة تتحدث الآية التالية عن الاستطاعة المالية في مقدار الإنفاق عليهم، قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٣٣].

وبما أن نفقة الولد تجب على والده بحكم الشرع، ونظرًا إلى أن تغذية ابنه الرضيع لا تتم إلا عن طريق الرضاعة التي تقوم بها والدته، أو من ينوب عنها في إرضاعه، فقد أوجب الله عز وجل على والد الرضيع أن ينفق على والدته أو مرضعته من غير تقتير ولا إسراف، في حدود استطاعته وعلى قدر حاله من سعة أو ضيق.

ويشمل الإنفاق كل ما يلزم لمعيشتها وكسوتها من غير تفريط ولا إفراط، ويظهر وجه الحاجة إلى لزوم هذه النفقة بالنسبة للأم التي طلقها الأب قبل ولادة الطفل[(٥)].

فمن سنته سبحانه وتعالى أن لا يكلف عباده في جميع التكاليف إلا بما يطيقونه ويقدرون عليه كي لا يتذمروا ويمتنعوا وتكون عاقبتهم وخيمة.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٣، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٤٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحج، باب ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة، ٣/ ١٦٨، رقم ٨١٣، والحاكم في المستدرك، كتاب المناسك، ١/ ٦٠٩، رقم ١٦١٣.
قال الترمذي: حديث حسن.
وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٠٣.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ٣، ٣٣١.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٦٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٣٠.

وقال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٦ - ٧].

يتحدث عز وجل في هذه الآية عن قضية إرضاع الطفل من أمه بعد الطلاق وطلبها للأجرة، فتحث الآية الكريمة الزوج على النفقة على الزوجة والأولاد على قدر ما آتاه الله من المال، فقد علم -سبحانه- تفاوت أحوال خلقه بالغنى والفقر، وأن منهم الموسع والمقتر وبين ذلك، فأمر كلًا أن ينفق على من لزمته نفقته من زوجته وولده على قدر ميسرته لا يكلف الله نفسًا إلا ما آتاها فإنه تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وفي هذه الآية تطييب لقلب المعسر؛ ولذلك وعد له باليسر، فقال: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

فالحديث في هذه القضية عن الاستطاعة المالية[1].

وقد علل المنافقون عدم خروجهم للقتال مع رسول الله عز وجل بعدم الاستطاعة المالية.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

تخلف المنافقون عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في معركة تبوك وكانت حججهم واهية ضعيفة، حيث عللوا عدم الخروج بعدم وجود الإمكانات المادية للقتال، والله عز وجل يعلم نفاقهم، وبيّن كذبهم بأنه إن كانت الشقة قريبة، والمغانم دانية، أخذوا مكانهم في صفوف المسلمين من أجل عرض فان في الدنيا وما تذرعوا بعدم وجود المال[2].

وليست هذه سبيل المؤمنين المجاهدين ولا غاياتهم، وإنما سبيلهم قائمة على نية منعقدة أبدًا على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله عز وجل، ومن كانت تلك سبيله، وهذه غايته، فإنه لا ينظر إلى مغنم وكسب مادي، وإنما همه الأكبر وغايته القصوى الانتصار لدين الله، وإعزاز كلمة الله عز وجل.

وفي الحديث عن الفقراء الذين لم يستطيعوا القتال بسبب فقرهم وقلة ذات اليد يقول عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٤، ٤٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٢٢، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣١٠.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤١٢.

﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فسر العلماء قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] يعني التجارة[(١)].

فهم قد حبسهم الفقر وعدم الاستطاعة المالية عن الجهاد، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١].

ويحتمل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

أي: حبسوا أنفسهم في طاعة الله، لا يجدون ما يتجرون، ولا ما يحترفون، ولا ما يكتسبون.

وقيل المقصود ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يعني: النفقة والصدقة للفقراء الذين حبسوا أنفسهم في طاعة الله، وهم أصحاب الصُفَّة كانوا نحوًا من أربعمائة رجل، جعلوا أنفسهم للطاعة، وتركوا الكسب والتجارة[(٢)].

وقال ابن عباس: «هؤلاء قوم من المهاجرين حبسهم الفقر عن الجهاد في سبيل الله، فعذرهم الله فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] يريد: الجهاد»[(٣)].

قال قتادة: إنهم هم هؤلاء حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، لا يستطيعون ضربًا في الأرض، تركوا الخروج للتجارة والمعاش، ووقفوا أنفسهم على الحرب، لا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش، وهم أهل الصفة[(٤)].

وقيل: حبسوا أنفسهم على طاعة الله عز وجل.

وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله[(٥)].

وقيل: هؤلاء قوم أصيبوا بجراح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد في سبيل الله، فصاروا لا يقدرون على القتال أحصرهم المرض الضرب في سبيل الله للجهاد[(٦)].

إن النصر على أعداء الله يحتاج إلى إعداد جيش قوي بعدده وعدته، أخذًا بالأسباب، وهذا الإعداد يحتاج إلى قوة مالية؛ لكي يتمكن الجيش من شراء المعدات اللازمة لتكوين أي جيش، وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٩٣.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٢٦٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٦٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٧٧.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٨٨.
(٦) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٧٧.

﴿قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال:٦٠].

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]: (ألا إن الرمي هو القوة، ألا إن الرمي هو القوة)[١].

ويقول الماتريدي في تفسيره لهذه الآية: «ادفعوا العدو عن أنفسكم؛ لما لعلهم يقصدون أنفس المؤمنين المقاتلين، أو ادفعوا عن أموالكم وذراريكم ويقصدون ذلك، أو ادفعوا عن دينكم إذا قصدوا دينكم، كل ما يتقوى به على حرب العدو من آلة الجهاد فهو مما عنى الله بقوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ والمفسرون يقولون: يعني السلاح من السيف والرماح والقسي والنشاب»[٢].

وكذلك بيّن ابن كثير أن المقصود هو أمر الله عز وجل بإعداد آلات الحرب لمقاتلة أعداء الله حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾[الأنفال: ٦٠][٣].

فالإعداد لقتال أعدائنا يكون في جميع أنواع القوة: المادية، والمعنوية، وإنما خصص الله عز وجل ذكر القوة هنا؛ لأنه لم يكن للمؤمنين في غزوة بدر استعداد تام للقتال، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان ولم يكن هناك إعداد ونصر إلا بالمال، ولا سبيل إليه إلا بالإنفاق المطلق، كل على قدر طاقته وإيمانه، مع كامل الحق على التسابق فيه والعمل على إحراز ثوابه الكبير والأجر الحسن المعد للمنفقين يوم القيامة[٤].

ويحسن بنا كمسلمين أن نعرف حدود التكليف بإعداد هذه القوة التي أمرنا بها، فهي حدود الطاقة إلى أقصاها، بحيث لا تقعد وتتقاعص العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها[٥].

ونستدل من الآيات السابق ذكرها:

١. لابد أن يكون الإنسان مهيأ للقيام بالتكاليف الدينية، كي تتم على أحسن حال دون ملل أو تعب ويستشعر المرء بلذة العبادة.

٢. كي يستطيع المرء القيام بالتكاليف يجب أن تكون لديه القدرة البدنية على القيام بها، من صلاة وحج وصيام وغير ذلك.

٣. هناك بعض العبادات لا تقوم إلا بالإنفاق وبذل المال، مثل: التصدق

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، ٣/ ١٥٢٢، رقم ١٩١٧.
(٢) تأويلات أهل السنة ٢/ ٥٢٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٨٠.
(٤) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٤٧٤.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٤٤.

والحج والجهاد في سبيل الله.

٤. التأني في فهم النصوص القرآنية والتدبر فيما يريده الله عز وجل منا وعدم التعجل في إصدار الأحكام، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١٢٩].

٥. من الناس من يحكم من خلال هذه الآية بعدم التعدد ومحاربته من منطلق قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[النساء: ١٢٩].

٦. وهذا مفهوم خاطئ ولَيٌّ لأعناق الآيات لتوافق أهواء البعض؛ لأن المقصود هو عدم الاستطاعة في العدل من قبل الرجل، لأنه لابد أن يميل قلبه لواحدة دون الأخرى، وإذا تحول قلب الرجل عن المرأة لا يعطيها حقها في الفراش.

٧. الآيات المتحدثة عن الاستطاعة لا تعني الكسل والتقاعس عن أداء التكاليف بحجة أن هذا ما يستطيعه وهو غير مؤاخذ؛ لأن الله أعلم بنا وهو خالقنا وأعلم بمدى استطاعة كل فرد على أداء التكاليف المناطة به، فيجب أن يكون هناك وازع ديني ودافع داخلي للإنسان وتقوى من الله في أداء التكاليف ويبذل أقصى ما في وسعه تجنبًا من الوقوع في المحظور.

عدم الانتفاع بأدوات الاستطاعة

إن الله عز وجل عندما كلفنا بالتكاليف الشرعية كلفنا بما نطيق، وجعل فينا القدرة على الإتيان بها، وأعطانا أدوات هذه الاستطاعة فمن ملكها لا عذر له، ومن سلبها الله منه لحكمة من الله لا يؤاخذ، ومن هذه الأدوات: أعضاء الجسم التي بها نقوم بالعبادات كالصلاة والحج، ومنها أيضًا: النعم التي أنعم الله بها علينا كي نستطيع أداء فرائضه من مال وصحة ووقت.

أولًا: الجوارح:

وجوارح الإنسان هي أعضاؤه التي يكتسب بها[1]، وهذه الجوارح قد يكسب منها المرء إما خيرًا أو شرًا، وهي التي ستنطق حينما تسكت الألسنة عن النطق.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

إن حقيقة الإيمان التي أمرنا الله عز وجل بها هي أن يتواطأ القلب مع الجوارح، فتتحقق عبودية القلب مع عبودية الجوارح، فنحسن العبادة باطنًا كما نحسنها ظاهرًا، إن الإيمان الذي في القلب لابد أن تصدقه الجوارح بأعمالها، فإن التصديق يكون بالأفعال كما يكون بالأقوال فإذا اتقى الإنسان الله بقلبه أولًا كما يجب، اتقت جوارحه وانصاعت لما أمر به الله عز وجل[2].

إن الله عز وجل جعل للعباد قدرات فيما يقدرون عليه، وجعل لهم وسائل وهي الجوارح، والقدرات موجودة قبل الفعل وبعده، لكنها لا تتمثل لنا بفعل حقيقي إلا عند الفعل الحقيقي.

ومن أهم تلك الجوارح التي أنعم الله بها على الإنسان: (الأذن، والعين، والأنف، واللسان، واليدين، والقدمين، والبطن، والفرج)، وهذه الجوارح نعمة من الله كي يستطيع الإنسان أداء التكاليف المناطة به على أكمل وجه، فيجب أن تكون الجوارح مستعملة فيما يرضاه الله عز وجل، وأن يكون الإنسان مسئولًا عما اكتسب بجوارحه هو، لا عما اكتسبه غيره.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ولله عز وجل على العبد عبوديتان عبودية باطنة وعبودية ظاهرة، فللقلب عبودية وللسان والجوارح عبودية، فإن قام العبد فقيامه بالعبودية الظاهرة مع تجرده من حقيقة العبودية الباطنة فإن ذلك لا يقربه إلى

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ١/ ٥٥.

(٢) انظر: قانون التأويل، ابن العربي، ص ٣٦٣.

الله ولا يوجب له الثواب وقبول العمل، فإن المقصود امتحان القلوب وابتلاء السرائر، فعمل القلب هو روح العبودية ولبُها فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح[(١)].

وعرف علماء الأمة الاستطاعة بأنها: سلامة الآلات ورفع الموانع، والمقصود بسلامة الآلات هي صحة الجوارح، فالمريض ليس بمستطيع؛ لأن الآلات لديه فيها خلل[(٢)].

فإذا صحت الجوارح وارتفعت الموانع الحسية سميت استطاعة يتوجب بسببها التكليف، وأهل السنة جعلوا الاستطاعة نوعين: نوعًا قبل الفعل وهو سلامة الجوارح، ونوعًا معه وهو ما يجب به وجود الفعل[(٣)].

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

قد يظن البعض أن هذه الآية تدلل على أنه لا إثم اذا فعل الإنسان بعض المحرمات والمحظورات؛ لأن الآية تعذره، وتقدم له رخصةً ومخرجًا، ويترتب على هذا الفهم الخاطئ لمعنى الآية، أن يتفاوت التزام المسلمين بالإسلام في أداء واجباته، واجتنابًا لمحرماته، بحيث يختلف الالتزام بالإسلام وتطبيقه من شخص إلى آخر كل حسب استطاعته، فتتكون لدينا الهمة الميتة، والقدرة العاجزة، والاستطاعة المريضة.

وحتى يكون فهمنا لمعنى الآية صحيحًا، وتصورنا لقيد الاستطاعة فيها صوابًا، لا بد أن نقرن معها آية أخرى، وهي قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

حيث تأمرنا هاتان الآيتان بتقوى الله، وكل واحدةٍ منهما توضح المراد من الأخرى: فآية آل عمران تأمر بأن نتقي الله حق تقاته، والمقصود تقوى حقة صادقة مخلصة جادة، بأن نبذل غاية وسعنا، وأقصى استطاعتنا، في تحقيقها وتحصيلها، وأن نبقى على هذه التقوى طيلة حياتنا، بحيث لا يموت الإنسان منا إلا وهو مسلم، المعنى هو: بذل الوسع والجهد والاستطاعة في تحصيلها[(٤)].

وآية التغابن تأمرنا بتقوى الله بمقدار

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية ٣/ ١٩٢.
(٢) انظر: البحر الرائق، ابن نجيم ٤/ ٣٣٩، رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين ٣/ ٧٥٨.
(٣) انظر: مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة، عفيف الدين اليافعي، ص ١٦٥، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن المحمود ٣/ ١٣٣٣.
(٤) انظر: تصويبات في فهم بعض الآيات، صلاح الخالدي، ص ٩٧.

الوسع والاستطاعة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، ويوضح المراد بقوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ قوله في آل عمران: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، فلا يحقق المسلم التقوى بقدر الاستطاعة، إلا إذا كانت هذه التقوى حق التقوى، وهذا أمر قلبي لا يستطيع أحد معرفتها إلا الله عز وجل[1].

قال ابن عطاء: «الاستطاعة على الظواهر والأعمال، وحق تقاته على القلوب والأحوال» والمقصود اتقوا الله حق تقاته بتوجيه القلوب إليه بلا التفات إلي أي شيء دونه، واتقوا الله ما استطعتم بعمل الجوارح والأعضاء قدر الطاقات التي منحها الله لكم[2].

عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا)، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم)، ثم قال: (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[3].

إنها استطاعة بخصوص الحج، الذي نص القرآن على وجوبه على المستطيع، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يجب على سؤال الرجل وكان السبب واضحًا أن أمته لن تطيق ذلك والله ورسوله أعلم بهذا.

وكذلك هناك أمور رخص الشرع فيها لغير المستطيع، فالمسافر يرخص له في الإفطار في حال مرضه أو صحته أما المسافر غير المستطيع فالإفطار في حقه واجب، حفظًا لبدنه، فيقصر ويجمع الصلاة، ويفطر ويقضي أو يفدي، والحائض والنفساء يجب عليهما الفطر وترك الصلاة، وتقضيان الصوم ولا تقضيان الصلاة، والحج واجب على المستطيع، ولا زكاة لمن لم يملك النصاب، وأكل الميتة مباحٌ للمضطر.

وقال علماء الأمة بحق من كانت لديه أدوات الاستطاعة ولم يقم بالتكاليف التي أمره الله عز وجل دون عذر أنه لا يكون مؤمنًا، فمن كان يعتقد بقلبه ويقر بلسانه ولكنه لا يعمل بجوارحه، وعطل الأعمال كلها من غير عذر فهذا ليس بمؤمن؛ لأن الإيمان كما ذكرنا وكما عرفه أهل السنة والجماعة أنه: قول باللسان واعتقاد بالقلب

(١) انظر: الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني، الشوكاني ٥/ ٢٦٠٨.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٧/ ٦٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، ٢/ ٩٥٧، رقم ١٣٣٧.

وعمل بالجوارح، لا يحصل الإيمان إلا بمجموع هذه الأمور، فمن ترك واحدًا منها فإنه لا يكون مؤمنًا.

وهناك آية أخرى يعتمد عليها بعض المسلمين، ويجعلونها حجةً ودليلًا ومستندًا لهم، على تقصيرهم في أداء الواجبات والتزام الأوامر وترك المحظورات، إذ أنها تبيح لهم ذلك وتجعلهم في منأى عن المسؤولية والعقاب جزاء هذا التقصير والتفريط، فيكون الإنسان صحيح البدن معافى في جوارحه التي هي مناط التكليف فيقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨].

ولا يعرف أن الآية تشرع وتبيح له أن يأخذ من الإسلام والشريعة ما يدخل ضمن وسعه وطوقه وقدرته، مهما كانت درجة الوسع والطوق والقدرة، حتى لو كانت في أدنى مستوياتها وأضعف حالاتها [(١)].

ثانيًا: النعم:

من أكبر النعم على أمة الإسلام أن الله هدى المسلمين لهذا الدين ومن جزيل نعمه عليهم بعد الهداية أن جعل الدين ميسرًا حسب الاستطاعة.

إذا تأملنا منطوق التكاليف الشرعية نجدها بنيت على الاستطاعة والمقدرة، فالله سبحانه وتعالى لا يطلب منا إلا ما نستطيع تأديته، على حسب الحالة التي نحن عليها.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فهذه النصوص تمنحنا مساحة من الطمأنينة تجعلنا لا تضطرب ونتأثر في ممارسة الشعائر التعبدية بسبب موقف ألم بنا؛ لأن حياتنا كلها أصلًا عبادة، والغاية من إيجادنا في هذه الحياة أصلًا هو العبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويشرع لمن أنعم الله عليه بنعمة إظهارها؛ فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، كما يشرع له بذلها لمن يحتاجها على حسب الاستطاعة.

قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

قال الحسن البصري: إن الله تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧]. ما عاب قومًا ما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا، ولا

(١) انظر: تصويبات في فهم بعض الآيات، صلاح الخالدي، ص ١٠٠.

عذر قومًا زواها عنهم فعصوه[1].

فعلى المؤمن أن يجتنب تحريم الطيبات التي أحلها الله له، وأن يتمتع بها بدون إسراف أو تقتير، وأن يداوم على شكر الله على نعمه وآلائه، وأن يجعل جانبًا من هذه النعم للإحسان إلى الفقراء والمحتاجين.

ويجب الحذر من التعامل مع نعم الله عز وجل، إذ يعتبر كل إهمال أو تقصير أو عدم استعمال جيد لأي نعمة من نعم الله عز وجل غبنًا فيها، كأن يغبن الإنسان في وقته وفي صحته وهما من أكبر النعم التي أنعم الله عز وجل به علينا.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**)[2].

أي: أن هاتين النعمتين إن لم يستعملهما الإنسان وفق ما أراد الله فاستمتع بالصحة واسترخى وأطال النوم ولم يقم بالواجبات المطلوبة منه، واستمتع بالفراغ فأمضاه باللهو واللعب، ونعمة الصحة لم يستفد منها في الأعمال الصالحة التي تفيد المسلمين، ونعمة الفراغ لم يستفد منها في طلب العلم، تأخذه الحسرة والندامة يوم القيامة.

فالحديث يشير إلى أن الذي يوفق للعمل الصالح، واستغلال أوقات الصحة والفراغ إنما هم قليل، أما أكثر الناس فهم في خسارة وفي ضياع، فكيف بمن له الاستطاعة وعنده النعمة، وتجده يتقاعس ويتكاسل ويعلل ذلك بعدم الاستطاعة وأن هذا ما يطيقه وأن الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

وقال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، فالفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم[3].

فعلى المرء استغلال هذه النعم في طاعة الله ما استطاع فقد قال المفسرون: المغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان، وحسرة كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام[4].

ولا يجب أن يكون نعم الله عز وجل التي أنعمها علينا نقمًا، وقال الحسن وقتادة: إن التغابن أي: «الحسرة والندامة» في ثلاثة

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٢٦٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، ٨/ ٨٨، رقم ٦٤١٢.
(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/ ٢٣٠.
(٤) انظر: عمدة القاري، العيني ٢٣/ ١١١.

أصناف: «رجل علم علمًا فعلمه وضيعه هو ولم يعمل به فشقي به، وعمل به من تعلمه منه فنجا به، ورجل اكتسب مالًا من وجوه يسأل عنها وشح عليه، وفرط في طاعة ربه بسببه، ولم يعمل فيه خيرًا وتركه لوارثه، فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه، ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعد، وعمل السيد بمعصية ربه فشقي»[1].

لذا علينا استخدام نعم الله عز وجل في الطاعات وفي القربات وفي المعرفة، وفي الطاعة، وفي الأعمال الصالحة، والوقت والقوة في خدمة عباد الله و في معرفة الله، وحضور مجالس العلم، وأداء الصلوات الخمس بإتقان، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، وأداء زكاة المال، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

من استعمل صحته وفراغه في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو النادم؛ لأن كل فراغ يعقبه انشغال وأن كل صحة يعقبها مرض، ومن لم يشغل نفسه بالحق شغلته بالباطل أما إذا استعد الإنسان للقاء الله عز وجل، استغل النعم التي أسبغها عليه من مال وصحة ووقت وعلم وغير ذلك من النعم أعظم استغلال، فهو في سعادة دائمة[2].

إن الله سبحانه عادلٌ في أحكامه في عباده، وإنه لا يكلفهم بما لا يطيقون، ولا يطالبهم بالمستحيل، ولا يريد من التشريعات إرهاق عباده، أو إيقاعهم في العسر والحرج والإثم والتقصير، فإن الله سبحانه قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة: ١٨٥].

وإن الله عليمٌ حكيم، لطيف خبير، يعلم طاقة النفس الإنسانية ومقدار تحملها ووسعها.

وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ولذلك أوجب عليها التكاليف الشرعية، وهو يعلم أنه بمقدور هذه النفس الالتزام بها، وهو يعلم أنها كلها ضمن (وسعها) وطاقتها؛ لذا كان من الواجب على من ملك أدوات الاستطاعة أن يكون منصاعًا لأوامر الله عز وجل دون تردد.

ومن الواضح من الآيات السابقة:

١. في واقعنا المعاصر نجد الشباب الذين أعطاهم الله عز وجل أقوى مرحلة الشباب التي هي مرحلة قوة بين ضعفين الطفولة والشيخوخة، يضيع الشباب وقته وصحته وماله في اللهو

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٣٧، اللباب، ابن عادل الحنبلي ١٩/ ١٣١.

(٢) انظر: موسوعة الأخلاق، ياسر عبد الرحمن ٢/ ٣٢٣.

والعبث وضعف التحصيل، فلا يهتم بنعمة الوقت وهو جالس بالساعات الطوال في الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، لا يأخذ وقتًا للعبادة ولا لطلب العلم، ملك كل أدوات الصحة ولا يستغلها الاستغلال الأمثل.

٢. من تمتع بنعمة الصحة والعافية وملك الجوارح والمال عليه أن يبادر إلى طاعة الله، وإلى التقرب إليه لئلا يتحسر على هذه النعم، و يصعق يوم القيامة أن كيف أمضى حياته في أعمال لا ترضي الله عز وجل.

٣. علينا حمد الله عز وجل على النعم التي حرم منها الكثيرون، ونحمده أن جعل فينا القدرة على عبادته، فكم من عاجز عن الحركة يتمنى أن يقوم لله ساجدًا راكعًا، وكم من فاقد القدرة على الكلام والسمع يتمنى أن يقرأ القرآن ويذكر الله عز وجل بلسانه.

٤. الآيات القرآنية المتحدثة عن الاستطاعة تطالب جميع المسلمين الالتزام بكافة التكاليف الشرعية، وتعلمهم أنه في وسعهم وطوقهم أن يقوموا بهذا الالتزام؛ لأن الله هو الذي يعلم مقدار تحملهم وطاقة قدرتهم، ولذلك ألزمهم بها وهذه الآيات تقرر حقيقةً هامةً في قواعد التشريع الإسلامي، وهي أن هذا التشريع بكافة جوانبه ومجالاته يراعى فيه الطاقة والوسع، وهذا التشريع يتصف بالسماحة واليسر، فلا عسر فيه ولا حرج، وهذا كله من مظاهر فضل الله على المسلمين، وإرادته اليسر والرحمة والخير بهم، عندما كلفهم بكل ما كلفهم به.

٥. ليس الإنسان هو الذي يحدد مقدار استطاعته، ولا هو الذي يحدد صورة الواجب بالنسبة له، ولكنه الشرع. إن الله عز وجل هو الذي يعلم مقدار الطاقة البشرية وحدود الاستطاعة فيها، ولذلك جاءت الرخص في الدين في بعض الحالات ولبعض الأشخاص، مراعاة لبعض الأعذار والأحوال.

٦. ينبغي على المؤمن أن يحذر من أن يتساوى يومه مع أمسه، فالإنسان ينبغي أن يتطور وأن يكون في ازدياد لكل ما يرضي الله عز وجل، ويستغل النعم التي منحنا الله إياها في طاعته، فالمؤمن الساعي في السير إلى الله يعمل لاستمرار عمله حتى بعد مماته فتجده ينشر العلم ويعمل على الصدقات الجارية ويربي أبناءه خير تربية حتى يستمر أثره الإيجابي بعد وفاته.

نفي الاستطاعة عما يعبد من دون الله

هناك من البشر من ظلم نفسه باتخاذه آلهة من دون الله، يعبدونها ويقيمون لها الشعائر، وهي لا تستطيع لنفسها نفعًا ولا ضرًا، فهم إما يعبدون جمادات يحتار العقل في إمكانية عبادتها، وإما يعبدون مخلوقات خلقها الله عز وجل، مخلوقات ضعيفة لا تجلب النفع لنفسها فضلًا عن جلبه لغيرها، بل هي ضعيفة تحتاج إلى من يقوم على أمورها.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان: ٣].

ففي هذه الآية تقريع للمشركين بعبادتهم ما دون الله، وتنبيه لهم على موضع خطأ فعلهم ببيان أن آلهتهم التي يعبدونها لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة ومع ذلك فهي لا تملك دفع ضر عن نفسها، ولا جلب منفعة إليها، ولا تملك إماتة ولا إحياء ولا بعثًا، فهذه هي صفتها فهي لا تستحق العبادة[(١)].

وهذه الآيات كنظيراتها من الآيات التي تؤكد أن الله هو الإله الواحد القادر، الذي بيده ملكوت كل شيء وغيره من المعبودات لا تضر ولا تنفع، ولا تستطيع فعل أي شيء.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[المائدة: ٧٦].

ويقول عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[يونس: ١٨].

وفي استفهام مليء بالتقريع والتوبيخ، يخاطب الله عز وجل الذين أشركوا به أن كيف تجعلون لله شريكًا لا يخلق شيئًا، ولا يقدر على نفع لهم ولا دفع عنهم، وهم يُخلَقُون ولا يخلقون شيئًا، ولا يستطيعون لمن جعلهم شركاء نصرًا إن طلبه منهم ولا لأنفسهم أيضًا، فالمعبود الذي تجب عبادته يكون قادرًا على إيصال النفع ودفع الضر، وهذه الأصنام ليست كذلك، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز[(٢)].

قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: ١٩١- ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

(١) انظر: موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، حكمت بن بشير بن ياسين ٣/ ١٧٨.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٨٢، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣١٣.

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠].

يبين الله هنا مدى عجز ما يعبدون من دون الله، فهذه الآلهة لا تخلق شيئًا وهي تُخلَق، فكيف يكون إلهًا وهو مصنوع لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؟ فهم عاجزون عن الخلق والتدبير ولا يعلمون شيئًا عن كيفية الخلق وتدبير أمور العباد[(١)].

وفي هذه الآيات ندد كتاب الله بسخافة المشركين وصغر أحلامهم، فهم يعبدون أصنامًا من دون الله، يتوجهون إلى من لا يملك لهم رزقًا، ولا يستطيع لهم ضرًا ولا نفعًا.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[النحل: ٧٣].

فأولئك الشركاء لا يستطيعون أي قدر من الاستطاعة في النفع فضلًا عن الضر، وعبادة الأصنام والأوثان، بدلًا من أن يعبدوا خالقهم ورازقهم، ويفردوه بالعبادة والطاعة دون سواه[(٢)].

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:١٧].

فالذين تعبدون أيها السفهاء من دون الله لا يملكون لكم رزقًا، لا يقدرون أن يرزقوكم أبدًا، فاطلبوا الرزق من الله واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون[(٣)].

ويبين الله مدى ضعف ما يعبدون من دونه فضرب مثلًا قائلًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[الحج: ٧٣].

قال القرطبي: «وخص الذباب هنا لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، واستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأربابًا مطاعين، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان»[(٤)].

وقال ابن عباس: «كانوا يطلون الأصنام بالزعفران، فإذا جف جاء الذباب واستلب منه شيئًا، فأخبر الله تعالى أن الأصنام لا يستنقذون من الذباب ما استلبه»[(٥)].

ونظير ذلك تشبيهه تعالى لمن اتخذ غير الله معبودًا كالعنكبوت التي تتخذ بيتًا واهنًا؛

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٩٦.
(٢) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجمع البحوث ٥/ ٦٥٥.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٥٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٩٧.
(٥) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤٥٦.

ليكون ملاذها، فهي تبني وتجتهد وأمرها كلها ضعيف متى مسته أدنى هابة أذهبته، فكذلك أمر أولئك المشركين وسعيهم مضمحل لا قوة له ولا معتمد[1].

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١].

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وهنا وجه الله الخطاب إلى نبيه، آمرًا إياه أن يتحدى المشركين الذين يزعمون آلهة أخرى غير الله سبحانه وتعالى، بأن يطلب منهم دعوة شركائهم الذين يتمسكون بعبادتهم، ويعلقون عليهم الآمال بالعون والغيث، مسجلًا على أولئك الشركاء العجزة المفاليس، فقرهم المدقع وعجزهم التام[2].

فالآية تبين حال آلهتهم الحقيقي، وأنهم إذا كانوا من العجز والعوز لا يملكون وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض من خير أو شر، ولا يستطيعون جلب نفع ولا دفع ضر، فكيف يكونون آلهة تعبد ؟[3].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وفي تساؤل منطقي تطرحه الآية الكريمة عن هؤلاء الشركاء، عن أي جزء من الأرض استبدوا بخلقه، وما سندهم في عبادتهم؟ أم لهم شرك في السماوات أم لهم شركة مع الله في خلق السماوات بكل ما فيها من عظمة تدل على قدرة الخالق فاستحقوا بذلك شركة في الألوهية وأن يعبدوا، بل لا شيء من ذلك، فبطل استحقاقها للعبادة[4].

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[فاطر: ٤٠].

إن دعوة الحق تختص به تعالى، والمقصود بالدعوة الحق، توحيد الله وشهادة أن لا إله إلا الله[5].

أما دعوة غيره من الأصنام والحيوانات والكواكب هي دعوة باطل، وهذه الآلهة التي يدعونهم من دون الله، لا يجيبونهم

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣١٨.
(٢) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد الناصري ٥/ ١٨٩.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٢٦٥.
(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٦١، البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٥٥٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٩٧.

بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر، و في الآية تشبيه لكل من يتوقع من هذه الأصنام الاستجابة وتحقيق أي أمل يرجوه، إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه، يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه، ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه أو يبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم[1].

قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[الرعد: ١٤].

يتضح من الآيات السابقة ما يلي:

١. إن الله وحده هو القادر على النفع والضر وليس لأي أحد هذه القدرة لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غني بأمواله ولا صاحب سلطة بقراراته.

٢. ليست فقط الأصنام هي التي تعبد من دون الله وهي لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها نفعًا أو ضرًا، فهناك من يعبد البشر وقوانينهم الوضعية ويقدمونها على القوانين الإلهية بزعم أنها تملك حلولًا لمشاكل البشر على هذه الأرض، هذه القوانين التي أثبتت ضعفها وفشلها في حل المشاكل، ويقر الغرب أخيرًا أن التشريعات الإلهية وحدها هي القادرة على تغيير مجرى العالم وخاصة بعد انهيار الاقتصاد العالمي بسبب البنوك الربوية.

٣. إن الله عز وجل هو الرازق الكريم الذي يرزق عباده دون حساب، فعنده خزائن السموات والأرض ولا ينقص رزقه لعباده شيئًا إلا كغمس المخيط في مياه البحر، فعلينا ألا نقلق على رزقنا؛ لأنه بيد حكيم عليم يرزق البر والفاجر المؤمن والكافر.

موضوعات ذات صلة:

السعة، العبادة

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١١.

الاستعاذة

عناصر الموضوع

مفهوم الاستعاذة	٨
الاستعاذة في الاستعمال في القرآن	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
منزلة الاستعاذة وآثارها	١٢
أنواع الاستعاذة	١٥
المستعاذ منه	١٦
مواطن الاستعاذة	١٩
ثمرات الاستعاذة وآثارها	٢٣

المجلد الثالث

مفهوم الاستعاذة

أولًا: المعنى اللغوي:

الاستعاذة: مصدر استعاذ، وهي قول القائل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وأعوذ فعل مضارع يصلح للحال والاستقبال، وهو مشتق من العوذ؛ وهو الالتجاء إلى الشيء، ثم يحمل عليه كل شيء لصق بشيء أو لازمه[(١)]. وعلى هذا فإن العوذ له معنيان:

أحدهما: الالتجاء إلى الشيء، والانحياز له، والاستجارة به.

يقال: عذت بالشيء أعوذ عوذًا وعياذًا إذا لجأت إليه، وهو عياذي: أي ملجئي[(٢)].

قال ابن منظور: «عاذ به يعوذ عوذًا وعياذًا ومعاذًا: لاذ به ولجأ إليه واعتصم»[(٣)].

والثاني: الالتصاق، يقال: أطيب اللحم عوذه، وهو ما التصق منه بالعظم[(٤)].

فعلى الوجه الأول: معنى قوله: أعوذ بالله: أي ألتجئ إلى رحمة الله وعصمته، ومنه: العوذة، وهو ما يعاذ به من الشر، وقيل للرقية والتميمة- وهو ما يعلق على الصبي-: عوذة وعوذة[(٥)]. وعلى الوجه الثاني: معناه: التصق نفسي بفضل الله ورحمته[(٦)].

قال ابن القيم: «والقولان حق، والاستعاذة تنتظمهما معًا»[(٧)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى الاستعاذة الاصطلاحي كثيرًا عن المعنى اللغوي.

عرفها ابن كثير بقوله: «هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل شر، والعياذة تكون لدفع الشر، و اللياذة تكون لطلب الخير»[(٨)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٨٣.
(٢) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٨٣٣، الصحاح، الجوهري ١/ ٤٧٣، تهذيب الأسماء واللغات، النووي ص٣٢٩.
(٣) لسان العرب ٩ / ٤٦٤.
(٤) انظر: المصدر السابق ٩ / ٤٦٥.
(٥) انظر: المصدر السابق ٩ / ٤٦٥، الدر المصون، السمين الحلبي ١/ ٧.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي١/ ٦٤، بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧١.
(٧) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧١.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٦.

الاستعاذة في الاستعمال في القرآن

وردت مادة (عوذ) في القرآن (١٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٧]
الفعل المضارع	٩	﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧]
فعل الأمر	٤	﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف:٢٠٠]
المصدر الميمي	٢	﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣]

وجاءت الاستعاذة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الالتجاء إلى الغير والتعلق به[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم ص٨٤٢-٨٤٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٩٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة (د ع و) التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل: الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل ، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك: دعا يدعو، والمصدر: الدعاء والدعوى[(١)].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربَه حاجتَه.

الصلة بين الاستعاذة والدعاء:

بالتأمل نجد أن الدعاء أعم من الاستعاذة، فهو لجلب الخير أو دفع الشر، والاستعاذة دعاء لدفع الشر.

٢ الاستعانة:

الاستعانة لغة:

الاستعانة: مصدر استعان، وهي: طلب العون، يقال: استعنته واستعنت به فأعانني[(٢)].

الاستعانة اصطلاحًا:

لا يخرج عن المعنى اللغوي، فالاستعانة بالله سبحانه وتعالى: طلب العون من الله، والاستعانة بالمخلوق: طلب العون من المخلوق فيما يقدر عليه من الأمور.

الصلة بين الاستعاذة والاستعانة:

الاستعانة أعم من الاستعاذة، فإنهما يجتمعان في طلب كف الشر، وبذلك: فالاستعاذة صورة من صور الاستعانة، وتزيد الاستعانة بأنها تكون في تحصيل الخير. فكل استعاذة استعانة، وليس كل استعانة استعاذة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢٩٨.

٣ الاستغاثة:

الاستغاثة لغة:

مصدر استغاث، وهو مأخوذ من الغوث بمعنى: الإغاثة والنصرة عند الشدة[(١)].

الاستعاثة اصطلاحًا:

طلب الغوث في الشدائد والأزمات[(٢)].

الصلة بين الاستعاذة والاستغاثة:

عرفنا في تعريف الاستغاثة أنها طلب الغوث والتخليص من الشدة والنقمة، أو طلب العون على فكاك الشدائد، والاستعاذة هي الالتجاء وطلب العون، ففي كل منهما طلب العون والمدد، إلا أن طلب العون في الاستغاثة قيد بحالة الشدة والنقمة والكرب ونحوها، ولم يقيد ذلك في الاستعاذة.

وعليه، فالاستغاثة تكون برفع الأمر بعد وقوعه، أما الاستعاذة فالأصل أن تكون بدفع الأمر قبل وقوعه.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٤٩، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٠٠، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٣٣١٢.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص١٥٩.

منزلة الاستعاذة وآثارها

أولًا: الاستعاذة مظهر من مظاهر التوحيد:

الاستعاذة نوع من أنواع العبادات القولية التي يجب أن تصرف لله وحده دون ما سواه من المخلوقين؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

ولا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه؛ بل هو يعيذ المستعيذين، ويعصمهم، ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أمر الله نبيه بالاستعاذة به دون ما سواه في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١ - ٢].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٤].

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم (الرب) و(الملك) و(الإله)، وجاءت الربوبية فيهما مضافة إلى (الفلق) وإلى (الناس) ، ولابد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها[1].

وكلما كان توحيد المسلم لله أكمل؛ كان حفظ الله له أتم.

قال ابن القيم: «التوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين. قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»[2].

ثانيًا: الاستعاذة من هدي الأنبياء والصالحين:

الاستعاذة بالله من هدي الأنبياء والصالحين، وقد أمرنا الله بالاقتداء بهم.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذا نبي الله نوح عليه السلام يستعيذ بالله من أن يسأله ما ليس به علم عندما سأله نجاة أهله.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

فاستجار بالله أن يتكلف مسألته مما قد استأثر الله بعلمه، وطوى علمه عن خلقه، وكذلك سأل الله أن يغفر زلته في سؤاله نجاة ابنه، وأن الله إن لم يغفر له ويرحمه ليكونن من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧٤.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٠٩.

فهلكوا[1].

وهذا موسى عليه السلام استعاذ بالله من أن يرجمه قومه.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

الرجم الذي استعاذ موسى عليه السلام بربه منه قيل: هو الشتم باللسان، وقيل: هو الرجم بالحجارة، وقيل: المراد بالرجم: القتل.

قال ابن جرير: «والصواب أن يقال: استعاذ موسى بربه من كل معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجوم أذى ومكروه، شتمًا كان ذلك باللسان، أو رجمًا بالحجارة باليد»[2].

وهذا نبي الله يوسف عليه السلام يستعيذ بالله من الوقوع في الفاحشة.

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وهذا في غاية النزاهة والطهر؛ يستعيذ بالله -مع قوة الداعي- من أن يقع في هذا الفعل القبيح؛ لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيده الذي أكرم مثواه[3]، وسيده الحق جل جلاله قد أحسن مثواه بما سخر له، فكيف يخونه بما حرم عليه[4]، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لايفلح.

وهذه امرأة عمران حين وضعت مريم عليها السلام طلبت من الله أن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فاستجاب الله لها، فأعاذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلًا[5].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، إلا ابن مريم وأمه)[6].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: أفاد هذا الحديث أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم؛

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٦٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٥/ ١٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦٩. وانظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢١٦، وهو قول أكثر المفسرين.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤١٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٣٣.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٧٩.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، ٧/ ١٣٨، رقم ٣٤٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، ١٥/ ١١٩، رقم ٦٠٨٦.

فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم، حتى الأنبياء والأولياء، إلا مريم وابنها»[1].

ثالثًا: آثار الاستعاذة:

مما يبين لنا أهمية الاستعاذة ذكر آثارها على المستعيذين:

قال الله تعالى -حكاية عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

فأعطاه الله نعمتين :السلام، والبركات.

قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ [هود: ٤٨].

وقال يوسف عليه السلام : ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٢٣].

فأعطاه الله نعمتين: صرف السوء عنه والفحشاء.

وقال أيضًا: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩].

فأعطاه الله نعمًا كثيرة، منها: نعمة العدل، وكشف الأمور، وظهور البراءة، ورفع أبويه على العرش، وسجودهم له.

وحكى عن موسى عليه السلام : ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فأعطاه الله نعمتين: إزالة التهمة له بالجهل ، وإحياء القتيل.

وحكى عن موسى عليه السلام أيضًا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

فأعطاه الله نعمتين: أفنى عدوه، وأورثهم أرضهم وديارهم.

وحكى عن أم مريم أنها قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فأعطاها الله نعمتين: تقبل مريم منها بقبول حسن، وأنبتها نباتا حسنا، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا ٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧]

ومريم عليها السلام لما رأت جبريل عليه السلام في صورة بشر يقصدها ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨].

فوجدت نعمتين: ولدًا من غير أب، وتبرئة الله إياها بلسان ذلك الولد عن السوء؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠][2].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٧٠.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ١٠٥-١٠٦.

أنواع الاستعاذة

أولًا: الاستعاذة المشروعة:

هي الاستعاذة التي تكون بالله، والمستعاذ به هو الله وحده رب الفلق، ورب الناس، وملك الناس، وإله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه؛ بل هو يعيذ المستعيذين ويمنعهم، ويعصمهم من شر ما استعاذوا من شره[(١)].

والاستعاذة به سبحانه مما لا يقدر عليه سواه من مقتضيات التوحيد ولوازمه، فلا يستعاذ من ذلك بغيره. ثم الاستعاذة تكون بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا،وأكثر ما وردت به نصوص القرآن الاستعاذة باسم (الله)؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [غافر: ٥٦].

وقال سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

ومن الكثير أيضًا الاستعاذة باسم(الرب)، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

وقوله عز وجل عن موسى عليه السلام ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

أو بالضمير العائد إلى الرب؛ كقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧].

وقوله سبحانه عن امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

أما اسم (الرحمن) فلم ترد الاستعاذة به في القرآن إلا مرة واحدة؛ في قوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨][(٢)].

فنستنتج مما سبق: أن الاستعاذة المشروعة تكون بالله أو أسمائه أو صفاته، ويجوز الاستعاذة بالإنسان فيما هو داخل تحت قدرته وإرادته، كأن يستجير به من حيوان مفترس، أو إنسان يريد الفتك به[(٣)].

ثانيًا: الاستعاذة المحرمة:

هي الاستعاذة التي تكون بغير الله؛ كالاستعاذة بالجن والشياطين والأموات

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧٣.

(٢) انظر: مسائل في الاستعاذة، عبد العزيز الخضيري، مجلة الدراسات القرآنية، عدد ٥، ص٣٣.

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية ٤/ ٥.

والأصنام وغيرهم، فهي لا تزيد المستعيذ بها إلا رهقًا، ولاشك أن ذلك كفر أو شرك.

قال تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

والرهق في كلام العرب: الإثم والخطيئة وغشيان المحارم[١]، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن[٢]. وكان أول من تعوذ من الجن قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم[٣].

قال ابن عباس: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فزادهم ذلك إثمًا[٤].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٤٥.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٣٠/ ١٣٠، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٤٠٢.
(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧٤.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٣.
(٣) تفسير مقاتل ٣/ ٤٠٦.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩ / ١٢٨.

المستعاذ منه

ما يستعاذ منه أمور كثيرة، منها:

أولًا: من شر شياطين الإنس والجن ومن شر كل مخلوق:

أمرنا الله تعالى بالاستعاذة من شياطين الإنس والجن في عدة مواضع من كتابه، فأمر الله بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل؛ ليرده عما هو فيه من أذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن؛ لأنه لا يقبل رشوة، ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وورد هذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن[٥]:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

هذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

أي: يصيبك ويعرض لك من الشيطان نزغ فاستجر بالله.

قال ابن جرير: (وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم؛ فاستجر بالله من نزغه؛ فإنه سميع لجهل

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٤.

الجاهل عليك، عليم بما يذهب عنك الشيطان»[1].

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨].

قال ابن عطية: «والنزغات وسورات الغضب من الشيطان، وهي المتعوذ منها في الآية. وهمزات الشيطان: خطراته التي يخطرها بقلب الإنسان»[2].

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٥- ٣٦].

قال ابن عباس: «قوله: ادفع بالتي هي أحسن قال: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم»[3].

ثم أمر الله نبيه بأنه إذا حمله الشيطان على مجازاة المسيء بالإساءة؛ بالاستجارة منه والاعتصام بالله من خطراته؛ إن الله هو ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك منه، واستجارتك به من نزغاته ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما ألقى في نفسك من نزغاته، وحدثتك به نفسك ومما يذهب ذلك عن قلبك»[4].

وأمر الله في سورة الفلق بالاستعاذة من شر ما خلق، ويدخل فيه شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١- ٢].

قال ابن القيم: «فالاستعاذة من شر ما خلق تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا و الآخرة، وشر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوام ، وشر النار والهواء، وغير ذلك»[5].

وكذلك أمر الله في سورة الناس بالاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١- ٦].

قال قتادة: «إن من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»[6].

(١) انظر: جامع البيان، ٩/ ١٨٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٥٥.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٤ / ١٣٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٣٩.
(٥) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم٢/ ١٨٤.
(٦) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ٢/ ٣٣٥.

ثانيًا: الجهل والسفه:

استعاذ نبي الله موسى عليه السلام من الجهل والسفه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

والجهل خلاف العلم[(١)]. والجاهل: هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه.

فهذا موسى عليه السلام استعاذ بالله أن يكون من الجاهلين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

والخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل؛ فاستعاذ منه عليه السلام؛ لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء، والجهل نقيض العلم، فاستعاذ من الجهل كما جهلوا في قولهم: أتتخذنا هزوًا لمن يخبرهم عن الله تعالى ؟! وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله، ولا يصح إيمان من قال لنبي ذلك.

قال القرطبي: «وفي الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد»[(٢)].

ثالثًا: تسلط الجبابرة والمتكبرين:

استعاذ نبي الله موسى عليه السلام بالله من كل متكبر على الله، تكبر عن توحيده، والإقرار بألوهيته وطاعته، وأنكر اليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

قال ابن جرير: «وإنما خص موسى صلوات الله وسلامه عليه الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب؛ لأن من لا يؤمن بيوم الحساب مصدقًا لم يكن للثواب راجيًا ولا للعقاب خائفًا؛ لذلك كانت استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة»[(٣)].

وكذلك استعاذ بالله من أن يرجم في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

قال ابن عطية: «هذا كلام قاله موسى عليه السلام لخوف لحقه من فرعون وملئه»[(٤)]، فكأنهم توعدوه بالقتل، فاستجار بالله من ذلك[(٥)].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ١٢٥، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٠٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٨٤. وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١ / ٨٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٥ .

(٣) انظر: جامع البيان، ابن جرير ٢٤/ ٦٨.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٧١.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وكذلك أمر الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الذي يجادل في آيات الله بغير علم، ويتكبر عن قبول الحق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

أي: فاستجر بالله يا محمد من شر هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان؛ لأن في صدورهم كبرًا، أي: عظمة[١] يتعاظمون بها عن اتباعك وقبول الحق منك؛ حسدًا منهم على الفضل الذي آتاك الله، والكرامة التي أكرمك الله بها من النبوة[٢].

مواطن الاستعاذة

أولًا: عند قراءة القرآن:

أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه إذا ابتدأ قراءة القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

قال ابن كثير: «ومن لطائف الاستعاذة: أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له، وهو لتلاوة كلام الله، وهي استعانة بالله، واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لايقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه»[٣].

وأجمع العلماء على أن الاستعاذة ليست من القرآن؛ ولكنها تطلب لقراءته؛ لأن قراءته من أعظم الطاعات، وسعي الشيطان للصد عنها أبلغ. وأيضًا القارئ يناجي ربه بكلامه والله سبحانه وتعالى يحب القارئ الحسن التلاوة، ويستمع إليه، فأمر بالاستعاذة لطرد الشيطان عند استماع الله سبحانه وتعالى له[٤].

وذهب الجمهور إلى أنها سنة[٥]، وأن

١٦/ ١١٨.

(١) الصحاح، الجوهري ١/ ٦٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٨٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٦.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٢٢، الموسوعة الفقهية الكويتية ٤/ ٦.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٠٨،

محلها قبل القراءة[1]، ويستحب الجهر بها عند افتتاح القرآن، وعند ابتداء كل قارئ بعرض أو درس أو تلقين في جميع القرآن[2].

ووردت صيغ للاستعاذة:

الأولى: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) كما ورد في سورة النحل من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وهو المختار لجميع القراء،قال السخاوي: (إن إجماع الأمة عليه)[3].

قال في النشر: وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم التعوذ به للقراءة ولسائر التعوذات[4].

الثانية: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم)، ويدل لها قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وهذه الصيغة مروية عن الإمام أحمد وبعض الشافعية وطائفة من القراء[5].

الثالثة: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم)، ودليلها الجمع بين الصيغتين الأولى والثانية، وقد قرأ بها نافع وابن عامر والكسائي[6].

الرابعة: (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفثه ونفخه)[7]، ويدل لها حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفثه ونفخه)[8][9].

ثانيًا: عند همزات الشياطين ونزغاتهم:

أرشد الله في كتابه الكريم المسلم إذا ثارت به ثورة الغضب ونزغه الشيطان[10] أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم.

المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٢٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٢١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٢/ ٦٤٥.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٨٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٢٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير١/ ١٥.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٤/ ٧.

(٣) انظر: جمال القراء، السخاوي ص٥٨٠.

(٤) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٤٣.

(٥) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٤٩.

(٦) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٥٠.

(٧) همز الشيطان: الموتة، وهي: الخنق، نوع من الجنون والصرع. ونفخه :الكبر، ونفثه: الشعر.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٧٥-٧٧، ٢٣٦.

(٨) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٨٠، رقم ٣٨٣٠، وابن ماجه في سننه، ١/ ٢٦٦، رقم ٨٠٨.

(٩) انظر: مسائل في الاستعاذة، عبدالعزيز الخضيري، مجلة الدراسات القرآنية، عدد ٥، ص/ ٣٠.

(١٠) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٧.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وكذلك أمر الله المسلم بالاستعاذة به عند حصول الوسوسة له من الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ - ٩٨].

همزات الشياطين هي: نزغاته ووساوسه.

وقيل: نفخه ونفثه.

وقال أهل المعاني: دفعهم بالإغواء إلى المعاصي، وأصل الهمز: شدة الدفع[(١)].

وأمره أيضًا بأن يستعيذ به من حضور الشياطين في أمر من أموره؛ وإنما ذكر الحضور لأن الشيطان إذا حضره يوسوسه[(٢)].

قال ابن عطية: «والنزغات وسورات الغضب من الشيطان، وهي المتعوذ منها في الآية»[(٣)].

ثالثًا: عند مواجهة الجاهلين:

أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يستعيذ به عند مواجهة الجاهلين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦].

أي: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر عن الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور[(٤)].

قال ابن عطية: «أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة بالله في كل أمره من كل مستعاذ منه؛ لأن الله يسمع أقواله وأقوال مخالفيه، وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم، ويجازي كلًا بما يستوجبه، كأنه قال: هؤلاء لهم كبر لا يبلغون منه أملًا؛ فاستعذ بالله من حالهم. وظاهر الاستعاذة هنا العموم في كل مستعاذ منه»[(٥)].

رابعًا: عند الخوف من الضرر:

يشرع للمسلم أن يستعيذ بالله من كل شيء يخاف ضرره، فهذا موسى عليه السلام استعاذ بالله من فرعون لما هدده بالقتل.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

أي من كل متعظم عن الإيمان بالله،

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٦٦.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣١٦.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ٤ / ١٥٥ .
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٠.
(٥) المحرر الوجيز، ٥/ ٥٦٥.

وصفته أنه لا يؤمن بيوم الحساب[1].

وكذلك استعاذ بالله من بني إسرائيل أن يقتلوه قال تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

وهذه مريم عليها السلام استعاذت بالله من الملك عندما خافت ضرره.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

أي ممن يتقي الله[2].

وكذلك طلب الله من عبده أن يستعيذ به من كل ما فيه شر.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١- ٥].

فأمر الله هنا بالاستعاذة من عموم الشر الذي خلقه في المخلوقات من حيوان أو غيره، ثم بين بعد ذلك أهم ما يستعاذ به من هذه الشرور؛ وهو الاستعاذة من الليل إذا أظلم، والسبب الذي من أجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل؛ لأن فيه تتسلط شياطين الإنس والجن وتنتشر. وأمره كذلك بالاستعاذة من ﴿شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، وهذا الشر هو شر السحر؛ فإن النفاثات في العقد هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر.

والنفث: هو النفخ مع ريق[3]. وأمره أيضًا بالاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد، وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود، فنفس حسده شر يتصل بالمحسود من نفسه وعينه، وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، فحقق الشر منه عند صدور الحسد[4].

وكذلك شرع الله الاستعاذة من شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

وأمر الله المستعيذ أن يتعوذ بالله رب كل شيء ومليكه وإلهه من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الرجيم، الذي يزين للإنسان المعاصي ويثبطه عن الطاعات، وهذا معنى الوسواس، ووصفه الله بوصف آخر؛ وهو الخناس الذي إذا ذكر العبد ربه

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٦٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١ / ٨٦.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٥٧، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٢٣.

(٤) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٨٤- ١٩٥.

خنس أي: كف وانقبض[1] وولى هاربًا؛ لأنه جبان وضعيف يهرب عن ذكر الله. ثم عمم الله في نهاية السورة بالأمر بالاستعاذة من شياطين الإنس والجن.

وقد تضمنت المعوذتان الاستعاذة من جميع الشرور التي تصيب الإنسان، وهي لا تخلو من قسمين: إما ذنوب وقعت منه، وهذا راجع إلى الإنسان نفسه، وتسمى بالمعائب، وإما شر يقع بالإنسان من غيره من حيوان أو إنسان أو جآن، وتسمى بالمصائب.

فسورة الفلق تضمنت النوع الثاني؛ وهو الاستعاذة من شر المصائب. أما سورة الناس فتضمنت الاستعاذة من شر المعائب؛ وهو الوسوسة الناجمة عن الشيطان، وهو شر داخل تحت التكليف ويتعلق به النهي[2]؛ لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»[3].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٢٣.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢١٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين ٦/ ٨٠، رقم ٨١٤.

ثمرات الاستعاذة وآثارها

١. حفظ النفس والمال من تسلط الشياطين.

شرع الله للمسلم أن يستعيذ به لحفظ نفسه وماله. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧- ٩٨].

قال السعدي: «أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه؛ سلم من كل شر، ووفق لكل خير»[4].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قال ابن عاشور: «إن الله ضمن لمن استعاذه أن يعيذه؛ لأنه هو الذي أمر بذلك»[5].

وفي الحديث القدسي: «لئن استعاذني لأعيذنه»[6].

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠٨.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ٢٥/ ٦١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق،

وقال في موضع آخر: «العلة من الاستعاذة أنها تمنع تسلط الشياطين على المستعيذ؛ لأن الله منعهم من التسلط على الذين آمنوا المتوكلين، والاستعاذة منهم شعبة من شعب التوكل على الله؛ لأن اللجأ إليه توكلٌ عليه»[1].

وهذه امرأة عمران تطلب من الله أن يعيذ ابنتها مريم عليها السلام وذريتها من الشيطان الرجيم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦].

وكذلك شرع للمسلم أن يتعوذ بالمعوذتين دبر كل صلاة مرة واحدة ماعدا صلاة الفجر والمغرب فإنه يكررهما ثلاثًا. وشرع كذلك له أن يتعوذ بهما في الصباح والمساء وغير ذلك من المواضع؛ لما لهما من أثر عظيم في حفظ الإنسان من جميع الشرور؛ خاصة في دفع السحر والعين.

قال ابن القيم: «وإن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس»[2].

٢. الهداية إلى الحق.

الاستعاذة بالله سبيل إلى هداية الإنسان إلى طريق الحق، فالشيطان حريص على تلبيس الأمور لدى المؤمن، فيقع محتارًا في الوصول إلى الحق، فإذا استعاذ بالله من الشيطان في ذلك الموقف فإنه بإذن الله تنجلي له الأمور، ويهدى إلى سواء السبيل؛ ولذلك أمر الله عز وجل نبيه أن يستعيذ بالله من حال أولئك الكفار الذين يجادلون في آيات الله، ويصدون عن قبول الحق؛ بسبب كبر في نفوسهم عن اتباع الحق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]. أي: فاستعذ بالله أي من حالهم.

وكذلك استعاذ نبي الله يوسف من أن يأخذ البريء بالمذنب.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: ٧٩].

يقول: إن أخذنا غير الذي وجدنا متاعنا عنده إنا إذا نفعل ما ليس لنا فعله ونجور على الناس[3].

٣. الوقاية من الوقوع في الفعل القبيح.

أرشد الله عز وجل في كتابه الكريم إلى أن الاستعاذة به سبيل إلى الوقاية من الوقوع في الفواحش.

باب التواضع، ١٣/ ١٤٢، رقم ٦٥٠٢.

(١) انظر: المصدر السابق ١٣/ ٢٢٤.

(٢) انظر: بدائع الفوائد ٢/ ١٧٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣ / ٤١ .

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٢- ٢٣].

فأعاذه الله من ذلك.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: ٢٤].

قال ابن عادل في تفسيره: «ذكر يوسف عليه السلام في الجواب في كلامه ثلاثة أشياء:

أحدها: قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

والثاني: قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾.

والثالث: قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فما وجه تعلق هذه الجوابات بعضها ببعض؟

والجواب: هذا الترتيب في غاية الحسن؛ لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكاليفه أهم الأشياء؛ لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد، فقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن حق الله يمنع من هذا العمل.

وأيضًا حقوق الخلق واجبة الرعاية ،فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي؛ فيقبح معاملة إنعامه بالإساءة.

وأيضًا: صون النفس عن الضرر واجب، وهذه اللذة قليلة ، ويتبعها خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة ، وهذه اللذة القليلة إذا تبعها ضرر شديد؛ ينبغي تركها والاحتراز عنها؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فهذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب»[1].

٤. حفظ الأجر والبركة في العمل.

شرع الله للمسلم إذا ابتدأ قراءة القرآن أن يستعيذ بالله؛ سواء في الصلاة أو خارجها؛ حتى لا يصده الشيطان عن تدبر القرآن والعمل بما فيه،فيحفظ له بذلك الأجر، ويبارك الله له في العمل.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

قال الطاهر بن عاشور: «إنما شرعت الاستعاذة عند ابتداء القراءة إيذانًا بنفاسة القرآن ونزاهته؛ إذ هو نازل من العالم القدسي الملكي، فجعل افتتاح قراءته بالتجرد عن النقائص النفسانية التي هي من عمل الشيطان، ولا استطاعة للعبد أن يدفع تلك النقائص إلا أن يسأل الله أن يبعد الشيطان عنه بأن يعوذ بالله»[2].

موضوعات ذات صلة:

الاستعانة، الدعاء، الذكر

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٥٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٢٢.

الاستعانة

عناصر الموضوع

مفهوم الاستعانة	٢٨
الاستعانة في الاستعمال في القرآن	٢٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٠
اقتران الاستعانة بالعبادة	٣٢
الله سبحانه وتعالى هو المستعان	٣٥
أنواع الاستعانة	٣٩
أقسام الناس في الاستعانة	٥٩
مجالات التعاون بين الخلق	٦٣
أثر الاستعانة على الفرد والمجتمع	٧٢

مفهوم الاستعانة

أولًا: المعنى اللغوي:

مصدر استعان، وهو من العون بمعنى المعاونة والمظاهرة على الشيء، يقال: فلان عوني، أي: معيني وقد أعنته، والاستعانة: طلب العون.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

والعون: الظهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء، وقد حكي في تكسيره أعوان، والمعونة: الإعانة، ورجل معوان حسن المعونة، وكثير المعونة للناس. وكل شيء أعانك فهو عون لك، كالصوم عون على العبادة[(١)].

وبذلك نجد أن الاستعانة في لغة العرب بمعنى طلب العون.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لم تخرج الاستعانة في معناها الاصطلاحي عن المعنى اللغوي لها، فالاستعانة في الاصطلاح: طلب الإعانة من الغير[(٢)].

والأصل أن تكون هذه الاستعانة بالله، فهي طلب العون من الله، وتكون الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه.

قال ابن تيمية رحمه الله : «الاستعانة: طلب العون من الله، ويطلب من المخلوق ما يقدر عليه من الأمور»[(٣)].

وبذلك نستطيع أن نقول: إن الاستعانة هي طلب العون؛ لإزالة العجز.

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٢٢، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣١٧٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٥/ ٤٢٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٣٨.

(٢) انظر: التوقيف، المناوي ص٤٨، زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٢١٨.

(٣) مجموع الفتاوى ١/ ١٠٣.

الاستعانة في الاستعمال في القرآن

وردت مادة (عون) في القرآن (١٠) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾ [الفرقان:٤]
الفعل المضارع	١	﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]
فعل الأمر	٦	﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة:٤٥]
الاسم المفعول	٢	﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف:١٨]

وجاءت الاستعانة في القرآن بمعناها اللغوي: طلب العون.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٩٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة (د ع و) التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل: الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل ، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوى[(١)].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربه حاجته.

الصلة بين الاستعاذة والدعاء:

بالتأمل نجد أن الاستعانة أعم من الدعاء، فالدعاء صورة من صور الاستعانة، والاستعانة تكون بالدعاء وبغيره. فكل دعاء استعانة، وليس العكس.

٢ الاستعاذة:

الاستعاذة لغة:

مصدر استعاذ، وهي من مادة (ع وذ) التي تدل على الالتجاء إلى الشيء، ثم يحمل على ذلك كل شيء لصق بشيء أو لازمه[(٢)].

الاستعاذة اصطلاحًا:

هي اللجوء والاعتصام، وطلب كف الشر[(٣)].

الصلة بين الاستعانة والاستعاذة:

الاستعانة أعم من الاستعاذة، فإنهما يجتمعان في طلب كف الشر، وبذلك فالاستعاذة صورة من صور الاستعانة، وتزيد الاستعانة بأنها تكون في تحصيل الخير. فكل استعاذة استعانة، وليس كل استعانة استعاذة.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٦٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٨٣، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣١٦٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.

٣ الاستغاثة:

الاستغاثة لغة:

مصدر استغاث، وهو مأخوذ من الغوث بمعنى: الإغاثة والنصرة عند الشدة[١].

الاستغاثة اصطلاحًا:

طلب الغوث في الشدائد والأزمات[٢].

الصلة بين الاستعانة والاستغاثة:

بينهما عموم وخصوص من وجه؛ فكل استغاثة استعانة، وليست كل استعانة استغاثة، فالاستغاثة خاصة بالشدائد والمكروبات، والاستعانة عامة فيها وفي غيرها.

٤ التوكل:

التوكل لغة:

مصدر توكل يتوكل، وهو مأخوذ من مادة (و ك ل) التي تدل على اعتماد على الغير في أمر ما، ومن ذلك التوكل وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك[٣].

التوكل اصطلاحًا:

صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار[٤].

الصلة بين الاستعانة والتوكل:

التوكل: هو تفويض الأمر، والاستعانة لا يلزم منها هذا التفويض، وبذلك تكون الاستعانة أعم من التوكل.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٨٩، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٠٠، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٣٣١٢.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص١٥٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣٦، المفردات، الراغب ص ٥٣١.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٧٤.

اقتران الاستعانة بالعبادة

المتمعن في نصوص القرآن يرى اقتران الصلاة بالصبر في عدة مواضع منه؛ كما يلحظ اقتران العبادة بالاستعانة؛ للإشارة إلى الصلة الوثيقة بين هذه الأمور.

وفيما يلي بيان لبعض الحكم من اقتران هذه الأمور ببعضها:

أولًا: اقتران الصبر والصلاة بالاستعانة:

قرن الله بين الصبر والصلاة في موضوع الاستعانة في بعض الآيات.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والمتأمل في اقتران الصبر والصلاة في موضوع الاستعانة، يجد حكمًا كثيرة[(١)]، منها:

١. الصبر والصلاة يمدان المؤمن بالقوة التي تعينه على احتمال تكاليف العبادة، ومشقة الجهاد، ومدافعة شهوات النفس وأهوائها.

أما الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى، وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات، وتحمل مشاق العبادات، وتجنب المحظورات.

والصلاة صلة بين العبد وربه، وهي من أكبر العون على الثبات في الأمر، وأما الاستعانة بها فلأنه يجب أن تؤدى على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها، وعلى ما يأتي فيها من قراءة، فيتدبر الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ومن سلك هذه الطريقة في الصلاة فقد ذلل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات؛ ولذلك قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

٢. الصبر أشد الأعمال الباطنة على البدن.

إذ فيه ضبط النفس، وسيطرة الإرادة على الهوى، وسيطرة العقل على الشهوة، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة على البدن؛ إذ فيها خضوع واستسلام لله، وتوجه بالقلب إليه، واستشعار لعظمة الخالق، فجمع بينهما في الاستعانة تنبيهًا على أن الإنسان إذا أتى بهما على وجههما كان متمًا لما عداهما من التكاليف.

٣. الاستعانة بالصبر والصلاة طريق تحقيق

(١) انظر في هذه الحِكَم: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٤٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٢٤، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٥٥.

الإيمان والذكر والشكر.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٢- ١٥٣].

فلما أمر بالذكر والشكر حث على الاستعانة بالصبر والصلاة؛ تنبيهًا على أنه بهما يتوصل إلى الإيمان، فإن الصبر مبدأ الإيمان، والشكر منتهاه.

٤. الطاعات والاستقامة عليها، لها أعباؤها التي تحتاج إلى قوة احتمال ومجاهدة.

ولكي يقوى الإنسان على حمل هذه الأعباء، كان لا بد له من زاد يعينه، ويمسك عليه عزمه ومضاءه.

والصبر والصلاة هما خير ما يتزود الإنسان به؛ لكي يجد من نفسه القدرة على الوفاء ببعض حق الله عليه.

وإذا استعان المؤمن بالصبر والصلاة التي تملأ القلب خشية وخشوعا لله، وتبعد النفس عن الفواحش والمنكرات، هانت عليه المصاعب، وتحمل كل شدة ومشقة، وقاوم كل عناء وكرب.

٥. إطاعة الأوامر الإلهية وعدم مخالفتها تتطلب الصبر.

ومن صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة، ومن أخص حالات الصبر: الصلاة، فالصلاة فيها سجن النفوس، وجوارح الإنسان فيها مقيدة بها عن جميع الشهوات، فكانت الصلاة أصعب على النفس، وكانت مكابدتها أشق.

٦. الاستعانة بالصبر والصلاة الطريق الأمثل لمواجهة محن الدعوة، من شبهات الأعداء، والصبر على الاستشهاد في الجهاد.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والملاحظ أن هذه الآيات وردت في سياق الحديث عن تحويل القبلة، والاستشهاد في الجهاد، فبعد أن ذكر سبحانه افتتان الناس بتحويل القبلة، وأقام الحجة على المشاغبين.

وبين فوائد التحويل للمؤمنين، ومن أهمها: البشارة، وكون ذلك طريقا للهداية، لما في الفتن من تمييز الخبيث من الطيب، والمسلم من المنافق، ثم قفى على ذلك بالأمر بذكره وشكره على هذه النعم، ليستبين للناس أن تحويل القبلة الذي صوره السفهاء بصورة النقمة هو نعمة كبرى، ومنة عظمى.

بين في هذه الآيات أن هذه النعم التي يجب ذكرها وشكرها تقرن بضروب من البلاء وألوان من المصائب، من أعظمها ما

يلاقيه أهل الحق من مقارعة أشياع الباطل، ومفارقة الحياة استشهادًا في سبيل الله؛ لهذا كله أمر عباده أن يستعينوا على مقاومة ذلك كله بالصبر والصلاة، فبهما يستسهل العبد في سبيل الله كل صعب، ويستخف بكل كرب، ويحتمل كل بلاء، ويقاوم كل عناء.

ثانيًا: اقتران العبادة بالاستعانة:

قرن سبحانه بين العبادة والاستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

واقتران العبادة بالاستعانة وراءه حكم كثيرة[(١)]، منها:

١. الجمع بين الوسيلة والغاية.

فالعبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، فجمع سبحانه بين أشرف غاية ووسيلتها.

٢. الإشارة إلى كمال التوحيد المطلوب من العباد.

فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تبرؤ من الشرك، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل، فجمع بينهما سبحانه تنبيهًا لعباده إلى كمال التوحيد المطلوب منهم.

٣. بيان أن الاستعانة هي ثمرة التوحيد، واختصاص الله تعالى بالعبادة.

٤. الإشارة إلى أن لزوم الاستعانة في العبادة سبيل السعادة الأبدية.

فالعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة. والاستعانة هي: الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما.

٥. بيان احتياج العباد الدائم إلى الاستعانة بالله في العبادة.

فالله ذكر الاستعانة بعد العبادة، مع دخولها فيها؛ لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى ؛ فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

فالاستعانة هي نوع من استصغار العبد حاله بجوار عظمة الله تعالى ، وافتقاره إليه تعالى، وأنه محتاج إليه دائمًا، ولا يركبه غرور الحياة والضلال في أن يقر بنفسه الغرور، وهو استجابة وفهم لقوله تعالى:

(١) انظر في هذه الحكم: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤، فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي ١/ ٤٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي ١/ ٧، الوسيط، طنطاوي ١/ ٢١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

٦. الإشارة إلى أن الاستعانة لا تكون إلا بمن يستحق العبادة.

فقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر.

٧. الجمع بين شكر الألوهية والربوبية.

فعبادة الله تعالى هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لألوهيته، واستعانته هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لربوبيته، أما الأول فظاهر؛ لأنه هو الإله الحق فلا يعبد بحق سواه، وأما الثاني: فلأنه هو المربي للعباد، الذي وهب لهم جميع ما تكمل به تربيتهم.

٨. القضاء على الكبر والعجب عند الإنسان.

فإن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يقتضي حصول رتبة عظيمة للنفس بعبادة الله تعالى، وذلك يورث العجب، فأردف بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليدل ذلك على أن تلك الرتبة الحاصلة بسبب العبادة ما حصلت من قوة العبد، إنما حصلت بإعانة الله.

فالمقصود من ذكر قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إزالة العجب، وإفناء الكبر.

الله سبحانه وتعالى هو المستعان

إن المؤمن الذي يريد أن يرتقي في أشرف منازل الآخرة، لا يستطيع أن يرتقي إلا بعد عون الله وتوفيقه له؛ لذلك فالله هو المستعان على الحقيقة دون غيره من الخلق؛ لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل.

وحاجة العبد إلى الاستعانة بالله تعالى لا تعدلها حاجة، بل هو مفتقر إليه في جميع حالاته، فهو محتاج في كل أحواله إلى الهداية والإعانة عليها، ومحتاج إلى تثبيت قلبه على الحق، ومغفرة ذنبه، وستر عيبه وحفظه من الشرور والآفات وقيام مصالحه، وغير ذلك من الحاجات التي لا تنفك عنها لحظة من لحظات حياته، وغيرها كثير مما يكثر احتياجه إليه وافتقاره إلى الإعانة عليه.

والعبد يجد في قلبه كل وقت مطلوبًا من المطلوبات يحتاج إلى الإعانة على تحقيقه.

والله تعالى هو المستعان الذي بيده تحقيق النفع ودفع الضر، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو سبحانه.

وهذا أمر تكرر تأكيده في القرآن العظيم في مواضع كثيرة:

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

﴿شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠- ٢١].

والمقصود: أنه لا يحصل لعبد نفع في أمر من أمور دينه ودنياه إلا بالله، فهو المستعان وحده على كل ذلك.

وكل سبب من الأسباب التي يبذلها العبد لتحقيق النفع أو دفع الضر لا يستقل بالمطلوب، فلا يوجد سبب مستقل بالمطلوب، بل لا بد أن يكون معه سبب مساعد، ولا بد معه أيضًا من انتفاء المانع، ولا يكون كل ذلك إلا بإذن الله.

فالاستعانة بالله تعالى من أجل العبادات وأفضلها، والتي أمر الله بها عباده للحصول على عطائه وكرمه، لذلك كان من أعظم الكلمات التي أمرنا الله بها إذا وقفنا بين يديه في كل ركعة من ركعات صلاتنا أن نقول مخاطبين إياه تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ما أجمل هذا الدرس العظيم الذي تلقيه علينا الآية الكريمة التي ترشدنا إلى أنه لا يليق بالمسلم أن يغفل عن بارئه طرفة عين في كل شؤونه الدينية والدنيوية.

فالله تبارك وتعالى هو المستعان، الغني عن الظهير والمعين، والشريك والوزير، فلا يحتاج إلى أحد.

وهو سبحانه المستعان الذي لا يطلب العون من أحد، بل كل عبد يطلب منه العون على فعل الطاعات واجتناب المحرمات، وجلب المنافع، ودفع المضار. وهو سبحانه الغني المستعان، والخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه.

وهو الملك القادر على كل شيء، الذي ليس له شريك في الملك، ولا في الخلق، ولا في الأمر، ولا في الأسماء، ولا في الصفات.

وهو سبحانه الحي القيوم المستعان، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، بل الخلائق كلها بحاجة إلى الاستعانة به، بل لا قيام ولا حياة ولا وجود لهم إلا به، وبقدرته وقوته وإعانته وحده لا شريك له.

وقد أرشدتنا الآية إلى أن الله هو المستعان في كل الأمور الدينية والدنيوية، فقد «حذف متعلق ﴿نَسْتَعِينُ﴾ الذي حقه أن يذكر مجرورًا بعلى، وقد أفاد هذا الحذف الهام عموم الاستعانة المقصورة

على الطلب من الله؛ تأدبًا معه تعالى»[1].

فلم يذكر المستعان عليه من الأعمال، ليشمل الطلب كل ما تتجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الدينية والدنيوية.

وفي اقتران العبادة بالاستعانة في الآية دليل على أن الإنسان لا يقوى على أن يعبد الله إلا إذا أعانه الله تبارك وتعالى.

والملاحظ في آية الفاتحة أنه «قدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين»[2].

وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب.

وقد ذكر الله الاستعانة في الآية بعد العبادة مع دخولها فيها «لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى. فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي»[3].

وقد بين لنا ربنا في كتابه أن أنبياءه ورسله كانوا على يقين بأن الله هو المستعان لا غيره، فقد أخبر عن نبيه يعقوب عليه السلام، لما أتاه بنوه يخبرونه أن يوسف قد مات عليه السلام، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

فأخبرهم أنه لا يستطيع ولا يطيق أن يتحمل وقع هذه الكلمات، أو يتحمل أثر هذه الكلمات، أو يتحمل فقدان هذا الوليد الحبيب إلى قلبه عليه السلام إلا بأن ينزل عليه العون والتأييد والتثبيت من الله تبارك وتعالى، فكان من يعقوب عليه السلام التسليم لأمر الله تعالى وتوكلٌ عليه.

وقد جمع يعقوب عليه السلام بين الصبر والاستعانة، وهذا «دال على أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى؛ للتغلب على الجزع أو الحزن بسبب الدواعي القوية إليه»[4].

وأخبر الله سبحانه عن نبيه صلى الله عليه وسلم أنه: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وقبل هذه الآية بيان لسبب هذه المقولة، فقال الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٧٧، وانظر: الوسيط، طنطاوي ١/ ٢١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٩٤.

﴿لَكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨-١١٢].

فهذه الأوصاف التي يطلقونها على الله تبارك وتعالى انتقاصًا لحقه، والتي يطلقونها على رسول الله صلى الله عليه وسلم تكذيبًا له ورميًا له بالجنون، ورميًا له بالكهانة والشعر والسحر، لا يستطيع قلبه الطاهر صلى الله عليه وسلم أن يتحملها إلا إذا تغمده الله عز وجل بعونه وتأييده وتوفيقه، فقال: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: نسأل ربنا الرحمن، ونستعين به على ما تصفون، من قولكم سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به.

«وتعريف ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ لإفادة القصر، أي: لا أستعين بغيره على ما تصفون، إذ لا ينصرنا غير ربنا»[1].

وكما كانت هذه عقيدة الأنبياء في ربهم، فقد حرصوا على إرسائها في قلوب أقوامهم، فها هو موسى عليه السلام يخاطب بني إسرائيل قائلًا: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فأمرهم بالاستعانة بالله في رد عدوان فرعون وملئه.

وفي ديننا نبدأ كل سور القرآن بالبسملة، وهذا بمثابة الدرس التطبيقي للمسلمين أن يربطوا كل أمورهم بالله، فمنه يستمدون العون، ويستلهمون السداد في القول، والإصابة في العمل، وعليه يتوكلون في كل ما يأتون من أعمال، فلا حول ولا قوة لهم إلا بالله.

فالله سبحانه وتعالى هو المستعان على كل أمرٍ من أمور الخير يجلبها، وعلى كل أمرٍ من أمور الشر يدفعها، على كل أمرٍ من أمور الطاعة يوفق لها، وعلى كل أمرٍ من أمور المعصية يدرأها ويباعد عنها.

قال ابن تيمية رحمه الله: «إن العبد محتاج في كل وقت إلى الاستعانة بالله على طاعته وتثبيت قلبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

وقال ابن رجب رحمه الله: «العبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا، وعند الموت، وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٧٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٥٦.

فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه الله، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به، فصار مخذولا، وهو كذلك في أمور الدنيا؛ لأنه عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه جميعا إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول»[1].

أنواع الاستعانة

أولًا: الاستعانة المشروعة

الاستعانة منها ما هو مشروع، وما هو ممنوع، والاستعانة المشروعة منها استعانة بالله، واستعانة بالأعمال الصالحة التي شرعها الله، والتي أمر الله عباده بالاستعانة بها، والحديث هنا عن صور الاستعانة المشروعة:

١ . الاستعانة بالله.

الاستعانة بالله واجبة في كل وقت وحين، وليس لصورها حصر ولا عدد، والحديث هنا عن أهم صور الاستعانة بالله:

- الاستعانة بالله على الطاعة.

إن من أعلى أبواب الاستعانة، الاستعانة بالله تعالى على طاعته، من أداء الواجبات والقيام بفروض الله تعالى.

ولو نظر كل منا في حاله في أمور دينه لوجد أنه يحتاج إلى عون الله تعالى، فلا يستطيع أحد القيام بحق الله تعالى إلا بالاستعانة به على ذلك. قال شيخ الإسلام: «وكل عملٍ لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون ولا يقع، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يدوم ولا ينفع، فلذلك أمر العبد أن يقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(١) جامع العلوم والحكم ص١٨٢ بتصرف.

[الفاتحة: ٥]، في كل صلاة»[(١)].

فكل الطاعات التي يقوم بها المسلم هي محض الفضل الإلهي الذي من الله به عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

فكل صلاة نصليها هي بمدد منه، وكذلك كل ذكر نذكره، وكل صالح نقوله، وكل خير نفعله، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]

فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها، في الدنيا وعند الموت وبعده، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه.

وقد أرشد الله عباده إلى الاستعانة به في كل أمورهم، ومنها الطاعات، فقال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وإطلاق الاستعانة من غير متعلق بذكر المستعان عليه من الأمور دال على أنه يستعين الله تعالى في كل أمور حياته، فلم يذكر المستعان عليه من الأعمال؛ ليشمل الطلب كل ما تتجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الدينية والدنيوية.

فـ«بعد تقرير الاتجاه إلى الله وحده بالعبادة والاستعانة، يبدأ في التطبيق العملي لها بالتوجه إلى الله.

وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل، ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته.. فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته. والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين. وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه. فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين»[(٢)].

وقد حقق الأنبياء والرسل درجة الاستعانة بالله في أمور دينهم على أفضل صورة وأحسن مثال، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

إنه يعلن أن الذي يعصم من عبادة الأوثان هو الله، فيلجأ إليه طالبًا منه المعونة على اجتنابها وعدم عبادتها.

وها هو يوسف عليه السلام يستعين بربه على كيد النسوة فيقول: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

فقد استجار بربه واستعان به ليصرف عنه السوء.

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٧٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٥ بتصرف.

ونبينا صلى الله عليه وسلم أفضل المستعينين، وسيد المتوكلين على ربه، كانت حياته كلها استعانة بالله في طاعاته وشؤون دنياه، يرشد صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه فيقول له: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعنَ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»[1].

إن هذا التعليم النبوي كما أنه يشي بحاجة العبادة والطاعة إلى العون والمدد الإلهي، فهو يحمل في ثناياه الإعلان عن العجز والضعف البشري أمام القيام بشيء من حق الله تعالى. إن العبد مهما بلغ من قوة، ومهما اجتمع له من نشاط فهو عاجز عن مواصلة الطريق إلى الله إلا بالعون الذي يتنزل عليه من ربه، فلا يغتر بجهده، ولا يدلي بعمله.

إن أعظم الكرامة أن يأتيك مدد ربك، الذي يدفعك لمزيد القرب منه، فتدخل في عبادته -ليس نشيطًا فحسب- بل مشتاقًا لها تجد أنسك فيها.

أما حين لا يكون عون الله، وإنما يوكل العبد إلى نفسه، فإنه يوكل إلى ضعف وعجز وخور ومهانة.

حين لا يعان العبد فإنه يقعد به العجز والكسل عن الكمالات، وتتطامن نفسه إلى الدون، ولا يكون منه شيء نافع، بل تذهب أيامه ولياليه دون شيء يذكر.

نحتاج العون من الله على الذكر وإلا أصاب الألسن خرس عما ينفع، نحتاج العون من الله على الشكر وإلا بطرت النعم ثم محقت، نحتاج العون من الله على حسن العبادة وإلا تحولت عبادتنا إلى صورة لا معنى لها، وإلى مظهر بلا مخبر، فصارت وبالًا على العبد لا له.

إن العبد حين لا يعان على الذكر تغلفه الغفلة، فيترك القرآن أيامًا لا يتلوه، وربما أتى إلى المسجد مبكرًا- لحاجة- فعجزت يده أن تمتد للمصحف الذي لا يبعد عنه غير متر واحد، ويعجز لسانه أو يغفل عن تسبيح هو من أخف الأعمال وأيسرها على اللسان وأثقلها في الميزان، في حين لا يعجز عن ترديد الأغاني، ولا ينقطع صوته عن الحديث في المجالس بما لا فائدة منه!.

وحين لا يعان العبد على الشكر فإنه لا يرى النعم، ولا يحس بقيمتها؛ فلذلك يبطرها، فلا عين تحفظ عن حرام، ولا لسان يحفظ عن رديء الكلام، ولا رجل تمشي إلى صلاة، ولا يدٌ تمتد بالصدقة أو ترفع للدعاء.

وحين لا يعان على حسن العبادة فإنه

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب أبواب فضائل القرآن. باب في الاستغفار، رقم ١٥٢٢، ٢/ ٨٦.
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

يأتيه ما يشغله عن تحسينها والعناية بها، فينشغل ذهنه بما يوهنه، فإن قام إلى الصلاة نقرها نقر الغراب، والتفت فيها التفات الثعلب، وانتهى منها لا يدري ما قرأ، فخرج من صلاته لم يكتب له منها إلا ما عقل، واقتصرت نفسه على الفريضة- على ضعف فيها- فإن صلى نافلة لعظيم الفضل واجتماع الناس عليها- كالتراويح- فإنه يعجز عن الاستمرار إلى آخر الشهر، أو يطلب من يأتي بها على عجل.

فالعبد يحتاج إلى عون الله وفضله؛ لأداء حقه على الوجه الذي يرضيه، ولا يكون ذلك إلا بالاعتماد على الله في جميع طاعاته، والشعور بالحاجة والفقر له، وأن الأمر منوط بتوفيق الله أو الخذلان، والشعور بالضعف والحاجة والفقر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

قال ابن القيم: «﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، متضمن لكنز من الكنوز؛ وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه»[1].

والخلاصة: أن أعلى الناس قدرًا في أمر الاستعانة هو من يستعين بالله على عبادته، على طاعته؛ لأنه يعلم أنه لا يقدر على الطاعة إلا بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

❁ الاستعانة بالله على الأمور الدنيوية.

جميع العباد فقراء إلى الله الغني الحميد، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وخزائن العالم بأسرها بيديه، والعبد لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولو ترك لنفسه لحظة ضاع وهلك؛ ولهذا فالعبد في كل لحظة بحاجة إلى ربه ومولاه.

في حاجة إلى الاعتماد على الله في جميع شؤون الحياة، فالله عز وجل هو الذي خلقنا من العدم، وتولى سبحانه وتعالى نشأتنا والقيام على شؤوننا، وأعطانا ما أعطانا من الأسباب التي تمكننا من العيش في الحياة.

هذه الأسباب من سمع، وبصر، وعقل، وأجهزة وأعضاء، لا يوجد لديها قدرة ذاتية للقيام بوظائفها، فالله عز وجل هو الذي يمدها بهذه القدرة لحظة بلحظة ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

وهذه هي الحقيقة، فهو سبحانه الذي أضحك وأبكى، وأقام وأقعد، وهو الذي حرك وسكن، ولا غنى لأحد عن الله طرفة عين.

فالحقيقة التي لا مراء فيها أننا جميعًا من الله خلقًا وإيجادًا، وبالله رعاية وإعدادًا

(١) الفوائد، ابن القيم ص٢٠٢.

وإمدادًا، فلا حول ولا قوة إلا بالله سبحانه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل: ٥٣].

وتأسيسًا على ما سبق فالعباد في حاجة إلى عون ربهم على كل شؤون حياتهم الدنيوية، وقد أمر الله عباده بالتوجه إليه، والاستعانة به في أمورهم الحياتية، مبينًا أن ذلك بيده، وليس بيد غيره، فقال في الحديث القدسي: (يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم)[(١)].

ويظهر من الحديث ضرورة افتقار العبد إلى ربه ومولاه، ووجوب استعانته به في جميع شؤونه الحياتية، وأنه لولا الله لهلك جميع العباد، كما يدل الحديث على أن الله يحب من العباد أن يسألوه مصالح دينهم ودنياهم.

وفي سورة الفاتحة إرشاد إلى استعانة العباد بربهم في جميع شؤونهم، حيث قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والمعنى: لك يا ربنا وحدك نخشع ونذل ونستكين، فقد توليتنا برعايتك وغمرتنا برحمتك، فنحن نخصك بطلب الإعانة على طاعتك وعلى أمورنا كلها الدينية والدنيوية، ولا نتوجه بهذا الطلب إلى أحد سواك، فأنت المستحق للعبادة، وأنت القدير على كل شيء، والعليم ببواطن الأمور وظواهرها، لا تخفى عليك طوية، ولا تتوارى عنك نية.

فآية الفاتحة أرشدت إلى الاستعانة بالله في جميع الأمور الدينية والدنيوية، ويظهر ذلك من إعادة الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ مع الفعل الثاني ﴿نَسْتَعِينُ﴾ يفيد أن كلا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات، فلا يستلزم كل منهما الآخر؛ ذلك بأن الاستعانة بالله تعالى يجب أن تكون عامة في كل شيء.

والخلاصة: أن «التوكل على الله والاستعانة به خلق جليل يضطر إليه العبد في أموره كلها، دينيها ودنيويها؛ لأنه وإن كان الله تعالى قد أعطى العبد قدرة وإرادة تقع بها أفعاله الاختيارية، ولم يجبره على شيء منها، فإنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، فإذا اعتمد بقلبه اعتمادًا كليًا قويًا على ربه في تحصيل وتكميل ما يريد فعله من أمور دينه ودنياه، ووثق به أعانه وقوى إرادته وقدرته، ويسر له الأمر الذي قصده، وصرف عنه الموانع أو خففها، وتضاعفت قوة العبد وازدادت قدرته؛ لأنه استمد من قوة الله التي لا تنفد ولا تبيد»[(٢)].

- الاستعانة بالله على مواجهة الظالمين.

من الأمور المسلمة أن النصر بيد الله.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧، ٤/ ١٤٩٤.

(٢) فتح الرحيم، السعدي ص١١٧.

قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

والإنسان المسلم في مواجهته مع الظالمين في حاجة إلى عون الله على هؤلاء الطغاة، بأن ينصره ويسدده ويثبته على عقيدته.

وقد اشتمل القرآن على نماذج من الاستعانة بالله على مواجهة الظالمين، منها:

ما أرشد إليه موسى عليه السلام قومه في مواجهتهم مع فرعون وقومه: فلما قال الملأ من قوم فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وأرشدهم موسى عليه السلام فقال: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فههنا أمرهم موسى بشيئين وبشرهم بشيئين: أما اللذان أمر موسى عليه السلام بهما، فالأول: الاستعانة بالله تعالى. والثاني: الصبر على بلاء الله.

وإنما أمرهم أولًا بالاستعانة بالله لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله تعالى، انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء تعالى وتقديره، واستعداده بمشاهدة قضاء الله خفف عليه أنواع البلاء.

وأما اللذان بشر بهما:

فالأول: قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهذا إطماع من موسى عليه السلام قومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه.

والثاني: قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فقيل: المراد أمر الآخرة فقط، وقيل: المراد أمر الدنيا فقط، وهو: الفتح والظفر والنصر على الأعداء، وقيل: المراد مجموع الأمرين.

وقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة[1].

فالآيات ترشد إلى أنه ليس لأصحاب الدعوة إلى رب العالمين إلا ملاذ واحد، وهو الملاذ الحصين الأمين، وإلا ولي واحد، وهو الولي القوي المتين. وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يقدره بحكمته وعلمه.

ومن نماذج الاستعانة أيضًا: قصة مؤمن آل فرعون، فقد ذكر الله سبحانه قوله لقومه: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

فبعد أن نصحهم بطاعة الله، والإيمان

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٤٢.

به والدار الآخرة، وخوفهم وحذرهم، لم يطيعوه، فقال لهم: «فستذكرون أني نصحت لكم وذكرتكم، وسوف تندمون حيث لا ينفع الندم، وألجأ إلى الله، وأعتصم به، وأتوكل عليه. إن الله سبحانه وتعالى بصير بأحوال العباد، وما يستحقونه من جزاء، لا يخفى عليه شيء منها»[1].

وكانت نتيجة استعانته بالله، ما ذكره ربنا سبحانه في قوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

فهذا بيان للعاقبة الطيبة التي أكرمه الله سبحانه بها، بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون وجنده. أي: فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل، وجهره بكلمة الحق، ونصحه لقومه، واستعانته بالله؛ أن وقاه الله تعالى ما أراده الظالمون به من أذى وعدوان ومن مكر سيئ، ونزل وأحاط بفرعون وقومه سوء العذاب؛ بأن أغرقهم الله تعالى في اليم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

ومن نماذج الاستعانة بالله في مواجهة الظالمين، ما ذكره ربنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم في دعوته قريشًا، فالله أمره أن يبلغهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٨- ١١١].

فبعد أن أورد سبحانه الحجج والبراهين، لإقناع الكافرين بأن رسالة الرسول حق، حتى لم يبق فى القوس منزع، وبلغ الغاية التي ليس بعدها غاية، وبين أن هذا الرسول رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، وأن من اتبعه سلك سبيل الرشاد، ومن نأى عنه ضل وسار فى طريق الغواية والعناد- أردف ذلك ما يكون إعذارا وإنذارا، فى مجاهدتهم والإقدام على مناوأتهم، بعد أن أعيته الحيل، وضاقت به السبل، ولم تغنهم الآيات والنذر، فتمادوا في غوايتهم، ولجوا في عنادهم، وأصبح من العسير إقناعهم وهدايتهم.

وبعد هذا البلاغ والبيان أرشده بقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

أي: نسأل ربنا الرحمن، ونستعين به على ما تصفون، من قولكم سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا، لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به.

«وتعريف ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ لإفادة القصر،

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٧٢.

أي لا أستعين بغيره على ما تصفون، إذ لا ينصرنا غير ربنا»[1].

وإنما ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان الغاية لهم، وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه، فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفًا أن المقصود مصلحتهم، فإذا أبوا إلا التمادي في كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره، وإما بتأخير ذلك، فإن أمرهم -وإن تأخر- قريب[2].

والخلاصة: أن عقيدة المؤمن الصادق الإيمان لها محوران في مواجهة الأزمات مع الكفار:

المحور الأول: هو تفويض الأمر إلى الله وتوقع الفرج من عنده، وهذا ما أمر به الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وانصرني عليهم.

المحور الثاني: هو الاستعانة بالله القوي الغالب، وهذا ما ختمت به السورة: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي ما تصفونه من الكفر والتكذيب، والطمع في الغلبة على أهل الإيمان.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٧٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٩٦.

٢. الاستعانة بالأعمال الصالحة.

من صور الاستعانة المشروعة، الاستعانة بالأعمال الصالحة التي شرعها الله، وإذا تأملنا القرآن وجدنا أن الله أمر عباده بالاستعانة ببعض الأعمال الصالحة، ومنها الصبر والصلاة، فقال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فالصبر والصلاة هما الزاد الذي يمد المؤمن بالقوة التي تعينه على احتمال تكاليف العبادة، ومشقة الجهاد ومدافعة شهوات النفس وأهوائها. وهناك أمور يتأكد عندها أهمية الاستعانة بالصبر والصلاة، منها:

- حين يتعرض المؤمنون للبلاء: في دينهم وأنفسهم، في أموالهم أو أعراضهم، فحينئذ يتأكد عليهم الفرار إلى الله عز وجل والاستعانة به، وأعظم ما يتم به هذا الفرار هو الاستعانة بالصبر والصلاة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

بعد هذه الآية ذكر الله أعظم شيء يستعان

عليه بذلك، وهو القتل في سبيل دعوة الحق وحمايته، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

أي: استعينوا على إقامة دينكم والدفاع عنه، وعلى سائر ما يشق عليكم من مصائب الحياة، بالصبر وتوطين النفس على احتمال المكاره، وبالصلاة التي تكبر بها الثقة بالله عز اسمه، وتصغر بمناجاته فيها كل المشاق.

وإنما خص الصبر والصلاة بالذكر، لأن الصبر أشد الأعمال الباطنة على البدن، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة عليه، إذ فيها خضوع واستسلام لله، وتوجه بالقلب إليه، واستشعار لعظمة الخالق.

وقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هذا الأمر الإلهي، فقد ورد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1].

وورد أن ابن عباس رضي الله عنهما «نعي إليه أخوه قُثَم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأناخ، فصلى ركعتين، أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾»[2]

- عند مواجهة الفتن الكثيرة: من شهوات الدنيا، وحب الرياسة والظهور.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

والخطاب هنا لبني إسرائيل لما أعرضوا عن قبول رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فأرشدهم الله إلى علاج ذلك بالصبر والصلاة، أي استعينوا على ترك ما تحبون من شهوات الدنيا، والدخول فيما تستثقله نفوسكم من قبول الإسلام، والتقيد بتكاليفه بفضيلة الصبر التي تحجز أنفسكم من غشيان الموبقات، وبفريضة الصلاة التي تنهاكم عن الفحشاء والمنكر.

- عند مواجهة شبهات الأعداء.

والخلاصة: أن الله خص الاستعانة بالصبر والصلاة لما فيهما من المعونة على العبادات، وتحمل المشاق.

ثانيًا: الاستعانة الممنوعة:

الاستعانة هي طلب العون من الله جل وعلا في الحصول على المطلوب والنجاة من المرهوب.

والاستعانة عبادة يجب صرفها لله حده، وهي التي يصحبها معانٍ تعبدية تقوم

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٣٢٩٧، ٣٨/ ٣٣٠، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، رقم ١٣١٩، ٢/ ٣٥.
وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٥٣.

في قلب المستعين من المحبة والخوف والرجاء والرغب والرهب، فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، ومن صرفها لغيره فهو مشرك. وقد قال الله تعالى فيما علمه عباده المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وتقديم المعمول يفيد الحصر، فيستعان بالله وحده، ولا يستعان بغيره.

فإذا استعان الإنسان بغيره بهذه المعاني المذكورة فإنه يكون قد دخل في الاستعانة الممنوعة، وهذه الاستعانة الممنوعة لها صور عديدة، وهي:

١. الاستعانة بالأموات والمعبودين من دون الله.

الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ممنوعة، كإجابة الدعاء وكشف البلاء، والهداية، والإغناء، ونحو ذلك، فالله تعالى هو المتفرد بذلك، والقرآن من أوله إلى آخره مليءٌ بالنصوص الدالة على أن الله وحده هو الذي بيده الخفض والرفع، والضر والنفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والهداية والإضلال.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ جدًا.

وقد أمر الله عباده أن يدعوه وحده، ولم يجعل بينه وبينهم واسطةً في الدعاء، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وبين تعالى ضلال من دعا غيره فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

ونحن في كل ركعةٍ من ركعات الصلاة نفرد الله بالاستعانة به على كل أمورنا، ونخصه بذلك في قولنا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقد وصى النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه عبد الله بن عباس بوصيةٍ جامعة، وكان من بين جملها الرائعة: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[(١)].

وقد بين القرآن أن المعبودات من دون الله لا تملك أي وسيلة من وسائل الإدراك أو النفع أو دفع الضر عن نفسها، فضلًا عن عابديها، فكيف يعبدونها من دون الله تعالى؟!

فنفى القرآن العقل صراحة عن الآلهة التي عبدها المشركون من دون الله، ونفي العقل عنها هو بيت القصيد، والأصل لما

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٩، رقم ٢٥١٦، ٤/ ٦٦٧.
وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

بعده؛ إذ ما فائدة السمع والبصر والنطق من غير العقل؟!

فهو وحده كافٍ في نفي ألوهية هذه الأوثان، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

وهنا «يقول تعالى ذاما المشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالًا من الحيوان بكثير»[1].

ونفى القرآن عن الأوثان أيضًا السمع والبصر والنطق، ومن ثم فلم يكن لديها أي سبب من أسباب العبادة، فعلام يعكف هؤلاء الوثنيون على عبادتها ودعائها من دون الله تعالى؟!

وأكثر القرآن الكريم من وصف المعبودات بأنها لا تملك لعابديها دفع ضر أو جلب نفع، حتى أربت مواطن الحديث عن هذا الوصف على عشرة مواطن، وتنوعت فيها الأساليب، فمنها ما ورد بصيغة الخبر، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

ومنها ما ورد بصيغة النفي، مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

ومنها ما ورد بصيغة النهي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

أما ما ورد بصيغة السؤال فكثير، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]. وغيرها من الآيات.

ومن الصفات التي وصف بها القرآن المعبودات من دون الله: أنها لا تستطيع أن تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة لله رب العالمين، فهي لا تستطيع أن تخلق شيئًا على الإطلاق، ولا تملك مثقال ذرة من ذلك، فكيف تملكه لعابديها! وجاء هذا الرد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٠٢.

تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

والآيات في هذا الشأن وفيرة ومتنوعة.

ومن الأدلة الظاهرة الواضحة على أن الأموات لا يملكون نفعًا ولا ضرًا: قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه للعباس عندما وقع الجدب: كنا إذا أجدبنا توسلنا بدعاء نبينا، فقم يا عباس! وادع الله لنا، فقام العباس ودعا[1]، ولم يذهب هو أو عمر إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: يا رسول الله! أجدبنا فاستسق لنا؛ لأنهم يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك ضرًا ولا نفعًا، فهذه دلالة على أن الأموات لا يملكون شيئًا.

وبناء على ما سبق فالاستعانة بالأموات والمعبودات من دون الله في قضاء الحوائج وسؤالهم والاستعانة بهم كما يفعله عباد القبور والأولياء شرك أكبر؛ فإنه يقوم في قلوبهم من العبوديات لمن يدعونهم ويستعينون بهم ويستعيذون بهم ويستغيثون بهم ما هو من أعظم الشرك والكفر بالله، وهذا شرك أكبر يخرج من الملة؛ لأن الاستعانة بالله تعظيم لله، فمن استعان بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد ساواه بالله تعالى في التعظيم، وهذا شرك أكبر.

قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

والموتى والمقبورون وإن كانوا من الأولياء الصالحين، بل من الأنبياء المقربين فإن صلاحهم لأنفسهم ونفع تقواهم لهم، أما أن يستعان بهم في كشف الكروب ودفع الخطوب، فهذا ما كان أهل الجاهلية يفعلونه حين يصرفون لهم الدعاء، بزعم أنهم يقربونهم إلى الله، وأن الله لا يرد شفاعتهم لصلاحهم.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

يقول ابن القيم عن هذا المظهر من مظاهر الشرك -أي طلب الحوائج من الموتى والاستعانة بهم، والتوجه إليهم-: «وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرًا

(١) انظر: المجالسة، الدينوري، رقم ٧٢٧.

ولا نفعًا، فضلًا عمن استعان به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها. والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم إذا زرنا قبور المسلمين (أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة)[1]. فعكس المشركون هذا، وزاروهم زيارة العبادة، واستقضاء الحوائج، والاستعانة بهم، وجعلوا قبورهم أوثانًا تعبد»[2].

وخلاصة القول: أن من استعان بغير الله فيما ما لا يقدر عليه إلا الله، فقد كفر بالله جل في علاه؛ لأنه أنزل المخلوق منزلة الخالق.

٢. الاستعانة بالمخلوق في أمور غيبية.

المراد بالغيب: ما غاب عن الناس من الأمور المستقبلة والماضية وما لا يرونه. وقد اختص الله تعالى بعلمه.

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

فلا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وحده، فلا يعلم الغيب ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلًا عمن هو دونهما.

وقد يطلع الله عز وجل رسله على ما شاء من غيبه لحكمة ومصلحة.

قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

أي: لا يطلع على شيء من الغيب إلا من اصطفاه لرسالته، فيظهره على ما يشاء من الغيب؛ لأنه يستدل على نبوته بالمعجزات؛ التي منها الإخبار عن الغيب الذي يطلعه الله عليه، وهذا يعم الرسول الملكي والبشري، ولا يطلع غيرهما؛ لدليل الحصر.

وقد قسم العلماء الغيب إلى قسمين:

الأول: الغيب المطلق أو الحقيقي: وهو أن يغيب عن الحواس والعقول معا، وهو المقصود عند الإطلاق، مثل الأمور الخمسة الواردة في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :«مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة

(١) فقد ورد عن بريدة،رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية».
أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم ٩٧٥، ٢/ ٦٧١

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٥٣.

إلا الله»[1].

الثاني: الغيب النسبي أو المقيد: وهو ما يغيب عن بعض المخلوقين دون بعض، كالذي يعلمه الملائكة عن أمر عالمهم دون البشر، وكالذي يعلمه بعض البشر دون بعض، مثل: العلم بالأقطار النائية والطبقات الأرضية، والأمور الطبية، ونحو ذلك، ومن ذلك: أن يغيب الشيء عن حس الناس جميعًا، ولكنه يكون في متناول عقولهم، إما بالتجربة أو المقايسة، كعلم ما سيقع في المستقبل من الكسوف والخسوف، والشروق والغروب، ومنازل القمر، ونحو ذلك، استنباطًا من التجارب الكونية والسنن الربانية.

فمن ادعى علم الغيب بأي وسيلة من الوسائل غير من استثناه الله من رسله، فهو كاذب؛ سواء ادعى ذلك بواسطة قراءة الكف أو الفنجان، أو الكهانة، أو السحر، أو التنجيم، أو غير ذلك، وهذا الذي يحصل من بعض المشعوذين والدجالين؛ من الإخبار عن مكان الأشياء المفقودة والأشياء الغائبة، وعن أسباب بعض الأمراض، فيقولون: فلان عمل لك كذا وكذا فمرضت بسببه، وإنما هذا لاستخدام الجن والشياطين.

وقد يكون إخبارهم بذلك عن طريق التنجيم، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر، وتغير الأسعار، وغير ذلك من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها. ويقولون: من تزوج بنجم كذا وكذا، حصل له كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا حصل له كذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا حصل له كذا؛ من السعود أو النحوس، كما يعلن في بعض المجلات الساقطة من الخزعبلات حول البروج؛ وما يجري فيها من الحظوظ[2].

وقد يذهب بعض الجهال وضعاف الإيمان إلى هؤلاء المنجمين، فيستعين بهم ويسألهم عن مستقبل حياته، وما يجري عليه فيه، وعن زواجه وغير ذلك.

ومن ادعى علم الغيب أو صدق من يدعيه، فهو مشركٌ؛ لأنه يدعي مشاركة الله فيما هو من خصائصه، والنجوم مسخرة مخلوقة، ليس لها من الأمر شيء، ولا تدل على نحوس، ولا سعود، ولا موت، ولا حياة، وإنما هذا كله من أعمال الشياطين الذين يسترقون السمع.

وقد ورد النهي عن ذلك في بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، منها:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التوحيد. باب قول الله: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا)، رقم ٧٣٧٩، ٩/ ١١٦.

(٢) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٠/ ٢٣١-٢٣٢، فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢١٧.

عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه، لا تقبل له صلاة أربعين يومًا»[(١)].

وعن عمران بن حصين مرفوعًا: «ليس منا من تَطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سَحر أو سُحر له، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»[(٢)].

وأما حكم هؤلاء الدجالين والمشعوذين، ومن يدعون علم الغيب، ومن يذهب إليهم، فحكمهم فيما يلي[(٣)]:

أن الذين يدعون علم الغيب: إن كانوا من أولياء الشيطان الذين تتنزل عليهم الشياطين فهم كفار.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣].

وقد نص القرآن على أن الذين تنزل عليهم الشياطين هم أولياء الشياطين ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ومن كان وليًا للشيطان لا يمكن أن يكون وليًا للرحمن ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

وإن كان من أدعياء الغيب الذين يدجلون على الناس، ويقولون بالخرص والتخمين، ولكنهم يخدعون الناس زاعمين أن لديهم القدرة على الاطلاع على الغيب من خلال الخط بالرمل، والنظر في اليد والفنجان وما أشبه ذلك؛ فهؤلاء ضالون يستحقون التأنيب والتعزير، ولا نحكم عليهم بالكفر ما لم يعتقدوا حل ذلك.

ومثل هذا يقال في الذين يأتون الكهان، فإن كانوا جازمين باستباحة ذلك، وصدقوهم فيما يدعون فهذا كفر؛ لأن هؤلاء كذبوا الله في خبره أنه وحده عالم الغيب ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل: ٦٥].

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

وقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام: ٥٩].

وقد سئل الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى عن قوله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم ٢٢٣٠، ٤/ ١٧٥١.

(٢) أخرجه البزار في مسند، ٩/ ٥٢. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/ ٢٢٨.

(٣) انظر: شرح السنة، البغوي ١٢/ ١٨٣، مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٣٥/ ١٩٢.

«من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد». هل هذا الكفر ناقل عن الملة ؟ فأجاب «اختلف أهل العلم فيه، فقيل: إنه لا يخرجه من الإسلام، بل هو من العصاة من أهل الإسلام المتغلظة معاصيهم، وإلا لو كان كافرًا لما قيد الوعيد بأربعين، يعني قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين يوما».

وقيل: إن هذا الحديث من أحاديث الوعيد فيُمَرُّ كما جاء، ولا يتعرض له بتأويل، وهذا قول أحمد وعامة السلف؛ لأن ذلك أبلغ في الردع عن الجرائم. فالأول ليس من التأويل، وهو تأدب في المعنى مع اللفظ، والثاني تأدب مع اللفظ، وكلٌّ مصيب»[1].

والراجح أن أحاديث الوعيد تُمَرُّ كما جاءت، ولا يتعرض لها بتأويل؛ لأن ذلك أبلغ في الردع عن الجرائم.

وكذلك المنجم والضارب بالحصى والودع، لكن عدم كفر الواحد منهما ما لم يعتقد إباحته، فإن اعتقد إباحته فهو مرتد.

وخلاصة القول: إن الواجب على كل مسلم أن يحذر من الدجاجلة والكذابين المدعين لعلم الغيب، المفترين على الله، الذين ضلوا في أنفسهم وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل، كالسحرة والكذابين والمنجمين، وقارئي الفناجين، وضاربي الرمل ونحو ذلك ممن يدعون قراءة الكف والأبراج وغيرهم، فلا يستعين بهم في أمر من الأمور، وخاصة الغيبية.

٣. الاستعانة بالجن:

جعل الله بحكمته الباهرة بين الثقلين حواجز، ومخاوف، واختلافًا بين الطبيعتين؛ ليعبد كل منهما ربه كما شرع له، من غير استعانة بالآخر، وإذا ما استعان أحدهما بالآخر ففي حدود ضيقة بما شرع لهما، وبضوابط دقيقة لا يحسنها إلا أهل العلم الراسخون فيه حتى لا يقع منكر، إلا أن الشياطين من الجن والإنس خالفوا أمر ربهم، وقالوا وعملوا ما لم يشرعه لهم، وحرص إبليس وجنوده على هذه المسألة؛ لأنها من أعظم طرقهم في الإضلال والتلبيس.

ولهذا التجاوز للمشروع حصل كثير من المنكرات العظيمة في هذين البابين، ووقع في الشرك والكفر بسبب هؤلاء الشياطين - وهم كفرة الجن- أو فساقهم أكثر الخلق من قديم الزمان- نسأل الله العافية-كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١]

ويتأمل كلام أهل العلم في مسألة

(١) مجموع فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ١/ ١٦٤.

الاستعانة بالجن نجد أنها أربعة أنواع، ولكل نوع حكم خاص[1]:

النوع الأول: استعانة بالجن تفضي إلى وقوع الشرك الأكبر من أحد الطرفين، وهذا كفر لا نزاع فيه، وهي مثل أن يستعين بهم الإنسي أو يستغيث فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهذا شرك ممنوع باتفاق المسلمين.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قال أبو جعفر بن جرير: «يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هؤلاء النفر: وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم إذا نزلوا منازلهم، وكان ذلك من فعلهم فيما ذكر لنا».

ثم روى عن ابن عباس أنه قال: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي، فزادهم ذلك إثمًا.

وروى عن الحسن أنه قال: كان الرجل منهم إذا نزل الوادي فبات به قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شر سفهاء قومه[2].

وقد بين تعالى أن هذه الاستعانة كانت سببًا للخلود في النار، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

النوع الثاني: استعانة بهم هي تعاون على الإثم والعدوان لا تصل إلى الكفر، كأن يقدم أي طرف منهما للآخر أي شيء فيه معصية، فهو محرم بالاتفاق أيضًا.

ومثال هذا النوع، أن يسرق له الجني مالًا، أو يتعاونا على أكل أموال الناس بالباطل بأي نوع من أنواع الحيل أو غيرها، أو في الفواحش.

يقول شيخ الإسلام: «وآخرون شر من هؤلاء يستخدمون الجن في أمور محرمة، من الظلم والفواحش، فيقتلون نفوسًا بغير حق، ويعينونهم على ما يطلبونه من الفاحشة، كما يحضرون لهم امرأة أو صبيًا أو يجذبونه إليه. وآخرون يستخدمونهم في الكفر، فهذه الأمور ليست من كرامات الصالحين، وأما استخدامهم في المحرمات فهو حرام»[3].

النوع الثالث: أن يستعين الإنسي بهم على مباحات وبسبب مباح، ولكن استعانة تفضي إلى محرم أو شرك، فهو حرام أيضًا أو شرك أصغر؛ لأن «الوسائل لها حكم المقاصد»، فيمنع من ذلك بناءً على القاعدة

(١) انظر في هذه الأنواع: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٣/ ٩١-٩٢، ١١/ ٣٠٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٢٢.
(٣) النبوات، ابن تيمية ص١٢٥.

المتينة الأصيلة قاعدة «سد الذرائع»، وقواعد درء المفاسد الراجحة أو المساوية للمصلحة، فما أفضى إلى محرم فهو محرم على التحقيق، وإن كان في الأصل مباحًا.

النوع الرابع: الاستعانة بهم على مباحات، وبأسباب مباحة، ولا يفضي ذلك إلى محرم، وليس ذريعة إليه؛ كالاستعانة بالجن في الرقية والعلاج ونحو ذلك، فهذه التي حصل فيها النزاع بين أهل العلم ما بين مجيز بضوابط[1] ومانع[2].

والراجح في هذه المسألة أن الاستعانة بالجن في الرقية والعلاج ونحو ذلك محرمة ويجب المنع منها والتحذير، وعدم التهاون فيها؛ لأنها شديدة الخطورة، وإفضاؤها إلى المحرم قريب، وخاصة في هذه الأزمان، وأما في غير ذلك من المباحات فبالضوابط التي ذكرها المجيزون، ويكون الحكم: إما الكراهة الشديدة، وإما التحريم على القول الآخر.

وأختم هذه المسألة بقول سيد قطب رحمه الله عند كلامه على قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

فعندما أسلم نفر من الجن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾.

«فهم يعرفون قدرة الله عليهم في الأرض، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه سبحانه والإفلات من قبضته، والفكاك من قدره. فلا هم يعجزون الله وهم في الأرض، ولا هم يعجزونه بالهرب منها. وهو ضعف العبد أمام الرب، وضعف المخلوق أمام الخالق، والشعور بسلطان الله القاهر الغالب. وهؤلاء الجن هم الذين يعوذ بهم رجال من الإنس! وهم الذين يستعين بهم الإنس في الحوائج! وهم الذين جعل المشركون بين الله سبحانه وبينهم نسبًا! وهؤلاء هم يعترفون بعجزهم وقدرة الله، وضعفهم وقوة الله، وانكسارهم وقهر الله، فيصححون، لا لقومهم فحسب بل للمشركين كذلك، حقيقة القوة الإلهية الغالبة على هذا الكون ومن فيه»[3].

ثالثًا: الاستعانة المباحة:

من الأسباب التي شرع الله الأخذ بها الاستعانة بالمخلوق الحاضر القادر على أمر يقدر عليه، وهذه على حسب المستعان عليه، فإن كانت على بر أو مباح فهي جائزة للمستعين مشروعة للمعين.

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١١/ ٣٠٧، المدخل، ابن بدران ص٤٣٨، القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٢/ ٥٠.

(٢) انظر: الأحكام السلطانية، أبو يعلى الفراء ص٣٠٨، المغني، ابن قدامة ١٢/ ٣٠٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٣٢.

وهذه الاستعانة تكون في الأمور الدينية والدنيوية، فالاستعانة الدينية: كأن يستعين بمن تقدمه في طلب العلم أن يتعلم منه، أو يستعين بالقارئ المتقن أن يضبط له الحروف ويضبط له القراءات، أو يستعين بالمفتي أن يفتي له، أو يستعين بالحاج العالم في مناسك الحج أن يبين له مناسك الحج.

وأما الاستعانة في الأمور الدنيوية: كأن يقترض قرضًا، أو يأخذ مالًا، أو هبة من أخيه، فهذه الاستعانة تجوز، وليس فيها ثمة شيء.

والدليل على ذلك عموم قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

فهذه استعانة أباحها الله جل في علاه في كتابه، وأيضًا عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»[(١)]. وهذه كأنها أمر من النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء»[(٢)]. فهذه أيضًا من باب التعاون على البر والتقوى.

ومما ذكره القرآن من أمثلة على الاستعانة في أمور البر بالحي القادر: ما جاء في قول موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣١].

قال مقاتل بن سليمان: «﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ يقول: اشدد به ظهري، وليكون عونًا لي، وأشركه في أمري الذي أمرتني به، يتعظون لأمرنا، ونتعاون كلانا جميعًا»[(٣)].

وقال السعدي: «علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان، ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل، وغيره من أنواع العبادات»[(٤)].

وقال المراغي: «أي أحكم به قوتي، واجعله شريكي في أمر الرسالة؛ حتى نتعاون على أدائها على الوجه الذي يؤدي إلى أحسن الغايات، ويوصل إلى الغرض على أجمل السبل»[(٥)].

وكذلك ما قصه القرآن عن ذي القرنين.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة، رقم ٢١٩٩، ٤/ ١٧٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، رقم ١٤٣٢، ٢/ ١١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، رقم ٢٦٢٧، ٤/ ٢٠٢٦.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٢٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠٤.

(٥) تفسير المراغي ١٦/ ١٠٧.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٣- ٩٥].

بعد أن ساهم ذو القرنين في نهوض الشعوب البدائية الفقيرة وتنويرها في أقصى الغرب والشرق، توجه بهذا الخير إلى موضعٍ عبر عنه القرآن بأنه بين السدين، منطقة يحيط بها جبلان شاهقان وعران، حيث يتسلل المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون ثرواتها ويعيثون فيها فسادًا، فطلب أولئك المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سدًا منيعًا يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

أجابهم هذا القائد الزاهد والإمام الراشد إلى مطلبهم دون مقابلٍ، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤديها في ربوع الكون، فهل يطمح إلى أعراض الدنيا الزائلة أم يجنح إلى همم قاصرة؟ وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعة وانقيادًا، وعزمًا واجتهادًا؛ في غرس بذور الخير أينما حل.

«قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السد بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطأه لي، وقواني عليه، خيرٌ من جعلكم، وأجرتكم التي تعرضونها علي لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفعلة وصناعٍ يحسنون العمل والبناء»[(١)].

«وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة؛ فإن القوم لو جمعوا له خرجًا لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج»[(٢)].

ومن صور الاستعانة المباحة في أمور البر التي وردت بها السنة: دعاء الصالح الحي، فقد ثبت في صحيح مسلم أن أهل الكوفة وفدوا إلى عمر، وفيهم رجل ممن كان يسخر بأويس، فقال عمر: هل هاهنا أحد من القرنيين؟ فجاء ذلك الرجل، فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال: «إن رجلًا يأتيكم من اليمن يقال له أويس، لا يدع باليمن غير أم له، قد كان به بياض، فدعا الله فأذهبه عنه، إلا موضع الدينار أو الدرهم، فمن لقيه منكم فليستغفر لكم»[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٦٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل أويس القرني، رقم ٢٥٤٢،

وورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للعباس عندما وقع الجدب: كنا إذا أجدبنا توسلنا بدعاء نبينا، فقم يا عباس! وادع الله لنا، فقام العباس ودعا[1].

خلاصة القول: إن الاستعانة المباحة هي: استعانة بالآخرين فيما يقدرون عليه، ولابد من ثلاثة شروط فيمن يستعان بهم: أن يكون حيًا حاضرًا قادرًا، فلو تخلف واحد من الثلاثة فهي استعانة شركية محرمة.

أقسام الناس في الاستعانة

الناس في الاستعانة على أقسام، وبيانها فيما يلي[2]:

الأول: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها:

أفضل أنواع الاستعانة وأكملها وأحبها إلى الله: الاستعانة بالله على طاعة الله، وكلما كان المؤمن أشد حبًا لله، ورجاء في فضله، وخوفًا من سخطه وعقابه كان على هذا الأمر أحرص، وعرف أن حاجته إليه أشد.

والمؤمن مأمور بأن يستعين الله تعالى في جميع شؤونه، حتى في شسع نعله، فإنه إذا لم ييسره الله لم يتيسر.

وهذا هو دأب الصالحين، ودأب خيار الناس، ودأب الصلحاء من البشر الذين استعانوا بربهم على إقامة الدين، وهؤلاء البشر هم الأنبياء والمرسلون الذين استعانوا بربهم، وأظهروا لنا هذه العبادة الجليلة.

فهذا خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام كان يقول: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وأيضًا قال نوح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ

---

(١) انظر: المجالسة، الدينوري، رقم ٧٢٧. ٤/ ١٩٦٨.

(٢) انظر في هذه الأقسام: مدارج السالكين ١/ ٩٠- ٩٤.

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١].

لا يقول لهم: كفوا عني أو ابتعدوا عني، ولا تؤذوني، وإنما يقول لهم: اجمعوا كل ما عندكم أنتم وشركاؤكم، وكيدوني بكل ما تقدرون عليه من كيد ولا تؤخروني لحظة، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن عليكم أمركم غمة، لا ترددوا ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ لأنه توكل على الله عز وجل، واستعان بربه سبحانه وتعالى.

وقال هود عليه السلام مثلها حين قال قومه له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥].

﴿فَكِيدُونِي﴾ أي اجتمعوا على كيدي ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تؤخروني ولا تعطوني مهلة، لماذا؟

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

سبحان الله! هذا القدر العظيم من التوكل على الله والاستعانة بالله جعله يحثهم -استهتارًا بمكرهم واستهانة بملكهم وتخطيطهم- يحثهم على أن يكيدوا له، وأن يجتمعوا على ذلك؛ لأنه متوكل على من خلقهم ومستعين بمن نواصيهم بيده ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾.

وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أكثر ما يكون في حياته اليومية أنه يستعين بالله، وكان دائمًا يقول كما في الترمذي بسند صحيح: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(١)].

لذلك فما من نبي وما من صالح إلا قد استعان بالله على طاعة الله.

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على غرس هذه المعاني العظيمة في قلوب أصحابه وأمته، فقد قال في الوصية الجامعة لابن عباس: «وإذا استعنت فاستعن بالله»[(٢)].

وقال صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز»[(٣)].

فالحرص على ما ينفع عام في أمور الدين والدنيا.

والاستعانة بالله تكون بطلب عونه وتأييده وتحقيق ما ينفع.

والعجز هو ترك بذل السبب مع إمكانه؛ فنهي عنه.

وقد رتب النبي هذه الكلمات الثلاث

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم ٢٦٦٤، ٤/ ٢٠٥٢.

ترتيبًا بديعًا لتوافق الحال؛ فإن معرفة المطلوب ومعرفة نفعه والحرص عليه متقدمة على الاستعانة على تحقيقه، وبعده الاستعانة؛ فيطلب العون من ربه على تحقيق ما ينفعه، وأن يهديه لكيفية تحصيله، ثم يبذل الأسباب التي أذن الله بها.

فالاستعانة بالله لا تعني إهمال الأخذ بالأسباب، ولا التعلق بالأسباب على أنها الفاعلة، إنما القلب يتعلق بالله، والجوارح تعمل بالأسباب التي هيأها الله في الكون.

وخلاصة القول: إن أفضل الخلق هم الذين أخلصوا العبادة والاستعانة لله تعالى، فحققوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وهؤلاء بأفضل المنازل؛ فإنهم استعانوا بالله تعالى على عبادة الله، وحققوا المعنى الحقيقي للاستعانة، وذلك بأمرين:

أحدهما: التجاء القلب إلى الله تعالى، والإيمان بأن النفع والضر بيده، وأنه مالك الملك ومدبر الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه سميع عليم وقريب مجيب، فيستعين به راجيًا إعانته.

والآخر: بذل الأسباب التي هدى الله إليها وبينها، فيبذل في كل مطلوب ما أذن الله تعالى به من الأسباب.

الثاني: أهل الإعراض عن العبادة والاستعانة به في مرضاته:

من الناس من يغلب عليه الاستعانة بالله لتحقيق المطالب الدنيوية حتى تشغله عن المطالب الأخروية، فإن تحقق له ما يطلب من أمور الدنيا فرح به، وإن حرمه ابتلاء واختبارًا جزع وسخط؛ فهذا النوع في قلوبهم عبودية للدنيا، وقد تعجل لهم مطالبهم فتنة لهم، ثم تكون عاقبتهم سيئة؛ فإنهم شابهوا الكفار فيما ذمهم الله به.

فقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا

﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وأصل بلاء الكفار إيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وقال: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢-٣].

وقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

فهذا القسم هم الذين استعانوا بربهم، لكن ما استعانوا على العبادة، وإنما استعانوا على رغيف العيش، واستعانوا على الدرهم والدينار، واستعانوا على الدنيا، فهؤلاء ما استعانوا الاستعانة الحقة، فالاستعانة الحقة: أن يستعين بقدرة الله على عبادة الله جل في علاه، والله قد تكفل لهم بهذا الرزق، لكنهم لما جهلوا جهلًا مركبًا قالوا: الاستعانة نأخذ بها على أمر الدنيا لا على أمر الآخرة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها)[1]. فأنت قد تكفل الله لك بالرزق الذي خلقه لك، فانشغل أنت بما خلقت له وهي العبادة.

الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، أو باستعانة ناقصة:

وهم المبتدعة الضالة -وهم أهل عبادة- وهم: القدرية والمعتزلة، فهؤلاء يجتهدون في العبادة لله، لكنهم لا يستعينون بالله على أداء هذه العبادة؛ لأنهم يعتقدون أن الله لا يخلق أفعال العباد، والعبادة أفعال تخرج منهم، وهذه الأفعال هم يخلقونها، لكنهم لا ينكرون فضل الله عليهم كاملًا، فهم يقولون: إن الله خلق لنا آلات نستعين بها على العبادات، كالسمع فنسمع القرآن، ونسمع الأذان فنذهب نصلي، وكالبصر فنقرأ القرآن ونعقل عن الله أوامره، ونقرأ أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وكالماء خلقه الله لنتوضأ، وكالطعام نستعين به على الطعام، فهم يريدون الاستعانة بأنفسهم، وجعلوا أنفسهم خالقين مع الله تعالى، ولذلك قال بعض علمائنا: إن المعتزلة أصحاب أجرة، يقولون: الجنة لنا بأعمالنا وليست برحمة الله جل في علاه، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يدخل أحدكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته)[2].

(١) أخرجه الشافعي في مسنده ص٢٣٣. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦/ ٨٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم ٥٦٧٣، ٧/ ١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب

فهؤلاء قد ضلوا في باب الاستعانة، وما حققوا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فما سددوا وما وفقوا، بل خسروا كثيرًا، ونسأل الله جل وعلا أن يهدينا وإياهم سواء السبيل.

وخلاصة القول: إن العباد كلهم مجبولون على الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه في شؤونهم، ولكن حسن الاستعانة والتوكل يختلفان من قلب إلى قلب، ومن شخص إلى شخص، فبقدر قوة الإيمان واليقين عند العبد بقدر ما يقوي عامل الاستعانة بالله، وحسن الظن به، وتسليم الأمر له؛ لعلم القلب بحاجته إلى فضل الله تعالى وتيسير أمره.

صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم ٢٨١٦، ٤/ ٢١٦٩.

مجالات التعاون بين الخلق

مجالات التعاون بين الخلق كثيرة ومتنوعة، منها ما هو مشروع، ومنها ماهو ممنوع محرم، وبيانها فيما يلي:

أولًا: التعاون المشروع وفوائده:

من القيم الإنسانية الرائعة والأسس الحضارية الرصينة للمجتمع المسلم التعاون الإنساني، فالتعاون ضرورة من ضرورة الحياة، ولولاه لما استقامت، فالإنسان لا ينهض وحده بكل متطلبات الحياة، بل جعل الله الناس متفاوتين متفاضلين؛ ليكمل بعضهم بعضًا، ويخدم بعضهم بعضًا، هذا على مستوى الأفراد والشعوب، كذلك على مستوى الأمم.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

«﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أي أسباب معيشتهم في الحياة الدنيا قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح، ولم نفوض أمرها إليهم، علمًا منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادئ المعاش ﴿دَرَجَاتٍ﴾ متفاوتة بحسب القرب والبعد،

حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيفٍ وقوي، وفقير وغني، وخادم ومخدوم، وحاكم ومحكوم؛ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ ليصرف بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم؛ حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم»[1].

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ «أي ليستعمل بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قومٌ دون آخرين، فجعل البعض محتاجًا إلى البعض؛ لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا وبالعكس، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا لهذا؛ حتى يتعايشوا، ويترافدوا، ويصلوا إلى مرافقهم»[2].

«فالناس بحكم هذا الاختلاف القائم بينهم، وبحسب استعدادهم الفطري، وحكم ظروفهم وأحوالهم هم جميعًا مسخرون، أي يخدم بعضهم بعضًا، ليس فيهم خادم ومخدوم، بل كلهم يخدم ويخدم، ويستوي في هذا العالم والجاهل، والزارع، والصانع، والقوي والضعيف، والحاكم والمحكوم، إنهم جميعًا أشبه بالآلة الميكانيكية، لا تكون آلة عاملة، ذات قوة محركة، إلا إذا عمل كل جزء من أجزائها، أيًا كان وضعه فيها، وأيًا كانت قيمته الذاتية بين أجزائها، بل إنهم أشبه بالجسد الإنساني في تجاوب أعضائه جميعًا في العمل على كل ما من شأنه أن يحفظ عليه حياته، ويوفر له أمنه وسعادته»[3].

عن قتادة قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ «فتلقاه ضعيف الحيلة، عيي اللسان، وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة، سليط اللسان، وهو مقتور عليه.

قال الله جل ثناؤه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كما قسم بينهم صورهم وأخلاقهم، تبارك ربنا وتعالى»[4].

لقد عرف الناس هذه الحقيقة منذ كان لهم وجود اجتماعي، بل إن هذا الوجود الاجتماعي نفسه إنما دعتهم إليه حاجة بعضهم إلى بعض، وخدمة بعضهم لبعض.. وهذا ما يشير إليه المعري بقوله[5]:

والناس بالناس من حضرٍ وباديةٍ
بعضٌ لبعضٍ، وإن لم يشعروا خدم

والتعاون بين البشر من فطرة الله التي

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٦.
(٢) الأنوار الساطعات لآيات جامعات، عبدالعزيز السلمان ص٤٩٧.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٣٧٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٩٥.
(٥) انظر: ديوان أبي العلاء المعري ١/ ١٢٠٣.

فطر الناس عليها.

يقول ابن خلدون في مقدمته: «الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته، من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به؛ لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه، والاجتماع المهيء لذلك التعاون، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به، واتباع صلاح أخراه»[(١)].

وقال: «قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل لتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعًا في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافًا، فالقوت من الحنطة مثلًا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه، وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد، ونجار للآلات، وقائم على البقر، وإثارة الأرض، وحصاد السنبل، وسائر مؤن الفلح، وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات، فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم»[(٢)].

ولقد دعا القرآن إلى التعاون بين الأفراد والمجتمعات والأمم.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة: ٢].

«وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أي: ليعن بعضكم بعضًا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا منه»[(٣)].

قال ابن كثير: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم»[(٤)].

وقال الماوردي: «ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته»[(٥)].

وقال السعدي: «فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٢٩ .
(٢) المصدر السابق ص٣٦٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٢.
(٥) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص١٨٢.

والتقوى»[1].

وسئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ فقال: «هو أن تعمل به، وتدعو إليه، وتعين فيه، وتدل عليه»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله في تلك الآية: «اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق، فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونًا على مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله»[3].

ثم بين أهمية التعاون على البر والتقوى وأنه من مقاصد اجتماع الناس فقال: «والمقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم هو التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علمًا وعملًا، فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه؛ فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني قائمًا بعضه ببعضه، معينًا بعضه لبعضه»[4].

وهذا الكلام يدل قطعًا على أن توزيع المهمات لإنجاز الأعمال من التعاون المطلوب، وأن هذا التعاون بين الأفراد ينتقل بعمل كل منهم؛ ليصبح وظيفة عامة اجتماعية، تكفل العيش لعدد كبير من المجتمع، فالتعاون بين الأفراد وتقسيم العمل ظاهرتان ملازمتان للإنسان، ولا غنى له عنهما، وأن تعاون المجموعة لا ينتج ما يكفيهم فقط، وإنما يزيد ويفيض.

وهذا كلام عام في الأمور الدينية والدنيوية، فأما بالنسبة للتعاون الشرعي فإن الأسباب الدافعة لدى المسلم للتعاون على البر والتقوى والمشاركة في الخير عديدة، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فلقد كان يشارك أصحابه مشاركة فعالة في السلم والحرب.

فعن سهل بن سعدٍ الساعدي رضي الله عنه: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق، وهو يحفر ونحن ننقل التراب، ويمر بنا، فقال: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة)[5].

فالإسلام ينظر للتعامل والعلاقات

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤١.
(٢) حلية الأولياء، الأصفهاني ٧ / ٢٨٤
(٣) الرسالة التبوكية، ابن القيم ص٦- ٧.
(٤) المصدر السابق ص ١٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم ٦٠٥١.

بين الناس على أنها قائمة على المشاركة والتعاون والتنافس، لا على الصراع كما يصور الماديون من الفلاسفة والحاقدون من المتعصبين، بل الحياة مشاركة وتعاون اجتماعي ودولي، فالتعاون من أجل الصالح للإنسانية، بينما يريدها أعداء الإسلام صراعًا بين البشر، وعراكًا بين الطوائف والأمم، من أجل الاستئثار والانفراد وتحقيق المكاسب المادية، وترويج السلع ونشر الثقافات على حساب الآخرين، وإلحاق الخسائر المادية والأدبية، وهذا لا يتفق مع مبدأ التعاون الإنساني الذي يقوم على أساس مد يد العون للآخرين، وتبادل المنافع ومراعاة المصالح، أما فكرة الصراع فهي فكرة خبيثة أفرزتها المذاهب المادية النفعية، والفلاسفة الماديون أصحاب الأفكار الهدامة والمتناقضة، كهيجل وماركس وغيرهم ممن نفقت مذاهبهم في الغرب.

فاللبنات المتناثرة هنا وهناك لا قيمة لها، لكن حين يبنى بها جدار متين فترى البنيان مرصوصًا، تدرك أهمية التماسك، ومتانة الترابط، وقوة التعاون.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤].

وتلك صورة من صور التعاون في حالة الحرب.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا) وشبك بين أصابعه[1].

فالتعاون من أصول البناء والتواصل الحضاري بين الأفراد وبين الأمم والشعوب.

ومن أبرز صور التعاون في المجتمع المسلم الأول:

ما في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (تزوجني الزبير رضي الله عنه، وما له في الأرض من مالٍ، ولا مملوكٍ، ولا شيءٍ غير ناضحٍ، وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جاراتٌ لي من الأنصار، وكن نسوة صدقٍ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخٍ، فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني، ثم قال: (إخ إخ)؛ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، رقم ٢٣١٤، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٥.

وسلم أني قد استحييت، فمضى، فجئت الزبير، فقلت: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسي النوى، ومعه نفرٌ من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك. فقال: والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه.

قالت: حتى أرسل إلي أبو بكرٍ بعد ذلك بخادمٍ يكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني)[1].

وفي هذا الحديث: دليل على ما تحلى به هذا المجتمع النبوي من تراحم وتعاطف وتعاون وتكافل، فالمرأة تقف بجوار زوجها تساعده في حقله، والرجل يساعد المرأة في شؤون البيت، والجارة تكفي جارتها بعض الأعمال، والمجتمع يقف مع المرأة، ويمد لها يد العون، ويراعي ما جبلت عليه من حياءٍ وخجلٍ، والمرأة تراعي مشاعر زوجها، والرجل يشفق على زوجته، والأب يتفقد أحوال ابنته المتزوجة، ويسعى إلى التخفيف عنها ما أمكنه ذلك، نماذج رائعة تتجلى لنا من خلال هذا الحديث: الزوجة الصالحة التي تبذل ما في وسعها؛ لرعاية زوجها وبيتها، وتتجشم الصعاب وتواجه الأعباء بصبرٍ ورضا، فتكافح مع زوجها، وتعمل في البيت والحقل أعمالًا ليست باليسيرة، لكنها تصبر وتحتسب، والجيران الصادقون المتعاونون، وللتعاون بين الجيران أثرٌ عظيم في تخفيف الأعباء وتذليل الصعوبات، والمجتمع الذي تسوده المروءة والشهامة، فيساند البيت المسلم ويدعمه، ويرعاه ويصونه، والزوج الغيور المشفق على أهل بيته، والأب الذي لم تنته مهمته مع ابنته بزواجها، بل يتفقد أحوالها ويسعى لتوفير سبل الراحة لها، وفي هذا الجو الإيماني وجدت المرأة الأمن والأمان، والسعادة والطمأنينة، والحب الصادق: بيت صالح، وزوج كريم، وأب حنون، وجيران صدق، ومجتمع متراحم متعاطف، يا لها من سعادةٍ غامرةٍ وحياةٍ طيبة، وإن كانت صعبةً.

وبالتعاون والتضامن بنى ذو القرنين أعظم سدٍ في التاريخ.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم ٤٩٢٦، ٣/ ٤٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق، رقم ٢١٨٢، ٤/ ١٧١٦.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٣ - ٩٧].

فوائد التعاون المشروع[١]:

١. استفادة كل فرد من خبرات وتجارب الأفراد الآخرين في شتى مناحي الحياة.
٢. إظهار القوة والتماسك.
٣. يزيد في الإخلاص في العمل.
٤. تنظيم الوقت وتوفير الجهد.
٥. ثمرة من ثمرات الأخوة الإسلامية.
٦. حماية الفرد، ورفع الظلم عمن وقع عليه.
٧. تقاسم الحمل وتخفيف العبء.
٨. سهولة التصدي لأي أخطار تواجه الإنسان ممن حوله.
٩. سهولة إنجاز الأعمال الكبيرة التي لا يقدر عليها الأفراد.
١٠. القضاء على الأنانية وحب الذات.
١١. من أهم ركائز النجاح والتفوق.
١٢. نيل محبة الله ورضاه وتأييده.
١٣. يجعل الفرد يشعر بالسعادة.
١٤. إزالة الضغائن والحقد والحسد من القلوب.
١٥. مساعدة الفرد على بذل المزيد من الجهد والقوة.
١٦. المساعدة على سرعة التنفيذ.
١٧. الإسراع من عجلة التطور العلمي والتقدم التكنولوجي.
١٨. اكتساب حب الخير للآخرين.
١٩. يجدد طاقة الفرد وينشطها ويحقق أكبر الاستثمارات
٢٠. استغلال الملكات والطاقات المهدرة الاستغلال المناسب لما فيه مصلحة الفرد والمجتمع.

ثانيًا: التعاون المحرم وعاقبته:

بالتعاون تتكامل الجهود و تتآزر على تحقيق الهدف، سواء كان هذا الهدف خيرًا أم شرًا، وتعاون الناس في مجتمع ما على البر والتقوى يتحقق به الخير والصلاح في مجتمعهم، ويكثر ويمتد ويتسع، حتى يشمل مختلف جوانب حياته، بينما ينحسر الشر عنها، ويقل ويتضاءل أو يختفي.

وينعكس الأمر عندما يتعاون الناس على الإثم والعدوان، إذ ينحسر الخير والصلاح، ويمتد الشر والفساد ويستشري ويتعاظم خطره.

فما كان لفرعون أن يستبد ويظلم ويطغى لو لم يجد من يتعاون معه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨].

وقد نهى الله عباده عن التعاون على

(١) انظر: موسوعة الأخلاق الإسلامية، الخراز ص١٣٢، نضرة النعيم، مجموعة باحثين ٣/ ١٠٢٧.

الإثم والعدوان فقال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

أي لا تتعاونوا على ارتكاب الآثام، ولا على الاعتداء على حدوده، فإن التعاون على الطاعات والخيرات يؤدى إلى السعادة، أما التعاون على ما يغضب الله تعالى فيؤدى إلى الشقاء.

قال ابن القيم رحمه الله في بيان معنى الإثم والعدوان: «أن كلا منهما (الإثم والعدوان) إذا أفرد تضمن الآخر، فكل إثم عدوان؛ إذ هو فعل ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله به. فهو عدوان على أمره ونهيه، وكذلك كل عدوان إثم؛ فإنه يأثم به صاحبه.

هذا ولكن عند اقترانهما يكونان شيئين بحسب متعلقهما. فالإثم: ما كان محرم الجنس، كالكذب والزنا وشرب الخمر، ونحو ذلك. والعدوان: ما كان محرم القدر والزيادة. فالعدوان تعدي ما أبيح منه إلى القدر المحرم، كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله أو بدنه أو عرضه، فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره، وإذا أتلف عليه شيئا أتلف عليه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها، فهذا كله عدوان وتعد للعدل»[1].

وقال القرطبي: «العدوان: تجاوز الحد، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وقيد الوعيد بذكر العدوان والظلم ليخرج منه فعل السهو والغلط»[2].

وقال ابن عاشور: «﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ تأكيد لمضمون ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ لأن الأمر بالشيء، وإن كان يتضمن النهي عن ضده، فالاهتمام بحكم الضد يقتضي النهي عنه بخصوصه»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تذييل قصد به إنذار الذين يتعاونون على الإثم والعدوان. أي: اتقوا الله- أيها الناس- واخشوه فيما أمركم ونهاكم، فإنه سبحانه شديد العقاب لمن خالف أمره، وانحرف عن طريقه القويم[4].

وقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم صورًا من التعاون على الإثم والعدوان، فمن ذلك: ما رواه ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، إن الله عز وجل لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وساقيها، ومستقيها»[5].

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٢٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٥/ ١٠٣.
(٣) التحرير والتنوير ٦/ ٨٨.
(٤) الوسيط، طنطاوي ٤/ ٣٣.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٩٠٠، ٣/ ٢٧٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٤٩٤.

ولعن الرسول صلى الله عليه وسلم آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه[1].

ففي هذه الصور تتكامل الجهود والأدوار بين أطراف متعددة على إحداث فساد أو منكر، وكل طرف ما كان له أن يمارس منكره أو فساده لو لم تتعاون معه الأطراف الأخرى.

فشارب الخمر محتاج إلى عاصرها ومعتصرها، وهما محتاجان إلى حاملها والمحمولة إليه.

وفي الصورة الثانية تتكامل أدوار آكل الربا ومؤكله وشاهديه، وكل واحد من هؤلاء مكمل لدور الآخر في إحداث المنكر وإشاعته وتعزيزه.

فعاصر الخمر لن يعصرها إذا انعدم المعتصر والشارب، والمتعامل بالربا سيتوقف عنه مالم يجد من يتعامل معه به أو يعينه عليه، والمؤسسات الربوية ستغلق أبوابها وتختفي من مجتمعات المسلمين في حال عدم التعامل معها.

ثم إن صور التعاون على الإثم والعدوان لا تنحصر في هذه الصور؛ لأنه يعم كل تعاون على ظلم أو فساد ومنكر.

فكل ما نراه من مظاهر وأشكال الظلم والفساد والمنكر في مجتمعات المسلمين وانتشارها وتجذرها ما كان له أن يكون لو لم يكن هناك تعاون على الإثم والعدوان، فلعل الكثير لا يدرك خطورة ما يقوم به من دور أو يقدم من مساعدة قولية أو فعلية في هذا السياق.

فلابد إذًا من تنبيه المسلمين إلى خطورة التعاون على الإثم والعدوان، وتبصيرهم بصوره وأشكاله، وأن التعاون على الإثم والعدوان منكر من أعظم المنكرات وأخطرها، إذا لم يكن هو أخطرها وأعظمها على الإطلاق.

إن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عد الراضي بالمنكر كفاعله، وشريك له في إثمه، وما يترتب عليه من ظلم وفساد، كما يعتبر المعاون لفاعل المنكر بأي عون قولي أو فعلي مادي أو معنوي شريكًا له في إثمه وظلمه.

عاقبة التعاون المحرم[2]:

١. استحقاق العذاب من الله.
٢. المساعدة في تقلب نظام المجتمع، وفساد الذمم.
٣. فتح أبواب الشر، وطمس معالم الحق ليرتع الباطل.
٤. ينبيء عن خسة صاحبه ودناءة نفسه.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، رقم ١٥٩٨، ٣/١٢١٩.

(٢) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ٩/٤٢٠٧.

٥. دليل كامل على ضعف الإيمان وقلة المروءة.
٦. يبشر صاحبه بعاقبة وخيمة.
٧. ينبذ صاحبه، ويهمل شأنه إذا كان المجتمع صالحًا.
٨. يساعد على طغيان الحاكم ويرخص له الظلم.
٩. إذا تحقق في مجتمع كان سببًا في خرابه.
١٠. ضياع الحقوق، ووصولها لغير أهلها ومستحقيها.

أثر الاستعانة على الفرد والمجتمع

الاستعانة لها آثار عظيمة على الأفراد والمجتمعات، وهذه الآثار لا حصر لها[(١)]، ومن أهمها:

١. الاستعانة بالله من مظاهر عبادته وتوحيده.

فالعبد إذا حقق الاستعانة بالله كان ذلك دليلًا على عبوديته لربه، وتحقيقه المعنى الحقيقي للتوحيد؛ لذلك جمع الله بين العبادة والاستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، إشارة إلى هذا المعنى، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تبرؤ من الشرك، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل، فجمع بينهما سبحانه تنبيهًا لعباده إلى كمال التوحيد المطلوب منهم.

٢. لزوم الاستعانة سبيل السعادة الأبدية.

فالعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة. والاستعانة: هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٤٠.

الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما.

٣. صلاح قلبه وسد خلة روحه.

فالمستعين بالله تعالى تحصل له طمأنينة القلب، وراحة البال، وانشراح الصدر فإنه لا يلقي للدنيا بالًا، ولا يكترث لهم، ولا يعبأ بمخوف، وكيف يكترث لحوادث الأيام ونوائب الدنيا وهو يعلم أن الله معه فيكفيه ما أهمه وغمه.

فالاستعانة تحتها سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ولا يسكن إلا بالوصول إلى الله، فمن كانت محبته ورغبته ورهبته وطلبه الله سبحانه، واستعانته به ظفر بنعمته ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد[١].

٤. الاستعانة بالله تجعل الفرد المسلم وثيق الصلة بربه يجيبه إذا سأله، ويفرج عنه كربه، ويغفر له ذنبه.

إذا طلب الإنسان عون الله عز وجل، فإن عون الله عز وجل قريب، ويقدر استعانته بالله تكون كفايته وحصول مطلوبه.

ففي حادثة الإفك[٢] أن عائشة رضي الله عنها: (لما بلغها ما يقول الناس في عرضها، جعلت تبكي أيامًا وليالي متواصلة، لا يرقأ لها دمع، ولا تجف لها عبرة، حتى أتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبيها رضي الله عنه، فقال: (يا عائشة، إنه قد بلغني ما يقول الناس عنك، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تبارك وتعالى، وإن كنت ألممت بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه).

فلم تستطع عائشة أن تجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثقل على قلبها أن تكون محل شكٍ وريبة من صدقها ومن براءتها ومن طهارتها في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشارت إلى أبيها، قالت: يا أبت أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبوبكر: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتفتت إلى أمها فقالت: يا أم، أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قولي شيئًا. قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقالت عائشة: والله إن الله يعلم أني بريئة، وإن قلت لكم: أني بريئة فإنكم لا تصدقوني - وقع في قلوبكم الشك والريبة من كلام الناس الذي سمعتم -. وإن قلت لكم: أني فعلت فإنكم تصدقونني.

(١) انظر: الفوائد، ابن القيم ص٢٠٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، رقم ٢٦٦١، ٣/ ١٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم ٢٧٧٠، ٤/ ٢١٢٩.

ثم قالت: والله ما حالي وحالكم إلا كما قال أبو يوسف - أي: يعقوب عليه السلام- ونسيت اسمه من وقع الهم والحزن على قلبها-: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]).

فلم تنته من هذه الكلمات إلا وأنزل الله عز وجل براءتها من فوق سبع سماوات، حينما ذكرت هذه الكلمات، حينما ذكرت استعانتها بالله عز وجل، وأنها ليس لها معين، وليس لها ناصر، ولن يبرئها إلا هو تبارك وتعالى، فما استتمت هذه الكلمات ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ حتى أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

٥. بالاستعانة بالله يواجه الإنسان الأخطار المحدقة به.

٦. شعور المسلم بالقوة؛ لأنه لا يواجه المشاكل وحده، بل معه ربه.

٧. نزع شعور العجز من نفسه.

٨. الاستعانة بالله سبب محبة الله ورضاه.

٩. الاستعانة تذلل الصعاب، وتقوي المرء مع إخوانه على ما لا يستطيعه بمفرده.

١٠. الاستعانة المباحة تزيل الضغائن والحقد والحسد من القلوب.

١١. الاستعانة بين أفراد المجتمع تحقق معاني الأخوة الإسلامية.

وما ذكرته ينطبق على الفرد، ولا شك أن الفرد لبنة من لبنات المجتمع، فبصلاحه واستقامته صلاح المجتمع واستقامته، كذلك في أمنه وطمأنينته أمن وطمأنينة للمجتمع، وفي توفيقه وسداده توفيق وسداد للمجتمع.

موضوعات ذات صلة:

الاستعاذة، الدعاء، الذكر

الاستغفار

عناصر الموضوع

مفهوم الاستغفار	٧٦
الاستغفار في الاستعمال القرآني	٧٧
الألفاظ ذات الصلة	٧٨
منزلة الاستغفار وحكمه وصيغه	٨١
أوقات الاستغفار وأحواله	٨٩
دواعي الاستغفار	٩١
أصناف المستغفرين	٩٦
آثار الاستغفار	١٠٦

مفهوم الاستغفار

أولًا: المعنى اللغوي:

الاستغفار مصدر قولهم: استغفر يستغفر، وهو مأخوذ من مادة (غ ف ر) التي تدل على الستر في الغالب، فالغفر: الستر[1]، يقال: غفره يغفره غفرًا: ستره، وغفر المتاع في الوعاء غفرًا: أدخله وستره[2]، وتأتي كلمة (غفر) بمعنى ترك المؤاخذة بالذنب[3].

قال ابن منظور: أصل الغفر التغطية والستر.

و(استغفر): أي طلب المغفرة، واستغفر الله ذنبه: طلب منه غفره[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي للاستغفار هو ذات المعنى اللغوي؛ إذ إن الاستغفار بالمعنى الاصطلاحي: هو الطلب من الله سبحانه أن يستر الذنوب، وأن لا يعاقب عليها[5].

وبهذا فإن الاستغفار في معناه الاصطلاحي يتمثل في طلب أمرين في آنٍ واحد، هما: ستر الذنوب، وعدم العقوبة عليها.

قال ابن تيمية: «المغفرة شيء زائد عن الستر؛ لأن المغفرة معناها: وقاية شر الذنب؛ بحيث لا يعاقب عليه العبد، وأما مجرد ستر الذنوب فهذا لا يستلزم إسقاط العقوبة، فالله سبحانه قد يستر على من يعاقب ومن لا يعاقب»[6].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٣٨٥.
(٢) انظر: المحكم، ابن سيده، ٥/ ٤٩٩.
(٣) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٣/ ١٦٦.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٢٧٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٨٥، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٧.
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١٨٥.

الاستغفار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غفر) في القرآن الكريم (٢٣٤) مرة [١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩	﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء:٦٤]
الفعل المضارع	٦٠	﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال:٣٣]
الفعل الأمر	٣٦	﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف:٩٧]
اسم الفاعل	٣	﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران:١٧]
صيغة المبالغة	٩٦	﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣]
مصدر سماعي	١	﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥]
مصدر ميمي	٢٨	﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:٢٦٨]
مصدر	١	﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة:١١٤]

وجاء الاستغفار في القرآن بمعناه في اللغة وهو طلب المغفرة، وأصل الغفر: التغطية والستر، وغفر الله ذنوبه أي: سترها [٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٩٩-٥٠٣.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢٥-٢٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ التوبة:

التوبة لغةً:

مأخوذة من (توب)، التاء والواو والباء: كلمة واحدة تدل على الرجوع، وتاب إلى الله سبحانه من كذا وعن كذا يتوب توبًا وتوبة ومتابًا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة، فهو تائب وتواب[١].

التوبة اصطلاحًا:

التوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة[٢].

الصلة بين التوبة والاستغفار:

هما بنفس المعنى؛ فإذا ذكر أحدهما عني به الآخر، فالاستغفار إذا أطلق وحده أريد به التوبة، والتوبة إذا أطلقت وحدها أريد بها الاستغفار.

أما إذا قرن بينهما في الكلام فإن لكل منهما معنىً مختلفًا.

قال ابن القيم: «فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله»[٣].

٢ العفو:

العفو لغةً:

العفو مصدر عفا يعفو عفوًا، والعفو يطلق على معنيين أصليين: أحدهما: ترك الشيء، والآخر: طلبه[٤].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٥٧، لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ٦١.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٦٩.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٣٠٨.
(٤) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد، ٢/ ٩٣٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٥٦.

العفو اصطلاحًا:

هو التجافي عن الذنب، ومن ذلك قولهم في الدعاء: أسألك العفو والعافية. أي: أسألك ترك العقوبة، وأسألك السلامة[١].

وقيل: كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من استحق عقوبة فتركها، فقد عفا[٢].

الصلة بين طلب العفو والاستغفار:

الاستغفار أعم وأشمل من طلب العفو؛ إذ أن طلب العفو هو طلب ترك العقوبة فقط، أما الاستغفار فهو يشمل مع طلب ترك العقوبة طلب الستر على الذنب.

وقد بين المفسرون أن من الفروق بين العفو والمغفرة في الآية أن العفو أن يسقط الله سبحانه عن العبد العقاب، أما المغفرة فهي أن يستر عليه جرمه صونًا له من عذاب التخجيل والفضيحة، كأن العبد يقول: أطلب منك العفو، وإذا عفوت عني فاستره علي، فإن الخلاص من العذاب إنما يطيب إذا حصل عقبه الخلاص من عذاب الفضيحة[٣].

٣ الرحمة:

الرحمة لغةً:

قال ابن فارس: الراء والحاء والميم أصلٌ واحدٌ يدل على الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك: رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه[٤].

«ورحمة الله: عطفه وإحسانه ورزقه»[٥].

الرحمة اصطلاحًا:

صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك[٦].

والرحمة هي السبب الذي بين الله وبين عباده؛ بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه،

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٣٩.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي، ص ٥٣، ٥٩٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١١٦.
(٤) مقاييس اللغة ٢/ ٤٩٨.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٦١٢.
(٦) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٧٤.

وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم، وبها أنعم عليهم[1].

الصلة بين طلب الرحمة والاستغفار:

مما سبق يتبين أن طلب الرحمة يشمل معانٍ أوسع وأعم من الاستغفار، إذ من مقتضيات رحمة الله سبحانه للعبد أن يغفر له ذنبه؛ فالرحمة أوسع من المغفرة.

وقد ذكر بعض المفسرين فرقًا آخر بين الرحمة والمغفرة، وهو: أن المغفرة ترك العقوبة على ما مضى من الذنب، والرحمة أن يعصمه من الوقوع في الذنب في المستقبل.

قال ابن كثير: «الغفر: هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل»[2].

٤ التكفير:

التكفير لغةً:

مشتق من (كفر) بمعنى ستر وغطى، والكفر في اللغة: التغطية، والكافر ذو كفر: أي ذو تغطية لقلبه بكفره، ومن ذلك: الكافر بمعنى الزراع؛ لستره البذر بالتراب، والكفار الزراع، وسميت الكفارات بذلك لأنها تكفر الذنوب: أي تسترها، مثل كفارة الأيمان، وكفارة الظهار والقتل الخطإ[3].

التكفير اصطلاحًا:

تكفير الله سبحانه لذنوب العباد معناه سترها ومحو أثرها، وعدم مؤاخذتهم عليها[4].

الصلة بين الاستغفار وطلب التكفير:

ذهب بعض المفسرين إلى أن تكفير السيئات هو نفسه مغفرة الذنوب، وأن العطف في الآية للمبالغة والتأكيد. قال القرطبي: «تأكيد ومبالغة في الدعاء. ومعنى اللفظين واحد؛ فإن الغفر والكفر: الستر»[5].

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ التكفير يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد: يدخل كل منهما في الآخر[6].

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٠٢.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٨٩٧-٣٩٠٠.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٥٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٧٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣١٧.
(٦) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣١٢.

منزلة الاستغفار وحكمه وصيغه

بين الوحي الإلهي أهمية الاستغفار ومنزلته، وسوف نتناول ذلك بالبيان في النقاط الآتية:

أولًا: أهمية الاستغفار ومنزلته في ضوء القرآن الكريم:

تنوعت دلالات نصوص القرآن المبينة لأهمية الاستغفار؛ فجاء في بعضها الاقتران بالتوحيد وشعائر الدين العظام، وفي بعضها الأمر به، والحث عليه، وفي بعضها الثناء على أهله ومدحهم، وفي بعضها الآخر بين الله مدى ضرورته للعبد وعدم استغنائه عنه، وإليك تفصيل ذلك:

١. اقترانه بالتوحيد وشعائر الدين العظام.

- **اقترانه بالتوحيد.**

مما يبين عظم شأن الاستغفار ورفعة مكانته أنه كثيرًا ما يأتي في النصوص مقرونًا بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي هي خير الكلمات وأفضلها وأجلها على الإطلاق، فالتوحيد هو أساس العبادات كلها، وقاعدتها الصلبة التي يقوم عليها؛ فلا تستقيم عبادة العبد واستغفاره حتى يصلح توحيده[1].

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٢٠.

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٢-٣].

فأول ما أمر الله به في هاتين الآيتين هو توحيده، وإفراده بالعبادة دون سواه، والاستقامة على ذلك، ثم التوجه إليه بالاستغفار.

فالتوحيد هو أصل الدين، والاستغفار كماله؛ ولهذا نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين التوحيد والاستغفار في كثير من أدعيته؛ منها: قوله صلى الله عليه وسلم: **(سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)**[2].

فهذا الحديث لما كان جامعًا بين التوحيد بأنواعه الثلاثة، والاستغفار؛ فاق سائر صيغ الاستغفار في الفضيلة وارتفع عليها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ١٢/ ٣٧٥، رقم ٦٣٠٦.

قال ابن تيمية: «فالتوحيد يذهب أصل الشرك، والاستغفار يمحو فروعه، فأبلغ الثناء لا إله إلا الله، وأبلغ الدعاء قول: أستغفر الله»[(١)].

❁ اقترانه بشعائر الدين العظام.

مما يدل على عظم شأن الاستغفار وأهميته في كمال عبادة المسلم: أن الله سبحانه قرنه بكثير من العبادات؛ كالصلاة وقيام الليل والحج، حيث أمر عباده أن يختموا تلك العبادات بالاستغفار؛ لجبر ما يحصل من النقص، ولصون النفس عن اعتقاد الكمال، ورؤية الأعمال، والإعجاب بها، واعتقاد قبولها ضرورة، والدل بها على الله.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

أمر الله عباده في هذه الآية بالاستغفار بعد الإفاضة من عرفات جبرًا لما يحصل من التقصير منهم، ومنعًا من إعجابهم بأنفسهم، فإن هم امتثلوا ما أمروا به كان ذلك أحرى بقبول عبادتهم، وحصول المغفرة لهم، وتوفيقهم لأعمال أخرى[(٢)].

وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا، ثم قال: (اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام)[(٣)].

وأثنى الله سبحانه على عباده المستغفرين بالأسحار؛ حيث قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

أي: يطلبون المغفرة وقت السحر، فهؤلاء المتقون أحيوا ليلهم بالقيام، فلما كان وقت السحر ختموه بالاستغفار[(٤)].

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار[(٥)].

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١-٣].

قالت عائشة رضي الله عنها: (ما صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)[(٦)].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوي، ابن تيمية ١١/ ٦٩٧.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، ١/ ٤١٤، رقم ٥٩١.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٨٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤١١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٩.
(٥) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١١/ ١٤١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان،

٢. أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ومدح به الأنبياء قبله.

مما يدل على أهمية الاستغفار: الأمر الصريح للنبي صلى الله عليه وسلم بالاستغفار، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وفي هذا الأمر لنبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار أمر لأمته بالتبع[(١)].

وكذلك أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لأصحابه؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

وأثنى الله سبحانه على الأنبياء من قبله في مسارعتهم إلى الاستغفار في أحوالهم كلها، وشؤونهم جميعها، وذكر الله جملة من استغفاراتهم في أحوال متعددة، ومناسبات متنوعة؛ ومن ذلك:

١. ما ذكره الله سبحانه عن آدم وزوجه عليهما السلام بعد وقوعهما في المعصية ومسارعتهما بطلب المغفرة والرحمة. قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

٢. ذكر سبحانه تضرع نبيه نوح عليه السلام مستغفرًا بقوله: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

٣. أخبر الله سبحانه عن استغفار إبراهيم عليه السلام. وهكذا من يتأمل القرآن الكريم يجد فيه من استغفار الأنبياء ومسارعتهم إلى طلب المغفرة في جميع أحوالهم -عليهم صلوات الله وسلامه- شيئًا كثيرًا.

٣. جعله الله شعارًا لعباده المتقين، وأثنى عليهم به.

ورد ثناء الله على عباده المتقين به في عدة مواضع من كتابه الكريم، وفي ضمن ثنائه عليهم بالاستغفار تلويح بالأمر به؛ كما قيل: إن كل شيء أثنى الله على فاعله فهو آمر به، وكل شيء ذم فاعله فهو ناهٍ عنه[(٢)]؛ ومن ذلك:

باب الدعاء في الركوع، ٢/ ٥٣٧، رقم ٧٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ٤/ ٤٢٤، رقم ١٠٨٥.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٦٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٨٩.

(٢) انظر: الموافقات، الشاطبي ٣/ ١٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨.

١. قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

٢. قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

فأثنى الله سبحانه في هاتين الآيتين على عباده المتقين الذين من أجل صفاتهم وأرفعها: طلبهم لمغفرة الله؛ وخاصة وقت السحر، مما يدلنا على أهمية الاستغفار، ومزيد فضله في هذا الوقت؛ حيث يكون التنزل الإلهي، وإجابة السائلين، وحصول المغفرة للمستغفرين، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له)[١].

٤. ضرورته للعبد وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

إن العبد دائمًا دائر بين نعمة من الله سبحانه يحتاج معها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكل من هذين الأمرين من الأمور اللازمة للعبد[٢].

قال بعض العلماء: العبد بين ذنب ونعمة؛ لا يصلحها إلا الحمد والاستغفار[٣].

قال ابن تيمية: «والعارف بالله في كل يوم؛ بل في كل ساعة؛ بل في كل لحظة يزداد علمًا بالله وبصيرة في دينه وعبوديته؛ بحيث يجد ذلك في طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله، ويرى تقصيره في حق ربه سبحانه؛ سواء في القيام بعبادته حق القيام، أم في شكر نعمته؛ ولهذا كان محتاجًا إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار؛ بل هو مضطر إليه دائمًا في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال؛ لما فيه من المصالح، وجلب الخيرات، ودفع المضرات»[٤].

وليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب؛ بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائمًا.

فالإنسان ظالم جاهل، وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة والاستغفار، فهي من أسباب حصول المغفرة من العزيز الغفار[٥].

وقد أمر الله في كتابه بالمسارعة إليها.

قال عز من قائل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله)، ٩/ ١٤٣، رقم ٧٤٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، ٦/ ٢٧٩، رقم ١٧٦٩.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٦.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ١١٣.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٩٦.

(٥) المصدر السابق ١١/ ١٤٢.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣].

والمسارعة إليها تكون بالإتيان بأسبابها، ومن أعظم أسبابها التوبة والاستغفار.

فهؤلاء الملائكة عليهم السلام الذين يحملون عرش الرحمن عز وجل كان من بين مهامهم التي لا يغفلون عنها: استغفارهم للمؤمنين، وهذا أمر له دلالته وأبعاده التي تدل على أن خير ما يعطاه المؤمن المغفرة من ربه؛ لأنها سبيل إلى كل نجاة، وإذا صحت المغفرة للعبد فما بعدها أيسر منها.

فحري بالمسلم إذا عرف أهمية الاستغفار وعظيم مكانته عند الله أن يكثر منه، وألا يقنط من رحمة ربه؛ وإن عظمت ذنوبه وكثرت وتنوعت؛ فإن باب التوبة والمغفرة والرحمة واسع.

ثانيًا: حكم الاستغفار:

الاستغفار نوع من أنواع الدعاء؛ إذ هو طلب العبد من ربه غفران ذنوبه؛ وذلك بسترها والتجاوز عنها، والأصل في حكم الاستغفار أنه مطلوب على سبيل الاستحباب في أحوال وأوقات كثيرة، منها: وقت السحر.

قال القرطبي: «الاستغفار مندوب إليه»[(١)].

وقال النووي رحمه الله : «واعلم أن المذهب المختار، الذي عليه الفقهاء والمحدثون، وجماهير العلماء من الطوائف كلها من السلف والخلف، أن الدعاء مستحب»[(٢)].

ويمكن أن يقسم الاستغفار إلى:

١ . استغفار واجب.

اتفق العلماء على أن الاستغفار واجب بعد الذنب، سواء كان بترك واجب أو فعل محرم.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٣].

والأمر هنا للوجوب؛ إذ لا صارف له[(٣)].

وجاء في قصة الإفك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: (وإن كنت ألممت[(٤)] بذنب فاستغفري الله، وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه)[(٥)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٩.

(٢) الأذكار، النووي ص٣٥٣.

(٣) إرشاد الفحول، الشوكاني ص١٤٣، مذكرة في أصول الفقه، الشنقيطي ص٢٢٩.

(٤) ألممت: أصل اللمم: الاقتراب من الشيء، وحقيقته: وقوع الفعل من الشخص على خلاف العادة.
انظر: النهاية، ابن الأثير ٤/ ٢٣٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قال تعالى: (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا)، ٩/ ٣٨٥، رقم ٤٧٥٠.

قال ابن القيم: «فإن من الدعاء ما هو واجب؛ وهو الدعاء بالتوبة والاستغفار من الذنوب والهداية والعفو وغيرها»[1].

٢. استغفار مستحب.

يشرع ويستحب للمسلم طلب المغفرة من ربه في أوقات وأماكن وأحوال كثيرة حث الله سبحانه رسوله على طلب المغفرة فيها.

- من الأوقات الفاضلة: وقت السحر، وآخر ساعة من يوم الجمعة، وفي ليلة القدر، ويوم عرفة.
- ومن الأماكن: البلد الحرام، والمشاعر المقدسة للحاج بها، والمساجد.
- ومن الأحوال: الاستغفار في الصلاة، وعند الصباح والمساء، وعند ركوب الدابة، وبعد قضاء الحاجة، وعند النوم، وفي خواتيم الأعمال، وغير ذلك من الأحوال الفاضلة التي يستحب للمسلم اغتنامها، وطلب المغفرة فيها.

٣. استغفار محرم.

ذلك التحريم تارة يتعلق بالاستغفار نفسه، وتارة يتعلق بالمستغفر له:

- التحريم المتعلق بالاستغفار.

وذلك بالشرك في الاستغفار؛ كالتوجه بطلب المغفرة من غير الله، من بشر أو حجر أو شجر، أو الابتداع فيه.

- التحريم المتعلق بالمستغفر له.

كالاستغفار للكفار بعد موتهم[2]، وهذا منهي عنه.

وقد نهى الله سبحانه في كتابه الكريم نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين، نهيًا تتجلى فيه صورة البراءة من الشرك والمشركين؛ مهما كانت صلتهم بالمؤمن، وحبهم له، وحرصهم على سلامته، والدفاع عنه.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣].

ونهى الله عز وجل عن الاستغفار للمنافقين.

وقد كان فريقٌ من المنافقين يطمعون في استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم؛ مع علمهم بكفر بواطنهم، ليموهوا على المسلمين أنهم مسلمون مؤمنون، فأعلن الله سبحانه أن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار، وأنه صلى الله عليه وسلم لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم.

قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا

(١) جلاء الأفهام، ابن القيم ص٢٧٣.

(٢) انظر: الفروق، القرافي ٤/ ٢٦٠.

﴿يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

٤. الاستغفار المكروه.

يكره الاستغفار لأسباب عديدة؛ منها:

- الأماكن: كالاستغفار في الكنائس، والحمامات، ومواضع النجاسات والقاذورات.
- الهيئات: كالاستغفار مع النعاس، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة والاستغفار في مثل هذه الحالة، ومن الهيئات التي يكره فيها الاستغفار أيضًا: مدافعة الأخبثين، أو ملامسة النجاسة[(١)].
- أن تكون صيغته مكروهةً: كأن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت[(٢)].
- أن يشتمل على اعتداء مكروه: كرفع الصوت بالاستغفار، وعدم التضرع فيه، وكذلك من الاعتداء المكروه: أن يشتمل على السجع المتكلف، وغير ذلك من أنواع الاعتداء.

ثالثًا: صيغ الاستغفار:

ورد الاستغفار في القرآن الكريم بصيغ عديدة جاءت على ألسنة الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وهي تندرج تحت ثلاث صيغ عامة؛ وهي:

١. الصيغة الأولى: الطلب الصريح المجرد.

نحو: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩].

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [الأعراف: ١٥١].

وهذه الصيغة أظهر الصيغ من جهة القصد والإرادة[(٣)].

وقد وردت في خمسة مواضع أخرى من القرآن الكريم؛ في آل عمران، وإبراهيم، والشعراء، وص، ونوح.

٢. الصيغة الثانية: الخبر المتضمن للطلب.

نحو قوله تعالى عن آدم وحواء أنهما ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ونحو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤].

وقد ورد في تسعة مواضع من القرآن الكريم؛ في: الأعراف في موضعين، وهود، ويوسف، والأنبياء، والشعراء في موضعين، والنمل، والقلم.

٣. الصيغة الثالثة: الخبر المقترن بالطلب الصريح.

ولهذه الصيغة ثلاث صور:

الصورة الأولى: أن يكون الخبر المقترن بالطلب خبرًا عن السائل.

(١) انظر: الأزهية في أحكام الأدعية، الزركشي ص ١٦٣.

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٤٧٢.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٤٢.

نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥].

وقد ورد في أربعة مواضع من القرآن الكريم؛ في: البقرة، وآل عمران في موضعين، والقصص.

الصورة الثانية: أن يكون الخبر المقترن بالطلب خبرًا عن المسؤول.

نحو قوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهو الله سبحانه وتعالى.

وقد وردت في ثمانية مواضع من القرآن الكريم؛ في: البقرة، والأعراف في موضعين، والمؤمنون، وغافر، والحشر، والممتحنة، والتحريم.

الصورة الثالثة: أن يكون الخبر المقترن بالطلب خبرًا عن السائل والمسؤول معًا.

وورد في القرآن مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

فنستخلص مما سبق الآتي:

١. إن صيغ الاستغفار الواردة في القرآن الكريم من أفضل الصيغ وأكملها وأجمعها للمعاني الموجبة لغفران الذنوب، والبعد كل البعد عن الأدعية والاستغفارات غير الشرعية.

٢. لو تأملنا جميع صيغ الاستغفار فإن أغلبها صدر باسم الرب، أما الاستغفار المتضمن الثناء فإنه صدر باللهم؛ كما في سيد الاستغفار (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت)[١] . وسر ذلك أن الله تعالى يسأل بربوبيته المتضمنة قدرته وإحسانه وتربيته عبده وإصلاح أمره، ويثني عليه بألوهيته المتضمنة إثبات ما يجب له من الصفات العلى، والأسماء الحسنى[٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ٨/ ٦٧، رقم ٦٣٠٦.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٦٦.

أوقات الاستغفار وأحواله

بين القرآن الكريم أوقات الاستغفار وأحواله، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أوقات الاستغفار:

فضل الله الأوقات بعضها على بعض؛ فجعل بعضها نفحات لرحمته وجوده وكرمه، فينبغي للمسلم أن يترصد تلك الأوقات الفاضلة؛ فيستغفر الله فيها؛ فهي أرجى لحصول المغفرة له من غيرها؛ ومن تلك الأوقات:

١. الأسحار.

وقت السحر وقت يكون فيه تمام صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات والملهيات[(١)]، ومدح الله المستغفرين له في هذا الوقت، فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[آل عمران: ١٧].

وخص وقت السحر بالذكر لأنه وقت الغفلة ولذة النوم؛ ولأنه زمن القبول ووقت إجابة الدعاء[(٢)].

٢. يوم الجمعة.

لا شك أن يوم الجمعة خير الأيام على الإطلاق.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها)[(٣)].

وفيه ساعة يستجاب فيها للعبد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه -وأشار بيده يقللها-)[(٤)].

٣. ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان.

ليلة القدر ليلة مباركة؛ أنزل الله سبحانه فيها كتابه الكريم، وجعلها خيرًا من ألف شهر.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[القدر: ٢-٣].

وليلة القدر ليست مخصوصة بعينها في كل عام؛ بل إنها تتنقل في العشر الأواخر من رمضان.

ثانيًا: أماكن الاستغفار الفاضلة:

لقد اختص الله سبحانه بعض الأماكن بمزيد من الفضل، وجعلها مواطن لنزول

(١) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ٣٠٤.
(٢) انظر: الفتوحات الربانية، ابن علان ٧/ ٢٧٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، ٦/ ٣٨٠، رقم ١٩٧٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة، ٣/ ٨١، رقم ٩٣٥، ومسلم في كتاب الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة، ٦/ ٣٧٨، رقم ١٩٦٦.

الرحمات، واستجابة الدعوات، فمن تلك الأماكن:

١. البلد الحرام[(١)].

فهو مكان فضله الله، وأقسم به في كتابه العزيز، وما ذاك إلا لفضله، فيستحب للمسلم طلب المغفرة فيه؛ لأن من شرفه شرف ما يعمل فيه من الطاعات، ومنه: الدعاء والاستغفار؛ بل هو غاية الطاعة؛ لما فيه من الافتقار والتذلل بين يدي الله سبحانه وتعالى[(٢)].

ومن أعظم الأماكن فيه:

- المسجد الحرام، بجوار الكعبة المشرفة[(٣)].
- المشاعر المقدسة؛ كعرفة، والمشعر الحرام، ومنى.

٢. مسجد النبي صلى الله عليه وسلم.

قال صلى الله عليه وسلم: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي)[(٤)].

فيستحب للمسلم الصلاة فيها، والإكثار من الدعاء والذكر والاستغفار وقراءة القرآن؛ فإن ذلك كله من الأعمال الصالحة.

ثالثًا: الأحوال التي يستغفر فيها:

١. الاستغفار بعد الذنب.

حث الله سبحانه في كتابه الكريم عباده على المبادرة إلى طلب مغفرته عند الوقوع في الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١١٠].

فالاستغفار من الذنوب ينفع العاصين[(٥)]؛ فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من عبد يذنب ذنبًا فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له)[(٦)]. ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾[آل عمران: ١٣٥].

٢. الاستغفار عند الصباح والمساء.

يستحب للمسلم كلما أصبح أو أمسى

(١) انظر: الأزهية في أحكام الأدعية، الزركشي ص١١٠، تحفة الذاكرين، الشوكاني ص٦٠.
(٢) انظر: الفتوحات الربانية، ابن علان ٤/ ٢٦٣.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٨٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٥٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر، ٣/ ٣٩٢، رقم ١١٩٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة ٩/ ١٦٣، رقم ٣٣٥٥.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٨.
(٦) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الوتر، باب في الاستغفار ٢/ ٨٦، رقم ١٥٢١.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٥/ ٢٥٢، رقم ١٣٦١.

أن يتوجه إلى ربه بطلب مغفرته وعفوه، وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم أمته في ذلك، وبين لهم جزاء من يحافظ على ذلك؛ فقال صلى الله عليه وسلم: (سيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[1].

دواعي الاستغفار

بين الوحي الإلهي دواعي الاستغفار، وسوف نبينها فيما يأتي:

أولًا: الاستغفار من أجل الذنوب والمعاصي:

١. الاستغفار من فعل يقتضي الذم والعقاب.

شرع الله سبحانه الاستغفار لعباده رحمة بهم، وجعله سببًا لحصول مغفرته، ودخول جنته.

وتفصيل ذلك ما يلي:

- الاستغفار من ترك الواجبات في حال العلم.

حث الله سبحانه عباده في كثير من آياته على الاستغفار من ظلمهم لأنفسهم، ووعدهم على ذلك بالمغفرة والرحمة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وظلم الإنسان لنفسه يكون بترك الواجبات؛ كما يكون بفعل المحرمات، فكلاهما من السيئات والخطايا والذنوب التي يجب على العبد الاستغفار والتوبة إلى الله منها، فهما متلازمان، فكل من أمر بشيء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ٨/ ٦٧، رقم ٦٣٠٦.

فقد نهى عن فعل ضده[1]، ومن نهى عن فعل فقد أمر بفعل ضده[2].

- الاستغفار من فعل المحرمات في حال العلم.

إن الوقوع في المحرمات -سواء كانت من الكبائر أم من الصغائر- مما يوجب على العبد الاستغفار والتوبة إلى الله منها، وعدم الإصرار عليها[3]، فيجب على المسلم صادق الإيمان أن يجتنب ويبتعد أشد البعد عن الكبائر والموبقات، ويحذر من الصغائر، ومحقرات الذنوب؛ فإنها تهلك صاحبها، فالصغيرة مع الإصرار عليها والاستهانة بها تصبح كبيرة؛ كما قال ابن عباس: «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»[4].

وعليه فإن الاستغفار من ترك الواجبات وفعل المحرمات أمر واجب، من اقتصر عليه كان من الأبرار المقتصدين، ومن تركه كان من الظالمين الفاسقين.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

- الاستغفار من فعل ما كان سببًا للذم والعقاب لكن متوقف على الشرط.

هناك أفعال إذا فعلها المسلم كانت سببًا من الأسباب المفضية إلى ذمه وعقابه من الله - سبحانه؛ ولكن العقوبة عليها متوقفة على قيام الحجة عليه.

قال تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قال ابن تيمية: «وقيام الحجة إنما تقوم بشيئين:

- بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله.
- والقدرة على العمل به.

فلا يكلف العاجز عن العلم والعمل ما هو عاجز عنه»[5].

ولا شك أن الجاهل والمخطئ والناسي ممن عجزوا عن العلم، والمكره ممن عجز عن العمل، فلا إثم عليهم فيما يتركون من واجب أو يفعلون من محرم، وكذلك فإنهم لا قصد لهم ولا نية، والإثم مرتب على المقاصد والنيات؛ لكن يشرع لهم الاستغفار مما فعلوه في حال الجهل والخطأ والنسيان والإكراه؛ لأنه مما يفضي إلى ذم الله وعقابه.

ويمكن تقسيم الأفعال التي يستحب أن يستغفر منها لأنها سبب للذم والعقاب إلى ما يلي:

(١) انظر: روضة الناظر، ابن قدامة ١/ ١٣٣، الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي ١/ ٣٩٣.
(٢) انظر: البحر المحيط، الزركشي ٢/ ٤٣٥.
(٣) انظر: دليل الفالحين، ابن علان ١/ ٨٨.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٤١، وابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٩٣٤.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/ ٣٦، والتوبة له أيضًا ص٢٩.

- الاستغفار من ترك الواجبات وفعل المحرمات في حال الجهل.
- الاستغفار من الهم والعزم على فعل المحرمات مع عدم التمكن منها.
- الاستغفار من ترك الواجبات وفعل المحرمات في حال الخطأ والنسيان.
- الاستغفار من ترك الواجبات وفعل المحرمات في حال الإكراه.
- الاستغفار مما يدور في النفس من الخواطر والأحاديث التي لو قالها أو فعلها عذب.
- الاستغفار من فعل ما يخشى أن يكون سببًا للذم والعقاب.

هناك أفعال إذا فعلها العبد فإنه يخشى أن تكون سببًا لذمه وعقابه؛ وهي الوقوع في المشتبهات مع علمه بأنها مشتبهات، وكونها مشتبهات عنده فهي مما ينبغي للمسلم أن يتجنب الوقوع فيها والابتعاد عنها، وأن يبادر إلى الاستغفار والتوبة إلى الله سبحانه إذا وقع في شيء منها؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦].

ويمكن تقسيم المشتبهات التي يستغفر فيها، ويخشى أن تكون سببًا للذم والعقاب إلى قسمين:

١. الاستغفار من ترك المشتبهات بالواجب.
٢. الاستغفار من فعل المشتبهات بالمحرم.

وتفصيل ذلك ما يلي:

١. الاستغفار من ترك المشتبهات بالواجب.

وهي ما تردد الحكم فيها بين الوجوب والاستحباب، فهذا القسم من المشتبهات مما ينبغي للمسلم فعله والمحافظة عليه، ويستحب الاستغفار والتوبة إلى الله عند تركه؛ لأن تركه مما يخشى أن يكون سببًا للذم والعقاب.

ومثال ذلك: الوتر، فقد ذهب الحنفية[(١)] إلى وجوبه، وذهب الحنابلة إلى أنه سنة مؤكدة، فالورع فعله، ولا ينبغي للمسلم تركه، وإذا تركه فعليه التوبة والاستغفار من ذلك.

٢. الاستغفار من فعل المشتبهات بالمحرم.

وهي ما تردد الحكم فيها بين التحريم والكراهة، فهذا القسم من المشتبهات مما ينبغي للمسلم تركه، واستغفار الله سبحانه عند الوقوع فيه؛ لأنه مما يخشى أن يكون سببًا للذم والعقاب.

ومثال ذلك: نتف شعر الوجه بالنسبة للمرأة؛ فإن العلماء -رحمهم الله- اختلفوا: هل هو داخل ضمن النمص فيحرم[(٢)] أم لا

(١) انظر: شرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ١/ ٣٠٠.
(٢) انظر: حاشية الجمل على شرح المنهج ١/ ٤١٨، الملخص الفقهي، صالح الفوزان

يشمله ذلك[1]؟ فالورع تركه واستغفار الله عند الوقوع فيه.

ثانيًا: الاستغفار من فعل ما كان سببًا للنقص في الطاعات:

يمكن تقسيم الأفعال التي يستغفر منها -لأنها سببٌ للنقص- إلى ما يلي:

١. الاستغفار من ترك المستحبات المتفق على استحبابها.

٢. الاستغفار من فعل المكروهات المتفق على كراهتها.

٣. الاستغفار من الاشتغال بفضول المباحات.

١. الاستغفار من ترك المستحبات المتفق عليها.

هناك كثير من المستحبات التي ندب الشارع إليها، ورتب على فعلها الأجر العظيم؛ فمن ذلك:

- السنن الراتبة، فهي مما ينبغي للمسلم المحافظة عليها بعد الفرائض، جبرًا لما يحصل فيها من الخلل والنقص.
- قيام الليل المشروع، فهو من أفضل الصلوات بعد المكتوبة، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر.

فهذا كله مما يستحب للمسلم فعله، والمواظبة عليه، وإذا ترك شيئًا منه يستحب له الاستغفار إلى الله من تركه؛ لأن تركه سبب لنقص درجته وحرمانه من الخير الذي يحصل لمن حافظ عليه.

٢. الاستغفار من فعل المكروهات المتفق عليها.

المكروهات عقبة بين العبد والحرام، ومن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام؛ ومن ذلك:

- كراهية الالتفات في الصلاة بغير عذر.
- كراهية تخصيص يوم الجمعة بصيام.

فيستحب للمسلم الابتعاد عن هذه المكروهات وغيرها؛ ليحصل له موجبها من الثواب ورفعة الدرجات، وأن يستغفر الله سبحانه إذا وقع في شيء منها.

٣. الاستغفار من الاشتغال بفضول المباحات.

لا شك أن الاشتغال بفضول المباحات كالإكثار من المأكل والمشرب والخلطة وغير ذلك؛ يوجب قسوة القلب، وقلة الفهم، ويضعف صاحبه عن العبادة، فيستحب للمسلم استغفار الله من الانشغال بها، وأن يتقلل منها ويزهد فيها.

فنستنتج مما سبق أن الاستغفار من ترك المستحبات، وفعل المكروهات، وفضول المباحات، أمر مستحب، فمن اقتصر على الاستغفار الواجب من ترك مأمور أو فعل محظور كان من الأبرار المقتصدين، ومن

١/ ١١٥.

(١) لطائف المعارف، ابن رجب ص٨.

جمع بين الاستغفار الواجب والمستحب كان من السابقين المقربين.

ويشرع للمسلم أن يستغفر الله من كل فعل يخشى أن يكون سببًا لنقصان درجته عند الله؛ سواء مما قد يحصل من التقصير في كمال العبادة، أو الخوف من تقصيره فيها وفي شكر الله عليها، فالمسلم الحق هو الذي يعمل بطاعة الله سبحانه مخلصًا لله في عمله، متبعًا لشرعه الذي جاء به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، راجيًا بذلك رحمة ربه، خائفًا من تقصيره في فعله، فمهما بذل المسلم من العبادة والطاعة؛ فلن يوفيها حقها، وما ينبغي من شكر الله تعالى عليها، فكان في الاستغفار مندوحة وفرصة أتيحت له ليجبر به تقصيره فيما لا يمكنه القيام به، من حسن الأداء في الطاعة والتعظيم والشكر لله، وفي الاستغفار أبلغ اعتذار عن التقصير في ذلك؛ لهذا نجد أن الله سبحانه كثيرًا ما يأمر باستغفاره بعد قضاء العبادات.

قال تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

ثالثًا: الاستغفار من أجل حصول مرغوب فيه أو دفع مكروه:

لم يشرع الاستغفار من أجل الذنوب والمعاصي فقط وما يتبعها من الأفعال التي تنقص الأجر والثواب؛ بل شرع الاستغفار أيضًا لاستجلاب كل خيرٍ للعبد، ودفع كل شرٍ عنه، فما استجلب كل مرغوب، وما دفع كل مكروه بمثل التقرب إلى الله بكثرة الاستغفار والتضرع بين يديه طلبًا لمغفرته، وتوسلًا بها لتحقيق ما يرجوه منه جل وعلا.

فمن أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا.

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والاستغفار يمنع نزول العذاب على الأمة في الدنيا، ويوجب النجاة من العذاب في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

أصناف المستغفرين

عرض القرآن أصناف المستغفرين؛ لنقتدي بهم، وسوف نتناولهم بالبيان فيما يأتي:

أولًا: استغفار الملائكة والأنبياء:

١. استغفار الملائكة:

أخبر الله سبحانه في موضعين من كتابه الكريم بخبر يتضمن تشريف المؤمنين، ويعظم الرجاء لهم، وهو أنه سبحانه وتعالى سخر ملائكته -وهم أفضل خلقه- للاستغفار للمؤمنين[1]:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

تضمنت الآية الكريمة السابقة أمرين:

- الإخبار عن تسبيح وإيمان الملائكة من حملة العرش، ومن حوله، واستغفارهم للمؤمنين.
- ذكر الصيغة التي توجهوا إلى الله بها في استغفارهم للمؤمنين.

بعد أن أخبر سبحانه عن استغفار ملائكته للمؤمنين ذكر صيغة استغفارهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ فابتدؤوا استغفارهم بالنداء: ﴿رَبَّنَا﴾ لأنه أبلغ في التصريح، وأرجى لحصول الإجابة، ثم توسلوا إليه سبحانه بالثناء عليه بسعة الرحمة والعلم لتحقيق مطلبهم[2].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

تضمنت هذه الآية الكريمة: إخبار الله عن الملائكة بأنهم يستغفرون لمن في الأرض.

واختلف في عموم هذه الآية: هل هي باقية على عمومها، أو يخصص هذا العموم بقوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧].

على قولين:

القول الأول: أن هذه الآية باقية على عمومها، وعلى هذا يكون المراد بالملائكة عمومهم، وأن استغفارهم يعم المؤمن والكافر، ويكون المراد باستغفارهم للكفار هنا: السعي فيما يستدعي المغفرة لهم، وتأخير عقوبتهم؛ طمعًا في إيمان الكافر

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٤٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٣٧، الجواب الكافي، ابن القيم ص١٣٥.

وتوبة الفاسق[1]، وعلى هذا القول يدخل المؤمنون فيه دخولًا أوليًا[2].

وقد رجح هذا القول: ابن عطية والقرطبي والألوسي.

القول الثاني: أن هذا العموم مخصص بقوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعلى هذا القول يكون المراد بالملائكة: حملة العرش، وأن استغفارهم يخص المؤمنين فقط؛ فيكون الاستغفار حينئذٍ بمعنى طلب المغفرة لخطايا المؤمنين وذنوبهم[3]؛ وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقد رجح هذا القول: ابن جرير والبغوي وأبو حيان وابن كثير والشنقيطي.

والذي يظهر رجحان القول الثاني؛ وذلك لأن الاستغفار للكفار أمر محرم.

٢. استغفار الأنبياء عليهم السلام.

كثر ذكر استغفار الأنبياء والرسل عليهم السلام في القرآن الكريم، ومسارعتهم إلى طلب مغفرة الله، واستجابة الله لهم، وعدد الذين ورد استغفارهم في القرآن وصل إلى عشرة أنبياء؛ وهم:

١. آدم عليه السلام.
٢. نوح عليه السلام.
٣. إبراهيم عليه السلام.
٤. يعقوب عليه السلام.
٥. يوسف عليه السلام.
٦. موسى عليه السلام.
٧. داود عليه السلام.
٨. سليمان عليه السلام.
٩. يونس عليه السلام.
١٠. محمد -عليه الصلاة والسلام-.

وسأتطرق إلى ذكر بعض استغفارات هؤلاء الأنبياء:

١. استغفار آدم عليه السلام.

إن آدم وزوجه حواء عليهما السلام طلبا المغفرة والرحمة منه -جلا وعلا-.

قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ففي هذه الآية أمران:

- **الاعتراف بالذنب.**

سارع آدم عليه السلام وزوجه بعد وقوعهما في معصية الله إلى طلب مغفرة الله ورحمته؛ متوسلين إليه سبحانه بربوبيته،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٥، روح المعاني، الألوسي ٢٥/ ١٢.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٢٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٥/ ٧، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٢٠، البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٣٢٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١١٢، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٥٣.

ثم بالاعتراف بذنبهما[1]، والإقرار بظلمهما لأنفسهما.

❁ سؤال المغفرة والرحمة.

وبعد الاعتراف بظلمهما لأنفسهما طلبا المغفرة والرحمة من الله سبحانه بقولهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

وهذا خبر يتضمن طلب المغفرة والرحمة، فهما لم يسألا الله المغفرة والرحمة مباشرة؛ وإنما أخبرا أنه إن لم يغفر لهما ذنبهما ويرحمهما خسرا وهلكا، وهذا أبلغ من جهة العلم والبيان.

٢. استغفار نوح عليه السلام.

جاء الاستغفار الصادر من نوح عليه السلام في موضعين من القرآن الكريم، وبمناسبتين مختلفتين؛ وهما ما يلي:

الموضع الأول: استغفاره بمناسبة سؤال الله ما ليس له به علم واتعاظه بوعظ الله:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٧].

سارع نوح عليه السلام في هذه الآية بإجابة كلام ربه بما يدل على التنصل مما سأل، فاستعاذ بما لقنه به ربه مبالغة في التوبة، وإظهارًا للرغبة والنشاط فيها[2].

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾[هود: ٤٧].

وهذا اعتراف منه عليه السلام بذنبه، ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى، فقال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهذا خبر منه عليه السلام بأن الله إن لم يغفر له ويرحمه خسر، وهو يتضمن سؤال المغفرة والرحمة، وهو أبلغ من جهة العلم والبيان.

الموضع الثاني: استغفاره بمناسبة وحي الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن:

قال تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

بعدما دعا نوح عليه السلام على الكفار بالهلاك توجه إلى الله سبحانه بطلب المغفرة لنفسه.

قال تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي: استر على ذنوبي، وتجاوز عني، ولا تؤاخذني بها، ثم ثنى بالدعاء بطلب المغفرة لأقرب الناس إليه وأحقهم بدعائه، وهما والداه وكانا مؤمنين[3]، ثم دعا بالمغفرة لكل من

(١) تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين ١/ ١٣٥.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢١٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٧٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٣١٣، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٠٢.

دخل منزله وهو مؤمن، ثم عمم الدعوة لكل متصف بالإيمان من الذكور والإناث؛ وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، وقد شمل دعاؤه هذا كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، واستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالكلية[1].

٣. استغفار إبراهيم عليه السلام.

ورد استغفار إبراهيم عليه السلام في ثلاثة مواضع من القرآن؛ وذلك في مناسبتين مختلفتين.

أولًا: استغفاره بمناسبة قدومه إلى مكة وإسكان ذريته فيها:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ابتدأ إبراهيم عليه السلام استغفاره بالتوسل إلى الله سبحانه بربوبيته سبحانه وتعالى قائلًا: ﴿رَبَّنَا﴾ ثم طلب المغفرة لنفسه، ثم أشرك معه أقرب الناس إليه وأحقهم بشكره، وهما والداه، وطلبه الغفران لأبيه هنا كان قبل أن يتبرأ منه لما تبين له عدوانه لله، ثم أتبعه بطلب المغفرة للمؤمنين بالله ممن اتبعه على الدين الذي هو عليه؛ فأطاع الله في أمره ونهيه؛ وذلك يوم يحاسب الله عباده؛ فيجازيهم على أعمالهم[2]، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

ثانيًا: استغفاره بمناسبة رفض أبيه وقومه لدعوة التوحيد التي دعاهم إليها:

ورد استغفار إبراهيم عليه السلام بهذه المناسبة في موضعين من القرآن الكريم؛ وهما ما يلي:

أولًا: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

ثانيًا: قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥].

صيغة الاستغفار الأول عبارة عن إخباره عليه السلام بالطمع والرجاء في مغفرة الله، وكان جازمًا في ذلك عليه السلام[3].

وهذا الخبر يتضمن طلب المغفرة من الله سبحانه.

وكذلك دعا بطلب المغفرة، هو ومن آمن معه بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥].

فابتدأ إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١٠٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤١٣، البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٢٨٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥١، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٠٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٣٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٤٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١١١.

دعاءهم بالتوسل إلى الله بربوبيته، ثم طلبوا ألا يجعلهم الله فتنة للذين كفروا، أي: ألا يسلط الكفار عليهم بذنوبهم؛ فيفتنوهم ويمنعوهم مما يقدرون عليه من أمور الإيمان[1].

ولما كان رأس مال المسلم الاعتراف بالتقصير -وإن بلغ النهاية في المجاهدة- ختموا دعاءهم بطلب المغفرة من الله سبحانه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ﴾ [الممتحنة: ٥].

٤. استغفار يونس عليه السلام.

ورد استغفار يونس عليه السلام في القرآن مرة واحدة: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

إن يونس عليه السلام لما فعل ما يلام عليه من ربه كان من المناسب لحاله أن يبتدئ استغفاره بالثناء على الله بكمال الألوهية، فقال: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ فهو الذي يستحق العبادة دون سواه، ثم نزهه عن كل نقص وعيب وآفة بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ وختم دعاءه بالاعتراف بذنبه وجنايته، والاستغفار والتوبة من خطيئته على ألطف وجه وأحسنه[2] فقال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا الاعتراف بالذنب يتضمن طلب المغفرة من الله سبحانه[3] وتفريج الكربة، فاستجاب الله له وفرج عنه، وأخرجه من بطن الحوت.

٥. استغفار محمد عليه الصلاة والسلام.

عند التأمل في استغفار النبي صلى الله عليه وسلم الوارد في القرآن الكريم فإننا لا نجد استغفارًا مباشرًا صدر عنه صلى الله عليه وسلم؛ ولكن ورد الأمر له بالاستغفار في تسعة مواضع من القرآن الكريم:

ورد الأمر له صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لنفسه في خمسة مواضع من القرآن الكريم، ومنها:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٦].

وبالنظر في هاتين الآيتين الكريمتين نجد أن الله أمر نبيه بأمرين:

أحدهما: أمره صلى الله عليه وسلم بالحكم بين الناس بالعدل، واجتناب الظلم

(١) رجح هذا المعنى ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٢٥٦، وأبو حيان في البحر المحيط ١/١٥٦، والألوسي في روح المعاني ٢٨/٧٣، لأنهم إنما دعوا لأنفسهم، وعلى منحى القول الثاني إنما دعوا للكفار.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٨٠.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٠/ ١٦٨.

والجور.

ثانيها: أمره بطلب المغفرة من الله عند الحكم بين المتخاصمين.

وقال تعالى آمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب المغفرة والرحمة: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

ففي هذه الآية الكريمة:

أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب المغفرة والرحمة، ورغبه في ذلك، وأرشده إلى دعائه وحده مخلصًا له الدين، وطلب المغفرة والرحمة منه -جل وعلا-[1]؛ فإنهما العاصمان من كل الآفات والمخالفات[2]. والمعنى: استر علي ذنوبي بعفوك عنها، وارحمني بقبول التوبة، وتركك عقابي على ما اقترفت.

وفي تخصيص هذا الدعاء بالذكر دلالة على أهمية طلب المغفرة والرحمة في حياة المسلم.

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وبالنظر في الآية الكريمة السابقة نجد أن الله -عز وجل- أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأمور تعينه على تبليغ دعوته للناس، وهي ما يلي:

- الأمر بالصبر على تبليغ الدعوة.
- الأمر بالاستغفار من ذنبه.
- الأمر بالتسبيح بالعشي والإبكار.

وأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لأصحابه في موضعين من كتابه:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة بثلاثة أمور:

- أمره صلى الله عليه وسلم بالعفو عن أصحابه.
- أمره صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لأصحابه.
- أمره صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه في الأمور تطييبًا لقلوبهم.

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لمن بايعنه من المؤمنات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٧.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣ / ١٤٨، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٠١.

ففي هذه الآية الكريمة: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعد مبايعته للمؤمنات بالاستغفار لهن في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: سل لهن الله أن يصفح عن ذنوبهن، ويسترها عليهن بعفوه لهن عنها[1].

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والمسلمين بالاستغفار.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠].

ولما كان الإنسان محل تقصير فيما أمر بفعله حث الله سبحانه نبيه وأصحابه والمؤمنين من بعدهم على أن يختموا أعمالهم الصالحة -ومن ضمنها قيام الليل- بالاستغفار[2].

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠]

ثانيًا: استغفار المؤمنين:

ويتضمن ما يلي:

١. استغفار المؤمنين من الأمم السابقة.
٢. استغفار المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

١. استغفار المؤمنين من الأمم السابقة.

ومن أمثلته في القرآن:

- **استغفار الربانيين من الأمم الماضية بمناسبة مواجهة أعداء الله في أرض المعركة.**

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

دعا أتباع الأنبياء في أرض المعركة بمطالب؛ هي:

١. الدعاء بأن يغفر الله لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم.
٢. الدعاء بأن يثبت الله أقدامهم، وينصرهم على أعدائهم.

- **استغفار السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام.**

ورد استغفار السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام في موضعين من القرآن:

الأول: قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٨/ ٨١.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٢١٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٦١٤.

مُتَّبَعُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٥٠-٥١].

الثاني: قال سبحانه: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ٧٣].

وهذا خبر يتضمن طلب المغفرة من الله سبحانه .

١ . استغفار المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن أمثلته في القرآن ما يلي:

- **استغفار المؤمنين خوفًا من محاسبة الله تبارك وتعالى.**

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥].

توسل المؤمنون إلى الله سبحانه بأعمالهم الصالحة لإجابة دعائهم؛ وهي سماع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة سماع قبول وإذعان، والعمل بما جاء فيهما[(١)].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ثم سألوه المغفرة لذنوبهم بقولهم: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢ / ٧٠٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٧.

- **استغفار المؤمنين من أجل تخفيف الأحكام.**

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

بمناسبة تخفيف الله على الصحابة علم سبحانه وتعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم هذه الدعوات المباركات، وهي وإن لم يأت فيها التعليم صريحًا، بلفظ (قل) ونحوه؛ إلا أن معظم المفسرين قدروا هذه اللفظة[(٢)]؛ وهي ما يلي:

١. الدعاء بألا يؤاخذهم بما نسوا أو أخطأوا، ولا يحملهم التكاليف الشاقة.

٢. الدعاء بألا يحملهم مالا طاقة لهم به، وأن يعفو عنهم ويغفر لهم، وينصرهم على أعدائهم.

فلما انقادت قلوبهم، وذلت لعزة ربها، أعطوا كل ما سألوه، فلم يسألوا شيئًا فيه إلا قال الله تعالى: (قد فعلت) كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم[(٣)].

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٥، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٦٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه،سبحانه وتعالى، لم يكلف إلا ما

- استغفار المؤمنين المتقين.

ورد استغفار المؤمنين في عدة مواضع من القرآن الكريم؛ منها:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

توجه عباد الله المتقون إلى الله متوسلين إليه بربوبيته وبأعظم أعمالهم الصالحة -وهي إيمانهم به وبما شرعه لهم- لتحقيق مطلوبهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ بالستر عليها، وعدم المؤاخذة بها[1]. ولما كان طلب الغفران يتضمن إسقاط العذاب أردفوه بالتصريح بوقايتهم من عذاب النار[2] على سبيل التأكيد والمبالغة؛ وذلك في قولهم: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ومن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وحسن مآبه[3].

وورد أيضًا مدحهم بطلب المغفرة في معرض تذكير الكفار بذنوبهم حين يدخلون النار، ويسألون الله الخروج منها[4].

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

فامتدح الله سبحانه في هذه الآية الكريمة عباده المؤمنين بطلبهم مغفرته ورحمته.

قال السعدي: «وفي ضمن هذا الاستغفار ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم»[5].

ثالثًا: استغفار الكفار:

ويتضمن:

١. استغفار الكفار في الدنيا.

ورد استغفار الكفار في الدنيا في موضعين من القرآن الكريم؛ وذلك في المناسبة الآتية:

- استغفار الكفار عند نزول عذاب الله عليهم في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف: ٤-٥].

وقال سبحانه: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٤-١٥].

أخبر الله سبحانه في هذه الآية الكريمة عن موقف الكفار عند نزول العذاب عليهم في الدنيا؛ حيث إنهم لجأوا إليه سبحانه

يطاق ١/ ١١٦، رقم ١٢٦.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣ / ٢٠٧، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٨٥.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٦٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٥.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٥/ ٣٨٣.

وتعالى بالتضرع والدعاء بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم وتكذيبهم لأنبيائهم.

قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: دعاؤهم: ﴿إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا: ﴿إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وهذا اعتراف منهم بالذنب[1].

يتضمن طلب المغفرة والعفو والصفح من الله سبحانه؛ إلا أن هذا الاعتراف والندم لم ينفعهم؛ وذلك بسبب كفرهم؛ حيث أنزل الله عليهم عذابه فهلكوا.

وهذا إنذار للمشركين بالهلاك إن هم استمروا في تكذيب أنبيائهم والكفر بهم[2].

٢. استغفار الكفار في الآخرة.

أدعية الكفار عمومًا في الآخرة أكثر من أدعيتهم في الدنيا؛ وذلك لأنهم يفاجؤون بما لم يستعدوا له، فيسلكون جميع الطرق التي يحسبون أنها ستنقذهم مما هم مقدمون عليه من عذاب النار؛ ومن تلك السبل: طلبهم للمغفرة من الله سبحانه رجاء أن يخرجهم من النار.

- استغفار الكفار عند دخول النار واصطلائهم بحرها وعذابها.

قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:١٠٤-١٠٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

يتوسل الكفار عند دخولهم النار إلى الله سبحانه بالاعتراف والإقرار بظلمهم لأنفسهم وضلالهم؛ طمعًا في خروجهم من النار، قائلين: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: غلب علينا الشقاء الناشئ عن الظلم والإعراض عن الحق، ثم يعترفون بذنبهم، بقولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ وقولهم في الموضع الآخر: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ وهذا الاعتراف بالذنب[3] يتضمن طلب المغفرة والعفو والصفح من الله؛ ولكن لا ينفعهم حينئذٍ الاعتراف، ولا يقبل منهم استغفارهم وتوبتهم[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١١٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٦٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٢٠.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٩٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١١٠.

آثار الاستغفار

للاستغفار آثار في الدنيا والآخرة نبينها فيما يأتي:

أولًا: آثار الاستغفار في الدنيا:

للاستغفار آثار في الدنيا، ومنها:

١. آثار الاستغفار في حياة الفرد.

ورد في القرآن الكريم بيان الآثار والثمار الحاصلة بملازمة المسلم للاستغفار والإكثار منه؛ فمن تلك الآثار والثمار ما يلي:

- أنه سبب لحصول الحياة الطيبة.

إن ملازمة العبد للاستغفار الذي يتواطأ فيه القلب واللسان، وتظهر آثاره على الجوارح من المسارعة إلى كل فضيلة؛ لهي من أقوى الأسباب المؤدية إلى حصول الحياة الطيبة للعبد، وقد وعد بها الكريم الرحمن كل من عمل صالحًا في هذه الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

قال ابن كثير: «والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت[1] في الدنيا والآخرة» ومن أعظمها: ما يحصل للمؤمن من سرور القلب، وراحته وطمأنينته، وعدم قلقه واضطرابه في جميع مقامات الحياة.

وورد في كتاب الله ما يدل على أن الحياة الطيبة التي تحصل لعباده المستغفرين تشمل ذلك كله؛ فمن ذلك: سعة الرزق، ورغد العيش، وحصول القوة الروحية والجسمية.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٣].

ففي هذه الآية الكريمة رغب صلى الله عليه وسلم المشركين في المسارعة إلى الاستغفار مما هم عليه من الكفر والشرك، والتوبة مما سلف من الذنوب والآثام، ثم بين ما يترتب على امتثال ذلك من الآثار الحميدة؛ وهي ما يلي:

الأثر الأول: حصول المتاع الحسن.

الأثر الثاني: إيتاء كل ذي فضل فضله.

وقال سبحانه عن هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ٥٢].

ففي هذه الآية الكريمة رغب هود عليه السلام قومه إلى الاستغفار والتوبة بأمرين:

١. ترغيبهم بكثرة الأمطار المتتابعة.

لما أرشد هود عليه السلام قومه إلى

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٤٥.

التوحيد، ونبذ عبادة الأوثان؛ أمرهم بالاستغفار والتوبة، وحثهم عليه.

٢ - ترغيبهم بزيادة القوة الروحية والجسمية.

- أنه سبب للقرب من الله تعالى وإجابة الدعاء.

ويدل على ذلك قوله تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود: ٦١].

ففي هذه الآية الكريمة رغب صالح عليه السلام قومه في الاستغفار والتوبة إلى الله سبحانه بأمرين؛ هما:

١ - حصول القرب من الله -جل وعلا.

٢ - إجابته لدعاء من دعاه.

- أنه سبب لحصول الرحمة والمحبة من الله سبحانه للمستغفرين.

إن الاستغفار من أعظم الأسباب الجالبة لرحمة الله سبحانه ومحبته لعباده المستغفرين، وقد بين الله سبحانه ذلك في كتابه الكريم.

قال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود: ٩٠].

ففي هذه الآية الكريمة رغب شعيب عليه السلام قومه في الاستغفار والتوبة بحصول أمرين:

١. حصول الرحمة من الله تعالى للمستغفرين.

٢. حصول المحبة من الله سبحانه للمستغفرين ورضاه عنهم.

- حصول النصر والظفر والنجاة من المكروه.

فبملازمة الاستغفار والإكثار منه يستنزل النصر على الأعداء، ويظفر المسلم بكل محبوب، وينجو من كل مكروه، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

فبين الله سبحانه في هذه الآيات الكريمة ثمرة استغفار هؤلاء الربانيين؛ وهي ما يلي:

إيتاؤهم ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

ومعنى ثواب الدنيا أي: جزاؤها، وهو النصر على الأعداء، والظفر عليهم، والتمكين لهم في البلاد.

أما ثواب الآخرة: فهو حصول المغفرة لهم، ودخول الجنة.

وتخصيص الحسن بهذا الثواب للإيذان بفضله ومزيته، وأنه هو المعتد به عنده

تعالى، وترغيبًا في طلب ما يحصله من العمل الصالح[1].

- أنه سبيل لتفريج الكربات، والنجاة من الغموم والهموم، وتيسير الأمور.

إن الإكثار من الاستغفار الحق الذي يتواطأ فيه القلب واللسان لجدير بأن يفرج الله عن صاحبه الكربات التي تضيق بها نفسه، وينجيه من الغم والهم الذي يعتريه، وقد دل على ذلك عدة نصوص من الكتاب والسنة:

منها: قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧].

فاستغفار يونس عليه السلام في تلك الظلمات واعترافه بذنبه كان سببًا لنجاته من الغم الذي كان فيه.

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨].

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب)[2].

٢. أثر الاستغفار في حياة المجتمع.

إذا كان للاستغفار آثار ظاهرة في حياة الفرد فإن له -بلا شك- آثارًا ظاهرة أيضًا في حياة المجتمع، فأساس الصلاح يبدأ من الأفراد، وينعكس أثره على المجتمع بأسره؛ لأن الفرد هو الخلية الأولى في بناء المجتمع.

ويتجلى أثر الاستغفار في حياة المجتمع في أمور كثيرة؛ من أبرزها:

- الأمن من عذاب الله.

إن الاستغفار سياج واقٍ وأمان من عذاب الله -وأصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف[3]-، فإذا كثر الاستغفار في الأمة، وصدر عن قلوب بربها مطمئنة؛ دفع الله عنها ضروبًا من النقم، وصرف عنها صنوفًا من البلايا والمحن.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٢٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٢٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار ٢/ ٨٥، رقم ١٥١٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب الاستغفار ٢/ ١٢٥٤، رقم ٣٨١٩، والنسائي في عمل اليوم والليلة، باب ثواب الإكثار من الاستغفار ص١٤٧، ٤٦٠.
وصححه المناوي في فيض القدير ٦/ ٨٢، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب ١/ ٤٩٩.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١٣٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ١/ ١٢٣.

ففي هذه الآية الكريمة بين الله سبحانه أن مانع إنزال العذاب أمران:

أحدهما: وجود النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وهذا إعلام بكرامة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الله؛ حيث جعل وجوده في مكان مانعًا من إنزال العذاب[1].

ثانيهما: وقوع الاستغفار.

وهذا هو المانع الثاني من إنزال العذاب عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ والكلام على هذا المانع من وجهين:

أحدهما: في الاستغفار الدافع للعذاب.

الثاني: في العذاب المدفوع بالاستغفار.

أما الأول: فإن العذاب إنما يكون على الذنوب، والاستغفار مع التوبة النصوح يوجب مغفرة الذنوب التي هي سبب العذاب؛ فيندفع حينئذٍ العذاب[2] كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وأما الثاني: فإن العذاب المدفوع يعم العذاب السماوي، ويعم ما يكون من العباد.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٣٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٢١.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٥/ ٢٧، ٢٨.

- حلول البركات والخيرات والعز والتمكين.

فبالاستغفار يجلب الخصب والبركة، ويكثر النسل والنماء والخير في كل مكان، وهو مصدر للعزة والمنعة والتمكين، والبركة: كثرة الخير ونماؤه واستمراره[3].

وقد وعد الله بها كل من آمن به واتقاه؛ بفعل الطاعات، وترك المحرمات، ومن أجل الطاعات وأعظم القربات: كثرة الاستغفار؛ مع صدق العزم على ترك الذنب.

وقد بين الله سبحانه في كتابه الكريم صور هذه البركة وشمولها لجميع ميادين الحياة.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فالمجتمع الذي يلازم أفراده الاستغفار قولًا وفعلًا مجتمع مبارك، يفيض الله سبحانه عليه من بركاته ورحمته؛ ما يجعله مجتمعًا قويًا يسوده الإخاء والأمن والاستقرار.

ثانيًا: آثار الاستغفار في الآخرة:

١. المغفرة والأجر العظيم.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٢٧، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٨٦، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٤.

إن عدم المؤاخذة بما فرط من الذنوب، والتجاوز عن الإساءة، وستر العيوب أمر مطلوب، وأمل مرغوب، حث الله تعالى على المسارعة إليه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[آل عمران: ١٣٣].

وقد حفلت الآيات القرآنية ببيان هذا الوعد الكريم؛ منها:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

فالاستغفار الذي يتواطأ فيه اللسان مع القلب، وتظهر آثاره على الجوارح؛ من ترك الذنوب والمعاصي، والإقبال على الطاعات، لا شك أنه موجبٌ لحصول المغفرة من الله العزيز الغفار، فمن أعطي الاستغفار فقمن به أن يعطى المغفرة، فما ألهم الله عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه.

٢. الجنة والفوز العظيم.

إن أعلى وأفضل ثمار الاستغفار على الإطلاق هو دخول الجنة، دار النعيم المقيم، ودار الرضوان، ودار الجزاء الأوفى، وهو من لوازم المغفرة.

وحفلت الآيات القرآنية ببيان هذا الجزاء العظيم لعباد الله المستغفرين.

فمن الآيات: ما وعد الله به عباده المتقين الذين من أجل صفاتهم: طلب مغفرة الله.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٥-١٦].

وهذا وعد كريم من الرحمن لعباده المتقين الأبرار، الذين خافوه في الدنيا فأطاعوه؛ بأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، بأن جزاءهم عند ربهم يوم يلقونه هو دخول جناته خالدين فيها، ولهم فيها -زيادة في النعيم- زوجات مطهرات من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلائق، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء[1].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤١٠.

ومن أجل صفات من ينال هذا النعيم المقيم هم عباد الله المستغفرون؛ فالاستغفار هو أقرب الوسائل إلى مرضاة الله، وأعظم أسباب عز الدنيا وسعادة الآخرة[1].

موضوعات ذات صلة:

الدعاء، الاستعاذة، الذكر، التسبيح، التوبة، الذنب

(١) انظر: تهذيب التفسير، عبد القادر شيبة الحمد ٢/ ٣١٦.

الاستقامة

عناصر الموضوع

مفهوم الاستقامة	١١٤
الاستقامة في الاستعمال القرآني	١١٥
الألفاظ ذات الصلة	١١٦
أساليب القرآن في عرض الاستقامة	١١٩
الأنبياء والاستقامة	١٢١
سبل الاستقامة	١٢٤
موانع الاستقامة	١٣٢
الآثار والثمرات المترتبة على لزوم الاستقامة	١٣٥
الآثار المترتبة على الانحراف عن الاستقامة	١٣٧

مفهوم الاستقامة

أولًا: المعنى اللغوي:

«القاف والواو والميم أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس، وربما استعير في غيرهم. والآخر على انتصاب أو عزم»[(١)]. «والاستقامة: ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحد في كل شيء»[(٢)].

وقد أطلق على معنى الاستقامة عدة معانٍ، منها: القصد، والإصابة، والاستواء، والنظام، والاعتدال، والرشد، والزم، وغير ذلك[(٣)].

وقد اتفق كثير من أهل اللغة - ومن خلال ذكر جذرها حتى الألفاظ القريبة- على أنها ترجع إلى معنى الاعتدال والتوسط، والسلامة من غضب الله تعالى[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك[(٥)].

وقد عرفها الجرجاني بأنها: «الوفاء بالعهود كلها، وملازمة الصراط المستقيم برعاية حد التوسط في كل الأمور، من الطعام والشراب واللباس، وفي كل أمر ديني ودنيوي، فذلك هو الصراط المستقيم، كالصراط المستقيم في الآخرة»[(٦)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤٣.
(٢) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ٢/ ١٠٤.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٢/ ١٢٦، الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠١٧، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٥.
(٤) انظر: المصادر السابقة.
(٥) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ١٩٣.
(٦) التعريفات، الجرجاني، ص١٩.

الاستقامة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ق و م) في القرآن (٦٦٠) مرة، والذي يخص موضوع الاستقامة منها (٤٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة:٧]
الفعل المضارع	١	﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير:٢٨]
فعل الأمر	٥	﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]
اسم الفاعل	٣٧	﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]

وجاءت الاستقامة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الاعتدال، والاستواء، والالتزام[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم ص٩٨٨، ٩٨٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٩٨

الألفاظ ذات الصلة

١ الإصابة:

الإصابة لغة:

تعني ثلاثة أمور، هي: الصواب، والإيجاد، والإرادة[١].

الإصابة اصطلاحًا:

إرادة العمل الصالح المقبول شرعًا بإيجاد الظروف المناسبة له ضمن ضوابط الشرع الحنيف.

الصلة بين الإصابة والاستقامة :

إن ثمة اتصالًا قويًا بين الإصابة والاستقامة من حيث مدلول الجذر؛ فكلاهما يشترك في الدعوة إلى السلامة من غضب الله تعالى، ومن ثم عذابه؛ لكن الاستقامة أشمل من حيث إنها تجمع أقوال وأعمال وأحوال المسلم، أما الإصابة فيغلب عليها الأعمال، ومن ثم الأقوال.

٢ الاستواء:

الاستواء لغةً:

أصلٌ يدل على استقامة واعتدال بين شيئين[٢].

الاستواء اصطلاحًا:

أية عبادة دلت على استقامةٍ واعتدالٍ بعد اعوجاجٍ وميلٍ عن الحق واتباعه[٣].

الصلة بين الاستواء والاستقامة :

الاستقامة تعني الاعتدال والالتزام بما فيه سلامة من غضب الله تعالى ومن ثم عذابه، أما الاستواء فهي العبادات التي تدل على استقامة بعد اعوجاج حدث، أو ميل عن الحق وقع، وعلى هذا فالاستقامة أعم وأشمل.

(١) انظر: المنجد في اللغة، كراع النمل، ص١٢٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١١٢.
(٣) انظر: المصدر السابق .

٣ الرشد:

الرشد لغةً:

السير على النهج الصحيح والطريق المستقيم، والرشد والرشد: خلاف الغي[١].

الرشد اصطلاحًا:

«حسن التصرف في الأمر حسًا أو معنىً، دينًا أو دنيا»[٢].

الصلة بين الرشد والاستقامة :

الاستقامة: هي السير على المنهج القويم بما يضمن السلامة من غضب الله تعالى ومن عذابه، أما الرشد: فحسن التصرف في الأعمال؛ للوصول إلى الاستقامة، وعلى هذا فالاستقامة هدف، والرشد طريق عملي؛ للوصول إلى ذلك الهدف.

٤ القصد:

القصد لغةً:

استقامة الطريق[٣]، والقصد هو بيان الهدى[٤].

القصد اصطلاحًا:

حسن التوجه في النية، بما يكفل سلامة العبد من العذاب.

الصلة بين القصد والاستقامة :

الاستقامة: هي السير على المنهج القويم بما يضمن السلامة من غضب الله تعالى ومن عذابه، أما القصد: فحسن التوجه القلبي؛ للوصول إلى الاستقامة، وعلى هذا فالاستقامة هدف، والقصد طريق قلبي؛ للوصول إلى ذلك الهدف.

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٧٩.
(٢) التوقيف، المناوي، ص١٧٧.
(٣) انظر: تاج العروس، مرتضى الزبيدي، ٩/ ٣٥.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٦٧.

٥ العدل:

العدل لغةً:

يعني المثل[١]، والعدولة والعدل: الحكم بالحق[٢]، وهو عين الاستقامة في الحال في الدنيا، واستقامة المآل في الدنيا والآخرة.

العدل اصطلاحًا:

«وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق»[٣].

الصلة بين العدل والاستقامة:

العدل أعم من الاستقامة؛ لأن العدل يقتضي استقامة الحال في الدنيا، واستقامة المآل في الآخرة؛ فهو بهذا الوجه بمعنى الاستقامة، وكل ما له مدلول المثلية فهو عدل؛ فإن من العدل ما هو مذموم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١].

(١) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض، ٢/ ٦٩.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٢/ ٣٨.
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص١٤٧.

أساليب القرآن في عرض الاستقامة

أولًا: أسلوب الأمر:

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٧].

بينت هذه الآية وما بعدها سبب البراءة من المشركين، وإمهالهم أربعة أشهر، ثم قتالهم، وذلك هو نقضهم العهود، وأنهم معتدون بكل ما تعني الكلمة؛ لكن الاستثناء يظهر هنا للمعاهدين من المشركين الملتزمين؛ فإن استقامتهم هذه على العهود جعلت ضرورة المعاملة بالمثل بالنسبة للمسلمين، ثم تذيل الآية بالجملة التقريرية، ويمكن أن تكون تعليلية ببيان أن الله تعالى يحب المتقين، الذين يخافون من غضب الله تعالى بعدم التزام أوامره ونواهيه[1].

والأسلوب الاستفهامي الاستنكاري في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ بمعنى كيف لا يكون؛ ليفيد مدى بشاعتهم، وبالتالي فإن المعاملة بالمثل من تمام الاستقامة التي أمر المسلمون بالتزامها.

وفي أثناء المعركة قد تشحن النفوس ضد المشركين، وبالتالي لا يضبط المسلمون أنفسهم أمام قاتليهم، وبالتالي فإن الاستقامة مع من استقام من المشركين جاءت بأسلوب الأمر وبعدها ترغيب بأن الله تعالى يحب المتقين؛ لما في أمر الله تعالى وترغيبه من عظيم الأثر في الالتزام.

وتوضح الآية أن الأصل في الإسلام الرحمة والعفو والصفح؛ لكن الذي يستهزئ بالعهود التي أبرمت مع المسلمين فلا عهد له ولا أمان بعد ذلك، مع أهمية ألا تختلط الأمور فيعامل من التزم بالعهد كمن لا يلتزم، ومن هنا جاء الأمر بالاستقامة؛ حتى يمتاز جانب الاعتدال في التعامل مع المشركين إن التزموا بعهودهم.

ثانيًا: أسلوب الترغيب والترهيب:

يكثر في القرآن الكريم استعمال أسلوب الترغيب والترهيب في قضايا كثيرة، ومنها: الترغيب في الاستقامة على المنهج الإسلامي، والترهيب من الإعراض عنه الذي يخالف مبدأ الاستقامة.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[الجن:١٦-١٧].

بعد أن ذكرت الآيات السابقة أحوال الجن، وتصنيفهم إلى مسلم منصف في المفهوم الرباني ومقتضياته، وظالم في ذلك، ترغب هذه الآية بصيغة إغرائية للخير،

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ١١٨.

بأنهم لو التزموا نهج الصراط المستقيم، واعتدلوا في خط الحق لأتتهم الدنيا بكثرة رزقها، وعبر عن الرزق الوفير في الآية بالماء؛ لأنه أخص خصوص الرزق، وكل هذا الرزق سببه الاختبار في هذه الدنيا؛ وهنا يأتي الترهيب الواضح لمن عدل عن الاستقامة، فاعترض طريق الحق، فإنه يسلك هذه الطريق بمزيد من العذاب الذي لا يتوقف[1].

ثالثًا: أسلوب التأكيد والتنكير:

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

تبين هذه الآية أن قدرة الله تعالى تظهر أيضًا بوحي الله تعالى إليك أيها النبي برسالة القرآن، الذي يصفه بأنه روح من أمر الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى نعمته على نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه لولا فضله جل جلاله لما علم عن القرآن والإيمان شيئًا، ولكن الله تعالى جعل من هذا القرآن وهذا الإيمان نورًا يستضاء به.

رابعًا: أسلوب ضرب المثل:

وهو ما يظهر واضحًا في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥-١٢٦].

من يرد الله تعالى هدايته إلى الإيمان يقذف في قلبه النور؛ فينفسح القلب ويعمر بالإيمان، ومن كان غير ذلك ويريد أن يبقى على الضلالة، وينحرف عن الاستقامة التي هي سبيل النجاة، فإن هذه الذنوب تجعل -بتقدير الله تعالى وحده- هذا القلب ضيقًا ليس للخير فيه منفذ، وهكذا فإن الله تعالى يجعل عليهم بشؤم ذنوبهم النجاسة العظيمة، فهم سيئوا التصرف؛ لأنهم غير مسلمين؛ فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يقدر على أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه[2].

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ٣/ ٧٦٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٤/ ١٣٨٦.

الأنبياء والاستقامة

من المعلوم أن أولى الناس التزامًا بالاستقامة هم الأنبياء عليهم السلام؛ إذ إنهم يمتازون عن البشر بعلو كعبهم في الصبر وتحمل المشاق لأجل الدعوة، ومن ثم طلب رضا الله تعالى.

ولذلك فإن القرآن الكريم قد بين أن الأنبياء مأمورون بالاستقامة، التي هي سبيل النجاة من عذاب الله تعالى، وذلك من خلال أربعة نماذج، وهم: سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وسيدانا موسى وهارون عليهما السلام، وسيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد اختلفت صيغة الأمر بالاستقامة للأنبياء عليهم السلام، فنجد ما يلي:

منها ما يأتي بصيغة الأمر المباشر من الله تعالى بالاستقامة، كما في نموذج سيدينا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام.

ومنها ما يأتي من خلال بيان ثمرة الالتزام بأمر الله تعالى؛ فهي الهداية إلى صراط الله المستقيم، كما في نموذج سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

ومنها ما يأتي بصيغة الأمر للمؤمنين بعبادة الله تعالى وحده، وبأن من فعل ذلك فقد هدي إلى صراطٍ مستقيم، وهو منهج الإسلام العظيم، كما في نموذج سيدنا عيسى عليه السلام.

ومنها ما يأتي بصيغة الأمر المباشر للنبي، ومن ثم لمن تاب من أمته من الشرك وأخلص لله تعالى بالتوحيد، بعد بيان نماذج كثيرة من أحوال السابقين، كما في نموذج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أولًا: الاستقامة في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

تذكر هذه الآيات نموذجًا مثاليًا في الاستقامة الحقة؛ حيث إنه عليه السلام كان معلم خير، يأتم به أهل الحق والهدى، فهو مطيعٌ لله تعالى على الحنيفية، ليس من المشركين بالله تعالى، كان يخلص الشكر لله جل جلاله ولنعمه الجمة، وقد اصطفاه الله تعالى واختاره لخلته، وهداه إلى الدين الإسلامي القويم، وجزاءً لما بدر منه من عبادات ترضي الله تعالى، آتاه الله عز وجل في هذه الدنيا ذكرًا حسنًا، وثناءً جميلًا باقيًا على الأيام، وإنه في الدار الآخرة يوم القيامة ممن صلح أمره وشأنه عند الله، وحسنت

فيها منزلته وكرامته[1].

وإن سيدنا إبراهيم عليه السلام مثال الاستقامة الحقة؛ بل إن من تشريف الله تعالى له أن جعله أبًا للاستقامة، إن كانت تعني الإسلام، فهو أبو المسلمين بنص القرآن، كما قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[الحج:٧٨].

ومن يستقم على الدين، ويلتزم حقيقته فإنه يفلح في الدنيا والآخرة، وهو ما توضحه الآية الثانية والعشرون بعد المائة من سورة النحل.

ومن يطلب الصلاح والاستقامة يهده الله تعالى لها، كما في قوله تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢١].

ثانيًا: الاستقامة في قصة موسى وهارون عليهما السلام:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٨-٨٩].

تذكر هذه الآية دعاء سيدينا موسى وهارون عليهما السلام من خلال مقولة الرجاء من سيدنا موسى عليه السلام لربه سبحانه وتعالى - بعد ما زاد فرعون وقومه من طغيانهم-: ربنا إن عطاءك اللامحدود الذي أعطيته لفرعون وقومه من خير كثير، ربنا إن هذا الأمر وجه لأجل الضلال، ربنا اطمس على أموالهم، فمسخت دنانيرهم ودراهمهم وزروعهم حجارةً، واشدد على قلوبهم بالضلالة، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الكثير المؤلم، فحيل بينهم وبين أن يؤمنوا.

وقد كان هارون عليه السلام يؤمن من وراء موسى عليه السلام، ولذلك فإن الله تعالى أجاب دعوتهما مرتبطًا ذلك بالأمر لهما بالاستقامة، وهي الاتزان في لزومها سيما بعدم اتباع طريق الذين لا يعلمون[2].

وتبين هذه الآية أن الله تعالى يهدي من يستحق النصر والتمكين أمثال سيدينا موسى وهارون عليهما السلام إلى الدعاء والرجاء بتذلل وانكسار إليه عز وجل، ثم تبين الآية التالية أن الله تعالى أمر بالاستقامة التي هي أصل الاعتدال؛ لأجل عدم الميل إلى الجهلة، الذين لا يعلمون حقيقة الدين القويم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٣١٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٢/ ٢٧١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٥/ ٣٣١٤.

ثالثًا: الاستقامة في قصة سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۖ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم:٣٤-٣٦].

بينة الآيات الكريمات أن قضية التوحيد ونفي الولد عنه سبحانه وتعالى من قضايا العقيدة الأساسية، ويترتب على ذلك إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. وهذا هو المنهج المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

رابعًا: الاستقامة في قصة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٠-١١٢].

تذكر الآية العاشرة بعد المائة من سورة هود جملةً من أساليب التوكيد أن الله تعالى آتى سيدنا موسى عليه السلام التوراة وما فيها من أحكام فاختلف الناس فيها من مصدقٍ إلى مكذب، ولولا أن الله تعالى أخر على هذه الأمة عقاب من يكذبك يا محمد صلى الله عليه وسلم لجاءهم العذاب بعجلٍ بقضاء الله تعالى، وإنهم لفي شكٍ منه موقع للريب.

وتذكر الآية التالية أن كل من ذكرهم الله تعالى من قصص البشر والخلق في هذه السورة وغيرها، والله ليوفينهم ربك أعمالهم، فإن من صفاته أنه خبير بكل ما يعمل هؤلاء الخلق إن كان خيرًا أو غير ذلك.

ثم يأتي الأمر الرباني المباشر من الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالاستقامة بعد بيان حال الخلق عمومًا كما ذكر القرآن؛ لأن الملجأ الحقيقي للنجاة من غضب الله تعالى هو الاستقامة الحقة، وذلك بالتخلي عن الباطل، والتحلي باتباع المنهج المستقيم الذي يتمثل في الإسلام العظيم، وليس الأمر لك يا محمد صلى الله عليه وسلم فحسب؛ بل إن الأمر بالاستقامة ينسحب على من تاب معك من المؤمنين الذين أنابوا إلى بارئهم عز وجل.

ثم جاء التحذير الإلهي لنبي الله تعالى ولجميع من تاب بعدم مجاوزة الحد الذي يحرفكم عن المسار الصحيح، وهو التوحيد الخالص الصافي من الشك والريب، وذلك عين الاستقامة الحقة، فإن من عمل بالحق

أو الباطل فالله تعالى بصير بذلك، فيجازي بفضله أو بعدله[1].

وقد ورد الأمر بالاستقامة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولقومه بعد بيان قصص مجموعة من الأنبياء عليهم السلام؛ لما في ذلك مزيد عبرة.

وربط قصة سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم واختلاف الناس في التصديق أو التكذيب بتأخير العذاب على هذه الأمة لما في ذلك من تخصيص هذه الأمة بالخيرية أكثر من غيرها حتى بني إسرائيل الذين فضلوا على عالمي زمانهم بمتاع زائل، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم تكتسب خيريتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠].

وهذا النص القرآني مفعمٌ بأساليب التوكيد؛ لما يدلل على أهمية الأمر بالاستقامة، وأن الوصول إليها يحتاج إلى طلب العون من الله تعالى وحده.

سبل الاستقامة

إن الاستقامة سمة النبيين ودأب الصالحين، وإنها وسيلة للنجاة من غضب الله تعالى، وبالتالي عذابه، وإن المسلم الحق هو الذي يسلم من الشوائب المبعدة عن الحق، ويتحلى بصفة الاعتدال التي هي في حقيقتها استقامة.

وسبل الاستقامة يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

أولًا: الإيمان بالله تعالى والإخلاص له:

قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٣-٥٤].

بعد أن ذكرت الآية السابقة ما حكم به عز وجل من تمكين الشيطان من إلقاء الشبه، ذكرت الآية الثالثة والخمسون من السورة العلة من إلقاء الشبه في قلوب أوليائه، وهي جعل إلقائه لهذه الشبه امتحانًا واختبارًا لمن انزلق عن حد الاعتدال والاستقامة وهم المنافقون، ومن قسا قلبه عن فهم الآيات فصارت حجريةً، ثم تذيل الآية بجملة

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٠٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ١٠٣.

تقريرية لحقيقةٍ، ألا وهي أن الظالمين الذين وضعوا أقوالهم وأفعالهم في غير مواضعها لفي خلاف بسبب أنهم في غير شق حزب الله تعالى.

وإن جميع هذه العوامل الإيمانية تجعل منة الهداية الإلهية لهؤلاء المؤمنين - الذين أثبتوا قلبًا وقولًا وعملًا على صدق إيمانهم- موصلةً إلى طريق الاستقامة الحقة، المنجية من غضب الله تعالى وعذابه، سيما وأنها تعني لزوم الإسلام العظيم[1].

والوصول إلى الاستقامة منة من الله تعالى، فإذا أحسنت التوجه إلى الله تعالى، وآمنت به فإن الله تعالى يهديك إلى الاستقامة الحقة.

ولا بد من المرور بالأشواك أثناء التعبد لله تعالى والتنسك بما يشمل معاني الإيمان بالله تعالى والإخلاص له؛ حتى يعلم من يستحق مرتبة الاستقامة من غيره، وهو ما يتبين لنا واضحًا في الآيات في معرض الحديث عن مداخل الشيطان.

ثانيًا: الاعتصام بالله تعالى:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

يروى أن «شاس بن قيس اليهودي» مر على نفر من الأوس والخزرج؛ فاغتاظ مما رأى من الألفة بينهم بما غير الإسلام من أحوالهم، بعدما كان بينهم من بغضاء وشحناء، فبعث شابًا من يهود، يذكرهم ببعاث، وهي معركة كبيرة حدثت مع الأوس والخزرج، فاغتاظ القوم من الأوس والخزرج، وتنادوا: السلاح السلاح، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فذهب إليهم مع نفر من الصحابة، وما زال يعظهم حتى أنابوا إلى بارئهم وتعانقوا باكين، وأنزل الله تعالى هذه الآيات[2].

تبدأ الآية المائة من السورة بنداء إلى المؤمنين، فالعهد المطلوب منهم في هذه الآية هو عدم طاعة فريق الضلال والإضلال من أهل الكتاب؛ لأن العاقبة التي تحل نتيجة ذلك، الردة إلى الكفر بعد الإيمان بسبب حسدهم وبغيهم عليكم، ثم تتساءل الآية التالية سؤالًا استنكاريًا كيف يكون الكفر منكم؟ والحال أن آيات الله تعالى ما زالت تتلى عليكم، بمعنى أنكم تعاصرون نزول الوحي، وما زال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيًّا بينكم قائمًا بين أظهركم،

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٣/ ٧٢، مراح لبيد، الجاوي ٢/ ٧٧.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص١١٦، لباب النقول، السيوطي، ص٤٤.

يوجهكم ويرشدكم إلى الخير.

ثم ترغب الآية بالاعتصام بالله تعالى؛ فإن من اعتصم به، فإن الله يهديه إلى الطريق القويم، وهو منهج الاستقامة الذي يوصله إلى الجنة[1].

والتحذير من طاعة فريق الضلال والإضلال من أهل الكتاب جاء بصيغة خبرية من خلال بيان العاقبة الوخيمة التي ستحل بهم إن أطاعوهم؛ فهم سيرتدون إلى الكفر.

وبعد التحذير البالغ الأهمية يأتي الترغيب الكبير بالاعتصام من خلال بيان المنة التي ستكون لهم، وهي الصراط المستقيم، الموصل إلى الجنة.

ثالثًا: العبادة والدوام والثبات عليها:

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام:١٦٠-١٦١].

تبين الآية الستون بعد المائة عظيم رحمة الله تعالى وفضله؛ فالذي جاء بحسنة فله من الأجر عشر حسنات مثلها، والذي جاء بالسيئة فإن فضل الله تعالى يقتضي أن يجازى بمثلها، ولا يمكن لهؤلاء أن يظلموا، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا أحسن أحدكم إسلامه؛ فكل حسنةٍ يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها)[2].

ثم تخاطب الآية التالية سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم بأمره أن يقول للخلق جميعًا إنني أرشدني ربي ووفقني إلى الدين القويم، الذي هو منهج الاستقامة الحقة، أعني دينًا ذا قيمٍ ومقام رفيع، فهو ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام على الحنيفية السمحة، ثم تذيل الآية ببيان قطعي الدلالة أنه عليه السلام ليس من المشركين[3].

رابعًا: التمسك بالقرآن:

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[الجن:١-٢].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قال: (انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٤١، بيان المعاني، عبد القادر العاني، ٥/ ٣٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء، ١/ ١٧، رقم ٤٢.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٧٧.

الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء.

فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم، وقالوا: يا قومنا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[الجن:١-٢].

فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾[الجن:١]. وإنما أوحي إليه قول الجن)[(١)].

تبدأ سورة الجن بأمر إلهي لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول للخلق جميعًا: أوحي إليه من الله تعالى وحده أنه طاف عدد لا يزيد عن عشرة من الجن فتوجهوا نحو تهامة، فإذا بهم يسمعون كلام القرآن العظيم، الذي ملئ من العجائب، فهو يدعو ويرشد إلى الصواب من التوحيد والإيمان الذي هو عين الاستقامة المنجية من غضب الله تعالى وعذابه، ولذلك لم يسع الجن إلا أنهم آمنوا إيمانًا لا مراء فيه ولا نفاق، وعهدٌ على عدم الشرك بنوعيه بالله الرب المتعال[(٢)].

خامسًا: اتباع رضوان الله تعالى:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٥-١٦].

يخاطب الله تعالى أهل الكتاب ببيانه لهم أن رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم قد جاءهم؛ ليوضح لهم الدين الذي أخفوا كثيرًا منه؛ وليعفو عنهم في كثير من زلاتهم؛ ثم تذيل الآية ببيان أنه قد جاءكم يا أهل الكتاب نور، وهو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقرآن كريم، وحتى يهتدي المؤمن إلى القرآن، والاستقامة في التزامه،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر، ١/ ١٥٤، رقم ٧٧٣.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٣٤٦.

لا بد من اتباع رضوان الله تعالى؛ بالانضباط في طريق السلامة من غضب الله تعالى، والخروج من الباطل وما فيه من ظلمات، إلى طريق واحد وهو النور المبين، وكل هذا منوطٌ فقط بإذن من الله تعالى وحده، فإذا قام من قام ممن هدى الله قلبه للإيمان بذلك، فعندها يرشد الله تعالى ويوفق إلى الطريق القويم، وهو المنهج الرباني الأصيل[1].

سادسًا: التوبة والاستغفار:

التوبة إلى الله تعالى تعني الإنابة والرجوع إلى الله تعالى والندم على الذنوب، والعزم على العمل الصالح طاعةً لله تعالى، وهذا كله عين الاستقامة المنجية من غضب الله تعالى، وقد شهدت الآية الثامنة والستون من سورة النساء نموذجًا واضحًا بهذا الشأن.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[النساء:٦٦-٦٨].

«سبب نزولها ما روي أن ثابت بن قيس بن شماسٍ تفاخر هو ويهوديٌّ، فقال اليهودي: والله لقد كتب علينا أن نقتل أنفسنا فقتلنا، وبلغت القتلى سبعين ألفًا، فقال ثابتٌ: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا»[2].

يخبر الله تعالى في الآية السادسة والستين من السورة: أن الله تعالى لو كتب على يهود عصر النبي صلى الله عليه وسلم أن اقتلوا أنفسكم بالجهاد، أو اخرجوا من دياركم كما كان من اليهود السابقين حين استتيبوا من عبادة العجل؛ ما فعلوه إلا القليل منهم، مع أن الأصل أن يفعلوا ما يوعظون به، وذلك أفضل لهم وأعظم في الثبات على الحق، ولأعطاهم الله تعالى الأجر العظيم، ولمن الله تعالى عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وهذا مرتبط بمزيد الاستغفار والتوبة النصوح والرجوع إلى الله تعالى، والتذلل والانكسار إليه جل جلاله[3].

ومن رحمة الله تعالى بهذه الأمة المحمدية أن جعل منة الهداية إلى الاستقامة ميسورة، ليس فيها مشقة كما كان حال السابقين.

ولا يصل المؤمن إلى قبول توبته من قبل الله تعالى إلا إذا تذلل وانكسر إليه جل جلاله.

سابعًا: اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،٦/ ١١٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٢٧٠.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ٨٢.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

تحذر هذه الآية الكريمة من أن ينادي المسلمون رسول الله محمدًا صلى الله عليه وسلم باسمه، كما لو كانوا ينادون بعضهم البعض؛ فلا تقولوا: يا محمد، ولا يا أبا القاسم، ولا يا ابن عبد الله؛ لأن الله تعالى يعلم حال المنافقين الذين يخرجون من المسجد خفيةً؛ هروبًا من أن يسمعوا كلام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فهم يلوذ بعضهم إلى بعض بدل أن ينطلقوا إلى الحق، ثم تحذر الآية من مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا تصيبهم بليةٌ، أو يصيبهم العذاب المؤلم في الدنيا والآخرة؛ لأن من يتخلف أو يتقاعس عن اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه فلن يصل إلى الاستقامة الحقة[(١)].

ثامنًا: الشكر لله تعالى:

لا شك أن الشكر لله تعالى من أنجع الطرق الموصلة إلى الاستقامة الحقة، فاستقامة جدنا الذي نتشرف بالانتساب إليه سيدنا إبراهيم عليه السلام، واصطفاؤه وتقريبه من المنزلة الرفيعة من الهداية، جاء كل ذلك لأنه التزم القنوت والعبادة، وهو إمام جامع لكل الفضائل، يأتم به أهل الهدى في التزام الحنيفية السمحة؛ لاستجماعه كمالاتٍ لا توجد في غيره، وقد التزم الشكر الذي لا مثيل له لله تعالى؛ واقتران الشكر مع الهداية إلى الاستقامة؛ لبيان النتيجة والثمرة، وهي تحبيب الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام لكل الناس؛ لأنه موحد في دين الإسلام ليس يهوديًا ولا نصرانيًا[(٢)].

ويتجلى ما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

وإن من موجبات شكر العبد لله تعالى نعمه التي لا تعد ولا تحصى، ومن هذه النعم: أن الأمة المحمدية هي أمة العدل والاستقامة التي تتوسط الناس، من حيث دراية أخبارهم بما علم من كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ومن حيث التوسط في الدين؛ فلا هم أهل غلوٍ فيه كالنصارى، ولا هم أهل جفاء كاليهود، وإن الأمة شاهدةٌ على جميع الناس منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى يوم القيامة،

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ٣/ ٥٥٤، تفسير السمرقندي، ٢/ ٥٢٧.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ٤٢٠، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٨/ ٤١٢٧.

كما يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

وتلك هي الخيرية بعينها مشروطةً بلوازمها من أمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن منكر، وإيمانٍ بالله تعالى[1]، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

تاسعًا: العدل:

قال تعالى: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل:٧٥-٧٦].

يضرب الله تعالى في هذه الآية مثلًا لنفسه والآلهة التي تعبد من دونه؛ فأما الآلهة فهي لا تعدو عن كونها صنمًا لا يسمع ولا ينطق، ينتظر إذن الحركة والتقلب ممن يعبده، إذا دعاه هذا العابد لا يأت بخير، فهل يستوي هذا الوثن مع الله تعالى الذي يأمر بالاستقامة الحقة، ومعلوم أن منهج الله جل جلاله هو منهج مستقيم، بمعنى أن من يلتزم أوامره يكون على هذا الصراط المستقيم[2].

وأسلوب ضرب المثل في أخص خصوص الاعتقاد، وهو إثبات وجود الله تعالى، فيه مزيد حجةٍ بالغةٍ على أولئك المعرضين عن طريق الاستقامة الحقة، ولذلك فإن الله تعالى بين صفة العدل والأمر به؛ لأن عذاب الله تعالى لعباده عدلٌ، ورحمته بهم بإدخالهم الجنة فضلٌ.

عاشرًا: الدعاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[آل عمران:١٩٠-١٩٤].

يذكر الله تعالى في هذه الآيات أن التفكر في خلق الله تعالى الذي لا حصر له، ومن

(١) انظر: معاني القرآن، الفراء، ١/ ٨٣، جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٤٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٦٢، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٢/ ٤١٢.

نماذجه المبصرة السماوات والأرض، واختلاف المناخات والأوقات وما ينتج عن ذلك من متغيرات، كل ذلك يعد عبرةً وآية لكل ذي لبٍ، أي: عقلٍ صافٍ من الشوائب، فهم الذين يستقيمون على المنهج؛ باستحضار الله تعالى في كل أحوالهم وأقولهم وأفعالهم سواء أكانوا في الصلاة أم في حياتهم عمومًا قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ثم يتذللون وينكسرون مقرين بأن الله تعالى أحسن وأتقن كل شيء خلقه، فهو منزهٌ عن أي نقص، متضرعين إلى الله تعالى راجين أن ينجوا من العذاب الأخروي.

فإن من أدخل النار فقد أخزي من قبل الله تعالى، وليس لأحد من الظالمين من أي ناصر، إذا كان الله تعالى هو الآمر، ثم تتجلى طبيعة الاستجابة من قبل هؤلاء المؤمنين المستقيمين المعتدلين أنهم بمجرد سماع منادي الإيمان من بعيد، فإنهم فطنوا إلى ذلك - دونما فذلكةٍ- فآمنوا إيمانًا يسلب قلوبهم نحو بارئهم، فما دام الإيمان تغلغل في قلوبهم، فإنهم يتقربون إلى الله تعالى بالأعمال الصالحات، ويسألون الله خيرًا فهم يطلبون أولًا المغفرة من الذنوب، ثم الستر الكامل الذي يحط السيئات، ولضمان استمرار الخير، أن يبقوا حتى وفاتهم في صحبة أهل الخير البررة.

فإذا ما استجاب الله تعالى ببركة حسن ظنهم به جل جلاله، فإنهم يرجون الجنة التي وعدها الله تعالى للرسل عليهم السلام، وعدم الخزي بعدم استجابة دعائهم؛ بأن تتقلب قلوبهم إلى الشر في الدنيا قبل نهاية حياتهم، فالله تعالى لا يخلف وعده لأيٍ من خلقه، وهؤلاء المؤمنون المستقيمون يقرون بذلك[1].

الحادي عشر: العلم:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

تذكر هذه الآية الكريمة أنه كما كان اختلاف في اللون والنوع في الثمار والجبال، فإن الناس والدواب عمومًا مختلفون أيضًا في اللون والنوع، ثم تستأنف الآية مقررة لحقيقةٍ، ألا وهي أن الذين يخشون الله تعالى ويعملون قصارى جهدهم للسلامة من غضبه، ومن ثم الاستقامة، هم العلماء المؤمنون المستسلمون لله تعالى ولأمره، فالله تعالى متصف بالعزة والمغفرة، فهما اسمان له[2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٣/ ٨٤١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٤/ ٣٠، الكشف والبيان، الثعلبي، ٨/ ١٠٥.

موانع الاستقامة

لتحصيل الاستقامة موانع نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: الكفر والشرك بالله تعالى:

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

تبين هذه الآية الكريمة أن طريق الاستقامة يختلف عن طريق الغواية في صفاته وملامحه، فلا يختلط هذا بذاك.

وتبين أن الكفر بما يعبد من دون الله قضية كبرى في الدين، فلا يصح إيمان العبد بالله تعالى حتى يكفر بكل ما يعبد من دونه[1].

ثانيًا: اتباع سبل الشيطان:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر:٣٩-٤٢].

تذكر الآيات السابقة أولى مراحل الصراع والعداوة بين الشيطان والإنسان.

وتذكر هذه الآيات أن إبليس تعهد بمحاولة إغواء بني آدم، وإبعادهم عن الطريق المستقيم، مستخدمًا أسلوب التزيين والتدليس، فيظهر لهم الحق باطلًا، والباطل حقًّا.

وأقسم أن سيبذل في سبيل ذلك كل الوسائل والطرق التي تغوي بني آدم، وتبعدهم عن دين الله، واتباع شرعه.

ولكنه أقر في نهاية حديثه أن هناك فئة من بني آدم لا يستطيع إغواهم، وهم من اصطفاهم الله، وهداهم إلى صراطه[2].

ويفسر إبليس تكبره على الحق بأنه غواية من الله تعالى بسبب خلقه آدم، الذي يرى إبليس أنه أفضل منه، ولكنه استكبر، ولم يستجب لأمر الله، ويسجد لآدم.

ثالثًا: الفرقة والاختلاف:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

تبين هذه الآية الكريمة أن الذين تركوا دينهم وخرجوا عنه كاليهود والنصارى، أو الذين جعلوا دينهم متفرقًا، فأخذوا ببعضه وتركوا بعضه، هؤلاء جميعًا أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم لست منهم في أي شيء مما يسرون أو يعلنون، من حيث

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٢٦٠.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١١/ ٥٨، البحر المديد، ابن عجيبة، ٣/ ٨٨.

محاسبتك لهم في الدنيا، ولن تحاسب عليهم، فأمرهم وحالهم كله مرجعٌ إلى الله تعالى، ثم يخبرهم خبرًا يقينيًا بعد مماتهم أو يوم القيامة، بكل فعلة فعلوها[(١)].

ونجد أن الاختلاف في قراءة (فرقوا) حصل منه اختلاف المعنى الذي سبق، فقرأ حمزة والكسائي (فارقوا) بمعنى «ترك الدين»، والباقون قرءوا (فرقوا) بمعنى «جعل الدين متفرقًا»[(٢)]، وفي هذا بيان لعظيم خطر من انحرف عن طريق الاستقامة الحقة، واتبع هواه.

رابعًا: الطغيان:

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه:٨١].

يأمر الله تعالى - على وجه بيان الحل والتذكير بنعمه- بني إسرائيل أن يأكلوا من جميع الطيبات التي رزقها الله تعالى لهم؛ ولكن هذا منوط بعدم الطغيان، وهو مجاوزة الحد، الذي هو ضد الاعتدال والاستقامة؛ فإن ذلك ينذر بغضب الله تعالى، ومن يأت إليه غضب الله تعالى فقد أهلك؛ لأنه يتبع هواه؛ فقد حمله السعة والعافية على التجاوز والطغيان[(٣)].

خامسًا: الركون إلى الذين ظلموا:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

تبين الآية الكريم أن من أسباب دخول النار والعذاب فيها: الركون إلى الظالمين، والميل إليهم، وموالاتهم.

وفي المقابل لن يستطيع هؤلاء الظالمون نصرتهم يوم القيامة، بل هم أحوج منهم لمن ينصرهم[(٤)].

سادسًا: اتباع الجهلة:

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

تنهى الآية الكريمة عن طاعة الكفار من خلال بيان العاقبة، وذلك أن مآل طاعتهم هو الضلال عن طريق الحق والاستقامة، طريق الدين القويم، فهم يبنون افتراءاتهم على الظن، وهم يكذبون في ذلك[(٥)].

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٠٨، الدر المنثور، السيوطي، ٣/ ٤٠١.

(٢) انظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، ص١٥٢.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٣٣، فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٤٤٨.

(٤) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ص٣٠١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٢٤٥.

(٥) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ص١٨٢، فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١٧٧.

سابعًا: اتباع الهوى:

قال الأوزاعي: «قال إبليس لأوليائه: من أين تأتون بني آدم؟ قالوا: من كلٍ.

قال: فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ قالوا: إن ذلك لشيءٌ ما نطيقه، إنه لمقرونٌ مع التوحيد.

قال: لآتينهم من بابٍ لا يستغفرون الله منه، فبث فيهم الأهواء»[1].

وبالتالي فإنه لا سبيل إلى الاستقامة إلا إذا تخلص المسلم من موانعها، وأعظمها الأهواء، وقد عالج القرآن الكريم ذلك من خلال آيات كثيرة.

منها قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون:٧١-٧٣].

تبين هذه الآيات الكريمة بأسلوب الشرط، أنه لو أن الله تعالى - الذي من صفاته الحق- اتبع أهواءهم فيما يشتهونه أو يعبدونه لفسد تدبير السموات والأرض؛ لأنها مدبرة بالحق لا بالهوى، ولفسدت أحوال السموات والأرض؛ لأنها جارية بالحكمة لا على الهوى، ولفسد من فيهن من المخلوقات، ثم تذيل الآية بحرف إضراب، من خلال أن الله تعالى أتاهم بكل ما هو حق، لكنهم عن هذا الحق معرضون، وبأسلوب التخيير لغرض بيان العاقبة الفضلى، يسأل الله تعالى نبيه محمدًا هل تريد منهم أمرًا من رزق، فرزق ربك خيرٌ وأفضل، فهو خير الرازقين، ثم تخبر الآية التالية على وجه التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم: أنك يا محمد تدعوهم إلى الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه[2].

(١) ذم الكلام وأهله، الهروي، ٥/ ١٤٧.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٤/ ٦٣، زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٢٦٧.

الآثار والثمرات المترتبة على لزوم الاستقامة

إذا التزم العبد طريق الاستقامة ظهرت عليه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه آثار وثمرات نتناولها في النقاط الآتية :

أولًا: في الدنيا على الفرد والمجتمع:

لا شك أن موضوع الاستقامة اتسم بالأهمية التي يقف عندها كل مسلم، وإن القرآن الكريم أخبرنا أن لها آثارًا وثمراتٍ في الدنيا قبل الآخرة، على الفرد والمجتمع، فمنها:

١. زيادة النشاط في الدعوة إلى الله تعالى.

وهذا يكون من خلال طمأنة الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، عندما كذبه قومه، أنك يا محمد تدعو إلى الاستقامة الحقة، لهذا الدين القويم، ويفسر ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المؤمنون:٧٣].

٢. التمسك بالمنهج المستقيم والعض عليه بالنواجذ.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣].

فإن هذه الآية تعني وجوب التمسك بالقرآن؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قائمٌ على هذا الدين، الذي هو الصراط المستقيم[(١)].

٣. تنزل الملائكة على هؤلاء المستقيمين بالبشريات.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

فقد بين العز بن عبد السلام في مختصر تفسير الماوردي أن تنزل الملائكة إما أن يكون عند الموت، أو يوم القيامة، وعلى القول الأول تتحقق ثمرة للاستقامة في آخر عهد هذا المستقيم في الدنيا[(٢)].

٤. ولاية الملائكة للمستقيمين.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾[فصلت:٣١].

فببركة استقامة هؤلاء المؤمنين تأتي إليهم الملائكة، وتخبرهم أنهم أحباؤهم وأنصارهم، فقد كنا الحفظة عليكم؛ بأمر من الله تعالى[(٣)].

٥. الرزق الكثير لمن التزم

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٨/ ٣٣٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن، ٣/ ١٣٠.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ١٣٢.

الاستقامة.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

والماء هو أساس الحياة لكل شيء، فبه يحيا الإنسان، ويحيا الحيوان، وينبت الزرع والكلأ، وبه يزداد الخير والرزق بالبلاد والعباد، كل ذلك بسبب استقامة الخلق على منهج الله تعالى.

ثانيًا: في الآخرة:

١. لا خوفٌ على المستقيمين ولا حزن.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف:١٣].

فإن الأمن من الفزع الأكبر، وكل ما يستقبلهم في الآخرة يكون حليف هؤلاء المستقيمين، وكذلك لا يحزنهم ما فاتهم[(١)].

٢. دخول الجنة، والخلود فيها.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف:١٤].

فبينت الآية الكريمة أن الأعمال الصالحات سبب لنيل الرحمة، جزاء استقامتهم على التوحيد والطاعة[(٢)]، إذ إن (أولئك) في هذه الآية هي إشارة إلى المستقيمين الذين ذكرتهم الآية السابقة لها، وهي الثالثة عشر من نفس السورة، وقد جعلت جزاءهم على الاستقامة هو دخول الجنة مع الخلود فيها.

٣. محبة الملائكة ونصرتها للمستقيمين.

ويدل على هذه الثمرة الآية الواحدة والثلاثون من سورة فصلت، وقد ذكرناها في معرض ثمرات الاستقامة في الدنيا، ومعنى هذه الآية أننا «نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم»[(٣)].

٤. المستقيمون ينالون ما يتمنون في الجنة.

ويدل على هذا الأمر الآية السابقة من سورة فصلت، في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، فإنها تعني أن لهم ما يسألون

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ٧/ ١٧٧.

ويتمنون[1].

٥. المستقيمون في ضيافة الرحمن يوم القيامة.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت:٣٢].

والمقصود بالنزل رزق النزيل، وهو الضيف[2]، وذيل الآية بصفتي المغفرة والرحمة؛ لبيان تفضل الله تعالى على عباده المستقيمين على طاعته ومنهاجه.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٣٥٩.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٨٨.

الآثار المترتبة على الانحراف عن الاستقامة

الانحراف عن طريق الاستقامة له آثار وعواقب نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: في الدنيا على الفرد والمجتمع:

إن من يتخلف عن طريق الاستقامة الحقة ينل العقاب من الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة، وقد دل على ذلك آياتٌ كثيرةٌ، سنذكر منها في معرض الاستدلال على بعض هذه العواقب التي تترتب على الانحراف عن الاستقامة، وهي على النحو التالي:

١. المعيشة النكدة.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤].

أي: من أعرض عن هداي وذكري، وينحرف عن الاستقامة الحقة، فإن له حياة نكدة؛ إذ إنه يلهث وراءها، خائفًا من انتقاصها، وتلك هي عقوبةٌ لا يتصور عذابها من الخلق إلا من ابتلي بها[3].

٢. قسوة القلوب ولعن الله لهم.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٤١.

﴿قَسِيَةً﴾[المائدة:١٣].

وهذا يعني أن نقض اليهود للميثاق سواء أكان الميثاق العام في عالم الذر، أو الميثاق الخاص ببني إسرائيل، حرفهم عن الاستقامة الحقة، وعقوبتهم العاجلة هي لعنة الله تعالى عليهم، وقسوة قلوبهم.

من يعرض عن الاستقامة وطريقها يسلك العذاب الشاق: ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[الجن:١٧].

ثانيًا: في الآخرة:

١. الهلاك والوعيد.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[فصلت:٦].

فقد وردت هذه الآية في سياق بيان العقوبة الأخروية، وهي الوعيد بالهلاك الشديد في النار لكل من انحرف عن الاستقامة؛ لأن الاستقامة المقصودة هنا التوحيد، والوعيد هنا لما يضاده، وهو الشرك[(١)].

٢. الحشر يوم القيامة على العمى.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[طه:١٢٤].

وهذا يعني أن من تخلف عن الاستقامة، بإعراضه عن الطاعة ومن ثم التوحيد، فإنه يساق يوم القيامة بصيرًا، فإذا سيق إلى الحشر عمي[(٢)].

٣. العداوة بين المنحرفين عن الاستقامة.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[الزخرف:٦٧].

وهذا يعني أن الأخلاء في الدنيا يكونون يوم القيامة أعداء لبعضهم البعض، بسبب بعدهم عن الاستقامة على طاعة الله تعالى، أما المتقون الذين استقاموا على الدين، فلا عداوة بينهم بل هم أخلاء متحابون[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الصراط، الضلال، الغلو، الهداية، الوسطية

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ٥٤٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٢٢/ ١١١.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٨٢.

الاستكبار

عناصر الموضوع

مفهوم الاستكبار	١٤٠
الاستكبار في الاستعمال القرآني	١٤١
الألفاظ ذات الصلة	١٤٢
الكبريا والعظمة لله تعالى	١٤٥
أسباب الاستكبار	١٤٦
مظاهر الاستكبار	١٥١
نماذج قرآنية من المستكبرين	١٦٣
أساليب القرآن في عرض الاستكبار	١٧٠
التخاصم بين المستضعفين والمستكبرين	١٧٥
عاقبة المستكبرين	١٧٨
علاج القرآن للكبر	١٨٢

مفهوم الاستكبار

أولًا: المعنى اللغوي:

مادة (كبر) تأتي على معانٍ متعددة، أهمها:

أنها تدل على خلاف الصغر، والكبر: معظم الأمر، والكبر: العظمة، وكذلك الكبرياء[1]، والكبر والتكبر والاستكبار تتقارب،وأصل ذلك أن يستعمل في الأعيان ثم استعير للمعاني، ومنه ما اعتبر فيه المنزلة والرفعة، نحو: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩].

وأكابر القوم رؤساؤهم، والكبيرة متعارفة في كل ذنب تعظم عقوبته، والجمع كبائر، وأكبرت الشيء: رأيته كبيرًا، والتكبير يقال لذلك، ولتعظيم الله تعالى بقولهم: الله أكبر، ولعبادته واستشعار تعظيمه[2]،والكبرياء: الملك، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٧٨][3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

وقال الراغب الأصفهاني: «الكبر: الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره»[4].

وقيل أيضًا: الحالة التي يكون عليها الإنسان من الترفع والتعالي على الآخرين واحتقارهم، والتمنع عن قبول الحق معاندة وجحودًا وإنكارًا.

وهذا التعريف يشمل الاستكبار الناتج عن تعالي النفس واستصغارها للغير، سواء أكان ذلك حقًا أم باطلًا، وكذلك الحديث عن عدم قبول الحق والخضوع له، وهذا هو مفهوم حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (الكبر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس)[5].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٥٤،١٥٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٥٤٣-٥٤٦.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ١٢٥.
(٤) المفردات، ص٥٤٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١، عن عبد الله بن مسعود. ومعنى (بطر الحق): دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا، و(غمط الناس): احتقارهم. شرح صحيح مسلم، النووي، ٢/ ٩٠.

الاستكبار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كبر) في القرآن الكريم (١٥٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (٧٥) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٩	﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف:٧٥]
الفعل المضارع	١٣	﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣]
اسم الفاعل	١٣	﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾ [المؤمنون:٦٧]
المصدر	٢	﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦]

وجاء الاستكبار في القرآن بمعناه في اللغة وهو: استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٠٠١-١٠٠٢.
(٢) انظر: تهذيب الأخلاق، الجاحظ، ص ٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاستنكاف:

الاستنكاف لغةً:

نكف عن الشيء نكفًا: امتنع أنفة، وأنكفه: نزهه عما يستنكف منه، واستنكف عن العمل: امتنع مستكبرًا[١].

الاستنكاف اصطلاحًا:

«هو الامتناع والانقباض عن الشيء حمية وعزة»[٢].

الصلة بين الاستكبار والاستنكاف:

فرق الزجاج بين التكبر والاستنكاف فقال: الاستنكاف تكبر فيه أنفة، وليس في الاستكبار ذلك[٣]، فإذا اقترن التكبر مع الأنفة كان استنكافًا؛ لذا كان الاستنكاف أوسع دلالة وأعلى رتبة من الاستكبار.

قال أبو السعود: «والاستكبار دون الاستنكاف المنبيء عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه»[٤].

٢ العجب:

العجب لغةً:

العجب بالضم: الزهو والكبر، ورجلٌ معجبٌ: مزهوٌ بما يكون منه حسنًا أو قبيحًا، وقيل: المعجب، الإنسان المعجب بنفسه أو بالشيء، وقد أعجب فلان بنفسه إذا ترفع وتكبر فهو معجب برأيه وبنفسه. والاسم: العجب، وهذه المادة مما تدل عليه كبر واستكبار للشيء[٥].

العجب اصطلاحًا:

مسرة بحصول أمر، يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله، بقول أو ما في حكمه، من فعل، أو ترك، أو اعتقاد.

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص٩٥٣.
(٢) كتاب العين، الفراهيدي، ٥/ ٣٨٣.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٥/ ٥٦.
(٤) إرشاد العقل السليم، ٢/ ٢٦١.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٤٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٢.

الصلة بين الاستكبار والعجب:

«الفرق بين العجب والكبر:أن العجب بالشيء شدة السرور به حتى لا يعادله شيء عند صاحبه، تقول: هو معجب بفلانة إذا كان شديد السرور بها، وهو معجب بنفسه إذا كان مسرورًا بخصالها،ولهذا يقال: أعجبه، كما يقال: سُرَّ به، فليس العجب من الكبر في شيء»[(١)]،فالعجب ليس هو الكبر، وإنما هو أحد أسبابه الداعية إليه[(٢)].

٣ الاستعلاء:

الاستعلاء لغةً:

العين واللام والحرف المعتل أصل واحد يدل على السمو والارتفاع، ومن ذلك: العلاء والعلو، ويقولون: تعالى النهار، أي: ارتفع[(٣)].

الاستعلاء اصطلاحًا:

طلب العلو المذموم، وقد يكون طلب العلا أي الرفعة، وقوله: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٤]، يحتملهما[(٤)].

الصلة بين الاستكبار والاستعلاء:

الاستعلاء يشترك مع الاستكبار في معناه المجازي، ويفترق عنه في معناه الحقيقي،فأصل الكلمة أن تستعمل في الحقيقة على معنى الارتفاع ضد السفل، ثم تجوز بها عن التكبر والاستيلاء على وجه الظلم[(٥)]، وقد وصف الله تعالى بالاستعلاء بعض خلقه في الحق تارة، وفي الباطل تارة أخرى،ولم يصف أحدًا بالاستكبار على الوجه المحمود.

٤ العتو:

العتو لغةً:

عتا يعتو عتوًا وعتيًا: استكبر وجاوز الحد. والعتا: العصيان، والعاتي: الجبار، وجمعه عتاةٌ، والعاتي: الشديد الدخول في الفساد، المتمرد الذي لا يقبل موعظة[(٦)].

---

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٨.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٤٥٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ١١٢.
(٤) انظر: التوقيف، المناوي، ص٥٩.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٥/ ٢٥.
(٦) لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٢٧ بتصرف.

العتو اصطلاحًا:

العتو: عبارة عن الإباء والعصيان[1]، ومجاوزة الحد فيه بحيث لا يتأثر معه القلب بالموعظة ولا يقبل النصيحة.

قال تعالى حكاية عن بني إسرائيل وقد بلغ العتو فيهم مبلغه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف:١٦٦].

والعتو هنا بمعنى التكبر، أي: «فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه»[2].

الصلة بين الاستكبار والعتو:

الفرق بين العتو والاستكبار واضح في أن العتو أعلى درجات الاستكبار، فإذا تجاوز المستكبر الحد في العصيان والتمرد، بحيث انغلق قلبه عن الموعظة وسماع النصيحة صار عاتيًا.

٥ التواضع:

التواضع لغةً:

الوضع ضد الرفع، وضعه يضعه وضعًا وموضوعًا،والضعة: الذل والهوان والدناءة، والتواضع: التذلل وتواضع الرجل: ذل[3].

التواضع اصطلاحًا:

«تذلل القلوب لعلام الغيوب بالتسليم لمجاري أحكام الحق»[4].

الصلة بين الاستكبار والتواضع:

التواضع ضد الاستكبار، فالأول محمود، والثاني مذموم.

(١) مفاتح الغيب، الرازي، ٤/ ٤٥٤.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥٢٦.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٣٩٦.
(٤) التوقيف، المناوي، ص٢١٢.

الكبرياء والعظمة لله تعالى

الكبرياء والعظمة لا يكونان إلا لله تعالى وحده لا يشاركه فيهما أحد، فليس للعبد الحق في أحدهما -فضلًا عن كليهما-، إذ هما من خصائص العلي الكبير سبحانه؛ لذا تقررت هذه العقيدة في آيات من كتاب الله تعالى، منها الآية الخاتمة لسورة الجاثية: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٧].

بعد أن ذكر سبحانه في مطلع السورة من مظاهر العظمة والكبرياء، وتوعد المستكبرين عن آياته بالعذاب الأليم، وقد تحقق هذا الوعيد قبيل ختام السورة الكريمة فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الجاثية:٣١].

فكان سبب عذابهم أنهم نازعوا الله تعالى شيئًا من خصائصه وهو الكبرياء، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الشهير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار)[1].

وقد تأكدت هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٣].

إنه سبحانه وتعالى ينزه نفسه عن أن يشاركه أحد في كبريائه، فهو المتكبر وحده، وكل من دونه فهو صغير حقير أمام عظمته جل جلاله.

«إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف؛ لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق؛ لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق.»[2].

اقتران اسم الله الكبير بالعلي:

ورد اسم الله (الكبير) في خمسة مواضع من الكتاب العزيز، وجميع هذه المواضع اقترن فيها هذا الاسم بالعلو؛ ففي سورة الرعد قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد:٩].

أما ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فقد وردت في أربع سور هي: الحج، لقمان، سبأ، وغافر،

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وصححه الشيخ الألباني.

(٢) مفاتح الغيب، الرازي، ٨/ ١٨٣.

وهذه المواضع هي:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر:١٢].

وكما هو ملاحظ من الآيات أن جميعها جاءت في سياق الوحدانية والتفرد في المشيئة، وبما يؤكد أن الكبرياء والعظمة والعلو لله وحده لا شريك له، وأن ما دونه فهو مربوب مقهور.

أسباب الاستكبار

عند النظر في كتاب الله تعالى نجد أن استكبار العبد يرجع إلى أسباب متعددة، نقف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الكفر:

«الكفر: تغطية ما حقه الإظهار، والكفران: ستر نعمة المنعم بترك أداء شكرها. وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو النبوة أو الشريعة. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالًا، والكفر في الدين أكثر»[1].

فالكافر: هو من جاءه الحق من الله تعالى على لسان الرسل أو من ينوب منابهم في مهمة الدعوة إلى الله، فاستكبر عن الخضوع والإذعان له، وتمرد وتعالى عليه، وجحد نعمة الدين، وأبى أن يكون من الموحدين التابعين له.

إن الله تعالى قد وصف قومًا من أهل النار بأنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وأنهم كانوا من الكافرين.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٩].

وذكر تعالى أن عادًا جحدوا آيات الله، وتمادوا في عتوهم وعنادهم، فكان كفرهم

(١) التوقيف، للمناوي، ص٦٠٦.

وجحودهم سببًا في استكبارهم بغير الحق، وكان استكبارهم سببًا في عذابهم وهلاكهم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٥-١٦].

وأخبر تعالى عن قوم نوح عليه السلام، وقد وصل بهم العناد والجحود والكفر إلى درجة بالغة، فكان ذلك الإصرار على الكفر سببًا لبلوغ الكبر عندهم إلى أعلى الدرجات، حتى صور الله حالهم بصورة تبين ذلك بأبلغ تصوير، فقال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح:٧].

فالكفر هو أحد الأسباب القوية لحصول الكبر، ومانع من الهداية إلى الإيمان.

ثانيًا: اتباع الهوى:

«الهوى: ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»[1].

ويطلق الهوى ويراد به المحبة، كما يطلق على الشيء المحبوب مبالغة، كما يكنى به عن الباطل والجور والظلم لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين هوى النفس، فإن العدل والإنصاف ثقيل على النفوس فلا تهواه غالبًا،»وهوى النفس يكون في الأمور السهلة عليها، الرائقة عندها، ومعظم الكمالات صعبة على النفس؛ لأنها ترجع إلى تهذيب النفس والارتقاء بها عن حضيض الحيوانية إلى أوج الملكية»[2].

ولما كان الاستكبار مما تهواه النفس وتميل إليه؛ كان الهوى سببًا له، وسبيلًا إليه، وقد أخبر تعالى أن بني إسرائيل تمردوا على الحق لما جاءهم، وكذبوا رسلهم وقتلوهم، وسبب ذلك هوى النفس الذي ساقهم إلى الاستكبار والتمرد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

فهذه الآية الكريمة تكشف عن النفسية اليهودية المتمردة المتكبرة على رسل الله ودعاة الحق، فقد أخبر تعالى أنه أرسل إليهم رسله تترا، مؤيدين بالآيات الباهرات،

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧١٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٣/ ٢٤٤.

والمعجزات البينات، وأيدهم بروح القدس جبريل عليه السلام، كل ذلك من أجل هدايتهم إلى دين الله القويم وصراطه المستقيم، والأخذ بأيديهم من موارد الردى والحرمان إلى نور الهداية والإيمان؛ رحمة بهم، وإشفاقًا عليهم، فبدلًا من أن ينصاعوا لأمر الله، ويستجيبوا لداعي الله، حملتهم الأنفة والكبرياء إلى معاندة كل ما لا يوافق هوى نفوسهم، وقتل كل داعٍ إلى الفضيلة وترك الرذيلة، وهذه النفسية لا تقف عند حدٍ زمني، أو تنقطع عند حدٍ مكاني، وإنما لها صورة مستنسخة عبر العصور وتعاقب الأجيال، لا يكسر كبرياءهم إلا قوة الحق، وقد كسر ومرغت أنوفهم في التراب حتى سمع لأعتاهم قوة عويل.

ثالثًا: إنكار البعث:

بعث الأجساد بعد فنائها عقيدة لا يماري فيها إلا معاند مكابر جهول، فقد ثبت يقينًا بالأدلة النقلية والعقلية وفي الواقع ما يؤكد البعث والنشور، ويبرهن عليه بأبلغ برهان، وفي القرآن-خاصة المكي منه- بيان شافٍ لهذه الحقيقة، ومجادلة قوية لمنكريها، فهي إحدى كبريات العقيدة الثلاث التي كان ينكرها المشركون-التوحيد والرسالات والبعث-.

وقد كشف القرآن الكريم عن أن إنكار البعث سبب من الأسباب التي تؤدي إلى الاستكبار والتعاظم والتمرد على الحق، فقال جل جلاله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان:٢١].

والمراد بقوله ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ «يريد: لا يخافون البعث ولقاء الله، أي لا يؤمنون بذلك.»[1] فكان إنكارهم للبعث سببًا في إضفاء صفة الاستكبار عليهم، وإلصاق هذه التهمة بهم، وتميزهم بها عن غيرهم.

رابعًا: الحسد:

الحسد مرض من أمراض القلوب المؤدية إلى المهالك؛ ومنه ما هو محمود، وهو ما يسمى (غبطة)، وهو أن يكون لأخيك نعمة لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذا مباح لا إثم فيه.

والآخر مذموم: وهو أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسدًا. فالحسد حده: كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه، وهو محرم[2].

والمقصود في هذا المبحث من هذين المعنيين هو الثاني؛ لأنه الذي يؤدي إلى

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١٩.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ٢/ ٢٣٨.

الكبر؛ كما حدث مع إبليس اللعين حين أمر بالسجود لآدم عليه السلام فأبى واستكبر؛ وعلل امتناعه عن السجود بأنه خير من آدم، واستدل على ذلك بأصل الخلقة، فقاس أصل خلقته بأصل خلقة آدم عليه السلام، فقال: أنا خير منه، وما منعه إلا الكبر، وما كان سببه في الحقيقة إلا الحسد. ويصور القرآن ذلك المشهد فيقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف:١١-١٣].

قال قتادة: «حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة فقال: أنا ناري وهذا طيني، فكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم»[(١)].

وعن جنادة بن أبي أمية قال: أول خطيئة كانت الحسد، حسد إبليس آدم أن يسجد له حين أمر، فحمله الحسد على المعصية[(٢)].

فالحسد قد تسبب عنه الكبر الذي جعل إبليس يأبى السجود لآدم عليه السلام طاعة لأمر الله، وقبولًا للحق، لذا قال حجة الإسلام الغزالي: «ويدعو الحسد أيضًا إلى جحد الحق، يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل؛ لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدًا وبغيًا عليه، فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكنه الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه»[(٣)]، فالحذر الحذر منه.

خامسًا: القوة المادية:

القوة المادية من أهم الأسباب التي تدعو إلى التكبر والتمرد على الحق، والتعالي على العباد، واستحقارهم والاستخفاف بهم.

ولعل الناظر في كتاب الله تعالى يجد نماذج متعددة حول هذه القضية، فقد ذكر لنا القرآن من شأن موسى وفرعون ما يؤكد أن القوة المجردة عن إيمان صاحبها تسوقه إلى الكبرياء والتعاظم على الآخرين، واحتقارهم واستصغارهم، والنظر إليهم نظر شزر.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ١/ ٢٧٠ .
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٧٤.
(٣) إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٤٣٦.

[المؤمنون:٤٥-٤٨].

فهذه النظرة الفرعونية إلى موسى وقومه على أنهم عبيد له ولملئه تنم عن كبر في نفوسهم، وتعاظم وتعالٍ، وسبب هذه النظرة هو ما هم عليه من القوة المفرطة، والسلطان والفاجر. وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الكبر لدى فرعون في موضع آخر؛ حيث قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف:٥١-٥٣].

فهذه النظرة الدونية من فرعون لموسى عليه السلام سببها ما كان عليه فرعون من القوة والسلطان.

وقد سبق فرعون قوم هود عليه السلام فيما ذكر القرآن الكريم من أخبارهم، وقص علينا من أنبائهم، إذ إنهم استكبروا وجحدوا آيات الله، وكان سبب هذا التمرد والتكبر والطغيان هو ما كانوا عليه من القوة الشديدة، فاغتروا بهذه القوة وتكبروا على الحق، فأهلكهم الله.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٥-١٦].

ولا عجب أنك ترى في هذا الزمان من أوتي من القوة والعتاد على المستوى العسكري والتكنولوجي ما أبهر المنهزمين نفسيًا وأخلاقيًا وعسكريًا وتكنولوجيًا، حتى اعتقد أكثرهم أن تلك الدولة صاحبة تلك القوة لن تهزم، وأن أحدًا لن يستطيع أن يصمد أمامها، وقاس هؤلاء المنهزمون قوة العدو بقوة المجاهدين، وقضوا بأن لا تكافؤ بين القوتين، وأن الهزيمة محققة للمجاهدين.

ونسي هؤلاء المنهزمون، ونسي كذلك هؤلاء المغترون بقوتهم وعتادهم أن الله هو أشد منهم قوة، وأنه سبحانه مهلك الطغاة المتمردين، والعتاة المتكبرين. إنها سنة الله في الأولين والآخرين، فكما أهلك عادًا الأولى، وفرعون الذي طغى، فإنه مهلكٌ كل متمرد على الحق، متكبر على عباد الله، وحينئذٍ لن تكون له فئة ينصرونه من دون الله، ولن يكون منتصرًا.

مظاهر الاستكبار

بديهي أن يكون المتكبر في المجتمع ظاهرًا، وأن حاله معلومة بصفات تظهر عليه، وتبدو في أفعاله وسلوكه، ولظهور أمر المتكبرين في المجتمع «قال العلماء: كل ذنب يمكن التستر به وإخفاؤه إلا التكبر فإنه فسق يلزمه الإعلان.»[1].

والاستكبار له علامات تدل عليه، وأمارات تومئ إلى أن صاحبها من المتكبرين، نقف على تلك المظاهر ونتعرف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: ترك العمل بشرع الله:

هذه أول خصلة من خصال المتكبرين، فهم قوم يعاندون الحق، ويتمردون على شرع الله، ويتكبرون على رسل الله والدعاة، فيكون تركهم للعمل بشرع الله من باب أولى.

لذا نجد القرآن الكريم قد ذكر أن أول مظهر من مظاهر الاستكبار هو ترك العمل بشرع الله، والتمرد على طاعته والإذعان لأمره، وهو ما وقع من إبليس اللعين، حيث أبى الخضوع لأمر الله ورفض طاعته فيما أمره به من السجود لآدم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٤].

فكان رفضه للسجود لآدم مظهرًا من مظاهر كبره. وشأن كل من أبى السجود لله تعالى شأن إبليس في رفضه السجود لآدم عليه السلام، لذا ذم الله ناسًا استكبروا عن السجود له حين أمرهم به، ومدح من خضع إلى عظمته وتذلل إليه، فذكرهم بصفة العبادة الدائمة والطاعة المطلقة التي لا يشوبها كبر ولا تمرد على أمره، مرغبًا في الطاعة، ومحذرًا من المخالفة.

فقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت:٣٧-٣٨].

وفي سياق آخر أمر الله تعالى بالإصغاء والإنصات لكلامه إذا تلي، وبذكره ذكرًا دائمًا سرًا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، ونهى عن الغفلة عن ذكره، ثم مدح الذين عنده بصفة التواضع وعدم التكبر عن أمر الله وطاعته؛ تعريضًا بمن غفل عن ذكر الله، وأن ترك العمل بشرعه، ومخالفة أمره ومعصيته ليست من شأن العابدين الطائعين، وإنما هي من شأن المستكبرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٩.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف:٢٠٦].

إن طاعة الله تعالى فيما أمر، والبعد عن كل ما نهى عنه وزجر سمة المؤمنين العابدين، وهي مظهر من مظاهر التواضع والخضوع والتذلل لعظمة الله، وعلى العكس تمامًا فإن الذي يرفض العمل بشرع الله، ويأبى الطاعة المطلقة للخالق الكبير المتعال، يعد فعله هذا مظهرًا من مظاهر التكبر والكبرياء على منهج الله.

ثانيًا: التكذيب:

من مظاهر الاستكبار: التكذيب بكل ما هو حق، والتصديق بالباطل، فإذا رأيت الرجل يكذب بالحق إذ جاءه، ويماري فيه بعدما تبين، فاعلم أنه من المستكبرين، وقد قص علينا القرآن من خبر الأولين، وكشف عن صفة السابقين؛ بأنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وكذبوا رسل الله بعدما جاءوهم بالبينات، واتهموهم بأنواع الفرى والأباطيل، فاسمع إلى هذا الحوار الذي يظهر فيه تعنت فرعون وملئه، وتكبرهم على موسى وأخيه-عليهما السلام- وتعاليهم عليهما، برغم وضوح المعجزات بما لا يدع مجالًا للمماطلة، لكنهم قوم مستكبرون على الحق مجرمون، ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنون.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٥-٧٨].

فأي تعنت هذا؟! وأي استكبار ومعاندة؟! تكذيب فاتهام، يتلوهما قرار برفض الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام بحجة التمسك بموروث الآباء والأجداد، وبمبرر زائف ممجوج: وتكون لكما الكبرياء في الأرض، وهذا لعمري تصرف الجهلاء، لا يقارعون الحجة بالحجة، وإنما يلجأون إلى الاتهامات والأراجيف وسيلة للدفاع عن غيهم وتكذيبهم، فأمرهم عجيب، وشأنهم غريب.

وإن من مظاهر تكذيبهم بالحق أنهم يكفرون بالله ويجعلون له الشريك، رغم وضوح الدلائل وظهور البراهين، فإنهم يبقون على ما هم عليه من الشرك، ويصرون على ما هم عليه من الكفر والجحود، استكبارًا من عند أنفسهم.

قال تعالى شأنه: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل:٢٢].

«لما ذكر تعالى ما اتصفت به آلهتهم بما ينافي الألوهية، أخبر تعالى أن إله العالم هو واحد لا يتعدد ولا يتجزأ، وأن الذين لا يؤمنون بالجزاء بعد وضوح بطلان أن تكون الإلهية لغيره بل له وحده، هم مستمرون على شركهم، منكرون وحدانيته، مستكبرون عن الإقرار بها؛ لاعتقادهم الإلهية لأصنامهم وتكبرها في الوجود. ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة مبالغة في نسبة الكفر إليهم، إذ عدم التصديق بالجزاء في الآخرة يتضمن التكذيب بالله تعالى وبالبعث، إذ من آمن بالبعث يستحيل أن يكذب الله عز وجل.»[1] فظهر بذلك أن إشراكهم مع الله آلهة أخرى، وتكذيبهم به وباليوم الآخر مظهر من مظاهر كبرهم وجحودهم.

وقد توعد الله تعالى هؤلاء المكذبين المصرين على ما هم عليه من الكبر، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾ [الجاثية:٧-٨].

وهذا الكبر لا يقف على زمان دون زمان، ولا يختص به مكان دون مكان، وإنما هو متعاقب في الأجيال عبر الأزمان، فلا يكاد يخلو زمان من الأزمنة، أو مكان من الأمكنة من المكذبين المنكرين للحقائق تمردًا وتكبرًا، ألا ترى العالم اليوم؟! كيف يرى الظلم عدلًا ويرى العدل ظلمًا؟! وكيف يبرر للظالم ظلمه؟! بهذه العنجهية المتغطرسة يرون الحقيقة بادية فيتكبرون عليها، ويصرون على غيهم وعنادهم، حين يقتل المسلم أو يدافع عن نفسه وأرضه وعرضه يقولون: إرهابي، وإن شيك الظالم الباغي يستنكرون ويشجبون، بهذه النفسية المتمردة على الحق يبررون لظلمهم في إعلامهم الكاذب، ويسوقون لكذبهم ودجلهم باصطناع البرامج وفبركتها والتلبيس على العامة. فالكذابون والدجالون هم هم، الذين كانوا على عهد موسى عليه السلام، هم أنفسهم الذين كانوا على عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهم أنفسهم -على نفس المنهجية- في عصرنا الحالي، لا يتغيرون ولا يتبدلون، الكذب سمتهم، فويل لهم.

ثالثًا: احتقار الناس وظلمهم:

من أبرز المظاهر التي تبدو على المتكبرين احتقارهم للناس وازدراؤهم لهم، لأن التكبر تعالٍ على الناس، فيرى المتكبر نفسه في درجة أعلى، ومنزلة أسمى. إن المتكبرين في حالهم هذه أشبه بحال من كان على قمة جبل والناس من تحته، فهو يراهم صغارًا، ويرونه صغيرًا.

لقد كشفت آيات القرآن الكريم عن هذه

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٩.

السمة عند المتكبرين، وذمت فيهم هذه الخصلة، حينما نظروا إلى المؤمنين الذين اتبعوا رسل الله نظر شزر وازدراء، فقال جل شأنه في حق الملأ من قوم نوح عليه السلام الذين ازدروا المؤمنين بقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود:٢٧].

فرد عليهم نبي الله نوح عليه السلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود:٣١].

وهذا يوضح لنا أن هذه النظرة من الملأ للمؤمنين مظهرٌ من مظاهر التكبر والتعالي، فكان تكبرهم هذا سببًا في عدم متابعة نبيهم والإيمان برسالته.

وشأن الملأ في نظرتهم هذه إلى المؤمنين التابعين للرسل تكررت من فرعون لموسى عليه السلام، وإن اختلفت في شكلها، لكنها هي هي في مضمونها.

قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢].

والمعنى: «﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيفٌ حقيرٌ، من المهانة: وهي القلة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي الكلام.

قاله افتراءً على موسى عليه السلام؛ تنقيصًا له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام من نوع رتةٍ، وقد كانت ذهبت عنه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ [طه:٣٦]»[1].

وقد تكرر الأمر مع خير الخلق وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، يحتقرونه ويزدرونه ويستهزئون به ويسخرون منه، فقالوا له كمقالة فرعون تلك لموسى عليه السلام، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١].

«وهذا باب آخر من إنكارهم للنبوة، وذلك أنهم أنكروا أولًا أن يكون النبي بشرًا، ثم لما بكتوا بتكرير الحجج، ولم يبق عندهم تصور رواج لذلك، جاؤا بالإنكار من وجه آخر، فتحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول أحد هذين، وقولهم ﴿هَٰذَا الْقُرْآنُ﴾ ذكر له على وجه الاستهانة؛ لأنهم لم يقولوا هذه المقالة تسليمًا بل إنكارًا، كأنه قيل: هذا الكذب الذي يدعيه لو كان حقًا لكان الحقيق به رجل من القريتين عظيم، وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعي عظيم النفس بالتخلي عن الرذائل الدنية، والتحلي بالكمالات والفضائل القدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية»[2].

ولهذا قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم مستهزئين به، منتقصين مستصغرين

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٥٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٢٥/ ١٢٠.

له: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان:٤١].

«وفي اسم الإشارة دلالة على استحقارهم له، وتهكمهم به»[1].

وأشبه بهم حال المنافقين، حيث كانوا على هذه الشاكلة من الاستهزاء والازدراء، حتى ظهر ذلك في سلوكهم، فقد أخبر القرآن عنهم بما يفضح سريرتهم، ويكشف سوأتهم، وذلك في سورة الفاضحة-التوبة.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

وكذلك فضحهم في سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال جل شأنه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد:١٦].

يقول سيد قطب رحمه الله عن سؤالهم هذا: «... قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللئيم، إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم: إن ما يقوله محمد لا يفهم، أو لا يعني شيئًا يفهم. فهاهم أولاء مع استماعهم له، لا يجدون له فحوى ولا يمسكون منه بشيء!

كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه -كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم- فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية، وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين»[2].

لم يتغير حال المتكبرين في استصغارهم واحتقارهم وازدرائهم للمؤمنين والدعاة، كأن هذا الأمر فيهم وراثة، ورثوه كابرًا عن كابر، بداية من قوم نوح عليه السلام، إلى قوم موسى عليه السلام، إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا زال الأمر باقٍ إلى يومنا هذا.

ولعل وسائل الإعلام المغرضة والمسيسة التابعة إلى بعض الحكومات المنحرفة، وما يجري فيها من لقاءات وبرامج خير شاهد على استمرار احتقار أهل الفضل والصلاح، والسخرية والاستهزاء من الجماعات العاملة في حقل الدعوة، ليظل هذا مظهرًا فيهم، يعرفون به، وتعلم أحوالهم من خلاله.

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٩٧.

(٢) في ظلال القرآن،٦/ ٣٢٩٤.

رابعًا: جحود نعم الله:

امتن الله تعالى على عباده بما آتاهم من نعم لا تعد ولا تحصى.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤].

وجعل الله تعالى هذه النعم مسخرة لهذا الإنسان وطوعها له، يتصرف فيها بأنواع التصرف.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

وأمر الله تعالى هذا الإنسان بأن يصون هذه النعم ولا يجحدها؛ لأن جحدها مؤذنٌ بزوالها، كما أن شكرها يزيدها وينميها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم:٧].

إلا أن الإنسان ظلوم كفار، قليل الشكر، كثير الجحود لهذه النعم-إلا من رحم الله.

إن جحود الإنسان لنعم الله تعالى عليه، وعدم شكرها يعد مظهرًا من مظاهر كبره، وعلامة من علامات تمرده ونكران الجميل، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

فكان حريًا به أن يشكر هذه النعم التي أولاها الله إياه بغير حساب، فالله غني عن عباده وهم محتاجون إليه.بيد أن فئة من الناس تكبرت على هذه النعم وجحدتها، فكان عذاب الله شديدًا، فآخذهم على نكرانهم وكفرهم لهذه النعم.

وقد ضرب الله تعالى مثلًا لهذا النوع من الناس بقصة قارون من قوم موسى، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، ونصحه الصالحون من قومه ألا تفرح فإن الله لا يحب الفرحين، وذكروه بالآخرة، وأنها خيرٌ وأبقى، وحذروه ونصحوه، لكنه كفر هذه النعمة وجحدها، وأبى أن يرجع فضلها إلى الله، وقال: إنما أوتيته على علم عندي.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٦-٧٨].

فلما كان كذلك أنزل الله عليه سخطه وعذابه، فخسف به وبداره الأرض ليكون عبرة لمن بعده، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص:٨١].

وأعظم نعمة وهبها الله لهذا الإنسان

في الوجود يجحدها المنكرون هي نعمة الإسلام؛ حيث أرسل الله رسله لهذا الإنسان يهدوه إلى الدين القويم والصراط المستقيم، ويرشدوه إلى رضا الله، وإلى ما يحفظ عليه كيانه ومكانته في هذا الوجود، لكن هذا الإنسان واجه دعوة الرسل بالكفران، وكال الاتهامات إلى رسل الله كيلًا، كما أخبر بذلك القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات:٥٢].

﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [فصلت:١٥].

وقوم نوح عليه السلام لما دعاهم نبيهم ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، بدلًا من أن يؤمنوا، ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧﴾ [نوح:٧].

هذا الرفض للدين الذي دعا إليه رسل الله يعد مظهرًا من مظاهر الاستكبار على هذه النعمة العظيمة، وكثيرٌ هم من هذا حالهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [سبأ:٣١].

بهذا الكبرياء، على مر العصور وفي كل مكان على تعاقب الزمان.

خامسًا: إكراه المستضعفين على اتباع الباطل:

من مظاهر الاستكبار: إكراه الملأ وكبراء القوم من الظلمة والفسقة للمستضعفين على اتباعهم على باطلهم، وكفرهم كما كفروا ليكونوا سواءً على ملة واحدة، وهذه سمة بارزة في الأقوام الأولين منهم والآخرين، ومن قرأ قصص الأولين وسيرة خير المرسلين وقف على هذا الأمر، وأدرك يقينًا أن الملأ والسادة لا يهنأون ولا يهدأون وهم يجدون ضعفاء القوم على الحق سائرين؛ لأن هذا في نظرهم يهدد مصالحهم، إذ كيف يكون لهم سلطة ونفوذ إذا لم يوجد مستضعفون تحت إمرتهم، يأمرونهم وينهونهم وينفذون لهم ما يريدون؟! إذن مصلحتهم تقتضي أن يكون المستضعفون من القوم على ملتهم وتحت إمرتهم، هم يخططون، والمستضعفون ينفذون.

١. إكراه المستضعفين من قوم شعيب عليه السلام.

وقع الإكراه من الملأ لنبي الله شعيب عليه السلام والمؤمنين معه، حيث هددوه وحذروه بين أن يخرجوه من بلده ووطنه ومن بين أهله، أو أن يعود لدينهم ويدخل في ملتهم-ملة الكفر-؛ لكن الإيمان إذا تملك القلب وتمكن منه، فهيهات هيهات أن يكون للشرك والكفر منه نصيب، هذا ما وقع بين

نبي الله شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين وبين قومه المتكبرين المتمردين على الحق، فقد قص علينا القرآن من نبئهم فقال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

«هكذا سنة الطغاة الظلمة إذا غلبوا بالحجج والبراهين يفزعون إلى القوة،فلما أفحمهم شعيب خطيب الأنبياء عليهم السلام، وقطع الطريق عليهم شهروا السلاح في وجهه، وهو النفي والإخراج من البلاد أو العودة إلى دينهم الباطل.»[1] وهذا حال الظالمين في كل زمان.

٢. حوار بين المستكبرين والمستضعفين من قوم صالح عليه السلام.

إن قوم صالح عليه السلام نموذجٌ حيٌّ في هذا الباب، فلنذكر الآيات الكريمات التي تقص علينا من أخبارهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٧].

إنها قمة العنجهية والكبرياء والإباء من السادة والقادة، وفي المقابل ثبات ويقين وصدق مع الله من قبل المستضعفين، فالملأ من قوم صالح عليه السلام -كما يبدو من سياق الآيات- خلوا بالمستضعفين من المؤمنين، وجلسوا إليهم في معزل عن نبي الله صالح عليه السلام، وهددوهم وخوفوهم من متابعته، ولكنه اليقين وثبات الإيمان حينما يتملك القلوب لا تزعزعه التهديدات ولا الوعيدات ولا أي قوة مهما بلغت.

يقول سيد قطب رحمه الله : «وواضح أنه سؤالٌ للتهديد والتخويف، ولاستنكار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه.ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافًا! لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، والاطمئنان في منطقهم. إنهم على يقين من أمرهم، فماذا يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٢/ ٢٠٤.

مُؤْمِنُونَ﴾»[1].

فكأن هذا تحدٍ من المستضعفين للملأ المستكبرين، تحدٍ على الثبات على الحق وعدم الانحياد عنه رغم التهديد والوعيد، بل ورغم مباشرة القتل وتنفيذ الوعيد، تمامًا كما وقع من قوم موسى وفرعون، حيث آمن السحرة برب العالمين، وهددهم فرعون بأن يصلبهم في جذوع النخل، ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، لكنهم ثبتوا على الحق بعدما تبين لهم، وصبروا على أذى فرعون، وفضلوا الباقية على الفانية: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧٢-٧٣].

وأيضًا: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦].

ولا فرق بين هذه العنجهية والكبرياء الذي عليه المتمردون في الأقوام السابقة وما عليه المتمردون والمستكبرون في هذا العالم الظالم اليوم، حينما يجد المسلمون أنفسهم في موجة من التحديات عاتية، وممارسات في حقهم مجحفة، ليس ذلك إلا لأنهم ينشدون نشر العدل والفضيلة، وكف الظلم والرذيلة، ويطلبون الكرامة لهذا الإنسان في هذا الوجود، لا أن تكون الحياة لصنف الظلمة والمستكبرين، والسحق للباقين، فإن هذا لا يرضي أحدًا من المنصفين.

سادسًا: العتو والطغيان:

تلمس وأنت تقرأ سيرة المستكبرين في القرآن الكريم مدى التعالي والعتو والطغيان الذي هم عليه، وتجد فيهم البطش الشديد ضد الأنبياء والمرسلين، وأولياء الله الصالحين، فهذه الصورة تعد مظهرًا بارزًا من مظاهر الاستكبار، بها يعرفون، ومن خلالها يتميزون.

ولعل إكراه المستكبرين للمستضعفين على اتباع باطلهم، يعد نموذجًا حيًا ومثالًا واضحًا لما عليه المستكبرون من عتو وطغيان، إنهم لم يكتفوا بما هم عليه من الباطل، بل ذهبوا يضلون عباد الله المؤمنين، ويسعون لصدهم عن سبيل الله بمختلف الوسائل والسبل، حتى لو كان ذلك بالتهديد والتعذيب، أو قد يصل أحيانًا إلى درجة القتل،قد بلغوا في ذلك حد التفاني في الصد عن الحق.

فانظر إلى طغيان فرعون، فيما أخبر القرآن عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/١٣١٣-١٣١٤.

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص:٣٨-٣٩].

وقال عنه أيضًا: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤].

ولذلك قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات:١٧].

فأي استكبار بعد هذا الاستكبار؟!

وأي طغيان بعد هذا الطغيان؟! أن ينازع الله تعالى في ألوهيته وربوبيته فذلك قمة العتو والطغيان والاستكبار.

ويناظره نمرود الذي ادعى ذلك لنفسه، فقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وانظر أيضًا رد الملأ من قوم صالح عليه السلام بعدما تبين لهم الحق: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٧].

تحدٍ صارخ، وعتو فاجر، وإصرار على العناد والكفر، فكان عاقبة أمرهم خسرًا.

وقد سبقهم في موقفهم هذا قوم نوح عليه السلام، فقد أمرهم ونهاهم، وبين لهم ما به يتقون، فاحتجوا لكفرهم به بأنه اتبعه الأرذلون، فلما أجابهم بأنه ليس إلا رسول مبين: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء:١١٦].

«عدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد، فلما سمع نوح قولهم هذا، قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [الشعراء:١١٧].

أي: أصروا على تكذيبي، ولم يسمعوا قولي، ولا أجابوا دعائي»[1].

فهذا هو حال المستكبرين في كل زمان، فلقد رأينا اليوم أقوامًا لا يختلف حالهم عن سلفهم الأولين، يحذون حذوهم في مواجهة الحق، ويسيرون على خطاهم في الكيد للإسلام والمسلمين، ومظهر العتو والطغيان فيهم بارز للعيان، لا يحتاج تصنيفهم في المستكبرين والمتمردين في هذا الكون في هذا الزمان كثير تفكير أو روية، فإنهم قوم ملكوا من أسباب القوة المادية أو التكنولوجية أو الاقتصادية أو الإعلامية... الخ، ما يجعلهم يتمردون ويظهرون بهذه الغطرسة والكبرياء في هذا العالم.

ولكن الحق في علو وظهور، والباطل في انحدار وانكسار، ولكنكم تستعجلون، وهي سنة الله في الأولين والآخرين، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلًا.

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ١٣٧.

سابعًا: الاستنكاف عن العبادة:

سبق أن بينا معنى الاستنكاف، وهو أوسع دلالة وأعلى رتبة من الاستكبار، لما فيه من الأنفة والتنقص والاستصغار. والاستنكاف عن عبادة الله تعالى مظهر من مظاهر الاستكبار وعلامة من علاماته؛ لذا توعد الله تعالى المستنكفين عن عبادته بالعذاب الأليم، فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣].

«أي: يأنف تكبرًا، ويعد نفسه كبيرًا عن العبادة»[1].

وهذا المظهر للمستنكفين عن عبادة الله تعالى يبدو واضحًا في قوم هود عليه السلام، إذ أخبرنا القرآن الكريم من حالهم وصفاتهم حينما دعاهم نبي الله هود عليه السلام إلى التوحيد، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فكذبه قومه واتهموه بالسفاهة، وذكرهم بما حدث لقوم نوح عليه السلام حينما كذبوا رسولهم ماذا حدث لهم؟! لكن ردهم عليه كان ينم عن كبر وأنفة ورفض لعبادة الله وحده مع ترك عبادة ما كان عليه الآباء والأجداد، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف:٧٠].

ومثلهم قوم صالح عليه السلام، فعلوا مثل فعلتهم، وردوا على نبيهم بالرد إياه، ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

إن من كان هذا شأنه، وظهرت فيه صفة الاستنكاف عن عبادة الله، يلتمس لاستنكافه هذا المعاذير والحجج التي لا اعتبار لها عند العقلاء- ليعد هذا مظهرًا من مظاهر الاستكبار والتمرد.

ثامنًا: التعاظم عن اتباع الحق:

من مظاهر الاستكبار: التعاظم عن اتباع الحق، والسير على طريق الهدى، واختيار السبيل الموصل إلى جنات الله رب العالمين، يتنكب هؤلاء المستكبرون تلك الطريق، يختارون الضلال على الهدى، والكبرياء على التقى، فبئس الاختيار.

وليس أدل على هذا المظهر مما ورد في شأن المنافقين-أخص بالذكر عبد الله بن أبي بن سلول- الذي كان يرأس حركة النفاق في المدينة المنورة بعد هجرة النبي

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٦٨٢.

صلى الله عليه وسلم إليها، ومما ورد في القرآن الكريم من كشف لسوءتهم وهتك لسترهم، ما ورد في سورة المنافقون. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون:٥].

إنه قد علت أنفتهم، وشمخت أنوفهم -فيما يبدو لهم- إلى الحد الذي جعلهم يتعالون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسعون للصد عن سبيل الله، تعاظمًا منهم عن اتباع الحق، وإمعانًا في الباطل والضلال، وهذه السمة موجودة عند كثير من الناس، تكبرًا كان ذلك صراحة منهم أو ضمنًا؛ لأن من ظهر له الحق ولم يتبعه، وأصر على ما هو عليه من الضلال والانحراف، يعد هذا تعالٍ على الحق، وترفعٌ عن التواضع لعظمة الله فيما تعبد به الناس، ومن رفض أمر الله وفعل خلافه يعد هذا تمردًا على الحق، وتكبرًا على أمر الله، لذا كانت هذه الصفة مظهرًا من مظاهر الاستكبار بغير الحق.

فهذه جملة من مظاهر الاستكبار، حيثما وجدت إحداها في المرء كانت صفة من صفات المستكبرين في الأرض بغير الحق، مؤذنة بنزول سخط الله عليه، وهو في هذه الحالة بين خيارين: إما أن يتركها ويتبع الهدى، ويتواضع لله وللناس، أو أن يتمادى في هذه الكبيرة، وحينئذٍ ليعلم أن فعله هذا يجعله مستحقًا لسخط الله وعقابه. وعلى العاقل أن يعرض نفسه على هذا الميزان ليرى أين يسير، وكيف المصير.

نماذج قرآنية من المستكبرين

قص علينا القرآن الكريم من أخبار السابقين أفرادًا وجماعات، وكشف عن أحوالهم وصفاتهم ومصارعهم، وذكر الأسباب التي أدت إلى هلاك من أهلك منهم، ونجاة من أنجى، فكان الاستكبار عن طاعة الله تعالى سببًا رئيسًا من أسباب الهالكين المعذبين، وهاهنا أقف على نماذج من أحوال هؤلاء، سواء على مستوى الأفراد، أو على مستوى الجماعات.

أولًا: أفراد مستكبرون:

هذه أمثلة يضربها لنا القرآن الكريم فيها موعظة بليغة للمعتبرين، وفيها من الزجر والوعيد للمخالفين:

١. إبليس.

وهو أول المستكبرين المستنكفين عن أمر الله، قص الله تعالى علينا من أخباره، وكرر قصته في سورٍ عدةٍ، ليحذرنا منه، ويبين لنا مدى عداوته لهذا الإنسان، وأن هذه العداوة متجذرة فيه وفي ذريته لا محيد له عنها، وهي ترجع في تاريخها إلى لحظة خلق الله آدم عليه السلام، وأمر الملائكة بالسجود له تشريفًا وتكريمًا، وعبادة لله تعالى، لكن اللعين رفض أمر الله، وأبى أن يكون من الساجدين، فمقته الله تعالى، إذ كيف له أن يرفض أمر خالقه؟! لكنه الكبرياء والتعاظم، فسأله الله تعالى عن سبب امتناعه عن السجود لآدم الذي خلقه الله بيديه؟ فقال: أنا خير منه، وقاس أصل خلقة آدم بأصل خلقته، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار في نظره أفضل من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟! فتكبر عن أمر الله، وطلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم يبعثون، فأنظره الله تعالى إلى يوم الوقت المعلوم، فأقسم بعزة الله ليفتنن آدم وذريته أجمعين، وليغوينهم ويضلنهم عن الطريق المستقيم، لكن الله تعالى قد كتب أنه لا سلطان لإبليس على عباد الله المؤمنين، وإنما سلطانه على الذين يتبعونه من الغاوين.

قال تعالى مخبرًا عن ذلك:. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ

﴿١٨﴾ [الأعراف:١١-١٨].

لذا حذر الله تعالى الإنسان من اتباع خطواته والاغترار به، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر:٦].

وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة:٢٠٨].

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «الواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عدواته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام، وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله تعالى بالحذر منه»[1].

٢. النمرود.

كان نمرود على عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو أول من وضع التاج على رأسه، وتجبر في الأرض وادعى الربوبية، وقد آتاه الله الملك فطغى، أي كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه[2].

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة:٢٥٨].

ولا شك أن ما وقع من نمرود في المحاجة في جزئها الأول كان سفسطة ومكابرة على الحق.

قال الألوسي: «وأراد عليه السلام بـ ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد اللعين غير ذلك، فقد روي عنه أنه أتى برجلين، فقتل أحدهما وترك الآخر وقال ما قال، ولما كان هذا بمعزل عن المقصود وكان بطلانه من الجلاء والظهور بحيث لا يخفى على أحد، والتعرض لإبطال مثل ذلك من قبيل السعي في تحصيل الحاصل، أعرض الخليل عليه الصلاة والسلام عن إبطاله وأتى بدليل آخر أظهر من الشمس»[3]. فما كان إلا أن بهت الذي كفر، وانقطع عن المحاجة.

٣. فرعون.

فرعون نموذج الطغيان، ضرب الله تعالى به المثل في العلو والاستكبار والافتراء والظلم والفساد، سفك الدماء، وعذب الناس، وعبد بني إسرائيل، ثم زاد في الطغيان والعتو والاستكبار حتى ادعى لنفسه الربوبية والألوهية، فأرسل الله تعالى له موسى عليه السلام، وجعل معه أخاه هارون وزيرًا وردءًا يصدقه، وآتاه من الآيات

(١) تلبيس إبليس، ص٣٣.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٣١٥.
(٣) روح المعاني، ٣/ ٢٧.

ما فيه بلاء مبين، لكنه كذب وعصى، وأدبر يسعى، وقال أنا ربكم الأعلى، بل وقال: ما علمت لكم من إله غيري، ثم قد استهان بموسى عليه السلام وازدراه واستخف به، فقال في كبرياء: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢].

وجمع السحرة، وبدأت المبارزة، وألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل أمر الساحرين، وألقوا جميعهم ساجدين.

قالوا: آمنا برب العالمين، فقال لهم فرعون في كبرياء وتعاظم: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:٤٩].

ثم توعدهم بالتعذيب الشديد: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:٤٩].

فقد بدت من فرعون مواقف تنم عن كبريائه وتعاظمه:

منها: ادعاؤه الربوبية تارة، والألوهية تارة أخرى.

ومنها: ازدراؤه بموسى، ونظره إليه نظر شزر.

ومنها: تكذيبه بالحق لما جاءه، مع وضوح البينات والآيات.

ومنها: موقفه من السحرة لما آمنوا بموسى، حيث قال لهم: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:٤٩].

ومنها: توعده للسحرة لما آمنوا، وتعذيبه لمن آمن.

ومنها: إلصاق التهم بموسى عليه السلام، وبث الإشاعات حوله؛ من اتهامه بالسحر والكذب وغيرها.

كل هذه المواقف تدل على كبريائه وطغيانه واستبداده، وأن ذلك وقع منه للحفاظ على ملكه ورياسته، وبقاء سلطته دون منازع.

٤. قارون.

قارون رجل من بني إسرائيل آتاه الله من الأموال مالا يحصى عددًا، ونعمه بأنواع النعم؛ من كنوز وقصور وخزائن وخدم وغيرها من أنواع النعم، غير أنه بدلًا من أن يتواضع لله ويؤدي حق الله تعالى فيما آتاه من مال، استكبر وتعالى على الناس، وأنكر أن يكون ذلك من الله، وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨].

فاستكبار قارون كان بتكذيبه مبدًا، ثم بإسناده النعمة إلى نفسه وعدم إسناد فضلها إلى المنعم سبحانه وتعالى، ثم من ناحية ثالثة بعدم أداء حقها فيمن له الحق فيها من الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، فكان مصيره أن خسف الله به وبداره الأرض.

٥. هامان.

هامان وزير فرعون، وشريكه في حكم البلاد والاستبداد، وهو يده الطولى في القتل والتعذيب والإفساد والتمرد، لذا كان في رتبته في الاستكبار والعتو، فقال تعالى شأنه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:٣٩].

فعده في جملة المستكبرين من الطغاة.

وفي موضع آخر قال تعالى شأنه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٤-٢٥].

فذكر أنه كان من المكذبين، وقد اتهم موسى بالسحر والكذب، ولما بين لهم موسى أنه رسولٌ من الله أيده بالمعجزات، وقد جاءهم بالحق منه، تمرد واستكبر وعلا وافترى، وراح يقتل أبناء الذين آمنوا، زيادة في العتو والاستكبار.

والآيات الكريمة قد ذكرته مقترنًا بفرعون الطاغية المستكبر في مواضع متعددة، ليدلل على أنه كان لا يقل عن أقرانه من فرعون وقارون في العتو والاستكبار.

ثانيًا: أمم مستكبرة:

لم يقتصر الأمر في الاستكبار على هؤلاء الأفراد وحدهم، بل تعدى ذلك إلى الجماعات والأمم، فقد قص علينا القرآن الكريم من أخبار السابقين ما يصفهم بهذه الصفة، من هؤلاء:

١. قوم نوح عليه السلام.

أرسل الله تعالى نوحًا إلى قومه لينذرهم من قبل أن يأتيهم العذاب، فبلغ رسالة الله، ودعا قومه على كل حال؛ سرًا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، لكنهم استكبروا استكبارًا، وعتوا عن أمر ربهم، وعصوا رسول الله نوحًا عليه السلام، ومكث عليه السلام في دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح:٥-٩].

فلم يترك عليه السلام وقتًا، ولم يدخر جهدًا في دعوة قومه إلى الله، لكنهم استكبروا مصرين على استكبارهم.

ولما أمر الله تعالى نوحًا بصنع الفلك؛ لأن موعد هلاك القوم قد اقترب، فبدأ بصنعها في مكان لا ماء فيه، وكان قومه

يسخرون منه ويستهزئون به.

قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:٣٨].

وكان استهزاؤهم هذا بنوح عليه السلام يكشف عن تكبرهم عليه وعلى دعوته.

٢. قوم هود عليه السلام.

دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ كل ما دونه من معبودات، وجاءهم بالبينة المصدقة له في دعواه، فاتهموه بالكذب والسفاهة، وقارعهم بالحجة، وذكرهم بحال من سبقهم ومصيرهم، لكنهم تمادوا في العتو والطغيان، فكذبوه وأنكروا عليه دعواه، وقالوا له: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣].

وقالوا كذلك: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف:٧٠].

وقال تعالى مبينًا جحودهم: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود:٥٩].

لذا وصفهم الله تعالى بالاستكبار، وهم مستحقون لهذه الصفة، فقال جل شأنه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [فصلت:١٥].

٣. قوم صالح عليه السلام.

تذكر الآيات الكريمة تمرد الملأ من قوم صالح عليه السلام، بعدما قدم لهم البينات، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، وأصبح أمر رسالته واضحًا بلا مراء، غير أنهم أنكروا رسالته، وعتوا على أمر الله، وراحوا يصدون من آمن من قومه من المستضعفين عن دين الله، فقصت علينا الآيات هذا الكبرياء الذي كانوا عليه.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٧].

فكان صنيعهم هذا كبرياء وتعاظمًا على الحق، لذا سماهم الله بهذا الاسم الذي يلصق بهم صفة الاستكبار.

٤. قوم لوط عليه السلام.

وقد كان قوم لوط عليه السلام على معصية مخالفة لما عليه الأقوام السابقون بجانب بعض الكبائر، فبعث الله تعالى لهم نبيه لوطًا عليه السلام، فجاءهم مذكرًا لهم

بالله، وناصحًا ومرشدًا إلى ما فيه صلاح الحال في الدنيا والآخرة، وقال لهم بأنهم على فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت:٢٨-٢٩].

لكن قومه كانوا مفترين، فاستكبروا على أمر الله، وأصروا على المعصية.

وقد بدت علامات الكبرياء والتعاظم في ردهم على لوط عليه السلام لما دعاهم لترك الفاحشة.

قال الله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت:٢٩].

وقال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل:٥٦].

روى الطبري رحمه الله عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال: من أدبار الرجل وأدبار النساء؛ استهزاءً بهم[1].

أي: استهزاءً بلوط عليه السلام والمؤمنين معه في تطهرهم عن هذه الرذيلة، وهذا يدل على تماديهم في الطغيان والاستكبار، حتى سخروا من الحق، وقلبوا الباطل حقًا والحق باطلًا.

وثم موقف آخر من مواقف عتوهم وتكبرهم: حينما جاء الضيف لسيدنا لوط عليه السلام وعلموا بقدومهم، فجاءوه مسرعين يريدون فعل الفاحشة مع ضيفه.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:٧٨].

وفي موضع آخر قال: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر:٦٧-٧١].

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «وجاء أهل مدينة سدوم، وهم قوم لوط، لما سمعوا أن ضيفًا قد ضاف لوطًا مستبشرين بنزولهم مدينتهم، طمعًا منهم في ركوب الفاحشة»[2].

إنها قمة الطغيان والاستكبار، أن يصل بهم الحال إلى هذا الحد؛ بأن يرتكبوا الفاحشة بضيف لوط عليه السلام! إنهم قد

(١) جامع البيان، ١٩/ ٤٨١.
(٢) المصدر السابق، ١٧/ ١١٧.

جعلوا نبيهم في موقف عصيب، حتى قال لهم ما قال.

٥. قوم شعيب عليه السلام.

أرسل الله تعالى شعيبًا إلى مدين وأمرهم بعبادة الله وحده، وحثهم على ترك كل ما من شأنه الفساد والإفساد، وبين لهم أمرًا شنيعًا ظهر فيهم، وهو التطفيف في الموازين.

قال تعالى مخبرًا عنه قوله لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُوا۟ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡا۟ فِى ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٥-٨٦].

لكنهم قابلوا الإحسان بالإساءة، والنصيحة بالرفض، والتصديق بالتكذيب، وتمادوا في طغيانهم وكبريائهم، حتى قالوا -كما ذكر القرآن- في ردهم على شعيب عليه السلام: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوا۟ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

فبردهم هذا الذي يحمل التهديد والوعيد لشعيب عليه السلام والذين آمنوا معه استحقوا وصفهم بالاستكبار.

ومن مواقفهم كذلك صدهم المؤمنين عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف:٩٠].

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[1].

ومن مواقفهم المجحفة في حق نبيهم التي تدل على تمردهم وتكبرهم على الهدى والطاعة لله ولرسوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود:٩١].

وانظر إلى موقفهم هذا الذي يصوره لنا القرآن الكريم:. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٧].

فكل هذه صور ومواقف للتكذيب والاستكبار عن اتباع الحق، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، وقد ذكرها لنا القرآن الكريم لأخذ العبرة منها، ﴿لَقَدۡ كَانَ فِى قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٤٨.

أساليب القرآن في عرض الاستكبار

جاء الحديث في القرآن الكريم عن الاستكبار على أساليب مختلفة ومتنوعة، منها:

أولًا: الاستفهام الإنكاري.

رهب القرآن الكريم من الاستكبار ونفر منه بأسلوب الاستفهام الإنكاري التوبيخي، وهذان نموذجان ممن استكبروا بغير الحق، وأنكر عليهم القرآن استكبارهم ووبخهم عليه:

١. إبليس.

خلق الله تعالى آدم بيديه، وشرفه بسجود الملائكة له، لكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، فقال له الله تعالى منكرًا عليه فعله وموبخًا له: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥﴾ [ص:٧٥].

أي: «استكبرت الآن أم كنت من قبل من العالين المتكبرين، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لإبليس»[(١)]. والمعنى: «تعظمت عن السجود لآدم، فتركت السجود له استكبارًا عليه، ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ يقول: أم كنت كذلك من قبل ذا علو وتكبر على ربك»[(٢)].

فكما هو واضح في الآية الكريمة أن الله تعالى قد ذم الاستكبار بأسلوب الاستفهام، وهو أبلغ في الحجة، وأوقع في النفس مما لو كان بصيغة الخبر، ولذلك لم يكن من مناص لإبليس للفرار من الإجابة عن السؤال، والإقرار بما في نفسه من حسد لآدم عليه السلام.

٢. بنو إسرائيل.

ذم القرآن الكريم بني إسرائيل على ما وقع منهم من كبر، فذمهم الله تعالى أشد ذم بأبلغ أسلوب، فقال تعالى شأنه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧﴾ [البقرة:٨٧].

«وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمزة التوبيخ فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ منكم ﴿بِمَا لَا﴾ يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته، احتقارًا للرسل، واستبعادًا للرسالة»[(٣)].

«والخطاب في ﴿جَاءَكُمْ﴾ يجوز أن يكون عامًا لجميع بني إسرائيل، إذ كانوا على طبع واحد من سوء الأخلاق، وتكذيب الرسل، وكثرة سؤالهم لأنبيائهم، والشك والارتياب فيما أتوهم به، أو يكون عائدًا إلى أسلافهم الذين فعلوا ذلك، وسياق الآيات يدل عليه أو إلى من بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبنائهم، لأنهم راضون بفعلهم،

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٤٦٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٢٣٩.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٤٢.

والراضي كالفاعل. وقد كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، وسقوه السم ليقتلوه، وسحروه»[1].

فالآية الكريمة تنكر على بني إسرائيل تكبرهم على الحق واتباعهم الهوى، وذلك بأسلوب قوي رصين، جاء على سبيل الاستفهام، فإن هذا الأمر ما كان ينبغي أن يكون منهم، إنما الذي كان ينبغي هو التصديق برسل الله واتباعهم.

ثانيًا: تقبيح عاقبة المستكبرين.

نفرت الآيات الكريمة من الاستكبار بأسلوب آخر، ذلكم هو تقبيح عاقبة المستكبرين، وأن مثواهم بئيس مذموم، وقد قررت الآيات هذه القضية في آيات عدة، كقوله تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل:٢٩].

وقال أيضًا: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢، غافر:٧٦].

وقال كذلك: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٦٨].

فأخبر تعالى في فواصل هذه الآيات أن عاقبة هؤلاء المتكبرين مذمومة.

هذا، وقد توعد الله تعالى المستكبرين بسوء المصير، حيث أخبر تعالى شأنه أن عاقبة أمرهم خسرًا، وأن لهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة:

فأما في الدنيا: فقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن حالهم حين احتضار أحدهم كيف يكون من الهول والفظاعة؟!

فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وأما في الآخرة: فقد أخبر جل جلاله من أحوالهم ما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، فقال تعالى شأنه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف:٣٦].

وفي موضع آخر قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:٤٠-٤١].

وبين سبحانه وتعالى أن سبب هذا العذاب هو ما هم عليه من الكبر.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ١/ ٤٦٨.

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف:٢٠].

وبين الله تعالى أن الذين يستكبرون عن عبادته سبحانه ودعائه سيدخلون جهنم مذلولين صاغرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠].

كما توعد الله تعالى من أتته آياته ثم أعرض عنها مستكبرًا غير مكترث بها، حاله حال الأصم الذي لا يسمع، مع أنه سمع تلك الآيات، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان:٧].

والوعيد بالعذاب هنا جاء على سبيل التهكم بهم، زيادة في التنكيل بهم، وإيقاع العذاب بهم جسديًا ونفسيًا.

فهذه آيات عديدة تتوعد المستكبرين، وتبين سوء عاقبتهم، فكيف لعاقل أن يتكبر بعد هذا الوعيد الشديد، والتفصيل المبين؟!

ثالثًا: إبطال دعاوى المستكبرين.

هذا أسلوب آخر من أساليب القرآن الكريم المتنوعة في ذم الاستكبار والتنفير منه، فقد جاءت آيات منه تجادل وتحاور وتناقش المتكبرين، وتقرر لهم أن ما هم عليه من التكبر مزعوم لا حقيقة له، فهم أذلاء أمام عظمة الله، حقيرون إذا ما نظروا إلى أصل خلقتهم، ضعفاء مهما أوتوا من قوة، ولذلك نجد القرآن يذكر هؤلاء بأصلهم ومصيرهم تارة، ويبين لهم أنهم ضعفاء مفتقرون إلى خالقهم تارة أخرى، فانظر إلى مجادلة القرآن للمشركين الذين أنكروا بعث الأجساد بعد فنائها، كيف ذكرهم الله تعالى بأصل خلقتهم، ليدلل لهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم مرة أخرى، ورد على كبريائهم وتعاظمهم بأنهم خلقوا من ماء مهين.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٧-٧٩].

فيا من تتكبرون على الله وتعتدون على كماله فتصفونه بالضعف، حين قلتم بعدم بعث الأجساد بعدما صارت ترابًا، انظروا من أين خلقتم ومن أي شيء كان خلقكم؟!

وقال في موضع آخر للذي أعرض عن الذكر بعد إذ جاءه، فلا صدق ولا صلى، بل ذهب إلى أهله يتمطى، متبخترًا افتخارًا، مختالًا في مشيته متكبرًا، فقد ذمه الله تعالى، وأبطل تكبره برده إلى أصل خلقته، فقال: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة:٣٣].

وهذه عاد قوم هود عليه السلام قد اغتروا بقوتهم، واستكبروا في الأرض بغيًا وعدوًا، وقالوا: من أشد منا قوة؟! فرد الله عليهم ادعاءهم وأبطله، وبين لهم أنه سبحانه هو القوي وما دونه ضعيف، واستدل على ضعفهم بأنهم مربوبون لله مخلوقون له، وكيف لهم كمخلوقات لله أن يتكبروا عليه؟!

قال تعالى يحدثنا عن ذلك: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

واستكبارهم في الأرض بغير الحق معناه: أنهم «بغوا وعتوا وعصوا فيها، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد... فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله»[1].

إذن من خلال هذه النماذج المضروبة يتبين لنا أن القرآن الكريم ذم الكبر ونفر منه بأسلوب الحوار والجدل، وهو أسلوب البليغ في تقرير مهمات الأمور، وإلجاء الخصم إلى الاعتراف والإذعان والتسليم، والرجوع إلى الحق.

رابعًا: الثناء على المتواضعين.

من الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في ذم الكبر والمتكبرين: الثناء على نقيضه؛ فقد أثنى الله تعالى على المتواضعين لجلاله وعظمته، وفي المقابل بين أنه سبحانه لا يحب المتكبرين، فقد أثنى سبحانه وتعالى على ملائكته المقربين، فوصفهم بصفة التواضع وعدم التكبر عن عبادته، فقال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف:٢٠٦].

فمدح الله سبحانه وتعالى الملائكة بهذا المدح، وكأن السياق تعريض بمن استكبر عن عبادة الله تعالى، فهو كالتعليل للسابق «على معنى: ائتوا بالعبادة على وجه الإخلاص كما أمرتم، فإن لم تأتوا بها كذلك فإنا مغنون عنكم وعن عبادتكم، إن لنا عبادًا مكرمين من شأنهم كذا وكذا»[2]، والاستكبار عن العبادة منافٍ للإخلاص، لذا لا تقبل عبادة المستكبرين، وقد وصفهم الله تعالى بالسجود له سبحانه؛ لما فيه من التذلل والتواضع، والبعد عن الكبرياء والتعاظم.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١٦٩.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ٩/ ٢٢٤-٢٢٥.

وقد أثنى الله تعالى على القسيسين والرهبان الذين تواضعوا لعظمة الله فلم يستكبروا، فقال تعالى شأنه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢].

أي: «﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات؛ محمود وإن كانت من كافر»[1].

وفي المقابل فإن الله تعالى قد ذم المستكبرين، وقرر أنه لا يحب من كانت هذه صفته، فقال تعالى شأنه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣].

وعدم محبته سبحانه للشيء يعني أنه يبغضه ويكرهه، والكبر من الأمور التي يبغضها الله تعالى، ومن كان متكبرًا باء بسخط الله ووقع في بغضه، خلافًا لمن تواضع لعظمته سبحانه، فإنه يرجع بمحبة الله له ورضاه عنه.

فهذا الأسلوب في مدح المتواضعين، والثناء عليهم بنفي صفة الكبر عنهم، وبغض المستكبرين وعدم محبتهم -أسلوب من أساليب القرآن الكريم في التنفير من الكبر، والحث على التزام خلق التواضع.

وتتمة لهذا الموضوع فإنه ينبغي الإشارة إلى أن هناك مواضع في القرآن الكريم جاءت بأساليب تؤدي في فحواها معنى الكبر، وتدعو إلى التواضع، وهذه بعضها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان:١٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة:٣١-٣٣].

ومعنى ذلك: «يتبختر ويختال في مشيته؛ افتخارًا بذلك»[2].

ذكر تعالى مقالة قوم نوح عليه السلام له حينما وعظهم وأمرهم بعبادة الله وحده واتباعه، فقالوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧].

ولذلك رد عليهم بقوله عليه السلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود:٣١].

قول المشركين في ازدراء النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان:٤١].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٢٧٩.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٤٢٥.

فهذه جملة من الأساليب تؤدي في فحواها أو تشترك مع معنى الاستكبار، والتعبير عن الشيء الواحد بألفاظ ومصطلحات مختلفة وأساليب متعددة يشعر بأهميته وخطورته، وأنه جدير بأن يذكر فلا ينسى، ولا شك أن الكبر من الكبائر في دين الله؛ إذ هي مما يبغضه الله ولا يرضاه، ويتوعد فاعله بالعذاب الشديد.

وهكذا تتنوع أساليب القرآن الكريم في ذم الكبر والتنفير منه، واختلاف الأساليب في تقرير القضية الواحدة فيه بلا شك دلالة واضحة على بلاغة القرآن الكريم وفصاحته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

التخاصم بين المستضعفين والمستكبرين

إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار تبدأ المخاصمات بين الكافرين في جهنم، وتبدأ المعاتبة بين الضالين والمضلين، والسادة والرعية، والمستكبرين والمستضعفين، ويرجع بعضهم إلى بعضٍ القول، كلٌّ يتهم الآخر في أنه كان سبب إضلاله وما هو فيه من العذاب.

وهناك ثلاثة مواقف عرضها القرآن الكريم من مواقف تخاصم أهل النار بين المستضعفين والمستكبرين:

الموقف الأول:

قال الله تعالى:. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

في هذه الآيات «يخبر تعالى عن تمادي

الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد؛ ولهذا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا، ومخبرًا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ منهم وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لولا أنتم تصدونا، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلًا ونهارًا، وتغرونا وتمنونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذبٌ ومين»[1].

ولا شك أن هذا العتاب لن يجدي ولن ينفع أو يغني عن صاحبه من الله شيئًا، وقد يسر الله لهم سبيل الإيمان والعمل، ولكنهم كفروا وكذبوا، ثم جاءوا ليتخاصموا في جهنم ويلقي بعضهم اللوم على الآخر في أنه كان سببًا في إضلاله، فيندمون جميعًا حيث لا ينفع الندم.

الموقف الثاني:

قال الله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم:٢١].

«في هذه الآية عرض سريع للموقف وما بعده من استقرار أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة، يقرر مبدأ الوحي والتوحيد والبعث الآخر بأدلة لا ترد.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرجت البشرية من قبورها، مؤمنوها وكافروها، صالحوها وفاسدوها، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ أي: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ أي: الرؤساء والموجهون للناس بما لديهم من قوة وسلطان ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أتباعًا في عقائدكم وما تدينون به، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾؟ أي: فهل يمكنكم أن ترفعوا عنا بعض العذاب بحكم تبعيتنا لكم؟ فأجابوهم بما أخبر تعالى به عنهم: ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥١٩.

﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ اعترفوا الآن أن الهداية بيد الله وأقروا بذلك، ولكنا ضللنا فأضللناكم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ اليوم ﴿أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من مخرج من هذا العذاب ولا مهرب»[1].

ففي هذا الموقف نرى صورة الضعفاء مع القادة الذين استكبروا وكانوا لهم تبعًا في الدنيا، فتصور لنا الآية موقف الضعفاء وهم يستجدون الرؤساء والقادة في أن يحملوا عنهم من عذاب الله أي شيء مهما قل، ولكن هيهات هيهات، لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه، وعنده من العذاب ما يكفيه، كل واحد منهم يريد أن يدفع العذاب عن نفسه، فكيف يأخذ من عذاب غيره؟! ولذلك فإن الضعفاء يطلبون المستحيل، فيرد عليهم القادة والمستكبرون بأن الله تعالى لو وفقنا إلى الإيمان به وبرسالاته لدللناكم إليه، ولكن قدر الله سبق علينا أننا كافرون، فلا مفر لنا من عذاب الله سواء أجزعنا أم صبرنا.

الموقف الثالث:

موقف المحاجة بين الضعفاء والمستكبرين من قوم فرعون.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر:٤٧-٤٨].

«الظاهر أن الضمير عائد على فرعون، وقال ابن عطية: والضمير في قوله: ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾ لجميع كفار الأمم»[2].

هذا الموقف يشبه سابقه، حيث وقعت المحاجة بين المستكبرين والمستضعفين من الكفرة، وقد وقعت بينهم بينما هم في نار جهنم يعذبون. الضعفاء كعادتهم هم الذين يبدأون الحوار والمجادلة؛ لأنهم يعتقدون أن القادة المستكبرين غلبوهم في الآخرة كما غلبوهم في الدنيا، فقد غلبهم الملأ المستكبرون في الدنيا بما أغروهم به من وعودات كاذبة؛ كقولهم لهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢].

فأطاعوهم واتبعوهم على الباطل، وغلبهم المستكبرون في الآخرة بأن كانوا سببًا في دخولهم النار، ولذلك يبدأون المحاجة متوسلين لهم بما وقع في الدنيا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تأمروننا فنطيعكم، وتكلفوننا فننفذ ما تريدون، ولا نعصي لكم أمرًا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ كما كنتم تعدوننا في الدنيا بحمل أوزارنا وخطايانا؟! فاحملوا عنا ولو جزءًا يسيرًا من العذاب،فرد عليهم المستكبرون

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٣/ ٥٢،٥٣.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٧/ ٤٤٨.

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ١٨﴾ فلن يفيد تحملنا نصيبًا من عذابكم شيئًا؛ لأننا كلٌّ في النار معذبون، وقد قضى الله تعالى وفصل بين العباد؛ أهل الجنة في الجنة ينعمون، وأهل النار في النار يعذبون.

إذن، هذه ثلاثة نماذج ضربها لنا القرآن لنأخذ منها العبرة والعظة، وهي متضمنة لحوار ومخاصمة وقعت بين المستضعفين والمستكبرين في نار جهنم، وكيف يلقي بعضهم اللوم على بعض، ويتوسل الضعفاء إلى الأكابر والرؤساء بأن يحملوا شيئًا من خطاياهم ولو قل، لكن دون جدوى، فنسأل الله تعالى السلامة.

عاقبة المستكبرين

قضى الله تعالى أن العاقبة للمتقين، والهلاك والخسران على الكافرين والمتكبرين والمجبرين، وأثبت الواقع هذه الحقيقة، ودلت الشواهد التاريخية على هذه السنة الإلهيةالجارية في هذا الكون، والقرآن حوى العديد من هذه الشواهد، وقد سبق الكلام عن استكبار بعض الأمم والأفراد في المبحث الخامس من هذا البحث، وتبينت لنا مواقف المستكبرين من الدعوات، وهاهنا نبين مشهد النهاية لهم في الدنيا والآخرة، وهذه بعض المشاهد أذكرها على سبيل المثال:

أولًا: هلاك المستكبرين من قوم نوح عليه السلام:

أخبرنا الله تعالى عن نوح عليه السلام وقومه؛ حيث أرسله لينذر قومه من قبل أن يأتهم عذاب الله، فأمرهم أن يعبدوا الله ويتقوه، ويطيعوه عليه السلام فيما يبين لهم من شرائع الأحكام وسنن الهدى، ولم يدع عليه السلام وقتًا من الأوقات إلا ودعاهم فيه إلى الله؛ ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، لكن قومه أبوا وأصروا على كفرهم وعنادهم واستكبروًا استكبارًا، كما أخبرنا عن ذلك القرآن الكريم، فقال تعالى شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ

يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح:٥-٩].

فهل بعد هذا الكبرياء كبرياء؟! وهل هناك تمرد وعتو عن الطاعة بعد هذا التمرد والعتو؟! لقد مكث نوح عليه السلام يدعو قومه مئات السنين، فما آمن معه إلا قليل، ولذلك عاجلتهم عقوبة الله، ونزل بهم عذابه ونقمته.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف:٦٤].

هذا عذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى.

قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح:٢٥].

قال الإمام السمرقندي: «﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ يعني: بشركهم بالله تعالى أغرقوا في الدنيا ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ في الآخرة»[1].

فنالوا بكفرهم واستكبارهم عن الحق عذابي الدنيا والآخرة؛ فعذبهم الله تعالى بالغرق في الدنيا، وسيعذبون يوم القيامة في جهنم، هذا مصيرهم لكفرهم واستكبارهم.

(١) تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٠٨.

ثانيًا: هلاك المستكبرين من قوم صالح عليه السلام:

أرسل الله تعالى إلى ثمود نبيه صالح عليه السلام، مبلغًا ومرشدًا ونذيرًا، فأما الملأ المستكبرون من قومه فقد كان موقفهم من الدعوة موقف عداء ومعاندة، فعتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف:٧٦-٧٩].

فأخبر الله تعالى أنه أنزل عليهم عذابه بسبب استكبارهم وعنادهم وعتوهم، فأخذهم بالصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، «وأخذ الرجفة: إهلاكها إياهم وإحاطتها بهم إحاطة الآخذ. ولا شك أن الله نجى صالحًا عليه السلام والذين آمنوا معه... والجاثم: المكب على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثو الأرنب... والمعنى أنهم أصبحوا جثثا هامدة ميتة على أبشع منظر لميت»[2].

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ٢٢٧.

ثالثًا: هلاك المستكبرين من قوم هود عليه السلام:

بعث الله تعالى هودًا إلى قومه ليبلغهم رسالته ويعلمهم أمور دينهم، وجاءهم بآية بينة، فآمن معه فريق من قومه وكفر آخرون، فأما الكافرون فقد استكبروا في الأرض بغير الحق، وعتوا عن أمر ربهم وعصوا رسوله، وغرتهم قوتهم فلم تغن عنهم من الله شيئًا، فكان استكبارهم ورفضهم دعوة الله سببًا في نزول عذاب الله عز وجل عليهم في الدنيا، وخلودهم في نار جهنم في الآخرة. وقد أخبرنا الله تعالى عن حالهم عند رفضهم دين الله وتكذيب رسله.

فقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٥-١٦].

فأخبر تعالى أنه أنزل بهم عذابه في الدنيا بسبب استكبارهم في الأرض بغير الحق، فأرسل عليهم ريحًا صرصرًا تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر، إذلالًا لهم وإلحاق الخزي بهم في الدنيا، فلم تنفعهم قوتهم التي قد اغتروا بها، ولعذاب الآخرة أشد إيلامًا وأخزى.

رابعًا: هلاك المستكبرين من قوم شعيب عليه السلام:

قوم شعيب عليه السلام هم أهل مدين الذي أرسل إليهم مبلغًا ومرشدًا، لكن المستكبرين من قومه رفضوا دعوة الله، واستكبروا عن عبادته والخضوع لأمره، وهموا بإخراج رسولهم والذين آمنوا معه بغيًا وعدوًا، واستهزأوا به وسخروا منه، ثم بالغوا في العناد والاستكبار فطلبوا منه أن يسقط عليهم كسفًا من السماء إن كان صادقًا في ادعائه الرسالة، فقالوا كما أخبر عنهم القرآن: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

وقال في موضع آخر: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، وقال أيضًا عنهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء:١٨٧].

وهذا يدل على شدة كفرهم وعنادهم وعتوهم، لذا استحقوا عذاب الله تعالى، فأنزل عليهم سخطه وعذابه، فأصبحوا جثثًا هامدة بلا حراك، ونجى الله نبيه والذين آمنوا معه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود:٩٤].

وقال أيضًا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء:١٨٩].

قال ابن كثير: «﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من جنس ما سألوا، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله، سبحانه وتعالى، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جدًا مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار، ولهبًا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾»[1].

فهذا مصير كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، فيهلكهم في الدنيا، ويعذبهم في الآخرة، وأما المؤمنون وأتباع الرسل عليهم السلام فينجيهم الله من عذاب الدنيا والآخرة، وهذه سنة الله في الكون، لا محيد عنها ولا محيص، تقررت في قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء:١٧٣].

وتقررت هذه السنة الإلهية في قوله تعالى كذلك: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الجاثية:٢٩-٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف:٤٠-٤٢].

فالعاقبة للمتقين، إنها سنة الله الحتمية، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلًا.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٦٠-١٦١.

علاج القرآن للكبر

أيقنا بأن الكبر مرض عضال من أمراض القلوب، تظهر أعراضه على المتكبر في الدنيا والآخرة، لذا لا بد له من علاج كي يستقيم حاله وينصلح أمره، ولن تجد له وصفة علاج أمثل ولا أفضل من علاج القرآن والسنة؛ لأن الله أعلم بخلقه من أنفسهم، ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠].

وهذه بعض علاجات القرآن لمرض الكبر:

أولًا: معرفة الله:

إن الله له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وله الشرف الأتم الأسنى، تقدست أسماؤه، وعظمت صفاته، هو واحد أحد، فرد صمد، لا يشبهه شيء، ولم يكن له كفوًا أحد.

وإن من أسمائه جل في علاه (الخالق)، خلق الخلق عظيمه وحقيره، كبيره وصغيره، دقيقه وجليله، بنظام محكم متقن بديع، لا يسع الإنسان معه إلا أن يقف أمام هذه العظمة قائلًا: جلت عظمة الخالق، لا إله غيره ولا رب سواه، ثم يخر له ساجدًا خاضعًا ذليلًا.

إن المتكبر إذا علم صفات الله عرف حجمه ومكانته وموقعه، وأين هو في هذا الكون؟! وماذا يشكل فيه؟! فينقطع حينئذٍ عن كبريائه وتعاظمه، ويخضع فقط لعظمة الله، ويذل لجبروته وكبريائه سبحانه، ويأبى أن يكون كبيرًا على أحد أو أن يكون أحدٌ عليه كبير غير الله.

ثم إن من علمه بربه يقتضي أن لا يسيء الظن به، لأن إساءة الظن به جل جلاله تورد المهالك، وتسبب الخسران المبين.

قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت:٢٣].

إن عادًا لما استكبروا في الأرض بغير الحق واغتروا بقوتهم، ذكرهم الله تعالى ببديع صنعه وعظيم خلقه، وكمال قوته؛ ليرجعوا عن عتوهم وكبريائهم، ويذلوا لعظمته وكبريائه سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت:١٥].

فهذه أول وأهم خطوة على سبيل علاج مرض التكبر؛ أن يتعرف العبد على الله تعالى.

ثانيًا: معرفة المتكبر لحقيقته ومصيره:

لا بد للمتكبر أن يلعم بأنه مخلوق من مخلوقات الله جل جلاله، خلقه من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين حقير،

فأصله من تراب، منه خلق وفيه يعود، ونسله من ماء مهين، يخرج من حيث يخرج البول، لذا فإن الله تعالى ذكر هذا الإنسان بأصله لما تكبر وتمرد على طاعة الله، وذهب إلى أهله يتمطى، فقال جل جلاله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة:٣٧-٣٩].

كما ذكره كذلك بأصل خلقته لما ضرب هذا المتكبر مثلًا، حين قال: من يحيي العظام بعد أن تصبح رميمًا.

قال جل جلاله :. ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٨-٧٩].

إن الله تعالى كما ذكر المتكبرين بمنشأهم ذكرهم كذلك بمآلهم، فبين لهم أنهم بعد هذه الحياة يموتون، وأنهم إلى التراب يصيرون، وفيه يعودون، فقهرهم بالموت، وكفى بالموت واعظًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف:٢٥].

لذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧].

ولم يقل: (ولا تمش مرحًا)؛ يذكر تعالى الإنسان شأنه بأصله الذي منه خلق وفيه يعود، وهو الأرض، فإذا تكبر فعلام يتكبر؟! أيتكبر على أصله الذي منه جاء وفيه يعود؟!

إن المتكبر إذا عرف هذه المعاني وأيقن بهذه الحقائق فلن يتكبر، ولن يتعاظم على الناس.

ثالثًا: الوعيد الشديد للمتكبرين:

إضافة إلى ما سبق فإن الله تعالى أعد للمتكبرين عذابًا شديدًا، فقال جل جلاله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠].

وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)[(١)].

وقد سبق حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله عز وجل:الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار)[(٢)].

وقد رأينا في هذا البحث كيف كان مصير المستكبرين في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى، فليس بعد هذا الوعيد من وعيد، والعاقل من استفاد من تجارب السابقين.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١، عن عبدالله ابن مسعود.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وصححه الشيخ الألباني.

فهذه ثلاث طرق لعلاج الكبر مستوحاة من كتاب الله تعالى وسنة حبيبه صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن المتكبر حال تلبسه بكبريائه يغيب عن باله عظمة الخالق سبحانه، وينسى أصله وحقيقته ومآله، ويتجاهل ما ينتظره من العذاب الشديد، ولو استحضر هذه أمامه لما تكبر على خلق الله، ولا تعالى على عباده.

موضوعات ذات صلة:

التواضع، الذل، العجب، الغرور

الاستهزاء

عناصر الموضوع

مفهوم الاستهزاء	١٨٦
الاستهزاء في الاستعمال القرآني	١٨٧
الألفاظ ذات الصلة	١٨٨
نسبة الاستهزاء إلى الله تعالى	١٩١
الاستهزاء بالأنبياء وأتباعهم	١٩٦
مواطن الاستهزاء	٢٠٧
أسباب الاستهزاء	٢١١
علاج الاستهزاء	٢١٥
عاقبة المستهزئين	٢١٨

مفهوم الاستهزاء

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (هزء) تدل على السخرية، يقال: هزأ واستهزأ: إذا سخر، واستهزأ بالقانون: خرقه ولم ينفذه، وهو بمعنى: السخرية، والاستخفاف، ويأتي بمعنى: التهكم[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف كثيرًا المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، فالاستهزاء يقتضي تصغير من قصد به، وتحقيره[(٢)].

ويكون بالقول أو بالفعل، بالعبارة أو الإشارة، بالخطابة أو بالكتابة، بالتصريح أو بالتلميح، بالتحقيق أو بالتلفيق، وقد يطابق الحال فيمن استهزئ به وقد يخالف.

وعرفه ابن جرير الطبري بأنه: «إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرًا، وهو بذلك من قيله وفعله به مورثه مساءة باطنًا»[(٣)].

وبإمعان النظر يظهر أن هذا التعريف غير دقيق، ذلك أن الاستهزاء قد وقع من الكفار في العهد المكي، وهو عهد الاستضعاف، ويؤكد ذلك مجيئه في السور المكية، ولم يكن من الكفار إظهار ما يرضى به النبي صلى الله عليه وسلم بل كانوا يظهرون له العداوة والسخرية والطعن فيه، ويسعون في إحراجه كثيرًا، وكون هذا فيهم يرد هذا التعريف، وقد ذكره الطبري في سورة البقرة عند الحديث عن المنافقين، لكنه حين وقف مع استهزاء الكافرين ذكر أنه كان منهم السخرية والإيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم[(٤)].

والمختار في تعريف الاستهزاء هو: صدور ما يدعو لانتقاص شأن المقصود به من المستهزئ، بوجود المقتضي أو بعدمه، بغرض التحقير له، أو التنفير عنه، أو كليهما.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة،الأزهري، ٦/ ٢٢، الصحاح،الجوهري،١/ ٨٤، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ٥٢.

(٢) انظر: الفروق اللغوية،العسكري، ص٢٥٤.

(٣) جامع البيان، ١/ ٣٠٣.

(٤) انظر: المصدر السابق ١٧/ ١٥٣.

الاستهزاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هزء) في القرآن الكريم (٣٤)[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَلَقَدِ ٱسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام:١٠]
الفعل المضارع	١٧	﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٥]
فعل الأمر	١	﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة:٦٤]
المصدر	٥١	﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف:١٠٦]
اسم الفاعل	٢	﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر:٩٥]

وجاء الاستهزاء في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي الذي يحمل معنى السخرية[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٣٦-٧٣٧.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٥٢، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٤١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٢٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الازدراء:

الازدراء لغة:

الاستخفاف، والاستهانة، والاحتقار[١].

الازدراء اصطلاحًا:

قلة قدر المقصود به في نظر المزدري.

الصلة بين الاستهزاء والازدراء:

الازدراء يعدى بدون حرف، ويقع من الأعلى على الأدنى؛ لعدم بلوغه المكانة المقنعة للمزدري،، بينما الاستهزاء يعدى بالباء، ويكون من المماثل أو من الأدنى إلى الأعلى.

٢ السخرية:

السخرية لغة:

«السين والخاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال»[٢].

السخرية اصطلاحًا:

الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه. وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء[٣].

الصلة بين الاستهزاء والسخرية:

السخرية تكون بعد صدور فعل من المقصود بها، بينما الاستهزاء قد يكون دون صدور ما يقتضيه من المراد به[٤].

٣ التهكم:

التهكم لغة:

هو اقتحام المرء ما لا يعنيه، والتعرض للغير بالشر[٥].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٤٤.
(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٥٢.
(٣) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ص١٩٢. محاسن التأويل، القاسمي٨/ ٥٣١.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٥٠.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٤٤.

التهكم اصطلاحًا:

هو ازدراء الغير بسبب في المزدري كالغيظ ونحوه.

الصلة بين التهكم والاستهزاء:

أن المقتضي للتهكم بغض المتهكم به من غير وجود سبب، أما الاستهزاء فإنه يحتمل وجود السبب، فالتهكم يكون من المتعالي وبدون أن يكون في المتهكم به ما يدعو للتهكم، وإنما فعله من قبيل الاستعلاء.

٤ الهمز:

الهمز لغة:

هو الضغط والعصر، والتعييب والطعن والغمز في غياب المهموز، وكأن الذي يهمز الناس يضغط الحروف ويعصرها[(١)].

الهمز اصطلاحًا:

عيب الناس والطعن فيهم حال غيبتهم.

الصلة بين الاستهزاء والهمز:

الاستهزاء يكون في الحضور والغيبة على حد سواء، بينما الهمز يكون في الغيبة غالبًا.

٥ اللهمز:

اللمز لغة:

العيب في حضرة المقصود به لا في غيبته، بكلام ظاهر أو خفي، وأصله الإشارة بالعين ونحوها[(٢)].

اللمز اصطلاحًا:

العيب بشيء فيه تهمة[(٣)].

الصلة بين الاستهزاء واللمز:

أن الغرض من الاستهزاء التحقير، بينما الغرض من اللمز التشكيك والاتهام.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة،ابن فارس، ٦/ ٦٥، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٣/ ٢٣٦٤.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٧/ ٣٧٢، الصحاح،الجوهري، ٣/ ٨٩٥، مقاييس اللغة،ابن فارس،٥/ ٢٠٩.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٥٣.

٦ المزاح:

المزاح لغة:

المداعبة بكلام لا يقتضي التحقير[١].

المزاح اصطلاحًا:

الكلام غير الجاد على سبيل الدعابة[٢].

الصلة بين الاستهزاء والمزاح:

الاستهزاء يكون بغرض التحقير، بينما المزاح غرضه المداعبة[٣].

٧ الاستهانة:

الاستهانة لغة:

الإذلال، والاستخفاف[٤].

الاستهانة اصطلاحًا:

التهوين والتقليل من شأن المقصود بها.

الصلة بين الاستهزاء والاستهانة:

أن المقصود بالاستهزاء قد يكون شأنه عاديًا، بينما المقصود بالاستهانة الذي يظهر من شأنه أكبر مما يراه المستهين.

٨ الغمز:

الغمز لغة:

العيب والذكر بغير الجميل[٥].

الغمز اصطلاحًا:

الإشارة بالعين والحاجب استهزاءً وتنقصًا[٦].

الصلة بين الاستهزاء والغمز:

الاستهزاء أعم من الغمز، فالغمز صورة من صور الاستهزاء حيث إنه يكون بالعين والحاجب فقط.

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٢٥٤.
(٢) انظر: غريب الحديث،إبراهيم الحربي، ٢/ ٤٧٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية،العسكري، ص٢٥٤.
(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء، قلعجي، ص٦٠.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٣٩٤.
(٦) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة،أحمد مختار، ٢/ ١٦٤١.

نسبة الاستهزاء إلى الله تعالى

ستتعرض لقضية نسبة الاستهزاء لله عز وجل من خلال النقاط الآتية:

أولًا: إثبات صفات الله مع تنزيهه عن مشابهة المخلوقين:

عقيدة أهل الإسلام أهل السنة والجماعة هي أن الله سبحانه وتعالى هو العليم بذاته، والذي لا نعلم شيئًا عن ذاته أو أسمائه وصفاته وأفعاله، إلا ما أوحى به لرسله، وقد قال جل جلاله -مخبرًا عن الملائكة الذين كلمهم وكلموه-: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وذلك حين عرض عليهم أشياء رأوها بأعينهم، لكنه لم يعلمهم ما هذه الأشياء وما أسماؤها؟ وعلمها آدم فأمره ربه أن يخبرهم بأسمائها[(١)]، وكان هذا في أمر مشاهد، فكيف الحال مع ما غاب عنا وعنهم؟! لا يمكن لمخلوق أن يكون عنده أثارة من علم إلا أن يأذن الله بها، لذلك كان الأمر في عقيدتنا أن نؤمن بالله سبحانه وتعالى وما جاء عن الله على مراد الله، كما قال: الشافعي رحمه الله : «آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله»[(٢)]، فيكون إيماننا بما أخبرنا الله جل جلاله من أسمائه وصفاته إيمانًا بالغيب، الذي لا طاقة لنا بإدراك كيفيته، مع التسليم بأن المعاني التي أرادها الله منها حقيقتها، ولا يستقيم أن نصرف هذه المعاني عن ظاهرها، لا تكييفًا ولا تشبيهًا ولا تأويلًا ولا تعطيلًا ولا تمثيلًا، وقد كان الأصل الذي قرره القرآن في غير آية يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى لا مثيل ولا شبيه له حصنًا لأفهامنا من الزيغ والانحراف، يقول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][(٣)].

وقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

وقال أيضًا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

وغيرها من الآيات التي يتحقق لنا العلم منها أن الله لا يمكن أن يتصف بما اتصف به خلقه، وإن تشابهت الكلمات والمعاني إلا أن الحقائق بخلاف ذلك.

في ضوء ذلك يمكننا البحث عما أراده الله من قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

محتاطين لأنفسنا مما وقع في بعض

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٢٣.

(٢) لمعة الاعتقاد، ابن قدامة المقدسي، ص٧.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٥٤.

كتب التفسير التي سار المفسرون فيها على المنهج العقلي، ومنهج علم الكلام والجدل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، في البحث في أسماء الله وصفاته، بل هو كماء البحر الذي إذا شرب منه العطشان ازداد عطشه، وتمزقت جدران حلقه، وهذا ما جناه من ذهب يبحث في أسماء الله وصفاته على تلك الطريقة المنحرفة، قد أدى إلى تحير كثير ممن خاضوا فيه، وقد صرحوا بذلك، وليس هذا مقام بيان ذلك، لكن جئنا به على سبيل التنبيه، وليكون مدخلًا للخوض في نسبة الاستهزاء إلى الله سبحانه وتعالى، على طريقة أهل الجدل والسفسطة، فتنزه وتقدس ربنا عن صفات النقص، وعز بصفات العز والكمال، وجل بنعوت الكبرياء والجلال، ونحن بذلك مؤمنون وله مثبتون.

ثانيًا: الاستهزاء ونسبته إلى الله:

يبين الله عز وجل كاشفًا وفاضحًا لحال المنافقين ومقالهم، حين يعتذرون لرؤوسهم ورؤسائهم، وأئمتهم وشياطينهم، بالأمر الذي حاق بهم، وأغراهم وغرهم بسوء فعلهم، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤- ١٥].

وقد وقف أهل العلم مع هذه الآية ونظيراتها في كتاب الله عز وجل وذلك أن إثبات صفة كالاستهزاء والخداع والمكر والسخرية لله سبحانه وتعالى، أمر يقتضي رفع الاشتباه الذي قد يترتب عليه الظن والاعتقاد بأن الله متصف بصفات لو كانت في حق البشر لكانت صفات نقص، فكيف يتصف الله بها؟! وقد قاموا بفضل الله جل جلاله بدفع الاشتباه، ورد الشبه التي أوردها أهل الانحراف والعقائد الضالة بأوضح العبارات[1]، وهذا ما يرجحه الإمام الطبري في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

وهو أن استهزاء الله بالمنافقين هو من جنس فعلهم، وقد سبق أن ذكرنا تعريفه للاستهزاء في هذا المقام وهو: «إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرًا، وهو بذلك من قيله وفعله به مورثه مساءة باطنًا»[2]، فقابلهم الله جل جلاله على ما أظهروه من الإيمان والولاء للمؤمنين بألسنتهم، وإبطان نقيضه من التكذيب والعداء في قلوبهم، أن أظهر لهم في الدنيا أن لهم أحكام أهل الإيمان المصدقين ظاهرًا وباطنًا والذين يوالون الله ورسوله في الدنيا، مع علمه بكذبهم وخبث اعتقادهم، حتى ظنوا أنهم يوم القيامة سيحشرون في عداد المؤمنين، الذين

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ٢/ ١١٣.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١/ ٣٠٣.

كانوا في عدادهم في الدنيا، وقد أنزل الله في كتابه ذكرهم وذكر أحوالهم وسرائرهم الخبيثة، وما أعد لهم يوم القيامة من الخزي والمفاجآت والمواقف الفاضحة والعذاب الأليم على خلاف توقعاتهم، وذلك في مواقف نذكر منها ما يأتي:

ما جاء في قول الله سبحانه وتعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣ - ١٤].

يقول ابن عباس: «بينما الناس في ظلمة، إذ بعث الله نورًا، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلًا من الله إلى الجنة؛ فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: انظرونا نقتبس من نوركم، فإنا كنا معكم في الدنيا؛ قال المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور»[(١)].

وموقف ثانٍ في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقًا واحدًا)[(٢)].

وهؤلاء هم المنافقون؛ ذلك أن الناس يوم القيامة يذهب كل قوم مع إلههم الذي عبدوه في الدنيا «ويبقى المؤمنون والمنافقون، فيقال لهم: ألا تذهبون فقد ذهب الناس؟ فيقولون: حتى يأتينا ربنا، فيقال لهم: أو تعرفونه؟ فيقولون: إن اعترف لنا عرفناه.

قال: فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلى لهم؛ فيخر من كان يعبده مخلصًا ساجدًا، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفافيد، فيذهب بهم إلى النار»[(٣)].

وموقف ثالث جاء ذكره في قول الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا

(١) المصدر السابق، ٢٣/ ١٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (يوم يكشف عن ساق)، ٦/ ١٥٩، رقم ٤٩١٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٢٥٠.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٢ - ٣٧].

يبين الله جل جلاله في هذه الآيات استهزاء الكفار باليوم الآخر، والصورة التي كانوا يستهزئون بها، وموقفهم يوم القيامة حين يطبق عليهم سوء فعلهم، فيطوقهم ويحيط بهم، ويقال لهم استهزاءً: اليوم نترككم كما تركتم العمل بما جاءكم به النبي صلى الله عليه وسلم، وتركتم التفكر فيه؛ ليصبح يقينًا كما ترونه اليوم، وقنعتم بعملكم المنكر واستهزائكم بخبر هذا اليوم الذي أنتم فيه الآن.

فكان جزاؤهم من جنس عملهم؛ تركوا الإيمان والاستعداد ليوم الحساب، فحاق بهم ما استهزءوا به وتركوا في العذاب، وكان خطاب الله لهم بيانًا لعاقبة فعلهم، حيث أظهروا شيئًا من الاهتمام بالتساؤل حول خبر ما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم يقصدون بذلك تقرير بطلانه لعدم قوة الحجة التي جاءهم بها النبي صلى الله عليه وسلم، فيأتيهم الخطاب وهم ليسوا أهلًا لخطاب الله، لكنه خطاب تقنيط وتبكيت، كما كان خطابهم للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب تقنيط وتكذيب، استهزاءً باستهزاء، والجزاء من جنس العمل.

وعليه فإن إثبات صفة الاستهزاء لله جل جلاله على ما أثبته له أهل السنة والجماعة، لا يورد أدنى اشتباه يكون مؤداه الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى قد اتصف بصفات النقص، ولا يرد عليه أدنى إشكال بأن الله جل جلاله يشبه مخلوقاته في صفاتهم أو أفعالهم.

ثالثًا: الاستهزاء صفة من صفات الله:

بالتزام الأصل الذي تطرقنا له سابقًا، وبعد استعراض ما جاء في كلام العلماء فيما تلاه نخلص إلى ما يلي:

أن صفة الاستهزاء هي صفة لله على وجه الكمال لا على وجه النقص كما هي في حق الآدمي، وذلك أنه ليس كل صفة نقص في حق المخلوق إذا ما اتصف بها الخالق تكون صفة نقص فيه، فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فعدم النوم عند الإنسان يدل على مرض واعتلال، وهو بهذا الاعتبار يكون موصوفًا بعلة، وهي صفة نقص فيه، لكن الله عز وجل لا ينام؛ وهذا من كمال حياته وقيوميته، الإنسان الذي لا يولد له؛ يكون عقيمًا، وهي له صفة نقص، وكذا إن لم يكن له أهل يعرف أن أصله منهم، بينما الله سبحانه وتعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

الإنسان الذي لا يصلح له الزواج، كان هذا لنقص فيه، والله جل جلاله غني عن ذلك، وهذه والتي قبلها لكمال غناه سبحانه وتعالى وأحديته وصمديته، وعليه فالله عز وجل لا يجوز أن تضرب له الأمثال بمخلوقاته، وهناك صفات كمال لله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى منها صفات كمال للإنسان، وهي كثيرة: كالسمع والبصر، والكلام والرحمة، والعفو والرضا والغضب، والحب والبغض والوجه وغيرها كثير.

إثبات الصفات لله عز وجل ليس كإثباتها لغيره من خلقه، فنحن نثبت له منها المعنى الظاهر، ونثبت الكيف الذي يليق به، ونكل علم الكيفية له عز وجل، كما فعل الإمام مالك -رحمه الله تعالى-، حين جاء ذاك المبتدع وسأله قائلًا: «يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

كيف استوى؟ قال: فما رأينا مالكًا وجد من شيءٍ كوجده من مقالته، وعلاه الرحضاء[١]، وأطرق، وجعلنا ننتظر ما يأمر به فيه. قال: ثم سري عن مالكٍ، فقال: الكيف غير معقولٍ، والاستواء منه غير مجهولٍ، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ، وإني لأخاف أن تكون ضالًا، ثم أمر به فأخرج»[٢].

الكمال الذي للخالق سبحانه وتعالى ليس كالكمال الذي يكون للمخلوق، ولكي يقرب الأمر في أذهاننا نقول: إنه ليس كل كمال في مخلوق يصلح أن يكون كمالًا لمخلوق آخر؛ وإن كان مثله في الأصل والهيئة، فالكمال بالنسبة للمرأة ليس كالكمال بالنسبة للرجل، وإذا كان هذا التباين والاختلاف موجودًا بين مخلوقين خلقا من مادة واحدة، وعلى هيئة واحدة، فهو بالنسبة لله أعظم.

وهناك أمر آخر نبه له أهل العلم لابد من ذكره في هذا المقام؛ ألا وهو أن الله سبحانه وتعالى لا يشتق له من صفاته أسماء، فإن قلنا: إن الله جل جلاله له صفة الغضب، فلا يجوز لنا أن نقول: إن من أسماء الله سبحانه وتعالى الغضوب، أو إن له صفة البغض أن نقول: إن من أسماء الله عز وجل المبغض، وإن له صفة الرضا فيكون من أسمائه الراضي، فلا يجوز أن نسمي الله باسم لم يسم نفسه به، فأسماؤه توقيفية، وإثباتها لا يكون إلا بدليل من الكتاب أو السنة، ولا تكون اجتهادية بالمطلق.

(١) الرحضاء: عرق الحمى.
انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ١٥٤.

(٢) الرد على الجهمية، الدارمي، ص٦٦.

الاستهزاء بالأنبياء وأتباعهم

بين القرآن الكريم الاستهزاء بالأنبياء وأتباعهم وأسبابه وهذا ما سنتناوله بالإيضاح فيما يأتي:

أولًا: الاستهزاء بالأنبياء والمرسلين:

لم يكن كتاب الله سبحانه وتعالى كتابًا غرضه التفكه والمسامرة، بل كان له غرض سامٍ، فهو كتاب هداية للعالمين يخاطب الله سبحانه وتعالى به أصحاب العقول، وقد أورد الله جل جلاله فيه أحسن القصص لهذا الغرض، ففيها من بيان ما لاقاه أهل الحق، وبيان أساليبهم ووسائلهم في مواجهة ما يعترضهم؛ ليكون المخاطبون به على بينة من أمرهم، فهم على نفس الطريق سائرون، ولنفس السبيل ناهجون، ومن جملة القصص التي أنزلها الله ما كان فيها ذكر استهزاء الأمم السابقة بأنبيائهم ورسلهم، وهذا ما سنعرض له في النقاط الآتية:

١. الغرض من ذكر الاستهزاء بالأنبياء والمرسلين.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وهذا أمر علم الله سبحانه وتعالى أن له الأثر البالغ في تقوية عزم النبي صلى الله عليه وسلم على طريق دعوته، فهو طريق حافل بالابتلاءات، مكلل بكل ما من شأنه أن يثنيه عن دعوته، فيذكر الله جل جلاله لنبيه صلى الله عليه وسلم أخبار من كان قبله من الأنبياء، وأنهم لاقوا مثل الذي يلاقيه، ومن جملة ما لاقوه -بل هو أكثر ما استعمل معهم لصدهم عن رسالتهم- الاستهزاء[1]، وقد ذكر الله أن الأنبياء والرسل عامتهم لم يسلموا منه، وذلك في سبعة مواضع، وفي سبع سور من القرآن الكريم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى نزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم منجمًا لذات الحكمة التي قص لأجلها عليه قصص الأنبياء والرسل، وهي تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليجتمع بذلك تكرار القصص مع تعاهد المولى جل جلاله لنبيه بالتثبيت على فترات متباعدة.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وكان هذا أيضًا من جملة ما لم يسلم من اعتراضهم واتخاذه مطعنًا على النبي صلى الله عليه وسلم، أنه لم ينزل عليه القرآن كما

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٢٤٨.

نزلت الكتب على الأنبياء السابقين، فجاء الجواب في هذه الآية مبينًا حكمةً من الحكم التي نزل القرآن من أجلها منجمًا، وليس هذا محل عد هذه الحكم، لكن الذي هو محل بحثنا نزول القرآن بذكر استهزاء الأمم برسلها وأنبيائها والحكمة منه، وعلى نفس الطريقة جاء ذكر الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم ففيه تذكير للنبي صلى الله عليه وسلم أن الله مطلع عليهم، وفيه بيان لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ليطلعوا على ما مر به صلى الله عليه وسلم ليكون لهم أسوة، وفيه تسلية حتى لا يوقع الشيطان في قلوبهم أن الله عز وجل قد تخلى عنهم.

٢. ذكر استهزاء الأمم السابقة بالرسل والأنبياء.

الإنسان موصوف بالجهل والظلم، ومن كمال رحمة الله جل جلاله وعدله أنه لم يتركه فريسة لظلمه وجهله، فتفضل عليه بإرسال الرسل والأنبياء؛ ليخرجوه من ظلمات الجهل إلى نور الهدى، ومن خلف قضبان الظلم إلى سعة الرحمة والعدل، لكن من غلب عليه وصفه الأصلي بسبب ما استمرأه من المعيشة في الظلام، واستعذبه من حياة الأسر في قبضة عدوه، لما جاءه من يناديه؛ ليتحرر من أسر العدو، ويفتح عينيه ليبصر نور الحق، ظن أن ما يدعوه إليه هو الأسر، وهو ما سيصيبه بالعمى، فإن قال له: هلم إلى النور. سخر! وقال: وهل هناك من نور؟! وإن دعاه إلى دار السعة والنعيم، استهزأ وقال: وهل غير هذه الدار دار؟! فهو من جنس من عطلوا حواسهم؛ فهم عمي لا يبصرون، وصم لا يسمعون، وجهلة لا يهتدون، وأعملوا شهواتهم، واتبعوا أهواءهم، وفيهم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وذلك أن غلبة الهوى على الحكمة، وغلبة الشهوة على العقل عندهم جعلتهم يقتنعون بصحة منهجهم، فدعاهم ذلك لأن يستهزئوا بمخالفيهم إلى غيره، ومن يدعوهم إلى ما فيه خيرهم، وأي حسرة هي أعظم من هذه الحسرة على من هذه حالهم، فوصف حالهم مع الحق جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقد جاءت على هذه الحال كل الأمم مع أنبيائها ورسلها، فلم يسلم نبي ولا رسول من مستهزئ[(١)].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ٢٩٥.

٣. نماذج من استهزاء الأمم السابقة بالأنبياء والمرسلين.

❁ نوح عليه السلام وقومه.

الرسول الأول الذي أرسله الله سبحانه وتعالى، والذي لم يسبق بمن سار على طريقه، ولم يأت بعده من مكث في قومه مثله، وبعد طول لبث، ومحاولة كل الطرق، وتجريب كل الوسائل، جاءه بعذابهم الخبر، وبصناعة السفينة قد أمر، فكانوا إذا مروا به استهزأوا ويقولون له: أصرت نجارًا بعد النبوة يا نوح، وتصنع السفينة في الصحراء وهي لا تجري إلا في البحر! فكان يجيبهم: إن تهزأوا منا اليوم فإنا سنهزأ بكم يوم القيامة، وقد أخبرنا بذلك كتاب الله عز وجل حيث يقول: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

وذاقوا وبال أمرهم، وسوء عاقبتهم في الدنيا، وما ينتظرهم يوم القيامة من الخزي أشد وأنكى[(١)].

وقد جاء التعبير عن فعلهم في النص القرآني بلفظ السخرية؛ لأن نوح يفعل أمرًا يقتضيها، وذلك من وجهة نظرهم، والحقيقة أن ما قام به نبي الله نوح عليه السلام كان بوحي من الله، وعليه فإن حقيقة فعلهم استهزاء وليس سخرية؛ لعلمهم أن نوحًا ليس من العابثين.

❁ إبراهيم عليه السلام والنمرود.

وذلك حينما ذهب إبراهيم عليه السلام كسائر الناس ليأخذ الميرة من عند الملك، وكان العام وقتها عام جدب وقحط، يقول الله جل جلاله ذاكرًا الموقف: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فقد كان الملك لا يعطي أحدًا إلا سأله: من ربك؟ فيقول له: أنت، فيعطيه، فلما جاء إبراهيم عليه السلام قال له: من ربك؟ قال إبراهيم عليه السلام : ربي الذي يحيي ويميت، فأجابه سفاهةً واستخفافًا -كما فعل فرعون وقومه، إذ قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]-: وأنا أحيي وأميت، وأحضر رجلين حكم عليهما بالقتل، فقتل أحدهما، وأطلق الآخر! وقال: هذا أمته وهذا أحييته!، فجاءه إبراهيم عليه السلام بالرد المفحم بأن ربه يأتي بالشمس من المشرق، وتحداه أن يأتي بها من المغرب؛ فبهت الذي كفر[(٢)].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ٦/ ١١٣٩.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ٢٩.

❁ موسى عليه السلام وفرعون.

ذلك الطاغية الآخر الذي زعم أنه الرب الأعلى، كأنه قد قام باستفتاء في قومه يعرض عليهم أمره وأمر موسى عليه السلام ، ذاكرًا ما فضل به على موسى عليه السلام ، يقول الله جل جلاله في شأنه: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٠- ٥٤].

يقول: أنتم ترون فأنا أملك مصر وأنهارها، وموسى فقير ليس له شيء، وأنا صحيح المنطق، واضح البيان، وموسى لا يكاد يفهم كلامه لما في لسانه من لثغ، فإن كان صادقًا فلماذا لا ينزل له أسورة وحلي وزينة ومال من السماء؟ أو لماذا لا يظهر معه ملائكة يصدقونه ويؤيدونه فيما يدعي؟ وهذا استخفاف بقومه واستهزاء بموسى عليه السلام ، فكان الرد من الله عليه وقومه أن الحمق الذي عندهم، كان سببًا لطاعتهم إياه، وهم في جملتهم فاسقون خارجون عن طريق الاستقامة[1].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ٩٣.

٤ . الاستهزاء بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هو النموذج الحي وقت نزول القرآن، ولأن الاستهزاء كان به وبما أنزله الله سبحانه وتعالى عليه، ولأن الاستهزاء به غالبًا ما يأتي بأسلوب استفهامي ساخر، أو خطاب تهكمي سافر، وكان شأنه صلى الله عليه وسلم عند ربه عظيمًا، لم يرض سبحانه وتعالى أن يمره دون ردٍ عليه، وفضح قائليه، فيأتيهم الجواب من عند الجبار جل جلاله، بما يسوؤهم ويخزيهم، ويرفع قدره، ويجعل قدمه فوق نواصيهم، وسنعرض لثلاثة مواقف جاء خبرها في القرآن من الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم وكيف جاء الرد القرآني عليها، وذلك فيما يأتي:

❁ النبي صلى الله عليه وسلم واستهزاء المشركين.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

كان المشركين إذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استهزءوا به وقالوا: أهذا المحتقر-بزعمهم- الذي يسب آلهتكم ويذمها، ويقع فيها، هذا استهزاؤهم واحتقارهم له، يقرنونه بما هو سبب كماله

صلى الله عليه وسلم ، ألا وهو دعوته إلى توحيد الله جل جلاله، والكفر بكل معبود سواه، فالذي فعله التوحيد والدعوة إليه هو الأكمل والأفضل، والأبهى والأجمل، وذلك أنه أخلص العبادة لله سبحانه وتعالى، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، وعليه فالذي يستحق الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق مذموم، ولو لم يكن منهم إلا كفرهم بالله وعدائهم لرسوله صلى الله عليه وسلم لكانوا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم، وأبشعهم وأقبحهم[1].

فانظر كيف رد الله عليهم قولهم واستهزاءهم، فقد بين أن ما عابوا به النبي صلى الله عليه وسلم من ذكره لآلهتهم بسوء هو مدح له، وما يكون من فعلهم مقابلًا لفعله بكفرهم بالله أمر يستحقون به أفظع الشتم، وأشنع الذم، وأقذع الكلم.

النبي صلى الله عليه وسلم واستهزاء اليهود.

يخبر الله عن خبث اليهود في التعريض بالكلام، من ذكر اللفظ المحتمل لأكثر من معنى -وإن لم يكن من لغتهم-؛ ليظهر للمستمع أنهم يريدون الحسن والمرضي من القول، والحقيقة أنهم يريدون القبيح الشنيع منه.

يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة: ١٠٤].

ذكر الله استعمال اليهود للفظة ﴿رَٰعِنَا﴾ التي يبدو منها أن مرادهم سؤال النبي صلى الله عليه وسلم الاستماع إليهم، فجعل المسلمون يستعملون هذه الكلمة، كما كان يستعملها أهل المدينة في هذا المعنى؛ لأنهم ظنوا أن اليهود يستعملونها على نفس المراد، غير أن الله نهاهم عن ذلك؛ لأن قصد اليهود التعريض واللمز بالرعونة التي هي ضد المروءة[2]، ثم توعدهم بشدة العذاب على ذلك، وكشف صفة اليهود التي يحملونها للمسلمين ألا وهي حسدهم لهم وعدم حب الخير، وفيه من الذم ما فيه، وذلك أن من أقبح الصفات التي قد يتلبس بها الإنسان هي الحسد، وقد وقع بسببه ما وقع من لعن لإبليس بسبب كبره مع حسده لآدم، وقتل أحد ابني آدم لأخيه، فمن تحلى بها-وليس بمثلها يحلو- كان في رتبة أحدهما، والعياذ بالله.

النبي صلى الله عليه وسلم واستهزاء المنافقين.

المنافقون هم قوم ظهر لهم الحق

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٢٣.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي، ص١٢٣.

وعرفوه، لكنهم كانوا أسرى الشهوات، وأذناب الهوى، يقودهم لغير هدى، ويوردهم طرق الردى، ومع ذلك يسعون في فتنة من اتبع الهدى، يقول المولى جل جلاله -محذرًا من كيدهم، ومنبهًا على زيغهم وميدهم[1]-: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

فقادهم الشيطان وهو إمامهم، واستنفرهم لمعاداة الأنبياء والمرسلين، واستفزهم ليسعوا في فتنة الهداة المصلحين، فكانوا إذا استمعوا إلى الحق استجهلوه سخريةً واستهزاءً[2]، وأظهروا كأنهم ما سمعوه لا يستحق الاهتمام، ولا هو جدير بالاعتبار.

يقول الله سبحانه وتعالى واصفًا هذا الموقف: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

وما كان منهم هذا التساؤل إلا على سبيل الاستهزاء، فأرجع الله استهزاءهم وعدم اعتبارهم، وقلة اهتمامهم إلى سفه عقولهم، وعقم فهومهم، والطبع على قلوبهم، واتباع شهواتهم، والانقياد لأهوائهم، فصدق فيهم قول المتنبي[3]:

ومن يك ذا فمٍ مرٍ مريضٍ
يجد مرًا به الماء الزلالا

فكيف سيتلذذ بطعم العسل، من كان أصل المرار في فمه؟! وكيف سيبتلع الطعام الشهي من انتفخ بالورم الخبيث حلقه؟!

وفي قول آخر له[4]:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا
وآفته من الفهم السقيم

فكيف سيسوغ لهؤلاء الذين مرضت قلوبهم وانتكست فطرهم أن يعقلوا أو يفهموا أو ينتفعوا بأحسن القول، الذي هو أصدق الحديث، وفصل الخطاب.

ثانيًا: الاستهزاء بالدعاة والمصلحين:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍ وافرٍ)[5].

(١) الميد: الزيغ.
انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤١١.

(٢) انظر: تفسير الجلالين، السيوطي والمحلي، ص٦٧٥.

(٣) الأمثال السائرة من شعر المتنبي، الصاحب ابن عباد، ص٢٨.

(٤) المصدر السابق ص٣٥.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٤٦، رقم ٢١٧١٥، وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ٣/ ٣١٧، رقم ٣٦٤١، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ٥/ ٤٩، وابن ماجه في مقدمة سننه، باب فضل العلماء، ١/ ٨١، رقم ٢٢٣، عن أبي الدرداء رضي الله عنه.
وصححه الألباني، صحيح الجامع ٢/ ١٧٩،

وجريًا على القاعدة الفقهية إن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، وهي قاعدة شرعية إسلامية، غير أن لسان حال شريعة المنافقين-إن كان لهم شريعة- يقررها في معاداة الحق وأهله، فإن العداء الذي حملته قلوب أعداء الله لأنبيائه ما كانت إلا للعلم الذي جاءهم من عند الله، وقد ورث العلماء والدعاة والمصلحون هذا من أنبيائهم، فورثوا معه العداء من أعدائهم، ويذكر الله سبحانه وتعالى موقفًا من المواقف التي استهزأ فيها المنافقون من أولئك الورثة الكرام.

يقول عز وجل: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٤ - ٦٨].

يصف الله سبحانه حال المنافقين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن وقع منهم الاستهزاء بعلماء الصحابة رضي الله عنهم، وما فيه من الترقب لنزول القرآن بخبرهم، وذلك حين قالوا: «ما لقرائنا هؤلاء أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء»[1].

فتفضح كفرهم الذي أضمروه، ولئن سئلوا عن القدح في حق النبي صلى الله عليه وسلم وحق أصحابه ليقولن: إنما كنا نتحدث على سبيل المزاح والمرح، فيأتي البيان في قول الله عز وجل أنهم كانوا يستهزئون بالله عز وجل وآياته ورسوله، ولا ينفعهم الاعتذار ولا يبرئهم، فقد وقع الكفر منهم بسبب هذه المقالة، وإن تفضل الله جل جلاله بالعفو عن بعضهم؛ لتوبتهم، فعاقبة الآخرين هي العذاب، ثم يأتيهم ما عجل لهم من هذه العقوبة، في بيان وصفهم الذي يكرهون، فيقول: المنافقون والمنافقات على شاكلة واحدة، وسنة فيهم متبعة في إعلانهم الإيمان واستبطانهم الكفر، فهم يأمرون بالكفر ويزينون المعصية، وينهون عن الإيمان والعمل الصالح، ولا ينفقون في سبيل الله، تركوا أمر الله، فتركهم من الهداية

رقم ٦٢٩٢.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٣٣٣.

والرحمة، فلم يوفقهم إلى خير، والمنافقون هم الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله.

ويذكر الله أن لهم وعيدًا عنده، وهو أن المنافقين والمنافقات والكفار متوعدون بأن يكون مصيرهم إلى نار جهنم خالدين فيها أبدًا، عقابًا على كفرهم بالله، وأن الله عز وجل طردهم من رحمته، ولهم عذاب دائم؛ لأن أفعالهم من الاستهزاء والكفر كأفعال الأمم السابقة التي كانت على جانب أشد منهم من القوة والمال والأولاد، ولكنهم اطمأنوا إلى الحياة الدنيا، واستهزأوا بأنبيائهم وصالحي أممهم، واستمتعوا بما أغراهم من المتاع الزائل، واستمتع المنافقون بنصيبهم من الشهوات الفانية كاستمتاع الذين من قبلهم بحظوظهم الفانية، أولئك الموصوفون بهذه الأخلاق هم الذين ذهبت حسناتهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون ببيعهم نعيم الآخرة بحظوظهم من الدنيا[1].

ثالثًا: الاستهزاء بالمؤمنين:

وهذا النوع من الاستهزاء هو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة، حيث تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٦].

هؤلاء هم الصنف الأخطر في المستهزئين جميعًا، ذلك أنهم على اتصال مباشر ودائم بالمؤمنين، يفسدون في الأرض وهم يدعون أنهم مصلحون، مما يفهم منه أنهم دعاة إلى منهج يزعمون أنه منهج إصلاحي، بل إنهم لشدة وقاحتهم حصروا أنفسهم وأعمالهم في الإصلاح، بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ويزينون ذلك للمؤمنين، ويعلنون أنهم مؤمنون إعلانًا يحقنون به دماءهم من المسلمين[2].

ولكنهم -على حد زعمهم- لهم رؤية

(١) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص١٩٧.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٢.

مستنيرة حضارية متقدمة، ولا يقبلون لأنفسهم ما يتلبس به المؤمنون من حال ينعتونه بالرجعية والتخلف والسفه، فهم يريدون النهوض بالمسلمين، والتقدم والازدهار، والتمسك على طريقة المؤمنين -الذين هم في منظورهم سفهاء- مليء بالمعوقات التي يجب عليهم أن يتحرروا منها، فلا ينبغي للدين أن يحكم في كل شيء، فالدين لله والوطن للجميع، وحكم الشعب للشعب، وما دخل الدين في لباس المرأة الذي يجعل الغرب ينظرون إلينا نظرة تخلف، وطاعة العلماء والأمراء والرضا بحاكم واحد مستمر، هذا استبداد وقهر وظلم، وما دخل الدين في السياسة، وأخوة الإنسانية تجمعنا مع جميع الناس فلنترفع عن البغض.

وليكن الحب رحبًا برحابة السماء يسع الجميع، ولا فرق بين الناس في الجنس واللون والدين، والناس أحرار لهم الحرية المطلقة في فعل ما يشتهون، ولهم اليوم أن يدينوا بدين، ويغيرونه في الوقت الذي يحبون، وحرية الرأي والتعبير متاحة للجميع لا لتكميم الأفواه، ولا للحجر على العقول، والناس مختلفون في وجهات النظر، فلكل واحد أن يحكم على الله جل جلاله من وجهة نظره، وله أن يحاكم الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته وأفعاله وآرائه وأفكاره، فيخطئ ويصوب كيفما يحلو له، وينبغي أن نعتز بحضاراتنا القديمة، الفراعنة، والبابلية، والأمازيغية، والتركية،... وغيرها، وعدم المساواة بين الرجل والمرأة يعد ظلمًا، الفسق فن، والفجور كسب مشروع، والإباحية تنوير، والتمسك بنصوص الكتاب والسنة تعقيد وتشدد وتنطع، والآخر غير المسلم صالح، ولكن الخلل في نظرتنا له، كلنا نؤمن بالله عز وجل يهود ونصارى ومسلمين، الجميع مؤمنون، بل وكل صاحب فكر ومعتقد مؤمن بفكره ومعتقده، فلا نقول: الكافر، بل نقول: الآخر، لا يجوز التكفير، بل ينبغي إلغاء هذا المصطلح، وطمسه إن استطعنا من القرآن والسنة، وإن لم نستطع فلنحمل اللفظ مدلولًا آخر، كأن يراد به فقط أبو لهب وأبو جهل، وكلنا سواسية.

كلمات مزخرفة، وعبارات مبهرجة، فهؤلاء هم من قال الله فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

لينخدع بها ضعاف الإيمان، وهم في حقيقة الأمر لا يخدعون المؤمنين بالله حقًا، كما أن الله سبحانه وتعالى لا يخادع، فالخداع يقع منهم على أنفسهم، فلا يقتنع

به إلا من هو مثلهم، وأما الذين آمنوا فمتمسكون وثابتون على ما هداهم الله إليه من الحق، وهؤلاء المنافقون لهم زعماء ورؤساء يخلون بهم، ويثبتون ولاءهم لهم، فيقدمون لهم الدعم، ويعطونهم من ألوان المعونات والملذات؛ ما يفتنون به الناس، وإذا أصابهم خوف من الفضيحة أعلنوا الإيمان، وخنسوا كما يخنس الشيطان.

وإن خافوا من أوليائهم ورؤسائهم، أخبروهم أن هذا من قبيل الاستهزاء والسخرية والإغراء للمؤمنين؛ لينخدعوا بهم، والحقيقة التي لا يعلمونها، أن الله عز وجل قد يذلل لهم العقبات ويسهل لهم الصعاب؛ ليزدادوا غيًا إلى غيهم، وذنوبًا إلى ذنوبهم، وخسرانًا إلى خسرانهم؛ ليتبعهم من في قلبه مرض، وهو في صف المسلمين ظاهرًا.

لكنه يتخفى ويتكتم؛ ليظهر الله لهم حاله، كما أظهر كفر إبليس للملائكة بخلق آدم، فالله بهذا يستهزئ بهم بأن يريهم ما يرضونه، حتى إذا جاء وقت الحصاد وجدوا حصادهم هشيمًا، وألفوا جناهم نارًا؛ ليشتعل هشيمهم بنارهم فيزدادوا احتراقًا، ويجدوا أنفسهم في أسفل دركات النار، فقد اشتروا الضلال والانحراف والزيغ والهلاك وما هو الثمن، إنه الهدى والإيمان والاستقامة والأمان[1]، فهل بعد هذا الخسران من خسران؟ نسأل الله السلامة من الخذلان.

رابعًا: تنزيه الرسل عن الاستهزاء:

إنهم غلاظ الطباع، وقساة القلوب، الذين ما أدركوا نبيًا من أنبياء الله إلا ساموه ألوان الأذى، وقد ذكر الله من ذلك ما فعلوه بنبيه موسى عليه السلام أصنافًا، إنهم اليهود، الذين لا مواثيق لهم ولا عهود، أحوالهم مع أنبياء الله، لم يحفظوا للنبوة حقها ولا للرسالة قدرها، فظنوا أن الرسول يكون منه ما يكون من غيره من سفاهة العقل، وصلافة الهزل، وجلافة القول، كما يكون من أمثالهم، وخبر ذلك ما كان بينهم وبين نبي الله موسى الكليم الحليم عليه السلام في قصة البقرة.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

يخبرهم بأمر جاءه من عند الله، فيرمونه بالاستهزاء، وهذا الأمر لو وقع من إنسان معيب لزاده عيبًا، ولما سكت عنه من سمعه، فكيف يتهمون به نبيًا كريمًا من أولي العزم، وله خاصية التكليم، ورأوا على يديه من الآيات ما رأوا، وخاض بهم البحر وأنجاهم الله عز وجل به من سوء عذاب

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ١/ ٢٥٤.

فرعون، وأحياهم الله بدعائه بعد الموت، مواقف وآيات وعبر لا حصر لها، لكنهم لهم قلوب أشد قساوة من الحجارة، وأيبس من الصخر، فأجابهم عليه السلام بكل أدب، وسعة صدر وحلم، فقال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧][1].

إنه موطنٌ الاستهزاء فيه يكون حماقة، فالواقعة واقعة قتل، والحال حال لا يسوغ أن يكون الاستهزاء فيها لائقًا بنبي؛ لأنه في معرض سؤال عن أمر لا يجوز الجواب عنه إلا بالحق، ولا يكون فيه العلم إلا من عند الله عز وجل، والاستهزاء بحالة كهذه استهزاء نقص، لا يليق بمقام النبوة، ولو كان المقام مقام بيان لحال عجز آلهة عبدت من دون الله، واعتقاد باطل لا يسوغ لعاقل أن يرضاه، لكان جائزًا كما حدث مع إبراهيم عليه السلام مع قومه وآلهتهم، في قول الله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٨٨ - ٩٣].

فهو يعتذر لهم بالسقم الذي لم يكن مصابًا به، كما أخبر بذلك أبو هريرة رضي الله عنه فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذباتٍ، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩].

وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]...)[2].

فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن فعل إبراهيم في هذين المقامين إنما كان في ذات الله، أما في غير مثل هذه الحال فلا يليق بالرجل الكامل أن يستهزئ بشيء.

فالأول: استهزاء بالنجوم التي ليس بيدها الشفاء.

والثاني: استهزاء بالآلهة؛ لعلمه أنها لا تنطق، ولا تأكل ولا تشرب[3].

والثالث: استهزاء بقومه ومعتقدهم في آلهة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، ولا أن تجيب من يسألها[4]، ليس من باب الهزل، أو لغو القول، بل من باب إيقاظ العقل، ودفع الجهل، وكشف الظلمة، وإزاحة العتمة عن حقيقة الألوهية، وما هم فيه من قبيح العبودية، بطريقة من الاستهزاء مرضية.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ١٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، ٤/ ١٤١، رقم ٣٣٥٧.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٩٨.

(٤) انظر: تفسير المراغي، ١٧/ ٤٩.

مواطن الاستهزاء

أولًا: الاستهزاء بالكتب المنزلة:

حينما يعجز المعاند للحق عن إقامة الدليل على صحة ما ينادي به وما يدعو إليه، تجده يلجأ إلى الحيل الدفاعية السلبية الرديئة، فيلجأ إلى الهروب والانسلاخ الوجداني والانفعالي من الموقف الذي يظهر فيه وضوح الحق، حتى لا يغلبه الحق على هواه، وهذه أولى خطواته، معززًا حاله بأسلوب السخرية والاستهزاء، ويكذب بالحق الذي يدعوه ما استقر في نفسه من اليقين بصدقه، لكنه يجحده، وينتهج أسلوب الغوغائية وإثارة غبار الكلام في عيون العقول؛ ليشوش بذلك على المستمعين بآذان الألباب؛ ليوقع الشكوك في نفوس أصحابها فيما جاءهم من الحق، وقد عرض القرآن استهزاءهم الذميم، والأحوال التي ترديهم في مهاوي الجحيم، وإن من صور استهزائهم ما يأتي:

الإعراض: وهو الأسلوب الذي أوصى به الله سبحانه وتعالى عند تطاول السفهاء فهو بلا أدنى شك أسلوب حكيم في مثل هذا الموطن، ولا يفعله العبد عن عجز، بل يترفع ويربأ بنفسه عن مجاراة السفيه في سفاهته، وفيه يقول الشاعر [1]:

يخاطبني السفيه بكل قبح
وأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهةً وأزيد حلمًا
كعودٍ زاده الإحراق طيبا

وجاء ذلك في قول الله جل جلاله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

لكنه في مواطن أخرى يكون من أقبح السفه، وذلك حين يفعله من يفعله إعراضًا عما ينفعه ويرفعه، حيث يجد من داخله انهزامًا في مواجهة الحق ورده، فيعرض عنه عجزًا عن مقاومته، وهو بذلك ينزل بنفسه إلى أحط مستويات الدونية، ويلقي بها في أسفل دركات الردية، ويخبر الله عز وجل عن فاعليه بقولهم: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء: ٥ - ٦].

فإن الإعراض عما يأتيهم من رحمته سبحانه وتعالى مما يكون به محض منفعتهم شنيع قبيح؛ فما يأتيهم من المواعظ القرآنية تذكرهم أكمل تذكير، وتنبههم عن الغفلة أتم تنبيه، فإن الله سبحانه وتعالى بمقتضى رأفته الواسعة يجدد لهم تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فيجددوا إعراضًا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء وإصرارًا

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب، شيخو، ٢/ ١٠١.

على ما كانوا عليه من الكفر والضلال[1].

الجدال بالباطل: يعلم أعداء الله أن النبي صلى الله عليه وسلم صادق، وكل خبر يأتي به فإنه حتمًا واقع، لكن عنادهم طغى عليهم، فأرادوا أن يبطلوا ما جاءهم به بباطلهم، لكنهم لا يملكون الحجة على رده، فاستهزءوا به على سبيل الجدل، يقول سبحانه وتعالى في شأنهم: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ [الكهف: ٥٦].

كان الذين جاء وصفهم في هذه الآية يريدون أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات على أهوائهم؛ ليبطلوا ما جاء به صلى الله عليه وسلم، وكان من جدالهم استهزاؤهم بالبعث، وبشجرة الزقوم، وبتحريم الميتة، وكذا بعدد خزنة جهنم[2].

إنكار الفائدة من نزول القرآن: كان المنافقون إذا نزلت سورة من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم لا ينتفعون بها؛ لأن مادة الخبث كلما زاد الخبث كانت أكثر نقصًا، أما مادة الخير كلما زاد الخير كانت أعظم زيادة وأوفر بركة؛ لذلك يقول الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

فهم لفساد طبعهم وسوء مادتهم لا يجدون ما يجده المؤمنون من انتفاع تظهر آثاره عليهم، فيستهزئون بهم بالتساؤل عن زيادة الإيمان التي يعلنها المؤمنون ولم يجدوها، فبين القرآن أن هذا الاستهزاء من الرجس والخبث الذي ازداد به رجسهم فازدادوا نقصًا، وأعقبهم كفرًا حتى ماتوا على الكفر[3].

الخوض: قد عد الله عز وجل عدم توقير الله جل جلاله عند قراءة كلامه كفر، وجعل الخوض فيها استهزاءً، فأمر المؤمنين بعدم مجالسة الفاعلين لهذا الأمر، ونهى عن القعود معهم، والذي لا يدفعه فعلهم هذا لمفارقتهم حاله مثل حالهم.

يقول المولى جل جلاله: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٢٣٤.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٩٣.

(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٧١٨.

ثانيًا: الاستهزاء بالبراهين والحجج:

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه نموذجًا للمستهزئين، وهم الذين كانوا يستهزئون بالأدلة والبراهين القاطعة على صدق المرسلين، وقد مكن الله لهم في الأرض، وآتاهم أدوات الفهم والإدراك وأراهم الآيات ولكنهم اتخذوها هزوًا ولعبًا، يقول الله عز وجل مبينًا خبرهم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦][1].

وأخبر عن الذين يفعلون مثل فعلهم، ويتخذون رسل الله عليهم السلام الذين هم حجة الله على خلقه[2] استهزاءً وسخريةً، يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٦].

فبين أن مصيرهم المحتوم ومآلهم المشئوم جهنم، وبئس المستقر الدائم جزاءً لهم على استهزائهم.

ثالثًا: الاستهزاء بالوعيد:

تجرأ أعداء أنفسهم لما اغتروا به من سعة حلم الله وإمهاله لهم، وظنوا أن بمقدورهم إعلان التحدي، وحسبوا أن الله يعجل بعجلة أحدهم، فتساءلوا لقد اقترفنا ما نستحق به حلول الوعيد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأين هذا العذاب؟! وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨].

ويذكر الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم أن ما وقع من قومه من ذلك وقع مثله من الأمم السابقة، يقول جل جلاله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١].

وقد أحاط بهم ووقع ما كانوا يجعلونه محط سخريتهم واستهزائهم من العذاب الذي كانوا يستعجلون وقوعه[3].

رابعًا: الاستهزاء بالأحكام الشرعية:

بين الله سبحانه وتعالى في كتابه حدود العلاقات بين الناس في القرآن الكريم، ورتب عليها أحكامًا؛ لمنع الخصومات وسدًا لباب الفساد، وذكر الله جل جلاله أن التلاعب بهذه الأحكام هو من الاستهزاء بآياته، خاصة إذا كان هذا في أمر وصف

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ١٢/ ٢٤.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٣/ ٤٦٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ١٣١.

الله ميثاقه بأنه غليظ، وقد ترتكب بسبب التلاعب به الفواحش، واستحلال ما حرم الله عز وجل، والمقصود هنا النكاح والطلاق، وما يتعلق بهما من أحكام، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وإن إنزال مثل هذه الأحكام في كتاب الله لهو من نعم الله عز وجل علينا والتي توجب علينا شكرها والقيام بحقها، لا أن يكون تعاملنا معها على سبيل الاستخفاف والتلاعب والاستهزاء[(١)].

خامسًا: الاستهزاء بالعبادات:

كان المشركون والكفار المخالفون للمسلمين-ولا زالوا- يقدحون في دين المسلمين، ويتخذونه هزوًا ولعبًا، خصوصًا الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم، فإنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزوًا ولعبًا، وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس، ولقد علمتم -أيها المؤمنون- حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم، واستهزاءهم به، فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك دينًا قيمًا، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بموالاة من اتخذه هزوًا ولعبًا، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحمق؟! وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم، وفيه يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٧ - ٥٨].

وكانوا يهزأون بالأذان، والقيام والركوع والسجود في الصلاة[(٢)].

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ٢/ ٣١٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٧.

أسباب الاستهزاء

الاستهزاء الذي لا يكون له هدف سامٍ نبيل، ولا مسوغ لاستعماله، ولا هو من قبيل مكافأة المسيء من جنس إساءته، لاشك أنه عبثٌ وسفه وجهل وحمق، ولا يصدر إلا عن ناقص بوجه من الوجوه، هذا إن كان الاستهزاء في أمر غير ذي بال، فكيف إذا كان الاستهزاء بأقدس ما أظلت السماء وأقلت الغبراء، أو بمن يحمله، إنه لمن المسلم به أن يكون فاعله يتصف بأقبح النعوت، ويتلبس بأخس الأحوال، وأن السبب الحامل لهم على ذلك هو وجود هذه الصفات فيهم، ولم يغفل القرآن بيان تجليتهم وإظهار حالهم، تسليةً للمؤمنين، وتوبيخًا للفاعلين، وقد وصف القرآن المستهزئين تارةً بالكفر، وذكر الفعل في معرض النفاق أخرى، أو أن منبعه الجهل ثالثة، وقد يكون الحامل عليه الكبر أخرى.

أولًا: الكفر:

عرفنا ما هي الحال التي يكون عليها الجاحدون من الاستهزاء والجدال بالباطل، وذلك عند عجزهم عن دحض الحق الذي ليس من شأنه أن يدحض، وما حملهم على هذا الفعل إلا الكفر الذي هم به متمسكون، والإنكار الذي هم به متشبثون، يقول الله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن دحض الحق بالباطل لا يكون أبدًا، ولو عقل هؤلاء لخضعوا وأذعنوا للحق الذي جعله الله دامغًا للباطل، يقول تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وبه تكون حجتهم داحضةً، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

وأن الحق هو الباقي فقال أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨ - ٩].

«وكل شيء ثابت غير زائل ولا مضمحل تسميه العرب حقًا»[(١)]، وكما هو معلوم أنه «ليس بعد الكفر ذنب»[(٢)]، وهم بكفرهم هذا متلبسون بأعظم الظلم؛ لذلك أعقب الله جل جلاله ذكرهم فاعلين للاستهزاء بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٣٠٧.
(٢) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٣٩٤.

عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

فإنه لا يوجد أحد أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها، واستهزأ بها وصد عنها، وهذا ذنبهم وهذا وصفهم الذي يستحقون[1].

ثانيًا: النفاق:

يفرح المنافقون بما انخدعوا به من إمهال الله عز وجل لهم، ومعاملتهم على وفق ما يريدون من معاملة في الدنيا، ظانين بذلك أنهم تمكنوا من خديعة المؤمنين، فيجرؤهم ذلك على التمادي في طغيانهم، فيصل بهم الأمر إلى الاستهزاء بالدين، والإعلان أنهم هم المصلحون على سبيل حصر أحوالهم وأفعالهم على الإصلاح، وأن ما عليه المؤمنون هو السفه، وما هم عليه هو الرشد، وذلك بمصانعة أعداء الله عز وجل وإثبات الولاء لهم، وإظهار شعائر الإيمان بين المؤمنين، وإعلان ما كتموه من الاستهزاء بالمؤمنين بين الكافرين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة:٩-١٤].

وما علم هؤلاء أن ترك عقابهم هو جزاء من جنس العمل، كما يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

وهم لضعف نفوسهم تجدهم يترقبون نزول القرآن خشية أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ما يفضحهم، يقول تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:٦٤].

وهذا أمر كائن لا محالة، فإنه وإن لم ينزل بكشف أسمائهم، إلا أنه نزل ببيان ما يعرفون به من أحوالهم.

قال الله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٠].

والفائدة في كشف حقيقتهم، وبيان سلوكهم، وما يعرفون به أعظم من ذكر أسمائهم؛ لأنهم قوم يتكررون في كل زمان،

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٣٠٧.

فيصير الحال أن كل من ظهرت منه هذه الصفات علم نفاقه، ولحن القول: هو فلتات لسانه التي تكشف أحوالهم، وقديمًا قالوا: كاد المريب أن يقول: خذوني، وقد جاء من وصفهم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاثٌ: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[1].

ثالثًا: الكبر:

لا يسلم المتكبر من خصلة الاستهزاء أبدًا، فالكبر مرض، والاستهزاء عرض لازم، كما أن المزكوم الزكمة به مرض، والرشح لها عرض، وقد بين الله سبحانه وتعالى هذا الحال للمستهزئ، وأن استهزاءه هذا إنما هو عرض لداء مهلك موبق، ألا وهو الكبر الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه من موانع دخول الجنة، وذلك في الحديث الذي رواه عنه عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنه قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبرٍ)[2].

وهذا حاله كغيره من أهل النار لا يجتهد إلا في هلكة نفسه، والله سبحانه وتعالى حين أمره بطاعته لم يأمره إلا وهو غني عنه، وكذلك حين اختار هو معصية الله عز وجل لم يفعلها مع عجز الله عن منعه من معاقرتها، بل ليزداد كفرًا وطغيانًا، فيزداد في العذاب والنار بعدًا وامتهانًا.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦ - ٧].

وهذا الأحمق المتكبر ما الذي استبدله بالقرآن؟ إنه السفه والعته والعمه والضلال المبين، استبدله بالغناء.

قال ذلك ابن مسعود وابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم، فقد أقسم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن لهو الحديث هو الغناء، والمتأمل لحال كثير من الناس إن لم يكن أكثرهم يقبلون على سماع الغناء وتأمله وتدبره والتفكر في معانيه، وإذا ما عرض على أسماعهم القرآن تجده أثقل شيء على أسماعهم، وهو قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾، أي: ثقلًا لا يطيق تحمله وسماعه[3].

ولا يحدث لهم هذا إلا لأنهم يرون أن ما يأتي به القرآن دون مستوى تطلعاتهم، وسيحول دون تحقيق مشروعاتهم،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ١/ ١٦، رقم ٣٣.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ٩١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ١٣١.

وسيحرمهم من خيرات أوليائهم، فيستصغرونه وأهله، ويتكبرون في أنفسهم.

رابعًا: الجهل:

يبقى الإنسان على أصله الذي خلقه الله سبحانه وتعالى عليه ما لم يرد الله عز وجل أن يكرمه بالعلم والهدى، وأعني بالأصل هنا: الجهل والضلال.

يقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وإن جهله بحقيقة نفسه يجعله يهزأ بما لا علم له به أيضًا، فلا عجب من أن يظن بنو إسرائيل الذين شاقوا الأنبياء منهم أن نبي الله موسى عليه السلام يهزأ بهم حين أخبرهم بما أمرهم الله به من ذبح البقرة؛ لأن الاستهزاء عادتهم وديدنهم، فعرض بهم بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين فيكم أمثالهم، فهم الذين يقع منهم الاستهزاء وخاصة في مثل هذه المواطن، ذلك أنه نبي ويعلم أن الاستهزاء على الشاكلة التي اتهموه بها لا يفعله إلا جاهل، وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وفعل المستهزئين -أيضًا- بكونهم يشترون حديث الباطل واللهو، فإنه إن دل على شيء دل على أنهم ليس عندهم علم يفرقون به بين النافع والضار، والفاسد والصالح.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

فيقبلون على ما يكون به هلاكهم، ويعرضون عما فيه خيرهم وصلاحهم، ولا يكون منهم هذا إلا لأنهم أهل جهل بلا علم، فهم أهل جهل حين يتفكهون بالاستهزاء بالخير وأهله، وأهل جهل حين ينفقون ويدفعون ثمنًا يشترون به الغرر والضرر، ويضيعون ما استخلفهم الله فيه شذر مذر، عابثين لاهين هازئين لاعبين[1]، وهم يسيرون في طريق يوصلهم إما إلى دار السلام أو إلى دار الجحيم.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٤٧.

علاج الاستهزاء

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن شفاءً للناس وهدى ورحمة، يقول تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد تبين لنا مما سبق أن الاستهزاء عرض وليس مرضًا، والعرض علاجه أسهل وأهون من علاج المرض، فبالإمكان تخفيض درجة حرارة المريض مع بقاء المرض حتى يبدو كأنه صحيح، أما الشفاء منه بالمطلق فإنه لا يتم حتى يزول سبب الداء وتستأصل شأفته، والأمراض التي يظهر معها هذا العرض هي أسبابه التي سبق أن بيناها، أما إذا لم نتمكن من استئصالها فيمكننا أن نخفف من أعراضها، والاستهزاء له علاجات يمكن أن يزول باستعمالها مع المستهزئين، فهم قوم مرضى النفوس، أغواهم الشيطان بتزيين الباطل لهم، وأغراهم بأن هذه الأفعال تجعل منهم أعلامًا ونجومًا، وتجمع الناس حولهم؛ لأنهم يجهلون حقيقة أنفسهم؛ لهذا فهم يجهلون السبب الذي جرأهم على فعل الاستهزاء، وإنهم لينزعجون من وصفهم بالجهل، ويصرعون بكشف حقيقتهم وفضح أسرارهم، ويفزعون إذا نفر الناس من حولهم، لذلك جاءت علاجاتهم مكافئة لهم بما يكرهون، ووضعهم في المكان الذي يستحقون، وقد أرشدنا القرآن إلى طرق إزالة هذا العرض إن استحكم بأصحابه أصل المرض، على ما سيأتي بيانه.

أولًا: معالجة أسباب الاستهزاء:

وهذا الأمر هو ما تم تناوله سابقًا، فقد جاء بيان أسباب الاستهزاء بيانًا شافيًا، فحين يعرف المستهزئ السبب الذي أوقعه في هذا الأمر فإنه -إن كان عاقلًا- سرعان ما يقلع عنه، ويتوب منه، ويعتذر عما بدر منه، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

ولا يقنطهم الله جل جلاله من توبته عليهم، بل يفتح لهم باب الرجاء للعودة عما قارفته أيديهم بقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ وأبقاهم على وجل من الإصرار عليه، أو العودة لمثله بقوله: ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾، لما علم من فيهم خير أن هذا العمل من أعمال الكفر تركوه واعتذروا منه تائبين توبة صادقة، أما الآخرون فقد كفوا عنه، ولكن لسبب آخر، سيكون الحديث عنه فيما يأتي.

ثانيًا: فضح المستهزئين:

يقول الله جل جلاله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

هذا أشد ما يحذروه؛ لأجل ذلك كان فضحهم بسوء أعمالهم هو أشد رادع لهم عن مقارفة استهزائهم، وذلك لقلة عقلهم، وشدة غفلتهم، فلو كانوا يعقلون لعلموا أن العذاب المدخر لهم بسبب ما يؤذون به المؤمنين أحرى بأن يكون لهم رادعًا عن الاستهزاء بأولياء الله عز وجل، ومع ما يدخره الله لهم من العذاب المهين، إلا أنه يفضحهم ويطلع المؤمنين على سرائرهم[(١)]، في سورة جعل أحد أسمائها الفاضحة[(٢)]، ويجلي صفاتهم كما سبق وبينا.

بقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠].

فاللسان ترجمان القلب، ويفصح عما أخفاه، خاصة مع الحذر والخوف من انكشاف ما تكون به الفضيحة، وأخبرهم الله سبحانه وتعالى أنهم يفضحون أنفسهم باستهزائهم، فكان في هذا الخبر كفٌ لاستهزائهم حذرًا من أن يفضحوا أنفسهم، فربما اطمأنوا لانقطاع الوحي بعدم نزول سورة كالتي نزلت فيها فضيحتهم، لكنهم بعد هذا الخبر لن ينعموا بالاطمئنان؛ حذرًا من خيانة ألسنتهم لهم.

ثالثًا: مقاطعة مجالس المستهزئين:

إن الهجر علاج أكيد لكثير من العادات السيئة، والأخلاق الذميمة، وقد شرعه الله جل جلاله في ديننا، ليتحقق به ردع المستهينين بحرمات الله عز وجل وأعراض المسلمين، والمستهزئين بالدين، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقد بين الله جل جلاله فيما أنزل من القرآن حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي التي يستهزأ فيها، ويستهان بآيات الله جل جلاله، وأحكام دينه، وذلك أن الواجب على كل مكلف الإيمان بآيات الله وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها، وضد

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠/ ٢٤٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٤٢.

تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم[1].

وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله؛ لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقًا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده، ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم حتى يخوضوا في حديث غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، وإن قعد أحد معهم في الحال المذكورة فهو مثلهم؛ لأنه رضي بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها.

وقد جاء في حديث في سنده ضعف إلا أنه صحيح المعنى عن الحسين بن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من شهد أمرًا فكرهه كان كمن غاب عنه، ومن غاب عن أمرٍ فرضي به كان كمن شهده)[2].

والحاصل أن من حضر مجلسًا يعصى الله فيه، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها، وإن لم يفعلوا فإن الله سبحانه وتعالى سيجمعهم في نار جهنم يوم القيامة كما اجتمعوا على الكفر والموالاة في الدنيا، ولا ينفعهم مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين[3].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٥٧٨.
(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده، ١٢/ ١٥٤، رقم ٦٧٨٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢١٠.

عاقبة المستهزئين

من علم أن الحياة مغنم ومغرم، ما كان ينبغي في حقه أن يسخر منها، بل كان لابد له من اغتنام كل لحظة تمر به؛ ليحيى حياة الكرماء أهل الجد والعزم، وكان لزامًا عليه ألا يدع خبرًا ذا شأن إلا وقف معه، وتأمله، ونظر في الأدلة القائمة على ثبوته، فإن بلغت مرتبة الإقناع كان عليه أن يسير وفق ما تستقيم به حياته مع هذا الأمر، وإن لم يجدها قائمةً على وفق العقل السليم والفهم القويم، تركها وأعرض عنها، وليس ثمة داعٍ لأن يستهزئ بها فإن ذلك مضيعة للوقت وانشغال بالملهيات عن المهمات.

فكيف بمن جاءه الخبر عن أمر خطير بأدلته المقنعة الدامغة، فلم يكلف نفسه أن يتأمله أو يتدبره، بل واتخذه هزوًا، أليس حقيقًا بأن يذوق وبال أمره، وعاقبة خسره.

فكيف بالأمر وقد وصفه الله سبحانه وتعالى أنه عظيم.

يقول الله جل جلاله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٨].

ولم يكن إعراضهم إعراض ترك فحسب، بل ركبوا عليه الاستهزاء كما أسلفنا.

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٥-٦].

فماذا أخبر الله عز وجل عن العاقبة التي جعلها لهؤلاء؟ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ١٠].

والعاقبة هنا قد تعجل لهم في الدنيا مع بقية منها تسوؤهم أكثر في الآخرة، وقد يؤجلها الله لهم إلى يوم القيامة(١).

أولًا: عاقبة المستهزئين في الدنيا:

١ . نعتهم بأقبح الصفات.

إن من أشد ما يسوء الإنسان أن يوصف بالكفر بأمر تثبته الشواهد والآيات، وتقطع به البراهين، ويسلم له العقلاء، أو بالنفاق لإصراره على إبطان ما يعاب به من السوء، وكان أمرًا ينأى أهل الكمال بأنفسهم عنه، أو بالجهل بأمر هو من المسلمات، بما قام عليه من الدلائل والآيات، فكان من المعلومات بالضرورة لكل الكائنات حتى البهائم والحيوانات، والأحياء والجمادات، والمستهزئون بآيات الله ورسله، كانوا مستحقين لأن يدمغوا بتلك الوصمات، وأن يختم عليهم بتلك السمات، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا

(١) انظر: تفسير المراغي، ٢١/ ٣٢.

﴿تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

فقد جعلهم بين أن يكونوا منافقين أو كافرين باستهزائهم بآيات الله تبارك وتعالى[1]، وما أشينها من صفات، وما أبشعها من أخلاق؛ الكفر والنفاق، لكنهم بها جديرون وأهل استحقاق، وقد حكم نبي الله موسى عليه السلام على المستهزئين بأنهم جاهلون، وذلك حين ظنوا أنه يستهزئ بهم، فبين لهم أنه أمر لا يفعله إلا الجاهلون.

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]

٢. كثرة الوساوس والظنون، والحذر من فضحهم.

حين يظهر هؤلاء المستهزئون للمؤمنين الموافقة، إنهم يعلمون أنهم خاطئون بكتمان المخالفة، ولما رأوا ما في القرآن من إظهار الحقائق وصدق الأخبار، كانوا دائمًا على وجل وخوف من أن يهتك الله أستارهم، وقد كان القرآن ينزل بأخبارهم، فحين يقرع مسامعهم إخبارهم بما فعلوه فيما بينهم، يتساءلون كما أخبر الله عنهم بقوله جل جلاله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

فحالهم كما بينها الله عز وجل: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

يحسب هؤلاء المنافقون من خبثهم وسوء ظنهم، وقلة يقينهم كل صيحة عليهم؛ لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمرًا يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم[2]، فحياتهم حياة قلق دائم، واضطراب مستمر.

٣. استئصالهم وقطع دابرهم.

وقد ذكر الله صنيعه هذا بهم في كثير من الأمم السابقة، حين كانوا يستهزئون برسلهم وأنبيائهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

يذكر الله سبحانه وتعالى هذا الأمر تسليةً للنبي صلى الله عليه وسلم ببيان سنته مع من كانوا يستهزئون برسلهم من الأمم السابقة، وأن الله لم يعاجلهم بالعقوبة بل أمهلهم؛ ليؤمن منهم من سبق في علم الله إيمانه، ويستحق العقاب من أصر على

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٤١٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٣٩٥.

عصيانه[1]، وكذلك حال المستهزئين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الأمر ليس في الأمم الماضية فحسب؛ بل هو في الأمم اللاحقة أيضًا، فهو سنة ماضية باقية لا تتخلف، يقول الله عز وجل ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٥].

وقد جعل الله جل جلاله الحرف الدال على الاستقبال هنا بقوله: (سوف)، وفي موضع آخر جعله بـ(السين)؛ ليدل في هذا الموضع على بعد الزمان، أي: إنه مهما طال الزمان فإن سنة الله ماضية مع قانون العقوبات الرباني، فكلما حدث استهزاء أحدث الله له ما يتناسب معه من عقاب[2]، ونحن نرى اليوم من أساليب الاستهزاء ما يعتصر منه القلب ألمًا، ويتذوب منه كمدًا؛ لكونه يحدث من أبناء المسلمين، ولعل من أسباب حدوث هذا الأمر، اختلال الموازين ليس عندهم فحسب! بل وعند كثير ممن تلبسوا بثوب الدين، وهم على غير طريقة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، من الدعوة إلى التوحيد والصراط المستقيم، فصارت أولوياتهم ومعاييرهم سياسية أو قومية أو عصبية طائفية لشيخ أو طريقة أو عقيدة منحرفة، أو غير ذلك من ألوان الانحراف، وليس ذلك أننا نقلل من أمرها، لكنها أولًا عن آخر لابد وأن تكون تبعًا للتوحيد وأساسها العقيدة الصحيحة، وليس المعنى أن سبب الاستهزاء محصور في هذا السبب، لكنه شرك وقد نصب للمتحمسين من أبناء المسلمين؛ ليقعوا فريسةً لأهل الاستهزاء، من الكفرة والملحدين.

ثانيًا: عاقبة المستهزئين في الآخرة:

الحال في يوم القيامة أن الناس بين مثاب بخير الجزاء، ومأواه دار الكرامة والنعيم المقيم، ومعاقب بشر الجزاء، ومأواه دار المهانة والخزي والجحيم، فالذين عرفوا الحق بأماراته، وآمنوا بالله وآياته.

ومن جملة ما آمنوا به اليوم الآخر هم المثابون المكرمون، أما الذين اتخذوا ما جاءهم به المرسلون سخريةً واستهزاءً، ومن جملته الإيمان باليوم الآخر، هم المعذبون المهانون.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ٣٢٢.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٢٥٤.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٢ - ٣٧].

يخبر الله عز وجل عنهم أنهم كانوا إذا دعوا إلى التصديق بوعد الله سبحانه وتعالى وأنه-وحده- المستحق التوحيد والعبادة، وإلى الإيمان باليوم الآخر، أظهروا التجاهل والشك فيما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم، واستهزأوا بهذه الأخبار.

فيخبر الله سبحانه وتعالى أنهم سيعاينون ما تجاهلوه، وسيبدو لهم عاقبة استهزائهم بأمر واقع بهم لا محالة، وحينها يدخلون أشد العذاب، ويتركون كما تركوا[1] اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وتصديق أخباره، واستهزأوا به وبما جاءهم به من ذكر هذا اليوم، وبما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا الزائل المخادع، فلا خروج لهم منه، ولا فرصة تمنح لهم؛ ليعتذروا عن أفعالهم القبيحة.

وغاية ما يخاطبون به توبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم بتذكيرهم بما قارفوه من الفرح والاستهزاء، واغترارهم وفرحهم بما اعتقدوه من قدرتهم على الدنيا وتمكنهم منها، وأنها باقية لهم.

والله أكبر من أن يعجزه إيصال العقاب لمستحقيه، والله أكبر من كل ظن سيء فيه، والله أكبر وله الحمد في ربوبيته للكون وما فيه، والله أكبر بحلمه مع علمه بما يظن الخاطئون فيه، الله أكبر مع عزته وحكمته في إمهال الغاوين، والمستهزئين بآياته وأوليائه وأنبيائه ومرسليه.

موضوعات ذات صلة:

الأذى، اللعب، اللهو

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٢٥٤.

الإسراف

عناصر الموضوع

مفهوم الإسراف	٢٢٤
الإسراف في الاستعمال القرآني	٢٢٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٢٦
مجالات الإسراف	٢٢٨
المؤمنون والإسراف	٢٤٣
المسرفون والتوبة	٢٤٧
عاقبة المسرفين	٢٤٩

مفهوم الإسراف

أولًا: المعنى اللغوي:

إن المتتبع للمعاجم اللغوية يجد أن مادة (س ر ف) تدور في اللغة على معانٍ متعددة، تقارب السبعة معانٍ مذمومة، منها: تجاوز الحد والقصد، ووضع الشيء في غير موضوعه، والخطأ، والولوع بالشيء والجهل، والغفلة، والقلة، والإفساد.

السرف والإسراف مجاوزة القصد، أسرف في ماله عجل من غير قصد، والسرف: الخطأ، وأخطأ الشيء وضعه في غير حقه، والإسراف الإكثار من الذنوب، ورجل سرف العقل: أي قليله، وقيل: فاسده والمسرف الكافر، وسرف الماء ما ذهب منه في غير سقي ولا نفع، والسرف: الإغفال، وسرف القوم جاوزهم، والسرف الجاهل، وأسرف الرجل إذا جاز الحد، وأسرف إذا أخطأ أو غفل أو جهل[(١)].

وقال ابن فارس: «السين والراء والفاء أصل واحد يدل على تعدي الحد، والإغفال أيضًا للشيء، تقول: في الأمر سرف، أي: مجاوزة القدر»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان»[(٣)].

وعرفه الطاهر ابن عاشور بقوله: «الإسراف: الإفراط والإكثار في شيءٍ غير محمودٍ»[(٤)].

وعرفه الجرجاني فقال: «الإسراف هو إنفاق المال الكثير في الغرض الخسيس»[(٥)].

أما الإمام الطبري فقد عرفه بقوله: «أصل الإسراف تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبح، وربما كان ذلك في الإفراط وربما كان في التقصير»[(٦)].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٤/ ١٣٤٢، لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ١٤٨، المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٢٧٤، تاج العروس، الزبيدي، ٢٤/ ٤٣٣.

(٢) مقاييس اللغة، ٣/ ١٥٣.

(٣) المفردات، ص٤٠٧.

(٤) التحرير والتنوير، ١١/ ١١٢.

(٥) التعريفات، ص٢٤.

(٦) جامع البيان، ٧/ ٥٧٩.

الإسراف في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سرف) في القرآن (٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣]
الفعل المضارع	٤	﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان:٦٧]
المصدر	٢	﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء:٦]
اسم الفاعل	١٥	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨]

وجاء الإسراف في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: تجاوز الحد في سائر الأفعال[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]. يعني: لم يجاوزوا الحد في الإنفاق بالإنفاق في الحرام أو في ما لا ينبغي.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٤٩،٣٥٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب السين ص٦٢٤.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ١٩٣-١٩٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١٠٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٣٦٣-٣٦٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ التبذير:

التبذير لغة:

بذر: أي أفسد وأنفق في السرف، وكل ما فرقته وأفسدته، فقد بذرته، والتبذير: إفساد المال وإنفاقه في السرف[١].

التبذير اصطلاحًا:

حكى الإمام القرطبي عن الإمام الشافعي بأن التبذير هو: «إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير».

قال القرطبي تعليقًا على قول الإمام الشافعي: «وهذا قول الجمهور»، وحكى القرطبي أيضًا عن أشهب، عن الإمام مالكٍ: «أن التبذير هو أخذ المال من حقه، ووضعه في غير حقه»[٢].

الصلة بين الإسراف والتبذير:

أن التبذير أخص من الإسراف؛ لأن التبذير يستعمل في إنفاق المال في المعاصي أو في غير حق، وأما الإسراف فهو أعم من ذلك؛ لأنه مجاوزة الحد، سواء أكان في أمر محمود أو مذموم، ولا يختص بالأموال، فهو في الأموال وغيرها، وقد فرق ابن عابدين بين الإسراف والتبذير من جهة أخرى، فقال: «التبذير يستعمل في المشهور بمعنى الإسراف، والتحقيق أن بينهما فرقًا، وهو أن الإسراف: صرف الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي، والتبذير: صرف الشيء فيما لا ينبغي»[٣].

٢ السفه:

السفه لغة:

أصله الخفة والحركة، فقد ذكر أهل اللغة أن الأصل في السفه هو خفة في البدن ثم استعمل في خفة النفس لنقصان العقل[٤]، ويكون السفه في أمور الدين والدنيا.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٥٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٢٤٧.
(٣) انظر: حاشية رد المحتار، ٦/ ٧٥٩.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢٣، تاج العروس، الزبيدي، ٣٦/ ٣٩٧.

السفه اصطلاحًا:

هو عبارة عن التصرف في المال بخلاف مقتضى الشرع والعقل بالتبذير فيه والإسراف- مع قيام خفة العقل، والسفيه: هو من ينفق ماله فيما لا ينبغي من وجوه التبذير، ولا يمكنه إصلاحه بالتمييز والتصرف فيه بالتدبير[١].

الصلة بين الإسراف والسفه:

هناك فرق بينهما، فالإسراف في النفقة سببه هو السفه والخفة الموجودة عند الشخص، فالسفه سبب للإسراف.

٣ التقتير:

التقتير لغة:

قَتَرَ فلان: ضاق عيشه، وضيق على عياله في النفقة[٢].

التقتير اصطلاحًا:

عرفه المناوي بقوله: هو «تقليل النفقة، ويقابله الإسراف، وهما مذمومان»[٣].

الصلة بين الإسراف والتقتير:

هما ضدان، ومذمومان.

٤ القصد:

القصد لغة:

استقامة الطريق، والقصد في المعيشة: أن لا يسرف ولا يقتر، وقصد في الأمر لم: يتجاوز فيه الحد، ورضي بالتوسط، يقال: فلانٌ مقتصدٌ في المعيشة وفي النفقة، وقد اقتصد[٤].

القصد اصطلاحًا:

«استقامة الطريق، ومنه الاقتصاد وهو فيما له طرفان: إفراط وتفريط»[٥].

الصلة بين الإسراف والقصد:

الإسراف: مجاوزة الحد في الشيء، والقصد: الاعتدال، فهو ترك الإسراف والتقتير جميعًا؛ وذلك أن نقيض الاقتصاد الإسراف، فالقصد فيما له طرفان إفراط وتفريط محمود على الإطلاق[٦].

(١) انظر: الكليات، الكفوي، ص ٣٤٩، النظم المستعذب على المهذب، ابن بطال الركبي، ١/ ٣٣٨.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧١٤.
(٣) التوقيف، ١/ ١٠٥.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٣٥.
(٥) التوقيف، المناوي، ١/ ٢٧٢.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢١٢.

مجالات الإسراف

للإسراف مجالات تتناولها المطالب الآتية:

أولًا: الإسراف في الكفر والتكذيب:

لقد كثر في القرآن الكريم إطلاق المسرفين على الكفار في أكثر من موضع، وفي موضع واحد أطلق سبحانه على المسرف بأنه «كذاب»، وفي موضع آخر أطلق عليه اسم «مرتاب».

«وفُسِرَ المسرفون بالكافرين والكافر مسرفٌ؛ لتضييعه السعادة الأبدية بالشهوة الخسيسة المنقضية، كما يضيع المنفق ماله متجاوزًا فيه الحد ما كانوا يعملون من الإعراض عن جناب الله، وعن اتباع الشهوات»[1].

وهما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

أي: مشرك مرتاب في وحدانية الله تعالى يجادل في آيات الله بغير علم متكبر جبار، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

أي: مسرف في عناده، كذاب في ادعائه، وهاتان الآيتان تتحدثان عن فرعون وجبروته وطغيانه[2].

وأما إطلاق الكفر على المسرف فلقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه أصنافًا شتى من المسرفين من الأمم الكافرة؛ ولذلك قال أهل العلم: سمي الكافر مسرفًا؛ لأنه أنفق ماله من الاستعداد الشريف من القوى البدنية والأموال النفيسة في الأمور الخسيسة الزائلة من الأصنام التي هي أحقر من لا شيء، ومن الشهوات الفانية التي لا أصل لها ولا دوام؛ فالأصل أن كل كافر مسرف؛ لأنه تجاوز حدود الله تعالى[3].

ولو تأملنا الآيات التي ذكر فيها وصف الكفر والكذب والارتياب على المسرفين نجدها تتحدث عن أصناف مختلفة من المسرفين من الكفار عمومًا، أو من أقوام معينة.

فالآيات التي وصف فيها الله تعالى فيها أهل الكفر عمومًا بالإسراف كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

فهذا إسراف في الكفر والطغيان والتكذيب بآيات الله تعالى، لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه، وقال سفيان: أسرف هنا بمعنى: أشرك، فالإسراف هنا هو: الاعتقاد الضال وعدم الإيمان بالآيات ومكابرتها

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٥٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٠٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٢٢، غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٥٦٨، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٣١.

وتكذيبها، وأسرف بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات، وإنما سمي الكافر مسرفًا؛ لأنه أتلف نفسه وضيعها في عبادة الأصنام، وأتلف ماله وضيعه في البحائر والسوائب، وما كانوا ينفقون على الأصنام وخدامها[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

أي: مشرك شاك في التوحيد وصدق الرسل، واستمرار العناد في مواجهة الرسل، والكفر برسالاتهم.

فمن كان في مثل هذه الحال من الإسراف في الكفر والشرك، فإن الله يضله؛ ويزيده إسرافًا في المعاصي والاستكثار منها، وارتيابًا في دين الله، ووحدانيته ووعده ووعيده[2].

فهذه الآيات تبين أن الكافر والمشرك كلاهما مسرفٌ؛ لتجاوزهما حدود الله تعالى ، وكل من لم يؤمن بالله ويتبع رسله فهو مسرفٌ، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير؛ لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨][3].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

فالمجاوزون الحد في الكفر والمعصية زين لهم ما كانوا يعملون من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات، وإسرافهم لما أن الله تعالى إنما أعطاهم القوى والمشاعر؛ من أجل أن يصرفوها إلى مصارفها ويستعملوها فيما خلقت له من الأعمال الصالحة؛ فلما صرفوها إلى ما لا ينبغي وهي رأس مالهم فقد أتلفوها وأسرفوا إسرافًا ظاهرًا، والتزيين إما من جهة الله سبحانه على طريقه التخلية والخذلان

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٤٨، والسراج المنير، الشربيني ٢/ ٨ .

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٤٨ .

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣٧.

أو من الشيطان بالوسوسة والتسويل، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإعراض عن الذكر والدعاء والانهماك في الشهوات[1].

أحد النماذج التي ذكرها القرآن في الإسراف في الكفر والتكذيب:

كفار قريش:

وقد نص القرآن على إسرافهم في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

«أي: لأن كنتم منهمكين في الإسراف مصرين عليه، على معنى إن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا في العذاب الخالد، لكنا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب، فالاستفهام في الآية إنكاري، أي: لا يجوز أن نضرب عنكم الذكر صفحًا من جراء إسرافكم، والذكر: التذكير، والمراد به القرآن. والصفح: الإعراض بصفح الوجه وهو جانبه وهو أشد الإعراض عن الكلام؛ لأنه يجمع ترك استماعه وترك النظر إلى المتكلم»، وعن قتادة قال: «والله لو أن هذا القرآن رفع حيث رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد عليهم بعائدته ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه».

والمقام دال على أنهم أسرفوا في الإعراض عن القرآن، وقرأ نافعٌ وحمزة والكسائي وأبو جعفرٍ وخلفٌ ﴿إِن كُنتُمْ﴾ بكسر همزة إن فتكون«إن شرطيةً»، ولما كان الغالب في استعمال إن الشرطية أن تقع في الشرط الذي ليس متوقعًا وقوعه بخلاف (إذا) التي هي للشرط المتيقن وقوعه، فالإتيان بإن في قوله: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ لقصد تنزيل المخاطبين المعلوم إسرافهم منزلة من يشك في إسرافه؛ لأن توفر الأدلة على صدق القرآن من شأنه أن يزيل إسرافهم، وفي هذا ثقةٌ بحقية القرآن وضربٌ من التوبيخ على إمعانهم في الإعراض عنه، وقرأه ابن كثيرٍ وابن عامرٍ وعاصمٌ وأبو عمرٍو ويعقوب بفتح الهمزة على جعل إن مصدريةً وتقدير لام التعليل محذوفًا، أي: لأجل إسرافكم، أي: لا نترك تذكيركم بسبب كونكم مسرفين، بل لا نزال نعيد التذكير رحمةً بكم.

وإقحام ﴿قَوْمًا﴾ قبل ﴿مُّسْرِفِينَ﴾ للدلالة على أن هذا الإسراف صار طبعًا لهم، وبه قوام قوميتهم[2].

وتقرير هذه الحقيقة كفيل بأن يشعر القوم الذين جعل القرآن بلسانهم بقيمة الهبة الضخمة التي وهبها الله إياهم، وقيمة النعمة التي أنعم الله عليهم، ويكشف لهم

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/١٠٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/١٢٦.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/٤٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/٦٢-٦٣.

عن مدى الإسراف القبيح في إعراضهم عنها واستخفافهم بها، ومدى استحقاقهم هم للإهمال والإعراض ومن ثم يعرض بهم وبإسرافهم، ويهددهم بالترك والإهمال جزاء هذا الإسراف[1].

ثانيًا: الإسراف في الفواحش:

ومن النماذج الذين أسرفوا على أنفسهم بفعل الفاحشة:

قوم لوط عليه السلام:

إن قوم نبي الله لوط عليه السلام «كانوا مصابين بفساد العقل والنفس، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه على لسان رسوله لوط عليه السلام، هذا وقد وصفهم الله تعالى بالإسراف بطريق الجملة الاسمية الدالة على الثبات قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨١].

أي: أنتم قومٌ تمكن منهم الإسراف في الشهوات؛ فلذلك اشتهوا شهوةً غريبةً لما سئموا الشهوات المعتادة.

وهذه شنشنة الاسترسال في الشهوات حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيءٌ، ونحوه قوله عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشةً وإسرافًا أنه يشتمل على مفاسد كثيرةٍ: منها استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت عليه؛ لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداءٌ على الفطرة وعلى النوع[2].

وقال تعالى في وصفهم أيضًا: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

وفي آية أخرى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

وهذه الألفاظ من معاني الإسراف، ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل والنفس، بجمعهم بين الإسراف، والعدوان والجهل، فلا هم يعقلون ضرر هذه الفاحشة في الجناية على النسل وعلى الصحة وعلى الفضيلة والآداب العامة، ولا غيرها من منكراتهم فيجتنبونها ويجتنبون الإسراف فيها، ولا هم على شيء من الحياء وحسن الخلق يصرفهم عن ذلك[3].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٧٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٢.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٥٥.

ثم كانت نهاية القوم الذين أسرفوا في الكفر والكذب واتباع الشهوات المحرمة المخالفة للفطرة أن قال تعالى فيهم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨].

أي: ثم أهلكنا القوم الذين انغمسوا في المنكرات، وكفروا بالله الذي خلقهم، ولم يؤمنوا برسله، وأنزلنا عليهم العذاب الذي عم جميعهم.

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

وبين الله تعالى في مواضع أخر أنه مطر حجارةٍ أهلكهم الله بها، كقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

وأشار إلى أن السجيل الطين بقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣].

وبين أن هذا المطر مطر سوءٍ لا رحمةٍ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

فهذه العقوبة من الله تعالى لهؤلاء القوم الذين أسرفوا على أنفسهم بفعل الفاحشة؛ يبين خطورة هذه الفاحشة الشاذة التي قد أسرف فيها قوم لوط عليه السلام.

ثالثًا: الإسراف في الأموال:

١ . المسرفون في أموال اليتامى.

فالإسراف في أموال اليتامى من أقبح صور الإسراف؛ لأنها من خيانة الأمانة، التي أذن الله لهم في الأكل والأخذ منها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ [النساء: ٦].

فالمسرفون في أموال اليتامى هم الذين يأكلون أموال اليتامى متجاوزين الحد الذي أحله الله لهم يقول الله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

وظاهر هذه الآية يدل على أنه تقسيمٌ لحال الوصي على اليتيم، فأمره تعالى بالاستعفاف عن ماله إن كان غنيًا، واقتناعه بما رزقه الله تعالى من الغنى، وأباح له الأكل بالمعروف من مال اليتيم إن كان فقيرًا، بحيث يأخذ قوتًا محتاطًا في تقديره.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾، أي: مسرفين ومبادرين كبرهم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون في إنفاقها، وتقولون: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا. والجملة تأكيدٌ للأمر بالدفع وتقريرٌ لها، وتمهيدٌ لما بعدها من قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ فمن كان من الأولياء

والأوصياء غنيًا فليتنزه عن أكلها، وليقنع بما آتاه الله تعالى من الغنى والرزق إشفاقًا على اليتيم، وإبقاءً على ماله، ﴿وَمَن كَانَ﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر حاجته الضرورية، وأجرة سعيه وخدمته. وقد نص الفقهاء على أن من ولي مال اليتيم واستحق أجرًا، فله الأقل من أحد أمرين: إما نفقته في نفسه، وإما أجرته على عمله، أي: إن كان العمل يستحق أجرة ألف ريالٍ، ونفقته يكفي لها خمسمائةٍ أخذ نفقته فقط، وإن كان العمل يكفيه أجرة مائة ريالٍ، ونفقته خمسمائةٍ أخذ أجرته مائةً فقط؛ حفظًا لماله»[1].

فإذا أكل الغني و تجاوز الحد فهو مسرف في فعله هذا، إذا أكل الفقير بغير المعروف فقد تجاوز الحد فهو مسرف أيضًا .

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الإسراف في الأمانات لا يختص بأموال اليتامى، بل من باب أولى أن يدخل فيه القائمون على أموال المسلمين؛ فإنهم بمثابة الأولياء على اليتامى في حفظ الأموال العامة، لكننا نجد اليوم أن أكثرهم مسرفون إلا من رحم الله.

وفي هذا التنبيه يقول العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله: «فإذا جرى لنا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا، والحكم حتى صرنا أشد الأمم إسرافًا، وتبذيرًا، وإضاعةً للأموال، وجهلًا بطرق الاقتصاد فيها، وتثميرها، وإقامة مصالح الأمة بها في هذا الزمن الذي لم يسبق له نظيرٌ في أزمنة التاريخ من حيث توقف قيام مصالح الأمم، ومرافقها، وعظمة شأنها على المال، حتى إن الأمم الجاهلة بطرق الاقتصاد، التي ليس في أيديها مالٌ كثيرٌ قد صارت مستذلةً، ومستعبدةً للأمم الغنية بالبراعة في الكسب، والإحسان في الاقتصاد»[2].

٢. المسرفون في النفقات.

الإسراف من أهم عوامل الفساد في الأرض، فبه يقع التبديد والتبذير للأموال في غير محلها، وفي غير حقها، وهو يعد من أحد صور عدم شكر نعمة الله تعالى على العباد، وأضف إلى ذلك ما يتسببه الإسراف من قسوة وفساد للقلب؛ فمن أجل ذلك قد نهى القرآن عن الإسراف، وقد ورد النهى في القرآن عن الإسراف عمومًا، وعن الإسراف في النفقة خصوصًا.

ومع أن الله تعالى قد أخرج الله لعباده الطيبات من الرزق وأباح لهم سبحانه أن يتمتعوا بها، وقد أنكر القرآن الكريم على من يحرم الانتفاع بالمباحات زهدًا وترفعًا، فهذا خطأ، فإن الطيبات من الرزق حلال للناس جميعًا في الدنيا، وخالصة خاصة للمؤمنين

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٢١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٠ .

(٢) انظر: المنار، ٨/ ٤٥٥ .

يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين، ولكن أمرهم سبحانه وتعالى أن يأكلوا منها غير مسرفين، وبين سبحانه وتعالى أنه لا يحب المسرفين.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ففي هذه الآيه قد وجه القرآن الكريم إلى قاعدة أساسية في الطب وتناول المباحات النافعة، وهي: الأكل والشرب من غير إسراف ولا تقتير.

قال ابن عباسٍ: «أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلةً»[(١)]. فالإسراف مذموم لتجاوزه حدود الحاجة والاعتدال، والتقتير مذموم؛ لأنه بخل وشح، وكفى بالبخل داء، والمطلوب هو الاعتدال في المأكل والمشرب من غير تجاوز الحلال إلى الحرام، ولا الحاجة إلى التخمة، ولا التقصير في الإنفاق لأنه مضرة وبخل.

فعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلةٍ ولا سرفٍ، فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عباده)[(٢)].

وعن المقدام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيماتٍ يقمن صلبه، فإن كان لابد فثلثٌ طعامٌ، وثلثٌ شرابٌ، وثلثٌ نفسٌ)[(٣)].

«فالإسراف إذا اعتاده المرء حمله على التوسع في تحصيل المرغوبات، فيرتكب لذلك مذماتٍ كثيرةً، وينتقل من ملذةٍ إلى ملذةٍ فلا يقف عند حدٍ، وليس أضر على الإنسان والأمة من الإسراف، فإنه ضرر وخطر بل وحرام وبطر، كما أنه ليس من الحكمة والخير تحريم الزينة والطيبات من الرزق التي خلق الله موادها لعباده، وعلمهم كيفية الانتفاع بها، فهي مستحقة مخلوقة لعباد الله من المؤمنين وغيرهم عدلًا من الله وفضلًا ونعمةً»[(٤)].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٤٧٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ١٨٢، رقم ٦٧٠٨، والحاكم في المستدرك، ٤/ ١٥٠، رقم ٧١٨٨.
قال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٤٢، رقم ١٧١٨٦، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، ٤/ ٥٩٠، رقم ٢٣٨٠.
قال الترمذي: «حسن صحيح».
وصححه الشيخ الألباني. في الإرواء، رقم ١٩٨٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٢٣.

رابعًا: الإسراف في السلوك:

١. نموذج ممن أسرفوا بالعلو والتكبر.

فرعون وملؤه:

فهذا النوع الأول من المسرفين وهو أشد المسرفين قبحًا وتجبرًا؛ حيث قد تجاوز كل الحدود فقد تجبر وادعى الإلهية وأمر الناس بعبادته، واستخف بعقولهم فأطاعوه؛ فأسرف في الكفر والعلو والكبر، وطغى وتجبر وتكبر، وهذا قد صور لنا القرآن إسرافه وتكذيبه، فقال عنه سبحانه وتعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فهذه الآية تصف فرعون بالإسراف، وأنه قاهرٌ وغالبٌ لمن تحته بكثرة القتل والتعذيب لمن يخالفه، فكان بهذا من المجاوزين للحد في الكفر، والتكذيب؛ بسبب ما يفعله من القتل والصلب، وبتنويع العقوبات لمن خالفه. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ وإنه لمن المسرفين في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء، وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ إشارة أخرى إلى إسرافه لنفسه، ومجاوزة الحد بها في الظلم والجبروت، فهو من المجاوزين الحد في الكفر؛ لأنه كان عبدًا ادعى الربوبية[1].

ثم ازداد إسرافًا فادعى الربوبية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

هذا وقد تعدد وصف القرآن لفرعون، فجاء وصف فرعون وملئه به نصًا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

أي: آثمين بكفرهم، قاصدين للذنب، مسرفين فيه، ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾.

فهذه الجملة لتعليل ما قبلها، أو للاعتراض لقصد التأكيد؛ فهم عاصون آثمون في كل أفعالهم، وأقوالهم، وهو مأخوذٌ من الخطأ المقابل للصواب، وقرأ أبو جعفر المدني: (خاطين) بياءٍ من دون همزةٍ، فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور، ولكنها خففت بحذف الهمزة، ويحتمل أن تكون من خطا يخطو، أي: تجاوز الصواب، وأما جمهور المفسرين فقالوا: معناه: كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٢١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٧٠.

هلاكهم على أيديهم[1].

«وازداد فرعون إسرافًا وكفرًا وتكذيبًا وطغيانًا وفسادًا في الأرض، فاستكبر هو وقومه عن الإيمان بالله وتصديق رسله، بل علا في الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

ويذكر لنا الله تبارك وتعالى عن فرعون وهو يصف نفسه، وتباهيه بما له من ملك ومن سلطان، وتساؤله في فخر وخيلاء فيقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

ومقصود فرعون بذلك كله تعظيم أمر نفسه وتحقير أمر موسى، وأنه لا يمكن أن يتبع الفاضل المفضول. وكانت هذه الحال التي وصل إليها فرعون وتجهرم بذلك وأظهرها لقومه سببًا في هلاك قومه، واستخفافه بعقولهم، ثم يبين سبحانه وتعالى كيف استجابت لفرعون الجماهير المستخفة المخدوعة على الرغم من الخوارق التي عرضها عليهم موسى عليه السلام وعلى الرغم مما أصابهم من ابتلاءات، واستغاثتهم بموسى ليدعو ربه فيكشف عنهم البلاء: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وحق لموسى بعد هذا كله أن يسميهم قومًا مجرمين، وأن يدعوا عليهم بالهلاك؛ ليريح الأرض من شرهم: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢].

أي: فكفروا فدعا ربه بأن هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون، قد امتنعوا من إطلاق بني إسرائيل ومن الإيمان، قد أجرموا جرمًا يوجب تعجيل العقوبة؛ فاستجاب الله له فأهلكهم بالغرق: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧][2].

٢. نموذج ممن أسرفوا بالفساد في الأرض.

بنو إسرائيل وإسرافهم بالفساد في الأرض:

ومع الصنف الذين أسرفوا بعمل جميع المفاسد كلها من أصناف المسرفين الذين ذكرهم الله تعالى وهم «بنو إسرائيل»، وقد ذكر الله تعالى هذا الصنف من المسرفين في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ

(١) انظر: غرائب التفسير، الكرماني ٢/ ٨٦٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٨٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٣٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧٣.

﴿جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

فنصت الآية في أولها على ذكر بني إسرائيل، وفي آخرها جاء الضمير عائدًا عليهم أيضًا، فالإسراف والفساد فيهم مع ما جاءتهم الرسل بالبينات من الله، ويدل على ذلك وجود ﴿ثُمَّ﴾ في الآية، وهي تدل على التراخي في الرتبة؛ ولأن مجيء الرسل بالبينات شأنٌ عجيبٌ، والإسراف في الأرض بعد تلك البينات أعجب.

وكان مقتضى مجيء رسل الله بالحجج الواضحة أن لا يقع منهم إسرافٌ وهو المجاوزة في الحد، فخالفوا هذا المقتضى، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

فهم حيثما حلوا أسرفوا، وظاهر الإسراف في هذه الآية أنه لا يتقيد.

وقيل: ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ أي: قاتلون بغير حقٍ؛ كقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وقيل: هو طلبهم الكفاءة في الحسب حتى يقتل بواحدٍ عدةٌ من قتلتهم[(١)]، فهم مسرفون بسفك الدماء وكثرة المعاصي.

ولعل الأقرب والراجح وهو اختيار ابن عاشور حيث قال: «.. والمراد مسرفون في المفاسد كلها التي منها قتل الأنفس بقرينة قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ ويؤيد ذلك أنه كثيرًا ما استعمل القرآن ذكر الأرض مع ذكر الإفساد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

وقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

وقد ذكر الله تعالى ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من أجل تصوير هذا الإسراف عند السامع وتفظيعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وتقديم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للاهتمام، وهو يفيد زيادة تفظيع الإسراف فيها مع أهمية شأنها»[(٢)].

٣. نموذج ممن أسرفوا وتشاءموا برسلهم.

أصحاب القرية المذكورون في سورة يس:

فقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨-١٩].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٣٩.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٣٩، البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٣٤.

وقرأ الجمهور: ﴿ذُكِّرْتُم﴾ بتشديد الكاف، وأبو جعفرٍ، وخالد بن إلياس، وطلحة، والحسن، وقتادة، وأبو حيوة، والأعمش من طريق زائدة، والأصمعي عن نافعٍ: بتخفيفها[1].

فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه أرسل إلى أهل هذه القرية أولًا رسولين فكذبوهما.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣-١٤].

وقرأ شعبة بالتخفيف، من: عزه: غلبه، أي: فغلبنا وقهرنا بثالثٍ، وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه؛ ولأن المقصود ذكر المعزز به.

﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: قويناهما وشددنا قاله مجاهدٌ، وابن قتيبة، برسول ثالث على قراءة الجمهور؛ وذلك لكي يدعوهم إلى عبادة الله وحده فصاروا ثلاثة رسل، اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم[2].

فكان موقف أصحاب القرية أن قالوا لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[يس: ١٨].

فكذبوهم وتطيروا وتشاءموا منهم، «فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية، والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم. إنما هو معهم. مرتبط بنواياهم وأعمالهم... هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح. أما التشاؤم بالوجوه، أو التشاؤم بالأمكنة، أو التشاؤم بالكلمات، فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم»[3].

فالسبب الحقيقي لتشاؤمكم هو تكذيبكم وكفركم، لا نحن، أمن أجل تذكيركم وأمرنا إياكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، ادعيتم أن فينا الشؤم عليكم، وتوعدتمونا وهددتمونا؟ بل الحق أنكم قوم جاوزتم الحد في مخالفة الحق، وأسرفتم في الضلال، وتماديتم في الغي والعناد.

قالوا: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

فمن الملاحظ أن قول أصحاب القرية لرسلهم: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ هو: بطريقة الاستفهام الإنكاري الداخل على إن الشرطية، فهو استفهامٌ على محذوفٍ دل عليه الكلام السابق، والتقدير: أتتشاءمون بالتذكير إن ذكرتم، لما يدل عليه قول أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[يس: ١٨].

أي: بكلامكم.

وأبطلوا أن يكون الشؤم من تذكيرهم

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٥٥.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٦٤، البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٥٣.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٦٢.

بقولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، أي: لا طيرة فيما زعمتم، ولكنكم قومٌ كافرون، غشيت عقولكم الأوهام فظننتم ما فيه نفعكم ضرًا لكم، ونطتم الأشياء بغير أسبابها من إغراقكم في الجهالة والكفر وفساد الاعتقاد، ومن إسرافكم اعتقادكم بالشؤم والبخت.

وقوله: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُم﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، أي: ألأجل أن ذكرنا أسماءكم حين دعوناكم حل الشؤم بينكم، كناية عن كونهم أهلًا لأن تكون أسماؤهم شؤمًا.

وفي ذكر كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ إيذانٌ بأن الإسراف متمكنٌ منهم، وبه قوام قوميتهم، فذكر لفظ ﴿قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾؛ لأن إجراء الوصف على لفظ قومٍ يومئ إلى أن ذلك الوصف سجيةٌ فيهم، ومن مكملات قوميتهم، فإن للقبائل والأمم خصائص تميزها وتشتهر بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

وقد تكرر هذا في مواضع كثيرةٍ من القرآن كما في قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤][1].

وهذا الموقف مشابه لموقف قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

ومماثل لموقف قوم صالح: قالوا: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧].

هكذا الحال إذا فسدت الفطرة، وارتكست الأفهام يصبح التطير عند الفساق والمجرمين من رسل الله الذين اختارهم الله لحمل رسالته وتبليغها، وهم الذين اصطفاهم الله من خيرة خلقه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

خامسًا: الإسراف في القتل:

حذر الله تعالى من الإسراف في القتل فقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

ومعلومةٌ حالة العرب في الجاهلية من التسرع إلى قتل النفوس، فكان حفظ النفوس من أعظم القواعد الكلية للشريعة الإسلامية. ولذلك كان النهي عن قتل النفس من أهم الوصايا التي أوصى بها الإسلام أتباعه في هذه الآيات الجامعة.

قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾، أي: قد جعل لولي المقتول تصرفًا في القاتل بالقود أو الدية، فنهى الله المسلمين عن أن يكونوا مثالًا سيئًا يقابلوا الظلم بالظلم كعادة الجاهلية، بل عليهم أن

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٨٩.

يتبعوا سبيل الإنصاف فيقبلوا القود، ولذلك قال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾.

والسرف: الزيادة على ما يقتضيه الحق، وليس خاصًا بالمال، بل هو كما مر مجاوزة كل أمر سواء أكان محمودًا أو مذمومًا.

والسرف في القتل هو أن يقتل غير القاتل، أما مع القاتل وهو واضحٌ كما قال المهلهل في الأخذ بثأر أخيه كليبٍ[1]:

كل قتيلٍ في كليبٍ غرةٌ
حتى يعم القتل آل مرة

وأما قتل غير القاتل عند العجز عن قتل القاتل فقد كانوا يقتنعون عن العجز عن القاتل بقتل رجلٍ من قبيلة القاتل. وكانوا يتكايلون الدماء، أي: يجعلون كليها متفاوتًا بحسب شرف القتيل، كما قالت كبشة بنت معديكرب[2]:

فيقتل جبرًا بامرىء لم يكن له
بواءً ولكن لا تكايل بالد

البواء: الكفء في الدم.

تريد فيقتل القاتل وهو المسمى جبرًا، وإن لم يكن كفؤًا لعبد الله أخيها، ولكن الإسلام أبطل التكايل بالدم[3].

هذا وقد اختلف المفسرون في تفسير «الإسراف» في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ على ثلاثة أقوالٍ:

الأول: لا يقتل غير قاتله.

قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبيرٍ.

الثاني: لا يقتل بدل وليه اثنين كما كانت العرب تفعله.

الثالث: لا يمثل بالقاتل.

قاله طلق بن حبيبٍ.

ولعل الراجح أن جميع المعاني مرادة كما قال القرطبي: «وكله مرادٌ؛ لأنه إسرافٌ منهيٌّ عنه».

ويؤيد ذلك أن الخطاب في قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ هو للولي، والإسراف مجاوزة الحد إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل؛ فتكون جميع المعاني مرادة[4].

وبناء على ذلك يكون النهي عن الإسراف في القتل هنا شاملًا لثلاث صورٍ:

الأولى: أن يقتل اثنين أو أكثر بواحدٍ، كما كانت العرب تفعله في الجاهلية.

الثانية: أن يقتل بالقتيل واحدًا فقط ولكنه غير القاتل؛ لأن قتل البريء بذنب غيره إسرافٌ في القتل، منهيٌّ عنه في الآية أيضًا.

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٣٤٧، الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني ٥/ ٥٢.
(٢) انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني ١٠/ ٢٤٨، شرح ديوان الحماسة، المرزوقي ص١٥٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٩١، ٩٤.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٥٥.

الثالثة: أن يقتل نفس القاتل ويمثل به، فإن زيادة المثلة إسرافٌ في القتل أيضًا[1].

وفي هذه الآية دليل إلى أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص.

وأن ولي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

فائدة: قرأ الجمهور ﴿يُسْرِف﴾ بالياء، فيكون المراد بذلك الخطاب هو الولي، وقرأ ابن عامرٍ وحمزة والكسائي«تسرف» بالتاء من فوقٍ، وهي قراءة حذيفة. وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهدٍ قال: «هو للقاتل الأول، والمعنى عندنا: فلا تسرف أيها القاتل». وقال الطبري: «هو على معنى الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والأئمة من بعده. أي: لا تقتلوا غير القاتل. وفي حرف أبيٍ: فلا تسرفوا في القتل»[2].

وقتل النفس البريئة يعد من أكبر الكبائر، بل هي بعد الشرك بالله في الجرم والإثم، وفي هذا المعنى يقول النبي صلى الله عليه وسلم في التحذير من أمر الدماء: (لن يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه، ما لم يصب دمًا حرامًا)[3].

المعنى أنه في أي ذنب وقع من العبد كان له في الدين والشرع مخرج إلا القتل، فإن أمره صعب، ويوضح هذا ما في تمام الحديث عن ابن عمر أنه قال: «إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها: سفك الدم الحرام بغير حله»[4].

فقتل النفس البريئة حرام، لا تقتل إلا بالحق، وهذا الحق هو الذي حدده الشرع وليس لأحد من البشر، وليس هذا الحق متروكًا للرأي والهوى، فعن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئٍ مسلمٍ، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلّا بإحدى ثلاثٍ: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة)[5].

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٨٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٥٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا، رقم ٦٤٦٩.

(٤) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٢/ ٥٩٠.
وأثر ابن عمر رضي الله عنهما، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله تعالى: (ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم)، رقم ٦٨٦٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.

سادسًا: الإسراف في المعاصي والذنوب:

«فالإسراف يطلق على الإفراط في الذنوب والمعاصي والكبائر، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣].

والإسراف أيضًا الإكثار من الذنوب والخطايا واحتقار الأوزار والآثام»[١]، أي: «﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أفرطوا في الجناية عليها، بالإسراف في المعاصي، والغلو فيها، ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾: لا تيأسوا من مغفرته أولًا، وتفضله بالرحمة ثانيًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، بالعفو عنها، لمن تاب ولجأ إلى جنابه وإن كثرت، وكانت كزبد البحر إلا الشرك»[٢].

ومن إطلاق الإسراف على الذنوب قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

قال ابن عباس: «إسرافنا: خطايانا»، وعن الضحاك: «الخطايا: الكبائر»، وعن مجاهد: «خطايانا وظلمنا أنفسنا»[٣].

قال الشوكاني: «والظاهر: أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبًا من صغيرةٍ أو كبيرةٍ. والإسراف: ما فيه مجاوزةٌ للحد، فهو من عطف الخاص على العام.

قالوا ذلك مع كونهم ربانيين: هضمًا لأنفسهم ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن القتال، فآتاهم الله بسبب ذلك ثواب الدنيا من النصر والغنيمة والعزة ونحوها، وحسن ثواب الآخرة من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن»[٤].

ويؤيد ذلك ما رواه أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يدعو بهذا الدعاء (رب اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي، وعمدي، وجهلي، وهزلي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيءٍ قديرٌ)[٥].

قال ابن حجر: «وقوله: (إسرافي في أمري) الإسراف: مجاوزة الحد في كل شيء»[٦].

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٦٤.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٩١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٧٢، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٣/ ٧٨٣.
(٤) انظر: فتح القدير ١/ ٤٤٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، رقم ٦٠٣٥.
(٦) انظر: فتح الباري، ١١/ ١٩٨.

المؤمنون والإسراف

أثنى الله تعالى في كتابه على المؤمنين بتوسطهم في الإنفاق، وسوف نتناول ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: التوسط في الإنفاق:

ذكر لنا سبحانه وتعالى صفات المؤمنين الذين هم عباد الرحمن، وجعل من صفاتهم الحميدة التي يتصفون بها هي: عدم الإسراف في الإنفاق، وعدم الإقتار فيه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وفي قراءة نافعٍ وابن عامرٍ: (ولم يُقْتِرُوا) بضم الياء المثناة التحتية وكسر التاء، مضارع أقتر الرباعي، وقرأه ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو: (ولم يَقْتِرُوا) بفتح المثناة التحتية، وكسر المثناة الفوقية، مضارع قتر الثلاثي كضرب، وقرأه عاصمٌ وحمزة، والكسائي: ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ بفتح المثناة التحتية، وضم المثناة الفوقية، مضارع قتر الثلاثي كنصر، والإقتار على قراءة نافعٍ وابن عامرٍ، والقتر على قراءة الباقين معناهما واحدٌ، وهو التضييق المخل بسد الخلة اللازم[1].

هذا وقد اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية. فقال النحاس: «ومن أحسن ما قيل في معناه: أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام»، وقال ابن عباسٍ: «من أنفق مائة ألفٍ في حقٍ فليس بسرفٍ، ومن أنفق درهمًا في غير حقه فهو سرفٌ، ومن منع من حقٍ عليه فقد قتر». وقاله مجاهدٌ وابن زيدٍ وغيرهما. وقال عون بن عبد الله: «الإسراف أن تنفق مال غيرك»[2].

ولكن هذه التأويلات ونحوها غير مرتبطٍ بالآية؛ وخلط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر؛ ولأن الإسراف هو مجاوزة كل أمر سواء أكان محمودًا أو مذمومًا؛ ولأن النفقة في معصية أمرٍ قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، ولكن أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن الله يمدح عباده الصالحين بتوسطهم في الإنفاق، فلا يجاوزن الحد بالإسراف في الإنفاق ولا يقترون، أي: ولا يضيقون فيخلون بإنفاق القدر اللازم، والإسراف وضده الإقتار مذمومان، والاستواء هو التوسط؛ ولذلك قيل: دين الله بين القصور

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٧٢، وأضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٧٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٧٢-٧٣.

والغلو.

قال ابن عطية: «والوجه أن يقال: إن النفقة في معصية أمرٍ قد حظرت الشريعة قليله وكثيره وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقًا آخر أو عيالًا ونحو هذا، وألا يضيق أيضًا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام، أي: العدل، والقوام في كل واحدٍ بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب»[1].

قال ابن كثيرٍ رحمه الله: «﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الآية، أي: ليسوا مبذرين في إنفاقهم، فيصرفوا فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصروا في حقهم فلا يكفوهم بل عدلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا»[2].

وكأن المعنى: من أراد أن يكون في وصف هؤلاء المؤمنين الموصوفين بعبوديتهم للرحمن فعليه أن لا يسرف في الإنفاق ولا يقتر، بل عليه بالقوام وهو الوسط بين الإسراف والإقتار.

ويؤيد صحة هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

فنهاه عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ ونهاه عن الإسراف بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، فيتعين الوسط بين الأمرين، كما بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير، وبين البخل والاقتصاد. فالجود غير التبذير، والاقتصاد غير البخل. فالمنع في محل الإعطاء مذمومٌ. وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، والإعطاء في محل المنع مذمومٌ أيضًا وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾. كما قال الأديب أبو بكر الخوارزمي في الوزير الصاحب بن عباد[3]:

لا تمدحن ابن عبادٍ وإن هطلت
يداه كالمزن حتى تخجل الديما
فإنها فلتاتٌ من وساوسه
يعطي ويمنع لا بخلًا ولا كرم

وقد بين تعالى في مواضع أخر: أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك، إلا إذا

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٢٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٢٣-١٢٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٧٥.
(٣) انظر: غرر الخصائص الواضحة، الوطواط ص ٣٥١، زهر الأكم في الأمثال والحكم، نور الدين اليوسي ٢/ ٨٧.

كان مصرفه الذي صرف فيه مما يرضي الله. كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وصرح بأن الإنفاق فيما لا يرضي الله حسرةٌ على صاحبه في قوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦][1].

فالتوازن هو القاعدة الكبرى في المنهج الإسلامي، والغلو كالتفريط يخل بالتوازن، وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ويتجه إليها في التربية والتشريع، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالًا في المحيط الاجتماعي، والمجال الاقتصادي، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب، ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق، والإسراف مفسدة للنفس، والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به، وانتفاع الجماعة من حوله، فالمال أداة اجتماعية؛ من أجل تحقيق خدمات اجتماعية[2].

ثانيًا: الدعاء بطلب المغفرة لما بدر منهم:

فالمؤمن يعيش دائمًا بين الخوف والرجاء، يخشى عذاب الله تعالى ويرجو رحمته، فالخوف والرجاء للمؤمن كالجناحين للطائر، لايستطيع أن يطير في الهواء بدونهما، وكذلك المؤمن لايستطيع العيش إلا بهما.

وقد ضرب الله لنا مثلًا لحال أوليائه المؤمنين الذين يطلبون من الله تعالى أن يغفر لهم إسرافهم من أمرهم وزلاتهم.

فيقص القرآن علينا خبر قوم من الربانيين المجاهدين الصابرين يلجأون إلى الله، ويدعونه أن يغفر لهم ذنوبهم، وإسرافهم في أمرهم.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

طلبهم التثبيت بتقديم الاستغفار حريًا بالإجابة، وذنوبنا وإسرافنا متقاربان من حيث المعنى، فجاء ذلك على سبيل التأكيد. وقيل: الذنوب ما دون الكبائر، والإسراف الكبائر. وقال أبو عبيدة: «الذنوب هي الخطايا، وإسرافنا أي: تفريطنا». وقال الضحاك: «الذنوب عامٌ، والإسراف في الأمر الكبائر خاصةً»[3].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٧٥-٧٦.
(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٧٩.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٧٤،

وقال ابن عاشور: «ويجوز عندي أن يكون المراد بالإسراف في الأمر التقصير في شأنهم ونظامهم فيما يرجع إلى أهبة القتال، والاستعداد له، أو الحذر من العدو، وهذا الظاهر من كلمة أمرٍ، بأن يكونوا شكوا أن يكون ما أصابهم من هزيمتهم في الحرب مع عدوهم ناشئًا عن سببين: باطنٍ وظاهرٍ، فالباطن هو غضب الله عليهم من جهة الذنوب، والظاهر هو تقصيرهم في الاستعداد والحذر، وهذا أولى من الوجه الأول»[1].

فالذنوب والإسراف في الأمور من أسباب البلاء والخذلان، وأن الطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح؛ ولذلك سألوا الله أن يمحو من نفوسهم أثر كل ذنبٍ وإسرافٍ، وأن يوفقهم إلى دوام الثبات[2].

«فهذا هو حال أهل الإيمان يضيفون الذنب لأنفسهم هضمًا لها؛ خشية أن يصيبهم العجب بحالهم؛ فهم قالوا ذلك القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين، هضمًا لها واستقصارًا. والدعاء بالاستغفار منها مقدمًا على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو؛ ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع، وأقرب إلى الاستجابة فآتاهم الله ثواب الدنيا من النصرة والغنيمة والعز، وطيب الذكر»[3].

ثالثًا: عدم طاعة المسرفين:

يذكر لنا الله تعالى في كتابه موقفًا آخر لمواقف المؤمنين من أهل الإسراف، وهو التحذير من أهل الإسراف وعدم طاعتهم فيما يأمرون به، وكان ذلك الموقف من نبي الله صالح عليه السلام لقومه في تحذيره لقومه أن لايطيعوا أمر المسرفين.

فقد جاء في معرض حديث القرآن عن قوم صالح في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١-١٥٢].

أي: ولا تطيعوا أمر المسرفين الكافرين المجاوزين الحد في الكفر والطغيان، ولا تنقادوا لأمرهم، ولا تتبعوا رأيهم، وهم الذين يفسدون في الأرض بالإسراف في الكفر والمعاصي، ولا يصلحون بالإيمان والطاعة. فهولاء القوم فسادهم خالص، لا يشوبه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح. فالدعوة إلى الكفر والشرك ومخالفة الحق من أعظم الفساد في الأرض، وفسادهم هذا فسادٌ مصمتٌ ليس معه شيء من الإصلاح،

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣١.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ١٢٠.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٢٤.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٢٥.

وجعل عملهم كله الإفساد في الأرض[1].

والمراد بالمسرفين أئمة القوم وكبراؤهم الذين يغرونهم بعبادة الأصنام ويبقونهم في الضلالة استغلالًا لجهلهم وليسخروهم لفائدتهم. والإسراف: الإفراط في شيءٍ، والمراد به هنا: الإسراف المذموم كله في المال وفي الكفر، ووصفهم بأنهم يفسدون في الأرض، فالإسراف منوطٌ بالفساد. وعطف ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ على جملة: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تأكيدٌ لوقوع الشيء بنفي ضده، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

ولأن نفي الإصلاح عنهم يؤكد إثبات الإفساد لهم، فيتقرر ذلك في الذهن، ويتأكد معنى إفسادهم بنفي ضده[2].

فهذا هو حال الأنبياء وأهل الإيمان يحذرون قومهم من طاعة أهل الإسراف والكفر والمعاصي، الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفسادًا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون؛ لأنه شر محض، وكأن أناسًا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم موضعون في الدعوة لسبيل الغي فنهاهم صالح عليه السلام عن الاغترار بهم، وطاعة أمرهم[3].

المسرفون والتوبة

الأصل في الإنسان عدم العصمة، ولا تكون العصمة إلا لمن عصمه الله من جنس الذنوب، وليس جميع الذنوب؛ ولذلك قد يخطئ الإنسان ويقع في أخطاء تتطلب اللجأ إلى الله لطلب التوبة والمغفرة، روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم)[4].

وقد نادى الله تعالى في كتابه هذا الصنف من الناس بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وكان سبب نزول هذه الآية ما جاء عن سعيد جبير، عن ابن عباس: «أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسنٌ لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزلت: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]»[5].

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ١٥٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٧٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٩٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب سقوط الذنب بالاستغفار، رقم ٢٧٤٩.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير،

فسبب نزول هذه الآية يوضح لنا سعة رحمة الله تعالى وعظيم هذا النداء من الله تعالى لكل من أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي وغيرهما؛ فنزلت في أناس من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا.

ففي هذه الآية نداءٌ من الله لكل مسرفٍ أن يرجع عن غيه ومعصيته، ويتوب إلى الله وينيب إليه قبل أن يصيبه الله بالعذاب، ويا له من نداءٍ عظيم لو سمعه العصاة المصرون على معاصيهم، ورجعوا إلى الله، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية»[1].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: قل أيها الرسول: يا عباد الله الذين أفرطوا في المعاصي واستكثروا منها، لا تيأسوا من مغفرة الله تعالى، فإن الله يغفر كل ذنب إلا الشرك الذي لم يتب منه صاحبه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨].

إن الله كثير المغفرة والرحمة، فلا يعاقب بعد التوبة. وقال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة دعوةٌ لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبةٍ؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه»[2].

وقال الشوكاني: «واعلم أن هذه الآية أرجى آيةٍ في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارةٍ، فإنه أولًا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقي بعده شكٌّ ولا يتخالج القلب عند سماعه ظنٌّ، فقال: إن الله يغفر الذنوب فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده»[3].

وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾، القنوط هو: اليأس، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥].

وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هي تعليل للنهي عن اليأس من رحمة الله[4].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٦.
تفسير سورة الزمر، رقم ٤٨١٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٠٦.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٣٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٤١.

«وقرأ الجمهور ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾ بفتح ياء المتكلم، وقرأه أبو عمرٍو وحمزة والكسائي ويعقوب بإسكان الياء»[1]. ولعل وجه ثبوت الياء في هذه الآية دون نظيرها وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [الزمر: ١٠].

«فالخطاب هنا للذين أسرفوا، وفي مقدمتهم المشركون، وكلهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم، فكان إثبات (يا) المتكلم في خطابهم زيادة تصريحٍ بعلامة التكلم تقويةً لنسبة عبوديتهم إلى الله تعالى إيماءً إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده، والإسراف: الإكثار. والمراد به هنا: الإسراف في الذنوب والمعاصي»[2].

(١) انظر: العنوان في القراءات السبع، السرقسطي ص ١٦٥، إتحاف فضلاء البشر، البنا ص ٤٨٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٤١.

عاقبة المسرفين

للمسرفين عاقبة وخيمة في الدنيا والآخرة نتناولها فيا يلي:

أولًا: عاقبة المسرفين في الدنيا:

فلقد ذكر الله تعالى لنا في القرآن الكريم عن أنواع العذاب الذي يلحق أهل الإسراف، وهذا العذاب في الدنيا والآخرة.

١. حرمان الهداية للحق والصواب.

«إن إضلال أهل الإسراف وحرمانهم الهداية للحق والصواب، من أحد العقوبات التي يعاقب الله تعالى بها أهل الإسراف، وفي هذا النوع من العقاب يخبرنا الله سبحانه وتعالى فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٨].

أي: إن الله لا يوفق للحق من هو متعدٍ إلى فعل ما ليس له فعله، كذابٌ عليه يكذب، ويقول عليه الباطل وغير الحق. ﴿كَذَّابٞ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا»[3].

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٧٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٦.

«وقد اختلف المفسرون في معنى الإسراف الذي ذكره الله تعالى في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني به الشرك، وأراد: إن الله لا يهدي من هو مشركٌ به مفترٍ عليه. فعن قتادة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾: مشرك أسرف على نفسه بالشرك. وقال السدي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ قال: المسرف: هو صاحب الدم، ويقال: هم المشركون. والصواب من القول في ذلك، وهو اختيار ابن جرير الطبري أن يقال: إن الله أخبر عن هذا النوع من الإسراف أنه عم جميع أهل الإسراف بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ فالشرك من الإسراف، وسفك الدم بغير حق من الإسراف، وقد اجتمعا في فرعون الأمران كلاهما، فالحق أن يعم»[1].

فهذه هي سنة الله تعالى قد اقتضت أنه سبحانه لا يهدي إلى الحق والصواب من كان مسرفًا في أموره، متجاوزًا الحدود التي شرعها الله تعالى، ومن كان مسرفًا أو كذابًا لايهديه الله تعالى للحق والصواب.

٢. تزيين الباطل.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

أي: زين للمسرفين ما كانوا يعملون من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات، فهم قد نسوا حال خلقهم وتكوينهم والإيمان بربهم، وزين لهم الغرور والإسراف فيه ما كانوا يعملونه من شرور وآثام وظلم للعباد وطغيان في أنفسهم، وإسرافهم في الشر يجترعونه اجتراعًا، وعبر الله عنهم بالمسرفين لأنهم أسرفوا على أنفسهم فاعتقدوا الباطل، واعتقدوا أن الحياة الدنيا هي الوجود كله، وأسرفوا على الناس فطغوا، وبغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، وهكذا التزيين الشيطاني زين لهم ما كانوا يعملون من أعمالهم في ماضي أزمانهم في الدعاء وغيره من ضلالاتهم[2].

قال الشوكاني: «والتزيين هو إما من جهة الله تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالوسوسة، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء. والمعنى: أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء، والغفلة عن الشكر، والاشتغال بالشهوات»[3].

٣. الهلاك.

هذا وقد حكم الله على أهل الإسراف بالهلاك.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٧٧.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٧، البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٤٥٥.

(٣) انظر: فتح القدير، ٢/ ٤٨٨.

«والمراد بالمسرفين: المجاوزون للحد المفرطون في التكذيب والكفر والمعاصي، وبالإصرار والاستمرار على إسرافهم؛ حتى حل بهم العذاب، ولذلك يكثر في القرآن إطلاق المسرفين على الكفار والمشركين»[1].

«فإن الله تعالى أرسل رسله من البشر وصدقهم وعده فنصرهم على المكذبين، وأنجاهم ومن آمن معهم، وأهلك الذين أسرفوا على أنفسهم بتكذيب رسل الله»[2]؛ ولهذا جاء بعد هذه الآية خبر إهلاك الكفار المسرفين في كفرهم وعصيانهم، فقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

فبين جل وعلا أنه أرسل الرسل إلى الأمم فكذبوهم، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر، وأهلك المسرفين وهم الكفار المكذبون للرسل.

«فهذه هي سنة الله تعالى في إهلاك أهل الإسراف الذين كانوا يسرفون عليهم، ويتجاوزون الحد معهم، فهذه السنة يخوف الله بها المشركين الذين كانوا يواجهون الرسول صلى الله عليه وسلم بالإسراف عليه، وتكذيبه، وإيذائه والمؤمنين معه»[3].

هذا وقد بين الله تعالى في كتابه في موضع آخر الطريقة التي قد أهلك الله تعالى بها المسرفين، وكان ذلك الموضع مختصًا بالمسرفين من قوم لوط عليه السلام ، فقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٣﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٤﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢-٣٤].

والحجارة: اسم جمعٍ للحجر، ومعنى كون الحجارة من طينٍ: أن أصلها طينٌ، وهي في غاية الشدة والقوة. والمسومة: التي عليها السومة، أي: العلامة، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ قال: «المسومة: الحجارة المختومة، يكون الحجر أبيض فيه نقطةٌ سوداء، أو يكون الحجر أسود فيه نقطةٌ بيضاء»[4]. أي: عليها علاماتٌ من ألوانٍ تدل على أنها ليست من الحجارة المتعارفة. والدليل على قوتها وشدتها: أن الله ما عذبهم بها في حالة غضبه عليهم إلا لأن النكال بها بالغٌ شديدٌ[5].

فهذه هي نهاية الذين أسرفوا على أنفسهم بفعل الفاحشة؛ فأهلكهم الله تعالى واستأصلهم في الدنيا؛ من أجل ما ارتكبوه من فعل الفواحش.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٧٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٤٧ .
(٢) انظر: تفسير المراغي ١٧/ ١٠ .
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٦٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٢٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٩٢.

ثانيًا: عذاب أهل الإسراف في الآخرة:

١. المسرفون يعذبون في قبورهم ويحشرون عميًا.

❁ تعذيبهم في القبور.

فقد أخبرنا تعالى في كتابه أن من عقوبة المسرفين في الأخرة بأن لهم معيشةً ضنكًا؛ وذلك نتيجة إسرافهم في معصية الله تعالى والإعراض عن أمر الله تعالى، وعدم طاعة رسله.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أي: فإن جزاءه، أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابًا.

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه ويعذب، جزاء إعراضه عن ذكر ربه، وهذا أصح الأقوال. فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾.

وعن النعمان ابن أبي عياش، عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا. ولفظه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (معيشة ضنكا قال: عذاب القبر)[(١)].

وقد رجح الطبري هذا التفسير مستندًا إلى قوله في آخر الآيات: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾.

قال: «فكان معلومًا بذلك أن المعيشة الضنك التي جعل الله لهم قبل عذاب الآخرة. ثم قال: وهذا العذاب ليس في الحياة الدنيا أيضًا، فإن هناك كثيرًا ممن أعرض عن ذكر الله من الكفار أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله، فبقي أن ذلك في البرزخ»[(٢)].

وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها. ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ البصر على الصحيح،

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٣٨١. قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) انظر: جامع البيان، ١٦/ ٢٢٨.

كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾. قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيقٌ حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلقٍ وحيرةٍ وشكٍ، فلا يزال في ريبةٍ يتردد. فهذا من ضنك المعيشة»[1].

❁ يحشرون يوم القيامة عميًا.

فقد ذكر الله تعالى لنا أيضًا أن من عقوبة المسرفين في الآخرة أنهم يحشرون يأخذ الله بأبصارهم وأعينهم، ولا يكون لديهم قدرة على الرؤيا؛ وذلك نتيجة إسرافه في الكفر والمعاصي والإعراض عن ذكر الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن من أعرض عن ذكره يحشره يوم القيامة في حال كونه أعمى هذا أصح التفاسير. وقال مجاهدٌ، وأبو صالحٍ، والسدي: أعمى أي: لا حجة له. وقال عكرمة: عمي عليه كل شيءٍ إلا جهنم[2].

ولكن الصحيح أن الله تعالى يحشره يوم القيامة في حال كونه أعمى، ويؤيد صحة هذا التفسير أن في نفس الآية الكريمة قرينةً متصلةً دالةً على خلاف قول مجاهدٍ وأبي صالحٍ، وعكرمة. وأن المراد بقوله: ﴿أَعْمَىٰ﴾، أي: أعمى البصر لا يرى شيئًا. والقرينة المذكورة هي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

فصرح بأن عماه هو العمى المقابل للبصر وهو بصر العين؛ لأن الكافر كان في الدنيا أعمى القلب كما دلت على ذلك آياتٌ كثيرةٌ من كتاب الله، وقد زاد جل وعلا في سورة «الإسراء» أنه مع ذلك العمى يحشر أصم أبكم أيضًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧][3].

ثم يخبرنا تعالى أن هذا العذاب ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾، أي: مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي مَنْ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ١٦/ ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٢٨-٢٢٩.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٢٧-١٢٨.

﴿أَسْرَفَ﴾ أي من جاوز الحد في المعصية، فهذا هو أحد أنواع عذاب الكفار المسرفين يوم القيامة، فهذا الجزاء الأليم كان لعلة إسراف الكافر على نفسه في الطغيان والمعاصي والتكذيب بآيات الله سبحانه وتعالى، ونسيانه لآيات الله تعالى تركها، وعدم الإيمان بها.

٢. أن المسرفين هم أصحاب النار.

حكم الله تعالى في كتابه بأشد العذاب على أهل الإسراف، وأنهم هم أصحاب النار الذين لايخرجون منها إن ماتوا على الكفر والشرك بالله.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

قال قتادة وابن سيرين: يعني المشركين. وقال ابن مسعود ومجاهدٌ والشعبي: هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها. وقال عكرمة: الجبارون والمتكبرون. وقيل: هم الذين تعدوا حدود الله. قال القرطبي: «وهذا جامعٌ لما ذكر»[1].

فبهذا يتبين شدة عقاب الله تعالى لأهل الإسراف، وأنهم في الآخرة من أصحاب النار.

موضوعات ذات صلة:

الاستطاعة، الاقتصاد، الإنفاق، السعة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٥٩ .

الأسرة

عناصر الموضوع

مفهوم الأسرة	٢٥٦
الألفاظ ذات الصلة	٢٥٧
مكانة الأسرة ومقاصدها	٢٥٩
الحقوق والواجبات الأسرية	٢٦٣
مشكلات الأسرة وعلاجها	٢٧١
الأسرة في القرآن والمواثيق الدولية	٢٨١

مفهوم الأسرة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الهمزة والسين والراء أصل واحد، وقياسٌ مطرد، وهو الحبس، وهو الإمساك»[1]، والأسرة: الدرع الحصينة، وأهل الرجل وعشيرته والجماعة يربطها أمر مشترك، والأسرة من الرجل: الرهط الأدنون وعشيرته؛ لأنه يتقوى بهم، وقيل: أقارب الرجل من قبل أبيه[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف د. محمد عقلة الأسرة بأنها «رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما، وتشمل الجدود والحفدة، وبعض الأقارب على أن يكونوا مشتركين في معيشة واحدة»[3].

يتبين مما سبق أن كل التعريفات السابقة تؤكد على أن الأسرة هي اللبنة والوحدة الاجتماعية الأولى للمجتمع، وأن هناك علاقة وطيدة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي حيث إن من معاني كلمة الأسرة في اللغة الحبس، وهو الإمساك فكأنه لوحظ معنى الشد والربط والوثاق، حيث إن الأسرة ترابط اجتماعي وتماسك إنساني لدرجة الثبات والقرار، ومن المعاني -أيضًا-: الدرع الحصينة، وكأن الأسرة يتحقق بها حماية الإنسان مما يهدد كيانه، فبالأسرة يتقوى الفرد ويشتد عوده، كل هذه المعاني العظيمة قصدها الإسلام من تشريع الزواج وتكوين الأسرة، وذلك لحماية الأفراد والمجتمعات.

ولم يرد لفظ الأسرة في الاستعمال القرآني، ولكن جذر الكلمة مادة (أ س ر) موجودة في القرآن، والتي تعني: الشد بالقيد[4].

(١) مقاييس اللغة ١/ ١١٦.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ٥١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٧.
(٣) نظام الأسرة في الإسلام ١/ ١٨.
(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأهل:

الأهل لغة:

«الهمزة والهاء واللام أصلان متباعدان، أحدهما الأهل. قال الخليل: أهل الرجل زوجه. والتأهل التزوج. وأهل الرجل: أخص الناس به. وأهل البيت: سكانه. وأهل الإسلام: من يدين به. وجميع الأهل أهلون. والأهالي جماعة الجماعة»[١].

الأهل اصطلاحًا:

من يجمع الفرد وإياهم نسب أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد[٢].

الصلة بين الأسرة والأهل:

أن الأهل أعم من الأسرة؛ حيث يكون من جهة النسب والاختصاص، فمن جهة النسب قولك: أهل الرجل لقرابته الأدنين، ومن جهة الاختصاص قولك: أهل البصيرة وأهل العلم، أما الأسرة فهي رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما، وتشمل الجدود والحفدة، وبعض الأقارب على أن يكونوا مشتركين في معيشة واحدة[٣].

١ العشيرة:

العشيرة لغة:

«العين والشين والراء أصلان صحيحان: أحدهما في عددٍ معلوم ثم يحمل عليه غيره، والآخر يدل على مداخلةٍ ومخالطة»[٤].

العشيرة اصطلاحًا:

اسم لكل جماعة من أقارب الرجل الذين يتكثر بهم[٥].

الصلة بين العشيرة والأسرة:

ذكرنا أن عشيرة الرجل هم من يتكثر بهم من أقاربه، أما الأسرة فهي أخص، حيث تشمل من يشترك معهم الرجل في معيشة واحدة من الزوجة والأبناء والأقارب.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس١/ ١٥٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٩٦.
(٣) انظر: الفروق الغوية، العسكري١/ ٨٤.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس٤/ ٣٢٤.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٦٧.

١ الرهط:

الرهط لغة:

«الراء والهاء والطاء أصلٌ يدل على تجمعٍ في الناس وغيرهم. فالرهط: العصابة من ثلاثةٍ إلى عشرة. وقيل: ما دون السبعة إلى الثلاثة نفرٌ»[١].

الرهط اصطلاحًا:

«الجماعة نحو العشرة، ورهط الرجل: قومه وقبيلته»[٢].

الصلة بين الرهط والأسرة:

الرهط أعم من الأسرة، فهم قوم الرجل وقبيلته الأقربون، أما الأسرة: فهم من يشترك الرجل معهم في معيشة واحدة من الزوجة والأبناء والأقارب[٣].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٦٧، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٧٢.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري١/ ٥٤٨.

مكانة الأسرة ومقاصدها

تبرز مكانة الأسرة من خلال وظائفها والدور الذي تؤديه للأفراد والمجتمعات على حد سواء، فيجد فيها الفرد سكنه وحمايته، وأمنه، وهي تلبي الحاجات الغريزية للزوجين، والحاجات الفطرية للآباء والأمهات والأبناء، فالإنسان يتطلع بفطرته لأن يكون له نسل، والابن يسعى بفطرته إلى أحضان والديه، والأسرة تحافظ على الأنساب، وتساهم بشكل فاعل في تقوية الأواصر بين الناس، وهي منبت للفضائل ومصدر للتربية، وهي في المحصلة اللبنة الأساسية والأولى للمجتمع.

أولًا: مكانة الأسرة:

الفكرة الأساسية التي قامت عليها الأسرة، وهي تلبية نداء فطري غريزي في الإنسان لعبادة الله سبحانه، وأي أسرة كيفما كان شكلها ونوعها إن لم تقم على هذا الأساس فهي أسرة جاهلية، فالأسرة تقوم للمحافظة على الجنس البشري وبقائه، وبناء الأسرة في الإسلام لا يكون من أجل إشباع الغرائز فقط، ولا لأي مطلب من مطالب الدنيا الزائلة، بل يكون من أجل تطبيق الناموس الإلهي في الكون.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

والمعنى: أي جعل لكم من أزواجكم بنين وبنات، تزوجونهم فيحصل بسببهم الأختان والأصهار[(١)].

يقول سيد قطب عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]: «وينبثق نظام الأسرة في الإسلام من معين الفطرة وأصل الخلقة، وقاعدة التكوين الأولى للأحياء جميعًا وللمخلوقات كافة.. تبدو هذه النظرة واضحة في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

ثم تتدرج النظرة الإسلامية للإنسان فتذكر النفس الأولى التي كان منها الزوجان، ثم الذرية، ثم البشرية جميعًا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم تكشف عن جاذبية الفطرة بين الجنسين، لا لتجمع بين مطلق الذكران

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٣١.

ومطلق الإناث، ولكن لتتجه إلى إقامة الأسر والبيوت.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

فهي الفطرة تعمل، وهي الأسرة تلبي هذه الفطرة العميقة في أصل الكون وفي بنية الإنسان، ومن ثم كان نظام الأسرة في الإسلام هو النظام الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني، بل من أصل تكوين الأشياء كلها في الكون على طريقة الإسلام في ربط النظام الذي يقيمه للإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله، ومن بينه هذا الإنسان، والأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها، وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها، وفي ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل، وتنطبع بالطابع الذي يلازمها مدى الحياة وعلى هدية ونوره تتفتح للحياة، وتفسر الحياة، وتتعامل مع الحياة»[(١)].

نخلص مما سبق إلى أن بناء الأسرة في الإسلام لا يكون من أجل إشباع الغرائز فقط، ولا لأي مطلب من مطالب الدنيا الزائلة، بل يكون من أجل تطبيق الناموس الإلهي في هذا الكون، وقد رفض الإسلام أن يمتنع المسلم عن ممارسة ما تقتضيه الفطرة بهدف التعبد.

ويدل على ذلك ما ورد عن أنس بن مالكٍ، رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها!! فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا! وقال آخر: أنا أصوم الدهر، ولا أفطر! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا!! فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له! لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد. وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[(٢)].

ثانيًا: مقاصد الأسرة:

إن ما يدل على عناية الإسلام بتكوين الأسرة وإحكام بنائها، ورعايتها لتحصيل

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٥٠٦٣، ٧/ ٢.

مقصودها ما يلي:

١. حصول العفة للزوجين وإشباع الغريزة في الحلال.

قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

«جعل اللباس كناية عن الزوج؛ لكونه سترًا لنفسه ولزوجه أن يظهر منهما سوء، كما أن اللباس ستر يمنع أن يبدو منه السوأة. وعلى ذلك كنى عن المرأة بالإزار، وسمي النكاح حصنًا؛ لكونه حصنًا لذويه عن تعاطي القبيح»[(١)].

يتبين مما سبق أنه بحصول الزواج وتكون الأسرة يحمي كل من الزوجين صاحبه من الوقوع في الفاحشة، فهو إعفاف للنفس عن الحرام وكبح جماحها حتى لا تورد صاحبها مواد الهلكة.

٢. السكن الفطري للزوجين المبني على المودة والرحمة.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

قال ابن عاشور: «وهي آية تنطوي على عدة آيات منها: أن جعل للإنسان ناموس التناسل، وأن جعل تناسله بالتزاوج ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه ولم يجعلها من صنف آخر؛ لأن التأنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنسًا بين الزوجين، ولم يجعله تزاوجًا عنيفًا، أو مهلكًا كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة»[(٢)].

نفهم مما سبق أن الله سبحانه جعل للرجل والمرأة دورين متكاملين يتمم أحدهما الآخر، ولا يتحقق هذا إلا بالتزام كل من الزوجين بشرع الله تعالى، وهدي نبيه، وذلك بالقيام بواجباتهما.

٣. إقامة البيت المسلم.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجا؛ ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم،

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٧٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٣٢.

ويتنفعون بهم من وجوه كثيرة[1].

٤. التعارف والتعاون بين الناس على البر والتقوى.

شاء الله تعالى أن يخلق الإنسان مدني الطبع، يميل إلى الجماعة ويكره العزلة، وخلق الناس ذكرانًا وإناثًا وجعلهم شعوبًا وقبائل؛ ليتعارفوا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، هذا عن التعارف، أما التعاون فهو واضح؛ إذ تقوم الزوجة ببعض أعباء الحياة ويقوم الرجل بالبعض الآخر، فالزوجة تهيئ للزوج ما يحتاج إليه ويسعده بالإضافة إلى تربية الذرية، والزوج يسعى ويكدح لطلب الرزق الحلال لنفسه ولأهل بيته[2].

٥. ابتغاء النسل الصالح والولد الصالح.

والتناسل هو النتيجة الطبيعية لالتقاء الزوجين الذكر والأنثى، وهو حتمي لاستمرار حياة الكائنات، ويعتبر التناسل أهم ثمرات الزواج، ولقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فقال تعالى: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٧].

يقول سيد قطب عند تفسير الآية: «ابتغوا هذا الذي كتبه الله لكم من المتعة بالنساء، ومن المتعة بالذرية، ثمرة المباشرة، فكلتاهما من أمر الله، ومن المتاع الذي أعطاكم إياه، ومن إباحتها لكم طلبها وابتغاؤها، وهي موصولة بالله فهي من عطاياه، ومن ورائها حكمة، ولها في حسابه غاية، فليست إذن مجرد اندفاع حيواني موصول بالجسد، منفصل عن ذلك الأفق الأعلى الذي يتجه إليه كل نشاط، بهذا ترتبط المباشرة بين الزوجين بغاية أكبر منهما، وأفق أرفع من الأرض ومن لحظة اللذة بينهما، وبهذا تنظف هذه العلاقة وترق وترقى.. ومن مراجعة مثل هذه الإيحاءات في التوجيه القرآني وفي التصور الإسلامي ندرك قيمة الجهد المثمر الحكيم الذي يبذل لترقية هذه البشرية وتطويرها، في حدود

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٤.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٨٠٢.

فطرتها وطاقتها وطبيعة تكوينها»[1].

يتضح مما سبق أن الغاية من بناء الأسرة إنجاب النسل الصالح، وحصول السكن النفسي بين الزوجين، وانسجام أفراد الأسرة في ظلال شرع الله الخالد، وبقدر ترابط الأسر يقوى تماسك المجتمع ويشتد.

الحقوق والواجبات الأسرية

إن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست علاقة غريزية فحسب، بل هي علاقة شراكة بالروح والجسد، ومثل هذه العلاقة المقدسة تظهر ثمرتها على الأولاد، فما أجمل أن تسود علاقتهما المحبة والاحترام والتفاهم، المنبثقة من شرع الله سبحانه .

أولًا: حقوق الوالدين وواجباتهم:

إن أقوى رباط في الأسرة هو رباط الولد بأبويه، المتمثل بالإحسان إليهما، لذلك قرن الله سبحانه الإحسان إليهما بعبادته سبحانه، وعدم الشرك به في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الأنعام: ١٥١].

يقول سيد قطب: «بهذه العبارات الندية، والصور الموحية، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء، ذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء، توجه اهتمامهم القوي إلى الأمام، إلى الذرية. إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل. وقلما توجه اهتمامهم

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٧٤.

إلى الوراء، إلى الأبوة، إلى الحياة المولية، إلى الجيل الذاهب! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة؛ لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات، إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين، فإذا هما شيخوخة فانية -إن أمهلهما الأجل-، وهما مع ذلك سعيدان! فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام، إلى الزوجات والذرية.. وهكذا تندفع الحياة، ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء، إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة؛ ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف! وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله»[1].

كما بين القرآن حقوق الآباء على الأبناء، وقد تمثل ذلك جليًا في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

ومعنى الإحسان إلى الأبوين أن تبلغ أقصى درجات الوفاء لهما في البر والمكافأة، وأن تزيد في المعاملة الحسنة، عما كان يكون منهما؛ احتياطًا للرعاية والشفقة فإذا بلغ الوالدان أو أحدهما سن الكبر، وصارا عندك في آخر العمر بحال من الضعف والعجز، كما كنت عندهما في بدء حياتك، فعليك اتباع الواجبات الخمسة التالية:

١. ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾: أي: لا تسمعهما قولًا سيئًا فيه أدنى تبرم، حتى ولا التأفف، وهو التضجر والتألم الذي هو أدنى مراتب القول السيء، وذلك في أي حال، ولا سيما حال الضعف والكبر والعجز عن الكسب؛ لأن الحاجة إلى الإحسان حينئذ أشد وأولى وألزم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة)[2].

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢٢١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة،

٢. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح.

٣. ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: وقل لهما قولًا لينًا طيبًا حسنًا مقرونًا بالتوقير والتعظيم والحياء والأدب الجم.

٤. ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بفعلك، والتواضع ينبغي أن يكون رحمةً بهما، وشفقةً عليهما، لا لأجل امتثال الأمر وخوف العار والنقد فقط.

٥. ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾: أي: اطلب لهما الرحمة من الله في حال كبرهما وعند وفاتهما، وخصها بالذكر؛ ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما[1].

ثانيًا: حقوق الزوج وواجباته:

نظم الإسلام الحنيف العلاقة بين الزوجين بما يكفل دوام العشرة الزوجية، ويحقق سعادة الطرفين، ويرعى الأسرة في بدايتها، وأثناء وجودها، وبعد انتهاء الرابطة الزوجية:

أولًا: حقوق الزوج:

١. الحفاظ على النسب، وحقه في نسبة الولد إليه.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

لا يحل للمرأة أن تكتم شيئًا مما في رحمها من حمل أو حيض إن كانت مؤمنةً بالله واليوم الآخر إيمانًا صادقًا، فإذا انتهت الزوجية وجب على المرأة شرعًا ما يسمى بالعدة، وعدة الطلاق ثلاث حيضات، وعدة الحامل بوضع الحمل، وعدة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام، وذلك تقديرًا لنعمة الزواج، وإظهارًا للأسى والحزن على الفراق، وللتعرف على براءة الرحم من الولد، حتى لا تختلط الأنساب[2].

٢. القوامة في الأسرة.

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

فالزوج هو المسئول في نظام الإسلام عن النفقة عليها، ومسئوليته عن النفقة على أسرته تجعله أكثر تحفظًا واحترازًا من الاستجابة السريعة للشهوات العابرة، والانفعالات الحادة المصحوبة بالرعونة والطيش، وليس في هذا إهمال للمرأة، أو إنقاص من أهليتها، أو الطعن في كفايتها

باب رغم أنفه من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر، رقم ٢٥٥١، ٤/ ١٩٧٨.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٥٦.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ١٤٣.

وعقلها وعلمها، بل إن الإسلام في هذا أراد صون المرأة، والحفاظ على كرامتها، وعدم تعريضها للأذى والسوء، والقوامة ليست استبدادًا أو تعسفًا أو تسلطًا وترفعًا، وإنما هي تكليف بالإدارة والرعاية والولاية والنفقة، وهذا التكليف عبء على الرجال أكثر من النساء[1].

٣. ألا تكون ناشزًا خارجة عن طاعته.

ما لم يأمرها الزوج بما فيه معصية لله، أو هضم لحقوقها التي شرفها الله بها، وقد أرشد الإسلام إلى استخدام وسائل التربية والتأديب الحكيمة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

كما بين النبي صلى الله عليه وسلم حقوق الرجل على زوجته في العديد من الأحاديث، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير النساء: التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها)[2].

وهؤلاء ليس لكم عليهن إلا المعاشرة بالمعروف، والمخالطة بالحسنى والآداب الإسلامية[3].

ثانيًا: واجبات الزوج:

١. الإنفاق على المرأة.

دفع المهر وتوفير الكفاية لها من مسكن وملبس ومطعم ومشرب ومداواة ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

أي: فضلوا على النساء بما أنفقوا من أموالهم عليهن من المهر والنفقة[4].

٢. حسن العشرة.

قال تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

أي: خالقوا أيها الرجال نساءكم، وصاحبوهن بما أمرتكم به من المصاحبة، وذلك: إمساكهن بأداء حقوقهن التي فرض الله -جل ثناؤه- لهن عليكم إليهن[5]، وتتضمن هذه الحقوق أن يتزين لزوجته مثلما تتزين له، وأن يداعبها ويمازحها، وأن لا يزهد فيها بهجر مضجعها تبتلًا أو بدون سبب شرعي، وأن يحافظ على دينها بتوجيهها إلى السلوك السليم.

٣. العدل بين الزوجات.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ١٢٢.
(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، ٤/ ٨٦، رقم ٢٤٤٤.
(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ٣٧٠.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣٨١.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٢١.

من حق الزوجة العدل بينها وبين غيرها من زوجاته.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

فقد أخبر الله تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء؛ وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾.

أي: لا تميلوا ميلًا كثيرًا بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل. فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب والوطء ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للتزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها[(١)].

ثالثًا: حقوق الزوجة وواجباتها:

كانت المرأة قبل الإسلام مهضومة الحق، فقرر لها الله تعالى حقوقًا في شئون الزواج، ونهى عن الاعتداء عليها، وأوجب عليها العديد من الواجبات:

أولًا: حقوق الزوجة:

١. تحريم التحكم في ميراث المرأة وتحريم وراثتها كالمتاع.

ليست المرأة متاعًا يورث، فلا تورث زوجة المتوفى، ولا يحل لكم أيها المؤمنون تقليد أهل الجاهلية، فترثون المرأة كما ترثون الأموال والأمتعة، وتتصرفون فيها كما تشاءون، وهن كارهات لذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩].

أي: لا يحل لكم أيها الذين آمنوا بالله ورسوله أن تسيروا على سنة الجاهلية في هضم حقوق النساء فتجعلوهن ميراثًا لكم كالأموال والعبيد، وتتصرفوا فيهن كما تشاءون، وهن كارهات لذلك، فإن شاء أحدكم تزوج امرأة من يموت من أقاربه، وإن شاء زوجها غيره، وإن شاء أمسكها ومنعها الزواج[(٢)].

٢. الزواج وعدم منعها منه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩].

أي: منعها من الزواج والتضييق عليها حتى تفتدي نفسها منكم بالمال من ميراث

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٧.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٢١٢.

أو صداق ونحو ذلك، ثم استثنى الله تعالى حالة واحدة يجوز فيها العضل -أي: الحبس والتضييق-، وهي حالة إتيان الفاحشة المبينة كالزنى والسرقة والنشوز عن الطاعة، ونحو ذلك من الأمور الممقوتة شرعًا وعرفًا[1].

٣. المعاشرة بالمعروف.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

قال السعدي: «وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة، وكف الأذى وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال»[2].

٤. حق المرأة في كامل المهر.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

أي: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأته ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذن من الصداق الذي أعطاها إياه شيئًا، ولو كان قنطارًا من مال[3].

ثانيًا: واجبات الزوجة:

١. وجوب طاعة الزوج.

قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

قال ابن كثير: «أي: في الفضيلة في الخلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة»[4].

٢. تمكين الزوج من الاستمتاع بها.

قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

أي: لهن من حقوق الزوجية على الرجال بمثل ما للرجال عليهن، فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم، وهي: كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهن يفعلنه؛ لأزواجهن من طاعة، وتزين، وتحبب، ونحو ذلك[5].

ومما يؤكد ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٠٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٧٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٤٣.
(٤) المصدر السابق ١/ ٦١٠.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٦.

حتى تصبح)[1].

رابعًا: حقوق الأبناء وواجباتهم:

اهتم الإسلام بتربية الأبناء اهتمامًا كبيرًا، وجعل على الآباء لأبنائهم حقوقًا، كما جعل للآباء على أبنائهم حقوقًا، وهذه الحقوق هي:

أولًا: حقوق الأبناء:

١. اختيار الأم الصالحة.

ينبغي أن يختار الأب لأبنائه أمًا صالحة تقوم على تربية أبنائه تربية صحيحة، بحيث يكون هؤلاء الأبناء قادرين عل حمل أمانة الإسلام، والوصول بها إلى غايتها، والدفاع عنها. قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾[البقرة: ٢٢١].

قال الطبري: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، خيرٌ عند الله وأفضل من حرة مشركة كافرة، وإن شرف نسبها وكرم أصلها. يقول: ولا تبتغوا المناكح في ذوات الشرف من أهل الشرك بالله، فإن الإماء المسلمات عند الله خير منكحًا منهن»[2].

٢. الحضانة والتربية.

فهي أمر له شأن عظيم، وأثر كبير في حياة الطفل، ولذا جعله الله عز وجل من أعظم حقوق الأبناء على الآباء، وهو حق واجب في ذمة الأبوين معًا، وتقوم به الأم بالدرجة الأولى.

قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[البقرة: ٢٣٣].

قال الزحيلي: «على جميع الوالدات مطلقات أو غير مطلقات أن يرضعن أولادهن مدة سنتين كاملتين دون زيادة عليهما، إذا أريد إتمام المدة، ولا مانع من نقص ذلك إذا رئيت المصلحة فيه، والأمر متروك للاجتهاد والتقدير»[3].

ومما يؤكد على وجوب تربية الأبناء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦].

والمعنى: «احفظوا أهليكم منها بأن تأمروهن بالمعروف وتنهوهن عن المنكر، وتعلموهن الخير وأوامر الشرع وتؤدبوهن بأدب القرآن، والأهل: هم الزوجة والأولاد والخدم ومن هم في حوزتك ومعيشتك»[4].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: ١٣٢].

قال القرطبي: «أمره تعالى بأن يأمر أهله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها، رقم ٤٨٩٧، ٥/ ١٨٩٣.
(٢) جامع البيان ٤/ ٣٦٨.
(٣) التفسير المنير ٢/ ٣٥٩.
(٤) التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ٧٠٥.

بالصلاة ويمتثلها معهم، ويصطبر عليها ويلازمها: وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل في عمومه جميع أمته، وأهل بيته على التخصيص»[1].

٣. النفقة والواجبات المالية.

النفقة واجبة على الأب لأبنائه ذكورًا كانوا أو إناثًا ما داموا في كفالته، وذلك حتى لا يتركهم يتعرضون للضياع والانحراف، وذلك بتوفير كل ما يحتاجون إليه عادةً من غذاء وكساء ودواء ومأوى.

قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٧].

قال القرطبي: «أي: لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وسعه حتى يوسع عليهما إذا كان موسعا عليه. ومن كان فقيرًا فعلى قدر ذلك، فتقدر النفقة بحسب الحالة من المنفق والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى حياة العادة»[2].

كما أكد ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول)[3].

٤. اختيار الاسم الحسن للمولود.

يجب على الوالدين اختيار الاسم الحسن لمولودهما.

قال تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

وفي هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسماء الجميلة جديرة بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية؛ لكونها أنبه وأنزه عن النبز[4].

٥. العدل بين الأولاد.

تفضيل بعض الأبناء على بعض يؤدي إلى إثارة الحقد والحسد والبغض؛ مما يضر بالترابط الأسري، الذي صانه الإسلام، وحافظ عليه بكل السبل. وقد أمر الله سبحانه بالعدل في كل الأمور ومن باب أولى العدل بين الأبناء.

قال تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى[5].

ثانيًا: واجبات الأبناء:

سبق وأن ذكرنا حقوق الآباء على الأبناء عند الحديث عن حقوق الوالدين، من حيث طاعتهما وبرهما والإحسان إليهما، وتجنب عقوقهما، وغير ذلك من الواجبات.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٦٣.
(٢) المصدر السابق ١٨/ ١٧١.
(٣) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب إثم من ضيع عياله، ٨/ ٢٦٨، رقم ٩١٣١، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، رقم ٨٥٢٦، ٤/ ٥٤٥.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٨٣.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢٤.

مشكلات الأسرة وعلاجها

إن الأسرة التي تسير في حياتها وسلوكها وفق منهج الله سبحانه هي أسرة سعيدة مهما قلت ذات يدها، وهي أبعد ما تكون عن الخلاف بين الزوجين، ولكن الالتزام المطلق بكل هذا المنهج، ربما لا يتيسر في بعض الأسر أو لدى بعض الأشخاص في بعض الظروف والأحوال، فإذا نشأ الخلاف بينهما فإن الإسلام وضع منهجًا محددًا واضحًا، إذا ما طبقه الزوجان على هذا الخلاف تلاشى -بإذن الله- وزال أثره، وعادت الحياة الزوجية بينهما إلى سابق عهدها من الوفاق والألفة:

أولًا: مشكلات الوالدين:

من أهم المشكلات التي تقع بين الزوجين، أن يختار الزوج المسلم شريكة حياته من ليس على دينه وملته، فيكون ذلك وبالًا على الأولاد الذين يتربون في أحضان أمٍ لا تعرف شرع الله سبحانه، فيقع الأب في مشكلات قد تودي بالأسرة إلى الدمار والهلاك، لذلك رغب الإسلام في نكاح المؤمنة التي تحفظ على زوجها دينه وأبناءه.

قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

أجاز الشرع زواج المسلم بالكتابية، ولم يجز زواج المسلمة بالكتابي؛ لأمر واضح وهو أن الكتابية لها أن تبقى على دينها بزواجها بمسلم ولا تتضرر فيما تدين به، ولأن المسلم يؤمن بدينه المتضمن الإقرار بأصول الأديان الأخرى، ومنها الدين اليهودي والدين النصراني في أصوله الأولى التي تتفق مع الإسلام في الدعوة إلى التوحيد والفضائل الإنسانية، فهي مع المسلم في دائرة متسعة تسع دينها وغيره، وربما إذا لمست روح التسامح وحسن المعاملة من زوجها عاشت سعيدة هانئة معه دون تضرر، وبما أن للرجل عادة سلطة القوامة على المرأة، وهي أقوى من سلطة المرأة، فلو تزوج الكتابي المسلمة أمكن التأثير عليها، فربما تركت دينها، وتضررت غالبًا بمعاشرة زوجها؛ لعدم توافر الانسجام والوئام الروحي والحسي، والكتابي لا يؤمن بالإسلام، فتكون معه في دائرة ضيقة الأفق، وهي متسعة الاعتقاد، والإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فعزة المسلمة تأبى عليها أن تكون زوجة لكتابي، هذا ما عليه جمهور العلماء، مع القول بأن زواج المسلم بالكتابية مكروه[1].

وذكر الزحيلي في ختام حديثه عن نكاح الكتابيات كلامًا جميلًا، يؤكد الواقع

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٢٩٣.

الذي نعيش فيه ويعمل على معالجة ما يقبل الشباب المسلم على الافتتان به، وأخيرًا يمكن القول: إن إباحة زواج المسلم بالكتابية هو في الواقع حالة استثنائية، وليست أصلًا، ولذا فإنا نشجب إقبال الشبان على الزواج بالأجنبيات؛ افتتانًا بالجمال الأشقر، واستسهالًا للزواج، لكونه بغير مهر يذكر؛ لأن تلك الزوجات تفسد على الرجل غالبًا دينه ووطنيته، وتعزله عن انتمائه لبلاده وقومه، وتربي الأولاد على هواها ودينها، فضلًا عن نظرة الاستعلاء والفوقية عندها، واحتقار العرب والمسلمين، وقد تقتل الزوج، وقد تأخذ الأولاد إلى بلادها وتترك الزوج، وقليل جدا منهن من أسلم، فلا مطمع فيهن.

وأما زواج المسلمة بغير المسلم فهو أشد وأنكى؛ إذ الزواج باطل حرام بإجماع المسلمين، والأولاد أولاد زنا، والعلاقة القائمة بينها وبين الرجل لا تجيز الاستمتاع وإن طال الأمد؛ لبطلانها أصلا، فإن استحلت المرأة ذلك فهي مرتدة كافرة[1].

ثانيًا: مشكلات الزوجين:

أولًا: الظهار:

الظهار: قول الرجل لامرأته: أنتِ علي كظهر أمي[2].

والظهار من المشكلات التي قد تقع بين الزوجين، وقد أوجد القرآن الكريم الحلول لهذه المشكلة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٣-٤].

وهذا هو المجمع عليه عند العلماء في الظهار قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفر كفارة الظهار التي أوجبها الله على المظاهر بعتق رقبة، فإذا لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا، يعطي كل مسكين مدًا من غالب قوت أهل البلد، وهذه الكفارة لها وقعها في نفوس المحتاجين[3].

وبهذا يعالج القرآن مشكلة اجتماعية طالما أفسدت على الأسر حياتهم.

ثانيًا: الإيلاء:

الإيلاء: حلف على ترك قربان المرأة

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٢٩٦.

(٢) انظر: أنيس الفقهاء، قاسم القونوي ١/ ٥٧.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٨٠.

مدته[1].

وقد تحدث القرآن عن الإيلاء، فقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦ - ٢٢٧].

يقول سيد قطب في سياق تفسير الآية: «إن هناك حالات نفسية واقعة، تلم بنفوس بعض الأزواج، بسبب من الأسباب في أثناء الحياة الزوجية وملابساتها الواقعية الكثيرة، تدفعهم إلى الإيلاء بعدم المباشرة، وفي هذا الهجران ما فيه من إيذاء لنفس الزوجة ومن إضرار بها نفسيًا وعصبيًا ومن إهدار لكرامتها كأنثى، ومن تعطيل للحياة الزوجية ومن جفوة تمزق أوصال العشرة، وتحطم بنيان الأسرة حين تطول عن أمد معقول.

ولم يعمد الإسلام إلى تحريم هذا الإيلاء منذ البداية؛ لأنه قد يكون علاجًا نافعًا في بعض الحالات للزوجة الشامسة المستكبرة المختالة بفتنتها وقدرتها على إغراء الرجل وإذلاله أو إعناته، كما قد يكون فرصة للتنفيس عن عارض سأم، أو ثورة غضب، تعود بعده الحياة أنشط وأقوى.. ولكنه لم يترك الرجل مطلق الإرادة كذلك؛ لأنه قد يكون باغيًا في بعض الحالات يريد إعنات المرأة وإذلالها أو يريد إيذاءها لتبقى معلقة، لا تستمتع بحياة زوجية معه، ولا تنطلق من عقالها هذا لتجد حياة زوجية أخرى.

فتوفيقًا بين الاحتمالات المتعددة، ومواجهة للملابسات الواقعية في الحياة، جعل هنالك حدًا أقصى للإيلاء لا يتجاوز أربعة أشهر، وهذا التحديد قد يكون منظورًا فيه إلى أقصى مدى الاحتمال؛ كي لا تفسد نفس المرأة، فتتطلع تحت ضغط حاجتها الفطرية إلى غير رجلها الهاجر، وعلى أية حال فإن الطبائع تختلف في مثل هذه الأمور، ولكن أربعة أشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه ومشاعره. فإما أن يفيء ويعود إلى استئناف حياة زوجية صحيحة، ويرجع إلى زوجه وعشه، وإما أن يظل في نفرته وعدم قابليته، وفي هذه الحالة ينبغي أن تفك هذه العقدة، وأن ترد إلى الزوجة حريتها بالطلاق»[2].

يتبين مما سبق أن الله سبحانه رحيم بأمته، حيث أوجد الحلول لكل مشكلة تحاول أن تعصف بالأسرة، ومشكلة الإيلاء من المشكلات التي عالجها القرآن الكريم، وأوجد الحلول لها حتى يعيش المجتمع في استقرار وأمان.

ثالثًا: الطلاق:

الطلاق: إزالة عقد النكاح[3].

(١) انظر: أنيس الفقهاء، قاسم القونوي ١/ ٥٦.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٤٥.

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، موقع يعسوب

وقد عرض القرآن الكريم في بعض سوره للحديث عن هذه المشكلة التي قد تواجه كثيرًا من الأسر، بل سمى سورة من سور القرآن باسم سورة الطلاق، وحذر منه، وأوجد العلاج الناجع للتعامل مع كل حالة من حالاته، حتى تبقى الأسرة المسلمة في أمن وأمان، ويأخذ كل صاحب حق حقه، وبالتالي يعيش المجتمع المسلم سليمًا بعيدًا عن الفوضى والاضطراب، وقد بين المفسرون أحكام الطلاق عند حديثهم عن الآيات التي تتناول ذلك، ومن هؤلاء الشوكاني الذي يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[البقرة: ٢٣٦-٢٣٧].

«واعلم أن المطلقات أربع: مطلقة مدخول بها مفروض لها، وهي التي تقدم ذكرها قبل هذه الآية: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وفيها نهى الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهن شيئًا، وأن عدتهن ثلاثة قروء، ومطلقة غير مفروض لها، ولا مدخول بها، وهي المذكورة هنا، فلا مهر لها، بل المتعة، وبين في سورة الأحزاب أن غير المدخول بها إذا طلقت فلا عدة عليها، ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾[الأحزاب: ٤٩].

ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها وهي المذكورة بقوله سبحانه هنا: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]»[(١)].

رابعًا: النشوز:

النشوز: ترك المرأة بيت الزوجية من غير مبرر مشروع[(٢)].

سبق وأن تم الحديث عن نشوز المرأة، وعلاج هذا النشوز، كما بينه قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

أما من ناحية نشوز الرجل فقد عالج القرآن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ

(١) فتح القدير ١/ ٣٣٩.
(٢) انظر: أنيس الفقهاء، قاسم القونوي ١/ ٤٨٠.

١/ ٢٩١.

مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨].

يقول سيد قطب: «فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة وأن تؤدي هذه الجفوة إلى الطلاق - وهو أبغض الحلال إلى الله - أو إلى الإعراض، الذي يتركها كالمعلقة، لا هي زوجة ولا هي مطلقة، فليس هنالك حرج عليها ولا على زوجها، أن تتنازل له عن شيء من فرائضها المالية أو فرائضها الحيوية، كأن تترك له جزءًا أو كلًا من نفقتها الواجبة عليه، أو أن تترك له قسمتها وليلتها، إن كانت له زوجة أخرى يؤثرها، وكانت هي قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها هذا كله إذا رأت هي-بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها- أن ذلك خير لها وأكرم من طلاقها... ثم يعقب على الحكم بأن الصلح إطلاقًا خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ فينسم على القلوب التي دبت فيها الجفوة والجفاف، نسمة من الندي والإيناس، والرغبة في إبقاء الصلة الزوجية والرابطة العائلية»[1].

يتبين مما سبق أن القرآن الكريم ذكر علاجًا ناجعًا في حال أحد الزوجين، وهذا العلاج الناجع الذي ذكره القرآن الكريم؛ ليزيد الأسرة قوةً وارتباطًا، ويهيئ الحياة الكريمة السعيدة داخل الأسرة بعيدًا عن المشاحنات.

خامسًا: قذف الزوجة:

القذف: الرمي بالزنا خاصة، صراحةً أو ضمنًا[2].

إن قذف الزوجة يختلف عن قذف الأجنبية، حيث إن ضرر القذف لا ينحصر في المقذوفة فقط بل يقع على القاذف، وهو الزوج من حيث الفضيحة التي تطاله، وصحة نسبة أبنائه إليه؛ لذا فإن الزوج غالبًا لا يقذف زوجته إلا صادقًا، ولهذا وضع القرآن الكريم الحلول لمثل هذه المشكلة.

فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٦-١٠].

فهذه الآية الكريمة فيها الفرج والمخرج للأزواج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة؛ أن يلاعنها، كما أمر الله عز وجل، وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦٨.

(٢) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس حامد قنيبي ١/ ٣٥٩.

أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء، ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما رماها به من الزنى ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبدًا، ويعطيها مهرها، ويتوجه عليها حد الزنى، ولا يدرأ عنها العذاب إلا إن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي: فيما رماها به، ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ولهذا قال: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: الحد، ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنى إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها. والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه.

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه، ورأفته بهم، وشرعه لهم الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق[1].

سادسًا: الشقاق:

الشقاق: أن ينال الفرد من صاحبه ما كربه وآذاه وأثقلته مساءته[2].

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

والمعنى: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل منهما في شق ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ أي: رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق.

فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، قنعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه.

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعاداة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح؛ فرقا بينهما[3].

يتبين مما سبق رأفة الله سبحانه بعباده، ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج، ومن شدة ما يكون بهم من الضيق، ومن وقوع هذه المشكلة التي لا علاج لها سوى ما ذكره الله تعالى من

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٦٠٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٧٧.

الأحكام التي سبق ذكرها.

ثانيًا: مشكلات الأبناء:

يعتبر استقرار الأسرة من أقوى دعائم تربية الأولاد تربية صالحة، والعمود الفقري في ذلك قوة العلاقة بين الزوجين والاحترام المتبادل بينهما حقيقةً لا تكلفًا، وما قد يحدث بينهما من مشكلات أو اختلاف يجب ألا يكون أمام الأبناء بل في معزل عنهم، ويجب على كل واحد منهم أن يعظم قدر الآخر في نظر الأولاد ويحافظ على هيبته ومكانته، ومن هذه المشكلات ما يلي:

١. عقوق الوالدين.

تمثل ذلك في قصة الابن العاق الذي ورد في القرآن متمردًا ورافضًا ما يدعوه إليه والداه من الخير والإيمان، مصرًا على الكفر والانحراف.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

يقول سيد قطب: «فالوالدان مؤمنان، والولد العاق يجحد برهما أول ما يجحد فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾... ثم يجحد الآخرة بالحجة الواهية: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾.. أي: ذهبوا ولم يعد منهم أحد.. والساعة مقدرة إلى أجلها، والبعث جملة بعد انتهاء أجل الحياة الدنيا، ولم يقل أحد إنه تجزئة، يبعث جيل مضى في عهد جيل يأتي، فليست لعبةً وليست عبثًا، إنما هو الحساب الختامي للرحلة كلها بعد انتهائها! والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر، ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما، ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول ويهتفان به: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.. ويبدو في حكاية قولهما الفزع من هول ما يسمعان، بينما هو يصر على كفره، ويلج في جحوده: ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.. هنا يعاجله الله بمصيره المحتوم»[1].

وقد ظهر ذلك أيضًا من موقف ابن سيدنا نوح عليه السلام مع أبيه حيث رفض الاستجابة له، والالتحاق بهم في السفينة، والانصياع لدين الله سبحانه فكان عاقبته الموت غرقًا.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٦٣.

وهكذا يفرق الضلال بين الابن وأبيه، حتى ليأبى الولد وهو بين يدي هذا البلاء المحيط به أن يستجيب لأبيه، وأن يستمع له، فيخرج عن أمره، وهو يدعوه إلى ما فيه سلامته ونجاته، وهكذا يوفى كل من الأب والابن جزاء ما كسب، فينجو الأب بإيمانه، ويهلك الابن الكافر بكفره[1].

٢. الغيرة والحسد بين الأبناء.

العدل بين الأبناء مهم جدًا لاستقرار الحياة داخل الأسرة، وقد أظهر القرآن الكريم أن الغيرة بين الأبناء قد تؤدي إلى أن يفكر بعض الأبناء في إيذاء أو قتل بعضهم البعض بسبب ذلك، ونفهم ذلك من القصص الواردة في القرآن، التي تعرض لمثل هذه الحوادث، ومن ذلك ما حصل بين قابيل وهابيل.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

قال الزحيلي: «أورد الله تعالى هذه القصة لبيان تأثير الحسد والحقد وحب الذات، وأن ذلك يؤدي إلى المخاطر والمهالك والقبائح، فقضى على رابطة الأخوة التي تجمع بين الأخوين، وأدى إلى سفك الدماء»[2].

ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٧-٩].

والمعنى: أن هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم؛ ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدامه قومًا صالحين[3].

٣. سرعة الغضب وعدم التحكم في الأقوال والأفعال.

من المشكلات التي يقع فيها الأبناء، هي سرعة الغضب وعدم التحكم في الاقوال والأفعال، وقد حذر القرآن الكريم الأبناء من الوقوع في هذه المشكلة؛ لأنها تؤدي إلى إيذاء الآخرين وتوقعهم فيما لا تحمد عقباه، وخصوصًا سخط الله سبحانه وكذلك سخط الآباء.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب٦/ ١١٤١.

(٢) التفسير المنير ٦/ ١٥٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٢.

والمعنى: لا تؤفف من شيء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس، ولكن اصبر على ذلك منهما، واحتسب في الأجر صبرك عليه منهما، كما صبرا عليك في صغرك[(١)].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ [الأحقاف: ١٧].

أي: قال لأبويه حينما دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر: أف لكما، أي: أتضجر وأتبرم مما تقولانه، أأنتما تخبرانني أنني سأبعث من قبري بعد الموت لموعد الله؟ إن هذا البعث بعد الموت المستبعد مستنكر، فقد مضت الأمم السابقة الكثيرة من قبلي، كعاد وثمود، ماتوا ولم يبعث منهم أحد، وذهبوا ولم يرجع منهم مخبر[(٢)].

٤. التلفظ بالألفاظ النابية مع الآخرين.

حذر القرآن الكريم المسلمين من استخدام الألفاظ النابية، التي تثير الحقد وتدفع إلى الكراهية، وبالتالي لابد للمسلم أن يربي أبناءه على اجتناب مثل هذه الألفاظ، حتى يكون أبناؤه مثالًا يقتدى في الأخلاق الحميدة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[الحجرات: ١١].

بين القرآن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن، فذكر أنه لا ينبغي أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز، ولا أن يلقبه باللقب الذي يتأذى منه؛ لأن ذلك من الأمور التي تؤدي إلى ضياع الأمة وتفشي الظلم والكراهية فيها[(٣)].

هذا وقد بين القرآن الكريم أهمية خفض الصوت أثناء الحديث مع الآخرين في الحديث عن وصايا لقمان لابنه قال تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

قال سيد قطب: «والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته، وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيء الأدب، أو شاك في قيمة قوله، أو قيمة شخصه يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق! والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبحه في صورة منفرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.. فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية، مع النفور والبشاعة»[(٤)].

٥. الصحبة السيئة.

قد يقع بعض الأبناء في سوء اختيار الصديق، مما يؤدي إلى تأثيرات سلبية على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤١٥.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ٤٣.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٦/ ١٣٣.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٠.

هذا الابن وعلى أسرته من حوله، حيث إنه يتعلم من هذه الصحبة السيئة أمورًا تؤدي إلى انحراف سلوكه في المجتمع وداخل الأسرة انحرافًا كبيرًا، فيتفشى لديه الكذب، وقد يتعاطى المخدرات، وبالتالي يهمل في دروسه، الأمر الذي يؤدي به إلى السرقة، أو القتل، فتكون نهايته وخيمة في الدنيا والآخرة، لذا يجب على الوالدين متابعة أبنائهم في ذهابهم وإيابهم، ومعرفة من يتقرب إليهم ويحيط بهم، ومساءلتهم عند التقصير، وقد حذرنا القرآن الكريم من رفقاء السوء، فقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

يقول سيد قطب: «وإن عداء الأخلاء لينبع من معين ودادهم.. لقد كانوا في الحياة الدنيا يجتمعون على الشر، ويملي بعضهم لبعض في الضلال، فاليوم يتلاومون، واليوم يلقي بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر. واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون، من حيث كانوا أخلاء يتناجون! ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.. فهؤلاء مودتهم باقية فقد كان اجتماعهم على الهدى، وتناصحهم على الخير، وعاقبتهم إلى النجاة»[1].

٦. الطمع في ملذات الحياة الدنيا.

قد يتربى الأبناء على الاهتمام بتحصيل ما يستطيعون من ملذات الحياة والانشغال عن حقوق الله سبحانه ، وقد تناول القرآن بيان ذلك عند حديثه عن أصحاب الجنة، التي طمع أصحابها في ثمر جنتهم، واتفقوا على عدم إعطاء الفقراء منه، كما كان يفعل والدهم فأحرق الله لهم جنتهم عقابًا لهم على ما فعلوه، فتابوا إلى الله سبحانه، ورجعوا نادمين على فعلتهم[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧-٢٠].

يتبين مما سبق أن الأبناء قد يقعون في مثل هذه المشكلات، بل أكثر من ذلك إذا وجدت الأرض الخصبة لذلك، لذا لابد من الوالدين القيام بواجباتهم تجاه أبنائهم على أكمل وجه، حتى يكونوا صالحين نافعين لهم ولوطنهم، وقد ذكر القرآن في موضعين أن الأولاد كالأموال فتنة يجب الحذر منها وإعدادها إعدادًا سليمًا لتكون عنصر بناءٍ لا عنصر هدم في مجتمعها، وحتى لا تكون وبالًا وخسارًا على نفسها ومن حولها.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

يقول أبو حيان عند تفسيره للآية: «أي:

(١) المصدر السابق ٥/ ٣٢٠١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩٦.

سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب أو محنة واختبار لكم، وكيف تحافظون على حدوده فيها، ففي كون الأجر العظيم عنده إشارة إلى أن لا يفتن المرء بماله وولده، فيؤثر محبته لهما على ما عند الله، فيجمع المال ويحب الولد حتى يؤثر ذلك»[1].

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٠٨.

الأسرة في القرآن والمواثيق الدولية

إن مما لاشك فيه أن الوضع الفطري الطبيعي بالنسبة للرجل أن تكون له زوجة يرتبط بها برباط وثيق يجمعهما، ويتعاونان من خلاله على إنشاء أسرة متماسكة قوية البنيان؛ لإنجاب النسل الصالح الذي يرفد المجتمع بأفراد صالحين، يرثون عن سلفهم مسئوليات المجتمع، لكن هناك من انحرف عن جادة الصواب وخالف الفطرة الإنسانية، وشذ عن الطبيعة التي فطر الله سبحانه الناس عليها، فابتلاهم الله سبحانه بالأمراض والأوبئة التي لم تكن في أسلافهم.

أولًا: الأسرة في القرآن:

الأسرة في نظر القرآن كيان مقدس، وهي اللبنة الصالحة الأساسية في بناء المجتمع الإنساني السليم، ولهذا أولى القرآن بناءها عناية خاصة، وأحاط إنشاءها بأحكام وآداب تكفل أن يكون البناء متماسكًا قويًا، يحقق الغاية الكبرى من وجوده، وجعل الزواج ميثاقًا محكمًا تأخذه المرأة على زوجها.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

قال الطبري: «وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك، قول من قال: الميثاق الذي عني به في هذه الآية: هو ما أخذ للمرأة على زوجها

عند عقدة النكاح من عهدٍ على إمساكها بمعروف أو تسريحها بإحسان، فأقر به الرجل؛ لأن الله -جل ثناؤه- بذلك أوصى الرجال في نسائهم»[1].

وقال الشعراوي عند تفسيره للآية: «والميثاق هو: العهد يؤخذ بين اثنين، ساعة سألت وليها: زوجني، فقال لك: زوجتك، ومفهوم أن كلمة الزواج هذه ستعطي أسرة جديدة، وكل ميثاق بين خلق وخلق في غير العرض هو ميثاق عادي، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التي يتزوجها؛ فهذا هو الميثاق الغليظ، أي: غير اللين، والله لم يصف به إلا ميثاق النبيين فوصفه بأنه غليظ، ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ، ففي هذه الآية ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فهنا إفضاء، وفي آية أخرى يكون كل من الزوجين لباسًا وسترًا للآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ لهذا كان الميثاق غليظًا.

وهذا الميثاق الغليظ يحتم عليك إن تعثرت العشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف، وإن تعذرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها، فإن كنت قد أعطيتها قنطارًا إياك أن تأخذ منه شيئًا، لماذا؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء، وما دام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقد تم، فلا تأخذ منه شيئًا، فالإفضاء ليس شائعًا في الزمن كي توزعه، لا والحق يقول: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ هنا يجب أن نفهم أن الحق حين يشرع فهو يشرع الحقوق، ولكنه لا يمنع الفضل، بدليل أنه قال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]»[2].

ولم يقتصر القرآن الكريم على اعتبار الميثاق في الأسرة ما يكون بين المرء وزوجه، بل اعتبر أن طلب الميثاق يكون من الأب لأبنائه، وهذا ما ذكره القرآن الكريم عند حديثه عما جرى في قصة يوسف عليه السلام، عندما طلب يعقوب من أبنائه الميثاق حتى يوافق على اصطحاب أخيهم بنيامين لهم في رحلتهم لجلب المؤنة من مصر.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

قال الشوكاني: «﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حتى تحلفوا بالله لتأتنني به، أي: لتردن بنيامين إلي، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ هو من أعم العام؛ لأن ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ وإن كان كلامًا مثبتًا فهو في معنى النفي، فكأنه قال: لا تمنعون من إتياني به

(١) جامع البيان ٨/ ١٣٠.

(٢) تفسير الشعراوي ١/ ١٤٢٤.

في حال من الأحوال لعلة من العلل إلا لعلة الإحاطة بكم، والإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو، ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنيامين إلا أن تغلبوا عليه أو تهلكوا دونه، فيكون ذلك عذرًا لكم عندي ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي: أعطوه ما طلبه منهم من اليمين ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: قال يعقوب: الله على ما قلناه من طلبي الموثق منكم وإعطائكم لي ما طلبته منكم مطلع رقيب، لا يخفى عليه منه خافية، فهو المعاقب لمن خاس في عهده، وفجر في الحلف به، أو موكول إليه القيام بما شهد عليه منا»[1].

ثانيًا: الأسرة في المواثيق الدولية:

هناك عدد من القضايا المهمة تتمحور حولها اتفاقيات الأمم المتحدة التي تمس الأسرة بشكل مباشر، وتؤثر عليها تأثيرًا خطيرًا، من حيث التركيب، والقيم، والهوية، والتماسك، من أهم تلك القضايا:

١. اعتبار الأسرة المكونة من رجل وامرأة ارتبطا برباط الزواج الشرعي أسرة نمطية تقف في طريق الحداثة، ويجب استبدالها بالنموذج اللا نمطي الإبداعي للأسرة.

٢. إقرار الشذوذ الجنسي، وإعطاء الشواذ كافة الحقوق منها الزواج، وتكوين أسر، بما يعني إقرار العلاقات غير الشرعية، سواءً بين الرجال والنساء، أو العلاقات الشاذة بين مثليي الجنس، فالأشكال المختلفة للأسرة تشمل النساء والرجال الذين يعيشون معًا بلا زواج، والشواذ، كما تشمل النساء اللائي يأتين بالأطفال سفاحًا، ويحتفظن بهؤلاء الأطفال فيقمن بالإنفاق عليهم، ويطلق على هذا التشكيل اسم الأسرة ذات العائل المنفرد، وتسمى الأم بـ(الأم المعيلة).

٣. العلاقات الجنسية في الاتفاقيات الدولية غير مرتبطة بالزواج الشرعي، فالجنس في الثقافة الغربية هو كالماء والهواء، وأنه ضمن الاحتياجات الفسيولوجية للجسم، بما يعني أنه لا يحق لكائن من كان أن يجبر آخر على أن يكبت رغبته الجنسية إلى مرحلة سنية معينة، وقد ورد في تقرير لجنة الخبراء الصادر عن قسم الارتقاء بالمرأة في الأمم المتحدة، تحت عنوان -القضاء على جميع أشكال العنف والتمييز ضد الطفلة الأنثى-: «كثير من أسوء أشكال العنصرية والعنف ضد الفتيات تحدث في بيوتهم ومجتمعاتهم، مجتمعات الرجال والأولاد دائمًا تركز على التحكم

(١) فتح القدير ٤/ ٥٠.

الجنسي والإنجابي، والكبت الجنسي للفتيات شاملًا التركيز الشديد على عذرية الفتاة وخصوبتها بما يقود للتميز وإذعان الفتيات».

٤. تعتبر الوثائق الدولية قوامة الرجل في الأسرة- والتي تشير إليها بانعدام المساواة في علاقات القوة بين الرجل والمرأة- من أسباب تعويق حصول المرأة على الجنس الآمن، حيث إن الزوج قد لا يوافق على استخدام تلك الوسائل، كما في (البند ٩٨- بكين): «الضعف الاجتماعي وانعدام المساواة في علاقات القوة بين النساء والرجال هما من العقبات التي تعترض الممارسة الجنسية المأمونة».

٥. الأمومة ليست صفة لصيقة بالمرأة اقتضاها تكوينها البيولوجي والنفسي، بل هي وظيفة اجتماعية يمكن أن يقوم بها أي إنسان آخر؛ لذا نادى تفسير الأمم المتحدة للاتفاقية بضرورة وضع نظام إجازة للآباء لرعاية الأطفال، وقد جاء إعلان بكين ليؤكد على نفس المطلب، بل وجعله هدفًا استراتيجيًا، فجاء ليحث الحكومات على القيام عن طريق التشريعات، بتوفير الحوافز والتشجيع على تهيئة الفرص للنساء والرجال على الإجازات الوالدية، وتشجيع التقاسم المتساوي لمسئوليات الأسرة بين الرجل والمرأة، بما في ذلك عن طريق التشريعات الملائمة والحواف. كما يجب توفير شبكات من دور رعاية الطفل حتى تتفرغ الأم لمهمتها الأساسية، وهي العمل بأجر خارج البيت[1].

يتضح مما سبق أن هناك فارقًا كبيرًا بين مكانة الأسرة في قرآننا العظيم وبين مكانة الأسرة في المواثيق الدولية، حيث إن القرآن العظيم حفظ الأسرة ورعاها وحماها زوجًا وزوجةً وأبناءً وآباءً، وعرف كل واحد من أفراد الأسرة ما له وما عليه، فإن التزم كل واحد منهم بذلك سعدوا جميعًا، بخلاف ما أعطته المواثيق الدولية المنبثقة من القوانين الوضعية لكل فرد من أفراد الأسرة من تحلل وانحراف وإباحة لكل ما حرم الله سبحانه، حتى اختلطت الأنساب، وانتشرت بينهم الأمراض التي لم تكن في أسلافهم، وترجلت المرأة وتخنث الرجل، وأصبح المجتمع فوضى لا مجال للأخلاقيات فيه.

والله المستعان..

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأخوة، الطلاق، النكاح، اليتيم،

(١) انظر: مصطلح الأسرة في المواثيق الدولية، كاميليا حلمي ٤/ ٥٠.

الإصلاح

عناصر الموضوع

مفهوم الإصلاح	٣١٦
الإصلاح في الاستعمال القرآني	٣١٧
الألفاظ ذات الصلة	٣١٨
مجالات الإصلاح ومظاهره	٣٢٠
مواقف الناس من الإصلاح	٣٤٧
الأسلوب القرآن في الدعوة إلى الإصلاح	٣٥٥
أثر الإصلاح في الفرد والمجتمع	٣٦٤

مفهوم الإصلاح

أولًا: المعنى اللغوي:

الإصلاح لغة مأخوذ من الفعل (صلح)، فالصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد، وصلح كصلح لغتان؛ فالصلاح والصُلُوح بمعنى واحد، يقال: صَلَحَ يَصْلَحُ ويَصْلُحُ صلاحًا وصُلُوحًا فهو صالحٌ وصليحٌ، والجمع صُلَحاءُ وصُلُوحٌ[(١)].

والصلاح: الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والإصلاح جعل الشيء على تلك الحالة، فالإصلاح نقيض الإفساد، وهو يدل على إزالة الفساد، والاستصلاح ضد الاستفساد، وأصلحه ضد أفسده، وقد أصلح الشيء بعد فساده: أقامه، ومصلح اسم فاعل من أصلح، يقال: رجل صالح في نفسه، ومصلح في أعماله[(٢)].

ويغلب استخدام (الإصلاح) في إصلاح ذات البين؛ يقال: أصلح بينهما أو ذات بينهما: أي: أزال ما بينهما من عداوة وشقاء، وإصلاح ذات البين يكون برأب ما تصدع منها، وإزالة الفساد الذي دب إليها بسبب الخصام والتنازع على أمر من أمور الدنيا[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يخضع تعريف الإصلاح اصطلاحًا لنوع الإصلاح المراد؛ فتعريف الإصلاح بأنه ضد الإفساد يختلف عن تعريف الإصلاح بين المتخاصمين، وعن تعريف الإصلاح بمعنى البناء والتقويم، وكذلك يختلف عن تعريف إصلاح دين الناس ومعاشهم، ولذلك ذكر لمصطلح (الإصلاح) تعريفات عديدة، ولا يعنينا هنا جمع تلك التعريفات؛ ويكفي الإشارة إلى بعضها:

فالإصلاح هو: «هو إزالة الخلل والفساد الطارئ على الشيء»[(٤)].

والإصلاح هو: «إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من الفساد»[(٥)].

وكل هذه التعريفات تدور حول معنى إزالة الفساد الذي يطرأ على الشيء، وإعادته إلى ما كان عليه من الصلاح والاعتدال والنفع.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٠٣، المحكم، ابن سيده ٣/ ١٥٢.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ١١٧، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥١٧، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٨.
(٣) انظر: الأضداد، الأنباري ص٧٥، الأخلاق الإسلامية، الميداني ٢/ ٢٣٠.
(٤) الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ٥/ ٢٣٩.
(٥) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٢١٥.

الإصلاح في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ص ل ح) في القرآن (١٨٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (٤٢) مرة[١].
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٤	﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة:١٨٢]
الفعل المضارع	٨	﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة:٢٢٤]
فعل الأمر	٦	﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف:١٤٢]
المصدر	٩	﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٢٢٠]
اسم الفاعل	٥	﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠]

وجاء الإصلاح في الاستعمال القرآني بمعنى: إقامة الشيء وتغيير ما به من اعوجاج، والإحسان فيه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٦٩٩-٧٠٣.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص٩٥-٩٦، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٩٩-٣٠٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٣٩٧-٣٩٨، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصلح:

الصلح لغة:

الصلح بالضم هو السلم -بكسر السين وفتحها- من تصالح القوم بينهما، والصلح أيضًا: اسم جماعةٍ متصالحين، يقال: هم لنا صلحٌ، أي: مصالحون[١].

الصلح اصطلاحًا:

عبارة عن عقد وضع لرفع المنازعة بالتراضي[٢].

الصلة بين الصلح والإصلاح:

الصلح يختص بإزالة النفار بين الناس، يقال منه: اصطلحوا وتصالحوا؛ وعلى هذا فإن الصلح إحدى ثمرات الإصلاح بين الناس، وكذلك فإن الإصلاح أعم وأشمل من الصلح.

٢ الصلاح:

الصلاح لغة:

مأخوذ من الفعل (صلح)، والصلاح ضد الفساد[٣].

الصلاح اصطلاحًا:

الصلاح: استقامة الحال وانعدالها، وهو مما يفعله العبد لنفسه[٤]. وهو معنى عام يشمل استواء الخلق والاستقامة على ما توجبه الشريعة، وحصول على الحالة المستقيمة النافعة.

الصلة بين الصلاح والإصلاح:

الصلاح يخص الفرد في ذاته، أما الإصلاح فمتعدٍ، يصلح العبد نفسه، ثم يسعى في إصلاح غيره، فقد يكون الرجل صالحًا في نفسه فقط، وقد يكون صالحًا في نفسه ومصلحًا لغيره، ولا شك أن الأخير أعظم.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٨.
(٢) انظر: أنيس الفقهاء، القونوي ص٩١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٤٧٩.
(٤) انظر: الفرق اللغوية، العسكري ص٣١٧.

٣ الفساد:

الإفساد لغة:

هو ضد الإصلاح[(١)].

الإفساد اصطلاحًا:

هو جعل الشيء فاسدًا خارجًا عما ينبغي أن يكون عليه وعن كونه منتفعًا به. وفي الحقيقة هو إخراج الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح[(٢)].

الصلة بين الإفساد والإصلاح:

إن الإفساد ضد الإصلاح، وإن الفساد هو موضع الإصلاح، ومحوره الذي يتوجه إليه المصلحون؛ لإصلاح الأرض ومن عليها؛ حتى ينعم الإنسان بخيراتها، ويحقق وظيفته في الاستخلاف في الأرض، والوصول إلى الكمال الإنساني المقدر له؛ فالمصلح هو الذي يسعى لإزالة الفساد، ويحارب الإفساد وأهله.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٣.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ١/ ١٥٤.

مجالات الإصلاح ومظاهره

تتعدد مجالات الإصلاح كما عرضها القرآن، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الإصلاح في العقيدة:

معالم الإصلاح في العقيدة تظهر من خلال عدد من الأمور:

أولًا: إن العقيدة هي ما يجزم به الإنسان، ويعتقده ويتيقنه في قرارة نفسه يسمى عقيدة، فإن كان هذا الاعتقاد موافقًا للحق، مطابقًا للواقع فهي عقيدة صحيحة، وإن كان مخالفًا للواقع فهي عقيدة فاسدة، والعقيدة هي أساس بناء المجتمعات، فإن كانت عقيدة أفراد المجتمع سليمةً صار مجتمعًا قويًا متماسكًا، وإن كانت عقيدة أفراده منحرفةً صار مجتمعًا متفككًا منهارًا.

ثانيًا: العقيدة السليمة الصحيحة تعصم الدم والمال، والعقيدة الفاسدة تهدر الدم والمال.

قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال عليه الصلاة والسلام: (من بدل دينه فاقتلوه)[(١)].

وقال عليه الصلاة والسلام: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، المفارق للجماعة)[(٢)].

فلا يحل دمه ولا ماله ما دام اعتقاده صحيحًا إلا إذا ارتكب واحدة من ثلاث: الزاني بعد الإحصان، والقاتل عمدًا، والمرتد الذي فارق دينه.

ثالثًا: إذا كانت العقيدة صحيحة صحت الأعمال كلها بشروطها، وجميع العبادات صحيحة؛ صحت الصلاة، والزكاة، وصح الصوم، والحج، وإذا فسدت العقيدة فسدت جميع الأعمال، وجميع العبادات؛ إذا دعا الإنسان غير الله، أو ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، أو طاف بغير بيت الله؛ تقربًا لذلك الغير، أو فعل ناقضًا من نواقض الإسلام، أو اعتقد عدم وجوب الصلاة، أو عدم وجوب الزكاة، أو عدم وجوب الحج، أو اعتقد حل الزنا، أو حل الخمر، أو حل الربا، أو حل عقوق الوالدين فسدت العقيدة، وبطلت الأعمال كلها، فلا تصح الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج، فكلها تكون باطلة، كما قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله ٢/ ٢٥١، رقم ٢٨٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.

﴿عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

رابعًا: الشعائر التي يفرضها الله على الخلق إنما يريد بها إصلاح قلوبهم ومشاعرهم؛ لإصلاح حياتهم وواقعهم، فالله الواحد القهار في غنى عن العالمين؛ فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة -وفق منهجه- فيعد لهم هذا كله عبادة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

خامسًا: العقيدة الصحيحة هي الأساس الذي يقوم عليه الدين، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وقال بعدها بآيات: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فأرسل رسله دعاة إلى التوحيد وإخلاص الدين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

سادسًا: بين الله سبحانه مقومات الأمن، وأسبابه التي يتحقق بتوفرها، ويزول بزوالها، وأولها: إصلاح العقيدة؛ بإخلاص العبادة لله، وترك عبادة ما سواه، والبراءة منها، ومن أهلها، وملازمة العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فربط سبحانه حصول هذه المطالب العالية: الاستخلاف في الأرض، والتمكين من الدين، وإبدال الخوف بالأمن بتحقق شيئين، وهما: عبادة الله سبحانه، وترك الإشراك به.

سابعًا: اتجهت جهود الأنبياء والمصلحين إلى إصلاح عقائد المجتمعات قبل كل شيء، كل نبي أرسله الله يدعو قومه إلى إصلاح العقيدة، فأول ما يخاطب قومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود: ٥٠، ٦١، ٨٤، المؤمنون: ٢٣، ٣٢].

وكما أخبر الله عن نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وغيرهم، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم مكث في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى

إصلاح العقيدة، ويقول لقومه: (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)[1].

ثم لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وثبتت العقيدة نزلت بقية التشريعات.

جاء ذلك صريحًا في حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل؛ فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[2].

وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا)[3].

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٥/ ٤٠٥، رقم ١٦٠٢٣، وابن خزيمة في صحيحه، ١/ ٨٢، رقم ١٥٩.
وصححه الألباني في الإرواء رقم ٨٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن رقم ٤٧٠٧.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله،تبارك وتعالى، رقم ٧٣٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، رقم ٣٠.

ثانيًا: الإصلاح في الأخلاق:

إن الإسلام يدعو إلى إصلاح النفس، والتخلص من أمراضها، وهذا يحتاج إلى جهد يبذل، كما يحتاج إلى صبر على مشقات الطريق، أما اتباع الهوى، وما تميله النفس الأمارة بالسوء فإنه سهل ميسور، فالأول مثله مثل: من يصعد بصخرة إلى أعلى الجبل، ومثل الثاني: كمن يهوي من أعلى الجبل إلى أسفله؛ ولذلك كانت الاستجابة للشيطان كثيرة، ووجد دعاة الحق صعوبة في الدعوة إلى الله تعالى .

وأهل الإسلام في باب إصلاح النفس مخالفون للأمم الذين لم يعتنوا بإصلاح الأخلاق؛ وللذين غلوا فابتدعوا طرقًا في إصلاح النفس والأخلاق.

وكلمة (الأخلاق) هذه كلمة عامة، والمقصود منها الصورة الباطنة؛ لأن الخلق هو الإيجاد، من خلق يخلق خلقًا، وهذا المخلوق له صورتان، صورةٌ ظاهرة وهي الخلق، خلقه خلقته، وصورة باطنة وهي خلقه.

المسألة الأولى: تعظيم الشارع الحكيم حسن الخلق في صورٍ وأساليب كثيرة.

أولًا: قال الله جل وعلا لنبيه صلى الله

عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وصح حديث عائشة رضي الله عنها عن خلق المصطفى عليه الصلاة والسلام قالت: (كان خلقه القرآن)[(١)].

وقال سعد بن هشام رحمه الله قلت: «يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن. قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحدًا عن شيء حتى أموت»[(٢)].

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[(٣)].

ثانيًا: قال الله عز وجل في حقه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ثالثًا: وإن تصدير الآية الكريمة بالنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم﴾ [البقرة: ٢٨٢].

يشير إلى أمرين:

أحدهما: أنه ليس من مقتضى الإيمان أن تلزموا المساجد والصوامع، بل إن الإيمان أن تهذبوا نفوسكم، وترهفوا وجدانكم وتشعروا بمراقبة ربكم؛ لتكون دنياكم فاضلة، ويكون تعاملكم، وإدارة المال بينكم على نهج ديني فاضل، فالمال ليس طلبه ممنوعًا، بل إنه من طريقه الحلال مشروع ومطلوب.

الأمر الثاني: أن الإسلام ليست أوامره مقصورة على العبادات، بل جاء لتنظيم المعاملات، بل إن العبادات فيه طريق لإصلاح التعامل الإنساني وكذلك كل الأديان السماوية، فإنه من الجهل الادعاء بأن الأديان جاءت لتنظيم العلاقة بين العبد والرب فقط، ولا تتدخل في العلاقة بين الإنسان والإنسان[(٤)].

رابعًا: وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

جمعت هذه الآية «بين خطاب جميع العالم، وبين توبيخ عرب الجاهلية على

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٤١/ ١٤٨، رقم ٢٤٦٠١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٨١١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم ٧٤٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، ١٤/ ٥١٢، رقم ٨٦٥٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٤٥.

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٢/ ١٠٦٧.

التحليل والتحريم بسبب الأهواء والمزاعم، أما الخطاب العام لجميع البشر فمضمونه: يا أيها الناس، قد جاءكم كتاب جامع لكل المواعظ التي يراد بها إصلاح الأخلاق والأعمال، والزجر عن الفواحش، وشفاء الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، والهداية إلى الحق واليقين والطريق القويم المؤدي إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وسمي القرآن الكريم موعظة لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر بالمعروف، ويزجر، ويرقق النفوس، ويوعد ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز، وهي موعظة من ربكم لم يختلقها محمد صلى الله عليه وسلم ولا غيره، بل هي من عند الله عز وجل»[1].

«وإن من الأعمال العريقة في الخير إنشاء المعاهد لتحفيظ القرآن وتعليم العلم، فإذا اتجه الخيرون إلى إنشاء هذه المعاهد فإن ذلك يكون دليلًا على الأخذ بأسباب الإصلاح المثمرة.

وأحب أن أقول للعاملين على الإصلاح: إن من وسائل الإصلاح الأخلاقي الحاسمة أن ينتشر الوعي الديني في استفاضة، ولن يتأتى ذلك إلا إذا أكثرنا من المعاهد الدينية»[2].

المسألة الثانية: الواجب تجاه إصلاح الأخلاق.

«وقد اتفق الحكماء الذين أكرمهم الله تعالى بوظيفة الأخذ بيد الأمم في بحثهم عن المهلكات والمنجيات على أن فساد الأخلاق يخرج الأمم عن أن تكون قابلة للخطاب، وأن معاناة إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها إلى الحكمة البالغة، والعزم القوي، وذكروا أن فساد الأخلاق يعم المستبد وأعوانه وعماله، ثم يدخل بالعدوى إلى كل البيوت، ولاسيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثل بها السفلى، وهكذا يغشو الفساد، وتمسي الأمة يبكيها المحب، ويشمت بها العدو، وتبيت وداؤها عياء يتعاصى على الدواء.

وقد سلك الأنبياء عليه السلام في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق مسلك الابتداء أولًا بفك العقول من تعظيم غير الله، والإذعان لسواه؛ وذلك بتقوية حسن الإيمان المفطور عليه وجدان كل إنسان، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته؛ أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد، وسدوا منابع الفساد.

ثم بعد إطلاق زمام العقول صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنه مكلف بقانون الإنسانية، ومطالب بحسن الأخلاق،

(١) الوسيط، الزحيلي ٢/ ٩٨٣.
(٢) فتاوى عبد الحليم محمود ص١٣٢٩.

فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع وبث التربية التهذيبية.

والحكماء السياسيون الأقدمون اتبعوا الأنبياء عليه السلام في سلوك هذا الطريق وهذا الترتيب؛ أي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تؤدي إلى تحرير الضمائر، ثم باتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتورٍ ولا انقطاع»[1].

ثانيًا: الإصلاح بين الناس:

قال ابن حجر رحمه الله : «والصلح أقسام: صلح المسلم مع الكافر، والصلح بين الفئة الباغية والعادلة، والصلح بين المتغاضبين كالزوجين، والصلح في الجراح كالعفو على مال، والصلح لقطع الخصومة إذا وقعت المزاحمة في الأملاك»[2].

وقال ابن قدامة: «والصلح يتنوع أنواعًا: صلح بين المسلمين وأهل الحرب، وصلح بين أهل العدل وأهل البغي، وصلح بين الزوجين إذا خيف الشقاق بينهما»[3].

وهذا الإصلاح قد يكون فرديًا وجماعيًا:

فالفردي مثلًا: كالإصلاح بين اثنين (صديقين أو زوجين أو أخوين أو أختين) ونحو ذلك.

ومن الإصلاح الجماعي مثلًا: الإصلاح بين قبيلتين أو حزبين أو جماعتين، وقد يكون بين شعبين أو دولتين.

وقد يجمع بينهما مثل: الإصلاح بين الإمام والمأمومين، والإصلاح بين الراعي والرعية، فيكون أحد الطرفين فرديًا والآخر جماعيًا.

وسيتم هنا تناول مجموعة من أنواع الإصلاح:

النوع الأول: الإصلاح بين الزوجين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

إن السعادة الأسرية والاستقرار العائلي مطلب ضروري من ضروريات هذه الحياة، وهو سنة الله سبحانه وتعالى في الأرض، فالهدف من الأسرة هو السكن والمودة والرحمة بكل ما تحمله هذه الكلمات من معاني.

ولقد كثر وقوع المنازعات والخلافات الأسرية والعائلية التي تؤدي إلى الفرقة والشقاق خصوصًا في هذا الوقت الذي بعد فيه الناس عن شرع الله وأوامره، وليس هذا

(١) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص١٠٦.
(٢) فتح الباري ٥/ ٣٥١.
(٣) الشرح الكبير ١٣/ ١٢٣.

في المجتمعات الإسلامية فحسب، بل لا يكاد يسلم مجتمع من هذه الخلافات التي تؤدي في أسوأ الأحوال إلى حل رابطة الرحم، فيتفرق أفراد الأسرة والعائلة، فيترتب على ذلك كراهية وخصام بين العوائل والأسر المختلفة، وتشيع القطيعة بين أفراد الأسرة جميعًا.

وهنا نعرض منهج القرآن في الإصلاح بين أفراد الأسرة والعائلة، محاولة للدعوة للإصلاح وفق منهج رباني متكامل مستنبط من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: طرق القرآن في الإصلاح بين الزوجين.

لقد أمر الله سبحانه بالإصلاح، وحث عليه، وشرع الله سبحانه وتعالى بعض التنظيمات التي تكفل الحفاظ على الحياة الزوجية قبل حدوث الخلاف، وفي أثناء الخلاف، وحتى بعد فراق الزوجين لبعضهما؛ فقد شرع الله بعض التوجيهات والأوامر التي هي محاولة لرد الزوجين إلى حياتهما الطبيعية في المجتمع.

ويمكن عرض المنهج القرآني في الإصلاح بين الزوجين في النقاط التالية:

١. الإصلاح بين الزوجين عند نشوز المرأة.

إن أشهر آيتين في كتاب الله في الإصلاح بين الزوجين آيتا سورة النساء:

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤- ٣٥].

النشوز هو: «استعلاء النساء على أزواجهن، وارتفاعهن عن فرشهم بالمعصية منهن، فالنشوز هو: البغض ومعصية الزوج، وإرادة فراق الزوج»[(١)].

تبدأ عملية الإصلاح بين ركني الأسرة في قضية النشوز باتخاذ إجراءات إصلاحية، وفق ترتيب إلهي حكيم، وبوصف نبوي كريم، فمن تعدى تلك الترتيبات، أو جاوز تلك الأوصاف المقننة لتلك الإجراءات فقد ظلم وتعدى؛ ولذا جاء التحذير واضحًا في ختام الآية الأولى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ بأي نوع من البغي، سواء كان بالقول أو الفعل فضلًا عن اليد أو السوط، وتتمثل تلك الإجراءات في النقاط

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٩٨.

التالية:

❁ الموعظة والنصيحة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «عظوهن بكتاب الله. قال: أمره الله إذا نشزت أن يعظها ويذكرها الله، ويعظم حقه عليها»[(١)].

وقال مجاهد: «إذا نشزت المرأة عن فراش زوجها يقول لها: اتقي الله وارجعي إلى فراشك، فإن أطاعته فلا سبيل له عليها»[(٢)]. وقال الحسن: «يأمرها بتقوى الله وبطاعته»[(٣)].

❁ الهجران في المضاجع.

قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤].

أي: «فإن أبين مراجعة الحق في ذلك والواجب عليهن لكم بعد الموعظة، فاهجروهن بترك جماعهن في مضاجعتكم إياهن»[(٤)].

على أن هناك أدبًا في الهجر في المضاجع، وهو ألا يكون هجرًا ظاهرًا في غير مكان خلوة الزوجين، فلا يكون أمام الأطفال، فيورث في نفوسهم شرًا وفسادًا، ولا أمام الأهل أو الغرباء يذل الزوجة، أو يستثير كرامتها، فتزداد نشوزًا، فالمقصود علاج النشوز، لا إذلال الزوجة[(٥)].

فعن معاوية ابن حيدة القشيري رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال: (أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت)[(٦)].

ثم قال ابن حجر: «والحق أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال، فربما كان الهجران في البيوت أشد من الهجران في غيرها، وبالعكس، بل الغالب أن الهجران في غير البيوت آلم للنفوس، وخصوصًا النساء لضعف نفوسهن»[(٧)].

❁ الضرب.

قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

وهذا إجراء ثالث أكبر من سابقيه، ولكنه أهون وأصغر من تحطيم العلاقة الزوجية بالنشوز، وهذا الإجراء مع أنه أشد، لكنه بحدود، فقد ورد في تفسير الضرب أن يكون الضرب غير مبرحٍ ولا مؤثرٍ، لقول

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٩٤٢٥.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٩٨.
(٤) المصدر السابق ٦/ ٧٠٠.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٥٤.
(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على زوجها، رقم ٢١٤٢، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، رقم ١٨٥٠.
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم ١٨٧٦، والسلسلة الصحيحة، رقم ٦٨٧.
(٧) فتح الباري ٩/ ١١٢.

النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: (ولكم عليهن أن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك، فاضربوهن ضربًا غير مبرح)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: (فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح)[2].

هذه الإجراءات جاءت لمعالجة أعراض النشوز، وأحيطت بالتحذيرات من سوء استعمالها فور تقريرها وإباحتها، وتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنته العملية في بيته مع أهله وبتوجيهاته علاج الغلو وتصحيح المفهومات[3].

وفي السنة: (ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت)[4].

«فإن حصل المقصود بواحدة من هذه الأمور وأطعنكم، فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب على العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببها الشر»[5].

ولكن إذا استشرى النشوز جيء بالمصلحين.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

قال سعيد بن جبير: «الحكم أن يعظها أولًا، فإن قبلت وإلا هجرها، فإن هي قبلت وإلا ضربها، فإن هي قبلت وإلا بعث الحاكم حكمًا من أهله، وحكمًا من أهلها»[6].

ومعنى الآية: «وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل واحد منهما في شق، فابعثوا حكمين: واحد من أهل الزوجة، وواحد من أهل الزوج، مكلفين مسلمين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق»[7].

٢. الإصلاح عند نشوز الزوج.

قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «هو الرجل يرى من امرأته ما لا يعجبه كبرًا أو غيره، فيريد فراقها، فتقول: أمسكني، واقسم لي ما شئت. قالت: ولا بأس إذا تراضيا»[8].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حج النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١١٦٣.
وصححه الألباني في الإرواء ٧/ ٩٦.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٥٤-٦٥٥.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٧٥.
(٧) تيسر الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٧.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح،

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (خشيت سودة أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني وامسكني، واجعل يومي لعائشة، ففعل، ونزلت هذه الآية: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾)[1].

فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة؛ أو أن تؤدي هذه الجفوة إلى الطلاق، أو إلى الإعراض، فليس هنالك حرج عليها ولا على زوجها أن تتنازل له عن شيء من فرائضها المالية، أو فرائضها الحيوية، كأن تترك له جزءًا، أو كلًا من نفقتها الواجبة عليه، أو أن تترك له قسمتها وليلتها، إن كانت له زوجة أخرى، وكانت هي قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها.. هذا كله إذا رأت هي -بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها- أن ذلك خير لها، وأكرم من طلاقها[2]. أي: «أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج، وقبول الزوج ذلك، خير من المفارقة بالكلية»[3].

ثم يعقب سبحانه بأن الصلح إطلاقًا خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق، فيقول تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ثم يذكر المانع من الصلح وهو الشح، فيقول تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾.

ثم ينبه سبحانه في ختام هذه الآية على ما يعين ويساعد في حل المشكلة بقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

أي: «وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، تقسموا لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء»[4].

٣. الإصلاح عند عدم رغبة الزوجة في زوجها.

قال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ولقد سلك الشارع الحكيم عددًا من الأمور لإبقاء العصمة الزوجية ومنها:

- نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوعد المرأة التي تطلب الطلاق من زوجها بغير سبب، وهذه هي الطريقة

باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾، رقم ٢٦٩٤.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة النساء، رقم ٣٠٤٠. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم ٢٤٣٤.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٦٩-٧٧٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٠.

(٤) المصدر السابق.

الأولى لعلاج عدم رغبة الزوجة في زوجها.

- عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيما امرأة سألت زوجها طلاقًا في غير ما بأس، فحرامٌ عليها رائحة الجنة)[1]، وهذا من باب المحافظة على رابطة الزوجية والرابطة الأسرية في المجتمع.
- إذا استفحل الأمر، وأحست الزوجة بسوء عشرة زوجها جاز لها أن تطلب الطلاق منه، وأن تعوضه عن ذلك برد الصداق الذي أمهرها إياه أو بعضه؛ لتعصم نفسها من معصية الله، وتعدي حدوده، وهذا ما يسمى الخلع أو الفداء.

فالخلع هو: فراق الزوجة على عوض، فالآية تدل بإطلاقها على جواز الافتداء مطلقًا، ولو بكل المال، أما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

فهذه الآية محمولة على الأخذ جبرًا بغير رضاها، أو التحايل على ذلك.

والخلع مكروه إلا في حالة مخافة ألا يقيما -أو واحد منهما- ما أمر الله به، وقد ينشأ ذلك عن كراهة العشرة، إما لسوء خلق أو خلق[2]، وقد يكون لغير ذلك كما في قصة الصحابية الجليلة امرأة ثابت ابن قيس.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة ثابت بن قيس رضي الله عنه أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتردين عليه حديقته؟)، قالت: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقبل الحديقة، وطلقها طلقة)[3].

٤. الإصلاح عند ظلم الرجل لزوجاته.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

يخبر تعالى أنه ليس في قدرة الأزواج العدل التام بين زوجاتهم، فإن العدل التام يقتضي أن يكون الداعي والحب على السواء، والميل القلبي على السواء؛ ويقتضي مع ذلك الإيمان الصادق والرغبة في مكارم الأخلاق للعمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن؛ فلذلك عذر الله

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب الخلع، رقم ٢٢٢٦.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ١٩٤٧.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٩/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، رقم ٥٢٧٣.

الأزواج، وعفا عنهم عما لا يقدرون عليه، ولكنه أمرهم بالعدل الممكن فقال: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: لا تميلوا إلى إحداهن عن الأخرى ميلًا كثيرًا، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا مستطاعكم من العدل في النفقة والكسوة والقسم في المبيت والفراش، ونحو ذلك مقدور، فعليكم العدل فيها بينهن، بخلاف الحب والوطء وتوابع ذلك، فإن العبد لا يملك نفسه فعذرهم الله، وقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ يعني: أن الزوج إذا مال عن زوجته، وزهد فيها، ولم يقم بحقوقها الواجبة، فهي كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها، ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ فيما بينكم وبين زوجاتكم بوجه من وجوه الصلح، وبمجاهدة أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتسابًا وقيامًا بحق الزوجة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بامتثال أمره، واجتناب نهيه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وقد أمر الله تعالى بالعدل بين الزوجات، وأمر من لم يستطع العدل أن لا يتزوج أكثر من واحدة، ويمكنه أن يجمع معها ملك اليمين؛ لأنه ليس لها من الحقوق كما للحرة.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل)[2]. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعدل بين نسائه في القسم، ويقول: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك)[3]، واستمر على ذلك حتى في مرضه صلى الله عليه وسلم ، ثم استأذنهن أن يمرض عند عائشة، فأذن له -رضي الله عنهن-[4].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٠٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم ٢١٣٣، والترمذي في سننه، كتاب النكاح، باب في التسوية بين الضرائر، رقم ١١٤١، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم ١٩٦٩ . وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٣٦٢٦.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم ٢١٣٤، والترمذي في كتاب النكاح، باب في التسوية بين الضرائر رقم ١١٤٠، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم ١٩٦٩. وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٣٢٣٥.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، باب ذكر ما كان يعالج به النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه، ٦/ ٣٨٣، رقم ٧٠٤٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب جاء في ذكر مرض رسول الله، رقم ١٦١٨.
وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، رقم

٥. الإصلاح عند وقوع الظهار.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ [المجادلة: ٢]: «يعني أن الله تعالى يحرم قول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي»[(١)]. فهو يحرمها على نفسه كحرمة أمه عليه[(٢)]. «فمتى شبه زوجته بمن تحرم عليه أو ببعضها إذا أراد الامتناع عن الاستمتاع بها فقد ظاهر من زوجته»[(٣)]، وإذا ظاهر الرجل امرأته ترتب على ظهاره حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾[المجادلة: ٣].

ولكن أهل الجاهلية كانوا يعتبرون هذه الكلمة طلاقًا أبديًا، والإسلام اعتبره ظهارًا له كفارة.

فهذه القضية الاجتماعية فيها قسوة على المرأة، وقسوة على الأسرة، بل وقسوة على المجتمع، فبكلمة واحدة كانت المرأة تحرم في الجاهلية، ولكن الإسلام أراد أن يرتقي بالأسرة بالحفاظ عليها من الضياع في ظل منهج ينظم ويقوم حياتها، ويحفظ لها حقها، ويضمن لها سعادتها في دنياها وأخراها من ناحيتين:

- حرم الله سبحانه الظهار؛ لما تضمنه من تحريم ما أحل الله، وأذية للمرأة، وزور من القول والفعل لم يكلفهم الله إياه، بل مضرته غلبت مصلحته؛ ولذا لم يجعل الله فيه خيرًا وبركةً.
- شرع الله سبحانه لمن وقع فيه مخرجًا منه وهو كفارة الظهار؛ فكفارة الظهار على الترتيب الوارد في الآية والحديث.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ [المجادلة: ٣].

فإن لم يجد فيصوم شهرين متتابعين، لا يفرق بين الأيام إلا لعذر شرعي؛ لقوله: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ [المجادلة: ٤].

فإن لم يكن يقدر على الصيام فيطعم ستين مسكينًا؛ لقوله: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ [المجادلة: ٤].

٦. طريقة القرآن في الإصلاح عند وقوع الإيلاء.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٦ - ٢٢٧].

والإيلاء لغة: الحلف، وفي الشرع:

١٣١١.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١١٨.

(٢) انظر تفاصيل مسائل الظهار في: المغني، ابن قدامة، ١١/ ٥٤-١١٩، بدائع الصنائع، الكاساني، ٨/ ٢٤-٣٩، فقه السنة، سيد سابق، ٢/ ٤٥٢-٤٥٦.

(٣) الملخص الفقهي، الفوزان، ٢/ ٣٢٢.

الحلف على ترك وطء المرأة[1].

فالله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم حقيقة النفس البشرية، وأهمية بقاء الزوجين مع بعضهما، فنفس عن الزوج والزوجة للمحاولة في الإصلاح بينهما، وعدم بقاء الزوجين في خصام حتى لا تتسع الفجوة، ويطول النزاع، فجعل للزوج الذي يريد أن يصالح زوجته، وأن يراجعها قبل انتهاء مدة التحريم، جعل له كفارة يستطيع إذا فعلها أن يراجع ويصالح زوجته، وهي كفارة اليمين.

وقد جعل الله تعالى للزوجة المطالبة بحقها إذا زاد الإيلاء والبعد عن المدة التي قدرها رب العالمين، وهي أربعة أشهر، فضمن لكل من الطرفين حقه، وأعطاه الفسحة الكافية ليراجع نفسه، ورغبه الشارع في العودة والكفارة، وسهلها عليه تمكينًا وترغيبًا في كسر حاجز القطيعة والبعاد.

«ولكن إذا استمر الرجل في الإيلاء، وجاء وقت انتهاء الفترة التي لا يجوز تجاوزها، فإما أن يراجع الرجل زوجته، أو يفارقها، فإن أبى فالقاضي له حق أن يطلقها منه»[2]، وذلك ليحاول كل واحد منهما أن يبدأ حياة أخرى قد تكون أهدأ وأقل خلافًا من التي قبلها؛ ولذا ختم الله تعالى الحكم بقوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

٧. الإصلاح عندما لا ترضى المرأة بواقع زوجها المعيشي.

قد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بتخيير زوجاته بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩].

فعن جابر رضي الله عنه قال: «قال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد -زوجة عمر- سألتني النفقة آنفًا، فوجأت عنقها، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: (هن حولي يسألنني النفقة). فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده! فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلن -أي: نساءه-: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده.

قال: وأنزل الله عز وجل الخيار، فبدأ بعائشة، فقال: (إني أذكر لك أمرًا ما أحب أن تتعجلي فيه حتى تستأمري أبويك). قالت: وما هو؟ قالت: فتلا عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٤١.
(٢) فقه السنة، سيد سابق ٢/ ١٣٣.

﴿النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ﴾. قالت عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبواي! بل أختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال: (إن الله تعالى لم يبعثني معنفًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها)[1].

فسبب تخيير النبي صلى الله عليه وسلم لزوجاته هو أن زوجاته -رضي الله عنهن جميعًا- سألنه التوسيع عليهن في النفقة، والنبي صلى الله عليه وسلم قد اختار الله له عيشة الكفاف؛ ولذا قال عمر لهما: تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده؟

وهنا يجب التنبيه على أمور:

قال ابن حجر: «قول عائشة وجمهور الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار هو أن من خير زوجته فاختارته لا يقع عليه بذلك طلاق»[2].

إجراء التخيير من الوسائل التي يتم من خلالها الإصلاح، وذلك بأن ينبه الزوج زوجته على أن هذا واقعه، وهذا مستواه، وهذه حياته، فإن قبلته على هذه الحياة فبها ونعمت، وإن لم تقبله فلا يوجد مجال إلا أن تختار بين البقاء معه والصبر على ما هي فيه، أو يطلقها ويسرحها سراحًا جميلًا ترتاح فيه من الوضع التي هي فيه، ومن ثم يرتاح الرجل من كثرة انتقاد الزوجة من الناحية الاجتماعية، أو من ناحية الطبائع وغيرها، ويرتاحان من الخلافات اليومية بسبب هذا الأمر.

عندما تعلم الزوجة أن الأمر جدٌّ، وأنه لا يوجد حل لها إلا أن تصبر أو تطلق، قد يتغير رأيها للحفاظ على زوجها وبيتها، وتتنازل عن رأيها فتقبل الصبر، وتقبل زوجها، فيحصل الوفاق والصلح بين الزوجين، وهذا هو الذي يرنو إليه الشارع الحكيم.

المحور الثاني: الطرق الإصلاحية لبقاء الحياة الزوجية عند إرادة الطلاق.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

فالإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال، ولا بالقيود والأغلال، ولكن يجمعهم بالسكن النفسي وبالمودة والرحمة، أو بالواجب والتحمل الممكن.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١][3].

ومظاهر الإصلاح في حال اختيار طريق

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاق إلا بالنية، رقم ١٤٧٨.

(٢) فتح الباري ٩/ ٢٨١.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢١٩.

الطلاق:

١. الأمر بالمعاشرة بالمعروف والصبر على ذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

ففي الآية توجيهات ربانية لكفالة حق الزوجين:

من المعاشرة بالمعروف بالإجمال بالقول، والمبيت والنفقة[١]، وأن يتصنع لها كما تتصنع له[٢]، وفتح الله به باب الأمل: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ ومهما كانت الأسباب والمبررات فإنه يحرم على الزوج إكراه زوجته على ما لا تطيق، ولا أخذ مالها وإرغامها على ذلك من دون طيبة نفس، بل ونهى عن عضلها بمنعها من حقوقها، ولا إلجائها لتفتدي نفسها بمالها، فإن ذلك كله محرم، وقد استثنى منه ما ورد به الشرع في ذلك على الأوصاف والشروط التي نص عليها أهل العلم في الفقه.

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٨٦، لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٩٩.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٨٦، الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٩٧.

٢. شرع الطلاق السنة، والعدة بعده.

إذا تعذر الوئام بين الزوجين بعد الأخذ بالتوجيهات الإلهية السابقة، أو رأى المصلحون بينهم أن التفريق لهما خير، فقد شرع الله للزوج أن يطلق زوجته طلاق السنة، وهو: أن يطلقها في طهر لم يقع فيه وطء. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١].

وفي هذه الفترة قد تتغير النفوس، وتقر القلوب، وفرصة للنفس ومحاسبتها، والنظر في عواقب الأمر قبل الطلاق وبعده، وليكون وقوع الطلاق في وقت تشتهي فيه الزوجة غالبًا، فيكون دليلًا واقعيًا على عدم الوئام بينهما، وليس مجرد عارضٍ، فقد يقدر الله تعالى الصلح، فلا يقع طلاق.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ [الطلاق: ١].

٣. شرع الطلقة الأولى ثم الثانية، وفي الثالثة تحرم عليه.

قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ففي الطلقة الأولى تجربة يعلم منها الزوجان حقيقة مشاعرهما، ثم تأتي الطلقة الثانية: محاولة أخرى لعدم انقطاع الحياة الزوجة، أما الطلقة الثالثة: فهي دليل على فسادٍ في تلك الحياة الزوجية ﴿فَإِن طَلَّقَهَا

﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

فهذه الإجراءات كلها للحفاظ على الرابطة الزوجية، فالرجل عندما يعلم ذلك الحد، فإنه يفكر ويمسك نفسه.

٤. لا يجوز أن تخرج المرأة من بيتها، أو تخرج في حال الطلقة الرجعية.

قال تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [الطلاق: ١].

«وذلك لإتاحة الفرصة للرجعة، واستثارة عواطف المودة، وذكريات الحياة المشتركة، حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين، ويرى زوجته وما يصيبها من تعب وشدة، فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين؛ ليبقى عقد الزوجية، وتبقى الأسرة المسلمة قائمة يشد بعضها بعضًا»[(١)].

٥. جواز مراجعة الزوجة إذا انقضت العدة في الأولى والثانية بعقد جديد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

فإن الله سبحانه وتعالى يريد الإصلاح ويحبه، ولو بعد الانفصال وانقضاء الأجل والمهلة، ما لم يبلغ الحد الذي حده الله لعباده من الطلقة الثالثة.

٦. إذا أراد الرجل أن يطلق زوجته لا يأخذ منها ما أعطاها إياه من مهر وغيره.

قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [النساء: ٢٠ - ٢١].

وقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

«نهوا أن يأخذوا من أزواجهم شيئًا على وجه المضارة، وخص بالذكر ما آتى الأزواج نسائهم؛ لأن العرف بين الناس أن يطلب الرجل عند الشقاق والفساد ما خرج من يده لها من صداق وجهاز»[(٢)].

فمن الأمور التي تحافظ على بقاء عقد الزوجية أنه إذا أراد الزوج أن يطلق فلا يحل له أن يأخذ شيئًا مما أعطاها إياه، وهذا يجعل الزوج يفكر أكثر من مرة في هذا الأمر؛ لأنه قد يكون أعطاها مالًا كثيرًا، فلا يستطيع أن يتركها من أجل ذلك المال، ثم قد يوفق الله بينهما فيما بعد.

قال تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٩٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٣٧.

المحور الثالث: ضوابط الإصلاح الاجتماعي بين الزوجين.

شرع الله سبحانه وتعالى أمورًا في الحياة الزوجية تمنع من حصول أي خلافات بينهما، فإذا حصل خلاف بسبب التفريط في هذه الأمور فإنه بالرجوع إليها يكون الإصلاح، وتنضبط الحياة الأسرية مرة أخرى، ومن هذه الأمور:

١. معرفة كل من الزوجين ما له وما عليه من الحقوق والواجبات.

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

فجمع الله تعالى في هذه الآية ما يجب على الرجال، وجمع ما يجب على الزوجة في قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

فهما نصٌّ «في سبيل تنظيم الحياة الزوجية، وتوضيح الاختصاصات التنظيمية فيها؛ لمنع الاحتكاك فيه بين أفرادها، فيحدد أن القوامة في هذه المؤسسة للرجل؛ وذلك لتفضيل الرجل بمقومات القوامة، وما تتطلبه من خصائص ودربة، وتكليفٍ بالإنفاق»[(١)].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٤٩.

٢. المعاشرة الحسنة بالمعروف.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

فعلى الزوجين أن يقوما بمعاشرة بعضهما بالمعروف، وخصوصًا الرجل؛ لأنه القيم، فالقول والمعاملة والإنفاق بالمعروف، وكذلك العلاقة العاطفية بينهما تكون بالمعروف، كما وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء خيرًا[(٢)]، وقوله: (وملاعبة أهله، فإنهن من الحق)[(٣)].

ومن العشرة الحسنة من المرأة أن تكون: مطيعة لزوجها في غير معصية الله، والاقتصاد والتوسط في النفقة، ورعايتها أسرتها، وتزكية نفسها وتشريفها، ومما يقربها إلى قلب زوجها: إكرام والديه وأقاربه واحترامهم[(٤)].

٣. صبر الزوج على الزوجة، وغض الطرف عن زلاتها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، رقم ٣٣٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ١٤٦٨.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، رقم ١٦٣٧.
قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي، رقم ٢٧٧، وضعيف ابن ماجه، رقم ٢٢٦٧.

(٤) انظر: دليل المرأة المسلمة، علي الغامدي ص١٤٤-١٤٥.

فإن المرأة من طبيعتها الغيرة من كل أحد؛ وغالبًا ما تكون الغيرة سببًا يدفعها إلى فعل ما لا يرضاه الزوج، وإذا انضاف إلى الغيرة ما جبلت عليه من اعوجاج اللسان، كان أدعى للزوج أن يصبر على الأذى، وأن يغض الطرف ما استطاع ويتجاوز عن الهنات والزلات؛ لقوله تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عندما حصلت الغيرة بين بعض زوجاته: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣].

٤. محافظة الزوجين على أسرارهما ومشكلاتهما الداخلية.

إن الزوجين هما الأقدر على حل مشاكلهما؛ لأنهما أعلم بطبيعة بعضهما، وبنقاط الخير فيهما، ويجب أن تهدأ النفوس حتى يأتي الصلح؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

فنص الله تعالى أن يكون الصلح بين الزوجين أولًا.

فإن احتيج لأن يتدخل غيرهما: فينحصر ما يعرفه الأبوان أو الأقارب على المشكلة فقط، ولا يتجاوز ذلك إلى غيره؛ حتى لا تتفرع المشكلة، وتصبح ظلمات بعضها فوق بعض.

فهذه بعض الضوابط الإصلاحية التي تضبط الحياة الاجتماعية بين الزوجين قبل حدوث الخلاف، فإذا وقع الخلاف كان الرجوع لها هو الإصلاح بعينه.

النوع الثاني: الإصلاح مع الوالدين المشركين:

أفردنا الحديث عن الإصلاح مع الوالدين المشركين؛ لأن الله تعالى نص عليه في القرآن، وبينت السنة سبب ذلك النص:

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣- ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ

﴿وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤١- ٤٧].

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «أنزلت في هذه الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال: كنت رجلًا بارًا بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت! فتعير بي، فيقال: «يا قاتل أمه». فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يومًا وليلةً لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومًا وليلةً أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي، فأكلت»[1].

أما قصة إبراهيم عليه السلام فهي واضحة في تطبيق الأمر الإلهي في الآية، فجعل الله قصته مع أبيه مثلًا للمسلمين في الولاء والبراء مع صدق البر والإحسان، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

فهذا إبراهيم عليه السلام يدعو أباه إلى الإسلام بأسلوب لا يختلف عن حديث مسلم مع مسلم، ولكن إبراهيم عليه السلام لا يلقى من والده إلا الخصومة والتعنيف.

فمن خلال هذه الآيات يمكن عرض المنهج القرآني في الإصلاح مع الوالدين المشركين:

أولًا: لا تقديم لحق العباد على حق الله:

لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنا إلا لعبادته، وما العباد إلا وسيلة للتعايش والخلافة في الأرض، فإذا ضيع السبب الذي خلق الإنسان من أجله، فلن تصطلح حياة البشر مع بعضهم، فإن من ضيع أمانته بينه وبين الله لا يمكن أن يحفظ الأمانة التي بينه وبين الخلق.

ثانيًا: لاستقرار العلاقة بين الآباء والأبناء يأمر الله تعالى عباده بأمور:

- الأمر بإصلاح العلاقة بين البشر وربهم، ثم بين البشر وآبائهم، فالله سبحانه هو الخالق للإنسان؛ ولذا يأتي دائمًا الأمر بعدم الإشراك به قبل الوصية بالوالدين، أما الوالدان فهما السبب الذي جعله الله تعالى في الأرض للتكاثر والوجود، فالله تعالى أولًا يأمر الله العباد بأن يصلحوا فيما بينهم وبين الله، ثم بعد ذلك يصلحوا ما بينهم وبين آبائهم.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣٧.

- النهي عن أي كلام أو تصرف بذيء ولو كان كلمة (أف)؛ لما في ذلك من إفساد العلاقة بين الآباء والأبناء حتى ولو كان الآباء مشركين؛ لأن الخطاب هنا عام».
- النهي عن زجرهما، والتكلم معهما بكلامٍ خشنٍ.
- الأمر بالكلام الطيب الكريم اللين الذي تطمئن به نفوسهما.
- التواضع لهما ذلًا لهما ورحمةً واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد.
- الدعاء لهما بالرحمة أحياءً وأمواتًا، جزاءً على تربيتهما إياك صغيرًا[1]، ما لم يكونا مشركين، فإن كانا مشركين فالدعاء لهما بالهداية في حياتهما.

ثالثًا: دعوتهم إذا كانا مشركين، فيجب أن تكون بالحكمة والأدب:

وذلك باستخدام الألفاظ اللينة الحسنة والأسلوب الهادئ المؤدب؛ وإذا قوبلت الدعوة للآباء بالرفض والأذية فلا تقابل بالمثل، كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه.

رابعًا: الاختلاف في العقيدة والأمر بعدم الطاعة في خلافها لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة: قال تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

ثالثًا: الإصلاح في المال:

المسألة الأولى: الإصلاح في وصية الميت:

الله سبحانه وتعالى جعل الوصية لمن أراد الإصلاح، وعدم وقوع الخلاف بعد موت الموصي، فإذا وقع وظهر في الوصية ظلم وجور على الحقوق وجب الإصلاح فيها.

والإصلاح في الوصية بإبقاء هدفها ومحتواها هو الخير للموصي له من يتيم ونحوه، وخير لأهل الميت من الورثة، وخير للميت بأن لا يعذب بما أوقع في الوصية من الإجحاف أو الظلم، بل وخير للمجتمع من أن تسود فيه البغضاء والتفرق؛ إذ أن السيئة تأتي بالسيئة، والشر يعم.

وإذا فعل ذلك وأصلح في الوصية فهذا عين الخير وعين الإصلاح، أما المحافظة على حروفها وحدودها وتضييع الهدف المقصود منها فهو عين الإفساد.

وعلى هذا فالإصلاح في الوصية سبب من أسباب الإصلاح بين المسلمين ودفع الفرقة عنهم، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (إن الرجل ليعمل بعمل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٦.

أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة) قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩][(١)].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢]، أي: «يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح»[(٢)].

والخطاب بقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ [البقرة: ١٨٢] لجميع المسلمين، قيل لهم: إن خفتم من موصٍ ميلًا في الوصية، وعدولًا عن الحق، ووقوعًا في إثم، ولم يخرجها بالمعروف، وذلك بأن يوصي بالمال إلى زوج ابنته أو لولد ابنته لينصرف المال إلى ابنته، أو إلى ابن ابنه، والغرض أن ينصرف المال إلى ابنه، أو أوصى لبعيد وترك القريب، فبادروا إلى السعي في الإصلاح بينهم، فإذا وقع الصلح سقط الإثم عن المصلح، والإصلاح فرض على الكفاية، فإذا قام أحدهم به سقط عن الباقين، وإن لم يفعلوا أثم الكل[(٣)].

«فالمصلح إذا شاهد الموصي يوصي وظهر منه أمارة الحيف عن طريق الحق، مع ضربٍ من الجهالة، أو مع التأويل، أو شاهد من التعمد في الميل، فعند ظهور أمارة الإفساد في الوصية يأخذ في الإصلاح؛ لأن إصلاح الأمر عند ظهور أمارات فساده، وقبل تقرير فساده يكون أسهل؛ فلذلك علقه تعالى بالخوف دون العلم»[(٤)].

وقال الحسن: «هو أن يوصي للأجانب ويترك الأقارب، فيرد إلى الأقارب. قال: وهذا هو الإصلاح»[(٥)].

«والإصلاح يحتاج إلى الإكثار من القول، وقد يتخلله بعض ما لا ينبغي من قول أو فعل، فبين أن ذلك لا إثم فيه إذا كان لقصد الإصلاح، ودلت الآية على جواز الصلح بين المتنازعين إذا خاف من يريد الصلح إفضاء تلك المنازعة إلى أمر محذور في الشرع»[(٦)].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قيل: غفور لما كان من الحائف، وقيل: للمصلح ﴿رَحِيمٌ﴾ حيث رخص، وقيل: ﴿غَفُورٌ﴾ للموصي فيما حدث به نفسه من الجنف والخطأ والإثم؛ إذ رجع إلى الحق، ﴿رَحِيمٌ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٣/ ١٦٨، رقم ٧٧٤٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الوصايا، باب الحيف في الوصية، رقم ٢٧٠٤.
وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه، رقم ٥٩١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٨٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٧٠.

(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٣٢٦.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٣.

(٦) المصدر السابق ٢/ ٢٤.

للمصلح[1].

قال تعالى في اليتامى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

«الإصلاح لليتيم يتناول إصلاحه بالتعليم والتأديب، وإصلاح ماله بالتنمية والحفظ»[2].

وهذا «يعني: الإصلاح لأموالهم من غير أجرةٍ خيرٌ وأعظم أجرًا ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ تشاركوهم في أموالهم وتخلطوها بأموالكم، فتصيبوا من أموالهم عوضًا عن قيامكم بأمورهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم، والإخوان يعين بعضهم بعضًا، ويصيب بعضهم من مال بعضٍ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ لها، فاتقوا الله في مال اليتيم، ولا تجعلوا مخالطتكم إياهم ذريعةً إلى إفساد أموالهم وأكلها بغير حقٍ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ لضيق عليكم وآثمكم في مخالطتكم، ومعناه: التذكير بالنعمة في التوسعة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر به»[3].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢].

قال الطبري رحمه الله: «وأولى الأقوال في تأويل الآية أن يكون تأويلها: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ وهو أن يميل إلى غير الحق خطأً منه، أو يتعمد إثمًا في وصيته، بأن يوصي لوالديه وأقربيه الذين لا يرثونه بأكثر مما يجوز له أن يوصي لهم به من ماله، وغير ما أذن الله له به مما جاوز الثلث أو بالثلث كله، وفي المال قلة، وفي الورثة كثرةٌ، فلا بأس على من حضره أن يصلح بين الذين يوصى لهم، وبين ورثة الميت وبين الميت، بأن يأمر الميت في ذلك بالمعروف ويعرفه ما أباح الله له في ذلك، وأذن له فيه من الوصية في ماله، وينهاه أن يجاوز في وصيته المعروف الذي قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وذلك هو «الإصلاح» الذي قال الله: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وكذلك لمن كان في المال فضل وكثرةٌ وفي الورثة قلة، فأراد أن يقتصر في وصيته لوالديه وأقاربه عن ثلثه، فأصلح من حضره بينه وبين ورثته وبين والديه وأقاربه الذين يريد أن يوصى لهم، بأن يأمر المريض أن يزيد في وصيته لهم، ويبلغ بها ما رخص الله فيه من الثلث؛ فذلك أيضًا هو من الإصلاح بينهم بالمعروف».

فما وجه الإصلاح حينئذٍ، والإصلاح إنما يكون بين المختلفين في الشيء؟

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٥.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٦١.
(٣) الوجيز، الواحدي ص١٦٦.

قيل: إن ذلك وإن كان من معاني الإصلاح فمن الإصلاح الإصلاح بين الفريقين، فيما كان مخوفًا حدوث الاختلاف بينهم فيه، بما يؤمن معه حدوث الاختلاف؛ لأن الإصلاح إنما هو الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين، فسواء كان ذلك الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين قبل وقوع الاختلاف أو بعد وقوعه.

فإن قال قائل: فكيف قال: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ ولم يجر للورثة ولا للمختلفين، أو المخوف اختلافهم، ذكرٌ؟

قيل: بل قد جرى ذكر الذين أمر تعالى ذكره بالوصية لهم، وهم والدا الموصي وأقربوه، والذين أمروا بالوصية في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠].

ثم قال تعالى ذكره: ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ لمن أمرته بالوصية له ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾، وبين من أمرته بالوصية له ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، والإصلاح بينه وبينهم هو إصلاح بينهم وبين ورثة الموصي.

وأما الجنف: فهو الجور والعدول عن الحق في كلام العرب، يقال منه: جنف الرجل على صاحبه يجنف، إذا مال عليه وجار جنفًا[(١)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٠٣-٤٠٤.

المسألة الثانية: الإصلاح في مال اليتامى:

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

«إن التكافل الاجتماعي هو قاعدة المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف أولى برعاية الأمة وحمايتها، رعايتها لنفوسهم وحمايتها لأموالهم، فاليتامى إخوان للأوصياء، كلهم أخوة في الإسلام، أعضاء في الأسرة المسلمة الكبيرة»[(٢)].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ عن مجاهدٍ قال: «يعني: أن الله لا يخفى عليه الذين يريدون منكم الإصلاح لهم، والإفساد عليهم» قال أبو محمدٍ: وروي عن مقاتل بن حيان والسدي نحو ذلك[(٣)]. «فليس المعول عليه هو ظاهر العمل وشكله، ولكن نيته وثمرته»[(٤)].

وقيل: «المراد فعل ما فيه الصلاح بين الموصي والموصى له بأن يأمر بالعدل والرجوع عن الزيادة، وكونها للأغنياء،

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٣٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ١٠٨، رقم ٢١٣٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٣٢.

وعليه لا يراد الصلح المرتب على الشقاق، فإن الموصي والموصى له لم يقع بينهما شقاق.

﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٨٢].

في ذلك التبديل؛ لأنه تبديل باطل إلى حق، بخلاف السابق، واستدل بالآية على أنه إذا أوصى بأكثر من الثلث لا تبطل الوصية كلها، خلافًا لزاعمه، وإنما يبطل منها ما زاد عليه؛ لأن الله تعالى لم يبطل الوصية جملة بالجور فيها، بل جعل فيها الوجه الأصلح.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٨٢].

تذييل أتى به للوعد بالثواب للمصلح على إصلاحه، وذكر المغفرة مع أن الإصلاح من الطاعات، وهي إنما تليق من فعل ما لا يجوز لتقدم ذكر الإثم الذي تتعلق به المغفرة؛ ولذلك حسن ذكرها، وفائدتها التنبيه على الأعلى بما دونه، يعني أنه تعالى غفور للآثام، فلأن يكون رحيمًا من أطاعه من باب الأولى، ويحتمل أن يكون ذكرها وعدًا للمصلح بمغفرة ما يفرط منه في الإصلاح؛ إذ ربما يحتاج فيه إلى أقوال كاذبة، وأفعال تركها أولى، وقيل: المراد غفورٌ للجنف والإثم الذي وقع من الموصي بواسطة إصلاح الوصي وصيته، أو غفور للموصي بما حدث به نفسه من الخطأ والعمل؛ إذ رجع إلى الحق، أو غفور للمصلح بواسطة إصلاحه بأن يكون الإصلاح مكفرًا لسيئاته، والكل بعيد»[(١)].

«وهكذا يربط الأمر كله بالله؛ ويشده إلى المحور الأصيل الذي تدور عليه العقيدة، وتدور عليه الحياة، وهذه هي ميزة التشريع الذي يقوم على العقيدة، فضمانة التنفيذ للتشريع لا تجيء أبدًا من الخارج، إن لم تنبثق وتتعمق في أغوار الضمير»[(٢)].

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

«والله لا يريد إحراج المسلمين وإعناتهم والمشقة عليهم فيما يكلفهم، ولو شاء الله لكلفهم هذا العنت، ولكنه لا يريد، وهو العزيز الحكيم، فهو قادر على ما يريد، ولكنه حكيم لا يريد إلا الخير واليسر والصلاح»[(٣)].

رابعًا: الإصلاح في الأرض:

يمكن إجمال منهج القرآن في الإصلاح في الأرض من خلال النقاط التالية:

أولًا: تحريم الفساد في الأرض.

ففي القرآن الكريم تشنيع على الفساد والإفساد، ولعل الآية الكريمة ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

آية جامعة مانعة للنهي عن كل ما يؤدي إلى إفساد الحياة على الأرض، من إفساد

(١) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٥٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٣٢.
(٣) المصدر السابق.

مادي أو معنوي، ومثلها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

أما الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فتؤكد على النهي عن كل أنواع الفساد والإفساد، ففي مجال البيئة المائية اهتم الإسلام بأمرين مهمين، ألا وهما حماية الماء من التلوث، فنهى عن البول في الماء، والحفاظ على مصادر الماء من الاستنزاف والهدر، فحرم الإسراف.

ثانيًا: تحريم الاعتداء على الأعراض.

حرم الزنا، وجعله من الكبائر العظام. وهذا يعتبر من عوامل الوقاية من الوقوع في المشكلة.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢ - ٣].

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وجعله تعالى شرطًا للبيعة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وتجلت الوقاية بالوصية بالحجاب، والنهي عن التبرج.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وغض البصر، وحفظ الفرج؛ قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

والبعد عن إظهار الزينة للنساء، والبعد عن العمل على إظهارها.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ

﴿مَا بَآئِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

والأمر بالقرار في البيت: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وتيسير الزواج، فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

وحرم القذف، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٤ - ٧].

ومن الاصلاح فيه: الحث على العفو فيما دون الحد.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وأن يقدم حسن الظن بالأخ المسلم.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

والتثبت بالبينة والدليل، ولا يتحدث بكل ما سمعه أو ينشره.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

وقطع الطريق على الفساق الذين يحبون أن تشيع الفاحشة والشر، يقول الله تعالى في ختام قصة الإفك: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

وذلك بعدم سماع ما يقوله الكذابون والمنافقون والمغتابون، وأصحاب القلوب المريضة، وعدم الرضا بذلك، كما هو منهج السلف رضوان الله عليهم.

ثالثًا: ومن الإصلاح في الأرض الإصلاح العام عند الاختلاف في الآراء:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

شرع الله سبحانه وتعالى حدودًا، لا يجوز أن يتعداها المسلم في خلافه عندما يخالفه أحد في آرائه، وفي الآيتين السابقتين الحديث والخلاف دائر مع المسلمين وغيرهم، ويمكن من هاتين الآيتين وغيرهما

معرفة المنهج القرآني للإصلاح وعدم تطور الخلاف عندما يحدث.

«وإن علاقة المسلمين بغيرهم علاقة تعارف، وتعاون، وبر، وعدل، فالله سبحانه يقول في التعارف المفضي إلى التعاون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويقول في البر والعدل: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

والنهي عن موالاة الكافرين يقصد به النهي عن محالفتهم، ومناصرتهم ضد المسلمين، والرضا بما هم فيه من كفر؛ إذ فيه ضرر بالغ بالمسلمين، وإضعاف لقوة الجماعة المؤمنة، وأما الموالاة بمعنى المسالمة، والمعاملة بالحسنى، وتبادل المصالح، والتعاون على أمور البر، فهذا مما دعا إليه الإسلام».

مواقف الناس من الإصلاح

عرض القرآن مواقف الناس من الإصلاح، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: المجرمون وادعاؤهم الإصلاح:

إن منهج الإسلام الأساس في الإصلاح هو: إحقاق الحق، وتثبيت معالمه وصرحه، وإبطال الشر، وهدم معاقله وحصونه، وليس هناك أخطر على الأمة من تشويه عقيدتها، وتحريف كتاب الله، وتأويل الكلام تأويلًا باطلًا، وليس هناك أيضًا أضر على الإنسان من الشرك والوثنية، واتخاذ الأرباب مع الله ظلمًا وزورًا، وافتراءً وبهتانًا.

وقد ضل جماعة من علماء أهل الكتاب وأحبارهم، فلووا ألسنتهم في كتاب الله؛ ليميلوها عن الآيات المنزلة الصحيحة إلى العبارات المبدلة المحرفة، فزادوا في كلام الله، أو نقصوا، أو حرفوا الكلم عن مواضعه، أو قرأوا كلامهم بأنغام وتراتيل؛ ليوهموا الناس بأنه من التوراة، وأن الكتاب جاء بذلك ليحسبه المسلمون حقًا وصدقًا، والواقع أنه ليس من كلام الله، ويقولون على الله الكذب، وهم يعلمون أنه مخترع مبدل محرف، ليس من عند الله، وإنما هو من عند الشيطان والهوى، وهذا ليس تلميحًا أو إيماءً، وإنما يصرحون بذلك لقسوة قلوبهم، وجرأتهم على الله.

قال الله تعالى مبينًا هذا الموقف: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨][1].

وهذا شأن كل متألهٍ منحرف عن الصراط المستقيم، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فما يزعمه المتألهون من الهداية دعوى تحتاج إلى بينة وبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١، والنمل: ٦٤].

فكم من كافر عتيد، جبار عنيد، يدعي الإيمان والهداية وهو رأس في الكفر والضلالة، كما أخبر الله عن اليهود والنصارى في قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقوله في وصف أهل الضلال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧،].

وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠،].

وعن فرعون في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وغرض فرعون بهذا القول: التدليس والتمويه على قومه، وأنه ما يريد إلا منفعتهم، مع أن الدافع الحقيقي لقوله هذا هو: التخلص من موسى عليه السلام؛ حتى يخلو له الجو في تأليه نفسه على جهلة قومه، فإنهم كانوا كما قال تعالى في شأنهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وقد حذرنا ربنا هذا المسلك.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فالخيانة تعني في مفهوم الإسلام والمسلمين: موالاة العدو وتوليه، وخيانة كل الفضائل والمبادئ التي جاء بها الإسلام، وطبيعي أن يعدل الناس الذين ابتعدوا عن مفهوم الإسلام عن استعمال التعبير القرآني في أقوالهم وأفعالهم؛ لأنهم يعلمون أن التعبير القرآني يشتمل على ما لا يريدون من مفاهيم تتنافى وسلوكهم العملي في واقع الحياة، ولذلك فهم يصفون موالاتهم

(١) الوسيط، الزحيلي ١/ ٢٠٦.

للأعداء وتوليهم لهم، وخيانتهم لله ورسوله والمؤمنين، بأوصاف الصلاح والإصلاح، وهم في الحقيقة إنما يلبسون باطلهم ثوب الحق، وينفذون مؤامراتهم وخياناتهم مع أعداء الإسلام تحت هذه الأغطية الجوفاء، فقد قتلوا المسلمين الغيورين على دينهم باسم حفظ مصالح الأمة وأمنها، وهم أول البائعين لمصالح الأمة باسم التعاون المشترك والمصالح المشتركة، وباعوا بلاد المسلمين بمن فيها من المسلمين تحت شعار المصالح القومية للأمة العربية، إلى آخر ما حواه قاموس أولئك الخونة الأنذال من ألفاظ الدجل والتضليل، وهم بهذا النهج لم يأتوا بجديد، إنما هم يسيرون على طريق أسلافهم، من طواغيت الأرض ومجرميها، فهذا فرعون كما يذكر عنه القرآن الكريم قد سبق هؤلاء على هذا الأسلوب من التحريف والتزييف.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني عن موسى رسول الله عليه السلام: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؟

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع والتضليل الماكر الخبيث؛ لإثارة دهماء الناس في وجه الحق وأهله، وعبر الزمان والمكان تتكرر كلما تقابل الحق مع الباطل، والإيمان مع الكفر[1].

ثم يقول الله عز وجل عن فرعون هذا في موضع آخر: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] انظر كيف يتحدث فرعون عن نفسه حديث المخلص لقومه، الساعي لمصلحتهم، فيقول: إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابًا، وأعتقده نافعًا، وهل يرى الطغاة أفعالهم إلا أنها الخير والرشاد؟ فالخير والرشاد في مفهوم أولئك المجرمين أن ينالوا شهواتهم وملذاتهم كاملة دون نقص، ولو فنيت الأمة كلها، أما لو كانوا يسعون في مصلحة الأمة كما يدعون لسمحوا للأمة أن تقول لهم: أنتم مخطئون، وأنتم غير صالحين للقيادة فتنحوا عنها، وأعطوا القوس باريها، ولكن الحاصل من الطغاة من فرعون الغابر إلى فراعنة العصر الحاضر أنهم لا يسمحون لأحد أن يرى رأيًا يخالف رأيهم، أو أن يقول كلامًا يخالف قصدهم، ولو لم يكونوا بهذا الوصف لما كانوا طغاة مستبدين، وفراعنة

(١) انظر: في ظلال القرآن سيد قطب ٢٤/ ١٧٨.

مجرمين[1].

ثانيًا: المنافقون وادعاؤهم الإصلاح:

المنافقون يدعون الإصلاح، لكن الله تعالى حكم عليهم بالإفساد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

فليس مصلحًا كل من ادعى الإصلاح، وليس مفسدًا كل من رمي بالفساد، بل يعرض ذلك على الكتاب والسنة حتى ينجلي الأمر، ويبين الحق للمؤمنين، وأما المستكبرون من الكفار والمنافقين، فإنهم لا يرضون عن الحق مهما بسط لهم من الأدلة والبراهين ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

ومن قبل قال فرعون وملؤه لموسى عليه السلام: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]

وانقلاب الموازين لا يضفي الشرعية على الباطل، ولا يقلبه إلى حق، ولا يجعل الفساد إصلاحًا، فالمنافقون يوالون الكافرين، ويكشفون عوارات المسلمين لهم يقولون: «إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب»[2] ويقسمون أنهم مصلحون «فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهار أنه ليس بإفساد، بل هو إصلاح، قلبًا للحقائق»[3].

وتركوا التحاكم إلى الله ورسوله، وراحوا يقسمون بالله أنهم ما فعلوا ذلك إلا إحسانًا وتوفيقًا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦١ - ٦٢].

والغريب أن كل الدعوات التي خرجت في واقعنا المعاصر ترتدي ثوب الإصلاح، وترفع كلمة المنافقين الأول، فالعبرة بالأفعال لا بالأقوال ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ونطقت نفوس مريضة بالإيمان فكذبت. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨].

صوروا إفسادهم بصورة الإصلاح لما في قلوبهم من المرض، كما في قوله تعالى:

(١) انظر: المصدر السابق ٢٤/ ١٨٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٩٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤][1].

وبين الله أن الناصحين قد أمروهم بالمعروف بعد أن نهوهم عن المنكر، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣].

ويذكرنا ذلك بقول فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

أما عن نفسه فيقول: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. ففرعون يظن نفسه مصلحًا، وموسى عليه السلام مفسدًا. والله المستعان.

ولقد علم المسلمون الحقائق الشرعية للإصلاح فعظمت قلوبهم منزلة القرآن والسنة، فما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حرمه الله، وما أحله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أحله الله؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن ربه، ومظهر لأحكامه، وظل المسلمون على هذا الفهم قرونًا طويلة، وأزمانًا مديدة، فإذا ظهر من يخالفه ويعارضه لم يلبث إلا قليلًا حتى يعلم الحق، وينقاد له، أو يطويه الزمن، وتنقرض شبهته.

وجاء العصر الحديث وقد ضعف المسلمون، وذهبت ريحهم، وضاعت هيبتهم، فبدأ أعداء الإسلام يثيرون الشبه، ويحيون ما قضى عليه علماء المسلمين من ضلالات؛ رغبةً منهم في تشكيك المسلمين بدينهم أولًا، ولينشغلوا بالرد على مخالفيهم ثانيًا، فلا يجدون فرصةً لنشر دينهم، وإيصال تعاليمه إلى العالم أجمع، كما أمرهم ربهم.

وساعدهم على ذلك ضعف المسلمين المادي، وإحساسهم بالنقص تجاه أعدائهم، مع جهل كثيرٍ من المسلمين بدينهم، وتقاعس بعض العلماء والحكام عن القيام بدورهم في حماية الدين وحياطته، ودفع الشبهات عنه.

وأخذ بعض المسلمين يردد شبهات المستشرقين بجهل حينًا، وبعلم حينًا، إما رغبة في المخالفة، وحرصًا على الشهرة التي تنشأ من مخالفة معتقدات الناس وثوابتهم، أو ادعاءً للحرية، ونبذًا لما تعارف عليه الناس، فأصبحوا أبواقًا للمستشرقين يلوكون ما مضغه غيرهم، وينشرون أفكارهم.

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٠٠.

فأصبح الإسلام يحارب في معسكرين، وأصبحت السنة في مواجهة خصمين:

خصم خارجي قوي، يلبس لبوس العلماء، ويدعي الحياد، وهو لا يرقب في المسلمين إلًا ولا ذمة، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويؤولون النصوص لتناسب ادعاءاتهم.

وخصم داخلي يلبس لبوس الحرص على الإسلام وتنقيته، والدفاع عنه، ويحمل معاول الهدم، وأسلحة الطعن، ويوهم الآخرين أنها آلات بناء وتنوير وإصلاح.

ولذلك عظم الخطب، وادلهم الأمر، واحتاج العلماء المحققون والأئمة المجتهدون أن يوضحوا من الحقائق ما كان ينبغي أن يكون أوضح من الشمس في رابعة النهار.

فأظهروا أهمية تعظيم الشريعة وحجيتها، ومكانتها من الإسلام، وأنه لا يمكن الاستغناء عنها، وأن لها قواعد حاكمة، وضوابط مقررة لا ينبغي الغفلة عنها.

والشبهات إنما تدخل على البعض بسببين:

الأول: التأويل الفاسد لكلام الله تعالى، والأحاديث الموضوعة التي شاعت وذاعت في أوساط المسلمين، فأفسدت أذواقهم، وهدمت ثوابت الإسلام في نفوسهم، واتخذها أعداء الإسلام مرتكزًا لشبهاتهم.

الثاني: سوء فهم النصوص الصحيحة، وتفسيرها على غير ما يحتمله نصها.

والتحديات والشبهات التي تواجه الشريعة بعضها قديم أحياه أعداؤها، وآخر حديث أفرزه ضعف المسلمين، وجهل كثير من أتباعه بحقائقه، وانسياقهم وراء أعداء الإسلام، وانخداعهم بهم، ومن الملاحظ أن هؤلاء -الذين ينخدعون من المسلمين ويرددون شبهات المستشرقين من أعداء الشريعة- إنما أوقعهم في الفخ الذي نصبه لهم هؤلاء أحد هذه الأمور غالبًا:

١. إما جهلهم بحقائق التراث الإسلامي، وعدم اطلاعهم عليه من ينابيعه الصافية.
٢. وإما انخداعهم بالأسلوب العلمي المزعوم الذي يدعيه أعداء الإسلام.
٣. وإما رغبتهم في الشهرة والتظاهر بالتحرر الفكري من ربقة التقليد كما يدعونه.
٤. وإما وقوعهم تحت تأثير أهواء أو انحرافات فكرية، لا يجدون مجالًا للتعبير عنها إلا بالتستر وراء أولئك المستشرقين[1].
٥. وإما إنه نتيجة طبيعية للانهزام النفسي، والإحساس بالنقص أمام الحضارة

(١) انظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي ص٤- ٥.

الغربية مع الخواء الروحي، والجهل الشرعي، فيجتمع من ذلك رغبة في تجديد الدين بحيث تتوافق تشريعاته وأحكامه مع الحضارة الغربية، والأفكار المعاصرة.

والخلاصة: أنه إذا كان للإصلاح أهله ودعاته فإن له مدعين وأدعياء، ليسوا منه في العير ولا في النفير، ولا هو منهم في قليل ولا كثير، لكنهم مع ذلك ينتسبون إليه بالبنوة زورًا.

والإصلاح عند هؤلاء الأدعياء له معانٍ أخرى لا علاقة لها به، فإذا كان الإصلاح بمعناه الشرعي الصحيح يعني: تطبيق مراد الله تعالى في الأرض، فإن الإصلاح عند الأدعياء: موافقة أهواء الأنفس، ومراد الطواغيت والكفار.

فمن الأول؛ موافقة أهواء الأنفس: ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

فإن من الناس من لا يرى الإصلاح إلا فيما يوافق هوى نفسه، فينصبها معبودًا له، ويجعل هواها هو الميزان الذي يتحاكم إليه في تمييز القبيح من الحسن، فما وافق هوى نفسه هو الصلاح والإصلاح، وما خالف هوى نفسه هو الفساد والإفساد، وصدق الله في وصفهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ومن الثاني؛ موافقة مراد الطواغيت: ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

فمفهوم الإصلاح عند قوم فرعون: موافقة مراد فرعون؛ ولذلك اعتبروا ما يدعو إليه نبي الله موسى عليه الصلاة السلام إفسادًا؛ لما رأوا في دعوته من المخالفة لدعوة فرعون ودينه، ومعلوم أن الطاغوت هو كل من نصب نفسه معبودًا من دون الله، ومعلوم أن فرعون قال لقومه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال لموسى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

فاستحق بذلك وصف (الطاغوت).

ومن الثالث؛ موافقة مراد الكفار: ما حكاه الله تعالى عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

فتظاهروا بموافقة أهل الإيمان، وهم في واقع أمرهم يوافقون الكفار، ويرون

أن موافقة الكفار على مرادهم هو عين الإصلاح؛ ولهذا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

وبناء على هذا يتضح جليًا أن مفهوم الإصلاح الذي تروج له وسائل الإعلام العلمانية يراد به الإصلاح بالمفهوم والمنظور الغربي، وبعبارة أخرى: «موافقة مراد الغرب»، وليس «موافقة مراد الرب».

فتبرج المرأة عندهم إصلاح، والاختلاط بين الجنسين في المدارس ومقرات العمل إصلاح، والسماح للشواذ بممارسة شذوذهم إصلاح، وفي المقابل تطبيق شرع الله تعالى عندهم فساد ووحشية، وحجاب المرأة المسلمة فساد ورجعية، ومنع الخمور والزنى فساد وقمع للحرية، وأي حرية؟! إنها الحرية الغربية كما يراها الغرب.

فأدعياء الإصلاح من المفسدين استعاروا أعين غيرهم، وعقول غيرهم، معطلين حواسهم وعقولهم، غافلين أو متغافلين عن كونهم ينتمون في الأصل إلى أمة ذات حضارة تليدة، ومرجعية أصيلة، فما أكثر أدعياء الإصلاح، وما أقل دعاته، فحسبنا أن نقول كما أمر الله نبينا أن يقول: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: ٢٩].

ولاينحصر الأدعياء بهؤلاء أو بغيرهم، بل مناوأة الحق سنة كونية مستمرة للابتلاء والاختبار، وفيهم يظهر الجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٠ - ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

الأسلوب القرآني في الدعوة إلى الإصلاح

تنوعت أساليب القرآن في الدعوة إلى الإصلاح، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أسلوب الأمر:

١. أمر الله سبحانه وتعالى بالإصلاح بين المسلمين، ورتب الرحمة في الدنيا والآخرة على ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

«خافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل، وفي غير ذلك من فرائضه، واجتناب معاصيه؛ ليرحمكم ربكم، فيصفح لكم عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه بطاعته»[(١)].

«وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة»[(٢)].

ومن الرحمة: «أن لا يتصدع بنيانكم، ولا تتشتت أمتكم، وتصبح جماعات وطوائف متعادية، يقتل بعضها بعضًا؛ ولما لم يتق المؤمنون الله في الإصلاح الفوري بين الطوائف الإسلامية المتنازعة حصل من الفساد والشر ما الله به عليم في الغرب الإسلامي والشرق»[(٣)].

وأيضًا من معاني الرحمة في الدنيا والآخرة «أن تجري أحوالكم على استقامة وصلاح، وإنما اختيرت الرحمة لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة، فيكون الجزاء عليها من جنسها»[(٤)].

٢. أمر الله بالإصلاح بين المسلمين وجعله شرط الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

«أي: أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال، ألفة ومحبة واتفاق»[(٥)]. «وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح، بحسب المقام؛ وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة»[(٦)].

٣. أمر الله تعالى بالقول الحسن المعروف السديد.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٩٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠١.
(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٢٩٤.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٤٥.
(٥) تحفة الأحوذي، المباركفوري ٧/ ١٧٩.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٣.

قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

فالإصلاح بين الناس من القول المعروف.

قال الضحاك: «نزلت في إصلاح ذات البين»[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

ومن معاني القول السديد: «الإصلاح بين المتشاجرين»[(٢)].

٤. أمر الله تعالى بالعفو والصفح، وحث عليه.

والعفو والمسامحة من أوسع أبواب الإصلاح.

قال تعالى آمرًا بالعفو الصفح: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[البقرة: ١٠٩].

وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٩ - ٤٠].

وقال: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

والآيات التي تحث على ذلك كثيرة ومشهورة.

٥. أمر الله تعالى بالإصلاح من خلال الدخول في السلم وعدم المخاصمة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ أي: الإيمان الذي هو ملزم لسهولة الانقياد إلى كل خير، وهو في الأصل بالفتح، والكسر: الموادعة في الظاهر بالقول والفعل، أي: يا من آمن بلسانه -كهذا الألد- ليكن الإيمان أو الاستسلام بكلية الباطن والظاهر؛ ظرفًا محيطٌ بكم من جميع الجوانب، فيحيط بالقلب والقالب -كما أحاط باللسان- ولا يكون لغرامة الجهل وجلافة الكفر إليكم سبيل ﴿كَافَّةً﴾، أي: وليكن جميعكم في ذلك شرعًا واحدًا سواءً، كهذا الذي يشري نفسه، ولا تنقسموا فيكون بعضكم هكذا وبعضكم كذلك الألد؛ فإن ذلك دليل الكذب في دعوى الإيمان.

ولما كان الإباء والعناد الذي يحمل عليه

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٢٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٥٣.

الأنفة والكبر فعل الشيطان، وثمرة كونه من نار.

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ أي: تكلفوا أنفسكم من أمر الضلال ضد ما فطرها الله تعالى عليه، وسهله لها من الهدى ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرق المبعد المحترق في الكبر عن الحق.

قال الحرالي: فيه إشعار وإنذار بما وقع في هذه الأمة، وهو واقع، وسيقع من خروجهم من السلم إلى الاحتراب بوقوع الفتنة في الألسنة والأسنة على أمر الدنيا، وعودهم إلى أمور جاهليتهم؛ لأن الدنيا أقطاع الشيطان، كما أن الآخرة خلاصة الرحمن، فكان ابتداء الفتنة منذ كسر الباب الموصد على السلم، وهو عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، «فلم يزل الهرج ولا يزال إلى أن تضع الحرب أوزارها»[1].

ثانيًا: الثناء على المصلحين:

١. أن الله سبحانه وتعالى رتب الأجر العظيم على الإصلاح بين الناس.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

أي: لا خير في كثير من المتناجين من الناس إلا فيمن أمر بصدقة، أو معروف أو إصلاح بين الناس، فإن أولئك فيهم الخير[2].

«وخص الله سبحانه الصدقة والإصلاح بين الناس بالذكر من بين ما شمله هذا العام إيذانًا بالاعتناء بهما لما في الأول: من بذل المال الذي هو شقيق الروح، وما في الثاني: من إزالة فساد ذات البين، وهي الحالقة للدين كما في الخبر»[3].

وعن أبي ثابت قال: «كنت جالسًا عند محمد بن كعب القرظي فأتاه رجل، فقال له القوم: أين كنت؟ فقال: أصلحت بين قوم، فقال محمد بن كعب: أصبت، لك من أجر المجاهدين، ثم قرأ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]»[4].

قال الأوزاعي: «ما خطوة أحب إلى الله عز وجل من خطوة في إصلاح ذات البين، ومن أصلح بين اثنين كتب الله له براءة من

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١/ ٣١٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٨١-٤٨٢.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٥/ ١٤٤-١٤٥.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في مداراة الناس، باب الإصلاح بين الناس رقم ١٥١، ص١٢٠.

النار»[1].

٢. حث الله تعالى على الشفاعة الحسنة، وأنها من الإصلاح الذي يؤدي للخير.

قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس»[2].

قال القرطبي رحمه الله: «فمن شفع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر، ومن سعى بالنميمة والغيبة أثم»[3].

ثالثًا: العرض القصصي:

نماذج قرآنية موجزة في الإصلاح:

١. درس من القرآن في قصة ابني آدم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣١].

يمكننا استخلاص بعض الفوائد من مشهد الخصومة بين فردين أخوين، ومنها:

١. المسلم رباني حتى في خصومته، يحرص على مرضاة الله، ورضوان الله لا يتحقق بمخالفة أمره، أو بالتمادي في الخصومة أو بتطويرها إلى حالة فجور، وظلم وبغي على الآخرين.

٢. عدم مقابلة السيئة بالسيئة: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣. تذكير المخطئ بالله، وعدم الإفساد، والبعد عن الخصومة: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤. عند إظهار الخصومة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٥.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٥٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٩٥.

٥. إذا كانت خصومة ابني آدم قد انتهت بمقتل الطرف الطيب التقي، فالتشريع ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم أوجد فقهًا وطريقةً، وأسلوبًا للتصدي لفجار الخصومات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

٢. قصة موسى والقبطي الذي أراد موسى أن يقتله.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٤ - ١٩].

فوائد للإصلاح في القصة:

١. أغاث موسى عليه السلام الذي من شيعته؛ لأن نصرة المظلوم دين في الملل كلها، وفرض في جميع الشرائع[١]، فهو الإصلاح بنصرة المظلوم على الظالم، وإرجاع حقه له، وإن لم يفعل ذلك لانتشر الظلم والفساد الذي يؤدي إلى فساد علاقة الناس ببعضهم.

٢. وكز موسى عليه السلام للمعتدي كان للزجر؛ ولذلك قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

٣. «أن من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾»[٢]. فعلى المصلح أن يدفع الخلاف والقتال بالتي هي أحسن: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص ١٩]. أي: «فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن»[٣].

٤. وأن يكون متصفًا بكظم الغيظ، كما

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٦٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٨.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٨٧.

قال: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]. «وما تريد أن تكون من المصلحين في كظم الغيظ»[(١)]، ولقد كظم موسى عليه السلام غيظه ولم يقتله.

٥. ويجب على المصلح أن يسعى بالصلح بين الخصمين بالتراضي بينهما. قال ابن عاشور: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]. أي: «إنك تحاول أن تكون متصرفًا بالانتقام وبالشدة، ولا تحاول أن تكون من المصلحين بين الخصمين بأن تسعى في التراضي بينهما»[(٢)].

٦. أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك نميمة -بل قد يكون واجبًا- كما أخبر ذلك الرجل لموسى عليه السلام ناصحًا له ومحذرًا.

٧. أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، فإنه لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، كما فعل موسى عليه السلام.

٨. وفعله عليه السلام ودعاؤه يفيد أن النعم تقتضي فعل الخير، وترك الشر والإفساد[(٣)].

٩. على المصلح أن يكون حياديًا في الإصلاح، وفي الحديث مع المختصمين، فلما استغاثه الذي من شيعته مرة أخرى علم أنه رجل كثير المخاصمة، فقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨].

١٠. أن يتقبل المصلح الوعظ والتذكير من أي أحد إذا كان فيهما خير للناس والمجتمع. قال تعالى عن القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

١١. يجب حفظ المصلح من أن يمسه أذى. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

٣. موقف موسى مع أخيه هارون عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ولكن القوم غيروا: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٣١.
(٢) التحرير والتنوير ٢٠/ ٩٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦١٨.

لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨ - ١٥١].

الفوائد الإصلاحية عند اختلاف الآراء من القصة:

١. أن يعلم خلفيات الموضوع: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢ - ٩٣]. ألم أقل لك بقولي: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

٢. أن ينبه خصمه على كف أذاه، وعدم الاستعجال عليه؛ ليبين حجته: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤].

٣. ترقيق الكلام والتأدب مع المخالف: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾، «فهذا ترقيق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه»[(١)].

٤. بيان وجهة النظر بوضوح: ﴿اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]. و: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

٥. تذكير الأخوة بما يفرح الأعداء: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. «بنهرك لي، ومسك إياي»[(٢)].

٦. التنبيه على الفرق في المعاملة: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. «فتعاملني معاملتهم»[(٣)].

٧. دعاء الأخوة المختلفين لبعضهم: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

٤. قصة داود مع الخصمين.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٤.

لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢١ - ٢٦].

أرسل الله سبحانه وتعالى لنبيه داود عليه السلام ملكين للامتحان، فدخلا عليه من غير باب المحراب، ففزع منهم نبي الله داود عليه السلام؛ لدخولهما عليه من غير الباب[١] والوقت[٢].

وقد ذكر المفسرون فوائد في قضية الإصلاح عند تفسيرهم الآية، منها:

١. أن المنصوح وإن كان كبير القدر جليل العلم لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادر بالقبول والشكر والعدل.

٢. استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، وأن لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم، فعليه أن يلتزم ضبط النفس، ويتغاضى، ويلتزم الحلم والعفو، ويحكم بالعدل.

٣. نص الله تعالى على الأخوة، فإن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة المتعلقات الدنيوية والمالية موجبة للتعدي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح[٣].

٤. على المصلح أن يتروى في الحكم قبل إصداره، ولا ينفعل فيه تحت تأثير قوة كلام خصمٍ ما، وألا يأخذ بظاهر قول واحد، قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته[٤].

٥. «وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق، ولا يعدلوا عنه فيضلوا»[٥]، «ولا يتم العدل إلا بعلمٍ بالواجب، وعلمٍ بالواقع، وقدرةٍ على تنفيذ الحق»[٦].

٦. «يحدد التوجيه المقصود من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس، فهي الخلافة في الأرض، والحكم بين الناس بالحق، وعدم اتباع الهوى، والتزام التريث والتثبت والتبين»[٧].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٣-٥٤.

(٢) قال الشيخ السعدي: «وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله تعالى، لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها».
انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٧١٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٧١١-٧١٣.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣٠١٨.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٦٣.

(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧١٢.

(٧) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠١٨.

٥. نموذج قصة المجادلة.

هذا النموذج يقص علينا الحق سبحانه وتعالى أحداث خلاف حياتي أسري بين زوجين مسلمين، فأنزل الله سبحانه وتعالى الحكم قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة؛ ليبقى الحل الشامل الكامل خالدًا.

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١ - ٤].

وقد جاءت بتفصيلاتها في السنة[(١)].

فمن الفوائد الإصلاحية في قصة المجادلة[(٢)]:

١. الاهتمام بالحياة الزوجية: فالتربية القرآنية الربانية والمتحصلة من قراءة وتدبر القرآن تقوم بدور عظيم يحافظ على كيان الأسرة والعلاقات الزوجية بالإصلاح والتربية والصبر والاستقرار.

٢. بيان المشكلة وسببها بوضوح: ذكرت رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبب هذه المشكلة، وهي أنها راجعت زوجها أوس بن الصامت في شيء مما أثار غضبه.

٣. القدرة على استيعاب المشكلة الزوجية وإدارتها: فخولة رضي الله عنها لم تتفوه بكلمة تغضب الله ورسوله، بل سألت عن أفضل الحلول التي تتفق مع ظروفها، وظروف بيتها وزوجها، وهذا يؤكد على المسؤولية في استيعاب الخلاف العائلي بحكمة خاصة.

٤. الورع والخوف من الله تعالى: كان موقف خولة رضي الله عنها عظيمًا وفريدًا، فأحداث تلك الواقعة، والملابسات الداخلية التي حدثت بين زوجين داخل بيتهما، ميزت سلوكها الراقي الورع الذي استوعب أخطاء الزوج من أجل عدم الوقوع فيما يغضب الله عز وجل، وفهمت الهدف العظيم الذي يرنو إليه أي زوجين، وهو: حماية كيان الأسرة، من غير إضاعة عبادة الله.

---

(١) أخرجها أحمد في المسند، ٦/ ٤١٠، رقم ٢٧٣٦، وأبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم ٢٢١٤، ٢٢١٥.
وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم ٢٢١٤.

(٢) انظر: بحث قيم حول قصة المجادلة، كتبه الدكتور حمدي شعيب، مجلة البيان، عدد ٢٠٦، شوال سنة ١٤٢٥هـ.

٥. الفقه للمرجعية في الإصلاح: جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه، ومن في ناحية البيت لا يسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

٦. صفات المصلح: إن تصرفه صلى الله عليه وسلم مع خولة ومشكلتها يضع أمامنا الضوابط المطلوب توفرها في كل مصلح، فمن تلك الصفات: اهتمام المصلح بالموضوع وصاحبه، التواضع، الحيادية، والتروي، والعدل، والرفق بالرعية.

٧. إرادتها الصلح، وهذا يتضح من خلال سعيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تريد منه الحل في المشكلة.

أثر الإصلاح في الفرد والمجتمع

بين الوحي الإلهي أثر الإصلاح على الفرد والمجتمع، ومن تلك الآثار ما يأتي:

١. مدافعة الشر عن الناس ببعضهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فبين الله تعالى أن من فضله ورحمته أنه يدفع الشر عن الناس ببعضهم، ولا شك أن الفرقة والخلاف شر بين المسلمين، فإذا لم تدفع ببعض جهود بعضهم ظهر الفساد في الأرض.

٢. الالتئام وعدم التفرق والتمزق.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وجه الشاهد: «لما عاب سبحانه وتعالى الكفار بالضلال ثم بالإضلال، أمر المؤمنين بالهدى في أنفسهم، وأتبعه الأمر بالاجتماع، وكان الأمر بالاجتماع المؤكد بالنهي عن التفرق، ربما أفهم الوجوب لتفرد الجميع في كل جزئية من جزئيات العبادة في كل وقت على سبيل الاجتماع، مع الإعراض عن كل عائق عن ذلك سواء كان وسيلة أو

لا، بالنسبة إلى كل فرد فرد؛ أتبعه بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

أي: جماعة تصلح لأن يقصدها غيرها، ويكون بعضها قاصدًا بعضًا، حتى تكون أشد شيء ائتلافًا واجتماعًا في كل وقت من الأوقات»[١].

٣. قوة هيبتهم وعدم فشلهم وذهاب هيبتهم.

فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وهل أخر المسلمين اليوم في هذه الأوقات إلا تفرقهم والتعادي بينهم وخورهم، وتقاعدهم عن مصالحهم والقيام بشؤونهم، حتى صاروا عالةً على غيرهم.

٤. أن الإصلاح يغيظ الكفار والمنافقين.

إن أهل الشر يحاولون أن يوقعوا المسلمين في التهلكة بإيجاد الفتنة والإفساد بينهم.

قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

أي: «بخروجهم معكم لن يزيدوكم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ إلا فسادًا وشرًا ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم، وإفساد ذات البين»[٢].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

«فنبه تعالى على كثرة فساده بقوله: ﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: كلها بفعله وقوله: ﴿لِيُفْسِدَ﴾، أي: ليوقع الفساد، وهو: اسم لجميع المعاصي ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض، في ذات البين لأجل الإهلاك، والناس أسرع شيء إليه، فيصير له مشاركون في أفعال الفساد»[٣].

وقال تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢].

الأشرار أي: «الأراذل الذين لا خير فيهم؛ بأنهم قد قطعوا الرحم، وفرقوا بين العشيرة، وأفسدوا ذات البين»[٤].

ولما يحصل في الخصومات والمشادات من الأضرار العظيمة من سفك الدماء، وذهاب الحقوق، وتجشم العداوات، والإساءة والإيذاء.

فكل ما سبق من الأدلة دافع إلى الحرص على الصلح بين الناس، وحل المشاكل المتأزمة بينهم، فعلى كل مسلم أن يكون رجلًا مجاهدًا حريصًا على أمته من التشتت

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٩٤.

(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٤٧.

(٣) نظم الدر، البقاعي ١/ ٣٠٨.

(٤) المصدر السابق ٧/ ٢٠٨.

والضياع، فيسعى بالصلح بين كل من تحصل بينه وبين أخيه شحناء إذا وجد نار الغضب تتأجج بالخلافات والمنازعات فيما بينهما، فليحاول التدخل بالصلح؛ ليكون حكمًا عدلًا مصلحًا بأقواله، وباذلًا في ذلك ما يستطيعه من جاهٍ، أو فعلٍ أو مالٍ إذا تطلب الأمر ذلك؛ حتى يطفئ تلك النار الملتهبة، أو المشاكل المعقدة، ويحل بدلها الصلح والسلام والوئام، ولا يقول هذا لا يعنيني! فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أخبر بأن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة.

قال: (اذهبوا بنا نصلح بينهم)[1].

وعلى كل مسلم أن يكون مشاركًا فاعلًا في هذه الحياة بنفع إخوانه، مسابقًا في ميادين الإصلاح والعمل المثمر، مسارعًا إلى ما يؤلف القلوب، ويرفع مستوى أمته، فيسمو بين الورى بحسن الثناء، ويسعد في آخرته عند الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فكم علاقة بين إخوة في الله كادت أن تتمزق، وكاد أن يقع القتال بسبب خلاف سهل، فإذا بهذا المصلح بكلمة طيبة، ونصيحة غالية، ومال مبذول، يعيد المياه إلى مجاريها، والحياة إلى طبيعتها.

٥. دفع حركة الدعوة إلى الله تعالى وقوتها.

فالدعوة إلى الله تحتاج إلى جهد كل مسلم آمن بالله ربًا لكي يتم الله هذا الأمر، وإذا حصل خلافٌ أو خصومة بين أفراد المجتمع -وهم جزءٌ من المجتمع- يتأثر المجتمع بما يحصل بينهم من خير أو شر، وصرفت طاقات وأفكار وأموال وأوقات في هذا الخلاف، ثم مثلها وأكثر منها لكي يعوض هذا الخلل، ويرأب الصدع، وأقل ضرره تعطيل سير الدعوة إلى الله والإنتاجية النافعة إلى أن يصطلحا.

ولذا فالإصلاح بين الناس واجب إذا تنازعوا، وواجب لابد منه لتستقيم الحياة، فقد قال الله تعالى آمرًا بالإصلاح: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

موضوعات ذات صلة:

التغيير، الصلاح، الفساد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب قول الإمام لأصحابه: اذهبوا بنا نصلح بينهم، رقم ٢٦٩٣.

أسماء الله الحسنى

عناصر الموضوع

مفهوم أسماء الله الحسنى	٢٨٦
إحصاء أسماء الله الحسنى	٢٨٧
الإيمان بأسماء الله الحسنى	٢٩٠
تعدد وتنوع أسماء الله الحسنى	٢٩٣
اقتران أسماء الله الحسنى	٢٩٦
أحكام تتعلق بأسماء الله الحسنى	٣٠٥
صور الإلحاد في أسماء الله	٣٠٩
ثمرات الإيمان بأسماء الله الحسنى	٣١٠

مفهوم أسماء الله الحسنى

أولًا: المعنى اللغوي:

الاسم لغة:

ذكر الجوهري أن في الاسم أربع لغات: «اسم» بكسر الهمزة وضمها، و«سم» بكسر السين وضمها، وهو مشتق من السمو والعلو[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الاسم مشتق من السمو وهو العلو كما قال النحاة البصريون؛ لأن الاسم يظهر به المسمى ويعلو، فيقال للمسمي: «سمه» أي: أظهره، و«أعله» أي: أعل ذكره بالاسم الذي يذكر به»[(٢)].

«وقيل: هو اللفظ الموضوع لمعنًى تعيينًا أو تمييزًا، وقيل: هو العلامة توضع على الشيء يعرف بها»[(٣)].

الحسنى لغة:

حسنى على وزن (فعلى) تأنيث أفعل التفضيل، فحسنى تأنيث أحسن، ككبرى تأنيث أكبر، وصغرى تأنيث أصغر، ولذلك يخطئ من يقول: «إنها تأنيث حسن»؛ لأن تأنيث (حسن) (حسنة)، ومن أجل ذلك لا يصح أن نقول: «إن أسماء الله حسنة»، والصواب هو أن نقول: «إن أسماء الله حسنى» كما وصفها الله بذلك[(٤)].

والحسنى في اللغة: جمع الأحسن، لا جمع الحسن، فإن جمع الحسن حِسان وحَسَنَة، فأسماء الله تعالى التي لا تحصى كلها حُسْنَى، أي: أنها أحسن الأسماء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها»[(٥)].

---

(١) انظر: الصحاح ٦/ ٢٣٨٣.
(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ٢٠٧.
(٣) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، التميمي ص ٢٩.
(٤) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، التميمي ص ٣٠.
(٥) شرح العقيدة الأصفهانية ص٣١.

إحصاء أسماء الله الحسنى

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة)[1].

أولًا: معنى الإحصاء:

قيل في معنى الإحصاء عدة أقوال، بيانها فيما يلي[2]:

١. الحفظ.

أن يعدها حتى يستوفيها حفظًا ويدعو ربه بها، ويثني عليه بجميعها.

قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨].

ودليل ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لله تسعة وتسعون اسمًا، من حفظها دخل الجنة)[3].

قال ابن حجر: «لا يلزم من مجيئه بلفظ: (حفظها) تعيين السرد عن ظهر قلب، بل يحتمل الحفظ المعنوي»[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم، رقم ٧٣٩٢، ٩/ ١١٨.
(٢) انظر: النهج الأسمى، النجدي ١/ ٥٢، ٥٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدا، ٩/ ١١٨، رقم ٧٣٩٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله، ٤/ ٢٠٦٢، رقم ٢٦٧٧.
(٤) فتح الباري ١١/ ٢٢٦.

٢. الإطاقة.

كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠] أي: لن تطيقوه[5]، وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: (استقيموا ولن تحصوا..). أي: لن تبلغوا كل الاستقامة، فيكون المعنى: أن يطيق الأسماء الحسنى، ويحسن المراعاة لها وأن يعمل بمقتضاها، وأن يعتبرها فيلزم نفسه بواجبها، فإذا قال: «يا رحمن يا رحيم»، تذكر صفة الرحمة، واعتقد أنها من صفات الله سبحانه، فيرجو رحمته ولا ييأس من مغفرته، وإذا قال: «السميع البصير»، علم أنه يراه ويسمعه، وأنه لا تخفى عليه خافية، وأنه يعلم السر كما يعلم العلن، ويعلم الباطن كما يعلم الظاهر، فيحافظ على قدسيتها ويرعى حرمتها، فيخافه في سره وعلنه، ويراقبه في كافة أحواله، فإذا حدثته نفسه بمعصيةٍ ذكرها بقدرة الله وعظمته وأسمائه وصفاته؛ لعلها تنزجر[6].

٣. العقل والمعرفة.

فيكون معناه أن من عرفها، وعقل معانيها، وآمن بها دخل الجنة. وهو مأخوذ من الحصاة وهي: العقل، والعرب تقول: فلان ذو حصاة، أي: ذو عقل ومعرفة

(٥) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٤٦٠.
(٦) انظر: شأن الدعاء، الخطابي ص٢٧-٢٨، فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٢٢٥-٢٢٦.

بالأمور[1].

ومن كرم الله تعالى، أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب مع صحة النية أن يدخله الله الجنة؛ وهذه المراتب الثلاثة للسابقين والصديقين وأصحاب اليمين[2].

قال ابن القيم: «إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم؛ فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا، إما علم بما كونه أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم، والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كله مصلحة وحكمة ولطف وإحسان؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلًا ولا سدًى ولا عبثًا، وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم؛ إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها. وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللًا ولا تفاوتًا؛ لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله إما أن يكون لجهله به، أو لعدم حكمته، وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض»[3].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في معنى الإحصاء[4]:

١. الإحاطة بها لفظًا ومعنى.

٢. دعاء الله بها، لقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وذلك بأن تجعلها وسيلة لك عند الدعاء، فتقول: «يا ذا الجلال والإكرام»، «يا حي يا قيوم»، وما أشبه ذلك.

٣. أن تتعبد لله بمقتضاها، فإذا علمت أنه رحيم تتعرض لرحمته، وإذا علمت أنه غفور تتعرض لمغفرته، وإذا علمت أنه سميع اتقيت القول الذي يغضبه، وإذا علمت أنه بصير اجتنبت الفعل الذي لا يرضاه.

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٢٢٥.
(٣) بدائع الفوائد، ١/ ١٦٣.
(٤) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٢/ ٢١٤.

وقال أيضًا: أما قولـه صلى الله عليه وسلم: (إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة)[1]، فلا يدل على حصر الأسماء بهذا العدد، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة: إن أسماء الله تسعة وتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنة أو نحو ذلك[2].

أما عن رأي المفسرين في قضية إحصاء أسماء الله عز وجل، فقد قال الإمام الألوسي، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]: «والذي أراه أنه لا حصر لأسمائه- عزت أسماؤه- في التسعة والتسعين، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما قال عبدٌ قط إذا أصابه هم وحزن: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبدله مكان حزنه فرحًا). قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: (أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)[3].

فهذا الحديث صريح في عدم الحصر، وحكى النووي اتفاق العلماء على ذلك، وأن المقصود من الحديث الإخبار بأن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، وهو لا ينافي أن له تعالى أسماء غيرها»[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا، رقم ٧٣٩٢، ٩/ ١١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله، ٤/ ٢٠٦٢، رقم ٢٦٧٧.

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٢/ ٢١٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبدالله بن مسعود، رقم ٤٣١٨، ٧/ ٣٤١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٨٣.

(٤) روح المعاني، ٥/ ١١٥.

الإيمان بأسماء الله الحسنى

الإيمان بأسماء الله عز وجل ركن من أركان الإيمان بالله تعالى، وللإيمان بأسماء الله وصفاته أسس وقواعد يرتكز عليها، أصلها إثبات ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسله، ونفي ما نفوه، مع الجزم بنفي مماثلته لخلقه، وعدم الإلحاد في شيء منها.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «إن الإيمان بأسماء الله الحسنى ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان وروحه، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه وقوي يقينه»[(١)].

أركان الإيمان بأسماء الله وصفاته:

الأول: تنزيه خالق السموات والأرض عن مشابهة المخلوقين في الذات، والأسماء، والصفات، والأفعال.

الثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله من الأسماء، والصفات.

الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية أسماء الله، وصفاته، وأفعاله[(٢)].

فكما لا نعلم كيفية ذاته سبحانه لا نعلم كيفية أسمائه، وصفاته، وأفعاله، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

يقول محمد بن إبراهيم: «مذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته لفظًا ومعنًى، واعتقاد أن هذه الأسماء والصفات على الحقيقة لا المجاز، وأن لها معاني حقيقية تليق بجلال الله وعظمته، وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر، ومعاني هذه الصفات ظاهرة معروفة من القرآن كغيرها لا لبس فيها ولا إشكال ولا غموض، فقد أخذ أصحاب رسول الله عنه القرآن، ونقلوا عنه الأحاديث، لم يستشكلوا شيئًا من معاني هذه الآيات والأحاديث؛ لأنها واضحة صريحة وكذلك من بعدهم من القرون الفاضلة»[(٣)].

هناك مجموعة من الأسس التي تقوم عليها عقيدة أهل السنة والجماعة في قضية الإيمان بأسماء الله عز وجل، منها:

الأساس الأول: إثبات ما أثبته الله ورسوله.

قال الإمام الشافعي: «آمنت بما جاء عن الله، وبما جاء عن رسوله، على مراد رسول الله»[(٤)].

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ص ٤١.
(٢) مختصر الفقه الإسلامي، التويجري ص ٤٨.
(٣) فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ١/ ٢٢٣.
(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٢.

ويدل على صحة هذا الأساس أمور منها:

أن أسماء الله غيبٌ لا يعرف إلا من قبل الوحي الصادق.

أن رد ما أثبته الله لنفسه، أو الرسول لربه، تكذيبٌ لله ولرسوله.

النصوص الآمرة بالإيمان بأسماء الله- عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وكما في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤][(١)].

الأساس الثاني: اعتقادهم أن أسماء الله كلها حسنى، وصفاته كلها كاملةٌ عليا.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قال ابن تيمية: «الكمال ثابت لله، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تبارك وتعالى يستحقه بنفسه المقدسة»[(٢)].

الأساس الثالث: تنزيه الباري تبارك وتعالى عن التشبيه والتمثيل وكل صفات النقص.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال أيضًا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

يقول ابن تيمية: «الله سبحانه ليس كمثله شيء، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة، وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصًا أو حدوثًا، فإن الله منزه عنه حقيقة؛ فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه، ويمتنع عنه الحدوث لامتناع العدم عليه»[(٣)].

وأهل السنة والجماعة يعرفون ربهم بأسمائه الواردة في القرآن والسنة، ويصفون ربهم بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ويثبتون لله ما أثبته لنفسه من غير تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، ولا تحريف، وقاعدتهم في كل ذلك قول الله تبارك

(١) انظر: الأسماء والصفات، الأشقر ص٩٩-١٠١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ١٧

(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٦.

وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

فالإيمان بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله أساس بنيان الدين، وهو من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، ومتى كان الأساس راسخًا حمل البنيان، والأقوال والأعمال بنيان الدين، وسقفه الأخلاق الحسنة.

وأساس كل ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وتوحيده بها، ومتى كان الأساس قويًا حمل البنيان، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه.

وإن كان الأساس غير وثيق لم يحمل البنيان، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان كله.

وعلى قدر إحكام الأساس يكون علو البنيان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥- ٦٦]

وأوثق أساس يبني عليه العبد بنيانه مركبٌ من أمرين:

معرفة الله وتوحيده بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.. وتجريد الانقياد لله ورسوله.

والقرآن كله بيان لهذا الأساس، وترسيخ له، ودعوة إلى إتقانه، والعمل به، فهو الغاية التي خلق الله الخلق من أجلها كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٧]

وقد ذكر الله سبحانه في القرآن كثيرًا من أسمائه وصفاته وأفعاله، وأظهرها في آياته ومخلوقاته؛ ليعرف عباده بها، ليؤمنوا بها، وليعبدوه بموجبها، ويدعوه بها.

تعدد وتنوع أسماء الله الحسنى

أسماء الله الحسنى وصفاته العلى كثيرة لا تحد بعدد معين، ولا يحيط بعلمها إلا الله عز وجل الذي تسمى بها واتصف بها، فأسماؤه عز وجل متعددة ومتنوعة، وهذا ما سيوضحه البحث في الأسطر التالية.

أولًا: تعدد أسماء الله عز وجل:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

هذه الآية دلت على تعدد أسماء الله عز وجل بشكل واضح وصريح، فقال عز وجل ﴿الْأَسْمَاءُ﴾ وهو جمع (اسم).

قال الألوسي: «والذي أراه أنه لا حصر لأسمائه-عزت أسماؤه-في التسعة والتسعين»[(١)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة)[(٢)].

«واتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصرٌ لأسمائه سبحانه وتعالى، فليس معناه أنه ليس له أسماءٌ غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء»[(٣)].

ولهذا جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما قال عبد قط إذا أصابه همٌّ وحزن: «اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي»، إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبدله مكان حزنه فرحًا).

قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: (أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)[(٤)]، فهذا الحديث صريح في تعدد أسمائه عز وجل.

ثانيًا: تنوع أسماء الله عز وجل:

أسماء الله عز وجل كلها مترادفة في الدلالة على الذات، متباينة في الدلالة على الصفات، لدلالة كل اسم منها على

(١) روح المعاني، ٥/ ١١٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم، رقم ٧٣٩٢، ٩/ ١١٨.
(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ٥.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٤٣١٨، ٧/ ٣٤١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٨٣.

معنى خاص مستفاد منه كالعظيم، والكبير، والعزيز، والخالق، والرزاق، والكريم، وغيرها من الأسماء الحسنى، فكل أسماء الله الحسنى تدل على ذات الله، وتدل على صفات متعددة للرب، كالخلق، والتصوير، والعلم، والقدرة، والرزق، والكرم، وهكذا[1].

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم فدعا الله تعالى فقال: (يا الله، يا رحمن)، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين، فنزلت الآية[2].

وقال أبو السعود: «والضمير في (له) للمسمى؛ لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام (أيًا ما تدعو فهو حسن)، فوضع موضعه (فله الأسماء الحسنى) للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه؛ إذ حسن جميع أسمائه يستدعي حسن ذلك الاسمين، وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلالة والجمال والإكرام»[3].

إن تنوع أسماء الله عز وجل ليس عبثًا، فأسماؤه عز وجل أعلام وأوصاف، أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بالاعتبار الأول مترادفة؛ لدلالتها على مسمى واحد، وهو الله عز وجل، وبالاعتبار الثاني متباينة؛ لدلالة كل واحد منهما على معناه الخاص، فـ «الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم» كلها أسماء لمسمى واحد وهو الله- سبحانه وتعالى-، لكن معنى الحي غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير، وهكذا.

وإنما قلنا بأنها أعلام وأوصاف لدلالة القرآن عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

فإن الآية الثانية دلت على أن الرحيم هو المتصف بالرحمة، ولإجماع أهل اللغة والعرف أنه لا يقال: «عليم» إلا لمن علم، ولا «سميع» إلا لمن سمع، ولا «بصير» إلا لمن له بصر، وهذا أمر أبين من أن يحتاج إلى دليل[4].

ومما يوضح الصورة أكثر في قضية تنوع

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه، ابن عثيمين ١/ ١٢.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره، ١٧/ ٥٨٠.
(٣) إرشاد العقل السليم، ٥/ ٢٠٠.
(٤) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه، ابن عثيمين ١/ ٨.

أسماء الله عز وجل ما جاء في أواخر سورة الحشر.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

[الحشر: ٢٣-٢٤]

ذكرت هذه الآيات بعضًا من أسمائه عز وجل، فكل اسم من أسمائه سبحانه له ما يميزه عن غيره، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء، والحاكم على جميع المخلوقات، والمتصرف فيها تصرف المالك في ملكه[١]، وقوله ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي: المنزه عن كل نقص، البالغ أقصى ما يتصوره العقل في الطهارة، وفي البعد عن النقائص والعيوب، وعن كل ما لا يليق[٢]، وقوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: ذو السلامة من كل ما لا يليق، أو ذو السلام على عباده في الجنة[٣] وهكذا...

وكما ورد عند أبي داود وصححه الألباني من حديث أنس رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا ورجلٌ يصلي ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى)[٤].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥٤.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٥/ ٣١٧.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، ٢/ ٧٩، رقم ١٤٩٥.

اقتران أسماء الله الحسنى

لعل أكثر ما يشد انتباه قارئ القرآن (أسماء الله عز وجل) وما تحمل من كل معاني الكمال والقوة والعظمة، فنلاحظ أن أسماءه -جل وعلا- تأتي مفردة: كالقدير، والسميع، والبصير... إلخ، ومقترنة بعضها ببعضٍ، نحو: السميع البصير، الغفور الرحيم، الغني الحميد، النافع الضار.. وهكذا، وهذا الاقتران فيه حكمة عظيمة مما يدل على كمال الرب سبحانه وتعالى، وفي الأسطر الآتية سيتطرق البحث إلى قضية الاقتران ويذكر أمثلة لها لتتضح صورتها أكثر.

إن ظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها في الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها، فكما أن اسمه الخالق يقتضي مخلوقًا، والبارئ يقتضي مبروءًا، والمصور يقتضي مصورًا ولا بد، فأسماؤه الغفار التواب تقتضي مغفورًا له وما يغفره له، وكذلك من يتوب عليه وأمورًا يتوب عليه من أجلها، ومن يحلم عنه ويعفو عنه، وما يكون متعلق الحلم والعفو، فإن هذه الأمور متعلقة بالغير، ومعانيها مستلزمة لمتعلقاتها[1].

فكل اسم من أسماء الله هو الأعظم في موضعه بظهور أثره في العباد، وحكمة الله في ترتيب المصالح المقصودة والغايات الحميدة، والله عز وجل من حكمته أيضًا أنه يقرن بين أسمائه في كثير من المواضع لتظهر دلالتها على أوصافه ككمال فوق الكمال، وجلال فوق الجلال، بحيث تتجلى عظمة رب العزة والجلال في أسمائه وصفاته وأفعاله، كما قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وفيما يلي بعض الأمثلة على اقتران أسماء الله تعالى:

١ . اقتران العليم بالحكيم.

كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

يفيد اقتران الاسمين أن الله سبحانه وتعالى حكيم في تعليمه ما شاء لمن يشاء، ومنعه ما شاء عمن يشاء، وفي هذا المعنى يقول ابن كثير: «﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء، لك الحكمة في ذلك والعدل التام»[2].

ويقول السعدي: «لما خلق الله آدم، وعلمه أسماء كل شيء مما جعله الله له، وبين يديه، وعجزت الملائكة عن معرفتها، وأنبأهم آدم بها ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٧٥.

﴿مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فاعترفوا لله بسعة العلم، وكمال الحكمة»[1].

٢. اقتران التواب بالرحيم.

كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]

إذا تأملنا الآيات السابقة وجدنا أن التوبة موضوع أساسي في هذه الآيات، فناسب تذييل الآيات بذكر اسم (التواب)، حثًا للعباد عليها، وترغيبًا لهم فيها. واقترن اسم (الرحيم) مع (التواب)؛ لأن التوبة بقسميها، سواء كان التوفيق للتوبة، أو قبولها، فإن ذلك كله من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده؛ لأن بقاءهم على الذنب من غير توبة سبب للعقوبة، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل التوبة سببًا لدفع العقوبة عنهم.

وفي هذا يقول الإمام الطبري: «وأما قوله: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، فإنه يعني أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة، ورحمته إياه إقالة عثرته وصفحه عن عقوبة جرمه»[2].

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن، ص ٦٠.
(٢) جامع البيان ١/ ١٩٥.

ومن رحمة الله سبحانه أنه لم يعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلهم ليتمكنوا من التوبة[3].

قال أبو السعود في اقتران الاسمين: «وفي الجمع بين الوصفين[4] وعدٌ بليغ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران»[5].

٣. اقتران الواسع بالعليم.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

قال الإمام الطبري في معنى ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: «يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال، والجود والتدبير، وأما قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ فإنه يعني أنه عليم بأفعالهم، لا

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ١/ ٣٢١.
(٤) الوصفان اللذان يتضمنهما الاسمان.
(٥) إرشاد العقل السليم، ١/ ٩٢.

يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم»[1].

وقال السعدي: «واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسرائركم ونياتكم. فمن سعته وعلمه وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر»[2].

وفي الآية الثانية قال الطبري: «وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فإنه يعني بذلك: والله واسع بفضله، فينعم به على من أحب، ويريد به من يشاء، (عليم) بمن هو أهل لملكه الذي يؤتيه، وفضله الذي يعطيه، فيعطيه ذلك لعلمه به، وبأنه لما أعطاه أهل، إما للإصلاح به، وإما لأن ينتفع هو به»[3].

وقال ابن كثير: «﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحق»[4].

وفي الآية الثالثة قال الطبري في تفسيره: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني -تعالى ذكره- بذلك: والله واسع أن يزيد من يشاء من خلقه المنفقين في سبيله على أضعاف السبعمائة التي وعده أن يزيده، عليم من يستحق منهم الزيادة»[5].

وقال ابن القيم: «وقد ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها، وهما الواسع والعليم، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه[6]، فإن المضاعف واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق؛ فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته، بل يضع فضله موضعه لسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه»[7].

ويتضح مما سبق أن هذين الاسمين (واسع عليم) اقترنا لبيان سعة عطاء الله سبحانه وتعالى، وعلمه بمن يستحق هذا العطاء، والمواضع الأخرى من القرآن الكريم التي اقترن فيها هذان الاسمان لا تخرج عن المعنى المذكور.

٤ . اقتران السميع بالعليم.

كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم

(١) جامع البيان، ١/ ٤٠٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص١٢٩.
(٣) جامع البيان، ٢/ ٦٢٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٠٢.
(٥) جامع البيان ٣/ ٤٢.
(٦) العطن للإبل كالوطن للناس، وقد غلب على مبركها حول الحوض، ورجل رحب العطن أي: رحب الذراع، كثير المال، واسع الرحل. انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٨٦.
(٧) أسماء الله الحسنى، ص ٣٠٠.

﴿بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ١٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

تختلف مناسبة اقتران هذين الاسمين من آية إلى أخرى، وذلك لاختلاف موضوع الآيات، فالآية الأولى في شأن الدعاء، ولذا ناسب أن يختم الدعاء بالتوسل إلى الله سبحانه باستجابة الدعاء بهذين الاسمين، فالسميع بمعنى السامع للدعاء، أو مجيب الدعاء، والعليم بحال الداعي وحاجته، فإن البشر لو سأل بشرًا مثله لابد له أن يعلمه بحاله وما فيه من العوز، أما الله - سبحانه وتعالى- لا يخفى عليه شيء من حال الداعي، فهو السامع لدعائه، العالم بحاله.

وأما في الآية الثانية فإن اقتران هذين الاسمين يحمل معنى التهديد والوعيد لأعداء الله، فالله سبحانه وتعالى هو السامع لأقوالهم، العليم بأفعالهم.

قال الطبري: «فسيكفيك الله يا محمد هؤلاء الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ من اليهود والنصارى، إن هم تولوا عن أن يؤمنوا بمثل إيمان أصحابك بالله، وبما أنزل إليك، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وسائر الأنبياء غيرهم، وفرقوا بين الله ورسله، إما بقتل السيف، وإما بجلاء عن جوارك، وغير ذلك من العقوبات، فإن الله هو السميع لما يقولون لك بألسنتهم، ويبدون لك بأفواههم من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضالة، العليم بما يبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحسد والبغضاء. ففعل الله بهم ذلك عاجلًا وأنجز وعده، فكفى نبيه صلى الله عليه وسلم بتسليطه إياه عليهم حتى قتل بعضهم وأجلى بعضًا، وأذل بعضًا وأخزاه بالجزية والصغار»[(١)].

قال ابن سعدي: «ولهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم؛ لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم، وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر، والبواطن، فإذا كان كذلك كفاك الله شرهم»[(٢)].

وفي الآية الثالثة أيضًا جاء اقتران الاسمين تهديدًا ووعيدًا لمن بدل الوصية، لذا قال القرطبي في تفسيره عن هذين

(١) جامع البيان، ١/ ٤٤٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص١٤٩.

الاسمين وما تضمناه من الصفات: «صفتان لله تعالى لا يخفى معهما شيء من جنف[1] الموصين وتبديل المعتدين»[2].

وفي الآية الرابعة أيضًا يدل اقتران الاسمين فيها على التهديد لمن جعل الحلف مانعًا له من الخير، وفي ذلك يقول الطبري: «والله سميع لما يقوله الحالف منكم بالله إذا حلف، فقال: والله لا أبر، ولا أتقي، ولا أصلح بين الناس، ولغير ذلك من قيلكم وأيمانكم. عليم بما تقصدون وتبتغون بحلفكم ذلك الخير تريدون أم غيره، لأني علام الغيوب وما تضمره الصدور، لا تخفى علي خافية، ولا ينكتم عني أمر علن فظهر، أو خفي فبطن، وهذا من الله تعالى ذكره تهديد ووعيد ...»[3].

الخلاصة: أن اقتران هذين الاسمين (السميع العليم) جاء في آيات الدعاء للإشعار بقربه وسمعه للداعين، وعلمه بأحوالهم، وفي الجزاء لبيان سماعه لأقوالهم وعلمه بأعمالهم من خير وشر.

٥. اقتران العزيز بالحكيم.

كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠]

تختلف مناسبة اقتران الاسمين من آية إلى أخرى، ففي الآية الأولى جاء اقتران الاسمين على لسان إبراهيم عليه السلام في دعائه لربه تعظيمًا وإجلالًا، فذكر اسم (العزيز) إشعارًا بقدرة الله سبحانه وتعالى على تحقيق مطلوبه، وذكر (الحكيم) تفاؤلًا بتحقيق الخير من الله - سبحانه وتعالى- لن يفعل بذريته إلا ما هو خير، وفي هذا يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: «إنك يا رب أنت العزيز القوي الذي لا يعجزه شيء أراده، فافعل بنا وبذريتنا ما سألناه وطلبناه منك. والحكيم: الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل، فأعطنا ما ينفعنا وينفع ذريتنا، ولا

(١) الجنف: الميل.
انظر: الصحاح، الجوهري، ٤/ ١٣٣٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ١٨٠.
(٣) جامع البيان ٢/ ٢٤٠.

ينقصك ولا ينقص خزائنك»[1].

ويقول السعدي: «كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزتك، وكمال حكمتك، فإنه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سدى هملًا، لا يرسل إليهم رسولا، فحقق الله حكمته ببعثته خاتمًا، كما حقق حكمته ورحمته ببعثة إخوانه المرسلين من قبله. لئلا يكون للناس على الله حجة. والأمور كلها: قدريها، وشرعيها، لا تقوم إلا بعزة الله، ونفوذ حكمه»[2].

والآية الثانية جاء اقتران الاسمين فيها للتهديد والوعيد لمن عدل عن الحق بعد ما تبين له، فإن العزيز الحكيم إذا عصاه العاصي عن علم، قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة، يقول ابن كثير في هذه الآية: «وقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، أي: عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه»[3].

قال الطبري في تفسيره: «فإن أخطأتم الحق، فضللتم عنه، وخالفتم الإسلام وشرائعه، من بعد ما جاءتكم حججي وبينات هداي، واتضحت لكم صحة أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون، فاعلموا أن الله ذو عزة، لا يمنعه من الانتقام منكم مانع، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم أمره ومعصيتكم إياه دافع، حكيم فيما يفعل بكم من عقوبته على معصيتكم إياه بعد إقامته الحجة عليكم، وفي غيره من أموره»[4].

واقتران الاسمين في الآية الثالثة لبيان أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يضيق عليكم، ولكن حكمته سبحانه لم تقتض ذلك، بل شرع لكم كل ما هو محكم ومتقن، ويقول الطبري في تفسير الآية: «إن الله عزيز في سلطانه، لا يمنعه مانع مما أحل بكم من عقوبة، لو أعنتكم بما يجهدكم القيام به من فرائضه، فقصرتم في القيام به، ولا يقدر دافع أن يدفعه عن ذلك ولا عن غيره مما يفعله بكم ويغيركم من ذلك لو فعله هو، لكنه بفضل رحمته من عليكم بترك تكليفه إياكم ذلك، وهو حكيم في ذلك لو فعله بكم، وفي غيره من أحكامه وتدبيره لا يدخل أفعاله خلل ولا نقص ولا وهن ولا عيب؛ لأنه فعل ذي الحكمة الذي لا يجهل عواقب الأمور، فيدخل تدبيره مذمة عاقبة، كما يدخل ذلك أفعال الخلق لجهلهم بعواقب الأمور، لسوء

(١) المصدر السابق ١/ ٤٣٦.
(٢) القواعد الحسان لتفسير القرآن، ص ٦٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٤٩.
(٤) جامع البيان ٢/ ١٨٩- ١٩٠.

اختيارهم فيها ابتداء»[1].

واقتران الاسمين في الآية الرابعة فيه التهديد والوعيد لمن خالف شرع الله المحكم، وفي هذا يقول الطبري: «وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فإنه يعني تعالى ذكره: والله (عزيز) في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده من الرجال والنساء، فمنع من كان من الرجال نساءهم وأزواجهم ما فرض لهن عليهم في الآيات التي مضت قبل: من المتعة، والصداق، والوصية، وإخراجهن قبل انقضاء الحول، وترك المحافظة على الصلوات وأوقاتها، ومنع من كان من النساء ما ألزمهن الله من التربص عند وفاة أزواجهن عن الأزواج، وخالف أمره في المحافظة على أوقات الصلوات، (حكيم) فيما قضى بين عباده من قضاياه التي قد تقدمت في الآيات قبل قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفي غير ذلك من أحكامه وأقضيته»[2].

الخلاصة: أن اقتران (العزيز الحكيم) في الآيات السابقة جاء بمناسبة الدعاء إجلالًا لله وتعظيمًا، وإشعارًا بقدرته على تحقيق المطلوب، وتفاؤلًا بحصول الخير، فإن ذلك من حكمة الله سبحانه وتعالى. كما جاء اقتران الاسمين بمناسبة ما جاء من أمر الله وشرعه المحكم الذي لا نقص فيه ولا خلل، وأن الله سبحانه وتعالى مقابل هذا الإحكام في شرعه وأمره قادر على الانتقام ممن خالف ذلك، لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

٦. اقتران الرءوف بالرحيم.

كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]

قال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: «الجملة استئنافية لبيان علة النفي فيما قبلها»[3].

قال أبو السعود: «﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تحقيق وتقرير للحكم، وتعليل له، فإن اتصافه عز وجل بهما يقتضي لا محالة أن لا يضيع أجورهم، ولا يدع ما فيه صلاحهم»[4].

ولما كانت هذه الآية فيها طمأنة للمسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم، وأنهم ليسوا على ضلال، وأن صلاتهم لم تضع، ناسب ختامها باجتماع هذين

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٢١.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٥٩٨.
(٣) المنار، ٢/ ١١-١٢.
(٤) إرشاد العقل السليم، ١/ ١٧٤.

الاسمين (رءوف رحيم)، فإن ذلك كله من رأفة الله سبحانه وتعالى بعباده ورحمته بهم. ولما كان هذا في حال المؤمنين الأوائل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتصر على ذكر الرحمة فحسب، بل أكد ذلك بالرأفة وهي أشد الرحمة.

الخلاصة: إذا تأملنا المواضع الأخرى من القرآن الكريم التي اقترن فيها هذان الاسمان (الرءوف الرحيم) وجدنا أنها لا تخرج عن امتنان الله سبحانه على عباده بأمر ديني أو دنيوي. فكل ما وهبه الله سبحانه وتعالى لعباده من خير، أو ما دفعه عنهم من سوء، فهو من رأفته ورحمته بهم.

٧. اقتران الغفور بالرحيم.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]

في تفسير الآية الأولى قال السعدي: «والإنسان في هذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه. فيجب إذًا عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلًا لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أخبر أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصًا وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة»[(١)].

وقال ابن كثير: «قال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام رحيم إذ أحل له الحرام في الاضطرار»[(٢)].

وأما الآية الثانية فقد قال الطبري في تفسيرها: «وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإنه يعني: والله غفور رحيم للموصي فيما كان حدث به نفسه من الجنف والإثم، إذا ترك أن يأثم ويجنف في وصيته، فتجاوز له عما كان حدث به نفسه من الجور، إذ لم يمض ذلك فيغفل أن يؤاخذه به، رحيم بالمصلح بين الموصي وبين من أراد أن يجنف عليه لغيره أو يأثم فيه له»[(٣)].

وأما الآية الثالثة فقال ابن كثير في تفسيرها: «أي: فإن تركوا القتال في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة فإن الله يغفر

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٠٧.
(٣) جامع البيان، ٢/ ٧٥.

ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره لمن تاب منه إليه»[1].

والآية الرابعة جاء اقتران الاسمين بعد الأمر بالاستغفار بعد الفراغ من العبادة للخلل الواقع فيها، وكثيرًا ما يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بالاستغفار بعد الفراغ من العبادات، واقترن هذان الاسمان في الآية المذكورة ترغيبًا في الاستغفار[2].

٨. اقتران الغفور بالحليم.

كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

وقال الطبري: «والله غفور لعباده فيما لغوا من أيمانهم التي أخبر الله -تعالى ذكره- أنه لا يؤاخذهم بها، ولو شاء واخذهم بها، ولما واخذهم بها فكفروها في عاجل الدنيا بالتكفير فيه، ولو شاء واخذهم في آجل الآخرة بالعقوبة عليه، فساتر عليهم فيها، وصافح لهم بعفوه عن العقوبة فيها وغير ذلك من ذنوبهم. حليم في تركه معاجلة أهل معصيته العقوبة على معاصيهم»[3].

وفي الآية الثانية يقول الطبري: «﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، يعني: أنه ذو ستر لذنوب عباده، وتغطية عليها فيما تكنه نفوس الرجال من خطبة المعتدات وذكرهم إياهن في حال عددهن، وفي غير ذلك من خطاياهم، وقوله ﴿حَلِيمٌ﴾، يعني: أنه ذو أناة لا يعجل على عباده بعقوبتهم على ذنوبهم»[4].

الخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى عقب باقتران هذين الاسمين بعد الإخبار بتجاوزه سبحانه وتعالى عن عباده المؤمنين في بعض الأمور، ففي الآية الأولى بين سبحانه وتعالى تجاوزه عنهم في اللغو في الأيمان، وفي الآية الثانية بين التجاوز عنهم في التعريض بخطبة النساء.

٩. اقتران الغني بالحميد.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٢٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٤٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٤٧.
(٣) جامع البيان ٢/ ٢٤٩.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٢٧.

بِمَآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[البقرة: ٢٦٧].

قال السعدي في هذه الآية: «فهو الغني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعة الطائعين. وإنما أمرهم بها وحثهم عليها، لنفعهم، محض فضله عليهم، ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام»[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله : «فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما»[(٢)].

الخلاصة: الآيات التي اقترن فيها هذان الاسمان نجد أن اقترانهما ورد في ختام الآيات التي فيها إخبار عن إعراض المعرض؛ إما عن الإيمان بالكلية أو عن طاعة من الطاعات. كما جاء أيضًا في ختام الآيات التي تشير إلى عظمة ملك الله سبحانه وتعالى.

أحكام تتعلق بأسماء الله الحسنى

هذا الجزء من البحث يوضح أهم الأحكام المتعلقة بأسماء الله عز وجل، كوقفيتها، والدعاء بها، والإلحاد فيها.

أولًا: أسماء الله الحسنى توقيفية:

وبيان ذلك في النقاط الآتية:

١. معنى الوقف في أسماء الله تعالى.

معنى الوقف في أسماء الله سبحانه وجوب الوقوف على ما جاء نصًا في الكتاب والسنة دون زيادة أو نقصان، والاقتصار في هذا الباب على ذلك، فلا يجوز أن نسمي الله عز وجل باسم من عندنا؛ لأن فتح هذا الباب يوقع الإنسان في الخطأ، وقد ناظر أبو الحسن الأشعري رحمه الله شيخه حين أجاز أن يطلق على الله اسم (العاقل) فقال له شيخه: وأنت تطلق عليه (الحكيم) والحكيم يطلق على المخلوق، فأجابه أبو الحسن بقوله: المسألة عندي ليست بالقياس، أنا أطلقت حكيمًا؛ لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلًا؛ لأن الشرع منعه[(٣)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٣٠.
(٢) بدائع الفوائد، ١/ ١٦١.
(٣) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، ابن عثيمين ص ١٣.

٢. الأدلة على أن أسماء الله توقيفية.

قال السفاريني[(١)]:

لكنها في الحق توقيفية لنا بذا أدلة وفية

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

هذه الآية دلت على أن أسماء الله توقيفية من وجهين:

الأول: أن الله سبحانه قال فيها: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ﴾، فالأسماء هنا جاءت مقترنة بأل، وهي هنا للعهد، فالأسماء بذلك لا تكون إلا معهودة.

الوجه الثاني: قوله: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ يعني: وصف الله عز وجل لأسمائه بالحسنى؛ لأن هذا الوصف يدل على أنه ليس في الأسماء الأخرى أحسن منها، وأن غيرها لا يقوم مقامها ولا يؤدي معناها، ودليل آخر من هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الإمام البغوي: «قال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله تعالى: تسميته بما لا يسمى به، ولم ينطق به كتاب الله، ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم»[(٢)].

وقال ابن حجر: «أهل التفسير: ذكروا أن من الإلحاد في أسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة»[(٣)]، فمعنى الآية: «ذروا من لا يتوقفون على ذلك عند حدود النص الوارد في كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم»[(٤)].

والنبي صلى الله عليه وسلم من أعرف الناس بالله عز وجل وأعلم الناس به، وقد بين لأمته كل ما تحتاج إليه، فعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أصاب عبدٌ قط همٌّ ولا غمٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك؛ أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحد من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك)[(٥)].

الشاهد في هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك).

هذا المقطع من الحديث شاهد ودليل على أن أسماء الله عز وجل توقيفية.

٣. أسباب وقفية الأسماء الحسنى.

أنها من أمور الغيب التي لا يعلمها الخلق

(١) لوامع الأنوار البهية ١/ ١٢٤.
(٢) معالم التنزيل ٣/ ٣٠٦.
(٣) فتح الباري، ١١/ ٢٢١.
(٤) انظر: الدر المصون، الحلبي ٥/ ٥٢٢.
(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم ٣٧١٢، ٦/ ٢٤٦.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان ٢/ ٢٩٧.

إلا أن يعلمهم الله إياها من خلال الوحي إلى الأنبياء والرسل.

قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

أن عقل الإنسان قاصرٌ لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله تعالى من الأسماء.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا أحصي ثناءً عليك)[1]، لذلك يجب الوقوف في معرفة أسماء الله على الشرع.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أن القول على الله بغير علم من أشد المحرمات، فتسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه، أو إنكار ما سمى به نفسه جناية في حقه تعالى وتوعد الله من فعل ذلك بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/ ٣٥٢، رقم ٤٨٦.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ [الحج: ٣-٤].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من تعمد علي كذبًا فليتبوأ مقعده من النار)[2].

هذا عقاب الكاذب على النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن يكذب على الله عز وجل.

ثانيًا: الدعاء بأسماء الله الحسنى:

دعاء الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ثلاثة أنوع:

الأول: دعاء الإيمان والعبادة:

كما في قوله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله: ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له»[3].

وكما في قوله جل وعلا: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الجن: ٢٠].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، ١/ ٣٣، رقم ١٠٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١١٩.

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به، وأتوكل عليه ولا أشرك به أحدًا»[1].

الثاني: دعاء الحمد والثناء:

أفضل ما يقوله أهل الجنة -وهم في أعظم نعمة، وأكمل رحمة، وقد امتلأت قلوبهم بحب ربهم- هو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

دعاؤهم هنا أن يقولوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: تنزيهًا لك وتقديسًا يا الله، فإذا ما طلبوه وجدوه عندهم، فهم يدعون الله ويطلبونه باسمه المعروف[2].

قال الإمام القرطبي: «ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن التهليل، والتسبيح، والحمد يسمى دعاء»[3].

الثالث: دعاء المسألة والطلب:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

هذا أمر من الله عز وجل لعباده المؤمنين أن يكثروا من التضرع إليه بالدعاء، والمعنى: تضرعوا إلي أيها المؤمنون بالدعاء، وتقربوا إلي بالطاعات، أستجب لكم، ولا أخيب لكم رجاءً[4].

هذه الآية عامة في قضية الدعاء بأسماء الله عز وجل، وهناك آيات يكون فيها الدعاء بأسماء معينه من أسماء الله عز وجل منها:

دعاء سليمان عليه السلام ربه باسم الوهاب.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

ومن دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

الإلحاد في أسماء الله:

قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الإمام الطبري: «واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ فقال بعضهم: يكذبون، وقال آخرون: يشركون، وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها (اللات) اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو (الله)، وسموا بعضها (العزى) اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو (العزيز)»[5].

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١١/ ١١٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣١٣.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٣٠٤.
(٥) جامع البيان ١٣/ ٢٨٢.

قال ابن السكيت: «الملحد هو: المائل عن الحق، المدخل فيه ما ليس منه. والإلحاد في اللغة: هو الزيغ والميل والذهاب عن سنن الصواب، ومنه يمسي الملحد ملحدًا؛ لأنه مال عن طريق الحق»[1].

قال ابن القيم رحمه الله[2]:

أسماؤه أوصاف مدح كلها
مشتقة قد حملت لمعان
إياك والإلحاد فيها إنه
كفر معاذ الله من كفران
وحقيقة الإلحاد فيها الميل
بالإشراك والتعطيل والكفران

صور الإلحاد في أسماء الله

هناك عدة صور للإلحاد في أسماء الله عز وجل، منها:

١. أن تسمي الأصنام بها.

فسمى المشركون الأحجار، والأشجار، والأوثان، التي كانوا يعبدونها (آلهة)، وسموا اللات من (الإله)، والعزى من (العزيز)، ومناة من (المنان)، فهذا إلحاد؛ لأنهم عدلوا ومالوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

٢. وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص.

كقول اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة: «إنه فقير»، وقولهم: «إنه استراح بعد أن خلق الخلق»، وقولهم: «يد الله مغلولة».

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

٣. تسمية الله عز وجل بما لم يسمِ به نفسه.

كأن يطلق بعض الناس على الله اسم (الموجود)، أو (المقصود)، أو (المهدي)، وكذلك اسم (العال)، ولكن الذي ورد (العلي، والأعلى، والمتعال)، كذلك

(١) غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٣٥٢.
(٢) الكافية الشافية ص ٢١٦.

(الونيس)، و(المتجلي)، أو كما يدعي الجهلاء من عباد القبور أن من أسمائه كلمة (هو)، و(هو) معلوم أنه ضمير قد يضاف إلى أي غائب، وهو ليس من أسماء الله تبارك وتعالى.

إنكار شيء من الأسماء، أو مما دلت عليه من الصفات، ومثاله: من ينكر أن اسم (الرحمن) من أسماء الله تعالى كما فعل أهل الجاهلية، أو يثبت الأسماء، ولكن ينكر ما تضمنته من الصفات، كما يقول بعض المبتدعة: إن الله تعالى رحيم بلا رحمة، وسميع بلا سمع[1].

(١) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه، ابن عثيمين ص ٢٦.

ثمرات الإيمان بأسماء الله الحسنى

إن للتعبد بالأسماء والصفات فضائل وثمرات كثيرة على قلب العبد وعمله.

قال العز بن عبد السلام: «اعلم أن معرفة الذات والصفات مثمرة لجميع الخيرات العاجلة والآجلة، ومعرفة كل صفة من الصفات تثمر حالًا علية، وأقوالًا سنية، وأفعالًا رضية، ومراتب دنيوية، ودرجاتٍ أخروية، فمثل معرفة الذات والصفات كشجرة طيبة أصلها-وهو معرفة الذات- ثابت بالحجة والبرهان، وفرعها-وهو معرفة الصفات- في السماء مجدًا وشرفًا ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وهو خالقها؛ إذ لا يحصل شيء من ثمارها إلا بإذنه وتوفيقه، منبت هذه الشجرة القلب الذي إن صلح بالمعرفة والأحوال صلح الجسد كله»[2].

وفيما يلي بعض الفضائل والثمرات للإيمان بأسماء الله تعالى:

١. الخشية من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

يقول البحر ابن عباس رضي الله عنه

(٢) شجرة المعارف والأحوال، ص ١٤-١٥.

في معنى الآية: «إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني»[1]، وقال الطبري: «إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته - العلماء بقدرته على ما يشاء من شيء، وأنه يفعل ما يريد»[2].

وقال ابن كثير: «إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم، القدير، العليم، الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى -كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، وكانت الخشية له أعظم وأكثر»[3].

٢. التوكل عليه سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

أي: ومن يكل أمره إلى الله، ويثق به ينصره سبحانه على أعدائه، فإنه عز وجل عزيز لا يغلبه شيء، حكيم فيما يدبر من أمر خلقه[4]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

أي: ومن يفوض أمره إلى الله تعالى ويتوكل عليه وحده، فهو سبحانه كافيه في جميع أموره[5].

إن من أجل ما يثمره التعبد بالأسماء والصفات أن يعتمد القلب على الله، ويخلص في تفويض أمره إليه، وذلك حقيقة التوكل على الله.

والتوكل من أعظم العبادات تعلقًا بالأسماء والصفات، ذلك أن مبناه على أصلين عظيمين:

الأول: علم القلب، وهو يقينه بعلم الله وكفايته، وكمال قيامه بشأن خلقه، فهو القيوم سبحانه الذي كفى عباده شئونهم، فبه يقومون وله يصمدون.

والثاني: عمل القلب، وهو سكونه إلى العظيم الفعال لما يريد، وطمأنينته إليه، وتفويض أمره إليه، ورضاه وتسليمه بتصرفه وفعله؛ إذ كل شيء يمضي ويكون فبحكمه وحكمته وقدرته وعلمه، لا ينفذ شيء في الأرض ولا في السماء عن قدرته، فله الحكم كله، وإليه يرجع الأمر كله[6].

٣. الإخلاص له تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

إن إدراك معاني الأسماء يحمل العبد على إفراد الله بالقصد، والابتعاد عن صرف شيء من العبادة لغيره تعالى، ولذا كان من أعظم ما يخلص العبد من دنس الرياء ملاحظة أسماء الله وصفاته، فمن لاحظ من

(١) زاد المسير، ٣/ ٥١٠.
(٢) جامع البيان ٢٢/ ٨٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٥٤٣.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٣.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ٢٦٣.
(٦) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٤٢٦.

أسماء الله الغني دفعه ذلك إلى الإخلاص، لغنى الله تعالى عن عمله وفقره هو إلى الله عز وجل، قال الله تبارك وتعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[1].

ومن تأمل اسم الله العليم، فإنه يعلم أن ما أخفاه عن أعين الناس من ملاحظة الخلق لا يخفى على الله لعلمه التام بكل شيء، ومن تأمل اسم الله (الحفيظ) حمله ذلك على ترك الرياء؛ لأن كل ما يفعله العبد محفوظ عليه سيوافى به يوم القيامة.

٤. محبته عز وجل.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤].

فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟) فسألوه، فقال: «لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أخبروه أن الله يحبه)[2].

فمن تأمل أسماء الله وصفاته وتعلق قلبه بها طرحه ذلك على باب المحبة، وفتح له من المعارف والعلوم أمورًا لا يعبر عنها[3]، وإن من عرف الله أورثه ذلك المحبة له سبحانه وتعالى.

قال ابن الجوزي: «فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة، ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجد في الخدمة، لعل ذلك يورث المحبة، ذلك الغنى الأكبر»[4].

ومراده أن من عرف الله أحبه، ومن أحب الله أحبه الله، وذلك والله هو الفوز العظيم والجنة والنعيم، والمحبة هي المنزلة التي «فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبوب، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال، والتي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه»[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم ٢٩٨٥، ٤/ ٢٢٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٧٣٧٥، ٩/ ١١٥.

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨٦.

(٤) صيد الخاطر، ١/ ١١٠.

(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٨.

دعاء الله بأسمائه الحسنى أعظم أسباب تفريج الكروب وزوال الهموم:

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا حزنٌ، فقال: «اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي» إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدل مكانه فرحًا)، فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: (بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها)[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو عند الكرب يقول: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم)[2].

من عرف الأسماء الحسنى كما ينبغي فقد عرف حقيقة الأشياء:

إن أسماء الله الحسنى كلها حسن وبركة، ومن حسنها أنها تعرفك بكل شيء على حقيقته من غير إفراطٍ ولا تفريط، فمن عرف أن الله عز وجل هو الخالق، عرف أن كل ما دونه مخلوق.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

ومن عرف أن الله عز وجل هو الرزاق علم أن كل ما دونه مرزوق.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

وكذلك يعلم أنه لا يملك الرزق سواه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٤].

ومن عرف أن الله تبارك وتعالى هو الملك، عرف أن كل ما دونه مملوك.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٧].

فمن عرف الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، علم أنه بالكمال موصوف، وبالإحسان والجمال والجلال معروف، وعرف أيضًا نفسه بكل نقص وعيب، إلا أن يرزقه الله عز وجل كمال الإيمان وصالح الأعمال فيورث له ذلك عبوديةً صادقةً بالانكسار بين يدي الجبار تبارك وتعالى، فيذل لعزته ويخضع لقوته.

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٣٧١٢، ٦/ ٢٤٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب، رقم ٦٣٤٥، ٨/ ٧٥.

٥. التلذذ بالعبادات.

إن من أعظم ما يحصل به لذة العبادة هو تأمل الأسماء والصفات وتعبد الله بها، ومراعاتها في كل عبادة يأتي بها العبد أو يتركها.

فإذا تصدق العبد بالقليل مستشعرًا أن الله شكور لا يضيع عمله، بل يبارك له فيه -ولو كان قليلًا- كان ذلك مدخلًا على قلبه الفرح والسرور بربه، ووجد في قلبه حلاوةً عظيمةً لعمله.

ومن صلى لله تعالى متذكرًا حينما قام لله صافًا قدميه، تذكر قيومية الله تعالى، وأن الله قائم بذاته وعباده لا يقومون إلا به- سبحانه وتعالى-، ثم إذا كبر ورفع يديه استشعر أن الله أكبر من كل شيء، وشاهد كبرياء الله وعظمته وجلاله، ثم إذا قرأ دعاء الاستفتاح استشعر ما فيه من تنزيه الرب عن كل نقص، وإذا استعاذ وبسمل التجأ بقلبه إلى الركن الركين، وتبرأ من كل حول، واعتصم بالله من عدوه واستعان به لا بغيره، ثم إذا قرأ الفاتحة استشعر ما فيها من استحقاق الله لكل المحامد وألوهيته وربوبيته ورحمته بخلقه وملكه لكل شيء، واستحضر أنه يناجي ربه، وأن ربه يجيبه على مناجاته كما في الصحيح: قال الله تعالى: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: «الحمد لله رب العالمين». قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: «الرحمن الرحيم». قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: «مالك يوم الدين». قال: مجدني عبدي، فإذا قال: «إياك نعبد وإياك نستعين». قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين». قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل)[١].

وكل عبادة يقدم عليها العبد مستشعرًا هذه المعاني، وقد امتلأ قلبه بالحب للخالق العظيم، فإنه ولا بد يحصل لذتها والأنس بها، وفي الحديث: (ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[٢].

موضوعات ذات صلة:

الألوهية، التوحيد، صفات الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم ٣٩٥، ١/ ٢٩٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال الإيمان، رقم ٤٣، ١/ ٦٦.

الاضطرار

عناصر الموضوع

مفهوم الاضطرار	٨
الاضطرار في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
اعتبار الاضطرار في القرآن الكريم	١٣
حقيقة الاضطرار	١٦
من صور الاضطرار	١٨
شروط تحقق الاضطرار	٢١
مقاصد الشريعة في اعتبار الاضطرار	٢٦

مفهوم الاضطرار

أولًا: المعنى اللغوي:

الاضطرار: الاحتياج إلى الشيء، يقال: اضطر فلانٌ إلى كذا، من الضرورة، وقد اضطره إليه أمرٌ، ورجلٌ ذو ضارورةٍ وضرورةٍ، أي: ذو حاجةٍ، وقد اضطر فلان إلى الشيء: أي ألجئ إليه، والضرورة اسمٌ لمصدر الاضطرار، تقول: حملتني الضرورة على كذا وكذا[1].

إذن فالاضطرار يدور معناه حول دنو الضيق والحاجة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الاضطرار: حمل الإنسان على ما يضره»[2].

وقال الجرجاني: «الضرورة: مشتقة من الضرر، وهو النازل مما لا مدفع له»[3].

وهي عند الفقهاء: «بلوغ الإنسان حدًا إن لم يتناول الممنوع هلك أو قارب، كالمضطر للأكل واللبس بحيث لو بقي جائعًا أو عريانًا لمات، أو تلف منه عضو، وهذا يبيح تناول المحرم»[4].

وخلاصة القول: إن المتدبر في المعنيين اللغوي والاصطلاحي يجد اتصالًا وثيقًا بينهما، حيث إن المعنى الاصطلاحي هو أن الاضطرار يعني وصول الإنسان إلى درجة من الضيق واللجوء إلى مكروه، وهذا مرتبط بمعناه في اللغة الذي هو متمثلٌ في دنو الضيق والحاجة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٦٠، لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٨٣.
(٢) المفردات، ص٥٠٤.
(٣) التعريفات، ص١٣٨.
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢٨/ ١٩٨.

الاضطرار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (اضطر) في القرآن (٨) مرات [١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣]
الفعل المضارع	٢	﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان:٢٤]
اسم مفعول	١	﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢]

وجاء الاضطرار في القرآن على معناه اللغوي: الحاجة، والضرورة، والإلجاء [٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤١٩.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١٨٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحاجة:

الحاجة لغةً:

«الحاء والواو والجيم أصلٌ واحد، وهو الاضطرار إلى الشيء، فالحاجة واحدة الحاجات، والحوجاء: الحاجة، ويقال أحوج الرجل: احتاج، ويقال أيضًا: حاج يحوج بمعنى: احتاج»[(١)].

الحاجة اصطلاحًا:

تعريف أحمد كافي: «ما يحتاجه الأفراد أو تحتاجه الأمة للتوسعة ورفع الضيق إما على جهة التأقيت أو التأبيد فإذا لم تراع دخل على المكلفين على الجملة الحرج والمشقة وقد تبلغ مبلغ الفساد المتوقع في الضرورة»[(٢)].

الصلة بين الحاجة والاضطرار:

أن الحاجة وإن كانت حالة جهد ومشقة فهي أقل من الاضطرار، ومرتبتها أدنى منها، كما لا يتأتى الهلاك بفقدها[(٣)].

قال الزحيلي: «الضرورة: ما يترتب على عصيانها خطر، أما الحاجة: فهي ما يترتب على عدم الاستجابة إليها عسر وصعوبة»[(٤)].

٢ المشقة:

المشقة لغةً:

يقال: شق عليه الشيء يشق شقًا ومشقة إذا أتعبه، فهي تعني الجهد والعناء والشدة والثقل[(٥)].

المشقة اصطلاحًا:

قال الراغب: «الانكسار الذي يلحق النفس والبدن»[(٦)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٩١.
(٢) الحاجة الشرعية، أحمد كافي ص٣٣-٣٤.
(٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ١٦/ ٢٤٧.
(٤) الفقه الإسلامي وأدلته، ١/ ١٢٨.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ١٨٣.
(٦) المفردات، ص٤٥٩.

الصلة بين المشقة والاضطرار:

يتبين أن الاضطرار أعلى درجات المشقة.

٣ الرخصة:

الرخصة لغة:

من رخص الراء والخاء والصاد أصل واحد، والرخصة مفرد وجمعها رخص ورخصات، والمقصود بها التيسير واللين والتسهيل والإذن في عمل ما[١].

الرخصة اصطلاحًا:

تغيير الحكم الأصلي إلى حكم آخر أيسر منه لوجود عارض معين[٢].

وقال الجرجاني: «اسمٌ لما استبيح بعذر مع قيام الدليل المحرم»[٣].

الصلة بين الرخصة والاضطرار:

يتبين أن الأخذ بالرخصة لا يكون إلا مع الاضطرار، فلا يؤخذ بالرخصة إلا إذا كان الإنسان مضطرًا.

٤ العزيمة:

العزيمة لغةً:

قال ابن فارس: «العين والزاء والميم أصلٌ واحد صحيحٌ يدل على الصريمة والقطع، يقال: عزمت أعزم عزمًا، ويقولون: عزمت عليك إلا فعلت كذا، أي: جعلته أمرًا عزمًا، أي: لا مثنوية فيه»[٤].

العزيمة اصطلاحًا:

ذكر الغزالي أنها: «عبارةٌ عما لزم العباد بإيجاب الله تعالى»[٥].

الصلة بين العزيمة والاضطرار:

لا شك أن الإنسان المضطر إذا أخذ بالعزيمة فإنه يعرض نفسه للهلاك، ولذلك يضطر إلى الرخصة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٥٠٠، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ٨٧٤.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي، ص٤٧٢.
(٣) التعريفات، ص ١١٠.
(٤) مقاييس اللغة، ٤/ ٣٠٨.
(٥) المستصفى، ص ٧٨.

٥ الإكراه:

الإكراه لغةً:

يقال: أكرهته، أي: حملته على أمرٍ هو له كارهٌ، والكره (بالفتح): المشقة، وبالضم: القهر، وقيل العكس، وأكرهته على الأمر إكراهًا: حملته عليه قهرًا. يقال: فعلته كرهًا «بالفتح» أي: إكراهًا»[(١)].

الإكراه اصطلاحًا:

الإكراه حمل الغير على ما يكرهه بالوعيد الشديد[(٢)].

الصلة بين الإكراه والاضطرار:

لا شك أن الإنسان المكره هو مضطر فالإكراه صورة من صور الاضطرار.

٦ الحرج:

الحرج لغةً:

بمعنى الضيق، يقال: حرج الرجل: أثم، وصدرٌ حرجٌ: ضيقٌ، ورجلٌ حرجٌ: آثمٌ، ويقال: تحرج الإنسان تحرجًا، أي: فعل فعلًا جانب به الحرج[(٣)].

الحرج اصطلاحًا:

ذكرت الموسوعة الفقهية الكويتية في تعريفه: «أنه يطلق على كل ما تسبب في الضيق، سواءٌ أكان واقعًا على البدن، أم على النفس، أم عليهما معًا»[(٤)].

الصلة بين الحرج والاضطرار:

تعد حالة الاضطرار من أعلى أنواع الحرج الموجبة للتخفيف.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٣٥٣، المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٥٣٢.
(٢) التوقيف، المناوي، ٨٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ٢٣٣.
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية ١٧/ ١٦٨.

اعتبار الاضطرار في القرآن الكريم

يقتضي الحديث في هذا المطلب عن ذكر أدلة اعتبار الاضطرار في القرآن الكريم، بالإضافة إلى الحديث عن الحكمة من تذييل آيات الاضطرار بالمغفرة والرحمة.

أولًا: أدلة اعتبار الاضطرار في القرآن الكريم:

إن مما جعل لموضوع الاضطرار اعتبارًا في الشريعة الإسلامية مجموعة من آيات القرآن الكريم وهي كما يأتي:

١. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣].

٢. قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة:٣].

٣. قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٩].

٤. قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام:١٤٥].

٥. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل:١١٥].

ويلاحظ على هذه الآيات القرآنية أنها مدنية من جهة، كما أنها وردت في باب المحرمات من الأطعمة من جهة أخرى.

ثانيًا: حكمة تذييل آيات الاضطرار بالمغفرة والرحمة:

لقد ورد تذييل آيات الاضطرار بالمغفرة والرحمة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في بضع آيات من القرآن الكريم، وقد يتساءل البعض تساؤلًا مفاده: ما هي علاقة المغفرة والرحمة في مثل هذه المواضع، فالمغفرة والرحمة

تقتضيان ذنبًا فعله صاحبه ثم يتوب، ومن ثم يقبل الله عز وجل توبته فينعم الله تعالى عليه بالمغفرة والرحمة، فمثلًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣].

فما ذكر في الآية من تحريم الأطعمة الآتية:

١. الميتة التي ذبحت على غير شرع الله تعالى؛ لاحتباس الدم فيها وتوقع التضرر بها، لفساد لحمها وتلوثه بالأمراض غالبًا، فهي محرمة لاستقذارها، ولما فيها من ضرر.

٢. الدم المسفوح؛ لأنه ضار، وتأباه النفوس الطيبة، فهو حرام لقذارته وضرره أيضًا.

٣. لحم الخنزير؛ لأنه ضار، وخصوصًا أثناء الحر؛ ولأن النفوس الطيبة تأباه، فهو حيوان قذر لا يأكل غالبًا إلا من القاذورات والنجاسات، فيقذر لذلك؛ ولأن فيه ضررًا لحمله جراثيم شديدة الفتك؛ ولأن فيه كثيرًا من الطباع الخبيثة، وولوع بالنواحي الجنسية ولا يغار على أنثاه، وكسول بطبعه، والمتغذي يتأثر بتلك الطبائع، وتنتقل إليه بيوض الدودة الوحيدة الحلزونية التي قد تكون في خلايا عضلات جسمه، ولو تربى في أنظف الحظائر.

٤. ما ذبح لغير الله تعالى كأن تذبح للأصنام والأوثان والقبور ونحوها؛ لأنه من أعمال الوثنية، وفيه إشراك واعتماد على غير الله تعالى، وكان العرب في الجاهلية يذبحون للأصنام، ويقولون: باسم اللات والعزى، فهو حرام صيانة لمبدأ الدين والتوحيد وتعظيم الله عز وجل[1].

هذا كله من شرع الله عز وجل الذي يجب تنفيذه والالتزام به، وبعد هذا يذكر الله جل جلاله أن الميتة لا تحل إلا عند الضرورة، وهذا شرعه تعالى أيضًا، والإنسان المضطر حين يأخذ مما حرم عليه سابقًا على قدر ضرورته، فإن هذا هو إباحةٌ من الحق سبحانه وتعالى، فأين الذنب الذي ارتكبه المضطر ليستحق بها المغفرة والرحمة من الله عز وجل؟!

وللإجابة عن هذا التساؤل.

قال الإمام الرازي: «والجواب: من وجوه أحدها: أن المقتضي للحرمة قائم في الميتة والدم، إلا أنه زالت الحرمة لقيام المعارض، فلما كان تناوله تناولًا لما حصل فيه المقتضي للحرمة عبر عنه بالمغفرة، ثم ذكر بعده أنه رحيم، يعني لأجل الرحمة عليكم

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٧٨.

أبحت لكم ذلك، وثانيها: لعل المضطر يزيد على تناول الحاجة، فهو سبحانه غفورٌ بأن يغفر ذنبه في تناول الزيادة، رحيمٌ حيث أباح في تناول قدر الحاجة، وثالثها: أنه تعالى لما بين هذه الأحكام عقبها بكونه غفورًا رحيمًا؛ لأنه غفورٌ للعصاة إذا تابوا، رحيمٌ بالمطيعين المستمرين على نهج حكمه سبحانه وتعالى»[1].

وقال ابن عادل: «فإن قيل: قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ يناسب أن يقال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن الغفران، إنما يذكر عند حصول الإثم، فالجواب من وجوه:

أحدها: أن المقتضي للحرمة قائم في الميتة والدم إلا أنه زالت الحرمة؛ لقيام المعارض، فلما كان تناوله تناولًا لما حصل فيه المقتضي للحرمة، عبر عنه بالمغفرة، ثم ذكر بعده أنه ﴿رَّحِيمٞ﴾، يعني: لأجل الرحمة عليكم، أبحت لكم ذلك.

وثانيها: لعل المضطر يزيد على تناول قدر الحاجة.

وثالثها: إن الله تعالى، لما بين هذه الأحكام، عقبها بقوله تعالى: ﴿غَفُورٞ﴾ للعصاة، إذا تابوا، ﴿رَّحِيمٞ﴾ بالمطيعين المستمرين على منهج الحكمة»[2].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييل قصد به الامتنان، أي: إن الله موصوف بهذين الوصفين فلا جرم أن يغفر للمضطر أكل الميتة؛ لأنه رحيم بالناس، فالمغفرة هنا بمعنى التجاوز عما تمكن المؤاخذة عليه لا بمعنى تجاوز الذنب، ونحوه ... ومعنى الآية: أن رفع الإثم عن المضطر حكم يناسب من اتصف بالمغفرة والرحمة»[3].

وعليه فإن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنب الذي يحدث من صاحبه بلا مناسبة تستدعيه، فمن باب أولى أن يغفر الله جل جلاله للذي أجبرته ظروف الضرورة على أكل المحرم، فالله تعالى غفورٌ رحيمٌ في الأصل، أفلا يغفر لمن أعطاه رخصة للضرورة التي ألجأته على تناول المحرم؟ فهو جل جلاله غفورٌ رحيمٌ، كتب المغفرة لمن اضطر وكسر قاعدة التحريم عند الاضطرار.

(١) مفاتيح الغيب، ٥/ ١٩٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ٣/ ١٨٠.
(٣) التحرير والتنوير، ٢/ ١٢١.

حقيقة الاضطرار

سبق بيان أن الاضطرار: هو الاحتياج الشديد، فالمضطر قد ألجأته الضرورة إلى فعل المحرم.

يقول الله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة:٣].

ففي هذه الآية سرد الله تعالى مجموعة من الأطعمة المحرمة التي لم يحرمها جل جلاله إلا صيانةً لعباده، وحمايةً لهم من الضرر والخبث الموجود فيها، وهذه المحرمات هي: الميتة وهي التي ماتت بدون ذبح شرعي، وكذلك الدم المسفوح، ولحم الخنزير، والمنخنقة التي ماتت بالخنق، والموقوذة التي ماتت بالضرب، والمتردية الساقطة من علوٍ فماتت، والنطيحة التي نطحتها غيرها فماتت، وإذا ماتت بعض الحيوانات بسبب أكل السبع من أسد أو نمر أو طير مفترس ونحوه، فإنها لا تحل أيضًا، ثم بين الله عز وجل في ختام الآية أنه سبحانه قد أكمل دين الإسلام بتمام النصر، وإكمال الشريعة.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فيهما تمام الدين من أصول وفروع، كما أتم سبحانه وتعالى على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، واختار الإسلام واصطفاه لنا دينًا، ثم عاد الله تعالى إلى الحديث عن المحرمات السابقة في أول الآية، فذكر أن من ألجأته الضرورة إلى تناول شيء من هذه المحرمات، وهو في حالة مخمصة أي: في حالة جوع شديد، حتى إن البطن ليضمر من قلة الغذاء الوارد إليه، فمن اضطر فأكل منها فلا إثم عليه؛ لأن الله تعالى غفور رحيم[(١)].

ويقول الله عز وجل أيضًا: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٩].

فيذكر الأصوليون أن هذه الآية تضمنت استثناء حالة الضرورة حفاظًا على النفس من الهلاك، والاستثناء من التحريم إباحة[(٢)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢١٩، أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥٩٢.

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٤/ ٢٦٠٣، الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢٨/ ١٩٣.

هذا وقد بين أبو بكر الجصاص حقيقة الضرورة وذكر أن معناها متمثلٌ في خوف الإنسان المضطر من لحوق الضرر على نفسه، أو على بعض أعضائه إن ترك الأكل، وأوضح أنه يندرج تحت هذا معنيان:

الأول: أن يكون المضطر في وضع لا يجد فيه غير الميتة أو المحرم.

الثاني: أن يكون الحلال موجودًا، ولكنه أكره على تناول المحرم، وذلك بتهديدٍ ووعيدٍ يخاف من جرائه إلحاق الهلاك بنفسه، أو بتلف بعض أعضائه.

وبين الجصاص أن كلًا من المعنيين مراد في الآية لاحتمالهما[1].

وقال الإمام ابن عاشور في بيان حقيقة الضرورة وحدها: «هي الحاجة التي يشعر عندها من لم يكن دأبه البغي والعدوان بأنه سيبغي ويعتدي. وهذا تحديدٌ منضبطٌ، فإن الناس متفاوتون في تحمل الجوع ولتفاوت الأمزجة في مقاومته، ومن الفقهاء من يحدد الضرورة بخشية الهلاك ومرادهم الإفضاء إلى الموت والمرض وإلا فإن حالة الإشراف على الموت لا ينفع عندها الأكل، فعلم أن نفي الإثم عن المضطر فيما يتناوله من هذه المحرمات منوطٌ بحالة الاضطرار، فإذا تناول ما أزال به الضرورة فقد عاد التحريم كما كان، فالجائع يأكل من هاته المحرمات إن لم يجد غيرها أكلًا يغنيه عن الجوع، وإذا خاف أن تستمر به الحاجة كمن توسط فلاةً في سفرٍ أن يتزود من بعض هاته الأشياء حتى إن استغنى عنها طرحها؛ لأنه لا يدري هل يتفق له وجدانها مرةً أخرى»[2].

ويخلص من هذا إلى أن حقيقة الاضطرار تكمن في خوف المضطر على نفسه من الهلاك، فمن ألجأته الضرورة إلى أكل المحرم، فأكل فلا إثم ولا حرج عليه، كما يجب على المضطر تناول المحرم بمقدار ما يسد به رمقه ويبقيه على قيد الحياة، فيأمن معه الموت لقوله جل جلاله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

«فإن ترك المضطر تناول المحرم حتى مات، فقد وقع في المعصية؛ لأنه ألقى نفسه إلى الهلاك، وهذا منهيٌ عنه؛ ولأنه كان قادرًا على إحياء نفسه بما أباحه الله تعالى له، فلزمه ذلك، كما لو كانه معه طعامٌ حلال»[3].

(١) انظر: أحكام القرآن، ص١٥٩.

(٢) التحرير والتنوير، ٢/ ١٢٠.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٤/ ٢٦٠١.

من صور الاضطرار

للاضطرار صور كثيرة جدًا، لا يمكن حصرها، وقد ذكر القرآن بعض الصور.

ومن تلك الصور التي ذكرها القرآن الكريم:

أولًا: أكل وشرب المحرمات:

الأصل في الأطعمة التي ذكر الاضطرار فيها هو التحريم، ولا تكسر قاعدة التحريم إلا عند الاضطرار، فيباح للمضطر أن يأكل لحم الخنزير وغيره مما لا يحل من الحيوانات من باب المحافظة على الحياة، والصيانة للنفس الإنسانية من الهلاك والموت.

هذا بالإضافة إلى إباحة تناول شرب المحرم كالخمر في حالة الاضطرار.

قال سيد سابق: «كما أجازوا (أي الفقهاء) تناول الخمر في حال الاضطرار، ومثل الفقهاء لذلك بمن غص بلقمة فكاد يختنق، ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر، أو من أشرف على الهلاك من البرد ولم يجد ما يدفع به هذا الهلاك غير كوب أو جرعة من الخمر، أو من أصابته أزمة قلبية وكاد يموت»[(١)].

أما بالنسبة لمسألة التداوي بالخمر وهل يباح للعلاج، فقد اختلف العلماء في هذه المسألة بين مانع ومجيز. أما من منع فقد استدل بأن الناس كانوا في الجاهلية يتناولون الخمر للعلاج، فلما جاء الإسلام نهاهم عن ذلك وحرمه.

ويؤيد هذا ما ورد عن وائل الحضرمي أن طار بن سويد الجعفي سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر، فنهاه أو كره أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: (إنه ليس بدواءٍ، ولكنه داءٌ)[(٢)].

كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داءٍ دواءً فتداووا ولا تداووا بحرامٍ)[(٣)].

ورجح سيد سابق هذا الرأي[(٤)].

أما من أجاز التداوي بالخمر، فقد أجازها في حالة الاضطرار حيث لم يجد المضطر سواها، فعدم وجود دواء من الحلال يقوم مقام الحرام هو شرطٌ للتداوي بالخمر، كما أنه يشترط عدم قصد المتداوي بها اللذة والنشوة، وألا يتجاوز المقدار المحدد له من قبل الطبيب المسلم الثقة، فهذا من باب

(١) فقه السنة، سيد سابق، ٣/ ٢٩٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب تحريم التداوي بالخمر، ٣/ ١٥٧٣، رقم ١٩٨٤.

(٣) أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب الطب، باب في الأدوية المكروهة، ٤/ ٧، رقم ٣٨٤٧، عن أبي الدرداء.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ١٥٩٦، ١/ ٢٢٦.

(٤) انظر: فقه السنة، سيد سابق، ٣/ ٢٩٦.

الضرورات التي تبيح المحظورات للحفاظ على النفس من الهلاك[1].

وأما بالنسبة للأدوية المحرمة كالمخدرات مثلًا، فإن الأصل في تعاطيها عن طريق الأكل أو الشرب أو الحقن هو التحريم؛ وذلك لما تحتوي عليه المخدرات من الأضرار الجسيمة، وتعطيل الأعمال، كما أنها باب من أبواب الصد عن ذكر الله تعالى، والقعود عن أداء الطاعات.

ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

وأما التداوي بهذه المخدرات، فإنها تستعمل في مجال الطب لأمرين، وهما:

الأول: استعمال المخدر في العمليات الجراحية، وقد يكون التخدير جزئيًا أو كليًا للمريض، وهذا النوع جائز؛ لأن فيه تفويتًا على المريض للإحساس بالألم الشديد الذي يصيبه أثناء العملية الجراحية، فإباحته من باب الضرورة.

الثاني: استعمال المخدر مع الأدوية الطبية بنسب معينة لتسكين الآلام والأوجاع الشديدة، فهذا جائز ويباح التداوي به للحاجة والحفاظ على النفس من لحوق الضرر بها أو الهلاك، بشرط أن تكون نسبة المخدر في الدواء قليلة، ولا يترتب عليها ضرر أو سكر، فيحصل للمريض به نفع، وكذلك يشترط أن يكون المريض محتاجًا إلى هذا الدواء، ولم يوجد غيره مقامه، وأن الطبيب قد قرر أنه لا بد من تناوله، فيتناوله المريض بقدر الحاجة والضرورة[2].

ثانيًا: قتل النفس:

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:٢٩].

ذكر مجموعة من المفسرين أن المراد بقتل النفس الوارد في الآية يقصد به قتل بعضهم بعضًا، وعبر عن ذلك بالنفس؛ لأن المسلمين كلهم كالنفس الواحدة، فإذا قتل أحدهم الآخر فكأنما قتل نفسه[3].

وتحتمل الآية أيضًا معنى قتل المرء نفسه، حيث قال ابن عطية: «فأجمع المتأولون أن المقصد بهذه الآية النهي عن أن يقتل بعض الناس بعضها، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل، أو بأن يحملها على غرر ربما مات منه، فهذا كله يتناوله النهي، وقد احتج عمرو بن العاص بهذه الآية حين امتنع من الاغتسال بالماء البارد خوفًا على نفسه منه، فقرر رسول الله صلى

(١) انظر: فقه السنة، سيد سابق، ٣/ ٢٩٦، موسوعة الفقه الإسلامي، محمد التويجري، ٤/ ٣٥٧.

(٢) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، محمد التويجري، ٤/ ٣٥٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٨/ ٢٢٩، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ١٤٣، معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٢٠٠.

الله عليه وسلم احتجاجه»[1].

ويمكن أن يكون من أنواع الغرر الذي تحدث عنه ابن عطية أن يكون الإنسان في حالة اضطرار وقد أباح له الشرع ما كان محرمًا من الأطعمة أو الأشربة، فإذا قصر في ذلك، ولم يأخذ بالرخصة، فإنه يعرض نفسه للهلاك، فكأنما أصبح هو السبب في قتل نفسه، وقد قال الله عز وجل في موضع آخر: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

قال السعدي: «والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجبًا أو مقاربًا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سببٌ موصلٌ إلى تلف النفس أو الروح»[2].

ثالثًا: التلفظ بالكفر ونحوه:

يقول الله جل جلاله في هذا: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦].

والمعنى أن الله تعالى يخبر في هذه الآية عن شناعة حال من كفر بالله عز وجل بعدما أبصر طريق الحق، واهتدى بنوره، ولكنه رجع إلى ما كان عليه من ضلال وغواية، وارتضى بهذا الكفر واطمأن به، فلهم الغضب الشديد.

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: «أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابًا عظيمًا في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئًا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئًا، فهم غافلون عما يراد بهم»[3].

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، فقد قال ترجمان القرآن ابن عباس: «نزلت في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا وأمه سمية وصهيبًا وبلالًا وخبابًا وسالمًا فعذبوهم، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجئ قبلها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام. وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن عمارًا كفر، فقال: (كلا، إن عمارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه)،

(١) المحرر الوجيز، ٢/ ٤٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٦٠٥.

فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه، وقال: (إن عادوا لك فعد لهم بما قلت)، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[1].

ويلاحظ من هذا أن عمار بن ياسر رضي الله عنه كفر بلسانه، ووافق المشركين بلفظه مكرهًا لما ناله من شدة الضرب والأذى، لكن قلبه يأبى ويرفض ما قاله بلسانه، فقلبه مطمئنٌ بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم.

وعليه فإن الإنسان إذا أكره على التلفظ بألفاظ الكفر، فهو في حالة اضطرار، فيجوز له التلفظ بالكفر؛ لأنه لو فعل ما أراده المكره لأدى ذلك إلى قتله وهلاكه، والحفاظ على النفس من الهلاك مقصدٌ من مقاصد الشريعة.

ويخلص من هذا إلى أن إباحة ما كان محرمًا من الأطعمة والأشربة والأدوية، وقتل النفس، والتلفظ بالكفر هي صورٌ لحالة الاضطرار التي ترخص للإنسان المضطر وتبيح له أن يأخذ بها، ويزيل عنه الضرر الحال الذي ألم به.

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص ٢٨١.

شروط تحقق الاضطرار

كما أن للاضطرار حقيقةً وحدًا، فكذلك له شروط وضوابط محددة ليكون العمل بحكم الضرورة شرعيًا، وتفصيل هذه الضوابط فيما يأتي:

أولًا: اليقين أو غلبة الظن بوقوع الضرر:

إن من شروط العمل بهذه الرخصة التي أباح الله عز وجل الأخذ بها للإنسان المضطر أن يكون متيقنًا من وقوع الضرر ولحوقه به، فاليقين هو إدراك الشيء من غير احتماليته لشيء آخر، أما غلبة الظن فهي تحتمل أمرين أحدهما أرجح في نفس المضطر بحسب النظر فيما يظهر له.

قال أبو هلال العسكري: «إن الظن ضرب من أفعال القلوب يحدث عند بعض الأمارات، وهو رجحان أحد طرفي التجوز، وإذا حدث عند أمارات غلبت وزادت بعض الزيادة فظن صاحبه بعض ما تقتضيه تلك الأمارات سمي ذلك غلبة الظن. ويستعمل الظن فيما يدرك وفيما لا يدرك»[2].

وهذا الظن يجب أن يكون مبنيًا على النظر في الأدلة الشرعية، والحجج والبراهين والقرائن واستقراء الأحوال، لا ظنًا مبنيًا على الهوى والشهوة ومخالفة

(٢) الفروق اللغوية، ص ٩٨.

النصوص الصحيحة الصريحة، فهذا ظن مذموم لا يجوز الاعتماد عليه، ولهذا الضابط أدلة كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ومنها -على سبيل المثال لا الحصر-: قوله جل جلاله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وغيرهما الكثير.

ووجه دلالة مثل هذه الآيات تفيد لو أن الإنسان كلف بالوصول إلى درجة اليقين لكلف ما لا يطيق، فيكون هذا من التعسير والوقوع في الحرج، وليس من التيسير.

أما من السنة النبوية المطهرة، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم، كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم)[١]، وقد ورد عن أبي واقدٍ الليثي قال: قلت: يا رسول الله، إنا بأرضٍ تصيبنا بها مخمصةٌ، فما يحل لنا من الميتة؟ قال: (إذا لم تصطبحوا، ولم تغتبقوا، ولم تحتفئوا بقلًا[٢]، فشأنكم بها)[٣].

ووجه دلالة مثل هذه الأحاديث أننا مأمورون بمجموعة من الأوامر، وعلينا تنفيذها بقدر استطاعتنا، فما لا يدخل في استطاعتنا فإننا لسنا مطالبين بتنفيذه، فالحصول على درجة اليقين ليس مستطاعًا في كل أمر، فإنه يتعذر، وحيث تعذر فإنه يصار إلى ما هو أخف منه وأقل منه درجة وهو غلبة الظن؛ لأنها هي المستطاعة في كثير من الأمور، وحديث أبي واقد يدل دلالة واضحة على أن المخالفة وارتكاب المحظور لا يتم إلا بعد التيقن والجزم أو غلبة الظن المبني على النظر في الأدلة الشرعية واستقراء الأحوال بحصول الضرر.

وعليه فإنه قد علم في الشريعة من أن الأحكام تناط باليقين والظنون الغالبة، وأنه لا التفات فيها إلى الأوهام والظنون المرجوحة البعيدة[٤].

وعودةً إلى الشخص المضطر فقد قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٣٠، رقم ١٣٣٧، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لم تحتفئوا بها بقلاً: لم تجدوا فيها ما يقتلع فيؤكل.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ص ٤١١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٨٩٨، ٣٦/ ٢٢٧، والحاكم في مستدركه، رقم ٧٢٣٦، ٤/ ٢٣٠.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

(٤) انظر قاعدة من شك هل فعل شيئًا أو لا؟ في: الأشباه والنظائر، السيوطي، ص ٥٥، الأشباه والنظائر، ابن نجيم، ص ٥١.

الله عز وجل فيه: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [النحل:١١٥].

فهذا الفعل على وزن (افتعل)، ومعلومٌ أن الاضطرار حالة خارجة عن سيطرة الإنسان التي يعلم من خلالها اليقين أو غلبة الظن بحصول الضرر، فيشترط في هذه الضرورة أن تكون قائمة وموجودة، ولا ينتظرها صاحبها في المستقبل، فيغلب على ظنه الهلاك على نفسه إن لم يأكل الميتة.

قال الدكتور وهبة الزحيلي: «أي أن يحصل في الواقع خوف الهلاك على النفس أو المال بغلبة الظن بحسب التجارب، أو التحقق من خطر التلف، لو لم يأكل، ويكفي في ذلك الظن، كما في الإكراه على أكل الحرام، فلا يشترط فيه التيقن ولا الإشراف على الموت، بل لو انتهى إلى هذه الحالة لم يفد الأكل ولم يحل الأكل كما صرح الشافعية»[(١)].

ثانيًا: تعذر الوسائل المباحة في إزالة الضرر:

إذا كانت الوسائل المشروعة والمباحة في إزالة الضرر متعذرة، ولم يبق إلا الوسيلة المحظورة، فإنه حينئذٍ يتعين على الشخص المضطر ارتكاب المحظور كوسيلة لدفع هذا الضرر الواقع، وفي المقابل يفهم أنه إذا أمكن إزالة هذا الضرر بوسيلة مشروعة امتنع ارتكاب الوسيلة المحظورة.

وهذا يفهم من عموم قوله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

والحاجة الشديدة الملحة التي ليس لها دافع مشروع يدفعها إنما تتأتى وتتحقق بتعذر جميع الوسائل المباحة.

وذكر الإمام الطبري في تفسير هذه الآية قوله: «واحذروا الله أيها المؤمنون وخافوا عقابه، وتجنبوا عذابه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، والعمل بما يقرب إليه ما أطقتم وبلغه وسعكم»[(٢)].

كما ذكر أيضًا أن هذه الآية هي ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢]، تخفيفًا عن المسلمين.

ونقل عن قتادة قوله: «قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ هذه رخصة من الله، والله رحيم بعباده. وكان الله جل ثناؤه أنزل قبل ذلك ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ثم خفف الله تعالى ذكره عن عباده، فأنزل الرخصة بعد ذلك فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ فيما استطعت يا ابن آدم، عليها بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، ٤/ ٢٦٠٣.

(٢) جامع البيان، ٢٣/ ٤٢٦.

السمع والطاعة فيما استطعتم»[1].

ثالثًا: ارتكاب أخف الضررين:

يتمثل هذا الضابط في أن الإنسان إذا ألمت به ضرورة، فإنه يجب عليه إزالة هذا الضرر الواقع به، فلا يزال بضرر مماثل له؛ لأن الضرر حينئذٍ باقٍ على ما هو عليه، ولم يزل، وكذلك لا يزال بضرر أكبر منه؛ لأنه سوف يكون من باب جلب المفاسد، والمفسدة في هذه الحالة أكبر من المصلحة، والمطلوب هو درء المفاسد بإزالة الضرر الواقع، وليس زيادته[2].

وعليه فإنه يجب أن يراعى في إزالة الضرر إزالته بضرر أخف منه، فالمصلحة في هذه الحالة أكبر وأعظم من المفسدة، فإن الإنسان المضطر إلى أكل الميتة مثلًا أمامه ضرران هما:

الأول: هلاك نفسه، وقد قال الله جل جلاله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

وهو ضرر كبير وعظيم.

الثاني: تناول المحظور، وهو ضرر أدنى وأخف من الأول، فيأخذ به المضطر، فيكون بذلك قد جلب منفعة أكبر من مفسدة الضرر الأول.

فيجب على المضطر ارتكاب أخف الضررين لينقذ نفسه من الهلاك.

رابعًا: الضرورة تقدر بقدرها:

يتمثل هذا الضابط في ارتكاب المحظور أو تناول المحرم في حالة الاضطرار بقدر الضرورة الملجئة بدون زيادة أو نقصان، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣].

وذكر جمهور المفسرين في تفسير هذه الآية قولين:

الأول: أن من أُكره على أكل المحظور فلا إثم عليه.

الثاني: أن من احتاج إلى أكل المحظور لضرورة دعته من خوفه على نفسه فلا إثم عليه[3].

هذا وقد ذكر الماوردي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ ثلاثة أقوال، وهي كما يأتي:

الأول: أي غير باغٍ على الإمام، ولا عادٍ على الأمة بإفساد شملهم.

الثاني: غير باغٍ في أكله فوق حاجته، ولا عادٍ يعني متعديًا بأكل المحظور وهو يجد غيره من المباح.

الثالث: غير باغٍ في أكل المحظور شهوةً

(١) المصدر السابق، ٢٣/ ٤٢٧.
(٢) انظر: الأشباه والنظائر، السيوطي، ص ٨٦.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ١/ ٢٢٢.

وتلذذًا، ولا عادٍ باستيفاء الأكل إلى حد الشبع[1].

وبين الإمام الرازي أن المضطر لا يأكل من الميتة إلا ما يسد به رمقه، ووضح أن هذا هو الأقرب في دلالة الآية، وعلل ذلك بقوله: «لأن سبب الرخصة إذا كان الإلجاء، فمتى ارتفع الإلجاء ارتفعت الرخصة، كما لو وجد الحلال لم يجز له تناول الميتة لارتفاع الإلجاء إلى أكلها لوجود الحلال، فكذلك إذا زال الاضطرار بأكل قدر منه فالزائد محرم»[2].

ويقول الله عز وجل في موضع آخر: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة:٣].

والمعنى: أن من دعته الضرورة إلى أكل الميتة وسائر المحرمات المذكورة في الآية، بسبب الخمص وهو ضمور البطن من شدة الجوع، وكان هذا المضطر غير مائلٍ للحرام بشكل متعمد ومقصود فيه للمعصية، فإن الله تعالى له غفور رحيم[3].

ويخلص من هذا إلى أن المضطر يأكل من المحظور بالقدر الذي يزيل عنه الضرورة التي ألجئ إليها فقط، ولا يزيد على ذلك فيدخل في دائرة التلذذ وقضاء شهوة الأكل، ولا ينقص من ذلك فيؤدي إلى هلاك نفسه.

ويخلص من هذا إلى أن ضوابط الاضطرار متمثلة في حصول اليقين أو غلبة الظن بوقوع الضرر، وتعذر الوسائل المشروعة في إزالة الضرر الواقع، ووجوب تقدير الضرورة بقدرها دون زيادة أو نقصان، وبارتكاب أخف الضررين لينجو بنفسه.

(١) انظر: المصدر السابق، ١/ ٢٢٣.
(٢) مفاتيح الغيب، ٥/ ٢٠٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٦٥.

مقاصد الشريعة في اعتبار الاضطرار

إن مراعاة حالة الاضطرار ينتج عنها تحقيقٌ لبعض مقاصد الشريعة الإسلامية، وتفصيل هذه المقاصد وبيانها كما يأتي:

أولًا: التيسير والتخفيف ورفع الحرج والمشاق عن المكلفين:

إن الله سبحانه وتعالى عندما أحل الحلال وحرم الحرام، قد جعل الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد نص شرعي على تحريمه، فالحلال كثير وواسع، أما الحرام فهو معدود وضيق.

يقول الله جل جلاله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٨-١١٩].

ففي هاتين الآيتين يأمر الله عز وجل المسلمين أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عز وجل عليه، فكل ما ذكر الذابح عليه اسم الله تعالى كان حلالًا إن كان مما أباح الله تعالى أكله، ثم أنكر سبحانه وتعالى عليهم عدم أكلهم مما سموا عليه بعد أن أذن الله تعالى لهم بذلك.

والحال أنه جل جلاله قد فصل لهم ما حرم عليهم، وبين لهم بيانًا مفصلًا شافيًا يدفع الشك ويزيل الشبهة، ثم استثنى الله تعالى من هذه المطعومات المحرمة عليهم ما كان في حالة الضرورة؛ وذلك لأن الضرورة تحلل الحرام، ثم بين سبحانه وتعالى أن الكفار الذين كانوا يحرمون البحيرة والسائبة ونحوهما أن أفعالهم هذه مبنية على الجهل الذي كانوا يضلون الناس فيتبعونهم ولا يعلمون أن ذلك صادر منهم عن جهل وضلالة، وليس فيه شيء من العلم.

وبعد ذلك أمر الله عز وجل المؤمنين أن يتركوا ظاهر الإثم من أفعال الجوارح، وأن يتركوا أيضًا باطن الإثم من أفعال القلوب، ثم توعد الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب افترائهم على الله جل جلاله[1].

وعليه فإن هذه الشريعة الإسلامية السمحة مبنية على التيسير والتخفيف عن أفراد الأمة الإسلامية، ورفع الحرج والمشاق عنهم، وقد وردت كثير من النصوص القرآنية والنبوية أيضًا على هذا المقصد.

ومنها: قوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقوله جل جلاله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء:٢٨].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١٧٨.

﴿ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

فهذه النصوص وغيرها تفيد أن الله عز وجل لا يريد لنا المشقة والتعسير والوقوع في الحرج؛ بل يريد لنا التيسير والتخفيف ورفع الحرج لأداء العبادة التي فرضها سبحانه وتعالى علينا وأدائها على أكمل وجه.

أما من السنة النبوية المطهرة، فقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المقصد، ومنها- على سبيل المثال-: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا، ولا تنفروا)[(١)]، وأيضًا قوله صلى الله عليه وسلم: (إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة)[(٢)].

ثانيًا: الحفاظ على الضروريات الثلاث:

الضروريات جمع كلمة ضروري، والضروريات عرفها علماء الأصول بأنها: «هي الأمور التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة؛ بل على فسادٍ وتهارج، وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين»[(٣)]، وهي ضروريات خمس، وقد أجمع العلماء عليها، وهي متمثلة في حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال[(٤)].

وقد ذكر العلماء أنه قد علم بالاستقراء التام الحاصل بتتبع النصوص القرآنية الكريمة، والسنة النبوية المطهرة، ومن خلال قرائن الأحوال والأمارات المتفرقة، علم مراعاة الشارع الحكيم لهذه الضروريات الخمسة، واعتماده عليها في جميع أحكامه، ويستحيل عليه أن يفوت هذه الضروريات الخمسة في شيء من أحكامه، فجميع التكاليف الشرعية من أوامر ونواه تدور حول هذه الضروريات الخمسة بالحفظ والصيانة[(٥)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم ٦٩، ١/ ٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم ١٧٣٤، ٣/ ١٣٥٩، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٢٩١، ٣٦/ ٦٢٤، عن أبي أمامة الباهلي.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٩٢٤، ٦/ ١٠٢٢.

(٣) الموافقات، الشاطبي، ٢/ ٨.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢٨/ ٢٠٧.

(٥) انظر: روضة الناظر، ابن قدامة المقدسي، ص٤٨١.

فالإنسان المضطر عندما تلجئه الضرورة من مخمصة، أو جوع شديد، أو إكراه، أو خوف على النفس من الهلاك، فتلجئه إلى تناول الحرام وأكله بشرط أن يأكل ما يسد به رمقه ويبقيه على قيد الحياة.

كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة:١٧٣].

وقوله عز وجل: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة:٣].

فمراعاته لحكم الاضطرار الذي هو عليه جعله يسعى إلى إنقاذ نفسه من الموت.

وذكر الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة:١٧٣]: أن الله تعالى إنما أباح هذه المحرمات إبقاءً للنفس ودفعًا للهلاك عنها[1].

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

فإن في الامتناع عن الأكل من المحرمات عند الضرورة سعيًا في قتل النفس، وإلقائها في التهلكة.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ٥/ ٢٠٣.

ثالثًا: جلب المصالح للعباد ودرء المفاسد عنهم:

إن الشريعة الإسلامية مبنية أيضًا على جلب المصالح للعباد ودفع المفاسد عنهم[2]، وقد تواترت كثير من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

والمعنى: أي وما أرسلناك بالقرآن وأمثاله من الشرائع والأحكام التي بها مناط السعادة في الدارين إلا لرحمة الناس وهدايتهم في شئون معاشهم ومعادهم.

قال المراغي: «بيان هذا أنه عليه الصلاة والسلام أرسل بما فيه المصلحة في الدارين، إلا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك، وأعرض عما هنالك؛ لفساد استعداده وقبح طويته، ولم يقبل هذه الرحمة، ولم يشكر هذه النعمة، فلم يسعد لا في دين ولا دنيا، كما قال: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم:٢٨].

وقال في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]»[3].

(٢) انظر: الأشباه والنظائر، السبكي، ١/ ١٠٥.
(٣) تفسير المراغي، ١٧/ ٧٨.

ومن النصوص الدالة على هذه القاعدة أيضًا قوله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: ٩٠].

حيث تعد هذه الآية جامعة لكل الأوامر والنواهي.

قال السعدي: «صارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء؛ ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمۡ﴾ أي: بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها»[1].

ووجه دلالة هاتين الآيتين أن الله عز وجل لم يكلف على عباده إلا ما فيه مصلحة يجلبها لهم، سواءٌ كانت في الدنيا أم في الآخرة، كما أنه تعالى لم يحرم عليهم شيئًا إلا وفيه مفسدة يدفعها عنهم في الدنيا أو في الآخرة، أما من السنة النبوية المطهرة فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا ضرر ولا ضرار)[2].

وعليه فإن مراعاة الإنسان المضطر لحكم الاضطرار الذي هو عليه جعله يدرأ مفسدة الهلاك عن نفسه، ويجلب لنفسه مصلحة النجاة والبقاء على الحياة.

ويخلص من هذا إلى أن مراعاة حكم الاضطرار يحقق مقاصد الشريعة الإسلامية من التيسير والتخفيف ورفع الحرج والمشاق عن المكلفين، ومن الحفاظ على الضروريات الثلاث: النفس والعقل والنسب، ومن جلب المصالح ودرء المفاسد.

موضوعات ذات صلة:

الإكراه، الحرام، الحلال، الضر

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٤٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٢٣٤١، ٢/ ٧٨٤.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم ٨٩٦، ٣/ ٤٠٨.

الإعراض

عناصر الموضوع

مفهوم الإعراض	٣٢
الإعراض في الاستعمال القرآني	٣٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٤
المأمورون بالإعراض في القرآن	٣٧
أنواع الإعراض	٤٢
عاقبة الإعراض	٥٧

مفهوم الإعراض

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «العين والراء والضاد بناءٌ تكثر فروعه، وهي مع كثرتها ترجع إلى أصلٍ واحدٍ، وهو العرض الذي يخالف الطول»[(١)].

يأتي الإعراض في اللغة بعدة معان، منها:

١. التولي والإضراب: إذا عدي بـ (عن)؛ فإذا قيل: أعرض عني، فمعناه: ولى مبديًا عرضه[(٢)].

٢. تنحية الوجه وإشاحته: قال ابن الأعرابي: «أعرض بوجهه وأشاح أي: جد في الإعراض»، وأعرض بوجهه: أي مال[(٣)].

٣. الصد: فتقول: أعرضت بوجهي عنه أي صددت، ويقال: أعرضت عن الأمر: صددت عنه. وقال الخليل بن أحمد: «وأعرضت بوجهي عنه، أي: صددت وحدت»[(٤)].

مما سبق يتبين لنا: أن معاني الإعراض في اللغة تدور حول الانصراف، والبعد عن الشيء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج تعريف الإعراض اصطلاحًا عن أحد معانيه اللغوية.

فقد عرف السمعاني الإعراض بقوله: « الإعراض صرف الوجه عن الشيء، أو إلى من هو أولى منه، أو لإذلال من يصرف عنه الوجه»[(٥)].

وعرفه الكفوي بقوله: « والإعراض الانصراف عن الشيء بالقلب»[(٦)].

وقال ابن عاشور: «حقيقة الإعراض عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه»[(٧)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٦٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٥٩، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٠٢.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٩٦، مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٧٤، الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ٢/ ٢٣١، شمس العلوم، نشوان الحميري ٧/ ٤٤٩٧، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٠١، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥١٥.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي ١/ ٢٧٢، المنجد في اللغة، كراع النمل ١/ ١٢٩، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٧٤٨.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٣٥.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٨.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٧٤.

الإعراض في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أعرض) في القرآن (٥٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٣	﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧]
الفعل المضارع	٦	﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر:٢]
فعل الأمر	١٣	﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود:٧٦]
اسم الفاعل	١٩	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف:٣]
المصدر	٢	﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء:١٢٨]

وجاء الإعراض في القرآن بمعناه اللغوي الذي يدور حول الانصراف عن الشيء.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٩٩-٥٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الانصراف:

الانصراف لغة:

هو: رد الشيء عن وجهه. صرفه يصرفه صرفًا فانصرف، وصارف نفسه عن الشيء صرفها عنه[١].

الانصراف اصطلاحًا:

هو الإعراض عن الشيء ورده والهروب عنه[٢].

الصلة بين الانصراف والإعراض:

بهذا المعنى تتبين لنا العلاقة بين الانصراف والإعراض؛ حيث إن كلًا من الإعراض والانصراف يدل على رد الشيء، وعدم قبوله، ولكن الإعراض أعم من الانصراف.

٢ التولي:

التولي لغة:

تولى عن الشيء، أي: أدبر عنه، و ولى عنه أي: أعرض عنه أو نأى[٣].

فالتولي إذا عدي بنفسه اقتضى معنى الولاية، وحصوله في أقرب المواضع منه، يقال: وليت سمعي كذا: أقبلت به عليه، وإذا عدي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتضى معنى الإعراض[٤].

التولي اصطلاحًا:

قال المناوي: «التولي هو الإعراض المتكلف بما يفهمه التفعل»[٥].

وقول المناوي: «بما يفهمه التفعل» معناه أن صيغة تفعل هنا تفيد التكلف كما في قولهم: تحلم، أي تكلف الحلم[٦].

وذهب الكفوي إلى أن التولي: الإعراض مطلقًا، ولا يلزمه الإدبار والتولي بالإدبار،

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ١٨٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥١٣.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٨.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٤٠٥.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٨٧.
(٥) انظر: التوقيف، المناوي ص ٢١٦.
(٦) انظر: نضرة النعيم ٩/ ٤٣٠٨.

وعلل بذلك أن تولي الرسول صلى الله عليه وسلم عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه لم يكن بالإدبار، وعنده كذلك قد يكون على حقيقة بالإدبار؛ كما في قوله تعالى ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء:٥٧].

وقد يكون كناية عن الانهزام، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وعنده كذلك التولي قد يكون لحاجة تدعو إلى الانصراف مع ثبوت النية[١].

الصلة بين التولي والإعراض:

نجد أن أهل العلم قد اختلفوا في التفريق بين الإعراض والتولي:

فذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن كلًا من الإعراض والتولي بمعنى واحد، وإن اختلفت الألفاظ.

قال القرطبي: «والإعراض والتولي بمعنًى واحدٍ، مخالفٌ بينهما في اللفظ»[٢].

وهناك من فرق فقال: إن التولي يكون بالجسم، والإعراض يكون بالقلب.

فعلى هذا التفريق يكون كل من المعرض والمتولي يشتركان في ترك السلوك، إلا أن المعرض أسوأ حالًا؛ لأن المتولي متى ندم سهل عليه الرجوع، والمعرض يحتاج إلى طلب جديد وغاية الذم الجمع بينهما[٣].

٣ الصد:

الصد لغة:

الصد في اللغة يدور على معانٍ، وهي: الصرف والامتناع، وشدة الضحك والجلبة، وكذلك الإعراض والعدول.

قال ابن منظور في لسان العرب: « الصد الإعراض والصدوف..... ويقال صده عن الأمر يصده صدًا منعه وصرفه عنه قال الله عز وجل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل:٤٣]»[٤].

---

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص ٢٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٧، وممن اختار هذا القول أبو حفص عمر بن عادل الحنبلي في تفسير اللباب ٢/ ٢٤٤، والآلوسي في روح المعاني ١/ ٣١٠، والشوكاني في فتح القدير ١/ ١٢٧.

(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٨.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٤٥.

الصد اصطلاحًا:

عرفه المناوي فقال: الصد المنع بالأعز الصارف عن الأمر ذكره بعضهم. وقال الحرالي: الصد صرف إلى ناحية بإعراض وتكره[(١)].

وعرفه أبوالبقاء الكفوي فقال: «والصد هو العدول عن الشيء عن قلىً يستعمل لازمًا بمعنى الانصراف والامتناع ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ﴾[النساء:٦١]. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[النحل:٨٨]. ومتعديًا بمعنى الصرف والمنع....»[(٢)].

الصلة بين الصد والإعراض:

يتبين لنا وجه العلاقة بين الإعراض والصد، فكل من الإعراض والصد يوجد فيه معنى العدول عن الشيء من قبل الشخص ذاته، ويفترقان في أن الصد قد يصدر من الشخص تجاه الآخرين بحملهم على العدول والامتناع، وهي صفة مذمومة؛ لأنها غالبا لم تستعمل إلا في الصد عن سبيل الله، وأما الإعراض فمنه ما هو إعراض محمود، وإعراض مذموم على حسب السياق والمعنى.

(١) انظر: التوقيف، المناوي ص ٢١٦.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٢٨.

المأمورون بالإعراض في القرآن

إن من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أنه قد بيَن لهم طريقة التعامل مع المعرضين؛ لئلا يجرف المعرضون غيرهم إلى إعراضهم، فيصدوهم عن الحق، ويزينوا لهم الباطل، ورأس الأمر الرباني في التعامل مع المعرضين هو الإعراض عنهم.

وأمر الله تعالى بعض رسله وأهل الإيمان بالإعراض عن أهل الشرك والكفر والضلال، وكان هذا الأمر من الله تعالى لرسله عليهم السلام وعباده المؤمنين؛ من باب الجزاء من جنس العمل، فهم أعرضوا عن شرع الله واتباع طريقه المستقيم، فكان الجزاء لهم من جنس عملهم وهو أن يعرض عنهم رسل الله وعباد الله المؤمنين.

أولًا: الرسل عليهم السلام:

قد ورد في كتاب الله تعالى في بعض آيات الإعراض الأمر من الله تعالى لبعض أنبيائه عليهم السلام بالإعراض وهو من الإعراض المحمود، ومن هؤلاء الأنبياء:

١. إبراهيم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود:٧٦].

ففي هذه الآية الكريمة قد أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بالأمر بالإعراض، وذلك كان في موضع المجادلة مع الملائكة عليهم السلام في شأن قوم لوط عليه السلام، فأمر بالإعراض عن تلك المجادلة، فقال له الملائكة: دع عنك الجدال في أمرهم والخصومة فيه؛ لأنه ﴿قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾، وهو قول عامة أهل التفسير، وكانت سبب مجادلة إبراهيم عليه السلام، إنما كانت في قوم لوطٍ؛ بسبب مقام لوطٍ فيما بينهم[(١)].

وقد ذكر أهل التفسير أن إبراهيم عليه السلام أمر بترك الإعراض وترك المجادلة في قوم لوط؛ لأنه قد جاء التعليل في آخر الآية، وأنهم قد شارفهم وقع العذاب، وفسر بعضهم المجادلة بطلب الشفاعة، وقيل: هي سؤاله عن العذاب هل هو واقع بهم لا محالة أم على سبيل الإخافة؛ ليرجعوا إلى الطاعة؟[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٠٧، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٧٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٧٢.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢٩٩-٣٠٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٢٣.

٢. يوسف عليه السلام.

فقد ورد في كتاب الله تعالى الأمر لنبي الله يوسف عليه السلام، وكان ذلك في قول الله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف:٢٩].

وكان الأمر بالإعراض ليوسف عليه السلام، كان عقب حادثة اتهامه بالفاحشة، ومع ذلم فقد أمر بالإعراض عن ذكر ما كان منها إليك فيما راودتك عليه؛ حيث قد ظهر صدقك ونزاهتك، فلا تذكره لأحدٍ؛ حرصًا على التستر عليها[(١)].

٣. نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد تعددت الآيات التي وردت في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالأمر بالإعراض أو تذكر إعراضه، واختلفت وقائعها وكانت في مواقف عدة، ولقد وردت آيات عدة من الله تعالى تأمر النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن المشركين.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر:٩٤]، أي: لا تبال بهم ولا تلتفت إليهم؛ إذا لاموك على إظهار الدعوة.

ثم أكد هذا الأمر سبحانه وتعالى، وثبت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥].

مع كونهم كانوا من أكابر الكفار، وأهل الشوكة فيهم؛ فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى[(٢)].

فهذا هو التوجية الرباني لنبيه صلى الله عليه وسلم في أول الدعوة هو الصدع بالدعوة والجهر بالحق، والإعراض عن هؤلاء الكفار والمشركين؛ من أجل تحقيق الغاية التي من أجلها قد أرسله الله تعالى، وهي تعبيد الخلق لله تعالى، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ويتأكد هذا الأمر بالإعراض عن أهل الشرك والكفر في مواقف كثيرة وآيات أخرى تدل على نفس المعنى، وهو الأمر بالإعراض عن أهل الشرك والكفر، وكان ذلك في خضم دعوتهم.

قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام:١٠٦].

ففي تلك الآية هو حث من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يترفع ويترك أقاويل هؤلاء الأصاغر من الكفار والمشركين.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٦٠، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٣٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٧٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٦٥، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٧٣.

قال الطبري: «اتبع، يا محمد صلى الله عليه وسلم، ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك، فاعمل به، وانزجر عما زجرك عنه فيه، ودع ما يدعوك إليه مشركو قومك من عبادة الأوثان والأصنام، فإنه لا إله إلا هو»[(١)].

مع التنبيه أن المراد بالإعراض عن المشركين هو: الإعراض عن مكابرتهم وأذاهم لا الإعراض عن دعوتهم، فإن الله لم يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقطع الدعوة لأي صنفٍ من الناس، وكل آيةٍ فيها الأمر بالإعراض عن المشركين فإنما هو إعراضٌ عن أقوالهم وأذاهم[(٢)].

وفي موضع آخر من كتاب الله تعالى يبين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم كيف يتعامل مع هؤلاء الكفار والمشركين الذين لم يريدوا إلا الحياة الدنيا، وتولوا عن التذكير بالقرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم:٢٩].

أي: اترك مجادلتهم فقد بلغت وأتيت بما عليك، ولا تهتم بشأنهم؛ فإن من غفل عن الله وأعرض عن ذكره، وانهمك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته ومبلغ علمه؛ فلا تغتم وتتحسر على كفرهم[(٣)].

وفي موضع آخر يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن الجاهلين، وعدم التبالي بأفعالهم وهذا من باب حسن العشرة مع الناس.

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

فقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة[(٤)].

وفي موضع آخر يخبر الله تعالى عن ما حدث من نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه قد أعرض عن بعض أزواجه، وهي حفصة رضي الله عنها.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم:٣].

(١) انظر: جامع البيان، ١٢/ ٣٢.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٢٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٢٥.
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ١٩١، روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٦٠.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٤٤، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ٤٣٢.

ففي تلك الآية الكريمة تبين مدى كرم خلق النبي صلى الله عليه وسلم بأن هذا الإعراض منه صلى الله عليه وسلم لكرم خلقه وشدة حيائه وحسن عشرته صلى الله عليه وسلم.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي صلى الله عليه وسلم حديثًا، وأمر أن لا تخبر به أحدًا، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها صلى الله عليه وسلم، ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمًا منه صلى الله عليه وسلم، وحلمًا، كما قال سفيان: «ما زال التغافل من فعل الكرام».

وإعراض الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقه صلى الله عليه وسلم في معاتبة المفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يعلم بعض ما أفشته فتوقن أن الله يغار عليه. فـ ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى[1].

وفي موضع آخر يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء:٢٨].

ففي هذه الآية يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾: أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحرمهم، وإنما يجوز له أن يعرض عنهم عند عجز يعرض، وعند عائق يعرض، وأنت عند ذلك ترجو من الله فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال عن المواساة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾، يعمل في مسرة نفسه عمل المواساة فتقول: الله يرزق، والله يفتح بالخير[2].

وهذا تعليمٌ عظيمٌ من الله لنبيه لمكارم الأخلاق، وأنه إن لم يقدر على الإعطاء الجميل فليتجمل في عدم الإعطاء؛ لأن الرد الجميل خيرٌ من الإعطاء القبيح[3].

ثانيًا: المؤمنون:

قد ذكر سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن المؤمنين وإعراضهم عن أهل الكفر والنفاق، ففي موضوعين يأتي البيان القرآني لإعراض المؤمنين من باب الإخبار عن

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٠٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٦٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٥٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٢.

(٢) انظر: أحكام القرآن،إلكيا الهراسي٢/ ٢٥٦.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٨٦.

حالهم، وأن إعراضهم عما لا يليق هو من دأب أهل الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون:٣].

أي: معرضون عن الباطل وما يكرهه الله من خلقه فهم معرضون عن كل باطل ولهو وما لا يحل من القول والفعل[(١)]. وكذلك قال الله تعالى في الإخبار عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص:٥٥].

فأهل الإيمان يعرضون عن اللغو وهو مالا يليق من القول، ويقولون على جهة التبري: «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» أي: كلٌ سيجازى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك، أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه.

﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ من كل وجه[(٢)].

وفي موضع آخر يأتي الأمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالإعراض عن المنافقين.

قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٩٥﴾ [التوبة:٩٥].

ففي هذه الآية أمر من الله تعالى لأهل الإيمان بالإعراض عن المنافقين، وبيان حقيقتهم أنهم سيؤكدون لكم اعتذارهم بالأيمان الكاذبة إذا انقلبتم وتحولتم إليهم من سفركم؛ لأجل أن تعرضوا عن عتبهم وتوبيخهم على قعودهم مع الخالفين من النساء والأطفال والعجزة، وبخلهم بالنفقة، فأمر الله بالإعراض عنهم فقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: إعراض إهانةٍ واحتقارٍ، لا إعراض صفحٍ وإعذارٍ.

وهذا التعبير من الأسلوب الحكيم، وهو قبول ما يبغون من الإعراض عنهم ولكن على غير الوجه الذي يرجونه منه بل على ضده، وقد علل الأمر بقوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: قذرٌ معنويٌ يجب الإعراض عنه تنزهًا عن القرب منه بأشد مما يتنزه الطاهر الثوب والبدن عن ملابسة الأرجاس والأقذار الحسية[(٣)].

«إن هؤلاء المنافقين رجس البواطن أخباث الاعتقادات، لا يقبلون التطهير؛

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٩-١٠، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤٠٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٠.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٤.

لأنهم منافقون، ومسكنهم جهنم، جزاء بما اكتسبوه في الدنيا من الآثام والخطايا، فلا ينفع معه التوبيخ أو اللوم في الدنيا والآخرة. وحقيقة أيمانهم الكاذبة أنها ليست لوجه الله، وإنما لمجرد استرضاء لكم معشر المؤمنين؛ لتستمروا في معاملتهم كالمسلمين. وإنكم إن رضيتم عنهم، فلا ينفعهم رضاكم، إذا كانوا في سخط الله، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعة الله والرسول، فليكن همهم إرضاء الله ورسوله، لا إرضاؤكم، كما وصفهم الله بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء:١٠٨].

وقوله عز وجل: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر:١٣].

وهذا إرشاد ونهي للمؤمنين عن الرضا عن المنافقين، والاغترار بأيمانهم الكاذبة، وكفى بالله عليمًا ومعلمًا للمؤمنين منهج الحياة الاجتماعية وطريق معاملة المنافقين وغيرهم من أصحاب البدع المنكرة، فعلى المؤمنين أن يبغضوا المنافقين، وألا يرضوا عنهم لسبب دنيوي، من غير تفرقة بين منافق حضري أو بدوي»[1].

(١) انظر: الوسيط، الزحيلي ١/ ٩٠٥.

أنواع الإعراض

تحدث القرآن الكريم عن نوعين من الإعراض؛ أحدهما محمود، والآخر مذموم، وسوف يتم الحديث عنهما في هذا المبحث..

أولًا: الإعراض المحمود:

إن الإعراض المحمود هو ما أمر الله به عباده المؤمنين؛ من أجل زجر هؤلاء الكفار المعرضين عن دين الله تعالى وشريعته، وتصديق رسله، والإيمان بهم، فأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالإعراض عمن أعرض عن دين الله تعالى، وليس مساومته على شيء من الشريعة ليقبلها. فمن تولى عن ذكر الله تعالى، يعرض عنه بنص الكتاب؛ وذلك أن مهمة الرسل والدعاة من بعدهم هي البلاغ لا الهداية.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران:٢٠].

وقوله تعالى ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة:٣٠].

وكذلك أمر الله عباده المؤمنين

بالإعراض عن أهل النفاق؛ لأن هؤلاء المنافقين يظهرون الخير ويبطنون الشر لأهل الإيمان، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالإعراض عنهم؛ خشية أن لا يتخذهم المؤمنين بطانة من دون المؤمنين، وينخدعوا فيهم وفي أفعالهم الظاهرة، فأوجب الله تعالى الإعراض عن قولهم، وعدم أخذ نصيحتهم، ولا أن يتخذوا منهم بطانة؛ لأنهم أهل غش وخيانة، فإذا أعرض المؤمنون عنهم، وتوكلوا على الله تعالى لم يضرهم المنافقون شيئًا مهما بلغ كيدهم، وعظم مكرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء:٨١].

١. الإعراض عن اليهود.

فكما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين بالإعراض عن اليهود؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر للمدينة، كانت اليهود تسأل النبي صلى الله عليه وسلم من باب التعنت ولبس الحق بالباطل، فكان الله تعالى ينزل القرآن فيما كانوا يسألون عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة:٤٢].

فهذه الآية وإن كان ظاهر الخطاب أنه خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن هذا الحكم باق، ويتناول حكام المسلمين وعلماءهم.

قال ابن عطية: «قال القاضي أبو محمد: وقال كثير من العلماء هي محكمة وتخيير الحكام باق، وهذا هو الأظهر إن شاء الله، وفقه هذه الآية أن الأمة فيما علمت مجمعة على أن حاكم المسلمين يحكم بين أهل الذمة في التظالم، ويتسلط عليهم في تغييره وينفر عن صورته كيف وقع فيغير ذلك، ومن التظالم حبس السلع المبيعة وغصب المال وغير ذلك، فأما نوازل الأحكام التي لا ظلم فيها من أحدهم للآخر، وإنما هي دعاوى محتملة وطلب ما يحل وما لا يحل، وطلب المخرج من الإثم في الآخرة، فهي التي يخير فيها الحاكم، وإذا رضي به الخصمان، فلا بد مع ذلك من رضى الأساقفة أو الأحبار.

قاله ابن القاسم في العتبية.

قال: وأما إن رضي الأساقفة دون الخصمين أو الخصمان دون الأساقفة فليس

له أن يحكم»[1].

ففي هذه الآية يخير الله تعالى نبيه وحكام المسلمين من بعده، وبين لهم أنهم مخيرون بأن يحكموا بينهم، أو يعرضوا عن الحكم بينهم؛ من أجل أن اليهود لا قصد لهم في الحكم الشرعي إلا أن يكون موافقًا لأهوائهم، وعلى هذا فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم، يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض، لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم، فإن حكم بينهم وجب أن يحكم بالقسط، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء، فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم[2].

وقد اختلف أهل العلم في التخيير الوارد في هذه الآية هل هو منسوخ أم باق؟

وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم والذمي إذا ترافعا إليهم. واختلفوا في أهل الذمة إذا ترافعوا فيما بينهم؛ فذهب قوم إلى التخيير، وذهب آخرون إلى الوجوب، وقالوا: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾[المائدة:٤٩].

وبه قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، والزهري وعمر بن عبد العزيز والسدي: وهو الصحيح من قول الشافعي، وحكاه القرطبي عن أكثر العلماء[3].

ولكن الصحيح هو التفصيل الذي ذكره ابن عاشور؛ حيث قال: «والذي يستخلص من الفقه في مسألة الحكم بين غير المسلمين دون تحكيم: أن الأمة أجمعت على أن أهل الذمة داخلون تحت سلطان الإسلام، وأن عهود الذمة قضت بإبقائهم على ما تقتضيه مللهم في الشؤون الجارية بين بعضهم مع بعضٍ بما حددت لهم شرائعهم؛ ولذلك فالأمور التي يأتونها تنقسم إلى أربعة أقسامٍ:

القسم الأول: ما هو خاصٌ بذات الذمي من عبادته كصلاته وذبحه وغيرها مما هو من الحلال والحرام. وهذا لا اختلاف بين العلماء في أن أئمة المسلمين لا يتعرضون لهم بتعطيله إلا إذا كان فيه فسادٌ عامٌ كقتل النفس.

القسم الثاني: ما يجري بينهم من المعاملات الراجعة إلى الحلال والحرام في الإسلام، كأنواعٍ من الأنكحة والطلاق

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٩٤. وانظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٤/ ٢٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٣٠٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٨٤-١٨٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٣-٢٠٦.

وشرب الخمر والأعمال التي يستحلونها ويحرمها الإسلام. وهذه أيضًا يقرون عليها.

قال مالكٌ: لا يقام حد الزنا على الذميين، فإن زنى مسلمٌ بكتابيةٍ يحد المسلم ولا تحد الكتابية. قال ابن خويز منداد: ولا يرسل الإمام إليهم رسولًا ولا يحضر الخصم مجلسه.

القسم الثالث: ما يتجاوزهم إلى غيرهم من المفاسد كالسرقة والاعتداء على النفوس والأعراض. وقد أجمع علماء الأمة على أن هذا القسم يجري على أحكام الإسلام؛ لأنا لم نعاهدهم على الفساد.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]؛ ولذلك نمنعهم من بيع الخمر للمسلمين ومن التظاهر بالمحرمات.

القسم الرابع: ما يجري بينهم من المعاملات التي فيها اعتداء بعضهم على بعضٍ: كالجنايات، والديون، وتخاصم الزوجين. فهذا القسم إذا تراضوا فيه بينهم لا نتعرض لهم، فإن استعدى أحدهم على الآخر بحاكم المسلمين. فقال مالكٌ: يقضي الحاكم المسلم بينهم فيه وجوبًا؛ لأن في الاعتداء ضربًا من الظلم والفساد، وكذلك قال الشافعي، وأبو يوسف، ومحمدٌ، وزفر. وقال أبو حنيفة: لا يحكم بينهم حتى يتراضى الخصمان معًا»[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٣-٢٠٦.

٢. الإعراض عن المنافقين.

ظاهرة النفاق قد ظهرت عندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وقامت دولة الإسلام، وظهر من يكره الإسلام باطنًا ويظهر حبه وإيمانه، ولكن الله فضحهم وأظهر نفاقه، وبين للنبي صلى الله عليه وسلم ولعباده المؤمنين المخلصين كيف يتعاملوا مع هؤلاء المنافقين.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء:٦٣].

وقال ابن جرير الطبري: «هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك، يا محمد، صفتهم ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ في احتكامهم إلى الطاغوت، وتركهم الاحتكام إليك، وصدودهم عنك من النفاق والزيغ، وإن حلفوا بالله: ما أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾، يقول: فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم، وعقوبته أن تنزل بدارهم، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله»[2].

ولكن كما نبه ابن العربي المالكي: أن

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥١٥.

النبي صلى الله عليه وسلم إنما أعرض عنهم تألفًا ومخافةً من سوء المقالة الموجبة للتنفير»[1].

فكانت هذه السياسة التي أمر بها القرآن في التعامل مع أهل النفاق هي ماتقتضيه الحكمة والسياسة الرفيعة والأسلوب الرفيع للنبي صلى الله عليه وسلم ويتخذها أصحابه من بعده.

وفي هذا المعنى يقول سيد قطب رحمه الله: «وكانت الخطة التي وجه الله إليها نبيه صلى الله عليه وسلم في معاملة المنافقين، هي أخذهم بظاهرهم- لا بحقيقة نواياهم- والإعراض والتغاضي عما يبدر منهم.. وهي خطة فتلتهم في النهاية، وأضعفتهم، وجعلت بقاياهم تتوارى ضعفًا وخجلًا»[2].

وفي آية أخرى يؤكد الله تعالى على هذا الأمر فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء:٨١].

أي: ويقولون لك إذا حضروا معك: أمرنا وشأننا طاعةٌ لك فيما تأمرنا به، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ أي: خرجوا من عندك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: دبرت ليلًا وأخفت من النفاق غير الذي تقول لك من قبول الإيمان وإظهار الطاعة، أو زورت خلاف ما قلت لها من الأمر بالطاعة، ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يثبته في صحائفهم فيجازيهم عليه، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لاتبال بهم وبما صنعوا أو تجاف عنهم ولا تتصد للانتقام منهم. والفاء لسببية ما قبلها لما بعدها، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يكفك شرهم، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ عليهم، فسينتقم لك منهم[3].

ويتوالى التأكيد على الإعراض عن هذه الفئة المنافقة في آية الخطاب فيها موجه لأهل الإيمان.

وذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة:٩٥].

فقوله: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾، يقول جل ثناؤه للمؤمنين: فدعوا تأنيبهم، وخلوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق[4].

قال الشوكاني: «وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به: تركهم والمهاجرة لهم، لا الرضا عنهم والصفح عن ذنوبهم، كما تفيده جملة إنهم رجسٌ الواقعة

(١) انظر: أحكام القرآن ١/ ٢١.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٢٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٢٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٠٧.
(٤) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٥٣٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٠٧.

علةً للأمر بالإعراض. والمعنى: أنهم في أنفسهم رجسٌ لكون جميع أعمالهم نجسةً، فكأنها قد صيرت ذواتهم رجسًا، أو أنهم ذوو رجسٍ، أي: ذوو أعمالٍ قبيحةٍ، ومثله إنما المشركون نجسٌ وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير، والتحذير من الشر، فليس لهم إلا الترك.

وقوله ومأواهم جهنم من تمام التعليل فإن من كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء إلى الخير»[1].

٣. الإعراض عن الجاهلين.

فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن الجاهلين، وعدم التبالي بأفعالهم وهذا من باب حسن العشرة مع الناس.

قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

و«الجهل» هنا في الآية هو ضد الحلم والرشد، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، والمراد بالجاهلين السفهاء كلهم؛ لأن التعريف في كلمة ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ للاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك، إذ اتخاذ الحجر إلهًا سفاهةٌ لا تعدلها سفاهةٌ، ثم يشمل كل سفيه رأيٍ[2].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٢٩.

وقد أكد الله تعالى هذا الأمر أنه من صفات عباد الرحمن، فقال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

وكان هذا هو خلق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيسٍ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابن عباسٍ: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله، ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر، حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله[3].

وعن عبد الله بن الزبير قال: «أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٦٤٢.

أخلاق الناس، أو كما قال»[1].

فقد أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه[2].

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق؛ لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفوًا عن اعتداءٍ فتدخل في خذ العفو، أو إغضاءً عما لا يلائم فتدخل في وأعرض عن الجاهلين، أو فعل خيرٍ واتسامًا بفضيلةٍ فتدخل في وأمر بالعرف[3].

٤. الإعراض عن اللغو.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص:٥٥].

نزلت هذه الآية في قوم كانوا مشركين فأسلموا، فكان قومهم يؤذونهم، فكانوا يصفحون عنهم، يقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[4].

وقد عرف الإمام الطبري اللغو بأنه هو: «الباطل من القول» ثم اختار الإمام الطبري أن المراد باللغو في هذه الآية هو ماقاله مجاهد حيث قال: « وهذا يدل على أن اللغو الذي ذكره الله في هذا الموضع، إنما هو ما قاله مجاهد، من أنه سماع القوم ممن يؤذيهم بالقول ما يكرهون منه في أنفسهم، وأهم أجابوهم بالجميل من القول ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ قد رضينا بها لأنفسنا، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ قد رضيتم بها لأنفسكم»[5].

ولكن الصحيح أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو قول جمهور أهل العلم[6].

فـ﴿اللَّغْوَ﴾ هو: سقط القول والكلام العبث الذي لافائدة فيه، والقبيح من القول، فالفحش لغو، والسب لغو، والمراد من هذا في هذه الآية ما كان سبًا وأذى، فأدب أهل الإسلام الإعراض عنه، والقول على جهة التبري ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، ليس المراد سلام التحية ولكنه سلام المتارك، ومعناه: سلمتم منا لا نعارضكم بالشتم والقبح، ونظيره ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

ثم أكد ذلك تعالى بقوله حاكيًا عنهم ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، أي: دين الجاهلين، أي: لا نحب دينكم[7].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٦٤٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٣.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٢٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٩٨.
(٥) انظر: المصدر السابق ١٩/ ٥٩٧.
(٦) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين الحربي ٢/ ٥٤٥.
(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٤/ ٢٩٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور

فهذه الآية تدل على حال أهل الإيمان عند سماعهم اللغو، وأنهم يعرضون عنه، «وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأسًا مباشرة وتسببًا وميلًا وحضورًا فإن أصله أن يكون في عرض أي ناحية غير عرضه»[1].

خامسًا: الإعراض عن إيذاء من تاب من الفاحشة:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء:١٦].

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالإعراض والستر وترك التعيير والضرب بالنعال لمن ارتكب جريمة الزنا.

وقوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أي: أقلعا ونزعا عما كانا عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ أي: لا تعنفوهما بكلامٍ قبيح بعد ذلك؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها، ولا يثرب ثم إن زنت فليجلدها، ولا يثرب ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبلٍ من شعرٍ**)[2].

أي: ثم لا يعيرها بما صنعت بعد الحد، الذي هو كفارةٌ لما صنعت[3].

وقد ذهب جماعة من أهل التفسير أن هذا الإعراض والتوبيخ منسوخ بآية سورة النور، ولكن رجح القرطبي عدم النسخ فقال: وقيل وهو أولى: إنه ليس بمنسوخٍ، وأنه واجبٌ أن يؤدبا بالتوبيخ فيقال لهما: فجرتما وفسقتما وخالفتما أمر الله عز وجل[4].

ثانيًا: الإعراض المذموم:

إن من أشد الخذلان، وأفدح الخسران: الإعراض عن الله تعالى، وذلك بالإعراض عن دينه وشريعته، أو الإعراض عن كتابه، أو الإعراض عن ذكره وعبادته. وبقدر إعراض العبد عن الله تعالى تكون خسارته وشقوته؛ فأهل الكفر والنفاق هم أهل الإعراض الكامل، فكان لهم الخسران المبين، والشقاء الأبدي في الدنيا والآخرة.

إن الإعراض عن الله تعالى وعن اتباع طريقه المستقيم؛ سبب للعذاب في الدنيا والآخرة، فالإعراض يزيغ القلب، ويطمس

٢٠/ ١٤٤.

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب بيع العبد الزاني، رقم ٢١٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، رقم ٤٥٤٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٨٦.

البصيرة عن اتباع الحق.

١. الإعراض عن القرآن.

قد ذكر الله تعالى المعرضين عن القرآن والذكر في مواضع عدة من كتابه، ومع اختلاف أنواعهم، وعاقبتهم، وأحوالهم:

فقال الله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ [طه:١٠٠].

ففي تلك الآية ذم الله تعالى من انصرف وهجر وأعرض عن قرآنه، ولم يعمل به، والذكر في هذا الموضع المراد به القرآن؛ حيث قال الفخر الرازي: «ثم في تسمية القرآن بالذكر وجوه: أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم. وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ. وثالثها: فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

ثم قال: «واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكرًا فقال: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]»[(١)]. فمن أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم، أي: صد وأدبر عنه، ولم يعمل بما فيه من الحلال، والحرام، والآداب، والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد ويعتبر بما فيه من القصص، والأمثال، ونحو ذلك فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا، والوزر هو: العقوبة الثقيلة الباهظة. سماها وزرًا تشبيهًا في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، ويلقي عليه بوزره. أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم[(٢)].

وفي موضع آخر قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

ففي هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى حال وعاقبة الإعراض المذموم، ومنها الإعراض عن القرآن، فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: أعرض عن ديني، وتلاوة كتابي، والعمل بما فيه[(٣)].

وفي موضع آخر بيَن الله تعالى عاقبة الإعراض المذموم، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٧] قال ابن جرير الطبري: «ومن يعرض عن ذكر ربه الذي ذكره به، وهو هذا القرآن؛ ومعناه: ومن يعرض عن استماع القرآن واستعماله، يسلكه الله عذابًا صعدًا: يقول: يسلكه الله عذابًا شديدًا شاقًا»[(٤)].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٩٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٩٥.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٩٥.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٣٠٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٥٨، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٥٣.

(٤) جامع البيان، ٢٣/ ٦٦٤.

وفي موضع آخر قال الله تعالى عن أهل الإعراض المذموم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف:٥٧].

أي: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وإن كان مدلوله الوضعي نفي الأظلمية من غير تعرضٍ لنفي المساواة في الظلم، إلا أن مفهومه العرفي أنه أظلم من كل ظالمٍ وبناء الأظلمية على ما في حيز الصلة من الإعراض عن القرآن للإشعار بأن ظلم من يجادل فيه ويتخذه هزوًا خارجٌ عن الحد ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: عمله من الكفر والمعاصي التي من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر في عاقبتها»[1].

وفي موضع آخر بيَن سبحانه حال المعرضين عن الكتاب العظيم من كفار قريش، وذكر إعراضهم وتوبيخهم فقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص:٦٧-٦٨].

فالنبأ العظيم هو القرآن، فإنه نبأ عظيم؛ لأنه كلام الله. قال الزجاج: قل: النبأ الذي أنبأتكم به عن الله نبأ عظيم، يعني: ما أنبأهم به من قصص الأولين، وذلك دليل على صدقه، ونبوته؛ لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله، وجملة ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ توبيخ لهم، وتقريع لكونهم أعرضوا عنه، ولم يتفكروا فيه، فيعلموا صدقه، ويستدلوا به على ما أنكروه من البعث[2].

٢. الإعراض عن الآيات الكونية.

فقد ذكر الله تعالى في مواضع عدة من كتابه المعرضين عن آيات الله الكونية، ولم يتدبروها ولم يتعظوا منها، ولم يتخذوها عبرة وعظة؛ ليؤمنوا بالله تعالى، بل أعرضوا عنها، وجحدوها.

قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

قال الإمام الطبري: «يقول جل وعز: وكم من آية في السماوات والأرض لله، وعبرةٍ وحجةٍ، وذلك كالشمس والقمر والنجوم، ونحو ذلك من آيات السماوات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، يقول: يعاينونها فيمرون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهية لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٣٠.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٠٨.

شيء، فدبرها»[1].

وفي موضع آخر يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء:٣٢].

أي: وهؤلاء المشركون عن آيات السماء؛ كشمسها وقمرها ونجومها. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي: يعرضون عن التفكر فيها، وتدبر ما فيها من حجج الله عليهم، ودلالتها على وحدانية خالقها، وأنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لمن دبرها وسواها، ولا تصلح إلا له[2].

ويتأكد ذلك في موضع آخر يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام:٤].

أي: وما تأتي هؤلاء الكفار الذين بربهم يعدلون ﴿آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وحجة وعلامة ودلالة من حجج ربهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته، ونبوة رسوله صلى الله عليه وسلم، وصدقه، فما كان من حالهم ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، عن هذه الآية، فصدوا عن قبولها والإقرار بما شهدت على حقيقته ودلت على صحته، جهلًا منهم بالله، واغترارًا بحلمه عنهم[3].

بل يؤكد سبحانه وتعالى ماكان عليه هؤلاء الكفار من الجحود والإعراض عن آيات الله ومعجزاته التي حصلت لنبيه صلى الله عليه وسلم وقد رأوها رأي العين، وكان ذلك في وجودهم وحضورهم، وهي معجزة انشقاق القمر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر:١-٢].

فانشقاق القمر أيام النبوة معجزةٌ لرسول صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير: «كان الانشقاق في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة».

ثم قال: «وهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات»[4].

وقد وردت أحاديث في ذلك:

١. فعن أنس بن مالك؛ «أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما»[5].

٢. عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة

(١) جامع البيان ١٦/ ٢٨٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٨/ ٤٣٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٧٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الصحابة، باب انشقاق القمر، رقم ٣٨٦٨.

النبي صلى الله عليه وسلم آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[1].

ومع هذه المعجزة العظيمة التي حصلت في حضورهم ووجودهم إلا أنهم أعرضوا عن الإيمان بالله وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم وكذبوا وقالوا: سحرٌ شديدٌ يعلو كل سحرٍ[2].

وفي موضع آخر بيّن الله جل ثناؤه كثرة الآيات وتجددها على هؤلاء الكفار، ومع ذلك يعرضوا عنها ولم يلتفتوا لها. قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾ [يس:٤٦]فـ«ما» هنا في هذه الآية نافية، وأتت مع صيغة المضارع؛ للدلالة على التجدد. و﴿مِّنۡ ءَايَةٖ﴾ فـ﴿مِّنۡ﴾ هنا؛ للتوكيد، و﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ﴾ فـ﴿مِّنۡ﴾ هنا تفيد التبعيض. والمعنى: ما تأتيهم من آية دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ وظاهره يشمل الآيات التنزيلية والتكوينية، والمراد بالإعراض عدم الالتفات إليها وترك النظر الصحيح فيها[3].

وجملة ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾ واقعة موقع التذييل لما قبلها، ففيها تعميم أحوالهم وأحوال ما يبلغونه من القرآن، فكأنه قيل: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا، والإعراض دأبهم في كل ما يقال لهم.

والمراد بالآيات: آيات القرآن التي تنزل فيقرؤها النبي صلى الله عليه وسلم، فأطلق على بلوغها إليهم فعل الإتيان، ووصفها بأنها من آيات ربهم؛ للتنويه بالآيات والتشنيع عليهم بالإعراض عن كلام ربهم كفرًا بنعمة خلقه إياهم[4].

٣. الإعراض عن التوحيد.

فيخبر الله جل وعلا عن أهل الكفر والشرك، أنهم يلجؤون إليه سبحانه في الشدائد، ويوحدونه ويفردونه بالعبادة، ثم لما ينجيهم من الكرب والشدة، إذا هم يعرضون ويتركون ماكانوا عليه وقت الشدة من إفراده سبحانه بالعبادة، ثم يعودون لما كانوا عليه من الشرك والكفر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾ [الإسراء:٦٧].

فهذا إعراض جديد من أهل الكفر، وهو إن الكفار إذا مسهم الضر في البحر؛ أي: اشتدت عليهم الريح فغشيتهم أمواج

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب انشقاق القمر، رقم ٢٨٠٢.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٤٥.
(٣) انظر: فتح البيان، القنوجي ١١/ ٣٠١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣١.

البحر كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك، ضل عنهم؛ أي: غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله جل وعلا، فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله جل وعلا وحده؛ لعلمهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده جل وعلا، فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر، فإذا نجاهم الله وفرج عنهم، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر»[1].

ثم يخبر سبحانه أنهم بعد مانجاهم الله تعالى من الكرب، كان حالهم الإعراض عن توحيده، فقال تعالى: ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: عن الإخلاص لله وتوحيده، ورجعتم إلى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ أي: كثير الكفران لنعمة الله، وهو تعليلٌ لما تقدمه، والمعنى: أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله، وفي الرخاء يعرضون عنه[2].

٤. الإعراض عن شكر الله.

فيخبر الله تعالى في مواضع متعددة من كتابه عن من يعرض عن شكر نعمته سبحانه وتعالى، ويكفر بها بعدما أنعم الله عليه بها، ومن هؤلاء قوم سبأ، حيث قال الله تعالى عنهم: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ:١٦].

وذلك لما أنعم الله تعالى على أهل سبأ كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ:١٥].

ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التي أنعم بها عليهم، فقال: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن شكر نعمة الله تعالى، وكفروا بالله، وكذبوا أنبياءهم. ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة؛ أرسل الله عليهم نقمة فسلب بها ما أنعم به عليهم[3]، فقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: الصعب والمطر الشديد- أو الوادي- أو السكر الذي يحبس الماء- أو هو البناء الرصين المبني بين الجبلين؛ لحفظ ماء الأمطار وخزنها. وقد ترك فيه أثقاب على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، فلما طغوا أهلكهم الله بخراب هذا البناء، فانهال عليهم تيار مائه، فأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم وأرضهم. واضطر من نجا منهم للنزوح عنها. كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي: ثمر مر، أو بشع لا يؤكل ﴿وَأَثْلٍ﴾ شجر يشبه

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٧١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٦٧.

الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهو شجر النبق، أي قلة لا تسمن ولا تغني من جوع. فهذا تبديل النعم بالنقم لمن لم يشكر النعم»[1].

وفي موضعين اثنين من القرآن العظيم يخبر الله تعالى عن نقص جنس الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمالٍ وعافيةٍ، وفتحٍ ورزقٍ ونصرٍ، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه[2].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء:٨٣].

ففي هذه الآية إشارة إلى السبب في وقوع جنس الإنسان في أودية الضلال، وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى، وكفران نعمه تعالى بالإعراض عن شكرها، والجزع واليأس من الفرج عند مس شر قضى عليه، وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان، فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة، ويشاهده قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين. ويتيقن في الحالة الأولى أن الشكر رباط النعم. وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم، فيشكر ويصبر، ويعلم أن المنعم يقدر فلم يعرض عند النعمة بطرًا وأشرًا، ولم يغفل عن ولم يجزع عند النقمة جزعًا وضجرًا[3].

وفي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت:٥١]

وليس بين الآيتين تنافٍ، فإن ذلك شأن بعض منهم غير بعض المذكور في الآية السابقة، فقد يكون مع شدة يأسه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه[4].

٥. الإعراض عن حكم الله ورسوله.

فيخبر سبحانه وتعالى عن أحوال أهل النفاق وإعراضهم عن حكم الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور:٤٨].

يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولًا بألسنتهم، وحال هؤلاء المنافقين ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: إذا طلبوا إلى اتباع الهدى، فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه. وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٣٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١١٣.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٤٩٩.
(٤) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ٤٤٦.

ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء:٦٠-٦١][1].

وهذا يدل على أنهم إنما يعرضون عن حكم الله متى عرفوا الحق لغيرهم أو شكوا. فأما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض وسارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا[2].

٦. إعراض الزوج عن زوجته.

فيخبر سبحانه عن نوع معين من الإعراض المباح، وهو إعراض الزوج عن زوجته، في حالة كراهيتها أو دمامة أو كبر في السن؛ مما يرغب الزوج عن زوجته، فيبين الله تعالى ما هو الحل والمخرج من ذلك الأمر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء:١٢٨].

وكان سبب نزول هذه الآية عن عائشة رضي الله عنها، ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: (الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثرٍ منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حلٍ فنزلت هذه الآية في ذلك)[3].

ففي هذه الآية حكم من الله تعالى في أمر المرأة التي تكون ذات سن ودمامة، أو نحو ذلك مما يرغب زوجها عنها، فيذهب الزوج إلى طلاقها، أو إلى إيثار شابة عليها، ونحو هذا مما يقصد به صلاح نفسه ولا يضرها هي ضررًا يلزمه إياها، بل يعرض عليها الفرقة أو الصبر على الأثرة، فتزيد هي بقاء العصمة، فهذه التي أباح الله تعالى بينهما الصلح، ورفع الجناح فيه، إذ الجناح في كل صلح يكون عن ضرر من الزوج يفعله حتى تعالجه، وأباح الله تعالى الصلح مع الخوف، وظهور علامات النشوز أو الإعراض، وهو مع وقوعها مباح أيضًا[4].

قال النحاس: الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز التباعد، والإعراض ألا يكلمها ولا يأنس بها[5].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٤.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٤/ ٤٢٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب إذا حلله من ظلمه فلا رجوع فيه، رقم ٢٤٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، رقم ٣٠٢١.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١١٩.
(٥) انظر: إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس١/ ٢٤١.

عاقبة الإعراض

إن الإعراض عن الله تعالى سبب للعقوبات العاجلة والآجلة، وبه تزيغ القلوب، وتطمس البصائر، فتعمى عن الحق، وترتكس في الإثم، فيضيق الصدر، وتسود الدنيا عند المعرضين، وقد ذم النبي صلى الله عليه وسلم من أعرض عن تعلم شرع الله تعالى، فعن أبي واقدٍ الليثي (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالسٌ في المسجد والناس معه؛ إذ أقبل ثلاثة نفرٍ فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحدٌ، قال فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما أحدهما فرأى فرجةً في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله، فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه)[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه)، أي: لم يرحمه وسخط عليه.

وهو معنى الإعراض من الله تعالى؛ لأن من أعرض عن نبيه وزهد فيه فليس بمؤمن، وإن كان هذا مؤمنًا وذهب لحاجة من حوائج الدنيا وضرورة دعته إلى ذلك، فيكون إعراض الله تعالى عنه ترك رحمته وعفوه، وتقريبه وقبوله الذى أعطاها صاحبيه، فلم يثبت له حسنة ولا نفى عنه سيئة؛ إذ لم يكن منه ما يثاب بذلك[2].

أولًا: عاقبة أهل الإعراض في الدنيا:

فكما مر بنا أن الإعراض ينقسم في القرآن إلى إعراض محمود وإعراض مذموم.

أولًا: عاقبة الإعراض المحمود في الدنيا:

١. الكفاية والطمأنينة.

فقد أخبر الله تعالى أنه سبحانه وتعالى كفى رسوله شر المستهزئين وكيدهم. قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥].

٢. الأمن والحفظ والنصرة.

قال الله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ١/ ٣٦، رقم ٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب من أتى مجلسًا فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم، ٤/ ١٧١٣، رقم ٢١٧٦.

(٢) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضى عياض ٧/ ٦٧.

﴿يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة:٤٢].

فقوله تعالى: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ أي: إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم، فلا سبيل لهم عليك؛ لأن الله حافظك وناصرك عليهم[1].

٣. الفلاح.

فقد أخبر الله تعالى بأن من صفات المؤمنين المفلحين هو الإعراض عن اللغو.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون:١-٣].

ثانيًا: عاقبة الإعراض المذموم في الدنيا:

١. سبب لنزول العذاب في الدنيا، ورفع العافية، وإبدال النعم نقمًا.

كما أخبر الله تعالى عن قوم سبأ وما هم فيه من نعيم الدنيا، ثم تحولت العافية عنهم، وأبدل حالهم من النعمة إلى النقمة بسبب إعراضهم ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ:١٦].

٢. وقوع الطمس على القلب.

فيطمس الله على قلوب المعرضين، فلا تعي الذكر، ولا تبصر الحق، ولا يسير أصحابها فيما ينفعهم، بل يرتكسون في الكفر، ويرتمسون في النفاق والاستكبار، ويجادلون بالباطل.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٧].

٣. الصرف عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال.

المعرضون لا يستطيعون اتباع الحق؛ من الخذلان الذي حاق بهم؛ عقوبة لهم على إعراضهم ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت:٤-٥].

٤. العيش في ضيق وضنك.

ومن العذاب العاجل ما يجدونه في صدورهم من ضيق بالشريعة وأحكامها، ومن ضنك يجعل عيشهم مرًا ولو كانوا في الظاهر منعمين ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٩.

الله عز وجل، والإقبال على الدنيا»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه؛ فإن من أحب شيئًا غير الله عذب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا»[2].

ثانيًا: عاقبة أهل الإعراض المذموم في الآخرة:

١. حمل الأوزار يوم القيامة:

وأما عذاب الآخرة لأهل الإعراض عن الله تعالى وعن شريعته فشديد أليم.

قال الله تعالى في الكتاب العزيز: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه:٩٩-١٠١].

٢. الوعيد لهم من الله بالانتقام.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة:٢٢].

وانتقامه سبحانه منهم يكون في الدنيا بما يصيبهم في أنفسهم وأهلهم وأموالهم، ويكون في الآخرة بالعذاب الشديد ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

٣. يحشرون عميًا يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته، أعمى الله به بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره، تركه في العذاب.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧].

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الطاعة، النفاق

(١) انظر: صيد الخاطر ص ٣٤١.
(٢) انظر: زاد المعاد ٢/ ٢٥.

الافتراء

عناصر الموضوع

مفهوم الافتراء	٦٢
الافتراء في الاستعمال القرآني	٦٣
الألفاظ ذات الصلة	٦٤
ميادين الافتراء ومظاهره	٦٦
ذم المفترين والرد عليهم	٧٩
أسباب الافتراء	٨٥
آثار الافتراء	٨٧
عاقبة الافتراء	٨٩

مفهوم الافتراء

أولًا: المعنى اللغوي:

الافتراء مصدر مشتق من مادة (فري): بمعنى قطع الشيء، يقال: فراه يفريه فريًا: شقه شقًا، ثم يفرع منه ما يقاربه، من ذلك، فيقال: فريت الشيء أفريه فريًا، وذلك قطعك له لإصلاحه، ومن الباب: فلانٌ يفري الفري إذا كان يأتي بالعجب، كأنه يقطع الشيء قطعًا عجبًا[1]. وفرى الكذب: اختلقه، يقال: فرى فلانٌ كذبًا يفريه إذا خلقه[2].

فالافتراء في اللغة هو: اختلاق الكذب.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي للافتراء هو ذاته المعنى اللغوي؛ إذ إن الافتراء في الاصطلاح هو: اختلاق الأخبار التي لا أصل لها، وهو بذلك من الكذب العمد؛ بل هو شر الكذب.

قال ابن عاشور: «الافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد»[3].

وقال ابن عطية: «الافتراء أخص من الكذب، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرء وكابر، وجاء بأمر عظيم منكر»[4].

وبالتأمل في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي نجد أنه لا فرق بينهما؛ إذ كلاهما يعني: اختلاق الكذب، والافتراء أخص من الكذب، وأشد منه.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٩٧.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٢٣٠.
(٣) التحرير والتنوير ١٩/ ١٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٣.

الافتراء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فري) في القرآن (٦٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٥	﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨]
الفعل المضارع	٢٦	﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه:٦١]
المصدر	٢	﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾[الأنعام:١٤٠]
اسم الفاعل	٣	﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[الأعراف:١٥٢]
اسم المفعول	٣	﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[هود:١٣]
الصفة المشبهة	١	﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾[مريم:٢٧]

وجاء الافتراء في القرآن على معناه اللغوي، وهو: الاختلاق والكذب في حق الغير بما لا يرتضيه، فهو أخص من الكذب، وأصله من الشق والقطع للإفساد، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٦٧-٢٦٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٨٧٥-٨٧٦.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٩٦-٤٩٧، لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ١٥٢-١٥٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكذب:

الكذب لغة:

مادة كذب: الكاف والذال والباء: أصلٌ صحيحٌ يدل على خلاف الصدق[١].

الكذب اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «هو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع؛ سواء بالقول، أو بالإشارة، أو بالسكوت»[٢].

الصلة بين الكذب والافتراء:

أن الافتراء أخص من الكذب، وأشد قبحًا منه؛ لأن الافتراء اختلاق الأخبار الكاذبة التي لا أصل لها، وكذلك فإن الافتراء كذبٌ في حق الغير بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنه قد يكون في حق المتكلم نفسه لا في حق الغير؛ ولذا يقال لمن قال: «فعلت كذا ولم أفعل كذا» مع عدم صدقه في ذلك: هو كاذب، ولا يقال: هو مفتر، وكذا من مدح أحدًا بما ليس فيه، يقال: إنه كاذب في وصفه، ولا يقال: هو مفتر؛ لأن ذلك مما يرتضيه المقول فيه غالبًا، وقال سبحانه وتعالى حكاية عن الكفار: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[الشورى: ٢٤]؛ لزعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم بما لا يرتضيه الله سبحانه مع نسبته إليه[٣].

٢ الإفك:

الإفك لغةً:

أفك إفكًا وأفوكًا: كذب، وأفك فلانًا: جعله يكذب، وحرمه مراده[٤].

الإفك اصطلاحًا:

أعظم الكذب، وكل شيء في القرآن إفك فهو كذب[٥].

قال الشنقيطي: «واعلم بأن الإفك هو أسوأ الكذب؛ لأنه قلب للكلام عن الحق إلى

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٦٨، المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٥٢٨.
(٢) التعريفات، ص٧٤، وانظر: التوقيف، المناوي، ص٩٥٢.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٥٠- ٤٥١.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٩٣١.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٥٣.

الباطل، والعرب تقول: أفكه بمعنى قلبه»[1].

الصلة بين الإفك والافتراء:

يشترك الإفك والافتراء في أن كلًا منهما يعد من أشنع الكذب وأفظعه؛ وفي كليهما إساءة وإيذاء، ويختلف الإفك عن الافتراء بأن الإفك فيه قلب للحقيقة، أما الافتراء فهو اختلاق أخبار كاذبة ليس لها حقيقة أصلًا، وكلاهما شرٌّ محض.

٣ البهتان:

البهتان لغة:

مشتقٌّ من بهت الرجل يبهته بهتًا وبهتانًا فهو بهات، أي: قال عليه ما لم يفعله، فهو مبهوتٌ، والبهتان: افتراءٌ[2].

البهتان اصطلاحًا:

هو الافتراء على الغير، وهو: الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه؛ لأنه يبهت من ينقل عنه[3].

وقيل: هو كذب يبهت سامعه ويدهشه ويحيره؛ لفظاعته، وقال أبو البقاء: «سمي به؛ لأنه يبهت أي: يسكت؛ لتخيل صحته، ثم ينكشف عند التأمل»[4].

الصلة بين البهتان والافتراء:

قال الكفوي: البهتان: هو الكذب الذي يبهت سامعه أي: يدهش له ويتحير. وهو أفحش من الكذب؛ لأنه إذا كان عن قصد يكون إفكًا، والإفك: إذا كان على الغير يكون افتراء، والافتراء: إذا كان بحضرة المقول فيه يكون بهتانًا[5].

(١) أضواء البيان ٦/ ١٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٨.
(٤) انظر: التوقيف، المناوي ص ٨٤، الكليات، الكفوي ص ٢٢٦.
(٥) الكليات، الكفوي ص١٥٤.

ميادين الافتراء ومظاهره

الميادين التي يكثر فيها الافتراء، ويظهر بقوة متعددة ؛نجملها فيما يلي:

أولًا: الافتراء في العقائد:

١. الألوهية.

من أعظم أنواع الافتراء: الفرية على الله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله، والذي يعني الاختلاق عليه والحكاية عنه ما لم يقله، أو اتخاذ الأنداد والشركاء.

١. الافتراء على الله بادعاء الشركاء:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

أي: ومن يجعل لغير الله شركة مع الله قيوم السموات والأرض -سواء كانت الشركة بالإيجاد أو بالتحليل والتحريم- فقد اخترع ذنبًا عظيم الضرر[(١)]؛ لأن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد، فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة، إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون، مقطوعو الصلة بالله رب العالمين.

٢. الافتراء على الله بما لم يقله:

ومن صور الافتراء على الله تزكية اليهود والنصارى لأنفسهم من غير برهان على ذلك، كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩-٥٠].

هذا توبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه؛ وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[المائدة: ١٨].

ويقولون: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[البقرة:١١١].

وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، فتزكيتهم أنفسهم من أعظم الافتراء على الله عز وجل؛ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقًا، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلًا، وهذا أعظم الكذب، وقلبٌ للحقائق بجعل الحق باطلًا، والباطل حقًا[(٢)].

ولما كان الشرك أعظم الافتراء على الله أرسل الله الرسل لإبطال ما اختلقه المشركون على الله من عبادة غير الله، ودعوتهم إلى عبادة الله، كما قال هود عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

أي: ولقد أرسلنا إلى عادٍ أخاهم هودًا

(١) تفسير المراغي ٥/ ٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٢.

آمرًا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهيًا لهم عن عبادة الأوثان التي افتروها، واختلقوا لها أسماء الآلهة[1]، وتسميتهم إياهم شفعاء يتقربون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتماثيلهم ويرجون النفع وكشف الضر عنهم بجاههم عنده.

ولما قام الأنبياء -صلوات الله عليهم- بدعوة أقوامهم إلى ترك عبادة غير الله، والقيام بعبادة الله؛ آمن بهم فريق، وعاندهم فريق آخر، سماهم القرآن الملأ.

كما قال تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

أي: ما أعظم افتراءنا على الله إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا الصراط المستقيم باتباع ملة إبراهيم[2].

وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في الدعوات أن يقوم الرسل وورثتهم من بعدهم بدعوة أقوامهم إلى عبادة الله، وترك عبادة غير الله، فيؤمن فريق، ويكفر فريق، ويتدافع الفريقان، ويجاهد الرسل والمؤمنون في الله حق جهاده، فيثبتون، وتكون العاقبة لهم، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

٢. النبوة والمعجزات.

من قبح المفترين ادعاؤهم على الرسل أنهم لم يأتوا بالمعجزات الباهرة والدلائل القاهرة من عند الله، وإنما هي اختلاق من عند أنفسهم، كما حكى الله عن فرعون وقومه من دعوة موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا﴾ [القصص: ٣٦].

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة على صدقهما فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده، واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة؛ وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢٩.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ٥.

فما صعد معهم ذلك[1].

وقد جعلوا انتفاء بلوغ مثل هذه الدعوة إلى آبائهم حتى تصل إليهم بواسطة آبائهم الأولين دليلًا على بطلانها؛ وذلك آخر ما يلجأ إليه المحجوج المغلوب حين لا يجد ما يدفع به الحق بدليل مقبول، فيفزع إلى مثل هذه التلفيقات والمباهتات[2].

ولما جاءت مريم -عليها السلام- بعيسى عليه السلام المعجزة الإلهية من غير أب تحمله، أنكر عليها قومها ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾.

والذي يفهم من الآية أن مرادهم بقولهم: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: منكرًا عظيمًا؛ لأن «الفري» فعيلٌ من الفرية، يعنون به الزنا؛ لأن ولد الزنا كالشيء المفترى المختلق؛ لأن الزانية تدعي إلحاقه بمن ليس أباه، ويدل على أن مرادهم بقولهم: «فريًا» الزنا؛ قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

لأن ذلك البهتان العظيم الذي هو ادعاؤهم أنها زنت، وجاءت بعيسى من ذلك الزنا -حاشاها وحاشاه من ذلك- هو المراد بقولهم لها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، ويدل لذلك قوله تعالى بعده: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]. والبغي الزانية، يعنون كان أبواك عفيفين لا يفعلان الفاحشة، فما لك أنت ترتكبينها؟! ومما يدل على أن ولد الزنا كالشيء المفترى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢].

قال بعض العلماء: أي: ولا يأتين بولد زنًا يقصدن إلحاقه برجلٍ ليس أباه، هذا هو الظاهر الذي دل عليه القرآن في معنى الآية[3].

وعندما ينسخ الله حكمًا، ويأتي بحكم آخر لحِكَمٍ يعلمها ورحمة بعباده سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

قدحوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢].

يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٣٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٥٥.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤١٤.

تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكمًا مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رأوه كذلك قدحوا في الرسول، وبما جاء به، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرٍۭ﴾.

قال الله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشرعه.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحًا صحيحًا؛ لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتًا بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئًا فشيئًا حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضًا فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكمًا من الأحكام ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية.

﴿وَهُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجرًا حسنًا، ماكثين فيه أبدًا، وأيضًا فإنه كلما نزل شيئًا فشيئًا كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكمًا وبشارة أكثر، فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه أنزل نظيره وهكذا.

ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغًا عظيمًا، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها غيرهم.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية[1].

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب، لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي، وأنه الرسالة الأخيرة التي ليست بعدها من السماء رسالة، وأن الله الذي خلق البشر عليم بما يصلح لهم من المبادئ والشرائع، فإذا بدل آية انتهى أجلها واستنفدت أغراضها، ليأتي بآية أخرى أصلح للحالة الجديدة التي صارت إليها الأمة، وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذي لا يعلمه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٩.

إلا هو، فالشأن له، ومثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء تعطى للمريض منه جرعات حتى يشفى، ثم ينصح بأطعمة أخرى تصلح للبنية العادية في الظروف العادية.

إن المشركين لا يدركون شيئًا من هذا كله، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فحسبوها افتراء منه، وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذبًا قط[1].

وقد حاول المشركون بكل الطرق فتنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ليفتري على الله غير القرآن بما يوافق أهواءهم، لكن الله حفظ نبيه صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

يذكر تعالى منته على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك[2].

٣. الكتب.

أخبرنا الله عز وجل في كتابه الكريم عن تعنت الكافرين، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه:

فتارة يزعمون أنه سحرٌ.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

إنهم بقولهم هذا يغالطون أنفسهم، ويغالطون قومهم لستر مكابرتهم ولدفع ما ظهر من الغلبة عليهم، وهذا شأن المغلوب المحجوج أن يتعلق بالمعاذير الكاذبة.

وتارة يزعمون أنه أضغاث أحلام، وتارة يزعمون أنه شعر جاء به شاعر، كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

يذكر تعالى ائتفاك المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم سفهوه، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة.

فتارة يقولون: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ بمنزلة كلام النائم الهاذي، الذي لا يحس بما يقول، وتارة يقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ واختلقه وتقوله من عند نفسه.

وتارة يقولون: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾ وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزمًا لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٩٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٣.

وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدًا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك، ليعارضوا مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدروا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقض مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء.

وإنما يقولون هذه الأقوال فيه -حيث لم يؤمنوا به- تنفيرًا عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه، وهو كاف شاف.

فمن طلب دليلًا غيره، أو اقترح آية من الآيات سواه، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من الآيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة؛ لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة -على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات- لا يؤمنون قطعًا، فلو جاءتهم كل آية، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم[1].

وتارة يزعمون أنه: ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهذا القول من بهتانهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

يقول تعالى مخبرًا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار، في قولهم عن القرآن: إن هذا القرآن كذب كذبه محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون، فرد الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور.

فهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول صلى الله عليه وسلم وكمال صدقه وأمانته وبره التام، وأنه لا يمكنه، لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك، فقد جاءوا بهذا القول ظلمًا وزورًا.

ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد استنسخها محمد ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهذا القول منهم فيه عدة عظائم:

منها: رميهم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذي

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١٨.

هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه للخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد علمت حالته، وهم أشد الناس علمًا بها، أنه لا يكتب، ولا يجتمع بمن يكتب له، وقد زعموا ذلك[1]، وما جرأهم على هذا البهتان إلا إشراكهم وتصلبهم فيه، ليس ذلك لشبهة تبعثهم على هذه المقالة لانتفاء شبهة ذلك[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣].

يخبر تعالى عن حالة المشركين عندما تتلى عليهم آيات الله البينات، وحججه الظاهرات، وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم، ومنةٍ وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي، ويكذبون من جاءهم بها[3].

«فلم يثبتوا على صفة له، ولا على رأي يرونه فيه؛ لأنهم إنما يتمحلون ويحاولون أن يعللوا أثره المزلزل في نفوسهم بشتى التعللات، فلا يستطيعون، فينتقلون من ادعاء إلى ادعاء، ومن تعليل إلى تعليل، حائرين غير مستقرين، ثم يخلصون من الحرج بأن يطلبوا بدل القرآن خارقة من الخوارق التي جاء بها الأولون»[4].

ودفاعًا عن القرآن ضد افتراءات المكذبين قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: لو افتريت يا محمد على القرآن كذبًا لطبع الله على قلبك، ولسلبك ما آتاك من القرآن، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى: ٢٤].

ثم برأ عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم مما نسبه إليه المفترون، وأثبت أنه الحق الكامل من ربه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

فالقرآن هو الحق من رب العالمين: «الحق بما في طبيعته من صدق ومطابقة لما في الفطرة من الحق الأزلي، وما في طبيعة الكون كله من هذا الحق الثابت.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٦٨.

الحق.. بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه وهذا الكون الذي يعيشون فيه ونواميسه الكلية، وما يعقده بينهم وبين قوى الكون كله من سلام وتعاون وتفاهم وتلاق.

الحق.. الذي تستجيب له الفطرة حين يلمسها إيقاعه، في يسر وسهولة، وفي غير مشقة ولا عنت؛ لأنه يلتقي بما فيها من حق أزلي قديم، الحق.. الذي لا يظلم أحدًا في دنيا أو آخرة»[1].

ثم نفى سبحانه وتعالى أن يختلق هذا القرآن كذبًا، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المتقدمة، ومهيمنًا عليها، ومبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وفيه بيان الأحكام والحلال والحرام، بيانًا شافيًا كافيًا حقًا لا مرية فيه من الله رب العالمين[2].

قال سيد قطب رحمه الله: «وما كان من شأنه أصلًا أن يفترى، فليس الافتراء هو المنفي، ولكن جواز وجوده هو المنفي، وهو أبلغ في النفي وأبعد»[3].

ثم بين سبحانه وتعالى أن المنتفعين بهذا القرآن هم المؤمنون فهو هدى ورحمة لهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي: يكذب ويختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات.

فلهذا كان: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٠٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٩.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٦.

من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد[1].

هكذا عرض القرآن الكريم افتراءات المكذبين، ثم دحضها عن القرآن وعن حامله، ثم أثبت بأنه من رب العالمين، ثم حدد المنتفعين به، وهم المؤمنون.

الافتراء على كتاب الله في الزمن الحاضر:

لقد ظهر في هذا العصر أحفاد للمفترين السابقين ساروا على نهجهم، واستخدموا طريقتهم في الافتراء، لم يوص بعضهم بعضًا بذلك، بل تشابهت قلوبهم في الافتراء، كما قال الله: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

فـ«منهم من أنكر الوحي، وادعى أن القرآن «أثر أدبي خالد» وأنه «منتج ثقافي» لا أكثر»[2].

وصنف آخر اختلقوا قرآنًا يسمونه الفرقان الحق[3]، وهو زيف وكذب وافتراء وتشويه وطمس للحقائق، لتشويه القرآن الكريم ورسالته السامية النبيلة، لقد بلغ صاحب هذا الكتاب ما لم يبلغه مسيلمة الكذاب، بل مسيلمة الكذاب لم يبلغ كذبه وافتراؤه إلى هذا الحد، بل كان يقر للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة، لكن كان يدعي أنه رسول آخر، ولا ينكر وجود الرب، ولا ينكر القرآن في الظاهر، وهذا المفتري جحد الرب، وأشرك به كل شيء، وافترى هذا الكتاب الذي يزعم أنه أعظم من القرآن.

وهذه المحاولة للدس والافتراء على كتاب الله الكريم ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة، ولكنها محاولات فاشلة. وسيبقى كتاب الله تعالى محفوظًا في الصدور وفي السطور، ولن تؤثر فيه محاولات التحريف والتزييف.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٢٧.

(٢) المفترون، خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، ص٣٢.

(٣) الفرقان الحق، كتبه القسيس الأمريكي «أنيس شوروش» بلغة عربية؛ لأنه من أصل عربي، فهو من نصارى مدينة «الناصرة» في فلسطين، وقد ادعى في كتابه أنه نجح في معارضة القرآن، وأنه بديل القرآن! وقد ادعى «شوروش» في كتابه النبوة «متنبئ الأمريكان» ويزعم أن الله أرسله نبيًا للعالمين في القرن الحادي والعشرين، أنزل عليه كتابه الأخير «الفرقان الحق» وقد استغرق إعداد الكتاب سبع سنوات، حيث بدأ إعداده بعد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م، وانتهى منه عام ١٩٩٩م، وطبعه ثلاث طبعات، كانت الطبعة الثالثة عام٢٠٠٢م وأصدره في ولاية تكساس في أمريكا باللغتين العربية والإنجليزية في سبع وسبعين سورة، ودعا فيه المسلمين بصراحة إلى التخلي عن ما هم فيه من كفر وضلال، أخذوه من القرآن والإيمان به هو، وإفكه المفترى «الفرقان الحق»، ليكونوا على هدى وفلاح! وبذلك جعل كتابه بديلًا عن القرآن.
انظر: الانتصار للقرآن، تهافت فرقان متنبئ الأمريكان أمام حقائق القرآن، صلاح الخالدي ص ١٠.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وسيقذف الله بنور «القرآن الحق» على ظلام «الفرقان الحق المزعوم» فإذا هو مضمحل، كما اضمحلت المحاولات السابقة للافتراء على القرآن، ويخرج القرآن من هذه الافتراءات منتصرًا مضيئًا للخلق طريق الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وإنا من ذلك لعلى يقين.

لكن منزل القرآن سبحانه وتعالى يحب من حملته أن يكونوا درعًا حصينة في صد ودحض الافتراءات التي لا تنتهي ولن تنتهي؛ لأنها سنة الله في دعوته، وهذه الافتراءات زبد يتلاشى؛ إذ لا نفع فيها، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

رابعًا: آيات الله وبراهينه:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

أي: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرامًا ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك.

فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظلمًا من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء!

فإن من قال هذه المقالة صادقًا أو كاذبًا فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس.

فإن الفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حندس الظلماء، فمن سيما كل منهما وكلامه وفعاله يستدل من له بصيرة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وكذب مسيلمة الكذاب، وسجاح، والأسود العنسي[(١)].

و «من» استفهام إنكاري مستعمل في تهويل ظلم هذا الفريق، المعبر عنه بمن افترى على الله كذبًا و «من» الثانية موصولة، وهي عامة لكل من تتحقق فيه الصلة، وإنما كانوا أظلم الناس ولم يكن أظلم منهم لأن الظلم اعتداء على حق، وأعظم الحقوق هي حقوق الله تعالى، وأعظم الاعتداء على حق الله الاعتداء عليه بالاستخفاف بصاحبه العظيم، وذلك بأن يكذب بما جاءه من قبله، أو بأن يكذب عليه فيبلغ عنه ما لم يأمر به، فإن جمع بين الأمرين فقد عطل مراد الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٥٥.

تعالى من جهتين:

جهة إبطال ما يدل على مراده، وجهة إيهام الناس بأن الله أراد منهم ما لا يريده الله، والمراد بهذا الفريق: هم المشركون من العرب، فإنهم كذبوا بآيات الله التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وافتروا على الله الكذب فيما زعموا أن الله أمرهم به من الفواحش[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

«أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا كزعم من زعم أن له ولدًا أو شريكًا، أو أن غيره يدعى معه أو من دونه ويتخذ وليًا له يقرب الناس إليه زلفى ويشفع لهم عنده، أو زاد في دينهما ليس منه أو كذب بآياته المنزلة كالقرآن المجيد، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله»[2].

ثانيًا: الافتراء في الشرائع:

من أعظم القضايا التي يقع فيها الافتراء قضية التحليل والتحريم، وهما تشريع شرعه الله سبحانه لعباده، وليس لمخلوقٍ حقٌّ في تحريم شيءٍ أباحه الرب لعباده تدينًا به إلا بوحيه وإذنه، وقد أنكر الله على من فعل ذلك.

فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى في آياتٍ كثيرةٍ؛ كقوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وقوله: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وقد نهى سبحانه وتعالى عن القول عليه بما لم يقل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٦.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٢٨٧.

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم الله، أو حرم شيئًا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه[1].

فـ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ حين تقولونها بلا نص هي الكذب عينه، الذي تفترونه على الله، والذين يفترون على الله الكذب ليس لهم إلا المتاع القليل في الدنيا، ومن ورائه العذاب الأليم، والخيبة والخسران، ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله، وبغير نص في شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين، وينتظرون أن يكون لهم فلاح في هذه الأرض أو عند الله![2].

وانتصب (الكذب) على المفعول المطلق لـ(تصف) أي: وصفًا كذبًا؛ لأنه مخالف للواقع؛ لأن الذي له التحليل والتحريم لم ينبئهم بما قالوا، ولا نصب لهم دليلًا عليه[3].

وقد وقعوا فيما نهاهم الله عنه كما أخبر عنهم ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩].

أي: من أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عمومًا، وجعلها رزقًا ورحمة، يتمتعون بها وينتفعون، قد اخترعوا فيها بدعًا وأقوالًا من تلقاء أنفسهم.

فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: ﴿هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي: محرم ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف -من عندهم-.

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم، وآراؤهم الفاسدة، وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم، وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله.

وهم كذبة فجار في ذلك ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل، والمنافع.

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام، ويعينونها محرمًا ما في بطنها على

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٠٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٥٠.

الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء، ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حيًا، وإن يكن ما في بطنها يولد ميتًا فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ﴿وَصْفَهُمْ﴾ حين وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يمهلهم جل جلاله.

ثم بين خسرانهم وسفاهة عقولهم، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم -بعد العقول الرزينة- السفه المردي، والضلال ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقًا لهم، فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ أي: كذبًا يكذب به كل معاند كفار ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: قد ضلوا ضلالًا بعيدًا، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم[1].

وقد ذمهم الله سبحانه على قولهم وفعلهم، فقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

أي: ما شرع الله هذه الأشياء، ولا هي عنده قربة، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعًا لهم وقربة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم[2].

والبحيرة: ناقة يشقون أذنها، ثم يحرمون ركوبها ويرونها محترمة.

والسائبة: ناقة، أو بقرة، أو شاة، إذا بلغت شيئًا اصطلحوا عليه، سيبوها فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئًا من ماله يجعله سائبة.

والحام: جمل يحمى ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم.

فكل هذه مما جعلها المشركون محرمة بغير دليل ولا برهان، وإنما ذلك افتراء على الله، وصادرة من جهلهم، وعدم عقلهم[3].

روى البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة: التي يمنع درها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٢١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٦.

للطواغيت، فلا يحلبها أحدٌ من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيءٌ».

قال: وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت عمرو بن عامرٍ الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب).

والوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكرٌ، والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيءٌ وسموه الحامي[1].

وكان أول من تولى كبر هذا الافتراء «عمرو بن لحي»، فهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام، روى ابن حبان بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عرضت علي النار، فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة ابن خندف يجر قصبه[2] في النار، وكان أول من غير عهد إبراهيم، وسيب السوائب)[3].

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة)، رقم ٤٦٢٣.

(٢) الأقصاب: الأمعاء، واحدها قصب.
انظر: غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام ٢/ ٣٢.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذكر رؤية المصطفى صلى الله عليه وسلم في النار ابن قمعة يعذب فيها، رقم ٧٤٩٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٦٧٧.

(٤) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٦٧.

ذم المفترين والرد عليهم

تنوعت أساليب القرآن في ذم المفترين والرد عليهم، وستتناول هذه الأساليب في النقاط الآتية:

أولًا: وصفهم بالظلم:

قال سبحانه وتعالى في معرض المبالغة في افتراء المفترين على الله الذين لم يبلغ أحد من الظالمين قبلهم ظلمهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

فلا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا ما بأن أوجب على عباده من العبادات ما لم يوجبه، أو حرم عليهم في الدين ما لم يحرمه، أو عزا إلى دينه أي حكمٍ لم ينزله على رسله، أو كذب بآياته المنزلة عليهم بالقول أو بما هو أدل منه وهو الاستكبار عن اتباعها، أو الاستهزاء بها، أو تفضيل غيرها عليها بالعمل[4].

«وإنما كانوا أشد الظالمين ظلمًا؛ لأن الظلم الاعتداء على أحد بمنعه من حقه،

وأشد من المنع أن يمنعه مستحقه، ويعطيه من لا يستحقه، وأن يلصق بأحد ما هو بريء منه، ثم إن الاستحقاق وعدمه قد يثبتان بحكم العوائد، وقد يثبتان بأحكام الشرائع، وقد يثبتان بقضايا العقول السليمة، وهو أعلى مراتب الثبوت، ومدار أمور أهل الشرك على الافتراء على الله بأن سلبوا عنه ما هو متصف به من صفات الإلهية الثابتة بدلالة العقول.

وأثبتوا له ما هو منزه عنه من الصفات والأفعال بدلالة العقول، وعلى تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، ونكران دلالة المعجزة التي يقتضيها العقل، وعلى رمي الرسول صلى الله عليه وسلم بما هو بريء منه بشهادة العقل والعادة التي عرفوها منه بهتانًا وكذبًا، فكانوا بمجموع الأمرين وضعوا أشياء في مواضع لا يمكن أن تكون مواضعها، فكانوا أظلم الناس؛ لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول.

وتقييد الافتراء بالحال المؤكدة في قوله: ﴿كَذِبًا﴾ لزيادة تفظيع الافتراء؛ لأن اسم الكذب مشتهر القبح في عرف الناس، وإنما اختير الافتراء للدلالة على أنهم يتعمدون الاختلاق تعمدًا لا تخالطه شبهة»[1].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٠٥.

ثانيًا: تحديهم بالإتيان فيما زعموا أنه مفترى:

مر تحدي الله عز وجل للمشركين في القرآن المكي والمدني بأن يأتوا فيما زعموا أنه مفترى بمراحل:

المرحلة الأولى: أن الله سبحانه وتعالى تحداهم بالقرآن كله ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

أي: قل: لو اتفقت الإنس والجن على محاولة الإتيان بمثل هذا القرآن المعجز لا يستطيعون الإتيان به، ولو تعاونوا وتظاهروا على ذلك.

المرحلة الثانية: تدرج معهم إلى عشر سور منه، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

أي: فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

المرحلة الثالثة: ثم تحداهم بسورة، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ

﴿مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

أي: إن شككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذبًا: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، ولفظ سورةٍ هنا يشمل القصيرة والطويلة.

وكذا في سورة البقرة تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم؛ وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقيادًا[1].

وهنا تساؤل: لم قال في سورة البقرة: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وقال في سورة يونس: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾؟

والجواب: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان رجلًا أميًا، لم يتعلم على أحد، ولم يطالع كتابًا، فقال في سورة البقرة ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يعني: فليأت إنسان يساوي محمدًا صلى الله عليه وسلم في أميته بسورة تساوي هذه السورة، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز.

فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزة، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم في أميته معجز، ثم إنه تعالى بين في سورة يونس أن تلك السورة في نفسها معجز، فإن الخلق وإن تعلموا وطالعوا وتفكروا فإنه لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور، فلا جرم قال تعالى في هذه الآية: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ ولا شك أن هذا ترتيب عجيب في باب التحدي وإظهار المعجز[2].

وعن جهاده صلى الله عليه وسلم في دحض افتراءات المفترين: قال الفضيل بن عياض رحمه الله: فلم يزل يقرعهم النبي صلى الله عليه وسلم أشد التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٥٤.

أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء[1].

ثالثًا: بيان تناقضهم في الاتهام والأقوال:

أخبر سبحانه عن تناقض أقوال المشركين، ولقن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بـ(قل) التلقينية، فقال: قل لهؤلاء: هل حرم الله الذكرين من الغنم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا في ذلك؛ لأنهم لا يحرمون كل ذكر من الضأن والمعز، وقل لهم: هل حرم الله الأنثيين من الغنم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضًا؛ لأنهم لا يحرمون كل أنثى من ولد الضأن والمعز.

وقل لهم: هل حرم الله ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز من الحمل؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضًا؛ لأنهم لا يحرمون كل حمل من ذلك، خبروني بعلم يدل على صحة ما ذهبتم إليه، إن كنتم صادقين فيما تنسبونه إلى ربكم.

قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

المعنى: قل لهم: إن كان حرم الذكور فكل ذكر حرام؛ لئن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام، لئن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني من الضأن والمعز، فكل مولود حرام، ذكرًا كان أو أنثى، وكلها مولود فكلها إذًا حرام لوجود العلة فيها، فبين انتقاض علتهم وفساد قولهم[2].

«ففي هاتين الآيتين كشف الله لهم عما في معتقداتهم وتصوراتهم وتصرفاتهم من وهن وسخف وهزال، وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس، وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التي يتصرفون فيها من عند أنفسهم، أو بوحي شياطينهم وشركائهم، بينما هؤلاء لم يخلقوها لهم، إنما الذي خلقها لهم هو الله، الذي يجب أن تكون له وحده الحاكمية فيما خلق وفيما رزق، وفيما أعطى من الأموال للعباد.

الآن يقرر لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله، ما حرمه الله حقًا عن بينة ووحي، لا عن ظن ووهم، والله هو صاحب الحاكمية الشرعية، الذي إذا حرم الشيء فهو حرام، وإذا أحله فهو حلال بلا تدخل من البشر،

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٠٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١١٥.

ولا مشاركة ولا تعقيب في سلطان الحاكمية والتشريع»[1].

رابعًا: إرخاء العنان لهم في المجادلة ثم إدانتهم:

الحق تبارك وتعالى يرخي للخصم العنان؛ ليقول كل ما عنده، وليأخذه إلى جانبه، لا بما يكره، بل بما يحب وأمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

ومعنى ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أنها مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن، أي بمثل قصص أهل الجاهلية وتكذيبهم، وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي، فالمماثلة في قوله: ﴿مِثْلِهِ﴾ هي المماثلة في بلاغة الكلام وفصاحته، لا في سداد معانيه[2].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: ٣٥].

وهذه الآية وإن اختلف المفسرون في المراد منها، فقيل: إنها حكاية عن نوح صلى الله عليه وسلم، وما قاله لقومه، وقيل: هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكفار مكة[3].

وعلى القول بأنها في النبي صلى الله عليه وسلم فالمراد: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعله من عنده محمد ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي: فإثم ذلك علي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك مفتعلًا ولا مفترى؛ لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه[4].

وفي هذه الجملة توجيه بديع وهو إفادة تبرئة نفسه من أن يفتري القرآن، فإن افتراء القرآن دعوى باطلة ادعوها عليه فهي إجرام منهم عليه، فيكون المعنى: وأنا بريء من قولكم الذي تجرمونه علي باطلًا[5].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف: ٨].

أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني -وليس كذلك- لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٢-٢٣].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٢٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢١٩.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٤٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٥٤.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧-٤٤].

ولهذا قال ها هنا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد[1].

وهذه الأمثلة من باب إرخاء العنان للخصم ليدخل في المقصود بألطف موعود.

خامسًا: التهديد والوعيد لهم بسوء المصير:

أقسم سبحانه وتعالى بذاته العلية أنه سوف يسأل المفترين يوم القيامة عن افتراءاتهم، وسيجازيهم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، وائتفكوه، وليقابلنهم عليه، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ [الزمر: ٦٠].

والمراد منه تعظيم وعيد من يفتري على الله.

ثم قال سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: دعهم وافتراءهم، فأنا من ورائهم قادر على أخذهم ومدخر لهم جزاءهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢].

وكما ابتليناك -أيها الرسول- بأعدائك من المشركين ابتلينا جميع الأنبياء عليهم السلام بأعداء من مردة قومهم، وأعداء من مردة الجن، يلقي بعضهم إلى بعض القول الذي زينوه بالباطل؛ ليغتر به سامعه، فيضل عن سبيل الله، ولو أراد ربك جل جلاله لحال بينهم وبين تلك العداوة، ولكنه الابتلاء من الله، فدعهم وما يختلقون من كذب وزور.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٧٦.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٥٧٧.

أسباب الافتراء

للافتراء أسباب، منها:

١. الكفر.

أخبر تعالى أن الذين يفترون الكذب على الله وعلى رسوله شرار الخلق من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علمًا وعملًا وإيمانًا وإيقانًا، معروفًا بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد[١].

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان فيما قال له: وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله[٢].

٢. العناد.

أخبر تعالى أن العناد والظلم كان سببًا لافتراء المفترين، كما قال تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فتجرأ عليه، وقال ما قال؟ ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾؟ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فنون.

وكل هذا منهم، على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه.

فلو كان كاذبًا مجنونًا لم ينبغ لكم -يا أهل العقول غير الزاكية- أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ، ولولا عنادكم وظلمكم لبادرتم لإجابته، ولبيتم دعوته[٣].

ولكن ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

٣. الجهل.

أخبر تعالى أن الجهل سبب افتراء المشركين، ومن على شاكلتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

(١) المصدر السابق ٤/ ٦٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، رقم ٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٥.

يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر نصيبًا مما رزقهم الله، وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦][(١)].

قال أبو حيان رحمه الله: «قبح تعالى فعلهم ذلك، وهو أن يفردوا نصيبًا مما أنعم به تعالى عليهم لجماداتٍ لا تضر ولا تنفع، ولا تنتفع هي بجعل ذلك النصيب لها، ثم أقسم تعالى على أنه يسألهم عن افترائهم واختلاقهم في إشراكهم مع الله آلهةً، وأنها أهلٌ للتقرب إليها بجعل النصيب لها، والسؤال في الآخرة، أو عند عذاب القبر، أو عند القرب من الموت»[(٢)].

ويقول سيد قطب رحمه الله: «ما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت، يجعلون نصيبًا من رزق الله لهم موقوفًا على ما يشبه آلهة الجاهلية، ما يزال بعضهم يطلق عجلًا يسميه «عجل السيد البدوي» يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد، ولا ينتفع به أحد، حتى يذبح على اسم السيد البدوي لا على اسم الله! وما يزال بعضهم ينذرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله، ولا باسم الله، ولكن باسم ذلك الولي، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيبًا مما رزقهم الله، وهو حرام نذره على هذا الوجه، حرام لحمه، ولو سمي اسم الله عليه»[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٨.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٥٤٧.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٧٧.

آثار الافتراء

أولًا: آثار الافتراء على الفرد:

١. المفتري على الله سبحانه وتعالى أعظم الظالمين والمجرمين. قال تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٩٤].

٢. الافتراء سمة كل كافر. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

٣. يؤدي الافتراء إلى الوقوع في الشرك والبدع. قال ابن تيمية رحمه الله: «الشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء، ولهذا كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع والافتراء أقرب، كالرافضة الذين هم أكذب طوائف أهل الأهواء، وأعظمهم شركًا، فلا يوجد في أهل الأهواء أكذب منهم، ولا أبعد عن التوحيد منهم، حتى إنهم يخربون مساجد الله التي يذكر فيها اسمه، فيعطلونها عن الجماعات والجمعات، ويعمرون المشاهد التي على القبور، التي نهى الله ورسوله عن اتخاذها»[(١)].

٤. سبب في الحرمان من الهداية. قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

٥. سبب في عدم الفلاح. قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩].

٦. يؤدي الافتراء إلى الذل والمهانة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]. قال السعدي: «وكذلك نجزي المفترين فكل مفترٍ على الله، كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيبًا من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا»[(٢)].

٧. الافتراء سبب في وقوع العذاب في الدنيا. قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ٢/ ٢٨١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٣.

﴿بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١].

٨. الافتراء سبب في شدة سكرات الموت والعذاب الأليم يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام٩٣].

٩. الافتراء سبب في استحقاق لعنة الله وغضبه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

١٠. الافتراء سبب في مناقشة الحساب يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

ثانيًا: آثار الافتراء على المجتمع:

١. الافتراء من أشد أنواع الخطر العظيم، والضرر البالغ الذي لا يقتصر على من فعله، بل يتعداه إلى سائر طبقات المجتمع وعموم جهاته، وما يجلبه من سخط الجبار، وعذاب النار، والخزي والذلة والعار.

٢. الكذب يؤدي بالمجتمع إلى التفكك، ويجعل أفراده المستهترين الممارسين الافتراء يفسدون في الأرض، ويمارسون كل أنواع الرذيلة؛ لأنهم لم يخافوا الله عز وجل .

٣. المجالس التي يعرض فيها الكذب وغيرها، وتمارس فيه من قبل بعض الحاضرين هي حقيقة مواطن عدوى، ومصادر فتنة، وخلايا فساد، ومعاول هدم بما تنشره من شرور تؤدى إلى هدم المجتمع المسلم.

٤. الافتراء أعظم خطرًا على المجتمع، حيث يؤدي إلى عدم تحقق مقصد من مقاصد الشريعة، وهو حفظ الأمة، والذي يعني بث الثقة والأمان بين أفرادها، وطرح ما من شأنه إدخال الشك؛ لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سده، وكما يتهم المتهم غيره يتهم من اتهمه، وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق؛ إذ قد أصبحت التهمة تظل الصادق والمنافق.

٥. أسوأ آثار الكذب على العاملين الشرفاء: أنها تشغلهم عن المضي في رسالتهم بالدفاع عن أنفسهم؛ إثباتًا لبراءتهم تجاه جمهور لا يملك من الوعي ما يمحص به الحقائق من الأباطيل بسرعة وبدقة.

٦. فشو الافتراء وعدم تصدي العلماء له يؤدي إلى إصابة المجتمع بالذلة والمهانة في عيون أعدائه؛ لأن قريشًا لما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهدى واستمروا على الافتراء عاقبهم الله بالذلة، فأزال مهابتهم من قلوب العرب، واستأصلهم قتلًا وأسرًا، وسلب ديارهم، فلما أسلم منهم من أسلم صاروا أعزة بالإسلام.

عاقبة الافتراء

للافتراء عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة نتناولها فيما يأتي:

أولًا: عواقب الافتراء في الدنيا:

١. الخيبة والخزي.

أخبر الله عن كليمه موسى عليه السلام أنه حذر سحرة فرعون من الافتراء على الله، ووعدهم بعذاب من عند الله، وأنه سيخيب سعيهم، فلا يحققون النصر الذي يرجون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

أي: «لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم، وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله»[(١)].

وكانت لهذه الكلمات الأثر الكبير في زعزعة عقيدة سحرة فرعون الباطلة، وانتقلوا بفضل الله، ثم بفضل هذه الكلمات الصادقة من الكفر إلى الإيمان، وفي هذا المعنى قال سيد قطب رحمه الله: «وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠٨.

كالقذيفة في معسكر المبطلين وصفوفهم، فتزعزع اعتقادهم في أنفسهم وفي قدرتهم، وفي ما هم عليه من عقيدة وفكرة»[1].

٢. استحقاق الوصف بالظلم.

أخبر تعالى أن المفترين على الله ورسوله هم المستحقون للوصف بالظلم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤].

والمعنى: وأي ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عنادًا وتكبرًا وتجبرًا[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

نزلت في كذاب اليمامة والأسود العبسي وسجاح زوج مسيلمة؛ كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه.

قال القرطبي رحمه الله: «ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن يقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا؛ فيحكمون بما يقع في قلوبهم، ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار، وخلوها من الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون لتلك النصوص.

وقد جاء فيما ينقلون: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون» ويستدلون على هذا بالخضر؛ وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى عليه السلام من تلك الفهوم، وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب؛ فإنه يلزم منه هد الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا صلى الله عليه وسلم»[3].

٣. عدم الفلاح.

أخبر سبحانه وتعالى أن المفترين لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة.

قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١٣٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٣٩.

﴿سُبْحَانَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٨-٧٠].

توعد تعالى المفترين ممن زعم أن له ولدًا، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فلا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلًا، ثم ينتقلون إلى الله، ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب الشديد المؤلم بسبب كفرهم.

وجملة: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ استئناف بياني؛ لأن القضاء عليه بعدم الفلاح يتوجه عليه أن يسأل سائل: كيف نراهم في عزة وقدرة على أذى المسلمين وصد الناس عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم؟

فيجاب السائل بأن ذلك: متاع في الدنيا لا يعبأ به، وإنما عدم الفلاح مظهره الآخرة، فـ«متاعٌ» خبر مبتدأ محذوف يعلم من الجملة السابقة، أي: أمرهم متاع، والمتاع: المنفعة القليلة في الدنيا؛ إذ يقيمون بكذبهم سيادتهم وعزتهم بين قومهم، ثم يزول ذلك[1].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣٦.

٤. الغضب والذلة.

أخبر سبحانه وتعالى أن جزاء المفترين الغضب والذلة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلًا وصغارًا في الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري رحمه الله: «إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين»[2].

وعن أبي قلابة الجرمي رحمه الله أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ قال: «هي -والله- لكل مفتر إلى يوم القيامة»، وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: «كل صاحب بدعة ذليل»[3].

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٧٨.
(٣) المصدر السابق.

وقال مالك بن أنس رحمه الله: «ما من مبتدع إلا ويجد فوق رأسه ذلة، وذلك؛ لأن المبتدع مفتر في دين الله»[1].

«فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله، ووعد الله صادق لا محالة، وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة، وكان آخر ما كتب الله عليهم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.

فإذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض، ويستعلون بنفوذهم، وأنهم يملكون سلطان المال، وسلطان أجهزة الإعلام، وأنهم يقيمون الأوضاع الحاكمة التي تنفذ لهم ما يريدون، وأنهم يستذلون بعض عباد الله، ويطردونهم من أرضهم وديارهم في وحشية، والدول الضالة تساندهم وتؤيدهم إلى آخر ما نراه في هذا الزمان.

فليس هذا بناقض لوعيد الله لهم، ولا لما كتبه عليهم، فهم بصفاتهم هذه وأفعالهم يختزنون النقمة في قلوب البشر، ويهيئون الرصيد الذي يدمرهم من السخط والغضب، وستجيء الصحوة من هذه الغيبوبة، وسيفيء أخلاف المسلمين إلى سلاح أسلافهم المسلمين.

ومن يدري فقد تصحو البشرية كلها يومًا على طغيان اليهود! لتحقق وعيد الله لهم، وتردهم إلى الذلة التي كتبها الله عليهم، فإن لم تصح البشرية فسيصحوا أخلاف المسلمين، هذا عندنا يقين»[2].

وقد رأى سيد قطب رحمه الله هؤلاء الذين كانوا في خياله من أخلاف المسلمين وجدهم حقيقة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، فقال لهم: «إلى الفتية الذين كنت ألمحهم بعين الخيال قادمين، فوجدتهم في واقع الحياة قائمين، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، مؤمنين في قرارة نفوسهم، إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، إن أمامكم كفاحًا مريرًا شاقًا طويلًا، يجب أن تستعدوا له استعدادًا كبيرًا، بأن نرتفع إلى مستوى هذا الدين، نرتفع إلى مستواه في حقيقة إيماننا بالله، وفي حقيقة معرفتنا به فإننا لن نؤمن حق الإيمان حتى نعرفه حق المعرفة، ونرتفع إلى مستواه في عبادتنا لله، فإننا لن نعرف الله حق المعرفة إلا إذا عبدناه حق العبادة، ونرتفع إلى مستواه في وعينا لما حولنا، ومعرفتنا لأساليب عصرنا، ورحم الله رجلًا عرف زمانه، فاستقامت طريقته»[3].

وصدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم بسنده عن ثوبان قال:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٣٧٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٧٦.

(٣) العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب ص٥.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك»[(١)].

ثانيًا: عواقب الافتراء في الآخرة:

١. حرمان الشفاعة والنصرة.

«أخبر سبحانه وتعالى أن جزاء المفترين في الآخرة أن ما يعبدون من دونه لا يشفعون لهم، ولا يدفعون عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨- ٣٠].

أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس، وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وذهب عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه»[(٢)]، فلا تنفعهم ولا تدفع عنهم العذاب.

«وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

فهو إفك، وهو افتراء؛ وذلك مآله، وتلك حقيقته، الهلاك والتدمير، فماذا ينتظر المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تقربهم من الله زلفى؟ وهذه هي العاقبة وهذا هو المصير»[(٣)].

«وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦-٨٧].

أي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله، فلا ناصر لهم، ولا معين ولا مجيز»[(٤)].

٢. الفضيحة على رؤوس الأشهاد.

أخبر سبحانه وتعالى عن حال المفترين وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق)، رقم ٥٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٦.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩٣.

﴿يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٥٢- ٥٣].

وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

يبين تعالى حال المفترين عليه، وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق؛ من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان[(١)].

ويفسر ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذًا بيد ابن عمر؛ إذ عرض له رجلٌ، فقال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: في النجوى يوم القيامة؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله عز وجل يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب، واستحقوا أشد العذاب ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله؛ لما جاء أمر ربك ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا وصدقًا ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده لشدة حسرتهم وحرمانهم، وما يعانون من المشقة والعذاب[(٣)].

«إنه التشهير والتشنيع بالإشارة «هؤلاء» ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟﴾ وعلى من؟ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على أحد آخر!

إن جو الفضيحة هو الذي يرتسم في هذا المشهد، تعقبها اللعنة المناسبة لشناعة الجريمة ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقولها الأشهاد كذلك، فهو الخزي والتشهير -إذن- في ساحة العرض الحاشدة! أو هو

(١) المصدر السابق ٤/ ٣١٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، ٢/ ٧٤، رقم ٥٤٣٦.
وصححه الألباني في ظلال الجنة ص٦٠٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٧٩.

قرار الله سبحانه في شأنهم إلى جانب ذلك الخزي والتشهير على رءوس الأشهاد»[1].

إن جزاء اختلاق الكذب والتشهير والتشنيع بالمؤمنين الصادقين التشهير والتشنيع في الآخرة، والجزاء من جنس العمل.

٣. الاصطلاء في النار:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩- ٦٠].

أيحسبون أنه يصفح عنهم ويغفر؟ كلا بل يصليهم في النار.

موضوعات ذات صلة:

الحرام، الحلال، الزور، الكذب، النبوة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٦٨.

الاقتصاد

عناصر الموضوع

مفهوم الاقتصاد	٩٨
الألفاظ ذات الصلة	٩٩
الموارد الاقتصادية	١٠٣
الإنتاج	١١٤
المبادئ الاقتصادية	١٢٢
حماية الاقتصاد من عوامل الفساد	١٣٤
الاقتصاد والأخلاق	١٤٠

مفهوم الاقتصاد

أولًا: المعنى اللغوي:

الاقتصاد افتعال من قصد.

ذكر ابن فاس أن أصل مادة (قصد) تدل على ثلاثة معانٍ: إتيان شيء وأمه، وكسر الشيء، والناقة القصيد: المكتنزة لحمًا[1].

وقال الراغب: «القصد: استقامة الطريق، يقال: قصدت قصده، أي: نحوت نحوه، ومنه: الاقتصاد»[2]، فهو يعود إلى الأصل الأول الذي ذكره ابن فارس، كأنه لصحة قصده للشيء فهو يسير في خط مستقيم إليه، لا يلتفت إلى غيره، واستعير هذا المعنى للقصد بالاستقامة في التوسط والاعتدال في الشيء، أي لا يميل إلى أحد طرفي التفريط والإفراط[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال في المعجم الوسيط: «(الاقتصاد) علم يبحث في الظواهر الخاصة بالإنتاج والتوزيع»[4].

وفي المعجم الاقتصادي: «الاقتصاد علم يبحث في كل ما يتعلق بالثروة، والمال، والتكسب، والتملك، والإنفاق، والاقتصاد يبحث أيضًا في مسائل الإنتاج والاستثمار، ومسائل الانتفاع والخدمات، ومسائل التوفير والادخار، ومسائل الغنى والفقر»[5].

وعرفه الدكتور عناية: «بأنه مجموعة الأصول والمبادئ العامة الاقتصادية الثابتة والمستخرجة من القرآن، والسنة، ومجموعة التطبيقات، والحلول الاجتماعية المتغيرة، والإجراءات الشرعية والسياسات الاقتصادية المستندة إلى تلك الأصول والمبادئ العامة، والتي تحكم وتنظم الحياة الاقتصادية للمجتمع الإسلامي»[6].

ولم يرد لفظ (الاقتصاد) في القرآن الكريم، وإن كان تحدث عن قضايا تتعلق به، كما سيأتي بيانه في هذا البحث إن شاء الله.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٩٥،٩٦.
(٢) المفردات، الأصفهاني ص ٦٧٢.
(٣) انظر: مجمع بحار الأنوار، الفتني ٤/ ٢٧٧.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٣٨.
(٥) المعجم الاقتصادي الإسلامي، الشرباصي ص ٣٦.
(٦) الأصول العامة للاقتصاد الإسلامي، غازي عناية ص ٣٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ القناعة:

القناعة لغة:

«الرضا بالقسم»[١]، وقال الراغب: «القناعة: الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها. يقال: قنع يقنع قناعةً وقنعانًا: إذا رضي، وقنع يقنع قنوعًا: إذا سأل. قال تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[الحج:٣٦].

قال بعضهم: القانع هو السائل الذي لا يلح في السؤال، ويرضى بما يأتيه عفوًا... وأقنع رأسه: رفعه. قال تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾[إبراهيم:٤٣].

وقال بعضهم: أصل هذه الكلمة من القناع، وهو ما يغطى به الرأس، فقنع، أي: لبس القناع ساترًا لفقره كقولهم: خفي، أي: لبس الخفاء، وقنع: إذا رفع قناعه كاشفًا رأسه بالسؤال نحو خفي إذا رفع الخفاء»[٢]، وقال المناوي: «القناعة: لغة: الرضى بالقسمة. وعرفًا: الإقصار على الكفاف. ويقال: الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها»[٣].

القناعة اصطلاحًا:

هي الرضا بما أعطى الله[٤].

وقال السيوطي: القناعة: الرضا بما دون الكفاية، وترك التشوف إلى المفقود، والاستغناء بالموجود[٥].

الصلة بين القناعة والقصد:

«أن القصد هو ترك الإسراف والتقتير جميعًا، والقناعة الاقتصار على القليل والتقتير، ألا ترى أنه لا يقال: هو قنوع، إلا إذا استعمل دون ما يحتاج إليه، ومقتصد لمن لا يتجاوز الحاجة ولا يقصر دونها، وترك الاقتصاد مع الغنى ذم، وترك القناعة معه ليس بذم، وذلك أن نقيض الاقتصاد الإسراف، وقيل: الاقتصاد من أعمال الجوارح؛ لأنه نقيض الإسراف، وهو من أعمال الجوارح والقناعة من أعمال القلوب»[٦].

(١) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٧٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٨٥.
(٣) التوقيف، المناوي ص ٢٧٥.
(٤) مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ١٨٧.
(٥) مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٥.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٣٠.

٢ الوسط:

الوسط لغة:

قال ابن فارس: «الواو والسين والطاء: بناءٌ صحيحٌ يدل على العدل والنصف. وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه[١]، وفي لسان العرب: «وسط الشيء ما بين طرفيه»[٢].

الوسط اصطلاحًا:

قال المناوي: «الوسط: ما له طرفان متساويا القدر»[٣] وقال الكفوي: «ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة:١٤٣]. يعني متباعدين عن طرفي الإفراط في كل الأمور والتفريط»[٤].

قال أبو السعود عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾[المائدة:٨٩]. « أي من أقصده في النوع أو المقدار»[٥].

الصلة بين الوسط والقصد:

وعليه أن الوسط يقارب معنى الاقتصاد، وهو بمعنى الاعتدال أو ما بين طرفي الإفراط والتفريط، أو ما بين البخل والسرف.

٣ الإسراف:

الإسراف لغة:

قال ابن فارس: « السين والراء والفاء أصل واحد يدل على تعدي الحد، والإغفال أيضًا للشيء، تقول: في الأمر سرف، أي: مجاوزة القدر»[٦].

الإسراف اصطلاحًا:

تعريف الراغب الأصفهاني: «السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان»[٧]، وعرفه الطاهر ابن عاشور بقوله: « والإسراف: الإفراط والإكثار في شيءٍ غير محمودٍ»[٨].

---

(١) مقاييس اللغة، ٦/ ١٠٨.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٢٦.
(٣) التوقيف ص ٣٣٧.
(٤) الكليات، الكفوي ص ٩٣٨.
(٥) إرشاد العقل السليم ٣/ ٧٤.
(٦) مقاييس اللغة، ٣/ ١٥٣.
(٧) المفردات، ص٤٠٧.
(٨) التحرير والتنوير، ١١/ ١١٢.

الصلة بين الإسراف والقصد:

أن الاقتصاد يعني التوسط بين الإسراف والتقتير.

٤ التبذير:

التبذير لغة:

من بذر، أي: أفسد وأنفق في السرف، وكل ما فرقته وأفسدته، فقد بذرته، والتبذير: إفساد المال وإنفاقه في السرف[١].

التبذير اصطلاحًا:

حكى الإمام القرطبي عن الإمام الشافعي بأن التبذير هو: «إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير».

قال القرطبي تعليقًا على قول الإمام الشافعي: «وهذا قول الجمهور»، وحكى القرطبي أيضًا عن أشهب، عن الإمام مالكٍ: «أن التبذير هو أخذ المال من حقه، ووضعه في غير حقه»[٢].

الصلة بين التبذير والقصد:

أن الاقتصاد يعني التوسط بين التبذير والبخل.

٥ البخل:

البخل لغة:

مادة (ب خ ل) تدل على: «ضد الكرم»[٣]. وحد البخل الزبيدي رحمه الله تعالى بقوله: «إمساك المقتنيات عما لا يحل حبسها عنه»[٤].

البخل اصطلاحًا:

إمساك المال وعدم صرفه، حرصًا على بقائه وزيادته، وخوفًا من نفاده[٥].

الصلة بين البخل والقصد:

الظاهر أن البخل لفظ يدل على الإمساك، وهو مقابل للاقتصاد الذي يعني التوسط والاعتدال.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٥٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٢٤٧.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٧.
(٤) تاج العروس، ٢٨/ ٦٢، ٦٣.
(٥) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٢٤٥.

٦ الشح:

الشح لغة:

«هو البخل مع حرصٍ. ويقال تشاح الرجلان على الأمر، إذا أراد كل واحدٍ منهما الفوز به ومنعه من صاحبه. قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦]»[(١)]، وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: «الشح أشد البخل، وهو أبلغ في المنع من البخل، وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها، والشح عام، وقيل: البخل بالمال، والشح بالمال والمعروف»[(٢)].

الشح اصطلاحًا:

قال المناوي: «الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة»[(٣)]. وقال الجرجاني رحمه الله تعالى: «بخل الرجل من مال غيره»[(٤)].

الصلة بين الشح والقصد:

الظاهر أن الشح لفظ يدل على شدة المنع، أو البخل بمال الغير، وهو مقابل للاقتصاد الذي يعني التوسط والاعتدال.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٧٨.
(٢) لسان العرب، ٢/ ٤٩٥.
(٣) التوقيف، ص ٢٠٢.
(٤) التعريفات، ص ٤٢.

الموارد الاقتصادية

استخلف المولى سبحانه وتعالى الإنسان في الأرض لعمارتها واستثمار خيراتها ومواردها، وسخر له كل ما في الكون من سماء وأرض وما بينهما، وأغدق عليه نعمه، ليتمكن من القيام بواجب الاستخلاف، وسنوضح ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الموارد الاقتصادية نعمة إلهية:

من كمال ربوبية الله تعالى لعباده وقيوميته عليهم أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وخلق لهم جميع ما يحتاجونه في هذه الحياة الدنيا من مستلزمات.

وقد حمد ربنا جل وعلا ذاته العلية على ذلك في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

أي: هو تعالى المربي جميع العالمين، بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة، فمنه تعالى، وهو معنى ربوبيته العامة لخلقه[1].

وربوبية الله تعالى لخلقه ليست مادية فقط، بل هي ربوبية عامة تشمل الأمور المعنوية أيضًا، ومن ذلك إرساله الرسل، وإنزاله الكتب، وأنه فطر عباده على معرفته.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١][2].

ومن تلك المستلزمات الحياتية التي أنعم الله بها على عباده الموارد الاقتصادية، من الغذاء واللباس والمعادن والصخور والأخشاب والتراب وغيرها من مقومات الحياة والبناء والصناعة والعمل، وقد امتن الله تعالى على عباده بذلك في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

أي: خلق لعباده كل شيء مما يحتاجون إليه في ليلهم ونهارهم، وحضرهم وسفرهم، وفي جميع أحوالهم[3]، و(ما) في قوله: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ هي (ما) الموصولة، والتقدير: آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال[4].

وذلك من عظيم نعمة الله تعالى على عباده، أن هيأ لهم جميع ما يحتاجون إليه ويطلبونه لتقوم أمور حياتهم، ولذلك ذيل تعالى الآية بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، ومن تلك النعم التي يحتاجها الإنسان في حياته ويسأل عنها الغذاء من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٤/ ٨٨٣٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٤٦.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٩٩.

الطعام والشراب، فهو قوت الإنسان الذي ينمو به ويعيش عليه، وقد امتن الله تعالى به على عباده في قوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾[الرحمن:١٣].

كما أقسم ببعض أنواعه في قوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[التين:١].

وذلك تنبيهًا لعباده على أهمية هذه الأنواع، وكونها آية من آياته، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٢].

فامتن تعالى بمورد عزيز على الإنسان، هو الماء، الذي أنزله تبارك وتعالى من السحب، فأخرج لهم به من الثمرات المختلفة الأشكال والألوان، والطعوم والروائح والمنافع، وجعل من هذا الماء بحارًا تحمل السفن العظيمة وتنقلها المسافات البعيدة، وجعل منه الأنهار التي تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقًا للعباد؛ ليشربوا ويسقوا زروعهم وأنعامهم وغير ذلك من أنواع المنافع[(١)].

ومن تلك الموارد التي يحتاجها الإنسان في حياته ويسأل عنها: الأصواف والأوبار والقطن مما يحتاجه في لباسه، ووقاية جسده من الحر والبرد، وتزيين منظره وتحسينه، وقد امتن تعالى بذلك على عباده في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦﴾[الأعراف:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[النحل:٨١].

والسرابيل الأولى في الآية: هي الثياب من القطن والكتان والصوف، وأما السرابيل الثانية في قوله: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ فهي الدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون عونًا لكم على طاعته وعبادته[(٢)].

وقال تعالى في بيان ما أنعمه على عباده من موارد الأرض الباطنة كالمعادن وغيرها: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد:٢٥].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٧٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩١.

أي: خلق الله تعالى الحديد وأوجده لعباده، «لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحرية وما أشبه ذلك، وفيها القوة التي ترغم أنف الظالم، وتحمي المظلوم»[1]، وفيه منافع للناس «وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد»[2].

وقد ذكر الفخر الرازي كلامًا نفيسًا في منافع الحديد وفوائده.

قال رحمه الله: «وأما الحديد ففيه البأس الشديد فإن آلات الحروب متخذة منه، وفيه أيضًا منافع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ومنها أن مصالح العالم، إما أصول، وإما فروع، أما الأصول فأربعة: الزراعة، والحياكة، وبناء البيوت، والسلطنة، وذلك لأن الإنسان مضطر إلى طعام يأكله، وثوب يلبسه، وبناء يجلس فيه، والإنسان مدني بالطبع، فلا تتم مصلحته إلا عند اجتماع جمع من أبناء جنسه يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص، فحينئذ ينتظم من الكل مصالح الكل، وذلك الانتظام لا بد وأن يفضي إلى المزاحمة، ولا بد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض، وذلك هو السلطان، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلا بهذه الحروف الأربعة، أما الزراعة فمحتاجة إلى الحديد، وذلك في كرب الأراضي وحفرها، ثم عند تكوُّن هذه الحبوب وتولدها لا بد من خبزها وتنقيتها، وذلك لا يتم إلا بالحديد،...

وأما الحياكة فمعلوم أنه يحتاج في آلات الحياكة إلى الحديد، ثم يحتاج في قطع الثياب وخياطتها إلى الحديد، وأما البناء فمعلوم أن كمال الحال فيه لا يحصل إلا بالحديد، وأما أسباب السلطنة فمعلوم أنها لا تتم ولا تكمل إلا بالحديد، وعند هذا يظهر أن أكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد، ويظهر أيضًا أن الذهب لا يقوم مقام الحديد في شيء من هذه المصالح فلو لم يوجد الذهب في الدنيا ما كان يختل شيء من مصالح الدنيا، ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا.

ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة، جعله سهل الوجدان، كثير الوجود، والذهب لما قلّت الحاجة إليه جعله عزيز الوجود، وعند هذا يظهر أثر وجود الله تعالى ورحمته على عبيده»[3].

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

(١) تفسير المراغي ٢٧/ ١٨٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٢.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٤٧١، بتصرف.

[الحجر:٢١].

فبين تعالى أنه مالك كل شيء، وأن جميع خزائن الأشياء بمختلف أجناسها وأنواعها عنده، «أي: في أمره وحكمه وتدبيره»[(١)].

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: «حسب ما تقضي حكمته، مما يصلح به أمر الناس وتعمر الأرض»[(٢)].

فالله تعالى ينزل لعباده ما يحتاجون إليه في هذه الحياة بالقدر الذي يحتاجونه، فإذا زادت حاجاتهم من ذلك فتح الله تعالى لهم من خزائنه ويسر أبوابًا جديدة في العلم والإنتاج ما يكفل لهم ذلك الاحتياج، فمثلًا في الوقود، كان الناس قديمًا يستعملون الحطب وخشب الشجر في تحصيله.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾[الواقعة:٧١-٧٢].

ثم لما اتسعت حاجات البشرية منه، فتح الله تعالى لهم بابًا جديدًا في إيجاده وتحصيله، فاكتشفوا الفحم الذي كان أصله نباتًا مطمورًا أو حيوانًا مطمورًا في الأرض؛ ثم اكتشف البترول والغاز.

وقد أعد سبحانه وتعالى كل شيء في الأرض، وقدر فيها الأقوات من قبل أن ينزل آدم عليه السلام إلى الأرض ليعمرها، ويكون خليفة فيها، هو وذريته إلى أن تقوم الساعة، فإذا اشتكى العالم من نقص في احتياجاته، فإنما مرجعه إلى التكاسل وعدم حسن استثمار ما خلقه الله وقدره من أرزاق في الأرض.

ونرى التعاسة في كوكب الأرض رغم التقدم العلمي والتقني؛ ذلك أننا نستخدم ما كنزه الحق سبحانه ليكون مجال سعادة لنا في الحروب والتنافر. ولو أن ما يصرف على الحروب؛ تم توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لعاش الجميع في وفرة حقيقية.

ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذي نقوم به نحن البشر هو المسبب الأول لتعاسة الإنسان في الأرض[(٣)].

وهكذا يبين الله تعالى لعباده ما أنعمه عليهم من موارد اقتصادية ومستلزمات الحياة، دون سؤال منهم أو طلب، بل إنعام منه وكرم، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم:٣٤].

فهذه الآية وغيرها من الآيات التي بينت تلك الموارد والثروات دليل على تحقق كفاية حاجة الإنسان من تلك الموارد.

فالمشكلات الاقتصادية التي تحدث أحيانًا ليس سببها ندرة الموارد، وبخل الطبيعة، كما تصوره المذاهب الاقتصادية

(١) البسيط، الواحدي ١٢/ ٥٧٤.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٧/ ٢٢٧.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧٦٧١.

المنحرفة الأخرى؛ كالرأسمالية والشيوعية وغيرها.

وإنما سبب ذلك هو الإنسان نفسه، كما تقرره هذه الآية، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فظلم الإنسان في توزيع الثروات، وكفرانه للنعمة بعدم استغلال جميع المصادر التي تفضل الله بها عليه الاستغلال الأمثل، هما السببان المزدوجان للمشكلة التي يعيشها الإنسان.

وبمجرد تفسير المشكلة على هذا الأساس الذي دل عليه القرآن، يصبح بالإمكان التغلب عليها، والقضاء على الظلم وكفران النعمة بإيجاد علاقات توزيع عادلة، وتعبئة كل القوى المادية لاستثمار الطبيعة، واستكشاف كل كنوزها[1].

ثم إن ظلم الإنسان ليس مقصورًا على سوء توزيع الثروات، بل يشمل أيضًا ظلمه بترك الطاعات وارتكاب المعاصي، وإذا كانت المعاصي سببًا في احتباس الرزق، ورفع النعمة، فإن الاستغفار سبب في نزول الغيث، وحصول الأرزاق[2].

إن العالم طافح بالخيرات، مشحون بالقوى بين يدي الإنسان، وتحت قدميه، غير أن سنة الله في الكون قضت أن على الإنسان السعي، فإن الأرض لا تنشق عن خيرها ولا يهبط النعيم من السماء دون سعي الإنسان. فلا حصاد دون غرس، ولا وفرة في الإنتاج دون كثرة في الجهود.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩].

«وهذه الآية ترشد إلى أن مواطن هذا النفع ليست خاصة بظواهر هذا الكون، وإنما هي مبثوثة في ظاهره الذي نحصل عليه بمجرد النظر، وفي باطنه الذي نحتاج إلى قوة في اقتحامه، وخوض غماره، وفي هذا إيحاء بالبحث عما استقر في باطن الأرض وطبقات الجبال، وقاع البحار، وما يحمل الماء والهواء من قوى الإنتاج، ومواد الصناعة والتعمير»[3].

ثانيًا: الموارد الاقتصادية:

١. الأرض.

ومن أهم الموارد الاقتصادية التي أنعم الله بها على عباده: الأرض بما تحتويه من ثروات وخيرات، كالمياه والمعادن والبترول والأحجار، وبكونها صالحة للزراعة والبناء وغير ذلك، وقد بين الله تعالى إنعامه على عباده في تسخير الأرض وتذليلها لهم، وما أودعه فيها من خيرات عظيمة في مواضع كثيرة من كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

(١) انظر: اقتصادنا، محمد باقر الصدر ٢/ ٧٤٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٥١.
(٣) من توجيهات الإسلام، شلتوت، ص ١٣٦.

﴿ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

فأخبر تعالى أنه جعل الأرض ذلولًا، أي: سهلة، من الذل وهو اللين وسهولة الانقياد.

أي: سهل تعالى الأرض وسخرها وذللها لما يراد منها من مشى عليها، أو غرس فيها، أو بناء فوقها، أو غير ذلك من وجوه الانتفاع بها[(١)].

وذلك من رحمته تعالى بخلقه أن ذلل لهم هذه الأرض الكبيرة الواسعة لتتمشى مع حياة الإنسان وسعيه فيها.

ولذلك قال سبحانه: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: «فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات»[(٢)].

وقد بين تعالى بعض أنواع هذا التذليل والتسخير للأرض، كتثبيتها بالجبال لتستقر وتثبت بمن عليها، وإلا لكثرت فيها الزلازل والاضطرابات.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[الأنبياء:٣١].

وكبسط الأرض ومدها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾[الرعد:٣].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[نوح:٢٠].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[البقرة:٢٢].

فبين تعالى أنه أنعم على عباده بجعله الأرض مبسوطة لهم كالفراش والبساط، تسهيلًا لحياتهم فيها وتيسيرًا لانتقالهم في طرقها الواسعة للوصول إلى أغراضهم وحاجاتهم، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[الرحمن:١٠].

فالأرض كل الأرض موضوعة للأنام كل الأنام، لكي يستغلوها ويسعوا فيها[(٣)].

ومن تذليل الله تعالى للأرض وتسخيرها لعباده جعلها صالحة للزراعة بما جعله فيها من مقومات الزراعة والإنبات، كالتربة الخصبة الغنية بالأملاح والمواد العضوية التي يتغذى النبات عليها وغير ذلك من المقومات، «ولو شاء الله تعالى لجعلها حديدًا، ونحاسًا فلا يستطيع الإنسان أن يحرث فيها، ولا يحفر ولا يبني، وإذا مات لا يجد مدفنًا فيها»[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[الرعد:٣].

وقال: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾[عبس:٢٧].

(١) انظر: البسيط، الواحدي ٢٢/ ٥٣، الوسيط، سيد طنطاوي ٨/ ١٨٣،

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١١.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١١٨٧.

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨.

ومن تسخير الله تعالى الأرض لعباده: أن جعلها أجزاء وبقاع مختلفة.

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد:٤].

فمنها أرض طيبة منبتة، وأخرى سبخة لا تنبت، ومنها أرض رخوة وأخرى صلبة، ومنها أرض صالحة للزرع لا للشجر، وأخرى صالحة للشجر لا للزرع إلى غير ذلك[(١)]، ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: «بقاع متقاربات مختلفة الطبائع»[(٢)]، وهو قول يدل على الإعجاز؛ فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلًا منها تناسب الطقس الذي توجد فيه؛ فزراعة الذرة مثلًا تحتاج مناخًا معينًا؛ وكذلك زراعة الموز، وهكذا كل منطقة هي مناسبة لما تنتجه، فالأرض ليست عجينة واحدة، بل هي تربة مناسبة للجو الذي توجد به[(٣)].

وهكذا يذلل الله تعالى الأرض لخدمة الإنسان ومصالحه، فباختلاف الأرض في أجزائها وبقاعها تتنوع الأشجار والنباتات، فمنها قوت للبشر، ومنها قوت للبهائم، ومنها الدواء، ومنها الفاكهة، ومنها الأنواع المختلفة في الحلاوة والحموضة.

ومن تسخير الله تعالى الأرض لعباده أنه جعل لهم التمكين فيها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠].

فبين تعالى أنه مكن عباده في الأرض، أي: أقدرهم على التصرف فيها[(٤)]، ومنحهم القوة على استغلالها والانتفاع بمواردها، وذلك بما هيأه لهم فيها من الأسباب؛ كتذليل الأرض وتهيئتها للزراعة والبناء، وما جعل لهم فيها مما يعيشون به «مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات»[(٥)]، وبما وهبهم من العقل والعلم والقوة.

وكل ذلك من تمكينه سبحانه لعباده وإنعامه عليهم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: أن أكثرهم مع هذا الإنعام لا يشكرونه عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وقد بين تعالى احتواء الأرض على الثروات والخيرات العظيمة في قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٣٧، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٩٧.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٥٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧١٩٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٤.

﴿فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت:٩-١٠].

فأخبر تعالى عن مدة خلقه الأرض وتهيئتها لعباده، وهي أربعة أيام، يومان للأرض، ويومان للبركة وتقدير الأقوات فيها[(١)].

و«هذا الزمن إنما هو منظور فيه إلى طبيعة المخلوق لا إلى قدرة الخالق، وإلى أن هذا الزمن هو الذي قدره الخالق سبحانه وتعالى لينضج فيه المخلوق، ويستوفى فيه تمام خلقه، كالجنين في الرحم، حيث يتم تكوينه في تسعة أشهر، في عالم الإنسان، وفى زمن أقل أو أكثر في العوالم الأخرى من الأحياء، فالزمن جزء من وجود كل موجود، وفى تطوره من حال إلى حال، سواء في هذا، الحيوان، والنبات، والجماد، فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إشارة إلى الزمن الذي نضجت فيه الأرض، وتم تكوينها، وتهيأت لاستقبال الحياة فيها»[(٢)].

وقد أخبر الله تعالى أنه بارك فيها أي: جعلها مباركة، بأن أكثر فيها خيرها، فجعلها زاخرة بأنواع الخيرات والمنافع، من الزروع والثمار المبثوثة فوقها، والمياه التي تخرج من جوفها. والكنوز التي تحصل من باطنها.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٢/ ١٢٩٠.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، أي: أرزاق ساكنيها ومعايشهم.

وقال قتادة: «خلق فيها جبالها وأنهارها وبحارها وشجرها، وساكنها من الدواب كلها»[(٣)].

وقيل: «خصائصها التي قسمها في البلاد مما خص به كل إقليم، فيحتاج بعضها إلى بعض في التقوت من الملابس والمطاعم والنبات»[(٤)].

وبذلك يتبادل الناس المنافع فيما بينهم، فيعمر الكون، ويزيد الاتصال والتعارف فيما بينهم.

والآية عامة فهي تعم جميع ما ذكر مما يقتاته أهل الأرض ويحتاجونه في معاشهم[(٥)]، ولذلك قال تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: على وفق مراد من له حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه، كما قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:٣٤][(٦)].

وهكذا يبين الله تعالى نعمته على عباده في تسخير الأرض وتذليلها، وجعلها موردًا من أهم موارد حياتهم ومقوماتها، وقد عد علماء الاقتصاد الأرض من أهم عوامل الإنتاج والموارد الاقتصادية.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٣٥.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٨٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٣٧.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٦.

٢. الإنسان.

ومن أهم الموارد الاقتصادية التي نوه إليها القرآن الكريم هو الإنسان بما آتاه الله تعالى من علم وعقل وقوة، وبما منحه من طاقة جبارة تمكنه من عمارة الأرض واستثمار خيراتها.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١].

فأخبر الله تعالى أنه خلق عباده من الأرض، ومكنهم من عمارتها، واستثمار ما فيها والانتفاع بخيرها[١].

قال أبو بكر الجصاص: «وقوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يعني: أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية»[٢]، وقال ابن كثير: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: «جعلكم فيها عمارًا تعمرونها وتستغلونها»[٣].

كما وجه النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى عمارة الأرض وإصلاحها في أكثر من حديث، كما جاء عن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أحيا أرضًا ميتةً فهي له)[٤].

والأرض الميتة أي: «التي لم تعمر، شبهت العمارة بالحياة، وتعطيلها بفقد الحياة، وإحياء الموات أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد فيحييها بالسقي أو الزرع أو الغرس أو البناء فتصير بذلك ملكه سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن، وهذا قول الجمهور»[٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة)[٦]، وغير ذلك من الأحاديث وهي كثيرة.

«إن الله سبحانه استخلف البشر في الأرض بقصد عمارة الكون وإنمائه واستغلال كنوزه وثرواته، والناس في ذلك شركاء، والمسلمون ينفذون أمر الله ومقاصده.

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ٣١٨.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٣١٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٣١.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في القيامة، رقم ١٣٧٨، ٣/ ٦٥٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٩٧٦، ٢/ ١٠٣٦.
(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/ ١٨.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم ٢٣٢٠، ٣/ ١٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم ١٥٥٣، ٣/ ١١٨٩.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١].

والاستعمار: معناه التمكين والتسلط، كما هو واضح من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[الأعراف:١٠].

وقوله عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:١٣].

واللام في (لكم) تفيد الاختصاص على جهة الانتفاع للمخاطبين، أي أن ذلك مختص بكم، مما يدل على أن الانتفاع بجميع مخلوقات الأرض وما فيها من خيرات مأذون فيه، بل مطلوب شرعًا، واعتبر الفقهاء تعلم أصول الحراثة والزراعة ونحوها مما تتم به المعايش التي بها قوام الدين والدنيا من فروض الكفاية»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠].

فالله تعالى جعل الإنسان خليفة في الأرض ليصلحها ويعمرها، ولذلك اختاره على الملائكة في ذلك الاستخلاف.

قال المراغي: «وفي استخلاف آدم عليه السلام في الأرض معنى سام من الحكمة الإلهية خفي على الملائكة، فإنه لو استخلفهم فيها لما عرفوا أسرار هذا الكون وما أودع فيه من الخواص، فإنهم ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض، إذ هم على حال يخالف حال الإنسان، فما كانت الأرض لتزرع بمختلف الزروع، ولا تستخرج المعادن من باطنها، ولا تعرف خواصها الكيمائية والطبيعية، ولا تعرف الأجرام الفلكية ولا المستحدثات الطبية، ولا شيء من العلوم التي تفنى السنون ولا يدرك الإنسان لها غاية»[(٢)].

٣. العمل.

ومن أهم الموارد الاقتصادية التي نوه القرآن الكريم إليها هو العمل والجد فيه، فقد حث القرآن الكريم على العمل، ودعا إليه في آيات عديدة.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة:١٠].

فقوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ هو دعوة من الله تعالى لعباده إلى العمل في هذه الحياة، وإلى السعي في الأرض، والضرب في وجوهها المختلفة،

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٨/ ٦٣٨٧.

(٢) تفسير المراغي ١/ ٨٥.

فالله سبحانه قد سخر للناس خيرات كثيرة في هذه الأرض، وعليهم أن يتحركوا في كل وجه على هذا البساط، وأن يمدوا أيديهم إلى كل شيء يقدرون عليه من هذا الخير.

فإن هم لم يفعلوا، فقد بخسوا أنفسهم حقها من الحياة الكريمة على هذه الأرض، ومناكب الأرض، هي أجزاؤها العليا فيها، أشبه بمنكبي الإنسان، وهما جانبا الكتفين، وهذا يعنى أن يستدعي الإنسان قواه كلها حتى يأخذ مكانًا متمكنًا من الأرض، يستطيع به أن يستثمر قوى الطبيعة فيها.

فهذا هو مكان الإنسان الذي يعرف قدر إنسانيته، إنه الخليفة على هذه الأرض، ومقام الخلافة يقتضيه أن يأخذ مكان الصدارة فيها، وأن يجلس مجلس السلطان من رعيته، وفى تعدية الفعل (امشوا) بحرف الجر (في) بدلًا من (على) إشارة إلى أن ينفذ الإنسان في أعماق هذه المناكب، وإلى أن يعمل على كشف أسرارها، لا مجرد اتخاذها طريقًا يمشى عليه[1].

ورغم كثرة الأدلة التي تحث المسلمين على أن يكونوا منتجين لا مستهلكين، إلا أن العديد من الأقطار الإسلامية أصبحت أسواقًا لمنتجات غير المسلمين، وهذا ما يحرص عليه أعداء الإسلام حتى يبقى العالم الإسلامي سوقًا لمنتجاتهم، ويسهل عليهم التدخل في الشؤون الداخلية للأقطاره، ولذلك ينبغي على المسلمين أن يستغنوا عن غيرهم، وأن يكونوا منتجين لا مستهلكين، فإن من لا يملك قوته لا يملك قراره.

إنه لمن الواجب على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها؛ لتستغني عن غيرها، فهي تحتاج إلى غيرها بقدر ما تقصر في الإنتاج، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية. وقد أعطى الله المؤمنين ما يؤهلهم للصدارة واحتلال مكانهم، والمحافظة على مكانتهم، وإشادة كيانهم بالدين والدنيا معًا[2].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢].

وقال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١١].

فبين تعالى أنه خلق الكون على هذه الكيفية من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما لتنتظم أوقات عباده وأعمالهم، فيعملون ويكدون في النهار، ويرتاحون في الليل،

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٥/ ١٠٦١.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٩.

وفي ذلك بيان لمشروعية العمل وأن الله أراده من عباده.

والعمل المطلوب من الأمة أفرادًا وجماعات هو العمل الجاد والنشاط.

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[المزمل:٢٠].

فسمى الله تعالى السعي على الرزق ضربًا في الأرض، وفي ذلك إعلام منه تعالى لعباده أن العمل والكفاح في هذه الحياة يجب أن يكون في منتهى القوة والجد[(١)].

قال الشعراوي: «والضرب -كما نعرف- هو انفعال الجارحة على شيء آخر بعنف وقوة. وقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء:١٠١]. معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال، ولماذا الضرب في الأرض؟ لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق، فحين يحبون أن يخرجوا خيراتها؛ يقومون بحرثها حتى يهيجوها، ويرموا البذور، وبعد ذلك الري، ومن بعد ذلك تخرج الثمار، وهذه هي عملية إثارة الأرض. إذن كل حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة، والحق سبحانه يقول: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[المزمل:٢٠].

وما دامت المسألة ضربًا في الأرض فهي تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة»[(٢)].

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١١٧٩.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ٤/ ٢٥٥٥.

الإنتاج

من رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسان أنه لما قضى باستخلافه في الأرض، هيأه لهذه المهمة، وسخر له كل ما في الكون، وعلمه أصول الإنتاج، ودله على العديد من مجالاته، وسوف نبين ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: تعليم الله للإنسان أصول الإنتاج:

من نعم الله على عباده أن علمهم كيف يعملون؟، وكيف ينتجون؟، حتى يقوموا بما أراده منهم من عمارة الأرض وإصلاحها، وحتى يوفروا حاجاتهم وضرورياتهم مما يحتاجونه في هذه الحياة.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

فالله تعالى أنعم على الإنسان بأن أوجد له كل ما يحتاجه من الأشياء ويسأل عنه في حياته، وأنعم عليه بتعليمه كيف يستخدم وينتج من تلك الأشياء أشياء أخرى يحتاجها، فقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: بإيجادها لكم مادة خامة، أو بهدايتكم إلى إنتاجها، وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٢ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:٣-٥].

فمن كرمه تعالى على الإنسان أنه علمه العلوم المختلفة بالقلم آلة الكتابة الذي به تحفظ العلوم وتضبط الحقوق، بعد أن كان لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم[1].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

وقال تعالى في بيان امتنانه على خلقه بإيجاده ما يركبونه ويتنقلون عليه من الدواب: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

«أي: وخلق الخيل والبغال والحمير للحمل والركوب، وهي كذلك زينة وجمال، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث: القاطرات، والسيارات، والطائرات النفاثة وغيرها مما يجد به الزمان وهو من تعليم الله للإنسان»[2] وهدايته إلى ما يسد به حاجته، وييسر حياته، وهكذا كلما اتسعت حاجة الإنسان فتح الله له بابًا جديدًا من الرزق والعمل والاكتشاف والاختراع.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر:٢١].

وقال تعالى وهو يعدد نعمه على عبده ونبيه داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠].

أي: «علم الله داود عليه السلام، صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها، وسرت صناعته إلى من بعده، فألان الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها، والفائدة فيها كبيرة، ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب، واشتداد البأس»[3].

فعلم الله تعالى نبيه داود عليه السلام تلك الصنعة في عمل الدروع لينتفع بها ومن جاء بعده في مهمتهم في خلافة الأرض وإصلاحها، وهكذا الإنسان عمومًا في حاجة دائمة إلى المعرفة والتعلم؛ لأنه الخليفة في الأرض، ولن يؤدي هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس، هذه الحركة تحتاج إلى فهم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات[4].

وفي قوله تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ إشارة إلى الأمة المسلمة في كل زمان ومكان، أن ترفع من دفاعاتها، وتتعلم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣٠.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ١١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٨.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٦٠٩.

أمور حربها، وصناعة سلاحها، حتى لا يطمع أعداؤها فيها وفي خيراتها.

فقد أوجب الله تعالى على الأمة الإسلامية أن تأخذ بأسباب القوة، من تدريب للطاقات البشرية، وتخطيط، وإدارة، وتصنيع.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال:٦٠].

وبذلك تحفظ الأمة الإسلامية لنفسها كرامتها وعزتها.

وقال تعالى في آية الدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أي: إذا طلب ممن علمه الله الكتابة أن يكتب بين متداينين كتاب الدين، فلا يمتنع من كتابة ذلك.

قال ابن كثير: «ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب»[1].

وفي الآية إشارة إلى «أن الإنسان لا يستقل بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾؛ حتى في الأمور الحسية التي تدرك عن طريق النظر، أو السمع، أو الشم، لا يستطيع الإنسان أن يعلمها إلا بتعليم الله عز وجل»[2].

وهكذا يعلم الله تعالى عباده أصول الصناعات والحرف، تفضلًا منه تعالى عليهم، وكلما زادت احتياجاتهم فتح لهم آفاقًا جديدة في العلم والمعرفة، كما هو مشاهد في واقعنا اليوم، كلما زادت البشرية في عددها واحتياجاتها، تقدم العلم والتكنولوجيا تقدمًا عظيمًا يسد تلك الحاجات.

ثانيًا: الأصل الإباحة في النشاط الإنتاجي:

الأصل في النشاط الإنتاجي هو الإباحة، وأما التحريم فيتوقف على نص شرعي يبينه ويخصصه.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٩].

وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:١٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٧٢٤.

(٢) تفسير الفاتحة والبقرة، ابن العثيمين ٣/ ٤١٤.

فبين تعالى نعمته على خلقه بأن خلق لهم جميع ما في الأرض، وسخره وهيأه وأباح الانتفاع به.

قال رضا: «إن هذه الجملة هي نص الدليل القطعي على القاعدة المعروفة عند الفقهاء (إن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة) والمراد إباحة الانتفاع بها أكلًا وشربًا ولباسًا وتداويًا وركوبًا وزينة، وبهذا التفصيل تدخل الأشياء التي يضر استعمالها في بعض الأشياء وينفع في بعض، كالسموم التي يضر أكلها وشربها وينفع التداوي بها، وليس لمخلوق حق في تحريم شيء أباحه الرب لعباده تدينًا به إلا بوحيه وإذنه ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[يونس:٥٩]»[1].

فأخبر تعالى أنه خلق لعباده جميع ما في الأرض برها وبحرها وجوها، ظاهرها وباطنها، وسخرها له، وأمره بإعمارها وإصلاحها، والقيام بأمر الله فيها وشرعه، ولذلك جاء بعد هذه الآية من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠].

فهيأ الله تعالى الأرض، وأعدها للإنسان، ثم أوجده فيها.

كما بين تعالى أن الأرض بما فيها مسخرة للإنسان، لا العكس، فالأرض مخلوقة للإنسان ولمصلحته ودوره في الخلافة فيها، والإنسان «سيد الأرض وسيد الآلة! إنه ليس عبدًا للآلة كما هو في العالم المادي اليوم. وليس تابعًا للتطورات التي تحدثها الآلة في علاقات البشر وأوضاعهم كما يدعي أنصار المادية المطموسون، الذين يحقرون دور الإنسان ووضعه، فيجعلونه تابعًا للآلة الصماء وهو السيد الكريم!

وكل قيمة من القيم المادية لا يجوز أن تطغى على قيمة الإنسان، ولا أن تستذله أو تخضعه أو تستعلي عليه وكل هدف ينطوي على تصغير قيمة الإنسان، مهما يحقق من مزايا مادية، هو هدف مخالف لغاية الوجود الإنساني. فكرامة الإنسان أولًا، واستعلاء الإنسان أولًا، ثم تجيء القيم المادية تابعة مسخرة»[2].

وقد ذم الله تعالى أهل الكفر في تحريمهم على أنفسهم بعض الأشياء التي أباحها لهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾[الأعراف:٣٢].

قال صاحب المنار: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: قل

(١) المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٠٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٤.

أيها الرسول لأمتك: هي -أي: الزينة والطيبات من الرزق- ثابتة للذين آمنوا بالأصالة والاستحقاق في الحياة الدنيا، ولكن يشاركهم غيرهم فيها بالتبع لهم، وإن لم يستحقها مثلهم. وهي خالصة لهم يوم القيامة ...كما تدل عليه الآيات الناطقة بأن دين الله الحق يورث أهله سعادة الدنيا والآخرة جميعًا[1].

ثالثًا: مجالات الإنتاج:

بين الله تعالى في كتابه الكريم بعض مجالات الإنتاج المختلفة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠].

أي: أمر الله تعالى عباده المؤمنين إذا فرغوا من صلاة الجمعة أن ينتشروا في الأرض، والانتشار يعني: «أن ينساح البشر لينتظموا في كل حركات الحياة، وبذلك تعمر كل حركة فيها»[2].

وفي ذلك «دعوة إلى أن يملأ المسلمون وجوه الأرض سعيًا وعملًا، وأن يأخذوا بكل ما يمكن لهم منها، ويقيم لهم فيها المقام الكريم، وألا يقصروا جهدهم على جانب منها، أو في ميدان من ميادينها، بل ينبغي أن يكون لهم في كل ميدان مجال، وفي كل موقع عمل، وفي الدعوة إلى الانتشار في الأرض بعد الاجتماع بين يدى الله في الصلاة، في هذا جمع بين العبادة والعمل، وبين ذكر الله والسعي في الأرض»[3].

وقد ذكر القرآن الكريم بعض مجالات الإنتاج، منها:

١. الزراعة.

التي بها حياة الأرض واستثمارها، وبها ينتج الإنسان قوته ورزقه.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

أي: فليتأمل الإنسان وليتدبر في أمر طعامه الذي فيه بقاؤه، كيف دبرناه له وقدرناه، ليعلم أن الكون كله مسخر له، وأننا لو لم نيسره له لهلك، فمبدأ ذلك أننا صببنا الماء من السحاب صبًا، ثم شققنا الأرض شقًا، أي: بالنبات الذي هو في غاية الضعف يشق الأرض المتماسكة بالماء ويخرج خارجها، فأنبت الله من هذا الماء الحبوب كالحنطة والشعير، والعنب.

وقوله: ﴿وَقَضْبًا﴾ وهو الرطب من البقل

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤٧.
(٢) تفسير الشعراوي، ٣/ ١٤٨٧.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤/ ٩٥٢.

وغيره، والزيتون والنخل...، إلى آخر ما ذكرته الآيات من النعم[1]، فبين الله تعالى أن زراعة الأرض سبب من أسباب رزق الإنسان وحصوله على طعامه منها.

كما ذكر تعالى بعض تفاصيل عملية الزراعة في قصة يوسف عليه السلام، في قوله سبحانه: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:٤٧].

أي: يطلب يوسف من أهل مصر أن يزرعوا بدأبٍ أي: بمواظبة وبدون كسل، وما حصدوه فأخبرهم أن يأكلوا القليل منه، ويتركوا بقيته محفوظًا في سنابله، والحفظ في السنابل يدل على ما آتاه الله عز وجل ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة، من اقتصاد ومقومات التخزين، وغير ذلك من عطاءات الله، وقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خزن في سنابله؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس[2].

٢. التجارة.

ومن مجالات الإنتاج التي بينها القرآن الكريم، التجارة، وفيها يتحصل الإنسان على المال والبضائع المختلفة.

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة:٩-١٠].

أي: «إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم. ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي من رزقه»[3].

٣. الصناعة.

ومن مجالات الإنتاج التي بينها القرآن الكريم: الصناعة، وبها يوجد الإنسان ما يحتاجه من أمور حياته.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠].

وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز كثيرًا من أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، فمن الصنائع:

- الخياطة.

قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ٢٦٤، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٩٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١١/ ٦٩٧٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٠٨.

❁ **الحدادة.**

قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾[سبأ:١٠-١١].

❁ **الغزل.**

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾[النحل:٩٢].

❁ **النسيج.**

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[العنكبوت:٤١].

❁ **الفلاحة.**

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝٦٤﴾[الواقعة:٦٣-٦٤].

❁ **الصيد.**

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة:٢].

وقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[المائدة:٩٦].

❁ **الغوص.**

قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾[ص:٣٧].

❁ **الملاحة.**

قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾[الكهف:٧٩].

❁ **الكتابة.**

قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[العلق:٤].

❁ **الطحن والخبز.**

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾[يوسف:٣٦].

❁ **الطبخ.**

قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[هود:٦٩].

❁ **البناء.**

قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾[الشعراء:١٤٩].

وغير ذلك[1].

كما جاء في القرآن الكريم تفصيل بعض الصناعات وبيانها، كقوله تعالى عن نبيه داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾[سبأ:١٠-١١].

قيل: أي: ألان الله الحديد لداود عليه السلام، وجعله في يده كالعجين، يشكله كيف يشاء دون أن يدخله نارًا أو يضربه بمطرقة، والظاهر أن إلانة الحديد لداود، إنما كانت جارية على العادة، وذلك بما علمه الله تعالى من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها؛ لأن الله امتن بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها، وأن

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤٣٢.

الله سبحانه قد علمه الأسلوب الذي يلين به الحديد، وهو عرضه على النار حتى يحمر، ويقبل الطرق[1].

وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ التقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير في عمل الشيء. والسرد: نسج الدروع وتهيئتها لوظيفتها. أي: آتينا داود كل هذا الفضل الذي من جملته إلانة الحديد في يده، وقلنا له يا داود: اصنع دروعًا سابغات تامات، وأحكم نسج هذه الدروع، بحيث تكون في أكمل صورة، وأقوى هيئة»[2].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)»[3][4].

٤. الثروة الحيوانية.

ومن مجالات الإنتاج التي بينها القرآن الكريم: الثروة الحيوانية.

قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥].

وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه:٥٤].

٥. الثروة المائية.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:١٤].

٦. الثروة المعدنية.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٨، التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٧٨٥.

(٢) الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١١/ ٢٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢، ٣/ ٥٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٦٧.

المبادئ الاقتصادية

اشتمل القرآن الكريم على تشريعات تتلاءم مع فطرة الإنسان وحاجاته، ولذلك شرع الملكية الفردية، وحفظ الحقوق الخاصة، كما أمر بحفظ المال العام، والتكافل الاجتماعي، وسوف نبين هذه المبادئ الاقتصادية الأصيلة في النقاط الآتية:

أولًا: الملكية الخاصة:

الإنسان مفطور على حب التملك أو ما يعرف بالملكية الفردية، منذ أن أهبطه الله تعالى إلى الأرض إلى أن يرثها، وهو أمر معلوم بالضرورة[1].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨].

أي: المال[2]، وبإثبات هذه الملكية كحق للفرد يتحقق الأمن في المجتمع، فيأمن كل شخص على ممتلكاته، ومدخراته، وثمرة عمله وجهده، مما يدفعه إلى العمل والجد والاجتهاد، وتقوية أواصر المودة والاحترام بين أفراد المجتمع، ولقد قرر القرآن الكريم هذه الملكية كحق من حقوق الأفراد، وسن التشريعات التي تحميها وتضمن عدم الاعتداء عليها، كما وضع ضوابط لتهذيبها وتنظيمها.

فمن تقرير القرآن للملكية الفردية واحترامه لها.

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

فالكاف ضمير الخطاب في آتاك ونصيبك يدل على هذه الملكية، ويشهد لها.

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢].

أي: قسم الله تعالى الأرزاق بين عباده، وفاوت بينهم فيها، فجعل منهم الغني والفقير والخادم والمخدوم والحاكم والمحكوم.

والحكمة من هذا التفاوت في الأرزاق أن يستخدم بعضهم بعضًا في حوائجهم، ويعاون بعضهم بعضًا في مصالحهم، وبذلك تنتظم الحياة، وينهض العمران. ويعم الخير بين الناس، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله تعالى له من رزق واستعداد[3].

فدلت الآية الكريمة على أن تفاوت

(١) انظر: المذاهب الفكرية المعاصرة، غالب عواجي ٢/ ١١٩٣.

(٢) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٣٠١، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٨١٨.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٦، الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/ ٧٧.

الناس في الأرزاق والحظوظ سنة من سنن الله الكونية القدرية التي أرادها لعباده، لتنتظم بها حياتهم، فلا يستطيع أحد من أهل الأرض البتة تبديلها ولا تحويلها، بوجه من الوجوه، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[فاطر:٤٣][(١)].

«وكل محاولة للإنسان في تغيير هذه السنة الثابتة تؤدي إلى اضطراب نظام الحياة والعمل، لأنها تعني محاولة التسوية بين الخلق جميعًا فيما يكتسبه كل منهم من رزق دونما فارق في ذلك بين العامل والكسول... فهي ببساطة تسقط كل قيمة حقيقية للعمل»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[النحل:٧١].

قال الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة نص صريح في إبطال مذهب الاشتراكية القائل بأنه لا يكون أحد أفضل من أحد في الرزق، ولله في تفضيل بعضهم على بعض في الرزق حكمة»[(٣)].

كما جاء في القرآن الكريم النهي عن الاعتداء على هذه الملكية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:١٨٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[الأنعام:١٥٢].

فالأمر برعاية مال اليتيم، والوفاء في الكيل والميزان، كل ذلك لحفظ الحقوق لأصحابها، واحترام ملكيتهم لها، إلى غير ذلك من التشريعات التي بينها القرآن الكريم لحماية الملكية الخاصة من أي اعتداء.

ويصل القرآن باحترام هذا الحق مداه حين يأمر بقطع يد السارق الذي يعتدي على هذا الحق في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[المائدة:٣٨][(٤)].

كما بين القرآن الكريم بعض أسباب ووسائل حصول هذه الملكية وانتقالها، ومنها:

- الميراث.

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١٤.
(٢) الملكية الفردية في النظام الاقتصادي الإسلامي، محمد بلتاجي ص ٣٠.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤١١.
(٤) انظر: الاقتصاد الإسلامي، محمود الوادي ص ١٠٣.

﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:١١].

❁ البيع.

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا﴾ [البقرة:٢٧٥].

❁ الهبة.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥].

كما أمر القرآن بالعمل والتكسب وهو سبب من أسباب التملك.

قال تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[الملك:١٥].

إلى غير ذلك.

والقرآن الكريم إذ يقرر الملكية الخاصة كحق من حقوق الأفراد، فإنه لا يترك تقرير هذا الحق حتى يطغى دون تقييد، فليس معنى الملكية الخاصة للفرد أن يتصرف فيها خارج حدود الشرع، وفيما حرمه الله، وليس معناها أيضًا أن يمنع حقوق الله منها ولا يؤديها، ولذلك حرم الله تعالى كنز الأموال المفضي إلى منع أداء الزكاة، كما حرم التبذير لأنه إنفاق للمال فيما حرم الله تعالى؛ كالخمر والميسر والرشوة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾[الإسراء:٢٦-٢٧].

كما حرم تعالى الإسراف.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١].

كما بين القرآن الكريم حرصه على ألا تتحول هذه الملكية إلى تكدس في الثروات يؤدي إلى ترف وفساد وسيطرة.

وقد استشف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر:٧].

حيث ترك الأراضي المفتوحة في العراق والشام ومصر بيد أهلها، ولم يقسمها بين الفاتحين، حتى لا تنحصر الثروة بأيديهم، ولا يبقى شيء لمن يأتي بعدهم، ووافقه على ذلك الصحابة رضي الله عنهم مستدلًا بهذه الآية[1].

(١) انظر: الخراج، أبو يوسف ص٣٤، الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٧/ ٥٠١٥.

ثانيًا: حفظ المال العام:

المال عصب الحياة، وضرورة من ضرورياتها، «وقد اعتبر الشارع المال من الكليات الخمس التي تقوم بها حياة الناس، وشرع الحدود والعقوبات والزواجر للحفاظ عليها»[(١)].

قال الغزالي: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة»[(٢)].

وقد بين القرآن الكريم شرف المال وقيمته، وأمر بحفظه في آيات كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[النساء:٥].

فنهى تعالى عباده المؤمنين عن إعطاء الأموال للسفهاء الذين لا يحسنون التصرف فيها خشية إفسادها وإتلافها.

وأشار تعالى إلى علة ذلك النهي بقوله في الآية: ﴿قِيَامًا﴾ أي: التي «تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها»[(٣)].

وقال الفخر الرازي: «اعلم أنه تعالى أمر المكلفين في مواضع من كتابه بحفظ الأموال.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝٢٧﴾[الإسراء:٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء:٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان:٦٧].

وقد رغب الله في حفظ المال في آية المداينة حيث أمر بالكتابة والإشهاد والرهن، والعقل أيضًا يؤيد ذلك؛ لأن الإنسان ما لم يكن فارغ البال لا يمكنه القيام بتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ولا يكون فارغ البال إلا بواسطة المال؛ لأن به يتمكن من جلب المنافع ودفع المضار.

فمن أراد الدنيا بهذا الغرض كانت الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المعينة له على اكتساب سعادة الآخرة، أما من أرادها لنفسها ولعينها كانت من أعظم المعوقات عن كسب سعادة الآخرة»[(٤)].

والمال باعتبار الملكية ينقسم إلى قسمين: خاص، وقد تقدم الكلام على الملكية الخاصة، وعام، وهو المال الذي

(١) الملكية الفردية في النظام الاقتصادي الإسلامي، محمد بلتاجي ص ٣٠.
(٢) المستصفى، ص ١٧٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٤.
(٤) مفاتيح الغيب، ٩/ ٤٩٦.

خصص للمنفعة العامة، أي: جماعة المسلمين، ويشمل هذا النوع من الملكية: المرافق الأساسية للدولة، كالطرقات ومجاري الأنهار والشوارع، وكالبحار والغابات، والنفط والمعادن إن ظهرت في أرض غير مملوكة لأحد، وغير ذلك، يقرها الإسلام حماية للدولة وصيانة لسلامتها والعمل على تقدمها، والمحافظة على مرافقها العامة[(١)].

فالأساس في اعتبار الملكية العامة أنها منفعة للجميع، فلو احتكرها بعض الأفراد لأنفسهم لكان فيه تضييق على الآخرين، وإلحاق الضرر بهم[(٢)].

وقد بين القرآن الكريم بعض أنواع الملكية العامة، كالفيء، وهو «المال المأخوذ من الكفار بغير قتال، كالخراج والجزية، أما المأخوذ بقتال فيسمى غنيمة»[(٣)].

قال القرطبي: «الفيء، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفوًا صفوًا من غير قتال ولا إيجاف، كالصلح والجزية والخراج والعشور المأخوذة من تجار الكفار. ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له»[(٤)].

قال تعالى في بيان حكم الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر:٧].

فبين تعالى حكم الفيء ومصارفه، «فالفيء يقسم خمسة أقسام: خمس منها يقسم خمسة أخماس: سهم لله وللرسول، كان له في حياته ثم يصرف على مصالح المسلمين بعد وفاته، وسهم لذوي القربى من أقارب الرسول، وهم: بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل، وأما الأربعة أخماس الباقية فهي للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وقد وزعها في حياته على المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا رجلين أظهرا الفقر، وبعد وفاته تصرف للمرتزقة من الجند، أي: للجيش ما لم يوجد لهم تبرع أو مرتب خاص»[(٥)].

قال القرطبي: «وأما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالذي كان من الفيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف عند الشافعي في قول إلى

(١) انظر: الاقتصاد الإسلامي، محمود الوادي وآخرون ص ٩٧.
(٢) انظر: الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف، عبدالله الطريقي ص ٣٥.
(٣) التعريفات الفقهية، البركتي ص ١٦٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٤.
(٥) التفسير الواضح، حجازي ٣/ ٦٤٦.

المجاهدين المترصدين للقتال في الثغور؛ لأنهم القائمون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي قول آخر له: يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر، يقدم الأهم فالأهم.

وهذا في أربعة أخماس الفيء. فأما السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته صلى الله عليه وسلم بلا خلاف... وكذلك ما خلفه من المال غير موروث، بل هو صدقة يصرف عنه إلى مصالح المسلمين»[(١)].

وهكذا يقرر القرآن الكريم مبدأ الملكية العامة في الأمة ويحترمها، ولكنه لا يجعلها تطغى وتستبد على الملكية الخاصة، بل إنه يوازن بين الملكيتين بما يحقق لكل منهما مصلحته، ودون أن تطغى إحداهما على الأخرى.

ومن الجدير بالذكر: أن دعاة بعض المذاهب الاقتصادية الفاسدة، يحتجون بقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ على أنه يجوز للدولة أن تستولي على مصادر الإنتاج ورؤوس الأموال؛ لتعطيها أو تشرك فيها الفقراء، وما يسمونهم طبقة العمال.

وهذا على ما فيه من كساد اقتصادي، وفساد اجتماعي، قد ثبت خطؤه، وظهر بطلانه مجانبًا لحقيقة الاستدلال؛ لأن هذا المال ترك لمرافق المسلمين العامة من الإنفاق على المجاهدين، وتأمين الغزاة في الحدود والثغور، وليس يعطى للأفراد كما يقولون، ثم هو أساسًا مالٌ جاء غنيمة للمسلمين، وليس نتيجة كدح الفرد وكسبه. ولما كان مال الغنيمة ليس ملكًا لشخص، ولا هو أيضًا كسب لشخص معين، تحقق فيه العموم في مصدره، وهو الغنيمة، والعموم في مصرفه، وهو عموم مصالح الأمة، ولا دخل ولا وجود للفرد فيه، فشتان بين هذا الأصل في التشريع وهذا الفرع في التضليل[(٢)].

ومن حماية القرآن الكريم للملكية العامة تحريمه الغلول، وهو: «الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٦١].

وذلك لأن الغنيمة قبل قسمتها تكون ملكًا عامًا، فحرم تعالى الأخذ منها وهي كذلك، وتوعد من يفعله بقوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يحمله يوم القيامة.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٢.

(٣) التعريفات الفقهية، البركتي ص ١٥٩.

قال القرطبي: «أي: يأتي به حاملًا له على ظهره ورقبته، معذبًا بحمله وثقله، ومرعوبًا بصوته، وموبخًا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد»[(١)].

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ، فذكر الغلول، فعظمه وعظم أمره، ثم قال: (لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاءٌ، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرسٌ له حمحمةٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها ثغاءٌ، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفسٌ لها صياحٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاعٌ تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامتٌ[(٢)]، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك)[(٣)].

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: اعلم يا من تغل شيئًا ولو كان حقيرًا أنك ستعود إلينا وستحاسب على ذلك، حسابًا عادلًا لا ظلم فيه ولا تفويت، وفي هذه الآية تهديد شديد ووعيد لمن يعتدي على الملكية العامة.

ثالثًا: حفظ الحقوق الخاصة:

ومن مبادئ الاقتصاد التي بينها القرآن الكريم ودعا إليها: حفظ الحقوق الخاصة، كالدين، وقد أنزل تعالى بيان حكمه في أطول آية من كتابه.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فأمر تعالى بحفظ الدين بكتابته والإشهاد عليه حتى لا يضيع حق صاحبه، وفي طول الآية وما فيها من مؤكدات ما يدل على المبالغة الشديدة في الاحتياط في حفظ الحقوق لأصحابها وخاصة الحقوق المالية.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٢٥٦.
(٢) قال النووي: «والرغاء بالمد: صوت البعير، وكذا المذكورات بعد وصف كل شيء بصوته، والصامت: الذهب والفضة».

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٢/ ٢١٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، رقم ١٨٣١، ٣/ ١٤٦١.

قال الفخر الرازي: «حث على الاحتياط في أمر الأموال لكونها سببًا لمصالح المعاش والمعاد،... والذي يدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار، وفي هذه الآية بسط شديد، ألا ترى أنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾.

ثم قال ثانيًا: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾.

ثم قال ثالثًا: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ فكان هذا كالتكرار لقوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾؛ لأن العدل هو ما علمه الله.

ثم قال رابعًا: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ وهذا إعادة الأمر الأول.

ثم قال خامسًا: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾. وفي قوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ كفاية عن قوله: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾؛ لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه.

ثم قال سادسًا: ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ وهذا تأكيد.

ثم قال سابعًا: ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ فهذا كالمستفاد من قوله ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾

ثم قال ثامنًا: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ وهو أيضًا تأكيد لما مضى.

ثم قال تاسعًا: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة»[1].

ويضاف إلى ما ذكره الرازي ما بينته الآية وشددت عليه في مسألة الإشهاد على الدين.

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾، ثم بين تعالى الحكم في عدم وجود شهيدين من الرجال، فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾، ثم أكد على أن يكون الشهيد مرضيًا عنه موثوقًا فيه، فقال: ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، ثم بين تعالى العلة في تعدد النساء، فقال: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ أي: «لنقص عقلهن وضبطهن»[2]، فاحتاط الشارع لذلك.

قال الفخر الرازي: «فائدة الكتابة والإشهاد أن ما يدخل فيه الأجل، تتأخر فيه المطالبة ويتخلله النسيان، ويدخل فيه الجحد، فصارت الكتابة كالسبب لحفظ المال من الجانبين؛ لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه قد قيد بالكتابة والإشهاد يحذر من طلب الزيادة، ومن تقديم المطالبة قبل حلول الأجل، ومن عليه الدين إذا عرف ذلك يحذر عن الجحود، ويأخذ قبل حلول الأجل في تحصيل المال، ليتمكن من أدائه

(١) مفاتيح الغيب، ٥/ ٢٥٢.
(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٦٣.

وقت حلول الدين»[1].

ومن الحقوق الخاصة التي بينها القرآن الكريم، وحث على حفظها وأدائها إلى أهلها: الميراث، وقد جاء تفصيل أحكامه في آيات كثيرة من القرآن الكريم، بين فيها تعالى تقسيم الفرائض، وحصة كل وارث؛ وذلك لأنه كسب بدون مقابل، والنفوس متطلعة إليه فتولى الله تعالى تقسيمه حتى لا تحصل النزاعات فيه[2].

وهكذا يقرر القرآن الكريم مبدأ حفظ الحقوق الخاصة أتم تقرير، ويدعو إلى حفظها والاحتياط فيها أبلغ درجات الاحتياط.

ومن المؤسف له في زماننا ما نشاهده من حرمان المرأة من حقها في الميراث أو انتقاص حقها، مع ما أمر الله به من الوفاء بهذا الحق قليلًا كان أو كثيرًا.

قال سبحانه: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

رابعًا: التكافل الاجتماعي:

من عظمة الاقتصاد الإسلامي تضمنه لمبدأ التكافل الاجتماعي، والذي يتحقق به التعاون والترابط في المجتمع، ويسود بين أفراده الحب والإخاء والاحترام، وينتشر بينهم جو السلم والأمن، وقد بين القرآن الكريم هذا المبدأ الاقتصادي وأرسى معالمه، فمن ذلك بيانه لشريعة الزكاة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

فبين تعالى مصارف الزكاة المفروضة:

١. ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ أي: الذين لا شيء لهم أو لهم شيء لا يقع موقعًا من كفايتهم.
٢. ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي: الذين لا يجدون ما يكفيهم.
٣. ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: المؤتمنين في السعاية والولاية على جمعها.
٤. ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ليسلموا أو يثبت إسلامهم أو يسلم نظراؤهم أو يذبوا عن المسلمين.
٥. ﴿وَفِى﴾ فك ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ أي: المكاتبين.
٦. ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ أهل الديون.
٧. ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: المجاهدين.
٨. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المنقطع في سفره[3].

فبين تعالى مصارف الزكاة، وهي عماد

(١) مفاتيح الغيب، ٧/ ٩٢.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٤.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٥٠٤.

مبدأ التكافل الاجتماعي، وبها ينصلح حال المجتمع ويسود العدل والإخاء فيه، وبدأ تعالى بالفقراء، فهم أحق جماعة في المجتمع الإنساني بالرعاية والحماية من آفة الفقر التي تفتك بهم، وتتعبهم في حياتهم، ومحاربة هذه الآفة بالإضافة إلى كونها مساعدة للفقراء، فهي في نفس الوقت حماية للأغنياء أنفسهم، وضمانة لأمنهم وسلامتهم في أموالهم وأنفسهم من عادية الفقراء عليهم.

ذلك أن الفقير الذي يجد الغني يعينه ويكرمه، فإنه سيتمنى له الخير ويحبه، أما إذا وجد الفقير الغني لا يعطيه شيئًا، بل ويزداد غنى، وهو يزيد فقرًا، فلربما حقد عليه وأبغضه[1].

وإذا استمر به الحال كذلك فإنه قد يفكر في السرقة أو النهب أو القتل، وهكذا يفقد المجتمع أمنه وهدوءه، بل ويفقد خيرة أبنائه ممن لجؤوا إلى عالم الجريمة والانحراف ليسدوا احتياجاتهم[2].

«ومن هنا كان من تدبير الإسلام لمحاربة الفقر، وحماية الفقراء من قسوة هذه الآفة المهلكة، أن فرض على المسلمين الزكاة، وجعلها ركنًا من أركان الدين، لمن ملك نصابًا معينًا من المال، وكان من تدبير الإسلام أيضًا أن بدأ بالفقراء، وجعل داءهم هو الداء الأول، الذي يتهدد المجتمع، بالضياع، ويؤذنه بالهلاك، إن لم تعمل الجماعة جاهدة على محاربة هذه الآفة، ورصد كل قواها للقضاء عليها، وشفاء المجتمع منها»[3].

ولقد رغب القرآن الكريم بالإنفاق عمومًا في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

فضرب تعالى مثلًا لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾.

قال ابن كثير: «وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل، لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة»[4].

وجعل فعل الزكاة سببًا من أسباب الفلاح في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٤٣١.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ٨٠٨.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٨٠٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩١.

إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون:٤].

ومن صور التكافل التي بينها القرآن الكريم: الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، حيث يتعاون الأفراد ويشتركون في الذود عن أنفسهم وديارهم، وذلك بالجهاد بالنفس والمال، والإنفاق على المجاهدين وتزويدهم بما يحتاجون إليه من مال وعتاد وغذاء.

قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصف:١٠-١٣].

فجعل تعالى الإيمان به والجهاد في سبيله بالمال والنفس تجارة رابحة تنجي صاحبها من العذاب الأليم، ويفوز بالمغفرة ودخول الجنان، والنصر على الأعداء.

ومن صور التكافل التي بينها القرآن الكريم: الإنفاق في الكفارات، ومنها:

- كفارة اليمين.

قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩].

فبين تعالى أن كفارة اليمين المنعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنث صاحبها فيها تكون بإحدى ثلاثة أمور على التخيير بينها، وهي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم من أوسط ما يطعم الحانث في يمينه أهله، والمراد بالوسط هنا: المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير، أو أن يعتق رقبة، فإن لم يجد من ذلك شيئًا فليصم ثلاثة أيام[(١)].

ويرى بعض العلماء أن كلمة (أوسط) بمعنى الأمثل والأحسن، وهو ما يرجحه الباحث؛ لأن لفظ الأوسط كثيرًا ما يستعمل بهذا المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:٢٨].

أي: قال أحسنهم عقلًا وأمثلهم فكرًا ونظرًا[(٢)].

فجعل تعالى في تكفير العبد عن يمينه التي حنث فيها ما يتحقق به التكافل بين أفراد المجتمع، فيطعم أو يكسو ليس مسكينًا

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٨٢-٨٣.
(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٢٦٦.

واحدًا بل عشرة مساكين يواسيهم ويعينهم، أو أن يعتق رقبة وفي ذلك تحرير لنفس من العبودية.

- **كفارة الإفطار في رمضان في حق الشيخ الكبير أو الزمن.**

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾[البقرة:١٨٤].

- **كفارة الظهار.**

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾[المجادلة:٤].

والظهار أصله مشتق من الظهر، وذلك أن الرجل في الجاهلية كان يقول لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقًا، فأرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتمدونه[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾، «أي: فيه بأن يخالفوه بإمساك المظاهر منها الذي هو خلاف مقصود الظهار من وصف المرأة بالتحريم»[(٢)].

ثم بين تعالى الواجب على المظاهر إذا أراد أن يتدارك ويتلافى ظهاره، ويعود عنه، أن يعتق رقبة، فإن لم يجد فليصم شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا[(٣)].

ويفعل ذلك قبل أن يجامع المظاهر زوجته التي ظاهر منها.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٧.

(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٢٥.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢١٦.

حماية الاقتصاد من عوامل الفساد

شرع المولى سبحانه وتعالى تشريعات من شأنها أن تحمي الاقتصاد من الانهيار وعوامل الفساد، وأن تحقق أمن الإنسان واستقراره وسعادته في الدنيا والآخرة، ومن عوامل الفساد الاقتصادي التي تحدث عنها القرآن ما يأتي:

أولًا: الربا:

قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[البقرة:٢٧٦].

فنبه تعالى بقوله: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ على أن الزيادة المعقولة المعبر عنها بالبركة مرتفعة عن الربا، ولذلك قال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[الروم:٣٩].

فأضاف المضاعفة إلى الزكاة[١].

والربا في الشرع هو: «فضل خالٍ عن عوض شرط لأحد العاقدين»[٢].

أو هو: «فضل أحد المتجانسين على الآخر من مال بلا عوض»[٣].

وعرفه الشافعية بأنه: «عقدٌ على عوضٍ مخصوصٍ غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخيرٍ في البدلين أو أحدهما»[٤].

وقد حرم الله سبحانه وتعالى الربا حماية للاقتصاد من عوامل الفساد، وذلك لما فيه من أضرار وخيمة عليه.

فالفائدة الربوية التي يحصل عليها المرابي لا تأتي نتيجة عمل إنتاجي، بل استقطاع من مال الفرد أو مال الأمة دون مقابل، كما أن فيه دفعًا للمرابي إلى الكسل والبطالة لتمكنه من زيادة ثروته بدون جهد أو عناء، كما أن الربا يؤدي إلى ظاهرة التضخم في المجتمع، وينمي الضغائن والأحقاد بين أفراده بسبب استغلال بعضهم البعض في حاجاتهم، وعدم مراعاة أوضاعهم ومشاكلهم[٥].

وقد توعد القرآن الكريم المرابين بحرب من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا

(١) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٣٤٠.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٠٩.
(٣) أنيس الفقهاء، القونوي ص٧٧.
(٤) مغني المحتاج، الشربيني ٢/ ٣٦٣، التوقيف، المناوي ص١٧٣.
(٥) انظر: الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف، عبدالله الطريقي ص ٨٧.

﴿يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة:٢٧٥-٢٧٦].

إلى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩].

وأخبر تعالى أن آكلي الربا: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: من قبورهم، ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، وتوعدهم بمحق رباهم، أي: إذهاب بركته، وبأشد من ذلك وهو حرب منه تعالى، وبهذا التحذير القرآني من الربا وتعاطيه حماية للاقتصاد.

ثانيًا: الاحتكار:

قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:٧].

فبين تعالى أنه لا يريد أن يجعل المال دولة بين الأغنياء فحسب، أي: يتداولونه دون غيرهم، بل يريد أن يجعل المال دولة بين الناس[1]، والاحتكار من أعظم الأسباب التي تجعل المال دولة بين الأغنياء، يتحكمون به في قوتهم، ويحددون سعر بيعه لهم.

قال الفخر الرازي: «معنى الآية كي لا يكون الفيء - الذي حقه أن يعطى للفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها - واقعًا في يد الأغنياء ودولة لهم»[2].

وقد حرم الإسلام الاحتكار؛ لأنه أكل لأموال الناس بالباطل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة:١٨٨].

ولما فيه من ظلم وتسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع[3].

وفي الحديث عن معمر بن عبد الله رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يحتكر إلا خاطئٌ)[4].

قال النووي: «قال أهل اللغة: الخاطئ بالهمز هو العاصي الآثم، وهذا الحديث صريح في تحريم الاحتكار... والحكمة في تحريم الاحتكار دفع الضرر عن عامة الناس، كما أجمع العلماء على أنه لو كان عند إنسان طعام واضطر الناس إليه ولم يجدوا غيره أجبر على بيعه دفعًا للضرر عن الناس»[5].

ثالثًا: السفه:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٦/ ٣٣٨١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٥٠٧.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١/ ٣٥٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، رقم ١٦٠٥، ٣/ ١٢٢٨.

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١١/ ٤٣.

من عوامل إفساده: حمايته من تصرفات السفهاء.

«السفه: السرف والتبذير... السفيه: من ينفق ماله فيما لا ينبغي من وجوه التبذير، ولا يمكن إصلاحه بالتمييز والتصرف فيه بالتدبير»[1].

وقد حمى القرآن الكريم الاقتصاد من السفه بالحجر على السفيه، رعاية لمصلحته، ومحافظة على ماله، وحتى لا يكون عالة على غيره.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء:٥].

قال السعدي: «السفهاء: جمع «سفيه» وهو: من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه، ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد. فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها وإتلافها؛ لأن الله جعل الأموال قيامًا لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها.

فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها، بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولًا معروفًا، بأن يعدوهم -إذا طلبوها- أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبرًا لخواطرهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار»[2].

وفي سياق حماية الاقتصاد من السفه، أمر الله تعالى بحفظ مال اليتيم.

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء:٦].

أي: اختبروا اليتامى المقاربين للرشد، فإن تبين رشدهم وصلاحهم في أموالهم، وبلغوا النكاح، فادفعوا إليهم أموالهم كاملة.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم.

﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها[3].

فحمى القرآن الكريم مال اليتيم من

(١) الكليات، الكفوي ص ٥١٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٦٤.

(٣) انظر: المصدر السابق.

تصرف اليتيم نفسه حال سفهه، ومن ولي اليتيم في رعايته لذلك المال.

رابعًا: الإسراف:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد من عوامل إفساده: حمايته من الإسراف.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء:٢٩].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش ذامًا للبخل ناهيًا عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلًا منوعًا...

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملومًا محسورًا، وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك...

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا»[(١)].

وقال تعالى في النهي عن الإسراف في أموال اليتامى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾[النساء:٦].

أي: ينهى تعالى أولياء اليتيم عن أكل ماله من غير حاجة ضرورية.

﴿إِسْرَافًا﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وَبِدَارًا﴾ أي: أي مبادرين إلى إنفاقها مخافة ﴿أَن يَكْبَرُوا﴾ رشداء فيلزمكم تسليمها إليهم، أي: لا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١].

«فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما»[(٣)].

قال ابن عاشور: «فوجه عدم محبة الله إياهم أن الإفراط في تناول اللذات والطيبات، والإكثار من بذل المال في تحصيلها، يفضي غالبًا إلى استنزاف الأموال، والشره إلى الاستكثار منها، فإذا

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٧٠.

(٢) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٩٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٧.

ضاقت على المسرف أمواله، تطلب تحصيل المال من وجوه فاسدة، ليخمد بذلك نهمته إلى اللذات، فيكون ذلك دأبه، فربما ضاق عليه ماله، فشق عليه الإقلاع عن معتاده، فعاش في كرب وضيق، وربما تطلب المال من وجوه غير مشروعه، فوقع فيما يؤاخذ عليه في الدنيا أو في الآخرة، ثم إن ذلك قد يعقب عياله خصاصة وضنك معيشة. وينشأ عن ذلك ملام وتوبيخ وخصومات تفضي إلى ما لا يحمد في اختلال نظام العائلة»[1].

والإسراف سبب من أسباب الفقر وإضاعة المال، فالمسرف يتبع شهوته ويجاريها، حتى إنه ربما افتقر وتعرض لسؤال الناس والتذلل لهم، أو ربما لجأ إلى الطرق المحرمة في سد شهواته، ثم إن الإسراف فيه استنزاف للموارد الموجودة دون مراعاة لقدرة الدخل الشرائية، مما يؤدي للعجز في تحقيق الموازنة في العملية الاقتصادية.

خامسًا: التعامل في المحرمات:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد من عوامل الفساد، حمايته من التعامل في المحرمات، كالخمر والميسر والقمار والمخدرات وغيرها، لما فيها من مفاسد عظيمة عليه وعلى المجتمع، فالتعامل في القمار مثلًا وصرف الأموال فيه يجعل الإنسان يعتمد في كسبه على الحظ والأماني الفارغة، لا العمل والجد، كما أنه أداة لهدم البيوت العامرة، وتفريغ الجيوب من المال، وافتقار العوائل الغنية، وهو يورث العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع مما يهدد السلم المجتمعي، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وهكذا الحال في الخمر والمخدرات وغيرها من الأمور المحرمة التي تعود على الخمول والكسل، وتعطل الأمة عن العمل والإنتاج[2]، وتدفع بالمجتمع إلى الجريمة.

وقد نهى القرآن الكريم عن الخمر والميسر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

أي: ينهى الله عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار، والأنصاب وهي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، والأزلام وهي قداح كانوا يستقسمون بها، فإنها شر من عمل الشيطان[3].

ثم بين تعالى المفاسد المتعلقة بالخمر

(١) التحرير والتنوير، ٨/ ١٢٤.

(٢) انظر: الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف، عبدالله الطريقي ص ٩٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٧٨.

والميسر، فمنها ما يتعلق بالدنيا من إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، مما يفضي بهم إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك فيه إضاعة لمصالحهم وتشويش لحياتهم، ومنها ما يتعلق بالدين وهو الصد عن ذكر الله والصلاة[1].

سادسًا: كنز المال:

ومن حماية القرآن الكريم للاقتصاد من عوامل الفساد، حمايته من كنز المال وعدم أداء حقوقه، فالمال المكنوز لا ينتفع به، ولا يساهم في إنعاش الاقتصاد وتحسينه، ويحرم من المشاركة في العملية الإنتاجية بسبب طمع صاحبه وحرصه.

وقد حرم القرآن الكريم كنز المال قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾ [التوبة:٣٤-٣٥].

فتوعد الله تعالى من يكنزون أموالهم، أي: يمسكونها، ولا ينفقونها في سبيل الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم فسر العذاب بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي: على أموالهم، في نار جهنم فيحمى كل دينار أو درهم على حدته، ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

ويقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فما ظلمكم الله ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز[2].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٥.

الاقتصاد والأخلاق

الإسلام دين الأخلاق في جميع تشريعاته، دين الأخلاق في تشريعاته في العبادات وأحكام المعاملات، ودين الأخلاق في تشريعاته في الجهاد والحرب والسلم، ودين الأخلاق في تشريعاته في الاقتصاد وغيره من مناحي الحياة.

قال تعالى في وصف خلق النبي عليه السلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[(١)].

وقد ربط القرآن الكريم بين الاقتصاد والأخلاق ربطًا وثيقًا، وذلك في آيات كثيرة منه، من ذلك أنه جعل الإيمان والتقوى والعمل الصالح سببًا لنمو الاقتصاد وزيادة الإنتاج.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

فبالإيمان والتقوى يبارك الله في أرزاق العباد وحياتهم، وقال تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾[نوح:١٠-١٢].

فالاستغفار وترك المعاصي سبب من أسباب زيادة الإنتاج ونمو الاقتصاد.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٢٨].

فنهى الله تعالى عباده المؤمنين عن تمكين المشركين من الاقتراب من الحرم بعد هذا العام التاسع من الهجرة، ثم أخبر تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، أي: «وإن خفتم فقرًا لانقطاع غارتهم عنكم، فإن الله سيعوضكم عنها، ويكفيكم من فضله إن شاء، إن الله عليم بحالكم، حكيم في تدبير شؤونكم»[(٢)].

ففي هذه الآية يبين القرآن أنه لا يجوز أبدًا تقديم المصلحة والغرض الاقتصادي على رعاية الفضائل التي يدعو إليها الدين، كما يبين أن اعتبار تلك الأخلاق في الاقتصاد هو أمر واجب، حتى ولو أدى ذلك إلى نقصان أو خسارة فيه، فلا شك أنه في منع حج الألوف وعشرات الألوف

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٨٩٥٢، ١٤/٥١٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٣٤٩.

(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ١٩١.

من الحجاج خسارة اقتصادية كبيرة على المسلمين. ولكن عليهم أن يتحملوا ذلك في سبيل إيمانهم.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[الجمعة:٩].

«ولا شك أن استمرار الناس يبيعون ويشترون في كل وقت فيه كسب خاص لهم، وإنعاش للحركة الاقتصادية على العموم، لكن القرآن يأمر المؤمنين في يوم الجمعة، إذا سمعوا النداء أن يوقفوا دولاب العمل، ويعطلوا كل بيع وشراء ليسعوا إلى ذكر الله، وأداء فرضه الأسبوعي»[(١)].

فالقرآن لا يجيز لنا في سبيل تنمية اقتصادنا أن ننسى أوامر ربنا وطاعته.

قال تعالى في وصفه عباده المؤمنين: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[النور:٣٧].

وقال تعالى حاكيًا عن نبيه سليمان عليه السلام لما أرسلت إليه ملكة سبأ هدية ترشيه بها وتختبره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾[النمل:٣٦].

ومع أن الهدية المالية فيها قيمة اقتصادية إلا أن سليمان عليه السلام رد هذه الهدية؛ لأنها كانت عوضًا عن سكوته عن الحق والدعوة إلى الإسلام والإيمان، فالهدية إن كانت على حساب العقيدة والقيم الأخلاقية، فهي مرفوضة مردودة. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:١٨٨].

أي: أن أكل المال يجب أن يكون بالحق والعدل، لا بالباطل والجور، وبهذا النهي الواضح الصريح عن أكل المال بالباطل يوضح القرآن العلاقة بين الاقتصاد والأخلاق ومدى ارتباطهما الوثيق.

قال السعدي: «أي: ولا تأخذوا أموالكم أي: أموال غيركم، أضافها إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله؛ ولأن أكله لمال غيره يجرئ غيره على أكل ماله عند القدرة»[(٢)].

ويدخل في أكل الحرام للمال: السرقة والغش والغصب والربا ونحو ذلك مما حرمه الشرع الحكيم ونهى عنه.

كما بين القرآن بعض الأخلاق الفاضلة التي يلتزم بها المسلم في الاقتصاد، كالصدق والعدل، وعدم الكذب والغش والخداع.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ

(١) المصدر السابق ص ٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٨.

﴿اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة:١١٩].

أي: «الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم، لا تكون إلا صدقًا»[(١)]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[الأعراف:٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾[المطففين:١-٣].

فتوعد الله تعالى المطفف الذي يبخس الناس حقهم، ونهى عن ذلك.

قال ابن كثير: «المراد بالتطفيف هاهنا: البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم؛ ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل، بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾، أي: من الناس، ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون»[(٢)].

فأمرت هذه الآيات بالعدل وعدم الجور والغش في التعامل الاقتصادي مع الآخرين.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[الأعراف:٢٩].

ومن أخلاق الاقتصاد التي بينها القرآن الكريم الوفاء بالعهد.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[المائدة:١].

وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[الإسراء:٣٤].

فبين تعالى أنه سيسألنا عن عهودنا وهل التزمنا بها أم لا؟.

كما أشار القرآن الكريم إلى قضية الإتقان في العمل، كما في قوله تعالى لنبيه داود عليه السلام: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[سبأ:١١].

فقوله: ﴿وَقَدِّرْ﴾ بتقدير دقيق، أي: يجب عليك يا داود عند صناعتك للدروع ونسجها أن تقدر ذلك تقديرًا دقيقًا، وفي ذلك دعوة قرآنية لأهل الصنائع والحرف أن يتقنوا أعمالهم وصناعاتهم، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله جل وعز يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه)[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الإنفاق، الربا، الزكاة، المال

(١) المصدر السابق ص ٣٥٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٣٤٦.
(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده، رقم ٤٣٨٦، ٧/ ٣٤٩، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٨٩٧، ١/ ٢٧٥، والبيهقي في الشعب، رقم ٤٩٣١، ٧/ ٢٣٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٨٨٠، ١/ ٣٨٣.

الإكراه

عناصر الموضوع

مفهوم الإكراه	١٤٤
الإكراه في الاستعمال القرآني	١٤٥
الألفاظ ذات الصلة	١٤٦
أنواع الإكراه	١٤٨
أسباب الإكراه	١٥٩
الإكراه القدري	١٦٨
أثر الإكراه في الأحكام الشرعية	١٧٠

مفهوم الإكراه

أولًا: المعنى اللغوي:

«الكاف والراء والهاء أصلٌ صحيحٌ واحد، يدل على خلاف الرضا والمحبة، يقال: كرهت الشيء أكرهه كَرْهًا. والكُره الاسم. ويقال: بل الكُره: المشقة، والكَره: أن تكلف الشيء فتعمله كارهًا، ويقال من الكره الكراهِيَة والكراهِيَة. والكريهة: الشدة في الحرب»[(١)].

وقيل: «الكُره بالضم: هو فعل المختار، والكَره بالفتح: هو فعل المضطر»[(٢)]، «والإكراه عبارةٌ عن إثبات الكره»[(٣)].

فمعنى الإكراه لغة يدور حول المشقة والشدة، وعدم الرضا والمحبة وعدم الاختيار.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «حمل الغير على ما يكرهه بالوعيد والإلزام والإجبار على ما يكره الإنسان طبعًا أو شرعًا، فيقدم على عدم الرضا ليرفع ما هو أضر»[(٤)]، وقيل: «الإكراه حمل الغير على ما يكرهه بالوعيد الشديد»[(٥)].

وقيل: «والكره معنى قائم بالمكره ينافي المحبة والرضا، ولهذا يستعمل كل واحد منهما مقابل الآخر. قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾[البقرة: ٢١٦]»[(٦)].

وكلا المعنيين اللغوي والاصطلاحي فيهما الإلزام وعدم الاختيار مع عدم الرضا والمحبة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٧٢.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٥٣٤.
(٣) بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ١٧٥.
(٤) التعريفات ص٥٠.
(٥) التوقيف، المناوي ص٨٤.
(٦) بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ١٧٥.

الإكراه في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أكره) في القرآن (٧) مرات[١]:

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦]
الفعل المضارع	٣	﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾[النور:٣٣]
المصدر	٢	﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[البقرة:٢٥٦]

وجاء الإكراه في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: حمل الإنسان على ما يكرهه، أي أنه بمعنى الإجبار[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٦٠٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٠٨، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٧٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الغصب:

الغصب لغةً:

(غصب)، «الغصب: أخذ الشيء ظلمًا، غصب الشيء يغصبه غصبًا واغتصبه فهو غاصبٌ، وغصبه على الشيء: قهره، وغصبه منه والاغتصاب مثله، والشيء غصبٌ»[١].

الغصب اصطلاحًا:

«الاستيلاء على حق الغير عدوانًا»[٢].

الصلة بين الإكراه والغصب:

بينهما افتراق واتفاق، إذ إن الغصب أخذ الشيء وسلبه بقوة السلطان وقهره، والإكراه حمل الغير على فعل الشيء بقوة السلطان وقهره، فهما يتفقان في إتيان الشيء بالقوة والسلطان، ويفترقان في فقدان ما يغتصب منه في حالة الغصب، وبقاء الشيء المكره عليه في حالة الإكراه.

٢ الإلجاء:

الإلجاء لغةً:

«التلجئة: الإكراه، وألجأه إلى كذا: اضطره إليه، وألجأ أمره إلى الله: أسنده»[٣].

الإلجاء اصطلاحًا:

«والإلجاء ما تشتد دواعي الانسان إليه على وجه لا يجوز أن يقع مع حصول تلك الدواعي، والإلجاء يكون فيما لا يجد الانسان منه بدًا من أفعال نفسه»[٤].

الصلة بين الإكراه والإلجاء:

بينهما فرق دقيق، فالإكراه يقع على المكره من خارج إرادته فيستعمل الإجبار مع الإكراه، بينما الإلجاء يقع بإرادة الملجأ ذاتيًا.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٤٨.
(٢) التوقيف، المناوي ص٥٣٨.
(٣) مختار الصحاح، الرازي ص٦١٢.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص٤٤.

٣ الإلزام:

الإلزام لغةً:

«لزم الشيء يلزمه لزمًا ولزومًا ولازمه ملازمةً ولزامًا، والتزمه وألزمه إياه فالتزمه، ورجل لزمةٌ: يلزم الشيء فلا يفارقه، ألزمه الشيء فالتزمه»[(١)].

الإلزام اصطلاحًا:

وهو نفس التعريف اللغوي عند الفقهاء والمفسرين.

الصلة بين الإكراه والإلزام:

يتفقان في أنهما على الحق والباطل فيقال: أكرهته على الوقوع في المعصية، وفي الإلزام يقال: ألزمته الباطل، وفي الحق كذلك، «وبينما يختلفان في أن الإلزام أخص من الإكراه، حيث إن المكره يأتي المكره عليه ثم يفارقه، بينما في الإلزام تنعدم مفارقة الملزم عليه»[(٢)].

٤ التراضي:

التراضي لغةً:

«الراء والضاد والحرف المعتل أصلٌ واحد يدل على خلاف السخط. تقول: رضي يرضى رضىً. وهو راضٍ»[(٣)].

التراضي اصطلاحًا:

«قصد الفعل دون أن يشوبه إكراه»[(٤)].

الصلة بين الإكراه والتراضي:

هما نقيضان فلا يجتمعان.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٤١، مختار الصحاح، الرازي ص٦١٢.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٤٥.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٠٢.
(٤) انظر: الموسوعة الكويتية الفقهية ٣٠/ ٢٢٠.

أنواع الإكراه

السياق القرآني من خلال عرضه لمصطلح الإكراه في ثنايا السور والآيات الكريمة بين أن الإكراه ينقسم إلى أنواع مادية ومعنوية، وذلك باختلاف الأمر المكره عليه المكره.

أولًا: الإكراه على الإيمان:

أورد ربنا سبحانه وتعالى من خلال السياق القرآني في معرض نفيه الإكراه على الإيمان، الآية الكريمة التي جاءت في سورة يونس.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

يقول الشيخ سيد طنطاوي رحمه الله في تفسيره للآية: «والهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ﴾ للاستفهام الإنكاري، والفاء؛ للتفريع، والمراد بالناس: المصرين على كفرهم وعنادهم.

والمعنى: تلك هي مشيئتنا لو أردنا إنفاذها لنفذناها، ولكننا لم نشأ ذلك فهل أنت يا محمد في وسعك أن تقهر الناس الذين لم يرد الله هدايتهم على الإيمان؟ لا، ليس ذلك في وسعك ولا في وسع الخلق جميعًا، بل الذي في وسعك هو التبليغ لما أمرناك بتبليغه»[1].

فالمعنى الظاهر للآية الكريمة: أن الإيمان لا يمكن أن يكون بالإكراه، ولا يمكن للإكراه أن ينشئ مؤمنًا، وأن أمر الايمان والكفر بمشيئته سبحانه وتعالى، بعد أن أرسل رسله ليبينوا للناس الحق، ويبلغوا الناس عن ربهم.

يقول الحق جل وعلا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وأورد سبحانه وتعالى آية أخرى في سورة البقرة في معرض نفيه أن دخول الإسلام يكون إجبارًا، وهي قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه

(١) انظر: الوسيط ٧/ ١٣٦.

ويصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا»[1].

ويقول شيخ المفسرين الطبري رحمه الله: «ومعنى قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ لا يكره أحد في دين الإسلام عليه، وإنما أدخلت (الألف واللام) في ﴿ٱلدِّينِ﴾، تعريفًا للدين الذي عنى الله بقوله: (لا إكراه فيه)، وأنه هو الإسلام»[2].

ويقول سيد قطب في الظلال: «وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه»[3].

ويقول المفسر العلامة السعدي في تفسيره: «يخبر تعالى أنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق»[4].

ومن هذا الاستدلال التفسيري لبيان معنى الآيتين يتضح لنا أن الإكراه غير معتبر في الإيمان والإسلام، وأن الدخول في الإسلام قائم على الحجة والعقل والمنطق، والاعتناق برغبة ذاتية كاملة من المكلفين، وأما دعوة الناس للإيمان والتزام أوامر الدين بالسنان وحملهم عليها فهذا مما لا يقبله الإسلام.

يقول الشيخ الزرقاني: «أما السيف ومشروعية الجهاد في الإسلام فلم يكن لأجل تقرير عقيدة في نفس، ولا لإكراه شخص أو جماعة على عبادة، ولكن لدفع أصحاب السيوف عن إذلاله واضطهاده، وحملهم على أن يتركوا دعوة الحق حرة طليقة، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله»[5].

وورد في نزول قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أكثر من سبب للنزول، منها:

الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت المرأة تكون مقلاتًا[6]، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده،

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٨٢.
(٢) جامع البيان، ٥/ ٤١٥.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٧٠.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص١١٠.
(٥) مناهل العرفان، ٢/ ٤٠٦.
(٦) هي المرأة التي لا يعيش لها ولد، أو ليس لها إلا ولد واحد.
تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٤٢.

فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا! فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾»[1].

الثاني: قال السدي قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ إلى ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار يقال له أبو الحصين: كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما باعوا وأرادوا أن يرجعوا أتاهم ابنا أبي الحصين، فدعوهما إلى النصرانية، فتنصرا فرجعا إلى الشام معهم، فأتى أبوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إن ابني تنصرا وخرجا، فأطلبهما؟ فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب، وقال: أبعدهما الله! هما أول من كفر! فوجد أبو الحصين في نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم حين لم يبعث في طلبهما، فنزلت: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥][2].

الثالث: قال مسروق: «كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الطعام فأتاهما أبوهما فلزمهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا أن يسلما، فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ فخلى سبيلهما»[3].

القول الراجح في آية الإكراه على الدين:

في المسألة أقوال ثلاثة:

الأول: ذهب جمهرة من العلماء والمفسرين[4] بأن هذه الآية منسوخة، وناسخها قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥].

قاله الصحابي زيد بن أسلم رضي الله عنه، ونقله الإمام ابن حزم رحمه الله، وابن سلامة، والكرمي، والمقري، -رحمهم الله تعالى-.

الثاني: ذهبت جمهرة أخرى من العلماء، «بأن الآية ليست منسوخة، ولكن ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ نزلت في أهل الكتاب، لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية، والذين يكرهون أهل الأوثان»[5]، فهم الذين نزلت فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٠٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٤١٠.
(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٤٩.
(٤) انظر: قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ، مرعي الكرمي ص٧٥.
(٥) انظر: الناسخ والمنسوخ، النحاس ص٢٥٨.

﴿ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

الثالث: ذهب فريق ثالث إلى أن هذه الآية مخصوصة، وممن قال إنها مخصوصة ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال أبو جعفر: «قول ابن عباس في هذه الآية أولى الأقوال؛ لصحة إسناده، وأن مثله لا يأخذ بالرأي، فلما أخبر أن الآية نزلت في هذا وجب أن تكون أولى الأقوال، وأن تكون الآية مخصوصة نزلت في هذا، وحكم أهل الكتاب كحكمهم»[(١)].

وبهذا وبه قال شيخ المفسرين الإمام الطبري، وجمهرة كبيرة من العلماء.

هذا حاصل أقوال المتقدمين في الجمع بين هذه الآية؛ والواقع فإن الناظر في كتب التفسير المتقدمة عمومًا، يجد أن المفسرين لم يخرجوا عن هذه الأقوال في الأغلب، ورجح أكثرهم القول بأن آية البقرة خاصة بأهل الكتاب.

ثانيًا: الإكراه على الكفر:

تعتبر الدعوات السماوية مصدر إزعاج للماديين الدنيويين؛ فذلك لا يتوانون لحظة في إلحاق الأذى بأتباعها وأشياعها، ولما كان الإسلام دعوة الحق الذي ارتضاه لنا ربنا سبحانه وتعالى، وأرسل به النبي صلى الله عليه وسلم لمنح العباد الحرية من طواغيت الأرض، زاد الماديين نفورًا وعنادًا واستكبارًا وصدًا عن سبيل الله تعالى وإيذاءً للمؤمنين، فكانت المنحة الإلهية لهم بجواز الأخذ بالرخصة في الكفر باللسان بعد الإيمان تفاديًا لأذاهم، وبشرط اطمئنان القلب بالإيمان.

فقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

قال شيخ المفسرين الإمام الطبري: «﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الكفر، فنطق بكلمة الكفر بلسانه ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ موقن بحقيقته، صحيح عليه عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر، لكن من شرح بالكفر صدرًا فاختاره وآثره على الإيمان، وباح به طائعًا، ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾»[(٢)].

إن الإسلام العظيم يعنى بداخل الإنسان: القلب والجوهر والعقل، فإذا تهذب القلب واطمأن لحول الله وقوته وآمن لربه، واقتنع العقل والفكر؛ فإنه لا يمكن لقوة في الأرض أن تثني الإنسان عن ربه؛ ولو حصل فإنه

(١) جامع البيان، ١٢/ ٤١٤.

(٢) المصدر السابق ١٧/ ٣٠٥.

يكون باللسان والفعل لا بالقلب والاقتناع، ولذا فقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم أن ما استكره عليه الإنسان من الأقوال والأفعال، مما تجاوز عنه ربنا سبحانه وتعالى في حق أمة محمد صلى الله عليه وسلم: فعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[1].

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله في سياق عرضه للآية الكريمة في الظلال: «والنص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه؛ لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إيثارًا للحياة الدنيا على الآخرة، فرماهم بغضب من الله، وبالعذاب العظيم، والحرمان من الهداية؛ ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار؛ وحكم عليهم بأنهم في الآخرة هم الخاسرون. ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة، وحساب للربح والخسارة، ومتى آمن القلب بالله فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض؛ فللأرض حساب، وللعقيدة حساب ولا يتداخلان، وليست العقيدة هزلًا، وليست صفقة قابلة للأخذ والرد فهي أعلى من هذا وأعز، ومن ثم كل هذا التغليظ في العقوبة، والتفظيع للجريمة»[2].

إن الله سبحانه وتعالى إذ أعطى الإنسان المسلم رخصة النطق بكلمة الكفر إكراهًا واضطرارًا وجوز له فيها؛ إلا أنها تحت شروط معينة، فقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ولقد أجزل الله تعالى في العطاء لمن صبر في سبيل الله ولم يساوم على دينه وعقيدته من أجل دنيا فانية، ولنا خير مثال في أصحاب الأخدود الذين ما ساوموا على الكفر بعد الإيمان، فأجزل لهم العطاء الأخروي، وسجل الله عز وجل موقفهم في قرآن يتلى إلى يوم القيامة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ٩- ١٠].

وسجل ربنا سبحانه وتعالى أنهم انتصروا على عدوهم مع أنه رماهم في النار وحرقهم، إلا أن المبدأ انتصر وفاز على جبروت الطاغية وجلاوزته، ومن

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، رقم ١١٧٨٧، ٦/ ٨٤.
وصححه النووي في المجموع ٦/ ٣٠٩، والألباني في إرواء الغليل ١/ ١٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٤٩١.

هنا فإنه على أهل الإيمان في شتى بقاع الأرض أن يأخذوا بالعزيمة في الثبات على الإيمان والمبادئ والثوابت وانتزاع الحرية، وتحرير العباد من عبادة العباد، لعبادة رب العباد، وإن الثبات على الحق وتجرع المر أفضل مائة مرة من الهوان والعيش في ذلة وخنوع، «وهذا الصحابي الجليل حبيب بن زيد الأنصاري يعلمنا درسًا في الصمود والثبات على المبادئ، ولو على نفسه حينما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم برسالته إلى مسيلمة الكذاب، فقيده مسيلمة الكذاب وجعل يقول له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فجعل يقطعه عضوًا عضوًا حتى مات في يديه، لا يزيده على ذلك»[1].

وأورد الواحدي في كتابه (أسباب النزول) روايتين لسبب نزول الآية الكريمة، نذكر منها واحدًا، «فعن ابن عباس: نزلت في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا وأمه سمية وصهيبًا وبلالًا وخبابًا وسالمًا، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجئ قبلها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت وقتل زوجها ياسر وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن عمارًا كفر، فقال: كلا إن عمارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه، وقال: (إن عادوا لك فعد لهم بما قلت)، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[2].

الحد الذي إذا بلغه الشخص عد مكرهًا:

إذا كان الشارع قد أباح للإنسان المسلم النطق بكلمة الكفر كارهًا ومضطرًا، إلا أن الأمر ليس على إطلاقه؛ ولكن للضرورة أحكامًا، ولقد حدد العلماء شروطًا إذا بلغها الشخص عد مكرهًا، فقال ابن حجر: «شروط الإكراه أربعة»[3]:

١. أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزًا عن الدفع ولو بالفرار.
٢. أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.
٣. أن يكون ما هدد به فوريًا، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غدًا لا يعد مكرهًا. ويستثنى ما إذا ذكر زمنًا قريبًا جدًا، أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

(١) السيرة النبوية،ابن كثير ٢/ ٢١٢.

(٢) انظر: أسباب النزول ص١٩٠.
(٣) فتح الباري ١٢/ ٣١١.

٤. أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره.

ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور، ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأبيد كقتل النفس بغير حق، وقال الخازن: «قال العلماء: يجب أن يكون الإكراه الذي يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل والضرب».

ثالثًا: الإكراه على الكبائر:

ذكر القرآن الكريم بعض الكبائر والمعاصي التي قد يقع فيها الإكراه، ومن ذلك:

١. الإكراه على الزنا.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

أورد الشيخ الواحدي في كتابه أسباب النزول سببًا لنزول هذه الآية، فقال: «كانت جارية لعبد الله بن أبي بن سلول، يقال لها مسيكة، فآجرها أو أكرهها، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم، فشكت ذلك إليه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]. يعني بهن»[(١)].

يقول الشيخ سيد طنطاوي في معرض تفسيره للآية: «ولا تكرهوا -أيها الأحرار- فتياتكم اللائي تملكوهن على الزنا إن كرهنه وأردن العفاف والطهر، لكي تنالوا من وراء إكراههن على ذلك بعض المال الذي يدفع لهن نظير افتراشهن، ومن يكره إماءه على البغاء فإن الله تعالى بفضله وكرمه- ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إكراهكم لهن، ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهن، أما أنتم يا من أكرهتموهن على الزنا فالله وحده هو الذى يتولى حسابكم، وسيجازيكم بما تستحقون من عقاب»[(٢)].

إن القرآن الكريم وهو يضع دعائم المجتمع المسلم، يعالج فيه مظاهر وظواهر نشأت في ظلمة الجاهلية الأولى، فيضع الشارع الحكيم من الأحكام والتشريعات والتوجيهات ما يحفظ المجتمع المسلم من كل دخائل وشوائب.

فبعد أن أمر بإنكاح الأيامي للتحصين البيوت والمجتمع، وأمر الذين لا يجدون نكاحًا بالعفاف حتى يغنيهم الله من فضله بالمال والنكاح، فقال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا

(١) انظر: أسباب النزول ص٢٤٤.
(٢) التفسير الوسيط ١/ ٣٠٧٩.

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النور: ٣٢-٣٣].

فكان النداء بعدها للأحرار الأطهار بأن المجتمع المسلم يجب أن يتطهر من كل النقائص، وألا يغرق في أوحال الشهوات الجاهلية؛ بل إن الإسلام الحنيف كرم الإيماء في تعبير الله سبحانه وتعالى بذكره لهن الفتيات، وحض الإسلام على المزيد من تحصينهن وخوف الذين يكرهونهن بالعقاب في الآخرة، مستثنيًا المكرهات من العقوبة مع عظم الجريمة؛ ليتبقى أمام المكرهة على الزنا فرصة الرجوع والإنابة والثبات على المنهج القويم.

ثم إن الإسلام جفف منابع هذه الظاهرة المنتشرة (الاسترقاق) وحصرها في الحروب المشروعة التي تقوم بين المسلمين والكفار، ووسع أبواب العتق من خلال الكفارات، ثم إن الله أمر بالإحسان إلى الرقيق والتعامل معهم وفق أخلاق الإسلام.

وختامًا فإن الله سبحانه جعل البشر كلهم إخوة بينهم نسبٌ واحدٌ، وتسري في أوصالهم نفخة من روح الله، وأنهم سواسيةٌ في الحقوق والواجبات، وأنهم خلقوا ليتعارفوا ويتحابوا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[الحجرات: ١٣].

٢. الإكراه على السحر.

أخبر القرآن الكريم أن سحرة فرعون بعد إيمانهم قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

يقول العلامة ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره للآية: أخذ فرعون أربعين غلامًا من بني إسرائيل فأمر أن يعلموا السحر بالفرما، وقال: علموهم تعليمًا لا يعلمه أحد في الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]»[(١)].

مما لاشك فيه أن السحر المتعارف عليه بين الناس والذهاب للسحرة من كبائر الذنوب، والسحرة كذبة دجالون، ولقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من السحرة ومن التصديق والإيمان بأكاذيبهم.

وروى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)[(٢)].

وإن الإنسان المسلم مطالب باجتناب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٠٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، باب تحريم الكهانة، ٧/ ٣٧، رقم ٢٢٣٠.

السحر بأنواعه المتعددة ووسائله المتنوعة؛ لأن الأصل في أهداف السحرة هو التفرقة، سواء بين المرء ودينه أو المرء وزوجه وعائلته وأهله وعشيرته.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

بعد بيانه سبحانه وتعالى لمن اتبع الشياطين في سحرهم من اليهود والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه، «ذكر مفاسد السحر فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما؛ لأن الله قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين»[1].

رابعًا: الإكراه في المعاملات:

١. الإكراه على النكاح.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

روى البخاري «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١.

شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ [النساء: ١٩]»[١].

يقول الإمام القرطبي في تفسيره لهذا الآية: «لا يحل لكم أن ترثوهن من أزواجهن فتكونوا أزواجًا لهن، فالمقصود إذهاب ما كانوا عليه في جاهليتهم، وألا تجعل النساء كالمال يورثن عن الرجال كما يورث المال، وقرأ حمزة والكسائي»[٢].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾، يعني: ميراث نكاح النساء.

وقيل: أن ترثوا أموالهن كرهًا يعني وهن كارهات.

﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن وكانوا إذا كانت جميلة تزوجوها وإذا كانت دميمة حبوسها حتى تموت فيرثونها، وتفعلون ذلك، ﴿...لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ...﴾، كأن هذا حكم آخر، لا ترثوا النساء كرهًا هذا حكم، و أيضًا لا تعضلوهن حكم ثانٍ.

والمثال: عندما يكون الرجل كارهًا لامرأته فيقول لها: والله لن أطلقك، أنا سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجًا ولا أمكنك أيضًا من أن تتزوجي؛ وذلك حتى تفتدي نفسها فتبرئ الرجل من النفقة ومؤخر الصداق، فيحمي الإسلام المرأة ويحرم مثل تلك الأفعال.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، فحينئذٍ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم واختلفوا في الفاحشة المبينة، فقيل: هي النشوز وسوء الخلق وإيذاء الزوج وأهله، وقيل الفاحشة: هي الزنى، يعني: أن المرأة إذا نشزت أو زنت حل للزوج أن يسألها الخلع، وقيل: كانت المرأة إذا أصابت فاحشة أخذ منها زوجها ما ساق إليها وأخرجها فنسخ الله ذلك بالحدود، ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

قال ابن عباس: «الخير الكثير: أن يعطف عليها، فيرزق الرجل ولدها، ويجعل الله في ولدها خيرًا كثيرًا»[٣].

وقيل: في الآية ندب إلى إمساك المرأة مع الكراهية لها؛ لأنه إذا كره صحبتها وتحمل ذلك المكروه طلبًا للثواب وأنفق عليها وأحسن هو صحبتها استحق الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى، وقيل في معنى الآية: إنكم إن كرهتموهن ورغبتم في فراقهن فربما جعل الله في تلك المفارقة لهن خيرًا كثيرًا؛ وذلك بأن تخلص من هذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب من الإكراه، ٦/ ٢٥٨٤، رقم ٦٩٤٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٩٤.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/ ١٢٣.

الزوج الكاره لها وتتزوج غيره خيرًا منه[1].

٢. الإكراه في البيوع.

أصل القرآن الكريم لحرمة أكل المال وبين الاستثناء في تداول وتبادل المال في ذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩].

يقول العلامة ابن عاشور[2] في تفسيره للآية: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾، وهو يقتضي أن الاستثناء قد حصر إباحة أكل الأموال في التجارة، و﴿عَن﴾ فيه للمجاوزة، ﴿تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: صادرة عن التراضي وهو الرضا من الجانبين بما يدل عليه من لفظ أو عرف، والتراضي يحصل عند التبايع بالإيجاب والقبول، وهذه الآية أصل عظيم في حرمة الأموال، لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل مال امرئٍ يعني مسلمًا إلا بطيبٍ من نفسه)[3].

من الملاحظ أن الله عز وجل لم يذكر صيغة التراضي في القرآن الكريم سوى أربع مرات، ثلاثة في الأحوال الشخصية وواحدة في المعاملات، والتراضي: «هو الرضا من الجانبين بما يدل عليه من لفظ أو عرف، وهو أساس العقود بصفة عامة، وأساس المبادلات المالية بصفة خاصة، فلا بيع ولا شراء ولا إجارة ولا شركة ولا غيرها من عقود التجارة ما لم يتحقق الرضا»[4].

ويعطينا ذلك دلالة كافية وواضحة على أهمية تحقق شرط التراضي في المعاملات الشخصية والمالية، بحيث يتحقق التراضي من المتعاقدين؛ وذلك لما يترتب عليه من آثار ونتائج، والتراضي هو الحالة المقابلة للإكراه فلا يمكن في حالة البيوع والتداول والتجارة أن يكون أحد الأطراف المتعاقدة مكرهًا، بل إن التراضي بينهم شرط أساسي لصحة عقد البيع والتجارة.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٩٩، تفسير الشعراوي ١/ ١٤١٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٥/ ٢٤.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/ ٥٦٠، رقم ٢١٠٨٢، عن عمرو بن يثربي.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم ١٤٥٩.
(٤) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٩٢٣.

أسباب الإكراه

كما بين السياق القرآني أنواع الإكراه ووضحته فيما سبق، فإن السياق القرآني بين الأسباب والأمور التي تدفع بالمكره؛ ليأخذ حكم الإكراه في المسألة الحاصلة، وكذلك بين السياق القرآني الأسباب التي تبين سبب إكراه المكره للمكره، وسبب كونه أكرهه على فعل المكره عليه وجعله مكرهًا عليه:

أولًا: الفتنة في الدين:

من المعلوم أنه لا فتنة، ولا فساد أعظم من الفتنة في الدين والفساد فيه، ولقد حذرنا الحق سبحانه وتعالى من هذه الفتنة، وحرضنا لتجنبها، ولأن الفتنة في الدين لها صور وأشكال متعددة، فقد عالجها القرآن الكريم من خلال عرض السياق القرآني لمسألة الفتنة في الدين بالإكراه باختلاف نوع المكرَهين أو المكرِهين، وهذا ما سنتناوله فيما يأتي:

١. الفتنة في الدين بالإكراه في حق المؤمنين.

وفيه حالتان:

الحالة الأولى: إكراه الله عز وجل للمؤمنين في فريضة الجهاد، وتكريهه لهم الكفر والفسوق والعصيان:

لقد ابتلى الله سبحانه أهل الإيمان بأحكام وتكليفات، وإن كانت أنفسهم غير راضية عن أدائها والصب على مشاقها، ولكنها تحمل الخير لهم.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

يقول الشيخ سيد طنطاوي في تفسيره للآية الكريمة: «أي: أن القتال لشدة ويلاته، وما فيه من إزهاق الأرواح كأنه الكراهة نفسها فهو من وضع المصدر موضع اسم المفعول مبالغة، وقرئ (وهو كَرْهٌ لكم) -بفتح الكاف- فيكون فيه معنى الإكراه؛ لأن الكره بالفتح ما أكرهت عليه، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد وهو الكراهية»[1].

وتتجلى رحمته سبحانه وتعالى في حبه الخير للمؤمنين بتكريهه لهم الكفر والفسوق والعصيان، وتحبيبه إليهم الإيمان، وجعله قناديل مضيئة تتزين به قلوب العابدين، فقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧].

وزاده الله سبحانه وتعالى في تكريهه

(١) المصدر السابق ١/ ٣٧٢.

لأهل الإيمان عديد النواهي التي بينها في سورة الإسراء، ختمها بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

تبيانًا منه سبحانه وتعالى لعدم إتيانها من المؤمنين، وأنها سيئات مكروهة عند الله تعالى، فالأولى بكم يا أهل الإيمان الانتهاء عنها.

الحالة الثانية: إكراه الكافرين للمؤمنين لصدهم عن سبيل الله:

إن أهل الكفر والضلال لا يتوانون لحظة في إكراه المؤمنين لصدهم عن دينهم وإغوائهم بشتى الطرق والوسائل وتتعدد وسائلهم وطرقهم وأساليبهم للصد عن سبيل الله بالترغيب تارة وأخرى بالترهيب، بما يتلاءم مع كل زمان ومكان، وهما في هذا وذاك إخوة وأولياء متفقون على صد الناس عن دين الله ولهم وسائلهم وأساليبهم في ذلك.

ولما علم الله سبحانه وتعالى كيد الكافرين وحربهم على أهل الإيمان فقد رخص رخصًا قولية لرفع أذاهم عن المؤمنين، واشترط أن يكون القلب مطمئنًا بالإيمان.

يقول تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

«وهذا يعد رخصة للمسلمين الذين يتعرضون للبلاء الشديد على يد الكفار، فمن ثبت وراغم الكفار كما فعل بلال فهو أفضل، ومن أخذ بالرخصة كما فعل عمار فإنه لا إثم عليه مادام قلبه مطمئنًا بالإيمان، ولله الحمد والفضل، وفي اطمئنان القلب دلالة على أهمية صيانة الفكر من أن يتطرق إليه شيء من الشبهات التي يثيرها الكفار»[1].

ولم يقتصر أهل الشرك والكفر على إكراههم الناس بأنفسهم واتباعهم، بل إنهم أكرهوا وأجبروا كل الإمكانات المتاحة لإكراه أصحاب الاختصاصات المتعددة، في تسخيرها للصد عن سبيل الله تعالى، ففي قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون وسحرته، يتجلى القهر والتسلط الذي مارسه فرعون على السحرة؛ لسحر أعين الناس وصدهم عن الدعوة الجديدة، وحينما انكشف الأمر وبانت الحقيقة نطقوا بالحقيقة المرة.

فقال تعالى حكاية عنهم بعد إيمانهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

تتعدد الصور وتتنوع الوسائل التي يستخدمها الكافرون وأعوانهم في حربهم

(١) المصدر السابق ١/ ٣٧٢.

على الإسلام وأهله، فهم في صراع دائم مع المصلحين الداعين لوحدانية الله من دون نقص أو شوائب، ولكل عصر عناوينه وصوره المتعددة في فتنة الذين آمنوا، وهذه ضريبة طبيعة يدفعها أهل الإيمان في سبيل الله تعالى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

إن الإكراه الذي يمارسه الطغاة والمستكبرون في حق المؤمنين، يؤثر على عوام الناس وضعفاء الإيمان، والذين يجهلون حقيقة الحياة الدنيا.

ومن ذلك ما ذكره الله عن حال بني إسرائيل مع فرعون، فقال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٣-٨٦].

ولقد حث ربنا سبحانه وتعالى المؤمنين على الصبر والجلد في وجه الطغاة والعتاة، وعدم الركون إليهم والاستسلام لمخططاتهم للقضاء على الإسلام وأهله، وأمر المؤمنين الموحدين بالإعداد لهم وقتالهم، يقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

والأمر بقتال المشركين من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين حتى لا تكون هناك محاولة من المشركين والكافرين لصرف الناس عن دين الله بالقوة والقهر والسيف؛ ولذلك لابد من مواجهتهم بالقوة ردًا لاعتدائهم على المسلمين، وخوفًا من صرفهم الناس عن دين الله، حتى إذا انتهوا عن معاندتهم ولزموا حدودهم فقد تم المراد ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

٢. الفتنة في الدين بالإكراه في حق الناس عامة.

إن الإسلام دين الرحمة والسماحة، شرعه يطابق العقل والمنطوق، ينسجم مع الفطر السليمة والنفوس الزاكية، يسمو بالبشرية إلى أرقى المراتب، ويعلو بالإنسان إلى أعلى الدرجات، فيه من الأخلاق ما يسع الناس جميعًا بدون تشدد ولا عسر وعنف ولا غلو ولا تنطع، فهو دين وسطي شامل لجميع نواحي الحياة، يصلح لكل زمان ومكان.

ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى أنزل في كتابه الكريم وفي حق عامة الناس بأنه لا إكراه في الدين: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ

﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فهذا دين واضح المعالم والمسالك، لا إكراه فيه ولا إجبار في اعتناقه والإيمان به.

ولما أراد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من حبه لأمته أن يكره بعضًا من الناس على الإيمان، استنكر عليه ربنا سبحانه وتعالى ذلك، وأنزل في ذلك قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وكأن الله سبحانه وتعالى يعلمنا أن الفتنة في الدين وإكراه الناس على الدخول فيه، لا تنشئ المجتمع المسلم الذي يتحمل أعباء الدعوة إلى الله، ويلتزم بالتكاليف الإلهية، ولا تربي الأمة المجاهدة التي تدافع عن دينها وتذود عن حياضه، ولا تزهو الحضارة المنشودة بهم، إذن لابد أن لا يفتتن الناس في الدخول لهذا الدين، بل لهم الحرية في الدخول واعتناق هذا الدين، والتعرف عليه والإيمان بمعتقداته بالبحث والدراسة والتعمق والتأمل.

«فالإيمان إذن متروك للاختيار، لا يكره الرسول صلى الله عليه وسلم عليه أحدًا؛ لأنه لا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجهات الضمير»[1].

٣. الفتنة في الدين بالإكراه في حق المنافقين.

الفتنة في الدين بالإكراه في حق المنافقين ناتجة عن أمرين، علم الله بحقيقة ما في صدورهم، وخبايا أنفسهم، فكره الله نصرتهم للدين فثبطهم عنها، وكذلك فإنهم يكرهون الحق ويحرضون ضده، ويعملون بكل ما أوتوا من قوة مادية ومعنوية، وكراهية مستديمة لطمس الحق ومحاربته، وسأوضح الحالتين وفق التالي:

الحالة الأولى: كراهة الله عز وجل للمنافقين في الخروج لنصرة الدين:

لما علم الله سبحانه وتعالى من طبيعة وسجية المنافقين، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين، لم يبعث فيهم الهمة للخروج لنصرة الدين، فكره الله جهادهم مع المجاهدين، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

ولعل السبب في تثبيط الله عز وجل للمنافقين في عدم خروجهم لنصرة الدين، يوضحه ربنا سبحانه وتعالى بقوله تعالى في الآية التي تلي آية الإكراه مباشرة، يقول تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٤.

﴿خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

«فالقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش؛ ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطرابًا وفوضى، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل، وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين»[(١)].

وهذا يبين ويوضح حجم تلك الفتنة في دين الله عز وجل من قبل هؤلاء المنافقين، الذين ينصبون أنفسهم دعاة للحق والفضيلة وهم في كينونتهم يمارسون التضليل الممنهج، والفساد الكبير في إفسادهم للمجتمع المسلم، ولهذا حذرنا القرآن الكريم في مواطن شتى من المنافقين وبين لنا صفاتهم في القرآن الكريم، وحذر من اتباعهم، وبين عاقبتهم يوم القيامة.

الحالة الثانية: كراهة المنافقين أنفسهم للحق أو نصرته:

وهنا المشهد الثاني للمنافقين حيث إن ذواتهم الخاوية من الإيمان، وطبائعهم الغير سليمة، وقلوبهم المنحرفة، تجعلهم يكرهون الحق وأهله، وحتى الحق -جل وعلا- يكرهونه والعياذ بالله، يقول تعالى:

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

«لقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الشرور والمفاسد في صفوف المسلمين، من قبل ما حدث منهم في غزوة تبوك، ومن مظاهر ذلك أنهم ساءهم انتصاركم في غزوة بدر، وامتنعوا عن مناصرتكم في غزوة أحد، متبعين في ذلك زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول، ثم واصلوا حربهم لكم سرًا وجهرًا حتى كانت غزوة تبوك التي فضح الله فيها أحوالهم»[(٢)].

وأكد ذلك قوله سبحانه وتعالى عن فرحهم في التخلف عن نصرة الدين والحق، وكراهتهم لبذل النفس والمال في سبيل الله تعالى، واختلقوا أعذارًا وهمية لعدم الخروج للجهاد.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١].

ولذلك فقد بين الله سبحانه وتعالى بأن المنافقين لو أنفقوا بالرضا أو الإكراه، لن تقبل منهم لعلم الله المسبق بحقيقتهم، فقال

(١) المصدر السابق ٤/ ٣٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٠، التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٩٦٩.

تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣].

ثانيًا: طلب الرياسة أو الإكراه عليها:

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طلب الإمارة والرياسة للنفس، لما لها من تبعات ومساءلات في الدنيا والآخرة، فعبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أُعِنت عليها)[(١)].

وعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله: ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)[(٢)].

وطلب الرئاسة والإمارة مما يختلف حكمه، بحسب نية صاحبه وغايته، فقد يحمد وقد يذم، والله يعلم المفسد من المصلح، وهذا لا يعني أن يزهد المصلحون في الرياسة والسياسة ويتركوها للمفسدين، ولقد بين ذلك ربنا سبحانه وتعالى في السياق القرآني في قصة سيدنا يوسف عليه السلام، حينما طلب سيدنا يوسف عليه السلام من ملك مصر أن يوليه وزارة الاقتصاد، لما علم في نفسه الأمانة والدراية.

يقول تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف: ٥٥].

١. الإكراه على الرياسة من قبل المفوض.

لربما تتحقق في مسلم ضوابط ومواصفات تؤهله لتولي رياسة أمر من أمور المسلمين في أي موقع كان، ويكره عليها من قبل أولي الأمر أو أهل الشورى والحل والعقد، وهذا المسلم الذي يمتلك شروط الكفاءة التي تؤهله لخدمة المسلمين في موقع رياسته واجبٌ عليه خدمة الناس؛ لأن تولية أهل الصلاح والاختصاص لأمور المسلمين فيه صلاح للدين والدنيا، وهذا مما تراعيه الشريعة الغراء.

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فالله سبحانه وتعالى وحتى يتحقق التوازن والتكامل في الحياة جعل بين الناس اختلاف تنوع، فمن يجيد شيئًا لا تجده عند آخر، وهكذا دورة الحياة تكتمل، يقول الإمام السعدي في تفسيره للآية الكريمة:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب من سأل الإمارة، ٦/ ٢٦١٣، رقم ٦٦٢٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة، ٣/ ١٤٥٧، رقم ١٨٢٥.

«يخلف بعضكم بعضًا، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاكم، لينظر كيف تعملون»[1].

فالإنسان خليفة الله في الأرض لعمارتها وتعبيد الإنسان لله تعالى، والمسلم المصلح أحق الناس بهذه الرياسة والخلافة، وأن يكره أهل الصلاح والاختصاص على رياسة أمور المسلمين، فهذا مما فيه الخير للجميع.

٢. إكراه الناس للاستيلاء الدائم على الرياسة والإمارة.

حذر النبي صلى الله عليه وسلم أيما تحذير من طلب الإمارة والرياسة لهوى في النفس أو غرض شخصي، وأنذر من عواقبها الوخيمة، وبين أنها خزيٌ وندامة في الدنيا والآخرة، وهذا لمن طلبها لنفسه أو صدر نفسه لهذا الأمر، فكيف بمن أكره الناس وأجبرهم على تولي مقاليد أمورهم وهم له كارهون، وأكره الناس على انتخابه، أو الرضا به في موقع الرياسة والإمارة، أو حتى طلب تفويض منهم، وجاء بقوة السلاح والنار.

ولقد بين القرآن الكريم هذا الأمر في حالتين:

الحالة الأولى: الظاهرة الفرعونية في إكراه الناس للحفاظ على الرياسة.

أخبر الله عز وجل عن سحرة فرعون أنهم قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

يقول الإمام الألوسي في تفسيره للآية الكريمة: «أي: ويغفر لنا السحر الذي تعملناه في معارضة موسى عليه السلام، بإكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية خصُوه بالذكر مع اندراجه في خطاياهم إظهارًا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته، وذكر الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار مع صدوره عنهم بالإكراه، وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة، وقيل: إن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين، اثنان منهم من القبط والباقي من بني إسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر»[2].

فهذا فرعون لما أراد ان يحافظ على سلطانه وعلى طغيانه، أكره أصحاب الاختصاص من السحرة؛ لتعلم ما يسحر أعين الناس ويبطل سحر موسى عليه السلام على حد زعمه، ولكن الله سبحانه وتعالى أبطل كيده، وكان قد هلك فرعون الأصل، إلا أن هذه الظاهرة الفرعونية موجودة في كل عصر وحين، حيث يستخدم الطغاة كل وسائل الإكراه المادي والمعنوي، الترغيبي والترهيبي؛ لإقناع الناس بسحرهم، إلا أن الله سبحانه وتعالى سيبطله.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٨٢.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٢٢١.

الحالة الثانية: استكبار أشراف قوم سيدنا شعيب عليه السلام على الدعوة وإكراههم له.

يقول تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

يقول الشيخ سيد طنطاوي في تفسيره لهذه الآية: «قال الأشراف المستكبرون من قوم شعيب له ردًا على مواعظه لهم: والله لنخرجنك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا بغضًا لكم، ودفعًا لفتنتكم المترتبة على مساكنتنا ومجاورتنا، أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وما نؤمن به من تقاليد ورثناها عن آبائنا ومن المستحيل علينا تركها، فعليك يا شعيب أنت ومن معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين: الإخراج من قريتنا أو العودة إلى ملتنا، هكذا قال المترفون المغرورون لشعيب وأتباعه باستعلاء وغلظة وغضب»[(١)].

وهذا ديدن المستكبرين المجرمين في الأرض ينهبون ثروات الناس، ويسلبون حقوقهم المعنوية والمادية، فيصادرون الحريات ويكممون الأفواه، وإذا بعث الله تعالى مخلصًا مصلحًا ليصلح البلاد والعباد، تنادوا فيما بينهم ليحاربوه أو يخرجوه من أرضهم، وصدق سبحانه وتعالى حينما قال حكاية عن قوم سيدنا لوط عليه السلام: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فيعتمدون سياسة القهر والاستبداد لكل من يتطهر ويتبنى فكرًا مخالفًا لفكرهم المادي الدنيوي، ولكل من يريد أن يوقظ ضمير الناس، ويستنهض همتهم للدين، يبعدونه ويخرجونه ويسجنونه، آملين ألا يسمع له صوتًا، ولا يرى له تابع، وهذا كله إكراه للناس والمصلحين؛ ليحافظوا على سلطانهم ورياستهم، التي سرعان ما ستزول منهم حالما يكتشف الناس حقيقتهم وما سلبوه من شعوبهم، وما تسببوا به من آلام لهذه الامة.

ثالثًا: طلب المال:

قد بين الله تعالى أن المال قوام الحياة، وأن معايش الناس، وقيامهم بالمال، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

ولقد حذر الإسلام من مغبة الانجرار وراء زخرف المال، وأن يصبح هدفًا في حياة الإنسان، وحدد طرق مشروعة لجلب المال والرزق، وبين كيفيات صرف هذه

(١) التفسير الوسيط ١/ ١٦٤٨.

الأموال بما يجعله ذخرًا للمرء في الدنيا والآخرة، ونهى سبحانه وتعالى عن طلب المال من طرق غير مشروعة.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٣٣].

«لتلتمسوا بإكراهكم إياهن على الزنا عرض الحياة الدنيا، وذلك ما تعرض لهم إليه الحاجة من رياشها وزينتها وأموالها»[(١)]، لقد كان من فعل الجاهلية وصدر الإسلام أن يسترزق بأبضاع الإيماء والجواري، فيطلب المال بالبغاء والزنا والعياذ بالله، وهذه طريق غير مشروع في كسب المال نهى ربنا سبحانه وتعالى عنه، فكان يطلب المال بالإكراه منهن وهذا مما لا شك ينفي عنهن الاختيار في ذلك.

فعقب سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

لقد حدد الإسلام الحنيف ضوابط للمال جلبه وصرفه، وبين القرآن الكريم أن المال ما هو إلا وسيلة في الدنيا لا ترتقي لأن تصبح غايةً وهدفًا، ولذلك خص ربنا سبحانه وتعالى المال في الآخرة بسؤالين من أين اكتسب؟ وفيم أنفق؟

فعن أبي برزة الاسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه فيم فعل؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟)[(٢)].

وبهذا يكون الشرع قد بين للناس وظيفة المال في الدنيا، وأهمية أن يكون هذا المال طيبًا حلالًا، لصلاح الدين والدنيا للناس.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب في القيامة، ٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٢٢٠، رقم ٧٢٩٩.

الإكراه القدري

الإكراه الذي قدره الله تعالى في علمه، وقضاه في حكمه، ومن ذلك إكراه الخلق على الشدائد من العبادات وغيرها، والإكراه بالانقياد له جل جلاله .سنتناوله من خلال النقاط التالية:

أولًا: الإكراه على الشدائد:

إن الخلق جميعًا سواء أكانوا في السماوات السبع، أم في الأرضين السبع مأمورون أن يستسلموا لربهم طوعًا وكرهًا.

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

تبين هذه الآية الكريمة على وجه الإنكار والتهديد عطفًا على ما دل عليه السياق من خلال تساؤلٍ، وهو قوله: أتولى هؤلاء الفاسقون، فتسبب عن ذلك أنهم على غير دين الله تعالى، مع أن الحال أن كل من في السماوات والأرض من مخلوقات، تخضع وتنقاد لربها، وتجري تحت مراده وقضائه، ولا تقدر على مغالبة قدرته بوجهٍ من الوجوه.

وكل هذا يكون طوعًا بالإيمان، أو بما وافق أغراضهم، ويكون أيضًا كرهًا بالتسليم لقهره في إسلامهم، وإن كثرت أعوانهم وعز سلطانهم، وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أن كل هذه المخلوقات سوف ترجع إلى ربها بالحشر، ومن ثم الانتقال إلى الثواب أو العقاب[1]، ويجوز أن يكون الإكراه هنا بمعنى كل ما فيه من مشقة، كمن أسلم مخافة القتل، فيكون إسلامه استسلامًا منه[2].

وقد تناولت آية أخرى نفس المقصد من بيان أن جميع المخلوقات في السماوات والأرض تسجد طوعًا وكرهًا، وظلالهم بالغدو والآصال.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

فإن المؤمن المخلص يسجد لله طائعًا، وأما الكافر المنافق فيسجد لله كرهًا بقدر الله تعالى؛ بل تسجد ظلال جميع المخلوقات بدوران تلك الظلال، وهذا يكون أول النهار وآخره[3].

ثانيًا: الانقياد لله تعالى:

إن الله تعالى قد بين في كتابه العزيز أن المخلوقات تأتي إلى ربها، وتنقاد لأمره، طوعًا أو كرهًا، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٤٧٢.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي، ٢/ ٢٧٦.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٢.

وإن هذه الآية جاءت في سياق الخطاب القرآني للنبي صلى الله عليه وسلم حتى يقول الكفار: أئنكم لتكفرون بالله تعالى، الذي قدر وجود الأرض في يومين، وتجعلون له الند والشريك، وهو منزه عن ذلك.

فالله تعالى أسماؤه رب العالمين، رب كل من السماوات والأرضين، الذي جعل فوق الأرض الجبال الرواسي الشامخات، وبارك فيها، وبين كميتها وأقدارها، التي تتناسب مع سكانها وأبنائها، وكل ذلك حصل في أربعة أيام استوت استواءً بلا نقصان ولا زيادة، يومان في خلق الأرض، ويومان في جعل الرواسي، وتقدير الأقوات، فتلك أربعة كاملة، ثم يومان آخران للسماوات السبع، فتلك ستة أيام، كما نطقت الآيات.

وتبين هذه الآية التي هي شاهد الكلام أن الله تعالى استوى إلى السماء وقصد إليها بعد خلقها وخلق الأرض، وحال السماء سعة الاستواء إليها من الله تعالى كانت دخانًا بما لا يعلم كنهه وحقيقته إلا الله تعالى، فقال عند ذلك رب العالمين للسماء والأرض: انقادا لأمري مختارتين أو مجبرتين على وجهٍ معين، وفي وقت مقدر، فقالتا: أتينا مذعنين لك، ليس لنا إرادة تخالف إرادتك[1].

وهذا تمثيل لسرعة الانقياد، وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جاريًا على مقتضى الحكمة البالغة، والإرادة السامية[2].

(١) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٧٧.

(٢) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ٣/ ٣٢٩.

أثر الإكراه في الأحكام الشرعية

إن مصطلح الإكراه قد أخذ مساحةً لا بأس بها في الأحكام الشرعية، التي وردت في الخطاب القرآني، ومن ثم فإن الحديث الآتي عن أثر ذلك المصطلح في هذه الأحكام، من خلال دراسة أمثلة من هذه الآثار، وذلك فيما يأتي:

أولًا: الأثر الشرعي المترتب على الإكراه في الإيمان:

إن الإسلام دينٌ يحترم العقل، وينسجم مع الفطرة السليمة؛ ولذلك فهو يرفض المنهج الإكراهي والإجباري في اعتناقه، وفي مسألة الإيمان والدين لا يعتبر الإكراه لا شرعًا ولا عرفًا بأدلة واضحة من كتابه سبحانه وتعالى، بل إن الله سبحانه وتعالى استنكر على نبيه صلى الله عليه وسلم إصراره على إكراه المصرين على الكفر والعناد للدخول في الإيمان، فقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلا يصح كفر المكره بغير حق، ولا إيمان المكره بغير حق؛ كالذمي الموفي بذمته، كما قال تعالى فيه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

بخلاف المكره بحق، كالمقاتلين من أهل الحرب، حتى يسلموا إن كان قتالهم إلى الإسلام، أو إعطاء الجزية، إن كان القتال على أحدهما»[(١)].

وقال ابن قدامة: «وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن، فأسلم: لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوع»[(٢)].

وأختم هذه المسألة بما قاله الدكتور محمد الغزالي: «الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل، كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن؟ فالحرية النفسية والعقلية أساس المسئولية، والإسلام يقدر هذه الحقيقة ويحترمها، وهو يبنى صرح الأخلاق»[(٣)].

ثانيًا: الأثر الشرعي المترتب على الإكراه في البيوع:

إن شرط التراضي بين المتعاقدين في البيوع يكتسب أهمية عظيمة، وعليه فقد ذهب الشافعية والحنابلة والظاهرية[(٤)]، إلى إبطال بيع المكره؛ لانعدام الرضا وهو الشرط الأساسي لأي تصرف، واستدلوا بذلك من القرآن الكريم بقوله تعالى:

(١) الاستقامة ٢/ ٣٢٠.
(٢) المغني ١٠/ ٩٦.
(٣) خلق المسلم ١/ ١٩.
(٤) انظر: المحلى، ابن حزم ٨/ ٣٣١، نهاية المحتاج، الرملي ٣/ ٣٨٧، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ١٢٥.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩].

ومن السنة النبوية الشريفة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما البيع عن تراض)[١].

وهذا يكفينا ويعطينا دلالة واضحة على أن الإكراه في البيوع غير جائز شرعًا وعرفًا، ولا تنبني عليه أية أحكام في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: الأثر الشرعي المترتب على الإكراه في النكاح:

أما بخصوص الأثر الشرعي المترتب على الإكراه في النكاح، ففيه حالتان:

الحالة الأولى: مثلما وردت في سياق الآية الكريمة السابقة في سورة النساء، من فعل الناس في العصر الجاهلي وصدر عصر الإسلام، من التحفظ على الزوجة المتوفى عنها زوجها، للزواج منها إذا كان لديها ميراث أو كانت جميلة أو حجبها عن الزواج، وهذا مما نهى القرآن الكريم عنه.

قال الشافعي رحمه الله: «فأباح عشرتهن على الكراهية بالمعروف وأخبر أن الله عز وجل قد يجعل في الكره خيرًا كثيرًا»[٢].

الحالة الثانية: أن يكره ولي الأمر المكره على الزواج، وفي هذه الحالة ذهب جمهور العلماء ومنهم المالكية والشافعية والحنابلة إلى أن الإكراه يؤثر في التصرفات الشرعية التي لا تحتمل الفسخ كالنكاح، فإذا أجري عقد النكاح تحت الإكراه فإنه يفسده؛ إذ الرضا من العاقدين شرط صحة العقد، فإذا فقد الرضا فقد فسد العقد[٣].

رابعًا: الآثار الشرعية المترتبة على الإكراه في ارتكاب كبيرة:

١. الأثر الشرعي المترتب على المكره على كبيرة السحر.

إن السحر والسحرة شديدو الخطر، وإذا كان السحر جريمة وكبيرة يترتب عليها آثار شرعية في الدنيا والآخرة تصل لحد خروج مرتكب هذه الكبيرة من ملة الإسلام، والسحر من أعظم الذنوب جرمًا وأشدها حرمة، وقد ثنى به النبي صلى الله عليه وسلم بعد الشرك بالله تعالى، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات). قيل يا رسول الله وما هن قال: (الشرك بالله، والسحر،

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الإجارات، باب بيع الخيار، ٢/ ٧٣٧، رقم ٢١٨٥. وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٥/ ١٢٥، رقم ١٢٨٣.

(٢) الأم ٥/ ١١٧.

(٣) انظر: مغني المحتاج، لشربيني ٣/ ٢٨٩، المغني، ابن قدامة ٦/ ٤٧٣، الشرح الصغير، الدردير ٢/ ٥٤٦.

وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[1].

وقد حكم الله تعالى بأن الساحر ليس له في الآخرة من نصيب فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فإن القرآن الكريم والسنة النبوية قد بينا خطورة مرتكب كبيرة السحر وأنه لا نصيب له في الآخرة، فكيف بمن يكره الناس على السحر؛ لصد الناس عن دينهم وسلخهم عن عقيدتهم؛ فإن العقوبة ستكون بالتأكيد أشد وأقسى.

٢. الأثر الشرعي المترتب على المكره على كبيرة السحر.

إذا بلغ الـمكره على السحر الحد الذي يعد فيه مكرهًا بحيث إنه لو لم ينفذه السحر لقتله الـمكره، فإنه في ذلك على حالتين:

الحالة الأولى: إذا كان السحر الـمكره عليه يعود بالضر على أناس في تلبيس دينهم عليهم، أو تفرقة زوجين، أو الإضرار بمسلمين، فإنه لا يجوز للمكره فعل هذا السحر مطلقًا ولو أدى لهلاكه، والقاعدة الفقهية المعروفة تقول: يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام، الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.

الحالة الثانية: إذا كان المكره عليه من السحر يعود بالضر على نفس الـمكره، فإنه يعمل بقاعدة: يختار أهون الشرين، والقاعدة الفقهية: الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.

ولا يجب أن نغفل أن الإكراه يسقط التكليف عن الـمكره إذا بلغ معه الحد الذي يعد فيه مكرهًا.

٣. الأثر الشرعي المترتب على ناتج كبيرة السحر بالإكراه.

إذا وقع السحر على أحد من المسلمين فإنه لا تثريب عليه ولا يؤاخذ، ولا تقع أفعاله ولا يؤاخذ عليها كالطلاق ونحوه، ويجب أن يسارع إلى علاج نفسه من خلال القرآن الكريم والرقية الشرعية الصحيحة الثابتة في الكتاب والسنة، بل إن المسلم الذي يقع عليه السحر ويصبر ويحتسب له أجر كبير عند ربه.

فعن عطاء بن أبي رباح قال: «قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي. قال: (إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك). فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٦٤، رقم ٢٧٢.

أتكشف؛ فدعا لها»[1].

خامسًا: الآثار الشرعية المترتبة على الإكراه على ارتكاب كبيرة الزنا:

١. الأثر الشرعي المترتب على المكره على كبيرة الزنا.

يقول الشيخ سيد طنطاوي في تعقيبه على الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

«فمغفرة الله تعالى ورحمته إنما هي للمكرهات على الزنا، لا للمكرهين لهن على ذلك، وقال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

قيل: غفور لهن: وقيل: غفور لهم. وقيل: غفور لهن ولهم.

والأظهر: أن المعنى لهن؛ لأن المكره لا يؤاخذ بما يكره عليه، بل يغفره الله له، لعذره بالإكراه. فالموعود بالمغفرة والرحمة، هو المعذور بالإكراه دون المكره؛ لأنه غير معذور بفعله القبيح»[2].

٢. الأثر الشرعي المترتب على المكره على كبيرة الزنا.

بنص الآية الكريمة فإن من يكره إيماءه على كبيرة الزنا، ويبلغن الحد الذي يعتبر معه الإنسان مكرهًا، فإنه بفضل من الله ورحمته عليهن أن الله ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

٣. الأثر الشرعي المترتب على ناتج كبيرة الزنا بالإكراه.

أخرج الإمام الترمذي في سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أيما رجل عاهر بحرة أو أمة فالولد ولد زنا لا يرث ولا يورث)[3].

سادسًا: الآثار الشرعية المترتبة على الكفر بعد الإيمان:

مما لا شك فيه أن أفعال المكلفين يترتب عليها آثار سواءً في الدنيا أو في الآخرة، وفي مسألة الإكراه على الكفر بعد الإيمان هل يؤاخذ عليها الإنسان وينبني عليها أحكام على المكره في الدنيا والآخرة؟ يجيب الإمام العز بن عبد السلام بقوله: «وأما الكفر القولي والفعلي فيجوزان بالإكراه؛ لا لكونهما كفرًا؛ بل لتحصيل مصلحة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب فيمن يصرع من الريح، ٥/ ٢١٤٠، رقم ٥٦٥٢.

(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٦/ ٣٠٨٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفرائض، باب إبطال ميراث ولد الزنا٤/ ٤٢٨، رقم ٢١١٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الفرائض، باب في ادعاء الولد، ٢/ ٩١٧، رقم ٢٧٤٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٢٨، رقم ٢٧٢٠.

حفظ الحياة؛ فهو مفسدة جازت لتحصيل مصلحة؛ ثم يجبر المكره ذلك بإيمانه فيما بقي من زمانه؛ ويثاب على كراهته الكفر بلسانه؛ لأنه مطيع بذلك، وكذلك يثاب على كراهته؛ لترك جميع الواجبات بالإكراه»[1].

١. الآثار المترتبة على الكفر باللسان بعد الإيمان في الدنيا.

يقول جلا وعلا: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾[النحل: ١٠٦].

قال الإمام الشافعي بعد ذكر هذه الآية: «وللكفر أحكامٌ. يعني: إذا تلفظ بالكفر، فللكفر أحكامٌ إذا كفر وهو مسلمٌ يحكم بفراق الزوجة إن كانت مسلمة هذا يترتب على الكفر، وأن يقتل الكافر لقوله صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه)[2]، ويغنم ماله، فلما وضع الله تعالى عنه ذلك سقطت أحكام الإكراه عن القول كله. يعني: لما تكلم بكلمة الكفر من جهة الإكراه سقطت عنه الأحكام المترتبة على الكفر وهو فراق الزوجة وقتله؛ لأنه كفر، وكذلك غنم ماله»[3].

٢. الآثار المترتبة على الكفر باللسان بعد الإيمان في الدار الآخرة.

قياسًا على سقوط الأحكام المترتبة عن الإكراه على الكفر في الدنيا، فإنه يسقط في الآخرة فلا يعاقب الإنسان عليها، وفي الجملة فإن الإكراه مسقطٌ للتكليف، بل زاده العز بن عبد السلام بقوله: «ويثاب على كراهته الكفر بلسانه؛ لأنه مطيع بذلك، وكذلك يثاب على كراهته لترك جميع الواجبات بالإكراه»[4].

موضوعات ذات صلة:

الاضطرار، الكره

(١) القواعد الكبرى ٢/ ٢٦٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، ٤/ ٦١، رقم ٣٠١٧.
(٣) الأم ٥/ ١١٧.
(٤) القواعد الكبرى ٢/ ٢٦٩.

الأكل

عناصر الموضوع

مفهوم الأكل	١٧٦
الأكل في الاستعمال القرآني	١٧٧
الألفاظ ذات الصلة	١٧٩
أقسام المأكولات من حيث الحل والحرمة	١٨٠
أنواع المأكولات من حيث الطيب والخبث	١٨٧
تصنيف المأكولات حسب طبيعتها	١٩٠
المخلوقات والأكل	٢٠١
آداب الأكل	٢١٥
أثر الأكل على العبد	٢١٧

مفهوم الأكل

أولًا: المعنى اللغوي:

جاء في لسان العرب: «أكلت الطعام أكلًا ومأكلًا، وأكل الطعام يأكله أكلًا؛ فهو آكل، والجمع أكلة، والإكلة هيئة الأكل، والإكلة الحال التي يأكل عليها متكئًا أو قاعدًا مثل الجلسة والركبة، يقال: إنه لحسن الإكلة، والأكلة المرة الواحدة حتى يشبع والأكلة اسم للقمة، وقال اللحياني: الأكلة والأكلة كاللقمة واللقمة، يعنى بها جميعًا المأكول»[(١)].

والأكل بالضم والسكون، هو ما أكل من الطعام ونحوه، والأكال بالفتح ثم الضم هو ما يؤكل أيضًا[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه الجرجاني بأنه: «إيصال ما يتأتى فيه المضغ إلى الجوف، ممضوغًا كان أو غيره، فلا يكون اللبن والسويق مأكولًا»[(٣)].

وعرفه الكرماني بأنه: «بلع الطعام بعد المضغ»، ثم قال: «فبلع الحصاة ليس بأكل حقيقة»[(٤)].

ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

(١) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٩.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٢١٦.
(٣) التعريفات ص٥٠.
(٤) التوقيف، المناوي ص٨٥.

الأكل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أكل) في القرآن (١٠٩) مرات [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾[طه:١٢١]
الفعل المضارع	٥٦	﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[الحجرات:١٢]
فعل الأمر	٣٢	﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾[سبأ:١٥]
المصدر	٤	﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾[الفجر:١٩]
اسم الفاعل	٣	﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾[الصافات:٦٦]
اسم المفعول	١	﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[الفيل:٥]
صيغة المبالغة	١	﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[المائدة:٤٢]
اسم جامد	٧	﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[إبراهيم:٢٥]

وجاء الأكل في الاستعمال القرآني على خمسة وجوه [(٢)]:

الأول: بمعناه المعروف وهو تناول الأكل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[البقرة:٣٥]. وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾[يوسف:١٣]. يعني: يفترسه فيأكله.

الثاني: الشيء المأكول: ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾[الكهف:٣٣]. يعني: ما تثمره فيؤكل.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٦،٣٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٦٦-٦٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١١١-١١٢، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ٩٨-١٠٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٨١-٨٢.

الثالث: أخذ الأموال وسلبها بالباطل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة:١٨٨].

الرابع: الإحراق: ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾[آل عمران:١٨٣]. يعني: تحرقه النار.

الخامس: الفساد: ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾[الفيل:٥]. يعني: مأكول أو متآكل فاسد.

الألفاظ ذات الصلة

١ الطعام:

الطعام لغةً:

الطعام اسمٌ جامعٌ لكل ما يؤكل، ويقال: طعم يطعم طعمًا؛ فهو طاعمٌ، إذا أكل، أو ذاق، وإذا استعمل هذا الفعل بمعنى الذواق جاز فيما يؤكل وفيما يشرب. وروي عن ابن عباس أنه قال في زمزم: (إنها طعام طعمٍ، وشفاء سقمٍ)[١]. أي: يشبع الإنسان إذا شرب ماءها، كما يشبع من الطعام، ويطعم: بمعنى يشبع، ويطلق الطعام عند الحجازيين على البر خاصة[٢].

الطعام اصطلاحًا:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي الأول.

الصلة بين الأكل والطعام:

أن الطعام هو ما كل يؤكل؛ فالصلة بينهما قوية.

٢ الشراب:

الشراب لغة:

الشَرْب مصدر شَرِبْتُ أَشْرَبُ شَرْبًا وشُرْبًا، يقال: شرب الماء وغيره شَرْبًا وشُرْبًا وشِرْبًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤- ٥٥].

والشَرْبُ: المصدر، والشِرْبُ: الاسم، والشِرْبُ: الماء، والجمع أشرابٌ.

الشراب اصطلاحًا:

ما شرب من أي نوعٍ كان، وعلى أي حال كان، وقال أبو حنيفة: الشراب والشروب والشريب واحد[٣]، والشربة: في المفهوم الطبي قدر من السائل يشرب مرة واحدة، أو مرات متتالية[٤].

الصلة بين الأكل والشراب:

كلاهما من الأطعمة، لكن غلب استعمال الشراب على السوائل، والأكل على ما يمضغ من الطعام.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله، رقم ٢٤٧٣.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٦٣.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٧٨.
(٤) معجم المصطلحات الطبية ٢/ ٦٩.

أقسام المأكولات من حيث الحل والحرمة

الأصل في المأكولات على جهة الإطلاق الحل إذا كانت طيبة، والحرمة إذا كانت خبيثة، فالطيبات حلال بنص قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:٥].

والمراد بالسؤال في الآية السؤال عما تستطيبه النفس وتشتهيه، ولا يجوز أن يراد الحلال؛ لأنهم سألوه عما يحل لهم فكيف يقول أحل لكم الحلال، والخبائث قال عنها المولى عز وجل: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

فجعل الطيب صفةً في المباح عامةً تميزه عن المحرم، وجعل الخبيث صفةً في المحرم تميزه عن المباح[(١)].

قال الماوردي ما ملخصه: اعلم أن المأكول ضربان: حيوان ونبات، فأما النبات فأخر الكلام عليه، ثم قال: وأما الحيوان فضربان: بري وبحري، فأما البحري فقد مضى الكلام، وأما البري فضربان: دواب وطائر، وهذا الباب يشتمل على ما حل منها وحرم، وهو على ثلاثة أضرب:

أحدها: ما ورد النص بتحليله في كتاب أو سنة، فهو حلال.

والضرب الثاني: ما ورد النص بتحريمه في كتاب أو سنة فهو حرام.

والضرب الثالث: ما كان غفلًا لم يرد فيه نص بتحليل ولا تحريم، فقد جعل الله تعالى له أصلًا يعرف به حلاله وحرامه، في آيتين من كتابه وسنة عن رسوله[(٢)].

أولًا: المأكولات المباحة:

المأكولات المباحة تشمل أصنافًا شتى ورد بعضها في كتاب الله تعالى بصيغة الإجمال، وبعضها بصيغة التفصيل، وبينت السنة النبوية هذه الأصناف، وجملة الأصناف المباحة من الأطعمة هي:

أولًا: كل طعام طيب طاهر في حال الاختيار، لا مضرة منه، سواء كان من الحبوب أو الفواكه أو الخضروات أو غير ذلك، ويشمل ذلك الأطعمة الجامدة والمائعة[(٣)].

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:٤].

قال الرازي: «الطيب في اللغة هو المستلذ، والحلال المأذون فيه يسمى أيضًا طيبًا تشبيهًا بما هو مستلذ، لأنهما اجتمعا في انتفاء المضرة»[(٤)].

---

(١) كشاف القناع، البهوتي ٦/ ١٨٩.

(٢) الحاوي الكبير، ١٥/ ١٣٦ بتصرف يسير.

(٣) انظر: شرح الخرشي على مختصر خليل ٣/ ٢٦، كشاف القناع، البهوتي ٦/ ١٨٩.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ١٦٠٨.

ثانيًا: كل حيوان بحري سواء صيد حيًّا، أو خرج ميتًا، وسواء صاده مسلم أم غير مسلم.

ثالثًا: كل طير باستثناء ما كان ذا مخلب، خلافًا لمن أباح أكل الطير ذي المخلب من فقهاء المالكية وغيرهم[(١)].

رابعًا: العصائر والمشروبات المتخذة من نباتات وفواكه مختلفة ما لم تصل لدرجة الإسكار أو إذا أمن سكرها.

خامسًا: يجوز أكل الأطعمة التي فيها الدود والسوس؛ كالفواكه والقثاء والبطيخ والحبوب والخل إذا لم تقذره نفسه وطابت به؛ لأن التحرز من ذلك يشق على الناس[(٢)].

ثانيًا: المأكولات المحرمة:

المأكولات المحرمة بنص القرآن الكريم أوردها في مسألتين على النحو التالي:

المسألة الأولى: مأكولات محرمة بنصوص قرآنية صريحة:

١. الميتة.

الميتة من الحيوان هي ما مات بغير تذكية[(٣)]، أو الحيوان الذي مات حتف أنفه أو على هيئة غير مشروعة[(٤)].

وقد جاء تحريم الميتة بالنص الصريح في القرآن الكريم في أربعة مواضع هي:

أولًا: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣].

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة:٣].

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥].

رابعًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: ١١٥].

«والميتة من الأطعمة الخبيثة ليس لذاتها بل لعارض الموت الذي طرأ عليها ولم

---

(١) شرح الخرشي على مختصر خليل ٣/ ٢٦.
(٢) المغني، ابن قدامة ١١/ ٨٣.
(٣) الذكاة: إنهار الدم وفري الأوداج في المذبوح، والنحر في المنحور والعقر في غير المقدور عليه، مقرونًا ذلك بنية القصد إليه، وذكر الله تعالى عليه، وهي تشمل أربعة أنواع: الذبح، والنحر، والعقر، وما يموت به مما ليس له نفس سائلة.
انظر: أحكام القرآن، ابن العربي٢/ ٥٤١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٥٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٩٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٩١.

تتم تذكيتها بالطريقة الشرعية، والحكمة من تحريمها: أنها تكون في الغالب ضارة؛ لأنها لا بد أن تكون ماتت بمرض أو ضعف أو نسمة خفية مما يسمى الآن بالميكروب ... يولد فيها سمومًا، وقد يعيش ميكروب المرض في جثة الميت زمنًا؛ ولأنها مما تعافها الطباع السليمة وتستقذره وتعده خبثًا، وكذلك ما فيها من احتباس الدم والرطوبات التي لا تزول منها إلا بالذكاة الشرعية»[1].

٢. الدم المسفوح.

الدم المسفوح هو: الدم السائل من الحيوان، ولا جدال في نجاسته وحرمة استخدامه.

قال القرطبي: اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به[2].

وقد جاء تحريم الدم المسفوح في القرآن في أربعة مواضع، ثلاث منها بلفظ (الدم) وهي في سورة البقرة (١٧٣) والمائدة (٣) والنحل (١١٥)، وقد سبق ذكر الآيات في الميتة.

والرابع بلفظ الدم المسفوح في ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

والمعروف كما ذكره أحد المعاصرين «أن الدم يجري في البدن ليغذيه، ثم تصب فيه الخلايا التالفة والسموم والجراثيم، فيحملها في جريانه، ويمر بها على الكليتين لتصفيته هناك منها، وإخراجها بشكل السائل المعروف بالبول، الذي هو من أخبث الخبائث، واجتمعت على إثبات خبثه بدهيات العادات، ومقررات الشرائع، وكرهته واستخبثته الفطر السليمة، لما جعل الله تعالى فيه من الروائح المنفرة لكي يتجنبه من يعلم ضرره ومن لا يعلمه.

فالدم الذي يحتوي على هذا البول حرمته الشريعة، لكمالها، ولم تنص على تحريم البول؛ لأن البول يتجنب بالفطرة، أما الدم فلا تستدعي الفطرة تجنبه، ولذلك جعلت الشريعة إخراجه من الحيوانات بالتذكية شرطًا لحل لحمها، تقليلًا للأضرار، وإصلاحًا للأبدان، وحملًا للمؤمنين على أكمل مناهج الحياة»[3].

٣. لحم الخنزير.

ورد النص بتحريم الخنزير صراحة في أربعة مواضع من سور القرآن، أولها في البقرة: ١٧٣، والثاني في المائدة: ٣، والثالث في الأنعام: ١٤٥، والرابع في النحل: ١١٥، ونصوص الآيات سبق ذكر

(١) حكم تناول الميتة، صالح الفوزان، مجلة البحوث الإسلامية ٩/ ٢٠٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٢١.

(٣) الذبائح والطرق الشرعية في إنجاز الذكاة، محمد سليمان الأشقر، مجلة مجمع الفقه ١٠/ ٢٦٤.

ها في الميتة.

والخنزير أكبر مستودع للجراثيم الضارة، ويأكل غالبًا كل شيء، ويتميز بالخمول والكسل، ولا يحب العيش في الأماكن النظيفة، وهو محرم الأكل في الإسلام واليهودية والنصرانية، بل وفي البوذية والهندوسية، والزرادشتية[1].

قال القنوجي: «كل شيء في الخنزير حرام، وتخصيص اللحم بالذكر؛ لأنه يقصد في العادة، والخنزير مسخ بصورته قوم، ولم يزل نوح ومن بعده من الأنبياء يحرمون الخنزير ويأمرون بالتبعد عنه إلى أن يتنزل عيسى فيقتله، ويشبه أن الخنزير كان يأكله قوم فنطقت الشرائع بالنهي عنه وهجر أمره أشد ما يكون»[2].

ويقول أحد الأطباء الصينيين: «إن لحم الخنزير له رائحة غير مقبولة، ويعطي عند طبخه مرقًا مركزًا جدًا وله تأثيرات سامة على جسم الإنسان»[3].

٤. كل ما ذبح لغير الله عز وجل.

ما أهل لغير الله به يشمل أصنافًا من الذبائح:

- منها: المذبوح المتقرب به لغير الله تعالى، كالمذبوح لعيسى عليه السلام، أو للعزير، أو ما يذبحه الكفار لآلهتهم. قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۝٣﴾ [المائدة: ٣].
- ومنها: المذبوح على النصب، وهي الحجارة التي كان يعظمها أهل الجاهلية ويذبحون عليها، وقال جل شأنه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة:٣].

روي عن مجاهد قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ قال: «كان حول الكعبة حجارة كان يذبح عليها أهل الجاهلية، ويبدلونها إذا شاؤوا بحجر هو أحب إليهم منها»[4].

وقال ابن عطية: «ما ذبح على النصب جزء مما أهل به لغير الله، ولكن خص بالذكر بعد جنسه لشهرة الأمر وتشرف الموضع وتعظيم النفوس له»[5].

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو بن نفيلٍ بأسفل بلدح، قبل أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي فقدمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم سفرةٌ، فأبى أن يأكل منها ثم

(١) انظر: حكمة وأسباب تحريم لحم الخنزير في العلم والدين، سليمان قوش ص١٩-٢٢.
(٢) الروضة الندية، القنوجي ٢/ ٢٦٢.
(٣) انظر: حكمة وأسباب تحريم لحم الخنزير في العلم والدين، سليمان قوش ص٢١، والطبيب هو لي شن تشن ويعد من أشهر أطباء الصين له كتاب في الطب حوالي ٥٠ مجلدًا اسمه المواد الطبية.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٩/ ٥٠٩.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧٧.

قال زيدٌ: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرٍو كان يعيب على قريشٍ ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكارًا لذلك وإعظامًا له)[1].

٥. الحيوانات التي ماتت حتف أنفها ولم يتمكن من تذكيتها.

وهي الوارد ذكرها في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[المائدة:٣].

وبيانها كالتالي:

١. المنخنقة: وهي التي تموت بالخنق، إما قصدًا، وإما اتفاقًا، بأن تتخبل في وثاقها فتموت به.

٢. الموقوذة: وهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد كالخشبة حتى توقذ فتموت، كما قال ابن عباس وغيره، وقال قتادة: «كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي، حتى إذا ماتت أكلوها»[2].

٣. المتردية: وهي التي تقع من شاهق أو موضع عال كالجبل ونحوه فتموت بذلك، أو التي تتردى في بئر، والتفسيران مرويان عن ابن عباس وقتادة[3].

٤. النطيحة: وهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها فهي حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم، ولو من مذبحها.

٥. ما أكل السبع: وهي التي عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام، وإن كان قد سأل منها الدم ولو من مذبحها[4].

ويستفاد من الآية الكريمة أن الحيوان يحل أكله إذا أزهقت روحه بالذكاة الشرعية، ولا يحل بما سوى ذلك؛ كالخنق، والوقذ، والتردي، والنطح، وأكل السبع، حتى لو سال دمه نتيجة ذلك، مما يفيد إفادة واضحة أن الحيوان لا يحل بمجرد سيلان الدم، ولو من مذابحه، وإنما يجب أن يسيل الدم بطريق شرعه الله تعالى للتذكية.

المسألة الثانية: مأكولات محرمة بنصوص قرآنية عامة أو نصوص من السنة:

هناك طائفة من الأطعمة استفيد تحريمها من نصوص عامة في القرآن الكريم، ونصوص صريحة في السنة النبوية، وغيرها من الأدلة هذا بيانها:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب ما ذبح على النصب والأصنام، رقم ٥٤٩٩.
(٢) عمدة القاري، العيني ٢١/ ١٣٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

١. كل ذي ناب من السباع.

كل ذي ناب هو الحيوان الذي يفترس بأنيابه ويعدو كالأسد والذئب والكلب والفهد وغير ذلك، وأكثر الفقهاء على أنه لا يؤكل لحمه، فقد ذهب إلى ذلك أبو حنيفة ومالك والشافعي[١].

وقد استدلوا على ذلك بما أخرجه الشيخان عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل كل ذي نابٍ من السباع[٢].

كما استدلوا بالمعقول بأن هذه الحيوانات تأكل الجيف، ولا تستطيبها العرب[٣].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أسباب التحريم فقال: «وأسباب التحريم: إما القوة السبعية التي تكون في نفس البهيمة فأكلها يورث نبات أبداننا منها فتصير أخلاق الناس أخلاق السباع، أو لما الله أعلم به، وإما خبث مطعمها كما يأكل الجيف من الطير، أو لأنها في نفسها مستخبثة كالحشرات، فقد رأينا طيب المطعم يؤثر في الحل وخبثه يؤثر في الحرمة كما جاءت به السنة في لحوم الجلالة ولبنها وبيضها؛ فإنه حرم الطيب لاغتذائه بالخبيث، وكذلك النبات المسقي بالماء النجس والمسمد بالسرقين عند من يقول به»[٤].

هذا وقد رويت إباحة أكله عن السيدة عائشة، وعامر الشعبي، وسعيد بن جبير، وتبعهم على ذلك بعض المالكية[٥]، واستدلوا على ذلك بعموم قول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

٢. كل ذي مخلب من الطير.

للفقهاء قولان في أكل الطيور ذات المخلب:

القول الأول: أنه يحرم أكلها، وهو مذهب الحنفية والشافعية وأحمد وأكثر أهل العلم[٦].

واستدلوا على ذلك من السنة بما روي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن كل ذي نابٍ من السباع وعن كل ذي مخلبٍ من

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٢١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب أكل كل ذي ناب من السباع، رقم٥٥٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، باب أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، رقم ٥١٠٣، عن أبي ثعلبة الخشني.
(٣) المجموع، النووي ٩/ ١٢.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢١/ ٥٨٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٢١.
(٦) انظر: تحفة الفقهاء، السمرقندي ٣/ ٦٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٢١، الحاوي الكبير، الماوردي ١٥/ ١٤٥، المغني، ابن قدامة ١١/ ٦٦، كشاف القناع، البهوتي ٦/ ١٩٠.

الطير)[1].

كما استدلوا بالمعقول بأن طبيعة هذه الأشياء مذمومة شرعًا؛ فيخشى أن يتولد من لحمها شيء من طباعها فيحرم إكرامًا لبني آدم كما أنه يحل ما أحل إكرامًا له[2].

القول الثاني: أنه يباح أكلها، وهو قول مالك والليث والأوزاعي[3].

وذلك استدلالًا بعموم قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ومن حجة الإمام مالك رحمه الله في ذلك أنه لم يجد أحدًا من أهل العلم يكره أكل سباع الطير، وأنكر الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم[4].

والقول الأول أرجح، لموافقته لنص الحديث الصحيح، ولأن هذه الآية مكية، وكل محرم حرمه الرسول صلى الله عليه وسلم أو جاء في الكتاب مضموم إليها، فهو زيادة حكم من الله تعالى على لسان نبيه عليه السلام.

قال القرطبي: «إنه ليس يمتنع أن تقع الزيادة بعد قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

بما يرد من الدليل فيها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث)[5].

فذكر الكفر والزنا والقتل، ثم قال علماؤنا: إن أسباب القتل عشرة بما ورد من الأدلة، إذ النبي صلى الله عليه وسلم إنما يخبر بما وصل إليه من العلم عن الباري تعالى، وهو يمحو ما يشاء ويثبت وينسخ ويقدم»[6].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، باب أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، رقم ٥١٠٥.
(٢) حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٠٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١١٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله تعالى: (أن النفس بالنفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم١٦٧٦، عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١١٦.

أنواع المأكولات من حيث الطيب والخبث

أولًا: المأكولات الطيبة:

ذكر الله تعالى لفظ الطيب بمشتقاته المختلفة في أكثر من عشرين موضعًا في القرآن الكريم، أكثره مرتبط بالرزق من الطعام والشراب ونحوه، وبين أن ذلك من نعم الله تعالى وفضله على الناس من المؤمنين وغيرهم.

وقد أخبر الله تبارك وتعالى أن الطعام المباح في الطعام الطيب.

قال تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:٤].

وقد أمر الله عز وجل بالأكل من الطيبات، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨].

ونهى عن تحريم ما أحل من الطيبات فقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٧ -٨٨].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢].

وقد امتن الله تعالى على بني آدم بأن زرقهم الطيبات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:٧٠].

وامتن الله عز وجل على بني إسرائيل بإنزال الطيبات عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: ١٦].

وقد وصف الله عز وجل الغنائم التي يحوز المؤمنون في المعارك بأنها من الطيبات.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال:٢٦].

ثانيًا: المأكولات الخبيثة:

والخبائث أنواع كثيرة، يحرم على المرء تناولها في حال الاختيار، سواء ظهرت لنا حكمة التحريم أو لم تظهر.

قال ابن القيم رحمه الله: وقد حرم الله سبحانه وتعالى علينا تناول الخبائث، والخبث الموجب للتحريم قد يظهر لنا

وقد يخفى، فما كان ظاهرًا لم ينصب عليه الشارع علامة غير وصفه، وما كان خفيًا نصب عليه علامة تدل على خبثه، فعلى سبيل المثال احتقان الدم في الميتة سبب ظاهر، وأما ذبيحة المجوسي والمرتد وتارك التسمية ومن أَهَلَّ بذبيحة لغير الله عز وجل؛ فإن ذبح هؤلاء أكسب المذبوح خبثًا أوجب تحريمه، ولا ينكر أن يكون ذكر اسم الأوثان والكواكب والجن على الذبيحة يكسبها خبثًا، وذكر اسم الله وحده يكسبها طيبًا[1].

وقد اختلف العلماء في المقصود بالخبائث التي ورد تحريمها في القرآن على أقوال:

القول الأول: أن الخبائث هي المحرمات؛ لأن العرب تقول لكل خبيث محرم[2].

القول الثاني: أن الخبائث هي لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله، وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[3].

القول الثالث: أن الخبائث هي ما لا يوافق النفس من المحظورات[4].

وأما الفقهاء فإنهم اختلفوا في المقصود بالخبيث والخبائث على هذا النحو:

فعند الحنفية أن الخبائث هي ما تستخبثه الطباع السليمة ولا تتقبل أكله، وذلك يشمل حيوانات وطيور وحشرات بعينها، ويشمل أجزاء معينة من جسد الحيوان المباح، مثل: المرارة والمثانة والذكر والأنثيين ونحو ذلك مما لا تتقبله الطباع، وتدخل النجاسات في الخبائث بلا خلاف عند الحنفية[5].

والعبرة في الاستلذاذ والاستطابة بأهل المروءة والأخلاق الجميلة، قال ابن عابدين نقلًا عن بعض فقهاء الحنفية: «أجمع العلماء على أن المستخبثات حرام بالنص وهو قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وما استطابه العرب حلال لقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وما استخبثه العرب فهو حرام بالنص، والذين يعتبر استطابتهم أهل الحجاز من أهل الأمصار؛ لأن الكتاب نزل عليهم وخوطبوا به ولم يعتبر أهل البوادي؛ لأنهم للضرورة والمجاعة يأكلون ما يجدون وماوجد في أمصار المسلمين مما لا يعرفه أهل الحجاز رد إلى أقرب ما يشبهه في الحجاز.

(١) أعلام الموقعين، ٢/ ١٧٣ بتصرف.
(٢) معاني القرآن، النحاس ٣/ ٩٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٨، الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٥٨٢.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٨٤.
(٥) انظر: البحر الرائق، ابن نجيم ١/ ٨٣، بدائع الصنائع، الكاساني ٥/ ٦١.

فإن كان مما يشبه شيئًا منها فهو مباح؛ لدخوله تحت قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام:١٤٥] الآية.

ولقوله عليه السلام: (ما سكت الله عنه فهو مما عفا الله عنه)[(١)(٢)].

وعند المالكية أن الخبائث هي الحرام، وذلك يقابله عندهم أن الطيبات هي الحلال[(٣)].

وعند الشافعية الخبائث هي المستقذرات ونحوها، مثل: الخنافس والعقارب، وذلك يقابله أن الطيبات هي المستلذات إلا ما حرمه الشرع كالخمر والخنزير[(٤)].

وعند الحنابلة: الخبائث هي النجاسات، وكذلك المفترس من الحيوانات[(٥)].

وبناء على كل ما سبق، فإن الخبائث من الأطعمة تشمل الآتي:

١. كل طعام حرام سواء كان من الحيوان أو النبات أو غير ذلك على نحو ما تقدم ذكره في المبحث السابق..

٢. كل طعام نجس سواء كان نجسًا نجاسة أصلية أو طرأت عليه النجاسة.

٣. كل طعام مستقذر لا تستطيبه العرب أو لا تستطيبه النفوس السليمة.

وعلى هذا يمكن تقسيم الخبائث إلى قسمين: أولهما: الخبيث لذاته، والثاني: الخبيث لعارض من العوارض.

فالأول: وهو الخبيث لذاته يشمل أصنافًا من الأطعمة والأشربة، مثل: الخنزير والكلب والخمر، والنجاسات بأنواعها كالدم المسفوح، ومخلفات الإنسان والحيوان.

والثاني: وهو الخبيث لعارض، مثل: الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، ونحو ذلك من الحيوان الذي لم تتم تذكيته بالطريقة الشرعية، وكذا ما ذبح على النصب، وما لم يسم الله عليه عند الذبح، وما ذبح لغير الله.

وقد سبق ذكر هذه المحرمات وأدلتها من الكتاب والسنة على وجه التفصيل في المبحث السابق.

[انظر: الطعام: أنواع الأطعمة في القرآن الكريم]

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأطعمة، باب ما لم يذكر تحريمه، ٣/ ٣٥٤، رقم ٣٨٠٠، والترمذي في سننه، أبواب اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء، ٤/ ٢٢٠، رقم ١٧٢٦.
ورجح الترمذي وقفه على سلمان رضي الله عنه.

(٢) حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٠٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٠٠، البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٥٥٥.

(٤) انظر: الأم، الشافعي ٢/ ١٧٤.

(٥) المغني، ابن قدامة ١١/ ٧٨، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ٤٠٧.

تصنيف المأكولات حسب طبيعتها

ذكر القرآن الكريم أصنافًا من المأكولات نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الفاكهة:

الفاكهة معروفة، وهي اسم لما يتفكه به قبل الطعام وبعده، أي: يتنعم به زيادة على المعتاد والرطب واليابس فيه سواء، وقد اختلف العلماء في حقيقتها على أقوال:

القول الأول: أن كل شيء قد سمي من الثمار في القرآن نحو العنب والرمان فإنا لا نسميه فاكهةً.

القول الثاني: أن كل الثمار فاكهةٌ وإنما كرر في القرآن في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨]. لتفضيل النخل والرمان على سائر الفواكه دونهما[1].

والفواكه أنواع كثيرة بعضها موجود في كل البلاد، وبعضها تنفرد به بلاد دون أخرى حسب طبيعتها وحسب موقعها الجغرافي، ومناخها، وتتنوع الفواكه كذلك داخل البلد الواحد بحسب فصول السنة.

وقد ورد ذكر لفظ «الفاكهة» وما يتعلق بها مفردًا وجمعًا، وأصنافًا متعددة في القرآن الكريم على سبيل الإجمال في مواضع عدة بلغت بضعة وعشرين موضعًا، وهي على ثلاثة وجوه في تقديري كما يظهر من استقراء الآيات الكريمة:

الوجه الأول: مواضع جاء فيها ذكر الفاكهة صريحًا على سبيل الإجمال:

وذلك إما في بيان ما يتنعم به أهل الجنة من الطعام والشراب، أو في بيان النعم التي أنعم الله تعالى بها على الناس جميعًا من حيث إنبات الزرع وتعدد أصنافه.

فمن النوع الأول وهو ما جاء في فاكهة أهل الجنة:

١. قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يس: ٥٧].

٢. قوله جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٧٢ – ٧٣].

٣. قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان: ٥٥].

٤. قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٠].

٥. قوله جل شأنه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٢ – ٣٣].

٦. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات: ٤١ – ٤٢].

ومن النوع الثاني وهو بيان النعم التي أنعم

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٢١٣.

الله تعالى بها على الناس جميعًا، وما في خلق الأرض وإنبات الزرع من المعجزات والعبر، وذلك في المواضع التالية:

١. قول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾ [الرحمن:١٠ – ١١].

٢. قوله جل شأنه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ [عبس: ٢٤ – ٣٢].

وفي هذه الآية صنوف من النعم التي تنبت بالأرض وهي: الحب، وهو معروف وسيأتي الكلام عليه، والعنب، والقضب، والزيتون، والنخيل، ثم جاء ذكر الحدائق إجمالًا، ثم الفاكهة، ثم الأب.

والأب هذا روي فيه عن أنس قال: «قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه (عبس وتولى) فلما أتى على هذه الآية ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ قال: قد عرفنا الفاكهة؛ فما الأب؟ قال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف»[1].

وقد ورد في تفسير الأب أنه كل ما ينبت على وجه الأرض، والغُلْب في قوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ جمع غلباء وهي الحديقة الملتفة الأشجار[2].

وحكى القرطبي أن السبع – أي الأصناف السبعة الواردة في الآية – لابن آدم، والأب للأنعام. والقضب يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء؛ هذا قول. وقيل: «القضب البقول لأنها تقضب؛ فهي رزق ابن آدم».

وقيل: «القضب والأب للأنعام، والست الباقية لابن آدم، والسابعة هي للأنعام؛ إذ هي من أعظم رزق ابن آدم»[3].

وقيل: إن الفاكهة «هي ما يأكله الناس، والأب ما تأكله الأنعام»، وهو مروي عن مجاهد والحسن[4].

الوجه الثاني: ذكر أصناف بعينها وأسمائها من الفاكهة.

مثل نعمة التمر التي أنعم الله بها على السيدة مريم عليها السلام، وشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على نبي الله يونس عليه السلام.

فمن النوع الأول قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥].

ومن النوع الثاني قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦﴾ [الصافات:١٤٦].

الوجه الثالث: ذكر الجنات والحدائق المثمرة التي أنعم الله بها على أقوام بعينهم:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٤/ ٢٢٩.
(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٢٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١١١.
(٤) تفسير مجاهد٢/ ٧٣١.

وذلك في مواضع بيان جوانب إعجاز الخلق، وتكثير النعم، وصنوف بعينها من فاكهة أهل الجنة، أو فاكهة توجد في بلاد ما أو أنعم الله تعالى بها على أحد من خلقه، مثل: صاحب الجنتين في سورة الكهف، وجنتي سبأ، وجنة القوم الذين ورد ذكرهم في سورة القلم.

وهذه تجدها في المواضع التالية:

قول الله تعالى مبينًا بعض النعيم على أهل الجنة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الواقعة:٢٧-٢٩].

وآيات أخرى، من هذا القبيل قوله تعالى في شأن صاحب الجنتين: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٣].

وقوله تعالى في شأن سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٥ -١٦].

وقوله تعالى في شأن أصحاب الجنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القلم: ١٧].

ثانيًا: الحبوب:

الحب معروف، وهو مستعمل في أشياء جمة، حبةٌ من بر وحبة من شعير حتى يقولوا حبةٌ من عنبٍ، والحبة من الشعير والبر ونحوهما، والجمع حباتٌ وحبٌ وحبوبٌ وحبانٌ الأخيرة نادرة؛ لأن فعلة لا تجمع على فعلانٍ إلا بعد طرح الزائد[1].

والحبوب أصناف شتى بعضها موجود في كل البلاد وبعضها الآخر يوجد في بلاد دون أخرى، وذلك بحسب موقع كل بلد ومناخها، كما أن هذه الحبوب بعضها مما يأكله الإنسان والحيوان والطير، وبعضها مما هو قوت للإنسان فقط، وبعضها مما يأكله الحيوان والطير فقط، وتنقسم الحبوب باعتبار آخر إلى نوعين: حبوب تقتات وتدخر، وحبوب لا تقتات ولا تدخر، ومعنى الاقتيات هو: قيام بنية الآدمي به، ومعنى الادخار عدم فساده بالتأخير المعروف فيه[2].

فالتي تقتات وتدخر، مثل: القمح والشعير والأرز والذرة والسمسم والفول ونحوها، ولذلك كانت الزكاة واجبة في أصناف من هذه الحبوب، بخلاف غيرها؛ كذلك فإن الفقهاء حينما تكلموا عن علة

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٨٩.
(٢) انظر: مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ١٩٨، الفواكه الدواني، النفراوي ٣/ ١٠٩١.

تحريم الربا في الأصناف التي وردت في الأحاديث، اختلفوا فيها -أي العلة- هل هي الاقتيات والادخار، أو الادخار فقط، أو الاقتيات، وهذا معروف في مواضعه من كتب الفقه، ولا يتسع المقام لإيراده هنا.

والمقصود بالأحاديث الأحاديث الواردة في تحريم ربا النساء في الحبوب، مثل: البر والشعير والتمر ونحو ذلك، ومنها حديث عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (البر بالبر ربًا إلا هاء وهاء، والشعير بالشعير ربًا إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر ربًا إلا هاء وهاء)[1].

والحبوب التي ذكرت في القرآن جاءت في مواضع مختلفة يمكن تقسيمها على النحو التالي:

١. الحبوب الوارد ذكرها في معرض بيان نعم الله تعالى على الناس.

وذلك في المواضع التالية:

١. قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام:٩٩].

٢. قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٣٣].

٣. قوله جل شأنه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق:٩].

٤. قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ [النبأ:١٤ - ١٥].

٥. قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ [عبس:٢٤ - ٢٧].

وبالنظر إلى كل المواضع السابقة نجد أن سياق الآيات يدل على إعجاز خلق المطر وأثره في إنبات الزرع، وإعجاز شق الأرض التي يلقى فيها الحب بذرًا فيخرج حبوبًا متعددة، وتنوع صنوف الحب وتعدد أشكاله وأحجامه.

٢. تشبيه الإنفاق في سبيل الله تعالى بالحبة التي تثمر حبات عديدة.

وذلك في قول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

٣. علم الله سبحانه وتعالى بدقائق الخلق وعظائمه، ومن ذلك الحبة في ظلمات الأرض.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيع، باب بيع التمر بالتمر، رقم ٢١٧٠.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩].

٤. نعمة البُر وكيفية الحفاظ عليها وتخزينها في حالات المجاعة والأزمات.

وذلك كما ورد في سورة يوسف ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٧ – ٤٩].

وما سوى ذلك من مواضع ذكر الحب في القرآن الكريم إنما هو في معرض بيان دقة الحساب يوم القيامة، وأن المرء لا يفقد من عمله مقدار حبة من خردل، وأن كل ما يفعل المرء صغيرًا كان أو كبيرًا إنما هو مسطر عليه في الكتاب من خير أو شر[(١)].

ثالثًا: بهيمة الأنعام:

لحوم الحيوانات والطيور هي عماد غذاء الإنسان، نظرًا لما تحتويه من مواد بروتينية تمد الجسم بطاقة معينة تساعد على بنائه، وهذه المواد يصعب الحصول عليها من غير الجسم، فضلًا عن كونها تقي الجسم من أمراض مختلفة، وقد عالج القرآن الكريم والسنة النبوية هذا الموضوع علاجًا وافيًا، حيث بينت الشريعة ما يحل من الحيوان وما يحرم[(٢)].

والحيوانات كما هو معروف بعضها أهلي أو مستأنس، وأكثرها بري، فالمستأنس أو الأهلي أشهره الأنعام الثلاثة التي تجب فيها الزكاة، وهي الإبل والبقر والغنم، ويدخل مع البقر الجاموس، ويدخل مع الغنم الماعز، ومن الطيور البط والأوز والحمام والدجاج ونحو ذلك إلا أن الطيور لا زكاة فيها، وما عدا ذلك من الحيوان بعضه يمكن استئناسه وتربيته في البيوت، وأكثره بري يعيش في الغابات والبراري والجبال.

وقد وردت الآيات القرآنية المتعددة التي تشير إلى حل أكل بهيمة الأنعام.

والبهيمة تطلق على كل ذات أربع قوائم من دواب البر والماء، والجمع بهائم، والبهمة الصغير من أولاد الغنم الضأن والمعز والبقر من الوحش وغيرها الذكر والأنثى في ذلك سواء، وسميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها؛ ومنه باب مبهم، أي: مغلق، وليل بهيم[(٣)].

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ

(١) وذلك كما في سورة الأنبياءآية ٤٧، وسورة لقمان آية ١٦.

(٢) الذبائح واللحوم بين الحلال والحرام، علاء الدين مرشدي ص٦٤ بتصرف.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٦.

﴿حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

وقوله تعالى في بيان الأصناف التي تجب فيها الزكاة من الحيوان: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣ – ١٤٤].

وقوله جل شأنه: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [الحج: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج: ٣٠].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾ [الحج: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [يس: ٧١– ٧٣].

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أنه جرى خلاف في الأنعام التي أحلها الله تعالى بمقتضى قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، هل هي على التعميم أم على التخصيص، ويمكن إجمال خلافهم في ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن بهيمة الأنعام هي الثلاثة المعروفة (الإبل والبقر والغنم) وهو مروي عن الحسن البصري وقتادة والسدي والربيع بن أنس والضحاك[1].

القول الثاني: أن بهيمة الأنعام هي أجنة الأنعام التي توجد في بطون أمهاتها -إذا نحرت أو ذبحت- ميتةً، وذكاتها ذكاة أمها حينئذٍ، وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر[2].

القول الثالث: أن بهيمة الأنعام هي الوحشي منها، كالظباء وبقر الوحش والحمر قاله الفراء[3].

هذا ولا خلاف في أن جميع الأنعام المباح أكلها إنما يشترط في حلها الذكاة الشرعية المعروفة بشروطها، والتي هي ذبح أو نحر أو عقر، بحسب كل نوع منها على ما هو معروف في الفقه.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٥٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٧٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٧٧، معاني القرآن، النحاس ٢/ ٢٤٨.
(٣) معاني القرآن، الفراء ١/ ٢٧٤.

رابعًا: صيد البر والبحر:

الصيد يكون بالحيوان أو الطير المعلم كالكلب والصقر، وبالآلات الحادة مثل الرماح، والنبال، وباليد، وبالشباك ونحوها في الأسماك والطيور، والحيوان، وغير ذلك من آلات الصيد المعروفة والتي تتطور عبر الزمان، وتختلف من مكان لآخر.

وقد ورد ذكر الصيد وبعض آلاته في القرآن الكريم في غير موضع منها قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: ٤].

وقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: ٩٤].

وللصيد شروطه المعتبرة التي على أساس توافرها يكون الحيوان حلال الأكل، وهذه الشروط مطلوبة في الصائد، والمصيد، وآلة الصيد على ما هو معروف في مواضعه[(١)].

١. صيد البر:

الحيوان البري: هو ما يعيش في البر كالغابات والصحاري والجبال، وينقسم إلى قسمين: حيوان مقدور عليه، وحيوان غير مقدور عليه، أو بلفظ آخر، حيوان أهلي، وحيوان وحشي، فالحيوان الأهلي هو الذي يألف البيوت ويربى فيها كالأنعام الثلاثة التي تجب فيها الذكاة والدواجن التي تربى في البيوت.

والوحشي: هو الذي يعيش في البر مأخوذ من الوحشة وهي الخلوة، وذلك مثل الظباء والنعام والطيور التي تعيش في البراري[(٢)].

وباب الحلال والحرام من الأطعمة الحيوانية باب كبير معروف في السنة النبوية والفقه في جميع المذاهب على اختلاف في تسميته في كل مذهب، ولو ذهبنا نتتبع أصناف الحيوانات والطيور وما يحل وما يحرم منها لخرجنا عن المقصود في هذا البحث التفسيري، ولكن أكتفي بذكر أشهرها على سبيل الاختصار:

أولًا: الحيوانات المجمع على حلها أو متفق على حلها (ما عدا الأنعام الثلاثة):

الظبي، الغزال، النعام، الكركي، الحباري، الطاووس، البط والأوز، القطا، الحمام وما يلحق به، مثل: اليمام والقنبر والدبس والفاخت والقمري والسمان،

(١) انظر: الذبائح واللحوم بين الحلال والحرام ص٣٠-٣٥.

(٢) انظر: الأطعمة وأحكام الصيد، الفوزان ص٣٣.

والعصفور، والأرنب.

ثانيًا: الحيوانات المجمع على تحريمها أو متفق على تحريمها:

المحرم من هذه الحيوانات نوعان:

النوع الأول: الحيوان المحرم لذاته أو لعينه، وذلك مثل: الخنزير، والسباع من الطيور والحيوانات ذوات الأربع، والحيوانات ذوات الحافر، والحيوانات التي تأكل الجيف والقاذورات، والحيوانات التي ورد الأمر في السنة بقتلها في الحل والحرم، وهي الفواسق (الحية والعقرب والفأرة والكلب العقور والحدأة)، والحيوانات التي تعافها النفوس السليمة، ولا تقبلها الفطرة، مثل القرد وابن عرس.....

والنوع الثاني: الحيوان المحرم لعارض، مثل الميتة، والأنعام التي لم تكتمل ذكاتها، والجلالة[1].

ويمكن إجمال حكمة تحريم هذه الأصناف فيما يلي:

- أن بعض هذه الحيوانات يورث آكله بغيًا وظلمًا وقسوة، كما هو الحال في أكل السباع ونحوها، والمغتذي شبيه بما يتغذى به، فالقوة السبعية التي في هذه الحيوانات يمكن أن تسري إلى نفس آكلها، فيتشابه الإنسان مع الحيوان.
- أن بعض هذه الحيوانات خبيثة، مثل الميتة، والجلالة والخنزير؛ ويترتب على أكلها ضرر بالجسم.
- أن بعض هذه الحيوانات ذات صفات سيئة كالبلادة وعدم الغيرة، وشدة الشهوة كما هو الحال في الخنزير، مما يسري إلى نفس آكله، وإكسابه هذه الصفات[2].

ثالثًا: الحيوانات المختلف فيها المذاهب الفقهية:

اختلف الفقهاء في أكل طائفة كبيرة من الحيوانات، ما بين موسع ومضيق، سواء كان الخلاف في داخل المذهب الواحد أو بينه وبين المذاهب الأخرى، وأورد هنا طرفًا مما اختلفوا فيه على سبيل الإيجاز:

- الضب: حلال عند جميع الفقهاء ما عدا الحنفية[3]. وقصة أكل الضب أمام النبي صلى الله عليه وسلم وإقراره للصحابة على ذلك مشهورة، ولكن النبي عليه السلام لم يأكله.
- الخيل: يباح أكلها عند محمد بن الحسن

(١) انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد ١/ ٣٤٠، المغني، ابن قدامة ١١/ ٦٦، الأطعمة وأحكام الصيد، الفوزان ص٣٩.

(٢) انظر: الأطعمة وأحكام الصيد، الفوزان ص٤٠.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ١٨٩، المبسوط، السرخسي ١١/ ٤١٨، المغني، ابن قدامة ١١/ ٧٦.

وأبي يوسف من الحنفية، والشافعية، والحنابلة، والظاهرية[1]، وروي ذلك أيضًا عن عبد الله بن الزبير، وفضالة بن عبيد، وأنس بن مالك، وأسماء بنت أبي بكر، وسويد بن غفلة، وعلقمة، والأسود بن يزيد، وعطاء وشريح القاضي، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وحماد بن سليمان، وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، ويحرم أكلها عند ابن عباس وأبي حنيفة، ولكن داخل المذهب المالكي خلاف فيها يدور بين الكراهة والحل والتحريم، وأشهر الأقوال فيها عندهم التحريم[2].

- البغال: حرام عند جمهور الفقهاء، وحلال عند الحسن البصري وابن حزم[3].
- الحمر الأهلية: حرام عند جمهور العلماء، وحلال عند ابن عباس[4].
- الثعلب: مباح عند الشافعية، وأحمد في رواية، وطاوس وقتادة وأبي ثور، وحرام عند أبي حنيفة ومالك وأحمد في الرواية الثانية، وابن حزم[5]؛ لأنه سبع فيدخل في عموم النهي.
- الضبع: مباح عند الشافعية[6]، والظاهرية، ورويت إباحته عن علي بن أبي طالب وإسحاق بن راهويه وأبي ثور وخلائق من الصحابة والتابعين[7].

٢. صيد البحر.

صيد البحر يقصد به كل ما صيد من البحر من السمك ونحوه، فالمراد بالصيد هنا هو المصيد، وإنما أضيف إلى البحر؛ لأنه مستخرج منه، وهو نوعان:

النوع الأول: ما لا يعيش إلا في الماء

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٧٦، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣، بدائع الصنائع، الكاساني ٥/ ١٨، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٩١، كشاف القناع، البهوتي ٦/ ١٩٠، المحلى، ابن حزم ٧/ ٤٠٦.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣، المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٣/ ٩٥، بدائع الصنائع، الكاساني ٥/ ٣٩، مواهب الجليل، الحطاب ١/ ١٧٢.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٧٨، الحاوي الكبير، الماوردي ١٥/ ١٤٤، المحلى، ابن حزم ٧/ ٤٠٨.

(٤) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٤٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٧٧.

(٥) انظر: المجموع، النووي ٩/ ٢، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٩٩، المغني، ابن قدامة ١١/ ٦٦، المجموع، النووي ٩/ ٩، بدائع الصنائع، الكاساني ٢/ ١٩٨، أحكام القرآن، ابن العربي ٥/ ١٥٨، المحلى، ابن حزم ٧/ ٣٩٧.

(٦) انظر: المجموع، النووي ٩/ ٩، وحكي عن الشافعي قوله: ما زال الناس يأكلون الضبع ويبيعونه بين الصفا والمروة.

(٧) انظر: المحلى، ابن حزم ٧/ ٣٩٧، المجموع، النووي ٩/ ٩.

بحيث إذا خرج منه يموت بعد فترة، وذلك مثل جميع أنواع السمك.

والنوع الثاني: ما يمكنه العيش في البر والبحر، أو الحيوانات البرمائية، وذلك مثل السرطان والتمساح[(١)].

وهناك تقسيم آخر ذكره بعض المفسرين أن صيد البحر قسمان: سمك وغيره، فالسمك معروف، وغير السمك قسم يعيش في البر كالضفدع والسرطان، فلا يحل أكله، وقسم يعيش في الماء ولا يعيش في البر إلا عيش المذبوح، وذلك مثل الجريث أو حية البحر[(٢)].

المقصود بصيد البحر وطعامه:

تواترت الآثار الدالة على أن المقصود بصيد البحر هو كل ما صيد منه، كما هو مروي عن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وقتادة وغيرهم، وروي عن ابن عباس رواية أخرى وروي نحوه عن سعيد بن جبير والسدي بأن صيد البحر هو الطري منه[(٣)].

أما طعام البحر فقد اختلف في المقصود به على أقوال:

القول الأول: أن طعام البحر هو ما قذفه البحر بلا صيد من الإنسان، وهو مروي عن عمر وابن عباس وابن عمر وأبي هريرة وكثير من الصحابة رضوان الله عليهم[(٤)].

القول الثاني: أن طعام البحر هو كل ما نضب الماء عنه فأخذ بغير صيد ميتًا[(٥)].

القول الثالث: أن طعامه كل ما سقاه الماء فأنبت من الأرض[(٦)].

القول الرابع: أن طعام البحر هو السمك المملح أو المقدد منه، وهو مروي عن سعيد بن جبير وعكرمة وسعيد بن المسيب وقتادة والنخعي[(٧)].

حكم أكل صيد البحر وطعامه:

اختلف العلماء في أكل صيد البحر على أربعة أقوال:

القول الأول: أن جميع حيوانات البحر حلال، وهو مذهب المالكية، والشافعية على الأصح[(٨)].

وهو قول ابن أبي ليلى، والأوزاعي، والثوري في رواية الأشجعي عنه[(٩)].

ودليلهم من القرآن عموم قول الله

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٨.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٠١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٧-٦٠.
(٤) انظر: معاني القرآن، النحاس ٢/ ٣٦٤، تفسير السمرقندي ١/ ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٨.
(٥) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٤١.
(٦) انظر: المصدر السابق.
(٧) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٠٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٨٩.
(٨) انظر: الشرح الكبير، الدردير ٢/ ١١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٩، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٢٧.
(٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٩.

تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة: ٩٦].

وسبق بيان القول في المقصود بالصيد والطعام.

ودليلهم من السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ به؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)[١].

القول الثاني: أن جميع حيوانات البحر حلال عدا الحية والتمساح والضفدع، وهو مذهب الحنابلة[٢].

ودليلهم عموم الآية السابقة، وأما استثناء الضفدع والتمساح والحية، فلأن الضفدع منهي عن قتله، وهو يدل على تحريمه، والتمساح حيوان مفترس، والحيات من المستخبثات[٣].

القول الثالث: أن الحلال من حيوانات البحر هو السمك فقط، وما عداه لا يحل، وكذا لا يحل السمك الذي وجد طافيًا على سطح البحر، والمقصود السمك الذي يموت في الماء حتف أنفه بغير سبب حادث منه سواء علا على وجه الماء أو لم يعل بعد أن مات في الماء حتف أنفه من غير سبب حادث.

وهو مذهب الحنفية[٤]، ووجه عند الشافعية[٥]، وهو قول الثوري في رواية أبي إسحاق الفزاري عنه[٦].

القول الرابع: أن السمك حلال الأكل، وما سوى السمك من حيوانات البحر ينظر، فإن كان له نظير يؤكل في البر، فحيوان البحر كذلك، وإن كان نظيره من حيوان البر لا يؤكل فكذلك حكم حيوان البحر، وذلك مثل: خنزير البحر وكلب البحر. وهو وجه عند الشافعية[٧]، وقول عند الحنابلة.

ودليله القياس على حيوان البر المحرم كالخنزير والكلب ونحوهما[٨].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوضوء، باب الوضوء بماء البحر، رقم٨٣، والترمذي في سننه، أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، رقم٦٩، والنسائي في سننه، كتاب الطهارة، باب ماء البحر، رقم٥٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الوضوء، باب الوضوء بماء البحر، رقم٣٨٦.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: المغني، ابن قدامة ١١/ ٨٣، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ٤١١.

(٣) انظر: شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ٤١١، الأطعمة وأحكام الصيد، الفوزان ص٨٧.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٣٣، بدائع الصنائع، الكاساني ٥/ ٣٦.

(٥) مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٩٧.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٨.

(٧) انظر: الحاوي الكبير، الماوردي ١٥/ ٦٣، المجموع، النووي ٩/ ٣٢.

(٨) انظر: مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٩٩.

الرأي المختار: الذي تطمئن النفس إلى اختياره هو القول الأول الذي يرى حل جميع ما صيد من البحر، وذلك نظرًا لقوة أدلته وسلامة مدركه، لأن الأقوال الأخرى لم تسلم من المناقشة، مما لا يتسع المقام لذكره، إلا أنه ينبغي أن يوضع في الاعتبار مع هذا أمور أخرى، مثل: كون الحيوان البحري خاليًا من السموم والأضرار التي تترتب على أكله، كما هو الحال في بعض الأسماك السامة.

المخلوقات والأكل

تحدث القرآن الكريم عن أصناف من المخلوقات منها ما يأكل ومنها ما لا يأكل نبينها فيما يأتي:

أولًا: الملائكة والأكل:

الملائكة صنف من خلق الله تعالى خلقوا من نور، ولهم وظائف شتى، وهم يختلفون عن الإنس والجن في أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون، ولا يملون عن عبادة الله تعالى، ولا يفترون، ولا يتعبون، وقد اتفق المحققون من أهل العلم على ذلك[1].

قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

ولهذا لما وفدت الملائكة على سيدنا إبراهيم عليه السلام في صورة أناس من بني بشر، قدم لهم طعام الضيافة فرفضوا أن يأكلوا، ولم تمتد أيديهم إلى الطعام، فأوجس منهم خيفة؛ فلما كشفوا له عن حقيقتهم زال خوفه وتعجبه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٨، لوامع الأنوار البهية، السفاريني ١/ ٤٤٧.

بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٦٩-٧٠].

وقال جل شأنه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٨].

وقد أخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ قال: «كانوا إذا نزل لهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وأنه يحدث نفسه بشر. قال: ثم حدثوه عند ذلك»[1].

ثانيًا: الرسل والأكل:

الرسل والأنبياء صفوة خلق الله تعالى من البشر، وهم المبلغون لشرائع الله تعالى للأمم من خلال الوحي الذي نزل عليهم، والكتب السماوية التي نزلت عليهم، وقد شاءت حكمة الله تعالى أن يصطفيهم من البشر لا من الملائكة ليكونوا أنسب لتبليغ العباد مراد رب العباد منهم.

ولهذا أودع الله تعالى فيهم خصائص البشر من تناول الطعام والشراب، والنوم واليقظة، والمرض والصحة، والتزاوج والتناسل ونحو ذلك من صفات البشر الجبلية.

وقد ورد في القرآن آيات تتعلق بحالة الرسل والأنبياء مع الطعام والشراب، بيانها على النحو الآتي:

١. إرسال الله تعالى الرسل بشرًا يأكلون الطعام.

الرسل بشر كسائر الناس في الخلق والتكوين والصفات الجبلية، إلا أنهم يختلفون عن بقية الناس في الصفات الخلقية التي أودعها الله تعالى فيهم لتحمل الرسالة التي يبلغونها للناس.

ومن الأمور الجبلية التي يشترك فيها جميع الناس بمن فيهم الأنبياء والرسل: الأكل والشرب، اللذان بهما قوام الحياة ونمو البدن وسلامته، ولذلك ذكر الله تعالى في كتابه العزيز في موضعين أن هذا من صفات الرسل شأنهم شأن بقية الناس.

الموضع الأول: في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧].

وهذا جاء على سبيل الاستنكار من المشركين على نحو ما سيأتي في موضعه.

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ

(١) تفسير عبد الرزاق الصنعاني ١/ ٣٠٥.

﴿لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠].

وهو بمثابة الإجابة على السؤال السابق كما ذكره بعض المفسرين[(١)].

٢. أمر الرسل بأكل الطيبات.

أمر الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بأن يأكلوا من الطيبات التي أفاء الله عليهم بها، وأن يعملوا صالحًا، والأمر للرسل ولأتباع الرسل قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

٣. اعتراض المشركين على أن الرسل بشر يأكلون الطعام.

أنكر المشركون على الرسل أنهم مثل سائر البشر في تناول الأطعمة والسعي في الأسواق، وزعموا أنه -أي: النبي عليه الصلاة والسلام- إذا كان مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فلا يجوز أن يمتاز عنهم بالنبوة، وكانوا يقولون: أنت لست بملَك ولا ملِك؛ فلست بملَك لأنك تأكل الطعام، ولست بملِك لأنك تتسوق وتتبذل، والملوك لا يتسوقون ولا يتبذلون، وهذا الذي قالوه كله فاسد؛ وذلك لأن أكله الطعام لا ينافي النبوة، ولا مشيه في الأسواق، فإن أكله الطعام يدل على أنه آدمي محتاج، ومشيه في الأسواق يدل على أنه متواضع غير متكبر، وأما اختصاصه بفضلة النبوة من بين الناس فجائز؛ لأن الله تعالى لم يسو بين الناس، بل فاضل بينهم[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧].

قال السلمي: «عيروا الرسل بالتواضع والانبساط، ولم يعلموا أن ذلك أتم لهيبتهم وأشد في باب الاحترام لهم، وذلك أنهم لم يشاهدوا منهم إلا ظاهر الخلق ولو شاهدوا منهم خصائص الاختصاص لألهاهم ذلك من قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾»[(٣)].

وعليه فإن إن المشركين لم يدركوا حكمة الله تعالى في إرسال الرسل، حيث اختارهم من جنس بني البشر يشتركون مع سائر الناس في العادات والصفات البدنية ونحوها، حتى يستطيعوا أن يبلغوا دعوتهم للناس.

ولكن على الرغم من هذا التشابه والاشتراك إلا أن الرسل هم صفوة الناس بما أودع الله تعالى فيهم من صفات خلقية؛

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٢.

(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٧.

(٣) حقائق التفسير ٢/ ٥٩.

كالصدق والأمانة وقربهم لله عز وجل مما يجعلهم متميزين عن غيرهم.

كذلك ما أودعه الله تعالى فيهم من الذكاء والفطنة، وهذه الصفات وإن كانت موجودة في الكثير من الناس إلا أن الرسل قد حازوها على أكمل وجه وأحسنه.

٤. ابتلاء سيدنا آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة.

وردت قصة سيدنا آدم عليه السلام في غير موضع في كتاب الله عز وجل، وقد أمر الله تعالى آدم بأن يأكل من الجنة رغدًا حيث شاء، باستثناء شجرة معينة، اختلف العلماء في حقيقتها اختلافًا كبيرًا لا يتسع المقام لذكره، فوسوس الشيطان لآدم وظل يغويه حتى أكل من الشجرة المنهي عنها، فعوقب بسبب ذلك بالإخراج من الجنة والنزول إلى الأرض التي قدر الله تعالى له أن يسكنها ويعمرها هو وذريته.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة:٣٥-٣٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف:١٩-٢٢].

والرغد في الآية المقصود به الواسع من العيش، الهنيء الذي لا يعني صاحبه، يقال: أرغد فلان: إذا أصاب واسعًا من العيش الهنيء، كما قال امرؤ القيس[(١)]:

بينما المرء تراه ناعمًا
يأمن الأحداث في عيشٍ رغد

هذا وقد ترتب على أكل سيدنا آدم عليه السلام من الشجرة المنهي عنها ثلاثة أمور كما يستنبط من القصة القرآنية:

الأول: ظهور عورتهما، ولم يكن لهما سابق علم بها، حيث لم يكونا بحاجة إلى الإخراج.

الثاني: عتاب الله تعالى لسيدنا آدم عليه السلام على ما فعل، وتذكيره بالنهي الذي نهاه ولم يمتثل له نسيانًا منه، وإغواء من الشيطان.

الثالث: الهبوط من الجنة إلى الأرض

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٥١٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١١٠.

للعيش عليها.

رابعًا: سائر المخلوقات والأكل:

١. أكل الإنس.

كل ما ورد ذكره في القرآن الكريم أمرًا بالأكل إنما هو للإنسان، إلا ما ورد بشأن الحيوان على نحو ما سيأتي في موضعه، وأمر الله عز وجل للإنسان بالأكل جاء في معارض كثيرة، فجاء مرة في معرض تعداد النعم على بني إسرائيل، ومرة في معرض أمر المؤمنين بأكل الطيبات، ومرة في معرض أمر الناس بالأكل مما في الأرض من رزق الله تعالى، وهكذا، وهذه المواضع كلها جاء ذكرها في أماكنها من هذا البحث بما يغني عن إعادتها هنا.

إلا أن الذي أكتفي بالإشارة إليه من أكل الإنس هنا هو بضعة مواضع فيها بعض العبر والنكات التفسيرية وهي:

أولًا: أكل الفقير بالمعروف من مال اليتيم صيانة لنفسه.

حث الله سبحانه وتعالى عباده على الاقتصاد في الطعام والشراب وسائر وجوه النفقة، وفي حالة كون المرء قيمًا على مال يتيم، فقد حثه الشارع على أن يراعي حاله من حيث الغنى والفقر، بحيث يتعامل مع مال اليتيم بالحذر.

فإن كان القيم على مال اليتيم غنيًا، فليتعفف عن أن ينال منه شيئًا، وإن كان فقيرًا فليكن تناوله منه بالمعروف حفاظًا على مال اليتيم، وذلك عملًا بقاعدة (ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها)[(١)].

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ٦].

وفي معنى ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ أنهم لا يأكلون أموالهم على سبيل الإسراف والإتلاف، أو يبادرون بأكل أموالهم خشية أن يكبروا - أي اليتامى- فيتسلمون أموالهم من القائمين عليها.

أو كما عبر بعض المفسرين بقوله: «مسرفين ومبادرين كبرهم؛ أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون في إنفاقها وتقولون ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا»[(٢)].

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ يعني: أكل مال اليتيم مبادرًا أن يبلغ، فيحول بينه وبين ماله»[(٣)].

وقد روي نحو هذا المعنى عن معمر

(١) انظر: الأشباه والنظائر، السيوطي ص٨٤، الأشباه والنظائر، ابن نجيم ص٨٦.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٨٠.

وقتادة والحسن والسدي[1].

وفي معنى ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أقوال كثيرة للسلف منها:

ما روي عن مجاهد قوله: «﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من مال اليتيم، بغير إسراف ولا قضاء عليه فيما أكل منه»[2].

ومن بلاغة الآية الكريمة استنبط منها بعض التابعين أن المقصود ليس أكل الفقير من مال اليتيم، بل أكل الفقير من مال نفسه بالمعروف، فقد روي عن مجاهد قال: «لا تقرب مال اليتيم إلا للتجارة ولا تستقرض.

قال: فأما قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، فإنما معناه فليأكل من ماله بالمعروف يعني من مال نفسه»[3].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه -أي: الفقير- يأكل بأطراف أصابعه[4].

وروي عن عطاء وعكرمة أنه يأكل بأطراف أصابعه، ولا يسرف ولا يكتسي منه، ولا يلبس الكتان ولا الحلل، ولكن ما سد الجوعة ووارى العورة.

وروي عن الحسن وجماعة أنه يأكل من ثمر نخيله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه، فأما الذهب والفضة فلا؛ فإن أخذ شيئًا منه رده.

وقال الكلبي: «المعروف ركوب الدابة وخدمة الخادم، وليس له أن يأكل من ماله شيئًا»[5].

ثانيًا: النهي عن أكل الإنسان مال اليتيم.

ورد في القرآن التحذير من أكل أموال اليتامى بدون وجه حق في صورة شديدة تبين قبح الفعل وسوء العاقبة، وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠].

وليس المراد بالأكل هنا الأكل تناول الطعام، بل المراد الإتلاف أو نهب المال أو أخذه بدون وجه حق، أو كما قال الإمام القرطبي: «ليس المقصود في الآية صورة الأكل أو نفس الأكل، وإنما المراد به الاستباحة بأي طريق كان؛ إلا أن الأكل لما كان أوفى أنواع التمتع بالمال عبر عن التصرفات بالأكل»[6].

ولما نزلت هذه الآية اشتد الأمر على بعض الناس ممن يتولون أموال اليتامى، فعزلوا طعامهم وشرابهم عن طعام وشراب اليتامى حتى فسد الطعام وصار حرج كبير بسبب ذلك، فنزلت آية أخرى ترفع الحرج

(١) انظر: تفسير القرآن، عبد الرزاق الصنعاني ١/ ١٤٦، جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٨٠.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٧/ ٥٨٦.
(٣) معاني القرآن، النحاس ٤/ ١٥٣.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٧/ ٥٨٦.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٢٥٩، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٦٨، لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٨١.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، ٥/ ٢٦ بتصرف.

عنهم.

روي عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]. و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، انطلق من كان عنده يتيمٌ فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد؛ فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم»[(١)].

لطيفة في ذكر الأكل والبطون:

لم ذكر الأكل والبطون في هذه الآية مع أنه معروف أن الأكل لا يكون إلا في البطون؟

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن القرآن قد ذكر الأكل إلا أن المراد منه كل أنواع الإتلافات فإن ضرر اليتيم لا يختلف بأن يكون إتلاف ماله بالأكل أو بطريق آخر، وإنما ذكر الأكل وأراد به كل التصرفات المتلفة لوجوه:

أحدها: أن عامة مال اليتيم في ذلك الوقت هو الأنعام التي يأكل لحومها ويشرب ألبانها فخرج الكلام على عادتهم.

وثانيها: أنه جرت العادة فيمن أنفق ماله في وجوه مراداته خيرًا كانت أو شرًا أنه يقال: إنه أكل ماله.

وثالثها: أن الأكل هو المعظم فيما يبتغي من التصرفات[(٢)].

الوجه الثاني: أن ذكر البطون ورد مورد قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٧].

والقول لا يكون إلا بالفهم، وقال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والقلب لا يكون إلا في الصدر، وقال: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨]؛ والطيران لا يكون إلا بالجناح، والغرض من كل ذلك التأكيد والمبالغة[(٣)].

ثالثًا: النهي عن أكل أموال الناس بالباطل.

ورد النهي عن أكل أموال الناس بالباطل في مواطن عدة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٥٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ١٦٣.

(٣) المصدر السابق.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء:٢٩].

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقد سبق ذكر ذلك في مبحث الاستعمال القرآني للأكل.

رابعًا: ذم حياة الكفار وتشبيه أكلهم بأكل الأنعام.

ذم الله سبحانه وتعالى حياة الكفار وشبهها بحياة الأنعام، بجامع أن كليهما لا يشغله إلا الطعام والشراب فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد:١٢].

والمعنى كما ذكره بعض المفسرين يحتمل ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك، والمؤمن يأكل ليعمل صالحًا ويقوى عليه.

الوجه الثاني: أن الأنعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك.

الوجه الثالث: أن الأنعام تعلف لتسمن وهي غافلة عن الأمر، لا تعلم أنها كلما كانت أسمن كانت أقرب إلى الذبح والهلاك، وكذلك الكافر[1].

وقيل: إن المراد بالآية أن الأنعام تأكل وتشرب ولا تدري ما في الغد، وكذلك حال الكفار، لا يلتفتون إلى الآخرة والمثوى والمنزل[2].

ويؤيد هذا التشبيه ما أكدته آية أخرى من تشبيه الكفار بالأنعام بل وصفهم بأنهم أسوأ من الأنعام، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقوله جل شأنه: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان:٤٤].

خامسًا: تعدد أصناف النبات لتكون طعامًا للإنسان.

ذكر القرآن الكريم طائفة من النعم التي بثها الله تعالى في الأرض من أصناف النبات والزروع، مما يتخذ قوتًا للإنسان من الخضر والفاكهة، وقوتًا للحيوان أخضر ويابسًا[3].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ

(١) انظر: المصدر السابق ٢٨/ ٣٣.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٧/ ٤٠٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٩.

﴿وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه:٥٣- ٥٤].

وذكر الإمام الرازي أن ما في الأرض من النبات المختلف ألوانه وأنواعه ومنافعه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[ق:٧]؛ فاختلاف ألوانها دلالة، واختلاف طعومها دلالة، واختلاف روائحها دلالة، فمنها قوت البشر، ومنها قوت البهائم، كما قال: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ﴾ [طه٥٤].

أما مطعوم البشر، فمنها الطعام، ومنها الإدام، ومنها الدواء، ومنها الفاكهة[1].

سادسًا: إباحة أكل الإنسان من بيوت معينة لما فيه من القرابة بينه وبين صاحب البيت.

أباح القرآن للإنسان أن يأكل من بيوت أشخاص بعينهم؛ نظرًا لما بينه وبينهم من القرابة والمودة، فقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾ [النور:٦١].

وحكى الطبري عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله أن أظهر معاني الآية أنه لا حرج على هؤلاء الذين سموا في هذه الآية أن يأكلوا من بيوت من ذكره الله فيها، على ما أباح لهم من الأكل منها[2].

وقد روي في سبب نزول الآية أقوال أشهرها قولان:

القول الاول: أن الآية نزلت في بني بكر من كنانة، وكان لا يأكل أحد منهم وحده حتى يجد ضيفًا يأكل معه، وإذا لم يجد وأجهده الجوع نصب خشبة ولف عليها ثوبًا وأكل عندها؛ ليظن الناس أنه إنسان يأكل معه، وروي أن واحدًا منهم نزل بلقاحه واديًا، فجاع فحلب لقحة منها، ونادى في الوادي: من كان ها هنا فليحضر ليأكل، وكان في الوادي رجل فاختفى ولم يجب، وأجهده الجوع، فجلس يأكل وحده، فخرج الرجل، وقال له: يا رضيع، أتأكل وحدك؟ فأخذ الرجل سيفه وعدى عليه وقتله مخافة أن ينشر في الناس ذلك الفعل منه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأباح للقوم أن يأكلوا منفردين وجماعة[3].

القول الثاني: أن سبب النزول أن الأنصار كان يتحرجون من الأكل مع هؤلاء إذا دعوا إلى طعام، ويقولون: الأعمى لا

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ١/ ٢٦٠.

(٢) انظر: جامع البيان، ١٩/ ٢٢٢.

(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٤٨، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٥٣.

يبصر أطيب الطعام، والأعرج لا يقدر على الزحام عند الطعام، والمريض يضعف عن مشاركة الصحيح في الطعام، فكانوا يعزلون طعامهم، ويرون أنه أفضل من مشاركتهم[1].

سابعًا: بيان آداب الأكل في بيت النبي عليه الصلاة والسلام.

النبي صلى الله عليه وسلم أولى الناس بالمؤمنين، رءوف رحيم بهم، آخذ بحجز أمته عن النار، ناصح لهم الحريص عليهم، وزوجاته الطاهرات الطيبات هن أمهات المؤمنين، بنص القرآن الكريم، فيحرم على الأمة إيذاء النبي عليه السلام أو إيذاء أهل بيته بقول أو فعل.

قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[الأحزاب:٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب:٥٣].

وقد أباح الله تعالى للمؤمنين دخول بيوت النبي عليه الصلاة والسلام بالاستئذان، وأباح لهم أكل الطعام في بيت النبي عليه السلام إذا دعوا إلى الطعام، ولكن ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾.

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وفي معنى قول الله تعالى: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أقوال للسلف والمفسرين.

فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المقصود غير ناظرين للطعام أن يصنع[2].

وروي عن مجاهد وقتادة أن المقصود غير متحينين لنضج الطعام واستوائه[3].

وقيل: إن المقصود- كما ذكره الطبري- غير منتظرين إدراكه وبلوغه، وهو مصدر من قولهم: قد أنى هذا الشيء يأني إنى وأنيا وإناء.

قال الشاعر[4]:

وآنيت العشاء إلى سهيلٍ
أو الشعرى فطال بي الأناء

والمعروف أن سبب نزول الآية كما في الصحيحين أن أنس بن مالكٍ قال: (أنا أعلم الناس بهذه الآية آية الحجاب، لما أهديت زينب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت معه في البيت، صنع طعامًا، ودعا

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١٢٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٠٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٠٦، معاني القرآن، النحاس ٥/ ٣٧١.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٠٥.
والبيت للحطيئة.
انظر: رسالة الملائكة، المعري ص٢٤٢.

القوم، فقعدوا يتحدثون، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يخرج، ثم يرجع، وهم قعودٌ يتحدثون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فضرب الحجاب، وقام القوم)[1].

٢. أكل الجن.

الجن صنف من خلق الله عز وجل خلقوا من النار، ولهم مواصفات خاصة معروفة في الكتاب العزيز والسنة النبوية، وطبيعتهم تختلف عن طبيعة البشر والملائكة، وقد ورد ذكر جنس الجن في القرآن الكريم في بضعة وعشرين موضعًا، وورد ذكر الشيطان في حوالي ثمانية وسبعين موضعًا.

وقد اختلف العلماء في طعام الجن، أي: هل يأكلون أم لا يأكلون، وحاصل هذا الخلاف ثلاثة أقوال كما ذكرها بعض العلماء:

القول الأول: أن جميع الجن يأكلون ويشربون، وأن طعامهم العظم وروث الحيوانات ونحو ذلك[2].

وأصحاب هذا القول انقسموا في طبيعة أكل الجن إلى فريقين:

الفريق الأول: يرى أن أكلهم وشربهم مضغ وبلع، وهذا القول هو الذي تشهد له الأحاديث الصحيحة والعمومات الصريحة.

وهذه أبرز الأدلة من السنة على أكل الجن، وعلى أن أكلهم مضغ وبلع:

١. ما رواه مسلم عن عامرٍ قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعودٍ شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعودٍ فقلت: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلةٍ ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب فقلنا: استطير أو اغتيل. قال: فبتنا بشر ليلةٍ بات بها قومٌ. فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حراء. قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلةٍ بات بها قومٌ. فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «لكم كل عظمٍ ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرةٍ علفٌ لدوابكم». فقال رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم)، رقم٤٧٩٢، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب، رقم ٣٥٧٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٩٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦.

عليه وسلم: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»[1].

٢. ما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنه كان يحمل مع النبي صلى الله عليه وسلم إداوةً لوضوئه وحاجته، فبينما هو يتبعه بها فقال: «من هذا». فقال: أنا أبو هريرة. فقال: «ابغني أحجارًا أستنفض بها، ولا تأتني بعظمٍ ولا بروثةٍ». فأتيته بأحجارٍ أحملها في طَرف ثوبي حتى وضعت إلى جنبه ثم انصرفت، حتى إذا فرغ مشيت، فقلت: ما بال العظم والروثة؟ قال: «هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد جن نصيبين ونعم الجن، فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظمٍ ولا بروثةٍ إلا وجدوا عليها طعامًا»)[2].

وليلة الجن هي ليلة نصيبين الشهيرة التي نزل بشأنها قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠].

فدل الحديثان على أن الجن يأكلون الطعام، وأن طعامهم العظم والروث ونحوه مما ذكر في الحديث.

٣. ما رواه أبو داود عن أمية بن مخشي -وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا ورجلٌ يأكل فلم يسم حتى لم يبق من طعامه إلا لقمةٌ فلما رفعها إلى فيه قال: بسم الله أوله وآخره فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «ما زال الشيطان يأكل معه فلما ذكر اسم الله عز وجل استقاء ما في بطنه»)[3].

والحديث دليل على أن أكل الجن إنما هو مضغ وبلع مثل الإنس.

الفريق الثاني: يرى أن أكلهم وشربهم تشمم واسترواح لا مضغ وبلع[4].

القول الثاني: أن صنفًا منهم يأكلون ويشربون، وصنفًا لا يأكلون ولا يشربون[5].

ويشهد لهذا القول أثر مروي عن وهب، فقد أخرج الطبري عن عبد الصمد بن معقل.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم ١٠٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ذكر الجن، رقم ٣٨٦٠.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأطعمة باب التسمية على الطعام، رقم ٣٧٧٠، وأخرجه الطبراني في الكبير، ١/ ٢٩٢، رقم ٨٥٥، والحاكم في المستدرك، ٤/ ١٢١، رقم ٧٠٨٩.

وصححه الحاكم، وضعفه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ٢٦، لأن في إسناده راويًا مجهولًا.

(٤) آكام المرجان في أحكام الجان، الشبيلي ص٣٣.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٠٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٥٦.

قال: سمعت وهب بن منبه، وسئل عن الجن ما هم، وهل يأكلون أو يشربون، أو يموتون، أو يتناكحون؟ قال: هم أجناس، فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون، ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون، وهي هذه التي منها السعالي والغول وأشباه ذلك[1].

القول الثالث: أن جميع الجن لا يأكلون ولا يشربون، وهذا قول محكي عن بعض الأطباء والفلاسفة، وقد وصفه بعض العلماء بأنه قول ساقط[2].

٣. أكل الحيوانات.

لم يرد في القرآن الكريم ذكر أكل الحيوانات كثيرًا، إلا في مواضع قليلة على الرغم من ورود ذكر حيوانات متعددة في القرآن الكريم، وبيان ذلك على النحو التالي:

أولًا: الوحي إلى النحل بالأكل من كل الثمرات.

من نعم الله تعالى وإعجازه في خلق النحل أنه أوحى إليه باتخاذ مساكنه من الجبال والشجر ومما صنعه الناس من عرائش، وأباح له جل شأنه أن يأكل من كل الثمرات التي خلقها الله عز وجل، لينتج شراب العسل الذي هو غذاء ودواء، فقال جل شأنه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨ – ٦٩].

ولفظة (من) في الآية حملها بعض المفسرين على التبعيض، وحملها بعض آخر على ابتداء الغاية[3].

ولفظة (كل) في الآية يرى أكثر المفسرين على أنها ليست للعموم، وقيل: المقصود إباحة الأكل لها من أي ثمرة تشتهيها[4].

قال الرازي: «لفظة (من) ههنا للتبعيض أو لابتداء الغاية... ألهم الله تعالى هذا النحل حتى أنها تلتقط تلك الذرات من الأزهار وأوراق الأشجار بأفواهها وتأكلها وتغتذي بها، فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئًا من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتها هناك؛ لأنها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها، فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذاك هو العسل، ومن الناس من يقول: إن النحل تأكل من الأزهار الطيبة والأوراق المعطرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٠٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٠٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٣٨.
(٤) انظر: الكشف والبيان، النيسابوري ٦/ ٢٨، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٩٦.

أشياء، ثم إنه تعالى يقلب تلك الأجسام في داخل بدنها عسلًا، ثم إنها تقيء مرة أخرى فذاك هو العسل، والقول الأول أقرب إلى العقل وأشد مناسبة إلى الاستقراء»[(١)].

ثانيًا: من نعم إنبات الزرع والثمار أنها طعام للحيوان:

ذكر الله سبحانه وتعالى صورًا من النعم التي أنعم بها على الإنسان والحيوان، منها إنبات أصناف مختلفة من الزروع والثمار ليأكل منها الإنسان، ويرعى أنعامه، فقال جل شأنه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه:٥٣-٥٤].

وقد ذكر الإمام الرازي رحمه الله طرفًا من فوائد الأرض ما فيها من النبات المختلف ألوانه وأنواعه ومنافعه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[ق:٧].

فاختلاف ألوانها دلالة، واختلاف طعومها دلالة، واختلاف روائحها دلالة؛ فمنها قوت البشر، ومنها قوت البهائم، كما قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾[(٢)].

وأكل الحيوان للنبات قد يكون جافًا وقد يكون أخضر، وقد أشار ابن كثير رحمه الله إلى ذلك بقوله: ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرًا ويابسًا[(٣)].

ثالثًا: تشبيه حياة الكفار بحياة الأنعام في الأكل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وقد سبق ذكر جامع الشبه بين الكفار وبين الأنعام في الحياة المجردة عن الأهداف والغايات، والتي هي فقط مجرد حياة أكل وشرب.

(١) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٣٨.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٣١٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٩٩.

آداب الأكل

للأكل آداب تحدث عنها القرآن الكريم نتناولها فيما يأتي:

١. تحري الطيب من المأكولات.

أمر الله تعالى عباده بتحري طيب المطعم والابتعاد عن خبيثها، والطيب والخبث أعم من أن يكونا حسيين، بل يشمل ذلك الحسي والمعنوي، وقد أمر الله تعالى أنبياءه ورسله بالأكل من الطيبات، والأمر لهم أمر لأمتهم أيضًا.

كذلك أمر الله تعالى الناس عامة بتحري الطيب، وكذ أمر أصنافًا من الناس بتحري طيب المطعم، فأمر المؤمنين بالأكل من الطيب، وأمر بني إسرائيل كذلك، وذلك على النحو التالي:

١. جاء في شأن الرسل والأنبياء قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١].

٢. وجاء في شأن الناس جميعًا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨].

٣. ومما جاء في شأن المؤمنين قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

٤. وجاء في شأن بني إسرائيل قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وقوله جل شأنه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقوله جل ثناؤه: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨١].

والناظر لهذه المواضع الثلاثة يجد أنها جاءت في معرض تعداد النعم التي أنعم الله عز وجل بها على بني إسرائيل.

٢. الأكل مما ذكر اسم الله عليه.

أمر الله تعالى المؤمنين بالأكل مما سمي اسم الله عليه، وحذرهم مما لم يسم عليه، مبينًا لهم أنه فسق، وأنه من عمل الشيطان، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١].

أخرج الطبري عن عكرمة قال: «كان مما

أوحى الشياطين إلى أوليائهم من الإنس: كيف تعبدون شيئًا لا تأكلون مما قتل، وتأكلون أنتم ما قتلتم؟ فروي الحديث حتى بلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾».

وفي رواية: «أن ناسًا من المشركين دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أخبرنا عن الشاة إذا ماتت، من قتلها؟ فقال: الله قتلها. قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلالٌ، وما قتله الله حرام! فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾»[1].

٣. تجنب الإسراف في الأكل.

جاء النهي عن الإسراف في القرآن الكريم صريحًا في موضعين كلاهما مرتبط بالأكل.

الأول: في آية زكاة الزروع والثمار.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١].

والثاني: في معرض إباحة التنعم بنعم الله تعالى من الملبس والمأكل والمشرب، وذلك في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

قال البقاعي: «أمر بكسوة الباطن بالطعام والشراب لتوقف القدرة عادة عليها فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ وحسن ذلك أن بعضهم كان يتدين في الحج بالتضيق في ذلك، ولما أمر بالملبس والمطعم، نهى عن الاعتداء فيهما فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بوضع شيء من ذلك فيما لا يكون أحق مواضعه -ولو بالزيادة على المعاء (جمع معي)- ومن ذلك أن يتبع السنة في الشرب فيسير؛ لأن العكر يرسب في الإناء فربما أذى من شربه، ولذلك نهى عن النفس في الإناء، وأما الطعام فليلعق الأصبع لنيل البركة وهو أنظف، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: لا يكرمهم، ولا شك أن من لا يحصل له شيءمن الخير فيحيط به كل شر، ومن جملة السرف الأكل في جميع البطن، والاقتصاد الاقتصار على الثلث»[2].

وجاء ذم التبذير على جهة العموم والتقبيح من صنيع فعل المبذرين في قول الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

وروى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير إسرافٍ ولا مخيلةٍ)[3].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٧٨، ٨٠.

(٢) نظم الدرر، ٣/ ٢٥.

(٣) أخرجه البخاري تعليقًا في صحيحه، كتاب اللباس باب قول الله تعالى: (قل من حرم زينة الله).

والأحاديث والآثار في النهي عن الإسراف كثيرة في كتب السنة.

٤. شكر المنعم سبحانه وتعالى.

شكر المنعم سبحانه وتعالى فرض على كل مكلف كما ذهب إليه كثير من العلماء[(١)].

وقد ورد الأمر به في القرآن الكريم مرارًا لا سيما في المواضع التي فيها ذكر النعم من المأكل والمشرب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال جل شأنه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل: ١١٤].

أثر الأكل على العبد

للأكل آثار حسية ومعنوية على العبد نتناولها فيما يأتي:

أولًا: المأكولات الطيبة:

تترك المأكولات الطيبة أثرًا حسنًا حسيًا ومعنويًا، ومن تلك الآثار:

١. المأكولات الطيبة سبب لاستجابة الدعاء.

إن أكل الطعام الطيب الحلال وشربه ولبسه والتغذي به سبب موجبٌ لإجابة الدعاء، والتوسع في الحرام أكلًا وشربًا ولبسًا وتغذيةً يمنع استجابة الدعاء[(٢)].

فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٢١.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ص١٠٧.

لذلك؟!)[1].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة:١٦٨].

فقام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يومًا وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به)[2].

قال ابن رجب الحنبلي: «ومن أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه، وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عمله، وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وإن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، وبعد ذكره لنص الحديث قال: والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالًا، فالعمل صالح مقبولٌ، فإذا كان الأكل غير حلالٍ، فكيف يكون العمل مقبولًا؟ وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبل مع الحرام، فهو مثالٌ لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام»[3].

٢. أن أكل الحلال وطيب المطعم أعون للمرء على العمل الصالح، وعلى الطاعة، وأن العمل الصالح لابد أن يكون مسبوقًا بأكل الحلال[4].

قال ابن كثير: «يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولًا وعملًا ودلالة ونصحًا، فجزاهم الله عن العباد خيرًا»[5].

وروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أربع خلالٍ إذا أعطيتهن فلا يضرك ما عزل عنك من الدنيا: حسن خليقةٍ، وعفاف طعمةٍ، وصدق حديثٍ، وحفظ أمانةٍ)[6].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم ٢٣٩٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ٣١٠، رقم ٦٤٩٥.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ٤/ ٢٩٢، رقم ١٨١٢.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص١٠٠.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٩١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٧٧.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب حسن الخلق إذا فقهوا، رقم ٢٨٨.

٣. المأكولات الطيبة عنصر لنمو الجسد وصحته وسلامته.

وهذه لا تحتاج لبرهان، فإن الشارع الحكيم حين أمرنا بتناول الطيبات وتجنب الخبائث، فنظرًا لما في الطيب من مزايا النفع للبدن، وسلامته من الأمراض، والمحافظة على صحة الإنسان؛ ولهذا نجد أن الشرع قد أمر الصائم بالإفطار على الطعام الطيب مثل: التمر واللبن ونحو ذلك مما فيه نفع للبدن وتقويته بعد الضعف الذي لحقه خلال الصيام.

ثانيًا: المأكولات الخبيثة:

للمأكولات الخبيثة آثار سيئة على النفس، وهذه الآثار لا تتوقف على جانب واحد، ولا على شخص واحد، فهي تضر بالبدن ضررًا حسيًّا ومعنويًّا.

١. المأكولات الخبيثة تضر بالجسم.

من حكمة الله تعالى أن حرم علينا تناول المأكولات الخبيثة؛ نظرًا لما تجلبه على الجسم من أضرار وأخطار، ولعل أبرز ما ورد في القرآن من الأطعمة الخبيثة: الميتة والدم ولحم الخنزير.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وهذه الثلاثة جامعة لطائفة من الأضرار والأمراض الفتاكة ما يعترف به الجميع قديمًا وحديثًا، ويكفي أن أشير هنا بإيجاز إلى طرف من هذه الأضرار:

١. أن التغيرات التي تحدث بعد موت الحيوان من ترسب الدم في جسمه بما يسمى في الطب بـ «الزرقة الجيفية» وتكون الأحماض بعدها، مما ينشأ عنه تكون الجراثيم الهوائية واللاهوائية، التي تؤدي إلى تعفن الحيوان وتكون روائح كريهة وآثار سامة تضر بجسم الإنسان إذا تناول الميتة[(١)].

٢. أن الحيوان قد يكون مات بسبب مرض معين، فيخشى من انتقال هذا المرض للإنسان.

٣. أن الخنزير جمع من الأضرار والمفاسد والخبائث ما لا يخفى على عاقل، وأن هذه الأضرار تطال كل أجهزة جسم الإنسان، وبعضها تظهر سريعًا على آكل الخنزير، وبعضها تكمن وتتراكم في البدن.

٢. المأكولات الخبيثة تؤدي إلى فساد الأعمال والطاعات.

وقد سبق ذكر قول النبي عليه السلام

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٧٣٣.

(١) انظر: الوقاية الصحية في الإسلام، وادع الثبيتي، مجلة البحوث الإسلامية، ٧١/ ٢٦٣.

«والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يومًا»[1].

وقال الغزالي نقلًا عن أحد العلماء: «إذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر، وعلى أي شيء تفطر، فإن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى، فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها بالتأثير تناول الحرام؛ وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له؛ ولذلك قال بعضهم: كم من أكلة منعت قيام ليلة، وكم من نظرة منعت قراءة سورة، وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة»[2].

٣. المأكولات الخبيثة تمنع استجابة الدعاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟)[3].

وهذا لا شك أنه مما يخيف المؤمن؛ لأن حاجته للدعاء أعظم حاجة، فدل هذا على أن إطابة المطعم من أعظم أسباب إجابة الدعاء، وأنه إذا تخلف هذا السبب ولو وجدت الأسباب الأخر فإنها لا تجاب الدعوة غالبًا لقوله: (فأنى يستجاب لذلك).

٤. الأجساد النابتة من المأكولات الخبيثة مصيرها النار.

جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ [المائدة:٤٢].

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به)[4].

فالأكل إذا كان طيبًا كان البدن طيبًا، وسلم من العذاب، وإذا تغذى البدن على حرام كان البدن آثمًا أو نجسًا.

موضوعات ذات صلة:

الحرام، الحلال، الحيوان، الشرب، الطعام، النبات

(١) سبق تخريجه.
(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٥٦.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.

الإلحاد

عناصر الموضوع

مفهوم الإلحاد	٢٢٢
الإلحاد في الاستعمال القرآني	٢٢٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٢٤
صور الإلحاد في ضوء القرآن	٢٢٦
أسباب الإلحاد	٢٤٤
منهج القرآن في إبطال الإلحاد	٢٤٧
آثار الإلحاد على الفرد والمجتمع	٢٥١

مفهوم الإلحاد

أولًا: المعنى اللغوي:

مادة (ل ح د) تدل على معنى ميل عن استقامة، فيقال: (لحد السهم عن الهدف)، أي: عدل عنه، واللحد: حفرة مائلة عن الوسط، وفلان عدل عن الحق وأدخل فيه ما ليس منه، ويقال: (ألحد إليه)، مال عنه، وألحد الرجل، أي: ظلم في الحرم واستحل حرمته وانتهكها، ولحد الرجل في الدين، طعن وحاد عنه وعدل وجادل ومارى، ولحد. أي: مال عن طريق القصد، وجار وظلم[(١)].

والملحد: «الطاعن في الدين المائل عنه»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»[(٣)].

وقد عرفه ابن عاشور بقوله: «لما كان وسط الشيء يشبه به الحق والصواب، استتبع ذلك تشبيه العدول عن الحق إلى الباطل بإلحاد، فأطلق الإلحاد على الكفر والفساد»[(٤)].

والمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي إلا أنه خص بالانحراف في الإسلام.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩٠، مختار الصحاح، الرازي ص٢٤٧، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٣٨، المصباح المنير، الفيومي ص٣٢٧.
(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٥٠.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧٢.
(٤) التحرير والتنوير ٩/ ١٨٩.

الإلحاد في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ل ح د) في القرآن (٦) مرات، منها مادة (ألحد) (٤) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٣	﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:١٨٠]
المصدر	١	﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[الحج:٢٥]

وجاء الإلحاد في القرآن بمعناه في اللغة وهو: الميل عن الحق[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٤٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧٣٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الردة:

الردة لغةً:

«من ردد بمعنى: رجع، وارتد الشخص، أي: رد نفسه إلى الكفر»[١].

الردة اصطلاحًا:

«الرجوع من الإسلام إلى الكفر»[٢].

الصلة بين الإلحاد والردة:

الإلحاد هو زيغ وانحراف وميل عن الحق، والردة تكون بالنكوص والرجوع عن الإسلام، فهما مشتركان في الكفر.

٢ الكفر:

الكفر لغةً:

الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، وهو ضد الايمان، لأنه تغطية للحق[٣].

الكفر اصطلاحًا:

«الجحود بالوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها»[٤].

الصلة بين الإلحاد والكفر:

الكفر هو إنكار وجحود الإيمان، والإلحاد صورة من صور الكفر.

(١) المصباح المنير، الفيومي ص١٣٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٣.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩١.
(٤) انظر: المفردات، الأصفهاني ص٤٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩١.

٣ الزيغ:

الزيغ لغةً:

«الزيغ: الميل عن الاستقامة، والتزايغ: التمايل، ورجل زائغ وقوم زاغة وزائغون، وزاغت الشمس، وزاغ البصر»[١].

الزيغ اصطلاحًا:

الميل عن الحق إلى الباطل، والتحول من الإيمان إلى الكفر.

الصلة بين الإلحاد والزيغ:

كلاهما يشترك في الانحراف عن الحق، والتشكك في الإيمان وأصوله.

٤ الاستقامة:

الاستقامة لغةً:

«الاعتدال»[٢].

الاستقامة اصطلاحًا:

هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة وترك المنهيات كلها كذلك[٣].

الصلة بين الإلحاد والاستقامة:

الإلحاد ميل عن الحق ومفارقته، والاستقامة الديمومة على الحق والبقاء عليه ولزومه، فالاستقامة تعني: الاعتدال، والإلحاد يعني: الانحراف فهما متضادان.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٤٠، مختار الصحاح، الرازي ص١١٨، المصباح المنير، الفيومي ص١٥٨.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص٢٣٢.
(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص ١٩٣.

صور الإلحاد في ضوء القرآن

تعددت صور ومعاني الإلحاد في القرآن الكريم، وأبرز صور الإلحاد في القرآن الكفر والشرك والردة والنفاق، والإلحاد ضربان، وهما «إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول ينافي الإيمان ويبطله، والثاني يوهن عراه ولا يبطله»[1]، والإلحاد له صور وأشكال متعددة كلها تصب في معاني الانحراف العقدي والسلوكي والتعبدي، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: الإلحاد في الألوهية:

توحيد الألوهية حق لله وحده، ولا يحل لعبده أن يشرك معه غيره، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، والإلحاد في ألوهيته هو ظلم وجور وتجاوز خطير في حق الخالق سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

«هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي: وحدني وقم بعبادتي من غير شريك، وصل لتذكرني. وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لي»[2]، جمعت الآية أصول توحيد الألوهية وهي توحيده وعبادته، فتوحيد الألوهية: «هو إفراد الله تعالى بالعبادة المستلزم لعبادة الله تعالى بكل ما شرع أن يعبد به من أعمال القلوب والجوارح، وأن لا يشرك معه غيره في شيء منها، مع عدم الاعتراف بعبادة غيره تعالى»[3] وأضل الخلق إلحادًا في الألوهية هم أهل الكتاب، والمشركون، والفرق الضالة الخارجة عن دين الإسلام.

وقد أورد القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، وما من نبي ولا رسول إلا وأمر قومه بعبادة الله وإفراده بالعبادة.

قال تعالى عن الرسل في دعوتهم لأقوامهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٢٧٧.

(٣) عقيدة المؤمن، الجزائري ص١٠٢.

﴿غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف: ٨٥].

هذه الدعوات قابلها أقوام الأنبياء والمرسلين بالصد والإساءة، إلا من رحمه الله بالإيمان بما جاء به الأنبياء، ومن صور رد هذه الدعوات والإلحاد فيها:

أولًا: إلحاد المشركين في الألوهية:

لقد بلغت عقول المشركين من السفاهة والانحطاط الفكري مبلغًا كبيرًا في الفساد والإلحاد في الألوهية، حتى عبدوا الحجارة من دون الله.

ومن صور إلحادهم في الألوهية:

١. عبادة الأصنام:

من أكبر إلحاد المشركين عبادتهم للأصنام من دون الله، مع علمهم عدم نفعها ولا ضرها.

قال تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

أي: «معتكفون على عبادتها»[(١)]، فكانوا يعبدون الأصنام ويجعلونها في بيوتهم، وفي حلهم وترحالهم، بل جعلت قريش الأصنام داخل الحرم المكي وداخل الكعبة، ولعظم إلحادهم في الألوهية قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان: ٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

«كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السماوات والأرض؟ أقروا، وقالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»[(٢)]، وهذا يمثل الذروة في الميل، والعوج، والزيغ عن الحق لعلمهم بذلك.

٢. نسبة الملائكة والجن لله:

ألحد المشركون في نسبة الولد لله بادعائهم أن الملائكة هم بنات الله، وكانوا يعبدونهم؛ لينالوا الشفاعة عند الله بزعمهم وإلحادهم في الله.

فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨-١٥٩].

أي: «إن كفار قريش قالوا: الملائكة بنات الله، والجنة: صنف من الملائكة يقال لهم: الجِنَّة»[(٣)].

٣. عبادة الملائكة:

اتخذ المشركون عبادتهم الملائكة ليكونوا وسطاء وشفعاء لهم عند الله فقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ١١١.
وانظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ١٦٩.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٥٤.

أي: «ولا يأمركم أن تعبدوا الملائكة والنبيين؛ لأن الذين قالوا: إن عيسى إله، عبدوه واتخذوه ربًا، وقال قوم من الكفار: إن الملائكة أربابنا، يقال لهم: الصابئون»[1].

٤. إلحاد العبادات:

ابتدعوا صلاة لهم ودعاءً بالتصفيق والتصفير إلحادًا وزيغًا عما شرعه الله من الصلاة والدعاء.

فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥].

أي: وما كان دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة، أو ما يضعون موضعها، إلا مكاءً صفيرًا، وتصديةً تصفيقًا، وقيل: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، مشبكين بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون[2]، والعبادات بهذه الكيفية التي لم يأذن بها الله إلحاد في الألوهية.

٥. التحريم والتحليل:

سلك المشركون في ذبائحهم وأنعامهم إلى إلحاد في التحليل والتحريم حسب أهوائهم وميلهم في الذبح، والأكل، والتوريث دون الاستناد لشريعة ربانية، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩].

أي: إنهم حرموا أنعامًا وحرثًا وجعلوها لأصنامهم، أو لخدام الأصنام، وهذا قول وفعل لم يرد به شرع، وجعلوا ما في بطونها من اللبن أو الأجنة حلالًا للذكور، وحرامًا على الإناث[3]، وهذا من جورهم وظلمهم، واعتدائهم على حق الله في التحليل والتحريم.

ثانيًا: إلحاد أهل الكتاب:

تعددت صور إلحاد أهل الكتاب في الألوهية، وسطرها القرآن الكريم في العديد من الآيات.

ومن صور إلحاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

١. تأليه عزير وعيسى عليه السلام:

ألهت اليهود العزير، وألهت النصارى عيسى عليه السلام وادعوا بنوتهما إلى الله إلحادًا عن دين الله، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ

(١) الوسيط، الواحدي، ١/ ٤٥٧.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٥٨.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٩٤.

﴿النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠].

وسبب نزول هذه الآية أن ابن عباس قال: «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفي، ومحمد بن دحية، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله فأنزل الله الآية»[1].

٢. عبادة الأحبار والقساوسة:

استجاب أهل الكتاب لأحبارهم وقساوستهم لما أحلوا لهم من الحرام ما أحلوه، وحرموا ما حرموه عليهم، فكانت هذه عبادتهم لهم.

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم عبادتهم بتحليل الحرام وتحريم الحلال، فعن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه)[2].

٣. رد حكم الله:

تعطيل ورد حكم التوراة من صور إلحاد اليهود والنصارى في حكم الله والإعراض عنه، فقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

أي: «أيريد أولئك الخارجون عن أمر الله ونهيه أن يحكموا بأحكام الجاهلية التي لا عدل فيها، بل الهوى هو الذي يحكم بأن يجعلوا أساس الحكم الميل والمداهنة؟ وهذه هي طريقة أهل الجاهلية»[3].

٤. نسبة بنوتهم لله:

نسب اليهود أنفسهم ببنوتهم لله تعالى وادعائهم محبته ظلمًا وبهتانًا، فذكر الله قولهم، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ

(١) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ص١١٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ١٠ من سورة التوبة، ٥/ ٢٧٨، رقم ٣٠٩٥.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٣٢٩٣.

(٣) المنتخب في تفسير القرآن، نخبة من علماء الأزهر، ١/ ١٥٥.

﴿يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

وسياق الآية أبرز وأوضح إلحاد وضلال اليهود والنصارى معًا، وهو «دعواهم أنهم ﴿أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، وهو تبجح وسفه وضلال، فأمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم بقوله: قل لهم يا رسولنا: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾»[1]، وفي هذا تبكيت لهم، وتهديد ووعيد لإلحادهم في ألوهيته سبحانه.

ومن صور إلحاد أهل الكتاب الخاصة بشرائعهم:

إلحاد اليهود في الألوهية:

ورد في القرآن الكريم بعض صور إلحاد اليهود في الألوهية، التي تبرز وتوضح زيغ وانحراف وضلال اليهود، ومن هذه الصور:

١. تبديل كلام الله وتحريفه:

ومن إلحاد اليهود تحريفهم كلام الله وتبديله؛ افتراءً، وميلًا وعدولًا عن الحق، فوصفهم الله بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١].

أي: إن إقدام القوم على التحريف لا بد وأن يكون لخوف ورهبة، أو لطمع ورغبة، والمقصد والمراد: إياكم وأن تحرفوا كتابي للخوف من الخلق والملوك والأشراف، فتعطلوا الحدود الواجبة عليهم واختلاقكم الحيل في سقوط تكاليف الله تعالى عنهم، والزيغ عن الحق[2].

٢. عبادتهم العجل:

قال تعالى عن عبادتهم لعجل السامري الذي صنعه لهم وأمامهم من حليهم: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

«يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من الحلي، فشكل لهم منه عجلًا جسدًا لا روح فيه وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع له خوار، أي: صوتٌ كصوت البقر»[3]، وعبادة جسد مصنوع من الذهب وهو لا يملك نفعًا ولا ضرًا هو إلحاد قبيح.

قولهم وفعلهم هذا يستحقون بسببه التقريع والتوبيخ، أي: كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهًا مع أنه ليس فيه شيء[4].

وبهذا الإلحاد استوجبوا عقاب الله تعالى وغضبه عليهم لانحرافهم وزيغهم في حقه تعالى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٦١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٦٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٧.

(٤) صفوة التفاسير، الصابوني ١٧/ ٤٣٧.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

٣. طلبهم الإلهة:

قال تعالى واصفًا إلحادهم في طلب الإله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

«كان أولئك القوم من لخم، وكانوا نزولًا بالرقة وقيل: كانت أصنامهم تماثيل بقر، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ نظيره قول جهال الأعراب -وقد رأوا شجرة تسمى ذات أنواط يعظمونها في كل سنة يومًا-: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»[(١)].

إلحاد النصارى في الألوهية:

لم يكن النصارى بعيدين عن اليهود في إلحادهم في الألوهية بل قاربوا اليهود في ضلالهم وانحرافهم وزيغهم عن الحق، ومن صور إلحاد النصارى في الألوهية:

١. تأليه المسيح:

ألحد النصارى في جعل المسيح عيسى عليه السلام إلهًا من دون الله، فقال تعالى عن إلحادهم في ألوهيته: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة: ١٧].

«يقول تعالى مخبرًا وحاكيًا بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم، وهو عبد من عباد الله، وخلقٌ من خلقه أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا»[(٢)].

وهذا القول من أضل صور الإلحاد في الألوهية، وبه أضلوا أتباعهم «وهو كفر من أقبح أنواع الكفر، وهذا وإن لم يكن قول أكثر النصارى فإنهم بانتمائهم إلى النصرانية وقولهم بها وانخراطهم في تعاليمها يؤاخذون به؛ لأن الرضا بالكفر كفر»[(٣)].

٢. الشرك بالله:

ومن إلحاد النصارى عقيدة التثليث -الأب والابن وروح القدس- بنسبة الشريك لله، فذكر الله كفرهم وإلحادهم فقال: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [المائدة: ٧٣].

أي: «أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، فقوله ثالث ثلاثةٍ، أي: أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة»[(٤)].

ووصف الله بهذه الصورة إلحاد وزيغ واضح وبين في الألوهية -تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا-.

٣. تعطيل حكم الله:

أمر الله النصارى بالاحتكام إلى الإنجيل،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٧٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٦١.
(٣) أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٦١٢.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤٠٨.
وانظر: الوسيط، الواحدي، ٢/ ٢١٣.

فألحدوا فيه وزاغوا عنه بالاحتكام لغير منهجه، فقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧].

وفي الآية «إشارة إلى الكهان الذين كانوا يأخذون الحلوان ويحكمون بحسبه وبحسب الشهوات»[(١)].

ثالثًا: إلحاد الفرق الضالة في الألوهية:

ضج التاريخ الإسلامي بالفرق الضالة التي اتبعت غير سبيل المؤمنين، فمنها التي ألهت علي بن أبي طالب أو الحاكم بأمر الله الفاطمي وغيرهما من الباطنية، وحكمت شرع الجاهلية، وعطلت حكم الله، وأحلت الحرام وحرمت الحلال وغير ذلك، ومن صور الإلحاد عند الفرق الضالة في الألوهية:

١. تحريم الحلال وتحليل الحرام:

التحليل والتحريم حق لله وحده ولا يجوز لأحد أن يحرم ما أحله الله أو يحل ما حرمه الله، فمن فعل ذلك فقد ألحد في ألوهية الله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

والآية تعني: «لا تقولوا لوصف ألسنتكم أو لأجل وصفكم الكذب أنكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره، هذا حلال وهذا حرام، يعني البحيرة والسائبة؛ لتفتروا على الله الكذب، فتقولون إن الله أمرنا بهذا»[(٢)].

ومن أشكال التحريم والتحليل والكذب على الله إصدار الفتوى بغير علم أو لتحقيق هدف أو انتصار لمذهب أو تزلف لسلطان أو حاكم.

٢. الإلحاد في الحاكمية:

تعتبر الحاكمية من أخص صفات الألوهية؛ لذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فأما قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقوله

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٠٣.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٠١.

تعالى بعدها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[المائدة: ٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٧].

فقد تباينت آراء العلماء فيمن نزلت على خمسة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في اليهود خاصة.

والثاني: أنها نزلت في المسلمين.

والثالث: أنها عامة في اليهود، وفي هذه الأمة.

والرابع: أنها نزلت في اليهود والنصارى.

والخامس: أن الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى.

وخلاصة القول: إن من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا له، وهو يعلم أن الله أنزله، كما فعلت اليهود، فهو كافر، ومن لم يحكم به ميلًا إلى الهوى من غير جحود، فهو ظالم وفاسق[(١)].

وفي جميع هذه الحالات الحكم بغير ما أنزل الله هو إلحاد وانحراف وعوج عن دين الله تعالى وحكمه وشرعه.

وختامًا فالإلحاد في الألوهية عند أهل الكتاب والمشركين والفرق الضالة له صور كثيرة غير ما أسلفنا، ومنها صرف القلوب بالخشية والخوف والحب والرجاء والنذر والذبح والركوع والسجود وما شابه لغير الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

أي: «ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أندادًا، أي: رؤساء وأصنامًا، يعظمونهم ويخضعون لهم»[(٢)].

٣. الإلحاد في أسماء الله وصفاته:

لقد سمى الله نفسه في القرآن الكريم بأسماء، ووصف نفسه بصفات لا تصح لغيره سبحانه تنزهت أسماؤه وعلت صفاته، فالأسماء الحسنى لا تكون إلا لله، والصفات العلى له، وهي محصورة ومقصورة على الله، ويجب أن تكون موصوفة بالحسن والكمال والجمال والجلال، وأي تعطيل أو تكييف أو تمثيل أو تشبيه فيها هو ضرب من ضروب الإلحاد.

وقد جعل الله «الإلحاد في أسمائه مظهرًا من مظاهر الكفر، وذلك بإنكار تسميته تعالى بالأسماء الدالة على صفات ثابتة له، وهو الأحق بكمال مدلولها»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

«والمراد من الأسماء في الآية وأحاديث

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٥٥٣.

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٩٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ١٨٩.

الرسول: التسميات بلا خلاف، وهي عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى، منها ما يستحقه لنفسه، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به، ومنها صفات لذاته، ومنها صفات أفعال، وهذه الأسماء عند العلماء توقيفية، فلا يسمى باسم لم يرد في القرآن والسنة كالرفيق والسخي والعاقل»[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة)[2].

ومعنى أحصاها: «عدها وحفظها وتفكر في مدلولها»[3].

وقد سمى الله نفسه ووصف ذاته قائلًا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨].

وقال: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣].

وقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

هذه الشواهد تبرز بمعنى واضح لا لبس فيه بتسمية الله نفسه بأسماء مثل الله، اللطيف، الخبير، السميع، البصير كما في الآيات السابقة وغيرها، وكذا الصفات السميع والبصير، وعدم وجود الشبيه أو المثيل له وأي ميل أو زيغ أو انحراف عنها هو إلحاد في أسمائه وصفاته تعالى.

ووردت عدة أقوال في الإلحاد في أسماء الله وصفاته ومنها:

قول الراغب الأصفهاني: «الإلحاد في أسماء الله على وجهين:

أحدهما: أن يوصف بما لا يصح وصفه به.

والثاني: أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به»[4].

وقال الزحيلي: «والإلحاد يكون بثلاثة أوجه:

أحدها: بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان.

الثاني: بالزيادة فيها، أي: التشبيه، فالمشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه.

الثالث: بالنقصان منها، أي: التعطيل، فالمعطلة سلبوه ما اتصف به، كما يفعل الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرونه بغير ما

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا، ٦/ ٢٦٩١، رقم ٦٩٥٧.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ١٧٣.
(٤) المفردات ص٤٩٥.

يذكر من أفعاله، وهكذا»[1].

خلاصة هذه الأقوال: إن الإلحاد في أسماء الله وصفاته يكون بالزيادة عليها أو إنقاصها، أو تبديلها وتغييرها والاشتقاق منها.

والتعطيل والتحريف والتمثيل والتكييف في أسماء الله وصفاته أوقع المشبهة والمعطلة في الضلال والإلحاد في أسماء الله وصفاته، ووجه ذلك أن الأسماء: «ألفاظ دالة على المعاني، فهي إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال، وهي محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره، وثبوت افتقار غيره إليه»[2].

ونفي معاني الأسماء الحسنى من أقبح وأفحش معاني الإلحاد في أسماء الله الحسنى.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

أي: «نفي معاني أسماء الله من أعظم الإلحاد»[3].

وممن ألحد في أسماء الله وصفاته أهل الكتاب والمشركون وغيرهم.

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ١٧٤.
(٢) المصدر السابق، ٩/ ١٧٥.
(٣) الإيمان بالله جل جلاله، الصلابي ص١١٥.

أولًا: إلحاد المشركين في أسماء الله وصفاته:

ورد في القرآن الكريم العديد من صور إلحاد المشركين في أسماء الله وصفاته ومنها:

١. اشتقاق المشركين أسماء لآلهتهم من أسمائه سبحانه:

نسب المشركون بعض أسماء الله إلى آلهتهم ظلمًا وافتراء على الله ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ «يميلون عن الحق، حيث اشتقوا منها أسماء لآلهتهم، كاللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة: من المنان»[4].

وفي ذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

«اللات وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، -تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا-، وكذا العزى من العزيز، وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧١.

ويهلون منها للحج إلى الكعبة»[1].

٢. إنكارهم اسم الرحمن:

لم يعترف المشركون باسم الله الرحمن زعمًا منهم أنهم لا يعرفونه بهذا الاسم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

«أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم»[2]، وقيل: «سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحجر ويقول: (يا الله يا رحمن)، فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين، فنزلت هذه الآية، ونزل ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

ثانيًا: إلحاد اليهود في أسماء الله وصفاته:

ورد في القرآن الكريم بعض صور إلحاد اليهود في أسماء الله وصفاته، مما يسفر عما في قلوبهم من زيغ وانحراف وضلال.

ومن هذه الصور:

١. وصفوا الله بالفقر:

وصف الله نفسه في القرآن الكريم بأنه الغني والمعطي والكريم، وألحد اليهود في اسمه الغني وصفته، وسموه ووصفوه بالفقير، فقال الله تعالى عن إلحادهم: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

«قيل: نزلت هذه الآية في اليهود. قالوا لما نزل قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]: إن الله فقير يستقرضنا ونحن أغنياء»[3].

٢. وصفوا الله بالبخل:

ذكر الله إلحاد اليهود في صفاته وتعديهم على ذاته الإلهية بوصفهم الله بالبخل -تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا-، وهو الجواد الكريم المعطي، فحقت عليهم اللعنة.

فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ [المائدة: ٦٤].

«عن ابن عباس أنه قال: ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة، لكنهم يقولون: إنه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٢٢- ٤٢٣.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٣٩٦.

(٣) الوسيط، الواحدي، ١/ ٥٢٨.

بخيل أمسك ما عنده، -تعالى ربنا عما يقول الظالمون-»[1].

ثالثًا: إلحاد الفرق الضالة في أسماء الله وصفاته:

ألحدت بعض الفرق التي تدعي الإسلام في أسماء الله وصفاته إما بالنفي أو التشبيه «فمن نفى عنه ما وصف به نفسه، وسماها به من أسماء فقد كفر، ومن شبه تلك الأسماء والصفات بأسماء وصفات المحدثين فقد كفر وأشرك»[2].

ومن صور إلحاد الفرق الضالة ممن يدعون الإسلام:

التأويل:

فيؤولون «استواء الله تعالى على العرش بالاستيلاء فرارًا من وصف الله تعالى بالاستواء على عرشه، وتأويل صفة العلو بالقهر فرارًا من وصف الجهة والتحيز»[3].

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

«أولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى، بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل»[4].

فلا يحل أن يسمى الله أو يوصف بما لا يليق به، ومن وقع في ذلك فقد ألحد في أسماء الله وصفاته.

ثانيًا: الإلحاد في الكتب المنزلة:

تعرضت الكتب السماوية الأولى للعديد من صور التحريف والتكتم والنكران من أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة: ٧٩].

ومن رحمة الله بهذه الأمة تنزيل القرآن الكريم، والذي تكفل الله بحفظه، وكشف ما ألحده أهل الكتاب في كتبهم الأولى، ومنها:

أولًا: إلحاد المشركين في كتاب الله:

من صور إلحاد المشركين في القرآن والتشكيك والطعن فيه:

١. نسبة القرآن للسان أعجمي:

ألحد المشركون في القرآن بأن نسبوه

(١) أخرجه الطبري في تفسيره، ١٠/ ٤٥٢.
(٢) عقيدة المؤمن، الجزائري ص١١٠.
(٣) المصدر السابق ص١١٠.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٧٣.

لنصراني أعجمي يلقيه على النبي صلى الله عليه وسلم فرد الله عليهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

«فمعنى يلحدون: يميلون عن الحق، فهم يتركون الحق القويم من أنه كلام منزلٌ من الله إلى أن يقولوا يعلمه بشر، فذلك ميل عن الحق، وهو إلحاد»[(١)].

فهم يلحدون في نسبة كلام الله الذي يتلوه عليهم النبي إلى لسان رومي أعجمي، وكلام الله نزل بلسان عربي، والله قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

أي: «أنزلناه بلغة العرب فصيحًا واضحًا، حتى تفهمونه وتتدبرونه»[(٢)]، فنسبة القرآن للعجمية إلحاد وزيغ عن وصفه قرآنًا عربيًا.

٢. الكذب على الله.

ومثاله قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

قال القرطبي: «والمعنى في هذه الآية ما سمى الله، ولا سن ذلك حكمًا، ولا تعبد به شرعًا»[(٣)].

فالكذب في سن أحكام ونسبة ذلك لله تعالى، إلحاد في التشريع.

ثانيًا: إلحاد أهل الكتاب في الكتب المنزلة:

فضح القرآن الكريم إفساد اليهود والنصارى في كتبهم وإلحادهم فيها، بالتحريف أو الإنكار أو التأويل الفاسد، ومن صور إلحاد أهل الكتاب في التوراة والإنجيل:

١. الكفر بآيات الله:

ذكر الله كفر أهل الكتاب بآياته فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

أي: «يكفرون بآيات الكتب المتلوة مطلقًا، أو التوراة أو آيات منها كالآيات التي فيها صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو التي فيها الرجم أو القرآن، وفي إضافة الآيات إلى اسمه تعالى زيادة تشنيع عليهم، وبدأ سبحانه بكفرهم بآياته؛ لأنه أعظم كل

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ٢٨٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢١٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٣٣٥.

عظيم»[1].

٢. تحريف الكلم عن مواضعه:

قال تعالى فاضحًا بعض خبايا اليهود القذرة، ومنها إلحادهم في كلامه سبحانه بتحريفه: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١].

وقال تعالى عنهم مرة ثانية: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

أي: إن اليهود كانوا «﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

ومن أمثلتها قال تعالى لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩].

أمرهم الله تعالى «أن يدخلوها سجدًا...، علامة على التواضع والخشوع، ويقولوا: حطة... أي: حط عنا ذنوبنا واغفر لنا، دخلوها على غير الهيئة التي أمروا بها، وقالوا قولًا آخر غير الذي أمروا به»[2]، «فقد بدلوا الحطة بالحنطة والحنطة هي القمح»[3] وقالوا: «حبة في شعرة»[4]، ومن تحريفهم للكلم قوله تعالى عنهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وتحريفهم الكلم جاء بعد عقلهم إياه وعلمهم به مبالغة في إلحادهم وزيغهم.

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

والاستفهام هنا «للاستبعاد أو للإنكار التوبيخي»[5]؛ لإلحادهم القبيح في كتبهم.

٣. إخفاء وكتمان الآيات والأحكام:

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

أي: «﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي: الميثاق، ﴿وَرَاءَ

(١) روح المعاني، الألوسي، ١/ ٣٤٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٧٣.

(٣) تفسير الشعراوي، ١/ ١٩٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، ٤/ ١٦٢٧، رقم ٤٢٠٩.

(٥) روح المعاني، الألوسي، ١/ ٣٧٣.

﴿ظُهُورِهِمْ﴾ فلم يراعوه ولم يلتفتوا إليه، وهذا مثل في ترك الاعتداد وعدم الالتفات»[1].

ومنها إخفاؤهم وكتمانهم آية وحكم رجم الزاني، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأةً زنيا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟). فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلامٍ: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة»[2].

٤. تجزئة الكتاب وتقسيمه:

فرق أهل الكتاب بين أحكام الله، فقبلوا ما ناسب أهواءهم وردوا ما خالفها.

فقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

لذا حذر الله تعالى المؤمنين من الإيمان ببعض الكتاب ورد بعضه كما فعل اليهود والنصارى فقال: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩٠-٩١].

«أي: قسموه إلى حق وباطل حيث قالوا عنادًا وعداوة، بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما»[3].

فمن يفعل فعلهم من المسلمين بتجزئة القرآن وأخذ بعض أحكامه وترك بعضها فهو إلحاد في القرآن، مشابهة لليهود والنصارى.

٥. نكران نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يعني: «محمدًا صلى الله عليه وسلم، جاء بالقرآن بصدق التوراة في الأخبار والأقاصيص، ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾ بالإيمان والنصرة له، وقبلتم؟

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ٥٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله إلى العربية، ٩/ ١٥٨، رقم ٧٥٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، ٣/ ١٣٢٦، رقم ١٦٩٩.
(٣) روح المعاني، الألوسي، ١٠/ ٧٢.

قالوا: ﴿أَقْرَرْنَا﴾، فقال الله للنبيين: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم»[1].

وقيل: «عهد إليهم في محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به.

قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا عهدًا في محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]»[2].

٦. التدليس في كتابة الكتب السماوية:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

أي: «يكتبون الكتاب أي: المحرف، أو ما كتبوه من التأويلات الزائغة بأيديهم، فإن نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحًا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل؛ ليشتروا به أي: يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ثمنًا، هو ما أخذوه من الرشا بمقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل»[3].

وهذا تدليس على الكتب السماوية وإلحاد واضح عن الحق النازل من عند الله، ومنها:

- تعطيل أحكام الكتب: الاحتكام إلى غير كتاب الله هو إلحاد وزيغ وميل عن كتب الله، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. «أي: ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتها، الرشوة والجاه، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ مستهينًا به منكرًا له ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله: ﴿الْكَافِرُونَ﴾ و﴿الظَّالِمُونَ﴾ و﴿الْفَاسِقُونَ﴾»[4].
- لي اللسان بالآيات: بإدخالهم في الكتب ما ليس منها، ولي اللسان بالآيات؛ لتحريفها عن معناها الصحيح؛ إلحادًا في كتاب الله. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٧٨]. «﴿يَلْوُونَ﴾ على التكثير، إذا أماله، ومنه والمعنى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ ويعدلون به عن القصد، وأصل اللي: الميل، لوى بيده، ولوى برأسه.

(١) الوسيط، الواحدي، ١/ ٤٥٨.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ١٤٦.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٢٠.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٢٨.

قوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النساء: ٤٦]. أي: عنادًا عن الحق، وميل عنه إلى غيره»[(١)].

ثالثًا: إلحاد الفرق الضالة في كتاب الله:

ومن صور إلحاد الفرق الضالة التأويل المنحرف لآيات القرآن.

ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠].

أي: «ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة»[(٢)]، ويلحدون في الآيات أي: «يميلون عن الحق، فيضعون الكلام في غير موضعه، ويحرفون كلام الله وآياته الدالة على قدرته وحكمته، لا يخفون علينا، سنجازيهم بما يعملون بالعقوبة والنكال، وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد، يقتضي الحذر والخوف»[(٣)]؛ لذا فضحهم الله في إلحادهم وهددهم بالوعيد لهم.

ثالثًا: الإلحاد في الحرم:

يعد الحرم المكي من أعظم الأماكن حرمة وتعظيمًا عند الله تعالى.

قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

وبارك في هذا البيت، وجعل في آيات للناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

وجعل مكة كلها حرمًا آمنا تعظيمًا للبيت الحرام، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل: ٩١].

«﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حرامًا شرعًا وقدرًا بتحريمه لها، وعن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها)»[(٤)][(٥)].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

أتاح الله لهم بلدًا هو حرم آمن يكونون

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ١٢١.
(٢) الموسوعة القرآنية، إبراهيم الإبياري، ١١/ ١٢٣.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٤/ ٢٤٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشدٍ على الدوام، ٢/ ٩٨٦، رقم ١٣٥٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٩٦.

فيه آمنين من العدو»[1]، ولقد كانت قريش تسافر وتتاجر في الأرض وهي آمنة لانتسابها للحرم المكي.

ومن صور الإلحاد في الحرم:

١. قتل الصيد في الحرم:

نهى القرآن الكريم عن الصيد في الحرم وحال الإحرام، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾[المائدة: ٩٥].

وقال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗا﴾[المائدة: ٩٦].

وقتل الصيد في الحرم إلحاد فيه؛ لأنه هتك لحرمة الحرم.

٢. الصد عن المسجد الحرام:

الصد عن المسجد الحرام إلحاد فيه، لذا حذر الله من الصد عن الحرم، بصد الناس ومنعهم من الصلاة فيه أو الحج إليه.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[الحج: ٢٥].

وقد عاب الله على أهل مكة بمنعهم النبي صلى الله عليه وسلم والصحب الكرام من أداء العمرة ودخول البيت يوم الحديبية فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾[الفتح: ٢٥].

«يعني كفار مكة، ومعنى صدهم عن المسجد الحرام: أنهم منعوهم أن يطوفوا به ويحلوا عن عمرتهم»[2]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾[البقرة: ١١٤].

والمراد هنا «هم المشركون حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت يوم الحديبية»[3].

٣. اقتراف المعاصي في الحرم أو الهم بها:

اقتراف المعاصي الصغيرة أو الكبيرة في الحرم أو إرادة المعصية والهم بها في الحرم هي إلحاد في الحرم وانتهاك لحرمته وعظمته؛ لذا قال تعالى عن الإلحاد والهم به في البيت الحرام: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[الحج: ٢٥].

أي: «عادلًا عن القصد والاستقامة، ظالمًا، أو يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار، عامدًا قاصدًا، وهو من خصوصية الحرم»[4].

وقيل: «﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ﴾ الانحراف والميل نحو الظلم والبغي»[5]، والإلحاد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ١٤٨.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٧٦.
(٣) المصدر السابق، ١/ ٢٠٥.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٧/ ١٨٨.
(٥) التفسير الحديث، دروزة، ٦/ ٢٣.

بمعنى: «المعاصي الكبار»[1]، والمقصد بالإلحاد هنا: «الظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر، فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على النية السيئة فيه»[2].

ومعلوم عند المسلمين أن المعصية تعظم في الحرم كما أن الأعمال الصالحة تعظم ويضاعف ثوابها لبركة المكان وعظمته وحرمته.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٤١١.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ١٧/ ١٨٩.

أسباب الإلحاد

سلوك الخلق الإلحاد في الدين عمومًا له أسباب عديدة، وهو سلوك مخالف ومناف للفطرة السليمة، ولا يسلك طريق الإلحاد إلا منحرف عقليًا أو قلبيًا، وأسباب الإلحاد متعددة، ومن هذه الأسباب:

أولًا: الجحود:

والجحود يقوم على رفض الإيمان بالرسل، ونكران الآيات التي جاءوا بها، مع علمهم بصدق الرسل.

قال تعالى عن قوم عاد: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

«جحودهم بآيات ربهم، وعصيان رسله. واتباع أمر الجبارين من عبيده»[3].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ثانيًا: الظلم والعلو:

الظلم انتقاص للحقوق، والعلو التكبر.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

«أي: ظالمين عالين، أي: الحامل لهم

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٤٤.

على ذلك الظلم والعلو، أي: جحدوا بها جحودًا ظلمًا وعلوًا»[1].

وإلحادهم انتقاص من الآيات وتكبر عليها، رغم وضوحها وبيانها.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

أي: «إصرارًا منهم على الكفر»[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«روي أن الوليد بن المغيرة كان يقول: لو كان ما يقوله محمد حقًا لنزل علي أو على أبي مسعود! فقال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[الزخرف: ٣٢]. يعني: النبوة فيضعونها حيث شاءوا»[3].

وهذا من مرض الكبر في قلب الوليد وظلمه وعلوه، وهو الذي قاده للإلحاد.

رابعًا: الجهل:

عدم المعرفة وسوء التقدير، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

«إنكم أيها القوم قوم تجهلون عظمة الله وواجب حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السماوات والأرض»[4]، فالذي حملهم على الإلحاد جهلهم بالله تعالى.

خامسًا: الغلو:

تجاوز الحدود المبالغ فيه، أو الإهمال والتقصير في المطلوب، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

«أي: في دينكم المخالف للحق، وذلك أنهم خالفوا الحق في دينهم، ثم غلوا فيه بالإصرار عليه»[5].

والغلو: هو التنطع في الدين، والإفراط والتفريط به.

سادسًا: الحقد والكراهية:

وهي أمراض قلبية تشتمل على الغل والبغض، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

أي: «من بعد ما تبين أن محمدًا رسول

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ١٨٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ٥١.
(٣) المصدر السابق، ١٦/ ٨٣.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٨٠.
(٥) الوسيط، الواحدي، ٢/ ٢١٤.

الله، يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسدًا وبغيًا، إذ كان من غيرهم»[1]، وحقدهم يهدف إلى حرف المؤمنين عن طريق الله وزوال نعم الإيمان عنهم، ومماثلتهم لليهود في إلحادهم.

سابعًا: المرض القلبي:

ليس المقصد هنا المرض العضوي، وإنما المرض المعنوي، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

«قالوا: قلوبنا في أكنة وأغطية وغلف»[2]، وكأن الإلحاد مرض قلبي يجعل على قلوبهم غشاوة تحجب عنهم الإيمان.

ثامنًا: الإلحاد بالتضليل:

التضليل حمل الناس على الباطل، وهنا أمرهم بالتسوية بين الله والأصنام وهذا من الإلحاد.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٩٨ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٨-٩٩].

«والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم: رؤساؤهم وكبراؤهم»[3]، حيث أمروهم وأضلوهم بالتسوية بين آلهتهم ورب العالمين؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

أي: «يعدلون بربهم الأوثان أي: يسوونها به سبحانه»[4]، وتسويتهم بين الله وأصنامهم وعدلهم به، إلحاد ضلوا وأضلوا غيرهم به بما كان يمليه عليهم المجرمون الملحدون بالتسوية بين الله وأصنامهم.

تاسعًا: العداء لله تعالى وملائكته ورسله:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

«أراد بعداوة الله مخالفته عنادًا، أو معاداة المقربين من عباده»[5].

فالملحد عدو لله ولملائكته ورسله؛ لكفره بهم ولعداوته لهم.

والقرآن الكريم بهذه الأسباب يوجهنا إلى ضرورة تفقد القلوب من الأمراض القلبية؛ كالجحود والظلم والعلو والكبر وغيرها؛ لأنها تقود إلى الإلحاد والانحراف عن المنهج المستقيم، وعلاجها الاستشفاء بالقرآن الهادي بآياته ودلائله إلى الإيمان والتوحيد، وعدم اتباع الهوى والشهوات؛ لأنها مفسدة تؤدي إلى الإلحاد، والسلامة والنجاة من الإلحاد تكون باتباع هدي النبي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٦٥.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٣٢٤.
(٣) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٣٢٢.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٥٣.
(٥) المصدر السابق، ١/ ٩٦.

صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله.

فالهداية والرشاد والإيمان نعم من الله تعالى توجب الحمد والثناء على الله؛ لحفظه المؤمنين من الإلحاد الذي يكدر صفو حياتهم، وجعلهم يحيون بنور الإيمان.

منهج القرآن في إبطال الإلحاد

اتبع القرآن الكريم العديد من المناهج والأساليب المتنوعة في إبطال الإلحاد، وإيراد الأدلة والبراهين؛ لدحض الإلحاد، والرد على المنكرين لوجود الله، ومن هذه المناهج:

أولًا: الحوار الإقناعي:

وهو المحاجة بالتي هي أحسن من خلال ذكر الدليل بموضوعية وعقلانية؛ لإقامة الحجة على الملحدين، وقد ورد في القرآن الكريم العديد من صور المحاجة بين أنبياء الله وأقوامهم ومعانديهم.

ومنها حوار إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقد قص القرآن حجج إبراهيم في مواضع أخرى، فقال تعالى عن حوار إبراهيم مع النمرود وإقامة الحجة عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وحوار إبراهيم مع أبيه وقومه قال تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٤].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٧].

فبالرغم من بيان الدليل ألحدوا وكفروا، وهذا من منهج القرآن في مواجهة الإلحاد وإبطاله بالحوار الإقناعي للطرف الملحد بإبراز الأدلة والبراهين وإقامة الحجة عبر الحوار.

ومنه حوار موسى مع فرعون وإلجامه بالدليل والبرهان.

قال تعالى عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٣٣].

فالحوار أحد أساليب القرآن لإبطال الإلحاد الفكري، ويكون بالحوار الفكري والمنطقي والعلمي.

ثانيًا: إيراد الأدلة والبراهين:

ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي تحمل الدليل والبرهان الساطع على إفراد الله وتوحيده، والرد على الملحدين في ألوهيته، ونفي الولد عنه، وفساد الكون في حال كان فيه شركاء.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

«أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال»[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٤٢٧.

﴿يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢].

«وهكذا الحق يصرف لنا الأمثال ويوضحها؛ ليجلي هذه الحقيقة بالعقل وبالنقل: لا إله إلا الله، واتخاذ آلهة معه سبحانه أمر باطل، وبذلك يرد على الذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل من قالوا: العزير ابن الله أو المسيح ابن الله، أو اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله»[1].

وهذا من منهج القرآن في رد الإلحاد وإبطاله بإيراد الأدلة والبراهين الساطعة على الملحدين.

ثالثًا: التحدي والإعجاز:

لقد تحدى القرآن الكريم الخلق جميعًا على معارضة القرآن أو الإتيان بمثله أو بعضه فعجزوا، وهذا التحدي المستمر والباقي هو أحد أساليب القرآن في الرد على الملحدين في كل زمان وفي أي مكان.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤].

أي: «لقد تحداهم بأن يأتوا أولًا بمثل القرآن، فلم يستطيعوا، ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور، فلم يستطيعوا، وتحداهم بأن يأتوا بسورة، ثم تحدى أن يأتوا ولو بحديث مثله، فلم يستطيعوا، وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدي، وهو أن يأتوا بعشر سور»[2].

ومثاله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

هذا مثل؛ لبيان عجزهم عن خلق الذباب، والامتناع عما يفعل بهم وعجزهم إن أخذ الذباب منهم شيئًا ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ مع غاية ضعفه، ولقد جهلوا في إشراكهم بالله القادر على جميع المقدورات المنفرد بإيجاد كافة الموجودات، والتماثيل هي أعجز الأشياء قدرة على الخلق، وتعجز عن ذب الذباب عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه منها[3].

عجز الخلق عن التحدي القرآني لهم،

(١) تفسير الشعراوي، ١/ ٥٨٤٢.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٤١٥٣.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ١٢١.

من أهم صور إبطال الإلحاد، واستمرارية هذا التحدي، وهذا الإعجاز يرد كيد الملحدين إلى نحورهم.

رابعًا: الدعوة إلى التوحيد:

الدعوة إلى الله من أهم أساليب القرآن في هداية الخلق إلى ربهم وإبعادهم عن الإلحاد، لما في الدعوة إلى الله من إنارة الطريق أمام المدعوين للدخول في رياض الإيمان، ومنهج القرآن هو دعوة المشركين عمومًا إلى التوحيد والعبادة، وتجديد الدعوة إلى الإيمان لأهل الكتاب.

ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

فالدعوة إلى الله منهج قرآني أصيل في إبطال الإلحاد، وسبيل سار عليه الأنبياء في هداية أتباعهم وإقامة الحجة عليهم يوم القيامة.

خامسًا: ضرب الأمثال:

تعتبر الأمثال من أبرز صور التقريب للأذهان التي سلكها وانتهجها القرآن الكريم في إقناع الخلق، والرد على الملحدين في شبهاتهم وانحرافهم عن الطريق المستقيم.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

«هذا إبراز لأعمال الكفار وعاقبتها؛ لعدم فعلها إيمانًا بالله، فهو تمثيل حال الذين كفروا في أعمالهم التي يعملونها وهم غير مؤمنين بحال من ركب البحر يرجو بلوغ غاية، فإذا هو في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض لا يهتدي معها طريقًا، وهذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة»[1].

هذه بعض أساليب ووسائل القرآن في علاج وإبطال الإلحاد والرد عليه كمنهج قرآني أصيل في توجيه العباد لما يصلح حالهم ويردهم للصواب، ومن أعرض فقد رد حجة الله وبالغ في إلحاده وإعراضه عن المنهج القويم الذي جاء به المرسلون.

وهذه الأساليب في منهج القرآن في الرد على الإلحاد وإبطاله ترسم لنا الطريق وتهدينا إلى الإقبال على القرآن بقلب مفتوح دون حكم مسبق، والاستفادة من تعدد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ٢٥٥.

أساليب القرآن في إبطال الإلحاد والرد على شبهات الملحدين، ووضع الحلول لما أصاب قلوبهم من أمراض، وما أصاب عقولهم من اللوثة الفكرية، فالله خلق الناس على الفطرة السوية، والإلحاد مكتسب يمكن علاجه بالدعوة إلى الله.

آثار الإلحاد على الفرد والمجتمع

للإلحاد آثار ضارة على حياة الفرد والمجتمع لما فيه من الانحراف والزيغ عن الفطرة السوية السليمة، والخير والمنفعة لا تكون إلا بالالتزام بدين الله وتوحيده وعبادته كما أمر، وعدم العدول عنها، فإذا ما عدل الإنسان عنها فسدت دنياه وآخرته:

أولًا: أثر الإلحاد على الفرد:

إن انعكاس الإلحاد وأثره على الفرد سيء في حياته ونفسه ومعيشته، ومن آثار الإلحاد على الفرد:

١. ضنك العيش.

توعد الله المعرض عنه والملحد في دينه بنكد العيش وصعوبة الحياة وشدتها عليه، كأثر لإلحاده وإعراضه عن منهج ربه.

فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

«المعيشة الضنك: أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها، وله معيشة حرام يركض فيها»[(١)].

٢. ضيق الصدر.

المؤمن منشرح الصدر بإيمانه، والضال تضيق الدنيا عليه بسعتها وتضيق عليه نفسه

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ١٨١.

بسبب كفره وضلاله وإلحاده.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أي: «إن الله يشرح صدر المؤمن لقبول الإيمان وأنواره، فيؤمن ويسلم ويحسن فيكمل ويسعد، ومن طلب الغواية ورغب فيها، هيأ له أسبابها وفتح له بابها، فجعل صدره ضيقًا حرجًا لا يتسع لقبول الإيمان، فكأنه يتكلف الصعود إلى السماء، وهذه سنته في الهداية والإضلال»[(١)].

والإلحاد ينعكس على الملحد بضيق الصدر والقلق والاضطراب في الحياة بسبب فقدان الإيمان.

٣. الختم على الحواس.

الملحد يطبع الله على حواسه ويختم عليها، فلا يفقه ولا يبصر ولا يسمع بسبب جحوده وزيغه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أي: «﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ دلائل قدرة الله، بصر عظة واعتبار ولهم آذان لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ أولئك كالأنعام في عدم الفهم والبصر والاعتبار ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام»[(٢)].

والملحد لا يستشعر قدرة الخالق الموجودة والمبثوثة في صفحات الكون بسبب فقدان حواسه لها، فلا يرى دلائل قدرة الله، ولا ينتبه لما يسمع من آيات الله؛ ليهتدي به، فقلبه مطبوع عليه بسبب كفره وإلحاده.

٤. الضلال والشقاء.

الضلال والشقاء قرينان لا ينفكان عن بعضهما، فالملحد ينعكس عليه إلحاده بالضلال والشقاء فلا يهتدي، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وسبب الضلال وعدم الهداية هو الإلحاد في الألوهية، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۗ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۖ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

فالملحد غير مهتدٍ للحق والإيمان، فهو

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ١١٧.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ١٦٦.

مخلوق ضال وشقي.

٥. الحيرة والتردد والاضطراب.

المؤمن يعرف طريقه ولا يحيد عنها، فهو يؤمن بربه النافع الضار بيده كل شيء فهو يركن لربه، أما الملحد فلا هدف له إلا شهواته، مما يجعله حيران وتائه ولا ركن له.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

«أنعود إلى الكفر والشرك والضلال بعد الإسلام والهدى والنور؟ أنعود إلى ملة الكفر بعد إذ هدانا الله، ووفقنا إلى صراط مستقيم، وإننا إذا فعلنا ذلك كنا ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وذهبت بعقله، وأطارت صوابه ولبه، وأصبح ﴿حَيْرَانَ﴾ تائهًا لا يدري كيف يسير»[(١)]، فمن يدعو غير الله فهو ملحد، فهو يركن لمن لا يملك له ضر ولا نفع، فيبقى حيران مضطربًا لا مرشد له.

٦. التخبط في الحياة.

المؤمن بالله يعيش في حياة نورانية، يسير فيها بخطى ثابتة، والملحد يتخبط في ظلمات الإلحاد والانحراف، ولا يستطيع الخروج منها، فهو لا يشبع من حطام الدنيا.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

«﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بالكفر فأحييناه بالهدى، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يتبصر به الحق من غيره وهو الإيمان، ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وهو الكافر، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ زين للمؤمنين الإيمان كما ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي»[(٢)].

إن الملحد هو ضال كافر وشقي، وإن إلحاده يعود عليه بضنك العيش والتخبط والتردد والاضطراب وعدم الهداية؛ لطمس آلة الاستقبال عنده المتمثلة في حواسه، والتي أبطل الإلحاد الإدراك بها، والاستجابة لها بما يصلح حاله.

ثانيًا: أثر الإلحاد على المجتمع:

أثر الإلحاد على المجتمع خطير جدًا، يؤدي إلى فساده ودماره وإهلاكه، ومن هذه الآثار:

١. ضياع الحقوق.

الإلحاد في الحاكمية بتحكيم غير شرع

(١) التفسير الواضح، الحجازي، ١/ ٦٢٩.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٨/ ٢٧.

الله يضيع الحقوق بين المخلوقين ويفسد قضاءهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

أي: «﴿وَتُدْلُوا۟﴾ تلقوا بالأموال إلى الحكام رشوة؛ للوصول إلى الحكم القضائي لصالحكم بالإثم، أي: الظلم والتعدي: وهو شهادة الزور أو اليمين الكاذبة الفاجرة أو نحوها»[1].

٢. فساد الحياة.

الملحدون يفسدون حياة المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وبفسادهم يستحقون فساد حياتهم، فالجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣].

٣. تمزق المجتمع.

التمسك بكتاب الله يجمع الصف ويوحد المجتمع، والبعد عن منهج الله والإلحاد فيه يمزق المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فعدم التمسك بحبل الله يقود إلى تمزيق المجتمع وتفرقه، والقرآن حبل الله لعباده في الأرض، نكران الاعتصام بحبل الله إلحاد في كتابه.

٤. الصغار والذل.

العزة والكرامة منحهما الله للمؤمنين أهل التقوى والصلاح، والذل والصغار جعلهما للعصاة والملحدين.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أي: «في الآيات تقرير لمظهر من مظاهر النظام الذي أقام الله عليه الاجتماع البشري، وهو وجود زعماء ماكرين مجرمين في كل بيئة، دأبهم الكيد والمكر والوقوف من رسل الله ودعاة الخير موقف التعطيل والعناد، فإذا جاءتهم آية كابروا، والآية فيها إنذار قاصم بأن الماكرين المجرمين سيصيبهم

(١) المصدر السابق، ٢/ ١٦٣.

هوان وذلة عند الله»[1].

فالمجتمع الملحد بما أرسل به الرسل، والتنكر لهم وعدم الإيمان بهم كرسل من عند الله، ميلًا عن الحق الذي أكرمهم الله به، فإنه يجلب الصغار والذل والهوان لأفراده.

٥. هلاك المجتمع.

الهلاك نتيجة حتمية؛ لفساد المجتمع وإلحاده وكفره، فالله لا يصلح عمل المفسدين، فإذا ما كفر الناس وظلموا وقع بهم الهلاك.

لذا قال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٠-١٣١].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

«فلا يغرنهم إمهال الله لهم، فإن موعدهم بعد ذلك آتٍ»[2]، فإهلاك القرى يأتي بسبب ظلمهم، والملحد ظالم لربه لما ينتقصه من حقه سبحانه، فالمجتمع الملحد الظالم يقود المجتمع إلى الهلاك.

٦. زوال النعمة.

من تمام نعمة الله وفضله أنه لا يسلب قومًا نعمة أنعمها عليهم حتى يلحدوا في نعمه ودينه.

وضرب الله سبأ مثلًا لذلك، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

«لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال الجاحدين لها، فلما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل الله عليهم نقمة سلب بها ما أنعم به عليهم»[3].

٧. حرمانهم من البيت الحرام.

حرم الله على المشركين دخول الحرم لنجاستهم، فبسبب شركهم وإلحادهم حرم عليهم دخول الحرم حتى يسلموا.

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

بمعنى: «فلا يدخلوا الحرم، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله، وقيل:

(١) التفسير الحديث، دروزة، ٤/ ١٥٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٧٦.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٦٧.

المراد المنع عن الحج والعمرة، أي: لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا»[1].

٨. حرمانهم من دخول الجنة.

من أعظم انعكاسات الإلحاد والتكذيب بآيات الله حرمان الملحدين والمجرمين من دخول الجنة يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

٩. فتنة المجتمع.

الإلحاد وتنوعه واختلافه يشتت المجتمع ويشعل فيه نار الفتنة ويعرضه للعذاب.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

«فليحذر المخالفون عن أمر الله، أو أمر رسوله، أو أمرهما جميعًا، إصابة فتنة لهم، والفتنة هنا: غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن، وقيل: هي القتل، وقيل: الزلازل، وقيل: تسلط سلطان جائر عليهم، وقيل: الطبع على قلوبهم»[2].

إن آثار الإلحاد على الإنسان والمجتمع مدمرة، أما الإيمان فهو حماية للفرد والمجتمع من كدر الحياة وضنك العيش، فالمؤمن المهتدي حي بنور الإيمان، والملحد الكافر ميت يعيش في الظلمات ولا يستطيع الخروج منها، فالإلحاد يفسد حياة الأفراد والجماعات، لما فيه من الزيغ والميل والعوج.

موضوعات ذات صلة:

أسماء الله، الإيمان، التوحيد، الشرك، صفات الله، مكة

(١) صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٤٩٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٦٨.

الألوهية

عناصر الموضوع

مفهوم الألوهية	٢٥٨
الألوهية في الاستعمال القرآني	٢٥٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٦٠
الألوهية أصل التوحيد	٢٦٢
أركان الألوهية	٢٦٩
نفي ألوهية غير الله	٢٧١
منهج القرآن في إثبات الألوهية	٢٧٧
حقوق الألوهية	٢٨٣
مدعو الألوهية في القرآن	٢٨٥

مفهوم الألوهية

أولًا: المعنى اللغوي:

الهمزة واللام والهاء أصل واحد، أله يأله من باب تعب إذا تحير؛ إذ العقول تتحير في معرفته، وقيل: من أله الفصيل إذا أولع بأمه؛ إذ العباد مولعون بالتضرع إلى الله، وأصله وله يوله، إلاهة وألوهة وألوهية، بضمهما، بمعنى عبد عبادة، وتأله تعبد، والإله المعبود وهو الله عز وجل، ثم استعاره المشركون لما عبدوه من دون الله تعالى من الأصنام وغيرهم؛ لاعتقادهم أن العبادة تحق لها، والتأليه: التعبيد، والتأله: التنسك والتعبد، وقيل: اشتقاقه من ألهت إليه: أي فزعت إليه.

قال سيبويه: الإله أصل اسم اللاه تعالى، فحذفت الهمزة، وجعلت الألف واللام عوضًا لازمًا، فصار بذلك كالاسم العلم، والجمع آلهة وأله إلاهة بالكسر، ومنه قولنا: (الله) وأصله إلاه على فعال، بمعنى مفعول؛ لأنه مألوه، أي: معبود، كقولنا: إمام فعال بمعنى مفعول؛ لأنه مؤتم به[1]. وأله فلانًا: اتخذه إلهًا، وتأله فلان: تنسك وتعبد، وادعى الألوهية، و(التأليه) القول بوجود إله مدبر للكون[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والإله المألوه الذي تألهه القلوب، وكونه يستحق الألوهية مستلزم لصفات الكمال، فلا يستحق أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلا هو، وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل، وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد»[3].

والإله الحق هو الذي تحق له العبادة وتجب دون غيره من المعبودات[4].

وتوحيد الألوهية: صرف جميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة لله تعالى، دون شرك أو رياء، كالخوف، والرجاء، والتوكل، والصلاة، والزكاة.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٢٣، مختار الصحاح، الرازي، ص ٢١، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٩.

(٢) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ص ٢٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٥.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨٤٦.

(٤) انظر: المخصص، ابن سيده ٥/ ٢١٦.

الألوهية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أله) في القرآن (٢٨٥١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسمًا مفردًا	١١١	﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]
اسمًا جمعًا	٢	﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل:٥١]
اسمًا مجموعًا	٣٤	﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان:٣]
لفظ الجلالة (الله)	٢٦٩٩	﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص:١]
اللهم	٥	﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس:١٠]

ويدور معنى الألوهية في القرآن الكريم حول العبادة واللجوء[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٨-٧٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص١٠٧.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١٢-٣٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ١٠٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الربوبية:

الربوبية لغةً:

الرب: هو الله عز وجل، هو رب كل شيء، أي: مالكه ومستحقه، وله الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له، وهو رب الأرباب، ومالك الملوك والأملاك، والرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل وإذا أطلق على غيره أضيف، فقيل: رب الدين ورب المال[١].

الربوبية اصطلاحًا:

أما الربوبية فهي مصدر صناعي، وهي صفة لله تعالى بكونه ربًا[٢].

الصلة بين الألوهية والربوبية:

والذي يظهر أن كلًا منهما يستلزم الآخر، فالإله الحق يلزم أن يكون متصفًا بصفات الربوبية، واتصافه بصفات الربوبية يلزم منه أن يكون إلهًا.

٢ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه[٣].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»[٤].

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٩٩، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢١٤.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٦٣، معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي، ص ٢١٩، المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي، ص ٤٦٢.
(٣) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١٤٤٨.
(٤) التوقيف، ص ٢٣٤.

يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى »[1].

الصلة بين الألوهية والعبادة:

إن بين الألوهية والعبادة علاقة وثيقة، فالإقرار بالألوهية ينتج عنها بالضرورة العبادة، فصفات الألوهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله عز وجل، فإذا عرفنا ذلك واعترفنا به حقًا أفردناه بالعبادة كلها، الظاهرة، والباطنة، فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة: كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والقيام بحقوق الله، وحقوق خلقه، وغير ذلك من العبادات.

(١) المفردات، ص ٣١٨.

الألوهية أصل التوحيد

لقد أقر المشركون بأن الله الخالق والرازق، ولكنهم أشركوا في توحيد الألوهية والعبادة.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[العنكبوت: ٦١].

لذا كانت دعوة رسل الله جميعًا إلى توحيد الألوهية وعدم الإشراك في عبوديته أحدًا مما خلقه الله جل جلاله .

أولًا: حاجة العبد الفطرية إلى الله سبحانه وتعالى:

إن شعور الإنسان بألوهية الله، وبوجود الله الواحد الأحد هو شعور فطري مستقر في أساس تكوينه، وعلاقته بخالقه هي علاقة المخلوق بخالقه الرحمن الرحيم، وهي علاقة لا يستطيع أي مخلوق دفعها، أو الحياد عنها، فشعور الإنسان بوجود الله خالقه، هو ضرورة من ضروراته التي لا يستطيع أن يتخلى عنها، فحاجة الإنسان إلى الإيمان بالله كحاجته إلى التنفس، وإلى الطعام والشراب، والراحة، فإذا كانت حاجاته هذه قانونًا من قوانين وجوده المادي، فإن إيمانه بالله الخالق، الرحمن، الرحيم، هو قانون من قوانين وجوده الروحي، وضرورة من ضروراته.

لقد كرم الله عز وجل الإنسان بنور الفطرة التي يستطيع بها أن يعرف ربه، ويستدل بها على الصراط المستقيم الذي ارتضاه لنا وذلك من التدبر في آلائه ونعمه، وقضية الإيمان بخالق للإنسان والكون والحياة، قضية راسخة في الفطرة الإنسانية عميقة الجذور، عمق الشعور بالذات البشرية واحتياجاتها وعجزها وافتقارها إلى الملجأ والملاذ.

فكما يشعر الإنسان بعمق غرائز الأبوة والأمومة وحب البقاء وحب التملك في كيانه، يشعر بالقلق والاضطراب في روحه أيضًا إن لم تشبع بالطريقة السليمة، وتوجيهها الوجهة السليمة للمعبود الحق[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[الأعراف: ١٧٢].

الحديث هنا عن أقدم وأول ميثاق أخذه الله سبحانه وتعالى على كافة العباد، وهم لا يزالون في أصلاب آبائهم في عالم الذر، وهذا الميثاق هو ميثاق فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهو يتضمن في جوهره الإقرار بربوبية الله وبعبودية الإنسان، على أساس من التوحيد والإيمان، فما من إنسان إلا وولد على فطرته الأولى التي أرادها الله

(١) انظر: التفسير الموضوعي، مسلم، ص٩٥.

جل جلاله، ولم تتعرض فطرته لعوامل التشويه والإفساد، إلا وهو مقر بألوهية الله وربوبيته للعباد، ومعترف من أعماق قلبه بهذا الميثاق، وملتزم بجميع نتائجه وآثاره على الإطلاق، دون معارضة، ولا جحود أو تكبر، ودون أي حجج واهية[1].

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء).

ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠][2].

ومن أدلة حاجة العبد إلى ربه جل جلاله أنه يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى حين ييأس من كل شيء حوله، وحين يمسه الضر، وحين يفقد قوته.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾[يونس: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

إن افتقار المخلوق إلى أن يكون عبدًا لله تبارك وتعالى هو افتقار ذاتي فطري، وهو حاجة ملحة لا يسدها حقًا إلا عبادة الله وحده لا شريك له، وهو الذي أودع في العبد هذه الحاجة الفطرية، والمشركون والملحدون يلجؤون إلى الله في أوقات الشدة؛ لأن في داخلهم افتقارًا لله سبحانه وتعالى، وهذا الافتقار الذاتي إلى عبادة الله من فطريته وضروريته في النفس الإنسانية، أنه لا يمكن أن ينكره منكر، ولا يكابر فيه مكابر، حتى الكفار الذين جحدوا آيات الله، وعاندوا أنبياء الله عز وجل، وردوا ما جاءوا به من أمر الله، واستكبروا على عبودية الله، فإنك في وقت الشدة تراهم يذعنون لله تبارك وتعالى بالعبودية، ويظهرون الافتقار والحاجة إليه، في وقت الضرورة الذي تنتفي فيه كل البهارج وكل ما يكون على

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٧، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨.

القلب من الكبر والعتو[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[الروم: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[الزمر: ٨].

أن يتضرع الناس ويلجؤون وقت الشدة إلى الله، ويعترفون أنه لا ملجأ ولا منجىً منه إلا إليه، وأنه هو الذي يغيث الملهوف، وينقذ المكروب ويكشف الغم هي فطرة، فطر الله سبحانه وتعالى عليها كل واحد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتديًا بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك -أحسبه قال: ولا أدخلك النار- فأبيت إلا الشرك)[2].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «إن أكثر الناس على أن الإقرار بالصانع ضروري فطري؛ وذلك أن اضطرار النفوس إلى ذلك أعظم من اضطرارها إلى ما لا تتعلق به حاجتها، ألا ترى أن الناس يعرفون من أحوال من تتعلق به منافعهم ومضارهم، كولاة أمورهم ومماليكهم وأصدقائهم وأعدائهم، مالا يعلمونه من أحوال من لا يرجونه ولا يخافونه، ولا شيء أحوج إلى شيء من المخلوق إلى خالقه، فهم يحتاجون إليه من جهة ربوبيته؛ إذ كان هو الذي خلقهم، وهو الذي يأتيهم بالمنافع، ويدفع عنهم المضار»[3].

إن الإنسان متدين بالطبع وبالفطرة.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠].

ومهمة المربين من آباء ومعلمين ودعاة ومصلحين تربية فطرة المسلم على الإيمان الصحيح وخشية الله وعبادته، والتعليم والقدوة أساس الفضيلة والأخلاق؛ ولذلك كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٤١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا، ٤/ ٢١٦٠، رقم ٢٨٠٥.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٤٧.

لها قيمة تربوية خلقية، وقد أمرنا الله جل جلاله بأن نتبع الرسول وأن نأخذ ما آتانا وبه ونتهي عما نهانا عنه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

والتدين فطرة في الإنسان، يسعد به من هداه الله، فيظهر عليه، ويعيش في رحابه، ويحيا على آدابه، ويخفيه ويقاومه من لم يهده الله، فلا يظهر عليه، ولا يعيش في رحابه، ولا يعرف آدابه، ولا ينطق به إلا وقت الشدائد، يوم لا ينفع نفسًا تدينها ولا إيمانها، ويصيرون كمن إذا أدركته المنية يقول آمنت، يوم لا ينفع الإيمان.

ومما سبق يتضح أن بني آدم جميعًا يشعرون بحاجتهم وفقرهم، وهذا الشعور أمر ضروري فطري، فإذا ألمت بالإنسان -حتى المشرك- مصيبة قد تؤدي به إلى الهلاك فزع إلى خالقه سبحانه، والتجأ إليه وحده، واستغنى به، ولم يستغن عنه، وأدرك أنه لا إله إلا هو، وشعور هذا الإنسان بحاجته وفقره إلى ربه تابع لشعوره بوجوده وإقراره، فرجوع الإنسان وإنابته إلى ربه عند الشدائد دليل على أنه يقر بفطرته بخالقه وربه سبحانه، وهكذا كل إنسان إذا رجع إلى نفسه أدنى رجوع عرف افتقاره إلى الباري سبحانه وتعالى في تكوينه في رحم أمه وحفظه له، وعرف كذلك افتقاره إليه في بقائه وتقلبه في أحواله كلها.

والاعتراف بأن الله هو الخالق لا يتضمن مجرد الإقرار بذلك فقط بل إقرارًا يتبعه عبودية لله بالحب والتعظيم وإخلاص الدين له، وأصل الإيمان قول القلب وعمله، والقلب مفطور على ذلك، وإذا كان بعض الناس قد خرج عن الفطرة بما عرض له من المرض، إما بجهله وإما بظلمه، فجحد بآيات الله واستيقنتها نفسه ظلمًا وعلوًا، لم يمتنع أن يكون الخلق ولدوا على الفطرة.

ثانيًا: الألوهية أصل دعوة الرسل، ومنهجهم في الدعوة إليها:

إن الله عز وجل خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، وأرسل الرسل لبيان هذه الحكمة والدعوة إليها، وبيان تفصيلها وبيان ما يضادها، هكذا جاءت الكتب السماوية، فجميع الرسل عليهم السلام دعوا إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

﴿رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والعبادة حق الله على عباده، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا)[1].

ولقد وردت آيات كثيرة تبين حال الرسل ومنهجهم مع أقوامهم فيقولون لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقد تكررت هذه الآية في القرآن الكريم كثيرًا؛ لأن هذا هو هدف الدعوة إلى الله، عبادة الله وحده.

فبعث الله سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم ليجدد لهم دين أبيهم إبراهيم؛ حيث إنهم أشركوا في الألوهية بحجة أن معبوداتهم تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله عز وجل، لا يصلح منه شيء لأي أحد، وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله جل جلاله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يخلق ولا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، وأن جميع السماوات السبع ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره[2].

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

فهذا يوسف عليه السلام وهو الذي كان يعيش في قصر الملك، ولاقى الأذى والسجن ظلمًا من الملك وزوجته، ولكن كل ذلك لم يمنعه من الدعوة إلى عبادة الله وحده، سائرًا على منهج الأنبياء الرباني في الدعوة إلى التوحيد.

قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

وقد بذل الرسل في سبيل دعوة الناس

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، أمته إلى توحيد الله، تبارك وتعالى، ٩/ ١١٤، رقم ٧٣٧٣.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٥.

إلى الله جهودًا عظيمة، وفي هذه الآية نرى الجهد الذي بذله نوح عليه السلام على مدار تسعمائة وخمسين عامًا، فقد دعاهم ليلًا ونهارًا، سرًا وعلانية، واستعمل أساليب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وحاول أن يفتح عقولهم، وأن يوجهها إلى ما في الكون من آيات[1].

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢-٣].

ولكنهم أعرضوا، و رفضوا الدعوة، ووقفوا منها موقفًا سلبيًا، وواجهوا نوحًا بعدد من المواقف، فقد أنكروا الدعوة، واتهموه بالضلال، والجنون، والسفاهة[2].

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح: ٥-٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ۝٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ۝٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ۝٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ [نوح: ٢١-٢٤].

لقد قامت دعوة نوح عليه السلام على دعوة الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وقصر العبادة له وحده، وترك ما عدا ذلك، من شرك وضلال، يوضح الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في آيات متعددة.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وهود عليه السلام دعا قومه، وطلب منهم تصحيح العقيدة، أساس الإيمان، وبين لهم أن العقيدة السليمة تحتاج إلى توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته، وهذا يقتضي منهم أن تكون عبادتهم، وتوجههم لله فقط، وترك عبادة الأصنام والأوثان؛ لأن عبادة غير الله صرفٌ للعمل في غير وجهه، وإضاعة للوقت، والوقوع في الكفر والضلال، وذكرهم بنعم الله فيهم[3].

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٦.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٠٠.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٢/ ٤٦.

مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٠ – ٥٢]

ولكنهم أبوا إلا العناد والكفر.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣-٥٤].

ووصية الأنبياء عليهم السلام عند وفاتهم التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

إننا بحاجة إلى الرسل وتعاليمهم لصلاح قلوبنا، وإنارة نفوسنا، وهداية عقولنا، ونحن بحاجة إلى الرسل كي نعرف وجهتنا في الحياة، وعلاقتنا بالحياة وخالق الحياة، وكيلا ننحرف أو نزيغ فنقع في مستنقع الضلال.

مما سبق يتبين أن جميع الرسل عليهم السلام دعوا الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وترك تأليه ما سواه، ورأينا أن الدعوة إلى عبادة الله جاءت ملازمة للدعوة إلى التوحيد؛ لأن التوحيد بلا عبادة عبث لا يجوز في دين الله عز وجل.

وكان لكل رسول منهجه في القيام للدعوة إلى الله جل جلاله، وقد عانى رسل الله الويلات من أقوامهم ليطمسوا دعوة التوحيد، لكن الله يأبى إلا أن يتم نوره.

أركان الألوهية

الألوهية صفة استحقاق، أي: أن الله عز وجل مستحق للألوهية، ومستحق للعبودية، والإله معناه المعبود كما ذكرنا سابقًا، وهذا مجمع عليه عند أهل اللغة، وأجمع السلف الصالح على أن الإله بمعنى المعبود وحده سبحانه وتعالى، ولهذا فإن (لا إله إلا الله) معناها: لا معبود بحق إلا الله.

وقد بين الطبري معنى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

أن الذي يستحق الطاعة، ويستوجب منا العبادة معبود واحد ورب واحد، لا رب للعالمين غيره، ولا يستوجب على العباد عبادة سواه، وأن كل ما سواه فهم خلقه، والواجب على جميعهم طاعته، والانقياد لأمره، وترك عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، وهجر الأوثان والأصنام؛ لأن جميع ذلك خلقه وعلى جميعهم الإقرار له بالوحدانية والألوهية، ولا تنبغي الألوهية إلا له، فلا يصح عبادة غيره ولا الشرك معه سواه، فإن من يشركونه مع الله عبادٌ لله مثلهم، وإلهكم إله واحد لا مثل له ولا نظير، ومعنى وحدانية الله نفي الأشباه والأمثال عنه[1].

وإن من خواص الألوهية علم السر والعلن، والحياة الدائمة، مما يدل على أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، ويدل على إبطال عبادة غير الله تعالى[2].

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ١٧-٢٣].

ومما سبق يتضح أن للألوهية أركانًا تقوم عليها، وأركان الألوهية هي:

الأول: النفي: وهو المراد بقولنا: (لا إله) نفي ما يعبد من دون الله جل جلاله.

والثاني: الإثبات: وهو المراد بقولنا: (إلا الله) إثبات أن الله سبحانه وتعالى هو فقط المستحق للعبادة.

إذن مدلول كلمة الشهادة: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)، فلا عبادة ولا طاعة إلا لله، ولا طريق لذلك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل

(١) انظر: جامع البيان ٢/ ٧٤٥.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ١٠٥.

طريق غيره فإنه لا يوصل إلى المطلوب[1].

فمن اجتمعت له هذه الأركان نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الأشياء، فمن اعتقد أن غير الله تعالى يستحق العبادة مع الله، أو يستحق أن يصرف له أي نوع من أنواع العبادة فهو مشرك في الألوهية.

فليس هناك رب معطٍ رازق إلا الله جل جلاله، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، ولكن هناك من لا يخلص لله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة أخرى، هذا من أشقى خلق الله؛ لأنه لم يسخر نفسه لله فقط.

قال العلامة القنوجي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

أنه تقرر أن العبادة لا تجوز إلا لله، وأنه هو المستحق لها، فكل ما يسمى في الشرع عبادة ويصدق عليه مسماها فإن الله يستحقه، ولا استحقاق لغيره فيها، ومن أشرك فيها أحدًا من دون الله فقد جاء بالشرك[2].

ويظهر لنا مما سبق بأن من لوازم الاعتراف بالألوهية أن تكون قائمة على أركان ثلاثة، وهي:

١. الإخلاص، فلا يكون للمرء مراد إلا الله جل جلاله.
٢. الصدق ببذل كل الطاقة لعبادة الله.
٣. المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

(١) انظر: الجواهر المضية، محمد بن عبدالوهاب، ص ٤.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ٣٧٤.

نفي ألوهية غير الله

لقد أصر عدد كبير جدًا من السفهاء على عبادة غير الله جل جلاله على مر العصور، وكان الله سبحانه وتعالى يرسل أنبياءه لدعوتهم لتوحيد العبودية له جل جلاله، فنبهوا ووعظوا وأنذروا، وقد جاء في الكتاب الحكيم الكثير من الآيات القرآنية التي بينت فساد ما يعبدون بعدة طرق.

أولًا: نفي النفع والضر عن المعبودات من دون الله:

إن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فلا تليق إلا بالله الواحد الأحد، خالق كل شيء ومليكه، الذي يضر وينفع، يحيي ويميت، وهذه الأصنام التي عبدوها جماد وحجارة، لا تضر ولا تنفع، وفي هذه الآية توبيخ وتقريع وتبكيت لهؤلاء المشركين الذين يعبدون أصنامًا، لا تضرهم إن عصوها وتركوا عبادتها، ولا تنفعهم إن عبدوها وأطاعوها؛ لأنها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع، والمعبود ينبغي أن يكون مثيبًا ومعاقبًا؛ حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر[1].

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس: ١٨].

وكانت حجتهم في عبادتها أنها تشفع لهم عند الله عز وجل، افتروا على الله بدعواهم هذه، فعند الله علم السماوات والأرض لا لأحد غيره.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾[الفرقان: ٥٥].

إن المشركين بالله يعبدون من دونه آلهة أحجارًا صماء لا تضر ولا تنفع، ويتركون عبادة من أنعم عليهم بالكثير من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وهذه الآية تنعى على المشركين خفة أحلامهم وسفه عقولهم في إعراضهم عن توحيد الله، وإنكار ألوهيته، وتندد باتخاذهم آلهة من دون الله يصنعونها بأيديهم ثم يعظمونها، ويقدمون لها القرابين من نعم الله وما أفاءه عليهم، وهي من الضعف والهوان بحيث لا تستطيع أن تجلب لهم نفعًا، ولا أن تدفع عنهم ضرًا، بل هي من المهانة بحيث لا تستطيع أن تجلب لنفسها نفعًا ولا تدفع عنها شرًا، بل كان إن جاع أحدهم أكله، وهم بذلك معينين للشيطان على ربهم، مظاهرين له على معصيته[2].

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: ٥٦].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٣٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٨٤.

قال ابن عباس: «إن ناسًا من خزاعة كانوا يعبدون الجن، وهم يرون أنهم هم الملائكة»، وقال مجاهد: «هم قوم من المشركين كانوا يعبدون الملائكة والمسيح وعزيرًا»[(١)].

وانصرف النصارى إلى عبادة المسيح دون الله سبحانه وتعالى فأشركوا، كما عبد المشركون البشر والملائكة والأصنام، فكانوا سواء في الكفر والضلال، فأمر الله رسوله أن يخاطبهم متعجبًا منكرًا: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[المائدة: ٧٦].

والمسيح لا يملك من الضر والنفع شيئًا مما يقدر عليه الله عز وجل، فهم قد عدلوا عن إفراد الله السميع لأقوال عباده في السر والعلن، العليم بكل شيء، إلى عبادة مخلوق خلقه الله، لا يستطيع أن يضرهم بمثل ما يضرهم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا يقدر أن ينفعهم بمثل ما ينفعهم الله به من صحة الأبدان وسعة الأرزاق، فإن الضار والنافع هو الله سبحانه وتعالى، لا من يعبدون من دونه، ومن لم يقدر على النفع والضر لا يكون إلهًا، والله وحده هو السميع العليم[(٢)].

قال ابن عباس: «إن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري به فتربح فيه عند الغلاء، وبالأرض التي يريد أن تجدب فترحل عنها إلى ما قد أخصبت» فأنزل الله عز وجل: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فهذا أمر إلهي لتعليم وتلقين جميع المؤمنين، ولإزالة كل شك أو ريب، في أن الله وحده هو النافع الضار، والمنفرد بالتصرف المطلق في خلقه دون غيره، ولو كان هذا الغير رسولًا فهو أضعف من ذلك، فالرسول لا يملك حتى لنفسه نفعًا ولا ضرًا، رغمًا عن كونه خاتم المرسلين، وخير من وطئت قدمه الثرى، وفي أعلى درجات القرب من الله عز وجل والحصول على رضاه، فيعترف الرسول صلى الله عليه وسلم ببشريته وضعفه أمام قدرة الله جل جلاله، فيقر بأنه لا يقدر على اجتلاب نفع إلى نفسه، ولا دفع ضر يحل بها، ولو كان يعلم ما هو كائن مما لم يكن بعد لأعد الكثير من الخير[(٣)].

فعلى الإنسان بعد ذلك كله أن يخضع ويسلم أمره لله وحده، فليس هناك ضار أو

(١) الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٢٢٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٠٢.

نافع إلا الله فأمورنا كلها بيده؛ حياتنا، رزقنا، سعادتنا، فلا يضير المرء بعد ذلك قوله الحق، والسطوع به في وجه كل طاغية متجبر يظن أنه إله هذا الكون، ونسي أنه مخلوق ضعيف، لا يملك لنفسه فضلًا عن غيره ضرًا أو نفعًا، فلنكن جميعًا عبيدًا للواحد القهار النافع الضار، ولسنا عبيد مصالح ومناصب.

ثانيًا: نفي الاستجابة:

من طرق القرآن الكريم لإثبات الألوهية لله وحده ونفيها عمن سواه التطرق إلى عجزها عن مناصرة من يعبدها وعدم الاستجابة لهم، وهنا بيان لعجز من يدعى من دون الله إما لعدم قدرته على السماع أصلًا، أو لعدم استجابته إن سمع الدعاء، وهذا يدل بلا أدنى شك على عدم استحقاقها للعبادة من دون الله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٤].

والأمر هنا للتحدي أو للتعجيز، وليس للطلب أو الإباحة، فلقد تحداهم الله عز وجل أن يدعوهم، فإن استجابوا لكم فصدقت دعواكم لهم بالألوهية، ولكن هيهات أن تجيبهم صخور صماء، ولو سمعوا ما استجابوا لهم، وما أجابوهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم ومن عبادتهم لها، فهنا تسفيه لمعتقدات المشركين وإقامة الحجة عليهم[(١)].

ويذكر الله تعالى أن التعجيز يقع في الآخرة أيضًا.

فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴾ [الكهف: ٥٢].

لقد وصف كتاب الله موقف المشركين الحرج يوم القيامة، ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله، عندما يأمر الله المشركين به أن ينادوا ما كانوا يعبدون من دونه عز وجل ليشفعوا فيهم، وينقذوهم من العذاب الشديد، ثم يدعونهم فلا يستجيبون لهم ولا يلبون نداءهم، بل يتجاهلونهم بالمرة، كأنهم لا يعرفونهم، أو كأن بينهم عداوة متأصلة من قديم، فجعل بين الداعين من المشركين والمدعوين من الشياطين، مهلكًا مشتركًا وهو النار التي يصلونها جميعًا[(٢)].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴾[القصص: ٦٤].

فقد طلب الله عز وجل من الكفار تقريعًا لهم، وتهكمًا وتوبيخًا وتشهيرًا بهم على

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٩١، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٠٣٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢.

رؤوس الأشهاد بدعاء ما عبدوا في الدنيا من دون الله لتنصرهم، وتدفع عنهم الأذى، مثلما كانوا يفعلون ذلك في الدنيا، فاستغاثوا بهم، فلم يجيبوهم ولم ينصروهم، فيتمنوا وقتها لو أنهم كانوا مؤمنين بالله جل جلاله.

فعدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة دليل عجزهم الواضح، ولكنها العقول الضالة التي تأبى إلا العناد والكفر، فلو كانوا يهتدون بهدي الله سبحانه وتعالى، وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم، ويرون العذاب الذي أنذرهم به حقيقة وواقعًا لا يتخلفون عنه لما حدث لهم هذا، ولما واجهوا هذه العاقبة الأليمة[1].

ومن الآيات الجامعة قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ: ٢٢].

فهو خطاب توبيخ وتقريع المشركين لدعوة ما زعموا أنها آلهة لهم من دون الله سبحانه وتعالى لتنفعهم وتذب عنهم، ولكنهم لا يملكون دفع ضر في أي أمر من الأمور، أو حتى جلب منفعة، وليس لهم قدرة على خير ولا شر، فليس للآلهة في السماوات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك ولا بالتصرف، فما لله من هؤلاء من معين على خلق شيء، بل الله المنفرد بالخلق والإيجاد، فهو الذي يعبد، وعبادة غيره محال[2].

وما نراه اليوم من فعل بني جلدتنا ممن يدعون أنهم مسلمون من التضرع لقبور الأولياء والصاحين، والتمسح بقبورهم، ودعائهم من دون الله لجلب منفعة أو دفع ضر، ليس إلا صورة من صور الشرك بالله فهذه القبور لا تستجيب لهم، ولا تملك لنفسها فضلًا عن غيرها الشر أو الخير، تمسكوا بعادات وتقاليد آبائهم الفاسدة الضالة؛ فضلوا وأضلوا من بعدهم.

ثالثًا: المعبودات من دون الله عبيد لله تعالى:

إن مقياس الألوهية هو الخلق والتكوين، فإن كان الله هو الخالق المكون فهو المالك لما خلق وكون، وهو وحده المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، والله عز وجل مالك السماوات والأرض وخالقهما، وخالق الإنسان فكيف يعبد غيره؟!؛ ولذا قال جل جلاله مستنكرًا ما عليه الضالون ممن أشركوا بالله عز وجل غيره من المخلوقات أو الجمادات.

قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٢٧، تفسير الشعراوي، ١٨/ ١٠٩٨٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٩٥.

﴿يَخْلُقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وهنا استنكار وتجهيل على المشركين، أيشركون به سبحانه وتعالى وهو الخالق لهم ولكل شيء، ما لا يخلق شيئًا من الأشياء مهما يكن صغيرًا أو حقيرًا؟!

إن هذه الأصنام التي تعبد من دون الله مخلوقة ومصنوعة، فكيف يليق بذي العقل السليم التنازل عن عقولهم، وجعل المخلوق العاجز الذي لا يملك لنفسه أي مقومات الحياة شريكًا لله سبحانه وتعالى الخالق القادر المصور؟![1].

ففي الآية تدرج ومراحل للوصول إلى الحقيقة، ويتحدث عن ذلك الشيخ الشعراوي قائلًا: «فأول مرحلة عرفهم أن الأصنام لا تخلق، وثاني مرحلة عرفهم أنهم هم أنفسهم مخلوقون، والأصنام لا تقدر على نصرهم، إذن فهم معطلون من كل ناحية؛ لأنهم لا يخلقون، وهذا أول عجز، ومن ناحية أخرى أنهم يخلقون وهذا عجز آخر، لكن بعد هذا العجز الأول والعجز الثاني فهل هم قادرون على نصر غيرهم؟»[2].

وتكون النتيجة النهائية لهذه المراحل أن ما يعبد السفهاء عباد مثلهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الأعراف: ١٩٤].

فهذه الأصنام ليست لها أدنى قدرة إن جاءها من يحطمها، أو يكسرها، أو يسرقها، فهي أضعف من عابديها، والمعبود يجب أن يكون أعلى منكم؛ لتسجدوا له، فكيف تعبدون مثلكم؟! ولماذا تختارونه للعبادة وهو على أكثر تقدير له مثلكم لا فرق بينكم وبينهم؟! فكلكم عبيد لله مملوكون[3].

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان: ٣].

وفي هذه الآية أيضًا تقريع للمشركين بعبادتهم ما دون الله، وتنبيه لهم على موضع خطأ فعلهم، ببيان أن آلهتهم التي يعبدونها لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة، ومع ذلك فهي لا تملك دفع ضر عن نفسها ولا جلب منفعة إليها، ولا تملك إماتة ولا إحياء، ولا بعثًا ولا نشورًا، فهذه هي صفتها، فهي لا تستحق العبادة، فكيف يليق بالإنسان أن يعبد مع ربه أحدًا من خلقه، ويتخذ أندادًا يعبدهم من دون الله، ويحبهم كما يحبه، وهم مخلوقون مثله، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٥١٩.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٤٥٢١.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٠٣٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣١٢.

في الأرض؟![1].

فهذا من أعجب العجب، وأسفه السفه أن يعطي الله عز وجل للإنسان عقلًا مفكرًا ودلائل ساطعة على أنه الإله الخالق، ويعلم أن الله جل جلاله هو الرازق الخالق المدبر، ثم يشرك به غيره، ويعبد معه آلهة أخرى، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًا.

وصاحب الدعوة إلى الله يلجأ إلى الله ويلوذ إليه وهو مدرك أنه لن يؤذيه شيء إلا بإذن ربه، ولكن قد يؤذى المرء كثيرًا وهو سائر في طريق الله، ليس عقابًا أو عجزًا عن حمايته ولا تخليًا منه سبحانه وتعالى عن نصرة أوليائه، ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب، واستدراجًا لعباده الطالحين للإعذار والإمهال والكيد المتين.

لقد كان أبو بكر رضي الله عنه يتناوله المشركون بالأذى، ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه، حتى تركوه وما يعرف له فم من عين، فما كان منه إلا أن يردد طوال هذا الاعتداء «رب ما أحلمك! رب ما أحلمك! رب ما أحلمك!... »[2] فقد كان يعرف في قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه، لقد كان واثقًا أن ربه لا يعجز عن تدمير أعدائه، كما كان واثقًا أن ربه لا يتخلى عن أوليائه الصاحين![3].

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ١/ ١٦٣.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٩٥.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤١٦.

منهج القرآن في إثبات الألوهية

لقد انتهج القرآن الكريم العديد من المناهج لإثبات الألوهية، وجميع هذه المناهج والأدلة يمكن فهمها واستيعابها لجميع البشر وعلى جميع المستويات؛ لأنها من لدن عليم خبير، فلا يكون عذر لبشر بعد إقامة الأدلة على وحدانية الله، في وجود العقل، وتكوين الفطرة.

أولًا: المنهج الفطري:

يقرر القرآن الكريم حقيقةً كبيرةً، وهي أن الإنسان قد خلقه الله على فطرة سليمة تتجه إلى بارئها وتلجأ إليه، فقد جبلت النفوس على معرفة خالقها سبحانه وتعالى، منذ أن أخذ الله جل جلاله العهد والميثاق على أبناء آدم يتضمن الاعتراف على أنفسهم أن الله ربهم ومالكهم وأنه لا إله إلا الله، وذلك حين خلق آدم وأخذ من ظهور ذريته ذريتهم في عالم الذرة، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢][1].

وكل مولود في هذا الوجود يولد على الفطرة؛ ولذلك يخاطب الله تعالى الإنسان ويذكره بهذه الفطرة بأسلوب وجداني حي؛ ليوقظ إحساسه بالأمور الإيمانية والعقيدة، وأهمها: توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ولقد سلك القرآن الكريم المنهج الفطري للتعرف على الله وإثبات ألوهيته، يعرض القرآن الكريم قضية التوحيد، ويدعو الناس لتوحيد الله ونبذ الشركاء والأنداد، ويقيم الحجج والبراهين على وحدانية الله تعالى، فقد دعا إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، وجعل هذا النظر والتفكر هو المنهج القويم لمن يريد أن يعرف الله ويؤمن به من خلال المشاهدات المحسوسة اليسيرة التي يتعامل معها الناس جميعًا.

وآثار الله سبحانه وتعالى تتجلى لنا في هذا الوجود الذي تعمل فيه حواسنا وعقولنا دون أن تقع في مجال الحس والإدراك؛ ولهذا فرض الله سبحانه وتعالى معرفة ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله على العباد من خلال آثاره في الآفاق وفي أنفسهم؛ حتى يتبين للناس جميعًا أنه الحق[2].

فمن المشاهدات الأولية اليسيرة في حياة الناس يكون التوصل إلى الإيمان بخالق الكون ومدبره قيوم السماوات والأرض بالنظر والتفكر والتدبر والتذكر، فلا نقرأ الآيات إلا ونراها تعرض علينا الأكوان، وتأمرنا بالنظر فيها واستخراج أسرارها؛ لذا

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٧٤٩.

(٢) انظر: التوحيد، عمر العرباوي، ص ٥٢.

كانت كل الأدلة ملموسة في حياتنا[1].

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٦-١٦].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة البينة التي تبين عظمة الخالق وقدرته، والتي تدعو إلى الرجوع للفطرة السليمة التي بها نعرف الخالق العظيم.

ويقول الدكتور صلاح الخالدي: «إن مخاطبة الناس بما يدركون، والاستدلال على القضايا بما يحسون، وضرب الأمثال بما يفقهون، والاستدلال من خلالها على ما يعقلون، هو الأسلوب الفطري المؤثر الفعال في إيجاد القناعات لديهم، وهي الطريقة المثلى لتحريك كوامن الفطرة السليمة، واستجاشتها عندهم»[2].

إن وراء خلق الكون قوة خارقة، وقد عرفها العربي بفطرته فقال: البعرة تدل على البعير، والقدم تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير؟!! إنه دليل فطري، يدلك على وجود القوة، إنها الطريقة الفطرية في المحاجة والاستدلال، والقرآن بدأ هذه البدايات الميسرة، وتوصل إلى تلك النتائج الباهرة المقنعة من خلال إقامة البراهين، هذه هي القضية التي يراد إثباتها والاستدلال عليها، وهي قضية: تفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والإيجاد، وعدم وجود الشركاء له في ذلك[3].

ويعرض القرآن الكريم موضوع الخلق والموت والرزق بطريقة توقظ الفطرة، وتحرك الوجدان لمعرفة الله تعالى، ولمعرفة أنه سبحانه المتفرد بهذا الرزق والعطاء، وأن الإنسان مهما بذل من جهد فهو لا ينشئها في الحقيقة، وإنما يعمل فيها بسنة الله ومشيئته، ولكن المنشئ والخالق هو الله سبحانه وتعالى، وهذه حجج وبراهين على إمكان البعث، وإثبات أنه في مقدور

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٠٨.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، ص ١٠٦.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٤/ ١٩٦٣.

الله، بضرب الأمثلة والنظائر المشاهدة المحسوسة التي لا يمكن إنكارها[1].

قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٧-٧٤].

يقول سيد قطب في تفسيره لهذه الآيات: وفيه تنجلي طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية، وفي تناول الدلائل الإيمانية، وفي التلطف إلى النفوس في بساطة ويسر، وهو يتناول أكبر الحقائق في صورها القريبة الميسورة، إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى، يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة، وتصورًا كاملًا لهذا الوجود.

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره، إنه المصدر الذي صدر منه الكون، فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون، المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان: النسل، والزرع، والماء، والنار، أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية، ونشأة نبتة، ومسقط ماء، وموقد نار.

ومن هذه المشاهدات التي رآها أي إنسان ينشئ القرآن العقيدة؛ لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة، وهذه المشاهدات اليسيرة الساذجة هي بذاتها أضخم الحقائق الكونية وأعظم الأسرار الربانية، فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان. وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان[2].

ويعرض لنا القرآن الكريم جانبًا منها بطريقة تصويرية أخاذة، تبين كمال قدرة الله جل جلاله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف، وجعل فيه ماء غزيرًا منه يشربون وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم؛ فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة، فيرسم لها صورة شاملة متكاملة، ثم يخلص إلى النتيجة والتوجيه

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي ٣/ ٦٠١.

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٤٦٦، باختصار.

والقناعة الوجدانية.

كما في قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ١٠-١١][1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١][2].

ثانيًا: المنهج العقلي:

لقد اهتم القرآن الكريم بالعقل كثيرًا، حيث تواردت النصوص التي تحض على التفكير، وتذم الذين يعطلون عقولهم عما خلقت من أجله من تفكر سليم وعقل صحيح، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالإسلام ينوه تنويهًا كبيرًا بالعقل ويعلي من مكانته وقيمته، ونجد شاهدًا على ذلك في الآيات القرآنية التي تنزلت بشأنه، فالعقل هو هبة الله جل جلاله للإنسان؛ ولذلك جعله الله سبحانه وتعالى سببًا للتكليف، ومناطًا للمسؤولية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية، دل عليها القرآن وهدى الناس إليها؛ فإن نفس كون الإنسان حادثًا بعد أن لم يكن، ومخلوقًا من نطفة ثم من علقة، فإن هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم، فهو إذن عقليٌّ؛ لأنه بالعقل تعلم صحته، وهو شرعيٌّ أيضًا»[3].

ففي مجال الألوهية يعرض القرآن الكريم جملة من آيات الله الكونية البارزة في خلقه، ووصف طائفة من نعمه السابغة، من آيات القدر والخلق، ومظاهر الموت والحياة والزرع والماء والنار، هذه النعم التي يتقلب فيها الإنسان ليل نهار، صباح مساء دون أن يحسب لها حسابًا[4].

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٣٦.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٤٩.

(٣) النبوات ١/ ٢٩٣.

(٤) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي ٦/ ١٥١.

يَنكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

والقرآن الكريم يخاطب العقل، ويقنع الإنسان بالمنطق السهل المؤثر في النفس، بأسلوب حي جذاب؛ حيث يوجه نظره إلى آيات الله في الكون والرزق والحياة والموت والأحداث الجارية -كما سبق الحديث عنها- في المنهج الفطري الوجداني، ولكنه مرة أخرى يعرض لها؛ لما فيها من أسلوب منطقي يتصف بالحيوية؛ لما فيها من الأسئلة الموجهة إلى المخاطب والإجابة عنها، إلى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة بأسلوب ومنهج عقلي يؤدي في النهاية إلى الغاية ذاتها، وهي إدراك حقيقة الألوهية، وما يتفرع عنها من حقائق وقضايا الإيمان والعقيدة[1].

ولو تأمل الإنسان بعقله وفكره آيات الله الباهرة المبثوثة في الأرض والسماء وفي النفس والآفاق، لأيقن بأن وراء هذه الآيات قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنها دليل على الإله الأوحد الذي تجب طاعته، والالتزام بأمره ونهيه، وخلع ما يعبد من دونه من الأنداد والشركاء، فهو المتفرد بالألوهية، فليست نفوسكم مخلوقة بالصدفة ولا بالطبيعة، وإنما خالقها الله القادر على كل شيء، وعلى البعث وإعادة الحياة[2].

قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

وبالأسلوب العقلي المنطقي تأتي أدلة الوحدانية، فتأتي الآيات القرآنية تباعًا لتبين أنه لو كان للكون خالقان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام واحد، ولكان العجز يلحق أحدهما؛ لتنازع الإرادتين بين سلب وإيجاب، وذلك لو أراد أحدهما مثلًا إحياء جسم، وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض؛ لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزًا ويسمى هذا الدليل دليل التمانع، أي: امتنعت الثنوية

(١) انظر: التفسير الوسيط، نخبة من علماء الأزهر ٩/ ١٢٦١.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٧/ ١٩.

لامتناع الفساد، فكانت الوحدانية[1].

قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون: ٩١].

باستنكار وتعجب يكذبهم الله عز وجل فيما يدعون من الشريك والولد، و﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾، فلو كان هناك شريك لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه، ولم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره، ومنع كل إله الآخر عن الاستيلاء على ما خلقه هو، وطلب بعضهم مغالبة بعض، كما يفعل ملوك الدنيا فيما بينهم، ولغلب القوي منهم الضعيف، فتعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم، فيختل النظام لهذا الكون، ويضطرب الأمر، ويعم الفساد في هذا العالم، والضعيف لا يمكن أن يكون إلهًا.

ولما كان المشاهد غير ذلك؛ إذ كل شيء في هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق، دل الأمر على أن لهذا الكون كله إلهًا واحدًا قادرًا، وإذا كان كذلك فعلم عقلًا أنه إله واحد، بيده ملكوت كل شيء، ويقدر على كل شيء، فسبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها لمن عقل وتدبر.

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٣].

قال ابن العباس رضي الله تعالى عنهما: «لطلبوا مع الله منازعة وقتالًا كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض».

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: «المعنى إذًا لطلبوا طريقًا إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه؛ لأنهم شركاؤه»[2].

فالنتيجة النهائية لهذا المنطق أن الله واحد لا شريك له، له وحده تجب العبادة والخشية والخضوع.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

فالآيات القرآنية قد جاءت متضمنة الأدلة العقلية، صافية من كل كدر، فما على العقل إلا فهمها وإدراكها، وعدم التكبر والعناد.

(١) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص ٢٧٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٦٥.

حقوق الألوهية

إن للألوهية حقوقًا واجبة على العباد، وإن من أهم حقوق الألوهية ما يلي:

أولًا: التوحيد:

وهو الإقرار بوحدانية الله سبحانه وتعالى وعدم الإشراك به، وذلك بالاعتقاد الراسخ بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والعمل بمقتضاه[(١)].

وقد بين الله عز وجل كفر الذين أشركوا بالله ولو يوحدوه، فذم الله النصارى الذين زعموا أن الإلهية ثلاثة مشتركة، الله والمسيح ومريم فكفروا بذلك[(٢)].

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

واتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم وأحبارهم ورهبانهم أربابًا، فهم لم يعبدوهم مباشرة، بل إنهم أطاعوهم في معصية الله، عز وجل واستحلوا ما أحلوا، وحرموا ما حرموا، فاتخذوهم كالأرباب، وكذلك اتخذوا المسيح ابن مريم عليه السلام، إلهًا ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١][(٣)].

عن معاذ رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير، فقال: (يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟)، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا)، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: (لا تبشرهم، فيتكلوا)[(٤)].

ثانيًا: العبادة:

ومن حق الألوهية أيضًا القيام لها بالعبادة، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، سواءٌ أعمال القلوب أو أعمال الجوارح، كلها يجب أن تكون على وفق الشرع، وأن تكون خالصة لله، وأن يكون التأله لله وحده، وإذا حصل تأله لغير الله فإن هذا هو الشرك، ويجب أن يكون الحب والخضوع والذل والتعظيم في أداء العبادات لله وحده[(٥)].

فما خلقهم الله تعالى إلا لذلك.

(١) انظر: التوحيد، عمر الحملاوي، ص ١٥.
(٢) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٢١٣.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٣٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، ٤/ ٢٩، رقم ٢٨٥٦.
(٥) انظر: شرح فتح المجيد، الغنيمان ٢٧/ ١٠.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إن الله جل جلاله أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السماوات والأرض؛ ليعرف ويعبد ويوحد، ويكون الدين كله له، والطاعة كلها له، هذا الذي من أجله خلق الله تبارك وتعالى الثقلين، فالعبادة لله هي الغاية المحبوبة المرضية له عز وجل[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

تبين الآية أن الملة القيمة والدين المنجي من العذاب المحقق للإسعاد والكمال ما قام على أساس عبادة الله وحده، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والمسارعة إلى فعل الخيرات، والميل عن كل دين إلى هذا الدين، فحق الله عز وجل علينا أن نعبده، ونخلص له العبادة شكرًا لله على النعم التي منحنا إياها[(٢)].

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله تبارك وتعالى)[(٣)].

إن تشريع الأحكام حق لله عز وجل وحده، ولا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله؛ لأنه إخلال بالألوهية، فإن طاعة البشر في التشريعات والأحكام المخالفة لحكم الله شرك في الألوهية.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

إن التشريع حق من حقوق الله سبحانه وتعالى، من ادعاه فقد ادعى الألوهية، ومن ادعى الألوهية فقد كفر، وهذا ما يعرفه الكثير من علماء السلطان الذين يلوون أعناق الآيات؛ لتماشي هوى السلطان فيما لا يرضي الله عز وجل، فقد فضلوا الدنيا على الآخرة، وجعلوا من سلاطين الدنيا آلهة لهم، لها حق التشريع والحكم، وضربوا بعرض الحائط كل الأحكام والقوانين الإلهية، ومن الناس من جعل أندادًا مع الله في الحاكمية، يغتصبون حقوق الألوهية وخصائصها، ويزاولونها في حياة الناس، وعن هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل!

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٥٥.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٦٠١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة)، ١/ ١٤، رقم ٢٥.

يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعًا! لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله سبحانه من ادعاه فقد ادعى الألوهية.

ومن ادعى الألوهية فقد كفر، ومن أقر له بتلك الفرية وتابعه عليها، فقد كفر أيضًا.

فقد يصل الكفر في مرحلة من مراحله لدرجة أن يدعي أناسٌ الألوهية من دون الله، وقد يكون هذا الادعاء قولًا ولفظًا، مثلما قال فرعون ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقد يكون حكمًا وواقعًا، فإذا كان هناك أناس يشرعون للناس من دون الله عز وجل، فهذا ادعاءٌ للألوهية من دون الله سبحانه وتعالى بالفعل، قد لا يكون واضحًا بالقول، ولكنه على أية حال منازعة لله عز وجل في حقٍ عظيمٍ من حقوق الألوهية وهو التشريع، مثل القوانين الوضعية التي يتحاكم عليها الناس تاركين شرع رب الأرباب.

مدعو الألوهية في القرآن

إن ادعاء الألوهية جريمة كبرى في حق الله تعالى، ولا شك أن للشيطان والهوى الأمارة بالسوء دورًا فاعلًا في هذا الادعاء الباطل، ولا شك أن مصير هؤلاء المدعين ومتبعيهم إلى سخط الله وعذابه في الدنيا والآخرة، وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: مدعو الألوهية:

١. نمرود بن كنعان ملك بابل أول ملك في الأرض[(١)].

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «وقوله تعالى: ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

أي: وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره»[(٢)].

فزعم أنه يفعل كما يفعل الله عز وجل، فقال إبراهيم: ربي هو المنفرد بأنواع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٣١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٨٦.

التصرف، وخص بالذكر الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا، والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ فزعم أنه يقتل شخصًا فيكون قد أماته، ويستبقي على حياة آخر فيكون قد أحياه، واطرد سيدنا إبراهيم معه في الدليل فقال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ وهذا أمر يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر، فلما قال له أمرًا لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحًا يقدح في سبيله، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ تحير فلم يرجع إليه جوابًا، وانقطعت حجته، وسقطت شبهته.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك[1].

٢. فرعون مصر.

فقد قال الله عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

وقال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١].

ثانيًا: أسباب دعاواهم:

قال تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فإيتاء الملك العظيم لهذا النمرود أبطره وأورثه الكبر. وبدلًا من شكر الله على النعم العظيمة التي منحه الله عز وجل إياها حاج إبراهيم عليه السلام في ربه، والمحاجة هي أقبح وجوه الكفر، وادعى لنفسه مقام الألوهية عنادًا ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨][2].

أما فرعون فقد كان مثالًا للطاغية المتجبر، المتجاوز لحد الظلم والتجبر والاستبداد والمعصية، وكان قومه صورة للأقوام التي خضعت وتابعت هذا الطاغية، ووصل الأمر بفرعون إلى ادعاء الألوهية، والاستخفاف بعقول الناس وإرادتهم ومصالحهم، وكلما أنس منهم السكوت

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١١١.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٩٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٦.

على ظلمه، والخضوع لبغيه وعدوانه ازداد صلفًا وتجبرًا وتمردًا، حتى يصل إلى التأله، والإعراض عن كل الآيات التي جاءته من الله حتى أهلكه الله وقومه.

قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤].

فكان هذا هو السبب في ادعاء فرعون للألوهية.

ثالثًا: مصيرهم:

١. النمرود:

«بعث الله عز وجل عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه، وكان جبارًا أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنى صرحًا إلى السماء، فأتى الله بنيانه من القواعد»[(١)].

٢. فرعون:

كان مصير هذا الفرعون الطاغي أن أغرقه الله في قاع البحر، وبقيت جثته على الماء؛ ولم يصدق بنو إسرائيل بهذا؛ لأن بني إسرائيل كان في نفوسهم من عظمته وجبروته ما خيل إليهم أنه لن يهلك، حتى كذبوا موسى حين أخبرهم بغرقه، إلى أن رأوه ملقى على الساحل، وكذلك ليكون لمن يأتي بعد ذلك من القرون التي ستسمع بأمره عبرة ونكالًا للطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظيم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور، بعيد عن مظان الألوهية[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

رابعًا: مصير متبعيهم:

مصير أتباع النمرود: «بعث الله عز وجل إلى ذلك الملك الجبار ملكًا يأمره بالإيمان بالله جل جلاله، فأبى عليه ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم بابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عز وجل عليهم، فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظامًا بادية»[(٣)].

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٩.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٤٩٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٧،

مصير أتباع فرعون: أخذ الله عز وجل أتباع فرعون من الجنود الذين كانوا عونًا له في الظلم والاستبداد فنبذهم وطرحهم في البحر، ورماهم فيه رمي البقايا التالفة والمخلفات التي لا قيمة لها، وفي ذلك فخامة وتعظيم لشأن الآخذ، واستحقار شديد للمأخوذين، وكأنه أخذهم مع كثرتهم وطرحهم في اليم كما يأخذ الإنسان شيئًا عديم القيمة فيرميه.

وكذلك أتبعهم في هذه الدنيا التي فتنتهم وصرفتهم عن اتباع الهدى والحق المنير، لعنة وطردًا وإبعادًا عن الرحمة، يلعنهم الناس والملائكة إلى يوم الدين، وهم يوم القيامة من المطرودين المبعدين عن رحمة الله عز وجل[1].

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٠ – ٤٢].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤–٥٦].

وفي سورة غافر يبين الله جل جلاله نوعًا آخر لعذاب متبعي فرعون غير الغرق في الدنيا، فهم إلى يوم القيامة يعرضون على نار جهنم صباحًا ومساء.

يقول عز وجل: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥–٤٦][2].

وهناك العديد من الآيات التي تبين شدة العقاب الواقع عليهم في الدنيا والآخرة، وهذا يدل على عظم جريمة أتباع الظلمة والمفسدين، ومناصرتهم، وتأييدهم للظلم والمساعدة فيه.

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

وقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤١٦.
فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٩.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٧٥.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[الأنفال: ٥٢].

موضوعات ذات صلة:

أسماء الله، الإيمان، التوحيد، الشرك، صفات الله

الأمانة

عناصر الموضوع

مفهوم الأمانة	٢٩٢
الأمانة في الاستعمال القرآني	٢٩٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٤
الحث على الأمانة	٢٩٥
مجالات الأمانة	٣٠٩
الآثار المترتبة على أداء الأمانات	٣٣٢

مفهوم الأمانة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمانة: ضد الخيانة[1]. وهي مصدر مشتق من مادة (أمن) قال في اللسان: «(أمن) الأمان والأمانة بمعنى»[2]. يقال: أمن: أمنًا وأمانًا وأمانةً وإمنًا وأمنةً، بمعنى: اطمأن ولم يخف، فهو آمن وأمن وأمين[3].

فمادة (أمن) تدور حول معنيين:

أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها: سكون القلب.

والآخر: التصديق، والمعنيان متدانيان[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفت الأمانة بأنها: رعاية حقوق الله تعالى بتأدية المرء للفرائض والواجبات، وكذلك المحافظة على حقوق العباد، فلا يطمع الإنسان في وديعة اؤتمن عليها، ولا ينكر مالًا أو متاعًا أمنه الناس عليه[5].

وعرفها الكفوي بقوله: «كل ما افترض على العباد فهو أمانة، كصلاةٍ وزكاة وصيام وأداء دين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار»[6].

وجاء معنى الأمانة بأنها: خلق يعف به الإنسان عما ليس له به حق، ويؤدي ما عليه من الحقوق[7]. وهي على هذا الأساس تشتمل على ثلاثة عناصر:

- عفة الأمين عما ليس لديه حق في أخذه من الآخرين.
- تأدية الأمين ما يجب عليه من حقوق لأصحابها.
- اهتمام الأمين بحفظ ما استؤمن عليه من حقوق، وعدم التفريط بها[8].

---

(١) مختار الصحاح، الرازي ص٢٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢١.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٨.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٣٣.
(٥) انظر: موسوعة أخلاق القرآن، الشرباصي ٢/ ١٥.
(٦) الكليات ص ١٨٧.
(٧) انظر: الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حبنكة الميداني ١/ ٦٤٥.
(٨) انظر: الأخلاق في الإسلام، كايد فرعوش وآخرون ص١٢٢.

الأمانة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أمن) في القرآن الكريم (٨٧٩) مرة، يخص موضوع البحث منها (٢١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة:٢٨٣]
الاسم	٦	﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب:٧٢]
الصفة المشبهة	١٤	﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف:٦٨]

وجاءت الأمانة في الاستعمال القرآني بمعنى: كل ما عهد به إلى الإنسان وائتمن بالمحافظة عليه من فرائض أو طاعات، أو غير ذلك[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ٤/ ١٨٥-١٩٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٧٣، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص١٠٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ١٥٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ العهد:

العهد لغةً:

هو الموثق الذي يعطيه الإنسان لغيره، ويقال: عهد إليه، أي: أوصاه. فهو: التزام بين اثنين، أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به، وسمي عهدًا؛ لأنهما يتحالفان بعهد الله، أي: بأن يكون الله رقيبًا عليهما في ذلك[١].

العهد اصطلاحًا:

قال الراغب: حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال[٢].

الصلة بين العهد والأمانة:

العهد من الأمانات التي يجب على المسلم حفظها، بينما الأمانة عامة، تشمل العهد وغيره، فهي تعم جميع وظائف الدين، فكل عهد أمانة، وليس العكس. وأحيانًا يقال للشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه: أمانة وعهدًا[٣].

٢ الميثاق:

الميثاق لغةً:

هو مصدر بمعنى التوثقة[٤] وهو: العهد المؤكد بيمين أو نحوه، والفرق بين الميثاق والعهد: أن الميثاق توكيد العهد من قولك: أوثقت الشيء إذا أحكمت شده، وقال بعضهم: العهد يكون حالًا من المتعاهدين، والميثاق يكون من أحدهما[٥].

الميثاق اصطلاحًا:

حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال، فهو الموثق باليمين مما يلزم مراعاته.

الصلة بين الميثاق والأمانة:

الفرق بين الأمانة والميثاق كالفرق بين الأمانة والعهد من حيث العموم والخصوص، فالأمانة عامة، تشمل كل ما اؤتمن عليه الإنسان، والميثاق خاص بالعهد المؤكد باليمين.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٨١٩.
(٢) المفردات ص٥٩١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١٦٦.
(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١١٩٧.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٥٢٥.

الحث على الأمانة

تنوعت الأساليب القرآنية في الحث على الأمانة؛ حثًا للعباد على التمسك بها، وسوف نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الأمر الصريح بأداء الأمانة:

أمر الله تعالى في كتابه الكريم بأداء الأمانات إلى أهلها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

والمعنى: إن الله تعالى يأمركم بأداء مختلف الأمانات التي اؤتمنتم عليها إلى أصحابها، فلا تفرطوا فيها، ولا تضيعوها.

وتصدير الكلام بكلمة التحقيق ﴿إِنَّ﴾ تأكيد لوجوب امتثال الأمر، والدلالة على الاعتناء بشأنه، وإضافة (الأمر) إلى الله سبحانه وتعالى يفيد معنى التأكيد أيضًا، كما يقال لتأكيد الأمر للعبد بالطاعة: سيدك يأمرك بكذا، ولله المثل الأعلى في أوامره ونواهيه.

وهذه الصيغة صيغة قوة وسلطان، فهو لم يقل: إني آمركم، إنما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ يأمركم بألوهيته وعظمته وهذا نحو: إن الرئيس يأمر بكذا، فهذا أبلغ وأقوى من قولنا: صدر قرار بكذا وكذا.

واسم الجلال ﴿اللَّهَ﴾ أيضًا يوحي بالخشية والرهبة على عقبى التفريط بها، ثم إن الخطاب المباشر منه تعالى للناس كافة ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ دون توسيط الرسول صلى الله عليه وسلم الذي تنتهي مهمته بالإبلاغ مما زاد الأمر تأكيدًا وأهمية.

فيكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ خبرًا في الظاهر، لكنه في حقيقته أمر وطلب، فهو كاسم فعل الأمر، وكصيغة (عليك) في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وكقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وعلى هذا فجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ صريحة في الوجوب، مثل صراحة النهي في قوله في الحديث: (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم)[(١)].

ثم هو تعالى يأمر الناس جميعًا من عنده الأمانة والمجتمع الذي يراقب ويتابع ويساعد على التنفيذ، ويأمر بالأداء بفعل المضارع المفيد استمرار الوفاء بحق الأمانة؛ لتظل شارة الأمة التي تريد لنفسها البقاء، ثم هو الأداء إلى أهل الأمانة فجارًا كانوا أم أبرارًا.

فالخطاب في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة، كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، ٦/ ٢٤٤٩، رقم ٦٢٧٠.

بذممهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد، سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية، وإن كان هذا الأمر قد ورد في شأن عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة المعظمة.

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان رضي الله عنه باب الكعبة، وصعد السطح، وأبى أن يدفع المفتاح إليه، وقال: «لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه»، فلوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يده، وأخذه منه وفتح، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم، وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح، ويجمع له السقاية والسدانة، فنزلت الآية -وظاهر هذا أنها نزلت في جوف الكعبة-، فأمر عليًا أن يرده إلى عثمان، ويعتذر إليه، فقال عثمان لعلي: «أكرهت وآذيت، ثم جئت ترفو؟!»، فقال: «لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآنًا»، فقرأ عليه الآية، فقال عثمان: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»، فهبط جبريل عليه السلام، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة في أولاد عثمان أبدًا[1].

والمقصود أنه وإن كان هذا خطابًا للرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أخذ مفتاح الكعبة من حجبتها، وهم بعض بني شيبة، فجاء الأمر من الله للنبي صلى الله عليه وسلم أن يرد لهم مفاتيح الكعبة إلا أن الآية أعم من ذلك، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الأصول.

فيكون الخطاب لكل من يصلح لتلقي هذا الخطاب والعمل به من كل مؤتمن على شيء، ومن كل من تولى الحكم بين الناس في الحقوق[2].

فهو أمر عام للمؤمنين جميعًا، لا يختص به راع دون الرعية، ولا قوي دون ضعيف، ولا غني دون فقير، وهذا يدل على أهمية الأمانة، وتأكيد طلبها، وأنها فضيلة مطلقة.

وظاهر الآية أيضًا يفيد أن الأمر لعموم الناس مؤمنهم وكافرهم، ومن أهل العلم من قال: هو أمر لعموم المؤمنين.

وعبر بالأداء في قوله: ﴿أَن تُؤَدُّوا﴾؛ لأن الأداء: دفع الحق وتوفيته كاملًا، وهذا الموضع كقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

وقال: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:١٧٨].

قال السعدي: «وفي قوله: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلته؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٩٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٩٦٩.

مؤديًا لها»[1].

ولهذا أجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها، الأبرار منهم والفجار، كما قال ابن المنذر[2].

وفي حديث سمرة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)[3].

فإطلاق اسم الأمانة في الآية حقيقة؛ لأن عثمان سلم مفتاح الكعبة للنبي صلى الله عليه وسلم دون أن يسقط حقه، والأداء حينئذٍ مستعمل في معناه الحقيقي؛ لأن الحق هنا ذات يمكن إيصالها بالفعل لمستحقيها، فتكون الآية آمرة بجميع أنواع الإيصال والوفاءات، ومن جملة ذلك دفع الأمانات الحقيقة، فلا مجاز في لفظ: ﴿تُؤَدُّوا﴾[4].

فيكون أداء الأمانة واجبًا عقلًا وشرعًا؛ لأن أداء الأمانة صفة من صفات الكمال، محبوبة بالذات؛ ولأن أداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثاني؛ قال بعض الصحابة: «رأيت أعرابيًا أتى باب المسجد، فنزل عن ناقته وتركها، ودخل المسجد، وصلى بسكينة ووقار، ودعا بما شاء، فتعجبنا، فلما خرج لم يجد ناقته، فقال: إلهي أديت أمانتك، فأين أمانتي؟ قال الراوي: فزدنا تعجبًا، فلم يمكث حتى جاء رجل على ناقته، وقد قطع يده، وسلم الناقة إليه، والسبب أنه لما حفظ أمانة الله، حفظ الله أمانته»[5].

وجمع (الأمانات) هاهنا باعتبار تعدد أنواعها، وتعدد القائمين بالحفظ، تنصيصًا على العموم. فللأمانة معانٍ كثيرة مادية ومعنوية، تدور كلها على صون حقوق الله، وحقوق الناس، في سائر الأعمال والأحوال، كما تتسع دائرة الأمانة؛ لتشمل المؤمن والكافر والبر والفاجر.

قال السعدي: «الأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان، وأمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها، أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولًا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات، والأموال، والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله، وقد ذكر الفقهاء على أن من اؤتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرزٍ مثلها.

قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك»[6].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٣.
(٢) الإجماع، ابن المنذر ص٣٦.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤/ ١٥٠، رقم ١٥٤٢٤، وأبو داود في السنن، كتاب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده ٣/ ٣١٣، رقم ٣٥٣٦، والترمذي في سننه، أبواب البيوع ٣/ ٥٦٤، رقم ١٢٦٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٧٨٣، رقم ٤٢٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٩٧٠.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٢٨.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٣.

ويدخل في ذلك: أمانات الطبيب أن يؤدي إلى المريض حقه من التشخيص، وأمانات أصحاب الصنائع أن يتقنوا صناعاتهم، وينصحوا للناس، كما علمهم الله تبارك وتعالى.

ومن الأمانات الأمانة العلمية، فالعالم استؤمن على العلم فعليه أن يؤديه إذا طلب منه.

ومن الأمانة تسخير الحواس والجوارح في طاعة الله، واستعمالها في مرضاته، ومن الأمانة أداء الحقوق، وحفظ الودائع، ثم تأديتها إلى أصحابها، برًا كان أم فاجرًا، وسواء كان مسلمًا أم كافرًا.

ومن الأمانة صيانة أعراض المسلمين، وستر عوراتهم، وحفظ المجالس، وتجنب إفشاء الأسرار، والمبالغة في سرد الأخبار، والتحديث بكل ما يسمع ويقال.

ومن الأمانة حفظ الأسرار الزوجية؛ وأمانة الزوجين القيام بواجباتهما الأسرية؛ وذلك بإلزام أهل البيت بالفرائض والواجبات، وتربيتهم على الفضائل والمستحبات، وتطهير البيت من المنكرات.

ومن الأمانة إتقان العمل المناط بالمسلم، فيؤدي المرء ما عليه على خير وجه، فالعامل يتقن عمله ويؤديه بإجادة وأمانة، وهكذا يؤدي كل امرئٍ واجبه بأمانة وجد واجتهاد.

والأمانة في الإسلام كالعدل مطلقة لا نسبية، وترتفع قيمة الأمانة إلى حد لا يغني بذل الحياة عنها.

وقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة، ثم قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله، فيقال: أد أمانتك، فيقول: أي: رب كيف وقد ذهبت الدنيا؟ قال: فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا نظر ظن أنه خارج زلت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عدها، وأشد ذلك الودائع»[1].

وبهذا ندرك سر حرص النبي صلى الله عليه وسلم على التذكير بها في كل موعظة، فقد جاء عن أنس رضي الله عنه أنه قال: ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: (لا إيمان لمن لا عهد له)[2].

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٨٨. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٥٧، رقم ١٧٦٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٢، رقم ١٢٥٦٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧١٧٩.

ومن هنا اشترط فيمن يتولى أمور المسلمين أن يكون قادرًا على الوفاء بحق الأمانة، وليس كل مسلم صالحًا لها، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)[1].

والمقصود: أن الله أمر المؤمنين في هذه الآية بأداء الأمانات في جميع الأمور، سواء كانت من باب المذاهب والديانات، أو من باب الدنيا والمعاملات[2].

ومعنى أدائها إلى أهلها توصيلها إلى ذويها كما هي، من غير بخس ولا تطفيف، وأهل الأمانة هم مستحقوها، يقال: أهل الدار، أي: أصحابها.

فالعالم يؤدي أمانة العلم من غير زيادة عليها ولا تحريف لها؛ لأن الزيادة طمس لمعالم العلم، والتحريف تبديل للحق، فمن أوتي علمًا بالقرآن لا يؤله لهوى في نفسه، بل يقدمه للناس من غير تحريف للكلم عن مواضعه، والحكم كذلك أمانة في أعناق الحكام، عليهم أن يؤدوا الأمانة فيه بإقامة العدل، وتوخي المصلحة، وتجنب الفساد، سواء أكان فسادًا معنويًا، أم كان فسادًا ماديًا، والأول أعلى أنواع الفساد، والثاني أدناها، ومن أمانة الحكم ألا يشقوا على الرعية، وألا يفسدوا ضمائرهم، ولا يزعجوهم بالتظنن والتتبع، ما داموا مؤمنين مذعنين...، وإذا كانت رعاية الأمانات وأداؤها واجبًا مفروضًا على الأمة كلها حاكمها ومحكومها، وأنها متفاوتة المراتب، فإن الحاكم قد اختص بواجب آخر هو العدل، وهو من نوع الأمانة التي اختص بها؛ ولذا قال سبحانه بعد الأمر بأداء الأمانات: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨][3].

ثانيًا: وصف جبريل عليه السلام بالأمين:

ومما يرغب في الأمانة أنها من صفات أشرف الملائكة المقربين، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فقد أخبر الله تبارك وتعالى أن مما اتصف به جبريل من الصفات صفة الأمانة، فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣].

ففي قوله: ﴿الْأَمِينُ﴾ دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به، لا يزيد فيه ولا ينقص منه؛ فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة، ويدل هذا على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله؛ لأن الرسول

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ٣/ ١٤٥٧، رقم ١٨٢٥.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ١٣.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ١٧٢٤.

المؤتمن على إنزاله قوي لا يغلب عليه حتى يغير فيه، أمين لا يغير ولا يبدل.

وفي هذه الآية إشادة بنزول القرآن من عند الله تعالى بواسطة جبريل الأمين، وحققت صدقه بأنه نزل به ﴿الرُّوحُ﴾ ويطلق لفظ: ﴿الرُّوحُ﴾ على الملك الذي ينزل بالوحي على الرسل، وهو جبريل عليه السلام.

وسمي روحًا من حيث إنه خلق من الروح، فهو روح كله، لا كالناس الذين في أبدانهم روح[1]. أو لأن نجاة الخلق في باب الدين متوقف على ما جاء به، فهو كالروح الذي تثبت معها الحياة، أو لأن الدين يحيى به، وقيل: سمي روحًا على المجاز لمحبته وتقريبه، كما تقول لحبيبك: روحي[2].

وسماه أمينًا؛ لأنه مؤتمن على وحيه لأنبيائه[3]. فهو مقبول القول، مصدقٌ بقوله، مؤتمن على ما يرسل به، ويؤدي من وحي، وامتثال أمر[4].

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة من الكرم، والقوة، والقرب من الله تعالى، والمكانة والاحترام بين الملائكة، والأمانة، والحسن، والطهارة ما جعله أهلًا لأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله...، وقد بين الله تعالى لنا هذه الأوصاف في القرآن، وهي تدل على عظم القرآن وعنايته تعالى، فإنه لا يرسل من كان عظيمًا إلا بالأمور العظيمة.

قال عز وجل في صفته في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١].

فنجد في هذه الآيات أن الله تعالى وصف جبريل عليه السلام بست من صفات الكمال، أحدها: كونه رسولًا لله، وثانيها: كونه كريمًا على الله تعالى، وثالثها: كونه ذا قوة عند الله، ورابعها: كونه مكينًا عند الله، وخامسها: كونه مطاعًا في عالم السموات، وسادسها: كونه أمينًا في كل الطاعات، مبرءًا عن أنواع الخيانات...، وكما وصف جبريل عليه السلام هاهنا بهذه الصفات الست وصف محمدًا صلى الله عليه وسلم أيضًا بصفات، وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

فالوصف الأول: كونه شاهدًا، والثاني: كونه مبشرًا، والثالث: كونه نذيرًا، والرابع: كونه داعيًا إلى الله تعالى بإذنه، والخامس: كونه سراجًا منيرًا.

والمقصود أن جبريل عليه السلام قوي شديد أمين كريم، لا يمكن أبدًا أن يفرط بهذا

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٥٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٧/ ٢.

الوحي الذي نقله إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذه الصفات في مجموعها توحي بكرامة هذا القول وضخامته، وسموه كذلك وارتفاعه، كما توحي بعناية الله سبحانه بالإنسان؛ حتى إنه ليختار هذا الرسول صاحب هذه الصفة؛ ليحمل الرسالة إليه، ويبلغ الوحي إلى النبي المختار منه، وهي عناية تخجل هذا الكائن الذي لا يساوي في ملك الله شيئًا، لولا أن الله سبحانه يتفضل عليه، فيكرمه هذه الكرامة!

وكأن المعنى: هذه صفة الرسول الذي حمل القول وأداه، فأما الرسول الذي حمله إليكم فهو ﴿صَاحِبُكُمْ﴾[التكوير: ٢٢].

عرفتموه حق المعرفة، عمرًا طويلًا، فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون، وتذهبون في أمره المذاهب، وهو صاحبكم الذي لا تجهلون؟! وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين[(١)].

وقد جاء في قوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أنه: أمين على سبعين حجابًا يدخلها بغير إذن[(٢)].

وهذا كله يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل. ويدل على أهمية صفة الأمانة؛ وصف جبريل بها، وأنه ينبغي الحرص على الاتصاف بها، والتشبه بالرسول الملكي والرسول البشري المتصفين بهذه الصفة.

ثالثًا: وصف الأنبياء عليهم السلام بالأمانة:

ومما يرغب في الأمانة أنها من صفات الأنبياء، ومن مستلزمات الرسالة؛ إذ كل رسول قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:١٠٧].

فإن الرسول لا يبعث إلا وهو معروف بالأمانة، وحسن الخلق قبل الرسالة.

فهذا نوح يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء:١٠٧].

وجملة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليل للإنكار، أو للتحضيض، أي: كيف تستمرون على الشرك وقد نهيتكم عنه وأنا رسول لكم، أمين عنكم، وكان نوح موسومًا بالأمانة، لا يتهم في قومه، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يلقب الأمين في قريش؛ ولهذا قال النابغة الذبياني[(٣)]:

فألفيت الأمانة لم تخنها
كذلك كان نوح لا يخون

وتأكيده بحرف التأكيد ﴿إِنِّي﴾ مع عدم

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ٤٧٣.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٤٣٤.
(٣) انظر: ديوان النابغة الذبياني ص ٧٣.

سبق إنكارهم أمانته؛ لأنه توقع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة، فإن الأمانة دليل على صدقه فيما بلغهم من رسالة الله.

كما قال هرقل لأبي سفيان وقد سأله: «هل جربتم عليه، يعني: النبي صلى الله عليه وسلم كذبًا؟» فقال أبو سفيان: «لا، ونحن منه في مدة، لا ندري ما يفعل فيها»، فقال له هرقل بعد ذلك: «قد علمت أنه ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله!» ففي حكاية استدلال نوح بأمانته بين قومه في هذه القصة المسوقة مثلًا للمشركين في تكذيبهم محمدًا صلى الله عليه وسلم تعريض بهم إذ كذبوه بعد أن كانوا يدعونه الأمين، ويحتمل أن يراد به أمين من جانب الله على الأمة التي أرسل إليها[1].

وقال نوح عليه السلام أيضًا في موضع آخر: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف:٦٨].

فجاء بوصف الأمانة وهي الوصف العظيم الذي حمله الإنسان، ولا أمانة أعظم من أمانة الرسالة، وإيصال أعبائها إلى المكلفين، والمعنى: أني عرفت فيكم بالنصح، فلا يحق لكم أن تتهموني، وعرفت بالأمانة فيما أقول فلا ينبغي أن أكذب.

وقوله: ﴿أَمِينٌ﴾ يحتمل أن يريد على الوحي والذكر النازل من قبل الله، ويحتمل أنه أمين عليهم وعلى غيبهم، وعلى إرادة الخير بهم، والعرب تقول: فلان لفلان ناصح الجيب، أمين الغيب، ويحتمل أن يريد به من الأمن، أي: جهتي ذات أمن لكم من الكذب والغش[2].

والمعاني كلها متقاربة وصحيحة.

وقال موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الدخان: ١٨].

أي: على وحيه ورسالته، صادق في دعواه بالمعجزات، وهو علة للأمر بالتأدية، وفيه إشارة إلى أنه يلزم تأدية بني إسرائيل إلى موسى عليه السلام لكونه أمينًا.

وهكذا نجد أن الأمانة شرط أساس لاصطفاء الرسل، وهي من أبرز أخلاقهم، ولقد تجلى هذا الخلق العظيم في أبهى وأزهى صوره في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد عرف بالأمانة والصدق حتى لقبته قريش بالصادق الأمين، ويدل على ذلك قصة رفع الحجر الأسود عند بناء الكعبة المشرفة، عندما تنازعوا في استحقاق شرف رفعه، ووضعه في مكانه من البيت، حتى كادوا يقتتلون لولا أنهم احتكموا لأول من يدخل من باب الصفا، وكان صلى الله عليه وسلم هو أول من دخل، فقالوا: قبلنا به حكمًا، هذا هو الصادق الأمين، فرفعوه

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٠٢٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٧٦.

في ثوب، ثم أخذه صلى الله عليه وسلم بيديه، ووضعه في الركن المعد له في الكعبة المشرفة[1].

فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يعرف بالأمين قبل النبوة، وبعد حمله الرسالة مثل الأمانة حق تمثيل، حتى وكل عليًا رضي الله عنه في أداء الأمانات لأهل مكة، بعد أن طردوه منها[2].

وكانت تلك شهادة أعدائه فيه، كما جاء في حوار أبي سفيان وهرقل، حيث قال هرقل: «سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة نبي»، وفي موضع آخر: «وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون»[3].

ولئن كانت هذه صفة أصحاب الدعوات فإن أتباعهم كذلك متميزون؛ ولذلك اقترن تعريف المؤمن بسلوكه المميز، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم)[4].

أي: الإيمان والأمانة أخوان، بحيث لا وجود للإيمان بدون الأمانة، فمن كان أمينًا بحيث يأمنه الناس على أموالهم ونفوسهم ولا يخاف منه على مال أحد ولا على نفسه؛ فذلك الحقيق بأن يسمى مؤمنًا.

فالرسل أمناء الله على وحيه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟! يأتيني خبر السماء صباحًا ومساء)[5].

وكذلك كل من جاء بعدهم من العلماء والدعاة فهم أمناء في تبليغ هذا الدين إلى الناس.

والمقصود أن الأمانة صفة وشعار كل الرسل والدعاة الصادقين الصالحين، في كل الأمم والعصور، فالرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة، وإبلاغ الأمانة، وقد قاموا بذلك أتم القيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق، وهذا يقتضي تعظيم الأمانة، والاقتداء بهم

(١) أخرجه أحمد ٢٤/ ٢٦١، رقم ١٥٥٠٤.
(٢) انظر: معرفة السنن والآثار، البيهقي ١٠/ ٤٩٢، رقم ٤٠٩٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٧، رقم ٧.
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، ٢/ ١٢٩٨، رقم ٣٩٣٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٦٥٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع، ٤/ ١٥٨١، رقم ٤٠٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ٣/ ١١٠، رقم ٢٥٠٠.

في هذه الصفة؛ لأن الاقتداء بالأنبياء مأمور به.

وكذلك كان للأمانة عند أتباع الأنبياء شأن عظيم، فقد رعوها حق رعايتها، وعظموا شأنها، وحثوا عليها، ففي فتوحات فارس غنم المسلمون غنائم كثيرة، وكان من أعجب ما أخذوا من الغنائم البساط -بساط كسرى-، وهذا البساط كان كبير الطول والعرض، وكان كسرى إذا جاء الشتاء يشتاق إلى الربيع، فأمر المهرة والمهندسين والفنيين، فصنعوا له هذا البساط العظيم، وجعلوا اليواقيت فيه مثلما تنبت الأزهار في الربيع ملونة بالألوان المعروفة، فأخذوا اللآلئ واليواقيت والجواهر ولونوها بلون الأزهار، وغرسوها في هذا البساط العظيم، فيجلس كسرى في إيوانه في وسط هذا البساط العجيب، ولم يكن لدى أحد من ملوك الأرض مثل هذا البساط، ولكن ماذا يفعل المسلمون؟ لابد أن يبعثوا بكل هذه الغنائم إلى بيت المال؛ ليقسمها عمر رضي الله عنه، ويعطي من شاء، كما فرض الله سبحانه وتعالى، فكيف كان العمل؟

ليس هناك من وسيلة لنقل هذا البساط كاملًا، فقالوا: لابد أن نقطعه، ويحمل كل جمل ما يستطيع، فقطعه سعد رضي الله عنه ومن معه، حتى أوصلوه إلى المدينة، وقالوا لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: ألا نريك يا أمير المؤمنين كيف كان يجلس كسرى؟! ففرشوا ذلك البساط، وضموا كل قطعة إلى الأخرى، وعمر رضي الله عنه واقف يتأمل ويتفحص، ويتعجب حيث لم تنقص منه لؤلؤة واحدة، فقال: «إن قومًا أدوا هذا لأمناء» وقد قال ابن أبي نجيح: «لما أتي عمر بتاج كسرى وسواريه جعل يقلبه بعود في يده، ويقول: والله إن الذي أدى إلينا هذا لأمين، فقال رجل: يا أمير المؤمنين أنت أمين الله، يؤدون إليك ما أديت إلى الله، فإذا رتعت رتعوا. قال: صدقت»[1].

أي: أن جيش المسلمين جيش أمين حين أدى ذلك؛ لأن ياقوتة واحدة يضعها في جيبه قيمتها بعشرة آلاف دينار! ولم يكن العرب قبل الإسلام يحلمون بألف ولا بمائة درهم أن يكسبها الواحد من أموال كسرى، لكن عمر رضي الله عنه وجد البساط كاملًا! فتعجب من هذه الأمانة! وكان بجواره أحد الصحابة فقال: «يا أمير المؤمنين عففت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا» أي: لو أنك خنت لخانوا، فهؤلاء جيشك تربوا على الإيمان الذي تربيت عليه.

إنها الأمانة التي فقدتها الأمة الإسلامية؛ لأن هؤلاء القوم لم يخرجوا إلا ابتغاء وجه الله، وقاتلوا في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله، وماذا تساوي يواقيت كسرى بالنسبة

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٣٥٧.

إلى جنات النعيم؟!

وماذا يساوي أخذ شيء من هذه الدنيا الفانية إذا كان الإنسان متوعدًا عليه بغضب من الله عز وجل، ونارٍ في الدار الآخرة؛ فلذلك أدوا تلك الغنائم كاملة، وشهد لهم عمر رضي الله عنه بالأمانة.

ومما يدل على مكانة الأمانة عند السلف أتباع الأنبياء ما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول: «لا يغرنك صلاة امرئ ولا صومه، من شاء صام ومن شاء صلى، ولكن لا دين لمن لا أمانة له»[(١)].

وقال نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما: «طاف ابن عمر سبعًا، وصلى ركعتين، فقال له رجل من قريش: ما أسرع ما طفت وصليت يا أبا عبد الرحمن! فقال ابن عمر: أنتم أكثر منا طوافًا وصيامًا، ونحن خير منكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وإنجاز الوعد»[(٢)].

رابعًا: وصف مكة المكرمة بالبلد الأمين:

وصف الله تعالى مكة بالبلد الأمين، بقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٣].

والمراد: مكة باتفاق[(٣)]. وسمي الأمين لأن من دخله كان آمنًا، فالأمين فعيل بمعنى: مفعل، ويجوز أن يكون بمعنى: مفعول، على وجه الإسناد المجازي، أي: المأمون ساكنوه.

قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤].

والإشارة إليه بقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ للتعظيم، ولأن نزول السورة في ذلك البلد، فهو حاضر بمرأى ومسمع من المخاطبين، نظير قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:١][(٤)].

والأمن أكبر شروط حسن المكان؛ لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف، فإذا كان آمنًا في منزله كان مطمئن البال، شاعرًا بالنعيم الذي يناله.

وأمين للمبالغة، أي: آمن من فيه وما فيه من طير وحيوان...، وأمانته حفظه من دخله، كما وصف بالأمن، في قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧].

بمعنى: ذي أمن.

وفائدة القسم بهاتيك البقاع المباركة المشحونة ببركات الدنيا والدين إبانة شرفها، وما ظهر فيها من الخير بسكنى الأنبياء والصالحين[(٥)]. وفيه إشارة إلى موارد أعظم الشرائع الواردة للبشر، فـ (التين) إيماء

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٨٨.
(٢) انظر: أخبار مكة، الفاكهي ١/ ٣٧٢، الآداب الشرعية، ابن مفلح ١/ ٤٠.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٣٣٩.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٥٦.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٤٩٨.

إلى رسالة نوح، وهي أول شريعة لرسول، و(الزيتون) إيماء إلى شريعة إبراهيم...، و﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ إيماء إلى شريعة التوراة، و﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ إيماء إلى مهبط شريعة الإسلام، ولم يقع إيماء إلى شريعة عيسى؛ لأنها تكملة لشريعة التوراة، وقد يكون الزيتون على تأويله بالمكان وبأنه المسجد الأقصى إيماء إلى مكان ظهور شريعة عيسى عليه السلام؛ لأن المسجد الأقصى بناه سليمان عليه السلام، فلم تنزل فيه شريعة قبل شريعة عيسى، ويكون قوله: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين:٣]. إيماء إلى شريعة إبراهيم وشريعة الإسلام، فإن الإسلام جاء على أصول الحنيفية؛ وبذلك يكون إيماء هذه الآية ما صرح به في قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣][1].

والمقصود أن مكة المكرمة هي البلد الأمين والآمن، وقد وردت آيات كثيرة تبين هذا غير ما سبق، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وهو استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام، حيث قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

فهو بلد أمن وسلام وسكينة وراحة.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يعترض له»، وقيل: آمنًا يعني: الأمان لكل أحد حتى الوحوش والجمادات والأشجار؛ لهذا كانوا في الجاهلية يحترمونه أشد الاحترام مع شركهم، ولما جاء الإسلام زاد حرمته تعظيمًا وشرفًا وتكريمًا[2].

خامسًا: الثناء على الذين يؤدون أماناتهم:

أثنى الله تعالى على المحافظين على الأمانة، والموفين بالعهود، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

والآية تدل على أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس: أنهم راعون لأماناتهم وعهدهم، أي: محافظون على الأمانات والعهود.

وقوله: ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ الأمانة هي في الأصل مصدر، لكن أريد بهاهنا ما ائتمن عليه؛ إذ الحفظ للعين لا للمعنى.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٥٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١١١.

وهي تشمل: كل ما استودعك الله، وأمرك بحفظه، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الله وحقوق الناس.

وكذا العهد مصدر أريد به ما عوهد عليه، ويشمل: كل ما أخذ عليك العهد بحفظه من حقوق الله وحقوق الناس.

وجمعت الأمانة دون العهد، قيل: لأنها متنوعة متعددة جدًا بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى، ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك، ولا كذلك العهد.

ويجوز أن يراد بالأمانات ما ائتمنهم الله تعالى عليه من الأعضاء والقوى، والمراد برعيها حفظها عن التصرف بها على خلاف أمره عز وجل، وأن يراد بالعهد ما عاهدهم الله تعالى عليه، مما أمرهم به سبحانه بكتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، والمراد برعيه حفظه عن الإخلال به؛ وذلك بفعله على أكمل وجه، فحفظ الأمانات كالتخلية، وحفظ العهد كالتحلية، وكأنه جل وعلا بعد أن ذكر حفظهم لفروجهم ذكر حفظهم لما يشملها وغيرها[1].

ولما كانت الأمانة غالبًا في الأمور النفيسة التي يخشى صاحبها عليها التلف والضياع، فيجعلها عند من يظن فيه حفظها، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمن والأمين، فهي لنفاستها قد تغري الإنسان على جحدها وعدم ردها إلى صاحبها، ولكون دفعها في الغالب يخلو من الإشهاد جعل الله ردها من شعب الإيمان.

وهذه الصفة من جلائل صفات المؤمنين، وهي تنحل إلى فضيلتين، هما فضيلة أداء الأمانة التي يؤتمنون عليها، وفضيلة الوفاء بالعهد، فلا خيانة ، ولا خلف.

فخيانة الأمانة، وعدم الوفاء بالعهد من الكبائر، ومن علامة النفاق، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**)[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: (**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**)[3].

والمقصود أن الله مدح المؤمنين من

(١) روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٥٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٢، رقم ١٢٥٦٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧١٧٩.

عباده، فوصفهم بأنهم يرعون العهد، فلا يخونونه أو ينكثونه، ويحفظون الأمانة فلا يضيعونها أو يهملونها، وإنما يؤدونها إلى أهلها كاملة وافية.

وقد اعتبرت الأمانة صفة من صفات عباد الله المؤمنين من الجن والإنس.

قال تعالى على لسان أحد العفاريت الذين سخرهم لنبيه سليمان عليه السلام، عندما طلب سليمان إحضار عرش بلقيس من اليمن إليه: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل ٣٨-٣٩].

وأخبر أن الأمانة من صفات الملائكة الأبرار، ومنهم جبريل الذي نزل بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الأمانة من صفات الأنبياء والمرسلين الذين ائتمنهم الله على رسالته إلى خلقه، والذين هم أمناء على ما يعود بالنفع على أمتهم، حريصون على هدايتهم وإرشادهم، وكل هذا ترغيب بهذه الصفة الكريمة، وحث على الاتصاف بها.

وحسبك من رفع شأن الأمانة أن صاحبها جدير بولاية أمر المسلمين؛ لأن ولاية أمر المسلمين أمانة لهم ونصح؛ ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول[1]: (إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح)[2].

وحسبك من رفع شأن الأمانة أن من خانها قطعت يده، ولو في ربع دينار فقط، مع أنه عرف من الشرع أن اليد فيها نصف الدية، ودية الذهب ألف دينار، فتكون دية اليد خمسمائة دينار، فكيف تؤخذ في مقابلة ربع دينار؟ وما وجه العدالة والإنصاف في ذلك؟ وهذا النوع من اعتراضات الملحدين الذين لا يؤمنون بالله ورسوله قد نظمه المعري بقوله[3]:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجدٍ وديت
ما بالها قطعت في ربع دينار؟
تناقض ما لنا إلا السكوت له
ونستعيذ بمولانا من النار

وقد رد عليه أحد الشعراء بقوله[4]:

قل للمعري عارٌ أيما عار
جهل الفتى وهو عن ثوب التقى عاري
يدٌ بخمس مئينٍ عسجدًا وديت

(١) انظر: تاريخ دمشق ٥٨ / ٤٠٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، ٣/ ١٣٦٩، رقم ٣٥٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، رقم ٢٤١٩.
(٣) انظر: ديوان أبي العلاء المعري ١/ ٥٧٠.
(٤) البيتان منسوبان لعلم الدين السخاوي. انظر: نكت الهميان، الصفدي ١/ ٣٧.

ما بالها قطعت في ربع دينار
صيانة النفس أغلاها وأرخصها
ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

وقد قيل: لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت. ومن الواضح أن تلك اليد الخسيسة الخائنة لما تحملت رذيلة السرقة، وإطلاق اسم السرقة عليها في شيء حقير كثمن المجن والأترجة، كان من المناسب المعقول أن تؤخذ في ذلك الشيء القليل، الذي تحملت فيه هذه الرذيلة الكبرى.

فالشرع إنما قطع يده بسبب أنه تحمل الدناءة والخساسة في سرقة ذلك القدر القليل، فلا يبعد أن يعاقبه الشرع بسبب تلك الدناءة هذه العقوبة العظيمة، فانظر ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق، والتنزه عما لا يليق!

وقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدًا يدل على أن التشريع السماوي يضع درجة الخائن من خمسمائة درجة إلى ربع درجة، فانظر هذا الحط العظيم لدرجته بسبب ارتكاب الرذائل!

ولو أن الدية كانت ربع دينار لكثرت الجنايات على الأيدي، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال؛ فظهرت الحكمة في الجانبين، وكان في ذلك صيانة من الطرفين[1].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٥.

مجالات الأمانة

تعددت مجالات الأمانة كما بينها القرآن الكريم، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: التكاليف الشرعية:

المجالات التي تدخل فيها الأمانة كثيرة ومتعددة؛ لأن الأمانة تدخل في جميع أعمال الإنسان التي يقوم بها في الحياة، وفي جميع التكاليف التي كلف بها، ومنها: الأمانة الكبرى أمانة الدين، وهي الخضوع لأوامر الله، والانتهاء عن زواجره، ومن هذه الأمانة الكبرى انبثقت سائر الأمانات، مثل: أمانة الشهادة لهذا الدين، وأمانة العلم، وأمانة الدعوة إلى الله تعالى، وأمانة المحافظة على حرمات المجتمع، وأمانة التعامل مع الناس، ورد أماناتهم إليهم، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: «والأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع»[2]، فمفهوم الأمانة في الإسلام إذن شامل لدين الإنسان وطاقته في تحمل أعباء التكاليف التي فرضها الله تعالى عليه، وسنتناول في هذه السطور الأمانة في التكاليف الشرعية.

فمن أعظم مجالات الأمانة الأمانة في التكاليف الشرعية من صلاة وصيام وزكاة وحج وغسل من جنابة وغيرها.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٤٠.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقد اختلف في هذه الأمانة المعروضة في هذه الآية. وأرجح الأقوال وأجمعها في المراد بالأمانة هنا: أنها التكاليف والفرائض الشرعية التي كلف الله تعالى بها عباده، من إخلاص في العبادة، ومن أداء للطاعات، ومن محافظة على آداب هذا الدين وشعائره وسننه. فالأمانة هنا تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور، كما قاله القرطبي[(١)].

قال ابن كثير بعد أن ذكر أقوالًا في المراد بالأمانة المعروضة هنا: «وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة، وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله»[(٢)].

وقد قيل: يجب أن يطرح منها صنف الشرائع؛ لأنها ليست لازمة لفطرة الإنسان، فقد خلت أمم عن التكليف بالشرائع، وهم أهل الفترة[(٣)]. والصواب ما قدمناه.

وعرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال على سبيل الحقيقة، فلا مانع من أن يخلق الله تعالى إدراكًا ونطقًا للسماوات والأرض والجبال فتعرض عليها الأمانة، فتدرك وتنطق، ولكن هذا الإدراك والنطق لا يعلمه إلا الله سبحانه. قال بعض أهل العلم: ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة، حتى عقلن الخطاب، وأجبن بما أجبن.

قال في اللباب: «إن الله عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قال: إن أحسنتن جوزيتن، وإن عصيتن عوقبتن، فقلن: لا يا رب، نحن مسخرات لأمرك، لا نريد ثوابًا ولا عقابًا، وقلن ذلك خوفًا وخشية وتعظيمًا لله؛ خوفًا أن لا يقمن بها، لا معصية ومخالفة، وكان العرض عليهن تخييرًا لا إلزامًا، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، فالجمادات خاشعة لله عز وجل، ساجدة له، كما قال تعالى للسماوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

وقال في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٥٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٨٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٢٧.

[الحج:١٨]... الآية»[١].

ويرى بعضهم أن العرض في هذه الآية الكريمة من قبيل ضرب المثل، أو من قبيل المجاز. قال القفال وغيره: العرض في هذه الآية ضرب مثل، أي: أن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب.

أو يكون العرض على من فيها من الملائكة. وقيل: عرضها على أهلها كلها دون أعيانها، وهذا كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢].

أي: أهلها[٢].

أو يكون المراد: المقابلة، أي: قابلنا الأمانة بالسماوات فرجحت الأمانة، والعرض أسهل من الفرض؛ ولهذا كفر إبليس بالإباء، ولم يكفر هؤلاء بالإباء؛ لأن هناك استكبارًا، وهاهنا استصغارًا؛ بدليل قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾...، وإنما صير إلى هذا التكلف لاستبعاد طلب الطاعة من الجمادات، ولم يستبعده أهل البيان؛ لأن المراد تصوير عظم الأمانة، وثقل حملها، فمثلت حال التكليف في صعوبته، وثقل محمله بحالة المتحملة المفروضة لو عرضت على هذه الأجرام العظام[٣].

والصواب: أن حمل الكلام على الحقيقة أولى بالقبول؛ لأنه ما دام لم يوجد مانع يمنع منه فلا داعي لصرفه عن ذلك، ومما لا شك فيه أن قدرة الله تعالى لا يعجزها أن تخلق في السماوات والأرض والجبال إدراكًا وتمييزًا ونطقًا لا يعلمه إلا الله سبحانه.

قال في أضواء البيان: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه عرض الأمانة، وهي التكاليف مع ما يتبعها من ثواب وعقاب على السماوات والأرض والجبال، وأنهن أبين أن يحملنها، وأشفقن منها، أي: خفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك عذاب الله وسخطه، وهذا العرض والإباء والإشفاق كله حق، وقد خلق الله للسماوات والأرض والجبال إدراكًا يعلمه هو جل وعلا ونحن لا نعلمه، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها، وأبت وأشفقت، أي: خافت»[٤].

وسمى سبحانه ما كلفنا به أمانة؛ لأن هذه التكاليف حقوق أمرنا سبحانه بها، وائتمننا عليها، وأوجب علينا مراعاتها والمحافظة عليها، وأداءها بدون إخلال بشيء منها.

و«عبر عن التكاليف الشرعية بالأمانة؛ لأنها حقوق مرعية أودعها الله المكلفين، وائتمنهم عليها، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد، وأمرهم بمراعاتها،

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٣/ ١١٤.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ١١/ ١٨٣.
(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٢٧٠.
(٤) أضواء البيان ٦/ ٢٥٨.

والمحافظة عليها، وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها»[1].

وتخصيص ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بالذكر من بين الموجودات؛ لأنهما أعظم المعروف للناس من الموجودات، وعطف ﴿وَٱلۡجِبَالِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهي منها؛ لأن الجبال أعظم الأجزاء المعروفة من ظاهر الأرض، وهي التي تشاهد الأبصار عظمتها؛ إذ الأبصار لا ترى الكرة الأرضية، كما قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر:٢١][2].

ولما عرضت الأمانة على هذه الأجرام العظام من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ أبين أن يحملنها؛ لثقلها وضخامتها ﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ أي: وخفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك ما يؤدي بهن إلى عذاب الله وسخطه؛ بسبب التقصير في أداء ما كلفن بأدائه.

وفائدة هذا تعظيم أمر هذه الأمانة؛ إذ بلغت أنه لا يطيق تحملها ما هو أعظم ما يبصره الناس من أجناس الموجودات.

وقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: قبل الإنسان حمل هذه الأمانة عند عرضها عليه، بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال حملها، وأشفقن منها. والمراد بحمله إياها: تقبله لحمل هذه التكاليف والأوامر والنواهي مع ثقلها وضخامتها، والإنسان المعروضة عليه هذه الأمانة: إما أن يكون آدم عليه السلام أو جنس الإنسان.

قال في التحرير: «فحقيق بنا أن نقول: إن هذا العرض كان في مبدأ تكوين العالم ونوع الإنسان؛ لأنه لما ذكرت فيه السماوات والأرض والجبال مع الإنسان علم أن المراد بالإنسان نوعه؛ لأنه لو أريد بعض أفراده -ولو في أول النشأة- لما كان في تحمل ذلك الفرد الأمانة بتعذيب المنافقين والمشركين؛ ولما كان في تحمل بعض أفراده دون بعض الأمانة حكمة مناسبة لتصرفات الله تعالى، فتعريف الإنسان تعريف الجنس، أي: نوع الإنسان»[3].

فتكون اللام في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ للجنس، وحمل الشيء على بعض الجنس يكفي في صدقه على الجنس.

فلو قال قائل: لكن لو كانت الآية تعني التكاليف -على ما قاله الجمهور- لذكر الجن (الخلق المكلفين) ولو كانت تعني الإيمان والاختيار، فالجن مشتركون معنا في هذه الخاصية، وإن الآية فصلت حتى إنها ذكرت الجبال رغم تابعية الجبال للأرض، ثم إن الآية حددت من حمل الأمانة وهو

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١١٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٢٥.
(٣) المصدر السابق.

الإنسان، ولم تقل: الجان، فما التوجيه؟

والجواب: أنه لابد للناظر في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخذ العظة والعبرة منهما أن يكون صاحب فهم ومعرفة، وعليه أن لا يقتصر على نصٍ يستشكله ويترك نصوصًا أخرى.

فإذا لم تكن هذه الآية فيها بيان تكليف الجن، فأين نحن من الآيات الأخرى التي ذكر الله فيها أن الجن مكلفون؟ كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وأيضًا أول الآيات في سورة الجن.

وأيضًا فلفظ ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ ليس من صيغ الحصر التي تعني أنه لا يوجد لها متحمل إلا الإنسان، فلو قال: (ولم يحملها إلا الإنسان) لكان لهذا الاستشكال حظ من النظر حتى يبحث له عن جواب.

ثم إن الجن قد لا تكون عرضت عليهم أصلًا بل حملوها بغير عرض، والله جل وعلا له أن يكلف المخلوق قبل أن يأخذ رأيه، فهو ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقد يكون تخصيص الإنسان بالذكر مع أن الجن مكلفون أيضًا وكذا الملائكة عليهم السلام؛ لأنه لم يكن في ذلك كلفة عليهم؛ لأنه ليس فيه ما يخالف طباعهم[1].

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي: إنه كان مفرطًا في ظلمه لنفسه، ومبالغة في الجهل؛ لأن هذا الجنس من الناس لم يلتزموا جميعًا بأداء ما كلفهم الله تعالى بأدائه، وإنما منهم من أداها على وجهها -وهم الأقلون-، ومنهم من لم يؤدها، وإنما عصى ما أمره به ربه، وخان الأمانة التي التزم بأدائها.

والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على بعض أفراد جنس الإنسان، وهم الذين لم يؤدوا حقوق هذه الأمانة التي التزموا بحملها، ويكفي في صدق الحكم على الجنس بشيء وجوده في بعض أفراده فضلًا عن وجوده في غالبها.

وقال بعض العلماء: رجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلي معروف في اللغة التي نزل بها القرآن.

وقد جاء فعلًا في آية من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ

(١) انظر: روح المعاني ٢٢/ ٩٦.

﴿عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١].

وهذه المسألة هي المعروفة عند علماء العربية بمسألة: عندي درهم ونصفه، أي: ونصف درهم آخر.

والمقصود أن من المجالات العظيمة للأمانة التكاليف الشرعية، وهي -بشكل أعم- ممارسة منهج الله في واقع حياة الإنسان على الأرض؛ ولهذا وهب الله الإنسان كل ما يلزمه لحمل هذه الأمانة، فتميز ببعض ذلك عن سائر المخلوقات.

ومن أهم ذلك السمع والبصر والفؤاد؛ لتكون المنافذ التي يستقبل بها آيات الله المبثوثة في الكون، ويستقبل بلاغ الأنبياء والرسل؛ فيعي الإنسان حقيقة الأمانة التي يحملها، فيؤمن بها، ويمضي للوفاء بها.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣].

وقد استخدم هذا الأسلوب وهو تمثيل للأمانة في ضخامتها وعظمها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السماوات والأرض والجبال -وهن من القوة والشدة بأعلى المنازل- لأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وهو تمثيل رائع لتهويل شأن الأمانة.

ثانيًا: العهود والمواثيق:

ومن مجالات الأمانة حفظ العهود والمواثيق، ومن أبرز وأقوى العهود ما التزم به العبد من عبادة الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله، والوفاء بذلك حتى الموت، زيادة على أمانات الناس والعهود لهم، فالكل واجب الحفظ والرعاية.

قال تعالى في سورة المؤمنون والمعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون:٨]،[المعارج:٣٢].

أي: أن من صفات هؤلاء المفلحين أنهم يقومون بحفظ ما ائتمنوا عليه من أمانات، ويوفون بعهودهم مع الله تعالى، ومع الناس، ويؤدون ما كلفوا بأدائه بدون تقصير أو تقاعس؛ وذلك لأنه لا تستقيم حياة أمة من الأمم إلا إذا أديت فيها الأمانات، وحفظت فيها العهود، واطمأن فيها كل صاحب حق إلى وصول هذا الحق إليه.

قال الشنقيطي: «ففي هذه الآية الكريمة ذكر -جل وعلا- أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس: أنهم راعون لأماناتهم وعهدهم، أي: محافظون على الأمانات والعهود...، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من حفظ الأمانات والعهود جاء مبينًا في آيات كثيرة»[1].

وقد جمع ها هنا الأمانة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ

(١) أضواء البيان ٢/ ٣٠.

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾؛ وذلك لتعددها وتنوعها، فهي كثيرة جدًا -كما سبق-، ومنها ما جاء في الحديث: (المؤذن مؤتمن)[1] يعني: أن المؤذن أمين الناس على صلاتهم وصيامهم، فصلاة الناس وصيامهم أمانة عنده.

وفي الحديث أيضًا: (المجالس بالأمانة)[2].

وهذا ندب إلى ترك إعادة ما يجري في المجلس من قول أو فعل، فكان ذلك أمانة عند من سمعه أو رآه.

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (المستشار مؤتمن)[3] أي: أمين على المشورة، فإذا كان يعرف الصواب يجب أن يذكره من دون خداع، وإذا كان لا يعرف أحاله على من يعرفه واعتذر.

ولكن لو أنه عرف الصواب في النصيحة وأخفاه، وذكر سواه كان خائنًا، ويؤكد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: (من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه)[4].

وأما تقديمها على العهد فلأهميتها، وحسب ذلك أن يكون الشرع كله كما مر أمانة، وحسبك من ذلك قوله: (لا إيمان لمن لا أمانة له)[5].

الالتزام بالعهود والمواثيق:

ونلحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى ذكر العهد بعد ذكر الأمانات، فقال: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ والعهد: التزام بين اثنين أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به، وسمي عهدًا؛ لأنهما يتحالفان بعهد الله، أي: بأن يكون الله رقيبًا عليهما في ذلك.

والعهد شامل لعهد الله وعهد الناس، وهو ما عقده الإنسان على نفسه، وهو يضاف إلى المعاهد والمعاهد، فيجوز هنا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٤٨٥، رقم ٨٩٠٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٧٨٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٣/ ٤٥، رقم ١٤٦٩٣، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في نقل الحديث، ٤/ ٢٦٨، رقم ٤٨٦٩، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة رقم ١٩٠٩.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في المشورة، ٤/ ٤٩٥، رقم ٥١٣٠، والترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب إن المستشار مؤتمن ٥/ ١٢٥، رقم ٢٨٢٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن، ٢/ ٢٣٣، رقم ٣٧٤٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٧٠٠.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ١٨٤، رقم ٣٥٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٦٨.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٢، رقم ١٢٥٦٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧١٧٩.

الإضافة إلى الفاعل والمفعول[1].

وقد بين سبحانه وتعالى أن له على عباده عهدًا ولهم عليه عهد، وبين أنهم متى ما وفوا بعهدهم فإنه سبحانه يفي أيضًا بعهده، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

ثم في سائر الآيات أفرد عهد العباد بالذكر، وأفرد عهد نفسه أيضًا بالذكر، أما عهد العباد فقال فيه: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة:١٧٧].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:٨].

وأما عهده سبحانه وتعالى فقال فيه: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم بين عهده إلى أبينا آدم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

ثم بين عهده إلينا، فقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس:٦٠].

ثم بين عهده مع بني إسرائيل، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾[آل عمران:١٨٣].

ثم بين عهده مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة:١٢٥].

ثم بين أن عهده لا يصل إلى الظالمين، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهذه المبالغة الشديدة في هذه العهود والمعاهدة تقتضي البحث عن حقيقة هذه العهود، فنقول: العهد المأخوذ عليك ليس إلا عهد العبودية، والعهد الذي التزمه الله تعالى من جهته ليس إلا عهد الرحمة والربوبية، ثم إن العاقل إذا تأمل في حال هذه المعاهدة لم يجد من نفسه إلا نقض هذا العهد، ومن ربه إلا الوفاء بالعهد.

والعهود التي بين العباد وبين بعضهم هي: كل عقدٍ يعقد لتوثيق أمرٍ وتوكيده، كعقد البيع والشركة، وعقد اليمين والنذر، وعقد الصلح، وعقد النكاح وغيرها، فمقتضى هذه الآية أن كل عهدٍ وعقدٍ يجري بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء بذلك العقد والعهد إلا إذا دل دليل منفصلٌ على أنه لا يجب الوفاء به.

والوفاء بالعهد من أعظم خلق الكريم؛ لدلالته على شرف النفس وقوة العزيمة.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠].

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ١٠/ ١٢٦.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل:٩١].

ونقض العهد مع الله أو مع عباده من علامة النفاق، ومن شيم أهل البعاد والشقاق، والوفاء بالعهد من علامة الإيمان، ومن شيم أهل المحبة والعرفان.

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سرًا وجهرًا امتازت الشريعة الإسلامية على غيرها، فشعار أهل الإسلام الوفاء بالعهود، والبعد عن الخيانة والغدر.

وقد ذم الله تعالى الذين ينقضون العهد، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد: ٢٥].

والمراد من نقض عهد الله عدم الوفاء بما أمر وأوجب على عباده.

والمراد من قوله: ﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: من بعد أن وثق الله تلك الأدلة وأحكمها؛ لأنه لا شيء أقوى مما دل الله على وجوبه في أن ينفع فعله، ويضر تركه.

فإن قيل: إذا كان العهد لا يكون إلا مع الميثاق فما فائدة اشتراطه تعالى بقوله: ﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قلنا: لا يمتنع أن يكون المراد بـ (العهد): هو ما كلف الله العبد، والمراد بـ (الميثاق): الأدلة المؤكدة؛ لأنه تعالى قد يؤكد إليك العهد بدلائل أخرى، سواء كانت تلك المؤكدة دلائل عقلية أو سمعية[1].

وقال في الآية الأخرى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦].

فجمع بين الوفاء والتقى، وهما أصلان لجميع مكارم الأخلاق، فالوفاء بالعهد يشمل عهد الميثاق، وعهد الله تعالى بالتزام التكاليف الخاصة والعامة، والتقوى تتممها وتزينها؛ حتى يأتي بها على وجه الكمال من غير شائبة الاختلال، فكل متقٍ موفٍ بالعهد، ولا يلزم العكس؛ فلهذا اقتصر على قوله: ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ دون أن يقول: يحب الموفين، أو الموفين والمتقين[2].

والجمع بين رعي الأمانات ورعي العهد؛ لأن العهد كالأمانة؛ لأن الذي عاهدك قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضيه ذلك العهد. إلا أن العهد أخص من الأمانة والأمانة أعم من العهد؛ لأنها قد تكون بعهد وبغير عهد متقدم[3].

وذكرهما عقب أداء الزكاة؛ لأن الزكاة أمانة الله عند الذين أنعم عليهم بالمال؛ ولذلك سميت حق الله، وحق المال، وحق المسكين.

وقوله: ﴿رَٰعُونَ﴾ أي: قائمون على حفظ الأمانة والعهد، فالرعي: مراقبة شيء بحفظه من التلاشي، وبإصلاح ما يفسد

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ١٧٦.

(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٢٩٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٣١.

منه، فمنه رعي الماشية، ومنه رعي الناس، ومنه أطلقت (المراعاة) على ما يستحقه ذو الأخلاق الحميدة من حسن المعاملة، والقائم بالرعي راع، فرعي الأمانة: حفظها؛ ولما كان الحفظ مقصودًا لأجل صاحبها كان ردها إليه أولى من حفظها، ورعي العهد مجاز، أي: ملاحظته عند كل مناسبة[1].

أما اختيار كلمة ﴿رَٰعُونَ﴾ مع الأمانة والعهد دون (الحفظ) الذي استخدم مع الفروج فله سبب لطيف؛ وذلك أن ﴿رَٰعُونَ﴾ اسم فاعل من (رعى) وأصل الرعي: حفظ الحيوان، وتولي أمره، وتفقد شأنه، فالرعي ليس مجرد الحفظ، بل هو الحفظ والإصلاح والعناية، وما إلى ذلك، وليس مجرد الحفظ كافيًا.

فمن ائتمن عندك أهله وصغاره فلابد من أن تتفقد أمورهم، وتنظر في أحوالهم وحاجاتهم، علاوة على حفظهم، وكذلك من تولى أمر الرعية، ومثله من اؤتمن على زرع أو ضرع، وكذلك ما حمله الله للإنسان من أمر الشرع، يحتاج إلى قيام به، وتحرٍ للحق فيما يرضي الله، ومثل هذه الأمور لا يصح معها مجرد الحفظ، فالرعاية أشمل وأعم.

ثم إن هناك فرقًا آخر بين رعي الأمانة وحفظ الفروج، وهو أن الفروج جزء من الإنسان لا تند عنه، أما الأمانات فقد تكون في أماكن متعددة، وربما تكون أماكن حفظها نائية عنه، فهي تحتاج إلى تفقد ورعاية، كما يحتاج الحيوان إلى حفظه من الذئاب والوحوش الضارية، وقد يصعب على الإنسان المحافظة على الأمانة من العادين واللصوص، فيضطر إلى تخبئتها في أماكن لا ينالها النظر، ولا يطولها التفتيش، فكان على المؤتمن أن ينظر في حفظها، كما ينظر الراعي لها، وهو أنسب من الحفظ.

وهناك فائدة أخرى، وهي أن كلمة (الراعي) قد تكون بمعنى الصاحب، تقول: (من راعي هذه الديار؟) أي: من صاحبها ومتولي أمرها؟ فيكون المعنى على هذا: والذين هم أصحاب الأمانات والعهود، أي: هم أهلها ومتولوها، ولو قيل بدل ذلك: الذين يحفظون الأمانة والعهود لم تفد هذه الفائدة الجليلة.

ثم إن اختيار كلمة ﴿رَٰعُونَ﴾ بالصيغة الاسمية دون الفعلية له سببه، فإنه لم يقل: (يرعون)؛ وذلك ليدل على لزوم ثبات الرعي ودوامه، وعدم الإخلال به البتة.

وأما تقديم الأمانة والعهد على ﴿رَٰعُونَ﴾ فللاهتمام والعناية بأمرهما، وللدلالة على أنهما أولى ما يرعى في هذه الحياة،

وزيادة اللام في ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ تفيد الزيادة في الاختصاص والتوكيد.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٧.

فيكون في هذه الآية وغيرها دلالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد؛ وذلك لأن الطاعات مقصورة على أمرين: التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معًا؛ إذ ذلك سبب لمنفعة الخلق، فهو شفقة على خلق الله؛ ولما أمر الله به كان الوفاء به تعظيمًا لأمر الله[1].

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن)** أي: جعل أمينًا، ووضع عنده أمانة **(خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر)** أي: ترك الوفاء **(وإذا خاصم فجر)**[2]. أي: مال عن الحق.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بالوفاء بالعهد، فهذا حذيفة رضي الله عنه يقول: **«ما منعنا أن نشهد بدرًا إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده، إنما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرن إلى المدينة، ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرنا له ما قالوا، وما قلنا لهم، فقال: (نستعين الله عليهم، ونفي بعهدهم) فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدرًا»**[3].

فهذه صورة مشرقة في حرص النبي صلى الله عليه وسلم لحفظ العهود، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم الأخلاق الرفيعة، وإن كان في ذلك إجحاف بالمسلمين، ومفوت لهم جهد بعض أفراد المجاهدين.

والمقصود أن من مجالات الأمانة المهمة الوفاء بالعهد والميثاق، ويبدأ ذلك من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، وهي أمانة العقيدة والاستقامة عليها اختيارًا لا اضطرارًا، ومن رعاية العهد الأول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد في الأصلاب: أن الله ربهم الواحد، وهم على هذا العهد شهود، ومن رعاية تلك الأمانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهود في معاملات الأرض.

وقد شدد الإسلام في الأمانة والعهد وكرر وأكد؛ ليقيم المجتمع على أسس

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٤١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ١/ ٢١، رقم ٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٥٨.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٢٠١، رقم ٢٠٢.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد». ولم يتعقبه الذهبي.

متينة من الخلق والثقة والطمأنينة، وجعل رعاية الأمانة والعهد سمة النفس المؤمنة، كما جعل خيانة الأمانة وإخلاف العهد سمة النفس المنافقة والكافرة، ورد هذا في مواضع شتى من القرآن والسنة، والتي لا تدع مجالًا للشك في أهمية هذا الأمر في الإسلام.

وجعل هذه الصفة من أخلاق المسلم الأصيلة والتي تنبع من عقيدته، وتدل على صدق اتجاهه، وشرف غايته، فهي صفة نفسية تملي على صاحبها سلوكًا يتبدل إزاء كل ما يعهد إليه القيام به، وكل ما يتحمل من مسئولية، وهي بهذا تحيط بكل تبعات الحياة الصغيرة والكبيرة، وتتناول كل الأعباء التي يتحملها الإنسان.

والجماعة المسلمة مسئولة عن أماناتها العامة، ومسئولة عن عهدها مع الله تعالى، وما يترتب على هذا العهد من تبعات، والنص يجمل التعبير، ويدعه يشمل كل أمانة، وكل عهد، ويصف المؤمنين بأنهم ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾، فهي صفة دائمة لهم في كل حين، وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات، وترعى فيها العهود، ويطمئن كل من فيها إلى هذه القاعدة الأساسية للحياة المشتركة الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان[1].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ٣٣٦.

ثالثًا: الأمانة في القضاء والحكم بين الناس:

ومن مجالات الأمانة: الأمانة في القضاء والحكم بين الناس، وتكون الأمانة في القضاء بإصدار الأحكام وفق أحكام العدل التي استؤمن القاضي عليها، وفوض الأمر فيها إليه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فنلحظ هنا أن الله تعالى لما أمر بأداء الأمانة عمومًا عقب بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة[2] الحجبي من بني عبد الدار، لما رد له النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة، وقد سبق ذكر قصته.

قال ابن كثير: «وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه ومحمد بن الحنفية: هي للبر والفاجر، أي: هي أمر لكل أحد»[3].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «قال العلماء: نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٠.
(٣) المصدر السابق.

الناس أن يحكموا بالعدل...، وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة»[(١)]. وقال الشوكاني رحمه الله: «ويدخل الولاة في هذا الخطاب دخولًا أوليًا، فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات، ورد الظلامات، وتحري العدل في أحكامهم»[(٢)].

وفي الآية دلالة على أنه يجب أداء الأمانات إلى أهلها.

وفي حديث الحسن عن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)[(٣)].

فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء)[(٤)].

ثم بعد هذا الأمر العام الذي يشمل جميع أنواع الأمانة، وجميع أنواع المخاطبين، عقب سبحانه بالأمر بالعدل في الحكم والقضاء بين الناس؛ إذ هو من أعظم الأمانات وأوجبها، فقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

أي: أنه تعالى يأمركم أيضًا إذا حكمتم بين الناس أن تجعلوا حكمكم قائمًا على الحق والعدل، فإن الله تعالى ما أقام ملكه إلا عليهما، ولأن الأحكام إذا صاحبها الجور والظلم أدت إلى شقاء الأفراد والجماعات.

ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ٥٨].

وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه؛ لاشتمالها على مصالح الدارين، ودفع مضارهما؛ لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون[(٥)].

وهذا الخطاب -وإن رأى بعضهم- أنه موجه إلى الذين يحكمون وهم الحكام من ولاة وقضاة وغيرهم ممن يلون الحكم إلا أنه لا مانع من أن يكون الخطاب موجهًا إلى الأمة كلها؛ لأن الأمة العزيزة التي تتولى أمور نفسها من غير تحكم من ملك

---

(١) السياسة الشرعية ص١٢.
(٢) فتح القدير ١/ ٧٢٥.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٢٤/ ١٥٠، رقم ١٥٤٢٤، وأبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، ٣/ ٣١٣، رقم ٣٥٣٦، والترمذي في سننه، كتاب البيوع، ٣/ ٥٦٤، رقم ١٢٦٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٤٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٣.

أو طاغ قاهر هي محكومة ومحكمة، فهي التي تختار حاكمها وهي في هذا محكمة، مطلوب منها العدل، فلا تختار لهوى أو لعطاء أو لمصلحة شخصية أيًا كان نوعها، وهي محكمة في حاكمها فلا تقول فيه إلا حقًا، ولا تطالبه إلا بما هو حق لا جور فيه، ولا تشتط في نقده، ولا تسكت عن نصيحته، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (الدين النصيحة...، لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1].

وأما الحكم بالعدل بين الناس فالنص يطلقه هكذا عدلًا شاملًا ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ جميعًا، لا عدلًا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا عدلًا مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه (إنسانًا) فهذه الصفة -صفة الناس- هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعًا، مؤمنين وكفارًا، أصدقاء وأعداء، سودًا وبيضًا، عربًا وعجمًا، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل -متى حكمت في أمرهم- هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط -في هذه الصورة- إلا على يد الإسلام وإلا في حكم المسلمين وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشرية، والذي افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة فلم تذق له طعمًا قط، في مثل هذه الصورة الكريمة التي تتاح للناس جميعًا؛ لأنهم (ناس) لا لأية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذي يشترك فيه الناس!

وهذا هو أساس الحكم في الإسلام، كما أن الأمانة -بكل مدلولاتها- هي أساس الحياة في المجتمع الإسلامي، والتعقيب على الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل هو التذكير بأنه من وعظ الله سبحانه وتوجيهه، ونعم ما يعظ الله به ويوجه...، ثم إنها لم تكن (عظة) إنما كانت (أمرًا) ولكن التعبير يسميه عظة؛ لأن العظة أبلغ إلى القلب، وأسرع إلى الوجدان، وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة والحياء![2].

وحديث القرآن عن وجوب إقامة العدل، ودفع الظلم، حديث مستفيض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة:٨].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٤، رقم ٥٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٦٢.

ثم إن قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.

والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به: هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء، إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فضلًا عن أن يحكم بها بين عباد الله.

وهذا يستلزم من الحاكم معرفة العدل ليحكم به. فعناصر العدل في الحكم هي فهم الحادثة من جميع جوانبها، ثم معرفة الحكم من مصدره التشريعي، ثم تحري انطباق الحكم على الحادثة، كل ذلك مع التسوية بين الخصوم في مجلس القضاء[1].

وعليه قبل أن يفصل في القضايا وقبل أن يبدأ في فض النزاع والقضاء بين المتخاصمين التذكير بالله تعالى، وقد كان صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك، ففي قصة المتلاعنين قبل أن يقضي بينهما. قال لهما: (الله أعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما من تائب؟)[2].

وفي سائر قضاياه كان يقول للمتخاصمين قبل الحكم: (إنكم تختصمون لدي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه، فأقضي له بحق أخيه، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقتطع له قطعة من نار)[3].

وهذا كله من باب التذكير بالله تعالى.

ولابد أن يكون قويًا في الحكم، والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام، والأمانة ترجع إلى خشية الله وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا، وترك خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل حاكم على الناس، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ

(١) غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب صداق الملاعنة، ٥/ ٢٠٣٥، رقم ٥٠٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب اللعان، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، ٢/ ١١٣١، رقم ١٤٩٣.

(٣) أخرجه مسلم في الأقضية، باب الحكم بالظاهر، ٣/ ١٣٣٧، رقم ١٧١٣.

﴿يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(القضاة ثلاثة، واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة، فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)**[1].

و(القاضي): اسم لكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما، سواء كان خليفة أو سلطانًا أو نائبًا أو واليًا، أو كان منصوبًا ليقضي بالشرع، أو نائبًا له حتى يحكم بين الصبيان في الخطوط إذا تخايروا، هكذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ظاهر[2].

والمقصود أن الحكم في الإسلام مسئولية عظيمة، وأمانة ثقيلة، يوجل منها الأقوياء فكيف بالضعفاء؟! وهو مبني على العدل، وقد جعله الإسلام من أعظم الأمانات، فثمة علاقة وثيقة بين العدل وأداء الأمانة؛ إذ هما أمران متلازمان، فأداء الأمانة إلى أهلها عين العدل، وجحدها على صاحبها هو عين الجور، وأيضًا فإن الحكم بين الناس بالعدل هو أداء للأمانة التي حملها الحاكم، وبالمقابل فإن ظلم العباد هو جحد للأمانة، وتفريط فيها.

والعدل في الحكم يعد من القيم الإنسانية الأساسية التي جاء بها الإسلام، وجعلها من مقومات الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية، حتى جعل القرآن إقامة القسط - أي: العدل- بين الناس هو هدف الرسالات السماوية كلها، ومن هنا كان لابد من الرجوع إلى شرع الله في الحكم على كل أمر من هذه الأمور؛ حتى يتم تأدية الأمانات إلى أهلها دون أدنى تقصير، ويتم الحكم بين الناس بالعدل دون أدنى قدر من الجور أو الظلم.

والحاكم في الحقيقة أجير عند جمهور المسلمين، يرعى مصالحهم الدينية والمدنية، وحكمه بالحق يتطلب علمًا ويقينًا وإخلاصًا، كما يتطلب خبرة بالحياة والناس والأصدقاء والخصوم، وعليه أن يسمع النصيحة، ويستشير أهل الخبرة الأمناء، وألا يضيق صدره بالنقد البناء، وأن يستوعب كل الآراء، وألا يقصي أحدًا على حساب أحد، وألا يظلم أحدًا بسبب اختلاف العقيدة.

والحكم يحتاج إلى رجال أقوياء في

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ، ٣/ ٣٢٤، رقم ٣٥٧٥، والترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في القاضي ٣/ ٦١٢، رقم ١٣٢٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق، ٢/ ٧٧٦، رقم ٢٣١٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٤٧.

(٢) السياسة الشرعية ص٢٥.

الحق، رحماء بالناس، أمناء على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وقد جاء عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك رجل ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)[1].

ومن هو أبو ذر هذا؟! إنه الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم: (ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر)[2].

وليعلم الحاكم أن الله سائله يوم القيامة عن رعيته، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة)[3].

والحاكم العادل وعده النبي صلى الله عليه وسلم أنه من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[4].

والناظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ليعجب أشد العجب من تعاملهم مع تحمل المسئوليات، وكيف كانوا يعتبرونها حملًا ثقيلًا، وعبئًا يودون أن يرفع عنهم بأسرع وقت، وكيف كانوا يخافون من هذا الأمر أشد الخوف، ويزداد العجب عندما نسمع لواحد من هؤلاء الأفذاذ وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرفض أن يستخلف ابنه من بعده، ويقول قولته المأثورة: «حسب آل الخطاب ما تحملوا منها! إن عبد الله لم يحسن يطلق امرأته»[5].

ومن الأمانة في الحكم إقامته على الشريف والوضيع والضعيف، ولا يحل تعطيله لا بشفاعة ولا بهدية ولا بغيرهما، ولا تحل الشفاعة فيه، ومن عطله لذلك وهو قادر على إقامته فهو عاصٍ لله، وممن اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا.

والأولى للقاضي والحاكم ألا يقبل الهدايا التي قد تؤثر على حكمه، هكذا كان السلف رحمهم الله، فهذا عمر بن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ٣/ ١٤٥٧، رقم ١٨٢٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٠٦، رقم ٦٦٣٠، وابن ماجه في سننه، مقدمة السنن، باب فضل أبي ذر، ١/ ٥٥، رقم ١٥٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٣٤٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، ١/ ١٢٥، رقم ١٤٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم ٦٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٠٣١.

(٥) تاريخ اليعقوبي ص١٦٩.

عبد العزيز رحمه الله تعالى لما رد الهدية، قيل له: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية، فقال عمر: «كانت للنبي صلى الله عليه وسلم هدية، ولنا رشوة»[1]؛ لأن المسلمين كانوا يتقربون بهذه الهدية للنبي صلى الله عليه وسلم لنبوته؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم معصوم مما يخاف من الهدية على غيره، ويقاس على الهدية كل منفعة يقدمها إليه أهل البلد الذي يقضي فيه.

وليس من الأمانة أن يؤثر القاضي والحاكم الأغرار الضعفاء والخائنين على الأقوياء الأمناء، فالحاكم يجب أن يتصف بصفتين، أن يكون قويًا حازمًا، وأن يكون أمينًا؛ إذ إن صفتي القوة والأمانة من المؤهلات الضرورية لمن يلي أمر الناس.

فهذا زياد ابن أبيه كان إذا ولى رجلًا قال له: «خذ عهدك، وسر إلى عملك، واعلم أنك مصروفٌ رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال، فاختر لنفسك: إنا إن وجدناك أمينًا ضعيفًا استبدلنا بك؛ لضعفك، وسلمتك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائنًا قويًا استهنا بقوتك، وأحسنا على خيانتك أدبك، فأوجعنا ظهرك، وأثقلنا غرمك، وإن جمعت علينا الجرمين جمعنا عليك المضرتين، وإن وجدناك أمينًا قويًا زدناك في عملك، ورفعنا لك ذكرك، وكثرنا مالك، وأوطأنا عقبك»[2].

فتولي الولايات العامة تكليف كبير، ومسئولية عظمى؛ لما يترتب عليها من عظم التبعة، ودقة المسئولية، فالمناصب العامة في الإسلام ليست وجاهة، ولا بابًا لكسب الأموال والثراء، وإنما هي أمانة ومسئولية هدفها خدمة الدين، وإعلاء الشريعة، وتحقيق مصالح المسلمين.

رابعًا: الأمانة في الودائع والمعاملات المالية:

ومن مجالات الأمانة: الأمانة في الأموال والودائع، فالأمانة في المال من أعظم الأمانات؛ لأن المال محبوبٌ للإنسان.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨].

وقال عز وجل: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال)[3].

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٥/ ٣٧٧.

(٢) عيون الأخبار، ابن قتيبة ١/ ٢٣.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/ ١٥، رقم ١٧٤٧١، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، ٤/ ٥٦٩، رقم ٢٣٣٦.

ومما يدل على أن الإنسان فطر على حب المال ما ورد عن نبي الله أيوب عليه السلام أنه لما كان يغتسل خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: (يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك)[1].

فالأموال تغري الإنسان على أخذها إذا تيسرت بين يديه، والأمانة ثقيلة وبخاصة في موطن الضعف في الأموال والشهوات.

ومما يدل على الحث على الأمانة في الجانب المالي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

فهي تتناول جميع الأمانات، ومن ضمنها ما يتعلق بالأمانات المادية.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ﴾ [آل عمران:٧٥].

فهذه الآية في الأمانة في الأموال، وقد قال أكثر المفسرين: إنها نزلت في اليهود كلهم، أخبر الله تعالى أن فيهم أمانة وخيانة.

فإن قيل: فأي فائدة في هذه الأخبار، وقد علمنا أن الناس كلهم لم يزالوا كذلك، منهم الأمين ومنهم الخائن؟

قلنا: تحذير من الله تعالى للمؤمنين أن يأتمنوهم على أموالهم، أو يغتروا بهم؛ لاستحلالهم أموال المؤمنين[2].

فذكر الله هاهنا فريقين من أهل الكتاب، فريقًا يؤدي الأمانة تعففًا عن الخيانة، وفريقًا لا يؤدي الأمانة، ومن الفريق الأول: عبد الله بن سلام، ومن الفريق الثاني: فنحاص بن عازوراء، وكلاهما من يهود يثرب، والمقصود من الآية ذم الفريق الثاني؛ إذ كان من دينهم في زعمهم إباحة الخون.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران:٧٥].

ولذلك طول الكلام فيه، وإنما قدم عليه قوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ﴾ [آل عمران:٧٥] إنصافًا لحق هذا الفريق؛ لأن الإنصاف مما اشتهر به الإسلام؛ وتقديم المسند في قوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في الموضعين للتعجب من مضمون صلة المسند إليهما، ففي الأول: للتعجب من قوة الأمانة مع إمكان الخيانة، ووجود العذر له في عادة أهل دينه، والثاني: للتعجب من أن يكون الخون خلقًا لمتبع كتاب من كتب الله، ثم يزيد التعجب عند قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ﴾ فيكسب المسند إليهما زيادة تعجب من حالهم.

وقد جعل القنطار والدينار مثلين للكثرة

وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢١٤٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب من اغتسل عريانًا وحده في الخلوة، رقم ٢٧٥.

(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٤.

والقلة، والمقصود ما يفيده الفحوى من أداء الأمانة فيما هو دون القنطار، ووقوع الخيانة فيما هو فوق الدينار.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أطلق القيام هنا على الحرص والمواظبة، كقوله: ﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: لا يفعل إلا العدل، والدوام حقيقته استمرار الفعل، وهو هنا مجاز في طول المدة لتعذر المعنى الحقيقي، مع وجود أداة الاستثناء؛ لأنه إذا انتهى العمر لم يحصل الإلحاح بعد الموت[1].

ومجال الأمانة في الأموال مجال واسع:

فمن أمانة الأموال: العفة عما ليس للإنسان به حق من المال، وتأدية ما عليه من حق لذويه، وتأدية ما تحت يده منه لأصحاب الحق فيه، وتدخل الأمانة في البيوع والديون والمواريث والودائع والرهون والعواري والوصايا وغير ذلك.

فكما أن الإنسان لا يحب أن يتعدى أحد على أمواله الخاصة فإنه كذلك يجب أن لا يتعدى على مال غيره دون إذنٍ منه.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يحل مال امرئٍ مسلم إلا بطيب نفسٍ منه)[2].

خاصةً أن صاحب المال لم يأته ماله بالراحة، بل في الغالب بعد تعب وجهد، فكيف يجوز أخذه منه بغير حق؟!

قال ابن عثيمين رحمه الله في الكلام على الأمانة في الأموال: «ومنها الأمانة المالية، وهي: الودائع التي تعطى للإنسان؛ ليحفظها لأهلها، وكذلك الأموال الأخرى التي تكون بيد الإنسان لمصلحته أو مصلحته ومصلحة مالكها؛ وذلك أن الأمانة التي بيد الإنسان إما أن تكون لمصلحة مالكها أو لمصلحة من هي بيده، أو لمصلحتهما جميعًا.

فأما الأول فالوديعة تجعلها عند شخص، تقول مثلًا: هذه ساعتي عندك، احفظها لي، أو: هذه دراهم، احفظها لي، وما أشبه ذلك، فهذه وديعة فيها بقيت عنده لمصلحة مالكها.

وأما التي لمصلحة من هي بيده فالعارية، يعطيك شخصٌ شيئًا يعيرك إياه من إناء أو فراش أو ساعة أو سيارة، فهذه بقيت في يدك لمصلحتك.

وأما التي لمصلحة مالكها ومن هي بيده فالعين المستأجرة، فهذه مصلحتها للجميع؛ استأجرت مني سيارة وأخذتها، فأنت تنتفع بها في قضاء حاجتك، وأنا أنتفع بالأجرة، وكذلك البيت والدكان، وما أشبه ذلك، كل هذه من الأمانات»[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٨٧.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/ ٢٩٩، رقم ٢٠٦٩٥، والبيهقي في السنن الكبرى، ٦/ ١٠٠، رقم ١١٨٧٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٦٦٢.
(٣) شرح رياض الصالحين ١/ ٢٣٣.

ومن أمانة الأموال: الأموال التي يؤتمن عليها الموظف في العمل، سواء كان مديرًا له حق التصرف في الميزانية، أو أمين صندوق، أو موظف حسابات أو غيرهم، فإنها وديعة بيده، يجب أن يحافظ عليها، ولا يتصرف فيها إلا فيما فيه مصلحة العمل، سواء كان العمل حكوميًا أو خاصًا.

ونجد كثيرًا من الناس يتساهلون في الأموال العامة التي تكون تحت تصرفهم من أموال الوزارات والمؤسسات العامة حكومية كانت أو غير حكومية، فترى بعض المسئولين كبارًا كانوا أو صغارًا يعتبرون أن المؤسسة أو المكتب الذي يعملون فيه كأنه ملكهم الشخصي، لهم حرية التصرف فيه كما يشاءون، أضف إلى ذلك استغلال المناصب للأمور الشخصية، وأمثال هؤلاء الموظفين الذين خانوا الأمانة يتجاهلون أن أعمالهم هذه ستكون وبالًا عليهم في الآخرة، فالأصل في الموظف أنه أجير، والأجير لابد أن يكون أمينًا.

وقد دلت الأدلة على حرمة الخوض في الأموال العامة، فعن خولة الأنصارية رضي الله عنها قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(إن رجالًا يتخوضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة)**[1].

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: **(يتخوضون في مال الله بغير حق)** أي: يتصرفون في مال المسلمين بالباطل»[2].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه، كان كالذي يأكل ولا يشبع)**[3].

وليست بالضرورة أن تكون هذه الأموال نقودًا، بل كل مال ولو أعيانًا كالسيارات والأجهزة والأدوات والعدد وغيرها تعد أموالًا مملوكة للدولة أو المؤسسة لا يحق التصرف فيها إلا بإذن، قليلها وكثيرها، من القلم والورق وغيرها!

وهذا واضح من العموم في قوله صلى الله عليه وسلم: **(لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه)**[4].

فلم يفرق بين القليل والكثير.

وقوله صلى الله عليه وسلم: **(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه،**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب قول الله تعالى: (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه)، ٣/ ١١٣٥، رقم ٢٩٥٠.

(٢) فتح الباري ٦/ ٢٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، رقم ١٣٩٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم ١٠٥٢.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[1].

ومن الآفات التي يجب أن تحارب: أن تتحول المصالح في القطاعات وفي المؤسسات وفي الوظائف لخدمة شخص أو مسئول، وليس لخدمة عامة الناس، ويزداد الجرم أن هذه الأموال تعتبر أموالًا لبيت مال المسلمين، فالذي يأكل، يأكل من مال الفقراء والمحتاجين واليتامى، فهو من أعظم السحت.

وقد قال الله سبحانه وتعالى في حق اليهود: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن الأمانة في المال: إعطاء الموظف والأجير أجره دون حيف أو نقص، فأرباب العمل والمسئولون عليهم أن يؤدوا للموظفين حقوقهم المالية كاملة دون تأخير أو أذى؛ لأن المسئول قد يعطي الحق كاملًا، ولكنه يؤخره، ويماطل فيه، فيؤذي أخاه المسلم، وإذا كان الله تعالى قد منع الأذى في الصدقة، بقوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

مع أنها مبنية على المسامحة؛ لأنها تطوع فمن باب أولى منع الأذى في حقوق الآخرين.

والرشوة من المجالات التي يخطئ فيها الناس في الوظائف، فيتساهل الموظف بأخذ الرشوة ويسميها إكرامية، أو يسميها خدمة أو غيرها من المسميات، كما قالت بلقيس: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥].

سمتها هدية، وهكذا قد يتلمس لها الموظف اسمًا آخر؛ لكي يلتمس لنفسه العذر مع أنها رشوة، فلا يجوز تلقي الرشاوى في الوظائف العامة ولا الخاصة على العمل الذي يؤديه الإنسان، والذي هو مكلف به أساسًا، فهذا هو عمله ووظيفته فكيف يأخذ على ذلك أموالًا مقابل أن يؤدي العمل الواجب عليه؟!

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (لعن الله الراشي والمرتشي)[2].

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا من الأزد، يقال له: ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقال صلى الله عليه وسلم: (فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر يهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منه شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب في القيامة، ٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٤٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٥/ ٨، رقم ٩٠٢٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٠٩٣.

إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر)[1].

وقد يتوصل الإنسان إلى الرشوة عن طريق أهله وزوجته أو أبنائه، فهذا واحد من عمال عمر رضي الله عنه أهدى إلى امرأة عمر نمرقتين، فدخل عمر ووجد في البيت سجادة، فقال: «من أين هذه السجادة؟ هل اشتريتها؟ قالت: بعث بها إلي فلان. قال: قاتله الله؛ لما أراد حاجة فلم يستطعها من قبلي أتاني من قبل أهلي، فجبذها جبذًا شديدًا من تحت من كان جالسًا عليها، وأخرجها من بيته، وفرقها بين امرأتين فقيرتين من الأنصار»[2].

ومن الأمانة في الأموال الأمانة في البيع والشراء، وهذا أدبٌ رفيع، وخلق اجتماعي، يقرب الناس من بعضهم؛ لأنه يوجد الراحة في النفوس، وللأمانة في البيع والشراء دورٌ كبيرٌ في طمأنينة النفس، واستتباب الأمن؛ لأن صدق التعامل مع الناس وسيلة لزيادة الحب والتآلف بينهم؛ لذلك أوصى صلى الله عليه وسلم التجار بالتزام الصدق والتقوى والأمانة؛ لينالوا درجة الصديقين والشهداء.

فعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)[3].

ومن مجالات الأمانة في الأموال رد الودائع إلى أهلها، وأداء الحقوق لأصحابها.

قال صلى الله عليه وسلم: (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله)[4].

وقد ورد أن الشهيد يسأل عنها يوم القيامة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة.

قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة -وإن قتل في سبيل الله- فيقال: أد أمانتك، فيقول: أي رب كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت له، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظن أنه خارج نزلت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب من لم يقبل الهدية لعلة، ٢/ ٩١٧، رقم ٢٤٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، ٣/ ١٤٦٣، رقم ١٨٣٢.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٣٨، رقم ٢٠٩٨١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي صلى الله عليه وسلم إياهم، ٣/ ٥١٥، رقم ١٢٠٩.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٦٢، رقم ١٧٨٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها، ٢/ ٨٤١، رقم ٢٢٥٧.

والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها وأشد ذلك الودائع»[1].

والوديعة: أن يودع أحد الأشخاص عند إنسان يثق به وديعة عينية من مال أو ذهب أو أوراق نقدية أو متاع أو نحوه مما يسمى أمانات، وحينئذٍ يجب على المسلم حفظ هذه الوديعة حتى يرجعها إلى صاحبها.

والمقصود أن من مجالات الأمانة الواسعة الأمانة في الأموال، فهي من الأمانات التي نسأل عنها يوم القيامة، ولنا الأسوة الحسنة في رسولنا الأمين صلى الله عليه وسلم، حينما استخلف عند هجرته ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ليسلم المشركين الأمانات والودائع التي استحفظها، مع أن هؤلاء المشركين كانوا قد خططوا لقتله أو سجنه أو طرده من الديار، وأرغموه على الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة[2].

الآثار المترتبة على أداء الأمانات

بين الوحي الإلهي الآثار المترتبة على أداء الأمانة في الدنيا والآخرة، وسوف نبينها فيما يأتي:

أولًا: الآثار الدنيوية:

١ . الثقة بالأمين:

من أعظم آثار الأمانة الدنيوية أن الأمين يصبح موضع ثقة الناس واحترامهم، والخائن محط سخطهم وحقدهم؛ ولهذا نجد أن الإسلام قد شدد في الأمانة والعهد؛ ليقيم المجتمع على أسس متينة من الخلق، والثقة والطمأنينة، وجعل رعاية الأمانة والعهد سمة النفس المؤمنة، كما جعل خيانة الأمانة، وإخلاف العهد سمة النفس المنافقة والكافرة.

وكلما ازدادت الثقة بين أبناء المجتمع كان ذلك دليلًا على توافر أمانتهم، وسمو أخلاقهم، وشيوع الثقة والتعاون بينهم، وهذا يساعد على تحقيق التكافل الذي هو قاعدة المجتمع الإسلامي، وكذا الاحترام المتبادل لجهود الآخرين، وما يقدمونه من عطاء وإسهام يجعل المجتمع أمة واحدة.

والنفس البشرية تميل بالفطرة إلى التعامل مع الأمين الصادق حتى غير المسلمين يؤثرون الأمين، فقد ورد في قصة

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٥٢٦٦.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٥٧، رقم ١٧٦٣.

(٢) انظر: فقه السيرة، البوطي ص ١٧٨.

أهل نجران لما وافقوا على دفع الجزية.

قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: إنا نعطيك ما سألتنا، فابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: (لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين) فاستشرف لها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (قم يا أبا عبيدة بن الجراح)[1] فأرسله معهم، وكان أمينًا لهذه الأمة.

ولولا وجود الأمانة لما حصلت الثقة بأي أحد، ففي باب الرسالات لولا صفة الأمانة في الرسل لما حصلت الثقة بما يبلغون عن ربهم، ولما اصطفاهم الله لحمل رسالاته للناس.

وفي باب العلاقة الزوجية لولا وجود الأمانة بين الزوجين لما حصل الثقة بينهما، ولما أمن أحدهما الآخر، ولما عاشا في سعادة وأمن؛ لهذا فالعلاقة بين الزوجين ينبغي أن تقوم على أساس الأمانة المتبادلة في حفظ الأعراض، والأسرار البيتية؛ لكي يتولد الإخلاص والثقة بينهما في كل عمل فيه مصلحة الأسرة، فإذا توفرت الأمانة والإيمان تنشأ الثقة بين الطرفين، ويزول الشك والريبة، ويصبح كل منهما عينًا ساهرة على الأسرة ومصالحها، وإذا فقدت الأمانة، ودخل مرض الشك والريبة بين الزوجين كان ذلك بداية دمار الأسرة، والتفريق بين الأبناء؛ لذلك حرص الإسلام على تعزيز عنصر الأمانة بين أفرادها، فالزوجة التي تحفظ زوجها في عرضها في غيابه، وترعى الأمانة في ماله من الضياع والتبذير، وتحفظ ولده وسائر شئون البيت تكون قد أدت الأمانة، ورعت المسئولية، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتها)[2].

ولولا وجود الأمانة بين البائع والمشتري لما حصلت الثقة بينهما، ولخاف كل منهما من الآخر، وغش كل منهما الآخر؛ فلهذا كان للأمانة في البيع والشراء دور كبير في طمأنينة النفس، واستتباب الأمن؛ لأن صدق التعامل مع الناس وسيلة لزيادة الحب والتآلف بينهم؛ ولهذا أوصى النبي صلى الله عليه وسلم التجار بالتزام الصدق والتقوى والأمانة؛ لينالوا درجة الشهداء -كما سبق- من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)[3].

وفي باب الشراكة لولا وجود الأمانة بين الشريكين لما حصل الثقة بينهما؛ ولما أمن أحدهما الآخر، ولضيع الشريك الأمانة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، ٤/ ١٥٩٢، رقم ٤١١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ١/ ٣٠٤، رقم ٨٥٣.

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

وخان شريكه الذي ائتمنه، فسرق من مال صاحبه، ولم يخبره بحقيقة البيع والشراء والربح، وإذا فعل ذلك حلت العقوبة، ومحقت البركة.

والمقصود أن بالأمانة توجد الثقة بين الناس، وتشيع في المجتمع الطمأنينة على الأرواح والأعراض والأموال، ومما لاشك فيه أن الثقة روح العمران، وسر النجاح ولا عجب؛ فإنه بالثقة تحسن المعاملة، وتحفظ الحقوق، وتتبدد المطامع، وتكبح الشهوات، وتتلاشى الفوضى، ويسود النظام، وهذه هي ركائز النهوض، ووسائل التفوق، وأسس التبريز في مجالات الحياة، وينعكس الأمر إذا انعدمت الثقة بين الناس حيث تضطرب الأمور، وتشيع الفوضى، ويختل الأمن، ويفسد النظام، ويفقد الشخص أعز شيء يرتكز عليه في حياته؛ فالتاجر يخبو شرفه، وتبور تجارته، والصانع تنحط صناعته، وتسوء سمعته، والموظف تختل موازينه، وتهتز وظيفته، وبكل هذه السوءات تشقى الأمة، ويذهب ريحها.

ولأجل هذا كله أمر القرآن الكريم بما يحافظ على هذه الثقة في صفوف الناس وهو الأمانة؛ حفظًا للنوع الإنساني من التدهور، وصيانة للمجتمع الإسلامي من التفكك.

وقد جاء في الحديث أن مما ينزع الثقة بين الناس ضياع الأمانة حتى لا يكاد يثق الناس بأحد، فعن حذيفة رضي الله عنه.

قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين، رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: (أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة).

وحدثنا عن رفعها قال: (ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[1]، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل[2]، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا[3]، وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان).

ولقد أتى علي زمان، وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلمًا رده علي إسلامه، وإن كان نصرانيًا رده علي ساعيه، فأما اليوم

(١) الوكت: أثر الشيء اليسير منه.
انظر: غريب الحديث، القاسم بن سلام ٤/ ١١٨.

(٢) المجل: أثر العمل في الكف إذا غلظ.
انظر: غريب الحديث، القاسم بن سلام ٤/ ١١٨.

(٣) منتبرًا: متنفطًا، وكل شيء رفع فقد نبر، ومنه: سمي المنبر؛ لارتفاعه.
انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، الأزدي ص ٧٦.

فما كنت أبايع إلا فلانًا وفلانًا[1].

وهذا الحديث علم من أعلام النبوة؛ لأن فيه الإخبار عن فساد أديان الناس، وقلة أمانتهم في آخر الزمان، ولا سبيل إلى معرفة ذلك قبل كونه إلا من طريق الوحي[2].

وفي الحديث أيضًا دلالة أن هذه الأمانة سوف تنزع من قلوب الرجال، فيصبح الناس يتحدثون: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، يعني: أنك لا تكاد تجد في القبيلة رجلًا واحدًا أمينًا، والباقي كلهم على خيانة لم يؤدوا الأمانة، وواقع الناس اليوم يصدق هذا الحديث؛ فإنك تستعرض الناس رجلًا رجلًا حتى تبلغ إلى حد المائة أو المئات لا تجد الرجل الأمين الذي يؤدي الأمانة كما ينبغي في حق الله وحق الناس، قد تجد رجلًا أمينًا في حق الله يؤدي الصلاة، ويؤدي الزكاة، ويصوم، ويحج ويذكر الله كثيرًا، لكنه في المال ليس أمينًا، إن وكل إليه عمل حكومي فرط وصار لا يأتي للدوام إلا متأخرًا، ويخرج قبل انتهاء الوقت، ويضيع الأيام الكثيرة في أشغاله الخاصة ولا يبالي، مع أنك تجده في مقدمة الناس في المساجد، وفي الصدقات، وفي الصيام، وفي الحج، لكنه ليس أمينًا من جهة أخرى[3].

وقوله في الحديث: (يصبح الناس) أي: يدخلون في الصباح أو يصيرون (يتبايعون) أي: يجري بينهم التبايع، ويقع عندهم التعاهد، ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة، بل يظهر من كل أحد منهم الخيانة في المبايعة والمواعدة والمعاهدة، ومن المعلوم أن حفظ الأمانة أثر كمال الإيمان، فإذا نقصت الأمانة نقص الإيمان، وبطل الإيقان، وزال الإحسان، فيقال عند ذلك -بسبب قلة الأمانة في الناس-: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، أي: كامل الإيمان، وكامل الأمانة، ويقال -أي: في ذلك الزمان- للرجل أي: من أرباب الدنيا، ممن له عقل في تحصيل المال والجاه، وطبع في الشعر والنثر وفصاحة وبلاغة وصباحة، وقوة بدنية، وشجاعة وشوكة: (ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده!) تعجبًا من كماله، واستغرابًا من مقاله، واستبعادًا من جماله، وحاصله: أنهم يمدحونه بكثرة العقل والظرافة والجلادة، ويتعجبون منه، ولا يمدحون أحدًا بكثرة العلم النافع، والعمل الصالح[4].

فهذه الثقة وهذه الطمأنينة ينالها الأمين، أما فاقد الأمانة فيكفيه ما يلقاه في الدنيا من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم ٢٣٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، رقم ١٤٣.

(٢) شرح ابن بطال ١٩/ ٤٦.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١/ ٢٣٦.

(٤) انظر: مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ١٥/ ٣٣٨.

مهانة وصغار، حين ينكشف أمره، ويهتك ستره، ويجد الأمانة التي ضيعها وخانها متمثلة له يوم القيامة عند الصراط؛ لتهوي به من فوق الصراط إلى قعر جهنم -والعياذ بالله تعالى- جزاء ما ضيع منها، وفرط فيها، كما جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة العظمى: (وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينًا وشمالًا) إلى أن قال: (ونبيكم قائم على الصراط، يقول: رب سلم سلم) قال: (وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة، مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار) قال أبو هريرة راوي الحديث: «والذي نفس أبي هريرة بيده: إن قعر جهنم لسبعون خريفًا»[1].

فهنيئًا لمن قام بحق الأمانة، فجرى على الصراط، ونجا من عذاب جهنم، والحسرة والندامة على من تساهل فخان أمانته، وضيع وسقط في الغدر، والشهوة العارضة، أو الحقد الأعمى الذي يحمله على الخيانة والغدر والنكث.

٢. انتشار الطمأنينة والسعادة في المجتمع:

ومن آثار الأمانة في الدنيا استقامة أحوال المسلمين ما ثبتوا عليها، وتخلقوا بها، فإن ضيعوها، ولم يؤدوها إلى أهلها، فسدت حياتهم، وساءت معاملاتهم، وعاشوا حياة الغدر والغش والخيانة، وعدم الطمأنينة.

والمجتمعات في ظل قيام أفرادها بأداء أماناتهم يعم فيها السعادة والطمأنينة، ويعيش الفرد فيها حياة طيبة، وحين تختفي الأمانة من حياتهم تفسد حياتهم، وتسوء معاملاتهم، ويعيشون حياة خالية من الطمأنينة والسعادة، وراحة البال، وواقع الناس اليوم خير دليل على ذلك، حيث عم التعامل بالغدر والخيانة والغش والخداع والكذب في سائر أحوالهم ومعاملاتهم إلا من رحم الله.

ومن علامات سوء الزمان، وفساد المجتمع، وخبث السرائر ضياع الأمانة، والتفريط في الرعاية، والتهاون في المسئولية، واتخاذ المصالح الخاصة الهدف والغاية، ونبذ المصالح العامة من أجل المصالح الخاصة، والمنافع الذاتية.

وتبرز آثار تضييع الأمانة في فساد أخلاق المجتمع، وانقلاب الموازين الصحيحة، وتزيين المحرمات، حتى تصبح بعض المجتمعات المسلمة لا تعرف معروفًا، ولا تنكر منكرًا، فيعم النفاق، ويكثر الزنا، وتنتشر الخمور والمخدرات، وما يتبع ذلك من ارتفاع أسافل الناس على خيارهم،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/١٦٨، رقم ١٩٥.

بسبب توسيد الأمور لغير أهلها.

ولهذا فأداء الأمانة هو من الواجبات العظيمة على الفرد والمجتمع، والذي به يسعد المجتمع، وينتشر فيه الخير والطمأنينة، ومن أسباب المصائب والعقوبات الخاصة والعامة في المجتمع تضييع الأمانات، وعدم أدائها لأهلها، وكم من إنسان قد ابتلي بأنواع من الأمراض والأسقام والأوجاع بسبب تضييعه لما قد اؤتمن عليه من حقوق الناس.

وقد اعتبر ضياع الأمانة وفشو الغدر والخيانة من علامات الساعة وأشراطها؛ ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم من إضاعتها، والتهاون فيها، وأشار إلى أن في إضاعتها انحلال أمر المسلمين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث إذ جاء أعرابي، فقال: متى الساعة؟ قال: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) قال: كيف إضاعتها؟ قال: (إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة)[1].

قال العلماء رحمهم الله في بيان معنى هذا الحديث الشريف: معنى وسد الأمر إلى غير أهله: أن الأئمة والحكام قد ائتمنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، فيجب عليهم تولية الأمناء أهل الكفاءة والدين والأمانة والعلم، فإذا قلدوا غير هؤلاء، وقدموا عليهم أهل الفسق والفجور والجهالة فقد ضيعوا الأمانة التي حملهم الله إياها.

وفي ضياع الأمانة أيضًا اختلال الموازين، وفساد القيم، حيث تنقلب الموازين، وتضطرب المقاييس، وتفسد الأخلاق والقيم والتعاليم.

قال صلى الله عليه وسلم: (سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة في أمر العامة) قيل: وما الرويبضة؟ قال: (الرجل التافه)[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يخون الأمين، ويؤتمن الخائن)[3].

وفي هذا غاية في اختلال الموازين في المجتمع، نسأل الله السلامة والعافية.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه، ١/ ٢١، رقم ٥٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ٢/ ١٣٣٩، رقم ٤٠٣٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٦٥٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٤٥٧، رقم ٦٨٧٢. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/ ٣٦٠، رقم ٢٢٨٨.

الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كيف بكم بزمان يوشك أن يأتي يغربل الناس فيه غربلة -يعني: يذهب خيارهم ويبقى شرارهم-، ثم تبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، فاختلفوا هكذا -وشبك بين أصابعه- فقالوا: كيف بنا يا رسول الله إذا كان ذلك؟ قال: تأخذون بما تعرفون، وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على خاصتكم، وتذرون عوامكم)[1].

ويؤدي ضياع الأمانة في المجتمع إلى تفكك العلاقات، فحينما تفتقد الثقة بين أبناء المجتمع، وتتفشى منكرات القلوب من الغل والبغضاء والتناحر تتفكك العلاقات الاجتماعية، وتكثر مظاهر الخيانة، وإساءة الظن، وإنكار الحقوق، وغلبة الأنانية والفردية، وحب الأثرة، وبذا تنحل قاعدة المجتمع، وتنفصم عراه، وتكثر الإخفاقات، ويحدث التخلف الحضاري للمجتمع، وغياب العزة الإسلامية، وغلبة الذل على المسلمين، وتفرقهم، وتشتتهم وضعفهم اقتصاديًا، وتخلفهم علميًا، ووقوع فئات منهم في الهزيمة النفسية الداخلية؛ مما يسبب ذلك في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وغلبة الكذب والخيانة، والتناقض بين القول والعمل.

وقد صارت الأمة الإسلامية منذ زمن تعيش مسلسل السقوط والانحدار في إقصاء الأمناء والنصحاء من الحياة، وتملأ الفراغات في القيادات بالخائنين، وأصبح الناس يرون بأم أعينهم في كثير من بقاع العالم الإسلامي أن الأمور توسد إلى غير أهلها، ويؤتمن الخائن، ويخون الأمين، ويغدو الأمناء غرباء، نادرين يشار إليهم، ومع ندرة هؤلاء الأمناء يستبعدون ويولى غيرهم، وذلك من أسباب إضاعة الأمانة، وظهور الخيانة، وهو من علامات الساعة.

والمقصود أن الأمانة رمز السعادة، وعنوان الخير والمحبة؛ ولذا أمر الله بها عباده، وحلى بها ملائكته، وهي من أخص الفضائل والآداب التي يترتب عليها صيانة الأموال والأعراض، وحفظ المجتمع من غوائل الفوضى والفساد، فبين الأمانة والإيمان تلازم، فحيث يكون الإيمان تكون الأمانة، وحيث تكون الأمانة يكون الإيمان.

وإن القيام بأداء الأمانات فيه حفظ المجتمع من الزوال، وحفظ الأفراد من حلول العذاب، وبه يسود السلام، ويعم الأمن، وتنتشر الطمأنينة والسعادة في

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ٢١٦، رقم ٤٣٤٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة ٢/ ١٣٠٧، رقم ٣٩٥٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٥٩٤.

المجتمع، ولا يتسنى تعميق روح الأمانة في أفراد المجتمع، والوقاية من الخيانة إلا في ظل التقوى والإيمان، والالتزام الديني والأخلاقي.

وإن التزام الجميع بخلق الأمانة علامة على مكامن القوة في المجتمع، وإن تضييع الأمانة، وتوسيد الأمر إلى غير أهله علامة على مكامن الضعف والتفرقة وضياع طاقات ومقدرات الأمة؛ ولهذا فنحن في أمس الحاجة إلى التذكير بها في مجتمعاتنا المعاصرة.

٣. سعة الرزق ورغد العيش:

لاشك أن الصدق والأمانة في المعاملات سبب لحصول الرزق وبركته، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق ٢- ٣].

فرتب على التقوى التي أساسها الصدق وأداء الأمانة في المعاملة التيسير، والخروج من كل ما ضاق على الناس، وفتح أبواب الرزق، وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما)[1].

وإنما كان الصدق والبيان وأداء الأمانة في جميع المعاملات سببًا للبركة وتيسير أبواب الرزق لأمرين مهمين:

أحدهما: وعد الله ووعد رسوله، والله لا يخلف الميعاد، أن من سلك الطرق التي أمر بها، وتجنب ما نهى عنه، بارك الله له في سعيه، ورزقه من حيث لا يحتسب، وفتح له من خزائن جوده وكرمه، ما لا يناله الناس بسعيهم وجدهم وحذقهم، وهذا أمر رباني، وجزاء إلهي، مشاهد معلوم بالتجربة.

والثاني: أن من عامل الناس، وعرفوا منه الصدق والنصح، اطمأنوا إليه، وركنوا إلى معاملته، ورغبوا في الأخذ منه وإعطائه؛ لأن قلوبهم إليه مطمئنة، ونفوسهم إلى أمانته منقادة واثقة، وحاز الاعتبار والشرف اللذين عليهما أسست المعاملات النزيهة الطيبة.

وكذلك العلاقة بين الشركاء إذا بنيت على الصدق والأمانة، أفادت أهلها خيرًا كثيرًا، فإنه من كان الله معه أيده بعونه وتوفيقه وتسديده؛ وكانت حركاته مقرونة بالنجاح مع ما في اتفاق الشريكين على مصالحهما، واجتماع رأيهما، وحصول التشاور الذي هو مدار الأعمال، مع ما يقترن بذلك من التعاون البدني، والسعي المشترك من المنافع، ودفع ما يخشى ضرره، كل هذه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقًا فليطلبه في عفاف، ٢/ ٧٣٢، رقم ١٩٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم ١٥٣٢.

الأمور أسباب ومفاتيح لحصول الرزق وبركته ونمائه.

وضد ذلك إذا بنيت المعاملات والشركات على الكذب، وعدم النصح، وحصول الغش والخيانة، فإن الله ينزع بركته، ويحل المحق بدل ذلك، وتتأخر المعاملة، وتنحط بالخيانة والكذب، وهذا كله مشاهد مجرب[1].

وكذلك فالأمانة في العمل سبب في الاستمرار فيه، ومن ثم استمرار الرزق الذي يأتي منه، فبدون الأمانة لا يمكن للإنسان أن يستمر في عمله، وينجح فيه؛ ولهذا فكل عامل يجب أن يكون أمينًا على مصالح ومال من يستخدمه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والخادم في مال سيده راعٍ، وهو مسئول عن رعيته)[2].

فالراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما اؤتمن على حفظه، فهو مطلوب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه، فمن الأمانة ألا يستخدم ما تحت يده من أشياء تخص العمل في أغراضه الشخصية إلا بعد استئذان صاحب العمل، ويكون الأمر أشد فيما لو كان العامل موظفًا لدى الدولة؛ لأن ما تحت يده من أشياء هي أموال عامة تخص بيت مال المسلمين، ولا يجوز التصرف فيها إلا بالحق.

فلا يخفى إذن ما في الأمانة من فوائد للشخص نفسه من استمراره في العمل، وزيادة أجره، ورفع مرتبته، وزيادة الثقة فيه؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

وإذا ضيع الشخص الأمانة محقت البركة منه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (يقول الله: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خان خرجت من بينهما)[3].

قال المناوي: «بالمعونة، وحصول البركة والنماء، (ما لم يخن أحدهما صاحبه) بترك أداء الأمانة، وعدم التحرز من الخيانة (فإذا خانه) بذلك (خرجت من بينهما) يعني: نزعت البركة من مالهما»[4].

فشركة الله لهما استعارة؛ كأنه جعل البركة بمنزلة المال المخلوط، فسمى ذاته ثالثًا لهما.

وقوله: (خرجت) ترشيح للاستعارة، وفيه ندب الشركة، وأن فيها البركة، بشرط الأمانة؛ وذلك لأن كلًا منهما يسعى في نفع صاحبه، والله في عون العبد ما دام العبد في

(١) الرياض الناضرة، السعدي ص٢١٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ١/ ٣٠٤، رقم ٨٥٣.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في الشركة ٣/ ٢٦٤، رقم ٣٣٨٥.
وضعفه الألباني في إرواء الغليل، ٥/ ٢٨٨، رقم ١٤٦٨.
(٤) فيض القدير ٢/ ٣٩٠.

عون أخيه.

وقد ذكر الذهبي قصة تدل على فضل الأمانة، وما يجلب الله بها من أرزاق، حيث قال: «وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: حكى ابن عقيل عن نفسه.

قال: حججت، فالتقطت عقد لؤلؤ، في خيط أحمر، فإذا شيخ أعمى ينشده، ويبذل لملتقطه مائة دينار، فرددته عليه، فقال: خذ الدنانير، فامتنعت، وخرجت إلى الشام، وزرت القدس، وقصدت بغداد، فأويت بحلب إلى مسجد، وأنا بردان جائع، فقدموني، فصليت بهم، فأطعموني، وكان أول رمضان، فقالوا: إمامنا توفي فصل بنا هذا الشهر، ففعلت، فقالوا: لإمامنا بنت، فتزوجت بها، فأقمت معها سنة، وأولدتها ولدًا ذكرًا، فمرضت في نفاسها، فتأملتها يومًا، فإذا في عنقها العقد بعينه، بخيطه الأحمر، فقلت لها: لهذا قصة! وحكيت لها، فبكت، وقالت: أنت هو والله، لقد كان أبي يبكي، ويقول: اللهم ارزق بنتي مثل الذي رد العقد علي، وقد استجاب الله منه، ثم ماتت، فأخذت العقد والميراث، وعدت إلى بغداد»[1].

ثانيًا: الآثار الأخروية للأمانة:

من آثار أداء الأمانة الحصول على رحمة الله ومغفرته للأفراد والجماعات، فالعقبى الحميدة، والنهاية الرشيدة لمن يوفي الأمانة حقها، ويرعى لها مكانتها، فمن أدى الأمانة استحق من الله الرحمة والغفران، والثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الوبيل، وصار خائنًا لله وللرسول ولأمانته، منقصًا لنفسه بكونها اتصفت بأخس الصفات، وأقبح السمات وهي الخيانة، مفوتًا لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

وقد رتب الله على أداء الأمانات، والقيام بحقوقها أعظم الثواب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:٨-١١].

فذكر الله في هذه الآيات صفات المؤمنين، الذين يرثون الفردوس، وهي أعلى منازل الجنة، ومن هذه الصفات أنهم يؤدون الأمانة، ويوفون بالعهد، فبين جزاءهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ وهذا الجزاء بسبب ما اتصفوا من هذه الصفات.

وذكر في بداية هذه السورة أن هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات التي منها حفظ الأمانة مفلحون، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١].

(١) انظر: مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي ٨/ ٥٢، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١٩/ ٤٤٩.

وغاية ما يطلبه المؤمنون هو الفلاح في الدنيا والآخرة، وليس بعدها غاية تمتد إليها عين أو خيال.

وفي هذا تنويه من الله بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها، فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه، وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصًا، كثرة وقلة.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها؛ لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك: جميع الجنة؛ ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم ومراتبهم، كل بحسب حاله ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبغون عنها حولًا؛ لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه، من غير مكدر ولا منغص.

والمقصود أن جزاء الأمانة عند الله عز وجل في الآخرة النعيم المقيم، والنجاة من العذاب الأليم.

وفي موضع آخر أخبر الله تبارك وتعالى أن الملتزمين بالأمانة في جنات مكرمون، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المعارج:٣٢].

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ [الرعد:٢٠].

إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ [الرعد:٢٢ – ٢٣].

فالله تبارك وتعالى هنا عدد صفات المؤمنين، وذكر من ضمنها الوفاء بالعهد، والمحافظة على الميثاق، والعهد والميثاق من الأمانات، والعهد يفهم منه أن الإنسان لن يكون مؤمنًا حق الإيمان ولن ينال الأجر الكبير، ولن يدخل جنات النعيم، ويكرم معه أهله حتى يكون أمينًا، ملتزمًا بشرع الله التزامًا شاملًا، من دون نقصان.

فالذين تحملوا الأمانة، وقاموا بها وجدوا واجتهدوا في تحقيقها هم أهل الإيمان، وأهل كرامة الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذكر الأمانة جزاء هذه الأقسام تجاه الأمانة، فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٧٣].

فالأمين بلا ريب سيجد أثر هذا الخلق النبيل في يوم القيامة، وقد جاء عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يمينًا وشمالًا)[1] وخص الأمانة والرحم بالذكر لعظم أمرهما، وكثير موقعهما؛ حيث يصورهما الله على الصفة التي يريدها سبحانه وتعالى، فتقومان تطالبان بحقهما كل من يريد الجواز على الصراط؛ لذلك كان لا بد من التواصي بين المسلمين بحفظ أمانات الدين، وتبليغه للناس، وحفظ أمانة الأموال، والوفاء في الديون والحقوق، وكتمان أسرار المجالس، وغيرها من الأمانات.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة، من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلًا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة) قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداء الأمانة؟ قال: «الغسل من الجنابة»[2].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اضمنوا لي ستًا أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم)[3].

فالأمانة تعدل الدنيا وما فيها، فمن رزقه الله الأمانة هانت عنده الدنيا، ومتاعها الزائل، فلا يبيع أمانته بعرض من أعراضها.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طهر)[4].

كما أن الأمانة سبيل الفلاح، ويبدو ذلك جليًا في قصة نبي الله يوسف عليه السلام، فقد كان أمة ومثالًا للأمانة والعفاف، ثم كان له بعد ذلك التمكين والفلاح، فبعد أن ذكرت امرأة العزيز براءته التي بلغت حاكم مصر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/ ١٨٦، رقم ١٩٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في المحافظة على وقت الصلوات، رقم ٤٢٩.
وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ١/ ٤٢٩.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٤١٧، رقم ٢٢٧٥٧.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٨٦، رقم ٢٩٩٣.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٣٣، رقم ٦٦٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٨٧٣.

قال: جيئوني به أجعله مقربًا لدي، ومن خلصائي، وأهل مشورتي.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤].

فأتوه به مكرمًا محترمًا، فلما جاء يوسف وكلمه الملك أعجبه كلامه، وعرف براءته، وعظيم أمانته، وحسن خلقه، وزاد موقعه عنده: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

أي: إنك اليوم عندنا عظيم المكانة، أمين على الأسرار، ومؤتمن على كل شيء، فأراد يوسف أن ينفع العباد، ويقيم العدل بينهم، فقال للملك: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

أي: إني خازن أمين، ذو علم وبصيرة بما أتولاه، كما أن سلامة يوسف عليه السلام من الفاحشة مما يؤكد علاقة الأمانة بالدين. والله أعلم.

موضوعات ذات صلة:

الخيانة، والوفاء

الأُمَّة

عناصر الموضوع

مفهوم الأمة	٣٤٦
الأمة في الاستعمال القرآني	٣٤٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٨
الأمة الأولى	٣٥٠
الأمم والرسالة	٣٥٢
الاختلاف بين الأمم	٣٥٧
الأمة المحمدية	٣٦٤
آجال الأمم	٣٧٠
الأمم يوم القيامة	٣٧٣

مفهوم الأمة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمة مشتقة من (أم) وجذر هذه المادة، كما قال ابن فارس: «الهمزة والميم فأصل واحد، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل والمرجع والجماعة والدين، وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة، وهي القامة والحين والقصد»[(١)]، والأمة في الأصل راجعة إلى القصد، وهي: الجماعة التي تقصد الأمر بتضافر وتعاون[(٢)].

وقال ابن قتيبة: «أصل الأمة: الصنف من الناس والجماعة»[(٣)].

وقال الكفوي: «الأمة في الأصل: المقصود، كالعمدة والعدة في كونهما معمودًا ومعدًا، وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق، كقوله تعالى: ﴿أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]»[(٤)].

وكل مشتقات هذه المادة ترجع إلى معنى القصد، ولا يخرج شيء منها عن ذلك[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

قال الراغب الأصفهاني: «والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا»[(٦)].

وقال ابن عاشور: «والأمة: اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، مشتقة من الأم بفتح الهمزة وهو القصد، أي: يؤمون غاية واحدة»[(٧)].

وقال سيد قطب رحمه الله: «(الأمة) عبارة عن طائفة من الناس، متوافقة فيما بينها، اجتمعت وتألفت وامتازت من بين طوائف أخرى؛ لاشتراكها في بعض الأمور الجوهرية»[(٨)].

«وإنما تكون الجماعة أمة إذا اتفقوا في الموطن، أو الدين، أو اللغة، أو في جميعها»[(٩)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢١.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، العسكري ص ٣١.
(٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٢٤٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ١٤٢.
(٤) الكليات، الكفوي ص ١٨١.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٧.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٦، وانظر: الكليات، الكفوي ص ١٧٦.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٠٠.
(٨) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٤٦.
(٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٠٠.

الأمة في الاستعمال القرآني

وردت (الأمة) في القرآن الكريم (٦٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
مفرد	٥١	﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠]
جمع	١٣	﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨]

وجاءت (الأمة) في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: العصبة والقوم والجماعة: ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة:١٢٨] يعني عصبة.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾[النحل:٩٢] يعني أن يكون قوم أكثر من قوم.

الثاني: الملة: ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[البقرة:٢١٣] يعني ملة.

الثالث: المدة من الزمن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾[هود:٨] يعني سنين معدودة.

الرابع: الإمام في الخير: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٠] يعني إمامًا يقتدى به في الخير.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨٠.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٤٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجمع:

الجمع لغة:

ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض، يقال: جمعته فاجتمع[(١)]، وجمعت الشيء: إذا جئت به من هاهنا وهاهنا، وتجمع القوم: اجتمعوا أيضًا من هاهنا وهاهنا»[(٢)].

الجمع اصطلاحًا:

قال ابن عاشور: «والجمع: الجماعة من الناس»[(٣)].

الصلة بين الأمة والجمع:

هو أن الأمة هي الجماعة التي تقصد الأمر بتضافر وتعاون، لكن الجمع هو فقط الجماعة من الناس، فالعلاقة بينهما أن لفظ الجمع أعم من لفظ الأمة.

٢ الحزب:

الحزب لغة:

قال الأزهري: «والحزب: الصنف من الناس.

وقال ابن الأعرابي: الحزب: الجماعة من الناس»[(٤)]، وقد ورد لفظ (الحزب) في القرآن الكريم بصيغة الإفراد والجمع دون التثنية؛ للدلالة على مفهوم الأمة.

الحزب اصطلاحًا:

«والحزب: الجماعة المجتمعون على أمر من اعتقاد أو عمل، أو المتفقون عليه»[(٥)].

الصلة بين الأمة والحزب:

بينهما عموم وخصوص؛ فلفظ الأمة أعم من لفظ الحزب، فكلاهما يدل على الصنف والجماعة، إلا أن الحزب خاص بجماعة البشر، والأمة عامة في جماعة البشر وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام: ٣٨].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٩٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٥٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٨٢.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٢١٧.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٧٣.

٣ القوم:

القوم لغة:

القاف والواو والميم: أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناسٍ، وربما استعير في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم[(١)].

القوم اصطلاحًا:

قال الراغب: «والقوم: جماعة الرجال في الأصل دون النساء، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، وفي عامة القرآن أريدوا به والنساء جميعًا»[(٢)].

قال الرازي: «القوم: اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الأطفال، والقائم بالأمور هم الرجال؛ فعلى هذا الأقوام الرجال لا النساء»[(٣)].

الصلة بين الأمة والقوم:

لفظ الأمة أعم من لفظ القوم، فكل أمة قوم، وليس كل قوم أمة.

٤ الثلة:

الثلة لغة:

الثاء واللام أصلان متباينان: أحدهما التجمع، والآخر السقوط والهدم والذل، والثلة: الجماعة من الناس.

قال الله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠][(٤)].

الثلة اصطلاحًا:

قال القاسمي: «أي: جماعة وأمة»[(٥)].

وقال السعدي: «أي: جماعة كثيرون»[(٦)].

الصلة بين الأمة والثلة:

أن الثلة جزءٌ من الأمة، فكل أمة ثلة وليس كل ثلة أمة.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٩٣.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٨/ ١٠٨ بتصرف يسير.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٦٨.
(٥) محاسن التأويل ٩/ ١٢٣.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٣٢.

الأمة الأولى

كان الناس أمة واحدة على دين واحد وملة واحدة، واستمروا على ذلك فترة من الزمن فاختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٣].

اختلف أهل التأويل في معنى (الأمة) الذين وصفهم الله بأنهم: كانوا أمة واحدة.

فقال بعضهم: هم الذين كانوا بين آدم ونوح، وهم عشرة قرون، كلهم كانوا على شريعة من الحق، فاختلفوا بعد ذلك.

قاله: ابن عباس وقتادة.

وقال آخرون: بل تأويل ذلك كان آدم على الحق إمامًا لذريته، فبعث الله النبيين في ولده، ووجهوا معنى (الأمة) إلى طاعة لله، والدعاء إلى توحيده واتباع أمره، من قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [سورة النحل: ١٢٠]، يعني بقوله: ﴿أُمَّةً﴾: إمامًا في الخير يقتدى به، ويتبع عليه. قاله مجاهد.

وقال آخرون: معنى ذلك كان الناس أمة واحدة على دين واحد يوم استخرج ذرية آدم من صلبه، فعرضهم على آدم.

قاله أبي بن كعب وابن زيد.

وقال آخرون بخلاف ذلك كله في ذلك.

وقالوا: إنما معنى قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، على دين واحد، فبعث الله النبيين.

قاله ابن عباس.

وأولى التأويلات في هذه الآية بالصواب أن يقال: إن الله عز وجل أخبر عباده أن الناس كانوا ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين واحد وملة واحدة، وكان الدين الذي كانوا عليه دين الحق، فاختلفوا في دينهم، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ﴾ عند اختلافهم في دينهم ﴿النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

فإن دليل القرآن واضحٌ على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به، وذلك أن الله جل وعز قال: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، ولو كان ذلك كذلك لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد؛ لأنها حال

إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحالٌ أن يتوعد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك[1].

وفي هذه الآية: اختار ابن كثير رواية ابن عباس: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ لأنها أصح سندًا ومعنى؛ ولأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[2].

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩]، «ثم أخبر الله تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام»[3].

وقال ابن القيم: «وهذا هو القول الصحيح في الآية»[4].

وبنحوه قال الشنقيطي: «أن آدم أرسل إلى ذريته وهم على الفطرة لم يصدر منهم كفر فأطاعوه، ونوح هو أول رسول أرسل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك بالله تعالى، ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [يونس: ١٩]، أي: على الدين الحنيف، أي: حتى كفر قوم نوح، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ... الآية﴾ [البقرة: ٢١٣]، والله تعالى أعلم»[5]، وهو قول الجمهور[6].

ويقول سيد قطب في تفسير هذه الآية: «وهذه هي قصة الاختلاف بين الناس في التصورات والعقائد، والموازين والقيم... ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً﴾ على نهج واحد وتصور واحد، وقد تكون هذه إشارة إلى حالة المجموعة البشرية الأولى الصغيرة من أسرة آدم وحواء وذراريهم قبل اختلاف التصورات والاعتقادات، فالقرآن يقرر أن الناس من أصل واحد، وهم أبناء الأسرة الأولى: أسرة آدم وحواء.

وقد شاء الله أن يجعل البشر جميعًا نتاج أسرة واحدة صغيرة؛ ليقرر مبدأ الأسرة في حياتهم، وليجعلها هي اللبنة الأولى، وقد غبر عليهم عهد كانوا فيه في مستوى واحد واتجاه واحد وتصور واحد في نطاق الأسرة الأولى، حتى نمت وتعددت وكثر أفرادها، وتفرقوا في المكان، وتطورت معايشهم، وبرزت فيهم الاستعدادات المكنونة المختلفة التي فطرهم عليها؛

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٥-٢٨٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٦٩.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٥٧.
(٤) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٠٤.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ١٥٥.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٢٤٦.

لحكمة يعلمها، ويعلم ما وراءها من خير للحياة في التنوع والاستعدادات والطاقات والاتجاهات، عندئذ اختلفت التصورات، وتباينت وجهات النظر، وتعددت المناهج، وتنوعت المعتقدات... وعندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»[1].

الأمم والرسالة

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، اقتضت حكمة الله تعالى في الأمم قبل هذه الأمة أن يرسل في كل أمة نذيرًا، وهذه سنة الله مع الأمم.

ثم أخبر الله تعالى أن كل أمة انقسمت مع رسولها إلى قسمين.

قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وسنتحدث في هاتين النقطتين بشيء من التفصيل في السطور القادمة:

أولًا: إرسال الرسل إلى الأمم سنة إلهية:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث فيها رسولًا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وبين أن بعثة الرسل أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال الرازي في هذه الآية: «فبين تعالى أن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢١٥.

سنته في عبيده إرسال الرسل إليهم، وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت»[1].

وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الشيطان وكل ما يدعو إلى الضلال، وأنهم بعد ذلك فريقان ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، فكان في ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته فإنه يأمر الكل بالإيمان، ولا يريد الهداية إلا للبعض؛ إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد[2].

وقال ابن كثير بنحو ما ذكره الشوكاني ردًا على المشركين في هذه الآية: «فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، فمشيئته تعالى الشرعية منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه عير عليهم، وأنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل»[3].

وقال البيضاوي في هذه الآية: «بين الله تعالى أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها سببًا لهدى من أراد اهتداءه وزيادة لضلال من أراد ضلاله، كالغذاء الصالح فإنه ينفع المزاج السوي ويقويه، ويضر المنحرف ويفنيه»[4].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

قال أبو حيان: «لما بين حال الرسول صلى الله عليه وسلم في قومه بين حال الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مع أقوامهم؛ تسلية له وتطمينًا لقلبه، ودلت الآية على أنه تعالى ما أهمل أمة، بل بعث إليها رسولًا»[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

قال الرازي في هذه الآية: «لما قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بين أنه ليس نذيرًا من تلقاء نفسه إنما هو نذير بإذن الله وإرساله، ثم قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ تقريرًا لأمرين؛ أحدهما: لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملًا لتأذي القوم. وثانيهما: إلزام القوم قبوله، فإنه ليس بدعًا من الرسل، وإنما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره»[6].

(١) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢٠٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٩٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٧٠.
(٤) أنوار التنزيل، ٣/ ٢٢٦ بتصرف يسير.
(٥) البحر المحيط، ٦/ ٦٦.
(٦) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٢٣٤.

وقال ابن عاشور: «وفيه دفع توهم أن يكون قصره على النذارة قصرًا حقيقًا؛ لتبين أن قصره على النذارة بالنسبة للمشركين الذين شابه حالهم حال أصحاب القبور، أي: إن رسالتك تجمع بشارة ونذارة، فالبشارة لمن قبل الهدى، والنذارة لمن أعرض عنه، وكل ذلك حق؛ لأن الجزاء على حسب القبول، فهي رسالة ملابسة للحق ووضع الأشياء مواضعها...، وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ إبطال لاستبعاد المشركين أن يرسل الله إلى الناس بشرًا منهم، فإن تلك الشبهة كانت من أعظم ما صدهم عن التصديق به، فلذلك أتبعت دلائل الرسالة بإبطال الشبهة الحاجبة على حد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وأيضًا في ذلك تسفيه لأحلامهم إذ رضوا أن يكونوا دون غيرهم من الأمم التي شرفت بالرسالة، ووجه الاقتصار على وصف النذير هنا دون الجمع بينه وبين وصف البشير هو مراعاة العموم الذي في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، فإن من الأمم من لم تحصل لها بشارة؛ لأنها لم يؤمن منها أحد»[1].

ثانيًا: موقف الأمم من الرسل:

أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم في أكثر من آية موقف الأمم السابقة من رسلهم، حيث وجد الرسول صلى الله عليه وسلم من يكذب به وبرسالته، فبين الله تعالى أن الأمم السابقة قد حدث فيها هذا أيضًا ، وهي سنة أمثالهم من كفرة الأمم بالله من قبلهم وتكذيبهم رسل الله التي أرسلها إليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

قال المراغي في هذه الآية: «وإن يكذبك أيها الرسول مشركو قومك فلا تبتئس بما يفعلون، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الذين جاءوهم بالمعجزات الباهرة، والأدلة القاطعة، وبالكتب الواضحة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داود»[2].

فكانت تلك الآيات تعزية وتسلية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم حتى يثبت في دعوته.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤].

قال الطبري في هذه الآية: «يقول تعالى

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٩٦-٢٩٧.

(٢) تفسير المراغي ٢٢/ ١٢٤.

ذكره مسليًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم عما يناله من أذى المشركين بالله، وحاضًا له على الصبر على ما يلحقه منهم من السب والتكذيب: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله على ما آتيتهم به من الحق والبرهان، وما تعدهم من العذاب على كفرهم بالله، فذلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة رسل الله المشركة بالله ومنهاجهم من قبلهم، فلا يصدنك ذلك، فإن العذاب المهين من ورائهم ونصري إياك وأتباعك عليهم آتيهم من وراء ذلك، كما أتى عذابي على أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم بعد الإمهال إلى بلوغ الآجال»[1].

ولم يكتف هؤلاء المشركون بالسب والتكذيب بل جادلوا رسلهم بالباطل، وهموا بقتلهم.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

قال السعدي في هذه الآية: «ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها، كما فعل من قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق؛ ليبطلوه، وعلى الباطل؛ لينصروه، وأنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: يقتلوه.

وهذا أبلغ ما يكون الرسل الذين هم قادة أهل الخير الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا بقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟ ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟! كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة أو حاصب ينزل عليهم أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم فإذا هم خامدون»[2].

وقد بين الله سبحانه وتعالى لنبيه أنه لا حجة بأيدي هؤلاء الكفار سوى تقليد آبائهم الضالين، وهذا من أباطيلهم وشبههم الزائفة، وأخبره أن غير هؤلاء من الكفار من الأمم الماضية قد سبقهم إلى هذه المقالة.

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣].

قال الرازي: «لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد؛ وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم

(١) جامع البيان، ١٨/ ٦٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٣٢.

يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ولا بدليل نقلي، ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل...

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه، إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة، وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ والمترفون: هم الذين أترفتهم النعمة أي: أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية، ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة»[1].

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل، ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة[2].

وإنما قال أولًا ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، وثانيًا: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾؛ لأن الأول وقع في محاجتهم النبي صلى الله عليه وسلم وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين، وأنهم مهتدون كآبائهم، فناسبه ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ والثاني وقع حكاية عن قوم ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء، فناسبه ﴿مُّقْتَدُونَ﴾، وفي هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وتخصيص المترفين بالذكر؛ للإشعار بأن الترف هو الذي أوجب البطر وصرفهم عن النظر إلى التقليد[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ٢٧/ ٦٢٧- ٦٢٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٤.
(٣) تفسير المراغي ٢٥/ ٨٠.

الاختلاف بين الأمم

من سنن الله تعالى في خلقه أن جعلهم مختلفين في ألوانهم وصورهم وألسنتهم، وكذلك أيضًا جعلهم مختلفين في عقائدهم وأفكارهم وتصوراتهم، وعن هذا النوع الأخير من الاختلاف سيكون حديثنا في النقاط الآتية:

أولًا: سنة الاختلاف بين الأمم:

لقد خلق الله تعالى البشر مختلفين في الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، متفاوتين في العقول، مختلفين في التفكير تتصادم مصالحهم وتتنازع رغباتهم، وهذا الاختلاف بين في المشارب والأهواء، سنة من سنن الله في الخلق والتكوين.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود: ١١٨-١١٩].

قال ابن كثير في هذه الآية: «يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم»[(١)].

وقال السعدي: «يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته، أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، كل يرى الحق، فيما قاله، والضلال في قول غيره، وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته، أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة؛ ليتبين للعباد، عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء»[(٢)].

وقد بين الله سبحانه وتعالى الحكمة من ذلك، حيث قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[المائدة: ٤٨].

قال الخازن في هذه الآية: «﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: جماعة متفقة على شريعة واحدة ودين واحد لا اختلاف فيه ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ يعني: ولكن أراد أن يختبركم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يعني: من الشرائع المختلفة هل تعملون بها أم لا؟ فيتبين بذلك المطيع من العاصي والموافق

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٦١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٢.

من المخالف»[1]، وقد سلى الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم على ما كان يناله من قومه، حيث كان حريصًا على هداهم، فبين الله تعالى له الحكمة في ذلك، حيث قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

قال المراغي في هذه الآية: «ثم سلى رسوله على ما كان يناله من الغم والهم بتولي قومه عنه، وعدم استجابة دعوته، وأعلمه أن أمور عباده بيده، وأنه الهادي إلى الحق من يشاء، والمضل من أراد فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولو شاء الله لجعل الجميع مؤمنين كما تريد وتحرص عليه.

ولكن حكمته اقتضت أن يكون بعضهم مؤمنين كما تحب، وبعضهم كفارًا وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء؛ لأنه سبحانه شاء أن يكون الإيمان مبنيًا على التكليف والاختيار...

ولو شاء لجعل الإيمان بالقسر والإلجاء، فكان الناس جميعًا أمة واحدة، ولكن له الحجة البالغة، والمثل الأعلى، لم يشأ ذلك، فلا تأس على عدم إيمان قومك...

وقد جاء هذا المعنى في غير آية... منها كقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]»[2].

وقال ابن عاشور في هذه الآية: «أي: ولكن شاء مشيئة أخرى جرت على وفق حكمته، وهي أن خلقهم قابلين للهدى والضلال بتصاريف عقولهم وأميالهم، ومكنهم من كسب أفعالهم وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر بالتكليف، فكان منهم المهتدون وهم الذين شاء الله إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾...

وهذا مسوق؛ لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على تمنيهم أن يكون الناس كلهم مهتدين، ويكون جميعهم في الجنة»[3].

وقد جاء في الحديث ما يؤكد على هذا الاختلاف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)**[4].

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥١.

(٢) تفسير المراغي ٢٥/ ١٨-١٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٩.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم٤٥٩٦، والترمذي في سننه، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم٢٦٤٠. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

١. الاختلاف العقدي.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣]

قال الرازي في قوله تعالى: «﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: وما اختلف في الحق إلا الذين أوتوا الكتاب.

وقال أكثر المفسرين: المراد بهؤلاء: اليهود والنصارى، والله تعالى كثيرًا ما يذكرهم في القرآن»(١).

والمراد بالاختلاف الذي بعث الله النبيين؛ ليحكموا فيه بين الناس: هو الاختلاف في الآراء والنحل والأديان والمعتقدات المتعلقة بما يسعد الإنسان به أو يشقى في الآخرة والدنيا، والاختلاف الواقع بينهم على أوجه منها:

الاختلاف في أصل النحلة، وهو قول جماعة من المفسرين(٢).

قال عطاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[هود: ١١٨]، «اليهود والنصارى والمجوس، والحنيفية، وهم الذين رحم ربك»(٣).

وأصل هذا الاختلاف هو في التوحيد والتوجه للواحد الحق سبحانه ، فإن الناس في عامة الأمر لم يختلفوا في أن لهم مدبرًا يدبرهم وخالقًا أوجدهم، إلا أنهم اختلفوا في تعيينه على آراء مختلفة، من قائل بالاثنين وبالخمسة، وبالطبيعة أو الدهر، أو بالكواكب، إلى أن قالوا: بالآدميين والشجر والحجارة وما ينحتون بأيديهم، ومنهم من أقر بواجب الوجود الحق لكن على آراء مختلفة أيضًا، إلى أن بعث الله الأنبياء مبينين لأممهم حق ما اختلفوا فيه من باطله، فعرفوا بالحق على ما ينبغي، ونزهوا رب الأرباب عما لا يليق بجلاله من نسبة الشركاء والأنداد، وإضافة الصاحبة والأولاد، فأقر بذلك من أقر به، وهم الداخلون تحت مقتضى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[هود: ١١٩](٤).

وفي وقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾[البقرة: ٢١٣].

قال زيد بن أسلم: «اختلفوا في يوم الجمعة؛ فاتخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد

(١) مفاتيح الغيب، ٦/ ٣٧٦ بتصرف يسير.
(٢) انظر: الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٦٧١.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٩٤.
(٤) الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٦٧١- ٦٧٢.

ليوم الجمعة، واختلفوا في القبلة؛ فاستقبلت النصارى الشرق واليهود بيت المقدس، وهدى الله أمة محمد للقبلة، واختلفوا في الصلاة؛ فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام فمنهم من يصوم النهار، ومنهم من يصوم من بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم، فقالت اليهود: كان يهوديًا.

وقالت النصارى: كان نصرانيًا، وجعله الله حنيفًا مسلمًا، فهدى الله أمة محمد، للحق من ذلك، واختلفوا في عيسى، فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتانًا عظيمًا، وجعلته النصارى إلهًا وولدًا، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك»[1].

وقد ذكر الله تعالى أمثلة على اختلاف أهل الكتاب وغيرهم من أهل الشرك فيما يعتقدونه، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

قال السعدي: «﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرءوا فيها على الله، وتنقصوا عظمته وجلاله، وقد قيل: إن سبب ادعائهم في ﴿عُزَيْرٌ﴾ أنه ابن الله، أنه لما سلط الله الملوك على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حملة التوراة، وجدوا عزيرًا بعد ذلك حافظًا لها أو لأكثرها، فأملاها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ﴾ عيسى ابن مريم ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾»[2].

واختلف في سبب قولهم لذلك على قولين:

أحدهما: أنه لما خلق من غير ذكر من البشر قالوا: إنه ابن الله! تعالى الله عن ذلك.

الثاني: أنهم قالوا ذلك؛ لأجل من أحياه من الموتى وأبرأه من المرضى[3].

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ القول الذي قالوه ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانًا، ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي قولٍ يقوله، فإنه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٢/٣٧٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٤.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٢/٣٥٣.

لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام، ولهذا قال: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: (الملائكة بنات الله) ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فتشابهت أقوالهم في البطلان، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون على الحق، الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين[١].

والخلاصة في القول: إن الاختلاف بين الأمم من أهل الكتاب وغيرهم قد يكون في المعتقدات، وفي أصل التوحيد.

٢. الاختلاف في الشرعة والمنهاج.

ذكر الله جل وعلا في كتابه الكريم أنه جعل لكل أهل ملة من الأمم شريعة ومنهجًا واضحًا.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

اختلف أهل التأويل في معنى قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ إلى قولين.

قال ابن الجوزي: «وللمفسرين فيها قولان:

أحدهما: أن المعنى: لكل ملة جعلنا شرعةً ومنهاجًا، فلأهل التوراة شريعة، ولأهل الإنجيل شريعة، ولأهل القرآن شريعة، هذا قول الأكثرين.

والثاني: أن المعنى: لكل من دخل في دين محمد جعلنا القرآن شرعةً ومنهاجًا»[٢].

والشرعة والشريعة في الأصل: الطريقة الظاهرة، ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الدين، والمنهاج: الطريق المستقيم[٣]، وبينهما فرق لطيف، وهو أن الشريعة: هي التي أمر الله بها عباده، والمنهاج: الطريق الواضح المؤدي إلى تلك الشريعة[٤].

وفي الآية إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حرامًا ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفًا فيزاد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة[٥].

وهذا يدل على عدم التعلق بشرائع الأولين[٦]، لذلك احتج بهذه الآية من قال من العلماء بأن شرع من قبلنا لا يلزمنا؛ لأن قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يدل على أن كل رسول جاء بشريعة خاصة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٤.

(٢) زاد المسير، ١/ ٥٥٥ بتصرف واختصار.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٣٧٠.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥١.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢١١.

فلا يلزم أمة رسول الاقتداء بشريعة رسول آخر[1].

وقال أبو زهرة في هذه الآية: «الخطاب لليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم من الذين أوتوا كتابًا نزل بشريعة من عند الله تعالى.

والمعنى على هذا: أن لكل نبي من الأنبياء السابقين شرعة يسير نحوها، ويتجه إليها، ومنهاجًا واضحًا بينًا يسير في طريقه، ولا يخرج منه، والذين يعاصرونه -أي: النبي صلى الله عليه وسلم- هم الذين يخاطبون بشرعته، ويسيرون في منهاجه، فالذين نزل فيهم القرآن مخاطبون بما جاء في القرآن، وشرعته ومنهاجه لهم؛ لأن شرعة الأنبياء السابقين ومنهاجهم قد انتهيا بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، وبقي من شرائعهم ما يقره القرآن، وما جاء النص بإقراره»[2].

والخلاصة في القول: إن لكل أهل ملة من الأمم السابقة جعل الله لها شريعة ومنهجًا واضحًا يبينه، وأن أصل الدين المتفق عليه بين الرسل هو التوحيد، وأن الشرائع السابقة قد انتهت بمبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الشرعة: هي الشريعة التي أمر الله بها عباده، والمنهاج: هو الطريق الواضح المؤدي إلى تلك الشريعة. والله أعلم.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥١.
(٢) زهرة التفاسير، ٤/ ٢٢٢٦-٢٢٢٧ بتصرف واختصار.

٣. الاختلاف بالنسك.

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

قال الطبري: «وقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ يقول: لكل جماعة قوم خلت من قبلك يا محمد، جعلنا مألفًا يألفونه، ومكانًا يعتادونه لعبادتي فيه، وقضاء فرائضي، وعملًا يلزمونه، وأصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر، يقال: إن لفلان منسكًا يعتاده: يراد مكانًا يغشاه ويألفه لخير أو شر، وإنما سميت مناسك الحج بذلك؛ لتردد الناس إلى الأماكن التي تعمل فيها أعمال الحج والعمرة»[3].

وقال السعدي في هذه الآية ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾: «يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿مَنسَكًا﴾ أي: معبدًا وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: عاملون عليه بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصًا من الأميين، أهل الشرك والجهل المبين»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي

(٣) جامع البيان، ١٨/ ٦٧٨-٦٧٩ بتصرف يسير.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٤٥ باختصار.

﴿ٱلْأَمْرِ﴾.

قال القاسمي: «أي: في ذلك الجعل والوضع والحوار في تنوعه في كل أمة، وعدم وحدته، أو في أمر ما جئتهم به؛ لأنهم جاهلون بحكمته سبحانه وتعالى في تكوين الأمم وتربيتها بالشرائع المناسبة لزمنها ومكانها، وحياتها ومنشئها»[1].

فلكل زمان ما يليق به من الشرائع التي تناسب من فيه في تلك الحقبة.

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

قال النيسابوري في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: «موضعًا أو وقتًا يذبح فيه النسائك أي: الذبائح لوجهه على جهة التقرب، وجعل الغاية في ذلك هي أن يذكر اسمه على نحرها، ثم بين العلة في تخصيص اسمه بذلك قائلًا: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾»[2]، أي: فإن معبودكم واحد، وإن اختلفت العبادات بحسب الأزمنة والأمكنة، ونسخ بعضها بعضًا، فما المقصد منها جميعًا إلا عبادة الله وحده لا شريك له[3].

وإنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص؛ لاختلاف المصالح، لا لتعدد الإله[4].

والخلاصة في القول: أن النسك يختلف باختلاف الشرائع والأمم، فلكل أمة منسكًا هم ناسكوه.

(١) محاسن التأويل، ٧/ ٢٧٣ بتصرف واختصار.
(٢) غرائب القرآن، ٥/ ٨١ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير المراغي ١٧/ ١١٣.
(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٥/ ٨١.

الأمة المحمدية

من سنة الله في خلقه سنة التفاضل، فقد خلق سبع سماوات ثم اختار سابعها، وخلق الملائكة واصطفى منهم جبريل، وخلق الأرض وكرم منها مكة، وخلق البشر واصطفى منهم الرسل، وكذلك خلق الأمم واصطفى منهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وسيتم الحديث عن اصطفاء الله لهذه الأمة من خلال النقاط الآتية:

أولًا: دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

أخبر الله عز وجل عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وما كانا يفعلان في بناء البيت، وما كانا يقولان وهما يبنيان، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

قال المراغي: «﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ أي: واذكروا إذ يرفع إبراهيم قواعد البيت وأساسه، وهذا نص في أنهما هما اللذان بنياه لعبادة الله في تلك البلاد الوثنية... ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أي: إن إبراهيم وإسماعيل كانا يقولان في دعائهما وهما يرفعان قواعد البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: ربنا أنت السميع لدعائنا، العليم بنياتنا في جميع أعمالنا»[(١)].

وفي الآية دليل: أن الإنسان إذا عمل خيرًا ينبغي أن يدعو الله بالقبول، ويقال: ينبغي أن يكون خوف الإنسان على قبول العمل بعد الفراغ أشد من شغله بالعمل، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧][(٢)].

وفي الآية كذلك تذكير للعرب بأن الذي بنى البيت هو أبوهم إبراهيم بمعونة ابنه إسماعيل؛ ليجذبهم بذلك إلى الاقتداء بسلفهم الصالح الذي ينتمون إليه ويفاخرون به، وقد كانت قريش تنتسب إلى إبراهيم وإسماعيل، وتدعى أنها على ملة إبراهيم، وسائر العرب في ذلك تبع لقريش[(٣)].

وقال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: «مخلصين لك، من أسلم وجهه، أو مستسلمين من أسلم، إذا استسلم وانقاد، والمراد: طلب الزيادة في

(١) تفسير المراغي ١/ ٢١٥ باختصار.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٩٣.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١/ ٢١٥.

الإخلاص والإذعان، أو الثبات عليه»[1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

قال ابن عاشور: «وهذا دعاء ببقاء دينهما في ذريتهما، ﴿وَمِن﴾ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾؛ للتبعيض، وإنما سألا ذلك لبعض الذرية؛ جمعًا بين الحرص على حصول الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء؛ لأن نبوءة إبراهيم تقتضي علمه بأنه ستكون ذريته أممًا كثيرة، وأن حكمة الله في هذا العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتماله على الأخيار والأشرار، فدعا الله بالممكن عادة، وهذا من أدب الدعاء»[2].

وقيل: أراد بالأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم[3].

وكل قوم نسبوا إلى نبي فأضيفوا إليه فهم أمته، وكل جيل من الناس أمة على حدة[4]، ويقال: إنه لم يدع نبي إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمته لهذه الأمة[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قال البيضاوي: «﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ متعبداتنا في الحج، أو مذابحنا، والنسك في الأصل غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة، ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ استتابة لذريتهما، أو عما فرط منهما سهوًا، ولعلهما قالا هضمًا لأنفسهما وإرشاد لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن تاب»[6].

وفائدة تكرير النداء بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾؛ إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى، فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل والثانية لطلب الاهتداء[7].

وقول إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يدل على أن الإسلام والإيمان سواء؛ إذ لم يسألا إلا أعلى الرتب وأشرف المنازل، وهو الإيمان الذي هو الإسلام[8].

وقال الطبري في تأويل قوله تعالى: «﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى

(١) أنوار التنزيل، ١/ ١٠٦.
(٢) التحرير والتنوير، ١/ ٧٢٠.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٠٦.
(٤) الوسيط، الواحدي ١/ ٢١١.
(٥) النكت والعيون، للماوردي ١/ ١٩١.
(٦) أنوار التنزيل، ١/ ١٠٦.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧١٩.
(٨) الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٤٤٤.

عيسى)»[1][2].

وطلبا في ذلك الموقف أن يكون الرسول ﴿مِنْهُمْ﴾؛ ليكونوا أسكن إليه وأسهل عليهم[3].

وقد أجاب الله دعاءهما وكون منهم أمة كانت خير الأمم، سادت العالم وملكت المشارق والمغارب ردحًا من الزمان، وكان فيها رجال حفظ لهم التاريخ صادق بلائهم، وعظيم سياستهم للشعوب التي انضوت تحت لوائهم، بما لم تجارهم فيه أرقى الأمم مدنية في عصرنا، عصر الرقي والحضارة[4].

ثانيًا: وسطية الأمة المحمدية:

شرف الله تعالى هذه الأمة وفضلها بأن جعلها أمة وسطًا بين الأمم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]، والوسط في كلام العرب: الخيار، يقال منه: فلان وسط الحسب في قومه، أي: متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه، وهو وسط في قومه وواسط[5].

قال أبو نخيلة[6]:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم
إذا طرقت إحدى الليالي بمعظم

وللمفسرين في هذه الآية معان عدة نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

قال الإمام الطبري رحمه الله: «ومعنى الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء، الذي هو بين الطرفين، مثل: وسط الدار، وإنما وصفهم بذلك؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، كغلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، كتقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك؛ إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»[7].

وقال ابن كثير رحمه الله: «والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطًا في قومه، أي: أشرفهم نسبًا، ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٧٩، رقم ١٧١٥٠.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٥/ ١٠٢، رقم ٢٠٨٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٨٢.
(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٢٦.
(٤) انظر: تفسير المراغي ١/ ٢١٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤١.
(٦) البيان والتبيين، الجاحظ ٣/ ١٥٣.
(٧) جامع البيان، ٣/ ١٤٢ بتصرف.

﴿عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[الحج: ٧٨]»[١].

وقال السعدي رحمه الله: «﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدلًا خيارًا، فجعل الله هذه الأمة، وسطًا في كل أمور الدين، وسطًا في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات، عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئًا، ولا يحرمون شيئًا، بل أباحوا ما دب ودرج، بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها»[٢].

وقال سيد قطب في تفسير هذه الآية: «وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى: الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى: الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي والحسي، أمة وسطًا في التصور والاعتقاد، أمة وسطًا في التفكير والشعور، أمة وسطًا في التنظيم والتنسيق، أمة وسطًا في الارتباطات والعلاقات، أمة وسطًا في الزمان، أمة وسطًا في المكان... وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها، واتخذت لها مناهج مختلفة، ليست هي التي اختارها الله لها»[٣].

وسبب نزول هذه الآية كما قال ابن الجوزي: «أن اليهود قالوا: قبلتنا قبلة الأنبياء، ونحن عدل بين الناس، فنزلت هذه الآية»[٤].

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ؛ لإطلاق قوله: ﴿وَسَطًا﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ، لم يكونوا وسطًا، إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك، وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة، والفتيا، ونحو ذلك[٥].

ثالثًا: خيرية الأمة:

وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأمة

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٤٥٤ باختصار.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٠.
(٣) في ظلال القرآن، ١/ ١٣١-١٣٢.
(٤) زاد المسير، ١/ ١١٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١.

بأنها خير الأمم، حيث قال جل شأنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الماتريدي: «وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، يحتمل معناها وجوهًا:

يحتمل: ﴿كُنتُمْ﴾: أي: صرتم خير أمة أظهرت للناس؛ بما تدعون الخلق إلى النجاة والخير.

ويحتمل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في الكتب السالفة؛ بأنكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.

ويحتمل: تكونون خير أمة إن أمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر.

﴿كُنتُمْ﴾: صرتم خير أمة، وكانوا كذلك هم خير ممن تقدمهم من الأمم؛ بما بذلوا مهجهم لله في نصر دينه، وإظهار كلمته، والإشفاق على رسوله، حتى كان أحب إليهم من أنفسهم؛ ويرونه أولى بهم»[(١)].

وأصل الخطاب في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يعم سائر أمته[(٢)]، وإنما صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة؛ لأن المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى[(٣)].

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم -ثم ذكر كلام السلف في تأويل هذه الآية- بأن المعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾... ثم قال: والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم... وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيًا قبله ولا رسولًا من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه[(٤)].

ولكن هذه الخيرية التي فرضها الله لهذه الأمة إنما يأخذ بحظه منها من عمل هذه الشروط من الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) تأويلات أهل السنة، ٢/ ٤٥٠ - ٤٥١ بتصرف يسير.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٥٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٧١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٩٣-٩٤.

المنكر والإيمان بالله[1].

فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: «بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها رأى من الناس سرعة، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها»[2].

وقد ذكر أن سبب نزول هذه الآية: «أن مالك بن الصيف ووهب بن يهودا اليهوديين قالا لعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة: نحن أفضل منكم وديننا خير من دينكم الذي تدعوننا إليه فأنزل الله هذه الآية»[3]، والخلاصة: إن هذه الخيرية لا تثبت لهذه الأمة إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة، فإذا تركتها لم تكن لها هذه المزية.

والآية تدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوام الأمم، ولا صلاح لهم إلا إذا قاموا بحقه، فالأمم تصلح بالأمر بالمعروف، وتفسد بتركه، ولهذا قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر، مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات، ولأنهما كذلك سياج الإيمان وحفاظه، فكان تقديمهما في الذكر موافقًا للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدمًا عليه[4]. وقد استدل بهذه الآية على أن إجماع هذه الأمة حجة؛ لأنها لو لم تحكم بالحق، لم تكن خيرًا من المبطل؛ ولأن اللام في ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وفي ﴿الْمُنكَرِ﴾؛ للاستغراق فيقتضي كونهم آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر، فيكون إجماعهم حقًا[5].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٨٩.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٧/ ١٠٢.
(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٨٤.
(٤) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٣٠، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٣٢٠.
(٥) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٢٣٤.

آجال الأمم

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، هذه هي سنة الله تعالى في إرسال رسله للبشرية؛ ليهدوهم إلى صراط مستقيم الذي يجمع كلمتهم ويوحد صفهم، وقد وعد الله تعالى بالنعيم المقيم لكل أمة استجابت لرسولها وآمنت به، وتوعد كل أمة كذبت رسولها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فكانت هذه هي آجال الأمم المرسومة في كتاب الله تعالى، وهذا ما سنوضحه بشيء من التفصيل فيما يأتي:

أولًا: لكل أمة أجل:

ذكر الله جل وعلا في كتابه الكريم بأن لكل أمة أجلًا، وأنه لا يسبق أحد أجله المحدد له، ولا يتأخر عنه.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

قال الخازن في هذه الآية: «قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الأجل: الوقت المؤقت لانقضاء وقت المهلة، ثم في هذا الأجل المذكور في الآية قولان:

أحدهما: أنه أجل العذاب، والمعنى: أن لكل أمة كذبت رسله وقتًا معينًا، وأجلًا مسمى أمهلهم الله إلى ذلك الوقت ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: إذا حل وقت عذابهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يعني: فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة، وإنما ذكرت الساعة؛ لأنها أقل أسماء الوقت في العرف، وهذا حين سألوا نزول العذاب، فأخبرهم الله تعالى أن لهم وقتًا إذا جاء ذلك الوقت هو وقت إهلاكهم واستئصالهم، فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

والقول الثاني: أن المراد بهذا الأجل هو أجل الحياة والعمر، فإذا انقضى ذلك الأجل وحضر الموت، فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة، وعلى هذا القول يلزم أن يكون لكل واحد أجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير، وإنما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾؛ لتقارب أعمار أهل كل عصر، فكأنهم كالواحد في مقدار العمر»[1].

وأما ابن عاشور فقال في هذه الآية: «وليس المراد في الآية، بأجل الأمة، أجل أفرادها، وهو مدة حياة كل واحد منها؛ لأنه لا علاقة له بالسياق، ولأن إسناده إلى الأمة يعين أنه أجل مجموعها لا أفرادها، ولو أريد آجال الأفراد لقال: لكل أحد أو لكل حي

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٩٦.

أجل»[1].

والأجل يطلق على مدة الإمهال، ويطلق على الوقت المحدد به انتهاء الإمهال، ولا شك أنه وضع في الآية لأحد الأمرين، ثم استعمل في الآخرة على تأويل منتهى المدة، أو تأخير المنتهى، وشاع الاستعمالان.

فعلى الأول: يقال: قضى الأجل، أي: المدة، كما قال تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨].

وعلى الثاني: يقال: دنا أجل فلان.

وقوله تعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾[الأنعام: ١٢٨]، والواقع في هذه الآية يصح للاستعمالين بأن يكون المراد بالأجل الأول المدة، وبالثاني الوقت المحدد لفعل ما[2]، والغرض من ذكر الأجل هو التخويف؛ ليتشدد المرء في القيام بالتكاليف كما ينبغي[3].

وذكر عموم الأمم في هذا الوعيد، مع أن المقصود هم المشركون من العرب الذين لم يؤمنوا، إنما هو مبالغة في الإنذار والوعيد بتقريب حصوله كما حصل لغيرهم من الأمم على طريقة الاستشهاد بشواهد التاريخ في قياس الحاضر على الماضي، فيكون الوعيد خبرًا معضودًا بالدليل والحجة، كما قال تعالى في آيات كثيرة منها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران: ١٣٧][4].

وخلاصة معنى الآية: إن لكل أمة أجلًا لا يتأخرون عنه إذا جاء، ولا يتقدمون عليه أيضًا ، فيهلكوا قبل مجيئه، وينحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥].

ثانيًا: نهاية الأمم:

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم ما حل بالأمم السابقة من العذاب بسبب تكذيبهم رسلهم، وكفرانهم نعمه جل وعلا، وهذه من سنن الله الثابتة في هلاك الظالمين.

وقد ذكر الله جل وعلا نوعين من العذاب، حيث قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

فهذه الآية بينت نوعين من العذاب:

فالنوع الأول: الهلاك، ويقصد به الفناء والاستئصال[5].

والنوع الثاني: العذاب الشديد، ويقصد به القتل بالسيف أو الزلازل أو الأمراض أو الخوف أو غير ذلك[6]. وهذا ما يسمى بنهاية العطاء الحضاري.

(١) التحرير والتنوير، ٨/ ١٠٤-١٠٥.
(٢) المصدر السابق ٨/ ١٠٣-١٠٤.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٣٤.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٠٣.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٧٥.
(٦) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣١٧.

وسوف نبين هذين النوعين بشيء من التفصيل فيما يأتي:

١. نهاية العطاء الحضاري.

وهو العذاب الذي لا يؤدي إلى زوال الأمة، كالنقص في الأموال والأنفس والشدة والقحط وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: «﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: رسلًا، فكذبوهم ولم يبالوا؛ لكونهم في الرخاء، ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ﴾ أي: الشدة والقحط، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: المرض ونقصان الأنفس والأموال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون إليه من كفرهم ومعاصيهم، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد»[(١)].

فأخذهم بالبأساء والضراء، أخذ ابتلاء واختبار، وذلك مفيد لهم؛ لأن سنة الله قد جرت بأنهم في مثل هذه الحال يتضرعون ويجأرون بالدعاء إلى ربهم، فالشدائد تربي النفوس وتهذب الأخلاق، فترجع المغرورين عن غرورهم، وتكف الفجار عن فجورهم[(٢)].

وهذا رحمة من الله تعالى بهم[(٣)].

٢. نهاية استئصال.

وهو ذهاب الأمة برمتها بحيث يهلك أفرادها بعذاب ما، ولا يبقى منهم أحد، كما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، ولكن يبقى من هؤلاء الصالحون.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «كذبت قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب، فحلت بهم نقمتنا بعد بلوغ أمدهم، كما هي سنتنا في أمثالهم من المكذبين، كعاد وثمود ومن بعدهم، وكانوا في جدلهم على مثل الذي عليه قومك، فأهلكتهم واستأصلت شأفتهم، فلم أبق منهم ديارًا ولا نافخ نار، وصاروا كأمس الدابر، وإنكم لتمرون على ديارهم مصبحين وممسين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وهكذا سأفعل بقومك إن هم أصروا على الكفر والجدل في آيات الله.

وفي الآية تسلية لرسوله على تكذيب من

(١) محاسن التأويل، ٤/ ٣٥٩.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٢٣-١٢٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥٦.

كذبه من قومه، وبأن له أسوة في سلفه من الأنبياء، فإن أقوامهم كذبوهم وما آمن منهم إلا قليل»[1]، وتهديد لمن جادل في آيات الله؛ ليبطلها، كما فعل من قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق؛ ليبطلوه، وعلى الباطل؛ لينصروه[2].

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٤/ ٤٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.

الأمم يوم القيامة

جعل الله تعالى دار الدنيا دار عمل ومسابقة ومنافسة على طاعة الله تعالى، وأمهل فيها كل أمة مهلة كافية؛ لتؤمن فيها برسولها، وترى دلائل ربوبية الله تعالى وألوهيته، وصدق رسله ماثلة مبثوثة في آياته الكونية والشرعية، ثم جعل الله تعالى الحياة الآخرة دارًا يحاسب فيها كل أمة بعملها، ويقيم على كل أمة شهودًا على أن كل رسول قد أقام الحجة على أمته.

قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

أولًا: لكل أمة شهيد:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن للأمم شهداء عليهم يوم القيامة، وشهداء الأمم أنبياؤهم، وسوف يشهدون عليهم بما عملوا.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

قال البغوي: «وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، أي: فكيف الحال وكيف يصنعون إذا جئنا من كل أمة بشهيد، يعني: نبيها يشهد عليهم بما عملوا، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ شاهدًا

يشهد على جميع الأمة على من رآه ومن لم يره»[1].

وهذه الشهادة عبارة عن عرض أعمال الأمم على أنبيائهم، لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين ومقابلة عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد الأنبياء وأعمالهم وأخلاقهم، فمن شهد لهم نبيهم بأنهم على ما جاء به وما أمر الناس بالعمل به فهم ناجون ومن تبرأ منهم أنبياؤهم؛ لمخالفة أعمالهم وعقائدهم لما جاءوا به فأولئك هم الخاسرون، وإن ادعوا اتباعهم والانتماء إليهم[2].

فجعل الله شهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق؛ لتكون الحجة على المسيء أبلغ، والتبكيت له أعظم، وحسرته أشد، ويكون سرور من قبل ذلك من الرسول، وأظهر الطاعة أعظم، ويكون هذا وعيدًا للكفار الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾[النساء: ٤٠]، ووعدًا للمطيعين الذين قال الله فيهم ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء: ٤٠][3].

وجاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ علي) قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري) فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ قال: (حسبك الآن) فإذا عيناه تذرفان[4].

وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان لعظيم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلع وشدة الأمر؛ إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب، ويؤتى به صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شهيدًا[5].

قال ابن عاشور: «لا فعل أجمع دلالة على مجموع الشعور عند هذه الحالة من بكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه دلالة على شعور مجتمع فيه دلائل عظيمة: وهي المسرة بتشريف الله إياه في ذلك المشهد العظيم، وتصديق المؤمنين إياه في التبليغ، ورؤية الخيرات التي أنجزت لهم بواسطته، والأسف على ما لحق بقية أمته من العذاب على تكذيبه، ومشاهدة ندمهم على معصيته، والبكاء ترجمان رحمة ومسرة وأسف وبهجة»[6].

والخلاصة في معنى الآية: أن الله يأتي بالأنبياء شهداء على أممهم بما عملوا،

(١) معالم التنزيل، ١/ ٦٢٤.
(٢) تفسير المراغي ٥/ ٤٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٨٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، ٦/ ١٩٦، رقم ٥٠٥٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٧.
(٦) التحرير والتنوير، ٥/ ٥٨.

ويؤتى بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم شهيدًا على أمته.

ثانيًا: شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على الأمم السابقة:

لقد بينا فيما سبق، أن الله سبحانه وتعالى شرف هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطًا بين الأمم، وذكرنا كلام المفسرين في معنى هذه الوسطية، وسوف نذكر -فيما يأتي- العلة من ذلك، كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣].

قال السعدي: «فإن شك شاك في فضل هذه الأمة، وطلب مزكيًا لها، فهو أكمل الخلق، نبيهم صلى الله عليه وسلم، فلهذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم، أنه إذا كان يوم القيامة، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها»[(١)].

وقال ابن عاشور: «وأما شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، فهي شهادة بصدق المسلمين في شهادتهم على الأمم بأن رسلهم أبلغوا إليهم رسالات ربهم»[(٢)].

ومما يؤكد على شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على الأمم السابقة، ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣])[(٣)].

وفي الآية ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ دليل على قبول شهادة أهل الإسلام على أهل الكفر، ورد شهادتهم علينا؛ لأنه لو قبلت شهادتنا عليهم على التبليغ، ثم شهد أولئك بأنهم لم يبلغوا، لكان فيه تناقض، فدل أن شهادتنا تقبل عليهم، ولا تقبل شهادتهم علينا. والله أعلم[(٤)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٠-٧١ بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٧٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطًا)، رقم ٤٤٨٧.

(٤) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٥٨٤.

والخلاصة في القول: أن شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على الأمم السابقة بتزكيته وتصديقه لأمته بما شهدت للأنبياء على أممهم بتبليغ الرسالة. والله أعلم.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على فضل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه الأمة على غيرها من الأمم.

ثالثًا: لا تحاسب أمة بذنب غيرها:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن كل أمة مؤاخذة بعملها، ولا تحاسب أمة بذنب غيرها.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

قال السعدي: «﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: كل له عمله، وكل سيجازى بما فعله، لا يؤخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانه وتقواه، فاشتغالكم بهم وادعاؤكم، أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم، أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟»[(١)].

و﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون[(٢)]، وسبب نزول هذه الآية أن اليهود والنصارى كانوا يقولون: نحن على دينهم، فقال لهم تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، أي: لا تقدرون عليهم فيشهدوا لكم، فلهم ما عملوا وإنما لكم ما تعملون، وإنما ينظر اليوم إلى أعمالكم، ولا ينفعكم من أعمالهم شيء[(٣)].

وقد ذكرت هذه الآية في موضع آخر في السورة نفسها.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

وتكرارها كما قال القرطبي: «لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي: إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى، فوجب التأكيد، فلذلك كررها»[(٤)].

وقال البيضاوي: «وتكريرها؛ للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم، وفي الآية تحذيرٌ لنا عن الاقتداء بهم»[(٥)].

وفي الآية سواء كانت الأولى أو الثانية دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٧.

(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٣٣.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٩٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ١٤٧.
(٥) انظر: أنوار التنزيل، ١/ ١١٠.

وأكساب، فالعبد مكتسب لأفعاله، وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك، فإن كان خيرًا فبفضله وإن كان شرًا فبعدله، وهذا مذهب أهل السنة[1].

والخلاصة في القول: إن كل أمة تسأل عن عملها لا عن عمل غيرها، وكل يجازى بما فعله، لا يؤخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانه وتقواه، وأن الاعتماد على أعمال الآباء، والافتخار بهم، والاتكال عليهم لا يجدي شيئًا.

رابعًا: دعوة الأمم لأخذ كتب أعمالها:

ذكر الله سبحانه وتعالى حال الأمم وهي تدعى إلى كتب أعمالها، حيث قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨].

قال ابن كثير: «﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على ركبها من الشدة والعظمة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ يعني: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٣-١٥]»[2].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٣٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٧١ باختصار.

وقال المراغي: «بين الله تعالى حال الأمم في ذلك اليوم، وما تلاقيه من الشدائد؛ انتظارا لفصل القضاء، فقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ على ركبها؛ لشدة الهول والرعب، واستعدادًا لما تؤمر بها حين فصل القضاء ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ الذي أنزل عليها لتعبد ربها بهديه، وكتابها الذي نسخته الحفظة من أعمالها؛ ليطبق أحدهما على الآخر، فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا، ومن خالفه هلك وكان من الأخسرين أعمالًا، ثم ذكر أنهم ينذرون ويبشرون بما سيبنى عليه حكم القضاء، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ويقال لهم حال دعائهم: اليوم تجازون بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا خيرها وشرها»[3].

فكل أمة مدعوة إلى كتابها، الذي تحاسب به، على حسب شريعتها التي دعيت إليها، فلكل أمة شريعة، ولكل أمة حسابها على هذه الشريعة من حيث اتباعها والاستقامة عليها، أو تضييعها والخروج عنها[4].

والخلاصة في المعنى: إن كل أمة تدعى؛ لتعرض أعمالها على ما أمرت به في كتابها المنزل عليها من ربها، فإن وافق عملها كتاب ربها نجت، وإن خالف عملها كتاب ربها هلكت. والله أعلم.

(٣) تفسير المراغي ٢٥/ ١٦٢-١٦٣ باختصار.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٥٢-٢٥٣.

خامسًا: تلاعن الأمم في النار:

أخبر الله جل ثناؤه عن تلاعن الأمم من أهل الملل الكافرة في النار يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

قال البغوي: «يقول الله تعالى لهم يوم القيامة: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي: مع جماعات ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ يعني: كفار الأمم الخالية، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يريد: أختها في الدين لا في النسب، فتلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى، وكل فرقة تلعن أختها، ويلعن الأتباع القادة، ولم يقل: أخاها؛ لأنه عنى الأمة والجماعة، ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار، ﴿جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ أي: آخرهم دخولًا النار وهم الأتباع ﴿لِأُولَاهُمْ﴾، أي: لأولاهم دخولًا وهم القادة؛ لأن القادة يدخلون النار أولًا، ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ عن الهدى، يعني: القادة ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: ضعف عليهم العذاب.

قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، يعني: القادة والأتباع ضعف من العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب»[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ دليل أن الكفار من الجن يعذبون، كما يعذب الكفار من الإنس[(٢)].

وفيها كذلك إيماء إلى أنه تعالى لا يسوق الكفار بأجمعهم إلى النار دفعة واحدة، بل يدخلهم أفواجًا، فيكون منهم سابق ومسبوق، ويشاهد الداخل من الأمة في النار من سبقه[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يقول الماتريدي: «وسبب لعن الأتباع للمتبوعين؛ لما دعوهم إليه وصرفوهم عن دين الله، كقولهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾، ولعن المتبوعين للأتباع؛ لما يزداد لهم العذاب بكثرة الأتباع وبقدرهم؛ فيلعن بعضهم بعضًا، وفيها دليل على أن أهل الكفر -وإن اختلفوا في مذاهبهم- فهم إخوة وأخوات بعضهم لبعض، كالمؤمنين بعضهم إخوة وأخوات لبعض»[(٤)].

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا

(١) انظر: معالم التنزيل، ٢/ ١٩١.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤/ ٤١٨.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٤٨.
(٤) تأويلات أهل السنة، ٤/ ٤١٨.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مبينًا السبب في مطالبة الأتباع مضاعفة العذاب للمتبوعين: «لأنهم علموا أن الضلال سبب العذاب، فعلموا أن الذين شرعوا الضلال هم أولى بعقوبةٍ أشد من عقوبة الذين تقلدوه واتبعوهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١]»[1].

والخلاصة في القول: أن الأمم الكافرة من أهل النار يوم القيامة يلعن بعضهم بعضا، ويعادي بعضهم بعضًا؛ لأنهم ضل بعضهم باتباع بعض.

موضوعات ذات صلة:

الاجتماع، الاختلاف، العلاقات الاجتماعية، الوحدة

(١) التحرير والتنوير، ٨/ ١٢٢-١٢٣.

الأمثال

عناصر الموضوع

مفهوم الأمثال	٨
الأمثال في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
أنواع الأمثال	١٢
ميادين ضرب الأمثال	٢٢
مقاصد ضرب المثل	٣٧
آثار ضرب الأمثال	٤٦

المجلد الخامس

مفهوم الأمثال

أولًا: المعنى اللغوي:

(مثل): الميم والثاء واللام: أصلٌ صحيحٌ يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا: أي نظيره وشبيهه، والمثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلًا، فيجعل مثله، ويطلق على الصفة والعبرة والآية والأنموذج الذي يحتذى به[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الراغب الأصفهاني المثل بقوله: «والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوره»[2].

ونلاحظ مما سبق أن هناك ارتباطًا بين المعنى اللغوي والاصطلاحي في كون المثل يضرب في المشابهة في القول، ولكنه يتضمن معانٍ أخرى كالصفة والعبرة والآية.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٦١٠.
(٢) المفردات، ص ٧٥٩.

الأمثال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مثل) في القرآن (١٦٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾[مريم:١٧]
اسم التفضيل	٢	﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾[طه:١٠٤]
صفة مشبهة	٧٥	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾[البقرة:٢٧٥]
اسم بمعنى الصفة	٨٨	﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[آل عمران:٥٩]
اسم على وزن فعلات	١	﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾[الرعد:٦]

وجاءت الأمثال في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

أحدها: السنن، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾[البقرة:٢١٤]. يعني سنن الذين خلوا من قبلكم.

الثاني: العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الزخرف:٥٦]. يعني: عبرة لمن بعدهم.

الثالث: الصفة والشبه، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾[الفتح:٢٩]. يعني: صفتهم.

الرابع: العقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾[الرعد:٦]. يعني: العقوبات.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٥٩-٦٦١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٤١٥-٤١٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ المثل:

المِثْل لغة:

فالمَثَل والمِثْل يدلان على معنى واحد، وهو كون شيء نظيرًا للشيء، وفي القاموس: «المثل -بالكسر والتحريك- الشبه»[١].

المثل اصطلاحًا:

عرفه الإمام السيوطي بقوله: «المساوي من كل وجه»[٢].

الصلة بين المَثَل المِثْل:

المثل في دلالته اللغوية الأصلية يعني (المشابهة) بين شيء وشيء، ولكن لفظ (المثل) أوسع من لفظ (التشبيه) يقول الراغب الأصبهاني: «المثل عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني، أي معنىً كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة»[٣]، يعني أنه أعم من (المثل).

٢ الشبيه:

الشبيه لغة:

قال ابن منظور: «الشبه والشبه والشبيه: المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيء الشيء: ماثله»[٤].

الشبيه اصطلاحًا:

قال محمد الغزي الشافعي: «هو عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبه المتشبه به، وعلى هيئته وحليته ونعته وصفته»[٥].

الصلة بين المثل والشبيه:

المثل أعم من الشبيه؛ لأن المثل ما تكافأ في الذات، أما الشبيه لا يستعمل إلا في المتجانسين، فالشبيه يأخذ بعض صفات الذات، أما المثل فيأخذ كل الصفات[٦].

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادى، ٤ / ٤٩.
(٢) الحاوي للفتاوى، ٣/ ٤١٠.
(٣) المفردات، ص٤٦٢.
(٤) لسان العرب، ١٣/ ٥٠٣.
(٥) الأعياد وأثرها على المسلمين، ص ٩٩.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص ١٥٣.

٣ النظير:

النظير لغة:

المماثل والشبيه، يقال: فلان نظير فلان إذا كان مثله، وشبيهه (نظير) الشيء مثله[١].

النظير اصطلاحًا:

ما قابل نظيره في جنس أفعاله وهو متمكن منها[٢].

الصلة بين المثل والنظير:

المثل ما تكافأ في الذات على ما ذكرنا، والنظير ما قابل نظيره في جنس أفعاله وهو متمكن منها؛ كالنحوي نظير النحوي وإن لم يكن له مثل كلامه في النحو أو كتبه فيه، ولا يقال: النحوي مثل النحوي؛ لأن التماثل يكون حقيقة في أخص الأوصاف، وهو الذات[٣].

(١) انظر: مختار الصحاح، ص ٣١٣.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٤٨٠.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص ١٥٥.

أنواع الأمثال

يعتمد المثل القرآني في بنيته الأسلوبية على لفظ (المثل) مفردًا أو مجموعًا، وهذا هو الشائع في صياغته.

وقد يقدر تقديرًا، ويدل عليه حرف العطف، كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

وقد يفهم من السياق، كقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقد توسع الزركشي في تقسيماته للمثل القرآني، فعد كل تشبيه في القرآن كقوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، من قبيل الأمثال، فعنده (الأمثال الصريحة) المعتمدة على لفظ (المثل)، و(الأمثال الكامنة) التي تفهم من السياق من غير تصريح بلفظ (المثل).

والأمثال الواردة في القران الكريم على أنواع، هي: الأمثال الحسية، والأمثال المعنوية، والأمثال الافتراضية العقلية.

وتفصيلها فيما يأتي:

أولًا: الأمثال الحسية:

ضرب الله تعالى في القرآن الكريم الكثير من الأمثال الحسية التي تقرب المراد للعقل وتصوره بصورة المحسوس، يقول البيضاوي: «فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس؛ ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه، فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم؛ لأن من طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة»[1].

وقال أبو السعود: «فإن التمثيل ليس إلا إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهور، وتحلية المعقول بحلية المحسوس، وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأنوس؛ لاستمالة الوهم، واستنزاله عن معارضته للعقل، واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية، وفهم الدقائق الأبية؛ كي يتابعه فيما يقتضيه، ويشايعه إلى ما لا يرتضيه؛ ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية، والكلمات النبوية، وذاعت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء ...، فالتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع سورة الجامح الأبي، كيف لا وهو

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٥٤.

رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازه لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشي في هيئة المألوف»[1].

والمقصود أن في القرآن الكريم آيات كثيرة جاء التمثيل فيها بالأشياء الحسية؛ لإبراز المعاني المعقولة الخفية، وجعلها كالمشاهد المحسوس، ومن ذلك:

ما ضربه الله مثلًا لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ففي هذا الآية ضرب الله مثلًا للمنفق رياءً بالصفوان، وهو شيء حسي، فالصفوان: اسم جنس جمعي، واحده: صفوانة، وهو الحجر الكبير الأملس ...، و(الوابل): المطر الشديد، و(الصلد): هو الشيء الأجرد النقي من التراب الذي كان عليه.

والمعنى: يا أيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل الرياء، لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق في انكشاف أمره، وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحبًا للظهور مثل حجر أملس لا ينبت شيئًا، ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه منتج، فنزل المطر الشديد، فأزال ما عليه من تراب، فانكشفت حقيقته، وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس صلد، لا يصلح لإنبات أي شيء عليه[2].

ومن ذلك: ما ضربه الله مثلًا لحال الدنيا بالماء الذي ينزل من السماء -وهو شيء حسي-، فيختلط به نبات الأرض، فيصبح هشيمًا تذروه الرياح، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

يصور الله تعالى زوال الدنيا ونعيمها، وعدم خلودها كي لا يغتر بها المغترون والمتمسكون بها، بالماء الذي ينزل من السماء فيختلط بنبات الأرض فتنسفه الرياح وتطيره، وهذا مثل على أن الدنيا زائلة، مثلما يزول النبات والمطر وغيرهما من مخلوقات الله في الأرض، مما لا يدع مجالًا للاغترار بشيء يزول بعد حين.

ويشبه هذا المثل قوله تعالى في مثل آخر: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٧٢.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٦٠٨.

مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

ما ضربه الله مثلًا لحال المؤمنين وتشبههم بالزرع -وهو شيء حسي- الذي يعجب الزراع؛ ليغيظ بهم الكفار، فقال: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهذا المثل المضروب لهم، يهدف إلى الثناء عليهم ومدحهم، فكان التركيز فيه على صفاتهم الحسية والمعنوية، من صفات العبادة، والسجود البارزة في قسمات الوجه والنواصي، وصفات الخير المجسدة في سلوكهم وأفعالهم، ثم جاء مثلهم في الإنجيل معتمدًا على تشبيههم بالزرع النامي الملتف؛ لإبراز التفافهم حول الرسول صلى الله عليه وسلم، ومؤازرتهم له حتى قوي الإسلام، واشتد عوده، وتكاثرت الأمة، ونمت في كيانٍ موحد، كالزرع الذي أخرج شطأه فنمت أعواده الصغيرة على جانبيه، فتكاثرت وتآزرت حتى قوي الزرع، واستوى قائمًا شديدًا، وصورة هذا الزرع في مراحل نموه تشبه صورة المؤمنين، ومراحل نموهم من الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة حتى قوي وجوده واشتد متحديًا العواصف والرياح، وهذا الوجود يعجب الزراع الذين أسهموا في نموه وحراسته، ويغيظ الكفار الذين لا يريدون للإسلام هذا الوجود القوي[1].

وبعد بناء صورة هذا المثل، واستعراض عناصره، واستحضار صورة الممثل له في الذهن، جاء التعقيب بقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

فكأن هذا التعقيب بيانٌ للغرض من التمثيل، وهذه هي الطريقة الأسلوبية المتبعة في الأمثال القرآنية، فبعد تصوير المثل بشكل تفصيلي، يعود التعبير من جديد إلى الممثل له ويتابع الكلام عنه.

ما ضربه الله من مثل حسي لحال اليهود الذين كلفوا العمل بالتوراة ثم لم يعملوا بها، كشبه الحمار الذي يحمل كتبًا لا يدري ما فيها، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

فضرب الله لهؤلاء مثلًا بحال حمار يحمل أسفارًا لا حظ له منها إلا الحمل دون علم ولا فهم؛ ذلك أن علماء اليهود أدخلوا في التوراة ما صيرها مخلوطًا بأخطاء وضلالات، ومتبعًا فيه هوى نفوسهم، وما لا يعدو نفعهم الدنيوي، ولم يتخلقوا بما تحتوي عليه من الهدى والدعاء إلى تزكية النفس، وقد كتموا ما في كتبهم من العهد

(١) البنية الأسلوبية للأمثال القرآنية، عبدالسلام الراغب ص٧.

باتباع النبي الذي يأتي لتخليصهم من ربقة الضلال، فهذا وجه ارتباط هذه الآية بالآيات التي قبلها، وبذلك كانت هي كالتتمة لما قبلها. قال في الكشاف عن بعضهم: «افتخر اليهود بأنهم أهل كتاب، والعرب لا كتاب لهم، فأبطل الله ذلك بشبههم بالحمار يحمل أسفارًا»[1].

«وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف؛ ولذلك ذيل بذم حالهم: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥].

و(بئس) فعل ذم، أي: ساء حال الذين كذبوا بكتاب الله، فهم قد ضموا إلى جهلهم بمعاني التوراة تكذيبًا بآيات الله، وهي القرآن»[2].

ثانيًا: الأمثال المعنوية:

الأمثال المعنوية هي الأمثال التي تتعلق بالأمور المعنوية، أو الغيبية، ومن أمثلتها:

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

يمثل الله ضيق الصدر -وهو أمر معنوي- الذي يصيب الكفار حينما يدعون إلى الإسلام بضيق الصدر الذي يحصل للمتسلق إلى الأعلى في الجبال؛ إذ تتناقص كمية الأكسجين اللازمة والكافية للتنفس، فضيق صدر المتسلق يكاد يخنقه، كذلك الكافر الذي تحجزه أهواؤه وبدعه وكفره عن انشراح صدره.

ومن الأمثال المعنوية قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالمثل في هذه الآية معنوي، وفيه تمثيل حال من أسلم وتخلص من الشرك بحال من كان ميتًا فأحيي، وتمثيل حال من هو باقٍ في الشرك بحال ميت باقٍ في قبره، ولقد جاء التشبيه بديعًا؛ إذ جعل حال المسلم بعد أن صار إلى الإسلام بحال من كان عديم الخير عديم الإفادة كالميت، فإن الشرك يحول دون التمييز بين الحق والباطل، ويصرف صاحبه عن السعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف؟ فإذا هداه الله إلى الإسلام تغير حاله، فصار يميز بين الحق والباطل، ويعلم الصالح من الفاسد، فصار كالحي، وصار يسعى إلى ما فيه الصلاح، ويتنكب عن سبيل الفساد، فصار في نور يمشي به في الناس، وقد تبين بهذا التمثيل تفضيل أهل استقامة

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٧/ ٥٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢١٤.

العقول على أضدادهم[1].

ومن الأمثال المعنوية أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فالشرك بالله أمر معنوي، والمشرك عندما يقترف شركه يسقط من المرتبة العالية التي وضعها الله للمؤمنين، فيعيش هذا المشرك في اضطراب وقلق وعدم طمأنينة، فيمثل الله لهذه الحالة بمن يخر من السماء فتخطفه الطير، وهو تصوير لحالة التمزق النفسي الذي يعتري المشرك، الذي هو أشبه بحال من يقع من السماء، فتخطفه الطير، أو تهوي الريح به في مكان سحيق، وهي كناية عن أن المؤمن يرفعه إيمانه إلى المكانة العالية في الجنة، بدل قعر جهنم السحيق المعد للكافرين.

والمقصود أن القرآن قد يستخدم بعض العناصر غير الحسية التي لا توجد في بيئة الإنسان المخاطب أو الممثلات المعنوية المعروفة لدى الناس، لكنها لا تدرك بالحواس الخمس، وإنما بالشعور والوجدان، وهي في القرآن قليلة جدًا، ومنها ضرب المثل بالشيطان أو بصفاته، وقد تقرر في عقل كل إنسان بشاعة الشيطان ومظهره وصفاته؛ لذا فضرب المثل به، وإن كان لا يدرك بالحواس إلا أنه مما يمكن تخيل بشاعته، وهذا هو المراد، كما قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤ – ٦٥].

وكقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٧].

ثالثًا: الأمثال الافتراضية:

ضرب الله العديد من الأمثلة الافتراضية -التقديرية- التي لم تقع، وإنما هي أمثلة افتراضية؛ لقصد التوضيح والتقريب، والغرض منها تقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس؛ ليحصل بها التذكر والاتعاظ.

ومن هذه الأمثال الافتراضية:

١. ما ضربه الله مثلًا للمشرك والموحد.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

حيث ضرب الله هذا المثل الافتراضي؛ لبيان حال من يشرك بالله ومن يوحده، فشبه المشرك بمملوك بين جماعة من الشركاء،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٤٥.

يتنازعون فيه، والمملوك بينهم في أسوأ حال، وشبه من يوحد الله بمملوك لرجل واحد[1].

و(الشكس): السيئ الخلق، يقال: شركاء متشاكسون، أي: متشاجرون لشكاسة خلقهم، و(سلمًا) أي: خالصًا لا يملكه إلا شخص واحد ولا يخدم إلا إياه، وهذه الآية تمثل حالة الكافر والمؤمن، فهناك مشبه ومشبه به، أما المشبه به فهو عبارة عن عبد مملوك له شركاء سيئو الخلق، متنازعون فيه، فواحد يأمره، وآخر ينهاه، وكل يريد أن يتفرد بخدمته، في مقابل عبد مملوك لرجل يطيعه ويخدمه، ولا يشرك في خدمته شخصًا آخر، فهذان المملوكان لا يستويان.

وأما المشبه فحال الكافر هو حال المملوك الذي فيه شركاء متشاكسون، فهو يعبد آلهة مختلفة لكلٍ أمره ونهيه وخدمته، ولا يمكن الجمع بين الآراء والأهواء المختلفة بخلاف المؤمن، فإنه يأتمر بأمر الخالق الحكيم القادر الكريم.

وهذا المثل وإن كان مثلًا واضحًا مفهومًا لعامة الناس، ولكن له معنى لا يقف عليه إلا أهل التدبر في القرآن، فهو سبحانه بصدد البرهنة على توحيده الذي أشار إليه في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٤٦٨.

وقال سبحانه: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

والمراد من المثل: تصوير استراحة الموحد وانجماعه على معبوده، وتعب المشرك وتشتيت باله، وخصوصًا مع فرض التعاكس من الشركاء، فيصير متحيرًا، وفي عنتٍ كبير من الجمع بين أغراضهم، بل ربما يتعذر ذلك ويستحيل للتضاد في الأغراض والتناقض، مع فرض التخالف والتنازع بينهم، واعتبر ذلك بحال الوالدين، إذا اختلفا على الولد فإنه يعسر إرضاؤهما إلا بمشقة واحتيال، وكذلك عابد الأوثان فإنه معذب الفكر بها، وبحراسة حاله منها، ومتى توهم أنه أرضى واحدًا في زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبدًا في تعب وضلال، وكذلك هو المصانع للناس، الممتحن بخدمة الملوك[2].

وجعل الممثل به حالة رجل ليس للاحتراز عن امرأة أو طفل، ولكن لأن الرجل هو الذي يسبق إلى أذهان الناس في المخاطبات والحكايات؛ ولأن ما يراد من الرجال من الأعمال أكثر مما يراد من المرأة والصبي؛ ولأن الرجل أشد شعورًا بما هو فيه من الدعة أو الكد، وأما المرأة والصبي فقد يغفلان ويلهيان[3].

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٣١٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٤٠١.

ويتضح من هذا حال المشرك في تقسم عقله بين آلهة كثيرين، فهو في حيرة وشك من رضا بعضهم عنه، وغضب بعض، وفي تردد عبادته إن أرضى بها أحد آلهته لعله يغضب بها ضده، فرغباتهم مختلفة، وبعض القبائل أولى ببعض الأصنام من بعض، ويقابله تمثيل حال المسلم الموحد يقوم بما كلفه ربه، عارفًا بمرضاته، مؤملًا رضاه وجزاءه، مستقر البال بحال العبد المملوك الخالص لمالك واحد، قد عرف مراد مولاه، وعلم ما أوجبه عليه، ففهمه واحد، وقلبه مجتمع، وكذلك الحال في كل متبع حق ومتبع باطل، فإن الحق هو الموافق لما في الوجود والواقع والباطل، مخالف لما في الواقع فمتبع الحق لا يعترضه ما يشوش عليه باله، ولا ما يثقل عليه أعماله، ومتبع الباطل يتعثر به في مزالق الخطى، ويتخبط في أعماله بين تناقص وخطأ[1].

وهذا يعد من أبلغ الأمثال، فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه، وقيامه بمصالحه، ما يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين[2].

٢. ما ضربه الله مثلًا له سبحانه ولمن يعبد من دونه.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

ففي هذه الآية ضرب الله تعالى مثلين افتراضيين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك، أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئًا، والثاني: حرٌّ غنيٌّ، قد رزقه الله منه رزقًا حسنًا، من جميع أصناف المال، وهو كريم، محب للإحسان، فهو ينفق منه سرًا وجهرًا، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان غير محال استواؤهما، فإذا كانا لا يستويان فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء؟![3].

فيكون المثل في الآية: مضروبًا لله سبحانه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده سرًا وجهرًا، وليلًا ونهارًا، يمينه ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة

(١) المصدر السابق ٢٣/ ٤٠٢.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم ٢/ ١١٠.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٤.

عاجزة، لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لي، ويعبدونها من دوني، مع هذا التفاوت العظيم، والفرق المبين.

وقيل: هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده، ثم رزقه منه رزقًا حسنًا، فهو ينفق منه على نفسه، وعلى غيره سرًا وجهرًا، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء؛ لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء؟!

والقول الأول أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسبًا بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣ – ٧٤].

ثم قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٧٥].

ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقًا حسنًا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا ما نبه عليه المثل، وأرشد إليه، فذكره ابن عباس منبهًا على إرادته، لا أن الآية اختصت به فتأمله، فإنك تجده كثيرًا في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره، فيحكيه قولًا[1].

ووصف ﴿عَبْدًا﴾ هنا بقوله: ﴿مَّمْلُوكًا﴾ تأكيد للمعنى المقصود، وإشعارًا لما في لفظ عبد من معنى المملوكية المقتضية أنه لا يتصرف في عمله تصرف الحرية، وجملة: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ صفة ﴿عَبْدًا﴾ أي: عاجزًا عن كل ما يقدر عليه الناس، كأن يكون أعمى وزمنًا وأصم، بحيث يكون أقل العبيد فائدة[2].

والثاني وصف بالرزق الحسن، فهو ينفق منه سرًا وجهرًا، أي: كيف شاء، وهذا من تصرفات الأحرار؛ لأن العبيد لا يملكون رزقًا في عرف العرب.

﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ حالان من ضمير ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وهما مصدران مؤولان بالصفة، أي: مسرًا وجاهرًا بإنفاقه، والمقصود من ذكرهما تعميم الإنفاق كناية عن استقلال التصرف، وعدم الوقاية من مانع إياه عن الإنفاق، وهذا مثل لغنى الله تعالى وجوده على الناس، وجملة ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ بيان لجملة ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ فبين غرض التشبيه بأن المثل مراد منه عدم تساوي الحالتين؛ ليستدل به على عدم مساواة أصحاب الحالة الأولى لصاحب

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ٢/ ١٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٢٤.

الصفة المشبهة بالحالة الثانية، والاستفهام مستعمل في الإنكار، والمقصود من هذه الجملة أنه تبين من المثل اختصاص الله بالإنعام، فوجب أن يختص بالشكر، وأن أصنامهم لا تستحق أن تشكر[1].

ثم ضرب مثلًا آخر لنفسه الكريمة والأصنام، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

وهذا مثال افتراضي ضربه الله تعالى لإبطال المشاركة بينه وبين الأصنام، وقيل: للكافر والمؤمن، والأصوب: كون المثلين معًا في الله مع الأصنام؛ لتكون الآية من معنى ما قبلها، وما بعدها في تبيين أمر الله، والرد على أمر الأصنام، كذا قال ابن عجيبة[2]. وتقريره: أنه لما تقرر في العقول أن الأبكم العاجز لا يساوي في الفضل والشرف الناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية، فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساويًا لرب العالمين في المعبودية أولى[3].

فالأصنام التي لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل هي كلٌّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه، فكيف يسوونه في العادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد، وهو قادر متكلم غني، وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، فقوله صدق ورشد ونصح وهدًى، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة، هذا أصح الأقوال في الآية، وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره، ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي، فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية.

وقيل: إن المثل مضروب لمعبود الكفار، ومعبود الأبرار، والقولان متلازمان، فبعضهم ذكر هذا، وبعضهم ذكر هذا، وكلاهما مراد من الآية، وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر[4].

وقد قرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداء، ثم فصل في آخر الكلام، مع ذكر عدم التسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز؛ إذ حذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني؛ للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية تفننًا في المخالفة بين أسلوب هذا التمثيل وأسلوب سابقه الذي في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥].

ومثل هذا التفنن من مقاصد البلغاء كراهية التكرير؛ لأن تكرير الأسلوب بمنزلة

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٥.
(٢) انظر: البحر المديد ٣/ ٢٨٦.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٦٨.
(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ١٦.

تكرير الألفاظ[1].

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا مثلين واضحين؛ لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله تعالى الخلاق العليم، الرزاق الكريم، وبين تلك المعبودات الباطلة التي أشركها الضالون في العبادة مع الله عز وجل.

والمقصود من قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] أن الرب سبحانه على صراط مستقيم، وذلك بمنزلة قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران: ١٨].

فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيمًا، ومن كان قوله وعمله مستقيمًا كان قائمًا بالقسط[2].

ومن الأمثال القرآنية ما هو مختلف فيها هل هي حقيقية أم افتراضية؟

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢].

يقول الشيخ ابن عثيمين في تفسير قصة (صاحب الجنتين) في سورة الكهف: «إن هذا المثل الذي ضربه الله في هذه الآيات هل هو مثل حقيقي أو تقديري؟ يعني هل هذا الشيء واقع أو إنه شيء مقدر؟ والجواب: من العلماء من قال: إنه مثل تقديري، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

وكقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

وما شابه ذلك، فيكون هذا مثلًا تقديريًا وليس واقعيًا، ولكن السياق وما فيه من المحاورة والأخذ والرد يدل على أنه مثل حقيقي واقع، فهما رجلان أحدهما أنعم الله عليه، والثاني لم يكن مثله»[3].

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٧.
(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية التفسير ٢/ ٤٩٥.
(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٦/ ٦٠.

ميادين ضرب الأمثال

تنوعت ميادين ضرب الأمثال في القرآن والتي منها: مجال العقيدة، ومجال الأعمال، ومجال الأخلاق، وهذا ما سنبينه فيما يأتي:

أولًا: ميدان العقيدة:

من المجالات المهمة التي تناولتها الأمثال القرآنية مجال العقيدة؛ فقد كانت أمور العقيدة والإيمان والغيبيات التي مثل الله لها في القرآن صعبة الإدراك على الجاهليين، بل كان كثير من المسلمين الأوائل يستصعبون إدراك تلك العقائد؛ لانغماس معظمهم -قبل إسلامهم- في عبادات مادية محسوسة، تمثلت في عبادة الأصنام والأوثان من صخور وخشب وغيرها مما يدركونه بحواسهم؛ فلذلك كانوا بحاجة إلى أمثال تبين لهم المعتقدات البعيدة عن حيز إدراكهم الحسي، كالإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر ونعيم الجنة وعذاب النار؛ لذا كانت أغلب الأمثال القرآنية في العقائد والغيبيات، فالأمثال تلعب دورًا مهمًا في تحويل الغيبيات إلى مشاهد حاضرة أمام العيان، حتى لا يشرد الخيال بعيدًا في إدراك الحقائق كما هي، وكما يقال: بالمثال يتضح المقال، ومعلوم أن كلام الله واضح، ولكن سياق المثل يستثير في الإنسان نوعًا من التفكر وتدبر العبرة والعظة؛ لتغيير المسار الخاطئ، والاتجاه إلى الطريق الصحيح، وهذا كثير في القرآن الكريم.

وأبرز الأمثلة على ضرب الأمثال في العقيدة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

هذا مثل ضربه الله لكلمة (الإيمان) وهي: شهادة أن لا إله إلا الله، فمثلها بالشجرة الطيبة، والشجرة الطيبة المقصود بها (المؤمن). . .، فإنه كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء[1].

فشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي: شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة. . .، والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًا، التي لا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩١.

تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللًا، غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلًا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلامًا كثيرًا طيبًا يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب.

كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠][1].

ومثل الله الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

فهذا مثل كفر الكافر، فإنه لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: الشريان[2].

والكلمة الخبيثة هي الكلمة التي تنبعث من خبث النفس أو ضلال الفكر والمعتقد، فهي على نقيض الكلمة الطيبة؛ لأنها لا تنبعث من إخلاص لله ولرسوله، ولا تكون طيبة في واقعها، ولا في نتائجها، وما يترتب عليها، وأوضحها الكذب. والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض، أي: أنها ليس لها جذور ممتدة في باطن الأرض، بل هي على السطح، كبعض أنواع النباتات، التي ليس لها جذر تغوص في أعماق الأرض.

ولهذا قال: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] أي: استقرار وثبات في باطن الأرض.

ومما يدخل في الكلمة الخبيثة دخولًا أوليًا كلمة الشرك والضلال، وكل ما يؤذي الناس في عقيدتهم الصحيحة، وفي شريعة العدل، وفي حياتهم الطيبة، فهي كشجرة

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٥٠٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩٣.

خبيثة لا قرار لها ولا ثمار ولا ظلال ولا أغصان، سوى الشوك الذي يؤذي؛ ولذلك فهي سهلة الاجتثاث مثل الشرك والكفر والضلال، لا يثبت، ولا يستمر، ولا يستند إلى الحق، يتهاوى في أي لحظة، ولم يتوهم المشركون والضالون أنهم أقوياء، بينما كلمة التوحيد تخاطب العقل السليم، والنفس اليقظة، والوجدان الواعي، فلا يستطيع أحد مهما أوتي من قوة وسلطان أن يحرفها؛ لأنها الحق من عند الله.

والمؤدى من هذا التشبيه أن الكلمة الخبيثة لا تدوم في الوجود، بل إنها تنتهي بانتهاء زمانها، كالسعاية والنميمة والكذب والخديعة والغيبة، ليس لها وجود إلا بمقدار زمانها، وقد تضر، لكن عاقبتها وخيمة، وطعامها موبئ، ولا تبقى إلا الكلمة الطيبة، وما يكون لله، وللحق وحده[1].

وختم الله هذا المثل بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

أي: الأمور المتشابهة بين بعضها البعض، فيبين المعنوي بالحسي حتى يصير كأنه محسوس مرئي، ويبين الله سبحانه وتعالى ذلك البيان عسى أن يتذكروا ويعتبروا.

والمقصود أن الكلمة الطيبة هي التوحيد وهو كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت، والكلمة السيئة هي الشرك، والأعمال السيئة ثمارها.

ومن ضرب المثل القرآني في مجال العقيدة: أن الله تعالى ضرب مثلًا لنوره في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [: ٣٥].

والضمير في قوله: ﴿نُورِهِ﴾ عائد إلى اسم الجلالة، أي: مثل نور الله، أو الدين الذي اختاره، أي: مثله في إنارة عقول المهتدين، فالكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذي حفت به وسائل قوة الإشراق، وإنما أوثر تشبيهه بالمصباح الموصوف بما معه من الصفات دون أن يشبه نوره بطلوع الشمس بعد ظلمة الليل؛ لقصد إكمال مشابهة الهيئة المشبه بها بأنها حالة ظهور نور يبدو في خلال ظلمة، فتنقشع به تلك الظلمة في مساحة يراد تنويرها، ودون أن يشبه بهيئة بزوغ القمر في خلال ظلمة الأفق؛ لقصد إكمال المشابهة؛ لأن القمر يبدو ويغيب في بعض الليلة بخلاف المصباح الموصوف، وبعد هذا فلأن المقصود ذكر ما حف بالمصباح من

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٠٢٠.

الأدوات؛ ليتسنى كمال التمثيل بقبوله تفريق التشبيهات وذلك لا يتأتى في القمر.

وقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[: ٣٥].

المقصود: كمصباح في مشكاة، وإنما قدم (المشكاة) في الذكر؛ لأن المشبه به هو مجموع الهيئة؛ فاللفظ الدال على المشبه به هو مجموع المركب المبتدئ بقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ والمنتهي بقوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[: ٣٥].

فلذلك كان دخول كاف الشبه على كلمة (مشكاة) دون لفظ (مصباح) لا يقتضي أصالة لفظ (مشكاة) في الهيئة المشبه بها دون لفظ (مصباح) بل موجب هذا الترتيب مراعاة الترتيب الذهني، في تصور هذه الهيئة لمتخيله حين يلمح الناظر إلى انبثاق ، ثم ينظر إلى مصدره، فيرى مشكاة، ثم يبدو له مصباح في زجاجة[1].

والمشكاة هي الكوة غير النافذة تكون في الحائط، ويكون المصباح فيها شديد الإضاءة، وقيل: المشكاة العمود الذي يكون المصباح على رأسه، والأول أصح وأشهر، والمعنى صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة -وإن كان نور الله أعظم-؛ لأن ذلك غاية ما يدركه الناس من الأنوار، فضرب المثل لهم بما يصلون إلى إدراكه[2].

وقوله: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾[: ٣٥].

المعنى أنه في قنديل من زجاج؛ لأن الضوء فيه أزهر؛ لأنه جسم شفاف، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [: ٣٥].

شبه الزجاجة في إنارتها بكوكب دري؛ وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنها تضيء بالمصباح الذي فيها، وإما أن يريد أنها في نفسها شديدة الضوء؛ لصفائها ورقة جوهرها، وهذا أبلغ لاجتماع نورها مع نور المصباح.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [: ٣٥] المعنى: توقد من زيت شجرة مباركة، ووصفها بالبركة؛ لكثرة منافعها، أو لأنها تنبت في الأرض المباركة وهي الشام، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [: ٣٥].

قيل: يعني أنها بالشام، فليست من شرق الأرض ولا من غربها، وأجود الزيتون زيتون الشام، أو يكون المراد أنها منكشفة تصيبها الشمس طول النهار، فليست خالصة للشرق، فتسمى شرقية، ولا للغرب فتسمى غربية، بل هي غربية شرقية؛ لأن الشمس تستدير عليها من الشرق والغرب، أو المراد: أنها في وسط دوحة لا في جهة الشرق من الدوحة ولا في جهة الغرب، أو أنها من شجرة الجنة، ولو كانت في الدنيا لكانت

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٣٥.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٦٣.

شرقية أو غربية.

وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[: ٣٥].

مبالغة في وصف صفاته وحسنه ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[: ٣٥].

يعني: اجتماع نور المصباح وحسن الزجاجة وطيب الزيت، والمراد بذلك كمال الممثل به، وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾[: ٣٥].

أي: يوفق الله من يشاء لإصابة الحق[(١)].

ومن ضرب الأمثلة القرآنية في مجال العقيدة: أن الله تعالى ضرب ببيت العنكبوت مثلًا لضعف آلهة الكفار ووهنها، وهو من أحسن الأمثال، وأدلها على بطلان الشرك، وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فهذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتقوي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا يقيها من الحر والبرد والآفات ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾: أضعفها وأوهاها ﴿لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾، فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفًا إلى ضعفهم، ووهنًا إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوها عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل، فلو كانوا يعلمون -حقيقة العلم- حالهم، وحال من اتخذوهم لم يتخذوهم، ولتبرءوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه كفاه مئونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله[(٢)].

ومن أبلغ الأمثال التي تبين أن المشرك قد تشتت شمله واحتار في أمره: ما بينه تعالى بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذا مثل ضربه الله تعالى للمشرك والموحد، فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٦٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣١.

شبه بعبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون، سيئة أخلاقهم، يتنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، فهو في عذاب.

والموحد لما كان يعبد الله وحده لا شريك له فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه واختلافهم، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتوليه لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ والجواب: كلا، لا يستويان أبدًا[1].

والمقصود أن الله تعالى يضرب الأمثال في كتابه من أجل بيان التوحيد، أو من أجل بيان أعداء التوحيد، كما قال الله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فالله جعل حالة هاتين المرأتين عظة، وتنبيهًا للذين كفروا، أي: ليذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف، فلا يحسبون أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بيته، وعمارة مسجده، وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين[2].

أو يضرب الأمثال في كتابه في الذين ثبتوا على مبدأ التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

فلما ضرب المثل للذين كفروا أعقب بضرب مثل للذين آمنوا؛ لتحصل المقابلة، فيتضح مقصود المثلين معًا، وجريًا على عادة القرآن في إتباع الترهيب بالترغيب، وجعل المثل للذين آمنوا بحال امرأتين لتحصل المقابلة للمثلين السابقين، فهذا مراعاة النظير في المثلين، وجاء أحد المثلين للذين آمنوا لإخلاص الإيمان، والمثل الثاني لشدة التقوى، فكانت امرأة فرعون مثلًا لمتانة المؤمنين، ومريم مثلًا للقانتين؛ لأن المؤمنين تبرءوا من ذوي قرابتهم الذين

(١) انظر: نور التوحيد وظلمات الشرك، سعيد القحطاني ص١٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٤.

بقوا على الكفر بمكة[1].

ومن ضرب الأمثال في ميدان العقيدة:

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ۖ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وهي أمثال غاية في البلاغة والتأثير، وغاية فيما تحويه من نهاية في العظة والعبرة، ونهايةٍ في البلاغة، وإيجاز اللفظ، وحسن التشبيه، وقوة الكناية.

ثانيًا: ميدان الأعمال:

ومن المجالات المهمة التي تناولتها الأمثال القرآنية مجال الأعمال؛ أعمال المؤمنين، وأعمال الكافرين.

فكثرت الأمثال التي توضح بطلان أعمال الكافرين، وتجسم أعمالهم بالرماد المتجمع بعضه فوق بعض، ثم تذروه الرياح، فتتناثر ذراته في كل اتجاه.

يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

فيصور الله في هذا المثل أعمال الكفار في مقاومة رسل الله، ومحاربة دينه، بالرماد المتجمع في مكان ما، لكن لا تماسك بين ذراته، وهو خفيف جدًا، فاشتدت به الريح في يوم عاصف، فنسفت ذلك الرماد، وبددته في كل مكان، حتى لم يعد له وجود حقيقي، كذلك أعمال الكافرين في مواجهة الرسول، وأولياء الله، فهي كالرماد متفرقة مشتتة في كل مكان، ويوم القيامة يجعل تلك الأعمال هباء منثورًا، وهي كناية عن أن أعمال الكافرين لا تقوى على مقاومة قدرة

(١) انظر: المصدر السابق.

الله وقوته.

وفي مثلٍ آخر يتخذ من (الريح) أيضًا أداة التدمير، كما كانت في المثل السابق أداة البعثرة للرماد، ونثره في كل مكان، فيقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

فيصور الله لنا أعمال أهل الكفر التي يظنون أنها تفيدهم بأنها مثل السراب في صحراء قاحلة، تظهر من بعيد للظمآن ماء، لكنه إذا اقترب منه لم يجده شيئًا، فينخدع من بعيد، وعند الحاجة تنكشف له الحقيقة، بأنه مجرد سراب لا يسمن ولا يغني من جوع، كذلك الكفار يظنون أن أعمالهم في الدنيا تغنيهم شيئًا يوم القيامة، لكن هذا الزعم الخادع ينكشف لهم يوم القيامة.

فالمثلان مترابطان في بيان ضياع أعمال الكافرين، والتركيز فيهما على أعمالهم لا على ذواتهم، كما يلاحظ اتحاد المثلين في الإفناء والضياع.

ولكن القرآن الكريم يركز في مثلٍ آخر على شخصية الكافر وآماله بما يتناسب مع السياق، مع تغييرٍ في البنية الأسلوبية، ففي المثلين السابقين كان التركيز على الرماد والزروع والنبات والرياح، وفي المثل الآتي يتم التركيز على بنية أسلوبية جديدة، مادتها الماء والسراب والظلام، فيقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [: ٣٩ – ٤٠].

فالمثل هنا يجمع بين الأعمال وأصحابها في الضياع؛ إذ نلحظ التركيز أيضًا على شخصية الكافر في المثل المعروض إلى جانب أعماله، فأعماله سراب خادع، وهو ظمآنٌ يظنه ماء، فيجري وراء ظنه، فيكتشف حقيقة السراب الخادع، وجاء التعقيب هذه المرة بقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾[: ٣٩].

لإبراز الغرض الديني من تصوير المثل؛ ولبيان تلك الحياة التي عاشها الكافر في وهم وظنون وخداع، حتى جاء اليوم الموعود في الحساب والجزاء.

ثم عقب على هذا المثل بمثل آخر زيادةً في الإيضاح والتنويع في البنى الأسلوبية، ففي المثل الثاني يركز على الصحراء وما يتراءى فيها من سراب خادع، والمثل الثاني يركز على ظلمات البحر تتلاطم أمواجه، وتغطيه السحب الكثيفة، كما تغطيه ظلمات الليل، فتنعدم الرؤية البصرية في هذه

الظلمات المركبة المتراكمة، ويبرز التقابل في المثلين بين عناصر التعبير والتصوير؛ لاستيفاء تفصيلات المعاني الدينية المطلوبة، فالسراب في المثل الأول يوحي بالأوهام والخراب، والكافر يجري وراء السراب والأوهام، والظلمات المتراكمة من البحر والسحاب وظلمات الليل توحي بانعدام الرؤية، والكفر ظلمات يحجب ما أنفقته يد الخير فلا تفيد صاحبها شيئًا.

ويأتي التعقيب متناسقًا مع جو الليل والظلمات: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [: ٤٠].

ويبرز نور الله من خلال ذلك هو الوحيد الذي ينير للإنسان طريقه في ظلمات الحياة المتراكمة.

وفي الجانب الآخر يضرب الله تعالى الأمثال لأعمال المؤمنين الصالحة، فيقول: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

فشبه سبحانه إنفاق المنفق في سبيله سواء كان المراد به الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر بمن بذر بذرًا فأنبتت كل حبة سبع سنابل، اشتملت كل سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع، ولا متبعه نفسه، ترجف يده وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه، وبحسب طيب المنفق ونيته[1].

ونظير المثل السابق قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وتحت هذا المثل من الفقه أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره يبذر ماله في أرض زكية، فمغله[2] بحسب بذره، وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدغل والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة جاء أمثال الجبال،

(١) التفسير القيم، ابن القيم: ١٥٢.
(٢) الغلة والمغل: الدخل، من كراء دار، وأجر غلام، وفائدة أرض، وأغلت الضيعة: أعطت الغلة.
انظر: المحكم، ابن سيده ٢/ ٣٨٩.

وكان مثله كمثل جنة بربوة، وهي المكان فيه نصب الشمس والرياح، فتربى الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع فرواها ونماها، فآتت أكلها ضعفي ما تؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، وإن لم يصبها وابل فطل، والطل: مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها تزكو على الطل، وتنمى عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل، فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا، ومنهم من يكون إنفاقه طلًا، والله لا يضيع مثقال ذرة[1].

ثالثًا: ميدان الأخلاق:

جاءت الأمثال القرآنية ترغب في كثير من الأخلاق والسلوكيات الحسنة، وتحذر من غيرها، مستعينة بالترغيب والترهيب والإقناع العقلي.

ففي جانب الأخلاق الحسنة، قال تعالى -وهو يشبه حال المخلص في النفقة في سبيل الله-: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والربوة: هي التل المرتفع، والطل: المطر الخفيف، فشبه سبحانه في التمثيل السابق عمل المنفق لمرضاة الله تبارك وتعالى بجنة خضراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة، تستقبل النسيم الطلق، والمطر الكثير النافع، وقيد المشبه به ببستان مرتفع عن الأرض؛ لأن تأثير الشمس والهواء فيه أكمل، فيكون أحسن منظرًا، وأزكى ثمرًا، أما الأماكن المنخفضة التي لا تصيبها الشمس في الغالب إلا قليلًا فلا تكون كذلك.

ووجه التمثيل في هذا المثل أن المنفق ابتغاء مرضاة الله هو في إخلاصه وسخاء نفسه وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر، العظيمة الخصب في كثرة بره وحسنه، فهو يجود بقدر سعته، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع في الإنفاق على ذوي الحاجات، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدره، فخيره دائم، وبره لا ينقطع؛ لأن الباعث عليه ذاتي لا عرضي كأهل الرياء، وأصحاب المن والإيذاء، فـ(الوابل) و(الطل) على هذا عبارة عن سعة الرزق، وما دون السعة.

ولك أن تقول: إن وجه التمثيل هنا أن النية الصالحة في الإنفاق كالوابل للجنة، فبها تكون النفقة نافعة للناس؛ لأن أصحابها يتحرون مواضعها، فيضعون نفقتهم موضع الحاجة، لا يبذرون بغير روية، وأن أمثال هؤلاء المخلصين لا يخيب قاصدهم؛ لأن

(١) الأمثال في القرآن الكريم، ابن القيم ص٥١.

رحمة قلوبهم لا يغور معينها، فإن لم تصبه بوابل من عطائها لم يفته طله، فهم كالجنة التي لا يخشى عليها اليبس والزوال.

وهذا التمثيل يفيد أن إنفاق المؤمن قد يكون إنفاقًا كثيرًا مثل المطر الغزير، وقد يكون إنفاقًا قليلًا مثل المطر القليل، وفي كلٍ خير، وهو يعبر عن اهتمام المؤمن بغيره، والعمل على النهوض بأمته قدر استطاعته، وبحسب إمكاناته.

وضرب الله تعالى مثلًا في الإنجيل لعباده المؤمنين أنهم كالزرع، يظهر في أول أمره رقيقًا ضعيفًا متفرقًا، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد، وتعجب جودته أصحاب الزراعة العارفين بها؛ فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا في أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

فبعد أن ذكر الله وصفهم في التوارة ذكر مثلهم في الإنجيل، فهم موصوفون فيه بوصف آخر، فهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: أخرج فراخه، فوازرته فراخه في الشباب والاستواء، ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ ذلك الزرع، أي: قوي وغلظ ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: جمع ساق، ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ من كماله واستوائه وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق، واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق وآزره وعاونه على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه فآزره فاستغلظ؛ ولهذا قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون معهم في معارك النزال ومعامع القتال[1].

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة، فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ ولقطة تصور قلوبهم، وما يشغلها ويجيش بها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٥.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ وهذه صفتهم فيها، ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل[1].

وفي جانب الأخلاق السيئة:

ضرب الله مثلًا لحال المنفق رياءً حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فقد مثل حال المرائي في إنفاقه بحال الحجر الأملس يكون عليه تراب، فيصيبه مطر غزير، فيذهب بما عليه من تراب، فأعمال المرائي مثل التراب الذي كان على الحجر، فإنها تذهب هباء، ولا يجد لها ثوابًا، وفي هذا المثل تقرير لخيبة المرائي على وجه أبلغ ما يكون.

ومن ذلك تشبيه المنتكس بالكلب في كثرة مساوئه:

حيث ضرب الله مثلًا لحال العالم المنحط في أهوائه بحال الكلب الذي هو أخبث الحيوانات وأخسها نفسًا؛ ذلك أن المنحط في أهوائه شديد اللهف على الدنيا، قليل الصبر عنها، فلهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]. وهذه الآيات وإن نزلت بسبب رجل من بني إسرائيل[2] إلا أنه كما يقول المحققون من أهل العلم: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرنا ويقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أخبر أمتك يا محمد! بنبأ ذلك الرجل الذي آتيناه آياتنا؛ آتيناه العلم، وآتيناه الآيات والدلالات الواضحات على عظمة الله، فبدل أن يعمل بها ويستمر عليها، انسلخ منها، والانسلاخ عن الشيء هو: تركه مع عدم الرغبة في العودة إليه، أي: انسلخ منها كما تنسلخ الحية من جلدها، والمراد أنه خرج منه بالكلية، بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره، ولم ينتفع بما اشتملت عليه من عظات وإرشادات، وحقيقة السلخ: كشط

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٤٨٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٠٩.

الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيء فارق شيئًا على أتم وجه: انسلخ منه، وفى التعبير به ما لا يخفى من المبالغة[1].

فالانسلاخ حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه جلده، والسلخ: إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده، واستعير في الآية للانفصال المعنوي، وهو ترك التلبس بالشيء، أو عدم العمل به، ومعنى الانسلاخ عن الآيات الإقلاع عن العمل بما تقتضيه؛ وذلك أن الآيات أعلمته بفساد دين الجاهلية[2].

وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

أي: فلحقه الشيطان وأدركه فصار هذا الإنسان بسبب ذلك من زمرة الضالين الراسخين في الغواية، مع أنه قبل ذلك كان من المهتدين، وفى التعبير بقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ مبالغة في ذم هذا الإنسان وتحقيره، جعل كأنه إمام للشيطان، والشيطان يتبعه، فهو على حد قول الشاعر[3]:

وكنت أرى من جند إبليس فارتقى
بي الدهر حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أدركت بعده
دقائق كفرٍ ليس يدركها بعدي

ورتبت أفعال الانسلاخ والاتباع والكون من الغاوين بفاء العطف على حسب ترتيبها في الحصول، فإنه لما عاند ولم يعمل بما هداه الله إليه حصلت في نفسه ظلمة شيطانية، مكنت الشيطان من استخدامه وإدامة إضلاله، فالانسلاخ عن الآيات أثر من وسوسة الشيطان، وإذا أطاع المرء الوسوسة تمكن الشيطان من مقاده، فسخره وأدام إضلاله، وهو المعبر عنه بـ(أتبعه) فصار بذلك في زمرة الغواة المتمكنين من الغواية[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أفاد أن تلك الآيات شأنها أن تكون سببًا للهداية والتزكية لو شاء الله له التوفيق، وعصمه من كيد الشيطان وفتنته، فلم ينسلخ عنها، وهذه عبرة للموفقين؛ ليعلموا فضل الله عليهم في توفيقهم، فما ألطف نسبة إتيان الآيات والرفع إليه تعالى، ونسبة الانسلاخ والإخلاد إلى العبد، مع أن الكل من الله تعالى؛ إذ فيه من تعليم العباد حسن الأدب ما فيه.

(١) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ١٧٣٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٦٧٣.
(٣) البيتان في ديوان محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ص ١٣١ من قصيدته الدالية التي مطلعها:
سلامي على نجد ومن حل في نجد
وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٦.

فالمعنى: ولو شئنا لزاد في العمل بما آتيناه من الآيات، فلرفعه الله بعمله، والرفعة مستعارة لكمال النفس وزكائها؛ لأن الصفات الحميدة تخيل صاحبها مرتفعًا على من دونه، أي: ولو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلًا وزكاء وتميزًا بالفضل، فمعنى ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ ليسرنا له العمل بها الذي يشرف به، وقد وقع الاستدراك على مضمون قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

بذكر ما يناقض تلك المشيئة الممتنعة، وهو الاستدراك بأنه انعكست حاله، فأخلد إلى الأرض، أي: ركن ومال إلى الأرض، والكلام تمثيل لحال المتلبس بالنقائص والكفر بعد الإيمان والتقوى بحال من كان مرتفعًا عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل، فبذكر الأرض علم أن الإخلاد هنا ركون إلى السفل، أي: تلبس بالنقائص والمفاسد، واتباع الهوى ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة على ما يدعو إليه الحق والرشد، فالاتباع مستعار للاختيار والميل، والهوى شاع في المحبة المذمومة الخاسرة عاقبتها[1].

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فهو دائم اللهث في الحالين؛ لأن اللهث طبيعة فيه، وكذلك حال الحريص على الدنيا المعرض عن الآيات بعد إيتائها إن وعظته فهو لإيثاره الدنيا على الآخرة لا يقبل الوعظ، وإن تركت وعظه فهو حريص أيضًا على الدنيا وشهواتها.

فهذا الضال تحمل كلفة اتباع الدين الصالح، وصار يطلبه في حين كان غير مكلف بذلك في زمن الفترة، فلقي من ذلك نصبًا وعناء، فلما حان حين اتباع الحق ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم تحمل مشقة العناد والإعراض عنه في وقت كان جديرًا فيه بأن يستريح من عنائه لحصول طلبته، فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الموصوف باللهث، فهو يلهث في حالة وجود أسباب اللهث من الطرد والإرهاب والمشقة، وهي حالة الحمل عليه، وفي حالة الخلو عن ذلك السبب، وهي حالة تركه في دعة ومسالمة، والذي ينبه على هذا المعنى هو قوله: ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

ونلحظ أنه ليس لشيء من الحيوان حالة للتشبيه بها في الحالتين غير حالة الكلب اللاهث؛ لأنه يلهث إذا أتعب وإذا كان في دعة، فاللهث في أصل خلقته، وهذا التمثيل من بلاغة القرآن، فإن اللهث حالة تؤذن بحرج الكلب من جراء عسر تنفسه عن اضطراب باطنه، وإن لم يكن لاضطراب باطنه سبب آتٍ من غيره، فمعنى ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ إن تطارده وتهاجمه.

(١) المصدر السابق ٩/ ١٧٧.

فهذا تشبيه تمثيل مركب منتزعة فيه الحالة المشبهة والحالة المشبه بها من متعدد، ولما ذكر ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ في شق الحالة المشبه بها تعين أن يكون لها مقابل في الحالة المشبهة، وتتقابل أجزاء هذا التمثيل بأن يشبه الضال بالكلب، ويشبه شقاؤه واضطراب أمره في مدة البحث عن الدين بلهث الكلب في حالة تركه في دعة تشبيه المعقول بالمحسوس، ويشبه شقاؤه في إعراضه عن الدين الحق عند مجيئه بلهث الكلب في حالة طرده وضربه تشبيه المعقول بالمحسوس[1].

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعاني، فمنها قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه، ومنها قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لحقه وأدركه...، وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله، محمي الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

ومنها: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق، وإيثاره وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأسًا، فإن الخافض الرافع هو سبحانه، والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المخلد من الرجال هو الذي يبطئ مشيته، ومن الدواب التي تبقى ثناياها إلى أن تخرج رباعيتها[2].

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص٤٤٥.

مقاصد ضرب المثل

مقاصد ضرب الأمثال في القرآن لا تنحصر، لكنها ترد في جملتها إلى مقصد واحد، وهو بيان الحق الذي جاءت به الرسل لهداية الخلق، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده، والانقياد لطاعته؛ وذلك بوضع منهج متكامل روعيت فيه مصالح العباد في العاجل والآجل[(١)].

وقد جمع الزركشي عددًا من فوائد ضرب الأمثال في القرآن فذكر: التذكير، والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار، وترتيب المراد للعقل، وبيان تفاوت الأجر، والمدح والذم، والثواب والعقاب، وعلى تفخيم أمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله، فامتن الله علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

«ومن حكمته تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة، والمثل أعون شيء على البيان»[(٢)].

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر وتحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله.

وإذا كان العلماء قد أظهروا أهمية المثل البيانية والفنية الإبداعية، وأثر ذلك في النفس وفاعليته، فإن هناك أمورًا أخرى شرعية تستفاد من ضرب الأمثال في القرآن، وقد ذكر الإمام الماوردي أن «من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه؛ لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام»[(٣)].

فالأمثال القرآنية جاءت شاملة متضمنة كل ما تقدم، ولها من القدرة ما يمكنها من تحقيق أغراضها وغاياتها عبر صور بيانية، ومشاهد فنية، تلقي بظلالها وآثارها الفاعلة في النفس البشرية، والتي ما سيقت هذه الأمثال إلا لها ومن أجلها؛ بغية خيرها وصلاحها في حالها ومآلها.

وعلى هذا يمكننا القول: إن الأمثال القرآنية تعد مقاييس عقلية، وقواعد عامة، وكليات شاملة، وعلامات هادية شاخصة ومنتصبة، تصلح أن يقاس عليها ما يؤكد علوها على الحصر، مما يمكن أن يكون حسيًا أو عقليًا أو نفسيًا، حقيقة أو مجازًا، وهي تدور حول محور واحد، متمثل في هذا الإنسان بعناصره المختلفة، وأبعاده المتجاورة والمتآلفة: العقل، والروح،

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل ص ٣٦١، ٣٥٤.
(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٤٨٧.
(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/ ١٠٤١.

والحس، والوجدان، تحقيقًا لتطلعاته إلى سعادته في معاشه ومعاده.

وعلى هدي هذا المفهوم للمثل القرآني نستطيع الوقوف على معنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

أولًا: التوضيح والتقريب:

التوضيح والتقريب أبرز مقاصد الأمثال.

فيقرب صورة المُمَثَّل له إلى ذهن المخاطب؛ وذلك بأن يكون المخاطب جاهلًا بحقيقة الشيء الممثل له فيأتي المثل القرآني لرفع هذه الجهالة، وإزالة هذا الغموض.

قال ابن القيم: «وقد ضرب الله ورسوله الأمثال للناس؛ لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فقد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير، ففي الأمثال من تأنيس النفس، وسرعة قبولها، وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهورًا ووضوحًا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، وهي خاصية العقل ولبه وثمرته»[(١)].

ويقول رحمه الله: «إن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير، وبالأمثال يزداد المعنى ظهورًا ووضوحًا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته»[(٢)].

وقد أشار الزمخشري أيضًا إلى هذا المقصد من الأمثال، حيث قال: «ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمعٌ لسورة الجامح الأبي، ولأمرٍ ما أكثر الله في كتابه المبين وسائر كتبه أمثاله»[(٣)].

وقال أبو السعود: «إن التمثيل ليس إلا إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهور، وتحلية المعقول بحلية المحسوس، وتصوير أوابد المعاني بهيئة

(١) أعلام الموقعين ١/ ٢٩١.
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٤٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ١٩٥.

المأنوس لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل، واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية، وفهم الدقائق الأبية؛ كي يتابعه فيما يقتضيه، ويشايعه إلى ما لا يرتضيه؛ ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية، والكلمات النبوية، وذاعت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء ...، فالتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع سورة الجامح الأبي، كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازها لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشي في هيئة المألوف»[1].

هكذا يأتي المثل لزيادة الإفهام والتوضيح والتذكير؛ ولتصوير المعنوي بالمحسوس والمشهد بالغائب، فيكون وقعه بذلك أمكن في النفوس، وأشد علقة بالقلوب، وهذا من شأنه أن يبعد الحيرة والشكل عن المترددين، وضعاف الإرادة.

ومن الأمثلة القرآنية التي جاءت لهذا الغرض -وهو التوضيح والتقريب-: ما ضربه الله تعالى من مثلٍ لحال الدنيا، وركون الناس إليها، والإعراض عن الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

فالمثل المضروب هنا لتقريب وتوضيح حال الدنيا، وهو مثل قصير موجز، يتناسق مع حال الدنيا في سرعة زوالها، وقد أسهمت البنية الأسلوبية له في إلقاء ظل الفناء في حس الإنسان وذهنه، وهو يتابع الماء النازل بسرعة ممتزجًا بنبات الأرض، ثم يغدو هشيمًا تذروه الرياح من غير تصوير للنبات النامي بثماره وأزهاره، فيبقى الإنسان مشدودًا إلى صورة النهاية للحياة لا إلى بهجتها ولذاتها.

يقول ابن القيم معلقًا على هذا المثل: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر، فتروقه بزينتها، وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب، ويحسن نباتها، ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله، فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرًا

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٧٢.

منها، فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس»[1].

وتشبيه الحياة الدنيا بالنبات يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن عاقبة هذه الحياة التي ينفقها المرء في هذه الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه؛ لأن المتمسك بالدنيا إذا عظمت رغبته فيها يأتيه الموت، وهو معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

وثانيها: أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبةٌ تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد.

وثالثها: أن هذا التشبيه كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

أي: لما صار سعي هذا الزرع باطلًا بسبب حدوث المهلك فكذلك سعي المغتر بالدنيا.

ورابعها: أن مالك هذا البستان لما أتعب نفسه في عمارته، وكذلك الروح، وعلق قلبه بالانتفاع به، فإذا حدث السبب المهلك صار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سببًا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل، وهو ما يحصل في قلبه من الحسرات.

فكذلك حال من أحب الدنيا، وأتعب نفسه في تحصيلها، فإذا مات وفاته كل ما نال صار العناء الذي تحمله في تحصيل الدنيا سببًا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة.

وخامسها: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد؛ لأنا نرى الزرع الذي انتهى إلى الغاية في الحسن، ثم إن ذلك الحسن يزول بالكلية، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى، فذكر تعالى هذا المثال؛ ليدل على أن من قدر على ذلك كان قادرًا على إعادة الأحياء في الآخرة؛ ليجازيهم على أعمالهم[2].

وقد قامت (الفاء العاطفة) في قوله: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤].

في تسريع حركة التصوير لأطوار النبات التي هي في حقيقتها أطوار الحياة، وجاء التعقيب على المثل في الآية الأخرى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]؛ لترسيخ معنى القدرة الإلهية على الإحياء بعد الإماتة، كي لا تكون صورة الفناء هي الصورة النهائية للإنسان بعد المثل المضروب.

وقوله: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤].

فلو قلنا: بأن الباء للمصاحبة يكون معناه أي: اختلط مع ذلك الماء نبات الأرض؛ لأن

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٤٧٠.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٤٥١.

المطر ينفذ في خلل النبات، وإن كانت الباء للسببية يكون المراد أنه اختلط بسبب الماء بعض النبات ببعض، حيث إن الماء صار سببًا لرشده، والتفاف بعضه ببعض.

وقوله: ﴿إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤].

تعبير رائع حيث جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس؛ إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزينة، وقوله: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ [يونس: ٢٤].

أي: متمكنون من استثمارها والانتفاع بثبوتها، وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ [يونس: ٢٤].

كناية عن نزول بعض الآفات على الجنات والمزارع حيث يجعلها ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهًا بما يحصد من الزرع في استئصاله.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ [يونس: ٢٤] بمنزلة قوله: كأن لم ينبت زرعها، على وجه يلتف بعضه ببعض، يروق الإنسان منظره، فلم يزل على تلك الحال إلى أن ينتقل إلى حالة لا نجد فيها غضاضة، وهذا ما يعبر عنه القرآن بقوله: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ [الكهف: ٤٥].

أي: كثيرًا مفتتًا، تذروه الرياح، فتنقله من موضعه إلى موضع، فانقلاب الدنيا كانقلاب هذا النبات.

ثانيًا: الترغيب:

ومن مقاصد ضرب المثل في القرآن الترغيب بالأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة التي تهذب النفوس وترقق الطباع.

فنجد المثل القرآني يحث النفس الجموح على إنفاق المال في سبيل الله، ويعد المتقين وعدًا حسنًا على ذلك، ويضاعف لهم الأجر في صورة اعتمد فيها التشبيه صيغة تهيئ المناخ النفسي للبر بتفاعلها مع الجو الداخلي عند الإنسان، حيث يجد إنفاقه مضاعفًا بإمدادٍ غير مترقب مما يدفعه عن طيب خاطر، وتسليم لأمر الله إلى الإنفاق بيد مبسوطة، يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقد يطنب المثل القرآني في الأمور الترغيبية، ويوالي ضرب الأمثال لها، ويحذر من مخالفتها، ويريدها خالصة لله وحده، ويستقصي المعاني على أكمل وجه، ويأتي بجميع لوازمها ومتعلقاتها، وهو ما يسمى عند البلاغيين (الاستقصاء)، وهو نوع من أنواع الإطناب بذكر محاسن ما يرغب فيه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

يقول الرازي: «إن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه؛ وذلك لأن الغرض في المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقًا للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجردًا عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل ب، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول، كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجردًا؛ ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت: ٤٣]»[1].

واتخذها المربون وسيلة للترغيب، ويستطيع معلم التربية الإسلامية أن يستخدم ضرب الأمثال للترغيب ولتقريب المعاني المجردة التي ترد في القرآن والسنة إلى أذهان التلاميذ؛ ويمكنه أن يستخدم هذا الأسلوب كوسيلة للتهذيب الخلقي من حثه على الخير أو دفع للشر، فالأمثال بما فيها من تجسيد للمعاني المجردة أقرب إلى النفوس في إحداث الترغيب والترهيب من الوعظ المباشر.

ومن الأمور التي رغب فيها المثل القرآني: الجنة.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]

والإشارة إلى الجنة بصفاتها بحيث صارت كالمشاهدة ترغيبًا فيها، أي: صفة الجنة التي وعد الله بها الذين يخشونه أنها تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول ولا ينقص، تلك المثوبة بالجنة عاقبة الذين خافوا الله، فاجتنبوا معاصيه، وأدوا فرائضه، وعاقبة الكافرين بالله النار.

ونظيره: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

فهذا المتاع والاسترواح، ومشهد الظل الدائم، والثمر الدائم، والأنهار المتنوعة،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٣٤٥.

مشهدٌ تطمئن له النفس وتستريح وترغب، وتشتاق إليه.

ومن الأمور التي رغب فيها المثل القرآني: الإيمان والإسلام.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فقد جاء هذا التشبيه بديعًا مشوقًا؛ إذ جعل حال المسلم بعد أن صار إلى الإسلام بحال من كان عديم الخير عديم الإفادة، كالميت، فإن الشرك يحول دون التمييز بين الحق والباطل، ويصرف صاحبه عن السعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف؟ فإذا هداه الله إلى الإسلام تغير حاله فصار يميز بين الحق والباطل، ويعلم الصالح من الفاسد، فصار كالحي، وصار يسعى إلى ما فيه الصلاح، ويتنكب عن سبيل الفساد فصار في نور يمشي به في الناس[1].

ثالثًا: التنفير:

ومن مقاصد ضرب المثل في القرآن التنفير من الأعمال السيئة والأخلاق القبيحة، كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦].

يكشف هذا المثل الأبعاد النفسية التي اشتملت عليها شخصية الذي يتخلى تمامًا عن آيات الله، ويعرض عنها ابتغاء عرض زائل، ومتاع قليل، وقد استعار كلمة (انسلخ) وعبر بها تعبيرًا دقيقًا عن مدى التصميم في الإعراض والتخلي، وصور بذلك حالة النزاع الشديد في مفارقتها، فهذا التجرد من عناصر الخير يوحي بكيفية تجرد الشاة عن أهابها، ونزعها لردائها أثناء السلخ في مشهد أليم، حتى عادت سنحًا آخر في الهيكل والصورة والتحول، وكذلك أمر هذا الرجل؛ إذ استحال إلى حقيقة أخرى، جوفاء مترهلة، وتأتي الصور متقاطرة العبارات والعبائر، مجلجلة الوقع، فيعقب صورة الانسلاخ صورة الكلب اللاهث في حالتيه، وإخلاده إلى الأرض، وهي شديدة الأثر في

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٤٥.

تحقيرها لشأن المشبه، وإظهارها لضياعه، وتشرده وضلاله.

فقد ضرب الله عز وجل هذا المثل لمن لا يعمل بعلمه على سبيل التبكيت والتشنيع والتنفير؛ حتى لا يصير الإنسان مثل الحمار حينما يكون له علم ولا يعمل به.

وكقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ضرب الله هذا المثل للتنفير من تعاطي الربا، بعد الترغيب في بذل الصدقة لمستحقيها.

والآية الكريمة تصور المرابي بتلك الصورة المرعبة المفزعة التي تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا، وهنا ينبغي توضيح أمرين:

الأول: أن جمهور المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة، حين يبعثون من قبورهم، فقيام المرابي يوم القيامة كذلك مما نطقت به الآثار، وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه؛ ولعل الله تعالى جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له.

أو يكون المراد: تشبيه المرابي في حرصه وتحركه في اكتسابه في الدنيا بالمتخبط المصروع، كما يقال لمن يسرع بحركات مختلفة: قد جن، ولا يخفى أن هذا تأويل مصادم لما عليه سلف الأمة؛ ولما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير داعٍ، سوى الاستبعاد الذي لا يعتبر في مثل هذه المقامات.

والصواب: أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا في قلق مستمر، وانزعاج دائم، واضطراب ظاهر، بسبب جشعهم وشرههم في جمع المال، ووساوسهم التي لا تكاد تفارقهم، وهم يفكرون في مصير أموالهم، ومن يتتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين في أقوالهم وحركاتهم، أما في الآخرة فقد توعدهم الله تعالى بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم[1].

وجمهور المفسرين يرون أيضًا أن التشبيه في الآية الكريمة على الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حاله بحال المجنون الذي مسه الشيطان؛ لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون، ولا عبرة بمن أنكر ذلك، قال القرطبي: «وفي هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن، وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن

(١) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٥١٠.

الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مس»[1]، فالذي عليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق؛ لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالجنون.

وكذلك ضرب الله مثلًا للتنفير من الركون إلى الدنيا فقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أصلًا ولمن قام بوراثته بعده تبعًا-: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا؛ ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار، وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر ينزل على الأرض فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين إذ أصبحت هشيمًا تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء ترابًا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام، وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله، هنالك يعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا لا ليستكمل الشهوات بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الجازم الموفق يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدري أنك قد مت ولابد أن تموتي، فأي: الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين!! فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسرانه[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٥٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٨.

آثار ضرب الأمثال

لضرب الأمثال آثار تربوية، وآثار دعوية، وآثار جمالية وفنية، نبينها فيما يأتي:

أولًا: آثار تربوية:

ضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية يحث النفوس على فعل الخير، ويحضها على البر، ويدفعها إلى الفضيلة، ويمنعها عن المعصية والإثم، وهو في نفس الوقت يربي العقل على التفكير الصحيح، والقياس المنطقي السليم؛ لما فيه من تقريب وتسهيل للمعاني البعيدة، أو الغامضة عن طريق عرض أمثالها، وما يشابهها من المعاني المحسوسة والواضحة.

فالأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوى في الإقناع، ولأهمية الأمثال وفعاليتها استخدمها القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يعقلها ولا يعيها إلا العالمون، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالأمثال القرآنية ذات مدلولاتٍ تربويةٍ عميقة التأثير، عظيمة الفائدة، تتضافر مع غيرها من وسائل التربية القرآنية، كالقصة، والحوار، وأساليب الإقناع وغيرها في تكوين النظرية التربوية الإسلامية الرائدة، يقول عبد الرحمن النحلاوي ما ملخصه: «لم تكن الأمثال القرآنية والنبوية مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن لها غايات نفسية تربوية، حققتها نتيجة لنبل المعنى، وسمو الغرض، بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي، وتأثير الأداء»[(١)].

وهناك آثار تربوية عديدة للأمثال، منها:

١. شحذ الذهن واستثارته للتفكير والقياس والتأمل.

وغير ذلك من العمليات الفكرية والذهنية التي يثيرها المثل، بقصد الإقناع بصحة رسالة الإسلام وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث تنطوي معظم الأمثال على قياس تذكر مقدماته ويطلب من العقل أن يتوصل إلى النتيجة التي لا يصرح القرآن بها في كثير من الأحيان، بل يشير إليها ويترك للعقل معرفتها.

ونذكر منها على سبيل المثال: المعنى الذي ضربه الله مثلًا للحق والباطل، في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) التربية بضرب الأمثال، النحلاوي ص٢٠.

ففي هذا المثل استثارة العقل على التفكير والتأمل، حيث شبه الباطل بالزبد الذي يذهب جفاء، وشبه الحق بالماء الذي يمكث في الأرض، فالباطل يضمحل وينمحق، كالزبد الذي يحتمله السيل، وإن علا على الحق في بعض الأوقات، كما يعلو الزبد، والحق ثابت باقٍ، يمكن في القلب، فينتفع به المؤمن، فيثمر عملًا صالحًا، كما يمكث الماء وأسباب الإنبات في الأرض، فيثمر عشبًا وزرعًا ونخلًا وأعنابًا.

٢. تقريب ما غاب عن الذهن من المعاني بصورة بلاغية موجزة.

تنفذ إلى أعماق النفس، مثيرة للعواطف والوجدان، اعتمادًا على التصوير والتشبيه، كطريقة تربوية وتعليمية، تساعد على توضيح المقاصد، وشرح الأفكار، وتقريب المعاني للأذهان.

فضرب الأمثال من الأساليب التربوية الإسلامية التي تقرب المعاني المجردة إلى الأذهان، وتقرب المعقول إلى المحسوس فيتقبله العقل، ويدركه ويفهمه؛ وتؤثر في سلوك الأفراد، فتذكر الغافل، وتنبه المعاند، وتبرز المعقول في صورة المحسوس، كما تكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الماضي في معرض الحاضر، وتضرب الأمثال للترغيب والترهيب.

وقد تنبه علماء التربية المسلمون إلى هذا الغرض التربوي، فبينوا في دراساتهم أن القرآن يستخدم التشبيه والتمثيل كي يقرب المعاني، ويشير إلى أمور حسيةٍ لشرح أفكار مجردة، فالقرآن لا يخاطب فئة المثقفين وحدهم وإنما يخاطب مختلف الفئات التي منها أقوام أميون لا تستطيع عقولهم أن تقفز مرة واحدة إلى المعقولات، وإنما لابد لها من المرور بمرحلة الإدراك الحسي، فيكون بذلك أقرب إلى الأفهام وأرسخ.

٣. إثارة الانفعالات المناسبة للمعنى وتربية العواطف.

فنجد المثل القرآني أحيانًا يثير في النفس انفعالًا إيجابيًا، وأحيانًا يثير انفعال الاشمئزاز من الضالين والشعور بتفاهتهم وضياع عقولهم، فانظر إلى معنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ [الجمعة: ٥].

أي: كلفوا العمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

فتشبيههم بالحمار الذي يحمل أسفارًا يثير في النفس قمة النفور والاشمئزاز من حالهم.

٤. حمل الناس على الخير وتنفيرهم من الشر، صيانة لفطرهم من الزلل، ووقاية لهم من الوقوع في الخطأ.

٥. توضيح الفضائل والترغيب فيها.

فالأمثال كما أنها وسيلة نافعة في الترغيب فهي كذلك وسيلة نافعة للتنفير من

الأشياء التي لا يرغب فيها.

٦. القدرة على التوضيح والتأثير والإقناع وعرض الحقائق والاحتجاج لها.

وذلك مع ما فيها من الإيجاز الذي يفعل فعل الإطناب، فإن ما يحمله المثل من المعاني يفوق بكثير قدرة ما يعادله في الحجم من الكلام المجرد؛ ولهذا يوصى بالتعمق في دراسة أمثال القرآن والسنة وأسلوبهما من أجل الوصول إلى ما فيهما من مناجم السبل النافعة في التعليم والتربية، وبلورتها في منهج واضح يساعد على الانتفاع بها.

كما ضرب الله مثلًا للدلالة على أنه الإله الحق، وأن الأوثان لا تستحق أن تعبد بقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

إذ دل بالمثل على عجز الأصنام عن أن تنفع عابدها بشيء؛ إذ مثل حالها بحال العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، ودل على كمال قدرته؛ إذ جعل في مقابلة العبد المملوك الممثل للأصنام من اتسع رزقه، وكان ينفق منه كيف يشاء، ومن له مسكة من العقل لا يتولى العاجز بالعبادة ويدع عبادة القادر على كل شيء.

٧. تختصر القول وتدرب الإنسان على جودة التفكر وسلامة القياس.

ولأهمية الأمثال في التربية جاء في كتاب: (التربية الإسلامية وتحديات العصر): «أن الأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، والباحث في التراث التربوي الإسلامي يجد إلى جانب استخدام القرآن الكريم والحديث الشريف للأمثال والأشباه طريقة للتربية والتعليم اهتمام المربين المسلمين بذلك»[(١)].

٨. إشراك أكثر من حاسة من الحواس الإنسانية في تلقي المعنى.

وتوظيف قدرة العقل الإنساني على التخيل والتصوير في تجلية الحقائق وتقريبها وفهمها، كما أنه يجعل الحقائق أعلق في النفوس، وأثبت في العقول، ويسهل استدامتها وبقاءها في الذاكرة فترة أطول، هذا بالإضافة إلى أنها تساعد في جعل المعنى واضحًا ومشوقًا وممتعًا، وتسهم في دفع الملل عن نفس المتلقي.

٩. مخاطبة النفس الإنسانية بكل أبعادها وجوانبها.

وتركيزها على العبرة والفائدة المتوخاة دون الاعتداد بالمظهر أو الشكل أو الحجم، ما لم تكن العبرة من المثل متعلقة بشيء

(١) التربية الإسلامية وتحديات العصر، عبود، عبد الغني العال، حسن إبراهيم ص٤٩٥.

منها، وهي تتميز بالدقة في اختيار اللقطة المنتقاة التي تبرز أشد جوانب المثل إثارة، وكذلك استخدامها وشمولها لمختلف مظاهر الطبيعة مما هو من أسرار خلودها، إضافةً إلى السهولة والقرب والبعد عن التعقيد والصعوبة، مما أضفى عليها الصلاحية لمخاطبة مختلف المستويات العلمية والاجتماعية.

ومن الآثار التربوية التي تثيرها الأمثال القرآنية أيضًا:

تعرية الباطل وتزييفه، وفضح مواقفه.

١٠. كشف الحقائق وإيضاح المعنى في عبارة موجزة بليغة.

١١. توضيح الحق وتثبيته وإقامة حججه وبراهينه.

١٢. التحذير من عاقبة كفر النعمة وبطر المعيشة.

١٣. استخلاص سنن الله تعالى في الكون والحياة والإنسان.

١٤. تقريب الحقائق الغيبية للأذهان.

١٥. تصوير الحقائق الإيمانية المجردة بصورة محسوسة.

١٦. ربط عالم الشهادة بعالم الغيب.

١٧. فضح تناقض المشركين والمنافقين في مواقفهم.

١٨. تقرير حقائق للترغيب بها أو التنفير منها.

١٩. تفاهة مواقف الكافرين من الحقائق الكبرى[١].

ثانيًا: آثار دعوية:

للأمثال القرآنية أثر بليغ في تلقي الدعوة بالقبول لما لها من تأثير على النفس والعقل والوجدان؛ ولما تحتويه من بلاغة وإعجاز؛ ولما فيها من تقريب وتسهيل للمعاني البعيدة أو الغامضة، عن طريق عرض أمثالها، وما يشابهها من المعاني المحسوسة والواضحة.

يقول الزركشي: «وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى؛ إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب، فالمرغب في الإيمان -مثلًا- إذا مثل له ب تأكد في قلبه المقصود، والمزهد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه، وفيه أيضًا تبكيت الخصم، وقد أكثر الله تعالى في القرآن، وفي سائر كتبه من الأمثال»[٢].

ويقول العز بن عبد السلام: «إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيرًا ووعظًا، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح أو ذم أو نحوه، فإنه يدل على الإحكام»[٣].

(١) ضرب الأمثال في القرآن، عبد المجيد البيانوني ص٥٩.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٨٨.
(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/ ١٠٤١.

ولقد جاء القرآن الكريم داعيًا إلى الهداية والرشاد بأساليب شتى؛ فتارةً بالوعد والوعيد، وتارة بالإقناع العقلي، وتارة ثالثة بوخز الضمير والوجدان، ورابعةً بتوجيه الفطرة إلى حقيقتها، وخامسة بالإعجاز بشتى ألوانه، وأحيانًا بأسلوب ضرب المثل الذي هو أقرب الوسائل الدعوية إلى فطرة الإنسان، وأكثر العوامل النفسية تأثيرًا، لما له من الواقعية والصدق، ودقة التصوير، وله من السمات ما ليس لغيره! فيمكن أن يستخدم هذا الأسلوب كوسيلة للتهذيب الخلقي من حثه على الخير أو دفع الشر، فالأمثال بما فيها من تجسيد للمعاني المجردة أقرب إلى النفوس في إحداث الترغيب والترهيب من الوعظ المباشر.

وهناك آثار دعوية عديدة للأمثال، منها:

١. ما تورثه في النفس من العظة والعبرة والتذكر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وهو نظير قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١].

وتأكيد الخبر في قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ [الزمر: ٢٧].

بلام القسم وحرف التحقيق منظور فيه إلى حال الفريق الذين لم يتدبروا القرآن، وطعنوا فيه، وأنكروا أنه من عند الله، والتعريف في (الناس) للاستغراق، أي: لجميع الناس، فإن الله بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم للناس كافة، و(ضرب المثل): ذكره ووصفه، وتنوين (مثلٍ)؛ للتعظيم والشرف، أي: من كل أشرف الأمثال، فالمعنى: ذكرنا للناس في القرآن أمثالًا هي بعضٌ من كل أنفع الأمثال وأشرفها، والمراد: شرف نفعها.

وخصت أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن؛ لأجل لفت بصائرهم للتدبر في ناحية عظيمة من نواحي إعجازه، وهي بلاغة أمثاله، فإن بلغاءهم كانوا يتنافسون في جودة الأمثال وإصابتها المحز من تشبيه الحالة بالحالة.

ومعنى الرجاء في ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: منصرف إلى أن حالهم عند ضرب الأمثال القرآنية كحال من يرجو الناس منه أن يتذكر، وهذا مثل نظائر هذا الترجي الواقع في القرآن.

ومعنى التذكر: التأمل والتدبر؛ لينكشف لهم ما هم غافلون عنه، سواء ما سبق لهم به علم فنسوه، وشغلوا عنه بسفساف الأمور، وما لم يسبق لهم علم به، مما شأنه أن يستبصره الرأي الأصيل، حتى إذا انكشف له كان كالشيء الذي سبق له علمه، وذهل عنه، فمعنى التذكر معنًى بديع شامل لهذه

الخصائص[1].

ومما ضربه الله لنا من الأمثال للعظة والعبرة قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

حيث أخبر الله تعالى هنا أن هناك قرية كان أهلها في أمن واستقرار وسعادة ونعيم، تأتيها الخيرات من كل جهة، فلم يشكر أهلها ربهم على ما آتاهم من خير ورزق، فسلبهم الله نعمة الأمان والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان بسبب كفرهم ومعاصيهم.

وهذا مثل أهل مكة الذين أمنهم الله بالبيت العتيق، يقصده الناس جميعًا، ولهم تجارتان، في الصيف للشام، وفي الشتاء لليمن، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإيمان بالله كفروا به وعصوه، فإن لم يتوبوا إلى الله فجزاؤهم سيكون كجزاء أهل القرية المضروب بها المثل، حيث نزلت بها عقوبة الله، وحلت بساحتها نقمته. والمقصود أن من آثار ضرب الأمثال في القرآن حصول التذكر والاتعاظ بما فيها، والتدبر هو غاية كل ذلك ونتيجته؛ ولذلك قال الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

فجعل غاية الإنزال للقرآن التدبر والتذكر؛ ولولا التدبر لما حصل التذكر الذي هو يقظة القلب، وعمران الوجدان بالإيمان.

٢. ما تورثه من الفهم الصحيح لمراد الله ومراد رسوله.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: بالله وصفاته وأسمائه، وبمواقع كلامه وحكمه، أي: لا يعقل صحتها وحسنها، ولا يفهم حكمتها إلا هم؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي طرق إلى المعاني المستورة حتى يبرزها ويصورها للأفهام، كما صور هذا التشبيه الذي بين فيه حال المشرك وحال المؤمن[2].

والعقل هنا بمعنى الفهم، أي: لا يفهم مغزاها إلا الذين كملت عقولهم، فكانوا علماء غير سفهاء الأحلام، وفي هذا تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بها جهلاء العقول، فما بالك بالذين اعتاضوا عن التدبر في دلالتها باتخاذها هزءًا وسخرية...، وهذا من بهتانهم، وإلا فقد علم البلغاء أن لكل مقام

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٩٧.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٤٧٧.

مقالًا، ولكل كلمة مع صاحبتها مقامًا[1].

وفي هذا مدح للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين، والسبب في ذلك أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها؛ لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها مع أهميتها فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم؛ لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى؛ ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها[2].

٣. ما تورثه من التدبر والتفكر السليم في كلام الله وكلام رسوله.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فالله جل وعلا ذكر تلك الأمثال للناس؛ ليتفكروا ويتدبروا فيها، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

فهذا المثل يبين لنا مدى الخير الذي يحمله لنا الإنفاق في سبيل الله، ومدى ارتباطه الوثيق بحياتنا، فهو يجعل البركة في الرزق أضعافًا، وهذا في الدنيا، ويجعل الثواب مضاعفًا في الآخرة لمن أراد له الله في الدنيا والآخرة، كما أن هذا المثل أيضًا يعلمنا خلقًا جميلًا من مكارم الأخلاق، وهو ألا يمنن الغني صاحب المال على الفقير ذي الحاجة وألا يؤذيه بالقول أو الفعل.

٤. أنها ذات أثر عميق في تنمية القيم الأخلاقية والاجتماعية لدى المسلم.

لما لها من تأثير إيجابي في العواطف والمشاعر، وفي تحريك نوازع الخير في النفس البشرية.

يقول الماوردي: «للأمثال من الكلام موقع في الأسماع، وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها؛ لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة؛ فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله، وأوضح به الحجة على خلقه؛ لأنها في القلوب مقبولة، وفي العقول مقبولة»[3].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٥٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣١.
(٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٧٥.

ومن الآثار الدعوية للأمثال القرآنية أيضًا:

١. تنبيه المخطئ إلى خطئه، والمحسن إلى إحسانه.
٢. الإعانة على فهم المعاني الرائعة بألفاظ موجزة، وتقديم أفكار غزيرة ودقيقة؛ لتدل على المراد بعبارة مختصرة.
٣. تقرير المقصود، ففيها كشف للمعاني، وتشبيه الخفي منها بالجلي، والغائب بالشاهد.
٤. الترغيب والترهيب، وذلك إما بالمدح أو التعظيم، أو بالذم أو التحقير، مما ينعكس على السلوك إقبالًا أو نفورًا.
٥. قوة وقعها على الأسماع، وتأثيرها في القلوب، فهي بالغة في الوعظ، قوية في الزجر، وإقامة الحجة والقياس والاستنباط، وأقوم على الإقناع بذكرها محاسن الحق والترغيب فيه، وذكرها قبائح الباطل والتنفير منه.
٦. إثارة المشاعر بتركيزها على محور الطمع أو الرغبة أو الخوف أو الحذر لدى الشخص المخاطب.
٧. تحريك الطاقات الفكرية، وشحذ الذهن؛ لتوجيهه للفكر والتأمل من أجل إدراك المراد.
٨. الدلالة على الحكم والفوائد العلمية والأحكام الشرعية في جوانب العقيدة.
٩. تربية النفوس بإظهار نموذج القدوة الحسنة؛ للاقتداء بها، وإظهار نموذج القدوة السيئة؛ للنفور منها، والاعتبار بها.
١٠. ترسيخ مفاهيم التوحيد والإيمان، والإبلاغ عن المغيبات، كما توجه المخاطب إلى أداء العبادات، والالتزام بالأخلاق الحسنة، وتجنب الأخلاق السيئة.
١١. تبكيت الخصم، وإقناعه، وإقامة الحجة عليه.

ثالثًا: آثار جمالية وفنية:

ضرب الأمثال في القرآن الكريم من أساليب الصياغة الفنية الرائعة الدالة على إعجاز القرآن في إبراز المعاني في قالب حسن يقربها إلى الأفهام، وفي صور حية تستقر في الأذهان؛ لما فيها من تشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وقياس النظير على النظير. وقد سميت الحكم القائم صدقها في العقول أمثالًا؛ لانتصاب صورها في العقول مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب[1].

وترجع جمالية الأمثال القرآنية إلى جمالية كلام الله تعالى فهو كلام معجز،

(١) مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني ١/ ٦.

له رونق وجمال وحلاوة وطلاوة، يقف البليغ أمامها عاجزًا، ويصمت الناقد أمامها مندهشًا حائرًا، ومنذ قرون عدة والكتب في إعجازه وبلاغته وفصاحته تؤلف وتدرس، ولم يحط ببلاغته الأدباء والبلغاء.

وترجع جمالية المثل القرآني إلى أنه يجتمع فيه أربعة أمور لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة[1].

يقول الزركشي رحمه الله مبينًا أهمية المثل: «ومن حكمته: تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة، والمثل أعون شيء على البيان ...، وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى؛ إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والشاهد بالغائب ...، وقد أكثر تعالى في القرآن وفي سائر كتبه من الأمثال». ثم قال: «فالأمثال مقادير الأفعال، والمتمثل كالصانع الذي يقدر صناعة، وكل شيء له قالب ومقدار، وقالب الكلام ومقداره الأمثال»[2].

والمقصود أن للأمثال القرآنية القدرة في تحقيق أغراضها وغاياتها عبر صور بيانية ومشاهد فنية، تلقي بظلالها وآثارها الفاعلة في النفس البشرية، والتي ما سيقت هذه الأمثال إلا لها ومن أجلها؛ بغية خيرها وصلاحها في حالها ومآلها.

ولكي نقف على بعض الآثار الجمالية والفنية للأمثال لابد من استعراض بعض الأمثال القرآنية:

ضرب الله مثلًا للمشرك كمثل العطشان الذي يمد يديه إلى الماء من بعيد يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه: فقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

فلو نظرت إلى مثل هذا الشخص على هذه الحالة، وفي تلك الصورة بكل أجزائها، وهو باسط يده، مفرجة الأصابع إلى ماء بعيد عنه، وهو فاغر فاه ليشرب، لقلت: وأي جدوى تعود عليه؟! ومتى يذوق الماء وهو على تلك الحالة؟! إنه يموت عطشًا ولا يذوق منه قطرة.

والمقصود من التشبيه في هذه الآية الكريمة نفي استجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها نفيًا قاطعًا، حيث شبه سبحانه حال هذه الآلهة الباطلة عندما يطلب المشركون منها ما هم في حاجة إليه بحال إنسان عطشان، ولكنه غبي أحمق؛ لأنه يمد يده إلى الماء طالبًا منه أن يصل إلى فمه دون أن يتحرك هو إليه؛ فلا يصل إليه شيء من الماء؛ لأن الماء لا يسمع نداء من يناديه،

(١) المصدر السابق.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٨٨

ففي هذه الجملة الكريمة تصوير بليغ لخيبة وجهالة من يتوجه بالعبادة والدعاء لغير الله تعالى.

وأجرى سبحانه على الأصنام ضمير العقلاء في قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ [الرعد: ١٤]؛ مجاراة للاستعمال الشائع عند المشركين؛ لأنهم يعاملون الأصنام معاملة العقلاء، ونكر (شيئًا) في قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]؛ للتحقير، والمراد: أنهم لا يستجيبون لهم أية استجابة، حتى ولو كانت شيئًا تافهًا، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ [الرعد: ١٤]، من أعم الأحوال، أي: لا يستجيب الأصنام لمن طلب منها شيئًا إلا استجابة كاستجابة الماء لملهوف بسط كفيه إليه، يطلب منه أن يدخل فمه، والماء لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه، ولا يقدر أن يجيب طلبه، ولو مكث على ذلك طوال حياته، والضمير (هو) في قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾[الرعد: ١٤].

للماء، والهاء في ﴿بِبَالِغِهِ﴾ للفم: أي: وما الماء ببالغ فم هذا الباسط كفيه، وقيل الضمير (هو): للباسط، والهاء: للماء، أي: وما الباسط لكفيه ببالغ الماء فمه[1].

وضرب الله في سورة البقرة للمنافقين مثلين، مثلًا مائيًا، ومثلًا ناريًا، وكذلك ضرب لهم المثلين في سورة الرعد، أما في سورة البقرة، ففي ختام الربع الأول، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

فهذا المثل الناري، والمثل المائي في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٩ – ٢٠].

شبه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا؛ لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين تركوه، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق، فأوقدوا النار تضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار، وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث، فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب؛ مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم منه شيئًا، ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها، وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا

(١) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ٢٣٧١.

عقل، والقولان متلازمان.

وقال في صفتهم: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]؛ لأنهم قد رأوا في ضوء النهار، وأبصروا الهدى، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سر بديع؛ وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى، فإن الله تعالى مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فذهاب الله بذلك انقطاع لمعيته التي خص بها أولياءه، فقطعها فيما بينه وبين المنافقين، فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧].

كيف جعل ضوءها خارجًا عنه منفصلًا، ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوءه مجاورةً لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا، والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلى معدنه، وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة، تعرف بها إلى أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

ولم يقل: بنارهم؛ ليطابق أول الآية، فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو ، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ولم يقل: (بضوئهم) مع قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧].

لأن الضوء هو زيادة في ، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته، و أيضًا فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، و أيضًا فإن الله تعالى سمى كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ودينه نورًا، وهداه نورًا، ومن أسمائه ، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضا بها، وبذل الهدى في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضا بها بدلًا عن الذي هو الهدى و، فبدلوا الهدى و، وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيا لها من تجارة، ما أخسرها! وصفقة ما أشد غبنها!

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ

﴿بِنُورِهِمْ﴾ فوحد، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فجمع الظلمة، فإن الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له، بما شرعه على لسان رسوله، لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة.

ولهذا يفرد سبحانه الحق، ويجمع الباطل، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فجمع سبل الباطل، ووحد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦].

فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد، وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهو سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها...، وقد قيل: إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام، ويكون بمنزلة قول الله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويكون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

مطابقًا لقوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويكون تخييبهم، وإبطال ما راموه هو تركهم في ظلمات الحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه، ولا يبصرون سبيلًا، بل هم صم بكمٌ عمي، وهذا التقدير وإن كان حقًا ففي كونه مرادًا بالآية نظر، فإن السياق إنما قصد غيره، ويأباه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧].

وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبدًا، ويأباه قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

وموقد نار الحرب لا نور له، ويأباه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر، قال الحسن رحمه الله: هو المنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

أي: لا يرجعون إلى الذي فارقوه، وقال تعالى -في حق الكفار-: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ

﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فسلب العقل عن الكفار؛ إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين؛ لأنهم آمنوا ثم كفروا فلم يرجعوا إلى الإيمان(١).

وأيضًا في إسناد ذهب في قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

إشعار بأن الذي سلب عنهم لن يستطيع أحد أن يرده عليهم؛ لأن الذي سلبه عنهم إنما هو الله الغالب على أمره. أو لأنه حصل بلا سبب من ريح أو مطر أو إطفاء مطفئ، والعرب يسندون الأمر الذي لم يتضح سببه لاسم الله تعالى.

المثل المائي:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠].

هذا مثل آخر مائي ضربه الله سبحانه للمنافقين، فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله من والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره، وبقي في الظلمات حائرًا تائهًا، لا يهتدي سبيلًا، ولا يعرف طريقًا، وبنصيب أصحاب الصيب وهو المطر الذي يصوب، أي: ينزل من علو إلى أسفل، فشبه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدي بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك، مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وإن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد، وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام.

وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب، وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام، ومعاداة من يخاف معاداته لم يقدم عليه؛ لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون،

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص١٨٠.

وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته، فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه، وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس، التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحق علمًا وعملًا ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب، وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود[1].

قال الزمخشري: «لقائل أن يقول: شبه دين الإسلام بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من تشبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق، والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة، فلقوا منها ما لقوا...، قال: فإن قلت: أي المثلين أبلغ؟ قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته؛ ولذلك أخر، وهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ»[2].

بيت العنكبوت:

ومما يبين جمال الأمثال القرآنية وبلاغتها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أصنامًا يعبدونها، أي: مثل من أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي: كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت، فإنه لا يدفع الحر والبرد، ولا يقي ما تقي البيوت، فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة، بل هي أوهى وأضعف، فإن لبيت العنكبوت حقيقةً وانتفاعًا عامًا، وأما الأوثان فتضر ولا تنفع ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: أضعفها ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيت أوهن من بيته؛ إذ أضعف شيء يسقطها[3].

وهذه الهيئة المشبه بها مع الهيئة المشبهة قابلة لتفريق التشبيه على أجزائها،

(١) المصدر السابق ص١٨٣.

(٢) الكشاف ١/ ٤٧.

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٢٠/ ٢٥٣.

فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغناء عمن اتخذوها وقت الحاجة إليها، وتزول بأقل تحريك وأقصى ما ينتفعون به منها نفع ضعيف، وهو السكنى فيها، وتوهم أن تدفع عنهم كما ينتفع المشركون بأوهامهم في أصنامهم، وهو تمثيل بديع من مبتكرات القرآن.

وجملة: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[العنكبوت: ٤١].

معترضة مبينة وجه الشبه، وهذه الجملة تجري مجرى المثل، فيضرب لقلة جدوى شيء، فاقتضى ذلك أن الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات وأبعدها عن الخير والرشد، وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات، كما تتفاوت بيوت العنكبوت في غلظها بحسب تفاوت الدويبات التي تنسجها في القوة والضعف[(١)].

ولماذا لم يقل: أوهن الخيوط خيط العنكبوت؟ فلو كان القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم لقال ذلك؛ ولكن هذا يخالف الحقيقة العلمية الثابتة بأن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الفولاذ، فكان التعبير الدقيق ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١][(٢)].

موضوعات ذات صلة:

التدبر، التفكر، العقل

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٥٣.

(٢) انظر: المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، علي الشحود ٦/ ٢٥١.

الأمر

عناصر الموضوع

مفهوم الأمر	٦٢
الأمر في الاستعمال القرآني	٦٣
الألفاظ ذات الصلة	٦٤
الأمر الإلهي في القرآن	٦٦
التعامل مع الأمر الإلهي وجزاؤه	٧٦
الأمر الإنساني وجزاء اتباعه	٩٣
جزاء اتباع الأمر الإنساني	١٠٦
أوامر إبليس وذريته	١١١

مفهوم الأمر

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمر: الشأن، وجمعه أمور، ومصدر أمرته: إذا كلفته أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كله[1]؛ يقال: أمر فلانٍ مستقيمٌ وأموره مستقيمةٌ، وإذا أمرت من أمر قلت: مر، وأصله أؤمر، فلما اجتمعت همزتان، وكثر استعمال الكلمة حذفت الهمزة الأصلية فزال الساكن فاستغني عن الهمزة الزائدة، والهمزة والميم والراء أصولٌ خمسةٌ: الأمر من الأمور، والأمر ضد النهي، والأمر النماء والبركة بفتح الميم، والمعلم، والعجب[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الأمر في الاصطلاح: طلب الفعل على جهة الاستعلاء، أو هو: «طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء»[3]، وعرف الجرجاني الأمر بقوله: «قول القائل لمن دونه: افعل»[4].

ومن خلال ما سبق يتضح أن العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي هي علاقة العموم والخصوص، فالأمر في اللغة ينصرف على عدة معانٍ متباينة، أما الأمر في الاصطلاح فقد أتى بمعنى اصطلاحي يقتصر عليه.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٨.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ١٣٧، لسان العرب، ابن منظور،٤/ ٢٧.
(٣) المحصول، الرازي،٣/ ١٧، الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، ٢/ ١٤٠.
(٤) التعريفات، ص ٣٧.

الأمر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أمر) في القرآن (٢٤٨) مرة، يخص موضوعنا منها (٨٨) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[الأعراف:١٢]
الفعل المضارع	٤٠	﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[هود:٨٧]
فعل الأمر	٥	﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩]
اسم الفاعل	١	﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة:١١٢]
صيغة المبالغة	١	﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[يوسف:٥٣]
المصدر	٧	﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام:٨]

وجاء الأمر الذي جمعه أوامر في الاستعمال القرآني بمعنى: استدعاء الفعل بالقول من الأعلى إلى الأدنى[(٢)]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي ص٧٨-٧٩.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص١٧٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ النهي:

النهي لغة:

النهي ضد الأمر، ونهاه عن كذا ينهاه نهيًا، أي: كف. . .، ونهى صديقه عن الخيانة، منعه وحذره منها[١].

النهي اصطلاحًا:

النهي: ضد الأمر وهو: اللفظ المستعمل لطلب الترك على وجه الاستعلاء[٢].

الصلة بين الأمر والنهي:

أن النهي يشترك مع الأمر في الدلالة على الطلب، إلا أن الأمر يراد منه طلب الفعل والإتيان به، أما النهي فيراد منه النهي عن الفعل والزجر عنه، فالنهي باعتبار اشتمال متعلقه على مفسدة كان مطلوب الترك، والأمر باعتبار اشتمال متعلقه على مصلحة كان مطلوب الفعل.

٢ الخبر:

الخبر لغة:

قال ابن فارس: الخاء والباء والراء أصلان: فالأول العلم، والثاني يدل على لينٍ ورخاوةٍ وغزرٍ[٣].

الخبر اصطلاحًا:

الخبر: هو الكلام المحتمل للصدق والكذب، والخبر: العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، وفي الاصطلاح القرآني: ما يعبر به عن واقعة معينة[٤].

الصلة بين الأمر والخبر:

الأمر: طلب الفعل على وجه الاستعلاء، والخبر: الكلام المحتمل للصدق والكذب، ونلاحظ أن هناك علاقة مترابطة بين المصطلحين، فالخبر يتضمن الأمر، والأمر يشمل الخبر وغيره.

(١) انظر: المفردات، الراغب، ١/ ٨٢٧، المصباح المنير، الفيومي،٣/ ٦٢٩.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني، ١/ ٢٤٨.
(٣) مقاييس اللغة،٢/ ٢٣٩.
(٤) انظر، المفردات، الراغب، ٢٧٣ التعريفات، الجرجاني،١/ ٩٦.

٣ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة (د ع و) التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوى[(١)].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربه حاجته.

وقيل: طلب الأدنى من الأعلى تحصيل الشيء[(٢)].

الصلة بين الدعاء والأمر:

الفرق بين الدعاء والأمر أن في الأمر ترغيبًا في الفعل، وزجرًا عن تركه، وله صيغة تنبئ عنه، وليس كذلك الدعاء، وكلاهما طلب، وأيضًا فإن الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الآمر في الرتبة[(٣)].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠.
(٢) انظر، نزهة الأعين، ابن الجوزي ١/ ٢٩٢.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٣١.

الأمر الإلهي في القرآن

بين القرآن الكريم أنواع الأمر الإلهي، وتفرد الله تعالى بالخلق والأمر، وسوف يتناول البحث ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر:

إن العقل السليم قاضٍ لا محالة بأن الموجود لابد له من موجد ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وأن المخلوق لابد له من خالق، وأن الكون لابد له من مدبر، ولا محالة بأن يكون الخالق غير المخلوق في صفاته وذاته وأفعاله، وأن هذا الخالق من مقتضيات ألوهيته وربوبيته أنه له الخلق والأمر، الإيجاد والتدبير والحساب والجزاء، فهو سبحانه المتحكم في الأكوان والعقول والقلوب وسائر الموجودات والأشياء، وبالجملة فإنه ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

فالله سبحانه خالق الكون ومدبره.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والخلق: إيجاد الشيء من العدم، والأمر: التدبير والتصرف على حسب الإرادة لما خلقه، فهو سبحانه الخالق والمدبر للعالم على حسب إرادته وحكمته، لا شريك له في ذلك، فهو سبحانه هو الذي خلق الأشياء كلها، ويدخل في ذلك السموات والأرض وغيرهما، وهو الذي دبر هذا الكون على حسب إرادته[1].

يقول الإمام ابن عاشور: «والتعريف في الخلق والأمر تعريف الجنس، فتفيد الجملة قصر جنس الخلق وجنس الأمر على الكون في ملك الله تعالى، فليس لغيره شيء من هذا الجنس، وهو قصر إضافي معناه: ليس لآلهتهم شيء من الخلق ولا من الأمر، وأما قصر الجنس في الواقع على الكون في ملك الله تعالى فذلك يرجع فيه إلى القرائن، فالخلق مقصور حقيقة على الكون في ملكه تعالى، وأما الأمر فهو مقصور على الكون في ملك الله قصرًا ادعائيًا؛ لأن لكثير من الموجودات تدبير أمور كثيرة، ولكن لما كان المدبر مخلوقًا لله تعالى كان تدبيره راجعًا إلى تدبير الله»[2].

ففي الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل، ففيه رد على من يقول: إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم، فأخبر الله أنه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب، وله الأمر المطلق، وليس لأحد أمر غيره، فهو الآمر

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ١٦٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٩.

والناهي الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد من خلقه عليه، ويدخل في ذلك السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار دخولًا أوليًا، فهو الذي دبرها وصرفها على حسب إرادته[1].

فقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فيه ما يسمى (إيجاز قصر) وهو جمع المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، فالآية أرشدت أن الله عز وجل هو المنفرد بقدرة الإيجاد، وخالق السماوات والأرض، فهو الذي يجب أن يعبد؛ ولهذا عندما سئل المشركون عن المدبر والخالق لهذا الكون بما يحويه من سماء وأرض ونجوم وجبال وشجر، فكان الجواب بدون تردد بأنه هو الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١][2].

فهو يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، واقتضته حكمته من الإحكام، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمور عباده أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه، ما يهديهم به لما فيه كمالهم من عبادته وشكره؛ وبذلك تصلح أنفسهم، وتطهر قلوبهم، وتستنير أفئدتهم؛ لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، كما لا يستنكر أن هذا الوحي منه عز وجل إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه سواه[3].

فالخالق المدبر له ﴿الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

يقضي في خلقه ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويظهر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه، فلله الأمر من قبل ومن بعد، فإياك أن تظن أن انتصار الباطل جاء غصبًا عن إرادة الله، أو خارجًا عن مراده، إنما أراده الله وقصده لحكمة، يعني: إياكم أن تفهموا أن انتصار الفرس على الروم، أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله، فلله الأمر من قبل الغلب، ولله الأمر من بعد الغلب، فحين غلبت الروم لله الأمر، وحين انتصرت الفرس لله الأمر؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يغلب أصحاب الشر، ويحرك حميتهم، ويوقظ بأعدائهم مشاعرهم، وينبههم إلى أن الأعداء لا ينبغي أن يكونوا أحسن منهم[4].

فقوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٣/ ٢٣٠.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٠٩.
(٣) تفسير المراغي ١١/ ٦٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٦٦.

جملة معترضة لبيان قدرة الله تعالى التامة النافذة، فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لابد أن يقترن بها القضاء والقدر[1].

قال ابن كثير: «وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر، في قول طائفة كبيرة من العلماء...، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو عند جمهور المفسرين»[2].

فالحق سبحانه ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[الرعد: ٢].

فالتدبير والتفصيل متجدد متكرر بتجدد تعلق القدرة بالمقدورات، وتدبير الأمر: تصريفه على أحسن الوجوه وأحكمها وأكملها، والآيات: جمع آية، والمراد بها هنا: ما يشمل الآيات القرآنية، والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته سبحانه.

أي: أنه سبحانه يقضي ويقدر ويتصرف في أمر خلقه على أكمل الوجوه، ومن تدبيره لأمور خلقه، ومن تفصيله للآيات لعلكم عن طريق التأمل والتفكير فيما خلق توقنون بلقائه، وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظيمة لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة بعد موتكم؛ لكي يحاسبكم على أعمالكم[3].

فالحق يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه، فالله سبحانه وتعالى تصير إليه جميع الأمور ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[البقرة: ٢١٠].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[آل عمران: ١٠٩].

وهو المجازي على الأعمال بالثواب والعقاب.

ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة؛ لأن جميع العالم محتاجون إلى تدبيره ورحمته، داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾[الرعد: ٢].

يعني: أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، ومنها الموجودات المشاهدة، وهي خلق السماوات والأرض وما فيهما من العجائب، وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم والموجودات الحادثة في العالم، وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى، والضعف بعد القوة، إلى غير ذلك من أحوال هذا العالم، وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع، وكمال قدرته[4].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣١٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٠٣.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٤٤٠.
(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٤.

فله تعالى القدرة المطلقة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١].

أي: لو ثبت أن قرآنًا يقرأ ويتلى سيرت به الجبال، فانتقلت من أماكنها، وانفسحت عن شعابها لتتسع رقعة للزرع والغراس، أو قطعت الأرض فتشققت، لا تكون منها بحار تجري فيها المياه، أو يكلم به الموتى بمعنى أنه يحييها، ثم يكلمها، ولكن الكلام لا يسير الجبال، ومع ذلك فهو أقوى تأثيرًا، وكان يمكن أن يؤثر في قلوب المشركين بأشد من ذلك، لولا أن عنادهم حجر قلوبهم، وكما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١] ولكن القلوب التي سكنها الشرك والكفر، وهي كالحجارة أو أشد قسوة، بل لله الأمر جميعًا، الإضراب للانتقال بين هذا إلى بيان أن اختيار المعجزات من أمر الله، وله وحده كل الأمر، أي: أن الإضراب متوجه إلى ما يؤدي إليه كون الأمر لله سبحانه، ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته[1].

فمما لايشك فيه شاك، ولا يرتاب فيه مرتاب بأن ﴿ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره بيد الله، وجميع الأمور لله سبحانه وتعالى، فالحكم والشأن المتعلق بعموم ما يكون وما كان كله لله، مستند إليه أولًا، وبالذات بلا رؤية الأسباب والوسائل[2].

وبهذه الآيات وغيرها يثبت أن الخالق المدبر الموجد لجميع العوالم هو الحق سبحانه وتعالى القادر المقتدر، بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر، والله وأعلم.

ثانيًا: أنواع الأمر الإلهي:

١. الأمر القدري الكوني.

يتمثل في أمر الإنشاء والتكوين والإيجاد.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

يعني: فإذا قضى وقدر أمرًا يريد إنفاذه وإيجاده وإنشاءه، وإخراج المخلوق من العدم، فإنما يقول له: كن فيكون، ويوجد من غير توقف على شيء آخر، ولا معاناة ولا كلفة، أي: إن كل مخلوق يوجد بإرادة الله وحده، مما يدل على وجوده سبحانه، وبهذا يتبين أن إيجاد المخلوق يعتمد على أمرين: الأمر الإلهي بالإيجاد (أي الأمر القدري الكوني) وتلبس القدرة الإلهية بإيجاده وإظهاره، لا قبل ذلك، ففي حال العدم لا يظهر الشيء؛ إذ لا يوجد الأمر، ولا شيء بعد الإيجاد؛ لأن ما هو كائن لا يقال

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٣٩٥٢.

(٢) الفواتح الإلهية، الشيخ علوان ١/ ١٣٠.

له: كن[1].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٣٦].

فالمراد من الأمر هنا الأمر التكويني.

أي: إنما شأنه تعالى في إيجاد الأشياء أن يقول لما يريد إيجاده: تكون فيتكون، ويحدث فورًا بلا تأخير[2].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم. . .، وكلكم فقير إلا من أغنيت، فاسألوني أغنكم. . .، كذلك لا ينقص من ملكي، ذلك بأني جواد ماجد صمد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له: كن، فيكون)[3].

فالآيتان تنبهان على قدرة الله في الإحياء والإماتة، وعلى سرعة إنجاز الخلق والتكوين بمجرد إرادة الله الفعل.

٢. الأمر الشرعي الديني.

يتمثل الأمر الشرعي الديني في أمر الحق سبحانه وتعالى، وكذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم للعباد بالإيمان، والتوحيد، وأداء العبادات، والتكاليف الشرعية، والأمر بالتمسك بالأخلاق والقيم، فالأمر الشرعي الديني يشمل الأمر العلمي (الاعتقادي) والعملي (التكليفي) والتهذيبي (الأخلاقي).

وبالجملة يشمل كل ما هو مطلوب من العباد في جميع المجالات، وعلى كل الأصعدة، أي سواء أكانت تلك الأوامر متعلقة بمطلوب يتعلق بعلاقة العبد بربه، أو علاقته بغيره من البشر، أو علاقته بنفسه وذاته التي بين جنبيه، أم غير ذلك، فكل ما هو مطلوب من العبد يدخل تحت الأمر الشرعي[4].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

بيان لما أمر به اليهود والنصارى من التوحيد والإخلاص لله بعد أن ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وبين الحق ما أمر به النبي من قبل الحق سبحانه وتعالى ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٢٨٤.
(٢) تفسير المراغي ٢٢/ ٣٩.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٥/ ٢٩٤، رقم ٢١٣٦٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٢٣٨، رقم ٢٤٩٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٢، رقم ٤٢٥٧.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ٢/ ٩٣٤، رقم ٦٤٣٧.

(٤) ويدخل في هذا النوع كل الأوامر في القرآن والتي يطلب الحق،سبحانه وتعالى، من عباده الإتيان بها سواء أكانت بلفظ الأمر ومشتقاته أو بأي صيغة أخرى تدل على طلب الفعل.

فأمر النبي بعبادة الله، والإخلاص له، وهذا الأمر تدخل فيه الأمة المحمدية أيضًا، فهذا أمر شرعي ديني علمي أو اعتقادي، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فهنا أمرٌ للنبي بأمر أهله بالصلاة والصبر عليها، والصلاة من التكاليف العملية، فهذا أمر شرعي ديني تكليفي.

٣. الأمر الجزائي.

يتمثل في الجزاء المترتب على اتباع الأمر أو مخالفته، سواء أكان الجزاء دنيويًا أو أخرويًا، أي: حاضرًا أو مؤجلًا.

ومنه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

أي: إنما أمرهم إلى الله يتولى جزاءهم، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون بالعقاب، إذا وردوا للقيامة[(١)].

ومثله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦].

أي: فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم في الوقت المحدد نجينا صالحًا والذين آمنوا معه برحمة عظيمة كائنة منا[(٢)].

فأمر الله تمثل في الجزاء الذي لحق بهم، وهو الهلاك والدمار لعدم إيمانهم بالله ورسوله، والأمر الجزائي قد يكون أخرويًا كما في المثال الأول، وقد يكون دنيويًا كما في الثاني.

هذا عن مخالفة الأمر الإلهي، أما اتباع الأمر الإلهي فيكون له جزاء (إيجابي) هو الآخر كنتيجة طبيعية لتنفيذه، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

يعني: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الداعون إلى الخير، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فمقتضى القيام بحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه يؤدي إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ففي النص قصر، أي: نفي وإثبات، فهو يثبت الفلاح لهم، وينفي الفلاح عن غيرهم ممن لم يقم بهذا الواجب المقدس[(٣)].

ثالثًا: صفات الأمر الإلهي:

من خلال تتبع النصوص التي بينت الأمر الإلهي نجد أنه يتميز بعدة صفات أساسية:

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١٠، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٩١.

(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٣٦.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٣٤٨.

١. القسط.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[الأعراف: ٢٩].

وهذا بيانٌ للمأمور به، وهو العدل، يقول تعالى ذكره لنبيه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يزعمون أن الله أمرهم بالفحشاء كذبًا على الله: ما أمر ربي بما تقولون، بل ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل، هو الوسط من كل أمر، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط[١] ولهذا فـ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨].

وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعم المشركون والكفار من أن الله أمرهم بالفحشاء، أي: قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه واتبعوه، فالحق سبحانه وتعالى من صفات أمره أنه يأمر عباده في هذا القرآن بالعدل والإنصاف، فيجب أن نكون نحن -من جانبنا- من العادلين في حقه بتوحيده، وعدم الإشراك به، قال أبو سليمان: العدل في كلام العرب: الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمنعم بنعمته، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقه[٢].

فالله أمر بالفضائل، وبما تشهد العقول السليمة أنه صلاح محض، وأنه حسن مستقيم، فالقصاص من القاتل عدل بين إحلال الدماء وبين قتل الجماعة من قبيلة القاتل لأجل جناية واحد من القبيلة لم يقدر عليه، وأمر الله بالإحسان وهو عدل بين الشح والإسراف، فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائمًا للصلاح عاجلًا وآجلًا، أي: سالمًا من عواقب الفساد[٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

وإيثار صيغة المضارع في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، ولم يذكر سبحانه متعلقات العدل والإحسان؛ ليعم الأمر جميع ما يعدل فيه، وجميع ما يجب إحسانه وإتقانه من أقوال وأعمال، وجميع ما ينبغي أن تحسن إليه من إنسان أو حيوان أو غيرهما[٤].

٢. الظهور.

ويوضحه قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

قال ابن كثير: «لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة رمته العرب عن قوس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٧٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٦.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٢٠.

واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر، وأعلى كلمته، قال ابن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه -أي أقبل- فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله أغاظهم ذلك وساءهم»[1].

فالمنافقون والمشركون يكيدون المكائد، ويدبرون المؤامرات ويحيكونها ضد النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، إلى غاية هي مجيء الحق، وهو النصر لك والتأييد، وظهر أمر الله بإعزاز دينه، وإعلاء شرعه، وقهر أعدائه، وقيل: الحق القرآن، وهم كارهون، أي: والحال أنهم كارهون لمجيء الحق، وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم، فلن تفلح مكائد البشر من منافقين ويهود ومشركين وغيرهم، ولن تقف أي قوة في الدنيا أمام إرادة الله القاهرة لإعلاء دينه، وغلبة شرعه، ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم[2].

٣. النفاذ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء:٤٧]

فهنالك وعيد لليهود، ونذير راصد لهم باللعنة من عند الله، إن لم يؤمنوا بمحمد، وبما أنزل الله عليه، وقد وصفهم القرآن بأنهم أوتوا الكتاب مع أنهم ضيعوا جزءًا منه، وحرفوا جزءًا آخر تسجيلًا عليهم بالتقصير، واستحقاق العقاب، فهم يظنون أن الله مخلف وعيده لهم؛ لأنهم - كما زعموا- أبناء الله وأحباؤه، وكيف وقد وقع هذا العقاب بآبائهم وأخذهم الله به؟ أم يظنون أن الله إذا أراد أمرًا بهم، وساق شرًا إليهم أهناك من يدفع ما أراده الله بهم؟ فلينتظروا، وسوف يرون ما الله فاعل بهم[3].

وكان أمر الله بإيقاع شيء أو وعيده، أو ما حكم به وقضاه مفعولًا نافذًا وكائنًا، فيقع لا محالة ما أوعد وقضى به، فقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ معناه: أنه كان وما زال جميع ما أمر الله به وقضاه نافذًا لا محالة؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به تهديد هؤلاء الضالين المعاندين حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويدخلوا في صفوف المؤمنين[4].

فالمراد من الأمر: الأمر التكويني المعبر عنه بقوله عز من قائل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٦١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤١٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢٤٠.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٣/ ٨١١.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٧٧.

﴿شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أي: إنما أمره بإيقاع شيء ما[١] لابد من وقوعه، أي: ولابد أن يحدث.

٤. أمر الله له الغلبة.

ويشير إلى ذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

قيل: الهاء في ﴿أَمْرِهِۦ﴾ كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء، لا يغلبه شيء ولا يرد حكمه راد، يعني: غالبٌ على ما أراد من قضائه، لا يغلب غالبٌ على أمره، ولا يبطل إرادته منازعٌ.

فهو غالب على أمر نفسه فيما يريده ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أي: إذا أراد شيئًا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

أن الأمر كذلك فيما يأتون ويذرون زعمًا منهم أن لهم من الأمر شيئًا، وأنى لهم ذلك؟! وأن الأمر كله لله عز وجل، أو لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا فضله[٢].

ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

يبين القرآن الكريم ما يفتري به هؤلاء المشركين على الحق سبحانه وتعالى، ونسبتهم إليه الأحكام والشرائع الباطلة، فيقول: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ قال الطبري: «كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة على قبلها النسعة أو الشيء»[٣].

وقيل: كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا قيل: لم تفعلون ذلك؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها.

فتأويل الكلام إذًا: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء، قبيحًا من الفعل، وهو الفاحشة[٤]، وذلك تعريهم للطواف بالبيت، وتجردهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم، وعوتبوا عليه، قالوا: «وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستن بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه».

فيقول الله -جل ذكره- لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ﴾ خلقه ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ بقبائح الأفعال ومساويها ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أيها الناس

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١٠/ ٢٤٠، تفسير المراغي ٥/ ٦٥.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي ١/ ٥٤٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٢٦.

(٣) جامع البيان ١٨/ ٣٧٩.

(٤) انظر: تفسير الخازن ٢/ ١٩٢.

﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أتروون على الله أنه أمركم بالتعري والتجرد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك؟

فإنكم لم تسمعوا كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة، ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه؛ لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء، فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون؟

هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها هي في أنفسها قبيحة منكرة، فكيف يأمر الله تعالى بها، والله لا يأمر بالفحشاء، بل يأمر بما فيه مصالح العباد؛ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، والحث على مكارم الخصال[1].

يقول الإمام الرازي: «اعلم أنه ليس المراد منه أن القوم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش، ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها، فإن ذلك لا يقوله عاقل، بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسها فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات، وأن الله أمرهم بها، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين، أحدهما: إنا وجدنا عليها آباءنا، والثاني: إن الله أمرنا بها.

أما الحجة الأولى: فما ذكر الله عنها جوابًا؛ لأنها إشارة إلى محض التقليد، وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة؛ لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة، فلو كان التقليد طريقًا حقًا للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقًا، ومعلوم أنه باطل، ولما كان فساد هذا الطريق ظاهرًا جليًا لكل أحد لم يذكر الله تعالى الجواب عنه.

وأما الحجة الثانية: وهي قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

فقد أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ والمعنى: أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكرة قبيحة، فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها؟»[2].

وبهذا الرد القرآني دحضت أقوالهم، وتبين أن الله تعالى منزه عن الأمر بالفحشاء والمنكر والمعاصي.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥.

التعامل مع الأمر الإلهي وجزاؤه

بين القرآن أصناف الخلق في التعامل مع الأمر الإلهي، سواء كانوا ملائكة، أو رسلًا، أو مؤمنين، أو كافرين، أو منافقين، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: تعامل الملائكة مع الأمر الإلهي:

تعامل الملائكة مع الأمر الإلهي يتضح فيما يلي:

١. الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]

يقول الإمام الطبري: «يعني: على هذه النار ملائكة من ملائكة الله، غلاظ على أهل النار، شداد عليهم، لا يخالفون الله في أمره الذي يأمرهم به، وينتهون إلى ما يأمرهم به ربهم، فليست الجملتان في معنى واحد؛ إذ معنى الأولى: أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها، ومعنى الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به، ولا يتثاقلون عليه، ولا يتوانون فيه»[(١)].

وقال الألوسي: «فإن الأولى لبيان القبول باطنًا؛ فإن العصيان أصله المنع والإباء، وعصيان الأمر صفة الباطن بالحقيقة؛ لأن الإتيان بالمأمور إنما يعد طاعة إذا كان بقصد الامتثال، فإذا نفي العصيان عنهم دل على قبولهم، وعدم إبائهم باطنًا، والثانية لأداء المأمور به من غير تثاقل وتوانٍ على ما يشعر به الاستمرار المستفاد من ﴿وَيَفۡعَلُونَ﴾ فلا تكرار، وفي الحصول لا يعصون فيما مضى، على أن المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ في الآتي، وجوز أن يكون ذلك من باب الطرد والعكس، وهو كل كلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس، مبالغة في أنهم لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر الله عز وجل والغضب له سبحانه»[(٢)].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

فالله تعالى يثني على ملائكته الذين زعم فريق من المشركين أنهم بنات الله، فيقول: إنهم عباد أكرمهم الله واصطفاهم، يتبعون قوله، فلا يقولون شيئًا حتى يقوله تعالى، أو يأمرهم به كما هو شأن العبيد المؤدبين ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ فلا يعصونه في أمر، إشارة إلى مراعاتهم في أدب العبودية

(١) جامع البيان، ٢٣/ ٤٩٢.

(٢) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٥٢.

في الأفعال أيضًا كالأقوال[1].

ويؤكده قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم ٦٤].

٢. تقسيم أمره بين الخلائق.

قال تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

والمراد بالمقسمات: الملائكة، فإنهم يقسمون أرزاق العباد وأمورهم وشؤونهم على حسب ما يكلفهم الله تعالى به من شؤون مختلفة، و﴿أَمْرًا﴾ مفعول به للوصف الذي هو المقسمات، وهو مفرد أريد به الجمع، أي: المقسمات لأمور العباد بأمر الله تعالى وإرادته[2].

فعن أبي الطفيل أنه سمع عليًا رضي الله عنه يقول وهو على منبر الكوفة: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]؟ قال: الريح. ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾[الذاريات: ٢].قال: السحاب. ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣]؟ قال: السفن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]؟ قال: الملائكة[3].

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٨٩.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٠.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/ ٣٩٢.

وهناك فريق من العلماء من يرى أن هذا اللفظ راجع للرياح، ومن هؤلاء الإمام الرازي، حيث قال: «هذه صفات أربع للرياح، فالذاريات: هي الرياح التي تنشئ السحاب أولًا، والحاملات: هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار الماء. . .، والجاريات: هي الرياح التي تجرى بالسحب بعد حملها، والمقسمات: هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار»[4].

قال الألوسي محاولًا الجمع بين الرأيين: «ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات - كما هو الرأي المعول عليه- فالفاء للترتيب في الأقسام ذكرًا ورتبة، باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على كمال قدرته عز وجل، وهذا التفاوت إما على الترقي أو التنزل؛ لما في كل منها من الصفات التي تجعلها أعلى من وجه، وأدنى من آخر، وإن حملت على واحد وهو الرياح، فهي لترتيب الأفعال والصفات؛ إذ الريح تذرو الأبخرة إلى الجو أولًا، حتى تنعقد سحابًا، فتحمله ثانيًا، وتجرى به ثالثًا ناشرة وسائقة له إلى حيث أمرها الله تعالى، ثم تقسم أمطاره»[5].

يقول صاحب تفسير الوسيط: «ومع وجاهة رأى الإمام الرازي في هذه المسألة

(٤) مفاتيح الغيب ٧/ ٦٢٨.
(٥) روح المعاني ٧/ ٣٩١.

إلا أننا نؤثر عليه الرأي السابق؛ لأنه ثابت عن بعض الصحابة؛ ولأن كون هذه الألفاظ الأربعة لها معانٍ مختلفة أدل على قدرة الله تعالى وعلى فضله على عباده»[1].

وإنما ذكرهم بالمقسمات لأن الإنسان في الأجزاء الجسمية غير مخالف تخالفًا بينًا، فإن لكل أحد رأسًا ورجلًا، والناس متقاربة في الأعداد والأقدار، لكن التفاوت الكثير في النفوس، فإن الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف، وتلك القسمة المتفاوتة تتقسم بمقسم مختار ومأمور مختار، فقال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤][2].

قال ابن السائب: والمقسمات أربعة: جبريل، وهو صاحب الوحي والغلظة، وميكائيل، وهو صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل وهو صاحب الصور واللوح، وعزرائيل وهو قابض الأرواح، وإنما أقسم بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنعه وقدرته[3].

٣. تدبير الأمر بين الخلائق.

قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

يقول الإمام الطبري: يعني: فالملائكة المدبرة ما أمرت به من أمر الله، قال القشيري: أجمعوا على أن المراد: الملائكة، قال الجمل: اختلفت عبارات المفسرين في هذه الكلمات، هل هي صفات لشيء واحد أو لأشياء مختلفة؟ على أوجه:

واتفقوا على أن المراد بقوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وصف لشيء واحد، وهم الملائكة[4].

فقوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ المقصود به طائفة من الملائكة، من وظائفهم تدبير شأن الخلائق، وتنظيم أحوالهم بالطريقة التي يأمرهم سبحانه بها، فنسبة التدبير إليهم إنما هي على سبيل المجاز؛ لأن كل شيء في هذا الكون إنما هو بقضاء الله وتقديره وتدبيره[5].

قال ابن عباس رضي الله عنه: هم الملائكة، وكلوا بأمور عرفهم الله عز وجل العمل بها، وقال عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، واسمه عزرائيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر من الله تعالى، وأقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرفها...

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٦١.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٦٧.
(٤) حاشية الجمل ٤/ ٤٧٧.
(٥) الوسيط، طنطاوي ٢٠/ ١٢٦.

وقال الإمام الرازي: «لم قال: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ ولم يقل: أمورًا، فإنهم يدبرون أمورًا كثيرة لا أمرًا واحدًا؟ والجواب: أن المراد به الجنس، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع»[1].

ثانيًا: تعامل الرسل مع الأمر الإلهي:

يتمثل تعامل الرسل مع أمر الحق سبحانه وتعالى كما يلي:

١. الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

قال مجاهد عن ابن عباس –رضي الله عنهما-: لما شب حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم، والمعنى أن ينصرف معه ويعينه في علمه، اختبر إبراهيم فيه برؤية رآها، قال إبراهيم: يا بني إني أرى في المنام وحيًا من الله يطلب مني ذبحك، فانظر ماذا ترى؟ فقد امتثل لأمر الله سبحانه وتعالى وقال إسماعيل صابرًا محتسبًا، مرضيًا لربه، وبارًا بوالده: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أي: امض لما أمرك الله؛ لأني لا أتهمك في شفقتك، وحسن نظرك، ولا أتهم الله في قضائه، ثم قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فأخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى، وإنما علق المشيئة لله تعالى على سبيل التبرك والتيمن، فإنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله[2].

٢. الاتباع.

قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

قال الإمام الرازي: قال تعالى حكاية عن عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أن مفسرة، والمفسر هو الهاء في به الراجع إلى القول المأمور به، والمعنى: ما قلت لهم إلا قولًا أمرتني به؛ وذلك القول هو أن أقول لهم: اعبدوا الله ربي وربكم، واعلم أنه كان الأصل أن يقال: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، إلا أنه وضع القول موضع الأمر، نزولًا على موجب الأدب الحسن؛ لئلا يجعل نفسه وربه أمرين

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٢٩، مدارك التنزيل، النسفي ٤/ ٣٩١.

(٢) انظر: اللباب في بيان الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٣٣٠، نظم الدرر، البقاعي ١٦/ ٢٦٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٠٥.

معًا، ودل على الأصل بذكر أن المفسرة، ثم قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: كنت أشهد على ما يفعلون ما دمت مقيمًا فيهم، فلما توفيتني والمراد منه: وفاة الرفع إلى السماء، من قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ من قولي وفعلي، وقولهم وفعلهم[(١)].

وفي ذلك دليل واضح على شدة الاتباع لأمر الحق من قبل سيدنا عيسى عليه السلام فيما أمره الله به من عباده من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته.

٣. التبليغ.

قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

قال الضحاك: وفي قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ وجهان: أحدهما في الأحكام، الثاني في التبليغ.

وقال الإمام أبو الفرج: في ما أمر أن يعدل فيه قولان: أحدهما- في الأحكام إذا ترافعوا إليه، والثاني- في تبليغ الرسالة، وقال البيضاوي: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في تبليغ الشرائع والحكومات[(٢)].

والمعنى: أمرني ربي أن أعدل بينكم؛ وذلك بتبليغ الشرائع والأحكام، وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام، وقيل: معناه لأسوي بيني وبينكم، ولا آمركم بما لا أعمله، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أفرق بين أكابركم وأصاغركم[(٣)].

وعلى المعنى الآخر، قال الطبري: أي: قل لهم يا محمد: وأمرني ربي أن أعدل بينكم معشر الأحزاب، فأسير فيكم جميعًا بالحق الذي أمرني به، وبعثني بالدعاء إليه[(٤)].

٤. طلب التيسير.

قال تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٦].

قال الطبري: يعني: وسهل علي القيام بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة، أي: سهل علي ما بعثتني له، ففيها طلب الإعانة لتبليغ الرسالة؛ وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات فما لم يصر العبد مريدًا له استحال أن يصير فاعلًا له، فهذه

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٢/ ٢٢٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦٦، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٨٧.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٩٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٦٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٧٩.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٧.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٦.

الإرادة صفة محدثة، ولابد لها من فاعل، وفاعلها إن كان هو العبد افتقر في تحصيل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى، ولزم التسلسل، بل لابد من الانتهاء إلى إرادة يخلقها مدبر العالم، ففي الحقيقة هو الميسر للأمور[1].

قال ابن كثر: هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطبٍ جسيم، فقد بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفرًا، وأكثرهم جنودًا، وأعمرهم ملكًا، وأطغاهم وأبلغهم تمردًا، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلها غيره.

وفي زيادة كلمة ﴿لِي﴾ مع انتظام الكلام بدونها تأكيدٌ لطلب الشرح والتيسير بإبهام الشروح والميسر أولًا وتفسيرهما ثانيًا، وفي تقديمها وتكريرها إظهار مزيد اعتناءٍ بشأن كل من المطلوبين، وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له، واختصاصهما به[2].

ثالثًا: تعامل المؤمنين مع الأمر الإلهي:

يتعامل المؤمن مع الأمر الإلهي، وفق النقاط الآتية:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٩٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٥٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٨٢ إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٢.

١. الإيمان بما أمر الله به.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

قال ابن عباس رضي الله عنه وسعيد بن جبير: معنى: ﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ أي: الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم، قال القرطبي: والظاهر أنها في صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات[3].

وقال صاحب التحرير: «وما أمر الله به أن يوصل عام في جميع الأواصر والعلائق التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها، فمنها آصرة الإيمان، ومنها آصرة القرابة، وهي صلة الرحم، وقد اتفق المفسرون على أنها مراد الله هنا»[4].

وقال الإمام النسفي: «﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقرابات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم،

(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص٥٧٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣١٠.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٢٧.

وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: وعيده كله ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ خصوصًا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا»[1].

وهكذا يتبين لنا أن المؤمن الحقيقي يؤمن بكل ما يأمر الله تعالى به ويخشاه ويخافه.

٢. طلب التيسير.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[الكهف: ١٠].

قال الطبري: حين أوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل، هربًا بدينهم إلى الله، فقالوا إذ أووه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ رغبة منهم إلى ربهم في أن يرزقهم من عنده رحمة، ويسر لنا بما نبتغي وما نلتمس من رضاك والهرب من الكفر بك، ومن عبادة الأوثان التي يدعونا إليها قومنا ﴿رَشَدًا﴾ يقول: سدادًا إلى العمل بالذي تحب، أي: أرشدنا إلى ما يقرب منك، والمعنى: هيئ لنا من أمرنا ما نصيب به الرشد[2].

فقد سألوا الله أن يقدر لهم أحوالًا تكون عاقبتها حصول ما خولهم من الثبات على الدين الحق، والنجاة من مناوئة المشركين؛ وذلك طلب لتيسير أمورهم وأحوالهم، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق؛ فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم[3]. فالمؤمن الحقيقي يلجأ إلى الله؛ لأن هو من بيده التيسير فهو القادر المقتدر.

٣. الهداية به.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٧].

قال ابن القيم: «لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصر منوط بالطاعة، قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ قال القاضي: وهذا تأديب من الله تعالى في كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن، سواء كان في الجهاد أو غيره»[4].

(١) مدار التنزيل، النسفي ١/ ٤١٦.
(٢) جامع البيان، ١٧/ ٦٠٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧١.
(٤) زاد المعاد ٣/ ٢٠٢.

وهذا ما وصف به المتقين من قوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران: ١٣٥].

وقال الإمام الشوكاني: «قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ استثناء مفرغ، أي: ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون، أو قتل نبيهم إلا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ قيل: هي الصغائر، وقوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ قيل: هي الكبائر، والظاهر: أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبًا من صغيرة أو كبيرة، والإسراف: ما فيه مجاوزة للحد، فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين: هضمًا لأنفسهم، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن القتال، ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى بسبب ذلك ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ من النصر والغنيمة والعزة ونحوها، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن، وهو نعيم الجنة، جعلنا الله من أهلها، فهم قد ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم، وهكذا استعملوا الأمر في طلب الهداية، والعون من الله»[١].

٤. الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال الشوكاني: «أي: ما صح ولا استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين، ولفظ ما كان وما ينبغي ونحوهما معناهما المنع والحظر من الشيء، والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعًا، وقد يكون لما يمتنع عقلًا، كقوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠].

ومعنى الآية: أنه لا يحل لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمرًا أن يختار من أمر نفسه ما شاء، بل يجب عليه أن يذعن للقضاء، ويوقف نفسه على ما قضاه الله عليه، واختاره له»[٢].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لم يكن لمؤمن بالله ورسوله، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيعصوهما، ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا أو نهيا ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ يقول: فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدي والرشاد»[٣].

وروي في سبب نزول الآية: أنها نزلت في

(١) فتح القدير ١/ ٣٨٧.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٢٦.

(٣) جامع البيان ٢٠/ ٢٧١.

زينب بنت جحش، وكانت بنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضيت ورأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد بن حارثة أبت وأنكرت، فأنزل الله الآية، قال: فتابعته بعد ذلك ورضيت، وهكذا هو المؤمن الحقيقي يتعامل مع أمر الحق سبحانه وتعالى بالطاعة والامتثال[1].

قال ابن كثير: «هذه الآية عامة في جميع الأمور؛ وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ها هنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]»[2].

٥. الاتباع.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال الطبري: «يعني: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته عن رأيي واختياري، ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به، فهو كان عبدًا مأمورًا، فمضى لأمر الله واتبعه»[3].

قال الرازي: «يعني ما فعلت ما رأيت من هذه الأحوال عن أمري واجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله ووحيه؛ لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع»[4].

فكل ما فعله الخضر فإنما عن أمر من له الأمر، وهو الله، وهكذا كل مؤمن لا يسير خطوة، ولا ينفذ أمرًا إلا متبعًا لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

٦. الصبر والتقوى.

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم وفي أنفسهم، وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد، منها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجئون إلى

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ٦/ ٤٢٣.
(٣) جامع البيان ١٨/ ٩١.
(٤) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٩٢.

الصبر والتقوى[1].

قال أبو السعود: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ أي: تتخلقوا بالصبر على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها وتقابلوها بحسن التجمل ﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: تتبتلوا إلى الله تعالى بالكلية، معرضين عما سواه بالمرة، بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الصبر والتقوى، وما فيه من معنى البعد؛ للإيذان بعلو درجتهما، وبعد منزلتهما ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: الأشياء التي هي أهل لأن يعزم على فعلها، ولا يتردد فيه، ولا يعوق عنه عائق[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على إساءة إليه، ﴿وَغَفَرَ﴾ للمسيء إليه جرمه إليه، فلم ينتصر منه، وهو على الانتصار منه قادر، ابتغاء وجه الله، وجزيل ثوابه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يقول: إن صبره ذلك وغفرانه ذنب المسيء إليه لمن عزم الأمور التي ندب إليه عباده، وعزم عليهم العمل به»[3].

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه ومغفرته، ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، ولكنه يسيرٌ على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه[4].

قال صاحب التحرير: «وهذا ترغيب في العفو والصبر على الأذى؛ وذلك بين الأمة الإسلامية ظاهر، وأما مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلف بها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجح المصلحة في العفو أو في المؤاخذة»[5].

رابعًا: تعامل الكافرين والمنافقين مع الأمر الإلهي:

يتعامل الكافرون والمنافقون مع الأمر الإلهي بالرفض والامتناع، ويتضح ذلك كما يلي:

١. العتو.

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

قال البيضاوي: «فهذه الآية صفة للفاسقين للذم وتقرير الفسق، ثم قال مبينًا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٠.
(٢) إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٢٤.
(٣) جامع البيان ٢١/ ٥٥١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٢٣.

تعامل هؤلاء مع ما أمر الله به بعد أن بين نقضهم للعهود والمواثيق فقال: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يحتمل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام، والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شر، فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان، والاستهزاء بالحق، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه»[1].

فقوله عز وجل: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: قال الماوردي: أحدها: أن الذي أمر الله تعالى به أن يوصل هو رسوله، فقطعوه بالتكذيب والعصيان، وهو قول الحسن البصري، والثاني: أنه الرحم والقرابة، وهو قول قتادة، والثالث: أنه على العموم في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل[2].

فقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، وترك الجماعات المفروضة، وعدم وصل الأقوال الطيبة بالأعمال الصالحة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شر[3]. وجعل الآية عامة في كل قطيعة لا يرضاها الله هو الأولى والراجح في نظري؛ فالعبرة بعموم اللفظ كما على ذلك جمهور المفسرين.

ونظير تلك الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

٢. التكذيب.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

قال الإمام الطبري: «كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا قيل: لم تفعلون ذلك؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، فتأويل الكلام إذًا: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء قبيحًا من الفعل، وهو الفاحشة، وذلك تعريهم للطواف بالبيت وتجردهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم، وعوتبوا عليه، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستن بسنتهم،

(١) أنوار التنزيل ١/ ٦٥.
(٢) النكت والعيون، ١/ ٨٩.
(٣) الوسيط، طنطاوي ١/ ٨٧.

والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه»[1].

فقيل لهم: يعني أنكم سمعتم كلام الله تعالى ابتداءً من غير واسطة، ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه؛ لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء؛ فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون؟[2].

فليس المراد أن القوم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش، ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها، فإن ذلك لا يقوله عاقل، بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسها فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات، وأن الله أمرهم بها، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين:

أحدهما: إنا وجدنا عليها آباءنا.

والثاني: إن الله أمرنا بها...

وأما الحجة الثانية: وهي قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقد أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ والمعنى: أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكرة قبيحة فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها؟[3].

(١) جامع البيان ١٢/ ٣٧٩.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٩٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥.

٣. النفور.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

يقول تعالى منكرًا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: اسجدوا واخضعوا وتذللوا للرحمن، فالسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له بالوحدانية، وهو شعار الإسلام، ولم يكن السجود من عبادة مشركي قريش، وإنما كانوا يطوفون بالأصنام، ومقصدهم من ذلك إباء السجود لله؛ لأن السجود الذي أمروا به سجود لله بنية انفراد الله به دون غيره، وهم لا يجيبون إلى ذلك، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ فالنفور من السجود سابق قبل سماع اسم الرحمن، وزادهم ذكر الرحمن نفورًا أي: تباعدًا من الإيمان[4].

أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويفردونه بالإلهية، ويسجدون له، وكان سفيان الثوري يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعًا ما زاد عداك نفورًا، وكأنهم يقولون: تأمرنا بألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، وتريد أن تأمرنا أيضًا بأن نسجد لهذا الرحمن.

قال الطبري: يعني وزاد هؤلاء المشركين

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٢٦.

قول القائل لهم: اسجدوا للرحمن من إخلاص السجود لله، وإفراد الله بالعبادة بعدًا مما دعوا إليه من ذلك فرارًا[1].

خامسًا: تعامل إبليس وذريته مع الأمر الإلهي:

تعامل إبليس مع الأمر الإلهي يتمثل فيما يلي:

١. الكبر والغرور.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال العلماء: الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد، وكان أضمر ذلك في نفسه إذا أمر بذلك، وقال الإمام النسفي: «والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره»[2].

فقد كان أمره من قبل خلق آدم، يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

فكأنه دخله أمر عظيم من قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فإن في الوقوع توضيع الواقع وتشريفًا لمن وقع له، فأضمر في نفسه ألا يسجد إذا أمره في ذلك الوقت، فلما نفخ فيه الروح وقعت الملائكة سجدًا، وبقي هو قائمًا بين أظهرهم، فأظهر بقيامه وترك السجود ما في ضميره. . .، قلت: يعني من الكبر والاستكبار لأمر الله.

ثم قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي: منعني من السجود فضلي عليه، فهذا من إبليس جواب على المعنى، فليس هذا عين الجواب، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فرأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوها وصعودها وخفتها؛ ولأنها جوهر مضيء.

قال ابن عباس رضي الله عنه والحسن وابن سيرين: أول من قاس إبليس، فأخطأ القياس، فمن قاس الدين برأيه قرنه مع إبليس، قال ابن سيرين: وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق[3].

فهو مما لاشك فيه أول من أسس بنيان التكبر والمعاندة والعصيان للأوامر الإلهية؛ ولأن الباعث على قوله هذا التكبر، وليس الدليل؛ لذلك قال الله تعالى له: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

(١) الطبري ١٩/ ٢٨٨ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٣/ ٦٤ وتفسير أبي زهرة ١٠/ ٥٣٠٧.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٥٧.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٧١.

﴿مِنَ الصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف ١٣].

٢. الرفض والخروج على أوامر الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

فقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ يعني: فخرج عن أمر ربه، وعدل عنه ومال، وعن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ قال: في السجود لآدم، فالمعنى: أنه: عتا وعصى، وأصل الفسق: الخروج، أي: خرج عن أمر ربه، وكذلك قال القتبي: ففسق، أي: خرج عن طاعته، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، يعني: أنه خرج عن أمر ربه إلى معصيته في ترك السجود، وذكر هذا الزمن بأحداثه وما قيل فيه استحضار لصورته، وكيف عصى إبليس ربه، وعاند في الخضوع لأمر الله تعالى بالنسبة لآدم[1].

قال الإمام الشعراوي: «لقد جاء القرآن بالنص الصريح الذي يوضح جنسيته، فليس لأحد أن يقول: إنه من الملائكة، وما دام كان من الجن، وهم جنس مختار في أن يفعل أو لا يفعل، فقد اختار ألا يفعل: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

أي: رجع إلى أصله، وخرج عن الأمر، أي: فخرج بذلك عن طاعتنا، واستحق لعنتنا وغضبنا»[2].

سادسًا: جزاء اتباع الأمر الإلهي في الدنيا والآخرة:

١. الفلاح في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ففي الآية السابقة حثٌ لأتباع أمة النبي محمد على الأمر بالمعروف والنهي والمنكر، والمراد بالأمة هنا الطائفة من الناس التي تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف ما حسنه الشرع، وتعارف العقلاء على حسنه، والمنكر ضد ذلك، كما أن الآية تومئ إلى الحث على الدعوة إلى ما يصلح من شأن الناس، من خلال أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التي توافق الكتاب والسنة والعقول السليمة، ونهيهم عن المنكر الذي يأباه شرع الله، وتنفر منه الطباع الحسنة؛ ولقد أعد الله لمن يفعلون ذلك الفلاح في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي:

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٧/ ١٨٥.

(٢) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٣٥.

هؤلاء هم المختصون بالفلاح الكامل، فقد ختم سبحانه الآية الكريمة بتبشير هؤلاء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو الظفر، وإدراك البغية، أي: وأولئك القائمون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هم الكاملون في الفلاح والنجاح، ولا يمكن أن يفلح سواهم ممن لم يقم بهذا الواجب الذي هو مناط عزة الجماعات والأفراد، وأساس رفعتهم وقوتهم وسعادتهم[(١)].

وقد روى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[(٢)].

٢. الصلاح.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

يقول الإمام النسفي: «وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من الصالحين، أي: من المسلمين، أو من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله، ورضيهم، واستحقوا رضاه وثناءه»[(٣)].

وهذا غاية المدح من وجهين:

الأول: أن الله مدح بهذه الصفة أكابر الأنبياء، فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤].

الثاني: أن الصلاح ضد الفساد، فكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء أكان ذلك في العقائد أم في الأعمال، وإذا كان كذلك كان كل ما ينبغي أن يكون صلاحًا، فكان الصلاح دالًا على أكمل الدرجات[(٤)].

قال القفال: ولا يبعد أن يقال: المراد: كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فسماهم الله بأهل الكتاب، كأنه قيل: أولئك الذين سموا أنفسهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة، والمسلمون الذين سماهم الله بأهل الكتاب حالهم وصفتهم هكذا، فكيف يستويان؟ فيكون الغرض -من هذه الآية- تقرير فضيلة أهل الإسلام، تأكيدًا لما تقدم من قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٢٠٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، ١/ ٦٩، رقم ٤٩.
(٣) مدارك التنزيل ١/ ٢٨٤.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٤٨١.

عمران: ١١٠].

ونظيره قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

منهم: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٣].

قيل: قائمة في الصلاة، يتلون آيات الله، فعبر بذلك عن تهجدهم[(١)].

٣. الفوز.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [: ٥٢].

يقول الإمام الطبري: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمره ونهاه، ويسلم لحكمهما له وعليه، ويخف عاقبة معصية الله ويحذره، ويتق عذاب الله بطاعته إياه في أمره ونهيه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ يقول: فالذين يفعلون ذلك ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ برضا الله عنهم يوم القيامة، وأمنهم من عذابه[(٢)].

وذكر أن عمر رضي الله عنه بينما هو قائم في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه، وهو يقول: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقال له عمر: ما شأنك؟ قال: أسلمت لله، قال: هل لهذا سبب؟! قال: نعم! إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيرًا من كتب الأنبياء، فسمعت أسيرًا يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت: قال: ما هذه الآية؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ﴾ في الفرائض ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في السنن ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ فيما مضى من عمره ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقي من عمره ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة، فقال عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أوتيت جوامع الكلم)[(٣)].

فهذه الآية جامعة لأسباب الفوز والنجاح والفلاح، فقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة[(٤)].

يقول صاحب الظلال: «وعد الله ولن يخلف الله وعده، وهم للفوز أهل، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم، فالطاعة لله ورسوله تقتضي السير على النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة، وهو بطبيعته يؤدي إلى الفوز في الدنيا والآخرة، وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج، وإغفال المغريات التي تهتف بهم على جانبيه، فلا ينحرفون ولا يلتفتون، وأدب الطاعة لله ورسوله، مع خشية الله وتقواه، أدب رفيع، ينبئ عن مدى

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٨١.
(٢) جامع البيان ١٩/ ٢٠٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٥.

إشراق القلب بنور الله، واتصاله به، وشعوره بهيبته، كما ينبئ عن عزة القلب المؤمن واستعلائه، فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله، ولا تستمد منها، هي ذلة يأباها الكريم، وينفر منها طبع المؤمن، ويستعلي عليها ضميره، فالمؤمن الحق لا يحني رأسه إلا لله الواحد القهار»[1].

٤. طيب الحياة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ففي الآية السابقة حثٌّ للمؤمنين على الاستجابة لأمر الرسول إذا دعاهم إلى شيء، فإن في الاستجابة لأمره إحياءً للنفوس، واختير في تعريفهم عند النداء وصف الإيمان ليومئ إلى أن الإيمان هو الذي يقتضي أن يثقوا بعناية الله بهم، فيمتثلوا أمره إذا دعاهم، وليس قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ قيدًا للأمر باستجابة، ولكنه تنبيه على أن دعاءه إياهم لا يكون إلا إلى ما فيه خير لهم، وإحياء لأنفسهم[2].

والمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله حق الإيمان ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ عن طواعية واختيار، ونشاط وحسن استعداد ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ أي: إلى ما يصلح أحوالكم، ويرفع درجاتكم، من الأقوال النافعة، والأعمال الحسنة، التي بالتمسك بها تحيون حياة طيبة، وتظفرون بالسعادتين الدنيوية والأخروية[3].

فأجيبوا دعوته بقوة وعزم، كما قال في آية أخرى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: ٦٣].

وطاعته صلى الله عليه وسلم واجبة في حياته، وبعد مماته فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمور الدين الذي بعثه الله به، كبيانه لصفة الصلاة وعددها قولًا أو فعلًا، فقد صلى بأصحابه وقال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[4].

وقال: (خذوا عني مناسككم)[5].

وبيانه لمقادير الزكاة وغيرها من السنن العملية المتواترة وأقواله كذلك، فكل من ثبت لديه شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم وجب عليه الاهتداء به[6].

والضمير في قوله: ﴿دَعَاكُمۡ﴾ يعود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله؛ ولأن في الاستجابة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣١١.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٧٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٨/ ٩، ٦٠٠٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر، ٢/ ٩٤٣، رقم ١٢٩٧.
(٦) تفسير المراغي ٩/ ١٨٧.

له استجابة لله تعالى.

قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠][(١)].

تكلم الإمام ابن القيم كلامًا نفيسًا حول هذه الآية فقال رحمه الله: «إن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء، وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان؛ ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول»[(٢)].

الأمر الإنساني وجزاء اتباعه

بين القرآن الكريم أوامر الإنسان، سواء كان من الرسل أو المؤمنين أو المنافقين أو الجبابرة والمسرفين، وبين جزاء اتباع هذه الأوامر، وسوف نتناول هذه الأوامر بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أوامر الرسل عليهم السلام:

الرسل أرسلهم الحق سبحانه وتعالى لإسعاد الناس وهدايتهم؛ ولذلك يمكن إبراز أوامر الرسل كما يلي:

١. عبادة الله واجتناب عبادة الطاغوت.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

إن من الطبيعي أن يكون أول أمر للرسل لأقوامهم الأمر بعبادة الله وحده، وهذا ما جسده النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول الإمام الألوسي: «﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ جليل الشأن وهو الله سبحانه، ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه، فإن ذلك مناف

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٧٣.
(٢) التفسير القيم ١/ ٢٩٨.

لعبادته جل شأنه، وأما إطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر من أمر الله بطاعته فهي في الحقيقة إطاعة لله عز وجل، وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أربابًا من المسيح عليه السلام والأحبار والرهبان إلا ليطيعوا أو ليوحدوا الله تعالى، فكيف يصح أن يكونوا أربابًا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم؟! ولا يخفى أن تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعة أيضًا به تعالى، ومتى لم يخص به جل شأنه لم تخص العبادة به سبحانه ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له، أي: تنزيه عن الإشراك به في العبادة والطاعة، والمراد بالآية: اتخذ كل من الفريقين علماءهم -لا الكل- أربابًا من دون الله بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله تعالى، وتحليل ما حرمه سبحانه، وهو التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحق أحق بالاتباع، فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه»[1].

فهو اتهام لهم، وكشف عن وجه من وجوه الضلال الذي ركبوه، وهو أنهم انقادوا لأحبارهم ورهبانهم، وجعلوا لهم الكلمة فيهم، والعقل المدبر لهم، فكلمة الأحبار والرهبان لهم هي الكلمة التي لا معقب عليها عندهم، حتى لكأنها كلمات الله عند المؤمنين بالله[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[الفرقان: ٦٠].

وكأنهم يقولون: تأمرنا بألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، وتريد أن تأمرنا أيضًا بأن نسجد لهذا الرحمن، كأن المسألة بيننا وبينك ليس أمر التوحيد تدعو إليه، إنما أنت تعادي آلهتنا بآلهة أخرى، ومرماهم أنك تتحكم في عبادتنا، ولا تخالفنا في شركنا[3].

فالآية الكريمة تحكي ما جبل عليه أولئك المشركون من استهتار وتطاول وسوء أدب، عندما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إخلاص العبادة لله عز وجل، وإلى السجود للرحمن الذي تعاظمت رحماته، وتكاثرت آلاؤه، ولقد بلغ من تطاول بعضهم أنهم كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا ذاك الذي باليمامة، يعنون به مسيلمة الكذاب[4].

٢. الإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

(١) روح المعاني ١/ ٧٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ٧٤٣.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٥٣٠٧.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢١٥.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥].

يقول الإمام أبو الفرج الجوزي: والمعنى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلا أن يعبدوا الله، موحدين لا يعبدون سواه، ﴿حُنَفَآءَ﴾ على دين إبراهيم، ﴿وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة في أوقاتها، ﴿وَيُؤْتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عند وجوبها؛ وذلك الذي أمروا به هو دين القيمة، قال الزجاج: أي دين الأمة القيمة بالحق، ويكون المعنى: ذلك الدين دين الملة المستقيمة[(١)].

قال الإمام ابن العربي: «أمر الله عباده بعبادته، وهي أداء الطاعة له بصفة القربة؛ وذلك بإخلاص النية بتجريد العمل عن كل شيء إلا لوجهه؛ وذلك هو الإخلاص، وإذا ثبت هذا فالنية واجبة في التوحيد؛ لأنها عبادة، فدخلت تحت هذا العموم دخول الصلاة»[(٢)].

يقول الإمام الرازي: «فثبت أن المراد: وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين، والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلابد وأن يكون منويًا. . .»[(٣)] ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

ويقول الإمام النسفي: «والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، وتجريدها عن شوائب الرياء، وهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه، والواجب لوجوبه، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلابد وأن يكون منويًا، فلابد من اعتبار النية في جميع المأمورات»[(٤)].

فالإخلاص: التصفية والإنقاء، أي: غير مشاركين في عبادته معه غيره، وحنفاء: جمع حنيف، وهو لقب للذي يؤمن بالله وحده دون شريك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وهذا الوصف تأكيد لمعنى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، مع التذكير بأن ذلك هو دين إبراهيم عليه السلام الذي ملئت التوراة بتمجيده، واتباع هديه.

فمن أهم وأعظم ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٢/ ٣٥٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٧٦.
(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٦٤٣.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ٢٢/ ٢٤٢.
(٤) انظر: مدارك التنزيل ٤/ ٤٥٥.

من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦][(١)].

٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يبين القرآن صفة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء الذين بشروا أممهم ببعثته، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فمن صفة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله صلى الله عليه وسلم أنه لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه.

والمعروف ما تعرف العقول السليمة حسنه، وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للفطرة والمصلحة، بحيث لا يستطيع العاقل المنصف السليم الفطرة أن يرده، أو يعترض عليه إذا ورد الشرع به، والمنكر ما تنكره العقول السليمة، وتنفر منه القلوب، وتأباه على الوجه المذكور أيضًا[(٢)].

٤. القتال.

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [: ٥٣].

يقول الإمام الطبري: يقول تعالى ذكره يعني: وحلف هؤلاء المعرضون عن حكم الله وحكم رسوله إذ دعوا إليه ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: بأغلظ أيمانهم وأشدها ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ يا محمد بالخروج إلى جهاد عدوك وعدو المؤمنين، أي: إذا أمرتهم بالقتال والاستعداد له ﴿لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ لا تحلفوا، فإن هذه ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ منكم فيها التكذيب، يعني: قل لهم -أيها الرسول الكريم- على سبيل السخرية والزجر، لا تقسموا على ما تقولون، فإن طاعتكم معروف أمرها، ومفروغ منها، فهي طاعة باللسان فقط.

أما الفعل فيكذبها؛ وذلك أن المنافقين

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٨١.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ١٩٧.

كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أينما كنت نكن معك، لئن خرجت خرجنا، وإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا. . .، ثم قال الحق: إن الله ذو خبرة بما تعملون من طاعتكم الله ورسوله، أو خلافكم أمرهما، أو غير ذلك من أموركم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم بكل ذلك[1].

٥. ثمرة الشورى.

يقول تعالى مخاطبًا النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول الإمام الطبري: «اختلف أهل التأويل في المعنى الذي من أجله أمر تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاورهم، وما المعنى الذي أمره أن يشاورهم فيه؟

فقال بعضهم: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ بمشاورة أصحابه في مكايد الحرب، وعند لقاء العدو، تطييبًا منه بذلك أنفسهم، وتألفًا لهم على دينهم؛ وليروا أنه يسمع منهم، ويستعين بهم، وإن كان الله عز وجل قد أغناه بتدبيره له أموره، وسياسته إياه وتقويمه أسبابه عنهم، فأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه في الأمور، وهو يأتيه وحي السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضًا، وأرادوا بذلك وجه الله، عزم لهم على أرشده»[2].

وقال آخرون: إنما أمره الله بمشاورة أصحابه فيما أمره بمشاورتهم فيه، مع إغنائه بتقويمه إياه، وتدبيره أسبابه عن آرائهم، ليتبعه المؤمنون من بعده فيما حزبهم من أمر دينهم، ويستنوا بسنته صلى الله عليه وسلم في ذلك، ويحتذوا المثال الذي رأوه يفعله في حياته من مشاورته في أموره -مع المنزلة التي هو بها من الله- أصحابه وأتباعه في الأمر ينزل بهم من أمر دينهم ودنياهم، فيتشاوروا بينهم، ثم يصدروا عما اجتمع عليه ملؤهم؛ لأن المؤمنين إذا تشاوروا في أمور دينهم متبعين الحق في ذلك لم يخلهم الله عز وجل من لطفه وتوفيقه للصواب من الرأي والقول فيه، قالوا: وذلك نظير قوله عز وجل الذي مدح به أهل الإيمان: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ٣٨].

ثم قال: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه، ومكايد حربه، تألفًا منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٦، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٥٧.

(٢) جامع البيان ٧/ ٣٤٤.

يؤمن عليه معها فتنة الشيطان وتعريفًا منه أمته مأتى الأمور التي تحزبهم من بعده ومطلبها؛ ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعله، فأما النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله كان يعرفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه، أو إلهامه إياه صواب ذلك، وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك على تصادقٍ وتآخٍ للحق، وإرادة جميعهم للصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حيد عن هدى، فالله مسددهم وموفقهم[1].

٦. الأمر بالصلاة والزكاة.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

يقول الإمام الرازي: «قوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ والأقرب في الأهل أن المراد به من يلزمه أن يؤدي إليه الشرع، فيدخل فيه كل أمته من حيث لزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة، هذا إذا حمل الأمر على المفروض من الصلاة والزكاة، فإن حمل على الندب فيهما كان المراد أنه كما كان يتهجد بالليل يأمر أهله، أي: من كان في داره في ذلك الوقت بذلك، وكان نظره لهم في الدين يغلب على شفقته عليهم في الدنيا، بخلاف ما عليه أكثر الناس، وقيل: كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

وأيضًا فهم أحق أن يتصدق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى، فأما الزكاة فعن ابن عباس رضي الله عنه أنها طاعة الله تعالى والإخلاص، فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه، والظاهر أنه إذا قرنت الزكاة إلى الصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة، وكان يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة، فيأمرهم بذلك، أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء، ورابعها: قوله: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ وهو في نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات»[2].

ثانيًا: أوامر المؤمنين:

لاشك أن أوامر المؤمنين ستكون متفقة مع المنهج النبوي الذي يحقق السعادة لمتبعها في الدنيا والآخرة، ويمكن إيضاح أوامر المؤمنين كما يلي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٤، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٤١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٥٠.

١. الأمر بالمعروف.

قال تعالى متحدثًا عن صفات المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

يذكر الحق سبحانه أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة، وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة، فمن أوصافهم: أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقال تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: يأمرون الناس بكل خيرٍ وجميلٍ يرضي الله، وينهونهم على كل قبيح يسخط الله، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف[1].

وهذا ما أمر به لقمان ابنه بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

فالمؤمن الحقيقي يتخذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساسًا ومنهجًا له بضوابط وأصول الشرع.

٢-٣. الصدقة والإصلاح بين الناس.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

فقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ قيل المراد بهم: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآية عامة في حق جميع الناس، والنجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما ينفرد بتدبيره قوم سرًا كان أو جهرًا، فمعنى الآية: لا خير في كثير مما يدبرونه بينهم، والله تعالى جعل النجوى مظنة الإثم والشر غالبًا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا في نجوى من أمر بصدقة، فالنجوى تكون فعلًا، وقيل: هذا استثناء منقطع، يعني: لكن من أمر بصدقة، وقيل: النجوى ها هنا الرجال المتناجون، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: ٤٧].

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: حث عليها ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع، وأعمال البر كلها معروف؛ لأن العقول تعرفها.

فينبغي لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجله حذار فواته، ويبادر به خيفة عجزه؛

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٥٠٩.

وليعلم أنه من فرض زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بالقدرة، ففاتت، فأعقبت ندمًا.

ويقول الإمام الرازي: وإنما ذكر الله هذه الأقسام الثلاثة، وذلك لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة، أو بدفع المضرة، أما إيصال الخير، فإما أن يكون من الخيرات الجسمانية، وهو إعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ وإما أن يكون من الخيرات الروحانية، وهو عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم، أو تكميل القوة العملية بالأفعال الحسنة، ومجموعهما عبارة عن الأمر بالمعروف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وأما إزالة الضرر، فإليها الإشارة بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فثبت أن مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية[1].

فلقد حض القرآن على الإصلاح بين الناس سواء أكانوا جماعات أم أفرادًا؛ لأن التخاصم والتنازع يؤدي إلى انتشار العداوات والمفاسد بين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات: ٢١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟) قال: قلنا: بلى، قال: (إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة)[2].

٤. ثمرة الشورى.

قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

يقول الإمام ابن عاشور: «فإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب، وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام؛ أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان، وأي أمر أعظم من أمر الإيمان»[3].

فمن ثمرة أمرهم بالشورى: أنه لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعًا عن اجتماعهم وتوالفهم وتواددهم وتحابيهم، وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرًا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها اجتمعوا لها، وتشاوروا، وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٨٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤٥/ ٥٠٠، رقم ٢٧٥٠٨، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، ٤/ ٢٨٠، رقم ٤٩١٩، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب سوء ذات البين، ٤/ ٢٤٤، رقم ٢٥٠٩، وصححه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٠٦، رقم ٢٥٩٥.

(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ١١٢.

لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها؛ وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عمومًا، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية[1].

ولذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على الائتمار بالمعروف بين الزوجين، فقال: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

ثالثًا: أوامر المنافقين:

مما لا يحتاج إلى بيان أن أوامر المنافقين تنصب في جانب الشر والفساد، وتوصل متبعها إلى الهلاك والخسران، وهذا ما بينه القرآن من خلال إبرازه لأوامر المنافقين، والمظهرة كما يلي:

١. الأمر بالمنكر.

قال تعالى: ﴿وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

يقول تعالى ذكره: في شأن المنافقين والمنافقات، وهم الذين يظهرون للمؤمنين الإيمان بألسنتهم، ويسرون الكفر بالله ورسوله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعضهم على دين بعض، وقال مقاتل: بعضهم أولياء بعض، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ وهو الكفر، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد.

والثاني: عن كل خير، قاله قتادة.

والثالث: عن الجهاد في سبيل الله.

والرابع: عن رفعها في الدعاء إلى الله، ذكرهما الماوردي[2].

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة[3].

قال الإمام الرازي: «اعلم أن هذا شرح لنوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم، والمقصود: بيان أن إناثهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة، والأفعال الخبيثة،

(١) انظر: التيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٥٩.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٣.

أي: في صفة النفاق؛ وذلك كما يقول إنسان لآخر: أنت مني وأنا منك، أي: أمرنا واحد لا مباينة فيه ولا مخالفة»[1].

قال الإمام الزمخشري: أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦].

وتقرير قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ كالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ كالإيمان والطاعات[2].

٢. الأمر بالبخل.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

وقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

فالحق سبحانه يقول: إن الله لا يحب المختال الفخور، الذي يبخل، ويأمر الناس بالبخل، و(البخل) في كلام العرب: منع الرجل سائله ما لديه، وعنده ما فضل عنه، و(الشح): أن يشح على ما في أيدي الناس، ويحب أن يكون له ما في أيدي الناس بالحل والحرام، لا يقنع، وقد قيل: إن الله جل ثناؤه عنى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ الذين كتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم وصفته من اليهود، ولم يبينوه للناس، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

والمراد بهذه الآية في قول ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: اليهود، فإنهم جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتمان ما أنزل الله من التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: المراد المنافقون الذين كان إنفاقهم وإيمانهم تقية، والمعنى: إن الله لا يحب كل مختال فخور، ولا الذين يبخلون ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ توعد المؤمنين الباخلين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذابًا مهينًا[3].

٣. أمر الغير بالبر دون النفس.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

اختلف العلماء في المراد بالبر في هذا الموضع على وجوه، أحدها: وهو قول السدي: أنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وينهونهم عن معصية الله، وهم كانوا

(١) مفاتيح الغيب، ٤/ ٤٧٠.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٨٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٣.

يتركون الطاعة، ويقدمون على المعصية... وسادسها: لعل المنافقين من اليهود كانوا يأمرون باتباع محمد صلى الله عليه وسلم في الظاهر، ثم إنهم كانوا في قلوبهم منكرين له فوبخهم الله تعالى عليه، وسابعًا: أن اليهود كانوا يأمرون غيرهم باتباع التوراة، ثم إنهم خالفوه؛ لأنهم وجدوا فيها ما يدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم ما آمنوا به[1].

أي: أتأمرون الناس بالطاعة، وتتركون أنفسكم فلا تتبعونه، وأنتم تقرؤون التوراة فيها نعته وصفته، أفلا تعقلون أنه حق فتتبعونه؟ والعقل مأخوذ من عقال الدابة، وهو ما يشد به ركبة البعير فيمنعه من الشرود، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود[2].

فالمراد بقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتنسون أنفسكم أنكم تغفلون عن حق أنفسكم، وتعدلون عما لها فيه من النفع، أما قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ فمعناه: تقرؤون التوراة وتدرسونها، وتعلمون بما فيها من الحث على أفعال البر والإعراض عن أفعال الإثم، وأما قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فهو تعجب للعقلاء من أفعالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧][3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت ليلة أسري بي رجالًا تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب)[4].

رابعًا: أوامر الجبابرة والمسرفين:

تتمثل أوامر الجبابرة والمسرفين كما يلي:

١. أمرهم بالكفر بالله.

كما قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

فالآية تشير إلى ما قاله الأتباع للرؤساء في الضلال: قالوا لهم: صدنا مكركم بنا، وخداعكم في الليل والنهار حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أمثالًا وأشباهًا في العبادة، وإجمال ذلك: ما صدنا إلا مكركم أيها الرؤساء بالليل والنهار حتى أزلتمونا عن عبادة الله، فأنتم كنتم تغروننا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٨٨.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٨٩.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٣/ ٤٨٨.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢١/ ١٥٨، رقم ١٣٥١٥، وابن حبان في صحيحه، ١/ ٢٤٩، رقم ٥٣.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ١/ ١٨٣.

وتمنوننا وتخبروننا أننا على الهدى، وإنا على شيء، وكل ذلك باطل وكذب، وهذا تطاول من المستضعفين على مستكبريهم لما رأوا قلة غنائهم عنهم واحتقروهم، حين علموا كذبهم وبهتانهم، وقد حكي نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾[البقرة: ١٦٦].

والمراد بالذين استضعفوا: الأتباع والعامة من الناس، والمراد بالذين استكبروا: الزعماء والقادة والرؤساء[(١)].

وهذا ما فعله فرعون وتبعه فيه قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦-٩٧].

قال الزجاج: يعني: بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة بينة، ثم قال: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: شأنه وحاله، وهو ما أمرهم به من عبادته واتخاذه إلهًا، وخالفوا أمر الله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: مرشد إلى خير[(٢)]. أو بسديد يؤدي إلى صواب.

٢. الأمر بعبادة غير الله.

كما قال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُوِّنِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[الزمر: ٦٤].

وهذه كنتيجة لما قبلها، أو هي من لاوازم الأمر بالكفر بالله.

يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمد لمشركي قومك، الداعين إلى عبادة الأوثان: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ أيها الجاهلون بالله ﴿تَأْمُرُوِّنِّي﴾ أن ﴿أَعْبُدُ﴾ ولا تصلح العبادة لشيء سواه؛ وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك، قال مقاتل: وذلك أن كفار قريش دعوه إلى دين آبائه[(٣)].

وأقول: نظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

وإنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقًا للأشياء، وبكونه مالكًا لمقاليد السماوات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة، فقد بلغ في الجهل مبلغًا لا مزيد عليه؛ فلهذا السبب قال: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ولاشك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع[(٤)].

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٠٩.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٩٩، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٩٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢٢.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٣٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٧١.

٣. الأمر بالفاحشة.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فتقول امرأة العزيز لسيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ يعني: وإن لم يطاوعني فيما دعوته إليه، أي: فيما قد أمرته فيما تقدم ذكره عند أن أغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك، يعني حينما طلبت منه الفحشاء فأبى، ولئن لم يفعل ما أمره به مستقبلًا ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: ليعاقبن بالسجن والحبس ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يعني: من الأذلاء المهانين، فقال النسوة ليوسف: أطع مولاتك فيما دعتك إليه، فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعدته المرأة بذلك، والمراد: أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار، ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس، عظيم الخطر، مثل يوسف عليه السلام[(١)].

٤. يقتلون الذين يأمرون بالقسط.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

قال الإمام القرطبي: «قال أبو العباس المبرد: كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوهم، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام فقتلوهم، ففيهم نزلت هذه الآية، وكذلك قال معقل بن أبي مسكين: كانت الأنبياء -صلوات الله عليهم- تجيء إلى بني إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قوم ممن اتبعهم فيأمرون بالقسط، أي بالعدل، فيقتلون»[(٢)].

وهذا ذمٌّ من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديمًا وحديثًا، التي بلغتهم إياها الرسل، استكبارًا عليهم، وعنادًا لهم، وتعاظمًا على الحق، واستنكافًا عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر[(٣)].

ومثله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٥١، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٢٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧.

﴿فَأَخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

٥. الإفساد في الأرض من الشرك ومخالفة الحق.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

يقول الإمام ابن كثير: أي: «أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلًا ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق»[(١)].

ويقول الإمام الشوكاني: «﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المشركين، وقيل: الذين عقروا الناقة، ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: ذلك دأبهم يفعلون الفساد في الأرض، ولا يصدر منهم الصلاح ألبته»[(٢)].

جزاء اتباع الأمر الإنساني

لاشك أن اتباع أمر الأنبياء والمؤمنين يتبعه الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، أما اتباع أمر المنافقين والكافرين سيكون عاقبته الخسران والضلال المبين، وهذا ما بينه القرآن الكريم كما يلي:

أولًا: جزاء اتباع أمر المؤمنين والأنبياء:

١. الوصف بالفلاح.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

جاء في تفسير الخازن: «﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ يعني: بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ يعني: وقروه وعظموه، وأصل التعزير: المنع والنصرة، وتعزير النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه وإجلاله، ودفع الأعداء عنه، وهو قوله ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ يعني: على أعدائه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ يعني: القرآن، سمي القرآن نورًا

(١) المصدر السابق ٦/ ١٥٦.
(٢) فتح القدير ٤/ ١٣٠.

لأن به يستنير قلب المؤمن، فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ يعني: هم الناجون الفائزون بالهداية، أي: هم الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة»[1].

ويقول الإمام أبو زهرة: «فقد حكم الله سبحانه وتعالى على الذين قاموا بهذه الصفات -ومن بين تلك الصفات اتباع أمر النبي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- بأنهم الفائزون في الدنيا باتباع الحق، وأن حياتهم كلها فاضلة، وأن تكون حياتهم في الآخرة نعيمًا مقيمًا، ورضوانًا من الله العزيز الحكيم، وهو أكبر الفوز العظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ والإشارة إلى الصفات يفيد أنها علة الحكم وسببه، أي: بسبب هذه الصفات ينالون الفلاح في الدنيا والآخرة؛ لأن الهداية والاستقامة فلاح لا يدركه إلا من استقامت إلى الحق نفوسهم»[2].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل: عمران ١٠٤].

قلت: فلاشك أن الإيمان بالنبي يتبعه تنفيذ ما أمر به، ومن جملة ما أمر به الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فالإيمان بالرسول وما يقتضيه ذلك من اتباع أمره يكون لصاحبه الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

٢. نيل الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٤].

يقول الإمام البغوي: يعني: ومن يفعل هذه الأشياء التي ذكرها -وهي الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس- ابتغاء مرضاة الله، أي: طلب رضاه، وخرج عنه من فعل ذلك رياء أو ترؤسًا فسوف نؤتيه في الآخرة ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة:)يؤتيه(بالياء، يعني: يؤتيه الله، وقرأ الآخرون بالنون، أي: ثوابًا كثيرًا واسعًا. و(سوف) هنا لتأكيد الوقوع في المستقبل[3].

٣. نيل الرحمة من الله.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ

(١) لباب التأويل ٢/ ٢٥٨.
(٢) زهرة التفاسير ٦/ ٢٩٧٤.
(٣) معالم التنزيل ٢/ ٢٨٧.

﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

يقول الإمام ابن كثير: أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، والتي منها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، والسين في قوله: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ﴾ مدخلة في الوعد مهلةً لتكون النفوس تتنعم برجائه، وفضله تعالى زعيم بالإنجاز، والإشارة للدلالة على أن ما سيرد بعد اسم الإشارة صاروا أحرياء به من أجل الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة[1].

٤. البشرى من الله.

قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١١٢].

ذكر الله تعالى في هذه الآية تسعة أوصاف للمؤمنين، الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق، والوصفان السابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق، والوصف التاسع يعم القبيلين[2].

فمن ضمن أوصاف المؤمنين: أن ينتشر ويبرز المجتمع الفاضل الذي يقوم على الأمر بالمعروف، أي: كل ما هو معروف لا تنكره العقول السليمة، والنهي عن كل أمر تنكره العقول السليمة، فإن المجتمع الفاضل ظل لكل خلق سليم ينمو في ظله الوارف؛ ولذا كانت أمة محمد أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيه أناس يدعون الناس إلى الرشد والهدى، وينهونهم عن الفساد والردى، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠][3].

وقال البيضاوي: «﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: وبشر به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل -والتي من بينها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-، ووضع المؤمنين موضع ضمير (هم) للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به للتعظيم، وللإيذان بخروجه عن حد البيان، كأنه قيل: وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام، وتعبير الكلام»[4]. أو بشر أيها الرسول المؤمنين المتصفين بهذه الصفات -ومن بينهم الآمرون بالمعروف والناهون عن

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٧٥.
(٢) انظر: حاشية الجمل ٢/ ٣٢١.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤٥٧.
(٤) أنوار التنزيل ٣/ ٩٩.

المنكر- بخيري الدنيا والآخرة، وخصت تلك الخلال بالذكر لأن بها تكون المحافظة على حدود الله[1].

ثانيًا: جزاء اتباع أمر الجبابرة والمسرفين ما يلي:

١. العذاب الأليم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

يقول الإمام ابن كثير: «فلما تكبروا عن الحق، واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: موجع مهين»[2].

والفاء في ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ فاء الجواب المستعملة في الشرط، دخلت على خبر (إن) لأن اسم (إن) وهو موصول تضمن معنى الشرط، إشارة إلى أنه ليس المقصود قومًا معينين، بل كل من يتصف بالصلة فجزاؤه أن يعلم أن له عذابًا أليمًا. واستعمل (بشرهم) في معنى أنذرهم تهكمًا، وحقيقة التبشير: الإخبار بما يظهر سرور المخبر (بفتح الباء) وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته؛ إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب، وهو موجب لحزن المخبرين، فهذا الاستعمال في الضد معدود عند علماء البيان من الاستعارة، ويسمونها تهكمية؛ لأن تشبيه الضد بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم أو التمليح[3].

٢. الأغلال ونار جهنم.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

قال الإمام الطبري: «قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: وغلت أيدي الكافرين بالله»[4]، والأغلال: هي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم[5] في جهنم، يقول جل ثناؤه: ما يفعل الله ذلك بهم إلا ثوابًا لأعمالهم الخبيثة التي كانوا في الدنيا يعملونها، ومكافأة لهم عليها، كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾

(١) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٨٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٠٧٥.
(٤) جامع البيان ٢٠/ ٤٠٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٢٠.

[الأعراف: ٣٨].

أي: إنما نجازي الفريقين وأمثالهم، كل بحسب عمله، وبسبب ما اقترفه من الشرك بالله والإثم، فللقادة عذاب يناسبهم، وللأتباع عذاب آخر يلائمهم، ولا ظلم ولا تحامل، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ومما لا شك فيه أن القادة إلى الضلال أسوأ من الأتباع، فهم الذين يستحقون مضاعفة العذاب وأليم العقاب، ولكن يشاركهم الأتباع في هذا العذاب؛ لأنهم عطلوا نعمة العقل والوعي، وقلدوا غيرهم تقليدًا أعمى، وكان جديرًا بهم أن يتحرروا من ربقة التقليد، فكانت عقائدهم فاسدة، وأعمالهم سيئة كقادتهم، فاستحقوا جميعًا التخليد في عذاب جهنم، وبئس المصير[(١)].

٣. العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

لقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية من الأحوال المذمومة ثلاثًا: أولها- كون الإنسان بخيلًا وهو المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ وثانيها: كونهم آمرين لغيرهم بالبخل، وهذا هو النهاية في حب البخل، وهو المراد بقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ وثالثها: قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيوهمون الفقر مع الغنى، والإعسار مع اليسار، والعجز مع الإمكان، ثم إن هذا الكتمان قد يقع على وجه يوجب الكفر، مثل أن يظهر الشكاية عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاء والقدر، وهذا ينتهي إلى حد الكفر؛ فلذلك قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ومن قال: الآية مخصوصة باليهود فكلامه في هذا الموضع ظاهر؛ لأن من كتم الدين والنبوة فهو كافر، ويمكن أيضًا أن يكون المراد من هذا الكافر من يكون كافرًا بالنعمة، لا من يكون كافرًا بالدين والشرع[(٢)].

فهناك: توعد للمؤمنين الباخلين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذابًا مهينًا، أي: قد هيأنا من غاية قهرنا، وانتقامنا للكافرين لنعمنا كفرانًا ناشئًا عن محض النفاق والشقاق، عذابًا طردًا وحرمانًا مؤلمًا، وتخذيلًا وإذلالًا مهينًا[(٣)].

٤. الوصف بالفسق.

كما قال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ

(١) انظر: الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢١٠٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٣.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

إن المنافقين هم الفاسقون هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجرًا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف به المنافقون حين بالغ في ذمهم، أي: أنهم الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة، فهذا تذييل قصد به المبالغة في ذمهم، وصيغة القصر في ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قصر ادعائي للمبالغة؛ لأنهم لما بلغوا النهاية في الفسوق جعل غيرهم كمن ليس بفاسق، والإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ لزيادة تقريرهم في الذهن لهذا الحكم؛ ولتكون الجملة مستقلة حتى تكون كالمثل[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٥٥.

أوامر إبليس وذريته

أوضح القرآن الكريم أوامر إبليس لعنه الله وذريته وعاقبة اتباعها، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أوامر إبليس:

لا شك أن أوامر إبليس تتمثل في العقائد الفاسدة، والأحكام الباطلة التي تخالف منهاج الدين، ويتضح ذلك فيما يلي:

١ . الأمر بتبتيك آذان الأنعام.

قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ [النساء: ١١٩].

البتك: القطع، والتبتيك للتكثير والتكرير، أي: لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام، وكانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكرًا، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها، وقال آخرون: المراد أنهم يقطعون آذان الأنعام نسكًا في عبادة الأوثان، فهم يظنون أن ذلك عبادة مع أنه في نفسه كفر وفسق، سول لهم إبليس أن هذا قربةٌ إلى الله تعالى، فهو كالأمر لهم الذي يجعل ما ليس بعبادة أصلًا عبادة، وإن ذلك تشويه لما خلق الله سبحانه وتعالى[2].

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٧٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٢٣، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٩٧.

يروى في ذلك أن أبا الأحوص من الصحابة أتى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان رث الهيئة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (هل لك من مال؟) قال: نعم؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (فإذا آتاك الله مالًا فلير عليك أثره) ثم قال عليه الصلاة والسلام: (هل تنتج إبل قومك صحاحًا آذانها، فتعمد إلى موسى فتشق آذانها، وتقول: هذه بحر -أي: جمع بحيرة- وتشق جلودها، وتقول: هذه صرم -جمع صريمة-) قال: أجل، قال: (كل ما آتاك الله حل، وموسى الله أحد من موساك، وساعد الله أشد من ساعدك)[1].

٢. الأمر بتغيير خلق الله.

قال تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

يعني: بفقء عين الحامي، وإعفائه عن الركوب أو بالخصاء، وهو مباح في البهائم محظور في بني آدم، أو بالوشم، أو بنفي الأنساب واستلحاقها، أو بتغيير الشيب بالسواد، أو بالتحريم والتحليل، أو بالتخنث، أو بتبديل فطرة الله التي هي دين الإسلام؛ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وكذلك استعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالًا، ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زلفى[2].

فتغيير الخلق يشمل التغيير المادي والمعنوي، وكان كل ذلك خضوعًا لأوامر الشيطان، فكانوا بهذا أولياءه، كما قال الإمام أبو زهرة[3].

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه: (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وأمرتهم أن يغيروا خلقي)[4].

٣. الأمر بالفحشاء والمنكر.

كما قال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

يقول الإمام الرازي: «اعلم أنه تعالى لما رغب الإنسان في إنفاق أجود ما يملكه حذره بعد ذلك من وسوسة الشيطان، فقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: يقال: إن أنفقت الأجود صرت فقيرًا، فلا تبال بقوله،

(١) أخرجه أحمد ٢٥/ ٢٢٦، رقم ١٥٨٩١، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو ٣/ ٤٣٢، رقم ٢٠٠٦.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ٨/ ٥٩.

(٢) انظر: أنوار التنزيل البيضاوي ٢/ ٩٨.

(٣) زهرة التفاسير ٤/ ١٨٦٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا ٤/ ٢١٩٧، رقم ٢٨٦٥.

فإن الرحمن يعدكم مغفرة منه...، ثم قال: أما قوله: (الفحشاء) ففيه وجوه، الأول: أن الفحشاء هي البخل ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: ويغريكم على البخل إغراء الأمر للمأمور.

الوجه الثاني: في تفسير الفحشاء، وهو أنه يقول: لا تنفق الجيد من مالك في طاعة الله؛ لئلا تصير فقيرًا، فإذا أطاع الرجل الشيطان في ذلك زاد الشيطان، فيمنعه من الإنفاق في الكلية حتى لا يعطي لا الجيد ولا الرديء، وحتى يمنع الحقوق الواجبة، فلا يؤدي الزكاة، ولا يصل الرحم، ولا يرد الوديعة، فإذا صار هكذا سقط وقع الذنوب عن قلبه، ويصير غير مبال بارتكابها، وهناك يتسع الخرق، ويصير مقدامًا على كل الذنوب؛ وذلك هو الفحشاء»[1].

وقال الإمام ابن كثير: «﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم، ومخالفة الأخلاق»[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

وهذه الآية بيان لعداوته، ووجوب التحرز عن متابعته، واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيهًا لرأيهم، وتحقيرًا لشأنهم، والسوء والفحشاء ما أنكره العقل، واستقبحه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين، فإنه سوء لاغتمام العاقل به، وفحشاء باستقباحه إياه.

وقيل: السوء يعم القبائح، والفحشاء ما يتجاوز الحد في القبح من الكبائر.

وقيل: الأول ما لا حد فيه، والثاني: ما شرع فيه الحد، فالسوء ما يسوء صاحبه ويخزيه، والفحشاء يعني بها المعاصي، وما قبح من قول أو فعل[3].

وقال الإمام ابن كثير: «أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فدخل في هذا كل كافر، وكل مبتدع أيضًا»[4].

ونظير ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [: ٢١].

ثانيًا: عاقبة اتباع أوامر إبليس وذريته في الدنيا والآخرة:

يتمثل في الخسران المبين في الدارين، كما قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ

(١) مفاتيح الغيب ٧/ ٥٥ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠٠.
(٣) انظر: أنوار التنزيل البيضاوي ١/ ١١٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٨٠.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١١٩].

قال البيضاوي: «يعني: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته، ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ إذا ضيع رأس ماله، وبدل مكانه من الجنة بمكان من النار، فهذا الخسران في غاية الظهور والرداءة بما تعطيه صيغة الفعلان»[(١)].

فمن يوالي الشيطان فيطيعه مع أنه متمرد عن الحق، داعٍ إلى الشر، ويترك الحق وأمر الله، فإنه بهذا يخسر خسرانًا واضحًا، يخسر الحق فلا يتبعه، ويرتكب الشر، ويترك المعقول إلى المرذول، ويمسخ فطرة الله تعالى، وتنحرف نفسه، ويلتوي تفكيره، وتشوه إنسانيته؛ وذلك خزي في الدنيا ووراءه عذاب في الآخرة، وأي: خسارة أعظم من هذه الخسارة وأوضح منها[(٢)].

وهكذا يتبين لنا: أن طاعة الله تعالى تفيد المنافع العظيمة الدائمة، الخالصة عن شوائب الضرر، وطاعة الشيطان تفيد المنافع القليلة المنقطعة، المشوبة بالغموم والأحزان، ويعمها العذاب الدائم، وهذا هو الخسار المطلق؛ وتلك خسارة لا جبر لها، ولا استدراك لفائتها[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الحرام، الحلال

(١) أنوار التنزيل ٢/ ٩٨.
(٢) زهرة التفاسير ٤/ ١٨٦٦.
(٣) انظر: اللباب في علوم القرآن، ابن عادل ٧/ ٣٧.

الأمن

عناصر الموضوع

مفهوم الأمن	١١٦
الأمن في الاستعمال القرآني	١١٧
الألفاظ ذات الصلة	١١٨
الأساليب القرآنية في عرض الأمن	١٢٠
أنواع الأمن	١٢٨
آثار الأمن على الفرد والمجتمع	١٤٩

مفهوم الأمن

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمن ضد الخوف، والمأمن: موضع الأمن، والآمن: المستجير ليأمن على نفسه[١]، والأمان والأمانة بمعنىً، وقد أمنت فأنا آمن، وآمنت غيري من الأمن والأمان[٢]، وأمن كفرح أمنًا وأمانًا بفتحهما، وأمنًا وأمنةً محركتين، وإمنًا بالكسر، فهو أمن وأمين كفرح وأمير، ورجل أمنةٌ كهمزة ويحرك: يأمنه كل أحد في كل شيء[٣]، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسمًا للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسمًا لما يؤمن عليه الإنسان[٤].

ومن خلال ما تقدم من معانٍ لغوية يتضح لنا أن كلمة الأمن لها عدة إطلاقات: فهي تعنى الطمأنينة وعدم الخوف، أو الثقة والهدوء النفسي، إضافة إلى راحة القلب، وعدم وقوع الغدر أو الخيانة من الغير.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه المناوي بقوله: «عدم توقع مكروهٍ في الزمن الآتي، وأصله طمأنينة النفس، وزوال الخوف»[٥].

وقال الراغب الأصفهاني: «أصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف»[٦].

ومن خلال هذه المعاني اللغوية والاصطلاحية تبين أن هناك ارتباطًا بينها، فالأمن ضد الخوف، وهو يعني: الأمان والطمأنينة والسكون والثقة.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ١٠٧.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ٥/ ٢٠٧١.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ٤/ ١٩٧.
(٤) انظر: المفردات، ص ٩٠.
(٥) التوقيف، المناوي، ص٦٣.
(٦) المفردات، ص٩٠.

الأمن في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أمن) في القرآن (٨٥٣) مرة، ويخص موضوع البحث منها (٤٥) مرة [١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٤	﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأعراف:٩٧]
الفعل المضارع	٧	﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف:١١]
المصدر	٧	﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣]
اسم الفاعل	١٧	﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف:٩٩]

وجاء الأمن في القرآن بمعناه في اللغة وهو: طمأنينة النفس وزوال الخوف [٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨٩،٨١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٩٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخوف:

الخوف لغة:

الخاء والواو والفاء أصلٌ واحدٌ يدل على الذعر والفزع[١].

الخوف اصطلاحًا:

«خلاف الأمن، والأمن سكون النفس، والخوف من انزعاجها وقلقها»[٢].

وقال التفتازاني: «غم يلحق الإنسان مما يتوقعه من السوء» [٣].

الصلة بين الأمن والخوف:

يلاحظ أن الخوف جاء على خلاف الأمن، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد.

٢ القلق:

القلق لغة:

القاف واللام والقاف كلمةٌ تدل على الانزعاج[٤].

القلق اصطلاحًا:

«حالة انفعالية، تتميز بالخوف مما قد يحدث »[٥].

الصلة بين الأمن والقلق:

القلق يدل على الانزعاج نتيجة الخوف، بخلاف الأمن الذي يدل على الطمأنينة والسكون، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد.

٣ الطمأنينة:

الطمأنينة لغة:

السكون بعد الانزعاج[٦].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٣٠.
(٢) الوجوه والنظائر، العسكري، ص ٢٠٣.
(٣) التوقيف، المناوي ص ١٦١
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٣.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،٢/ ٧٥٦.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني،ص ٥٢٤.

الطمأنينة اصطلاحًا:

الاطمئنان والثقة، وعدم القلق والقرار[١].

الصلة بين الأمن والطمأنينة:

إن الأمن معناه طمأنينة النفس وزوال الخوف، فالعلاقة بينهما علاقة ترادف.

٤ السكينة:

السكينة لغة:

السكون ضد الحركة، سكن الشيء يسكن سكونًا: إذا ذهبت حركته، وأسكنه هو وسكنه غيره تسكينًا، وكل ما هدأ فقد سكن، كالريح والحر والبرد ونحو ذلك[٢].

السكينة اصطلاحًا:

هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه[٣].

الصلة بين الأمن والسكينة:

الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، والسكينة: الطمأنينة في القلب والاستقرار والرزانة والوقار.

٥ السلام:

السلام لغة:

أصل مادة (سلم) تفيد معنى السلامة من كل شر، والسلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى[٤].

السلام اصطلاحًا:

« تجرد النفس عن المحنة في الدارين »[٥].

الصلة بين الأمن والسلام:

الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، أما السلام: أن يسلم كل واحد منهما أن يناله ألم من صاحبه، مع وزوال المحنة[٦].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٥٦٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢١١.
(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٤٧١.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٩٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٢٥٤.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٢٣.
(٦) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٢٥٤.

الأساليب القرآنية في عرض الأمن

تنوعت أساليب القرآن في الحديث عن الأمن، وبيانها فيما يأتي:

أولًا: الامتنان بالأمن:

إن نعمة الأمن من الخوف من أجل النعم التي من الله بها على العباد، والله سبحانه وتعالى ذكر عن إبراهيم عليه السلام دعاءه في سورة إبراهيم (٣٧-٤١) وذكر أنه طلب في دعائه أمورًا سبعةً.

وكان المطلوب الأول: أنه طلب من الله نعمة الأمان، وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات، وأنه لا يتم شيءٌ من مصالح الدين والدنيا إلا به، وسئل بعض العلماء: الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل[(١)].

وإن الله تعالى ذكر امتنانه على عباده بتلك النعمة الجليلة في غير ما آية من كتاب الله تعالى، ومن صور الامتنان بنعمة الأمن في القرآن الكريم ما يلي:

١. الامتنان على أهل مكة.

وتكرر ذلك في أكثر من موضع في القرآن، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧][(٢)].

عن قتادة قال: كان أهل الحرم آمنين يذهبون حيث شاءوا، إذا خرج أحدهم فقال: إني من أهل الحرم لم يتعرض له، وكان غيرهم من الناس إذا خرج أحدهم قتل[(٣)].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

وقال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١ - ٤].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٠٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٨٨.

فكلتا السورتين تذكير بنعم الله على أهل مكة، فسورة الفيل تشتمل على إهلاك عدوهم (وهو نوع من تأمينهم) الذي جاء لهدم البيت الحرام أساس مجدهم وعزهم، وسورة قريش تذكر نعمة أخرى اجتماعية واقتصادية، حيث حقق الله بينهم الألفة واجتماع الكلمة، وأكرمهم بنعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار[1].

إنها منطقة الأمان يقيمها الله للبشر في زحمة الصراع، إنها الكعبة الحرام، تقدم في وسط المعركة المستعرة بين المتخاصمين والمتحاربين والمتصارعين والمتزاحمين على الحياة بين الأحياء من جميع الأنواع والأجناس، بين الرغائب والمطامع والشهوات والضرورات، فتحل الطمأنينة محل الخوف، ويحل السلام محل الخصام، وترف أجنحة من الحب والإخاء والأمن والسلام، وتدرب النفس البشرية في واقعها العملي-لا في عالم المثل والنظريات- على هذه المشاعر وهذه المعاني، فلا تبقى مجرد كلمات مجنحة ورؤى حالمة، تعز على التحقيق في واقع الحياة.

لقد جعل الله هذه الحرمات تشمل الإنسان، والطير، والحيوان، والحشرات بالأمن في البيت الحرام.

ولقد ألقى الله في قلوب العرب -حتى في جاهليتهم- حرمة هذه الأشهر، فكانوا لا يروعون فيها نفسًا، ولا يطلبون فيها دمًا، ولا يتوقعون فيها ثأرًا، حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه، فكانت مجالًا آمنًا للسياحة، والضرب في الأرض، وابتغاء الرزق.

جعلها الله كذلك لأنه أراد للكعبة -بيت الله الحرام- أن تكون مثابة أمن وسلام، تقيم الناس وتقيهم الخوف والفزع.

لقد جعل الله هذه الحرمات منذ بناء هذا البيت على أيدي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وجعله مثابة للناس وأمنًا، حتى لقد امتن الله به على المشركين أنفسهم إذ كان بيت الله بينهم مثابة لهم وأمنًا، والناس من حولهم يتخطفون، وهم فيه وبه آمنون، ثم هم -بعد ذلك- لا يشكرون الله ولا يفردونه بالعبادة في بيت التوحيد، ويقولون للرسول صلى الله عليه وسلم إذ يدعوهم إلى التوحيد: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾، فحكى الله قولهم هذا وبين حقيقة الأمن والمخافة، فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧][2].

وقال تعالى ممتنًا على قريش:

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣٠/ ٤١٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٥.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

قال قتادة: «كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا، وأشقاه عيشًا، وأبينه ضلالةً، وأعراه جلودًا، وأجوعه بطونًا، مكعومين على رأس حجرٍ بين الأسدين: فارس والروم، لا والله ما في بلادهم يومئذٍ من شيءٍ يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلًا يومئذٍ من حاضر الأرض، كانوا فيها أصغر حظًا وأدق فيها شأنًا منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام، فورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نعمه، فإن ربكم منعمٌ يحب الشاكرين، وإن أهل الشكر في مزيد الله، فتعالى ربنا وتبارك»[(١)].

٢. الامتنان على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى أصحابه رضوان الله عليهم.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

قال ابن كثير: «يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمانًا من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أما النعاس فقد أصابهم يوم أحدٍ، وأمر ذلك مشهورٌ جدًا، وأما يوم بدرٍ في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدرٍ، وهي دالةٌ على وقوع ذلك أيضًا، وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنةً مطمئنةً بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم، ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦]»[(٢)].

وعن أنسٍ، عن أبي طلحة رضي الله عنهما قال: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحدٍ حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه»[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٥٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قوله: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم)، رقم ٤٠٦٨.

قال ابن القيم: «وأنزل الله عليهم النعاس أمنةً منه في غزاة بدرٍ وأحدٍ، والنعاس في الحرب وعند الخوف دليلٌ على الأمن، وهو من الله»[1].

وقال الرازي: «واعلم أن كل نومٍ ونعاسٍ فإنه لا يحصل إلا من قبل الله تعالى، فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله تعالى لابد فيه من مزيد فائدةٍ، وذكروا فيه وجوهًا:

أحدها: أن الخائف إذا خاف من عدوه الخوف الشديد على نفسه وأهله فإنه لا يأخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمنوا، فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد يدل على إزالة الخوف، وحصول الأمن.

وثانيها: أنهم خافوا من جهاتٍ كثيرةٍ.

أحدها: قلة المسلمين وكثرة الكفار.

وثانيها: الأهبة والآلة والعدة للكافرين وقلتها للمؤمنين.

وثالثها: العطش الشديد، فلولا حصول هذا النعاس، وحصول الاستراحة حتى تمكنوا في اليوم الثاني من القتال لما تم الظفر.

والوجه الثالث: في بيان كون ذلك النعاس نعمةً في حقهم، أنهم ما ناموا نومًا غرقًا يتمكن العدو من معاقصتهم، بل كان ذلك نعاسًا يحصل لهم زوال الأعيان والكلال، مع أنهم كانوا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله، ولقدروا على دفعه.

والوجه الرابع: أنه غشيهم هذا النعاس دفعةً واحدةً مع كثرتهم، وحصول النعاس للجمع العظيم في الخوف الشديد أمرٌ خارقٌ للعادة، فلهذا السبب قيل: إن ذلك النعاس كان في حكم المعجز»[2].

٣. الامتنان على أهل الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٦].

وقال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

قال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١ - ٥٢].

والمقام الأمين: موضع الإقامة، والأمين: الآمن من كل سوء وآفة ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد، وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[الدخان: ٥١]. وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

(١) زاد المعاد ٢/ ١٨٢.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٥/ ٤٦١.

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتًا»[(١)].

٤. الامتنان على أهل سبأ:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعضٍ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زادٍ ولا ماءٍ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، ويقيل في قريةٍ، ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «وتقديم الليالي على الأيام للاهتمام بها في مقام الامتنان؛ لأن المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار؛ لأن الليل تعترضهم فيه القطاع والسباع»[(٣)].

فالواجب علينا أن نشكر الله تعالى على هذه النعمة، وأن نعلم أننا سنسأل عنها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

ذكر ابن مسعودٍ رضي الله عنه وجماعة أن النعيم: الأمن والصحة[(٤)].

ثانيًا: التحذير من الركون إلى الأمن:

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: أفأمن يا محمد هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله ويجحدون آياته، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قص عليهم قصصهم من الأمم قبلهم، فإن مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك أن يكون استدراجًا مع مقامهم على كفرهم وإصرارهم على معصيتهم إلا القوم الخاسرون، وهم الهالكون»[(٥)].

وقال الطاهر ابن عاشور: «واعلم أن المراد بأمن مكر الله في هذه الآية هو الأمن الذي من نوع أمن أهل القرى المكذبين،

(١) حادي الأرواح ص ١٠٠.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ٦/ ٥٠٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٧٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٠٣.
(٥) المصدر السابق ١٠/ ٣٣٤.

الذي ابتدئ الحديث عنه من قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

ثم قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا﴾ الآيات، وهو الأمن الناشئ عن تكذيب خبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن الغرور بأن دين الشرك هو الحق فهو أمنٌ ناشئٌ عن كفرٍ، والمأمون منه هو وعيد الرسل إياهم، وما أطلق عليه أنه مكر الله»[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ [الإسراء: ٦٧ - ٦٩].

قال في الظلال: «ولكن الإنسان هو الإنسان، فما إن تنجلي الغمرة، وتحس قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة، فينسى الله، وتتقاذفه الأهواء، وتجرفه الشهوات، وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر».

وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي تركوه في البحر وهو يلاحقهم في البر، أو وهم يعودون إليه في البحر؛ ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه، لا في البحر ولا في البر، لا في الموجة الرخية والريح المواتية، ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ [الإسراء: ٦٨ - ٦٩].

إن البشر في قبضة الله في كل لحظة وفي كل بقعة، إنهم في قبضته في البر كما هم في قبضته في البحر، فكيف يأمنون؟ كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله؟!

أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلًا يحميهم ويدفع عنهم؟

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحًا قاصفة، تقصف الصواري وتحطم السفن، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم؟

(١) التحرير والتنوير، ٩/ ٢٤.

ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا، ثم يأمنوا أخذه وكيده، وهم يتوجهون إليه وحده في الشدة ثم ينسونه بعد النجاة، كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله![1].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٦].

قال السعدي: «﴿انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: مسرورين مغتبطين، وهذا من أعظم ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجرؤوا على القول عليه بلا علم، فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال، نعم ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلًا من الله وحكمة، والله عليم حكيم»[2].

فالواجب على الناس أن يتقوا ويحذروا وأن يطرحوا عنهم الأمن الكاذب، والاستهتار السادر، والغفلة المردية، وأن يعتبروا بما كان في الذين خلوا من قبلهم، عسى ألا يكون فيهم، لو كانوا يسمعون!

وما يريد الله للناس بهذا التحذير في القرآن أن يعيشوا مفزعين قلقين يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم في لحظة من ليل أو نهار، فالفزع الدائم من المجهول، والقلق الدائم من المستقبل، وتوقع الدمار في كل لحظة، قد تشل طاقة البشر وتشتتها، وقد تنتهي بهم إلى اليأس من العمل والنتاج، وتنمية الحياة، وعمارة الأرض، إنما يريد الله منهم اليقظة والحساسية والتقوى، ومراقبة النفس، والعظة بتجارب البشر، ورؤية محركات التاريخ الإنساني، وإدامة الاتصال بالله، وعدم الاغترار بطراءة العيش ورخاء الحياة.

والله يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح في الدنيا والآخرة، إذا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩١٦.

هم أرهفوا حساسيتهم به، وإذا هم أخلصوا العبودية له، وإذا هم اتقوه فاتقوا كل ما يلوث الحياة، فهو يدعوهم إلى الأمن في جوار الله، لا في جوار النعيم المادي المغري، وإلى الثقة بقوة الله، لا بقوتهم المادية الزائلة، وإلى الركون إلى ما عند الله، لا إلى ما يملكون من عرض الحياة.

ولقد سلف من المؤمنين بالله المتقين لله سلف ما كان يأمن مكر الله، وما كان يركن إلى سواه، وكان بهذا وذاك عامر القلب بالإيمان، مطمئنًا بذكر الله، قويًا على الشيطان وعلى هواه، مصلحًا في الأرض بهدى الله، لا يخشى الناس والله أحق أن يخشاه.

وهكذا ينبغي أن نفهم ذلك التخويف الدائم من بأس الله الذي لا يدفع، ومن مكر الله الذي لا يدرك؛ لندرك أنه لا يدعو إلى القلق، إنما يدعو إلى اليقظة، ولا يؤدي إلى الفزع، إنما يؤدي إلى الحساسية، ولا يعطل الحياة، إنما يحرسها من الاستهتار والطغيان.

والمنهج القرآني -مع ذلك- إنما يعالج أطوار النفوس والقلوب المتقلبة، وأطوار الأمم والجماعات المتنوعة، ويطب لكل منها بالطب المناسب في الوقت الملائم، فيعطيها جرعة من الأمن والثقة والطمأنينة إلى جوار الله، حين تخشى قوى الأرض وملابسات الحياة، ويعطيها جرعة من الخوف والحذر والترقب لبأس الله، حين تركن إلى قوى الأرض ومغريات الحياة، وربك أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير[1].

يقول السعدي: «﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم إن كيده متين ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فإن من أمن من عذاب الله فهو لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفًا وجلًا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيًا بقوله: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[2]. وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإن العبد -ولو بلغت به الحال ما بلغت- فليس على يقين من السلامة»[3].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤١.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ١٦٠، رقم ١٢١٠٧، والترمذي في سننه، أبواب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٤/ ١٦، رقم ٢١٤٠، وحسنه.
وصححه الألباني، صحيح الجامع ٢/ ١٣٢٣، رقم ٧٩٨٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٢٩٨.

أنواع الأمن

ذكر القرآن الكريم أنواعًا للأمن، منه المحمود، ومنه المذموم، نبينها فيما يأتي:

أولًا: الأمن المحمود:

١ . أهمية الأمن المحمود.

إن نعمة الأمن أهم من نعمة الرزق.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فبدأ بالأمن قبل الرزق لسببين:

الأول: لأن استتباب الأمن سبب للرزق، فإذا شاع الأمن، واستتب ضرب الناس في الأرض، وهذا مما يدر عليهم رزق ربهم، ويفتح أبوابه، ولا يكون ذلك إذا فقد الأمن.

الثاني: ولأنه لا يطيب طعام، ولا ينتفع بنعمة رزق إذا فقد الأمن.

فمن من الناس أحاط به الخوف من كل مكان، وتبدد الأمن من حياته، ثم وجد لذة بمشروب أو مطعوم؟!

ولقائل أن يقول: فلماذا قدم الرزق على الأمن في سورة قريش؟

والجواب: أن هذه السورة خطاب للمشركين، وعند مخاطبة هؤلاء يحسن البدء بالقليل قبل الكثير، وباليسير قبل العظيم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فبدأ بخلقهم قبل خلق السماوات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ويوسف عليه السلام يطلب من والديه دخول مصر مخبرًا باستتباب الأمن بها: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى

وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠٠].

٢. أقسام الأمن المحمود.

١. الأمن للمؤمنين في الدنيا.

ومن ذلك:

- الأمن في البيت الحرام، والبلد الحرام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٥ - ١٢٦].

وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧].

قال قتادة: ذلك أيضًا من آيات الحرم، وقال النحاس: وهو قول حسن؛ لأن الناس كانوا يتخطفون من حواليه، ولا يصل إليه جبار، وقد وصل إلى بيت المقدس وخرب، ولم يوصل إلى الحرم، وقال بعض العلماء: صورة الآية خبرٌ ومعناها أمرٌ، تقديرها: ومن دخله فأمنوه[٢].

فيذكر من فضائل هذا البيت أن من دخله كان آمنًا، فهو مثابة الأمن لكل خائف، وليس هذا لمكان آخر في الأرض، وقد بقي هكذا مذ بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وحتى في جاهلية العرب، وفي الفترة التي

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧][(١)].

❁ **الأمن في المعارك.**

وقد قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وقال: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وعن أنسٍ، عن أبي طلحة -رضي الله عنهما- قال: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحدٍ حتى سقط سيفي من يدي مرارًا يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه»[(٢)].

قال ابن القيم: «وأنزل الله عليهم النعاس أمنةً منه في غزاة بدرٍ وأحدٍ، والنعاس في الحرب وعند الخوف دليلٌ على الأمن، وهو من الله. . . »[(٣)].

٢. الأمن للمؤمنين في الآخرة.

ومن ذلك:

❁ **النجاة من أهوال يوم القيامة.**

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين يلحدون في آياتنا اليوم في الدنيا يوم القيامة عذاب النار، ثم قال الله: أفهذا الذي يلقى في النار خيرٌ، أم الذي يأتي يوم القيامة آمنًا من عذاب الله لإيمانه بالله جل جلاله ؟ هذا الكافر، إنه إن آمن بآيات الله، واتبع أمر الله ونهيه، أمنه يوم القيامة مما حذره منه من عقابه إن ورد عليه يومئذٍ به كافرًا»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين أحسنوا في الحياة الدنيا، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

والأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء،

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٣٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قوله تعالى: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة)، رقم ٤٠٦٨.
(٣) زاد المعاد ٢/ ١٨٢.
(٤) جامع البيان ٢٠/ ٤٤٢.

وما بعده فضل من الله ومنة، ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة، بل أمنهم يوم يفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله[1].

- الأمن لأهل الجنة.

قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦].

وقال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

فشمر لدار الخلد فاز مشمرٌ
إليها ونال الأمن في منزل الأمن[2]

قال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١ - ٥٢].

والمقام الأمين: موضع الإقامة، والأمين: الآمن من كل سوء وآفة ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد. . .، وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١].

وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة، ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتًا»[3].

٣. وسائل تحقيقه.

الوسيلة الأولى: الإيمان بالله وحده وعمل الصالحات:

قال الله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٢].

وهذا خبرٌ من الله تعالى عن أولى الفريقين بالأمن، وفصل قضاءٍ منه بين إبراهيم صلى الله عليه وسلم وبين قومه[4].

فالذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين:

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٦٩.
(٢) البيت ذكره ابن الجوزي في التبصرة ص ٣٠.
(٣) حادي الأرواح ص ١٠٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٦٩.

أولهما: الإيمان، وهو كمال القوة النظرية.

وثانيهما: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ وهو كمال القوة العملية[1].

فالظلم ثلاثة أنواع:

فالظلم الذي هو شركٌ لا شفاعة فيه.

وظلم الناس بعضهم بعضًا لا بد فيه من إعطاء المظلوم حقه.

وأما الظلم المقيد، فقد يختص بظلم الإنسان نفسه...

فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة كان له الأمن التام، والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلمه نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقًا، بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة، كما وعد بذلك في الآية الأخرى، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه.

وليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (إنما هو الشرك)[2] أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الأمن التام، ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذابٍ يحصل لهم؛ بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة[3].

وقال ابن القيم: «فإن الأمن والعافية والسرور ولذة القلب ونعيمه وبهجته وطمأنينته مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة، والخوف والهم والغم والبلاء والألم والقلق مع الضلال والحيرة»[4].

وقال: ثم رجع الخليل إليهم مقررًا للحجة، فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ يعني في إلهيته ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١ - ٨٢].

يقول لقومه: كيف يسوغ في عقلٍ أن أخاف ما جعلتموه لله شريكًا في الإلهية وهي ليست موضع نفعٍ ولا ضرٍ، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في الإلهية أشياء لم ينزل بها حجةً عليكم، والذي أشرك

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد آتينا لقمان الحكمة)، ٤/ ١٦٣، رقم ٣٤٢٩.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٧/ ٧٨-٨٢.
(٤) إغاثة اللهفان ٢/ ١٧٢.

بخالقه وفاطره، فاطر السماوات والأرض، ورب كل شيءٍ ومليكه آلهةً لا تخلق شيئًا، وهي مخلوقةٌ، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وجعلها ندًا له ومثلًا في الإلهية، أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلهًا آخر، وحده وأفرده بالإلهية والربوبية، والقهر والسلطان، والحب والخوف والرجاء ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

فحكم الله تعالى بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢][(١)].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يستخلفهم في الأرض، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا؛ ذلك وعد الله، ووعد الله حق، ووعد الله واقع، ولن يخلف الله وعده، فما حقيقة ذلك الإيمان؟

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله، وتوجه النشاط الإنساني كله، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط، وبناء وإنشاء، موجه كله إلى الله، لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله، وهي طاعة لله، واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لا يبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله.

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعًا، ويتوجه بهذا كله إلى الله.

ذلك الإيمان منهج حياة كامل يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض[(٢)].

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾

(١) انظر: الصواعق المرسلة، ابن القيم ٢/ ٩٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢٨.

[: ٥٥].

قال القرطبي: «﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ هو في موضع الحال، أي في حال عبادتهم الله بالإخلاص»[(١)].

قال ابن العربي: قلنا لهم هذا وعدٌ عامٌ في النبوة والخلافة، وإقامة الدعوة، وعموم الشريعة، فنفذ الوعد في كل أحدٍ بقدره وعلى حاله.

ثم قال في آخر كلامه: وحقيقة الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين، فهذا نهاية الأمن والعز.

فكان في هذه الآية دلالةٌ على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل أنجز ذلك الوعد[(٢)].

والمتتبع لحال المسلمين يستنتج ما يلي: كلما كانت الأمة المسلمة مطيعة لله ورسوله يحكم التوحيد حياتها كاملة كان الأمن على قدر ذلك، والله تعالى أعلم.

ولذلك كان الآمنون في الدنيا هم أهل الإيمان، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوةً قبل نجدٍ، فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرةٍ، فعلق سيفه بغصنٍ من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي، يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن رجلًا أتاني وأنا نائمٌ، فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائمٌ على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتًا في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله، قال: فشام السيف فها هو ذا جالسٌ) ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٣)].

وقال ابن القيم: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة، وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٣٠٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٢/ ٢٩٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة، ٤/ ٣٩، رقم ٢٩١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى، وعصمة الله تعالى له من الناس ٤/ ١٧٨٦، رقم ٨٤٣.

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة»[(١)].

إذا الإيمان ضاع فلا أمانٌ
ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومن رضي الحياة بغير دينٍ
فقد جعل الفناء لها قرينا[(٢)]

ومن الصالحات التي تؤدي إلى الأمن:

١. الأخذ بأسباب القوة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

لابد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان، وأول ما تصنعه هذه القوة أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها، والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين، فلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة، والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها، والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده[(٣)].

٢. الدعاء.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

(١) الوابل الصيب ص ٤٨.
(٢) البيتان للشاعر محمد إقبال من قصيدة طويلة يشكو إلى الله حال العالم الإسلامي.
انظر: ديوان محمد إقبال ص١٠٣.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب٢/ ١٥٤٣.

وعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال: (اللهم أهلله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام، ربي وربك الله)[1]. وفي رواية: (اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان)[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنه: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)[3].

الوسيلة الثانية: أداء الشكر لله وحده على نعمه:

فالنعم تثبت بالشكر، وتذهب بالجحود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال في خصوص نعمة الأمن: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ١٥ - ٢١].

وقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ١٧٨، رقم ١٣٩٧، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما يقول عند رؤية الهلال، ٥/ ٥٠٤، رقم ٣٤٥١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٦١، رقم ٤٧٢٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٣/ ١٧١ رقم ٨٨٨، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٣١٧، رقم ٧٧٦٧.
وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب ص ١٣٨.

(٣) أخرجه أحمد ٨/ ٤٠٣، رقم ٤٧٨٥، والبخاري في الأدب المفرد، باب ما يقول إذا أصبح ص١٢٠٠، رقم ٦٨١، وأبو داود في سننه، أبواب النوم، باب ما يقول إذا أصبح ٤/ ٣١٨، رقم ٥٠٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص ٤٦٥.

مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وهكذا نجد في هذه الآيات أن استقرار الأمن مربوط بشكر النعمة، وأن زواله مقرون بكفرها، كما نجد أن توفر الأمن لابد أن يسبق توفر الغذاء، مما يدل على أن الضرورة إليه أشد من الضرورة إلى الغذاء؛ لأنه لا يمكن التلذذ بالغذاء لو توفر مع عدم الأمن والاستقرار؛ ولهذا كان في دعاء الخليل عليه السلام تقديم طلب الأمن على طلب الرزق، كما ذكر الله عنه في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقد امتن الله على قريش بتوفير هاتين النعمتين، وأمرهم أن يفردوه بالعبادة شكرًا له على ذلك، فقال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٤].

الوسيلة الثالثة: الاستقامة، وحسن التعامل، والتكافل الاجتماعي:

إن حسن التعامل من شأنه أن يشيع الأمن بين أفراد المجتمع؛ ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ترويع المسلم، وسلب حالة الأمن التي يتمتع بها، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه قال: حدثنا أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم، أنهم كانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنام رجلٌ منهم، فانطلق بعضهم إلى حبلٍ معه فأخذه، ففزع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لمسلمٍ أن يروع مسلمًا)[1].

وقد ذكر بعض العلماء أن من أيسر الأمور أن تروع أخاك فتخفي عصاه أو تخفي حذاءه فإنه يروع بذلك، فما بالكم إذا كان الترويع بسيفٍ، أو بأداة قتلٍ، أو بتهديدٍ وسلبٍ للأمن، فذلك مما يحذر منه الإسلام.

الوسيلة الرابعة: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

وهو من أسباب النصر على الأعداء، والتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

وفيه الأمن من الهلاك، والمحافظة على صلاح المجتمعات، فعن النعمان بن

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/ ١٦٣، رقم ٢٣٠٦٤، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، ٤/ ٣٠١، رقم ٥٠٠٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٢٦٨، رقم ٧٦٥٨.

بشيرٍ رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا)[1].

وفيه دفع العذاب عن العباد، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وهو مطلب مهم لمن أراد النجاة لنفسه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

الوسيلة الخامسة: إقامة شرع الله:

ولما كان توفر الأمن ضرورة من ضروريات المجتمع التي تفوق ضرورة الغذاء، اهتم الإسلام بتوفير الأسباب الجالبة للأمن، وذلك ببناء الإنسان عقيدة وأخلاقًا وسلوكًا؛ لأن الأمن لا يتوفر بمجرد البطش والإرهاب وقوة الحديد والنار، وإنما يتوفر بتهذيب النفوس، وتطهير الأخلاق، وتصحيح المفاهيم حتى تترك النفوس الشر رغبة عنه وكراهية له.

كما يقول الشاعر[2]:

ولا تنتهِ الأنفس عن غَيِّها
ما لم يكن لها من نفسها زاجر

فإذا فقد المجتمع هذه المقومات التي جاء الإسلام بها فإنه يفقد أمنه واستقراره.

قال الشاعر[3]:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولهذا نجد الأمم التي تفقد هذه المقومات من أفلس الناس من الناحية الأمنية، وإن كانت تملك الأسلحة الفتاكة والأجهزة الدقيقة؛ لأن الإنسان لا يحكم بالآلة فقط، وإنما يحكم بالشرع العادل والسلطان القوي، كما قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، بابٌ هل يقرع في القسمة والاستهام فيه وغيرهما، ٣/ ١٣٩، رقم ٢٤٩٣.

(٢) البيت في مجاني الأدب في حدائق العرب، بن يعقوب شيخو، ١/ ٥٥ دون نسبة.
وانظر: السحر الحلال في الحكم والأمثال، الهاشمي ص٥٤.

(٣) البيت لأحمد شوقي كما في الموسوعة الشوقية الأعمال الكاملة ٢/ ٤٨٧.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ويفهم الأمن من مفهوم الإسلام؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالخضوع له وامتثال أوامره واجتناب منهياته، وقد نهى الله عن التعدي على الناس في أعراضهم وأموالهم وأبدانهم.

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[(١)].

ومن دخل في الإسلام دخل في نطاق الأمن؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله)[(٢)].

فإذا تحقق الإسلام والإيمان توفرت أسباب الأمن، لكن قد يكون هناك شذوذ لم يتمكن الإسلام والإيمان من قلوبهم فتحصل منهم نزوات تخل بالأمن، وهنا وضع الله سبحانه زواجر وروادع لهؤلاء تكف عدوانهم، وتصون الأمن من عبثهم، فشرع سبحانه الحدود الكفيلة لردعهم وتحذير غيرهم من أن يفعلوا مثل فعلهم، ومن الحدود التي شرعها الله لحفظ الأمن للأفراد والجماعات؛ القصاص لحفظ النفوس، وشرع حد الزنا، وحد القذف لحفظ العرض والنسب، وشرع حد السرقة لحفظ الأموال، وشرع حد قطاع الطريق لحفظ السبل، وتأمين المواصلات، وشرع قتال البغاة لحفظ السلطة الإسلامية، ومنعًا لتفريق الكلمة، واختلاف الأئمة.

١. فالقصاص من القاتل فيه حماية للنفوس البريئة، وضمانٌ للأمن بين الناس، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فإذا عرف من يريد قتل إنسان أنه سيقتل به امتنع عن القتل، فكان في هذا حفظ لحياته وحياة غيره، وإذا أقدم على القتل فاقتص منه كان في هذا ردع للآخرين، فلا يقدمون على مثل جريمته لئلا يكون مصيرهم كمصيره، فقتل نفس واحدة بالقصاص حصل به نجاة أنفس كثيرة، كالعضو الفاسد يقطع لحفظ بقية الجسم؛ وبذلك يأمن الناس على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ١/ ١١، رقم ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، ١/ ٦٥، رقم ٤١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ٢/ ١٠٥، رقم ١٣٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ١/ ٥١، رقم ٢٠.

حياتهم.

٢. ورجم الزاني المحصن (وهو الذي سبق أن جامع زوجته بنكاح صحيح) بمحضر عام من المؤمنين، فيرجم بالحجارة حتى يموت.

وذلك ليأمن الناس على أعراضهم من الاعتداء عليها؛ وليأمنوا على أنسابهم من الاختلاط، ولردع المضيعين لأعراضهم التي أمرهم الله بحفظها في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [: ٣٠ - ٣١].

وبذلك يقضى على جريمة الزنا التي تدمر المجتمعات البشرية، وبتطبيق هذا الحد يأمن الناس من هذا الخطر المدمر الذي يلوث المجتمع، ويهدد الإنسانية، وينشر الأمراض الخطيرة.

٣. ولشناعة جريمة الزنا وحرمة عرض المسلم صان الله أعراض الأبرياء أن تدنس بنسبة هذه الجريمة إليها، وكف الألسنة البذيئة أن تتطاول على عرض المسلم فتقذفه بارتكاب فاحشة الزنا زورًا وبهتانًا.

فأمر بجلد القاذف الذي لا يستطيع إقامة البينة على ما يقول بأن يجلد ثمانين جلدة، ولا تقبل له شهادة أبدًا، وأنه يعتبر فاسقًا ساقط العدالة ما لم يتب من هذه الجريمة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [: ٤ - ٥].

وبهذا الحد الرادع وسحب الثقة من القاذف تصان الأعراض البريئة، وتسكت الأفواه البذيئة، وتتوارى آثار هذه الجريمة، ويصبح الناس في مأمن منها ومن ذكرها حتى تتوارى من المجتمع نهائيًا.

٤. ولما كان المال قوام الحياة والحفاظ عليه من الضروريات.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

وقد حرم الله أخذ أموال الناس بغير حق والاستيلاء عليها بغير مبرر، فالاعتداء على مال الغير كالاعتداء على دمه وعرضه في الحرمة، كما تدل عليه الآيات والأحاديث، ومن أشد أنواع الاعتداء على أموال الناس أخذها بالسرقة، وهي أخذ المال خفية من حرز مثله، وجزاء من فعل ذلك قطع يده، هذه اليد الخائنة التي امتدت إلى ما لا يحل لها، وعبثت بالأمن، وروعت المجتمع جزاؤها البتر، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا

﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

والسرقة أشد خطورة من اغتصاب المال مجاهرة؛ لأن المجاهرة تمكن مدافعتها وعمل الاحتياطات المانعة من شرها، أما السرقة فإنها مكر خفي، وغدر سيئ، يؤخذ بها الإنسان من مأمنه، وتدل على جرأة المجرم حيث لم تمنع منه الحروز والحصون، فكان جزاؤه بتر يده وتعطيلها عليه ردعًا له وعظة لغيره، وبهذا يتوفر الأمن للمجتمع، ويطمئن الناس على أموالهم في بيوتهم ومستودعاتهم، ويقضى على الجريمة.

٥. ولما كان ربط البلدان والأقاليم بعضها ببعض عن طريق المواصلات البرية والبحرية والجوية لنقل البضائع وتنقلات المسافرين للتجارة وغيرها من الأغراض التي تتم بها مصالحهم؛ لذلك احتاج المجتمع إلى تأمين السبل بردع المجرمين الذين يحاولون قطعها، ويروعون المارة.

ولأجل ذلك شرع سبحانه حد قطاع الطريق، وهم الذين يعرضون للناس بالسلاح فيغصبونهم المال مجاهرة، وهذا الحد هو ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٣ - ٣٤].

وبتطبيق هذه العقوبة على قطاع الطريق تأمن السبل، وتنتظم المصالح، ويتوفر الأمن في البر والبحر والحاضرة والبادية، وتنتظم المواصلات بين البلدان والأقاليم، ويسهل نقل البضائع والتبادل التجاري مما فيه صلاح العمران البشري، وتوفر الإنتاج؛ ولهذا وصف الله من يحاول تعطيل هذه المصالح بأنه محارب لله ورسوله، وساع في الأرض بالفساد.

٦. ولما كان لابد للمسلمين من قيادة تجتمع كلمتهم بها، وتحل مشاكلهم، وتكف الظالم منهم عن ظلمه، وتدفع العدو الخارجي عنهم، وترعى شؤونهم، وتنفذ أحكام الله فيهم.

لما كان الأمر كذلك وأكثر، شرع الله تنصيب الإمام وطاعته بالمعروف وإعانته على الخير، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وهكذا نتبين من هذا العرض الموجز ما

حققه الإسلام من أمن الأفراد والمجتمعات حين عجزت كل نظم البشر وأسلحتهم الفتاكة وأجهزتهم الدقيقة أن تحقق أقل القليل من هذا الأمن الذي حققه الإسلام، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثم إن هذا الأمن الذي حققه الإسلام لا يعتمد على العقوبة وشدة البطش بأصحاب الجرائم، وإنما يعتمد على غرس الإيمان في القلوب، وزرع الخشية الإلهية في النفوس حتى تترك الإجرام رغبة عنه، وكراهية له، بل تقوم بمقاومته والنهي عنه، ثم يتبع ذلك الوعظ والتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأجل تعليم الجاهل، وتذكير الغافل، والأخذ على يد السفيه عن الوقوع في الجرائم، ثم يتبع ذلك تطبيق العقوبات الشرعية على من لم تُجْدِ فيه الموعظة، ولم تؤثر فيه النصيحة، ولم يأتمر بالمعروف، وينته عن المنكر، فالعقوبة آخر مرحلة كما يقال[(١)(٢)]:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

إن مجتمعًا يسود بين أهله الإيمان بالله عز وجل، واليقين بالآخرة، والجزاء والحساب، لا شك أنه مجتمع تسوده المحبة، ويعمه السلام؛ لأن تعظيم الله سبحانه سيجعل هذه النفوس لا ترضى بغير شرع الله عز وجل بديلًا، ولا تقبل الاستسلام إلا لحكمه، وهذا بدوره سيضفي الأمن والأمان على مثل هذه المجتمعات؛ لأن أهلها يخافون الله ويخافون يوم الفصل والجزاء، فلا تحاكم إلا لشرع الله، ولا تعامل إلا بأخلاق الإسلام الفاضلة، فلا خيانة ولا غش ولا ظلم، ولا يعني هذا أنه لا يوجد في المجتمعات المسلمة من يظلم أو يخون أو يغش، فهذا لم يسلم منه عصر النبوة ولا الخلافة الراشدة، لكن هذه المعاصي تبقى فردية، يؤدب أفرادها بحكم الله عز وجل وحدوده، إذا لم يردعهم وازع الدين والخوف من الله، والحالات الفردية تلك ليست عامة، أما عندما يقل الوازع الديني والخوف من الآخرة، ويكون التحاكم إلى أهواء البشر وحكمهم فهذا هو البلاء العظيم والفساد الكبير، حيث تداس القيم والحرمات، ويأكل القوي الضعيف، وبالتالي لا يأمن الناس على أديانهم ولا أنفسهم ولا أموالهم ولا أعراضهم، وكفى بذلك سببًا في عدم الأمن والاستقرار، وانتشار الخوف، واختلال حياة الناس.

وإذا انحرف الناس عن هذا المنهج ضاع الأمن، وهلك العباد، وسقطت البلاد، قال

(١) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٢٦٦.
(٢) انظر: تحقيق الإسلام لأمن المجتمع، صالح الفوزان، مجلة البحوث الإسلامية ٢١/ ٩٦.

ابن تيمية: «وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم»[1].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)[2].

ومن إقامة الشرع: إقامة العدل، قال تعالى مخاطبًا جميع عباده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

قال ابن تيمية: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمةٌ، وعاقبة العدل كريمةٌ؛ ولهذا يروى: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرةً، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنةً»[3].

والعدل هو الذي يؤمن الأمم من عدوان أعدائها، وتحل وفرته وشموله محل ما نقص من السلاح والعتاد المادي، وقد كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: إن مدينتنا قد خربت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالًا نرمها به فعل، فكتب إليه عمر: إذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم؛ فإنه مرمتها، والسلام[4].

ثانيًا: الأمن المذموم ومظاهره:

الأمن منه محمود ومذموم، وقد سبق بيان الأمن المحمود، وطرق تحصيله، والأمن المذموم هو ما يضاد الأمن المحمود، كالأمن من مكر الله تعالى، والأمن من بطش الأعداء، والتفريط في تحصيل أسباب الأمن المحمود، يوقع ولا شك في الأمن المذموم، وقد ذكر القرآن الكريم مظاهر ذلك الأمن المذموم، ومن ذلك:

١. الأمن من عقوبة الله وعذابه في الدنيا.

ذكر الله تعالى توبيخ الذين أمنوا،

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ٢٥٤.
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ٢/ ١٣٣٢، رقم ٤٠١٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢١٦.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٦٣.
(٤) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ٤٥/ ٢٠٢، تاريخ الخلفاء، السيوطي ص١٧٤.

واستغرقوا في أمنهم الباطل، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: أفأمن يا محمد هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله ويجحدون آياته، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قص عليهم قصصهم من الأمم قبلهم، فإن مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك أن يكون استدراجًا مع مقامهم على كفرهم، وإصرارهم على معصيتهم إلا القوم الخاسرون وهم الهالكون»[(١)].

إن البشر في قبضة الله في كل لحظة وفي كل بقعة، إنهم في قبضته في البر، كما هم في قبضته في البحر، فكيف يأمنون؟

ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا، ثم يأمنوا أخذه وكيده، وهم يتوجهون إليه وحده في الشدة، ثم ينسونه بعد النجاة، كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله![(٢)].

٢. الأمن من بطش الأعداء وتسلطهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠١ - ١٠٢].

أمرهم الله تعالى بالصلاة، ثم بالتعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو، وهذا الحذر الذي يوصى المؤمنون به تجاه عدوهم الذي يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم ليميل عليهم ميلة واحدة! ومع هذا التحذير والتخويف، التطمين والتثبيت، إذ يخبرهم أنهم إنما يواجهون قومًا كتب الله عليهم الهوان: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

وهذا التقابل بين التحذير والتطمين، وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر، وسكب فيض الثقة هو طابع هذا المنهج في تربية النفس المؤمنة، والصف المسلم في

(١) جامع البيان، ١٠/ ٣٣٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٠.

مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم![1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ٧١].

يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد وتكثير العدد بالنفير في سبيله[2].

٣. الأمن من زوال النعمة.

ومن القصص التي ذكر الله فيها زوال نعمة الأمن عن أصحابها:

- قصة سبأ.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبّٞ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [سبأ: ١٥ - ٢١].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: فإنهم بطروا عيشهم، وقالوا: لو كان جنى جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه، فمزقوا بين الشام وسبأ، وبدلوا بجنتيهم جنتين ذواتي أكلٍ خمطٍ وأثلٍ، وشيءٍ من سدرٍ قليلٍ[3].

فهم كفروا بما كانوا فيه من أمن فأبدلهم الله به خوفًا وتشتتًا وتمزيقًا، وقال ابن كثير: «يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعضٍ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زادٍ ولا ماءٍ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، ويقيل في قريةٍ ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم. . .، فبطروا هذه النعمة، وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف، فجعلهم الله حديثًا للناس، وسمرًا يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ٧٤٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٥٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٥.

الهنيء؟ تفرقوا في البلاد ها هنا وها هنا»[1].

❁ القرية الظالمة المضروب بها المثل.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فكونها آمنةً أي ذات أمنٍ لا يغار عليهم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[العنكبوت: ٦٧].

والأمر في مكة كان كذلك؛ لأن العرب كان يغير بعضهم على بعضٍ، أما أهل مكة فإنهم كانوا أهل حرم الله، والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم[2].

والمثل الذي يضربه الله لهم منطبق على حالهم، وعاقبة المثل أمامهم، مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله، وكذبت رسوله ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ وأخذ قومها العذاب وهم ظالمون.

ويحسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسًا، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقًا؛ لأن الذوق أعمق أثرًا في الحس من مساس اللباس للجلد، وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس، لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون[3].

وقال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

يقول تعالى ممتنًا على قريشٍ فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواءً العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمنًا، فهم في أمنٍ عظيمٍ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٤].

وقوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، و﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ٦/ ٥٠٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٧٩.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٩٩.

به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدرٍ، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم أنوفهم، وأذل رقابهم[1].

إن سنة الله ماضية، من أعرض عن شكر الله تعالى، وعن العمل الصالح وعن التصرف الحميد في نعم ربه عليه، فهو حري بسلب هذا الرخاء وإبداله جوعًا، وسلب نعمة الأمن وإبدالها خوفًا.

- أصحاب الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٠].

- صاحب الجنتين.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٣٤ - ٤٤].

فقول الظالم: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ اغترارٌ منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة[2].

تجيء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلًا للقيم الزائلة، والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله.

وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى الله ونعماءه، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.

نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلًا على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره.

جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر، إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال، وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور، وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه، وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا، أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا؟! فلابد أن يكون جنابه ملحوظًا في الآخرة! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلابد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ! فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر، ولا جنة عنده ولا ثمر فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى، معتز بعقيدته وإيمانه، معتز بالله الذي تعنو له الجباه فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكرًا عليه بطره وكبره، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم، وينذره عاقبة البطر والكبر، ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٧ - ٤١].

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم، وهو يطمع في فضل الله، وأن

نقمة الله جبارة، وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين.

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار، ومن هيئة البطر، والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار، فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

وهو مشهد شاخص كامل، الثمر كله مدمر، كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة، وصاحبها يقلب كفيه أسفًا وحزنًا على ماله الضائع وجهده الذاهب، وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته، ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركًا ينكره الآن، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان[(١)].

آثار الأمن على الفرد والمجتمع

لاستقرار الأمن آثار على الفرد وعلى المجتمع منها: الهداية، وسعة الرزق ورغد العيش، ومنها: النجاة من العذاب الأليم في الآخرة، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الهداية إلى أقوم السبل، وتوفر السكينة والاطمئنان:

إن تتبعنا لمفهوم الأمن يوصلنا إلى حقيقة مفادها أنه مستقر في القلب، ومدار مادة (أمن) في اللسان العربي على سكينة يطمئن إليها القلب بعد اضطراب، وقول الراغب الأصفهاني يكاد يكون جامعًا لما في غيره مع تدقيق، يقول: «أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، وآمن: إنما يقال على وجهين:

أحدهما: متعديًا بنفسه، يقال: آمنته، أي: جعلت له الأمن، ومنه قيل لله: مؤمن.

والثاني: غير متعد، ومعناه: صار ذا أمن، والإيمان هو التصديق الذي معه أمن»[(٢)].

كأن الإمام الراغب لا يتصور أن يكون هناك مؤمن وليس عنده أمن، أي سكينة واطمئنان، أي استقرار لا اهتزاز ولا اضطراب ولا قلق ولا حيرة؛ لأنه مطمئن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

(٢) المفردات ص٩٠.

إلى ربه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

فالمدار إذن على وجود سكينة في القلب في جميع ما دارت فيه المادة سواء في صورة (أمن) أو (آمن) المتعدي واللازم، المدار على هذه السكينة وعلى هذه الطمأنينة التي تأتي في حقيقتها بعد نوع من القلق والاضطراب، وتأتي بعد قدر من الخوف، وهذا الخوف عبر عنه بالخوف نفسه، وعبر عنه بالبأس، وعبر عنه بالفزع ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وعبر عنه بألفاظ أخرى غير هذه الألفاظ، ولكن مؤداها جميعًا هي أنها تحدث لدى الإنسان ضربًا من الخوف، فإذا جاء الأمن أزال ذلك الخوف، هذا الأصل وهذا المدار الذي تدور عليه المادة يجعلنا نتجه إلى أن المعنى الذي للأمن هو أنه حال قلبية تجعل المتصف بها في الدنيا يرتاح ويطمئن، والموصوف بها في الآخرة يسعد وتحصل له السعادة الأبدية.

إن أثر الإيمان حسب النصوص الشرعية يطمئن النفوس، ويهدئ المجتمعات من القلاقل، والفتن والأزمات، في أمور كثيرة، اضطربت فيها أنظمة الأمم، وتباينت فيها الآراء رغبة في وجود حل، والقضاء على مشكلة، أجد أن هذا الحيز لا يفيها كلها، ولكن حسبنا الإشارة إلى نماذج منها مثل:

- **الأمن الزراعي وتوفير الغذاء.**

ونجد هذا في آيات كثيرة في كتاب الله الكريم، مثل سورة يوسف والنحل وغيرهما.

- **الأمن الأسري ورباط الزوجية.**

كما في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

- **الأمن العائلي والاهتمام بالأولاد.**

كما جاء في سورة النساء في تقسيم التركات.

- **الأمن في الأوطان وحمايتها، والأمن الأخلاقي وتهذيب النفوس.**

كما جاء في آيات سورة في تحريم الزنا، ومنع الخوض في أعراض الناس، وفي آداب الاستئذان، وفي فرضية الحجاب وآياته في سورة الأحزاب.

- **أمن العقيدة وسلامة القلوب لارتباطها بالله وحده، ونبذ كل ما سواه.**

يقول تعالى في هذا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وآيات سورة الروم وسورة الواقعة التي تربط الإنسان بخالقه المتصرف سبحانه في جميع الأمور.

- **أمن المسكن وتوفير المعيشة.**

وتوضح ذلك آيات متعددة من كتاب الله الكريم كما في سورة النحل.

- **الأمن الاقتصادي وحرية الحركة في الأموال بيعًا وشراء، بعد أداء حق الله فيها بالزكاة والصدقة.**

وقد حظيت الزكاة والصدقة بتوجيهات كبيرة من القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ لتهذيب النفوس وتعويدها على البذل والعطاء براحة نفس واطمئنان خاطر، وفي السر آكد؛ لأنها أبعد عن المراءاة.

- **الأمن بالهجرة لمكان آخر إذا كان المرء لا يستطيع أداء شعائر دينه، أو يجد مضايقات من أعداء دينه، وهذا هو الأمن على العبادة.**

وقد حكى الله عمن لم ينج بدينه وهو قادر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧ - ١٠٠].

ولكي يجعل الله مأمنًا ومخرجًا لهؤلاء المستضعفين غير القادرين على الهجرة والنجاة بأنفسهم فإن مما يطمئنهم أن الفئة المؤمنة مأمورة بالجهاد لتخليصهم ونصرتهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

- **الأمن بالتوبة.**

وهذا هو أمن المصير، وراحة النفس في الدنيا بالابتعاد عن أمر يؤرق النفس، ويخيفها التلبس به، وآيات التوبة في كتاب الله الكريم كثيرة ومتعددة.

- **أمن النفوس بمجاهدة الكفار؛ لإظهار دين الله، ولإسعاد البشرية بتبليغه.**

كما توضح ذلك سورة الأنفال وسورة التوبة وسورة البقرة، وغيرها في مواطن كثيرة من كتاب الله؛ لأن قمع أعداء الله وأعداء رسالاته لا يكون إلا بقوة السلاح، ودفاع المجاهدين المتحمسين لإظهار دينه.

وتأمين النفوس من التأثيرات الخفية، وحفظها من أثر ذلك كالسحر ونفثات الشيطان، كما جاء في المعوذتين، وقل هو الله أحد، وآية الكرسي، ففي هذا حرز للنفس وأمان لها من المؤثرات النفسية، ووساوس الشيطان وأتباعه.

- الأمن بالمشورة في كل أمر حتى يخف ما على كاهل الإنسان بإعطائه للآخرين، فيشاركون في الرأي.

كما في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وغير هذا من الأمور التي جعلت الشريعة الإسلامية فيها حلولًا لكل ما يعترض الإنسان في هذه الحياة، حيث يجد المرء في المخارج ما يريح نفسه، ويعينه على التغلب على المشكلة التي اعترضته؛ لأن في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ما ينير الطريق، ويوضح المعالم، ويهدئ النفوس.

وقد وصف الله الفئة المؤمنة بآيات كريمات في مطلع سورة سميت باسمهم، أعطتهم صفات مطمئنة ومريحة؛ لأنهم في يقين ورضًا.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١][1].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

فلا سعادة لإنسان بلا سكينة نفس، ولا سكينة نفس بلا اطمئنان القلب، ومما لا شك فيه أن كلًا منا يبحث عن السعادة ويسعى إليها، فهي أمل كل إنسان، ومنشود كل بشر، والتي بها يتحقق له الأمن النفسي.

وليس الأمن النفسي بالمطلب الهين، فبواعث القلق والخوف والضيق ودواعي التردد والارتياب والشك تصاحب الإنسان منذ أن يولد وحتى يواريه التراب.

وإن الإسلام ليقيم صرحه الشامخ على عقيدة أن الإيمان مصدر الأمان، فالإقبال على طريق الله هو الموصل إلى السكينة والطمأنينة والأمن؛ ولذلك فإن الإيمان الحق هو السير في طريق الله للوصول إلى حب الله، والفوز بالقرب منه تعالى.

(١) انظر: أثر الإيمان في إشاعة الاطمئنان، محمد الشويعر، مجلة البحوث الإسلامية ١٧/ ١٨٩.

قال ابن القيم: «إن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل ؛ إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وهذا، والله المستعان»[1].

وكذلك شرع الإسلام ما يحمي الإنسان، ويجعله آمنًا على نفسه، فحرم الله تعالى قتل النفس بغير الحق، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وفي حماية الأموال قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩ - ٣٠].

ومن الحدود التي تحافظ على أمن المجتمع كله حد الحرابة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣ - ٣٤].

وهكذا كل الشريعة تحفظ على الناس أمنهم بطرق كثيرة، فيترتب عليه شيوع الأمن في المجتمع المسلم، ومن ثم يتوفر الناس لأمور دينهم ودنياهم.

ثانيًا: سعة الرزق والرغد:

باستقراء جزئي لبعض نصوص القرآن الكريم نجد اقترانًا وجيهًا بين الأمن والرزق، ومن ذلك:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وهنا عقوبة بعد امتنان، وهدم بعد تشييد، فيظهر الله منته على عبادة بقوله: ﴿آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ فقرن بين الأمن والكفاية في الرزق؛ بل

(١) الفوائد ص ٧٧.

من كمال فضله على أهل هذه القرية زيادة على الأمن تفضل عليهم بالطمأنينة، وهي الاستقرار النفسي من الداخل، فكانوا في آمن من عدو خارجي، واستقرار نفسي داخلي، ثم بين أن رزقها يأتيها ليس كفافًا أو كفاية؛ بل يأتيها رغدًا كثيرًا هنيئًا متنوعًا من كل مكان، فقد بلغ أهل القرية غاية الأرب، ومنتهى الطلب في مقصدي الأمن والكفاية، فلما كفرت بتلك النعم حرمت من الكأس الذي به كان الامتنان، فتبدل الأمن خوفًا والرزق جوعًا.

وفي هذه الآية دلالة صريحة على أن أعظم المنة على النفس توفير الأمن وكفاية العيش.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤].

ووردت هذه الآية في معرض المنة على كفار قريش في جاهليتهم، فكانوا أعز العرب منعة وأكثر هم مهابة، وتجلب لها الأرزاق والأنعام من حيث شاءوا.

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فقرن في عقوبة الابتلاء بين الخوف والجوع، فبفقدهما تكون أعظم المصائب وأجل الخطوب.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

فقرن في الامتنان على كفار قريش بين الأمن والرزق، وهذا التلازم بين هذين المقصدين يقتضي الوقوف عنده كثيرًا.

وقال تعالى عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وهنا عندما طلب إبراهيم عليه السلام من ربه الحياة الكريمة لمن سيؤول إليه سكن مكة، طلب أعز موجود، وأعظم مفقود، وهما الأمن والرزق، وهذا دلالة على أنهما ركيزتان للحياة الإنسانية الكريمة.

وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيءٍ آخر من أمور الدين والدنيا[1]، وهكذا في آيات كثيرة.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وفي هذه الآية الكريمة يذكر الله أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم بأعظم منتين امتن الله بهما عليهم، وهما الأمن بعد

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٣٤.

الخوف، والرزق بعد شظف العيش.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)[1].

وهذا الحديث أصل في هذا الباب، فقد ذكر فيه الدعائم الأساسية في حياة الفرد، وهي تنطبق تباعًا على المجتمعات والتكتلات بكل مفرداتها، وهذه الأسس هي: الأمن والعافية والقوت (الرزق) فمن جوامع الخير وحقوق الآدمية للفرد والجماعة أن يوفر لهم الأمن بكل أنواعه، والرزق بصنوف حاجاته وعلائقه.

وإذا كنا قد اتفقنا على أن أعظم طرق الأمن هو الإيمان، فإن الإيمان بالله هو الذي يجعل المجتمع في رغد وسعة من الرزق.

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦ - ٩٩].

فذكر الله تعالى أن هذه القرى لما كانت آمنة كانت البركات تنزل عليهم، فلما كفروا أبدلهم الله بالأمن خوفًا، وزالت النعمة عنهم.

وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فجعل من مستلزمات الأمن أن رزقها رغدًا.

قال الماوردي: «اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمةً، وأمورها ملتئمةً، ستة أشياء هي قواعدها، وإن تفرعت، وهي: دينٌ متبعٌ، وسلطانٌ قاهرٌ، وعدلٌ شاملٌ، وأمنٌ عامٌ، وخصبٌ دائمٌ، وأملٌ فسيحٌ.

وقال في شرح ذلك: وأما القاعدة الرابعة: فهي أمنٌ عامٌ تطمئن إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائفٍ راحةٌ، ولا لحاذرٍ طمأنينةٌ.

وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنأ عيشٍ، والعدل أقوى جيشٍ؛ لأن الخوف

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، ٤/ ١٥٢، رقم ٢٣٤٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، ٢/ ١٣٨٧، رقم ٤١٤١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤٢.

يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم، وانتظام جملتهم؛ لأن الأمن من نتائج العدل، والجور من نتائج ما ليس بعدلٍ.

ثم قال في الخصب: والخصب يكون من وجهين: خصبٌ في المكاسب، وخصبٌ في المواد، فأما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد، وهو من نتائج الأمن المقترن بها، وأما خصب المواد فقد يتفرع عن أسبابٍ إلهيةٍ، وهو من نتائج العدل المقترن بها»[1].

وتأمل التلازم الوثيق بين الأمن والرزق، وبين الخوف والجوع، تجده مطردًا في القرآن كله، مما يؤكد أهمية ووجوب المحافظة على الأمن؛ لما يترتب على ذلك من آثار كبرى في حياة الناس وعباداتهم، واستقرارهم البدني والنفسي، وأي طعم للحياة والعبادة إذا حل الخوف؟ بل تتعثر مشاريع الدين والدنيا.

وقال الجويني: «ولا تصفو نعمةٌ عن الأقذاء ما لم يأمن أهل الإقامة والأسفار من الأخطار والأغرار، فإذا اضطربت الطرق، وانقطعت الرفاق، وانحصر الناس في البلاد، وظهرت دواعي الفساد، ترتب عليه غلاء الأسعار، وخراب الديار، وهواجس الخطوب الكبار، فالأمن والعافية قاعدتا النعم كلها، ولا يهنأ بشيءٍ منها دونها؛ فلينتهض الإمام لهذا المهم، وليوكل بذلك الذين يخفون، وإذا حزب خطبٌ لا يتواكلون، ولا يتجادلون، ولا يركنون إلى الدعة والسكون، ويتسارعون إلى لقاء الأشرار بدار الفراش إلى النار، فليس للناجمين من المتلصصين مثل أن يبادروا قبل أن يتجمعوا أو يتألبوا، وتتحد كلمتهم، ويستقر قدمهم، ثم يندب لكل صقعٍ من ذوي البأس من يستقل بكفاية هذا المهم.

وإذا تمهدت الممالك، وتوطدت المسالك، انتشر الناس في حوائجهم، ودرجوا في مدارجهم، وتقاذفت أخبار الديار مع تقاصي المزار إلى الإمام، وصارت خطة الإسلام كأنها بمرأى منه ومسمعٍ، واتسق أمر الدين والدنيا، واطمأن إلى الأمنة الورى، والإمام في حكم البذرقة[2] في البلاد للسفرة والحاضرة، فليكلأهم بعينٍ ساهرةٍ، وبطشةٍ قاهرةٍ»[3].

ثالثًا: النجاة من عذاب الله في الآخرة:

(١) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص١٣٣.

(٢) البذرقة: الحراس يتقدمون القافلة، وأجر الحراسة، والأمان يعطاه المسافر، وهي كلمة ليست بعربية، وإنما هي كلمة فارسية وعربتها العرب، يقال: بعث السلطان بذرقة مع القافلة، والمبذرق: الخفير. انظر: المعجم الوسيط ١/ ٤٥ والقاموس المحيط ص ٨٦٦.

(٣) غياث الأمم، الجويني ص ٢١٢.

من المفهوم القاصر للأمن الذي يحاول الملبسون ترسيخه في أذهان الناس اليوم توجيه الأنظار إلى توفير الأمن على النفس والرزق في هذه الحياة الدنيا فحسب، ونسيان الأمن الحقيقي والسعادة الكبرى في الآخرة، وعدم أو ضعف الحرص على ذلك، وإغفال الأسباب التي توصل إلى الأمن يوم الفزع الأكبر، والفوز بدار الأمن والسلام والتي أعدها الله عز وجل لعباده المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

إن الأمن يوجب على الإنسان أن يعبد الله، كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [: ٥٥].

وهذه العبادة هي المؤدية للأمن التام في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فهؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة[1].

ومن خاف هنا أمن هناك، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف في الدنيا أمن في الآخرة، ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء، تدمع العين، ويرق القلب، ثم ينسى على القرب، يعود المرء إلى اللهو واللعب، فهذا ليس من الخوف في شيء، بل من خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا شيئًا طلبه، فلا ينجي إلا خوف يمنع عن معاصي الله تعالى ويحث على طاعته.

ولذلك وعد الله أهل الإيمان بالأمن التام، فقال سبحانه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

ففي يوم القيامة في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين أحسنوا في الحياة الدنيا، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

والأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء، وما بعده فضل من الله ومنة، ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة، بل أمنهم يوم يفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٤.

﴿مَّن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لهؤلاء الذين يلحدون في آياتنا اليوم في الدنيا يوم القيامة عذابُ النار، ثم قال الله: أفهذا الذي يلقى في النار خيرٌ أم الذي يأتي يوم القيامة آمنًا من عذاب الله لإيمانه بالله جل جلاله ؟ هذا الكافر، إنه إن آمن بآيات الله، واتبع أمر الله ونهيه، أمنه يوم القيامة مما حذره منه من عقابه إن ورد عليه يومئذٍ به كافرًا»[(١)].

وقال تعالى ذاكرًا أمنهم وهم في الجنة: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

إشارةً إلى دوام النعيم وتأبيده، فإن من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمنًا[(٢)].

فهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأسٍ وخوفٍ وأذًى، ومن كل شرٍ يحذر منه، فنسأل الله أن يجعلنا من أهل الأمن في الدنيا والآخرة.

موضوعات ذات صلة:

الحذر، الخوف

(١) جامع البيان، ٢٠/ ٤٤٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٠٩.

الأمومة

عناصر الموضوع

مفهوم الأمومة	١٦٠
الأمومة في الاستعمال القرآني	١٦١
الألفاظ ذات الصلة	١٦٢
الأمومة الأولى	١٦٥
أنواع الأمومة	١٦٧
فطرة الأمومة ومشقاتها	١٦٩
الأمومة والأحكام الشرعية	١٧٤
الأمومة حقوق وواجبات	١٧٩
أمهات ذكرهن القرآن	١٨٧

مفهوم الأمومة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمومة مشتقة من الأم، وأم كل شيء: أصله وعماده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف:٤].

وأم كل شيء معظمه، يقال لكل شيء اجتمع معه غيره فضمه إليه أمه، والأم الوالدة[١]، والأم: خادم القوم، الذي يلي طعامهم وخدمتهم، والأم الوالدة، وتطلق على الجدة، يقال حواء أم البشر، وجمعها للعاقل أمهات، ولغير العاقل أمات، والأم: المسكن، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩﴾ [القارعة:٩]. أي: مسكنه النار، وقيل: أم رأسه هاوية فيها، أي: ساقطة[٢].

وقيل: تفسير الأم في كل معانيها: أمه؛ لأن تأسيسه من حرفين صحيحين، والهاء فيه أصلية، ولكن العرب حذفت تلك الهاء إذا أمنوا اللبس، لذا يقال في تصغير أم: أميمة، والصواب: أميهة، ترد إلى أصل تأسيسها، ويقال: تأمم فلان أمًا، أي: اتخذها لنفسه أمًا[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الأمومة من أعظم الهبات التي خص الله بها المرأة، وقد عرف العلماء الأمومة بأنها: «نظام تعلو فيه مكانة الأم على مكانة الأب في الحكم، ويرجع فيه إلى الأم في النسب أو الوراثة»[٤].

وفي تعريف الأم قال العلماء: الأم هي: «الوالدة القريبة التي ولدته، والبعيدة التي ولدت من ولدته»[٥].

فالأم «اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم دنية، وأمهاتها وجداتها وأم الأب وجداته وإن علون»[٦].

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٠٧٦.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٤٥٢، الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٨٦٣، تاج العروس، الزبيدي، ٣١/ ٢٣٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٧.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٤٥٢.
(٤) المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٧.
(٥) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١١١، التوقيف، المناوي، ص٦٢.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ١٠٨.

الأمومة في الاستعمال القرآني

وردت (الأم) في القرآن (٢٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	١٧	﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[القصص:٧]
الجمع	١١	﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾[النساء:٢٣]

وجاءت الأم في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الوالدة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾[طه:٤٠]. أي: إلى والدتك.

الثاني: المرضعة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾[النساء:٢٣]. يعني: وحرمت عليكم مرضعتكم في الحولين.

الثالث: أمهات المؤمنين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب:٦].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص١٧٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٤٤٤، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص١٤١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوالدة:

الوالدة لغةً:

الأم، يقال: ولدت المرأة ولادًا وولادةً، وأولدت: حان ولادها[١]، وولدته أمه ولادة وإلادةً على البدل، فهي والدة على الفعل، ووالدٌ على النسب[٢].

الوالدة اصطلاحًا:

هي التي تضع ولدها المولود[٣].

الصلة بين الأم والوالدة:

ذكرت الأم في القرآن الكريم أكثر من ذكر لفظة الوالدة، مما يدلل على أن لفظ الأم أعم من الوالدة، ففي كتب اللغة: الأم هي أصل الشيء، بينما الوالدة هي التي تلد، فكل والدة أم، وليس كل أم والدة، فالأم قد تعيل وتربي ولا يعني ذلك بالضرورة أنها هي من ولدته.

٢ المرضعة:

المرضعة لغة:

من رضع الصبي أمه رضاعًا، وامرأة (مرضع) أي لها ولد ترضعه، فإن وصفتها قال الفراء: المرضعة الأم، والمرضع التي معها صبي ترضعه، وقيل: المرضعة الفاعلة للإرضاع والمرضع ذات الرضيع[٤].

المرضعة اصطلاحًا:

وهي من معها صبي ترضعه، سواء كانت من ولدته أو استؤجرت لإرضاعه[٥].

الصلة بين الأم والمرضع:

قد تكون المرضعة هي الأم التي ولدته، وقد لا تكون، وإنما جيء بها واستأجرها الوالد؛ لإرضاع ابنه.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٤٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٦٧.
(٣) انظر: التوقيف، المناوي، ص٣٤٠.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ١٢٣.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٢٥.

٣ الأنثى:

الأنثى لغة:

من أنث، فالألف والنون والثاء ما كان خلاف الذكر، والأنثيان أنثيا الإنسان[١].

الأنثى اصطلاحًا:

قال الأصفهاني في تعريف الأنثى: «الأنثى خلاف الذكر ويقالان في الأصل اعتبارًا بالفرجين، قال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[النساء:١٢٤].

ولما كانت الأنثى في جميع الحيوان تضعف عن الذكر اعتبر فيها الضعف، فقيل لما يضعف عمله أنثى»[٢].

الصلة بين الأم والأنثى:

كل أم أنثى، وليس كل أنثى أمًا، فإذا أنجبت الأنثى أصبحت أمًا.

٤ المرأة:

المرأة لغة:

يقال: مرة -بلا ألف-: تأنيث المرء[٣]؛ «والمرأ: الرجل»[٤] فقد أنثوا فقالوا مرأةٌ، وخففوا التخفيف القياسي فقالوا مرةٌ -بترك الهمز وفتح الراء- وهذا مطرد، وقال سيبويه: وقد قالوا: مراةٌ -وذلك قليل-... وللعرب في المرأة ثلاث لغات؛ يقال: هي امرأته، وهي مرأته، وهي مرته»[٥].

المرأة اصطلاحًا:

«اسم للأنثى البالغة من أولاد آدم»[٦] ولا يطلق عليها (امرأة) إلا بعد البلوغ، فـ«الصغيرة لا تسمى امرأة في عرف أهل اللسان»[٧].

الصلة بين الأم والمرأة:

كل أم امرأة، وليس كل امرأة أمًا.

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ١٠٤.
(٢) المفردات، ص٢٧.
(٣) انظر: كتاب العين، الفراهيدي ٨/ ٢٩٩.
(٤) بصائر ذوي التمييز، الفراهيدي ٤/ ٤٩٦.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٥٤.
(٦) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٧١.
(٧) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، البيضاوي ٢/ ٣٤٤.

٥ الأب:

الأب لغة:

الأب بالتخفيف بمعنى الوالد الذي إليه يرجع النسب[١].

الأب اصطلاحًا:

قال المناوي «الأب: الوالد، والأبوان: الأب والأم، أو الأب والجد، أو الأب والعم، أو الأب والمعلم، وكذا كل من كان سببًا لإيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره»[٢]، وقال الجرجاني الأب هو: كل من تكون من نطفته شخص آخر من نوعه[٣].

الصلة بين الأمومة والأبوة:

الأم والأب منهما يتكون الولد، فهما الوالدان اللذان يقومان على رعاية الأبناء، فالأمومة مضاد الأبوة، ويتكامل دورهما لتقوم الأسرة.

الأمومة والأبوة: وهما الوالدان اللذان تتضافر جهودهما لإنشاء أسرة صالحة.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٢/ ٦.
(٢) التوقيف، ص٣٥.
(٣) انظر: التعريفات، ص٧.

الأمومة الأولى

خلق الله عز وجل أول خلقه من البشر آدم عليه السلام، ثم خلق منه أم البشر حواء عليها السلام، فكانت أول من خلق الله عز وجل من النساء، فالأمومة الأولى تمثلت في حواء عليها السلام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

وقال تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

خلق الله عز وجل آدم عليه السلام، وأسكنه الجنة، وبعدها خلق الله حواء، واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ على رأيين:

الأول: النفس الواحدة آدم عليه السلام، وزوجها حواء عليها السلام، فحواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام.

فإنه تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام، روي أنه عز وجل لما خلقه عليه السلام وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى، فلما انتبه وجدها عنده[1].

وقال ابن كثير في معنى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ «وهي حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه، وهو نائم، فاستيقظ، فرآها، فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه»[2].

وقيل: إنه لم يؤذه أخذ الضلع شيئًا، ولو آذاه لما عطف رجل على امرأة أبدًا[3]، ثم نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بطريق التوالد والتناسل رجالًا ونساءً.

الثاني: معنى قوله: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معناه: وخلق من جنسها زوجها، أي من التراب، وعن ابن عباس: أن الله تعالى خلق الرجل من التراب؛ فهمه في التراب[4]، وذهب إلى هذا الرأي أبو مسلم، قال الألوسي: «وأنكر أبو مسلم خلقها من الضلع؛ لأنه سبحانه قادر على خلقها من التراب، فأي فائدة في خلقها من ذلك؟! وزعم أن معنى منها: من جنسها، والآية على حد قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل:٧٢].

ووافقه على ذلك بعضهم مدعيًا أن القول بما ذكر يجر إلى القول بأن آدم عليه السلام كان ينكح بعضه بعضًا، وفيه من الاستهجان

(١) إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٣٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٢٠٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٣٩٣.
(٤) انظر: المصدر السابق.

ما لا يخفى»[1].

واحتج أبو مسلم بأنه تعالى لما كان قادرًا على أن يخلق آدم ابتداءً، فما الذي حملنا على أن نقول إنه تعالى خلق حواء من جزءٍ من أجزاء آدم؟ ولم لا نقول: إنه تعالى خلق حواء أيضًا ابتداء؟ وأيضًا الذي يقدر على خلق إنسان من عظمٍ واحد فلم لا يقدر على خلقه ابتداء؟ فأي فائدة في خلقها من ضلعه.

ورد أبو حيان على هذا القول حيث قال: «قال القاضي: الأول أقوى، إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة»[2].

وذهب أغلب المفسرين إلى القول الأول[3]، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤكد ما ذهب إليه أصحاب القول الأول، حيث قال عليه السلام: (المرأة خلقتِ من ضلعٍ أعوج وإنك إن أقمتها كسرتها، وإن تركتها تعش بها وفيها عوجٌ)[4].

والراجح والله أعلم القول الأول الذي ذهب إليه أغلب المفسرين؛ وهو أن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام:٩٨].

فالنفس الواحدة، هي آدم عليه السلام، وحواء مخلوقة من ضلعٍ من أضلاعه، فصار كل الناس من نفس واحدة.

وما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن خلقن من ضلعٍ، وإن أعوج شيءٍ في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا)[5].

(١) روح المعاني، ٢/ ٣٩٢.
(٢) البحر المحيط، ٣/ ٤٩٥.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٣٧.
(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه، ٤/ ٢٨٩، رقم ٧٤١٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، ٥/ ١٩٨٧، رقم ٤٨٩٠.

أنواع الأمومة

إن الأمومة من أقوى الغرائز التي جبلت عليها المرأة، والأمومة لها أكثر من شكل ونوع، فيقال عن المرأة التي تلد أم، والمربية أو المرضعة أم، والقرآن الكريم صنف الأمومة إلى نوعين: الأم الوالدة، والأم المرضعة، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: الأم الوالدة:

الأمومة صفة تتمتع بها الأم الوالدة، وغريزة أودعها الله عز وجل في المرأة، فالأم بفطرتها تحن على وليدها، وهذه الأم الوالدة هي كل من ولدت المرء وإن علت[(١)].

قال الرازي: «كل امرأة رجع نسبك إليها بالولادة من جهة أبيك أو من جهة أمك بدرجة أو بدرجات، بإناث رجعت إليها أو بذكور فهي أمك»[(٢)].

فالأم هي الوالدة، كما أفاد أسلوب الحصر في قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾ [المجادلة:٢].

قال ابن عباس: « ما أمهاتهم في الحرمة إلا اللائي ولدنهم أو أرضعنهم»[(٣)].

وقال القرطبي: «الأم اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم دنية، وأمهاتها وجداتها وأم الأب وجداته وإن علون»[(٤)]، فأمومة الولادة تثبت لها أحكام النسب والإرث.

فأمومة الولادة هي الأمومة الكاملة في تحققها، وثبوت أحكامها.

ثانيًا: الأم المرضعة:

ذكر الله عز وجل هذا النوع من الأمومة الأم المرضعة في كتابه العزيز، فقال عز وجل: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء:٢٣].

وقد كان للنبي عليه السلام قرابة من الرضاعة، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم في بنت حمزة: (لا تحل لي؛ يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة)[(٥)].

وأم الإنسان من الرضاع هي الأم التي أرضعته، وكذلك كل امرأة انتسبت إلى تلك المرضعة بالأمومة، إما من جهة النسب أو

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٣١.
(٢) مفاتيح الغيب، ١٠/ ٢٤.
(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٤٦٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٥/ ١٠٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع، ٢/ ٩٣٥، رقم ٢٥٠٢.

من جهة الرضاع، والحال في الأب كما في الأم[1]، وإنما اعتبرت أمًا؛ «قال المهايمي: لأن الرضاع جزء منها وقد صار جزءًا من الرضيع، فصار كأنه جزؤها، فأشبهت أصله»[2].

فالأم الوالدة قد لا تستطيع لعذر إرضاع وليدها، لذا كان العرب قديمًا يستأجرون مرضعة لأبنائهم، فالأم المرضعة هي التي ترضع ولدًا لأي سبب من الأسباب، وتحرم الأم من الرضاعة كما تحرم الأم من النسب كما قال عليه السلام.

واشترط العلماء لحرمة الأم من الرضاعة شرطين:

الشرط الأول: أن تكون الرضاعة قبل استكمال المولود حولين، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣].

أي: أول قيام الهيكل وتشبح صورة الولد، وذلك قبل الفطام، وإلا فهو غذاء بمنزلة سائر الأغذية الكائنة بعد قيام الهيكل، كالشاب يأكل الخبز، وروي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء)[3].

والشرط الثاني: يتعلق بالقدر الذي يتحقق به معنى الرضاعة، فالآية الكريمة مطلقة، وجاءت السنة النبوية بتقييد إطلاقها بخمس رضعات متفرقات[4]، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: (كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعاتٍ معلوماتٍ يحرمن، ثم نسخن بخمسٍ معلوماتٍ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن)[5].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره يحرم، وهو قول ابن عباس وابن عمر، وبه قال سعيد بن المسيب، وإليه ذهب سفيان الثوري، ومالك، والأوزاعي وعبد الله بن المبارك[6].

قال الرازي: «إنه تعالى علق هذا الاسم يعني الأمومة والأخوة بفعل الرضاع، فحيث حصل هذا الفعل وجب أن يترتب عليه الحكم، ثم سأل نفسه فقال: إن قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ بمنزلة قول القائل: وأمهاتكم اللاتي أعطينكم، وأمهاتكم اللاتي كسونكم، وهذا يقتضي

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ٢٦.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٣/ ٦٣.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الرضاع، ٤/ ٤٥٠، رقم ١١٥٢.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٤٧، رقم ٧٤٩٥.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٩٨، محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٦٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب التحريم بخمس رضعات، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٥٨٧.
(٦) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٨٩.

تقدم حصول صفة الأمومة والأختية على فعل الرضاع، بل لو أنه تعالى قال: اللاتي أرضعنكم هن أمهاتكم لكان مقصودكم حاصلًا، وأجاب عنه بأن قال: الرضاع هو الذي يكسوها سمة الأمومة، فلما كان الاسم مستحقًا بوجود الرضاع كان الحكم معلقًا به، بخلاف قوله وأمهاتكم اللاتي كسونكم، لأن اسم الأمومة غير مستفاد من الكسوة، قال ويدل على أن ذلك مفهوم من هذه الآية ما روي أنه جاء رجل إلى ابن عمر رضي الله عنهما فقال: قال ابن الزبير: لا بأس بالرضعة ولا بالرضعتين، فقال ابن عمر: قضاء الله خير من قضاء ابن الزبير، قال الله تعالى: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ قال: فعقل ابن عمر من ظاهر اللفظ التحريم بالرضاع القليل»[1].

(١) مفاتيح الغيب، ١٠/ ٢٦.

فطرة الأمومة ومشقاتها

خلق الله عز وجل المرأة وأودع فيها غريزة الأمومة، بل هي من أقوى الغرائز عند الأم، فمن حرمها من الأمهات فهو ابتلاء عظيم، يبتلي الله به من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

لذا نرى عاطفة الأمومة متمثلة بأمور عديدة منها:

١. تمني الولد.

الأمومة فطرة جبلت عليها المرأة، فهذه سارة زوج سيدنا إبراهيم، تمنت الولد ولكنها لم تنجب في صغرها فبشرها الله عز وجل، بالولد في كبرها، قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود:٧١].

وهذه امرأة فرعون آسية لم تنجب، ونراها حرصت على أن تتخذ موسى ابنًا لها.

٢. الحب والحنان والخوف عليه.

عظيم ذلك القلب، كبير بحنانه وعطفه، مليء بالمشاعر والأحاسيس التي أودعها الله عز وجل فيه، ولقد جاء القرآن الكريم يرسم أجمل صورة لتلك العاطفة عند الأم

التي تجعلها تصبر على ولدها في بطنها تسعة أشهر، تعاني فيها من آلام الحمل والتغير العضوي ما تعاني، يمتص الجنين من جسدها الغذاء ليكبر ويكبر، فإذا ما حان وقت خروجه، عانت في وضعه أضعاف ما كانت تعاني أيام الحمل، فإذا ما رأته بعد تلك الآلام احتضنته بحبها وعطفها وحنانها.

إن عاطفة الأمومة وما ينبع منها من حب وعطف وحنان، لمعجزة إلهية من عند الخالق المبدع، فلولاها لما استطاعت الأم الصبر على عناء ومشاق التربية لأبنائها، فسبحانه تجلت حكمته عز وجل.

وتمثلت عاطفة الأمومة الجياشة بالحب والحنان واضحة جلية في السيدة هاجر عليها السلام عندما تركها سيدنا إبراهيم عليه السلام بواد غير ذي زرع، فدفعتها عاطفة الحنان على طفلها للبحث عن الماء، يقول سيد قطب: «وطيف هاجر، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة المتلهبة حول البيت، وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش، وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل، ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء. وإذا هي زمزم، ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب»[1].

ولقد أثنى الرسول صلى الله عليه وسلم على نساء قريش، وجعل صالحهن صالح النساء عامة؛ بسبب رعايتهن لأبنائهن، وعطفهن على أبنائهن، قال عليه السلام: (خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولده في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده)[2].

وجاء لنا القرآن الكريم مصورًا مشهد خوف الأم على وليدها، في أم موسى عليه السلام، عندما خافت عليه من أن يلحقه الأذى من فرعون، يقول الشعراوي: «فمن من النساء تقبل إن خافت على ولدها أن تلقيه في اليم؟ من ترضى أن تنجيه من موت مظنون إلى موت محقق؟ وقد جعل الحق سبحانه عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرحمن الذي أتاها، والذي لا يؤثر فيه وارد الشيطان»[3].

يقول المولى جل جلاله في محكم كتابه العزيز: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا

(١) انظر: في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب إلى من ينكح وأي النساء خير وما يستحب أن يتخير لنطفه من غير إيجاب، ٥/ ١٩٥٥، رقم ٤.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٧/ ١٠٨٧٩.

كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

[القصص:٧-١٣].

وانظر كيف يصور القرآن الكريم فؤاد أم موسى ومشاعرها وأحاسيسها، بعد أن نفذت أمر ربها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، يقول البيضاوي: «وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا صفرًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، كقوله تعالى: (وأفئدتهم هواء) أي خلاء لا عقول فيها»[1].

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «أي: إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله ثبتها وصبرها»[2].

ولقد دفعت عاطفة الرحمة والحنان وشدة الوجد في فؤاد أم موسى، أن ترسل ابنتها لتقص أثر ابنها، فبصرت به عن بعد وهم يبحثون عن مرضعة له، بعد أن رفض الرضاع من أي امرأة غير أمه، كان وعد الله عز وجل بإرجاعه إلى أمه، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولقد بين القرآن الكريم عاطفة الأمومة المليئة بالرحمة والشفقة عندما استعطف هارون أخاه بعدم لومه وعتابه، بعد أن عبد بنو إسرائيل العجل في غياب موسى عليه السلام لمناجاة ربه، مستخدمًا تذكيره بالأم مبعث العواطف الرحيمة والحنان والحب، مبررًا ما حدث بخوفه وخشيته من تفرق بني إسرائيل تارة، وأخرى بالاستضعاف وقلة الحيلة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَٰحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

[الأعراف:١٥٠].

يقول ابن جزي: «وإنما دعاه بأمه، لأنه أدعى إلى العطف والحنو»[3].

(١) أنوار التنزيل ٤/ ١٧٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٢٣.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ١/ ٣٠٣.

هذه هي الأم مصدر الحب وينبوع الحنان، فمسكين ذلك الابن الذي لا يدرك مكانة الأم و حقوقها عليه بعد كل هذا العطاء المتفاني، فإذا بنا نسمع في هذا الزمان أو نرى أولادًا لم يكتفوا بعدم البر والإحسان لهذه الأم، بل زادوا على ذلك بالإيذاء والتأفف والتذمر والعقوق، خسر الدنيا والآخرة والعياذ بالله.

أما مشقات الأمومة، فالأمومة لها مشاق مختلفة ومتنوعة، أولها:

١. الحمل.

وضح القرآن الكريم مشقات الحمل في مواضع عديدة، منها: قوله جل ذكره في محكم التنزيل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

والمقصود فيها ولدته أمه شدة بعد شدة، وخلقًا بعد خلق[1]، فالأم تعاني المشاق منذ بداية حملها، بل وتزاد المشقة يومًا بعد يوم؛ لتثاقل الحمل، قال النيسابوري: «وقوله ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا﴾ أي: حال كونها تهن وهنًا ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: ضعفا على ضعف، لأن الحمل كلما زاد وعظم ازدادت ثقلًا وضعفًا، اعتراض في اعتراض تحريضًا على رعاية حق الوالدة خصوصًا»[2].

«المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة، ويقال: الحمل ضعف، والطلق ضعف، والوضع ضعف»[3].

وقال المولى عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف:١٥].

يقول سيد قطب: «تركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، وصورة الوضع وطلقه وآلامه! ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة، إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم، وهي مزودة بخاصية أكالة، تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله، فيتوارد دم الأم إلى موضعها، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائمًا في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات وتمتصه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٧.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٥/ ٤٢٥.

(٣) تفسير القرآن،السمعاني ٤/ ٢٣٠.

لتحيا به وتنمو، وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم، دائمة الامتصاص لمادة الحياة، والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص، لتصب هذا كله دمًا نقيًا غنيا لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير. ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير»[1].

٢. الولادة.

وتحدث القرآن الكريم عن شدة الولادة وآلامها حينما وصف السيدة مريم بقوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم:٢٣].

والمخاض يعني الطلق، ووجع الولادة وآلامها، وقيل: التجأت إلى النخلة تستند إليها وتستمسك بها من شدة الطلق، ووجع الولادة[2].

ويتابع سيد قطب بوصف الآلام التي تلاقيها الأم، فيقول: «ثم الوضع، وهو عملية شاقة، ممزقة، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسي الأم حلاوة الثمرة، ثمرة التلبية للفطرة، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش، وتمتد، بينما هي تذوي وتموت! ثم الرضاع والرعاية، حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية»[3].

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٢٦٢.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٨٥.
(٣) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٢٦٢.

الأمومة والأحكام الشرعية

إن للأمومة أحكامًا خاصة بها لا بد من مراعاتها، والقيام بموجبها، والتزام ما أمر به الله عز وجل، من حرمة نكاحها، وأحكام الوصية والإرث، وما يتعلق بالقرابة ممن ترضعهم الأم، وأحكام الرضاعة والنفقة والحضانة، وسنتناول هذه الأحكام بشيء من التفصيل بإذن الله فيما يلي:

١. حرمة نكاحها.

وردت آيات في القرآن الكريم توضح لنا حرمة نكاح الأمهات، حيث قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء:٢٣].

فنستدل من خلال الآية الكريمة على حرمة نكاح الأمهات وترك ذكر لفظ النكاح، اكتفاءً بدلالة الكلام عليه[١]، وسمى الله عز وجل المرضعات أمهات لأجل الحرمة فيحرم عليه نكاحها، كأزواج النبي صلى الله عليه وسلم سماهن الله تعالى أمهات المؤمنين في قوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

فكما يحرم على الرجل نكاح أمه التي ولدته، كذلك يحرم عليه نكاح أمه التي أرضعته، ويحل له النظر إليها والخلوة بها والسفر معها[٢].

يقول الطنطاوي: «ومن الحكم التي ذكرها العلماء من وراء تحريم النكاح بسبب الرضاعة:أن المولود يتكون جسمه من جسم المرأة التي أرضعته فيكون جزءًا منها، كما أنه جزء من أمه التي حملته، وإذا كانت هذه قد غذته بدمها وهو في بطنها، فإن تلك قد غذته بلبانها وهو في حجرها، فكان من التكريم لهذه الأم من الرضاع أن تعامل معاملة الأم الحقيقية»[٣].

٢. الوصية والإرث.

ذكر الله عز وجل الميراث في القرآن الكريم، وفصله بدقة ووضوح من غير غموض أو لبس فيه، ولم يترك الشرع موضوع تقسيم الميراث إلى مالكه حتى يعطي من يشاء ويحرم آخرين لهم الحق فيه، فالله سبحانه وتعالى هو الذي قسم الميراث والتركة من خلال الآيات الكريمة في القرآن الكريم، كل ذلك لحماية حقوق النساء والأطفال المستضعفين الذين كانوا في الجاهلية يحرمون من الميراث، فميراث الأم له ثلاث حالات، وهي على النحو

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٨/ ١٤٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٤٨، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٥٩.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٠٤.

الآتي:

- **الثلث:** ترث الأم الثلث بشروط ثلاث:

١. عدم وجود الفرع الوارث للميت، ذكرًا كان أو أنثى، مثل الابن، أو البنت، وابن الابن، وبنت الابن.

٢. عدم وجود الإخوة، أو الأخوات للميت، اثنين فأكثر، أشقاء، أو لأب، أو لأم.

٣. ألا تكون المسألة إحدى العمريتين.

دليل إرث الأم الثلث بالشروط السابقة قول الله عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء:١١][١].

- **السدس:** ترث الأم السدس إذا كان للميت فرع وارث ذكرًا كان أو أنثى، أو اثنان فأكثر من الإخوة والأخوات مطلقًا سواء أكانا من جهة الأم والأب، أو من جهة أحدهما، وسواء أكانوا ورثة أم محجوبين، قال الله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١١][٢].

- **ثلث الباقي:** في العمريتين، وتسمى الغراوين، وهما:

١. زوجة وأم وأب: المسألة من أربعة:للزوجة الربع واحد، وللأم ثلث الباقي واحد، والباقي اثنان للأب.

٢. زوج وأم وأب:المسألة من ستة:للزوج النصف ثلاثة، وللأم ثلث الباقي واحد، والباقي اثنان للأب.

وأعطيت الأم ثلث الباقي؛ لئلا تزيد على نصيب الأب وهما في درجة واحدة من الميت، وليكون للذكر مثل حظ الأنثيين[٣].

«فالأم لا تحجب حرمان على أية حال فمتى وجدت ورثت إما السدس، وإما ثلث الكل، وإما ثلث الباقي»[٤].

أما حكم الأم المرضعة فإن الرضاع يؤثر في تحريم النكاح، وثبوت المحرمية المفيدة لجواز النظر والخلوة دون سائر أحكام النسب، فلا يتوارثان ولا تجب على كل واحد منهما نفقة الآخر وغير ذلك من الأحكام، وهذا متفق عليه[٥].

٣. ثبوت القرابة بين من أرضعتهم.

كل أقارب الأم المرضع أقارب للرضيع، فالمرضعة تصبح أمًا للرضيع وكما بينا سابقًا فإنها تحرم عليه، وبنتها أخته، وأولادها إخوته، وزوجها أبوه، وأبواه جداه وأخته عمته وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل

(١) انظر: الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، مصطفى الخن ومصطفى البغا، ٥/ ٨٩، مختصر الفقه الإسلامي، التويجري، ص ٨٨٧.

(٢) انظر: مختصر الفقه الإسلامي، التويجري، ص ٨٨٧.

(٣) انظر: مختصر الفقه الإسلامي، التويجري، ص ٨٨٧.

(٤) فقه النكاح والفرائض، قنديل، ص ٣٠٤.

(٥) انظر: روضة الطالبين، النووي، ٩/ ٣.

الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه وأم المرضعة جدته وأختها وأخواته لأبيه وأمه ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأم[(١)].

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: ٢٣].

وجاء في السنة النبوية عن عليٍ رضي الله عنه، قال:قلت:يا رسول الله، ما لك تنوق[(٢)] في قريشٍ وتدعنا؟ فقال: «وعندكم شيءٌ؟» قلت:نعم، بنت حمزة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنها لا تحل لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة)[(٣)].

وكذلك ما ورد عن عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عندها، وإنها سمعت صوت رجلٍ يستأذن في بيت حفصة، قالت عائشة:فقلت:يا رسول الله، هذا رجلٌ يستأذن في بيتك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أراه فلانًا»- لعم حفصة من الرضاعة-فقالت عائشة:يا رسول الله، لو كان فلانٌ حيًا-لعمها من الرضاعة-دخل علي؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة)[(٤)].

وعن عائشة، أن عمها من الرضاعة يسمى أفلح، استأذن عليها فحجبته، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: (لا تحتجبي منه، فإنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)[(٥)].

يقول أبو زهرة «وذلك لأنها لما رضعت من امرأة أخيه على ولد أخيه اعتبر أبًا رضاعيًا لها، فيكون هو عمها»[(٦)].

٤ . الرضاعة والحضانة والنفقة.

الرضاعة:

وردت آيات في القرآن الكريم تدل بالنص الصريح على وجوب ارضاع الأم لطفلها قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

فالمرأة يجب عليها إرضاع ولدها ما دامت في عصمة والده، وإن كان والده قد مات وليس للولد مال:لزمها رضاعه في المشهور، وقيل أجرة رضاعه على بيت

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٣٤٦، التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٣١٢.
(٢) تنوق: تنتقي وتجود وتبالغ. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٩٢٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنت الأخ من الرضاعة، ٢/ ١٠٧١، رقم ١٤٤٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب، يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة، ٢/ ١٠٦٨، رقم ١٤٤٤.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل،٢/ ١٠٧٠، رقم ١٤٤٥
(٦) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٦٣١.

المال، وإن كانت مطلقة طلاقًا بائنًا: لم يلزمها رضاعه، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦].

إلا أن تشاء هي فهي أحق به بأجرة المثل، وإن لم يقبل الطفل غيرها وجب عليها إرضاعه[١].

الحضانة:

تعرف الحضانة أنها: «تربية الطفل، والقيام بأمره ورعايته، وحفظه عما يضره، واعتماد ما يصلحه؛ فهي حفظ من لا يستقل بنفسه وتربيته حتى يستقل بنفسه، وهي ولاية وسلطنة، لكنها بالنساء أشبه»[٢].

وتنتهي فترة الحضانة عند سن التمييز، وخص الأم بتربية ولدها لأنها أخبر وأعلم، وعليه أصبر؛ لما جبلت عليه من فضل الميل إلى الأولاد، وكثرة الحنو والإشفاق[٣].

والأم أحق بحضانة ولدها الطفل من أبيه ذكرًا كان أو أنثى، ما لم تتزوج، والأب أحق بحضانته من الأم إذا تزوجت قولًا واحدًا[٤]، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حواء، وإن أباه طلقني، وأراد أن ينتزعه مني، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنت أحق به ما لم تنكحي)[٥].

واختلف في مستحق حضانة الطفل بعد الأم من القرابات على روايتين:

أولًا: إن قرابات الأب أولى بحضانته من قرابات الأم.

ثانيًا: قرابات الأم أولى بذلك من قرابات الأب[٦].

فهناك ما يسمى بالأم الحاضنة، وهي التي تحضن الصغير غير أمه وتلي شأنه وتقوم على رعايته، ولقد كانت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، كأم أيمن حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يثبت لها حكم من أحكام الأمومة، وليس لها غير البر والإحسان.

النفقة:

يجب على الأب تحمل نفقة الأم طيلة مدة الرضاع بما فيه الكفاية حسب العرف والأمثال، ومنعه من أن يمنع الأم من إرضاع

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١٢٨.

(٢) انظر: كفاية النبيه في شرح التنبيه، ابن الرفعة، ١٥/ ٢٧٣، الإنصاف، المرداوي، ٩/ ٤١٦.

(٣) انظر: كفاية النبيه في شرح التنبيه، ابن الرفعة، ١٥/ ٢٧٣.

(٤) انظر: الإرشاد إلى سبيل الرشاد، الهاشمي ص ٣٢٧.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد، ٢/ ٢٨٣، رقم ٢٢٧٦. وحسنه الألباني في الإرواء ٧/ ٢٤٤، رقم ٢١٨٧.

(٦) انظر: الإرشاد إلى سبيل الرشاد، الهاشمي ص ٣٢٧.

الولد لسببٍ من الأسباب، مع تنبيه الأم إلى عدم جواز تكليف أحد بأكثر من وسعه وطاقته[1]، ففي النفقة قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

أي:على الوالد النفقة مدة الرضاع، وفي موضعٍ آخر قال تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق:٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ حسب طاقة وقدرة الأب وهي نفقة واجبة بحسب العرف[2].

قال ابن تيمية: «والصواب المقطوع به عند جمهور العلماء أن نفقة الزوجة مرجعها إلى العرف وليست مقدرة بالشرع، بل تختلف باختلاف أحوال البلاد والأزمنة، وحال الزوجين وعاداتهما»[3]؛ فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩].

وعن عائشة: أن هند بنت عتبة، قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي، إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: (خذي ما يكفيك وولدك، بالمعروف)[4].

٥. شناعة تشبيه الزوجة بالأم (الظهار).

كان الظهار في الجاهلية طلاقًا لا رجعة بعده، بل هو أشد الطلاق عندهم؛ لما فيه من تشبيه الزوجة بالأم التي تحرم حرمة على التأبيد، وقيل في أول الإسلام، وقيل لم يكن طلاقًا من كل وجه، وكانوا في الجاهلية إذا كره أحدهم امرأته ولم يرد أن تتزوج بغيره آلى منها أو ظاهر، فتبقى معلقة لا ذات زوج ولا خلية تنكح غيره، وجاء الإسلام فأبطل هذا الحكم، وجعل الظهار محرمًا قربان المرأة حتى يكفر زوجها، ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتبرونه في الجاهلية[5].

«وقد اتفق العلماء على حرمته فلا يجوز الإقدام عليه، لأنه كذب وزور وبهتان، وهو يختلف عن الطلاق، فالطلاق مشروع، وهذا ممنوع، ولو أقدم الإنسان عليه يكون قد ارتكب محرمًا ويجب عليه الكفارة»[6].

ووضح القرآن الكريم الكفار بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ

(١) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، ٦/ ٤٣٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٢٣٦.
(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام، ٦/ ٤٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب النفقة، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف، ٧/ ٦٥، رقم ٥٣٦٤.
(٥) انظر: السراج المنير، الشربيني ٤/ ٢٢١.
(٦) روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني ٢/ ٥٢٦.

لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة:٣-٤].

«قال فقهاء الشافعية إنه من الكبائر، فمن أقدم عليه اعتبر كاذبًا معاندًا للشرع، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾»[1].

(١) تحفة المحتاج في شرح المنهاج، الهيتمي ٨/ ١٧٧.

الأمومة حقوق وواجبات

كرم الإسلام المرأة، ورفع مكانتها، فأوجب الله عز وجل للأم حقوقًا تحفظ لها كرامتها وترفع من قدرها كالإحسان والبر والطاعة، بل وجعل ذلك من أهم أسباب رضا الله عز وجل، وفي المقابل كان عليها بعض الواجبات التي يجب أن تقوم بها، نبين ذلك فيما يأتي بإذنه تعالى:

أولًا: حقوق الأمومة:

لا يعرف التاريخ دينًا ولا نظامًا كرم المرأة باعتبارها أمًا، وأعلى من مكانتها ومنزلتها، مثل الإسلام، حيث إنه أكد الوصية بها، وجعل برها من أصول الفضائل، كما جعل حقها أوكد من حق الأب، لما تحملته من مشاق الحمل والوضع والإرضاع والتربية، وهذا ما يقرره القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويكرره في أكثر من موضع؛ ليثبته في أذهان الأبناء ونفوسهم، ولذلك وجب علينا أن نبين بعض الحقوق لهذه الأم وهي كالتالي:

١. الإحسان.

لقد أمر الله عز وجل ببر الوالدين وإكرام الأم وإحسان صحبتها.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥].

أي يجب علينا برها ورحمتها والنزول عند أمرها فيما لا يخالف أمر الله سبحانه وتعالى، ولا نؤذيها البتة وإن كانت كافرة، بل يجب علينا الإحسان إليها، وتطبيق ما فرض الله لها من فعل المعروف لها، والقول الجميل، والتحنن عليها، والرأفة بها، والدعاء بالخير لها، وما أشبه ذلك من الأفعال التي ندب الله عباده أن يفعلوها[١].

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف:١٥].

والإحسان للأم يدخل فيه أنواع بر الوالدين كلها حيث يكون بلين الجانب، وألا يرفع الصوت فوق صوتها، ولا يجب الرد، ويكون لها كالعبد الذليل لسيده[٢].

والإحسان إلى الأم من أفضل الأعمال وأكثرها أجرًا ومثوبة، فقد جاء عن عبد الله رضي الله عنه قال:سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم:أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال:(الصلاة على وقتها) قلت:ثم أيٌّ؟ قال:(ثم بر الوالدين) قلت:ثم أيٌّ؟ قال:(ثم الجهاد في سبيل الله)[٣].

وقد ثبت التأكيد على بر الأم خاصة، جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال:ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال:ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال:ثم من؟ قال: (ثم أبوك)[٤].

وعن معاوية بن جاهمة السلمي، أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:يا رسول الله، أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال: (هل لك من أمٍ؟) قال: نعم، قال: (فالزمها، فإن الجنة تحت رجليها)[٥].

٢. خفض الجناح.

جاء في كتابه العزيز قوله عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤].

والمقصود بالجناح هنا هو الرعاية والإحاطة، وشبهت هذه المعاني بالجناح الذي يكون به قوة الطائر، وإضافة الذل إليه لتكون الرعاية ذلًا لهما، وتواضعًا من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٩٢، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٥٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٤٢٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال،١/ ٩٠، رقم ٨٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ٨/ ٢، ٥٩٧١.
(٥) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب الرخصة في التخلف لمن له والدة، ٦/ ١١ رقم ٣١٠٤.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٥/ ٢١.

غير استكبار، فلا ينبغي أن نرفع أيدينا على والدينا، ولا ينبغي أن نحد البصر إليهما تغيظًا، ويجب التواضع لهما، ولا نتعال عليهما[1].

فالحق سبحانه وتعالى يأمرنا باللين للأم وخفض الجاح لها وتكون ذليلًا لها- مهما كنا أعزاء-ولا نمنعها أو نخالفها من شيء أحبته[2]، ويجب خفض الجناح بحسن المداراة ولين المنطق، والمبادرة إلى الخدمة، وسرعة الإجابة، والصبر على أمرهما، وألا ندخر عنهما ميسورًا[3].

«والتواضع ينبغي أن يكون رحمة بهما وشفقة عليهما، لا لأجل امتثال الأمر وخوف العار والنقد فقط»[4].

٣. الرفق.

الرفق واللين مع الأم يكون بدعوتها إلى الإيمان.

قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣].

وحقيقته أن كلمة ﴿أُفٍّ﴾ تقال عند الضجر من الشيء واستثقاله، فوجه الله عز وجل الخطاب لنا بالرفق مع الأم، فلا تؤفف من شيء تراه منها مما يتأذى منه الناس، ولكن يجب أن نصبر على ذلك، ونحتسب في أجر الصبر عليها، كما صبرت علينا في صغرنا، وقوله:﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ الانتهار من النهر، وهو الزجر بالإغلاظ والصياح، وقوله:﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ قولًا لينًا هينًا سهلًا، وعدم رفع الصوت عليها وعدم الزجر والشدة بها[5]، ولنا في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة التي يقتدى ويحتذى بها ونسير على أثرهم.

فعن عائشة، أنها قالت: « كان رجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبر من كان في هذه الأمة بأمهما: عثمان بن عفان، وحارثة بن النعمان، فأما عثمان، فإنه قال: ما قدرت أن أتأمل أمي منذ أسلمت، وأما حارثة، فإنه كان يفلي رأس أمه، ويطعمها بيده، ولم يستفهمها كلامًا قط تأمر به حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج، ماذا قالت أمي؟»[6].

٤. الطاعة في المعروف.

طاعة الأم في معروف غير معصية فرض

(١) انظر: تفسير السمرقندي،٢/ ٣٠٧، تفسير الشعراوي، ١٥/ ٩٢٥٤، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٨/ ٤٣٦٣.
(٢) انظر: تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد، العجيلي، ١/ ٢٦.
(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٢/ ٣٤٤.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٥/ ٥٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤١٥، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٣٢.
(٦) انظر: البر والصلة، ابن الجوزي،ص ٨٤.

واجب على الإنسان، مقابلة للمعروف بمثله، ووفاء للإحسان، وتقدير الفضل، واحترام نظام الأسرة، والطاعة لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان، فالانقياد لها ليس انقيادًا مطلقًا، بل هو انقياد محكوم بحدود العدل، والخير، وتلزم طاعتها في المباحات وتستحسن في ترك الطاعات المندوبات، فإذا دعت إلى منكر، فلا طاعة لها، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان:١٥].

يعني الأبوين الكافرين أي صلهما بالمال وادعهما برفق[١].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت:قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت:يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: (نعم صليها)[٢].

وعلى وجوب ترك طاعة الوالدين إذا أرادا ولدهما على الإشراك دليل عقلي، وذلك أن طاعتهما وجبت بأمر الله عز وجل، فإذا نفيا طاعة الله سبحانه وتعالى في الإشراك به فقد أبطلا طاعة الله عز وجل مطلقًا، ويلزم منه عدم لزوم طاعة الوالدين بأمر الله عز وجل، وكل ما يفضي وجوده إلى عدمه فهو باطل، فطاعة الأم في اتخاذ الشرك بالله عز وجل من الممتنعات، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[٣]، وإذا كان الضرر ليس دينيًا وإنما ضررًا دنيويًا فلا يجب طاعة الأم فيه لما يعود على الشخص من ضرر[٤].

يقول الزحيلي: «وتختص الأم بزيادة البر والطاعة لمعاناتها في سبيل تربية أولادها، وبما أنها كما ذكرت الآية تعرضت لمراتب ثلاث من المشاق: الحمل، والرضاع، والوضع»[٥].

ثانيًا: واجبات الأمومة:

إن لكل شخص حقوقًا وواجبات ومتى تنتهي الحقوق فكان حتمًا عليه أداء واجباته، فالمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها أمام الله سبحانه وتعالى، فعليها أن تقوم بواجباتها على أكمل حال، وبذل

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٣٤٩، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٨٢١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، ٤/ ١٠٣، رقم ٣١٨٣.
(٣) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس، ص ٦٢٢، غرائب القرآن، النيسابوري، ٥/ ٣٧١، التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ١٥٢.
(٤) انظر: المسلم وحقوق الآخرين، أبو فيصل البدراني، ص ٢١.
(٥) التفسير المنير،الزحيلي ٢١/ ١٥٣.

ما تقتضيه الفطرة السوية لهم من الحب والعطف والحنان، فهذا مما وصى الله عز وجل به في كتابه العزيز حيث قال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء:١١].

وورد في السنة النبوية الشريفة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه:سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته)[١]، فالأم تنشئ أبناءها لأجل الأمة الإسلامية ولعزتها فهم أمانة بين يديها؛ فلذلك وجب عليها بعض الواجبات، منها:

١. الرضاعة.

وجه الله عز وجل النداء الإلهي المملوء بالرحمة يطلب فيه من كل أم أن ترضع أطفالها حيث قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣].

وقال سبحانه وتعالى عن موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب العبد راع في مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه،٣/ ١٢٠، رقم ٢٤٠٩.

فالأم هي الأساس في رعاية الطفل، وسد حاجاته وتلبية رغباته المتنوعة.

والسنة النبوية أكدت ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(خير نساءٍ ركبن الإبل صالح نساء قريشٍ، أحناه على ولدٍ في صغره، وأرعاه على زوجٍ في ذات يده)[٢].

ذكر العلماء الكثير من أحكام الرضاع ومتعلقاته وحكمه؛ مما يدل على أهمية الرضاع وأثره في إنبات الوليد وتكامل بنيانه فينبغي أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة وهو الأجود؛ لما في لبنها ذلك الوقت من الغلظ والأخلاط بخلاف لبن من قد استقلت على الرضاع وكل العرب تعتني بذلك حتى تسترضع أولادها عند نساء البوادي، كما استرضع النبي صلى الله عليه وسلم في بني سعد[٣].

وأخبر الله عز وجل أن كمال الرضاع حولان، وجعل على الرجل يرضع له ابنه أجر المرضع، والأجر على الرضاع لا يكون إلا على ماله مدة معلومة، والرضاع اسم جامع يقع على المصة وأكثر منها،

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب إلى من ينكح، وأي النساء خير، وما يستحب أن يتخير لنطفه من غير إيجاب، ٧/ ٦، رقم ٥٠٨٢.

(٣) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم ص ٢٣٠.

إلى كمال رضاع الحولين، ويكون الرضاع من خصائص الوالدة الأصيلة أو البديلة، ومدته عامان كاملان[1]، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

يقول الخازن: «وهذا الأمر ليس أمر إيجاب، وإنما هو أمر ندب واستحباب؛ لأن تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من لبن غيرها؛ ولكمال شفقتها عليه، ويدل على أنه لا يجب على الوالدة إرضاع الولد»[2].

٢. الفصال.

الفصال:المقصود به الفطام، وهو مصدر من قول القائل: «فاصلت فلانًا أفاصله مفاصلة وفصالًا»، إذا فارقه من خلطة كانت بينهما، فكذلك (فصال الفطيم)، إنما هو منعه اللبن، وقطعه شربه، وفراقه وفصله عن ثدي أمه إلى الغذاء بالأقوات التي يتغذى بها الإنسان[3]، وسواء كانت هذه الرضاعة طبيعية أم صناعية، إلى الشرب من كأسٍ أو كوبٍ، وتناول الأطعمة الأكثر صلابة ويكون ذلك بالتدريج[4].

الفصال يقع في عامين، أي في انقضاء عامين، قال تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤].

وذكر مشقة الوالدة بإرضاع الولد بعد الوضع عامين[5]، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

ويعني تعالى ذكره بقوله:﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾، إن أراد والد المولود ووالدته فصال ولدهما من اللبن، فيما دون العامين، يكون ذلك بالتشاور والرضى بينهما، ويشاورون أهل العلم في ذلك حتى يخبروا أن الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد[6].

يقول الزركشي: «الفصال لا حد لجانب القلة فيه، بل يجوز أن يعيش الولد بدون ارتضاع من الأم؛ ولهذا اعتبر فيه الأكثر، لأنه الغالب، ولأنه اختياري»[7]، ولكن «ذكر الحولين ليس هو من جهة توقيت نهاية الرضاع الموجب للتحريم، وأنه جائز أن يكون بعدهما رضاع»[8].

٣. الرعاية.

أراد الله عز وجل للأسرة أن تقوم

(١) انظر: تفسير الإمام الشافعي ١/ ٣٨٠.
(٢) لباب التأويل، الخازن ١/ ١٦٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٧، الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٦٣، البحر المحيط، الأندلسي ٢/ ٤٨٧.
(٤) انظر: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين، آمال صادق، فؤاد أبو حطب، ص ٢٢٢.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٣.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٧، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٣٧.
(٧) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٢/ ٥.
(٨) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ١١٢.

على الأسس الصحيحة السليمة، فأرسى لها الدعائم التي تؤهلها لذلك، والأسس القويمة لتكوينها تكوينًا سليمًا كحاضن جيد للطفل، بحيث ينشأ نشأة سوية، متمسكًا بالقيم الإسلامية، ولهذا وردت النصوص الوافرة موجهة إليه، عاكسة روح الإسلام وأهدافه في بناء الأسرة[1]، فالطفل له حاجات أخرى كثيرة غير الرضاعة؛ إذ لا بد له من رعاية شاملة له في جميع أحواله وأوقاته، ونظافته ومداعبته، ودفع الأذى عنه، كما في قوله سبحانه وتعالى في شأن أخت موسى عليه السلام: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص:١٢].

وكل ذلك يكون فيه الحمل الأكبر على عاتق الأم وذلك بسبب ملازمتها للبيت وللطفل، فعلى الأم تنشئة الأبناء ورعايتهم رعاية صحيحة، وإن العقل السليم في الجسم السليم والإسلام يريد منا أن نربي أولادنا على القوة والنشاط.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي، خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خيرٌ)[2].

٤. التربية.

إن المسلمين لم يهملوا جانب الاهتمام بطرائق تربية الأطفال، والبحث عن أنجح الطرق والمناهج انطلاقًا من أنه لا حضارة بغير علم، ولا علم بغير تعليم، ولا تعليم بغير نظام معينٍ ينظم الصلة بين المتعلم والمعلم، فما أحوجنا اليوم إلى العودة إلى هذا التراث الضخم، وما أحوجنا اليوم إلى الأخذ بطرق السلف في التربية والتعليم، والتزكية والتصفية[3].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء)[4].

والأسرة المسلمة تقوم على مبادىء معينة، هامة وجليلة الشأن من أجل توفير جو صحي سليم لتربية الأولاد تربية سليمة على القيم الإسلامية، فهي تقوم على المودة والرحمة.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ١/ ١٦٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ٤/ ٢٠٥٢، رقم ٢٦٦٤.
(٣) انظر: من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، كمال الدين المرسي، ص ٢٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ٢/ ١٠٠، رقم ١٣٨٥.

﴿بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

فيجب على الأم الغرس في قلوب أولادها حب الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، واتباع سنته في كل صغيرة وكبيرة، وتذكر لهم قصص الصحابة رضي الله عنه[(١)].

إن للأم أهمية ودورًا كبيرًا في التربية والتغيير، ودور الأم أعظم وأخطر من دور الأب؛ لأنها تتعامل مع أثمن شيء في الوجود وهو الطفل، وعمل الأم هو صناعة الإنسان وزرع الحب والفضيلة والرحمة والعاطفة والحنان والتضحية والإيثار في نفسه، فيجب الوقوف أمام هذا العطاء موقف الإجلال والتعظيم، فالطفل يولد والذهن صفحة بيضاء خالية من أي شيء له علاقة بثقافة العالم الذي يعيش فيه، ويتعلم التقاليد والعادات من خلال معاشرته لأمه والأهل والأقارب ومجتمعه، والحلقة الأهم في حياة الأم هي تربية الطفل، ولكن ليست أي أم، وإنما الأم التي تشعر وتلمس أهمية التربية ودورها في صناعة التاريخ، وهنا ترتبط الأم بولدها بأقوى علاقة ورابطة وهي رابطة التعليم، ومنها تستطيع أن تنجح في تلقين التراث الثقافي للجيل الجديد وتهيئته للحياة المستقبلية[(٢)].

إن تطبيق هذه الواجبات من الأم على الأولاد عمليًا، أظهرت لنا الأجيال المتعاقبة الفاضلة، وخلفت أمتنا الأجيال الأشاوس والعلماء والأبطال والأئمة والقادة والمفكرين والمجاهدين، الذين يحاربون العدو الصهيوني بكل قوة وحماس، وما ذلك إلا نتيجة لتربية الوالدين في البيت والالتزام بالمنهج التربوي الإسلامي الفريد.

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ١/ ١٦٤.

(٢) صلاح البيوت، محمد علي إمام، ص ١٩٦.

أمهات ذكرهن القرآن

بعد تتبع الآيات التي تتحدث عن الأمومة، وجدنا أن القرآن الكريم تناول ذكر بعض الأمهات، منهن أمهات للأنبياء والرسل، ومنهن أمهات للصالحين من عباده، كما وذكر الكتاب العزيز أمهات المؤمنين، اللاتي هن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم .

أولًا: أمهات الأنبياء و الرسل:

١ . أم إسماعيل.

جاء ذكر أم إسماعيل في القرآن الكريم بالإشارة دون التصريح باسمها أو بقصتها، فجاءت السنة النبوية المطهرة بذكر اسمها وقصتها، فهي هاجر زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد ذكرت بالإشارة على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧].

وكانت هاجر عليها السلام جارية عند سارة زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقيل:كانت أميرة عند فرعون، ولعلمها بحب إبراهيم بالأولاد زوجته منها، فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة، أمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن سارة حرارة الغيرة[(١)].

قال الطبري في تفسيره للآية الكريمة: «فجاء بها إبراهيم ومعها إسماعيل حتى انتهى بهما إلى موضع البيت، فوضعهما ثم رجع، فاتبعته، فقالت: إلى أي شيء تكلنا؟ إلى طعام تكلنا؟ إلى شراب تكلنا؟ فجعل لا يرد عليها شيئًا، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، قال: فرجعت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء، أقبل على الوادي فدعا، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧][(٢)].

وقد استجاب الله له دعاءه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧].

وجاء فيما رواه البخاري في صحيحه القصة كاملة، قال ابن عباس: « جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ١/ ٧٤.
(٢) جامع البيان، ١٧/ ١٩.

في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت:-يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا وجعل لا يتلفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط[1] فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فذلك سعي الناس بينهما)، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه-تريد نفسها-ثم تسمعت فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله أم إسماعيل لو كانت تركت زمزم-أو قال لو لم تغرف من الماء-لكانت زمزم عينًا معينًا)، قال:فشربت وأرضعت ولدها. قال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن اله لا يضيع أهله)[2].

٢. أم إسحاق.

ذكرت أم إسحاق عليها السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود:٧١].

وهي سارة زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهي ابنة هاران بن ناحوراء وهي ابنة عم إبراهيم عليه السلام[3]، آمنت به

(١) يتلبط: يسقط ويتمرغ من شدة العطش. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٦٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب يزفون الصافات، ٣/ ١٢٢٧، رقم ٣١٨٤.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٩٣،

بعدما ألقي في النار، فهاجر بها إبراهيم إلى حران، ثم سار بها إلى مصر، فبلغ ملكها جمال سارة وحسنها، فأمر بإحضارها، فأحضروها ومعها إبراهيم عليه السلام فسأله من هي؟ قال: أختي، فطلب الزواج منها، فدعا عليه إبراهيم عليه السلام، ثم مرض مرضًا شديدًا، فدعا إبراهيم، وقال له: ما هذا الذي أردت بدعائك علي؟ فقال أنك أسأت جواري بتعرضك لزوجتي، قال: أولم تزعم أنها أختك؟ قال: ما كذبت؛ في الإسلام أختي، وهي أول من آمن بي، قال الملك: فادعو الله لي بالعافية، وحلف أن لا يقربها بسوء، فأطلقه الله بدعوة إبراهيم عليه السلام، ثم وهب لها هاجر جارية، فجاءت بها إلى إبراهيم عليه السلام ثم سار بهما إبراهيم من مصر إلى الشام، وكانت سارة لا تلد، فوهبت هاجر لإبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل عليه السلام.

فسارة لم يرزقها الله الأولاد في صغرها، ولكنها لما كبرت بشرت بالولد، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق[1].

وقيل في معنى ضحكت: ضحكت تعجبًا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها، وروي أنها كانت حينئذ بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة سنة، فعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير، تقديره: فبشرناها بإسحاق فضحكت يعني تعجبًا من ذلك[2].

٣. أم موسى.

ورد ذكر أم موسى في القرآن الكريم، وقصة موسى عليه السلام في مواضع مختلفة، وأم موسى هي لوحا بنت هاند بنت لاوي بن يعقوب عليه السلام[3].

وكانت أم موسى زوجة عمران، تعيش في بني إسرائيل، وكان فرعون يقتل الأطفال، ولما كثر القتل في بني إسرائيل خاف القبط أن يفنى بنو إسرائيل، فقالوا لفرعون:إنه يوشك أن يموت شيوخهم، وغلمانهم لا يعيشون، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى عليه السلام في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وأمر القوابل أن يطفن على نساء بني إسرائيل ففعلن، ولم يدخلن بيت عمران لقربه من

المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٩، التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٠٦٠.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣٣٤.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٩٣، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ٣٧٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٢٥٠.

الملك، ولما تم حملها، وجاءها الطلق ليلًا، وولدت موسى، رأى جنود فرعون القابلة تخرج من بيت أم موسى، فأتوا وسألوها عن سبب قدومها، فأخفت أمرها مخافة على موسى من فرعون، فأوحى الله عز وجل إليها[1].

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

واختلف المفسرون في معنى الوحي، فقيل: كان كلامًا في المنام، وقيل: كان إلهامًا، وقيل: كان ملك يمثل إليها[2].

فلما ولدته وخافت عليه خوفًا شديدًا وأحبته حبًا زائدًا، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه.

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰٓ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩].

فأمرها الله عز وجل أن ترضعه بالخفاء، قيل: إنها أرضعته أربعة أشهر ثم صنعت به ما في الآية، وقيل: أرضعته في بستان فلما خافت عليه من أن يعرف أمره فرعون – من شدة بكائه حيث لا يكفيه اللبن – صنعت به ما جاء في الآية[3]، فاتخذت تابوتًا، ووضعته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، وربطته بحبل فذهب مع الماء، قال النسفي: «في هذه الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان، والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف غم يلحق بالإنسان لمتوقع، والحزن غم يلحقه لواقع، وهو فراقه والإخطار به، فنهيت عنهما، وبشرت برده إليها وجعله من المرسلين»[4].

وجرى به الماء حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتملنه، فذهبن به إلى امرأة فرعون، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها، وكانت لفرعون بنت برصاء فنظرت إلى وجهه فبرأت، فقالت الغواة من قومه: هو الذي نحذر منه، فأذن لنا في قتله، فهم بذلك، فقالت آسية: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: لك لا لي، لكنها أصرت على بقائه؛ متعللة بدلائل النفع والبركة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص:٩][5].

لكن تبقى الأمومة أقوى من كل شيء،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٢١، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٥٧٩.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٢٥٠، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٤/ ١٧٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٢٥٠.
(٤) مدارك التنزيل، ٢/ ٦٢٩.
(٥) انظر: المصدر السابق ٢/ ٦٣٠.

بدليل حالها بعدما وضعته في الماء.

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص:١٠].

فصار قلب الأم من شدة خوفها وحيرتها فارغًا من كل شيء سوى ذكر موسى[(١)]، ولما ألقت التابوت في النيل، فرأت التابوت يرفعه الموج مرة، ويضعه أخرى، فخشيت عليه الغرق، فعند ذلك فزعت عليه، وكادت أن تصيح، ويقال إنها:لما أتى الليل، دخل الغم في قلبها حيث لم تدر أين صار ولدها، فأرادت أن تظهر ذلك لولا أن ثبتها الله عز وجل ؛ لتكون من الواثقين بوعده عز وجل[(٢)].

ثم جاء الوعد من الله عز وجل، والبشارة التي بشرت بها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص:١١-١٤].

فقد أرسلت أخته للبحث عنه، ومن رحمة الله أنه لم يقبل ثدي امرأة، فخافوا عليه من أن يموت، فعرضت عليهم أخته أن تدلهم على أهل بيت يقدمون له الرعاية والرضاعة، فتحقق وعده عز وجل، ورجع إلى أمه لترضعه ويبقى في رعايتها، وتأخذ الأجر إضافة لرعايتها ابنها، فتبارك الله أرحم الراحمين.

٤. أم عيسى.

ورد ذكر أم عيسى في القرآن الكريم، وسميت سورة باسمها، وهي سورة مريم، فأم عيسى هي مريم ابنة عمران.

وأم مريم لم تنجب من زوجها عمران في بداية زواجها، وكانت تحن إلى الولد، فدعت الله عز وجل أن يرزقها ولدًا، ونذرت لله إن رزقها الولد أن تهبه خادمًا للكنيسة، فلما وضعتها أنثى حزنت وتحسرت مما كانت ترجوه[(٣)]، وقالت: ﴿رَّبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦].

قال الشوكاني: «وإني سميتها مريم عطف على إني وضعتها أنثى، ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية:التقرب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقًا لمعنى اسمها، فإن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٥٢٧.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٦٠٠.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٨٤.

معنى مريم خادم الرب بلغتهم، فهي وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات»[1].

وولدت مريم عليها السلام يتيمة، فقد توفي والدها عمران وهي في بطن أمها حنة بنت فاقوذا، فكانت أمها لا تستطيع تربيتها لكبر سنها، فكان كل شخص يريد أن يحظى بكفالتها؛ إما لأن عمران أبو مريم كان معلمهم ومن درسهم دينهم وذا فضل عليهم، وقيل:لأن أمها قد نذرتها لعبادة الله عز وجل، لذلك حرصوا على التكفل بها، فاتفقوا أن يقفوا على مجرى النهر ويرموا أقلامهم، فمن جرى قلمه على خلاف جري الماء فاليد له، ثم إنه حصل هذا المعنى لزكريا عليه السلام، فصار هو أولى بكفالتها.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٤][2].

فكفلها زوج خالتها نبي الله زكريا، وكان هذا من رحمة الله بمريم ورعايته لها.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧].

وبنى لها زكريا محرابًا في المسجد وجعل بابها في الوسط لا يرقى إليها إلا بسلم، وكان لا يدخل عليها غيره، يأتيها بشرابها وطعامها ودهنها كل يوم، وإذا خرج يغلق عليها سبعة أبواب، وكلما زارها النبي زكريا، وجد عندها رزقًا، فكان يسأل عن مصدر هذا الرزق لأنه هو كافلها، فتقول:هو من عند الله عز وجل[3].

وجاء في فضل مريم عليها السلام: قال أبو هريرة رضي الله عنه:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان؛ غير مريم وابنها)[4].

ثم جاءت البشارة لمريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران:٤٢].

يقول المفسرون: إن في هذه الآية اصطفاء وتطهير، واصطفاء على نساء العالمين، اصطفاء أنه تعالى قبل تحريرها

(١) المصدر السابق، ١/ ٣٨٤.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٨/ ٢٢٠.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا)، ٣/ ١٢٦٥، رقم ٣٢٤٨.

مع أنها كانت أنثى.

وقيل: إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين، بل ألقتها إلى زكريا، وكان رزقها يأتيها من الجنة، وأنه تعالى فرغها لعبادته، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية.

وقيل: إنه أسمعها كلام الملائكة شفاهًا، ولم يحصل ذلك لأنثى غيرها، وأما التطهير فلأنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية، وطهرها عن مسيس الرجال.

وقيل: طهرها عن الحيض.

وقيل: طهرك من الأفعال الذميمة.

وقيل: طهرك عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم.

وأما الاصطفاء الثاني: فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى من غير أب، وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، وجعلها وابنها آية للعالمين[1].

قال عليه السلام: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[2].

ولما خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها، وبأنه سيهب لها ولدًا زكيًا يكون نبيًا كريمًا طاهرًا مكرمًا مؤيدًا بالمعجزات، تعجبت من وجود ولد من غير والد، لأنها لا زوج لها، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها، فولجت فيها تلك النفخة، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيًا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمى روح الله، وجعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، فلهذا كان من المقربين إلى الله[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٨/ ٢١٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون)، ٣/ ١٢٥٢، رقم ٣٢٣٠.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٣٠.

ثم جاءت إرهاصات الولادة، عندها تمنت الموت؛ وذلك لأنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد، المنقطعات إليه، المعتكفات فيه، ومن بيت النبوة والديانة، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو لم تخلق بالكلية[1].

قال عز وجل: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم:٢٣].

ثم ظهرت عناية الله عز وجل وحفظه لها، وبدأت كرامات الله تتوالى عليها من تيسير الحمل والولادة، وكفاها الناس بمعجزة عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:٢٤-٢٦].

وكانت أولى معجزاته كلامه في المهد بتبرئة أمه.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم:٣٠].

وبدأ الناس يقولون إنه ليس ببشر، واعتقدوه الرب، فجاء الرد قويًا من الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة:١٧].

فلو أراد الله أن يهلك عيسى وأمه وجميع الخلق، -لا يقدر عيسى على رد ذلك، فكيف يكون إلهًا وهو لا يقدر على دفع الهلاك عن نفسه- فمن يستطيع أن يدفعه عن مقدوره ومراده[2].

ويقرر الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة:٧٥] أن عيسى ابن مريم ما هو إلا رسول كغيره من الرسل، جاء برسالة، وأجرى على يديه المعجزات، وإن كان خلقه من غير أب، فذا آدم خلق من غير

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٩١.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ١/ ٣٧٩، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٢٨.

أب ولا أم، فهو القادر إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وأمه صديقة، وسميت بذلك:لأنها صدقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها عيسى عليه السلام، أو لأنه تعالى لما أرسل إليها جبريل صدقته فوقع عليها اسم الصديقة[1].

ويؤكد الله عز وجل كونه بشرًا بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

والمقصود من ذلك: الاستدلال على فساد قولهم، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنيًا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلهًا[2].

فقد جعل الله عز وجل ولادة عيسى عليه السلام من غير أب آية من آياته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون:٥٠].

٥. أم يحيى.

ورد ذكر أم يحيى في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم:٥-٩].

وهي: أشاع بنت فاقود بن ميل، تزوجها زكريا عليه السلام، ولم تحمل منه، وكانت عاقرًا، وبلغت من العمر كثيرًا حتى انقطع حيضها، وكانت أكبر من أختها[3].

وقد استجاب الله عز وجل دعاء نبيه زكريا عليه السلام، وولدت يحيى عليه السلام، ولما صار له من العمر ثلاث سنين أتاه الله الحكم صبيًا، قرأ التوراة وهو صغير، وقيل:إن أشاع ولدت يحيى عليه السلام قبل ما ولدت مريم عليها السلام عيسى بستة أشهر[4].

ثانيًا: أمهات المؤمنين:

ذكر القرآن الكريم مصطلح أمهات المؤمنين، وهو يطلق على زوجات النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب:٦].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤٠٩.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٣٨٠.
(٤) انظر: الروضة الفيحاء في أعلام النساء، العمري، ص١٦.

والرسول صلى الله عليه وسلم أب للمؤمنين كما جاء في مصحف أبي بن كعب « وأزواجه أمهاتهم، وهو أب لهم»، فهو يربيهم كما يربي الوالد أولاده، فترتب على هذه الأبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم، في التعظيم والاحترام، والإكرام[(١)].

وعن أنس قال:كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: (غارت أمكم) ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت[(٢)].

ولهذه الأمومة آدابها برًا وإحسانًا، ولا يترتب عليها سوى حكم واحد وهو أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، لا يحللن لأحد من بعده، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣].

قال الرازي: «والمعقول في جعل أزواجه أمهاتنا هو أن الله تعالى جعل زوجة الأب محرمة على الابن؛ لأن الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها، فإن تزوج الابن بمن كانت تحت الأب يفضي ذلك إلى قطع الرحم والعقوق، لكن النبي عليه السلام أشرف وأعلى درجة من الأب وأولى بالإرضاء، فإن الأب يربي في الدنيا فحسب، والنبي عليه السلام يربي في الدنيا والآخرة، فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء.

فإن قال قائل:فلم لم يقل إن النبي أبوكم ويحصل هذا المعنى، أو لم يقل إن أزواجه أزواج أبيكم؟ فنقول: لحكمة، وهي: أن النبي لما بينا أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبي عليه السلام، فلو قال: أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد، ولأنه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الأب»[(٣)].

ولهن فضل ومزية عن بقية نساء المسلمين بنص القرآن الكريم.

قال عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٠٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٥٩، محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٥١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة، ٥/ ٢٠٠٣، رقم ٤٩٢٧.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١٥٨.

﴿٣٢﴾ [الأحزاب:٣٢].

قال الرازي: «قوله تعالى: لستن كأحد من النساء يعني: فيكن غير ذلك أمر لا يوجد في غيركن، وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين، وكما أن محمدًا عليه السلام ليس كأحد من الرجال، كما قال عليه السلام: (لست كأحدكم)، كذلك قرائبه اللاتي يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة»[(١)].

وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم عددًا كبيرًا من النساء، خص به دون أمته بجمع أكثر من أربع، والمجمع عليه من أزواجه إحدى عشرة امرأة وهن:

خديجة بنت خويلد، أول زوجة كانت له، ثم عائشة بنت أبي بكر، ثم سودة بنت زمعة، وحفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وزينب بنت خزيمة، وهي من بني عامر بن صعصعه، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، واسمها هند، وزينب بنت جحش الأسدية من بني أسد بن خزيمة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية، واسمها رملة، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار من بني المصطلق، وميمونة بنت الحارث، وصفية بنت حيي بن الأخطب[(٢)].

(١) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١٦٧.
(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١/ ٤٤.

قال ابن عبدالبر بعد ذكر المجمع عليه من زوجاته عليه السلام: «فهؤلاء أزواجه اللواتي لم يختلف فيهن، وهن إحدى عشرة امرأة، منهن ست من قريش، وواحدة من بني إسرائيل من ولد هارون، وأربع من سائر العرب. وتوفي في حياته منهن اثنتان خديجة بنت خويلد بن أسد بمكة، وزينب بنت خزيمة بالمدينة، وتخلف منهن تسع بعده صلى الله عليه وسلم.

وأما اللواتي اختلف فيهن ممن ابتنى بها وفارقها أو عقد عليها، ولم يدخل بها، أو خطبها ولم يتم له العقد منها، فقد اختلف فيهن، وفي أسباب فراقهن اختلافًا كثيرًا يوجب التوقف عن القطع بالصحة في واحدة منهن»[(٣)].

وقد جمع العراقي زوجات النبي عليه السلام في أبيات من الشعر، حيث قال[(٤)]:

زوجاته اللاتي بهن قد دخل
ثنتا أو احدى عشرةٍ خلفٌ نقل
خديجة الأولى تليها سودة
ثم تلي عائشة الصديقة
وقيل: قبل سودةٍ، فحفصة
فزينب والدها خزيمة
فبعدها هندٌ؛ أي: أم سلمة
فابنة جحشٍ زينب المكرمة

(٣) المصدر السابق، ١/ ٤٦.
(٤) ألفية السيرة النبوية، العراقي، ١/ ١٣٢.

تلي ابنة الحارث أي: جويرية
فبعدها ريحانة المسبية
وقيل: بل ملك يمينٍ فقط
لم يتزوجها، وذاك اضبط
بنت أبي سفيان وهي رملة
أم حبيبةٍ، تلي صفية
من بعدها، فبعدها ميمونة
حلًا، وكانت كاسمها ميمونة
وابن المثنى معمرٌ قد أدخلا
في جملة اللاتي بهن دخلا
بنت شريحٍ واسمها فاطمة
عرفها بأنها الواهبة
ولم أجد من جمع الصحابة
ذكرها ولا ب أسد الغابة
وعلها التي استعاذت منه
وهي ابنة الضحاك بانت عنه
وغير من بنى بها، أو وهبت
إلى النبي نفسها، أو خطبت
ولم يقع تزويجها، فالعدة
نحو ثلاثين بخلفٍ أثبتوا

ثالثًا: أمهات الصالحين:

ذكر القرآن الكريم بعضًا من أمهات الصالحين، ومن الأمهات الآتي ذكرهن القرآن الكريم:

١. أم مريم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم:٢٨].

وذلك عندما حملت مريم، ولم تتزوج، فقال لها قومها: يا أخت هارون، وكان هارون عابدًا من عباد بني إسرائيل، شبهت به مريم في كثرة العبادة، فقيل لها أخته، وقيل: كان أخاها من أبيها، وكان رجلًا صالحًا، وقيل: هو هارون النبي أخو موسى وكانت من ذريته[1]، وما كانت أمك وهي حنة بنت فاقوذا، بغية، فأم مريم عليه السلام هي زوجة عمران، وأخت زوجة زكريا عليه السلام، تزوجها عمران، ولم تحمل منه وأسنت، ولم يكن لها ولد فأبصرت يومًا طائرًا يطعم أفراخه، فتحركت لذلك نفسها، واشتاقت للولد، وتمنت أن يكون لها ولد حتى تحن عليه مثل هذا الطائر، فدعت الله أن يرزقها ولدًا، ونذرت أن تجعله لله، فأنجبت مريم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران:٣٦].

وقيل: إن عمرها لما ولدت مريم كان ستين سنة، وقيل: إنها توفيت وقد بلغت مريم من العمر عشر سنين[2]. والله أعلم.

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ٤٨٠.
(٢) انظر: الروضة الفيحاء في أعلام النساء، ياسين العمري، ص١١.

٢. زوجة النبي موسى عليه السلام.

وقد جاء في كتابه العزيز قصة زواجها من نبي الله موسى عليه السلام، وكيف أنه عندما خرج من مصر بعدما قتل القبطي، وقصد مدين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص:٢٣].

فتقدم موسى عليه السلام وزاحم القوم وسقى غنم المرأتين ثم جلس تحت ظل شجرة من شدة الحر، وهو جائع، وذلك قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢٤].

فرجعت ابنتا شعيب عليه السلام بالأغنام إلى أبيهما سريعًا، فقال لهما: ما أعجلكما، وكانا إذا سقوا أغنامهم يبطئون، قالا وجدنا رجلًا رحمنا وسقى لنا، قال لإحداهما اذهبي فادعيه لي[(١)].

قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص:٢٥].

فجاءت ابنته إلى موسى ودعته ليكلم أباها، وموسى الذي لا مأوى له، أصبح في ضيافة الشيخ الكبير، فلما رأى منه حسن الدين والخلق.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص:٢٧]. فهو لم يحدد له واحدة بل ترك الخيار لموسى عليه السلام، والاتفاق، على أن يخدم موسى الشيخ ثماني سنين في مقابل زواج ابنته[(٢)].

فلما قضى موسى الأجل أراد العودة إلى مصر، وكانت ليلة باردة فرأى في طريقه نارًا، وقال لامرأته امكثي.

قال تعالى: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه:١٠].

ولما عاد موسى عليه السلام من الطور وجد امرأته قد ولدت ابنًا، فحملها إلى مصر، وأقام بمصر يدعو فرعون إلى الإيمان وماتت في حياة موسى عليه السلام[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأخوة، البنوة، النساء

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٥٩٠.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ١٠/ ٣٣٩.

(٣) انظر: الروضة الفيحاء في أعلام النساء، العمري، ص٦.

الأُمِّيَّة

عناصر الموضوع

مفهوم الأمية	٢٠٢
الأمية في الاستعمال القرآني	٢٠٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٠٤
الأمية وخلق الإنسان	٢٠٦
الرسول الكريم والأمية	٢٠٩
الأمية والرسالة	٢١٩
أنواع الأمية	٢٢٤
علاج الأمية	٢٢٧
أثر انتشار الأمية على الفرد والمجتمع	٢٣١

مفهوم الأمية

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمية: مؤنث الأمي ومصدر صناعي معناه: الغفلة أو الجهالة، والأمي: نسبة إلى الأم أو الأمة، وهو من لا يقرأ ولا يكتب، والعيي الجافي. والجمع: أميون[(١)].

فالأمي: هو الذي على خلقته لم يتعلم الكتابة ولا القراءة، فهو على جبلته التي خلق عليها[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الأمية: الصفة التي هي على أصل ولادة أمه لم يتعلم الكتابة ولا قراءتها، أو هو من لا يحسن الكتابة؛ لأنه لا يقدر عليها[(٣)].

وبالرجوع إلى علماء التفسير نجدهم عرفوا الأمية بمعنيين: معنى عام، ومعنى خاص. أما المعنى العام: فيعني الجهل والضلالة والظلام، ولا ترتفع عن أمة حتى تخرج من الجهل والضلالة والظلام إلى العلم والهدى و، ولا يخرجها من هذا إلا نبي وكتاب، وأما المعنى الخاص فهو عدم معرفة الكتابة، ولا ترتفع الأمية عن أحد حتى يعرف الكتابة[(٤)].

والنبي صلى الله عليه وسلم ما مات إلا وقد رفع الأمية عن أمته بما يكفي لنقل هذا الدين كاملًا غير منقوص، من جيل الصحابة إلى جيل التابعين، إلى يومنا هذا.

فالمعنى الاصطلاحي موافق للمعنى اللغوي على المعنى الأول للمعنى الاصطلاحي، وعلى المعنى الثاني له يخص ببعض أجزاء المعنى اللغوي.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٢٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٧.
(٢) انظر: لسان العرب،ابن منظور ١/ ١٣٥، تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٢٣٧.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص ١٨٢.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٢٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨١٦.

الأمية في الاستعمال القرآني

وردت الأمية في القرآن (٦) مرات [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٢	﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾[الأعراف:١٥٧]
الجمع	٤	﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[الجمعة:٢]

ولم يخرج الاستعمال القرآني لكلمة الأمي عن مدلولها اللغوي، وهو: من لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وهو الباقي على أصل ولادة أمه لم يتعلم الكتابة[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٨١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٨٠.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ١٢٢، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٦٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجهل:

الجهل لغة:

ضد العلم، وتجاهل: أظهر الجهل وهو ليس بجاهل، واستجهله: عده جاهلًا واستخفه، والجهالة: أن تفعل فعلًا بغير علم، وجهلت الشيء: إذا لم تعرفه، والجاهل: ضد العاقل، والجهل: ضد الخبرة، والجاهلية: زمن الفترة، وهي حال العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين، وما كانوا عليه من المفاخرة بالأنساب، والكبر والتجبر وغير ذلك من الأخلاق المذمومة[١].

الجهل اصطلاحًا:

«أن تعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه»[٢].

الصلة بين الجهل والأمية:

الجهل عدم معرفة فرع من فروع العلوم الإنسانية أو الطبيعية؛ فالمهندس جاهل بعلوم الطب، والعكس صحيح، وهكذا، فالجهل نسبي يختلف من شخص لآخر.

أما الأمية فهي قد تعني: أمية أبجدية، أو أمية ثقافية، أو أمية تقنية، وأكثرها أمية أبجدية، وهكذا.

٢ الفهم:

الفهم لغة:

العلم بالشيء ومعرفته[٣].

وفي لسان العرب: الفهم معرفتك الشيء، وهو حسن تصور المعنى[٤].

الفهم اصطلاحًا:

هو تصور الشيء من لفظ المخاطب، والقدرة على التفسير والشرح وإدراك المعلومات التي تعرض، أو إدراك ما يعنيه شخص بالقول أو بالعمل أو بالاستنباط[٥].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ١٢٩، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣/ ٣٢٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٠٩.
(٣) انظر: المعجم العربي الأساسي، جماعة اللغويين العرب، ص ٩٥٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٤٥٩.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ٤٢٠.

الصلة بين الفهم والأمية:

«ليس هناك علاقة ما بين الفهم والأمية، فربما تجد بعض الأميين أفهم من بعض المتعلمين، وأن القراءة والكتابة ليست هي الفيصل؛ لذلك تجد فلاحًا يعبر عن فهم ثقافي أكبر من إنسان حصل على شهادة عليا»[(١)].

٣ العلم:

العلم لغةً:

نقيض الجهل، والمعرفة، واليقين، والعلامة: النسابة، وهو من العلم[(٢)]، ويقال: «علمت الشيء أعلمه علمًا: عرفته»[(٣)].

العلم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني: «العلم: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، ونقل عن الحكماء فقال: هو حصول صورة الشيء في العقل»[(٤)].

وأنكر ابن العربي تعريف العلم؛ لوضوحه وقال: «العلم أبين من أن يبين»[(٥)]، وأنكر على من تصدى لتعريف العلم.

الصلة بين العلم والأمية:

العلم والأمية نقيضان، فالعلم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحدث منه أثر في نفس المتعلم، وعكسه الأمية تمامًا[(٦)].

(١) انظر: أبعاد الشخصية المصرية بين الماضي والحاضر، طلعت رضوان، ص١١٢.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٢/ ٤١٨، لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٣٠٨٣.
(٣) الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٩٠.
(٤) التعريفات، ص ١٩١.
(٥) فتح الباري، ابن حجر، ١/ ١٤١.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ١٠٩، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٤٤.

الأمية وخلق الإنسان

ولد الإنسان أميًا لا يعلم شيئًا، ووهب الله تعالى الإنسان وسائل إدراك الحقائق ومعرفة الموجودات، وهي السمع والأبصار والأفئدة، وهذا أيضًا يحتاج إلى القراءة والتأمل والتفكير العميق.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ركز الإسلام على العلم؛ ليتمكن المسلم من الوصول إلى سر الكون وما وراء الكون، وبعد ذلك إلى الإيمان بالله، من خلال ما تركه في هذا الكون من آيات دالة على وجوده جل جلاله .

ثم ركز الله تعالى على الوعاء لهذا العلم ألا هو العقل فقد ذكره الله تعالى في مواضع متعددة من القرآن الكريم؛ إذ وصلت إلى أكثر من خمسين آية، ويمر الإنسان بمراحل متعددة حتى ينتقل من الأمية إلى العلم ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

المرحلة الأولى: خروج الإنسان من بطن أمه:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨].

فالله هو من أخرجنا من بطون أمهاتنا، هو خروج الطفل من بطن أمه عن طريق ما جعل الله في جسم الأم من قدرة؛ لدفع مولودها إلى الخارج فيخرج من بطن أمه بحياة مستقلة عن أمه، فما أن يخرج المولود إلا ويستقل بحياة خاصة، فيتنفس باستقلالية عن أمه، ويهضم الطعام، وتعمل أجهزة جسمه باستقلالية عن التبعية التي كانت تعمل به وهو في بطن أمه؛ لأن الحق سبحانه أراد أن يخرجه خلقًا آخر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤][1].

وجاء لفظ الجلالة مبتدأ وخبره جملة فعلية، من باب الاختصاص، والله أخرجكم وحده من بطون أمهاتكم، وليس هناك من يفعل هذا غيره[2].

المرحلة الثانية: المكان الذي يخرج منه الإنسان:

ذكر الله تعالى مكان الخروج هو ﴿مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ والمقصود بالبطون: الأرحام؛ وذكر البطن؛ لأنه مكان الرحم،

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٣/ ٨١١٢.
(٢) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي، ٧/ ٢٧٢.

ويصدق على المولود أنه خرج من رحم أمه أو خرج من بطنها.

فالأم هي من ولدت، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢][(١)].

«وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة: (إمهاتكم) هنا وفي والزمر والنجم، بكسر الهمزة والميم. وأما الكسائي فكسر الهمزة وفتح الميم؛ وإنما كان هذا للإتباع، الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل، وأصل الأمهات: أمات، فزيدت الهاء تأكيدًا، كما زادوا هاء في أهرقت الماء، وأصله: أرقت»[(٢)].

المرحلة الثالثة: الإدراك عند الإنسان:

يولد الإنسان لا يدرك شيئًا، وكل ما يدركه إنما هو بعد الولادة بواسطة الحواس التي منحه الله إياها، قال تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ حال من الضمير في أخرجكم، فالمولود عند خروجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وما يفعله المولود من الصراخ ومصه اللبن من ثدي أمه، إنما هذا من الفطرة لا من العلم؛ لأن العلم كسبي؛ لأنه لا علم إلا بتعلم، و﴿شَيْـًٔا﴾ يدل على النفي العام لأي علم عند هذا المولود[(٣)].

فالمولود يكون في غفلة عن كل شيء حتى عن نفسه التي بين جنبيه، إلا أن مسألة إدراك الحقائق تكمن فينا بصورة القوة لا الفعل، وبالتدريج تحصل لأعيننا قوة النظر ولآذاننا قوة السمع، ولعقولنا القدرة على الإدراك والتجزئة والتحليل، فننعم بهذه العطايا الإلهية الثلاث التي بواسطتها نستطيع أن ندرك كثيرًا من التصورات، ونودعها في العقل لكي ننشئ منها مفاهيم كلية، ومن ثم نصل إلى الحقائق العقلية.

قال القرطبي: «لا تعلمون شيئًا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم، أو لا تعلمون شيئًا مما قضي عليكم من السعادة والشقاء، أو لا تعلمون شيئًا من منافعكم»[(٤)].

المرحلة الرابعة: وسائل المعرفة:

إن رسم صورة الشيء الخارجي المراد في الذهن وبواسطة الوسائل المعينة لذلك، وعليه فمعرفتنا بالعالم الخارجي تكون عن طريق أجهزة خاصة هي السمع والبصر والفؤاد.

لذلك بينت الآية مسألة عدم علم الإنسان المطلق حين الولادة، ثم جعل الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٣/ ٨١١٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١٣٧.
(٣) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي، ٧/ ٢٧١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٣٧.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لكي تحصلوا على حقائق الوجود وتدركوها.

ونشاهد تقديم ذكر السمع على البصر في الآية مع ما للعين من عمل أوسع من السمع، ولعل ذلك؛ لسبق الأذن في العمل على العين بعد الولادة، حيث إن العين كانت في ظلام دامس في رحم الأم، ونتيجة لشدة أشعة بعد الولادة فإنها لا تستطيع العمل مباشرة بسبب حساسيتها، وإنما تتدرج في اعتيادها على مواجهة حتى تصل للحالة الطبيعية المعتادة، ولذا نجد الوليد في بداية أيامه الأولى مغلق العين. أما بخصوص الأذن، فثمة من يعتقد بأن لها القدرة على السماع قليلًا أو كثيرًا وهي في عالم الأجنة، وأنها تسمع دقات قلب الأم وتعتاد عليها[1].

أضف إلى ذلك أن الإنسان إنما يرى بعينه الأشياء الحسية فقط، في حين أن الأذن تعتبر وسيلة للتربية والتعليم في جميع المجالات، فالإنسان يصل بواسطة سماع الكلمات إلى معرفة جميع الحقائق، سواء ما كان منها في دائرة الحس أو ما كان خارجها، وليس للعين هذه السعة، وصحيح أن الإنسان يمكنه تحصيل العلم بواسطة القراءة، إلا أن القراءة ليست عامة لكل الناس، وسماع الكلمات أمر عام[2].

والفؤاد جاءت هنا بمعنى: القلب والعقل الذي يعيش حالة التوقد، وبعبارة أخرى: يعيش حالة التفسير والتحليل والابتكار.

يقول الراغب الأصفهاني: «الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد: إذا اعتبر فيه معنى التفؤد. أي: التوقد»[3].

المرحلة الخامسة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

تعتبر نعمة أجهزة تحصيل العلم من أفضل النعم التي وهبها الله للإنسان، فلا يقتصر دور العين والأذن مثلًا على النظر إلى آثار الله في خلقه، والاستماع إلى كتاب الله تعالى وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وتفهم ذلك وتدركه بالتحليل والاستنتاج، بل إن كل خطوة نحو التكامل والتقدم مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بهذه الوسائل الثلاثة.

وغاية إعطاء هذه الوسائل إنما تستوجب شكر الواهب؛ لأنه من خلالها يمكن الحصول على العلم والمعرفة اللذين بهما امتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات[4].

قال القرطبي: «لعلكم تشكرون فيه تأويلان:

أحدهما: تشكرون نعمه.

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٩/ ١١٦٦.

(٢) انظر: التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، سامي القدومي، ١/ ١٥٧.

(٣) المفردات، ص٦٤٦.

(٤) انظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيرازي، ٨/ ٢٧٥.

الثاني: يعني: تبصرون آثار صنعته؛ لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر»[1].

وختمت هذه الآية التي تتحدث عن السمع الأبصار والأفئدة باستحقاق الشكر لله؛ لأنها نعم نستخدمها في كل لحظة، فهي لا تفارقنا في الليل ولا في النهار، فهي أدعى أن تذكرنا بشكر خالقنا على ما أنعم علينا، فالآيات الأخرى التي تتكلم عن هذه النعم، تدعونا إلى شكر الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٣٧.

الرسول الكريم والأمية

تعددت الآيات القرآنية التي تثبت أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترد على الذين يدعون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تعلم هذا القرآن من قراءته في كتب الأولين.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ابن عباس: «كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أميًا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب»[2].

أولًا: الأمية وصف كمال للرسول الكريم:

ومن أساليب المدح ذكره صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٩٨.

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

لذا جاء الأمر بالإيمان به في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقد خصه السياق بالأمية مدحًا، «والأمية وصف خص الله به من رسله محمدًا صلى الله عليه وسلم، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه، مع أنها في غيره وصف نقصان... صارت أميته آية على كون ما حصل له إنما هو من عند الله تعالى»[(١)].

كما قال الله في آية أخرى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ويعلق الزمخشري على هذه الآية قائلًا: «وأنت أميٌّ ما عرفك أحدٌ قط بتلاوة كتاب ولا خطٍ. ﴿إِذًا﴾ لو كان شيء من ذلك، أي: من التلاوة والخط. ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ من أهل الكتاب، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أميٌّ لا يكتب ولا يقرأ... أو لارتاب مشركو مكة، وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده»[(٢)].

وصف الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأنه أمي، وهذا الوصف جاء في معرض إقامة الحجة على أهل الكتاب ومطالبتهم باتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا معناه: أن أميته لا تقدح إطلاقًا في رسالته، بل قد ذكرها الله لهم ليقول لهم: إني تقصدت أن يكون رسولي إليكم أميًا، وأنا آمركم أن تتبعوه؛ لأنه رسول ولأنه نبي ولأنه أمي.

وبالتالي فالأمية هي وصف اختاره الله تعالى في نبيه صلى الله عليه وسلم، فلا بد أن يكون هذا الوصف من كماله صلى الله عليه وسلم.

قال أحمد شوقي[(٣)]:

يا أيها الأمي حسبك رتبةً
في العلم أن دانت بك العلماء
الذكر آية ربك الكبرى التي
فيها لباغي المعجزات غناء
صدر البيان له إذا التقت اللغى
وتقدم البلغاء والفصحاء

ثانيًا: حكمة كون النبي أميًا:

تجلت الحكمة الإلهية في اختيار النبي محمد صلى الله عليه وسلم أميًا لا يحسن القراءة والكتابة، فمن هذه الحكم:

١. إثبات صدق الرسالة، وأنها من عند الله تعالى.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ١٣٣.
(٢) الكشاف، ٣/ ٤٦٢.
(٣) ديوان أحمد شوقي، ١/ ٧.

محمد صلى الله عليه وسلم أمي ومعنى ذلك: أن ثقافته غير ثقافات البشر، علمه من رب البشر، فهو منزه عن أي علم أرضي يتفاخر به الناس فيما بينهم، وإنما تلقى علمه وأدبه وثقافته من خالق البشر جل جلاله، كما أخبر الله تعالى عنه في كتابه الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

والمتأمل في أول آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

ليجد أنها تعالج قضية أمية النبي صلى الله عليه وسلم وتقضي على أي أثر سلبي لها.

فعندما سمع المصطفى صلى الله عليه وسلم خطاب الله له بـ﴿ٱقْرَأْ﴾ أجاب عليه الصلاة والسلام وبما يتناسب مع قدراته فقال: (ما أنا بقارئ!)، أي: لا أحسن القراءة، فقراءة النبي صلى الله عليه وسلم إنما هي باسم الذي علم بالقلم، وليست بتعليم أحد من أهل الأرض، ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم هو المختار من قبل الله تعالى لحمل منهج الله، كانت أميته صلى الله عليه وسلم صونًا وحفظًا من الله تعالى لهذا المنهج ومن أي تدخل أرضي بشري[1].

فكانت أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم دليلًا من أدلة صدقه ونبوته.

٢. التحدي والإعجاز.

أرسل الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى العالمين بشيرًا ونذيرًا، وأيده بالمعجزات الدالة على صدقه، ومن أبرز هذه المعجزات أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن الثابت تاريخيًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد أميًا، وظل على ذلك إلى أن بعثه الله للعالمين وهو أمي، وهذا كمالٌ في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعجزة من معجزاته الشريفة.

يقول عنها ابن تيمية: «بين سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة، وهو معلومٌ لجميع قومه الذين شاهدوه، متواترٌ عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس -أنه كان أميًا لا يقرأ كتابًا، ولا يحفظ كتابًا من الكتب؛ لا المنزلة ولا غيرها، ولا يكتب بيمينه كتابًا، ولا ينسخ شيئًا من كتب الناس، المنزلة ولا غيرها»[2].

إن الأمية بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم «وصف خص الله به من رسله محمدًا صلى الله عليه وسلم ؛ إتمامًا

(١) انظر: الجواب الصحيح، ابن تيمية، ٥/ ٣٣٨.
(٢) المصدر السابق.

للإعجاز العلمي العقلي الذى أيده الله به، فجعل الأمية وصفًا ذاتيًا له؛ ليتم بها وصفه الذاتي وهو الرسالة؛ ليظهر أن كماله النفساني كمال لدني إلهي، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه مع أنها في غيره وصف نقصان»[1].

ولما تحقق المنهج وسلم من أي نسبة بشرية أرضية، كان من الطبيعي أن يتحدى الله تعالى البشر جميعًا أن يأتوا بمثله، بل بسورة من مثله، وكان من الطبيعي أن يكون صالحًا لكل زمان ومكان.

٣. القضاء على الشبهات.

كما أن أمية النبي صلى الله عليه وسلم تقضي على أي شبهة كان سيتمسك بها المشركون فيما لو كان النبي صلى الله عليه وسلم يحسن القراءة والكتابة، هذه الشبهة قد ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز حيث قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

أي: لو كنت تتلو من قبل القرآن من كتاب، أو كنت كاتبًا تخط الكتاب بيمينك، لشكك المبطلون في صدق دعواك أن القرآن من عند الله تعالى، ولقالوا: نقله محمد من الكتب السابقة، أو جلس على تأليفه وجمعه وتنقيحه.

قال النحاس: «وذلك دليل على نبوته؛ لأنه لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم وزالت الريبة والشك»[2].

لكن هذا لم يتم لهم؛ لأن الله تعالى الذي اختار نبيه أن يكون أميًا عن ثقافاتهم الأرضية، وهذا كان حجة دامغة عليهم؛ إذ كيف يكون القرآن وهو بهذا المستوى من العظمة والفصاحة والبلاغة والبيان، مع ما حوى من علوم ومعارف وتشريعات وقصص وعبر ومواعظ، كيف يكون من تأليف رجل أمي لا يحسن القراءة والكتابة؟

يقول ابن عاشور: «أفلا تعقلون أن مثل هذا الحال -من الجمع بين الأمية والإتيان بهذا الكتاب البديع في بلاغته ومعانيه- لا يكون إلا حال من أفاض الله عليه رسالته؛ إذ لا يتأتى مثله في العادة لأحدٍ»[3].

ثانيًا: شبهات وردود حول أميته عليه السلام:

حاول بعض المشككين أن ينفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة الأمية؛ لأن ورود القرآن الكريم مصدقًا لما جاء في كتبهم من أخبار ونبوءات،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ١٣٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٣٥١.

(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ١٢٣.

وتنبؤه بالعديد من الأحداث المستقبلية -كهزيمة الفرس، وغير ذلك- دون تعليم، إنما يعد معجزةً عقليةً باهرةً لا ينكرها إلا المكابرون، وهؤلاء المكابرون يعلمون جيدًا أن أمية النبي صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة والإنجيل؛ مصداقًا لقول الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

كما قال الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠].

تشهدون أن صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتابكم، ثم تكفرون به وتنكرونه، ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ (١).

وبالرغم من شهادة تاريخ الحجاز في العصر الجاهلي، ومحيطه البدوي على أمية النبي وعشيرته وأقربائه، نجد المغالطات والتشكيكات أثيرت حول أمية النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه بعض الشبهات والرد عليها:

الشبهة الأولى:

قال الحداد: «محمد لم يكن أميًا بل تاجرًا دوليًا ومثقفًا ومطلعًا وبحاثة دينيًا».

(١) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٠٣.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] (٢).

فلو نظر العاقل إلى كلمة الكتاب فإنها جاءت نكرة، فنفت جميع الكتب السماوية وغيرها، لم يشير باللام إلى الكتاب أو الكتب المعهودة كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال عز شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

ترى أنه سبحانه عندما يشير إلى هذه الكتب المعهودة عرفها باللام إشارة إلى معهوديتها، فالآية فيها دليل على أن الهدف منها هو نفي مطلق التلاوة والكتابة عنه حيث عطف على الجملة الأولى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ (٣).

ثم إن التجارة لا ترتبط بالقراءة والكتابة، فكم من أمي برع في فنون التجارة، بالإضافة إلى أن العرب لم يكونوا يديرون تجارتهم بكتابة العقود، وتوثيقها، وإنما كانت تجارة

(٢) القرآن والكتاب، ص ٤١٠.
(٣) انظر: مفاهيم القرآن، السبحاني، ٣/ ٣٠١.

الرحلات تجارة مقايضة وتبادل البضائع، وبيع بالثمن العاجل.

الشبهة الثانية:

قالوا: إن قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ قالوا: الأمي منسوب إلى مكة المكرمة باعتبارها أم القرى، وهي علم من أعلام مكة، كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وعلى ذلك فالمراد من الأمي: أنه مكي[(١)].

وهذا كلام الأمي: مردود؛ لأن أم القرى كل مدينة هي أم ما حولها من القرى[(٢)]، فيعلم من ذلك أن أم القرى مفهوم كلي يصح إطلاقه على أية بلدة تتصل بها قرى كثيرة بالتبعية، وهذه القرى تعتمد عليها في أمور حياتها، ويعاضد ما ذكرناه (كون أم القرى كليًا) قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩].

فالآية -بحكم رجوع الضمير في أمها إلى القرى- صريحة في أنها ليست علمًا لموضع خاص؛ لأن مشيئته تعم الأمم في هذا الأمر.

ولو صح قولهم فالصحيح عن النسبة لكانت النسبة إليها القروي لا الأمي.

ثم إن الله وصف نبيه في الآية بصفات تناسب موضوع النبوة، فلو كان الأمي فيها بالمعنى الذي ذكروه، لكان الإتيان به في ثنايا تلك الأوصاف والخصال إقحامًا لها.

الشبهة الثالثة:

استدلوا بحديث جاء في معاني الأخبار عن جعفر بن محمد الصوفي قال: «سألت أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا فقلت: يا ابن رسول الله، لم سمي النبي الأمي؟ فقال: ما يقول الناس؟ قلت: يزعمون أنه سمي الأمي؛ لأنه لا يحسن أن يكتب، فقال: كذبوا، عليهم لعنة الله في ذلك، والله يقول في محكم كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

فكيف كان يعلمهم ما لا يحسن، والله لقد كان رسول الله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو قال: بثلاثة وسبعين لسانًا، وإنما سمي الأمي؛ لأنه كان من أهل مكة، ومكة من أمهات القرى، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]»[(٣)].

أولًا: الحديث النبوي وما ينسب لأئمة أهل البيت لا يؤخذ من الشيعة؛ لأنهم لا

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٣.
(٣) معاني الأخبار، الصدوق، ص٥٤.

يتبعون منهجًا علميًا في رواية الحديث كمنهج أهل السنة[1].

ثانيًا: الشيعة نسبوا لأئمتهم ما هو أكبر من هذا مثل: أن الله علمهم علم ما كان وما بقي، وأن الأئمة يتحكمون في الكون[2].

قال د. موسى الموسوي: «والأدهى من ذلك -يقصد ادعاء عصمة الأئمة- أن بعض علمائنا ذهبوا إلى أبعد من ذلك وقالوا: إن الإمام يعلم كل شيء، وله معرفةٌ بكل العلوم والفنون، ولست أدري أي فضيلة بالنسبة إليه أن يكون مهندسًا أو ميكانيكيًا أو عالمًا باللغة اليابانية؟ إنما الفضيلة بالنسبة للإمام أن يكون فقيهًا ورعًا وعالمًا ربانيًا في شئون الدين، وفي هذا كل الفضل»[3].

ثالثًا: قوله: «إن النبي يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لسانًا» يعني: أنه كان مشغولًا بالقراءة والكتابة طيلة حياته، وهذا يخالف الروايات الصحيحة التي نقلت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الشبهة الرابعة:

استدل الدكتور عبد اللطيف الهندي بقوله سبحانه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢-٣].

قال: هذا يدل على تحقق التلاوة منه أيام رسالته وفي رحاب دعوته، يعني أنه كان يقرأ ويكتب[4].

قبل الرد على هذه الشبهة لابد أن نتعرف على تعريف التلاوة في اللغة:

فيتلو في اللغة من الفعل تلا تلاوة أي: قرأه، وتلا الكتاب والسنة: اتبع ما فيهما[5].

بذلك يتضح لنا جليًا أن التفسير الذي فسروه لا علاقة له بالمعنى اللغوي، فالقراءة والإتباع غير الكتابة، ثم إن القرآن الكريم أثبت في غير ما موضع أمية النبي صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فالتلاوة كما تصدق على التلاوة عن الكتاب، تصدق على التلاوة عن ظهر القلب، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧-٨].

إذ معناه: سنقرأ عليك القرآن فلا تنساه، ونجعلك قارئًا بإذن منه فلا تنسى ما تتلقاه من أمين الوحي، إلا بمشيئة منه سبحانه؛ فإن الإقراء والإنساء كليهما بيده سبحانه، فلا يدل إلا على تلاوة القرآن وقراءته عن ظهر القلب فقط، كما كان هو دأب النبي في تلاوة كل ما أوحي إليه.

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٣/ ٥٨.
(٢) انظر: بحار الأنوار، المجلسي، ٢٦/ ١١١.
(٣) الشيعة والتصحيح، ص٨٢
(٤) انظر: مفاهيم القرآن، السبحاني، ٣/ ٣٢٤.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٥١.

قال الزمخشري: «بشر الله تعالى بإعطاء آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه»[(١)].

قال الصابوني: «أي: يقرأ عليهم صحفًا منزهةً عن الباطل عن ظهر قلب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب، قال القرطبي: أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب؛ لأنه عليه السلام كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ»[(٢)].

فتلاوة القرآن تكون بالنظر وعن ظهر قلب، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يتلو عليهم الصحف المطهرة عن ظهر قلب.

فهذه الآية قاطعة الدلالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أميًا، ففهم المشككين حول الآية يعتبر فهمًا خاطئًا.

الشبهة الخامسة:

استدلوا برواية بدء الوحي على إنكار أمية النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا: إنها تدل على تعلم النبي صلى الله عليه وسلم، والصحيح أنها من الأدلة القوية على أميته عليه السلام؛ إذ جعلوا قول النبي صلى الله عليه وسلم للملك -الذي كان يطلب منه القراءة- (ما أقرأ) استفهامًا عن المقروء، لا نفيًا للقراءة، مستدلين بما توهموه من عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم أميته، وإلا فما وجه استفهامه عن المقروء؟

حيث اقتطعوا من كتاب السيرة النبوية لفظة: (ما أقرأ) ولم يكملوا النص الذي نص صراحة على الأمية؛ إذ ورد فيها مباشرة بعد العبارة التي اقتطعوها قوله صلى الله عليه وسلم: (ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي)[(٣)].

إن المنهج الذي اعتمدوه في بحث هذه المسألة منهج بعيد عن منهج البحث العلمي؛ لأنهم لم يعطوا أي قيمة للروايات الصحيحة التي تنص صراحة على الأمية؛ فقوله عليه السلام: (ما أنا بقارئ)[(٤)] تدل على أنه أمي.

ودليلهم على أن قوله: (ما أقرأ؟) استفهام صحيح، ولكن في الوقت نفسه يعتبر دليلًا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقرأ؛ ذلك؛ لأنه قد أوضح بنفسه أن طلبه من الملك تعيين ما يطلب منه قراءته لم يكن إلا لخوفه من أن يعود إلى ضمه، كما حدث في كل مرة نفى فيها معرفته للقراءة قبل ذلك[(٥)].

(١) الكشاف، ٤/ ٧٣٨.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٥٨٧.
(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ١٤٩.
(٤) أخرجه البخاري، في كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي، رقم ٦٩٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله، رقم ١٦٠.
(٥) انظر: نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

ولم يقل: (اقرأ اسم ربك)، فهذه الباء الدقيقة اللطيفة حلت الإشكال وأفهمتنا أن المراد ليس قراءة أحرف وكلمات؛ ولكن قراءة شيء ما مستعينًا باسم ربك.

وهذا يعني أن القراءة لا تعني أن يقرأ من مكتوب بل قد يقرأ من محفوظ.

واختار الله تعالى بدء رسالته لهذه الأمة بكلمة (اقرأ)؛ لأن دعوة الإسلام هي دعوة إلى تنوير العقول، وشفاء الصدور، والخروج من ظلمات الأمية إلى نور العلم، وهي دعوة إلى إعمار الكون، وإقامة الحق والعدل فيه.

الشبهة السادسة:

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عالمًا وتعلم على أيدي أشخاص من أهل الكتاب، مثل: عبدالله بن سلام وجبر الرومي وغيرهم.

لقد رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فكيف لمن في لسانه أعجمي أن يعلم النبي هذا الكتاب العربي المبين الذي عجز العرب عن الإتيان بمثله؟ والقرآن يحتوي على حقائق علمية لا يوجد مثلها في الكتب السابقة المليئة بالأخطاء المخالفة للعلم صراحة بمقياس العلم الحديث[1].

والقرآن فصل من أمور الغيبيات مثل: البعث والنشور والحشر والحساب والجنة والنار ما لا يوجد مثله في الكتب السابقة، ولم يسمع بها أهل الكتاب أنفسهم، مثل: خبر السامري، ومصير المسيح.

الفكر الاستشراقي المعاصر، لخضر شايب، ص٣٩٩.

(١) انظر: التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، موريس بوكاي، ص١٧٤.

شبهات حول الأحاديث النبوية التي استشهدوا فيها أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف القراءة والكتابة:

الحديث الأول:

عن ابن عباسٍ رضى الله عنهما قال لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب قال النبي صلى الله عليه وسلم: (هلم أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده)، فقال عمر إن النبي صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله!! فاختلف أهل البيت، فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي صلى الله عليه وسلم كتابًا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قوموا). قال عبيد الله: فكان ابن عباسٍ يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم [(١)].

فهم البعض أن قوله: (أكتب لكم كتابًا) دليلٌ أنه يقرأ ويكتب.

وهذا غير صحيح، فنداء النبي لهم دليلٌ أنه كان كالعادة سيملي عليهم وهم يكتبون، وإلا لكتب بنفسه خصوصًا بعد أن قال لهم: (قوموا)، ومعلومٌ أن هذه الوصية لم تكتب.

الحديث الثاني:

احتج البعض أنه يعرف القراءة والكتابة بما حدث في صلح الحديبية عن البراء بن عازبٍ: (فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله)[(٢)].

وقد رد ابن كثير على ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فقال: «ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله» فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري «ثم أخذ فكتب»، وهذه محمولةٌ على الرواية الأخرى «ثم أمر فكتب»، ولهذا اشتد النكير من فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي وتبرءوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالًا وخطبوا به في محافلهم، وإنما أراد الرجل -أعني الباجي- فيما يظهر عنه أنه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب قول المريض قوموا عني ٧/ ١٢٠، رقم ٥٦٦٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية ٣/ ١٤١٠، رقم ١٧٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا، ٣/ ١٨٤، رقم ٢٦٩٩.

كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة»[1].

الحديث الثالث:

احتج البعض بإخبار النبي عن الدجال بأنه: (مكتوبٌ بين عينيه كافر)[2]، وفي رواية: (ك ف ر، يقرؤها كل مؤمن) بأنه يعرف القراءة والكتابة.

وهذا غير دليل، فالذي أوحى له الحروف المقطعة (الم) (حم) (عسق) (كهيعص). أوحى له (ك ف ر).

الحديث الرابع:

وما أورده بعضهم من الحديث: أنه لم يمت عليه السلام حتى تعلم الكتابة، فضعيفٌ لا أصل له، ولا يوجد حديث صحيح واحد يدل أنه عليه السلام تعلم القراءة والكتابة[3].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب الجعد، ٧/ ١٦٢، رقم ٥٩١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه ٤/ ٢٢٤٨، رقم ٢٩٣٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٨٦.

الأمية والرسالة

أولًا: حكمة إرسال الرسول إلى الأميين:

هناك حكم كثيرة لاختيار بلاد الأميين لتكون مهد الرسالات السماوية فيهم، فمن هذه الحكم على سبيل المثال حكم خلقية، وحكم علمية، وحكم فكرية ثقافية، ومنها أيضًا حكم سياسية وجغرافية، وأخرى اجتماعية؛ وهناك حكم نفسية وعقلية. والباحثون اكتشفوا أخيرًا دقة خط مكة المكرمة وأنها وسط العالم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فمعنى قوله: ﴿وَسَطًا﴾؛ أي: وسطًا في المكان، وسطًا في الخلقة، وسطًا في المشاعر والأحاسيس، وسطًا في الأخلاق، بل وسطًا في الدعوة إليه سبحانه وتعالى ووسطًا في كل شيء[4].

هذه الوسطية تكتشف الاختيار الإلهي؛ لظهور الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الدين الجديد، في هذا الموضع من الأرض في هذا الزمان، إن هنالك نظامًا مقدورًا أو قصدًا مقصودًا، وتدبيرًا معينًا، وترتيبًا موضوعيًا لتلتقي هذه الظواهر كلها حيث التقت؛ كي تؤدي دورًا معينًا أقل نتائجه

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٣١.

تخطيط خريطة العالم في عالم الظاهر، وفي عالم الشعور على هذا الوضع الذي صارت إليه الأمور منذ ذلك التاريخ البعيد[1].

والنبي صلى الله عليه وسلم نشأ في تلك البيئة الجاهلية، وأنه عليه الصلاة والسلام كان أميًا، ككثير من أبناء قريش؛ ولكنه لم يمارس ما مارسوه، وتربوا عليه حال كونه أميًا في بيئة جاهلية، وهذا ما يدعو للعجب والدهشة.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الضحاك في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، قال: هو محمد، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة: ٢]، قال: القرآن؛ ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] قال: هو الشرك[2].

فبيئة الأميين بعيدة عن الأفكار الهدامة المبتكرة عقديًا، وتنعم بتلك الأفكار السطحية، فقد ظلت الجزيرة العربية، وكأنها واحة حصينة آمنة من الغزو، إلا في بعض أطرافها، آمنة من انتشار الدعوات الدينية، نصرانية أو مجوسية، إلا في قليل من قبائلها، وهذه ظاهرة قد تبدو في التاريخ عجيبة، لولا ما يفسرها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها، وما للموقع والطبيعة من أثر في حياة أهلها، وفي أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم[3].

كان الأميون يعيشون في ظلمة من الجهالة البسيطة والحالة الفطرية الأولى، فكان يغلب عليهم بسبب ذلك أن يضلوا الطريق إلى تلك القيم الإنسانية، فيقتلوا الأولاد بدافع الشرف والعفة، ويتلفوا الأموال الضرورية بدافع الكرم، ويثيروا فيما بينهم المعارك بدافع الإباء والنجدة.

وهذه الحالة هي التي عبر الله عز وجل عنها بالضلال حينما وصفهم بقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ومن المعلوم أن الله عز وجل قد جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا، وجعله أول بيت وضع للناس للعبادة وإقامة الشعائر الدينية، وحقق في ذلك الوادي دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومن

(١) انظر: في التاريخ فكرة ومنهاج، سيد قطب، ص٤٩.

(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ٦/ ٣٥٠.

(٣) انظر: حياة محمد، هيكل، ص ٧٢.

لوازم هذا كله ومتمماته: أن تكون هذه البقعة المباركة نفسها مهدًا للدعوة الإسلامية، التي هي ملة أبينا إبراهيم، وأن تكون بعثة خاتم الأنبياء ومولده فيها، كيف لا وهو من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟

واقتضت حكمة الله تعالى أن تكون اللغة العربية هي لغة الدعوة الإسلامية، وأن تكون هي الأداة المباشرة الأولى[1].

ثانيًا: الأمية ووراثة النبوة:

بعد أن فسد بنو إسرائيل ولم يتحملوا أمانة حمل الرسالة كان لا بد من تسليمها لأمة أخرى تقوم بأعباء حمل الرسالة، وليس من صفات هذا الشعب أنه غبي، ولا ساقط؛ لأن الغبي والساقط لا يتولى القيادة، وإنما هو شعب مبارك، ولكنه أمي؛ ليظهر عظمة الله تعالى في جعل أمة أمية تتعلم وتتولى قيادة العالم ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

واليهود كانوا ينتقصون المسلمين؛ لأنهم أميون، فأعلمهم الله تعالى أن ذلك فضل منه يؤتيه من يشاء، والمنة ظاهرة في اختيار الله للأميين؛ ليجعلهم أهل الكتاب المبين، وليرسل فيهم رسولًا منهم؛ ليرفعهم إلى مقام كريم، ويخرجهم من أميتهم بتلاوة آيات الله عليهم، وتغيير ما بهم، وتمييزهم على العالمين، ويعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب، ويعلمهم الحكمة فيدركون الحقائق، ويكونون ورثة النبوة[2].

وفي العهد الجديد أن الأمة الإسلامية هي وارثة النبوة وستتولى قيادة البشرية، وتسير على النهج الذي رسمه الله تعالى لها، ليست مثل اليهود الذين نقضوا عهد الله تعالى: «أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره»[3].

و أيضًا: «قالت له المرأة -أي: لعيسى عليه السلام: يا سيد أرى أنك نبي، آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون: إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه، قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم تسجدون للآب... ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق»[4].

وفي رحلة الإسراء، انتقلت الرسالة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، بعد أن كانت في بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ

(١) انظر: فقه السيرة،البوطي، ص ٣٠-٣٣.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) إنجيل متى، ٢١: ٤٣.

(٤) إنجيل يوحنا، ٤: ١٩- ٢٣.

أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

لكنهم غيروا وبدلوا، وطال عليهم الأمد وقست قلوبهم، اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، قتلوا الأنبياء ونقضوا العهود، أوقدوا الحروب، وقالوا: يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

لذلك انتقلت الرسالة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، حيث تسلمها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حضور كل الأنبياء، ليلة الإسراء، في مكانٍ طيب هو المسجد الأقصى ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

وفي أفضل الأعمال وهي الصلاة، وتسلمت أمته الرسالة منه بعد وفاته؛ لتكون لها العزة والكرامة، والعهد الأمانة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والله تعالى لا يفضل أحدًا على أحدٍ إلا بالتقوى، ولا يختار أحدًا على أحدٍ إلا بالعمل الصالح، وإنما يتفاضل الناس عند الله بإيمانهم وتقواهم، وإذا غيرنا أو بدلنا أو قصرنا في هذه الرسالة العظيمة؛ فإن الله تعالى سيأتي بأقوام آخرين، لهم صفات غير صفاتنا وأخلاق غير أخلاقنا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وسورة الإسراء وضحت كيف ورثت هذه الأمة النبوة من الأمم السابقة، فكان الانتقال من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ثم جاء ذكر الكتاب الذي انتقل من نوح إلى موسى عليهما السلام.

فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٢-٣].

ولما فرطت بنو إسرائيل في الكتاب ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

[الإسراء: ٤].

ووصل الكتاب إلى أمة محمد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٥-١٠٦].

وسورة الإسراء تدعو لعدم التخلي عن القرآن كما فعلت الأمم السابقة لما تخلوا عن الكتاب استبدلهم الله بأمم أخرى تحافظ على الكتاب[(١)].

وذكر الشهرستاني: وكان المنحدر منه إلى بني إسرائيل ظاهرًا، و المنحدر منه إلى بني إسماعيل مخفيًا، وهكذا، فقد كان نور بني إسماعيل مخفيًا إلى أن بعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

فمحمد هو ابن عبد الله بن عبد المطلب لكنه ابن إبراهيم روحيًا. فأولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه منذ البدء، وأتباعه هم الأميون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨].

والذين آمنوا هم الذين اتبعوا الإسلام[(٢)].

(١) انظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، ص ٢٨.

(٢) انظر: الملل والنحل، الشهرستاني، ٢/ ١٣.

أنواع الأمية

أولًا: أمية القراءة والكتابة:

معنى كلمة اقرأ في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

هو مجرد فعل القراءة، وجاء الفعل مكسور الهمزة من قرأ يقرأ اقترأ الكتاب بمعنى: نطق بالمكتوب فيه، وألقى النظر عليه وطالعه. وقرأ الكتاب: تتبع ما فيه، وقرأ الآية: نطق بها[١]، و أقرأ: اسم تفضيل من قرأ، أي: أجود قراءة، واستقرأه: طلب منه أن يقرأ، والقراء: الحسن القراءة[٢].

وقيل للعرب: الأميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة[٣].

قال الرازي: «إنه تعالى وصف محمدًا في هذه الآية بصفات تسع... إلى أن قال: الصفة الثالثة كونه أميًا، قال الزجاج: معنى الأمي الذي هو على صفة أمة العرب، قال عليه الصلاة والسلام: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)[٤].

فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرءون، والنبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك؛ فلهذا السبب وصفه بكونه أميًا»[٥].

وقال البيضاوي: «الأمي: لا يكتب ولا يقرأ، وصفه به؛ تنبيهًا على أن كمال علمه مع حاله هذا إحدى معجزاته»[٦].

وقال سيد قطب: «إن العرب سموا أميين؛ لأنهم كانوا لا يقرءون ولا يكتبون في الأعم الأغلب، واقتضت حكمة الله أن يكون هذا النبي من العرب، من الأميين؛ إذ علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية، وأنها زاغت وضلت، وأنها لا تصلح لحمل الأمانة، بعد ما كان منها في تاريخها الطويل»[٧].

قال ابن فارس: «(أم) له أصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين، قال الخليل: كل شيء تضم إليه ما سواه مما يليه، فإن العرب تسمي ذلك: أمًا، ومن ذلك أم الرأس: وهو الدماغ، أم التنائف: أشدها وأبعدها، أم القرى: مكة، وكل مدينة هي أم ما حولها من القرى، وأم القرآن: فاتحة الكتاب، وأم الكتاب: ما في اللوح المحفوظ، وأم الرمح: لواؤه وما لف عليه، وتقول العرب للمرأة التي ينزل عليها:

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام، الأزدي، ص ٦١٧.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٢٥٣.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٢٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، ٢/ ٧٦١، رقم ١٠٨٠.

(٥) مفاتيح الغيب ٤/ ٣٠٩.

(٦) أنوار التنزيل، ٣/ ٢٣٠.

(٧) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٥٦٤.

أم مثوى، وأم كلبة: الحمى، وأم النجوم: السماء، وأم النجوم: المجره... إلى أن عد كثيرًا من هذه التراكيب، فقال: الأمي في اللغة: المنسوب إلى ما عليه جبلة الناس لا يكتب، فهو في أنه لا يكتب على ما ولد عليه»[1].

وخاطب النبي صلى الله عليه وسلم جبريل أول مرة فقال: (ما أنا بقارئ)، وإنه عاجز عن القراءة التي بمعنى فعل القراءة فكان مصيبًا، أي: غير قادر على القراءة و الكتابة.

وكرر الله تعالى القراءة مرتين في هذه السورة فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ١-٤].

وذكر القلم كأداة للتعليم وإشارة إلى أهميته واهتمام الشريعة به؛ لذا سميت سورة من القرآن بالقلم، واستهلت بالقسم به.

قال المراغي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، أي: «صر قارئًا بقدرة الله الذي خلقك، وقد جاء الأمر الإلهي بأن يكون قارئًا وإن لم يكن كاتبًا، وسينزل عليه كتابًا يقرؤه وإن كان لا يكتبه»[2].

وقال الألوسي: «قوله عليه السلام لجبريل عليه السلام حين قال له: اقرأ فقال: (ما أنا بقارئ) يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ، وأنا أمي، فقيل ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي أمرك بالقراءة مفتتحًا ومبتدًا باسمه ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ أي: علم ما علم بواسطة القلم لا غيره تعالى، فكما علم سبحانه القارئ بواسطة الكتابة بالقلم يعلمك بدونها»[3].

إن تخلف أمة من الأمم عن القراءة والكتابة يؤدي بها إلى عدم العلم والمعرفة والابتعاد عن الحضارة، فيكون مقدمة للضلال والانحراف.

فيبعث الله تعالى النبي لعلاج الحال الذي هم عليه من الأمية، فيعلمهم الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

وعلى هذا كل إنسان قبل التعليم أمي، والقرآن الكريم عالج مشكلة الأمة الإسلامية بقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ

(١) مقاييس اللغة، ١/ ٢٨.
(٢) تفسير المراغي، ٣٠/ ١٩٨.
(٣) روح المعاني، الألوسي، ١٥/ ٤٠٢.

﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فيفهم من هذا السياق أن سبب أميتهم عدم معرفتهم بالكتاب، وعدم التزكية لنفوسهم، ولأجل هذا الداء جاءت الرسالة بذلك الدواء[(١)].

ثانيًا: أمية الظنون والأوهام:

لا يختص مفهوم الأمية بأمية القراءة والكتابة بل هناك أمية من نوع آخر، وهي أمية الضلال والظنون والأوهام.

قال تعالى في وصفه لطائفة من اليهود: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

ذكرت الآية طائفة من اليهود حيث إن أميتهم ناشئة من عدم معرفتهم بالكتاب إلا أماني، فقالوا ظلمًا: نحن أبناء الله وأحبائه، وأنه لا يعذبهم، إلى غير ذلك من أمانيهم[(٢)].

قوله سبحانه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ توضيح لقوله: أميون، أي: منهم أمة منقطعون عن كتابهم لا يعلمون منه إلا أوهامًا وظنونًا يتلوها عليهم علماؤهم، الذين يحرفون كتاب الله وكلماته عن مواضعها، ويحسب هؤلاء السذج أنه الكتاب المنزل إليهم من ربهم. ولذلك قال سبحانه في الآية التالية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩][(٣)].

فلو كانوا عارفين بالكتاب قادرين على قراءته وتلاوته لما اغتروا بعمل المحرفين، ولميزوا الصحيح من الزائف، غير أن أميتهم وجهلهم به حالت بينهم وبين أمنيتهم.

وفسر الزمخشري قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ بأنهم لا يحسنون الكتاب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها[(٤)].

فلامهم على تكذيبهم وعنادهم، فلو كانوا يحسنون القراءة والكتابة فليس في ذلك مدح، ولو كانوا يجهلونهما فليس في ذلك ذم؛ إذ كل ذلك منصب على الطاعة لله ولرسوله.

يقول الفخر الرازي: «اعلم أن المراد بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ اليهود، ثم بين فرقة رابعة من اليهود المعاندين للحق ووصفهم بالأمية؛ لأنهم كانوا يقلدون في المعارف، ويمتنعون من قبول الحق»[(٥)].

قال محمد رشيد رضا في تفسير: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾: «لا علم لهم بشيء من الكتاب ولا معرفة لهم بالأحكام وما عندهم

(١) تاريخ القرآن الكريم، محمد الكردي، ص٥٦.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٢٤، مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ٣/ ١٣٨.
(٣) انظر: المصادر السابقة.
(٤) الكشاف، ١/ ٢٢٤.
(٥) مفاتيح الغيب، ٣/ ١٣٨.

من الدين، فهو أماني... إلى أن يقول: وهذا محل الذم، لا مجرد كونهم أميين -بمعنى عدم معرفة القراءة والكتابة-، فإن الأمي قد يتلقى العلم عن العلماء الثقات ويعقله عنهم فيكون علمه صحيحًا، وهؤلاء لم يكونوا كذلك»[1].

وعلق سيد قطب على هذه الآية بقوله: «ثم يستطرد القرآن الكريم ويذكر للمسلمين من أحوال بني إسرائيل أنهم فريقان: فريق أمي جاهل لا يهتدي شيئًا من كتابهم الذي نزل عليهم، ولا يعرف منه إلا أوهامًا وظنونًا وإلا أماني في النجاة من العذاب بما أنهم شعب الله المختار، وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية»[2].

وبالتأمل في كلام المفسرين عندما يفسرون الأمية فإنهم يوكدون على أنها أمية الضلال والظنون، والأوهام والجهل، وعدم معرفتهم بكتابهم السماوي المنزل من عند الله تعالى.

(١) تفسير المنار، ١/ ٣٥٨.
(٢) في ظلال القرآن، ١/ ١١٠.

علاج الأمية

يختلف مفهوم الأمية من دولة إلى أخرى، ففي البلدان العربية مثلًا نقصد بالأمية الإنسان الذي لم يتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب بلغة ما. أما في البلدان المتقدمة فيقصد بالأمية الشخص الذي لم يصل إلى المستوى التعليمي الذي يجعله يفهم التعليمات الكتابية في المواضيع التقنية في عمله.

فالأمية ظاهرة عالمية خطيرة من أبرز المشكلات التي تواجه المجتمعات الإنسانية، باعتبارها مشكلة مؤثرة في التقدم الاجتماعي والحضاري والاقتصادي.

والإسلام أول دين أعلن الحرب على الأمية ودعا إلى التعليم، ورفع مكانة العلم والعلماء، وحتى جعل العلم فريضة يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[3].

لذا يجب نشر ثقافة أن العلم فريضة

(٣) أخرجه ابن ماجه في صحيه، كتاب أبواب السنة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ١/ ١٥١، رقم٢٢٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٨٠٨.

على كل مسلم، حيث إن هذا المبدأ يغرس في النفوس العزم والتصميم على التعليم والإيمان بضرورته، ومتى ما استقر الإيمان بوجوب التعلم، وأيقن كل مسلم أن دينه لا يستقيم إلا إذا تعلم ثم عمل بعلمه، فإن ذلك سيكون أفضل حافز للقضاء على الأمية.

وحسبنا أن أول آيات نزلت من القرآن على قلب النبي الكريم كانت إشادة بفضل القراءة والقلم والعلم، والتعليم بالقلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وذكر الله تعالى في كتابه العزيز سورة كاملة باسم القلم، وسميت بذلك؛ لأن الله أقسم فيها بالقلم وما يسطره به الكاتبون من علم وحكمة، قال تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

ويقسم الله في القرآن بالشيء؛ تنبيهًا على عظيم منفعته، ولفتًا لأنظار الخلق إليه، وأي شيء أعظم نفعًا من القلم مثبت العلم، وناقله إلى الأجيال؟

ولقد حارب الإسلام الأمية بالحث على الكتابة في عدة أمور:

منها كتابة الدين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وكذلك كتابة الوصية، كما في الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما حق امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبةٌ عنده)[1].

والنبي الأمي الذي لم يكن يتلو من كتاب، ولا يخطه بيمينه حتى لا يرتاب المبطلون، لم يقتصر على الحث النظري والترغيب في تعلم القراءة والكتابة، بل جاهد عليه الصلاة والسلام ودبر الوسائل العملية لنشر التعليم، ومحاربة الأمية ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

ومن هذه الوسائل انتهاز فرصة وقوع عدد من أسرى قريش المشتركين في غزوة بدر في أيدي المسلمين، وكانوا يحسنون الكتابة، ولا يملكون مالًا؛ ليفدوا أنفسهم، فاشترط النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لفدائهم أن يعلم كل منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان ناسٌ من الأسرى يوم بدرٍ لم يكن لهم فداءٌ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة»[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا باب قول النبي صلى الله عليه وسلم:(وصية الرجل مكتوبةٌ عنده)، ٤/ ٢، رقم ٢٧٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، ٣/ ١٢٤٩، رقم ١٦٢٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٩٢، رقم ٢٢١٦.

فكان هذا أول مشروع ينظمه رئيس الدولة الإسلامية لإعلان الحرب على الأمية في تاريخ هذه الأمة، بل لعله في تاريخ البشرية كلها. وكان من الذين استفادوا من هذا المشروع من أبناء الأنصار: الفتى العبقري زيد بن ثابت، كاتب الوحي، وجامع القرآن بعد ذلك، والذي كلفه الرسول الكريم تعلم لغة (يهود) حتى يقرأ له رسائلهم إليه صلى الله عليه وسلم، ويكتب له رسائله إليهم.

وحين انتشر العلم في أوساط المسلمين اتجه الرسول إلى فرض التكافل بين المسلمين في هذا الجانب، كما فرضه في الجانب المادي المعيشي، فالعالم عليه أن يعلم الجاهل، والقارئ عليه أن ينور الأمي ويأخذ بيده.

فعن علقمة بن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرًا ثم قال: (ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم! وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون! والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون، أو لأعجلنهم العقوبة) ثم نزل، فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قال: الأشعريين، هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ذكرت قومًا بخير وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال: (ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون، أو لأعجلنهم العقوبة في الدنيا) فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضًا، فقالوا: أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة؛ ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨][1].

فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يقر قومًا على الأمية بجانب قوم متعلمين، واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم وامتناع المتعلمين عن تعليمهم عصيانًا لأوامر الله وشريعته يوجبان اللعنة والعذاب.

وأعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا إلى التعلم والتعليم، وأعطاهم مهلة عام واحد للقضاء على آثار الأمية فيما

وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(١) كنز العمال، المتقي الهندي، ٣/ ٦٨٥ رقم ٨٤٥٨. وقال ابن السكن: «إسناده صالح».

بينهم.

والحادثة قد وردت بشأن الأشعريين العلماء وجيرانهم الجهلاء، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة، لا بخصوص الأشعريين وحدهم بدليل أن الأشعريين لما جاءوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا الإنكار كما فهم الناس، لم يقل لهم أنتم المرادون بذلك، بل أعاد القول العام الذي سلف ثلاث مرات دون أن يخصصه بالأشعريين، إشعارًا بأن القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين.

وبذلك يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعلن مكافحة الأمية قبل أن تعلنه الدول المتحضرة في عصرنا هذا بأربعة عشر قرنًا.

فلذا يجب على العلماء تعليم الأميين من هذه الأمة وذلك عن طريق:

١. تفعيل دور المساجد: من خلال قيام أئمة المساجد بتسليط الضوء على هذه المشكلة، والتوعية بأضرار الأمية من خلال خطب الجمعة مثلًا، ويمكن أن يساعد المسجد في حملة القضاء على الأمية إذا استندت قضية التعليم على أسس دينية.

٢. استنهاض الهمم نحو مقاومة الأمية في كل الأعمار صغارًا، وكبارًا، رجالًا ونساءً، وأن يطرح مشروع محو الأمية كمشروع إسلامي قومي وطني بأولوية.

٣. وضع برامج عمل للتنسيق بين الأئمة والمساجد ووزارات التربية والشركات التجارية، والخبرات العلمية والتربوية، محددة بجداول زمنية ونسبة مئوية للقضاء على مرض الأمية، يجب أن يعود للأئمة والمساجد دورهم في إصلاح أوطانهم وأمتهم، وأن يعطوا الفرصة لاستعادة الدور الحقيقي للمسجد في خدمة المجتمع، وتحقيق أمنه وتحقيق استقراره وترابط أبناءه.

٤. تربية الفرد على أن يكون مسلمًا حقًا بالمعنى الصحيح لكلمة مسلم، وهي: الاستسلام لخالق الكون والانقياد له سبحانه وتعالى، حيث لا يمكن للإنسان أن يسلم قياده لإنسان مثله غير قادر على تصريف أموره. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الانعام: ١٦٢-١٦٣].

٥. التثقيف الأسري، وتوعية الوالدين بتربية الأبناء تربية إسلامية صحيحة.

٦. إقامة الدورات والبرامج المتخصصة لإعداد وتأهيل معلمي محو الأمية والرفع من درجة أدائهم؛ لأن معظم

المعلمين في مجال الأمية لم يعدوا أصلًا لهذه المهنة، وإنما هم معلموا ومديروا المدارس الابتدائية.

٧. فرض التعليم الإلزامي وتعميمه، والعمل بجد ومثابرة على محو أمية الكبار. ويجب أن تركز المرحلة الإلزامية على التربية العلمية والوظيفية بدلًا من أن تكون مجرد محو للأمية الأبجدية فقط.

٨. سن القوانين والتشريعات المناسبة من أجل القضاء على مشكلة الأمية.

٩. الدعم المالي للتنظيمات، والأجهزة، والمناهج اللازمة لمحو الأمية، وسن التشريعات الخاصة بها. وتقديم الحوافز للأميين للالتحاق بمراكز تعليم الكبار ومحو الأمية.

١٠. علاج المناهج الدراسية، فالمناهج في الغالب هي مناهج التعليم الابتدائي، والمدرسون هم معلمو التعليم الابتدائي أو العاطلون عن العمل والحاصلون على الثانوية العامة. وطرائق التدريس هي الطرائق المستخدمة في التعليم التقليدي. وتركز المناهج المدرسية على تنمية وإعداد الفرد إعدادًا عقليًا وجسميًا وإهمال الجانب الإيماني.

أثر انتشار الأمية على الفرد والمجتمع

أولًا: آثار الأمية على الفرد:

الأمية عقبة تعوق تقدم الفرد، وتعطل تطور المجتمع من مختلف النواحي، وتقف حجر عثرة أمام تحقيق أهداف الفرد والمجتمع، وقد باتت الأمية تمثل مشكلة حقيقية.

فحياة الأمي في المجتمع المعاصر شديدة الصعوبة، لذلك يمكن اعتبار الأمية أم المشكلات الاجتماعية؛ لأنها كثيرًا ما تلد مشكلات تربوية واقتصادية وثقافية وسياسية صعبة ومستعصية. وتعد الأمية قاسمًا مشتركًا بين الجهل والفقر والمرض، فالأمية هي أهم صور الجهل، ومن أهم نتائجها الفقر والمرض.

إن الأمية تسير قدمًا بقدم مع الفقر والتخلف، كما أن التفاوت بين الذين يملكون والذين لا يملكون ليس تفاوتًا ماديًا في حد ذاته ولكنه تفاوت تعليمي، فالأفراد الذين لا يملكون مهارات ومعلومات أو معرفة مهنية لا يقدرون على رفع مستوى معيشتهم[(١)].

فالقضاء على الأمية يؤدي إلى التخلص من براثن الفقر، فالشخص المتعلم المثقف يكون أكثر إنتاجية، ولذا أصبح الدور الذى

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٧/ ١٠٨٠٥.

يلعبه التعليم في التنمية من الأهمية بحيث يمكن اعتبارهما مترادفين، فالتعليم جزء من الصالح العام وعامل في تطوير نوعية الحياة.

من آثار الأمية: يجد الأمي نفسه غير قادر على الحصول على وظيفة مناسبة يخدم فيها أمته، ويجلب فيها رزقًا حلالًا إلى نفسه، فيضطر بعد ذلك بإقناع شيطاني أن يلتفت إلى سبل الحرام والمتاجرة بالمحرمات أيًا كان ذلك النوع، إما أن يفتتح محلًا للفيديو يبيع فيه أفلامًا لا يعرف إلا اسم هذا الفيلم أو ذلك الفيلم، أو يفتح محلًا يبيع فيه الأغاني والأشرطة، أو يتاجر بأمور محرمة، أو يخاطر بمخدرات يمنعها الشرع ويعاقب عليها القانون.

من آثار الأمية: الفقر وتأثيره واضح على العقيدة.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فإذا لم يكن الفقير قوي الإيمان، حيث قد يصيبه الشك والريبة في حكمة الخالق، حينما يرى الغني المترف القاعد المتبطل، ثم يرى نفسه مع جده وعمله لا يجد شيئًا؛ لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ من الفقر مع الكفر، فيقول: (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر)[1].

وعن أبي هريرة كان عليه السلام يقول: (إني أعوذ بك من الفقر، والقلة، والذلة، وأعوذ بك من أن أَظْلِم أو أُظْلَم)[2].

فالفقر له دور سلبي، وخطر على الاعتقاد، حيث إنه يجعل صاحبه مشغولًا بضرورات الحياة لنفسه وعياله، فلا يبقى له وقت للتفكير في محو أميته[3].

وأما خطر الأمية على الأخلاق والسلوك فكبيرة جدًا إلا إذا بلغ صاحبه مبلغًا كبيرًا في الإيمان والتقوى، يقول الشيخ القرضاوي: «فإن الأمي المحروم كثيرًا ما يدفعه بؤسه وحرمانه، وخاصة إذا كان إلى جواره الطامعون الناعمون، إلى سلوك ما لا ترضاه الفضيلة والخلق الكريم، ولهذا قالوا: صوت المعدة أقوى من صوت الضمير، وشر من هذا أن يؤدي ذلك الحرمان إلى

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ٤/ ٣٢٤، رقم ٥٠٩٠، والنسائي في سننه، كتاب الافتتاح، باب التعوذ في دبر الصلاة، ٣/ ٧٣، رقم ١٣٤٧.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١/ ١٧٢، رقم ١٢١٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب في الاستعاذة، ٢/ ٦٤٤، رقم ١٥٤٤، والنسائي في سننه، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الذلة، ٨/ ٢٦١، رقم ٥٤٦٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٦، رقم ١٢٨٧.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١٤/ ٩٤٢، في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٨٥.

التشكيك في القيم الأخلاقية نفسها، وعدالة مقاييسها»[1].

وهناك أحاديث كثيرة تدل على العلاقة بين الأمية والدين والمغرم وبين سوء الأخلاق، فعن عائشة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو في الصلاة ويقول: (اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم) فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ -يا رسول الله- من المغرم؟ قال: (إن الرجل إذا غرم حدث، فكذب، ووعد فأخلف)[2].

قال الحافظ ابن حجر: «يستفاد من هذا الحديث: سد الذرائع؛ لأنه صلى الله عليه وسلم استعاذ من الدين؛ لأنه في الغالب ذريعة إلى الكذب في الحديث، والخلف في الوعد، مع صاحب الدين عليه من المقال»[3].

فالأمي يجد صعوبة في التعامل مع الآخرين وعدم القدرة على اتباع التعليمات الخاصة باستخدام الآلات الحديثة، ولا يدرك الواعي بأهمية الالتزام بقواعد الأمن الصناعي، وكذلك فقدان وسيلة الاتصال السهلة، لهذا كان العمال الأميون أكثر العناصر في الخروج على نظام المؤسسات وعدم احترام مواعيد العمل والتمارض.

ثانيًا: آثار الأمية على المجتمع:

إن الأمية مظهر من مظاهر تخلف أي مجتمع، بل وعائق يقف أمام تطوره السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ويحول دون مواكبته لحضارة العصر الذي يعيشه، ولم تعد الأمية مشكلة فردية تخص المواطن الأمي بل أصبحت ظاهرة اجتماعية تخص الفرد والمجتمع على السواء؛ لأن آثارها لا تقتصر على الأمي فقط، بل تتعداه إلى أبنائه وأسرته ومجتمعه[4].

والتعليم حق أقرته الشريعة الإسلامية، وكان الدعامة الأساسية لازدهار الحضارة العربية الإسلامية، لذلك فإن حرمان الفرد من حقه في التعليم يعد أحد مظاهر القهر والتسلط في التعليم؛ لأنه بالتعليم يتشكل عقل الإنسان وفكره ووعيه السياسي والاجتماعي.

فما بليت أمة من الأمم، وما رمي مجتمع من المجتمعات بمثل الأمية وعدم المعرفة، وما شرفت أمة من الأمم، وما سعدت المجتمعات إلا بالعلم والمعرفة

(١) مشكلة الفقر، القرضاوي، ص ١٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، ١/ ١٦٦، رقم ٨٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ١/ ٤١٢، رقم ٥٨٩.
(٣) فتح الباري، ٥/ ٦١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٠١، القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ص ٧٣٧.

المنبثقة عن العلم بوحدانية الله وحده وبهدي نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلامة إرادة الله لعبده الخير الفقه في الدين، فعن معاوية بن أبي سفيان، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)[1]. ومن سمو درجات العلم وشرف المنتسبين إليه، والساعين في تحصيله، ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وأن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)[2].

فهل بعد هذه الفضائل يستوي العلماء والأميون؟ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

كلا. بل رفع الله منازل أهل العلم وأكرمهم بقوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل)[3].

قال الإمام الشافعي رحمه الله[4]:

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة
تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه
فكبر عليه أربعًا لوفاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

فمن نتاج الأمية الفهم الخطأ للإسلام بالرغم من علو الشهادات العلمية، نجد كثيرًا من الأميين يريدون طمس الشخصية الإسلامية، والاكتفاء بإبراز هوية مسلم لكن بشخصية غير إسلامية؛ لأن البديل هو التبعية للآخرين سواء بالفكر أو الاعتقاد، فتجد من يدعي أنه مسلم بالهوية فيما هو علماني أو ماركسي. فالعلمانية عملت على غرس فكرة فصل الدين عن منهج الحياة، وقصر الدين على العبادة دون السلوك، وبالتالي لم يعد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، بابٌ: من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، ١/ ٢٥، رقم ٧١، مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، ٢/ ٧١٩، رقم ١٠٣٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ٥/ ٤٨٥، رقم ٣٦٤١، وابن ماجه في سننه، أبواب السنة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ١/ ٨١، رقم ٢٢٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٧٩، رقم ٦٢٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب يقل الرجال ويكثر النساء، ٧/ ٣٧، رقم ٥٢٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان.

(٤) ديوان الإمام الشافعي ص١٢.

يهم الشاب الاطلاع على أمور دينه ما دامت محصورة في الصلاة والصيام وهذه يعرفها، وشيوع مفاهيم خطأ مثل: الدين تزمت، الدين عبادة فقط، الدين للمشايخ فقط.

وهذا الفهم الخطأ سببه الانبهار بالغرب بسبب تقدمهم، ففي اللحظات التي تحررت فيها أوربا من سلطان الكنيسة التي قطعت أنفاس الناس باسم الدين، فأراد الأوربيون التخلص منها بشتى الصور حتى إنهم رحبوا بنظرية داروِن؛ للتخلص من الروحانية التي تسعى إليها الكنيسة بالحديد والنار، وبعد هذا التحرر تقدمت علميًا وتكنولوجيًا، وكانت المجتمعات العربية المسلمة آنذاك في وهن وضعف، فلما انفتحوا على الغرب بهرتهم حضارتهم، وأرادوا التقدم مثلهم بخلع الدين، وتركه وراء ظهورهم متناسين أن الأفكار العلمانية لا تنقل من مجتمع لتطبق في آخر؛ لاختلاف ظروف نشأتها.

إن تدني المستوى الثقافي لكثير من الآباء والأمهات، جعلهم أقل اندفاعًا لتعليم أبنائهم وبناتهم، ما زاد من نطاق الأمية وانتشارها؛ لأن قلة وعي أولياء الأمور بأهمية التعليم، ينعكس غالبًا سلبًا على أبنائهم وبناتهم، ويقلل من حصولهم على فرص الذهاب إلى المدرسة.

إن المجتمع الأمي يفرز عادة أميين، كما يفرز المجتمع المتعلم متعلمين، وإن أبناء المتعلمات والمتعلمين أكثر تفوقًا في الدراسة، وأقل رسوبًا وتسربًا في تعليمهم من أبناء الأميات والأميين.

لقد ساهمت الأمية في ضعف الاستقرار السياسي في كثير من الدول العربية جعل أنظمتها التربوية كثيرة التغير والتبديل، ما أدى إلى عدم ثبات التشريعات، والقرارات، والأنظمة، والسياسات التربوية، كما أن التغيير المستمر لمعظم وزراء التربية العرب، وتعمد بعضهم هدم وإلغاء ما بناه أسلافهم جعل المشكلة أكثر صعوبة، وأشد تفاقمًا.

ومن آثار الأمية على المجتمع: أنها تؤدي إلى إهمال أبسط القواعد الصحية، الأمر الذي يسهل انتقال أمراض خطيرة مثل الملاريا والكوليرا ونقص المناعة المكتسبة (الإيدز) وكثرة الأمراض، حيث إن معظم الأمراض تعود أسبابها إلى سوء التغذية، ويعود تأثيرها على الإنسان بالموت، أو الإنهاك وإلى عدم وجود الدواء المناسب الصالح، ومع الأسف الشديد فإن العالم النامي -وعلى رأسه عالمنا الإسلامي- يفتقد الأمرين بنسبة كبيرة[1].

ومن آثار الأمية: التلازم بينها وبين الفقر، فحيثما كانت الأمية وجد الفقر -وخاصة المدقع-، فيؤثر تأثيرًا مباشرًا، ويؤدي إلى

(١) انظر: التوجيه والإرشاد النفسي، حامد زهران، ص٤٦٨.

تحقيق التخلف للمجتمع، فالفقير الجائع غير قادر على المساهمة الجادة في تحقيق التنمية[1].

مما يؤدي ذلك إلى التفكك الأسري وزيادة الطلاق، أو عدم الزواج أصلًا، حتى إن الإسلام أمر من كان فقيرًا بالعفاف، فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [: ٣٣].

ولخطورة الفقر على الأسرة، فالزوج العائل إذا لم يجد مالًا ينفق على عياله الذين يتضورون جوعًا، أو يموتون بسبب عدم الدواء والغذاء يفكر في أية وسيلة؛ لتحصيل المال، ولذلك يستغل تجار المخدرات هؤلاء الفقراء، ويغرونهم بالمال حتى يوقعوهم في شباك التهريب والترويج لسموم الموت، بل إن الله تعالى أشار إلى ما كان يفعله الجاهليون من قتل أولادهم بسبب الفقر فعلًا، أو الخوف من وقوعه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[الاسراء: ٣١].

وقد أجاز الفقهاء التطليق قضاءً بسبب الإعسار وعدم القدرة على الإنفاق[2].

ومن آثار الأمية: زيادة الجرائم بين الشباب، والنساء، والأطفال، فلا شك أن للفقر أثره الكبير في زيادة الجرائم التي تقع. فالأحوال الاقتصادية السيئة تحتل المرتبة الأولى في مسئولية الجنوح نحو الإجرام، وأن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الجريمة والدورات الاقتصادية، فالبيئة التي فيها الفقر والبطالة هي البيئة التي تكثر فيها جرائم المال والاغتصاب والقتل ونحوها.

وأوضحت بعض الدراسات: أن أكثر الفئات تعاطيًا للمخدرات هم الفقراء الأميون، وذلك لشيوع الجهل فيما بينهم والهروب من المشاكل وغير ذلك[3].

ومن أكثر الجرائم انتشارًا البغاء والدعارة، فمناطق الأميين هي أكثر المناطق التي يكثر فيها البغاء، وقد أجريت مقابلات مع النساء الداعرات في تركيا، فتبين أن نسبة كبيرة منهن دفعتهن إلى البغاء الأمية والجهل، ولذلك فرق بعض الباحثين بين البغاء في المجتمعات الأمية المرتبطة بالحاجة، والبغاء في المجتمعات المتقدمة الذي يرتبط بالتحلل الجنسي والترفيه[4].

(١) انظر: التلازم بين التخلف والفقر والجوع، إسماعيل حمادي، ص ٢٢٩.

(٢) انظر: الجريمة والمجتمع، سامية الساعاتي، ص ١١٢.

(٣) انظر: علم الاجتماع الجنائي، السيد علي الشتا، ص ١٦٥.

(٤) انظر: تأملات إسلامية في قضايا الإنسان

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أشراط الساعة... ويظهر الزنا)[1].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا استحلت أمتي ستًا فعليهم الدمار... واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء)[2].

ومن آثار الأمية: الاستبداد السياسي، والتبعية السياسية في الداخل من خلال أن القوة تكون لأصحاب الأموال والنفوذ، وشراء الذمم في الداخل، والتبعية السياسية للخارج، أي: للدول الاستعمارية المانحة للقروض والمساعدات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تأتي على الناس سنواتٌ خداعاتٌ، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيهم الرويبضة). قيل: يا رسول الله وما الرويبضة؟ قال: (الرجل التافه يتكلم في أمر العامة)[3].

والواقع الفعلي للشعوب الأمية أنها تعاني من الاستبداد والطغيان، وأن الأمية لها دور في صنع المستبد والدكتاتور الذي يعتمد على الشعارات البراقة وعلى دعم الطبقات الجاهلة، وإبعاد الطبقات المتعلمة والسياسية عن مراكز القرار، والمشاركة السياسية، ومؤسسات المجتمع المدني، وبالمقابل إعطاء الدور الأكبر للعسكر، والإنفاق العسكري[4]، لذلك يظهر لنا بوضوح أن هناك خطة؛ لتطبيق سياسة التجهيل والتجويع والإفقار في عالمنا الإسلامي؛ لإعداده للاحتلال المباشر من جديد.

إن الأمية أحد أسباب الفوضى والاضطراب، وأن معظم المشاكل السياسية تعود إلى الأمية، وأن تعليم الشعب أحد أهم الأسباب لاستتباب الأمن؛ لأن الأمن من مصلحته ومصلحه ماله فيحافظ عليه.

إن الأمية تساعد على وجود الحكومات الظالمة، وعدم وجود الحكومة العادلة التي تعمل لمصالح الشعوب، وتحب

والمجتمع، رشدي فكار، ص ١٤٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب يقل الرجال ويكثر النساء، ٧/ ٣٧، رقم ٥٢٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، ٤/ ٢٠٥٦، رقم ٢٦٧١.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ١/ ٥٩، رقم ١٠٨٦.
وقواه الألباني في تحريم آلات الطرب ص٦٨.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الفتن، باب شدة الزمان، ٢/ ١٣٣٩، رقم ٤٠٣٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٨١، رقم ٣٦٤٧.

(٤) انظر: علم الاجتماع الجنائي، السيد على الشتا، ص ١٦٥، تأملات إسلامية، رشدي فكار، ص ١٤٨.

شعبها، وهم يحبونها، بحيث تعمل لأجل الشعب، وليس لأجل نفسها، ومصالحها فقط، فتبحث بإخلاص وجد ومثابرة وتفان للنهوض بشعبها، ولتحقيق التنمية الشاملة والتعمير، والتقدم والحضارة، وتجمع بين القديم الصالح، والجديد النافع، وتأخذ بكل الأساليب الحديثة التي تعود بالنفع على شعبها، وتستعين في كل ذلك بأهل الاخلاص والاختصاص والخبرة والقوة والأمانة وتستشيرهم وتلتزم بآرائهم. ولعدم وجود هذه المواصفات في معظم الحكومات في العالم الثالث يوجد التأخر بدل التقدم، والهدم بدل البنيان، والتخلف بدل التعلم والتحضر.

والعلم بالدين يمنع الاضطرابات والحروب الداخلية، حيث أوجب على المسلمين أن تكون وسائل التعبير عن الآراء داخل المجتمع المسلم محصورة في الوسائل السلمية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتثال أمرهما، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم[1].

موضوعات ذات صلة:

الجاهلية، العلم، القراءة، الكتابة، محمد صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٨٤.

الإنجيل

عناصر الموضوع

مفهوم الإنجيل	٢٤٠
الإنجيل في الاستعمال القرآني	٢٤١
الألفاظ ذات الصلة	٢٤٢
اقتران الإنجيل بالتوراة في القرآن	٢٤٥
الإيمان بالكتب السماوية	٢٤٥
إيتاء عيسى عليه السلام الإنجيل	٢٥٠
صفات الإنجيل في القرآن	٢٥٢
الأحكام التشريعية في الإنجيل	٢٥٥
أتباع عيسى عليه السلام في القرآن	٢٦٠
تحريف الإنجيل	٢٧٣
صفات الرسول وأتباعه في الإنجيل	٢٧٩

مفهوم الإنجيل

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن منظور: «الإنجيل: كتاب عيسى، على نبينا وعليه -الصلاة والسلام-، يؤنث ويذكر، فمن أنث أراد الصحيفة، ومن ذكر أراد الكتاب»[1]. ويجمع على أناجيل.

وقد اختلف العلماء في أصله اللغوي وهل هو عربي أو معرب، والراجح هو أن كلمة الإنجيل معربة، وإن اختلف في أصلها هل هي سريانية أو عبرية أو رومية أو يونانية، وهو الأظهر كما ذهب الطاهر بن عاشور رحمه الله وهي تعني: البشارة، أو الخبر الطيب، أو الخبر السار. وهذه البشارة عند المسلمين هي عبارة عن بشارة المسيح بنبي آخر الزمان محمد صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

كلمة إنجيل إذا أطلقت فلها معنيان:

الأول: الكتاب المنزل من عند الله تعالى على المسيح عليه السلام، وهو مفقود، ولم يبق منه إلا نتف قليلة مما بين أيدي النصارى الآن، قال الطاهر بن عاشور في تعريفه بهذا المعنى: «اسمٌ للوحي الذي أوحي به إلى عيسى عليه السلام فجمعه أصحابه»[2].

الثاني: الإنجيل الذي تعظمه النصارى الآن، وهو عبارة عن «أربعة كتبٍ تعرف بالأناجيل الأربعة، وعلى ما يسمونه العهد الجديد، وهو هذه الكتب الأربعة مع كتاب أعمال الرسل (أي الحواريين) ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب ورؤيا يوحنا، أي: على المجموع، فلا يطلق على شيءٍ مما عدا الكتب الأربعة بالانفراد، والأناجيل الأربعة عبارةٌ عن كتبٍ وجيزةٍ في سيرة المسيح عليه السلام وشيءٍ من تاريخه وتعليمه؛ ولهذا سميت أناجيل وليس لهذه الكتب سندٌ متصلٌ عند أهلها، وهم مختلفون في تاريخ كتابتها على أقوالٍ كثيرة»[3].

(١) لسان العرب، ١١/ ٦٤٨.
(٢) التحرير والتنوير، ٣/ ١٤٩.
(٣) المصدر السابق.

الإنجيل في الاستعمال القرآني

ورد (الإنجيل) في القرآن الكريم (١٢) مرة [١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	١٢	﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة:٤٧]

وجاء الإنجيل في القرآن بمعنى: كتاب عيسى عليه السلام، يذكر ويؤنث، فمن أنث أراد الصحيفة، ومن ذكر أراد الكتاب [٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٨٨.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٠٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ القرآن:

القرآن لغة:

القاف والراء والياء أصل صحيح يدل على الشيء المجموع، وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته، وضممت بعضه على بعض، وقرأت الكتاب قراءةً وقرآنًا، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها[(١)].

القرآن اصطلاحا:

كلام الله تعالى، المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، المتعبدُ بتلاوته، المنقولُ إلينا بالتواتر، المقروءُ في المصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة والمنتهي بسورة الناس» [(٢)].

الصلة بين الإنجيل والقرآن:

كلاهما كتابان من الكتب السماوية، إلا أن القرآن أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، والإنجيل أنزل على عيسى عليه السلام .

٢ التوراة:

التوراة لغة:

قال أبو حيان: «التوراة: اسمٌ عبرانيٌّ، وقد تكلف النحاة في اشتقاقها، وفي وزنها، وذلك بعد تقرير النحاة أن الأسماء الأعجمية لا يدخلها اشتقاقٌ، وأنها لا توزن، يعنون اشتقاقًا عربيًا» [(٣)].

وقال الطاهر بن عاشور: «هو اسمٌ عبرانيٌّ أصله (طورا) بمعنى الهدى، والظاهر أنه اسمٌ للألواح التي فيها الكلمات العشر التي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور؛ لأنها أصل الشريعة التي جاءت في كتب موسى، فأطلق ذلك الاسم على جميع كتب موسى، واليهود يقولون (سفر طورا) فلما دخل هذا الاسم إلى العربية أدخلوا عليه لام التعريف التي تدخل على الأوصاف والنكرات لتصير أعلامًا بالغلبة: مثل العقبة» [(٤)].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ١/ ٦٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٥٠.
(٢) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، صالح الفوزان، ص٦٦.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٥.
(٤) التحرير والتنوير، ٣/ ١٤٨.

التوراة اصطلاحا:

«التوراة اسمٌ للكتاب المنزل على موسى عليه السلام»[1].

ويراد بها في اصطلاح اليهود: خمسة أسفار يعتقدون أن موسى عليه السلام كتبها بيده ويسمونها (بنتاتوك) نسبة إلى (بنتا)، وهي كلمة يونانية تعني خمسة، أي: الأسفار الخمس، وهذه الأسفار هي: سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية، وقد يطلق النصارى اسم التوراة على جميع أسفار العهد القديم.

أما في اصطلاح المسلمين فهي: الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام نورًا وهدى لبني إسرائيل[2].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «كلمةٌ عبرانيةٌ معناها المراد: الشريعة أو الناموس، وهي تطلق عند أهل الكتاب على خمسة أسفارٍ يقولون إن موسى كتبها، وهي سفر التكوين وفيه الكلام عن بدء الخليقة وأخبار بعض الأنبياء، وسفر الخروج، وسفر اللاويين أو الأخبار، وسفر العدد، وسفر تثنية الاشتراع، ويقال التثنية فقط. ويطلق النصارى لفظ التوراة على جميع الكتب التي يسمونها العهد العتيق، وهي كتب الأنبياء وتاريخ قضاة بني إسرائيل وملوكهم قبل المسيح ومنها ما لا يعرفون كاتبه، وقد يطلقونه عليها وعلى العهد الجديد معًا، وهو المعبر عنه بالإنجيل وسيأتي تفسيره. أما التوراة في عرف القرآن فهي ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام؛ ليبلغه قومه لعلهم يهتدون به»[3].

الصلة بين الإنجيل والتوراة:

كلاهما كتابان من الكتب السماوية، إلا أن الإنجيل أنزل على عيسى عليه السلام، والتوراة أنزل على موسى عليه السلام.

٣ الزبور:

الزبور لغةً:

قال ابن فارس: (زبر) « الزاي والباء والراء أصلان: أحدهما يدل على إحكام الشيء وتوثيقه، والآخر يدل على قراءة وكتابة وما أشبه ذلك، زبرت الكتاب، إذا كتبته، ومنه

(١) المصدر السابق.
(٢) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود الخلف، ص٧٤.
(٣) تفسير المنار، ٣/ ١٢٩.

الزبور»[1]. وقال الكفوي: «كل كتاب غليظ الكتابة يقال له زبور»[2].

الزبور اصطلاحًا:

هو كلام الله المنزل وحيًا على رسوله داود عليه السلام ليبلغه لقومه.

الصلة بين الزبور والإنجيل:

كلاهما كتابان من الكتب السماوية، إلا أن الزبور نزل على داود عليه السلام، والإنجيل نزل على عيسى عليه السلام .

٤ الصحف:

الصحف لغةً:

قال ابن فارس: (صحف)» الصاد والحاء والفاء أصل صحيح يدل على انبساط في شيء وسعة. يقال: إن الصحيف: وجه الأرض، ومن الباب: الصحيفة، وهي التي يكتب فيها، والجمع: صحائف، والصحف أيضًا، كأنه جمع صحيف»[3].

الصحف اصطلاحًا:

وهي كلام الله الذي أنزله على نبيه إبراهيم، وتسمى صحف إبراهيم، وكلام الله المنزل على موسى وهو التوراة، وتسمى صحف موسى، وهو مذهب أكثر المفسرين، والله أعلم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، (قال: لما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلها في صحف إبراهيم وموسى)[4].

الصلة بين الإنجيل والصحف:

مما سبق يتضح أن الإنجيل وصحف موسى كلاهما كتابان من الكتب السماوية، إلا أن الإنجيل أنزل على عيسى عليه السلام وصحف موسى أنزل على موسى عليه السلام .

أما صحف إبراهيم؛ فهو من الكتب السماوية كذلك، إلا أنه أنزل على إبراهيم عليه السلام قال ابن عاشور: « وأما صحف إبراهيم فكان المأثور منها أشياء قليلة، وقدرت بعشر صحف، أي مقدار عشر ورقات بالخط القديم، تسع الورقة قرابة أربع آيات من آي القرآن بحيث يكون مجموع صحف إبراهيم مقدار أربعين آية»[5].

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤٥.
(٢) الكليات، ص٤٨٦.
(٣) مقاييس اللغة ٣/ ٣٣٤.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٢٩٣٠، ٢/ ٢٥٨.
(٥) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٣٠.

اقتران الإنجيل بالتوراة في القرآن

ورد ذكر الإنجيل في القرآن مقترنًا بالتوراة في ثمانية مواضع، وذلك لعدة أسباب:

أولًا: أن كلا الكتابين أنزل في بني إسرائيل، فالتوراة أنزلت على موسى والإنجيل أنزل على عيسى، وكلاهما مرسل في بني إسرائيل وإليهما خاصة.

ثانيًا: أن الإنجيل جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة ومكملًا بعض ما فيها من أحكام، كما جاء في القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]

قال الشيخ رشيد رضا: «أي: أنه لم يأت ناسخًا للتوراة بل مصدقًا لها عاملًا بها، ولكنه نسخ بعض أحكامها كما قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فقد كان حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات بظلمهم وكثرة سؤالهم فأحلها عيسى»[1].

(١) تفسير المنار، ٣/ ٢٥٧.

الإيمان بالكتب السماوية

يتميز الإسلام بأنه يؤمن بجميع الرسالات السماوية السابقة عليه ويأمر به أتباعه، فالمسلم يجب عليه أن يؤمن بكل من أرسلهم الله من الأنبياء والرسل، وبكل ما جاءوا به من البينات والهدى، ولذلك فقد أوجب الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الإيمان بالكتب السماوية.

أولًا: وجوب الإيمان بالكتب المنزلة والكفر بإحداها كفر بها:

من المقرر في عقيدة الإسلام الإيمان بكل الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ورسله سواء في ذلك ما عرفناه منها كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور والصحف، أو ما لم نعرفه منها، بل إن الإيمان بهذه الكتب السماوية ركن من أركان الإيمان الستة، المنصوص عليها في قوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله سبحانه: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وكذلك ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام، حينما سأله قائلا: فأخبرني عن الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[(١)].

قال ابن كثير: «فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ، لا إله غيره، ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحدٍ منهم، فيؤمنون ببعضٍ ويكفرون ببعضٍ، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعضٍ بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشرع محمدٍ صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفةٌ من أمته على الحق ظاهرين»[(٢)].

وقال السعدي: «فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمنًا إلا به، إجمالًا فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلًا فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن هذا الإيمان المأمور به، فقد اهتدى وأنجح. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم؟

واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها؛ لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض»[(٣)].

«ومعنى الإيمان بالكتب: التصديق الجازم بأن كلها منزلٌ من عند الله عز وجل على رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين، وأنها كلام الله عز وجل لا كلام غيره، وأن الله تعالى تكلم بها حقيقةً كما شاء وعلى الوجه الذي أراد، فمنها المسموع منه من وراء حجابٍ بدون واسطةٍ، ومنها ما يسمعه الرسول الملكي ويأمره بتبليغه منه إلى الرسول البشري، ومنها ما خطه بيده عز وجل، والإيمان بكل ما فيها من الشرائع، وأنه كان واجبًا على الأمم الذين نزلت إليهم الصحف الأولى الانقياد لها والحكم بما

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم ٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٧٣٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٩.

فيها، وإن كل من كذب بشيءٍ منها أو أبى عن الانقياد لها مع تعلق خطابه به، يكفر بذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]»[(١)].

«فتقرر بهذا وجوب الإيمان بالكتب والتصديق بها جميعها، واعتقاد أنها كلها من الله تعالى أنزلها على رسله بالحق والهدى و والضياء، وأن من كذب بها أو جحد شيئًا منها فهو كافر بالله خارج من الدين»[(٢)].

ثانيًا: الإيمان بأن الإنجيل كتاب منزل من عند الله سبحانه و تعالى:

ومن جملة هذه الكتب التي يجب على المسلم أن يؤمن بها وأنها منزلة من عند الله: الإنجيل الذي أنزله الله على نبيه ورسوله عيسى بن مريم، لهداية بني إسرائيل وإعادتهم إلى شريعة التوراة التي خالفوها وضل كثير منهم عنها، وليبشر بنبوة ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم من بعده.

ومن ثم يجب الإيمان بالإنجيل ككتاب سماوي أنزل من عند الله مصدقًا لما بين يديه من التوراة، وأن فيه هداية ونورًا وموعظة لمن نزل إليهم.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

فمن أنكر الإنجيل أو جحده، فقد كفر[(٣)]؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان وهو الإيمان بالكتب، وقد سبق بيان أن من جحد شيئًا منها كان كمن جحدها جميعًا، ولإنكاره كذلك معلومًا من الدين بالضرورة.

ثالثًا: تصديق القرآن للإنجيل:

إن الكتب السماوية كلها مصدرها واحد هو الله عز وجل، فكلها كلام الله تعالى، ووحيه الذي أوحاه إلى أنبيائه ورسله؛ ليبلغوه إلى أقوامهم، فيكون لهم به الهداية والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز برضا الرحمن والنجاة من العذاب والنيران.

فكلامه سبحانه يصدق بعضه بعضًا، فلا يمكن أن يقع في هذه الكتب تناقض أو تضارب بينها وبين بعضها، لكن قد يقع فيها الاختلاف فيما يتعلق بالشرائع والأحكام، بحسب زمان كل أمة نزل إليهم الكتاب، وبحسب ما يناسبهم، أما ما يتعلق بالعقيدة والأخلاق فلا يقع فيه اختلاف بين هذه

(١) معارج القبول، الحكمي، ٢/ ٦٧٢.
(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص١٢٩.
(٣) انظر: معارج القبول، الحكمي، ٢/ ٦٧٢.

الكتب فكلها تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن ثم فالقرآن بما أنه كتاب الله وكلامه وهو خاتم الكتب السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله ومن بينها الإنجيل فهو مصدق لها، ومهيمن عليها، وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في أكثر من موضع، قال تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

فالذي أنزل القرآن وما قبله من الكتب كالإنجيل هو الله تعالى، وكلام الله تعالى يصدق بعضه بعضًا، ولا يقع فيه تناقض أو اختلاف.

قال أبو جعفر بن جرير الطبري: «يقول جل ثناؤه: يا محمد، إن ربك ورب عيسى ورب كل شيء، هو الرب الذي أنزل عليك الكتاب، يعني بـ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، القرآن ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يعني: بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل، وفيما خالفك فيه محاجوك من نصارى أهل نجران وسائر أهل الشرك غيرهم ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، يعني بذلك القرآن، أنه مصدق لما كان قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله، ومحقق ما جاءت به رسل الله من عنده؛ لأن منزل جميع ذلك واحد، فلا يكون فيه اختلاف، ولو كان من عند غيره كان فيه اختلاف كثير»[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

فقد أشارت الآية إلى حالتي القرآن بالنسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيدٌ لبعض ما في الشرائع مقررٌ له من كل حكمٍ كانت مصلحته كليةً لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مصدقٌ، أي محققٌ ومقررٌ؛ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده ﴿مُصَدِّقٗا﴾ لخبرها، ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ أي: مشتملًا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام التي عرضت عليه من الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند

(١) جامع البيان، الطبري، ٦/ ١٦٠.

الله، لم يخالفه، وهو أيضًا مبطلٌ لبعض ما في الشرائع السالفة وناسخٌ لأحكامٍ كثيرةٍ من كل ما كانت مصالحه جزئيةً مؤقتةً مراعًى فيها أحوال أقوامٍ خاصةٍ»[1].

رابعًا: القرآن مكذب للإنجيل المحرف:

تعرض الإنجيل في الأزمنة التالية لرفع المسيح عليه السلام للتحريف والتغيير والتبديل، حتى لقد صار الإنجيل الحقيقي المنزل من عند الله مفقودًا، اللهم إلا من عبارات قليلة مبثوثة في ثنايا تلك الأسفار التي بين أيديهم الآن والتي يسمونها الإنجيل وهي من تأليفهم، فحاشا لله أن يكون القرآن الكريم مصدقًا لما في الإنجيل المحرف من الكذب والتدليس والتزوير والتزييف، بل هو مبين لذلك كله فاضح له، فالقرآن نزل ليقيم الملة العوجاء، وقد جاء في معنى قوله تعالى ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ ما قاله الشيخ محمد رشيد رضا: «أما قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: على جنس الكتاب الإلهي، فمعناه: أنه رقيبٌ عليها وشهيدٌ، بما بينه من حقيقة حالها في أصل إنزالها، وما كان من شأن من خوطبوا بها، من نسيان حظٍ عظيمٍ منها وإضاعته، وتحريف كثيرٍ مما بقي منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها؛ لأنه جاء بعدها، روى ابن جريرٍ عن ابن عباسٍ أنه قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ يعني: أمينًا عليه، يحكم على ما كان قبله من الكتب، وفي روايةٍ عنه عند الفريابي وسعيد بن منصورٍ والبيهقي ورواة التفسير المأثور قال: مؤتمنًا عليه، وفي روايةٍ أخرى قال: شهيدًا على كل كتابٍ قبله»[2].

فالحاصل أن القرآن جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، وأن الله تعالى أنزل كتبًا على الأمم السابقة ومنها التوراة والإنجيل، وأمر بالإيمان بها، ولكنه في الوقت نفسه نبه على ما طالها من تحريف وتغيير وتبديل من الأمم التي أنزلت عليهم؛ ليصوب لهم أخطاءهم ويعيدهم إلى صوابهم، فإن المراد بتصديقها هو تصديق الأصل النازل من عند الله إجمالًا وما ثبت منها أنه حق، دون ما بين بطلانه، أو هو تصديق لمجموعها ولا يلزم منه تصديق جميعها.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مبينًا صدق ما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء، أي كونها وحيًا من الله تعالى، وذلك أن أثبت الوحي وذكر أنه تعالى أرسل رسلًا أوحى إليهم، فهذا تصديقٌ إجماليٌ لأصل الوحي لا يتضمن تصديق ما عند الأمم التي تنتمي إلى أولئك الأنبياء من الكتب بأعيانها ومسائلها، ومثاله

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٢١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٤.

(٢) تفسير المنار، ٦/ ٣٤٠.

تصديقنا لنبينا صلى الله عليه وسلم في جميع ما أخبر به فهو لا يستلزم تصديق كل ما في كتب الحديث المروية عنه، بل ما ثبت منها عندنا فقط»[1].

«والأحكام الذي عرضت عليه في الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه»[2].

إيتاء عيسى عليه السلام الإنجيل

ورد ذكر إيتاء عيسى عليه السلام الإنجيل في القرآن الكريم في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. [المائدة: ٤٦].

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وإيتاء الإنجيل لعيسى عليه السلام عبارة عن إنزاله إليه بوحي من الله تعالى، قال الطبري: «﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ يقول: وأنزلنا إليه كتابنا الذي اسمه الإنجيل»[3]، وهذا الإيتاء إنما هو منة من الله تعالى للرسول الموحى إليه به، ولأمته التي أنزل إليهم الكتاب، «وفيه تعظيم عيسى عليه السلام بأن الله آتاه كتابًا إلهيًا»[4].

فآتيناه «أي: أعطيناه الإنجيل مشتملًا على هدًى من الضلال في العقائد والأعمال؛ كالتوحيد النافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والأباطيل، ونورٌ يبصر به طالب الحق طريقه الموصل إليه من الدلائل والأمثال والفضائل والآداب، ومصدقًا للتوراة التي تقدمته؛ أي: مشتملًا على النص

(١) المصدر السابق ٣/ ١٢٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٣٤.
(٣) جامع البيان، ١٠/ ٣٧٣.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٢٧٨.

بتصديق التوراة»[1].

واستشكل في معنى قول المسيح وهو في المهد آتاني الكتاب: قال ابن الجوزي: «وفي معنى الآية قولان:

أحدهما: أنه آتاه الكتاب وهو في بطن أمه، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وقيل: علم التوراة والإنجيل وهو في بطن أمه.

والثاني: قضى أن يؤتيني الكتاب، قاله عكرمة.

وفي الكتاب قولان:

أحدهما: أنه التوراة.

والثاني: الإنجيل»[2].

وجزم القرطبي بالقول الثاني وهو أن المراد بالكتاب هنا الإنجيل[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقد اختلفوا في ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

فقال البغوي: «﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الدلالات الواضحات، وهي ما ذكر الله في سورة آل عمران والمائدة، وقيل: أراد الإنجيل»[4].

ومال الرازي إلى القول بأن الكل يدخل فيه؛ لأن المعجز يبين صحة نبوته كما أن الإنجيل يبين كيفية شريعته فلا يكون للتخصيص معنى[5].

وكذلك اختلفوا في الروح القدس التي أيد الله المسيح به إلى ثلاثة أقوال:

«أحدها: أنه جبريل. والقدس: الطهارة، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي في آخرين. . .

والقول الثاني: أنه الاسم الذي كان يحيي به الموتى، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: أنه الإنجيل، قاله ابن زيد»[6].

ووجه تسمية الإنجيل بالروح القدس عند من فسره به أن «الإنجيل سببٌ لظهور الشرائع وحياتها»[7].

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٣٢.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٣٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ١٠٢
(٤) معالم التنزيل ١/ ١٤٠.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، ٣/ ٥٩٥.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٨٦.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٥٩٦.

صفات الإنجيل في القرآن

وصف القرآن الكريم الإنجيل الصحيح الذي أنزل على المسيح من عند الله تعالى بوحي منه بعدة أوصاف تدعو المسلمين إلى الإيمان به واحترامه وتوقيره ككتاب سماوي أنزل على نبي ورسول من أنبياء الله ومن أولي العزم من الرسل، لهداية من أنزل إليهم الكتاب من الأمم، وهذه الصفات جمعت في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. [المائدة: ٤٦].

فيتضح من هذه الآية «أنه تعالى وصف الإنجيل بصفاتٍ خمسةٍ فقال: فيه هدىً، ونورٌ، ومصدقًا لما بين يديه من التوراة، وهدىً، وموعظةً للمتقين»[(١)].

ونبين كلا من هذه الصفات:

١. فيه هدى:

«والهدى: الإرشاد والدعاء إلى توحيد الله وإحياء أحكامه»[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ - ٤]

وكون الإنجيل ﴿هُدًى﴾ أي: «هاديًا لمن تبعه»[(٣)]، وقيل: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ معناه: دعاء، والناس بنو إسرائيل في هذا الموضع؛ لأنهم المدعوون بهما لا غير، وإن أراد أنهما هدىً في ذاتهما. . فالناس عام في كل من شاء حينئذ أن يستبصر»[(٤)].

فالإنجيل كتاب هداية من الله لبني إسرائيل شامل لكل أمورهم الدينية في أمر العقيدة والشريعة، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾: «أي: أعطيناه الإنجيل مشتملًا على هدًى من الضلال في العقائد والأعمال ؛ كالتوحيد النافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والأباطيل»[(٥)]، «وهو بيان ما جهله الناس من حكم الله في زمانه»[(٦)].

وبذلك يتضح أن«معنى كونه فيه هدًى أنه يشتمل على دلائل التوحيد، وتنزيه الله عن الولد والصاحبة والمثل والضد، وعلى الإرشاد والدعاء إلى الله تعالى، وإلى إحياء أحكام التوراة»[(٧)].

٢. نور:

«وأما كونه نورًا، فالمراد به كونه بيانًا للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكاليف»[(٨)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣٧٠.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ١٩٩.
(٣) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٤٠٨.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٣٩٩.
(٥) تفسير المنار، ٦/ ٣٣٢.
(٦) جامع البيان، ١٠/ ٣٧٣.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣٧٠.
(٨) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٢٧٨.

فهو هدى من رب العالمين «ونورٌ يبصر به طالب الحق طريقه الموصل إليه من الدلائل والأمثال والفضائل والآداب»[(١)]، فهو نور «وضياء من عمى الجهالة»[(٢)].

فالمراد بكون الإنجيل نورًا: «ما فيه مما يستضاء به؛ إذ فيه بيان أحكام الشريعة وتفاصيلها»[(٣)].

ف من شأنه أنه يزيل الظلمة ويوضح الطريق، ولهذا سمي الإنجيل به، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: «هدًى إلى الحق، ونورٌ يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات»[(٤)].

٣. مصدق لما قبله:

قال تعالى في وصف الإنجيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ «أي: ومصدقًا للتوراة التي تقدمته؛ أي: مشتملًا على النص بتصديق التوراة»[(٥)].

وتصديقه للتوراة له معنيان:

الأول: ما ذكره أبو حيان بقوله: «وتصديقه إياها هو بكونه مقرًا أنها كتابٌ منزلٌ من الله حقًا واجبٌ العمل به قبل ورود النسخ، إذ شريعته مغايرةٌ لبعض ما فيها»[(٦)].

الثاني: ما فسره ابن كثير بقوله: «أي: متبعًا لها، غير مخالفٍ لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه»[(٧)].

«وهذا التصديق لا ينافي أنه نسخ بعض أحكام التوراة كما حكى الله عنه ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]»[(٨)].

ويلاحظ أيضًا في هذه الآية ورود عبارة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فيها مرتين، «وهذا ليس بتكرار للأول؛ لأن في الأول: الإخبار بأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة. وفي الثاني- الإخبار بأن الإنجيل مصدق للتوراة، فظهر الفرق بين اللفظين وأنه ليس بتكرار»[(٩)].

وفرق الطاهر بن عاشور بين تصديق المسيح نفسه للتوراة وبين تصديق الإنجيل لها بقوله: «فتصديق عيسى التوراة: أمره بإحياء أحكامها، وهو تصديقٌ حقيقيٌ، وتصديق الإنجيل التوراة: اشتماله على ما وافق أحكامها، فهو تصديقٌ مجازيٌ»[(١٠)].

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٦/ ٣٣٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٣٧٣.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ١٩٩، البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٢٧٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٢٦.
(٥) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٦/ ٣٣٢.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٢٧٨.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٢٦.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ٢١٩.
(٩) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٥٠.
(١٠) التحرير والتنوير ٦/ ٢١٩.

«والمعنى: أن عيسى وكتابه الذي أنزل عليه هما مصدقان لما تقدمهما من التوراة، فتظافر على تصديقه الكتاب الإلهي المنزل، والنبي المرسل المنزل عليه ذلك الكتاب»[1].

٤. هدى:

وقد وصف الإنجيل بكونه هدى من وجهين:

الوجه الأول: وصف لما في الإنجيل من الآيات والأحكام بتفصيلاتها بأنها هدى.

الوجه الثاني: وصف للإنجيل بذاته وجملته أنه هدى.

فالملاحظ في آية المائدة التي ذكرت صفات الإنجيل أن لفظ الهدى قد تكرر فيها مرتين، وليس الهدى الثاني عين الأول، وحاشا لله أن يقع في كلامه تكرار لا فائدة منه، فالهدى الأول هو ما ذكر المفسرون معناه بما سبق، «وأما كونه هدًى مرةً أخرى فلأن اشتماله على البشارة بمجيء محمدٍ صلى الله عليه وسلم سببٌ لاهتداء الناس إلى نبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ولما كان أشد وجوه المنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى في ذلك لا جرم أعاده الله تعالى مرةً أخرى، تنبيهًا على أن الإنجيل يدل دلالةً ظاهرةً على نبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فكان هدًى في هذه المسألة التي هي أشد المسائل احتياجًا إلى البيان والتقرير»[2].

قال الألوسي: «وجعل كله هدى -بعد ما جعل مشتملًا عليه-؛ مبالغة في التنويه بشأنه لما أن فيه البشارة بنبينا صلى الله عليه وسلم أظهر»[3].

وقد اعتنى الإنجيل ببيان صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من غيره من الكتب السابقة عليه، والحكمة من ذلك أنه أقرب الكتب عهدًا بمبعثه صلى الله عليه وسلم، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى في موضعه.

وقيل: معنى كونه ﴿وَهُدًى﴾ أنه جاء «بيانًا لحكم الله الذي ارتضاه لعباده المتقين في زمان عيسى»[4].

٥. موعظة:

وهذه خاتمة الصفات المذكورة للإنجيل في هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقد تحدثنا عن الهدى الثاني وذكرنا المراد به والفرق بينه وبين الهدى الأول.

«وأما كون الإنجيل موعظة فلاشتماله على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة، وإنما خصها بالمتقين؛ لأنهم

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٢٧٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣٧٠.

(٣) روح المعاني، ٣/ ٣١٩.

(٤) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٣٧٣.

هم الذين ينتفعون بها، كما في قوله: هدىً للمتقين»[1].

قيل في معنى كون الإنجيل موعظة، أي: «زجرًا لهم عما يكرهه الله إلى ما يحبه من الأعمال، وتنبيهًا لهم عليه»[2].

«ولعله ما انفرد به من المسائل الروحية والمواعظ الأدبية، وزلزلة ذلك الجمود الإسرائيلي المادي، وزعزعة ذلك الغرور الذي كان الكتبة والفريسيون من اليهود مفتونين به، وخص هذا النوع بالمتقين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به ؛ إذ لا يفوتهم شيءٌ من الكتاب لحرصهم عليه وعنايتهم به، والحكمة من هذا النوع من الهدى والموعظة: فقه أسرار الشريعة ومعرفة حكمتها والمقصد منها، والعلم بأن وراء تلك التوراة وهذا الإنجيل هدايةً أتم وأكمل، ودينًا أعم وأشمل، وهو الذي يجيء به النبي الأخير (البارقليط) الأعظم، ولولا زلزال الإنجيل في جملته لتلك التقاليد، وزعزعته لذلك الغرور، وأنس الناس بما حفظ من تعاليمه عدة قرونٍ، لما انتشر الإسلام بين أهل الكتاب في سورية ومصر وبين النهرين بتلك السرعة»[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٧٠، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٠.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٣٧٣.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٣٢.

الأحكام التشريعية في الإنجيل

أولًا: الأحكام التشريعية في الإنجيل:

أودع الله في الإنجيل أحكامًا وتشريعات لهداية من أنزل إليهم، وأمرهم بأن يأخذوا بها، ويعملوا بأحكامها، ويحكموا بمقتضاها.

قال تعالى ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وهذه الآية تبين أمرين:

أولًا: الحكمة من إيتاء المسيح عليه السلام الإنجيل الذي وصفه الله تعالى بالصفات السابق بيانها في الآية التي قبلها مباشرة هي: أن يعملوا بما فيه.

ثانيًا: وجوب العمل بما أنزل الله في الإنجيل على أمة المسيح عليه السلام قبل مبعث نبينا صلى الله عليه وسلم.

والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام، وأن عيسى عليه السلام كان مستقلًا بالشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الأحكام قلت أو كثرت لا بما في التوراة خاصة، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عليه الصلاة والسلام[4].

ويشهد لذلك أيضًا حديث النبي صلى

(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ٣٢٠، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٢٩.

الله عليه وسلم: (أوتي أهل التوراة التوراة، فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر، ثم عجزوا، فأعطوا قيراطًا قيراطًا...) الحديث[1].

وخالف في ذلك بعض الفضلاء، قال الشهرستاني: «وجميع بني إسرائيل كانوا متعبدين بذلك، مكلفين بالتزام أحكام التوراة، والإنجيل النازل على المسيح عليه السلام لا يتضمن أحكامًا، ولا يستبطن حلالًا ولا حرامًا؛ ولكنه: رموز، وأمثال، ومواعظ، ومزاجر؛ وما سواها من الشرائع والأحكام فمحالة على التوراة، فكانت اليهود لهذه القضية لم ينقادوا لعيسى ابن مريم عليه السلام، وادعوا عليه أنه كان مأمورًا بمتابعة موسى عليه السلام، وموافقة التوراة، فغير وبدل، وعدوا عليه تلك التغييرات، منها: تغيير السبت إلى الأحد، ومنها: تغيير أكل لحم الخنزير، وكان حرامًا في التوراة، ومنها: الختان، والغسل، وغير ذلك، والمسلمون قد بينوا أن الأمتين: قد بدلوا، وحرفوا؛ وإلا فعيسى عليه السلام كان مقررًا لما جاء به موسى عليه السلام»[2].

«وحمل المخالف هذه الآية على وليحكموا بما أنزل الله تعالى فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة، وهو خلاف الظاهر كتخصيص ما أنزل فيه نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم»[3].

وقال الألوسي: «أمر مبتدأ لهم بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الأمور التي من جملتها دلائل رسالته صلى الله عليه وسلم وما قررته شريعته الشريفة من أحكامه، وأما الأحكام المنسوخة فليس الحكم بها حكمًا بما أنزل الله تعالى بل هو إبطال وتعطيل له إذ هو شاهد بنسخها وانتهاء وقت العمل بها؛ لأن شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة الأحمدية شاهدة بنسخها، وأن أحكامه ما قررته تلك الشريعة التي تشهد بصحتها»[4].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على بعض ما فرض على النصارى من الأحكام الشرعية، كما في قوله تعالى حكاية عن المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

قال الطبري: «وقوله ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ يقول: وقضى أن يوصيني بالصلاة والزكاة، يعني: المحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها علي.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الركوع، رقم ٥٥٧.
(٢) الملل والنحل، ٢/ ١٥.
(٣) روح المعاني، ٣/ ٣٢٠.
(٤) المصدر السابق، ٣/ ٣١٩

وفي الزكاة معنيان، أحدهما: زكاة الأموال أن يؤديها. والآخر: تطهير الجسد من دنس الذنوب؛ فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي، وقوله ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يقول: ما كنت حيًا في الدنيا موجودًا، وهذا يبين عن أن معنى الزكاة في هذا الموضع: تطهير البدن من الذنوب؛ لأن الذي يوصف به عيسى صلوات الله وسلامه عليه أنه كان لا يدخر شيئًا لغد، فتجب عليه زكاة المال، إلا أن تكون الزكاة التي كانت فرضت عليه الصدقة بكل ما فضل عن قوته، فيكون ذلك وجهًا صحيحًا»[1].

فلا شك أنه قد فرض الله على النصارى صلاة وزكاة لا نعلم كيفيتها ولا عددها، ولا هي نفس التي كانت عند اليهود أو غيرها، ولا نعلم هل الصلاة والعشور التي عندهم الآن هي الصحيح النازل من عند الله أو هي مما حرفوا وبدلوا.

وقد أخبرنا القرآن الكريم بأن الله قد فرض الصيام على الأمم السابقة، ولا شك أن منها النصارى أمة المسيح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقد اختلف المفسرون في المقصود بمن قبلنا في الآية.

قال ابن الجوزي: «وفي الذين من قبلنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم أهل الكتاب، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وهو قول مجاهد.

والثاني: أنهم النصارى، قاله الشعبي، والربيع.

والثالث: أنهم جميع أهل الملل، ذكره أبو صالح عن ابن عباس»[2].

فعلى الأقوال الثلاثة فالنصارى معنيون بهذه الآية، فلا شك أنهم كانوا قد فرض عليهم الصيام.

كما لا شك أن الإنجيل قد أمرهم بمكارم الأخلاق وبر الوالدين وحسن معاملة القريب والغريب، وأنه نهاهم عن كل قبيح كالقتل والزنا والسرقة والعقوق والكذب وسائر الأخلاق الذميمة.

وقد أورد الفخر الرازي سؤالًا على هذه الآية وهو: «فإن قيل: كيف جاز أن يؤمروا بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن؟

قلنا: الجواب عنه من وجوهٍ:

الأول: أن المراد: ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الدلائل الدالة على نبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وهو قول الأصم.

والثاني: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل

(١) جامع البيان، ١٨/ ١٩١.

(٢) زاد المسير، ١/ ١٤٠.

الله فيه، مما لم يصر منسوخًا بالقرآن.

والثالث: المراد من قوله وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه: زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل وتغييره مثل ما فعله اليهود من إخفاء أحكام التوراة، فالمعني بقوله: (وليحكم) أي: وليقر أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه على الوجه الذي أنزله الله فيه من غير تحريفٍ ولا تبديلٍ»[1].

وإنا لنجد بعض النصارى يحتج علينا بهذه الآية بدعوى أنها تأمرهم بالعمل بالإنجيل وما فيه، مما يعني في نظرهم ترك العمل بالقرآن واتباع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الدين والأحكام، وقد ذكرنا الجواب عن ذلك من أقوال المفسرين وما تحتمله الآية مما لا يتفق مع دعواهم.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «كيفما قرأت وفسرت لا تجد الآية تدل على أن الله تعالى يأمر النصارى في القرآن بالحكم بالإنجيل، كما يزعم دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين، ولو فرضنا أنه أمرهم بذلك بعبارةٍ أخرى لتعين أن يكون الأمر للتعجيز وإقامة الحجة عليهم؛ فإنهم لا يستطيعون العمل بالإنجيل، ولن يستطيعوه»[2].

والسبب في ذلك أنهم حرفوه وضيعوه وغيروه وبدلوه، فكيف يمكنهم العمل به بعد ذلك؟

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: المتمردون الخارجون عن حكمه أو عن الإيمان. . والجملة تذييل مقرر لمضمون الجملة السابقة ومؤكدة لوجوب الامتثال بالأمر[3].

ثانيًا: أثر إقامة الإنجيل:

قال تعالى في بيان الأثر الإيجابي من إقامة أهل الكتاب لكتبهم وتنفيذهم لوصاياها ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وفي معنى الإقامة قال الطاهر بن عاشور: «يجوز أن يكون معنى إقامة التوراة والإنجيل إقامة تشريعهما قبل الإسلام، أي: لو أطاعوا أوامر الله وعملوا بها سلموا من غضبه فلأغدق عليهم نعمه. ويحتمل أن يكون المراد: لو أقاموا هذه الكتب بعد مجيء الإسلام، أي: بالاعتراف بما في التوراة والإنجيل من التبشير ببعثة محمدٍ صلى الله عليه وسلم حتى يؤمنوا به وبما جاء به، فتكون الآية إشارةً إلى ضيق معاشهم بعد

(١) مفاتيح الغيب، ١٢/ ٣٧١.
(٢) تفسير المنار، ٦/ ٣٣٢.
(٣) روح المعاني، الألوسي، ٣/ ٣١٩.

هجرة الرسول إلى المدينة»[1].

قال الطبري: «فإن قال قائل: وكيف يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، مع اختلاف هذه الكتب، ونسخ بعضها بعضًا؟ قيل: إنها وإن كانت كذلك في بعض أحكامها وشرائعها، فهي متفقة في الأمر بالإيمان برسل الله، والتصديق بما جاءت به من عند الله، فمعنى إقامتهم التوراة والإنجيل وما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم: تصديقهم بما فيها، والعمل بما هي متفقة فيه، وكل واحد منها في الحين الذي فرض العمل به»[2].

وأما قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ فقد ذكر الفخر الرازي فيه عدة وجوهٌ:

«الأول: أن المراد منه المبالغة في شرح السعة والخصب، لا أن هناك فوقًا وتحتًا، والمعنى لأكلوا أكلًا متصلًا كثيرًا، وهو كما تقول: فلانٌ في الخير من فرقه إلى قدمه، تريد تكاثف الخير وكثرته عنده.

الثاني: أن الأكل من فوق نزول القطر، ومن تحت الأرجل حصول النبات، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

الثالث: الأكل من فوق: كثرة الأشجار المثمرة، ومن تحت الأرجل: الزروع المغلة.

والرابع: المراد أن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار، فيجتنون ما تهدل من رءوس الشجر، ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم.

والخامس: يشبه أن يكون هذا إشارةً إلى ما جرى على اليهود من بني قريظة وبني النضير من قطع نخيلهم، وإفساد زروعهم، وإجلائهم عن أوطانهم»[3].

(١) التحرير والتنوير، ٦/ ٢٥٣.
(٢) جامع البيان، ١٠/ ٤٦٢- ٤٦٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣٩٨.

أتباع عيسى عليه السلام في القرآن

وصف الله تبارك وتعالى أتباع المسيح عليه السلام الذين أقاموا دينه واتبعوه ولم يحرفوا ولم يغيروا ولم يبدلوا بصفات عظيمة فيها إشادة وإكبار، وسماهم الحواريين، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣].

أولًا: معنى الحواريين:

وفي معنى الحواريين أقوال:

أحدها: أنهم الخواص الأصفياء، وقال صلى الله عليه وسلم للزبير: (إنه ابن عمتي، وحواري من أمتي)[1]، فعلى هذا الحواريون هم صفوة الأنبياء الذي خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم.

والثاني: أنهم البيض الثياب، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنهم سموا بذلك؛ لبياض ثيابهم، وعلى هذا فالحواري أصله من الحور، وهو شدة البياض، وقيل: لأن قلوبهم كانت نقيةً طاهرةً من كل نفاقٍ وريبةٍ فسموا بذلك مدحًا لهم، وإشارةً إلى نقاء قلوبهم، كالثوب الأبيض، وهذا كما يقال: فلانٌ نقي الجيب، طاهر الذيل، إذا كان بعيدًا عن الأفعال الذميمة، وفلانٌ دنس الثياب: إذا كان مقدمًا على ما لا ينبغي.

والثالث: أنهم القصارون، سموا بذلك؛ لأنهم كانوا يحورون الثياب، أي: يبيضونها، وهو كالذي قبله مبني على أن الحواري أصله من الحور، وهو شدة البياض، وإذا عرفت أصل هذا اللفظ فقد صار بعرف الاستعمال دليلًا على خواص الرجل وبطانته، قال الضحاك: مر عيسى عليه السلام بقومٍ من الذين كانوا يغسلون الثياب، فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا، والذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط هواري، وهو القصار، فعربت هذه اللفظة فصارت حواري.

والرابع: المجاهدون.

والخامس: الصيادون، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. فقد روي أنه عليه السلام مر بهم وهم يصطادون السمك، فقال لهم: «تعالوا نصطاد الناس» قالوا: من أنت؟ قال: «أنا عيسى ابن مريم، عبد الله ورسوله» فطلبوا منه المعجز على ما قال، فلما أظهر المعجز آمنوا به، فهم الحواريون.

والسادس: الحواريون: الملوك.

والسابع: أنهم المنيرة وجوههم، قال ابن المبارك: الحوار ، ونسبوا إليه لما كان

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٢/ ٢٧٢، رقم ١٤٣٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٩، رقم ٣٥٨٣.

في وجوههم من سيما العبادة ونورها. وقال تاج القراء: الحواري: الصديق»[1].

والثامن: الحواري: الناصر، قال ابن كثير: «والصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير [ثم ندبهم فانتدب الزبير]. فقال: (إن لكل نبيٍ حواريًا وحواريي الزبير)»[2].

وقال ابن عاشور: «والحواريون: لقبٌ لأصحاب عيسى، عليه السلام: الذين آمنوا به ولازموه، وهو اسمٌ معربٌ من النبطية ومفرده حواريٌ، قاله في الإتقان عن ابن حاتمٍ عن الضحاك، ولكنه ادعى أن معناه الغسّال أي: غسال الثياب، وفسره علماء العربية بأنه من يكون من خاصة من يضاف هو إليه ومن قرابته، وغلب على أصحاب عيسى، وقد أكثر المفسرون وأهل اللغة في احتمالات اشتقاقه واختلاف معناه، وكل ذلك إلصاقٌ بالكلمات التي فيها حروف الحاء والواو والراء لا يصح منه شيءٌ، والحواريون اثنا عشر رجلًا وهم: سمعان بطرس، وأخوه أندراوس، ويوحنا بن زبدي، وأخوه يعقوب- وهؤلاء كلهم صيادو سمكٍ- ومتى العشار وتوما وفيليبس، وبرثو لماوس، ويعقوب بن حلفي، ولباوس، وسمعان القانوي، ويهوذا الأسخريوطي»[3].

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بأنهم كانوا حائزين على كل هذه الصفات، فهم الأتباع المخلصون للمسيح، وهم بيض القلوب والثياب، منيرة وجوههم، ناصرون لربهم ونبيهم.

«قال القفال: ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثني عشر من الملوك، وبعضهم من صيادي السمك، وبعضهم من القصارين، والكل سموا بالحواريين؛ لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام، وأعوانه، والمخلصين في محبته، وطاعته، وخدمته»[4].

ثانيًا: صفات الحواريين:

من صفات هؤلاء الحواريين أتباع المسيح عليه السلام التي وصفهم الله تعالى بها:

الصفة الأولى: أنهم أنصار الله.

وقد جاء ذلك في قوله تعالى في أكثر من موضع من كتابه: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، [الصف: ١٤].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٢٨٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٥.
(٣) التحرير والتنوير، ٣/ ٢٥٥- ٢٥٦.
(٤) مفاتيح الغيب، ٨/ ٢٣٤.

قال الطبري: «فلما وجد عيسى من بني إسرائيل الذين أرسله الله إليهم جحودًا لنبوته، وتكذيبًا لقوله، وصدًا عما دعاهم إليه من أمر الله، قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟، يعني بذلك: قال عيسى: من أعواني على المكذبين بحجة الله، والمولين عن دينه، والجاحدين نبوة نبيه، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ عز وجل؟ ويعني بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، مع الله»[1].

وفي سبب استنصاره بالحواريين قال ابن الجوزي: «واختلفوا في سبب استنصاره بالحواريين، فقال مجاهد: لما كفر به قومه، وأرادوا قتله، استنصر الحواريين. وقال غيره: لما كفر به قومه، وأخرجوه من قريتهم، استنصر الحواريين. وقيل: استنصرهم؛ لإقامة الحق، وإظهار الحجة»[2].

قال ابن كثير: «والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: (من رجل يئويني على أن أبلغ كلام ربي، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي)حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انتدب له طائفةٌ من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا الذي أنزل معه، ولهذا قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾»[3].

قال الرازي: «والمراد من قوله تعالى ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحن أنصار دين الله وأنصار أنبيائه؛ لأن نصرة الله تعالى في الحقيقة محالٌ، فالمراد منه ما ذكرناه»[4].

وقد بلغ من منزلة الحواريين أتباع المسيح عليه السلام في نصرتهم وإخلاصهم وصدقهم في ذلك أن الله تعالى خاطب المؤمنين من هذه الأمة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

«يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ أي: معيني في الدعوة إلى الله عز وجل؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾-وهم أتباع عيسى

(١) جامع البيان، ٦/ ٤٤٣.
(٢) زاد المسير، ١/ ٢٨٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٦.
(٤) مفاتيح الغيب، ٨/ ٢٣٤.

عليه السلام: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به وموازروك على ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاةً إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين. وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في أيام الحج: (من رجلٌ يئويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي) حتى قيض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك علمًا عليهم، رضي الله عنهم وأرضاهم»[1].

«والتشبيه بدعوة عيسى ابن مريم للحواريين وجواب الحواريين تشبيه تمثيلٍ، أي كونوا عندما يدعوكم محمد صلى الله عليه وسلم إلى نصر الله كحالة قول عيسى ابن مريم للحواريين واستجابتهم له، والتشبيه لقصد التنظير والتأسي، فقد صدق الحواريون وعدهم وثبتوا على الدين، ولم تزعزعهم الفتن والتعذيب»[2].

الصفة الثانية: أنهم مؤمنون مسلمون.

أما قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ فهذا يجري مجرى ذكر العلة، والمعنى يجب علينا أن نكون من أنصار الله، لأجل أنا آمنا بالله، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله، والذب عن أوليائه، والمحاربة مع أعدائه، ثم قالوا: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وذلك؛ لأن إشهادهم عيسى عليه السلام على أنفسهم، إشهادٌ لله تعالى أيضًا، ثم فيه قولان:

الأول: المراد واشهد أنا منقادون لما تريده منا في نصرتك، والذب عنك، مستسلمون لأمر الله تعالى فيه.

الثاني: أن ذلك إقرارٌ منهم بأن دينهم الإسلام، وأنه دين كل الأنبياء صلوات الله عليهم[3].

وقد جاء ذكر الحواريين أيضًا مقرونا بإقرارهم بالإيمان والإشهاد عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وقد جاءت هذه الآية في معرض ذكر الله عز وجل لنعمه على عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، «أي: واذكر نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين أن يؤمنوا بك، وقد كذبك جمهور بني إسرائيل،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١١٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ١٩٩.
(٣) المصدر السابق، ٨/ ٢٣٤.

فجعلتهم أنصارًا لك يؤيدون حجتك وينشرون دعوتك. والوحي في أصل اللغة: الإشارة السريعة الخفية، أو الإعلام بالشيء بسرعةٍ وخفاءٍ»[(١)].

وفي المراد بالوحي إلى الحواريين في هذه الآية قال ابن عطية: «وبالجملة فهو إلقاء معنى في خفاء، أوصله تعالى إلى نفوسهم كيف شاء»[(٢)].

«وهذا الإيحاء إلى الحواريين هو من نعم الله على عيسى بأن جعل له أتباعًا يصدقونه ويعملون بما جاء به»[(٣)].

«وإنما ذكر هذا في معرض تعديد النعم؛ لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس محبوبًا في قلوبهم من أعظم نعم الله على الإنسان»[(٤)].

«وقد حكى الله عنهم هنا أنهم قالوا: آمنا، أي: بالله ورسوله عيسى عليه السلام، وأشهدوا الله على أنفسهم أنهم مسلمون أي: مخلصون في إيمانهم، مذعنون لما يترتب عليه من الأمر والنهي»[(٥)].

«وقول الحواريين، ﴿وَٱشۡهَدۡ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة منهم لله تعالى، ويحتمل أن يكون لعيسى عليه السلام»[(٦)].

«وذكر تعالى أنه لما ألقى ذلك الوحي في قلوبهم، آمنوا وأسلموا، وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام؛ لأن الإيمان صفة القلب والإسلام عبارةٌ عن الانقياد والخضوع في الظاهر، يعني: آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم»[(٧)].

«وسمى إيمانهم إسلامًا؛ لأنه كان تصديقًا راسخًا قد ارتفعوا به عن مرتبة إيمان عامة من آمن بالمسيح غيرهم، فكانوا مماثلين لإيمان عيسى، وهو إيمان الأنبياء والصديقين»[(٨)].

الصفة الثالثة: أنهم متبعون لرسولهم.

ويدل عليه «ما حكاه القرآن من قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وذلك أن القوم آمنوا بالله حين قالوا: في الآية المتقدمة آمنا بالله، ثم آمنوا بكتب الله تعالى حيث قالوا: آمنا بما أنزلت، وآمنوا برسول الله حيث قالوا: واتبعنا الرسول، فعند ذلك طلبوا الزلفة والثواب، فقالوا ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وهذا

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٢٠٧.
(٢) المحرر الوجيز، ٢/ ٢٥٩.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٤٠٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦١.
(٥) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٢٠٨.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٥٩.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤٦١.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/ ١٠٤.

يقتضي أن يكون للشاهدين فضلٌ يزيد على فضل الحواريين، ويفضل على درجته؛ لأنهم هم المخصوصون بأداء الشهادة»[1].

الصفة الرابعة: أنهم قريبون من المؤمنين.

وقد دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢].

وقد اختلف فيمن نزلت فيهم هذه الآية على أقوال:

الأول: أنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابٍ له أسلموا معه.

قال عطاء: هم ناس من الحبشة آمنوا، إذ جاءتهم مهاجرة المؤمنين[2].

قال أبو حيان: «قيل: هو النجاشي وأصحابه تلا عليهم جعفر بن أبي طالبٍ حين هاجر إلى الحبشة سورة مريم فآمنوا وفاضت أعينهم من الدمع[3].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباسٍ: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالبٍ بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم.

قال ابن كثير: وهذا القول فيه نظرٌ؛ لأن هذه الآية مدنيةٌ، وقصة جعفرٍ مع النجاشي قبل الهجرة[4].

الثاني: قيل: إن هذه الآية والتي بعدها نزلت في نفرٍ قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من نصارى الحبشة، فلما سمعوا القرآن أسلموا واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم[5].

وقال سعيد بن جبير: بعث النجاشي قومًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلموا، فنزلت فيهم هذه الآية والتي بعدها[6].

قال أبو حيان: «وقيل: هم وفد النجاشي مع جعفرٍ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانوا سبعين بعثهم إلى الرسول عليهم ثياب الصوف، اثنان وستون من الحبشة، وثمانيةٌ من الشام، وهم بحير الراهب، وإدريس، وأشرف، وثمامة، وقثم، ودريدٌ، وأيمن، فقرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم يس، فبكوا وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل الله فيهم هذه الآية»[7].

وقال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما: نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسمعوا كلامه، ويروا صفاته، فلما قرأ عليهم النبي صلى الله عليه

(١) المصدر السابق، ٨/ ٢٣٤.
(٢) انظر: جامع البيان، ١٠/ ٤٩٩.
(٣) البحر المحيط، ٤/ ٣٤٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٦٦.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٤٩٩.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٥٧٤.
(٧) البحر المحيط، ٤/ ٣٤٢.

وسلم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه.. ثم اختلف في عدة هذا الوفد، فقيل: اثنا عشر، سبعة قساوسةٍ وخمسة رهابين. وقيل بالعكس. وقيل: خمسون. وقيل: بضعٌ وستون. وقيل: سبعون رجلًا. فالله أعلم[1].

الثالث: روي عن مقاتلٍ والكلبي أنهم كانوا أربعين من بني الحارث بن كعبٍ من نجران، واثنين وثمانين من الحبشة، وثمانيةً وستين من الشام[2].

وقال قتادة: هم قومٌ كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا[3].

قال ابن الجوزي: «فأما الذين قالوا: إنا نصارى، فهل هذا عام في كل النصارى أم خاص؟ فيه قولان:

أحدهما: أنه خاص، ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه أراد النجاشي وأصحابه لما أسلموا، قاله ابن عباس وابن جبير.

والثاني: أنهم قوم من النصارى كانوا متمسكين بشريعة عيسى، فلما جاء محمد عليه السلام أسلموا، قاله قتادة.

والقول الثاني: أنه عام. قال الزجاج: يجوز أن يراد به النصارى؛ لأنهم كانوا أقل مظاهرةً للمشركين من اليهود»[4].

قال أبو جعفر الطبري: «والصواب في ذلك من القول عندي: أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا: إنا نصارى، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم يجدهم أقرب الناس ودادًا لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسم لنا أسماءهم، وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي، ويجوز أن يكون أريد به قومٌ كانوا على شريعة عيسى، فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه»[5].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ «أي: هم ألين عريكةً وأقرب ودًا، ولم يصفهم بالود؛ إنما جعلهم أقرب من اليهود والمشركين، وهي أمةٌ لهم الوفاء والخلال الأربع التي ذكرها عمرو بن العاص في صحيح مسلمٍ، ويعظمون من أهل الإسلام من استشعروا منه دينًا وإيمانًا، ويبغضون أهل الفسق، فإذا سالموا فسلمهم صافٍ، وإذا حاربوا فحربهم مدافعةٌ؛ لأن شرعهم لا يأمرهم بذلك، وحين غلب الروم فارس سر رسول الله صلى الله عليه وسلم لغلبة أهل الكتاب لأهل عبادة النار،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٦٦.
(٢) انظر: البحر المحيط، ٤/ ٣٤٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٦٦.
(٤) زاد المسير، ١/ ٥٧٤.
(٥) جامع البيان، ١٠/ ٥٠١.

ولإهلاك العدو الأكبر بالعدو الأصغر؛ إذ كان مخوفًا على أهل الإسلام، واليهود ليسوا على شيء من أخلاق النصارى، بل شأنهم الخبث واللي بالألسنة، وفي خلال إحسانك إلى اليهودي يترقب ما يغتالك به، ألا ترى إلى ما حكى تعالى عنهم ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيلٌ...

وظاهر الآية يدل على أن النصارى أصلح حالًا من اليهود وأقرب إلى المؤمنين مودةً، وعلى هذا الظاهر فسر الآية من وقفنا على كلامه، وقد ذكر المفسرون فيما تقدم ما فضل به النصارى على اليهود من كرم الأخلاق، والدخول في الإسلام سريعًا، وليس الكلام واردًا بسبب العقائد، وإنما ورد بسبب الانفعال للمسلمين»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودةٌ للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]. وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. وليس القتال مشروعًا في ملتهم»[2].

وقال ابن عطية: «وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أن المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم من النصارى ليسوا على حقيقة النصرانية، بل كونهم نصارى قول منهم وزعم»[3].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «لما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتب الدعوة الإسلامية إلى الملوك ورؤساء الشعوب، كان النصارى منهم أحسنهم ردًا؛ فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام، فلما لم يقبلوا لجمودهم على التقليد، وعدم فقههم حقيقة الدين الجديد، اكتفى بالرد الحسن.

والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه ردًا، وإن لم يكن أكثر إلى الإسلام ميلًا، وأرسل للنبي صلى الله عليه وسلم هديةً حسنةً.

ثم لما فتحت مصر والشام عرف أهلها مزية الإسلام، دخلوا في دين الله أفواجًا، وكان القبط أسرع له قبولًا»[4].

الصفة الخامسة: الخشية والانقطاع للعبادة.

«ثم أخبر أن من هذه الطائفة علماء

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٣٤٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٦٧.

(٣) المحرر الوجيز، ٢/ ٢٢٦

(٤) تفسير المنار، ٧/ ٤،٧.

وزهادًا ومتواضعين، وسريعي استجابةٍ للإسلام، وكثيري بكاءٍ عند سماع القرآن، واليهود بخلاف ذلك، والوجود يصدق قرب النصارى من المسلمين وبعد اليهود، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ [المائدة: ٨٢].

أي: يوجد فيهم القسيسون، وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم: قسيسٌ وقس أيضًا، وقد يجمع على قسوسٍ- والرهبان: جمع راهبٍ، وهو: العابد. مشتقٌ من الرهبة، وهي الخوف، كراكبٍ وركبانٍ، وفارسٍ وفرسانٍ»[(١)].

«وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ معناه: ذلك بأن منهم أهل خشية وانقطاع إلى الله وعبادة وإن لم يكونوا على هدى، فهم يميلون إلى أهل العبادة والخشية»[(٢)].

قال الشيخ رشيد رضا: «أي: ذلك الذي ذكر من كون النصارى أقرب مودةً للذين آمنوا بسبب أن منهم ﴿قِسِّيسِينَ﴾ يتولون تعليمهم وتربيتهم الدينية، ﴿وَرُهْبَانًا﴾ يمثلون فيهم الزهد، وترك نعيم الدنيا، والخوف من الله عز وجل، والانقطاع لعبادته، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر لهم أنه الحق،؛ لأنه أشهر آداب دينهم التواضع والتذلل، وقبول كل سلطةٍ والخضوع لكل حاكم.

بل من المشهور فيها: الأمر بمحبة الأعداء، وإدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن.

فتداول هذه الوصايا ووجود أولئك القسيسين والرهبان، لا بد أن يؤثر في نفوس جمهور الأمة وسوادها، فيضعف صفة الاستكبار عن قبول الحق فيها، وقد عهد من النصارى قبول سلطة المخالف لهم طوعًا واختيارًا، والرضاء بها سرًا وجهارًا»[(٣)].

«فإن قيل: كيف مدحهم الله تعالى بذلك مع قوله ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (لا رهبانية في الإسلام) قلنا: إن ذلك صار ممدوحًا في مقابلة طريقة اليهود في القساوة والغلظة، ولا يلزم من هذا القدر كونه ممدوحًا على الإطلاق»[(٤)].

قال ابن عاشور: «وإنما كان وجود القسيسين والرهبان بينهم سببًا في اقتراب مودتهم من المؤمنين لما هو معروفٌ بين العرب من حسن أخلاق القسيسين والرهبان وتواضعهم وتسامحهم. وكانوا منتشرين في جهاتٍ كثيرةٍ من بلاد العرب يعمرون الأديرة والصوامع والبيع، وأكثرهم من عرب الشام

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٣٤٤.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٢٦.
(٣) تفسير المنار، ٧/ ٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤١٤.

الذين بلغتهم دعوة النصرانية على طريق الروم، فقد عرفهم العرب بالزهد ومسالمة الناس»[1].

الصفة السادسة: التواضع وعدم الاستكبار.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

«والاستكبار: السين والتاء فيه؛ للمبالغة. وهو يطلق على التكبر والتعاظم، ويطلق على المكابرة وكراهية الحق، وهما متلازمان.

فالمراد من قوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أنهم متواضعون منصفون، وضمير وأنهم لا يستكبرون يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير بأن منهم، أي: وأن الذين قالوا إنا نصارى لا يستكبرون.

فيكون قد أثبت التواضع لجميع أهل ملة النصرانية في ذلك العصر، وقد كان نصارى العرب متحلين بمكارم من الأخلاق.

وظاهر قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ أن هذا الخلق وصفٌ للنصارى كلهم من حيث إنهم نصارى، فيتعين أن يحمل الموصول على العموم العرفي، وهم نصارى العرب، فإن اتباعهم النصرانية على ضعفهم فيها ضم إلى مكارم أخلاقهم العربية مكارم أخلاقٍ دينيةٍ، كما كان عليه زهيرٌ ولبيدٌ وورقة بن نوفل وأضرابهم»[2].

الصفة السابعة: الانقياد للحق واتباعه.

«ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٤]. أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به»[3].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: «﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وإذا سمع أولئك الذين قالوا إنا نصارى ما أنزل إلى الرسول الكامل محمدٍ صلى الله عليه وسلم الذي أكمل به الدين، وبعث رحمةً للعالمين، ترى أيها الناظر إليهم أعينهم تفيض من الدمع، أي: تمتلئ دمعًا حتى يتدفق الدمع من جوانبها لكثرته، أو حتى كأن الأعين ذابت وصارت دمعًا جاريًا، ذلك من أجل ما منع غيرهم من العتو والاستكبار،

(١) التحرير والتنوير، ٧/ ٧.

(٢) المصدر السابق، ٧/ ٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٦٨.

قوله: ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيانٌ لقوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟﴾ وقيل: إن (من) فيه للتبعيض، أي: إن أعينهم فاضت عبرةً ودموعًا، عبرةً منهم وخشوعًا؛ لمعرفتهم بعض الحق، إذ سمعوا بعض الآيات دون بعضٍ، فكيف لو عرفوا الحق كله بسماع جميع القرآن، ومعرفة ما جاءت به السنة من الأسوة الحسنة البيان، وهذا القول إنما يصح بتطبيقه على واقعةٍ معينةٍ كالذي يسمع في النجاشي وجماعته، وأما ظاهر الجملة الشرطية فهو بيان ما يكون من شأنهم عند سماع القرآن، وهو العبرة والاستعبار، والدموع الغزار»[1].

قال أبو حيان: «هذا وصفٌ برقة القلوب والتأثر بسماع القرآن، والظاهر أن الضمير يعود على ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ فيكون عامًا، ويكون قد أخبر عنهم بما يقع من بعضهم كما جرى للنجاشي، حيث تلا عليه جعفرٌ سورة مريم إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤]، وسورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩] فبكى، وكذلك قومه الذين وفدوا على الرسول حين قرأ عليهم (يس) فبكوا»[2].

قال الرازي: «وأما قوله ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ ففيه وجهان:

الأول: المراد أن أعينهم تمتلئ من الدمع حتى تفيض؛ لأن الفيض أن يمتلئ الإناء وغيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه.

الثاني: أن يكون المراد المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها»[3].

«ثم بين تعالى ما يكون من مقالهم، بعد بيان ما يكون من حالهم فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: يقولون هذا القول يريدون به إنشاء الإيمان، والتضرع إلى الله تعالى بأن يقبله منهم ويكتبهم مع أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، الذين جعلهم الله تعالى كالرسل شهداء على الناس، وإنما يقولون ذلك؛ لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم، أو مما يتناقلونه عن سلفهم، أن النبي الأخير الذي يكمل الله به الدين يكون متبعوه شهداء على الناس، أو المعنى أنهم بدخولهم في هذه الأمة يكتبون من الشاهدين، فذكر الله الأمة بأشرف أوصافها.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: إن الشاهدين هنا هم الشهداء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]»[4].

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أي: مع من يشهد

(١) تفسير المنار، ٧/ ١١، ١٢.
(٢) البحر المحيط، ٤/ ٣٤٥.
(٣) مفاتيح الغيب، ١٢/ ٤١٤.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ١١.

بالحق.

وللمفسرين في المراد بالشاهدين هاهنا أربعة أقوال:

أحدها: محمد وأمته، رواه علي بن أبي طلحة، وعكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: الذين يشهدون بالإيمان، قاله الحسن.

والرابع: الأنبياء والمؤمنون، قاله الزجاج»[1].

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ «هذا تتمة قولهم، والمعنى: أي مانع يمنعنا من الإيمان بالله وحده وبما جاءنا من الحق على لسان هذا الرسول، بعد أن ظهر لنا أنه البارقليط روح الحق الذي بشر به المسيح، والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، والذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة، والفضائل الكاملة، والعبادات الخاصة، والمعاملات المستقيمة، وهم أتباع هذا النبي الكريم، الذين رأينا أثر صلاحهم بأعيننا بعد ما كان فسادهم في جاهليتهم ما كان؟ أي: لا مانع من هذا الإيمان بعد تحقيق موجبه، وقيام سببه، فسروا القوم الصالحين بأصحاب الرسول، وهو متعينٌ بالنسبة إلى من آمن من نصارى الحبشة، وكل من سار على طريقهم يعد منهم ويحشر معهم»[2].

قال ابن كثير: «وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله عز وجل ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٥]»[3].

الصفة الثامنة: الرأفة والرحمة ورقة القلب.

وقد جاء في وصف أتباع عيسى عليه السلام أيضًا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا

(١) زاد المسير، ١/ ٥٧٦.

(٢) تفسير المنار، ٧/ ١١، ١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٦٨.

﴿عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

قال الشوكاني: «الذين اتبعوه هم الحواريون، جعل الله في قلوبهم مودةً لبعضهم البعض، ورحمةً يتراحمون بها، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك، وأصل الرأفة: اللين، والرحمة: الشفقة، وقيل: الرأفة أشد الرحمة»(١).

«ومعنى جعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه: أن تعاليم الإنجيل الذي آتاه الله عيسى أمرتهم بالتخلق بالرأفة والرحمة فعملوا بها، أو أن ارتياضهم بسيرة عيسى عليه السلام أرسخ ذلك في قلوبهم وذلك بجعل الله تعالى ؛ لأنه أمرهم به ويسره عليهم، ذلك أن عيسى بعث؛ لتهذيب نفوس اليهود واقتلاع القسوة من قلوبهم التي تخلقوا بها في أجيالٍ طويلةٍ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

والرأفة: الرحمة المتعلقة بدفع الأذى والضر فهي رحمةٌ خاصةٌ. والرحمة: العطف والملاينة، فعطف الرحمة على الرأفة من عطف العام على الخاص لاستيعاب أنواعه بعد أن اهتم ببعضها»(٢).

«قال مقاتلٌ: المراد من الرأفة والرحمة هو أنهم كانوا متوادين بعضهم مع بعضٍ، كما وصف الله أصحاب محمدٍ عليه الصلاة والسلام بذلك في قوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]»(٣).

وقال الألوسي: «والرأفة في المشهور: الرحمة، لكن قال بعض الأفاضل: إنها إذا ذكرت معها يراد بالرأفة ما فيه درء الشر ورأب الصدع، وبالرحمة ما فيه جلب الخير ولذا ترى في الأغلب تقديم الرأفة على الرحمة وذلك؛ لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح»(٤).

«وقيل: هذا إشارةٌ إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضعه»(٥).

«وخصت الرهبانية بالابتداع؛ لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها، بخلاف الرهبانية، فإنها أفعال بدنٍ مع شيءٍ في القلب، ففيها موضعٌ للتكسب.

قال قتادة: الرأفة والرحمة من الله، والرهبانية هم ابتدعوها.

والرهبانية: رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن واتخاذ الصوامع.

(١) فتح القدير، ٥/ ٢١٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٢١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٩/ ٤٧٣.
(٤) روح المعاني، ١٤/ ١٨٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٢٦٢.

وجعل أبو علي الفارسي ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ مقتطعةً من العطف على ما قبلها من ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، فانتصب عنده ورهبانيةً على إضمار فعلٍ يفسره ما بعده، فهو من باب الاشتغال، أي: وابتدعوا رهبانيةً ابتدعوها»[1].

تحريف الإنجيل

سبق أن ذكرنا أن الإنجيل المنزل من عند الله على المسيح عليه السلام قد تعرض للتحريف والتغيير والتبديل، حتى لقد صار الآن مفقودا كله أو أكثره، وأن النصارى بعد زمن المسيح قد استبدلوه بصحائف وكتب كتبوها بأيديهم سموها أناجيل، وادعوا أنها وحي من الله إلى كاتبيها، وهم في زعمهم قديسون من تلاميذ المسيح أو تلاميذ تلاميذه.

والأناجيل المعتبرة عندهم أربعة: إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، بالإضافة إلى سفر أعمال الرسل الذي كتبه لوقا كما يزعمون، ومن هذه الأناجيل الأربعة وهذا السفر يتكون ما يعرف بالأسفار التاريخية من العهد الجديد، تليها إحدى وعشرين رسالة من بولس إلى المدن النصرانية تعرف بالأسفار التعليمية، وفي النهاية تأتي رؤيا يوحنا اللاهوتي، وهي عبارة عن رؤيا يقظة أو نبوءات منسوبة إلى يوحنا، ومن كل ما سبق يتكون ما يعرف عندهم بالعهد الجديد[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما الأناجيل التي بأيدي النصارى: فهي أربعة أناجيل؛ إنجيل متى ويوحنا

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ١٠/ ١١٥.

(٢) انظر: المسيحية، أحمد شلبي، ص١٦٩.

ولوقا ومرقس، وهم متفقون على أن لوقا ومرقس لم يريا المسيح، وإنما رآه متى ويوحنا، وأن هذه المقالات الأربعة التي يسمونها الإنجيل، وقد يسمون كل واحدٍ منهم إنجيلًا، إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله، ولا أن المسيح، بلغها عن الله، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح، وأشياء من أفعاله ومعجزاته، وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه، فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقواله وأفعاله التي ليست قرآنًا، فالأناجيل التي بأيديهم شبه كتاب السيرة وكتب الحديث، أو مثل هذه الكتب، وإن كان غالبها صحيحًا»[1].

وهذه الأناجيل الأربعة التي يقدسها النصارى الآن تسوق قصة المسيح من ولادته إلى صلبه في زعمهم، ومن غير المعقول أن تكون تلك القصة وحيًا تلقاه المسيح من ربه، وعلمه حوارييه واستكتبهم إياه، إن كل عاقل يجزم أن المسيح لم يقرأ هذه الأناجيل في حياته، فكيف يقال بعد ذلك إنها مقدسة؟ وتلك الأناجيل المزعومة مقطوعة السند إلى مؤلفيها، بل إن نسبتها إليهم قائمة على الظن وهو لا يغني من الحق شيئا[2].

«ومكان الأناجيل في النصرانية مكان القطب والعماد، وإذا كانت شخصية المسيح وما حاطوها به من أفكار هي شعار المسيحية، فإن هذه الأناجيل هي المشتملة على أخبار تلك الشخصية، من وقت الحمل إلى وقت صلبه في اعتقادهم وقيامته من قبره بعد ثلاث ليال، ثم رفعه بعد أربعين ليلة، وهي بهذا تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح في زعمهم، والصلب والفداء، أي: إنها تشتمل على لب المسيحية في نظرهم بعد المسيح ومعناها، وهذه الأناجيل الأربعة هي التي تعترف بها الكنائس، وتقرها الفرق المسيحية وتأخذ بها، ولكن التاريخ يروى لنا أنه كانت في العصور الغابرة أناجيل أخرى، قد أخذت بها فرق قديمة، وراجت عندها، ولم تعتنق كل فرقة إنجيلها، فعند كل من أصحاب مرقيون، وأصحاب ديسان إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل، ولأصحاب ماني إنجيل يخالف هذه الأربعة، وهو الصحيح في زعمهم، وهناك إنجيل يقال له إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس، والنصارى ينكرونه، وهناك إنجيل اشتهر باسم التذكرة، وإنجيل سرن تهس، ولقد كثرت الأناجيل

(١) الجواب الصحيح، ٣/ ٢١.

(٢) أصول النصرانية في الميزان، محمد سيد المسير، ص١١٧.

كثرة عظيمة، وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية، ثم أرادت الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي، أو أوائل القرن الرابع أن تحافظ على الأناجيل الصادقة -في اعتقادها- فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجة إبان ذلك، ولكن يذكر بعض المؤرخين إنه لم توجد عبارة تشير إلى وجود أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا قبل آخر القرن الثالث. وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة أرينيوس في سنة ٢٠٩. ثم جاء من بعده كليمنس اسكندريانوس في سنة ٢١٦، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم، ولم تكتف الكنيسة باختيار هذه الأناجيل الأربعة، بل أرادت الناس على قبولها؛ لاعتقادها صحتها، ورفض غيرها، وتم لها ما أرادت؛ فصارت هذه الأناجيل هي المعتبرة دون سواها»[1].

وقد أخبر الله عز وجل في القرآن الكريم أن أهل الكتاب قد غيروا في كتبهم وبدلوا وحرفوا.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٤ – ١٦].

قال الفخر الرازي: «المراد أن سبيل النصارى مثل سبيل اليهود في نقض المواثيق من عند الله، وإنما قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ ولم يقل: ومن النصارى، وذلك؛ لأنهم إنما سموا أنفسهم بهذا الاسم ادعاءً لنصرة الله تعالى، وهم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله، فكان هذا الاسم في الحقيقة اسم مدحٍ، فبين الله تعالى أنهم يدعون هذه الصفة، ولكنهم ليسوا موصوفين بها عند الله تعالى، وقوله: ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ أي: مكتوبٌ في الإنجيل أن يؤمنوا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وتنكير الحظ في الآية يدل على أن المراد به حظٌّ واحدٌ، وهو الذي ذكرناه من الإيمان بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم»[2].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أن النصارى نسوا حظًّا

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص٤٠-٤١.

(٢) مفاتيح الغيب، ١١/ ٣٢٦.

مما ذكروا به كاليهود، وهم أجدر بذلك، فإن التوراة كتبت في زمن نزولها، وكان الألوف من الناس يعملون بها، ثم فقدت، والكثير من أحكامها محفوظٌ معروفٌ، ولا ثقة بقول بعض علماء الإفرنج: إن الكتابة لم تكن معروفةً في زمن موسى عليه السلام.

وأما كتب النصارى فلم تعرف وتشهر إلا في القرن الرابع للمسيح؛ لأن أتباع المسيح كانوا مضطهدين بين اليهود والرومان، فلما أمنوا باعتناق الملك قسطنطين النصرانية سياسةً ظهرت كتبهم، ومنها تواريخ المسيح المشتملة على بعض كلامه الذي هو إنجيله، وكانت كثيرةً، فتحكم فيها الرؤساء حتى اتفقوا على هذه الأربعة. فمن فهم ما قلناه في الفرق بين عرف القرآن وعرف القوم في مفهوم التوراة والإنجيل يتبين له أن ما جاء في القرآن هو الممحص للحقيقة التي أضاعها القوم، وهي ما يفهم من لفظ التوراة والإنجيل، ويصح أن يعد هذا التمحيص من آيات كون القرآن موحًى به من الله.

ولولا ذلك لما أمكن ذلك الأمي الذي لم يقرأ هذه الأسفار والأناجيل المعروفة ولا تواريخ أهلها؛ أن يعرف أنهم نسوا حظًا مما أوحي إليهم وأوتوا نصيبًا منه فقط، بل كان يجاريهم على ما هم عليه ويقول: الأناجيل لا الإنجيل. ثم إن من فهم هذا لا تروج عنده شبهات القسيسين الذين يوهمون عوام المسلمين أن ما في أيديهم من التوراة والأناجيل هي التي شهد بصدقها القرآن»[1].

فالنصارى قد أخفوا ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

قال السعدي: «يخبر تعالى: أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم، وعرفوا أن محمدًا رسول الله، وأن ما جاء به، حق وصدق، وتيقنوا ذلك، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون، ولكن فريقًا منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون»[2].

كما حرفوا عقيدة التوحيد إلى التثليث، ولهذا بين القرآن الكريم عقب هذه الآيات فساد قولهم بألوهية المسيح وبنوته لله وحلول الله فيه، وبأن فيه جزءا إلهيًا أو طبيعة إلهية، إلى آخر ما لفقوه في إنجيلهم ونسبوه للمسيح، ورد على هذه الفرية بما يؤكد عبودية المسيح وأمه ومن في الأرض جميعًا لله.

(١) تفسير المنار، ٣/ ١٣٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٢.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

كما بين في موضع آخر من نفس السورة أن المسيح ما ادعى الألوهية أو البنوة لله، ولا قاله ولا نسبه إلى نفسه، ولا أمرهم بعبادته من دون الله أو مع الله، بل كل ما أمرهم به هو أن يعبدوا الله الذي هو ربه وربهم ورب العالمين، وتوعد من يشرك بالله بالحرمان من الجنة ودخول النار.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢ – ٧٣].

قال القرطبي: «وهذا قول فرق النصارى من الملكية والنسطورية واليعقوبية؛ لأنهم يقولون: أبٌ وابنٌ وروح القدس إلهٌ واحدٌ، ولا يقولون: ثلاثة آلهةٍ، وهو معنى مذهبهم، وإنما يمتنعون من العبارة وهي لازمةٌ لهم. وما كان هكذا صح أن يحكى بالعبارة اللازمة، وذلك أنهم يقولون: إن الابن إلهٌ، والأب إلهٌ، وروح القدس إلهٌ.. فأكفرهم الله بقولهم هذا»[1].

كما فند القرآن دعواهم ألوهية المسيح وأمه بما يثبت بشريتهما ويتعارض مع دعواهم ألوهيتهما من أحوالهما.

قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٥].

قال الفخر الرازي: «واعلم أن المقصود من ذلك: الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيانه من وجوهٍ:

الأول: أن كل من كان له أمٌ فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقًا لا إلهًا.

والثاني: أنهما كانا محتاجين؛ لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنيًا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلهًا.

الثالث: قال بعضهم: إن قوله كانا يأكلان الطعام كنايةٌ عن الحدث؛ لأن من أكل الطعام فإنه لا بد وأن يحدث. .

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٢٤٩- ٢٥٠.

وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليلٍ»[1].

كما بين القرآن فساد زعمهم أن المسيح قد صلب، وقبر ومات وقام من بين الأموات في اليوم الثالث من دفنه، إلى آخر هذه العقائد الفاسدة والتحريفات التي بين القرآن زيفها وتحريفها.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ – ١٥٨].

قال الشوكاني: «وما ادعوه من أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صفته وإيضاح حقيقته الإنجيل، وما فيه هو من تحريف النصارى، أبعدهم الله، فقد كذبوا، وصدق الله القائل في كتابه العزيز: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: ألقي شبهه على غيره وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكون فيه وإن الذين اختلفوا فيه أي: في شأن عيسى، فقال بعضهم: قتلناه، وقال من عاين رفعه إلى السماء: ما قتلناه، وقيل: إن الاختلاف بينهم هو: أن النسطورية من النصارى قالوا: صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، وقالت الملكانية: وقع القتل والصلب على المسيح بكماله ناسوته ولا هوته، ولهم من جنس هذا الاختلاف كلامٌ طويلٌ لا أصل له، ولهذا قال الله: وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍ منه، أي: في ترددٍ لا يخرج إلى حيز الصحة، ولا إلى حيز البطلان في اعتقادهم، بل هم مترددون مرتابون في شكهم يعمهون، وفي جهلهم يتحيرون»[2].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال ابن عاشور: «هذا حكايةٌ لأمر رفع المسيح وإخفائه عن أنظار أعدائه. وقدم الله في خطابه إعلامه بذلك استئناسًا له، إذ لم يتم ما يرغبه من هداية قومه، مع العلم بأنه يحب لقاء الله، وتبشيرًا له بأن الله مظهرٌ دينه؛ لأن غاية هم الرسول هو الهدى، وإبلاغ الشريعة»[3].

(١) مفاتيح الغيب، ١٢/ ٤٠٩ – ٤١٠.

(٢) فتح القدير، ١/ ٦١٥ – ٦١٦.

(٣) التحرير والتنوير، ٣/ ٢٥٧.

صفات الرسول وأتباعه في الإنجيل

أولًا: تبشير الإنجيل بالرسول عليه السلام:

نص القرآن الكريم على أن الكتب السابقة ومن بينها الإنجيل قد بشرت بمبعث النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن المسيح عليه السلام قد بشر أمته صراحة به ودلهم على اسمه وصفته، ذلك؛ لأن المسيح هو آخر رسول قبل رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وليس بينهما نبي.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

«يقول تعالى مخبرًا عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، وأيدني بالبراهين الظاهرة، ومما يدل على صدقي كوني ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعيًا للنبوة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدقًا لما بين يدي من التوارة أيضًا، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقًا لها ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي، فعيسى عليه الصلاة والسلام، كالأنبياء يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ محمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر به عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الأدلة الواضحة، الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقًا»[1].

«فعيسى، عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرًا بمحمدٍ، وهو أحمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيبٌ، عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن لي أسماء: أنا محمدٌ، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله،صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٥٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٤.

ورواه مسلمٌ، من حديث الزهري، به نحوه، وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه أسماءً، منها ما حفظنا فقال: (أنا محمدٌ، وأنا أحمد، والحاشر، والمقفي، ونبي الرحمة، والتوبة، والملحمة)[1]»[2].

وعن عرباض بن سارية، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إني عند الله مكتوبٌ لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدلٌ في طينته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، والرؤيا التي رأت أمي، وكذلك أمهات النبيين يرين، إنها رأت حين وضعتني أنه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصور الشام)[3].

وقد «بشر كل نبي قومه بنبينا صلى الله عليه وسلم، وأفرد الله سبحانه عيسى بالذكر في هذا الموضع؛ لأنه آخر نبي قبل نبينا صلى الله عليه وسلم، فبين بذلك أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحدًا بعد واحد، حتى انتهت بعيسى عليه السلام»[4].

قال ابن عاشور: «وإنما أخبرهم بمجيء رسولٍ من بعده؛ لأن بني إسرائيل لم يزالوا ينتظرون مجيء رسولٍ من الله يخلصهم من براثن المتسلطين عليهم، وهذا الانتظار ديدنهم، وهم موعودون لهذا المخلص لهم على لسان أنبيائهم بعد موسى، فكان وعد عيسى به كوعد من سبقه من أنبيائهم، وفاتحهم به في أول الدعوة اعتناءً بهذه الوصية، وفي الابتداء بها تنبيهٌ على أن ليس عيسى هو المخلص المنتظر، وأن المنتظر رسولٌ يأتي من بعده، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ولعظم شأن هذا الرسول الموعود به أراد الله أن يقيم للأمم التي يظهر فيها علامات ودلائل ليتبينوا بها شخصه، فيكون انطباقها فاتحةً لإقبالهم على تلقي دعوته، وإنما يعرفها حق معرفتها الراسخون في الدين من أهل الكتاب؛ لأنهم الذين يرجع إليهم الدهماء من أهل ملتهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]»[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٠٩.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٢٥، رقم ١٧١٦٣.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١/ ٣٠٥، رقم ٢٠٩١.
(٤) لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ٥٧٧.
(٥) التحرير والتنوير، ٢٨/ ١٨١

«أما اسم أحمد فقد قال بعض المفسرين: إنه علمٌ منقولٌ من المضارع للمتكلم، أو من أحمد أفعل التفضيل»[1]

وقال بعضهم: «هو علمٌ منقولٌ من الصفة، وهي تحتمل أن تكون مبالغةً من الفاعل، فيكون معناها: أنه أكثر حمدًا لله من غيره، أو من المفعول، فيكون معناها: أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره»[2].

وقد مال القرطبي إلى القول الثاني ورجحه بقوله: «وأحمد: اسم نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو اسم علم منقولٍ من صفةٍ لا من فعلٍ، فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل. فمعنى أحمد أي: أحمد الحامدين لربه. والأنبياء -صلوات الله عليهم- كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدًا.

وأما محمدٌ فمنقولٌ من صفةٍ أيضًا، وهي في معنى محمودٍ، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالمحمد هو الذي حمد مرةً بعد مرةٍ. كما أن المكرم من الكرم مرةً بعد مرةٍ، وكذلك الممدح ونحو ذلك، فاسم محمدٍ مطابقٌ لمعناه.

والله سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه، فهذا علمٌ من أعلام نبوته، إذ كان اسمه صادقًا عليه، فهو محمودٌ في الدنيا لما هدي إليه ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمودٌ في الآخرة بالشفاعة، فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ، ثم إنه لم يكن محمدًا حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه، فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمدٌ، فذكره عيسى عليه السلام فقال: اسمه أحمد. وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمدٍ؛ لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبعث كان محمدًا بالفعل، وكذلك في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته»[3].

وفي الصحيح: (لي خمسة أسماء: أنا محمدٌ، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)[4].

ومما يدل على ذكره صلى الله عليه وسلم والتبشير به في الإنجيل ووجوب اتباعه على من أدرك زمنه واستحقاقه للمدح.

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ١٠/ ١٦٦.
(٢) فتح القدير، للشوكاني، ٥/ ٢٦٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٨٣.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله،صلى الله عليه وسلم، عن جبير بن مطعم،رضي الله عنه، رقم ٣٥٣٢.

ثانيًا: صفات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد نصت هذه الآية على أن التوراة والإنجيل قد ورد فيهما ذكر النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفه بصفات يعرفها بها كل من رآه ونظر في شرعه، كما نصت على الأمر باتباعه، ومدح من اتبعوه.

وقد فصل الفخر الرازي هذه الصفات تفصيلًا فقال: إنه تعالى وصف محمدًا صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بصفاتٍ تسعٍ:

الصفة الأولى: كونه رسولًا، وقد اختص هذا اللفظ بحسب العرف بمن أرسله الله إلى الخلق لتبليغ التكاليف.

الصفة الثانية: كونه نبيًا، وهو يدل على كونه رفيع القدر عند الله تعالى.

الصفة الثالثة: كونه أميًا.

قال الزجاج: معنى الأمي الذي هو على صفة أمة العرب، قال عليه الصلاة والسلام: (إنا أمةٌ أميةٌ لا نكتب ولا نحسب)[1].

فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرءون، والنبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه أميًا، قال أهل التحقيق وكونه أميًا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوبٌ في التوراة والإنجيل؛ لأن ذلك لو لم يكن مكتوبًا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود النصارى عن قبول قوله؛ لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول قوله، فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكورًا في التوراة والإنجيل وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ استئنافًا، ويجوز أن يكون المعنى: يجدونه مكتوبًا عندهم أنه يأمرهم

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا نكتب ولا نحسب، رقم ١٩١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، عن عبد الله بن عمر،رضي الله عنهما، رقم ١٠٨٠.

بالمعروف.

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ والمراد منه: عبادة الأوثان، والقول في صفات الله بغير علمٍ، والكفر بما أنزل الله على النبيين، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين.

الصفة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الناس من قال: المراد بالطيبات الأشياء التي حكم الله بحلها، وهذا بعيدٌ لوجهين، الأول: أن على هذا التقدير تصير الآية ويحل لهم المحللات وهذ محض التكرير. الثاني: أن على هذا التقدير تخرج الآية عن الفائدة؛ لأنا لا ندري أن الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي؟ بل الواجب أن يكون المراد من الطيبات الأشياء المستطابة بحسب الطبع؛ وذلك لأن تناولها يفيد اللذة، والأصل في المنافع الحل فكانت هذه الآية دالةً على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل إلا لدليلٍ منفصلٍ.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ قال عطاءٌ عن ابن عباسٍ: يريد الميتة والدم وما ذكر في سورة المائدة إلى قوله: ذلكم فسقٌ، وأقول: كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس كان تناوله سببًا للألم، والأصل في المضار الحرمة، فكان مقتضاه أن كل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه الحرمة إلا لدليلٍ منفصلٍ.

الصفة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

الإصر: الثقل الذي يأصر صاحبه، أي: يحبسه من الحراك لثقله، والمراد منه: أن شريعة موسى عليه السلام كانت شديدةً.

وقوله: ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ المراد منه: الشدائد التي كانت في عباداتهم كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم وجعلها الله أغلالًا؛ لأن التحريم يمنع من الفعل، كما أن الغل يمنع عن الفعل، وقيل: كانت بنو إسرائيل إذا قامت إلى الصلاة لبسوا المسوح، وغلوا أيديهم إلى أعناقهم تواضعًا لله تعالى[1].

وهذه الصفات غاية في إظهار صفة الرسول صلى الله عليه وسلم لكل من رآه وأدركه من أهل الكتاب، حتى كان أحدهم إذا رآه عرفه بصفاته المذكورة في كتبهم كما يعرف ابنه الذي من صلبه.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فقد دلت هذه الآية على «أنهم يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم بما في كتبهم من البشارة به، ومن نعوته وصفاته التي لا تنطبق

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٣٨٠.

على غيره، وبما يظهر من آياته وآثار هدايته، كما يعرفون أبناءهم الذين يتولون تربيتهم وحياطتهم حتى لا يفوتهم من أمرهم شيءٌ. قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه - وكان من علماء اليهود وأحبارهم: - أنا أعلم به مني بابني، فقال له عمر رضي الله عنه: لم؟ قال: لأني لست أشك في محمدٍ أنه نبيٌّ، فأما ولدي فلعل والدته خانت. فقد اعترف من هداه الله من أحبارهم كهذا العالم الجليل، وتميمٍ الداري من علماء النصارى أنهم عرفوه - صلى الله عليه وسلم- معرفةً لا يتطرق إليها الشك»[1].

ثالثًا: صفات أتباعه:

وقد وصف الله أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الإنجيل بصفات عظيمة، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

«والمثل يطلق على الحالة العجيبة، ويطلق على النظير، أي المشابه»[2].

«وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ يقول: وصفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه، يقال منه: قد أشطأ الزرع: إذا فرخ، فهو يشطي إشطاء، وإنما مثلهم بالزرع المشطئ؛ لأنهم ابتدأوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمي»[3].

وهذا مثلٌ ضربه الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ خرج وحده، فأيده بأصحابه، كما قوى الطاقة من الزرع بما نبت منها، حتى كبرت وغلظت واستحكمت، وقال قتادة: في الإنجيل: سيخرج قومٌ ينبتون نبات الزرع.

«وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ﴾، هو على كل الأقوال وفي أي كتاب منزل: فرض مثل للنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، في أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث وحده، فكان كالزرع حبة واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء، وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل، يقال: أشطأت الشجرة إذا خرجت غصونها، وأشطأ الزرع: إذا خرج شطأه»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾، أي: وصفوا في الكتابين به ومثلوا بذلك؛ وإنما جعلوا

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٢/ ١٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٠٧.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٢٦٥.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ١٤٢.

كالزرع لأنه أول ما يخرج يكون ضعيفًا وله نموٌّ إلى حد الكمال، فكذلك المؤمنون، والشطء الفرخ، و﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون المراد أخرج الشطء وآزر الشطء، وهو أقوى وأظهر، والكلام يتم عند قوله يعجب الزراع[1].

«والضمير المنصوب في آزره عائدٌ على الزرع؛ لأن الزرع أول ما يطلع رقيق الأصل، فإذا خرجت فراخه غلظ أصله وتقوى، وكذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أقلةً ضعفاء، فلما كثروا وتقووا قاتلوا المشركين. وقال الحسن: آزره: قواه وشد أزره. وقال السدي: صار مثل الأصل في الطول. فاستغلظ: صار من الرقة إلى الغلظ. فاستوى: أي: تم نباته. على سوقه: جمع ساقٍ، كنايةٌ عن أصوله»[2].

«أي: فكذلك أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع»[3].

«وقال قتادة: مثل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوبٌ أنه سيخرج من أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم قومٌ ينبتون نباتًا كالزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»[4].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٨/ ٨٩.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٩/ ٥٠٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٣٦٢
(٤) البحر المحيط، أبو حيان، ٩/ ٥٠١.

«﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾: جملةٌ في موضع الحال، وإذا أعجب الزراع فهو أحرى أن يعجب غيرهم؛ لأنه لا عيب فيه، إذ قد أعجب العارفين بعيوب الزرع، ولو كان معيبًا لم يعجبهم، وهنا تم المثل. وليغيظ: متعلقٌ بمحذوفٍ يدل عليه الكلام قبله تقديره: جعلهم الله بهذه الصفة؛ ليغيظ بهم الكفار»[5].

«قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: إنما كثرهم وقواهم ليغيظ بهم الكفار، وقال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية. وقال ابن إدريس: لا آمن أن يكونوا قد ضارعوا الكفار، يعني الرافضة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾»[6].

وقال القرطبي: «وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يعني: أنهم يكونون قليلًا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفًا، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا، فيقوى حالًا بعد حالٍ حتى يغلظ نباته وأفراخه. فكان هذا من أصح مثلٍ وأقوى بيانٍ»[7].

(٥) المصدر السابق، ٩/ ٥٠٣.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ١٣٩، ١٤٠ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ٢٩٥.

فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم، وقال مالكٌ، رحمه الله: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمةٌ في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة[1].

موضوعات ذات صلة:

أهل الكتاب، التوراة، عيسى عليه السلام، القرآن، الكتب المنزلة، النصارى

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٣٦٢.

الإنذار

عناصر الموضوع

مفهوم الإنذار	٢٨٨
الإنذار في الاستعمال القرآني	٢٨٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٠
الأساليب القرآنية في الإنذار	٢٩٢
الإنذار وسائله وأغراضه	٢٩٥
المنذرون	٣٠٠
المنذرون ومواقفهم	٣٠٥
المنذر منه أو المحذر منه	٣١٣
عواقب عدم الاستجابة للإنذار	٣١٧

مفهوم الإنذار

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس رحمه الله: النون والذال والراء كلمةٌ تدل على تخويفٍ أو تخوفٍ، منه الإنذار: الإبلاغ؛ ولا يكاد يكون إلا في التخويف.

ونذر بالشيء، كفرح: علمه فحذره، وأنذره بالأمر إنذارًا ونذرًا -ويضم وبضمتين- ونذيرًا: أعلمه، وحذره، وخوفه في إبلاغه، والاسم: النُّذْرى بالضم-، والنذر -بضمتين- والنذير: الإنذار، كالنذارة -بالكسر-، وهذه عن الإمام الشافعي رضي الله عنه والمنذر، وجمعها: نذرٌ، وصوت القوس، والرسول، والشيب، وتناذروا: أنذر بعضهم بعضًا[1].

والإنذار: الإبلاغ، ولا يكون إلا في التخويف، والاسم النذر[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الإنذار: إخبارٌ فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور[3].

والإنذار: الإعلام بما يحذر منه، ولا يكاد يكون إلا في تخويف يسع زمانه الاحتراز، فإن لم يسع زمانه الاحتراز كان إشعارًا وإيذانًا بوقوع المحذور[4]، وهو مقصور على إبلاغ المحذر عن الأمر المخوف منه دون أن يتضمن ذكر الوعيد[5].

والغرض منه الإعلام بموضع المخافة؛ لتقع به السلامة[6].

ويمكن تعريفه بأنه: الإبلاغ عن خطر يترتب على فعل لابد من تركه؛ ليمتنع وقوع الخطر.

فالمعنى الاصطلاحي لا يختلف عن المعنى اللغوي.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٤٨١ .
(٢) انظر: لسان العرب،ابن منظور، ٥/ ٢٠٠ .
(٣) المفردات، الأصفهاني، ٧٩٧ .
(٤) انظر: التوقيف، المناوي، ١/ ٦٤ .
(٥) انظر: الكليات، الكفوي،١/ ٢٠١.
(٦) انظر: التوقيف، المناوي، ص٣٢٣ .

الإنذار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نذر) في القرآن الكريم (١٣٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٢٤) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٠	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة:٦]
الفعل المضارع	٢٦	﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام:١٣٠]
فعل الأمر	٩	﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩]
المصدر	١	﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات:٦]
اسم الفاعل	١٥	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢﴾ [الصافات:٧٢]
اسم المفعول	٥	﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾ [النمل:٥٨]
صيغة المبالغة	٤٤	﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [هود:٢]
الاسم	١٢	﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر:٥]

وجاء الإنذار في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: إخبار فيه تخويف، والنذير: المنذر، ويقع على كل شيء فيه إنذار، إنسانًا كان أو غيره[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٦٩١-٦٩٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٩٧، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٤٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ التخويف:

التخويف لغة:

الإخافة، وهو إدخال الخوف في نفس المخاطب[١].

التخويف اصطلاحًا:

إدخال الفزع في قلب المخاطب[٢]؛ حثًا على التحرز من ارتكاب محظور[٣].

الصلة بين الإنذار والتخويف:

الإنذار تخويف مع إعلام موضع المخافة، فإذا خوف الإنسان غيره وأعلمه حال ما يخوفه به فقد أنذره، وإن لم يعلمه ذلك لم يقل: أنذره[٤]، ويقال: خوفه.

٢ التهديد:

التهديد لغة:

التخويف[٥]، والتوعد بالعقوبة[٦].

التهديد اصطلاحًا:

زعزعة أمن المخاطب بالوعيد[٧]، وتخويفه بأمر مكروه مفسد لحاله.

الصلة بين الإنذار والتهديد:

الإنذار: تخويف مع إعلام موضع المخافة، أما التهديد: الوعيد والتخويف بالعقوبة[٨]، فالإنذار يتعلق بالمخوّف والمخوّف منه، أما التهديد فيتعلق بالعقوبة المحققة للمنذر.

٣ الوعيد:

الوعيد لغة:

التهديد بالشر[٩].

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٩٨ .
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور،٩/ ٩٩ .
(٣) انظر: المفردات، الأصفهاني،ص٣٠٣ .
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٤٢ .
(٥) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٥.
(٦) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٩٧٦ .
(٧) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٨٣٤ .
(٨) لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٣٣ .
(٩) انظر: تاج العروس،الزبيدي، ٩/ ٣٠٩، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر،٣/ ٢٤٦٧ .

الوعيد اصطلاحًا:

إنذار بما سيحدث من دمار ونكبات[١].

الصلة بين الإنذار والوعيد:

سبب الإنذار النصح والشفقة، أما الوعيد فهو حاصلٌ عن غضبٍ[٢].

٤ الترهيب:

الترهيب لغة:

التخويف الشديد[٣].

الترهيب اصطلاحًا:

المبالغة في إثارة القلق والاضطراب في نفس السامع ظاهرًا وباطنًا[٤] من شيء؛ ليتحاشاه.

الصلة بين الإنذار والترهيب:

الإنذار: تخويف مع إعلام موضع المخافة، أما الترهيب: «فهو كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله»[٥]، فالإنذار يتعلق بالمخوف والمخوف منه، أما الترهيب فيتعلق بنتيجة عدم الاستجابة.

٥ التبشير:

التبشير لغة:

الخبر الذي يؤثر في البشرة تغيرًا[٦].

التبشير اصطلاحًا:

الإخبار بما يفيد السرور[٧].

الصلة بين الإنذار والتبشير:

الإنذار فيه إثارة للخوف والقلق، ويؤثر في النفس تنغيصًا، بينما التبشير يعزز الأمن والاطمئنان، ويؤثر في النفس سرورًا، وعليه فإن اللفظين متضادان.

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ٣/ ٢٤٦٧ .
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٦٥ .
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٤٧، المصباح المنير، الفيومي،١/ ٢٤١، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ٢/ ٩٤٩ .
(٤) انظر: التوقيف، المناوي،ص١٨٢ .
(٥) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص٤٣٧ .
(٦) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ١٠/ ١٨٥ .
(٧) انظر: المصدر السابق .

الأساليب القرآنية في الإنذار

تنوعت أساليب القرآن في الحديث عن الإنذار وهذا ما يتضح فيما يأتي:

أولًا: أسلوب الطلب المباشر:

لقد طلب الله سبحانه وتعالى من الرسول صلى الله عليه وسلم طلبًا مباشرًا بإنذار الخلق عامة، فقال تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢].

أي: قم من مضجعك فحذر الناس من عذاب الله، قال قتادة رحمه الله: «أي: أنذر عذاب الله، ووقائعه بالأمم»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله: «فإنه لما نزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١ - ٤].

شمر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، ولما نزل عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس»[(٢)].

وقال سيد قطب رحمه الله في تفسير: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: «إنه النداء العلوي الجليل للأمر العظيم الثقيل. .، نذارة هذه البشرية وإيقاظها، وتخليصها من الشر في الدنيا، ومن النار في الآخرة، وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان. .، وهو واجب ثقيل شاق، حين يناط بفرد من البشر -مهما يكن نبيًا رسولًا- فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصي من هذا الأمر، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود! ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

والإنذار هو أظهر ما في الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال، وهم لا يشعرون، وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد، وهم لا ينقصون في ملكه شيئًا حين يضلون، ولا يزيدون في ملكه شيئًا حين يهتدون، غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية؛ ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة، ومن الشر الموبق في الدنيا، وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم، ويدخلهم جنته من فضله!»[(٣)].

ثانيًا: أسلوب خطاب الأنبياء لإنذار أقوامهم:

خاطب سبحانه وتعالى الأنبياء عليهم السلام طالبًا منهم إنذار أقوامهم، ومن ذلك

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩٢.
(٢) زاد المعاد ٣/ ١٢.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٥٤.

إنذار نوح عليه السلام لقومه:

قال تعالى طالبًا من نوح إنذار قومه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [نوح: ١].

فامتثل أمر ربه، وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢-٣].

ولكن انتفع بالإنذار من قومه القليل، وهم المؤمنون معه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠].

أما الكثير من قومه لم ينتفعوا بإنذاره لهم، وأعرضوا فأخذهم الطوفان، قال تعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

ثالثًا: أسلوب القصص:

لقد قص الله في القرآن قصص الأمم السابقة التي أنذرت فأعرضت.

فقال في سورة القمر في حق قوم نوح لما أعرضوا: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٩-١٦].

لما كذب قوم نوح استنصر بالله، فقال: إن قومي غلبوني، ولم يستجيبوا لي، فانتصر منهم بعقاب تنزله عليهم، ففتح الله أبواب السماء بماء متدفق متتابع، وفجر الأرض فصارت عيونًا ينبع منها الماء، فالتقى الماء النازل من السماء مع الماء النابع من الأرض على أمر من الله قدره في الأزل، فأغرق الجميع إلا من نجاه الله.

وقال تعالى في حق قوم عاد لما أنذروا فأعرضوا: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨-٢١].

وكذبت عاد نبيها هودًا عليه السلام، فتأملوا -يا أهل مكة- كيف كان عذابي لهم؟ وكيف كان إنذاري لغيرهم بعذابهم؟ إنا بعثنا عليهم ريحًا شديدة باردة في يوم شر وشؤم مستمر معهم إلى ورودهم جهنم، تقتلع الناس من الأرض، وترمي بهم على رءوسهم، كأنهم أصول نخل منقلع من مغرسه، فتأملوا -يا أهل مكة- كيف كان عذابي لهم؟ وكيف كان إنذاري لغيرهم بعذابهم؟

وقال تعالى في حق قوم ثمود لما أنذروا فأعرضوا: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ۝٢٤

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾

[القمر: ٢٣- ٣١].

وكذبت ثمود بما أنذرهم به رسولهم صالح عليه السلام، فبعث الله عليهم صيحة واحدة فأهلكتهم، فكانوا كيبيس الشجر يتخذ منه المحتظر حظيرة لغنمه.

وقال تعالى في حق قوم لوط لما أنذروا فأعرضوا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾

[القمر: ٣٣- ٣٧].

وكذبت قوم لوط بما أنذرهم به رسولهم لوط عليه السلام، فبعث الله عليهم ريحًا ترميهم بالحجارة، إلا آل لوط عليه السلام لم يصبهم العذاب، فقد أنقذناهم منه.

وقال تعالى في حق قوم فرعون لما أنذروا فأعرضوا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾

[القمر: ٤١- ٤٣].

وكذب قوم فرعون بالبراهين والحجج التي جاء بها موسى عليه السلام، فعاقبهم الله على تكذيبهم بها، عقوبة عزيز، لا يغلبه أحد، مقتدر لا يعجز عن شيء.

الإنذار وسائله وأغراضه

تعددت وسائل وأغراض الإنذار في القرآن وهذا ما يتضح مما يأتي:

أولًا: وسائل الإنذار:

١. الوحي:

لقن الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بـ(قل) التلقينية أنه ما يخوف قومه من العذاب إلا بوحي من الله وهو القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

قل: أيها المقترحون المتشططون إنما أنذركم بوحي يوحيه الله إلي، وبدلالات على العبر التي نصبها الله تعالى؛ لينظر فيها، كنقصان الأرض من أطرافها وغيره، ولم أبعث بآية مضطرة، ولا ما تقترحون[(١)].

ولقنه سبحانه وتعالى بأن يقول للمشركين: لقد أوحى الله إلي هذا القرآن من أجل أن أنذركم به من عذابه أن يحل بكم، وأنذر به من وصل إليه من الأمم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال الربيع بن أنسٍ رحمه الله: «حقٌّ على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو كالذي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن ينذر بالذي أنذر»[(٢)].

٢. الأنبياء:

أخبر سبحانه وتعالى أنه بعث النبيين دعاة لدينه، مبشرين من أطاع الله بالجنة، ومحذرين من كفر به وعصاه النار، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وبين سبحانه مقصد بعث الرسل، فقال: أرسلت رسلًا إلى خلقي مبشرين بثوابي، ومنذرين بعقابي؛ لئلا يكون للبشر حجة يعتذرون بها بعد إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وأخبر سبحانه وتعالى أن من آمن وصدق الرسل، وعمل صالحًا، فأولئك لا يخافون عند لقاء ربهم، ولا يحزنون على شيء فاتهم من حظوظ الدنيا، قال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وبين سبحانه وتعالى أن المقصد من

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٨٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢١٩.

إنزال القرآن عليه صلى الله عليه وسلم ؛ ليكون من رسل الله الذين يخوفون قومهم عقاب الله، فينذر بهذا الكتاب الإنس والجن أجمعين، قال تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

ثم لقن سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن من اهتدى بما في القرآن، واتبع ما جئت به، فإنما خير ذلك وجزاؤه لنفسه، ومن ضل عن الحق، فقال: قل -أيها الرسول- إنما أنا نذير لكم من عذاب الله وعقابه إن لم تؤمنوا، فأنا واحد من الرسل الذين أنذروا قومهم، وليس بيدي من الهداية شيء، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

٣. قصص السابقين:

لقن الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إن أعرض المكذبون بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الله العظيم أن يقول لهم: قد أنذرتكم عذابًا يستأصلكم مثل عذاب عاد وثمود حين كفروا بربهم وعصوا رسله، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين، صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود ومن شاكلها، ممن فعل كفعلهما؛ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف: ٢١].

أي: في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم[(١)].

وخص عادًا وثمودًا بالذكر؛ لوقوف قريش على بلادها في اليمن وفي الحجر في طريق الشام[(٢)].

فمن سنن الله أن المثيل يأخذ حكم مثيله، والشبيه يأخذ حكم شبيهه، فخوفهم بتوقع عقابٍ مثل عقاب الذين شابهوهم في الإعراض خشية أن يحل بهم ما حل بأولئك.

وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يذكر حكمه فيمن كذب رسله، وخالف أمره، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

(١) المصدر السابق ٧/ ١٥٤.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٨.

خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١- ٢٥].

والأحقاف: جمع حقفٍ -بكسرٍ فسكونٍ-، وهو الرمل العظيم المستطيل، وكانت هذه البلاد المسماة بالأحقاف منازل عادٍ، وكانت مشرفةً على البحر بين عمان وعدن[(١)].

«وقد أدت الريح ما أمرت به، فدمرت كل شيء ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أما هم، وأما أنعامهم، وأما أشياؤهم، وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يرى، إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة، لا دار فيها ولا نافخ نار، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ سنة جارية، وقدر مطرد في المجرمين»[(٢)].

٤. حوادث المستقبل (القيامة):

لقد حذر الله عباده عذاب الآخرة القريب الذي يرى فيه كل امرئ ما عمل من خير، أو اكتسب من إثم، ويقول الكافر من هول الحساب: يا ليتني كنت ترابًا فلم أبعث، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

وأمر الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بإنذار الناس، فقال: أنذر -أيها الرسول- الناس يوم الندامة حين يقضى الأمر، ويجاء بالموت كأنه كبش أملح فيذبح، ويفصل بين الخلق، فيصير أهل الإيمان إلى الجنة، وأهل الكفر إلى النار، وهم اليوم في هذه الدنيا في غفلة عما أنذروا به، فهم لا يصدقون، ولا يعملون العمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وأمره سبحانه وتعالى أن يحذر الناس يوم القيامة، وما فيه، فقال: وحذر -أيها الرسول- الناس من يوم القيامة القريب -وإن استبعدوه-؛ إذ قلوب العباد من مخافة عقاب الله قد ارتفعت من صدورهم، فتعلقت بحلوقهم، وهم ممتلئون غمًا وحزنًا، ما للظالمين من قريب ولا صاحب، ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيستجاب له، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وبين له سبحانه وتعالى المقصد من

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٤٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٧.

الوحي، فقال: كما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا؛ لتنذر أهل (مكة) ومن حولها من سائر الناس، وتنذر عذاب يوم الجمع، وهو يوم القيامة، لا شك في مجيئه، الناس فيه فريقان: فريق في الجنة، وهم الذين آمنوا بالله، واتبعوا ما جاءهم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ومنهم فريق في النار المستعرة، وهم الذين كفروا بالله، وخالفوا ما جاءهم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: وأنذر -أيها الرسول- الناس الذين أرسلتك إليهم عذاب الله يوم القيامة، وعند ذلك يقول الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: ربنا أمهلنا إلى وقت قريب نؤمن بك ونصدق رسلك، فيقال لهم توبيخًا: ألم تقسموا في حياتكم أنه لا زوال لكم عن الحياة الدنيا إلى الآخرة، فلم تصدقوا بهذا البعث؟ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

ثانيًا: أغراض الإنذار:

١. الدعوة إلى توحيد الله عز وجل:

لقد جاءت الرسالة؛ لإقرار التوحيد في حياة الناس جميعًا، قال الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: قل -أيها الرسول- لقومك: إنما أنا منذر لكم من عذاب الله أن يحل بكم؛ بسبب كفركم به، ليس هناك إله مستحق للعبادة إلا الله وحده، فهو المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله، القهار الذي قهر كل شيء وغلبه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

يقول تعالى آمرًا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذرٌ لست كما تزعمون، وما من إلهٍ إلا الله الواحد القهار، أي: هو وحده قد قهر كل شيءٍ وغلبه، رب السموات والأرض وما بينهما، أي: هو مالكٌ جميع ذلك، ومتصرفٌ فيه، العزيز الغفار، أي: غفار مع عظمته وعزته[1].

٢. الهداية:

أنزل الله عز وجل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ليهتدي الناس به، ويعرفوا الحق ويؤمنوا به ويؤثروه، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٧٠.

﴿رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

٣. التنبيه من الغفلة:

لقد بين الله للرسول صلى الله عليه وسلم الغرض من إنزال القرآن عليه، فقال: أنزلنا عليك -أيها الرسول- القرآن؛ لتحذر به قومًا لم ينذر آباؤهم من قبلك، وهم العرب، فهؤلاء القوم ساهون عن الإيمان والاستقامة على العمل الصالح، وكل أمة ينقطع عنها الإنذار تقع في الغفلة، قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: ٦].

فالغفلة أشد ما يفسد القلوب، فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته، معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة، تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحس بها أو يدركها، ودون أن ينبض أو يستقبل، ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم، الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر، أو ينبههم منبه[(١)].

٤. التذكر:

بين سبحانه وتعالى رحمته برسوله وبالمستجيبين لدعوته فقال: ما كنت -أيها الرسول- بجانب جبل الطور حين نادينا موسى، ولم تشهد شيئًا من ذلك فتعلمه، ولكنا أرسلناك رحمة من ربك؛ لتنذر قومًا لم يأتهم من قبلك من نذير؛ لعلهم يتذكرون الخير الذي جئت به فيفعلوه، والشر الذي نهيت عنه فيجتنبوه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والتذكر: هو النظر العقلي في الأسباب التي دعت إلى حكمة إنذارهم، وهي تناهي ضلالهم فوق جميع الأمم الضالة؛ إذ جمعوا إلى الإشراك مفاسد جمةً من قتل النفوس، وارتزاقٍ بالغارات وبالمقامرة، واختلاط الأنساب، وانتهاك الأعراض، فوجب تذكيرهم بما فيه صلاح حالهم»[(٢)].

٥. الإقلاع عن المخالفة:

قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

والفرار إلى الله مستعارٌ للإقلاع عما هم فيه من الإشراك وجحود البعث «أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه، ظاهرًا وباطنًا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله، وقد زال عنه المرهوب، وحصل له

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٥٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٣٤.

نهاية المراد والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فرارًا؛ لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلى الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه»[1].

٦. إقامة الحجة على الناس:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل رسلًا إلى خلقه مبشرين بثوابه، ومنذرين بعقابه؛ لئلا يكون للبشر حجة يعتذرون بها بعد إرسال الرسل، فعمهم سبحانه بالدعوة على ألسنة رسله حجةً منه وعدلًا، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

فإرسال الرسل لقطع عذر البشر إذا سئلوا عن جرائم أعمالهم، واستحقوا غضب الله وعقابه[2].

المنذرون

الحديث في هذا الموضع عن المنذِرين في القرآن، ويكون من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الله عز وجل:

الله سبحانه وتعالى هو المنذر لعباده، وهذا من رأفته ورحمته بهم؛ لئلا يتعرضوا لعقابه إذا أعرضوا، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وجميع المنذرين بعد ذلك تبع لهذا الأصل، فإذا أنذر الرسل وورثتهم فبأمره، وإذا أنذر القرآن فهو وحيه سبحانه وتعالى.

ومن استجاب لإنذاره سبحانه وتعالى وانتفع به نجا من عقابه في الدنيا والآخرة، ومن أعرض فله العذاب في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: القرآن:

أنزل الله كتابه؛ ليكون بشيرًا بالثواب العاجل والآجل لمن آمن به وعمل بمقتضاه، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل لمن كفر به، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٣- ٤].

شبه القرآن بالبشير فيما اشتمل عليه من الآيات المبشرة للمؤمنين الصالحين، وبالنذير فيما فيه من الوعيد للكافرين وأهل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٣٩.

المعاصي[1].

وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

أي: لينذر هذا القرآن المبين كل حيٍ على وجه الأرض[2].

وقال تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢].

أي: لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاؤه على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وهذا أيضًا من نعمه أن خوف عباده، وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم[3].

وقال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]. أي: مشتملٌ على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين[4].

ثالثًا: الرسل عليهم السلام:

من رحمة الله بعباده أنه ما من أمة إلا وأرسل فيها رسولًا؛ ليقيم عليهم الحجة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

أي: وما من أمةٍ خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل[5].

والحكمة في الإنذار أن لا يبقى الضلال رائجًا، وأن يتخول الله عباده بالدعوة إلى الحق، سواء عملوا بها، أو لم يعلموا، فإنها لا تخلو من أثرٍ صالحٍ فيهم، وإنما لم يسم القرآن إلا الأنبياء والرسل الذين كانوا في الأمم السامية القاطنة في بلاد العرب وما جاورها؛ لأن القرآن حين نزوله ابتدأ بخطاب العرب ولهم علمٌ بهؤلاء الأقوام، فقد علموا أخبارهم، وشهدوا آثارهم، فكان الاعتبار بهم أوقع، ولو ذكرت لهم رسل أممٍ لا يعرفونهم لكان إخبارهم عنهم مجرد حكايةٍ، ولم يكن فيه استدلال واعتبار[6].

و أيضًا من حكمة إرسال الرسل إقامة حجته على عباده؛ حتى لا يكون لهم عذر.

روى مسلم في صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس أحدٌ أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحدٌ أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحدٌ أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل)[7].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٣٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٢٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٥٧
(٥) المصدر السابق ٦/ ٤٨١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٩٧.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة،

وقد كثر في القرآن ذكر المقصد من الرسل بأنه الإنذار والتبشير، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل في الأمم السابقة مرسلين فأنذروهم بالعذاب فكفروا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم؛ ليكون من رسل الله الذين يخوفون قومهم عقاب الله، فتنذر بهذا التنزيل الإنس والجن أجمعين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء ١٩١-١٩٤].

وقد بين سبحانه المقصد من إرسال الرسل، وهو لئلا يكون للبشر حجة يعتذرون بها بعد إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

رابعًا: أهل العلم:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال ابن القيم رحمه الله: ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم.

وقد اختلف في الآية:

فقيل: المعنى أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم، بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة، ثم ترجع تعلم القاعدين، فيكون النفير على هذا نفير تعلم.

وقالت طائفة أخرى: المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ للفرقة التي نفرت منها طائفة، وهذا قول الأكثرين، وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله.

وعلى القولين فهو ترغيب في التفقه في الدين وتعلمه وتعليمه، فإن ذلك يعدل الجهاد، بل ربما يكون أفضل منه[1].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وإذ كان من مقاصد الإسلام بث علومه وآدابه بين الأمة، وتكوين جماعاتٍ قائمةٍ بعلم الدين، وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة

باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، ٤/ ٢١١٤، رقم ٢٧٦٠.

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٥٦.

الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عقب التحريض على الجهاد بما يبين أن ليس من المصلحة تمحض المسلمين كلهم لأن يكونوا غزاةً أو جندًا، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله من حيث إن كليهما يقوم بعملٍ لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسع سلطانه، وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده؛ لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه، فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعةٍ صالحةٍ من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان؛ ولذلك لم تثبت دولة التتار إلا بعد أن امتزجوا بعلماء المدن التي فتحوها، ووكلوا أمر الدولة إليهم»[(١)].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: «أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم»[(٢)].

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصًا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علمًا فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم به، فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علمًا ومنحه فهمًا.

وفي هذه الآية أيضًا: دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمة، وهي: «أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور»[(٣)].

خامسًا: المنذرون من الجن:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

أي: نصحًا منهم لهم وإقامة لحجة الله عليهم، وقيضهم الله معونة لرسوله صلى

(١) التحرير والتنوير ١١/ ٥٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٥.
(٣) المصدر السابق.

الله عليه وسلم في نشر دعوته في الجن[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذرٌ، وليس فيهم رسلٌ، ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل نبي بعثه الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته.

فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

فالمراد هنا مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس[2].

قال سيد قطب رحمه الله في اهتمام الجن بإنذار قومهم: «فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه، والإنذار به، وهي حالة من امتلأ حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعًا إلى الحركة به، والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام»[3].

(١) المصدر السابق، ص ٧٨٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٨٠.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٣.

المنذَرون ومواقفهم

الحديث في هذا الموضع يكون عن المُنْذَرين ومواقفهم من المُنْذِرين:

١. الكافرون المعاندون:

أخبرنا سبحانه وتعالى في القرآن عن مواقف الكفار المعاندين من الإنذار، والتي منها:

١. الجحود.

أخبر سبحانه أنه ما أرسل في قرية من رسول يدعو الى توحيد الله وإفراده بالعبادة إلا قال رءوسهم وقادتهم في الشر من أهلها: إنا بالذي جئتم به -أيها الرسل- جاحدون.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

«هذه تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مما مني به من قومه قريش، من الكفر والافتخار بالأموال والأولاد، وأن ما ذكروا من ذلك هو عادة المترفين مع أنبيائهم، فلا يهمنك أمرهم، ونص على المترفين؛ لأنهم أول المكذبين للرسل، لما شغلوا به من زخرفة الدنيا، وما غلب على عقولهم منها، فقلوبهم أبدًا مشغولةٌ منهمكةٌ»[1].

قال سيد قطب رحمه الله: «فهي قصة معادة، وموقف مكرور، على مدار الدهور، وهو الترف يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة ويغشيها، فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى، وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور».

والمترفون تخدعهم القيم الزائفة، والنعيم الزائل، ويغرهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله، ويخالون أنه آية الرضا عنهم، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء، والقرآن يضع لهم ميزان القيم كما هي عند الله، ويبين لهم أن بسط الرزق وقبضه ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة، ولا يدل على رضا ولا غضب من الله ولا يمنع بذاته عذابًا، ولا يدفع إلى عذاب، قد يغدق الله على أهل الشر استدراجًا لهم؛ ليزدادوا سوءًا وبطرًا وإفسادًا، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة -وفق حكمته وتقديره- بهذا الرصيد الأثيم! وقد يحرمهم فيزدادون شرًا وفسوقًا وجريمة، وجزعًا وضيقًا ويأسًا من رحمة الله، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٥٣.

فقد يغدق الله على أهل الخير؛ ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم في الرزق، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان، والفعل الجميل، ويذخروا بهذا كله رصيدًا من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم، وبما يعلمه من الخير في قلوبهم، وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان، وثقتهم بربهم، ورجاءهم فيه، واطمئنانهم إلى قدره، ورضاهم بربهم وحده، وهو خير وأبقى، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان[1].

٢. التكذيب.

أخبر سبحانه وتعالى أن موقف الأقوام الذين أرسل فيهم المنذرون التكذيب، قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣].

وقال عن قوم لوط عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٣].

وقال عن قوم نوح عليه السلام ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

وقال عن قوم عاد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣].

وأخبر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن من سنة الله مقابلة الدعوة بالتكذيب، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤].

٣. التعجب.

أخبر سبحانه وتعالى عن عجب الأقوام السابقة من إرسال رسول منهم، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

وقال على لسان هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجلٍ منكم رحمةً بكم، ولطفًا وإحسانًا إليكم؛ لينذركم، ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به، ولعلكم ترحمون[2].

وبين سبحانه وتعالى في مواضع أخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك، قال في عجب قوم نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

وقال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٨٨.

وقال عن الأمم السابقة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وبين سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن الذين جحدوا ما أنزل إليك من ربك استكبارًا وطغيانًا، لن يقع منهم الإيمان، سواء أخوفتهم وحذرتهم من عذاب الله، أم تركت ذلك؛ لإصرارهم على باطلهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠].

فالإنذار لا ينفع قلبًا غير مهيأ للإيمان، مشدود عنه، محال بينه وبينه بالسدود، فالإنذار لا يخلق القلوب، إنما يوقظ القلب الحي المستعد للتلقي.

٤. الإعراض.

أخبر سبحانه وتعالى أن الذين جحدوا أن الله هو الإله الحق معرضون عما أنذرهم به القرآن، لا يتعظون ولا يتفكرون، قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

٢. الناس كافة:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم بلاغًا وإعلامًا للناس؛ لنصحهم وتخويفهم، ولكي يوقنوا أن الله هو الإله الواحد، فيعبدوه وحده لا شريك له، وليتعظ به أصحاب العقول السليمة، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

«إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار هي أن يعلم الناس: ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة.

وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم، المقصود هو الدينونة لله وحده، ما دام أنه لا إله غيره، فالإله هو الذي يستحق أن يكون ربًا -أي: حاكمًا وسيدًا ومتصرفًا ومشرعًا وموجهًا-، وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافًا جوهريًا عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد -أي حاكمية العباد للعباد ودينونة العباد للعباد-، وهو اختلافٌ يتناول الاعتقاد والتصور، ويتناول الشعائر والمناسك، كما يتناول الأخلاق والسلوك، والقيم والموازين، وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكل

جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء.

إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل، وليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمائر، وحدود العقيدة أبعد كثيرًا من مجرد الاعتقاد الساكن، إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة، وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة، كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة، فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم، كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء»[(١)].

٣. العالمون:

أخبر سبحانه وتعالى في القرآن أنه نزل القرآن الفارق بين الحق والباطل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليكون رسولًا للإنس والجن، مخوفًا لهم من عذاب الله.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

فالمراد بـ(العالمين) هنا الإنس والجن؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان رسولًا إليهما، ونذيرًا لهما[(٢)].

٤. الأقوام:

أخبر سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أرسله رحمة؛ لينذر قومًا لم يأتهم من قبله من نذير؛ لعلهم يتذكرون الخير الذي جاء به فيفعلوه، والشر الذي نهى عنه فيجتنبوه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: ٤٦].

وقال سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم: واذكر -أيها الرسول- نبي الله هودًا -أخا عاد في النسب لا في الدين- حين أنذر قومه أن يحل بهم عقاب الله، وهم في منازلهم المعروفة بـ(الأحقاف): وهي الرمال الكثيرة جنوب الجزيرة العربية، وقد مضت الرسل بإنذار قومها قبل هود وبعده، بأن لا تشركوا مع الله شيئًا في عبادتكم له، إني أخاف عليكم عذاب الله في يوم يعظم هوله، وهو يوم القيامة.

وقال سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام يا قومي إني نذير لكم بين الإنذار من عذاب الله إن عصيتموه.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢].

وقال سبحانه وتعالى عن قوم فرعون: ولقد جاء أتباع فرعون وقومه إنذارنا بالعقوبة لهم على كفرهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤١].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١١٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢.

قال الشنقيطي رحمه الله: «قوله: ﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ قيل: هو جمع نذيرٍ، وهو الرسول، وقيل: هو مصدرٌ بمعنى الإنذار، فعلى أنه مصدرٌ فقد بينت الآيات القرآنية بكثرةٍ أن الذي جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون، وعلى أنه جمع نذيرٍ أي منذرٍ، فالمراد به موسى وهارون، وقد جاء في آياتٍ كثيرةٍ إرسال موسى وهارون لفرعون، كقوله تعالى في طه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

ثم بين تعالى إنذارهما له في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨][1]».

وهنا تساؤل: لماذا جمع النذر؟

قال الشنقيطي رحمه الله: «لأن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع المرسلين، ومن كذب نذيرًا واحدًا فقد كذب جميع النذر؛ لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدةٌ، وهي مضمون لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥][2]».

٥. العشيرة الأقربون:

أمر الله رسوله أن يحذر من عذابه الأقرب فالأقرب من قومه، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا، فصعد عليه ثم نادى: (يا صباحاه) فاجتمع الناس إليه بين رجلٍ يجيء إليه وبين رجلٍ يبعث رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا بني عبد المطلب، يا بني فهرٍ، يا بني لؤيٍ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟) قالوا: نعم، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهبٍ: تبًا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١][3].

فلما أمر رسول الله بإنذار عشيرته امتثل هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يبق صلى الله عليه وسلم من مقدوره شيئًا، من نصحهم، وهدايتهم، إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض[4].

٦. أم القرى وما حولها:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٨٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة تبت يدا أبي لهب، رقم ٤٩٧١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٩٨.

على الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ليخوف به من عذاب الله وبأسه أهل (مكة) ومن حولها من أهل أقطار الأرض كلها، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَٰرَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

كما أخبر سبحانه وتعالى أنه كما أوحى إلى الأنبياء قبل الرسول الكريم أوحى إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قرآنًا عربيًا؛ لينذر أهل (مكة) ومن حولها من سائر الناس، وينذر عذاب يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وأم القرى: هي مكة ومن حولها من سائر البلاد شرقًا وغربًا، وسميت مكة أم القرى؛ لأنها أشرف من سائر البلاد.

روى الترمذي بسنده عن عبد الله ابن عدي بن حمراء قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفًا على الحزورة، فقال: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)[1].

٧. الظالمون:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل كتابه بلسان عربي؛ لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وبشرى للذين أطاعوا الله، فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

والذين ظلموا هم المشركون، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ويلحق بهم الذين ظلموا أنفسهم من المؤمنين؛ ولذلك قوبل بالمحسنين وهم المؤمنون الأتقياء؛ لأن المراد: ظلم النفس، ويقابله الإحسان، والنذارة مراتب، والبشارة مثلها[2].

٨. المؤمنون:

لقن الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ما هو إلا رسول الله أرسله؛ ليخوف من عقابه، ويبشر بثوابه قومًا يصدقونه، ويعملون بشرعه، فقال: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والرسول صلى الله عليه وسلم نذير وبشير للناس أجمعين، ولكن الذين (يؤمنون) هم الذين ينتفعون بما معه من

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في فضل مكة، ٥/ ٧٢٢، رقم ٣٩٢٥. وصححه الألباني في الجامع الصغير، ٢/ ١١٩٢، رقم ٧٠٨٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٦.

النذارة والبشارة، فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه، وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذي جاء به.

ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين.

إن الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي إلا للقلب المفتوح لها، والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها، وإن هذا القرآن لا يفتح كنوزه، ولا يكشف أسراره، ولا يعطي ثماره إلا لقوم يؤمنون[(١)].

كما أخبر سبحانه وتعالى أن المؤمنين ينذر بعضهم بعضًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

من صفات المؤمنين المنتفعين بالإنذار:

١. القلوب الحية.

أخبر سبحانه وتعالى أن الإنذار يؤثر في صاحب القلب الحي المستنير البصيرة، قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

عن قتادة رحمه الله: «حي القلب، حي البصر»[(٢)].

فأخبر سبحانه وتعالى أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان: حيٌّ قابلٌ للانتفاع، يقبل الإنذار وينتفع به، وميتٌ لا يقبل الإنذار، ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكيةٍ، ولا قابلةٍ لخيرٍ ألبتة[(٣)].

٢. الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة، وينتفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها؛ لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر[(٤)].

٣. الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم.

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤١٠.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٤٨١.
(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٣٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٧.

عليه وسلم أن يخوف بالقرآن الذين يعلمون أنهم يحشرون إلى ربهم، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

وخص الذين يخافون أن يحشروا؛ لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حل بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر؛ لجحوده به وإنكاره فإنه لا يؤثر فيه ذلك[(١)].

وعرفوا بالموصول؛ لما تدل عليه الصلة من المدح، ومن التعليل بتوجيه إنذاره إليهم دون غيرهم؛ لأن الإنذار للذين يخافون أن يحشروا إنذارٌ نافعٌ، خلافًا لحال الذين ينكرون الحشر، فلا يخافونه فضلًا عن الاحتياج إلى شفعاء.

و﴿أَن يُحْشَرُوا﴾: مفعول ﴿يَخَافُونَ﴾، أي: يخافون الحشر إلى ربهم فهم يقدمون الأعمال الصالحة وينتهون عما نهاهم خيفة أن يلقوا الله وهو غير راضٍ عنهم، وخوف الحشر يقتضي الإيمان بوقوعه[(٢)].

٤. المتبعون للذكر.

بين الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم من ينتفعون بالإنذار، فقال: إنما ينفع تحذيرك من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من أحكام الله، وخاف الرحمن، حيث لا يراه أحد إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

واتباع الذكر: هو العمل بما في كتاب الله تعالى، والاقتداء به[(٣)].

والذي اتبع القرآن، وخشي الرحمن دون أن يراه هو الذي ينتفع بالإنذار، فكأنه هو وحده الذي وجه إليه الإنذار. وكأنما الرسول صلى الله عليه وسلم قد خصه به، وإن كان قد عمم، إلا أن أولئك حيل بينهم وبين تلقيه، فانحصر في من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب.

وهذا يستحق التبشير بعد انتفاعه بالإنذار: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصر، والأجر الكريم على خشية الرحمن بالغيب، واتباعه لما أنزل الرحمن من الذكر، وهما متلازمان في القلب، فما تحل خشية الله في قلب إلا ويتبعها العمل بما أنزل، والاستقامة على النهج الذي أراد[(٤)].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٣٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٤٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٤٨.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٦٠.

المنذَر منه أو المحذر منه

هذا الموضع يتحدث عن المنذر منه أو المحذر منه فيما يأتي:

أولًا: عقوبات دنيوية:

١. طمس الأعين:

أخبر سبحانه عن لوط عليه السلام فقال: ولقد خوف لوط قومه بأس الله وعذابه، فلم يسمعوا له، بل شكوا في ذلك، وكذبوه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٦-٣٨].

قال ابن زيدٍ رحمه الله: «هؤلاء قوم لوطٍ حين راودوه عن ضيفه، طمس الله أعينهم، فكان ينهاهم عن عملهم الخبيث الذي كانوا يعملون، فقالوا: إنا لا نترك عملنا، فإياك أن تنزل أحدًا أو تضيفه، أو تدعه ينزل عليك، فإنا لا نتركه ولا نترك عملنا، قال: فلما جاءه المرسلون خرجت امرأته الشقية من الشق، فأتتهم فدعتهم، وقالت لهم: تعالوا فإنه قد جاء قومٌ لم أر قط أحسن وجوهًا منهم، ولا أحسن ثيابًا، ولا أطيب أرواحًا منهم، قال: فجاءوه يهرعون إليه، فقال: إن هؤلاء ضيفي، فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي، قالوا: أولم ننهك عن العالمين؟ أليس قد تقدمنا إليك وأعذرنا فيما بيننا بينك؟ قال: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فقال له جبريل عليه السلام: ما يهولك من هؤلاء؟ قال: أما ترى ما يريدون؟ فقال: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك، لتصنعن هذا الأمر سرًا، وليكونن فيه بلاءٌ؛ قال: فنشر جبريل عليه السلام جناحًا من أجنحته، فاختلس به أبصارهم، فطمس أعينهم، فجعلوا يجول بعضهم في بعضٍ»[(١)].

٢. الصاعقة:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

الصاعقة: نارٌ تخرج مع البرق تحرق ما تصيبه، وتطلق على الحادثة المبيرة السريعة الإهلاك[(٢)].

٣. المطر المدمر:

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

قال ابن عطية رحمه الله: «(المطر) الذي مطر عليهم هي حجارة السجيل، أهلكت جميعهم، وهذه الآية أصل لمن جعل من الفقهاء الرجم في اللوطية»[(٣)]. وسمي ما أصابهم من الحجارة مطرًا؛ لأنه نزل عليهم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/ ١٥١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٥٣.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٥.

من الجو، وقيل: هو من مقذوفات براكين في بلادهم أثارتها زلازل الخسف، فهو تشبيهٌ بليغٌ[1].

٤. العذاب الشديد:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات (١٧٧)].

أي: فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم، وقال السدي رحمه الله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني: بدارهم، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: فبئس ما يصبحون، أي: بئس الصباح صباحهم[2].

وفي هذا المعنى روى البخاري بسنده عن أنسٍ رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى خيبر ليلًا، وكان إذا أتى قومًا بليلٍ لم يغر بهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمدٌ والله، محمدٌ والخميس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾)»[3].

وذكر الصباح؛ لأنه من علائق الهيئة المشبه بها، فإن شأن الغارة أن تكون في الصباح؛ ولذلك كان نذير المجيء بغارة عدوٍ ينادي: يا صباحاه! نداء ندبةٍ وتفجعٍ، واعلم أن في اختيار هذا التمثيل البديع معنًى بديعًا من الإيماء إلى أن العذاب الذي وعدوه هو ما أصابهم يوم بدرٍ من قتلٍ وأسرٍ على طريقة التورية[4].

٥. الصيحة:

أخبر سبحانه وتعالى عن تكذيب ثمود بالآيات التي أنذروا بها، ومصيرهم بعد التكذيب، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٢٣-٣١].

والصيحة: الصاعقة، وهي المعبر عنها بالطاغية في سورة الحاقة، وفي سورة الأعراف بالرجفة، وهي صاعقةٌ عظيمةٌ خارقةٌ للعادة أهلكتهم؛ ولذلك وصفت بـ(واحدةٍ)؛ للدلالة على أنها خارقةٌ للعادة؛ إذ أتت على قبيلةٍ كاملةٍ وهم أصحاب

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/ ١٣١، رقم ٤١٩٧، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته، ثم يتزوجها، ٢/ ١٠٤٥، رقم ١٣٦٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٩٨.

الحجر[1] «فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقيةٌ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد ويبس الزرع والنبات»[2].

ثانيًا: عقوبات أخروية:

أولًا: أهوال القيامة:

١. يوم الجمع:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

أي: تخوفهم إياه؛ لما فيه من عذاب من كفر، وسمي يوم الجمع؛ لاجتماع أهل الأرض فيه بأهل السماء، أو لاجتماع بني آدم للعرض[3].

وقال الرازي رحمه الله: وفي تسميته بيوم الجمع وجوهٌ:

الأول: أن الخلائق يجمعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾[التغابن: ٩].

فيجتمع فيه أهل السموات مع أهل الأرض.

الثاني: أنه يجمع بين الأرواح والأجساد.

الثالث: يجمع بين كل عاملٍ وعمله.

الرابع: يجمع بين الظالم والمظلوم[4].

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرةٌ، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[التغابن: ٩].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٢٥].

٢. يوم الآزفة:

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

يعني: يوم القيامة، سميت بذلك؛ لأنها قريبةٌ؛ إذ كل ما هو آتٍ قريبٌ، نظيره قوله عز وجل: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧].

أي: قربت القيامة[5].

عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه ينادي أهل الجنة وأهل النار: هو الخلود

(١) المصدر السابق ٢٧/ ٢٠٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٧.
(٤) مفاتيح الغيب، ٢٧/ ٥٨٠.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٤٤.

أبد الآبدين، قال: فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتًا من فرحة لماتوا، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتًا من شهقة لماتوا، فذلك قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨][(١)].

وعن الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

قال: « أزفت والله عقولهم، وطارت قلوبهم، فترددت في أجوافهم بالغصص إلى حناجرهم، لما أمر بهم ملك يسوقهم إلى النار، فيقول بعضهم لبعض: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: ٥٣].

فينادون: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]»[(٢)]

قال سيد قطب رحمه الله: «اللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة، والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم، والكظم يكربهم، ويثقل على صدورهم وهم لا يجدون حميمًا يعطف عليهم، ولا شفيعًا ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب! وهم بارزون في هذا اليوم لا يخفى على الله منهم شيء»[(٣)].

٣. يوم الحسرة:

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: وأنذر يا محمد هؤلاء المشركين بالله يوم حسرتهم وندمهم، على ما فرطوا في جنب الله، وأورثت مساكنهم من الجنة أهل الإيمان بالله والطاعة له، وأدخلوهم مساكن أهل الإيمان بالله من النار، وأيقن الفريقان بالخلود الدائم، والحياة التي لا موت بعدها، فيا لها حسرة وندامة[(٤)].

روى مسلم بسنده عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبشٌ أملح -زاد أبو كريبٍ: فيوقف بين الجنة والنار، واتفقا في باقي الحديث- فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت). قال: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:

(١) انظر: التخويف من النار، ابن رجب ١/ ١٥٣.
(٢) صفة النار، ابن أبي الدنيا ص١٣١.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٧٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٤٤.

٣٩]. وأشار بيده إلى الدنيا[(١)].

ثانيًا: النار:

قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

قال مجاهدٌ رحمه الله: أي: توهج[(٢)].

وقال ابن عاشور رحمه الله: هذه نارٌ خاصةٌ أعدت للكافرين، فهي التي في قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤].

والقرينة على ذلك قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧][(٣)].

وفي هذا المعنى روى الإمام أحمد بسنده عن سماك بن حربٍ، سمعت النعمان بن بشيرٍ يخطب يقول: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يقول: (أنذرتكم النار) حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا، قال: حتى وقعت خميصةٌ كانت على عاتقه عند رجليه»[(٤)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٨٨، رقم ٢٨٤٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٠٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٩٠.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٣٤٨، رقم ١٨٣٩٨.
وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة، رقم ٥٦٨٧.

عواقب عدم الاستجابة للإنذار

عدم الاستجابة للإنذار له عواقب وخيمة نتناولها فيما يأتي:

أولًا: عواقب دنيوية:

١ عاقبة قوم نوح: الغرق.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١- ٧٣].

يقول تعالى ذكره: فكذب نوحًا قومه فيما أخبرهم به عن الله من الرسالة والوحي، فنجيناه ومن معه ممن حمل معه في الفلك، يعني في السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ يقول: وجعلنا الذين نجينا مع نوحٍ في السفينة خلائف في الأرض من قومه الذين كذبوه بعد أن أغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، يعني حججنا وأدلتنا على توحيدنا، ورسالة رسولنا نوحٍ، يقول الله لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: فانظر يا محمد كيف كان عاقبة

المنذرين، وهم الذين أنذرهم نوحٌ عقاب الله على تكذيبهم إياه وعبادتهم الأصنام.

يقول له جل ثناؤه: انظر ماذا أعقبهم تكذيبهم رسولهم؟ فإن عاقبة من كذبك من قومك إن تمادوا في كفرهم وطغيانهم على ربهم نحو الذي كان من عاقبة قوم نوحٍ حين كذبوه.

يقول جل ثناؤه: فليحذروا أن يحل بهم مثل الذي حل بهم إن لم يتوبوا[1].

قال صاحب المنار رحمه الله: «قدم ذكر تنجية المؤمنين واستخلافهم على إغراق المكذبين وقطع دابرهم؛ لأنه هو الأهم في سياق صدق الوعد والوعيد من وجهين:

أولهما: تقديم مصداق الوعد لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتسرية حزنه على قومه ومنهم.

وثانيهما: كونه هو الأظهر في الحجة على أنهما -أي: الوعد والوعيد- من الله تعالى القادر على إيقاعهما، على خلاف ما يعتقد المشركون المكذبون المغرورون بكثرتهم، وقلة أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وخلاف الأصل المعهود في المصائب العامة في العادة، وهو أنها تصيب الصالح والطالح على سواءٍ، فلا تمييز فيها ولا استثناء، ولكنه هو الذي جرت به سنة الله تعالى في مكذبي الرسل من بعد نوحٍ، فكان آيةً لهم، فلولا أن الأمر بيد الله على وفق وعده ووعيده لما هلك الألوف الكثيرون، ونجا أفرادٌ قليلون لهم صفةٌ خاصةٌ أخرجهم منهم تصديقًا لخبر رسولهم، وما سيق هذا النبأ هنا إلا لتقرير هذا المعنى»[2].

فكانت عاقبة المكذبين الهلاك المخزي، واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لومًا، ولا ترى إلا قدحًا وذمًا.

هذه سنة الله في الأرض، وهذا وعده لأوليائه فيها، فإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة مرة، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق، وأن تستيقن أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء وهي ماضية في الطريق، والله لا يخدع أولياءه سبحانه، ولا يعجز عن نصرهم بقوته، ولا يسلمهم كذلك لأعدائه، ولكنه يعلمهم ويدربهم ويزودهم -في الابتلاء- بزاد الطريق[3].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن عقاب الأمم المكذبة في قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٣٦.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٣٧٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٨١٢.

﴿يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

أشار جل وعلا في هذه الآيات الكريمة إلى إهلاك عادٍ وثمود وقارون وفرعون وهامان، ثم صرح بأنه أخذ كلًا منهم بذنبه، ثم فصل على سبيل ما يسمى في البديع باللف والنشر المرتب أسباب إهلاكهم.

٢. إهلاك عاد بالريح العقيم.

قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وهي: الريح، يعني: عادًا، بدليل قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١].

٣. إهلاك ثمود بالصيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

يعني: ثمود، بدليل قوله تعالى فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧ – ٦٨].

٤. إهلاك قارون بالخسف.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

يعني: قارون، بدليل قوله تعالى فيه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

٥. إهلاك فرعون بالغرق.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

يعني: فرعون وهامان، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٨٢].

ثانيًا: عواقب أخروية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٧١-٧٤].

يخبرتعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهةً أخرى، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرونهم بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم[(١)].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والأمر بالنظر مستعملٌ في التعجيب والتهويل، فإن أريد بالعاقبة عاقبتهم في الدنيا فالنظر بصريٌ، وإن أريد عاقبتهم في الآخرة كما يقتضيه السياق فالنظر قلبيٌ، ولا مانع من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٩.

إرادة الأمرين واستعمال المشترك في المعنيين»[1].

موضوعات ذات صلة:

البشرى، الترغيب، الترهيب، الدعوة، النصيحة

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٢٨.

الإنسان

عناصر الموضوع

مفهوم الإنسان	٣٢٢
الإنسان في الاستعمال القرآني	٣٢٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٤
الغاية من خلق الإنسان	٣٢٨
خلق الإنسان	٣٣٢
الإنسان بين الإيمان والكفر	٣٤٩
صفات الإنسان	٣٥٤
الإنسان والشيطان	٣٦٥
نداءاتٌ ووصايا للإنسان	٣٧٠

المجلد الخامس

مفهوم الإنسان

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (أ ن س) في اللغة حول معنيين رئيسين هما: الظهور والنسيان.

الأول: الظهور:

قال ابن فارسٍ: «الهمزة والنون والسين أصلٌ واحدٌ، وهو ظهور الشيء، وكل شيءٍ خالف طريقة التوحش. قالوا: الإنس خلاف الجن، وسموا لظهورهم. يقال: آنست الشيء، إذا رأيته، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾[النساء: ٦]. والأنس: أنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه»[(١)]. فالإنسان: من الإنس خلاف الجن، أو من الأنس خلاف النفور، والإنسي منسوبٌ إلى الإنس، يقال ذلك لمن كثر أنسه، ولكل ما يؤنس به[(٢)].

الثاني: النسيان:

أورد ابن منظور في لسان العرب عن ابن عباسٍ- رضي الله عنهما- أنه قال: «إنما سمي الإنسان إنسانًا؛ لأنه عهد إليه فنسي»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر أبو البقاء الكفوي أن بعض الناس جعل الإنسان هو: المعنى القائم بالبدن، ولا مدخل للبدن في مسماه، وهو قول الأحناف والغزالي، وجعله آخرون الهيكل المحسوس، وهو قول جمهور المتكلمين[(٤)].

وقد أورد الأشعري في (مقالات الإسلاميين) تسعة عشر قولًا في تعريف الإنسان[(٥)]، أرجحها القول الثالث، وذلك أن ماهية الإنسان وحقيقته لا تكون من دون جسدٍ وروحٍ، فالإنسان مجموع الروح والجسد، ولذا يسميه بعضهم حيٌّ ناطقٌ أو حيوانٌ ناطقٌ،كما عرفه الجرجاني بقوله: الإنسان هو الحيوان الناطق[(٦)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٤٧.
والأثر أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٨/ ٢٦٨٧، رقم ١٥١١٣.
(٤) الكليات، الكفوي ص١٩٨-١٩٩.
(٥) مقالات الإسلاميين، الأشعري ٢/ ٢٥-٢٨.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص٣٨.

الإنسان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أنس) في القرآن (٩٧) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦]
الفعل المضارع	١	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [٢٧:]
اسم الفاعل	١	﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب:٥٣]
اسم	٩٠	﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان:٢]

وجاء الإنسان في القرآن على ثلاثة أوجه[(٢)]:

الأول: آدم عليه السلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [المؤمنون:١٢].

الثاني: جنس بني آدم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾ [النازعات:٣٥].

الثالث: أحد أبناء آدم بعينه، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ [العلق:٦]. أريد به: أبو جهل.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٩٣-٩٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ٦٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٣١-٣٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص١٧٦-١٨٣، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ١٢٩-١٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ بنو آدم:

بنو آدم لغة:

بنو: أصلها: بنون، حذفت النون للإضافة، وهي جمع ابن، وتجمع أيضًا على أبناء[١].

وآدم: أبو البشر.

وأديم كل شيء: ظاهر جلده، وأدمة الأرض: وجهها، وقيل سمي آدم عليه السلام لأنه خلق من أدمة الأرض، وقيل: بل من أدمةٍ جعلت فيه[٢].

بنو آدم اصطلاحًا:

هم الناس[٣]، وبنو أبي البشر[٤].

الصلة بين الإنسان وبني آدم:

من الألفاظ التي يستعملها القرآن مرادفةً للفظ (الإنسان) لفظ (بني آدم)، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم سبع مراتٍ، ومن خلال القراءة المتأنية لهذه المواضع تبين أن هذه المواضع فيها تذكير بأن الإنسان له أصلٌ واحدٌ، وهو آدم عليه السلام، وفيها تذكيرٌ وإحالةٌ إلى الحيثيات الملابسة لقصة آدم عليه السلام، واستدعاء لأحداث تلك القصة وللمعاني المرتبطة بها.

٢ الإنس:

الإنس لغة:

جماعة الناس، والجمع أناسٌ، وهم الأنس. تقول: رأيت بمكان كذا وكذا أنسًا كثيرًا، أي: ناسًا كثيرًا. والإنس: خلاف الجن، والإنس خلاف النفور، والإنسي منسوبٌ إلى الإنس. والإنس: البشر، الواحد إنسيٌ وأنسيٌ أيضًا، والجمع أناسي[٥].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٨٩ .
(٢) انظر: العين،الفراهيدي، ٨/ ٨٨ .
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣ .
(٤) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص١٤
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ٩٠٤، مختار الصحاح، الرازي ص٢٤، لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٤٧.

الإنس اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، وهم: بنو آدم، سموا بذلك؛ لأنهم لا يعيشون بدون إيناسٍ، فهم يأنس بعضهم ببعضٍ، ويتحرك بعضهم إلى بعض[(١)].

وقيل: سمي بذلك؛ لظهوره، وإدراك البصر إياه، فيقال: آنست الشيء: إذا أبصرته، فهو بذلك ضد الجن.

الصلة بين الإنسان والإنس:

الإنسان في الاستعمال القرآني غير الإنس وإن كان بينهما ملحظٌ مشتركٌ من الأصل اللغوي لمادة (أ ن س) في دلالتها على نقيض التوحش،إلا أن لفظ (الإنس) يأتي دائمًا مع لفظ (الجن) على وجه التقابل، يطرد ذلك ولا يتخلف في كل الآيات التي ورد فيها ذكر (الإنس) وعددها ثماني عشرة آية[(٢)]، ومن خلال القراءة المتأنية لتلك الآيات تبين أن الإنسية تعني عدم التوحش، وهو المفهوم صراحةً من مقابلتها بالجن في دلالتها أصلًا على الخفاء الذي هو قرين التوحش، وبهذه الإنسية يتميز جنسنا عن أجناسٍ أخرى خفيةٍ مجهولةٍ لا تنتمي إلينا ولا تحيا حياتنا[(٣)].

٣ الناس:

الناس لغة:

اسمٌ للجمع من بني آدم، واحده: إنسانٌ من غير لفظه، قيل: أصله أناسٌ، فحذف فاؤه لما أدخل عليه الألف واللام، وقيل: قلب من نسي، وأصله إنسيان على إفعلان، وقيل: أصله من ناس ينوس إذا اضطرب.

والناس قد يذكر ويراد به الفضلاء دون غيرهم في تناوله اسم الناس تجوزًا، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية، وهو وجود الفضل والذكر وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصة به، فإن كل شيءٍ عدم فعله المختص به لا يكاد يستحق اسمه[(٤)].

قال الكفوي: الناس: هو اسم جمعٍ؛ ولذلك يستعمل في مقابلة الجنة: وهي جماعة الجن[(٥)].

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٢٠.
(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبدالباقي ص١١٥.
(٣) انظر: القرآن وقضايا الإنسان، عائشة بنت الشاطئ ص١٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٩٦٢.
(٥) الكليات، الكفوي ص٩١٢.

الناس اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الإنسان والناس:

لفظ الإنسان في الاستعمال القرآني يختلف -كذلك- عن لفظ الناس، فقد ورد لفظ الناس في القرآن الكريم نحو مائتين وأربعين مرةً بدلالةٍ واضحةٍ على اسم الجنس لهذه السلالة الآدمية، أو هذا النوع من الكائنات في عمومه المطلق. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣][1].

٤ البشر:

البشر لغة:

(بشر) الباء والشين والراء أصلٌ واحد: ظهور الشيء مع حسنٍ وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، والبشر: الإنسان.

البشر اصطلاحًا:

والبشر: هم الخلق، يقع على الأنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع[2].

وإطلاق البشر على الإنسان اعتبارًا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوان الذي عليه نحو صوف أو شعر[3].

الصلة بين الإنسان والبشر:

الإنسان في الاستعمال القرآني يختلف- كذلك- عن البشر، فاستقراء مواضع ورود (بشر) في القرآن كله، يؤذن بأن البشرية فيه هي هذه الآدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، وفيها يلتقي بنو آدم جميعًا على وجه المماثلة التي هي أتم المشابهة. وبهذه الدلالة، ورد لفظ البشر، اسم جنس، في خمسةٍ وثلاثين موضعًا من القرآن الكريم، منها خمسة وعشرون موضعًا في بشرية الرسل والأنبياء، مع النص على المماثلة فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية بينهم وبين سائر البشر.وقد تأتي الآيات في تقدير بشرية الرسل دون التصريح بلفظ المماثلة فيها لبشرية الناس جميعًا، لكن السياق فيها شاهد على

(١) انظر: القرآن وقضايا الإنسان، عائشة بنت الشاطئ ص١٧.
(٢) انظر: لسان العرب،ابن منظور، ٤/ ٥٩.
(٣) انظر: التعاريف، المناوي، ص١٣٢ .

هذه المماثلة وإن لم تذكر بلفظها نصًا[1]. والبشر يقتضي حسن الهيئة؛ وذلك أنه مشتقٌ من البشارة وهي حسن الهيئة، ولذلك استعمل في سياقاتٍ دالة على القدرة والإعجاز، في تخليق بشر ظاهر الهيئة من الماء أو الطين[2].

٥ الأنام:

الأنام لغةً:

الأنام هم ما على ظهر الأرض من جميع الخلق، ويجوز في الشعر: الأنيم[3].

الأنام اصطلاحًا:

هم الجن والإنس[4].

الصلة بين الإنسان والأنام:

الإنسان في الاستعمال القرآني يختلف عن الأنام، فقد ورد لفظ الأنام في القرآن الكريم في موضعٍ واحدٍ، وذلك في قول الله عز وجل: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن: ١٠].

ونلحظ من خلال السياق العام للسورة الكريمة أن اللفظ يشمل الثقلين الإنس والجن على الراجح؛ لأن الخطاب في سورة الرحمن لهما[5].

(١) القرآن وقضايا الإنسان، عائشة بنت الشاطئ ص١٥-١٧.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٧٦، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، محمد داود ص ٨٤.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي، ٨/ ٣٨٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٣٧.
(٥) انظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، محمد داود ص٨٣.

الغاية من خلق الإنسان

إن الله تعالى خلق المخلوقات، وأوجد الموجودات لغايةٍ يريدها، وحكمةٍ يعلمها، ولم يخلقهم سدًى، ولم يتركهم هملًا. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم تلك الغاية وهي متمثلة في أمرين: أحدهما: تحقيق العبودية لله عز وجل . والثاني: تحقيق عمارة الأرض. وفي المطلبين الآتيين تفصيلٌ لهذين الأمرين.

أولًا: تحقيق العبودية:

لعل الغاية الأسمى التي خلق لأجلها الإنسان هي تحقيق العبودية لله تعالى بجميع أنواعها.وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وتلك غايةٌ عظيمةٌ ساميةٌ عليها مدار سعادة الإنسان. قال الإمام النووي رحمه الله: « وهذا تصريحٌ بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة، فإنها دار نفادٍ لا محل إخلادٍ، ومركب عبورٍ لا منزل حبورٍ»[1].

وأهل الإيمان يوقنون في قرارة أنفسهم بذلك. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « إن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له»[2].

لكن ما معنى العبودية؟ وما حقيقتها ؟

العبادة لغةً: معناها: الانقياد والذل والخضوع[3].

قال الأزهري:« العبادة: الطاعة مع الخضوع. ويقال: طريقٌ معبدٌ إذا كان مذللا بكثرة الوطء»[4].وقال الراغب: «العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]»[5].

والمعنى الاصطلاحي للعبادة، لا يخرج عن المعنى اللغوي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[6].

ويضيف أيضًا: « وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

(١) رياض الصالحين، النووي ص٩-١٠.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٢٣.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٢٣٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٥-٢٠٧، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٧٧٦.
(٤) تهذيب اللغة، ٢/ ٢٣٤.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٩.
(٦) العبودية، ابن تيمية ص١٩.

﴿الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]»[1].

وهذا تعريفٌ شاملٌ للعبادة بكل أنواعها وحالاتها. فالعبودية مفهومٌ شاملٌ لكل عملٍ إنساني صالحٍ يقصد به وجه الله في هذه الحياة.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]. وتحقيق العبادة يقتضي أن يجعل الإنسان حياته وسائر أفعاله وتصرفاته وعلاقاته مع الناس وفق المناهج التي وضعتها الشريعة الإسلامية.

وحقيقة العبادة: « هي استسلام القلب والجوارح لله حبًا وخضوعًا له، وخوفًا من عقابه، لا شريك له في شيءٍ من ذلك ألبته، فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه»[2].

وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى خاتمهم- كانت دعوتهم أساسها تحقيق العبودية لله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[العنكبوت: ١٦-١٧].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[الأعراف: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وكذلك قال المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فيما أخبر الله عنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥١].

والعبودية لرب العالمين غاية كمال المتقين، فقد جعل الله سبحانه وتعالى العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه، وأعلاهم منزلة لديه في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[الإسراء: ١].

وبها افتتح عيسى عليه الصلاة والسلام كلامه وهو في المهد فقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم:

(١) المصدر السابق.
(٢) العبادة، سليمان العثيم ص١٣.

٣٠].

يقول شارح الطحاوية رحمه الله: «واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته»[(١)].

ثانيًا: عمارة الأرض:

لاشك أن الغاية الأساسية من وجود الإنسان هي تحقيق العبودية لله تعالى، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات: ٥٦].

ومع هذا فليست الغاية من الخلق محصورةً فقط على العبادة كما ظن كثيرٌ من الناس، حيث إن الآية لم يقصد منها الاقتصار على أداء الشعائر التعبدية فحسب، ولكن الله عز وجل هيأ الإنسان لأمرٍ آخر لا يتعارض مع تحقيق العبودية، ألا وهو عمارة الأرض واستخلافه.

فالله سبحانه وتعالى استخلف البشر في الأرض بقصد عمارة الكون وإنمائه واستغلال كنوزه وثرواته.

قال صالح عليه السلام مخاطبًا قومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١].

لكن ما معنى الاستعمار؟ وما حقيقته؟

الاستعمار لغةً: طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران[(٢)].

يقول الراغب الأصفهاني: «العمارة نقيض الخراب، يقال: عمر أرضه يعمرها عمارةً، قال تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[التوبة:١٩]. ويقال: عمرته فعمر فهو معمورٌ. قال: ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[الروم:٩].

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾[الطور:٤].

وأعمرته الأرض واستعمرته: إذا فوضت إليه العمارة، قال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١]»[(٣)].

والمعنى الاصطلاحي للاستعمار لا يختلف عن معناه اللغوي، فيراد به: طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران، ويراد به كذلك: التمكين والتسلط، كما هو واضحٌ من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾[الأعراف: ١٠]. وقوله عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية: ١٣].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿الَّذِي

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص١٠٤.

(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٣٨٣، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣١٠١، تاج العروس ١٣/ ١٢٩.

(٣) المفردات، ص٣٤٧.

﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾[طه: ٥٣].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥][1].

والمقصود بعمارة الأرض: «جعلها عامرةً غير خلاءٍ وذلك بالبناء والغرس والزرع»[2].

ويعد إعمار الكون ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، فلا بد للإنسان من أن يكتشف ويخترع من أجل تذليل العقبات التي تعترض طريقه، وتحول بينه وبين تحقيق ما يطمح إليه من سبل العيش الآمن والحياة الكريمة. قال ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[النمل: ٨٨].

قال: «وهذا استدعاءٌ لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم إلى ما في الكون من دقائق الحكمة، وبديع الصنعة. وهذا من العلم الذي أودع في القرآن ليكون معجزةً من الجانب العلمي يدركها أهل العلم، كما كان معجزةً للبلغاء من جانبه النظمي»[3].

وذكر الألوسي أن معنى قوله سبحانه: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١].

أي: جعلكم عمارها وسكانها فالاستفعال بمعنى الإفعال، يقال: أعمرته الأرض واستعمرته إذا جعلته عامرها وفوضت إليه عمارتها. وذكر معنى آخر، وهو أنه أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن، وحفر أنهار، وغرس أشجار، وغير ذلك، فالسين للطلب.

واستدل بالآية على أن عمارة الأرض واجبة لهذا الطلب». فلا تستقيم حياة الإنسان بدونها.

ولا يقصد هنا؛ أن تكون عمارة الأرض بالعلم المادي فقط، فلو كانت عمارة الأرض بالحضارة والتمدن والعلوم الدنيوية هي المقصود بحسن العمل، لما أرسل الله الرسل في التاريخ البشري أصلًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أثبت تميز الأمم أصلًا في عمارة الأرض وعمق علمها بالدنيا؛ كما قال تعالى عن الأمم السابقة:

﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[الروم: ٩].

وقال عن علمهم المدني ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]. فالمقصود من عمارة الأرض تحكيم شريعة الله تعالى في أرضه؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ٨/ ٦٣٨٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٥٧.
(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٤٨-٤٩.

﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

والقرآن الكريم يربط بين عمارة الأرض والأخذ بهدي الأنبياء- عليهم السلام-، كما أن البعد عن هذا الهدي السماوي يجلب فيما يجلب التعاسة والحروب، وسقوط الحضارة.

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

خلق الإنسان

يعد خلق الإنسان آيةً من آيات الله عز وجل العظيمة، خصوصًا إذا علمنا أن عملية الخلق هذه قد مرت بمراحل عديدةٍ وأطوار مختلفة.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٤].

ومن الواضح أنه قبل عملية الخلق هذه، قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن فيه الإنسان شيئًا مذكورًا، فأوجده الله بعد أن لم يكن موجودًا، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١].

وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧][1].

وقد خلق الله عز وجل الإنسان على أربعة أوجهٍ:

الأول: خلق آدم عليه السلام من غير ذكرٍ ولا أنثى.

الثاني: خلق حواء من ذكرٍ بلا أنثى.

الثالث: خلق المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام من أنثى بلا ذكر.

الرابع: خلق سائر البشر من ذكر وأنثى.

(١) الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة مؤلفين ص٧٧٩.

أولًا: خلق آدم عليه السلام:

أخبر الحق سبحانه وتعالى عن خلق آدم عليه السلام في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وكذلك ورد الحديث عن خلق آدم في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن خلال الآيات القرآنية الكريمة وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في خلق آدم عليه السلام يمكن أن نقول بأن «خلق آدم عليه السلام مر في ثلاثة أطوارٍ رئيسةٍ هي:

أولا: طور التخليق.

ثانيًا: طور التصوير.

ثالثًا: طور نفخ الروح»[1].

الطور الأول: طور التخليق.

ويتضمن أربع مراحل رئيسةٍ هي:

المرحلة الأولى: التراب.

يعد التراب المرحلة الأولى والبداية الحقيقية لخلق الإنسان الأول، أي: آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]. فهذه الآية صريحة في أن آدم عليه السلام خلق من تراب، فالهاء في قوله: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ تعود على آدم عليه السلام.

(١) مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص١٦.

المرحلة الثانية: من طينٍ.

وهذه هي المرحلة الثانية التي يصير فيها التراب طينًا.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص:٧١].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧]. والطين ناتج عن خلط التراب بالماء. ويلاحظ أن هذا الطين بالنسبة للإنسان الأول، وهو آدم عليه السلام ، كان: طينًا لازبًا. يصور ذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١].

واللازب: هو الثابت شديد الثبوت[2].

المرحلة الثالثة: خلقه من حمأ مسنونٍ.

بعد ذلك يتغير الطين اللازب إلى أن يصير طينًا متغير الرائحة أسود، وهو ما سماه القرآن الكريم بالحمأ المسنون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦].

المرحلة الرابعة: خلقه من صلصالٍ كالفخار.

والمراحل السابقة مجتمعة أدت إلى مرحلة الصلصال هذه: قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٤٩.

والصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي: صوتٌ إذا قرع بشيء[1].

وهذا الصلصال يشبه الفخار إلا أنه ليس فخارًا؛ لأن الفخار مطبوخ بالنار بخلاف الصلصال، فهو طين يابس غير مطبوخ بالنار.

هذا هو الطور الأول: طور التخليق، بمراحله الأربعة السابق ذكرها.

الطور الثاني: طور التصوير.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١]. ويلاحظ من خلال هذه الآية الكريمة أن مرحلة التصوير ثانية بعد الخلق، حيث عطفت جملة صورناكم بحرف (ثم) الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق[2].

الطور الثالث: طور نفخ الروح.

بعد أن سوى الله عز وجل الإنسان الأول وصوره، وهو آدم عليه السلام أراد أن يبث فيه الحياة، نفخ فيه من روحه، فصار بشرًا حيًا. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

والنفخ: إجراء الريح في الشيء؛ وإنما سمى إجراء الروح فيه نفخًا؛ لأنها جرت في بدنه مثل جري الريح فيه[3].

[انظر: آدم: مراحل خلق آدم]

ثانيًا: خلق حواء:

لما خلق الله عز وجل آدم عليه السلام خلق له زوجه حواء عليها السلام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

وقال سبحانه: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال جل شأنه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

فدلت هذه الآيات الكريمات على أن آدم عليه السلام قد خلق أولا، وأن حواء قد خلقت بعده. حيث ذكر جمهور المفسرين أن المراد ب (النفس الواحدة): آدم عليه السلام، والمراد بقوله تعالى: (زوجها): حواء عليها السلام[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٩١، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٥٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٦.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٠٠.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٠٧، الجامع

وقد اختلف العلماء في كيفية خلق حواء على قولين مشهورين، وهما:

القول الأول: وهو قول جمهور المفسرين، حيث ذهبوا إلى أن الآيات الكريمات قد نصت على أن حواء خلقت من آدم كما يقتضيه ظاهر قوله: ﴿مِنْهَا﴾، ولهذا قالوا بأن (من) في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ للتبعيض، ومعنى التبعيض أن حواء خلقت من جزءٍ من آدم عليه السلام[1].

واختلفوا في الجزء الذي خلقت منه حواء على قولين:

الأول: قالوا بأنها خلقت من ضلع آدم، وممن قال بهذا الرأي: جماعةٌ من مفسري السلف رضوان الله عليهم.

واحتجوا عليه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن المرأة خلقت من ضلعٍ، لن تستقيم لك على طريقةٍ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوجٌ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»[2].

الثاني: قالوا بأنها خلقت من بقية الطينة التي خلق منها آدم.

وقد حكى هذا القول ابن عاشور[3]، وشهاب الدين الخفاجي في (حاشيته على تفسير البيضاوي)[4]، وابن عادل في تفسيره (اللباب في علوم الكتاب)[5].

القول الثاني: وهو اختيار أبي مسلمٍ الأصفهاني، أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: من جنسها.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢].

وكقوله: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨][6].

والراجح - والله أعلم- أن حواء خلقت من جنس خلق آدم عليه السلام أي: من نفس العناصر التي خلق منها آدم، فالله خلق حواء من نفس نوع آدم كما خلق لنا من أنفسنا أزوجا.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وأما ما جاء في الحديث (إن المرأة خلقت من ضلع) فلا يدل على أنه ضلع آدم، إنما يحمل على جهة التمثيل لاضطراب أخلاقهن، وكونهن لا يثبتن على حالة واحدة، أي: صعبات المراس، فهي كالضلع

لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٤٠٨.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ١٤٦٨، ١/ ٦٧٣.

(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٢١٥.

(٤) حاشية شهاب الدين الخفاجي ٣/ ٢٤٥.

(٥) اللباب في علوم الكتاب ٦/ ١٤١

(٦) تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص٩٦.

العوجاء، كما جاء ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ويؤيد هذا قوله (إن المرأة) فأتى بالجنس، ولم يقل حواء[1].

[انظر: آدم: كيف خلقت حواء]

ثالثًا: خلق عيسى عليه السلام:

يعد خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب معجزةً دالةً على عظيم قدرة الله التي لا تحدها حدود ولا يقف أمامها مانع ليظهر للناس أنه عز وجل على كل شيءٍ قدير. وقد تحدث القرآن الكريم عن خلق عيسى عليه السلام وحكى مراحل حياته المختلفة، وسأقتصر في حديثي عن خلق عيسى عليه السلام على أمرين:

الأول: البشارة بعيسى عليه السلام.

والثاني: الحمل بعيسى عليه السلام.

وفيما يأتي بيان لهذين الأمرين.

أولا: البشارة بعيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ – ٤٦]

وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٦ – ٢١]

لما بلغت مريم عليها السلام مبلغ النساء، خرجت ذات يومٍ من محرابها، وسارت جهة شرقي بيت المقدس، فبينما هي تسير، وقد ابتعدت عن أهلها وقومها،إذ فاجأها شاب وضيء الوجه، حسن الصورة، مستوي الخلق، ففزعت واضطربت وخافت على نفسها منه، ثم قالت له: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨].

ولم يكن في خاطرها أنه ملك كريم، هو جبريل الأمين عليه السلام تمثل لها في صورة إنسان.قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٧]

قال أبو حيان في تفسيره: « وإنما مثل لها الملك في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت، ولم تقدر على استماع كلامه، ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثيله

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ١٦٣.

على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبرًا لعفتها»[1].

وحين ظهر لمريم بعد ذلك أن الذي عرض لها في خلوتها ليس بشرًا إنما هو ملك كريم، أنست واستبشرت به، ولكنها تعجبت من قوله حين بشرها بالغلام: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ فهي امرأة بكر لم تتزوج ولم يقربها أحد من الرجال، ولا تزال عذراء. وهي عفيفة لم تقارف إثمًا، فكيف يمكن أن يأتيها غلام مع عدم اتصال رجل بها؟! ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

وقد كان جوابه لها أنها إرادة الله ومشيئته، فهو جل ثناؤه لا يعجزه شيء، وإذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١].

وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٧].

أي: كمثل هذا الخلق البديع يخلق الله ما يشاء، فإن من شأنه الاختراع والإبداع[2].

ثانيًا: الحمل بعيسى عليه السلام.

بعد أن سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته، نفخ فيها روح القدس، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]

فالذي عليه الجمهور من العلماء: أن المراد بذلك النفخ: نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، ولا ينافي ذلك إسناد الله جل وعلا النفخ المذكور لنفسه في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا﴾؛ لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ؛ فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ، بل من أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى. وذكر المفسرون أن جبريل عليه السلام لما نفخ في جيب درعها، نزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها . قال تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ٢٢].

واختلف العلماء في مدة الحمل على أقوال مضطربة متناقضة لا حاجة إلى ذكرها، والصحيح أنها حملت به حملًا طبيعيًا كما تحمل سائر النساء، ووضعته كما تضع

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٧٠.
(٢) النبوة والأنبياء ص٢٠١-٢٠٢.

النساء.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. بينت هذه الآية الكريمة أن عيسى عليه السلام خلق بأمرين: بكلمة من الله، وروح منه.

الأمر الأول: خلق عيسى عليه السلام بكلمة الله (كن).

جاء في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]. وبهذا يتبين أن الله سبحانه وتعالى خلقه بكلمةٍ منه، وهي (كن)، كما خلق آدم، وكان عيسى بهذا كلمة الله ؛ لأنه خلقه بها[(١)]. وقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

إن الكلمة من الله المذكورة في الآية مفسرة بأنها المسيح عيسى ابن مريم، بدليل أن الضمير في كلمة (اسمه) جاء مذكرًا مع أنه يعود على مؤنث (كلمة)، فلم يقل: بكلمة منه اسمها المسيح؛ لأن المراد بالكلمة مذكر، وهو عيسى عليه السلام، فذكر مراعاة للمعنى[(٢)].

الأمر الثاني: خلق الله عيسى عليه السلام بروح من الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ذكر الإمام فخر الدين الرازي وجوه اختلاف أهل العلم في تأويل قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾:

الأول: أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئًا بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روحٌ، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل - عليه السلام- لا جرم وصف بأنه روح، والمراد من قوله (منه) التشريف والتفضيل، كما يقال: هذه نعمةٌ من الله، والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة.

الثاني: أنه كان سببًا لحياة الخلق في أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روحٌ. قال تعالى في صفة القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

الثالث: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي رحمة منه، قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي: برحمة منه، فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث إنه كان يرشدهم إلى مصالحهم في دينهم ودنياهم

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٩٨٠.
(٢) مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص٣٣.

لا جرم سمي روحًا منه.

الرابع: أن الروح هو النفخ في كلام العرب، فإن الروح والريح متقاربان، فالروح عبارة عن نفخة جبريل، وقوله (منه) يعني أن ذلك النفخ من جبريل كان بأمرِ الله وإذنه فهو منه، وهذا كقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[الأنبياء: ٩١].

والراجح - والله أعلم- هو القول الأول، حيث إن عيسى عليه السلام سمي روحًا لكونه نشأ من الروح مباشرةً، ولأنه غلبت عليه الروحانية، وإن كان بشرًا كسائر البشر، يأكل ويشرب، ويمشي في الأسواق، و(من) هنا للابتداء، أي: أن الروح مرسل من عند الله تعالى، ونفخ بإذنه[1]. ويؤيد ذلك أن الآية جاءت في معرض الرد على النصارى الذين غالوا في المسيح عليه السلام.

رابعًا: خلق سائر بني آدم.

بعد أن خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، وخلق منه زوجه حواء عليها السلام بين لنا في كتابه العزيز أطوار خلق ذرية آدم؛ إظهارًا لعظمته سبحانه وتعالى وقدرته، وقد دلت نصوص القرآن الكريم على أن الإنسان يخلق على أطوارٍ ومراحل متتالية. قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[نوح: ١٤].

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٩٨١.

وقال سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾[الزمر: ٦]، أي: طورًا من بعد طورٍ.

ولقد تعرض القرآن الكريم إلى أطوار خلق الإنسان بأساليب مختلفةٍ، فمرةً يذكر أطوار الخلق كلها، وأخرى يكتفي بذكر طورٍ واحدٍ أو طورين، فالقرآن تناول الخلق في كل مرةٍ من زاويةٍ؛ لتكتمل الصورة، وذلك لحكمةٍ بيانيةٍ وبلاغيةٍ، لما يحققه هذا الأسلوب من العبرة والموعظة في إثبات القدرة الإلهية في مخلوقاته، والتي يرفضها الملحدون، لقصورٍ عقلي أو عنادٍ أو غرورٍ[2]. ومن خلال تتبع الآيات القرآنية المتعلقة بأطوار خلق الإنسان، نجد أن القرآن الكريم حدد أطوار خلق الإنسان الأساسية في ثلاثة أطوارٍ[3]:

الطور الأول: طور النطفة.

النطفة- بضم النون- في لغة العرب: تعني القليل من الماء، وقيل: الماء القليل يبقى في القربة، وقيل: هي الماء الصافي

(٢) الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، عبدالرحمن المطرودي ص٥١.

(٣) الطور بالفتح: التارة، يقال: طورًا بعد طورٍ، أي تارةً بعد تارةٍ.
انظر: تاج العروس، ١٢/ ٤٣٩.

قل أو كثر، والجمع نطفٌ ونطافٌ.[1]. وقد ورد التعبير بالنطفة في اثني عشر موضعًا من كتاب الله[2].

والنطفة أنواع ثلاثة:

١. نطفة الذكر: وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المني.
٢. نطفة الأنثى: وهي البويضة.
٣. النطفة الأمشاج: وهي النطفة المختلطة من الحيوان المنوي الذي يلقح البويضة[3].

مراحل تكوين النطفة:

يبدأ مصطلح النطفة من الحيوان المنوي والبويضة، وينتهي بمرحلة الحرث والانغراس، وتمر النطفة خلال تكونها بمراحل، أطلق القرآن الكريم على كل مرحلةٍ منها تسمية تتناسب مع تلك المرحلة، والمراحل التي تمر بها النطفة أربع[4]، وهي:

أولًا: مرحلة الماء الدافق.
ثانيًا: مرحلة السلالة.
ثالثًا: مرحلة النطفة الأمشاج.
رابعًا: مرحلة الحرث.

المرحلة الأولى من مراحل طور النطفة: مرحلة الماء الدافق.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق: ٥ – ٦]

الدفق في كلام العرب صب الماء، وهو متعدٍ، يقال: دفقت الكوز فاندفق، وهو مدفوق. وأهل الحجاز يطلقون صيغة فاعل على المفعول كقولهم: هذا سرٌ كاتمٌ (أي مكتوم)، وهمٌ ناصبٌ (أي منصوب)[5].

و﴿دَافِقٍ﴾ بمعنى مدفوق، اسم الفاعل بمعنى مفعول[6]. وقال الخليل وسيبويه: هو على النسب ك(لابن، وتامر)، أي: ذي دفق وهو صادق على الفاعل والمفعول.

والراجح والله أعلم أن المراد: ماء ذي دفق؛ لأن تفسيرها على مدفوقٍ، يعد من صرف اللفظ عن ظاهره، فهم اعتبروا أن الماء الدافق مفعولًا وليس فاعلًا. ولكن الحقيقة أن للماء – بإذن الله – قوة دفق ذاتية. فهو بذلك فاعل وليس مفعولًا[7]. فالدافق

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٤٠، لسان العرب، ابن منظور ١٦/ ٤٤٦١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٨٥٧.
(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص٧٩٨.
(٣) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص١٠٩، إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٦٦.
(٤) انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، عبدالمجيد الزنداني ص١٧-٢٧، مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن الكريم، منى رفعت ص٥٧.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٥٢، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٣٩٦، القاموس المحيط الفيروزآبادي ص٨٨٣.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٨٤.
(٧) انظر: مراحل تطور خلق الإنسان في القرآن،

هو المندفق بشدة قوته [(١)]. وقد أثبت العلم الحديث أن المنويات التي يحتويها ماء الرجل لابد أن تكون حيوية متدفقة متحركة كشرط أساسي للإخصاب. وأثبت العلم أيضًا أن ماء المرأة الذي يحمل البويضة يخرج متدفقًا إلى قناة الرحم (فالوب)، وأن اندفاعة البويضة لابد أن تكون حيوية متدفقة حتى يتم الإخصاب[(٢)].

والمراد بالماء الدافق عند المفسرين: مني الرجل ومني المرأة، وعبر عنهما بماء وهو مفرد؛ لأن الإنسان مخلوقٌ منهما، ولكن جعلهما ماءً واحدًا لامتزاجهما [(٣)].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الماء في آياتٍ أخرى بأنه ماء مهينٌ ضعيفٌ ليس كالماء العادي المنطلق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[المرسلات: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾[السجدة: ٨].

ووصفه الله جل وعلا في آيةٍ أخرى أنه نطفة أي قليل من الماء، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾[القيامة: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[النجم: ٤٥ - ٤٦].

ثم وصف الحق سبحانه وتعالى ذلك الماء الذي هو النطفة، بأنه يخرج من بين الصلب والترائب، ذلك في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾[الطارق: ٧].

والصلب في اللغة: جمعه أصلبٌ وأصلابٌ وهو فقار الظهر، وهو عظم من لدن الكاهل (الكاهل من الإنسان هو مابين كتفه) إلى العجب (أي:أصل الذنب، وهو العصعص). ويقال: هو من صلب فلان: أي من ذريته. والصلب: الشديد، وباعتبار الصلابة والشدة سمي الظهر صلبًا [(٤)].

أما الترائب: فهي جمع تريبة، وقد اختلف في معناها على أقوالٍ[(٥)].

والراجح- والله أعلم- هو ما ذهب إليه ابن جرير الطبري، وهو قول جمهور المفسرين، أن المراد بالترائب: هو موضع القلادة من الصدر، لأن ذلك هو المعروف

منى رفعت ص١٨٣، إعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان، محمد فياض ص٦٧.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٢٠٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٢٦٢.

(٢) انظر: إعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان، محمد فياض ص٦٧-٦٩، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص ١٢٣-١٢٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٢٠٦، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤٤٩.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٤٧٦، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٥١٩.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٩٦، ، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ١٧٩، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٤٧.

من كلام العرب، وبه جاءت أشعارهم[(١)].

والمعنى: يخرج هذا الماء المنصب من موضع العمود الفقري وأضلاع الصدر التي تضع المرأة القلادة عليها[(٢)].

المرحلة الثانية من مراحل طور النطفة: مرحلة السلالة:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: ٨].

هذه الآية تشير إلى المرحلة الثانية التي تمر بها النطفة عبر رحلتها الطويلة من المهبل إلى البويضة ليتم التلقيح وهي مرحلة السلالة. والسلالة في اللغة: على وزن (فعالةٌ)، من سللت الشيء من الشيء: إذا استخرجته منه، والسل: انتزاع الشيء وإخراجه في رفقٍ[(٣)]. وفعالة تأتي للقليل من الشيء، نحو: القلامة، والنخالة[(٤)]. والسلالة: الخلاصة، وأصلها ما ينسل ويخلص بالتصفية[(٥)].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ قال: صفو الماء[(٦)]. وقيل في تفسير السلالة إنها خلاصة وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية.

ومن خلال معاني لفظة (سلالة) نستطيع أن نتلمس مدى انطباق هذه المعاني على النطفة (الحيوانات المنوية للرجل والبويضة للمرأة)، فقد ذكر علماء الطب أنه من بين مئات الملايين من الحيوانات المنوية التي توجد عادة في نطفة الرجل، ينسل حيوان واحد فقط منها كلها ليلقح بويضة المرأة التي تنسل هي بدورها من حويصلة البويضة، لتلتقي بسلالة الرجل في أنبوب الرحم. وبذلك تنشأ البويضة الملقحة، ويبدأ الحمل[(٧)]. وهذا هو ما تدل عليه لفظة السلالة من (التصفية والانتقاء) وهذا يؤكد لنا أيضًا دلالة اللفظة على (القلة) فهي عبارة عن جزء يسير جدًا من نطفة الرجل والمرأة.

ومن هنا نفهم سر الإعجاز الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيءٍ لم يمنعه شيءٌ)[(٨)].

فالحديث صريحٌ في أنه ليس من كل الماء يكون الولد، وإنما من جزءٍ يسيرٍ

(١) جامع البيان ٢٤/ ٢٩٦.
(٢) تفسير جزء عم، مساعد الطيار ص١١٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٩٢، العين، الفراهيدي ٧/ ١٩٢، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٠٧٤، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠١٥.
(٤) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٤/ ٢٠٥، معاني القرآن، النحاس ٤/ ٤٤٦.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ١٢١، محاسن التأويل، القاسمي ١٣/ ٤٨١٢.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٠١.
(٧) من علم الطب القرآني، عدنان الشريف ص٤٠.
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب حكم العزل، رقم ١٣٣، ١/ ٦٥٦.

منه[1].

ولم يكتشف الحيوان المنوي والبويضة إلا في القرن السابع عشر مع اكتشاف المجهر، ولم يعرف دورهما الحقيقي في تكوين الجنين إلا في القرن التاسع عشر. أما القرآن الكريم فقد أعطى الحيوان المنوي والبويضة اسم (السلالة) وهي التسمية الأبلغ والأسهل والأصح علميًا، إذ إنها تعني النخبة المستخلصة والمنسلة من الشيء، وهي من صفات الحيوان المني وميزاتهما[2].

المرحلة الثالثة من مراحل طور النطفة: مرحلة النطفة الأمشاج.

أشار القرآن الكريم إلى هذه المرحلة من مراحل النطفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢].

والمشج في اللغة: الخلط، يقال: مشج يمشج مشجًا إذا خلط، والأمشاج: الأخلاط[3].

قال ابن فارس: « الميم والشين والجيم أصلٌ صحيحٌ، وهو الخلط. ونطفةٌ أمشاجٌ، وذلك اختلاط الماء والدم. ويقال إن الواحد مشجٌ ومشج ومشيج»[4].

ومن خلال استقراء أقوال أهل التفسير حول معنى (أمشاج) تبين أن أغلبهم متفقون على أن الأمشاج هي الأخلاط من ماء الرجل (الحيوان المنوي) وماء المرأة (بويضتها). ولكن الخلاف الذي وقع بين المفسرين هو في المقصود بذلك الخلط، وكيفيته. وهذه النطفة الأمشاج تعرف علميًا عند بدء تكوينها (بالزيجوت)[5].

وقد كانت العرب وبعض الأمم تعتقد أن تكوين الجنين إنما يكون من الرجل، وليس للمرأة إلا الحمل والرعاية، وليس كذلك، بل إن الجنين يتكون من عملية التلقيح بين الحيوان المنوي للرجل والبويضة للأنثى ليكونا خلية واحدة تحمل الصفات الوراثية لكل منهما، وهي النطفة التي جاء وصفها في القرآن الكريم ب (النطفة الأمشاج)[6].

ويمكن تقسيم النطفة الأمشاج إلى:

- **طور الخلق:** وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الطور في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾ [عبس: ١٨ – ١٩]

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص٣٨٧.
(٢) من علم الطب القرآني، عدنان الشريف ١٦٦.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٥٥١، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٢٠٧، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٢١٤.
(٤) مقاييس اللغة ٥/ ٣٢٦.
(٥) علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، عبدالمجيد الزنداني ص٤٤.
(٦) الإنسان وجوده وخلافته في الأرض، عبدالرحمن المطرودي ص٤٠.

❁ طور التقدير: ذكر الحق سبحانه وتعالى التقدير بعد الخلق مباشرة بوصفهما عمليتين متعاقبتين في أول تطورات النطفة الأمشاج، وهذا هو ما يتحقق يقينًا، فبعد ساعات من تخلق إنسان جديد، تبدأ عملية أخرى تتحدد فيها الصفات التي ستظهر على الجنين[(١)].

المرحلة الرابعة من مراحل طور النطفة: مرحلة الحرث (الانغراس).

هذه المرحلة هي آخر مرحلةٍ في طور النطفة، وبنهايتها تنتقل النطفة الأمشاج لتنغرس في بطانة الرحم بما يشبه انغراس البذرة في التربة في عملية الحرث، وبهذا الانغراس يبدأ طور الحرث، ويكون عمر النطفة حينئذٍ ستة أيامٍ[(٢)].

والحديث عن مرحلة الحرث يقتضي الحديث عن المكان الذي تستقر فيه النطفة في جسد المرأة، ألا وهو رحم المرأة، وقد وصف الحق سبحانه وتعالى هذا المكان بوصفين جامعين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٣].

وقوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣].

هذان الوصفان هما (قرار) و(مكين)، وهما يعبران أتم التعبير عن أهم خصائص الرحم ومميزاته. والقرار: المستقر، وهو موضع الاستقرار، والمراد بالقرار: الرحم، ومكينٌ: أي متمكنٌ قد هيئ لاستقراره فيه إلى بلوغ أمده الذي جعل له[(٣)].

الطور الثاني: طور التخليق.

ويشمل هذا الطور أربع مراحل هي: العلقة، والمضغة، والعظام، واللحم.

ومن أهم ما يميز هذا الطور هو التكاثر السريع للخلايا ونشاطها الفائق في تكوين الأجهزة، ولأن هذه العمليات التخليقية تتم بسرعة كبيرة، فقد استعمل القرآن الكريم حرف الفاء للربط بين مراحل هذا الطور.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤][(٤)].

المرحلة الأولى: مرحلة العلقة.

تطلق العلقة في اللغة على عدة معانٍ منها:

١. التشبث بالشيء، يقال: علق الصيد في

(١) إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٧٩.
(٢) المصد السابق ص٨٠.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٨، التفسير البسيط، الواحدي ١٥/ ٥٣٨.
(٤) انظر:إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٨٥، مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص١٥٤.

الحبلة، وعلق دم فلانٍ بزيدٍ إذا كان زيد قاتله[1].

٢. دودة في الماء تمص الدم[2].

٣. الدم الجامد الغليظ[3].

وقد ورد ذكر العلقة في القرآن الكريم ست مراتٍ في خمسة مواضع على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾[الحج: ٥]

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾[المؤمنون: ١٢ – ١٤].

وقال جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: ٦٧].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨﴾[القيامة: ٣٧ – ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾[العلق: ١ – ٢]

وفي سبب تسميتها بذلك يقول ابن الجوزي: «سميت علقة لرطوبتها وتعلقها بما تمر به، فإذا جفت فليست علقة»[4].

ومن خلال تتبع أقوال المفسرين في تفسير معنى العلقة، تبين أن أغلبهم فسروا العلقة بالدم الجامد أو العبيط[5].

بيد أنه من المعروف علميًا أن الإنسان لا يمر بمرحلة الدم المتجمد أو كتلة الدم[6].

لكن إذا عرفنا أن حجم العلقة عند انغرازها لا يزيد عن ربع مليمتر أدركنا على الفور لماذا أصر المفسرون على أن العلقة هي الدم الغليظ. فالعلقة لا تكاد ترى بالعين المجردة، وهي مع ذلك محاطة بالدم من كل جهاتها، فتفسير العلقة إذن بالدم الغليظ ناتج عن الملاحظة بالعين المجردة، ولم يبعد بذلك المفسرون عن الحقيقة كثيرًا، فالعلقة العالقة بجدار الرحم والتي لا تكاد ترى بالعين المجردة محاطةٌ بدمٍ غليظٍ يراه كل ذي عينين[7].

وبعد أن تقدم العلم لاحظ العلماء أيضًا أن الجنين في هذه المرحلة يفقد شكله المستدير ويستطيل حتى يأخذ شكل دودة

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٤٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٢٦، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٠٧٥.
(٣) انظر: المصادر السابقة.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٤٠٦.
(٥) انظر: الكشاف ٤/ ١٧٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٩، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٩٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٩٧.
(٦) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص٢٤٢.
(٧) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص٢٠٦.

العلقة، وفي هذه المرحلة يتشبث الجنين بالمشيمة بواسطة ساقٍ موصلةٍ تصبح فيما بعد هي الحبل السري وهو ما يتفق مع معنى (التشبث بالشيء)[(١)].

وبهذا نلاحظ أن لفظة (علقة) جاءت مطلقةً في القرآن الكريم لتشتمل على كل المعاني اللغوية السابقة، حيث إن اسم (علقة) يتسع ليشمل وصف الهيئة العامة للجنين كدودة العلقة، كما يدل لفظ (علقة) على تعلق الجنين بالمشيمة. كذلك نجد أن المظهر الخارجي للجنين وأكياسه يتشابه مع الدم المتخثر الجامد الغليظ[(٢)].

المرحلة الثانية: مرحلة المضغة.

المضغة في اللغة: فعلةٌ من مضغ، وهي تطلق على عدة معانٍ منها:

١. الشيء الذي لاكته الأسنان[(٣)].

٢. الشيء الصغير من المادة، مأخوذةٌ من قولنا: مضغ الأمور، أي صغارها[(٤)].

٣. القطعة من اللحم قدر ما يمضغ[(٥)].

وقد ورد ذكر المضغة في القرآن الكريم ثلاث مراتٍ في موضعين على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج: ٥].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤].

وفي سبب تسميتها بذلك يقول ابن قتيبة: «وسميت بذلك؛ لأنها بقدر ما يمضغ، كما قيل: غرفة لقدر ما يغرف»[(٦)].

وقد فسرت المضغة بقطعة اللحم الصغيرة بقدر ما يمضغ[(٧)]، وهو ما يتطابق مع المعاني اللغوية، وقد أوضح علم الأجنة الحديث مدى الدقة في اختيار القرآن الكريم لتسمية (مضغة) من حيث ارتباطها بالشكل الخارجي للجنين، وتركيباته الداخلية الأساسية. فقد وجد أنه بعد تخلق الجنين والمشيمة في هذه المرحلة، فإن

(١) إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٨٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٣٠، تاج العروس، الزبيدي ٢٢/ ٥٦٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٨٧٤.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٢٢٢.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٨-٢٠، الصحاح، الجوهري ٤/ ١٣٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٢٢/ ٥٦٩.
(٦) غريب القرآن ص٢٩٦.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٩، روح المعاني، الألوسي ٩/ ١١٢.

الجنين يتلقى الغذاء والطاقة، وبذلك تتزايد عملية النمو بسرعةٍ، ويبدأ ظهور الكتل البدنية المسماة فلقات، والتي تتكون منها العظام والعضلات. ونظرًا لتعدد الفلقات التي تتكون، فإن الجنين يبدو وكأنه مادةٌ ممضوغة عليها طبعات أسنانٍ واضحة [(١)].

أطوار المضغة:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ [الحج: ٥]. يتضح من هذه الآية أن هناك طورين للمضغة هما، الأول: طور المضغة المخلقة. والثاني: طور المضغة غير المخلقة.

وقد اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾، وهل هي من صفات النطفة أم من صفات المضغة [(٢)]. والراجح- والله أعلم- أن معنى مخلقة، أي: تامة، وغير مخلقة، أي: غير تامة، وأن هذا من صفات المضغة، لأن ذلك تطورٌ من تطورات المضغة، والتخليق صيغةٌ تدل على تكرير الفعل، أي خلقًا بعد خلقٍ، والنطفة لا يمكن وصفها بذلك، كما أن تفسير (المخلقة) بتامة الخلق أو مستبينة الخلق، و(غير المخلقة): بغير ذلك، هو المشهور من كلام العرب.

المرحلة الثالثة: مرحلة العظام.

هذه المرحلة من أطوار خلق الإنسان وردت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]

العظام: جمع عظم، وهو ما منه تركيب الجسد للإنسان والدواب [(٣)]. والعظام المرادة في الآية هي عظام الجنين، جعلها سبحانه متصلبة ؛ لتكون عمودًا للبدن على أشكال مخصوصة [(٤)].

وفي قوله تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا﴾ نلاحظ أن استعمال حرف (ف) يشير إلى أن مرحلة العظام تنمو بعد مرحلة المضغة بفترةٍ قصيرةٍ؛ لأن حرف الفاء يفيد الترتيب والتعقيب، بخلاف حرف (ثم) الذي يفيد الترتيب والتراخي [(٥)].

والمعنى: أن المضغة بعد أن تخلقت،

(١) انظر: إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٩٣، مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص١٧٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٦٢، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٨٤٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٧.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٢٣.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٦٤٩.

(٥) إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص١٠١.

وتميزت أجزاؤها، جعلها الله تعالى عظامًا، أي: جعل من هذه المضغة عظامًا صلبةً تتحمل[1].

ومن ثم فإن المضغة لا تتحول كلها إلى عظام- كما ذكر ذلك بعض المفسرين-، وإنما يتحول جزءٌ منها فقط، وهذا متفقٌ مع ما كشفه علم الأجنة. قال الألوسي وأبو السعود: قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ أي: غالبها ومعظمها أو كلها[2].

المرحلة الرابعة: مرحلة اللحم.

بعد خلق العظام تأتي مرحلةٌ تاليةٌ تتميز بكساء جميع العظام باللحم من كل الجهات، فبذلك يتغير شكل الجنين، ويصير هنالك تناسقٌ بين الأعضاء، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾[المؤمنون: ١٤].

أي: فأنبتنا عليها اللحم فصار لها كاللباس[3].

ومن خلال تتبع أقوال المفسرين نلاحظ أنهم لم يخوضوا في تفصيلات إنبات اللحم على العظم، وإنما اكتفوا بما ذكرناه أو نحوًا منه بإيجاز شديد.لكن السؤال الذي يرد هنا، هل هذا اللحم من لحم المضغة أم لحمًا آخر خلقه الله على العظام؟

ذكر الألوسي قولين في تفسيره: الأول: أن ذلك اللحم يحتمل أن يكون من لحم المضغة بأن لم تجعل كلها عظامًا، بل بعضها ويبقى البعض فيمد على العظام حتى يسترها.

الثاني: يحتمل أن يكون لحمًا آخر خلقه الله تعالى على العظام من دمٍ في الرحم[4].

هذان القولان مبنيان على ما سبق ذكره من كون بعض المفسرين ذهب إلى أن المضغة كلها تتحول إلى العظام، وبعضهم ذهب إلى أن التحويل يكون لجزءٍ منها. وقد مال البيضاوي إلى القول الأول قائلًا: «قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ مما بقي من المضغة، أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها»[5].

الطور الثالث: طور النشأة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤].

والإنشاء كما ذكر الراغب: إيجاد الشيء وتربيته[6].والإنشاء هو الإحداث حالاً بعد حالٍ من غير احتذاء على مثال، ومنه يقال: نشأ الغلام وهي ناشئ: إذا نما وزاد شيئًا فشيئًا، وقال بعضهم: الإنشاء: ابتداء الإيجاد من غير سببٍ[7].

(١) زهرة التفاسير ٩/ ٥٠٥٣.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٢، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢١٦.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٦١.
(٤) روح المعاني ٩/ ٢١٧.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٦٤.
(٦) المفردات ص٤٩٣.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص٨٠.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بيان لما انتهت إليه أطوار خلق الإنسان، أي: ثم صيرنا هذا الإنسان بشرًا سويًا، بعد أن كان نطفةً، فعلقةً، فمضغةً، فعظامًا، فلحمًا يكسو هذه العظام، وهذا كله يدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أنه حق، إذ قدرته- سبحانه- لا يعجزها شيء[1]. وعليه: فقد صير الله تعالى هذا الإنسان خلقًا مباينًا للخلق الأول، حيث جعله حيوانًا، وكان جمادًا،وناطقًا وسميعًا وبصيرًا، وكان بضد هذه الصفات[2].

الإنسان بين الإيمان والكفر

خلق الله عز وجل الإنسان وسواه بيده، ونفخ فيه من روحه، وكرمه وفضله على كثيرٍ من المخلوقات.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وكان من مظاهر تشريف وتكريم الله للإنسان تكليفه، ومنحه نعمة العقل التي بها يوازن بين ما ينفع وما يضر، وبها يتلقى دعوات الأنبياء وما نزل به الوحي من السماء، وجعله مختارًا يستطيع أن يختار بين البدائل ما يشاء دون قسرٍ أو إجبارٍ، فله حرية الاختيار بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين الانضواء في حزب الله أو حزب الشيطان.

وتظهر جليًا حرية الاختيار التي ميز الله بها الإنسان، من خلال قصة آدم عليه السلام الذي كان يملك القدرة على الاختيار بين طاعة الله ومعصيته.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٠/ ١٨.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٥٦٥.

تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١١٦ – ١٢١]

فالخطاب الموجه من الله تبارك وتعالى لآدم عليه السلام يدل دلالةً واضحةً على أنه موجه لمن يتمتع بحرية الاختيار، ولمن يمتلك الاستعداد نحو الطاعة والمعصية، ولمن هو موضع التكليف، ولذلك مارس آدم عليه السلام كامل حريته، وعصى الله، فالحرية مغروسةٌ في فطرة الإنسان منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام [(١)].

فالله تعالى أودع في الإنسان استعدادات وقدرات للتمييز بين الخير والشر وبين الهدى والضلال، ومن الآيات الدالة على فطرية الحرية الإنسانية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ – ١٠].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢ – ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله عز وجل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٧ – ٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

وبناءً على ذلك فالإنسان حرٌّ في اختيار نوع الطريق الذي يسلكه في الحياة الدنيا، فإما أن يختار طريق الحق والاستقامة أو أن يختار طريق الغواية والضلال [(٢)]، لكن الحق سبحانه وتعالى إذ جعله مختارًا لم يتركه سدًى، وإنما أرسل له الرسل وأنزل له الكتب وأرشده إلى الطريق الصحيح.

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان صالحةً للميل إلى الخير كما أنها صالحة للميل إلى الشر، فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧ – ٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢ – ٣].

(١) المبادئ التربوية لطبيعة الإنسان في القرآن، هشام بني خلف ص١١-١٢.

(٢) المصدر السابق.

وقرن سبحانه صلاحية طبيعته للفجور والتقوى بمنحه القدرة على تحقيق ما تميل إليه نفسه، وبين له أن نتيجة اختياره وثمرة عمله ستعود عليه، ومن نوع ما عمل.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ - ١٠][1].

وإذا كانت طبيعة الإنسان صالحةً للميل إلى الخير وللميل إلى الشر، فإن الميل إلى الخير هو الجانب الأغلب في هذه الطبيعة، حيث إن الله عز وجل فطر الإنسان على الإخلاص والتوحيد إذ هو ما تقتضيه العقول السليمة.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وإنما كفر من كفر لعارضٍ أخرجه عن أصل فطرته، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[2].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠].

يعني يخلق الله الفطرة التي خلق الناس عليها من الإيمان، ومعنى أن الله لا يبدلها أي: لا يخلق الناس على غيرها، ولكن يبدلها شياطين الإنس والجن بعد الخلقة الأولى[3].

وليس معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة) أنه يخرج من بطن أمه وهو يعلم هذا الدين ويعرفه، ولكن المراد أن فطرته موجبةٌ ومقتضيةٌ لمعرفة كل ما هو حقٌّ، فقد صرح القرآن أن الإنسان يولد وهو لا يملك من المعرفة شيئًا، ثم يتم اكتساب مهارات وقيم من خلال أدوات الطاقة التي منحه الله تعالى إياها.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

كما بين القرآن أن الإنسان إذا بلغ مبلغ الرشد، وأصبح مسئولًا عن تصرفاته فإنه ينقسم- بسبب اختياره وإرادته- إلى مؤمنٍ وكافرٍ، أو طائعٍ وعاصٍ، أو مهتدٍ وضالٍ، وتلك هي المرحلة التي نراها في كثيرٍ من آيات الله البينات، وقد حكم على الإنسان فيها بأحد الوصفين[4].

(١) انظر: مقومات الإنسانية في القرآن الكريم، أحمد مهنا، ص٨-٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ٢/ ١٠٠، رقم ١٣٨٥.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦٨، ١٦٧.

(٤) مقومات الإنسانية في القرآن الكريم، أحمد

ويلاحظ أن القرآن الكريم في تقسيمه الإنسان إلى مؤمنٍ وكافرٍ، إنما يفعل ذلك بعد أن يذكر بعض النعم التي أسبغها على عباده جميعًا مما يستلزم الشكر والاعتراف بالجميل والإقرار بالفضل.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٢ – ٣].

نلمس المساواة بين الأفراد جميعًا في كل ما ذكر، ونجد أن النعم التي تحدث القرآن عنها لا دخل للفرد فيها، ولا إرادة له في الحصول عليها أو الحرمان منها، وإنما هي هبةٌ من الله له، أما ما بعد ذلك من قوله سبحانه في الآية نفسها: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ فهو ينطق بإسناد الشكر أو الكفر إلى الإنسان، وهو ما يحقق التفرقة بين من يعترف بالجميل ومن يجحد الفضل ولا يقدر النعمة.

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤]. لا تخطئ المساواة التامة في ذلك بين أفراد النوع كله.

لكن التفرقة جاءت في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٥ – ٦].

وهي تفرقةٌ مشروعةٌ ومسببة.

مهنا ص١٨-١٩.

وفي قوله عز وجل: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

تبرز المكانة التي أعدها الله لهذا الإنسان في هذه الحياة، وهي مرحلة الاختبار والابتلاء، وكما قرر القرآن وقررت الأديان السماوية جميعًا، لا بد من نتيجةٍ لهذه المرحلة.

ولا بد من تفرقةٍ بين من شكر النعمة ومن جحد بها وأنكرها، وهو ما نجده في الآيتين التاليتين: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [الإسراء: ٧١ – ٧٢].

وفيما قصه القرآن الكريم من شأن آدم عليه السلام نجد هذا المنهج واضحًا جليًا، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾ [البقرة: ٣٧ – ٣٩].

وقوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ

﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤].

فهداية الله إلى عباده والممثلة في رسالاته وهديه عامةٌ وشاملة، أما أثر هذه الهداية في الناس فيختلف باختلاف موقفهم منها وعليهم تبعات هذا الموقف. وهذا الذي وجه إلى آدم عليه السلام في أول عهد الإنسان بالحياة، وجه إلى ذريته كذلك

يقول جل شأنه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣٥ - ٣٦][1].

ويلاحظ أنه ما من أمةٍ بعث الله إليها رسولًا إلا انقسم أهلها قسمين لا ثالث لهما: مؤمن وكافر، وإن تفاوتت درجاتهم في الدنيا واختلفت درجاتهم ودركاتهم في الآخرة. فالمؤمنون منهم السابقون، ومنهم أصحاب اليمين؛ والكافرون تختلف دركاتهم، فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار، حيث يعلوهم إخوانهم الكفار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

بين سبحانه أنه ما ترك أمةً من غير نذيرٍ، بل بعث في كل أمةٍ رسولها بالحق، وهذا من رحمة الله بعباده، حيث لم يتركهم دون عون لهم في صراعهم المستمر طول وجودهم في هذه الحياة، بل أنار أمامهم الطريق وتعهدهم في أطوار حياتهم بالرسالات التي بينت لهم ما تتطلبه الحياة الصالحة في كل عصر.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

وقد تلقى الناس رسالة الرسل الهادية المرشدة ما بين مهتد مؤمن، وما بين ضالٍ قد حقت عليه الضلالة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: فممن بعثنا فيهم رسلنا من هدى الله، فوفقه لتصديق رسله والقبول منها، والإيمان بالله، والعمل بطاعته، ففاز وأفلح، ونجا من عذاب الله، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: وممن بعثنا رسلنا إليه من الأمم، آخرون حقت عليهم الضلالة فجاروا عن قصد السبيل، فكفروا بالله، وكذبوا رسله، واتبعوا الطاغوت فأهلكهم بعقابه، وأنزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ

(١) المصدر السابق ص١٩-٢٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٧.

أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾[النمل: ٤٥].

يعني: مؤمنون وكافرون[(١)].

وقد ذكر الله عز وجل هذه الخصومة في قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾[الأعراف: ٧٥ – ٧٦].

وهذا أيضًا دليلٌ واضحٌ جدًا، على أنهم كانوا فريقًا واحدًا قبل أن يرسل الله إليهم صالحًا مجتمعين على الكفر، ثم انشق منهم فريقٌ آخر وهم نبي الله صالح ومن آمن به، ومن لم يؤمن بقي في الفريق الأول، ولا ثالث لهما.

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٩٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ١٨٠.

صفات الإنسان

وصف الحق سبحانه وتعالى الإنسان بصفاتٍ عديدةٍ في القرآن الكريم، نتوصل من خلالها إلى فهم أنفسنا ومعرفتها، كي نحافظ على الجيد منها، ونعالج الرديء؛ ليستطيع الإنسان أداء رسالته، وهذه الصفات بعضها فطريٌّ جبليٌّ، وبعضها الآخر مكتسبٌ، وفي المطلبين الآتيين سأتناول تفصيل تلك الصفات.

أولًا: صفاتٌ فطرية:

١. الضعف.

وصف الله عز وجل الإنسان بأنه مخلوقٌ ضعيفٌ، فقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[النساء: ٢٨].

أي خلقه الله والضعف ملازمٌ له، وليس الضعف المذكور هو الضعف البدني فقط، بل يشمل الضعف النفسي، وضعف العزيمة والإرادة، وضعف القدرة على الضبط الدائم تجاه دوافع نفسه وغرائزه وشهواته وأهوائه[(٢)].

وقال الراغب: ووصف الإنسان بأنه خلق ضعيفًا إنما هو باعتباره بالملأ الأعلى، نحو: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾[النازعات: ٢٧].

أو باعتباره بنفسه دون ما يعتريه من فيض

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٧٠.

الله ومعونته، أو اعتبارًا بكثرة حاجاته، وافتقار بعضهم إلى بعض، أو اعتبارًا بمبدئه ومنتهاه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤].

وأما إذا اعتبر بعقله، وما أعطاه من القوة التي يتمكن بها من خلافة الله في أرضه، ويبلغ بها في الآخرة إلى جواره تعالى فهو أقوى ما في هذا العالم،ولهذا قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾[الإسراء: ٧٠][1].

وإذ خلق الله الإنسان ضعيفًا، فقد قضت حكمته عز وجل أن يراعي هذا الواقع فيه، في أحكامه وشرائعه لعباده، وفي أصول وقواعد محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وفي وسائل تربيتهم وتعليمهم.

٢. العجلة.

قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: ١١].

أي في طبعه العجلة في الأمور، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير.وكما في قوله سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

والعجل هو العجلة والتسرع والسبق إلى مخاطر الأمور من غير تفكيرٍ، ومعنى أنه خلق من عجل، المبالغة في عجلته، كما يقال: خلق من كرمٍ مبالغة في الكرم، والعرب قد تسمي المرء بما يكثر فيه. وليس أصل فطرة العجلة من النقائص في تكوين الإنسان الفطري؛ لأنها تمثل في الإنسان عنصرًا مهمًا من حوافز الجد والعمل، ولكنها تغدو من النقائص حين يسيء الإنسان إدارتها، أو يهملها، إذ المفروض فيها أن تكون خاضعة لعقل الإنسان وإرادته، فإذا انعكس الأمر فصارت هي المسيطرة على العقل والإرادة، اختل توازن الإنسان وجانب سبيل الحكمة في الأمور[2].

٣. الجدل.

وصف الله عز وجل الإنسان بأنه أكثر شيءٍ جدلًا، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾[الكهف: ٥٤].

أي: وكان الإنسان بحسب جبلته، أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل[3].

قال الراغب: «الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله، ومنه الجديل، وجدلت البناء أحكمته، ودرعٌ مجدولةٌ»[4].

وذهب الألوسي إلى أن الأليق بالمقام أن يراد به هنا الخصومة بالباطل والمماراة وهو الأكثر استعمالًا[5]. والسبب في

(١) المفردات ص٢٩٥-٢٩٧.

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٩٠.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٨٣.

(٤) المفردات ص٨٩.

(٥) روح المعاني ٨/ ٣٨٣.

كون الإنسان أكثر شيءٍ جدلا أن القدرات الفكرية التي زود الله الإنسان بها، قد مكنته من استخدام حيلٍ كثيرةٍ، تعتمد على الإظهار والإخفاء، والمراوغة والمخادعة بمكرٍ عظيمٍ، فهو بذلك قادرٌ على أن يكون طويل النفس في المجادلة بالحق أو بالباطل[1].

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾[الكهف: ٥٤].

هذا وقع في قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالبٍ وزوجه فاطمة رضي الله عنها حين جاء إليهما ذات ليلةٍ ووجدهما نائمين فقال: (ألا تصليان)، قال علي رضي الله عنه : «إن أنفسنا بيد الله ولو شاء لأيقظنا»، فانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾[2].

ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن أنفسهما بيد الله، والرسول عليه الصلاة والسلام قال في الفريضة: من نام عن صلاةٍ أو نسيها فليصلها إذا ذكرها. فعذر الناسي والنائم وهو يعلم عليه الصلاة والسلام ذلك، ولكنه يريد أن يحثهما، وأراد عليٌّ رضي الله عنه أن يدفع اللوم عنه وعن زوجه فاطمة رضي الله عنها[3].

٤. التقتير.

وصف الله عز وجل الإنسان بأنه قتورٌ في أصل فطرته، فقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾[الإسراء: ١٠٠].

والقتر والتقتير في اللغة: يعني الرمقة من العيش. والإقتار يقصد به: التضييق على الإنسان في الرزق، ولذا يقال: أقتر الله رزقه أي ضيقه وقلله. والقتر: ضيق العيش، يقال أيضًا: قتر الرجل على عياله: أي ضيق عليهم في النفقة[4].

وكلمة (قتور) صيغة مبالغةٍ على وزن فعول، وقد جاءت في القرآن دالةً على الإنسان البخيل الشحيح الذي يمسك عن الإنفاق.قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: بخيلًا مضيقًا[5].

وبين الحق سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى أن بخل الإنسان سببه حبه للمال، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب تحريض النبي، صلى الله عليه وسلم، على قيام الليل، رقم ١٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام أجمع حتى أصبح، رقم ٧٧٥.

(٣) تفسير القرآن الكريم، سورة الكهف، ابن عثيمين ص٩٧ .

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٣٥٢٥.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٩٨، تفسير السمرقندي ٢/ ٢٨٥.

[العاديات: ٨].

ومما يدل كذلك على أن الشح صفةٌ ملازمةٌ للنفس الإنسانية بوجهٍ عام قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

٥. الهلع.

وصف الحق سبحانه وتعالى الإنسان بأنه خلق هلوعًا، فقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج: ١٩].

والهلع: بعد الحرص. رجلٌ هلعٌ هلوعٌ هلواعٌ هلواعةٌ: جزوعٌ حريصٌ[١]. وقيل: الهلع:الجزع وقلة الصبر[٢]، وقيل: الهلع: أفحش الجزع[٣]، وقيل: الهلوع: الضجور[٤]، وقيل: الهلوع: الذي يفزع ويجزع من الشر[٥].

هذا ما فسر به بعض من أئمة اللغة لفظة (الهلع)، ولكن ابن عاشور علق على ما أورده أئمة اللغة قائلًا: « الجزع أثر من آثار الهلع وليس عينه، فإن ذلك لا يستقيم في قول عمرو بن معديكرب[٦]:

ما إن جزعتُ ولا هلعـ
ـتُ ولا يرد بكاي زندا

إذ عطف نفي الهلع على نفي الجزع، ولو كان الهلع هو الجزع لم يحسن العطف، ولو كان الهلع أشد الجزع كان عطف نفيه على نفي الجزع حشوًا. والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه»[٧].

وقد فسر أكثر المفسرين وأهل اللغة الهلع الموجود في فطرة الإنسان بأنه ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠ – ٢١].

فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وغيرهما عن عكرمة قال: سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الهلوع، فقال: هو كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠ – ٢١].

وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه سئل عن ذلك أيضًا فقرأ الآية. وحكى نحوه عن ثعلب قال: قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع ؟ فقلت: قد فسره الله تعالى ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه، يعني قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠–٢١][٨].

(١) العين، الفراهيدي ١/ ١٠٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٦٨٥.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٧٧٦.
(٤) انظر:تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ١٤٣.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٦٨٥.
(٦) البيت في ديوانه ص٥٩١.

(٧) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٦٧ .
(٨) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٦٩.

٧. الظلم والجهل.

وصف الإنسان بالظلم وبالجهل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه. والظلم: الميل عن القصد، والعرب تقول: الزم هذا الصواب ولا تظلم عنه، أي: لا تجر عنه[١]. والظلم: الاعتداء على حق الغير، وأريد به هنا الاعتداء على حق الله الملتزم له بتحمل الأمانة، وهو حق الوفاء بالأمانة[٢].

والجهل في اللغة: هو عدم العلم أو هو نقيضه. وفي قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣][٣].

والمراد به هنا انتفاء علم الإنسان بمواقع الصواب فيما تحمل به[٤].

قال المفسرون: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾، أي: إنه كان مفرطًا في الظلم مبالغًا في الجهل-بحسب غالب أفراده-[٥] حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خان بضمانه فيها[٦].

وصفة الظلم والجهل أصل في الإنسان، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والإنسان خلق ظلومًا جهولًا ؛ فالأصل فيه عدم العلم، وميله إلى ما يهواه من الشر؛ فيحتاج دائمًا إلى علمٍ مفصلٍ يزول به جهله، وعدلٍ في محبته وبغضه، ورضاه وغضبه، وفعله وتركه، وإعطائه ومنعه»[٧].

٨. الطغيان.

بين الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان من طبيعته الطغيان والتمرد متى رأى نفسه في غنًى، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ - ٧]. والطغيان في اللغة: مجاوزة الحد في كل شيءٍ، يقال: طغى الماء وطغى السيل إذا جاء بماءٍ كثيرٍ، وطغى البحر: هاجت أمواجه، وطغى الإنسان طغيانًا: جاوز القدر في الكبر والمعصية والكفر، وفيه إفراط ومبالغة في الشر والكبر[٨].

قال ابن عاشور: «التعريف في (الإنسان) للجنس، أي من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي أغلب الناس في ذلك

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦٨، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٧٥٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣٠.
(٣) انظر: لسان العرب ١/ ٧١٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣٠.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٧١.
(٦) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٩.
(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٣٨.
(٨) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤١٢، تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٥٣.

الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه. وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقًا لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم»[(١)]. ولما كانت صفة الطغيان ملازمة لمن يرى من الناس أنه استغنى، كان من التربية الربانية للناس أن الله تبارك وتعالى قد جعل الإنسان حبيس الحاجة والافتقار، في كل أمرٍ من أموره، حتى يرجع دائمًا إلى ربه[(٢)].

٩. الكنود.

قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ٦].

والكنود في اللغة: وصف من أمثلة المبالغة من كند، يقال: كند يكند كنودًا: كفر النعمة؛ ورجلٌ كنادٌ وكنودٌ . وقيل: الكنود هو الجحود[(٣)].

وأصل الكنود الأرض التي لا تنبت شيئًا، شبه بها الإنسان الذي يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات[(٤)]، ولغات العرب مختلفة في معناه، فهو في لغة مضر وربيعة: الكفور بالنعمة، وبلغة كنانة: البخيل، وفي لغة كندة وحضرموت: العاصي. والمعنى: لشديد الكفران لله[(٥)].

والتعريف في (الإنسان) تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالبًا، قال المفسرون: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾: أي طبع الإنسان على كفران النعمة[(٦)]، وهذا عارضٌ يعرض لكل إنسانٍ على تفاوت فيه، ولا يسلم منه إلا الأنبياء وكمل أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه وهو أمرٌ في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكر حق غيره[(٧)].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أتدرون ما الكنود؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: الكنود الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده[(٨)].

أي: أنه لا يعطي شيئًا مما أنعم الله به عليه، ولا يرأف بعباده كما رأف به؛ فهو كافر بنعمته، مجانف لما يقضي به العقل

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٤٤.
(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٧٩.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٣٣١، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٩٣٦.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ٢٢٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٠٢.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٤٣٦.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٠٣.
(٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ١٦٠، ص٦٥.

والشرع[1]. وسر هذه الجبلة- أن الإنسان يحصر همه فيما حضره، وينسى ماضيه، وما عسى أن يستقبله؛ فإذا أنعم الله عليه بنعمة غرته غفلته، وقسا قلبه، وامتلأ جفوة على عباده[2].

١٠. الفرح.

الفرح في اللغة: نقيض الحزن، وهو السرور، يقال: فرح يفرح فرحًا: سر وابتهج. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤ - ٥].

والفرح أيضًا: البطر، يقال: فرح فلان: أي استخفته النعمة فأبطرته، فهو فرح وفرحان[3].

وقد وصف الإنسان في القرآن الكريم بالفرح على سبيل الذم وذلك بصيغة المبالغة (فرح) على وزن (فعل) للدلالة على بطر ذلك الإنسان الجاحد في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝﴾ [هود: ١٠].

فلفظ (فرح) مثال مبالغة، أي: شديد الفرح. وشدة الفرح: تجاوزه الحد والبطر والأشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝﴾ [القصص: ٧٦][4].

فإن قيل ما وجه ذم الإنسان على الفرح وقد وصف الله الشهداء فقال: (فرحين)؟ أجاب عن ذلك ابن الأنباري فقال: إنما ذمه بهذا الفرح؛ لأنه يرجع إلى معنى المرح والتكبر عن طاعة الله.

قال الشاعر:

ولا ينسيني الحدثان عرضي
ولا ألقي من الفرح الإزارا

يعني من المرح. وفرح الشهداء فرحٌ لا كبر فيه ولا خيلاء، بل هو مقرون بالشكر فهو مستحسن[5].

وذهب بعض المفسرين إلى تمييز الفرح الممدوح من المذموم حسب وروده مقيدًا أو مطلقًا في القرآن، فقالوا: إن الفرح إذا جاء مطلقًا فهو مذموم، ولا يأتي ممدوحًا إلا مقيدًا بما فيه خير، كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠][6].

١١. الفخر.

الفخر في اللغة: التمدح بالخصال والافتخار وعد القديم، وهو المباهاة والتعاظم والتكبر، يقال: فخر فخرًا وفخارًا،

(١) تفسير المراغي ٣٠/ ٢٢٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٣٧٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٤.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٨١.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٤٧، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٠٧.

فهو فاخرٌ وفخورٌ: تباهى وتكبر[1].

قال الراغب: الفخر: المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه، ويقال له: الفخر، ورجلٌ فاخرٌ وفخورٌ وفخيرٌ على التكثير[2].

وقد وصف الإنسان في القرآن الكريم بالفخر والمباهاة، وذلك بصيغة المبالغة (فخور) على وزن (فعول) ؛ للدلالة على شدة التكبر والتعاظم عند الإنسان الجاحد في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود: ١٠].

وفي هذه الآية بيان لحال ذلك الإنسان إذا منحه الله الصحة والسلامة والغنى بعد أن كان في ضرٍ من فقرٍ أو مرضٍ أو خوفٍ، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه، بل يقول مباهيًا بجحوده: ذهب السيئات، أي المصائب التي ساءته، وأصبح بطرًا أشرًا، متعاظمًا على الناس بما أوتي من النعم مشغولًا بذلك عن القيام بحقها[3].

والفخر فيه أمران مفسدان للنفس: الأمر الأول: المطاولة على الغير وغمط الناس حقوقهم. الأمر الثاني: إنكار نعمة المنعم معتقدًا أنه مجهوده وعمله وليس بعطاءٍ من الله، وإن التفاخر يوهم صاحبه أنه في حالٍ لم يصل إليها غيره فيتخيل ما ليس عنده، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا حين قال: (كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرفٍ ولا مخيلةٍ)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦][4].

ثانيًا: صفاتٌ مكتسبةٌ.

١. الكفر.

من أبرز وأكثر صفات الإنسان المكتسبة التي وردت في القرآن الكريم، صفة الكفر، وقد وردت خبرًا عن الإنسان في ستة مواضع، وهي صفةٌ قبيحةٌ ذمها الله تعالى حتى قال سبحانه: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧].

والكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص،والزراع لستره البذر في الأرض، والكفر:نقيض الإيمان، وقيل: الكفر: كفر النعمة، وهو نقيض الشكر. ويقال: رجل كفار وكفورٌ: أي كافر، والكافر الجاحد لأنعم الله، ويطلق الكافر أيضًا على: البحر، والوادي العظيم، والنهر الكبير، والسحاب المظلم،

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٤٥٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٤.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٧٧، روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢١٦.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٦٧٤.

والدرع[1].

وقال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق[2].

وقد عبر القرآن الكريم عن كفر الإنسان بصيغة المبالغة (كفار) على وزن (فعال) وهي تفيد كثرة المزاولة للفعل وتكراره، و(كفور) على وزن (فعول) وهي تفيد الدلالة على المبالغة مع التجدد والاستمرار[3]؛ وذلك للتشنيع على هذا الكفر الذي يقابل به الإنسان نعم ربه عليه.

ومن خلال استقراء أقوال المفسرين للمواضع الستة التي وردت فيها صفة الكفر خبرًا عن الإنسان، تبين أن كفر الإنسان في القرآن الكريم نوعان:

النوع الأول: الكفر المقابل للشكر، أو كفران النعمة، كما يدل عليه قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾[الشورى: ٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ [هود: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾[الإسراء: ٦٧].

وقد قرن القرآن بين الظلم وهذا النوع من الكفر لأنهما يتقاربان في هذا السياق: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[إبراهيم: ٣٤].

والنوع الثاني: الكفر المقابل للإيمان، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾[الإسراء: ٨٩].

ومن تجليات هذا الكفر عدم إخلاص العبادة لله وحده وإشراك غيره معه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾[الزخرف: ١٥].

وقد بالغ هنا في إظهار فظاعة هذا الكفر حين وصفه بالمبين؛ أي بين الكفر.

٢. الفجور.

وصف الإنسان في القرآن الكريم بصفة الفجور، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾﴾[القيامة: ٥].

والفجور في اللغة: الانبعاث في المعاصي، يقال: فجر الإنسان يفجر فجرًا وفجورًا: انبعث في المعاصي، وقيل: فجر: إذا ركب رأسه غير مكترث[4]. والفجور:

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٩٣-٢٠٢.
(٢) انظر: الوسيط، الواحدي ١/ ٨٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٤.
(٣) انظر: معاني الأبنية في العربية ص٩٤-١٠٠.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٣٥٢.

فعل السوء الشديد ويطلق على الكذب، ومنه وصفت اليمين الكاذبة بالفاجرة[1]. وأصل الفجور: الميل، وسمي الفاسق والكافر: فاجرًا، لميله عن الحق[2].

والآية الكريمة التي عبرت عن فجور الإنسان تقفنا على حقيقة ذلك الإنسان الكافر الذي يرغب ألا يقيد أهواءه قيدٌ، بل يريد أن يمضي قدمًا على معاصي الله ما عاش راكبًا رأسه لا ينزع عنها ولا يتوب، ومن ثم فهو ينكر اليوم الآخر لما يترتب على إيمانه به من قيود وضوابط[3].

٣. المخاصمة.

صفة الخصام من صفات الإنسان المكتسبة، وقد عبر عنها القرآن بصيغة المبالغة ﴿خَصِيمٌ﴾ في موضعين؛ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل: ٤].

وفي قوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧].

خصيمٌ: صيغة مبالغةٍ على وزن (فعيلٌ) بمعنى: شديد الخصومة، أو كثير الخصام، ويجوز أن تكون بمعنى مخاصم، وإتيان الفعيل بمعنى المفاعل كثيرٌ في كلام العرب،كالخليط بمعنى المخالط، والقعيد بمعنى المقاعد، والجليس بمعنى المجالس، ونحو ذلك، ومعنى (خصيمٌ) جدول بالباطل[4]. ومبينٌ: اسم فاعل أبان اللازمة، بمعنى بان وظهر[5]. ومعنى المبين: المظهر لما يقوله، الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه[6].

وجاء التعقيب في الموضعين بذكر هذه الصفة بعد الحديث عن خلق الإنسان، والتنبيه على أن الله عز وجل خلقه من نطفة، أي من ماءٍ مهينٍ، وصوره ونقله من حالٍ إلى حالٍ، وأخرجه إلى ضياء الدنيا وغذاه ورزقه وقواه، حتى إذا استوى، كفر بخالقه وجحد نعمته، بل خاصمه في أمر عظيم كأمر البعث، فأنكره وساق حججه على ذلك فقال: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨].

وعبد ما لا يضره وما لا ينفعه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: ٥٥].ونسي خلقه، وانتقاله من ماء، إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظم، إلى تصوير، إلى خروج إلى الدنيا، وضعف إلى قوة، وضعف بعد قوة[7].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٤١.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٨١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٣٠/ ٢١٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٧٢.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٠٢.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦١.
(٦) فتح البيان، القنوجي ١١/ ٣٢٥.
(٧) انظر:الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي

وجاءت صفة الخصام في هذين الموضعين مقترنة بصفة الإبانة: ﴿مُّبِينٌ﴾ التي كانت من أعظم منن الله على الإنسان بعد منة الخلق: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ٣ - ٤].

٤. اليأس.

اليأس في اللغة: القنوط، ضد الرجاء أو قطع الأمل، يقال: يئس من الشيء ييأس: أي انقطع أمله. ويئست المرأة: أي عقمت فهي يائسة. ويقال: رجلٌ يائسٌ ويئوسٌ: أي شديد اليأس[1]. ويئوس: فعولٌ من قول القائل يئس فلانٌ من كذا فهو يئوس إذا كان صفة له[2].

وقد ورد لفظ (يئوس) في القرآن الكريم في أكثر من موضع بصيغة المبالغة دالًا على وصف الإنسان باليأس الشديد إذا أصابه شرٌّ أو ضررٌ أو سلبت منه نعمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود: ٩].

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ [فصلت: ٤٩].

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣]

ففي هذه الآيات الكريمة بيانٌ لحال الإنسان الكافر في اختبار الله له بزوال النعمة أو إصابته بالشدة والضر، فإنه يصير يئوسًا؛ وذلك لأنه يعتقد أن السبب في حصول تلك النعمة سبب اتفاقي، ثم إنه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى، فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع في اليأس. وكل ذلك لأنه مادي لا يؤمن إلا بالمادة، ولا يرجو ما عند الله الذي يعطي ويمنع ويعز ويذل[3].

٥. القنوط.

القنوط في اللغة: مصدر قنط، يقال: قنط يقنط ويقنط قنوطًا، وقنط قنطًا وهو قانطٌ: يئس. فالقنوط: اليأس، وقيل: اليأس من الخير، وقيل: أشد اليأس من الشيء[4].

وقد ورد لفظ (قنوط) بصيغة المبالغة في القرآن الكريم في موضعٍ واحدٍ فقط، دالًا على شدة يأس الإنسان، في قوله جل وعلا: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ [فصلت: ٤٩].

أي: يئوس من الخير، قنوطٌ من الرحمة. وقيل: قنوطٌ أي: سيء الظن بربه، كأنه يقول: لا يكشف الله تعالى ما بي من البلاء

طالب ٦/ ٣٩٥٠.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٩٤٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٨٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٣٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ١٩٩، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٦٧٣.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٧٥٢، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٥٦.

والشدة[1].

وقد فرق بعض المفسرين بين اليأس والقنوط؛ إذ لو كانت الكلمتان متطابقتين لاستغنى السياق القرآني عن واحدة منها، فقالوا: اليأس من صفة القلب، وهو قطع الرجاء من رحمة الله تعالى، والقنوط من صفة البدن، بأن يظهر أثر اليأس في بدنه، فيتضاءل ويحزن وينكسر ويتذلل[2].

وقال بعضهم: هما مترادفان؛ وذكرهما معًا للتأكيد[3].

وقد جاءت تربية الشريعة للأمة على ذم القنوط.

قال تعالى حكايةً عن إبراهيم: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦][4].

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٥٩.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٨٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٠.
(٣) حدائق الروح والريحان، الهرري ٢٦/ ١٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١١.

الإنسان والشيطان

بين لنا القرآن الكريم- في آياتٍ كثيرةٍ - أن علاقة الشيطان بالإنسان علاقة عداوة، وهي من سنن الله الكونية التي قررها الله عز وجل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

والهدف منها واضحٌ جليٌ ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

ويرجع تاريخ تلك العداوة إلى اليوم الذي شكل الله عز وجل فيه آدم عليه السلام قبل أن ينفخ فيه الروح، فأخذ الشيطان يطيف به، ويقول: لئن سلطت علي لأعصينك، ولئن سلطت عليك لأهلكنك. فعن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لما صور الله آدم في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك»[5]. فلما نفخ الله في آدم الروح، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء فشمله الأمر، فسجدوا جميعًا إلا إبليس أبى أن يسجد لآدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب،باب خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، رقم ٢٦١١، ٢/ ١٢١٠.

لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ [البقرة: ٣٤]. فكان الاستعلاء والاستكبار من قبل إبليس ردًا على الأمر الإلهي بالسجود، إذ يعتقد بأفضليته وخيريته على آدم فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١]. والحسد على تكريم الله إياه، قال: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢].

فكان جزاؤه أن عامله الحق سبحانه وتعالى بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاظم والتكبر، فأخرجه الله صاغرًا حقيرًا ذليلًا، ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣].

لكن إبليس لم يرد أن يترك جهلًا محادته لله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤].

أي: أمهلني فلا تعجل بموتي إلى يوم يبعثون، وقد ذكر ما يريد عمله من ذلك الإمهال وهو إضلال الناس، فأجابه الله إلى طلبه ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥].

وقطع اللعين على نفسه عهدًا بإضلال آدم وذريته والكيد لهم: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧].

وابتدأ اللعين يعد عدته ويدبر للفتك بآدم وذريته، فبعد أن أكرم الله عز وجل آدم بأنواع التكريم، وأسجد له ملائكته، وبعد ما تحقق من إبليس ما تسبب في طرده- لعنه الله- من الجنة، زاد حقده على آدم أن يسكن الجنة التي طرد منها بسببه.

فعقد العزم على إغواء أبينا آدم، فجاءه وزوجه بطريق الوسوسة: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٠ - ١٢٣]

بل أقسم على إضلال آدم وذريته، كما أخبر القرآن الكريم على لسانه: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ

﴿جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٢ – ٦٥].

وقد أطال القرآن في تحذيرنا من الشيطان وبيان عداوته للإنسان، فقد ورد ذكره بصفة المفرد في سبعين آية، وبصفة الجمع في ثماني عشرة آية، وذلك لشدة عداوته وفتنته، ومهارته في الإظلال، ودأبه وحرصه على ذلك.

ومن خلال تتبع آيات القرآن الكريم في ذكره لكلمة (عدو) نجد أنها وردت مقرونةً بوصف (مبين) تسع مراتٍ، ثمانية منها في شأن العداوة مع الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: ٥].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومعنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة لا يخفيها ولا يطويها، عداوته جلية واضحة[1].

والموضع الوحيد الذي وصفت فيه عداوة غير الشيطان بهذا الوصف هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ١٠١].

وزد على ذلك أن (الخسران) لم يوصف بأنه مبيّن إلا في سياق العلاقة مع الشيطان! وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٩٩.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾ [النساء: ١١٩].

وعداوة الشيطان للإنسان مستمرةٌ لانهاية لها بل هي باقيةٌ أبد الدهر، بيد أنه لا يعدو الشيطان في حياة الإنسان أنه مخلوقٌ باستطاعته أن يوسوس في صدر الإنسان بالشر، ويزين له ارتكاب الخطيئة بإرادته، ويعد مسئولا عنها مسئولية تامة.ففي المفاهيم الإسلامية عدة حقائق عن الشيطان تبين موقعه في حياة الإنسان، وأثره على إرادته، والحكمة الربانية من وجوده.

الحقيقة الأولى: تتلخص في أن الشيطان ليس له سلطانٌ على إرادة الإنسان، إلا من سلم قيادة نفسه له وتبعه مختارًا لنفسه طريق الغواية، ونجد الدليل على هذه الحقيقة في عدة نصوصٍ قرآنيةٍ، منها قول الله تعالى يخاطب إبليس رأس الشياطين:

ومنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: ٤٢].

ومنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ٦٥﴾ [الإسراء: ٦٥].

ومنها قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل: ٩٨ – ١٠٠].

فمن الظاهر في هذه النصوص أن الله تبارك وتعالى لم يجعل للشيطان سلطانًا على الإنسان، وأن سلطانه لا يكون إلا على الذين يتولونه، ويجعلونه قائدًا لهم، ويتبعونه مختارين لأنفسهم طريق الغواية.

ومن أجل ذلك فإن الشيطان سيعلن هذه الحقيقة يوم القيامة للذين استجابوا لوساوسه في الدنيا.

ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ أي: ما أنا بقادرٍ على إغاثتكم وما أنتم بقادرين على إغاثتي، حينما يصرخ كلٌّ منا طالبا من صاحبه أن يغيثه فيرفع عنه عذاب الله.

الحقيقة الثانية: تتلخص في أن وظيفة الشيطان في حياة الإنسان إنما هي الوسوسة في صدره وليس له قدرة على أكثر من ذلك،

ويشعر الإنسان بهذه الوسوسة في صورة خواطر تزين له الإثم والمعصية، وتزين له الانحراف عن سواء السبيل، وقد تصوغ له ذلك بحجج مغرية.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١ - ٦]

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾ [محمد: ٢٥].

أي: غرهم بالأماني والآمال في وساوسه وتسويفاته، وهذا ما فعله مع آدم وحواء، إذ كانا في الجنة فوسوس لهما فأخرجهما من الجنة. فكيد الشيطان في الإضلال كيدٌ ضعيفٌ، وبذلك وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النساء: ٧٦].

الحقيقة الثالثة: تتلخص في أن الله تبارك وتعالى جعل الشيطان في حياة الإنسان لإقامة التوازن بين دوافع الخير ودوافع الشر والمحرضات عليهما، وليطرح الإنسان عليه قسمًا من مسئولية الخطيئة التي يقع بها، فيجد لنفسه عذرًا بأن فعل الشر ليس من فطرته، وإنما كان بتأثير وساوس قرينه الشيطان الملازم له.وبهذا لا تظل صورة الخطيئة القبيحة ماثلةً في نفس الإنسان، إذ يشعر بأن القبح في العمل ليس من شأنه. وهذا الشعور الذي يشعر به المخطئ، قد يساعده على تقويم نفسه، مستعيذًا بالله من الشيطان، ساعيًا في التخلص مما علق به من أدناس المعاصي، كما يساعده على نسيان خطيئته إذا هو استغفر الله وتاب إليه؛ إذ من وسائل الإصلاح التربوي فتح باب العذر لمن نربيه إذا ارتكب الخطيئة، ولو عاقبناه عليها نظرًا إلى مسئوليته، وذلك لنبقى له مجالًا يحتفظ فيه بصورة الكمال التي يجب أن يتصورها الناس فيه، ولنبق له مجالًا للارتقاء في مراتب الكمال الإنساني[1].

[انظر: آدم: آدم وإبليس]

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ١٧٣.

نداءاتٌ ووصايا للإنسان

جاءت النداءات والوصايا من الله عز وجل للإنسان في القرآن الكريم كي ترشد الإنسان إلى الطريق القويم ليفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، فالله عز وجل إذا كان قد جعل الإنسان مختارًا فإنه لم يتركه سدى، بل أرسل له الرسل، وأنزل له الكتب، وأرشده إلى الطريق الصحيح، ولذا كان حريٌّ بالإنسان أن يعنى بتلك النداءات والوصايا، وقد ورد نداء الإنسان في القرآن في موضعين، وفي استخدام أسلوب النداء تلطفٌ بالمخاطب، بخلاف مواجهة المخاطب بالأمر والنهي مباشرة فإن فيها جفوة وقسوة، كما جاءت وصية الله للإنسان في ثلاثة مواضع جميعها توصية بالإحسان إلى الوالدين، وفي استخدام أسلوب الوصية أثرٌ بالغٌ في النفس وأقوى في الامتثال من أسلوب الأمر والتكليف، وفي المطلبين الآتيين بيان لتلك النداءات والوصايا.

أولًا: نداءات الله للإنسان:

ورد نداء الله عز وجل للإنسان في القرآن الكريم في موضعين:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

النداء هنا للتنبيه، تنبيهًا يشعر بالاهتمام بالكلام والاستدعاء لسماعه، فليس النداء مستعملًا في حقيقته، إذ ليس مرادًا به طلب إقبال، ولا هو موجه لشخصٍ معينٍ أو جماعةٍ معينةٍ، بل مثله يجعله المتكلم موجهًا لكل من يسمعه بقصدٍ أو بغير قصدٍ[(١)].

والتعريف في (الإنسان) تعريف للجنس، وعلى ذلك حمله جمهور المفسرين، أي: ليس مرادًا إنسانًا معينًا، وقرينة ذلك سياق الكلام عقبه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ [الانفطار: ٩ - ١٠][(٢)].

وهذا العموم مراد به الذين أنكروا البعث[(٣)].

وقد خاطب الله عز وجل الإنسان بصفة الإنسانية التي تميزه على المخلوقات؛ ليرعوي ويتذكر أنه إنسان مكرمٌ حريٌّ به أن يستجيب لمن أكرمه بالنعم التي لا تعد ولا تحصى. ففي هذا الخطاب: استدعاء لمعاني الإنسانية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان، من قوى عاقلة مدركة، من شأنها أن تميز بين الخير والشر، وتفرق بين الإحسان والإساءة[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٧٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٤، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٦٩.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٨٤٠.

فتصدير الآية القرآنية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، أي: تنبه!!

إن الصفة التي أعطيتك إياها ما كان ينبغي أن يوجد معها الغرور، ومع ذلك وجد منك الغرور، واغتررت بربك الكريم، فلو أنك اغتررت بالذي وهب لو كان غير كريم لكان من الممكن أن تكون حفيظة نفسك قد أثرت فيك، ولكنه سبحانه وتعالى رب كريم، فما داعي الغرور إذًا؟!.

ويلاحظ أن جملة النداء وليها الجملة الاستفهامية ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ وهي تقرر وتوضح كرم الربوبية، وفي ذلك لفت وإثارة، والمعنى: أي شيءٍ خدعك وجرأك على عصيان ربك الكريم الذي أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر، ولا تزال أياديه تتوالى عليك، ونعمه تترى لديك؟[1].

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ فقال: جهله، وقاله عمر رضي الله عنه وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾[الأحزاب: ٧٢][2].

وقيل: غره عدوه المسلط عليه. وقيل: غره ستر الله تعالى عليه. وقيل: غره كرم الله تعالى. وقيل: غره طمعه في عفو الله عنه[3].

(١) تفسير المراغي ٣٠/ ٦٦.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٥٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ١٢٢.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٤، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦١٠.

قال ابن جزي: «ولا تعارض بين هذه الأقوال؛ لأن كل واحدٍ منها مما يغر الإنسان، إلا أن بعضها يغر قومًا، وبعضها يغر قومًا آخرين»[4].

ثم يفصل الله عز وجل شيئًا من هذا الكرم الإلهي، الذي أجمله في النداء الموحي العميق الدلالة، المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة في التعبير. يفصل شيئًا من هذا الكرم الإلهي المغدق على الإنسان المتمثل في إنسانيته التي ناداه بها في صدر الآية، فيشير في هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله[5].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ وهذه صفاتٌ مقررةٌ للربوبية مبينةٌ وموضحةٌ لكرم الله على الإنسان.حيث إنه تعالى لما وصف نفسه بالكرم، ذكر هذه الأمور الثلاثة (الخلق والتسوية والتعديل)، كالدلالة على تحقق ذلك الكرم، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ لا شك أنه كرمٌ؛ لأنه وجود، والوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت، كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي: جعلك سويًا سالم الأعضاء، ونظيره قوله تعالى:

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٤.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٤٧.

﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].

أي: معتدل الخلق والأعضاء[(١)].

وقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي: عدل أعضاءك بعضها ببعض، أي وازن بينها، فلم يجعل إحدى اليدين أطول من الأخرى ولا إحدى العينين أكبر من الأخرى، ولا إحداهما كحلى والأخرى زرقاء، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، وشبه ذلك من الموازنة[(٢)].

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة تعدد الصلات وإن كان بعضها قد يغني عن البعض، فإن التسوية حالة من حالات الخلق، وقد يغني ذكرها عن ذكر الخلق كقوله: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

ولكن قصد إظهار مراتب النعمة، وهذا من الإطناب المقصود به التذكير بكل صلة والتوقيف عليها بخصوصها، ومن مقتضيات الإطناب مقام التوبيخ[(٣)].

ثم أجمل ما فصله أولًا بقوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾: أي ركبك في صورةٍ هي من أبهى الصور وأجملها، وأدلها على بقائك الأبدي في نشأة أخرى بعد هذه النشأة، فإن الكريم يوفي كل مرتبة من الوجود حقها، فمن خص بهذه المنزلة الرفيعة لا ينبغي أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر، وإنما الذي يليق بعقله وقوة نفسه أن تكون له حياة أبدية لا حد لها، ولا فناء بعدها، يوفى كل ذي حق حقه، وكل عامل جزاء عمله[(٤)].

نخلص من ذلك: إلى أن هذا النداء للإنسان فيه توبيخٌ له على جحود النعم وتحذيرٌ له من الانهماك في الدنيا، فالله عز وجل خلقه في أحسن تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

ومنحه من النعم ما لا يعد ولا يحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأهم هذه النعم ما يتعلق بنفسه، حيث خلقه الله من نطفة ولم يك شيئًا، وجعله سليم الأعضاء منتصب القامة، متناسب الأعضاء، وصوره في أحسن الصور وأعجبها، ومنحه عقلًا امتاز به على كثير من المخلوقات: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ١٩٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٥٤، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٧٥.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ٦٦.

﴿٧٠﴾[الإسراء: ٧٠]؛ كي يحقق العبودية لله تعالى، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات: ٥٦].

فهل يليق بالإنسان بعد هذا الإكرام أن يكفر بنعمة المنعم أو يجحد إحسان المحسن؟.

والموضع الثاني: قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ٦ - ١٥]

والخطاب عام لكل إنسانٍ، فاللام في قوله (الإنسان) لتعريف الجنس وهو للاستغراق، كما دل عليه التفصيل في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾[(١)]. فهو يشمل كل فردٍ من أفراد الناس الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، بأسلوب الخطاب الإفرادي، لإعلام كل فرد فأنه محل عناية الرب في خطابه[(٢)].

والمقصود الأول من هذا وعيد المشركين؛ لأنهم الذين كذبوا بالبعث.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٢١.
(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني ١٥/ ٩٣.

فالخطاب بالنسبة إليهم زيادة للإنذار، وهو بالنسبة إلى المؤمنين تذكير وتبشير[(٣)].

وفي هذا الخطاب كذلك يستدعي الحق سبحانه وتعالى في الإنسان صفة الإنسانية التي تفرده في هذا الكون بخصائص من شأنها أن يكون أعرف بربه، وأطوع لأمره، ولعل في طبيعة هذا النداء ما يلفت الانتباه إلى هذه الربوبية، والدعوة للعودة إليها، بما يوحيه هذا النداء من بلاغةٍ في الخطاب، وذلك بما فيه من التخصيص لكل فردٍ فيه.

فهي دعوة تمتلئ شفقة ورحمة بالإنسان ليعود إلى ربه بما تحمله كلمة الرب من معاني العناية والرعاية، وكذلك بما توحيه أداة النداء التي للبعيد تنبيهًا على أن معاصيه أبعدته عن القرب من الله، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾[الانشقاق: ٦]

و(الكادح): العامل بشدةٍ وسرعة واجتهاد مؤثر، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته حدوشًا أو كدوحًا في وجهه يوم القيامة)[(٤)].

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٢١.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٧/ ٢٥٩، رقم ٤٢٠٧، وأبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة، ٢/ ١١٦، رقم ١٦٢٦، والنسائي في سننه، باب حد الغنى، ٥/ ٩٧، رقم ٢٥٩٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى،

والمعنى: يا أيها الإنسان المجد في سعيه، النشيط في عمله السريع في تحصيل معاشه وكسبه: إنك تكدح في طلب الدنيا، حتى استبطأت حركة الزمن، وكم تمنيت نهاية اليوم أو الشهر أو العام لتحصل على طلبك، أيها الإنسان ما أجهلك!!

ألم تعلم بأن هذا كله من عمرك، وأنت تكدح صائرًا إلى ربك، وتجدك واصلًا إلى نهايتك وموتك.

قال الشاعر:

يسر المرء ما ذهب الليالي
وكان ذهابهن له ذهابا

فأنت تجد في السير إلى ربك، فتلاقي عملك هناك أوضح من الشمس، فاعمل في دنياك على هذا الأساس. ستلاقي ربك يوم القيامة، وستلاقي عملك يوم يقوم الناس للعرض على الملك الجبار ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨][1].

وقد خلق الله الإنسان ضمن ظروف هذه الحياة الدنيا في محيط الكبد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤].

أي: في محيطٍ من الشدة والمشقة والضيق، لذلك فهو بحاجة لتحقيق مطالبه من خيرٍ أو شرٍ إلى الكدح، أي: إلى السعي والعمل بنصبٍ ومشقةٍ.

فالإنسان حريصٌ على البقاء، ومن أجل ذلك فهو يتحمل أنواعًا من الكدح والمكابدة، فلا نكاد نجد في الناس إنسانًا غير كادحٍ، وهذه حقيقةٌ مشاهدة في السلوك الدائم للإنسان.

وهي التي جعلت المعري يقول[2]:

تعبٌ كلها الحياة فما أع
جب إلا من راغبٍ في ازدياد

ولا يشترط أن يكون الكدح في عملٍ جسديٍ، بل قد يكون في حركاتٍ نفسيةٍ ذات مشقةٍ على النفس أكثر من حركات الكد الجسدي، فمن الكدح ما يعانيه الإنسان من أمراضٍ، وأوجاع، وآلامٍ، جسديةٍ ونفسيةٍ. ومن الكدح ما يعانيه الإنسان من آلام المصائب في الأموال والأنفس، وفقد الأحبة.

ويستمر كدح الإنسانِ حتى اللحظات الأخيرة من حياته، وملاقاة ربه بالموت، وبعد ملاقاته ربه بالموت تبدأ مرحلة ملاقاة حسابه، وفصل القضاء بشأنه، ومجازاته على ما كسبه بإرادته في رحلة امتحانه، وأكبر ذلك ما يكون يوم الدين[3].

وما دام الإنسان في ظروف الحياة التي

١/ ٥٨٩، رقم ١٨٤٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٨٩٩، رقم ٤٩٩.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٦٨.

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني ١٥/ ٩٨.

(٣) المصدر السابق.

تتطلب منه أن يكون كادحًا في الخير أو في الشر، فإن العقل السديد والرأي الرشيد يوجبان عليه أن يكدح كدحًا يحقق له النجاح في الدنيا، وأكبر حظٍ من سعادة النفس فيها، ثم يحقق له مرضاة الله والسعادة الخالدة عنده يوم الجزاء الأكبر[(١)].

وقد فصّل الحق سبحانه وتعالى الإجمال الذي في قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦﴾ مبينًا أحوال الإنسان عندما يلاقي ربه، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩].

أي: وهناك في موقف الحساب، يؤتى كل إنسانٍ كتابه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۝١٣ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [١٣ - ١٤: الإسراء].

فأما من أوتى كتابه بيمينه، فهو من أهل السلامة والنجاة. إنه يحاسب حسابًا يسيرًا، لا رهق فيه، لا عسر. فما هو إلا أن يعرض في موقف الحساب، حتى يخلى سبيله. ففترة العرض والانتظار، هي هذا الحساب اليسير. ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من حوسب يوم القيامة عذب). قالت: فقلت: يا رسول الله: أليس قد قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧ - ٨]. فقال: (ليس ذلك الحساب، إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)[(٢)].

ثم ينقلب من هذا الحساب- وقد برئت ساحته- يزف إلى أهله من إخوانه المؤمنين بشرى نجاته وسلامته، وقد غمره السرور، وفاض عليه البشر فلا يملك إلا أن يهتف بكل من يلقاه من أهل المحشر: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩﴾ [١٩: الحاقة][(٣)].

يلحظ مما سبق أن النداء بـ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ لم يأت إلا في موضعين؛ الموضع الأول: في سورة الانفطار، والموضع الثاني: في سورة الانشقاق، وقد جاء النداء فيهما بعد الحديث عن أهوال القيامة وبداية اللقاء الأخروي، وتذكيره بأمره وبمصيره الذي هو صائر إليه، وهذا يدل على الرعاية الحانية للإنسان كي يتنبه قبل فوات الأوان، وهذا واضحٌ جدًا من أسلوب الخطاب في الموضعين.كما يلحظ أن (الإنسان) عندما ينادى في القرآن فهو وإن كان عامًا إلا أن

(١) الأخلاق الإسلامية، الميداني ١/ ٣٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سمع شيئًا فلم يفهمه، ١/ ٣٢، رقم ١٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إثبات الحساب، ٤/ ٢٢٠٤، رقم ٢٨٧٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٥٠٣.

ملاحظة معنى الإنسانية مراد ومطلوب، بخلاف (الناس) فإن ملاحظة الجنس هي المطلوبة أولًا. وكلا النداءين يقتربان في أن المطلوب من الإنسان فيهما أن يعلم أنه ملاقٍ ربه فعليه أن لا يغتر بكرمه فيعمل ليوم الدين، كما ترشد إلى ذلك آية الانفطار، كذلك آية الانشقاق تلتقي مع أختها في ضرورة أن يعمل الإنسان في سعيه خيرًا فهو لا محالة ملاقٍ ربه.

ثانيًا: وصايا الله للإنسان:

الوصية كما عرفها الراغب الأصفهاني: «التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظٍ، من قولهم: أرضٌ واصيةٌ: متصلة النبات، ويقال: أوصاه ووصاه، قال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾[البقرة: ١٣٢].

وقرئ: (وأوصى) قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النساء: ١٣١].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [العنكبوت: ٨].

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ﴾ [النساء: ١٢].

﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

ووصى: أنشأ فضله، وتواصى القوم: إذا أوصى بعضهم إلى بعضٍ، قال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣].

﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٣]»[(١)].

والوصية شأنها في نفس من تربى على الإيمان أعمق وأبعد أثرًا، لاسيما حينما تكون من صاحب نعمة، ومن صاحب الأمر والتدبير وموجد الخلق أجمعين، فهي تحمل معنى الأمر وتحمل معنى الالتزام.

والفرق بين الأمر الصريح والوصية، أن آخر ما استقر الأمر عليه الوصية، وبهذا تكون الوصية خالدة مخلدة، وهي أيضًا في قوتها أقوى من الأمر وفي أثرها أبلغ منه. ومن هنا كان أسلوب الإيصاء أقوى في البعث على الامتثال من أسلوب الأمر والتكليف.

وإذا كان هذا هو شأن الوصية، فقد وصى الله عز وجل الإنسان بالإحسان إلى والديه؛ لأنهما سبب وجوده، ولهما عليه غاية الفضل والإحسان، وذلك في ثلاثة مواضع من الكتاب العزيز:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [العنكبوت: ٨]

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى

(١) المفردات ص٥٢٥.

﴿ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان: ١٤-١٥]

الموضع الثالث: قوله جل شأنه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف: ١٥-١٦]

وجاءت وصية الله عز وجل للإنسان بالفعل (وصى) المشدد فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للدلالة على المبالغة والتكثير، ووصية الله عز وجل للإنسان- في هذه المواضع الثلاثة- هي أمرٌ وعزيمةٌ وتكليفٌ.

ذكر بعض المفسرين: أن هذه المواضع الثلاثة التي ورد فيها توصية الله عز وجل الإنسان بوالديه نزلت في شأن سعد بن أبي وقاص [(١)]. والراجح- والله أعلم- أن الآيات عامة في جميع الناس، وإن كانت نزلت في شأن شخص عين، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله. ويكون المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ جنس الإنسان.

فهي وصيةٌ صادرةٌ من خالق الإنسان لجنس الإنسان كله، قائمةٌ على أساس إنسانيته، وهي وصية بالإحسان إلى الوالدين مطلقة من كل شرطٍ ومن كل قيدٍ، فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، دون الحاجة إلى أية صفة أخرى.

ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالات معينة؛ ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير [(٢)].

ونلحظ أن الآيات في الموضعين الأول والثالث جاءت منوهة بالحسن في وصيتها بلفظ ﴿حُسۡنًا﴾ في الموضع الأول، وبلفظ ﴿إِحۡسَٰنًا﴾ في الموضع الثالث، أما الموضع الثاني فقد تركت الوصية مفتوحة.

فما المراد بالإحسان؟ وهل هناك فرق بين لفظي ﴿حُسۡنًا﴾ و ﴿إِحۡسَٰنًا﴾؟

قال الراغب الأصفهاني: «الإحسان يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلانٍ، والثاني: إحسانٌ في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٢٥٧، روح المعاني، الألوسي ١٠/ ٣٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦١.

رضي الله عنه:(الناس أبناء ما يحسنون) أي: منسوبون إلى ما يعلمون وما يعملونه من الأفعال الحسنة»[1].

ومعنى ﴿حُسْنًا﴾ أي: وصيناه فعلًا ذا حسن، أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه، والحسن خلاف القبح، ثم أقام الصفة مقام الموصوف؛ وهو الأمر، ثم حذف المضاف وهو (ذا) وأقام المضاف إليه مقامه، وهو (حسن)؛ من: حسن يحسن حسنًا، ومعنى ﴿إِحْسَٰنًا﴾:أي تحسن إليهما إحسانًا، من: أحسن يحسن إحسانًا، والإحسان خلاف الإساءة[2].

وقد جاءت الوصية من الله عز وجل مباشرةً بالوالدين بالإحسان إليهما، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

يأمر الحق سبحانه وتعالى الإنسان بالإحسان إلى الوالدين؛ لأنهما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق.

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت: ٨].

أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا[3].

وفي الموضع الثاني تأتي الوصية مفتوحة أو مطلقة ففي قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ذكر عز وجل ضعف الأم بصفة الوهن، والوهن: الضعف وقلة الطاقة على تحمل شيء[4].

كأنه عز وجل لما ذكر ضعف الأم بوصفه ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ترك الوصية مطلقةً فلم يحددها بالقول إحسانًا أو حسنًا، فإن مراتب هذه المفردات على سموها لا تفي حق الوالدين، وإن كان ذكر الأم على التخصيص دون الأب مع أن الوصية بكليهما؛ لأنه ادعى للشفقة، فهو لمما يدر هذه الشفقة تجاه الوالدين.كما أن هذا الحمل أظهر وأوضح في وقوعه، وهو أيضًا من الأشياء التي تنسى بسهولةٍ بعد حصولها، كما أنها هي الأصل الظاهر في وجود هذا الإنسان، وإن كان للأب لا شك دورٌ جوهريٌ، أضف إلى ذلك عملية تعميق دور الأم ورسالتها بذكر الحمل

(١) المفردات ص١١٩.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٣٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٣٤٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٧.

ووهنه على وجه الخصوص، ولذلك كان الوصف لصورة هذه الأم الواهنة الكارهة للحمل، ولكن الوصية للاثنين والشكر لهما معا، كما أن رفض الطاعة في الإشراك بالله لكليهما إن صدر من كليهما.

ونرى هذا التنديد بالشرك واضحًا عندما نبه على أن شكر الوالدين جاء مقرونًا بشكر الله، ثم نوه على المرجعية إليه في قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

وفي الآية اللاحقة أكد صراحةً رفض الشرك حينما قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٥]

فالوصية بهم والإحسان إليهم لا يجب أن يؤدي بحالٍ من الأحوال إلى الشرك حتى في أقصى الظروف من مجاهدتهم إياكم، والسبيل إلى ذلك باتباع سبيل من أناب إلى الله وأدرك مرجعيته الحقة، وإن كان ولابد في كل هذه الظروف من الإبقاء على مصاحبة الوالدين بالمعروف.

وهنا تبرز قدرة المؤمنين على هذا التوازن الدقيق بين قوة الإيمان الرافضة للإشراك وهي قوة النفس المصاحبة بالحسن للأبوين المشركين بالمعروف المألوف[1].

وفي الموضع الثالث نجد أن الإحسان جاء في مقابلة الكره الذي تعانيه الأم، حيث يصور القرآن تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة، والتي لا يجزيها أبدًا إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس!

إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، وصورة الوضع وطلقه وآلامه! ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة[2].

كما توضح الآيات أن الإنسان تدرج في أطواره من وقت فصاله إلى أن بلغ أشده، فهو موصى بوالديه حسنًا في الأطوار الموالية لفصاله، فيوصيه وليه في أطوار طفولته، ثم

(١) ملامح الطبيعة الإنسانية في القرآن، أروى التل، ص٢٨٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٢.

عليه مراعاة وصية الله في وقت تكليفه[1].

فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾[الأحقاف: ١٥].

والأشد: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية[2].

ويلحظ في الموضعين الثاني والثالث أن الله تعالى جعل لكلٍ من الأم والوالد نصيبًا من الوصية، ثم خصص الأم بدرجة ذكر الحمل، وبدرجة الرضاع، فتحصل للأم ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبه ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم - حين قال له رجلٌ-: من أبر؟ قال: (أمك، قال:ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك)[3]، فجعل له الربع من المبرة كالآية[4].

يتبين من خلال ما سبق: أن تلك الوصايا الصادرة من خالق الإنسان إنما هي لجنس الإنسان كله، حيث إنها قائمةٌ على أساس إنسانيته، توصيه بالإحسان لوالديه، مبينة على وجه الخصوص مبلغ متاعب الأم بولدها، فقد ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ [لقمان: ١٤]، كما ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾[الأحقاف: ١٥].

إشعارًا بمبلغ استحقاقها للإحسان والرعاية، شكرًا لها على ما قدمت من عطاء دفعت إليه دوافع الرحمة.

ولما كانت العناية الربانية هي المهيمنة على الإنسان منذ نشأته، والمسايرة له مدى وجوده، كان من حقه على عباده أن يشكروه. ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان:١٤].

فشكر الوالدين حق وواجب لكنه مسبوق وهو تابع. فإن اختلفت العقيدة سقط حق الطاعة لهما ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت: ٨].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان: ١٥].

موضوعات ذات صلة:

آدم، الأجل، الناس، النفس

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٣١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم ٥٩٧١.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٧/ ٤٧.

الأنصار

عناصر الموضوع

مفهوم الأنصار	٣٨٢
الأنصار في الاستعمال القرآني	٣٨٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٨٤
صفات الأنصار وأعمالهم	٣٨٦
فضائل الأنصار	٤٠٤

المجلد الخامس

مفهوم الأنصار

أولًا: المعنى اللغوي:

الأنصار: جمع ناصر، كصاحب وأصحاب، كما تجمع ناصر على ناصرين ونصار، اسم فاعل من نصر.

أو جمع نصير، كشريف وأشراف، (ناصر أو نصير) وكلاهما صواب، والنصير: فعيل، بمعنى فاعل أو مفعول؛ لأن كل واحد من المتناصرين ناصر ومنصور.

ونصير: صيغة مبالغة من ناصر، ومعناه: المساعد، والمعين، والمناصر، والمؤيد.

يقال: نصره على عدوه ينصره نصرًا، واستنصره على عدوه: سأله أن ينصره عليهم، وتناصر القوم: إذا نصر بعضهم بعضًا، وانتصر منه: انتقم[1].

ولفظ الأنصار يأتي بمعنى: الأعوان المناصرين والمؤازرين والأتباع والحلفاء، وأهل الاتباع والتصديق.

وهذا اللفظ (الأنصار) بهذا المعنى اللغوي يمكن إطلاقه لغةً على كل من اتصف بهذا الوصف.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وفي المعنى الاصطلاحي الأمر ليس ببعيد عن المعنى اللغوي، فأنصار الرجل هم حلفاؤه وأتباعه ومؤيدوه في النزاعات، ومعاونوه على أمره.

ومن هنا جاء تعريف الأنصار في الاصطلاح الشرعي بأنهم الأوس، والخزرج من الأزد: سماهم الله عز و جل بذلك لما نصروا رسوله، وآووه، وكانوا له نعم الحلفاء والأتباع[2].

فالأنصار اصطلاحًا: يطلق على من أسلم من أهل المدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من الأوس، والخزرج، ومزينة، وسليم، وجهينة، وغفار، وأسلم، فكل هؤلاء يسمون الأنصار، وهو اسم سماه الله تعالى لكل من ناصر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم وآواه في المدينة[3]، وأولادهم يدخلونه بالنسب؛ فيقال: الأنصاري للواحد منهم ومن أبنائهم.

---

(١) انظر: مختار الصحاح،١/ ٦٨٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ٣/ ٢٢٢٠.
(٢) انظر: مغاني الأخيار في شرح أسامي رجال معاني الآثار، العيني ٣/ ٣٨٢.
(٣) انظر: المصدر السابق.

الأنصار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نصر) في القرآن (١٥٥) مرة، يخص موضوع البحث منها (١١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الجمع	١١	﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة: ٢٧٠]

وجاءت كلمة (الأنصار) في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الأعوان[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص١٣٢٥-١٣٢٨.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصحابة:

الصحابة لغة:

الصحابة بالفتح: جمع صاحب، ولم يجمع فاعل على فعالة إلا هذا[١].

الصحابة اصطلاحًا:

هو من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنًا به، ومات على الإسلام، ولو تخللت ردةٌ في الأصح[٢].

الصلة بين الأنصار والصحابة:

عند الحديث عن الفرق بين لفظة الأنصار ولفظة الصحابة وكذلك الألفاظ الثلاثة التالية يكون المقصود منه الاصطلاح الشرعي، فيكون لفظ الأنصار أخص من لفظ الصحابة، إذ الصحابة منهم المهاجرون والأنصار والطلقاء، ومن دخل في دين النبي صلى الله عليه وسلم من القبائل بعد الفتح.

١ المهاجرون:

المهاجرون لغة:

جمع مهاجر، والمهاجر هو كل من فارق رباعه من بدوي أو حضري وسكن بلدًا آخر[٣].

ا لمهاجرون اصطلاحًا:

هم الذين صلوا إلى القبلتين، أو شهدوا بدرًا، أو أسلموا قبل الهجرة[٤].

الصلة بين الأنصار والمهاجرين:

الأنصار هم أهل المدينة الذين آووا النبي صلى الله عليه وسلم ومن هاجر إليهم من أهل الإسلام من مكة، والمهاجرون هم الذين قدموا المدينة مع النبي صلى الله عليه وسلم، أو هاجروا إليه منها بعد ذلك، وقبل انتهاء أجل الهجرة.

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣/ ١٢.
(٢) انظر: نزهة النظر، ابن حجر العسقلاني، ص١٤٠.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري،٦/ ٢٩، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر،٣/ ٢٣٢٥.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي، ص٨٨٣.

١ الطلقاء:

الطلقاء لغة:

أطلقت الأسير، وهو طليق، وهو من الطلقاء. وأطلقت الناقة من عقالها فطلقت[١].

الطلقاء اصطلاحًا:

هم أهل مكة الذين أسلموا بعد فتحها.

الصلة بين الأنصار والطلقاء:

الأنصار من أهل المدينة وإسلامهم متقدم على إسلام الطلقاء، أما الطلقاء فهم أهل مكة وإسلامهم كان بعد فتح مكة.

١ التابعون:

التابعون لغة:

جمع تابع، وهو التالي، ومنه التتبع والمتابعة، والإتباع، والتتبع، تقول: تتبعت علمه، أي: اتبعت آثاره[٢].

التابعون اصطلاحًا:

من لقي الصحابي، وإن لم تطل صحبته[٣].

الصلة بين الأنصار والتابعين:

الأنصار صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ورأوه وهم من قرن النبي صلى الله عليه وسلم، بينما التابعون هم من صحبوا الصحابة بعد موت النبي، أو قبل ذلك ولم يحصل لهم شرف الصحبة.

(١) انظر: أساس البلاغة، الزمخشري، ١/ ٦١١، تاج العروس، الزبيدي،٢٦/ ١٠٢.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٢/ ٧٨.
(٣) انظر: الضوء اللامع المبين عن مناهج المحدثين، أحمد ناجي، ص، ١٦٨.

صفات الأنصار وأعمالهم

تحدث القرآن الكريم عن صفات الأنصار وأعمالهم، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أبرز صفات الأنصار:

اصطفى الله سبحانه لهذا الدين رجالًا، كان لهم الحظ الأوفر، والشرف العظيم في نصرة الدين والنبي صلى الله عليه وسلم وإيوائه بعد أن خذله الناس، ألا وهم الأنصار، فهم من آوى الرسول ونصر، وكبت المشركين وقهر؛ ولهذا فحبهم ثابت في قلب كل مسلم، وبغضهم متقد في قلب كل منافق.

وقد شهد الكتاب العزيز بفضلهم، وبرضوان الله عليهم؛ لما قدموا من خدمة لهذا الدين، فخلد الله مديحهم ورضوانه عليهم في كتابه.

ولو تأملنا في صفات الأنصار في القرآن الكريم، وأمعنا النظر لوجدنا فضائلهم جمة، ومناقبهم عظيمة، بلغوا فيها غاية الكمال، ونالوا بها رضا ربهم الكريم المنان، فهو تارة يصفهم بالسابقين الأولين، وتارة بالإيواء والنصرة والإيمان، وتارة يصفهم بالفلاح، وتارة يثني على جهادهم وصبرهم وإيثارهم، وتارة يخبر بالرضا والتوبة عنهم.

وقد أشار إلى بعض أفعالهم وصفاتهم، ومنها: تبوءهم المدينة، وحبهم للمهاجرين، وإيثارهم إياهم، وسلامة صدورهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وأشار إليهم في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني: أهل مكة، قاله ابن عباس وسعيد بن المسيب والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد، وقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، وملبين وكتابيين، فقد وكلنا بها قومًا آخرين، أي: المهاجرين والأنصار، وأتباعهم إلى يوم القيامة»[1].

وكذا قال البغوي: «أن المراد بقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يعني:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦٨.

الأنصار وأهل المدينة»[1]. وقال القرطبي: «﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ جواب الشرط، أي: وكلنا بالإيمان بها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يريد الأنصار من أهل المدينة، والمهاجرين من أهل مكة»[2].

وقال الطبري بعد أن ذكر عدة أقوال في المراد بقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾: «وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: عنى بقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ كفار قريش ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يعني به: الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم الله تعالى ذكره في الآيات قبل هذه الآية، وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما بينها بأن يكون خبرًا عنهم، أولى وأحق من أن يكون خبرًا عن غيرهم»[3]. وعلى كل حال لا يوجد ما يمنع من دخول الأنصار في المراد من الآية، والله أعلم.

وأشير إليهم أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

أي: قواك بنصره، يريد: يوم بدر، وبالمؤمنين، قال النعمان بن بشير: نزلت في الأنصار ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

أي: جمع بين قلوب الأوس والخزرج، وكانت تألف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عليها حتى يستقيدها، وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين، وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار، والمعنى متقارب[4].

ونزل فيهم قوله -جل وعلا-: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ وقال سفيان مرةً: وما يسرني أنها لم تنزل؛ لقول الله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[5].

«وقال الحسن البصري: هما طائفتان

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٦٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥١٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٤٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قوله: (إذ همت طائفتان منكم)، ٥/ ٩٦، رقم ٤٠٥١ ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار، رضي الله عنهم، رقم ٢٥٠٥.

من الأنصار همتا بذلك، فعصمهما الله، وقيل: لما رجع عبد الله ابن أبي في أصحابه يوم أحد همت الطائفتان باتباعه، فعصمهما الله»[1].

والمقصود أن الله تبارك وتعالى بين في هذه الآيات فضائل الأنصار التي بَيَّنَها القرآن الكريم، فقد نص على مجموعة من صفاتهم الحميدة، ومنها:

١. سبق الأنصار إلى الإيمان والنصرة.

وصف الله الأنصار في القرآن الكريم بالسبق، فقال: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ذهب جمهور العلماء إلى أن السابقين في قوله تعالى: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾[التوبة: ١٠٠].

هم هؤلاء الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة»[2].

وبين ابن العربي رحمه الله الأمور التي يكون فيها السبق، فقال: «السبق يكون بثلاثة أشياء: الصفة، وهو الإيمان، والزمان، والمكان، وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات، والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: (نحن الآخرون الأولون، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فاليهود غدًا، والنصارى بعد غد)»[3][4].

وقال الرازي: «اختلفوا في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من هم؟ وذكروا وجوهًا. . .»، ثم قال: «والصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة وفي النصرة، والذي يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين، ولم يبين أنهم سابقون في ماذا؟ فبقي اللفظ مجملًا، إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارًا، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصارًا، وهو الهجرة والنصرة، فوجب أن يكون المراد منه السابقون الأولون في الهجرة والنصرة؛ إزالة للإجمال عن اللفظ... ثم قال: وأيضًا فالسبق إلى الهجرة طاعة عظيمة من حيث إن الهجرة فعل شاق على النفس، ومخالف للطبع، فمن أقدم عليه أولًا صار

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٤٩.
(٢) منهاج السنة النبوية ١/ ١٥٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، ٢/ ٢، رقم ٨٧٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٢/ ٥٨٥، رقم ٨٥٥.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٤٠٦.

قدوة لغيره من هذه الطاعة، وكان ذلك مقويًا لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام، وسببًا لزوال الوحشة عن خاطره، وكذلك السبق في النصرة، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة، فلا شك أن الذين سبقوا إلى النصرة والخدمة، فازوا بمنصب عظيم»[1].

وما ذكر قبل من الأقوال هو من باب التمثيل، فيكون هذا من باب اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد؛ ولهذا قال الشوكاني رحمه الله: «ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها»[2].

٢. رضوان الله عن الأنصار ورضاؤهم عنه.

أخبر سبحانه أنه رضي عن (المهاجرين) والأنصار وعن أفعالهم، ورضوا عنه سبحانه؛ لما أجزل لهم من الثواب على طاعاتهم وإيمانهم به ويقينهم، فقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ يعم الكل، قال الزجاج: رضي الله أفعالهم، ورضوا ما جازاهم به[3] فحين ذكر سبحانه وتعالى الجزاء الذي أعده لهؤلاء، وحين كانت نفوسهم زاكية راقية؛ قابلوا الجزاء بالشكر، والتزود من الطاعة، فذكر سبحانه أنهم: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون، ويتنافس فيها المتنافسون، أن يرضى الله تعالى عنهم، ويرضيهم، يقول الطبري: «رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه، وأجابوا نبيه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه، ورضي عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه، وإيمانهم به وبنبيه عليه السلام»[4].

ففي هذه الآية إخبار بأن الله رضي عنهم ورضوا عنه، وفي هذا دليل على عدالتهم، ووجه الدلالة: أن الله تعالى أخبر فيها برضاه عنهم، ولا يثبت الله رضاه إلا لمن كان أهلًا للرضا، ولا توجد الأهلية لذلك إلا لمن كان من أهل الاستقامة في أموره كلها، عدلًا في دينه.

يقول ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم»[5].

ويقول أيضًا: «فقد أخبر الله العظيم أنه قد

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٢٧.
(٢) فتح القدير ٢/ ٥٧٧.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٩١.
(٤) جامع البيان، ١٤/ ٤٣٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٠٣.

رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم»[1].

وقال تعالى في جزاء هؤلاء السابقين: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

أي: وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: مقيمين فيها من غير انتهاء، ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه.

قال في البحر: لما بين تعالى فضائل الأعراب المؤمنين بين حال هؤلاء السابقين، ولكن شتان ما بين الثناءين، فهناك قال: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٩٩].

وهنا قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهناك ختم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

وهنا ختم: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠][2].

وهذا الرضوان للأنصار، وما أعد لهم من الجنات والنعيم، هو جزاء ما قدموه لهذا الدين، وما تركوا من دورهم وأهليهم، وجزاء ما أعطوه للمهاجرين من أموالهم؛ لأن الهجرة أمر شاق على النفس، لمفارقة الأهل والعشيرة، والنصرة منقبة شريفة؛ لأنها إعلاء كلمة الله، ونصر رسوله وأصحابه، والإحسان من أحوال المقربين أو مقاماتهم.

وفي هذه الآية ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠] فوائد:

الأولى: في الآية دليل على أن للصحابة مراتب، وأن الفضل للسابق إلى الإسلام والهجرة، وأن السابقين من الصحابة أفضل ممن تلاهم.

الثانية: قيل: المراد بالسابقين الأولين جميع المهاجرين والأنصار، فـ(من) بيانية؛ لتقدمهم على من عداهم، وقيل: بعضهم، وهم قدماء الصحابة و(من) تبعيضية، وقد اختار كثيرون الثاني، واختلفوا في تعيينهم.

الثالثة: تقديم المهاجرين؛ لفضلهم على الأنصار، كما ذكر في قصة السقيفة، ومنه علم فضل أبي بكر رضي الله عنه على من عداه؛ لأنه أول من هاجر معه صلى الله عليه وسلم[3].

الرابعة: وفيها دليل على تنزيل الناس منازلهم.

الخامسة: وفيها دليل على أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين.

(١) المصدر السابق.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣٧٤.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٥٠.

السادسة: رضا الله عن السابقين من المهاجرين والأنصار، والمعنى: أنه رضي عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له، ورضوا عنه بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال، ولا تتصوره عقولهم، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم، وأعلى منازل الكرامة.

٣. حب الأنصار للمهاجرين.

قد شهد الله تعالى لهم بذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

فمن جملة أوصاف الأنصار الجميلة أنهم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

وهذا لمحبتهم لله ولرسوله أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه، وهذه المحبة هي آصرة أقوى من آصرة النسب، وأقوى من رابطة الدم؛ لأنها تجمع على الإيمان بالله واليوم الآخر؛ ولأنها تستل كل الأحقاد والضغائن من الصدور؛ ولأنها تجعل من محبة الفرد لأخيه المسلم طاعة يتقرب بها، وينال بها الأجر والثواب من الله عز وجل، ويحصل بها على المنازل الرفيعة في الآخرة.

وأن هذه الرابطة أقوى من رابطة الدم واللغة والمصالح الاقتصادية، والعلاقات المتبادلة، يقول سيد قطب في الكلام على هذه الآية: «وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، هذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى آفاق، لولا أنها وقعت بالفعل، لحسبها الناس أحلامًا طائرة، ورؤى مجنحة، ومثلًا عليا قد صاغها خيال محلق. . .، ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة؛ لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين»[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ الواو استئنافية و ﴿وَالَّذِينَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿يُحِبُّونَ﴾ والجملة مستأنفة.

وقوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾ [الحشر: ٩].

خبر عن اسم الموصول ﴿وَالَّذِينَ﴾ والمعنى: يحبونهم من حيث مهاجرتهم إليهم لمحبتهم الإيمان؛ قال ابن كثير: «أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم»[(٢)].

وقوله: ﴿مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى المدينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه حال الأنصار، فقلوبهم مملوءة

(١) في ظلال القرآن ٧/ ١٦٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٦٩.

بالحب للمهاجرين، ولا يحملون في صدورهم شيئًا على إخوانهم المهاجرين؛ لكونهم فضلوا عليهم ببعض الفضائل.

قال القاسمي: وقوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾ أي: لوجود الجنسية -أي المجانسة- في الصفاء، والموافقة في الدين والإخاء، قال الشهاب: المراد بمحبتهم المهاجرين هنا مواساتهم، وعدم الاستثقال والتبرم منهم، إذا احتاجوا إليهم، فالمحبة كناية عما ذكر[1].

ويقول العيني: «في قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، أي: من المسلمين، حتى بلغ من محبتهم أن نزلوا لهم عن نسائهم، وشاطروهم أموالهم ومساكنهم»[2].

وفي مقابل هذا الحب منهم أحبهم المهاجرون، وأحبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى قال للأنصار: (والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي)[3] مرتين.

بل جعل الرسول حبهم من دلائل الإيمان، كما في حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار)[4].

ففي هذا الحديث دلالة أن حب المؤمن لقبيلة الأنصار شعبة من شعب الإيمان، وعلامة عليه، فلا يحبهم إلا مؤمن، وأن بغضهم وكرههم شعبة من شعب النفاق والكفر، فلا يبغضهم إلا منافق.

وعن البراء قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)[5].

وليس المراد بالبغض في هذا الحديث البغض الناتج من العداء الشخصي لأفرادهم، وإنما المراد بغضهم بسبب الصفة التي مدحوا بها، وهي نصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فمن أبغضهم من جهة هذه الصفة، وهي: كونهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر ذلك في تصديقه، فيصح أنه منافق[6].

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٥٠.
(٢) عمدة القاري ٢٤/ ٤١١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار:(أنتم أحب الناس إلي)، ٥/ ٣٢، رقم ٣٧٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار، ٤/ ١٩٤٨، رقم ٢٥٠٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، ١/ ١٢، رقم ١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق ١/ ٨٥، رقم ٧٤.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار، ٥/ ٣٢، رقم ٣٧٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق ١/ ٨٥، رقم ٧٥.
(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٦٣.

وكذلك الحب يقال فيه مثل ما يقال في البغض.

وهذا الحب من الأنصار لإخوانهم المهاجرين دافعه وجه الله تعالى، ومعرفتهم فضل الأخوة في الله، ومكانتها في الدين، فالأخوة في الله مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام، يقوم عليه الولاء والبراء، والحب والبغض.

وتجلت هذه الأخوة في أبهى صورها، وأجمل حللها، في تلك المواقف السمحة التي عامل بها الأنصار إخوانهم المهاجرين، وهذا التآخي لم يكن مجرد شعار للمزايدة، ودغدغة العواطف، والالتفاف حول المعاني السامية بالأكاذيب والتدليس والتلبيس، لكنه معنى خالط قلوبهم ومشاعرهم، ولحمهم ودمهم، برز ذلك في سلمهم وحربهم، وفقرهم وغناهم، مستضعفين وممكن لهم، أفرادًا وجماعات.

وهذا الأنموذج من الأخوة الصادقة حرص النبي صلى الله عليه وسلم عليه وأكده، وكان من أوائل الأمور التي قام بها بعد وصوله المدينة أن آخى بين المهاجرين والأنصار؛ ليذهب عن المسلمين المهاجرين وحشة الغربة، ويؤنسهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض.

٤. الإيثار عند الأنصار.

الإيثار من أعظم الصفات التي اتصف بها المجتمع الإسلامي؛ ولهذا يقول بعض المفكرين: بأن كلمة الإيثار يصعب ترجمتها إلى لغات أخرى، أي: ليس لها مرادف في اللغات الأخرى مرادف يؤدي معناها، ويحقق كل معانيها، وكأن هذه الخصلة هي من الخصال التي أتى بها هذا الدين الحنيف، وزكى غرسها، وحث عليها، ودعا إليها.

وأعظم الناس إيثارًا في التاريخ الإسلامي هم الأنصار، فقد جاءهم المهاجرون إلى المدينة وهم لا يملكون من أمر الدنيا شيئًا، قد تركوا أموالهم وما يملكون خلف ظهورهم، وأقبلوا على ما عند الله عز وجل، يرجون رحمته، ويخافون عذابه، فاستقبلهم الأنصار الذين تبوءوا الدار، وأكرموهم أيما إكرام، ولم يبخلوا عليهم بشيء من حطام الدنيا، بل قاسموهم الأموال والمتاع، وشاطروهم بيوتهم وأرضهم وأموالهم، بطيب نفس، وسلامة صدر، في صورة يعجز عن وصفها اللسان، ويضعف عن تعبيرها البيان، وقابل المهاجرون هذا الإيثار الرائع بحسن الخلق والتعفف.

وقد امتدح الله جل وعلا خلق الإيثار عند الأنصار، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ففي قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

أي: إن من أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها.

والمراد بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ [الحشر: ٩].

أي: الأنصار، والإيثار لغة: مصدر من قولهم: آثره عليه يؤثره إيثارًا، بمعنى: فضله وقدمه، والمآثر: ما يروى من مكارم الإنسان، وفي التنزيل: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]. وآثر أن يفعل كذا: فضل وقدم، وضده الأثرة من قولهم: استأثر بالشيء انفرد به، أو اختص به نفسه.

واصطلاحًا: قال القرطبي: «الإيثار: هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية؛ رغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة»[(١)].

وفي قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ [الحشر: ٩]. مفعول الإيثار محذوف، والتقدير: ويؤثرونهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم.

جاء في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا رجل يضيف هذه الليلة يرحمه الله)، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا تدخريه شيئًا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (لقد عجب الله عز وجل، أو ضحك من فلان وفلانة)، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][(٢)].

وفي رواية في البخاري أيضًا: (ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما)، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][(٣)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (ويؤثرون على أنفسهم)، ٦/ ١٤٨، رقم ٤٨٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (ويؤثرون على أنفسهم)، ٥/ ٣٤، رقم ٣٧٩٨.

وجاء في سبب نزولها: أن رجلًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدي له رأس شاةٍ، فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى واحد، حتى تناولها سبعة أهل أبيات، حتى رجعت إلى أولئك، فنزلت هذه الآية.

وروي نحو هذه القصة عن أنس بن مالك قال: أهدي لبعض الصحابة رأس شاةٍ مشوي، وكان مجهودًا، فوجه به إلى جارٍ له فتناوله تسعة أنفس، ثم عاد إلى الأول، فنزلت هذه الآية[1].

وذكر ابن جزي في سبب نزولها قصة الفيء، فقال: «وروي أن سبب هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قسم هذه القرى على المهاجرين دون الأنصار، قال للأنصار: (إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديارکم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذه)[2]، فقالوا: بل نقسم لهم من أموالنا، ونترك لهم هذه الغنيمة، وروي أيضًا أن سببها أن رجلًا من الأنصار أضاف رجلًا»[3]. وذكر القصة التي في البخاري.

وهذا ما رجحه الرازي، حيث قال: «وذكر المفسرون أنواعًا من إيثار الأنصار للضيف بالطعام، وتعللهم عنه حتى يشبع الضيف، ثم ذكروا أن الآية نزلت في ذلك الإيثار، والصحيح أنها نزلت بسبب إيثارهم المهاجرين بالفيء، ثم لا يمتنع أن يدخل فيها سائر الإيثارات»[4].

قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. الخصاصة: هي الفقر[5].

والمعنى: ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثروا به من أموالهم على أنفسهم، فبين أن هذا الإيثار ليس عن غنى، وعن المال، ولكنه عن حاجة وخصاصة، وهي: الفقر[6].

وهذا هو واقع الأنصار، فهم مع ما هم عليه من الخصاصة -وهي الفاقة والفقر-، ومع شدة احتياجهم وافتقارهم إلى ما في أيديهم، حيث أن المهاجرين كانوا أهل تجارة، وكانوا أهل ثراء في أوطانهم في مكة، بينما الأنصار كانوا في الحقيقة أهل زراعة، وما كانوا بالثراء الذي كان عليه أهل مكة؛ ولذلك عبر عنهم القرآن بهذا التعبير: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فلئن يقدم الإنسان حاجة غيره عليه وهو مستغنٍ عن تلك الحاجة فهذا لا يستغرب،

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٥٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٥.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٣٦٠.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) انظر: المصدر السابق.

ومع ذلك فإن الله تعالى قد أمر به في كتابه الكريم، حينما قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[البقرة: ٢١٩].

أي: الزيادة، ما فضل عن نفقاتكم الضرورية اللازمة عليكم، لكن هذه المرتبة أعلى، وهي أن يجود الإنسان بما عنده لأخيه مع كونه محتاجًا إليه، شديد الاحتياج، شديد الرغبة فيه، فهذا المعنى هو الذي تتحدث عنه الآية.

وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

قال الرازي: «واعلم أن الفرق بين الشح والبخل هو أن البخل نفس المنع، والشح هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المنع، فلما كان الشح من صفات النفس لا جرم قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]»[(١)].

ووقاية شح النفس يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقي العبد شح نفسه سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعًا منقادًا منشرحًا بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه وإن كان محبوبًا للنفس، تدعو إليه، وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير الذي هو أصل الشر ومادته.

فهذان الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين.

ووصف الله من يتصف بهذه الصفة بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الظافرون بما أرادوا، والمقصود بهم: الأنصار، ومن أتصف بهذه الصفات من غيرهم، والمفلحون: هم الفائزون بكل مطلوب، الناجون من كل مهروب، قال ابن كثير: أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح[(٢)].

«والفلاح: اسم لسعادة الدارين، والجملة اعتراض وارد لمدح الأنصار والثناء عليهم، فإن الأوصاف المذكورة في حقهم، فلهم جلائل الصفات، ودقائق الأحوال. . .»، قال السهروردي في العوارف: السخاء صفة غريزية في مقابلة الشح، والشح من لوازم صفة النفس، حكم الله بالفلاح لمن يوقى الشح، أي: لمن أنفق وبذل، والنبي عليه الصلاة والسلام نبه بقوله: (ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات) فجعل إحدى المهلكات

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٧١.

(شحًا مطاعًا)[1] ولم يقل: مجرد الشح يكون مهلكًا، بل إنما يكون مهلكًا إذا كان مطاعًا، فأما كونه موجودًا في النفس غير مطاع لا ينكر ذلك؛ لأنه من لوازم النفس، مستمد من أصل جبلتها الترابي، وفي التراب قبض وإمساك، وليس ذلك بالعجب من الآدمي، وهو جبلي فيه، وإنما العجب وجود السخاء في الغريزة»[2].

وهكذا يصور القرآن الكريم هذا الوضع غير المسبوق في أبلغ عبارة وأجزلها، وتظهر الآيات الكريمة صدق الأخوة بين المهاجرين والأنصار، لا تلوثه أطماع، ولا حب دنيا، ولا أثرة، ولا شح أو حرص، ولا حاجة إنما هو أخوة تدور بين سلامة الصدر والإيثار، ولا شك أن المرء يقف مبهورًا أمام هذه الصورة الرائعة من الأخوة المتينة، والإيثار المتبادل، الذي لا نشهد له مثيلًا في تواريخ الأمم السابقة.

ولقد كان دافع الأنصار لهذا الإيثار هو رغبتهم فيما عند الله، وحبهم لإخوانهم المهاجرين؛ ولهذا صدر الله هذه الصفات للأنصار في هذه الآية بأنهم يحبون من هاجر إليهم، فالمحبة هي باعث هذا الإيثار؛ ولذلك لا يمكن أن تتصور الإيثار دون أن تتصور المحبة بين الناس، المحبة التي تنشأ في القلوب، ثم يتبع هذه المحبة رغبة صادقة في أن ينال الخير أخاك؛ ولذلك فلا يجد الواحد منهم غضاضة في نفسه أن يقدم إخوانه في الخير الذي لديه.

وكيف لا يؤثر الأنصار وقد بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الإيثار؟!

فقد جاء عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله)[3].

فالسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره: لهم معه، ومع الأئمة بعده، والأثرة: عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصة.

ولو ذهبنا نلتمس الأسباب وراء هذا الإخاء والحب والإيثار فلن نجد إلا مسبب الأسباب، وأن ذلك كان بفضل الله ورحمته، لا بصنع بشر وحكمته وسياسته، وصدق الله حيث قال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

(١) أخرجه البزار في مسنده، رقم ٧٢٩٣ والطبراني في المعجم الأوسط ٥٧٥٤.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٣٥٦، رقم ٢٦٠٧.

(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٩/ ٣٥٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية ٣/ ١٤٧٠، رقم ١٧٠٩.

فلم يلتق النبي صلى الله عليه وسلم بالأنصار إلا في سويعات تحت جنح الليل، واكتفى فيها بعرض الإسلام، وأخذ العهود والمواثيق، ولم يطل لقاؤه معهم قبل الهجرة حتى يكون هذا الذي فعلوه بسبب تربية النبي إياهم، وطول تعهده لهم كما فعل تجاه المهاجرين حتى كون منهم رجالًا، فلم يكن بين دخول الأنصار الإسلام وقيامهم بهذه المآثر إلا أقل من عام.

فالأنصار قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، لقد فتحوا للمهاجرين قلوبهم قبل أن يفتحوا لهم بيوتهم، ووسعوهم بصدورهم قبل أن يسعوهم بأموالهم، وتسابقوا إلى لقائهم وإكرامهم، وضربوا في باب الإيثار، وسخاء النفس، وكرم الطبع مثلًا عليا، لا تزال تذكرها لهم الأجيال المتعاقبة، بالإكبار والإعظام.

٥. سلامة صدورهم.

أثنى الله على الأنصار بسبب سلامة صدورهم رضي الله عنهم، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ [الحشر: ٩]. الضمير في (يجدون) للأنصار، قال ابن العربي: «قال الخلق بأجمعهم: يريد بذلك الأنصار الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طرد، ونصروه حين خذل، فلا مثل لهم، ولا لأجرهم»[(١)].

وقوله: ﴿حَاجَةً﴾ أي: حزازة وغيظًا وحسدًا، قال الشوكاني في فتح القدير: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩]. «أي: لا يجد الأنصار في صدورهم حسدًا وغيظًا وحزازةً»[(٢)].

وفي الكلام مضاف محذوف: أي لا يجدون في صدورهم مس حاجة، أو أثر حاجة، وكل ما يجده الإنسان في صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة[(٣)].

وقوله: ﴿مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: مما أعطوا، والضمير للمهاجرين، والمراد (فيما أوتوه) هو مال الفيء، حيث قسم النبي صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يعط من الأنصار غير ثلاثة نفر، كانت بهم حاجة، فطابت أنفس الأنصار بتلك القسمة، أو يكون المراد (فيما أوتوه) هو: الفضل والتقدم[(٤)].

قال شيخ الإسلام في الفتاوى: «وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٧/ ٣٠٨.
(٢) فتح القدير ٥/ ٢٠١
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٨٢.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨ / ٢١٢.

أي: مما أوتي إخوانهم المهاجرون، قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة أي: حسدًا وغيظًا، مما أوتي المهاجرون، ثم قال بعضهم: من مال الفيء، وقيل: من الفضل والتقدم»[(١)].

يعني: لا يحسدون المهاجرين على ما خصوا به من مال الفيء وغيره، ويحتمل أن يريد به: ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا إذا كان قليلًا، بل يقنعون به، ويرضون عنه، وقد كانوا على هذه الحال حين حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كانوا عليه بعد موته صلى الله عليه وسلم.

وقد أنذرهم النبي صلى الله عليه وسلم قائلًا: (سترون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)[(٢)(٣)].

فالأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما خصص به المهاجرون من الفيء، ولا يحسدونهم على ذلك، ولا يعترضون بقلوبهم على حكم الله بتخصيص المهاجرين حتى لو كانت بهم حاجة، أو اختلال أحوال[(٤)].

وعلى هذا ففي الآية بيان حال الأنصار، وأنهم لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله، وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنهم.

ويدل ذلك أيضًا على أن المهاجرين أفضل من الأنصار؛ لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم؛ لأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

ثانيًا: أبرز أعمال الأنصار:

الأنصار: ما أجملها من كلمة! إنها كلمة تحمل معاني شريفة جليلة، اتصف بها قوم ضرب بهم المثل في الكمال الإنساني، إنها علمٌ على قوم عملوا أعمالًا استحقوا بها أن يكونوا من أنصار الرسول الكريم.

ومن أبرز هذه الأعمال:

١. الإيواء والنصرة.

لما هاجر المسلمون من مكة هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال، وتجردوا من كل شيء إلا من الإيمان؛ رغبةً

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١١٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب ما أقطع النبي صلى الله عليه وسلم من البحرين، وما وعد من مال البحرين والجزية، ولمن يقسم الفيء والجزية ٤/ ٩٨، رقم ٣١٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستئثارهم ٣/ ١٤٧٤، رقم ١٨٤٥.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٧/ ٣١٠.
(٤) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٥٦١.

في الله، ونصرةً لدين الله، ومحبةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فوصلوا إلى أرضٍ جديدة، وواقعٍ مختلف، وكان من أثر هذه الرحلة نشوء عدد من المشكلات الجديدة، ليس أقلها: الشعور بالغربة، ومفارقة الأهل والديار، وترك معظم الأموال والممتلكات في مكة، وطبيعة الوضع المعيشي والاقتصادي الجديد، أضف إلى ذلك الآثار الصحية والبدنية التي أحدثها الانتقال المفاجئ إلى بيئةٍ أخرى؛ مما أدى إلى ظهور الأمراض في صفوفهم كالحمى وغيرها، كل هذا ترك في أنفسهم وحشة وغربة، حتى أصبح وضعهم يحتاج إلى حل عاجل وسريع.

فترجم الأنصار ما تعاقدوا عليه من أقوال في البيعتين إلى جملة أفعال، حيث فتح الأنصار أبواب بيوتهم وقلوبهم، واستعدوا لاحتضان من جاءهم مهاجرًا تحت ظاهرة عظيمة من التكافل الاجتماعي، فحوى المسكن الواحد تحت سقفه الأنصاري والمهاجر، وهم يتقاسمون كل شيء المسكن والمال والطعام.

فلم يعرف تاريخ البشرية حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلي الإيواء، واحتمال الأعباء، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة؛ لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين، وهم لا يجدون في أنفسهم شيئًا من حسد، أو ضيق من هذا، والإيثار على النفس مع الحاجة قيمة عليا، وقد بلغ بها الأنصار مبلغًا لم تشهد له البشرية نظيرًا.

وهنا ظهر دور الأنصار الذين أبدوا من التضحية وضروب الإيثار ما استحق التخليد في كتاب الله.

قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فجمع الله تعالى في هاتين الآيتين الذين كانوا دعامة الإسلام، وعليهم هدى الرسول قام بنيانه، وشيدت أركانه، وهم المهاجرون والأنصار، فالمهاجرون ابتدأ بهم تكوين الجماعات الأولى التي صبرت وصابرت، وتلقت الصدمة الأولى من المشركين.

والأنصار وهم الذين آووا ونصروا، وأعزوا كلمة التوحيد، وأغلوها وأعلوها، فإذا كان المهاجرون هم الذين أظلوا شجرة

الإسلام ابتداءً، فالأنصار هم الذين حموا ثمرتها، وقامت دولة الإسلام في أرضهم وحراستهم، وإذا كان المهاجرون قد لاقوا العنت في مكة فقد لقوا الإيواء في المدينة.

وإذا كانوا هم دعامة الإسلام فالأنصار دولته، وفي رحابهم قامت المدينة الفاضلة التي أقامها محمد صلى الله عليه وسلم في ديارهم، وإذا كان المهاجرون قد جاهدوا ابتداءً بالصبر والمصابرة، فقد كان جهادهم في المدينة مع إخوانهم الأنصار بذلك وبالقتال في المدينة، والفريقان اختارهم الله للتأليف حتى تكونت منهم أطهر جماعة رأتها الإنسانية وأقواها.

فبعد أن ذكر الله تعالى هنا في الآيتين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، عقب بذكر الأنصار، وهم الذين آووا ونصروا.

فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا﴾ [الأنفال: ٧٤].

المراد: بهم الأنصار، أي: وطنوا المهاجرين، وأنزلوهم منازلهم، وبذلوا إليهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، ونصروهم على أعدائهم[(١)].

فإذا كانوا قد نقصوا عن إخوانهم -المهاجرين- فضل الهجرة، فقد عوضوا عن ذلك بفضل الإيواء والنصرة[(٢)].

حيث استقبل الأنصار المهاجرين، فشاطروهم المال والديار؛ بكرم وسخاء، وضربوا مثلًا رائعًا في التكافل، وبناء الجماعة المسلمة، وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوءوا دار الهجرة والإيمان، حتى صارت موئلًا ومرجعًا يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون؛ إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر.

فلم يزل أنصار الدين يأوون إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئًا فشيئًا، وينمو قليلًا قليلًا، حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان.

وقوله في الآية: ﴿وَنَصَرُوٓا﴾ أي: نصروا الرسول وأصحابه على أعدائهم الكفار، وما سموا بالأنصار إلا لذلك؛ ولقد قال حسان رضي الله عنه في مدح الأنصار أنهم ما سموا أنصارًا إلا لنصرتهم الدين[(٣)]:

سماهم الله أنصارًا بنصرهم
دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا في سبيل الله واعترفوا
للنائبات وما خافوا وما ضجروا

وقد ذكر الله تعالى هذه الصفة وهي (النصرة) في آيتين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٢٣/ ٢.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٣٢٠١.
(٣) انظر: ديوان حسان بن ثابت ص٩٩.

﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢].

والنصرة في المدلول القرآني واللغوي والتاريخي بمعنى: العون، والظفر، والمنع، والانتقام، والانتصار، وشد الأزر، ولقد شرف الله سبحانه وتعالى المسلمين الأول بشرف لا يدانيه شرف، حيث أجزل لهم الثواب، وأحسن لهم المدح والثناء في أعظم كتاب، وخص كلًا من الفريقين المتآخيين (المهاجرين والأنصار) بعمل عظيم جليل، ناداهم به فسموا مهاجرين وأنصارًا، وما ذلك إلا للهجرة والنصرة، فالهجرة كانت إعلانًا للدولة، وانتقالًا لدار الإسلام، والنصرة هي التي هيأت للهجرة ولوجود دار الإسلام، فكيف يغفل أحد من المسلمين عن فضل الهجرة أو النصرة، وهو يتلو كتاب الله الذي يذكر المهاجرين والأنصار وفضلهما؟!

وكانت هذه النصرة وفاء منهم لمبايعة النبي صلى الله عليه وسلم لهم في بيعة العقبة الثانية، حيث ثبت أنه قال لهم: (أبايعكم على أن تمنعوني -إذا قدمت عليكم- مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، ولكم الجنة)[1].

فبايعوه على النصرة والمنعة، فقام منهم اثني عشر نقيبًا كفلاء على قومهم، ثم استمر الحال حتى أذن الله للمسلمين بالهجرة، وقامت أول دولة للمسلمين[2].

ونلحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطلب النصرة لأمرين مهمين في غاية الأهمية:

أولهما: حماية الدعوة، حتى تسير بين الناس محمية الجانب، بعيدة عن الإساءة إلى أتباعها.

ثانيهما: إيجاد مكان آمن لدولته صلى الله عليه وسلم القادمة؛ ليتسلم خلالها مقاليد الحكم والسلطان على وفق مقتضيات النبوة على أساس الدعوة.

وختم الله تعالى الآية الأخرى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢]]. أي: إن هاتين الفرقتين (المهاجرين والأنصار) بعضهم أنصار بعض، وأعوان على من سواهم من المشركين، وأيديهم واحدة على من كفر بالله، وبعضهم إخوان لبعض دون أقربائهم الكفار.

وقد قيل: إنما عنى بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض، وأن الله ورث بعضهم من بعض بالهجرة والنصرة دون القرابة

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٥/ ٩٢، رقم ١٥٧٨٩.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٩٧-٢٠٩.

والأرحام، وأن الله نسخ ذلك بعد، بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] وهذا القول لأبن عباس رضي الله عنه [(١)].

قال الشوكاني: «أي: بعضهم أولياء بعض في النصرة والمعونة، وقيل المعنى: إن بعضهم أولياء بعض في الميراث، وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]» [(٢)].

فالولاية محبة ومودة ومناصرة، وقد اجتمعت كل هذه الأحوال في ولاية المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقد اجتمعت فيهم المودة فتوادوا وتحابوا، وتناصروا وجاهدوا جميعًا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ولقد جمعت المؤاخاة معنى المودة والمحبة والإيثار، وجمع الجهاد معنى النصر والتبعات بالجهاد في سبيل الله [(٣)].

وقد ذكر الله بعد ذلك شأن الذين يهاجرون ويؤمنون من بعد، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فهذا يدل على أن باب الإيمان مفتوح، وباب الهجرة مفتوح، وميدان الجهاد متسع للجميع، فلم يغلق على المجاهدين الأولين من المهاجرين والأنصار فقط، بل هو مفتوح، وهذه الآية الكريمة تلحق الذين يؤمنون من بعد ويهاجرون بالأولين الذين هم المؤمنون حقًا.

وإذا كان هذا الوصف (النصرة) في الأنصار، فالمهاجرون من باب أولى، فهم أنصار في المعنى، فمعنى النصرة حاصل للكل، ومن الكل، فهم قد هجروا ديارهم وأموالهم، كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: ٨].

وأثنى عليهم بأنهم يطلبون فضلًا من الله ورضوانًا، فقال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ وأثبت لهم صفة النصرة، فقال: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وأثنى عليهم بالصدق، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ فرضي الله عن المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٩٥.
(٢) فتح القدير ٢/ ٤٧٨.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٢٠٢.

فضائل الأنصار

عرض القرآن الكريم فضائل الأنصار وهذا ما سنبينه فيما يأتي:

أولًا: وصفهم بالإيمان الحق:

وصف الله تعالى الأنصار بالإيمان الحق، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فقوله: ﴿وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ الإشارة إلى السابقين الأولين (من المهاجرين والأنصار) والإشارة إلى الموصوف إشارة إلى أوصافه، وجعلها مناط الحكم، أي: أولئك الذين هاجروا بعد الإيمان، وجاهدوا في سبيل الله، والذين آووا ونصروا هم المؤمنون حقًا، أي: إيمانًا ثابتًا صادقًا حقًا، تلاقت أقوالهم وقلوبهم وأعمالهم[(١)].

فسبق منهم هجرة وجهاد، وإيواء ونصرة، وهذا هو الإيمان الحق، وفي الكلام قصر، أي: من كانوا على هذه الصفات هم وحدهم المؤمنون حقًا، أي: لا مؤمنون حقًا غيرهم، ومن هم على صفاتهم.

وفي هذه الآية وصفٌ لعموم المهاجرين والأنصار بالإيمان الحق، فجمع الله فيها الفضل لفريقي الصحابة، وهم المهاجرون والأنصار، من هاجر، ومن آوى، فاستوى الأنصار مع المهاجرين في عامل النصرة، وفي صدق الإيمان، فشهد لهم بحقيقة الإيمان، ووعدهم بالمغفرة والرزق الواسع، ومن شهد الله له بهذه الشهادة، فقد بلغ أعلى مرتبة العدالة.

ثم قال: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]. ذكر الله تعالى هنا ما كتب لهم من خيري الدنيا والآخرة، وهذا يتضمن جزاءين:

أولهما: المغفرة السابقة، ووراءها الرحمة والنعيم المقيم.

ثانيهما: رزق كريم واسع في الدنيا بعد المشقة التي تحملوها، وهذا شأن المهاجرين الذين آمنوا، وشأن الأنصار الذين آووا ونصروا[(٢)].

فيكون الله قد أثنى عليهم ها هنا من ثلاثة أوجه:

أولها: قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يفيد الحصر، وقوله: ﴿حَقًّا﴾ يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محققين في طريق الدين، وقد كانوا كذلك؛ لأن من لم يكن محقًا في دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة، ولم يفارق الأهل والوطن، ولم

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٢٠٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ٦/ ٣٢٠٩.

يبذل النفس والمال، ولم يكن في هذه الأحوال من المسارعين المسابقين.

وثانيها: قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ والتنكير يدل على الكمال، أي: مغفرة تامة كاملة.

وثالثها: قوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والمراد منه: الثواب الرفيع الشريف[1].

وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يا معشر الأنصار، ألم يمن الله عليكم بالإيمان، وخصكم بالكرامة، وسماكم بأحسن الأسماء: أنصار الله، وأنصار رسوله؟!)[2].

فالأنصار إذن حازوا شرفين: شرف سبقهم إلى الإيمان، وشرف استضافتهم للإيمان وأهله في أرضهم.

ومدحهم بأنهم أناس سكنوا الإيمان، وسكن الإيمان في قلوبهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

فقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ الأظهر أن (الذين) هنا عطف على (المهاجرين) -في الآية السابقة-، أي: والذين تبوءوا الدار هم الأنصار[3].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ من مادة (بواء) على وزن (دواء) وهي في الأصل بمعنى تساوي أجزاء المكان، وبعبارة أخرى يقال: (بواء) لترتيب وتسوية مكان (ما) وفي هذا التعبير كناية لطيفة لهذا المعنى، وهو أن طائفة الأنصار -أهل المدينة- قد هيئوا الأرضية المناسبة للهجرة.

وقوله: ﴿الدَّارَ﴾ الدار تطلق على البلاد، وأصلها: موضع القبيلة من الأرض، وأطلقت على القرية.

قال تعالى في ذكر ثمود: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

أي: في مدينتهم، وهي حجر ثمود، والتعريف هنا للعهد؛ لأن المراد بالدار: المدينة النبوية، والمعنى: الذين هم أصحاب الدار[4]، أي: دار الهجرة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين، كما تبوءوا فيها الإيمان، وكأنه منزل لهم ودار، وهو تعبير ذو ظلال، وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان، لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، ويثوبون إليه، ويطمئنون له، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار.

وفي قوله: ﴿الدَّارَ﴾ هذا تشريف للمدينة، حيث سماها الله الدار، فكأنها هي دار الإيمان؛ لأن الإيمان أوى إليها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٥١٩.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٧/ ١٥١، رقم ٦٦٦٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٩٠.
(٤) المصدر السابق.

جحرها)[1].

فالتعريف في ﴿ٱلدَّارَ﴾ للتنويه كأنها الدار التي تستحق أن تسمى دارًا، وهي التي أعدها الله تعالى لهم؛ ليكون تبوؤهم إياها مدحًا لهم.

وذكر بعضهم أن الدار علمٌ بالغلبة على المدينة، كالمدينة، وأنه أحد أسمائها، ومنها: طيبة، وطابة، ويثرب، وجابرة[2].

وفي ذكر الدار -وهي المدينة- مع ذكر الإيمان إيماء إلى فضيلة المدينة، بحيث جعل تبوؤهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان، ولعل هذا هو الذي عناه مالك -رحمة الله- فيما رواه عنه ابن وهب قال: سمعت مالكًا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق، فقال: إن المدينة تبوأت بالإيمان والهجرة، وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف. ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]الآية[3].

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: (أمرت بقرية تأكل القرى)[4].

والمقصود: المدينة، أي: يغلب أهلها، وهم الأنصار بالإسلام على غيرها من القرى، وينصر الله دينه بأهلها، ويفتح القرى عليهم، ويغنمهم إياها فيأكلونها[5].

وقوله: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحشر: ٩]أي: سكنوا الإيمان، والإيمان لا يسكن، وإنما شبه الإيمان كأنه دار سكنوها؛ لأن الدار يستقر فيها الإنسان، فهؤلاء الأنصار سكنوا الإيمان، بمعنى: استقر الإيمان في قلوبهم، والإنسان يلازم داره، بمعنى: يستقر ويطمئن ويستريح فيه، وهؤلاء لازموا الإيمان كملازمة الإنسان لمسكنه، وهذه شهادة لهم بالإيمان -رضي الله تعالى عنهم-، فهم مؤمنون صادقون، استقر الإيمان في قلوبهم.

قال ابن جزي: «فإن قيل: كيف قال: تبوءوا الدار والإيمان، وإنما تتبوأ الدار، أي: تسكن ولا يتبوأ الإيمان؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن معناه تبوءوا الدار، وأخلصوا الإيمان، فهو كقولك:

علفتها تبنًا وماء باردًا[6].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة ٣/ ٢١، رقم ١٨٧٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين ١/ ١٣١، رقم ١٤٧.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٢٠/ ٤٢٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٩١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس ٣/ ٢٠، رقم ١٨٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، ٢/ ١٠٠٦، رقم ١٣٨٢.

(٥) انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير ١/ ١٤٤.

(٦) البيت في خزانة الأدب ٣/ ١٣٩، وفي العباب الزاخر ١/ ٤٨١، وتمامه: «حتى شتت همالةً

تقديره: علفتها تبنًا، وسقيتها ماء باردًا.

والثاني: أن المعنى: أنهم جعلوا الإيمان كأنه موطن لهم؛ لتمكنهم فيه، كما جعلوا المدينة كذلك»[1].

فيكون في عطف الإيمان على الدار ستة أوجه:

أحدها: أنه ضمن ﴿تَبَوَّءُو﴾ معنى: لزموا، فيصح عطف الإيمان عليه؛ إذ الإيمان لا يتبوأ.

الثاني: أنه منصوب بمقدر، أي: واعتقدوا، أو وألفوا، أو وأحبوا، أو وأخلصوا؛ كقوله:

علفتها تبنًا وماءً باردًا

وقوله:

متقلدًا سيفًا ورمحا[2]

أي: وحاملًا رمحًا.

الثالث: أنه يتجوز في الإيمان، إن الإيمان مجاز عن المدينة، سمي محل ظهور الشيء باسمه مبالغة، فيجعل اختلاطه بهم وثباتهم عليه كالمكان المحيط بهم، فكأنهم نزلوه، وعلى هذا فيكون جمع بين الحقيقة والمجاز في كلمة واحدة، وفيه خلاف مشهور.

الرابع: أن يكون الأصل: دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام (لام) التعريف في (الدار) مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان، ووضع المضاف إليه مقامه.

الخامس: أن يكون سمى (المدينة)؛ لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان.

السادس: أنه منصوب على المفعول معه (الواو للمعية) أي: مع الإيمان معًا، والمراد تبوءوا الدار مع إيمانهم، أي: تبوءوها مؤمنين[3].

والضمير في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

للمهاجرين، والجار متعلق بتبوء، أي: من قبل أن يهاجر المهاجرون إليهم، وقد أسلم كثير من الأنصار قبل المهاجرين، لكن المقصود -والله وأعلم- بقوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] أي: من قبل أن يهاجر المهاجرون، وأن الأنصار أسلم كثير من كبارهم وسادتهم على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه قبل أن يهاجر كثير من المهاجرين -رضي الله تعالى عنهم-، وقبل أن تصبح المدينة دار الهجرة التي أوى إليها النبي عليه الصلاة والسلام، فكثير من الأنصار كان قد أسلم، ودخل الإيمان في قلوبهم، واستقر على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه، فهو من فتح الله به المدينة

عيناها».

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ٣/ ١٥٧.

(٢) البيت في الكامل في اللغة ١/ ٢٩١ وشرح ديوان الحماسة ص ٨٠٥ غير منسوب لقائل، وصدره: «يا ليت بعلك قد غدا».

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٢٠١.

المنورة بدعوته إلى الله، وسلوكه الطيب، حتى ما بقي بيت من بيوت المدينة إلا ودخله الإيمان.

وقد أورد ابن جزي إشكالًا، وأجاب عليه، حيث قال: «فإن قيل: قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

يقتضي أن الأنصار سبقوا المهاجرين بنزول المدينة وبالإيمان، فأما سبقهم لهم بنزول المدينة فلا شك فيه؛ لأنها كانت بلدهم، وأما سبقهم لهم بالإيمان فمشكل؛ لأن أكثر المهاجرين أسلم قبل الأنصار.

قال: والجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد بقوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] من قبل هجرتهم.

والآخر: أنه أراد تبوءوا الدار مع الإيمان معًا، أي: جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين؛ لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان لا بتبوء الدار، فيكون الإيمان على هذا مفعولًا معه، وهذا الوجه أحسن؛ لأنه جواب عن هذا السؤال، وعن السؤال الأول فإنه إذا كان الإيمان مفعولًا معه لم يلزم السؤال الأول؛ إذ لا يلزم إلا إذا كان الإيمان معطوفًا على الدار»[(١)].

وجعل الألوسي ذلك من قبل تقدير مضاف، حيث قال: «والكلام بتقدير مضاف، أي: من قبل هجرتهم، فنهاية ما يلزم سبق الإيمان الأنصار على هجرة المهاجرين، ولا يلزم منه سبق إيمانهم على إيمانهم؛ ليقال: إن الأمر بالعكس، وجوز أن لا يقدر مضاف، ويقال: ليس المراد سبق الأنصار لهم في أصل الإيمان، بل سبقهم إياهم في التمكن فيه؛ لأنهم لم ينازعوا فيه لما أظهروه.

وقيل: الكلام على التقديم والتأخير، والتقدير: تبوءوا الدار من قبلهم والإيمان، فيفيد سبقهم إياهم في تبوء الدار فقط، وهو خلاف الظاهر، على أن مثله لا يقبل ما لم يتضمن نكتة سرية، وهي غير ظاهرة ها هنا؛ وقيل: لا حاجة إلى شيء مما ذكر، وقصار ما تدل الآية عليه تقدم مجموع تبوء الأنصار وإيمانهم على تبوء المهاجرين وإيمانهم، ويكفي في تقديم المجموع تقدم بعض أجزائه، وهو ها هنا تبوء الدار، وتعقب بمنع الكفاية، ولو سلمت لصح أن يقال: بتقدم تبوء المهاجرين وإيمانهم على تبوء الأنصار وإيمانهم؛ لتقدم إيمان المهاجرين»[(٢)].

ووصف الله الأنصار أيضًا بالإيمان والاستجابة لله، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

أنها نزلت في الأنصار، حين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان، فاستجابوا

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ٣/ ١٥٧.

(٢) روح المعاني، ٢٠/ ٤٢٥.

له؛ أي: لرسول الله من صميم القلب، كما هو المفهوم من إطلاق الاستجابة، وفيه إشارة إلى أن الاستجابة للرسول استجابة للمرسل، فهو من عطف الخاص على العام لمزيد التشريف، وذلك لأن الاستجابة داخلة في الإيمان[1].

قال الألوسي: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

قيل: نزلت في الأنصار، دعاهم الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم للإيمان به وطاعته سبحانه، فاستجابوا له، فأثنى عليهم -جل وعلا- بما أثنى، وعليه فهو من ذكر الخاص بعد العام؛ لبيان شرفه؛ لأيمانهم دون تردد وتلعثم، والآية إن كانت مدنية فالأمر ظاهر، وإذا كانت مكية فالمراد بالأنصار من آمن بالمدينة قبل الهجرة، أو المراد بهم أصحاب العقبة[2].

وقال الشوكاني: «قال ابن زيد: هم الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيبًا منهم قبل الهجرة، وأقاموا الصلاة لمواقيتها بشروطها وهيئاتها»[3].

ووصف الله الأنصار بالإيمان والعمل الصالح، كما جاء عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [محمد: ٣٤]. قال: هم أهل مكة، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [محمد: ٢]. قال: هم أهل المدينة الأنصار ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]. قال: أمرهم[4].

ووصفوا بأنهم رجال؛ وسماهم الله رجال، فقال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

فقد جاء ما يدل أنها نزلت في الأنصار، فعن أبي أيوب وجابر وأنس رضوان الله عليهم أن هذه الآية حين نزلت: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم في الطهور، فما طهوركم؟) قالوا: نتوضأ للصلاة، ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء، قال: (فهو ذاك، فعليكموه)[5].

وعن موسى بن أبي كثير قال: بدء حديث هذه الآية في رجال من الأنصار، من أهل قباء[6].

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ٨/ ٢٥٣.
(٢) روح المعاني ٢٥/ ٤٦.
(٣) فتح القدير ٤/ ٧٦٩.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٧.
(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب الاستنجاء بالماء ١/ ١٢٧، رقم ٣٥٥. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، ١/ ٦٣.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٨٨.

وقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨].

أي: من الأحداث والجنابات والنجاسات...، وقالوا: المراد منه: الطهارة بالماء بعد الحجر، وقيل: المراد منه: الطهارة من الذنوب والمعاصي، وقيل: محمول على الأمرين[١].

فتكون جملة: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ ثناء على مؤمني الأنصار الذين يصلون بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبمسجد قباء، وجاء الضمير مفردًا مراعاة للفظ (مسجد) الذي هو جنس[٢].

ثانيًا: توبة الله على الأنصار، وتجاوزه عن تقصيرهم:

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك التي كانت قبل الشام، وكان فيها جيش العسرة من المهاجرين والأنصار، ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكة، ولكنهم خصوا بالثناء والتوبة؛ لأنهم لم يترددوا، ولم يتثاقلوا، ولا شحوا بأموالهم، فكانوا أسوة لمن ائتسى بهم من غيرهم من القبائل[٣].

ففي قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ خبر مؤكد بلام القسم على حرف التحقيق (قد) بين فيه تعالى فضل عطفه على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار، وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة، وفي غيرها لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها، وإنما كانت هفواتهم هذه مقتضى الطباع البشرية، واجتهاد الرأي فيما لم يبينه الله تعالى بيانًا قطعيًا يعد مخالفه عاصيًا.

يقول ابن عاشور: «وافتتاح الله هذه الآية بحرف التحقيق (لقد)؛ تأكيدًا لمضمونها المتقرر فيما مضى من الزمان، حسبما دل عليه الإتيان بالمسندات كلها أفعالًا ماضية.

ومن المحسنات افتتاح هذا الكلام بما يؤذن بالبشارة لرضا الله على المؤمنين الذين غزوا تبوك، وتقديم النبي صلى الله عليه وسلم في تعلق فعل التوبة بالغزاة؛ للتنويه بشأن هذه التوبة، وإتيانها على جميع الذنوب؛ إذ قد علم المسلمون كلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٤].

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٢١٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٣٢.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) السابق ١١/ ٤٩.

وهذه التوبة التي تابها الله على النبي والمهاجرين والأنصار -كما قال ابن عباس-: كانت التوبة على النبي لأجل إذنه للمنافقين في القعود، ودليله قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه، وقيل: توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة.

وقيل: خلاصهم من نكاية العدو، وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى[(١)].

يقول شيخ المفسرين الطبري: «يقول تعالى ذكره: لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته نبيه محمدًا، والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء»[(٢)].

فيكون معنى توبته على النبي أي: بإذنه للمنافقين بالتخلف عنه[(٣)].

وقال أهل المعاني: هو مفتاح كلام، وذلك أنه لما كان سبب توبة التائبين ذكر معهم، كقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١][(٤)].

وهذه التوبة على المهاجرين والأنصار في ساعة العسرة سببها كما قال الرازي: «ربما وقع في قلوبهم نوع نفرة عن تلك السفرة، وربما وقع في خاطر بعضهم أنا لسنا نقدر على الفرار، ولم يعزموا عليه، بل وساوس كانت تقع في قلوبهم، فالله تعالى بين في آخر هذه السورة أنه بفضله عفا عنها، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧].

والوجه الثاني في الجواب: أن الإنسان طول عمره لا ينفك عن زلات وهفوات، إما من باب الصغائر، وإما من باب ترك الأفضل، ثم إن النبي وسائر المؤمنون لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه، وصبروا على تلك الشدائد والمحن، أخبر الله تعالى أن تحمل تلك الشدائد صار مكفرًا لجميع الزلات التي صدرت عنهم في طول العمر، وصار قائمًا مقام التوبة المقرونة بالإخلاص عن كلها.

والوجه الثالث في الجواب: أن الزمان لما اشتد عليهم في ذلك السفر، وكانت الوساوس تقع في قلوبهم، فكلما وقعت وسوسة في قلب واحد منهم تاب إلى الله منها، وتضرع إلى الله في إزالتها عن قلبه، فلكثرة إقدامهم على التوبة بسبب

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٨٧.
(٢) جامع البيان، ١٤/ ٥٣٩.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٠٤.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٨٧.

خطرات تلك الوساوس ببالهم، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]...الآية.

والوجه الرابع: لا يبعد أن يكون قد صدر عن أولئك الأقوام أنواع من المعاصي، إلا أنه تعالى تاب عليهم، وعفا عنهم لأجل أنهم تحملوا مشاق ذلك السفر، ثم إنه تعالى ضم ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ذكرهم؛ تنبيهًا على عظم مراتبهم في الدين، وأنهم قد بلغوا إلى الدرجة التي لأجلها ضم الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم في قبول التوبة»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ١١٧].

﴿كَادَ﴾ من أفعال المقاربة، تعمل في اسمين (عمل كان) واسمها هنا ضمير شأن مقدر، وخبرها هو جملة الخبر عن ضمير الشأن، وإنما جعل اسمها هنا ضمير شأن؛ لتهويل شأنهم حين أشرفوا على الزيغ.

واختلف في معنى (تزيغ) فقيل: تتلف بالجهد والمشقة والشدة، وقيل: تعدل -أي تميل- عن الحق في الممانعة والنصرة، وقيل: من بعد ما هم فريق منهم بالتخلف والعصيان ثم لحقوا به، وقيل: هموا بالقفول فتاب الله عليهم، وأمرهم به[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا تأكيد ظاهر، واعتناء بشأن التوبة، هذا إن كان الضمير راجعًا إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرار[(٣)]. والمعنى: قيل: توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ، وكذلك سنة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب، ووطنوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم سحائب الجود، فأحيا قلوبهم[(٤)].

فإن قيل: ذكر التوبة في أول الآية وفي آخرها، فما فائدة التكرار؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه تعالى ابتدأ بذكر التوبة قبل ذكر الذنب؛ تطييبًا لقلوبهم، ثم لما ذكر الذنب أردفه مرة أخرى بذكر التوبة؛ تعظيمًا لشأنهم.

وثانيها: إذا قيل: عفا السلطان عن فلان ثم عفا عنه، دل على أن ذلك العفو متأكد، بلغ الغاية القصوى في الكمال والقوة. . .، وهذا معنى قول ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يريد ازداد عنهم رضًا، قال ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذبه أبدًا.

وثالثها: أنه قال: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٧٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٨١.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٩٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٨١.

وهذا الترتيب يدل على أن المراد أنه تعالى تاب عليهم من الوساوس التي كانت تقع في قلوبهم في ساعة العسرة،

ثم إنه تعالى زاد عليه فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ١١٧].

فهذه الزيادة أفادت حصول وساوس قوية، فلا جرم أتبعها تعالى بذكر التوبة مرة أخرى؛ لئلا يبقى في خاطر أحدٍ شك في كونهم مؤاخذين بتلك الوساوس[(١)].

وفي قصة توبة الله على النبي والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة، فوائد ومسائل، منها:

في هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها، وفيها لطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

وفي الآيات أيضًا دليل على أن العبادة الشاقة على النفس لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر، وأن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب، ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

وأن علامة الخير وزوال الشدة إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقًا تامًا، وانقطع عن المخلوقين.

وأن من لطف الله بالثلاثة أن وسمهم بوسم ليس بعار عليهم، فقال: ﴿خُلِّفُواْ﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عن من بت في قبول عذرهم، أو في رده، وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير؛ ولهذا لم يقل: (تخلفوا).

ومن فوائد الآيات: أن الله تعالى من عليهم بالصدق؛ ولهذا أمر بالاقتداء بهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩][(٢)].

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: واعلم أن لله تعالى على عبده توبتين؛ التوبة الأولى: قبل توبة العبد؛ وهي التوفيق للتوبة؛ والتوبة الثانية: بعد توبة العبد؛ وهي قبول التوبة؛ وكلاهما في القرآن؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ أي: وفقهم للتوبة، وقوله تعالى: ﴿لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ أي: يقوموا بالتوبة إلى الله؛ وأما توبة القبول

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٨٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٤.

ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

ومن فوائد الآيات:

- الإنسان إذا صدق في تفويض الأمر إلى الله، ورجوعه إلى طاعة الله، فإن الله تعالى يتوب عليه؛ وهذا له شواهد كثيرة، فالله أكرم من عبده؛ من تقرب إليه ذراعًا تقرب الله إليه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة؛ فكرم الله عز وجل أعلى، وأبلغ من كرم الإنسان.
- إثبات هذين الاسمين الكريمين: التواب والرحيم؛ وما تضمناه من صفة وفعل.
- اختصاص الله بالتوبة والرحمة؛ بدليل ضمير الفصل؛ ولكن المراد اختصاصه بالتوبة التي لا يقدر عليها غيره؛ لأن الإنسان قد يتوب على ابنه وأخيه وصاحبه، وما أشبه ذلك؛ لكن التوبة التي لا يقدر عليها إلا الله، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. هذه خاصة بالله، وكذلك الرحمة المراد بها الرحمة التي لا تكون إلا لله؛ أما رحمة الخلق بعضهم لبعض فهذا ثابت، لا يختص بالله عز وجل [(١)].

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٣/ ٩١.

ثالثًا: ثناء الله عليهم لمتابعتهم الرسول في جميع الأحوال:

اتسم الأنصار رضوان الله عليهم بالطاعة الكاملة لأوامر الله تعالى، وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد كانوا يقرءون القرآن، وكأنه ينزل على كل واحد منهم، رجلًا كان أم امرأة، غضًا طريًا، فولد الأثر القوي في نفوسهم، وسرعة الاستجابة التامة لتعاليمه وأحكامه، فكان جيل الأنصار قادرًا على التخلص من عادات الجاهلية وتقاليدها وأعرافها، حتى لو كانت العادات قد استقرت منذ قرون، وصارت عرفًا مشروعًا، وتقليدًا مقبولًا.

ولقد كان اتباع الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم ليس في ساعة الرخاء والميسرة فقط، بل اتبعوه في ساعة العسرة والشدة والضيق، وهذا دليل على كمال الاتباع والانقياد والبذل والعطاء.

ولهذا امتدح الله تعالى ذلك الاتباع منهم، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

فأثنى الله تعالى عليهم هنا لمتابعتهم النبي صلى الله عليه وسلم في ساعة العسرة.

وقوله: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أنه اتباعٌ حقيقي، ويكون عليه الصلاة والسلام خرج أولًا، وتبعه أصحابه.

وأن يكون مجازًا، أي: اتبعوا أمره ونهيه[1].

والمقصود منه وصف المهاجرين والأنصار بأنهم اتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام في الأوقات الشديدة، والأحوال الصعبة؛ وذلك يفيد نهاية المدح والتعظيم[2].

ففي هذه الآية يبين الله عز وجل توبته الواسعة على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا الرسول في آخر غزوة له، وهي غزوة العسرة (غزوة تبوك) وكان عدد المسلمين فيها ثلاثون ألفًا، ولم يتخلف فيها من المهاجرين والأنصار إلا معذور بعجز، أو فقر، أو المخلفين وهم ثلاثة، فهجرهم النبي عليه الصلاة والسلام، وأمر المسلمين بهجرهم حتى من الله عليهم بالتوبة.

والمهاجرون والأنصار: هم مجموع أهل المدينة، وكان جيش العسرة منهم ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكة، ولكنهم خصوا بالثناء لأنهم لم يترددوا ولم يتثاقلوا ولا شحوا بأموالهم، فكانوا أسوة لمن ائتسى بهم من غيرهم من القبائل، ووصف (المهاجرون) و(الأنصار) بـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ للإيماء إلى أن لصلة الموصول تسببًا في هذه المغفرة، ومعنى اتبعوه: أطاعوه، ولم يخالفوا عليه، فالاتباع مجازي.

والعسرة: هي شدة الأمر وضيقه وصعوبته، وكان ذلك في غزة تبوك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في شدة الحر، وقلة من الماء، حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل؛ ليعتصروا الفرث الذي في كرشه، ويبلوا به ألسنتهم، وعسرة في الزاد؛ إذ كانت عند انتهاء فصل الصيف الذي نفدت فيه مؤنتهم، وأول فصل الخريف الذي بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد، ولا يمكن حمل شيء منه، فكان يكتفي الواحد منهم أو الاثنان بالتمرة الواحدة من التمر القديم، ومنه اليابس، وقد تزود بعضهم أيضًا بالشعير المسوس والإهالة السنخة.

وعسرة في الظهر حتى كان العشرة يعتقبون بعيرًا واحدًا، وعسرة في الزمن؛ إذ كان في حرارة القيظ، وشدة الحر.

فخص الذين اتبعوه في ساعة العسرة بذكر التوبة لعظم منزلة الاتباع في مثلها، وجزيل الثواب الذي يستحق بها لما لحقهم من المشقة مع الصبر عليها، وحسن البصيرة واليقين منهم في تلك الحال؛ إذ لم تغيرهم عنها صعوبة الأمر، وشدة الزمان.

وقد ذكر المفسرون في المراد بساعة العسرة قولين:

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٨٧.
(٢) انظر: المصدر السابق.

الأول: أنها غزوة تبوك، والمراد منها الزمان الذي صعب الأمر عليهم جدًا في ذلك السفر، والعسرة: تعذر الأمر وصعوبته، قال جابر: حصلت عسرة الظهر، وعسرة الماء، وعسرة الزاد.

والثاني: يجوز أن يكون المراد بساعة العسرة جميع الأحوال، والأوقات الشديدة على الرسول، وعلى المؤمنين؛ فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها[1].

ولعل التعبير بساعة العسرة للتذكير بذلك الوقت العصيب، قال ابن عباس لعمر رضي الله عنهم: حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا فأصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا فادع لنا، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأهطلت، ثم سكبت، فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[2].

وللاتباع في ساعة العسرة فضله، وليس الاتباع في ساعة عسرة كالاتباع في ساعة رخاء، وللصدقة في ساعة عسرة فضلها، وليست الصدقة في ساعة عسرة وفاقة كصدقة في ساعة غنى ووجدٍ؛ ولهذا ما ضر عثمان ما فعل بعد أن جهز جيش العسرة، كما جاء في حديث عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة، ففرغها عثمان في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها، ويقول: (ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا اليوم). قالها مرارًا[3].

وهكذا فقد تربى الأنصار -كما تربى المهاجرون- على مبدأ التلقي للتنفيذ والامتثال والاتباع، فطاعتهم لله ورسوله طاعة مطلقة، مهما تغيرت الأحوال، وتبدلت الظروف، وعلى ذلك بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولأن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم من حب الله تعالى، فلا يكون محبًا لله عز وجل إلا من اتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بما يحب الله تعالى، ولا يخبر إلا بما يحب الله عز وجل، فمن كان محبًا لله تعالى لزم أن يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم، فيصدقه فيما أخبر، ويتأسى به فيما

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٨٧.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن كثير ٤/ ١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، ٥/ ٦٢٦، رقم ٣٧٠١.
وحسنه الألباني في تعليقه على المشكاة، رقم ٦٠٦٤.

فعل، وبهذا الاتباع يصل المؤمن إلى كمال الإيمان وتمامه، ويصل إلى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا ما استقر في النفوس الكبيرة لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، الذين اتبعوه في ساعات العسرة والشدة في بدايات الدعوة الإسلامية غير مبالين بما يصيبهم من أذى المشركين، وعنت الكفار، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

فقد بايع الأنصار الرسول صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، فسمعوا وأطاعوا، كما قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه؛ فقال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا)[1].

ففي قوله: (بايعنا) متضمن معنى العهد، أي: على أن نسمع كلامك، ونطيعك في مرامك، وكذا من يقوم مقامك من الخلفاء من بعدك، و(المنشط والمكره): (مفعل) من النشاط والكراهة، أي: حالة انشراح صدورنا، وطيب قلوبنا، وما يضاد ذلك، و(الأثرة علينا): اسم من الاستئثار، والمراد على الصبر على أثرة علينا، أي: بايعنا على أن نصبر إن أوثر غيرنا علينا، والضمير في (علينا): كناية عن جماعة الأنصار.

فهم بهذه المبايعة على السمع الطاعة علموا أن هذا بمنزلة من يبايع الله على ذلك، سواء في بيعة العقبة التي تمت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم في غيرها من البيعات.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠].

فقد شعر كل فرد من الأنصار وهو يبايع الرسول ويضع يده في يده برقابة الله تهيمن عليه، وكأن يده سبحانه فوق أيديهم، وهو على يقين بأن الله حاضر البيعة شاهد عليها، وهو الذي أخذها على المبايعين، وبالتالي فإن قدرته القاهرة مهيمنة على المتبايعين.

ولا شك أن هذه الصورة تستأصل من النفس أي خاطر للنكث بهذه البيعة، ولو غاب شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالله حاضر لا يغيب، وهو عليهم رقيب، فمن نقض البيعة فهو الخاسر؛ لأنه رجع عن تلك الصفقة التي عقدها مع ربه.

وبشر الله الموفين بالعهد بأن لهم أجرًا عظيمًا، فلم يفصله ولم يحدده، ولكنه اكتفى بوصفه (أنه عظيم) عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصوره

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سترون بعدي أمورًا تنكرونها)، ٩/ ٤٧، رقم ٧٠٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٧٠، رقم ١٧٠٩.

أهل الأرض.

فالتزم الأنصار بالبيعة للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم للخلفاء الراشدين من بعده، وكان للبيعة قيمة عالية عندهم، فهي التزام حر، وتعاقد بين الطرفين، وقد دللوا دائمًا على صدق التزامهم، فلبوا داعي الجهاد، وخاضوا غمار المعارك في أماكن نائية عن ديارهم، ودفن كثير منهم في أطراف الأرض، وما عرفوا القعود عن الجهاد، والحفاظ على الكرامة والذود عن العقيدة، فجزاهم الله عن هذه الأمة وهذا الدين خير الجزاء، وسلك بنا سبيلهم، وحشرنا في زمرتهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فهذه نفحات من نفحات الأنصار، وتلكم مشاهد من مشاهدهم، ومآثر من مآثرهم، نستذكرها كلما قرأنا القرآن والسيرة، ونستشعر حضورهم كلما مررنا بالمدينة، ونستحضر صنيعهم كلما رأينا الإسلام مستضعفًا في الأرض، وكلما شاهدنا المسلمين مستذلين في ديارهم.

ونستعظم قدرهم، ونقدر دورهم كلما رأينا تلك الفئات، وأولئك الرجال والشباب الذين يقفون اليوم إلى جانب إسلامهم، وإلى جانب دعوتهم، وإلى جانب أمتهم في هذا الزمان، زمن غربة الإسلام في دياره، وفي وقت يقل فيه النصير لهذا الدين.

إن درس الأنصار هذا يقول لنا: أن نركب مركبهم في نصرة دعوة الله تعالى، وأن نسير مسيرهم في نصرة حملة هذا الدين، وأتباع نبيه الأمين صلى الله عليه وسلم في مشارق الأرض ومغاربها، لا أن نكون من المرجفين، ولا من المخذلين، ولا من المخذولين.

إن درس الأنصار يقول للجميع: إن نصرة دعوة الإسلام دين في أعناقكم، إن نصرة سنة نبيكم وحمل رسالته في ذممكم جميعًا، فليست نصرة الإسلام منوطة في ديننا بفئة محددة، ولا بلافتة معينة، بل هي في عنق كل من في عنقه بيعة الإسلام، في عنق كل من يؤمن بنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

يقول ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم»[(١)]. فهذا هو درس الأنصار الأكبر أن تنصر دين الله أيها المؤمن.

موضوعات ذات صلة:

الصحابة، الصحبة، محمد صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرآن الكريم، ٨/ ١١٣.

الإنصاف

عناصر الموضوع

مفهوم الإنصاف	٤٢٠
الألفاظ ذات الصلة	٤٢١
أنواع الإنصاف	٤٢٣
آداب الإنصاف في الحوار	٤٣٨
نماذج قرآنية في الإنصاف	٤٥٤
فوائد الإنصاف على الفرد والمجتمع	٤٦٣

مفهوم الإنصاف

أولًا: المعنى اللغوي:

(نصف) النون والصاد والفاء أصلان صحيحان، أحدهما: يدل على شطر الشيء، والآخر على جنس من الخدمة والاستعمال، فالأول نصف الشيء ونصيفه: شطره...، والإنصاف في المعاملة كأنه الرضا بالنصف، والنصف الإنصاف أيضًا[١].

وأنصف الرجل أي: عدل[٢]. يقال: أنصف ينصف إنصافًا فهو منصف.

وأنصفت الرجل إنصافًا إذا أعطيته الحق، وتناصف القوم إذا تعاطوا الحق بينهم.

والخلاصة: أن (أنصف) من الجذر (ن ص ف) الذي يدل على النصف والعدل والقسط والاستواء، يقال: أنصفت الرجل إنصافًا: عاملته بالعدل والقسط[٣].

وأنصف المظلوم من الظالم: استوفى له حقه منه[٤]. ويقال: أنصف فلانًا من فلان استوفى له حقه منه، و(ناصفه) الشيء قاسمه نصفه[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الإنصاف بكسر الهمزة: العدل.

عرفه ابن الأعرابي بأنه: أن تعطيه من الحق كالذي تستحقه لنفسك[٦].

وعرفه المناوي بقوله: الإنصاف في المعاملة العدل، بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا مثل ما يعطيه، ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله، وقيل: هو استيفاء الحقوق لأربابها، واستخراجها بالأيدي العادلة، والسياسات الفاضلة، وهو والعدل توأمان، نتيجتهما علو الهمة، وبراءة الذمة، باكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل[٧].

ولم يرد مصطلح (الإنصاف) في القرآن الكريم، ولكن القرآن تحدث عنه بعبارات بمختلفة، كما سيأتي معنا في ثنايا هذا البحث.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣١.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٣٣٢.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٠٨.
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٣/ ٢٢٢٢.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٢٦.
(٦) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٤/ ٤١٣.
(٧) التوقيف ص ٦٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العدل:

العدل لغة:

العدل مصدر عدل يعدل عدلًا، وهو مأخوذ من مادة (ع د ل) التي تدل على معنيين متقابلين:أحدهما يدل على الاستواء، والآخر على الاعوجاج[١]، ويرجع لفظ العدل هنا إلى المعنى الأول.

العدل اصطلاحًا:

أصله ضد الجور[٢]. قال في دستور العلماء: العدل: ضد الظلم، وإحقاق الحق، وإخراج الحق عن الباطل، أي: ممتازًا عنه، والأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط[٣]. وعرفه الجرجاني بقوله: العدل: عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط...، وقيل: العدل، مصدر بمعنى: العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق[٤].

الصلة بين العدل والإنصاف:

الإنصاف إعطاء النصف، والعدل يكون في ذلك وفي غيره، ألا ترى أن السارق إذا قطع قيل: إنه عدل عليه، ولا يقال: إنه أنصفه[٥].

والمقصود: أن الإنصاف بمعنى العدل -وإن كنا لا نعدم فرقًا طفيفًا بينهما- كما سبق، وكما هو مبين في كتب اللغة؛ ولهذا فسوف يكون الكلام في هذا البحث متداخلًا ومشتركًا بينهما، حيث يستدل للإنصاف بمثل ما استدل للعدل من آيات القرآن.

٢ القسط:

القسط لغة:

القسط بالكسر: العدل، يقال أقسط يقسط؛ فهو مقسطٌ:إذا عدل، وقسط يقسط فهو قاسطٌ:إذا جار، والقسط أيضًا:مكيال، وهو نصف صاع[٦].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٤٦، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٥١.
(٢) الكليات ص ٦٣٩.
(٣) دستور العلماء ٢/ ٢٢٠.
(٤) التعريفات ص ١٤٧.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٤.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٥٢، لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٣٦٢٦.

القسط اصطلاحًا:

«القسط بالكسر: النصيب بالعدل»[1].

الصلة بين القسط والإنصاف:

لفظ (الإنصاف) -كما سبق- يفيد معنى العدل، والقسط، والاستواء، والاستقامة؛ فهو على ارتباط وثيق بهذه المعاني كلها، فيشترك معها في كثيرٍ من الدلالات اللغوية، وإن كنا لا نعدم فرقًا طفيفًا بين كل واحدٍ منها، فالقسط هو:العدل البين الظاهر، ومنه سمي المكيال قسطًا، والميزان قسطًا؛ لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهرًا، وقد يكون من العدل ما يخفى؛ ولهذا قلنا:إن القسط هو النصيب الذي بينت وجوهه، وتقسط القوم الشيء تقاسموا بالقسط[2].

٣ الجور:

الجور لغة:

(جور) الجيم والواو والراء أصل واحد، وهو الميل عن الطريق[3].

الجور اصطلاحًا:

قال السيوطي: الجور: الخروج عن الوسط بزيادة أو نقصان[4]، وقال بعضهم:الجائر من الناس هو الذي يمنع من التزام ما يأمر به الشرع[5].

الصلة بين الجور والإنصاف:

الجور والإنصاف لفظان متقابلان، يدل أحدهما على ضد ما يدل عليه الآخر، فالإنصاف والنصف والنصفة: العدل، والجور: الظلم والتعدي.

وقيل:نقيض الظلم الإنصاف، ونقيض الجور العدل[6].

(١) التوقيف، المناوي ص٢٧١.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٣٤.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٩٣.
(٤) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، ص ٢٠٧.
(٥) انظر: الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٨/ ١١٦.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩٣.

أنواع الإنصاف

الإنصاف قيمة عليا من قيم الإسلام، وخلق من أخلاقه الرئيسة السامية، والإنصاف كمفهوم شامل واجب مطلقًا مع كل أحد، والمسلم مأمورٌ بالإنصاف والعدل، وهو إعطاء كل أحد ما يستحقه دون حيف أو ظلم، ويدخل في الإنصاف خمسة أنواع:

أولًا: إنصاف العبد ربَه:

لما كان حقيقة الإنصاف هو استيفاء الحقوق لأربابها، والاعتراف لهم بها، دون بخس ولا هضم، وكان من أعظم الحقوق على العبد على الإطلاق حق الخالق سبحانه وتعالى، كان أعظم أنواع الإنصاف وأجلها قدرًا أن ينصف العبد ربه، بأن يوفيه حقه -قدر استطاعته- دون بخس أو نقص، وإلا فكيف يستقيم أن يؤمر العبد أن ينصف عبدًا مثله، ويترك إنصاف ربه سبحانه، الخالق المنعم، فهو أولى بالإنصاف، ويكون ذلك بعبادته، والقيام بأمره، والوفاء بحقوقه.

والله تعالى قد أمر بالعدل -وهو الإنصاف- أمرًا عامًا مطلقًا، دون تحديد مع من يكون هذا العدل؟ ولا تحديد بزمن معين، بل هو عدل مع كل أحد، وفي كل وقت، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل:٩٠].

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: إن الله يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد بالعدل، وهو الإنصاف، ومن الإنصاف: الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته، والشكر له على إفضاله، وتولي الحمد أهله، وإذا كان ذلك هو العدل ولم يكن للأوثان والأصنام عندنا يد تستحق الحمد عليها؛ كان جهلًا بنا حمدها وعبادتها، وهي لا تنعم فتشكر، ولا تنفع فتعبد، فلزمنا أن نشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له؛ ولذلك قال من قال: العدل في هذا الموضع: شهادة أن لا إله إلا الله[1].

وتفسير العدل في هذه الآية بهذا النوع من العدل، وهو العدل مع الله، وهي شهادة التوحيد، قال به كثير من المفسرين، ولا جرم فهو أعظم أنواع العدل والإنصاف، وضده وهو الشرك، أعظم أنواع الظلم، وقد بدأ به السمعاني في الكلام عن المراد بالعدل في هذه الآية، حيث قال: في الآية أقوال:

أحدها: أن العدل هو: شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره، وقيل: إنه التوحيد، وهو في معنى الأول[2].

وكذا بدأ به ابن الجوزي، ثم قال: قال أبو سليمان: العدل في كلام العرب: الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمنعم

(١) جامع البيان، ١٤/ ٣٣٤.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٩٥.

بنعمته[1].

وقال الشنقيطي بعد أن ذكر الأقوال في هذه الآية: فإذا عرفت هذا، فاعلم أن أقوال المفسرين في الآية الكريمة راجعة في الجملة إلى ما ذكرنا؛ كقول ابن عباس رضي الله عنهما: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض؛ لأن عبادة الخالق دون المخلوق هي عين الإنصاف والقسط، وتجنب التفريط والإفراط، ومن أدى فرائض الله على الوجه الأكمل فقد أحسن.

ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل الذي حلف لا يزيد على الواجبات: (أفلح إن صدق)[2].

وكقول علي رضي الله عنه: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل[3].

إلى غير ذلك من أقوال السلف[4].

وقال ابن العربي: العدل بين العبد وربه: إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر، والامتثال للأوامر[5].

والمقصود: أن هذه الآية من جوامع الكلم القرآنية الرائعة، فيما يجب أن يفعله المؤمن، وينتهي عنه.

فالمتبادر أن العدل في الآية في مقامه، وبخاصة والآية مكية لم يقصد به العدل في القضاء، أو لم يقصد به ذلك وحسب، بل قصد به العدل المطلق الذي يتناول معاني الإنصاف، وعدم الإجحاف، وعدم تجاوز الحق قولًا وفعلًا، في كل موقف ومناسبة، ومع كل أحد، ويدخل فيه إنصاف الرب سبحانه وتعالى[6].

فمن أعظم الإنصاف المطالب به العبد إنصافه صاحب الفضل الأكبر عليه، وهو خالقه وموجده، والمنعم عليه بسائر النعم.

إذ العدل مطلوب في أمور التكليف كلها، في الأمور العقدية التي هي عمل القلب، وكذلك مطلوب في الأمور العملية التي هي أعمال الجوارح، وفي حركة الحياة كلها[7].

ومن الأوامر الإلهية العامة بالعدل والإنصاف، والتي يدخل فيها هذا النوع من الإنصاف، وهو إنصاف الرب عز وجل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف:٢٩].

والقسط: العدل، ويقع ذلك في حق

(١) زاد المسير ٢/ ٥٧٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، ١/ ١٨، رقم ٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ١/ ٤٠، رقم ١١.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٩١. وانظر: الدر المنثور، السيوطي ٥/ ١٦٠.
(٤) أضواء البيان ٢/ ٤٣٧.
(٥) أحكام القرآن، ٣/ ١٥٤.
(٦) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٥/ ١٦٨.
(٧) انظر: تفسير الشعراوي ١٣/ ٨١٥٨.

الله تعالى، وفي حق الخلق، وفي حق النفس، فالعدل في حق الله الوقوف على حد الأمر، من غير تقصير في المأمور به، أو إقدام على المنهي عنه، ثم ألا تدخر عنه شيئًا مما خولك، ثم لا تؤثر عليه شيئًا فيما أحل لك[1]. فلا إنصاف ولا نصفة أجمل وأحق من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه، والشكر له على إفضاله، وحمده، وهو أهل للحمد.

فلله تبارك وتعالى على العبد حقوقٌ عظيمة، ونعمٌ جسيمة، فهو من أنشأه من العدم، وأوجده حتى صار شيئًا مذكورًا، بعد أن كان عدمًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

فمن الإنصاف أن يعترف العبد بالخالق الموجد من العدم، ويقوم بعبادته على الوجه المأمور به شرعًا.

يقول ابن القيم في هذا النوع من الإنصاف، وهو إنصاف الخالق سبحانه وتعالى: فصل: طوبى لمن أنصف ربه، فأقر له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والعيوب في نفسه، والتفريط في حقه، والظلم في معاملته، فإن آخذه بذنوبه رأى عدله، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله، وإن عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه، فإن قبلها فمنة وصدقة ثانية، وإن ردها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به، وإن عمل سيئة رآها من تخليه عنه، وخذلانه له، وإمساك عصمته عنه؛ وذلك من عدله فيه، فيرى في ذلك فقره إلى ربه، وظلمه في نفسه، فإن غفرها له فبمحض إحسانه، وجوده وكرمه[2].

وقال: ولو أنصف العبد ربه، وأنى له بذلك! لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه؛ ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه؛ وليسلك الطريق الموصلة إليه[3].

ثانيًا: إنصاف النبي صلى الله عليه وسلم:

إن أعظم نعم الله على هذه الأمة إظهار محمد صلى الله عليه وسلم لهم، وبعثته، وإرساله إليهم.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٥٢٩.

(٢) الفوائد ص ٣٣.

(٣) المصدر السابق ص ٥٧.

﴿مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران:١٦٤].

فإن النعمة على الأمة بإرساله أعظم من النعمة عليهم بإيجاد السماء والأرض، والشمس والقمر، والرياح، والليل والنهار، وإنزال المطر، وإخراج النبات، وغير ذلك؛ فإن هذه النعم كلها قد عمت خلقًا من بني آدم كفروا بالله، وبرسله، وبلقائه، فبدلوا نعمة الله كفرًا، وأما النعمة بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم فإن بها تمت مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده، وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم[1].

ولهذا كان من أعظم أنواع الإنصاف إنصاف المسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنصافه يكون بالإيمان به، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

ونظير هذه الآية آيات كثيرة، جاءت تأمر بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، ونلحظ منها: أن الله تعالى قرن الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم مع الإيمان به، وفي هذا دليل على أن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم واجب متعين، بل لا يتم إيمان المرء إلا به، ولا يصح إسلام إلا معه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ١٣﴾ [الفتح:١٣].

ولما كان الإيمان بالله هو الأصل يتفرع عنه الإيمان بالرسول والنبي بدأ به، فقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ثم أتبعه بالإيمان بالرسول، فقال: ﴿وَرَسُولِهِ﴾ ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى المعجز الدال على نبوته، وهو كونه أميًا ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ وظهر عنه من المعجزات في ذاته ما ظهر من القرآن الجامع لعلوم الأولين والآخرين، مع نشأته في بلد عارٍ من أهل العلم لم يقرأ كتابًا، ولم يخط، ولم يصحب عالمًا، ولا غاب عن مكة غيبة تقتضي تعلمًا[2].

وفي نهاية الآية يخبر الله تعالى أن النبي الأمي- صلوات الله وسلامه عليه- يؤمن بالله وكلماته، ومع أن هذه بديهية، إلا أن هذه اللفتة لها مكانها، ولها قيمتها، فالدعوة لا بد أن يسبقها إيمان الداعي بحقيقة ما يدعو إليه، ووضوحه في نفسه، ويقينه منه؛ لذلك يجيء وصف النبي المرسل إلى الناس جميعًا بأنه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونصه، ثم يتضمن أخيرًا لفتة إلى مقتضى

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٢٢.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٩٧.

هذا الإيمان الذي يدعوهم إليه، وهو اتباعه فيما يأمر به ويشرعه، واتباعه كذلك في سنته وعمله، وهو ما يقرره قول الله سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فليس هناك رجاء في أن يهتدي الناس بما يدعوهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا باتباعه فيه، ولا يكفي أن يؤمنوا به في قلوبهم ما لم يتبع الإيمان الاتباع العملي، وهو الإسلام[1].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم وجوب طاعته.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال:٢٠].

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [آل عمران:١٣٢].

والآيات في هذا كثيرة.

فجعل الله تعالى في هذه الآيات طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره، واجتناب نهيه.

قال القاضي عياض رحمه الله: وأما وجوب طاعته فإذا وجب الإيمان به، وتصديقه فيما جاء به، وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به[2].

ولما كانت طاعة الرسول هي طاعة الله لأنه إنما يدعوه إليه، وإنما خلقه القرآن، وحد الضمير، فقال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ ولم يقل: عنهما، وهو كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢].

والمراد: ولا تولوا عن الرسول في حال من الأحوال، وفي أمر من الأوامر، من الجهاد وغيره، ومن الغنائم وغيرها، خف أو ثقل، سهل أو صعب[3].

وأصله: (ولا تتولوا) فحذف إحدى التاءين تخفيفًا ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: وأنتم تسمعونه، أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوا وأنتم تسمعون، أي: تصدقون؛ لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة[4].

ونلحظ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩]أنه كرر قوله: ﴿أَطِيعُوا﴾ ولم يقل: أطيعوا الله والرسول، وإنما أعيد فعل ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ مع أن حرف العطف يغني عن إعادته؛ وذلك إظهارًا للاهتمام بتحصيل طاعة الرسول؛ لتكون أعلى مرتبة من طاعة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٨٠.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٦.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٢٤٧.

(٤) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦٣٨.

أولي الأمر؛ ولينبه على وجوب طاعته فيما يأمر به، ولو كان أمره غير مقترن بقرائن تبليغ الوحي؛ لئلا يتوهم السامع أن طاعة الرسول المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلغه عن الله دون ما يأمر به في غير التشريع، فإن امتثال أمره كله خير، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا أبا سعيد بن المعلى وأبو سعيد يصلي، فلم يجبه، فلما فرغ من صلاته جاءه، فقال له: (ما منعك أن تأتيني؟) فقال: «كنت أصلي» فقال: (ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال:٢٤])[1].

ولذلك كان الصحابة إذا لم يعلموا مراد الرسول من أمره ربما سألوه: أهو أمر تشريع أم هو الرأي والنظر؟ كما قال له الحباب بن المنذر يوم بدر حين نزل جيش المسلمين: أهذا منزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نجتازه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: (بل الرأي والحرب والمكيدة..)[2] الحديث[3].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم: امتثال سنته، والاقتداء بهديه.

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران:٣١].

فجعل المحبة في اتباعه، وجعل جزاء اتباعه محبته لعباده، وهي أعلى الكرامة[4].

نعم فحب الله ليس دعوى باللسان، ولا هيامًا بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله، والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة، وإن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش، ولا شعائر تقام، ولكنه طاعة لله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول[5].

ومن حقه صلى الله عليه وسلم عليهم أن يتحاكموا إليه؛ لأنه رسول الله، وهو مأمور بأن يحكم بين الناس بما أراه الله في وحيه، وما هداه إليه في اجتهاده.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء:٦٥].

أي: ينقادون لحكمك، يقال: سلم واستسلم وأسلم إذا انقاد.

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦﴾ [الممتحنة:٦].

فالأسوة في الرسول الاقتداء به، والاتباع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم)، ٦/ ٨١، رقم ٤٧٠٣.
(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٦٢٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٩٧.
(٤) لطائف الإشارات، التستري ص ٧٩.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٨٧.

لسنته، وترك مخالفته في قول أو فعل.

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم: لزوم محبته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤].

ففي هذه الآية الكريمة حض وتنبيه بالغ على وجوب محبته، وعظم شأنها، واستحقاقه لها؛ إذ قرع سبحانه وتعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم وجوب مناصحته، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩١].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟﴾ النصح: إخلاص العمل من الغش، ومنه التوبة النصوح، قال نفطويه: نصح الشيء إذا خلص، ونصح له القول أي أخلصه له، وفي صحيح مسلم عن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الدين النصيحة) ثلاثًا، قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله)[2].

قال العلماء: النصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، وتوقيره، ومحبته، ومحبة آل بيته، وتعظيمه، وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها، والذب عنها، ونشرها، والدعاء إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم[3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٢٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٤، رقم ٥٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٢٧.

وقال أبو بكر الآجري: النصح له يقتضي نصحين: نصحًا في حياته، ونصحًا بعد مماته، ففي حياته نصح أصحابه له بالنصر والمحاماة عنه، ومعاداة من عاداه، والسمع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه[1].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم توقيره، وبر آله، وذريته، وأمهات المؤمنين أزواجه.

قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩].

وقال عن أهل بيته: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

قال القاضي: ومن توقيره وبره: بر آله وذريته وأمهات المؤمنين أزواجه، كما حض عليه، وسلكه السلف الصالح رضي الله عنهم[2].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم: تنفيذ ما أمر به، واجتناب مخالفة أمره وتبديل سنته، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [:٦٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: من سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فصار في شق، والشرع في شق؛ وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق، وتبين له، واتضح له[4].

والمقصود: أن حق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته عظيم، فالواجب إنصافه، وإعطائه حقه، من التعظيم والإجلال، والطاعة والاتباع، والمحبة والنصرة، وقد دل القرآن على كل ذلك في آيات كثيرة.

ثالثًا: إنصاف العبد نفسه من نفسه:

ومن أنواع الإنصاف: إنصاف المرء نفسه من نفسه.

(١) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢/ ٣٣.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٢.

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالقسط، وهو العدل الذي من معانيه الإنصاف، ثم قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وهذا من الإنصاف للنفس، والنصح لها.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾: أي: اشهد الحق، ولو عاد ضررها عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مضرة عليك[(١)].

و﴿قَوَّٰمِينَ﴾ صيغة مبالغة، أي: ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم، وهو الإقرار بما عليكم من الحقوق[(٢)].

وهنا يحاول المنهج الإلهي تجنيد النفس في وجه ذاتها، وفي وجه عواطفها، تجاه ذاتها أولًا، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيًا، وهي محاولة شاقة، أشق كثيرًا من نطقها باللسان، ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل، إن مزاولتها عمليًا شيء آخر غير إدراكها عقليًا، ولا يعرف هذا الذي نقوله إلا من يحاول أن يزاول هذه التجربة واقعًا، ولكن المنهج يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة؛ لأنها لا بد أن توجد في الأرض، ولا بد أن يقيمها ناس من البشر.

ثم هو يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيرًا، تشفق النفس من شهادة الحق ضده، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية، كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية، وحين يكون المشهود له أو عليه غنيًا، تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته، أو قد يثير غناه، وتبطره النفس ضده، فتحاول أن تشهد ضده! وهي مشاعر فطرية، أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس في عالم الواقع، والمنهج يجند النفس تجاهها كذلك كما جندها تجاه حب الذات، وحب الوالدين والأقربين[(٣)].

ومما يدل على هذا النوع من الإنصاف -وهو إنصاف النفس- عموم الأمر بالعدل الذي من معانيه الإنصاف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل:٩٠].

والعلماء يقسمون العدل إلى أربعة أنواع:

١. عدل مع الخالق.
٢. عدل مع الرسول.
٣. عدل مع الخلق.
٤. عدل مع النفس.

والعدل في حق النفس يكون بإدخال

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٠٤.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٧٦.

العتق عليها، وسد أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال[1].

قال ابن القيم في هذا النوع من الإنصاف، وهو إنصاف العبد نفسه: ويدخل في هذا إنصافه نفسه من نفسه، فلا يدعي لها ما ليس لها، ولا يخبثها بتدنيسه لها، وتصغيره إياها، وتحقيرها بمعاصي الله، وينميها ويكبرها، ويرفعها بطاعة الله وتوحيده، وحبه وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وإيثار مرضاته ومحابه على مراضي الخلق ومحابهم، ولا يكون بها مع الخلق...، ويكون بالله لا بنفسه في حبه وبغضه وعطائه ومنعه وكلامه وسكوته ومدخله ومخرجه، فينجي نفسه من البين، ولا يرى لها مكانة يعمل عليها...، فالعبد المحض ليس له مكانة يعمل عليها، فإنه مستحق المنافع والأعمال لسيده، ونفسه ملك لسيده، فهو عامل على أن يؤدي إلى سيده ما هو مستحق له عليه، ليس له مكانة أصلًا، بل قد كوتب على حقوق منجمة، كلما أدى نجمًا حل عليه نجم آخر، ولا يزال المكاتب عبدًا ما بقي عليه شيء من نجوم الكتابة.

والمقصود: أن إنصافه من نفسه يوجب عليه معرفة ربه، وحقه عليه، ومعرفة نفسه، وما خلقت له، وأن لا يزاحم بها مالكها وفاطرها، ويدعي لها الملكة والاستحقاق، ويزاحم مراد سيده، ويدفعه بمراده هو، أو يقدمه ويؤثره عليه، أو يقسم إرادته بين مراد سيده ومراده، وهي قسمة ضيزى، مثل قسمة الذين قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦].

فلينظر العبد لا يكون من أهل هذه القسمة بين نفسه وشركائه، وبين الله لجهله وظلمه، وإلا لبس عليه وهو لا يشعر، فإن الإنسان خلق ظلومًا جهولًا، فكيف يطلب الإنصاف ممن وصفه الظلم والجهل؟ وكيف ينصف الخلق من لم ينصف الخالق؟...

ثم كيف ينصف غيره من لم ينصف نفسه، وظلمها أقبح الظلم، وسعى في ضررها أعظم السعي، ومنعها أعظم لذاتها من حيث ظن أنه يعطيها إياها، فأتعبها كل التعب، وأشقاها كل الشقاء، من حيث ظن أنه يريحها ويسعدها، وجد كل الجد في حرمانها حظها من الله، وهو يظن أنه ينيلها حظوظها، ودساها كل التدسية، وهو يظن أنه يكبرها وينميها، وحقرها كل التحقير وهو يظن أنه يعظمها، فكيف يرجى الإنصاف ممن هذا إنصافه لنفسه؟ إذا كان هذا فعل العبد بنفسه فماذا تراه بالأجانب يفعل.

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٥٢٩.

والمقصود: أن قول عمار رضي الله عنه: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»[1] كلام جامع لأصول الخير وفروعه[2].

رابعًا: إنصاف العباد:

ومن أنواع الإنصاف: إنصاف الخلق، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: . ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين:١-٣].

ففي هذه الآية تهديد شديد لمن لا ينصفون الناس في الكيل، ويقاس على الكيل غيره، قال الرازي: واعلم أنه سبحانه جمع في هذه الآية أنواعًا من التهديد:

فقال أولًا: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء.

ثم قال ثانيًا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ [المطففين:٤]وهو استفهام بمعنى الإنكار.

ثم قال ثالثًا: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين:٥] والشيء الذي يستعظمه الله لا شك أنه في غاية العظمة.

ثم قال رابعًا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٦]وفيه نوعان من التهديد:

أحدهما: كونهم قائمين مع غاية الخشوع، ونهاية الذلة والانكسار.

والثاني: أنه وصف نفسه بكونه ربًا للعالمين، ثم ها هنا سؤال، وهو كأنه قال قائل: كيف يليق بك مع غاية عظمتك أي تهيئ هذا المحفل العظيم الذي هو محفل القيامة لأجل الشيء الحقير الطفيف؟ فكأنه سبحانه يجيب، فيقول: عظمة الإلهية لا تتم إلا بالعظمة في القدرة، والعظمة في الحكمة، فعظمة القدرة ظهرت بكوني ربًا للعالمين، لكن عظمة الحكمة لا تظهر إلا بأن أنتصف للمظلوم من الظالم؛ بسبب ذلك القدر الحقير الطفيف، فإن الشيء كلما كان أحقر وأصغر كان العلم الواصل إليه أعظم وأتم، فلأجل إظهار العظمة في الحكمة أحضرت خلق الأولين والآخرين في محفل القيامة، وحاسبت المطفف لأجل ذلك القدر الطفيف[3].

ولفظ المطفف يتناول: الذي ينقص الكيل والوزن، وأراد بهذا الذين يعاملون الناس، فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا، ويتجلى ذلك في الوزن والكيل، وفي إظهار العيب، وفي القضاء والأداء والاقتضاء، فمن لم يرض لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، ١/ ١٥.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٣٧٢-٣٧٤.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣١/ ٨٥.

فليس بمنصف، وأما الصديقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين، فإنهم ينظرون لكل من لهم معهم معاملة، والصدق عزيز، وكذلك أحوالهم في الصحبة والمعاشرة؛ فالذى يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه فهو من هذه الجملة -جملة المطففين-...، ومن اقتضى حق نفسه دون أن يقضي حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه فهو من جملة المطففين، والفتى من يقضي حقوق الناس ولا يقتضي من أحد لنفسه حقًا[1].

وهذه من حكمة وضع الميزان في الأرض، أن يقوم الناس بالقسط، وينصف بعضهم بعضًا.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن:٧-٩].

قال الرازي: وذكر في منافع الميزان أن يقوم الناس بالقسط، والقسط والإقساط هو الإنصاف، وهو أن تعطي قسط غيرك كما تأخذ قسط نفسك[2].

وسمي العدل ميزانًا لأن الميزان آلة الإنصاف، والتسوية بين الخلق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله تعالى بالوفاء، ونهى عن البخس[3].

وفي قوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ قال مجاهد: أراد بالميزان العدل والإنصاف، والمعنى: أنه أمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: لا تجاوزوا العدل، وقال الحسن وقتادة والضحاك: أراد به الذي يوزن به ليوصل به إلى الإنصاف والانتصاف، وأصل الوزن التقدير، وقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ يعني: لئلا تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، وقال أبو الدرداء وعطاء: معناه أقيموا لسان الميزان بالعدل، قال سفيان بن عيينة: الإقامة باليد، والقسط بالقلب ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ ولا تنقصوا الميزان، ولا تطففوا في الكيل والوزن[4].

والمقصود: أن من أنواع الإنصاف إنصاف الخلق بعضهم بعضًا، إذا تعاطوا الحقوق بينهم، فلا يبخس بعضهم بعضًا، ولا يأخذ ما ليس له، ولا يحيف ولا يجور، بل ينبغي أن تؤدى الحقوق كاملة كما أمر الله تعالى.

خامسًا: إنصاف المخالفين:

ومن أنواع الإنصاف التي حث عليها القرآن إنصاف المخالفين، وانظر كيف أنصف القرآن أهل الكتاب مع مخالفتهم

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٦٩٩.
(٢) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٤٧١.
(٣) الوسيط، الواحدي ٤/ ٤٨.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٣١.

الشديدة لدين الله.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:٧٥].

فهذا من إنصاف وعدل القرآن، ودقته في الحكم بالفساد على الأمم؛ إذ يحكم على الأكثر بالفساد، ثم يستثني الصالحين منهم بعد إطلاق الحكم العام، فمن إنصافه هنا أنه أخبر عن أهل الكتاب أن منهم من يؤدي الأمانة وإن كثرت، ومنهم من لا يؤديها وإن قَلَّتْ.

فالآية فيها دلالة على إنصاف الرب تبارك وتعالى، وأن الله جل وعلا حكم عدل، فاليهود قوم بهت نعتوا ربهم بأقبح المعايب تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ومع ذلك يقرر الله في هذه الآية أن اليهود على ما فيهم من معايب منهم من لو أمنته فوضعت عنده قنطارًا -والقنطار: الآلاف من الدنانير- ثم طلبتها منه لردها إليك، رغم أنه يهودي، وإخبار الله بهذا دلالة على إنصاف الرب جل وعلا، وأن الله لا يظلم الناس مثقال ذرة.

فقول الله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي: إن وضعت عنده قنطارًا أمانة رده إليك تامًا، كما هو رغم أنه كتابي، يهودي وإما نصراني، فكفره لم يمنعه من تأدية الأمانة.

إنها خطة الإنصاف والحق، وعدم البخس والغبن، يجري عليها القرآن الكريم في وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة حينذاك، والتي لعلها حال أهل الكتاب في جميع الأجيال؛ ذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، ودسهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم، وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة، وبهذا الدين.

كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المحسنين منهم حقهم، حتى في معرض الجدل والمواجهة، فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناسًا أمناء، لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ ولكن منهم كذلك الخونة الطامعين المماطلين، الذين لا يردون حقًا -وإن صغر- إلا بالمطالبة والإلحاح والملازمة.

ثم هم يفلسفون هذا الخلق الذميم، بالكذب على الله عن علم وقصد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وهذه بالذات صفة يهود، فهم الذين يقولون هذا القول، ويجعلون للأخلاق

مقاييس متعددة، فالأمانة بين اليهودي واليهودي، أما غير اليهود ويسمونهم الأميين، وكانوا يعنون بهم العرب (وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود) فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم، وغشهم وخداعهم، والتدليس عليهم، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة، ولا فعل ذميم!

ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا، وهم يعلمون أن هذا كذب، وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتًا وبهتانًا، وألا يرعوا معهم عهدًا ولا ذمة، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تذمم، ولكنها يهود! يهود التي اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها ديدنًا ودينًا[1].

والحاصل: أن في هذا التعبير القرآني إنصافًا للنصارى فصفة الخير لهم لا ينكرها الله، بل يشيعها في قرآنه الذي يتلى إلى يوم الدين؛ وذلك ليصدق أيضًا أهل الكتاب أي أمر سيء تنزل فيه آيات من القرآن؛ لأن القرآن منصف مطلق الإنصاف، فما دام قد قال خصلة الخير فيهم فلا بد أن يكون صادقًا عندما يقول الأمور السيئة التي اتصفوا بها.

وهكذا عادة القرآن فهو لا يعمم حكمه إلا حيث يكون التعميم هو الحق الذي لا شك فيه، وإن كان في قوم من هم جديرون بالثناء ذكرهم، وكذلك كان الشأن في ذكر أهل الكتاب، وهم من أعظم الناس مخالفة لشرع الله، ففي هذه الآية يذكر بالخير طائفة من هؤلاء، فيقول الحكم العدل تعالت كلماته.

ومن نماذج إنصاف المخالف في القرآن أيضًا، قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء:١٨-٢٠].

فقول موسى عليه السلام: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من أروع وأعظم نماذج الإنصاف في القرآن، حيث علق على الثانية، ولم يعلق ويرد على الأولى؛ لأن الأولى حق، فقد تربى وتغذى في بيت فرعون حقًا.

وفي هذه الآية إرشاد للعباد: أن الحق يقبل، ولو صدر من الخصم.

ومن إنصافه أنه قال: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: قال موسى في جوابه على فرعون: أنا لا أنكر أني قد فعلت هذه الفعلة التي تذكرني بها، ولكني فعلتها وأنا في ذلك الوقت من الضالين، أي: فعلت ذلك قبل أن يشرفني الله بوحيه، ويكلفني بحمل رسالته، وفضلًا عن ذلك فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة ستؤدي إلى قتل ذلك الرجل من

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤١٧.

شيعتك، لأني ما قصدت قتله، وإنما قصدت تأديبه، ومنعه من الظلم لغيره[1].

ثم إنه لم ينكر تربيته في بيت فرعون، بل بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة، فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٢].

أي: وما أحسنت إلي وربيتني إلا وقد أسأت إلى بني إسرائيل جملة، فجعلتهم عبيدًا وخدمًا، تصرفهم في أعمالك، وأعمال رعيتك الشاقة[2].

ومن نماذج إنصاف المخالف في القرآن كذلك قوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف:٢٨].

فنلحظ هنا أن الله تعالى رد مقولتهم الثانية ونفاها، وسكت عن الأولى؛ لأنهم فعلًا وجدوا آباءهم يفعلون هذه الفاحشة، وهي كما ما ذكر أهل التفسير طوافهم بالبيت عراة[3].

قال ابن عاشور: فأعرض عن رد قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ لأنه إن كان يراد رده من جهة التكذيب فهم غير كاذبين في قولهم؛ لأن آباءهم كانوا يأتون تلك الفواحش، وإن كان يراد رده من جهة عدم صلاحيته للحجة فإن ذلك ظاهر؛ لأن الإنكار والنهي ظاهر انتقالهما إلى آبائهم؛ إذ ما جاز على المثل يجوز على المماثل[4].

وقد يكون السكوت هنا أتى من باب الذم لهذا الاحتجاج بالآباء وتحقيره، قال الرازي: أما الحجة الأولى: فما ذكر الله عنها جوابًا؛ لأنها إشارة إلى محض التقليد، وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة؛ لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة، فلو كان التقليد طريقًا حقًا للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقًا، ومعلوم أنه باطل؛ ولما كان فساد هذا الطريق ظاهرًا جليًا لكل أحد لم يذكر الله تعالى الجواب عنه[5].

والمقصود: أن من الإنصاف أن ينصف المرء من يخالفه، ولا تكون المحالفة مدعاة لظلمه، أو هضم حقوقه، أو التعدي عليه، وستأتي في المطالب التالية أمثلة قرآنية كثيرة على إنصاف المخالفين.

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢٣٩.
(٢) تفسير المراغي ١٩/ ٥٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٧ وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٦١.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٨٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥.

آداب الإنصاف في الحوار

من مجالات الإنصاف البارزة في القرآن مجال الحوار، والدعوة، والحكم على الناس، وقد أولى القرآن هذا الجانب أهمية كبيرة، فحث القرآن على الإنصاف في الحوار، والعدل في الحكم على الناس، والحكم على الأفكار.

أولًا: تحري القصد الحسن:

مما ينبغي على المحاور والداعية حتى يكون منصفًا أن يتحرى القصد الحسن من حواره ودعوته، بأن يكون هدفه إظهار الحق، والرغبة في الوصول إليه، وانظر إلى نبي الله شعيب عليه السلام بعد المحاورة الطويلة لقومه، كيف بين مقصوده من حواره، ودعوته لهم، حيث أخبر الله عنه أنه قال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود:٨٨].

فقوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ يعني: هذا هدفي ومقصدي من دعوتي لكم، وهو قصد حسن، وهكذا ينبغي أن يكون قصد كل محاور وداعية ومتكلم، أن يكون قصده الإصلاح لا الإفساد، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

يقول السمرقندي: في قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ أي: ما أريد إلا العدل[1]. والعدل من معاني الإنصاف.

وقد فضح سوء نواياهم الداعية لهم إلى الإعراض عن دعوته عقب إظهار حسن نيته مما دعاهم إليه، بقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود:٨٨].

مصادفًا محز جودة الخطابة؛ إذ رماهم بأنهم يعملون بضد ما يعاملهم به[2].

ولما بين لهم حقيقة عمله، وكان في بيانه ما يجر الثناء على نفسه، أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله، فقال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود:٨٨].

فسمى إرادته الإصلاح توفيقًا، وجعله من الله، لا يحصل في وقت إلا بالله، أي: بإرادته وهديه[3].

والمقصود: أن من متطلبات الإنصاف في الحوار تحري القصد الحسن من المحاورة، أو من الدعوة؛ وهذا من علامة الإخلاص لله، والرغبة في طلب الحق.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

فمن الإنصاف أن يكون الداعي مقصده صالحًا، وغرضه حسنًا، بالحرص على ظهور الحق، وهداية الخلق، فهذا له أثر

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ١٦٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٤٧.
(٣) المصدر السابق ١٢/ ١٤٥.

عظيم في قبول الحق، فمتى علم الناس من الداعية حسن القصد، ونبل الهدف، أثر ذلك فيهم تأثيرًا عجيبًا.

ثانيًا: التثبت والتبين:

من لوازم الإنصاف التثبت والتبين، حتى لا يخرج المسلم عن العدل والإنصاف في قوله وحكمه، أو يتسرع في الحكم على قول أو فعل أو شخص دون تبين وتثبت.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات:٦].

قال الشافعي رحمه الله: فأمر الله من يمضي أمره على أحد من عباده أن يكون مستبينًا قبل أن يمضيه[1]. حتى لا يجانب العدل والإنصاف.

وها هنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه، ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر، فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته، وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما من فسقه من جهة الكذب، فإن أكثر منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة أو مرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمهم الله[2].

وخصص الفاسق بالتبين والتثبت في قوله لأنه مظنة الكذب، وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها، فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذًا بها، فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره؛ وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطًا بين الأخذ والرفض؛ لما يصل إليها من أنباء، ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق، فتصيب قومًا بظلم عن جهالة وتسرع، فتندم على ارتكابها ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل في اندفاع[3].

ولهذا قال: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ لأن المؤمن إذا وقع في هذا المحظور المنهي عنه، وهو ظلم الناس،

(١) تفسير الإمام الشافعي ٣/ ١٢٧٠.

(٢) التفسير القيم ص ٤٧٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤١.

أو أذية الناس بسبب تناقل الأخبار يندم على ذلك، وبخاصة وأن قبول خبر الفاسق يؤدي إلى الرغبة في الانتقام من هذا الفاعل أو معاقبته أو أذيته، فإذا بادرت وعاقبته وتعجلت بناءً على هذا الخبر من الفاسق، فربما يتبين لك بعد ذلك أنه كان مظلومًا، فيملؤك الندم على ما فعلت من ترك التثبت، وعدم الحيطة، وقبول خبر الفاسق.

فلا يعجل من بلغه خبر، وبخاصة إن كان عن حميم أو قريب لمجرد قوله ذلك، فكم حدث في التاريخ القديم والحديث نتيجة أنباء الفسقة الكاذبين من قتل بظلم، وسجن بظلم، وأخذ مال بظلم، وحصل الندم، ولكن بعد فوات الأوان، فإن كان الأذى موتًا فلا حيلة في إحيائه مرة أخرى، وإن كان ضربًا وإيذاءً فلا حيلة في زوال ذلك الضرب، وقد أوذي المرء وأهين.

وهذه الآية ستبقى دستورًا للأخبار والمعاملات للرواة وللمحدثين ولأهل العلم وللحكومات وللقضاة وللمتتبعين للأخبار، بحيث يستوثقون من أي خبر جاء، خاصة إذا كان المخبر يأخذ مالًا، ويأخذ راتبًا على هذه الأخبار، فهو عندما لا يجد خبرًا، ولا يسمع نبأ، يذهب ويكذب ويخترع ليحوز المال، فهو كاذب، ولا يفرح لمثل هذا، فانتقام الله منه يكون عظيمًا في الدنيا قبل الآخرة[1].

والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة، وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر...، وقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا؛ لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة؛ لأنه لم يصدر عن علم، والمعنى: متلبسين بجهالة بحالهم، فتصبحوا على ما فعلتم بهم من إصابتهم بالخطأ نادمين على ذلك، مغتمين له، مهتمين به[2].

والمقصود: إن من الإنصاف التثبت والتبين من خبر الفاسق قبل الحكم على الناس، أو اتهامهم، أو عقابهم، حتى لا يقع المسلم في الظلم والجور، ثم يندم حيث لا ينفع الندم.

ثالثًا: إحسان الظن:

ومن لوازم الإنصاف حسن الظن بالمسلم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

فنهى الله تعالى عن كثير من الظن السوء بالمؤمنين، فإن بعض الظن إثم؛ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة،

(١) تفسير المنتصر الكتاني ٣٥٣/ ٧.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٧١.

وكظن السوء الذي يقترن به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته، المأمور بخلاف ذلك منه[1].

قال ابن كثير: يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا[2].

فالآية تأمر المؤمنين باجتناب كثير من الظن، فلا يتركوا نفوسهم نهبًا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك، وتعلل هذا الأمر ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وما دام النهي منصبًا على أكثر الظن، والقاعدة أن بعض الظن إثم، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيئ أصلًا؛ لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إثمًا؟! بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ، فيقع في الإثم، ويدعه نقيًا بريئًا من الهواجس والشكوك، أبيض يكن لإخوانه المودة التي لا يخدشها ظن السوء، والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع.

وما أروع الحياة في مجتمع بريء من الظنون! ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب، بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل، وسياجًا حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف، فلا يؤخذون بظنة، ولا يحاكمون بريبة، ولا يصبح الظن أساسًا لمحاكمتهم، بل لا يصح أن يكون أساسًا للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا ظننت فلا تحقق)[3].

ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء، مصونة حقوقهم وحرياتهم واعتبارهم، حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه، ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم! فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص؟! وأين أقصى ما تتعاجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلًا،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٣٧٧.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٣/ ٢٢٨، رقم ٣٢٢٧.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٣٧٢، رقم ٢٥٢٧.

وحققه في واقع الحياة، بعد أن حققه في واقع الضمير[1].

والمقصود: أن المسلم لكي يكون منصفًا مع الخصم أو مع الناس عمومًا لا بد أن يترك الظن السيئ بهم، بل لا بد من حسن الظن بالطرف الآخر واحترامه، وهذا مما يسهل الوصول إلى قلبه، وتملكه وإقناعه.

وسبب تحريم سوء الظن: أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك ألا تعتقد إلا ما علمت وشاهدت بنفسك، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك، فإنما يلقيه إليك الشيطان.

وللأسف الشديد هذا شائع في مجتمعنا، أعني: سهولة تداول الطعن في الأعراض في المجالس، فما أن تقع خطوبة بين طرفين، أو يفتح الكلام على ذلك -ولو لم يتحقق- حتى تجد من يقبل هذا الكلام، وربما حققه وقطع به، وبنى عليه أحكامه، ثم يشيعها في الناس، هذا شائع وموجود! فهذا من الظلم، وهذا مما يخالف هذا التوجيه القرآني.

ومن الناس من يتلقى الخبر من الجرائد، ومن المشاهدة للإعلام، فيظل يروج بكلام كثير جدًا، فينبغي أن يتحرى المؤمن هذا الذي ينقله، أو يبني عليه أحيانًا، ولا بد من تجنب الظنون السيئة ما لم يشاهد بعينه، ولم يسمع بأذنه.

فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف بعيان لا يقبل التأويل؛ لأننا نحن البشر، بل كل الخلق لا يستطيع أحد منهم أن يطلع على أسرار القلوب، فأسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى، أما البشر فليس لهم إلا الظاهر، فإذا ظهر من شخص شيء، وبان لك عيانًا ببينة، فهنا يحق لك أن تظن ما يليق بهذا الذي ظهر منه، أما إذا لم يظهر منه شيء ولا أمارة صحيحة على ذلك، فليس من حقك أن تظن به، وإلا فقد ظلمته واستحققت عقاب الله تبارك وتعالى.

رابعًا: القول الحسن:

ومن آداب الإنصاف في الحوار والجدال الحرص على القول الحسن.

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥].

والمعنى: ادع أيها النبي الناس إلى دين الله، وشريعة ربك، وهي الإسلام، بالحكمة، أي: بالقول المحكم، والموعظة الحسنة، أي: بالعبرة والتوجيه والكلمة المؤثرة في القلوب، والتلطف بالإنسان، بإحلاله وتنشيطه؛ ليحذر الناس بأس الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤٥.

تعالى، ويحققوا لأنفسهم النجاح، وجادلهم بالتي هي أحسن، أي: وحاججهم محاجة تتصف بالحسن، والإقناع والإنصاف، وبالرفق واللين، ولطف الخطاب، والصفح عن المسيء، وقابل الإساءة بالإحسان، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق، دون رفع الصوت أو السب، أو التعيير، أو التهكم والاستهزاء[1].

ومما يبين ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦].

فقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: ألطف وأرفق، وهو الجميل من القول، والدعاء إلى الله، والبينة على آيات الله وحججه[2]. كمعاملة الخشونة باللين، والغضب بالحلم، والمشاغبة، أي: تحريك الشر وإثارته بالنصح، أي بتحريك الخير وإثارته، والعجلة بالتأني والاحتياط على وجه لا يؤدي إلى الضعف، ولا إلى إعظام الدنيا الدنية[3].

والجدال: هو الخصام، أي: لا تخاصموهم، ولا تناقشوهم، ولا تحاوروهم إلا بالكلمة الطيبة، فلا تعنيف، ولا شتيمة، ولا صراخ، ولا تقبيح، ولا شتم وذم.

فالله جل جلاله أمرنا عند محاورة أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن نجادلهم، وأن نستدل عليهم بالتي هي أحسن، أي: بالكلمة الحسنة والطيبة، من غير أن يكون هناك خصام ولا شتيمة.

وأن ندعوهم إلى القرآن وإلى الإسلام وإلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالكلمة الطيبة[4].

ومن الآيات التي تدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الإسراء:٥٣].

أي: وقل لعبادي يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم: الكلام الأحسن للإقناع، مع البعد عن الشتم والسب والأذى[5].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ يقول: إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضًا، وينزغ بينهم، أي: يفسد بينهم، ويهيج بينهم الشر[6].

قال ابن كثير: يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٣١٩.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٨٤.
(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٤٧٧.
(٤) انظر: تفسير المنتصر الكتاني ١٦٧/ ٢.
(٥) تفسير المراغي ١٥/ ٥٩.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٦٩.

لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، أي: فربما أصابه بها[1].

ونظيره قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]يعني: حقًّا[2] والحق فيه دلالة على الإنصاف.

والحاصل: أن كلمة حسنًا واسعة الدلالة، فهي ترمز لمعانٍ شتى، من أعظمها الإنصاف في القول، فالإنصاف في القول من أعظم المحاسن.

وكلمة الناس في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ عامة، أي: للناس كلهم[3].

والمقصود: أن من آداب الإنصاف اتخاذ هذا الأسلوب من الجدال، بالتي هي أحسن، كي يستخفه السمع، ويقبله الطبع، فالجدال والنقاش بالأسلوب الحسن، وبالحكمة والموعظة الحسنة أدعى عند العقلاء إلى توفير القناعة، والوصول إلى الإيمان، وتحقيق الهدف المقصود.

فالآيات السابقة تأمر بالجدال بالتي هي أحسن إذا لزم الجدال، وبالتزام الحكمة، والموعظة الحسنة في الدعوة إلى سبيل الله.

فالخير كل الخير هو في تلك الخطة، فإذا كان من الكفار من يشذ ويعنف، ورأى بعض المسلمين ضرورة للمقابلة، فلتكن في حدود المماثلة، والصبر مع ذلك هو الأفضل، وعلى المسلمين أن يملكوا زمام أنفسهم، فلا يخرجوا عن حد الاعتدال والإنصاف، ولا يحزنوا، ولا يضق صدرهم بما يرونه من مكر الكفار، ومواقفهم وتعنتهم، وعليهم بتقوى الله، والعمل الحسن الذي يرضيه، وإنه لمع المتقين المحسنين[4].

فهؤلاء أهل الكتاب من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين، وحسن خطاب، واصفح عمن أساء في القول، وترفق بهم في الخطاب، وقابل السوء بالحسنى، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق، دون رفع الصوت، وسب الخصم أو الأذى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فهذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بلين الجانب، ولطف الخطاب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٤].

فعلى كل داعية امتثال هذا الأمر الإلهي في دعوته[5].

وهكذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٨٠.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩٧.
(٤) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٥/ ٢٠٥.
(٥) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ٢٧٠.

أهل الكتاب إلى كلمة سواء، ينصف فيها بعضهم بعضًا، كما حكى القرآن بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وإذا كان قد دعاهم إلى هذا الإنصاف، وإلى ترك التعصب جانبًا، وعدم الخضوع لأسبابه، فإن حال الذين يخاطبهم إحدى حالين: إما أن يخلصوا في طلب الحق، ويجيبوا داعيه، وتلك خير الخصلتين، وإما أن لا يجيبوا داعيه، وتلك هي السوأى، فإن كانت الأولى فتلك هداية الله، وإن كانت الثانية، فإن الله تعالى قد كتب عليهم الشقوة، ولا سبيل لأن يدخل قلوبهم، فإن من طلب منه الإنصاف، فأعرض عنه فلا سبيل إلى هدايته، والجدل معه لا يجدي؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: فإن أعرضوا، ونأوا بجانبهم عن إجابة داعي الإنصاف، والدعوة بالتي هي أحسن، فلا تجادلوهم، ولا تحاجوهم، فإن الجدل مع من لم يجب داعي العدالة لا يزيده إلا لجاجة وعنادًا؛ وإن الحقائق تتبعثر على ألسنة المتجادلين، ويتبدد رونقها، ويذهب بهاؤها، وتفقد النفس عند الجدل الإيمان بالحقائق، والإذعان لها.

بل أمرهم الله تعالى بقوله: ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: يقول النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين لأولئك الذين مردوا على الجدال، وبعثرة الحقائق في حومة الجدل: اشهدوا بأنا مسلمون، مذعنون لطلب الحق، فلا تحاولوا أن تغيرونا عما اعتقدنا، وقد أنصفناكم بالدعوة إلى كلمة الحق والإنصاف، فلم تجيبوا، والآن ننصفكم مرة أخرى بأن نشهدكم بأننا مخلصون في طلب الحق، مذعنون له.

ومن جانبنا فإن أذعنتم مثلنا فنعما هي، وإن لم تذعنوا فلنا ديننا، ولكم دينكم، والله يحكم بيننا، وهو خير الحاكمين، وإن إعلان الإذعان للحق من جانب المؤمنين فيه دعوة للحق بإعلان المثل الواضح البين السامي، وهو يؤثر في الدعوة إلى الحق أكثر من الجدل؛ إذ يكون فيه ذكرى لمن له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، وإن الجدل يثير غبارًا يجعل الوصول إلى الحق عسيرًا وسط عجاجة المتجادلين.

وإن هذه الآية الكريمة صورة سامية من الدعوة إلى الحق؛ ولذا كان يتخذها النبي صلى الله عليه وسلم منهاجه في دعوته، فقد كانت في الصيغة التي اختارها في دعوة

الملوك والحكام الكبراء إلى الإسلام[1].

خامسًا: ترك الجدال المذموم:

ومن آداب الإنصاف ترك الجدال المذموم، والجدل لأجل دفع الحق ورده، بل متى استبان الحق، وظهرت معالمه، فمن الإنصاف قبوله، والتسليم له، وقد أمر الله بالمجادلة بالحسنى، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

قال القاسمي: دل قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ على الحث على الإنصاف في المناظرة، واتباع الحق، والرفق والمداراة، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق، وإزهاق الباطل، وأن لا غرض سواه[2].

فالمنصف إذا تجلت له الحجة، وبان له الحق لم يتوقف عن قبول الحق، ولم يستمر في العناد والجدال.

وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة كثيرة في الإنصاف حال الجدال والمناظرة مع الخصم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ:٢٤].

وهذه ملاطفة، وتنزل في المجادلة، إلى غاية الإنصاف، كقولك: الله يعلم أن أحدنا على حق، وأن الآخر على باطل، ولا تعين بالتصريح أحدهما، ولكن تنبه الخصم على النظر، حتى يعلم من هو على الحق، ومن هو على الباطل، والمقصود من الآية: أن المؤمنين على هدى، وأن الكفار على ضلال مبين[3].

قال السمين الحلبي بعد أن ذكر وجهين في تفسير هذه الآية: وهذان الوجهان لا ينبغي أن يحملا على ظاهرهما قطعًا؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك أنه على هدى ويقين، وأن الكفار على ضلال، وإنما هذا الكلام جار على ما يتخاطب به العرب، من استعمال الإنصاف في محاوراتهم، على سبيل الفرض والتقدير، ويسميه أهل البيان: الاستدراج، وهو أن يذكر لمخاطبه أمرًا يسلمه، وإن كان بخلاف ما يذكر، حتى يصغي إلى ما يلقيه إليه؛ إذ لو بدأه بما يكره لم يصغ، ونظيره قولهم: أخزى الله الكاذب مني ومنك[4].

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ:٢٥].

قال البيضاوي: هذا أدخل في الإنصاف، وأبلغ في الإخبات، حيث أسند الإجرام إلى

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٢٦٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٤٢٣.
(٣) التسهيل في علوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦٦.
(٤) الدر المصون ٩/ ١٨٣.

أنفسهم، والعمل إلى المخاطبين[1]. فسمى فعله جرمًا -كما يزعمون- مع أنه مثاب مشكور، وسمى فعلهم عملًا، مع أنه مزجور عنه محظور[2].

وفي هذا التعبير القرآني محاسنة للمشركين، ورفق بهم، وإطفاء لحمية الجاهلية التي تعمي عليهم السبيل إلى الهدى، وهذا هو الأسلوب الحكيم في مخاطبة الجاهلين، وهو أسلوب الدعوة الإسلامية، والصميم من رسالة رسولها، كما يقول سبحانه وتعالى لنبيه الكريم: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥][3].

ومن الأمثلة على الإنصاف في المناظرة: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ [غافر:٢٨]فهذا أيضًا نوع من أنواع التنزل، أو ما يسمى باستدراج الخصم في المناظرة حتى يقر بالحق.

فلما صرح بالإنكار عليهم بقوله: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا﴾ غالطهم بعد ذلك، في أن قسم أمره إلى كذب وصدق، وأدى ذلك في صورة احتمال ونصيحة، وبدأ في التقسيم بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ﴾ مداراة منه، وسالكًا طريق الإنصاف في القول، وخوفًا إذا أنكر عليهم قتله أنه ممن يعاضده ويناصره، فأوهمهم بهذا التقسيم والبداءة بحالة الكذب حتى يسلم من شرهم، ويكون ذلك أدنى لتسليمهم.

ومعنى: ﴿فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ﴾ أي: لا يتخطاه ضرره ﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾[4]. من العذاب، ولم يقل: كل الذي يعدكم، مع أنه وعد من نبي صادق القول، مداراةً لهم، وسلوكًا لطريق الإنصاف، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له، وليس فيه نفي إصابة الكل، فكأنه قال لهم: لعل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض ما يعدكم، وهو العذاب العاجل، وفي ذلك هلاككم[5].

قال الشهاب الخفاجي: ففيه من الإنصاف والأدب ما لا يخفى، فإنه نبي صادق، فلا بد أن يصيبهم كل ما وعد به لا بعضه؛ لكنه أتى بما هو أذعن لتسليمهم وتصديقهم؛ لما فيه من الملاطفة في النصح، بكلام منصف، غير مشتط مشدد، أراهم إنه لم يعطه حقه، ولم

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٧.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٤٨.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٨١٠.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٥٢.
(٥) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٠٨.

يتعصب له، ويحامي عنه، حتى لا ينفروا عنه؛ ولذا قدم قوله: ﴿كَذِبًا﴾[1].

والمقصود: أن هذا من أعظم الإنصاف في المجادلة والمناظرة، حيث فرض لهم أسوأ الفروض، ووقف معهم موقف المنصف أمام القضية، تمشيًا مع أقصى فرض يمكن أن يتخذوه ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: هو يحمل تبعة عمله، ويلقى جزاءه، ويحتمل جريرته، وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال!

وهناك الاحتمال الآخر، وهو أن يكون صادقًا، فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال، وعدم التعرض لنتائجه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وإصابتهم ببعض الذي يعدهم هو كذلك أقل احتمال في القضية، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه، وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام[2].

ونظير ما سبق قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام:١٣٥].

ترديد بينه عليه السلام وبينهم، ومعلوم أن هذا التهديد والوعيد مختص بهم، وأن عاقبة الدار الحسنى هي له عليه السلام، ولكنه أجري مجرى قوله: فشركما لخيركما الفداء[3].

وقد علم ما هو شر، وما هو خير؛ ولكنه أبرز في صورة الترديد؛ إظهارًا لصورة الإنصاف، ورميًا بالكلام على جهة الاشتراك؛ اتكالًا على فهم المعنى[4].

والحاصل: أن على من اضطر إلى المناظرة والمجادلة فليكن منصفًا، عادلًا، قابلًا للحق، ممن جاء به، ولتكن مناظرته ومجادلته بالحسنى، فالجدال والحجاج غير مذموم مطلقًا، بل حسب كيفيته، والقصد منه، وقد قص لنا القرآن محاجة إبراهيم عليه السلام وغيره، حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال القرطبي: وتدل الآية على إثبات المناظرة والمجادلة، وإقامة الحجة، وفي القرآن والسنة من هذا كثير لمن تأمله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١].

وقال: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٤/ ٤٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٧٩.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، في ديوانه ص٩، وصدر البيت: أتهجوه ولست له بكفو.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٦٥٤.

﴿بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨].

أي: من حجة، وقد وصف خصومة إبراهيم عليه السلام قومه ورده عليهم في عبادة الأوثان، كما في سورة الأنبياء وغيرها.

وقال في قصة نوح عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود:٣٢] الآيات... إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ [هود:٣٥].

وكذلك مجادلة موسى مع فرعون إلى غير ذلك من الآي، فهو كله تعليم من الله عز وجل السؤال والجواب والمجادلة في الدين؛ لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق، ودحض حجة الباطل.

وفي قول الله عز وجل: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ [آل عمران:٦٦].

دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبر، قال المزني صاحب الشافعي: ومن حق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل، وأن يقبل منها ما تبين، وقالوا: لا تصح المناظرة، ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين، أو مستويين في مرتبة واحدة، من الدين والعقل والفهم والإنصاف، وإلا فهو مراء ومكابرة[1].

وقد أخبر الله تعالى عن نبيه أنه دعى قومه إلى كلمة سواء، يكون فيها الإنصاف والعدل.

قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران:٦٤].

أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: هلموا نجتمع عليها، وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال، والإنصاف في الجدال[2].

وقد كان عليه السلام حريصًا على إيمانهم، فكأنه تعالى قال: يا محمد اترك ذلك المنهج من الكلام، واعدل إلى منهج آخر، يشهد كل عقل سليم، وطبع مستقيم، أنه كلام مبني على الإنصاف، وترك الجدال، و﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض، ولا ميل فيه لأحد على صاحبه، وهي ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ﴾[3].

وكأنه لما أورد الدلائل عليهم أولًا،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٨٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٣.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٥١.

ثم باهلهم ثانيًا، عدل في هذا المقام إلى الكلام المبني على رعاية الإنصاف، وترك المجادلة، وطلب الإفحام والإلزام، ومما يدل عليه أنه خاطبهم ها هنا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا الاسم من أحسن الأسماء، وأكمل الألقاب، حيث جعلهم أهلًا لكتاب الله.

ونظيره ما يقال لحافظ القرآن: يا حامل كتاب الله، وللمفسر: يا مفسر كلام الله، فإن هذا اللقب يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب، وفي تطييب قلبه، وذلك إنما يقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾...، فالسواء هو العدل والإنصاف؛ وذلك لأن حقيقة الإنصاف إعطاء النصف، فإن الواجب في العقول ترك الظلم على النفس وعلى الغير؛ وذلك لا يحصل إلا بإعطاء النصف، فإذا أنصف وترك ظلمه أعطاه النصف، فقد سوى بين نفسه، وبين غيره، وحصل الاعتدال، وإذا ظلم وأخذ أكثر مما أعطى زال الاعتدال، فلما كان من لوازم العدل والإنصاف التسوية جعل لفظ التسوية عبارة عن العدل، ثم قال الزجاج: ﴿سَوَآءِۭ﴾ نعت للكلمة، يريد: ذات سواء، أي: كلمة عادلة مستقيمة مستوية، فإذا آمنا بها نحن وأنتم كنا على السواء والاستقامة[1].

والحاصل: أن الأمثلة القرآنية السابقة كلها تدل على استخدام الإنصاف أثناء المناظرة والمجادلة، واستخدام الملاطفة في النصح، والإتيان بكلام منصف غير مشدد، ولا متعصب.

قال ابن باديس: لما كان أهل الباطل لا يجدون في تأييد باطلهم إلا الكلمات الباطلة، يموهون بها، والكلمات البذيئة القبيحة يتخذون سلاحًا منها، ولا يسلكون في مجادلتهم إلا الطرق الملتوية المتناقضة، فيتعسفون فيها، ويهربون إليها؛ لما كان هذا شأنهم، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجتنب كلماتهم الباطلة والقبيحة، وطرائقهم المتناقضة والملتوية، وأن يلتزم في جدالهم كلمة الحق، والكلمات الطيبة البريئة، وأن يسلك في مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار والإنصاف، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة.

وهذه الطريقة في الجدال هي التي هي أحسن من غيرها، في لفظها ومعناها، ومظهرها وتأثيرها، وإفضائها للمقصود من إفحام المبطل وجلبه، ورد شره عن الناس، وإطلاعهم على نقصه، وسوء قصده...، فالجدال يكون عند وجود ما يقتضيه؛ ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محمودة على

(١) المصدر السابق.

كل حال، وكان الجدال مذمومًا في بعض الأحوال.

وذلك فيما إذا استعمل عند عدم الحاجة إليه، فيكون حينئذٍ شاغلًا عن الدعوة، ومؤديًا في الأكثر إلى الفساد والفتنة، فإذا كان جدالًا لمجرد الغلبة والظهور فهو شر كله، وأشد شرًا منه إذا كان لمدافعة الحق بالباطل.

وفي هذه الأقسام الممنوعة جاء مثل قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [الكهف:٥٦].

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨].

فالمدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان، ولهذا كان الإنسان أكثر شيء جدلًا، غير أن التربية الدينية هي التي تضبط خلقه، وتقوم فطرته، فتجعل جداله بالحق عن الحق.

فلنحذر من أن يطغى علينا خلق المدافعة والمغالبة، فنذهب في الجدل شر مذاهبه، وتصير الخصومة لنا خلقًا، ومن صارت الخصومة له خلقًا أصبح يندفع معها في كل شيء، ولأدنى شيء، ولا يبالي بحق ولا باطل، وإنما يريد الغلب بأي وجه كان...، فمن ضبط نفسه، وراقب ربه، لا يجادل إلا جادل إلا عن الحق، وبالتي هي أحسن[1].

والحاصل: أن في هذه الأمثلة القرآنية حثًا على الإنصاف في المناظرة، واتباع الحق، والرفق والمداراة، على وجهٍ يظهر منه أن القصد إثبات الحق، وإزهاق الباطل، لا نصرة الرأي، وهزيمة الرأي الآخر.

سادسًا: الإقرار بالحق إذا قاله المخالف:

ومن الإنصاف أن يقر المرء بالحق، وإن صدر من الخصم، فالحق أحق أن يتبع، ومما يبين ذلك: ما جاء في قصة السحرة مع موسى عليه السلام حيث حكى الله قصتهم.

قال تعالى: . ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧١-٧٣].

وما ذكره جل وعلا عنهم في هذا الموضع من ثباتهم على الإيمان، وإنصافهم للحق، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده، رغبة فيما عند الله، قد ذكره في غير هذا الموضع، كقوله في الشعراء عنهم في القصة بعينها: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الشعراء:٥٠]وقوله في الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ

(١) تفسير ابن باديس١/ ٣٢٤.

﴿ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦].

فهؤلاء كانوا في الغداة كفارًا سحرة، وأمسوا أخيارًا بررة، لما عرفوا الحق اتبعوه وأنصفوه، ويا له من إنصاف عظيم! تحملوا معه التبعات العظام، هددهم فرعون بالقطع والقتل والصلب، ومع هذا ما خافوا وما استكانوا، بل آثروا الحق وقبلوه، مع أنه جاء عن طريق من كان خصمًا لهم في نظرهم.

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما حكى تهديد فرعون لأولئك حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام، والبصيرة الكاملة لهم في أصول الدين، فقالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات.

وذلك يدل على أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان وإلا فعل بهم ما أوعدهم، فقالوا: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ جوابًا لما قاله، وبينوا العلة، وهي أن الذي جاءهم بينات وأدلة، والذي يذكره فرعون محض الدنيا، ومنافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها[1].

والمقصود: أن هذه إجابة حاسمة قاطعة، تقطع أمله في رجوعهم، والإيمان إذا دخل القلب، وأشرب حبه كان أثبت من الرواسي، وهو إيمان بحجة وبينة وبرهان ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: لن نتركه لأجلك أيها الطاغي الباغي، وهذا معنى مؤكد، لأن (لن) تفيد النفي المؤكد...، فلا تطمع في رجوعنا عن الحق والإيثار والتفضيل، أي: لن نفضلك على البينات، وهي الدلالات الواضحات التي جاءتنا، وفي هذا إشارة إلى أن ما عنده باطل وأوهام، وكيف نفضل الأوهام على الدليل والبرهان؟!

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ والذي فطرنا هو الله، يعني: لن نؤثرك على الحق الواضح، ولن نؤثرك على الله تعالى جل جلاله، فهو القادر على كل شيء، فلن نؤثر الضعيف الظاهر على الله القادر العادل القهار، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: أنشأنا ولم نكن شيئًا، فتكون الواو للقسم لا للعطف، والمعنى: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والله الذي أنشأنا من عدم، فمن تكون أنت أيها المخلوق الضعيف، ولو كنت فرعون الطاغي المتجبر بصلفك وعتوك؟!

وقد رتبوا على عزمتهم النابعة من قلوب مؤمنة تفويضهم الأمور إلى ربهم، والاستهانة بفرعون وبتهديده، فقالوا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ لأنه قضاء الحياة الدنيا، وهي فانية، والآخرة هي الباقية.

وقالوا ما يدل على الاستهانة بحكمه القاصر ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾

(١) مفاتيح الغيب، ٢٢/ ٧٧.

والمعنى: إن قضاءك هو في هذه الحياة الدنيا فقط، فهو قضاء تنفيذه وقت قصير، ومن بعده خير طويل، فإنما الحياة الدنيا متاع قليل، والآخرة خير وأبقى، وإن هذا يدل على كمال الإيمان بالله، والاستهانة بفرعون وعذابه[1].

والمقصود: أن هؤلاء لما عرفوا الحق أنصفوه واتبعوه وآثروه، فيا له من إيثار! وما أعظمه من إنصاف!

هددهم وتوعدهم بالقتل والصلب، وفنون من العذاب الصعب، وهكذا هي عادة المنهزم، إذا عجز عن الحجة لجأ إلى القوة.

فكان ردهم له أن قالوا له: لن نختارك يا فرعون، ولن نرضى بأن نكون من حزبك، ولن نقدم سلامتنا من عذابك، على ما ظهر لنا من المعجزات التي جاءنا بها موسى، والتي على رأسها عصاه التي ألقاها فإذا هي تبتلع حبالنا وعصينا.

وفي قول فرعون: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰٓ﴾ إشارة إلى ما تهدد به موسى السحرة، قبل أن تبدأ المعركة، وذلك في قوله: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[طه:٦١].

فالعذاب الذي تهددهم به موسى هو عذاب مؤجل ليوم القيامة، وهذا العذاب لا يدرك مداه إلا من يؤمنون بالله وباليوم الآخر.

أما العذاب الذي سيأخذهم به فرعون فهو عذاب حاضر واقع في الحال، وهو عذاب -على تلك الصورة- فظيع مهول! ولهذا وازن فرعون بين عذابه، والعذاب الذي توعد موسى السحرة به، وأراهم أن عذابه أشد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أعذابي الحاضر أم العذاب الذي يهددكم به موسى؟ وأنا أم موسى ﴿أَبْقَىٰ﴾ لكم، وأملك لأمركم، وأقدر على التسلط عليكم؟

فكان جوابهم هذه العبارة: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ وهكذا الإيمان إذا جاء إلى الإنسان، أو جاء إليه الإنسان عن طريق النظر والبحث والتحليل والتعليل، إنه حينئذٍ إيمان يخالط المشاعر، ويملك القلوب، ويأسر العقول، ويجعل من الإنسان الفقير الضعيف، قوة هائلة، تتحدى الجبابرة، وتستخف بأعظم الأهوال، وأشد الخطوب، وهل كان يقع في الحسبان أن جماعة من رعايا فرعون وعابديه الذين ولدوا -كما ولد آباؤهم- في ظل ربوبيته، وسلطان ألوهيته، هل كان يقع في الحسبان أن يجيء يوم يقف فيه هؤلاء (العباد) في وجه هذا (الإله) موقف التحدي، بل والاستخفاف والسخرية؟ ولكنه الإيمان، يفعل المعجزات، ويقلب

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٧٥٣.

الأوضاع والمواضعات![1].

ألقى الله جل وعلا في قلوبهم الإيمان واليقين، ووجدوا حلاوته، رغم أنه ليس لهم أيامًا، ولا شهورًا، ولا أعوامًا في الطاعة والإيمان والعمل الصالح، لكن تلك الحظوة الإلهية نالوها ببركة سجودهم، حتى يعلم أثر العمل الصالح على قلب العبد، ثم ردوا عليه بطريقته...، قد يكون الله أعطاك سلطانًا على الدنيا، لكن ليس لك سلطان على حياتنا في الآخرة والدنيا، وسواء قضيت علينا أو لم تقض علينا فمردنا أصلًا إلى الموت فلا نخوف بشيء، لكن العبرة بالحياة الأخروية.

وهل نفذ فيهم تهديده؟ الآيات لم تذكر ذلك، لكن ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده، فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم، فماتوا على الإيمان، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة[2].

نماذج قرآنية في الإنصاف

الدعوة إلى الإنصاف، والحث على سلوكه مبدأ قرآني، فقد جاء في القرآن الكريم صور كثيرة، ونماذج عديدة في الإنصاف، ومن النماذج القرآنية البارزة في الإنصاف:

أولًا: إنصاف القرآن لطائفة من قوم موسى عليه السلام:

مع أن اليهود هم أشد الناس عداوة للإسلام وأهله، وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم مبينةً كفرهم، وخبثهم، وعنادهم، وقتلهم الأنبياء، وقولهم على الله ما قالوا، حتى لعنهم الله بما قالوا، إلا أن هذه العداوة، وهذه الصفات التي حملوها، لم تمنع القرآن الكريم من إنصاف بعضٍ منهم.

ومن مظاهر هذا الإنصاف:

١. ثناؤه عز وجل على طائفة من قوم موسى.

قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩].

فكونهم أشد الناس عداوة للمسلمين لم يمنع ذلك من إنصافهم، والإشادة بمن أحسن منهم.

وقوم موسى هم أتباع دينه من قبل بعثة

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٨/ ٨٠٧.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٢٤١.

محمد صلى الله عليه وسلم، فمن بقي متمسكًا بدين موسى عليه السلام بعد بلوغ دعوة الإسلام إليه فليس من قوم موسى، ولكن يقال: هو من بني إسرائيل أو من اليهود؛ لأن الإضافة في قوم موسى تؤذن بأنهم متبعو دينه الذي من جملة أصوله ترقب مجيء الرسول الأمي صلى الله عليه وسلم[(١)].

والآية تبين أنهم جماعة؛ لأن لفظ (الأمة) يدل على الكثرة، وهم في الواقع قليل.

قال في اللباب: فإن قيل: إنهم كانوا قليلين في العدد، ولفظ (الأمة) ينبئ عن الكثرة، فالجواب: إنهم لما أخلصوا في الدين جاز إطلاق لفظ (الأمة) عليهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠][(٢)].

فمدحهم الله بقوله: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناس من بني إسرائيل، أو من غيرهم، ببث فضائل الدين الإلهي، وهو الذي سماه الله بالحق، و﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يحكمون حكمًا لا جور فيه...، والمعنى: أنهم يحكمون بالعدل على بصيرة وعلم، وليس بمجرد مصادفة الحق عن جهل، فإن القاضي الجاهل إذا قضى بغير علم كان أحد القاضيين اللذين في النار، ولو صادف الحق؛ لأنه بجهله قد استخف بحقوق الناس، ولا تنفعه مصادفة الحق؛ لأن تلك المصادفة لا عمل له فيها[(٣)].

والحاصل: أن الله أخبر عن صفة لقوم موسى الذين رغبهم الله تعالى باتباع ملة محمد صلى الله عليه وسلم، وهي أن بعضهم أمة مؤمنة يهدون بالحق، وبه يعدلون، وهذا فيه إنصاف لهم، وشهادة صريحة من الله تعالى، تبين أن من قوم موسى جماعة تهدي بالحق، وتؤمن بالإيمان الحق، وترشد الناس إلى الإيمان الصحيح والخير، وتدل على منهج الاستقامة، وتحكم بمقتضى العدل الإلهي الواجب اتباعه في القضاء، دون جور أو ظلم، هؤلاء الجماعة اهتدوا واتقوا وعدلوا، فأشاد القرآن بهم، وهذا من إنصاف القرآن وعدله.

٢. ثناؤه على طائفة من أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٥].

فقوله: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ هذا أيضًا من

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٤٢.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ٣٤٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٤٢.

إنصاف القرآن، فهو لا يعمم حكمه إلا حيث يكون التعميم هو الحق الذي لا شك فيه، وإن كان في قوم من هم جديرون بالثناء ذكرهم...، ففي هذه الآية يذكر بالخير العظيم طائفة من هؤلاء، فيقول الحكم العدل تعالت كلماته: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليسوا متساوين في هذه الأعمال، وتلك الأخلاق، أو ليسوا متساوين مطلقًا، فليسوا جميعًا أشرارًا، وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق طائفة كبيرة من الناس اجتمعت على الشر اجتماعًا مطلقًا، بحيث يرتضيه الجميع ويقصدونه ويريدونه ويبتغونه، عامدين مريدين معتدين، بل إن منهم الضال، ومنهم المضل، ومنهم الناطق بالحق الذي لا يجد داعيًا، أو يحمل على السكوت في وسط نكران الضالين...، وبعد أن ذكر سبحانه أنهم ليسوا سواء، وقد ذكر أحوال أشرارهم أخذ يبين أحوال أخيارهم، فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب الذين ذكرنا أوصاف الكثرة منهم، طائفة قائمة...، وفسر الزمخشري كلمة ﴿قَائِمَةٌ﴾ بمعنى مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى استقام[1]، وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذا الجزء من الآية الكريمة وصفين اثنين:

الأول: أنهم يتلون آيات الله.

والثاني: أنهم يسجدون.

ومعنى يسجدون، أي: يخضعون ويتطامنون للحق، ولا يجحدون، ويتجهون إلى ربهم، يرجون رضاه، ولا يستكبرون عن نداء الحق إذا دعوا، فكنى بالسجود عن الخضوع المطلق الذي يعد السجود مظهره.

ويصح أن يراد به السجود الذي يقع في صلاة المسلمين.

وقد ذكر ذلك الوصف مصدرًا بـ﴿هم﴾ إذ يقول: وهم يسجدون، فلم يقل: ويسجدون؛ للإشارة إلى أن الخضوع والإذعان للحق شأن من شئونهم، وليس حالًا تعرض لهم؛ إذ إن ذكر الضمير فيه تقوية الإسناد، وتوثيق لدوامه واستمراره[2].

وفي الآية قولان ذكرهما ابن كثير، حيث قال:

عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ قال: لا يستوي أهل الكتاب، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد

(١) الكشاف، ١/ ٤٠٢.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٣٦٦.

وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن، ومنهم المجرم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله، فهي قائمة، يعني: مستقيمة[1].

وقد ذكر ابن جرير أن قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث: أنها نزلت في جماعة من اليهود أسلموا فحسن إسلامهم[2]. ولا يمنع أن تشمل أيضًا النصارى.

فقد قال ابن عاشور: وعدل عن أن يقال: «منهم أمة قائمة» إلى قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ليكون هذا الثناء شاملًا لصالحي اليهود وصالحي النصارى، فلا يختص بصالحي اليهود، فإن صالحي اليهود قبل بعثة عيسى كانوا متمسكين بدينهم، مستقيمين عليه، ومنهم الذين آمنوا بعيسى واتبعوه، وكذلك صالحو النصارى قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مستقيمين على شريعة عيسى، وكثير منهم أهل تهجد في الأديرة والصوامع، وقد صاروا مسلمين بعد البعثة المحمدية[3].

٣. ذكر أن عند بعضهم أمانة.

قال سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران:٧٥].

قال أبو جعفر الطبري: هذا خبر من الله عز وجل أن من أهل الكتاب، وهم اليهود من بني إسرائيل، أهل أمانة، يؤدونها، ولا يخونونها، ومنهم الخائن أمانته، الفاجر في يمينه[4].

فهذا مطلق الإنصاف الإلهي، فإذا كان الحق قد كشف للرسول بعضًا من مكر أهل الكتاب، فذلك لا يعني أن هناك حملة على أهل الكتاب، وكأنهم كلهم أهل سوء، لا، بل منهم من يتميز بالأمانة، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله المنصف العدل[5].

والمقصود: أن هذا من إنصاف القرآن، وعدله في الحكم عليهم، فلم يخف بعض صفاتهم الحسنة، بل أشاد بها، وذكرها بكلام يتلى إلى قيام الساعة.

ثانيًا: إنصاف بعض النصارى:

ومن النماذج القرآنية في الإنصاف، إنصافه لبعض النصارى، فقد أثنى عليهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٠.
(٢) جامع البيان، ٧/ ١٢٠.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٥٧.
(٤) جامع البيان، ٦/ ٥١٩.
(٥) تفسير الشعراوي ٣/ ١٥٤٢.

بقوله: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة:٨٢-٨٥].

أي: هم ألين عريكة، وأقرب ودًا، ولم يصفهم بالود إنما جعلهم أقرب من اليهود والمشركين...، واليهود ليسوا على شيء من أخلاق النصارى، بل شأنهم الخبث واللي بالألسنة، وفي خلال إحسانك إلى اليهودي يترقب ما يغتالك به، ألا ترى إلى ما حكى تعالى عنهم ذلك بأنهم قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا متمسكين بحقيقة النصرانية، بل ذلك قول منهم وزعم، ووصف العداوة بالأشد، والمودة بالأقرب دليل على تفاوت الجنسين بالنسبة إلى المؤمنين، فتلك العداوة أشد العداوات وأظهرها، وتلك المودة أقرب وأسهل.

فظاهر الآية يدل على أن النصارى أصلح حالًا من اليهود، وأقرب إلى المؤمنين مودة، وعلى هذا الظاهر فسرت هذه الآية[1].

فالظاهر أن النصارى على الجملة أصلح حالًا من اليهود، وقد ذكر المفسرون ما فضل به النصارى على اليهود من كرم الأخلاق، والدخول في الإسلام سريعًا، وليس الكلام واردًا بسبب العقائد، وإلا فكلهم كفار، وإنما ورد بسبب الانفعال للمسلمين...

وصدر الآية يقتضي العموم؛ لأنه قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾.

ثم أخبر أن من هذه الطائفة علماء وزهاد ومتواضعين، وسريعي استجابة للإسلام، وكثيري بكاء عند سماع القرآن، واليهود بخلاف ذلك، والوجود يصدق قرب النصارى من المسلمين وبعد اليهود.

وذكر العلة في ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

والإشارة بذلك إلى أقرب المودة عليه، أي: منهم علماء وعباد، وأنهم قوم فيهم تواضع واستكانة، وليسوا مستكبرين، واليهود على خلاف ذلك، لم يكن فيهم قط

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٩٤، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٠.

أهل ديارات ولا صوامع وانقطاع عن الدنيا، بل هم معظمون متطاولون لتحصيلها، حتى كأنهم لا يؤمنون بآخرة؛ ولذلك لا يرى فيهم زاهد[1].

والآيات التي جاءت في إنصاف أهل الكتاب -غير ما سبق- كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة:١٢١]قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في الذين آمنوا من اليهود، قاله ابن عباس.

والثاني: في المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قاله عكرمة وقتادة[2].

ومن الآيات: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾ [العنكبوت:٤٧]قال ابن جرير في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من قبلك من بني إسرائيل ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ يقول: ومن هؤلاء الذين هم بين ظهرانيك اليوم من يؤمن به كعبد الله بن سلام، ومن آمن برسوله من بني إسرائيل[3].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

قال ابن أبي حاتم: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ قال: يعني: من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب[4].

ثالثًا: إنصاف ذي القرنين:

ومن النماذج القرآنية في الإنصاف إنصاف ذي القرنين، كما حكى الله تعالى عنه بقوله: . ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾ [الكهف:٨٦-٨٨].

يحكي الله عن ذي القرنين أنه لما وصل إلى هؤلاء القوم، ووجدهم كفارًا، خير في أمرهم ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ أي: تهلكهم، وتستأصلهم بكفرهم، بحيث لا يبقى منهم

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٤٣.
(٢) زاد المسير، ١/ ١٠٧.
(٣) جامع البيان، ٢٠/ ٥٠.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٨.

أحد ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ﴾ وتصنع ﴿فِيهِمْ حُسْنًا﴾ شرعًا ودينًا، كما في سائر المؤمنين.

ثم لما خير ذو القرنين في أمرهم، وفوض أمرهم إليه، قال على مقتضى العدل والإنصاف، الذي قد جبله الحق عليه: أدعوهم أولًا إلى الإيمان، وألقي عليهم كلمة التوحيد، ثم بعد ذلك ﴿مَن ظَلَمَ﴾ وتولى وأبى وأصر على ما عليه من الكفر والهوى ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أو نقتله حدًا بعد عرض الإسلام...، ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة العظمى، والدرجة العليا، والمقام الأسنى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قولًا سهلًا معتدلًا بين إفراط القتل، والاستئصال، وتفريط الإبقاء على الكفر والضلال مداهنة. وهذا غاية في العدل والإنصاف.

وهكذا أقام ذو القرنين العدل، بتعذيب الظالم، وتكريم المؤمن، صاحب العمل الصالح.

وفي الآية دلالة على أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه، والمسيء بقدر إساءته، فإن ما حكي عن الإسكندر ها هنا من قوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾... إلى آخره، نهاية في العدل، وغاية الإنصاف[1].

وبين الله تعالى اتصاف ذي القرنين بصفتي العدل والإنصاف ليحتذى حذوه، ويقتدى به في ذلك.

والمقصود: أن هذا هو قانون العدل والإنصاف، وهو أن يجازي المسيء على إساءته، والمحسن بإحسانه، هذا ما استقر عليه أمره واعتزمه؛ ولذا قال معتزمًا تنفيذه: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾...، هذا هو جزاء المسيء في قانون العدل الذي سنه ذو القرنين لنفسه، لا يفلت المسيء، وكذلك لا ينقص المحسن من جزاء حسن[2].

إنها سياسة العدل التي تورث التمكين في الحكم والسلطة، وفي قلوب الناس الحب والتكريم للمستقيمين، وإدخال الرعب في قلوب أهل الفساد والظلم، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم، ويكون بطانته وموضع عطفه وثقته، ورعاية مصالحه، وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض، فسيجد العذاب الرادع من الحاكم في الحياة الدنيا، ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه في حياته الأولى.

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٦٨.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٨٠.

ولم يعين السياق القوم الذين اتخذ فيهم ذو القرنين هذه السياسة الحكيمة، كما أهمل ذكر المدة التي مكثها بينهم، والنتائج التي توصل إليها، وكأن الأمر المفروغ منه أن تثمر هذه السيرة العادلة، والمبادئ السامية حضارة ربانية، وتقدمًا، وسعادة وطمأنينة؛ لذا لا داعي لذكرها، والوقوف عندها[1].

رابعًا: إنصاف موسى عليه السلام لصاحبه الخضر:

ومن النماذج القرآنية في الإنصاف إنصاف موسى لصاحبه الخضر، حيث قال له عندما اشترط عليه في مصاحبته له: ألا يسأله عن شيء حتى يخبره هو به: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٦].

فقوله: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي قال منصفًا له: لك الحق بعد ذلك في ترك مصاحبتي، فإن فارقتني لا لوم عليك ألبتة؛ لوضوح العذر منك إلي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أنك قد أعذرت فيما بيني وبينك، وقد أخبرتني: أني لا أستطيع معك صبرًا، وهذا إقرار من موسى بأن الخضر قد قدم إليه ما يوجب العذر عنده، فلا يلزمه ما أنكره[2].

فلما عاد موسى لنفسه وجد أنه خالف وعده مرتين، فاندفع وقطع على نفسه الطريق، وجعلها آخر فرصةٍ أمامه ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي: إن أنكرت عليك بعد هذه المرة، واعترضت على ما يصدر منك فلا تصحبني معك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرت إلي في ترك مصاحبتي، فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات، وهذا من إنصافه عليه السلام على نفسه، مع أن ذلك حرمه كثيرًا من العجائب التي كان سيراها في رحلته العجيبة تلك مع الخضر.

قال النيسابوري: ونهاه عن المصاحبة حينئذٍ، مع حرصه على التعلم لظهور عذره، كما قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ وهذا كلام نادم شديد الندامة، جره المقال، واضطره الحال إلى الاعتراف، وسلوك سبيل الإنصاف[3].

وقال ابن عاشور: وأنصف موسى؛ إذ جعل لصاحبه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة؛ تجنبًا لإحراجه[4].

خامسًا: الإنصاف في القصاص:

أمر الله تعالى برعاية العدل والإنصاف في استيفاء الحقوق والحدود، وجعل القصاص بالمثل، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ

(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ٣٠٥.
(٢) الوسيط، الواحدي ٣/ ١٥٩.
(٣) غرائب القرآن ٤/ ٤٥٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٦.

﴿عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤].

وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

قال الرازي: اعلم أنه تعالى أمر برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية، ورتب ذلك على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ يعني: إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإن استيفاء الزيادة ظلم، والظلم ممنوع منه في عدل الله ورحمته.

والمرتبة الثانية: الانتقال من التعريض إلى التصريح، وهو قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام؛ لأن الرحمة أفضل من القسوة، والإنفاع أفضل من الإيلام.

المرتبة الثالثة: وهو ورود الأمر بالجزم بالترك، وهو قوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ [النحل: ١٢٧]؛ لأنه في المرتبة الثانية ذكر أن الترك خير وأولى، وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالأمر بالصبر؛ ولما كان الصبر في هذا المقام شاقًا شديدًا ذكر بعده ما يفيد سهولته، فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧] أي: بتوفيقه ومعونته، وهذا هو السبب الكلي الأصلي المفيد في حصول الصبر، وفي حصول جميع أنواع الطاعات[1].

فالله تعالى أمر المحقين برعاية العدل في العقاب، وترك الزيادة فيه، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم فلكم فى العقاب إحدى طريقين:

- أن تعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة.
- أن تصبروا، وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب، وتصفحوا عنه، وتحتسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم، وتكلوا أمركم إليه، والله يتولى عقوبته.

والصبر خير للصابرين من الانتقام؛ لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه، فإن الزيادة ظلم، والظلم لا يحبه الله، ولا يرضى به، وإن تجاوزتم عن العقوبة، وصفحتم فذلك خير وأبقى، والله هو الذي يتولى عقاب الظالم، ويأخذ بناصر المظلوم.

وهذا كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] أمر الله برعاية العدل والإنصاف في باب استيفاء الحقوق، يعني: إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإن الزيادة ظلم[2].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٨٩.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٠٨.

فوائد الإنصاف على الفرد والمجتمع

للإنصاف والعدل فوائد جليلة، وآثار عظيمة، وثمار كثيرة، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى المجتمع.

أولًا: ثمار الإنصاف على الفرد:

١. الإنصاف موصل للتقوى:

من ثمار وفوائد الإنصاف والعدل تحقيق التقوى التي هي مطلب كل مسلم، ومرغوب كل مؤمن، والتي أعد الله تعالى لأصحابها جنة عرضها السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

والعدل هنا مطلق، يتناول معنى الإنصاف، وعدم الإجحاف، وعدم تجاوز الحق، قولًا وفعلًا، في كل موقف ومناسبة.

قال ابن جرير: وأما قوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فإنه يعني بقوله: ﴿هُوَ﴾ العدل عليهم، أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، يعني: إلى أن تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهل التقوى، وهم أهل الخوف والحذر من الله أن يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئًا من معاصيه، وإنما وصف جل ثناؤه العدل بما وصف به من أنه أقرب للتقوى من الجور؛ لأن من كان عادلًا كان لله بعدله مطيعًا، ومن كان لله مطيعًا كان لا شك من أهل التقوى، ومن كان جائرًا كان لله عاصيًا، ومن كان لله عاصيًا كان بعيدًا من تقواه، وإنما كنى بقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ﴾ عن الفعل، والعرب تكني عن الأفعال إذا كنت عنها بـ(هو وبذلك) كما قال جل ثناؤه: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١]. ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٢][(١)].

وفي الآية ثلاثة مؤكدات على العدل والإنصاف:

- أنه نهاهم أولًا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل.
- ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل، تأكيدًا وتشديدًا.
- ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

وفيه تنبيه على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه[(٢)].

قال البيضاوي: صرح لهم بالأمر بالعدل، وبين أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور، وبين أنه مقتضى الهوى[(٣)].

والمقصود: أن من ثمار العدل والإنصاف في الفرد أنه يدخله مداخل التقوى، ويقيمه

(١) جامع البيان، ٨/ ٢٢٤.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٣٢.
(٣) أنوار التنزيل، ٢/ ١١٧.

مقام المتقين.

قال السعدي: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]أي: كلما حرصتم على العدل، واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى[١].

٢. الإنصاف سبب في محبة الله للعبد:

ومن ثمار الإنصاف والعدل نيل محبة الله تعالى، التي هي أعظم العطايا، وأحب المطالب للمسلم، قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩] والقسط من معاني الإنصاف.

قال الرازي: والقسط العدل والنصفة[٢].

والمعنى: أي: واعدلوا، إن الله يحب العادلين، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء[٣].

وفي الآية إظهار المحبة للمقسطين على شرف منزلتهم، وفضيلة أفعالهم.

وأي منزلة أعلى في الوجود من هذه المحبة التي تتضمن الرضا، ورضوان الله أكبر من كل شيء.

قال السعدي: فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدًا يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد[٤].

وقال ابن عطية: ومحبة الله للعبد أمارتها للمتأمل أن يرى العبد مهديًا مسددًا، ذا قبول في الأرض، فلطف الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته، وبهذا النظر يتفسر لفظ المحبة حيث وقعت من كتاب الله عز وجل[٥].

فالعبد إذا بلغ في الطاعة إلى حيث يفعل كل ما أمره الله، وكل ما فيه رضاه، وترك كل ما نهى الله، وزجر عنه، فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد، بل هو أولى؛ لأن العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل ما يريده الله، ويأمره به فلأن يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد كان أولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠][٦].

وفي الآية إثبات صفة المحبة لله عز وجل على الحقيقة، كما يليق بجلاله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ قال ابن العثيمين: وهي محبة حقيقية على ظاهرها؛ وليس المراد بها الثواب؛ ولا إرادة الثواب خلافًا للأشاعرة، وغيرهم من أهل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٢٤.
(٢) مفاتيح الغيب، ٩/ ٤٨٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٧٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٥.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٢٢.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٣٥.

التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنًى لا يكون بمثابته؛ فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة؛ وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين؛ وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص، ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين؛ فقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم أن أحدًا -وهو حصى- (جبل يحبنا ونحبه)[1].

والإنسان يجد أن دابته تحبه وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنت إليه، وأتت إليه؛ وكذلك غيره من المواشي؛ والإنسان يجد أنه يحب نوعًا من ماله أكثر من النوع الآخر[2].

والمقصود: أن من ثمار الإنصاف حصول المنصف على محبة الله تعالى، ويا لها من نعمة عظيمة! وثمرة جليلة، وهي صفة لله تعالى، تستلزم الرضا والرحمة والإكرام والثناء وغيرها من العطايا، ولا يجوز تعطيل صفة المحبة، وصرفها عن ظاهرها إلى الثواب، فيقال مثلًا: «يحبيكم الله: بمعنى يثبكم الله» بل الصواب أن يقال: إن الله يحبكم، وإذا أحبكم يثبكم؛ لأن المثوبة من آثار المحبة لا عين المحبة.

٣. الإنصاف أمان للفرد من الضلال:

ومن ثمار الإنصاف والعدل الأمن من الوقوع في الضلال، واتباع الهوى، والميل عن الحق.

وقد قال تعالى لنبيه داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:٢٦].

قال أبو جعفر: قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يقول: ولا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه، فتجور عن الحق ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول: فيميل بك اتباعك هواك في قضائك على العدل، والعمل بالحق عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله[3].

قال الواحدي: قوله: ﴿بِمَا نَسُوا۟﴾ أي: تركوا القضاء بالعدل[4].

﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى، فيكون سببًا لضلالك ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دلائله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه، ٥/ ١٠٣، رقم ٤٠٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، ٢/ ١٠١١، رقم ١٣٩٢.

(٢) تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة ٢/ ٣٩١.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٩.

(٤) الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٥٠.

التي نصبها في العقول، وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها[1].

وقال الرازي: وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب.

أما المقام الأول: وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، فتقريره: أن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات؛ لأنهما حالتان متضادتان، فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر.

أما المقام الثاني: وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب، فالأمر فيه ظاهر؛ لأن الإنسان إذا عظم إلفه بهذه الجسمانيات، ونسي بالكلية أحواله الروحانيات، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق، ودخل ديارًا ليس له بأهل تلك الديار إلف، وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار، فكأنه فارق المحبوب، ووصل إلى المكروه، فكان لا محالة في أعظم العناء والبلاء، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب، وهذا بيان في غاية الكمال[2].

٤. الإنصاف سبب في صلاح العمل ومغفرة الذنوب:

ومن ثمار تحري الإنصاف والعدل في جميع الأقوال والأعمال، صلاح الأعمال وغفران الذنوب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

والقول السديد: هو القول العدل.

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ فيه أربعة قوال:

أحدها: صوابًا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: صادقًا، قاله الحسن.

والثالث: عدلًا، قاله السدي.

والرابع: قصدًا، قاله ابن قتيبة.

ثم في المراد بهذا (القول) ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه (لا إله إلا الله) قاله ابن عباس وعكرمة.

والثاني: أنه العدل في جميع الأقوال والأعمال، قاله قتادة»[3].

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فالقول السديد هو القول الصواب، المستقيم، العدل، الصادق، القاصد، المنصف.

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٨٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٣٨٦.

(٣) زاد المسير ٣/ ٤٨٧.

والمعنى: قولوا قولًا قاصدًا غير جائز، حقًا غير باطل[1].

قال ابن حجر: «والسداد: بفتح أوله، العدل، المعتدل، الكافي، وبالكسر ما يسد الخلل»[2].

وقوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره للمؤمنين: اتقوا الله، وقولوا السداد من القول، يوفقكم لصالح الأعمال، فيصلح أعمالكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: ويعف لكم عن ذنوبكم، فلا يعاقبكم عليها[3].

فيكون في قوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ وجهان:

أحدهما: يصلحها بالقبول.

الثاني: بالتوفيق[4].

والمقصود: أن في قوله: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: عدلًا مستقيمًا، قاصدًا إلى الحق، والمآل واحد، يعني: صدقًا غير كذب، ولا مجازفة فيه، ولا ظلم ولا حيف، فإن الكذب يمحق، والصدق يبقى، فمن يلتزم السداد والإنصاف في أقواله كلها، فإنه يوفق لصلاح العمل، ومغفرة الذنوب، كما في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٥.
(٢) فتح الباري ١١/ ٣٠٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٦.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٢٨.

ثانيًا: ثمار الإنصاف على المجتمع:

كما أن للإنصاف ثمارًا وفوائد تعود في الفرد، فكذلك له ثمار في المجتمع، ومنها:

الأمن من العذاب والهلاك:

إن مجتمعًا يسوده الإنصاف، فينصف الناس بعضهم بعضًا، ينصف الرجل المرأة، والمرأة الرجل، وينصف الحاكم الرعية، والرعية تنصف الراعي، وهكذا، ويسود العدل والإنصاف بين أفراده جميعًا، فإنهم عند ذلك يأمنون من غضب الله وعقابه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٧].

قوله: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطون الحق بينهم، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا[5].

فالله لم يكن ليهلكهم وهم يتعاطون الحق فيما بينهم، وإن كانوا مجرمين[6].

فيكون معنى الآية على هذا: إنه لم يكن من شأن ربك أيها الرسول المصلح، ولا من سنته في خلقه أن يهلك العواصم والمدائن بظلم منه، أو بشرك من أهلها، والحال أنهم

(٥) جامع البيان، ١٥/ ٥٣٠.
(٦) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٧٥.

مصلحون في أحكامهم وأعمالهم...، وهؤلاء البقية لا تخلو منهم أمة، فهم حجة الله على الأقوام، ومتى قلوا في أمة غلب عليها الفساد، وقرب انتقام الله منها[1].

والحاصل: أن للمفسرين في معنى الآية قولان:

أحدهما: أن الله تعالى لا يهلك القرى إلا إذا شذت عن الصلاح، فكفرت بالله، وكذبت الرسل، واقترفت المنكرات.

وثانيهما: أن الله لا يهلك القرى إذا كان أهلها مصلحين، يتعاطون الحق بينهم، ولا يتظالمون، وإن كانوا غير مؤمنين بالله ورسله، وإنما يهلكهم إذا تظالموا، وهذا القول هو المشهور، كما قال السمعاني كما سبق، والأثر السابق يؤيده، لكنه لم يرد في كتب السنة المعتمدة.

وهذا القول أيضًا هو الأوجه، كما هو المتبادر، ومضمون هذه الآية والآية التي قبلها يدعمه دعمًا قويًا، حيث اقتصر الكلام فيهما على الفساد في الأرض، والإجرام، والظلم، واتباع الشهوات، وأسباب الترف، وجملة: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود:١٠٢] من السورة نفسها تدعم ذلك أيضًا.

وللسيد رشيد رضا قول سديد في ذلك، حيث يحمل الجملة على معنى الصلاح الاجتماعي والعلمي والعمراني، أو يجعل ذلك من ضمن ما يحمله معنى الجملة، ويعلل بذلك عدم تذكير الله تعالى الأمم الصالحة على هذا الوجه، مع كفرها وشركها، ويقول: إن الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم، وشيء من مثل هذا ملموح في كلام بعض المفسرين القدماء، كالطبري وابن كثير والزمخشري[2].

وقال أبو زهرة في معنى الآية: وأهلها مصلحون فيما بينهم، يتعاونون، ويقيم الحق في معاملاتهم، حتى لقد قال بعضهم: إن الشرك مع إقامة العدل لا يهلك، والإيمان مع ظلم التعامل يهلك الأمم.

وقال بعض المفسرين: إن المراد -والظاهر أنه مراد- أنه ما كان ربك ليهلك القرى ظالمًا لها، وأهلها مصلحون، يعدلون فيما بينهم، ولا يشركون بالله، ولا يكون منهم ظلم، بل نصفة وعدل، فما كان الله ظالمًا لعباده[3].

موضوعات ذات صلة:

الظلم، العدل

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٢٠.

(٢) انظر: التفسير الحديث، دروزة محمد عزت ٣/ ٥٥٣.

(٣) زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٧٣.

الإنفاق

عناصر الموضوع

مفهوم الإنفاق	٨
الإنفاق في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
الأساليب القرآنية في عرض الإنفاق	١٣
أنواع الإنفاق ومجالاته	٣١
آداب الإنفاق	٥٣
آثار الإنفاق	٧٣

المجلد السادس

مفهوم الإنفاق

أولًا: المعنى اللغوي:

الإنفاق مصدر للفعل الرباعي أنفق، فيقال: أنفق ينفق إنفاقًا، فهو منفق، والمفعول منفق (للمتعدي)، أنفق مالًا: صرفه وأنفده، وهو بذل المال ونحوه في وجه من وجوه الخير، ويأتي بمعنى الفقر والإملاق؛ لأن الإنفاق سبب للافتقار من الشيء المنفق[1].

ومنه (النفقة): وهي اسم لما ينفق من الدراهم والزاد ونحوهما، وما يفرض للزوجة على زوجها من مال للطعام والكساء والسكنى والحضانة ونحوها، والجمع: نفقات، ونفاق[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يوجد كبير فرق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للإنفاق، وقد عرفه الجرجاني بقوله: «هو صرف المال في الحاجة»[3]. واختار الراغب: أنه يكون في المال وغيره[4].

فهو على هذا بذل المال ونحوه في وجوه الخير، ويطلق أيضًا على ما ينفقه الرجل على نفسه وعلى عياله.

ويشمل كل ما أمر الله به في دينه من الإنفاق، سواء كان إنفاقًا في حج أو عمرة، أو كان جهادًا بالنفس، أو تجهيزًا للغير، أو كان إنفاقًا في صلة الرحم، أو في الصدقات، أو على العيال، أو في الزكوات والكفارات، أو عمارة السبيل وغير ذلك.

والتعريف المختار للإنفاق أنه: إخراج المال من ملكية صاحبه، في سبيل تحصيل منفعة صحيحة، عينية أو معنوية، له أو لغيره.

(١) عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢٠٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٤٢، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ٣/ ٢٢٦٠.
(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٨٠٦.
(٣) التعريفات ١/ ٥٧.
(٤) المفردات ص ٨١٩.

الإنفاق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نفق) في القرآن (٧٣) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾[الكهف: ٤٢]
الفعل المضارع	٤١	﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾[البقرة: ٢٧٢]
فعل الأمر	٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم ﴿٢٥٤﴾﴾[البقرة: ٢٥٤]
المصدر	١	﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ﴿١٠٠﴾﴾[الإسراء: ١٠٠]
اسم	٣	﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴿٢٧٠﴾﴾[البقرة: ٢٧٠]
اسم فاعل	١	﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[آل عمران: ١٧]

وجاء الإنفاق في القرآن على أربعة أوجه[(٢)]:

الأول: الصدقة والزكاة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾[البقرة: ٣]. يعني: يتصدقون ويؤدون الزكاة.

الثاني: النفقة الواجبة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق: ٦]. يعني: على الزوجات.

الثالث: الإعمار: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾[الكهف: ٤٢]. يعني: ما عمر فيها.

الرابع: الرزق: ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[المائدة: ٦٤]. يعني: يرزق.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧١٥، ٧١٦.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٣٥، ٤٣٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزكاة:

الزكاة لغة:

النماء، يقال: زكى الزرع يزكو، أي: نما، وهي الطهارة والبركة والمدح[١].

الزكاة اصطلاحًا:

إيجاب طائفة من المال في مال مخصوص لمالكٍ مخصوص، معتبرًا فيه الحول والنصاب[٢].

الصلة بين الإنفاق والزكاة:

الإنفاق أعم من الزكاة من حيث أحكام الشرع وأصناف المال، فالإنفاق يكون في عموم أنواع المال، ويكون على سبيل الوجوب والاستحباب والإباحة، بينما الزكاة فهي مقدرة في مال مخصوص، ولها حكم الوجوب فقط.

٢ التصدق:

التصدق لغة:

إعطاء الصدقة، تصدق: أي أعطى الصدقة[٣].

التصدق اصطلاحًا:

ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة[٤].

الصلة بين الإنفاق والتصدق:

الإنفاق أعم من التصدق من حيث أحكام الشرع، فالإنفاق يكون على سبيل الوجوب والاستحباب والإباحة، أما التصدق فلها حكم الاستحباب فقط.

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٠٧، طلبة الطلبة، نجم الدين النسفي ص ١٦.
(٢) التعريفات ص ١١٤.
(٣) شمس العلوم، نشوان الحميري ٦/ ٣٧٠٧.
(٤) تاج العروس ٢٦/ ١٢، معجم لغة الفقهاء ص ٢٧٢.

٣ الإقراض:

الإقراض لغة:

مصدر من أقرضته المال إقراضًا، ومنه القرض، والجمع قروضٌ[١].

الإقراض اصطلاحًا:

هو إعطاء غيرك من مالك لتقضاه[٢].

الصلة بين الإنفاق و الإقراض:

أن الإنفاق فيه إخراج للمال من الملكية، بينما الإقراض يبقى فيه المال ملك لمخرجه في ذمة غيره؛ ليرده له.

٤ الإيتاء:

الإيتاء لغة:

الإعطاء، آتى يؤاتي إيتاءً، وآتاه إيتاءً، أي: أعطاه، ويقال: آتاه الشيء، أي: أعطاه إياه[٣].

الإيتاء اصطلاحًا:

إعطاء المال للغير على سبيل التمليك وحرية التصرف.

الصلة بين الإيتاء والإنفاق:

الإنفاق أعم من الإيتاء، فالإنفاق قد يكون على سبيل التمليك المفضي إلى حرية التصرف، وقد يكون التصرف في المال مشروطًا، أو يكون له مقابل، بينما الإيتاء لا يكون إلا على سبيل التمليك، ولا يكون مشروطًا، أو له مقابل، وإن لم يكن كذلك فليس بإيتاء[٤].

(١) المطلع على ألفاظ المقنع، شمس الدين البعلي ص ٢٩٥، المصباح المنير، الحموي ٢/ ٤٩٨.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧١، المصباح المنير، الحموي ٢/ ٤٩٨.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥١، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٧.
(٤) دستور العلماء، الأحمد نكري ١/ ١٨.

٥ الإعطاء:

الإعطاء لغة:

المناولة، أعطاه الشيء أي: ناوله إياه.

الإعطاء اصطلاحًا:

هو مناولة الشيء للآخر على سبيل تصرف مأذون فيه من المناول[١].

الصلة بين الإنفاق والإعطاء:

الإنفاق هو إخراج المال من الملك، والإعطاء لا يقتضي إخراج المعطى المال من الملك[٢].

٦ البخل:

البخل لغة:

منع الفضل والإمساك عن البذل، منع الرجل القادر العطاء بالمعروف من ماله[٣].

البخل اصطلاحًا:

هو إمساك المال وعدم صرفه في الوجوه المعتبرة حرصًا على بقائه وزيادته وخوفًا من نفاده[٤].

الصلة بين الإنفاق والبخل:

بينهما نوع تضاد، فالإنفاق هو البذل تلبية لسد الحاجة، والبخل الإمساك عن البذل وإن دعت إليه الحاجة.

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص ١٦٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) معجم لغة الفقهاء، قلعجي، قنيبي ص ١٠٤.
(٤) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، أبو الفضل البستي ٢/ ٢٤٥.

الأساليب القرآنية في عرض الإنفاق

تنوعت أساليب القرآن في الحديث عن الإنفاق، وهذا ما سنتناوله بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الأمر بالإنفاق:

جاء الأمر بالإنفاق، وبذل المال في سبيل الله صريحًا في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة: ٢٥٤].

وقال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[الحديد: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[المنافقون: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[التغابن: ١٦].

وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾[الطلاق: ٧].

فهذه الأوامر المتكررة في الآيات السابقة بالإنفاق من الأموال جاءت بصيغة الأمر (أنفقوا) و(لينفق)، فإن كان المراد بالإنفاق هو الزكاة فلا إشكال؛ لأن الزكاة واجبة، بل ركن من أركان الإسلام، فتحمل هذه الأوامر على الوجوب.

وحجة هذا القول أن قوله: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ أمر، وظاهر الأمر للوجوب، والإنفاق الواجب ليس إلا الزكاة، وسائر النفقات الواجبة، والقرآن كثيرًا ما يعبر عن الزكاة بالإنفاق، ويقرن الإنفاق بالصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣].

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الأنفال: ٣].

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الحج: ٣٥].

وقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الشورى: ٣٨].

وإن كان المراد بالإنفاق هو الإنفاق المستحب فتكون الأوامر الواردة بالإنفاق للندب. وقيل: إنه يتناول الفرض والنفل معًا.

وحجة من قال: الفرض والنفل داخلان في هذا: أن المفهوم من الأمر ترجيح جانب الفعل على جانب الترك، من غير أن يكون فيه بيان أنه يجوز الترك أو لا يجوز، وهذا المفهوم قدر مشترك بين الفرض والنفل،

فوجب أن يكونا داخلين تحت الأمر[1].

فيكون المراد بهذه الأوامر: التحريض على الإنفاق بمرتبتيه، واجب الإنفاق ومندوبه، والاهتمام بالنزاهة من فتنة المال التي ذكرت في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

فيكون قوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ أي: ما أمرتم به من واجب أو مندوب.

وقد اختار الجصاص في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

أن المراد بالإنفاق هاهنا: النفقة الواجبة من الزكاة ونحوها، حيث قال: «وأيضًا فإن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

أمر، وهو يقتضي الوجوب، وليس ها هنا نفقة واجبة غير الزكاة والعشر؛ إذ النفقة على عياله واجبة، وأيضًا فإن النفقة على نفسه وأولاده معقولة غير مفتقرة إلى الأمر، فلا معنى لحمل الآية عليه، فإن قيل: المراد صدقة التطوع، قيل له: هذا غلط من وجهين:

أحدهما: أن الأمر على الوجوب فلا يصرف إلى الندب إلا بدليل، والثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ قد دل على الوجوب؛ لأن الإغماض إنما يكون في اقتضاء الدين الواجب، فأما ما ليس بواجب فكل ما أخذه منه فهو فضل وربح، فلا إغماض فيه»[2].

والمقصود أنه تعالى أمر الإنسان بالإنفاق مما رزقه الله، فقال: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي: بعض ما أعطيناكم، تفضلًا من غير أن يكون حصوله من جهتكم وبسببكم، وفي آية أخرى أمره بالإنفاق مما جعله الله مستخلفًا فيه، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فقوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فيه ملاحظة وصول المال إليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقي له، وهذا من أقوى الدواعي إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها، وقيل: هو أمر بإعطاء سهمهم من الصدقات، فالأمر للوجوب حتمًا، والإضافة والوصف لتعيين المأخذ[3].

وفي هذا التعبير تجريد للإنسان من المال الذي بين يديه، فليس له الحق في المال الذي بين يديه يعبث فيه كما يشاء، ويتصرف فيه كما يريد؛ ولهذا نهاه الله سبحانه وتعالى عن الإسراف، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٧/ ٥٣، ٥٤.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٤/ ١٧٩.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٧٣.

ونهاه عن التبذير، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[الإسراء: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

فالمال في الحقيقة مال الله، والعبد مستخلف فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[النور: ٣٣].

فيكون مضمون الآيات السابقة: الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم.

ثانيًا: الثناء على المنفقين، وخاصة عند الحاجة:

ومن أساليب القرآن الكريم في الحث على الإنفاق والترغيب في البذل والعطاء في سبيل الله أنه امتدح المنفقين، ورفع من مكانة المحسنين، وجعلهم مهتدين مفلحين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة: ٣-٥].

فالإشارة بـ(أولئك) في قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلى من سبقت أوصافهم، وهم المتقون، أصحاب الصفات الخمس، التي منها الإنفاق مما رزقهم الله، ويشير اسم الإشارة (أولئك) إلى علو مرتبتهم، والعناية التامة بهم، كأنهم حضروا بين يدي المتكلم، وفيه الفصل بين الغاية والوسيلة، فالغاية: الفلاح، ووسيلته: ما سبق، والفلاح: هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فهي كلمة جامعة لانتفاء جميع الشرور، وحصول جميع الخير[(١)].

وفي آية أخرى جعلهم من المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢-٣].

فقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ حصر للإيمان فيمن اتصف بالصفات المذكورة التي منها الإنفاق في سبيل الله، والمعنى: إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان هم هؤلاء، فالتعريف في ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ تعريف الجنس، المفيد قصرًا ادعائيًا على أصحاب هذه الصفات مبالغة، وحرف (أل) فيه هو ما يسمى بالدالة على معنى الكمال[(٢)].

وقد جاء التعبير عن صفاتهم بصيغة من

(١) انظر: تفسير العثيمين الفاتحة والبقرة ١/ ٣٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٧١٢.

صيغ القصر وهي (إنما) للإشعار بأن من هذه صفاتهم هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم وإخلاصهم، أما غيرهم ممن لم تتوفر به هذه الصفات فأمره غير أمرهم، وجزاؤه غير جزائهم، وكفى بهذا شرفًا لهم وفخرًا.

ونظيره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ٣-٤].

فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: يقينًا؛ لأنهم حققوا إيمانهم، بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلب من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أعمال الجوارح كالصلاة والصدقة[1].

وفي هذه الجملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ قصر آخر يشبه القصر الذي قبله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ حيث قصر الإيمان مرة أخرى على أصحاب تلك الصفات ومنها الإنفاق، ولكنه قرن هنا بما فيه بيان المقصور، وهو أنهم المؤمنون الأحقاء بوصف الإيمان، والحق: أصله مصدر (حق) بمعنى ثبت، واستعمل استعمال الأسماء للشيء الثابت الذي لا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾[النساء: ١٢٢].

ويطلق كثيرًا على الكامل في نوعه، الذي لا سترة في تحقق ماهية نوعه فيه، كما يقول أحد لابنه البار به: أنت ابني حقًا، وليس يريد أن غيره من أبنائه ليسوا لرشده، ولكنه يريد أنت بنوتك واضحة، وآثارها واضحة، ويطلق الحق على الصواب والحكمة، فاسم الحق يجمع معنى كمال النوع، ولكل صيغة قصر منطوق ومفهوم، فمنطوقها هنا: أن الذين جمعوا ما دلت عليه تلك الصلات هم مؤمنون حقًا، ومفهومها: أن من انتفى عنه أحد مدلولات تلك الصلات لم يكن مؤمنًا حقًا، أي: لم يكن مؤمنًا كاملًا، وليس المقصود أن من ثبتت له إحداها كان مؤمنًا كاملًا إذا لم يتصف ببقية خصال المؤمنين الكاملين، فمعنى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أن من كان على خلاف ذلك ليس بمؤمن حقًا، أي: كاملًا[2].

ثم زادهم مدحًا وفضلًا فقال: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كرامات، وعلو منزلة، أو درجات في الجنة يرتقونها بأعمالهم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط من ذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أعده لهم في الجنة، لا ينقطع مدده، ولا ينتهي أمده، بمحض الفضل والكرم.

وفي آية ثالثة يقرن المنفقين بمقيمي الصلاة، والمواظبين عليها، وهو تعبير يحمل

(١) تفسير اللباب، ابن عادل ٨/ ١٠٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٧١٥.

بين جنباته بأن هؤلاء من المطيعين لله، والمواظبين على امتثال أوامره، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الشورى: ٣٨].

وسياق الآية ولحاقها جاء في مدح من اتصفوا بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والتجاوز عمن أساء إليهم، والاستجابة لربهم في كل ما دعاهم إليه فعلًا أو تركًا، وفي هذه الآية مدحٌ للذين استجابوا لربهم حين دعاهم إلى توحيده وطاعته، والمقيمي الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها، والذين إذا أرادوا أمرًا تشاوروا فيه، والمنفقين مما أعطاهم الله من الأموال في سبيل الله، والمؤدون ما فرض الله عليهم من الحقوق لأهلها من زكاة ونفقة وغير ذلك من وجوه الإنفاق، فهذه عشرة صفات، بين الله تعالى أن ما أعده لأصحابها يوم يلقونه خير من متاع الدنيا بكامله.

وفي آية أخرى تبرز أهمية الإنفاق بتقديم المنفقين على غيرهم من الأصناف الذين ذكرتهم الآية، والذين أعدت لهم الجنة من الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، فيقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فقد دلت هذه الآية على أن الإنفاق في سبيل الله، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، من صفات المتقين أهل الجنة، ونلحظ هنا أن الله تعالى قدم المنفقين على غيرهم، وكفى بذلك حثًا على الإنفاق، أما في قوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[آل عمران: ١٧].

فالترتيب ها هنا من الأدنى إلى الأشرف، فلا جرم وقع الختم بذكر المنفقين والمستغفرين بالأسحار.

وفي الآية أيضًا دلالة على أن إنفاقهم ليس في حال دون حال، بل في جميع الأحوال ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ والسراء: فعلاء، اسم لمصدر سره سرًا وسرورًا، والضراء من ضره، أي: في حالي الاتصاف بالفرح والحزن، وكأن الجمع بينهما هنا؛ لأن السراء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة، فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال الذي هو عزيز على النفس، فقد صار لهم خلقًا، لا يحجبهم عنه حاجب، ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة[1].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٨٢٣.

وكذلك امتدح الله تعالى المنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات، من ليل أو نهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهار، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٤]. فقد بين الله تعالى في هذه الآية حسن عاقبة المنفقين، وعظيم ثوابهم في ثلاث جمل، فقال في الجملة الأولى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: فلهم أجرهم الجزيل عند خالقهم، ومربيهم ورازقهم، وقال في الجملة الثانية: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا خوف عليهم من أي عذاب؛ لأنهم في مأمن من عذاب الله، بسبب ما قدموا من عمل صالح، وقال في الجملة الثالثة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يصيبهم ما يؤدي بهم إلى الحزن والهم والغم؛ لأنهم دائمًا في اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان.

ومدح الله تعالى من يطعم الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة، فقال: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾[البلد: ١٤].

أي: ذي مجاعة شديدة؛ لأن الناس قد يصابون بالمجاعة الشديدة، إما لقلة الحاصل من الثمار والزروع، وإما لأمراض في أجسامهم يأكل الإنسان ولا يشبع، وإما بسبب الحروب أو غير ذلك.

ووجه تخصيص اليوم ذي مسغبة بالإطعام فيه؛ لأن إخراج المال فيه أشد على النفس، والناس في زمن المجاعة يشتد شحهم بالمال؛ خشية امتداد زمن المجاعة، والاحتياج إلى الأقوات، فالإطعام في ذلك الزمن أفضل، وهو العقبة، ودون العقبة مصاعد متفاوتة، فهذه العقبة هي التي تقف بين الإنسان وبين الجنة، فلو تخطاها لوصل! وهذه العقبة العظيمة في الآخرة لا يقتحمها الإنسان إلا بهذه الأعمال العظيمة.

وتصويرها كذلك حافز قوي، واستجاشة للقلب البشري، وتحريك له ليقتحم العقبة، وقد وضحت، ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾[البلد: ١١].

ففيه تحضيض ودفع وترغيب! ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢].

إنه ليس تضخيم العقبة، ولكنه تعظيم شأنها عند الله ليحفز به الإنسان إلى اقتحامها وتخطيها، مهما تتطلب من جهد ومن كبد، فالكبد واقع واقع، وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره، ويعوض المقتحم عما يكابده، ولا يذهب ضياعًا، وهو واقع على كل حال!

ويبدأ كشف العقبة، وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها

الدعوة في أمس الحاجة إليه، فك الرقاب العانية، وإطعام الطعام، والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة، وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة، ولا بزمان خاص، والذي تواجهه النفوس جميعًا، وهي تتخطى العقبة إلى النجاة ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[البلد: ١٧][(١)].

ولهذا كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر؛ لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذٍ أشق، والأجر على قدر النصب إذا وافق هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وأخلص فاعله.

ومما جاء في مدح المنفقين في سبيل الله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[الحديد: ١٨].

فذكر هاهنا صنفين: المتصدقين والمقرضين، والمعنى: إن الذين تصدقوا وأقرضوا، والظاهر أن الأول هو الواجب، والثاني: هو التطوع؛ لأن تشبيهه بالقرض كالدلالة على ذلك، وأيضًا ذكر الأول بلفظ اسم الفاعل، الدال على الاستمرار ينبئ عن الالتزام والوجوب، ومن قرأ بتشديد الدال فقط فمعناه: إن الذين صدقوا الله ورسوله وأقرضوا، ويندرج تحت التصديق الإيمان وجميع الأعمال الصالحات، إلا أنه أفرد الإنفاق بالذكر تحريضًا عليه، كما أنه أفرد الإيمان لتفضيله والترغيب فيه[(٢)].

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى لما رغب في الإنفاق، وختم آياته بما يقتضي الوعد من أصدق القائلين بالغنى، والإثابة في الدارين، أتبعه بما للعدو الكاذب من ضد ذلك، فقال محذرًا من البخل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨].

إذن هو الشيطان الرجيم المانع من الإنفاق، أي: الذي اسمه أسوأ الأسماء، فإنه يقتضي الهلاك والبعد، وأحد الوصفين كافٍ في مجانبته، فكيف إذا اجتمعا؟!

فهذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق بأبلغ الألفاظ، وأحسن المعاني؛ فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعو إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين، فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل، فيجد في قلبه داعيًا يقول له: متى أخرجت هذا دعتك

(١) في ظلال القرآن ٨/ ٤٣.

(٢) تفسير النيسابوري ٧/ ١٢٦.

الحاجة إليه، وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك؛ حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه، فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل[1] الذي هو من أقبح الفواحش...، فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكاذب في وعده، الغار الفاجر في أمره، فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعوه بغروره، ثم يورده شر الموارد[2].

ثالثًا: الوعد بالإخلاف على المنفقين والأجر الكبير في الآخرة:

أمر الله تعالى عباده بالإنفاق في أوجه الطاعات من المال الذي أعطاهم إياه، وجعله بين أيديهم على سبيل الأمانة، أو الإعارة، ووعدهم بالخلف، أي: العوض المضاعف، فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ: ٣٩].

أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به الله، وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾ (ما) هنا تفيد العموم، يعني: سواء كان المنفق صغيرًا أو كبيرًا. ومعنى: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ أي: يخلفه عليكم، يقال: أخلف له، وأخلف عليه، إذا أعطاه عوضه وبدله، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة، والمقصود: لا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

وقد جاء في الحديث: (يقول الله تعالى: يا بن آدم أنفق، أنفق عليك)[3].

قال ابن العربي: «وهذه إشارة إلى أن الخلف في الدنيا بمثل المنفق بها إذا كانت النفقة في طاعة الله، وهو كالدعاء كما تقدم سواء، إما أن تقضى حاجته -أو يدفع الله عنه من السوء مثلها، أو يدخر إلى الآخرة-، وكذلك في النفقة يعوض مثلها، وإما أن يعوض أزيد منها، والتعويض ها هنا بالثواب، وإما أن يدخر له، والادخار ها هنا مثله في الآخرة»[4].

وأكد هذا الوعد بصيغة الشرط، وبجعل جملة الجواب اسمية، وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، بقوله: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ ففي هذا الوعد ثلاثة مؤكدات، دالة على

(١) تفسير الفحشاء في هذه الآية بالبخل هو القول الأول الذي ذكره جمع من المفسرين، منهم: البغوي في المسمى بمعالم التنزيل ١/ ٣٦٣، والشوكاني في فتح القدير ١/ ٤٣٧، وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٢٣، والألوسي في روح المعاني ٣/ ٤٠، وغيرهم.

(٢) انظر: جامع لطائف التفسير ٩/ ١٢٥ بتصرف.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٢، ٧٢٩٦، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٤) أحكام القرآن ابن العربي ٦/ ٤٦٣.

مزيد العناية بتحقيقه[1].

والمراد بالإنفاق الموعود عليه بالخلف هو الإنفاق المرغب فيه في الدين، وهو المأذون فيه شرعًا، كالإنفاق على الفقراء، والإنفاق في سبيل الله عمومًا.

وروي عن الضحاك أنه سئل عن قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ أهو النفقة في سبيل الله؟ قال: لا، ولكن نفقة الرجل على نفسه وأهله، فالله يخلفه[2].

ونجده هنا في هذه الآية لم يذكر وجهة الإنفاق (وهو سبيل الله) بل أطلق فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾؛ لأن ذلك -والله أعلم- أصبح من المسائل المتقررة في أذهان السامعين-، وأن كل من أنفق ماله في لهو الدنيا وفرجتها من غير قصدٍ حسن، بل لمجرد الحظ والهوى ليس له أجر، بل يكون عليه حسرة وندامة، تنقضي لذاته، وتبقى تبعاته، وهو من كفران نعمة المال، فهو معرض للزوال، وإن بقي فهو استدراج، وعلامة إنفاقه في الهوى: أنه إذا أتاه فقير يسأله درهمًا منعه، وينفق في النزهة والفرجة الآلاف، فهذا يكون إنفاقه حسرة عليه، والعياذ بالله.

وأيضًا فإن هذا الوعد بالخلف ليس مدعاة للإنسان أن ينفق كل ما معه بحجة أن الله سيخلفه له، فقد روي عن مجاهد قال: «من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد، فإن الرزق مقسوم، ولعل ما قسم له قليل، وهو ينفق نفقة الموسع عليه، فينفق جميع ما في يده، ثم يبقى طول عمره في فقره، ولا يتأولن: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ فإن هذا في الآخرة، ومعنى الآية: ما كان من خلف فهو منه»[3].

والصواب ما تقدم من أن الخلف قد يكون إما عاجلًا بالمال في الدنيا، وإما آجلًا بالثواب في الآخرة.

والحاصل أن في هذا دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، وتشجيعًا عليه بإعلام الناس أن الإنفاق لا ينقص المال، والبخل به لا يزيده، فإن التوسعة كالتضييق لحكمة، فلا البخل يزيد في المال، ولا الإنفاق في سبيل الله ينقص منه.

وختم الله هذا بوعده الصادق، وهو أن من أنفق في سبيل الله شيئًا أخلفه الله عليه، وهو تعالى خير الرازقين، فجملة: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تذييل للترغيب والوعد بالزيادة؛ لبيان أن ما يخلفه أفضل مما أنفقه المنفق و﴿خَيۡرُ﴾ بمعنى أخير؛ لأن الرزق الواصل من غيره تعالى إنما هو من فضله أجراه على يد بعض مخلوقاته، فإذا كان

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٤٤٧.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٧٠٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٢٣، ولباب التأويل، الخازن ٥/ ٢٢٧.

تيسيره برضا من الله على المرزوق، ووعد به كان ذلك أخلق بالبركة والدوام[1].

ومما جاء في الوعد بالخلف للمنفق قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ففي هذه الآية حث الله تعالى عباده على الإنفاق في سبيله، وقد كرر الله تعالى هذه الآية بهذا السياق في كتابه العزيز في غير موضع، وفي حديث النزول أن الله تعالى قال: (من يقرض غير عديم ولا ظلوم)[2].

فطلب الله تعالى من عباده القرض، مع أن المال مال الله، إلا أنه من رحمته تعالى وكرمه يستقرضهم إياه؛ لأنه متول على جميع الخلق، غني بذاته عنهم، ومع هذا يجعل طاعتهم له سلفًا منهم له.

والاستفهام في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾ للحض على البذل والعطاء، والتحريض على التحلي بمكارم الأخلاق، والمعنى: من هذا المؤمن القوي الإيمان الذي يقدم ماله في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وفي غير ذلك من وجوه الخير، كمعاونة المحتاجين، وسد حاجة البائسين؟!

والتعبير بالقرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغني الحميد، لكنه تعالى شبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء.

ولم يكتف بالحث على القرض، بل حيث جاء القرض في القرآن قيده بكونه حسنًا، وذلك يجمع أمورًا ثلاثة، أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه، الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله، ابتغاء مرضاة الله، الثالث: أن لا يمن به، ولا يؤذي، فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ[3].

فيكون القرض الحسن: هو القرض المستكمل محاسن نوعه من كونه عن طيب نفس، وبشاشة في وجه المستقرض، وخلو عن كل ما يعرض بالمنة، أو بتضييق أجل القضاء، وتحري أكرم المال، وأفضل الجهات، وذكر بعضهم أن القرض الحسن: ما يجمع عشر صفات: أن يكون من الحلال، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وأن يكون من أكرم ما يملكه المرء، وأن يكون المرء صحيحًا شحيحًا، يأمل العيش، ويخشي الفقر، وأن يضعه في الأحوج الأولى، وأن يكتم ذلك، وأن لا

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٤٤٨.
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ٢/ ١٧٦، ١٨١١.
(٣) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٥٨.

يتبعه بالمن والأذى، وأن يقصد به وجه الله تعالى، وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر، وأن يكون من أحب أمواله إليه، وأن يتوخى في إيصاله للفقير، ما هو أسر لديه من الوجوه، كحمله إلى بيته، ولا يخفى أنه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكر[1].

وقوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ أي: فيعطيه سبحانه أجره على إنفاقه أضعافًا مضاعفة، ولم يبين هنا قدر هذه الأضعاف الكثيرة، ولكنه بين في موضع آخر أنها تبلغ سبعمائة ضعف، وتزيد عن ذلك؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

والمقصود أن الآية قد اشتملت على ألوان من الحض على الإنفاق في وجوه الخير، ومن ذلك التعبير بالاستفهام في ذاته؛ لأنه للتنبيه، وبعث النفوس إلى التدبر والاستجابة، ومن ذلك أيضًا التعبير بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي﴾ إذ لا يستفهم بتلك الطريقة إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر، وكأن المخاطب لعظم شأنه من شأنه أن يشار إليه، وأن يجمع له بين اسم الإشارة وبين الاسم الموصول، ومن ذلك تسميته ما يبذله الباذل قرضًا، ولمن هذا القرض؟ إنه لله الذي له خزائن السموات والأرض، فكأنه تعالى يقول: أقرضوني مما أعطيتكم، وسأضاعف لكم هذا القرض أضعافًا مضاعفة يوم القيامة ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ [آل عمران: ٣٠].

ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة، وضم الأجر الكريم إليها، ومن ذلك التعبير عن الإنفاق بالقرض؛ إذ القرض معناه: إخراج المال، وانتظار ما يقابله من بدل[2].

ونظير الآية السابقة، قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾[الحديد: ١١].

فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيجازى عليه أضعافًا مضاعفة؟ وسمي ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا حثًا للنفوس، وبعثًا لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولابد، طوعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض ملئ، وفيٌّ محسن، كان أبلغ في طيب قلبه، وسماحة نفسه.

فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه، وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم

(١) تفسير الألوسي ج٢٠/ ص٣١٧.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٤٠٨٨.

أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم، وعطاء كريم، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح، أو عدم الثقة بالضمان؛ وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة برهانًا لصاحبها، وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضًا، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة، ولكن قرض إحسان إلى المقرض، واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله، واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم.

وأشار الله في هذا إلى شيئين: إلى الإخلاص في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ يعني: لا يرى سوى الله عز وجل، والمتابعة في قوله: ﴿حَسَنًا﴾ لأن العمل الحسن ما كان موافقًا للشريعة الإسلامية، والإخلاص والمتابعة هما شرطان في كل عمل، ووصف الله تعالى الإنفاق في سبيله بالقرض تشبيهًا بالقرض الذي يقرضه الإنسان غيره؛ لأنك إذا أقرضت غيرك فإنك واثق من أنه سيرده عليك، هكذا أيضًا العمل الصالح سيرد على الإنسان بلا شك.

وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أي: ولهذا المنفق فضلًا عن كل ذلك أجر كريم عند خالقه، لا يعلم مقداره إلا هو تعالى، والظاهر أن هذا الأجر هو المغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

وقد جعل الإنفاق سبب للغفران كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار)[1].

وقد جاء أنه لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض؟! قال: (نعم يا أبا الدحداح)، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي، فقد أقرضته ربي عز وجل. هكذا كان امتثال الصحابة لهذه الآية، أما اليهود فإنهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾[آل عمران: ١٨١].

فقد روي أنه عليه الصلاة السلام لما كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع، يدعوهم إلى الإسلام، وإقام

(١) تفسير القرآن للعثيمين ١٥/ ٢١.

الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضًا حسنًا، قال فنحاص: إن الله فقير حتى سألنا القرض، فلطمه أبو بكر رضي الله عنه في وجهه، وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجحد ما قاله، فنزلت الآية، ونسب القول إلى الجمع مع كون القائل واحدًا لرضا الباقين بذلك[1].

رابعًا: الوعيد الشديد لمن يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله:

توعد الله تعالى كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله بعذاب أليم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[التوبة: ٣٤-٣٥].

وهذا إخبار من الله تعالى عن الكنوز وأصحابها يوم القيامة، وما يتعلق باليوم الآخر نقبله كما هو، ويصح أن نقول: إنه تصوير لحالهم، تسببه عاقبة أمرهم بمن يكوون بذهبهم وفضتهم.

فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ يحتمل أن يراد بهم: أولئك الأحبار والرهبان السابق ذكرهم في نفس الآية، فيكون قد وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس، بقوله تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ووصفهم أيضًا بالبخل الشديد والامتناع من إخراج الواجبات عن أموال أنفسهم، بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ ويحتمل أن يراد بهم: المسلمون الذين يجمعون المال ولا يؤدون حقه، ويكون اقترانهم بالمرتشين من اليهود والنصارى تغليظًا، ودلالة على أن من يأخذ من أهل الكتاب السحت، ومن لا يعطي من المسلمين زكاة ماله سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم، واحتمال أن يراد بذلك الجميع، وهو كل من كنز المال ولم يخرج منه الحقوق الواجبة، سواء كان من الأحبار والرهبان أو كان من المسلمين.

والكنز بفتح الكاف مصدر (كنز) إذا ادخر مالًا. وكل شيء غمزته في وعاء أو أرض فقد كنزته، واكتنز: اجتمع وامتلأ[2]. يقال: هذا جسم مكتنز الأجزاء إذا كان مجتمع الأجزاء، ويطلق على المال من

(١) أخرجه الترمذي في أبواب السفر، باب ما ذكر في فضل الصلاة ٢/ ٥١٢، ٦١٤، وأحمد ٢٣/ ٤٢٥، ١٥٢٨٤، وصححه الألباني في التعليق الرغيب ٣/ ١٥ و١٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٦٣.

الذهب والفضة الذي يخزن، وعلى كل شيء ثمين، سواء دفن في باطن الأرض أو لم يدفن، ولكن شاع استعماله فيما يدفن في باطن الأرض، ولكن شيوعه لا يمنع أصل إطلاقه، ولا يمنع الشيوع من أن يطلق على الأصل اللغوي، ولقد قال شيخ المفسرين الطبري: «الكنز: كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها»[(١)].

والمعنى: أنهم يجمعونهما ويحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن، أو بوجه آخر، وسمي الذهب ذهبًا لأنه يذهب ولا يبقى، وسميت فضة لأنها تنفض، أي: تتفرق ولا تبقى، وحسبك بالاسمين دلالة على فنائهما، وأنه لا بقاء لهما[(٢)].

وخص الذهب والفضة بالذكر لأنهما الأصل الغالب في الأموال، ولأنهما مقياس التقدير لكل الأموال، ولأنهما اللذان يقصدان بالكنز أكثر من غيرهما، وقد قال في ذلك الزمخشري: «إنهما قانون التمول، وأثمان الأشياء، ولا يكنزهما إلا من فضلا عن حاجته، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر أجناس المال، فكان ذكر كنزهما دليلًا على ما سواهما»[(٣)].

واختلف أهل العلم في معنى الكنز ها هنا، فقال بعضهم: هو كل مال وجبت فيه الزكاة ولم تؤد زكاته وإن لم يكن مدفونًا، قالوا: وعنى بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ولا يؤدون زكاتها.

وقال آخرون: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أديت منه الزكاة أو لم تؤد، وقال آخرون: الكنز كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه إليه. ولعل الأقرب هو القول الأول، وهو أن الكنز هو: كل مال وجبت فيه الزكاة ولم تؤد زكاته وإن لم يكن مدفونًا.

قال الطبري بعد أن ذكر هذه الأقوال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة القول الذي ذكر عن ابن عمر: من أن كل مالٍ أديت زكاته فليس بكنز يحرم على صاحبه اكتنازه وإن كثر، وأن كل مالٍ لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب مستحقٌّ وعيد الله، إلا أن يتفضل الله عليه بعفوه وإن قل، إذا كان مما يجب فيه الزكاة»[(٤)].

والوعيد منوط بالكنز وعدم الإنفاق، فليس الكنز وحده بمتوعد عليه، بل الوعيد على الأمرين مجتمعين، لا على أمر واحد منهما، فليس الوعيد على الكنز لذات الكنز، وإنما الوعيد على الأمرين معًا، على الكنز وعدم الإنفاق في سبيل الله، فإذا وجدا معًا كان التبشير بالعذاب الأليم، وكان الوعيد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٤٦.
(٢) القاموس المحيط ١/ ٦٧٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٢٥.
(٤) تفسير روح البيان ٣/ ٣١٨.

الشديد لمن يمنع الإنفاق مع أنه يكنز المال؛ ولذا تضاربت الروايات على أن من يعطي الزكاة لا يكون عليه إثم الكانزين، بل إنه لا يعد كانزًا من يخرج حقه في سبيل الله، وإنما الكانز هو الجامع للمال الذي يمنع حقه.

وقد ورد أن الإنفاق يمنع إثم الكانز الذي يجمع المال، بل قد ورد في الأثر الصحيح: (نعم المال الصالح للمرء الصالح)[1].

كما أن في الآية إشارة إلى أن المال من الذهب والفضة ينبغي ألا يكنز، بل يجب أن يخرج للاستغلال الحلال، بالاتجار والصناعة والزراعة، ولا يبقى في الخزائن، كالماء العطن الذي لا ينتفع به.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وضع الوعيد لهم بالعذاب موضع البشارة بالتنعم لغيرهم، وهذا على سبيل التهكم عليهم[2]؛ لأن العذاب الأليم لا يبشر به، بل يهدد به، فلأنهم كانوا يرتقبون خيرًا في الآخرة من تكاثرهم في المال واكتنازه، فجاءت العقبى غير ما يرتقبون.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي: أنها تحول إلى صفائح ويحمى عليها، ثم تكوى بها جباههم، والحمي: شدة الحرارة، يقال: حمي الشيء إذا اشتد حره.

والضمير المجرور بـ(على) عائد إلى (الذهب والفضة) باعتبار أنها دنانير أو دراهم وهي متعددة، وبني الفعل للمفعول لعدم تعلق الغرض بالفاعل، فكأنه قيل: يوم يحمي الحامون عليها، وأسند الفعل المبني للمفعول إلى المجرور لعدم تعلق الغرض بذكر المفعول المحمي لظهوره؛ إذ هو النار التي تحمى، وعدي بـ(على) الدالة على الاستعلاء المجازي لإفادة أن الحمي تمكن من الأموال بحيث تكتسب حرارة المحمي كلها، ثم أكد معنى التمكن بمعنى الظرفية التي في قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فصارت الأموال محمية عليها النار، وموضوعة في النار، وبإضافة النار إلى جهنم علم أن المحمي هو نار جهنم التي هي أشد نار في الحرارة، فجاء تركيبًا بديعًا من البلاغة والمبالغة في إيجاز[3].

وقوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ الكي: أن يوضع على الجلد جمر أو شيء مشتعل.

وقوله: ﴿جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ والمعنى: تعميم جهات الأجساد بالكي، فإن تلك الجهات متفاوتة ومختلفة في الإحساس بألم الكي، فيحصل مع تعميم الكي إذاقة لأصناف من الآلام، وسلك في التعبير عن التعميم مسلك الإطناب بالتعداد لاستحضار حالة ذلك العقاب الأليم تهويلًا

(١) الكشاف ٢/ ٤١٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٧.
(٣) أخرجه أحمد ٢٩/ ٢٩٨، ١٧٧٦٣، وصححه الألباني في تخريج مشكلة الفقر ١/ ٢٢، ١٩.

لشأنه، فلذلك لم يقل: فتكوى بها أجسادهم فقط، وإنما أطنب[1].

وقيل: إنما تكوى هذه الأعضاء دون غيرها؛ لأن الغني إذا رأى الفقير الطالب للزكاة كان يعبس جبهته، وإذا بالغ في السؤال يعرض عنه بجنبه، وإذا بالغ يقوم من موضعه ويولي ظهره، ولم يعطه شيئًا غالبًا، أو لأن مقصود الكانز من جمع المال لما كان طلب الوجاهة بالغنى فتعلق الكي بأعلى وجهه وهو الجبهة، ولما قصد به أيضًا التنعم بالمطاعم الشهية التي ينتفخ بسببها جنباه، وبالملابس البهية التي يلقيها على ظهره تعلق الكي بالجنوب والظهور أيضًا[2].

والمقصود أن الآيتين فيهما تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين من التشبه بالأحبار والرهبان في أكل أموال الناس بالباطل وكنز المال، وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين: إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعًا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله، وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات، والنهي عن الشيء أمر بضده، وكلا الأمرين مذموم.

ومن الآيات التي تدل على الوعيد لمن يبخل عن الإنفاق في سبيل الله قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[آل عمران: ١٨٠].

أي: لا يظنن الذين يبخلون بما أنعم الله به عليهم تفضلًا منه من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده: أن هذا البخل خير لهم، بل هو شرٌّ لهم؛ لأن هذا المال الذي جمعوه سيكون طوقًا من نار يوضع في أعناقهم يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى هو مالك الملك، وهو الباقي بعد فناء جميع خلقه، وهو خبير بأعمالكم جميعها، وسيجازي كلًا على قدر استحقاقه.

ومدلول هذه الآية عام، فهو يشمل اليهود الذين بخلوا بالوفاء بتعهداتهم، كما يشمل غيرهم ممن يبخلون بما آتاهم الله من فضله، ويحسبون أن هذا البخل خير لهم، يحفظ لهم أموالهم، فلا تذهب بالإنفاق.

(١) انظر: تفسير روح البيان ٨/ ٣٢٩، وروح المعاني ٣/ ٩١، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ١/ ١٩٨، وفتح القدير ٥/ ٥٧٨، ومفردات ألفاظ القرآن ٢/ ٤٦٧، وزهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١/ ٣٢٩٤.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٨٤٢.

أما شمولها لمنع الزكاة فإن لم يكن بعموم صلة الموصول إن كان الموصول للعهد لا للجنس فبدلالة فحوى الخطاب، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ تأكيد لنفي كونه خيرًا، وجملة: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ واقعة موقع العلة لقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ و(يطوقون) يحتمل أنه مشتق من الطاقة، وهي تحمل ما فوق القدرة، أي: سيحملون ما بخلوا به، أي: يكون عليهم وزرًا يوم القيامة، والأظهر أنه مشتق من الطوق، وهو ما يلبس تحت الرقبة، فوق الصدر، أي: تجعل أموالهم أطواقًا يوم القيامة، فيعذبون بحملها، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم: (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين)[1].

والعرب يقولون في أمثالهم: تقلدها -أي: الفعلة الذميمة- طوق الحمامة، وعلى كلا الاحتمالين، فالمعنى أنهم يشهرون بهذه المذمة بين أهل المحشر، ويلزمون عقاب ذلك.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تذييل لموعظة الباخلين وغيرهم بأن المال مال الله، وما من بخيل إلا سيذهب ويترك ماله، والمتصرف في ذلك كله هو الله، فهو يرث السماوات والأرض، أي: يستمر ملكه عليهما بعد زوال البشر كلهم، المنتفعين ببعض ذلك، وهو يملك ما في ضمنها تبعًا لهما، وهو عليم بما يعمل الناس من بخل وصدقة، فالآية موعظة ووعيد ووعد؛ لأن المقصود لازم قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾[2].

ومن الوعيد ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النساء: ٣٧].

ونظيرها: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[الحديد: ٢٤].

وفي هذا بيان لمن لا يحبهم الله وهم أهل الكبر والفخر، بذكر صفتين قبيحتين لهم، وهما البخل الذي هو منع الواجب، والأمر بالبخل والدعوة إليه، فهم لم يكتفوا ببخلهم، فأمروا غيرهم بالبخل الذي هو منع الواجب، وعدم بذله، والعياذ بالله من هذه القبائح[3].

فيكون قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: الذين يمتنعون عن الإنفاق والعطاء مما رزقهم الله، ويأمرون غيرهم بالبخل، أي: يجمعون بين الأمرين الذميمين، اللذين كل منهما كافٍ في الشر، البخل وهو منع الحقوق الواجبة،

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٨٤٢.

(٢) تفسير روح البيان ٣/ ٣١٨.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض ٢٣٢١، ومسلم في المساقاة، باب تحريم الظلم ٤٢٢٢.

ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم على هذا الخلق الذميم بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم، وتوليهم عنها.

واختلف العلماء في نزول الآية ومعناها، فقال أكثرهم: نزلت في اليهود، كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يبينوها للناس، وهم يجدونها مكتوبة عندهم في التوراة.

وقال السدي: هي في المنافقين، الذين قد قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ﴾ [المنافقون: ٧].

وقيل: في مشركي مكة، المتفقين على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)].

والصواب أن المراد بالذين يبخلون: كل من يبخل بماله أو بعمله، فكأنه تعالى يقول: والله لا يحب الذين يبخلون بما أعطاهم من فضله، بخلًا يجعلهم لا ينفقون شيئًا منه في وجوه الخير؛ لأن حبهم لأموالهم جعلهم يمسكونها، ويشحون بها شحًا شديدًا، ولا يكتفون بذلك، بل يأمرون غيرهم بالبخل والشح.

وعلى رأس هؤلاء الذين لا يحبهم الله تعالى المنافقون، فقد كانوا يبخلون بأموالهم عن إنفاق شيء منها في سبيل الله، وكانوا يتواصون بذلك فيما بينهم، فقد قال سبحانه في شأنهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٨٦٦.

أنواع الإنفاق ومجالاته

تعددت أنواع الإنفاق ومجالاته التي تحدث عنها القرآن، وهذا ما ستتحدث عنه فيما يأتي:

أولًا: الإنفاق الواجب:

ذكر القرآن الكريم أنواعًا من الإنفاق الواجب، وبينت السنة شيئًا منه، وينحصر الإنفاق الواجب في الأنواع الآتية:

١. الزكاة المفروضة.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة، وفي الشرع: هي دفع مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، تعبدًا لله عز وجل، وسميت زكاة لأنها تزكي الإنسان وماله[(١)].

وهي ركن من أركان الإسلام، ومبانيه العظام، وقد قرنت بالصلاة، وأمر الله بأدائها في آيات كثيرة، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

والخطاب في قوله: ﴿خُذْ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم، ولمن جاء بعده من خلفاء الإسلام، وفي الآية إشارة إلى أن الأئمة بعده صلى الله عليه وسلم هم نوابه، وقائمين بما كان يقوم به، فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه الصلاة والسلام، وظاهر الآية للوجوب، فدل هذا النص على أن أخذها واجب.

وفي الآية دلالة على أن هذه الزكاة يتولى أخذها وتفرقتها الإمام، ومن يلي من قبله، والدليل عليه: أن الله تعالى جعل للعاملين سهمًا فيها؛ وذلك يدل على أنه لابد في أداء هذه الزكوات من عامل، والعامل هو الذي نصبه الإمام لأخذ الزكوات، فدل هذا النص على أن الإمام هو الذي يأخذ هذه الزكوات، وتأكد هذا النص بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[(٢)].

وقال: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ولم يقل: خذ أموالهم؛ لأن المراد بعض المال لا كله، فـ(من) للتبعيض، مما يدل على أن القدر المأخوذ بعض تلك الأموال لا كلها.

ومقدار ذلك البعض غير مذكور هاهنا بصريح اللفظ، بل المذكور هاهنا قوله: ﴿صَدَقَةً﴾ ومعلوم أنه ليس المراد منه التنكير حتى يكفي أخذ أي جزء كان وإن كان في غاية القلة، مثل الحبة الواحدة من الحنطة، أو الجزء الحقير من الذهب، بل المراد صدقة معلومة الصفة والكيفية والكمية عندهم، حتى يكون قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ أمرًا بأخذ تلك الصدقة المعلومة، فحينئذٍ يزول الإجمال، ومعلوم أن تلك الصدقة ليست إلا الصدقات التي

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ٥/ ٢٧٦.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٣/ ٤١٢.

وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين كيفيتها[1].

فيكون المراد بالصدقة هنا: الزكاة المفروضة، فالصدقة تطلق على الفرض والنفل، كما هاهنا، وكما في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾[التوبة: ٦٠]... الآية.

بينما الزكاة لا تطلق إلا على الفرض فقط، ومن امتنع عن أداء الزكاة أخذها الإمام كرهًا، ووضعها موضعها.

والظاهر في قوله: ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ العموم، فتجب الزكاة في جميع المال حتى في الديون، وفي مال الركاز، وفي مال الضمان.

وقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ معنى التطهير: إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب، ومعنى التزكية: المبالغة في التطهير، والمقصود أن الزكاة تزكي الإنسان في أخلاقه وعقيدته، وتطهره من الرذائل؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخلاء إلى حظيرة الأجواد والكرماء، وتكفر سيئاته، فهي تطهر ظاهره وباطنه، يتزكى أولًا من الشرك بالنسبة لمعاملة الله، فيعبد الله مخلصًا له الدين، لا يرائي ولا يسمع ولا يطلب جاهًا ولا رئاسة، فيما يتعبد به الله عز وجل، وإنما يريد بهذا وجه الله والدار الآخرة، ويتزكي في اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، بحيث لا يبتدع في شريعته، لا بقليل ولا كثير، لا في الاعتقاد ولا في الأقوال ولا في الأفعال[2]. وكون إخراج الزكاة فيها تطهيرًا لهم وتزكية لأن المال مادة الشهوات، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأخذ من ذلك ليكون أول حالهم التجرد لتنكسر قوى النفس، وتضعف أهواؤها وصفاتها، فتتزكى من الهيئات المظلمة، وتتطهر من خبث الذنوب، ورجس دواعي الشيطان[3].

فتكون الحكمة في إيجاب الزكاة هو أن المال محبوب بالطبع وهو سبب لحصول القدرة على المشتهيات والمآرب، لكن الاستغراق في حبه يذهل النفس عن حب الله، وعن التأهب للآخرة، فاقتضت الحكمة الإلهية تكليف مالك المال إخراج طائفة منه كسرًا للنفس، ومنعًا من انصبابها بالكلية إليه، فإيجاب الزكاة علاج صالح لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب، وهو المراد من قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي: عن دنس الاستغراق في حب المال، وأيضًا إن كثرة الأموال توجب القوة والقدرة والشدة، وتزايد تلك اللذات يدعو الإنسان إلى تحصيل الأموال المتزايدة، فتصير المسألة دورية لا مقطع لها، ولا آخر، فأثبت

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ١/ ١٥٢، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ١/ ٣٨٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٧٧.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٣٦.

الشرع لها مقطعًا وآخرًا، وهو صرف طائفة من المال في طلب مرضاة الله؛ ليصرف النفس عن ذلك الطريق الظلماني الذي لا آخر له، ويفضي في الأغلب إلى الطغيان، وقساوة القلب[1].

فإن قيل: إن الزكاة إنما وجبت لكونها طهرة من الآثام، وصدور الآثام لا يمكن حصولها إلا من البالغ دون الصبي، فوجب أن تجب الزكاة في مال البالغ دون الصبي، فالجواب: أنه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقًا.

ومن أدلة فرض الزكاة في القرآن: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾[التوبة: ٦٠].

فقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ قيل: المراد بالصدقات هنا: الزكاة الواجبة؛ بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد لا يخص بها أحد دون أحد، فيجوز صرفها في غير الأصناف الثمانية، كبناء المساجد والمدارس وغير ذلك.

ولأن (أل) في الصدقات للعهد الذكري، والمعهود هو الصدقات الواجبة، التي أشار إليها القرآن بقوله قبيل هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[التوبة: ٥٨].

التي جاءت في المنافقين الذين عابوا النبي صلى الله عليه وسلم في قسمة الصدقات، فإن نالهم نصيب منها رضوا وسكتوا، وإن لم يصبهم حظ منها سخطوا عليه وعابوه؛ ولهذا جاء خص مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها.

ويبدو أن لفظ الصدقات في الآية عام، بحيث يتناول كل صدقة، إلا أن الزكاة المفروضة تدخل فيه دخولًا أوليًا.

والمراد: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم؛ لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف...، وهذه الأصناف الثمانية ترجع إلى أمرين:

أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير والمسكين، ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه، وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء؛ لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدينية[2].

فهؤلاء الثمانية هم أهلها، فإذا دفعت إلى جهة من هذه الجهات أجزأت، ووقعت

(١) فتح القدير ٢/ ٥٨٠.

(٢) تفسير الألوسي ٧/ ٣٦٨.

موقعها، وإن دفعت في غير هذه الجهات لم تجز؛ لأن هذه القسمة فريضة، فرضها الله وقدرها، والله عليم بمصالح عباده، حكيم في تدبيره وشرعه؛ ولهذا ذيل الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٦٠].

وكأنه لما ذكر تعالى من يعيب الرسول صلى الله عليه وسلم في تقسيم الصدقات بأنه يعطي من يشاء ويحرم من يشاء، وكانوا يسألون فوق ما يستحقون، بين تعالى مصرف الصدقات، وأنه صلى الله عليه وسلم إنما قسم على ما فرضه الله تعالى، قال ابن كثير: «لما ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي صلى الله عليه وسلم، ولمزهم إياه في قسم الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسمها، وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين»[(١)].

ولفظه: (إنما) إن كانت وضعت للحصر، فالحصر مستفاد من لفظها، وإن كانت لم توضع للحصر فالحصر مستفاد من الأوصاف؛ إذ مناط الحكم بالوصف يقتضي التعليل به، والتعليل بالشيء يقتضي الاقتصار عليه.

ويستفاد الحصر بالثمانية الأصناف أيضًا من الاقتصار عليها في مقام البيان؛ إذ لا تكون صيغة القصر مستعملة للحقيقي والإضافي معًا إلا على طريقة استعمال المشترك في معنييه[(٢)].

وعموم قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ يتناول الكافر والمسلم، إلا أن الأخبار دلت على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلى الفقراء والمساكين وغيرهم إلا إذا كانوا مسلمين، ولعل مرجع الضمير في قوله: (تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم)[(٣)] يشهد لذلك، بخلاف صدقة التطوع.

ومن أدلة فرض الزكاة في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: المفروضة، والأمر للوجوب، وقد تكرر هذا الأمر في عدة آيات من القرآن المكي والمدني، والمخاطب فيها قد تعدد أيضًا، فجاء للمسلمين، ولبني إسرائيل، وهذا دليل على جوب الزكاة على من كان قبلنا، ولكن لا يلزم أن يكونوا مساوين لنا في الأموال التي تجب فيها الزكاة، ولا في مقدار الزكاة، ولا في أهلها الذين تدفع إليهم.

ومن يتتبع آيات القرآن الكريم يجد أن الزكاة قد قرنت بالصلاة في أكثر من موضع، وهذا دليل على كمال الاتصال بينهما؛ لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه

(١) تفسير النيسابوري ٤/ ١٧٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٣٤١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٥.

للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

حتى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أن مانع الزكاة يقاتل عليها، فقال لعمر رضي الله عنه: لأقاتلن بين من فرق بين الصلاة والزكاة[1].

ومن أدلة فرض الزكاة في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ [المعارج: ٢٤].

وهذا وإن كان خبرًا في سياق المدح كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤].

إلا أنه يفهم منه الوجوب؛ لأنه سماه حقًا، فيكون المقصود به الزكاة، ولا يمنع ذلك من أن تكون السورة مكية، فقد يكون أصل مشروعية الزكاة بمكة، ثم أتى تفصيل أحكامها بالمدينة، عن طريق السنة النبوية المطهرة.

وقد قيل في المراد بالحق المعلوم هاهنا: ما أوجبوه على أنفسهم من دفع جزء من أموالهم للمحتاجين على سبيل التقرب إلى الله تعالى، وشكره على نعمه، وتسمية ما يعطونه من أموالهم من الصدقات باسم (الحق) للإشارة إلى أنهم جعلوا السائل والمحروم كالشركاء لهم في أموالهم، من فرط رغبتهم من مواساة إخوانهم، ومعنى كون الحق معلومًا: أنه يعلمه كل واحد منهم ويحسبونه، ويعلمه السائل والمحروم بما اعتاد منهم.

إلا أن القول الأول: وهو أن المراد بالحق الزكاة- أصح؛ لأنه وصف الحق بأنه معلوم، والمعلوم هو المقدر، وسوى الزكاة ليس بمعلوم، إنما هو قدر الحاجة، وذلك يقل ويكثر[2].

وسماه الله هنا في هذه الآية (حق) وسماه في آيات كثيرة (زكاة) ولكنه أجمل مقداره، وأجمل الأنواع التي فيها الحق، ووكلهم في ذلك إلى حرصهم على الخير، وكان هذا قبل شرع نصابها ومقاديرها، ثم شرعت الزكاة، وبينت السنة نصابها ومقاديرها.

ومجيء الصلة جملة اسمية ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ لإفادة ثبات هذه الخصلة فيهم، وتمكنها منهم؛ دفعًا لتوهم الشح في بعض الأحيان؛ لما هو معروف بين غالب الناس من معاودة الشح للنفوس.

والمراد بالسائل: هو الذي يسأل، والمحروم: الذي لا يسأل الناس، تعففًا مع احتياجه، فلا يتفطن له كثير من الناس، فيبقى كالمحروم، وأصل المحروم: الممنوع من مرغوبه...، وهذه الصفة للمؤمنين مضادة صفة الكافرين المتقدمة، في قوله: ﴿وَجَمَعَ

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٨٦٩.

(٢) اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٤٧١.

﴿فَأَوْعَىٰ﴾[المعارج: ١٨][1].

٢. النفقة في الجهاد.

ومن النفقات الواجبة النفقة في الجهاد، حيث أمر الله بالإنفاق في الجهاد في جميع الأوقات، وبأنواع الصدقات المتعددة، سواء كان من الزكاة المفروضة أو من غيرها، ووعد على ذلك الأجر العظيم، قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[التوبة: ٤١].

فقوله: ﴿وَجَاهِدُوا﴾ أمر بالجهاد، وحقيقته: بذل الجهد والطاقة، وهو قسمان، جهاد بالنفس وجهاد بالمال، أما الجهاد بالنفس فمعلوم، وهو من فروض الكفايات، إلا عند هجوم العدو فيصير متعينًا.

وأما بالمال فبزاده وراحلته إذا قدر على الجهاد بنفسه، فإن عجز عنه بنفسه فيبذل المال بدلًا عنه، فمن استطاع الجهاد بالمال والنفس وجب عليه الجهاد بهما، ومن قدر على أحدهما دون الآخر وجب عليه ما كان في قدرته منهما، إلى هذا ذهب كثير من العلماء، وقيل: هو إيجاب للقسم الأول فقط[2].

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال الشوكاني: «فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال، وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من آكد الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو وبدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدو إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض، أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين»[3].

٣. الإنفاق على الزوجة.

النفقة على الزوجة بالمعروف واجبة بنص القرآن، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: ٢٣٣].

أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات، وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره[4].

قال ابن رشد رحمه الله: «واتفقوا على أن من حقوق الزوجة على الزوج: النفقة والكسوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ولما ثبت من قوله عليه الصلاة والسلام: (ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[5]، ولقوله لهند:

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٥٦٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٦٧.
(٣) فتح القدير ٢/ ٥٢٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٣٤.
(٥) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ٤/ ٣٩، ٣٠٠٩.

(خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف)»[1][2].

فقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي: الأب، وظاهر الآية أنه لا فرق بين أن تكون الزوجة في حباله أو بائنًا منه، فإن كانت في حباله فلوجوب الإنفاق عليها سببان: الزوجية والإرضاع، وإن لم تكن في حباله فلها سبب واحد وهو الإرضاع، ولا يمتنع أن يكون للحكم الواحد سببان، كما في الزوج يكون ابن عم فيرث بالزوجية والقرابة[3].

وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: أنه يرجع إلى العرف في نوع الرزق وكميته وكيفيته وكذلك الكسوة.

ومن المعلوم أن الكفاية بالمعروف تتنوع بحال الزوجة في حاجتها، وبتنوع الزمان والمكان، وبتنوع حال الزوج في يساره وإعساره، فليست كسوة القصيرة الضئيلة ككسوة الطويلة الجسيمة، ولا كسوة الشتاء ككسوة الصيف، ولا كفاية طعام الشتاء مثل طعام الصيف، ولا طعام البلاد الحارة كالباردة، ولا المعروف في بلاد التمر والشعير كالمعروف في بلاد الفاكهة والخبز، فيطعمها في كل بلد مما هو عادة أهل البلد والعرف عندهم.

وقال بعضهم: هي مقدرة بالشرع نوعًا وقدرًا، مدًا من حنطة، أو مدًا ونصفًا، أو مدين قياسًا على الإطعام الواجب في الكفارة.

والصواب المقطوع به ما عليه الأمة علمًا وعملًا قديمًا وحديثًا أن تقديرها بالعرف لا بالشرع؛ لقوله في هذه الآية: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام لهند: (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف)[4] ولم يقدر لها نوعًا ولا قدرًا، ولو كان ذلك مقدرًا بشرع لبينه لها قدرًا ونوعًا، كما بين فرائض الزكوات والديات[5].

والنفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن، فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور، فأما هذه الأربعة فلابد لها منها؛ لأن بها إقامة المهجة[6].

وهذه النفقة تسقط إذا كانت الزوجة ناشزًا، أي: عاصية لزوجها، كخروجها بدون إذنه، وامتناعها عن إعطائه حقه، وتلزم

(١) أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٩/ ٥٠٧، ومسلم في كتاب الأقضية، باب قضية هند ١٢/ ٧.
(٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٢/ ٤٤.
(٣) تفسير القرآن للعثيمين ٥/ ١١٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١٠٤.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٩/ ٥٠٧، ومسلم في كتاب الأقضية، باب قضية هند ١٢/ ٧.
(٥) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٣٣٧.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٥٣.

نفقة المطلقة طلاقًا رجعيًا خلال العدة، فإن طلقها وهي حامل فعدتها إلى وضع الحمل، فيلزمه النفقة عليها والسكنى خلال حملها، ولو طلقها بائنًا، وذلك باتفاق الفقهاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق: ٦].

وأما المطلقة قبل الدخول فلأنه لا عدة عليها فالنفقة ساقطة بلا ريب، وكذلك السكنى، والمتعة المذكورة لها في القرآن هي عوض عن المهر، والملاعنة لا نفقة لها ولا سكنى؛ لأنها إن كانت المطلقة بائنًا كانت مثلها في ذلك، وإن كانت المتوفى عنها زوجها فكذلك، ولا ريب أن فرقتها أشد من فرقة المطلقة بائنًا؛ لأن هذه يجوز نكاحها في حال من الأحوال بخلاف تلك.

والمقصود أن الآية تدل على فرضية الإنفاق للزوجة، والمقصود بالنفقة هو تأمين الحاجات الضرورية التي لابد منها للإنسان؛ كي لا يحتاج إلى الغير، والحاجات الأساسية التي لا يستغني عنها الإنسان في حياته هي: الغذاء والكساء والمسكن، فأما الغذاء ففيه قوام حياة الإنسان وبقاء بنيته الأساسية، فالغذاء يقيم بناءه، ويديم وجوده في الداخل، وأما اللباس أو الكساء ففيه حمايته من الخارج، وأما المسكن فيأوي إليه، ويرتاح فيه، ويحتمي به من عوادي الدهر، فالنفقة الواجبة على الزوج لزوجته لا تتعدى هذه الثلاثة، وما يتبعها من الخدمة، وما تتضرر بتركه.

ومن أدلة القرآن على وجوب نفقة الزوجة أيضًا: قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[النساء: ٣٤].

أي: قائمون على شؤنهن بسبب تفضيله الرجال على النساء بالحزم والعزم والقوة والفتوة وغيرها من الشمائل الشاملة، وبسبب إنفاقهم من أموالهم في نكاحهن كالمهر والنفقة، وهذا أدل على وجوب نفقات الزوجات على الأزواج.

قال ابن كثير: «أي: من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيمًا عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[البقرة: ٢٢٨]... الآية»[(١)].

وقال القرطبي: «قد جعل الإنفاق عليهن من شرط القوامة، فمتى ما عجز عن نفقتها لم يكن قوامًا عليها، وإذا لم يكن قوامًا عليها كان لها فسخ العقد؛ لزوال المقصود الذي شرع لأجله النكاح»[(٢)].

وأخذ بعض العلماء وجوب نفقة الزوجة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٦٩.

على زوجها من قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[طه: ١١٧].

حيث جاء الخطاب شاملًا لآدم وحواء، ثم خص آدم بالشقاء دونها في قوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ فدل ذلك على أنه هو المكلف بالكد عليها، وتحصيل لوازم الحياة الضرورية لها، من مطعم ومشرب وملبس ومسكن.

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: «وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل: فتشقيا، يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذٍ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية»[(١)].

٤. النفقة على الوالدين.

ومن النفقات الواجبة نفقة الوالد (أب أو أم) الفقير الذي لا مال له ولا كسب على ولده الغني، ذكرًا كان أو أنثى، وتقدر النفقة بالكفاية وسد الحاجة، فإذا كانا غنيين أو لهما مال خاص انتفى سبب وجوب النفقة لهم.

قال ابن المنذر: «أجمع أهل العلم على وجوب نفقة الوالدين اللذين لا كسب لهما ولا مال، سواء أكان الوالدان مسلمين أو كافرين، وسواء كان الفرع ذكرًا أو أنثى»[(٢)]؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان: ١٥].

فإن من إكرام الوالدين والإحسان إليهما أن يقدم لهما ما يحتاجان إليه من مال وغيره، وخاصةً حين يصبحان غير قادرين على العمل، وليس من الإحسان ولا من المصاحبة بالمعروف أن يموت الوالدان جوعًا والولد في سعة من العيش، ولا ينفق عليهما!

ولقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾[البقرة: ٢١٥].

أي: يسألونك عن النفقة، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عنهما، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم أعظمهم حقًا عليك، وهم الوالدان الواجب برهما، والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما؛ ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٥٣.

(٢) المغني، ابن قدامة ٨/ ٢١٢.

وصلة، ولقوله صلى الله عليه وسلم لمن جاء يشكو أباه الذي يريد أن يجتاح ماله: (أنت ومالك لأبيك)[1].

٥. النفقة على الأبناء.

وتجب نفقة الطفل الحر الفقير على أبيه[2] للإجماع على ذلك[3]، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

وهو أمر للأزواج يقضي بوجوب إعطاء المرأة أجرة الرضاع المستلزمة وجوب المؤنة عمومًا من رضاع وغيره[4].

ولقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فلفظ المولود له يعم الوالد وسيد العبد، ويبين أن الولد لأبيه لا لأمه، والآية توجب رزق الرضيع على أبيه دون غيره[5].

وقد دلت السنة على ذلك في كثير من الأحاديث، منها: ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لهند: (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف)[6].

وهذا يقتضي لزوم نفقة الولد على أبيه وإلا لما كان لها الأخذ بالمعروف.

ولما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: عندي دينار؟ فقال: (أنفقه على نفسك). قال: عندي آخر؟ فقال: (أنفقه على ولدك...) الحديث[7].

ففي هذا الحديث أمر صلى الله عليه وسلم بالإنفاق على الولد بما فضل عن كفاية النفس، والأمر للوجوب، مما يدل على وجوب إنفاق الأب على أولاده.

وسبب وجوب هذه النفقة هو الولادة؛

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات، باب ما للرجل من مال ولده ٢/ ٧٦٩، ٢٢٩٢، وصححه الألباني في الإرواء ٨٣٨.

(٢) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١/ ٤٩٦، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٦١٢، ٦/ ٧٥١، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/ ٦٢، ٦٤، والمبسوط للسرخسي ٥/ ٢٢٢، وفتح القدير، ابن الهمام ٤/ ٢١٧، ٢٢٠، والقوانين الفقهية، ابن جزي ص١٤٨، ومغني المحتاج ٣/ ٤٤٨، ٤٥١، والمجموع شرح المهذب ١٧/ ١٧٢، ١٧٨، ١٨٠، والمغني، ابن قدامة ٧/ ٥٨٢، ٥٨٤، ٦٢٧، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد ٩/ ٣٩٢، ٣٩٦.

(٣) انظر: مجمع الأنهار في شرح ملتقى الأبحر ١/ ٤٩٦، وبدائع الصنائع ٤/ ٣٢، والمغني، ابن قدامة ٧/ ٥٨٣.

(٤) انظر: مغني المحتاج ٣/ ٤٤٧.

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٤/ ١٠٥.

(٦) أخرجه البخاري في النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف ٩/ ٥٠٧، ومسلم في الأقضية، باب قضية هند ١٢/ ٧.

(٧) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب في صلة الرحم ٥/ ١١٠، والنسائي في الزكاة، باب أي الصدقة أفضل ٥/ ٧٠، وأحمد ٢/ ٢٥١، والحاكم في الزكاة، باب الإعطاء للأقرباء أعظم الأجر ١/ ٤١٥، وصححه الألباني في المشكاة ١٩٤٠.

لأن به تثبت الجزئية والبعضية، والإنفاق على المحتاج إحياء له، ويجب على الإنسان إحياء كله وجزئه، ولأنها قرابة يحرم قطعها، وإذا حرم القطع حرم كل سبب مفضٍ إليه، وترك الإنفاق من ذي الرحم المحرم مع قدرته وحاجة المنفق عليه تفضي إلى قطع الرحم فيحرم الترك.

وإذا حرم الترك وجب الفعل[1]، مما يدل على وجوب الإنفاق على الأولاد، ولأن للأب ولاية على ابنه، مما يدل على استحقاقه النفقة من أبيه[2]، ولأن ولد الإنسان بعضه، فكما يجب على الإنسان أن ينفق على نفسه، فيجب عليه أن ينفق على ولده[3].

٦.النفقة على القريب غير الأبوين والأبناء.

أما نفقة الأقارب غير الأبوين والأبناء فلا تجب النفقة على القريب لقريبه إلا من باب صلة الرحم؛ لعدم ورود دليل يخص ذلك، بل جاءت أحاديث صلة الرحم وهي عامة، والرحم المحتاج إلى نفقة أحق الأرحام بالصلة.

وقيل: بل تجب؛ لأن سبب وجوب هذه النفقة هي القرابة[4] المحرمة للقطع؛ لأنه إذا حرم قطعها حرم كل سبب مفضٍ إليه، وترك الإنفاق من ذي الرحم المحرم[5]، مع قدرته وحاجته تفضي إلى قطع الرحم، فيحرم الترك، وإذا حرم الترك وجب الفعل ضرورة[6].

وهذا هو الصواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[الإسراء: ٢٦].

فقد أمر الله سبحانه بالإحسان إلى القرابة، وإيتائه حقها، ولا ريب أن من كان يتقلب في النعم وقريبه قد أضر به الجوع أو العري فهو غير محسن إليه ولا قائم بحقه، ولما جاء عند أبي داود أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم: من أبر؟ قال: (أمك وأباك، وأختك وأخاك، ومولاك الذي يلي ذلك، حق واجب، ورحم موصولة)[7].

(١) انظر: بدائع الصنائع ٤/ ٣١.
(٢) انظر: المجموع شرح المهذب ١٧/ ١٧٢.
(٣) انظر: المغني، ابن قدامة ٧/ ٥٨٣.
(٤) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١/ ٤٨٤، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٥٧٢، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/ ٥٠، والمبسوط للسرخسي ٥/ ١٨٠، وفتح القدير، ابن الهمام ٤/ ١٩٣، ومغني المحتاج ٣/ ٤٢٥، وحاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب ٢/ ٣٤٥، والمغني، ابن قدامة ٧/ ٥٨٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع ٥/ ٤٦٠، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ١/ ٥٢٥.
(٥) الرحم المحرم: هو من لا يحل مناكحته على التأبيد، مثل الأخوة والأخوات وأولادهما. مجمع الأنهر ١/ ٥٠٠.
(٦) انظر: بدائع الصنائع ٤/ ١٦، ٣١.
(٧) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في بر الوالدين ٤/ ٣٣٦، ٤٥، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر ص ٣٢.

٧. النفقة على الرقيق.

ومن النفقات الواجبة أن ينفق السيد على مملوكه ذكورًا أو إناثًا بالمعروف، سواء أكان المملوك صحيحًا أم سقيمًا، أو أعمى، أو زمنًا، أو مدبرًا، أو مستولدًا، أو مستأجرًا، أو معارًا، أو قنًا، أو مشتركًا، أو مبعضًا، أو صغيرًا أو كبيرًا، بخلاف المكاتب فنفقته لا تجب على سيده؛ لاستقلاله بالكسب[(١)].

وسبب وجوب هذه النفقة: الملك[(٢)] الموجب للاختصاص بالمملوك انتفاعًا وتصرفًا؛ ليكون به صلاحه ودوامه، ومن ملك منفعة شيء لزمته مؤنته؛ إذ الخراج بالضمان؛ ولأن الرقيق لا مال له وما في يده لمولاه، فلا يجوز للرقيق أن ينفق على نفسه من مال غيره، مما يجعل الإنفاق واجبًا على سيده[(٣)].

وقد دل الكتاب على ذلك، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء: ٣٦].

ففي هذه الآية أمر بالإحسان على المماليك، ومطلق الأمر يحمل على الوجوب؛ لأن الإنفاق عليهم من الإحسان بهم، فكان واجبًا، غير أنه قد يرد أن الأمر ليس للوجوب حيث يكون للندب.

ويجاب على ذلك بأنه لو سلم بذلك لكان الأمر بالإحسان إليهم على وجه الندب؛ لغرض توسيع النفقة بعد وجوب أصلها؛ لأن المرء لا يترك أصل النفقة على مملوكه إشفاقًا، ومحافظة على بقاء ملكه، وقد أمر بالإنفاق عليه حتى لا يقتر النفقة عليه؛ لكونه مملوكًا في يده، فأمر الله عز وجل السادات بتوسيع النفقة على مماليكهم شكرًا لما أنعم عليهم من جعل من هو في جوهرهم وأمثالهم في الخلقة يقومون بخدمتهم[(٤)].

أما من السنة فقد قال صلى الله عليه وسلم: (إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس،

(١) انظر: المبسوط ٥/ ١٩٩، وبلغة السالك ١/ ٥٢٥، وحاشية الدسوقي ٢/ ٥٢٢، وحاشية العدوي ٢/ ١٢٤، ومغني المحتاج ٣/ ٤٦٠، ونهاية المحتاج ٧/ ٢٣٦، وقليوبي وعميرة ٤/ ٩٢.

(٢) انظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١/ ٤٨٤، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٥٧٢، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/ ٥٠، والمبسوط للسرخسي ٥/ ١٨٠، وفتح القدير لابن الهمام ٤/ ١٩٣، ومغني المحتاج ٣/ ٤٢٥، والمغني لابن قدامة ٧/ ٥٨٤، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ١/ ٥٢٥.

(٣) انظر: بدائع الصنائع ٤/ ٣٩، والمغني لابن قدامة ٧/ ٥٨٥.

(٤) انظر: بدائع الصنائع ٤/ ٣٩.

ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)[1].

ففي هذا الحديث أمر بالإنفاق على الرقيق، والأمر للوجوب، مما يدل على وجوب نفقة الرقيق على مالكه.

ثانيًا: الإنفاق المندوب:

ومن أنواع الإنفاق المذكورة في القرآن الكريم الإنفاق المندوب، فقد دعا الإسلام إلى البذل وحث عليه، في أسلوب يبعث في النفوس بواعث الخير، ويثير فيها معاني البر والإحسان، وجاء ما يدل على عظم الأجر والثواب لمن يعود نفسه الإنفاق في سبيل الله بشتى أنواعه وأحواله وزمانه ومكانه، بل لم تقتصر الصدقة في نظر الشرع على نوع معين من أعمال البر، وإنما القاعدة العامة: أن كل معروف صدقة.

ومن الأدلة على ذلك في القرآن: قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

فهذه الآية قد اشتملت على خمسة عشر نوعًا من أنواع البر الذي يهدي إلى الحياة السعيدة في الدنيا، وإلى رضا الله تعالى في الآخرة، وقد أرشدت إلى أن البر أنواع ثلاثة، جامعة لكل خير، بر في العقيدة، وبر في العمل، وبر في الخلق، فأما بر العقيدة فقد بينته أكمل بيان في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ وأما بر العمل فقد بينته في قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وأما بر الخلق فقد بينته في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ولا شك أن إنفاق المال في تلك الوجوه من شأنه أن يسعد الأفراد والجماعات والأمم، ويكون مظهرًا من أفضل مظاهر العمل الصالح الذي يرضي الله تعالى.

ومعنى الآية: ليس الخير عند الله تعالى في التوجه في الصلاة إلى جهة المشرق والمغرب إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، وإنما الخير كل الخير هو إيمان من آمن بالله وصدق به معبوده وحده لا شريك له، وآمن بيوم البعث والجزاء وبالملائكة جميعًا،

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ١/ ٨٤، ومسلم في الإيمان، باب صحبة المماليك ١١/ ١٣٣، ١٣٤.

وبالكتب المنزلة كافة، وبجميع النبيين من غير تفريق، وأعطى المال تطوعًا ذوي القربى واليتامى المحتاجين الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ، والمساكين الذين أرهقهم الفقر، والمسافرين المحتاجين الذين بعدوا عن أهلهم ومالهم، والسائلين الذين اضطروا إلى السؤال لشدة حاجتهم، وأنفق في تحرير الرقيق والأسرى، وأقام الصلاة، وأدى الزكاة المفروضة.

والضمير في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يعود إلى المال، أي: أعطى المال وبذله عن طيب خاطره حال كونه محبًا له راغبًا فيه؛ لأن الإعطاء والبذل في هذه الحالة يدل على قوة الإيمان، وصفاء الوجدان، ويسمو بصاحبه إلى أعلى الدرجات، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢].

وكقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان: ٨].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن أفضل الصدقة ما كان في حال الصحة؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يكون مظنة الحاجة إلى المال، فقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: (أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا وكذا، وقد كان لفلان)[1].

وحث سبحانه وتعالى على إطعام الأيتام والمساكين، ويزداد ذلك فضلًا بكونه في يوم ذي مجاعة؛ لأن إخراج المال في وقت القحط أثقل على النفس، وأوجب لجزيل الأجر، قال تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤-١٦].

ففي هذه الآيات بيان لفضيلة من الفضائل التي تؤدي إلى اقتحام العقبة، تتمثل في فك الرقاب، وإطعام المحتاجين، في يوم يشتد فيه جوعهم، والمسغبة: المجاعة، وهو مصدر ميمي، بمعنى السغب، يقال: سغب الرجل كفرح ونصر إذا أصابه الجوع، ووصف اليوم بذلك على سبيل المبالغة، كما في قولهم: نهاره صائم. وقيد سبحانه اليتيم بكونه ذا مقربة؛ لأنه في هذه الحالة يكون له حقان: حق القرابة وحق اليتم، ومن كان كذلك فهو أولى بالمساعدة من غيره.

تنوع الإنفاق في وجوه الخير:

الإنفاق في وجوه الخير باب واسع، وصدقات التطوع أنواع متعددة، فمنها ما يسمى بالصدقة الجارية، أو الوقف الخيري الدائم الإنتاج لصالح من وقف عليهم، ومن

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح ٢/ ١١٠، ١٤١٩، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح رقم ١٠٣٢.

ذلك الواجب الاجتماعي كمد يد المساعدة لكل محتاج، وكإنشاء دور المعوقين، وإغاثة الملهوفين، وإشباع الجائعين، وكسوة العارين، وبناء المساجد لفقراء المسلمين، وتشييد المستشفيات لمرضاهم، وحفر الآبار لهم في أي مكان يوجد فيه من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد جاء أن على المسلم في ماله حقوقًا عظيمة غير الزكاة المفروضة.

وكما أن الإنفاق في الخير متنوع، فكذلك المستفيدين من صدقة التطوع أيضًا شرائح متنوعة، بينهم قاسم مشترك ألا وهو الحاجة والعوز والفقر، والمرض والعجز، واليتم والترمل، وكبر السن، حتى بهيمة الأنعام يمكن أن تستفيد من صدقة التطوع.

المفهوم الشامل للصدقة:

ويجدر التنبيه هنا إلى أن الإنفاق التطوعي أيضًا ليس محصورًا في المال فقط، بل قد جاء أن قضاء الحوائج صدقة وأنه عبادة، فجهد الإنسان وعمله في الخير يعد من الصدقات التطوعية، ولا شك أن المال هو الأساس في صدقة التطوع، لكن المسلم أحيانًا لا يستطيع دفع المال بسبب حاجته له أو فقره أو نحو ذلك، أو بأن يكون أخوه المسلم محتاجًا إلى شيء آخر غير المال، ففضل الله واسع، وأجره عظيم، فتقديمك الجهد والعمل والسعي بالجاه لفعل الخير يعد في أحيان كثيرة مثل دفع المال أو أفضل، وفي الحديث: (كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة)[1].

ومن هذا الحديث يتبين أن العبرة ومحط النظر هي الغاية لا الوسيلة التي تتخذ لتحصيلها ما دامت مشروعة، ولا غبار عليها؛ إذ الغاية هي نفع المسلم لأخيه المسلم بأي نوع من أنواع النفع المالي أو الجسدي أو المعنوي، فالشأن هو التعاون، وإسداء المعروف، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق)[2].

فنفع المسلم أخاه المسلم صدقة عظيمة خاصة في ظل هذه الحياة التي يبتلى ويمتحن فيها المسلم في كل أمر من أموره؛ ولهذا فمطلوب من كل مسلم أن ينتبه لنفسه ما دام في دار المهلة، فيجتهد في كسب رضا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه ٣/ ١٠٩٠، ٢٨٢٧، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٠٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء ٨/ ٣٧، ٦٨٥٧.

ربه ليحوز على جنته، وينجو من عذابه، وذلك عن طريق المساهمة في وجوه الخير والبر، ومجالات الخير والبر واسعة وكثيرة، ومنها نفع المسلم أخاه المسلم، وقضاء حاجته خاصة إن كانت تتعلق بأكله أو شربه أو لباسه أو سكنه أو علاجه أو أي ضرورة من ضروراته.

وهكذا نجد أن الإسلام قد وسع مجال الصدقة وفتح دائرتها بحيث تشمل أعمالًا كثيرة يستطيع المسلم بالنية الصالحة أن يكسب أجورًا عظيمة، فكل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يضمد به جراح مجروح، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضي دين غارم، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال، أو يهدي حائرًا، أو يعلم جاهلًا، أو يؤوي غريبًا، أو يدفع شرًا عن مخلوق، أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعًا إلى ذي شيبة، فكل ذلك وغيره كثير وكثير يعد عبادة وقربة يؤجر الإنسان عليه.

كذلك نجد أن الإسلام لم يقصر الصدقات على بني الإنسان، بل يتعداه إلى غيره من المخلوقات كالطيور والحيوانات، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له) قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: (في كل كبد رطبة أجر)[1].

ومن مجالات صدقة التطوع:

١. الصدقة في باب الجهاد في سبيل الله.

الإنفاق في الجهاد في سبيل الله ونصرة الدين ونشر الخير باب واسع، وقد يكون واجبًا، وقد يكون مندوبًا، وقد قال تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الصف: ١١].

فقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿وَتُجَاهِدُونَ﴾ خبر، وقيل: هو خبر بمعنى الأمر، أي: آمنوا وجاهدوا، والتعبير به للإيذان بوجوب الامتثال، كأن الإيمان والجهاد قد وقعا، فأخبر بوقوعهما، والخطاب إذا كان للمؤمنين الخلص، فالمراد تثبتون وتدومون على الإيمان، أو تجمعون بين الإيمان والجهاد، أي: بين تكميل النفس وتكميل الغير وإن كان للمؤمنين ظاهرًا، فالمراد تخلصون الإيمان[2].

(١) أخرجه البخاري في المساقاة، باب فضل سقي الماء ٢/ ٨٣٣، ٢٢٣٤، ومسلم في السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم ٢٢٤٤.

(٢) انظر: تفسير الألوسي ٢٠/ ٤٨٩.

وجاء التعبير بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ لإفادة أن ما يذكر بعد ذلك من الأشياء التي تحتاج إلى من يهدي إليها؛ لأنها أمور مرد تحديدها إلى الله تعالى، وتنكير لفظ التجارة للتهويل والتعظيم، أي: هل أدلكم على تجارة عظيمة الشأن، وأطلقت التجارة هنا على الإيمان والعمل الصالح؛ لأنهما يتلاقيان ويتشابهان في أن كليهما المقصود من ورائه الربح العظيم، والسعي من أجل الحصول على المنافع.

وقدم الأموال على الأنفس لأنها هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز إلى الجهاد[1]. أو لأن المقام مقام تفسير وتوضيح لمعنى التجارة الرابحة عن طريق الجهاد في سبيل الله، ومن المعلوم أن التجارة تقوم على تبادل الأموال، وهذه الأموال هي عصب الجهاد، فعن طريقها تشترى الأسلحة والمعدات التي لا غنى للمجاهدين عنها، وفي الحديث الشريف (من جهز غازيًا فقد غزا)[2].

بينما نجد في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[التوبة١١١].

قدم الأنفس على الأموال لأن الحديث هنا في معرض الاستبدال والعرض والطلب والأخذ والعطاء، فقدم سبحانه الأنفس؛ لأنها أعز ما يملكه الإنسان، وجعل في مقابلها الجنة؛ لأنها أعز ما يوهب، وأسمى ما تتطلع إلى نيله النفوس[3].

واسم الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من الإيمان والجهاد، أي: ذلكم الذي أرشدناكم إلى التمسك به من الإيمان والجهاد في سبيل الله هو خير لكم من كل شيء إن كنتم من أهل العلم والفهم.

وفي هذه الآية بيان أن مفهوم الجهاد لا يتمثل فقط في الجهاد بالسيف، وهذه من المسائل التي أخطأ فيها المترجمون الذين ترجموا معاني مفردات القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فمن الترجمة الخاطئة أن يترجم الجهاد بمعنى (القتال) فقط، ويحصر مفهوم الجهاد في القتال، وهذا مفهوم قاصر، فالجهاد أعم من القتال؛ ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن)[4].

وهناك صور من صور الجهاد غير القتال كالجهاد بالمال والجهاد بالكلمة.

(١) فتح القدير ٥/ ٣١١.
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير ٣/ ١٥٠٧، ١٨٩٥.
(٣) الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٤١٩١.
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ١/ ٦٩، ٥٠.

ومنها: حديث النبي عليه الصلاة والسلام: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)[1].

ومن هذا الباب: قوله: (ففيهما فجاهد)[2].

فالمجاهدة لها صور متعددة؛ فترجمة الجهاد إلى (القتال) تفسير قاصر، وترجمة قاصرة من المترجم الذي قام بها؛ ولذلك قال كثير من العلماء المعاصرين: إن التفاسير التي ترجمت وإن كان مترجموها على درجة من الخلق الحسن والصلاح، لكن لقلة علمهم بالمدلولات الشرعية أخطؤوا في كثير من الألفاظ حين ترجموها.

ولكن استدركوا على مثل هذه الترجمة القاصرة بعموم سيرة النبي وعموم سنته صلى الله عليه وسلم ؛ فقد بين أن الجهاد أنواع متعددة، فقضى هذا البيان على حصر الجهاد بالسيف فقط، فلا يظن أن الجهاد انتهى بعدم وجود المعارك.

بل مراد النبي صلى الله عليه وسلم به كل أنواع الجهاد، فإن الجهاد بالمال ماضٍ أيضًا إلى يوم القيامة، وهو أحد أقسام الجهاد، فالباب مفتوح لمن أراد أن يجاهد؛ وذلك بتخصيص جزء من ماله للتفقه في سبيل الله، فيكون مجاهدًا حينئذٍ، وهو بذلك على ثغر من الثغور، وإن كان لا يشعر به أحد من الناس.

٢. الصدقة على المدين المعسر.

ومن أبواب صدقة التطوع الصدقة على المدين المعسر، وهو من ثبت إعساره وعدم قدرته على الوفاء بشهادة من يعلم بحاله كجار أو صاحب ونحو ذلك، وتكون بإنظاره، أو مسامحته بالمال، فقد ورد في فضل إنظاره قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٨٠].

والمعنى: وإن وجد مدين معسر ممن لكم عليهم دين فأنظروه وأمهلوه إلى حين اليسار، حتى يتمكن من أداء دينه، وقوله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وتصدقكم على المعسرين من المدينين بإبرائهم من الدين كلًا أو بعضًا خير لكم من إنظارهم وأكثر ثوابًا، وفي ذلك حث على الصدقة، والسماح للمدين المعسر؛ لما فيه من التعاطف والتراحم، وبر الناس بعضهم ببعض، وفي الآية وجوب إنظار المعسر إلى اليسار، وأفضل منه الإبراء.

وعن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن رجلًا كان فيمن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه، فقيل له:

(١) أخرجه أحمد ١٧/ ٢٢٧، ١١١٤٣، وصححه الألباني في الصحيحة: ٤٩١.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الجهاد بإذن الأبوين ٤/ ٥٩، ٣٠٠٤، ومسلم في البر والصلة، باب بر الوالدين ٢٥٤٩.

هل عملت من خير؟ قال: ما أعلم، قيل له: انظر، قال: ما أعلم شيئًا غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا وأجازيهم فأنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر، فأدخله الله الجنة)[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله في ظله)[2].

٣. القرض الحسن.

ومن أبواب صدقة التطوع القرض الحسن، بأن يقرض المسلم أخاه المسلم إذا علم حاجته، والقرض يعد من أبواب الخير والمعروف الذي يساهم في تفريج الكربات، وتخفيف الهموم، ويعد من أبواب صدقة التطوع؛ لأن المسلم استفاد من المال في تلك المدة التي اقترض فيها.

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من أقرض ورقًا مرتين كان كعدل صدقة مرة)[3].

بل قد يكون القرض أفضل من الصدقة؛ لأن صاحب القرض لا يأتي إلا وهو محتاج، وأما الصدقة فربما وضعت في يد غني.

وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[البقرة: ٢٤٥].

وقد ذكر الله هذه الآية في كتابه مرارًا مبينًا فضل القرض وثوابه، وأنه سبحانه متكفلٌ بالأجر العظيم، والثواب الكبير لمن أقرض الله قرضًا حسنًا، وإن كان معنى القرض هاهنا عموم الصدقة لوجه الله إلا أنه يدخل فيه: ما يعطيه الإنسان من ماله لغيره على أن يقوم برده إليه.

ثالثًا: الإنفاق المذموم:

ومن أنواع الإنفاق المذكورة في القرآن الكريم الإنفاق المذموم، ومنه إنفاق الأموال في الصد عن سبيل الله، كما وقع من كفار قريش يوم بدر ويوم أحد ويوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش لقتال الرسول صلى الله عليه وسلم، والصد عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[الأنفال: ٣٦].

أي: إن الذين جحدوا وحدانية الله، وعصوا رسوله، ينفقون أموالهم فيعطونها أمثالهم من المشركين وأهل الضلال؛ ليصدوا عن سبيل الله، ويمنعوا المؤمنين

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٣/ ١٢٧٢، ٣٢٦٦.
(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ٨/ ٢٣١، ٧٧٠٤.
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٣٥٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٨٠.

عن الإيمان بالله ورسوله، فينفقون أموالهم في ذلك، ثم تكون عاقبة نفقتهم تلك ندامة وحسرة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما يأملون من إطفاء نور الله، والصد عن سبيله، ثم يهزمهم المؤمنون آخر الأمر، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون فيعذبون فيها.

والآية وإن نزلت في أهل بدر إلا أنها -كما قال ابن كثير- عامة، وإن كان سبب نزولها خاصًا، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة؛ حيث لم تجد شيئًا؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله، وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه ومعلن كلمته، ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي[1].

والآية واردة في مقام الإنذار لمن هذا حاله من الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فأخبر الله تعالى أنها ستعود عليهم بالحسرة، وأنهم سينفقونها لتضيع في النهاية وليغلبوا هم، وينتصر الحق في هذه الدنيا، وسيحشرون في الآخرة إلى جهنم فتتم الحسرة الكبرى، حيث يجمع الله الخبيث على الخبيث فيلقي به في جهنم، وتلك غاية الخسران.

والتعبير القرآني يجسم الخبيث حتى لكأنه جرم ذو حجم، وكأنما هو كومة من الأقذار، يقذف بها في النار دون اهتمام ولا اعتبار!

فما أعظمها من حسرة! فإنفاق الأموال هدرًا، وانقلابها حسرة وغلبة من دواعي الهم والغم أن ينفق الإنسان ماله لهدف من الأهداف، ثم يكون الفشل بضياع المال دون تحقيق الغاية، ومما يزيد الأمر مرارة أن ينقلب هذا الإنفاق حسرة عليهم، ليس ذلك فحسب، بل تكون الهزيمة والغلبة عليهم أيضًا، بالإضافة إلى العذاب الأخروي، وهو الحشر إلى جهنم ليذوقوا العذاب.

فهو وعيدٌ يتلوه وعيد، أربعة تهديدات متتالية لأولئك الذين ينفقون الأموال لأجل الصد عن سبيل الله، إنها قضية قديمة حديثة، فالكفار في زماننا ومن والاهم ينفقون الأموال والثروات لأجل محاربة الإسلام والمسلمين، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، ثم إلى جهنم يحشرون، هكذا أخبر الله تعالى .

والإنفاق في الصد عن سبيل الله مستمر

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣.

في كل زمان، ومنه الإنفاق على الفتنة والفساد والكبائر كلها، وإغواء عباد الله بأنواع من الفتن، كمن يطلق قنوات فضائية غنائية وغير غنائية، فيها الفحش والتعري، أو فيها الدعوة إلى تقليد الأعداء، والسير في ركابهم، وفيها تخدير العقول، وتعطيل الطاقات، والإعجاب بالأعداء وبعاداتهم وتقاليدهم، ونزع حاجز العداوة الذي بيننا وبينهم، أو في نشر البدع والضلالات والسحر والشعوذة، فكل من أنفق هذه الأموال في هذه المنابر هو من الصادين عن سبيل الله، وكذلك من يقومون بالدعاية لها، أو الترويج لها، ببيع أو تسويق ونحوها، نسأل الله أن يكف أذاهم عن المسلمين.

ونلحظ في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن الغيب على وجه الإعجاز، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ كما وعد الله به، في مثل قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

كما أن ظاهر قوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يفيد أنه لا يكون حشرهم إلا إلى جهنم؛ لأن تقديم الخبر يفيد الحصر، ومعنى: ﴿ثُمَّ﴾ في الموضعين إما التراخي في الزمان لما بين الإنفاق المذكور وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة.

وأتى بصيغة المضارع في ﴿يُنفِقُونَ﴾ للإشارة إلى أن ذلك دأبهم، وأن الإنفاق مستمر لإعداد العدد لغزو المسلمين وصرفهم عن دينهم، فإنفاقهم حصل في الماضي ويحصل في الحال والاستقبال، وأشعرت لام التعليل بأن الإنفاق مستمر؛ لأنه منوط بعلة ملازمة لنفوسهم وهي بغض الإسلام، وصدهم الناس عنه.

و﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ جمع مضاف، يجعله من صيغ العموم، فكأنه قيل: ينفقون أموالهم كلها مبالغة، وإلا فإنهم ينفقون بعض أموالهم، والفاء في ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ تفريع على العلة؛ لأنهم لما كان الإنفاق دأبهم لتلك العلة المذكورة كان مما يتفرع على ذلك تكرر هذا الإنفاق في المستقبل، أي: ستكون لهم شدائد من بأس المسلمين تضطرهم إلى تكرير الإنفاق على الجيوش لدفاع قوة المسلمين.

وضمير (ينفقونها) راجع إلى الأموال لا بقيد كونها المنفقة، بل الأموال الباقية، أو بما يكتسبونه...، وأسندت الحسرة إلى الأموال؛ لأنها سبب الحسرة بإنفاقها، ثم إن الإخبار عنها بنفس الحسرة مبالغة، مثل الإخبار بالمصادر؛ لأن الأموال سبب التحسر لا سبب الحسرة نفسها، وهذا إنذار بأنهم لا يحصلون من إنفاقهم على طائل فيما

أنفقوا لأجله؛ لأن المنفق إنما يتحسر ويندم إذا لم يحصل له المقصود من إنفاقه، ومعنى ذلك أنهم ينفقون ليغلبوا فلا يغلبون، فقد أنفقوا بعد ذلك على الجيش يوم أحد...، ثم أنفقوا على الأحزاب حين هاجموا المدينة، ثم انصرفوا بلا طائل، فكان إنفاقهم حسرة عليهم، وقوله: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ارتقاء في الإنذار بخيبتهم وخذلانهم؛ فإنهم بعد أن لم يحصلوا من إنفاقهم على طائل، توعدوا بأنهم سيغلبهم المسلمون بعد أن غلبوهم أيضًا يوم بدر، وهو إنذار لهم بغلب فتح مكة، وانقطاع دابر أمرهم، وإسناد الفعل إلى المفعول لكون فاعل الفعل معلومًا بالسياق، فإن أهل مكة ما كانوا يقاتلون غير المسلمين[1].

ثم قال الله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾ أي: الفريق الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين، فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا، وهو عبارة عن الجمع والضم، حتى يتراكموا، يعني: لفرط ازدحامهم، وقوله: (أولئك) إشارة إلى الفريق الخبيث، والمراد بالخبيث: نفقة الكافر على عداوة محمد، وبالطيب نفقة المؤمن في جهاد الكفار، كإنفاق أبي بكر وعثمان في نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام، فيضم تعالى تلك الأمور الخبيثة بعضها إلى بعض، فيلقيها في جهنم، ويعذبهم بها.

والمقصود أن من الإنفاق المذموم ما أنفقه الكفار يوم بدر في الصد عن دين الله، وليس هذا الذي حدث قبل بدر وبعدها إلا نموذجًا من الأسلوب التقليدي لأعداء هذا الدين، إنهم ينفقون أموالهم، ويبذلون جهودهم، ويستنفدون كيدهم في الصد عن سبيل الله، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين، وفي حرب العصبة المسلمة في كل أرض وفي كل حين، فالمعركة لن تكف، وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة، ولن يتركوا أولياء هذا الدين في أمن، فالصد عن سبيل الله معركة متجددة، وعداوة باقية، وأسلوبٌ متواصًى به، عودي به الأنبياء أزمانًا، واشتكى الصالحون منه دهورًا ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[الذاريات: ٥٣].

والصد عن سبيل الله أيضًا قد يكون عامًا، وذلك بالصد عن الدين كليةً، وقد يكون الصد جزئيًا، وذلك بالصد عن بعض تشريعات الإسلام، ومحاربتها ومنعها، والتضييق على أهلها، كالحجاب والنقاب والأذان وحلقات القرآن، فمن الناس من يستغل كل إمكاناته العقلية وقدراته المالية في تزيين الباطل وتلميعه بشتى ألوان الزينة والإغراء، يريد إضلال الناس، وتجهيلهم

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٧٥٧.

وإبعادهم عن الهدى، ومن ثم فإن وجهه يتمعر غضبًا حينما يرى كلمة الحق قد أينعت وآتت أكلها، فلا يهدأ له بال، أو يطمئن له حال، حتى يفسد تلك الثمار بكل تشنج واضطراب.

وهؤلاء القوم مساكين يظنون أنهم بكلمة عوراء أو عصًا غليظة أو جحور مظلمة سوف يقضون على شجرة التوحيد، ويقطعون أغصان الفضيلة، وما دروا أن الله متم نوره، ومظهر دينه، وناصر أولياءه.

وقد أخبر الله أن هؤلاء لا يستفيدون من بذلهم أموالهم في تلك الإنفاقات إلا الحسرة والخيبة في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة؛ وذلك يوجب الزجر العظيم عن ذلك الإنفاق الخبيث.

آداب الإنفاق

تحدث القرآن الكريم عن آداب الإنفاق، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أن يكون الإنفاق في سبيل الله:

حث الإسلام على الإنفاق، وأن يكون في سبيل الله، في كثير من الآيات والأحاديث؛ لأن الإنفاق في سبيل الله هو نتيجة مباشرة للإيمان بالله، وعلامة على عمق اليقين بالله، وبأنه واهب الحياة والغنى والملك والهدى، وشخصية المسلم تتميز بأنها معطاءة، وعطاؤها ليس من أجل شهرة أو رياء، بل في سبيل الله، ووفق المنهاج الذي رسمه لها الله.

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥].

وقال: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة: ٣٤].

والمراد بـ(سبيل الله) المعنى الأعم، كما قال الحافظ ابن حجر، لا خصوص القتال، وإلا لكان الذي ينفق ماله على الفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل ونحوها دون خصوص القتال داخلًا في

دائرة الكانزين والمبشرين بالعذاب[1].

وعلى هذا فيدخل ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كل نفقة ينفقها المسلم في أوجه الخير المختلفة، بل حتى الزكاة فتدخل في ذلك، قال ابن عثيمين: «الأمر بالإنفاق في سبيل الله؛ والزكاة تدخل في هذا الإنفاق، بل هي أول ما يدخل؛ لأنها أوجب ما يجب من الإنفاق في سبيل الله، وهي أوجب من الإنفاق في الجهاد، وفي صلة الرحم، وفي بر الوالدين؛ لأنها أحد أركان الإسلام»[2].

وزعم بعض المعاصرين أن عبارة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذا قرنت بالإنفاق كان معناها الجهاد جزمًا، ولا تحتمل غيره مطلقًا[3]. ويدل على ذلك أن هذه العبارة (أنفقوا في سبيل الله) تذكر كثيرًا بعد الأمر بالجهاد، فكأن المراد منه الإنفاق في الجهاد. وهو زعم غير مبني على الاستقراء التام لموارد الكلمة في الكتاب العزيز، وآيتا البقرة والتوبة المذكورتان تردان عليه.

ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٤].

أي: في وجوه الخيرات الشاملة للجهاد وغيره؛ ولأنه قد أطلق في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ولم يقل: في سبيل الله، كما في سائر الآيات الأخرى.

فالظاهر: هو حمل قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ما ينفق على الفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل وصلة الرحم، وسائر وجوه الخير والبر، ولكن إذا كان سياق الآيات أو الآية في ذكر القتال وجهاد الكافرين ترجح أن يكون المراد (في سبيل الله) ما دل عليه السياق، فيحمل على إنفاق الأموال في القتال في سبيل الله.

وفي قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى الإخلاص في العمل، ويدخل في هذا القصد والتنفيذ، أن يكون القصد لله، وأن يكون التنفيذ على حسب شريعة الله؛ لأن (في) للظرفية، والسبيل بمعنى الطريق، وطريق الله: شرعه، والمعنى: أن هذا الإنفاق لا يخرج عن شريعة الله، والإنفاق الذي يكون موافقًا للشرع هو ما ذكره بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧].

ومعنى إنفاقهم في شرع الله: أن يكون ذلك إخلاصًا لله واتباعًا لشرعه، فمن نوى بإنفاقه غير الله فليس في سبيل الله، كرجل أنفق في الجهاد، أو أنفق في الصدقة على

(١) فتح الباري ٣/ ١٧٢.
(٢) تفسير القرآن للعثيمين ٥/ ٢٤٦.
(٣) انظر: النظام الاقتصادي في الإسلام لتقي الدين النبهاني ص ٢٠٨.

المساكين، لكنه أنفق ليقال: إن فلانًا جواد، أو إنه كريم، هذا ليس في سبيل الله؛ لأنه مراءٍ، لم يقصد وجه الله عز وجل، ولم يرد السبيل الذي يوصل إلى الله، ولا يهمه أن يقبل الله منه أو لا يقبل، المهم عنده أنه يقال عند الناس: إنه رجل كريم أو جواد.

وأما أن يكون على حسب شريعة الله، فإن أنفق في وجهٍ لا يرضى به الله، فليس في سبيل الله -وإن أخلص لله-، كرجل ينفق على البدع يريد بذلك وجه الله، وهذا كثير، كبناء الربط للصوفية المنحرفة، وبناء البيوت للأعياد الميلادية، وبناء القصور للمآتم، وطبع الكتب المشتملة على بدع، هذا الإنسان قد يريد بذلك وجه الله، لكنه خلاف شريعة الله، فلا يكون في سبيل الله[1].

والمقصود أن ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ له معنيان: معنى عام، يدخل ضمنه الصدقات، وإعطاء المحتاجين، وصلة الأرحام، وتقوية الضعفاء من الفقراء والمساكين، ورعاية حقوق الأهل والأولاد وغير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى، ويدخل ضمنه الحقوق الواجبة كالزكوات والأخماس، والإنفاق على الحج والعمرة وأمثالها، ويدخل ضمنه تشغيل الأموال بفتح مشاريع ليستفيد الناس من هذه المشاريع وغير ذلك.

والمعنى الثاني: معنى خاص، والمقصود به الجهاد في سبيل الله، ويدخل فيه نصرة دين الله، ومحاربة أعدائه، وإعلاء كلمته في الأرض؛ حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

والسياق هو الذي يميز هذا المعنى الخاص من المعنى العام السابق، وهذا المعنى هو الذي يجيء بعد ذكر القتال والجهاد، مثل: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ و﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومن ذلك قوله تعالى بعد آيات القتال في سورة البقرة: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

فالإنفاق هنا: إنفاق في نصرة الإسلام، وإعلاء كلمته على أعدائه المحاربين له الصادين عنه.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: «الإنفاق في سبيل الله بمعناه المشهور وهو الإنفاق في عتاد الجهاد لم يكن إلا بعد الهجرة، فإن سبيل الله غلب في القرآن إطلاقه على الجهاد»[2].

وقال البغوي رحمه الله تعالى: «قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أراد به الجهاد، وكل خير هو في سبيل الله، ولكن إطلاقه ينصرف إلى الجهاد»[3].

(١) انظر: تفسير القرآن للعثيمين ٤/ ٣١٣.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٥٤٥.

(٣) معالم التفسير، البغوي ١/ ٢١٥.

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[الحديد: ١٠].

فالسياق يدل على أن الإنفاق هنا كالإنفاق في الآية السابقة.

وفي سورة الأنفال قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٦٠].

فالمقام يدل بوضوح على أن سبيل الله في الآية هو محاربة أعداء الله، ونصرة دين الله، كما صرح بذلك الحديث الصحيح: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[(١)].

وهذا المعنى الخاص هو الذي يعبر عنه أحيانًا بالجهاد والغزو، وتفسيره بنصرة الإسلام أولى، وإلا لكان مضمون معنى: ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ جاهدوا في الجهاد، ولا ينبغي قصر المراد من ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على الإنفاق لأجل الجهاد فقط، وذلك لأن المراد منه مطلق سبيل الله، سواء كان في الجهاد العسكري، أو الجهاد الثقافي، أو الجهاد العمراني، أو إعانة المحتاجين، أو بناء المستشفيات والمستوصفات، أو تأسيس صندوق للقروض، أو غير ذلك؛ لأن سبيل الله طريقه، والطريق إذا أضيف إلى شيء فإنما يضاف إلى ما يوصل إليه، ولما علم أن الله لا يصل إليه الناس إلا عبر الطريق الذي رسمه وحدده، تعين أن يكون المراد من الطريق العمل الموصل إلى مرضاة الله وثوابه، فهو مجاز في اللفظ ومجاز في الإسناد.

وقد عبر القرآن عن هذا المعنى في آية أخرى بلفظ: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة: ٢٦٥].

فيقصد به طلبًا لمرضاة الله تعالى، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص»[(٢)].

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة: «يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ﴾ فيصدقون بها،

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٣/ ١٠٣٤، ٢٦٥٥، ومسلم في الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا رقم ١٩٠٤.

(٢) طريق الهجرتين ١/ ٥٤٦.

ويحملون عليها في سبيل الله، ويقوون بها أهل الحاجة من الغزاة والمجاهدين في سبيل الله، وفي غير ذلك من طاعات الله، وطلب مرضاته»[1].

وجاء التعبير عن هذا المعنى في آية أخرى بلفظ: (وجه الله) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

فقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ بيان لشدة إخلاصهم، ولطهارة نفوسهم، وهو مقول لقول محذوف، أي: يقدمون الطعام لهؤلاء المحتاجين، مع حبهم لهذا الطعام، ومع حاجتهم إليه، ثم يقولون لهم بلسان الحال أو المقال: إنما نطعمكم ابتغاء وجه الله تعالى، وطلبًا لثوابه ورحمته.

فيحتمل أنهم قالوا هذا الكلام بألسنتهم، أو قالوه في نفوسهم، فهو عبارة عن النية والقصد. أو هو بيان من الله تعالى عما في ضمائرهم من الإخلاص؛ لأن الله تعالى علمه منهم، فأثنى عليهم، وإن لم يقولوا شيئًا، أي: قائلين بلسان الحال أو المقال؛ لإزاحة توهم المن المبطل للصدقة، وتوقع المكافآت المنقصة للأجر، أو إنهم يقولون ذلك لهم تأنيسًا لهم، ودفعًا لانكسار النفس الحاصل عند الإطعام، أي: ما نطعمكم إلا استجابة لما أمر الله، فالمطعم لهم هو الله.

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٣٠.

وقوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: لا نطلب على طعامنا مكافأة ولا ثناءً[2]. ثم أضافوا إلى ذلك قولهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ فهذه هي العلة والغاية وهي خوفهم من هذا اليوم الموصوف بهذه الصفات.

والقصر المستفاد من (إنما) قصر قلب، مبني على تنزيل المطعمين منزلة من يضن أن من أطعمهم يمن عليهم، ويريد منهم الجزاء والشكر، بناء على المتعارف عندهم في الجاهلية، والمراد بالجزاء: ما هو عوض عن العطية من خدمة وإعانة، وبالشكور: ذكرهم بالمزية[3].

ثانيًا: ألا يتبع الإنفاق بالمن والأذى:

ومن آداب الإنفاق في سبيل الله ألا يتبع المنفق نفقته بالمن والأذى، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

ونظيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ

(٢) البحر المديد ٦/ ٤٦٩.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٤٦٥٦.

﴿مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ﴾ أي: لا يتبع نفقته التي أنفقها منًا أو أذى. وعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ إما لبعد ما بين المنزلتين، أو للمهلة حقيقة، ويكون فيه إشارة إلى أنهم يمنون بنفقة طال أمدها، وداموا عليها، فأحرى أن لا يمنوا بنفس الإنفاق[1]، ولأن ذكر المن والأذى وإن كان متأخرًا عن الإنفاق إلا أن هذا الذكر المتأخر يدل ظاهرًا على أنه حين أنفق ما كان إنفاقه لوجه الله، بل لأجل الترفع على الناس، وطلب الرياء والسمعة، ومتى كان الأمر كذلك كان إنفاقه غير موجب للثواب.

وفيه إشارة على أن المن والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق، ولو أتى بالواو، وقال: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراخي مبطلًا لأثر الإنفاق، مانعًا من الثواب، فالمقارن أولى وأحرى[2].

وقوله: ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ المن: أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه، بحيث يقول: أنا فعلت معه كذا وكذا، إظهارًا لميزته عليه، والأذى: أن يتطاول عليه بذلك، ويقول: لولا أنا لم يكن منك شيء مثلًا. ويقعان بالقول والفعل.

ولكثرة وقوع المن من المتصدقين وعسر تحفظهم منه أفرده بالذكر، وقدم على الأذى، وإلا فالأذى يشمل المن وغيره، وإنما نص عليه لكثرته.

وقد جعل ابن القيم المن نوعين، فقال: «فالمن نوعان: أحدهما: منٌّ بقلبه، من غير أن يصرح به بلسانه، وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال، وحرمان غيره، وتوفيقه للبذل، ومنع غيره منه، فلله المنة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه منة لغيره.

والنوع الثاني: أن يمن عليه بلسانه، فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقًا وطوقه منة في عنقه، فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا، ويعدد أياديه عنده، قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت، وقال عبد الرحمن بن زيد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلًا شيئًا، ورأيت أن سلامك يثقل عليه، فكف سلامك عنه، وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أسديت إليكم صنيعة فلا تنسوها...، وحظر الله على عباده المن بالصنيعة، واختص به صفة لنفسه؛ لأنه من العباد تكدير وتعيير، ومن الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير، وأيضًا فإنه هو

(١) تفسير ابن عرفة ١/ ٣٤٢.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٦١.

المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة، وأيضًا فالامتنان استعباد، وكسر وإذلال لمن يمن عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله...، ومن هنا -والله أعلم- بطلت صدقته بالمن، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده فلم يرض به، ولاحظ العوض من الأخذ، والمعاملة عنه، فمن عليه بما أعطاه أبطل معاوضته مع الله، ومعاملته له»[1].

ويفهم من هذه الآية أن من أتبع إنفاقه المن والأذى لم يحصل له هذا الثواب المذكور هنا، في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقد صرح تعالى بهذا المفهوم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والحكمة من أن المن والأذى مبطلان للصدقة لما فيه من جرح شعور المسكين، والشرع حريص على الحفاظ على شعور وإحساس المسكين، بحيث لا يشعر بجرح المسكنة، ولا ذلة الفاقة.

فالشرع يريد الإنفاق الطيب المحمود الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها، الإنفاق الذي لا يؤذي كرامة ولا يخدش شعورًا، الإنفاق الذي ينبعث عن أريحية ونقاء، ويتجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه...، والمن عنصر كريه لئيم، وشعور خسيس واطٍ، فالنفس البشرية لا تمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب، أو رغبة في إذلال الآخذ، أو رغبة في لفت أنظار الناس، فالتوجه إذن للناس لا لله بالعطاء، وكلها مشاعر لا تجيش في قلب طيب، ولا تخطر كذلك في قلب مؤمن، فالمن من ثم يحيل الصدقة أذى للواهب، وللآخذ سواء، أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء، ورغبة في رؤية أخيه ذليلًا له كسيرًا لديه، وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله، وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام، ومن رد فعل بالحقد والانتقام[2].

وفي قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم﴾ دلالة على أن حصول المن والأذى يخرجان الإنفاق عن أن يكون فيه أجر وثواب أصلًا من حيث يدلان على أنه إنما أنفق لكي يمن، ولم ينفق لطلب رضوان الله ولا على وجه القربة والعبادة، فلا جرم أن يبطل الأجر.

وفي الآية تحذير للمتصدق من هاتين الصفتين الذميمتين؛ لأنهما مبطلتان لثواب الصدقة، فإن قيل: ظاهر هذا اللفظ أن مجموع المن والأذى يبطلان الأجر، فيلزم

(١) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٦٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٢٨٦ بتصرف يسير.

أنه لو وجد أحدهما دون الآخر لا يبطل الأجر، أجيب: بأن الشرط يقتضي أن لا يقع هذا ولا هذا، أي: فتبطل بكل واحد منهما[1].

وقد أفرد المن بالذكر في كلام النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم) قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرار: قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: (المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)[2].

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ شبه المنان بنفقته كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق في انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحبًا للظهور مثل حجر أملس لا ينبت شيئًا، ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه منتج، فنزل المطر الشديد، فأزال ما عليه من تراب، فانكشف حقيقته، وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس صلد، لا يصلح لإنبات أي شيء عليه.

فالتشبيه في الجملة الكريمة بين الذي ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذي عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر، فيزيل التراب، وتنكشف حقيقته، ويراه الرائي عاريًا من أي شيء يستره، وكذلك المنافق المرائي في إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس، ثم لا يلبث أن ينكشف أمره؛ لأن ثوب الرياء يكشف دائمًا عما تحته، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه.

ومن المفسرين من يرى أن التشبيه في الجملة الكريمة بين المنفق الذي يبطل صدقته بالمن والأذى، وبين الحجر الأملس، وأن الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالمن والأذى، فيكون المعنى: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، فيكون مثلكم كمثل الحجر الأملس الذي عليه تراب، كان يرجى أن يكون منبتًا للزرع، فنزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه، فالمن والأذى يبطلان الصدقات، ويزيلان أثرها النافع، كما يزيل المطر التراب الذي يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس.

والأظهر في عود الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ على الذي ينفق ماله رئاء الناس؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن التشبيه في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ قد جاء بلفظ المفرد، وهو المناسب للذي ينفق ماله رئاء

(١) تفسير السراج المنير ١/ ٣٩١.
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف ١/ ٧١، ٣٠٦.

الناس؛ لأنه مفرد مثله، بخلاف قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ فإن الضمير فيه بلفظ الجمع، فمن الأولى أن يعود الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ إلى المرائي لتوافقهما في الإفراد[1].

ثم فاضل سبحانه وتعالى بين الكلمة الطيبة والصدقة المؤذية، فأخبر أن كلمة طيبة وقولًا حسنًا يواجه به الفقير والمسكين خير من صدقة يتبعها أذى، فقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾[البقرة: ٢٦٣].

فالقول المعروف وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره، والمغفرة وهي العفو عمن أساء إليك خير من الصدقة بالأذى، فالقول المعروف إحسان وصدقة بالقول، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة، ويدخل في المغفرة مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة، والأذى له بسبب رده فيكون عفوه عنه خيرًا من أن يتصدق عليه ويؤذيه، هذا على المشهور من القولين في الآية.

والقول الثاني: أن المغفرة من الله أي: مغفرة لكم من الله؛ بسبب القول المعروف والرد الجميل خير من صدقة يتبعها أذى، وفيها قول ثالث- أي: مغفرة وعفو من السائل إذا رد وتعذر المسئول خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى، وأوضح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جدًا؛ لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ، والمعنى: أن قول المعروف له، والتجاوز والعفو خير لك من أن تتصدق عليه وتؤذيه[2].

والحكمة من ذلك: أن الكلمة الطيبة للسائل، والعفو عنه فيما صدر منه كل ذلك يؤدي إلى رفع الدرجات عند الله، وإلى تهذيب النفوس، وتأليف القلوب، وحفظ كرامة أولئك الذين مدوا أيديهم بالسؤال، أما الصدقة التي يتبعها الأذى فإن إيتاءها بتلك الطريقة يؤدي إلى ذهاب ثوابها، وإلى زيادة الآلام عند السائلين، ولا سيما الذين يحرصون على حفظ كرامتهم، وعلى صيانة ماء وجوههم، فإن ألم الحرمان عند بعض الناس أقل أثرًا في نفوسهم من آلام الصدقة المصحوبة بالأذى؛ لأن ألم الحرمان يخففه الصبر الذي وراءه الفرج، أما آلام الصدقة المصحوبة بالأذى لهم فإنها تصيب النفوس الكريمة بالجراح التي من العسير التئامها وشفاؤها.

وفي الآية دليل على أن الأعمال السيئة

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٤٩١.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٦٠.

تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

فكما أن الحسنات يذهبن السيئات، فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[محمد: ٣٣].

حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها؛ لئلا يضيع العمل سدى[(١)].

والمقصود أن لقبول الصدقة شروطًا سابقة، ومبطلات لاحقة؛ أما الشروط السابقة فالإخلاص لله والمتابعة، وأما المبطلات اللاحقة فالمن والأذى، وقد امتدح الله في الآيات السابقة الذين ينفقون في سبيله، ولا يتبعون ما أنفقوا منًا على من أعطوه لا بقول ولا بفعل، ولا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهًا، يحبط به إحسانهم، ووعدهم تعالى جزيل الثواب على ذلك، ثم بين أن ترك المن والأذى بنفسه خير من الإنفاق، وأن الواجب رد السائل ردًا جميلًا، وهو المعروف، وعفوه أن صدر منه ما يثقل عليه، وينال مغفرة الله بسبب ذلك.

ثالثًا: الإنفاق في السر أولى، إلا أن يكون قدوة لغيره:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم إنفاق السر وإنفاق العلانية، وجعل كليهما سلوكًا عامًا للمؤمنين، ومدح كلا النوعين في سياق واحد، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٤].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾[إبراهيم: ٣١].

وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١١٣.

﴿فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢٧١].

فهذه الآيات الكريمة تفيد أن الإنفاق في كلا الحالين في السر وفي العلانية مشروع ومحمود، وأن الصدقات في كل أحوالها خيرٌ محضٌ، ما دام المنفق قد خلص من الرياء، وجانب المن والأذى، وإذا كان ثمة تفاوت فهو في حال النفس، والاحتياط للرياء، وسد مداخله.

إلا أن هناك تفصيلًا من ناحية أفضلية أيٍ منهما في أحوالٍ وظروفٍ معينة، ومنطلق العلماء في مسألة تفضيل الإنفاق سرًا على الإنفاق علانية أو العكس هو قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢٧١].

فذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، فالإخفاء فيها أفضل من الإظهار، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها؛ لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات، قال الحسن: «إظهار الزكاة أحسن، وإخفاء التطوع أفضل؛ لأنه أدل على أنه يراد الله عز وجل به وحده»[(١)]. ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل على علانيتها سبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفًا»[(٢)].

قال ابن العربي: «أما صدقة الفرض فلا خلاف أن إظهارها أفضل، كصلاة الفرض، وسائر فرائض الشريعة؛ لأن المرء يحرز بها إسلامه، ويعصم ماله» ثم قال في مسألة صدقة النفل: «والتحقيق فيها: أن الحال في الصدقة تختلف بحال المعطي لها، والمعطى إياها، والناس الشاهدين لها، أما المعطي فله فائدة إظهار السنة وثواب القدوة، وآفتها الرياء والمن والأذى، وأما المعطى إياها فإن السر أسلم له من احتقار الناس له، أو نسبته إلى أنه أخذها مع الغنى عنها، وترك التعفف، وأما حال الناس فالسر عنهم أفضل من العلانية لهم، من جهة أنهم ربما طعنوا على المعطي لها بالرياء، وعلى الآخذ لها بالاستثناء؛ ولهم فيها تحريك القلوب إلى الصدقة، لكن هذا اليوم قليل»[(٣)].

وبعض العلماء يرى أن أفضلية إخفاء الصدقة مقيدة بإيتاء الفقراء خاصةً لا في كل الصدقات؛ تماشيًا مع منطوق الآية،

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٣٣٢.
(٢) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢/ ٧٧.
(٣) أحكام القرآن ١/ ٣١٥.

يقول ابن القيم: «تأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها فهو خيرٌ لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر، أو غير ذلك»[1].

والمقصود أن أكثر العلماء يرون أن الأفضل في الصدقات الواجبة الإظهار، وأما في سائر الصدقات المندوبة والمستحبة فالأفضل فيها الإخفاء والإسرار، وهذا في الأحوال العادية، أما في أحوالٍ أخرى استثنائية، فيمكن النظر في المصلحة المتحققة بين إخفاء أو إسرار الصدقة الواجبة أو النافلة.

رابعًا: أن يكون المال المنفق منه من الطيب:

ومن آداب الإنفاق في سبيل الله أن يكون الإنفاق من الطيب، وقد حث القرآن الكريم على الإنفاق مما يحبه الإنسان، فقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٩٢].

فقوله: ﴿لَن تَنَالُوا﴾ أي: تدركوا، وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات، وأنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق، وبر قلوبكم، ويقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحبوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك[2].

ولم يبين في الآية المنفق وإنما أبهمه، فقال: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وسوغ هذا الإبهام هنا وجود ﴿تُنفِقُوا﴾ إذ الإنفاق لا يطلق على غير بذل المال...، والمال المحبوب يختلف باختلاف أحوال المتصدقين، ورغباتهم، وسعة ثرواتهم، والإنفاق منه، فيكون التصدق من النفيس والذي يحب دليل على سخاء لوجه الله تعالى، وفي ذلك تزكية للنفس، وتنقية لها مما فيها من الشح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

وفي ذلك أيضًا صلاح عظيم للأمة؛ إذ يجود أغنياؤها على فقرائها بما تطمح إليه نفوسهم من نفائس الأموال، فتشتد بذلك أواصر الأخوة، ويهنأ عيش الجميع.

و(ما) في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم ص١٧٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١٣٨.

للتبعيض...، والظاهر: أن المحبة هنا هو ميل النفس، وتعلقها التعلق التام بالمنفق، فيكون إخراجه على النفس أشق وأصعب من إخراج ما لا تتعلق به النفس ذلك التعلق؛ ولذلك فسره الحسن والضحاك: بأنه محبوب المال، كقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾[الإنسان: ٨].

وقد روي عن جماعة أنهم لهذه الآية تصدقوا بأحب شيء إليهم، فتصدق أبو طلحة ببيرحاء، وتصدق زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها، وابن عمر بالسكر واللوز؛ لأنه كان يحبه، وأبو ذر بفحل خير إبله، وبرنس[(١)] على مقرور[(٢)]، وتلا الآية، والربيع بن خيثم بالسكر لحبه له، وأعتق عمر جارية أعجبته، وابنه عبد الله جارية كانت أعجب شيء إليه.

وقيل: معنى ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ما يكون محتاجًا إليه. وقيل: كل شيء ينفقه المسلم من ماله يطلب به وجه الله[(٣)].

والإنفاق من المحبوب يدخل فيه المال وغيره، كبذل الجاه في معاونة الناس، إن صحبه الإخلاص، وكبذل البدن في طاعة الله، وبذلك المهج في سبيل الله.

وإذا تأملت جميع الطاعات وجدتها إنفاقًا مما يحب الإنسان، إما من ماله، وإما من صحته، وإما من دعته وترفهه، وهذه كلها محبوبات[(٤)].

ولما كان الإنفاق على أي وجه كان مثابًا عليه العبد، سواء كان قليلًا أو كثيرًا، محبوبًا للنفس أم لا، وكان قوله: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احترز تعالى عن هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

الإنفاق من الطيب:

وأمر الله تعالى بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وخبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[البقرة: ٢٦٧].

وهو المعبر عنه بـ(الحسن) في قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[البقرة: ٢٤٥].

فقوله: ﴿أَنفِقُوا﴾ يشمل النفقة الواجبة

(١) البرنس: كل ثوب رأسه منه ملْتزق به، دراعةً كان أو ممطرًا أو جبة. انظر: العين ٧/ ٣٤٣.
(٢) القر: البرد، يقال: يوم مقرور بارد، ورجل مقرور أصابه البرد. انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٧٢٥.
(٣) تفسير البحر المحيط ٣/ ٣١٩.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٦١.

والمستحبة، أما الواجبة وهي الزكاة، فيحمل الأمر على الوجوب؛ إذ لا يصح دفع الرديء فيها، وأما التطوع فعلى سبيل الكمال.

وقوله: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: من جيد ما كسبتم ومختاره، كذا قال الجمهور، وقال جماعة: إن معنى الطيبات هنا الحلال، ولا مانع من اعتبار الأمرين جميعًا؛ لأن جيد الكسب ومختاره إنما يطلق على الحلال عند أهل الشرع، وإن أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد في نفسه حلالًا كان أو حرامًا، فالحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية[1].

وأضاف سبحانه الكسب إليهم فقال: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ وإن كان هو الخالق لأفعالهم؛ لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه فقال: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم﴾ لأنه ليس فعلًا لهم ولا هو مقدور لهم، فأضاف مقدورهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه، ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين، وسلب قدرة العبد وفعله، وتأثيره عنها بالكلية[2].

وقوله: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: أنفقوا من طيبات أموالكم التي اكتسبتموها، ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض من الحبوب والثمار والزروع وغيرها، وترك سبحانه ذكر كلمة الطيبات في هذه الجملة لسبق ذكرها في الجملة التي قبلها.

وخص سبحانه هذين النوعين، وهما الخارج من الأرض، والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي وغيرها، إما بحسب الواقع، فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك، فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب، والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما، وعموم وجودهما، وإما لأنهما أصول الأموال، وما عداهما فعنهما يكون، ومنهما ينشأ، فإن الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والأمتعة، وسائر ما تتعلق به التجارة، والخارج من الأرض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض، فكان ذكرهما أهم[3].

وقد أكد الله تعالى هذا الأمر بجملتين كريمتين، فقال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ فقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟﴾ أي: ولا تقصدوا

(١) فتح القدير ١/ ٤٣٦.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٧١.
(٣) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٧١.

وتتعمدوا، يقال: تيممت الشيء ويممته إذا قصدته، ويقال: يممت جهة كذا إذا قصدته، ومنه الإمام؛ لأنه المقصود المعتمد، وأصل تيمموا، فحذفت إحداهما تخفيفًا.

والخبيث: هو الرديء من كل شيء، وخبث الفضة والحديد ما نفاه الكير؛ لأنه ينفي الرديء، ويطلق الخبيث على الشيء الحرام والمستقذر.

والمراد: لا تنفقوا من الأشياء التي لا فائدة فيها، أو مضرة، مثل الملابس الخلقة، أو الفواكه والمأكولات الفاسدة، وما شابه ذلك، بل مما يحبه الإنسان، والذي هو أهل لأن يعطى بيد الله، فإن غير ذلك ليس أهلًا لوضعه بيد الله، فالإنفاق بالأكل ينبغي أن يكون من النوع الذي يحبه المنفق له ولعياله، وفي الملابس من النوع الذي يحب لبسه المنفق وأهل بيته، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا الطيب- فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربى أحدكم فلوه -أي: المهر الصغير- حتى تكون مثل الجبل)[1].

والإغماض في اللغة -كما يقول الرازي-: غض النظر، وإطباق جفن على جفن، وأصله من الغموض، وهو الخفاء[2]، والمراد بالإغماض ها هنا: المساهلة؛ وذلك لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عنه لئلا يرى ذلك، ثم كثر ذلك حتى جعل كل تجاوز ومساهلة في البيع وغيره إغماضًا.

والمعنى: أنفقوا أيها المؤمنون من أطيب أموالكم وأنفسها وأجودها، ولا تتحروا وتقصدوا أن يكون انفاقكم من الخبيث الرديء، والحال أنكم لا تأخذونه إن أعطي لكم هبة أو شراء أو غير ذلك، إلا أن تتساهلوا في قبوله، وتغضوا الطرف عن رداءته، إذا كان هذا شأنكم في قبول ما هو رديء، فكيف تقدمونها لغيركم؟ فإن الله ينهاكم عن ذلك؛ لأن من شأن المؤمن الصادق في إيمانه ألا يفعل لغيره إلا ما يجب أن يفعله لنفسه، ولا يعطي من شيء إلا ما يجب أن يعطى إليه[3].

والله غني عن الخبيث الذي تقصدون إليه، فتخرجون منه صدقاتكم! بينما هو سبحانه يحمد لكم الطيب حين تخرجونه، ويجزيكم عليه جزاء الراضي الشاكر، وهو الله الرازق الوهاب، يجزيكم عليه جزاء الحمد، وهو الذي أعطاكم إياه من قبل! فأي إيحاء! وأي إغراء! وأي تربية للقلوب بهذا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب ٢/ ٥١١، ١٣٤٤، ومسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٣/ ٨٥، ٢٣٩٠، واللفظ للبخاري.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢.

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٤٩٧.

الأسلوب العجيب!

والحكمة من النهي عن التصدق بالرديء والخبيث إضافة إلى ما سبق: أن الإنفاق لما كان تضميدًا لجراح الفقير، ومواساة له في محنته، فإن الخلق الرفيع يقتضي أن تكون هذه المواساة على النحو الأحسن؛ لتثمر وتؤثر أثرها الطيب في نفوس الضعفاء والمحرومين؛ ليشعر كل فرد منهم بالعطف، والمشاركة لهم في الطيب من العيش، لا للتخلص من هذا الذي قدم لهم. فشعور الفقير بأن ما دفعه إليه المحسن من النوع الرديء إنما كان للتخلص من رداءته يترك في نفسه الأثر السيئ إزاء المنفق الذي أخرج الرديء من المال.

ولما كان الكف عن الإنفاق أو التقدم بالرديء الخبيث إنما ينشأ عن دوافع السوء، وعن تزعزع اليقين فيما عند الله، وعن الخوف من الإملاق الذي لا يساور نفسًا تتصل بالله، وتعتمد عليه، وتدرك أن مرد ما عندها إليه، كشف الله للذين آمنوا عن هذه الدوافع لتبدو لهم عارية، وليعرفوا من أين تنبت النفوس؟ وما الذي يثيرها في القلوب؟ إنه الشيطان[1].

وتقوم الآيات بإجراء مقارنة بين وعدين، أحدهما صادر من الشيطان، والآخر من الله سبحانه، وكم بين الوعدين من الفرق ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[البقرة: ٢٦٨].

فهذا البخل، واختيار الرديء للصدقة من الشيطان الذي يخوفكم الفقر، ويغريكم بالبخل، ويأمركم بالمعاصي، ومخالفة الله تعالى، والله سبحانه وتعالى يعدكم على إنفاقكم غفرانًا لذنوبكم، ورزقًا واسعًا، والله واسع الفضل، عليم بالأعمال والنيات.

ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ فغناه وحمده يأبى قبول الرديء، فإن قبل الرديء الخبيث إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه؛ لعدم كمالها وشرفها، وأما الغني عنه الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقبله[2].

والمقصود أن الآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يلتزموا في نفقتهم المال الطيب في كل وجه من وجوهه، بأن يكون جيدًا نفيسًا في صنفه، وحلالًا مشروعًا في أصله.

خامسًا: أن تطيب نفس المنفق بالنفقة:

ومن آداب الإنفاق أن تطيب نفس المنفق بالنفقة، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾[البقرة: ٢٦٥].

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٩٢.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٧١.

فمعنى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس، سخية به، لا على وجه التردد، وضعف النفس في إخراجها؛ وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان: إما أن يقصد الإنسان بها محمدة الناس ومدحهم، وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين، فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتثبيتًا من أنفسهم[1].

فقوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ معطوفة على ﴿ابْتِغَاءَ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿مِّنْ﴾ ابتدائية؛ يعني: تثبيتًا كائنًا في أنفسهم لم يحملهم عليه أحد، ومعنى يثبتونها: يجعلونها تثبت، وتطمئن، أي: لا تتردد في الإنفاق، ولا تشك في الثواب؛ وهذا يدل على أنهم ينفقون طيبة نفوسهم بالنفقة[2].

فالإنفاق على وجه التثبيت من النفس له فضل عند الله؛ لأنه يندفع بدافع نفسي، لا بتوصية من أحد أو نصيحة، بل هم على يقين بالثواب، وتصديق بوعد الله، ويعلمون أن ما أخرجوا خير لهم مما تركوا، والإنسان الذي لا يعمل إلا كارهًا فيه خصلة من خصال المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[التوبة: ٥٤].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١١٤.
(٢) تفسير القرآن للعثيمين ٥/ ٢٥٨.

وجاء في تفسير ابن عبد السلام في قوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾[البقرة: ٢٤٥].

«أي: طيبةً بها نفسه، أو محتسبًا لها عند الله، وسمي حسنًا لصرفه في وجوه حسنة، أو لأنه لا من فيه ولا أذى، فيضاعف القرض الحسنة بعشر، أو الثواب تفضلًا بما لا نهاية له»[3].

وقال البقاعي في ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: «أي: طيبًا خالصًا فيه، متحريًا به أفضل الوجوه، طيبة به النفس، من غير من، ولا كدر بتسويف ونحوه»[4].

وقال ابن القيم: «وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسنًا؛ وذلك يجمع أمورًا ثلاثة، أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه، الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله، ابتغاء مرضاة الله، الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي، فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ»[5].

وقال بعض العلماء: القرض لا يكون حسنًا حتى تجمع فيه أوصاف عشرة، وهي: أن يكون المال من الحلال، وأن يكون من أجود المال، وأن تتصدق به وأنت محتاج إليه، وأن تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها، وأن تكتم الصدقة ما أمكنك، وأن لا

(٣) تفسير ابن عبد السلام ٦/ ٣٩٩.
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٨/ ٣٦٢.
(٥) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٢٥٨.

تتبعها بالمن والأذى، وأن تقصد بها وجه الله، ولا ترائي بها الناس، وأن تستحقر ما تعطي، وتتصدق به، وإن كان كثيرًا، وأن يكون من أحب أموالك إليك، وأن لا ترى عز نفسك وذل الفقير، فهذه عشرة أوصاف، إذا اجتمعت في الصدقة كانت قرضًا حسنًا[1].

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ، وربما قال: يعطي ما أمر به، فيعطيه كاملًا موفرًا، طيبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين)[2].

فهذه الأوصاف شروط لحصول هذا الثواب، فينبغي أن يعتنى بها، ويحافظ عليها، وقوله: (طيبة به نفسه) بأن لا يحسد المعطى، ولا يظهر له من العبوس وتقطيب الوجه ما يكدر خاطره، ونبه على ذلك لأن أكثر الخزان غلب عليهم البخل بمال غيرهم، فهم أبخل البخلاء.

فإذا أعطى هذا الخازن وهو طيب النفس فهو أحد المتصدقين، مع أن المال الذي تصدق منه ليس ملكًا له، وإنما هو خازن فقط، فلما كان واليًا لخزانته، وأدى حقوق الناس في ولايته، طيبة نفسه بما أدى استحق ذلك التكريم لأمانته، فإذا كان هذا شأن الخازن فصاحب المال أولى، بأن يعطي العطاء من طيب نفس.

والمقصود أن من آداب الإنفاق في سبيل الله أن تكون نفس المنفق طيبة به، لا مكرهًا، ولا معتقدًا أنه غرم وضريبة، كما يظن بعض الناس أن الزكاة ضريبة، حتى إن بعض الكتاب يعبرون بقولهم: ضريبة الزكاة، والعياذ بالله.

سادسًا: أن يكون الإنفاق وسطًا، لا إسراف فيه ولا تقتير:

ومن آداب الإنفاق التوسط فيه، وقد نهى الله تعالى عن الإسراف في الإنفاق، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف: ٣١].

فقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: كلوا من المآكل الطيبة، واشربوا المشارب الحلال، ولا تسرفوا، لا في زينتكم، ولا في مأكلكم، أو مشربكم؛ لأنه سبحانه يكره المسرفين.

قال ابن كثير رحمه الله: «قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية، في قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾»[3]،

(١) لباب التأويل، الخازن ٦/ ٥١.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب أجر الخادم إذا تصدق بأمر صاحبه غير مفسد ٢/ ٥٢١، ١٣٧١، ومسلم في الزكاة، باب أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت من بيت زوجها غير مفسدة بإذنه الصريح أو العرفي ٣/ ٩٠، ٢٤١٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٦.

وقال البخاري: «قال ابن عباس: كُلْ ما شئت، والبس واشرب ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف، أو مخيلة»[1].

والإسراف والسرف: تجاوز الحد الذي يقتضيه الإنفاق، بحسب حال المنفق، وحال المنفق عليه، وهذا النهي عن الإسراف نهي إرشاد وإصلاح. والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي، والشره في المأكولات، الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه، والتنوع في المآكل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام[2].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما[3]. ولهذا كان من الأعمال التي لا يحبها الله، ومن الأخلاق التي يلزم الانتهاء عنها، ونفي المحبة مختلف المراتب، فيعلم أن نفي المحبة يشتد بمقدار قوة الإسراف، وهذا حكم مجمل، وهو ظاهر في التحريم.

ووجه عدم محبة الله للمسرف أن الإفراط في تناول اللذات والطيبات والإكثار من بذل المال في تحصيلها يفضي غالبًا إلى استنزاف الأموال، والشره إلى الاستكثار منها، فإذا ضاقت على المسرف أمواله تطلب تحصيل المال من وجوه فاسدة؛ ليخمد بذلك نهمته إلى اللذات، فيكون ذلك دأبه، فربما ضاق عليه ماله فشق عليه الإقلاع عن معتاده، فعاش في كرب وضيق، وربما تطلب المال من وجوه غير مشروعة، فوقع فيما يؤاخذ عليه في الدنيا أو في الآخرة، ثم إن ذلك قد يعقب عياله خصاصة وضنك معيشة، وينشأ عن ذلك ملام وتوبيخ وخصومات، تفضي إلى ما لا يحمد في اختلال نظام العائلة[4].

فأما كثرة الإنفاق في وجوه البر فإنها لا توقع في مثل هذا؛ ولذلك قيل في الكلام الذي يصح طردًا وعكسًا: لا خير في السرف ولا سرف في الخير. وفي معنى هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم: (ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[5].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[الإسراء: ٢٦-٢٧].

فقوله: ﴿إِخْوَٰنَ﴾ يعني: أنهم في حكمهم؛ إذ المبذر ساعٍ في إفساد

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ٥/ ٢١٨٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٢٨٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٢٨٧.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ١٤٤٣.
(٥) أخرجه مسلم في الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ٥/ ١٣٠، ٤٥٧٨.

كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تسول لهم أنفسهم، أو أنهم يقرنون بهم غدًا في النار، ثلاثة أقوال، والإخوان هنا جمع: أخ من غير النسب.

وندب الله تعالى إلى التوسط في الإنفاق في المباح في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧].

فمدح الله هنا الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وهذه هي الوسطية المرتبطة بالإنفاق الخاص والعام، فالتبذير مذموم، بل إن صاحبه يعد من إخوان الشياطين، والتقتير على النفس والأهل ومن له حق أيضًا مذموم.

هكذا وضع القرآن الكريم هذه القاعدة الذهبية للوسطية الإنفاقية، حتى لا تزل الأقدام، ولا تضيع الأموال، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧].

فهي قمة الوسطية، في قمة السلوك، فلماذا بعد ذلك تنفق الأموال في البهرجة الكاذبة، والمظاهر الزائفة، والحفلات الماجنة، من قبل الحكومات أو الأفراد، لو دبر الناس الإنفاق بعقلية وسطية لكان الوضع الاجتماعي والوضع الاقتصادي للأمة على أحسن حال، ولتوفر للأمة من الثروات الشيء الكثير، ولكن المشاهد من حال المسلمين اليوم هو الإنفاق الفاحش والبذخ الزائد، الذي يدل على غياب هذه الوسطية، فكانت النتيجة أن كثر الفقر والجوع والجهل.

آثار الإنفاق

للإنفاق آثار جليلة في الدنيا والآخرة، نتناولها فيما يأتي:

أولًا: آثار دنيوية:

للإنفاق في سبيل الله فوائد عديدة، وآثار حميدة، يجنيها المتصدق إذا أحسن القصد، وأخلص العمل لوجه الله، ومن هذه الآثار الدنيوية:

١. تهذيب النفس وتطهيرها من الشح.

تعد عملية الإنفاق في سبيل الله درسًا تهذيبيًا أكثر من كونها مساعدة مالية؛ وذلك لما للإنفاق من دور عظيم في تهذيب النفوس، وإصلاح حال الفرد، واستقامة المجتمع، وتليين وتذليل ومعالجة لتلكم القلوب الصلدة القاسية، كما أن الجود والسخاء بإذن الله تعالى يقلب البغضاء محبة، والعداوة ودًا، وفيه مواساة للفقراء والمسكين والمعوزين عمومًا. فعندما تطهر النفس من آفاتها، وتتخلص من شهواتها، وتتحلى بالفضائل، وتتزين بالمكارم، تثمر أعظم الثمار، وتخرج لنا كل إحسان.

فالصدقة وسيلة من وسائل تطهير النفس، وتهذيب الأخلاق، فهي تزيل الخطايا، وتغسل صحيفة صاحبها من الأدناس، وتطهرها من الذنوب، وقد دل الكتاب العزيز والسنة المطهرة على أن الصدقة تطهر الإنسان وتزكي نفسه؛ ولهذا سميت الصدقة الواجبة زكاة، وهي: النماء والطهارة، وزكا الشيء: نما وتكاثر، وزكت النفس: طهرت، وقد قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

تطهرهم من البخل والشح، وحب المال، وتزكيهم بنماء أموالهم وحسناتهم، وتهذيب نفوسهم؛ وبذلك يرتفعون إلى منازل المخلصين الطيبين.

كما أن الإسلام يريد تربية النفوس على البذل والعطاء حتى تتخلق بأخلاق الله، فكلما اعتاد الإنسان البذل والعطاء ارتقى من حضيض الشح الإنساني إلى أفق الكمال الرباني، فإن من صفات الحق سبحانه إفاضة الخير والرحمة على عباده دون نفع يعود عليه، والسعي في تحصيل هذه الصفات بقدر الطاقة البشرية تخلق بأخلاق الله، قال الرازي: «أن النفس الناطقة لها قوتان نظرية وعملية، فالقوة النظرية كمالها في التعظيم لأمر الله، والقوة العملية كمالها في الشفقة على خلق الله، فأوجب الله الزكاة ليحصل لجوهر الروح هذا الكمال، وهو اتصافه بكونه محسنًا إلى الخلق، ساعيًا في إيصال الخيرات إليهم، دافعًا للآفات عنهم»[(١)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٦٥.

ولما كان البذل في سبيل الله برهان الصدق وعلامة الإيمان، كما قال عليه الصلاة والسلام: (والصدقة برهان)[1] كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وقد عرف بذلك من قبل رسالته؛ لأن الله هيأه لمكارم الأخلاق، فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي: (إنك تحمل الكل، وتكسب المعدوم)[2].

كما أن في البذل وإيتاء الزكاة شكرًا لنعمة الله عز وجل، وفي ذلك تهذيب للنفس، يقول الكاساني: «لأن إخراج العشر إلى الفقير من باب شكر النعمة، وإقدار العاجز، وتقويته على القيام بالفرائض، ومن باب تطهير النفس عن الذنوب وتزكيتها، وكل ذلك لازم عقلًا وشرعًا»[3]. ويقول الغزالي: «إن لله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال، وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق، وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال، وإحواج غيره إليه»[4].

وقد قال عليه الصلاة والسلام: (الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر)[5].

والزكاة بكونها شكرًا لنعمة الله كانت نصف الإيمان.

والإنفاق يقي صاحبه من الشح المنهي عنه، فإذا يسر على المرء الإنفاق فيما أمر الله به فقد وقي شح نفسه؛ وذلك من الفلاح، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

وإضافة (الشح) إلى النفس للإشارة إلى أن الشح من طباع النفوس، فإن النفوس شحيحة بالأشياء المحببة إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[النساء: ١٢٨].

وفي الحديث لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الصدقة، قال: (أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، وأن لا تدع حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان)[6].

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ١/ ١٤٠، ٥٥٦.
(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/ ٤، ٣، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/ ٩٧، ٤٢٢.
(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ٤/ ٥٨.
(٤) إحياء علوم الدين ١/ ٤١٦.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٦٥.
(٦) أخرجه البخاري في الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح ٢/ ١١٠، ١٤١٩، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح رقم ١٠٣٢.

والمقصود أن الإنفاق في سبيل الله وسيلة لتهذيب النفس وتزكيتها وتطهيرها من خلق الشح والبخل، إلا أن الإنفاق لا يهذب النفس ويطهرها إلا إذا أخرجت الصدقة على وجهها الصحيح، بأن يخرجها بانشراح صدر، ومن أحل ماله وأصفاه وأطيبه، ويخرجها في أول وجوبها خوف الحوادث وشح النفس، وألا يعذب قلوب الفقراء بالانتظار، وينظر في ذلك إلى نعمة الله عليه بتوفيقه؛ لئلا يتكبر ويعجب فيورثه المن والأذى، فيحبط أجره، وأن يرى فضل المستحق عليه؛ لأنه سبب طهرته، ورفع درجته في الآخرة، وأن تكون صدقته سرًا، اكتفاء بنظر الله وعلمه، وصيانة الفقير عن اشتهار أمره، وأن يكون عند الإخراج مستصغرًا لما يعطي، متواضعًا لمن يعطي، إلى غير ذلك من الآداب التي قد سبق تفصيلها.

٢. حسن التكافل الاجتماعي.

ومن آثار الإنفاق في سبيل الله تعالى تحقيق التكافل الاجتماعي بأبهى صوره؛ حيث يتم تحقيق كفاية الفقير دون المساس بكفاية الغني.

وقد عرف أن من أعظم وسائل تقوية التكافل الاجتماعي في الإسلام البذل والإنفاق؛ لذلك حبب الإسلام إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخيةً، وأكفهم نديةً، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم، لا ينفكون عنه في صباح أو مساءً، يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٤].

فهي عملية مستمرة إنفاق بالليل والنهار، في السر والعلن، في الشدة واليسر، حتى صارت نظرية الإنفاق في الإسلام من أبرز السياسات لعلاج مشكلة الفقر، ولو فكر العالم المعاصر اليوم قليلًا في حيثيات وضوابط نظرية الإنفاق لوجدها من أبرز وأنجع الحلول لمشكلة الفقر، الذي يعاني منه الملايين في أنحاء العالم، وإنه بحساب يسير لحصيلة زكاة أموال المسلمين في أرجاء المعمورة نجد أنها كافية لإغناء كل فقراء المسلمين، بل فقراء العالم أجمعين، وتحقيق كفايتهم من مأكل وملبس وتعليم ومسكن.

والإسلام وهو يدعو إلى الإنفاق في سبيل الله على الفقراء والمحتاجين يحرص أن يجعل المسلمين كتلة واحدة، يشد بعضها بعضًا، يربط بينهم رباط الإيمان والعقيدة، يعطف كبيرهم على صغيرهم، وغنيهم على فقيرهم، كل منهم يتحسس حاجة أخيه المسلم، ويفعل الأسباب لإزالة هذه الحاجة بصدر رحب، وقلب منشرح،

ينطلقون من توجهات كتابهم، بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢].

ومن سنة رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، بقوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[(١)].

وبقوله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)[(٢)].

فصدقة التطوع إذن تساعد على إذابة التفاوت الطبقي بين المسلمين، وتعينهم على حل مشكلة الفقر، وما ينتج عنه من مآسٍ ومشاكل، وهي أيضًا سبب من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين، ولها دور في إشاعة روح التسامح والتعاون والتآخي بينهم.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[(٣)]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه السائل، أو طلبت إليه حاجة، قال: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ما شاء)[(٤)] يقول ابن حجر: «في الحديث حض على الخير وفعله، والتسبب إليه بكل وسيلة، والشفاعة إلى الكبير في كشف كربة، ومعونة ضعيف»[(٥)].

والمقصود أن من آثار الإنفاق ما يحققه من التكافل بين أفراد المجتمع المسلم؛ وذلك عن طريق ما شرعه الله من الإنفاق، ومد يد العون إلى الضعفاء والمعوزين؛ ليجد هؤلاء من يحنو عليهم، ومن ينتشلهم من براثن الفقر، ويبعد عنهم صوره المرعبة، وبذلك تتوازن القوى، ويتجه كلهم نحو بناء مجتمع مثالي في كل عصر، ومع كل جيل، ويلتحم الأفراد فيما بينهم في إطار من الود والرحمة، يشد بعضهم بعضًا.

ومن صور التكافل الاجتماعي في

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٨/ ٢٠، ٦٧٥١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا ٥/ ٢٢٤٢، ٥٦٨٠، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٨/ ٢٠، ٦٧٥٠.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٨/ ٧١، ٧٠٢٨.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ٢/ ٥٢٠، ١٣٦٥.

(٥) فتح الباري ١٠/ ٤٥١.

الإسلام في باب الإنفاق: ما شرعه الله من وجوب نفقة الأقارب الفقراء على القريب الغني، فنفقة الزوجة على الزوج، والأبناء على الأب، ونفقة الوالدين الفقيرين على الولد القادر، ونفقة الأخ الفقير أو المحتاج على أخيه الذي يرثه، وقد وسع بعض علماء المسلمين في شأن نفقة الأقارب حتى تصل إلى ذوي الأرحام.

وهكذا من صور التكافل الاجتماعي أحكام الديات في القتل الخطأ، فإن الدية تجب لورثة القتيل، وقد يكونون صغارًا فتعينهم على مواجهة الحياة بعد فقد مورثهم، ويتشارك أقرب العصبة إلى القاتل خطأ في دفع الدية إلى ورثة المقتول، والدية هنا تمثل ضمانًا من المجتمع لورثة المقتول، فلا يضيع دم إنسان هدرًا في مجتمع مسلم.

٣. سعة الرزق.

ومن آثار الإنفاق في سبيل الله أن الصدقة تجلب الرزق، وتحفظ المال من الآفات والهلكات والمفاسد، وتحل فيه البركة، وتكون سببًا في إخلاف الله على صاحبها بما هو أنفع له، وأكثر وأطيب، دلت على ذلك النصوص الثابتة، والتجربة المحسوسة، فمن النصوص الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ: ٣٩].

قال ابن عاشور في تفسيره: «وأكد ذلك الوعد بصيغة الشرط، وبجعل جملة الجواب اسمية، وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ ففي هذا الوعد ثلاث مؤكدات دالة على مزيد العناية بتحقيقه...، وجملة: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تذييل للترغيب والوعد بزيادة أن ما يخلفه أفضل مما أنفقه المنفق»[(١)].

وقال السعدي: «قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب أو جار أو مسكين أو يتيم أو غير ذلك فهو تعالى يخلفه، فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق الذي يبسط الرزق ويقدر»[(٢)].

ومن النصوص الدالة أيضًا على أن الصدقة بوابة للرزق، ومن أسباب سعته واستمراره، وتهيؤ أسبابه، وأنها لا تزيد العبد إلا كثرة: قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾[إبراهيم: ٧].

إذ الصدقة غاية في الشكر، وقوله عز وجل في الحديث القدسي: (يا ابن آدم أنفق أنفق عليك)[(٣)].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (ما فتح رجل باب عطية بصدقة أو صلة إلا زاده الله

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٤٤٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٦٨١.
(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٢، ٧٢٩٦، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

بها كثرة)[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا)[2].

كما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته، يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: فلان -للاسم الذي سمع في السحابة-، فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه، يقول: اسق حديقة فلان -لاسمك-، فماذا تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه)[3].

وفي رواية: (وأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل)[4].

وفي المقابل جاءت نصوص عديدة ترد على فئام من الخلق -ممن رق دينهم وساءت أفهامهم- ظنوا أن الصدقة منقصة للمال، جالبة للفقر، مسببة للضيعة، بل أبانت هذه النصوص أن الصدقة لا تنقص مال العبد، وأن شحه به هو سبب حرمان البركة، وتضييق الرزق، وإهلاك المال، وعدم نمائه، ومن هذه النصوص قوله صلى الله عليه وسلم: (ما نقصت صدقة من مال)[5].

وفي حديث أسماء رضي الله عنها قالت: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (لا توكي فيوكى عليك... لا تحصي فيحصى الله عليك)[6].

وأيضًا فأن التجربة المحسوسة تثبت أن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤونة، وأن رزق العبد يأتيه بقدر عطيته ونفقته، فمن أكثر أكثر له، ومن أقل أقل له، ومن أمسك أمسك عليه، وقد نص غير واحد أن ذلك مجرب محسوس، ومن شواهد ذلك قصة

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٢٣٣، ٣٤١٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٦٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب قول الله تعالى: (فأما من أعطى واتقى)، ٢/ ١١٥، ١٤٤٢، ومسلم في كتاب الكسوف، باب في المنفق والممسك ٢/ ٧٠٠، ١٠١٠.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين ٨/ ٢٢٢، ٧٦٦٤.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين ٨/ ٢٢٣، ٧٦٦٥.

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع ٨/ ٢١، ٦٧٥٧.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ٢/ ٥٢٠، ١٣٦٦.

عائشة رضي الله عنها: «أن مسكينًا سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاتها: أعطيه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه! فقالت: أعطيه إياه! قالت: ففعلت، قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان -ما كان يهدي لنا- شاة وكفنها، فدعتني، فقالت: كلي من هذا، هذا خير من قرصك»[1].

فالقضية إذن مرتبطة بالإيمان، ومتعلقة باليقين، والأمر كما قيل: «من أيقن بالخلف جاد بالعطية»[2].

ومما يدل على أن الصدقة سبب لزيادة المال، وسعة الرزق: قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[البقرة: ٢٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما الله سبحانه فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه، وفضلًا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه، إما في الدنيا أو في الآخرة»[3].

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ: ٣٩].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به، وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب»[4].

ومما يدل على ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا)[5].

ومعلومٌ أن سعة الرزق والبركة فيه لها ارتباط وثيق بالأعمال الصالحة التي يقدمها العبد، فكلما ازداد العبد صلةً بالله عز وجل بارك الله له في رزقه، وأغناه من فضله، ومن الأعمال الصالحة الإنفاق في سبيل الله، وهو من الأعمال التي ترتبط بالرزق، فجزاؤه في الدنيا الإخلاف والبركة، وسعة الرزق، وفي الآخرة الجنة، ورضوان الله.

ومن الأعمال الصالحة التي تزيد في الرزق أيضًا صلة الرحم، وهذا من أجل الأعمال وأفضلها عند الله.

فقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٥/ ١٤٥١، ٣٦٥٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ١٤٢، ٣٢٠٧.
(٢) مسند الشهاب القضاعي ١/ ٢٣٣.
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٣٧٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٦٢.
(٥) أخرجه البخاري في الزكاة، باب قوله تعالى: (فأما من أعطى واتقى)، ٢/ ١١٥، ١٤٤٢، ومسلم في الكسوف، باب في المنفق والممسك ٢/ ٧٠٠، ١٠١٠.

رحمه)[1] .

فصلة الرحم لها علاقة بالرزق، والله عز وجل قد تكفل بأن يصل من وصلها، ويقطع من قطعها، والجميع يقصر في هذا الجانب إلا من رحم الله، خاصة مع تعقيدات الحياة المعاصرة، وكثرة الارتباطات والأعمال، ولكن لا أقل من أن يرفع المرء سماعة الهاتف، ويطمئن على ذوي رحمه.

والمقصود أن الصدقة من أهم موجبات توسيع الرزق، كما أنها تصون المال الباقي وتحفظه وتبعد عنه الكوارث وتزيده نماءً، والصدقة من الأمور المجربة في استنزال الرزق! وكأن الله عز وجل يقول: أنت دفعت لأخيك مالًا أكرمته، أنا أولى منك بالإكرام؛ لذا أوسع عليك في الرزق! وبما أن الصدقة هي عبارة عن تطهير للنفس؛ لذا فهي من مواطن استجابة الدعاء، وبإمكان الإنسان أن يطلب من الفقير الذي تصدق عليه أن يدعو له بسعة الرزق!

ولابد من التنبيه إلى أمر مهم وهو أن سعة الرزق أو ضيقه قد تعني بالدرجة الأولى ما يجعله الله تعالى من البركة فيما آتاه لعبده، وما يمتعه به من السعادة والطمأنينة به، وشواهد ذلك كثيرة من واقع الناس، فعلى المسلم أن يعلق قلبه بالله، وأن يحذر من الركون إلى الأسباب المادية، وينسى مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، الذي بيده ملكوت كل شيء، والذي تكفل برزق جميع المخلوقات.

ثانيًا: آثار أخروية:

كما أن للإنفاق في سبيل الله آثار دنيوية، فله أيضًا آثار أخروية، ومن هذه الآثار:

١ . الحصول على محبة الله ورحمته ورضاه.

فمن فوائد الصدقة وآثارها الحميدة أنها طريق للظفر بمحبة الله ورحمته ورضاه، ففي الصدقة إحسان ورحمة، وتفضل وشفقة؛ ولذا كانت من وسائل نيل محبة رب العالمين، والحصول على رحمته، والظفر برضوانه؛ لأنه سبحانه يحب المحسنين، ويرحم الرحماء، وقد دلت نصوص القرآن والسنة على ذلك، فمما يدل على أن التصدق والإنفاق في مرضاة الله من دواعي حبه عز وجل للعبد: قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥].

فقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل للترغيب في الإحسان؛ لأن محبة الله عبده غاية ما يطلبه الناس؛ إذ محبة الله العبد

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ٨/ ٥، ٢٥٥٧، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ٤/ ١٩٨٢، ٥٩٨٦.

سبب الصلاح والخير دنيا وآخرة، واللام للاستغراق العرفي، والمراد: المحسنون من المؤمنين[1].

والمحسن مشتق من فعل الحسن، وكثر استعماله فيمن ينفع غيره بنفع حسن، من حيث إن الإحسان حسن في نفسه، أو مشتق من الإحسان، ففاعل الحسن لا يوصف بكونه محسنًا إلا إذا كان فعله حسنًا وإحسانًا معًا، فالاشتقاق إنما يحصل من مجموع الأمرين. ومعنى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ أي: في الإنفاق على من تلزمكم مؤنته ونفقته، والمقصود منه أن يكون ذلك الإنفاق وسطًا لا إسراف فيه ولا تقتير، وهذا هو الأقرب لاتصاله بما قبله، ويمكن حمل الآية على جميع وجوه الإحسان.

قال السعدي: «وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم، ويدخل فيه الإحسان بالجاه بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملًا، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضًا الإحسان في عبادة الله تعالى»[2].

وفي الآية إثبات المحبة لله عز وجل، وهي محبة حقيقية على ظاهرها، وليس المراد بها الثواب ولا إرادة الثواب، خلافًا للأشاعرة وغيرهم من أهل التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنًى لا يكون بمثابته، فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة، وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين، وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص، ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين.

فقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم أن أحدًا -وهو جبل- يحب ويحب، فقال: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[3].

والإنسان يجد أن دابته تحبه وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنت إليه، وأتت إليه، وكذلك غيره من المواشي، والإنسان يجد أنه يحب نوعًا من ماله أكثر من النوع الآخر.

والصدقة أيضًا تورث جنات النعيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن

(١) التحرير والتنوير ١/ ٥٤٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه ٥/ ١٠٣، ٤٠٨٣، ومسلم في الحج، باب فضل المدينة ٢/ ٩٩٣، ١٣٦٥.

﴿ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[آل عمران: ١٥-١٧].

ففي هذه الآية ذكر الله تعالى جزاء المتقين، وهو جنات فيها من أصناف الخيرات، والنعيم المقيم، ولهم الأزواج المطهرة من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلائق؛ لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها عن الآفات مستلزم لوصفها بالكمالات، ولهم رضوان من الله الذي هو أكبر من كل شيء.

وذكر من صفاتهم أنهم (منفقون) أموالهم في طاعة الله، ويدخل فيه إنفاق المرء على نفسه وأهله وأقاربه وصلة رحمه، وفي الزكاة والجهاد، وسائر وجوه البر.

فهؤلاء المتقون المنفقون أموالهم في سبيل الله لهم هذا الأجر العظيم، الذي جاء في الآيتين، ومنه (رضوان من الله) الذي حرمه من لم يتصف بهذه الصفات، وعطف (رضوان من الله) على ما أعد للذين اتقوا عند الله؛ لأن رضوانه أعظم من ذلك النعيم المادي؛ لأن رضوان الله تقريب روحاني.

قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[التوبة: ٧٢].

وأظهر اسم الجلالة في قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ دون أن يقول: ورضوان منه، أي: من ربهم؛ لما في اسم الجلالة من الإيماء إلى عظمة ذلك الرضوان.

والتنوين في (رضوانٌ) للتفخيم، أي رضوان وأي رضوان لا يقادر قدره كائن من الله عز وجل، فهو أكبر من كل متاع، فهو رضوان من الله، رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما، ويرجح رضوان بكل ما في لفظه من نداوة، وبكل ما في ظله من حنان.

فرضوان الله ومحبته والتفاته وعطفه كل هذه غاية يتوخاها الإنسان، بل يبذل للحصول عليها كل غالٍ ونفيس، وما أسعد الإنسان وهو يرى نفسه محبوبًا لله سبحانه، راضيًا عنه، على أن في الإخبار بالرضا والمحبة في الآيتين السابقتين فرقًا ظاهرًا وواضحًا، فإن المحبة أمر أعمق من مجرد الرضا، فمحبة الله لها معنى عظيم له تأثيره الخاص في النفس.

ومن النصوص الدالة على أن الصدقة دافعة لغضب الله وسخطه، جالبة لرضوانه ورحمته: ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الصدقة لتطفئ غضب

الرب، وتدفع ميتة السوء)[1]. وحديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي تضمن قصة الأبرص والأقرع والأعمى، وفيه قول الملك للأعمى لما بذل المال محتسبًا الثواب من الله، وأمسكه صاحباه شحًا به وبخلًا: (أمسك مالك، فإنما ابتليتم؛ فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك)[2].

كما أتت أحاديث عديدة تبين أن الله يحب المتصدقين، وذوي البر والإحسان، وصانعي المعروف، منها قوله صلى الله عليه وسلم: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس)[3].

كما جاءت أحاديث تبين أن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء بخلقه، المشفقين على عباده -وهي صفة المتصدق- ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء)[4]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل)[5].

فيا طامعًا في محبة الله ورضوانه، ويا راجيًا رحمته وإحسانه: عليك بالصدقة، فإنها نعم الوسيلة لتحقيق غايتك، والوصول إلى بغيتك.

فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يحض على الإنفاق في تجهيز جيش العسرة، فجاء بتسعمائة بعير برواحلها ومراكبها ونفقاتها وسلاحها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم)[6].

فقد حل عليه رضوان الله الأكبر الذي لا سخط بعده.

٢. مغفرة الذنوب.

وجعل الله الصدقة سببًا لغفران المعاصي، وإذهاب السيئات، والتجاوز عن الهفوات، دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة، ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود: ١١٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة ٣/ ٤٣، ٦٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٤/ ١٧١، ٣٤٦٤.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ١٣٩، ٦٠٢٦، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٦.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الرحمة ٤/ ٤٤٠، ٤٩٤٣، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين ٤/ ٣٢٣، ١٩٢٤، وأحمد ١١/ ٣٣، ٦٤٩٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٢٢.

(٥) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ٤/ ١٨٠٩، ٢٣١٩.

(٦) أخرجه أحمد ٣٤/ ٢٣١، ٢٠٦٣٠، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح ٣/ ١٧١٣، ٦٠٧٣.

وهذا نص عام يشمل كل حسنة، وفعل خير، والصدقة من أعظم الحسنات والخيرات، فهي داخلة فيه بالأولوية.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٣٥].

وقوله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فهاتان الآيتان أفادتا أن من أولى وأجل ما تنال به مغفرة الله للخطايا، وتجاوزه عن الذنوب الإنفاق في مرضاته سبحانه .

ومما يدل على أن الصدقة تمحو الذنوب وترفع الدرجات: قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

يقول السعدي رحمه الله: «أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة، وتزكيهم أي: تنميهم وتزيد في أخلاقهم الحسنة وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: يخوفكم الفقر؛ لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله...، ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي: في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء و﴿وَفَضْلًا﴾ أي: في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر»[(٢)].

ومن النصوص الدالة على ذلك: ما أخرجه البخاري في باب: الصدقة تكفر الخطيئة من حديث حذيفة رضي الله عنه، وفيه: (فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والمعروف)[(٣)].

٣. الحشر تحت ظل الصدقة.

ومن فوائد الإنفاق الأخروية: أن الناس إذا حشروا يوم القيامة واشتد الكرب فإن المتصدقين يتفيئون في ظل صدقاتهم، وقد ثبت ذلك في أحاديث كثيرة، ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: (كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة حتى يفصل بين الناس)

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٣٥٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧٠٠
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة تكفر الخطيئة ٢/ ٥٢٠، ١٣٦٨.

أو قال: (حتى يحكم بين الناس) قال يزيد -راوي الحديث-: وكان أبو الخير لا يخطئه يومٌ إلا تصدق فيه بشيء، ولو كعكة أو بصلة أو كذا[1].

وقال في الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[2].

وقوله: (في ظل صدقته) ظاهره العموم، فيشمل صدقته الواجبة والنافلة، والمراد: يوم القيامة، حين تدنو الشمس من الرؤوس، ويبلغ الكرب في الناس مبلغه.

والمقصود أن أعمالهم تظلهم أو تضحيهم، فإضافة الظل إلى الأعمال إضافة سبب؛ فالأعمال الصالحة أصحابها في ظلها، وكل ذلك في ظل العرش.

وليس المراد بها ظله من حر الشمس فقط، بل تمنعه من جميع المكاره، وتستره من النار إذا واجهته، وتوصله إلى جميع المحاب، من قولهم: فلان في ظل فلان، وتمسك به من فضل الغني الشاكر على الفقير الصابر، ولو لم يكن في فضل الصدقة إلا أنها لما تفاخرت الأعمال كان لها الفضل عليهن لكفى[3].

والمقصود أنه مما جاء في الترغيب بالصدقة أن صاحبها يكون في ظلها يوم القيامة، ويمكن أن نقول: الصدقة تجسمت، أو تجسم ثوابها، وتحول إلى مظلة تظل صاحبها، حتى يقضى بين الخلائق، ولا يناله ما ينال عامة الناس، من حرارة الشمس التي تدنو منهم فيعرقون، والأولى ترك التعمق في البحث في مدلول قوله: (في ظل صدقته) وتفويض ذلك إلى ما يعلمه المولى سبحانه، ويكفينا أن نقول: إن هذا أعظم موعظة، وأعظم مرغب في أن يكون الإنسان من المنفقين في سبيل الله.

٤. دخول جنات النعيم.

ومن فوائد الصدقة، وآثارها الحميدة أنها سبب في دخول الجنة، وأصل ذلك بيان الرب سبحانه أن الجنة هي دار المحسنين والمحسنات من عباده وإمائه، فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[المرسلات: ٤٣-٤٤].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[الزمر: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[المائدة: ٨٥].

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٤٧، وابن حبان ٣٣١٠، والحاكم ١/ ٤١٦، وصححه الألباني في التعليق الرغيب ٢/ ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين ١٤٢٣، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة ١٠٣١.

(٣) فيض القدير ٢/ ٤٥٩.

إلى غير ذلك من الآيات والإحسان هنا بمعناه العام، يدخل فيه الإحسان بالمال والجاه وغيره.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾[الرعد: ٢٢-٢٣].

فذكر الله تعالى هاهنا الذين صبروا على مشاق الطاعة وترك المخالفة، أو على ما تكرهه النفوس ويخالفه الهوى، فعلوا ذلك ابتغاء وجه ربهم، وطلبًا لرضاه، لا فخرًا ورياء، وأقاموا الصلاة المفروضة، بحيث حافظوا على شروطها وأركانها، وأنفقوا مما رزقناهم من الأموال فرضًا ونفلًا، سرًا وعلانيةً، ويدرءون بالحسنة السيئة، أي: يدفعون الخصلة السيئة بالخصلة الحسنة، فيجازون الإساءة بالإحسان.

ثم ذكر جزاءهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبة دار الدنيا، وما يؤل إليه أهلها، وهي: الجنة التي فسرها بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة، ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مخلدين فيها، والعدن: الإقامة، وقيل: هي بطنان الجنة: أي: مداخلها[1].

ومما يدل على أن من آثار الصدقة دخول الجنة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[الحديد: ١٨].

فالأجر الكريم هنا: هو الجنة.

قال السعدي في تفسير: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ «أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية والنفقات المرضية ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخرًا لهم عند ربهم ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة مما لا تعلمه النفوس»[2].

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ٣-٤].

فقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كرامات وعلو منزلة، أو درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط من ذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أعده لهم في الجنة لا ينقطع مدده، ولا ينتهي أمده، بمحض الفضل والكرم.

ومما يدل على أن الإنفاق في سبيل الله من أسباب دخول الجنة: قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

(١) البحر المديد ٣/ ١٦٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٨٤٠.

عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فقد دلت هذه الآية على أن الأنفاق في سبيل الله وكظم الغيظ والعفو عن الناس من صفات أهل الجنة، وكفى بذلك حثًا على ذلك.

ومن ذلك قوله: تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ٩٩].

ففي قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: في جملة عباده الصالحين[(١)]، أو: في جنته[(٢)]. ويحتمل الأمران معًا، كما عبر الطبري بقوله: «سيدخلهم الله فيمن رحمه، فأدخله برحمته الجنة»[(٣)]. والمقصود أنه وعدٌ من الله لهم بإحاطة الرحمة بهم، أو سيدخلهم في جنته التي هي محل رحمته وكرامته، والسين لتحقيق وقوعه.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[الصف: ١٠-١٢].

ففي هذه الآيات وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم، ومن هذه الأعمال الجليلة التي يكون بها المتاجرة مع الله تعالى: الإنفاق في سبيل الله، في الجهاد وغيره.

وبين الثمن بقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ والعدن في لغة العرب: الإقامة، فمعنى جنات عدن: جنات إقامة في النعيم، لا يرحلون عنها ولا يتحولون، وبين في آيات كثيرة أنهم مقيمون في الجنة على الدوام.

﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنة الموصوفة بما ذكر من الأوصاف الجليلة هو الفوز الذي لا فوز بعده.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٣٤٩.
(٢) معالم التفسير، البغوي ٤/ ٨٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ج١٤/ ص٤٣٤.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١١١].

ففي هذه الآية أخبر الله أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم، والثمن الجنة، والمقابل بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله.

ولا يتوقف أثر الصدقة على هذا فحسب، بل الأمر أعظم جدًا من ذلك؛ إذ يبادر خزنة كل باب من أبواب الجنة لدعوة المتصدق كل يريده أن يدخل من قبله، وللجنة باب يقال له: باب الصدقة، يدخل منه المتصدقون؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير -إلى أن قال- ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة)[1]، وقد أبان العيني أن المراد بالصدقة هنا النافلة؛ لأن الزكاة الواجبة لابد منها لجميع من وجبت عليه من المسلمين، ومن ترك شيئًا منها فيخاف عليه أن ينادى من أبواب جهنم[2].

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الاقتصاد، الزكاة، المال، المن

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب الريان للصائمين ٢/ ٦٧١، ١٧٩٨، ومسلم في الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر ٣/ ٩١، ٢٤١٨.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج١٦/ ص٢٥٠.

الأنهار

عناصر الموضوع

مفهوم الأنهار	٩٠
الأنهار في الاستعمال القرآني	٩١
الألفاظ ذات الصلة	٩٢
الجنان وجريان الأنهار من تحتها	٩٥
الأنهار نعمة إلهية	٩٨
الأنهار من جند الله	١٠٣
من منافع الأنهار	١٠٧
أكل صيده وطعامه واستخراج حليته	١١٤
أنهار الجنة	١١٨
الأنهار في المثل القرآني	١٢٢
الأنهار والابتلاء	١٢٤
لمسات إعجازية في الأنهار	١٣٥

مفهوم الأنهار

أولًا: المعنى اللغوي .

(نهر) النون والهاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على تفتح شيءٍ أو فتحه. وأنهرت الدم: فتحته وأرسلته، وأسلته، وسمي النهر لأنه ينهر الأرض، أي: يشقها. والمنهرة: فضاءٌ يكون بين بيوت القوم يلقون فيها كناستهم. وجمع النهر أنهارٌ ونهرٌ ونهورٌ، والنهر محركةً: السعة ومجرى الماء، واستنهر النهر: أخذ لمجراه موضعًا مكينًا، وأنهر الماء: جرى. ونهرٌ نهرٌ: كثير الماء[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو مسطح مائي ينساب على اليابسة في مجرى طويل، وتبدأ معظم الأنهار من أعالي الجبال أو التلال، وقد يكون منبع النهر مثلجة، أو نهرًا جليديًا ينصهر، أو ينبوعًا، أو بحيرة تفيض مياهها. ويتلقى النهر أثناء جريانه في مجراه المزيد من المياه من الجداول، والأنهار الأخرى، ومياه الأمطار. ويقع مصب النهر في نهايته، حيث تصب مياهه في نهر أكبر، أو في بحيرة، أو في أحد المحيطات[(٢)].

فالأنهار: هي المجاري المائية التي تتدفق فيها المياه العذبة طوال السنة أو لعدة شهور[(٣)].

وقيل: النهر: الخليج الكبير. والجدول: النهر الصغير، وأنهار الجنة ليست إلا المياه؛ لأنها تجري من غير أخدود[(٤)].

والنهر: الماء الجاري المتسع، ثم أطلق على الأخدود مجازًا، فيقال: جرى النهر، وجف النهر، والأصل: جرى ماء النهر، وجف ماء النهر[(٥)] .

إذن فالأنهار هي: المجاري المائية الواسعة التي تتدفق فيها المياه العذبة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة نهر، ٥/ ٣٦٢.
(٢) انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٢٥/ ٥٣٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي ١/ ٨٨٩، ط مؤسسة الرسالة، ط الأولى، سنة ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
(٤) انظر: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، للكفوي ١/ ٩١٠ .
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي ١/ ٣٣١.

الأنهار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نهر) في القرآن (١٢٣) مرة، يخص موضوعنا منها (٥٤) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٣	﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣]
الجمع	٥١	﴿أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥]

واستعملت (الأنهار) في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الماء العذب الغزير الجاري، ومجرى الماء العذب[(٢)].

(١) المعجم المفهرس، عبدالله جلغوم، ص١٣٤٧-١٣٤٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٢٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٥٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ اليم:

اليمُ لغة:

الياء والميم: كلمةٌ تدل على قصد الشيء وتعمده وقصده، واليم: البحر[(١)].

اليم اصطلاحًا:

بحر؛ متسع من الأرض أصغر من المحيط مغمور بالماء الملح أو العذب[(٢)].

ففي قصة أم موسى، يقول الحق: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

وكان المقصود باليم هناك: النيل، لكن المقصود به هنا في سورة الأعراف هو البحر. ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦][(٣)].

الصلة بين النهر واليم:

اليم في كلام العرب مرادف البحر، والبحر في كلامهم يطلق على الماء العظيم المستبحر، فالنهر العظيم يسمى بحرًا، قال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]. فإن اليم من الأنهار[(٤)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٥٢.

(٢) انظر: المحكم، ابن سيده، ١٠/ ٥٧٩.

(٣) المصدر السابق.

وذكر الطبري في تفسيره أن «اليم» هو نهر النيل ١٦/ ٥٧، وكذا قال القرطبي ١١/ ١٩٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٥٨.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٠/ ٧٤.

٢ البحر:

البحر لغة:

الماء الكثير، ملحًا كان أو عذبًا، وهو خلاف البر، سمي بذلك لعمقه واتساعه، قد غلب على الملح حتى قل في العذب، وجمعه أبحرٌ وبحورٌ وبحارٌ. وماءٌ بحرٌ: ملحٌ، قل أو كثر[١].

قال ابن فارس:(والأنهار كلها بحارٌ)[٢].

البحر اصطلاحًا:

مستقر الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفيه من كان في وسطه، وهو مأخوذ من الاتساع[٣].

وأصل البحر: كل مكان واسع جامع للماء الكثير، هذا هو الأصل، وسموا كل متوسع في شيء بحرًا.

وقال بعضهم: البحر يقال في الأصل للماء الملح دون العذب[٤].

الصلة بين النهر والبحر واليم:

النهر والبحر يلتقيان في المعنى، فكل منهما: مجرى للماء الفائض، أو: الماء الجاري المتسع، ولذا يقول ابن منظور: وقد أجمع أهل اللغة أن اليم هو البحر. وجاء في الكتاب العزيز: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].قال أهل التفسير: هو نيل مصر، حماها الله تعالى[٥].

وقد يكون البحر للمجرى المتسع للماء المالح، والنهر للمجرى المتسع للماء العذب.

قال الراغب:« يقال في الأصل للماء الملح دون العذب، وقوله تعالى:﴿ ﴿وَالْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ٤/ ٤١، مادة بحر.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة بحر، ١/ ٢٠١.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ١/ ٧١.
(٤) الموسوعة القرآنية، ٨/ ٤٢، لإبراهيم الأبياري .
(٥) لسان العرب، ٤/ ٤٢، مادة بحر.
(٦) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني ١/ ٣٦.

٣ البر:

البر لغة:

والبر، بالفتح: خلاف البحر. والبرية من الأرضيين، بفتح الباء: خلاف الريفية. والبرية: الصحراء نسبت إلى البر، ويقال: أفصح العرب أبرهم. معناه: أبعدهم في البر والبدو دارًا. وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ [الروم: ٤١]؛ قال الزجاج: معناه: ظهر الجدب في البر والقحط في البحر، أي: في مدن البحر التي على الأنهار[(١)].

والبر: الصادق. وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].والبر من صفات الله تعالى وتقدس: العطوف الرحيم اللطيف الكريم[(٢)].

البر اصطلاحًا:

البر: خلاف البحر، وهو التراب واليابس[(٣)].

الصلة بين النهر والبر:

إذا كان النهر بمعنى: مجرى الماء الفائض، أو: الخليج الكبير، أو: الماء الجاري المتسع، والبحر: مستقر الماء الواسع، وكما ذكرنا في البر أنه خلاف البحر، فيمكننا القول أيضًا: أن البر خلاف النهر، فالنهر والبر بينهما تضاد.

(١) لسان العرب، ٤/ ٥٢، مادة برر، وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة بحر، ١/ ١٧٩ .
(٢) لسان العرب ٤/ ٥٢، مادة برر.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٤، الكليات، أبو البقاء الكفوي، ١/ ٢٢٥.

الجنان وجريان الأنهار من تحتها

حينما نستعرض آيات القرآن الكريم نجد أن ورود الأنهار مرتبطة بالجنات في خمسة وثلاثين موضعًا[(١)].

وقد ورد لفظ الأنهار مقترنًا بلفظ (من تحتهم) في أربعة مواضع من القرآن الكريم[(٢)]، وما عدا هذه المواضع الأربعة فهو مقترن بلفظ (من تحتها)، وموضع وحيد في سورة التوبة ورد بدون جر وهو في قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

خلافًا لابن كثير، الذي يقرؤها بالجر[(٣)].

ومن المتعارف عليه أن أول حاجات الإنسان الضرورية المكان والمسكن الذي يعيشه ويسكنه، وأحسن المكان المشتمل على النباتات والأشجار، وألطفه وأكمله ما كان تحت قصوره الأنهار بكثرة.

ولهذا ورد في جزاء المؤمنين. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥].

ثم إن أشد الحاجات الأكل والشرب اللذين يشير إليهما الجنة والنهر، ثم إن أكمل الرزق هو أن يكون مألوفًا ومأنوسًا، وألذ الفاكهة أن تكون متجددة، وإن أصفى اللذة هو أن يكون المقتطف معلومًا وقريبًا، وإن ألذها أن يعرف أنها ثمرة عمله.

فلهذا قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥][(٤)].

إذن فالعلة في اقتران الجنات بجريان الأنهار من تحتها هي زيادة النعيم واكتماله الذي أعده الله لأهل هذه الجنات.

قال الشيخ سعيد النورسي: أما ﴿تَجْرِي﴾ فاعلم أن أحسن الرياض ما فيها ماء، ثم

---

(١) هي: البقرة: ٢٥،٢٦٦، وآل عمران: ١٣٦،١٥، ١٩٥،١٩٨، والنساء١٣، ٥٧، ١٢٢، والمائدة ١٢، ٨٥، ١١٩، والتوبة ٧٢، ٨٩، ١٠٠، والرعد٣٥، وإبراهيم٢٣، والنحل٣١، والكهف٣١، وطه٧٦، والحج١٤، ٢٣، والفرقان١٠، والعنكبوت٥٨، ومحمد١٢، والفتح١٧،٥، والحديد١٢، والمجادلة ٢٢، والصف١٢، والتغابن٩، والطلاق١١، والتحريم٨، والبروج١١، والبينة٨.

(٢) الأنعام٦، والأعراف٤٣، ويونس٩، والكهف٣١.

(٣) النشر في القراءات العشر،٢/ ٢٨٠ لشمس الدين محمد بن يوسف أبو الخير ابن الجزري، ت: ٨٣٣ هـ، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، وهي قراءة متواترة، انظر: تخريج قراءات فتح القدير، لإيهاب فكري، ص ١٥٧، ط: المكتبة الإسلامية بالقاهرة وانظر: المبسوط في القراءات العشر، ١/ ٢٢٨، لأحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري، ت: ٣٨١هـ، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط: ١٩٨١ م.

(٤) من خواطر الشعراوي ١/ ٢٠٧.

أحسنها ما يسيل ماؤها، ثم أحسنها ما استمر السيلان، فبلفظ ﴿تَجْرِي﴾ أشار إلى تصوير دوام الجريان، وأما ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ فاعلم أن أحسن الماء الجاري في الخضروات أن ينبع صافيًا من تلك الروضة، ويمر متخرخرًا تحت قصورها، ويسيل منتشرًا بين أشجارها فأشار بـ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إلى هذه الثلاثة، وأما ﴿الْأَنْهَارُ﴾ فاعلم أن أحسن الماء الجاري في الجنان أن يكون كثيرًا، ثم أحسنه أن تتلاحق الأمثال من جداوله، فإن بتناظر الأمثال يتزايد الحسن على قيمة الأجزاء، ثم أحسنه أن يكون الماء عذبًا فراتًا لذيذًا، كما قال ﴿مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ فبلفظ (نهر) وجمعه وتعريفه أشار إلى هذه[1].

والجريان لا يكون للأنهار وإنما للماء؛ لأن الأنهار هي ما يشق في الأرض ليجري فيه الماء، فهو من إطلاق اسم المحل وإرادة الحال، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾﴾ [العلق: ١٧].

وإن الناظر إلى الماء وهو يجري منسابًا في الأرض لايرى النهر؛ ولكن يرى الماء، فكأن النهر اختفى في الماء ولا يرى غير الماء.

وإن هذه الجنات فيها بهجة للناظرين، فهي متعة للأنظار، وبهجة للنفوس بذاتها، وفيها ثمرات شهية من كل شيء[2].

قال الراغب: إن قيل: لم قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥].وقد علم أن الماء في البساتين إذا كان جاريًا على وجه الأرض أحسن منها إذا كان جاريًا تحتها؟ قيل: عنى أنهارًا جارية تحت الأشجار، لا تحت الأرض، وقد روي عن مسروق ما يدل على ذلك، وهو أن كل أنهار الجنة تجري في غير أخاديد[3].

على أن هناك آية تقول: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فما الفرق بين الاثنين؟

يقول الشعراوي في خواطره: آية تجري تحتها الأنهار، أي: أن نبع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها، أما قوله تعالى: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ فكأن الأنهار تنبع تحتها، حتى لا يخاف إنسان من أن الماء الذي يأتي من بعيد يقطع عنه أو يجف، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين، أن نعيم الجنة باق وخالد، ومادام هناك ماء فهناك

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ١/ ١٩٣ لبديع الزمان سعيد النورسي ت: ١٣٧٩هـ ،تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ط: شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط: الثالثة، ٢٠٠٢م.

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ١/ ١٧١، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، أبو زهرة ت: ١٣٩٤هـ ط: دار الفكر العربي

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٢٣ لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت: ٥٠٢هـ، ط: أولى: ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

خضرة ومنظر جميل، ولابد أن يكون هناك ثمر[1] وكأنه يرجع علة اقتران الجنة بجريان الأنهار إلى بث الطمأنينة من الله لأهل هذه الجنات.

وقال رشيد رضا: ويحتمل أن من في قوله ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أن يكون صلة معناه: تجري تحتها الأنهار، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر، فيقال: هذا النهر منبعه من أين؟ يقال: من عين كذا من تحت جبل كذا.

ولو دققنا في هذه الآية آية سورة التوبة لوجدنا أنها الآية الوحيدة التي حددت الأصناف الذين يدخلون الجنة، أما باقي الآيات إنما هي على العموم، فالحق تبارك وتعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجري من تحتها الأنهار، والجنات جمع جنة، وهي جمع؛ لأنها كثيرة ومتنوعة، وهناك درجات في كل جنة أكثر من الدنيا، واقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١][2].

من تحتها أي: من تحت أشجارها، الأنهار أي: ماء الأنهار، فنسب الجري إلى الأنهار توسعًا، وإنما يجرى الماء وحده، فحذف اختصارًا[3].

(١) خواطر الشعراوي ١/ ٢٠٧.
(٢) تفسير المنار، ١١/ ١٣.
(٣) الموسوعة القرآنية، للأبياري٩/ ٦٥.

وقال السعدي: في آية سورة يونس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون[4].

إذن فقد ورد لفظ الأنهار مرتبطًا بالجنات في خمسة وثلاثين موضعًا، والحكمة في

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٣٥٨.

اقتران الجنة بجريان الأنهار من تحتها هي: زيادة النعيم الذي أعده الله لأهل هذه الجنات واكتماله لهم، وبث الطمأنينة لهم من الله عز وجل.

الأنهار نعمة إلهية

أولًا: تسخير الأنهار:

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق السموات والأرض وما فيهن، وهو الذي أنزل من السماء، هذا الماء الذي تتدفق به الأنهار، وتتفجر منه العيون، وتحيا عليه الزروع، وما يخرج منها من ثمر وحب، وهو سبحانه الذي سخر الفلك، وأجراها مع الماء، وسخر الأنهار لتحمل الفلك على ظهرها، وسخر الشمس والقمر تسخيرًا منتظمًا، لا يتخلف أبدًا، وسخر الليل والنهار، على هذا النظام البديع المحكم[(١)].

ويتعهد الله تعالى بفضله ورحمته لعباده بين الفينة والأخرى، فيذكرهم بما أنعم عليهم من نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، ليحملهم على الشكر والطاعة، وينبههم على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر، لتقوم الحجة عليهم من وجهين. وهذا كله دليل قاطع على وجود الله ووحدانيته، وسلطانه وتصرفه في الكون والأنفس، مما يوجب على العباد الإيمان بربهم، والثقة بوعده، وشكر إحسانه ونعمه[(٢)].

قال الله تعالى معددًا آلاءه ومذكرًا

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.

(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٠٠.

بقدرته: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

قال الرازي: «يختم الله تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته، وذكر هاهنا عشرة أنواع من الدلائل. أولها: خلق السموات. وثانيها: خلق الأرض،... إلى أن قال: وخامسها: قوله: وسخر لكم الأنهار»[(١)].

التسخير: تذليل الشيء وجعلك إياه منقادًا فكأنك إذا سخرت منه جعلته كالمنقاد لك[(٢)].

وقد ورد تسخير الأنهار صريحًا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

والمراد بالتسخير هنا: التذليل، والإخضاع، والانقياد، وذلك بإخضاع هذه المخلوقات لسنن وقوانين تحكمها، وتضبط موقفها بين المخلوقات، بحيث يمكن الإنسان إخضاع هذه المخلوقات والانتفاع بها، إذا هو عرف القوانين الكونية الممسكة بها[(٣)].

وسخر لكم الأنهار فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم، وقيل: تسخير هذه الأشياء تعليم كيفية اتخاذها[(٤)].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: ذللها لكم حيث تشربون منها وتسقون زروعكم وجناتكم ودوابكم، وتشقون منها جداول تسيرونها وفق إرادتكم[(٥)].

وسخر الأنهار تشق الأرض من قطرٍ إلى قطرٍ رزقًا للعباد من شربٍ وسقيٍ، وغير ذلك من أنواع المنافع[(٦)].

وتسخير الأنهار: خلقها على كيفيةٍ تقتضي انتقال الماء من مكانٍ إلى مكانٍ وقراره في بعض المنخفضات فيستقي منه من تمر عليه وينزل على ضفافه حيث تستقر مياهه، وخلق بعضها مستمرة القرار كالدجلة والفرات والنيل للشرب ولسير السفن فيها[(٧)].

ومن المفسرين من يجعل من معاني

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٩٦.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٥٥.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، لعبدالكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٠٠.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٤٩٩.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٣٩.
(٧) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٣/ ٢٣٦.

التسخير: التفجير.

قال الرازي: « واعلم أن ماء البحر قلما ينتفع به في الزراعات، لا جرم ذكر تعالى إنعامه على الخلق بتفجير الأنهار والعيون حتى ينبعث الماء منها إلى مواضع الزرع والنبات، وأيضًا ماء البحر لا يصلح للشرب، والصالح لهذا المهم هو مياه الأنهار »[(١)].

وقال ابن عطية: «وأما تسخير الأنهار فتفجرها في كل بلد، وانقيادها للسقي وسائر المنافع»[(٢)].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾، أي: فجر لكم ينابيع الماء الجاري في الأنهار، ويسر توزيعها وتفرعها لسقي أكبر مساحة من الأرض والشجر والزرع[(٣)].

وهو الذي سخر لكم الأنهار، وشقها في بطون الأودية وجعل منها حياة الأقاليم والأقطار. ألا ترى إلى نهر النيل والفرات وغيرهما؟![(٤)].

ومن باب التسخير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي، ١٩/ ٩٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٣٩.
(٣) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٢٠٠.
(٤) التفسير الواضح، لمحمد حجازي ٢/ ٢٦٣.

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه،... يسيرون من قطرٍ إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك[(٥)].

ويتضح لنا مما سبق من كلام المفسرين: أن تسخير الأنهار يدور حول: التذليل، والإخضاع، والانقياد، وخلقها على كيفيةٍ معينة تقتضي انتقال الماء من مكانٍ إلى مكانٍ، وقراره في بعض الأماكن، وتفجيرها وتيسير توزيعها.

ثانيًا: تفجير الأنهار

التفجر: التفتح بالسعة والكثرة. وقرأ مالك بن دينار(ينفجر) بالنون[(٦)].

وقد ورد الحديث عن تفجير الأنهار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

الأول: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٨٣.
(٦) الكشاف ١/ ١٥٥، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، ت: ٥٣٨هـ، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: ثالثة، ١٤٠٧ هـ، البحر المحيط١/ ٤٢٨، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ت: ٧٤٥هـ، تحقيق: صدقي محمد جميل، نشر: دار الفكر، بيروت، ط: ١٤٢٠ هـ.

﴿الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء: ٩١].

والثالث: في قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣].

ويدور كلام المفسرين عن تفجير الأنهار الوارد في تلك الآيات حول المعاني الآتية: الشق والسيلان، التفتح والإجراء.

ففي آية سورة البقرة قال أبو حيان: «والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة، والانفجار دونه، والمعنى: إن من الحجارة ما فيه خروقٌ واسعةٌ يندفق منها الماء الكثير الغمر؛ إذ ليس المعنى ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ للحجر الذي يتفجر منه الماء، إنما المعنى للأحجار التي يتفجر منها الأنهار.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الحجر الذي يتفجر منه الأنهار، هو الحجر الذي ضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا»[(١)].

وإن من الحجارة للذي يتفجر منه الأنهار، يعني: من الحجارة ما يسيل منه أنهار من ماء[(٢)].

فكأنه قيل: وإن من القاسية قلوبهم من يراجع، فبعض يتفجر منه الأنهار، ومعناه: حكمة بالغة كأنهار متفجرة، وبعض يتحصل منه نوع من العلوم يجري مجرى الماء... ، ونبه بفحوى في الكلام أن هؤلاء المذمومين لم يحصل منهم شيء من ذلك فهم أحجار صلدة، وإنما قال: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ﴾، ولم يقل من اعتبار بلفظ الحجارة[(٣)].

وسبب التفجير للأنهار إنما هو خشية الله عز وجل، قال مجاهد: كل حجر ينفجر منه الماء، وينشق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، فمن خشية الله[(٤)].

أما عن آية سورة الإسراء فجاء في تفسيرها: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ﴾ أي: تفتحها وتجريها خلالها أي: وسط تلك الجنة[(٥)].

فتجرى الأنهار وسط تلك الجنة جريانًا قويًا دائمًا للانتفاع بها في ري تلك الجنة وغيرها[(٦)]. ، تشقيقًا.[(٧)].

والمعنى: هب أنك لا تفجر الأنهار

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ١/ ٤٢٨.

(٢) الوسيط، للواحدي ١/ ١٥٩.
(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٣٣.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٨٠.
(٥) انظر: الوسيط، للواحدي ٣/ ١٢٧، وزاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٣.
(٦) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٨٠٣.
(٧) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٦٢.

لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنةٌ من نخيلٍ وعنبٍ ﴿فَفَجَّرْنَا الْأَنْهَارَ﴾ أي: تجريها بقوةٍ ﴿خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: وسطها تفجيرًا كثيرًا[1].

تفجر أنهارًا تسقي جنةً واحدةً تكون تلك الجنة وأنهارها لك[2].

وذكر المفعول المطلق بقوله: (تفجيرًا) للدلالة على التكثير؛ لأن تفجر قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفجر، فتعين أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، وهو المناسب لقوله: ﴿خِلَالَهَا﴾، لأن الجنة تتخللها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعب ماء النهر إلى شعبٍ عديدةٍ[3].

وفي آية سورة الكهف قال بعضهم:

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أجرينا وشققنا وسطهما[4].

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾أي: وشققنا وسط الجنتين نهرًا، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب[5].

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا[6].

والرازي يرى أنه نهر لكنه كالأنهار في امتداده فيقول: أي: كان النهر يجري في داخل تلك الجنتين، والتشديد على المبالغة؛لأن النهر يمتد فيكون كأنهار، و﴿خِلَالَهُمَا﴾ أي: وسطهما وبينهما[7].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٠٦.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٨
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٩
(٤) التفسير الواضح ٢/ ٤١٦
(٥) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٢٤
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٣
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ٤٦٣

الأنهار من جند الله

نعم الله سبحانه على عباده لا تعد ولا تحصى، ومن نعمه عليهم أن شق لهم البحار والأنهار بقدرته وحكمته؛ لكي يستطيعوا اصطياد كائناتها البحرية من الأسماك ليأكلوها طرية، وسخر الله سبحانه تلك البحار؛ لكي يتزينوا بحليتها، فيستخرجوا منها الحلي، مثل اللؤلؤ والمرجان والأصداف لاستعمالها في الزينة، وليس ذلك فحسب؛ وإنما فيها منافع أخرى يبتغيها عباده، كنقلهم للتجارة والأمتعة والارتحال عن طريقها إلى الأقطار والبلدان الأخرى.

إذن فالأنهار بهذه الطريقة تعد من جند الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ١٥].

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ أي: جعل فيها أنهارًا تجري من مكانٍ إلى مكانٍ آخر رزقًا للعباد، ينبغ في موضعٍ وهو رزقٌ لأهل موضعٍ آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرةٌ في الأرض يمنةً ويسرةً، وجنوبًا وشمالًا، وشرقًا وغربًا، ما بين صغارٍ وكبارٍ، وأوديةً تجري حينًا وتنقطع في وقتٍ، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر[(١)].

و﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وجعل فيها أنهارا، النيل، والفرات، ودجلة، وسيحان، وجيحان[(٢)].

ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال، فلهذا السبب أتبع ذكرها بتفجير الأنهار[(٣)].

وفي الأرض نعم كثيرة، أهمها ثلاث:

وهي تثبيت الأرض بالجبال الراسيات، كيلا تضطرب الأرض وتتحرك بأهلها، وإجراء الأنهار على وجه الأرض لتيسير الانتفاع بها، ففيها حياة الإنسان والحيوان والنبات[(٤)].

هو الذي ألقى في الأرض رواسى من الجبال الشامخات؛ لئلا تميد بكم الأرض وتضطرب عند دورانها وتحركها، وجعل لكم فيها أنهارًا كنهر النيل والفرات والمسيسبى وغيرها وجعلها سبلًا وطرقًا لربط أجزاء الأرض ولنقل التجارة والمصالح، وجعلها علامات وحدودًا، وفي الأرض علامات أخرى وحدود من أنهار وجبال وآكام[(٥)].

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٣.
(٢) الوسيط، للواحدي ٣/ ٥٨.
(٣) البحر المحيط، لأبي حيان ٦/ ٥١٤.
(٤) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٤٨.
(٥) التفسير الواضح، لمحمد حجازي ٢/ ٣٠٢.

﴿بِكُمْ﴾ أي: ومن نعم الله الكثيرة عليكم أنه جعل في الأرض جبالًا شامخات ثابتات تحفظ اتزانها في دورانها حتى لا تضطرب في حركتها. ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: وجعل في الأرض أنهارًا عذبة تجرى مياهها من منابعها إلى مصابها، لتهيئ الري للإنسان والحيوان والنبات[1].

كراهة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وتضطرب[2]، أي: نصب فيها جبالًا ثوابت أن تميد أي: لئلا تميد، وقال الزجاج: كراهة ﴿أَن تَمِيدَ﴾[3].

ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارًا، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، أنهارًا على وجه الأرض، وأنهارًا في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها[4].

ونعمة الأنهار عظيمةٌ، فإن منها شرابهم وسقي حرثهم، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم[5].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

قال ابن كثير: وجعل خلالها أنهارًا أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها في خلالها وصرفها فيها ما بين أنهارٍ كبارٍ وصغارٍ وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه[6].

وجعل خلالها وفي أوساطها أنهارًا جارية ينتفع كل بها كل قاطنيها في شؤن حياتهم[7].

وسبق أن ذكرنا الصلة بين النهر واليم، وقلنا: إن لفظ النهر واليم بينهما ترادف إلى حد كبير، وقد أطلق القرآن الكريم اليم على النهر في آيتين كريمتين، الأولى هي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

وذكر الطبري في تفسيره أن «اليم» هو نهر النيل[8].

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٥٩٩.
(٢) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الأبياري ١٠/ ١٩٢.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٥٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٧.
(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٤/ ١٢٢.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٨٣
(٧) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٧/ ١٧٠٠
(٨) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٧.
وقال البغوي: «واليم البحر وأراد هاهنا: النيل». معالم التنزيل ٣/ ٥٢٣.
وكذا قال القرطبي ١١/ ١٩٤، وابن الجوزي في

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: وألهمنا. ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ اليم: البحر. والمقصود به هنا: النيل، وكل نهر عظيم يطلق عليه بحر لاستبحاره[1].

أي: فإذا خفت عليه من القتل بسبب سماع أحد من الجيران صوته، فألقيه في بحر النيل، ولكن لا تخافي عليه حينئذ من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض جواسيس فرعون الذين يبحثون عن الولدان، وغير ذلك من المخاوف، ولا تحزني لفراقه.

وهكذا طمأنها الحق تعالى عن مخاوفها وهواجسها الجديدة بعد إلقائه في البحر، بإلقاء الأمان والسكينة في قلبها؛ لأن عناية الله ورعايته تحوط بأنبيائه ورسله منذ بدء الحمل وفي عهد الطفولة.

وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتًا، ومهدت فيه مهدًا، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وألقته في النيل، فذهب مع الماء واحتمله على سطحه، حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري وذهبن به إلى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، فلما كشفت عنه، أوقع الله محبته في قلبها، فآثرت الإبقاء عليه، ولم تزل تكلم فرعون حتى تركه لها.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧]

أي: إنا سنرده عليك لتكوني أنت المرضعة له، وسنجعله نبيًا مرسلًا إلى أهل مصر والشام.

وقد جمعت هذه الآية الواحدة بين أمرين ونهيين، وخبرين وبشارتين والأمران: هما أرضعيه وألقيه، والنهيان: هما ولا تخافي ولا تحزني، والخبران: هما إنا رادوه إليك، وجاعلوه، والبشارتان: في ضمن الخبرين، وهما الرد والجعل من المرسلين[2].

وهكذا وضح جليًا أن اليم جند من جنود الله في حفظ موسى عليه السلام من الغرق بأمر الله وفي غرق عدو الله وعدوه، وهو هو نهر النيل، قال صاحب المنار:

وأما الغرق في النيل فيفهم من قول القرآن مثلًا في سورة طه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

ثم قوله في آخر هذه القصة: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾ [طه: ٧٨].

فالمتبادر من ذلك أن فرعون غرق في

(١) زاد المسير ٣/ ١٥٨.
التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٧/ ١٧٣٧.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٦٣.

نفس اليم الذي ألقي فيه موسى وهو النيل، وإن كان أكثر المفسرين يرى أنه أغرق في البحر الأحمر.

قال الطاهر ابن عاشور: وقد أغرق فرعون وجنده في البحر الأحمر حين لحق بني إسرائيل يريد صدهم عن الخروج من أرض مصر[(١)].

ومثل ذلك أيضًا ما جاء في سورة القصص، وهو قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

ثم قوله فيها بعد مما يدل على أن اليم جند من جنود الله سبحانه: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص٤٠].

أي: أغرقناهم في البحر في صبيحةٍ واحدةٍ[(٢)]، كنايةٌ عن إدخالهم في البحر حتى غرقوا، شبهوا بحصياتٍ. قذفها الرامي من يده[(٣)].

ومن الآيات التي أطلق القرآن الكريم فيها اليم على النهر، ووضح فيها جليًا أنه من جنود الله سبحانه قوله تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ومما يدل على أن النهر من جنود الله سبحانه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه: ٧٨].

أي: تبعهم فرعون ومعه جنوده، فغشيهم من البحر ما غشيهم مما هو معروف ومشهور، فغرقوا جميعًا. وتكرار غشيهم للتعظيم والتهويل[(٤)]. أي: فعلاهم وغمرهم ما غمرهم، من الأمر الهائل المروع الذي يعجز البيان عن وصفه، حيث انطبق عليهم الماء فأغرقهم فهلكوا جميعًا، ونجى الله فرعون وأبقاه ببدنه خاليًا من الروح في اليوم الذي نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق[(٥)].

من خلال الآيات السابقة يتضح جليًا أن اليم جند من جنود الله سبحانه وتعالى سواء أكان المقصود به النهر أو البحر، لكن الثابت من المعاجم اللغوية أن اليم مرادف للنهر.

وليس بلازم أن يكون الجندي لهلاك العدو دائمًا، وإنما كثيرًا ما يكون الجندي لنفع المسلمين، فالأنهار كانت جند خير ونفع لبعض عباده، وجند وبال وهلاك على بعضهم، وهذا ما سنتناوله تفصيلًا في مطالب المبحث التالي الذي يتحدث عن منافع الأنهار من خلال آيات القرآن الكريم بصورة توضيحية.

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٧٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢١٤.
(٣) البحر المحيط، لأبي حيان ٨/ ٣٠٧.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٢٥٥.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٦/ ١٠٥٠.

من منافع الأنهار

المنافع: ما فيه الخير والصالح والفائدة، وكل ما ينتفع به، جنى من عمله منفعةً كبرى[1].

وعلى ذلك تتعدد منافع الأنهار على الإنسان، وتتمثل هذه المنافع في شرب مائها، الذي جعل الله فيه حياة الإنسان، ومنها تسقى الزروع والثمار، ويعبرها الإنسان ركوبًا للجهاد في سبيل الله وطلبًا للرزق، ويتمتع الإنسان بجريان مائها، ويصطاد من أسماكها وكائناتها لحمًا طريًا يتخذه طعامًا شهيًا، وتفصيل الحديث عن تلك المنافع في المطالب الآتية:

أولًا: شرب مائها:

الماء يعد أعظم نعمة من الله تعالى، وماء النهر من أعظم منافعه شرب مائه، والآيات في ذلك كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

أي: أصل كل الأحياء[2].

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾، أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، أي فلا بأس عليه.

قال ابن عباسٍ: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو[3].

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها[4].

ونعمة الأنهار عظيمةٌ، فإن منها شرابهم وسقي حرثهم، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم[5].

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الحجر: ٢٢] أي:

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار وآخرون ٣/ ٢٢٥٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٥٠٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١/ ٤٢٦.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٢٢.

فأنزلنا من السحاب مطرًا، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: يمكنكم أن تشربوا منه، وأسقينا به زرعكم ومواشيكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ١٠].

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: لستم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله ينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أبقاه لكم في طول السنة، لشرب الناس والزروع والثمار والحيوان، فالتخزين يكون في السحاب وفي جوف الأرض[(١)].

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: وخلقنا من الماء كل حيوان سواء النازل من السماء والنابع من الأرض. ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء، لا يحيا دونه، سواء النبات وغيره، فالماء سبب لحياته[(٢)].

وفي إطار الانتفاع بماء البحر يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

ذكر سبحانه نوعًا آخر من بديع صنعه، وعجيب قدرته فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فالمراد بالبحرين: العذب والمالح، فالعذب الفرات الحلو، والأجاج المر، والمراد ب ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته[(٣)].

ثانيًا: سقيا الزروع والثمار:

كما أن من منافع الأنهار شرب مائها، وانتفاع الإنسان غاية النفع في ذلك، فإن ما تحتاجه الزروع والثمار من ماء فيه منفعة كبيرة قد لا تقل أهمية عن نفع الإنسان بماء النهر في شرابه.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧].

يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء، إما من السماء أو من السيح،

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ٢٥
(٢) المصدر السابق ١٧/ ٤٣
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٣.

وهو ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف: ٨].

أي: يبسًا لا تنبت شيئًا، وليس المراد من قوله ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود وإن مثل بها كثيرٌ من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها، ولكنها مرادةٌ قطعًا من هذه الآية، فإنها في نفسها أرضٌ رخوةٌ غليظةٌ تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرًا لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طينٌ أحمر، فيغشى أرض مصر وهي أرضٌ سبخةٌ مرملةٌ محتاجةٌ إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضًا، لينبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنةٍ على ماءٍ جديدٍ ممطورٍ في غير بلادهم، وطينٍ جديدٍ من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداءً[1].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها[2].

وجعله سببا للإنبات، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩]

أي: أن الله هو الذي أنزل بقدرته وتصريفه وحكمته من السحاب ماء بقدر، مباركًا، ورزقًا للعباد، وإحياء وإغاثة للخلائق، رحمة من الله بخلقه، فأخرجنا بسبب هذا المطر أصناف النبات المختلف في شكله وخواصه وآثاره، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وفي آية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥﴾ [الأنعام: ٩٥].

ثم ذكر تعالى آية من آيات التكوين في النبات وهي إنزال الماء من السماء وأخرجنا بالمطر زرعًا وشجرًا أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر، لهذا قال تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾. أي: يركب بعضه بعضًا كالسنابل ونحوها[3].

فالله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض وما فيهن، وهو الذي أنزل من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٣٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١/ ٤٢٦.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي، ٧/ ٣٠٨.

السماء هذا الماء الذي تتدفق به الأنهار، وتتفجر منه العيون، وتحيا عليه الزروع، وما يخرج منها من ثمر وحب[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: فجر لكم ينابيع الماء الجاري في الأنهار، ويسر توزيعها وتفرعها لسقي أكبر مساحة من الأرض والشجر والزرع[2].

وقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وهذا المثل مضروب لمن عمل عملًا لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالًا تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاء وقوتًا وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته[3].

وقال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٣].

جعل الله لأحدهما جنتين، أي: بستانين من أعناب، محاطين بنخيل، وفي وسطهما الزروع والأشجار المثمرة.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمارها، ولم تنقص منه شيئًا في كل عام.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: وشققنا وسط الجنتين نهرًا، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب[4].

وقال تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء: ٩١].

تفجر أنهارًا تسقي جنةً واحدةً تكون تلك الجنة وأنهارها لك[5].

ثالثًا: ركوبه للتنقل والجهاد:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

يمتن الله على عباده بتذليل البحر لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وتسخيره لحمل السفن التي تمخره، أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وقيل: تمخره

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٠٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١١٤.
(٤) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٢٤.
(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٥/ ٢٠٨.

بجؤجئها وهو صدرها المسنم الذي أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك، إرثًا عن أبيهم نوحٍ عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرنًا بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيلٍ، يسيرون من قطرٍ إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك[1].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدرها. ومخر السفينة: شقها الماء بصدرها[2].

ومن نعم الله تعالى أيضًا تذليله البحر للناس، وتيسيره للركوب فيه، وعبور الفلك السفن فيه جيئة وإيابا، وطلب فضل الله ورزقه بالتجارة فيه، مما يوجب شكر نعمه وإحسانه على الناس بما يسره لهم في البحار[3].

يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

﴿فِيهِ﴾ أي: في كل. ﴿مَوَاخِرَ﴾ تشق الماء بجريها[4].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي: في كل واحدٍ من البحرين.

وقال النحاس: الضمير يعود إلى الماء المالح خاصةً، ولولا ذلك لقال: فيهما مواخر يقال: مخرت السفينة تمخر: إذا شقت الماء. فالمعنى: وترى السفن في البحرين شواق للماء بعضها مقبلةٌ، وبعضها مدبرةٌ بريحٍ واحدةٍ[5].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: تمخره وتشقه بحيزومها: وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره، وقال مجاهدٌ: تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام.

وقوله جل وعلا: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة من قطرٍ إلى قطرٍ وإقليمٍ إلى إقليمٍ.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، تذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيءٌ منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ورحمته[6].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٨٤.
(٣) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٤٨.
(٤) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الأبياري ١١/ ٢١.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٣.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٧٨.

﴿ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وهوسبحانه الذي سخر الفلك، وأجراها مع الماء، وسخر الأنهار لتحمل الفلك على ظهرها[(١)].

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ولتطلبوا بها منافع أخرى من فضل الله غير ما تقدم، كالتجارة ونقل الحاصلات والبضائع من مرفإ إلى مرفإ ومن قطر إلى قطر، وغير ذلك كالارتحال بها لطلب العلم حيث يوجد العلم والعلماء[(٢)].

هو وحده لا شريك له ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة. ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالًا وحسنًا إلى حسنكم، ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: تمخر في البحر العجاج الهائل بمقدمها حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم[(٣)].

ومن تسخير البحر: خلقه على هيئةٍ يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخرة لحيل الصائدين. وزيد في الامتنان أن لحم صيده طريٌّ[(٤)].

رابعًا: الانتفاع بجريان مائه:

من المنافع التي تحدثت عنها بعض آيات الأنهار: السرور بمنظر الماء الجاري للنهر، هذا السرور الذي يبعث البهجة في النفس، والراحة النفسية، والتفكر في ملكوت الله وعظمته وامتنانه على عباده.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

قيل: المعنى في ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾: أي: بأمر سكانها واختيارهم، فعبر بتحتها عن قهرهم لها وجريانها على حكمهم، كما قيل في قوله تعالى حكايةً عن فرعون: وهذه الأنهار تجري من تحتي، أي: بأمري وقهري... وقد روي عن مسروقٍ: أن أنهار الجنة تجري في غير أخاديد، وأنها تجري على سطح أرض الجنة منبسطةً.

وإذا صح هذا النقل، فهو أبلغ في النزهة، وأحلى في المنظر، وأبهج للنفس. فإن الماء الجاري ينبسط على وجه الأرض جوهره فيحسن اندفاعه وتكسره، وأحسن البساتين

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب ٧/ ١٨٥.
(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٥٩٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٧.
(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٤/ ١١٩.

ما كانت أشجاره ملتفةً وظله ضافيًا وماؤه صافيًا منسابًا على وجه أرضه، لا سيما الجنة، حصباؤها الدر والياقوت واللؤلؤ، فتتكسر تلك المياه على ذلك الحصى، ويجلو صفاء الماء بهجة تلك الجواهر، وتسمع لذلك الماء المتكسر على تلك اليواقيت واللآلئ له خريرًا [(١)].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت أشجارها، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة على شواطئها [(٢)].

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ [الرحمن: ٥٠].

وأورد أبو حيان قول ابن عباسٍ: هما عينان مثل الدنيا أضعافًا مضاعفةً، وقال: تجريان بالزيادة والكرامة على أهل الجنة.

وقال الحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل.

وقال ابن عطية: إحداهما من ماءٍ، والأخرى من خمرٍ. وقيل: تجريان في الأعالي والأسافل من جبلٍ من مسكٍ [(٣)].

ومما يزيدها بهجة ورواء أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣].

فجر الله سبحانه خلال الجنتين-أي: بين الجنتين-نهرًا عذبًا، فكان هذا النهر متعة للناظرين، وسببًا أدى إلى وصول الماء الدائم والمستمر إلى هاتين الجنتين، فكان هذا أيضًا من الأسباب التي جعلت هاتين الجنتين تؤتي أكلها كاملة [(٤)].

وقال الله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾ [الغاشية: ١٢].

أي: في تلك الجنة عين عظيمة لا ينقطع ماؤها عن الجريان، أو عيون كثيرة،... ووصف ماء العيون بالجريان للإشارة إلى أنه بارد صافٍ؛ لأن ماء العيون إذا كان جاريًا يكون في العادة باردًا صافيًا مع ما في منظر الماءِ الجاري من مسرة وارتياح [(٥)].

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ١/ ١٨٢-١٨٣.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٦٠.
(٣) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان ١٠/ ٦٨، وأنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٧٤.
(٤) انظر: مقرر التفسير الموضوعي ٢، ص٢٤٢.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ١٠/ ١٨٨٩.

أكل صيده وطعامه واستخراج حليته

لما كانت هذه الشريعة خاتمة الشرائع السماوية، كان لابد أن تكون مميزة بخصائص ومميزات تجعلها قابلة للثبات والاستمرار ومواكبة لحياة الإنسان مهما كان، وفي أي عصر كان، وفي أي مكان كان.

ومن أهم المميزات التي تميزت بها شريعتنا الغراء: رفع الحرج عن المكلفين والتيسير عليهم، من أجل هذا كانت عناية الشريعة، تلك العناية البالغة ببيان الحلال والحرام، من طعام الإنسان وشرابه، ليقيم وجهه على ما أحل الله له من طيبات. وليعرض عما حرم عليه من خبائث.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: ٩٦].

ففي هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين حكم الصيد، وما لهم منه، وما عليهم فيه.

فعن أبي هريرة: (أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو الطهور ماؤه الحل ميتته)[1].

والبحر يشمل الأنهار والأودية؛ لأن جميعها يسمى بحرًا في لسان العرب. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ الآية. وليس العذب إلا الأنهار كدجلة والفرات. وصيد البحر: كل دواب الماء التي تصاد فيه، فيكون إخراجها منه سبب موتها قريبًا أو بعيدًا. فأما ما يعيش في البر وفي الماء فليس من صيد البحر كالضفدع والسلحفاة، ولا خلاف في هذا[2].

وفي هذا يتضح أن الله تعالى أباح لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيب، وكانت وجوه الحلال كثيرة، وبين لهم ما حرم عليهم لكونه أقل، حتى إن الصحابة كانوا عندما يتشككون في أمرٍ يذهبون إلى رسول الله ويسألونه.

فعن جابرِ بن عبد الله قال: «غزونا جيش الخبط[3] وأميرنا أبو عبيدة، فجعنا جوعًا شديدًا، فألقى البحر حوتًا ميتًا لم نر مثله، يقال له: العنبر، فأكلنا منه نصف شهرٍ، فأخذ أبو عبيدة عظمًا من عظامه فمر الراكب

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١٤/ ٣٤٩رقم ٨٧٣٥.
(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٧/ ٥٢.
(٣) الخبط: ورق الشجر يضرب بالعصا فيسقط، وسميت هذه الغزوة بذلك لشدتها على الصحابة حتى أنهم أكلوا الخبط انظر معالم السنن لشرح أبي داوود، ٤/ ٢٥٢.

تحته، قال: فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (كلوا رزقًا أخرجه الله عز وجل لكم، أطعمونا إن كان معكم، فأتاه بعضهم بشيءٍ فأكله)[1].

قال أبو بكر الصديق: صيد البحر ما تصطاده أيدينا وطعامه ما لاثه البحر[2].

فلا يخفى ما لإطابة المطعم بتحري ما أحل الله وترك ما حرم الله من أثر بالغ على قلب الإنسان وسلوكه، وأن الأكل من الطيبات له آثار حميدة على النفوس والأبدان؛ لأن الطيبات تؤثر الخير والنفع للأبدان والعقول والأخلاق، والخبائث تؤثر شرًا وضررًا في الأبدان والعقول والأخلاق، وكل ما ينفع فهو طيب وكل ما يضر فهو خبيث.

وإن هذه الطيبات التي أحلها الله لهي من ضمن الأشياء التي سخرها سبحانه وتعالى لنا في قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

﴿وَمِن كُلٍّ﴾ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل[3].

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

هو وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة. ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالا وحسنا إلى حسنكم[4].

ومن تسخير البحر: خلقه على هيئةٍ يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخرة لحيل الصائدين. وزيد في الامتنان أن لحم صيده طريٌّ[5].

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٢].

إن من آيات الله عز وجل أن سخر لنا البحر لنأكل منه لحمًا طريًا، ومن نعم الله جل في علاه أن ذلل البحر لنا حتى استطعنا

(١) الحديث أخرجه البخاري، ٥/ ١٦٧، رقم ٤٣٦٢.
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، ٣/ ١٩٧.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٤٣٧.
(٥) التحرير والتنوير، لا بن عاشور ١٤/ ١١٩.

أن نصطاد منه الأسماك وغيرها مما يؤكل من هذه اللحوم الطرية، كذلك ذلّله لنا لنغوص فيه فنجمع اللؤلؤ والمرجان وما يتخذ زينة. سمي السمك لحمًا؛ لأنه حيوان من جملة الحيوانات، وكونه بحريًا لا ينفي كونه لحمًا، ووصف بالطري؛ لأن لحم السمك أطرى من لحم حيوانات البر.

يمتن الله على عباده بتذليل البحر لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حليةً يلبسونها[1].

امتن الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان الركوب عليه واستخراج ما فيه من صيدٍ وجواهر؛ لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته،... ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ المراد به: السمك، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته، والإرشاد إلى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعةٍ[2].

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: لؤلؤًا ومرجانًا كما في قوله سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن:٢٢][3].

وقد ذكر بعض المفسرين أن «وصفه بالطراوة؛ لأن الفساد يسارع إليه»، ولكن هذا القول مما لا يناسب مقام الامتنان بنعم الله؛لأن المعنى يكون حينئذ: وسخر لكم البحر لتأكلوا لحم السمك الذي يسارع إليه الفساد فتأكلونه طريًا لئلا يفسد، وهذا لا يناسب مقام الامتنان، وإنما الذي يناسب مقام الامتنان هو وصف لحم السمك بالطراوة الذي هو عنوان للذة لحوم السمك، جاء التعبير ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا﴾ وليس « تخرجوا»؛ لأن الاستخراج يدل على الطلب، فالذي يغوص في البحر يطلب اللؤلؤ والمرجان، فهو يستخرجهما، أي: يطلبهما[4].

ووجه الأكل إلى لحمه مباشرة وفيه إشارة إلى أنه لا يزكى، بل يؤكل ميتًا، ولذا روى في الأثر (أحل لنا ميتتان حلالان: السمك والجراد)[5].

وعبر سبحانه وتعالى أيضًا بقوله: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾، ولم يقل سمكًا؛ لأن في البحر ما ليس بسمك، حيوانات تشبه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٨٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٨٣.
(٣) المصدر السباق ٣/ ١٨٤.
(٤) التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، لسامي القدومي ١/ ٢٩.
(٥) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال ٢/ ١١٠٢، رقم ٣٣١٤، وأحمد ٢/ ٩٧، رقم ٥٧٢٣.

حيوانات البحر، والظاهر أنها حلال وفيها ضخم يكفي الألوف، كالحيوان البحري المسمى الترسة، وكالحوت وفرس البحر، وغير ذلك، وكلها لحم طري، وقد وصف القرآن اللحم الذي يؤخذ من البحر بأنه لحم طري؛ لأنه فعلًا طري، وعظمه قليل، ولا يتخلل أجزاء جسمه، بل هو في موضع معين والذي يتخلل جسمه شيء صغير يسميه العامة « سفا ».

ويقول الزمخشري في وصفه بأنه طري للإشارة إلى أنه سريع العفن، وأنه ضار إذا تعفن، وفي ذلك نظر، فإنه إذا وضع الملح عليه لم يكن ضارًا في تعفنه، وهو المتفسخ منه، وقد أنكره أطباء عصرنا وزماننا ثم أباحوه، بل استحسنوه، وقرروا أن فيه سرًا طبيًا، وإن لم يعرفوه، وحرم التفسخ الحنفية؛ لأنه ضار، وقد علمت ما فيه.

و (اللام) في قوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ هي لام الغاية، أي: ذلله وسخره لتأكلوا منه لحما بعد صيده، وإنضاجه، وفيه مواد غذائية كبيرة، مملوءة بالقشور، وغيرها.

وإذا كان ذلك الطعام فيه منفعة مرئية طيبة، فالبحر وعاء للجواهر المختلفة، ولذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي ما يسمونه بالأحجار الكريمة من لآلئ، وزمرد، وغيرهما مما يتحلى به النساء وبعض المرفهين من الرجال، وإن لم يتشبهوا بالنساء[1].

فالأنهار تقدم للإنسان أيضًا فوائد كثيرة، وخاصة مع سكان المناطق التي يعيشون على ضفافها، فهي تفيض لهم بالخير، وتخرج من جوفها الأسماك والأعشاب والخيرات، وقد أثبت العلم الغذائي ما في ثمار البحر عمومًا، والسمك خصوصًا، من فوائد جمة. وينصح الأطباء بتناول وجبة سمك ولو مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع؛ لما فيها من غذاء ضروري للأجسام.

ومن نعم الله تعالى أيضًا تذليله البحر للناس، وتيسيره للركوب فيه، وإباحته الأسماك المختلفة المستخرجة منه، واستخراج الحلي واللآلئ منه للبس والزينة، والاستفادة من المرجان، وعبور الفلك (السفن) فيه جيئة وإيابًا، وطلب فضل الله ورزقه بالتجارة فيه، مما يوجب شكر نعمه وإحسانه على الناس بما يسره لهم في البحار[2].

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، لمحمد أبي زهرة ٨/ ٤١٤٤.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٤٨.
وانظر في هذا المعنى كلام البيضاوي في: أنوار التنزيل ٣/ ٢٢٢.

أنهار الجنة

جمع الله عز وجل الأنهار التي أعدها لعباده المتقين في الجنة في آية واحدة من آيات القرآن الكريم، ومن حكمته سبحانه أن جعل هذه الآية في سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

لما بين سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بين الفرق في مرجعهما ومآلهما، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].

و﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: صفة الجنة العجيبة الشأن، وقوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾، في حكم الصلة، كالتكرير لها. ألا ترى إلى سر قوله: التي فيها أنهارٌ؟ ويجوز أن تكون خبر مبتدإٍ محذوفٍ هي: فيها أنهارٌ[2].

﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية نوعين من الجزاء لكل من الفريقين: جزاء مادي وجزاء معنوي، أما نوعا جزاء المؤمنين فهما المشروب والمطعوم، والمغفرة والرضوان، وأما نوعا جزاء الكافرين فهما المشروب الحار، والخلود في النار...ومعنى الآية: إن نعت الجنة أو وصفها العجيب الشأن، التي وعد الله بها عباده المتقين، الذين اتقوا عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ هو ما تسمعون. ثم ابتدأ بمشروب أهل الجنة فيها أنهار جارية، من ماء غير متغير الطعم والريح واللون لطول المكث، بل إنه ماء عذب فرات، متدفق نقي غير مصحوب برواسب أو طحالب، من شربه لا يظمأ أبدًا، وقد ابتدأ بالماء؛ لأنه أعم نفعًا للناس من بقية المشروبات[3].

ونقل ابن كثير قول قتادة والضحاك وعطاء الخراساني: غير منتنٍ، والعرب تقول: أسن الماء إذ تغير ريحه[4].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ وفيها أنهار من حليب لم يحمض كما تتغير ألبان الدنيا، وهو في غاية البياض والحلاوة والدسومة، وثنى باللبن، لأنه ضروري للناس كلهم، وهو غذاء كامل ومطعوم شهي[5].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ والخمر: عصير العنب الذي يترك حتى يصيبه التخمر

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤١.
(٢) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان ٩/ ٤٦٦، والتفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٠.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٩.
(٥) المصدر السباق.
وانظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٣.

وهو الحموضة مثل خمير العجين. ولذةٍ وصفٌ وليس باسم، وهو تأنيث اللذ، أي: اللذيذ، واللذاذة: انفعالٌ نفسانيٌ فيه مسرةٌ، وهي ضد الألم وأكثر حصوله من الطعوم والأشربة والملامس البدنية، فوصف خمرٍ هنا بأنها لذةٍ، معناه: يجد شاربها لذاذةً في طعمها، أي: بخلاف خمر الدنيا فإنها حريقة الطعم فلولا ترقب ما تفعله في الشارب من نشوةٍ وطربٍ لما شربها لحموضة طعمها[1].

أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧][2].

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: تلذذ خالص ليس معه ذهاب عقل ولا سكر ولا صداع، بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب، و﴿لَذَّةٍ﴾: تأنيث لذ، أي: لذيذ[3].

وفيها أنهار من خمر لذيذة الطعم، طيبة الشرب، ليست كريهة الطعم والرائحة أو مرة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧].

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٩].

أي: ليس فيها ضرر ولا مادة مسكرة تزيل العقل، ولا يصيب شاربها صداع، ولا يذهب عقله، وإنما هي لذيذة للشاربين: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٤٦].

وذكرت في المرتبة الثالثة؛ لأنها ليست ضرورية، وإنما فيها متعة ذوقية، فهي لذيذة الطعم، طيبة الشرب، لا يكرهها الشاربون، وتناولها للذة بعد حصول الري والمطعوم[4].

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسل المصفى: الذي خلص مما يخالط العسل من بقايا الشمع وبقايا أعضاء النحل التي قد تموت فيه[5].

أي: من عسل ليس فيه عكرٌ ولا كدرٌ كعسل أهل الدنيا[6].

وفيها أنهار من عسل في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، لم يخالطه شيء من الشمع والقذى والعكر والكدر.

وذكر في المرتبة الرابعة؛ لأنه ليس ضروريًا وإنما جمع بين مختلف الطعوم والإحساسات الذوقية المرغوبة، ولا شك أن الحلو أطيب الطعوم، والعسل أرقاها، وفيه فوائد كثيرة للجسد: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

ففيه الشفاء في الدنيا بعد المشروب

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٦/ ٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٩.
(٣) تفسير الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٢٢.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٣.
(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٦/ ٩٧.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٨.

والمطعوم، وفيه الخير في الآخرة.

وفي ذكر هذه الأجناس الأربعة، إطناب بتكرار لفظ أنهارٌ، وتشويق لنعيم الجنة، وجمع بين الضرورة (الماء) والحاجة (اللبن) والمتعة (الخمر غير المسكرة) والعلاج النافع (العسل)[1].

وقد يكون ذكر هذه الأربعة جمعًا بين ما تشتهيه كل الأذواق من الناس، ليكتمل لأهل الجنة كل شراب يشتهى.

ويورد ابن كثير حديث الإمام أحمد بسنده عن حكيم بن معاوية عن أبيه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد)[2].

وفي الصحيح أشار النبي صلى الله عليه وسلم مرغبا أمته في العمل على طلب الجنة وأنهارها فقال: (إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن)[3].

والمعنى العام للآية: مثل الجنة الموعودة للمؤمنين، وشأنها العجيب ما يتلى عليكم من جلائل النعم، في هذه الجنة أنهار من الماء النقي المتجدد الذي لم يداخله كدر، ولم يلحقه تغير في لون أو طعم لطول مكثه، وأنهار من لبن لم تطرأ عليه حموضة ولم يستكره له طعم، كما يحدث في ألبان الدنيا، وأنهار من خمر لذيذ الطعم مستساغ المذاق، ليس فيها كراهية ريح، ولا غائلة سكر، ولا يجد شاربها إلا اللذة والمتعة، وأنهار من عسل خالص صرف مصفى من الشمع، ومن جميع الشوائب وفضلات النحل، وفيها غير هذا من كل الثمرات، وأصناف المطعومات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكل ذلك من الوفرة والكثرة بحيث لا يخاف منه حرمان، ولا إقلال ولهم قبل هذا مغفرة واسعة من ربهم تمحو ذنوبهم، وترفع درجاتهم[4].

من أنهار الدنيا في الجنة:

وإذا كان بعض المفسرين يرى أن أنهار الجنة هذه، التي ذكرت في الآية الكريمة، وصفت على سبيل التشبيه، فبعضهم يرى أن أنهار الماء حقيقة، وأنهار اللبن والعسل والخمر على طريقة التشبيه البليغ أو المماثلة.

قال أبو حيان الأندلسي: «ويظهر أن

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٦/ ١٠١-١٠٣.
(٢) مسند أحمد بن حنبل، ٥/ ٥، وأخرجه الترمذي، في كتاب صفة الجنة، باب ٢٧، عن محمد بن بشارٍ، وقال: حسنٌ صحيحٌ.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ٤، والترمذي في صفة الجنة، باب ٤، وأحمد في مسنده، ٢/ ٣٣٥.
(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٩/ ٩٥٨.

القصد بالتمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيله المرء عند سماعه. فههنا كذا، فكأنه يتصور عند ذلك اتباعًا على هذه الصورة، وذلك هو مثل الجنة»[(١)].

وقال ابن عاشور: «فأما إطلاق الأنهار على أنهار الماء فهو حقيقةٌ، وأما إطلاق الأنهار على ما هو من لبنٍ وخمرٍ وعسلٍ فذلك على طريقة التشبيه البليغ، أي: مماثلةٌ للأنهار، فيجوز أن تكون المماثلة تامةً في أنها كالأنهار مستبحرةٌ في أخاديد من أرض الجنة، فإن أحوال الآخرة خارقةٌ للعادة المعروفة في الدنيا، فإن مرأى أنهارٍ من هذه الأصناف مرْأى مبهجٌ. ويجوز أن تكون مماثلة هذه الأصناف للأنهار في بعض صفات الأنهار وهي الاستبحار. وهذه الأصناف الخمسة المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه ومن أعز ما يتيسر الحصول عليه، فكيف الكثير منها، فكيف إذا كان منها أنهارٌ في الجنة»[(٢)].

أقول: ومع ذلك فإن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم دلنا بوضوح على أنه في الدنيا أنهار من أنهار الجنة.

فقد ذكر البغوي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة)[(٣)].

كما أورد القرطبي قول كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم، وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر[(٤)].

وهذا الكلام أقصد قول كعب الذي أورده القرطبي له علاقة بالحديث الصحيح قبله، وإن كان آخره وهو خروج هذه الأنهار من نهر الكوثر لم أعثر له على أثر، والله أعلم.

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ٩/ ٤٦٦، والتفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٠٠.
(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٦/ ٩٥.
(٣) أخرجه مسلم في الجنة، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة، رقم ٢٨٣٩ ٤ / ٢٦٨٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٣٧.

الأنهار في المثل القرآني

المثل في الأدب: قول محكي سائر، يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله، أي: يشبه مضربه بمورده.

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن. وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات. كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥].

أي: قصتها وصفتها التي يتعجب منها[1].

وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمورٌ كثيرةٌ، منها: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملةً على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر.

قال تعالى ممتنًا على عباده بضرب الأمثال لما تضمنته من فوائد: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

وقال أيضًا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣][2].

وذكر الله المثلين: المائي والناري-في سورة الرعد للحق والباطل. فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، والسيل إذا جرى في الأودية احتمل زبدًا وغثاء، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها، وهذا هو المثل المائي في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهكذا يضرب الله الحق والباطل[3].

وهذا المثل مضروب لمن عمل عملًا لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالًا تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاء وقوتًا وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية

(١) مباحث في علوم القرآن، للقطان ص٢٩١.

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ١/ ٤٨٧.

(٣) مباحث في علوم القرآن، للقطان ص٢٩٤.

التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته[1].

ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كل عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار، وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار، فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملًا لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات، وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباء منثورًا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل، لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية حسرته، ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة، التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيمًا وخطره جسيمًا، فلهذا أمر تعالى بالتفكر وحث عليه[2].

ومن الأمثال التي لها صلة بالأنهار في القرآن قوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقى تلك البساتين والأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ دائم أيضًا، ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!![3].

كذلك من الأمثال التي لها صلة بالأنهار قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۙ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢-٣٣].

وتصوير المثل كما حكى القرآن:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١١٤.

(٢) المصدر السابق ص١١٤.

(٣) المصدر السابق ص٤١٩.

واضرب أيها الرسول مثلًا لهؤلاء المشركين بالله الذين طلبوا منك طرد المؤمنين من مجلسك، ذلك المثل هو حال رجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي:بستانين من أعناب، محاطين بنخيل، وفي وسطهما الزروع والأشجار المثمرة. ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمارها، ولم تنقص منه شيئًا في كل عام. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: وشققنا وسط الجنتين نهرًا، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب[1].

ويورد ابن الجوزي في مورد المثل رواية عطاء عن ابن عباس، قوله: هما ابنا ملك كان في بني إسرائيل، توفي وتركهما، فاتخذ أحدهما الجنان والقصور، وكان الآخر زاهدًا في الدنيا، فكان إذا عمل أخوه شيئًا من زينة الدنيا، أخذ مثل ذلك فقدمه لآخرته، حتى نفد ماله، فضربهما الله عز وجل مثلًا للمؤمن والكافر الذي أبطرته النعمة[2].

إذن فقد وردت الأنهار في المثل القرآني في أكثر من موضع، للمقابلة بين الحق والباطل في المثل المائي والناري، وللتذكير والوعظ في النهر الذي فجره الله وسط الجنتين، وللتشويق إلى أنهار الجنة، وللاعتبار والتقرير والثبات على الإيمان، وغير ذلك.

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٢٤.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨٣.

الأنهار والابتلاء

الابتلاء وسيلة تمييز الصفوف وتمحيص القلوب؛ جعله سنة ماضية، فحمل الأمانة لا يصلح له كل الناس، بل يحتاج إلى قوم مختارين، وهم الصفوة الذين يعدون لهذا الأمر إعدادًا خاصًا ليحسنوا القيام به.

ومن النتائج المترتبة على سنة الابتلاء لاحقًا: سنة التمحيص، فالمؤمن من جهة يتعرض للمحنة، فيصقل معدنه من أثرها، والمنافق من جهة ثانية لا يستطيع الصمود أمام الفتنة، فينكص على عقبيه؛ ولهذا جعل الله التمحيص معبرًا لتنقية الصف المؤمن من أدعياء الإيمان، فيقع به التمييز بين الدر الثمين والخرز الخسيس.

قال تعالى ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقد أدرك أهل العلم والبصيرة هذه الحقيقة؛ فعندما سئل الإمام الشافعي رحمه الله: أيما أفضل للرجل: أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى.

أولًا: ابتلاء الله لجنود طالوت بالنهر:

من حوادث الابتلاء المتعلقة بالأنهار:

ما ذكره القرآن الكريم من ابتلاء الله عز وجل بني إسرائيل بالنهر وعدم الشرب منه، والقصة بدأت عندما طلبوا من نبيهم القتال، وأن يبعث لهم ملكًا يقاتلون معه؛ لرفع الظلم الواقع عليهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وهذه القصة حدثت بعد وفاة موسى عليه السلام، والنبي الذي سألوه أن يبعث لهم ملكًا هو شمويل بن بال بن علقمة، ويعرف بابن العجوز، ويقال فيه: شمعون. قاله السدي، وإنما قيل: ابن العجوز؛ لأن أمه كانت عجوزًا، فسألت الله الولد، وقد كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى لها، ويقال له أيضًا: شمعون.

قال وهب بن منبه: لما قال الملأ من بني إسرائيل لشمويل بن بال ما قالوا، سأل الله تعالى أن يبعث إليهم ملكًا ويدله عليه، فقال الله تعالى له: انظر إلى القرن الذي فيه الدهن في بيتك، فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذي في القرن، فهو ملك بني إسرائيل فادهن رأسه منه وملكه عليهم.

وكان طالوت دباغًا فخرج في ابتغاء دابة أضلها، فقصد شمويل عسى أن يدعو له في أمر الدابة أو يجد عنده فرجًا، فنش الدهن على ما زعموا، قال: فقام إليه شمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت، وقال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالى بتقديمه.

ثم قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[البقرة: ٢٤٧].

وكان طالوت من سبط بنيامين، ولم يكن من سبط النبوة، ولا من سبط الملك، وكانت النبوة في بني لاوي، والملك في سبط يهوذا، فلذلك أنكروا، وقالو: ا أنى يكون له الملك علينا ؟أي: كيف يملكنا ونحن أحق بالملك منه؟!، جروا على طريقتهم في التعنت مع الأنبياء، والانحراف عن أمر الله تعالى، وتعجبوا كيف يكون له الملك، وهم من سبط الملوك ، هو ليس كذلك، هم أغنياء وهو فقير؟، فتركوا السبب الأقوى وهو قدر الله تعالى وقضاؤه السابق، فالأمر أمره والعبد عبده، والحلال ما أحل، والحرام ما حرم، والدين ما شرع، وليس للعبد إلا أن يستسلم ويقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

فنبيهم قد صرح لهم وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فساروا على درب إبليس عندما اعترض على الأمر

المباشر بالسجود لآدم، وكان أول من قاس قياسًا فاسدًا في مواجهة النص، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ قد تصور القوم أن الملك حكر عليهم، وأن التقديم والتأخير تبعًا للغنى والفقر، وصادموا الوحي بذلك، وهم أهل تعنت؛ فقد صنعوا ذلك من قبل مع نبي الله موسى عليه السلام عندما أمرهم بذبح بقرة، فأكثروا وشددوا؛ فشدد الله عليهم.

قال ابن عباسٍ: كان طالوت يومئذٍ أعلم رجلٍ في بني إسرائيل وأجمله وأتمه، وزيادة الجسم مما يهيب العدو[1].

قال تعالى ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

لما كان بنو إسرائيل من قبل كارهين لملك طالوت عليهم، ثم أذعنوا من بعد، وكان إذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختبار والابتلاء، أراد الله أن يبتلي هذا القائد جنده ليعلم المطيع والعاصي والراضي والساخط، فيختار المطيع الذي يرجى بلاؤه في القتال، وثباته في معامع النزال، وينفي من يظهر عصيانه، ويخشى في الوغى خذلانه، فإن طاعة الجيش للقائد وثقته به من شروط الظفر، وأحوج القواد إلى اختبار الجيش من ولي على قوم وهم له كارهون، أو كان فيهم من يكرهه، فإذا وجد في الجيش من ليس متحدًا معه يخشى أن يوضعوا خلاله يبغونه الفتنة ويسمونه بالفشل.

فأخبر طالوت جنوده بأن سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله، فمن شرب منه فلا يعد من أشياعه المتحدين معه في أمر القتال. إلا أن يكون ما يشربه قليلًا وهو غرفة تؤخذ باليد، فإن هذا مما يتسامح فيه ولا يراه مانعًا من الاتحاد به والاعتصام بحبله، ومن لم يطعمه، أي: يذقه بالمرة فإنه منه، وهو الذي يركن إليه ويوثق به تمام الثقة، فالابتلاء سيكون على ثلاث مراتب:

الأولى: مرتبة من يشرب فيروى لا يبالي بالأمر، وحكمه أن يتبرأ منه.

الثانية: ومرتبة من يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه وهو مقبول في الجملة.

الثالثة: مرتبة من لا يذوقه ألبتة، وهو الولي النصير الذي يوثق باتحاده، ويعول على جهاده.

قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٤٦.

﴿مِّنْهُمْ﴾ ذلك أن القوم كانوا قد فسد بأسهم وتزلزل إيمانهم، واعتادوا العصيان فسهل عليهم عصيانهم، وشق عليهم مخالفة الشهوة وإن كان فيها هوانهم، ولم يبق فيهم من أهل الصدق في الإيمان والغيرة على الملة والأمة إلا نفر قليل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

والعدد القليل من أهل العزائم يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوي المآثم، كما يعلم من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[1].

فلما خرج طالوت بالجنود من بيت المقدس، لقتال أعدائهم، قال لهم: إن الله مختبركم وممتحن مقدار صدقكم-في لقاء عدوكم، واستجابتكم لأوامر قائدكم- ﴿بِنَهَرٍ﴾ يعترض طريقكم: أطلب منكم عدم الشرب منه، ليظهر منكم المطيع والعاصي، فإن طاعة القائد شرط أساسي للنصر، فمن غلبته شهوته وشرب من مائه، فليس من أتباعي؛ لأنه إذا عصاني اليوم، فهو أحرى أن يعصي أمري وقت اشتداد الحرب، فتحدث الهزيمة. ومن لم يذق ماءه استجابة لهذا الأمر وصبر، فإنه مني، ضالع معي في لقاء العدو، والرغبة في الانتصار عليه.

ثم استثنى من القسم الأول وهو: من شرب من النهر فقال: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ يبل بها ريقه في هذه الفلاة وشدة العطش، فلا بأس عليه في ذلك.

قالوا - في حكمة الأمر بالاكتفاء بالغرفة-: إنه اختبار لطاعتهم كما تقدم، كما أن فيه سلامة الجندي، فإن الإسراف في الشرب-عند مناجزة العدو-يضر ضررًا بليغًا.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: فلم يمتثلوا ما أمرهم به طالوت، بل شربوا منه أكثر مما أمرهم به، إلا قليلًا منهم، نفذوا أمره فاغترف كل واحد منهم لنفسه غرفة واحدة[2].

وهؤلاء الذين يظنون أنهم ملاقو الله في الآخرة هم الذين آمنوا وجاوزوا النهر مع طالوت، قال ضعافهم: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، وقال أقوياؤهم: كم من فئة قليلة إلخ... ثم اشتد بعضهم بعزيمة بعض، وكان من أمر انتصارهم ما يأتي في الآية التي بعد هذه، والعبارة لا تدل على أن الذين شربوا من النهر لم يجاوزوه، وإنما خص بالذكر الذين لم يشربوا؛ لأنهم لم يتخلفوا عن طالوت لأجل الشرب، فهم الذين جاوزوه معه مقترنين وهم الذين يعتدهم منه، ويتبرأ من المتخلفين العاصين.

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٢/ ٣٨٦.

(٢) التفسير الوسيط، لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١/ ٤٢٣.

كما علم من قوله في الابتلاء[1].

والظاهر أن الملك لما علم أنه سائرٌ بهم إلى عدوٍ كثير العدد، وقوي العهد أراد أن يختبر قوة يقينهم في نصرة الدين، ومخاطرتهم بأنفسهم وتحملهم المتاعب وعزيمة معاكستهم نفوسهم، فقال لهم: إنكم ستمرون على نهرٍ، وهو نهر الأردن، فلا تشربوا منه فمن شرب منه فليس مني، ورخص لهم في غرفةٍ يغترفها الواحد بيده يبل بها ريقه، وهذا غاية ما يختبر به طاعة الجيش، فإن السير في الحرب يعطش الجيش، فإذا وردوا الماء توافرت دواعيهم إلى الشرب منه عطشًا وشهوةً، ويحتمل أنه أراد إبقاء نشاطهم؛ لأن المحارب إذا شرب ماءً كثيرًا بعد التعب، انحلت عراه ومال إلى الراحة، وأثقله الماء[2].

امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن ممن ليس كذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهو عاص ولا يتبعنا؛ لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه[3].

ومن بديع إيجاز القرآن: أن يحذف الشيء ويأتي في السياق بما يدل عليه، كما وصف الذين لم يشربوا بالإيمان مرة وباعتقاد لقاء الله تعالى مرة أخرى، فأعلمنا أن هذا الإيمان والاعتقاد هما سبب طاعة القائد وترك الشرب، وسبب الشجاعة والإقدام على لقاء العدو الذي يفوقهم عددًا[4].

إذن فقد جعل الله الأنهار سببًا للابتلاء، فابتلى بني إسرائيل بالنهر وعدم الشرب منه، اختبارًا لطاعتهم وثباتهم وهو أعلم.

ثانيًا: ابتلاء الله لفرعون بجريان الأنهار من تحت قصوره:

الابتلاء سنة ربانية جارية إلى يوم القيامة، وهي سنة ثابتة من سنن الدعوات، وعلامة من علامات الصدق، والسير في الاتجاه الصحيح نحو تحقيق الأهداف، وكيف لا؟! والتاريخ يؤيد هذه الحقيقة، والقرآن يؤكدها ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

ولقد خلق الله الإنسان في هذه الحياة ليختبره ويبتليه، وجعل حياته في هذه الدنيا حياة كد وكدح وكبد، فقال سبحانه موضحًا

(١) تفسير المنار، لمحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ٢/ ٣٨٧.
(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٢/ ٤٩٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١٠٨.
(٤) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٢/ ٣٨٧.

هذه المعاني: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ١-٢].

ومن مظاهر سنة الابتلاء: ابتلاء الله لفرعون بجريان الأنهار من تحت قصوره، وقد تحدثت بعض آيات القرآن الكريم عن هذا النوع من الابتلاءات، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ [الزخرف: ٥١].

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها أليس لي ملك مصر ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء[1].

﴿مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: من تحت قصري. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أعميتم عن مشاهدة ذلك.[2] ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ قيل: لما رأى تلك الآيات، وهي الآيات التسع التي ذكرها في سورة الإسراء وغيرها، استجاب الله بعد تكذيبه بها دعاء موسى، وهو المشار إليه قبل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾ [الزخرف: ٥٠].

خاف ميل القوم إلى موسى، فجمعهم ونادى بصوته فيما بينهم أو أمر مناديًا ينادي بقوله: يا قوم أليس لي ملك مصر؟ لا ينازعني فيه أحدٌ ولا يخالفني مخالفٌ ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: من تحت قصري، والمراد: أنهار النيل.

وقال قتادة: المعنى: تجري بين يدي.

وقال الحسن: تجري بأمري، أي: تجري تحت أمري[3].

لما رأى الملأ من قوم فرعون الآيات تترى عليهم، وسخط ربك حالًا بهم: قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلسَّٰحِرُ﴾ [الزخرف:٤٩]، قيل: هو خطاب تعظيم عندهم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من النبوة لئن كشفت عنا العذاب الذي نزل بنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل، وإننا لمهتدون إلى الصواب، وإلى الحق الذي تدعو إليه، فلما كشفنا عنهم العذاب، فاجأوا الكشف عنهم بأنهم ينكثون العهود وينقضون المواثيق.

هذا ما كان من أمر القوم وخاصة الملأ منهم، أما فرعون ملك مصر فها هي ذي أعماله: ونادى فرعون في قومه بأن جمعهم في مكان واحد كالسوق مثلًا، أو جمع أشرافهم وهم بلغوا عنه فكأنه نادى فيهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢١٢.
(٢) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري، ١١/ ١٥٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٦٤٠.

جميعا، فماذا قال؟ قال: يا قوم أليس لي ملك مصر؟ استفهام المراد منه التقرير، أي: قروا بما تعرفونه من أني ملك مصر.

وهذه الأنهار -فروع نهر النيل- تجرى من تحتي، وتسير بأمرى، وأنا صاحب التصرف في كل ما ينتج عن جريها من مزروعات وغيرها. وعلى أنها كانت تجرى من تحت قصره، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تلك الحقائق؟ بل تبصرون أني أنا خير من هذا الذي هو فقير وضعيف[1].

ومن المعلوم أن التاريخ تحكمه سنن الله الكونية، ومن لم يفقه هذه السنن لا يفقه التاريخ، إذن فالتاريخ ليس أحداثًا تتعاقب، بقدر ما هو أسباب تنتج عنها نتائج بإذن ربها، حينئذ ندرك طرفًا من مقصود الآيات التي تتحدث عن هلاك فرعون وجنوده غرقًا، بعد أن شق الله سبحانه وتعالى البحر لموسى ومن معه من المؤمنين، فبين الله سبحانه وتعالى وقيعتهم المأساوية حيث أغرقوا جميعًا فتركوا ديارهم، وما تزخر به من أسباب الرفاهية والسعادة.

قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦]

وكان إغراقهم انتقامًا من الله لذاته لأنهم جحدوا انفراد الله بالإلهية، أو جحدوا إلاهيته أصلًا، وانتقامًا أيضًا لبني إسرائيل؛ لأن فرعون وقومه ظلموا بني إسرائيل وأذلوهم واستعبدوهم باطلًا.

والإغراق: الإلقاء في الماء المستبحر الذي يغمر الملقى فلا يترك له تنفسًا، وهو بيانٌ للانتقام وتفصيلٌ لمجمله، فيكون المعنى: فأردنا الانتقام منهم فأغرقناهم، واليم: البحر والنهر العظيم، والمراد به هنا بحر القلزم، المسمى في التوراة بحر سوف، وهو البحر الأحمر. وقد أطلق (اليم) على نهر النيل في قوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ﴾ [طه: ٣٩].

وقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص٧].

فالتعريف في قوله: اليم هنا تعريف العهد الذهني عند علماء المعاني المعروف بتعريف الجنس عند النحاة؛ إذ ليس في العبرة اهتمامٌ ببحرٍ مخصوصٍ ولكن بفردٍ من هذا النوع[2].

ومن هنا بعدما اقتحم فرعون بفرسه الطريق الذي شقه الله لموسى في البحر، ولما خرج موسى بقومه إلى الشاطىء الشرقي أطبق الله البحر على فرعون وجنوده فكانوا من المغرقين، لقد ذهب كل هذا مع غمضة عين، وهو الآن كالريشة

(١) التفسير الواضح، ٣/ ٣٩٩، لمحمد محمود حجازي، نشر: دار الجيل الجديد، بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٣ هـ.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٩/ ٧٥.

في بحر متلاطم، لقد خلع من فكرة عظمة الملك وترفع السلطان، ونسي كل العز الذي رآه بهذه اللحظات الحالكة، كأنه لم يعش بين الرياشي وفاخر الأثاث، والإحاطة بالأتباع والجنود لحظة واحدة، إنه رهين الحالة القاتلة رهين الغرق، ضعف ما بعده ضعف، فعاد سريعًا إلى ما خبأته الذاكرة من دعوة موسى وأنها الحق، لكنه كان قد عاند وكابر، والآن حصص الحق، وينبغي أن تظهر الحقيقة وألا تضيع في خضم العناد فصرخ بأعلى صوته ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

الآن أيها الطاغية..أيها الفرعون.. ولو قلتها قبل ذلك لكان لك شأن آخر، ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ [يونس: ٩١].

الآن وبعد سنين طويلة من الصد والجدال، والتكبر والغطرسة والتقتيل والصلب تعلنها، وقد اعترفت بالضعف الإنساني، وأنه لا حول لك ولا قوة، وأن الله جلت قدرته هو القوي الخالق هو المعبود بحق، ثم كان الفصل من الله ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس: ٩٢].

وطفت جثة فرعون فوق الماء، وجرفتها الأمواج نحو الساحل، ورأى المستضعفون جثة فرعون وهو ذليل صاغر، هذا في الدنيا، وفي الآخرة النار والعذاب الأليم ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: ٩٨].

فهو الزعيم عليهم حين كان ملكًا، وسيكون زعيمهم يرد بهم النار يوم القيامة، فتعسًا لهذا الزعيم وتعسًا لأتباعه المضلين.. وهكذا مصير أتباع كل زعيم ضال [(١)].

الواقع أن أي نوعٍ من العقوبة فيه آيةٌ على القدرة، وفيه تنكيلٌ بمن وقع بهم، ولكن تخصيص كل أمةٍ بما وقع عليها يثير تساؤلًا، ولعل مما يشير إليه القرآن إشارةً خفيفةً هو الآتي.

أما فرعون، فقد كان يقول: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ﴾ [الزخرف: ٥١].

فلما كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها، أي: في جنسها[(٢)].

وفي هذا يتبين لنا أن الله ابتلى فرعون بابتلاءات عدة، والتي كان منها جريان الأنهار من تحت قصوره، لكنه لم ينجح في كل هذه الابتلاءات، وقدر الله أن يكون بلاؤه بالوسيلة التي كان يتكبر بها ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ

(١) قصص القرآن الكريم في سيرة سيد المرسلين، لمحمد منير الجنباز ص١٧٧.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٥٩.

﴿٥١﴾ [الزخرف: ٥١].

ثالثًا: ابتلاء الله للأمم الهالكة بالأنهار:

إن سنة الله لا تحابي أحدًا، وليس لفردٍ ولا لمجتمعٍ حصانةٌ ذاتيةٌ، وحين تقصر أمةٌ في توقي أسباب المصائب العامة، فإن عليها أن تتقبل نتيجة التقصير، والسعيد من اتعظ بغيره، والغافل من غفل عن نفسه حتى وعظ به غيره، وليست أمةٌ بمنأى عن العذاب إذا عقدت أسبابه، ولا في مأمنٍ من العقاب إن سلكت سبيله وفتحت للذنب أبوابه، ولذلك أكثر الله تعالى من وعظ هذه الأمة بمصارع الأمم الغابرة، وحذر الآمنين من مكره الذين لا يقدرون الله حق قدره، ولا يقفون عند نهيه وأمره.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

ومن مظاهر الابتلاء التي لها صلة بالأنهار في القرآن الكريم: ابتلاء الله للأمم الهالكة بهذه الأنهار.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦].

قال الشوكاني: القرن يطلق على أهل كل عصرٍ، سموا بذلك لاقترانهم، أي: ألم يعرفوا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة في عصرٍ بعد عصرٍ لتكذيبهم أنبياءهم. وقيل: القرن مدةٌ من الزمان. وهي ستون عامًا أو سبعون أو ثمانون أو مائةٌ على اختلاف الأقوال،... مكن له في الأرض: جعل له مكانًا فيها، ومكنه في الأرض: أثبته فيها،... أي: مكناهم تمكينًا لم نمكنه لكم، والمعنى: أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم ما لم نعطكم من الدنيا وطول الأعمار وقوة الأبدان وقد أهلكناهم جميعًا. فإهلاككم -وأنتم دونهم- بالأولى.

قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ يريد المطر الكثير، والمدرار: صيغة مبالغةٍ تدل على الكثرة، وجريان الأنهار من تحتهم معناه: من تحت أشجارهم ومنازلهم، أي: أن الله وسع عليهم النعم بعد التمكين لهم في الأرض فكفروها، فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم، أي: من بعد إهلاكهم قرنًا آخرين فصاروا بدلًا من الهالكين، وفي هذا بيانٌ لكمال قدرته سبحانه وقوة سلطانه وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء[1].

قال تعالى واعظًا للمشركين المعاندين ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١١٦.

الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم، من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوةً، وأكثر جمعًا وأكثر أموالًا وأولادًا واستغلالًا للأرض، وعمارةً لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض والسعة والجنود، ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: شيئًا بعد شيءٍ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجًا وإملاءً لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بخطاياهم، وسيئاتهم التي اجترحوها[1].

﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي:من تحت أمكنتهم، والمراد أنهم: أصحاب البساتين والقصور والمنتزهات[2].

قال القرطبي: والمعنى: وسعنا عليهم النعم فكفروها. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾أي: بكفرهم فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم. ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: أوجدنا، فليحذر هؤلاء من الإهلاك أيضًا[3].

أي: وسخرنا لهم الأنهار وهي مجاري المياه الفائضة وهديناهم إلى الاستمتاع بها بجعلها تجري دائمًا من تحت مساكنهم التي يبنونها على ضفافه، أو في الجنات والحدائق التي تتفجر خلالها، فيتمتعون بالنظر إلى جمالها، وبسائر ضروب الانتفاع من أمواهها.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: فكان عاقبة أمرهم لما كفروا بتلك النعم وكذبوا الرسل أن أهلكنا كل قرنٍ منهم بسبب ذنوبهم التي كانوا يقترفونها. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: أوجدنا من بعد الهالكين من كلٍ منهم قرنًا آخرين يعمرون البلاد ويكونون أجدر بشكر نعم الله عليهم فيها[4].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب:

فالمرتبة الأولى: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل : والتفكر في البينات.

والمرتبة الثانية: كونهم مكذبين بها، وهذه المرتبة أزيد مما قبلها؛ لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذبًا به، بل يكون غافلًا عنه غير متعرض له فإذا صار مكذبًا به فقد زاد على الأعراض.

والمرتبة الثالثة: ونهم مستهزئين بها؛ لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢١٥.
(٢) غرائب القرآن، للنيسابوري ٣/ ٥١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٢.
(٤) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٧/ ٢٥٧.

الثلاثة على هذا الترتيب[1].

وقد وصف الله أولئك المهلكين بسبب اجتراحهم للسيئات بصفات ثلاث لم تتوفر للمشركين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم.

وصفهم أولًا بأنهم كانوا أوسع سلطانًا، وأكثر عمرانًا، وأعظم استقرارًا، كما يفيده قوله تعالى ﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾.

قال صاحب الكشاف: «والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا قوم عاد وثمود وغيرهم من البسطة فى الأجسام، والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا»[2].

ووصفهم-ثانيًا- بأنهم كانوا أرغد عيشًا، وأسعد حالًا، وأهنأ بالًا، يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: أنزلنا عليهم المطر النافع بغزارة وكثرة، وعبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها.

ووصفهم-ثالثًا- بأنهم كانوا منعمين بالمياه الكثيرة التى يسيرون مجاريها كما يشاءون، فيبنون مساكنهم على ضفافها. ويتمتعون بالنظر إلى مناظرها الجميلة، كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: صيرنا الأنهار تجري من تحت مساكنهم.

ولكن ماذا كانت عاقبة هؤلاء المنعمين بتلك النعم الوفيرة التي لم تتيسر لأهل مكة؛ كانت عاقبتهم-كما أخبر القرآن عنهم- ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: فكفروا بنعمة الله وجحدوا فأهلكناهم بسبب ذلك؛ إذ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم[3].

إنها حقيقة ينساها البشر-إلا من عصم الله-وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف؛ ويمضون على غير سنة الله؛ ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويدًا رويدًا،وهم ينزلقون ولا يشعرون، حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله، ثم تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال-بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام، ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوامومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذب بعضهم بعضًا، ويدمر بعضهم بعضًا، ويؤذي بعضهم بعضًا، ولا يعود بعضهم يأمن بعضًا؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلط الله عليهم عبادًا له-طائعين أو

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٢/ ١٣٠.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٨.
(٣) التفسير الوسيط، لمحمد سيد طنطاوي ٥/ ٣٩.

عصاة-يخضدون شوكتهم، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السنة، السعيد من وعى أنها السنة، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه، والشقي من غفل عن هذه الحقيقة، وظن أنه أوتيها بعلمه، أو أوتيها بحيلته، أو أوتيها جزافًا بلا تدبير![1]

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٠١٠.

لمسات إعجازية في الأنهار

المقصود باللمسات الإعجازية في الأنهار: ما يدركه ويتوصل إليه العلماء المتخصصون من حقائق خاصة بالأنهار، وقد ألمح القرآن الكريم إليها سابقًا.

اللمسة الأولى:

في قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣].

قال الإمام الطبري: « يقول تعالى ذكره: والله الذي خلط البحرين، فأمرج أحدهما في الآخر، وأفاضه فيه. وأصل المرج الخلط، ثم يقال للتخلية: مرج؛ لأن الرجل إذا خلى الشيء حتى اختلط بغيره، فكأنه قد مرجه.

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في معنى قوله، دون القول الذي قاله من قال: معناه: إنه جعل بينهما حاجزًا من الأرض أو من اليبس؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر في أول الآية أنه مرج البحرين، والمرج: هو الخلط في كلام العرب على ما بينت قبل، فلو كان البرزخ الذي بين العذب الفرات من البحرين، والملح الأجاج أرضًا أو يبسًا لم يكن هناك مرج للبحرين، وقد أخبر جل ثناؤه أنه مرجهما، وإنما عرفنا قدرته بحجزه هذا الملح الأجاج عن إفساد هذا

العذب الفرات، مع اختلاط كل واحد منهما بصاحبه. فأما إذا كان كل واحد منهما في حيز عن حيز صاحبه، فليس هناك مرج، ولا هناك من الأعجوبة ما ينبه عليه أهل الجهل به من الناس، ويذكرون به، وإن كان كل ما ابتدعه ربنا عجيبًا، وفيه أعظم العبر والمواعظ والحجج البوالغ[1].

أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان البحر العذب وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض والبحر الملح وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر فتذهب المنفعة المقصودة منها ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا[2].

هذا عذبٌ فراتٌ بالغ العذوبة، وهذا ملحٌ أجاجٌ بالغ الملوحة والمرارة، وجعل بينهما برزخًا حائلًا، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: وسترًا مستورًا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر[3].

الحقيقة العلمية التي لها صلة بالآية:

بعد مسح لعدد كبير من مناطق اللقاء بين الأنهار والبحار، اكتشف الباحثون أن منطقة المصب بيئة متميزة، في صفاتها الطبيعية والإحيائية عن النهر وعن البحر، رغم تداخل المياه وتحركها بينهما، بحسب مد البحر وجزره، وفيضان النهر وجفافه، وكأن حاجزًا يفصل بيئة المصب عن بيئة النهر وبيئة البحر، ويحافظ على هذه المنطقة بخصائصها المميزة، رغم عوامل المزج، كالمد والجزر وحالات الفيضان والانحسار التي تعتبر من أقوى عوامل المزج.

وبتصنيف البيئات الثلاث، باعتبار الكائنات الحية التي تعيش فيها تعتبر منطقة المصب حجر على معظم الكائنات الحية التي تعيش فيها، لأن هذه الكائنات لا تستطيع أن تعيش إلا في منطقة المصب ذات الخصائص المميزة، وهي في نفس الوقت منطقة محجورة على معظم الكائنات التي تعيش في البحر والنهر؛ لأن هذه الكائنات تموت إذا دخلتها بسبب اختلاف خصائصها.

وجه الإعجاز في الآية الكريمة: كل تجمع مائي يمكن أن يسمى بحرًا، والبحر العذب الفرات أو شديد العذوبة هو النهر، والبحر الملح الأجاج أو شديد الملوحة هو المحيط أو البحر المالح، وبهذا خرج ماء المصب؛ لأنه مزيج بين الملوحة والعذوبة فلا ينطبق عليه وصف عذب فرات ولا ملح أجاج، وبهذه الأوصاف تحددت حدود الكتل المائية الثلاث: ماء النهر، وماء البحر، وبينهما ماء منطقة المصب التي

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري ١٩/ ٢٨١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٥.
(٣) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الأبياري ١٠/ ٤٢١.

وصفت في الآية الكريمة بكونها برزخًا أو حاجزًا يمنع طغيان صفة ملوحة البحر على النهر أو عذوبة النهر على البحر، وميزت بيئة المصب بأنها حجر على ما فيها من كائنات حية محجورة على ما يعيش خارجها في النهر أو البحر، وهذا يعني تمايز البيئات الثلاث في الصفات الطبيعية وفي الكائنات الحية. ويشهد التطور التاريخي في سير علم البحار بعدم وجود معلومات دقيقة عن البحار قبل ١٤٠٠ عام، ومع ذلك وصف القرآن الكريم بدقة منطقة مصبات الأنهار، فبين أنها بيئة متميزة في خصائصها الطبيعية والإحيائية عن بيئة النهر وبيئة البحر وكشف أنه رغم تداخل المياه وتحركها الدائم في اتجاه البحر تظل تلك الخصائص ثابتة، فمن أين تلك المعرفة في القرآن بلا تقنية وأدوات علمية إن لم يكن من عند الذي أحاط بكل شيء علمًا[1].

اللمسة الثانية:

في قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

جاء في تفسير هذه الآية: أي: قارةً ساكنةً ثابتةً، لا تميد ولا تتحرك بأهلها، ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا بساطًا، ثابتةً لا تتزلزل ولا تتحرك.

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة، شقها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهارٍ كبارٍ وصغارٍ وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالًا شامخةً ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بهم.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا، أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقضاء كل منها على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها: أن تكون عذبةً زلالًا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها.

والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانبٍ، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحًا أجاجًا؛ لئلا يفسد الهواء

(١) مقال علمي بعنوان: مصبات الأنهار، على الشبكة العنكبوتية للإنترنت، موقع: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابط: http://www.eajaz.org/index.php/Scientific، Miracles/Earth، and، Marine، Sciences/٢٠٠، Estuaries

بريحها[١].

وقال الزحيلي: جعل الأرض مستقرًا للإنسان وغيره، لا تميد ولا تتحرك بأهلها، وجعل فيها الأنهار العذبة الطيبة لسقاية الإنسان والحيوان والنبات، وجعل فيها جبالًا ثوابت شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم، وجعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا، أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بذاك، لتبقى الغاية من التفرقة بينهما متحققة، فإن الماء العذب الزلال لسقي الإنسان والحيوان والنبات والثمار، والماء المالح في البحار؛ ليكون مصدرًا للأمطار، وليبقى الهواء فوقه نقيًا صافيًا لا يفسد بالرائحة الكريهة التي تحدث عادة في تجمعات المياه العذبة[٢].

يحدث أحيانًا أن ينشأ النهر في أرض ممهدة، قبل تكون سلسلة الجبال بعدة ملايين من السنين، وبعد أن تنتصب الجبال يستمر النهر في تحد غريب، في تعميق مجراه قاطعًا السلسلة الجبلية، وتشير الآية القرآنية إلى تلك الحالة إشارة معجزة:

تأمل الترتيب البديع؛ من قرار الأرض، إلى خلق الأنهار، إلى نشأة الجبال الرواسي، ثم تكوين الحاجز بين البحرين[٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٨٣.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٠/ ١٢.
(٣) مقال بعنوان: الأنهار في القرآن، لحسني حمدان، على الشبكة العنكبوتية للإنترنت، موقع: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابط: http: //www.eajaz.org/index.php/Scientific، Miracles/ Sciences and، Marine، Earth/ ٢٠٠، Estuaries

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الاقتصاد، الزكاة، المال، المن

أهل الكتاب

عناصر الموضوع

مفهوم أهل الكتاب	١٤٠
أهل الكتاب في الاستعمال القرآني	١٤١
الألفاظ ذات الصلة	١٤٢
كثرة حديث القرآن عن أهل الكتاب	١٤٥
حكمة النداء بأهل الكتاب	١٤٩
موقف أهل الكتاب من الرسول	١٥١
موقف أهل الكتاب من المسلمين	١٦٠
انحرافات أهل الكتاب	١٦٩
دعاوى أهل الكتاب الباطلة	١٨١
معاملة أهل الكتاب	١٩٠

مفهوم أهل الكتاب

أولًا: المعنى اللغوي:

الأهل لغة: أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه، وأهل المذهب: من يدين به، وأهل الإسلام: من يدين به، وأهل الأمر: ولاته، وأهل البيت: سكانه، وأهل الرجل: زوجه وأخص الناس به، وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم: أزواجه وبناته وصهره [(١)].

الكتاب لغة: كتبه كتبًا وكتابًا، أي: خطه، وهو ما يكتب فيه، والدواة والتوراة والصحيفة والفرض والحكم والقدر [(٢)].

ويراد به أيضًا: الكتب السماوية، وحيثما ذكر في القرآن الكريم التركيب الإضافي ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فإنما أريد بالكتاب: التوراة والإنجيل، وكذلك إذا ذكر التركيب الإسنادي ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أو ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [(٣)].

وأهل الكتاب: «من يجتمعون حوله، والمراد: اليهود والنصارى» [(٤)].

ومن هذه المعاني اللغوية يفهم منه معانٍ أخرى حسب ما يراد به المضاف إليه كما تقدم.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

أهل الكتاب اصطلاحًا: هم اليهود والنصارى، ومن دان دينهم بفرقهم المختلفة، ومن عدا هؤلاء من الكفار فليس من أهل الكتاب؛ بدليل قول الله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦] [(٥)].

قال الشهرستاني: «الخارجون عن الملة الحنيفية والشريعة الإسلامية، ممن يقول بشريعة وأحكام وحدود وأعلام، وهم قد انقسموا إلى من له كتاب محقق، مثل التوراة والإنجيل، وعن هذا يخاطبهم التنزيل بأهل الكتاب، وإلى من له شبهة كتاب، مثل: المجوس» [(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ١١/ ٢٨، القاموس المحيط، للفيروزآبادي ١/ ٩٦٣، مقاييس اللغة، لابن فارس، ١/ ١٥٠.
(٢) القاموس المحيط، ١/ ١٢٨.
(٣) انظر: المفردات ١/ ٧٠١، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، ص٩٤٩-٩٥٠.
(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٩٧.
(٥) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٢٩.
(٦) الملل والنحل، ص٢٤٧.

أهل الكتاب في الاستعمال القرآني

ورد لفظ (أهل الكتاب) كمركب إضافي تكرر في الاستعمال القرآني (٣١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
أهل الكتاب	٣١	﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]

وجاء مركب (أهل الكتاب) في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: اليهود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

الثاني: النصارى، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

الثالث: اليهود والنصارى، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٠١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٧٠١.

الألفاظ ذات الصلة

١ اليهود:

اليهود لغة:

هو مشتقٌ من هاد يهود بمعنى تاب، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهي على لسان موسى عليه السلام والسبعين الذين اختارهم من خيار قومه للقاء ربه، والاعتذار عما فعله سفهاء قومهم من عبادة العجل، ومعنى قوله: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ «أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك[١]».

قال ابن فارس: «سموا به (أي: باليهود) لأنهم تابوا عن عبادة العجل... وفي التوبة هوادة حال وسلامة»[٢]، وقال الراغب: «قال بعضهم: يهود في الأصل من قولهم: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، وكان اسم مدح، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازمًا لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح، كما أن النصارى في الأصل من قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الصف: ١٤].

ثم صار لازما لهم بعد نسخ شريعتهم. ويقال: هاد فلان: إذا تحرى طريقة اليهود في الدين»[٣].

اليهود اصطلاحًا:

اليهود لقب عرف به بني إسرائيل[٤].

ولفظة اليهود لم تستعمل في التوراة إلا بعد عهد موسى عليه السلام، في سفر الملوك الثاني، ويوافق ذلك القرآن الكريم في تسميته لمن عاصر موسى من قومه ببني إسرائيل أو قوم موسى، ولم ترد التسمية باليهود -والتي جاءت في ثمانية مواضع من القرآن الكريم- إلا في مراحل متأخرة عن عهد موسى عليه السلام[٥].

وقد جاءت في جميع ورودها في معرض الذم وبيان انحرافات القوم والرد عليهم[٦]،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٨١.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٨.
(٣) المفردات، الأصفهاني ص ٨٤٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٣٢، موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة، قدح ص٢٥٦، ٢٥٧.
(٥) انظر: دراسات في الأديان، الشنطي ص٢٩.
(٦) انظر: الشخصية اليهودية من خلال القرآن، الخالدي ص٤٢.

كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وكقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢].

وكأن في تلك التسمية إشارة إلى بدء انحرافهم، وما حدث لهم بعد وفاة سليمان عليه السلام، من الفساد وانتشار السحر وغير ذلك.

الصلة بين أهل الكتاب واليهود:

أهل الكتاب أعم من اليهود؛ فاليهود إحدى الطائفتين التي أنزل عليها كتاب، وهم: اليهود والنصارى.

٢ بنو إسرائيل:

بنو إسرائيل لغة:

إسرائيل: لقب نبي الله يعقوب عليه السلام، «لإشعاره بالمدح بالمعنى المنقول منه، إذ معناه صفوة الله أو عبد الله بالعبرانية»[(١)].

بنو إسرائيل اصطلاحًا:

إسرائيل اصطلاحًا: لقب أطلق على يعقوب بن إسحاق عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وبنو إسرائيل: ذرية يعقوب عليه السلام وكانوا اثني عشر سبطًا، قال تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾[البقرة: ٢١١][(٢)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في كلمة إسرائيل: معناه: (عبدالله)، لأن إسرا بمعنى: عبد، وإيل: اسم الله، أي: أنه مركب من كلمتين: إسرا، وإيل، كما يقولون: بيت إيل[(٣)].

قال الكفوي: «قال بعضهم: لم يخاطب اليهود في القرآن إلا بـ(يا بني إسرائيل) دون (يا بني يعقوب) لنكتة هي لأنهم خوطبوا بعبادة الله، وذكروا بدين أسلافهم موعظة لهم وتنبيهًا من غفلتهم فسموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله»[(٤)].

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي ٣٨/ ٢٧٥.
(٢) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد ص ٥١، ومعجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٩١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٥٠.
(٤) الكليات، الكفوي ص ١١٥.

الصلة بين أهل الكتاب وبني إسرائيل:

أهل الكتاب أعم من بني إسرائيل، فبنو إسرائيل يخاطب به اليهود غالبًا، وأهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى.

٣ النصارى:

النصارى لغة:

مفردها نصراني، يقال: نصرته على عدوه ونصرته منه نصرًا: أعنته وقويته، والفاعل ناصر ونصير وجمعه أنصار، والنصرة بالضم اسم منه، وتناصر القوم مناصرة: نصر بعضهم بعضًا، وانتصرت من زيد انتقمت منه، واستنصرته طلبت نصرته، ونصارى: هم من يتبع دين المسيح، فيقال: رجلٌ نصراني، ثم أطلق النصراني على كل من تعبد بهذا الدين، وربما قيل: نصران ونصرانة، ونصرى وناصرة، ونصورية: قرية بالشام، والنصارى منسوبون إليها، والتنصر: الدخول في النصرانية، ونصره: جعله نصرانيًا[(١)].

قال الراغب الاصفهاني رحمه الله: «والنصارى قيل: سموا بذلك لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

وقيل: سموا بذلك انتسابًا إلى قرية يقال لها: نصرانة، فيقال: نصرانيٌّ، وجمعه نصارى، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١٣]»[(٢)].

النصارى اصطلاحًا:

لا يخرج معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي، فالمقصود بالنصارى اصطلاحًا: هم أمة المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته عليه الصلاة والسلام[(٣)].

الصلة بين أهل الكتاب والنصارى:

أهل الكتاب أعم من النصارى؛ فالنصارى إحدى الطائفتين التي أنزل عليها كتاب، وهم: اليهود والنصارى.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢١١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٠٧، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٣/ ٢٢٢١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة ٢/ ٩٢٥.

(٢) المفردات، الرغب الأصفهاني ١/ ٨٠٩.

(٣) انظر: الملل والنحل، الشهرستاني ١/ ٢٦٦.

كثرة حديث القرآن عن أهل الكتاب

من أهم الموضوعات التي ركز القرآن الكريم على بيانها وكشفها كشفًا تفصيليًا موضوع أهل الكتاب وما يتصل به، لما في ذلك من حكم عظيمة ومصالح كبيرة، ولما لهذا الموضوع من أثر بالغ على الواقع.

لقد أولى القرآن الكريم هذا الموضوع عنايته، وأكثر من الحديث عن أهل الكتاب وذكر أنبيائهم، وكتبهم وما أدخلوه عليها من التحريف والتبديل، وما نسوه أو كتموه منها - وخصوصًا ما يتعلق بالبشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم -، كما ذكر ما انتهى إليه حالهم بعد تطاول الزمان عليهم من قسوة القلوب، والضلال، والكفر، والبعد عما أنزله الله من الشرع، حتى نسبوا لله تعالى الولد، والفقر، وغير ذلك مما حكاه القرآن الكريم عنهم من أقوالهم القبيحة.

لقد ذكر القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام - نبي بني إسرائيل-، وهو الذي أنزلت عليه التوراة، في مواضع كثيرة، حتى إنها أكثر القصص ورودًا فيه، وذكر قصة مولده، ورضاعته، وشبابه، وقصته مع فرعون والسامري عليهما لعنة الله، ومع الخضر عليه السلام، وذكر قصة قارون ذلك الكافر المغرور بماله، وهو من قوم موسى عليه السلام، وذكر مناجاة موسى عليه السلام لربه، وطلبه الرؤيا منه، وغير ذلك من تفاصيل حياته.

كما ذكر القرآن الكريم قصة عيسى عليه السلام - نبي بني إسرائيل -، وهو الذي أنزل عليه الإنجيل، وتحدث عن ميلاده ومعجزاته، ودعوته لقومه، في عدة مواضع من آياته.

كما سمى القرآن الكريم بعض سوره بأسماء لها صلة واضحة بأهل الكتاب، كسورة البقرة، إشارة إلى بقرة بني إسرائيل التي أمروا بذبحها، وسورة آل عمران وهو اسم تلك العائلة الكريمة التي خرجت منها مريم ابنت عمران أم عيسى عليهم السلام، وسورة المائدة نسبة إلى المائدة التي طلب بنو إسرائيل، إنزالها من السماء، وسألوا عن قدرة الله على ذلك، وسورة يوسف عليه السلام وهو من أنبياء بني إسرائيل، وسورة بني إسرائيل وهي سورة الإسراء، وسورة مريم أم المسيح عيسى عليه السلام، وغير ذلك.

كما ذكر القرآن الكريم كثيرًا من أحوال أهل الكتاب، وتحدث عن انحرافاتهم ودعاويهم الباطلة ورد عليها وفندها، وحذر من عداوتهم للمسلمين ونقمتهم عليهم، كما تكلم عن اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وغزوات النبي معهم، كغزوة بني النضير والتي ذكرت في سورة

الحشر، وبالجملة فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦].

ولقد ذكر القرآن الكريم كل ذلك وغيره مما له صلة بموضوع أهل الكتاب لحكم عظيمة، منها: استمالة أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام، والإيمان بالقرآن الكريم، وأنه مصدق لما معهم من الكتاب، وأنها جميعًا جاءت من رب واحد، هو رب السموات والأرض، المحيط علمه بكل شيء، ونلحظ هذه الحكمة واضحة في تسمية بعض السور القرآنية بتلك الأسماء التي لها رمزية عند أهل الكتاب، كما ذكرنا.

واهتمام القرآن الكريم بدعوة أهل الكتاب يعود إلى كونه كتاب هداية لجميع الثقلين بالمقام الأول، ولأن في هداية أهل الكتاب للإسلام هداية لغيرهم من أهل الشرك الذين سيقتدون بهم، ويقولون: ما دام أهل الكتاب وما عندهم من العلم والبينات اتبعوا هذا النبي صلى الله عليه وسلم، إذا فإنه على الحق، والعكس بالعكس، ولذلك قال الراغب الأصفهاني في قوله تعالى لأهل الكتاب: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

«أي: لا تكونوا ممن يقتدى بكم في الكفر.»[1]

وقد استشهد القرآن الكريم على صحة النبوة المحمدية والوحي القرآني بمن آمن من أهل الكتاب، وأخبروا بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، والبشارة به، وكونه موافقًا للوصف الوارد له في كتبهم، وما له من علامات ودلائل، وأسلوب الاستشهاد بهم يلهم أن شهادتهم في جانب النبي صلى الله عليه وسلم هي المنتظرة، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

[2]، قال ابن كثير: «أي: سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه، أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من صالح أهل الكتاب الذين يمسكون بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه، ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه، ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله عز وجل، شكرًا على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلًا إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾

(١) المفردات، الأصفهاني ص ١٠٠.

(٢) انظر: التفسير الحديث، دروزة محمد عزت ١/ ٤٧٠.

أي: تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾، أي: خضوعًا لله عز وجل وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، أي: إيمانًا وتسليمًا كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود»[1]

إن حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب وبيان انحرافاتهم فيه تحصين للمسلمين، من الانخداع بما هم عليه من الباطل، وما يثيرونه من شبهات على المسلمين بغرض تشكيكهم في دينهم، فبين القرآن الكريم أنه كتاب من عند الله مصدق لما قبله من الكتب، ومهيمن عليها، وأنه لا تفريق بين رسل الله وكتبه في الإيمان بهما، وبهذا الإيمان الكامل تتضح الصورة في ذهن المسلم، دون تشويش أو اشتباه.

كما أن في بيان القرآن الكريم لأخطاء الأمم السابقة - خاصة أهل الكتاب منهم - تحذيرًا لهذه الأمة المحمدية من الوقوع فيها، وسلوك مسلكها، فالله تعالى ذكر قصص بني إسرائيل وتجاربهم وما فيها من خير أو انحراف - وهو الغالب - كنموذج للأمة الكتابية، حتى تتعلم هذه الأمة من ذلك ولا تقع في أخطائهم، ولا تصل إلى ما وصلت إليه حالهم من الضلال، ويقرأ المسلمون كل يوم قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

سبع عشرة مرة في صلواتهم المفروضة، يسألون الله تعالى أن يهديهم الصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو طريق الإسلام، وطريق المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير طريق المغضوب عليهم، وهم اليهود ونحوهم ممن عرف الحق وترك العمل به، وغير طريق الضالين الذين يعملون بلا علم، فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة، يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون[2].

فأراد الله تعالى أن يكون هذا الدعاء من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٢٧، ١٢٨.

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/ ٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٤٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩.

سورة الفاتحة يردده المسلمون في يومهم كل هذه المرات، ليستعيذوا به تعالى من سلوك سبل الأمم السالفة في الانحراف عن دينه تعالى، وتضييع كتبه والتفريط فيها.

ومع أن الله تعالى قد حذرنا سبيلهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله، مما سبق في علمه، روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضبٍ لسلكتموه، قلنا: يا رسول الله، اليهود، والنصارى؟ قال: فمن)[1].

قال النووي: «السنن بفتح السين والنون وهو الطريق، والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم، والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر، وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وقع ما أخبربه»[2].

وفي هذا الحديث دلالة على ما لأهل الكتاب من الدور الكبير والبارز في صد المسلمين عن دينهم، وفتنتهم، ولذلك كثر حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب، لما له من أثر بالغ على الواقع، فقد استحوذ الحسد والبغي على قلوبهم، وناصبوا أمة محمد العداء، فهم ألد أعداء هذه الأمة، وما أكثر تخطيطهم وكيدهم لهذا الدين وأتباعه؟!، وذلك منذ بزغ فجر الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

وهي في أهل الكتاب، قال أبو السعود:«أي: يريد أهل الكتابين أن يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والأولاد والشرائع التي من جملتها ما خالفوه من أمر الحل والحرمة»[3].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨-٩].

وهي أيضًا في أهل الكتاب كما يشهد لذلك سياق الآيات.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح٣٤٥٦، ٤/ ١٦٩، ومسلم في صحيحه. كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ح٢٦٦٩، ٤/ ٢٠٥٤.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٦/ ٢١٩-٢٢٠.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٦١.

حكمة النداء بأهل الكتاب

إن القرآن الكريم له أسلوبه الحكيم في مخاطبة الناس ودعوتهم، وقد قال تعالى فيه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن ذلك أنه خاطب المؤمنين بنداء الإيمان (يا أيها الذين آمنوا)، ليستحث فيهم عنصر الإيمان وقوته، وليذكرهم بالعهد الذي أخذوه على أنفسهم، حين دخلوا في هذا الدين، أي: يا من صدقتم بي وبكلامي، كما ضرب القرآن الكريم من خلال عرضه للقصص المختلفة أمثلة عدة في استخدام هذا الأسلوب الحكيم.

وقد استخدم القرآن الكريم في مخاطبة اليهود والنصارى عدة أساليب، مثل: (يا أهل الكتاب)، و (يا بني إسرائيل)، و (الذين أوتوا الكتاب) وكل هذه الأساليب لها هدفها في التأثير على المخاطب واستنهاض الهمم، وهز المشاعر.

وقد جاء الخطاب بـــ (يا أهل الكتاب) لليهود والنصارى، تذكيرًا لهم بتلك النعمة العظيمة التي أنعم الله تعالى بها عليهم، من إنزاله تلك الكتب ذات المكانة السامية، -وما فيها من الأحكام والتشريع- عليهم، فيا أهل الكتاب، أي: يا من نلتم ذلك الشرف في نزول تلك الكتب عليكم، فهي على أنبيائكم نزلت، ولكم شرعت.

وهذا التذكير لهم بذلك يتضمن أيضًا التوبيخ اللاذع لهم على تقصيرهم وأفعالهم القبيحة، فخطابهم بصفة المدح (يا أهل الكتاب) مع إقامتهم على الباطل وما لا يليق، فيه أعظم تبكيت، وأعظم تأنيب، وأعظم تقريع لهم.

ونلحظ هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾ [آل عمران: ٧٠].

فصدر تعالى الآية بالنداء على أهل الكتاب ثم بالاستفهام توبيخًا لهم على كفرهم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من آيات الله، وتعجيبًا من شأنهم، وإنكارًا عليهم، فقد كان حريًا بهم، وهم أهل كتاب، وأهل علم، أن يسارعوا إلى الإيمان قبل غيرهم[1]، وذلك لما عندهم من الأمور الشاهدات على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة خبره، وما عندهم من المعرفة بأمور الدين عمومًا، من الإيمان بالله وكتبه ورسله، والإيمان بالبعث في الآخرة، لا أن يكفروا بآيات الله، قال الطبري: «وإنما هذا من الله عز وجل، توبيخٌ لأهل الكتابين

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ١٣٩.

على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحودهم نبوته، وهم يجدونه في كتبهم، مع شهادتهم أن ما في كتبهم حقٌّ، وأنه من عند الله»[1]

وفي الآية أيضًا وتصديرها بالنداء لأهل الكتاب تذكير لهم، أي: أنتم أهل كتاب، وأهل إيمان لا كفر، فلم تكفرون، فالقرآن الكريم في خطابه للآخرين يستحضر فيهم الطاقات الكامنة، ويوظفها للاستجابة وتنفيذ الأمر المطلوب تنفيذه.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: ١٥].

قال ابن باديس: «أرسل الله محمدًا صلى الله عليه وسلم، لجميع الأمم؛ فكانت رسالته عامة، وكانت دعوته عامة مثلها، وجاءت آيات القرآن بالدعوة العامة في مقامات، وبالدعوة الخاصة لبعض من شملتهم الدعوة العامة في مقامات أخرى. ولما أرسل الله محمدًا- صلى الله عليه وآله وسلم- كان الخلق قسمين: أهل كتاب- وهم اليهود والنصارى، وغيرهم. وكان أشرف القسمين أهل الكتاب؛ بما عندهم من النصيب من الكتاب الذي أوتوه على نسيانهم لحظ منه، وتحريفهم لما حرفوا. وكانوا أولى القسمين باتباع محمد صلى الله عليه وسلم بما عرفوا قبله من الكتب والأنبياء. فلهذا وذاك كانت توجه إليهم الدعوة الخاصة بمثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ إلى آخر الآيتين.

وفي ندائهم بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تشريف وتعظيم لهم بإضافتهم للكتاب، وبعث لهم على قبول ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه جاء بكتاب وهم أهل الكتاب، واحتجاج عليهم بأن الإيمان بالكتاب الذي عندهم يقتضي الإيمان بالكتاب الذي جاء به لأنه من جنسه»[2].

«هذا هو أدب الإسلام في دعوة غير أهله، ليعلمنا كيف ينبغي أن نختار عند الدعوة لأحد أحسن ما يدعى به، وكيف نتقي ما يناسب ما نريد دعوته إليه، فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته إليك، ويفتح لك سمعه وقلبه، ودعاؤه بما يكره يكون أول حائل يبعد بينك وبينه»[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٠٢.

(٢) تفسير ابن باديس ص ٣٢٧، ٣٢٨.

(٣) المصدر السابق ص ٣٢٨.

موقف أهل الكتاب من الرسول

الإيمان بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء هو قضية محورية في دعوة أهل الكتاب إلى الحق، ورد انحرافاتهم، لأنهم إذا آمنوا به وبرسالته فإنهم سيكفرون بكل ما هو باطل مما وضعه لهم أحبارهم ورهبانهم، أو سطروه لهم في كتبهم من الضلال والكذب.

قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٧٩].

وبذلك تنحل جميع عقد الباطل عند أهل الكتاب من أصولها، إذا آمنوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه ناسخ بما جاء به من الوحي لكل شريعة قبله، وأنه يبين لأهل الكتاب كثيرًا مما كانوا يختلفون فيه.

قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة: ١٥].

ولذلك ركز القرآن الكريم في دعوته لأهل الكتاب على هذه القضية، وبين موقف أهل الكتاب منها، ورد على المكذبين لها.

وسنبين في المطالب الآتية دعوة القرآن الكريم للإيمان بالرسل عامة، وبمحمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص، وموقف أهل الكتاب من هذه الدعوة، والذي يتمثل في ثلاث طوائف:

لقد أوضح القرآن الكريم قضية الإيمان بالرسل عليهم السلام عمومًا، وأنها ركن من أركان الإيمان، لا يصح إلا بها.

قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فبين تعالى بقوله: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ حقيقة إيمانية واضحة في أنه لا فرق بين أحد من الأنبياء في الإيمان بهم، فالإيمان بموسى لا يناقض الإيمان بعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام والعكس، فجميعهم رسل من عند الله تعالى، أوحى إليهم شرعه وأمره، وهم صادقون معصومون

ومبرؤون من كل عيب ونقص، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

كما بين القرآن الكريم أن الأنبياء عليهم السلام دعوا أقوامهم لذلك، وغرسوا هذه المبادئ فيهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

فعيسى عليه السلام، كالأنبياء يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، وقد بشر بظهور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من بعده، وأعلم أهل الكتاب بذلك، ولكنهم لمَا ﴿جَاءَهُم﴾ محمد صلى الله عليه وسلم كما بشر به عيسى، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الأدلة الواضحة، الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقًا، ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: عاندوا الحق وكذبوا به، وهذا أمر عجيب منهم.[1]

وقد احتج القرآن الكريم على أهل الكتاب في تركهم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم بهذه الحقيقة الواضحة من كونه صلى الله عليه وسلم معلومًا عندهم، اسمه ووصفه وعلامته.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

فقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ حجة على أهل الكتاب، أي: أن هذا النبي جاء مصدقًا لما في كتبكم وما أخبركم به رسلكم من وصفه وعلاماته[2].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فَلِمَ تكفرون به؟

والعجيب أنهم كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: يستنصرون بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه: حسدًا منهم وظلمًا.[3]

كما دعا القرآن الكريم أهل الكتاب إلى الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم دعوة صريحة واضحة في قوله تعالى:

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٩٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٢٥، ٣٢٦.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة: ١٩].

أي: «يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾»[1]، أي: «على انقطاع من الأنبياء، يقال: فتر الشيء يفتر فتورًا إذا سكنت حدته وصار أقل مما كان عليه»[2].

وذلك بعد مدة متطاولة بينه وبين عيسى عليه السلام، قيل: بلغت ستمائة سنة، تغيرت فيها الأديان، وكثرت عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه شديدة، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، وإن الطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلًا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصارى، حتى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم، فهدى الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾، أي: لئلا تحتجوا وتقولوا: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم بشير ونذير، يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[3].

فالآية حض لأهل الكتاب على الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي جاءهم بعد هذا الانقطاع وما فيه من الاشتياق والحنو لوحي السماء، وبعثة الأنبياء.

وقد اختلف موقف أهل الكتاب من هذه الدعوة للإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، كما بينه القرآن الكريم إلى ثلاث طوائف:

أولًا: طائفة آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته:

وهي الطائفة الأولى، قال تعالى: ﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

فبين تعالى أن أهل الكتاب ليسوا متساوين في القبح والضلال، بل منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون، كما قال في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٢٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١١/ ٣٣٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٠، ٧٢.

الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم ذكر تعالى بعض صفات هذه الطائفة، ومدحها وأثنى عليها، فذكر لهم ثماني صفات كل منها منقبة ومفخرة يستحق فاعلها الثواب عليها، وهي أنهم ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، أي: مستقيمة على الحق متبعة له[1]، وهم الذين أسلموا منهم، كعبد الله بن سلام وغيره، وفيهم نزلت الآيات[2].

ثم وصف تعالى صلاتهم وتهجدهم، وعبر عنه بالتلاوة في ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ في المدح[3].

ثم أتبع ذلك بأربع صفات، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، فهم يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانًا صحيحًا يوجب لهم إيمانهم بكل كتاب أنزله الله تعالى، وبكل رسول أرسله، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات[4].

قال البيضاوي: «وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق، غير متعبدين في الليل، مشركون بالله، ملحدون في صفاته، واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته، مداهنون في الاحتساب، متباطئون عن الخيرات[5].

ثم عقب تعالى على ما ذكره من صفاتهم، بالإخبار عنهم بالصلاح، وأنهم يثابون بأعمالهم خير الثواب، ولن يكفروا أي: ينقصوا أو يضيع من أعمالهم شيئًا، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

هكذا يصف تعالى هذه الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب، وفي ذلك استمالة لأهل الكتاب للدخول في الإسلام وتحفيز لهم على ذلك.

وقال تعالى في وصف حال هذه الطائفة:، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٣-٨٥].

فبين تعالى انقيادهم للحق وشدة انفعالهم له، حتى إنهم إذا سمعوا آيات الله

(١) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٣٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٢٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٠٥.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٣.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٤.

تتلى عليهم، فاضت أعينهم بالبكاء.

قال الطبري: «وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه»[1].

وذلك ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ «أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به»[2].

قال ابن كثير: «وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص ٥٢-٥٥].

ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق»[3]، جنات عظيمة خالدين فيها أبدًا، «فهو سبحانه لم يعد بالثواب في الآخرة إلا لهؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] دلالة واضحة على أن هذه الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب تؤمن بـ ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾، وهذا هو الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب، ويكفر ببعض، وهو الإيمان الحقيقي الذي يورث الخشوع لله تعالى، والخضوع له، ولذلك فإن أهله لا يشترون بآيات الله ثمنًا بخسًا أبدًا[5].

ثانيًا: طائفة كفرت برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه:

وهي الطائفة الثانية من أهل الكتاب، فهم من كفروا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومبعثه، مع علمهم بنعوته الشريفة

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٨.
(٤) الجواب الصحيح، ابن تيمية ٣/ ١٠٨.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٢.

وصحة رسالته من كتابهم.

قال تعالى في الوعيد لهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: ٦].

فأخبر تعالى عن مآل كفرة أهل الكتاب، -الذين كفروا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وجحدوا نبوته-، والمشركين جميعهم في نار جهنم خالدين فيها أبدًا، لا يحولون عنها ولا يزولون، وأنهم شر الخليقة التي برأها الله تعالى وذرأها[1]، و(من) في الآية بيانية[2]، أي: أن الكفار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، نوعان: الأول: أهل كتاب وهم اليهود والنصارى، والثاني: المشركون، وكلاهما يتناوله العقاب المذكور، وإنما قدم أهل الكتاب على المشركين وإن كان المشركون أعظم الفريقين كفرًا، لأن أهل الكتاب كفرهم واقع منهم مع علمهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ووجود البشارة بها في كتبهم، قال ابن عاشور: «وإنما قدم أهل الكتاب على المشركين هنا مع أن كفر المشركين أشد من كفر أهل الكتاب؛ لأن لأهل الكتاب السبق في هذا المقام فهم الذين بثوا بين المشركين شبهة انطباق البينة الموصوفة بينهم، فأيدوا المشركين في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما هو أتقن من ترهات المشركين، إذ كان المشركون أميين لا يعلمون شيئًا من أحوال الرسل والشرائع، فلما صدمتهم الدعوة المحمدية فزعوا إلى اليهود ليتلقوا منهم ما يردون به تلك الدعوة وخاصة بعد ما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة»[3].

فهم من هذه الحيثية أعظم جرمًا، وهذه الحيثية هي التي يدور الحديث عنها في السورة، ويتوافق ذلك مع اسم السورة (البينة)، وجيء باسم الإشارة (أولئك) «إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه من القبائح المذكورة، وما فيه من معنى البعد لبعد منزلتهم في الشر، أي: أولئك البعداء المذكورون ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾»[4].

فهذه الطائفة التي كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم، هذا هو حكمها من العذاب والخسار -كما بينه تعالى-، وهو «حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال، مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان، بهذه الرسالة الأخيرة، وبهذا الرسول الأخير، لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح، المقطوعة الاتصال بمنهج الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٨٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٧٥.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ١٨٦.

الثابت القويم»[1]، ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد بين الله تعالى وضوح كفر هذه الطائفة من أهل الكتاب وأكده في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

قال البيضاوي: «﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر لا عبرة بإيمانهم هذا، أي: ببعض أنبياء الله ورسله وكتبه دون البعض الآخر، ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لغيره أو صفة لمصدر الكافرين بمعنى: هم الذين كفروا كفرًا حقًا أي يقينًا محققًا»[2].

وقال تعالى في نهي هذه الطائفة عن كفرها وأفعالها القبيحة: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤١].

ومعلوم أن اليهود والنصارى ليسوا هم أول كافر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما كفرت قريش والعرب أول ما كفروا في بداية دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، وإنما قال تعالى: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ تعريضًا بأهل الكتاب، أي: إن اللائق بهم وبمنزلتهم لكونهم أهل كتاب أن يكونوا أول المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم، لما عندهم من العلم بصدقه والبشارة به.

قال ابن عاشور: «والمقصود من النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ توبيخهم على تأخرهم في اتباع دعوة الإسلام»[3].

وقال الراغب: «أي: لا تكونوا ممن يقتدى بكم في الكفر.»[4]

ثالثًا: طائفة كتمت صفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

وهي الطائفة الثالثة من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

فأخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم[5]، ويعلمون نعوته وصفاته، والتي من جملتها أنه عليه السلام يصلي إلى القبلتين[6]، كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٥٢.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٠٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٠.
(٤) المفردات، الأصفهاني ص١٠٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٧٦.

صحة الشيء بذلك، أو يعرفونه كما يعرفون أبناءهم من بين أبناء الناس لا يشك أحد ولا يتمارى في معرفة ابنه إذا رآه من بين أبناء الناس كلهم، ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١].

قال الألوسي في قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾: «أي: نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وما وجدتموه في كتبكم من نعته والبشارة به ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق»[2].

وقد بين الله تعالى أنه أخذ العهد على علماء أهل الكتاب أن يبينوا للناس ما في كتبهم التي أنزلها تعالى عليهم من البينات والمعاني والأحكام والأخبار وكل ما يحتاجون إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فالآية توبيخ من الله تعالى لهم في نبذهم، أي: طرحهم - غير مبالين - الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم، «وهو العهد الثقيل المؤكد»[3] لبيان ما في كتبهم من الحق، ومنه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان أمره وصفته[4].

فهم قد كتموا ذلك، واشتروا بذلك الكتمان ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهو ما يحصل لهم من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم[5].

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنهم اشتروا عقاب الله تعالى وغضبه، وكان اللائق بهم أن يكونوا في أول من يؤمن بهذا النبي، وينصره ويذود عنه، لما في كتبهم من البشارة به وتوكيد دعوته، فالعقل قاض بأن يظاهروه، ودينهم حاكم بأن يؤيدوه، ومن العجب أن يطرحوا حكم العقل والنقل وراءهم ظهريًا[6].

وهذا الفريق من أهل الكتاب ممن كتم الحق مع علمه اليقيني به، ومع أن الله تعالى أخذ الميثاق منهم على تبيينه، توعدهم الله تعالى بشر عقاب جزاءً وفاقًا على كفرهم واتباعهم أهواءهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٢.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٢/ ١٩٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٥٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٠.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٠.
(٦) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١٥٦.

﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

فتوعدهم الله تعالى باللعنة منه، ومن جميع من يتأتى منه اللعن، من الملائكة ومؤمني الثقلين، وفي ذلك بيان لدوام اللعن واستمراره[(١)]، وعظم جرم هؤلاء الكاتمين وفعلهم، حيث استحقوا كل ذلك اللعن، أي: الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد من رحمته.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤].

يعني: اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق نارًا تتأجج في بطونهم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وذلك لأنه غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم، أي: لا يثني عليهم ولا يمدحهم بل يعذبهم عذابًا أليمًا[(٢)].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٣-٤٨٤.

موقف أهل الكتاب من المسلمين

بين القرآن الكريم موقف أهل الكتاب من المسلمين في آيات كثيرة، وكشف عن نواياهم ومخططاتهم وتدابيرهم، وذلك كله ليكون المسلمون على بينة من أمرهم، فيحذرونهم ويحتاطون لهم إن كانوا من أعدائهم، ويسالمونهم ويقاربونهم إن كانوا من أصدقائهم ومحبيهم، ولما كان لأهل الكتاب الدور الرئيس الأكبر في معاداة الإسلام وأهله كما تشهد بذلك وقائع التاريخ إلى يومنا هذا، فقد كشف القرآن الكريم عن تلك العداوة وأسبابها وصورها، لما لها من خطر داهم على المسلمين، وذلك من طريقة القرآن في هدايته لكل خير، والتحذير من كل شر، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ولقد بين القرآن الكريم أن موقف أهل الكتاب من المسلمين لا ينحصر في موقف واحد من عداوتهم لهم، بل إن من أهل الكتاب فريقًا لا يحمل في نفسه تلك العداوة والبغض لهم، ولا يستكبر عن قبول الحق واتباعه والإذعان به، وهذا الفريق قادته تلك الصفات الحسنة إلى الإيمان بالله تعالى ورسله جميعًا، والدخول في الإسلام.

قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

فبين تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، وأقسم له على موقفين لأهل الكتاب من المؤمنين:

أحدهما: موقف العداوة في قمتها حتى فاقت كل العداوات، فأصحابها هم أشد الناس عداوة وأصلبها للمؤمنين.

والثاني: هو موقف المودة والمحبة، وأصحابها هم أقرب الناس مودة للمؤمنين.

أولًا: موقف العداء من المسلمين:

وهو موقف أهل الكتاب عامة واليهود خاصة، ويشاركهم في هذا الموقف المشركون من غير أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾.

وهي حقيقة يقررها الله تعالى لنبيه، صلى الله عليه وسلم وأمته، وتوجيه لهم في كون اليهود أعدى أعدائهم، ويلفت تعالى أنظارهم إلى هذه الحقيقة في كون أولئك اليهود مع أنهم أهل كتاب إلا أنهم

يتقدمون المشركين في هذه العداوة[1]، كما أقسم تعالى على هذه الحقيقة لتوكيدها، والمقصود من هذا القسم للنبي صلى الله عليه وسلم هو تسليته فيما يقع له منهم من التكذيب والأذى بأنهم أعدى أعداء المؤمنين، قال الفخر الرازي: «واللام في قوله ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القسم، والتقدير: قسما إنك تجد اليهود والمشركين أشد الناس عداوة مع المؤمنين، وقد شرحت لك أن هذا التمرد والمعصية عادة قديمة لهم، ففرغ خاطرك عنهم ولا تبال بمكرهم وكيدهم»[2].

وعداوة أهل الشرك للمؤمنين واضحة في أسبابها، لا تحتاج إلى تعليل، أما اليهود فالوضع مقلوب بالنسبة لهم «إذ كانوا - وهم أهل كتاب - أولى الناس بأن يناصروا أهل الكتاب ويوادوهم، لا أن يكونوا في الجبهة الأولى من الجبهات المعادية للمؤمنين؛ إذ يتقدمون في هذا الموقف اللئيم أهل الكفر والشرك، فيكونون قادة الحملة الموجهة لحرب الله والمؤمنين بالله!»[3].

وكشف القرآن الكريم عن سبب صدور هذه العداوة منهم، وهو نفسيتهم المريضة، التي غلبت الحسد والأهواء على أوامر الله واتباع رسله وكتبه والإيمان بهما، فقد حسد اليهود النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يأت منهم، وجاء من العرب، ولذلك تركوا الإيمان به، وقالوا: نؤمن بما نزل علينا نحن أمة اليهود فقط، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١].

وقد رد عليهم تعالى دعواهم بالإيمان بكتبهم واحترامها وإجلالها، بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وهذا تكذيب لهم وتوبيخ، أي: لم تقتلون -إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم - أنبياءه، وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم؟[4].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٤-٥٥].

قال ابن كثير: «يعني بذلك: حسدهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له؛ لكونه من العرب وليس من

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٦٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٢/ ٤١٣.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٤/ ٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٥٠.

بني إسرائيل»[1].

ثم رد تعالى عليهم، فقال: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: أن إيتاء النبوة والفضل لمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعًا ولا غريبًا على كرم الله، فإنعامه لم يزل مستمرًا على عباده المؤمنين.[2]

«إن الحسد- وليس غيره - هو الذي أغرى أهل الكتاب - وخاصة اليهود - بهذا الموقف الضال الآثم، من رسالة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وكتمانهم الحق عن علم بأنه رسول الله، وأنه الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل...

وفى نار الحسد التي تأججت في صدور اليهود، ذابت كل معالم الحق الذي كان معهم من أمر النبي، فكفروا به، واتخذوا طريق الضلال مركبًا إلى عذاب الجحيم»[3].

وقد ذكر القرآن الكريم قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وهم آباء أسباط بني إسرائيل، وفيها أنهم حسدوه وكادوا له بإلقائه في البئر ليخلوا لهم وجه أبيهم، وأن عاقبة حسدهم في نهاية الأمر كانت في مصلحة يوسف وخيرًا له، وأنه صار بسبب ذلك عزيزًا لمصر، وكأن في ذلك تنبيهًا لليهود الذين يحسدون النبي صلى الله عليه وسلم أن عاقبة حسدهم وكيدهم هي خير للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته.

«وفى قوله تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ إشارة إلى أن هذا الحكم الذي فضح الله به اليهود، ليس حكمًا معلقًا على أي شرط، بحيث يقع إذا وقع هذا الشرط، أو هو حكم خفي لا تظهر آثاره للعيان، وإنما هو حكم مطلق، واقع دائمًا، ظاهر لا خفاء فيه، ولهذا جاء التعبير عنه بلفظ (تجد) بمعنى ترى، وتبصر، وتتحقق، ثم جاء هذا اللفظ مؤكدًا بالقسم، وبنون التوكيد (لتجدن)، فهو أمر واقع، مؤكد الوقوع، لا احتمال فيه لشك أو ريب. هذه هي وجهة اليهود في الحياة، وهذا هو حكم الله عليهم»[4].

وهذا الحكم الإلهي عليهم تشهد له وقائع التاريخ بوضوح لا خفاء فيه، - وإن كنا لسنا بصدد التفصيل التاريخي في الحديث عن عداوتهم - فاليهود سبب معظم الفتن التي حدثت في العالم الإسلامي، وقد حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم بشتى الوسائل الممكنة، حاولوا بها سحره وسمه وقتله مرات عديدة، إلا أن الله حفظ نبيه صلى الله عليه وسلم ونجاه، ولا يزال أذى اليهود للمسلمين إلى يومنا هذا مشاهد ومعلوم، وما يحدث منهم في فلسطين والقدس وغزة مكشوف معلوم.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٣٦.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٢.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٦/ ١٧٢٦.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٤.

ولعداء أهل الكتاب للمسلمين صور متعددة، ومن هذه الصور:

١. سعيهم في إضلال المسلمين وتشكيكهم في دينهم:

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِالَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].

وقد نزلت في جماعة من زعماء اليهود وأحبارهم تآمروا لفتنة المسلمين وتشكيكهم في دينهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوةً ونكفر به عشيةً، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم! فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١].

إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣][1].

فالآية في كشف وفضح اليهود وبيان كيدهم ومكرهم للمسلمين، حيث دبروا للتظاهر بالدخول في الإسلام، ثم الخروج منه بعد ذلك، بغية صد الناس والمسلمين عنه، وهذا المخطط الخبيث منهم مبني «على قاعدة طبيعية في البشر، وهي أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه هذا هرقل صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شؤن النبي صلى الله عليه وسلم عندما دعاه إلى الإسلام: «هل يرجع عنه من دخل في دينه؟ فقال أبو سفيان: لا»[2].

«وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على باطنه وخوافيه؛ إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب»[3].

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٠٤، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، ياسين ١/ ٤٢٥.

(٢) قصة أبي سفيان مع هرقل أخرجها البخاري في صحيحه، أن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أخبره أبو سفيان بن حرب: « أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشأم في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء»، وذكر قصة طويلة، وفيها أن هرقل جعل يسأل أبا سفيان عن أشياء تتعلق بنوة النبي صلى الله عليه وسلم. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟، ح٧، ١/ ٨، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، ح١٧٧٣، ٣/ ١٣٩٣.

(٣) تفسير المنار، رضا ٣/ ٢٧٤، ٢٧٥.

قال ابن كثير: «هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾»[1].

٢. كراهة نزول الخير على المسلمين:

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقبل البدء في تفسير الآية وبيان ما دلت عليه من صور عداوة أهل الكتاب، نشير إلى ملحوظة اقتران المشركين بأهل الكتاب في الآية، وفي قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

وكأن الله تعالى يريد أن يذكر أهل الكتاب بمشابهتهم للمشركين في عداوتهم لأهل الإيمان، الذين صدقوا بأنبياء الله وكتبه، حتى أنهم يشاركونهم في صورة هذه العداوة وهي إضمار الحقد والكراهية للمؤمنين، وفي ذلك ما فيه من التوبيخ لهم والتعنيف.

وبالعودة إلى تفسير الآية، قال السعدي: «أخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حسدًا منهم، وبغضًا لكم أن يختصكم بفضله فإنه ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ومن فضله عليكم، إنزال الكتاب على رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة»[2].

فالآية تكشف ما تكنه صدور أهل الكتاب للمسلمين من الشر والعداء، وما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد، بسبب ما اختصهم به الله من الفضل؛ ليحذر المسلمون أعداءهم، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه[3]، وتصور بلاغة النص القرآني في هذه الآية عظم هذا العداء في نفوس القوم، فـ(من) في قوله تعالى: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ للاستغراق[4]، أي: من أي شيء مما يسمى خيرًا، فأهل الكتاب لا يودون أن ينال أهل الإيمان أي خير أبدًا، ولا يرضيهم ذلك.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٠١.

(٤) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ٣/ ٦٣٦.

وفي ختمه تعالى الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تلميح يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، فليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد، وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها- ويقودها - اليهود، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين.![1].

وفي مضمون هذه الآية دلالة على أن أسباب العداوة والصراع بين أهل الكتاب والمسلمين في أصلها دينية.

هكذا يكشف القرآن الكريم عن مشاعر أهل الكتاب الذين كفروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونواياهم الخبيثة تجاه المسلمين، إنها مشاعر الكراهية والحسد وتمني الشر، كما تحدث القرآن الكريم عن هذه المشاعر في آيات أخرى، قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران: ٦٩].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم»[2]، إنهم يتمنون أن يضل المسلمون، ولكن هيهات أن يكون ذلك لهم، فمن خالطت بشاشة الإيمان قلبه لا يتركه أبدًا، ومن أبصر النور لا يعود إلى الظلام، أما أولئك من أهل الكتاب فإنهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأنهم بسعيهم في إضلال المسلمين يزدادون ضلالًا وعذابًا[3]، وينشغلون بذلك الإضلال عن النظر في طرق الهداية، ودلائل الحق[4].

«لقد اتخذوا الضلال مركبًا، والزور طريقًا، والجدل سلاحًا، في تلك المعركة التي اشتبكوا فيها مع الإسلام والمسلمين، إنهم قد خسروا أنفسهم من أول الطريق، إذ كانوا على ضلال وفي ضلال، فإن كسبوا المعركة واستطاعوا أن يضلوا غيرهم، فحسبهم من الغنيمة أنهم خسروا معها أنفسهم مرتين، مرة قبل المعركة ومرة بعدها!»[5]، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ومع كون هذا حالهم فإنهم لا يفطنون له، ولا يشعرون أنهم يضرون أنفسهم ويهلكونها قبل كل شيء.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٠١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٤.

(٤) انظر: تفسير المراغي ٣/ ١٨٤.

(٥) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٤٩١.

٣. تمني كثير منهم ردة المسلمين عن دينهم:

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

فأخبر تعالى أن كثيرًا من أهل الكتاب يتمنى ردة المسلمين، وأن السبب الحامل لهم على ذلك إنما هو الحسد، وأنهم ما صدر منهم ذلك إلا بعد معرفتهم الحق[(١)].

قال ابن كثير في تفسير الآية: «يحذر تعالى عباده المؤمنين من سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم. ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح»[(٢)].

٤. تولي الكافرين ومظاهرتهم على المسلمين:

قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٨٠-٨١].

قال صاحب المنار: «أي: ترى أيها الرسول، كثيرًا من بني إسرائيل يتولون الذين كفروا، من مشركي قومك، ويحرضونهم على قتالك، وأنت تؤمن بالله، وبما أنزل على أنبيائهم، وتشهد لهم بالرسالة، وأولئك المشركون لا يوحدون الله تعالى ولا يؤمنون بكتبه، ولا برسله مثلك، فكيف يتولونهم، ويحالفونهم عليك، لولا اتباع أهوائهم، وسخط الله عليهم؟

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا ذم مؤكد بالقسم لعمل اليهود الذي قدمته لهم أنفسهم؛ ليلقوا الله تعالى به في الآخرة، وما هو إلا العمل القبيح الذي أوجب سخط الله عليهم...

﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ فهو محيط بهم، لا يجدون عنه مصرفًا...

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركي العرب يؤمنون بالله والنبي محمد صلى الله عليه وسلم أو النبي

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي ١/ ٢٤٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٨٢ بتصرف يسير جدًا.

الذي يدعون اتباعه، وهو موسى صلى الله عليه وسلم، وما أنزل إليه من الهدى والفرقان، لما اتخذوا أولئك الكافرين من عبدة الأصنام أولياء لهم وأنصارًا؛... فهذه الولاية بين اليهود والمشركين لم يكن لها علة إلا اتفاق الفريقين على الكفر بالله ورسوله وكتابه والتعاون على حرب الرسول وإبطال دعوته، والتنكيل بمن آمن به»[1].

ثانيًا: موقف المودة من المؤمنين:

وأما الموقف الثاني من بعض أهل الكتاب: فهو موقف المودة والمحبة، وهو موقف بعض النصارى الذين بقوا على شيء من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام لهم، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم مصدقًا لما معهم من الحق آمنوا به.

قال تعالى:، ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

عن قتادة قال: «أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعةٍ من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام، يؤمنون به وينتهون إليه. فلما بعث الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، صدقوا به وآمنوا به، وعرفوا الذي جاء به أنه الحق، فأثنى عليهم ما تسمعون»[2]، وعليه فالمراد في الآية: الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب، ولا شك أن المؤمنين من أهل الكتاب من النصارى أكثر من اليهود، فإن المؤمنين من اليهود قليل، وذلك لما في اليهود من أدواء الحسد والكذب وكثرة المراء والجدال في الحق، أما النصارى ففيهم رأفة ورحمة ومنهم قسيسون ورهبان، قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم؛ إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

وفي كتابهم: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر). وليس القتال مشروعًا في ملتهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا

(١) تفسير المنار، رضا ٦/ ٤٠٧ بتصرف يسير.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠١، تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٨٤.

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون، وهم خطباؤهم وعلماؤهم... والرهبان: جمع راهب، وهو العابد. مشتق من الرهبة، وهي الخوف»[1]، «والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين»[2].

وخصت الآية النصارى بالذكر لكثرة المؤمنين منهم، وقد وجد الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة - رضي الله تعالى عنهم - من النجاشي ملك الحبشة - وكان نصرانيًا قبل أن يسلم - المعاملة الحسنة والإيواء الحسن، ولما مات النجاشي، قال النبي صلى الله عليه وسلم عنه -كما في رواية جابر رضي الله عنه عنه-: (مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة)[3]، وهو بخلاف ما وجد النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه من اليهود في المدينة من التآمر والكيد لدعوته، ومن محاولات الاغتيال لشخصه الشريفة صلوات الله وسلامه عليه.

وقد ذكر تعالى لهم صفة الخشوع والبكاء عند سماع القرآن، وهذا الانفعال والتأثر كثيرًا ما يذكره تعالى عنهم وعن أمثالهم من مؤمني أهل الكتاب، كما في قوله تعالى:، ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهو مما يدل على ظهور هذه الصفة منهم، وفي تخصيص هذه الصفة بالذكر مع صفة التواضع ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تعريض بغيرهم من أهل الكتاب الذين لا يحرك فيهم كلام الله ساكنًا، ولا يتأثر لهم قلب، ولا تدمع لهم عين.

وإذا كانت الآية قد صرحت بأن أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى، فليس المراد من الآية عموم النصارى، وذلك لأن من النصارى من يشاركون اليهود في عداوتهم للمؤمنين، وإن كان اليهود أشد منهم عداوة، وقد بين تعالى عداوة اليهود والنصارى معًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤١.
(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، ح٣٨٧٧، ٥/ ٥١.

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

قال ابن كثير: «ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾»[1].

والواقع التاريخي شاهد على هذه العداوة بلا ريب أو شك، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم في غزو الروم - وهم نصارى - في مؤتة من أرض الشام، كما غزاهم بنفسه في تبوك، ومعارك المسلمين مع الصليبيين في مشهورة معلومة.

انحرافات أهل الكتاب

لقد بات معلومًا لكل باحث ومنصف ما وصل إليه الحال بأهل الكتاب من الانحراف الكبير في الدين، ومن الانتكاس العظيم للفطرة، لقد انحرف أهل الكتاب في أصول الدين قبل فروعه، ولقد انحرف علماؤهم قبل عامتهم، انحرف أهل الكتاب في أصل الدين وهو التوحيد الخالص، فنسبوا لله الولد، وقالوا: ثالث ثلاثة، وقالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وانحرف علماء أهل الكتاب فغيروا وبدلوا في كتبهم ودينهم، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وداهنوا ملوك الأرض على حساب دينهم وعقيدتهم.

ولقد بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب جملة وتفصيلًا، وبين أخطاءهم وضلالاتهم، ورد عليها، وصححها، وذلك ليرجع أهل الكتاب عن غيهم وضلالهم، ويعلموا الحق في تلك الأمور، ولا يغتروا هم بما هم عليه مما ظاهره التدين بدين أو بالانتساب للأنبياء عليهم السلام، ولذلك نجد من أسلوب القرآن الكريم في رده على أهل الكتاب أنه يبين باستمرار براءة جميع الأنبياء مما هم عليه من الباطل، ومما ينسبونه إليهم منه.

كما أن في تبيين القرآن الكريم انحرافات أهل الكتاب وأسبابها ونتائجها: تحذيرًا لهذه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٢.

الأمة المحمدية من الوقوع فيها، ومن سلوك سبيل أهل الكتاب في الانحراف والخروج عن دين الله تعالى، نسأل الله العافية.

وسنتحدث عن بعض هذه الانحرافات:

أولًا: نسبة الولد لله سبحانه والتطاول على الذات الإلهية.

بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب في أصل الدين وهو التوحيد، ورد عليهم ذلك في عدة مواضع منه، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٢-٧٥].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣٠-٣١].

وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤]. وغير ذلك من الآيات وهي كثيرة.

وبالنظرة الإجمالية في هذه الآيات نلحظ ما يلي:

بينت الآيات الكريمة انحراف أهل الكتاب في أصل التوحيد واختلافهم في ذلك، فمنهم: من يعتقد أن الله هو المسيح ابن مريم، ومنهم من يقول: هو ابن الله،

ومنهم: من يقول: هو ثالث ثلاثة، أي: الله وعيسى وأمه[1]، أو الله وعيسى وروح القدس، وهو قول المتأخرين منهم، ومنهم: نصارى هذا الزمان.

قال صاحب المنار: «وأما النصارى المتأخرون فالذي نعرفه منهم وعنهم أنهم يقولون بالثلاثة الأقانيم، وبأن كل واحد منها عين الآخر، فالأب عين الابن، وعين روح القدس، ولما كان المسيح هو الابن كان عين الأب وروح القدس أيضًا»[2].

ومنهم: من يتخذ المسيح وأمه إلهين من دون الله، وكل هذه الأقوال كفر بالله تعالى، وجهل بدينه وشرعه، وعدم تفريق بين الخالق والمخلوق، والرب والمربوب، وهي من جنس أقوال الوثنيين من عبدة الأصنام والبشر والحجر، ومأخوذة عنهم[3].

بدأ تعالى الآية الأولى من سورة المائدة بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وهو إعلان واضح بكفر النصارى فيما قالوه من أقوال قبيحة ضالة، وتنبيه لهم على خطورة الأمر، وأن القائلين هذا القول يخرجون به من الدين من أوسع أبوابه، وإن ادعوا أنهم أهل كتاب، أي: يا من تقولون هذا القول قد كفرتم، وأكد تعالى هذا الإعلان بلام القسم في ﴿لَقَدْ﴾، وبـ (قد) التوكيدية، «أي: أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبًا وزورًا: إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم»[4].

بين القرآن الكريم في رده على أهل الكتاب، أن المسيح عيسى عليه السلام بريء من عبادتهم له، ومن أقوالهم، وما نسبوه إليه، وأنه كغيره من الرسل إنما أمر بعبادة الله تعالى، وبالتوحيد وبين أنه لا يدخل أحد الجنة ابتداءً إلا به، ونهاهم عن الشرك وبين أنه الذي يلقي بصاحبه في النار.

تخلل رد القرآن الكريم على أهل الكتاب أمرهم بالتوبة مما هم عليه من الباطل، وتحذيرهم من الاستمرار عليه.

قال تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٧٣-٧٤].

واللام في ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ للقسم[5]، «وعبر بالمس للإشارة إلى شدة ما يصيبهم من آلام؛لأن المراد أن هذا العذاب الأليم يصيب جلدهم وهو موضع الإحساس فيهم إصابة مستمرة.

كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٨٢، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ١٥١.
(٢) تفسير المنار، رضا ٦/ ٤٠١.
(٣) انظر: تفسير المنار، رضا ٦/ ٧٣.
(٤) الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٣٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٨٣.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]»[١].

والهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ للاستفهام التعجبي الإنكاري[٢].

وفي الآية حث منه تعالى لهم على التوبة من أقوالهم الباطلة، وصدر تعالى دعوتهم إلى ذلك بالعرض الذي هو غاية في اللطف واللين.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء[٣].

قال ابن كثير: «وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه»[٤].

بين القرآن الكريم بعد رده على أهل الكتاب باطلهم، حقيقة المسيح وأمه، والحق في ذلك، وأن المسيح رسول من عند الله، وأمه مريم من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء[٥].

(١) الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٢٤٠.
(٢) انظر: إعراب القرآن وبيانه، درويش ٢/ ٥٣٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٨.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٩.

بين القرآن الكريم بعض الأدلة الحسية الواضحة في رده على أهل الكتاب، مثل كون عيسى وأمه -اللذين يدعي النصارى ألوهيتهما - كانا يأكلان الطعام، أي: أنهما عبدان، يجوعان ويحتاجان إلى الطعام والشراب، ويخضعان للضرورات التي تصاحب عملية أكل الطعام. ولو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الحميد، ومن كان هذا شأنه، فكيف يكون إلهًا مع الله؟[٦]

بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب بتطاولهم على الذات الإلهية، حيث نسبوا له صفات النقص كالبخل والفقر وغير ذلك.

بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب في توحيد العبادة والطاعة، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: اتخذ اليهود أحبارهم وهم العلماء منهم، واتخذ النصارى رهبانهم وهم عبادهم أربابًا غير الله، أي: بما أعطوهم من حق التشريع فيهم، وأطاعوهم فيه، أي:جعلوهم مشرعين من غير الله، يحللون لهم ويحرمون عليهم ما لم يشرعه الله

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٩، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ١١٥١.

تعالى[1]، «وكانوا أيضًا يغلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح، والدعاء والاستغاثة»[2].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾.

أي: أن الله وحده هو الذي من حقه التحليل والتحريم[3].

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب. فقال: (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن)، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه)[4].

وهكذا يبين القرآن الكريم انحراف النصارى في هذا الباب العظيم من أبواب الدين وأصوله، مما أدى بالنصارى إلى الخروج من دائرة الإيمان والدخول في الكفر، كما حكم به تعالى عليهم.

ثانيًا: الكفر بآيات الله وتحريفها وكتمانها:

من الانحرافات الدينية الخطيرة التي وقع بها أهل الكتاب: الكفر بآيات الله، وتحريفهم لكتبهم التي أنزلها الله لهم وتبديلها، وترك الإيمان ببعضها، ولا شك أن الكتب المنزلة على أهل الكتاب هي وعاء دينهم وبيانه، وأن تضييعها وتحريفها هو تضييع للدين نفسه، بما جاء به من حق وعدل وعقائد وأحكام ومواعظ وقصص، وتلك مصيبة عظمى حلت بأهل الكتاب، ولقد رحم الله هذه الأمة، وخفف عنها، وتكرم عليها حين قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

وقد بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب في الإيمان بكتبهم وتحريفها بصوره المختلفة في مواضع كثيرة من آياته، منها:

قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٣١، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٢٤٥، تفسير المنار، رضا ١٠/ ٣١٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٤.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٥.
(٤) سنن الترمذي، كتاب أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة التوبة، ح٣٠٩٥، ٥/ ٢٧٨، وحسنه الألباني في كتابه صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٤٧.

﴿ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤].

وبالنظرة الإجمالية في هذه الآيات نلحظ ما يلي:

بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب في ركن من أركان الإيمان، وهو الإيمان بكتب الله تعالى التي أنزلها لعباده وتصديقها واحترامها وإجلالها، والعمل بمقتضاها وتحكيمها، وأهل الكتاب إنما يؤمنون ببعض - لا بكل - ما جاءت به هذه الكتب مما يوافق هواهم، ويكفرون بغيره مما خالفه، وهم أيضًا لم يحترموا هذه الكتب، بل نبذوها وراء ظهورهم، وحرفوها ومدوا أيديهم إليها بالتحريف، وفي ذكر القرآن الكريم هذا الانحراف من أهل الكتاب توبيخ لهم، وتشنيع، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في إعراضهم عن الإيمان بما جاء به، بأن هذا هو حالهم مع كتب الله المنزلة، حتى مع كتابهم هم أنفسهم، كفروا به، وحرفوه، كما نلحظ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

قال السعدي: «هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم وحالتهم لا تقتضي الطمع فيهم، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله، ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء»[1].

وقال الشعراوي: «﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦.

معصية مركبة، سمعوا كلام الله وعقلوه وعرفوا العقوبة على المعصية، ثم بعد ذلك حرفوه»[1].

بين القرآن الكريم صور تحريف أهل الكتاب لكتبهم، فهم أولًا نسوا بعضًا من كتبهم، والذي لم ينسوه منها حرفوا فيه لفظًا ومعنى، وكتموا منه صفة النبي صلى الله عليه وسلم ونعته، وزادوا عليه.

قال الشعراوي: « ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤].

والذي لم ينسوه من المنهج، ماذا فعلوا به؟: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

لقد كتموا البينات التي أنزلها الله في الكتاب، فالكتم عملية اختيارية، أما النسيان فقد يكون لهم العذر أنهم نسوه، لكنهم يتحملون ذنبًا من جهة أخرى؛ إذ لو كان المنهج على بالهم وكانوا يعيشون بالمنهج لما نسوه، والذي لم ينسوه كتموا بعضه، والذي لم يكتموه لووا به ألسنتهم وحرفوه. وهل اقتصروا على ذلك؟ لا. بل جاءوا بشيء من عندهم وقالوا: هو من عند الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]»[2].

فتحريف أهل الكتاب كتبهم على أربع صور: النسيان، والكتم، والتحريف، ودس أشياء على أنها من عند الله، وهي ليست من عند الله.

بين القرآن الكريم بعض أسباب هذا الانحراف عند أهل الكتاب، فاتباع أهل الكتاب لأهوائهم جعلهم يؤمنون بما يوافق هواهم مما جاء في كتبهم دون ما يخالفه، وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم وخوفهم على رياستهم جعلهم يكتمون البشارة به، وضعف الوازع الديني لديهم جعلهم ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩].

فباعوا دينهم بدنياهم، وقوله تعالى في الآية ﴿قَلِيلًا﴾ أي: لا يعبأ به، فإن ذلك المال وإن جل في نفسه فهو قليل في مقابلة ما استوجبوه بسببه من العذاب الأليم الخالد[3]، ونقض الميثاق من أهل الكتاب سبب لهم قسوة في القلب عقوبة لهم على ذلك ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾، والقلب القاسي لا تؤثر فيه موعظة، ولا يخاف من عقوبة ما يقدم عليه من الإثم، ولذلك أقدموا على التحريف وغيره من

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٤٠٦.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٩٣٤.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٢٠.

الانحرافات.

ثالثًا: الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل.

العلماء هم صمام الأمان للخلق عند غياب الأنبياء، يرجع الناس إليهم ويستفتونهم ويستشيرونهم، وهم من يدفعون عن الخلق شبهات المضلين، وتشكيكات الشياطين، فإذا فسدوا كان لهم أثر سيئ على عوام الناس.

وقد بين القرآن الكريم أن كثيرًا من علماء أهل الكتاب يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

فكشف تعالى حال كثير من الأحبار والرهبان وفضحهم، وحذر المؤمنين منهم، ووصفهم بأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله، وقد جاء هذا البيان والتحذير في الآية في سياق الكلام على أهل الكتاب في السورة، وأنهم حرفوا دينهم، وقالوا: المسيح ابن الله، وأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله، وهو ما بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق، وأن الله لا يريد إطفاءه، بل يريد إتمامه، وقد فعل، فناسب أن يبين مع هذا شيئًا من سيرة جمهور هؤلاء الرؤساء الدينيين العملية؛ ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، والأسباب التي تحملهم على محاولة إطفاء نور الله تعالى، وأن أكثرهم يعبدون أهواءهم وشهواتهم.[1]

وقد وصفهم الله تعالى بأكلهم أموال الناس بالباطل، وذلك لأنهم كانوا يأخذون الرشا في تخفيف الأحكام والمسامحة في الشرائع. وأنهم كانوا يدعون عند العوام منهم:أنه لا سبيل لأحد إلى الفوز بمرضاة الله تعالى إلا بخدمتهم وطاعتهم، وبذل الأموال في طلب مرضاتهم.

إنه الطريق الباطل الذي كان أهل الكتاب يأكلون به أموال الناس، وهو طريق أكثر الجهال والمزورين، في كل زمان، إلى أخذ أموال العوام والحمقى من الخلق.[2]

قال ابن كثير: «كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله، صلوات الله وسلامه عليه استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعًا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله»[3].

ثم وصفهم تعالى بأنهم يصدون عن سبيل الله، وذلك لأنهم كانوا يبالغون في

(١) انظر: تفسير المنار، رضا ١٠/ ٣٤٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٦/ ٣٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٨.

المنع عن متابعة النبي صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه المكر والخداع، ويبالغون في إلقاء الشبهات، وفي منع الخلق من قبول دينه الحق والاتباع لمنهجه الصحيح.[1]

وفي هذه الآيات درس للمؤمنين ألا يثقوا بهؤلاء وما يلبسونه من طقوس، ومسوح، يلقون بها بين الناس المهابة منهم والثقة، فبين الله تعالى أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، وفي الآيات أيضًا تحذير لهذه الأمة وعلمائها من أن يسلكوا سبيل هؤلاء وما هم عليه من الباطل[2]، قال الحافظ ابن كثير: «والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال، كما قال سفيان الثوري: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى.... وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها»[3].

وقد بين الله تعالى شدة حرص بعض أهل الكتاب على فتنة المسلمين وصدهم عن دينهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩].

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصدع بالإنكار على أهل الكتاب لصدهم عن دين الله من آمن به، وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمخاطبتهم بعنوان أهلية الكتاب في الآية لتوبيخهم وتشديد التشنيع عليهم، فإن ذلك العنوان يستدعي منهم الإيمان بما هو مصدق لما معهم، ويستدعي ترغيب الناس فيه، فصدهم عنه في أقصى مراتب القباحة، ولكون صدهم في بعض الصور بتحريف الكتاب والكفر بالآيات الدالة على نبوته عليه الصلاة والسلام.[4]

رابعًا: تلبيس الحق بالباطل.

من انحرافات أهل الكتاب المنهجية: تلبيسهم الحق بالباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١].

واللبس لغة: الخلط والإدخال[5]، أي: «هو إدخال شيء في شيء، فنحن عندما نرتدي ملابسنا، إنما ندخل أجسامنا في الملابس، وبهذا يختلف منظر اللابس والملبوس»[6].

ومعنى الآية: أن أهل الكتاب يخلطون الحق وهو ما أنزله الله عليهم في كتابه،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٦/ ٣٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٢٨٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٨.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٦٣.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٣٠، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٠٢.
(٦) تفسير الشعراوي ٣/ ١٥٣٧.

بالباطل وهو ما أدخله فيه أحبارهم ورهبانهم من الأكاذيب والتأويلات الباطلة، حتى ارتفعت الثقة بجميعه[1]، وصدر تعالى الآية بالنداء بـ (يا أهل الكتاب) زيادة في توبيخهم، والاستفهام في (لِمَ) إنكاري لإنكار ما وقع منهم[2]، أي: كان يجب عليكم وأنتم أهل كتاب تعلمون منزلة ما أنزله الله تعالى لكم، وفضله عليكم، أن تحافظوا على هذه الكتب وتصونوها، لا أن تخلطوا الباطل بها، فتفسدوها وتفقدوا الثقة بجميعها.

إن أهل الكتاب لبسوا باطلهم ثوب الحق، بإدراجه في كتبهم، وادعاء كونه من عند الله، وهو انحراف واضح في دين الله عز وجل.

خامسًا: الغلو في الدين.

«يمثل الغلو ظاهرة انحراف خطيرة في تاريخ الأديان السماوية؛ إذ يعد من أكبر أسباب الانحراف بالدين عن الصراط المستقيم. ويبدأ هذا الانحراف يسيرًا ثم يتعاظم على مر الأيام حتى يصبح كأنه الأصل، وها هي النصرانية! كيف كانت على عهد المسيح عليه السلام عقيدة خالصة من شوائب الشرك، ودينًا قويمًا، ثم أصابها الغلو فانحرف بها عن التوحيد الخالص إلى الشرك المحض، ومن دين سماوي إلى دين وضعي ممزوج بوثنيات الهند وترهات اليونان وأباطيل اليهود»[3].

لقد غلا النصارى في دينهم غلوًا عظيمًا أفسد عليهم دينهم، وخسروا بذلك آخرتهم، فغلوا في المسيح عليه السلام وتعظيمه، حتى عبدوه من دون الله تعالى، وغلوا في صالحيهم وعبادهم، واتخذوهم أربابًا من دون الله، يدعونهم ويستغيثون بهم، ويشرعون لهم، وغلوا في العبادة وابتدعوا الرهبانية فيها.

ولقد بين القرآن الكريم انحراف أهل الكتاب في غلوهم في دينهم، فجاءت مادة الغلو في القرآن الكريم في موضعين، كلاهما في سياق الحديث عن أهل الكتاب، وهما:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٠٥، تفسير المنار، رضا ٣/ ٢٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٧٩.

(2) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٢٧٠.

(3) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، عثمان ص١٤٧.

﴿ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

كما بين القرآن الكريم نوعًا من غلو أهل الكتاب في العبادة، وابتداعهم الرهبانية، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٧].

وبالنظرة الإجمالية في هذه الآيات نلحظ ما يلي:

بين القرآن الكريم غلو أهل الكتاب في دينهم، ودعاهم إلى تركه، والعودة إلى الحق ونهج الوسطية والاعتدال في الاعتقاد.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ أي: «لا تغلوا في دينكم فتتجاوزوا الحدود التي حدها الله لكم، فإن الزيادة في الدين كالنقص منه، كلاهما مخرج له عن وضعه»[1].

ولذا قال تعالى في الآية الثانية: ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن الإسلام، فالإسلام هو سواء السبيل؛ أي: وسطه الذي لا غلو فيه، ولا تفريط[2].

فالنصارى غلوا في عيسى عليه السلام وأمه حتى جعلوهما إلهين من دون الله، واليهود كفروا بعيسى عليه السلام ورموا أمه بالفاحشة، فاليهود والنصارى في المسيح وأمه على طرفي نقيض، أما أهل الإسلام فإنهم يقولون في عيسى عليه السلام: أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، فيؤمنون به رسولًا له منهم الاحترام والتعظيم، ولكن لا يصل ذلك بهم إلى تأليهه وعبادته، وأما أمه مريم العذراء البتول، فهي الصديقة الطاهرة العفيفة.

قال سبحانه في حقها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢].

نهى القرآن الكريم أهل الكتاب عن الغلو، وتقليد آبائهم وأسلافهم فيه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾، أي: ممن اتبعهم في بدعهم وضلالهم، ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: ضلوا أنفسهم وأضلوا غيرهم عن حقيقة الدين وجوهره، وكونه

(١) تفسير المنار، رضا ٦/ ٦٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ٦/ ٤٠٥.

وسطًا بين أطراف مذمومة؛ كالتوحيد بين الشرك والتعطيل، واتباع الوحي بين الابتداع والتقليد، والسخاء بين البخل والتقتير.[1]

«الرهبانية في النصرانية بدعة، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾، وكانت نيتهم فيها صالحة، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾، ذلك بأن الأصل فيها تأثير مواعظ المسيح عليه السلام في الزهد، والإعراض عن لذات الدنيا، ثم صار أكثر منتحليها من الجاهلين والكسالى فكانت عبادتهم صورية أعقبتهم رياء وعجبًا وغرورا بأنفسهم، وتعظيمًا من العامة لهم، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

ولما صارت النصرانية ذات تقاليد منظمة في القرن الرابع وضع رؤساؤهم نظمًا وقوانين للرهبانية ولمعيشتهم في الأديار. وصار لها عندهم فرق كثيرة يشكوا بعض أحرارهم من مفاسدهم فيها[2]، وهو يشبه حال بعض المتصوفة من هذه الأمة الذين ولجوا من باب الغلو في العبادة والترهبن فيها إلى البدع والشركيات والوساوس والخيالات، وإلى حال مشابهة لحال أولئك النصارى.

وفي بيان القرآن الكريم غلو أهل الكتاب في دينهم، وما جلب عليهم ذلك من الدخول في الكفر والانحراف، تحذير لهذه الأمة من الغلو وتعليم لها بخطره.

(١) انظر: تفسير المنار، رضا ٦/ ٤٠٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٣١٧.

دعاوى أهل الكتاب الباطلة

ذكر القرآن الكريم بعض دعاوى أهل الكتاب الباطلة، وفندها، ورد عليها، وذلك من أجل عدول أهل الكتاب عن هذه الدعاوى الباطلة، وهدايتهم إلى الحق، وحماية للمسلمين من التأثر بها.

أولًا: دعوى أن الهدى في اتباع ملتهم.

من دعاوى أهل الكتاب الباطلة والتي ذكرها القرآن الكريم عنهم وردها عليهم: دعواهم أن الهدى في اتباع ملتهم.

قال تعالى:، ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٨].

فذكر تعالى دعوى كلا الفريقين من أهل الكتاب: اليهود والنصارى في أن الهداية في اتباع منهجه، فاليهود قالوا: إن الهدى في اتباع اليهودية، والنصارى قالوا: بل هو في اتباع النصرانية، وكلاهما يزعم أن دينه هو الدين الحق الذي شرعه الله لعباده[1].

ثم أمر تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم، ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي: بل نقتدي ونتبع طريقة إبراهيم ومنهجه. والملة هي الدين، والحنيف تعني: المستقيم، أو المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، ووصف به إبراهيم عليه السلام لميله عما كان عليه أهل زمانه من الضلال والعمى إلى الدين الحق الذي أوحى الله به إليه، وهو دين الإسلام لله تعالى وأمره والانقياد له، وهي الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك[2].

وهي الملة الحق التي من آمن بها اهتدى وأفلح، ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾، ومن رغب عنها فقد ظلم نفسه وامتهنها، كما قال تعالى:، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٠١، التفسير البسيط، الواحدي ٣/ ٣٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٦٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٧٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٨، محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٠٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧٣٧، الوسيط، طنطاوي ١/ ٢٨١.

﴿١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

أي: قد ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد، منذ حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلًا، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء. فأي سفه أعظم من ترك مسلك إبراهيم عليه السلام وملته واتباع طرق الضلالة والغي؟ ثم ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي الإسلام، وأنه وصى بها بنيه بالالتزام بها، ثم وصى يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام بنيه بذلك أيضًا، وهكذا، فالحنيفية هي ملة الأنبياء جميعًا، كلهم كانوا على التوحيد لله تعالى، والإسلام له والانقياد لأمره[1]، وهو أحسن دين.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

وهو الدين الذي لا يقبل الله تعالى من أحد دينا غيره، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن ملة إبراهيم: الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله، دون تفريق بين أحد منهم، وتصديقهم، وما أنزل عليهم، وما أوتوه من المعجزات والآيات، فهذا هو الدين الحق الهادي إلى الصراط المستقيم، لا غيره من الأديان والملل، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

إن اليهود والنصارى ليسوا على ملة إبراهيم عليه السلام؛ لأنهم خالفوها وضلوا عنها، وأشركوا مع الله ما لم ينزل به سلطانًا، لذا قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾، و(بل) حرف إضراب، أي: لا نتبع ملتكم، بل نتبع ملة إبراهيم عليه السلام، أما أنتم فخالفتموها[2]، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهو تعريض بأهل الكتاب الذين يدعون اتباع إبراهيم مع إقامتهم على الشرك[3]، روي عن قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾، قال: «رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية، بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم - يعني: الإسلام - حنيفًا؛ كذلك بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بملة إبراهيم»[4].

فأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يرد على أهل الكتاب دعواهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٥.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٤/ ١٥٦.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٩٤، محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٠٧.

(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٨٩.

في أن الهدى في اتباع ملتهم، بأنه ليس كذلك، وإنما الهدى في اتباع ملة إبراهيم عليه السلام ودينه، وهو التوحيد، والإسلام لله تعالى، وهو الدين الحق، ودين جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، فجميعهم كانوا مسلمين موحدين، ولا يقبل الله تعالى من أحد غير هذا الدين، فهو أولى بالاتباع من غيره.

وبعد أن بين الله تعالى الملة الحق الهادية إلى الصراط المستقيم، دعا اليهود والنصارى إلى اتباعها، وبين حكمهم إن لم يتبعوها، فقال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾، أي: أمرهم محصور في العداوة والمشاقة، وكل ما يوسع مسافة الخلاف بينكم وبينهم، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: فسيكفيك الله إيذاءهم وسيئ مكرهم ويؤيد دعوتك وينصرك عليهم نصرًا مؤزرًا[1].

ثم قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾، «أي: صبغنا الله، والمراد بها: دينه الذي فطر الناس عليه، لظهور أثره على صاحبه كالصبغ في الثوب»[2]، أي: صبغنا بما ذكر من ملة إبراهيم صبغة الله وفطرته فطرنا عليها، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾، فملة إبراهيم أحق بالاتباع من غيرها؛ لأنها دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم تلى أبو هريرة رضي الله عنه قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠])[3].

ثانيًا: دعوى نفي دخول غيرهم الجنة.

ومن دعاوى أهل الكتاب الباطلة: دعواهم نفي دخول الجنة على غيرهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) انظر: تفسير المنار، رضا ١/ ٣٩٩، تفسير المراغي ١/ ٢٢٦.

(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم ١٣٥٩، ٢/ ٩٥، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم ٢٦٥٨، ٤/ ٢٠٤٧.

﴿يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، أي: ائتوا بشيء أنزله الله عليكم في ذلك، وهكذا كل من ادعى دعوى، لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان، علم كذبهم بتلك الدعوى[1].

ثم قال تعالى ردًا عليهم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، و(بلى) كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق، فهي مبطلة لقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، أي: بلى، إنه يدخلها من لم يكن هودًا أو نصارى؛ لأن رحمة الله ليست مقصورة على شعب دون شعب، وإنما هي مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، وهو ما بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، أي: بإسلام الوجه لله، وهو التوجه إليه وحده وتخصيصه بالعبادة دون سواه، وعبر عنه بإسلام الوجه؛ لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه لا يوليه دبره، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: في العمل، وتلك سنة القرآن تقرن الإيمان بعمل الصالحات في آيات كثيرة، فهما مجتمعان سببا الفلاح ودخول الجنة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤][2]

فرد القرآن الكريم على أهل الكتاب دعواهم الباطلة نفي دخول الجنة على غيرهم، وبين أن ذلك مجرد أماني لا حقيقة لها واقعا، ولا دليل عليها شرعًا، وأن دخول الجنة والفوز بها ليس مشروطًا فيه أن يكون صاحبه يهوديًا أو نصرانيًا، وإنما مناط ذلك هو تحقق الإيمان الصحيح، والعمل الصالح.

ثالثًا: دعوى أنهم أبناء الله وأحباؤه.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢.

(٢) انظر: تفسير المنار، رضا ١/ ٣٥١.

ادعى أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

وهذه الدعوى منهم ما هي إلا حلقة من سلسلة طويلة في مثل هذه الدعاوى المشابهة الباطلة، والتي تتمحور حول كونهم شعب الله المختار، وصفوته من خلقه، وأنه لا يدخل الجنة غيرهم، وأن الهدى محصور في اتباع ملتهم، وغير ذلك مما حكاه القرآن الكريم عنهم، وملئت به توراتهم المحرفة من الأماني الكاذبة التي يغرون بها أنفسهم، ويتعالون على الخلق ويحتقرونهم، جاء في سفر التثنية من التوراة المحرفة: «أنتم أولاد للرب إلهكم... لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض»[(١)].

وهنا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ...﴾.

وقد اختلف المفسرون في البنوة المرادة في الآية، والتي حكى الله تعالى عن أهل الكتاب ادعاؤها:

فقيل: هي البنوة التي زعمها اليهود لعزير إذ قالوا: عزير ابن الله، والتي زعمها النصارى للمسيح عليه السلام، إذ قالوا: المسيح ابن الله، ثم زعموا أن عزيزًا والمسيح كانا منهم، فصار ذلك كأنهم قالوا :نحن أبناء الله.

ألا ترى أن أقارب الملك إذا فاخروا إنسانًا آخر فقد يقولون: نحن ملوك الدنيا، ونحن سلاطين العالم، وغرضهم منه كونهم مختصين بذلك الشخص الذي هو الملك والسلطان، فكذا هاهنا، أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا.

وقيل: المراد بالبنوة: بنوة مزية الاتصال بالله أكثر من اتصال غيرهم به، فالبنوة بنوة الاتصال والمحبة، وتخصيصهم بمزيد الشفقة والعناية.

ويكون عطف ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ من قبيل عطف التفسير المشير إلى معنى البنوة، وعليه فهي بنوة مجازية[(٢)].

على أنه قد وردت تسمية ﴿أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾ في كتب أهل الكتاب المحرفة، كما تقدم نقله عن التوراة، قال ابن كثير: «فحملوا هذا على غير تأويله، وحرفوه. وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا:

(١) سفر التثنية ١٤/ ١، نقلاً عن: موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة، قدح ص ٢٧٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٢٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٨، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢٠٩٩.

هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام... ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك: معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه»[1]

وقد رد تعالى عليهم دعواهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، أي: إن كانت لكم خصوصية عند الله من بين خلقه وفضيلة عليهم، فلماذا يجري عليكم سنته فيهم من عقاب المسيء منكم، وتسليط العقوبة عليه،-ويعفو عن كثير-[2]، وقد عاقب بعضكم-وهم المعتدون في السبت- بالمسخ إلى قردة وخنازير، كما سلط عليكم بذنوبكم أعداءكم يسومونكم سوء العذاب، ويستبيحون معابدكم، ويقتلون علماؤكم، وفي الآخرة أيضا يعذبكم الله تعالى على خطاياكم، وهو باعترافكم أنفسكم.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠].

ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: إنما أنتم من جنس خلقه تعالى من غير مزية لكم عليهم، يغفر لمن يشاء منهم، وهم الذين آمنوا بالله ورسله، وعملوا الصالحات، ويعذب من يشاء منهم، وهم الذين كفروا بالله ورسله، ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: جميع ذلك من ملكه، وتحت تصرفه، ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، وهو إشارة إلى الجزاء الأخروي، وأنه واقع على أهل الكتاب كغيرهم من البشر، يجازى كل بعمله، من أحسن فله الحسنى، ومن أساء فله السوءى.[3]

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الجمعة: ٦-٧].

فكذبهم الله تعالى في دعواهم أنهم أولياء له من دون الناس، ودلل على ذلك بكراهيتهم الموت ولقائه.

قال ابن القيم: «وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي صلى الله عليه وسلم وهي أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبرًا جزمًا، أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمونه لوجدوا طريقًا إلى الرد عليه،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٩.
(٢) انظر: تفسير المنار، رضا ٦/ ٢٦٢.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢١.

بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله، وإنما منعهم من تمنى الموت معرفتهم بما لهم عند الله تعالى من الخزي والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤].

أي: «فتمنوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم، لا منازع لكم فيه ولا مزاحم، وإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين؛ إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها»[2]، وقد أخبر الله تعالى في آية أخرى عن حرصهم على الحياة حرصًا شديدًا، وأن ذلك لا ينفعهم في رد العذاب عنهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٦].

رابعًا: دعوى أن إبراهيم عليه السلام وبنيه كانوا هودا أو نصارى.

من دعاوى أهل الكتاب الباطلة والتي ذكرها القرآن الكريم عنهم وردها عليهم، دعواهم أن إبراهيم عليه السلام وبنيه كانوا هودًا أو نصارى، قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

زعموا لجهلهم بتاريخ شرائعهم أن إبراهيم وأبناءه كانوا على اليهودية أو على النصرانية فأكذبهم الله تعالى: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾، وأكد كذبهم في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧].

إن الأمة إذا انغمست في الجهالة وصارت عقائدها غرورًا، ومن دون تدبر، اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل، واجتمعت في عقائدها المتناقضات[3].

وهذا القول الكذب من أهل الكتاب لما يعلمون من إمامة إبراهيم عليه السلام في الدين، وثناء الله عليه في كتبهم، ولذا نسبوا أنفسهم إليه، وحاجوا المسلمين في ذلك، وحتى مشركي العرب كانوا ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم، ويدعون اتباعه كما جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة، أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة،

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية ٤/ ١٥٠.
(٢) تفسير المنار، رضا ١/ ٣٢١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧٤٧.

فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (قاتلهم الله، لقد علموا: ما استقسما بها قط)، ثم دخل البيت، فكبر في نواحي البيت، وخرج ولم يصل فيه)[1].

ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «قد أخبرنا الله بذلك، أفأنتم أعلم أم الله؟، بل إن الله قد أخبركم أنتم بذلك في أسفاركم فلا تكتموا الحق المدون في أسفاركم هذه، ومن أظلم ممن كتم حقيقة يعلمها من كتابه وسيجازيكم الله على ما تلجون فيه من باطل، فليس الله بغافل عما تعملون»[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨].

فذكر تعالى محاجة ومجادلة أهل الكتاب في إبراهيم عليه السلام، وزعمهم أنه كان على ملتهم، ثم رد عليهم بعدة ردود فيها:

- التنديد بأهل الكتاب لمحاجتهم في إبراهيم مع أن التوراة والإنجيل إنما أنزلا من بعده، ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، «أي: كيف تدعون، أيها اليهود، أنه كان يهوديًا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيًا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر. ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾»[3].
- التنديد بأهل الكتاب لمحاجتهم في شيء ليس عندهم علم به.
- نفي كون إبراهيم يهوديًا أو نصرانيًا، والتقرير بأنه كان مسلمًا حنيفًا غير مشرك، وفي ذلك رد على اليهود والنصارى الذين يدعون اتباع ملة إبراهيم عليه السلام وهي التوحيد - وهم مقيمون على الشرك.
- بيان أن أولى الناس بإبراهيم هم الذين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح؟، رقم ٤٢٨٨، ٥/ ١٤٨.

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص٣٠.
وانظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧٤٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٧.

على ملته، ومنهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به؛ لأنهم أيضًا عليها[1].

خامسًا: دعوى نفي الحق عمن سواهم.

من دعاوى أهل الكتاب الباطلة والتي ردها القرآن الكريم عليهم: دعواهم نفي الحق عمن سواهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: ١١٣].

«والمراد من القول: التصريح بالكلام الدال، فهم قد قالوا هذا بالصراحة حين جاء وفد نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم أعيان دينهم من النصارى، فلما بلغ مقدمهم اليهود، أتوهم وهم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فناظروهم في الدين وجادلوهم حتى تسابوا، فكفر اليهود بعيسى وبالإنجيل وقالوا للنصارى: ما أنتم على شيء، فكفر وفد نجران بموسى وبالتوراة، وقالوا لليهود: لستم على شيء. وقولهم ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي، والشيء الموجود هنا مبالغة، أي: ليسوا على أمر يعتد به... فالمراد هنا: ليست على شيء من الحق، وذلك كناية عن عدم صحة ما بين أيديهم من الكتاب الشرعي، فكل فريق من الفريقين رمى الآخر بأن ما عنده من الكتاب لا حظ فيه من الخير، كما دل عليه قوله بعده: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإن قوله: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جملة حالية جيء بها لمزيد التعجب من شأنهم أن يقولوا ذلك.

وكل فريق منهم يتلون الكتاب، وكل كتاب يتلونه مشتمل على الحق لو اتبعه أهله حق اتباعه»[2].

وقال أبو حيان في دلالة قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: «وهذا نعي عليهم في مقالتهم تلك؛ إذ الكتاب ناطق بخلاف ما يقولونه، شاهدة توراتهم ببشارة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وصحة نبوتهما. وإنجيلهم شاهد بصحة نبوة موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، إذ كتب الله يصدق بعضها بعضًا. وفي هذا تنبيه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم في أن من كان عالمًا بالقرآن، يكون واقفا عنده، عاملًا بما فيه، قائلًا بما تضمنه، لا أن يخالف قوله ما هو شاهد على مخالفته منه، فيكون في ذلك كاليهود والنصارى»[3].

ثم قال تعالى زيادة في توبيخهم على مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ

(١) انظر: التفسير الحديث، دروزة ٧/ ١٦٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٧٦-٦٧٥.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٥٦٥.

﴿قَوْلِهِمْ﴾، أي: أن حال هؤلاء في مقالتهم تلك شابهت حال أولئك الجهلة من مشركي العرب، والذين لم ينزل عليهم كتاب يعلمهم ويهديهم، قال أبو حيان: «الذين لا يعلمون: هم مشركو العرب في قول الجمهور»[(١)]، قالوا: لكل أهل دين ليسوا على شيء، وهو توبيخ عظيم من الله تعالى لأهل الكتاب، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم.[(٢)]

ثم قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهو تعقيب من الله تعالى على ذلك الخلاف بين أهل الكتاب، يقرر أن الله سبحانه وتعالى سوف يحكم يوم القيامة فيما يختلف فيه الفريقان فيؤيد الحق وأصحابه ويخذل الباطل وأصحابه.[(٣)]

(١) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٥٦٥.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٧٩.
(٣) انظر: التفسير الحديث، دروزة ٦/ ٢٢٢.

معاملة أهل الكتاب

بين القرآن الكريم عدة قواعد وضوابط في التعامل مع أهل الكتاب، ذلك لأنه كتاب تشريع شامل لكل مناحي الحياة، بين فيه كيفية تعامل المسلمين مع بعضهم البعض، وتعامل المسلمين مع غيرهم سواء كانوا من أهل كتاب أو من غيرهم من الكافرين.

وتبرز في هذه الضوابط والأحكام جميعًا ربانية القرآن الكريم، وعدالة تشريعاته وعظمتها، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقد فرق القرآن الكريم في التعامل بين أهل الكتاب وغيرهم من الأمم الكافرة، وأعطى كل واحد منهم منزلته التي يستحقها، فهم وإن كانوا جميعًا كفارًا ضلالًا، إلا أنه تبقى لأهل الكتاب رتبة على غيرهم من الكفار، فهم أهل الكتاب، يؤمنون بالله تعالى، وبعض كتبه - على ما دخلها من تحريف - ورسله، وإن كان إيمانهم إيمانًا فاسدًا ناقصًا لا ينفعهم في الآخرة شيئًا، لكنهم يفترقون به عن المشركين وعبدة الأوثان وأهل الإلحاد، ولذا كان من العدل أن يفرق بينهم في بعض الأحكام في الدنيا، كإباحة نكاح نسائهم، وأكل ذبائحهم، وغير ذلك.[(٤)]

(٤) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٩٤١.

وسنبين الضوابط الشرعية التي قررها القرآن الكريم في التعامل مع أهل الكتاب فيما يأتي:

أولًا: دعوتهم للإسلام ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

إن الإسلام هو دين الله تعالى الذي شرعه لعباده وارتضاه لهم، ولا يقبل من أحد منهم دينًا غيره، ولا ينجو أحد منهم إلا به، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩].

أي: إن أصل دين أهل الكتاب الذي جاءت به رسلهم هو الإسلام، وإنما بدلوه عن حقيقته بغيًا منهم بينهم[1]، فضلوا وانحرفوا عن دين الله تعالى.

ولقد دعا القرآن الكريم أهل الكتاب في آيات كثيرة وبأساليب شتى، من ذلك الدعوة الصريحة لهم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وفند عقائدهم وردها، وبين أنها تخالف أصول ديانتهم الصحيحة التي جاء بها موسى وعيسى - عليهما السلام -، وغير ذلك من الأساليب المنهجية الحكيمة التي سلكها في دعوتهم.

كما نهى القرآن الكريم نهيًا صريحًا عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالطريقة التي هي أحسن، أي: «بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه»[2]، وبالحكمة، لكون ذلك أنفع وأنجع في دعوتهم، وأقرب إلى استجابتهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومن بلاغة الآية: أن الله تعالى بدأها بالنهي عن جدال أهل الكتاب ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ولم يقل: وجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وهذا أوكد في النهي، وأبلغ في الأمر بمراعاة الأدب في النقاش والحوار والمناظرة، أي: فلا تجادلوهم إلا بالتي هي أحسن.

(١) انظر: تفسير المراغي ٣/ ١٢٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٢.

ثانيًا: عدم إكراههم على ترك دينهم.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالإسلام لا يجبر أهل الكتاب على ترك دينهم وعقيدتهم، أو على اعتناق الإسلام بالتهديد والتخويف، بل يترك لهم الخيار مفتوحًا في اختيار الإسلام أو البقاء على دينهم، فإن اختاروا البقاء على دينهم، أقرهم الإسلام عليه في مقابل أن يخضعوا لحكمه العام، والذي يكفل الحقوق لهم ولغيرهم.

قال سيد قطب: «﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته، وفكره، ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه... ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشري لمسة توقظه، وتشوقه إلى الهدى، وتهديه إلى الطريق، وتبين حقيقة الإيمان التي أعلن أنها أصبحت واضحة وهو يقول: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾.

فالإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه. والكفر هو الغي الذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به»[1].

ولا يخفى على كل من له معرفة أو اطلاع بتاريخ الأمم والشعوب، غياب هذا المبدأ العظيم عن واقع كثير منها، فمحاكم التفتيش، وممارسة أبشع أساليب القسوة والوحشية على المخالفين في العقيدة، - بل في الرأي - شاهدة على ذلك، أما المسلمون فعاش بينهم اليهود والنصارى وغيرهم من الملل لمئات السنين في أمن وراحة وطمأنينة على النفس والمال والأهل، إلى أن دخل كثير منهم الإسلام عن كامل اقتناع وإرادة لما رأوه من عدالة الإسلام وأخلاق المسلمين.

ولعل الوصول إلى هذه النتيجة هي الحكمة من الإبقاء على هؤلاء المخالفين في العقيدة في ديار الإسلام، وهو أن يروا الإسلام بأعينهم عن قرب، ويعلموا عظمته وأنه دين الله تعالى دون غيره، ويروا المسلمين وهم يلتزمون بدينهم في أداء صلواتهم في الجمع والجماعات، ويجتنبون المحرمات، بخلاف ما عليه غيرهم من أهل الأديان الأخرى من البعد عن دينهم والتفريط فيه.

ثالثًا: الإنصاف للأمناء منهم.

قال تعالى: ﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٩١، ٢٩٢.

﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٧٥].

ففرق تعالى بين أهل الأمانة من أهل الكتاب وأهل الخيانة منهم[(١)]، فقال في أهل الأمانة: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾، وقوله (بقنطار)، «أي بمال كثير»[(٢)]، وهو يدل على مبالغتهم في أداء الأمانة، كما لم يذكر تعالى القيام عليهم كما ذكره في الصنف الثاني: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾، أي: أنه يؤدي الأمانة وإن كانت عظيمة دون إلحاح عليه.

قال الفخر لرازي: «المراد من ذكر القنطار والدينار هاهنا: العدد الكثير والعدد القليل، يعني: أن فيهم من هو في غاية الأمانة حتى لو اؤتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لو اؤتمن على الشيء القليل، فإنه يجوز فيه الخيانة»[(٣)].

رابعًا: النهي عن موالاتهم.

من أصول العقيدة الإسلامية التي قررها القرآن الكريم: الولاء والبراء، الولاء لأهل التوحيد والإسلام بالحب لهم والإخلاص والنصرة، والبراء من أهل الشرك والكفر، بالبغض لهم والمعاداة، وذلك من ملة إبراهيم عليه السلام والذين معه، الذين أمرنا بالاقتداء بهم؛ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة: ٤][(٤)].

وقد نهى الله تعالى عن موالاة اليهود والنصارى نهيًا صريحا في كتابه العزيز، فقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وذلك لأن اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر هم أعداء لله تعالى، غضب الله تعالى عليهم، ولعنهم، وأنزل في كتابه آيات في الوعيد لهم، فكيف يحب- المسلم ويود أمثال هؤلاء، وهو- أي: المسلم يحب الله ورسوله، وهؤلاء حادوا الله ورسوله، وكفروا به، وخالفوا أمره، ولذلك ينبغي أن نبغضهم.

قال ابن جرير الطبري: «إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعًا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله وغيرهم، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًا من دون الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥١٩.
(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ٨/ ٢٦٣.
(٤) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، الفوزان ص ٣٠٧.

ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان»[1].

وقال ابن حزم: «صح أن قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، إنما هو على ظاهره: بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين»[2].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي تربي المسلمين على معرفة كيد أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، وتقطع ما في نفوس بعضهم من ود وولاء لهؤلاء الأعداء، من أجل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط.[3]

وهذا النهي عن موالاة أهل الكتاب في القرآن الكريم لا يتناقض أبدًا مع ما ورد فيه أيضًا من السماحة في معاملتهم والبر بهم.

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع جديد في الأرض،... وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب، بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم. وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة. وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة. إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم. وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض في حربه والكيد له[4].

خامسًا: إباحة الأكل من ذبائحهم، ونكاح نسائهم.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٨.
(٢) المحلى بالآثار، ابن حزم ١٢/ ٣٣.
(٣) انظر: الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، القحطاني ص ٢٠٣.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٠٩، ٩١٠.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝﴾ [المائدة: ٥].

فقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني: ذبائحهم، أباح الله لأهل الإسلام الأكل منها، لأنهم - أي: أهل الكتاب - يذكرون اسم الله عليها، وهم متعبدون بذلك، ودل مفهوم المخالفة في الآية على أنه لا يحل طعام غيرهم من أهل الأديان، لأنهم لا يذكرون اسم الله تعالى على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل يأكلون الميتة، وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ أي: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم. وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة[١].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي أحل لكم الزواج من الحرائر والعفائف من أهل الكتاب، إذا أديتم لهن مهورهن قاصدين الزواج[٢]، ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي: متزوجين ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، غير معلنين بالزنى بهن ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي عشيقات تسرون بالزنى بهن[٣].

«وإنما أباح الإسلام الزواج منهن - أي: من الكتابيات - ليزيل الحواجز بين أهل الكتاب وبين الإسلام. فإن في الزواج المعاشرة والمخالطة وتقارب الأسر بعضها ببعض، فتتاح الفرص لدراسة الإسلام، ومعرفة حقائقه ومبادئه ومثله. فهو أسلوب من أساليب التقريب العملي بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب، ودعاية للهدى ودين الحق»[٤].

سادسًا: إخضاعهم لحكم الإسلام.

أي: حكم الإسلام العام والذي يكفل لأهل الكتاب حقوقهم، مع تركهم وما يدينون به، فإذا خضع أهل الكتاب واستسلموا لحكم الدولة الإسلامية ودانوا لها بالولاء، ودفعوا لها الجزية، فإنهم يعطون منها عهدًا، هو عهد الذمة.

والمراد بعهد الذمة: «أن يقر الحاكم أو نائبه بعض أهل الكتاب - أو غيرهم - من الكفار على كفرهم بشرطين: الشرط الأول: أن يلتزموا أحكام الإسلام في الجملة.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠.
(٢) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ١٤٥.
(٣) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ١٣٦، صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣٠٣.
(٤) فقه السنة، سيد سابق ٢/ ١٠٢.

والشرط الثاني: أن يبذلوا الجزية... وإذا تم عقد الذمة ترتب عليه حرمة قتالهم، والحفاظ على أموالهم، وصيانة أعراضهم، وكفالة حرياتهم، والكف عن أذاهم»[1].

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

ففي هذه الآية يأمر الله تعالى المؤمنين بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دينه حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هذا الأساس، وهو إعطاء الجزية، وفي هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمي المعاهد ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين، إن طبيعة العلاقة الحتمية بين منهج الله والمناهج الجاهلية الأخرى هي عدم إمكان التعايش إلا في ظل أوضاع خاصة وشروط خاصة[2]، وذلك ليظل الإسلام في جهة علو عن غيره من الأديان والمذاهب الباطلة. ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

والجزية تعود بالخير على أهل الكتاب؛ لأن فيها عصمة لدمائهم، وإبقاء لهم على دينهم. وأيضًا، فإنهم سيعيشون في مجتمع إيماني؛ الولاية فيه للإسلام، ويتكفل المسلمون بحمايتهم وضمان سلامتهم في أنفسهم وأهلهم وفي أموالهم وفي كل شيء، فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين، فأهل الكتاب الموجودون في المجتمع الإسلامي ينتفعون أيضًا بالخدمات التي يؤديها الإسلام لهم، ولذلك يجب عليهم أن يؤدوا شيئًا من مالهم نظير تلك الخدمات[3].

سابعًا: السماحة في التعامل معهم والبر بهم والإقساط إليهم.

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

أي: أنه جائز لكم أيها المؤمنون، وليس فيه حرج عليكم، ولا يدخل ذلك في المولاة التي نهيتم عنها: أن تبروا من لم يقاتلكم، وتصلوهم، وتكافؤوهم بالمعروف، وتقسطوا إليهم، أي: تعدلوا إليهم وتنصفوهم[4]، قال ابن عاشور: «والبر: حسن المعاملة والإكرام»[5]، والبر أيضًا: اسم جامع لكل خير، وقد ورد في

(١) فقه السنة، سيد سابق ٢/ ٦٦٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٢٠.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٥٠٢٩.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥٦.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٥٣.

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

وقد اختلف المفسرون في المعني به في الآية، والصحيح كما رجحه ابن جرير الطبري وغيره: أن الآية عامة في جميع أصناف الملل والأديان، لأن الله عز وجل عم بقوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض، فالآية عامة في اليهود والنصارى وغيرهم، وذلك أيضًا بالشروط التي ذكرتها الآية. وهي: أنهم لم يقاتلونا من أجل ديننا، ولم يخرجونا من ديارنا بمضايقتنا وإلجائنا إلى الهجرة، وأن لا يعاونوا عدوًا بأي معونة ولو بالمشورة والرأي فضلًا عن الكراع والسلاح[(١)].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وهو ترغيب للمؤمنين في العدل والإنصاف حتى مع الكفار[(٢)]، وهو من عظمة الإسلام في التفريق بين المعتدي وغيره في التعامل.

وهذا المعنى الذي دلت عليه الآية «لا يدخل في نطاق النهي عن موالاة الكافرين؛ إذ إن النهي عن موالاة الكافرين يقصد به النهي عن محالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، كما يقصد به النهي عن الرضى بما هم فيه من كفر، إذ إن مناصرة الكافرين على المسلمين فيها ضرر بالغ بالكيان الإسلامي، وإضعاف لقوة الجماعة المؤمنة، كما أن الرضى بالكفر كفر يحظره الإسلام ويمنعه. أما الموالاة بمعنى المسالمة، والمعاشرة الجميلة، والمعاملة بالحسنى، وتبادل المصالح، والتعاون على البر والتقوى، فهذا مما دعا إليه الإسلام»[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، عيسى عليه السلام، موسى عليه السلام، النصارى، اليهود

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٢٣، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٢٠٧، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري ٥/ ٣٢٧.

(٢) انظر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري ٥/ ٣٢٧.

(٣) فقه السنة، سيد سابق ٢/ ٦٠٣- ٦٠٤.

الإهلاك

عناصر الموضوع

مفهوم الإهلاك	٢٠٠
الإهلاك في الاستعمال القرآني	٢٠١
الألفاظ ذات الصلة	٢٠٢
ذكر (كم) التكثيرية مع الإهلاك	٢٠٦
ذكر القرى مع الإهلاك وليس الأمم	٢٠٧
سنة الله عز وجل في الإهلاك	٢٠٩
أسباب الإهلاك	٢١٨
وسائل الإهلاك	٢٢٧
حكم الإهلاك	٢٣٥
نماذج من القرى المهلكة في القرآن	٢٤٧

مفهوم الإهلاك

أولًا: المعنى اللغوي:

الهاء واللام والكاف: يدل على كسرٍ وسقوط. منه الهلاك: السقوط، ولذلك يقال للميت هلك[1]، وهلك يهلك هلكًا وهلكًا وهلاكًا: مات. ورجلٌ هالكٌ. وهلك الشيء: يهلك هلاكًا وهلوكًا ومهلكًا ومهلكًا وتهلكةً، والاسم الهلك، بالضم؛ وأهلكه غيره واستهلكه. وفي التنزيل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[الكهف: ٥٩].واستهلك المال: أنفقه وأنفده.وأهلك المال: باعه. والمهلكة والمهلكة: المفازة؛ لأنه يهلك فيها كثيرًا. والهلكون: الأرض الجدبة. والهلك والهلكات: السنون؛ لأنها مهلكةٌ. والهلاك: الجهد المهلك. والهلك: جيفة الشيء الهالك. والتهلكة: الهلاك. وفي التنزيل: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. والمهتلك: الذي ليس له همٌ إلا أن يتضيفه الناس. والهلاك: الصعاليك، وقيل: الهلاك المتجعون الذين قد ضلوا الطريق[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه البركتي فقال: « الهلاك أعم من الفناء وهو خروج الشيء عن الانتفاع المقصود به سواء بقي. أو لم يبق أصلًا بأن يصير معدومًا بذاته أو بأجزائه وهو الفناء، ويطلق أيضًا على الموت»[3]

وفي التوقيف: « الهلك: تداعي الشيء إلى أن يبطل ويفنى»[4]

وعرف ابن عاشور الإهلاك بأنه: الاستئصال والأخذ والإبادة[5].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ٦١.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٥٠٣، تاج العروس، المرتضي الزبيدي ٢٧/ ٣٩٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣/ ٣١٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٩١.

(٣) انظر: قواعد الفقه، البركتي ١/ ٥٥٢.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ١/ ٣٣٤.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣١، ٩/ ٢٠.

الإهلاك في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هلك) في القرآن الكريم (٦٥) مرة، يخص موضوع الإهلاك منها (٥٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٧	﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ [الحجر: ٤]
الفعل المضارع	١٤	﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾ [المرسلات: ١٦]
اسم الفاعل	٦	﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۝١٣١﴾ [الأنعام: ١٣١]
اسم المفعول	١	﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ۝٤٨﴾ [المؤمنون: ٤٨]

وجاء الإهلاك في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الموت، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ [الإسراء: ٥٨]. أي: مميتوها.

الثاني: الفساد، مثل قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [البلد: ٦]. أفسدت مالًا كثيرًا.

الثالث: العذاب، مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾ [الكهف: ٥٩]. أي: عذبناهم.

(١) ١ انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٣٧، ٧٣٨.
(٢) ٢ انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٨٦، ٨٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٦٣٩، ٦٤٠، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٥٤، ٤٥٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العذاب:

العذاب لغة:

العين والذال والباء أصل صحيح، وأصل العذاب الضرب[(١)]، والعذاب: النكال والعقوبة. ومنه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٧٦][(٢)].

العذاب اصطلاحًا:

كل مؤلم للنفس إذا كان جزاء على سوء[(٣)].

الصلة بين الإهلاك والعذاب:

أن العذاب من المعاني المقاربة للإهلاك فكلاهما قد يستعمل في العقاب والنكال وكل ما شق على النفس[(٤)]، كما أن العذاب وسيلة من وسائل الإهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾[طه: ١٣٤].

فدل على أن له سبحانه الإهلاك في الدنيا والاستئصال بالعذاب[(٥)]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[الحاقة: ٥].

يعني: صيحة العذاب[(٦)]. و﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[الذاريات: ٤٤].

هي العذاب الذي فيه هلاك[(٧)].

ويمكن القول بأن كل إهلاك فيه عذاب وليس في كل عذاب إهلاك.

قال الكفوي: «كل عذاب في القرآن فهو التعذيب إلا: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]. فإن المراد: الضرب»[(٨)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٥٩.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٥.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١/ ٢٣٩، وانظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٩.
(٤) يراجع: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٥٨٩.
(٥) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ١٧٤.
(٦) مختار الصحاح، الرازي، ١/ ١٨١.
(٧) درج الدرر، الجرجاني ١/ ١٧٤.
(٨) الكليات، للكفوي، ١/ ٥٩٧.

٢ الموت:

الموت لغة:

الميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء. والموت: ضد الحياة. يقال: مات يموت فهو ميتٌ وميتٌ. والميت: هو الذي فارق الحياة[(١)].

الموت اصطلاحًا:

مفارقة الروح للجسد[(٢)].

الصلة بين الإهلاك والموت:

أن الإهلاك والموت بينهما مقاربة فقد يستعمل أحدهما مكان الآخر في مواضع. فيقال هلك فلانٌ: بمعنى مات ومنه: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[الانفال: ٤٢]-﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾[النمل: ٤٩]. وأهلك الله الظالمين: جعلهم يهلكون أو يموتون، أبادهم ولم يترك لهم أثرًا، ومنه: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤][(٣)]. كما نجد أن من أسماء الموت: الهلاك [(٤)].

٣ الاستئصال:

الاستئصال لغة:

القطع من الأصل. واستأصلته قلعته بأصوله، ومنه قيل: استأصل الله تعالى الكفار أي: أهلكهم جميعًا، واستأصل الله شأفته، أي: قطع أصله أو أذهب أثره [(٥)].

الاستئصال اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي.

الصلة بين الإهلاك والاستئصال:

أن بينهما مقاربة؛ حيث إن الإهلاك والاستئصال قد يدلان على دلالة واحدة وهي الاقتلاع من الأصل. جاء في المصباح: «استأصلته: قلعته بأصوله، ومنه قيل: استأصل الله

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٨٣. الصحاح، الجوهري ١/ ٢٦٦ .
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ٣٩/ ٢٤٨.
(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٣/ ٢٣٥٨.
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ٣٩/ ٢٤٨.
(٥) المصباح المنير، الحموي ١/ ١٦. حاشيه الشهاب على أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٥٢.

تعالى الكفار أي: أهلكهم جميعًا »[1]. كما يستعمل الاستئصال مع الإهلاك ليبين أن هذا الإهلاك إنما هو فناءٌ تام، فيقال: « سأهلكه الإهلاك المستأصل »[2].

٤ التدمير:

التدمير لغة:

من دمر. والدمار: استئصال الهلاك.

قال تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾[الفرقان: ٣٦][3].

التدمير اصطلاحًا:

الإهلاك.

قال تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[النمل: ٥١][4].

الصلة بين الإهلاك والتدمير:

واضحة جلية وخاصة إذا قصد من الإهلاك الإبادة والاستئصال؛ لذلك استعمل القرآن الكريم المعنيين عند ذكر إهلاك الأمم الكافرة، قال تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦].

قال تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾[النمل: ٥١]﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأحقاف: ٢٥]: أي: تهلك وتحطم[5]. وقال تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [محمد: ١٠] أي: أهلك واستأصل[6].

٥ القصم:

القصم لغة:

من قصم، القصم: دق الشيء. وقصمه يقصمه قصمًا: أهلكه[7].

وقال الزجاج في قوله تعالى ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الانبياء: ١١]: ومعنى قصمنا: أهلكنا وأذهبنا »[8]

---

(١) المصباح المنير، الحموي ١/ ١٦.
(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٥٣٦.
(٣) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ٨/ ٣٩.
(٤) شمس العلوم، نشوان بن سعيد الحميرى، ٤/ ٢١٦٦.
(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٧٦٧.
(٦) المصدر السابق، ١/ ٧٦٧. بتصرف.
(٧) لسان العرب، ابن فارس، ١٢/ ٤٨٥. بتصرف.
(٨) معاني القرآن وإعرابه الزجاج ٣/ ٣٨٦.

القصم اصطلاحًا:

كسر الشيء حتى يتبين [(١)].

الصلة بين الاهلاك والقصم:

أن القصم قد يكون صفة من صفات الإهلاك؛ لأن في الإهلاك كسرًا مع الإبانة، وفيه الدق الشديد وفيه الإذهاب، ورأينا أنه قد يستعمل القصم بمعنى الإهلاك.

٦ الأخذ:

الأخذ لغة:

الهمزة والخاء والذال أصل واحد [(٢)]، وهو: حوز الشيء. وفي الأصل بمعنى القهر والغلبة، واشتهر في الإهلاك والاستئصال[(٣)]، وجاء بمعنى العذاب في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٢].

وقوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣][(٤)] وأخذه بذنبه: عاقبه، وفي التنزيل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾[الحج: ٤٨][(٥)] وأخذ الله الظالم: أهلكه[(٦)].

الأخذ اصطلاحًا:

هو الإهلاك والاستئصال[(٧)].

الصلة بين الإهلاك والأخذ:

من خلال التأمل في المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظين نجد أنهما قد يتواردان على معنى واحد، مثل: الهلاك، والاستئصال، و العذاب، والعقوبة، و الموت، والقتل. كما أن القرآن الكريم استعمل اللفظين للتعبير عن عقوبة القرى والأمم وإهلاكهما.

---

(١) شمس العلوم ٨/ ٥٥٢٠.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٨.
(٣) تاج العروس، المرتضي الزبيدي، ٩/ ٣٦٣ بتصرف.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.
(٥) المحكم، بن سيده، ٥/ ٢٣٢ بتصرف، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢.
(٦) إكمال الأعلام بتثليث الكلام، ابن مالك الاندلسي ١/ ٣٨بتصرف، المصباح المنير، الشهاب الفيومي، ١/ ٦.
(٧) تاج العروس، المرتضي الزبيدي ٩/ ٣٦٣ بتصرف.

ذكر (كم) التكثيرية مع الإهلاك

مما يلفت انتباهنا ونحن نستقرئ آيات الكتاب المبين التي تحدثت عن الإهلاك أن هناك عشرة مواضع[1] اقترنت فيها «كم» التكثيريه مع الإهلاك، وسنحاول في السطور الآتية استلهام الحكمة من وراء ذلك.

أولًا: بيان أن (كم) في هذه الآيات أفادت التكثير:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾[يس: ٣١].

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، يفيد التكثير[2].

وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص٣].

(كم) هي الخبرية الدالة على التكثير[3].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦].

وكم هنا تفيد الاستفهام عن العدد، وهي بمعنى كثير[4].

وقس على ذلك المواضع العشر تجد أن كم فيها أفادت التكثير.

ثانيًا: بيان الحكمة من هذا التكثير:

أولًا: الاعتبار بكثرة الإهلاك وكثرة المهلكين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[الانعام: ٦].

والاعتبار هنا لأنهم: أمروا باستقراء الديار وتأمل الآثار، وفيها كثرة[5] فقال ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم يعتبروا[6].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١].

والمعنى: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم، ألم يروا ذلك فيعتبروا[7].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [طه: ١٢٨].

أي: أفلم يبين لهم كثرة إهلاكنا القرون قبلهم فيعتبروا[8].

ثانيًا: الاعتبار بكثرة فنون العذاب والحوادث الخارقة في إهلاك الامم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[الانعام: ٦].

---

(١) يراجع: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ٧٣٧ .
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٣٧٥.
(٣) فتح البيان، القنوجي ١٢/ ١١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٠٦ .
(٤) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي ١٩/ ١١٨٦٢.
(٥) غرائب التفسير وعجائب التأويل، أبو القاسم برهان الدين الكرماني ١/ ٣٥٣.
(٦) تأويلات أهل السنة ٤/ ٢٢.
(٧) انظر: تفسير ابن عرفة، ٣/ ٣٤٥، فتح البيان، القنوجي ١١/ ٢٨٨.
(٨) التفسير الوسيط، للواحدي ٣/ ٢٢٦.

ونلحظ من كلام المفسرين أن كم هنا-التكثيريه- تفيد كثرة وسائل الإهلاك. فهنا استفهام إنكاري عن عدم رؤية القرون الكثيرة الذين أهلكتهم حوادث خارقة للعادة تدل على أنها مسلطة عليهم من الله عقابًا لهم [(١)].

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٢٦].

أي: كثيرًا أهلكنا بفنون العذاب قبل هؤلاء القريش، من أمم عاتية كعاد،وثمود وأمثالهم، هم أحسن منهم أمتعة ومنظرًا[(٢)].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا: أن الحكمة من ذكر كم التكثيرية مع الإهلاك هو الاعتبار بكثرة الإهلاك وكثرة المهلكين سواء في عدد القرى المهلكة أو عدد أهل تلك القرى، وكذلك الاعتبار بكثرة وسائل الإهلاك المستخدمة في إهلاك الأمم كالصيحة والحجارة من السماء والصاعقة وغيرها.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٧/ ١٣٦

(٢) انظر: مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، محمد بن عمر نووي الجاوي ٢/ ١٧

ذكر القرى مع الإهلاك وليس الأمم

لقد آثر القرآن الكريم ذكر (القرى) مع (الإهلاك) عن ذكر(الأمم)، وذلك في خمسة عشر موضعًا [(٣)].

ولفظ (القرية) في القرآن له دلالة غير المستعملة في عرفنا المعاصر. وتذكر المعاجم أن (قرى) يدل على جمع واجتماع، من ذلك «القرية»، سميت قرية لاجتماع الناس فيها [(٤)].

وعليه فالقرى في القرآن يقصد بها: «المنازل لجماعات من الناس ذوات البيوت المبنية، ويستعمل لفظ القرية مجازًا ليدل على سكانها» [(٥)].

ومن الحكم التي من أجلها ذكر القرى مع الإهلاك وليس الأمم:

١. أن العبرة مع ذكر القرى أظهر وذلك لبقاء آثارها وأطلالها وأخبارها أمام المارين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

(٣) يراجع: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ٧٣٧ .

(٤) انظر: مقاييس اللغة ٥/ ٧٨.

(٥) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٥٢ انظر: المفردات، للراغب، ص ٦٦٩ بتصرف.

يقول ابن عاشور: «والقرى: ... وخصت بالذكر؛ لأن العبرة بها أظهر لأنها إذا أهلكت بقيت آثارها وأطلالها ولم ينقطع خبرها من الأجيال الآتية»[(١)].

ويؤكد ذلك المعنى الأستاذ سيد قطب فيقول: «وحين تجول العين والقلب في مصارع القرون، وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب، عندئذ يدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها. وعندئذ يعي معنى الإنذار، والعبرة أمامه معروضة للأنظار»[(٢)].

والقرآن الكريم يظهر هذا المعنى صراحة في كثير من آياته:

فيقول الله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

أي: تمرون في ذهابكم ومجيئكم إلى الشام للتجارة على قراهم وآثارهم ومنازلهم المهلكة[(٣)].

٢. أن في ذكر القرى مع الإهلاك دون الأمم إشارة إلى شدة الإهلاك والمبالغة في الاستئصال.

ففي التحرير والتنوير: «وإنما علق الإهلاك بالقرى للإشارة إلى شدة الإهلاك بحيث يأتي على الأمة وأهلها وهو الإهلاك بالحوادث التي لا تستقر معها الديار، بخلاف إهلاك الأمة فقد يكون بطاعون ونحوه فلا يترك أثرًا في القرى[(٤)].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

يقول ابن عاشور: «وكنَى عن إهلاك الأقوام بإهلاك قراهم مبالغة في استئصالهم؛ لأنه إذا أهلكت القرية لم يبق أحد من أهلها»[(٥)].

٣. أن في ذكر القرى مع الإهلاك وليس الأمم إشارة إلى شدة غضب الله تعالى على أهلها الأولين.

حيث تجاوز غضبه الساكنين إلى نفس المساكن.

ويدل على ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص ٥٨].

وهو كناية عن حرمان تلك المساكن من الساكن. وتلك الكناية إشارة إلى شدة غضب الله تعالى على أهلها الأولين، بحيث تجاوز

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٥٢
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٦
(٣) المصدر السابق ١٩/ ١٠٣، ١٠٤
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٥٣، وانظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٤٢.
(٥) المصدر السابق ٢٦/ ٥٤ بتصرف.

غضبه الساكنين إلى نفس المساكن، فعاقبها بالحرمان من الساكن؛ لأن بهجة المساكن سكانها [(١)]. وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر، قال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين)، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي »[(٢)].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٥١.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٠٩٢ كتاب المغازي، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر.

سنة الله عز وجل في الإهلاك

أولًا: الإهلاك بأمر الله:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾[الأنعام: ١٣١-١٣٣].

في الآيات بيان أن الإهلاك لا يكون الا بأمر الله تعالى وحده، فقد نسب إهلاك القرى إلى الرب فبين سبحانه بأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم، كما أنه سبحانه علق مشيئة الإذهاب والإهلاك بأمره فقال: إن يشأ يذهبكم ثم يميتكم ويهلككم [(٣)].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦].

يقول ابن عاشور: «فكان وإذا أردنا أن نهلك قرية شريطة لحصول الإهلاك، أي: ذلك بمشيئة الله ولا مكره له، كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ١٩٢، الموسوعة القرآنية ٩/ ٤٦٥.

وقوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وقوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]»[١].

وهذا يعلمك أن من هلك فإنما هلك بإرادته وبأمره[٢].

ويقول صاحب الظلال: «فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة هلكت، فإن إرادة الله وأمره قد جعلت للحياة البشرية نواميس وسننًا لا تتبدل»[٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

أي: ولو كان المسيح إلهًا لقدر على دفع أمر الله إذا أتى بإهلاكه وإهلاك غيره[٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فهو التسليم المطلق بأن الإهلاك بأمر الله[٥].

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

أي: ولكل أمة أجلٌ ينزل بالذين كفروا فيها العذاب بأمر الله وحده[٦].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠].

أي: أمرنا بعذابهم وإهلاكهم[٧].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨].

أي: ولما جاء أمرنا بهلاك عاد[٨].

و﴿أمرنا﴾: عذابنا الذي أمرنا به، أو الإذن بالعذاب والأمر به[٩].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦] أي: فلما جاء أمرنا بإهلاكهم. والتقدير: يوم إذ جاء أمرنا[١٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢].

أي: جاء أمرنا إلي الملائكة بالعذاب والإهلاك[١١].

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ١٥/ ٥٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٣٢.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢١٧، ٢٢١٨ بتصرف.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٧٠ بتصرف.
(٥) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٧.
(٦) تفسير الشعراوي ١٠/ ٥٩٧٨ بتصرف.
(٧) التفسير البسيط ١١/ ٤١٤.
(٨) التفسير البسيط ١١/ ٤٥١.
(٩) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ٢١٢.
(١٠) انظر: تفسير الجلالين ص ٢٩٤، التحرير والتنوير ١٢/ ١١٤.
(١١) انظر: التفسير البسيط ١١/ ٥١٠.

وبالجملة: يتبين لنا أن الإهلاك بأمر الله وحده من خلال: ذكر القرآن الكريم ذلك صراحة: باستخدام لفظ ﴿أَمْرُنَا﴾ في آيات الإهلاك والأخذ والعذاب، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾[الحجر: ٦٦].

كذلك إسناد أمر الإهلاك وفعله إلى الله وحده في آيات منها:

قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَا﴾[الأنعام: ٦].

وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾[الأعراف: ٤].

وقوله تعالى: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾[إبراهيم: ١٣].

فالإهلاك كله بأمر الله وحده ومشيئته، والتعبير بنون العظمة بيان لعظمة الأخذ والآخذ.

ثانيًا: لا إهلاك إلا بعد إقامة الحجة بإرسال الرسل:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص ٥٩].

أي: ما كان الله ليهلك القرى الكافرة حتى يبعث في أعظمها رسولًا ينذرهم[(١)] بالعذاب حجة عليهم[(٢)].

والمعنى: ما صح وما استقام، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الإنذار، بل كانت سنته عز وجل التي لا تتخلف ودستوره الذي لا يتغير ألا يهلكها حتى يبعث في أصلها وحاضرتها التي ترتجع تلك القرى إليها رسولًا، وإنما أهلكهم بعد إلزامهم الحجة بإرسال الرسول كيلا يقولوا: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾[طه: ١٣٤]. وتحقيقًا لوعده الذي لا يتخلف: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥].[(٣)]

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

أي: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسلا تنبههم على حجج الله عليهم[(٤)].

فيبين سبحانه أن من سننه في إهلاك الأمم أنه لا إهلاك إلا بعد إقامة الحجة بإرسال الرسل[(٥)].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ

(١) التفسير البسيط ١٧/ ٤٣٠.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٥٩٠.
(٣) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٧٩٣، ١٧٩٤ بتصرف.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٢/ ١٢٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٤١ بتصرف.

مِن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤].

أي: إنما أرسلناك قطعًا لعذرهم وإلزامًا للحجة عليهم [(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩] أي: وما أهلكنا من قرية إلا ولها رسلًا ينذرونهم بالعذاب أنه نازل بهم، وإنذارنا ذكرى [(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٩].

قال الواحدي: « وكلًا ضربنا له الأمثال أي: الأشباه في إقامة الحجة عليهم، فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار [(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾[القصص ٤٧].

فبين سبحانه أن حكمة إرسال الرسل هي قطع حجة البشر عن خالقهم [(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فذكر سبحانه أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله ولا يأخذهم قبل إقامة الحجة عليهم [(٥)].

ثالثًا: الإهلاك له أجل مقدر:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ يعني ميقاتا وأجلا حين بلغوه جاءهم العذاب فأهلكناهم به، [(٦)] وجعلنا لإهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه [(٧)].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤-٥].

أي: لها أجل مؤقت ومدة معروفة، لا نهلكهم حتى يبلغوها، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك [(٨)]، وفيه بيان أن هلاك الأمم الكافرة وفق أجل معلوم له لا تتجاوزه، فإنما هي سنة الله تمضي في طريقها المعلوم [(٩)].

---

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٨٠، الكشف والبيان ٧/ ٢٥٣.

(٢) انظر: التفسير البسيط ١٧/ ١٣٦. تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٢٨١ الكشف والبيان ٧/ ١٨١.

(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٠٠.

(٤) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٢/ ٢٨٠ بتصرف.

(٥) فتح البيان ٧/ ٣٦٧.

(٦) جامع البيان، الطبري١٨/ ٥٣.

(٧) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٣٠. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٨.

(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٦٥، الكشف والبيان ٥/ ٣٣١، التحرير والتنوير ١٤/ ١٤.

(٩) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٦٦، في ظلال القرآن ٤/ ٢١٢٦ بتصرف. التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٥٢١

قال تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

أي: لكل أمة تهلك موعدًا وأجلًا[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

أي: موعد عقابهم الصبح.

قال عامة المفسرين: لما قالوا للوط: إن موعدهم الصبح، قال: أريد أعجل من ذلك، بل لساعة يا جبريل، فقال له: أليس الصبح بقريب[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[الحجر: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود: ٦٥].

يعني: تمتعوا ثلاثة أيامٍ ثم يأتيكم العذاب[(٣)].

رابعًا: لا يقبل الإيمان حين وقوع الإهلاك:

قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَّاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص ٣].

أي: نادوا ربهم بالاستغاثة حين لم ينفعهم ذلك[(٤)]. فليس الوقت وقت فرار من العقاب، ولا وقت هرب ونجاة من العذاب[(٥)].

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩٠ -٩١].

معناه: الآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها أو: الآن آمنت[(٦)]. والاستفهام للتوبيخ على تأخره وإيمانه حيث لا ينفع[(٧)].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

فأخبر أن إيمانهم لا ينفعهم عند معاينتهم العذاب؛[(٨)] وأن سنت الله التي قد خلت في عباده، ألا يقبل الإيمان عند رؤية بأس الله ومعاينة عذابه[(٩)].

٥/ ٥٢٢، تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٦٤٥.

(١) تأويلات أهل السنة ٧/ ١٨٩.

(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ٢٣٠، ٢٣١ بتصرف.

(٣) انظر: التفسير البسيط ١١/ ٥٠٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٣٠.

(٤) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٥١٨.

(٥) انظر: تفسير ابن جزي ٢/ ٢٠١، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٧٧.

(٦) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٤٧٥.

(٧) انظر: التفسير البسيط ١١/ ٣٠٣.

(٨) انظر: نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس البسيلي التونسي ٢/ ٢٢٥.

(٩) انظر: تأويلات أهل السنة ٦/ ٥١، ٨/ ٥٩٠.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥].

أي: إنهم لا يؤمنون إلا عند معاينتهم بأس الله، والإيمان في ذلك الوقت لا يقبل ولا ينفعهم[(١)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥٠ - ٥١].

يخبر عنهم أنهم إذا نزل بهم العذاب يؤمنون، ولا ينفعهم الإيمان في ذلك الوقت[(٢)].

وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥]أي: إنهم يحسون بظلمهم بعد أن فات وقت الإيمان[(٣)].

مسألة مهمة تابعة لهذا المطلب: وهي هل استثنى الله تعالى قوم سيدنا يونس عليه السلام من هذه السنه الكونية فقبل الإيمان منهم حين وقوع الإهلاك؟

وذلك في قوله تعالي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٦-٩٨].

للمفسريين فيها ثلاثة أقوال:

الأول: أن الله عرف الصدق منهم فرفع العذاب عنهم ولم يقبله من غيرهم، أي: أنهم استثناء من سنة الله[(٤)].

الثاني: أنهم آمنوا قبل وقوع العذاب وأن سنة الله لم تتعطل[(٥)].

الثالث: توقفوا فقالوا: إنه لا يدرى هل آمنوا قبل معاينة العذاب أم بعده، ثم وجهوا كلا الرأيين[(٦)].

وأكتفي هنا باختصار قول الإمام ابن تيمية في هذه المسألة، وهو ما أراه الصواب - والله أعلم- حيث قال: « إنهم رأوا دليل

(١) المصدر السابق ٩/ ٥٧، تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٧٧٢ بتصرف، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٨٧.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة ٧/ ١١٣.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٦٩٥.
(٤) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/ ٢٧٨٦ بتصرف.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٢٥٠، جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٠٥، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٨، تفسير السمرقندي ٢/ ١٣٣، الكشف والبيان٥/ ١٥١، درج الدرر في تفسير الآي والسور ٣/ ٩٥٨.
(٦) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٥١، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٨٦، التفسير البسيط ١١/ ٣٢٢، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٧١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٣٠٣.

العذاب؛ لأن التوبة بعد معاينته لا تقبل، ولا فرق في ذلك بين أمةٍ وأمة، بل هذا حكم عام. وهم ليسوا مخصوصين بقبول التوبة، بل كل من تاب كما تابوا قبل الله توبته. وهو الصواب؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥].

فأخبر سبحانه أن هذه سنته، وسنته لن تجد لها تبديلًا ولن تجد لها تحويلًا »[١].

خامسًا: عدم رجوع المهلكين للدنيا للاستدراك:

قال تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

أي: حرام على قرية مهلكة رجوعهم إلى الدنيا [٢]، أو: فحرام عليهم الرجوع الى الدنيا للتوبة.وهو من التحريم بمعنى المنع كونًا وقدرًا [٣] والمعنى: وممتنع على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا بعد إهلاكهم[٤].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[يس: ٣٢].

أي: لا يعودون إلى الدنيا أبدًا [٥]، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم من قولهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[الأنعام: ٢٩].

وهم القائلون بالدور من الدهرية وغيرهم[٦].

وقال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩-٥٠].

يعني: يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا إذا ماتوا[٧].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

ومعلوم أن هذا في كل كافر ومشرك ينادي عند موته وهلاكه، ويسأل ربه الرجوع والعود إلى الدنيا ليؤمن [٨]، إلا أن البرزخ

---

(١) انظر: التفسير البسيط للواحدي ١١/ ٣١٩، حاشيه الشهاب على أنوار التنزيل، البيضاوي ٧/ ٢٨٦، جامع البيان في تفسير القرآن، الإيجي ٢/ ١٥٧.

(٢) للتوسع: انظر: جامع المسائل، ابن تيمية، المجموعة الثامنة ص ٣٦٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٤٠ بتصرف، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٦٠.

(٤) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٣٠٦.

(٥) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٦/ ١١٥٥، جامع البيان، الطبري١٨/ ٥٢٥.

(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٥٧٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٨٥.

(٧) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٣٦٢.

(٨) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٩٠،

حاجز بين الميت ورجوعه للدنيا[1].

سادسًا: لا يهلك الله القرى وأهلها مصلحون:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]

وهذه السنة الكونية في الإهلاك تتأتى على أوجه عند المفسرين:

الأول: ما كان ربك ليهلكهم بذنب وأهلها موحدون[2]، مؤمنون[3].

الثاني: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا، فإن الله يعفو عنهم[4].

الثالث: أي: أنه لا يهلكها بظلمٍ قليلٍ من أهلها، إذا كان الجمهور الأكبر منهم مصلحين[5].

الرابع: أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك إذا تعاطوا الإنصاف فيما بينهم، ولم يظلم بعضهم بعضًا.[6]

فلا يهلكهم إذا تناصفوا وإن كانوا مشركين[7]، وهذا الوجه لمن فسر ﴿بِظُلْمٍ﴾ في الآية بأنه الشرك[8]. ولهذا يقال في الأثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم[9].

الخامس: أي: لو كانوا مصلحين لما نزل بهم العذاب، لكنهم لم يصلحوا فنزل بهم العذاب.[10]، أي: يهلكها بذنوب أهلها وفجورهم وطغيانهم[11]، والمعنى: أنه ما كان ربك ليهلك القرى ظالمًا لها، وأهلها مصلحون يعدلون فيما بينهم، ولا يشركون بالله ولا يكون منهم ظلم[12] وهم مصلحون في أعمالهم، غير مسيئين[13]، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله وتماديهم في غيهم، وتكذيبهم رسلهم، وركوبهم السيئات[14].

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٩.

(١) انظر: تأويلات أهل السنة ٨/ ٥٩٨.
وانظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٤١٥.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٦٧.

(٣) انظر: درج الدرر ٣/ ٩٨٧.

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٠٨، تفسير الجلالين ص ٣٠٢.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩٢.

(٦) انظر: درج الدرر ٣/ ٩٨٧، تفسير المنار ١٢/ ١٥٩.

(٧) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٦٧.

(٨) انظر: زاد المسير ٢/ ٤٠٨.

(٩) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧٧٣.

(١٠) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤١٠ بتصرف.

(١١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ٥٨٧

(١٢) انظر: أوضح التفاسير ١/ ٢٧٨.

(١٣) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧٧٣.

(١٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٦٧.

ومن خلال ماسبق من عرض الأوجه الخمسه يمكننا أن نجمع بينها فنقول:

ما كان من شأنه ولا من سنته سبحانه، وما صح ولا استقام عقلًا أن يهلك الله أهل هذه القرى بظلم وهم مصلحون، يتعاطون الحق فيما بينهم ويؤمنون بخالقهم، وفيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهم مقيمون على الطاعة مستمسكون بها مصلحون في أعمالهم وسياستهم [(١)]، ثم إن شرط أن توصف الأمم بأنهم مصلحون هو القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدل عليه أن الآية التي سبقت هذه الآيه الكريمة التي نحن بصددها هي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦] أي: قد كان منهم أولو بقية، لكنهم لم ينهوا عن الفساد في الأرض، فأهلكوا جميعًا إلا قليلًا ممن أنجينا منهم، وهؤلاء القليل قد نهوا عن الفساد في الأرض، فنجوا [(٢)].

سابعًا: الإهلاك يقع فجأة:

قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾[الأعراف: ٤].

﴿بَيَاتًا﴾: أي: وقت بيات، أو إيقاعًا مفاجئًا [(٣)].

وخص هذان الوقتان؛ لأنهما وقتا الغفلة فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع [(٤)].

والمعنى: وكثير من القرى أراد الله إهلاك أهلها، فجاءهم عذابه ليلًا وهم نائمون، أو نهارًا وهم مستريحون وقت القيلولة غافلون عن مجي العذاب [(٥)].

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٧ – ٩٩].

أي: أجهلوا سنة الله في خلقه فأمنوا استدراجه إياهم وأخذه لهم فجأةً من حيث لا يحتسبون؟ [(٦)]. وكما قال تعالى في بني النضير ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢].

وقال تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥].

قال مجاهد: (قبلًا): فجأة [(٧)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٣٠.
(٢) انظر: تفسير المنار ٢/ ١١، ٢٠٩/ ٢٢٢.
(٣) انظر: تأويلات أهل السنة ٦/ ١٩٦، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ٢٦٦.
(٤) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن ١/ ٢٢٩.
(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٥٥.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٣٧٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٩٩.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٧٨.

أسباب الإهلاك

أولًا: الكفر وتكذيب الرسل:

أولًا: ما أخبر به تعالى من أن الكفر سببٌ من أسباب الإهلاك.

١. ما جاء في القرآن مجملًا لبيان أن علة الإهلاك هي الكفر.

قال تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُم قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٩].

فجعل الله تعالى علة الإهلاك بالغرق هنا هي الكفر، فقال تعالى: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾[(١)]، أي بسبب كفركم[(٢)].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي: مثل ما دمرت به القرون الأولى بسبب كفرهم[(٣)].

٢. ما جاء تعقيبًا على إهلاك عاد.

قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ [هود: ٦٠].

فهذا تنبيه للكفار أن عادًا كفروا ربهم، فأهلكهم الله، فاحذروا كيلا يصيبكم بكفركم ما أصابهم بكفرهم[(٤)].

٣. ما جاء تعقيبًا على إهلاك ثمود.

قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨].

أي: هلاكًا لثمود بسبب كفرهم بربهم[(٥)].

٤. ما جاء تعقيبًا على إهلاك سبأ.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧].

أي: عاقبناهم بكفرهم[(٦)].

قال الحسن: «مثلًا بمثلٍ»[(٧)].

ثانيًا: ما أخبر به تعالى من أن تكذيب الرسل سببٌ من أسباب الإهلاك.

١. ما جاء في القرآن مجملًا لبيان أن علة الإهلاك هي تكذيب الرسل.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص١٢ -١٥].

فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل[(٨)].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا

(١) تفسير مجاهد ص ٤٤٨.
(٢) التفسير البسيط ١٣/ ٤٠١، الوجيز للواحدي ص ٦٤١.
(٣) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٧٨٣.
(٤) جامع البيان، الطبري٢٢/ ١٦٣.
(٥) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٥٧.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٨١، تأويلات أهل السنة ٦/ ١٥٢.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠٨.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٨٨ بتصرف.
وانظر جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٥٨.

﴿وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

أي: ولكن كذبوا الرسل فعاقبناهم، فبسبب هذا التكذيب أخذناهم[(١)].

٢. ما نص عليه القران الكريم من أن تكذيب الرسل كان سببًا في هلاك أممهم.

أ- سيدنا نوح عليه السلام: قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ٦٤] وفي قوله ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ إعلام بعلة الغرق وهو التكذيب[(٢)].

ب- سيدنا هود عليه السلام: قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

أي: فأهلكنا عادًا بتكذيبهم رسولنا، وإن في إهلاكنا عادًا لعبرة وموعظة[(٣)].

جـ-سيدنا شعيب عليه السلام: قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

أي: فلما أقاموا على تكذيب نبيهم شعيب أخذهم عذاب الظلة[(٤)].

د- سيدنا موسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨].

المعنى: فكذب فرعون وملؤه موسى وهارون، فكانوا ممن أهلكهم الله كما أهلك من قبلهم بتكذيبهم[(٥)].

٣. ما جاء في القرآن الكريم يشير إلى أن الكفر وتكذيب الرسل كانا سببا الإهلاك.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

ولقد كان الكفر وعدم الايمان تابعين للتكذيب؛ لأن الله لم يهلك قومًا بأول التكذيب، ولكن أمهلهم فإذا علم منهم أنهم لا يؤمنون أهلكهم[(٦)].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

والمعنى: ولقد استهزأ الكفار السابقون، برسل بعثناهم من قبلك إليهم، فأمهلت أولئك المستهزئين، ثم أخذتهم بعقابي[(٧)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٨. وانظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٦٠.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٢٩٠٨، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٧٧ بتصرف.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٨٥.
(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٦٢٥.
(٥) انظر: المصدر السابق ١٩/ ٣٦، فتح البيان ٩/ ١٢٣.
(٦) تأويلات أهل السنة ٧/ ٤٢٧ بتصرف.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٤٤٥-٤٤٦.

ثانيًا: الفسق والذنوب والمعاصي:

أولًا: الفسق:

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[الأحقاف: ٣٥].

أي: لا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة[(١)].

قال الزجاج: «وما في الرجاء لرحمة الله شيء أقوى من هذه الآية»[(٢)].

ثانيًا: الذنوب والمعاصي:

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران: ١١].

أي: جازاهم بذنوبهم، وعاقبهم عليها[(٣)].

وفيه إشعار بأن صريح المؤاخذة مناط بالذنوب[(٤)].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[المائدة: ٤٩]. وذكر بعض الذنوب لأن مجازاتهم ببعض الذنوب كافية في إهلاكهم وتدميرهم[(٥)].

وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

أي: أهلكهم الله بسبب ذنوبهم[(٦)].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤].

أي: فأطبق الله عليهم العذاب، أو أهلكهم جميعًا بسبب ذنبهم[(٧)]، وحقًا لقد كان ذلك لذلك[(٨)].

ويجمل ما سبق صاحب الظلال فيقول: «إن هذا النص في القرآن: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ وما يماثله، إنما يقرر سنة وحقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم وأن هذه سنة ماضية تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب وحين تقوم حياتها على الذنوب»[(٩)].

ثالثًا: الظلم والإفساد:

أولًا: تقرير القرآن الكريم لحقيقة أن الظلم من أسباب الإهلاك.

قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٢٢.

(١) فتح البيان ١٣/ ٤٣.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٤٦.

(٢) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٤/ ٤٤٨، معالم التفسير، البغوي٧/ ٢٧٣، الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٢٢.

(٣) أوضح التفاسير ١/ ٥٩.

(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٢٦٠، تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي ص ٥٢٢.

(٥) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٦٠١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٧٤.

(٦) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/ ٢٤٣٩، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٢٠٢.

(٧) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١٠/ ١٩٢٨، ١٩٢٩ بتصرف.

(٨) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٧٢.

(٩) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٣٨ بتصرف.

نبه على سبب الاستئصال بذكر الوصف الذي هو الظلم[1].

ويقال: هذا تعليم ليحمدوه سبحانه على إهلاك الظالمين[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧].

وفي ذكر الظلم تنبيه على علة الإهلاك. والمعنى: هل يهلك إلا أنتم لظلمكم؟[3].

وقال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

الرجز: العذاب وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ الباء سببية، أي: بسبب كونهم ظالمين[4].

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤].

قال الرازي: «والمراد منه: أن الله تعالى إنما أهلكهم بسبب ظلمهم، وأقول في هذا المقام: اللهم أهلك الظالمين وطهر وجه الأرض منهم»[5].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [يونس: ١٣]. أي: أن الهلاك كان عند ظلمهم وبسببه[6].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وجملة ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ في موضع الحال، وفائدة هذه الحال الإشعار بأن عقابهم كان بسبب ظلمهم[7].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

أي: لنهلكن من تناهى فى الظلم من المشركين[8].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف: ٥٩].

أي: وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لما ظلموا. أي: عند ظلمهم[9].

كما أخبر الله تعالى بأن إهلاك قوم سيدنا

(١) انظر: البحر المحيط ٤/ ٥١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٢٧.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٤٤٨.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٥١٧.
(٤) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ٢٧٠.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٩٦.
(٦) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٥٢٩، فتح البيان ٦/ ٢٧.
(٧) التفسير الوسيط لطنطاوي ٧/ ٢٧٢.
(٨) انظر: تفسير المراغي ١٣/ ١٣٨.
(٩) انظر: جامع البيان، الطبري١٨/ ٥٣، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٥٥٣.

نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام كان بسبب ظلمهم، كما سيتبين لنا ذلك من الآيات التالية:

١. قوم سيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ – ٥٢].

أي: وأهلك كفار قوم نوح؛ لأنهم كانوا أشد منهما ظلمًا للحق ولأنفسهم[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

وصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك[(٢)].

٢. قوم سيدنا هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

فيه بيان بأن إهلاكهم كان بسبب ظلمهم[(٣)].

٣. قوم سيدنا صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

حكم عليهم بأنهم أخذتهم الصيحة بسبب ظلمهم[(٤)].

وقال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٤٩-٥٢].

أي: خربة بما ظلموا[(٥)].

وفيه إشارة إلى أن للظلم أثرا في خراب بلادهم[(٦)].

٤. قوم سيدنا لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك أي: إهلاكنا لهم بهذا السبب[(٧)].

٥. قوم سيدنا شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٩٤ – ٩٥].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٩/ ١١٦٤.

(٢) فتح البيان ٦/ ١٨٩.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥٠٧٥، روح البيان، إسماعيل حقي الإستانبولي ٦/ ٨٤

(٤) نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس البسيلي التونسي ٢/ ٢٣٨.

(٥) تأويلات أهل السنة ٨/ ١٢٣.

(٦) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٨٦.

(٧) انظر: فتح البيان ١٠/ ١٨٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٥١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٣٨، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٣٣، التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٤٢، إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش ٧/ ٤٢٨.

وأظهر في موضع الإضمار لبيان أن ما أنزل بهم من العذاب سببه الظلم[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨ – ٧٩].

المعنى: وما كان أصحاب الأيكة إلا ظالمين، والانتقام هنا معناه: إنزال العقوبة مماثلة لما ارتكبوه[2].

٦. قوم سيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص ٤٠].

﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنهم يعذبون بظلمهم[3].

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وهي نار أخذتهم بسبب ظلمهم[4].

ثانيًا: إخبار القرآن الكريم بأن الإفساد من أسباب الإهلاك.

١. الإفساد كان من أسباب إهلاك قوم سيدنا شعيب عليه السلام.

قال الله تعالى على لسان سيدنا شعيب يحذر قومه بعد أن نهاهم عن الإفساد: ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ليعرفوا أن عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الهلاك والخزي والنكال[5].

٢. الإفساد كان من أسباب إهلاك قوم عاد وثمود وفرعون.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ – ١٤].

والمعنى: فأنزل بهم ربك عذابه، ونقمته، بما أفسدوا في البلاد، وطغوا فيها[6].

٣. الإفساد كان من أسباب إهلاك قوم سيدنا لوط عليه السلام.

قال الله تعالى على لسان سيدنا لوط بعد أن نصح قومه فلم يستجيبوا لنصحه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

أي: بإنزال عذابك عليهم بسبب إفسادهم، فانتصر الله له بإهلاكهم[7].

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧٤٥.
(٢) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية ٦/ ٣٩١٩، جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٢٣، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨/ ٤١٠٤.
(٣) تأويلات أهل السنة ٨/ ١٧٠.
(٤) أوضح التفاسير ١/ ١١٩.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥ بتصرف. التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٦٨.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري، ط هجر ٢٤/ ٣٧٣.
(٧) انظر: فتح البيان ١٠/ ١٨٧، التيسير في

٤. الإفساد كان من أسباب إهلاك قوم سيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

والمعنى: إن جميع الأمم الماضية كانت عاقبة إفسادها أن أهلكهم الله[١].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

قال السعدي: «أسوأ عاقبة دمرهم الله وغرقهم في البحر وأخزاهم»[٢].

٥. الإفساد كان من أسباب إهلاك أفراد كفرعون وقارون.

قال تعالى لفرعون مبينًا له أن سبب هلاكه الفساد: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وقال لقارون: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٧٧].

يعني: أنه يعاقبهم[٣].

رابعًا: الصد عن سبيل الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]

صدهم عن سبيل الله كان بكتمان نعت محمد ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي: هلكوا، والضلال: الهلاك[٤].

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

المراد بالنهي: صدهم وتنفيرهم الناس عن الإسلام[٥].

وبين سبحانه أنهم ما يهلكون بصدهم عن سبيل الله، إلا أنفسهم لا غيرها[٦].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وصدف بمعنى صد، فهو حكم بالعقوبة الرادعة، لأولئك الذين كذبوا بآيات الله وصدوا عنها[٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾

أحاديث التفسير ٦/ ٩٢.

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ٦٥، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٨٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٢

(٣) فتح البيان ١٠/ ١٥٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٥٠٤.

(٥) انظر: درج الدرر ٢/ ٧٠٩.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٠٨، تفسير القاسمي ٤/ ٣٣٧.

(٧) انظر: التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٣٥٢، تفسير الإيجي ١/ ٥٩٥.

[الأعراف: ٨٦].

وهذه الآية تحذير من سيدنا شعيب لقومه من عاقبة صدهم عن سبيل الله [(١)]. الي أن جاء ما هددهم به عقوبة على صدهم، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾[الأعراف: ٩١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١٩ - ٢٠]. أي: هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله لم يكونوا ناجين من عذاب الله في الدنيا [(٢)].

ومن صور الصد عن سبيل الله التي كانت من أسباب الإهلاك، محاولة الصادين إخراج رسلهم عليهم السلام والذين آمنوا معهم من أرضهم أو توعدهم بذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[الأعراف: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢ - ٨٣].

وقال تعالى ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: ٧٦ - ٧٧].

أي: لو أخرجوك لاستأصلناهم كسنتنا فيمن قبلهم [(٣)].

خامسًا: الإسراف وبطر النعمة:

١. الإسراف.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

وأهلكنا الذين أسرفوا بعذاب الاستئصال [(٤)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

أي: بل إنكم قوم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، لذلك جاء العقاب الإلهي فدخل فيه الكبير والصغير [(٥)].

وقال تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٩
(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ١٧٨
(٣) انظر: التفسير البسيط ١٣/ ٤٢٤.
(٤) انظر: أوضح التفاسير ١/ ٣٨٩، وانظر: التفسير الحديث ٥/ ٢٥٦، الهداية الى بلوغ النهاية ٧/ ٤٧٣٣.
(٥) انظر: التفسير المنير الزحيلي ٨/ ٢٨٣، التيسير في أحاديث التفسير ٤/ ٤٥١.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣ - ٣٤].

ووضع الظاهر موضع ضميرهم في قوله ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ذمًا لهم بالإسراف وإشارة إلى علة الحكم [(١)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

أي: قال صالح لقومه: لا تطيعوا أمر من ظهر لكم منه الإسراف فتهلكوا...إلى أن قال سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٨] أي: فأهلكوا [(٢)].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

ثم جاءهم عاقبة إسرافهم بقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً﴾، أي: فأهلكناهم [(٣)].

٢. بطر النعمة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

أي: فرحوا بما أعطوا من الصحة بدل المرض، ومن الغنى بدل الفقر، فرحوا بهذا فرح أشرٍ وبطرٍ، أهلكهم الله [(٤)].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

أي: أبطرتهم النعمة وأطغتهم الكثرة فأهلكناهم [(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

أي: جحد أهل هذه القرية نعم الله عليهم فعاقبهم الله [(٦)].

والأنعم جمع نعمة، وهو جمع قلة، وذلك أنه قصد التنبيه على أن كفران النعم القليلة أوجب العذاب، فكفران الكثيرة أولى بإيجابه [(٧)].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٩/ ١١٠٠، وانظر: تفسير المراغي ٢٧/ ٤.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة ٨/ ٧٨- ٧٩.
(٣) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، الشيخ علوان ٢/ ٢٠١، صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٨- ٩.
(٤) انظر: العذب النمير ١/ ٢٥٨، فتح البيان ٤/ ١٤١- ١٤٢، معالم التفسير، البغوي ٢/ ١٢٤.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٢٩٠٥.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٦٨٨، وانظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨/ ٤٢٨٤.
(٧) انظر: البحر المحيط ٦/ ٦٠٣.

﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص ٥٨].

وأشار هنا إلى سبب الإهلاك بقوله: ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وقع منها البطر في زمان عيشها الرخي الواسع، فلما بطروا معيشتهم أهلكناهم[(١)].

وقال تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[سبأ: ١٩].

أي: إنهم سئموا الراحة وبطروا النعمة، وكرهوا ما كانوا فيه من الخصب والسعة، فأرسل الله عليهم سيل العرم، ومزقهم كل ممزق[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢].

أي: أهلك الله جنتيه، وهذا جزاء المتبطر المغرور وتلك عاقبة البطر والكبر[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧ – ٢٠].

أي: أهلك الله جنتهم بسبب بطر النعمة والاغترار بالقوة[(٤)].

(١) نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٣٢٧.
(٢) انظر: التفسير البسيط ١٨/ ٣٥١، جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٨٩، في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٠٢.
(٣) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٧٠، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٨٧١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ٨١.

وسائل الإهلاك

أولًا: المعجزات الخارقة:

١. الصيحة.

أهلك الله تعالى بها أربعة من الأمم.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ [العنكبوت: ٤٠] يريد: عادًا وثمود ومدين[(٥)]، وأصحاب القرية.

❁ قوم سيدنا صالح عليه السلام.

قال الله تعالى في نهاية قصتهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

أي: أن ثمود قوم نبي الله صالح أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم[(٦)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

❁ قوم سيدنا لوط عليه السلام.

قال الله تعالى تعقيبًا على إهلاك قوم لوط عليه السلام: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]. أي: أهلكوا بالصيحة[(٧)].

❁ قوم سيدنا شعيب عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ

(٥) انظر: التفسير البسيط ١٧/ ٥٢٥ بتصرف، وانظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٨٥٨ بتصرف.
(٦) التفسير البسيط ١١/ ٤٦٤ بتصرف.
(٧) تأويلات أهل السنة ٦/ ٤٥٣.

﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤].

أي: أهلكوا بصيحة جبريل[(١)].

❁ أصحاب القرية.

قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

أي: إن كانت إلا صيحة واحدة من جبريل فإذا هم موتى مثل النار إذا طفئت لا يسمع لها صوت[(٢)].

٢. الحجارة من السماء.

أهلك الله تعالى بها قومين: قوم سيدنا لوط عليه السلام، وأصحاب الفيل.

❁ قوم سيدنا لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

أي: منضود بعضه فوق بعض في السماء[(٣)].

وقال تعالى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

يريد: قوم لوط أهلكناهم بالريح العاصفة التي تحمل الحصباء، وهي صغار الحصى[(٤)].

❁ أصحاب الفيل.

قال تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤].

أي: فجاءت الطير ورمتهم بالأحجار[(٥)].

٣. عذاب الظلة.

وهو عذاب من السماء كان من جملة ما أهلك الله به قوم سيدنا شعيب، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] والظلة: سحابة أظلتهم، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من حر ذلك اليوم ثم أطبقت عليهم[(٦)].

ثانيًا: الآيات الكونية:

١. الصاعقة.

هي صوت فيه نار لا تأتي على شيء إلا أحرقته[(٧)].

وأهلك الله تعالى بها قوم صالح عليه السلام، وقوم هود عليه السلام، ومن شرط رؤية الله جهرة حتى يؤمن من قوم موسى عليه السلام.

❁ قوم سيدنا صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ

(١) تأويلات أهل السنة ٦/ ١٧٧.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٥٧٧.
(٣) التفسير البسيط ١١/ ٥١٥.
(٤) انظر: التفسير البسيط ١٧/ ٥٢٥ بتصرف، وانظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٨٥٨ بتصرف.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٢٨٥.
(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه الزجاج ٤/ ٩٨.
(٧) انظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر ١/ ١١٦.

﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧].

أي: فأخذتهم واستأصلتهم الصاعقة[(١)].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

والطاغية: هي الصاعقة نزلت عليهم فأهلكتهم[(٢)].

❁ قوم سيدنا هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]

أي: صاعقة تصعقهم وتهلكهم كصاعقة عاد قوم هود، وثمود قوم صالح[(٣)].

❁ مَنْ شرط رؤية الله جهرة حتى يؤمن من قوم سيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة: ٥٥].

وهي نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعًا[(٤)].

٢. الرجفة (الزلزلة).

الرجفة: الزلزلة الشديدة، والهزة العظيمة[(٥)].

❁ قوم سيدنا ثمود عليه السلام.

قال تعالى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والرجفة هي الزلزلة، ولا منافاة بين تسميتها صيحةً وتسميتها رجفةً؛ لأن المَلَك يصيح بهم من فوقهم، فإذا صاح بهم رجفت بهم الأرض وارتعدت، ففارقت أرواحهم أبدانهم[(٦)].

❁ قوم سيدنا شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].

أي: فاستحقوا الإهلاك فأخذتهم الرجفة وهي الزلزلة الشديدة المهلكة[(٧)].

❁ السبعون من قوم سيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أي: فلما أخذتهم الزلزلة الشديدة، وقيل: إنهم زلزلوا حتى ماتوا يومًا وليلة[(٨)].

---

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٦٩٣.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ١١٦.
(٣) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٦٨٨ بتصرف.
(٤) التفسير البسيط ٢/ ٥٤١.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه الزجاج ٢/ ٣٥١، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ١٩٣.
(٦) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٥١٩.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٩.
(٨) انظر: فتح البيان ٥/ ٣٠.

٣. الغرق.

وقد أهلك الله تعالى به أمتين: أمة سيدنا نوح عليه السلام، وأهلك فرعون وقومه.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]. يريد: قوم نوح وفرعون[(١)].

وتفصيل ذلك:

❁ قوم سيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

أي: غرقوا ولم يبق منهم ديار[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢٠].

❁ فرعون وقومه.

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

فأغرقنا فرعون ومن معه من الجنود، فلم نبق منهم أحدًا[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ [القصص ٤٠].

أي: فألقيناهم جميعهم في البحر، فغرقناهم فيه[(٤)].

٤. الريح.

أهلك الله بها عادًا، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦].

والصرصر: التي لها صوت شديد، أو ذات برد شديد[(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١].

و﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾، هي التي لا تلقح شجرًا ولا تثير سحابًا، وهي عذاب على من أرسلت عليه[(٦)].

وقال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ [فصلت: ١٦].

٥. الخسف.

أهلك الله به قارون.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

---

(١) انظر: التفسير البسيط ١٧/ ٥٢٥ بتصرف.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧١١.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٨١٥، تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٥٥٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ط هجر ١٨/ ٢٥٦.
(٥) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية ٤/ ٢٤٢٤، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٣٥.
(٦) انظر:، تفسير مجاهد ٢/ ٦٢، تفسير مقاتل١٢٧، جامع البيان ٢٧/ ٤، فتح القدير ٨/ ٩٠، التفسير البسيط ٢٠/ ٤٥٥.

فغارت به، وغيبته في جوفها[1].

وقال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص ٨١].

٦. قَلْبُ الديار.

أهلك الله بها قوم لوط فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢].

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

أي: قلبناها فصار أعلاها إلى أسفل وأسفلها إلى أعلى[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣].

وهي قرى قوم لوط التي قلبها الله عليهم[3].

٧. المسخ لليهود قردة وخنازير.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

أي: فعوقبوا بمسخهم قردة في خلقهم أذلاء بعيدين عن الإنسانية صورة[4]. وهي كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠].

٨. الحسبان من السماء.

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢].

«وأحيط بثمره» أي: أهلك جنته وماله وأصول نخله وشجره[5].

نتيجة لما أصاب الجنة من عذاب السماء الذي جعلها صعيدًا زلقًا[6].

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها، أو عذابٌ من السماء يرميها به من برد أو صاعقة أو نار[7].

والشاهد أن هذا العذاب نزل من السماء وهو وسيلة من وسائل الإهلاك، لهذا اكتفيت بتسميته حسبانًا كما سماه القرآن الكريم.

٩. الطائف من السماء.

قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٩-٢٠].

أي: أحاط بهذه الجنة نارًا نزلت من

(١) انظر: التفسير البسيط ١٧/ ٥٢٥ بتصرف، وانظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٨٥٨ بتصرف.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ٢٣١.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٧٣٠.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٥٣٧.
(٥) انظر: التفسير البسيط ١٤/ ١٢.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٨٧٦.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٤، انظر: روح البيان ٥/ ٢٤٧٢٤٨.

السماء فأحرقتها[1].

ثالثًا: الأمراض والسلب:

١. الأمراض.

❁ الأوجاع والأسقام عامة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [الأعراف: ٩٤].

أي: أخذناهم بالأمراض والأوجاع والأسقام[2].

❁ الطاعون.

قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[البقرة: ٥٩].

فالرجز: العذاب، وقيل: إن هذا العذاب طاعونٌ أنزله الله عليهم[3].

ويقوي ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الطاعون عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطاعون رجسٌ أرسل على طائفةٍ من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه؛ وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا؛ فرارًا منه، قال أبو النضر: لا يخرجكم إلا فرارًا منه)[4].

❁ الأمراض الفتاكة المهلكة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء: ١٠].

قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: ترى آكل مال اليتيم؛ وقد انتابته الأمراض الفتاكة المهلكة، وذهب المفسرون إلى أن المراد بالنار التي يأكلونها: نار الآخرة. والقول الذي ذهبنا إليه أولى لما نشاهده، ولقوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: في الآخرة[5].

٢. القحط والمجاعة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]. والسنين القحط والجدوبة[6].

قال عليه السلام: (اللهم سنين كسني يوسف)[7].

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[النحل: ١١٢].

---

(١) المصدر السابق ١٠/ ١١٥ بتصرف.
(٢) التفسير البسيط ٨/ ١٣٥، ١٣٦ بتصرف.
(٣) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ١١٨.
(٤) أخرجه البخاري، رقم ٣٢٣٨ كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار.
(٥) أوضح التفاسير ١/ ٩٢.
(٦) انظر: التفسير البسيط ٩/ ٢٩٦، ٢٩٨.
(٧) أخرجه البخاري، رقم ١٠٠٦، كتاب الاستسقاء، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة[1].

وقال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[الدخان: ١٠].

أكثر المفسرون على أن هذا الدخان كان حين دعا النبي صلى الله عليه وسلم على قومه بمكة لما كذبوه فقال: (اللهم سنين كسني يوسف) فارتفع القطر، وأجدبت الأرض فأصابت قريشًا شدة المجاعة حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف، فكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء دخان[2].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

أي: القحط وقلة الأمطار[3].

٣. الفقر وشدة البؤس.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [الأنعام: ٤٢].

والمعنى: أرسلنا رسلًا فخالفوهم فأخذناهم ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ أي: الفقر وشدة البؤس[4].

٤. الهلاك بقوة العدو والحروب.

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] أي: أنكم إن لم تنفقوا في سبيل الله هلكتم، أي: عصيتم الله فهلكتم، وجائز أن يكون هلكتم: بتقوي عدوكم عليكم.والمعنى: لا تتركوا الجهاد فتهلكوا، فسمى ترك الجهاد تهلكة؛ لأنه يؤدي إلى الهلاك في الدنيا بقوة العدو وفي الآخرة بالعصيان[5].

٥. الإهلاك ببلاء.

مثل: الفيضان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾[الأعراف: ١٣٣].

ووقع الإهلاك لقوم فرعون بهذه الوسائل فأصاب الإهلاك زرعهم وحرثهم ونسلهم وأجسامهم[6].

ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

والمعنى: كمثل الريح التي تكون باردة يتوقع منها الناس الخير لزرعهم، فتهلكه وتجعله حطامًا، وتصيبه بالآفات الوبائية[7].

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٨٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٣٠٠.
(٢) انظر: التفسير البسيط ٢٠/ ٩٨.
(٣) انظر: تأويلات أهل السنة ٨/ ٢٨٣.
(٤) انظر: التفسير البسيط ٨/ ١٣٥، ١٣٦ بتصرف.
(٥) المصدر السابق ٣/ ٦٣٤، ٦٣٥ بتصرف.
(٦) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٢٩٣٥، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن ١/ ٣١٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٣٠.
(٧) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٣/ ١٣٧٥ ،

وقد يرد في الذهن بعض الأسئلة، منها:

لماذا ذكر القرآن أن إهلاك قوم شعيب عليه السلام كان تارة بالرجفة، وتارةً بالصيحة، وتارةً بالظلة؟

ولماذا يسميهم مرة أصحاب مدين، ومرة أخرى أصحاب الأيكة؟

والجواب: جمهور المفسرين على أن كل ذلك وقع لقوم شعيبٍ، وأن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة، والاسم مختلفٌ فيهما، والمسمى واحدٌ.

قالوا: لما أراد الله أن يهلكهم صاح بهم الملك؛ ولذا قيل: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: آية ٩٤].

فلما صاح الملك اهتزت الأرض بهم هزًا عنيفًا، ورجفت بهم رجفةً قويةً، فصار هو معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٩١].

ثم إن الله أضرم عليهم الظلة نارًا فاحترقوا، فاجتمعت لهم الصيحة من أعلى، والرجفة من أسفل، وأحرقهم الله، واجتمع لهم ذلك كله [(١)].

لماذا ذكر القرآن الكريم إهلاك قوم ثمود في موضع بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وفي موضع: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وفي موضع: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]؟

والجواب: لا تناقض في ذلك؛ لأن الرجفة مترتبة على الصيحة؛ لأنه لما صيح بهم رجفت قلوبهم فماتوا، فجاز أن يسند الإهلاك إلى كل واحدة منهما [(٢)].

لِمَ لا يجوز أن يقال: إن العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ما كان بسبب كفرهم، بل كان بسبب الأحداث والظواهر الطبيعية؟

والجواب: ما الظواهر الطبيعية التي أوجبت نجاة بني إسرائيل من البحر وأغرقت فرعون وقومه في ساعة واحدة، وما الظواهر الطبيعية التي أوجبت الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم على القبط دون بني إسرائيل وهم معهم في بلد واحد، وما الظواهر الطبيعية التي نجت لوطًا ومن معه وأهلكت قومه وهم قريب منهم، وما الظواهر الطبيعية التي أوجبت حمل الطير الأبابيل حجارة من سجيل ورمت بها أصحاب الفيل دون غيرهم، وكل ذلك ثابت بالتواتر لا يمكن إنكاره [(٣)].

---

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٦٠٩، ٦١٠. بتصرف.

(٢) انظر: روح البيان ٣/ ١٩٣.

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٧٧.

حكم الإهلاك

لا تنفك الحكمة عن أفعال الله عز وجل وأقضيته، وأحكامه.

ومن ذلك الإهلاك، فلا تخلو حالةٌ من حالات الإهلاك التي قدرها الله تعالى من حِكَم.

ومن تلك الحِكَم:

أولًا: بيان قدرة الله تعالى:

من حكم الإهلاك أنها تبين قدرة الله تعالى من وجوه:

١. أن الله تعالي قادرٌ على إهلاك العالم بأسره وإعادته إن شاء.

قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

أي: أن الذي أهلك من قبلهم وأنشأ بعدهم قرنًا آخرين قادر على أن يهلك العالم بأسره، وقادر على الإعادة بعد الإهلاك[١].

٢. أن الله تعالى قادر على الإهلاك في أي زمان ومكان وبأي وسيلة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أي: تقدر على إهلاكي[٢].

وقال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

أي: إن في ذلك الذي أنزله الله بعاد لبرهانًا على قدرة الله[٣].

٣. أن الله تعالى قادر على إهلاك العالم بأسره وإنشاء غيره متى أراد.

قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٦ - ١٧].

أي: إن الله تعالى قادر على أن يذهبهم وأن يفنيهم، فالإفناء أسهل من الإنشاء، فمن قدر على الإفناء قادر على الإنشاء الثاني[٤].

وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

والمعنى: إن يشأ الله يذهبكم بإهلاككم وإفنائكم ويأت بناس آخرين غيركم[٥].

٤. أن الله تعالى قادر على الإهلاك فجأة بسوط عذابه تأديبًا للغافلين.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ

(١) انظر: التفسير البسيط ٨/ ٢٢.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة ٥/ ٤٩.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٦١٠.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨/ ٤٠١٣.
(٥) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٤٨٣.

﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

والمعنى: أنه قادر على أن يؤدبهم بسوط عذابه فجأة، فهو « العذاب التأديبي » من الله[١].

٥. القدرة على إهلاك الكافرين واختيار نجاة المؤمنين من العذاب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥].

وفيه فائدتان: إحداهما: بيان القدرة والاختيار أي قدرة الله تعالى على إهلاك الكافرين واختياره سبحانه نجاة المؤمنين، فيصيب الهلاك الفاجر وينجوا منه البار[٢].

٦. أن الله قادر على الإهلاك فلا يعجزه شيء، فلا يعجزه سبحانه قوة أو شدة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

أي: أنهم ظنوا أنهم قادرون على دفع ما نزل بهم من العذاب، فرد الله عليهم بأن الله أشد منهم قدرة[٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨].

أي: لم يعجزنا أحد منهم[٤].

ولا يعجزه كثرة المال ولا قوة الآلات والأنصار، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

أي: لا ينبغي أن يغرهم هذا الذي يتبجحون به ويتطاولون[٥].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص ٧٨] أي: أن الله تعالى قد أهلك من هو أشد منه قوة في الآلات، وجمعًا للأعوان والأنصار والأموال[٦].

والآيات التي تدل على قدرة الله على الإهلاك -مهما كانت الأمم المهلكة أشد قوة أو بطشًا أو تمكنًا في الأرض -كثيرة منها، قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الدخان: ٣٧].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [ق: ٣٦].

أي: إن كنا أهلكنا الذين هم أقوى منكم بأضعافٍ فعليكم أن تحذروا بطشنا[٧].

---

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير ٢/ ١٣٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٨١.
(٣) انظر: فتح البيان ١٢/ ٢٣٦.
(٤) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٣٦٢.
(٥) انظر: أيسر التفاسير للجزائري ٣/ ٣٢٧.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٨١٠.
(٧) العذب النمير ٥/ ٦٢٧ بتصرف، وانظر: جامع

ثانيًا: إظهار العدل الإلهي بين العباد.

ومن حكم الإهلاك أنها تبرز العدل الإلهي بين عباده تعالى، ومن صور ذلك العدل:

١. أن الله تعالى لم يهلك أحدًا ظلمًا.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

أي: أهلكهم بالجزاء العدل الذي يستحقونه[(١)].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

يقول ابن عاشور: «وجملة لم يكن ربك مهلك القرى بظلم هو شأن عظيم من شؤون الله تعالى، وهو شأن عدله، فبين بهذه الآية أن هذا هو العدل»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص ٥٩].

وهذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم، حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم[(٣)].

٢. أن الله تعالى لم يترك حجة لمعتذر عند إهلاكه.

فالعدل الإلهي اقتضى ألا يكون هلاك وعقاب في الدنيا إلا بعد بيان الحجة وإقامة البرهان[(٤)].

قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥].

فالله تعالى لا يأخذ ظلمًا، ولذا القرى التي دمرها لم تكن عندهم دعوى يعتذرون بها[(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨ - ٢٠٩].

البيان، الطبري ٢٠/ ٥٥٢.

(١) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن ١/ ٤٢٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٨١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٨.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٠٢.

(٤) انظر: انظر: التفسير الوسيط الزحيلي ٢/ ١٢٧٦.

(٥) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٤٩.

يقول ابن كثير: «ثم قال الله تعالى مخبرًا عن عدله في خلقه: أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم»[(١)].

٣. أن الله تعالى يعاقب العاصي، فيهلكه، ويثيب الطائع فينجيه.

فالعدل الإلهي بين العباد يقتضي التفاوت بين الأمم، فيهلك الله الظالمين، وينعم على الطائعين[(٢)].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦ – ٦٧].

فقد اقتضى العدل الإلهي ورحمة الله إنجاء صالح عليه السلام ومن آمن معه، وإهلاك قبيلة ثمود[(٣)].

ولهذا قال سيدنا هود عليه السلام مخاطبًا قومه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

أي: على الحق والعدل، فهذا تمثيل لعدله واستقامة تدبيره لخلقه، وجزائه لهم بالثواب والعقاب[(٤)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٦٥.
(٢) التفسير المنير الزحيلي ٧/ ١٢٨.
(٣) المصدر السابق ١٢/ ١٠٣.
(٤) انظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن ٢/ ٦٦٧، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٤/ ٢١١.

ثالثًا: الاعتبار بمصير المهلكين:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

قال الحسن: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعتبروا من كثرة إهلاكنا القرون قبلهم[(٥)].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

أي: ما قصه الله سبحانه من أخبار الأمم السالفة، هو مقصوص عليك لتخبر به قومك لعلهم يعتبروا[(٦)].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [طه: ١٢٨].

والمعنى: ألم يعتبروا[(٧)].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: ٦].

أي: أنهم قد مضت من قبلهم عقوبات الأمم السابقة، فما لهؤلاء لم يعتبروا بتلك الأمم؟[(٨)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٥١].

(٥) تأويلات أهل السنة ٤/ ٢٢.
(٦) انظر: فتح البيان ٦/ ٢٤٢.
(٧) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٨٠٨ بتصرف.
(٨) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٤١١.

أي: فهل من يتذكر ويتعظ، ويعتبر به[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩].

أي: ألم ينظروا ويتفكروا ألم يعتبروا[2].

وليس أدل على أن الإعتبار بمصير المهلكين من جملة حكم الإهلاك: من أن الله تعالى قد ذيل الحكاية عن هلاك الأمم بالتوجيه إلى النظر والإعتبار.

يقول الطاهر بن عاشور عقب إهلاك قوم لوط عليه السلام: «والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[الأعراف: ٨٤].

يجوز أن يكون لغير معين، بل لكل من يتأتى منه الاعتبار، كما هو شأن إيراد التذييل بالاعتبار عقب الموعظة، لأن المقصود بالخطاب كل من قصد بالموعظة»[3].

ومن نماذج إيراد التذييل بالموعظة والاعتبار عقب إهلاك الأمم ما يلي:

- بعد إهلاك قوم سيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر: ١٥].

أي: أبقينا خبرها أمرًا داعيًا للعظة والاعتبار[4].

- بعد إهلاك قوم سيدنا هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

أي: إن في إهلاكنا عادًا لعبرة وموعظة[5].

- بعد إهلاك قوم سيدنا لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[الأعراف: ٨٤].

قال ابن عاشور: «فالأمر للإرشاد والاعتبار»[6].

- بعد إهلاك قوم سيدنا شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩].

ومعنى ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، أي: طريق بين واضح، وإن عليهم أن يعتبروا كلما مروا بطريقهم[7].

- بعد إهلاك فرعون وجنوده.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٠٣].

أي: فإن فيه معتبرًا للمعتبرين[8].

ولقد أجمل الله تعالى ذلك كله

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٤٥٨، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٩/ ١١٩٤.
(٢) تأويلات أهل السنة ٦/ ٢٩٨ بتصرف.
(٣) التحرير والتنوير ٨، ب/ ٢٣٨ بتصرف.
(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٩/ ١١٧٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري١٩/ ٣٧٩.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ٨، ب/ ٢٣٨.
(٧) المصدر السابق ٨/ ٤١٠٣ .
(٨) فتح البيان ١٠/ ١٩.

فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

قالوا: والله بين أنه ما قص علينا قصصهم إلا لنعتبر بها[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

أي: تلك القرى المهلكة نذكر لك يا محمد من أخبارها ما فيه عبرة لمن أرسلك الله إليهم[(٢)].

رابعًا: تسلية الرسل وورثتهم.

أولًا: معنى التسلية هنا: تأتي على معنيين:

الأول: كشف الهم وإزالة الكرب[(٣)].

الثاني: تطييب النفس وإذهاب ما بها من سأم وضيق[(٤)].

وكلا المعنيين تحققًا للرسل عليهم السلام ولورثتهم بإهلاك مكذبيهم.

ثانيًا: ما جاء في التنزيل يبين أن إهلاك المكذبين كان فيه تسلية للرسل وورثتهم.

١. ما كان تسلية للرسل عليهم السلام.

❁ ما كان تسلية لسيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

يقول الله تعالى ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن فإني مهلكهم ومنقذك، وهذا تسلية من الله عز وجل لنوح عن قومه بما أعلمه من حالهم[(٥)].

❁ ما كان تسلية لسيدنا موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

بعد أن عاقب الله بني إسرائيل بالتيه قال لموسى عليه السلام: فلا تحزن، وسمي قومه ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ ليكون أبلغ في تسليته[(٦)].

❁ ما كان تسلية لسيدنا محمد صلي الله عليه وسلم.

سلاه الله تعالى بإهلاك السابقين حين ناله الأذى والتكذيب من قومه.

قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٤ -

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ٤٨٣.
(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٧٩ بتصرف.
(٣) انظر: الصحاح ٦/ ٢٣٨١، مختار الصحاح ص ١٥٣، تاج العروس ٣٨/ ٢٩٩.
(٤) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١١٠٢.
(٥) التفسير البسيط ١١/ ٤٠٩.
(٦) انظر: درج الدرر ٢/ ٦٦٤.

٤٥].

وفي ذلك تسلية وتسرية للنبي صلى الله عليه وسلم في عناد قومه له[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

هذه الآية تسليةٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وتهوينٌ عليه[٢].

وسلاه الله تعالى بإهلاك السابقين حين أصر قومه على الكفر واستهزؤا به صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢]. والكلام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ووعيد للمشركين بالإهلاك[٣].

وسلاه الله تعالى بإهلاك السابقين حين هم قومه بإخراجه من مكة.

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم إذ قص عليه في إثر ما ذكر من هم قومه بإخراجه - قصة فرعون- وما هم به من استفزاز موسى وبني إسرائيل من أرض مصر، حتى أهلكه الله تعالى وأورثهم الأرض من بعدهم[٤].

٢. ما كان تسلية للمؤمنين رضي الله عنهم أتباع الانبياء عليهم السلام وورثتهم.

أمر الله تعالى المؤمنين بالنظر في عاقبة المفسدين وما حل بهم من الإهلاك لتسلي عن أذاهم.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

أمر المؤمنين بالنظر في عاقبة المفسدين؛ لأن من توسم حلول الهلاك على عدوه، يكون له بعض التسلي في ذلك[٥].

- كما أن في إهلاك ابن نوح عليه السلام تسلية للصالحين إذا فسد أبناهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦].

قال الإمام القرطبي: «في هذه الآية تسليةٌ للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين»[٦].

- وقد سلى سيدنا موسى عليه السلام بني إسرائيل وطيب قلوبهم بانتظار إهلاك فرعون.

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٩٩٦ بتصرف.
(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ١٨١.
(٣) التحرير والتنوير ١٣/ ١٤٨ بتصرف.
(٤) التفسير البسيط ١٣/ ٤٩٩ بتصرف.
(٥) تأويلات أهل السنة ٤/ ٥١٦ بتصرف.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٤٧.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

أي: أنه أمرهم بذلك تسلية لهم من وعيد فرعون[١]، لذلك قال الله تعالى بعدها: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

أي: قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل تسلية لهم وتطييبًا لقلوبهم، وبعثًا للأمل في نفوسهم: عسى ربكم أن يدمر عدوكم الذي أذاقكم العذاب ألوانًا بالقتل والعسف[٢].

❁ وسلى سيدنا شعيب عليه السلام قلوب المؤمنين معه بتوعد الكافرين بالإهلاك.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

والمقصود منه تسلية قلوب المؤمنين بأخبارهم بأن الله حاكم منزه عن الجور فلا بد وأن يخص المؤمن بالنجاة والكافر بأنواع العقوبات[٣].

❁ وسلى الله تعالى المؤمنين بالسير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين التي كانت الإهلاك.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

قال القرطبي: «هذا تسليةٌ من الله تعالى للمؤمنين»[٤]، وعاقبتهم كانت الإهلاك.

❁ وسلي الله تعالى المؤمنين بأن الكافرين مصيرهم في الدنيا العقاب والهلاك وفي الأخرة النار.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

بين الله عداوة الكفار للأنبياء وأتباعهم، وكان ذلك أمرًا غائظًا محزنًا موجعًا، ختم ذلك ببيان حقوق كلمة العذاب وهي النار في الأخري كما أنه مستحق الأخذ والهلاك في الدنيا، تسلية للمؤمنين[٥].

❁ وسلى الله تعالى كل مظلوم بإهلاك ظالمه.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٤٩.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٤٩٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥ بتصرف.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢١٦.
(٥) نظم الدرر، البقاعي ١٧/ ١١ بتصرف.

قال القشيري: «في الآية تسلية للمظلومين إذا استبطأوا هلاك الظالمين»[1].

خامسًا: تطهير الأرض من المجرمين.

١. لخطورة الإجرام على الأرض فقد أكد القرآن الكريم أن الله تعالى قد أهلك أممًا بسبب إجرامها؛ تطهيرًا للأرض منهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

أي: مثل ذلك الجزاء وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم[2].

وقال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ – ١٨].

أي: أن الله قد أهلك من أهلك لكونهم مجرمين، فهذا الحكم عام في جميع المجرمين[3].

٢. إهلاك المجرمين فيه تطهير للأرض من شرهم، وهو نعمة من النعم.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ – ٥٥].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: أن هذه المصارع آلاء لله وأفضالًا؛ لأنه تعالى أهلك الشر[4]، وطهر الأرض منه المجرمين.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ – ٢٧].

يقول صاحب الظلال: «فقد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الذي انتهى إليه قومه. وأحيانًا لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين»[5].

٣. إهلاك المجرمين فيه تطهير للأرض من ضررهم، وهو نعمة تستحق الحمد.

قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فإراحة المسلمين من الظلمة الذين ليس

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٤١.
(٢) فتح البيان ٦/ ٢٧.
(٣) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١٠/ ١٧٢٩.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٨ بتصرف.
(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٧١٧.

فيهم إلا الضرر، من غير أن يكون هنالك نفعٌ، نعمةٌ من نعم الله، علم الله خلقه أن يحمدوه عليها[1].

٤. إهلاك المجرمين فيه تطهير للأرض منهم؛ لأن عدمهم أصبح خيرًا من وجودهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣٠ - ٣١].

يقول الرازي: «واعلم أن نبيًا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم، كما قال نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

يعني: المصلحة إما فيهم حالًا أو بسببهم مآلًا ولا مصلحة فيهم[2].

٥. إهلاك المجرمين فيه تطهيرٌ للأرض عن نجاسة الكفر.

قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١].

الريح العقيم التي أهلكتهم، وفي ذلك تطهير الأرض من نجاسة الكفر[3].

٦. إهلاك المجرمين فيه تطهير للأرض من وسخ الشرك والإضلال.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

فأمره بالحمد على نجاة أتباعه إشارة إلى أنه نعمة عليه، وفي هذه الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي المسرة بمصيبة أحد ولو عدوًا من حيث كونها مصيبة له، بل لما تضمنه من السلامة من ضرره أو تطهير الأرض من وسخ شركه وإضلاله، ولذا قال: نجانا دون أهلكهم[4].

٧. إهلاك المجرمين وتطهير الأرض منهم هو العدل والحق الذي قامت عليه السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٣ - ٨٥].

قال المراغي: «فكان من العدل تطهير الأرض منهم، دفعًا لشرورهم وإصلاحًا لمن يأتي بعدهم»[5].

سادسًا: استخلاف المصلحين:

أولًا: الآيات القرآنية الدالة على أن الله تعالى يستخلف المصلحين بعد

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ٢٦١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٥٠ بتصرف.
(٣) تأويلات أهل السنة ٩/ ٣٨٩ بتصرف.
(٤) انظر: حاشيه الشهاب على أنوار التنزيل، البيضاوي ٦/ ٣٢٨.
(٥) انظر: تفسير المراغي ١٤/ ٤٢.

الإهلاك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم أي: ذلك الأمر والوعد محقق ثابت[(١)].

وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

أي: أن الأمم إذا هلكت بسبب فسادها، جاء جيل يصلح أمرها، ويزيل أسباب الفساد، ويجدد المتخرب، وهو الجيل الذي ينشئه الله على آثار المفسدين[(٢)].

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٣ - ١٠٤].

أي: بعد أن خرجوا من البحر ناجين، وغرق فرعون وجيشه، قلنا لهم بلسان الحال من بعده ﴿اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾[(٣)].

(١) انظر: روح البيان ٤/ ٤٠٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/ ٢٤٣٩.
(٣) المصدر السابق ٨/ ٤٤٧١.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣ - ١٤] أي: استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر[(٤)].

ثانيًا: الرسل عليهم السلام يؤكدون لقومهم أن الله يستخلف المصلحين بعد الإهلاك.

- سيدنا هود عليه السلام يذكر قومه باستخلافهم من بعد قوم نوح ويحذرهم أن يستخلفوا.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧].

- سيدنا صالح عليه السلام يذكر قومه فضل ربهم بأن استخلفهم من بعد عاد عند صلاحهم.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

- سيدنا موسى عليه السلام يبشر المؤمنين من قومه بالاستخلاف من

(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٢٧.

بعد فرعون.

قال تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وذلك يدل على أن المستخلفين في الأرض لم يستخلفوا فيها لأجل الإنعام بها عليهم، بل كل ذلك للابتلاء والامتحان، فيطيعون الله فيما استخلفهم فيه أو يعصونه[١].

ثالثًا: من سنن الله تعالى نصر الأنبياء والصالحين واستخلافهم بعد الإهلاك.

قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].

فقد أهلك الله الكثير من أعداء رسله بأنواع العذاب، كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم[٢]. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

فالآيات دالة على أن الله تعالى أعلى كلمة جميع عباده المرسلين، وأهلك أعداءهم[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] أي: أننا ننصر رسلنا وأتباعهم الذين يؤمنون بهم، في الحياة الدنيا وننتقم لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي[٤].

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

وفيه إشارة إلى من استخلفهم الله من عباده المؤمنين الصالحين، بعد أن أهلك القوم الظالمين[٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وعبر بقوله ﴿يَرِثُهَا﴾ للإشارة إلى أن الصالحين يخلفون من كانوا عليها من فاسدين ظالمين عتاة[٦].

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ١٠٢.
(٢) المصدر السابق ١٠/ ١٣٤٢.
(٣) درج الدرر ٤/ ١٤٧٣.
(٤) انظر: فتح البيان ١٢/ ١٩٩، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٦٥٠.
(٥) التفسير القرآني للقرآن ٩/ ١٣١٥.
(٦) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٩٢٧.

نماذج من القرى المهلكة في القرآن

قص القرآن الكريم نماذج من القرى المهلكة، ثم عقب بعدها بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

والمقصود: الإشارة إلى السابق من قصة نوح وقومه، وعاد وهود، وثمود وصالح، ومدين وشعيب، وطغيان فرعون[(١)].

وقد أجمل الله تعالى تلك القرى المهلكة فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ – ١٤]

أولًا: ديار قوم نوح عليه السلام:

ذكر الله قصتهم في سور: الأعراف ويونس وهودٍ والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت، وأنزل فيهم سورةً كاملةً. كما ذكرهم في آيات متفرقة في سور غيرها[(٢)].

ولقد أرسل الله تعالى نوحًا إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى التوحيد، فلم يزدهم ذلك من دعائه إياهم إلى الله إلا فرارًا وتكذيبًا[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

فدعا نوحٌ ربه على قومه[(٤)].

قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

فأرسل الله تعالى من السماء ماء كما يسيل من أفواه القرب، وانفتحت الأرض بعيون الماء، حتى اجتمع الماءان، ماء السماء وماء الأرض، على ما قدر الله تعالى من هلاك قوم نوح ونجاته ومن معه من المؤمنين[(٥)].

قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ ١٢].

وأهلكهم الله بالإغراق بالطوفان[(٦)].

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وبعد إهلاك القوم عاد كل شيء بأمر الله تعالي كما كان، قال تعالي: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]. وأنجى الله نوحًا من الغرق، وأنجى معه جماعة المؤمنين الذين

(١) المصدر السابق ٧/ ٣٧٤٨.
وانظر: التحرير والتنوير ١٢/ ١٥٨.
(٢) انظر: قصص الانبياء،ابن كثير١/ ٧٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٧٠.
(٤) المصدر السابق ٢٢/ ١٢١.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٩.
(٦) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٤٧٠.

صحبوه في السفينة[1].

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩].

وقوم سيدنا نوح عليه السلام وديارهم هي أول الديار المهلكة في تاريخ البشرية، والقرون التي كانت بين آدم عليه السلام ونوح كانت كلها على الإسلام، يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧][2].

وديار قوم نوح من القرى التي أهلكها الله تعالى، فاندثرت ولم يبق منها باقية، استجابة لدعوة سيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦][3].

ولذلك فالراجح أن الطوفان عم الأرض كلها ودمر كل الديار[4].

ثانيًا: عاد قوم سيدنا هود عليه السلام:

ذكر الله تعالى قصة عاد في سور من القرآن، منها: سورة الأعراف وهودٍ والمؤمنون والشعراء وحم السجدة والأحقاف والذاريات والنجم والحاقة كما ذكرهم في آيات متفرقة في سور غيرها.

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٨٣٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٦٢ بتصرف.
(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي ٧/ ٢٧٠ بتصرف.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ٥٧.

وكانت قبيلة عاد عربًا يسكنون الأحقاف قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وقد أشار القرآن إلى أن مساكنهم كانت معلومة عند العرب وقت نزول القرآن، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عليه السلام فدعاهم إلى الله، كما قال تعالى

بعد ذكر قوم نوحٍ: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩][5].

ووصف القرآن الكريم عمران هذه القرية، بأنها كانت ذات أبنية طويلة مرتفعة، وأنهم كانوا يبنون بكل مكان مرتفع برجًا من الابراج يجلسون فيه، ومباني عظيمة هائلة من القصور المشيدة[6]، قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩].

وقد بين سبحانه كيف نزل بهم العذاب، فعبر عن أمر الله بعذابهم بصيحة أرجفت أرضهم وديارهم، وجاءتهم بريح صرصر

(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٢١.
(٦) انظر: التفسير البسيط ٢٣/ ٥٠٣، أوضح التفاسير ١/ ٤٥١.

عاتية[1]، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

والمعنى: فأهلكهم الله بريحٍ شديدة الصوت[2].

وقرى عاد ما زالت بقاياها في الأحقاف قائمة تشهد بما بلغ أهله من القوة والعمران، وعبرة لمن يعتبر[3].

ثالثًا: ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام:

ذكر الله تعالى قصتهم وما كان منهم وقصة هلاكهم في سورة الأعراف وهودٍ والحجر وسبحان والشعراء والنمل والسجدة واقتربت و الشمس. وثمود وهم قبيلة مشهورة، كانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك.وقد مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهبٌ إلى تبوك بمن معه من المسلمين[4].

وكانوا بعد قوم عادٍ، وقد أعطيت ثمود مهارة في البناء والعمران ورغدًا في العيش.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

وكانوا يعبدون الأصنام. فبعث الله فيهم رجلًا منهم وهو: صالح عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده. فآمنت به طائفةٌ منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجةً عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدرٍ.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١ - ١٥].

أي: فقتلوا الناقة، فأطبق الله عليهم العذاب واستأصلهم به[5].

ووصف التنزيل الحكيم هلاكهم وهلاك قريتهم فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والمراد بها: أنهم أصبحوا موتي هامدين

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥٠٧٤.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١٠/ ١٥٥٣.
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٢٧ تصرف.
(٤) انظر: قصص الانبياء، ابن كثير١/ ١٤٥.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١٠/ ١٩٢٩.

لا يتحركون[1].

وأهلكهم الله تعالى وبقيت ديارهم عبرة للمعتبرين، وبقايا ثمود في الحجر.

رابعًا: المؤتفكات قرى قوم سيدنا لوط عليه السلام:

نزل سيدنا لوط بمدينة سدوم، وكانت لها أرض ومعتملات وقرًى مضافةٌ إليها،قيل:خمس قري. ولها أهلٌ من أفجر الناس وأكفرهم، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكرٍ فعلوه[2].

ودعاهم لوطٌ إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، فأحل الله بهم من البأس الذى لايرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مثلةً في العالمين، وعبرةً يتعظ بها[3].

وحكى القرآن قصتهم وما كان منهم في سورة الأعراف وهودٍ والحجر والشعراء والنمل والعنكبوت والصافات والذاريات والقمر، وكذلك ذكر الله لوطًا وقومه في مواضع أخر من القرآن.

ووصف القرآن الكريم إهلاك قرى قوم لوط فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

وكان هلاكهم بأشد ألوان العذاب.

فأرسل الله عز وجل عليهم صيحة عظيمة، وافقت قلب قراهم، ثم أنزل عليهم حجارة من سجيل[4].

وترك الله آثار قراهم عبرة فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦][5].

وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧]: أي: على منازلهم، وترون آثار نقمتنا وتعذيبنا.

خامسًا: مدين قوم سيدنا شعيب عليه السلام:

كان أهل مدين عربًا يسكنون «مدين»، وهي قريبة من أطراف الشام، ومن بحيرة قوم لوطٍ، وكانوا بعدهم بمدةٍ قريبة.

قال تعالي: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٩].

وقد ذكر الله تعالي قصتهم وما كان منهم في سورة الأعراف وهودٍ والحجر والشعراء والعنكبوت.وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة،

(١) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن ١/ ٣٠٨.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٢٨٩٢.
(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٢٥٤.
(٤) انظر: التفسير البسيط ١١/ ٥١٠.
(٥) انظر: موسوعة الصحيح المسبور، حكمت بشير ٣/ ١٦٥.

وهي شجرةٌ.وكانوا من أسوإ الناس معاملةً ؛ يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما. فبعث الله فيهم رجلًا منهم، وهو رسول الله شعيبٌ عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد[1].

وعند هلاكهم اجتمع عليهم أصناف من العذاب فأصابهم عذاب يوم الظلة» وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة، فزهقت الأرواح، وخمدت الأجساد[2].

سادسًا: أصحاب السبت:

هم قوم من بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصتهم في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

واختلف المفسرون في اسم هذه القرية والمشهور عندهم أنها قرية «أيلة»، وقد سكنها اليهود على ساحل البحر ابتلاهم بإتيان الحيتان آمنةً يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم مخافة الاصطياد، فاعتدوا في سبتهم حرصًا وشرهًا، فمسخهم الله قردةً خاسئين[3].

ووصف الله تعالى إهلاكهم فقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٥ – ١٦٦].

أي: عوقبوا بمسخهم قردة[4].

قال قتادة: مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعدما كانوا رجالًا ونساء، وبقوا ثلاثة أيام ينظر الناس إليهم ثم هلكوا جميعًا[5].

سابعًا: قرى ذكر الله تعالى إهلاكها دون تعيين لهم ولا تسمية لنبيهم:

١. إهلاك الله تعالى لأصحاب الرس.

اختلفت الروايات عن السلف في تحديد من هم أصحاب الرس[6].

والثابت أن أصحاب الرس من القرى التي أخبر الله تعالي عن هلاكها في القرآن الكريم وذلك في موضعين:

قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٢٧٥و٢٧٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٩.
(٣) انظر: درج الدرر ١/ ١٩٤.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٥٣٧.
(٥) انظر: فتح البيان ٥/ ٦١، ٦٢، معالم التفسير، البغوي ٢/ ٢٤٣، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٦٣.
(٦) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥٢٨١.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨ - ٣٩].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ [ق: ١٢].

والشاهد أن الله تعالى قد أهلك أصحاب الرس إهلاكًا ماحقًا [(١)].

٢. إهلاك الله تعالى لأصحاب القرية.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣].

ذهب عدد من المفسرين إلى أن القرية هنا هي «انطاكية» غير أن الامام ابن كثير أثبت أنها قرية غير أنطاكية موافقًا عددًا من السلف [(٢)]، وما يعنينا هنا: أنها قرية أهلكها الله بالصيحة لما كذبت الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إليهم، وقتلوا الرجل الذي جاء يسعي إليهم ناصحًا أمينًا.

قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩]. فأخذ جبريل بعضادتي باب المدينة ثم صاح بهم صيحة فإذا هم ميتون، مثل النار إذا أطفأت، فبادوا ولم يبق منهم باقية [(٣)].

٣. إهلاك الله تعالى لقوم تبع.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤].

وتبع هو أحد ملوك اليمن، كان يملك اليمن، والشحر، وحضرموت. ويقال لكل من ملك اليمن: «تبع»، وقد كان «قوم تبع» في غاية من الرخاء والنعمة، والقوة والمنعة؛ فأهلكهم الله تعالى بفسقهم وكفرهم [(٤)].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا:

- أن من القرى المهلكة ما لا تزال أطلالها قائمة، ومنها ما حل بها الخراب والدمار فلم يبق منها أثر.
- وأن الله قص علينا بعض قصص القرى المهلكة، وليس كلها.
- وأن الهالكون من أهل تلك القرى يختلفون في الكثرة والقلة، فقوم نوح كانوا سكان الارض كلهم، وكانت عاد وثمود والمؤتفكات ومدين قبائل القرى كثيرة، والمخالفون في الدخول إلى القرية كانوا طائفة من بني إسرائيل، وأصحاب السبت كانوا فرقة من أهل قرية انقسمت إلى ثلاث أمم.
- أن القرآن سمى بعض القرى المهلكة، ولم يسم أخرى، لأن القصد الاعتبار والاتعاظ من هلاكها.

موضوعات ذات صلة:

الإكراه، الحرام، الحلال، الضر

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٥١٦ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٣٦١ بتصرف.
(٣) انظر: التفسير البسيط ١٨/ ٤٧٣.
(٤) انظر: أوضح التفاسير ١/ ٦٠٩.

الأوثان

عناصر الموضوع

مفهوم الأوثان	٢٥٤
الأوثان في الاستعمال القرآني	٢٥٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٥٦
تاريخ وفلسفة	٢٥٨
أشهر أصنام العرب	٢٦٠
حجج عابدي الأوثان	٢٦٤
محاورات الأنبياء عن عبادة الأوثان	٢٦٩
صفات الأوثان في ضوء القرآن	٢٧٩
مظاهر تقديس العرب للأصنام	٢٨٤
عاقبة الأوثان وعابديها	٢٩٧

مفهوم الأوثان

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (وثن) في المعاجم على معنيين: الأول: الكثرة والاستزادة، والثاني: الدوام والثبوت، فمن الأول قول القائل: استوثن الرجل من المال: استكثر، واستوثن النحل: صارت فرقتين صغارًا وكبارًا، وأوثن زيدًا: أجزل عطيته[(١)].

ومن الثاني عن صاحب الصحاح: «والواثن مثل الواتن، وهو الثابت الدائم»[(٢)].

و«الوثن التمثال يعبد، سواء أكان من خشب أم نحاس أم فضة أم غير ذلك، جمع أوثان ووثن، والوثني: من يتدين بعبادة الوثن، يقال: رجل وثني، وقوم وثنيون، وامرأة وثنية، ونساء وثنيات، والوثنية مذهب عبدة الأوثان»[(٣)].

ولعل وجه اتصال لفظ (الوثن) بأصل مادته اللغوي ظاهر في كثرة عدد وأنواع الأوثان التي عبدتها العرب، أما «الدوام والثبوت» فظاهر أيضًا في أن الوثن دائم في مكان ما ومستقر فيه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

من خلال ما سبق يتضح أن الوثن واحد الأوثان، ويدور في وضعه اللغوي حول المعنيين السابقين، أما في الاصطلاح فليس في مظان التعاريف الاصطلاحية ما يروي الغليل، ويوضح المقصود، لذا لابد من استنباط تعريف من خلال ما مضى، يكون مناسبًا في هذا الصدد، فالوثن في الاصطلاح يعني: «كل معبود اتخذه المشركون إلهًا من دون الله، حجرًا كان، أو شجرًا، أو معدنًا»، ولعل هذا التعريف يوضح المراد، والله أعلم.

فالعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي: وثيقة جدًا فالأوثان متعددة وكثيرة من ناحية العدد، وثابتة - غالبًا - من ناحية المكان؛ إذ قلما تنقل من مكان لآخر.

---

(١) انظر: القاموس، الفيروز أبادي، ٦/ ٢٧٦، بصائر ذوي التمييز له أيضًا، ٥/ ١٥٩، الصحاح، الجوهري، ٢/ ١٦١٦.

(٢) الصحاح، الجوهري، ٢/ ١٦١٦.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢/ ١٠٢٣.

الأوثان في الاستعمال القرآني

وردت الأوثان في القرآن الكريم (٣) مرات فقط [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم جمع	٣	﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠]

وقد أطلق القرآن الوثن على: ما كان له جثة من خشب أو ذهب أو فضة أو غير ذلك، ينحت وينصب فيعبد من دون الله[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٤٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص ١٤٠٠.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٢٨٣، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٥٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ١٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأصنام:

الأصنام لغة:

واحدها: أصنام، وهو ما وينحت من خشب، ويصاغ من فضة ونحاس، فالجمع أصنام، وهو ما اتخذ إلهًا من دون الله[١].

الأصنام اصطلاحًا:

هي كل ما يعبد من دون الله.

الصلة بين الأوثان والأصنام:

هناك من لم يفرق بينهما فاعتبرهما واحدًا[٢]، وهناك من فرق، ومنهم ابن الأثير حيث قال: «الفرق بين الوثن والصنم: أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب أو الحجارة، كصورة الآدمي تعمل، وتنصب فتعبد، والصنم: الصورة بلا جثة»[٣].

٢ الأنصاب:

الأنصاب لغة:

«النُّصُب: ما ينصب ليعبد من دون الله، أو ليذبح عنده الذبائح تقربًا إليه أو إلى الأصنام»[٤].

الأنصاب اصطلاحًا:

قال الكفوي: «الأنصاب أي: الأصنام التي نصبت للعبادة»[٥].

الصلة بين الأوثان والأنصاب:

الأوثان تشمل كل ما يعبد من دون الله، أما الأنصاب فهي الحجارة التي ليست لها صورة معينة، كان يعبدها الجاهليون من دون الله تعالى لذبحهم القرابين عندها، وبهذا يظهر الفرق بينها وبين الأوثان.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٣٤٩.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٤٧، الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢١٢.
(٣) النهاية في غريب الحديث، ٥/ ١٥١.
(٤) القاموس القويم، إبراهيم عبد الفتاح، ٢/ ٢٦٧.
(٥) الكليات، الكفوي، ١/ ٢٠٣.

٣ الأزلام:

الأزلام لغة:

الأزلام: جمع زلم، والزلم: القدح لا ريش عليه، و«زلم» بالفتح أو «زلم» بالضم، والزلم والقلم واحد، وقلمه إذا قطعه، يقال: زلم أذنه وأنفه زلمًا: أي: قطعهما[١].

الأزلام اصطلاحًا:

والأزلام هي القداح أو السهام التي جعلت للاستقسام[٢]، وإنما سميت القداح بالأزلام؛ لأنها زلمت، أي: سويت، وقيل: حصًى بيضٌ كانوا يضربون بها، وكانت العرب تستقسم بها عند الأصنام، والاستقسام طلب القسم، أي: معرفة ما يقسم للإنسان ويقدر[٣].

الصلة بين الأوثان والأزلام:

الفرق بينهما واضح، فالأوثان ما يعبد من دون الله، أما الأزلام فهي القداح التي تستخدم في الجاهلية لمعرفة ما يقسم للإنسان.

٤ التماثيل:

التماثيل لغة:

جمع تمثال، والتمثال: الصورة، ومثل له الشيء: صوره حتى كأنه ينظر إليه، يقال: مثلت، بالتثقيل والتخفيف، إذا صورت مثالًا، والتمثال: الاسم منه[٤].

التماثيل اصطلاحًا:

أصل التمثال الشيء المصنوع مشابهًا لشيء من مخلوقات الله سبحانه، يقال: مثلت الشيء بالشيء إذا جعلته مشابهًا له[٥].

الصلة بين الأوثان والتماثيل:

التماثيل هي الأجسام المصورة على هيئة إنسان أو حيوان أو طائر أو كائن ما، عبد هذا المصور أو لم يعبد، أما الأوثان فغالبًا تعبد من دون الله تعالى .

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٢٦٩، أساس البلاغة، الزمخشري، ص ١٩٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٨، جامع البيان، الطبري، ٩/ ٣١١.
(٣) انظر: الميسر والأزلام، عبد السلام هارون، ص٥٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٦١٣.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٤٨٦.

تاريخ وفلسفة

سيطوف بنا البحث في أسطره التالية بتأريخ موجز لعبادة الأوثان وبداية ظهورها، وانتقالها إلى العرب، وهذا فيما يلي:

أولًا: بدء عبادة المجسمات لدى الأمم:

يكاد يكون من المشتهر تاريخيًا أن عبادة الأصنام ظهرت أول ما ظهرت على أيدي قوم سيدنا نوح عليه السلام، وعن طريقهم انتشرت عبادتها في بقية أرجاء المعمورة، وتابعهم على ذلك من جاء بعدهم، لكن حقيقة الأمر بخلاف ذلك، فمن خلال البحث والدراسة تبين أن مبدأ ظهور الأصنام على الساحة كان بعد زمن سيدنا آدم عليه السلام.

وفي ذلك يقول الإمام الفخر الرازي: «اعلم أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأصنام، والدليل عليه أن أقدم الأنبياء الذين وصل إلينا تاريخهم على سبيل التفصيل هو نوح عليه السلام، وهو إنما جاء بالرد على عبدة الأصنام، كما حكى الله عنه ذلك... وذلك ليدل على أن دين عبدة الأصنام قد كان موجودًا قبل نوح عليه السلام»[1].

وهذا كلام يؤيده ما ذكره نسابة العرب «هشام بن محمد الكلبي» حيث يروي قصة ظهور الأصنام بعد آدم عليه السلام مباشرة فيقول: «أول ما عبدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات جعله بنو شيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند، ويقال للجبل: «نوذ»، وهو أخصب جبل في الأرض..

ثم ذكر قولًا عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول فيه: « وكان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة فيعظمونه، ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن آدم: يا بني قابيل! إن لبني شيث دوارًا[2] يدورون حوله ويعظمونه، وليس لكم شيء، فنحت لهم صنمًا، فكان أول من عملها...» .

ثم يقول هشام: أخبرني أبي قال: كان ود، وسواعٌ، ويغوث، ويعوق، ونسر قومًا صالحين، ماتوا في شهر فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحًا؟ قالوا: نعم!! فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه، وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله، حتى ذهب ذلك القرن الأول، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٣٧.

(٢) الدوار: -بتخفيف الواو المفتوحة-: الطواف، يقال: دار دورًا: طاف حول الشيء. المعجم الوجيز ص ٢٣٧، ولعل المقصود بالدوار هنا: الشيء نفسه الذي يدورون حوله.

تعظيم القرن الأول، ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء[1] إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوهم وعظم أمرهم، واشتد كفرهم، فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام نبيًا فدعاهم فكذبوه، فرفعه الله إليه مكانًا عليًا، ولم يزل أمرهم يشتد حتى أدرك نوحٌ عليه السلام فبعثه الله نبيًا»[2].

يتضح لنا من خلال ما سبق مبدأ ظهور عبادة الأوثان، وأنها قديمة من بعد زمن آدم عليه السلام.

ويكاد العلماء أن يجمعوا على أن أول من أدخل الأصنام في الجزيرة العربية هو «عمرو بن لحي الخزاعي».

لكن اختلفوا فيما بينهم في تحديد السبب الباعث لهذا الرجل على إدخال الأصنام الجزيرة، فمن قائل: إن عمرو بن لحي كان له رئيٌ[3] من الجن، فأمره أن يذهب بالأصنام إلى العرب في وقت حجهم البيت ليعبدوها ففعل[4]، ومن قائل: إن عمرًا مرض مرضًا شديدًا، فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حمة[5] إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة[6]، وقيل: غير ذلك[7].

وفي الصحيح: (أن عمرو بن لحي هو أول من سيب السوائب[8]، ووصل الوصيلة[9]..) إلخ.

فهو أول من أدخل الأصنام شبه الجزيرة.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) جرت العادة في اللغة باستعمال «هؤلاء» و«أولئك» للعقلاء، وهي هنا للأصنام، ولكن ورد استعمالها أيضًا فيما لا يعقل على سبيل القلة، كما ورد في أشعار العرب. أفاده محقق كتاب الأصنام، أ/ أحمد زكي باشا ص ٥٢.

(٢) انظر الأصنام ابن الكلبي ص ٥١ بتصرف.

(٣) كانت العرب تقول: «فلان له رئي من الجن» إذا ألف الجني إنسانًا، وخبره ببعض الأخبار، وبما وقع ويقع من الأسرار، انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د/ جواد علي ٦/ ٧٣٧ بتصرف.

(٤) الأصنام ص ٥٤، ٥٨ بتصرف شديد.

(٥) الحمة: -بفتح المهملة وتشديد الميم المفتوحة هي العين الحارة- يستشفى بها الأعلاء والمرضى. مختار الصحاح ص٩٠.

(٦) الأصنام ص ٨.

(٧) للمزيد يراجع: السيرة النبوية للإمام عبد الملك بن هشام ١/ ١٠١.

(٨) السائبة هي: الدابة التي تسيب في المرعى، فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن. مفردات الراغب الأصفهاني ص٤٣١.

(٩) الوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثنى بعد ذلك بأنثى، وكانوا يتركونها لآلهتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، أو الشاة إذا ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلا يذبحون أخاها من أجلها. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٧٣.

(رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه[1] في النار، وكان أول من سيب السوائب)[2].

والحديث رتب هذا العذاب الشديد في النار، لكون عمرو هو أول من أدخل الأصنام شبه الجزيرة، ولكونه باء بإثم العرب أجمعين لمَا تسبب في الشرك، وبذر بذوره الأولى، والله أعلم.

(١) قصبه: بضم فسكون أي: أمعاءه وجمعه أقصاب، وعليه فالقصب اسم للأمعاء كلها، وقيل: هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٦٧ بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري، واللفظ له، في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة خزاعة، رقم ٣١٥١، ٦/ ١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم ٢٨٥٦، ٤/ ٢١٩.

أشهر أصنام العرب

عبدت العرب أصنامًا كثيرة، حتى لقد كان لكل دار من دور مكة صنم تعبده، ناهيك عن الأصنام التي يعبدونها في أسفارهم، وفي الأمكنة التي يحلون بها، فإذا ارتحلوا تركوها خلف ظهورهم ومضوا لحالهم، ومن ثم تعددت الأصنام بتعدد القبائل، بل بتعدد الدور والأسفار والأشخاص...

لكن البحث لا يتطرق لها كلها، بل يكتفي بالتعريف بأشهرها، والتي ذكرها الله تعالى، وستعرض في عجالة؛ خشية الملل والإطالة.

١. هُبَل.

كبير آلهة العرب، يحج إليه الناس من كل فج عميق، ولفظ «هبل» مشتق من لفظ أرامي.

معناه: الروح[3].

يذكر ابن الكلبي أن «أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يقال له: هبل خزيمة»[4].

لكن أبا الوليد الأزرقي يذكر عن ابن إسحاق: أن أول من نصبه هو عمرو بن لحي فيقول: «البئر التي كانت في جوف الكعبة كانت على يمين من دخلها، وكان عمقها

(٣) عبادة الأوثان، عكاشة عبد المنان الطيبي ص ٨١- ٨٢.

(٤) الأصنام ص ٢٨.

ثلاثة أذرع، يقال: إن إبراهيم وإسماعيل حفراها ليكون فيها ما يهدى للكعبة، فلم تزل كذلك حتى كان عمرو بن لحي، فقدم بصنم يقال له: «هبل» من «هيت» من أرض الجزيرة، وكان هبل من أعظم أصنام قريش عندها، فنصبه على البئر في بطن الكعبة، وأمر الناس بعبادته»[1]، وكان هبل من عقيق[2] أحمر، على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب[3]، وكانوا يضربون بالقداح[4] عنده، يستقرئون بها الأمور المغيبة كما يزعمون[5]، ومثل ذلك فعل عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم حين أراد أن يذبح ابنه وفاء لنذره الذي نذر، والقصة مشهورة[6].

ولعله اتضح لنا بعض ما كان يفعله أهل الجاهلية من أمور تنم عن جهل وبعد عن الحق، حيث كانوا يستقرئون الغيب من حجارة صماء، لا تملك من أمر نفسها شيئًا.

٢. اللَّات.

كان هذا الصنم من أعظم أصنام قريش أيضًا، حيث كانوا يتقربون إليه بالقرابين والذبائح، وهو أحد الأصنام المذكورة في القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩].

وفي أصل اشتقاق لفظ «اللات» يقول الإمام الطبري: «اشتقاقه من الله، ألحقت فيه التاء فأنثت، كما قيل: عمرو للذكر، وللأنثى عمرة، وعباس وعباسة، فكذلك سمى المشركون أوثانهم بأسماء الله -تعالى ذكره-، وتقدست أسماؤه فقالوا: من الله اللات، ومن العزيز العزى، وزعموا أنهن بنات الله، تعالى الله عما يقولون وافتروا علوًا كبيرًا»[7].

وذكر ياقوت الحموي رأيًا آخر في أصل اشتقاق اللفظ، فيقول: «يجوز أن يكون من لاته يليته، إذا صرفه عن الشيء، كأنهم يريدون أن يصرف عنهم الشر...»[8].

وأيًا ما كان الأمر فالمراد أن: المشركين نسبوا إلى الله ما هو منه براء، وأوغلوا في الافتراء حين نسبوا إليه الأنثى وجعلوا لهم

(١) تاريخ مكة للأزرقي ١/ ١٤٠ بتصرف.
(٢) العقيق: حجر كريم أحمر يعمل منه الفصوص، يكون باليمن وسواحل البحر الأحمر. المعجم الوجيز ص ٤٢٨.
(٣) الأصنام ص ٢٨.
(٤) القداح: جمع قدح، بكسر القاف وسكون الدال، وهو قطعة من الخشب مستوية، قليلة العرض، متوسطة الطول، تجعل فيها حزوز تدل على نصيب صاحبها من الجزور وغيره وكانت تستعمل في الميسر المعجم الوجيز ص ٤٩١.
(٥) للمزيد يراجع: تاريخ مكة للأزرقي ١/ ١٤٠، ١٤١ بتصرف.
(٦) انظر في ذلك: البداية والنهاية ابن كثير ٢/ ٢٢٨، والسيرة النبوية ابن هشام ١/ ١٧٦.
(٧) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥١٩ بتصرف.
(٨) معجم البلدان للحموي ٥/ ٤، ٥.

الذكر.

هذا وإن المؤرخين وكتاب السير يكادون أن يجمعوا على أن أصل عبادة اللات تعود إلى «أن رجلًا يهوديًا ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف، يبيع السمن للحجيج إذا مروا فيلت سويقهم[1]، وكان ذا غنم، فسميت: صخرة اللات، فلما مات، قال لهم عمرو بن لحي: إن ربكم كان اللات، فدخل في جوف الصخرة»[2]، وعندئذ عبدوها واتخذوها إلهًا من دون الله تعالى.

ومن تعظيم العرب لهذا الصنم أنهم كانوا دائمًا يقسمون به في أيمانهم، بالإضافة إلى صنم «العزى» فيقول أحدهم: «واللات والعزى لأفعلن كذا وكذا.. إلخ».

ويروى عن بعضهم أنه كان يقسم باللات والعزى فقال[3]:

وباللات والعزى ومن دان دينها
وبالله، إن الله منهن أكبر

أرأيت معي كيف ضلت العرب ردحًا من الزمان بتعبدهم لهذه الأصنام وتقربهم إليها، حتى امتن الله عليهم وعلينا بنعمة الإسلام، وأعظم بها من نعمة.

٣. العزى.

ومن الأصنام التي كانت العرب تعظمها صنم «العزى»، وهي تأنيث الأعز أو العزيز، ومن تعظيم العرب لها أنهم كانوا يسمون أبناءهم بها، فسموا عبد العزى[4]، وهذا أمر شهير عنهم.

قيل: إن أول من دعا إلى عبادتها هو عمرو بن لحي والحارث بن كعب[5].

وعلى كلٍ فالمقصود أن العرب عبدت العزى من دون الله، ولا يؤثر في ذلك تحديد أول من دعا إلى عبادتها.

هذا وقد اختلف العلماء في تحديد ماهية صنم العزى ووصفه:

فعن مجاهد قال: «العزى شجيرات»[6].

ووافقه أبو الوليد الأزرقي حيث يقول: «كان العزى ثلاث شجرات بنخلة»[7].

وقال الطبري: «قال آخرون: كانت العزى حجرًا أبيض»[8].

ووافقهم ابن الكلبي في ذلك[9].

(١) لت الرجل السويق ونحوه لتًا: خالطه بسمن أو غيره، والسويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، والجمع أسوقة. انظر: المعجم الوجيز ص ٥٥١ (لت)، ص ٣٣٠ (ساق).

(٢) تاريخ مكة للأزرقي١/ ١٥٠، وبلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب، الآلوسي١/ ٢٠٣، والأصنام، ابن الكلبي ص ١٦.

(٣) البيت قاله الشاعر أوس بن حجر في ديوانه ص ٣٦.

(٤) الأصنام ص ١٧، ١٨ بتصرف.

(٥) انظر: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام للإمام، ابن الضياء المكي ص ٧٤.

(٦) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٢٠.

(٧) تاريخ مكة ١/ ١٥٠.

(٨) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٢١.

(٩) في الأصنام ص ١٨.

وحكى الطبري رأيًا ثالثًا فيقول: «قال آخرون: كان بيتًا بالطائف تعبده ثقيف»[1].

ولقد جمع بين هذه الآراء أحد المعاصرين فقال: «والرأي المعقول المقبول هو أن العزى صنم، له بيت، وأمامه غبغب، أي: خزانة- يضع فيها العباد المؤمنون بالعزى هداياهم ونذورهم لها، أما الشجيرات الثلاث فإنها شجيرات مقدسة أيضًا ؛ لأنها في حرم العزى، وشجر الحرم شجر مقدس لا يجوز قطعه؛ ولذلك كان أهـل مكة يتجنبون مس شجر الحرم بسوء، ويحذرون من أراد ذلك بسوء العاقبة»[2].

وبهذا يتم الجمع بين الآراء جميعها، ويتضح أن «العزى» هي مجموع ذلك كله، والله أعلم.

٤. مناة.

حظي صنم «مناة» هو الآخر بمثل ما حظيت به اللات والعزى من عبادة قريش، وتعظيمهم وتقديسهم إياه «وكانت العرب جميعًا تعظمه، وتذبح حوله، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قاربهما من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون، ولم يكن أحد أشد إعظامًا له من الأوس والخزرج، وكان منصوبًا على ساحل البحر من ناحية «المشلل» بقديد بين مكة والمدينة»[3].

هذا ولم يذكر أحد من العلماء سر جعل هذا الصنم على ساحل البحر دون بقية الأصنام، إلا ما ذكره بعض المعاصرين من «أن العرب كانت تذبح الذبائح عند مناة، وكانوا يفعلون ذلك ليستمطروا عندها الأنواء تبركًا بها، ويتبين من ذلك أن هذا الموضع كان مقدسًا، وقد خصص بإله ينشر السحب، ويرسل الرياح فتأتي بالأمطار لتغيث الناس، وإن لهذا الإله صلة بالبحر وبالماء، ولذلك أقيم معبده على ساحل البحر»[4]، ولأنهم كانوا يذبحون عندها الذبائح استنزالًا للمطر، قال بعض العلماء: «إنما سميت مناة؛ لأن دماء النسائك كانت تمني عندها، أي: تراق»[5] ومن شدة تعظيم العرب لهذا الصنم أنهم ما كانوا يميلون، وينحرفون عن طريقهم إذا ساروا من جانبه حتى لا يستدبروه، أو يكون خلف ظهورهم إعظامًا وتقديسًا له.

وهكذا ضل العرب جميعًا بعبادة هذه الأحجار وتقديسها، وأفنوا أعمارهم هباء في تعظيمها، ولقد عبدت العرب أصنامًا كثيرة غير هذه الأربعة، إلا أنها لم تحظ

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٢١.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ٦/ ٢٤٥ بتصرف.
(٣) الأصنام ص ١٣.
(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٤٧ بتصرف.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٢٣.

بالشهرة الواسعة مثل ما حظيت به هذه الأربعة، أمثال «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق... وغيرها» إلا أني اكتفيت بأكثرها شهرة وذيوعًا، وأضربت عن غيرها صفحًا تحاشيًا للإطالة.

حجج عابدي الأوثان

عبد المشركون الأوثان من دون الله تعالى، واحتجوا في عبادتهم هذه بعدة حجج وأسباب، تطرق البحث لبعضها فيما سبق، ويتطرق البحث هنا للبعض الآخر مستشهدًا عليه ببعض الآي التي ورد فيها، وهي كما يلي:

أولًا: تلبيس إبليس عليهم:

لا شك أن إبليس عليه اللعنة أصل كل شر، وأساس كل معصية وضلال، والمشركون نالوا من إضلاله وإغوائه أكبر حظ، وأوفر نصيب، فزين لهم الشيطان أعمالهم في عبادتهم الأوثان، وهذا السبب هو أصل لما بعده من أسباب عبادة الأصنام، من تقليد للآباء، وابتغائهم العزة في عبادتها، وجلب المحبة والخصب والرزق... ونحو ذلك من أسباب وأوهام، ومن ثم فلن أقف معه طويلًا، بل أشير فقط إلى مجمل الآيات.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ

﴿وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]...

والآيات كثيرة، وهي في مجملها تفيد أن الشيطان للإنسان بالمرصاد، يأمره بكل شر، من خمر وميسر وأنصاب وأزلام،... ويصده عن كل خير وطاعة لله تعالى، من توحيد وصلاة وذكر... وكل قربى لله رب العالمين، ولذلك فإنه يتوعد البشر ويمنيهم الأماني الفارغة، ولا شك أنها أمانٍ باطلة كاذبة، لكن لا يعلم البشر بكونها كذلك إلا في الآخرة بعد فوات وقت التنبه والإدراك.

ولا أدل على ذلك من ذكر الله تعالى في الآيات السابقة بعضًا من الأفعال القبيحة، ثم وصفها بقوله ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، ويفسر الإمام الطبري هذه الآية فيقول: «﴿رِجْسٌ﴾، أي: إثم ونتنٌ سخطه الله، وكرهه لكم ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

يقول: شربكم الخمر، وقماركم على الجزر، وذبحكم للأنصاب، واستقسامكم بالأزلام، من تزيين الشيطان لكم، ودعائه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم، بل هو مما يسخطه لكم ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يقول: فاتركوه وارفضوه ولا تعملوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: لكي تنجحوا فتدركوا الفلاح عند ربكم بترككم ذلك»[(١)].

كما تفيد الآيات أيضًا أن: إبليس تحقق ظنه على الناس -وبخاصة المشركون- حين تأثروا بوسوسته، وبادروا إلى العمل بما دعاهم إليه من الإشراك والكفران، وتقديم القرابين والنذور للآلهة من دون الله تعالى.

هذا والملاحظ على الآيات المباركات أمور:

الأول: أن ورود التعبير عن الوسواس هنا بتعبيرين: «الشيطان» و«إبليس»، يلحظ فيه معنيان، معنى «البعد عن كل خير وهدى»، وهذا مستفاد من الفعل« شطن» أصل كلمة «شيطان»، أما لو كان من «شاط أو شيط» أي: احترق، فهو أيضًا كذلك؛ لأنه يحترق غضبًا؛ حيث إنه مخلوق من نار[(٢)].

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٦٤.
(٢) المفردات، الراغب ص ٤٥٤.

كما أنه يلحظ من التعبير بإبليس معنى «الإبلاس» وهو«الحزن الشديد المعترض من شدة اليأس»[1]، فأبليس -عليه اللعنة- آيس ومطرود من رحمة الله تعالى، ولو لم يكن فيه إلا هذان الوصفان لكان كافيًا في البعد عنه، والتحذير من شره ووسوسته.

الثاني: ورود التعبير في التحذير من عداوة الشيطان في بعض الآيات بالفعل المضارع ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ للدلالة على تجدد هذا بالنسبة للشيطان مع أوليائه، فهو لا ييأس أبدًا، فيغير من أساليبه، وينوع من طرق إغوائه، حتى يصل إلى مقصوده من إضلال الناس، وإيقاعهم في الشرك والمعاصي، نسأل الله تعالى العفو والعافية.

الثالث: التعبير بالاسم في وصف عصيان الشيطان، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

يدل على دوام واستمرار عصيانه لربه سبحانه، ومن ثم فلن يرجى منه خير ألبتة، وعليه فينبغي الحذر منه غاية الحذر، حيث إنه العدو الألد لبني البشر جميعًا.

ثانيًا: تقليد الآباء والأجداد:

من أعظم مهام الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم محاربة العادات والتقاليد المخالفة للتوحيد، ولم يلق أحد منهم عنتًا وأذى أكثر من عنت محاربة الأعراف وتقليد الآباء والأسلاف، فهذا هود عليه السلام يجابهه قومه، ويردون دعوته بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وهذا صالح عليه السلام أيضًا يحارب موروث قومه عن آبائهم وأجدادهم، فيعترضون عليه أيضًا بمثل قولهم: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

وهذا موسى عليه السلام يحاربه قومه، وينافحونه في دعوته لهم، ويردون عليه بمثل ما قال السابقون، فيصرخون في وجه نبيهم قائلين له ولأخيه هارون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

وهذا مسك ختامهم محمد صلى الله عليه وسلم يجابهه قومه بمثل ما اعترض السابقون على أنبيائهم، فهم كما قال القرآن عنهم- بعد ذكر عدد من أنواع شركهم ووثنيتهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وكما قال أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ

(١) المصدر نفسه ص ١٤٣.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وهذه الآيات في عمومها تشير إلى هذا الداء الخطير الذي أصاب الأمم والأجيال المتعاقبة، ومقصوده ومعناها قريب وواضح، فمثلًا يذكر تعالى في الأخيرة منها أنه «إذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم فيه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والأنداد ونحوها، ثم يقول الله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم فهم ولا هداية!!».

وهكذا يعاني الدعاة في كل عصر ومصر من محاربة المألوف والعادة لصعوبة نقل الناس وإبعادهم عن هذه.

الموروثات المخالفة للشرع والدين، ولكن مع توفيق الله تعالى والصبر تذلل كل الصعاب، وتتجاوز كل المحن والإحن.

ثالثًا: ابتغاء العزة عندهم:

من الأسباب أيضًا كون المشركين يبتغون العزة لدى معبوديهم من الأوثان، وسبحان الله! أين هذه العقول التي تتطلب العزة والرفعة من حجارة صماء، لا تملك مثقال ذرة من نفع لأنفسها، فضلًا عن عابديها.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]

وهنا يقول تعالى ذكره: واتخذ هؤلاء المشركون من قومك يا رسول الله آلهة يعبدونها من دون الله؛ لتكون هؤلاء الآلهة لهم عزًا، يمنعونهم من عذاب الله، ويتخذون عبادتها عند الله زلفى، ورد الله تعالى زعمهم هذا بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ظنوا وأملوا من هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله، في أنها تنقذهم، وتنجيهم من عذاب الله، ومن سوء ما أراده بهم ربهم، ولكن سيكفر الآلهة في الآخرة بعبادة هؤلاء المشركين يوم القيامة إياها، وكفرهم بها: قولهم لربهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص ٦٣].

فجحدوا أن يكونوا عبدوهم أو أمروهم بذلك، وتبرءوا منهم، وذلك كفرهم بعبادتهم[1].

رابعًا: محبتها:

اعتقد المشركون في أوثانهم أنها تجلب المحبة، ومن ثم بادلوها نفس الشعور أو أكثر، فأحبوها محبة تفوق محبتهم لخالقهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٠.

ورازقهم، وفي ذلك يقول الله: ﴿أَشَدُّ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والأنداد -كما يقول الربيع- هي الآلهة التي تعبد من دون الله، يقول: يحبون أوثانهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله، أي: من الكفار لأوثانهم[(١)].

خامسًا: اعتقاد جلب الرزق:

من الأسباب الأكيدة لدى عباد الأوثان: اعتقادهم فيها أنها تجلب الرزق لهم، والإنسان بطبعه يحب المال والاستكثار منه، لكنه يضل حينما يعتقد في حجر أو شجر أنه يكون سببًا في جلب الرزق أو المال له.

ولقد نعى القرآن الكريم بطريق التصريح على هؤلاء الذين عطلوا عقولهم واعتقدوا في آلهتهم جلب الرزق، وبين لهم أنها لا تملك مثقال ذرة من ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وكذلك بطريق السؤال التقريعي أو التوبيخي الموجه لمن يعتقد في هذه الآلهة خيرًا أو رزقًا، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤].

والآيات في مجملها توضح أن الله تعالى له الأمر كله، وبيده الخير كله، من رزق ونفع وخير وبركة ونماء وإحياء وإماتة... ونحو ذلك، لا شريك له ولا ضد ولا ند، فعلام يضل هؤلاء ويعبدون غيره؟!

سادسًا: اعتقاد الشفاعة لهم عند الله:

يعتقد بعض المشركين أنها تشفع لهم عند الله تعالى، وأنها تقربهم عنده تعالى زلفى، وصرح القرآن عنهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

والمراد: «أن الذين اتخذوا من دونه أولياء، أي: آلهة وأصنامًا، يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله، وذلك التقريب هو الشفاعة في قول المفسرين، والزلفى: القربى»[(٢)].

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤٩ بتصرف.

(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٧٠ بتصرف.

بل ذكر القرآن في موضع آخر تصريحهم بشفاعة آلـهتهم لهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨].

ورد القرآن عليهم هذا الادعاء الباطل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وهنا يأمر الله تعالى «نبيه عليه السلام أن يقررهم ويوبخهم: أهم يعلمون الله بأنباء من السماوات والأرض لا يعلمها هو؟ وذكرت السماوات؛ لأن من العرب من كان يعبد الملائكة والشعرى»[(١)].

وهذا في الدنيا، أما يوم القيامة تكون الحسرة الكبرى والندامة العظمى لعابدي الأوثان حين لا يجدون ما رجوه فيها من شفاعة وإنقاذ من العذاب، ويوقنون أنهم كانوا على باطل، وفي ذلك يقول الله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وهذا يوم الحسرة والندم، ولات حينئذ مندم.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١١١ بتصرف.

محاورات الأنبياء عن عبادة الأوثان

حفل القرآن الكريم بكثير من محاورات الأنبياء مع أقوامهم حول عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، ونبذ عبادة الأوثان، وسيعرض البحث لبعض من هذه المحاورات فيما يلي:

أولًا: محاورات سيدنا نوح عليه السلام مع قومه:

لقد حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم عبدوا الأصنام، واتخذوها آلهة من دونه تعالى، متابعين في ذلك أسلافهم، فأرسل الله إليهم نوحًا عليه السلام داعيًا إياهم لنبذ عبادتها لكنهم آثروها على عبادة الله تعالى، ولم يكتفوا بذلك بل وصوا أبناءهم بعدم سماع دعوة نوح عليه السلام، ورد دعوته في فيه، ودارت حورات كثيرة بين نوح عليه السلام وقومه ذكرها القرآن، ونظرًا لأن البحث موسوعي لا يستطيع أن يأتي على هذه الآيات كلها، ويقف معها آية آية، لكن يكفينا ذكرها والإشارة إليها مجملة -كما هو منهج البحث- ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٣].

ففي هذه الآيات يبرز الحوار واضحًا جليًا، فكلما ذكر نوح عليه السلام قولًا راجعه فيه قومه، ووصفوه بالضلال هنا لدعوته إياهم لترك عبادة الأوثان.

وفي ذلك يقول ابن كثير: «قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا... فرد عليهم: ما أنا بضال، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغًا فصيحًا، ناصحًا بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات...

ثم يذكر تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم، لإنذاركم، ولتتقوا نقمة الله، ولا تشركوا به»[1].

وبعد كل هذه الحوارات والمناقشات لم يستجب له قومه، بل عارضوه وجادلوه، وردوا دعوته في وجهه، وتذكر آيات سورة هود طرفًا آخر من هذه المحاورات، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٥-٣٠].

وفيها يذكر الله طرفًا من محاورة نوح عليه السلام مع قومه، ويبين مدى شفقته عليهم في دعوته إياهم إلى التوحيد بعد نبذ الشرك وعبادة الأوثان، وبيان أنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم، فردوا عليه بقولهم: ما نراك يا نوح إلا آدميًا مثلنا في الخلق والصورة والجنس، كأنهم كانوا منكرين أن الله يرسل من البشر رسولًا إلى خلقه، وأضافوا أيضًا: وما نراك اتبعك إلا الذين هم سفلتنا من الناس، دون الكبراء والأشراف، فيما نرى ويظهر لنا، وما نتبين لكم علينا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٣٢ بتصرف يسير.

من فضل نلتموه بمخالفتكم إيانا في عبادة الأوثان إلى عبادة الله وإخلاص العبودية له، فنتبعكم.

ويحاورهم رسولهم بعد تكذيبهم له قائلًا: يا قوم أرأيتم إن كنت على علم ومعرفةٍ وبيان من الله لي ما يلزمني له، وما يجب علي من إخلاص العبادة له، وترك إشراك الأوثان معه فيها...، ثم يتساءل منكرًا عليهم موقفهم هذا: أنأخذكم بالدخول في الإسلام، وقد عماه الله عليكم؟![1].

وأيضًا يقول الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وهذه الآية وردت ضمن قصة نوح عليه السلام في السورة التي أفردت باسمه في القرآن، والمتأمل في الآيات وما قبلها يجد أنها تصف قوم نوح بأنهم فعلوا جرائم عظيمة، وأنهم اتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا، وأنهم مكروا مكرًا آخر عظيمًا، وهو قولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

وهذا ما أكده الفخر الرازي بقوله: «المكر الكبار هو: أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ فهم منعوا القوم من التوحيد، وأمروهم بالشرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر، فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار»[2].

وقيل: المكر الكبار هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح عليه السلام.

وقيل: هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد، حتى قال الضعفة: «لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم»..

وقيل: غير ذلك[3].

وأيًّا ما كان الأمر فالمراد: أن قوم نوح عليه السلام عبدوا الأصنام من دون الله تعالى، وسموها بهذه الأسماء؛ لأنها كانت لقوم صالحين، ظهر فيهم الصلاح في زمن نوح عليه السلام فماتوا، ونشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فأشار عليهم إبليس بأنهم إذا صوروهم على هيئة تماثيل كان ذلك أنشط لهم في العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم.. فعبدوهم.

وهذا ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر أصنام قوم نوح عليه السلام فقال عنها: «.. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا،

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٩٩ بتصرف وتلخيص.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ١٤٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٢٦.

وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»[1].

ومع كون قوم نوح عليه السلام لم يستجيبوا لهم، إلا أنه لم يرضخ لذلك، بل نوع لهم أساليب الدعوة وأوقاتها ووسائلها علهم يستجيبون، على نحو ما وصفه الله تعالى بقوله عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥-٩].

حتى إنهم ضجوا وصرخوا في وجهه عليه السلام بقولهم: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٢-٣٣].

لكن نوحًا عليه السلام لم يرضخ لهم، بل استمر في دعوته، فآمن به من آمن فكان من الناجين، وكفر من كفر فكان من الهالكين الغاوين.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ودًا ولا سواعًا ولا يغوث..)، ٨/ ٦١.

ثانيًا: محاورات سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه:

ذكر القرآن الكريم محاورة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه على قسمين:

القسم الأول: محاورات خاصة بإبراهيم عليه السلام مع أبيه، **والقسم الثاني:** محاورة إبراهيم عليه السلام مع قومه أو مع قومه وأبيه معًا، وسيكون الحديث أولًا بما يتعلق بشأن محاورة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه، في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

أرجح الأقوال في بيان المراد بـ«آزر»: أنه اسم أبي إبراهيم عليه السلام؛ وذلك لأن الله تعالى سماه بهذا الاسم، ولا شيء فوق كلام الله تعالى، فضلًا عن أن الرسول صلى الله عليه وسلم سماه هو الآخر آزر، فيما ورد صحيحًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَترة وغبرة ....) الحديث[2]، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم آزر أيضًا[3].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، رقم ٢٩٩٥، ٥/ ٣٣٥.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢٥ بتصرف. والقترة المذكورة في الحديث معناها: ما يغشي الوجه من الكرب، والغبرة ما يعلوه

والضلال هو العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية.

قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

ويقال: الضلال لكل عدول عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدًا[(١)].

وعلى هذا فالمعنى: إني أراك وقومك في خطأ وعدول عن الطريق المستقيم لعبادتكم الأصنام من دون الله تعالى، وهذا الخطأ بين واضح لكل ذي لب وعقل مستقيمين.

هذا ولقد اشتمل كلام إبراهيم عليه السلام «على ذكر الحجة العقلية على فساد قول عبدة الأصنام من جهتين:

الأولى: أن قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ يدل على أنهم كانوا يقولون بكثرة الآلهة، إلا أن القول بكثرة الآلهة باطل بالدليل العقلي المفهوم من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

الثانية: أن هذه الأصنام لو حصلت لها قدرة على الخير والشر لكان الصنم الواحد كافيًا، فلما لم يكن الواحد كافيًا دل ذلك على أنها -وإن كثرت- لا نفع فيها ألبتة[(٢)].

وهكذا أبطل سيدنا إبراهيم عليه السلام مذهب الوثنيين بالبرهان الساطع والدليل القاطع، وبخاصة إذا نظرنا إلى الآيات التالية لهذه الآية، وفيها من الحجج والبراهين الواضحة ما يغني عن التعليق عليها.

وهكذا وصل إبراهيم عليه السلام إلى ما يريد من أقرب طريق، وأسلك سبيل، فينبغي على الدعاة أن يترسموا هذا الخطى، ويسيروا في ضوئه، فيلينوا في دعوتهم ولا يعبسوا في وجوه من يدعونهم؛ حتى ترتفع بهم دعوتهم، ويصلوا بها إلى الغاية المنشودة، وهذا ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم -والأمر للرسول أمر لأمته ما لم يرد دليل على التخصيص- في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

هذا وإن من أعظم الحوارات القرآنية التي ينبغي أن يتعلمها الأبناء في محاوراتهم مع آبائهم، وكذلك الدعاة مع مدعويهم ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ

من الغبار، وقيل غير ذلك. انظر فتح الباري ٨/ ٣٥٨.

(١) المفردات، الراغب ص٥٠٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي١٣/ ٣٤.

﴿يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

فهذه الآيات تحمل في مجملها أدبًا جمًا، وخلقًا رفيعًا في تعامل الأبناء مع الآباء مهما كانوا مخالفين لهم، وحتى لو كانوا على طريق الكفر والعصيان، ولن يصل الآباء المسلمون اليوم إلى هذه الدرجة، ومع ذلك نجد الإباء والجفاء والنفور من الأبناء في تعاملهم مع آبائهم سواء أكانوا صالحين أم طالحين، اللهم إلا من رحم ربي، نسأل الله تعالى الهداية والرشاد لأبنائنا وجميع أبناء المسلمين، اللهم آمين.

ومن آيات القسم الثاني: التي عرضت لمحاجة إبراهيم مع قومه:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

إلى أن قال سبحانه: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

فهذه الآيات تصور مشهدًا من مشاهد قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ومحاوراته مع قومه، وتحمل في طياتها كثيرًا من الجوانب العظيمة والتربوية في الحوار الهادف، حيث إن إبراهيم عليه السلام خاطب قومه بلغة الحوار الهادئ، وسألهم عن حقيقة هذه التماثيل التي يعبدونها من دون الله تعالى قائلًا:

« ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

والعكوف: عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء، والمراد: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣].

أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء، أي: وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشيًا على طريقتهم، وهكذا يجيب كل المقلدة.

وأجابهم الخليل عليه السلام بقوله: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذي عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوي هذا الخسران خسران، ثم لما سمع أولئك

مقالة الخليل قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]؟

أي: أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح؟ فقال مضربًا عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد: بل ربكم رب السماوات والأرض الذي خلقهن وأبدعهن، وأنا على ذلكم الذي ذكرته لكم من الشاهدين العالمين به المبرهنين عليه.

فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه: هل فعل ذلك لإقامة الحجة عليه في زعمهم، ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

أي: قال إبراهيم مقيمًا للحجة عليهم، مبكتا لهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾، مشيرًا إلى الصنم الذي تركه، ولم يكسره، فسألوهم إن كانوا ممن يمكنه النطق، ويقدر على الكلام، ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه، أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم، ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله.

فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة؛ لأنهم إذا قالوا: إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه؟

وذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته، وقيل: أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك؛ لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه، إرشادًا لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تدفع، لا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم.

ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم: لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام.

فقال إبراهيم مبكتًا لهم، ومزريًا عليهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

بنوع من أنواع الضرر، ثم تضجر عليه السلام منهم، فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[الأنبياء: ٦٧].

وفي هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم، والتأفف: صوت يدل على التضجر، أليس لكم عقول تتفكرون بها، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتموه... »[1].

وهكذا حاور سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه، لكنهم قد تمكنت الوثنية منهم، فلم يجد الحوار معهم نفعًا، ولم يفدهم شيئًا، ولم يكن عندهم من مكافأة لنبيهم بعد كل

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٦ بتصرف وتلخيص.

هذه الحوارات الهادئة الهادفة إلا إضرام النار له، وإلقاؤه فيها، ولكن الله تعالى لم يتركه وحده، ونجاه من مؤامرتهم، فأمر النار فكانت بردًا وسلامًا.

ثالثًا: محاورات موسى عليه السلام مع قومه:

من المعلوم أن قوم موسى عليه السلام كانوا أصحاب جدال ومراء، ونفوس أبية، تأبى أن تنصاع للحق بيسر وسهولة وسرعة، ولقد ذكر القرآن لهم أكثر من موقف يدلل على هذه الطبيعة المتمردة.

ومن هذه المواقف: انتهازهم فرصة غياب موسى عليه السلام مدة مواعدة ربه لتلقي التوارة، فاستضعفوا أخاه هارون عليه السلام وقام السامري بجمع حليهم وصنع لهم منه عجلًا جسدًا، يصدر صوتًا إذا مر فيه الهواء، ولـما رجع موسى عليه السلام ورأى ما حدث غضب غضبًا شديدًا لما حدث، وقام بإهلاك العجل، ودعاهم محاورًا إياهم، ومجددًا ما اندرس من أمر التوحيد لديهم، وإلى عبادة الله الواحد الأحد.

وهذا ما ذكره القرآن في أكثر من موطن[1]، وسيكون التعليق على مجملها.

ومن هذه المواطن: ماذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفٗا

(١) ذكرت قصة العجل إجمالاً أو تفصيلاً في ثمانية مواطن من القرآن الكريم في سور: البقرة/ ٥١، ٥٤، ٩٢، ٩٣، والنساء/ ١٥٣، والأعراف/ ١٤٨، ١٥٢، وطه/ ٨٨.

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٨٣-٩٨].

ففي هذه الآيات الكريمة يتجلى الحوار البناء في أبهى صوره، وتبين لنا الآيات مدى بلاهة بني إسرائيل في عبادتهم العجل، «وهذا من بلادتهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جمادًا، فظنوه إله الأرض والسماوات، أفلا يرون أن العجل لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه، ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدرون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدار الله لهم»[(١)].

ولم تقتصر سخافة عقول بني إسرائيل على هذا الموقف فقط، بل إنهم عادوا إلى الوثنية، وطلبوها من نبيهم صراحة، في موقف لا يمكن لعقول الفطناء أن يذهلوا فيه عن صاحب الفضل، ومولي النعم سبحانه وتعالى، فبعد أن أنجاهم الله تعالى من عدوهم فرعون، ومروا على وثنيين طلبوا من موسى عليه السلام مباشرة أن يجعل لهم إلهًا يتعبدون له مثل هؤلاء، ولا زالت أقدامهم ملطخة بالطين مبتلة من أثر إنجاء الله لهم من عدوهم الألد...

ذكر القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

وسبحان الله العظيم، بهذه السرعة جحد بنو إسرائيل نعمة المنعم سبحانه، فما هي إلا لحظات والعدو كان يطاردهم، فإذا بهم يطلبون آلهة غير الذي نجاهم، وأنقذهم بعد الموت المحقق، ولا غرو في ذلك، فهذه هي طبيعة بني إسرائيل المتمردة، وهذه هي عادتهم مع أنبيائهم، الأمر الذي حدا ببعض المفسرين أن يقول: إن الغرض من سياق ذلك « أن يعلم حال الإنسان، وأنه كما وصف ظلوم كفار، جهول كنود[(٢)]، إلا من عصمه الله، وكذلك لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة»[(٣)].

أقول: أما الأول فنعم، وأما الثاني فلا، وذلك لأن السورة الكريمة مكية[(٤)]، ومعنى هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١١.

(٢) كنود: أي كفور، يقال: كند فلان النعمة، أي: كفرها وجحدها، وبابه دخل، فهو كنود، وامرأة كنود أيضًا . يراجع: مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي ص ٢٦٥.

(٣) الكشاف ٢/ ١٤٤ بتصرف.

(٤) تقريب المأمول في ترتيب النزول، الجعبري ص٤.

يكن قد رأى من يهود المدينة شيئًا؛ لأنه لم يكن قد هاجر إليها بعد، اللهم إلا إذا عني بالماضي: الاستقبال، فيحمل قوله: «مما رأى» على «مما سيرى»، والله أعلم.

والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى عليه السلام، وفي جملة ما يتقرب به إلى الله تعالى، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى عليه السلام: اجعل لنا صنمًا نفرده بالعبادة، ونكفر بربك، فعرفهم موسى عليه السلام أن هذا جهل منهم، إذ سألوا أمرًا حرامًا فيه الإشراك في العبادة، ومن ثم يتطرق بهم إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله عز وجل[1].

لكن من يعلم طبيعة بني إسرائيل المتمردة لا يستبعد صدور مثل هذا القول منهم؛ لذلك رد موسى عليه السلام قولهم هذا في أفواههم على الفور، راميًا إياهم بالجهل، فقال يخاطبهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ «فهذا وصف لهم بالجهل على أتم وجه، حيث لم يذكر له متعلقًا ولا مفعولًا؛ لتنزيله منزلة اللازم، أو لأن حذفه يدل على عمومه، أي: «تجهلون كل شيء» فيدخل فيه الجهل بالربوبية بالطريق الأولى، وأكد ذلك بـ «إن» في «إنكم» وتوسيط «قوم» وجعل ما هو المقصود بالإخبار وصفًا له وهو «تجهلون» ليكون كالمتحقق المعلوم»[2].

هذا ولقد تحاور موسى عليه السلام وعلل ما نهاهم عنه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: «إن هؤلاء العاكفين على هذه الأصنام، الله مهلكٌ ما هم فيه من العمل ومفسده، بإثابته إياهم عليه العذاب المهين، ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتهم إياها فمضمحل؛ لأنه غير نافعهم عند مجيء أمر الله وحلوله بساحتهم، ولا دافعٌ عنهم بأس الله إذا نزل بهم، ولا منقذهم من عذابه إذا عذبهم في القيامة، فهو في معنى ما لم يكن»[3].

ومن البدهي أن هذا السؤال لم يكن قد صدر من بني إسرائيل جميعهم، بل من بعضهم «وإنما نسب إلى الجميع لموافقة بعضهم بعضًا في ذلك، فكأنه قد صدر من جميعهم»[4]. والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) تفسير ابن عطية ٢/ ٤٤٧ بتصرف.

(٢) روح المعاني، الآلوسي ٥/ ٤٠ بتصرف.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٨٣ بتصرف.

(٤) قصص القرآن من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل، محمد بكر إسماعيل ص ١٩٤ بتصرف.

صفات الأوثان في ضوء القرآن

من القواعد المقررة أن «التخلية مقدمة على التحلية» والقرآن الكريم سلك مع المشركين هذه الطريقة، فقدم ما يبين حقيقة معبوداتهم، وأنها لا تملك أي وسيلة من وسائل الإدراك أو النفع أو دفع الضر عن نفسها، فضلًا عن عابديها، فكيف يعبدونها من دون الله تعالى ؟! ثم دعاهم إلى عبادته وتوحيده سبحانه.

والبحث هنا سيوضح هذه القضية من خلال ما يلي:

أولًا: نفي العقل والنطق والسمع والبصر عنها:

نفى القرآن العقل صراحة عن الآلهة التي عبدها المشركون من دون الله، ونفي العقل عنها هو بيت القصيد، والأصل لما بعده؛ إذ ما فائدة السمع والبصر والنطق من غير العقل؟!

فهو وحده كافٍ في نفي ألوهية هذه الأوثان، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

وهنا «يقول تعالى ذاما المشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالًا من الحيوان بكثير»[1].

ونفى القرآن عن الأوثان أيضًا السمع والبصر والنطق... ومن ثم فلم يكن لديها أي سبب من أسباب العبادة، فعلام يعكف هؤلاء الوثنيون على عبادتها ودعائها من دون الله تعالى ؟!

ولقد مر بنا آنفًا في محاورة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ما وصف به الأوثان مخاطبًا إياه في قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

وكذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧-١٩٨].

والمراد: قل للمشركين يا رسول الله: وإن تدعوا الذين تدعون من دون الله إلى الهدى لا يسمعوا، والهدى على هذا الوجه ما فيه رشد ونفع للمدعو، وذكر ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ لتحقيق عدم سماع الأصنام، وعدم إدراكها؛

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٠٢.

لأن عدم سماع دعوة ما ينفع لا يكون إلا لعدم الإدراك.

ولهذا خولف بين قوله هنا: ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ وقوله في الآية السابقة: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

لأن الأصنام لا يتأتى منها الاتباع؛ إذ لا يتأتى منها المشي الحقيقي ولا المجازي، أي: الامتثال»[(١)].

ثانيًا: عدم قدرتها على دفع الضر أو جلب النفع:

أكثر القرآن الكريم هذا الوصف بالنسبة للأوثان، حتى أربت مواطن الحديث عن هذا الوصف على عشرة مواطن، وتنوعت فيها الأساليب، فمنها: ما ورد بصيغة الخبر، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢-١٣].

ومنها: ما ورد بصيغة النفي، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

ومنها: ما ورد بصيغة النهي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

أما ما ورد بصيغة السؤال فكثير، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]... وغيرها من الآيات.

ويلحظ على هذه الآيات جميعًا عدة أمور:

أولها: تفيد الآيات كلها صراحة عدم قدرة الأوثان على دفع الضر عن نفسها، فضلًا عن عابديها.

ثانيها: يلحظ في بعضها تقديم نفي الضر على النفع، والبعض الآخر العكس، وإنما يقدم الضر على النفع؛ لأن التحرز عن الضر أهم من تحري النفع[(٢)]، أو هو من قبيل درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، أو التخلية قبل التحلية.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٢٥ بتصرف.

(٢) تفسير القاسمي ٣/ ١٩٢ بتصرف.

وإنما قدم النفع على الضر في آيات؛ لأن جلب النفع محبب إلى النفس ومرغوب، والله أعلم.

ثالثها: تنوع الصيغ في بيان هذه الصفة للدلالة على كمال الإقناع وإقامة الحجة، فمن لم يقتنع بالأسلوب الخبري نفعه أسلوب النفي أو النهي أو السؤال... وقلبنا أساليب القرآن حتى يوقن ويهتدي، وإلا قامت عليه الحجة والبرهان، والله أعلم.

رابعها: الآيات تفيد في مجملها إخبار المشركين أنه «لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا يقدر أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الأبدان، وسعة الأرزاق، فإن الضار والنافع هو الله تعالى، لا من تعبدون من دونه، ومن لم يقدر على النفع والضر لا يكون إلهًا»[1]، وعليه فمن لا يملك شيئًا منهما لا يصلح للإلهية على الإطلاق!.

ومما يدخل في نفي جلب النفع: عدم استطاعة الأصنام جلب الرزق لأحد من الخلق على الإطلاق، كما صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وكذلك يدخل فيه نفي النصرة عنها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥]. والله أعلم.

ثالثًا: بيان أنها لا تستطيع أن تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة لله رب العالمين:

من الصفات التي وصف بها القرآن الأوثان، ورد بها على عابديها بيان أنها مخلوقة ومربوبة لله رب العالمين، فهي لا تستطيع أن تخلق شيئًا على الإطلاق، ولا تملك مثقال ذرة من ذلك، فكيف تملكه لعابديها! وجاء هذا الرد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٠-٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٦٧.

﴿حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]... والآيات في هذا الشأن وفيرة ومتنوعة، مما يدل على أهمية هذا الموضوع، واعتناء القرآن به.

والله تبارك وتعالى يجلي لنا في هذه الآيات بعضًا من صفات الأصنام، ويبين حقيقتها لعابديها ولجميع المؤمنين، ومن أوضح صفاتها أنها مخلوقة ومربوبة لله رب العالمين أو أنها مصنوعة بأيدي عابديها، فهم الذين نحتوها، واتجهوا إليها بالعبادة «والمقصود إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للإلهية، فهي لا تقدر على خلق أي شيء على الإطلاق»[(١)].

والأوثان لا تصلح للإلهية لأن «من حق المعبود أن يكون خالقًا لعابده لا محالة»[(٢)].

فالآيات ترد على عبدة الأوثان ببيان أوصافها لهم علهم يثوبون لرشدهم، ويرجعون عن غيهم ويتركون عبادتها إلى عبادة الله تعالى.

وهكذا جلى الله تعالى حقيقة الأصنام، وبين ماهيتها وكنهها، وأنها أحقر المخلوقات؛ إذ أنها لا تستطيع حتى دفع الضر عن نفسها، ولا تستطيع النصرة فضلًا عن كونها مخلوقة.. إذًا فلم يبق شيء يعبدها عابدوها من أجله، فكيف يتوجهون إليها بالعبادة والدعاء؟! اللهم لا يفعل ذلك إلا المغفلون والدهماء.

هذا والملاحظ على الآيات هنا: أنها جاءت بعدة أوصاف للأوثان، وهي:

الوصف الأول: كونها لا تخلق شيئًا على الإطلاق، فضلًا عن كونها مخلوقة مربوبة لله رب العالمين، أو ينحتها العابدون بأيديهم، وليس قوله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ تكرارًا لما سبقه من قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ لأن «المذكور هناك أنهم لا يخلقون شيئًا، والمذكور هنا أنهم أيضًا لا يخلقون شيئًا وهم مخلوقون لغيرهم، فكان هذا زيادة في المعنى، وكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم، فبين أولًا أنها لا تخلق شيئًا، ثم ثانيًا كونها مخلوقة لغيرها»[(٣)].

الوصف الثاني: جاء في قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي هذه الأصنام إنما هي موتى لا حياة ولا حراك فيها «فلو كانت آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي: غير جائز عليها الموت، كالحي الذي لا يموت سبحانه، وهذه الأصنام على العكس من ذلك»[(٤)].

الوصف الثالث: كونها لا تعلم عن البعث شيئًا، وهذا ما ذيلت به الآية الثانية من سورة النحل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٣٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٥/ ١٣٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٦- ١٧ بتصرف.
(٤) المصدر نفسه ٢٠/ ١٧.

وفائدة وصف الأصنام بهذا: «التهكم بالمشركين، وأن آلهتهم لا تعلم وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت يجازون فيه على عبادتها؟.

وقيل: معناه: أن الأصنام لا تعرف متى يبعثها الله تعالى»[1].

وكلا المعنيين مرادان من الآية، إلا أن الراجح أولهما لما فيه من التهكم بأولئك الجهال الذين عبدوا الأصنام من تلقاء أنفسهم دونما حجة مقنعة.

ولكن كيف وصفت الأصنام بأنها أموات مع كونها جمادات لا يصح أن يطلق عليها هذا الوصف؟

والجواب: «أن القوم لما وصفوا تلك الأصنام بالإلهية قيل لهم: ليس الأمر كذلك، بل هي أموات لا تعرف شيئًا، فجاءت العبارة على وفق معتقدهم فيها»[2].

أرأيت كيف ضل العرب وغيرهم ردحًا من الزمان بتوجههم إلى هذه الأحجار بالعبادة والدعاء، وكيف رد القرآن عليهم، وفند شبههم بما لا يبقى لهم معه أدنى حجة، ولقد أفادتنا هاتان الآيتان جديدًا، وهذا الجديد تمثل في ذكر ثلاث صفات مجتمعة للأصنام.

وجاء التصريح بها «للتنبيه على كمال حماقة المشركين، وأنهم لا يعرفون ذلك إلا بالتصريح»[3]، لا التلميح أو التلويح. والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) المصدر نفسه ٢٠/ ١٧ بتصرف.

(٢) ينظر في الجواب مع بقية الأوجه مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٧.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٧/ ٣٦١ بتصرف.

مظاهر تقديس العرب للأصنام

لقد تعبد العرب للأصنام وقدسوها بأمور عديدة، يذكر البحث هنا بعضًا مما ذكره القرآن الكريم، ولكن في ثوب المعالجة التفسيرية، وأول ما يطالعنا من هذه المظاهر:

أولًا: عبادة الأصنام، والعكوف عليها، والتوجه إليها بالدعاء والتضرع:

والقرآن الكريم تحدث عن هذا المظهر في كثير من آياته، والآيات في هذا الشأن أكثر من أن تحصى، فعن العبادة والدعاء يقول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وفي العكوف عليها والاستمساك بها يقول الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢]... الآيات.

وبما أن المقام لا يتسع لتناول جميع هذه الآيات ونظائرها مفردة بالشرح والدراسة، فإن البحث يشير إجمالًا إليها وإلى أهم ما تحتويه:

الدعاء يرد في القرآن الكريم على معانٍ من أهمها:

- العبادة: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يعني: أنعبد، ومنه آياتنا محل الدراسة.
- القول: ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥]. يعني: ما كان قولهم إذ جاءهم عذابنا إلا أن قالوا: إنا كنا ظالمين.
- النداء: ومنه قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. أي: فنادى ربه.
- الاستغاثة: فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

أي: استغيثوا بهم[1].

والآيات التي معنا جاء الدعاء فيها بمعنى العبادة، ويحتمل أن يكون بمعنى التسمية، فمعنى «تدعون من دون الله» أي: «تعبدونهم وتسمونهم آلهة»[2].

وأقول: يحتمل أن يكون الدعاء على حقيقته من طلب قضاء الحوائج وتلبية المصالح التي يتوجهون بها إلى آلهتهم. والله أعلم.

وهنا يخاطب الله تعالى المشركين عباد الأوثان، موبخًا إياهم على عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع بقوله: إن الذين تدعونهم عباد أمثالكم، مخلوقون ومربوبون لله رب العالمين، لا يخرجون عن طوعه وأمره؛ لأنهم مملوكون له، كما أنتم له مماليك، فإن كنتم صادقين في اعتقادكم فيها، فادعوها ولتستجب لدعائكم إذا ما دعوتموها، وإلا فأيقنوا أنها لا تنفع ولا تضر؛ لأنهما إنما يكونان ممن يملكهما وهو الله تعالى[3].

ولكن لم وصف الله الأصنام بأنها «عباد» مع أن هذا اللفظ لا يطلق إلا على العقلاء من البشر؟

وللجواب نقول: وصفت بذلك من حيث كونها مملوكة مسخرة، فصح إطلاق لفظ «العباد» عليها لذلك، وقيل: وصفت بذلك بناء على أن المشركين لما ادعوا أنها تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة؛ فلذا ورد هذا اللفظ على حسب ما يعتقدون.

وقيل: إن هذا اللفظ «عباد» ورد في معرض الاستهزاء بهم، وسيق على سبيل الفرض والتقدير، كأنه قيل: إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم، فإن ثبت ذلك فلا فضل لهم عليكم، فلم جعلتم أنفسكم عبيدًا، وجعلتموها آلهة وأربابًا»[4].

ولا مانع من الجمع بين هذه الأوجه جميعها؛ لأنه لا تدافع بينها، فالأصنام مملوكة لله فهي من عباده، والمشركون يعتقدون فيها النفع والضر، فخوطبوا على حسب ما يعتقدون استهزاء وسخرية بهم، وبهذا يتم الجمع بين الوجوه الثلاثة.

والله تعالى هنا يذكر عن عباد الأصنام أمرين:

الأول: عبادتهم للأصنام.

الثاني: أنهم جعلوها شفعاء لهم عند الله.

أما الأول: فقد نبه على فساده من وجهين:

أحدهما: أن المعبود لابد وأن يكون أكمل قدرة من العابد، وهذه الأصنام لا

(١) انظر في تفصيل هذه الوجوه والاستشهاد عليها: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان البلخي ص ٢٨٥- ٢٨٨.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٢٩١ المطبوع مع زادة.

(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٥٠ بتصرف وتلخيص.

(٤) حاشية زادة على البيضاوي ٢/ ٢٩١ بتصرف.

تنفع ولا تضر ألبتة، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد، وإذا كان العابد أكمل حالًا من المعبود كانت العبادة باطلة.

ثانيهما: أن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهي لا تليق إلا بمن صدر منه أعظم أنواع الإنعام، من حياة وقدرة وعقل ونحوها، وهذا لا يصدر إلا من الله تعالى فوجب أن لا تليق العبادة إلا به سبحانه [(١)].

والأمر الثاني الذي حكاه الله عنهم: قولهم عن الأصنام: أنها ستشفع لهم عند الله تعالى، وإنما صدر عنهم هذا القول «لتوهمهم أنهم ليسوا أهلًا للاشتغال بعبادة الله تعالى، بل يشتغلون بعبادة الأصنام، ويدعون أنها تشفع لهم عند الله تعالى» [(٢)].

هذا بالنسبة للعبادة والدعاء والتضرع، أما بالنسبة للعكوف فقد عرفه الراغب بقوله: «العكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له» [(٣)].

وقال صاحب البصائر: «العكوف على الشيء: الإقبال عليه مواظبًا. وعكفه يعكفه ويعكفه عكفًا: حبسه، والقوم حوله: استداروا، وقوم عكوف: عاكفون» [(٤)].

هذا والملاحظ على آيات «العكوف» أمور، هي:

الأول: ورد التعبير عن العكوف في قصة بني إسرائيل بالفعل المضارع «يعكفون» للدلالة على تجدد عكوف هؤلاء القوم على عبادة الأصنام، وأنهم يجددون ذلك لها حينًا بعد حين، وكان التعبير بالمضارع هنا مناسبًا لأن أحداث القصة تناسب ذلك، فبنو إسرائيل مروا عليهم بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من فرعون -عليه اللعنة-.

الثاني: وورد التعبير عن العكوف في بقية الآيات بالاسم «عاكفين-عاكفون-عاكفًا» للدلالة على الدوام والاستمرار، وأن المشركين في عهد إبراهيم عليه السلام عبروا عما يجيش في صدروهم من طول المكث، وعدم وجود نية التحول عن عبادة الأوثان إلى غيرها.

الثالث: الاستفهام في الآيات مجازي بمعنى التحقير والتقرير، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام، ولكنه سألهم ليريهم أن ما كانوا يعبدونه ليس مستحقًا للعبادة؛ لما ترتب على جوابهم من أوصاف معبوداتهم التي هي منافية للعبادة [(٥)].

الرابع: لما سألهم إبراهيم عليه السلام عن الذي يعبدونه لم يقتصروا على ذكره فقط، بل أجابوا بما يزيد عليه، فقالوا: ﴿نَعْبُدُ

(١) المصدر نفسه ١٧/ ٢٢٧.
(٢) المصدر نفسه ١٧/ ٢٢٧ بتصرف.
(٣) المفردات ص٥٧٩.
(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٨٦.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٦٢ بتصرف.

﴿أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

ولم يقتصروا على أن يجيبوا بقولهم: «أصنامًا» للدلالة على ابتهاجهم وافتخارهم بعبادهم هذه؛ لذا أتوا بقصتهم كاملة[(١)].

الخامس: عبروا بقولهم: ﴿فَنَظَلُّ﴾ لأنهم كانو يعبدونهم بالنهار دون الليل، أو معناه: الدوام[(٢)]، والله أعلم.

ثانيًا: ذبح الذبائح والقرابين باسم الأصنام:

هذا هو المظهر الثاني من مظاهر تقديس الأصنام وعبادتها، وجاء الحديث عن هذا المظهر في القرآن الكريم في ثوب تحريم الذبح والإهلال لغير الله تعالى في أربع آيات من القرآن الكريم وهي -حسب ورودها في المصحف- كما يلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل: ١١٥].

هذه الآيات المباركات تكشف لنا عن لون من ألوان تعبد الوثنيين لأصنامهم، وهو أنهم كانوا يذبحون الذبائح باسمها، ويرفعون أصواتهم بها عند الذبح، وينذرون النذور لها، ويتزلفون بمختلف القرابين؛ لذا فإن ربنا سبحانه وتعالى نهى المسلمين عن مثل هذه الصور المحرمة، والشركيات الباطلة.

وأصل الإهلال -كما يقول الراغب- رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لكل صوت، وبه شبه إهلال الصبي إذا ولد، حيث يستهل صارخًا، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي ما ذكر عليه اسم غير اسم الله وهو ما كان يذبح لأجل الأصنام[(٣)] لأجل التقرب لها، والظفر بحسن المنزلة لديها.

وحرم الله تعالى أكل ما ذبح على غير اسمه تعالى «لخبثه معنويًا؛ لأنه ذكر عليه اسم غير خالقه المنعم به عند ذبحه، ولولا ذلك لكان حلالًا، وسمي الذكر إهلالًا لما فيه من الإهلال، أي: رفع الصوت.. »[(٤)].

ولقد كان أهل الجاهلية يذبحون باسم أصنامهم، وكان عند كل صنم مذبح

(١) المصدر نفسه ٨/ ١٦٢ بتصرف.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٦٢، ومدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٦٧.
(٣) المفردات ص ٥٢٢ بتصرف.
(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية ١/ ٢٦٣ بتصرف.

يذبحون فيه القرابين، ومن مظاهر تعبدهم عند الذبح أنهم كانوا يأخذون بعضًا من دماء هذه القرابين، ويلطخون بها الأصنام تخليدًا لذكرى تعبدهم بالذبح عندها، ومن جهلهم أنهم كانوا يذبحون ذبائح كثيرة يلقونها بجوار الصنم زاعمين أنها للآلهة فلا يقربها أحد، ويكون مصيرها في النهاية الهلاك، أو طعمة للسباع والطيور... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا وإن الآيات عامة في «تحريم ذبيحة الوثني والمجوس والمعطل، فهي كلها حرام كذبيحة من ذكر اسم غير الله عليها»[1].

ومن ضمن المحرمات المذكورة في الآيات: قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ والنصب: هي الحجارة التي تنصب حول الكعبة وما جاورها لتذبح عندها الذبائح، وكانوا يلطخون أصنامهم بدمائها.

وفي ذلك يقول بعض العلماء «النصب: حجارة ينصبونها حول الكعبة، وكانوا يذبحون عندها للأصنام، ويلطخونها بتلك الدماء، ويضعون اللحوم عليها»[2].

هذا ولقد كان أهل الجاهلية «يسمون ذبائح الغنم التي جعلوها لأصنامهم، وأنصابهم تلك بـ«العتائر» والعتيرة في كلام العرب: الذبيحة، والمذبح الذي يذبحون فيه لها يسمى العتر»[3].

وهذا النهي في آية الأنعام في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مخصوص بما إذا ذبح على اسم النصب، ويدل عليه وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حيث أجمع المسلمون على أنه لا يفسق آكل ذبيحة المسلم الذي ترك التسمية.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾، وهذه المناظرة إنما كانت في مسألة الميتة.

ثالثها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وهذا مخصوص بما ذبح على اسم النصب، يعني: لو رضيتم بهذه الذبيحة التي ذبحت باسم الأوثان فقد رضيتم بإلهيتها، وذلك يوجب الشرك[4].

هذا والملاحظ على الآيات أمور، وهي:

الأول: «تكرر قوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ في الآيات للتأكيد على تحريم هذا الأمر، فلقد كان الذبح لغير الله من الأمور العادية عند الجاهلين، وكانوا يفعلونه على أنه من أمور حياتهم الطبيعية، حتى استفحل فيهم هذا الأمر، وانتشر وأصبح من الصعب

(١) المصدر السابق ١/ ٢٦٣ بتصرف.
(٢) المصدر نفسه ١١/ ١٣٦.
(٣) الموسوعة الذهبية، فاطمة محجوب ١١/ ٢١١.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٧٧- ١٧٨ بتصرف.

عليهم قسرهم عن هذه العادات مرة واحدة بأمر واحد؛ لذا كان من حكمة القرآن البالغة أن كرر تحريم هذه الأمور مرات ومرات؛ حتى يستأصل شأفة الداء من عندهم، وعلى هذا فالتكرار للتأكيد والتقوية، وترسيخ المعنى في الأذهان.

الثاني: غايرت آية النحل آية سورة البقرة في الأسلوب حيث أخر لفظ «به» عن قوله: «لغير الله» فآية النحل تقول: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وآية البقرة تقول: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ فما سر التقديم والتأخير؟

وأجيب عن ذلك بأن «تقديم الباء في (به) هو الأصل، فإنه يجري مجرى الألف، فكان كحرف من الفعل، فكان الموضع الأول- أي: آية سورة البقرة- أولى بما هو الأصل ليعلم ما يقتضيه اللفظ، ثم قدم فيما سواه ما هو المستنكر -وهو الذبح لغير الله- وتقديم ما هو المستنكر أولى؛ ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل، والحال على ذي الحال.. »[1]، وعلى الثاني وردت آية النحل.

الثالث: حذف من آية النحل قوله: «﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ وذكر في آية البقرة، وذلك لأنه لما قال في آية البقرة: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ صريحًا -وهذا هو الموضع الأول: اكتفى به في غيره تضمينًا؛ لأن قوله في آخر الآية: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ دل على أنه لا إثم عليه»[2]، والله تعالى أعلم.

أرأيت معي كيف أفادتنا هذه الآية الكريمة من المعاني الجديدة التي تنبض بالحيوية والجدة مع أنها مكررة ألفاظها من قبل، إذًا لا تخلو إعادة من إفادة، ولا تكرار من جديد، وهذا هو شأن القرآن دومًا، فجميع كلماته بل حروفه تنبض كلها بالجدة والنضارة... ألا فليخسأ أعداء الله، فإن الله حافظ كتابه، وراد كيدهم في نحورهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

ثالثًا: الاستقسام بالأزلام عند الأصنام:

من مظاهر تقديس العرب للأصنام الاستقسام بالأزلام عندها، ولقد جاءت الإشارة إلى هذا المظهر في آيتين من كتاب الله، وكلتا الآيتين وردتا في سورة المائدة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌ﴾[المائدة: ٣] الآية.

والثانية: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

والأزلام: عبارة عن عيدان دقيقة متخذة

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرماني ص ١٢١ بتصرف.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ بتصرف.

من شجر متين، يتسم بالصلابة والقوة، وسمت بعلامات ميزت بعضها عن بعض، والاستقسام بها معناه: «طلب القسم، أي: معرفة ما يقسم للإنسان ويقدر»[(١)].

أو «هو طلب معرفة الخير والشر بواسطة ضرب القداح»[(٢)].

كيفية الاستقسام بالأزلام:

كان العرب إذا أراد أحدهم السفر للتجارة أو الغزو ونحوهما، أو أراد زواجًا، أو حفر بئر، أو أراد معرفة نسب ولدٍ ما... أو غير ذلك من أمور حياتهم الغيبية جاءوا إلى الأصنام، واستقسموا بالأزلام عندها، واستقرؤوها الغيب، وكان في أحد هذه الأزلام «افعل»، وفي الآخر «لا تفعل»، والثالث «لا شيء فيه» ويجعلونها في قدح معين، ثم يحركها سادن الصنم، ويأتي المستقسم ليأخذ واحدًا من هذه العيدان، فإن خرج الآمر ائتمروا، وإن خرج الناهي انتهوا، وإن خرج الثالث أعادوا الضرب حتى يخرج أحدهما[(٣)].

سبب استقسامهم بالأزلام:

لقد استقسم العرب بالأزلام، واستقرؤوها الغيب، «لأنهم كانوا في حيرة من أمرهم، فأديان شتى، وقبائل متفرقة، لا نظام معين يردون إليه، ولا حكومة موحدة يرجعون إليها، وصحراؤهم تبسط عليهم جناح الأمن حينًا، وتسدل عليهم الحروب أحيانًا، فضلًا عن سوء أحوال المعيشة واضطرابها بين جوع وشبع، وفقر وغنى.. إلخ، وكانت هذه الأمور وغيرها مثار قلق وحيرة واضطراب لديهم، فكان لابد لهم من مذهب عنهم الحيرة والقلق، فلجأوا إلى وسائل شتى، ظنوها تجلب إليهم الطمأنينة، فلجأوا إلى التفاؤل والطيرة، فحكموا الحيوان والطير في أمورهم، وتفاءلوا بالأصوات والكلمات.. وأخيرًا اتخذوا الأزلام يستقسمون بها الغيب المخبوء عنهم»[(٤)].

لكن الله تعالى بالإسلام حرم كل هذا الخلط والخبط العشوائي، فنهى عن الاستقسام بالأزلام ووصفه بأنه فسق «لأنه دخول في علم الغيب الذي استأثر به علام الغيوب، حيث يقول سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

واعتقاد أن إلى الغيب طريقًا، وإلى استنباطه سبيلًا خطأ وضلال مبين.

و«قول أحدهم: أمرني ربي، أو نهاني ربي... إلخ، افتراء على الله عظيم، وما

(١) الميسر والأزلام ص ٥٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١٣٨. وانظر: الكشاف ١/ ٥٩٢.
(٣) الميسر والأزلام ص ٦٢- ٧٠.
(٤) الميسر والأزلام ص ٦٢- ٦٦.

يدريه أن ربه أمره أو نهاه»[1]، ولو لم يكن في الاستقسام بالأزلام إلا الافتراء على الله تعالى، والكذب عليه لكفى بذلك إثمًا وزورًا، فإن كان بهذه المثابة فهو جدير بالتحريم والنهي عنه.

هذا ولقد أبدلنا الله به في الإسلام صلاة الاستخارة، والدعاء فيها معروف ومشهور[2]، وفي كلمات هذا الدعاء يفوض العبد أموره لله تعالى، ويرد علم الأشياء إلى علام الغيوب سبحانه .

رابعًا: اختصاص الأصنام ببعض الحيوانات الحية:

وجاء إبطال هذا المظهر في آية واحدة من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]

تقرب عباد الأصنام إلى أصنامهم بكثير من العبادات، منها ما كان ينذره البعض من نذور، ومن هذه النذور والقرابين «ما يكون حيوانات حية، تسمى باسم الأرباب، فتحبس عليها، وتوقف باسمها، وتكون حرة طليقة لا يجوز لأحد أن يقربها بسوء.

ومن هذه الحيوانات الحية ما جاء في هذه الآية الكريمة:

١ . البحيرة.

وهي من البحر و«أصل البحر: كل مكان واسع جامع للماء الكثير، ثم اعتبر هذا المعنى في كل واسع، فيقال: بحرت كذا، أي: أوسعته سعة البحر تشبيهًا به، ومنه بحرت البعير: شققت أذنه شقًا واسعًا، ومنه سميت «البحيرة»، ويقال للمتوسع في علمه: بحر»[3].

وهذا خلاصة ما ورد في لفظ «البحيرة» لغة، ولقد اختلف العلماء في تحديد وتعريف «البحيرة» اصطلاحًا اختلافًا كثيرًا[4] إلا أن اختلافهم هذا يؤل إلى أن البحيرة هي:

«الناقة أو الشاة التي تشق أذنها إذا ولدت خمسة أبطن أو عشرة أو بين ذلك، فإذا تم لها ذلك تركت فلا يشرب لبنها، ولا يجز وبرها، ولا يحمل على ظهرها، ولا تطرد عن ماء، ولا تمنع من كلأ، فإذا ماتت حرموا لحمها على النساء دون الرجال»[5].

(١) الكشاف ١/ ٥٩٢ بتصرف.
(٢) دعاء الاستخارة أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم ٦٣٨٢.
(٣) المفردات ص ٤٨ بتصرف «بحر».
(٤) فصل هذه الآراء الإمام الآلوسي في تفسيره ٤/ ٤١.
(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٠٤، ومفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١١٦، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٩، ١٣٠، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٥، ومعاني القرآن وإعرابه، الزجاج

٢. السائبة.

أصل السائبة: من «سيبته فساب، والسيب مجرى الماء»[١] الذي ينساب فيه بين شطآنه.

أو السائبة «فاعلة من سيبته، أي: تركته وأهملته فهي سائبة، أو لمعنى مفعول كعيشة راضية»[٢].

ومن هذا الأصل اللغوي جاءت تعاريف العلماء للسائبة، ولقد اختلفوا في تعريفها اصطلاحًا أيضًا، وخلاصة أقوالهم تئول إلى أن السائبة هي «الناقة أو البعير أو الدابة التي يبلغ نتاجها حدًا معينًا، فحينئذ تترك ولا تركب ولا يحمل عليها، ولا تمنع من ماء وكلأ، وتترك سائبة لا يحل لأحد كائنًا من كان أن يخالف ذلك»[٣]، وهذه الأقوال وأشباهها تعطينا صورة كاملة لما كان عليه أهل الجاهلية من تعبد؛ لاعتقادهم أن ذلك يقربهم إلى الله زلفى.

٣. الوصيلة.

قال بعض المفسرين: «الوصيلة: هي الشاة إذا ولدت ذكرًا وأنثى، قالوا: وصلت أخاها، وتركوا الذكر لآلهتهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدت أنثى فهي لهم ... وعليه فالوصيلة بمعنى الموصولة، كأنها وصلت بغيرها، ويجوز أن تكون بمعنى الواصلة؛ لأنها وصلت أخاها»[٤].

وقيل: «الوصيلة في الغنم، فإذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا، فإن كان السابع ذكرًا ذبح وأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى تركت في الغنم، وإن كان ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم تذبح لمكانها، وكان لحمها حرامًا على النساء، ولبنها كذلك، إلا أن يموت منها شيء فيأكله الرجال والنساء»[٥]، ولعل هذا الاختلاف راجع إلى أن كل قبيلة من قبائل العرب كان لها نظام معين في مثل هذه الأمور تسير عليه، وتنهج نهجه؛ لذا اختلف النقل عنهم تبعًا لاختلاف أنظمة القبائل، وعلى كلٍ فهذه أقوال تصور لنا جانبًا من جوانب تقديس العرب للأصنام.

٤. الحامي.

الحامي: اسم فاعل من حمى، أي: منع، وهو الفحل من الإبل[٦] واختلفوا في تحديد ماهيته أيضًا.

فقال الفراء: «هو الفحل إذا لقح ولد ولده حمي ظهره فلا يركب، ولا يجز له وبر،

٢/ ٢١٣.

(١) المفردات ص ٢٥٥ بتصرف.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٤١، ٤٢.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٠٥ بتصرف، وانظر روح المعاني، الألوسي ٤/ ٤٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١١٦ بتصرف.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٦ بتصرف.

(٦) تفسير البحر المحيط ٤/ ٢٩.

ولا يمنع من مرعى، وأي إبل ضرب فيها لم يمنع»[1].

وقالوا: بل الحام الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات، ليس بينهن ذكر فقد حمي ظهره، فلا يركب ولا يجز وبره، ويخلى في إبله يضرب فيها، لا ينتفع به بغير ذلك[2]، وقيل: كان الفحل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه[3].

والملاحظ أن الاختلاف بين هذه الأقوال اختلاف لفظي ظاهري، حيث يمكن الجمع بينهما، فالحامي هو الفحل من الإبل، الذي يمتد به عمره فيلقح ولد ولده، ولا يكون ذلك إلا إذا نتج له عشر إناث أو ما قارب ذلك، ولعل هذا الاختلاف راجع - كما ذكر من قبل- إلى تباين قبائل العرب في ذلك.

ويؤيد هذا ما ذكره الآلوسي بقوله -بعد أن حكى قريبًا من هذه الأقوال-: «وجمع بين الأقوال المتقدمة في كل من تلك الأنواع بأن العرب كانت تختلف أفعالهم فيها»[4].

وبالتالي روى كل راوٍ حسبما نمى إلى علمه من أمورهم، والله تبارك وتعالى أبطل كل هذه الشركيات الجاهلية في الإسلام بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما شرع ولا حكم ... بمثل هذه الأمور، لكن الذين كفروا يختلفون ويفترون الكذب على الله تعالى «حيث يفعلون ما يفعلون، ويقولون: الله أمرنا بهذا، ويكذبون على الله بادعائهم أن هذه الأشياء من فعل الله وأمره»[5]، والله تعالى أعلى وأعلم.

خامسًا: اختصاص العرب الأصنام ببعض الحرث والزراعة:

من أباطيل المشركين وجهلهم في تعبدهم للأصنام أنهم كانوا يخصونها ببعض الحرث والزرع، ولقد ذكر الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

الذرء -كما يقول الراغب- إظهار الله تعالى ما أبداه، يقال: ذرأ الله الخلق، أي: أوجد أشخاصهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩][6].

والأنعام «لفظ يطلق على الإبل والبقر

(١) معاني القرآن، الفراء ١/ ٣٢٢.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٠٦ بتصرف.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٦.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٤٢.
(٥) المصدر نفسه ٤/ ٤٢، وانظر تفسير الطبرسي ٣/ ٣٣١
(٦) المفردات ص ١٨٣ « ذرأ».

والغنم» خاصة من بين الماشية، وهي «جمع نعم، مأخوذة من نعمة الوطء»[1] فهي موطأة للإنسان ليركبها، ويستخدمها في سائر أموره الحياتية.

وسورة الأنعام من السور التي ذكرت كثيرًا من جهالات العرب في الجاهلية، مما يدل على سفاهة أحلامهم وتفاهة عقولهم، والآية التي معنا تمضي قدمًا في هذا الإطار، لكن فعلهم هنا بلغ حد الإجحاف، وجاوز حد الاعتداء على ما جعلوه لله تعالى، مع أنهم كانوا على العكس من ذلك تمامًا بالنسبة لما كان لأصنامهم، هذا ولقد تباينت أقوال المفسرين في توضيح صورة هذا الإجحاف على أقوال تلخيصها فيما يلي:

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حزمًا، جعلوا منها سهمًا لله، وسهمًا لآلهتهم، وكان إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله، ردوه إلى الذي جعلوه لآلهتهم، وإن هبت من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم أقروه ولم يردوه»[2].
- ذكر الطبري عن ابن عباس أيضًا أنه قال: «جعلوا لله من سقي الماء نصيبًا، وللشيطان والأوثان نصيبًا، فإن انفجر شيء من سقي ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله سدوه»[3].
- ذكر أبو حيان عن بعض العلماء: أن المشركين كانوا إذا ذبحوا لله ذكروا آلهتهم على ذلك الذبح، وإذا ذبحوا لآلهتهم لم يذكروا الله، وهذا هو معنى الآية عندهم[4].

والناظر في هذه الآراء جميعها لا يكاد يجد بينها فرقًا جوهريًا، بل هو مجرد خلاف لفظي أو هو -كما يعبر عنه- اختلاف عبارة وتنوع لا اختلاف تضاد؛ وذلك لأنها تلتقي على مائدة واحدة، وتصور لنا مدى قسمة أهل الجاهلية الضيزى، وتبين مدى الجور على حقوق الله تعالى في أي نوع خصوه به من «حرث أو سقي أو أنعام»، ولعل اختلاف النقل عن العرب راجع إلى اختلاف طرائق قبائل العرب أنفسهم في هذه الأمور، فبعض القبائل تجعل النصيبين من الحرث، وبعضهم من الأنعام، والبعض الآخر من سقي الماء.. وهكذا، لذا فقد اختلف النقل، والأمر في ذلك كله يسير.

هذا ولقد رجح الإمام الطبري القول الأول للإمام ابن عباس على غيره، أخذًا

(١) المفردات ص ٥٠١.
(٢) روى هذا الأثر الإمام الطبري في تفسيره ٥/ ٣٥٠.
(٣) المصدر نفسه ٥/ ٣٥٠ بتصرف.
(٤) البحر المحيط ٤/ ٢٢٨.

بظاهر الآية، فالله جل ثناؤه أخبر أنهم جعلوا له من حرثهم وأنعامهم قسمًا مقدورًا، فقالوا: هذا لله، وجعلوا مثله لشركائهم - وهم الأوثان بالإجماع- وقالوا: هذا لشركائنا، وأن نصيب شركائهم لا يصل منه لله شيء، وما كان لله وصل إلى نصيب شركائهم[1]، وعلى كلٍ فالآية توضح مدى تعظيم وتقديس العرب لأصنامهم، ومدى مبالغتهم في ذلك حتى وإن جاروا على حق الله تعالى.

ويبين بعض الباحثين سبب هذه التفرقة، وسبب هذا الظلم فيقول: «ولعل ذلك بسبب أن ما خصصوه للأصنام كان يجد له معقبًا وسائلًا، يراجع أصحاب الحرث والأنعام لاستحصال حق الأصنام منهم، وهو حق مفروض، فكان السدنة يحصلون حق الأصنام، بينما كان ما يخصصونه لله نذرًا لا يعرف به غير الناذر، فكان يتلاعب به، ويعطيه أو يعطي جزءًا منه إلى جامعي حق الأصنام، على اعتبار أنها شريكة لله، وبهذا يتهرب من أداء النذر كاملًا بهذه الحيلة، أو لاعتقادهم بأن الله بعيد عنهم، وهو غفور رحيم، أما الأصنام فقريبة منهم وهي منتقمة أشد الانتقام»[2].

(١) يراجع في تفصيل الترجيح وبقية الاستدلال عليه: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٥١.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ١٩٤ بتصرف.

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف يحتال العرب لاغتيال حق الله تعالى أو الجور عليه، ثم هم يوفون أصنامهم حق الوفاء، بل وأكثر منه، فهم بحق ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وساء حكمهم هذا «لإيثارهم مخلوقًا عاجزًا عن كل شيء، على خالق قادر على كل شيء»[3] ألا ما أجهل المشركين! وما أحلم الله عنهم!

سادسًا: الطواف حولها:

لم يرد هذا المظهر صراحة في القرآن الكريم، إنما وردت الإشارة إليه بطريق المفهوم، حيث ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ما يفيد أن العرب كانوا يطوفون حول أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى.

فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: سألت عائشة: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة، قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت

(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٧٦ بتصرف.

«فلا جناح عليه ألا يطوف بهما» ولكنها أنزلت فى الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التى كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، قالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قالت عائشة: (وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما)[1] الحديث.

يعلق الإمام ابن بطال على الآية والحديث فيقول: «نزلت في الفريقين كليهما، في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام من أجل أن الله أمر بالطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت... ثم يذكر عن بعضهم قوله: كان على الصفا وثن،يقال له: «يساف»، وعلى المروة وثن يقال له: «نائلة»، فكان المشركون يطوفون بينهما، فلما كان الإسلام قال ناس: «يا رسول الله، إن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بين الصفا والمروة للوثنين الذين كان عليهما، وليسا من شعائر الله» فنزلت هذه الآية»[2].

فمن خلال ماسبق يتضح أن المشركين كانوا يتعبدون لأوثانهم بالطواف حولها، وهذا مظهر من مظاهر التعبد والتقديس لها، فلما جاء الإسلام ودخل فيه من كان يطوف حول الصفا والمروة حالة كون الأصنام عليهما وهو في الجاهلية، تحرج وهو في الإسلام أن يطوف بينهما استصحابًا للحالة الماضية، فلما تحرجوا أنزل الله الآية لرفع هذا الحرج، وبيان أنه كان من أمر الجاهلية الذي رفعه الله بالإسلام، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري، واللفظ له، في صحيحه، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله، رقم ٦٤٣، ٢/ ١٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن، رقم ١٢٧٧، ٢/ ٩٢٨.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٤/ ٣٢٣ بتصرف.

عاقبة الأوثان وعابديها

مما لاشك فيه أن العاقبة للمتقين، والنهاية الوخيمة للظلم والظالمين، ولا ظلم أعظم من ظلم الإنسان لنفسه في إشراكه بربه، وعبادته الأوثان من دونه تعالى، وسيجلي البحث هنا عاقبة الأوثان وعابديها في الدنيا والآخرة:

أولًا: عاقبة الأوثان وعابديها في الدنيا:

يعد من نافلة القول إن الإسلام دين الخير والرحمة لجميع البشرية في كل زمان ومكان، حتى وإن لم يكونوا معتنقين له، فالله تعالى وصف حبيبه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فعموم رحمته للعالمين واضح بنص الآية الكريمة، ومن هذا المنطلق فإن عباد الأوثان من هذا القبيل، ينبغي أن يبين لهم سماحة هذا الدين، وفساد ما هم عليه من وثنية وشرك، وأن أوثانهم هذه لن تنفعهم مثقال ذرة من خير في الدنيا والآخرة، ولا أدل على ذلك من حالهم حين يمسهم السوء في البر أو البحر، فإن عقولهم تذهل عن كل معبود سوى الله تعالى، يرفعون إليه وحده أكف الضراعة لينجيهم مما هم فيه، وتلهث الألسنة حينئذ بأحر عبارات الدعاء والثناء والالتجاء إليه وحده دون سواه، والآيات في هذا الصدد كثيرة ووفيرة، يكتفى منها بواحدة توضح المقصود وتبينه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ [الإسراء: ٦٧-٦٩]

وفي هذه الآيات يقول تعالى ذكره: وإذا نالتكم الشدة والجهد في البحر فقدتم من تدعون من دون الله من الأنداد والآلهة، ولم تجدوا غير الله مغيثًا يغيثكم إذا دعوتموه، فلما دعوتموه وأغاثكم، وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه في البحر، أعرضتم عما دعاكم إليه ربكم من خلع الأنداد والأوثان، والبراءة من الآلهة، وإفراده بالألوهية؛ كفرًا منكم بنعمته، وكان الإنسان كفورًا ذا جحد لنعم ربه، ثم يقول تعالى ذكره: أفأمنتم أيها الناس من ربكم، وقد كفرتم نعمته بتنجيته إياكم من هول ما كنتم فيه في البحر، أن يخسف بكم ناحية البر، أو يرسل عليكم حاصبًا، ثم يقول: أو يمطركم بحجارة حارة من السماء تقتلكم، كما فعل بقوم لوط، ثم لا تجدوا لكم وكيلًا، ثم يقول: ثم لا تجدوا لكم ما يقوم بالمدافعة

عنكم من عذابه وما يمنعكم منه، أم أمنتم أيها القوم من ربكم، وقد كفرتم به بعد إنعامه عليكم، النعمة التي قد علمتم أن يعيدكم في البحر تارة أخرى، فيرسل عليكم قاصفًا من الريح، وهي التي تقصف ما مرت به فتحطمه وتدقه، فيغرقكم الله بهذه الريح القاصف بما كفرتم، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا، ثم لا تجدوا لكم علينا تابعًا يتبعنا بما فعلنا بكم، ولا ثائرًا يثأرنا بإهلاكنا إياكم[1].

والآيات الكريمة تحكي حال الإنسان عامة مع ربه تعالى، لا حال الوثنيين وحدهم، نسأل الله العفو والعافية.

هذا وينبغي أيضًا في التعامل مع الأوثان أن تزال وتكسر، وتستأصل شأفتها، كما فعل نبينا صلى الله عليه وسلم بها يوم الفتح، وكما فعل من قبله أبوه إبراهيم الخليل عليه السلام، والأدلة على ذلك شهيرة ووفيرة.

ومن ثم ينبغي أن يفيء الوثنيون إلى رشدهم قبل أن يباغتهم الموت، ويموتوا -عياذًا بالله- على شركهم فيخلدوا في النار، فضلًا عما يقع بينهم وبين آلهتهم من تبرؤ وشقاق.

ثانيًا: عاقبة الأوثان وعابديها في الآخرة:

طوف بنا البحث فيما سبق مع الأوثان والوثنيين وعاقبتهم في الدنيا، من وجوب دعوتهم إلى الحق، وانتشالهم من الجهالة والضلالة، وإزلتها ومحاربتها... والآن يطوف بنا في جولة أخرى لبيان عاقبتهم في الآخرة...

١. تبرؤ الآلهة المزعومة من عابديها.

أورد القرآن أن ما عبد من دون الله تعالى سيتنصل من عابديه يوم القيامة، بل إن المشركين أنفسهم لما يرون العذاب يعلنون البراءة من هذه الأصنام.. ولكن هيهات هيهات، فات وقت الندم والتبرؤ، وانصرم وقت التوبة والتحسر، ولم يبق إلا الحساب والعذاب، وجاء هذا البيان في غير آية من القرآن، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٩٨ بتصرف.

﴿نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

إلى غير هذه الآيات التي فاض بها القرآن الكريم، ولما كان المقام لا يتسع لتناول هذه الآيات بالدراسة والشرح يكتفي البحث بالنظرة الإجمالية العامة على الآيات المباركات:

يجهد المشركون أنفسهم في التقرب والتزلف إلى آلهتهم في الدنيا، فيعترون العتائر ويقدمون القرابين، بل ويخصصون جزءًا من الحرث والأنعام لهذه الآلهة.. عساهم أن يحظوا بالرضا والقبول لديها، لكنهم يصدمون يوم القيامة حين يجابهون منها بما يكرهون، ويواجهون بما لم يتوقعوا.. وتتنصل هذه الآلهة منهم.

والآيات التي معنا تصور لقطة من هذا المشهد الأخروي، فيحشر العباد جميعًا يوم القيامة، وينادي الذين أشركوا: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركاء، والمقصود من هذا السؤال «التقريع والتبكيت، لا نفس السؤال، ويحتمل أن يكون معناه: أين نفس الشركاء؟ أو أين شفاعتهم، وانتفاعكم بهم؟

وعلى كل لا يكون الكلام إلا تقريعًا وتوبيخًا، وتقريرًا لهم أن ما يرجونه مأيوس منه، وتنبيهًا على فساد طريقتهم في الدنيا»[1].

لكن المشركين عند سؤالهم لا يجيبون بالحقيقة بل يكذبون، ظنًا منهم أن الله لا يعلم حقيقة الأمر، ولعل كذبهم ينجيهم من هول الموقف، وحكى الله عنهم ذلك في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ وأصل الفتنة - كما يقول الراغب[2]- إدخال الذهب في النار؛ لتظهر جودته من رداءته، ثم استعملت بعد ذلك في معانٍ كالعذاب، والاختبار، والبلاء، والشدة.. وغيرها، والفتنة تكون من الله للعبد.. كالبلية، والمصيبة، والقتل والعذاب.. وغير ذلك[3].

قال الزجاج[4] في تفسير الآية: «أعلم الله أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه إلا أن تبرؤا منه، وانتفوا منه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين» وعليه فالفتنة هاهنا بمعنى الشرك والافتتان بالأوثان.

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غاب عنهم[5] ما كانوا يدعونه من دون الله تعالى.

وقيل: إنه عام في كل ما يعبد من دون الله تعالى، فهي تضل عن عابديها يوم القيامة،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١٩١ بتصرف.
(٢) في المفردات ص ٣٧٤ بتصرف.
(٣) الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٤٥٣.
(٤) انظر: معاني القرآن له ٢/ ٢٣٥.
(٥) الكشاف ٢/ ١٢.

ولا تغني عنهم شيئًا[1].

وهكذا جلت الآيات موقفًا من مواقف المشركين يوم القيامة، حيث إنهم أنفسهم يتبرأون من الشرك والآلهة، فضلًا عن تبرؤ الآلهة منهم، وتغيبهم عنهم في الآخرة وقت احتياج النصرة منها.

هذا وإن آية سورة «يونس» وإن كانت تتحدث عن نفس موضوع الآية السابقة إلا أنها غايرت في الأسلوب والمعنى فأفادت جديدًا، حيث أعلنت أن التفرقة بين العابدين والمعبودين ستكون بينهم يوم القيامة، وحينئذ يندم العابدون ندمًا عظيمًا حيث عقدوا آمالهم طوال حياتهم على هذا، فإذا بهم يجابهون بما لم يكن في الحسبان أو الميزان.. فالله تعالى يحشر الخلائق أجمعين من كل حدب وصوب إلى أرض المحشر، ثم ينادى الذين أشركوا في عبادتهم، وفي أموالهم فقالوا: هذا لله، وهذا لشركائنا؛ لذا أضاف الشركاء إليهم في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾[2].

واختلف في المراد بالشركاء: فقيل: هم الملائكة، وقيل: هم الأصنام، ورجح الثاني بأن هذا الخطاب مشتمل على الوعد والوعيد، وذلك لا يليق بالملائكة المقربين، والأصنام يخلق الله فيها الحياة والنطق فتنطق بالحقيقة[3].

ثم ينادى الجميع بقوله: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي: امكثوا مكانكم، وقفوا في موضعكم، أنتم أيها المشركون وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله من الآلهة والأوثان ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ففرقنا بين المشركين بالله وما أشركوه به[4].

ولكن كيف تقع الفرقة بينهم وبين الأصنام، والجميع سيحشر إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والجواب: أن الفرقة وقعت بتبري كل معبود ممن عبده.

ويقول الإمام ابن عباس رضي الله عنهما: « ينطق الله الأوثان فتقول: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: لا نعلم بعبادتكم لنا؛ لأنه ما كان فينا روح، فيقول العابدون: بل قد عبدناكم، فتقول الآلهة: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩]»[5].

وبمثل هذا قال الإمام مجاهد في تفسيره[6].

وهكذا يتبرأ العابدون والمعبودون

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٨٧.
(٣) المصدر نفسه ١٧/ ٨٧ بتصرف.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٧٨ بتصرف.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٠، ٢١.
(٦) تفسير الإمام مجاهد بن جبر ص ٣٨٠.

بعضهم من بعض، ويندم العابدون على ما ضيعوا من أعمارهم، وما قدموا من أعمالهم، ولات حين مندم.

ويذكر الله تعالى في سورة النحل موقف المعبودين من عابديهم على غرار الآيات السالفة، إلا أن هذا الموطن تفرد عن غيره بالتصريح بتكذيب الآلهة لعابديها، وجاء هذا التصريح مؤكدًا بأكثر من مؤكد، فأكد بإن، واللام الداخلة على الخبر، فضلًا عن اسمية الجملة، وهذه المؤكدات تواردت على شيء واحد فأكسبته توكيدًا فوق تأكيد، وهذا ما ورد في قوله: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

ولقد اختلف في تعيين الشركاء، فقيل: هم: الأصنام، وقيل: هم الشياطين [(١)].

وأميل إلى الرأي الأول، وعليه فالمقصود من إعادة الأصنام زيادة الغم والحسرة في قلوب المشركين، والأصنام تنطق بكذب المشركين في ادعائهم عبادة الأصنام ويعلنونها صريحة مدوية ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فإن قيل: كيف كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم؟

والجواب: أن الأصنام لما كانت غير راضية بعبادتهم، فكأن عبادتهم لم تكن عبادة، ويحتمل أن يكون تكذيبهم لهم في تسميتهم شركاء لله لا في العبادة [(٢)].

ثم إن المشركين لما رأوا ذلك من آلهتهم «ألقوا إلى الله يومئذ السلم» أي: «الاستسلام والانقياد لحكمه في ذلك اليوم» [(٣)].

وعلى كل فلن ينفعهم هذا ولا ذاك، فقد وقع قضاء الله، ولا راد لقضائه وقدره، وسبقت كلمته على هؤلاء المشركين أنهم من أصحاب النار.

والقرآن بهذه الردود قد فند شبه المشركين، وأبطل حججهم، وأبطل موروثاتهم العقدية التي ورثوها عن آبائهم... وارتفعت رايات الإسلام على حطام الوثنية، فلله الحمد من قبل ومن بعد.

٢. الأوثان وعابدوها وقود للنار.

لا يقع التبري يوم القيامة بين العابدين وأوثانهم ومعبوداتهم فقط، بل يتعداه إلى أن هذه المعبودات ستكون مع عابديها وقودًا للنار يوم القيامة، وحينئذ لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، وساعتها يتندمون ويصرخون، ولات حينئذ ينفع الندم والصراخ.

يذكر الله تعالى هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٩٩-١٠٠ بتصرف.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ص ٣٦٣.

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين مخلوف ص ٣٥٣.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

فقال المشركون: الملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله؟ فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها، قال: فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

عيسى وعزير والملائكة»[(١)].

فهذه الرواية توضح لنا سبب النزول، والمحاورة التي جرت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين على لسان مبعوثهم «عبدالله ابن الزبعرى» في شأن المعبودات التي عبدت من دون الله، والتي من بينها عيسى عليه السلام والملائكة الكرام، حيث فهم أن هؤلاء سيكونون مع عابديهم في النار مخلدين، لكن جاء الرد في الآية التالية بأن هؤلاء الذين عبدوا من دون لا يدخلون النار مع العابدين؛ لأنهم لم يكونوا راضين بعبادتهم لهم، بل الشيطان هو الذي سول لأنفسهم هذا الشرك من دون الله تعالى.

فضلًا عن أن التعبير في الآية بقوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: «ومن تعبدون» ومعلوم أن «ما» تقع على غير العاقل، فيكون مقصود الآية واقعًا على غير العقلاء.

والمعنى: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها وحطبها.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم بها؛ فلهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩].

وكل من العابدين والمعبودين فيها، خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الإلحاد، الإيمان، الشرك، الكفر

(١) أخرجه الحاكم، واللفظ له، في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأنبياء، رقم ٣٤٤٩، ٢/ ٤١٦، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٥٣، رقم ١٢٧٣٩.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٣١ بتصرف.

الإيمان

عناصر الموضوع

مفهوم الإيمان	٣٠٤
الإيمان في الاستعمال القرآني	٣٠٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٠٦
اقتران الإيمان بالعمل الصالح	٣٠٧
المؤمن من أسماء الله تعالى	٣٠٨
أركان الإيمان في القرآن	٣٠٩
زيادة الإيمان ونقصانه وقلته	٣٤٤
أثر الإيمان في النفوس	٣٤٦
ثمرات الإيمان في الدنيا والآخرة	٣٤٧

مفهوم الإيمان

أولًا: المعنى اللغوي:

الإيمان مصدر الفعل الرباعي آمن وأصله أأمن، وأعلت الهمزة الثانية بالقلب ألفًا؛ لكونها ساكنة والتي قبلها متحركة بالفتح، وهو أصل يدل على معنيين:

الأول: إعطاء الأمن والأمان والطمأنينة؛ الذي هو ضد الخوف، وآمنته ضد أخفته.

الثاني: التصديق الذي هو ضد التكذيب.

وإذا قال العبد: آمنت بالله تعالى ربًا، أي: صدقت به، واطمأننت لأمره.

فالإيمان في اللغة يراد به معنيان، يظهر معناهما بحسب السياق وهما: الأمن وضده الخوف، والتصديق وضده التكذيب، والمعنيان متداخلان[(١)].

ويرى ابن تيمية أن الإيمان بمعنى الإقرار؛ فيقول: ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الإيمان: «التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أخبر الله ورسوله عنه في القرآن والسنة، وأمر بالإيمان به، والانقياد له ظاهرًا وباطنًا»[(٣)].

فهو قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية[(٤)]، «ويشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله»[(٥)].

وهو تصديق القلب واعتقاده، المتضمن لأعمال القلوب، وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله؛ ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح[(٦)].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢١، المفردات، الأصفهاني، ص ٩٠.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٩١، الإيمان، حقيقته، خوارمه، نواقضه، عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد، ص١٩، ٢١.

(٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.

(٤) انظر: العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص١٦١.

(٥) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.

(٦) انظر: الإيمان، ابن تيمية، ص١٣٧.

الإيمان في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (أمن) في القرآن الكريم (٨٧٩) مرة، يخص موضوع البحث منها (٨١١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٤٢	﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [البقرة:٩]
الفعل المضارع	١٧٥	﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٠٠]
فعل الأمر	١٩	﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [الأحقاف:١٧]
المصدر	٤٥	﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:٢٢]
اسم فاعل	٢٣٠	﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢١]

وجاء الإيمان في الاستعمال القرآني على وجهين[(٢)]:

الأول: التصديق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف:١٧].

الثاني: الإسلام والتوحيد: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة:٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة:٥].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨١، ٩٣.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٩١، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص١١٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسلام:

الإسلام لغة:

الاستسلام، والانقياد[١].

الإسلام اصطلاحًا:

الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله[٢].

الصلة بين الإيمان والإسلام:

لم يفرق أهل العلم بين الإيمان والإسلام حال افتراقهما، وإنما كان التفريق بينهما حال اقترانهما، فقالوا: إذا افترقا اتفقا، وإذا اقترنا اختلفا، فقالوا: إن الإسلام هو القيام بشرائع الإسلام الظاهرة، والإيمان هو التصديق الجازم بالغيب، وهذا كما جاء في حديث جبريل، حيث فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، ومن هذه الحيثية نجد أن الإسلام أعم من الإيمان، وحقيقة الأمر: أن العبد لا يكون مسلمًا إلا إن كان مؤمنًا، و لا يكون مؤمنًا إلا إن كان مسلمًا.

٢ الإحسان:

الإحسان لغة:

الإحسان من أحسن يحسن إحسانًا، وهو ضد الإساءة[٣].

الإحسان اصطلاحًا:

هو إتقان الأعمال والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه[٤].

الصلة بين الإيمان والإحسان:

الإحسان أعلى درجات الدين، وإذا انفرد الإيمان دخل فيه الإسلام، وإذا انفرد الإحسان دخل فيه الإسلام والإيمان.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٥٢، مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٠.
(٢) انظر: ثلاثة الأصول، محمد بن عبد الوهاب ص١٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ١١٧.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٢١٢.

اقتران الإيمان بالعمل الصالح

تكررت جملة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في القرآن (٥١) مرة.

وهذه الجملة هي الصيغة، وهي معظم ما اقترن به الإيمان مع العمل الصالح في صيغ الاقتران بينهما، والتي بلغت (٦٩) مرة[١].

وهذا الاقتران يدل على ارتباطهما الوثيق وتلازمهما المستمر، فلا إيمان بدون عمل صالح يعبر عنه ويبرهن عليه، ولا قيمة للعمل الصالح بدون إيمان يقوم عليه ويركن إليه، فالإيمان بدون عمل كالشجر بلا ظل ولا ثمر، والعمل الصالح بدون إيمان كالجسد بلا روح[٢].

المقصود بالعمل الصالح: ما أحبه الله ورسوله، وهو المشروع المسنون.

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[٣].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «العمل الصالح: هو العمل الذي يصلح عامله في دينه ودنياه صلاحًا لا يشوبه فساد، وذلك العمل الجاري على وفق ما جاء به الدين»[٤].

«والعمل الصالح واسع الدائرة إلى حد يشمل كل شيء في الحياة تباشره باسم الله، ولقد عد الإسلام أعمالًا كثيرة صالحة لم تكن تخطر ببال الناس أن يجعلها عملًا صالحًا وقربة إلى الله تعالى، فجعل كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضي به دين غارم مثقل، أو يهدي حائرًا أو يعلم جاهلًا، أو يدفع شرًا عن مخلوق، أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعًا إلى كل ذي كبد رطبة..جعل كل ذلك عملًا صالحًا ما دامت النية فيه خالصة لوجه الله الكريم»[٥].

ومما يستنبط من اقتران الإيمان والعمل الصالح:

- أن الإيمان علم وأس والعمل بناء، ولا غناء للأس ما لم يكن بناء، كما لا بناء ما لم يكن له أس، فإذًا حقهما أن يتلازما لذا قرن بينهما.
- أن الغالب في اقتران الإيمان والعمل الصالح، الحديث بصيغة الجمع ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

(١) انظر: المعجم المفهرس، عبد الله جلغوم ١/ ١٨٢-١٨٧.
(٢) يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر، الشرقاوي ص ٣٦.
(٣) مجموع الفتاوى ١/ ١٩٤.
(٤) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ص ٣٨١٨.
(٥) العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي ص ٥٧ بتصرف يسير.

وهذه الصياغة جاءت جمعًا في المتحدث عنهم وعن أعمالهم، فهم جماعة تبنوا تصورًا واحدًا، وأسسوا على هذا التصور أعمالًا صالحات في جميع مناحي الحياة، يصح أن تقوم عليها نهضة حضارية، يقود بها أهل الإيمان والعمل الصالح الأمة إلى الخير والصلاح.

- ترتب على الإيمان والعمل الصلاح الفلاح في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص٦٧]. أي: الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب[(١)]، الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين[(٢)].

المؤمن من أسماء الله تعالى

سمى الله تعالى نفسه الكريمة بالمؤمن، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣].

من معاني المؤمن في حق الله تعالى:

١. شهادته سبحانه لنفسه بالتوحيد.

قال الزجاج رحمه الله: سمى الله نفسه مؤمنًا؛ لأنه شهد بوحدانيته، فقال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]. كما شهدنا نحن[(٣)].

٢. الذي أمن عباده من ظلمه.

قال الطبري رحمه الله: «المؤمن: الذي يؤمن خلقه من ظلمه»[(٤)].

وقال الزجاج رحمه الله « ويقال إنه في وصف الله تعالى يفيد أنه الذي أمن من عذابه من لا يستحقه»[(٥)].

٣. الذي صدق رسله عليهم السلام.

قال السعدي رحمه الله: «المؤمن الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٢٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢١١.
(٣) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٢.
(٥) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣٢.

كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ماجاؤا به»[1].

معنى المؤمن في حق المخلوقين:

سمى سبحانه وتعالى بعض عباده بالمؤمن، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨].

ومعنى المؤمن إذا وصفنا به المخلوقين: هو الواثق بما يعتقده المستحكم الثقة[2].

وبمعرفة الإنسان المؤمن لمعاني هذا الاسم في حق الله يطمئن قلبه إلى ربه سبحانه وتعالى، وما وعده من سعادة في الدنيا ونعيم في الآخرة، ويوجب عليه أن يثق بما يعتقده.

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، السعدي ٢٣٩.
(٢) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣٢.

أركان الإيمان في القرآن

للإيمان ستة أركان، أربعة منها مذكورة في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

روى الحاكم في مستدركه عن أنس بن مالك، قال: لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأحق له أن يؤمن)[3].

قال ابن عطية رحمه الله: «سبب هذه الآية أنه لما نزلت: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾[البقرة: ٢٨٤].

أشفق منها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، ثم تقرر الأمر على أن قالوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فرجعوا إلى التضرع والاستكانة، مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، وقدم ذلك بين يدي رفقه بهم، وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم، فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة، رقم ٣١٣٤.
قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وتعقبه الذهبي في التلخيص فقال: منقطع.

والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى»[1].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أخبر سبحانه وتعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين، فقال: فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين»[2].

«إنه الإيمان الشامل الذي جاء به هذا الدين، الإيمان الذي يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله، القائمة على دعوته في الأرض إلى يوم القيامة، الضاربة الجذور في أعماق الزمان، السائرة في موكب الدعوة وموكب الرسول وموكب الإيمان الممتد في شعاب التاريخ البشري، الإيمان الذي يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها إلى نهايتها صفين اثنين: صف المؤمنين وصف الكافرين، حزب الله وحزب الشيطان، فليس هنالك صف ثالث على مدار الزمان»[3].

ويستفاد من هذه الآية: ثناء الله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين في إيمانهم إيمانًا خالصًا يتفرع عليه العمل، وأن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

والركن الخامس من أركان الإيمان هو: الإيمان باليوم الآخر، ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

والركن السادس من أركان الإيمان هو: الإيمان بالقدر خيره وشره، ذكر في الحديث المشهور الذي رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سأل جبريل النبي عن الإيمان فقال:(... فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره

(١) المحرر الوجيز ١/ ٣٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٧٢.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٤١.

وشره قال: صدقت)[1].

وهذه الأركان الستة هي التي بعث الله بها الرسل وأنزل بها الكتب، ولا يقبل إيمان عبد إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الذي دل عليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وسوف نتناول هذه الأركان فيما يلي:

أولًا: الإيمان بالله تعالى:

الإيمان بالله: هو التصديق به وبصفاته ورفض الأصنام وكل معبود سواه[2].

والإيمان بالله يتضمن توحيده في ثلاثة: ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته، ومعنى توحيده في هذه الأمور: اعتقاد تفرده بالربوبية والألوهية وصفات الكمال وأسماء الجلال.

وسوف نتكلم عن الإيمان بالله تعالى[3] في النقاط الآتية:

١. الوجود الإلهي.

فالقرآن الكريم يحدثنا عن الله تبارك وتعالى من حيث هو ذات حقيقية، وله وجود حقيقي لا يشبهه شيء، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وهو سبحانه وتعالى الأول قبل كل شيء، وهو الآخر بعد كل شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

وكما قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص٨٨].

وهو سبحانه وتعالى بذاته وجود غيبي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، ولكنه يعرف بآثاره في كل شيء، وتقوم كل دروب الأدلة على وجوده وتفرده، واستحقاقه لكل صفات الكمال.

ودليل وجوده سبحانه وتعالى: هو العقل والفطرة والشعور الباطني، وكل ما خلق الله.

أما دليل العقل: فقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

«وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

١. إما أنهم خلقوا من غير شيء، أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، رقم١٠٢.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٣٩١.
(٣) انظر: محاضرات في التفسير الموضوعي، عبدالستار فتح السعيد ص ٧٥، والمدخل في التفسير الموضوعي، له ص٩٩ .

٢. أم أنهم خلقوا أنفسهم، وهذا أيضًا محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم. فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين:

٣. أن الله خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٦].

وهذا استفهام يدل على تقرير النفي، أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جدًا. ولكن المكذبين ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية»[(١)].

فبداهة العقل عند كل إنسان تقضي أن لكل مصنوع صانعه، وأن لكل حادث موجده؛ ولذلك ذهب القرآن الكريم ودأب على حثهم على التفكر، وعلى تقليب النظر في ملكوت السماوات والأرض، وملاحظة جانب الإبداع في هذا الخلق؛ فإن ذلك يقتضي من صاحبه أن يوقن يقينًا مطلقًا، وأن يؤمن الإيمان الوثيق بهذه الذات العليا التي تقوم على هذا الخلق العظيم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ويقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦-٨].

أما دليل الفطرة المركوز في النفس فمقرر في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

يقول تعالى: «فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره»[(٢)].

«وهذه الدلائل يصل بها الإنسان إلى معرفة قوة عليا مهيمنة، لكنه لا يستطيع بنفسه الوصول إلى معناها الصحيح، ولا إلى معرفة حقوقها وأوصافها على وجه صادق، ولذلك كان الطريق الوحيد لهذه المعرفة الصحيحة، هو الوحي الإلهي، وقد علم الله تعالى- عباده ذلك منذ خلق آدم، ثم أرسل رسله تترى لمقارعة الجاهليات ولتصحيح المعتقدات، فلم يزل اسمه سبحانه وتعالى ومسماه شائعًا معروفًا بين الأمم في كل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٨١٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٨٢.

العصور حتى في أوساط المشركين، كما قص القرآن علينا ذلك عنه مرارًا سبحانه وتعالى ويقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩].

ولذلك كان الاعتراف بهذه الذات العليا حقيقة عالمية لم يشذ عنها إلا المكابرون، المعاندون من الطواغيت كالفراعنة، أو آحاد من الطبيعيين والدهريين»[(١)].

٢. الوحدانية.

هذه الصفة تعني تفرده سبحانه وتعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، فليس له في ذلك شريك، ولا نظير ولا مقارب، أو مثيل، وهذه الحقيقة جعلها الله سبحانه وتعالى فاتحة التكليف ومحور الدين، وعليها تتأسس كلياته وجزئياته، ولم يكن الوجود الإلهي قضية بين الوحي والأمم لشيوعه بينهم، ولتسليمهم به، ولكنهم كانوا يتخذون معه سبحانه وتعالى شركاء، تحت مختلف الدعاوى والأسماء، حتى قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

ويقولون كما قال ربنا عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

لذلك كان الأصل والأساس الذي بعثت به الرسل، ونزلت من أجله الكتب هو: تقرير وحدانية الله تعالى، وتنزيهه عن الشركاء، والأنداد، والنظراء والصاحبة، والأبناء، وصرف وجوه العباد إليه وحده سبحانه، وتفريده وحده في الاعتقاد والعمل، والعبادة والطاعة بالذكر والدعاء، وسائر ما لا يليق إلا به وحده سبحانه وتعالى، لذلك كان لصفة الوحدانية الصدارة في الصفات الإلهية جميعًا، فهي حقيقة الحقائق الواقعية من حيث الوجوب، ثم هي أصل الحقائق التشريعية من ناحية الورود، ومن ثم فقد جاءت أدلتها دالة بالطريق الأولى على الوجود الإلهي، وهي دلائل متعددة، ولهذا كله أبرزها القرآن الكريم إبرازًا، وقص علينا من أنباء الرسل ما يؤكد أمرها، وأنها كانت محور دعواتهم جميعًا ولب رسالتهم، ومدخلهم إلى استتباع الناس لدين الله تعالى، فجاء على لسان كل من نوح وهود وصالح وشعيب ألفاظ واحدة ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وعلى هذا النمط جاءت دعوة الرسل عليهم السلام جميعًا كما يذكر القرآن ذلك تفصيلًا، حتى علم خاتمهم محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس هذه

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار سعيد ٩٩/ ١٠٠.

الكلمات المتفردة في الإيجاز والإعجاز، (بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص١-٤].

وهذه الآيات على وجازتها شاملة لأصول الصفات الإلهية، وردت على جميع أنواع الملحدين فيها، ثم هي مقررة لأسمى العقائد اللائقة بالله عز وجل، ومصححة لضلالة أهل الكتاب، ناهيك عن المشركين والملحدين، وكفى بها دلالة على صدق النبي الأمي في نسبة هذا الدين إلى الوحي الإلهي؛ ولذلك جاء في الحديث الذي رواه مسلم بسنده عن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (قل هو الله أحدٌ تعدل ثلث القرآن)[1]. أي: أنها تعدل ثلث القرآن، أو هي ثلث القرآن من حيث دلالتها على أهم مقاصده، وهي الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى.

فالآية الأولى: إثبات للوحدانية بأبلغ وجه، ولذلك قالوا إن لفظ الأحد خاص بوصف الله لا يوصف به غيره، فلا يقال: رجل أحد، إنما يقال: الله أحد.

والثانية: بيان لأسباب (أحديته) سبحانه، بتقرير أنه السيد الكامل في جميع صفاته وأفعاله، المقصود في جميع الحوائج وهو الغني عن كل شيء.

والثالثة والرابعة: بيان لهذه الأسباب أيضًا بتقرير تفرد ذاته عن الأصول والفروع، لم يلد ولم يولد وما يلزمها من الصاحبة، أمًا أو زوجًا؛ ولذلك تنزه عمن يكون في درجته، وإن لم يكن أصلًا ولا فرعًا، وهذا التفصيل جاء على سبيل الحصر في دعوة الرسل جميعًا على ما قرره القرآن الكريم على سبيل الإجمال والتعميم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

« ويؤخذ من هذا:

أولًا: أن الوحدانية وحي إلهي لكل الرسل، لم يوكلوا فيه إلى أفهامهم وعقولهم الراجحة، حتى هذه العقول الراجحة لا توكل إليها قضية الوحدانية والتوحيد، لذلك يتولى الوحي الإلهي تقريرها.

ثانيًا: أنها رأس الوحي وأفضله وأوله، وقد جاء ذلك في الحديث الذي رواه الترمذي بسنده عن عمرو بن شعيبٍ، عن أبيه، عن جده، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير)[2].

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحدٌ، رقم ٨١١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، ٥/ ٤٦٤، رقم

ثالثًا: أن هذه الحقيقة الاعتقادية الأولى تستلزم خضوعًا كليًا لله تعالى، متمثلًا في إفراده بالعبادة والطاعة عملًا، بعد إفراده بالوحدانية اعتقادًا، ولذلك ختمت بها الآية الجامعة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعۡبُدُونِ﴾، وجاء تفصيلًا على لسان كل رسول ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، وقررها القرآن الكريم كثيرًا بالإجمال والتفصيل، كما قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف: ٤٥].

رابعًا: أن الآيات الكريمة تستعمل دائمًا أسلوب النفي مع الإثبات خاصة في مجال التكليف الذي يقصد فيه الأمرين جميعًا، أعني: إثبات الوحدانية لله تعالى ونفيها عن كل شيء عداه، تأكيدًا لتفرده عز وجل، وإبطالًا لدعوى المشركين والملحدين في كل زمان»[1].

أقسام الإيمان بالله تعالى:

يقتضي الإيمان بالله تعالى إفراده تعالى بحقوق لا تكون لغيره، وهذا هو معنى التوحيد الذي يتحقق بامتثال العبيد لهذه العقيدة التي كلفوا بها في معناها الواسع، وفي مدلولها الشامل:

أولًا: ففي جانب الربوبية: يجب اعتقاد تفرد ذات الله عز وجل عن كل شبيه ونظير، وتفرده سبحانه وتعالى بكل صفات الخلق والملك، والتدبير والتأثير، وكل معاني الربوبية.

ثانيًا: وفي جانب الإلهية: يجب اعتقاد تفرده سبحانه وتعالى بحق العبادة والطاعة، والأمر والحكم، والاستعلاء، وكل ما هو داخل في معنى الألوهية.

وهذا تقسيم بحسب المعاني، وإلا فهما وصفان لله الواحد الأحد المتفرد بهما، والتوحيد هو جميع هذين الأمرين معًا، فلا يقبل التجزئة ولا الانقسام، ولما كان ادعاء الخلق والتدبير لغير الله عز وجل لا يكاد يوجد إلا على سبيل المكابرة والمهاترة، وكان الذي كثر في الأمم وشاع: هو اعتقاد أن لغير الله تعالى حقًا ما في الطاعة أو العبادة؛ لذلك تركز تصحيح الرسل عليهم السلام على هذا الجانب، وكثر النزاع بينهم وبين أقوامهم فيه؛ ولذلك كانت الدعوة إلى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هي مفتاح الدخول في الإسلام، ومعول نقض الجاهلية؛ لأن معناها اعتقاد تفرد الله تعالى بالعبادة والطاعة وحده لا شريك له، وأول ما يترتب عمليًا على ذلك هو قبول منهاجه ودينه، ورفض مناهج البشر والطواغيت من السدنة، والكهنة، وأصحاب

٣٥٨٥.
قال الألباني: صحيح.
انظر: مشكاة المصابيح ٢٥٩٨.

(١) محاضرات في التفسير الموضوعي، عبد الستار سعيد، ص ٨.

السلطان، والتخلص من شرائعهم وقوانينهم وأعرافهم، ومن هنا كان هذا التوحيد خطرًا داهمًا على هؤلاء وأمثالهم، فكانت العدوات تندلع بينهم وبين الأنبياء بادئ الأمر بلا روية، وكأنها قانون يتكرر باطراد، كما قال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم في مطلع الوحي، حين جاء يسأل ورقة، فقال له: (لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي)[1].

«ومن هنا يتضح ارتباط هذه القضية بأصل الأصول وهو التوحيد، وأن الإخلال فيها وضعًا أو اتباعًا هو إخلال بهذا الأصل، فإن كان الإخلال اعتقادًا صار شركًا يبطل التوحيد، وإن لم يصل إلى درجة الاعتقاد كان من كبائر الإثم، بل كان تطاولًا خطيرًا على حق الله المتفرد في الحكم والأمر، وعلى حقه في العبادة والطاعة، يوجب على المؤمنين أن ينكروه وأن يبرؤوا منه، وأن يقاوموه بكل الطرق التي حددتها شريعة الله تعالى، حتى يفيء أصحابه إلى أمر الله عز وجل، ومن ناحية أخرى: كان الإخلال بالتوحيد في هذا الجانب الخطير هو المسئول عما تعانيه البشرية من كوارث شاملة، خلقية كانت أو اجتماعية، أو سياسية ، وذلك لاحتراف الإنسان أمر التشريع وهو لا يحسنه ولا يحيط به خبرًا، وقد كان الخطأ في المعرفة الصحيحة للإله الواحد، واستخدام هذه المعرفة في الحياة اليومية، أحد الأسباب الأساسية في اضطراب الحضارة المعاصرة»[2].

ثالثًا: التفرد بصفات الكمال المطلق: فما من صفة من صفات الكمال المطلق الذي لا تحده نسبة ولا إضافة إلا والله تبارك وتعالى متصف بها، فوق ما تتصوره عقولنا المحدودة، يقول الله تعالى في تقرير اختصاصه بالخلق ابتداء، ثم الإعادة، وفي تقرير كونها أهون عليه، مع أنهما أمران عظيمان، تحار فيهما العقول.

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

ويقول سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وجماع ذلك كله: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، رقم ٤.

(٢) المنهاج القرآني في التشريع، عبد الستار سعيد ص ٣٣٠- ٣٣٣.

لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه[1].

وهذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات.

ونذكر هنا ببعض الصفات التي أكد الله تعالى عليها في كتابه العزيز.

❁ العلم.

فالله عز وجل يعلم الأشياء كلها علم إحاطة وانكشاف، السر عنده علانية، الغيب عنده شهادة، ولا تقف أمامه حوادث الزمان والمكان، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وقد أحصى ذلك عدًا ووصفًا، وكل شيء كما قال ربنا: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقال ربنا: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وهذا الكتاب المبين: هو اللوح المحفوظ، وهو سبحانه وتعالى لا يعلم الأمور الجزئية فحسب؛ بل ما دون ذلك من الخفيات والطويات، ولقد قال للكفار حين ظنوا أنه لا يسمع تآمرهم ونجواهم، قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٣-١٤].

بل إن علمه سبحانه وتعالى أدق وأشمل من كشف سرهم، إذ يصل إلى ما هو أبعد من ذلك ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧].

وأي شيء أخفى من السر؟ لعلة ما استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه، أو لعله ضمير النفس، كما يقول بعض المفسرين، وهذا ما يسمى حديثًا باللاشعور، حيث لا علم لصاحبه به ولا سيطرة له عليه، ولعله ما يمرق من الخواطر من سوانح الفكر، التي تمضي كلمع البرق أو تتابع كلمح البصر، والقرآن الكريم فياض بذكر هذه الصفة، وبسعة مدلولها وامتدادها، ومصرح بأن من الأشياء ما استأثر الله بعلمه، ولا سبيل لخلق ما إلى معرفته. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهو سبحانه وتعالى يحيط علمًا وخبرًا بكل خلقه، حتى الذر في أحجاره، والطير في أوكاره، والثمر في أكمامه، والأجنة في الأحشاء، وكل غائبة في الأرض وفي السماء، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٥٤.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٨-٩].

ويقول ربنا سبحانه ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧].

ويقول: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

وهو في كل هذا العلم رقيب شهيد وقريب، يسمع ويرى، فعلمه ليس انطباعًا من قراءة كتاب، أو إدراكًا من خبر ملك ونحوه؛ ولذلك كان من أسمائه الحسنى: الشهيد، الذي يدل على هذا العلم الحضوري الذي تنكشف له به الأشياء، انكشافًا تامًا بلا سبق خفاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [يونس: ٦١].

فهذا علم مطلق شامل محيط، لا يقاس بعلم غيره، وهو وحده سبحانه وتعالى المتفرد به، وهذه العقيدة إحدى الدعائم الأساسية التي يقوم عليها التشريع الإلهي، من حيث ابتداء وضعه على سلامة واستقامة، ومن حيث لزوم تطبيقه بوازع الضمير، الذي ينقدح فيه دائمًا: أن الله تبارك وتعالى يعلم سره ونجواه، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

❁ القدرة.

بعد العلم القدرة، وهي ككل صفاته عز وجل الثبوتية مطلقة شاملة، لا تحجزها العوائق، ولا تقف دونها العقبات، ولا تحد بحدود العقل البشري، ولا بغيره من أدوات الخلائق.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

وإن حرف تأكيد، وشيء نكرة عامة أضيف إليها أداة عموم، وهي لفظ، كل فأفادت قدرة الله تعالى المطلقة على عموم الأشياء بلا استثناء، ومهما تعاظم العقل أمرًا من أمور النشأتين، فهو سهل يسير في رحاب هذه القدرة العظمى، كما قال ربنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ [ق: ٤٤].

ويقول ربنا: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

ويقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

ويقول ربنا سبحانه وتعالى في آية عامة جامعة: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨].

ونجد غير ذلك كثيرًا جدًا في القرآن، فهذه إذن قدرة ذات تأثير شمولي في كل أبعاد الكون، أحياءً وأمواتًا، ما نعلمه وما لا نعلمه، والله تعالى وحده هو المتفرد فيها بالتقدير والتأثير، فتبارك الله رب العالمين.

❁ **الأسماء الحسنى.**

وهي كلها أوصاف كمال وجلال لله رب العالمين، جرت مجرى الأسماء، وجاءتنا عن طريق الشرع إجمالًا، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وورد بعضها تفصيلًا كقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وقد ورد في السنة أيضًا ذكرها إجمالًا، كقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة)[1].

وتفصيلًا وردت في عدة روايات، وذكر معظمها في القرآن الكريم نثرًا في مواضع كثيرةً، وهذه الأسماء قد لوحظ فيها المعاني العظيمة التي تدل عليها، وهي تعطي المعنى الحقيقي الكامل للعقيدة الإلهية، ويتم بها الوصف الشامل للإله الحق المطلق الخير والقوة جميعًا، كما أراد أن يعلم عباده وأن يعرفهم نفسه على ما هو عليه من كمال وجلال وسمو وتفرد، وشدة واقتدار.

الله تعالى حاكمًا وشارعًا:

يقول الشيخ محمد المدني رحمه الله: «القرآن الكريم فرغ من قضية التوحيد، ومن محاجة المشركين، وفرغ من إقامة الدليل على بطلان زعمهم في أن لله شركاء يعبدون، كما يعبد، ويرجون كما يرجى، فرغ القرآن الكريم من هذه القضية، حين كان ينزل في مكة ويقرع المشركين، أما وقد صار المسلمون مجتمعًا جديدًا مؤمنًا في المدينة، فإن القرآن الكريم لا يتناول أمر

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، بابٌ: إن لله مائة اسمٍ إلا واحدًا، رقم ٧٣٩٢.

الوحدانية كقضية يناضل عنها على الوجه الذي كان في البيئة المكية المشركة، ولكنه يتحدث عنها على نحو آخر، نرى في سورة النساء مظهرًا له (التوحيد عملًا بعد التوحيد علمًا)، فهو يتحدث عن وحدانية الله، كما يجب أن يستقر في المجتمع عملًا بعد أن قامت الأدلة عليه حجة ونظرًا، فبينما هو يقول في إيجاز: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فلا يعدو أن يكون مذكرًا بقضية استقرت، وقام الدليل من قبل على صحتها، نراه يتحدث عن الله تعالى مشرعًا، يجب على الناس أن يتلقوا أحكامهم عنه، وأن يؤمنوا إيمانًا خالصًا بأنه هو وحده صاحب الحق المطلق في ذلك، من جهة أنه هو الخالق، ومن جهة أنه هو المتصف بالصفات التي لا بد منها فيمن يشرع، ومن جهة أنه رقيب لا يغيب»[(١)].

ويقول الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله: « نتحدث عن المقصد الثالث من مقاصد سورة البقرة، والخطوات التي مهدت له في السورة الكريمة، ثم يقول:

الخطوة الأولى: تقرير وحدة الخالق المعبود.

الخطوة الثانية: تقرير وحدة الآمر المطاع، وهي ركن من عقيدة التوحيد في الإسلام، فكما أن من أصل التوحيد ألا تتخذ في عبادتك إلهًا من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق والضر والنفع، كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حكمًا في سائر تصرفاتك، بل تعتقد أنه لا حكم إلا له، وأن بيده وحده الأمر والنهي، والحلال ما أحله والحرام ما حرمه، ومن استحل حرامه أو حرم حلاله فقد كفر، وكما أنه لا يليق أن يكون هو الخالق ويعبد غيره، والرازق ويشكر سواه، كذلك لا يليق أن يكون هو الحاكم ويطاع غيره.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨]، ولقد سلك في تقرير هذه الوحدة التشريعية نحوًا من مسلكه في تقرير الوحدة الإلهية»[(٢)].

ويقول الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد حفظه الله: «أن قبول شريعة الله عز وجل ليست أمرًا من أمور التكليفات الفرعية، وإنما هي أمر ملزم واجب بمقتضى عقد التوحيد، وشهادة التوحيد، فإذا قال العبد: «لا إله إلا الله» معناها: أنني لا أعبد ولا

(١) انظر: المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء، محمد المدني ص ٣٣ .

(٢) انظر: كتاب النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص ٢١٧ .

أطيع إلا الله، وعلى أي وجه يطيع الله؟ لا يعبد الله إلا بما شرع، والله عز وجل ما شرع إلا ما علمه وبعث به محمدًا صلى الله عليه وسلم، ومن هنا جاءت شهادة التوحيد مقترنة بشهادة محمد رسول الله، فيتلخص من ذلك: أن العبد المؤمن يقول: أشهد أني لا أطيع ولا أعبد أحدًا إلا الله على الوجه الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم؛ والمقرر في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك إذا انفصل المجتمع عن هذا فهذا الانفصال الهائل الذي وقع في أرجاء العالم الإسلامي دل على أن هناك انفصامًا هائلًا في عقيدة التوحيد.

لابد أن نعي هذه القضية وأن نفهمها جيدًا، هنا ارتباط كامل بتقرير شريعة الله وقبول هذه الشريعة في واقع الحياة، ربما يخطأ الإنسان، أو ربما يقع في معصية فيستغفر ويعود، لكن أن يرفض شريعة الله في واقعه، وأن تستبدل القوانين الوضعية بشريعة الله سبحانه وتعالى أو توضع فوقها أو تقدم عليها، فهذا أمر في غاية الخطورة، وينبغي أن ينتبه إليه العلماء والدارسون والباحثون، وعليهم المسئولية في أن يعلموا أمتهم وشعوبهم ومؤسساتهم في كل أرجاء العالم الإسلامي، هذا الارتباط الذي لا يقبل الانفصام بين قبول شريعة الله عز وجل وبين عقيدة التوحيد»[1].

ثانيًا: الإيمان بالملائكة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الملك في اللغة: حامل الألوكة وهي الرسالة»[2].

الملائكة في الاصطلاح: «أجسام نورانية لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، ومسكنها السموات، وأبطل من قال: أنها الكواكب أو أنها الأنفس الخيرة التي فارقت أجسادها، وغير ذلك من الأقوال التي لا يوجد في الأدلة السمعية شيء منها»[3].

والإيمان بالملائكة: هو اعتقادهم عبادًا لله، ورفض معتقدات الجاهلية فيهم[4].

والإيمان بالملائكة من أركان الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن ينكر وجودهم فقد كفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾

(١) محاضرات في التفسير الموضوعي، عبدالستار فتح الله سعيد ٦٨.
(٢) النبوات ص٢٥٧.
(٣) فتح الباري ٦/ ٣٠٦.
وانظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٢٩
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٣٩١.

[النساء: ١٣٦].

قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فإنه يعني: فقد ذهب عن قصد السبيل، وجار عن محجة الطريق إلى المهالك ذهابًا وجورًا بعيدًا؛ لأن كفر من كفر بذلك خروج منه عن دين الله الذي شرعه لعباده[(١)].

ويستفاد من الآية: أن الكفر بشيء من هذه الأركان كالكفر بجميعها؛ لتلازمها، وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض. وتقديم الملائكة على الرسل؛ لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله.

و سوف نتناول الإيمان بالملائكة في النقاط الآتية:

١. خلقهم.

أخبر سبحانه وتعالى أنه قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض قومًا يخلف بعضهم بعضًا لعمارتها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

ويفهم من الآية: أن الملائكة خلقت قبل آدم عليه السلام[(٢)].

٢. المادة التي خلقوا منها.

وعن المادة التي خلقوا منها روى مسلم بسنده عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نورٍ)[(٣)].

٣. الصفات الخلقية.

١. قدرتهم على تمثلهم بالبشر.

أخبر سبحانه وتعالى أن أرسل إلى مريم الملك جبريل، فتمثل لها في صورة إنسان تام الخلق.

قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٧].

أي: تمثل جبريل لها بشرًا مستوي الخلق، لم يفقد من نعوت بني آدم شيئًا، قيل: ووجه تمثل الملك لها بشرا؛ أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته[(٤)].

وقد جاء الملائكة إبراهيم في صورة بشر، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات ٢٤- ٢٥].

قوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٩٦.
(٢) انظر: فتح الباري، ٦/ ٢٣٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقةٍ، رقم ٥٣١٤.
(٤) فتح القدير، ٣/ ٣٨٧.

عليه في صورة شُبَّان حسان، عليهم مهابة عظيمة[1].

٢. لهم أجنحة.

أخبر سبحانه وتعالى أنَّ من عظيم قدرته أنَّ جعل الملائكة أصحاب أجنحة مثنى وثلاث ورباع تطير بها؛ لتبلغ ما أمرت به سريعًا.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١].

قال قتادة: بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة[2].

روى مسلم بسنده عن عبد الله، قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١].

قال: (رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح)[3].

٤. علاقة الملائكة بالله تعالى.

علاقة الملائكة بالله هي علاقة العبودية الخالصة له، وفعل ما يأمرهم به، قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠].

وقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

أي: ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وصف تعالى حالهم من تواضعهم وإدمانهم للعبادة والتسبيح والسجود[5].

ويستفاد من الآية: الاقتداء بالملائكة في كثرة طاعتهم وعبادتهم، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ إنما يريد في المنزلة والتشريف والقرب في المكانة لا في المكان.

٥. علاقة الملائكة بالكون.

أخبر سبحانه أن الملائكة تنفذ أمره فيما أوكل إليها تدبيره من شؤون الكون، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات: ٥].

قال قتادة: هي الملائكة[6]، و زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها عز وجل[7].

٦. علاقة الملائكة بالإنسان.

١. حفظ الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

ومما يحفظونه: بدن الإنسان، بقوله:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٢٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ولقد رآه نزلة أخرى، رقم ١٧٤.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١١٩.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٩٥.
(٦) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٥.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣١٥.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

و مما يحفظونه جميع أعماله من خير وشر.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

٢. الدعاء للمؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [غافر: ٧-٩].

يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قيض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك: الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم[1].

٣. تثبيت المؤمنين في مواقع الجهاد.

أخبر سبحانه وتعالى أنه أوحى إلى الملائكة أن يقووا عزائم المؤمنين.

قال تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢].

قال ابن إسحاق: وازروهم.

وقال غيره: قاتلوا معهم، وقيل: كثروا سوادهم، وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول سمعت هؤلاء القوم، يعني: المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن، فيحدث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك، فتقوى أنفسهم[2].

قال ابن القيم رحمه الله عن علاقة الملائكة بالإنسان في معنى جامع: «والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره لهم وله شأن آخر؛ فإنهم موكلون بتخليقه، ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه، وعمله، وأجله، وشقاوته، وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره.

وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ، وبعد البعث.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢.

وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة.

وهم الذين يرونه في منامه ما يخافه ليحذره، وما يحبه ليقوى قلبه، ويزداد شكرًا.

وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر، ويحذرونه منه.

فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته، ومعلموه، وناصحوه، والداعون له، والمستغفرون له.

وهم الذين يصلون عليه مادام في طاعة ربه، ويصلون عليه مادام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه، وعند موته، ويوم بعثه.

وهم الذين يزهدونه في الدنيا، ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي، وينشطونه إذا كسل، ويثبتونه إذا جزع.

وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته»[1].

٧. عدد الملائكة.

عدد الملائكة لا يحصيه إلا الله، ومنهم خزنة النار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: ٣١].

والمعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم، ويكثر غضب الله عليهم[2].

فيجب الإيمان بالملائكة الذين ذكروا في القرآن الكريم وفي السنة النبوية و بالأعمال التي أوكلوا بها.

ثالثًا: الإيمان بالكتب:

الإيمان بالكتب: هو التصديق بكل ما أنزل على الأنبياء الذين تضمن ذكرهم كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، أو ما أخبر هو به[3].

فالواجب على المؤمن: الإيمان بالكتب التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله، ما سمى الله منها وما لم يسم.

أما الذي يؤمن بكتابٍ ويكفر بالكتب الأخرى فهذا كافرٌ بالجميع.

ومن هذه الكتب: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وأعظمها التوراة والإنجيل والقرآن، وأعظم الثلاثة وناسخها وأفضلها هو القرآن.

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٣٠.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٩٦.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٩١.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]. يعني بذلك جل ثناؤه: «صدقوا بالله، وبمحمد رسوله، أنه لله رسول مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم، وصدقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذي نزله الله عليه، وذلك القرآن، وآمنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل الكتاب الذي نزله على محمد صلى الله عليه وسلم وهو التوراة والإنجيل»[(١)]. وقيل: المراد بالكتاب الثاني الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية»[(٢)].

فالإيمان بالقرآن والكتب السابقة له ركن، « لا يكون العبد مؤمنًا إلا به، إجمالًا فيما لم يصل إليه تفصيله وتفصيلًا فيما علم من ذلك بالتفصيل»[(٣)].

الكتب المذكورة في القرآن:

التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

الزبور الذي نزل على داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

الصحف التي أنزلها الله تعالى على إبراهيم وموسى-عليهما السلام -، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[الأعلى: ١٨-١٩].

أما الكتب الأخرى التي أنزلها الله على سائر الرسل والتي لم يخبرنا بها فيجب الإيمان بها؛ لأنه سبحانه أخبرنا أنه ما من رسول إلا وجاء برسالة إلى قومه.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

كما يجب أن يؤمن العبد بأن جميع

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٩٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٤٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٠٩.

الكتب جاءت بالدعوة إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى، وإفراده بالعبادة، وأن ما حدث في الكتب من تحريف فهو من صنع العباد.

أما القرآن فهو الكتاب المهيمن على الكتب السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن الهيمنة التي للقرآن على الكتب السماوية التي بين يديه: أنه هو المصدق لها، الشاهد الذي ترى فى أضوائه وفى أحكامه، وأخباره وآدابه- آيات صدقها، وأنها من مورد هذا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إذ ليس بعد شهادة القرآن شهادة، ولا وراء الحق الذي يقوله حق، وإنه سيظل قائمًا هكذا إلى يوم القيامة[١].

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه، سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة، أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم، فالمرجع الذي يعودون إليه بآرائهم في شأن الحياه كله هو هذا الكتاب، ولا قيمه لآراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا المرجع الأخير[٢].

وقد تكفل سبحانه وتعالى بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

«وقد شمل حفظه: الحفظ من التلاشي، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، بأن يسر تواتره وأسباب ذلك، وسلمه من التبديل والتغيير حتى حفظته الأمة عن ظهور قلوبها من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر»[٣].

ولذلك يجب علينا الإيمان بالقرآن وأن ما جاء به هو الحق، وأن كل لفظ فيه محفوظ من التبديل والتحريف، كما يجب اتباع أمره واجتناب نهيه، وتصديق ما أخبر به، ورفض ما يخالفه.

رابعًا: الإيمان بالرسل والأنبياء:

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى بعث في كل أمة رسولًا منهم، يدلهم على الخير ويحذرهم من الشر رحمة بهم[٤].

أخبر سبحانه وتعالى ما من أمة إلا

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/ ٣٩٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٢١.

(٤) منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان، علي بن ناصر فقيهي ص٣٠.

وأرسل فيها رسول، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: ٤٧].

وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. أي: وما من أمة من الأمم الدائنة بملة إلا خلا فيها من قبلك نذير ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله[(١)].

ولا يعلم عدد الرسل إلا الله، قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

وإنما لم يذكر الله تعالى قصص كثير من الرسل؛ اكتفاءً بالمذكورين، فالمقصود أخذ العبرة، لا ذكر الأسماء والقصص[(٢)].

وسوف نتناول الإيمان بالرسل في النقاط الآتية:

١. الرسل المذكورون في القرآن.

المذكورون في القرآن من الرسل والأنبياء: خمسة وعشرون، منهم: ثمانية عشر في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

وورد ذكر بقية الأنبياء في مواضع من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران: ٣٣].

فهؤلاء الأنبياء والرسل يجب الإيمان برسالتهم ونبوتهم تفصيلًا، فمن أنكر نبوة واحد منهم أو أنكر رسالة من بعث منهم برسالة كفر، غير أن العامي لا يحكم عليه بالكفر، وأما الأنبياء والرسل الذين لم يقصهم القرآن علينا فقد أمرنا أن نؤمن بهم إجمالًا.

٢. أولو العزم من الرسل.

ذكر الله تعالى أولي العزم من الرسل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وهؤلاء الخمسة صلى الله عليهم هم أصحاب الكتب والشرائع والحروب

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦١.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٣٥.

الفاصلة على التوحيد وأولو العزم، وقدم ذكر محمد على مرتبته في الزمن تشريفًا خاصًا له[1].

ويستفاد من ذكرهم عليهم السلام الاقتداء بهم في أعمالهم.

٣. حقيقة رسالة الرسل والأنبياء.

ما من رسول إلا جاء بكلمة واحدة، هي قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، هذه الكلمة قالها نوح عليه السلام، وهي ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين[2].

وقد بين الله الحكمة من إرسال الرسل، فقال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥]». أي: معذرة يعتذرون بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾ [طه: ١٣٤].

وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة؛ تنبيهًا على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلًا منه ورحمة»[3].

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضًا من فضله وإحسانه؛ حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة، تقدر فأزال هذا الاضطرار»[4].

٤. واجبنا نحو الرسل والأنبياء.

- يجب علينا الإيمان بأن الرسل والأنبياء عليهم السلام قاموا بتبليغ الرسالة حق القيام.
- يجب علينا أن نؤمن بجميع الرسل، و لا نفرق بين أحد منهم.

قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: ٨٤].

ومن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض كان من الكافرين بنص الكتاب الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ [النساء: ١٥٠].

- يجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله كانوا بشرًا من الرجال.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧١.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٦٤.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٢١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢١٤.

﴿رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

ولم يخصهم الله بطبائع غير الطبائع البشرية، فهم يأكلون و يشربون ويمشون في الأسواق.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

ولهم عليهم السلام أزواجًا وذرية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد: ٣٨].

ويتعرضون للأذى من الظلمة والمجرمين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

كما أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله.

قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

- يجب علينا أن نؤمن أن الله فضل بعضهم على بعض بحسب ما من الله به عليهم.

قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

«يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا صلى الله عليه وسلم الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين»[1].

- ونؤمن بأن الرسول الكريم أرسل للناس جميعًا.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

- ونؤمن أنه أرسل إلى الجن.

قال الله على لسان الجن: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٣١].

ومما سبق ذكره يتضح أن الإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٩.

١. الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع.
٢. الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، مثل: محمد وإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام، وغيرهم بمن ذكر اسمه في الكتاب أو السنة على وجه التعيين، أما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالًا؛ حيث نعتقد أن الله بعث في كل أمة نذيرًا.
٣. تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.
٤. العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

خامسًا: الإيمان باليوم الآخر:

تعريف الإيمان باليوم الآخر:

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «وهو الإيمان بكل ما أخبر الله ورسوله به بعد الموت من فتنة القبر ونعيمه، وعذابه وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه، ومن صفات الجنة والنار وصفات أهليهما، فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بذلك جملة وتفصيلًا»[(١)].

مظاهر اهتمام القرآن باليوم الآخر:

- ذكر الله الإيمان باليوم الآخر مقترنًا بالإيمان بالله في تسعة عشرة موضعًا في كتاب الله.

منها: قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣].

«أي: واستيقنوا أن هناك حياة آخرة، وأن فيها حسابًا وجزاء، وجنة ونارًا.. فعملوا لهذا اليوم العظيم بما ينجيهم من هوله، ويدنيهم من رحمة الله ورضوانه»[(٢)]، «وإذا حساب الآخرة يشغل بالهم، ويصدهم عن جموح الشهوات، ويغمر أرواحهم بتقوى الله وخشيته والحياء من الوقوف بين يديه موقف العصاة»[(٣)].

ولما كان هذا الأصل شديد الإيغال في طيات الغيب، كان أكثر الأصول إنكارًا واستبعادًا من الكفار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل: ٤].

(١) انظر: الفتاوى السعدية ص ١٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن ١٠/ ٢٠٨.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٢٧.

وبالتالي كان أكثر الأصول جميعًا تناولًا في القرآن.

- كثرة أسماء اليوم الآخر، وكل اسم يدل على ما سيقع فيه من الأهوال.

فمن أسمائه في القرآن: «القيامة والساعة والآخرة ويوم الدين ويوم الحساب ويوم الفتح ويوم التلاق ويوم الجمع ويوم التغابن ويوم الخلود ويوم الخروج ويوم الحسرة ويوم التناد والآزفة والطامة والصاخة والحاقة والغاشية والواقعة وغيرها»[1].

- تسمية سور القرآن بأسماء وصفات اليوم الآخر.

فتارة تسمى السور باسم من أسمائها: القيامة، الواقعة، الحاقة، الغاشية، القارعة، النبأ.

وتارة تسمى السور باسم من الأحداث الكونية التي تمهد لهذا اليوم: الدخان، التكوير، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة.

وتارة باسم ما يقع فيها، مثل سور: الأعراف، الزمر، الجاثية، الحشر، التغابن، المعارج.

فهذه أسماء (سبع عشرة) سورة تتعلق بالآخرة، ولم يقع مثل هذا قط لأي أصل من أصول الإيمان في القرآن الكريم.

- التأكيد على وقوع الساعة.

وكثيرًا ما عبر القرآن عن أن وقوع الساعة لا ريب فيه، من ذلك مثلًا: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾ [غافر: ٥٩].

«ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الساعة آتية، وأكد ذلك بحرف التوكيد الذي هو «إن»، وبلام الابتداء التي تزحلقها إن المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر؛ وذلك يدل على أمرين:

أحدهما: إتيان الساعة لا محالة.

والثاني: أن إتيانها أنكره الكفار؛ لأن تعدد التوكيد يدل على إنكار الخبر، كما تقرر في فن المعاني»[2].

ومن مظاهر اهتمام القرآن باليوم الآخر: الترابط بين الخلق والحق والساعة، فقد بين القرآن أن الآخرة هي الأصل الذي يحقق حكمة الخلق ومعنى الوجود؛ لأنها غاية جزاء ومصير الخلائق، تصون وجودهم عن العبث واللعب، وتحفظ مصيرهم عن البطلان والضياع، وتجعله خالصًا، وحكمة تامة.

قال تعال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص٢٦١-٢٦٤.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣١٣.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾ [الدخان: ٣٨-٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٢٢﴾ [النحل: ٢٢].

يجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة، بل يجعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء، فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الجزاء.

«فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة، ولا يؤمنون بالآخرة- وهي فرع عن الاعتقاد بوحدانية الخالق وحكمته وعدله- هؤلاء لا تنقصهم الآيات ولا تنقصهم البراهين، إنما تكمن العلة في كيانهم وفي طباعهم. إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات، وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول، فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب!»[1].

«فعدم الإيمان بالآخرة جعل قلوبهم مفعمة بالإنكار والاستكبار، وقد حذف المفعولان للتعميم، فهم ينكرون الحق ويستكبرون عليه، وهم ينكرون حق الأمم والشعوب في عقيدتها وحريتها، ويستكبرون عن الاعتراف به، وهكذا يكون دائمًا الكفار والطواغيت و لايزالون»[2].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

أي: «تمرد وعتا، وآثر الحياة الدنيا، أي: قدمها على أمر دينه وأخراه، فإن الجحيم هي المأوى، أي: فإن مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حكم الله، فيه ونهى نفسه عن هواها وردها إلى طاعة مولاها، فإن الجنة هي المأوى، أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء»[3].

«والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى. ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا. واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره. فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده، واختلت كل

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٦٧.

(٢) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد ص ٢٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣١٩.

القيم في تقديره، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعد طاغيًا وباغيًا ومتجاوزًا للمدى»[1]. و من هداية الآية: «قدم ذكر الطغيان على إيثار الحياة الدنيا؛ لأن الطغيان من أكبر أسباب إيثار الحياة الدنيا»[2].

من مشاهد الآخرة في القرآن:

تبدأ المشاهد بمقدمات اليوم الآخر، ثم الفصل بين الخلائق، ثم النعيم الأبدي أو العذاب الأبدي، من هذه المشاهد:

١. نفخة الصعق.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

«وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن. ﴿فَصَعِقَ﴾ أي: غشي أو مات، على اختلاف القولين: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم، وهذه النفخة الأولى: نفخة الصعق، ونفخة الفزع»[3].

٢. نفخة البعث.

وهي النفخة الثانية؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

أي: «قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ينظرون ماذا يفعل الله بهم»[4].

٣. تصدع الكون وتبديله.

يرى الخلائق بعد بعثهم مشاهد أهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وهذا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق، يبدل الله عز وجل الأرض من غير الأرض ويغير هيئاتها، ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئات الهائلة ليشاهدها أهل المحشر، وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٨.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٨١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٧٢٩.
(٤) المصدر السابق.

﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

«فإن اتباع الداعي الذي هو إسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله سبحانه لا يكون إلا بعد البعث قطعًا»[(١)].

٤. حساب الله للخلائق.

يحدثنا الوحي الإلهي طويلًا عن حساب الله تعالى للخلائق في هذا اليوم الشديد، والذي يتسم بالعدل.

٥. تطاير صحف الأعمال.

صحائف الأعمال التي سجل فيها عمل كل فرد على حدة.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

قال الحسن رحمه الله: «قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك»[(٢)].

ويبلغ الوحي الإلهي غاية من التفصيل حيث يبين كيفيات تسليم الكتب، وأحوال الناس عندها، يقول ربنا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة: ١٩]. يعني: خذوا اقرءوا كتابيه ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق: ٧-١٣]. يعني: في الدنيا.

٦. الشهود.

وهذا من تمام إظهار العدل الإلهي في هذا الموقف العظيم، فإن الله عز وجل يستشهد على المذنبين قبل إدانتهم مع علمه عز وجل القاطع بما عملوا، لكنه لا يريد أن يعاملهم بعلمه، لكن يعاملهم بالشهود حتى يتأكد كل إنسان من ذنبه وعمله.

- والأنبياء هم أول الشهود عليهم السلام، يشهدون على أممهم بالبلاغ، وإقامة الحجة.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

- والملائكة، وهم أيضًا يشهدون؛ لأنهم سجلوا الأعمال، وشهدوا الطاعات والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ١٩٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٢٣.

﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١].

- والأرض أيضًا تشهد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [الزلزلة: ٤].

وقد فسر النبي أخبارها في الحديث الذي رواه أحمد عن أبي هريرة، قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [الزلزلة: ٤].

قال: (أتدرون ما أخبارها؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ وأمةٍ بما عمل على ظهرها، أن تقول: عملت علي كذا وكذا يوم كذا وكذا)، قال: (فهو أخبارها)[1].

- أيضًا من الشهود: جوارح الإنسان، أي: خاصة عندما يماري، ولا يرضى إلا شاهدًا من نفسه.

يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] يعني: فلا تنطق ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ويقول جل شأنه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

ويقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ٢٠-٢١].

٧. السؤال الشخصي.

ليدافع كل إنسان عن نفسه، وليبين أعذاره إن كانت له أعذار، والله تعالى مع ذلك أعلم بالمرء من نفسه، قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٢-٢٤].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

٨. وضع الميزان.

ليوفي كل إنسان جزاءه في دقة كاملة بالغة حتى مقادير ومثاقيل الذر والخردل، كما قال ربنا: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧] جل شأن الله.

ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، تفسير سورة (إذا زلزلت الأرض)، رقم ٢٤٢٩.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد.
انظر: ضعيف الترمذي ١/ ٢٧٥.

[النساء: ٤٠].

وعلى نتيجة هذا الميزان العدل يقضي الله تعالى بالحق بين عباده: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ [القارعة: ٦-٧].

يعني: ثقلت بالحسنات، والطيبات ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨﴾ [القارعة: ٨].

من الحسنات والطيبات، وامتلأت بالسيئات، يقول ربنا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ [القارعة: ٨-١١]. نعوذ بالله منها.

وصف الجنة والنار:

فأما المؤمنون الصالحون فيبلغون سعادة الأبد، ويظفرون بنعيم الخلد، قال تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] يعني: جماعات جماعات ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۝٧٣ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٧٤﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤].

الأرض هي: أرض الجنة، ويصف الوحي الإلهي أحوال أهل الجنة، وما فيها من نعيم وصفًا تفصيليًا، في دار لم يبلغها علمنا المحدود، ولم تشاهدها حواسنا، ولكنها أعدت للمتقين، وأخبرنا بها رب العالمين، وينبغي أن نوقن بوجودها أكثر مما نوقن بحاضرنا المشاهد؛ لأنها وعد الله الحق، وجزاؤه الصدق، كما قال ربنا: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذا وعد سجله في كتبه الثلاثة الأساسية التي أنزلها من السماء إلى أهل الأرض، على موسى، وعلى عيسى، وعلى محمد صلى الله عليهم جميعًا يقول: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾.

وأما الكافرون فيساقون إلى جهنم زمرًا، حيث يذوقون العذاب الأبدي، وحيث يذوقون شقاء الخلد بشؤم ذنوبهم، واستكبارهم على ربهم، وقد بلغ الوصف القرآني للنار وأحوالها ودركاتها وبلاء أهلها حدًا يخلع القلوب خلعًا، وفي القرآن الكريم آيات تفرد وصف الجنة، وآيات تفرد وصف النار، وفيه آيات تجمع ذكرهما معًا؛ ليوازن العاقل، ويقارن بين الصورتين، كما قال تعالى عقب الكلام عن النار والجنة، وهلاك المكذبين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].

ومنها على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

ثم تأتي الصورة الأخرى المزعجة: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

لا يستويان أبدًا، يقول ربنا أيضًا: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج: ١٩-٢٠].

يصهر: يصير صهارًا مذابًا ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢١-٢٤].

والمقصود من هذه الأخبار والأوصاف: تشويق الناس إلى الجنة؛ ليعملوا بعمل أهلها هنا في الدنيا، ولتحذير الناس من النار؛ ليجتنبوا عملها وسوء حالها.

الخلود الأبدي:

أكد القرآن الكريم تأكيدًا قاطعًا أن الجنة والنار خالدتين أبدًا، لا فناء لهما، ولا انقطاع فيهما، ولا موت لأهلهما، وإنما هي حياة الأبد والخلود السرمدي، وقد ورد هذا في القرآن الكريم بأساليب كثيرة، أشهرها: أسلوب (الخلود الأبدي)؛ ذلك لأن معنى الخلود هو المكث الطويل، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي[1]: خوالد؛ وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها؛ ولذلك أكد الله تعالى خلود الجنة والنار بالأبدية، ليخرجه من المكث الطويل إلى البقاء الدائم؛ لأن معنى الأبد كما قال الراغب الأصفهاني: هو مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان[2].

وقد ورد تأكيد الجنة بالخلود الأبدي في ثماني آيات، والتاسعة بالمعنى في أول سورة الكهف: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ٣]. والمكث هو الخلود؛ فلذلك تكون تسع آيات، قيد الخلود فيها بالأبدية، مثلًا يقول: أصحاب الجنة خالدين فيها أبدًا، وورد تأكيد خلود النار بالأبدية ثلاث مرات

(١) الأثافي: هي جمع أثفية، وقد تخفف الياء في الجمع، وهي الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها: انظر النهاية في غريب الأثر: ص٢٣.

(٢) المفردات، الراغب ص ٥٩.

في القرآن: في آخر سورة النساء الآية ١٦٩، وفي آخر سورة الأحزاب الآية ١٦٥، وفي آخر سورة الجن الآية ٢٣، فهذه الآيات تقيد أيضًا أصحاب النار بكونهم خالدين فيها أبدًا، والمراد بأصحاب النار: أهلها الذين هم أهلها، يعني: الكفار والمشركين، الذين ماتوا ولم يتوبوا توبة نصوحًا، أما المسلمون العصاة من المؤمنين فهؤلاء إن دخلوا النار وعذبوا فالله يغفر لهم بعد ذلك، ويخرجون مآلًا إلى الجنة إن شاء الله.

فالمراد بالخلود الأبدي لأهل الجنة جميعًا من يدخل الجنة، فلا يموت أبدًا، ولا تفنى الجنة والنار، الخلود الأبدي لأهلها الذين هم أهلها كما جاء في الصحيح، هذا عدا الآيات الأخرى بغير هذا الأسلوب التي تؤكد أن أهل الجنة لا يخرجون منها أبدًا، وأن أهل النار لا يخرجون منها أبدًا مثل، قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]. ففي الآية الكريمة نفي للخروج منها، وإثبات للعذاب الدائم، ويقول تعالى عن أهل الجنة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٨].

وفي هذا المعنى روى البخاري بسنده عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت)[(١)].

ولعل أجمع ما يبين نعيم الجنة: هو الحديث القدسي الشريف الذي رواه البخاري بسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر)، قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][(٢)].

سادسًا: الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر: «هو الاعتقاد الجازم بأن الله سبق في علمه مقادير الخلائق -ويشمل ذلك ما يعمله العباد من خير وشر، وطاعة ومعصية، ومن هو من أهل الجنة، ومن من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وأنذرهم يوم الحسرة)، ٤٧٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعينٍ)، رقم ٤٤٠٦.

أهل النار- وقد كتب الله ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

كما كتب لهم وعليهم ما تقتضيه حكمته من المقادير والأحوال التي يستحقونها على أعمالهم التي علم أنهم سيعملونها، وأراد إرادة كونية أن يقع ما علمه وكتبه لأجله الذي قدر له، وهو الذي يخلقه إذا حان الأجل، فهو الخالق لكل شيء بما في ذلك أفعال العباد، من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان وغيرها»[1].

وسوف أتناول الإيمان بالقدر في النقاط الآتية:

١. أدلة القرآن على القدر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]. «أي: كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. أي: خلقنا كل شيء مقدرًا محكمًا مرتبًا على حسب ما اقتضته الحكمة، أو مقدرًا مكتوبًا في اللوح معلومًا قبل كونه، قد علمنا حاله وزمانه[3].

٢. مراتب القدر.

للقدر أربع مراتب دلت عليها النصوص[4]، وهي:

المرتبة الأولى: علم الله بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، وإحاطته بذلك علمًا، فعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

المرتبة الثانية: كتابة الله تعالى لكل شيء مما هو كائن إلى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

المرتبة الثالثة: المشيئة فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

(١) رسائل العقيدة، ابن عثيمين ص٣٧، ٤٠
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٨٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٤١.
(٤) الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، وزارة الأوقاف والدعوة والإرشاد بالسعودية ص ٢٤٧.

المرتبة الرابعة: خلق الله تعالى للأشياء وإيجادها وقدرته الكاملة على ذلك، فهو سبحانه خالق لكل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

وروى البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم: (كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيءٍ، وخلق السموات والأرض)[1].

فيجب الإيمان بهذه المراتب الأربع لتحقيق الإيمان بالقدر، ومن أنكر شيئًا منها لم يحقق الإيمان بالقدر.

٣. أنواع القدر.

القدر بمعناه العام نوعان: قدر تصريفي وقدر تكليفي، أو تكوين وتشريع، والقدر التكويني التصريفي لا خيار لأحد فيه، والخلائق جميعًا لا تملك معه إلا أن تصدع بأمر ربها وخالقها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل: ٤٠]، ويقول ربنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾ [غافر: ٦٨].

أما القدر التشريعي التكليفي ففيه الخيار، وقد عرض على السماوات والأرض والجبال فأبين استصغارًا لا استكبارًا.

وحمله الإنسان اختيارًا حين خير؛ ليتم بذلك ما اقتضت حكمة الله تعالى من إيجاد جنسٍ من الخلائق يكلف اختيارًا، ويترتب على سلوكه نوعية الجزاء، ولو شاء الله عز وجل لكان الأمران جميعًا على سواء، فينقاد الإنسان له في التوحيد والشعائر، وسائر الشرائع كما ينقاد له في قوانين الوجود الأخرى التكوينية، كالحياة والموت، والأكل والشرب والتنفس وغير ذلك، ولكن الله تبارك وتعالى ترك للإرادة الإنسانية جزءًا من الاختيار، ليصح تعلق الثواب والعقاب بالفعل الإنساني.

ومن بديهيات العقيدة القرآنية: الإيمان بأن قدر الله كله مبني على غاية الحكمة والعلم المحيط، فكله حق ونعمة ورحمة، كما قال تعالى: ﴿فَقَدَّرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣﴾ [المرسلات: ٢٣]، وذلك في القدر التكويني، وكما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

وذلك في القدر التكليفي التشريعي، والإنسان حين يخضع الأمور لمقياسه المحدود، يقول: هذا خير وهذا شر، وما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)، رقم ٣١٩١.

هذا إلا قياس بالمصلحة الشخصية، أو العلم المحدود الذي لا ينفذ وراء الأشياء ولا يستطيع، ومن هنا كان التسليم بالقدر الإلهي تسليمًا مطلقًا، هو من لب الاعتقاد وصريح الإيمان، يقينًا بالله تعالى، وثقة فيه، واتهامًا للنفس والرأي، ومعرفة بحدود الإنسان وضآلة علمه، وهذا ما ربى عليه القرآن المسلمين، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى في عشرة الأزواج: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

والآيتان الكريمتان تشملان القدر بنوعيه، بل هما واردتان أصلًا لبيان أحكام تشريعية: وهي فرضية القتال وعشرة الزوجات، والمنازعة في القدر التشريعي أكثر من المنازعة في القدر التصريفي؛ لأن القدر التصريفي ظاهر القهر والنفاذ، والقدر التشريعي جعله الله مجالًا للاختيار والاختبار، ومن ثم كثرت الوصية بالتسليم فيه لله تعالى، بل جعل الله تعالى تحكيم شرعه ورسوله والتسليم المطلق بهذا التحكيم التشريعي شرطًا للإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فقد أقسم الله تعالى أن إيمان الناس لا يتحقق أو لا يكتمل إلا بالتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالرضا والتسليم بقضائه المبني على شرع الله تعالى، كما جاء ذلك صريحًا في نفس السورة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

٤. الاحتجاج بالقدر.

الاحتجاج بالقدر كان يثيره الكفار فيقولون: ﴿لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

وغير ذلك من ألوان الاحتجاج بالباطل الذي رد عليه القرآن في مواضع كثيرة، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والآية الكريمة إخبار بالغيب عن دعواهم الباطلة في الاحتجاج بالقدر، وهذا من دلائل صدق النبي صلى الله عليه وسلم؛

لأنه أخبرهم بما سيقولون مما علمه الله، فوقع الأمر كما قال تمامًا.

وقد رد الله تعالى عليهم بدليل التاريخ الذي وقع للسابقين ممن قالوا مثل دعواهم، ثم تحداهم أن يكون لديهم علم يثبت دعواهم؛ وأكد ذلك بكشف حقيقة دعواهم القائمة على الظن والتخمين، والمجردة من التثبت واليقين.

خامسًا: أمران هامان يجب مراعاتهما في الإيمان بالقدر:

الأول: يجب اليقين باستحالة الإحاطة بسر القدر الإلهي إحاطة كاملة؛ لأن هذا من خصائص العلم الإلهي الخالصة، والله تعالى يطلع من شاء من عباده على ما شاء من أسرار خلقه وغيبه، وهذا الاطلاع مهما عظم وامتد فهو ضئيل جدًا بجانب علم الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولقد كان موسى عليه السلام هو كليم الله، وعلمه الله تعالى ما شاء، ثم لقي الخضر وهو كما وصفه الله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف: ٦٥].

(فلما ركبا في السفينة جاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرةً أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر) [(١)].

وفي ذلك دلالة على حكمة الله تعالى البالغة وراء الحوادث، وأن القدر الإلهي ليس عشوائيًا، وإنما يمضي على نظام وإتقان، وإن بدا للناس أحيانًا تحت وطأة النوازل أمرًا غريبًا مستنكرًا؛ لأنهم لم يحيطوا به خبرًا.

الأمر الثاني: لا سبيل في الأعمال الاختيارية إلى الاحتجاج بالقدر؛ لأن رب القدر هو الذي ترك لنا فيها الخيار ابتلاءً واختبارًا، وكلفنا بناء على هذا، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، ولهذا أعد الآخرة ثوابًا وعقابًا، جزاء وفاقًا لهذا الجهد الإنساني الاختياري في طاعته، أو معصيته.

والاحتجاج بالقدر يبطل ذلك كله، فعلمنا يقينًا أن الإنسان حر مختار في هذا الباب، وأن الله عز شأنه لم يجبر أحدًا على الطاعة، وإنما أمر بها وشرع للناس سبيلها، ولم يرغم أحدًا على المعصية، وإنما نهى عنها وبين حدودها؛ ولذلك أبطل الله تبارك وتعالى حجة المشركين حين تذرعوا بالقدر، واحتجوا لضلالهم بمشيئة الاقتضاء أو الارتضاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣١٤٩.

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨][(١)].

لهذا لا يصح للمسلم أن يحتج في ارتكاب المعصية، يقول هذا كتبه الله علي، أو الله قدر علي ذلك، أو أنا مرغم على ذلك، كل هذا باطل؛ لأن الله سبحانه بين لنا الطريق، وعلمنا ما لم نكن نعلم، وكان فضله علينا عظيمًا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن القدر نؤمن به ولا نحتج به، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولًا، لقبل من إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد؛ لم يعذب الله أحدًا من الخلق، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على جريمة، ولا جوهد في سبيل الله، ولا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر»[(٢)].

(١) محاضرات في التفسير الموضوعي، عبدالستار السعيد ص٦٥.
(٢) دقائق التفسير، ابن تيمية ٢/ ٣٦٨.

زيادة الإيمان ونقصانه وقلته

ورد في كتاب الله تعالى آيات استنبط منها العلماء أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بفعل الطاعات وينقص بارتكاب المحرمات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

يقول تعالى ذكره: وأما الذين وفقهم الله لاتباع الحق، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله من الذين استمعوا إليك يا محمد، فإن ما تلوته عليهم، وسمعوه منك زادهم الله بذلك إيمانًا إلى إيمانهم، وبيانًا لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾،[مريم: ٧٦]. أي: أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقًا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أمورًا أخر، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾[المدثر: ٣١]. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٠٥.

ويدل عليه أيضًا الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. أي صبرًا على البلاء، وتسليمًا للقضاء، وتصديقًا بتحقيق ما كان الله وعدهم ورسوله[2].

وفي الآية «دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قال جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص»[3].

وقال تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين، وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه[4].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

في هذه الآية: دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها، وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه، وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه[5].

وقال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وفي الآية دليلٌ على أن الإيمان يتفاوت زيادةً ونقصانًا، قال: ابن عمر رضي الله عنهما قلنا: يا رسول الله: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: (نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار)[6].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك»[7].

ومن أقوال العلماء في زيادة الإيمان ونقصانه:

قيل لسفيان بن عيينة: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: أليس تقرأون: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. في غير موضع، قيل: فينقص؟ قال: ليس شيء يزيد إلا وهو ينقص[8].

وقال ابن بطال رحمه الله: «مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص،.. ثم قال: فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص»[9].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٥١.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢١٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٥.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١١٤.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٠.
(٨) أخرجه الآجري في الشريعة ص ١١٧.
(٩) شرح صحيح مسلم، النووي ١/ ١٤٦.

وخلاصة القول: أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وتجدر الإشارة إلى أن نقصان الإيمان غير الإيمان القليل التي ذكره القرآن وصفًا لليهود، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦]. «أي: إلا إيمانًا قليلًا، وهو الإيمان ببعض الكتب دون بعض، وببعض الرسل دون بعض»[(١)].

«قيل: أي: إلا إيمانًا قليلًا لا يعبأ به، وهو الإيمان ببعض الكتب والرسل، أو إلا زمانًا قليلًا وهو زمان الاحتضار فإنهم يؤمنون حين لا ينفعهم الإيمان»[(٢)].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه قولان:

أحدهما: فلا يؤمن منهم إلا قليل، وهم عبد الله بن سلام، ومن تبعه، قاله ابن عباس.

والثاني: فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلًا، قاله قتادة، والزجاج. قال مقاتل: وهو اعتقادهم أن الله خلقهم ورزقهم»[(٣)].

والمعنى يسع هذه الأقوال؛ لأنها من باب التفسير بالمثال.

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٤٨.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٨٤.
(٣) زاد المسير ١/ ٤١٦.

أثر الإيمان في النفوس

للإيمان تأثير بليغ في النفوس، فيحدث فيها تغيرًا كبيرًا.

وفي القرآن الكريم بعض النماذج التي تظهر تأثر النفس وتغييرها بعد الإيمان.

ومن تلك النماذج: سحرة فرعون.

فقد أخبرنا الله في القرآن الكريم عن قصة إيمان سحرة فرعون وأثر هذا الإيمان في ثباتهم واسترخاص أنفسهم في سبيل الله تعالى.

ويظهر هذا التأثير في النقاط الآتية:

أولًا: سحرة فرعون وتعلقهم بعطايا فرعون:

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤]. أي أجمع لكم بين الأجر والمنزلة عندي والقرب مني، وسألوا استحقاق الأجر إدلال بخبرتهم وبالحاجة إليهم، إذ علموا أن فرعون شديد الحرص على أن يكونوا غالبين، وخافوا أن يسخرهم فرعون بدون أجر فشرطوا أجرهم من قبل الشروع في العمل ليقيدوه بوعده»[(٤)].

وهذا دأب المستبدين، تسخير العباد بمختلف طاقاتهم ومهاراتهم لحساب

(٤) تفسير التحرير والتنوير ١٩/ ١٢٦.

ذواتهم، دون أن يعطوهم من الأجر ما يستحقونه.

ثانيًا: سحرة فرعون وتعلقهم بعظمة فرعون:

قال تعالى ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

ثالثًا: أثر الإيمان في نفوسهم:

وعندما من الله عليهم بالإيمان واليقين قالوا: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[طه: ٧٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: «أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة، فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته»[(١)].

وتعليقًا على هذا التحول العجيب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء»[(٢)].

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٦/ ٢٦٦.
(٢) الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٥١٣.

ثمرات الإيمان في الدنيا والآخرة

جعل الله تعالى للإيمان ثمرات في الدنيا والآخرة؛ لتحفيز العباد على الثبات عليه، وتجديده باستمرار وزيادته بالطاعات، وسوف نتناول هذه الثمرات في المطالب الآتية:

أولًا: جزاء الإيمان في الدنيا:

١. الاستخلاف والتمكين في الأرض.

أخبر سبحانه وتعالى أنه وعد بالنصر الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة، بأن يورثهم أرض المشركين، ويجعلهم خلفاء فيها.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا

يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نكون آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إلى ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد. وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنًا وحكمًا فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة[2]، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح[3].

قال سيد قطب رحمه الله: «أن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان! وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض-كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم-ليحققوا النهج الذي أراده الله، ويقرروا العدل الذي أراده الله، ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله.. فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان.. فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض؛ إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله.. وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها»[4].

«وإن الله تعالى إذا نبه عباده إلى أن الأرض يرثها عباده الصالحون، فإن معنى ذلك الصلاح أوسع من ركعات تؤدى، أو أيام تصام، إنه علم رحب الآفاق بكل شيء في مقدور البشر، وعدل محدود الرواق، لا يشقى معه ضعيف، ولا يقهر معه مظلوم،

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ١٥٩ مرسلاً عن أبي العالية.
وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول، الوادعي ص ١٥٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٣.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٩.

وأمان ضد الجوع والقلق، وطوارق اليوم والغد، وكفالة لحرية العقل والضمير، تنمو فيها المواهب وتتضح الملكات، وتكمل الشخصية، وتصان المرافق العامة والخاصة»[1].

٢. الخيرية بين البشرية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة: ٧].

يقول تعالى ذكره: إن الذين آمنوا بالله ورسوله محمد، وعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله فيما أمر ونهى، يقول: من فعل ذلك من الناس فهم خير البرية[2]، حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال، ولكن شرطه كذلك واضح لا غموض فيه ولا احتيال: إنه الإيمان، لا مجرد مولد في أرض تدعى الإسلام، أو في بيت يقول: إنه من المسلمين، ولا بمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان! إنه الإيمان الذي ينشيء آثاره في واقع الحياة، وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه! والصالحات هي كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل. وفي أولها إقامة شريعة الله في الأرض، والحكم بين الناس بما شرع الله، فمن كانوا كذلك فهم خير البرية[3].

٣. البركات من السماء و الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

«أي: لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب»[4]. وفي هذا دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش.

«والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون، في توكيد ويقين، ألوان شتى لا يفصلها النص ولا يحددها، وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، ما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال.

والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض، لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة، وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله سبحانه وكفى بالله شهيدًا، ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها

(١) انظر: سر تأخر العرب والمسلمين، محمد الغزالي ص ١٢٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٥٦.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٥٣.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٥٣.

الناس[1].

وهنا يثار تساؤل: لماذا نرى أممًا مسلمة مضيق عليهم في الرزق، ونرى أممًا لا يؤمنون موسعًا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ؟

قال سيد قطب رحمه الله: إن أولئك الذين يقولون: إنهم مسلمون، لا مؤمنون ولا متقون، إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله، ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله، إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم، يتألهون عليهم، ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم والتقاليد - وما أولئك بالمؤمنين، فالمؤمن لا يدع عبدًا من العبيد يتأله عليه، ولا يجعل عبدًا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره، ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقًا. دانت لهم الدنيا، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض، وتحقق لهم وعد الله، فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق، فهذه هي السنة: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[الأعراف: ٩٥]. فهو الابتلاء بالنعمة، وهو أخطر من الابتلاء بالشدة، وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح، وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال، فهي قوة بلا أمن، وهو متاع بلا رضى، وهي وفرة بلا صلاح، وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد، وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال.

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، بركات في الأشياء، وبركات في النفوس وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة، بركات تنمي الحياة وترفعها في آن وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال»[2].

٤. الحياة الطيبة.

أخبر سبحانه وتعالى أنه من عمل عملًا صالحًا ذكرًا كان أم أنثى، وهو مؤمن بالله ورسوله، فلنحيينه في الدنيا حياة سعيدة مطمئنة، ولو كان قليل المال، ولنجزينهم في الآخرة ثوابهم بأحسن ما عملوا في الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من ذكر أو أنثى،

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٣٨.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٣٩.

من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها هي السعادة.

وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة.

وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضًا: هي العمل بالطاعة والانشراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله[1].

فالعمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها. وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة.. وليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار»[3].

وفي الآية دليل على أن الجنسين: الذكر والأنثى متساويان في قاعدة العمل والجزاء، وفي صلتهما بالله، وفي جزائهما عند الله، و أن أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء عدا ما خصصه الدين بأحد الصنفين.

٥. عدم الحرمان من ثواب العمل.

أخبر سبحانه وتعالى أنه يجازي أهل الإيمان والعمل الصالح بالأجر الجزيل غير المقطوع، وهذا الأجر يكون بأحسن ما عملوا، ويكون وافيًا تامًّا.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾[الأنبياء: ٩٤].

«هذا هو قانون العمل والجزاء، لا جحود ولا كفران للعمل الصالح متى قام على قاعدة الإيمان، وهو مكتوب عند الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٦.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٣.

(٣) مدارج السالكين: ٣/ ٢٤٣.

لا يضيع منه شيء ولا يغيب»[1].

ووعد الله أهل الإيمان والعمل الصلاح بالثواب غير المقطوع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت: ٨].

قال السدي: نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى، إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون[2].

بل وعدهم سبحانه بتوفية أجورهم والزيادة من فضله، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

يعني جل ثناؤه بذلك: فأما المؤمنون المقرون بوحدانية الله، الخاضعون له بالطاعة، المتذللون له بالعبودية، والعاملون الصالحات من الأعمال، وذلك أن يردوا على ربهم، قد آمنوا به وبرسله، وعملوا بما أتاهم به رسله من عند ربهم، من فعل ما أمرهم به، واجتناب ما أمرهم باجتنابه فيؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة وافيًا تامًا، ويزيدهم على ما وعدهم من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها من الفضل والزيادة ما لم يعرفهم مبلغه ولم يحد لهم منتهاه. وذلك أن الله وعد من جاء من عباده المؤمنين بالحسنة الواحدة عشر أمثالها من الثواب والجزاء، فذلك هو أجر كل عامل على عمله الصالح من أهل الإيمان المحدود مبلغه، والزيادة على ذلك تفضل من الله عليهم، وإن كان كل ذلك من فضله على عباده، غير أن الذي وعد عباده المؤمنين أن يوفيهم فلا ينقصهم من الثواب على أعمالهم الصالحة، هو ما حد مبلغه من العشر، والزيادة على ذلك غير محدود مبلغها، فيزيد من شاء من خلقه على ذلك قدر ما يشاء، لا حد لقدره يوقف عليه[3].

ويستفاد من الآية: أن أجر أهل الإيمان والعمل الصالح مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتهيات، ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المآكل والمشارب، والمناكح، والمناظر والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح.

٦. الأمن من الخوف والحزن.

أخبر سبحانه وتعالى أن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة، وأدوا الصلاة كما أمر الله ورسوله، وأخرجوا زكاة أموالهم، لهم ثواب عظيم

(١) في ظلال القرآن ٥/ ١٧٢.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٧١٠.

خاص بهم عند ربهم ورازقهم، ولا يلحقهم خوف في آخرتهم، ولا حزن على ما فاتهم من حظوظ دنياهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. وعد سبحانه- الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة بالأجر العظيم، والرحمة والرضوان، والأمن يوم الفزع الأكبر.. ذلك لأنهم استقاموا على الصراط المستقيم، وجاءتهم الموعظة فاستمعوا إليها، وامتثلوا لها، وانتهوا عما نهوا عنه من منكرات كانوا يأتونها وهم جاهلون[(١)].

من هدايات الآية: أنه سبحانه وتعالى خص الصلاة والزكاة بالذكر وقد تضمنهما عمل الصالحات تشريفًا لهما، وتنبيهًا على قدرهما، إذ هما رأس الأعمال، الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال.

٧. الأمان من الظلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

لا يخاف أن يظلم فيزاد في سيئاته، ولا أن يهضم من حسناته، ولا يخاف أن يظلم فيزاد من ذنب غيره، ولا يخاف أن يؤاخذ بما لم يعمل، ولا ينتقص من عمله الصالح، ولا يخاف أن لا يجزى بعمله، ولا أن ينقص من حقه[(٢)].

٨. المحبة في قلوب العباد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]. أي سيحدث لهم في القلوب مودةً من غير تعرضٍ منهم لأسبابها سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح[(٣)].

روى مسلم بسنده عن عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض)[(٤)].

٩. الهداية إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/ ٣٥٩.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٧٧.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٨٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، رقم ٢٦٣٧.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس: ٩]، أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم؛ ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾[1].

١ . صلاح البال.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد: ٢].

يقول تعالى ذكره: والذين صدقوا الله وعملوا بطاعته، واتبعوا أمره ونهيه، وصدقوا بالكتاب الذي أنزل الله على محمد، محا الله عنهم بفعلهم ذلك سيئ ما عملوا من الأعمال، فلم يؤاخذهم به، ولم يعاقبهم عليه، وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة بأن أورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جنانه[2].

«وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر. والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام، ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام»[3].

ويستفاد من الآية: أن الإيمان والعمل الصالح أصل صلاح بال المؤمن، فلا يفكر إلا صالحًا، ولا يتدبر إلا ناجحًا، و لا يعمل إلا نافعًا.

١١ . النجاة من الخسران.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٢-٣].

إن الإنسان لفي خسارة وهلاك إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران: الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم وتواصوا بالحق: وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات وتواصوا بالصبر، أي: على المصائب والأقدار وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر[4].

والخسار مراتب متعددة متفاوتة:

«قد يكون خسارًا مطلقًا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٠.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥٧.

بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين، يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم»[1].

ويستفاد من الآية: أن الإنسان لا ينفك عن نوع خسران، وتفسيره: «أن كل ساعة تمر بالإنسان فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسران، وإن كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضًا حاصل؛ لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر، مع أنه كان متمكنًا من أن يعمل فيه عملًا يبقى أثره دائمًا، وإن كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها، أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك؛ لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر، فكان تعظيمه عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل، وترك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسران»[2].

ويستفاد أيضًا: أن الأمة إذا قامت بالصفات الأربع-الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر-قادت العالم الإنساني إلى الخيرية التي أخرجت من أجل تحقيقها كما كانت في سابق عهدها؛ لأنه لما ضعف في الأمة تحقيق هذه الصفات الأربع أصبحت في ذيل الأمم وتحقق الخسار للعالم أجمع، وكثرت رايات الباطل ومن يحملها، وقلت رايات الحق ومن يحملها.

ونحن على موعد لإرهاصات عهد جديد للأمة ترفع فيه رايات الحق وينضوي تحتها المحبون له المناضلون من أجله؛ لإسعاد الخلق به، وقيادتهم إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح.

١٢. الإخراج من الظلمات إلى النور.

أخبر سبحانه وتعالى أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٨٠.

﴿وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير[(١)].

ويستفاد من الآية: أن الله يدفع عن المؤمنين كل مكروه بسبب إيمانهم، ويعينهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم.

١٣. مجازاة المؤمنين بأحسن ما كان يعملون.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. قيل: وإنما خص أحسن أعمالهم؛ لأن ما عداه وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة، وقيل: المعنى: ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم، كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل، لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن، والأحسن بالأحسن[(٢)].

ويستفاد من الآية: أن الله يجزي أهل الإيمان والعمل الصالح الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

١٤. الامتناع عن الظلم.

أثنى الله على أهل الإيمان والعمل الصالح بأنهم لا يبغي بعضهم على بعض، بل ينتصفون من أنفسهم للحق، وهم قليل.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص٢٤]. أي: وإن كثيرًا من الشركاء في المال ليتعدى بعضهم على بعض، ويظلمه غير مراع لحقه إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم يتحامون ذلك، ولا يظلمون خليطًا ولا غيره، وقليل هم»[(٣)].

ويستفاد من الآية: أن الإيمان والعمل الصالح يمنع صاحبه من الظلم.

ثانيًا: جزاء الإيمان في الآخرة:

أخبر سبحانه وتعالى أن لأهل الإيمان والعمل الصالح الثواب العظيم في الآخرة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٤.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٤٨٩.

و الذي منه:

١. تكفير السيئات وتبديلها حسنات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٧].

قال القرطبي رحمه الله: «أي لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم. ثم قيل: يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها في الشرك ويثابوا على ما عملوا من حسنة في الإسلام، ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم في الكفر والإسلام، ويثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام»[(١)].

وقال تعالى في تبديل السيئات حسنات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. في معنى قوله: يبدل الله سيئاتهم حسنات قولان:

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، قال: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحولهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات، وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة ثم يبدله الله بها خيرًا.

وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات.

وقال الحسن البصري: «أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصًا، وأبدلهم بالفجور إحصانا، وبالكفر إسلامًا»، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، فيوم القيامة وإن وجده مكتوبًا عليه، فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته[(٢)]،

وقد روى مسلم بسنده عن عبد الله قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، رجلٌ يخرج منها زحفًا فيقال له: انطلق فادخل الجنة - قال - فيذهب فيدخل الجنة فيجد الناس قد أخذوا المنازل فيقال له: أتذكر الزمان الذى كنت فيه، فيقول: نعم. فيقال له تمن. فيتمنى: فيقال له: لك الذى تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا - قال - فيقول أتسخر بى وأنت الملك؟!) قال: فلقد رأيت

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٦.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه[1].

٢. المغفرة.

وعد الله أهل الإيمان والعمل الصالح أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يثيبهم على ذلك الجنة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾ [المائدة: ٩].

هذه آية وعد للمؤمنين بستر الذنوب عليهم، وبالجنة فهي الأجر العظيم[2].

ووعدهم سبحانه وتعالى بالرزق الحسن الذي لا ينقطع وهو الجنة، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾ [الحج: ٥٠].

٣. الجنة و نعيمها.

وعد الله أهل الإيمان والعمل الصالح أن لهم أعلى الجنة وأفضلها منزلًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ [الكهف: ١٠٧].

وفي وصف الفردوس روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها) فقالوا: يا رسول الله: أفلا نبشر الناس ؟قال: (إن في الجنة مائة درجةٍ أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة)[3].

وقد بشر الله أهل الإيمان والعمل الصالح بالجنة وما فيها من أنواع النعيم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥﴾ [البقرة: ٢٥].

«فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه، وعظمته وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة، وقد بشرك به، وضمنه لك، وجعله أسهل شيء عليك وأيسره، وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات، وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، نعيم القلب، وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد، وعدم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم ٤٨٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ١٦٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم ٢٥٨١.

انقطاعه»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء، وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء[2].

وأخبر سبحانه وتعالى أن من نعيم أهل الجنة: الأزواج المطهرة، وقد فسر مجاهد رحمه الله قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧].

قال: «طهورٌ من الحيض، والغائط، والبول، والبزاق، والنخامة، والمني، والولد»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، هذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء؛ بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام[4].

وقال سبحانه في موضع آخر: أنه سبحانه يدخل أهل الإيمان و العمل الصالح ظلًا كثيفًا ممتدًا في الجنة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧].

الظل الظليل: الكثيف الذي لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم ونحو ذلك، وقيل: هو مجموع ظل الأشجار والقصور، وقيل: الظل الظليل: هو الدائم الذي لا يزول[5].

وقد وصف النبي ظل الشجرة فيما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن في الجنة لشجرةً يسير الراكب في ظلها مائة سنةٍ)[6].

وأخبر سبحانه أنه عند دخول أهل الإيمان والعمل الصالح الجنة يُحَيَّوْنَ بالسلام.

قال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مصدر مضاف إلى الضمير، فجائز أن يكون الضمير للمفعول أي تحييهم الملائكة، وجائز أن يكون الضمير للفاعل، أي يحيي بعضهم بعضًا[7].

وأخبر سبحانه وتعالى عن زينة أهل الإيمان والعمل الصالح في الجنة، فقال:

(١) التفسير القيم، ابن القيم ١٣٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.
(٣) البعث والنشور، البيهقي ١/ ٢٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٥٤.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مائة عامٍ لا يقطعها، رقم٧٣١٤.
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج: ٢٣].

« يحلون فيها من الحلية من أساور من ذهب ولؤلؤًا أي: في أيديهم.

كما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم بسنده عن أبي مالكٍ الأشجعي عن أبي حازمٍ قال: كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة، فكان يمد يده حتى تبلغ، إبطه فقلت له: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ، أنتم هاهنا لو علمت أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء)»[1].

وقال كعب الأحبار: إن في الجنة ملكًا لو شئت أن أسميه لسميته: يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة ، لو أبرز قلب منها-أي سوار منها-لرد شعاع الشمس كما ترد الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير إستبرقه وسندسه، كما قال: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢] »[2].

وقد روى مسلم بسنده عن خليفة بن كعبٍ أبي ذبيان قال سمعت عبد الله بن الزبير يخطب، يقول: ألا لا تلبسوا نساءكم الحرير، فإني سمعت عمر بن الخطاب يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)[3].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه: أعد لأهل الإيمان والعمل الصالح غرف وصفها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت: ٥٨].

«أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا، ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولًا، نعمت هذه الغرف أجرًا على أعمال المؤمنين الذين صبروا أي على دينهم. وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم ٢٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تشربوا في إناء الذهب والفضة ولا تلبسوا الديباج والحرير، رقم ٣٨٥٠.

ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده، وتصديق موعوده»[1].

وأخبر سبحانه وتعالى أن أهل الإيمان والعمل الصالح، يكرمون ويسرون وينعمون في الجنة.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم: ١٥]».

الحبر، والحبور: السرور والغبطة، والرضوان.. والروضة: الجنة. أي أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا يحزنهم هذا اليوم، ولا يضرهم التفرق، إذ كان مع كل مؤمن عمله، الذي يؤنسه، ويذهب وحشته، ويملأ قلبه طمأنينة وأمنًا، بما يرى من بشريات الإيمان والأعمال الصالحة، التي بين يديه[2].

وذكر تعالى (الروضة)؛ لأنها من أحسن ما يعلم من بقاع الأرض، وهي حيث اكتمل النبت الأخضر وجن، وما كان منها في المرتفع من الأرض كان أحسن[3].

والخلاصة: أن نعيم الجنة المعد لأهل الإيمان والعمل الصالح: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

موضوعات ذات صلة:

التوحيد، الشرك، القدر، الملائكة، النبوة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦٢.
(٢) التفسير القرآني للقرآن ١١/ ٤٩١.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

الباطل

عناصر الموضوع

مفهوم الباطل	٣٦٤
الباطل في الاستعمال القرآني	٣٦٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٦٦
الباطل بين النفي والإثبات	٣٦٩
أنواع الإبطال	٣٧٧
سلوكيات باطلة	٣٧٩
الباطل في المثل القرآني	٣٨٧
الصراع بين الحق والباطل	٣٩٠
مصير الباطل والمبطلين	٣٩٢

مفهوم الباطل

أولًا: المعنى اللغوي:

من المعلوم أن الباطل خلاف الحق وضده[1]، ويعني: ذهاب الشيء وزواله، وقلة مكثه في الوجود والواقع، قال ابن فارس: «(بطل) الباء والطاء واللام أصل واحد، وهو ذهاب الشيء وقلة مكثه ولبثه. يقال: بطل الشيء يبطل بطلًا وبطولًا. وسمي الشيطان: الباطل؛ لأنه لا حقيقة لأفعاله، وكل شيء منه فلا مرجوع له ولا معول عليه، والبطل الشجاع... لأنه يعرض نفسه للمتالف»[2].

«وبطل الأجير بالفتح بطالةً، أي تعطل فهو بطال»[3].

فالذي يربط تلك المعاني جميعها هو الزوال واللاقيمة؛ فالشيطان سرعان ما يزول شره، ويظهر وهنه، والبطل يزول بتعريض نفسه للخطر، والبطالة كذلك لا قيمة لصاحبها ولا أثر.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الباطل هو: ما لا ثبات له، ولا خير فيه، سواء أكان اعتقادًا، أم فعلًا، أم كلامًا، أم غيره[4].

وما يجمع هذه المصطلحات مع المعنى اللغوي هو الزوال والذهاب، فما كان غير صحيح فهو إلى ذهاب، وفي عرف الفقهاء: الباطل كأنه لم يكن، فهو زائل، حتى كلمة بطل التي تقال للشجاع فلأنه يعرض نفسه للموت، ودمه للهدر، أو لأنه يبطل دم من تعرض له أي يذهبه ويزيله.[5]

ومن ثم فإن الارتباط بين المعنيين - اللغوي والاصطلاحي - يعد ارتباطًا وثيقًا؛ يقوم على أن الباطل لا قيمة له، ولا دوام؛ فسرعان ما يتلاشى بلا أثر يذكر.

---

(١) انظر: الصحاح الصحاح، للجوهري ٤/ ١٦٣٥، مختار الصحاح، الرازي ص ٣٦.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٥٨، بتصرف يسير.
(٣) الصحاح، الجوهري ٤/ ١٦٣٥.
(٤) انظر: التعريفات، علي الجرجاني ص ٤٢، المفردات، الراغب ص ١٢٩، الكليات، الكفوي ص ٢٤٤، القاموس الفقهي، سعيد أبو حبيب ص ٣٩، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٢١٩.
(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي ص ٦٩.

الباطل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بطل) في القرآن الكريم (٣٤)، مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف:١١٨]
الفعل المضارع	٤	﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال:٨]
اسم فاعل	٢٩	﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء:٨١]

وجاء الباطل في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: بمعناه اللغوي، وهو ضد الحق، وما لا ثبات ولا صحة له، مثل: الشرك والكذب والظلم.

الألفاظ ذات الصلة

١ الضلال:

الضلال لغة:

مصدر (ضل)، والذي يعني الضياع والذهاب والغياب، وكل من زاغ عن المطلوب والقصد يسمى (ضالًا)، و(يَضَل ويَضِل) لغتان عند العرب[١].

الضلال اصطلاحًا:

«كل عدول عن النهج عمدًا أو سهوًا قليلًا كان أو كثيرًا»[٢].

وهذا التعريف يشمل جميع المعاني، وهو أن الضلال خلاف الهدى، سواء كان في الاعتقاد أو في الأفعال، عامدًا الضلال أم جاهلًا؛ فالنتيجة واحدة وهو أنه ضال، ولذا فقد عرفه الراغب بقوله: «العدول عن الطريق المستقيم»[٣].

الصلة بين الباطل والضلال:

سبق القول: إن الضلال كل عدول عن النهج عمدًا أو سهوًا، قليلًا كان أو كثيرًا، وعلى هذا فهو صورة من صور الباطل، ونموذج من نماذجه؛ إذ إن ضلال المرء عن الطريق يبعده عن الوصول لمقصده أكثر فأكثر، وبالتالي لا يحقق المرء غايته أبدًا، وهكذا الباطل لا يرجى منه نفع ولا مقصود.

٢ الحبوط:

الحبوط لغة:

يقول ابن فارس: «الحاء والباء والطاء أصل واحد يدل على بطلانٍ أو ألمٍ. يقال: أحبط الله عمل الكافر، أي أبطله... ومما يقرب من هذا الباب حبط الجلد، إذا كانت به جراحٌ فبرأت وبقيت بها آثار»[٤].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٩٠، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٦٣.
(٢) الكليات، الكفوي ص ٥٦٧.
(٣) المفردات، الراغب ص ٥٠١.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٩، ١٣٠ بتصرف.

الحبوط اصطلاحًا:

فهو «إبطال عمل البر من الحسنات بالسيئات»[1].

قال ابن الأثير: «(أحبط الله عمله) أي: أبطله. يقال: حبط عمله يحبط، وأحبطه غيره»[2].

والملاحظ في الرابط بين المعنيين، أن الحبوط لغة انتفاخ في بطن الدابة، نتيجة لأكلها نباتًا يترك هذا الأثر، فيظن الناظر إلى الدابة أنها سمنة نافعة، غير أنه انتفاخ قاتل يسبب الألم والموت، وهكذا اصطلاحًا؛ حيث يظن الكافر أن عمله له قيمة وأجر، غير أنه لاقيمة له بسبب فساده وحبوطه.

الصلة بين الباطل والحبوط:

تظهر العلاقة بين الباطل والحبوط بشكل جلي؛ فالحبط : إبطال عمل البر من الحسنات بالسيئات، فالعمل أو القول الذي يكون باطلًا لا خير فيه، وكذلك العمل المحبط، لا نفع ولا أجر له، ويتحول هذا العمل بعد الحق إلى الباطل.

٣ اللغو:

اللغو لغة:

اللغو هو: ما لا نفع ولا خير فيه، وقد يكون مضرًا، ثم اختلف أهل اللغة بين معممٍ له في الأقوال والأفعال[3]، وبين مخصص له في الأقوال دون غيرها[4].

اللغو اصطلاحًا:

فقد عرفه الكفوي بأنه: «كل مطروح من الكلام لا يعتد به»[5]، وبما أنه مطروح ولا يعتد به، إذن فلا خير فيه ولا نفع.

الصلة بين الباطل واللغو:

لما أن كان اللغو يشمل كل مطروح من الكلام الذي لا يعتد به، فهو يشترك مع الباطل في عدم نفعه، وتضيع الوقت في الاشتغال فيه؛ إذن هو صورة من صور الباطل.

---

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٦.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٣٣١.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٥٥، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٩٢، أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٤٥٤.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٤٤٩، مختار الصحاح، الفيومي ص ٢٨٣.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٧٧٨.
وانظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة ٢/ ٨٢.

٤ الحق:

الحق لغة:

هو نقيض الباطل وخلافه، وهو مصدر من حق الشيء إذا ثبت وكان واجبًا[١]، ولا يصح إنكاره، يقول ابن فارس: «يدل على إحكام الشيء وصحته»[٢].

الحق اصطلاحًا:

هو الحكم المطابق للواقع، في الأقوال والعقائد والأديان، ويقابله الباطل[٣].

الصلة بين الباطل والحق:

سبق القول إن الباطل هو: ما لا ثبات له، ولا خير فيه، سواء كان اعتقادًا أو فعلًا أو كلامًا أو غيره، وبالتالي فخلافه الحق الذي هو: الحكم المطابق للواقع، في الأقوال والعقائد والأديان؛ فالباطل زائل، وأما الحق فثابت راسخ.

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٦، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٤٣.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٥، ١٧ بتصرف.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٨٩، وأما أبو البقاء الكفوي فقد رأى أن اللفظ انتقل من القول المطابق للواقع إلى «اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب»، الكليات ص ٣٦٣.

الباطل بين النفي والإثبات

ذكر القرآن الكريم كثيرًا من الأمور والشخصيات، وأثبت بطلان بعضها، ونفى البطلان عن البعض الآخر، وذلك بناء على ماهية وحقيقة تلك الأمور، وما يترتب عليها من آثار إيجابية أو سلبية على الواقع الديني والاجتماعي ونحوهما.

أولًا: الباطل المثبت:

هناك عدة أشياء وصفها القرآن الكريم بكونها باطلًا، منها:

١. عبادة غير الله تعالى.

تعددت المعبودات من دون الله بتعدد الأهواء والمصالح والأزمان؛ فمنهم من عبد الأوثان (الأصنام)، ومنهم من وله في عبادة الشمس والنار، ومنهم من نزل عن كرامته ليعبد الدواب -ومنها الأبقار التي يعبدها الهندوس-، وغيرها من المعبودات؛ كالهوى والمال والحب في غير ذات الله، عدا عن العبادات المعنوية.

ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[الأنفال: ٨].

نعم، جاء ليثبت بطلان المعبودات الأخرى من دونه سبحانه، فهي لا تستحق العبادة، ولا تستحق أن يصرف جزء من العبادة لها، يقول الطبري: «يريد الله أن يقطع دابر الكافرين، كيما يحق الحق، كيما يعبد الله وحده دون الآلهة والأصنام، ويعز الإسلام، وذلك هو «تحقيق الحق»، ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾، يقول: ويبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر»[(١)].

وقد يتساءل عن سبب التأكيد في الآية الكريمة بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وكان يكفي أن يكون حقًا ليتبع، لكنها حكمة الله في إحقاق الحق -وهو إظهاره وليس جعله حقًا- وإبطال الباطل -وهو محقه وطمسه-؛ إذ قد يظن الناس الحق باطلًا بتشابههما في عدم الظهور[(٢)].

ولقد أكثر القرآن العظيم من ذكر آيات كريمات تدل على وحدانية الله تعالى، واستحقاقه للألوهية وحده، وذلك بطرق عقلية مختلفة، منها:

- أنه لا يمكن أن يكون في الكون إلا خالق واحد هو الله.

حيث قال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وفي آية أخرى يبين سبب الفساد؛ إذ يقول تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٠٨.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٧.

﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ولو ذهب كل إله بما خلق لحدث التزلزل في نظام الكون، غير أن الاستقرار الحاصل في الكون دليل واضح على وجود مدبر واحد لا ثاني له.

- أنه تعالى المنعم بكل شيء؛ فهو الخالق وغيره لا، ولن يخلقوا -ولو اجتمع بعضهم إلى بعض- أصغر مخلوقات الله تعالى، فكيف إذن يعبد غيره.

قال سبحانه عن عجز الآلهة المزعومة المعبودة من دون الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقال عز من قائل مستنكرًا عليهم عبادة غيره؛ لأن بطلانها مدرك بالعقل: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

أفمن العدالة أن ينسب الفضل لغير أهله، ويشكر على الفعل غير فاعله؟!.

- جاء القرآن الكريم بقصص للأنبياء كثيرة، تبين إثبات بطلان عبادة غير الله تعالى.

كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه من الوثنيين، حيث يقول الله تعالى عنهم بعد أن حطم إبراهيم عليه السلام أوثانهم: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٩ -٦٧].

نعم والله إنه خلاف العقل، وانتكاس للفطرة التي خلقوا عليها.

٢. كل ما يصدر عن الشيطان.

لقد أثبت القرآن العظيم البطلان للشيطان؛ حيث وصفه الحق سبحانه بالباطل في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ [محمد: ٣].

ومن كان في ذاته باطلًا فكل ما يصدر عنه فهو باطل، واتباعهم لباطله يعني أنهم «اتبعوا وسوسته بالذي دعاهم إليه من عبادة الأوثان»[1].

(١) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٢٣٤، واعتبر الماوردي أنه يحتمل معنى الهوى حيث قال: «فيه قولان: أحدهما: أن الباطل الشيطان، قاله مجاهد. الثاني: إبليس، قاله

وإثبات بطلانه يكون بإثبات خطأ اعتقاده، الأول من أن خلقه من نار خير من خلق آدم عليه السلام من طين، ثم ما تبعه من بطلان رفضه السجود لآدم عليه السلام، ثم بطلان ما هو عليه إلى قيام الساعة من ضلال وإضلال للناس عن طريق الجادة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وإثبات البطلان لما يعد أتباعه من نصرٍ وتأييد وعزة، حيث قال سبحانه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

يقول الطبري: «يعد الشيطان المريد أولياءه الذين هم نصيبه المفروض: أن يكون لهم نصيرًا ممن أرادهم بسوء، وظهيرًا لهم عليه، يمنعهم منه ويدافع عنهم، ويمنيهم الظفر على من حاول مكروههم والفلج[1] عليهم».

ثم قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ يقول: «وما يعد الشيطان أولياءه الذين اتخذوه وليًا من دون الله ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ يعني: إلا باطلًا. وإنما جعل عدته إياهم جل ثناؤه ما وعدهم ﴿غُرُورًا﴾، لأنهم كانوا يحسبون أنهم في اتخاذهم إياه وليًا على حقيقةٍ من عداته الكذب وأمانيه الباطلة»[2].

ولا أدل على بطلانه من آيتي لقمان والحج اللتان أثبت فيهما الحق سبحانه أن الشيطان باطل في كل ما يدعو إليه الناس، وأيضًا باطل فيما يوجهونه إليه من العبادة والخشية وغيرها من المصروفات، كما قال ربنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

ونلحظ التأكيد في الآية بهو، وهذا يرجح أن يكون المقصود بالباطل هو الشيطان في جميع الأحوال.

ومن الأدلة أيضًا على ضعفه وبطلان سعيه وعدم قدرته على المواجهة: الوسائل التي استخدمها في إغواء الناس وإضلالهم، ومن ذلك -على سبيل الإيجاز-:

قتادة، وسمي بالباطل لأنه يدعو إلى الباطل. ويحتمل ثالثًا: أنه الهوى»، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٩٢، والجامع بينها: أن إبليس الشيطان يستغل هوى الإنسان ورغباته لإغوائه؛ ولهذا يقال للهوى هوى؛ «لأنه يهوي بصاحبه في الباطل» إعراب القرآن، النحاس ١/ ٢٧٨، فلا تعارض إذن.

(١) أي: الفوز والغلبة.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٤٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٢٤- ٢٢٥.

الأولى: الوسوسة.

فقد بدأ إبليس بالكيد لآدم وزوجه لإخراجهما من الجنة، ومن ذلك أكذوبته الأولى، قال سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[الأعراف: ٢٠].

والوسوسة هي: «الكلام الخفي الذي لا يسمعه إلا المداني للمتكلم»[(١)]، غير أن الثعالبي يرى أن وسوسة إبليس لأبينا آدم عليه السلام يمكن أن تكون بمحاورة خفية أو بالإلقاء في النفس[(٢)]، ولا شك في أن الله تعالى أمده بقدرات كبيرة لا نعلم كثيرًا منها.

ويلاحظ في اللفظ القرآني أنه استخدم ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ بدل (وسوس إليهما)، فالأولى تعني: وسوس لأجلهما، أي لأجل أن يغويهما، أما الثانية فتفيد بأنه: ألقاها إليهما[(٣)].

يقول الطبري: «ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرها، إلا لئلا تكونا ملكين، وأسقطت«لا» من الكلام، لدلالة ما ظهر عليها، كما أسقطت من قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦].

والمعنى: يبين الله لكم أن لا تضلوا»[(٤)].

وهكذا حصل لإبليس ما أراد، فما أن أكل آدم وزوجه من الشجرة التي نهيا عنها إلا وظهرت سوءاتهما؛ فبدأت نتيجة وسوسته بالارتباك والبحث عما يستر السوءة، فعصى آدم وزوجه ربهما، وكانت المعصية سببًا في إخراجهما من الجنة.

الثانية: الإلقاء في النفوس عند الأماني.

الإلقاء في النفوس عند الأماني وسيلة من وسائل إبليس التي تدل على ضعفه وبطلان فعله؛ ليبعد عن الطاعة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحج: ٥٢].

نلحظ في الآية الكريمة كيف أن الله تعالى أبطل ما يلقي الشيطان، فكيده كما أسلفنا ضعيف.

ولقد ورد في الآية الكريمة لفظا التمني والإلقاء؛ فأما التمني فأسند إلى الرسول خاصة والرسل عامة صلى الله وسلم عليهم جميعًا، وأما الإلقاء فإلى الشيطان.

والتمني ينصرف على أحد معنيين:

الأول: التلاوة أو القراءة، وهو رأي جمهور العلماء[(٥)]، وهو الراجح، والله

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٥٦.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٢٤.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢١٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٤٨.
(٥) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٢٩، إعراب القرآن، النحاس ٣/ ٧٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١١ / ١٣٤، ١٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٤١، فتح القدير،

أعلم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير التمني: «إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته»[1].

قال البخاري تعقيبًا عليه: «ويقال أمنيته قراءته»[2].

ويكون المعنى: «أن الله ما أرسل قبل محمد ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في قراءته، من طرقه ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتبه، أو يختلط بغيره.

ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يزيله ويذهبه ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان»[3].

الثاني: تمني القلب والخاطر[4] الذي يرد عليه.

والمعنى حينئذ أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما يتمنى شيئًا من الأمور، يوسوس الشيطان إليه بالباطل، ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته[5].

وهذا المعنى باطل، كما رد الرازي عليه سابقًا.

وأما الإلقاء فالأرجح فيه أنه وسوسة من الشيطان، إذ إنه لا يجوز أن يكون بمعنى الإدخال في كلام الله ما ليس منه، فالقرآن محفوظ بحفظ الله تعالى.

يقول الرازي: «الغرض من هذه الآية بيان أن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان؛ بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر»[6].

وذهب الشعراوي مذهبًا قريبًا حيث رأى أنه «لا يمكن للشيطان أن يدخل في القرآن ما ليس منه، لكن يحتمل تدخل الشيطان على وجه آخر، فحين يقرأ رسول الله القرآن، وفيه هداية للناس... أتنتظر من عدو الله أن يخلي

الشوكاني ٣/ ٤٦٢، وغيرهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب كما بدأنا أول خلق نعيده، سورة الحج ٦/ ٩٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٥٤٢.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٣٣.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١٣٨.

(٦) المصدر السابق ١١/ ١٣٨.

الجو للناس حتى يسمعوا هذا الكلام دون أن يشوش عليهم، ويبلبل أفكارهم، ويحول بينهم وبين سماعه؟ فإذا تمنى الرسول يعني: قرأ، ألقى الشيطان في أمنيته، وسلط أتباعه من البشر يقولون في القرآن: سحر وشعر وإفك وأساطير الأولين، فدور الشيطان... أن يلقي في طريق القرآن وفهمه والتأثر به العقبات والعراقيل التي تصد الناس عن فهمه والتأثر به، وتفسد القرآن في نظر من يريد أن يؤمن به»[1].

فحقيقة الإلقاء أنه: «رمي الشيء من اليد، واستعير هنا للوسوسة وتسويل الفساد، تشبيهًا للتسويل بإلقاء شيء من اليد بين الناس. ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧]»[2].

وهكذا يظهر بطلان سعيه وضعفه واقتصاره على الوسوسة والإلقاء في النفس وغيرها من الوسائل، وهي بلا ريب تدل على بطلانه وبطلان نصرته لأوليائه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٦٠٦٦، بتصرف، وانظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٣٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٩٨.

٣. أعمال الكفار.

من خلال استقراء للآيات الكريمة التي تتحدث عن بطلان أعمال الكافرين، يتبين أن البطلان له صورة رئيسة هي: حبوط أجر الأعمال وثوابها بسبب الكفر والرياء.

كثيرًا ما يتساءل عن أجر الكافر وثواب عمله، وهل له ثواب بعد الكفر؟

وهكذا يجيب الله تعالى على أسئلتهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

والحبوط هو: «أن تكثر الأنعام من بعض المراعي التي تستطيبها حتى تنتفخ وتفسد أحشاؤها، فظاهر كثرة الأكل أنه سبب للقوة فكان في هذه الحالة سببًا للضعف»[3].

وهكذا الذي يحبط عمله ويبطله.

يقول أبو السعود: «أي: ظهر في الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التي كانت تؤدي إلى الثواب لو كانت معمولةً للآخرة، أو حبط ما صنعوه في الدنيا من أعمال البر إذ شرط الاعتداد بها الإخلاص ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ أي: في نفسه... وقرىء: وبطل على الفعل ، أي: ظهر بطلانه؛ حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوي فبطل

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٤٢.

مطلقًا»[1].

ثانيًا: الباطل المنفي:

لقد صرح القرآن العظيم بنفي البطلان عن بعض الأشياء، ومن ذلك:

١. نفي الباطل عن أفعال الله تعالى.

لا ريب في أن الله هو الحق، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

ولأنه صاحب الجلال والجمال والكمال؛ فإن كل ما يصدر عنه من أفعال هي حق مطلق، لا يأتيها الباطل ولا يعتريها في أي جانب منها، ومما كان يثيره الكفار من مزاعم واعتقادات باطلة: عبثية خلق السماوات والأرض؛ فلا يوجد بعد هذه الحياة من حياة بدليل الواقع، وبالتالي في تصورهم القاصر فإن خلق الكون بما فيه هو ضرب من العبث.

وقد جاء القرآن الكريم يفند هذه الترهات، حيث قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص ٢٧].

يقول النحاس: «كانوا يقولون: ليست ثم عقوبة ولا نار، فالكافر والعاصي يسعدان باللذات وغصب الأموال، والمظلوم يشقى؛ لأنهما يصيران إلى شيء واحد، فرد الله جل وعز هذا عليهم بأنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما باطلًا لأن الذي ادعوه باطل وذلك منهم ظن»[2].

ومن ثم فقد ذكر الله تعالى في كتابه الحكيم صفاتًا ممدوحة لعباده المؤمنين منها: أنهم يقولون: أن خلق الله تعالى للسماوات والأرض كله حكمة، وأنه لا يصدر عنه سبحانه أي نقص ولا عيب كاللهو والعبث، كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

قال الزمخشري: «المعنى: ما خلقته خلقًا باطلًا بغير حكمة، بل خلقته لداعي حكمة عظيمة، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين وأدلة لهم على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك»[3].

وقد أكد البيضاوي تلك الحكم وفصل بعضها قائلًا: «بل خلقته لحكم عظيمة من جملتها: أن يكون مبدأ لوجود الإنسان، وسببًا لمعاشه، ودليلًا يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك»[4].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٩٤، بتصرف.

(٢) إعراب القرآن، النحاس ٣/ ٣١٠.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٥٤.

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٥٤.

فمنشأ هذا الفساد في الاعتقاد عند الكفار: هو سوء ظنهم بالله تعالى؛ ولهذا جاء الله تعالى على لسانهم بالقول ﴿سُبْحَانَكَ﴾ بعد النفي السابق؛ لينزهوه وأفعاله عن سوء ظن الكافرين.

وبين الفينة والأخرى تطل هذه الأفكار المبطلة للدين علينا برأسها، فينجر خلفها من حدث سنه، ولم تجثو ركبتاه طويلًا في طلب العلم النافع، فيستزلهم الشيطان، بالرغم من أن دواءهم في بضع آيات ونصوص كريمة عظيمة.

٢. نفي الباطل عن القرآن العظيم.

قلنا فيما سبق إن القرآن الكريم نفى البطلان عن أفعال الله تعالى، ونفى كذلك الباطل عن القرآن نفسه، وسبب النفي لبطلانه قائم على نفس الأصل السابق، من كون القرآن كلام الله تعالى، وهو صفة من صفاته الكاملة؛ إذن كلماته التي هي جزء من صفة الكلام له كاملة.

قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

يقول ابن كثير: «أي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزلٌ من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع، محمودة عواقبه وغاياته»[(١)].

وقد ورد عن قتادة قوله في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ في الآية التي قبلها تماما: «أعزه الله لأنه كلامه، وحفظه من الباطل»[(٢)].

ولقد ذكر الماوردي أنهم اختلفوا في الباطل على خمسة معاني هي: إبليس أو الشيطان أو التبديل أو التعذيب أو التناقض والاختلاف[(٣)].

ورجح الطبري أن معناها: «لا يستطيع ذو باطل بكيده تغييره بكيده، وتبديل شيء من معانيه عما هو به، وذلك هو الإتيان من بين يديه، ولا إلحاق ما ليس منه فيه، وذلك إتيانه من خلفه»[(٤)].

ولقد تكفل ربنا سبحانه بحفظ كتابه كما ذكر في مواضع كثيرة، منها قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

إنا للقرآن حافظون من كل ما قد يزاد فيه أو ينقص منه من باطل سواء كان الشيطان أو غيره؛ فأحكامه وفرائضه محفوظة بحفظ الله الذي خص هذا الكتاب المجيد بها من دون الكتب الأخرى، التي أوكل حفظها للرهبان والقساوسة لحكمة بالغة[(٥)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٨٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٨٠.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٨٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٨٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٦٨،

أنواع الإبطال

يتنوع الإبطال بين المدح والذم، فتارة يكون ممدوحًا، وتارة يكون مذمومًا، ومن ذلك:

أولًا: الإبطال المحمود:

١. إبطال الباطل.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

وقد سبق أن إبطال الباطل يكون بإعدامه ومحقه بكل أشكاله وصوره، كما قلنا إن إحقاق الحق يعني إظهاره[١]، بإظهار دلائله وتقويته، وقمع رؤساء الباطل وقهرهم[٢].

وهذا جواب لسؤال قد يعرض مفاده: إن الحق حقٌّ لذاته، والباطل باطل لذاته، إذن ما المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل؟

فالكثير من الرعاع يغره انتفاخ الباطل، إذ إنه لا ينظر بعين الحق والعلم، بل بميزان المادة، وبالتالي فإنه من الضروري لمثل هؤلاء أن يبطل الباطل، وتطمس رايته وتنكس، وكثير من هؤلاء ينبغي الأخذ بأيديهم ببيان بطلان الباطل وأهله لهم، وإلا ضلوا وتاهوا في زخارف الباطل.

٢. إبطال السحر.

فهذا موسى صلى الله عليه وسلم يثق بموعود الله تعالى له بمنع آثار ما صنع الكفرة من السحرة، حيث قال الله تعالى عنه: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

«أي سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة فلا يبقى له أثرٌ أصلًا أو سيظهر بطلانه للناس، والسين للتأكيد»[٣].

والجملة «استئنافية لبيان ما يوقن به موسى من مآل هذا السحر، ويجوز أن تكون خبرًا لما قبلها، ويكون التقدير: ما جئتم به الذي هو السحر، إن الله سيبطله بما جئت به من الحق، وعلل حكمه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو قاعدة عامة مبينةٌ لسنة الله في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، ويدخل فيها سحرهم فإنه باطلٌ وفساد، أي لا يجعل عمل المفسدين صالحًا، والسحر من عمل فرعون وقومه المفسدين»[٤].

وبمتابعة ما حدث مع موسى عليه السلام، وبمتابعة الآيات الأخرى لمعرفة صحة اليقين الذي اعتمد عليه سيدنا موسى عليه السلام، سنجد النصر والمعية الربانية

والكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٧٢.

(١) انظر: جامع الأحكام، القرطبي ٧/ ٣٧٠.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٩٦.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٧٠.

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٣٨٢.

الكاملة لموسى عليه السلام؛ فقد أخبرنا الله تعالى بخبر مفاده: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨].

نعم إنه جندي الله المبعوث منه سبحانه، فكيف لا يؤيده بنصره، وهل يصح الإيمان ويبقى منه شيء إن لم يكن جازمًا بتلك المعية وذلك التأييد؟!.

فصفة الشك وعدم اليقين بنصر الله تعالى هي من صفات المنافقين، كما بينه تعالى في غزوة الخندق، عندما حوصر المؤمنون والمنافقون في المدينة، وازداد الخوف وبلغت القلوب الحناجر من شدة الخوف، حتى ظهرت صفات المنافقين فقال الله عنهم: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

وهكذا يجب على المسلمين اليوم إزالة ما تلبد على مشاعرهم الإيمانية، فموعود الله تعالى بهزيمة الباطل وأهله مرتبطة بقوة إيمانهم، وتغييرهم ما فيهم من الباطل، وحينها سيكون النصر لا محالة حليفنا، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ثانيًا: الإبطال المذموم:

الأعمال الصالحة:

جاء التوجيه الإلهي لعباده المؤمنين باجتناب ما يحبط ثواب عملهم من ترك طاعة الله ورسوله، وفعل ما يشبه فعل الكفار، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

ولقد ذكر العلماء بعض ما يبطل الثواب على اختلاف بينهم، من الكفر والرياء والسمعة والكبائر[(١)].

فالله تعالى يخبر «عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضةٍ من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات»[(٢)].

ثم صرح سبحانه بمبطل لثواب الأعمال وخاصة الصدقات، وهو الرياء والمن والأذى عند التصدق، حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٨٧، والنكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٣٠٦.
واختار الطبري عدم دخول الكبائر والمعاصي في محبطات الأعمال، وتبعه أبو السعود في إرشاد العقل السليم ٨/ ١٠١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٢٢.

﴿مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وفائدة هذا التمثيل البليغ في الآية لتقريب الصورة الذهنية لتصبح واقعًا محسوسًا، وبالتالي يقوم المؤمن بتجرع مرارته نفسيًا قبل حصوله، حتى لا يتذوقه واقعًا في آخرته.

يقول الخازن: «الرياء يبطل الصدقة ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين، لكن من فعل المنافقين؛ لأن الكافر معلن بكفره غير مراء به ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي مثل هذا المرائي بصدقته وسائر أعماله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ هو الحجر الأملس الصلب، وهو واحد وجمع، فمن جعله جمعًا قال واحده صفوانة، ومن جعله واحدًا قال: جمعه صفي. ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أي: على ذلك الصفوان تراب ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ يعني المطر الشديد العظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ يعني ترك المطر ذلك الصفوان صلدًا أملسًا لا شيء عليه من ذلك التراب، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن المنان بصدقته يؤذي الناس، يرى الناس أن لهؤلاء أعمالًا في الظاهر، كما يرى التراب على الصفوان، فإذا جاء المطر أذهبه وأزاله، وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة، تبطل أعمالهم وتضمحل ؛ لأنها لم تكن لله تعالى كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب»[1].

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٠٠.

سلوكيات باطلة

لقد وصف القرآن الكريم مجموعة من السلوكيات الناتجة عن الأفراد أو الجماعات بالبطلان، سواء كانت صادرة من كافر أم من مسلم، فلا فرق بين الفاعلين في وصف بعض أفعالهم بالبطلان، ومن تلك السلوكيات:

أولًا: أكل أموال الناس بالباطل:

لقد نهى الله تعالى الناس عن الظلم فحرمه أشد تحريم، ورتب عليه العقوبات الجسيمة، والعذاب الشديد، وجعل ظلم العباد فيما بينهم لا يسقط فيه الحق بالتقادم، حتى يمتنع الإنسان عن ظلم أخيه؛ فقد فطر الإنسان على الأنفة من طلب المسامحة من الغير، والذي هو من شروط التوبة في الاعتداء على حقوق العبيد، ولقد بين القرآن العظيم إحدى صور الظلم بين الناس، ألا وهي: أكل أموالهم بينهم بالباطل والظلم.

وتتعدد طرق أكل الباطل من: «الإغارة ومن الميسر، ومن غصب القوي مال الضعيف، ومن أكل الأولياء أموال الأيتام واليتامى، ومن الغرر والمقامرة، ومن المراباة»[2]، والرشوة المحرمة والخيانة بأشكالها المختلفة، ومنها الغش والنصب،

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٨٧.

وغير ذلك[1].

ومن خلال تتبع الآيات التي نهت عن الصور السابقة يتبين أنها ترتسم في ثلاث مراحل، هي:

المرحلة الأولى: بيان أن أكل الأموال بالباطل من صفات كفرة أهل الكتاب.

تعددت حالات أكل أهل الكتاب لأموال الناس بالباطل كما ذكر القرآن الكريم؛ حيث قال تعالى عنهم: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١].

ومن تلك الحالات الكثيرة الرشاوى التي كانوا يأخذونها على الحكم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢].

يقول البغوي: «وأكلهم أموال الناس بالباطل، من الرشا في الحكم، والمآكل التي يصيبونها من عوامهم، عاقبناهم بأن حرمنا عليهم طيباتٍ، فكانوا كلما ارتكبوا كبيرةً حرم عليهم شيءٌ من الطيبات التي كانت حلالًا لهم»[2].

ومن تلك الحالات أيضًا التي أكلوا فيها أموال الناس بغير حق: أنهم كانوا يكتبون الكتب ويقولون بأنها موحاة من الله تعالى؛ لتأخذ قدسية دينية، كما قال سبحانه عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

«كان من أكلهم أموال الناس بالباطل، ما كانوا يأخذون من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وما أشبه ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة، فعاقبهم الله على جميع ذلك، بتحريمه ما حرم عليهم من الطيبات التي كانت لهم حلالًا قبل ذلك»[3].

المرحلة الثانية: التحذير من مشابهة أهل الكتاب في أكل الأموال بالباطل.

يقول الله تعالى مخاطبًا المؤمنين بخبر مفاده النهي عن المشابهة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ويلفت انتباهنا الشعراوي إلى مجموعة من اللطائف، منها: أن الأكل للمال يكون بشراء الطعام والشراب به، وليس أكل المال نفسه، وهذا من الاستعارة - والذي يظهر أنه لا يمنع من أنهم كانوا يأخذون أنواعًا

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٤١١.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٢٠، وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٠٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٩٢.

من الأطعمة والأشربة جزاء الرشاوى، فهي أيضا تسمى مالًا-؛ كذلك يبين أن أكل المال قسمان: أكلٌ بالحق وأكلٌ بالباطل -كما هو حال بعض الأحبار والرهبان هنا-، ويبين ذلك قائلًا: «هناك أكلًا من أموال الناس بالحق في عمليات تبادل المنافع، فالتاجر يأخذ مالك ليعطيك بضاعة، ويذهب التاجر ليشتري بها بضاعة وهكذا، وقانون الاحتياط هنا في أن يكون هناك رهبان وأحبار محافظون على تعاليم الدين، ولا يأكلون أموال الناس بالباطل، وهذا ظاهر في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ ولم يقل جل جلاله: كل الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، بل قال: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾؛ لأنه قد يوجد عدد محدود من الأحبار والرهبان ملتزمون، والله لا يظلم أحدًا؛ لذلك جاء بالاحتمال»[1].

المرحلة الثالثة: النهي بخطاب مباشر للمؤمنين من أكل أموالهم بالباطل.

يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

كذلك ورد التحريم في الكثير من الأحاديث الشريفة، كحديث أبي بكرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فإن دماءكم وأموالكم - قال محمدٌ وأحسبه قال - وأعراضكم، عليكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب)[2].

ويجب علينا ابتداء أن نتنبه للفارق في اللفظ بين الآيتين الأوليين، وهذه الآية من حيث إضافة المال في الأوليين إلى الناس دون الآكلين من الأحبار والرهبان، بينما في الثانية إلى نفس المؤمنين، وذلك -والله أعلم- «لما كان كل واحد منهما منهيًا ومنهيًا عنه، كما قال: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾»[3]، صح أن يجمع حينئذ الآكل والمأكول، ولمحمد رشيد رضا كلام نفيس يعلل فيه ما سبق بوجه آخر يقول فيه: «واختار لفظ ﴿أَمْوَالَكُم﴾ وهو يصدق بأكل الإنسان مال نفسه للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وللتنبيه على أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لمالك؛ لأن استحلال التعدي وأخذ المال بغير حق يعرض كل مال للضياع والذهاب، ففي هذه

(١) تفسير الشعراوي ٨/ ٥٠٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم ١٠٥ ١/ ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال رقم ١٦٧٩، ٣/ ١٣٠٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٣٣٨.

الإضافة البليغة تعليلٌ للنهي، وبيانٌ لحكمة الحكم، كأنه قال: لا يأكل بعضكم مال بعضٍ بالباطل؛ لأن ذلك جناية على نفس الآكل، من حيث هو جناية على الأمة التي هو أحد أعضائها، لا بد أن يصيبه سهم من كل جناية تقع عليها، فهو باستحلاله مال غيره يجرئ غيره على استحلال أكل ماله عند الاستطاعة... وفي الإضافة معنى آخر قاله بعضهم، وهو للتنبيه على أنه يجب على الإنسان أن ينفق مال نفسه في سبيل الحق، وألا يضيعه في سبيل الباطل المحرمة»[1].

وهكذا يحذر الله المؤمنين من التعرض لأموال بعضهم البعض بالباطل؛ حتى لا يعم الفساد، ويضيع مقصود الشريعة في حفظ المال، ثم ختم ربنا التحذير ببيان تحريم الإدلاء بتلك الأموال المأكولة بالباطل إلى الحكام، والإدلاء بها إلى الحكام له معنيان:

الأول: ليبرروا لهم أن هذا الباطل هو حق لهم، وذلك من خلال الرشوة، وهو باطل؛ لأن كل إنسان مسؤول عن فعله[2].

وهذا القول رجحه ابن عطية وأشار لمعنى لطيف فيها مفاده: «ترشوا بها على أكل أكثر منها، فالباء إلزاق مجرد، وهذا القول يترجح؛ لأن الحكام مظنة الرشا إلا من عصم وهو الأقل، وأيضًا فإن اللفظتين متناسبتان، تدلوا من أرسل الدلو والرشوة من الرشا، كأنها يمد بها لتقضى الحاجة»[3].

والثاني: أنهم يذهبون للتحاكم إلى الحكام إذا علموا أن الحجة تقوم لهم، كأن لا تكون على الجاحد بينة، أو يكون مال أمانة كاليتيم وغيره، والباء في كلمة (بها) باء السببية[4].

ثانيًا: الجدال بالباطل:

يستخدم الكثير من الناس الجدال بالباطل وسيلةً لإثبات باطلهم، وهذا يدل على ضعف الحجة أو انعدامها؛ إذ لو كان الدليل الواضح حاضرًا لكان استحضاره من قبل المجادل غاية من الغايات، مصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وحتى تتضح صورة الموقف علينا أن نبين من المقصودين في الآية، ومن خلال النظر في كلام أهل التفسير نجد أنهم بين معمم ومخصص؛ فمنهم من يرى أنها عامة في الرسل الكرام في جدال أقوامهم لهم بالباطل، وأن الباطل الذي يجادلون به هو أنهم بعثوا من البشر، مع أن الأصل أن

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١٥٧، بتصرف.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ٧٩٩.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٦٠.
(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٦٠.

يكونوا من الملائكة[1].

ومنهم من يرى أنها في كفار قريش وغيرهم من المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم، واعتبروا أن من الباطل الذي جادلوه به -تكذيبًا له وللحق ومنه القرآن - قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم: أخبرنا عن حديث فتية ذهبوا في أول الدهر لم يعرف من شأنهم شيء، وعن رجل بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وعن الروح، وما أشبه ذلك من أمور[2].

والراجح أنه لا مانع من الجمع بين القولين؛ فقد استخدم الكفار في كل حين كل وسيلة لإثبات الباطل ودحض الحق، وما كانت مجادلتهم للرسول صلى الله عليه وسلم بدعًا عمن سبقه من الرسل.

ويقصد بالدحض عدم إثبات الحق، بل وإزالته، وهو مأخوذ من (دحض) وهو الطين الذي يزهق فيه الإنسان؛ لذا يسمى المكان الذي تزل فيه القدم وتنزلق: مكان دحضٌ[3].

وللباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ معنيان:

الأول: أنها للملابسة، بمعنى أن الكفار وهم يجادلون الرسل كانوا ملابسين للباطل.

والثاني -وهو الأقرب-: أنها للآلة، وذلك بتنزيل الباطل منزلة الآلة[4].

إذن هدف الكفار منذ سيدنا نوح عليه السلام وحتى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم أن يبطلوا الحق ويدحضوه، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

قال الطبري: «وخاصموا رسولهم بالباطل من الخصومة ليبطلوا بجدالهم إياه، وخصومتهم له الحق الذي جاءهم به من عند الله، من الدخول في طاعته، والإقرار بتوحيده، والبراءة من عبادة ما سواه، كما يخاصمك كفار قومك يا محمد بالباطل»[5].

وحتى يومنا هذا تتضافر جهود أهل الباطل؛ فيظلمون الناس ويستعبدونهم، وخاصة أمة الإسلام التي تخلت عن منهج ربها سبحانه، فصارت كالقصعة التي يتنافسون على الأكل منها، كما قال حبيبنا الصادق المصدوق في حديث ثوبان رضي

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٨٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٥٠، تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٢.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٢٥، تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٢، مجاز القرآن ١/ ٤٠٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٨٦.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٥٣.

الله عنه: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائلٌ: ومن قلةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: (بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائلٌ: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا، وكراهية الموت)[1].

ولا خلاص لنا إلا بالعودة إلى ديننا.

ثالثًا: خلط الحق بالباطل:

طريقة أخرى من طرق أهل الباطل في الاستدلال، وهي تزيين الباطل بشيء من الحق، وخلطه به مغبة أن يلتبس الأمر على السامعين، قال عز من قائل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

واللبس له معنيان: الأول: مادي محسوس، وهو مأخوذ من اللباس، وهو الثوب؛ لأنه يستر الجسد، ويخفي حقيقته، والثاني: المعنوي، وهو الخلط بغيره حتى يخفى أمره،[2] ويجمعهما إخفاء الشيء.

ومما يدل عليه، ما ورد عن ابن عباس من قوله: «﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، قال: لا تخلطوا الصدق بالكذب»[3]، ويرى الماوردي أنه يصح في المقصود بالباطل المعاني الثلاثة، وهي: الكذب المختلط بالحق، أو اليهودية والنصرانية بالإسلام، أو الذي كتبوه بأيديهم بالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام.

والذي يظهر أن الحديث هنا عن بني إسرائيل، حيث يدعوهم ربنا إلى عدم خلط كتابه (التوراة) بشيء مما كتبته أيديهم من الباطل، والتصاق الباء بالباطل تجعله يحمل معنيين:

الأول: لا تكتبوا في التوراة شيئًا منكم، فتخلطوا الحق بالباطل.

والثاني: لا تجعلوا الحق ملتبسًا بالباطل الذي تكتبونه.

حيث يقول الزمخشري: «الباء التي في بالباطل إن كانت صلة مثلها في قولك: لبست الشيء بالشيء خلطته به، كأن المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها ، فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم، حتى لا يميز بين حقها وباطلكم، وإن كانت باء الاستعانة كالتي في قولك: كتبت بالقلم، كان المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبسًا مشتبهًا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، عن أبي هريرة، مسند المكثرين من الصحابة، رقم ٨٧١٣، ١٤/ ٣٣١، وأبو داود في سننه،واللفظ له، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم ٤٢٩٧، ٤/ ١١١، وصححه الألباني، مشكاة المصابيح، رقم ٥٣٦٩، ٣/ ١٤٧٤.

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٧١.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٦٨، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ٩٨.

بباطلكم الذي تكتبونه»[1].

وقد ورد في آية أخرى على صورة الاستفهام الإنكاري، وليس كسابقتها على صورة النهي المباشر، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

والملاحظ هنا: التصريح بالمخاطبين وهم أهل الكتاب، والأرجح أنهم اليهود؛ حيث ورد عن ابن عباس قوله: «قال عبد الله بن الصيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوةً ونكفر به عشيةً، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم!»[2].

وهكذا ترتسم صورة اليهود من الكذب والخلط والكيد للمسلمين، يقول ابن عاشور عن الآية السابقة والتي قبلها: «فيهما التفاتٌ إلى خطاب اليهود، والاستفهام إنكاري.

وإعادة ندائهم بقوله: يا أهل الكتاب ثانية لقصد التوبيخ وتسجيل باطلهم عليهم، ولبس الحق بالباطل تلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة، حتى ارتفعت الثقة بجميعه. وكتمان الحق يحتمل أن يراد به كتمانهم تصديق محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يراد به كتمانهم ما في التوراة من الأحكام التي أماتوها وعوضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها»[3].

رابعًا: اتهام المؤمنين بالباطل:

مما تعارف عليه الناس أن خير وسيلة للدفاع الهجوم، وها هم أعداء الله والإسلام يتهمون المؤمنين بأنهم مبطلون، ولا نراه إلا من هذا الباب، كما ورد في قول ربنا سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨].

إنه فرط العناد وشدة في الخصومة وقسوة القلب؛ إذ إن قلوبهم متيقنة ببطلان ما يزعمون، بل ويوقنون بأنهم هم المبطلون، يقول ابن عطية: «ثم أخبر تعالى عن قسوة قلوبهم وعجرفة طباعهم في أنه ضرب لهم كل مثل، وبين عليهم بيان الحق، ثم هم مع ذلك الآية والمعجزة يكفرون ويلجون ويعمهون في كفرهم، ويصفون أهل الحق بالإبطال»[4].

فمهما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم به من «معجزةٍ، كفلق البحر والعصا

(١) الكشاف ١/ ١٣٢، الزمخشري.
وانظر: تفسير القرآن، ابن المنذر ١/ ٢٤٩ عن محمد بن إسحاق.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ٥٠٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٧٩ بتصرف.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٤.

وغيرهما ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ﴾ يا معشر المؤمنين. ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي تتبعون الباطل والسحر»[1].

ومهما ذكر لهم من آية فيها صفات الناس يوم القيامة وأحوالهم وشؤونهم «كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم»[2]، إلا أنهم يصرون على أنها أباطيل وأن القائلين بها مبطلون.

وتتناغم هذه الأساليب الشيطانية في الاحتجاج، ورد كلام الخصم في كل صولات الجدال بين المؤمنين وقائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمشركين بقيادة إبليس -عليه من الله ما يستحق-، فها هم قد طلبوا منه أن يشق لهم القمر قسمين، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن طلب من الله تعالى ذلك، فانشق القمر، فماذا كان بعد ذلك؟

لم يؤمنوا؛ بل ازدادوا إثمًا على إثمهم، كما قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

إذن فهو أسلوب رخيص من أساليبهم التي يعلنون فيها وبكل وضوح إفلاسهم الفكري، وانعدام حجتهم القائمة على البرهان، مع شدة حاجتهم لإظهارها لو ملكوها!.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٤٩، وانظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٨٨.

الباطل في المثل القرآني

كثيرًا ما يستخدم القرآن أسلوب التمثيل لكي يقرب الصورة إلى الأفهام، من صورة ذهنية مجردة إلى صورة حسية واقعية، وهكذا تؤثر في النفس، بعد استحضار الذهن لها.

ولقد بين القرآن العظيم أن ضرب المثل في القرآن طال كل شيء، وأنه ليس ضربًا من العبث المنزه تعالى عنه، بل له فائدة جليلة، ولا يغفل عنها إلا المختوم على قلبه، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨].

يقول شيخ المفسرين في محضر تفسيره للآية: «ولقد مثلنا للناس في هذا القرآن من كل مثل احتجاجًا عليهم، وتنبيهًا لهم عن وحدانية الله. وقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ يقول: ولئن جئت يا محمد هؤلاء القوم بآية، يقول: بدلالة على صدق ما تقول ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ يقول: ليقولن الذين جحدوا رسالتك، وأنكروا نبوتك، إن أنتم أيها المصدقون محمدًا فيما أتاكم به إلا مبطلون فيما تجيئوننا به من هذه الأمور»[1]، هكذا ينظر السطحيون والمتربصون بالإسلام وأهله، الذي يأتي بالحق مبطل؛ لأنه يخالف هواهم، وما هم عليه من الملة الباطلة!.

ومن الأمثلة التي استحضرها القرآن الكريم للباطل:

١. الماء والزبد.

شبه الله تعالى الحق أو الإيمان أو القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، يثبت في الأرض فينفع الزرع والضرع والخلق، وشبه الباطل بالزبد والرغوة والقش، التي طالما صعدت برهة على السطح، ثم سرعان ما تقذف إلى الشاطئ، فلا تنفع شيئًا، بل تكون عبئًا يتمنى الفرد الخلاص منه في أسرع وقت، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

قال الطبري: «هذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر، يقول تعالى ذكره: مثل الحق في ثباته والباطل في اضمحلاله، مثل ماء أنزله الله من السماء إلى الأرض، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾، يقول: فاحتملته الأودية بملئها، الكبير بكبره، والصغير بصغره، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، يقول: فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٠.

السماء، زبدًا عاليًا فوق السيل... فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل»[1].

فعلينا التيقن بموعود الله لنا بالظفر والنصر على المبطلين، فهم كالزبد الذي سرعان ما يظهر أنه انتفاش خادع ليس إلا، ثم لا يلبث ويزول ولا يمكث ويطرد.

٢. الحلية وشوائبها.

في نفس الآية الكريمة نستشف مثالًا آخر ضربه الله تعالى للحق والباطل، ألا وهو صناعة الحلي ليتزين الناس بها، حيث شبه الله تعالى الذهب والفضة وغيرهما من المعادن بالحق الذي يثبت ويزداد قوة كلما عرض على النار، أما الشوائب فلا تمكث أمام النار؛ فسرعان ما تزول، ولا يبقى أثرها، كما هو الباطل.

قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد: ١٧].

يقول ابن أبي زمنين تعليقًا على الآية: «يعني: الذهب والفضة، إذا أذيبا فعلا خبثهما، وهو الزبد، وخلص خالصهما تحت ذلك الزبد ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ أي: وابتغاء متاع ما يستمتع به ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أي: مثل زبد الماء، والذي يوقد عليه ابتغاء متاع هو الحديد والنحاس والرصاص إذا صفي ذلك أيضًا؛ فخلص خالصه، وعلا خبثه، وهو زبده ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ زبد الماء، وزبد الحلي، وزبد الحديد والنحاس والرصاص ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يعني: لا ينتفع به، فهذا مثل عمل الكافر، لا ينتفع به في الآخرة ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ فينتفع بالماء ينبت عليه الزرع والمرعى، وينتفع بذلك الحلي والمتاع، فهذا مثل عمل المؤمن يبقى ثوابه في الآخرة»[2].

ويحتاج المسلمون اليوم إلى غربلة، وعرض على النار لتمحيصهم، فبالتمحيص تظهر معادنهم، وتنجلي صفاتهم للعيان.

٣. إبطال الصدقات.

شبه الله تعالى إبطال الصدقات بالمن والأذى على الناس، كمثل الصخرة الملساء التي عليها تراب، فنزل عليها المطر، فلم يبق من التراب شيءٌ على الصخرة، وهكذا يفعل الرياء بأجر الصدقات، يبطلها فلا يبقى لها أثر.

قال الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٠٧ بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٣٥٢، وانظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٠٨.

[البقرة: ٢٦٤].

«فالله تعالى أمر عباده برأفته أن لا يمنوا بصدقاتهم، لكي لا يذهب أجرهم، ثم ضرب لذلك، مثلًا فقال تعالى: كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، يعني المشرك إذا تصدق، فأبطل الشرك صدقته، كما أبطل المن والأذى صدقة المؤمن، ثم ضرب لهما مثلًا جميعًا لصدقة المؤمن الذي يمن وبصدقة المشرك»[(١)].

وفي بيان كلمة صفوان، يقول أبو عبيدة: «الصفوان: جمع، ويقال للواحدة: (صفوانة) فى معنى الصفاة، والصفا: للجميع، وهى الحجارة الملس. (صلدًا) والصلد: التي لا تنبت شيئًا أبدًا من الأرضين، والرؤوس... وهو الأجلح»[(٢)].

هكذا نلاحظ أن القرآن الحكيم لا يترك فرصة لترك كبير الأثر وتوضيح الموقف في نفس الإنسان إلا واهتبلها، منها ما يتعلق بالكفار ومنها ما يتعلق بالمؤمنين، مما يدل على أن إبطال العمل يشمل الجميع، فالواجب علينا الحذر من كل ما يبطل أعمالنا.

٤. دعاء الآلهة المزعومة من دون الله تعالى وعجزها.

قريب مما سبق ذكره التشبيه الذي أورده رب العزة سبحانه عن عجز الآلهة المزعومة في قضاء حوائج عابديها، فقد شبه الله تعالى عجزها بعجز من ورد الماء ليستقي منه، وليس معه شيء ليشرب به، فبسط يديه إلى الماء من بعيد، فماذا عساه أن يستقي، وكيف عساه أن يشرب؟!.

قال سبحانه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

ذكر الفراء أن المقصود بـ ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ هي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وأن المقصود ب ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ هم: الأصنام[(٣)].

وقد وضح ابن أبي زمنين وجه التشبيه الذي ضربه الله تعالى بشكل جميل قائلًا: «هذا مثل الذي يعبد الأوثان رجاء الخير في عبادتها هو كالذي يرفع بيده الإناء إلى فيه يرجو به الحياة، فمات قبل أن يصل إلى فيه؛ فكذلك المشركون، حيث رجوا منفعة آلهتهم ضلت عنهم ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ آلهتهم ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾»[(٤)].

(١) تفسير السمرقندي ١/ ١٧٦.
(٢) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٨٢ بتصرف.
(٣) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٦١.
(٤) تفسير القرآن العزيز ٢/ ٣٥٠.

الصراع بين الحق والباطل

شاءت حكمة الله تعالى في الابتلاء أن يطلق العنان لإبليس وحزبه في الدعوة إلى الباطل، لكنه سبحانه ما فتئ يدفع باطلهم بحقٍ أبلج، يحمله ثلة من خيرة الخلق، على رأسهم أنبياء الله ورسله صلى الله عليهم جميعًا، وقد بذلوا في هذه المعركة -التي لن يخمد لهيبها إلا مع صيحة إسرافيل عليه السلام الأولى -كل غالٍ ونفيس من دماء زكية، وأموال طائلة، ومهج عن ربها رضية.

ولولا هذا الدفع منه سبحانه بخيرة خلقه؛ لمنع الباطل ومروجيه، لما صلحت الحياة ولا الاستخلاف فيها، كما قال ربنا: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

بعد حديثه عن قتل طالوت وهزيمة جنوده، على يد الثلة المؤمنة جالوت وجنوده، الذين اصطفاهم الله لهذا الواجب، فقد «أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين في صدور الكفرة على مر الدهر لفسدت الأرض؛ لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها، ولكنه تعالى لا يخلي الزمان من قائم بحق، وداع إلى الله ومقاتل عليه، إلى أن جعل ذلك في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، له الحمد كثيرًا.

قال مكي: «وأكثر المفسرين على أن المعنى لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم»[(١)].

وهكذا تتعدد حالات الإفساد بالباطل، ويتعدد لأجلها الدفع لها، ومن ذلك مجيء الإسلام -خاتم الرسلات- في دفع عبادة الأصنام، فنال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه صنوفًا من العذاب، لا تستطيع الجبال حملها، حتى أذن الله لهم بالدفع عن دينهم وأنفسهم.

قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

و«دفع الله بعض الناس ببعض إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعًا، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات، ولا للمسلمين مساجد. أو لغلب المشركون من أمة محمد صلى

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٣٧.

الله عليه وسلم على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين»[1].

وهنا يأتي رب العزة سبحانه لبيان الحكمة من وراء هذا التدافع، وتلك الدماء التي تراق، والأنفس التي تزهق، ليقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

نعم! إن البعض يقاتل الناس ليسود الباطل بكل صوره وأشكاله، وأما أهل الحق فلا يعبدون إلا الحق، ويرخصون أنفسهم زكية في سبيله.

ولما تمكن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم من دفع الباطل وأهله، وفتح مكة، ودخل إلى الكعبة، وجد الأصنام فيها وحولها، فأخذ يكسرها قائلًا: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا.

قال سبحانه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: (وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل إلى الحجر، فاستلمه ثم طاف بالبيت، قال: فأتى على صنمٍ إلى جنب البيت كانوا يعبدونه، قال: وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قوسٌ وهو آخذٌ بسية القوس[2]، فلما أتى على الصنم جعل يطعنه في عينه، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١])[3].

«لو ما رأيت محمدًا وجنوده بالفتح يوم تكسر الأصنام لرأيت دين الله أصبح بينًا والشرك يغشي وجهه الإظلام»[4].

وقد أمر الله تعالى حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يصدع أمام كفار قريش بالقول: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

ورد عن قتادة القول: «﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ والباطل: إبليس، أي: ما يخلق إبليس أحدًا ولا يبعثه»[5].

وعمم الطبري القول في الباطل فقال: «قل لهم يا محمد: جاء القرآن ووحي الله ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ يقول: وما ينشىء الباطل خلقًا»[6].

وهكذا ستنتهي هذه المعركة بانتصار

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٦٠.

(٢) هي ما انعطف من طرفي القوس، انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٣، ونيل الأوطار، الشوكاني ٨/ ٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، رقم ١٧٨٠، ٣/ ١٤٠٦.

(٤) ينسب إلى فضالة بن عمير بن الملوح الليثي، انظر: أخبار مكة، للفاكهي ٥/ ٢٠٤.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣١٦٨.

(٦) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤١٩.

الحق على الباطل، كما صرح بذلك سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وسيؤول حال الباطل إلى الزهوق والاندثار، كما نص على ذلك رب العزة قائلًا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

أي: «بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد، وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلًا، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه، ثم قال: ولكم الويل مما تصفون به مما لا يجوز عليه وعلى حكمته»[(١)].

وعليه فإنه يجب على المؤمن أن يرتبط بالله القوي، وأن يحذوه الأمل في قرب انتصار الحق على الباطل ودحره، راضيًا بسنة الله تعالى الاجتماعية القائمة على الصراع الدائم بين الحق والباطل، وتشتمل في ثناياها بحرًا من الحكمة لا ينضب، ودليلًا على استحقاقه سبحانه بالألوهية لا ينتهي؛ فعلينا بالصبر والتصبر.

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٠٧.

مصير الباطل والمبطلين

لكل بداية نهاية في هذه الحياة الدنيا؛ فكما أعطى الله تعالى الشيطان وحزبه القدرة على سلوك طريق الباطل، فهو كذلك بشرهم بمصير محتوم في الدنيا والآخرة، كنهاية حتمية لباطلهم، ولهم أنفسهم.

أولًا: مصير الباطل:

من خلال النظر في الآيات الكريمة السابقة وغيرها، يتبين لنا أن الله تعالى وعد الباطل بمصير محتم، ملؤه الخسران والمحو والزهوق والمحق، ولكل منها معنى يختص به، وهي كالآتي:

١. محو الباطل.

تكفل الحق تبارك وتعالى بمحو الباطل، كما في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

والمحو عند أهل اللغة يعني ذهاب الشيء وأثره[(٢)]، ويقال: محت الريح السحاب بمعنى: ذهبت به[(٣)]، ومحى

(٢) العين، الفراهيدي ٣/ ٣١٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠٢، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٥١٢.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠٢، والمحكم، ابن سيده ٣/ ٤٥٤، ومعجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٣/ ٢٠٧٤.

الطالب السبورة، أي: لم يترك عليها أثرًا للكتابة.

وأما أهل العلم الشرعي، فلم يذهبوا في معناه أبعد مما ذهب إليه أهل اللغة، فهذا الإمام أبو جعفر الطبري يقول: «﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ يقول: ويذهب الله بالباطل فيمحقه»[(١)].

وكذا النحاس حيث قال: «معناه أن الله جل وعز يزيل الباطل ولا يثبته»[(٢)].

أما السمرقندي فيرى أنه «يعني: يهلك الله تعالى الشرك»[(٣)].

ومن مجموع ما ذكروه يتبين لنا أن المحو هو إزالة الباطل وإهلاكه حتى لا يبقى له أثر.

وبالاستدلال من كلام الله تعالى نجد أنه سبحانه استخدم المحو في إزالة الشيء وعدم بقاء شيء منه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

وكذا في قوله سبحانه: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وكذلك ورد في كلام أفصح العرب صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه جبير بن مطعم رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لي خمسة أسماءٍ: أنا محمدٌ، وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)[(٤)].

وهكذا كان حقًا صلى الله عليه وسلم.

وأما السياق الذي ورد فيه المحو للباطل في الآية السابقة، فهو في معرض الإقناع للمشركين بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم لن يفتري على الله تعالى شيئًا، وإلا لعذبه الله على مرأى من الجميع.

قال الطبري: «يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: لو حدثت نفسك أن تفتري على الله كذبًا، لطبعت على قلبك، وأذهبت الذي أتيتك من وحيي، لأني أمحو الباطل فأذهبه، وأحق الحق، وإنما هذا إخبار من الله الكافرين به، الزاعمين أن محمدًا افترى هذا القرآن من قبل نفسه، فأخبرهم أنه إن فعل لفعل به ما أخبر به في هذه الآية»[(٥)].

وفي إثبات ما سبق ذكره يقول النحاس: «ففيه احتجاج عليهم لنبوة محمد صلى الله

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣٢.
(٢) إعراب القرآن، النحاس ٤/ ٥٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٤٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، رقم ٣٥٣٢، ٤/ ١٨٥، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٤، ٤/ ١٨٢٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣٢.

عليه وسلم؛ لأن معناه أن الله جل وعز يزيل الباطل ولا يثبته، فلو كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم باطلًا لمحاه الله جل وعز وأنزل كتابًا على غيره.

وهكذا جرت العادة في جميع المفترين أن الله سبحانه يمحو باطلهم بالحق والبراهين والحجج ويحق الحق بكلماته أي يبين الحق»[(١)].

إذن فهو تعالى يبرهن للكفار على صدق الرسول والرسالة بمحو باطلهم، ولا أدل على ذلك من الواقع الذي خبروه من أسلافهم، في عاد وثمود وقرى لوط وغيرها الكثير.

٢. زهوق الباطل.

وأما النتيجة الثانية التي يتعرض لها الباطل كما وعد الله تعالى، فهو الزهوق، حيث قال عز من قائل: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

والزهوق له عند أهل اللغة أكثر من معنى، أهمها: الذهاب والهلاك والاضمحلال، يقال: «زهقت نفسه، وهي تزهق زهوقًا، أي: ذهبت، وكل شيء هلك وبطل فقد زهق»[(٢)].

وذهب ابن فارس إلى أن له أصلًا واحدًا يدل على: «تقدمٍ ومضيٍ وتجاوزٍ، من ذلك زهقت نفسه، ومن ذلك زهق الباطل، أي: مضى. ويقال: زهق الفرس أمام الخيل، وذلك إذا سبقها وتقدمها. ويقال: زهق السهم، إذا جاوز الهدف، ويقال: فرسٌ ذات أزاهيق، أي: ذات جريٍ وسبقٍ وتقدمٍ»[(٣)].

والذي يظهر أنها ترجع إلى معنى الذهاب، فإذا تقدم الشيء فقد ذهب، وكذلك إذا مضى وتجاوز غيره، ثم إن الرابط مع أقوال غيره من أهل العلم، أن الهالك والمضمحل نهايتهما الذهاب.

ومن ثم فإننا نتحدث عن مصير آخر للباطل، ألا وهو اضمحلاله وإهلاكه حتى يذهب بلا عودة.

ولقد عاين المسلمون الأوائل زهوق الباطل -من عبادة للأوثان والهوى وتقليد للآباء وغيرها-، حين بزغ فجر الإسلام، وأخذ هذا النور بالاتساع أكثر فأكثر، والباطل يضمحل شيئًا فشيئًا، كما وعد الله تعالى.

وسيبلغ النور الذي يذهب الباطل مشارق الأرض ومغاربها، كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم حيث قال في الحديث الذي رواه ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله: (إن الله زوى لي الأرض،

(١) إعراب القرآن، النحاس ٤/ ٥٦.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٥.

(٢) العين، الفراهيدي ٣/ ٣٦٣.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٤٧، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٨٩٢.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٢.

فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنةٍ عامةٍ، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ عامةٍ، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»[1].

يقول الإمام النووي: «أما زوي فمعناه جمع، وهذا الحديث فيه معجزاتٌ ظاهرةٌ وقد وقعت كلها بحمد الله كما أخبر به صلى الله عليه وسلم، قال العلماء: المراد بالكنزين الذهب والفضة، والمراد كنزي كسرى وقيصر ملكي العراق الشام، فيه إشارةٌ إلى أن ملك هذه الأمة يكون معظم امتداده في جهتي المشرق والمغرب، وهكذا وقع، وأما في جهتي الجنوب والشمال فقليلٌ بالنسبة إلى المشرق والمغرب، وصلوات الله وسلامه على رسوله الصادق الذي لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى.قوله صلى الله عليه وسلم:(فيستبيح بيضتهم) أي: جماعتهم وأصلهم»[2].

وقد ورد عن قتادة في بيان معنى ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: «هلك الباطل وهو الشيطان»[3].

قال ابن كثير: «تهديدٌ ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزهق باطلهم، أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]»[4].

«ودل فعل كان على أن الزهوق شنشنة[5] الباطل، وشأنه في كل زمانٍ أنه يظهر ثم يضمحل»[6].

ثم نحن بعد هذا الظلم الذي تحياه الأمة، من تسلط أعدائها عليها، ترتفع أعناقنا أملًا في رؤية بزوغ فجر ذاك اليوم، الذي يزول فيه الباطل ويندحر بكل ملله.

٣. محق الباطل وقذفه.

توعد الله العزيز الكفر والباطل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعضٍ، رقم ٢٨٨٩، ٤/ ٢٢١٥.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ١٨/ ١٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١١٢. وانظر: إعراب القرآن، النحاس ٢/ ٢٨١، تفسير السمرقندي ٢/ ٣٢٦.

(٥) أي: غريزته، انظر: العين، الفراهيدي ٦/ ٢٢٠.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٨٨.

بالمحق، وهو جزء من الحرب التي تكفل الله تعالى فيها بنصرة الحق وأهله، قال سبحانه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

والمحق عند أهل اللغة ذهاب البركة ونقص الشيء بما يؤدي إلى تلفه، قال الخليل بن أحمد: «محق: محقه الله فانمحق وامتحق: أي ذهب خيره وبركته ونقص»[(١)].

«وكل شيءٍ نقص وصف بهذا، والمحاق: آخر الشهر إذا تمحق الهلال، ومحقه الله: ذهب ببركته. وقال قومٌ: أمحقه، وهو رديءٌ»[(٢)].

إذن هو وعد منه سبحانه بأن يمحق الباطل، فيذهب بركته، وينقص منه ومن أهله.

وفي التفريق بين المحق والإذهاب، يلفت العسكري الانتباه إلى أن المحق يكون لمجموع الأشياء وليس للفرد، ومن ذلك أنه لا يقال: محق الدينار إذا أذهبه، بل محق الدنانير.[(٣)]

ومحق الباطل -بإذهاب بركته وإنقاصه- له صور كثيرة منها:

- تسليط أهل الحق على الباطل وأهله.

قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فلله أجناد لا يعلم عددها إلا هو سبحانه، ومنهم خلص المؤمنين، الذين اشترى الله منهم أنفسهم، فأرخصوها في سبيل رضوانه، يذبون عن الحق، لا يهدأ لهم بال حتى يروا الكفر والباطل يتقلص شيئًا فشيئًا، حتى تعلو راية الحق.

- ما يقذفه الله تعالى في نفوس أهل الباطل من الشعور الدائم بالضيق والهم، بالرغم من كونهم يرتكبون المعاصي، وينتهكون الأعراض، ويسلبون الأموال، غير أنهم لا يجدون لذتها الحقيقية، فهم يخالفون فطرة الرحمن، ويعادون أولياءه.

٤. بطلان الباطل.

ومما توعد الله الباطل به (إبطاله)، كما صرح ربنا سبحانه وتعالى في قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

وقد ذكرنا في أن الباطل في اللغة هو خلاف الحق وضده، وأنه يعني: ذهاب الشيء وزواله، وقلة مكثه في الوجود والواقع.

وذكرنا أن الذي يربط تلك المعاني جميعها هو الزوال واللاقيمة؛ فالشيطان سرعان ما يزول شره، ويظهر وهنه.

(١) العين، الفراهيدي ٣/ ٥٦.
وانظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٥٦٠.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠١.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٠٥.

يقول القرطبي: «أي: يستأصلهم بالهلاك. ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يظهر دين الإسلام ويعزه. ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي الكفر. وإبطاله إعدامه، كما أن إحقاق الحق إظهاره»[1].

وبعد: فقد ظهر لنا من خلال ما سبق، أن الله تعالى تكفل بإعدام الباطل ومحقه وإذهابه وإبطاله ومحوه وعدم الإبقاء عليه، وهذا يجعل طمأنينة في صدر المؤمن لا نهاية لها، فمن الذي يقف في وجه الجبار سبحانه؟!.

ثانيًا: مصير المبطلين:

لا شك في أن مصير المبطلين تابع لمصير الباطل؛ فهم جنوده الأوفياء، ومن ذلك:

١. ارتياب المبطلين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

الريبة خلق ذميم، يتصف به الشاك وضعيف اليقين والثقة، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن من أن يستحوذ عليه الريب، كما في الحديث الذي رواه الحسن بن علي رضي الله عنه: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينةٌ، وإن الكذب ريبةٌ)[2].

وأما الريب فهو الشك والخوف، و«ما رابك من أمرٍ تخوفت عاقبته»[3]، والاسم منه: (الريبة)، وتعني التهمة والشك[4].

ويفرق العسكري بكلام لطيف بين الريب والشك، حيث يقول: «الشك: هو تردد الذهن بين أمرين على حد سواء، وأما الريب فهو شك مع تهمة.

ودل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

وقوله تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

فإن المشركين - مع شكهم في القرآن - كانوا يتهمون النبي بأنه هو الذي افتراه وأعانه عليه قوم آخرون! ويقرب منه (المرية) وهو بمعناه»[5].

فأهل الباطل في ريبة دائمة، وخوف ينكد عليهم عيشهم، فكيف يستلذون بالعيش،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٧٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين، حديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، رقم ١٧٢٣، ٢/ ٣٤٥، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم ٢٥١٨، ٤/ ٦٦٨، واللفظ له.
وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم ٢٧٧٣، ٢/ ٨٤٥.

(٣) العين، الفراهيدي ٨/ ٢٨٧.

(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ١٤١، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٦٣.

(٥) معجم الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٦٤.

والخوف من قرب مصيرهم المحتوم يؤرقهم ليلًا ونهارًا؟.

٢. إهلاك المبطلين.

من الأمور التي توعد الله تعالى فيها أهل الباطل الهلاك في الدنيا، قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣].

ووجه الاستدلال في الآية الكريمة: أنه إذا كان اتباع المبطلين في أفعالهم يهلك غيرهم من الصالحين، فما بالنا بإهلاك المبطلين أنفسهم.

فإهلاك الله تعالى الكافرين المبطلين ومعهم الصالحين أمر طبيعي، إذا لم يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكثر الخبث، وانتشرت الفواحش.

فعن زينب بنت جحش، رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعًا يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحشٍ: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[1].

ومن السنن الاجتماعية التي بينها الله في كتابه: إهلاك المبطلين، ولا أدل على ذلك من إهلاكه سبحانه للقرى الظالمة، كقوم عاد وثمود وغيرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

فتلك «القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لما ظلموا، فكفروا بالله وآياته، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ يعني ميقاتًا وأجلًا حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به، يقول: فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبدًا موعدًا»[2].

ولهذا كان من بين ما حذر به الله تعالى المشركين من عاقبة الكفر، هو تذكيرهم بعاقبة تلك القرون التي لا زالت مساكنهم شاهدة على حجم العذاب الذي تعرضوا له وهوله.

قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣٣٤٦، ٤/ ١٣٨، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم ٢٨٨٠، ٤/ ٢٢٠٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٣

[القصص ٥٨].

موضحًا لهم أن أرضهم ومساكنهم لم تسكن من بعدهم، وأن البقاء لله تعالى فهو الوارث.

٣. خسران المبطلين.

ذكرنا سابقًا أن الله تعالى توعد المبطلين بالهلاك في الدنيا، فصدقهم وأهلكهم أيما إهلاك، غير أن ذلك كان جزءًا من مصير مخيف ينتظرهم في الآخرة؛ فعذاب الآخرة أشد وأعظم من عذاب الدنيا، وكذلك فهو دائم لا ينقطع.

وهذا أمر تضطرب له القلوب التي فيها ولو ذرة من الحياة، ويشيب له الولدان، وبنظرة سريعة في وصف العذاب الذي أعده الله تعالى للمبطلين، سيتبين أنهم مغمورون عن هذه الحقائق والأهوال.

قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقال أيضا: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]؛ فهو أشق وأشد وأبقى وأكبر وأخزى، وكلها بالمقارنة بعذاب الدنيا، أيًا كان نوعه وحجمه وشدته.

فخسارة المبطلين يوم القيامة وفي الآخرة عمومًا شيء مجزوم به، لا راد له.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

وقال في أخرى تأكيدًا لما سلف: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧].

«فإذا جاء أمر الله بالعذاب في الدنيا أو الآخرة قضي بالحق بإنجاء المحق وتعذيب المبطل، وخسر هنالك المبطلون المعاندون باقتراح الآيات بعد ظهور ما يغنيهم عنها»[1].

وهكذا تنتهي فصول حياة طويلة نجح فيها أناس لم تغرهم الحياة الدنيا، وسقط فيها المبطلون، بما كانوا عن آيات الله يصدون ويستكبرون، فكانت نهايتهم خسرانًا مبينًا، لا رجعة فيها ولا ينفع معها الندم.

موضوعات ذات صلة:

الافتراء، الحق، الزور، الكذب

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٤.

البحر

عناصر الموضوع

مفهوم البحر	٤٠٢
البحر في الاستعمال القرآني	٤٠٣
الألفاظ ذات الصلة	٤٠٤
البحر والقدرة الإلهية	٤٠٦
البحر وأشراط الساعة	٤١٣
البحر والابتلاء	٤١٤
منافع البحر	٤١٩
البحر من جند الله سبحانه وتعالى	٤٢٥
البحر في المثل القرآني	٤٢٨
لمسات إعجازية في البحر	٤٢٩

مفهوم البحر

أولًا: المعنى اللغوي:

الباء والحاء والراء أصل يدل على السعة والانبساط، قال الخليل: «سمي البحر بحرًا لاستبحاره وهو انبساطه وسعته»[(١)]، والبحر لغة: الشق، وإنما سمي البحر بحرًا؛ لأنه شق في الأرض شقًا، وجعل ذلك الشق لمائه قرارًا، والبحر: الماء الكثير، ملحًا كان أو عذبًا، وهو خلاف البر، سمي بذلك لعمقه واتساعه.

وقد غلب البحر على الملح حتى قل في العذب، وجمعه أبحرٌ وبحورٌ وبحارٌ، وماءٌ بحرٌ: ملحٌ، قل أو كثر، قال ابن سيده: «وكل نهرٍ عظيمٍ بحرٌ»، وقال الزجاج: «وكل نهرٍ لا ينقطع ماؤه فهو بحرٌ»[(٢)]، قال الراغب في المفردات: «أصل البحر: كل مكانٍ واسعٌ جامعٌ للماء الكثير»[(٣)]، ويسمى الفرس الواسع الجري: بحرًا، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام في مندوب فرس أبي طلحة: (إن وجدناه لبحرًا)[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

من المعاني اللغوية يتضح أن تعريف البحر اصطلاحًا لابد أن يشتمل على ثلاثة أمور: سعة المكان، وجمعه للماء، وأن يكون الماء كثيرًا، سواء كان هذا الماء ملحًا أو عذبًا، راكدًا أو جاريًا[(٥)]، وقد عرف البحر خلق كثيرون، قال صاحب التوقيف على مهمات التعريف: «البحر: مستقر الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفيه من كان في وسطه، وهو مأخوذ من الاتساع»[(٦)].

وقال بعضهم: «البحر يقال في الأصل للماء الملح دون العذب»[(٧)].

---

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٤.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٠١.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ١٠/ ١١٤، مختار الصحاح، الرازي ١/ ٢٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني، ١/ ١٠٨.
(٥) المحكم، ابن سيده ٣/ ٣١٩.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٢، ٤١
(٧) التوقيف على مهمات التعريف، المناوي ١/ ٧١.

البحر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بحر) في القرآن الكريم (٤٢) مرة، يخص موضوع البحث منها (٤١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٣٣	﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]
المثنى	٥	﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]
الجمع	٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤]

وجاء البحر في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي وهو: المكان الواسع الجامع للماء الكثير، سواء كان عذبًا أو مالحًا[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١١٧.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص١٩٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ اليم:

اليم لغة:

الياء والميم: كلمةٌ تدل على قصد الشيء وتعمده وقصده، واليم: البحر[١].

اليم اصطلاحًا:

متسع من الأرض أصغر من المحيط مغمور بالماء الملح أو العذب[٢].

الصلة بين البحر واليم:

اليم من الكلمات المرادفة للبحر، قال ابن منظور: «وقد أجمع أهل اللغة أن اليم هو البحر»[٣]، لكن من الملاحظ أن القرآن لم يستعمل اليم إلا في مقام الخوف والعقوبة، ولم يستعمله في مقام النجاة، أما البحر: فقد يستعمله في مقام النجاة أو العقوبة[٤].

ويطلق اليم أيضًا على النهر العذب: كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[طه: ٣٩].

قال القرطبي: «﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي اطرحيه في البحر: نهر النيل»[٥]

٢ النهر:

النهر لغة:

النون والهاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على تفتح شيءٍ أو فتحه، وسمي النهر؛ لأنه ينهر الأرض أي يشقها[٦].

النهر اصطلاحًا:

الماء الجاري المتسع، ثم أطلق على الأخدود مجازًا[٧].

الصلة بين البحر والنهر:

أطلق في القرآن البحر على النهر، ولم يطلق النهر على البحر.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٥٢.
(٢) انظر: المحكم، ابن سيده، ١٠/ ٥٧٩.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٢.
(٤) لمسات بيانية في نصوص التنزيل، فاضل السامرائي، ١/ ٩٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١/ ١٩٥.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٣٦٢.
(٧) التوقيف على مهمات التعريف، المناوي، ١/ ٣٣١

٣ البر:

البرّ لغة:

خلاف البحر. والبرية من الأرضين، بفتح الباء: خلاف الريفية. والبرية: الصحراء نسبت إلى البر، ويقال: أفصح العرب أبرهم. معناه: أبعدهم في البر والبدو دارًا. وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ [الروم: ٤١]، قال الزجاج: «معناه ظهر الجدب في البر والقحط في البحر أي: في مدن البحر التي على الأنهار»[(١)].

والبر: الصادق. وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

والبر: من صفات الله تعالى وتقدس: العطوف الرحيم اللطيف الكريم[(٢)].

البر اصطلاحًا:

البر: خلاف البحر، وهو التراب واليابس[(٣)].

الصلة بين البحر والبر:

البحر: مستقر الماء الواسع، وكما ذكرنا في البر أنه خلاف البحر، فيمكننا القول: إن العلاقة بينهما تضاد.

(١) لسان العرب، ٤/ ٥٢، ابن منظور، وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ١٧٩.
(٢) لسان العرب ٤/ ٥٢، ابن منظور.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٤، الكليات، أبو البقاء الكفوي، ١/ ٢٢٥.

البحر والقدرة الإلهية

أولًا: تسخير البحر:

البحر آية عظيمة من آيات الله تعالى الدالة على قدرته، وتسخير الله تعالى البحر للناس بما ينفعهم لمن أعظم الدلائل على ربوبية الله تعالى، والتي تستلزم الإقرار بوحدانيته جل وعلا.

وتأتي الآيات الكريمة لتذكير الناس بتلك النعمة العظيمة والآية الباهرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

ومعنى التسخير: التذليل، قال السمرقندي: «وهو الذي سخر البحر أي: ذلل لكم البحر»[(١)]، وقال ابن عطية: «وتسخير البحر: هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله للركوب والإرفاق وغيره»[(٢)]، وقال الماتريدي: «وتسخيره إياه لنا: هو ما بذل للخلق ما فيه من أنواع الأموال التي خلق الله فيه من الحلي والجواهر واللؤلؤ، وبذل ما فيه من الدواب السمك وغيره، فلولا تسخير الله إياه للخلق، وتعليمه إياهم الحيل التي بها يوصل إلى ما فيه من الأموال النفيسة، وإلا ما قدروا على استخراج ما فيه والوصول إليه؛ لشدة أهواله وأفزاعه»[(٣)].

وللبحر منافع كثيرة[(٤)]، وقد ذكر الله تعالى في الآيات السابقة ثلاث منافع من جملة منافع تسخير البحر[(٥)]:

المنفعة الأولى: أكل اللحم الطري منه: وهو السمك الذي يصطاد منه.

المنفعة الثانية: استخراج الحلي: وهو اللؤلؤ والمرجان.

المنفعة الثالثة: جريان الفلك فيه: وهذه المنفعة من أعظم مظاهر تسخير البحر، فالله تعالى قد خصها بالذكر والتسخير في غالب آيات البحر، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج:

(١) تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٦٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ٣٨٣.
(٣) تأويلات أهل السنة، للماتريدي، ٦/ ٤٨٥.
(٤) سيأتي الحديث عن منافع البحر مفصلاً في مبحث مستقل.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٨٠.

٦٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[لقمان: ٣١].

والفلك هو السفن، واحده وجمعه بلفظ واحد، ويذكر ويؤنث، كما قال تعالى في تذكيره في آية أخرى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] فذكره[١].

وسبب تسمية السفينة فلكًا لأنها تدور في الماء بسهولة[٢]

والآية في الفلك تسخيره وجريها على وجه الماء، وهي موقرة مثقلة، لا ترسب تحت الماء بل تعلو على وجه الماء[٣].

فالسفينة طائر مقلوب، والماء في أسفلها نظير الهواء في أعلاها[٤].

وأما دلالة الفلك على وجود الإله، فلأنها أثقل من الماء، فحقها الرسوب فيها، فإمساكها فوق الماء من الله. ودخول الهواء فيها- وإن كان من الأسباب- فلا يتم عند امتلاء الفلك بالأمتعة الكثيرة، إذ يقل الهواء جدًا فيضعف أثره في إمساك هذا الثقيل جدًا، فلا ينبغي أن ينسب إلا إلى الله تعالى من أول الأمر وعلى التوحيد، فلأن إله الفلك لو كان غير إله البحر لربما منع أحدهما الآخر من التصرف في ملكه، وهو يفضي إلى اختلال نظام العالم؛ لاختلاف المنافع المنوطة بالفلك وعلى الرحمتين، فلأنه رحم المسافرين بالتجارات، والمسافر إليهم بالأمتعة التي يحتاجون إليها[٥].

وقد جاء وصف السفن بأنها مواخر في آيتين من كتاب الله، وهذا الوصف من كمال تسخير البحر.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[فاطر: ١٢].

وفي معنى ﴿مَوَاخِرَ﴾ أقوال: فقال قتادة: «مقبلة ومدبرة، وهو أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر، تجريان بريح واحدة».

وقال الحسن: «﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: مملوءة».

وقال الفراء والأخفش: «شواق تشق الماء بجناحيها».

(١) جامع البيان، الطبري، ٣/ ٢٧٣.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٣/ ١٢٢.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ١٦٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ١٩٤.
(٥) محاسن التأيل، القاسمي، ١/ ٤٦٠.

قال مجاهد: «تمخر السفن الرياح».

وقال أبو عبيدة: «صوائخ، والمخر: صوت هبوب الريح عند شدتها»[1].

ولا يحصل جريان الفلك على وجه الماء إلا بتسخير ثلاثة أشياء.

قال الرازي[2]: «أحدها: الرياح التي تجري على وفق المراد.

وثانيها: خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك.

ثالثها: خلق الخشبة على وجهٍ تبقى طافيةً على وجه الماء ولا تغوص فيه.

ولا شك أن الاطلاع على العجائب التي في البحر من دلائل توحيد الله تعالى، ولا يكون الاطلاع على عجائب البحر إلا بالفلك، ولذلك خصها الله تعالى بالذكر، قال الألوسي: «خص الفلك بالذكر مع أن مقتضى المقام حينئذ أن يقال: والعجائب التي في البحر- لأنه سبب الاطلاع على أحواله وعجائبه- فكان ذكره ذكرًا لجميع أحواله، وطريقًا إلى العلم بوجوه دلالته، ولذلك قدم على ذكر- المطر والسحاب- لأن منشأهما البحر في غالب الأمر»[3].

والناظر في آيات البحر يلحظ قضية عقدية في خلق أفعال العباد في تسيير الله تعالى الفلك في البحر، فتسيير الفلك في البحر من الله تعالى، والسير: فعل العباد، فقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢].

دليل على أن الحوادث كلها مخلوقة لله تعالى، فأخبر تعالى بتسيير الفلك في البحر أنه خالق لسيرنا؛ فالتسيير فعله والسير فعل العباد وهو أثر التسيير، وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن الخلق هم الخالقون لسيرهم، وهذا رد منهم للقرآن.

قال ابن القيم: «فالتسيير فعله، والسير فعل العباد وهو أثر التسيير»[4]

وقال ابن عاشور: «ومن تسخير البحر خلقه على هيئةٍ يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه والمسخرة لحيل الصائدين»[5].

ثانيًا: شمول علم الله لما في البحر:

لا شك أن علم الله تعالى لا حد له، فهو بكل شيء عليم، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

قال جمهور المفسرين: «هو البر والبحر المعروفان؛ لأن جميع الأرض إما بر وإما

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ١٣.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٧٣.
(٣) روح المعاني ١/ ٤٣٠.
(٤) شفاء العليل ١/ ٥٨.
(٥) التحرير والتنوير، ١٤/ ١١٩.

بحر، وفي كل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه»[1].

يقول العلامة السعدي في تفسيره: «هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلًا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلًا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها»[2].

قال الطبري «قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، وعنده علم ما لم يغب أيضًا عنكم؛ لأن ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين، يعلمه العباد، فكأن معنى الكلام: وعند الله علم ما غاب عنكم، أيها الناس، مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر بعلمه نفسه، ويعلم أيضًا مع ذلك جميع ما يعلمه جميعكم، لا يخفى عليه شيء؛ لأنه لا شيء إلا ما يخفى عن الناس أو ما لا يخفى عليهم. فأخبر الله تعالى ذكره أن عنده علم كل شيء كان ويكون، وما هو كائن مما لم يكن بعد، وذلك هو الغيب»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، هذا يحتمل وجوهًا:

أولًا: أي يعلم ما في البر والبحر من الدواب، وما يسكن فيها من ذي الروح، كثرتها وعددها وصغيرها وكبيرها، لا يخفى عليه شيء.

والثاني: يعلم رزق كل ما في البر والبحر من الدواب ويعلم حاجته، ثم يسوق إلى كل من ذلك رزقه.

يذكر هذا -والله أعلم- ليعلموا أنه لما ضمن للخلق لكل منهم رزقه، يسوق إليه رزقه من غير تكلف ولا طلب، كما يسوق أرزاق كل ما في البر والبحر من غير طلب ولا تكلف، لا تضيق قلوبهم لذلك، فما بالكم تضيق قلوبكم على ذلك، وقد ضمن ذلك لكم كما ضمن لأولئك؟!

والثالث: يعلم ما في البر والبحر من اختلاط الأقطار بعضها ببعض، ومن دخول بعض في بعض، يخرج هذا على الوعيد: أنه لما كان عالمًا بهذا كله يعلم بأعمالكم ومقاصدكم[4].

الرابع: يعلم ما يهلك في البر والبحر[5].

وقال الواحدي: « ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾: القفار، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ كل قرية فيها ماءٌ، لا

(١) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ١١٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١/ ٢٥٩.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٤٠٢.
(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٩٨.
(٥) تفسير السمرقندي، ١/ ٤٥٣.

يحدث فيهما شيء إلا بعلم الله»[1].

وقد خصهما الله تعالى بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر[2].

والله تعالى قدم ذكر البر؛ لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر، وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال، وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات والمعادن.

وأما البحر فإحاطة العقل بأحواله أقل، إلا أن الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر، وطولها وعرضها أعظم، وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب[3].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء»[4].

وقال أبو السعود: «﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملةً له، وتنبيهًا على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط، سواءٌ في الجلاء أي يعلم ما فيهما من الموجودات مفصلةً على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها»[5].

قال العلامة محمد رشيد رضا: «وعلمه تعالى بما في البر والبحر من علم الشهادة المقابل لعلم الغيب، على أن أكثر ما في خفايا البر والبحر غائب عن علم أكثر الخلق، وإن كان في نفسه موجودًا يمكن أن يعلمه الباحث منهم عنه، وقدم ذكر البر على البحر على طريقة الترقي من الأدنى إلى ما هو أعظم منه، فإن قسم البحرمن الأرض أعظم من قسم البر، وخفاياه أكثر وأعظم»[6].

ومناسبة ذكر علم الله تعالى على ما في البر والبحر بعد ذكر علمه تعالى مفاتيح الغيب، قال الرازي: «وقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ قضية عقلية محضة مجردة؛ فالإنسان الذي يقوى عقله على الإحاطة بمعنى هذه القضية نادر جدًا.

والقرآن إنما أنزل لينتفع به جميع الخلق. فههنا طريق آخر: وهو أن من ذكر القضية العقلية المحضة المجردة، فإذا أراد إيصالها إلى عقل كل أحد ذكر لها مثالًا من الأمور المحسوسة الداخلة تحت القضية العقلية الكلية؛ ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهومًا لكل أحد، والأمر في هذه الآية ورد على هذا القانون؛ لأنه قال أولًا: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ ثم أكد هذا المعقول الكلي المجرد

(١) الوجيز، الواحدي، ١/ ٣٧٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣/ ٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٦٥.
(٥) إرشاد العقل السليم ٣/ ١٤٣.
(٦) تفسير المنار ٧/ ٣٨١.

بجزئي محسوس، فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وذلك لأن أحد أقسام معلومات الله هو جميع دواب البر، والبحر، الحس، والخيال، قد وقف على عظمة أحوال البر والبحر، فذكر هذا المحسوس يكشف عن حقيقة عظمة ذلك المعقول[1].

ثالثًا: الحاجز بين البحرين:

سبق القول: إن البحر يطلق على الملح غالبًا، ويطلق على النهر العذب على سبيل التغليب، وتظهر قدرة الله تعالى في خلقه لحاجز بين البحرين: الملح والعذب، يمنع من اختلاط أحدهما بالآخر، فلا يفسد أحدهما الآخر، وقد ورد ذكر هذا الحاجز في ثلاث آيات من كتاب الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[الفرقان: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النمل: ٦١].

وقال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[الرحمن: ١٩- ٢٠].

قال الطبري: «وإنما عنى بذلك أنه من نعمته على خلقه، وعظيم سلطانه، يخلط ماء البحر العذب بماء البحر الملح الأجاج، ثم يمنع الملح من تغيير العذب عن عذوبته، وإفساده إياه بقضائه وقدرته؛ لئلا يضر إفساده إياه بركبان الملح منهما، فلا يجدوا ماء يشربونه عند حاجتهم إلى الماء، فقال جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ يعني حاجزًا يمنع كل واحد منهما من إفساد الآخر ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ يقول: وجعل كل واحد منهما حرامًا محرمًا على صاحبه أن يغيره ويفسده»[2].

وقال بعض المفسرين: إن الحاجز هو أرض يبس تفصل البحرين الملح والعذب، وهذا قول مرجوح.

قال الطبري[3]: «إنما اخترنا القول الذي اخترناه في معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ دون القول الذي قاله من قال معناه: إنه جعل بينهما حاجزًا من الأرض أو من اليبس؛ لأن الله -تعالى ذكره- أخبر في أول الآية أنه مرج البحرين، والمزج: هو الخلط في كلام العرب على ما بينت قبل، فلو كان البرزخ الذي بين العذب الفرات من البحرين، والملح الأجاج أرضًا أو يبسًا لم يكن هناك مزج للبحرين، وقد أخبر جل ثناؤه أنه مرجهما، وإنما عرفنا قدرته بحجزه هذا الملح الأجاج عن إفساد

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣/ ٩.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢٨٣.

(٣) المصدر السابق.

هذا العذب الفرات، مع اختلاط كل واحد منهما بصاحبه. فأما إذا كان كل واحد منهما في حيز عن حيز صاحبه، فليس هناك مرج، ولا هناك من الأعجوبة ما ينبه عليه أهل الجهل به من الناس، ويذكرون به، وإن كان كل ما ابتدعه ربنا عجيبًا، وفيه أعظم العبر والمواعظ والحجج البوالغ».

قال الزجاج: «فهما في مرأى العين مختلطان، وفي قدرة الله منفصلان لا يختلط أحدهما بالآخر»، قال أبو سليمان الدمشقي: «ورأيت عند عبادان من سواد البصرة الماء العذب ينحدر في دجلة نحو البحر، ويأتي المد من البحر، فيلتقيان، فلا يختلط أحد الماءين بالآخر، يرى ماء البحر إلى الخضرة الشديدة، وماء دجلة إلى الحمرة الخفيفة فيأتي المستقي فيغرف من ماء دجلة عذبًا لا يخالطه شيء، وإلى جانبه ماء البحر في مكان واحد، ونيل مصر في فيضه يشق البحر المالح شقًا بحيث يبقى نهرًا جاريًا أحمر في وسط المالح؛ ليستقي الناس منه، وترى المياه قطعًا في وسط البحر المالح فيقولون: هذا ماء ثلج فيسقون منه من وسط البحر»[1].

قال ابن عطية: «إن المقصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى وإتقان خلقه للأشياء في أن بث في الأرض مياها عذبة كثيرة من أنهار وعيون وآبار، وجعلها خلال الأجاج وجعل الأجاج خلالها، فتلقى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفتيه، وتلقى الماء العذب في الجزائر ونحوها قد اكتنفه الماء الأجاج فبثها هكذا في الأرض»[2].

قال الشوكاني: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ مرج: خلى وخلط وأرسل، يقال: مرجت الدابة وأمرجتها: إذا أرسلتها في المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء.

قال مجاهد: أرسلهما وأفاض أحدهما إلى الآخر، وسمي الماء الحلو فراتًا: لأنه يفرت العطش، أي: يقطعه ويكسره ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: بليغ الملوحة»[3].

والبرزخ حاجز معنوي، قال ابن عاشور: «وجعل الحاجز بين البحرين من بديع الحكمة، وهو حاجز معنوي حاصل من دفع كلا الماءين، أحدهما الآخر عن الاختلاط به، بسبب تفاوت الثقل النسبي لاختلاف الأجزاء المركب منها الماء الملح والماء العذب. فالحاجز حاجز من طبعهما وليس جسمًا آخر فاصلًا بينهما»[4].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٣٢٥، البحر المحيط، أبو حيان، ٨/ ١١٨.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٢١٤.

(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٩٥.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٠/ ١٣.

البحر وأشراط الساعة

لما كان البحر من أعظم آيات الله في الأرض، وقد أخبر الله تعالى أن الأرض تبدل يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

كان تغير البحر عن طبيعته من أشراط الساعة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

فيها ثمانية تأويلات [(١)]:

أحدها: فاضت، قاله الربيع.

الثاني: يبست، قاله الحسن.

الثالث: ملئت، أرسل عذبها على مالحها، ومالحها على عذبها حتى امتلأت، قاله أبو الحجاج.

الرابع: فجرت فصارت بحرًا واحدًا، قاله الضحاك.

الخامس: سيرت كما سيرت الجبال، قاله السدي.

السادس: هو حمرة مائها حتى تصير كالدم، مأخوذ من قولهم عين سجراء، أي: حمراء.

السابع: يعني أوقدت فانقلبت نارًا، قاله علي رضي الله عنه وابن عباس وأبي بن كعب.

الثامن: معناه: أنه جعل ماؤها شرابًا يعذب به أهل النار، حكاه ابن عيسى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو [(٢)] بتخفيف (سجرت) إخبارًا عن حالها مرة واحدة، وقرأ الباقون بالتشديد إخبارًا عن حالها في تكرار ذلك منها مرة بعد أخرى.

قال ابن عباس: «يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها وتصير نارًا تأجج»، وقال مجاهد: ﴿سُجِّرَتْ﴾: «أوقدت» [(٣)].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

قال الطبري: «يقول: فجر بعضها في بعض، فملأ جميعها» [(٤)].

وقال قتادة: «فجر عذبها في مالحها، ومالحها في عذبها».

وقال الحسن: «فجر بعضها في بعض، فذهب ماؤها».

وقال الكلبي: «ملئت» [(٥)].

قال الزمخشري: «فجرت: فتح بعضها إلى بعض، فاختلط العذب بالمالح، وزال البرزخ الذي بينهما، وصارت البحار بحرًا

(١) النكت والعيون، الماوردي، ٦/ ٢١٣.

(٢) البدور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي، ١/ ٣٣٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ٢/ ٦٠٥.

(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ٢٦٨.

(٥) هذه الآثار أخرجها الطبري في تفسيره ٢٤/ ٢٦٨.

واحدًا»[1].

واعلم أنه على جميع الوجوه، فالمراد أنه تتغير البحار عن صورتها الأصلية وصفتها، وهو كما ذكر الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ٤٨][2].

البحر والابتلاء

لا شك أن الابتلاء من سنن الله تعالى في عباده، والناظر في كتاب الله تعالى يجد أن البحر كان محلًا للابتلاء في غير ما موضع، ويتضح ذلك في الآتي:

أولًا: اللجوء إلى الله عند مس الضر:

جاء البحر في القرآن مكانًا لابتلاء الناس واختبارهم من الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل: يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم، الداعين إلى عبادة أوثانهم: من الذين ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه فتحيرتم، فأظلم عليكم الهدى والمحجة، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه، فأخطأتم فيه المحجة، فأظلم عليكم فيه السبيل، فلا تهتدون له غير الله الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء ﴿تَضَرُّعًا﴾، منكم إليه واستكانة جهرًا ﴿وَخُفْيَةً﴾، يقول: وإخفاء للدعاء أحيانًا، وإعلانًا وإظهارًا تقولون: ﴿لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ يا رب، أي من هذه الظلمات التي نحن فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، يقول: لنكونن ممن يوحدك بالشكر، ويخلص لك العبادة، دون من كنا

(١) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٧١٤.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١/ ٧٣.

نشركه معك في عبادتك.

﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤].

قل يا محمد: الله القادر على فرجكم عند حلول الكرب بكم، ينجيكم من عظيم النازل بكم في البر والبحر من هم الضلال وخوف الهلاك، ومن كرب كل سوى ذلك وهم لا آلهتكم التي تشركون بها في عبادته، ولا أوثانكم التي تعبدونها من دونه، التي لا تقدر لكم على نفع ولا ضر، ثم أنتم بعد تفضيله عليكم بكشف النازل بكم من الكرب، ودفع الحال بكم من جسيم الهم، تعدلون به آلهتكم وأصنامكم، فتشركونها في عبادتكم إياه، وذلك منكم جهل بواجب حقه عليكم، وكفر لأياديه عندكم، وتعرضٌ منكم لإنزال عقوبته عاجلًا بكم»[(١)].

وابتلاء البحر أشد من ابتلاء البر، قال الرازي: «أما ظلمات البحر: فهي أن تجتمع ظلمة الليل، وظلمة البحر وظلمة السحاب، ويضاف الرياح الصعبة والأمواج الهائلة إليها، فلم يعرفوا كيفية الخلاص وعظم الخوف، وأما ظلمات البر فهي ظلمة الليل وظلمة السحاب والخوف الشديد من هجوم الأعداء، والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب، والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله تعالى، وهذا الرجوع يحصل ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يعظم إخلاصه في حضرة الله تعالى، وينقطع رجاؤه عن كل ما سوى الله تعالى.

فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية في هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضل الله، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات، لكنه ليس كذلك، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية، ويقدم على الشرك»[(٢)].

وإن الله تعالى بين أنه لا ينجيهم مما يعرض لهم من شدائد من خارجهم، وما لا قبل لهم به وحسب، بل ينجيهم من ذلك، وينجيهم من الكروب التي تعتري نفوسهم من ضراء تنزل بهم، أو مرض يحل بأجسامهم، ومن كل شيء يكربهم ويلقي غمة النفس عليهم»[(٣)].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ

(١) جامع البيان ١١/ ٤١٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣/ ٢٠.

(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/ ٢٥٣٢.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[يونس: ٢٢]

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، يعني: يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن، ويقال: هو الذي يحفظكم إذا سافرتم في بر أو بحر.

قرأ ابن عامر[1] ينشركم من النشر، يعني: يبثكم، ثم قال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ بلفظ المغايبة، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، يعني: لينة ساكنة، ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ بالريح الطيبة، ﴿جَاءَتْهَا﴾ يعني: السفينة، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ يعني: شديدة، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني: من كل ناحية ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾، يعني: علموا وأيقنوا أنه قد دنا هلاكهم.

وقال القتبي: «وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بالقرية، يقال: دنا أهلها من الهلكة، فصار ذلك كناية عن الهلاك، ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، يعني: إذا دنا هلاكهم أخلصوا لله تعالى، يعني: بالدعاء وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ﴾، يعني: من هذه الريح العاصف، ويقال: من هذه الأهوال، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يعني: من الموحدين المطيعين. ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، يعني: يعصون ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، يعني: الدعاء إلى غير عبادة الله تعالى، والعمل بالمعاصي والفساد»[2].

واعلم أن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود، حصل له الفرح التام والمسرة القوية، ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة:

فأولها: أن تجيئهم الرياح العاصفة الشديدة.

وثانيها: أن تأتيهم الأمواج العظيمة من كل جانب.

وثالثها: أن يغلب على ظنونهم أن الهلاك واقع، وأن النجاة ليست متوقعة.

ولا شك أن الانتقال من تلك الأحوال الطيبة الموافقة إلى هذه الأحوال القاهرة الشديدة يوجب الخوف العظيم، والرعب الشديد، وأيضًا مشاهدة هذه الأحوال والأهوال في البحر مختصة بإيجاب مزيد الرعب والخوف، ثم إن الإنسان في هذه الحالة لا يطمع إلا في فضل الله ورحمته، ويصير منقطع الطمع عن جميع الخلق، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعًا إلى الله تعالى.

ثم إذا نجاه الله تعالى من هذه البلية العظيمة، ونقله من هذه المضرة القوية إلى الخلاص والنجاة، ففي الحال ينسى تلك النعمة ويرجع إلى ما ألفه واعتاده من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة، فظهر أنه

(١) البدور الزاهرة، القاضي ١/ ١٤٣.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ١١٠.

لا يمكن تقرير ذلك المعنى الكلي المذكور في الآية المتقدمة بمثال أحسن وأكمل من المثال المذكور في هذه الآية[1].

ثانيًا: ابتلاء اليهود بمنع الصيد يوم السبت:

من سنن الله تعالى في كونه ابتلاء الناس والأمم لتمحيصهم واختبارهم، وقد ابتلي اليهود بابتلاءات كثيرة، وذلك لما علم من كثرة جدالهم أنبياءهم ومخالفتهم أوامر الله تعالى، ومن جملة ما ابتلي به اليهود: ابتلاء طائفة منهم وهم أهل قرية كانت مجاورة البحر وعلى شاطئه، ابتلاهم الله بمنع الصيد في البحر يوم السبت.

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قال الطبري: «واسأل يا محمد هؤلاء اليهود، وهم مجاوروك، عن أمر القرية التي كانت بحضرة البحر، أي بقرب البحر وعلى شاطئه[2]، إذ يعتدون في السبت أمر الله، ويتجاوزونه إلى ما حرمه الله عليهم، وكان اعتداؤهم في السبت: أن الله كان حرم عليهم السبت، فكانوا يصطادون فيه السمك؛ ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ ﴿حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ الذي نهوا فيه عن العمل شارعة ظاهرةً على الماء من كل طريق وناحية، كشوارع الطرق، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: وباقي الأيام التي لا يعظمونها، وهي سائر الأيام غير يوم السبت لا تأتيهم الحيتان.

ثم قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ الاختبار والابتلاء الذي ذكرنا، بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل صيده، وذلك بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها»[3].

وقد خالف اليهود أمر الله تعالى واعتدوا في السبت فمسخهم الله تعالى قردة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

قال السمرقندي: «مسخهم الله تعالى قردة وأبعدهم عن رحمته لما اعتدوا في السبت، وهذه الآية على معنى التحذير والتهديد، فكأنه يقول: إنكم تعلمون ما أصاب الذين اعتدوا في السبت، فاحذروا

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ١٧/ ٢٣٢.

(٢) ورد ذكر أصحاب السبت في خمسة مواضع من القرآن الكريم وهي: البقرة: آية ٦٥، النساء: الآيتين: ٤٧، ١٥٤، الأعراف: آية: ١٦٣، النحل: آية: ١٢٤، وفي جميعها ذكرت مجملة وفي موضع الأعراف ذكرت مفصلة وفيها ذكر البحر.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ١٨٤.

كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم»[1].

وقد بين الله تعالى أنه جعل عقاب أهل القرية وهو المسخ والإبعاد من رحمة الله نكالًا وعقوبة لما قدم اليهود من الذنوب، وزجرًا لمن يفعل مثل فعلهم، وموعظة للمتقين[2]، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

ثالثًا: ابتلاء يونس عليه السلام:

لا شك أن أشد الناس ابتلاءً هم الأنبياء، بوب البخاري رحمه الله باب : أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل[3]، وإن نبي الله يونس عليه السلام ابتلي بتكذيب قومه له، فأنذرهم وحذرهم من عذاب الله، فلم يستجيبوا له، فخرج مغاضبًا لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ[4] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٢].

قال أهل التفسير: «وإن يونس لمرسل من المرسلين إلى أقوامهم حين فر إلى الفلك، وهو السفينة، المشحون: وهو المملوء من الحمولة الموقر، فاحتبست السفينة، فعلم القوم أنما احتبست من حدث أحدثوه، فتساهموا، فقرع يونس، فرمى بنفسه، فالتقمه الحوت وهو مكتسب اللوم على صنعه، إذ عجل ترك قومه.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

فلولا أنه كان من المصلين قبل ذلك والمسبحين في بطن الحوت للبث في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم أمر الله الحوت فألقى يونس بالعراء، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ثم اجتباه ربه فجعله من الصالحين»[5].

(١) تفسير السمرقندي، ١/ ٦١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٤٤٣.
(٣) صحيح البخاري، ٧/ ١١٥.
(٤) النون: الحوت، وذا نون: لقب نبي الله يونس بن متى، عليه السلام.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥١١.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ١٠٥، تفسير السمرقندي، ٣/ ١٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ١٢١.

منافع البحر

للبحر منافع كثيرة، منها ما ذكره القرآن ومنها ما لم يذكره، بل هو داخل في عموم نفع البحر للإنسان، وسنقتصر على المنافع التي ذكرها الله تعالى في كتابه.

أولًا: أكل صيده وطعامه:

من نعم الله على عباده أن من عليهم بصيد البحر وطعامه، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[المائدة: ٩٦].

فقد أجمع أهل العلم أن صيد البحر وطعامه حلال، أكله وبيعه وشراؤه، للمقيم والمسافر[(١)]، وقد قال عمر بن الخطاب: «صيده: ما اصطيد، وطعامه: ما رمى به»[(٢)].

وقد جاء وصف صيد البحر الذي سخره الله لعباده بالطري، وهذا يدل على حكمة الله وقدرته، من جهة إظهار الضد من الضد، فيخرج الله لنا لحمًا طريًا عذبًا من البحر المالح، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[فاطر: ١٢].

قال الرازي: «واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحًا، لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري؛ فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة، بل بقدرة الله وحكمته؛ حيث أظهر الضد من الضد»[(٣)].

ولحم البحر طري عذب، والطري: الناعم الغض[(٤)].

وقال ابن منظور: «الغض: الطري الذي لم يتغير»[(٥)].

وقال الراغب: «الغض: الطري الذي لم يطل مكثه»[(٦)].

وقال المناوي: «الشيء الغض، ومنه

(١) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٤/ ٤٨٢، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد، ١/ ٢٦٥، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ابن قدامة، ٣/ ١٦٥.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٦١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ١٨٨.
(٤) تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي، ١/ ٤٦٧، طلبة الطلبة، النسفي، ١/ ١٧١.
(٥) لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ١٩٦.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني، ١/ ٣٦١.

الطراوة»[1].

وعلى هذا يكون معنى اللحم الطري: الناعم الطازج الغض الذي لم يطل مكثه.

وميتة البحر جائزٌ أكلها، كما جاء في حديث النبي.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحلت لنا ميتتان، ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال)[2].

وقوله عن البحر: (هو الطهور ماؤه، الحل ميتته)[3].

وجاء في صحيح مسلم: «باب إباحة ميتات البحر»، وذكر حديث جابر رضي الله عنه وفيه: «انطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابةٌ تدعى العنبر، قال: قال أبو عبيدة: ميتةٌ، ثم قال: لا، بل نحن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرًا ونحن ثلاث مائةٍ حتى سمنا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور، أو كقدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا، فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعًا من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعيرٍ معنا، فمر من تحتها وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرنا ذلك له، فقال: (هو رزقٌ أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيءٌ فتطعمونا؟)، قال: فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله»[4].

ثانيًا: حلية البحر:

الحلية: اسم لما يتحلى به[5]، وسميت حلية لأنها تحلي الجوارح في أعين الناظرين.

وقد امتن الله على عباده بتسخير البحر، ومن تسخيره استخراج الحلية منه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ

(1) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١/ ٤٨٢.

(2) أخرجه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن عمر، ١٠/ ١٦، وعبد بن حميد في المنتخب، رقم ٨٢٠، وابن ماجه رقم ٣٢١٨ و ٣٣١٤. قال الألباني: «صحيح». انظر: المشكاة ٤١٣٢.

(3) أخرجه مالك في موطأه، باب ما جاء في صيد البحر، رقم ١٨١٩، وأحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، رقم ٧٢٣٣. قال الألباني: «صحيح». انظر: صحيح الجامع ٢٨٧٧.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة ميتات البحر، رقم ١٩٣٥.

(5) اللباب في علوم الكتاب، ابن عدال الحنبلي، ١٢/ ٢٩.

﴿تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤]

والمراد بالحلية في الآية: قال الطبري «اللؤلؤ والمرجان»؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[الرحمن: ٢٢-١٩].

«الحلية ههنا: اللؤلؤ وما يتحلى به مما يخرج من البحر»، وقال الواحدي: «الحلية الدر والجواهر».

وقال الرازي: «المعهود في القرآن في لفظ الحلي: اللآلئ».

وهل تخرج الحلية من المالح والعذب، أم من المالح فقط؟

قيل: إن الحلية لا تخرج إلا من البحر المالح دون العذب.

فكيف قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]؟

قال ابن جزي: «فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ذلك تجوز في العبارة كما قال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[الأنعام: ١٣٠].

والرسل إنما هي من الإنس.

الثاني: أن المرجان إنما يوجد في البحر الملح؛ حيث تنصب أنهار الماء العذب، أو ينزل المطر فلما كانت الأنهار والمطر، وهي البحر العذب تنصب في البحر الملح كان الإخراج منهما جميعًا.

الثالث: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح والعذب، وهذا قول يبطله الحس»[(١)].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل قرآني واضح، على بطلان دعوى من ادعى من العلماء أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من الملح خاصة»[(٢)].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «نأخذ بما يوافق ظاهر القرآن، فالله عز وجل يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وهو خالقهما وهو يعلم ماذا يخرج منهما، فإذا كانت الآية ظاهرها أن اللؤلؤ يخرج منهما جميعًا وجب الأخذ بظاهرها، لكن لا شك أن اللؤلؤ من الماء المالح أكثر وأطيب، لكن لا يمنع أن نقول بظاهر الآية، بل يتعين أن نقول بظاهر الآية.

وهذه قاعدة في القرآن والسنة: إننا نحمل الشيء على ظاهره، ولا نؤول، اللهم

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٢/ ١٧٣.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ٢٨٢.

إلا لضرورة، فإذا كان هناك ضرورة، فلابد أن نتمشى على ما تقتضيه الضرورة، أما بغير ضرورة فيجب أن نحمل القرآن والسنة على ظاهرهما»[1].

أما العلم الحديث فإن الموسوعات العلمية تؤكد استخراج الحلي من الأنهار والمياه العذبة[2]، ففي تعليق علمي على قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾: قد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرًا للحلي، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك، أما اللؤلؤ فإنه كما يستخرج من أنواع معينة من البحر، يستخرج أيضًا من أنواع معينة أخرى من الأنهار، فتوجد اللآلئ في المياه العذبة في إنجلترا وأسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان وغيرها، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة. ويدخل في ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة، كالماس الذي يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة. ويوجد الياقوت كذلك في الرواسب النهرية في موجوك بالقرب من بانالاس في بورما العليا. أما في سيام وفي سيلان فيوجد الياقوت غالبًا في الرواسب النهرية. ومن الأحجار شبه الكريمة التي تستعمل في الزينة حجر التوباز، ويوجد في الرواسب النهرية في مواقع كثيرةٍ ومنتشرةٍ في البرازيل وروسيا (الأورال وسيبريا)، وهو فلورسيليكات الألمونيوم، ويغلب أن يكون أصفر أو بنيًا[3].

وروي عن الزجاج أنه قال: «إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا لا من كل واحد منهما على انفراده»[4].

والحلية لها منافع كثيرة، والذي ورد في الآية: اللبس، وهو تنبيه على غاية الحلية[5].

واللباس: اسم لما يلبس، وقوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾: تلبسون كل شيء منها بحسبه، كالخاتم في الأصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق والخلخال في الرجل، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف والدرع ونحوهما[6].

قال ابن عاشور: «واللباس: اسم لما يلبسه الإنسان، أي يستر به جزءًا من جسده، فالقميص لباس، والإزار لباس، والعمامة لباس، ويقال: لبس التاج، ولبس الخاتم»[7].

(١) تفسير القرآن الكريم من سورة الحجرات حتى سورة الحديد، العثيمين، ص٣١٠.
(٢) انظر: موسوعة بريتانيكا العلمية، الطبعة الرابعة عشرة موضوع رقم ٤٤٧٩٧٤.
(٣) التعليقات العلمية على المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لنخبة من علماء الأزهر، ٢/ ٢٥٣.
(٤) فتح البيان، القنوجي، ١١/ ٢٣٣.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٥١٣.
(٦) فتح البيان، القنوجي، ١١/ ٢٣٣.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٢٨١.

ثالثًا: التجارة لطلب الرزق:

من نعم الله على الإنسان: أن كرمه وحمله في البر والبحر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء: ٧٠].

وركوب الإنسان البحر متعدد المقاصد، منها التجارة، وطلب الرزق، كما يذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولتتصرفوا في طلب معايشكم بالتجارة»[١]، وبنحوه قال الثعلبي[٢]، وقال السمرقندي: «لكي تطلبوا رزقه، حين تركبون السفينة للتجارة»[٣]، وقال الزمخشري: «قوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يريد تجارة البحر»[٤].

وقد ذكر الله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام، قصة القوم المساكين الذين يعملون في البحر، قال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[الكهف: ٧٩].

قال السمرقندي: «قوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾: أي يؤاجرون في البحر ويكسبون قوتهم»[٥].

فائدة: استدل الإمام الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالًا من المسكين[٦].

وقد ذكر البخاري: «باب التجارة في البحر»[٧]، وكان تميم الداري رضي الله عنه عظيم التجارة في البحر.

رابعًا: ركوبه للحج والغزو والعلم:

قال البغوي في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ «قوله: ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾، يعني: بما ينفع الناس من ركوبها والحمل عليها في التجارات والمكاسب وأنواع المطالب»[٨].

ذكر مالك رحمه الله أن عمر بن الخطاب كان يمنع الناس من ركوب البحر، فلم يركبه أحد طوال حياته، فلما مات استأذن معاوية عثمان بن عفان في ركوبه فأذن له، فلم يزل يركب حتى كان أيام عمر بن العزيز رحمه الله فمنع الناس من ركوبه، ثم ركب بعده حتى الآن.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٨٢.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي، ٦/ ٢٦٨.
(٣) تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٦٨.
(٤) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤٨٩.
(٥) تفسير السمرقندي، ٢/ ٣٥٧
(٦) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٤٥١.
(٧) صحيح البخاري، باب التجارة في البحر، ٣/ ٥٥.
(٨) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ١٩٥.

وقال ابن عبد البر: «وهذا إنما كان من عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما ما في التجارة وطلب الدنيا، والله أعلم»[(١)].

وعن ابن عمر: «أنه كان يكره ركوب البحر إلا لثلاث: غازٍ، أو حاج، أو معتمر»[(٢)].

وفي حديث أبي هريرة: جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هو الطهور ماؤه، الحل ميتته)[(٣)].

قال ابن عبد البر: «وفي حديث هذا الباب من الفقه: إباحة ركوب البحر؛ لأنه لو كرهه لنهى عنه الذين قالوا: إنا نركب البحر، وقولهم هذا يدل على أنهم كثيرًا ما كانوا يركبون البحر لطلب الرزق من أنواع التجارة وغيرها وللجهاد وسائر ما فيه إباحة أو فضيلة، والله أعلم، فلم ينههم عن ركوبه»[(٤)].

وقال الجصاص في قوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]: «دلالة على إباحة ركوب البحر غازيًا وتاجرًا ومبتغيًا لسائر المنافع؛ إذ لم يخص ضربًا من المنافع دون غيره»[(٥)].

وقد امتن الله على عباده بجريان الفلك في البحر.

قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

قال ابن عاشور: «وفي امتنان الله تعالى بجريان الفلك في البحر دليل على جواز ركوب البحر من غير ضرورة، مثل: ركوبه للغزو والحج والتجارة»[(٦)].

عقد البخاري في صحيحه: «باب ركوب البحر»، وبوب الإمام مسلم في صحيحه: «باب فضل الغزو في البحر» ثم ساقا حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على أم حرامٍ بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرامٍ تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا، فأطعمته، ثم جلست تفلي رأسه، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: (ناسٌ من أمتي عرضوا علي، غزاةً في

(١) التمهيد، ابن عبد البر، ١/ ٢٣٣.
(٢) أخرجه عبدالرزاق الصنعاني في مصنفه، ٥/ ٢٨٤.
(٣) أخرجه مالك في موطأه، باب الطهور للوضوء، رقم ١٢.
(٤) التمهيد، ابن عبد البر، ١/ ٢٣٣.
(٥) أحكام القرآن، الجصاص، ١٣١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٨١.

سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر، ملوكًا على الأسرة)، أو (مثل الملوك على الأسرة) -يشك أيهما- قال: قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه، فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: (ناسٌ من أمتي عرضوا علي، غزاةً في سبيل الله)، كما قال في الأولى، قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: (أنت من الأولين)، فركبت أم حرامٍ بنت ملحان البحر في زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت[1].

نخلص مما سبق أن ركوب البحر جائز في طلب شتى المنافع من التجارة، والجهاد، والغزو، والحج، وطلب العلم، وغيرها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب ركوب البحر، رقم ٢٨٩٤، ومسلم في صحيحه، باب فضل الغزو في البحر، رقم ١٩١٢.

البحر من جند الله سبحانه وتعالى

إن الله تعالى قويٌّ عزيزٌ لا يغالب، له جنود السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧].

وجنوده تعالى لا يعلمها إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

وقد ذكر الله تعالى البحر في آيات متعددة، تبرز البحر كونه جندًا من جنده يسلطه على من يشاء من خلقه، وقد تجلى البحر بهذا المعنى في قصة نبي الله موسى -عليه السلام- وذلك في مراحل دعوته:

أولًا: البحر من جند الله، بحفظه لنبي الله موسى عليه السلام:

فقد أوحى الله تعالى لأم موسى عليه السلام إذا خافت عليه من بطش فرعون، أن تضعه في تابوت، ثم تلقيه في اليم، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

فسخر الله تعالى اليم جندًا من جنوده لحفظ نبيه وهو طفل صغير، قال السمعاني: «اليم: هو البحر، ويقال: إن اليم ها هنا هو

النيل، والعرب تسمي الماء الكثير بحرًا»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ جزاء أخرج مخرج الأمر، وكأن اليم هو المأمور[2].

ثانيًا: البحر من جند الله ينفلق لموسى، ويغرق فرعون وجنده:

لما أمر الله تعالى موسى أن يخرج ببني إسرائيل، فرارًا بدينهم من فرعون وجنده، قابلهم البحر، فكان البحر من أمامهم وفرعون من خلفهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

فقال موسى: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، وأوحى إلى البحر أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك[3]، فضربه موسى فانفلق فكان فيه اثنا عشر طريقًا، كل طريق كالطود العظيم، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]

فسار موسى وأصحابه، حتى خرجوا من البحر، ودخل فرعون وقومه في البحر، فلما دخل آخر قوم فرعون، وجاز آخر قوم موسى، أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ثانية لينطبق حتى لا يمر فرعون وجنده، فأمر الله موسى أن يترك البحر «رهوًا»: أي ساكنًا فهو مأمورٌ بإغراقهم[4].

قال تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

فأطبق البحر على فرعون وقومه فأغرقوا، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ولما كان البحر جنديًا مأمورًا من الله تعالى، أمره بأن يحفظ جثة فرعون ويلقيها على الساحل، وأن يبقيها حتى يكون آية لمن خلفه من الطغاة.

قال السمرقندي: «قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ

(١) تفسير القرآن، السمعاني، ٣/ ٣٢٩.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٠٢.
(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٥٤.
(٤) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٢٧٥.

﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾: نخرجك من البحر بجسدك».

وقال أبو عبيدة: «نلقيك على نجوة من الأرض، والنجوة من الأرض: ما ارتفع منها ببدنك»[1].

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[يونس: ٩٢].

ثالثًا: البحر المكان الذي نسف فيه موسى عجل بني إسرائيل:

إن موسى عليه السلام لما ذهب لمواعدة ربه إياه، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وكان فيهم السامري، فأخرج السامري لهم عجلًا له خوار، وقال لبني إسرائيل: هذا إلهكم، فلما رجع موسى سأل السامري فأخبره خبر العجل، قال -تعالى حكاية عن موسى-: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

قال الطبري: «قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ أي: ثم لنذرينه في البحر تذرية»[2].

وقال الكلبي: «﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾أي: نلقيه في البحر»[3].

وقال البغوي: «﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾، أي: لنذرينه، ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾: في البحر»[4].

(١) تفسير السمرقندي، ٢/ ١٣١.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٦٣.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٣.
(٤) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٢٩٣.

البحر في المثل القرآني

جاءت الآيات القرآنية بضرب المثل بالبحر، وذلك في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[الكهف: ١٠٩].

وذلك أنه لو كان البحر مدادًا - والمداد: اسم لما يمد الشيء كالحبر للدواة- للقلم الذي يكتب به كلمات الله تعالى وحكمه وآياته، من وعد بالثواب والعقاب، وذكره ما خلق وما هو خالق، وعلم القرآن، ومواعظه تعالى وعلمه وحكمته، لنفد البحر، وما نفدت كلمات الله تعالى[(١)].

ولو أن شجر الله كلها بريت أقلامًا، والبحر لهذه الأقلام مدادًا، ومن بعده سبعة أبحر، تكتب هذه الأقلام كلام الله تعالى بذلك المداد من البحار، لتكسرت تلك الأقلام، ولنفد ذلك المداد ولم تنفد كلمات الله تعالى وعلمه[(٢)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[لقمان: ٢٧].

قال البيضاوي: «وإيثار جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل، فكيف بالكثير! فإن الله عزيزٌ لا يعجزه شيء، حكيمٌ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر»[(٣)].

وهل إذا نفدت البحار هل تنفد كلمات الله تعالى؟

قال الزركشي: «ليس المراد أن كلمات الله تنفد بعد نفاد البحر، بل لا تنفد أبدًا، لا قبل نفاد البحر ولا بعد نفاده، وحاصل الكلام: لنفد البحر ولم تنفد كلمات ربي»[(٤)].

والبحار السبع التي تمد البحر، هي بحار غير موجودة.

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ إشارة إلى بحار غير موجودة، يعني لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر أخر»[(٥)].

وحصر البحار بالسبعة غير مراد، بمعنى لو كانت أكثر من سبعة بحار تمد البحر هل تنفد كلمات الله؟

قال الرازي: «وقوله: سبعة، ليس لانحصارها في سبعة، وإنما الإشارة إلى المدد والكثرة ولو بألف بحر، والسبعة خصصت بالذكر من بين الأعداد؛ لأنها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة، والذي يدل على ذلك وجوه: ... فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة في العادة، فاستعملت في كل كثير»[(٦)].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ١٣٣.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ٢٩٢ بتصرف.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢١٦.
(٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٣/ ٣٩٩.
(٥) مفاتح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٣٨.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٣٨.

لمسات إعجازية في البحر

لما كان كتاب الله تعالى بحر درر، لا تنقضي عجائبه، ولما كانت البحار والمحيطات تشغل الحيز الأكبر من سطح الأرض فتبلغ نحو ثلاثة أرباعه[1]، كانت عناية الباحثين والعلماء عناية فائقة في استنباط دلائل صدق النبوة في الآيات التي ذكرت البحر وما تحمل في طياتها من إعجاز علمي أبهر كبار العلماء والباحثين الغربيين.

أولًا: ظلمات البحر:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور: ٤٠].

تتحدث الآية الكريمة عن أولئك الذين كفروا بآيات الله وأنكروا لقاءه وجحدوا برسوله، فهؤلاء مثل أعمالهم التي قاموا بها في الدنيا كمثل إنسان يركض وراء سراب، يلهث وراءه فإذا ما وصل إليه لم يجده شيئًا، ووجد عنده عمله السيئ، ومثل هذا الكافر كإنسان يعيش في ظلمات بحر عميق لا يكاد يرى شيئًا بسبب الظلمات المتراكمة.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾: وهو الذي لا يدرك قعره، واللجة معظم الماء، والجمع لجج، واللج هو البحر إذا تلاطمت أمواجه»[2].

وتبرز الحقيقة العلمية[3]: عندما نزل العلماء إلى أعماق المحيطات وجدوا أن البحار العميقة تتمتع بظلام دامس، وعلى عمق كيلو متر واحد لا يكاد الإنسان يرى شيئًا، وتزداد الظلمة إذا كانت أمواج البحر السطحية عالية الارتفاع؛ لأنها تساهم في حجب ضوء الشمس.

وكذلك وجدوا أن البحار العميقة في أعماقها هناك أمواج داخلية لا يمكن لأحد أن يراها إلا إذا نزل إلى أعماق أكثر من ألف متر، وهذه الأمواج قد تكون أشد من الأمواج السطحية.

وجه الإعجاز في هذا الآية يتمثل في إشارتين علميتين:

تحدثت عن الظلمات في البحار العميقة، وهو ما كشفه العلماء حديثًا، ولم يكن معلومًا زمن التنزيل.

أشارت إلى الأمواج الداخلية العميقة، وهو ما كشفه العلماء أيضًا، وهو ما أشارت إليه الآية في قوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾.

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد، ١/ ٤٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/ ٢٨٣.

(٣) آيات الله في المحيطات والبحار والأنهار، ماهر أحمد الصوفي، ١/ ٢٦١.

ثانيًا: الحاجز بين البحرين:

قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[الرحمن: ١٩-٢٠].

العَذْب هو النهر، وصفه القرآن الكريم بوصفين ﴿عَذْبٌ﴾ و ﴿فُرَاتٌ﴾، ومعناهما أن ماء هذا البحر شديد العذوبة، ويدل عليه وصف ﴿فُرَاتٌ﴾، وبهذا الوصف خرج ماء المصب، الذي يمكن أن يقال: إن فيه عذوبة، ولكنه لا يمكن أن يوصف بأنه فرات، وما كان من الماء ملحًا أجاجًا فهو ماء البحار.

ووصفه القرآن الكريم بوصفين: ﴿مِلْحٌ﴾ و﴿أُجَاجٌ﴾ أي: شديد الملوحة.

وبهذا خرج ماء المصب؛ لأنه مزيج بين الملوحة والعذوبة، فلا ينطبق عليه وصف ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

وبهذه الأوصاف الأربعة تحددت حدود الكتل المائية الثلاث:

١ - ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ ماء النهر.

٢ - ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ماء البحر.

٣ - ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، البرزخ هو الحاجز المائي المحيط بالمصب.

الحجر والحجر هو المنع والتضييق، يسمى العقل حجرًا؛ لأنه يمنع من إتيان ما لا ينبغي، قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾[الفجر: ٥].

فمن يقرأ قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[الرحمن: ١٩].

فقط يتصور أن امتزاجًا واختلاطًا كبيرًا يحدث بين هذه البحار، يفقدها خصائصها المميزة بها، ولكن العليم الخبير يقرر في الآية بعدها ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾.

ومع حالة الاختلاط والاطراد هذه التي توجد في البحار، فإن حاجزًا يحجز بينهما، يمنع كلًا منهما أن يطغى ويتجاوز حده، وهذا ما شاهده الإنسان بعدما تقدم في علومه وأجهزته، فقد وجد ماءً ثالث يختلف في خصائصه عن خصائص كلٍ من البحرين، ويفصل كل من البحرين الملحين المتمايزين في خصائصهما من حيث الملوحة والحرارة، والكثافة، والأحياء المائية، وقابلية ذوبان الأكسجين، ووجد أن هذا الحاجز المائي متحرك بين البحرين على اختلاف فصول السنة، وهذا المعنى يندرج أيضًا تحت قوله تعالى: ﴿مَرَجَ﴾ الذي يعني أيضًا الذهاب، والإياب، والاختلاط، والاضطراب[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[الفرقان: ٥٣].

يقول الشيخ النابلسي: «إن بين البحرين برزخًا وحجرًا محجورًا، هذا الماء العذب

(١) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مناهج جامعة المدينة العالمية، ١/ ٣٩٣.

يسير داخل الماء المالح، ومع ذلك لا يختلطان، ولا يتمازجان، لأن: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، فهناك بين الماء العذب، والماء المالح حجرٌ محجورٌ، والحجر المحجور يعني: أن معظم أسماك المياه العذبة لا تدخل في المياه المالحة، وأسماك المياه المالحة لا تدخل في المياه العذبة، ففي الحجر المحجور حجرٌ على هذه الأسماك من أن تنتقل إلى الماء المالح، وحجرٌ على تلك الأسماك أن تنتقل إلى الماء العذب»[1].

ثالثًا: البحر المسجور:

من أكثر الآيات الباهرة في البحار والمحيطات: ما جاء به القرآن الكريم في مطلع سورة الطور في وصف البحر بأنه مسجورٌ، قال تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦].

يقسم الله تبارك وتعالى بهذا البحر المسجور، وهو تعالى غنيٌّ عن القسم لعباده، ولكنه يلفت نظرهم إلى عظمة المقسم به، فإنه تعالى لا يقسم إلا بعظيم، والمسجور في اللغة: هو الذي أوقد عليه حتى أصبح حارًا، والماء يتناقض مع النار؛ لأن وجود أحدهما ينقض وجود الآخر، حيث إننا نطفيء النار بالماء، فكيف يكون البحر مسجورًا؟ بعضهم قال: ألا تتألف ذرة الماء من الأوكسجين والهيدروجين؟ والأوكسجين غازٌ مشتعلٌ، والهيدروجين غازٌ يعين على الاشتعال، فلو أن الله فك هذه العلاقة الباردة بينهما لأصبح البحر كتلةً من اللهب، هذا معنًى، بيد أن عالمًا معاصرًا قال: «ثبت أن في قاع المحيطات براكين تقذف باللهب من الصدوع»، وهذه آيةٌ من آيات الله في خلقه، حيث إنه لولا هذه النار لما استطاعت الكائنات الحية في قاع المحيط أن تعيش في هذه الظلمة الحالكة، والعلماء في أواخر الستينيات من القرن العشرين، أي بعد أكثر من ألفٍ وأربعمئة عام من نزول هذا القرآن يقررون أن جميع المحيطات، وعديدًا من البحار قيعانها مسجورةٌ بالنيران، وهي الحقيقة التي ذكرها القرآن قبل ألفٍ وأربعمئة عام، وسماها: البحر المسجور[2].

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الأنهار، الجبال، الماء

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، ٢/ ٩٦ بتصرف.

(٢) المصدر السابق.

البخس

عناصر الموضوع

مفهوم البخس	٤٣٤
البخس في الاستعمال القرآني	٤٣٥
الألفاظ ذات الصلة	٤٣٦
أساليب القرآن في ذم البخس	٤٣٩
صور البخس	٤٥٠
أسباب البخس	٤٦٠
مضار انتشار البخس في المجتمع	٤٦٣

مفهوم البخس

أولًا: التعريف اللغوي:

يدور معنى البخس في اللغة حول مطلق النقص، سواء كان النقص على سبيل الظلم، أو بغير ظلم.

فمن الأول: قولهم في المثل: تحسبها حمقاء وهي باخس، ويقال: باخسة[(١)].

ومن الثاني: قول الشاعر[(٢)]:

قالت سليمى اشتر لنا سويقًا وهات بر البخس أو دقيقًا

ومعنى «بر البخس» في البيت هو الذي لم يسق بماء عدٍ، إنما سقاه ماء السماء، ووجه إطلاق البخس عليه أنه لم ينل من الماء حظًا كافيًا.

إلا أنه اشتهر عرفًا في المعنى الأول، وهو النقص على سبيل الظلم.

وللبخس معان أخرى غير النقص، فيطلق على الظلم، والتغابن، والمكس، وعلى الأرض تنبت من غير سقي، والزرع لم يسق بماء عدٍ، ذلك حاصل ما ذكره أهل اللغة[(٣)].

ثانيًا: التعريف الاصطلاحي:

البخس في الاصطلاح هو: نقص حقوق الناس ظلمًا، قال الراغب الأصفهاني: «البخس: نقص الشيء على سبيل الظلم»[(٤)].

وعرفه الطاهر ابن عاشور بأنه: إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمال في نوعه[(٥)]. وهو قريب مما قبله.

والعلاقة بين معنى البخس في الاصطلاح ومعناه في اللغة واضحة، فهو في الاصطلاح أخص منه في اللغة.

---

(١) انظر: مجمع الأمثال، الميداني ١/ ١٢٤-١٢٣.

(٢) البيت لرجل من كندة، يقال له: العذافر. النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص١٧٠، ط: دار الشروق، الأولى، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م. وفي لسان العرب ٦/ ٢٥: يقال له: العذافة.

(٣) الصحاح، الجوهري ٣/ ٩٠٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٥، المغرب في ترتيب المعرب، المطرزي ١/ ٥٩، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٥-٢٤، تاج العروس، الزبيدي ١٥/ ٤٣٧- ٤٤٠.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٨، وانظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٧٩.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٤٢.

البخس في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بخس) في القرآن الكريم (٧) مرات[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾[الكهف: ٤٢]
المصدر	٢	﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾[البقرة: ٢٧٢]

وجاء البخس في القرآن على معناه اللغوي، وهو: المكس ونقص الشيء على سبيل الظلم[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١١٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الباء ص٣١٢.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٣٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي،٢/ ٢٢٨، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ١٦٢، ١٦٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ النقص:

النقص لغة:

خلاف الزيادة[١].

النقص اصطلاحًا:

عرفه الراغب بأنه الخسران في الحظ[٢].

وقال ابن القطاع: النقص في الشيء: ذهاب شيء منه بعد تمامه[٣]، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقوله جل شأنه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤].

الصلة بين النقص والبخس:

ويفرق بين النقص والبخس من وجهين:

الأول: أن النقص يكون ظاهرًا وخفيًا، بخلاف البخس.

الثاني: أن النقص يكون بظلم وبغيره، بخلاف البخس. فالعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص مطلق.

٢ التطفيف:

التطفيف لغة:

من الطفيف، وهو الشيء النزر القليل، وتطفيف المكيال والميزان، أي: نقصه.

قال بعض أهل العلم: إنما سمي بذلك، لأن الذي ينقصه منه يكون طفيفًا[٤].

التطفيف اصطلاحًا:

تقليل نصيب المكيل له في إيفائه واستيفائه[٥]. وعرفه الجوهري بأنه: نقص المكيال،

(١) تاج العروس ١٨/ ١٨٧.
(٢) المفردات ص٦٥٢.
(٣) تاج العروس ١٨/ ١٨٧.
(٤) مقاييس اللغة ٣/ ٤٠٥.
(٥) المفردات ص٣٩٧.

وهو أن لا تملاه إلى أصباره[1]، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١ - ٣].

الصلة بين التطفيف والبخس:

التطفيف أخص في الاستعمال من البخس من وجهين:

الأول: التطفيف خاص بنقص المكيال والميزان، والبخس عام في كل حق للإنسان، يقول رشيد رضا: «البخس أعم من نقص المكيل والموزون، فإنه يشمل غيرهما من المبيعات كالمواشي والمعدودات، ويشمل البخس في المساومة والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق، وكذا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل»[2].

الثاني: أن التطفيف يكون بالشيء النزر اليسير، والبخس يكون بالقليل والكثير، وبالخسيس والنفيس.

وذهب الشيخ محمد أبو زهرة إلى أنهما متباينان، فخص التطفيف بالأموال المثلية، والبخس بالأموال القيمية[3].

٣ الغبن:

الغبن لغة:

النقص والخدعة، يقال: غبنه في البيع غبنًا بالسكون، وهو الأكثر، وغبنًا بالفتح،أي: غلبه ونقصه، وغبن رأيه غبنًا بالفتح أي: ضعف[4].

الغبن اصطلاحًا:

عرفه الراغب بأنه: أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء[5].

وعرفه تقي الدين النبهاني بأنه: بيع الشيء بأكثر مما يساوي، أو بأقل مما يساوي[6].

الصلة بين الغبن والبخس:

البخس نقص الشيء على سبيل الظلم، فإن كان على سبيل الخدعة والخفية فهو الغبن.

(١) الصحاح، الجوهري ٤/ ١٣٩٥.
(٢) تفسير المنار ٨/ ٤٦٨-٤٦٩.
(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥٤٠٣.
(٤) المصباح المنير، الفيومي ص١٦٨، تاج العروس ٣٥/ ٤٦٩.
(٥) المفردات ص ٤٦٣.
(٦) النظام الاقتصادي في الإسلام، النبهاني ص ١٩٣.

٤ القسط:

القسط لغة:

القسط بالكسر: العدل، يقال أقسط يقسط؛ فهو مقسطٌ: إذا عدل، وقسط يقسط فهو قاسطٌ: إذا جار، والقسط أيضًا: مكيال، وهو نصف صاع[(١)].

القسط اصطلاحًا:

«القسط بالكسر، النصيب بالعدل»[(٢)].

الصلة بين القسط والبخس:

والعلاقة بين القسط -بفتح القاف- والبخس علاقة عموم وخصوص مطلق؛ فإن كلاهما عدول عن الحق، لكن القسط عام في كل عدول عن الحق، لا سيما في العقيدة، والبخس متعلق بحقوق الناس.

والعلاقة بين القسط -بكسر القاف- والبخس علاقة تقابل.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٣٦٢٦؛ الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٥٢.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، ١/ ٢٧١.
وانظر: الكليات، الكفوي ١/ ٧٣٣.

أساليب القرآن في ذم البخس

لا تستقيم الحياة الاقتصادية إلا بالمعاوضة القائمة على العدل، ومن ثم حرم الله تعالى كل ما يؤدي إلى اختلال ذلك النظام من الربا، والميسر، والغصب، والسرقة، والغش، والتدليس، والاحتكار، فتلك معاملات محرمة، إما لأنها لم تقم على مبدأ المعاوضة كالسرقة والغصب، أو لأنها تقوم على المعاوضة المبنية على الظلم كالربا والغش والتدليس والبخس.

وتحريم هذه الأنواع يأتي في ضوء تنظيم الشريعة الإسلامية لكيفية حيازة الأموال، وهو أحد دعامتي تنظيم الإسلام للحياة الاقتصادية، والدعامة الثانية تتمثل في تنظيم مصارفها، وهاتان الدعامتان أشار إليهما النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[1].

فالبخس محرم لكونه ظلمًا وتعديًا على حق الغير، وقد سلك القرآن الكريم في ذمه والتنفير عنه كل مسلك، فقد نهى عنه صراحة تارة، وضمنًا أخرى، وعلل النهي عنه بالوعيد الشديد، ورتب عليه فساد الأرض، وأمر بالتوبة عنه، وأخيرًا تنزه الله عز وجل عنه في الدنيا والآخرة. والآن نشرع في تفصيل تلك المسالك منتظمة فيما يلي:

أولًا: تنزيه الله تعالى عنه:

صرح القرآن الكريم بتنزيه الله تعالى عن البخس في الدنيا والآخرة، وذلك من آكد الأساليب في ذم البخس والتنفير عنه، ألا ترى أن الله -جل شأنه- لما حرم الظلم على عباده أكد ذلك التحريم ببيان تنزهه تعالى عنه، فقال في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا)[2].

وقد صرح القرآن الكريم بتنزيه الله تعالى عن البخس في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

والمعنى -كما قال ابن عطية-: «من كان يريد بأعماله الدنيا فقط -إذ لا يعتقد آخرة-

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة، رقم ٢٤١٧، ٤/ ٦١٢، عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.
وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم٢٥٧٧ ، ٤/ ١٩٩٤ ، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

فإن الله يجازيه على حسن أعماله في الدنيا بالنعم والحواس وغير ذلك، فمنهم مضيق عليه ومنهم موسع له، ثم حكم عليهم بأنهم لا يحصل لهم يوم القيامة إلا النار، ولا تكون لهم حال سواها»[1].

وهذا التوجيه مبني على أنها نزلت في عموم الكفار، وهو ما اقتضاه سياق الآيات وظاهرها.

وقيل: إن الآية نزلت في المرائين، وهو المروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة[2].

والمعنى: أن من قصد الدنيا بعمله من صلاة وزكاة وغيرها من الأعمال الصالحة فإن الله يجازيه عليها بالنعم في الدنيا، ولا يحق لهم في الآخرة إلا النار.

وقيل: نزلت في اليهود والنصارى، وهو مروي عن أنس رضي الله عنه والحسن[3].

ولا يبعد هذا القول عن الأول.

والفرق بين الرأيين السابقين: أن ظاهر الآية الكريمة يقضي بخلود من نزلت فيه في النار، فعلى الرأي الأول لا إشكال فيها. وعلى الثاني فهو مشكل لإيمانهم، فقد ثبت -عندنا نحن أهل السنة والجماعة- بالدليل القطعي أن عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار، فتؤول ظاهرها بأن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ بمعنى: ليس يجب لهم أو يحق لهم إلا النار[4]، وذلك لا ينفي أن يتفضل الله عليهم بالخروج من النار وإدخالهم الجنة بإيمانهم.

وأيًا من نزلت في شأنه الآية الكريمة فإنها صريحة الدلالة على أن الله تعالى لا يبخس أحدًا أجره، ولو كان كافرًا أو عاصيًا، وذلك من كمال عدله جل شأنه، فالبخس صفة ذمٍ، تنزه الحق تعالى عنه. يقول محمد القوجوي: «سواء نزلت في المؤمنين... أو المنافقين.... أو في الكفار يكون معناها: من كان يريد بما عمله من أعمال البر والإحسان التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها من ثناء الخلق عليه في الدنيا ونحو ذلك، فإن جزاء عمله من أعمال البر والإحسان يصل إليه في الدنيا تامًا كاملًا»[5].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ [الجن: ١٣].

والآية الكريمة إخبار عن قول الجن إذ استمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى: أنا لما سمعنا الهدى -وهو القرآن الكريم- سارعنا إلى التصديق

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٥٦.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٦٣- ٢٦٤.
(٣) أخرجه الطبري في تفسير ١٥/ ٢٦٥، وابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٠١٠.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٥٦.
(٥) حاشية شيخ زاده، القوجوي ٤/ ٦٢٩، بتصرف.

به والإذعان له، فمن يؤمن من الجن والإنس بربه فلا يخاف أن يبخس من حسناته شيئًا، ولا أن يحمل عليه من سيئات غيره.

والمقصود بالآية الكريمة إظهار ثقتهم المطلقة في عدالة الله تعالى[1]، فلا يبخس الله أحدًا حقه، ولا يرهقه بما لم تقترف يداه؛ إذ البخس والرهق يتنافيان مع كمال عدل الله تعالى.

وقد دلت الآية الكريمة على ثقة المؤمن بكمال عدل الله تعالى بأبلغ الأساليب، حيث عدل عن التعبير بالجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية في قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾، قال الزمخشري: «فإن قلت: أي فائدة في رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبرًا له ووجوب إدخال الفاء، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال: لا يخف؟

قلت: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك، فكأنه قيل: فهو لا يخاف، فكان دالًا على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة، وأنه هو المختص بذلك دون غيره»[2].

ثانيًا: النهي عنه:

نهى الله تعالى عن البخس في القرآن الكريم، والنهي عن الشيء -بصورة عامة- يستلزم أمرين:

الأول: كونه حرامًا؛ إذ النهي يقتضي التحريم ما لم يرد دليلٌ يصرفه عن التحريم إلى غيره من الكراهة أو الدعاء أو الالتماس أو التحذير أو اليأس أو تحقير شأن المنهي عنه[3].

الثاني: كونه قبيحًا، فقد عرفنا أن النهي عن الشيء يعني قبحه شرعًا، كما أن الأمر بالشيء يعني حسنه شرعًا، إذ العقول السليمة تدرك حسن ما أمر به الله -جلت حكمته- وقبح ما نهى عنه.

وقد جاء النهي الصريح عن البخس في أربعة مواضع، واحدة منهن وردت في سياق آية المداينة، وثلاثة في سياق قصة نبي الله شعيب عليه السلام.

أولًا: ما ورد في سياق آية المداينة، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالنهي عن البخس في قوله: ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ ورادٌ في سياق الأمر بتوثيق الدين بالكتابة حفظًا للحقوق، وحسمًا للنزاع.

(١) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٥/ ١٣٨.
(٢) الكشاف ٦/ ٢٢٨.
(٣) البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي ٢/ ٤٢٨.

فقد أمر الله تعالى المتداينين بكتابة دينهما -والأمر للندب عند جمهور العلماء، وقيل: للوجوب- وأن لا يكون الكاتب أحد المتعاقدين ضمانًا للحيادية وعدم الانحياز، وأن يكون ذا خبرة بشروط العقود وتوثيقها، وهو اللازم من اشتراط العدالة فيه في قوله: ﴿كَاتِبٌۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾؛ إذ الكاتب الجاهل قد يترك بعض الشروط أو يزيد فيها أو يكتب أجلًا باطلًا في الشرع أو نحو ذلك[1].

وقد أكد اشتراط علمه بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾.

وأن يتولى المدين الإملال[2] على الكاتب بما اتفقا عليه؛ ليكون إقراره أثبت وأوثق.

وأن لا ينقص منه شيئًا، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾، وذلك بأن لا يسوغ عبارات محتملة أو يضع شروطًا أو غير ذلك من وجوه الاحتيال التي من شأنها الإضرار بصاحب الدين، هذا التوجيه مبني على أن مرجع الضمير المستكن في ﴿وَلۡيَتَّقِ﴾ و﴿يَبۡخَسۡ﴾ يعود إلى ﴿ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾، وهو الراجح؛ صناعةً لكونه أقرب مذكور، ومعنىً لكونه هو من تنازعه نفسه ببخس صاحب الحق حقه.

ونقل الآلوسي جواز رجوعه إلى الكاتب، وضعفه بأن الكاتب يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص، فلو أريد نهيه لنهى عن كليهما[3].

وقد اقترن هذا النهي بالأمر بالتقوى، فقال جل شأنه: ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾، ولهذا الاقتران دلالات عدة، منها:

- ربط الأحكام الشرعية بالوازع الديني.

وذلك لأن الوازع النفسي للتمسك بها أقوى وأعم من الوازع الخارجي، ومن ثم كثر اقتران الأوامر والنواهي بالتقوى، كما في قوله جل شأنه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ [الأنفال: ١].

وقوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ [الطلاق: ١].

ونحو ذلك كثير في القرآن الكريم.

- النهي ضمنًا عن البخس خاصة، وعن سائر ما يؤدي إلى الخصومة والنزاع

(١) صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٣/ ٥٥٥.

(٢) الإملال والإملاء واحد، إلا أن الأولى لغة الحجاز وبني أسد، والثانية لغة بني تميم وقيس، وقد ورد القرآن الكريم بهما، فالأولى كما في قوله تعالى: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾، والثانية كما في قوله جل شأنه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥].
انظر: المصباح المنير ٢/ ٥٨٠.

(٣) روح المعاني ٣/ ٥٦.

بين المتداينين عامة.

فمعنى قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي: عليه عند الإملاء أن يراقب الله ربه جل جلاله فلا يملي بما يضر بصاحب الدين، وقد جمع بين لفظي الألوهية والربوبية ترهيبًا وترغيبًا، فلفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾ له من الدلالة على معاني الترهيب ما يردع عن اقتراف الذنب، كبيرًا كان الذنب أو صغيرًا، ولفظ ﴿رَبَّهُ﴾ له من الدلالة على معاني الترغيب ما يحمل النفس على الالتزام بما أمر الله به وبما نهى عنه.

قال العلامة أبو زهرة: «وإذا كانت تبعة الإملاء قد وضعت في عنق من عليه الحق، فإن عليه عند الإملاء واجبين: تقوى الله، وعدم البخس؛... وقد وثق سبحانه الأمر بالتقوى بأن جعل التقوى من الله، وهو رب كل شيء ورب من عليه الحق، أي: عليه عند الإملاء أن يراقب الله جل جلاله الواحد القهار، الغالب على كل شيء، المسيطر على كل شيء، الذي يغلب ولا يغلب، فلا يتلاعب بالعبارات حتى لا يذهب بحق صاحب الحق، ثم ليعلم أن الذي عليه أن يتقيه هو ربه الذي ذرأه ورباه ونماه، ووهب له المواهب التي توجب الشكر، ولا تسوغ التلاعب بالحقوق»[1].

❁ تأكيد النهي عن البخس وتوثيقه؛ لما يترتب عليه من أضرارٍ خطيرة.

قال أبو السعود: «وإنما شدد في تكليف المملي حيث جمع فيه بين الأمر بالاتقاء والنهي عن البخس؛ لما فيه من الدواعي إلى المنهي عنه؛ فإن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه وتخفيف ما في ذمته بما أمكن»[2].

ثانيًا: ما ورد في قصة نبي الله شعيب عليه السلام.

بعث الله تعالى نبيه شعيبًا عليه السلام إلى مدين -وهي اسم قبيلة تنسب إلى مدين ابن خليل الله إبراهيم عليه السلام - وأصحاب الأيكة، كلاهما سكن شمال الحجاز، وكانوا عربًا مستعربة، عبدوا غير الله، وكانوا في رغد من العيش، ومع ذلك نقصوا الكيل والميزان، وبخسوا الناس أشياءهم، وسعوا في الأرض فسادًا، فأمرهم نبي الله شعيب عليه السلام بعبادة الله وحده، وترك ما هم عليه من صور الظلم والفساد، ولنقف مع الآيات التي ورد فيها النهي عن البخس إجمالًا:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢/ ١٠٦٩.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٧٠.

﴿فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٤-٨٦].

وقال سبحانه: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

فالآيات السابقة اشتملت على النهي عن البخس بأبلغ الأساليب وأدقها، وإن اختلفت طريقة العرض فيما بينها على حسب اختلاف موضوع السورة وسياقها، ولنقصر الحديث هنا على ما يتعلق بالبخس، وأوجز القول عنه فيما يلي:

أولًا: أن النهي عن البخس جاء صريحًا تارة، حيث قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾، وضمنًا تارة أخرى، حيث أمرهم -في المواضع الثلاثة- بإيفاء الكيل والوزن والعدل فيهما، ونهاهم عن نقصانهما، وكل ذلك يتضمن النهي عن البخس.

فإن قيل: هل للنهي عن البخس بعد الأمر بإيفاء الكيل والميزان والعدل فيهما فائدة؟

فالجواب: نعم، له فائدة من وجهين:

الأول: أنه أفاد التأكيد، فإن القوم كانوا مصرين على بخس الناس أشياءهم، فكرر النهي عنه -تارة صريحًا وأخرى ضمنًا- والتكرار يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام[1].

قال أبو السعود: «وقد صرح بالنهي عن البخس بعد ما علم ذلك في ضمن النهي عن نقص المعيار، والأمر بإيفائه اهتمامًا بشأنه وترغيبًا في إيفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها»[2].

الثاني: أن النهي عن بخس الناس أشياءهم أعم من الأمر بإيفاء الكيل والميزان والعدل فيهما، قال الفخر الرازي: «لما نهى قومه من البخس في الكيل والميزان، منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص بجميع الوجوه، ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقة وأخذ الرشوة وقطع الطريق وانتزاع الأموال بطريق الحيل»[3].

كذلك النهي عن الفساد في الأرض أعم من النهي عن البخس؛ بل إن البخس يؤدي إلى المنازعة والخصومة وسفك الدماء،

(١) مفاتيح الغيب ١٤/ ١٨١.
(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ٧٩.
(٣) مفاتيح الغيب ١٤/ ١٨١.

فالجمع بينهما إنما هو جمعٌ بين النهي عن السبب ومسببه معًا.

قال الطاهر ابن عاشور: «وسلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرج، فابتدأه بنهيهم عن نوع من الفساد فاش فيهم وهو التطفيف، ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال الناس، ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد وهو الإفساد في الأرض كله. وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال»[1].

ثانيًا: أن النهي عن البخس جاء معللًا:

ففي سورة الأعراف جاء التعليل بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فاسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يعود على جملة ما أمرهم به ونهاهم عنه، أي: إنما طلبت منكم ما طلبته؛ لأن ذلكم خير لكم، والمراد بالخيرية ما يشمل خيري الدنيا والآخرة بشرط الإيمان، فإن ذلك يوجب هناء العيش واستقرار الأمن وصفاء الود بين الأمة، وزوال الإحن المفضية إلى الخصومات والمقاتلات، فإذا تم ذلك كثرت الأمة وعزت، وهابها أعداؤها، وحسنت أحدوثتها، وكثر مالها بسبب رغبة الناس في التجارة والزراعة لأمن صاحب المال من ابتزاز ماله.

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ١٣٨.

وفيه خير الآخرة؛ لأن ذلك إن فعلوه امتثالًا لأمر الله تعالى بواسطة رسوله أكسبهم رضى الله، فنجوا من العذاب، وسكنوا دار الثواب، فالتنكير في قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ للتعظيم والكمال؛ لأنه جامع خيري الدنيا والآخرة[2].

ومن ذهب من المفسرين إلى أن المراد بالخيرية ما يعود عليهم من نفع دنيوي[3]، فقوله مرجوح؛ لأن فيه حملًا للألفاظ على غير محملها الشرعي، حيث حمل الإيمان في قوله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على مجرد التصديق، وقد تقرر أنه إذا تردد حمل اللفظ بين معناه الشرعي ومعناه اللغوي، فإن حمله على المعنى الشرعي هو الأولى، قال الطاهر ابن عاشور: «والمؤمنون لقب للمتصفين بالإيمان بالله وحده، كما هو مصطلح الشرائع، وحمل المؤمنين على المصدقين لقوله ونصحه وأمانته حملٌ على ما يأباه السياق»[4].

كما أن التعظيم المستفاد من تنكير ﴿خَيْرٌ﴾ ينصرف إلى ما يتعلق بأمور الآخرة، وإن كانوا -مع كفرهم- لا يعدمون الخير بترك البخس والتطفيف.

وفي سورة هود جاء النهي عن البخس معللًا بعلتين:

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٢٤٥.
(٣) روح المعاني ٨/ ١٧٧
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٢٤٥.

الأولى: قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾، والمعنى: إني أراكم في سعة من العيش، تستغنون به عن البخس، وهو تعليل لا مفهوم له؛ لأنه تقرير للأمر الواقع، والبخس محرم سواء كانوا في عوز وفاقة أو في غنى؛ إذ لم يقيد النهي عنه بشيء.

الثانية: قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾، والمراد بالعذاب هنا هو عذاب يوم القيامة، أو عذاب الاستئصال الذي حل بهم، ومعنى ﴿يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾: لا يشذ عنه أحد منهم، أو يوم مهلك، نحو قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢].

ووصف الإحاطة لليوم لا للعذاب.

قال الزمخشري: «فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ، أم وصف اليوم بها؟

قلت: بل وصف اليوم بها؛ لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه»[(١)].

وتعليل البخس بهذا الوعيد دليل على أنه من الكبائر[(٢)]؛ وذلك بناءً على ما ذهب إليه بعض العلماء من أن الكبيرة هي: ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيدٌ شديدٌ بنص كتاب أو سنة[(٣)].

فإذا كان البخس من الكبائر، فإن المبادرة إلى التوبة عنه آكد وألزم؛ ولذلك أمر شعيب عليه السلام قومه التوبة، فقال لهم -كما حكى الله عنه-: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ [هود: ٩٠].

والمعنى: استغفروا ربكم من عبادة الأوثان، ثم توبوا إليه عن البخس والنقصان[(٤)].

كما أن الإصرار عليه سبب للهلاك، فقد أهلك الله مدين بأنهم بخسوا الناس أشياءهم، وإليهم أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله لأصحاب المكيال والميزان: (إنكم قد وليتم أمرين هلكت فيه أممٌ سالفةٌ قبلكم)[(٥)].

وروي هذا الحديث موقوفًا عن ابن

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٣.
(٢) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ١/ ٤٠٨.
(٣) الزواجر ١/ ٨.
(٤) مفاتيح الغيب ١٥/ ٤٩.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البيوع، باب ما جاء في المكيال والميزان، رقم ١٢١٧، ٣/ ٥١٣، والحاكم في مستدرك، كتاب البيوع، رقم ٢٢٣٢، ٢/ ٣٢، عن ابن عباس.
قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث حسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعف في الحديث، وقد روي هذا بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا».
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».
وخالفه الذهبي في التلخيص، حيث قال: «حسين بن قيس ضعفوه».
وأخرجه مرفوعًا وموقوفًا البيهقي في شعب الإيمان، باب الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، رقم ٤٩٠٤، ٧/ ٢٢١.

عباس رضي الله عنهما، ووقفه أصح من رفعه.

والتعليلان السابقان واردان عقب النهي عن نقصان الكيل والميزان، وهو أخص من البخس، فتعليل النهي عنه تعليل للنهي عن البخس أيضًا.

كما أن قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، فيه حثٌّ للانتهاء عن البخس، والمعنى: ما يبقى -بعد التنزه عما هو حرام- لكم من رزق حلال ومن ذكر حسن ومن أمن وبركة خير لكم من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بيان أن هذه الخيرية لا تتم إلا مع الإيمان بالله.

أما سورة الشعراء فقد خلت عن تعليل النهي عن البخس؛ وذلك لأن الجو العام للسورة يمتاز بالنصح والإرشاد، والدعوة والاتعاظ والاعتبار، ألا ترى أنه تكرر فيها خمس مراتٍ قول الله تعالى -على لسان كل نبي خلا كليمه موسى وخليله إبراهيم-: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧﴾ [الشعراء: ١٠٦-١٠٧].

وتكرر ثماني مراتٍ قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾ [الشعراء: ٦٧-٦٨].

فلا يتلاءم مع هذا الجو تعليل النهي عن البخس.

وذلك بخلاف سورة هود، فإن الجو العام لها يمتاز بالتهديد والتقريع، فناسب ذلك الكشف عن حكمة ما اشتملت عليه من تشريعات وتعليلها إقامةً للحجة عليهم قبل نزول العذاب بهم.

أما سورة الأعراف فالجو العام لها هو الدعوة إلى عمارة الأرض التي قوامها اتباع ما أنزل الله، فناسب ذلك بيان الحكمة في النهي عن البخس بما يتلاءم وهذا الجو العام لها، حيث قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

ثالثًا: أنه اقترن ذكر البخس بالفساد في الأرض متقدمًا عليه في المواضع الثلاثة، وفي ذلك إشارة إلى أن البخس سبب للفساد في الأرض، فإن بخس الناس حقوقهم مفضٍ إلى وقوع المنازعات والخصومات بينهم وسفك الدماء.

فإن قلت: فما الأداة الدالة على السببية في الآيات؟

فالجواب: أن تكرار الاقتران بينهما، وتقدم البخس على الفساد في الذكر مشعرٌ بكونه سببًا فيه.

ومما يؤكد تلك السببية: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما بخس قومٌ المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة،

وجور السلطان عليهم)[1].

فأداة السببية هنا هي ترتب الحكم -وهو الأخذ بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان- على الوصف، وهو البخس. وقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا بخس الميزان حبس القطر»[2]، فأداة السببية هي أداة الشرط: «إذا»[3].

ثالثًا: الأمر بضده:

تقرر فيما سبق أن القرآن الكريم قد سلك في ذم البخس كل مسلك، ومن تلك المسالك: الأمر بما هو ضده، حيث أمر الله تعالى بإقامة العدل بين الناس بوجه عام، وإيفاء الكيل والميزان بوجه خاص. وكلا الأمرين نهيٌ عن البخس، إذ الأمر بالشيء نهي عن ضده، سواء كان الضد واحدًا كما إذا أمره بالإيمان فإنه يكون نهيًا عن الكفر، وإذا أمره بالحركة فإنه يكون نهيًا عن السكون، أو كان الضد متعددًا، كما إذا أمره بالقيام فإنه يكون نهيًا عن القعود والاضطجاع والسجود وغير ذلك، وهو ما ذهب إليه الجمهور من أهل الأصول، من الحنفية والشافعية والمحدثين، عزاه إليهم الشوكاني[4].

١. الأمر بإيفاء الكيل والوزن.

فقد أمر الله تعالى بإيفاء الكيل والميزان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أمرٌ بالعدل في الأخذ والعطاء، بأن يوفي ذو الحق حقه من غير نقصان، وأن يأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب زيادة، فالأمر بالإيفاء من الجانبين[5]، وهو يتضمن النهي عن النقص فيهما، بأي وجه من الوجوه، وهو ما توعد الله عليه بالويل في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١- ٣].

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ بيان أن من أخطأ في أداء ما عليه من حق بعد استفراغ جهده فلا حرج عليه، فما لا يمكن الاحتراز عنه ولا يدخل تحت قدرة البشر

(١) أخرجه ابن ماجه في سنن، كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم ٤٠١٩، ٢/ ١٣٣٢، والبيهقي في شعب الإيمان، كتاب الزكاة، باب ، رقم ٣٠٤٣، ٥/ ٢٣، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
قال الألباني: «صحيح لغيره».
انظر: صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٥٢١.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، رقم ٨٥٣٦، ٤/ ٥٤٩.
وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».
ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) تراجع تلك الأدوات في: الأسباب والمسببات في القرآن الكريم ص٤٥- ١٧٤.

(٤) إرشاد الفحول، الشوكاني ١/ ٤٦٩.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٢٤٧.

فمعفو عنه[1]، فإن الله لم يكلف عباده ما لا طاقة لهم به.

ونحو الآية السابقة قوله جل شأنه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء: ٣٥].

والقسطاس (بكسر القاف وضمها[2]) هو آلة ميزان يعرف بالقبان، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: إيفاء الكيل والميزان خير عند الله وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة، ولا يخفى ما في الأمر بإيفاء الكيل والميزان من النهي عن البخس.

٢. الأمر بالعدل.

فقد أمر الله بإقامة العدل في أكثر من آية، منها قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والمراد بالميزان: العدل، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة[3]، ومعنى ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، أي: لتعاملوا بينهم بالنصفة والعدل، وهو نهي عن الجور والظلم، وقد عرفت أن البخس ظلمٌ، فتضمنت الآية النهي عنه.

وقد صرح الحق بالجمع بين الأمر بالعدل والنهي عن البخس في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٩].

تأكيدًا للأمر بالعدل وللنهي عن البخس، قال السيوطي: «فيه وجوب العدل في الوزن، وتحريم البخس فيه»[4].

والخلاصة أن الله أمر بما يتنافى مع البخس ليتضمن النهي عن البخس؛ تأكيد للنهي عنه.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٦، وإرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٩٩.

(٢) قرئ بهما في السبعة المتواترة، حيث قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر بضم القاف، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص بكسر القاف.
انظر: السبعة، ابن مجاهد ص٣٨٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٧.

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي ص٢٥٣.

صور البخس

لم يرد في مصنفات أهل العلم قديمًا أو حديثًا تقسيم له، وذلك -فيما يبدو لي- لأن حكمه واحد، وهو التحريم. وقبل أن أتطرق إلى ذكر أنواع البخس أنبه على أمرين:

الأول: النهي عن البخس جاء بصورة مجملة، ليشمل كل ما يستجد من صور البخس على تعاقب الأزمان، سواء ما عرف منها وقت التنزيل مما ورد في القرآن الكريم كالتطفيف والغلول، أو في السنة النبوية كالنجش والاحتكار، أو ما عرف بعد كالحقوق المدنية.

الثاني: أكثر الآيات التي ورد فيها النهي عن البخس تدور حول المعاملات المالية، إلا أن التعبير عنها جاء بصيغة العموم، كما أسلفنا من قبل.

وإذا كان البخس عامًا في جميع حقوق الناس، فمن الأجدر تصنيفه تقريبًا للأذهان، وتوضيحًا للأفهام، وذلك ينتظم فيما يلي:

أولًا: البخس في الحقوق:

المراد بالحقوق هي: ما ثبت للإنسان شرعًا من مما لا تتحقق إنسانيته إلا بها[1]، فإن كانت هذا ما ثبت له ماديًا نحو المال فهي حقوق مادية، وإن كان معنويًا كالحرية والأمن فهي حقوق معنوية.

١. الحقوق المادية.

إن انتقاص شيء من تلك الحقوق بأي صورة من الصور حرام؛ لأن فيها إهدارًا لحقوق الإنسان وإضرارًا به، ويمكن تعداد تلك الصور فيما يلي:

١. التطفيف.

أحد أساليب بخس الناس أموالهم وأكثرها شيوعيًا قديمًا وحديثًا، لا سيما في البيع والشراء، حيث يكون بالازدياد إن اقتضى من الناس، أو بالنقصان إن قضاهم، وقد توعد الله تعالى المطففين بالويل، فقال جل شأنه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١-٣].

٢. الغلول.

لم يكن البخس قاصرًا على الاحتيال لأخذ أموال الناس فرادى، وإنما يشمل الاحتيال لأخذ شيء من أموال الأمة، وذلك مثل التعدي على أموال الغنائم قبل تقسيمها، وهو ما يسمى بالغلول، وهو- كما عرفه ابن عرفة-: أخذ ما لم يبح الانتفاع به من الغنيمة قبل حوزها[2]. ويلحق به ما يأخذه الولاة والعمال من أموال الدولة بغير حق، كهدية تعطى إليه، أو مال يتقاضاه بدون حق.

فذلك كله خيانة وخديعة لأكل أموال

(١) الأسباب والمسببات في القرآن الكريم ص٥٣٦.

(٢) شرح حدود ابن عرفة، الرصاع ص٢٣٤.

الناس بالباطل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران: ١٦١].

فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ تبرئة لساحة النبي صلى الله عليه وسلم من خيانة الأمة بأي صورة من صور الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك[١]، ويدخل فيها دخولًا أوليًا ما تقوله البعض يوم بدر من أنه صلى الله عليه وسلم أخذ قطيفة حمراء، فنزلت الآية[٢].

وقوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وعيد شديد وتهديد أكيد لمن يغل من أموال المسلمين شيئًا، والمعنى: من يغلل شيئًا يأت به حاملًا له على ظهره ورقبته، معذبًا بحمله وثقله، ومرعوبًا بصوته، وموبخًا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد[٣].

وبين النبي صلى الله عليه وسلم صورًا من الغلول محذرًا من الوقوع في شيء منه، فقال صلى الله عليه وسلم: (من استعملناه على عملٍ فرزقناه رزقًا، فما أخذ بعد ذلك فهو غلولٌ)[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره، قال: (لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها ثغاءٌ، على رقبته فرسٌ له حمحمةٌ، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، وعلى رقبته بعيرٌ له رغاءٌ، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك، وعلى رقبته صامتٌ، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك، أو على رقبته رقاعٌ تخفق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك)[٥].

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحرف والقراءات، باب بدون تسمية، رقم ٣٩٧١، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، رقم ٣٠٠٩، ٥/ ٢٣٠، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٥٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥١.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في أرزاق العمال، رقم ٢٩٤٣، ٣/ ٢٣٨، والحاكم في المستدرك، كتاب الزكاة، رقم ١٤٧٢، ١/ ٥٦٣، عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه.
وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول، رقم ٣٠٧٣، ٣/ ٣٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، رقم ١٨٣١، ٣/ ١٤٦١، واللفظ للبخاري.

رجلًا من بني أسد، يقال له ابن الأتبية على صدقة، فلما قدم، قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (ما بال العامل نبعثه فيأتي يقول: هذا لك وهذا لي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى له أم لا، والذي نفسي بيده، لا يأتي بشيءٍ إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رغاءٌ، أو بقرةً لها خوارٌ، أو شاةً تيعر - ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه- ألا هل بلغت) ثلاثًا[1].

وعن أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أعظم الغلول عند الله عز وجل ذراعٌ من الأرض، تجدون الرجلين جارين في الأرض أو في الدار، فيقتطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعًا، فإذا اقتطعه طوقه من سبع أرضين إلى يوم القيامة)[2].

٣. الغش.

وهو: إظهار الشيء على خلاف حقيقته[3].

وهو حرام؛ إذ إنه ضرب من الاحتيال والمكر؛ لأكل أموال الناس بالباطل، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من غشنا فليس منا)[4].

ومر صلى الله عليه وسلم على صبرة طعام[5]، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللًا فقال: (ما هذا يا صاحب الطعام؟) قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني)[6].

وهو داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

وللغش ميادين عديدة، وله في كل ميدان صور كثيرة، فيدخل في باب البيع والشراء، وذلك بأن يخلط البائع الجيد بالرديء، ويظهره كله في صورة الجيد، وبأن يكذب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب هدايا العمال، رقم ٧١٧٤، ٤/ ٣٣٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، رقم ١٧١٨٨، ١٣/ ٣١٧، والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٢٩٩، رقم ٣٤٦٣.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٧٥: «أخرجه أحمد، والطبراني في الكبير، وإسناده حسن».

(٣) أحكام المال الحرام، عباس الباز ص٦٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، رقم ١٠١، ١/ ٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) الصبرة: ما جمع من الطعام بلا كيل ووزن، يكون بعضه فوق بعض.
انظر: تاج العروس ١٢/ ٢٧٦.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، رقم ١٠٢، ١/ ٩٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

في بيعه بأن يقول: اشتريته بكذا، أي: بأكثر مما اشتراه به، أو يخبر بأن سلعته جلبت من بلد كذا وهو مشهور بجود الصنعة، ولم تجلب منه، ومنه التصرية، وهو: جمع اللبن في ضرع الحيوان، من الغنم أو البقر أو الإبل عند إرادة بيعها حتى يعظم ضرعها، فيظن المشتري أن كثرة لبنها عادة لها مستمرة، فيعلو حينئذٍ ثمنها، ولا يخفى ما فيها أيضًا من إيذاء الحيوان.

ويدخل أيضا في باب التعليم والطب والصناعة وغيرها[1]، ولكل ميدان شياطينه الذين يحتالون فيه لأكل أموال الناس بالباطل.

٤. الاحتكار.

وهو: حبس ما يحتاج إليه الناس من السلع حتى تقل من الأسواق، فيرتفع سعرها.

فهو عام في كل ما يحتاجه الناس من قوت وغيره، وهو ما ذهب إليه المالكية، ومن الفقهاء من خصه بالقوت والثياب، ومن من خصه بالقوت فقط[2]. والأول هو الأرجح، وإن كانت حاجة الناس إلى بعض السلع أكثر من بعض كالقوت.

وهو حرام باتفاق العلماء، وعده ابن حجر الهيتمي من الكبائر، فقال: «عد هذا كبيرة، هو ظاهر ما في هذه الأحاديث -الصحيح بعضها- من الوعيد الشديد؛ كاللعنة وبراءة الله ورسوله منه»[3].

ومن ذهب من الشافعية إلى أنه مكروه فقوله ضعيف، قال محمد بخيت المطيعي: «ومن أصحابنا من قال: يكره ولا يحرم، وليس بشيء»[4].

ووجه تحريمه: أن فيه إضرارًا بالناس، إذ لا تكافؤ بين السلعة وثمنها، وحصولًا على مال الغير من غير طيب نفس منه، وضربًا من الخدعة والاحتيال لأكل أموالهم بالباطل[5].

وقد وردت أحاديث كثيرة -يقوي بعضها بعضًا- في التحذير من الاحتكار، والعمل على زيادة الأسعار وغلاء المعيشة، منها: قوله صلى الله عليه وسلم: (من احتكر طعامًا أربعين ليلةً، فقد برئ من الله تعالى، وبرئ الله تعالى منه، وأيما أهل عرصةٍ أصبح فيهم امرؤٌ جائعٌ، فقد برئت منهم ذمة الله تعالى)[6].

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة ٢/ ١١١.
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية ٢/ ٩٢.
(٣) الزواجر ١/ ٣٨٩.
(٤) تكملة المجموع شرح المهذب، محمد بخيت المطيعي ١٣/ ٤٤.
(٥) أحكام المال الحرام ص ٥٦.
(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم ٤٨٧٨، ٤/ ٤٣٧، والحاكم في المستدرك، رقم ٢١٦٥، ٢/ ١٤، عن معقل ابن يسار رضي الله عنه.
وصححه أحمد شاكر.

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: (من احتكر حكرةً يريد أن يغلي بها على المسلمين، فهو خاطئٌ)[1].

ومنها: ما ورد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاحتكار ما هو؟ قال: (إذا سمع برخصٍ ساءه، وإذا سمع بغلاءٍ فرح به، بئس العبد المحتكر، إذا رخص الله الأسعار حزن، وإذا أغلا فرح)[2].

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (من دخل في شيءٍ من أسعار المسلمين ليغليه عليهم، فإن حقًا على الله أن يقعده بعظمٍ من النار يوم القيامة)[3].

٥. النجش.

وهو مدح السلعة بما ليس فيها، والزيادة في ثمنها، وهو لا يريد شراءها، بل ليغر غيره[4]، فيشتريها الغير بأكثر مما تستحق، وهو ضرب من الاحتيال والخديعة لأكل أموال الناس بالباطل[5]. وقد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم [6]، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانًا)[7].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تلقوا الركبان، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، ولا تناجشوا، ولا يبع حاضرٌ لبادٍ، ولا تصروا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم ٨٦٠٢، ٨/ ٣٦٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٠٠: «أخرجه أحمد، وفيه أبو معشر، وهو ضعيف، وقد وثق».

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ٩٥، رقم ١٨٦، والبيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ٥١٢- ٥١٣، باب في أن يحب الرجل لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، رقم ١٠٧٠٢.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٠١: «أخرجه الطبراني في الكبير، وفيه سليمان بن سلمة الخبائري، وهو متروك».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٥/ ١٧٦، رقم ٢٠١٩١، عن معقل ابن يسار رضي الله عنه. والطبراني في المعجم الأوسط ٨/ ٢٨٥، رقم ٨٦٥١، وفي المعجم الكبير ٢٠/ ٢٠٩، رقم ٤٧٩.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٠١: «أخرجه أحمد، والطبراني في الكبير، والأوسط... وفيه زيد بن مرة أبو المعلى، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله رجال الصحيح»

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/ ١٩٣، وطرح التثريب، العراقي وولده ٦/ ٦١.

(٥) طرح التثريب ٦/ ٦٢.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ١٠٠، كتاب البيوع، باب النجش، رقم ٢١٤٢، ومسلم في صحيحه ٣/ ١١٥٦، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه، وسومه على سومه، وتحريم النجش، وتحريم التصرية، رقم ١٥١٦، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٠٣، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، رقم ٦٠٦٦، ومسلم في صحيحه ٤/ ١٩٨٥، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها، رقم ٢٥٦٣، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الغنم، ومن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحتلبها، إن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردها وصاعًا من تمرٍ)[1].

٦. تلقي الجلب.

وهو أحد سبل بخس الناس أموالهم، وذلك بأن يجلب إلى السوق سلعة من البوادي وغيرها، فيلقى الجالب أحد فيشتريه منه، فغالب الحال أن يكون الجالب على جهل بسعر مثله في السوق، فيستغل المشتري جهله، فيشتريه بأقل من ثمنه، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه في الحديث السابق: (لا تلقوا الركبان).

قال النووي: «قال العلماء: وسبب التحريم إزالة الضرر عن الجالب وصيانته ممن يخدعه»[2].

وقال أبو زرعة العراقي: «ومذهب الشافعي أن النهي إنما ورد رفقًا بصاحب السلعة لئلا يبخس في ثمن سلعته»[3].

٧. المطل في أداء الحق.

المراد بالمطل: تأخير ما استحق أداؤه بغير عذر، فيحرم على الغني القادر أن يمطل بالدين بعد استحقاقه[4]، قال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فقد نهى الله المدين أن يتحايل -إذ يملي على الكاتب- بشيءٍ يتخذه تكأةً في بخس الدائن حقه، وذلك فيشمل -من باب أولى- مماطلته حين يستوجب أداء ما عليه؛ فإن فيه ضررًا بصاحب الدين، وقال صلى الله عليه وسلم: (مطل الغني ظلمٌ)[5].

٢. الحقوق المعنوية.

انتقاص الإنسان أي حق من الحقوق المعنوية التي خولتها له الشريعة الإسلامية مما لا تتحقق آدميته إلا بها إنما هو بخس، من تلك الحقوق ما يلي:

١. حق الأمن.

إن الأمن -بمفهومه الواسع- هو أهم حق من حقوق الإنسان في الحياة، وهو بمثابة الركن الرئيس في البناء الحضاري، ومن ثم اهتم به الإسلام غاية الاهتمام إذ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ١٠٢، كتاب البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل، والبقر والغنم وكل محفلة، رقم ٢١٥٠، ومسلم في صحيحه ٣/ ١١٥٥، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه، وسومه على سومه، وتحريم النجش، وتحريم التصرية، رقم ١٥١٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ١٠/ ١٦٣.

(٣) طرح التثريب ٦/ ٦٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٤/ ٤٦٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ١٧٥، كتاب الاستقراض، باب مطل الغني ظلم، رقم ٢٤٠٠، ومسلم في صحيحه ٣/ ١١٩٧، كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني، وصحة الحوالة، واستحباب قبولها إذا أحيل على ملي، رقم ١٥٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

جعل سلامة الناس وتأمينهم من كمال الإسلام والإيمان.

دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن). قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم)[3].

فترويع الإنسان في نفسه أو في عرضه وولده أو في ماله بأي صورة من الصور الترويع والتخويف بخس وتعدٍ وظلم، سواء كان الإنسان مسلمًا أو غير مسلم، فالتعبير بالمسلم -في الأحاديث السابقة- خرج مخرج الغالب.

وكما أن ظاهرها نفي الإسلام عمن روع معصومًا، لكن العلماء حملوه على نفي الكمال لا نفي الماهية[4].

٢. الحرية.

الحرية هي أهم دعائم تكوين شخصية الإنسان في الإسلام، حيث جعلها مناط المسئولية، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

والمعنى: أنا بينا للإنسان طريق الخير ومآله، وطريق الشر وعاقبته، ليختار هو ما يجني ثماره أو ما يتحمل تبعاته.

فالحرية حقٌّ مصونٌ للإنسان في كافة ميادينها، والتي منها حرية التفكير، وحرية الرأي والتعبير، وحرية التجمع، وحرية الحركة.

وقد ضبطها الإسلام ونظمها تنظيمًا يحقق للإنسان السعادة وللمجتمع الرقي، فلم تكن حريةً مطلقة، يطلق فيها العنان للإنسان ليفعل ما يشاء ويدع ما يشاء؛ إذ لم تعرف هذه الحرية إلا في الوسط الاستبدادي والمجتمع الهمجي.

فالحرية المنضبطة حقٌّ للناس، فإكراههم على أمر انتقاصٌ لهم، وبخسٌ لحقوقهم،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٢٠، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم ١٠، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم في صحيحه ١/ ٦٥، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، رقم ٤١، عن جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ٩٤، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوايقه، رقم ٦٠١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٧، كتاب الإيمان، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم ٢٦٢٧، والنسائي في سننه ٥/ ١٠٨، كتاب الإيمان وشرائعه، صفة المؤمن، رقم ٤٩٩٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) عمدة القاري، العيني ١/ ٢١٨-٢١٩.

وقد نهى الله تعالى إكراه الناس على أجل الأمور وأنفعها، وهي الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩].

٣. الحقوق المدنية.

المراد بالحقوق المدنية تلك الحقوق التي كفلها له القانون الوضعي، والتي تتيح له المشاركة في بناء مجتمعه ودولته، نحو حق الترشح لمنصب إداري، وحق الانتخاب، وحق تكافؤ الفرص، فمنعه من تلك الحقوق بخس له.

ثانيًا: البخس في ثواب الأعمال:

تضافرت نصوص الكتاب والسنة على ربط الجزاء بالأعمال في الدنيا والآخرة، فمن عمل خيرًا، وفاه الله أجره، وقد تنزه الحق -جل شأنه- أن يبخس عاملًا أجره في الدنيا أو الآخرة، فمن عمل خيرًا وفاه أجره غير منقوص.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النساء: ٤٠]، أي: إن الله لا يبخس عاملًا أجره وثوابه بأقل ما يمكن أن يتخيله عقل من بخس، ولو بمقدار مثقال ذرة؛ فإن ذلك ظلم، والله تعالى منزه عنه، والآية عامة في كل من عمل خيرًا، مؤمنًا كان أو كافرًا.

فأما الكافر فيوفى أجره في الدنيا، ولا نصيب له في الآخرة، وأما المؤمن فيوفى أجره في الدنيا والآخرة، قال ميمون بن مهران: «ليس أحد يعمل حسنة إلا وفي ثوابها، فإن كان مسلمًا مخلصًا وفي في الدنيا والآخرة، وإن كان كافرًا وفي الدنيا»[1].

١. أجر الكافر.

الدليل على أن الكافر يوفى أجره في الدنيا قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود: ١٥-١٦].

فمن عمل من الكفار خيرًا -مما لا تشترط فيه النية كالابتكارات العلمية النافعة، ونصرة المظلومين، وإعانة المحتاجين، وإكرام الضيفان، والرفق بالحيوان، وكل ما يسمى اليوم بالأعمال الإنسانية- فإن الله سبحانه وتعالى يعجل لهم في الدنيا ثمرات أعمالهم وافية غير منقوصة، وهو المراد بقوله: ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾. يقول أبو السعود: «وإنما عبر عن ذلك بالبخس الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه... بناء للأمر على ظاهر الحال، ومحافظة على صور الأعمال، ومبالغة في نفي النقص، كأن ذلك نقص لحقوقهم، فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم

(١) ذكره القرطبي في تفسيره ٩/ ١٤.

أصلا»[1].

أما في الآخرة فلا نصيب لهم إلا النار؛ إذ لم تكن أعمالهم مصحوبةً بالإيمان.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

ومن السنة: قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الكافر إذا عمل حسنةً أطعم بها طعمةً من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقًا في الدنيا على طاعته)[2].

قال القاضي عياض: «والأصل أن الكافر لا يجزى في الآخرة على خير عمله في الدنيا، ولا يكتب له حسنة؛ لأن شرط الثواب والجزاء عدم، وهو الإيمان، لكن أخبر في هذا الحديث أنه من عدل الله أنه قد جازاه بها في الدنيا بما أعطاه ورزقه وأطعمه»[3].

وذهب بعض العلماء إلى أن ما يعمله الكافر من خير يخفف به عنه من عذاب غير الكفر، يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «ونحن لا نرى في ذلك خروجًا عن حكم الإسلام، وهو معقول في ذاته يتفق مع عموم النصوص، وإن كنا نميل إلى الأول»[4].

وأجر الكافر في الدنيا يتمثل فيما يغبطه من زيادة في رزقه، وصحة في بدنه، ودفع المكاره عنه، فلم يكن الكفر مانعًا من حصولهم على نتائج سعيهم، فإن الله تعالى أجرى سنته في خلقه بربط المسببات بأسبابها، والنتائج بمقدماتها شرعًا وقدرًا، فمن أخذ بأسباب الرزق وسع له في رزقه، ومن أخذ بأسباب الصحة عوفي في بدنه، ومن أخذ بأسباب القوة قوي واشتد.

يقول سيد قطب: «إن للجهد في هذه الأرض ثمرته، سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة. فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها، فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا ويتمتع بها كما يريد»[5].

وذلك منوط بمشيئة الله تعالى وإرادته، لقوله جل شأنه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

فليس كل مؤملٍ ينال، ولا كل مطلوب يدرك.

ولا يخفى ما في هذا العطاء من استدراج لهم وإملاء؛ إذ يغترون بما هم فيه من نعمة فيزدادون عصيانًا وعتوًا، قال تعالى:

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ١٩٣، بتصرف.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢١٦٢، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، رقم ٢٨٠٨، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض ٨/ ٣٤١.
(٤) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٤/ ١٦٨٥.
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦٢.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

٢. أجر المؤمنين.

أما المؤمن فإن الله يجمع له بين خيري الدنيا والآخرة جزاء على ما قدم من عمل يبتغي به وجه الله، والدليل على ذلك: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنةً، يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة)[(١)].

يقول النووي: «أما المؤمن فيدخر له حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة، ويجزى بها مع ذلك أيضًا في الدنيا، ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة، وقد ورد الشرع به، فيجب اعتقاده»[(٢)].

فإن قلت: ما الفرق بين جزاء المؤمن وجزاء الكافر على ما قدم كلاهما من خير في الدنيا؟

فالجواب: أن كلا العطائين خاضع لسنة الله الجارية في خلقه من ربط المسببات بأسبابها، والنتائج بمقدماتها، إلا أن ما يناله الكافر من نصيب الدنيا هو نقمة في صورة النعمة؛ لأنه استدراج وإملاء -كما سبق بيانه-، وما يوفاه المؤمن من نصيب الدنيا هو نعمة حقيقية، إذ هي مطيته لطاعة الله.

أما في الآخرة فإنه الله يجزيه على عمله لا ينقص من أجره شيئًا، والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ [الجن: ١٣].

والمعنى: أن المؤمن يخاف أن ينقص من حسناته، وهو المراد بالبخس، أو يحمل عليه غير سيئاته، وهو المراد بالرهق[(٣)].

وقوله جل شأنه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢١٦٢، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، رقم ٢٨٠٨، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٧/ ١٥٠.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٧/ ١٥٠.

أسباب البخس

للبخس أسباب لعلها تتمثل فيما يلي:

١ . ضعف الوازع الديني.

المراد بالوازع الديني: ملكة في النفس تحمل على فعل المأمورات واجتناب المنهيات، فكلما كانت تلك الملكة قوية كانت دواعي الامتثال أوفر، ولعل ذلك هو السر في تصدير الأوامر والنواهي بنداء الإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، حيث تكرر هذا النداء في القرآن العظيم تسعًا وثمانين مرة، وفي كل مرة يعقبه أمر بفضيلة، أو نهي عن رذيلة، فإن فيه استنهاضًا للهمم، وشحذًا للعزائم، للامتثال لما أمروا به، أو نهوا عنه، وتذكير أخذه الله من عهد أن يؤمنوا به، فضلًا عما فيه من تشريف للمنادى؛ إذ هو نداء بأجل السمات وأشرف الصفات، وهي صفة الإيمان بالله تعالى.

كذلك اقتران الأوامر والنواهي بالتقوى أمرًا وتعليلًا، فمن الأول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨]. وقوله جل شأنه: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن الثاني قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

كذلك ما اشتمل عليه الإلهاب والتهييج- وهو: كل الكلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه، وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله[1]- من تقوية هذا الوازع، كما في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

فقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ذكر على سبيل الإلهاب والتهييج، إذ الإيمان متحقق من المخاطبين.

وكلما ضعفت تلك الملكة، كانت الدواعي إلى المعاصي بوجه عام والبخس بوجه خاص أوفر، ومن باب أولى إذا عدمت تلك الملكة، وحل محلها الشرك بالله.

وإذ تبين أن سبب الوقوع في بخس الناس حقوقهم هو ضعف الوازع الديني، أدركنا سر اقتران النهي عنه بالأمر بالتقوى في قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وأدركنا حكمة تعليل الأمر بإيفاء المكيل والميزان والنهي عن البخس والإفساد في

(١) الطراز لأسرار البلاغة، يحيى بن حمزة ٣/ ٩٣.

الأرض بالإيمان بالله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥].

واقتران النهي عن التطفيف بالإيمان بالبعث في قوله جل وعلا: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١ - ٦]

٢. الحرص على المال.

كذلك من أسباب البخس الحرص على المال، فإنه يحرك داعي الشهوات في قلب صاحبه بالتنعم في الحلال -ولا حرج فيه-، إلا أنه لا يلبث أن ينسيه ذكر الله، فيقع في براثن المعاصي، ويجمع المال من الحلال والحرام تلبيةً لدواعي شهواته، فيفسد دينه ودنياه، وذلك هو الشح المذموم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩]. فالشح هو: الحرص الشديد الذي يحمل المرء على ارتكاب المحارم. فمن وقي نفسه أن يكون الشح خلقا لها فقد أفلح؛ إذ يسلم من أسباب الذم، ومن وقي من بعضه كان له من الفلاح بمقدار ما وقيه[(١)].

يقول إسماعيل حقي: «واعلم أن بخس الناس أشياءهم في المكيل والموزون من خساسة النفس ودناءة الهمة وغلبة الحرص ومتابعة الهوى والظلم، وهذه الصفات الذميمة من شيم النفوس، وقد ورد الشرع بتبديل هذه الصفات وتزكية النفس، فان الله تعالى يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها»[(٢)].

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من مغبة الحرص على المال، فقال: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنمٍ بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[(٣)].

والمعنى: أن حرص المرء على المال والجاه أشد إفسادًا لدينه من ذئبين جائعين أرسلا في غنم غفل عنها راعيها. يقول المباركفوري: «أما المال فإفساده أنه نوع من القدرة يحرك داعية الشهوات ويجر إلى التنعم في المباحات، فيصير التنعم مألوفًا، وربما يشتد أنسه بالمال ويعجز عن كسب الحلال، فيقتحم في الشبهات مع أنها ملهية عن ذكر الله تعالى، وهذه لا ينفك عنها أحد. وأما الجاه فيكفي به إفسادًا أن المال يبذل

(١) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٨، التحرير والتنوير ٢٨/ ٩٥.

(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٢٠٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٥٨٨، أبواب الزهد، باب بدون ترجمة، رقم ٢٣٧٦ عن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

للجاه ولا يبذل الجاه للمال، وهو الشرك الخفي، فيخوض في المراءاة والمداهنة والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة، فهو أفسد وأفسد»[1].

٣. الاستبداد.

الاستبداد هو: حكم أو نظام يستقل بالسلطة فيه فرد أو مجموعة من الأفراد دون خضوع لقانون أو قاعدة ودون النظر إلى رأس المحكومين.

وعرفه الكواكبي بأنه: تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة[2]. فالمستبد لا يراعي لأحد حقًا من مال أو كرامة أو حرية؛ إذ لا رادع له من دين أو ضمير أو قانون، فديدنه بخس الناس حقوقهم. يقول الغزالي: «إن الحاكم المطلق يتشهى ما يشاء، فلا ينقطع شيء دون أمانيه الحرام، والحلال عنده ما حل في اليد، أما الدين وتعاليمه ففكاهة النهار وسمر الليل»[3].

فإذا كان الاستبداد سبيلًا لبخس الناس أشياءهم، فإن الشورى في الحكم واتخاذ القرار هي السبيل لنيل كل ذي حق حقه إنصافًا وعدلًا وتمتعه به، وهو ما أسسه الإسلام بتعاليمه الخالدة، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: ٣٨]

وقد طبق النبي صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ في أمره كله إلا فيما أنزل بشأنه وحي، وسار على دربه الخلفاء الراشدون من بعده، والصالحون من حكام الأمة.

(١) تحفة الأحوذي للمباركفوري ٧/ ٤٧.
وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٠/ ٣٢٨٧.

(٢) طبائع الاستبداد، عبد الرحمن الكواكبي ص٣٧.

(٣) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص٤٠.

مضار انتشار البخس في المجتمع

أحكام الشريعة الإسلامية كلها قائمة على المصلحة، سواء أدركنا وجه المصلحة في تشريع الحكم، أو خفي عنا وجه المصلحة فيها، فجهلنا بها لا يعني خلو الحكم عنها، ومن ثم يقرر العلماء أنه: متى تحققت المصلحة فثم شرع الله. والمصالح التي تدور الأحكام الشرعية حول تحقيقها تتمثل في حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال.

إن انتشار البخس في مجتمع من المجتمعات يؤدي إلى كوارث إنسانية واجتماعية واقتصادية، تتمثل فيما يلي:

١. نشأة طبقة مترفة، وأخرى كادحة.

إن بخس الناس أموالهم سبيلٌ لنشأة طبقة مترفة في المجتمع، تمتص عرق الناس، وتحصل ما في أيديهم، وتسرف في التنعم به، وأخرى كادحة بائسة، تلتقم العيش كدًا، ولا تكاد تجده في كثير من الأحايين مع بذل أقصى ما في وسعهم من طاقة، فتحرم ثمار جهدها، ويضيع عليها نتاج كدها.

ومن ثم كانت هذه الطبقة على مر العصور هي العدو الألد لكل دعوة إصلاحية، تهدف للمساواة بين الناس، ولا تفاضل بينهم إلا على أساسٍ من العقيدة الصحيحة والعمل الصالح، فيسعون جاهدين لإطفاء نورها، فها هي دعوة رسل الله وأنبيائه قد وقفوا أمامها موقف المكذبين، وتغنوا بأموالهم وأولادهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥]

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤].

كما أن هذه الطبقة هي منبع كل فتنة، ومصدر كل فساد في الأرض، وما استؤصلت أمة من الأمم إلا بسبب ترفها، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

والمعنى: إذا أراد الله أن يهلك قرية من القرى أرسل إليها رسولًا من عنده، فيأمرهم وينهاهم بما أوحى الله إليه، فيعصيه مترفوها -وهم من أبطرتهم النعمة وسعة العيش- فيفسقون عن أمر ربهم، فيحل بها عذاب الله. فقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ يشير إلى أن الترف أودى بهؤلاء إلى الفسق؛ ذلك لأن المترف لا هم له إلا إشباع رغباته واتباع شهواته.

يقول العلامة محمد أبو زهرة: «والمترف يختص بثلاث خصال: ضعف في الإرادة، واندفاع وراء الأهواء والشهوات، وأثرة تجعله يعيش في محيط نفسه ولا يخرج عن دائرتها، ولذا كان المترفون دائمًا هم أعداء الأنبياء؛ لأنهم أوتوا أثرة مقيتة»[(١)].

التدمير في الآية الكريمة هو الهلاك، وذلك يشمل عذاب الاستئصال الذي حل بالأمم السابقة، ويشمل ضعف الأمة ووهنها، حتى تكون طعمة سائغة في أفواه أعدائها، كما هو حال الأمة الإسلامية اليوم[(٢)].

٢. تعطيل قوى العمل، وانتشار البطالة.

كذلك من الآثار السلبية للبخس أنه يؤدي إلى تعطيل قوى العمل لدى الباخسين والمبخوسين على حد سواء، فأما الباخسون فلأنهم تعودوا حصول ما في أيدي غيرهم من غير بذل مجهود، وأما المبخوسون فإنه متى ضاع جهدهم هدرًا دون أن يعود عليهم بثمرة، فإنه يبطئون في العمل ويقل إنتاجه، سواء كان عالمًا في مختبره ومعمله، أو عامل في مزرعته، أو صانع في مصنعه، وذلك له أخطر الآثار على المجتمعات الإنسانية بوجه عام، وعلى الأمة الإسلامية بصفة خاصة، فهو يعد بمثابة القنبلة الموقوتة في وجه المجتمع.

يقول الشيخ الغزالي: «التعطل نوعان: تعطل المترفين، أصحاب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة،.... وهناك تعطل آخر منتشر بين الطبقات الفقيرة، وينتظم الألوف المؤلفة من أبنائها، وتأوي إليه جرائم التسول والتشرد، والفساد والعدوان. وحاجة هؤلاء إلى العمل الشريف لا ريب فيها، وفائدة الدولة من استغلال هذه القوى المضيعة لا ريب فيها»[(٣)].

وقد عالج النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرة البطالة بدعوة القادرين إلى العمل والإنتاج؛ ليحفظوا حياتهم وكرامتهم، وأن يوفى صاحب الحق حقه، فقال صلى الله عليه وسلم: **(لأن يحتطب أحدكم حزمةً على ظهره، خيرٌ له من أن يسأل أحدًا، فيعطيه أو يمنعه)**[(٤)].

وقال صلى الله عليه وسلم: **(ما أكل أحدٌ طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)**[(٥)].

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨/ ٤٣٥٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، محمد الغزالي ص٤٧-٤٨، بتصرف.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ٨١، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ٨٠، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢، عن المقدام رضي الله عنه.

وقال صلى الله عليه وسلم: (أعطوا الأجير أجره، قبل أن يجف عرقه)[1].

فلو بذل كل واحد من أبناء المجتمع طاقته، وأعطي كل ذي حق حقه -كما وجه النبي صلى الله عليه وسلم - لدارت عجلة الإنتاج سريعة، ولنشطت الحياة العلمية والاقتصادية، ونعم المجتمع كله برغد من العيش. يقول الطاهر ابن عاشور: «وما جاء في هذا التشريع (وهو النهي عن البخس) هو أصل من أصول رواج المعاملة بين الأمة؛ لأن المعاملات تعتمد الثقة المتبادلة بين الأمة، وإنما تحصل بشيوع الأمانة فيها، فإذا حصل ذلك نشط الناس للتعامل، فالمنتج يزداد إنتاجًا وعرضًا في الأسواق، والطالب من تاجر أو مستهلك يقبل على الأسواق آمنًا لا يخشى غبنًا ولا خديعة ولا خلابة، فتتوفر السلع في الأمة، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها وتحسينياتها، فيقوم نماء المدينة والحضارة على أساس متين، ويعيش الناس في رخاء وتحابب وتآخ، وبضد ذلك يختل حال الأمة بمقدار تفشي ضد ذلك»[2].

٣. بث روح العداء بين أفراد المجتمع.

إن بخس الناس أموالهم يسبب اضطرابًا نفسيًا في النفوس، فهو بالنسبة للباخسين يولد حالة من الجشع في نفوسهم والطمع فيما في أيدي غيرهم، وبالنسبة للمبخوسين فإنه يتسبب في حالة من الأسى والأسف على ما ضاع من أموالهم وأهدر من جهدهم.

إن تلك الحالة لدى هؤلاء وهؤلاء تورث في نفوسهم جميعًا الشحناء والعداء، وما يلبثون أن يشيع بينهم التقاتل وسفك.

ومن أجل ذلك اقترن في القرآن الكريم أكل أموال الناس بالباطل بسفك الدماء، فقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩].

فالقتل وتدمير الحياة العامة هو النتيجة الحتمية الذي يؤول إليه شيوع المعاملات الباطلة وأكل أموال الناس بغير وجه مشروع؛ ومن ثم اقترن به في الذكر.

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن ٢/ ٨١٧، كتاب الرهون، باب أجر الأجراء، رقم ٢٤٤٣، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
قال محمد فؤاد عبد الباقي: «في الزوائد: أصله في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي هريرة. لكن إسناد المصنف ضعيف، وهب بن سعيد وعبد الرحمن بن زيد ضعيفان».
وقال الألباني: «صحيح لغيره». صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٨٤.
وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير ١/ ٤٣ رقم ٣٤، عن جابر رضي الله عنه.
وأخرجه البيهقي في السنن الصغير ٢/ ٣٢٠، كتاب البيوع، باب الإجارة، رقم ٢١٥٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٢٤٤، بتصرف.

قال العلامة محمد أبو زهرة: «قال بعضهم: إن المعنى: لا تقتلوا أنفسكم بأكل بعضكم أموال بعض وبارتكاب المعاصي، فإن ذلك مفرق لجماعتكم، مفسد لأمركم، مذهب لوحدتكم، وبذلك تقتل الأمم والجماعات، وقد ارتضى هذا ابن بشير فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: بارتكاب محارم الله تعالى ومعاصيه، وأكل أموالكم بينكم، وإن هذا هو الذي نرتضيه»[1].

ونجد هذا الاقتران بينهما في شائعًا في السنة النبوية، منه قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: (إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (من قتل دون ماله فهو شهيدٌ)[3].

يقول الطاهر ابن عاشور: «فكما أن إهراق الدماء بدون حق يفضي إلى التقاتل والتفاني بين الأمة، فكذلك انتزاع الأموال بدون وجهها يفضي إلى التواثب والتثاور فتكون معرضة للابتزاز والزوال»[4].

٤. هلاك المجتمع.

من الآثار التي تترتب على بخس الناس حقوقهم هلاك المجتمع، والمراد بالهلاك أحد أمرين:

الأول: عذاب الاستئصال، فقد هلك أهل مدين بالصيحة بسبب بخسهم الناس أشياءهم، وكان قد نهاهم نبي الله شعيب عليه السلام عنه -كما تبين سابقًا- قال تعالى مبينًا هلاكهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

وإلى هذا النوع من الهلاك أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله لأصحاب المكيال والميزان: (إنكم قد وليتم أمرين هلكت فيه أممٌ سالفةٌ قبلكم)[5].

وهذا اللون من الهلاك خاص بالأمم السابقة[6].

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٣/ ١٦٥٨.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/ ٨٨٦، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١٣٦، كتاب المظالم والغصب، باب من قاتل دون ماله، رقم ٢٤٨٠، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم في الصحيح ١/ ١٢٤، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق، كان القاصد مهدر الدم في حقه، رقم ١٤١، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٤) التحرير والتنوير ١٢/ ١٣٩.
(٥) سبق تخريجه ص٢١.
(٦) الأسباب والمسببات في القرآن الكريم ص٥٩١.

الثاني: ضعف الأمة ووهنها، بحيث تصبح لقمةً صائغة لأعدائها، تتكالب عليها من كل صوب وحدب.

وتلك هي النتيجة الطبيعية لما ينشب بينها من إحن وعداءات وتواثب وتقاتل، ولضعف إنتاجها وركود اقتصادها، فيحتاجون حينئذ إلى ما يسد ضرورات حياتهم، فيمدون أيدي الحاجة والعوز إلى أعدائهم، فلا يأخذونه إلا حشفًا، وفضلًا عما يفرضونه عليهم من سياسات تفت عضدهم، وتنخر بها عظامهم، ويقررون بها واقعهم ومستقبلهم، ولعل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما بخس قومٌ المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم)[1]، إشارة إلى ذلك.

وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: «إذا جئت أرضًا يوفون المكيال، والميزان فأطل المقام بها، وإذا جئت أرضًا ينقصون المكيال والميزان، فأقلل المقام بها»[2].

يقول ابن عبد البر معلقًا على هذا الأثر: «هذا يدل على أنه لا ينبغي المقام بأرض يظهر منها المنكر ظهورًا لا يطاق تغييره، وأن المقام بالموضع الذي يظهر فيه الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأغلب محمود مرغوب فيه إذا وجد»[3].

٥. تسلط الحكام وظلمهم.

إن الآثار الاجتماعية للبخس تتضاعف في هذا الجو الذي تشيع فيه العداءات بين أفراد المجتمع ويضعف فيه الاقتصاد، فيلجأ حينئذ سلاطينهم إلى فرض أموال يتحملون أعباءها، وفتح غياهب السجون لمن يبدي أدنى اعتراضًا ضربهم بالسياط يتوجعون آلامها، وغير ذلك من صور الظلم، والتي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه السابق.

٦. الكوارث الطبيعية.

لا شك أن ذنوب العباد تتسبب في حدوث كوارث طبيعية، كحدوث الزلازل وانفجار البراكين ومنع الأمطار[4].

يقول ابن تيمية: «ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة، فإحسان العمل سبب لإحسان الله.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٦٨٥، كتاب البيوع، باب جامع البيوع.
(٣) الاستذكار، ابن عبد البر ٦/ ٥٤١.
(٤) الأسباب والمسببات في القرآن الكريم ص٣٧٩.

وقال تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]»[(١)].

ومن تلك الكوارث التي تقع بسبب بخس الناس أشياءهم منع القطر، فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما أنه قال: «إذا بخس الميزان حبس القطر»[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

البركة، الظلم، العدل

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ١٣٨.
(٢) سبق تخريجه.

البخل

عناصر الموضوع

مفهوم البخل	٤٧٠
البخل في الاستعمال القرآني	٤٧١
الألفاظ ذات الصلة	٤٧٢
إيتاء المال فضل من الله	٤٧٥
الشح والبخل طبيعة إنسانية	٤٨٠
أنواع البخل	٤٨٢
درجات البخل	٤٨٥
الشح من صفات المنافقين	٤٨٧
الوقاية والعلاج من الشح	٤٩٠
عاقبة الشح والبخل	٥٠١

مفهوم البخل

أولًا: البخل لغة:

إن الناظر في معاجم اللغة العربية، والمتتبع لكتبها، والباحث فيها، يجد أن مادة (ب خ ل) تدل على: «ضد الكرم والجود»، وقد بخل بكذا: أي ضن بما عنده ولم يجد، ويقال: هو بخيل وباخل، وجمعه: بخلاء، والبخال: الشديد البخل، والبخل مشتق من قولهم: بخل بالشيء يبخل به، وهو خلاف الكرم، والبخيل: صاحب البخل، وجمعه: بخل وبخال، والبخلة: المرأة الواحدة من البخل[(١)].

وحد البخل الزبيدي رحمه الله تعالى بقوله: «إمساك المقتنيات عما لا يحل حبسها عنه»[(٢)].

ثانيًا: البخل اصطلاحًا:

أما البخل في الاصطلاح فقد ورد له تعاريف متعددة عند أهل العلم:

فعرفه القرطبي رحمه الله تعالى بأنه: «الامتناع من أداء ما أوجب الله تعالى عليه»[(٣)].

وأما ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى فقال: «البخل: منع ما يطلب مما يقتنى، وشره ما كان طالبه مستحقًا، ولا سيما إن كان من غير مال المسئول»[(٤)].

وقيل: هو إمساك المال وعدم صرفه في الوجوه المعتبرة حرصًا على بقائه وزيادته وخوفًا من نفاده[(٥)].

وبهذا يتبين أن البخل في الاصطلاح هو: منع ما يطلب عما لا يحق حبسها عنه، سواء كانت من مال نفسه أو من مال غيره وهو أشد.

وعند المتأمل في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للبخل يتبين أن معناهما جميعًا يدور حول: المنع والإمساك.

---

(١) لسان العرب ابن منظور ١١/ ٤٧ بتصرف، وانظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٢٧٢، الصحاح الجوهري ٤/ ١٦٣٢، مجمل اللغة، ابن فارس ص ١١٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٧، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩٦٥.

(٢) تاج العروس، الزبيدي ٢٨/ ٦٢- ٦٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٣ بتصرف.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٥٧.

(٥) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، أبو الفضل البستي ٢/ ٢٤٥.

البخل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بخل) في القرآن الكريم (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة:٧٦]
الفعل المضارع	٧	﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران:١٨٠]
المصدر	٢	﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء:٣٧]

وجاء البخل في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه[٢].

(١) نظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١١٥.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢٢٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشح:

الشح لغة:

«البخل مع حرص»[(١)]. وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: «الشح أشد البخل»[(٢)].

الشح اصطلاحًا:

«حرص النفس على ما ملكت وبخلها به، وما جاء في التنزيل من الشح، فهذا معناه، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]»[(٣)].

قال الراغب رحمه الله تعالى: «الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة»[(٤)].

العلاقة بين البخل والشح:

العلاقة بين الشح والبخل علاقة عموم وخصوص، فالبخل لفظ عام يدل على المنع، بينما الشح يدل على شدة المنع، أو البخل بمال الغير.

وذكر ابن القيم أن البخل: منع إنفاق ما هو موجود، والشح: الحرص على ما ليس موجودًا، وجشع النفس في تحصيله، قال رحمه الله: «فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله»[(٥)].

٢ الإقتار:

الإقتار لغةً:

التضييق. قال ابن فارس: «القاف والتاء والراء أصل يدل على تجميع وتضييق»[(٦)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٧٨.
وانظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص ٥٠٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٢٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٤٩٧- ٥٠٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٤٧٤.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٩٥.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٩٦.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٤٦.

(٥) الوابل الصيب، ابن القيم ص ٣٣.

(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٥٥.
وانظر: العين، الفراهيدي ٥/ ١٢٤، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٧٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٤٥٩، تاج العروس، الزبيدي ١٣/ ٣٦١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧١٤.

الاقتار اصطلاحًا:

«تقليل النفقة، وهو بإزاء الإسراف، وكلاهما مذمومان»[1].

الصلة بين البخل والاقتار:

العلاقة بين البخل والإقتار: أن البخل هو: المنع، والاقتار هو: التضييق في النفقة والمعاش، فبينهما شبهٌ من جهة أن في كلٍ منهما منع، وإن اختلف مقدار المنع فيما بينهما، والله أعلم.

٣ الضن:

الضن لغة:

«الإمساك والبخل»[2].

قال ابن فارس رحمه الله تعالى: «الضاد والنون أصل صحيح، يدل على بخل بالشيء، يقال: ضننت بالشيء أضن به ضنًا وضنانة، ورجل ضنين»[3].

الضن اصطلاحًا:

«البخل بالشيء النفيس... وفلان ضني بين أصحابي، أي: هو النفيس الذي أضن به»[4].

الصلة بين البخل والضن:

العلاقة بين البخل والضن أن البخل عام في إمساك كل شيء، حقيرًا كان أو نفيسًا، بينما الضن يكون في إمساك الشيء النفيس.

٤ الكرم:

الكرم لغة:

«ضد اللؤم»[5].

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٥٥.
(٢) العين، الفراهيدي ٧/ ١٠.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٧.
وانظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص ٥٦٠، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٦١، تاج العروس، الزبيدي ٣٥/ ٣٣٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥١٢.
(٥) الصحاح، الفارابي ٥/ ٢٠١٩.
وانظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٣٦٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١١٥٣، تاج العروس، الزبيدي ٣٣/ ٣٣٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٢/ ٧٨٤.

الكرم اصطلاحًا:

«اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر من الإنسان، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه»[1]. قال الجرجاني رحمه الله تعالى: «الكرم هو: الإعطاء بسهولة، والكريم: من يوصل النفع بلا عوض»[2].

الصلة بين البخل والكرم.

البخل يعني: المنع من إعطاء شيء للغير، وأما الكرم فهو من الألفاظ المقابلة للبخل الذي يعني: الإعطاء بسهولة، ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى به نفسه، فهو الكريم سبحانه.

١ الإيثار:

الإيثار لغة:

تقديم الشيء.

قال ابن فارس رحمه الله تعالى: «الهمزة والثاء والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي»[3]، والمعنى الأول هو الذي يعنينا هنا.

الإيثار اصطلاحًا:

تفضيل المرء غيره على نفسه.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «الإيثار: تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية؛ رغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة»[4].

وأضاف الجرجاني رحمه الله تعالى معنىً لطيفًا فقال: «الإيثار: أن يقدم غيره على نفسه في النفع له والدفع عنه، وهو النهاية في الأخوة»[5].

الصلة بين البخل والإيثار:

الإيثار هو: تفضيل المرء غيره على نفسه، فهو ضد البخل الذي يعني: منع الشخص نفسه من إعطاء شيء لغيره، فالصلة بينهما هي الضدية.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٠٧.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ١٨٤.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٣.
وانظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٦.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ٤٠.

إيتاء المال فضل من الله

اعلم أن المال ملك لله تعالى وحده، أعطاه الإنسان في هذه الحياة منة منه سبحانه وفضل، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النمل: ٧٣].

فما في أيدي الناس من مال وغيره إنما هو من فضل الله سبحانه وتعالى عليهم، يعطيه من يشاء من عباده ليبتليهم، ماذا سيصنعون به؟ قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ولذلك فإنه سبحانه سيحاسب الإنسان عليه يوم القيامة، فقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه: عن أبي برزة الأسلمي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[1].

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وتمام هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

ولقد أبدع الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند تفسيره لهذه الآية فقال: «قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

فأخبر أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكًا للعبد، فمنعه لذلك منع لفضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

ثم ذكر أن هذا الذي بيد العباد كله يرجع إلى الله، ويرثه تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر السبب الجزائي، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا

(١) أخرجه الترمذي ٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٧، كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ٢/ ٦٢٩، رقم ٩٤٦.

﴿تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٨٠﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فإذا كان خبيرًا بأعمالكم جميعها -ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشر- لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب»[1].

وعند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد يتساءل متسائل فيقول: كيف يرث الله السماوات والأرض وهي ملكه في الحقيقة؟

فيجيب على هذا التساؤل القرطبي رحمه الله تعالى بقوله: «أخبر تعالى ببقائه ودوام ملكه، وأنه في الأبد كهو في الأزل غني عن العالمين، فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم، فتبقى الأملاك والأموال لا مدعى فيها، فجرى هذا مجرى الوراثة في عادة الخلق، وليس هذا بميراث في الحقيقة؛ لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئًا لم يكن ملكه من قبل، والله سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض وما بينهما، وكانت السموات وما فيها، والأرض وما فيها له، وإن الأموال كانت عارية عند أربابها، فإذا ماتوا ردت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ٤٠﴾ [مريم: ٤٠].

والمعنى في الآيتين: أن الله تعالى أمر عباده بأن ينفقوا ولا يبخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثًا لله تعالى، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا»[2].

ومن رحمة الله بعباده: طلب إنفاق بعض المال: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾.

وحتى يتم معنى هذا الجزء من الآية نذكر سباقها ولحاقها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ٣٦ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ٣٧﴾ [محمد: ٣٦ - ٣٧].

«قوله: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾، يفيد بعمومه وسياقه معنى لا يسألكم جميع أموالكم، أي: إنما يسألكم ما لا يجحف بكم، فإضافة أموال وهو جمع إلى ضمير المخاطبين تفيد العموم، فالمنفي سؤال إنفاق جميع الأموال»[3].

وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال البغوي: «قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، ولم يقل: خذ أموالهم»[4]، فهذا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٨ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٩٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٣٤.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٨٤.

من رحمة الله سبحانه بعباده أنه طلب إنفاق بعض المال ولم يطلب إنفاق المال كله.

قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾، «الإحفاء أخذ الجميع، أو الإلحاح وإكثار السؤال، مأخوذ من الحفاء وهو: المشي بغير حذاء»[(١)].

قال الرازي رحمه الله تعالى: «الفاء في قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بيانًا لشح الأنفس، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين، وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر، فكأنه تعالى بين أن الإحفاء يقع عقيب السؤال؛ لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئًا»[(٢)].

وقد فسر ابن عاشور قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ بقوله: «تحدث فيكم أضغان فيكون سؤاله أموالكم سببًا في ظهورها فكأنه أظهرها، وهذه الآية أصل في سد ذريعة الفساد»[(٣)].

قال قتادة: «قد علم الله في مسألة الأموال خروج الأضغان»[(٤)]، قال ابن كثير معلقًا على قول قتادة: «وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه»[(٥)].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٠٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٣٥.
(٤) الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٥٠٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٢٤.

أولًا: منافع الإنفاق في وجوه الخير:

واعلم أن من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أنه طلب منهم الإنفاق مما آتاهم من الأموال؛ ليمنحهم فوائد وجوائز عظيمة أعدها لهم، منها:

١. مضاعفة ما أنفقوا أضعافًا كثيرة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

«فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ما أعد لهم من الثواب قرضًا؛ لأنهم يعملونه لطلب ثوابه»[(٦)].

٢. الله تعالى جعل النفقة تطهر صاحبها من الذنوب والخطايا وتزكيه.

قال الله سبحانه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣].

٣. مساعدة الفقراء والمساكين، ومواساة المحتاجين.

ورتب الله سبحانه على ذلك الأجر العظيم، ووعدهم جنة عرضها السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

(٦) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٣٠.

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

واعلم أن الإنفاق لا ينقص المال، ولكنه يزيده؛ لأن الله وعد عباده بالخلف منه سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

وهذا من رحمة الله بعباده، فإنه سبحانه لما علم أن النفس البشرية تخشى الفقر وتخاف الإنفاق، ضمن لها سبحانه وتعالى أن يخلف لها غير ما أنفقت، وخيرًا منه.

ولقد وكل الله ملكين من ملائكته كل صباح بالدعاء، فأحدهما يدعو للمنفق بالخلف، والآخر يدعو على الممسك بالتلف، فقد روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا)[1].

ثانيًا: الله عز وجل غني عن عباده:

واعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الغني فلا يفتقر إلى شيء، والمستغني عن الخلق بقدرته وعز سلطانه، فلا يحتاج إلى إنفاق عباده ولا إلى شيء من خلقه، والخلق فقراء إلى إحسانه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

وهو سبحانه الذي أغنى الخلق جميعًا، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾﴾ [النجم: ٤٨].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: «وما دلت عليه هذه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

مع كونه معلومًا من الدين بالضرورة، جاء في مواضع كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ الآية [محمد: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨].

إلى غير ذلك من الآيات، وبذلك تعلم عظم افتراء: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

(١) أخرجه البخاري ٢/ ١١٥، رقم ١٤٤٢، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾، ومسلم ٢/ ٧٠٠، رقم ١٠١٠، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك.

﴿أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقد هددهم الله على ذلك، بقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١]»[(١)].

فمن هذا يتبين أن الله تعالى غني بذاته، لا يحتاج إلى أحد من خلقه، سواء كان هذا المخلوق: ملك من ملائكته العظام، أو إنس أو جن، أو أي مخلوق كان، وأن جميع خلقه مفتقرون إليه في كل حال من أحوالهم، وفي كل وقت من الأوقات.

وللسعدي رحمه الله تعالى كلام لطيف عند قوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

بين فيه وجوه فقر العباد إلى الله تعالى بالتفصيل فقال: «أنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد، فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير، فقراء إليه في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه؛ لم يتعلموا، ولولا توفيقه؛ لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت.

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه.

ومن غناه تعالى: أن أغنى الخلق في الدنيا مفتقر إليه في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته وأسمائه؛ لأنها حسنى، وأوصافه؛ لكونها عليا، وأفعاله؛ لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه، الغني في حمده»[(٢)].

فالرب الذي هذا غناه وهذا ملكه غني عن إنفاق عباده كلهم، ولو أنفق عباده كلهم جميع ما يملكون، وأنفقوا الأرض وما فيها، ما زادوا في ملكه مثل قطرة في بحر، ولو

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٨٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨٧ بتصرف.

بخل عباده كلهم وأمسكوا عن الإنفاق، ولم ينفقوا مثقال ذرة، ما نقصوا من ملكه مثل قطرة من بحره سبحانه وتعالى، جل في علاه الغني الحميد.

الشح والبخل طبيعة إنسانية

سنحاول في هذا المبحث أن نتعرف من خلال القرآن الكريم على هذه الجبلة التي طبع الله الخلق عليها، فعندما تحدثت الآيات عن داء البخل لم تقل: وكان الكافر أو وكان المنافق قتورًا، ولكن بلغة التعميم نجد الآيات تتحدث عن الإنسان بصفة عامة، وكأنها صفة كائنة فيه، حتى وإن كان مؤمنًا، ولكن بدرجات متفاوتة مختلفة من شخص لآخر، قال الله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

فهذا «إخبار بأن الشح في كل أحد، وأن الإنسان لا بد أن يشح بحكم خلقته وجبلته، حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره»[(١)]، «فالمراد أن الشح جعل كالأمر المجاور للنفوس اللازم لها»[(٢)].

ولقد كرر القرآن الكريم هذا المفهوم في مواضع أخرى كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٥٣].

وقوله: ﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

وقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٠٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٣٧.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٧ - ٢٠].

وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠].

فيخبر تعالى في هذه الآية أنه بسبب البخل المطبوع في الإنسان «لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله تعالى لما جاد بها كجود الله تعالى، لأمرين:

أحدهما: أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته.

الثاني: أنه يخاف الفقر ويخشى العدم، والله عز وجل يتعالى في جوده عن هاتين الحالتين»[1].

قال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

أي: «خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل»[2].

«وقد بلغت هذه الآية الكريمة من وصف الإنسان بالشح الغاية القصوى، حيث أفادت أنه لو استولى على خزائن رحمة ربه التي لا تحد ولا تنفد، وانفرد بملكها دون مزاحم له لأمسكها؛ لشدة حرصه وبخله على عباد الله»[3].

فإن قيل: فقد دخل في (الإنسان) الجواد الكريم؟

فيجيب عن هذا الرازي فيقول: «الأصل في الإنسان البخل؛ لأنه خلق محتاجًا، والمحتاج لا بد أن يحب ما به يدفع الحاجة، وأن يمسكه لنفسه، إلا أنه قد يجود به لأسباب من خارج، فثبت أن الأصل في الإنسان البخل.

ثم إن الإنسان إنما يبذل لطلب الثناء والحمد، وللخروج عن عهدة الواجب! فهو في الحقيقة ما أنفق إلا ليأخذ العوض، فهو في الحقيقة بخيل»[4].

إذًا ففي نفس كل إنسان قدر من الشح، ولكن مع هذا فكل إنسان مأمور أن يقاوم هذا الشح، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم -فيما رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه-: (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن

(١) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٧٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٧.
(٣) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٥/ ٨١٠- ٨١١.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤١٣ بتصرف.

سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)[1].

فقد أمر الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم المسلم بالابتعاد عن الشح، ولو لم يوجد في نفس الإنسان شح لما أمراه بأن يتوقاه، إذ كيف يأمراه بأن يتوقى شيئًا ليس موجودًا فيه أصلًا، فالله عز وجل له الحكمة البالغة والعلم الكامل، وهو الحكيم العليم سبحانه.

وإذا أمر الله العبد بشيء لم يأمره إلا بما فيه مصلحة ومنفعة له سواء كانت هذه المنفعة دنيوية أو أخروية، وإذا نهاه عن الشيء لم ينهه إلا عن شيء فيه مضرة عليه في الدنيا وفي الآخرة.

فالشريعة أتت لتهذيب نفس هذا الإنسان، والاهتمام بأخلاقه، فلا بد على كل إنسان أن يتعرف على طرق الوقاية من داء البخل والشح وطرق العلاج؛ لكي يعمل بما أمره الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما ستتكلم عليه في مبحث قادم، إن شاء الله تعالى.

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٩٩٦، رقم ٢٥٧٨، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

أنواع البخل

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

لا شك أن البخل لا خير فيه؛ بل هو شر كله، وهو من الصفات المذمومة التي نهى الله تعالى عنها، وحذر منها في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة، فالبخل داء فتاك، كم فرق بين أحباب، ودمر بيوتًا ومجتمعات، وزرع الحسد والحقد بين قلوب البشر.

ولا شك أن البخل مذموم كله، وظلمات بعضها فوق بعض؛ لكنه كما قيل: بعض الشر أهون من بعض! فلذلك ستتكلم عن أنواع البخل في القرآن الكريم، فلقد ذكر القرآن الكريم نوعين للبخل:

النوع الأول: بخل المرء بما يملك: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾.

النوع الثاني: بخل المرء بما يملك غيره: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

قال الرغب رحمه الله تعالى: «والبخل ضربان: بخل بقنيات نفسه، وبخل بقنيات غيره، وهو أكثرها ذمًا، دليلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [الحديد: ٢٤]»[2].

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٠٩.

ونحن إن شاء الله تعالى سنتكلم في هذا المبحث عن النوعين، كل نوع في مطلب، فسنتكلم في المطلب الأول عن النوع الأول من أنواع البخل، ثم في المطلب الثاني نتكلم إن شاء الله عن النوع الثاني.

أولًا: بخل المرء بما يملك:

هذا هو النوع الأول من أنواع البخل، وهو: بخل الإنسان بمقتنيات نفسه مما يملك مما آتاه الله سواء كان مالًا أو علمًا أو جاهًا أو غير ذلك.

وهذا النوع قد أكثر القرآن الكريم من ذمه، من ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾ [الليل: ٨ - ١١].

ولقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم الاستعاذة من البخل، فقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات)[1].

والبخل قد يحمل صاحبه على الامتناع عن أداء ما أوجب الله تعالى عليه في هذه الحياة، فترى البعض يبخل بنفسه وماله ووقته عن أداء ما أوجبه الله عليه في الدنيا، فيمتنع عن تأدية حقوق الله من الزكاة والصدقة وغيرها، أو عن تأدية حقوق النفس من الطعام والشراب والملبس، أو عن تأدية حقوق الخلق من حق الوالدين والزوجة والأولاد والأقارب، يمتنع عن كل ذلك بسبب البخل، وبهذا يكون قد دمر سعادته في حياته الدنيا وفي الآخرة.

فصاحب البخل لا يشعر بالراحة ولا الطمأنينة، فهو دائمًا يسيء الظن بخالقه، ويعيش في هم وحزن على رزقه، ويحسب أنه بقوته وفطنته هو الذي جمع هذا المال كله بتعبه وجده واجتهاده وعلمه، كما قال الله تعالى عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص ٧٨].

ويحسب أن الله لن يرزقه ولن يكرمه إذا أنفق من هذا المال الذي عنده، ويحسب أن هذا الذي بين يديه من خير ونعمة إذا ذهبت لن يأتي بعده خير منها، فلهذا يطمع ويبخل ويحرص على ماله كل الحرص مع عدم إنفاقه.

ولقد حذر الله تعالى الناس من البخل

(١) أخرجه البخاري ٨/ ٧٩، رقم ٦٣٦٧، كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة المحيا والممات، ومسلم ٤/ ٢٠٧٩، رقم ٢٧٠٦، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره.

الذي يزينه لهم الشيطان؛ فبين أنه شر عظيم، وداء عضال مهلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

ومن أساليب القرآن في ذم هذا النوع من البخل: أنه جعل عاقبة البخل راجعة على البخيل بعكس قصده، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ﴾ [محمد: ٣٨].

وقد نقل الخطيب البغدادي في كتابه البخلاء عن أعرابي قوله: «عجبًا للبخيل المتعجل للفقر الذي منه هرب، والمؤخر للسعة التي إياها طلب، ولعله يموت بين هربه وطلبه، فيكون عيشه في الدنيا عيش الفقراء، وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء، مع أنك لم تر بخيلًا إلا وغيره أسعد بماله منه؛ لأنه في الدنيا متهم بجمعه، وفي الآخرة آثم بمنعه، وغيره آمن في الدنيا من همه، وناج في الآخرة من إثمه»[1].

ثانيًا: بخل المرء بما يملك غيره:

هذا هو النوع الثاني من أنواع البخل، وهو: بخل الإنسان بمقتنيات غيره مما لا يملك.

وهذا النوع أشد ذمًا في كتاب الله تعالى، فهو من أشد أنواع البخل، وهو صفة غير لائقة بأهل الإسلام، بل هو سجية عرف بها اليهود قديمًا وحديثًا، وهو من صفات المشركين عامة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٠٥].

«الخير: النعمة والفضل»[2]، فانظر كيف يبخلون بما لا يملكون من فضل الله تعالى ونعمه؟!

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس، فلا ترى يهوديًا، وإن كان ماله في غاية الكثرة، إلا وهو من أبخل خلق الله»[3].

وفي قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء: ٣٧].

«ذكر تعالى في هذه الآية من الأحوال المذمومة ثلاثا:

أولها: كون الإنسان بخيلًا وهو المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾.

وثانيها: كونهم آمرين لغيرهم بالخبل،

(١) البخلاء، الخطيب البغدادي ص ٢٢٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٥٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٦.

وهذا هو النهاية في حب البخل، وهو المراد بقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

وثالثها: قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، فيوهمون الفقر مع الغنى، والإعسار مع اليسار، والعجز مع الإمكان، ثم إن هذا الكتمان قد يقع على وجه يوجب الكفر، مثل أن يظهر الشكاية عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاء والقدر، وهذا ينتهي إلى حد الكفر، فلذلك قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾»[1].

إذًا فالبخل من الأخلاق السيئة، والسجايا الذميمة، والخلال الرديئة التي عابها الإسلام، وحذر منها تحذيرًا رهيبًا، فهو خلق لئيم باعث على المساوئ الجمة، والأخطار الجسيمة في دنيا الإنسان وأخراه، الموجبة لهوان صاحبها ومقته وازدرائه.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٩.

درجات البخل

بما أن الناس يتفاوتون في أعمالهم فكذلك الحال في إنفاقهم، فمن الناس من هو مسارع ومنفق للمال في وجوه الخير لا يبالي به، ومنهم من هو ممسك بخيل به لا ينفق حتى الواجب منه.

والممسكون عن الإنفاق البخلاء به يتفاوتون في بخلهم، فمنهم من يبخل عن أداء الواجبات، ومنهم من يبخل عن أداء المستحبات.

قال الألباني رحمه الله تعالى: «البخل بخلان:

- بخل يعذب عليه الإنسان، وهو إذا بخل بما فرض الله عليه.
- والبخل الآخر يذم عليه، ولكن لا يعاقب عليه، وهو الذي لا ينفق يمينًا ولا يسارًا ولا أمامه ولا خلفه.

فمن هنا نفرق بين ما هو واجب وبين ما هو مستحب، والناس في هذا متفاوتون»[2].

وبما أن الممسكون والبخلاء عن الإنفاق يتفاوتون في بخلهم على درجات، فنحن إن شاء الله تعالى سنتكلم في هذا المبحث عن ذلك بشيء من التفصيل فيما يلي:

(٢) دروس للشيخ الألباني ٦/ ١١، بترقيم الشاملة آليا.

الدرجة الأولى: البخل عن أداء الواجبات.

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

فهذا الوعيد الشديد في حق من بخل عن أداء الواجبات، ومنع كل ذي حق من أخذ حقه.

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية: «وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

وذكر الله في هاتين الآيتين، انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعًا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات، والنهي عن الشيء، أمر بضده»[1].

الدرجة الثانية: البخل عن أداء المستحبات.

وأما الذي يبخل عن أداء المستحبات فيقول الله جل وعلا فيه: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

«يعني: قد طلبت منكم اليسير فبخلتم فكيف لو طلبت منكم الكل... ثم بين أن ذلك البخل ضرر عائد إليه، فلا تظنوا أنهم لا ينفقونه على غيرهم؛ بل لا ينفقونه على أنفسهم، فإن من يبخل بأجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل إلا على نفسه، ثم حقق ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾، غير محتاج إلى مالكم، وأتمه بقوله: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾، حتى لا تقولوا: إنا أيضًا أغنياء عن القتال، ودفع حاجة الفقراء، فإنهم لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة»[2].

فقوله: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨].

«مسوق مساق التوبيخ أو مساق التنبيه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٦ بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٣.

على الخطأ في الشح»[1].

فالبخل إنما يعود على الإنسان بالوبال، سواء كان البخيل يبخل عن الواجبات أو يبخل عن المستحبات؛ «لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئًا»[2].

فمن خلال هذا العرض نستطيع أن نقول: إن البخل درجات يتفاوت فيها الناس من شخص إلى آخر، فهناك أشخاص يبخلون عن أداء الواجبات التي فرضها الله عليهم، فيعذبون بسبب بخلهم، وهناك أشخاص يبخلون عن أداء المستحبات، فيذمون على بخلهم، والله أعلم.

الشح من صفات المنافقين

لا شك أن البخل خلق ذميم، ووصف قبيح، لا بد على المسلم أن يتجنبه، وذلك لأنه من الصفات التي يبغضها الله تعالى، وهو من صفات المنافقين.

يقول الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٨٠].

والمنافقون هم أشد الناس بخلًا على المؤمنين، وبخلهم على المؤمنين أشد من بخلهم على غيرهم من الناس.

يقول الله تعالى مبينًا ذلك: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٣٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩١.

﴿يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٨ - ١٩].

فحول هذا الموضع سنتحدث بشيء من التفصيل فيما يلي:

١. أشحة على المؤمنين.

يقول تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «أي: بخلاء عليكم، أي: بالحفر في الخندق، والنفقة في سبيل الله، وقيل: بالقتال معكم، وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم، وقيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها»[(١)]، وذلك «للضغن الذي في أنفسهم»[(٢)].

فالبخل من صفات المنافقين التي ظهرت جلية عليهم، وأثبتها الله تعالى في كتابه في غير ما موضع، وقد قال الله تعالى فيهم أيضًا أنهم قالوا: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: ٧].

فهم من أشد الناس بخلًا على المؤمنين، وبسبب بخلهم هذا لا يحبون أن ينال المؤمنون خيرًا ولا نصرًا، ولو كان هذا الخير سيأتي من غيرهم، وتراهم يحرضون الناس على بغض المؤمنين ومعاداتهم وعدم الإنفاق عليهم، وذلك من شدة عداوتهم وبخلهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين.

قال السعدي رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية: «وهذا من شدة عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم ومسارعتهم في مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم، قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: ٧].

فإنهم - بزعمهم - لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم؛ لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجب، أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور، ولهذا قال الله ردًا لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: ٧].

فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٥٢-١٥٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٣٢.

من يشاء، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقون: ٧].

فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم»[١].

فبعد هذا العرض يتبين لنا أن المنافين من أشد الناس بخلًا على المؤمنين، وأن سبب البخل عندهم هو: عدم الإيمان بالله وحده، وعدم اليقين على لقائه يوم القيامة، وكذلك الحسد الذي ملأ قلوبهم غيظًا على المؤمنين، وكرهًا لهذا الدين العظيم، والله أعلم.

٢. أشحة على الخير.

ليس بخل المنافقين منحصرًا فقط على المؤمنين وعلى أنفسهم؛ بل بخلهم شمل كل خير، يقول الله تعالى مبينًا ذلك: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٨ - ١٩].

«فهم مع ذلك أشحة على الخير، أي: ليس فيهم خير، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير»[٢].

قال السعدي رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية: «أشحة على الخير الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحًا بما أمر به، شحيحًا بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحًا في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحًا بجاهه، شحيحًا بعلمه، ونصيحته ورأيه»[٣].

ففي هذه الآية دليل واضح على أن المنافقين من أشد الناس بخلًا، فهم «بخلاء على مشاريع الخير، وما ينفق في سبيل الله، فلا ينفقون؛ لأنهم لا يؤمنون بالخلف ولا بالثواب والأجر، وذلك لكفرهم بالله ولقائه؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٩].

فسجل عليهم وصف الكفر، ورتب عليه نتائجه»[٤].

فقد بين لنا ربنا جل وعلا حجم البخل والشح الذي وصل إليه المنافقون، وأن شحهم عم الخير كله، وسبب ذلك كله هو عدم الإيمان برب العالمين، والحسد على المؤمنين؛ ولذلك حذر الله المؤمنين من أن يتصفوا بأخلاق المنافقين، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «حذر المؤمنين أخلاق المنافقين، أي: لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا- للشح بأموالهم-: لا تنفقوا على من عند رسول الله»[٥].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٩١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦١.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٢٥٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٢٩.

فلا بد على المسلم أن يحذر من هذه الصفات التي قد تؤدي بالإنسان إلى الهاوية، نسأل الله تعالى العفو والعافية، في الدنيا والآخرة.

الوقاية والعلاج من الشح

قد تقرر من خلال المبحث الثالث أن البخل والشح طبيعة إنسانية! فهو موجود إذن في كل أحد، ولكن المشكلة التي وقع فيها البخلاء أنهم أطلقوا العنان لأنفسهم حتى تزايد البخل فيهم فتمكن منهم، فهذا هو السبب الداعي للذم الذي أصابهم، وهذا ما سنحاول التكلم فيه عن طرق الوقاية منه وعلاجه، لكيلا يصل المسلم إلى ما وصلوا إليه.

إن البخل والشح من الأمراض القلبية التي لا بد على المسلم أن يتجنبها ويبتعد منها قدر الإمكان، ولذلك ذم الله في كتابه من هي فيه، وحذر منها النبي صلى الله عليه وسلم في سنته، ومدح الله ورسوله متجنبها، ونحن في هذا المبحث سنتكلم بإذن الله تعالى عن طرق الوقاية منها لمن لم يصب بها، وطرق العلاج لمن أصيب بها، ولذلك سنقسم هذا المبحث إلى قسمين:

القسم الأول: ذكر طرق الوقاية من البخل والشح.

القسم الثاني: ذكر طرق العلاج من البخل والشح.

وسنبدأ بذكر طرق الوقاية التي يسلكها الشخص حرصًا منا على عدم تفشي هذا المرض العضال الذي ذمه الله ورسوله،

فنقول وعلى الله نتكل:

أولًا: ذكر طرق الوقاية من البخل والشح:

لقد مدح الله تعالى من وقى نفسه من الشح فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وقال جل في علاه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ [التغابن: ١٦].

وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم من تصدق وهو شحيح كما عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم؟ فقال: **(أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان)**[1].

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم كثرة الشح دليل على فساد الزمان، وعلامة على قرب الساعة، فقد جاء عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يتقارب الزمان، ويقبض العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشح، ويكثر الهرج)** قالوا: وما الهرج؟ قال: **(القتل)**[2].

وقبل ذكر طرق الوقاية من البخل والشح لا بد علينا من ذكر أسباب الوقوع في ذلك؛ لأنه إذا عرف الإنسان سبب المرض استطاع أن يتجنبه.

١. أسباب الوقوع في البخل والشح.

للبخل والشح أسباب توقع فيه ودواعي تدعو إليه، وأهم هذه الأسباب:

١. عدم اليقين على رب العالمين.

إن عدم اليقين على رب العالمين سواء بما أعده للمنفقين، أو بما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة، قد يكون هو الباعث على البخل، والسبب في ذلك: أن من لم يتيقن أن الله يبدل للعبد أكثر مما يعطي هذا العبد، بل هو المعطي للعبد ابتداء من غير حول منه

(١) أخرجه البخاري ٢/ ١١٠، رقم ١٤١٩، كتاب الزكاة، باب فضل صدقة الشحيح الصحيح، ومسلم ٢/ ٧١٦، رقم ١٠٣٢، كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح.

(٢) أخرجه البخاري ٨/ ١٤، رقم ٦٠٣٧، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، ومسلم ٤/ ٢٠٥٧، رقم ١٥٧ كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان.

ولا قوة، من لم يتيقن بذلك يبخل، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾ [الليل: ٨ - ١١].

فقد ربط في الآيات بين البخل والتكذيب.

٢. نسيان العواقب المترتبة على الشح.

قد يكون نسيان العواقب والآثار المترتبة على الشح سواء كانت دنيوية أو أخروية، أو كانت على الفرد، أو على المجتمع الإسلامي هي السبب في الوقوع في الشح، فإن من نسي عاقبة الشيء الضارة، وأثره المهلك، أو جهلها، فإنه يقع في هذا الشيء وهو لا يدري بعواقبه، وسنتكلم على عواقب الشح والبخل بالتفصيل في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

٣. حب الدنيا وتوهم الفقر.

حب الدنيا بزينتها وزخارفها من الأسباب المؤدية إلى الشح، حيث يتوهم من ابتلي بحب الدنيا أنه إذا أعطى فسيصبح فقيرًا تعيسًا، وستضيع صحته وعافيته، وتذهب مكانته وغناه ومنزلته بين الناس، وسيعيش شقيًا ذليلًا أمامهم، ويعرض نفسه لما لا تحمد عقباه من الأذى بكل صنوفه وأشكاله المادية والمعنوية.

فلذلك يفكر أن من الخير له أن يمسك عن الإنفاق، وعن المعروف الذي سيقدمه للناس؛ كي تدوم له دنياه، ناسيًا أو متناسيًا أن الله يخلف على عبده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ: ٣٩].

ولعل هذا من بين الأسباب التي من أجلها ذم الله عز وجل حب الدنيا، والمحبين لها، إذ يقول الله سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة: ٢١ ٢٠].

ويقول سبحانه: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٣﴾ [إبراهيم: ٢ - ٣].

٤. الواقع الذي يعايشه البخيل.

إن الواقع الذي يعيشه البخيل -سواء كان البيت أو المجتمع- إذا كان هذا الواقع معروفًا بالشح، ولم تكن لدى هذا الشخص المناعة الكافية، قد يتأثر بهذا الوقع المر، وتنتقل عدواه إليه، فيبخل بكل ما لديه من مال أو غيره، سواء كان في يده أو في يد غيره؛ ولهذا المعنى وغيره أكد الإسلام على ضرورة نظافة وطهارة واستقامة المجتمع المسلم، والحفاظ عليه من الآفات.

٥. إهمال الإنسان عن مجاهدة نفسه.

بسبب إهمال الإنسان نفسه عن المجاهدة

قد يقع في الشح دون أن يعلم، والسبب في ذلك: أن من طبيعة الإنسان أنه مجبول بفطرته على الشح كما بينا سابقًا، كما قال سبحانه: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٦ - ٨].

فقد يستسلم الإنسان لفطرته دون أية مجاهدة، فيقع في الشح ويتمكن منه، ويصعب عليه بعد ذلك علاجه.

٦. الكبر والحقد.

قد يكون الكبر والحقد من أسباب الوقوع في الشح، والسبب في ذلك: أن المتكبر يرى نفسه فوق الناس، وذلك بسبب اتباعه هواه، ووسوسة نفسه الأمارة بالسوء له، وطاعته لشياطين الجن والإنس، فيزينون له: ألا يعطي مما عنده شيئًا للآخرين؛ لأنهم هم المطالبون بخدمته وقضاء حوائجه، لا أن يكون هو في خدمتهم وحاجتهم، وحينئذ يقع في آفة الشح، والعياذ بالله.

وكذلك الحقد من بين الأسباب التي توقع في الشح، لأن المرء إذا كان حاقدًا على غيره فإنه سيسعى جاهدًا ألا ينفعه بنافعة من نفس، أو مال، أو هما معا، وهذا أمر بديهي، فقد أشار إليه ربنا جل وعلا في كلامه حين تحدث عن موقف الأنصار من المهاجرين فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

فقد بين سبحانه وتعالى في هذه الآية أن الذي حمل هؤلاء الأنصار على التضحية التي وصلت إلى حد الإيثار، إنما هو الإيمان بالله، مع سلامة الصدر من الأحقاد، والذي أثمر المحبة والمودة والموالاة.

٢. طرق الوقاية من البخل والشح.

وبعد أن تكلمنا عن أسباب البخل ننتقل إلى طرق الوقاية من البخل والشح، ويمكن تلخيصها في التخلص من الأسباب الجالبة للبخل، ونذكر منها الآتي:

١. الإيمان الصادق واليقين الجازم على رب العالمين.

إن اليقين على رب العالمين سواء بما أعده للمنفقين، أو بما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة؛ مما يقي الإنسان من البخل، وكذلك اليقين بأن الرزق بيد الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

ويقول سبحانه: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

[هود: ٦].

وكذلك اليقين بأن الله سيخلف على المنفق ما أنفقه، وأن ما عند الله خير وأبقى.

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص ٦٠].

فإن من تيقن ذلك لن يبخل في أن ينفق مما آتاه الله تعالى.

٢. تذكر العواقب المترتبة على الشح.

عندما يتذكر المسلم العواقب المترتبة على البخل والشح والآثار السيئة، وما سيحصل للبخيل في الدنيا والآخرة، سيخشى من الوقوع في هذا الخلق الذميم فيسعى لتجنبه.

٣. عدم التعلق بالدنيا وزينتها.

وذلك بأن يعلم أن الله كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، وسيجزي كل إنسان بما يسعى، ولا يظلم ربك أحدًا.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص ٦٠].

٤. مجاهدة النفس في دفع الشح عنها.

إن المسلم لا بد عليه أن يسعى لدفع الشح عن نفسه، وعليه أن يتذكر فضل من وقى عن نفسه الشح.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

وعليه أن يسعى لإصلاح المجتمع من حوله، وذلك بإصلاح أهله ومن يعول؛ لكي ينجو المجتمع كله من هذا المرض الذي يميت القلوب قبل موت الأبدان.

٥. تذكر فضل الإنفاق في سبيل الله وأجره.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠].

فمن تذكر ذلك الفضل والأجر لن يبخل بشيء.

٦. الاهتمام بإصلاح القلوب من الكبر والحقد والحسد وغيرها.

فمن اهتم بإصلاح قلبه من أمراض القلوب الخبيثة سهل عليه أن يتحرر بعد ذلك من الشح، بل سيصل إلى الإيثار في أسرع وقت ممكن، فإن الشح يعتبر ثمرة من ثمرات أمراض القلوب الخبيثة.

يقول الله تعالى عن الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

﴿الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

ولم يحصل منهم ذلك إلا بعد أن طهروا صدورهم من الأمراض.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

ثانيًا: ذكر طرق العلاج من البخل والشح:

بعد أن تكلمنا عن أسباب البخل، وأهم طرق الوقاية منه لمن لم يصب به، وجب علينا أن نذكر أهم طرق العلاج لمن ابتلاه الله به، وأراد التخلص منه؛ ليصبح من السهل عليه أخذ الدواء بعد أن علم الداء، ويسعى إلى الشفاء بإذن الله تعالى.

لقد أبدى القرآن الكريم وأعاد في معالجة مشكلة البخل التي تنخر في جسد المجتمع المسلم، ونوع في أساليب تلك المعالجة ما بين ترغيب وترهيب، فإليك السبل ومن ذلك ما يلي:

١. مدح المنفقين والمتصدقين.

فقد مدح الله أبا بكر الصديق رضي الله عنه بكرمه، وإنفاقه في سبيله، وفكه للعاني، وبذله ماله لله تعالى بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝٢١﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

وقد قال سبحانه في مدح من وقى نفسه من الشح: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ [التغابن: ١٦].

وقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

٢. ترتيب الثواب العظيم للمنفقين والمتصدقين.

يقول سبحانه: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٦٢﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٦٢].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٤﴾ [البقرة: ٢٧٤].

٣. حث المؤمنين على الإنفاق.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا

خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧ - ٢٦٨].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١٠ - ١١].

وقال جل وعلا: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن: ١٦].

٤. الوعد بالخلف على المنفق.

من أساليب القرآن أيضًا في علاج هذه الظاهرة هي: وعد المنفق بالخلف، وإقناعه بأن ما ينفقه من مال هو لنفسه، وأنه لا ينقص من ماله شيئًا، بل قد يزيده، ويبين القرآن للمنفق بأن ما عند الله خير مما أنفق، وأبقى، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص ٦٠].

فمن استشعر أن ما عند الله من الأجر والثواب، والنعيم المقيم، وأنه خير مما ينفقه العبد آناء الليل وآناء النهار، فإنه سيسعى لعلاج نفسه من البخل.

٥. توجيه نظر الإنسان إلى أن المال ملك الله تعالى، وإنما الإنسان خليفة فيه.

ومن أساليب القرآن كذلك أنه جعل الإنسان يوجه نظره إلى النعم التي أنعم الله بها عليه من مال وغيره على أنها ليست ملكًا له حتى يمنعها عن عباد الله، وإنما هي ملك لله، وهو أمين أو خازن فقط على هذه النعم، ومن واجب الأمين أو الخازن: أن يتصدق وفق مراد صاحب النعمة، وقد دعا صاحب النعمة إلى إنفاقها على عباده، وفي مرضاته.

يقول الله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧].

٦. جعل الزكاة ركن من أركان الإسلام.

يقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال الرازي: «اقتضت حكمة الشرع تكليف مالك المال بإخراج طائفة منه من يده؛ ليصير ذلك الإخراج: كسرًا من شدة الميل إلى المال، ومنعًا من انصراف النفس بالكلية إليها. وتنبيها لها على أن سعادة الإنسان لا تحصل عند الاشتغال بطلب المال، وإنما تحصل بإنفاق المال في طلب مرضاة الله تعالى.

فإيجاب الزكاة علاج صالح متعين لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب، فالله سبحانه أوجب الزكاة لهذه الحكمة، وهو المراد من قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي: تطهرهم وتزكيهم عن الاستغراق في طلب الدنيا»[(١)].

٧. إيراد القرآن لبعض قصص وأخبار أهل الكرم والجود من البشرية.

من ذلك ما أورده الله تعالى من قصة نبيه إبراهيم عليه السلام وإكرامه لأضيافه، فقال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٧].

فبمطالعة قصص وسير الكرماء، ولا سيما سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وسير الصحابة والتابعين، وقصص أبناء أمتنا المسلمة المعروفين بالكرم وهم كثر، فبمطالعة أخبار هذا الصنف من البشر سيكون له دور كبير في تحريك الأشحاء من داخلهم، علهم يتوبون أو يذكرون، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٨. حث المسلم على التوسط في الإنفاق.

أي: بلا إفراط ولا تفريط[(٢)]، وبإعطاء كل ذي حق حقه، فقليل دائم خير من كثير منقطع، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يقول تعالى آمرا بالاقتصاد في العيش ذامًا للبخل ناهيا عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلًا منوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٧٧.

(٢) قال الزمخشري رحمه الله تعالى: «وقيل: الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي، فأما في القرب فلا إسراف، وسمع رجل رجلًا يقول: لا خير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير». الكشاف ٣/ ٢٩٣.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملومًا محسورًا.

وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا، فإنها تسمى الحسير»[1].

ولذلك يقول الرحمن ممتدحًا عباده: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

٩. ذم البخل وأهله.

فعادة الناس دائمًا النفور من المذموم سواءً ذمه الله ورسوله أم ذمه الناس وعابوه، فكيف بشيء يذمه الله ورسوله وكل الناس ممن سلمت فطرتهم؟! والمتأمل للقرآن الكريم يجد أن الخطاب القرآني لعباده المؤمنين يصور لهم البخل والشح دائمًا في قالب الذم، ولم تأت آية أو إشارة في آية تمدح البخل أو تزينه، وهذا امرٌ واضح وبين في كتاب الله تعالى، ويكفي في ذمه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ق: ٢٣ - ٢٥].

ففي هذه الآية ذم الله المانع للخير بصيغة المبالغة.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٦ - ٣٧].

«فـ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾: بدل من قوله: ﴿مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، والمعنى: إن الله لا يحب من كان مختالًا فخورًا، ولا يحب الذين يبخلون»[2].

وقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٨ - ١١].

١٠. الخوف مما يقع على البخيل من العقاب الأخروي.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٧٠.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٠/ ٨٧.

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

١١. عدم طاعة البخلاء، أو التشبه بهم.

فلقد حذر الله رسوله من طاعة البخلاء بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [القلم: ١٠ - ١٢].

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران: ١٥٦].

فقد نهى الله المؤمنين عن مشابهة الذين كفروا في البخل بأنفسهم عن الجهاد في سبيل الله.

فعدم مصاحبة البخلاء والابتعاد عنهم، والذهاب إلى المجتمع المعروف بالسخاء، يحمل الشحيح على الاقتداء والتأسي، أو على الأقل التشبه.

١٢. النظر في آيات وأحاديث فضل الإنفاق، والحض على الصدقة.

النظر في فضل الإنفاق من كتاب الله عز وجل، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لكي تتعظ النفوس بما فيهما، ولكي تقف على أخبار وجزاء المنفقين، وأخبار وعاقبة البخلاء، كما في سورة القلم من قصة أصحاب الجنة.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠].

وقد كان من هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثرة الإنفاق من النعم التي أنعم الله بها عليه من مال أو غيره، وكان من أشد الناس حرصًا على إنفاقها في مرضاة الله عز وجل دون بخل أو شح.

فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة)[1].

(١) أخرجه البخاري ١/ ٨، رقم ٦، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسلم ٤/ ١٨٠٣، رقم ٢٣٠٨، كتاب الفضائل، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة.

فبالنظر في الآيات والأحاديث يسهل على النفس الوصول إلى التخلص من الأخلاق الذميمة، ويبعث فيها النشاط للتحلي بالأخلاق الحميدة.

١٣. مجاهدة النفس.

فلا بد من مجاهدة النفس والأخذ بعزيمتها، وحملها بجد على ترك البخل والشح، والتحلي بالإيثار والكرم، ووعظها تارة بالترغيب، وتارة أخرى بالترهيب، والصبر على ذلك زمانا، فإن هذه المجاهدة إن كانت صادقة توصل بسرعة إلى المراد، فالله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومع ذلك لا بد من محاسبة النفس أولًا بأول، فإن المحاسبة لها دور كبير في التخلص من هذا المرض، ولا سيما إن كان مع المحاسبة تأديب للنفس، وتتبع للمرض حتى الشفاء بإذن الله تعالى.

١٤. كثرة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى.

إذا علم العبد أن (القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء)[(١)].

كان لزامًا عليه أن يتوجه بقلبه لمالكه ومدبره ومقلبه ليصرف عنه من الأمراض ما يبعده عن مرضاته، ولهذا كان التخلص من البخل أو أي خصلة من خصال الشر لا يتحقق إلا بتوفيق الله سبحانه، ثم بالدعاء.

وكيف لا يكون الأمر كذلك والله سبحانه يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

فبالدعاء إن كان صادقًا يكفي الله العبد كل الأزمات، ويعينه على نفسه في التخلص من كل مرض.

١٥. النظر في العواقب والآثار المترتبة على الشح في الدنيا والدين والآخرة.

إن النظر في العواقب الضارة والآثار المهلكة المترتبة على الشح والبخل -سواء كانت هذه العواقب دنيوية أو أخروية، أو كانت على الفرد، أو على المجتمع الإسلامي-مما يخوف النفوس، ويحركها من داخلها، الأمر الذي ييسر عليها سبل الإقلاع، والتخلص من هذا الداء.

فعندما ينظر البخيل إلى عواقب البخل والشح، وما سيحصل له في الدنيا والآخرة، سيسعى حثيثًا لعلاج هذا الخلق الذميم.

وبعد أن أكملنا الكلام عن أسباب الوقوع

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٩/ ١٦٠، رقم ١٢١٠٧، والترمذي ٤/ ٤٤٨، رقم ٢١٤٠، أبواب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، وابن ماجه ٢/ ١٢٥٧، رقم ٣٨٣٤، كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الترمذي: وهذا حديث حسن.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ٣٤٧، رقم ١٦٨٥.

في البخل والشح، وطرق الوقاية منها، وكيفية العلاج لمن ابتلاه الله بهذا الداء، وجب علينا أن نتحدث عن عاقبة البخل والشح في الدنيا والآخرة، وهذا ما ستتكلم عليه بالتفصيل في المبحث القادم، إن شاء الله تعالى.

عاقبة الشح والبخل

إن البخل دليل على قلة العقل وسوء التدبير، وهو أصل لنقائص كثيرة، ويدعو إلى خصال ذميمة، ومن شأنه: أن يهلك الإنسان ويدمر الأخلاق، ويؤخر صاحبه، ويبعده عن صفات الأنبياء والصالحين، كما أنه دليل على سوء الظن بالله عز وجل.

فالبخيل محروم في الدنيا، مؤاخذ في الآخرة، وهو مكروه من الله عز وجل، مبغوض من الناس، والشحيح أشد في الذم من البخيل، لأنه يجتمع فيه البخل مع الحرص.

وللشح والبخل آثار ضارة، وعواقب مهلكة، على الفرد وعلى المجتمع، ودونك طرفًا من هذه الآثار، وتلك العواقب:

١. تنوع العقاب في الآخرة:

وهذا من أعظم العواقب التي تقع على البخيل، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فالبخلاء «ظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم»[(١)]، «فلا يتوهمن هؤلاء البخلاء أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٨.

بخلهم هو خير لهم، بل هو شر لهم؛ وذلك لأنه يبقى عقاب بخلهم عليهم»[1].

ويقول سبحانه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

فهذه العاقبة أشد العواقب وأنكاها على النفس، فمهما واجه البخيل في الدنيا من عواقب ومصائب ورزايا فإنها لا تعد شيئًا أمام تلك الألوان العظام من عذاب الله تعالى، أجارنا الله وإياكم منه.

٢. يستبدل الله به غيره من عباده فينفق في أوجه الخير ما لا ينفقه الشحيح.

ولعل من أشد العواقب التي قد يواجهها البخيل بماله والضان به على دين الله وعباد الله، أن يستبدل الله به غيره من عباده فينفق في أوجه الخير ما لا ينفقه الشحيح؛ فيحوز المنفق الأجر والثواب مع رضوان الله عنه، قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد: ٣٨].

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم بين الله سبحانه أنه من تولى عنه بترك الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك، ومن تولى عنه بإنفاق ماله أبدل الله به من يقوم بذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة: ٣٨ - ٣٩].

وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد: ٣٨]»[2].

٣. البخل يورث النفاق في القلب.

ومن العواقب الوخيمة للبخل أنه يورث النفاق في القلب.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٤٣.

(٢) الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٢٦٩.

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

[التوبة: ٧٥ - ٨٠].

فالذي سبب لهم خلف الوعد والوقوع في خصلة النفاق هو بخلهم وشحهم ومنعهم الصدقات، ولهذا كان البخل موصلًا للنفاق بما يترتب عليه من خلف الوعد.

٤. الحرمان من الأجر المترتب على الإنفاق في أبواب الخير.

قال الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

فهو «حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئا»[(١)]، «فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون، فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور، فإذا بخلوا بالبذل، فإنما يبخلون على أنفسهم، وإنما يقللون من رصيدهم، وإنما يستخسرون المال في ذواتهم وأشخاصهم، وإنما يحرمونها بأيديهم! أجل. فالله لا يطلب إليهم البذل، إلا وهو يريد لهم الخير، ويريد لهم الوفر، ويريد لهم الكنز والذخر، وما يناله شيء مما يبذلون، وما هو في حاجة إلى ما ينفقون»[(٢)].

٥. الوقوع في الإثم بسبب منعه لما يجب عليه من حقوق وواجبات.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[التوبة: ٣٤ - ٣٥].

فهذا العذاب الأليم ما ناله المعذبون إلا بسبب وقوعهم في إثم المنع من الإنفاق الواجب، البخلاء به، فمنع الواجب إثم يرتكبه البخيل بماله، فيعاقب عليه.

٦. حرمان البخيل من التزكية والتطهير الذي يحوزه المنفقون.

فإن البخيل يحرم من تزكية وتطهير النفقة للمنفق من الذنوب والخطايا، يقول الله تعالى لنبيه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال الماوردي رحمه الله تعالى: «فقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ فيها وجهان: أحدهما: أنها الصدقة التي بذلوها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٠٣.

من أموالهم تطوعًا، والثاني: أنها الزكاة التي أوجبها الله تعالى في أموالهم فرضًا؛ ولذلك قال: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، لأن الزكاة لا تجب في الأموال كلها، وإنما تجب في بعضها، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، أي: تطهر ذنوبهم، وتزكي أعمالهم»[1]، «والتزكية: جعل الشيء زكيًا، أي: كثير الخيرات، فقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات، وقوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات، ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية، فالمعنى: أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم، ومجلبة للثواب العظيم»[2].

٧. البخل من أسباب فقر البخيل، وتعريض ماله للتلف.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧ - ٢٦٨].

قال البغوي رحمه الله تعالى: «ومعنى الآية: أن الشيطان يخوفكم بالفقر، ويقول للرجل: أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدقت به افتقرت، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، أي: بالبخل ومنع الزكاة»[3]؛ وذلك «لأن الشيطان يصد الناس عن إعطاء خيار أموالهم، ويغريهم بالشح أو بإعطاء الرديء والخبيث، ويخوفهم من الفقر إن أعطوا بعض مالهم»[4].

وكما في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ الآيات [القلم: ١٧ - ٢٠].

«فلما منعوا الناس خيرها، وبخلوا بحق الله فيها؛ أهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بها»[5].

٨. فوات الخيرية في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢٨٠].

فالبخيل الذي لا يتصدق ليس له من هذا الخير نصيب، و«المراد بالخير: حصول الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة»[6].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٩٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٣.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٧٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٥٩.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٩/ ٢٨٥ بتصرف.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٨٧.

٩. تعسير الأمور على البخيل.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾ [الليل: ٨ - ١١].

ففي هذه الآية دليل على أن البخيل أموره كلها متعسرة.

١٠. حمل النفس على الوقوع في كل إثم ورذيلة.

فلقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآثام والرذائل التي يثمرها البخل حين قال -في الحديث الذي رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما-: (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)[(١)].

وفي رواية لأبي داود من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا)[(٢)].

١١. سبب في الهلاك وفساد المجتمع.

فقد بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم كما مر في حديث جابر بن عبد الله السابق.

١٢. يوقع الإنسان في كبائر الذنوب، ومن ذلك سفك الدماء واستحلال المحارم.

كما مر في حديث جابر بن عبد الله السابق أيضًا.

١٣. البخل يفسد العلاقات بين الناس.

فالبخل يعيق الصلح بين الناس، ويزرع الفرقة والتمزق في المجتمع، وإذا ابتلي المجتمع الإسلامي بالفرقة والقطيعة بين أهله، ومزقوا شر ممزق، كانت النتيجة: تمكن العدو، وإحكامه القبضة على أعناقه، وتضييق الخناق عليه، فتطول الطريق، وتكثر التكاليف، على النحو الذي نشهده، ونعيشه نحن المسلمين اليوم.

قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١١٤﴾ [النساء: ١١٤].

وختامًا لهذا المبحث نقول: إن البخيل بعد هذا كله أشد الناس عناءً وشقاءً في الدنيا، فهو مبغوض مكروه حتى من أقرب الناس إليه كزوجته وأبنائه وأقاربه، وربما تمنى موت البخيل أقربهم إليه، وأحبهم له، بل قد يصل بهم الحد إلى أن يدعوا عليه،

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٩٩٦، رقم ٢٥٧٨، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

(٢) أخرجه أبو داود ٣/ ١٢٣، رقم ١٦٩٨، كتاب الزكاة، باب في الشح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ٥٢١، رقم ٢٦٧٨.

لأنه حرمهم من نواله، وطمعًا في ثروته، حتى يستطيعوا التنعم بما حرمهم منه من أموال، فالبخيل يعيش في قلق واضطراب نفسي، يكدح في جمع المال والثراء، ولكن لا يستطيع الاستمتاع والتلذذ به، وسرعان ما يخلفه للورثة، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء مع وجود المال معه، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

موضوعات ذات صلة:

الإكراه، الحرام، الحلال، الضر

البراء

عناصر الموضوع

مفهوم البراء	٨
البراء في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
البراءة في حق الله تعالى	١٢
براءة الأنبياء والصالحين من أقوامهم	١٥
براءة الشيطان من أتباعه	٢٠
من صور البراءة يوم القيامة	٢٢
الأسلوب القرآني في عرض البراء	٢٣
ما يُتبَرأ منه	٢٧
ثمرات البراءة ونتائجها	٢٩

مفهوم البراء

أولًا: المعنى اللغوي:

برأ: الباء، والراء، والهمزة: يدل على أصلين في اللغة إليهما ترجع فروع الباب>

أحدهما: الخلق، يقال: برأ الله الخلق يبرؤهم براءً، والبارئ: الله جل ثناؤه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

والأصل الآخر: التباعد عن الشيء، يدل على التبرؤ، والتخلص، والتنزه، والتباعد، والتنصل والتزايل، وغير ذلك.

والبراء: مصدر برئت[(١)]؛ ولأنه مصدر فلا يجمع ولا يثنى ولا يؤنث، فتقول: رجلٌ براء، ورجلان براء، ورجالٌ براء، وامرأة براء[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١]. أي: إعذار وإنذار وتنزه[(٣)]، وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لقد عرف العلماء البراء اصطلاحًا بتعريفات عديدة منها:

«هو البعد، والخلاص، والعداوة بعد الإعذار والإنذار»[(٥)].

«بغض أعداء الله من المنافقين وعموم الكفار، وعداوتهم، والبعد عنهم، وجهاد الحربيين منهم بحسب القدرة»[(٦)].

«بغض الطواغيت التي تعبد من دون الله تعالى (من الأصنام المادية والمعنوية: كالأهواء والآراء)، وبغض الكفر (بجميع ملله) وأتباعه الكافرين، ومعاداة ذلك كله»[(٧)].

---

(١) انظر: المقصور والممدود، الفراء ص ٢٦، المقصور والممدود، أبو علي القالي ص٣٥٩.
(٢) انظر: المصدرين السابقين، تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٢٦٩.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٣٦.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٢، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٣٦، مختار الصحاح، الرازي، ص ٤٥، القاموس المحيط ١/ ٨.
(٥) الولاء والبراء في الاسلام، القحطاني ص ٩٠.
(٦) تسهيل العقيدة الإسلامية، الجبرين ص ٥٥٢.
(٧) الولاء والبراء بين الغلو والجفاء، حاتم الشريف ص ١٣.

البراء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (برأ) في القرآن الكريم (٣١) مرة، وما يخص منها موضوعنا (٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧]
الفعل المضارع	٢	﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ [يوسف:٥٣]
الاسم	١٢	﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ [الممتحنة:٤]
المصدر	٣	﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة:١]
اسم المفعول	١	﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور:٢٦]

وجاء البراء في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو المفارقة والتباعد من الشيء ومزايلته[٢].

(١) انظر: المعجم الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبدالله جلغوم، ص٣١٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٣٦، مختار الصحاح، الرازي ص٣١.

الألفاظ ذات الصلة

١ البراءة:

البراءة لغةً:

مصدر (بريء) إذا تنزه وتباعد، وبريء إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ قال ابن الأعرابي: بريء إذا تخلص من عهدة الرد به[١].

البراءة اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، بل ينحدر منه.

الصلة بين البراء وبراءة:

لا يوجد فرق فهما بنفس المعنى، بل إن لفظة البراءة من اشتقاقات لفظة (برأ)، ويتضح ذلك من خلال تعريف البراء.

٢ الترك:

الترك لغةً:

بمعنى التخلية عن الشيء، أي: البعد عنه، وترك الأمر، أي: طرحه وأهمله[٢]، وهذا المعنى مشابه لمعنى البراء إلى حد كبير.

الترك اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الترك والبراء:

هناك تشابهٌ إلى حد كبير مع مصطلح البراء، فالبراء يشتمل على معنى المفارقة والتجنب والإهلاك والامتحان.

٣ الولاء:

الولاء لغةً:

القرب والدنو والمحبة والنصرة[٣]، قال الراغب الأصفهاني: «ولي: الولاء والتوالي: أن

(١) انظر: لسان العرب، ١/ ٣٣، وذكر ذلك أيضًا الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٢٦٩.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٤٥.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٤٠٥، مقاييس اللغة، ابن فارس، ص ١١٠٣، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٧٦، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٤/ ٤٠١.

يحصل شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولاية: النصرة»[1].

الولاء اصطلاحًا:

التقرب إلى الله عز وجل والنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالمحبة والنصرة والطاعة، وغير ذلك من مظاهر الولاء[2].

الصلة بين الولاء والبراء:

معنى الولاء يأتي على النقيض تمامًا من معنى البراء، فالبراء يعني البعد والطرح والبغض، أما الولاء فيعني القرب والحب والنصرة

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٣٤.
(٢) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني ص ٨٧.

البراءة في حق الله تعالى

أولًا: براءة الله عز وجل من المشركين:

قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].

والمعنى: إلى الذين عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين؛ لأن العهود بين المسلمين والمشركين عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يكن يتولى عقدها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من يعقدها بأمره، ولكنه خاطب المؤمنين بذلك لعلمهم بمعناه، وأن عقود النبي صلى الله عليه وسلم على أمته كانت عقودهم؛ لأنهم كانوا لكل أفعاله فيهم راضين، ولعقوده عليهم مسلمين، فصار عقده عليهم كعقودهم على أنفسهم، فلذلك قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، لما كان من عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده[(١)].

وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣].

معطوفًا على قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾

وموقع لفظ (أذان) كموقع لفظ (براءة) في التقدير، وهذا إعلام المشركين الذين لهم عهد بأن عهدهم انتقض[(٢)]، وكما أن هذه الآية تقرر حكمًا شرعيًا، والمشرع هو الله أضيف صدور البراءة إليه سبحانه، وعطف عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المقام؛ لأنه هو المبلغ عنه، والمنفذ لما يبلغه[(٣)].

قال الامام الرازي: «لقائل أن يقول: لا فرق بين قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وبين قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ فما الفائدة في هذا التكرير؟

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن المقصود من الكلام الأول الإخبار بثبوت البراءة، والمقصود من هذا الكلام إعلام جميع الناس بما حصل وثبت.

والوجه الثاني: أن المراد من الكلام الأول البراءة من العهد، ومن الكلام الثاني البراءة التي هي نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد، والذي يدل على حصول هذا الفرق أن في البراءة الأولى بريء إليهم، وفي الثانية: بريء منهم، والمقصود أنه تعالى أمر في آخر سورة الأنفال المسلمين بأن يوالي بعضهم بعضًا، ونبه به على أنه يجب عليهم أن لا يوالوا

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٩٦.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٠٧.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ١٩٦.

الكفار وأن يتبرءوا منهم، فههنا بين أنه تعالى كما يتولى المؤمنين فهو يتبرأ عن المشركين ويذمهم ويلعنهم، وكذلك الرسول؛ ولذلك أتبعه بذكر التوبة المزيلة للبراءة.

والوجه الثالث: في الفرق أنه تعالى في الكلام الأول، أظهر البراءة عن المشركين الذين عاهدوا ونقضوا العهد، وفي هذه الآية أظهر البراءة عن المشركين من غير أن وصفهم بوصف معين؛ تنبيهًا على أن الموجب لهذه البراءة كفرهم وشركهم»[1].

ثانيًا: تبرأة الله لموسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[الأحزاب: ٦٩]

لقد حكى القرآن الكريم ألوانًا من إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام، ومن ذلك قولهم له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ومن إيذائهم له عليه السلام ما رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن موسى كان رجلًا حييًا ستيرًا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر، إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة[2]: وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه، ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩])[3].

قال ابن عاشور: «معنى ﴿بَرَّأَهُ﴾ أظهر براءته عيانًا؛ لأن موسى كان بريئًا مما قالوه من قبل أن يؤذوه بأقوالهم، فليس وجود البراءة منه متفرعة على أقوالهم، ولكن الله أظهرها عقب أقوالهم، فإن الله أظهر براءته من التغرير بهم إذ أمرهم بدخول أريحا،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٥٢٦.

(٢) الأدرة: بالضم: نفخةٌ في الخصية؛ يقال: رجلٌ آدر بين الأدر.
انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٤٢، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٤، ٤/ ١٥٦.

فثبت قلوبهم وافتتحوها، وأظهر براءته من الاستهزاء بهم إذ أظهر معجزته حين ذبحوا البقرة التي أمرهم بذبحها فتبين من قتل النفس التي اداراوا فيها، وأظهر سلامته من البرص والأدرة حين بدا لهم عريانًا لما انتقل الحجر الذي عليه ثيابه. ومعنى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ برأه من مضمون قولهم لا من نفس قولهم؛ لأن قولهم قد حصل وأوذي به، وهذا كما سموا السبة القالة»[1].

واختتام الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ توضح سبب عناية الله عز وجل بتبرئة نبيه موسى عليه السلام، والوجيه: هو صاحب الجاه والمكانة، فكانت لموسى عليه السلام مكانة عظيمة عند الله تعالى ، وهذا تسفيه للذين آذوه بأنهم آذوه بما هو مبرأ منه، وتنويه وتوجيه لتنزيه الله إياه بأنه مستحق لتلك التبرئة؛ لأنه وجيه عند الله تعالى[2].

وأولى الأقوال وأصوبها في قضية تبرئة موسى عليه السلام ما قاله الإمام الطبري: «أن يقال: إن بني إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يؤذى به، فبرأه الله مما آذوه به، وجائز أن يكون ذلك كان قيلهم: إنه أبرص، وجائز أن يكون كان ادعاءهم عليه قتل أخيه هارون، وجائز أن يكون كل ذلك؛ لأنه قد ذكر كل ذلك أنهم قد آذوه به، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قال الله إنهم آذوا موسى، فبرأه الله مما قالوا»[3].

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٢١.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٧٦.
(٣) جامع البيان ٢٠/ ٣٣٥.

براءة الأنبياء والصالحين من أقوامهم

أولًا: براءة إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه:

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤].

والمعنى: قد كان لكم- أيها المؤمنون- أسوة حسنة، وخصلة حميدة، ومنقبة كريمة، في قصة أبيكم إبراهيم عليه السلام ، وفي قصة الذين آمنوا معه، وقت أن قالوا لقومهم الكافرين، بشجاعة وقوة: إنا برآء منكم، ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله عز وجل، وإننا قد كفرنا بكم وبمعبوداتكم، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغض على سبيل التأبيد والاستمرار، ولن نتخلى عن ذلك معكم، حتى تؤمنوا بالله - تعالى وحده-، وتتركوا عبادتكم لغيره تعالى [(١)].

قال صاحب الكشاف: «لقد كان في إبراهيم ومن آمن معه مذهب حسن مرضي، جدير بأن يؤتسى به، ويتبع أثره، وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا، حيث كاشفوهم بالعداوة، وقشروا لهم العصا، وأظهروا لهم البغضاء والمقت، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم، ليس إلا كفرهم بالله، وما دام هذا السبب قائمًا، كانت العداوة قائمة، حتى إن أزالوه وآمنوا بالله وحده، انقلبت العداوة موالاة، والبغضاء مودة، والمقت محبة، فأفصحوا عن محض الإخلاص»[(٢)].

فيوضح القرآن الكريم كيف أعلن إبراهيم عليه السلام والمؤمنون معه بكل شجاعة وشدة، إيمانهم الكامل بالحق، وبراءتهم وكراهيتهم واحتقارهم، لكل من أشرك مع الله عز وجل في العبادة آلهة أخرى، وأنهم لم يكتفوا بالتغيير القلبي للمنكر، بل جاهروا بعداوتهم له، وبالتنزه عن اقترابهم منه[(٣)].

وفي موضع آخر يعلن إبراهيم عليه السلام براءته من شرك قومه صراحة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ٧٨].

قال الإمام الطبري: « فلما رأى إبراهيم الشمس طالعةً، قال: هذا الطالع ربي، ﴿هَٰذَا أَكْبَرُ﴾، يعني: هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾، يقول: فلما غابت، قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: من عبادة الآلهة والأصنام ودعائه إلهًا مع الله تعالى »[(٤)].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٢٨.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥١٤.

(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٢.

(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٨٧.

ثانيًا: براءة نوح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [هود: ٣٢-٣٥].

والمعنى: قال قوم نوح له: قد طال منك هذا الجدال، وهو المراجعة في الحجة ومقابلة الأقوال ومناقشتها حتى تقع الغلبة، فأتنا بما تعدنا به من العذاب والهلاك المعجل في الدنيا، إن كنت صادقًا في ادعائك أن الله يعذبنا على عصيانه في الدنيا قبل الآخرة، أجاب نوح قومه عن اتهامه بكثرة الجدال قائلًا: ليس إنزال العذاب أو العقاب بيدي، وليس لي توقيته، وإنما ذلك بيد الله، وهو الآتي به إن شاء وإذا شاء، ولستم من المنعة بحال من يفلت أو يعتصم لتنجوا، وإنما أنتم في قبضة القدرة الإلهية، وتحت سلطان الملك الإلهي، وليس نصحي بنافع، ولا إرادتي الخير لكم مغنية إذا كان الله تعالى قد أراد بكم الإغواء والإضلال والإهلاك، الله ربكم، أي خالقكم والمتصرف في أموركم، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور، وإليه ترجعون في الآخرة، فيجازيكم بما كنتم تعملون في هذا العالم من خير أو شر.

وقوله سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ اختلف المفسرون في هذه الآية.

فقال الطبري: «أن هذه الآية معترضة في قصة نوح، وهي في شأن محمد صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش، ويحتمل كون الكلام في شأن نوح عليه السلام، فإن قومه زعموا أن العذاب الذي توعدهم به أمر مفترى بقصد إرهابهم.

والراجح أن هذه الآية من محاورة نوح لقومه، كما قال ابن عباس؛ لأنه ليس قبل هذا الكلام ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه، والخطاب منهم ولهم، وهم يقولون: افترى ما أخبركم به من دين الله، وعقاب من أعرض عنه، ففي هذه الآية إعلان صريح من نوح أنه بريء من أعمال قومه وشركهم»[1].

وفي موضع آخر يتحدى نوح قومه بأنه لا يكترث بتهديد ووعيد قومه له.

قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس: ٧١

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٠٤٠، تفسير الشعراوي ١١/ ٦٤٤٨.

- ٧٢].

يقول نوح عليه السلام لقومه: إن كان قد شق عليكم وعظم قيامي معكم للدعوة إلى عبادة ربكم، وتذكيري ووعظي إياكم بآيات الله أي بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وعبادته، فإني توكلت على الله وحده ووثقت به، فلا أبالي ولا أكف عن دعوتي ورسالتي، سواء عظم عليكم أو لا، فأجمعوا أمركم، أي اعزموا على ما تريدون من أمر تفعلونه بي، أنتم وشركاؤكم الذين تعبدونهم من دون الله من صنم ووثن، ولا تجعلوا أمركم الذي تعتزمونه خفيًا ملتبسًا عليكم، بل أظهروه لي، وتبصروا فيه، وافصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلى ذلك الأمر ونفذوه بالفعل، ولا تؤخروني ساعة واحدة عن تنفيذ هذا القضاء، فمهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أبالي بكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء[1].

ثالثًا: براءة هود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٣-٥٥].

بعد أن دعا نبي الله هود عليه السلام قومه لعبادة الله وحده، وحذرهم من الإعراض عنه سبحانه ، وناداهم بلفظ: -يا قوم- ثلاث مرات، تودداً إليهم، وتذكيرًا لهم بآصرة القرابة التي تجمعهم وإياه؛ لعل ذلك يستثير مشاعرهم، ويحقق اطمئنانهم إليه، كان جوابهم: ما جئتنا بحجة وبرهان على ما تدعيه أنك رسول من عند الله، ولن نترك عبادة آلهتنا بمجرد قولك: اتركوهم، وما نحن لك بمصدقين، فكان جوابهم متضمنًا أربعة أشياء كلها عناد وحماقة واستكبار، وهي المطالبة بالبينة والإصرار على عبادة الآلهة.

قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ قال الامام الزمخشري فيها ما ملخصه «أي: مسك بجنون لسبك إياها، وصدك عنها، وعداوتك لها، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم صرت تتكلم بكلام المجانين وتهذي بهذيان المبرسمين»[2].

ثم قال: «وقد دلت ردودهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت، ولا يلتفتون إلى النصح، ولا

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٢٤.

(٢) البرسام: أي بكسر الموحدة سريانيٌ معربٌ أطلق على اختلال العقل وعلى ورم الرأس وعلى ورم الصدر.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ٣٣٨.

تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دال على جهل مفرط، وبلهٍ متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم...»[1].

وبعد أن استمع هود عليه السلام إلى ردودهم القبيحة، فما كان منه إلا أن يقف منهم موقف المتبريء من شركهم، والمتحدي لطغيانهم، والمعتمد على الله- تعالى وحده- في الانتصار عليهم، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: أشهد الله على نفسي واشهدوا علي أني بريء من شرككم ومن عبادة الأصنام، ولا يعني هذا أنهم كانوا أهلًا للشهادة، ولكنه نهاية للتقرير، أي لتعرفوا، ولم يقل: (إني أشهد الله وأشهدكم) لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما؛ فإن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم، وإذا كنت بريئًا من جميع الأنداد والأصنام، أي مما تشركون من دون الله، فإني أعلن ذلك صراحة، فاجمعوا كل ما تستطيعون من أنواع الكيد لي، جميعًا أي أنتم وآلهتكم، ولا تمهلوني طرفة عين، إني فوضت أمري كله لله ربي وربكم، ووكلته في حفظي، فهو على كل شيء قدير[2].

ويمكننا أن نخلص إلى أن رد هود عليه السلام على قومه تضمن عدة أمور وهي: التحدي والمعجزة الباهرة، وقلة المبالاة بهم وبتهديدهم، والبراءة من شركهم، وإشهاد الله على ذلك، وإشهادهم على براءته من شركهم، وطلبه المكايدة له، وإظهار قلة المبالاة بهم، وعدم خوفه منهم ومن آلهتهم.

رابعًا: براءة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٩].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين، الجاحدين نبوتك، العادلين بالله، ربًا غيره: ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾، أيها المشركون ﴿لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰ﴾، يقول: تشهدون أن معه معبودات غيره من الأوثان والأصنام»[3].

(١) الكشاف ٢/ ٤٠٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٦٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢١٨، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٨٩.

(٣) جامع البيان ١١/ ٢٩٢.

قال الإمام الرازي: «واعلم أن هذا الكلام دال على إيجاب التوحيد والبراءة عن الشرك من ثلاثة أوجه:

أولها: قوله: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ أي: لا أشهد بما تذكرونه من إثبات الشركاء.

وثانيها: قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ﴾ وكلمة إنما تفيد الحصر، ولفظ الواحد صريح في التوحيد ونفي الشركاء.

وثالثها: قوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ وفيه تصريح بالبراءة عن إثبات الشركاء، فثبت دلالة هذه الآية على إيجاب التوحيد بأعظم طرق البيان وأبلغ وجوه التأكيد.

قال العلماء: المستحب لمن أسلم ابتداء أن يأتي بالشهادتين، ويتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام.

ونص الشافعي رحمه الله على استحباب ضم التبري إلى الشهادة؛ لقوله: وإنني بريء مما تشركون عقيب التصريح بالتوحيد»[1].

ومما يتصل بسياق الآية قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

قال الإمام الطبري: «وإن كذبك يا محمد، هؤلاء المشركون، وردوا عليك ما جئتهم به من عند ربك، فقل لهم: أيها القوم، لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم، لا يضرني عملكم، ولا يضركم عملي، وإنما يجازى كل عامل بعمله ﴿عَمَلُكُمۡ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾، لا تؤاخذون بجريرته ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ لا أوخذ بجريرة عملكم»[2].

قال ابن تيمية: «فقد أمره الله أن يتبرأ من عمل كل من كذبه وتبريه هذا يتناول المشركين وأهل الكتاب»[3].

فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة، أن يظهر البراءة من أعمال الكفار القبيحة إنكارًا لها، وإظهارًا لوجوب التباعد عنها، وبين هذا المعنى في سورة الكافرون[4].

ومن الآيات التي تحدثت عن تهديد النبي صلى الله عليه وسلم لعشيرته بالبراءة، قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٦].

ومعنى هذه الآيات: فإن عصتك يا محمد صلى الله عليه وسلم عشيرتك الأقربون الذين أمرتك بإنذارهم، وأبوا إلا الإقامة على عبادة الأوثان، والإشراك بالرحمن، فقل لهم: (إني بريءٌ مما تعملون) من عبادة الأصنام ومعصية باريء الأنام[5].

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٥٠٠.

(٢) جامع البيان ١٥/ ٩٤.

(٣) مجموع الفتاوى ١٦/ ٥٤٦.

(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٥٧.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤١١.

وهذه الآية تفريع على قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: فإن عَصَوْا أمرك المستفاد من الأمر بالإنذار، أي: فإن عصاك عشيرتك فما عليك إلا أن تتبرأ من عملهم، فالتبرؤ إنما هو من كفرهم، وإنما أُمِرَ أن يقول لهم ذلك؛ لإظهار أنهم أهلٌ للتبرؤ من أعمالهم، فلا يقتصر على إضمار ذلك في نفسه[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٠٣.

براءة الشيطان من أتباعه

يعتبر الشيطان من ألد الأعداء للإنسان منذ بداية الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد أخذ الشيطان العهد على نفسه أمام الله عز وجل على إغواء بني آدم وإضلالهم، ولكن يأتي يوم على الشيطان يعلن براءته من الإنسان، وسوف نتعرف على بعض المواقف التي يتبرأ فيها الشيطان من أتباعه:

أولًا: براءة الشيطان من المشركين في بدر:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ألقى الشيطان في روع المشركين أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم، وعددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات تجعله مجيرًا لهم، وحافظًا إياهم عن السوء حتى قالوا: اللهم انصر أهدى الفئتين، وأفضل الدينين، ولكن حينما التقت الفئتان، فئة المؤمنين وفئة المشركين ولى الشيطان مدبرًا وقال للكافرين: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من عهدكم وجواركم ونصرتكم، إني أرى

من الملائكة النازلة لتأييد المؤمنين مالا ترونه أنتم، إني أخاف الله أن يعذبني قبل يوم القيامة، أو إني أخاف الله أن يصيبني بمكروه من قبل ملائكته[1].

ثانيًا: براءة الشيطان ممن دعاهم للكفر يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

لقد قام الشيطان للكافرين في هذا اليوم مقامًا يقصم ظهورهم، ويقطع قلوبهم، فأوضح لهم أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله تعالى وأنه أخلفهم ما وعدهم به، ثم أوضح لهم بأنهم قبلوا قوله بما لا يتفق مع العقل؛ لعدم الحجة التي لابد للعاقل منها في قبول قول غيره، ثم أوضح لهم بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان، الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء، ثم نعى عليهم ما وقعوا فيه، ودفع لومهم له، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم؛ لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل، ثم أوضح لهم بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية، ثم صرح لهم بأنه قد تبرأ مما اعتقدوه فيه وأثبتوه له، وهو إشراكه مع الله تعالى فتضاعفت عليهم الحسرات، وتوالت عليهم المصائب[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٤.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤٥.

من صور البراءة يوم القيامة

أولًا: براءة الرؤساء والكبراء من أتباعهم:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦].

يوم القيامة يتبرأ الرؤساء والكبراء من مرءوسيهم، حين يجمع القادة والأتباع، فيتبرأ بعضهم من بعض حال رؤيتهم جميعًا للعذاب وأسبابه ومقدماته، وما أعد لهم من شقاء وآلام، وقد ترتب على كل ذلك أن تقطع ما بين الرؤساء والأذناب من روابط كانوا يتواصلون بها في الدنيا، وصار كل فريق منهم يلعن الآخر ويتبرأ منه[(١)].

قال الطبري: «أخبر تعالى أن المتبعين على الشرك بالله يتبرءون من أتباعهم حين يعاينون عذاب الله. ولم يخصص بذلك منهم بعضًا دون بعض، بل عم جميعهم. فداخلٌ في ذلك كل متبوع على الكفر بالله والضلال أنه يتبرأ من أتباعه الذين كانوا يتبعونه على الضلال في الدنيا، إذا عاينوا عذاب الله في الآخرة»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يشمل الكل، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي: عنهم، مثل قوله: ﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

وفي الأسباب أربعة أقوال:

أحدها: أنها المودات، وإلى نحوه يذهب ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

والثاني: أنها الأعمال، رواه السدي عن ابن مسعود، وابن عباس، وهو قول أبي صالح وابن زيد.

والثالث: أنها الأرحام، رواه ابن جريج عن ابن عباس.

والرابع: أنها تشمل جميع ذلك[(٣)].

ثانيًا: تمني التابعين للرؤساء العودة للدنيا للتبرؤ منهم:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

يقول الذين كانوا تابعين لغيرهم في الباطل: ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا، فنتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا السبيل، كما تبرءوا منا في هذا اليوم العصيب، ولنشفي غيظنا منهم؛ لأنهم خذلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم، مثل ذلك الذي رأوه من العذاب، يريهم الله جزاء أعمالهم حسرات عليهم،

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ٤٠٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٨٨.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١٣١.

أي أن الله يظهر لهم أن أعمالهم كان لها أسوأ الأثر في نفوسهم؛ لما ورثته فيها من حسرة وشقاء وخسران، فهي تذهب وتضمحل، ولن يخرجوا من النار إلى الدنيا لشفاء كيدهم وغيظهم من رؤسائهم، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: أنهم خالدون في النار ولن يخرجوا منها أبدًا[1].

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ٦٩٦.

الأسلوب القرآني في عرض البراء

نـزل القرآن بلسان عربي مبين، على أفصح العرب وأقومهم لسانًا، وكان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول صلى الله عليه وسلم حيث تحداهم الله أن يأتوا بمثله، بل أن يأتوا بسورة منه، فهذا القرآن المعجزة يقف المسلم أمامه منبهرًا، بين الإعجاز وبين سلاسة الأسلوب وسهولة العبارة، وسنتعرف على أسلوب القرآن الكريم في عرض موضوع البراء.

أولًا: أسلوب الطلب:

أساليب الطلب في اللغة تأتي على عدة صور، منها:

١. صيغة الأمر.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦].

أي: إن أبوا قبول دعوتك إلى التوحيد، ورفضوا ما تدعوهم إليه، فأخبرهم يا محمد صلى الله عليه وسلم بأنك بريء مما يعملون[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٦٨٧.

[الكافرون ١-٦].

والمعنى: قل يا محمد صلى الله عليه وسلم: يا أيها الكافرون، لا أعبد على الإطلاق ما تعبدون من الأصنام والأوثان، فلست أعبد آلهتكم بأية حال، والآية تشمل كل كافر على وجه الأرض، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: ولستم أنتم ما دمتم على شرككم وكفركم عابدين الله الذي أعبد، فهو الله وحده لا شريك له، فهذه الآيات تنفي الاتحاد في العبادة، والمقصود من ذلك المبالغة التامة في البراءة من معبوداتهم الباطلة، ومن عبادتهم الفاسدة.

فنرى السورة الكريمة، قد قطعت كل أمل توهم الكافرون عن طريقه الوصول إلى مهادنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى الاستجابة لشيء من مطالبهم الفاسدة، وإنما هو صلى الله عليه وسلم بريء براءة تامة منهم ومن معبوداتهم وعباداتهم[(١)].

قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

أي: أخبرهم بأنهم لا يؤاخذون بعملك ولا تؤاخذ أنت بعملهم، فهم بريئون منك وأنت بريء منهم[(٢)].

٢. صيغة النهي.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

أي: يا أيها المصدقون بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا عدوي وعدوكم أنصارًا وأصدقاءً وأعوانًا لكم، بل لابد أن تتبرؤوا منهم ومن أعمالهم[(٣)].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [التوبة: ٢٣].

ثانيًا: أسلوب الخبر:

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

بعدما تعرف إبراهيم عليه السلام على الإله الحق، أخبر قومه بأنه بريء من كل الآلهة التي يعبدونها من دون الله تعالى[(٤)].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

أي: فلما رأى إبليس الملائكة ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾[(٥)].

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ١٥/ ٥٢٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١١/ ١١٠.
(٣) انظر: أوضح التفاسير، الخطيب ١/ ٦٨٠.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٦٢.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي

ومن الأساليب الخبرية ما يكون مؤكدًا بإن، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦].

أي: بريء مما تعبدون من أصنام لا أعبدها[(١)].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

ثالثًا: أسلوب الحوار:

١. حوار نوح عليه السلام مع قومه.

قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [هود: ٣٢-٣٥].

والمعنى: قال قوم نوح له: قد طال منك هذا الجدال، وهو المراجعة في الحجة ومقابلة الأقوال ومناقشتها حتى تقع الغلبة، فأتنا بما تعدنا به من العذاب والهلاك المعجل في الدنيا، إن كنت صادقًا في ادعائك أن الله يعذبنا على عصيانه في الدنيا قبل الآخرة، أجاب نوح قومه عن اتهامه بكثرة الجدال قائلًا: ليس إنزال العذاب أو العقاب بيدي، وليس لي توقيته، وإنما ذلك بيد الله، وهو الآتي به إن شاء وإذا شاء، ولستم من المنعة بحال من يفلت أو يعتصم لتنجوا، وإنما أنتم في قبضة القدرة الإلهية، وتحت سلطان الملك الإلهي، وليس نصحي بنافع، ولا إرادتي الخير لكم مغنية إذا كان الله تعالى قد أراد بكم الإغواء والإضلال والإهلاك، الله ربكم، أي خالقكم والمتصرف في أموركم، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور، وإليه ترجعون في الآخرة، فيجازيكم بما كنتم تعملون في هذا العالم من خير أو شر[(٢)].

٢. حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٦٣٥ ٦/ ١١٩.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٠٤٠، تفسير الشعراوي ١١/ ٦٤٤٨.

﴿رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٤ - ٧٨].

والمعنى: اذكر أيها النبي حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر: أتتخذ هذه الأصنام والأوثان الجمادات آلهة، تعبدها من دون الله، مع أن الله هو الذي خلقها وخلقك، فهو المستحق للعبادة دونها، إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام في ضلال واضح، أي تائهين حيارى جهلاء، وأي ضلال أوضح من عبادتكم صنما من حجر أو شجر أو معدن، تنحتونه بأيديكم، ثم تعبدونه وتقدسونه، ثم أوضح الله تعالى ما رآه إبراهيم من ملكوت السماوات والأرض، أي تبيان وجه الدلالة في خلقهما على وحدانية الله في ملكه وخلقه، فلما أظلم عليه الليل، رأى كوكبًا عظيمًا متميزًا عن سائر الكواكب بإشراقه ولمعانه، وهو كوكب المشتري أو الزهرة، فقال موهمًا قومه في مقام المناظرة والحجاج: هذا ربي، على سبيل الفرض.

فلما غرب هذا الكوكب، قال إبراهيم: ما هذا بإله، ولا أحب ما يغيب ويختفي؛ لأن للإله السيطرة على الكون، فكيف يغيب الإله ويستتر، ثم انتقل إبراهيم من إبطال ألوهية الكوكب إلى إبطال ألوهية القمر الأكثر إضاءة، فلما رأى القمر بازغًا طالعًا عم ضوءه الأرض، قال: هذا ربي، فلما غاب كما غاب الكوكب في الليلة الماضية، قال إبراهيم مسمعًا قومه: ما هذا أيضًا بإله، ولئن لم يهدني ربي ويوفقني لإصابة الحق في توحيده، لأكونن من القوم الضالين المخطئين الطريق، فلم يصيبوا الهدى، وعبدوا غير الله.

ولما رأى إبراهيم الشمس بازغة طالعة، وهي أعظم الكواكب المرئية لنا، قال إبراهيم: هذا هو الآن ربي، هذا أكبر من الكواكب والقمر قدرًا، وأعظم ضوءًا ونورًا، فلما غابت الشمس كما غاب غيرها، صرح إبراهيم بعقيدته، وتبرأ من شرك قومه، قائلًا: إني توجهت في عبادتي لخالق الأرض والسماء، وخالق هذه الكواكب، إني بريء مما تشركون، باتخاذ إله آخر مع الله، وإنما أعبد خالق هذه الأشياء ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء. ومثل إبراهيم لقومه بهذه الأمور؛ لأنهم كانوا أصحاب علم نجوم ونظر في الأفلاك، قال إبراهيم: إني أقبلت بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني للذي أبدع السماوات[1].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٧/ ٢٥٩.

ما يُتبرأ منه

أولًا: الأوثان والمعبودون من دون الله:

قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الطاغوت: كل ما صرف عن عبادة الله تعالى من إنسان أو شيطان أو غيرهما[(١)]، والمعنى: فمن تبرأ وخلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله، وآمن بالله تعالى إيمانًا خالصًا صادقًا فقد ثبت أمره واستقام على الطريقة المثلى التي لا انقطاع لها، وأمسك من الدين بأقوى سبب وأحكم رباط[(٢)].

وفي الموضع التالي يبين الله تعالى سبب براءة إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه من القوم في ذلك الزمان، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ۖ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤].

والمعنى: قد كانت لكم قدوة طيبة حميدة تقتدون بها في إبراهيم خليل الرحمن أبي الأنبياء والذين آمنوا معه من أتباعه حين قالوا لقومهم: إنا بريئون منكم؛ لكفركم بالله، وبريئون من كل ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأنداد، فقد جحدنا بما آمنتم به من الأوثان، أو بدينكم، أو بأفعالكم، فإن تلك الأوثان لا تنفع شيئا، فهي لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر[(٣)].

ثانيًا: المشركون عامة وذوو الأرحام منهم خاصة:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

لما وعد إبراهيم من أبيه أنه سيؤمن، كان بمنزلة المؤلفة قلوبهم بالاستغفار له؛ لأنه ظنه مترددًا في عبادة الأصنام لما قال له: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

فسأل الله له المغفرة لعله يرفض عبادة الأصنام، ولكن لما علم يقينًا أنه مصرٌ على الكفر أعلن براءته منه علانية وبشكل صريح في قوله تعالى -كما يدل عليه قوله-: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[(٤)].

وفي موضع آخر يعلن إبراهيم براءته من قومه عامة ومن أبيه خاصة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٨/ ٤٩٥.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٥٠٤.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٦٨.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٧٤.

أي: واذكر أيها الرسول لقومك قريش المعتمدين على تقليد الآباء والأجداد في عبادة الأصنام، حين تبرأ إبراهيم عليه السلام مما يعبد أبوه آزر، وقومه من الأصنام، إلا من عبادة خالقه وخالق الناس جميعًا، والذي قال بأنه سيرشدني لدينه، كما أرشدني في الماضي، ويثبتني على الحق[1].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي: من شأن المؤمنين الصادقين أن يبتعدوا عن موالاة أعداء الله ورسوله، ولو كان هؤلاء الأعداء، آباءهم الذين أتوا إلى الحياة عن طريقهم أو أبناءهم الذين هم قطعة منهم، أو إخوانهم الذين تربطهم بهم رابطة الدم أو عشيرتهم التي ينتسبون إليها، بل يجب إعلان البراءة منهم؛ وذلك لأن قضية الإيمان يجب أن تقدم على كل شيء، ثم أثنى سبحانه على هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين لم يوالوا أعداء الله مهما بلغت درجة قرابتهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أولئك الذين لا يوادون أعداء الله، مهما كانوا، هم الذين كتب الله تعالى الإيمان في قلوبهم، فاختلط بها واختلطت به، فصارت قلوبهم لا تحب إلا من أحب دين الله، ولا تبغض إلا من أبغضه[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣ - ٢٤].

والمعنى: يا أيها المصدقون بالله ورسوله، لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء تنصرونهم في القتال، وتؤيدون الكفار لأجلهم، أو تطلعونهم على أسرار المسلمين العامة أو الحربية، إن اختاروا الكفر على الإيمان، وآثروا الشرك على الإسلام، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون لأنفسهم وأمتهم لأنه خالفوا الله ورسوله، بموالاة الكافرين بدلًا من التبرؤ منهم، فبعد أن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٥.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٥١.

نهى عن مخالطتهم، أوضح أن هذا النهي للتحريم لا للتنزيه، بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم؛ لأنه رضي بشركهم، والرضا بالكفر كفر، كما أن الرضا بالفسق فسق.

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله، مصدرًا ذلك بكلمة (إن) المفيدة للشك؛ لأن حب الكافرين مشكوك فيه من المؤمنين، والمقصود هو تفضيل حبهم على حب الله، أما أصل الحب فهو أمر فطري طبعي لا لوم عليه، ولا مؤاخذة فيه؛ لأن التكليف يتوجه على الأمور المقدورة للإنسان، لا على الأمور الجبلية الفطرية كالحب والبغض.

فقال له: قل: إن كنتم تؤثرون هذه الأشياء الثمانية، وتفضلون الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة (القرابة القريبة) والأموال، والتجارة، والمساكن، على حب الله ورسوله، أي طاعتهما، والجهاد في سبيله الذي يحقق السعادة الأبدية في الآخرة، فانتظروا حتى يأتي الله بعقابه العاجل أو الآجل[1].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٧٧، تفسير النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٩.

ثمرات البراءة ونتائجها

البراءة هي جزء أساس من عقيدة المسلم، وإذا التزم المسلم بهذه العقيدة فسيكون لها ثمرات ونتائج كثيرة في الدنيا والآخرة، وستتعرف على أهم هذه الثمرات:

أولًا: الفوز بمرضاة الله، والنجاة من سخط الجبار جل جلاله:

ما قال سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وبعقيدة البراء تتحقق أوثق عرى الإيمان: جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: (أي عرى الإيمان أوثق) ؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: (الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله)[2].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٢٨٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٠، والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢١٥.
قال الألباني في السلسلة الصحيحة ٩٩٨، ١٧٢٨: «فالحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى

وجاء في الحديث الآخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان)[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله»[2].

ثانيًا: السلامة من الفتن والفساد في الأرض:

قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

يقول ابن كثير: «أي إن تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل»[3].

ثالثًا: حصول النعم والخيرات في الدنيا، والثناء الحسن في الدارين:

ولنتأمل قول الله عز وجل - في حق إبراهيم عليه السلام-: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٩ - ٥٠].

يبين سبحانه ما ترتب على اعتزال إبراهيم عليه السلام للشرك والمشركين، والمعنى: حين اعتزل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه وآلهتهم الباطلة لم نضيعه، وإنما أكرمناه وتفضلنا عليه بأن وهبنا له إسحاق ويعقوب ليأنس بهما بعد أن فارق أباه وقومه من أجل إعلاء كلمتنا وكلًا جعلنا نبيًا أي: وكل واحد منهما جعلناه نبيًا ووهبنا لهم أي: لإبراهيم وإسحاق ويعقوب من رحمتنا بأن جعلناهم أنبياء ومنحناهم الكثير من فضلنا وإحساننا ورزقنا[4]، فاعتزال الشرك والمشركين، والفسق والفاسقين، يؤدي إلى السعادة الدينية والدنيوية.

رابعًا: يكون من حزب الله تعالى، ويحقق الغلبة والنصر على الكافرين:

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ

درجة الحسن على الأقل».

(١) أخرجه أبو داود رقم ٤٠٦١، والترمذي رقم ٢٤٤٠.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٠٢٩.

(٢) الاحتجاج بالقدر ص ٦٢.

(٣) تفسير ابن كثير، ٤/ ٩٨.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ٩/ ٤٤.

﴿وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي: من شأن المؤمنين الصادقين أن يبتعدوا عن موالاة أعداء الله ورسوله، ولو كان هؤلاء الأعداء، آباءهم الذين أتوا إلى الحياة عن طريقهم أو أبناءهم الذين هم قطعة منهم، أو إخوانهم الذين تربطهم بهم رابطة الدم أو عشيرتهم التي ينتسبون إليها، بل يجب إعلان البراءة منهم؛ وذلك لأن قضية الإيمان يجب أن تقدم على كل شيء.

ثم أثنى سبحانه على هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين لم يوالوا أعداء الله مهما بلغت درجة قرابتهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أولئك الذين لا يوادون أعداء الله مهما كانوا، هم الذين كتب الله تعالى الإيمان في قلوبهم، فاختلط بها واختلطت به، فصارت قلوبهم لا تحب إلا من أحب دين الله، ولا تبغض إلا من أبغضه[1].

خامسًا: تحفظ المسلم من الانقياد للكافرين:

قال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[آل عمران: ١٠٠].

يحذر الحق تعالى المؤمنين من إطاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعًا لهم عن ذلك، وتعليق الرد بطاعة فريق منهم؛ للمبالغة في التحذير عن طاعتهم، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية، فإنه في قوة أن يقال (لا تطيعوا فريقًا).. الخ كما أن تعميم التوبيخ فيما قبله للمبالغة في الزجر[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

الركون إلى الشيء: الميل إليه. يقال: ركن فلان إلى فلان، إذا مال إليه بقلبه، واعتمد عليه في قضاء مصالحه[3].

والمراد بالذين ظلموا هنا: ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين.

والمعنى: واحذروا -أيها المؤمنون- أن تميلوا إلى الظالمين، أو تسكنوا إليهم؛ لأن ذلك يؤدى إلى تقوية جانبهم، وإضعاف

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٥١.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٦٤.

(٣) انظر: تاج العروس ٣٥/ ١٠٩.

جانب الحق والعدل[1].

سادسًا: نيل ولاية الله:

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قال الإمام الطبري في هذه الآية ما ملخصه: «وليست اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم و يوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم. ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم؛ لأن اليهودية ضد النصرانية، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلا أن تكون يهوديًا نصرانيًا، وذلك مما لا يكون منك أبدًا؛ لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة، وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى الله الذي لجمع الخلق إلى الألفة عليه سبيل»[2].

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التوحيد، الشرك، الولاء

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٢٦.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٦٣.

البِرّ

عناصر الموضوع

مفهوم البر	٣٤
البر في الاستعمال القرآني	٣٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٦
صلة البر بالإيمان والتقوى	٣٩
مجالات البر	٤٢
البر والصلات الاجتماعية	٦٠
آثار البر في الدنيا والآخرة	٦٥

مفهوم البر

أولًا: المعنى اللغوي:

الباء والراء في المضاعف أربعة أصولٍ: الصدق، وحكاية صوتٍ، وخلاف البحر، ونبتٌ.

أما الصدق، فكالقول: فلانٌ بارٌ في يمينه، أي صادقٌ فيها، وأما حكاية الصوت، فالبر الصوت بالغنم إذا سيقت، والبربرة صوت المعز، وأما خلاف البحر، فيقال: أبر الرجل، أي صار على البر، وأبحر الرجل، أي صار في البحر، وخرج إلى البرية أي ذهب إلى الصحراء، وأما النبت، فالبر هو الحنطة[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر العلماء عدة معانٍ للبر، منها: التقوى والجنة والخير والإسلام والإيمان[(٢)]، وقد عرفه أبو حيان الأندلسي بأنه: «الإتيان بما كلفه الإنسان من تكاليف الشرع، اعتقادًا وفعلًا وقولًا»[(٣)]، وعرفه الشوكاني بأنه: «اسمٌ جامعٌ للخير»[(٤)]، وعرفه أحمد المراغي بأنه: «الإيمان وما يتبعه من الأعمال باعتبار اتصاف البار بها وقيامه بعملها»[(٥)].

وبالنظر في التعريفات السابقة يمكن القول بأنه يمكن دمجها في تعريف واحد هو: البر اسم جامع لكل ما يرضي ربنا جل وعلا.

مما سبق يظهر ترابط وثيق بين المعنى اللغوي لكلمة البر الذي بمعنى الصدق والطاعة، وبين المعنى الاصطلاحي لها، ولكن المعنى اللغوي أعم من الاصطلاحي، فالمعنى اللغوي يشمل الصدق مع أيٍ كان وطاعته، أما المعنى الاصطلاحي فيقتصر على الصدق مع الله تعالى، وطاعته جل وعلا، وهذا يتفق مع مفهوم العبادة.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، أبو بكر الأزدي ١/ ٦٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٨١، ١٧٩، المحكم، ابن سيده ١٠/ ٢٤٣، ٢٤٠، مشارق الأنوار، السبتي ١/ ٨٤.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٤٢٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٨٩، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٦٨.

(٣) البحر المحيط ٢/ ١٧٠.

(٤) فتح القدير ١/ ١٩٩.

(٥) تفسير المراغي ٢/ ٥٤.

البر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بر) في القرآن الكريم (٢٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿وَلَا تَجْعَلُوا عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ [البقرة:٢٢٤]
صفة مشبهة	٩	﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨]
اسم فاعل	١	﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس:١٦]
اسم	٨	﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة:٩]

وورد البر في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الصلة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ [البقرة: ٢٢٤]. لئلا تصلوا القرابة.

الثاني: الطاعة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. أراد بالبر الطاعة وترك المعصية.

الثالث: التقوى: ومنه قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. يعني لن تنالوا التقوى.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١١٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١٢٩،١٣٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ التقوى:

التقوى لغةً:

من وقى. الواو والقاف والياء كلمة واحدة تدل على دفع شيء بشيء آخر.[١]

التقوى اصطلاحًا:

أصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه[٢].

الصلة بين البر والتقوى:

من خلال تعريف كلٍ من البر والتقوى يمكن القول بأن البر فعل ما يرضي الله تعالى، واجتناب معصيته، بينما التقوى هي الاحتراز والوقاية من عذاب الله تعالى بأعمال البر.

٢ الخير:

الخير لغة:

الخير ضد الشر[٣].

الخير اصطلاحًا:

الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع[٤].

الصلة بين البر والخير:

يفهم من تعريفي البر والخير السابقين أن بينهما فارقًا وهو أن البر هو اسم جامع لكل ما يرضي ربنا عن قصد، أما الخير فقد لا يكون عن قصد إرضاء الله تعالى فقد يقع الخير من كافر كأن يتبرع لبناء مستشفى، أو لعلاج مريض، أو لتعليم طالب فقير أو غير ذلك.[٥]

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣١.
(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص١٣٨
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٢٣٨.
(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٣٤٨.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/ ١٧٠.

٣ الإحسان:

الإحسان لغة:

مصدر حسن، والحسن: ضد القبح ونقيضه، والإحسان: ضد الإساءة[١]

الإحسان اصطلاحًا:

هو: إتقان الأعمال والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه[٢].

الصلة بين البر والإحسان:

يظهر من خلال تعريفي البر والإحسان أن الإحسان أعلى درجة من البر فالبر هو اتيان العمل الصالح، بينما الإحسان هو اتقان العمل الصالح.

٤ الإثم:

الإثم لغة:

من أثم. الهمزة والثاء والميم أصل واحد، يدل على التأخر[٣]

الإثم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني بأنه:»ما يجب التحرز منه شرعًا وطبعًا«[٤]، وهو أيضًا التأخر عن فعل الطاعات[٥]، وقد عرفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:)والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس)[٦]، وهذا يعني أن ارتكاب الآثام أمر يشعر صاحبه بالضيق.

الصلة بين البر والإثم:

البر من القربات التي حث عليها ربنا جل وعلا، أما الإثم فهو مما نفر منه الشارع الحكيم، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٧.
(٢) التفسير المنير ١٤/ ٢١٢.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٦٠.
(٤) التعريفات ص ٩.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٦٤٨.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم ٤/ ١٩٨٠، رقم ٢٥٥٣.

٥ العدوان:

العدوان لغة:

التعدي في الأمر، وتجاوز ما ينبغي له أن يقتصر عليه[١].

العدوان اصطلاحًا:

التجاوز ومنافاة الالتئام، والإخلال بالعدالة في المعاملة[٢].

الصلة بين البر والعدوان:

البر اجتهاد في طاعة الله تعالى، أما العدوان فهو تجاوز لحدود ما شرع الله تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

٦ المعصية:

المعصية لغة:

من عصوى. العين والصاد والحرف المعتل أصلان صحيحان، إلا أن بينهما تباينًا فأحدهما يدل على التجمع، والآخر يدل على الفرقة، والمعصية هي المخالفة، والعاصي هو المخالف، والمعصية ضدها الطاعة.[٣]

المعصية اصطلاحًا:

هي «مخالفة الأمر قصدًا».[٤]

الصلة بين البر والمعصية:

يلاحظ من خلال تعريفي البر والمعصية أن هنالك اختلافًا بينهما فالبر هو الطاعة عن قصد، والمعصية هي المخالفة عن قصد.

(١) العين الفراهيدي ٢/ ٢١٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٥٣.
(٣) انظر: المصباح المنير، أحمد الفيومي ٢/ ٤١٤.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص٢٢٢.

صلة البر بالإيمان والتقوى

إن المتتبع لنصوص القرآن الكريم التي ورد فيها لفظ «البر» يجد أن هنالك اقترانًا بين البر وبين الإيمان والتقوى.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن حقيقة البر تكمن في الإيمان بالله، والآخرة، والملائكة، والقرآن، والأنبياء، وكذلك في الإنفاق في سبيل الله تعالى على المحتاجين من الأقارب، والأيتام، والمساكين، والمنقطع عن ماله وأهله في سفر، والسائلين، والعبيد، ويكمن الإيمان كذلك في المداومة على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، وبالصبر على الشدائد، وعند مواجهة العدو، ثم يعقب تعالى بالتأكيد على أن الملتزمين بما سبق من مكامن البر هم الأتقياء الصادقون.[١]

ويلاحظ أن الآية الكريمة قد بينت أن الذي يجمع بين العناصر التي يكمن فيها البر هو العبد التقي، وفي ذلك دلالة واضحة على أن لزوم البر يؤدي إلى الحصول على مرتبة التقوى.[٢]

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

يعلم الله تعالى عباده في هذه الآية أن الأهم في السؤال هو أن يكون سبيلًا للحصول على الجواب النافع لأمر الدين، فقد أوحى الله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم إجابة للسؤال عن الأهلة تبين علاقة الأهلة بما ينفع الناس من أحكام الدين، وتحديدًا علاقة الأهلة بتحديد المواقيت الزمانية لأشهر الحج، ثم يبين الله تعالى أنه ليس من البر أن يدخل المحرم بيته من ظهره، ولكن البر بلزوم تقوى الله تعالى في السر والعلن، ثم يأمر الله تعالى عباده بالدخول إلى البيوت من أبوابها حتى في حال الإحرام، وبلزوم التقوى في القول والعمل.[٣]

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٢٨، ٢٢٤.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٤٤٩.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٢٠، ١٢١.

﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

يأمر الله تعالى عباده في هذه الآية الكريمة بالتعاون على أداء الطاعات التي يتقى بها من العذاب الأليم[(١)].

ويلاحظ أن الآية الكريمة قد قرنت بين البر والتقوى؛ وذلك لبيان أن أعمال الخير لابد وأن يراعى فيها تقوى الله عز وجل[(٢)]، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

أن الله تعالى يجعل ما عمله الكفار في الدنيا من أعمال البر باطلًا لا ثواب له[(٣)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن التناجي بالقبيح من الأقوال مما لا يتفق مع ما دعا إليه الإسلام، ثم يبين لهم جل وعلا أنه في حال لزمت النجوى فلتكن بما فيه الخير[(٤)].

ويلاحظ من الآية السابقة اقتران البر بالتقوى، ولعل السبب في ذلك هو أنه لابد عند التناجي من مراعات أمرين، الأول: التناجي بما فيه المصلحة للمؤمنين، الثاني: الحذر من التناجي بالمعصية[(٥)].

مما سبق يتضح أن اقتران البر بالتقوى يرجع إلى الأسباب الآتية:

١. بيان أن لزوم البر يرقى بالعبد حتى يصل إلى مرتبة التقوى.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فقدم الله تعالى في هذه الآية أمره لعباده المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة، على أمره لهم بالتقوى، وذلك لأن الأمور المتقدمة ترقى بالعبد المؤمن إلى مرتبة التقوى، وشرح ذلك أن أمر الله تعالى لعباده المؤمنين بالصبر يشمل الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معصيته، والصبر على المحن والشدائد، كما يتضمن أمر الله تعالى لعباده المؤمنين بالمصابرة الجلد مع الأعداء بحيث يفوق صبرهم صبر أعداءهم، وكذا يتضمن أمر الله تعالى لعباده المؤمنين بالمرابطة حماية حدود المسلمين من أذى المتربصين بهم من أعداء الإسلام والمسلمين[(٦)]، ويعد جميع ما سبق من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢١٨.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٩٠٨.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣١١.
(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٨/ ٥٣٩.
(٥) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٧/ ٣٤١.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٢/ ٣٨٢.

أعمال البر التي من شأنها أن تقي صاحبها من عذاب الله تعالى وسخطه.

٢. لابد من مراعاة تقوى الله تعالى عند القيام بالأعمال الصالحة، وذلك حتى ينتفع بها صاحبها يوم الدين.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠ - ٣١].

تبين هذه الآيات الكريمة أن جزاء الصالحين من عباده الأتقياء الأنقياء الذين يستشعرون مراقبة الله تعالى لهم في كل عمل يقومون به، ويجتهدون في التقرب إليه سبحانه بما يحب من الطاعات، ويحذرون من الوقوع فيما نهاهم عنه من المخالفات هو الدخول في جنان النعيم المقيم في الآخرة[١].

وقال تعالى أيضًا في بيان حسن عاقبة المؤمنين الأتقياء: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

٣. لبيان أنه لابد للمؤمن أن يكون بارًا فلا يقدم إلا على الطاعات، وأن يكون تقيًا ورعًا، فيحذر من الوقوع في المعاصي.

فائدة:

تختلف لفظتا البر والتقوى في المعنى إذا اجتمعتا في الآية، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

فالبر هنا بمعنى اتيان الطاعات، والتقوى الاحتراز عن المنهيات[٢]، وتتفق اللفظتان في المعنى إذا افترقتا في الآية، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فمعنى البر هنا هو التقوى كما هو واضح من الآية الكريمة[٣].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٩.

(٢) انظر: تفسير ابن عرفة ٢/ ٨٤.

(٣) انظر: الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص١٣٢.

مجالات البر

أكرم الله تعالى عباده بدين البر والرشاد، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وكما يتضح من الآية الكريمة فإن الله تعالى قد ميز للناس طريق الهداية من طريق الضلال، وبعدها ترك لهم الخيار في سلوك أحد الطريقين، وبين أن المحق من العباد هو من سيختار طريق الهدى والرشاد، وذلك لما تميز به هذا الطريق من الدعوة إلى لزوم البر في كافة المجالات والتي منها ما يأتي:

أولًا: البر في الإيمان:

قرن الله تعالى أركان الإيمان بالبر في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ويتضح من الآية الكريمة أن الله تعالى قد بين أن ارضاءه والتقرب منه لا يكون بمجرد القيام بأداء بعض هيئات العبادات، وإنما يكون بإخلاص النية وسلامة المعتقد، ويتمثل ذلك بما يأتي:

١. البر في الإيمان بالله تعالى.

الإيمان بالله تعالى هو الركن الأول من أركان الإيمان، وهو كذلك الركيزة التي استندت إليها دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

والمنادي الذي نادى للإيمان هو محمد صلى الله عليه وسلم [(١)]، ويفهم من دعاء المؤمنين الوارد في فاصلة هذه الآية الكريمة أن الذي يموت على الإيمان بالله تعالى فهو من الأبرار المقبولين عند الله تعالى، وقال تعالى أيضًا على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٧ - ٣٩].

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ١/ ٣٢١.

ويفهم من هذه الآيات الكريمة أن ملازمة البر في المعتقد تتطلب الإيمان بالله تعالى وحده.

٢. البر في الإيمان باليوم الآخر.

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان وقد تقدم على غيره من الأركان في آية البقرة؛ لأنه من أبرز ما أنكره الكفار والمنافقين من أركان الإيمان بعد الإيمان بالله تعالى، وهذا ما هون عليهم انكار باقي أركان الإيمان، وكما هو معلوم فإن الكفار والمنافقين أنكروا على المؤمنين تحويل القبلة، ورأوا أن ذلك أمر جلل، ومن شأنه أن يشوه أمر المسلمين ويقدح في دينهم، فكان الرد عليهم من الله تعالى: بأن صلاح أمر المسلمين وبرهم بخالقهم جل وعلا لا يكون بالتوجه بالصلاة إلى هذه الناحية أو تلك بالدرجة الأولى، وإنما يكون بالتجرد لله تعالى وسلامة المعتقد قبل كل شيء، لا كما فعلتم أنتم يا من أفسدتم معتقداتكم وأنكرتم ما هو أعظم من تحويل القبلة[1].

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم قد قرن العديد من أعمال البر بالإيمان باليوم الآخر وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

ويأتي هذا الاقتران نظرًا لأن المكافأة على تلك الأعمال إنما يكون في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٢].

كما أن الإيمان باليوم الآخر هو أحد أبرز الدوافع للقيام بأعمال البر.

٣. البر في الإيمان بالملائكة.

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، وقد جعل الله تعالى الاعتقاد به من أصناف البر التي لا يصح إيمان عبد دونه، وهو من المعتقدات التي خالف فيها أهل الضلال النهج السليم الذي بينه ربنا جل وعلا في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وتظهر هذه الآية الكريمة أن المشركون وصفوا الملائكة بالأنوثة، وهذا أمر غير جائز كما هو معلوم؛ والعلة في عدم الجواز أن الملائكة عالم غيبي بالنسبة للبشر، والحديث عن تفاصيل تخص هذا العالم أمر يحتاج إلى دليل شرعي، وبما أنه لا دليل شرعي يصف الملائكة بالذكورة أو الأنوثة، فإن ادعاء المشركين بأن الملائكة إناثًا هو محض افتراء على الله تعالى، والأمر لم يقف عند هذا الوصف بل تعداه

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٨١.

إلى مناصبة أهل الشرك والضلال العداوة للملائكة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٧-٩٨].

وقد جاء عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (سمع عبد الله بن سلامٍ، بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في أرضٍ يخترف، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبيٌّ: فما أول أشراط الساعة؟، وما أول طعام أهل الجنة؟، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: (أخبرني بهن جبريل آنفًا) قال: جبريل؟: قال: (نعم)، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

(أما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوتٍ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت)، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بهتٌ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أي رجلٍ عبد الله فيكم). قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: (أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام). فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله)[1].

والشاهد من الحديث الشريف أن اليهود كانوا يعادون جبريل عليه السلام من الملائكة، ومن المعلوم أن معاداة الملائكة إنما هي معاداة لله تعالى؛ وذلك لأن الملائكة لا تقوم بشيء حتى يأمرها ربها جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٤٩-٥٠].

وبالتالي فإن البر يقتضي الإيمان بالملائكة لا بإنكارها، أو وصفها بما لا دليل من القرآن أو السنة عليه، أو مناصبتها العداء خصوصًا وأن مناصبة الملائكة العداء من أعمال الكافرين الباطلة.

٤ . البر في الإيمان بالكتب .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (من كان عدوًا لجبريل)، ٦/ ١٩، رقم ٤٤٨٠.

الإيمان بالكتب السماوية هو الركن الثالث من أركان الإيمان، وتعتبر الكتب السماوية المصدر الأساس لمعرفة أعمال البر المطلوب من العباد لزومها سواءً بالاعتقاد أو بالقول أو بالعمل، وذلك نظرًا لما تحويه من قواعد وتشريعات إلهية يعد الالتزام بها من أعمال الخير والبر التي تقرب العباد من ربهم جل وعلا، وقد جاء تصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢].

ومعنى قيمًا: أي مستقيمًا بذاته فلا اعوجاج فيه، مقومًا لغيره ممن لزمه واقعًا تطبيقيًا[(١)]، كما جاء في قوله تعالى أيضًا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

وبالتالي فإن الإيمان بالقرآن من أعمال البر وهو النتيجة التي أدت إليها دعوة القرآن إلى الرشد كما يتضح من الآيتين الكريمتين، ويقال في باقي الكتب السماوية ما قيل في القرآن الكريم فالكل صادر عن الله تعالى، ولو لم يكن الإيمان بجميع الكتب من البر لما دعا إلى ذلك ربنا جل وعلا في كتابه العزيز في قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

٥. البر في الإيمان بالرسل.

الإيمان بالرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان، ويعد الرسل هم الأساتذة الذين يعلمون البشرية الاستقامة على طريق الهدى والرشاد، وهم القدوة الحسنة التي يجب على العباد السير على خطاهم، ولو لم يكونوا كذلك لما أمر الله تعالى بطاعتهم وحسن اتباعهم في غير موضع من كتاب الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذا يدل على وجوب الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام فيما اتفقوا عليه من الأصول التشريعية والخلقية والتعبدية[(٢)].

ومما يدلل أيضًا على وجوب اتباع الأنبياء والاقتداء بهم قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ

(١) انظر: معجم وتفسير لغوي لألفاظ القرآن الكريم، حسن الجمل ٣/ ٤٢١.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٦٦.

﴿اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١- ٤٢].

وكلمة رسول هنا اسم جنس[(١)]، وبالتالي فالمقصود بها كل رسول يرسله الله تعالى إلى قوم من الأقوام.

ولو لم يكن الإيمان بالرسل واتباعهم من أعمال البر لما أثاب الله تعالى الرجل الداعية الذي دعا قومه للإيمان بالرسل واتباعهم بالجنة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٠ - ٢٧].

ولما وعد الله تعالى المؤمنين بالرسل بالمغفرة والرحمة[(٢)]، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٣/ ٦٤٤.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٥٤١.

٦. البر بملازمة التقوى.

من أكثر ما حثت عليه الشريعة الإسلامية تقوى الله تعالى في السر والعلن، ففي القرآن الكريم جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وجاء في السنة المطهرة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (تدرون ما أكثر ما يدخل النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الأجوفان: الفرج والفم، وأكثر ما يدخل الجنة؟ تقوى الله وحسن الخلق)[(٣)].

وتكمن أهمية التقوى في كونها الضابط الذي يلزم العباد بالقيام بأعمال البر التي تقرب صاحبها من نعيم الله تعالى وتبعده عن عذابه.

وبالتالي يكون المراد بالأمر الإلهي بالوقاية من عذاب النار الوارد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

هو الإقبال على أعمال البر وحث الأهل

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد، باب حسن الخلق إذا فقهوا ص١٠٨، رقم ٢٨٩.
قال عنه أبو عيسى الترمذي: حديث صحيح غريب.

عليها، والحذر من أعمال الفجور وتحذير الأهل منها[1].

كما أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]. فيه الدعوة إلى ضرورة أن يتلازم كل من التقوى وأعمال البر في كل عمل يقوم به المؤمن، وكذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وكذا قوله صلى الله عليه وسلم:(اتقوا النار ولو بشق تمرةٍ، فإن لم تجد فبكلمةٍ طيبةٍ)[2]، فيه الدعوة إلى لزوم التقوى من خلال أعمال البر المتمثلة بالصدقة وإن كانت قليلة، وبالكلام الطيب.

ثانيًا: البر في العبادة:

كما بيّن الله تعالى أن حقيقة البر تكمن في سلامة المعتقد، بيّن أنها تكمن أيضًا في حسن العبادة.

فقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد ذكرت الآية الكريمة أن البر يكون في صنفين أساسيين من أصناف العبادات هما الصلاة والزكاة، وتفصيل ذلك كما يأتي:

١. البر في إقامة الصلاة.

الصلاة هي عمود الدين والركن الثاني من أركان الإسلام الخمسة وذلك كما بين المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فقال لي: (إن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه قال: قلت: أجل يا رسول الله، قال: أما رأس الأمر فالإسلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد)[3].

وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان)[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٩١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب طيب الكلام ٨/ ١١، رقم ٦٠٢٨.
(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الجهاد ٢/ ٨٦، رقم ٢٤٠٨.
وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان،

ولهذا كانت الصلاة من أعظم أعمال البر التي تقرب العبد من ربه جل وعلا، وقد اهتم القرآن الكريم بعبادة الصلاة اهتمامًا بالغًا فأوجب إقامتها على وقتها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

وشرع الطهارة قبل أدائها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ [المائدة: ٦].

وجعلها الواقي من اتيان الفواحش والمنكرات، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وما كان لهذا الاهتمام أن يكون إلا لأن الله تعالى عالم بما للصلاة من كبير أثر على من أقامها، كيف لا يكون ذلك وهي عبادة جامعة للعديد من أوجه البر التي دعا إليها الإسلام الحنيف كقراءة القرآن، والدعاء، والذكر وغير ذلك.

٢. البر في إيتاء الزكاة.

كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الركن الثاني من أركان الإسلام الصلاة، وبين الركن الثالث الزكاة، وذلك في آيات من الذكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

كما قرن الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك بين الصلاة والزكاة، في عدة مواطن منها ما جاء عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال:(بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم)[1].

ويفهم من الآية الكريمة أن العبد إذا أقام الصلاة، وآتى الزكاة، ولازم جماعة المؤمنين فإنه يكون بذلك ملك الأسس التي من شأنها أن تقوده إلى الالتزام بباقي متطلبات الدين، كما يفهم من الحديث الشريف أن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم البيعة على ثلاثة أمور منها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة دليل على عظم مكانة هاتين العبادتين عند الله تعالى، ومدى تأثيرهما على حياة العباد، فالصلاة تطهر الأبدان، والزكاة تطهر الأموال، ولعل هذا من أبرز ما أدى إلى اقتران الصلاة بالزكاة في

باب قول النبي عليه الصلاة والسلام: « بني الإسلام على خمس» ١/ ١١، رقم ٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب البيعة على ايتاء الزكاة ٢/ ١٠٦، رقم ١٤٠١.

كثير من النصوص الشرعية.

ومن المعلوم أن الزكاة بتطهيرها للأموال تعين أيضًا على تطهير القلوب من البخل والكبر والحقد والحسد، ولهذا عظيم الأثر في توطين النفوس على طاعة الله تعالى وبره في اتيان كل ما أمر، واجتناب كل ما نهى، ولكي يتحقق البر في إيتاء الزكاة لابد من الالتزام بشروطها، وانفاقها في مصارفها الثمانية التي حددها القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وكذلك أن تحقق الغرض الذي شرعت من أجله وهو تحقيق التكافل والتعاضد، والحث على صدقة التطوع، وعلى غيرها من أعمال البر.

٣. البر في الصيام .

صوم رمضان هو الركن الرابع من أركان الإسلام، وقد شرعه الله تعالى لعباده المؤمنين ليكون بابًا من أوسع أبواب البر والطاعة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فقوله تعالى في فاصلة الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فيه بيان الغاية المرجوة من تشريع صيام شهر رمضان وهي الوصول بالعباد إلى درجة التقوى[(١)].

ومما يدلل على أن الصيام من أعظم أبواب البر ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث منها ما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفرٍ، فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت)[(٢)].

ومنها ما جاء أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)[(٣)].

فهذان الحديثان وغيرهما من الأحاديث

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة ٤/ ٣٠٨، رقم ٢٦١٦.
وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب ما يذكر في المسك ٧/ ١٦٤، رقم ٥٩٢٧.

مما يبرز قيمة الصوم في تقريب العباد من رضوان الله تعالى، وابعادهم عن سخطه، ولو لم يكن الأمر كذلك لما خصص الله تعالى أحد أبواب الجنة الثمانية للصائمين، وسماه باب الريان.

وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: (من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله، هذا خيرٌ، فمن كان من أهل الصلاة، دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد، دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة، دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام، دعي من باب الريان)[1].

ومما يعزز مكانة الصيام كأحد أبرز أعمال البر ارتباطه بأوجه أخرى عظيمة من أوجه البر، ومن هذه الأوجه العظيمة الاجتهاد في قراءة القرآن الكريم.

والسر في ارتباط الصيام بقراءة القرآن هو أن نزول القرآن الكريم كان في شهر رمضان المبارك، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومن الأوجه أيضًا الصدقة، ومن المعلوم أن زكاة الفطر واجبة في شهر رمضان، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حث المسلمين على التبرع للمحتاجين من خلال جوده في التصدق خلال شهر رمضان على ذوي الفاقة والعوز، حتى أن ابن عباس رضي الله عنهما وصفه قائلًا: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة)[2].

ومن أوجه البر المرتبطة بالصيام العمرة، وصلة الأرحام، وقيام الليل وغير ذلك من الأوجه المباركة الخيرة.

٤. البر في الحج.

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وله عند الله تعالى من القدر والجلال ما له؛ وذلك لأهميته في تقوية الإيمان، وتهذيب الأخلاق، وتكفير الذنوب والخطايا، وهذا الذي أهل هذه العبادة العظيمة لأن تكون من أهم وأعظم أوجه البر التي يتقرب بها المؤمن من ربه جل وعلا.

وتأصيلًا لذلك يقول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة، وأعمال البر ٢/ ٧١١، رقم ١٠٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ١/ ٨، رقم ٦.

﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ بعد نهيه عن فعل الشر لحث العباد على اغتنام الحج للاستزادة من الخير بفعل الخيرات، واجتناب المعاصي[(١)].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه)[(٢)].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (رجع كيوم ولدته أمه) يعني أن الحاج الذي خلا حجه من الرفث والفسق يعود من حجه وقد حط الله تعالى عنه سائر ذنوبه وخطاياه[(٣)].

ويعد الحج من الأعمال التي حث النبي صلى الله عليه وسلم على تكرارها بقوله:(تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد، والذهب، والفضة، وليس للحجة المبرورة ثوابٌ إلا الجنة)[(٤)].

وبما أن ما ذكر في الحديثين الشريفين من الوعد بالمغفرة والنعيم هو الغاية الأسمى التي يسعى عباد الله تعالى الأبرار للوصول إليها من خلال محافظتهم على أعمال البر التي شرعها الله تعالى لهم.

ثالثًا: البر في الأخلاق:

يتميز الدين الإسلامي باهتمامه بالتحلي بالأخلاق الحميدة؛ وذلك لما لها من عظيم الأثر على الفرد في ضبط سلوكه وتقويمها، وعلى المجتمع في رقيه وزيادة تماسك أفراده، وقد مدح الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بسمو أخلاقه.

فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

كما نبه النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية التحلي بالأخلاق الحسنة بقوله: (إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا)[(٥)].

كما فسر صلى الله عليه وسلم البر بأنه هو حسن الخلق بقوله: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس)[(٦)].

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور ٢/ ١٣٣، رقم ١٥٢١.

(٣) انظر: الإفصاح عن معاني الإصحاح، ابن هبيرة ٦/ ٤١٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحج، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة ٣/ ١٦٦، رقم ٨١٠.
قال: حسن صحيح غريب.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل ٨/ ١٣، رقم ٦٠٣٥.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم ٤/ ١٩٨٠، رقم ٢٥٥٣.

ومن الأخلاق الرئيسية التي لابد للبر أن يتوجها ما يأتي:

١. الوفاء بالعهد.

الوفاء بالعهد من الأخلاق التي أمر الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

والعقود هي أوثق العهود[1] كما جعل الله تعالى هذه صفة من الصفات التي يتحلى بها المؤمنون السائرون على طريق الصلاح والفلاح، فقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون: ١ - ٨].

كما عد الله تعالى الاتصاف بالوفاء بالعهود من الأخلاقيات الملازمة للأبرار، فقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد رفع الله تعالى من قدر خلق الوفاء بالعهد لما له من أهمية بالغة في إعلاء شأن المؤمنين، وإعطاء الصورة المشرقة عن الإسلام، ولكي يعد الوفاء بالعهد من أوجه البر الأمور الآتية:

١. الوفاء بالعهود مع الله تعالى.

والتي في مقدمتها الإيمان بوحدانية الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسماءه وصفاته، وقد أخذ الله تعالى على بني آدم العهد والميثاق على ذلك، وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ويقود هذا العهد العباد إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى في ألوهيته وأسمائه وصفاته، وبيان ذلك أن الآية ذكرت إقرار بني آدم عليه السلام جميعًا بربوبية الله تعالى، وتوحيد الربوبية لله تعالى أساس لتوحيد الألوهية؛ لأن توحيد الربوبية يشمل الاعتقاد بأن الله تعالى هو الذي خلق ورزق وأنعم، وهذا الفضل والإنعام يستوجب الطاعة والانقياد ممن انتفع وتنعم، وبعبارة أخرى فإن الرب جل وعلا الذي خلق العباد

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص٣٠٦.

ورزقهم وتكفل بجميع شؤونهم ليستحق منهم حسن الطاعة والانقياد وهذا هو جوهر توحيد الألوهية، كما من المعلوم أنه لا يليق لمن اتصف بالألوهية والربوبية إلا أن تكون أسماؤه حسنى، وصفاته صفات كمال، وبهذا يكون الإيمان بالله تعالى مكتمل الأركان، وبالتالي يعتبر من أعمال البر التي تقرب العباد من ربهم جل وعلا.

٢. الوفاء بالعهود التي تكون بين المؤمنين والمؤمنين.

وتشمل هذه العهود كافة أنواع التعاملات المشروعة التي يجريها المؤمنون مع بعضهم البعض.

٣. الوفاء بالعهود المشروعة التي تكون بين المؤمنين وغير المؤمنين.

والضابط لهذه العقود أن يلتزم بها الكفار، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

ويلاحظ من الآية مجيء فاصلتها « إن الله يحب المتقين» جملة تعليلية عللت ما قبلها من تشريع، فتبين بذلك أن الاستقامة على العهود مع الملتزمين بها من غير المسلمين من التقوى التي يحب الله تعالى من اتصف بها.

٢. الصبر.

خلق الصبر من أجمل ما يتصف به العبد المؤمن، وسر جمال هذا الخلق الرفيع يكمن في أمرين، الأول: أن الله تعالى حث عليه وأعد الأجر العظيم لمن اتصف به، والثاني: أن الصبر من أبرز ما اتصف به الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، أما بالنسبة لحث الله تعالى.

فقد قرر سبحانه معيته وتأييده للصابرين، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وأما بالنسبة لعظم أجر الصابرين قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وأما بالنسبة لاتصاف الأنبياء بهذه الصفة الخلقية الرفيعة قال تعالى على لسان رسله عليهم السلام: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وهذا القول من الرسل لأقوامهم يثبت صبرهم على ما جوبهوا به من قبل أقوامهم ردًا على دعوتهم لهم[1]، وحتى يكون الصبر من أعمال البر التي تقرب العبد من ربه جل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٣٩.

وعلا لابد من الاتصاف بأنواعه الثلاثة وهي:

١. الصبر على طاعة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

والمعنى واصبر على أدائها على أتم وجه، والمداومة على إقامتها في مواعيدها، والدعوة إليها[١]، وينطبق على سائر الطاعات ما ينطبق على الصلاة.

٢. الصبر عن المعصية.

ومعلوم أن النفس الأمارة بالسوء والشيطان لا يكفان عن الدعوة لاقتراف ما نهى الله تعالى عنه.

وهذا يتطلب من العبد مجاهدة كبيرة لعدم الانجرار إلى تلك الدعوة، وفي هذا المضمار يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات)[٢].

وهذا الحديث يبث الأمل في نفس المؤمن فهو يعلم أن صبره على عدم الانجرار خلف الأهواء والشهوات لن يضيع هباءًا منثورًا، وإنما سيجزيه الله تعالى الجزاء الأوفى على صبره يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

٣. الصبر على المحن والمصائب.

وفي هذا المقام يقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وبشارة الله تعالى للمؤمنين الصابرين تتضمن حسن الثواب في الآخرة.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد)[٣].

٣. إتيان البيوت من أبوابها.

تعود قصة الأمر بإتيان البيوت من أبوابها إلى ما كان يقوم به الأنصار إذا أحرموا من الامتناع عن دخول البيوت من أبوابها، وإذا لزمهم دخول البيوت فإنهم يعمدون إلى ثقب في ظهر البيت فيدخلون من خلاله، ويعدون ذلك من البر.

فنبههم الله تعالى إلى أن ذلك ليس من

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٣٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٤/ ٢١٧٤، رقم ٢٨٢٢.
(٣) أخرجه الترمذي، أبواب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب ٢/ ٣٣٢، رقم ١٠٢١، قال عنه الترمذي: حديث حسن غريب.

البر، والبر هو أن يأتوا البيوت من أبوابها سواء أكانوا محلين أو محرمين.

وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: (نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا، لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجلٌ من الأنصار، فدخل من قبل بابه، فكأنه عير بذلك، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾)[١].

ويفهم من سبب النزول أن البر في تقوى الله تعالى، وطاعته فيما أمر ونهى لا في العدول عن تشريعاته[٢].

وقد وضع الإسلام لقبول العمل الذي يبتغى فيه وجه الله تعالى الكريم شرطين أساسيين:

الأول: الإخلاص لله تعالى[٣].

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)[٤].

والشرط الثاني: موافقة العمل لما جاء به الشرع.

وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو ردٌّ)[٥].

٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

جعل الله تعالى قيام الأمة بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز أسباب خيرتها وأفضليتها على من سواها من الأمم، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العمرة، باب قول الله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، ٣/ ٨، رقم ١٨٠٣.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٠٣.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٢٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٣/ ١٨٤، رقم ٢٦٩٧.

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهمة الأنبياء، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التقاعس عن أداء هذه المهمة العظيمة فقال (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)[1].

وحتى يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم القربات إلى الله تعالى لابد أن تراعى فيه الأمور الآتية:

١. مراعاة أحوال المدعوين أثناء أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وقد علم الله تعالى عباد المؤمنين كيف يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يظهر ذلك في عدة مواضع من كتاب الله تعالى منها:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وتبرز هذه الآية الكريمة أن الله تعالى قد راعى أحوال المؤمنين عندما أمرهم بالجهاد في سبيله، فالناس يميلون الراحة وعدم الخروج لملاقاة العدو، خصوصًا إذا كانت أوضاع الناس المعيشية في حالة من الرغد والسعة.

وقد نزلت هذه الآية في الحر الشديد حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهز لغزو الروم، فأراد الله تعالى أن يشحذ همم المؤمنين للجهاد في سبيله من خلال بيان أن النعيم الدنيوي الذي يثبطهم عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى قليل بالنسبة لنعيم الآخرة[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

تنهى الآية الكريمة المؤمنين عن رفع الأصوات فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن الجهر له بالقول كما يجهر الواحد من المؤمنين لغيره من الناس.

ويعبر هذا النهي من الله تعالى لعباده المؤمنين عن مدى المراعاة لأحوالهم فهم على مقربة شديدة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا التقارب إضافة إلى تواضع

(١) أخرجه الترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤/ ٣٨، رقم ٢١٦٩.
وقال: حديث حسن.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٦٠.

النبي صلى الله عليه وسلم في معاملته لهم، وطبيعة تعامل المؤمنين مع غيرهم من الناس أثناء محادثتهم قد يؤدي إلى اعتقاد المؤمنين بجواز رفع الصوت فوق مستوى صوته صلى الله عليه وسلم أثناء محادثته، أو الجهر إليه بالقول كما يجهر لغيره من عامة الناس، فجاء التنبيه الإلهي ليحول دون وقوع ذلك الأمر الذي يتسبب في إحباط أعمال المؤمنين الصالحة.[1]

٢. الحلم والتلطف مع المدعوين خلال أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وقد أثنى الله تعالى على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لاتصافه باللين في تعامله مع الناس.

فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وبالتالي فلا يكفي الداعية أن يكون حاملًا للحق، وإنما يجب عليه أن يمتلك الوسيلة الحسنة ليقنع الناس بإتيان الحق، وترك الباطل، ومما يمثل لبراعة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في هذا الميدان، موقفه من الرجل الذي بال في المسجد فاجتمع إليه الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم ليزجروه، فينهاهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا تزرموه دعوه فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له: إن هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول، ولا القذر إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن)[2].

وربما لو لم يتدخل الرسول صلى الله عليه وسلم حينها ليمنع الناس من زجره، لترك الإسلام أو لوقع في نفسه البغض للمسلمين، وهذا مالا يرضي ربنا جل وعلا.

٣. الشجاعة والجرأة في قول الحق.

وقد ذكر القرآن الكريم قصصًا لدعاةٍ أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر بكل جرأة وشجاعة فبذلوا في سبيل ذلك الغالي والنفيس، ومن هذه القصص، قصة الرجل المؤمن الذي دعا قومه لاتباع الرسل فقتلوه.

قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء، من غير حاجة إلى حفرها ١/ ٢٣٦، رقم ٢٨٥.

﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٠ - ٢٧].

يتضح من الآيات الكريمة أن الرجل المؤمن قد تحلى بشجاعة وإقدام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأمر قومه باتباع الرسل عليهم السلام، وأظهر لهم إيمانه فقتلوه بسبب ذلك، فادخله الله تعالى الجنة.[1]

ويستفاد من تلك القصة أنه على الداعية الذي يقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون شجاعًا جريئًا لا يخاف في الله لومة لائم، فيقول الحق مهما كان الثمن لقوله.

٥. التناجي بالبر والتقوى.

يعمد الناس إلى التناجي في حال أرادوا التحدث بكلام لبعض الأشخاص دون غيرهم في جماعة واحدة، ونظرًا للأثر السلبي الذي تخلفه النجوى على المستثنين من سماع الكلام الذي يدور من خلال النجوى فقد وضعت الشريعة الإسلامية ضوابط وآداب تضمن لمن التزمها في نجواه تجنب التأثير السلبي للنجوى، وتتمثل هذه الضوابط والآداب بما يأتي:

١. عدم التناجي إلا بالبر والتقوى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

وبناءًا على ما جاء في هذه الآية من النهي عن التناجي بالإثم والعدوان، فإن المؤمن لا ينزعج إذا رأى إخوة له يتناجون دون إشراكه في سماع ما يدور بينهم من حديث؛ لعلمه بأن ما يتناجون به خير ليس فيه شيء مما نهى الله تعالى عنه.

٢. إذا كانت الجماعة مكونة من ثلاثة أشخاص فلا يتناج اثنان دون الثالث.

قال صلى الله عليه وسلم: (إذا كنتم ثلاثةً، فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، أجل أن يحزنه).[2]

٦. التعاون على البر والتقوى.

من حكمة الله تعالى أن جعل الإسلام دين جماعة، يظهر ذلك جليًا في النصوص الشرعية الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، والتي يتوجه فيها الخطاب للجماعة كالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغيرها، وتعزيزًا لذلك أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى، فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص٨٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا باس بالمسارة والمناجاة ٨/ ٦٥، رقم ٦٢٩٠.

عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

ويشمل التعاون على البر والتقوى جميع مجالات التعاون في ما أباح الله تعالى اتيانه والتعاون في تأديته كالبناء، وصناعة الأشياء المباحة، وعمل الشركات، وتصنيف الكتب النافعة ونشرها، وغير ذلك.

٧. الصدق.

أثنى الله تعالى على عباده الملازمين للبر في عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم بأنهم صادقون.

فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

كما أن خلق الصدق من الأخلاق الحميدة التي دعا إليها الله تعالى في كتابه العزيز، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وأمر الله تعالى المؤمنين بتقواه ولزوم الصدق في النية والقول والعمل فيه دلالة على رفعة منزلة الصدق في أخلاق المؤمنين الأتقياء.

وفي هذا الشأن يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب كذابًا)[1].

والعبد إذا كتب عند الله تعالى من الصديقين لملازمته الصدق في القول والفعل والمعتقد، فإنه يكتب عند الله تعالى مع الذين أنعم عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ٤/ ٢٠١٢، رقم ٢٦٠٧.

البر والصلات الاجتماعية

أنعم الله تعالى على البشرية بأن خلق آدم وخلق منه زوجه حواء؛ ليسكن إليها، ويأنس بها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

كما أنعم الله تعالى على الناس بأن جعلهم يتناسلون ويتكاثرون، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النحل: ٧٢].

ومن المعلوم أن الله تعالى قد خلق الإنسان ليؤدي مهمة الخلافة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ولأداء هذه المهمة العظيمة لابد للفرد من أن يعمل ضمن الجماعة، ولإيجاد الجماعة لابد من ترابط الأفراد.

وقد ربط الله تعالى بين الأفراد بأمرين أساسيين:

الأول: العبادات.

والثاني: المعاملات.

ومما تتضمنه المعاملات الإسلامية الصلات الاجتماعية التي تقوي الروابط بين مكونات المجتمع، كما لم يغفل التشريع الإسلامي الروابط والصلات التي تربط المجتمع المسلم بغيره من المجتمعات، فشرع أنواع من التعاملات التي تربط المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى.

وقد جعل الله تعالى البر هو العنوان الرئيس لكافة العلاقات والروابط، سواء أكانت بين الأفراد في المجتمع المسلم، أو كانت بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات الأخرى، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: البر وصلة الرحم:

من فضل الله تعالى على عباده أنه أوجدهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن أعظم هذه النعم نعمة الوالدين والأقارب.

وتكمن عظمة هذه النعمة في أن كلًا من الوالدين والأقربين يمثلون الحاضنة التي توفر للإنسان ما يحتاجه من الرعاية التي لا غنى له عنها في أي مرحلةٍ من مراحل حياته.

وبالتالي فينبغي على الإنسان أن يشكر الله تعالى الذي من عليه بهذه النعمة العظيمة، وذلك من خلال أمرين:

الأول: بر الوالدين والإحسان إليهما.

الثاني: الإحسان إلى الأقارب.

أما الأمر الأول وهو بر الوالدين والإحسان إليهما، فقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ

﴿كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

والملاحظ من الآيتين الكريمتين أن الله تعالى قد شدد على ضرورة الإحسان إلى الوالدين في جميع أحوالهما وبالذات حين يضعفهما الكبر في السن.

وهذا يتطلب من الابن أن يشعر بأنه مدانٌ لوالديه بالكثير؛ فهما اللذان اعتنيا به حين كان صغيرًا لا يقوى على القيام بشيء من احتياجاته، هذا فضلًا عن أنهما كانا السبب في وجوده.

ومن الملاحظ أيضًا في الآية الأولى أن الله تعالى قد أمر بالإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بإفراده بالعبادة، وهذا يدل على مدى أهمية الإحسان إلى الوالدين.

كما يلاحظ في الآية الثانية أن الإحسان إلى الوالدين لا يقتصر على فترة وجودهما في الحياة، وإنما يبقى مستمرًا إلى ما بعد وفاتهما.

وهذا ما فهمه الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يلقى أعرابيًا فيسلم عليه، وينزل عن حماره ليحمل عليه الأعرابي، ويهديه عمامته، فيقول له حينها عبد الله بن دينار رحمه الله تعالى: أصلحك الله إنهم الأعراب ويرضون باليسير، فيرد عليه ابن عمر رضي الله عنهما قائلًا: إن هذا كان ودًا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه)[1].

ويقول الإمام القشيري: « أمر -أي الله تعالى- بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حقهما، والوقوف عند إشارتهما، والقيام بخدمتهما، وملازمة ما كان يعود إلى رضاهما، وحسن عشرتهما، ورعاية حرمتهما، وألا يبدى شواهد الكسل عند أوامرهما، وأن يبذل المكنة فيما يعود إلى حفظ قلوبهما... هذا فى حال حياتهما، فأما بعد وفاتهما فبصدق الدعاء لهما، وأداء الصدقة عنهما، وحفظ وصيتهما على الوجه الذي فعلاه، والإحسان إلى من كان من أهل ودهما ومعارفهما»[2].

وبالتالي فإن بر الوالدين يعد من أعظم أبواب البر والخير التي يجب على الأبناء أن يتزاحموا ويتسابقوا لولوج الجنة من خلالها.

وأما الأمر الثاني الذي يشكر العبد ربه من خلاله على نعمة الرعاية فهو الإحسان إلى الأقارب.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة أصدقاء الأب والأم، ونحوهما ٤/ ١٩٧٩، رقم ٢٥٥٢.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٤٤-٣٤٣.

وفيه يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وتشمل حقوق ذوي القربى زيارتهم، وحسن التعامل معهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتقديم العون لهم، والإنفاق عليهم حال فقرهم، وغير ذلك من أوجه برهم.

وقد جعلهم الله تعالى في الدرجة الثانية بعد الوالدين نظرًا لكون الوالدين أعظم فضلًا على العبد من باقي أقاربه.

ثانيًا: البر بالمسلمين:

أكرم الله تعالى عباد المؤمنين برباط الأخوة الإيمانية المتين الذي ألف به بين القلوب المتنافرة.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

وقال رسول الله: صلى الله عليه وسلم (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك أصابعه)[(١)].

وتتطلب هذه النصوص الشرعية من المسلمين حسن رعاية بعضهم لبعض، وممن خصهم الله تعالى بالذكر للحث على رعايتهم الأصناف الآتية:

١. اليتامى.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧].

واليتيم هو من فقد أباه وهو صغير[(٢)]، وقد خصه الله تعالى بالذكر وجعل النفقة عليه من أوجه البر؛ نظرًا لأنه قد فقد من يعيله ويتولى النفقة عليه بالعادة، وتركه للفقر أمر فيه مفسدة عظيمة.

٢. الفقراء.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠].

والفقير هو من لا مال له[(٣)]، وبالتالي فهو في أمس الحاجة إلى يعينه على لوازم الحياة.

٣. المساكين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

والمسكين هو من لا يملك ما يكفيه ومن يعيله من المال[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ١/ ١٠٣، رقم ٤٨١.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٠٦.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣١٦.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٣/ ٤٨.

وقد جعل الله تعالى هذا الصنف من مصارف الزكاة؛ حتى يتمكن من الحصول على ما يسد به حاجته، ويكفيه ذل المسألة.

٤. السائلين.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والسائل هو الذي يطلب العون والمساعدة من الآخرين[(١)].

وقد خصهم الله تعالى بالذكر والحث على مساعدتهم؛ لأن سؤالهم ناجم عن فقرهم، وعدم قدرتهم على الكسب، وفي معونتهم سد لحاجاتهم.

٥. الجار.

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦].

وتوصي الآية الكريمة بالإحسان إلى الجيران عمومًا سواء أكانوا أقارب وأرحام، أو كانوا أجانب، وسواء أكانوا ملاصقين في سكناهم أو بعدت أماكن سكناهم، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى الجار نظرًا لتعدد الحقوق التي تكون للجار على جاره، فمثلًا إن كان الجار مسلمًا ومن ذوي الأرحام كانت له حقوق الإسلام والجيرة والقرابة، وإن لم يكن من الأقارب كانت له حقوق الإسلام والجوار، وإن لم يكن مسلمًا كانت له حقوق الجوار فقط[(٢)].

وقد أكد المصطفى صلى الله عليه وسلم على ضرورة الإحسان إلى الجار في أحاديث متعددة، منها:

قوله صلى الله عليه وسلم (ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)[(٣)].

وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها عندما سألته عن المقدم بالهدية من الجيران قائلةً: إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: (إلى أقربهما منك بابًا)[(٤)].

وهذا يدل على أن الجار الأقرب هو الأولى بالهدية من الأبعد؛ لأنه ينظر إلى يدخله الجار إلى بيته من المتاع بخلاف الأبعد[(٥)].

(١) انظر: معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ٢/ ٢٧٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ١/ ٤٢٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار ٨/ ١٠، رقم ٦٠١٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب بمن يبدأ بالهدية ٣/ ١٥٩، رقم ٢٥٩٥.

(٥) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني ٩/ ٢٦.

٦. ابن السبيل.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وابن السبيل هو المنقطع عن أهله وماله في سفر[(١)]، وقد جعل الله تعالى إعانة ابن السبيل أحد أوجه البر لما في الانفاق عليه بغية إيصاله إلى بلده وماله من التيسير على المعسر الذي انقطع عن ماله في غير بلده.

٧. في الرقاب.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والمراد بمن في الرقاب هم العبيد[(٢)].

وقد حث الله تعالى على فكاكهم في غير موضع من القرآن الكريم؛ لما في فكاكهم وتخليصهم من الرق والعبودية من الحفظ لكرامتهم، والإعلاء لشأنهم.

ثالثًا: البر مع الأعداء:

لم يقتصر فضل البر على المسلمين فحسب، وإنما تعدى الأمر المسلمين ليصل إلى غيرهم من غير المسلمين، وما ذلك إلا تعبيرًا عن سماحة الإسلام وأهله.

وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩].

وتبين الآية الكريمة أن البر إلى غير المسلمين جائز شريطة أن يكونوا مسالمين وأن يلتزموا بعهودهم ومواثيقهم التي أبرموها مع المسلمين.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

أما المحاربين فلا تجوز مودتهم؛ لأنهم ناصبوا المسلمين العداء، وبذلوا كل جهد للقضاء على الإسلام والمسلمين، فهؤلاء ليس لهم عند المسلمين إلا القتال حتى يغلبوا وينتهي شرهم، ولا يعني ذلك جواز تجاوز الحد المأذون به شرعًا في معاقبة الأعداء، أو معاقبة غير المعتدين[(٣)]؛ فإن العدل مع الأعداء من البر الذي دعا إليه

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي ٥/ ١٨٢.
(٢) انظر: معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ٣/ ٢٧٤.
(٣) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ٢٩١.

الإسلام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

والبر إلى المسالمين من غير المسلمين يكون في التعامل معهم في مختلف المجالات بالرفق واللين، وعدم هضم حقوقهم أو الانتقاص من شأنهم، وذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسٍ، فأنا حجيجه يوم القيامة)[1].

ولا يشمل البر إلى المسالمين من غير المسلمين موالاتهم في معتقداتهم الفاسدة، فالغرض من برهم هو دعوتهم إلى الهدى والإيمان وليس التأثر بمعتقداتهم الباطلة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات ٣/ ١٧٠، رقم ٣٠٥٢. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥١٨.

آثار البر في الدنيا والآخرة

مما لا شك فيه أن للبر آثار جليلة تعود بالنفع على الأبرار في الدنيا والآخرة، كيف لا يكون ذلك والله تعالى هو الذي أمر بالبر وحث عليه المؤمنين، ولمعرفة تلك الآثار لابد للنظر في نصوص القرآن الكريم، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: آثار البر في الدنيا:

١ . محبة الله تعالى.

وقد أكد الله تعالى محبته للقائمين بأعمال البر التي حثت الشريعة الإسلامية في غير موضع من كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

والآية الكريمة تبين أن الإنفاق في سبيل الله تعالى في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الآخرين، والإحسان في الأمور كلها تستدعي محبة الله تعالى، ومما لا شك فيه أن الأمور التي ذكرتها الآية الكريمة من أعمال البر.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ

﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والآية الكريمة تحث على الصبر والتحمل في سبيل إعلاء شأن الإسلام، وعدم الفتور والضعف والاستكانة مهما أصابهم من قتل وجراح وغير ذلك في سبيل الله تعالى[(١)].

ومعلوم أن الصبر من أعظم الأخلاقيات التي حث عليها الإسلام.

٢. الطمأنينة وانشراح الصدر.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥ - ١٢٧].

يبين الله تعالى في هذه الآيات الكريمة أن الذي يهديه الله تعالى للإسلام يشرح صدره بأن يقذف في قلبه نورًا يميز من خلاله الحق فيقتنع به ويهتدي إليه، وتطمئن نفسه إلى المسلك الذي يسير فيه[(٢)].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

والمقصود بالظلمات في الآية الكريمة هو ظلمات الكفر، والنور هو نور الإيمان[(٣)].

وهذا النور الذي يجده المؤمن في حياته هو سبب الراحة النفسية التي يعيشها، كما أن الطمأنة الإلهية للمؤمنين الأبرار هي مفتاح السعادة بالنسبة لهم.

وقد جاءت هذه الطمأنة في الحديث القدسي الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)[(٤)].

يبين هذا الحديث الشريف أن الاجتهاد في أعمال البر أمر يوجب محبة الله تعالى، كما أن الله تعالى يكرم الأبرار بلذة وراحة أثناء قيامهم بأعمال البر.

وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٢٧.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ١٦٨.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الغرناطي ١/ ١٣٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢.

الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[1].

ولا يقتصر انشراح صدر المؤمن البار واطمئنانه خلال فترة حياته فحسب، بل إن الملائكة الكرام تتنزل عليه عند قبض روحه لطمأنته وتبشيره[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

٣. الحياة الطيبة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والملاحظ أن الآية الكريمة عبارة عن جملة شرطية، ومعلوم أن أسلوب الشرط يعمد إلى الربط بين أمرين فلا يتحقق الأمر الثاني إلا إذا تحقق الأمر الأول، وبالتالي فإن تحقق حصول الحياة الطيبة للعبد في الدنيا أمر مرهون باستقرار الإيمان في قلبه، ومداومته على العمل الصالح، ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وتبين هذه الآية الكريمة أن اتباع الهدى شرط لعدم الضلال والشقاء.

ثانيًا: آثار البر في الآخرة:

وضع الله تعالى شرطًا للنجاة من عذابه الأليم في الآخرة، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وتوضح الآية الكريمة أن الشرط هو المداومة على العمل الصالح، وعدم الاشراك بالله تعالى مطلقًا، وقد أكد الله تعالى في غير موضع من القرآن الكريم على حسن مآل الأبرار المحسنين، كما حدد آثار البر والعمل الصالح على الأبرار في الآخرة، والتي منها ما يأتي:

١. الأمان من الخوف والحزن.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

تبين الآيات الكريمة أن أولياء الله تعالى من المؤمنين الأبرار لا خوف عليهم مما سيكون يوم القيامة من أهوال مخيفة، ولا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان ١/ ١٢، رقم ١٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٥٢.

هم يحزنون على ما أسلفوا، لأنهم لم يقدموا إلا صالحًا[1].

يقول شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: ألا إن أنصار الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله، لأن الله رضي عنهم فآمنهم من عقابه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا»[2].

٢. النجاة من النار والفوز بالجنة ونعيمها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٨].

تبين الآيات الكريمة حسن ما أعده الله تعالى لعباده الأبرار من النعيم والثواب في جنانه التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد قال الله تعالى عما في هذه الجنان: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧].

وقال تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

فهذه الآيات تحتوي على البشارات الواضحة بدخول المؤمنين الصالحين الأبرار جنان ربهم جل وعلا، وحصولهم فيها على ما يشاؤون من النعم والمتع، كما جاءت آيات أخرى تبين الطريقة التي من خلالها ادخال المؤمنين إلى جنان ربهم جل وعلا، منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وتعني كلمة وفدًا أي: ركبانًا[3].

وهذا مما يدل على تكريم الله تعالى لهم لما قدموه من العمل الصالح في الدنيا.

ومن الآيات أيضًا التي تبين حسن استقبال المؤمنين البررة عند دخولهم الجنة قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وتبين الآية الكريمة أن خزنة الجنة من الملائكة يستقبلون الأبرار من المؤمنين الأتقياء أحسن الاستقبال عند دخولهم الجنة، وحين يرى المؤمنون حسن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١١٨.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١١٨.

استقبالهم وما أعده الله تعالى لهم من الأجر الكبير يقولون: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، التطوع، الخير، العطاء

البركة

عناصر الموضوع

مفهوم البركة	٧٢
البركة في الاستعمال القرآني	٧٣
الألفاظ ذات الصلة	٧٤
الأساليب القرآنية في استخدام البركة	٧٦
مجالات البركة	٨٥
وسائل تحصيل البركة وآثارها	١٢١

مفهوم البركة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل البرك صدر البعير وإن استعمل في غيره، ويقال له: بركة، وبرك البعير: يبرك بروكًا ألقى بركه، واعتبر منه معنى اللزوم، فقيل: ابتركوا في الحرب، أي: ثبتوا ولازموا موضع الحرب، وبراكاء الحرب وبروكاؤها للمكان الذي يلزمه الأبطال، وابتركت الدابة: وقفت وقوفًا كالبروك، وسمي محبس الماء بركة[1]، والباء والراء والكاف أصلٌ واحدٌ من برك، ويعني: ثبات الشيء، والبركة تعني الزيادة والنماء، والتبريك: أن تدعو بالبركة، والتبرك: طلب البركة من الزيادة في الخير والأجر، والبركة: السعادة[2].

ومن خلال ما سبق تبين أن البركة يتمركز معناها اللغوي حول الثبات، والزيادة والنماء، والسعادة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء»[3].

وعرف الكفوي البركة بقوله: «النماء والزيادة، حسية كانت أو معنوية، وثبوت الخير الإلهي في الشيء وداومه»[4].

والمتدبر في المعنيين يجد اتصالًا بينهما؛ حيث إن المعنى الاصطلاحي يعني: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، وهذا مرتبط بمعنى البركة في اللغة التي هي الثبوت والرسوخ والسعادة من جهة، والنماء والزيادة المرتبطة بقاعدة الاستقامة في الدين من جهة أخرى، والتي يترتب عليها سعادة في الدنيا، ووفرة ثواب في الآخرة.

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٨٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١١٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس،١/ ٢٣١.
(٤) المفردات، ص١١٩.

البركة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بر ك) في القرآن الكريم (٣٢) مرة [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٧	﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [فصلت:١٠]
المصدر	٣	﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]
اسم المفعول	١٢	﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢]

وجاءت البركة في القرآن بمعناها في اللغة وهو: ثبوت الخير الإلهي في الشيء [(٢)].

(١) الكليات، ص ٢٤٨.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٨٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الثبات:

الثبات لغة:

ثبت الشيء يثبت ثباتًا وثبوتًا فهو ثابتٌ، والثبات ضد الزوال[١].

الثبات اصطلاحًا:

التمكن في الموضع الذي شأنه الاستنزال[٢].

الصلة بين البركة والثبات:

الثبات من الألفاظ المقاربة لمعاني البركة، ولكن البركة أعم وأشمل من الثبات، ويستعمل الثبات في الأجسام والأعراض[٣].

٢ الزيادة:

الزيادة لغة:

الزاء والياء والدال أصلٌ يدل على الفضل، يقولون: زاد الشيء يزيد، فهو زائدٌ[٤].

الزيادة اصطلاحًا:

أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر، يقال: زدته فازداد[٥].

الصلة بين البركة والزيادة:

البركة: هي الزيادة والنماء، ويوصف بها كل شيء لزمه وثبت فيه خير إلهي، والزيادة من معاني البركة، فإذن كل بركة زيادة، وليس كل زيادة بركة[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ١٩، المفردات، الراغب، ص ١٧١.
(٢) التوقيف، المناوي، ص ٩١.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص ١١٨.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٣٢.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٣٨٥.
(٦) انظر: معجم الفروق اللغوية، العسكري، ص ٩٧.

٣ النماء:

النماء لغة:

النون والميم والحرف المعتل أصلٌ واحدٌ، يدل على ارتفاعٍ وزيادةٍ[١].

النماء اصطلاحًا:

لا يخرج عن المعنى اللغوي، فهو الزيادة سواء أكانت حقيقية أم تقديرية.

وقيل: «ازدياد حجم الجسم، بما ينضم إليه ويداخله في جميع الأقطار، بنسبة طبيعية»[٢].

الصلة بين البركة والنماء:

نماء الشيء يفيد زيادة من نفسه، وقولك: زاد، لا يفيد ذلك، ألا ترى أنه يقال: زاد مال فلان بما ورثه عن والده، ولا يقال: نما ماله بما ورثه، والبركة تكون من الله وليس من غيره، فالبركة أعم وأشمل من النماء[٣].

٤ القحط:

القحط لغة:

(قحط) القاف والحاء والطاء أصلٌ صحيحٌ يدل على احتباس الخير، و(أقحط) القوم أصابهم القحط، و(القحط) الجدب[٤].

القحط اصطلاحًا:

«انقطاع المطر»[٥].

الصلة بين البركة والقحط:

البركة تعني ثبوت الخير الإلهي في الشيء[٦]، أما القحط فهو من الألفاظ المقابلة الذي يعني قلة الخير والجدب، وقلة الأمطار والريع في الزراعات، والربح في التجارات، ووقوع الموت في الناس والدواب، وكثرة الحرق، والغرق، ومحق البركات من كل شيء[٧].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤٧٩.
(٢) التعريفات، الجرجاني،ص ٢٤٦.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص ١٨٠.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٦٠، مختار الصحاح، الرازي، ص ٢٤٧.
(٥) التوقيف، المناوي، ص ٢٦٨.
(٦) بصائر ذوي التمييز، الفيروز أبادي، ٢/ ٢٠٩.
(٧) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٧٠٣.

الأساليب القرآنية في استخدام البركة

تنوعت الأساليب القرآنية في الحديث عن البركة، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: إسناد البركة إلى ذات الله تعالى وأسمائه:

من تأمل أساليب القرآن الكريم في تناول البركة لفظًا، وجد أنه سبحانه ذكرها مجموعة لا مفردة، وأنها جاءت مسندة إلى الله تعالى ، أو إلى اسمه سبحانه مع شفع ذلك الوصف بأمور منها:

- أنه سبحانه رب العالمين.

قال عز من قائل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

- وأنه سبحانه منزل القرآن الكريم، ذلك الفرقان المعجز.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

- وأنه سبحانه الذي أنعم علينا بالشمس والقمر؛ لأنه بيده ملكوت كل شيء.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقال تعالى أيضًا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الملك:١].

وقال أيضًا: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزخرف:٨٥].

- وقد صورنا فأحسن صورنا، بعد أن جمعنا في بطون أمهاتنا، وركب فينا السمع والبصر والأفئدة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

وقال أيضًا: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[غافر: ٦٤].

- وأنه قادر سبحانه على أن يجعل لنبيه صلى الله عليه وسلم خيرًا مما طلبه الكفار على سبيل التحدي، فيجعل له في الدنيا حدائق كثيرة تتخللها الأنهار، ويجعل له قصورًا عظيمة.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[الفرقان:١٠].

هذا وقد أسندت البركة لاسمه تعالى

فقال سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[الرحمن: ٧٨].

والآيات السابقة أتت بصيغة تفاعل من البركة التي يقول عنها علامة الزيتونة ابن عاشور -عليه سحائب الرضوان-: «وفعل تبارك في صورة اشتقاقه يؤذن بإظهار الوصف على صاحبه المتصف به مثل: تثاقل: أظهر الثقل في العمل، وتعالل، أي: أظهر العلة، وتعاظم: أظهر العظمة، وقد يستعمل بمعنى ظهور الفعل على المتصف به ظهورًا بينًا حتى كأن صاحبه يظهره.

ومنه: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾[النمل: ٦٣].أي: ظهر علوه، أي: شرفه على الموجودات كلها.

ومنه ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: ظهرت بركته، والبركة: شدة الخير.

فبركة الله الموصوف بها هي مجده ونزاهته وقدسه، وذلك جامعٌ صفات الكمال، ومن ذلك أن له الخلق والأمر، واتباع اسم الجلالة بالوصف -كرب العالمين ونحوه- في معنى البيان لاستحقاقه البركة والمجد؛ لأنه مفيض خيرات الإيجاد والإمداد، ومدبر أحوال الموجودات، بوصف كونه رب أنواع المخلوقات»[1].

ثانيًا: وصف المقدسات بالبركة:

وصف القرآن الكريم عددًا من المقدسات بالبركة، ومن ذلك:

١. القرآن.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾[الأنعام: ٩٢].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[الأنعام: ١٥٥].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[ص: ٢٩].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[الأنبياء: ٥٠].

٢. البيت الحرام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٦].

٣. بلاد الشام.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾[الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ٧١].

أي: «ونجينا إبراهيم ولوطًا الذي آمن به من العراق، وأخرجناهما إلى أرض الشام التي باركنا فيها بكثرة الخيرات، وفيها أكثر

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٧٠ بتصرف يسير.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾[سبأ: ١٨].

٤. بيت المقدس.

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨١].

٥. حول المسجد الأقصى.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[الإسراء: ١].

٦. البقعة المباركة في سيناء.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وصيغة ﴿مُبَارَكًا﴾ التي وردت في الآيات المذكورة: اسم مفعولٍ من بارك الشيء إذا جعل له بركةً، وهي زيادةٌ في الخير[2].

وسيتم الحديث عن هذه الآيات بما يتناسب مع ورودها في مواضعها اللاحقة من هذا البحث المبارك -إن شاء الله تعالى-.

(١) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٣٢٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٦.

ثالثًا: الدعاء للصالحين بالبركة عليهم وعلى ذرياتهم:

من المناسبات التي تحدث القرآن الكريم فيها عن البركة: الدعاء للصالحين بالبركة عليهم، وعلى ذرياتهم.

هذا ما جاء على لسان الخليل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١٠٠-١١٣].

فقوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٣].

معناه: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا، وبأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه[3].

والآيات تثبت مطلب الخليل عليه السلام

(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٩/ ١٢٠.

وأنه طلب أن يهبه الله من الصالحين، فكان أن أعطاه الله الذرية الصالحة، ومن عين الصلاح: البركة في الذرية، وفي حديث أبي سعيدٍ الخدري، قال: قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمدٍ عبدك ورسولك، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم)[1].

ويدخل في هذا المقام دعاء الصالحين لأنفسهم:

كدعاء نبي الله نوح عليه السلام ؛ وذلك بتوجيه من الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾[المؤمنون: ٢٩].

أي: «أنزلني إنزالًا فيه خير ونماء وبركة، بأن يثبت الله تعالى قلوب الذين آمنوا على الحق، وقد رأوا بأعينهم عاقبة الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ومعاندة الحق، وقد بارك سبحانه من معه، فجعل منهم ذرية الخليقة، فكان بحق الأب الثاني للإنسانية، وقد أثنى على ربه بما هو حقه ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ أي: أنت الذي تنزل منازل أعلى ما يكون الإنزال المبارك...، ثم عقب ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠].

وكانت الآية الأخيرة: أن الله تعالى أغرقهم، وقطع دابر الذين ظلموا، وفيه آية سامية في علوها وهي أن الزلفى عند الله بالحق والإيمان به، لا بالقرابة»[2].

ومما حمل على الدعاء مباركة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل: ٧-٨].

فقد حمل أبو السعود قوله تعالى: ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ على الدعاء، ونصه: «﴿أَن بُورِكَ﴾ معناه أي: بورك على ﴿أَن﴾ مفسرة لما في النداء من معنى القول أو بـ﴿أَن بُورِكَ﴾ على أنها مصدرية حذف عنها الجار جريًا على القاعدة المستمرة -نزع الخافض- وقيل: مخففةٌ من الثقيلة، ولا ضير في فقدان التعويض بـ(لا أوقد) أو السين أو سوف لما أن الدعاء يخالف غيره في كثير من الأحكام»[3].

وحمل هذه الآية على الدعاء أيضًا الطاهر ابن عاشور ونصه: «وقيل: إن قوله: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ إنشاء تحيةٍ من الله تعالى إلى موسى عليه السلام كما كانت تحية الملائكة لإبراهيم: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ٨/ ٧٧، ٣٦٥٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٢٧.

(٣) إرشاد العقل السليم ٦/ ٢٧٣، وأشار الآلوسي إلى هذا المعنى في روح المعاني ١٠/ ١٥٦.

﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[هود: ٧٣].

أي: أهل هذا البيت الذي نحن فيه»[(١)].

والمراد بالبركة في الآية الكريمة: النماء والزيادة والخير لكليم الله تعالى موسى عليه السلام لذاته؛ ولملابسة المكان بالملائكة الأطهار، ولطهر البقعة المقدسة التي كانت مكان تكليم موسى عليه السلام ، كما صرح سبحانه بذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[القصص: ٣٠].

ومما يدخل في الدعاء بالبركة قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود: ٧٢ـ ٧٣].

والمراد بالرحمة والبركة هنا: الرحمة التي وسعت كل شيء، واستتبعت كل خير، والبركة: الخيرات النامية المتكاثرة في كل بابٍ التي من جملتها هبة الأولاد، وقيل: الرحمة: النبوة، والبركات: الأسباط من بني إسرائيل؛ لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأهل البيت هنا هم أهل بيت خليل الرحمن -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-[(٢)].

وما سبق من الآيات يبرهن على أن الدعاء والتضرع إلى الله، واستحضار خفض الجناح لله عز وجل من أبرز أسباب استحضار البركة، والدعاء هو العبادة ومخها وخالصها، والمسلم إذا سأل فإنه يسأل الله، فهو وحده الذي عنده خيري الدنيا والآخرة، وهو سبحانه وحده من يمد بهما من يشاء ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء: ٢٠].

رابعًا: وصف النعم وأسباب السعادة بالبركة:

مما لا يرتاب فيه عاقل أن الله تعالى بارك نعمه كلها على اعتبار صدورها منه سبحانه ، وهو عز وجل واهب البركة ومصدرها في السماوات والأرض، لكن هذه البركة بدت لمن أخذ بأسبابها، وعزت على من تنكب طريق الوهاب سبحانه ، كما أن الله تعالى أفرد بعض النعم بصريح البركة ليوقظ إحساس العبد تجاه ما لم يشعر به تبلدًا منه أو تلهيًا عنه سبحانه ، وهذه النعم التي لفت أنظارنا إليها لنتفكرها، ونتدبر حكمتها منها ما هو حسي، ومنها ما هو معنوي.

فمن النعم الحسية التي وصفها الله تعالى بالبركة:

١. الماء النازل والمستقر.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا

(١) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٢٧.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٠٦٧.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

وقد حفل القرآن الكريم بذكر بركات الماء المتمثلة في:

- إحياء موات الأرض.

قال تعالى: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [البقرة:١٦٤].

- إخراج الثمرات.

قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾[البقرة: ٢٢].

- إخراج النبات.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

- حمل الفلك.

قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾[إبراهيم:٣٢].

- خلق الله منه كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾[الأنبياء:٣٠].

وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ [النور:٤٥].

- يتطهر به.

قال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[المائدة٦:].

وكما حدث يوم بدر: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

- جعله سبحانه للإرواء والسقي.

قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[الحجر:٢٢].

- استودعه الأرض بقدرته.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨].

- ينفع الله ببركته المؤمنين، ويضر بإذن الله تعالى أعداءهم.

كما حدث مع قوم نوح وموسى عليهما السلام من إغراق.

قال تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾[الفرقان: ٣٧].

وفي قوم موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾[البقرة:٥٠].

وقد حدث ذلك أيضًا مع أهل سبأ، فقال تعالى: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ [سبأ:١٦].

يقول الفخر فيما يخص بركة المطر: «وصف الله تعالى المطر بالبركة...، لما فيه من المنافع»[1] ولنا أن نذهب النفس كل مذهب في منافع المطر التي تمت معرفتها، وما سيكتشفه العلم منها إلى قيام الساعة، وأنه بركة من بركات السماء على أهل الأرض يجب على المسلمين اكتنازها وادخارها لوقت الحاجة إليها.

٢. شجرة الزيتون.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور:٣٥].

وهي الشجرة التي تخرج من طور سيناء، قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾[المؤمنون:٢٠].

وهي التي أقسم الله بها في سورة التين، فقال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:١-٤].

يقول الفخر: «وصف الله تعالى شجرة الزيتون بالبركة لكثرة منافعها»[2].

(١) مفاتيح الغيب ٢/ ٢٦٥ بتصرف يسير.
(٢) مفاتيح الغيب ٢/ ٢٦٥ بتصرف يسير.
يقول الطبيب أحمد حطيبه في درس صوتي له مفرغ على المكتبة الشاملة تحت عنوان: فوائد الزيتون: الزيتونة شجرة مباركة كما سماها الله،سبحانه وتعالى، والعلماء بحثوا في هذا الزيتون والفوائد الكثيرة الموجودة فيه، فمن ضمن ما ذكروا في الأبحاث الحديثة: أنهم رصدوا ظاهرة صحية لسكان بعض جزر البحر المتوسط، فوجدوا بعض السكان كسكان جزيرة كريت وغيرها أنهم يعيشون حياة طيبة، وأن صحتهم عالية، ودرجة الحيوية عندهم عالية، وأنهم يتمتعون بصحة ونشاط، وحاولوا أن يبحثوا عن سر صحة أهل هذه الجزر،كريت وما حولها، فوجدوا أن الغذاء عندهم يعتمد أساسًا على زيت الزيتون، فهم أقل الناس تعرضًا للإصابة بارتفاع ضغط الدم، وبأمراض القلب، وأمراض تصلب الشرايين؛ لأنهم يتمتعون بمستوى معتدل صحي بنسبة الكولسترول الموجودة في دم الإنسان، والسبب في هذا كله اعتمادهم على زيت الزيتون، وعلى الزيتون في طعامهم، والعصرة الأولى من زيت الزيتون فيها الفوائد كلها، وزيت الزيتون غني جدًا بالدهون، وفيه نوعان من أنواع الدهون: دهون مشبعة، ودهون غير مشبعة: فالدهون المشبعة فيه نسبة قليلة منها، ومفيدة للإنسان، والدهون غير المشبعة فيه نسبة كبيرة منها، وهي مفيدة جدًا جدًا، ولا توجد إلا في الزيوت النباتية فقط، مثل زيت الزيتون، وزيت السمسم، وزيت الذرة، وفيها الزيوت غير المشبعة، وهي مفيدة للإنسان، والزيوت غير المشبعة الموجودة في زيت الزيتون هي دهون ومع ذلك يقولون: إنها تساعد على تخفيف الدهون الموجودة في الجسم، فالإنسان السمين إذا شرب من زيت الزيتون فإنه يساعده على تخفيف أو إزالة الدهون الموجودة في الجسم، ومن العجب أن تأخذ دهنًا لتزيل به دهنًا آخر! فدهن زيت الزيتون هذا غير مشبع، ويمنع الأكسدة التي تؤدي لخمول ذهن الإنسان، وعدم التفكير، وغير ذلك من الأمراض.

فهي شجرة تشرب الماء وتخرج الزيت، جعل الله عز وجل في هذه الشجرة أدمًا ودهنًا، وهي صبغ للآكلين.

٣. ليلة القدر، ليلة إنزال القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١].

وهي الليلة المباركة التي أخبر الله عنها في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:١-٣].

ومن الأبحاث التي أجريت على زيت الزيتون: أن ملعقة من زيت الزيتون يوميًا تقلل من سرطان الثدي عند النساء أربعين في المائة، وكذلك تناول زيت الزيتون لمريض قرحة المعدة تساعده على قتل نوع من أنواع الجرثومات تسمى: الهلوبكتر، وهي نوع من أنواع الجرثومات الحلزونية الموجودة في المعدة، وتعمل على قرحتها، فشراب زيت الزيتون يقضي على هذه الجرثومة، ويمنع من سرطان المعدة، ومن سرطان القولون كذلك، ومن تصلب الشرايين، وزيت الزيتون ملطف وملين ومدر للصفراء، ومفتت للحصى، ويحتوي على مضادات للأكسدة في جسم الإنسان، وكذلك يحتوي على فيتامينات: فيتامين أ و ب و هـ و ج ولو دهن الإنسان شعر رأسه فإنه يمنع من سقوط شعر الرأس، ودهانه لجلد الإنسان مع شربه يمنع التشققات وغيرها من الأمراض الجلدية التي تكون عند الإنسان.

هذه جملة من الفوائد التي جمعها الله، سبحانه وتعالى، لنا، وقال في زيت الزيتون أو في الزيتون نفسه: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ۝٢٠﴾ [المؤمنون:٢٠].

«ووصفها بالبركة لما أن نزول القرآن مستتبعٌ للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها، أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة، وقسم النعمة، وفصل الأقضية، وفضيلة العبادة، وإعطاء تمام الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم»[(١)].

والمقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريفٌ آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره، تنبيهًا على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتًا شريفًا مباركًا؛ لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يختار لإيقاعه أفضل الأوقات والأمكنة، فاختيار أفضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله تعالى كقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة (٧٩)][(٢)].

وسمى ليلة القدر مباركةً إذ القرآن ذكرٌ مباركٌ، أنزله ملكٌ مباركٌ، في ليلةٍ مباركةٍ، على نبي مبارك، لأمة مباركة[(٣)].

❁ نعمة نزول القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَٰرَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢].

وبركة هذه النعمة لا يستطيع أحد مهما

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٥٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٥٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٢٦٥ بتصرف يسير.

أوتي من علم أن يحدها بحد، أو يحصرها بحصر، بل يعجز الإنسان عن بيان نعمة القرآن على الكون وما حواه من منافع دنيوية أو أخروية، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩].

يقول الشيخ الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة»[1].

❁ تحية الإسلام، السلام عليكم.

من النعم المعنوية الموصوفة في القرآن الكريم بالبركة تحية الإسلام السلام عليكم؛ لقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[النور:٦١].

سمى الله تعالى السلام تحية من عنده سبحانه ، وهذه التحية من جوامع الكلم؛ لأن المقصود من التحية تأنيس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه وباللطف له إن كان معروفًا...، والمباركة أي: المجعولة فيها البركة، والبركة: وفرة الخير، وإنما كانت هذه التحية مباركةً لما فيها من نية المسالمة، وحسن اللقاء والمخالطة؛ وذلك يوفر خير الأخوة الإسلامية، والطيبة: ذات الطيب، وهو بمعنى النزاهة والقبول في نفوس الناس، ووجه طيب التحية أنها دعاءٌ بالسلامة، وإيذانٌ بالمسالمة والمصافاة[2].

وتحية الإسلام حيا الله تعالى بها جميع المرسلين بقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:١٨١].

وهي تحية أهل الجنة بعضهم بعضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:٩-١٠].

وهي تحية الملائكة المطهرين للصالحين أهل الجنة: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد:٢٣-٢٤].

والسلام تحية المؤمنين من الله في الجنة يوم يلقونه سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾[الأحزاب:٤٤].

والسلام تحية خزنة الجنة من الملائكة لأهل الجنة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾

(١) أضواء البيان ٣/ ١٧-٥٥.

(٢) التحرير والتنوير، عاشور ١٨/ ٣٠٤ بتصرف.

[الزمر:٧٣].

وتحية الإسلام فيها من شمول المعنى لكل سلامة من كل آفة، وأمن من كل مخالفة، وصدق في الدعاء، ما لا نظير له في جميع تحايا الأمم من العرب وغيرهم، فتحية الإسلام كمال لا خداج فيها، وصدق لا كذب فيها[1].

(١) معجم المناهي اللفظية، بكر أبو زيد ص ٥٥٨.

مجالات البركة

تعددت مجالات البركة في القرآن الكريم، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أسماء الله وصفاته:

من مجالات البركة أسماء الله تعالى وصفاته، حيث وصف سبحانه وتعالى نفسه في غير ما آية من القرآن الكريم مرة بـالبركة وصفًا لذاته سبحانه ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، ومرة أخرى وصفًا لاسمه سبحانه ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾،ومرة ثالثة أدخل سبحانه وصف البركة على ما يشير إليه قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾.

وهذا يدل على استحقاق ذاته سبحانه للبركة، واستحقاق اسمه الشريف ﴿ٱللَّهُ﴾ لذلك أيضًا ، واستحقاق ما يشير إليه سبحانه بذلك، وكل ما يتصل به جل وعلا.

والملاحظ في وصفه سبحانه لذاته بالبركة أو وصف اسمه جل وعلا بذلك أو وصف ما يشير إليه تعالى أنه ليس وصفًا خاليًا من التعليل أو الحكمة، بل لدينا في كل آية تخص «الذات الشريفة أو الاسم الشريف أو الإشارة إليه عز وجل» من ثوابت قدرته ومقام عظمته سبحانه ما يستحق الوصف بذلك، ومع الآيات وهداياتها، وأسرارها نمضي لإقامة الحجة وبيان البرهان الساطع على ما نقول.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

بيان للربوبية، والألوهية التي من آثارها خلق السماوات والأرض في مقدار ستة أيام، ثم الاستواء على العرش استواء يليق بذاته سبحانه وتعالى، ثم ستر الليل النهار فيصير الجو مظلمًا بعد ما كان مضيئًا، يطلبه حثيثًا، أي: سريعًا طبق الحكمة والكمال، كما احتوت الآية الكريمة من عجائب القدرة تذليله سبحانه وتعالى للشمس وللقمر وللنجوم السيارة؛ إذ الكل مأمور بأمره يسخرهن سبحانه كما يشاء، وهن من آيات الله العظيمة، ألا له سبحانه وتعالى الخلق كله وله الأمر كله، تعالى الله وتعاظم وتنزه عن كل نقص، رب الخلق أجمعين.

وختم الآية الكريمة بـ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي هو وصف خاص به سبحانه «لم يجئ منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل»[1] مشعرٌ بما احتوته من دلائل القدرة، وفيوضات الربوبية، يقول الفخر الرازي: «إذا دققت النظر علمت أن عالم الخلق في تسخير الله، وعالم الأمر في تدبير الله، واستيلاء الروحانيات على الجسمانيات بتقدير الله، فلهذا المعنى قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ ثم قال بعده: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والبركة لها تفسيران:

أحدهما: البقاء والثبات.

والثاني: كثرة الآثار الفاضلة، والنتائج الشريفة.

وكلا التفسيرين لا يليق إلا بالحق سبحانه ، فإن حملته على الثبات والدوام، فالثابت والدائم هو الله تعالى ؛ لأنه الموجود الواجب لذاته، العالم لذاته القائم بذاته الغني في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه عن كل ما سواه، فهو سبحانه مقطع الحاجات

(١) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٧٨.
قال ابن القيم: «وأما صفته تبارك فمختصة به،تعالى، كما أطلقها على نفسه، وقال: فتباركه،سبحانه، صفة ذات له وصفة فعل»، بدائع الفوائد ٢/ ١٨٥.

وقال السلمان: «والنوع الثاني بركة: هي صفته تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره كذلك، ولا يصلح إلا له،عز وجل،؛ فهو،سبحانه، المبارك، وعبده ورسوله المبارك؛ كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم:٣١]، فمن بارك الله فيه؛ فهو المبارك، وأما صفته؛ فمختصة به؛ كما أطلق على نفسه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤]» .
وانظر: صفات الله عز وجل، الواردة في الكتاب والسنة، علوي السقاف ص٧٠.

ومنهى الافتقارات وهو غنيٌّ عن كل ما سواه في جميع الأمور.

وأيضًا إن فسرنا البركة بكثرة الآثار الفاضلة فالكل بهذا التفسير من الله تعالى؛ لأن الموجود إما واجبٌ لذاته، وإما ممكنٌ لذاته، والواجب لذاته ليس إلا هو، وكل ما سواه ممكنٌ، وكل ممكنٍ فلا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، وكل الخيرات منه، وكل الكمالات فائضةٌ من وجوده وإحسانه، فلا خير إلا منه، ولا إحسان إلا من فيضه، ولا رحمة إلا وهي حاصلةٌ منه، فلما كان الخلق والأمر ليس إلا منه، لا جرم كان الثناء المذكور بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر:٦٤]. لا يليق إلا بكبريائه، وكمال فضله، ونهاية جوده ورحمته»[1].

ومن الآيات التي وصفت ذات الله بالبركة:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

والملاحظ أن هذه الآية الكريمة قدمت للوصف بالبركة بمقدمات كلها معجز، ومختص بذات الله وحكمه وقدرته سبحانه حيث خلق آدم من طين، وخلق بنيه من نطفة، ثم خلق النطفة علقة أي: دمًا أحمر، فخلق العلقة -بعد أربعين يومًا- مضغة، أي: قطعة لحم قدر ما يمضغ، فخلق المضغة اللينة عظامًا، فكسا العظام لحمًا، ثم أنشأه خلقًا آخر بنفخ الروح فيه، ثم يأتي الختام بـ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ الذي أحسن كل شيء خلقه.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر:٦٤].

وصف فيه الحق سبحانه ذاته بالبركة، وقدم بصور تمثل قدرته سبحانه وإرادته من جعله الأرض مستقرًا لنا، ميسرة لإقامتنا عليها، وجعله السماء سقفًا للأرض، وبثه سبحانه فيها من العلامات الهادية، ومن خلقه إيانا على أكمل هيئة وأحسن تقويم، ومن إنعامه علينا بحلال الرزق، ولذيذ المطاعم والمشارب، ذلكم المنعم المتفضل هو ربنا وخالقنا، فتكاثر خيره وفضله وبركته، وتنزه عما لا يليق به، وهو رب الخلائق أجمعين.

وكما ورد الوصف بالبركة لذات الله

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٧٤، روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٧٨.

تعالى ، فإنه قد ورد كذلك مقترنًا باسم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٧٨].

فقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له تعالى فيه تقريرٌ لما ذكر في سورة الرحمن من آلائه الفائضة على الأنام، أي: تعالى اسمه الجليل الذي من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبئ عن إفاضته الآلاء المفصلة، وارتفع عما لا يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها، وإذا كان حال اسمه بملامسة دلالته عليه فما ظنك بذاته الأقدس الأعلى، وقيل: الاسم بمعنى الصفة ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وصف به الرب تكميلًا لما ذكر من التنزيه والتقرير[(١)].

«والبركة واجبة لاسم الله عز وجل الذي هو كلمة مؤلفة من حروف الهجاء، ونحن نتبرك بالذكر له وبتعظيمه ونجله ونكرمه، فله التبارك، وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا، حيثما كان من قرطاس، أو في شيء منقوش فيه، أو مذكور بالألسنة، ومن لم يجل اسم الله عز وجل كذلك ولا أكرمه، فهو كافر بلا شك. انتهى كلامه رحمه الله »[(٢)].

واقتران البركة باسم الله يعني: الدوام والثبوت لاسمه الشريف، أو دوام الخير عنده سبحانه ، وعلو شأنه عز وجل، أي: تبارك ذكر ربك يا محمد، ذي العظمة، ومن له الإكرام من جميع خلقه، أو أن البركة تكتب وتنال وتكسب بذكر اسمه.

قال ابن كثير: «الاسم معظمٌ لتعظيم الذات المقدسة، و﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهلٌ أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى»[(٣)].

ويقول الشهاب: «كما يجب تعظيم ذاته تعالى يجب تعظيم أسمائه وتنزيهها عما لا يليق بها[(٤)] فاسمه -جل شأنه- ما يمكننا أن نعلم منه ما نعلم من صفاته، وما يشرق في أنفسنا من بهائه وجلاله»[(٥)].

وفي بيان مناسبة بركات الله علينا من خلال سورة الرحمن، وفي بيان وجوه معاني ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾:

يقول الفخر: «أنه تعالى لما ختم نعم الدنيا بقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٧].

ختم نعم الآخرة بقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٧٨].

إشارةً إلى أن الباقي والدائم لذاته هو

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٨٧.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١١٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٢٢، ٧/ ٤٧٠.
(٤) حاشية الشهاب ١/ ١٤٥.
(٥) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢١٩.

الله تعالى لا غير والدنيا فانية، والآخرة وإن كانت باقيةً لكن بقاؤها بإبقاء الله تعالى ، ثانيها: هو أنه تعالى في أواخر هذه السور كلها ذكر اسم الله فقال في السورة التي قبل هذه: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر:٥٥].

وكون العبد عند الله من أتم النعم كذلك هاهنا بعد ذكر الجنات وما فيها من النعم، قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨].

إشارةً إلى أن أتم النعم عند الله تعالى ، وأكمل اللذات ذكر الله تعالى ، وأصل التبارك من البركة، وهي الدوام والثبات، ومنها بروك البعير وبركة الماء، فإن الماء يكون فيها دائمًا، وفيه وجوهٌ:

أحدها: دام اسمه وثبت.

وثانيها: دام الخير عنده؛ لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير.

وثالثها: تبارك بمعنى علا وارتفع.

وقال بعد ذكر نعم الدنيا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرحمن٢٧].

وقال بعد ذكر نعم الآخرة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ لأن الإشارة بعد عد نعم الدنيا وقعت إلى عدم كل شيءٍ من الممكنات وفنائها في ذواتها، واسم الله تعالى ينفع الذاكرين ولا ذاكر هناك يوحد الله غاية التوحيد، فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ والإشارة هنا وقعت إلى أن بقاء أهل الجنة بإبقاء الله ذاكرين اسم الله متلذذين به، فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: في ذلك اليوم لا يبقى اسم أحدٍ إلا اسم الله تعالى به تدور الألسن، ولا يكون لأحدٍ عند أحدٍ حاجةٌ بذكره، ولا من أحدٍ خوفٌ، فإن تذاكروا تذاكروا باسم الله»[1].

وكما دخلت البركة على العلم على الذات العلية، وعلى الاسم الشريف، دخلت على ما يشير إليه عز وجل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١].

حيث افتتحت السورة بما يدل على منتهى كمال الله تعالى افتتاحًا يؤذن بأن ما حوته يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون لما نسبوا إليه شركاء

(١) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٣٨٢.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٨٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢١٧، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٨/ ٣٦٦، وتفسير القرآن، العز بن عبد السلام ٣/ ٢٧١.

وقد حمل الخطيب الاسم في الآية: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمن:٧٨] على اسم الرحمن فقال: «أي: هذا لاسم الذي افتتح به سورة الرحمن كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقتكم، وخلقت لكم السماء والأرض والخليقة والجنة والنار، فهذا كله لكم من اسم الرحمن، فمدح اسمه، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾[الرحمن:٧٨]».
السراج المنير ٤/ ١٧٨.

في الربوبية والتصرف معه والتعطيل لبعض مراده، ففي هذا الافتتاح براعة الاستهلال، و﴿تَبَارَكَ﴾ المستعمل منه الماضي وحده، وزنه تفاعل، وهو مطاوع بارك من البركة، وبارك فاعل من واحد، معناه زاد.

و﴿تَبَارَكَ﴾ فعل مختص بالله تعالى لم يستعمل في غيره؛ ولذلك لم يصرف منه مستقبل ولا اسم فاعل، وهو صفة فعل أي: كثرت بركاته، ومن جملتها إنزال كتابه الذي هو الفرقان بين الحق والباطل، وجميع البركات منه سبحانه وحده، وهو يدل على التعظيم والمبالغة في وفرة الخير، وهو في مقام الثناء يقتضي العموم بالقرينة، أي: يفيد أن كل وفرةٍ من الكمال ثابتةٌ لله تعالى ، بحيث لا يتخلف نوعٌ منها عن أن يكون صفةً له تعالى .

وصيغة تفاعل إذا أسندت إلى واحدٍ تدل على تكلف فعل ما اشتقت منه، نحو: تطاول وتغابن، وترد كنايةً عن قوة الفعل وشدته مثل: تواصل الحبل، وهو مشتقٌ من البركة، وهي زيادة الخير ووفرته، وهذا الكلام يجوز أن يكون مرادًا به مجرد الإخبار عن عظمة الله تعالى وكماله، ويجوز أن يكون مع ذلك إنشاء ثناءٍ على الله أثناه على نفسه، وتعليمًا للناس كيف يثنون على الله ويحمدونه، كما في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة:٢].

إما على وجه الكناية بالجملة عن إنشاء الثناء، وإما باستعمال الصيغة المشتركة بين الإخبار والإنشاء في معنييها، ولو صيغ بغير هذا الأسلوب لما احتمل هاذين المعنيين.

وجعل المسند إليه (الذي) اسم موصول للإيذان بأن معنى الصلة مما اشتهر به، كما هو غالب أحوال الموصول، فصارت الصلة مغنيةً عن الاسم العلم لاستوائهما في الاختصاص به؛ إذ يعلم كل أحدٍ أن الاختصاص بالملك الكامل المطلق ليس إلا لله[(١)].

قال أهل اللغة: كلمة (الذي) موضوعةٌ للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه بقضيةٍ معلومةٍ، وعند هذا يتوجه الإشكال، وهو أن القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو الذي نزل الفرقان، فكيف حسن هاهنا لفظ (الذي)؟ وجوابه: أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزًا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله، فلقوة الدليل، وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم[(٢)].

ومن أمثلة دخول البركة على ما يشير إليه سبحانه في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[الفرقان:١٠].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٩، ١٨/ ٣١٦

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٢٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٩٩، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٢٤.

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله تعالى أيضًا في سورة الزخرف: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف:٨٥].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١].

وما أسلفناه عن صيغة تبارك ودخولها على الموصول ينطبق على كل نظير مع مراعاة السياق.

ومن مجالات البركة -فوق ما تقدم- مما يتصل بالله تعالى: وصف القرآن بالبركة.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢].

يقول الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان عند تفسيره قوله تعالى: «﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٥٠].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم ذكرٌ مباركٌ، أي: كثير البركات والخيرات؛ لأن فيه خيري الدنيا والآخرة...، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن مباركٌ بينه في مواضع متعددةٍ من كتابه، كقوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

وقوله فيها أيضًا: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام:٩٢].

وقوله تعالى في ص: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

فنرجو الله تعالى القريب المجيب أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك بتوفيق الله تعالى لنا لتدبر آياته، والعمل بما فيها من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمكارم والآداب، امتثالًا واجتنابًا، إنه قريبٌ مجيبٌ»[1].

ومما لا ريب فيه أن النظرة الموضوعية للآية لا تستغني بحال عن النظرة التحليلية؛ إذ التحليل يزيد من عبق موضوعية الآية، ويكشف عن مستور كنوز القرآن، واستكناه درره الخبيئة، وهذا ما يفعل الإفادة من التفسير الموضوعي للقرآن.

يقول العلامة الرازي مظهرًا مجمل البركة القرآنية: «﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

أي: كثير المنافع والفوائد؛ لاشتماله على منافع الدارين، وعلوم الأولين والآخرين، وما لا يتناهى من الفوائد، قال أهل المعاني: كتابٌ مباركٌ أي: كثيرٌ خيره، دائمةٌ بركته

(١) أضواء البيان ٤/ ١٦٢.

ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية، وأقول: العلوم إما نظريةٌ، وإما عمليةٌ، أما العلوم النظرية فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب، وأما العلوم العملية فالمطلوب إما أعمال الجوارح، وإما أعمال القلوب، وهو المسمى بطهارة الأخلاق، وتزكية النفس، ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب، ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه، والمتمسك به يحصل له عز الدنيا، وسعادة الآخرة».

ثم عقب ذلك بقوله متحدثًا بنعمة الله عليه: «يقول مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي: وأنا قد نقلت أنواعًا من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيءٍ من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم»[1].

يقول محمد رشيد رضا بعد أن نقل نص الرازي: «هذا العلم أي: علم القرآن بتفسيره»، ثم يعقب بقول: «فليعتبر بهذا من يضعون جل أوقاتهم في طلب العلم الديني بعلوم الكلام وغيرها، مما يعدون الرازي الإمام المطلق فيها؛ لعلهم يرجعون إلى كتاب الله تعالى، ويهتدون به، ويطلبون السعادة من فيضه دون غيره، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لإتمام تفسيره، وأن يجعله حجةً لنا لا علينا بكمال التخلق به»[2].

وبتدبر الآيات التي تحدثت عن القرآن وإنزاله موصوفًا بالبركة فإننا نلحظ أن الإنزال فيها سبق البركة مرة، والبركة فيها سبقت الإنزال مرة أخرى، ولا شك أن لذلك حكمته اللطيفة، ونكتته البديعة.

يقول أبو حيان: «﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَٰرَكٌ﴾[الأنعام:٩٢].أي: وهذا القرآن لما ذكر وقرر أن إنكار من أنكر أن يكون الله أنزل على بشرٍ شيئًا وحاجهم بما لا يقدرون على إنكاره أخبر أن هذا الكتاب الذي أنزل على الرسول مباركٌ كثير النفع والفائدة؛ ولما كان الإنكار إنما وقع على الإنزال فقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[الأنعام:٩١].

وقيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كان تقديم وصفه بـ(الإنزال) أكد من وصفه بكونه (مباركًا) ولأن ما أنزل الله تعالى فهو مباركٌ قطعًا فصارت الصفة بكونه مباركًا، كأنها صفةٌ مؤكدةٌ؛ إذ تضمنها ما قبلها ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَٰرَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[الأنبياء:٥٠].

(١) مفاتيح الغيب ١٣/ ٦٤.
وانظر: حاشية الشهاب ٤/ ٩٥، ومحاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٤٢٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٧٠، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٥١٦.

(٢) تفسير المنار ٧/ ٥١٦.

فلم يرد في معرض إنكارٍ أن ينزل الله شيئًا، بل جاء عقب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨].

ذكر أن الذي آتاه الرسول هو ذكرٌ مباركٌ؛ ولما كان الإنزال يتجدد عبر بالوصف الذي هو فعلٌ، ولما كان وصفه بالبركة وصفًا لا يفارق عبر بالاسم الدال على الثبوت»[1] اللهم كما باركت للمتقدمين من أهل القرآن وخدامه بارك لنا في أنفسنا، وفي أولادنا وفي مجتمعاتنا، وارزقنا العمل به.

ثانيًا: الأنبياء وأممهم:

من مجالات البركة في القرآن الكريم ما تناوله القرآن في حديثه عن الأنبياء وأممهم، ومما لا شك فيه أن الله بارك الصالحين بصفة عامة، ولولا بركة الله وفضله عليهم ما كانوا صالحين، ورسل الله من المصطفين الأخيار؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[الحج:٧٥].

فهم ذروة الصلاح، ومجمع بركة الله، هذه عقيدتنا، لكن القرآن الكريم في استعمالاته ذكر جمعًا من الأنبياء وصفهم بالبركة صراحة، وهذا لا يعني أن غير المذكور من الأنبياء ليس مباركًا؛ إذ البركة كما تكون باللفظ الصريح تكون بغيره من المفردات، أما الأمم فمن باركه الله فهو المبارك فحسب.

ومن الأنبياء الذين وردت البركة وصفًا لهم في استعمال القرآن صراحة نبي الله نوح وإبراهيم وإسحاق وعيسى عليهم السلام، وتفصيل ذلك فيما يلي:

١. نبي الله نوح عليه السلام.

جاءت آيات تتحدث عن البركة في معية نبي الله نوح عليه السلام، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[المؤمنون:٢٩].

والآية الكريمة تحمل توجيها لنبي الله نوح عليه السلام أن يدعو ربه أن ييسر له النزول المبارك الآمن؛ إذ الله بيده مقاليد كل شيء، ومن ذلك اختيار الخير لنزول نبيه من الفلك، فهو -جل شأنه- خير من أنزل عباده المنازل، ويتسلسل بنا قرآنيًا الشيخ الشنقيطي رحمه الله في رحلة نوح عليه السلام.

فيقول معلقًا على قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩].

«ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة: أن نبيه نوحًا -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- أمر أصحابه الذين قيل له احملهم فيها أن يركبوا فيها قائلًا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا

(١) البحر المحيط ٤/ ٦٥٧.

﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾[هود:٤١].

أي: بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رسوها، وبين في (سورة الفلاح): أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدوا الله الذي نجاهم من الكفرة الظالمين، ويسألوه أن ينزلهم منزلًا مباركًا؛ وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَٰرَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩، ٢٨].

وبين في سورة الزخرف ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[الزخرف:١٢-١٤]»[1].

والدعاء في الآية الكريمة ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَٰرَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[المؤمنون:٢٩].

يتضمن سؤال سلامةٍ من غرق السفينة، وهذا كالمحامد التي يعلمها الله محمدًا صلى الله عليه وسلم يوم الشفاعة، فيكون في ذلك التعليم إشارةٌ إلى أنه سيتقبل ذلك منه، وجملة: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ في موضع الحال، وفيها معنى تعليل سؤاله ذلك[2].

قال القرطبي: «وبالجملة فالآية تعليمٌ من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا، وإذا نزلوا أن يقولوا هذا، بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلموا قالوها»[3].

وثمرة الدعاء السالف تظهر في قوله تعالى مستجيبًا: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٨].

ثم إنه تعالى لما وعده بالسلام أردفه بأن وعده بالبركات التي هي عبارةٌ عن الدوام والبقاء، والثبات، ونيل الأمل، ومنه بروك الإبل، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، ومنه تبارك وتعالى، أي: ثبت تعظيمه، ثم اختلف المفسرون في تفسير هذا الثبات والبقاء.

فالقول الأول: أنه تعالى صير نوحًا أبا البشر؛ لأن جميع من بقي كانوا من نسله، وعند هذا قال هذا القائل: إنه لما خرج نوحٌ من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته، ولم يحصل النسل إلا من ذريته، فالخلق كلهم من نسله وذريته، وقال آخرون: لم يكن في سفينة نوحٍ عليه السلام إلا من كان من نسله وذريته، وعلى التقديرين فالخلق كلهم إنما تولدوا منه ومن

(١) أضواء البيان،٢/ ١٨٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٤٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ١١٩.

أولاده، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[الصافات:٧٧].

فثبت أن نوحًا عليه السلام كان آدم الأصغر، فهذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها.

والقول الثاني: أنه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات، وعده بأن موجبات السلامة يكون في التزايد والثبات والاستقرار، ثم إنه تعالى لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه، فقال: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود:٤٨].

والأمم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرةٌ يدل على أن بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم، يعني ليس جميع من تشعب منهم مسلمًا ومباركًا عليه، بل منهم أممٌ ممتعون في الدينا معذبون في الآخرة، وعلى هذا لا يكون كل من كان مع نوح عليه السلام مسلمًا ومباركًا عليه صريحًا، وإنما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص، ويجوز أن تكون (من) بيانيةً أي: وعلى أمم هم الذين معك[1] عن الحسن: أنه كان إذا قرأ سورة هود، فأتى على يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك، حتى ختم الآية، قال الحسن: فأنجى الله نوحًا والذين آمنوا، وهلك المتمتعون! حتى ذكر الأنبياء كل ذلك يقول: أنجاه الله وهلك المتمتعون[2].

قال محمد بن كعب: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[هود:٤٨].

قال: فما بقي مؤمنٌ ولا مؤمنةٌ إلا دخل في ذلك السلام، وفي تلك البركات إلى يوم القيامة[3].

وبشر نوح بالسلامة إيذانًا له بمغفرة ربه له ورحمته إياه، وبإقامته في الأرض آمنًا من الآفات الدنيوية؛ إذ كانت الأرض قد خلت مما ينتفع به من النبات والحيوان، فكان ذلك تبشيرًا له بعود الأرض إلى أحسن حالها؛ ولذلك قال: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ أي دائمةٍ باقيةٍ عليك.

والمعنى: أن السلام منا والبركات دائمة باقية عليك وعلى أمم مؤمنين ينشئون ممن معك، وأممٌ ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار[4].

وقد بين الله تعالى أن البركة كما أصابت نوحًا عليه السلام فقد أصابت واستعلت

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢١٤.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٥٥، وابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٠٤١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٠٤١.

(٤) انظر: البحر المحيط ٦/ ١٦٣، مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه ص ٦٥.

أممًا كانت مع نبي الله نوح عليه السلام، و(على) للاستعلاء المجازي، أي: تمكن البركة من الإحاطة بهما[1].

وكما أصابت البركة نوحًا عليه السلام أصابت أيضًا إبراهيم وذريته من الأنبياء عليهم السلام.

٢. نبي الله إبراهيم وذريته من الأنبياء عليهم السلام.

من مجالات البركة في القرآن الكريم، وضمن حديث القرآن عن الأنبياء يأتي خليل الرحمن إبراهيم وذريته من الأنبياء عليهم السلام.

يقول الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ [الصافات:١٠٩-١١٣].

فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [هود:٤٨][2].

والمعنى: «ثنينا عليهما النعمة، وقيل: كثرنا ولدهما، أي: باركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق حين أخرج أنبياء بني إسرائيل من صلبه، وقد قيل: إن الكناية في (عليه) تعود على إسماعيل وأنه هو الذبيح.

قال المفضل: الصحيح الذي يدل عليه القرآن أنه إسماعيل؛ وذلك أنه قص قصة الذبيح، فلما قال في آخر القصة: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات:١٠٧].

ثم قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي: على إسماعيل، وعلى إسحاق كنى عنه؛ لأنه قد تقدم ذكره»[3].

وحمل أبو حيان الآية على الوعد والوعيد، حيث قال: «﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا...، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ [الصافات:١١٣].

فيه وعيدٌ لليهود، ومن كان من ذريتهما لم يؤمن بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وفيه دليلٌ على أن البر قد يلد الفاجر، ولا يلحقه من ذلك عيبٌ ولا منقصةٌ»[4].

وقد جمع القاسمي البركة في ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ في تكثير الذرية، وتسلسل النبوة فيهم، وجعلهم ملوكًا، وإيتائهم ما لم يؤت أحد»[5].

٣. نبي الله عيسى عليه السلام.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٦٢.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١١٢.
(٤) البحر المحيط ٩/ ١٢٠.
(٥) محاسن التأويل ٨/ ٢١٩.

وكما ذكر الله تعالى أنبياءه نوح وإبراهيم وذريته من الأنبياء عليهم السلام متصفين بالبركة ذكر نبيه عيسى عليه السلام فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:٣١].

فسر العلماء البركة الموصوف بها نبي الله عيسى عليه السلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو النفع حيث ما توجه، وقال مجاهدٌ: معلمًا للخير.

وقال عطاءٌ: أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته.

وعن الضحاك: قضاءً للحوائج.

وقيل: مباركًا على من تبعني[(١)].

وفسر القرطبي البركة بقوله: «وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف»[(٢)].

وفسرها القاسمي بقوله: «أبلغ وحي ربي لتقويم النفوس، وكبح الشهوات، والأخذ بما هو مناط السعادات، والتعبير بلفظ الماضي ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم»[(٣)].

وفسرها ابن عاشور بعد بيان صيغة ﴿مُبَارَكًا﴾ قائلًا: «والمبارك: الذي تقارن البركة أحواله في أعماله ومحاورته ونحو ذلك؛ لأن المبارك اسم مفعولٍ من باركه، إذا جعله ذا بركةٍ، أو من بارك فيه، إذا جعل البركة معه.

والبركة: الخير واليمن؛ ذلك أن الله أرسله برحمةٍ لبني إسرائيل ليحل لهم بعض الذي حرم عليهم، وليدعوهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم، وغيروا من دينهم، فهذه أعظم بركةٍ تقارنه، ومن بركته أن جعل الله حلوله في المكان سببًا لخير أهل تلك البقعة من خصبها واهتداء أهلها، وتوفيقهم إلى الخير؛ ولذلك كان إذا لقيه الجهلة والقساة والمفسدون انقلبوا صالحين، وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة.

ولذلك ترى أكثر الحواريين كانوا من عامة الأميين من صيادين وعشارين فصاروا دعاة هدًى، وفاضت ألسنتهم بالحكمة، وبهذا يظهر أن كونه مباركًا أعم من كونه نبيًا عمومًا وجهيًا، فلم يكن في قوله وجعلني نبيًا غنيةٌ عن قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ والتعميم الذي في قوله: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ تعميمٌ للأمكنة، أي: لا تقتصر بركته على كونه في

(١) أخرج هذه الآثار الطبري في تفسيره ١٨/ ١٩٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٤٠٨.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٣٠، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥، البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٥٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٠٣.

(٣) محاسن التأويل ٧/ ٩٣.

الهيكل بالمقدس، أو في مجمع أهل بلده، بل هو حيثما حل تحل معه البركة»[1].

وفسرها الإمام محمد أبو زهرة بقوله: «المبارك: النافع الهادي المرشد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والداعي إلى الحق والتنزيه، وقد كان عيسى عليه السلام واضح البركات، كان يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وكان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيي الموتى، وينادي الموتى فيخرجون من قبورهم، وأنزل الله تعالى على يديه المائدة من السماء، على أن تكون عيدًا لأولهم وآخرهم، فأي بركةٍ أعظم مما أعطيه هذا النبي الكريم؟!»[2].

وكما أن الأنبياء يمثلون مجالًا من مجالات البركة في القرآن، فإن أهل بيت النبوة يمثلون ذلك أيضًا في استعمال القرآن.

٤. أهل بيت نبي الله إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ۗ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود:٦٩-٧٣].

الآيات الكريمات تتحدث عن مجيء الملائكة إبراهيم عليه السلام لتبشيره هو وزوجته بالذرية، وإخبارهما بالرحمة والبركة الكائنة في بيت النبوة، يقول ابن كثير مبينًا هدايات هذه الآيات: «يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوطٍ، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود:٧٢-٧٣].

فبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلًا وعقبًا، كما قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الصافات:١١٢].

وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[هود:٧١].

أي: ويولد لهذا المولود ولدٌ في حياتكما، فتقر أعينكما به، كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديدٌ لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٩٩.
(٢) زهرة التفاسير ٩٤٦٣٤.

به ويولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولادٍ صالحين من صلبه على دينه؛ لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[مريم:٤٩].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾[الأنعام:٨٤].

وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾[الأنعام:٨٤].

أي: من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذريةً صالحةً، وكلٌّ منهما له خصوصيةٌ عظيمةٌ، أما نوحٌ عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، وهم الذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبيًا إلا من ذريته.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[العنكبوت:٢٧].الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[الحديد:٢٦].

وقال تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود:٧٣].

أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمودٌ ممجدٌ في صفاته وذاته؛ ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ (قال: قولوا: اللهم صل على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ)[(١)].

و﴿حَمِيدٌ﴾وصف لذات الله بمعنى أنه المحمود الذي يدوم حمده وإنعامه، ويحمد لهذا الإنعام، و﴿مَّجِيدٌ﴾على وزن فعيل من ماجد؛ لأنه العالي في ذاته وصفاته ومجده سبحانه وتعالى»[(٢)].

وفي تفصيل معنى العجب ومدى حمل الرحمة والبركة في الآية الكريمة على الخبر أو الدعاء.

يقول العلماء: وقوله سبحانه: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة مهبط المعجزات، وتخصيصهم

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٦٦.
والحديث أخرجه البخاري في الدعوات، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٦٥٨، ٨/ ٧٧.
(٢) زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٣٢.

بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل فضلًا عمن نشأت وشابت في ملاحظة الآيات، قيل: الرحمة النبوة، والبركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم[(١)].

وعبارة ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ حملها بعض العلماء على الدعاء، وبعضهم على الخبر، أما أهل البيت المعنيين بالبركة يتضمنون الزوجة، قال ابن عطية: «يحتمل اللفظ أن يكون دعاء، وأن يكون إخبارًا، وكونه إخبارًا أشرف؛ لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم، وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يترجى ولم يتحصل بعد، وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته؛ لأنها خوطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي عليه السلام بأنهن من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة، وقد قاله أيضًا بعض أهل العلم، قالوا: أهل بيته الذين حرموا الصدقة، والأول أقوى، وهو ظاهر جلي من سورة الأحزاب؛ لأنه ناداهن بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾[الأحزاب:٣٢]. ثم بقوله: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[الأحزاب:٣٣]»[(٢)].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٢، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٨٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٢.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٩٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٠، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٠.

ثالثًا: الأزمنة المباركة:

وكما طوفنا بالبركة من خلال مجال المصطفين الأخيار وآلهم، فإننا نستطيع بيان أن من مجالات البركة الأزمنة ومن ذلك:

الليلة المباركة:

حوى القرآن الكريم من خلال استعمالاته أزمنة وصفها بالبركة، من ذلك ما يتعلق بليلة نزول القرآن، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الدخان: ٣-٦].

هذه الليلة هي ليلة القدر من شهر رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[القدر:١].

ولمطابقة قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤].

لقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[القدر: ٤].

وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[البقرة:١٨٥].

وليلة القدر في أصح الأقاويل في شهر رمضان، والمباركة: الكثيرة الخير لما يتيح الله فيها من الأمور التي يتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم، ولولم يوجد فيها

إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة[1].

وقد أفاض العلامة الفخر في بيان نظم هذه الآيات فقال: «اعلم أن المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجهٍ، أحدها: بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته، الثاني: بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذي نزل فيه، الثالث: بيان تعظيمه بحسب شرف منزلته.

أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجهٍ، أحدها: أنه تعالى أقسم به وذلك يدل على شرفه، وثانيها: أنه تعالى أقسم به على كونه نازلًا في ليلةٍ مباركةٍ، وقد ذكرنا أن القسم بالشيء على حالةٍ من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف، وثالثها: أنه تعالى وصفه بكونه مبينًا وذلك يدل أيضًا على شرفه في ذاته، وأما النوع الثاني: وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الذي أنزل فيه فهو قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهذا تنبيهٌ على أن نزوله في ليلةٍ مباركةٍ يقتضي شرفه وجلالته، ثم نقول: إن قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ يقتضي أمرين:

أحدها: أنه تعالى أنزله.

والثاني: كون تلك الليلة (مباركةً).

فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجري مجرى البيان لكل واحدٍ منهما.

أما بيان أنه تعالى لم أنزله، فهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ يعني الحكمة في إنزال هذه السورة أن إنذار الخلق لا يتم إلا به.

وأما بيان أن هذه الليلة ليلةٌ مباركةٌ فهو أمران:

أحدهما: أنه تعالى يفرق فيها كل أمرٍ حكيم.

والثاني: أن ذلك الأمر الحكيم مخصوصًا بشرف أنه إنما يظهر من عنده، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾»[2].

وقد أخرج الطبري رواية ابن عباس رضي الله عنهما التي من خلالها جمع بركة نزول القرآن في أوقات تفيض بركة: «عن ابن عباس قال له رجل: إنه قد وقع في قلبي الشك من قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وقد أنزل الله في شوال وذي القعدة وغيره! قال: إنما أنزل في رمضان في ليلة القدر وليلة مباركة جملة واحدةً، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلًا في الشهور والأيام»[3].

وقد عدد أبو السعود أنواعًا من بركات ليلة نزول القرآن، فقال: «لما أن نزول القرآن مستتبعٌ للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها، أو لما فيها من تنزل الملائكة،

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٦٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٥٤.

(٣) جامع البيان ٣/ ٤٤٨.

والرحمة، وإجابة الدعوة، وقسم النعمة، وفصل الأقضية، وفضيلة العبادة، وإعطاء تمام الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

كما أن المقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريفٌ آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره، تنبيهًا على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتًا شريفًا مباركًا؛ لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يختار لإيقاعه فضل الأوقات والأمكنة، فاختيار فضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله تعالى ، كقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٩][2].

وهكذا تجلى ربنا على أمة الإسلام ببركة الكتاب العزيز الذي من تمسك به نال بركتي الدنيا والآخرة، ومن التمسك به تكريمه بالعمل به، والاحتكام إليه لأنه كلام الله، الذي شرفه سبحانه ذاتًا ومكانًا وزمانًا.

رابعًا: الأمكنة المباركة:

١. بركة مجمل الأرض.

وصف القرآن الكريم بعض الأماكن بالبركة؛ حتى يلفت أنظارنا إليها؛ كي نعتني بها، ونقبل عليها، ونتأدب فيها، ونخصها بما يجب أن تخص به، وقد بين لنا ربنا سبحانه أنه بارك في مجمل الأرض من خلال قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾[فصلت:٩-١٠].

وقد فسر العلماء البركة في مجمل الأرض بتفسيرات كثيرة، منها:

شق البحار والأنهار، وإنبات الشجر، والثمار، وإكثار الخير وإنماؤه، وخلق أصناف الحيوانات، وجعل الأرض طهورًا، وخلق الجبال، وكل ما يحتاج إليه من الخيرات والأرزاق[3].

يقول الرازي: «ولوجوهٍ منها: أنه تعالى وصف بقاعًا من الأرض بالبركة بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[آل عمران:٩٦].

ومنها: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[القصص:٣٠].

ومنها: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الإسراء:١].

ومنها: وصف أرض الشام بالبركة، فقال: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٥٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٥٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ٧٤، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٨٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٧، البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٨٧.

﴿بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾[الأعراف:١٣٧].

وخامسها: وصف جملة الأرض بالبركة، فقال: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت:٩-١٠].

فإن قيل: وأي بركةٍ في الفلوات الخالية والمفاوز المهلكة؟ قلنا: إنها مساكن للوحوش ومرعاها، ثم إنها مساكن للناس إذا احتاجوا إليها، فلهذه البركات قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾[الذاريات:٢٠].

وهذه الآيات وإن كانت حاصلةً لغير الموقنين لكن لما لم ينتفع بها إلا الموقنون جعلها آياتٍ للموقنين تشريفًا لهم، كما قال: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٢].

ومن ذلك: أنه سبحانه وتعالى خلق الأنبياء المكرمين من الأرض على ما قال: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾[طه:٥٥].

ولم يخلق من السموات شيئًا؛ لأنه قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء:٣٢].

ومن ذلك: أن الله تعالى أكرم نبيه بها فجعل الأرض كلها مساجد له، وجعل ترابها طهورًا، ثم قال: والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان»[1].

وقد أرجع الشيخ الشعراوي الضمير في الآية الكريمة: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ إلى الجبال خصوصًا معللًا ذلك بكون الضمير جاء بعد ذكر الجبال ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾.

وهو رأي له وجاهته من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يخرج في وصف البركة عن نطاق الأرض؛ إذ أنه سبحانه يضع نفعه فيما يشاء من مخلوقاته.

يقول رحمه الله تعالى: «﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ جاءت بعد ذكر الجبال الرواسي، ثم قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾[فصلت:١٠].

كأن الجبال هي مخازن القوت، وخزائن رحمة الله لأهل الأرض، والقوت: وهو الذي يتم به استبقاء الحياة، وهذا ناشئ من مزروعات الأرض، وهذه من تصديقات القرآن لطموحات العلم وأسبقية إخباره بما سيحدث، فها هو القرآن يخبر بما اهتدى إليه العلم الحديث من أن العناصر التي تكون

(١) مفاتيح الغيب ٢/ ٣٣٩ وإن كان في نهاية الدرس قال: «ولا شك أن إكثار ذكر الله تعالى من ذكر السماوات والأرض يدل على عظم شأنهما، وعلى أن له سبحانه وتعالى، فيهما أسرارًا عظيمةً، وحكمًا بالغةً، لا يصل إليها أفهام الخلق ولا عقولهم». وهذا يقينًا.
وانظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١/ ٤١٨، غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ١٨٦.

الإنسان هي نفس عناصر التربة الزراعية التي نأكل منها.

لكن كيف تكون الجبال مخازن القوت الذي جعله الله في الأرض قبل أن يخلق الإنسان؟

نقول: إن الجبال هي أساس التربة التي نزرعها، فالجبل هذه الكتلة الصخرية التي تراها أمامك جامدة هي في الحقيقة ليست كذلك؛ لأن عوامل التعرية وتقلبات الجو من شمس وحرارة وبرودة، كل هذه عوامل تفتت الصخر، وتحدث به شروخًا وتشققات، ثم يأتي المطر فيحمل هذا الفتات إلى الوادي، ولو تأملت شكل الجبل وشكل الوادي لوجدتهما عبارة عن مثلثين كل منهما عكس الآخر، فالجبل مثلث رأسه إلى أعلى، وقاعدته إلى أسفل، والوادي مثلث رأسه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى.

وهكذا فكل ما ينقص من الجبل يزيد في الوادي، ويكون التربة الصالحة للزراعة، وهو ما يسمى بالغرين أو الطمي؛ لذلك حدثونا أن مدينة دمياط -بمصر- قديمًا كانت على شاطئ البحر الأبيض، ولكن بمرور الزمن تكونت مساحات واسعة من هذا الغرين أو الطمي الذي حمله النيل من إفريقية ففصل دمياط عن البحر، والآن وبعد بناء السد وعدم تكون الطمي بدأت المياه تنحت في الشاطئ، وتنقص فيه من جديد، إذن: فقوله تعالى عن بداية خلق الأرض: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[فصلت:١٠].

كأنه يعطينا تسلسلًا لخلق القوت في الأرض، وأن خزائن الله لا حدود لها ولا نفاد لخيراتها، فالضمير في ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[فصلت:١٠].

إنما على الجبال؛ لأن الجبال في الحقيقة هي مخازن القوت، ومصدر الخصب للأرض التي هي مصدر القوت، فالإنسان مخلوق من الأرض، واستبقاء حياته من الأرض، فالنبات قوت للإنسان وللحيوان، والنبات والحيوان قوت للإنسان.

إذن: لابد للأرض من خصوبة تساعدها وتمدها بعناصر الغذاء، ولو أن الخالق عز وجل جعل الأرض هكذا طبقةً واحدة بها المخصبات لانتهت هذه الطبقة بعد عدة سنوات، ولأجدبت الأرض بعد ذلك[1].

هكذا بين العلماء طرفًا مما هداهم الله إليه من بركات مجمل الأرض، كما ذكر القرآن الكريم، وما على المسلم إلا أن يغتنم هذه البركة بالطاعة، وترك المعصية أو الإفساد في الأرض؛ ليستزيد من بركات الله في أرضه سبحانه .

٢. المسجد الحرام.

من الأمكنة التي باركها الله في القرآن

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٦/ ٣٦٣٦.

الكريم المسجد الحرام بمكة المكرمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦- ٩٧].

في هاتين الآيتين الكريمتين خص الله تعالى المسجد الحرام بسبع خصالٍ ليست لغيره من المساجد، هي أنه: أول بيتٍ وضع للناس، ومباركٌ، وهدًى للعالمين، وفيه آيات بيناتٌ، ومقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنًا، والحج والعمرة إليه، وآياتٌ أخر[(١)].

وهدفنا الأصيل هو التوجه نحو صفة البركة في الآية الكريمة، وبركة هذا البيت من وجوهٍ:

أحدها: أن الطاعات إذا أتي بها في هذا البيت ازداد ثوابها؛ بدليل حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرام)[(٢)] فهذا في الصلاة، وأما الحج فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: (الحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة)[(٣)].

ومعلومٌ أنه لا أكثر بركةً مما يجلب المغفرة والرحمة.

وثانيها: قال القفال رحمه الله تعالى: ويجوز أن يكون بركته ما ذكر في قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧].

فيكون كقوله: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء:١].

وثالثها: أن العاقل يجب أن يستحضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة؛ وليتصور أن صفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز، وليتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بهذه الدائرة حال اشتغالهم بالصلاة.

وأما إن فسرنا البركة بالدوام فهو أيضًا كذلك؛ لأنه لا تنفك الكعبة من الطائفين والعاكفين والركع السجود، وأيضًا الأرض كرةٌ، وإذا كان كذلك فكل وقتٍ يمكن أن يفرض فهو صبحٌ لقومٍ، وظهرٌ لثانٍ، وعصرٌ لثالثٍ، ومغربٌ لرابعٍ، وعشاءٌ لخامسٍ، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن الكعبة منفكةً قط عن توجه قومٍ إليها من طرفٍ من أطراف العالم لأداء فرض الصلاة، فكان الدوام

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٢١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ٢/ ٦٠، رقم١١٩٠، ومسلم في كتاب الحج، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة رقم: ٥٠٥.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ٣/ ٩٨٣، رقم ٤٣٧.

حاصلًا من هذه الجهة، وأيضًا بقاء الكعبة على هذه الحالة ألوفًا من السنين دوامٌ أيضًا، فثبت كونه مباركًا من الوجهين[1].

يقول الشيخ أبو زهرة متحدثًا عن بركة البيت العتيق: «ووصفه سبحانه وتعالى بأنه مبارك؛ أي: فائض الخيرات كثير الثمرات المادية والمعنوية؛ فمن بركاته المادية أنه يفد إليه الحجيج من كل فج عميق؛ ويعتمرون فيه في كل أيام أشهر السنة، حتى أنه لا يمر عليه يوم من غير وفود تجيء إليه، ومع هذه الوفود خيرات الأرض.

وكان ذلك إجابة لدعاء إبراهيم في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وقد كان في البيت تلك البركة المادية بتلك الوفود؛ وبالثمرات التي كانت في باطن الأرض حوله أو على مقربة منه فقد كشفت على مقربة منه فلزات الأرض وسيول الغاز، مما كان خيرًا وبركة على سدنته، ومن يعيشون حوله، وبذلك أجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام، ويقي على الذين يتنعمون بهذه الثمرات أن يشكروا الله عز وجل.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٠١.

هذه هي البركة المادية، أما البركة المعنوية فهي أنه موضع لأكبر عبادة جامعة وهي الحج، وهو مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وفيه منازل وحيه، وإليه يتجه الناس في كل بقاع الأرض، وتلتقي عنده قلوب الأجناس والألوان المختلفة في عباداتهم؛ ولذا وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦].

هذا عطف على قوله سبحانه: ﴿مُبَارَكٗا﴾ أي: أن الله سبحانه وتعالى جمع لهذا البيت الكريم حالتين خاصتين به لم تجتمعا في بيت غيره، فهو قد اشتمل على البركة المادية والمعنوية، وحماه الله تعالى من اعتداء المعتدين؛ ولهذا قال: ﴿وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: هو بذاته مصدر هداية للعالمين، أي: للناس أجمعين؛ ففي وسط الشرك كانوا يلتحمون ويتقاتلون حوله، فإذا جاءوا إليه كان الرجل يلقى قاتل أخيه أو أبيه فلا يمسه بسوء لعظم حرمة البيت في قلبه، وإن مس الشرك نفسه»[2].

وقال الفراء: «إنما قيل: (مباركًا) لأنه مغفرةٌ للذنوب»[3].

وقيل: بركته أن من دخله أمن حتى الوحش، فيجتمع فيه المتضادات دون أن يغير أحدها على الآخر[4].

(٢) زهرة التفاسير ٣/ ١٣٢١.
(٣) معاني القرآن ١/ ٢٢٧.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٦٢.

ومن بركته -فوق ما تقدم-: «أن قدر الله أن يكون داخله مثابًا ومحصلًا على خيرٍ يبلغه على مبلغ نيته، وقدر لمجاوريه وسكان بلده أن يكونوا ببركة زيادة الثواب ورفاهية الحال، ومن بركة ذاته أن حجارته وضعتها عند بنائه يد إبراهيم ويد إسماعيل، ثم يد محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، ولا سيما الحجر الأسود»[(١)] .

ومن بركته أنه فاق بيوت العالم بركة: «ليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرًا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق»[(٢)].

ولكي نعرف الفرق بينه وبين المسجد الأقصى فإنه عندما تحدث الله عن المسجد الأقصى جعل البركة حوله؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الإسراء:١].

وعندما تحدث عن البيت الحرام قال: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران:٩٦].

هو في ذاته مبارك، وهو في ذاته هدى للعالمين؛ لأنه لا يذهب إليه إنسان إلا وتحيطه بركة الحنان المنان عز وجل، فلو ذهب إليه تائب يتوب الله عليه، ولو أتاه سائل يجيب الله له كل المسائل، ولو ذهب إليه راجٍ يحقق الله له كل رجائه، ولو ذهب إليه عابد يرجع بعبادة لا عد لها ولا حصر لها -كل ذلك بتوفيق الله- يكفي أن الركعة فيه بمائة ألف ركعة فيما سواه، والصلاة فيه بمائة ألف صلاة، وأي بركة أعظم من هذا، فعن جابرٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (صلاةٌ في مسجدي أفضل من ألف صلاةٍ فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاةٍ فيما سواه)[(٣)] .

ويذكر من فضائل هذا البيت أن من دخله كان آمنًا، فهو مثابة الأمن لكل خائف، وليس هذا لمكان آخر في الأرض، وقد بقي هكذا منذ بناه إبراهيم وإسماعيل، وحتى في جاهلية العرب، وفي الفترة التي انحرفوا فيها عن دين إبراهيم، وعن التوحيد الخالص الذي يمثله هذا الدين، حتى في هذه الفترة بقيت حرمة هذا البيت سارية، حتى كان الرجل يقتل ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وكان هذا من تكريم الله سبحانه لبيته هذا، حتى والناس من حوله في جاهلية!

وقال سبحانه يمتن على العرب به: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٨.
(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب فضل ما جاء في الصلاة في المسجد الحرام ١/ ٤٥١، رقم ١٤٠٦.
وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٣/ ٤٠٦، وفي صحيح الجامع ٢/ ٤١٧.

﴿النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[العنكبوت:٦٧].

وحتى أنه من جملة تحريم الكعبة حرمة اصطياد صيدها، وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها.

وفي الصحيحين -واللفظ لمسلم- عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحل لي إلا ساعةً من نهارٍ، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها)[1].

فهذا هو البيت الذي اختاره الله للمسلمين قبلة هو بيت الله الذي جعل له هذه الكرامة[2].

وبما أن للبيت هذه الكرامة وذلك التكريم وتلك البركة فإنه من الواجب على المسلمين تعظيمه وتكريمه ومتابعة زيارته لينالوا بركته من خلال الصلاة فيه كذا الطواف والسعي.

٣. المسجد الأقصى.

من مجالات البركة المتصلة بالأماكن في القرآن الكريم المسجد الأقصى، قال -تعال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء:١].

خص المسجد الأقصى بكون مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، وبالبركة حوله، وفيما يخص البركة التي حوله، يقول الشنقيطي: «أظهر التفسيرات فيه أن معنى ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾: أكثرنا حوله الخير والبركة بالأشجار والثمار والأنهار، وقد وردت آياتٌ تدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾[الأنبياء:٨١].

فإن المراد بتلك الأرض الشام، والمراد بأنه بارك فيها أنه أكثر فيها البركة والخير بالخصب والأشجار والثمار والمياه، كما عليه جمهور العلماء.

وقال بعض العلماء: المراد بأنه بارك فيها أنه بعث الأنبياء منها، وقيل غير ذلك،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب فضل الحرم ٢/ ١٤٧، رقم١٥٨٧، ومسلم في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها، ٢/ ٩٨٦، رقم ٤٤٥.

(٢) ما تقدم من وقائع تاريخية ذكره موقع الشيخ فوزي أبو زيد: www. fawzyabuzeid. com.

والعلم عند الله تعالى»[1].

وقال مجاهدٌ: سماه مباركًا لأنه مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة والوحي، ومنه يحشر الناس يوم القيامة[2].

ومن أسباب بركة المسجد الأقصى أيضًا ما لحقه من البركة بمن صلى به من الأنبياء من داود وسليمان ومن بعدهما من أنبياء بني إسرائيل، ثم بحلول الرسول عيسى عليه السلام وإعلانه الدعوة إلى الله فيه وفيما حوله، ومنها بركة من دفن حوله من الأنبياء.

فقد ثبت أن قبري داود وسليمان حول المسجد الأقصى، وأعظم تلك البركات حلول النبي صلى الله عليه وسلم فيه ذلك الحلول الخارق للعادة، وصلاته فيه بالأنبياء كلهم[3].

كما أنه معدن الفواكه والأرزاق والبركات، وبارك تعالى حوله لأجله فما ظنك به نفسه فهو أبلغ من باركنا فيه[4].

وخلاصة القول في ذلك أن البركة حوله حازت بركتي الدين والدنيا[5].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ صفةٌ للمسجد الأقصى، وجيء في الصفة بالموصولية لقصد تشهير الموصوف بمضمون الصلة حتى كأن الموصوف مشتهرٌ بالصلة عند السامعين...

وصيغة المفاعلة هنا للمبالغة في تكثير الفعل، مثل عافاك الله، والبركة: نماء الخير والفضل في الدنيا والآخرة بوفرة الثواب للمصلين فيه وبإجابة دعاء الداعين فيه...

ووجه الاقتصار على وصف المسجد الأقصى في هذه الآية بذكر هذا التبريك هو تناسي الناس هذا المسجد المبارك، فالعرب لا علم لهم به، والنصارى عفوا أثره من كراهيتهم لليهود، واليهود قد ابتعدوا عنه، وأيسوا من عوده إليهم، فاحتيج إلى الإعلام ببركته.

و(حول) يدل على مكانٍ قريبٍ من مكان اسم ما أضيف (حول) إليه، وكون البركة حوله كنايةٌ عن حصول البركة فيه بالأولى؛ لأنها إذا حصلت حوله فقد تجاوزت ما فيه، ففيه لطيفة التلازم، ولطيفة فحوى الخطاب، ولطيفة المبالغة بالتكثير[6].

هذا وقد ثبت في السنة أن الصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة فيما سواه، وهذا وغيره مما ذكر يجدد نظرنا إليه، ويحفزنا نحو تحريره، فاللهم حرره من أيدي اليهود، وبارك في أعمارنا حتى نصلي فيه.

٤. بلاد الشام.

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٠.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ١٩.
(٤) انظر: السراج المنير، الشربيني ٢/ ٢٧٤.
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٥٥.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩.

من مجالات البركة المتصلة بالأماكن في القرآن الكريم بلاد الشام[1].

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف:١٣٧].

هذه الآية الكريمة تتحدث عن توريث الله بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وهم الذين كانوا يستذلون للخدمة، ويستضعفون بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، وإسامتهم سوء العذاب، وتمت كلمة ربك -أيها النبي- الحسنى على بني إسرائيل بتمكينهم من أرض الشام؛ بصبرهم على أذى فرعون وقومه، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المباني والقصور والعمارات والدور، وما كانوا يقيمون من العرائش والسقف في الجنات والبساتين.

ومحور حديثنا في الآية الكريمة هو البركة في الأرض المذكورة في الآية الكريمة:

فمن قائل: الأرض المذكورة في الآية أرض مصر والشام، وقيل: أراد بها الشام وحده، وقيل: أراد به الأردن وفلسطين، لكن جل العلماء على أن الأرض المباركة في القرآن هي أرض الشام.

قوله: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي: بالنعم بكثرة مياهها، كما بارك الله فيها بوجود الأشجار والثمار والخصب والسعة؛ حتى يعيش فيها الفقير والغني بعيش طيب، وأن أكثر الأنبياء بعثوا فيها فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية، وقيل: الشام كنز الله في أرضه، وبها كنزه من عباده[2].

وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:٧١].

(١) الشام: منطقة ممتدة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وتمتد شرقًا إلى نهر الفرات، وتمتد شمالًا من بلاد الروم تركيا حاليًا إلى حدود مصر وجزيرة العرب جنوبًا، وتشتمل في الوقت الحاضر على سورية ولبنان وفلسطين والأردن وجزءًا من العراق، وفي معجم البلدان لياقوت الحموي: حدها فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، وأما عرضها فمن جبلي طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم وما بشأمة ذلك من البلاد، وبها من أمهات المدن منبج وحلب وحماة وحمص ودمشق والبيت المقدس والمعرة، وفي الساحل أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان وغير ذلك ٣/ ٣١٢. ويقال للشأم: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال. انظر: الطبري ١٨/ ٤٦٩، وتفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٥٣.

(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٠٩.

راجح رأي العلماء أن الأرض المباركة هنا وفي كل نظير من القرآن هي أرض الشام، والآية تتحدث عن هجرة الخليل ولوط عليهما السلام من العراق إلى الشام فرارًا بالدين.

عن قتادة رضي الله عنه ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ قال: «كانا بأرض العراق، فأنجيا إلى أرض الشام، وكان يقال: الشام عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيدٍ في الشام، وما نقص من الشام زيدٍ في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وفيها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام ، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الدجال»[1].

قال السمعاني: «وفي الآية قول آخر هو أن المراد من الأرض التي بارك فيها هي مكة، وقيل: مصر، والأصح هو الأول؛ لأنه مشهور أنه خرج وامرأته -يعني إبراهيم- إلى حران، ثم من حران إلى الشام، وأما لوط فإنه ابن أخي إبراهيم، وكان خرج معه»[2].

ويدخل قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨١].في عين حديثنا عن بركة بلاد الشام.

فمما ميز الله به نبيه سليمان عليه السلام الريح القوية الشديدة ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[الأنبياء:٨١].

وكأنها مواصلات داخلية في مملكته من العراق إلى فلسطين.

وفي موضع آخر قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص:٣٥- ٣٦].

ومعنى: ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[الأنبياء:٨١].أي: في أرض الشام.

وفي شأن نعمة من نعم الله على المسافرين من مأرب إلى الشام يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾[سبأ:١٨].

هذه الآية وما بعدها وصف حال أهل سبأ قبل مجيء السيل؛ وذلك أن الله تعالى مع ما كان منحهم من الجنتين والنعمة الخاصة بهم، كان قد أصلح لهم البلاد المتصلة بهم وعمرها وجعلهم أربابها، وقدر فيها السير بأن قرب القرى بعضها من بعض حتى كان المسافر من مأرب إلى الشام يبيت في قرية، ويقيل في قرية أخرى، فلا يحتاج إلى حمل زاد، والقرى: المدن، ويقال: للمجتمع الصغير قرية أيضًا ، وكلها من قريت أي: جمعت، والقرى التي بورك فيها هي بلاد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٥٥١.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٠٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٧٧.

(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٩٢.

الشام بإجماع من المفسرين[1].

و(القرى الظاهرة) هي التي بين الشام ومأرب وهي الصغار التي هي البوادي[2].

عن الحسن: «كان الرجل يغدو فيقيل في القرية، ثم يروح فيبيت في القرية الأخرى، وكانت المرأة تخرج وزنبيلها على رأسها، فما تبلغ حتى يمتلئ من كل الثمار»[3].

ويمكننا أن نلمس من حديث القرآن عن الأرض المباركة التي هي الشام أننا يجب علينا أن ننظر إليها نظرة خاصة لننعم كمسلمين ببركاتها من ناحية، ونحافظ على محتوياتها، بل ونقف موقف المسئول مما يحدث فيها لا أن نقف، كما نحن الآن، موقف المشاهد الذي يرى التقتيل والدمار، وينتظر من غيره من الأمم أن تلعب دور الطرف الثالث للإصلاح بين الراعي الفاسد الدموي من الرعية المسالمة التي تباد ليلًا ونهارًا.

وكما ذكر القرآن الأرض المقدسة واصفًا إياها بالبركة وصف بذلك أيضًا طور سيناء.

٥. جبل الطور في سيناء.

من مجالات البركة في القرآن مما يخص الأمكنة «جبل الطور في سيناء».

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[القصص:٢٩-٣٠].

الآيتان تتحدثان عن نبي الله موسى عليه السلام ، وما رآه أثناء سيره بأهله إلى مصر، حيث أبصر نارًا، توسم فيها نبأ ينفعهم في سيرهم، أو قبسة للاستدفاء، فلما أتاها ناداه الله من جانب الوادي الأيمن لموسى في البقعة المباركة من جانب الشجرة: أن يا موسى إني أنا الله رب العالين، قال صاحب البحر في تفسيره للآية الأولى من سورة الطور: «وإنما أقسم بهذا الجبل في قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾[الطور:١].

لأنه مجاور للشام والأرض المقدسة، وقد بارك الله فيهما، كما قال: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الاسراء:١][4].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٦٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٣٧ .
قيل: كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام، فلا يحملون شيئًا مما جرت به عوائد السفار، فكان سيرهم في الغدو والرواح على قدر نصف يوم، فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى قرية ذات مياه وأشجار، وقال قتادة: كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها وعلى رأسها مكتلها فتمتهن بغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكتلها من الثمار، فكان ما بين اليمن والشام كذلك.
انظر: السراج المنير، الشربيني ٣/ ٢٩٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣١٦٧.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ١٠.

وقد وصف الله تعالى البقعة بالمباركة؛ لأن الله كلم موسى عليه السلام هناك وبعثه نبيًا، ولكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتًا وخصوصًا تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى، ولما خصت به من آيات الله وأنواره، ولما حوت من الأرزاق والثمار الطيبة[1].

فإن قيل: فلم لم يسم الشجرة مباركة وقد قال: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾؟

قلنا: لأنه إذا ذكرت البركة في البقعة فقد ذكرت في الشجرة، فذكر البقعة؛ لأنها أعم، قال الزجاج والنحاس وغيرهما: كلم الله موسى من الشجرة بلا كيف، وعن الضحاك: من نحو الشجرة[2].

خامسًا: الأقوال المباركة:

من مجالات البركة في القرآن الكريم: الأقوال:

ومن الأقوال تحية الإسلام.

يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

يرسي هذا المقطع من الآية الكريمة أدب السلام في حال دخول المسلم بيتًا مسكونًا أو غير مسكون، ببيانه أنه على المسلم أن يسلم على أخيه المسلم بتحية الإسلام، وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إذا لم يوجد أحد، وهذه التحية شرعها الله، وهي تحية مباركة تنمي المودة والرحمة والإخاء؛ لأنها محبوبة للسامع، متمناة منه، وبمثل هذا البيان يبين الله للناس الآيات لعلهم يعقلونها فيعملون بمقتضاها.

يقول السمعاني: «ويقال معنى الآية: إذا دخل بيته يسلم على أهله، وهي سنة قد هجرت؛ إذ الأهل أحق بالسلام عليهم، وكان الأوزاعي إذا دخل بيته، ونسي السلام خرج ثم رجع وسلم، وأما إذا دخل بيتًا خاليًا، فيقول: السلام علينا من ربنا، وإذا دخل مسجدًا ليس فيه أحد يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقد بينت السنة استحباب إفشاء السلام على من تعرف ومن لا تعرف، وقوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي: حسنة جميلة، ويقال: ذكر البركة والطيب ها هنا لما فيه من الثواب، ومن أهدى سلاماً إلى إنسان فهي هدية خفيفة المحمل، طيبة الريح، مباركة العاقبة»[3].

ومحور الحديث يدور حول البركة التي

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٠١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٧٤، السراج المنير، الشربيني ٣/ ٦٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٣٧، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٢٠٦.

(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٥٥٣.

اتصفت بها التحية.

فعن سعيد بن جبيرٍ في قول الله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ قال: من سلم على أخيه فهي تحيةٌ مباركةٌ طيبةٌ يعني حسنةً[1].

قال القرطبي: «وقد اختلف المتأولون في أي البيوت أراد في الآية الكريمة، فقال إبراهيم النخعي والحسن: أراد المساجد، والمعنى: سلموا على من فيها من ضيفكم، فإن لم يكن في المساجد أحدٌ، فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله، وقيل: يقول: السلام عليكم، يريد الملائكة، ثم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقيل: المراد بالبيوت البيوت المسكونة، أي: فسلموا على أنفسكم...، وقالوا: يدخل في ذلك البيوت غير المسكونة، ويسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

قال ابن العربي: القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص، وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيتٍ كان للغير أو لنفسه، فإذا دخل بيتًا لغيره استأذن، فإذا دخل بيتًا لنفسه سلم لحديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركةً عليك وعلى أهل بيتك)[2].

قال ابن العربي: والذي أختاره إذا كان البيت فارغًا ألا يلزم السلام، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تفارق العبد بحالٍ، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله بأن تقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وقال القشيري في قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ [النور:٦١]: «والأوجه أن يقال: إن هذا عامٌ في دخول كل بيتٍ، فإن كان فيه ساكنٌ مسلمٌ يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإن لم يكن فيه ساكنٌ يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وإن كان في البيت من ليس بمسلمٍ قال: السلام على من اتبع الهدى، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وذكر ابن خويز منداد قال: كتب إلي أبو العباس الأصم قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال: حدثنا ابن وهبٍ قال: حدثنا جعفر بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أهلها، واذكروا اسم الله، فإن أحدكم إذا سلم حين يدخل بيته وذكر اسم الله تعالى على طعامه، يقول الشيطان لأصحابه: لا مبيت لكم ها هنا

(١) تفسير القرآن العظيم ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الاستئذان، باب ما جاء في التسليم إذا دخل بيته ٥/ ٢٦٩٨، ٥٩ وقال: حسن غريب.

ولا عشاء، وإذا لم يسلم أحدكم إذا دخل، ولم يذكر اسم الله على طعامه، قال الشيطان لأصحابه: أدركتم المبيت والعشاء)».

قلت: هذا الحديث ثبت معناه مرفوعًا من حديث جابرٍ، أخرجه مسلمٌ[(١)].

وفي كتاب أبي داود، عن أبي مالكٍ الأشجعي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير الولوج، وخير الخروج، باسم الله ولجنا، وباسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا، وليسلم على أهله)[(٢)].

وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه، ووصفها أيضًا بالطيب لأن سامعها يستطيبها»[(٣)].

وللبيضاوي تعليله المفيد للتحية المباركة الطيبة فيقول: «مباركةً لأنها يرجى بها زيادة الخير والثواب، طيبةً تطيب بها نفس المستمع»[(٤)].

والسلام على النفس حمله الرازي على محمل لطيف، فقال: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[النور:٦١].

فالمعنى: أنه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة، على مثال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[النساء:٢٩]. وحدثنا أن الملائكة ترد عليه...

وقوله: ﴿تَحِيَّةً﴾ نصب على المصدر، كأنه قال: فحيوا تحيةً من عند الله، أي: مما أمركم الله به.

وقوله: ﴿مُّبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ قال الضحاك: معنى البركة فيه تضعيف الثواب، وقال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن السلام مباركٌ ثابتٌ لما فيه من الأجر والثواب، وأنه إذا أطاع الله فيه أكثر خيره، وأجزل أجره[(٥)].

فالتحية مصدر فعلٍ مشتقٍ من الجملة المشتملة على فعل (حيا) مثل قولهم: جزاه، إذا قال له: جزاك الله خيرًا، وكان هذا اللفظ تحية العرب قبل الإسلام تحية عامة...

وكانت تحية الملوك (عم صباحًا) فجعل الإسلام التحية كلمة (السلام عليكم) وهي جائية من الحنيفية ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود:٦٩].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب ٣/ ١٠٣، ١٥٩٨ ونص رواية مسلم: عن جابر بن عبد الله أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، في أبواب النوم، باب ما يقول الرجل إذا دخل بيته، ٤/ ٣٢٥، رقم ٥٠٩٦.
وضعفه الألباني في الضعيفة ١٢/ ٧٣٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٣١٨-٣١٩.

(٤) أنوار التنزيل ٤/ ١١٤.

(٥) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٤٢٠.

وسماها تحية الإسلام، وهي من جوامع الكلم؛ لأن المقصود من التحية تأنيس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه، وباللطف له إن كان معروفًا، ولفظ (السلام) يجمع المعنيين؛ لأنه مشتقٌّ من السلامة، فهو دعاءٌ بالسلامة، وتأمينٌ بالسلام؛ لأنه إذا دعا له بالسلامة فهو مسالم له، فكان الخبر كنايةً عن التأمين، وإذا تحقق الأمران حصل خيرٌ كثيرٌ؛ لأن السلامة لا تجامع شيئًا من الشر في ذات المسالم، والأمان لا يجامع شيئًا من الشر يأتي من قبل المعتدي، فكانت دعاءً ترجى إجابته، وعهدًا بالأمن يجب الوفاء به، وفي كلمة عليكم معنى التمكن، أي: السلامة مستقرةٌ عليكم.

ولكون كلمة (السلام) جامعةً لهذا المعنى امتن الله على المسلمين بها بأن جعلها ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إذ هو الذي علمها رسوله بالوحي، وانتصب تحيةً على الحال من التسليم الذي يتضمنه ﴿فَسَلِّمُوا۟﴾ نظير عود الضمير على المصدر في قوله: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨].

والمباركة: المجعولة فيها البركة، والبركة: وفرة الخير، وإنما كانت هذه التحية مباركةً -فوق ما تقدم- لما فيها من نية المسالمة، وحسن اللقاء والمخالطة؛ وذلك يوفر خير الأخوة الإسلامية.

والطيبة: ذات الطيب، وهو طيبٌ مجازيٌّ بمعنى النزاهة والقبول في نفوس الناس، ووجه طيب التحية أنها دعاءٌ بالسلامة، وإيذانٌ بالمسالمة والمصافاة، ووزن طيبةً فيعلةٌ مبالغةً في الوصف(١).

وقد ذكر القرآن السلام من عند الله تعالى على معنى كونه معاملةً منه سبحانه بكرامة الثناء، وحسن الذكر للذين رضي الله عنهم من عباده في الدنيا، كقوله حكايةً عن عيسى إذ أنطقه بقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم:٣٣].

وكذلك في الآخرة وما في معناها من أحوال الأرواح بعد الموت كقوله عن عيسى: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم:٣٣].

وقوله عن أهل الجنة: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٧-٥٨].

وجاء في القرآن السلام على خمسةٍ من الأنبياء في سورة الصافات(٢). وأيضًا أمر الله الأمة بالسلام على رسولها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٠٤.

(٢) في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾ [الصافات:٧٩]، و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠﴾ [الصافات: ١٢٠]، و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾[الصافات:١٣٠].

أي: قولوا: السلام عليك أيها النبيء[1].

من خلال ما سبق نجزم بأن البركة على الأمة بأسرها تكمن في نشر هذه التحية الطيبة المباركة فيما بينها، لمن عرفنا ومن لم نعرف؛ إذ هي الأمن والأمان والمثوبة والترابط الإيماني والاجتماعي بين أبناء الإسلام.

سادسًا: وصف الماء والنبات بالبركة:

من مجالات البركة في القرآن الكريم الماء والنبات، وقد تناولنا ذلك سابقًا ضمن حديثي عن الأساليب القرآنية في استخدام البركة، وقلنا بأن الماء النازل من السماء بنص قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق:٩].

له بركات كثيرة على الكون كله في إحياء موات الأرض، حيث قال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[البقرة:١٦٤].

وفي إخراج الثمرات، حيث قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[البقرة:٢٢].

ومن هذا الرزق المبارك إنبات النبات على اختلاف أنواعه وأشكاله ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾[الأنعام:٩٩].

ومن بركات الماء فوق ما تقدم أنه يحمل الفلك لتجري في البحر بأمر الله، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾[إبراهيم:٣٢].

ومن بركات الماء أن جعله الله تعالى أصلًا لخلق كل شيء حي، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور:٤٥].

كما أن الله تعالى جعل بركة الماء حاصلة في كون الماء شرطًا لعبادة الله، فلا صلاة لمن يستطيع الماء إلا به، ولا طواف ولا رفع للجنابة إلا به، ولا يصلح الدخول في الإسلام للكافر إلا بالاغتسال.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

وقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٧.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء:٤٣].

كما كان الماء المبارك النازل من السماء مطهرًا لجيش الإسلام، ومثبتًا لأقدامهم على أرض تعوق برملها المسير.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

قال الطبري: «اغتسلوا من الجنابة فجعل الله ذلك الماء طهورًا، وثبت به الأقدام؛ إذ لبد الله به الأرض، وربط به على قلوبهم، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما إن المشركين من قريشٍ لما خرجوا لينصروا العير، وليقاتلوا عنها نزلوا على الماء يوم بدرٍ، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مجنبين محدثين حتى تعاظموا ذلك في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء، حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهورًا، وثبت به الأقدام، وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملةٌ، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدت، وثبتت عليها الأقدام»[1].

كما أن من بركاته سبحانه التي استودعها الماء إكسابه خاصية الإرواء والسقي.

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[الحجر:٢٢].

ومن البركة أن الله استودع الماء الأرض بقدرته، فهو الذي يقول للشيء كن فيكون.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨].

أي: بمقدار مصلح للأرض على أن يكون غيثًا لا عتيًا، فالمطر الزائد كالسيل الجارف لا يكون غيثًا، بل يكون عتيًا، ويهدد الله به الظالمين من الناس، كالسيل الذي أغرق قوم نوح، فقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: على القدر الذي تعنيه الحاجات، ويكون إصلاحًا، ولا يكون فيه فساد للزرع والضرع، ويقول سبحانه: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا في الأرض مستقرًا له، كأنما يسكنها، كما يأوي الآوي إلى مسكنه.

وذلك أن ما تنزله السماء قسمان: قسم عارض ممطر يغيث في وقت الجدب، ولا ينزل بانتظام كالمطر الذي ينزل بالاستسقاء، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي، ومن بعده أهل الصلاح والتقوى،

(١) جامع البيان ٦/ ١٩٤.

وقسم يجري في أنهار ويسلك ينابيع الأرض في عيون، وهذا يسكنه الأرض، كنهر النيل، فإنه ينزل على الجبال، وفي البحيرات التي تمده، وهذا يبدو كأنه الساكن في الأرض، وإن كان في سير دائم من منبعه إلى مصبه، وهذا وأشباهه يوجد الخصب والنماء بإذن الله تعالى ، ومن الناس من اعتقد أنه دائم لا يغيض؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: إنا على إذهابه لقادرون، والباء للتعدية، ولقوة الإذهاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾[البقرة:٢٠].

وإن مثل الأنهار العيون، فهي ينابيع في الأرض قد اختزنتها الأرض في جوفها وهي لله ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك:٣٠][1].

وإن من سنن الله في الكون أن جعل الماء سلاحًا ذا حدين، فكما ينفع الله به عباده، فإنه قد يضر به من شاء من عباده، كما حدث مع قوم نوح وموسى عليهما السلام من إغراق.

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان:٣٧].

وفي قوم موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة:٥٠].

وبناء على ما تقدم ذكره مما يخص البركة في الماء نقول: إن الماء نعمة عظمى من نعم الله على خلقه، يجب أن ندرك منافعه، ونحفظ فوائده، ونعلم أنه لولا أن من الله علينا به لهلكنا جميعًا؛ لذا يجب أن نحافظ عليه وأن نضعه في مكانه اللائق به من ثروات الكون، وبركات السماء المودعة في الأرض...

وبالرغم من لفت أنظارنا إلى بركات المياه غير المتناهية إلا أننا في ثبات عميق مما يحاك حولنا، ومن كون الحروب القادمة حروب مياه، وقد بدأت بالفعل، كما أننا في حاجة إلى ترشيد المياه وعدم الإسراف فيه هكذا علمتنا سنة المصطفي صلى الله عليه وسلم قولًا وعملًا.

ومن مجالات البركة في النبات.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور:٣٥].

وبيان الآية «الله نور السموات والأرض يدبر الأمر فيهما ويهدي أهلهما، فهو سبحانه

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٠٥٨.

نور، وحجابه نور، به استنارت السموات والأرض وما فيهما، وكتاب الله وهدايته نور منه سبحانه، فلولا نوره تعالى لتراكمت الظلمات بعضها فوق بعض، مثل نوره الذي يهدي إليه، وهو الإيمان والقرآن في قلب المؤمن كمشكاة، وهي الكوة في الحائط غير النافذة، فيها مصباح، حيث تجمع الكوة نور المصباح فلا يتفرق، وذلك المصباح في زجاجة، كأنها -لصفائها- كوكب مضيء كالدر، يوقد المصباح من زيت شجرة مباركة، وهي شجرة الزيتون، لا شرقية فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربية فقط فلا تصيبها الشمس أول النهار، بل هي متوسطة في مكان من الأرض لا إلى الشرق ولا إلى الغرب، يكاد زيتها -لصفائه- يضيء من نفسه قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار أضاء إضاءة بليغة، نور على نور، فهو نور من إشراق الزيت على نور من إشعال النار، فذلك مثل الهدى يضيء في قلب المؤمن، والله يهدي ويوفق لاتباع القرآن من يشاء، ويضرب الأمثال للناس؛ ليعقلوا عنه أمثاله وحكمه، والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء»[1].

وشجرة الزيتون المباركة أبرك الأشجار، وأكثرها منافع للناس، تنبت بكثرة في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين[2].

وهي من نعم الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠].

وحسبها وصف القرآن إذ وصفها القرآن بأنها مباركة هنا وفي سورة المؤمنون.

وإذا كانت سورة المؤمنون مكية، وسورة النور مدنية، فقد اتفق القرآن المكي والمدني على أنها مباركة، وبركتها في أنها ذات منافع كثيرة، يكون منها الوقود المضيء، وهو دهن يكون طعامًا طيبًا، وهو يدخل في بعض الأدوية، وترابه إذا حرق يكون كحلًا للعيون ولا يضرها، وهو إدام، والزيتون نفسه للطعام والتفكه، وبفضله يغسل به الثياب، وهي شجرة تورق من رأسها إلى أسفلها، والزيتون أكثر أدم أهل الشام والمغرب، يصطبغون به، ويستعملونه في طبيخهم، ويستصبحون به، ويداوى به أدواء الجوف والقروح والجراحات، وفيه منافع كثيرةٌ.

وقال عليه الصلاة والسلام: (كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرةٍ مباركةٍ)[3].

(١) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٣٥٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٧٦.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٩٤. والحديث أخرجه أحمد في مسنده ٢٥/ ٤٥١، رقم ١٦٠٥٥، والترمذي في سننه، أبواب الأطعمة، باب ما جاء في أكل الزيت ٣/ ٣٤٩، رقم١٨٥١، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٢.

وسائل تحصيل البركة وآثارها

أوضح القرآن الكريم وسائل تحصيل البركة وآثارها؛ حثًا للعباد على الأخذ بها، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: وسائل تحصيل البركة:

١. العقيدة السليمة.

من وسائل تحصيل البركة: العقيدة السليمة؛ ذلك أن المسلم الحق يعتقد أن الله تعالى هو صاحب البركة، وهو عز وجل الذي يهبها من يشاء من عباده، وبناء على ذلك فإن من أهم وسائل تحصيل البركة على الإطلاق: اعتقاد المسلم أنه لا إله إلا الله، وذلك ما نستشعره من آيات القرآن التي نطقت بذلك.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾[الفرقان:١٠].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[الفرقان:٦١].

وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٧٨].

وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الملك:١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[غافر:٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزخرف:٨٥].

وقد أسلفنا في أول هذا البحث أن ﴿تَبَٰرَكَ﴾ فعل ماض، أي: تقدس وتنزه، وهو فعل جامد لا يتصرف، أي: لا يأتي منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل، وبينا ما قاله الراغب من أن البركة من الله، وحقيقتها: «كثرة الخير ودوامه» ولا أحد أحق بذلك

قال الحاكم: «هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وله شاهدٌ آخر بإسنادٍ صحيحٍ» وصححه الألباني في الصحيحة ٣٧٩.

وصفًا وفعلًا منه تبارك وتعالى...، وتكون هذه البركة قد ثبتت لذلك السبب ثبوتًا شرعيًا، وثبتت الكيفية التي تنال بها البركة عن المعصوم صلى الله عليه وسلم [(١)].

وبما أن البركة من الله فإنها لا تنال نوالًا حقيقيًا مرضيًا عنه، وليس استدراجًا، إلا بتسلح المؤمن بسلاح العقيدة الصافية من شوائب الشرك.

٢. تدبر القرآن وتطبيقه.

من وسائل تحصيل البركة الإيمان بالقرآن وتدبره واتباعه وتطبيقه في حياتنا، والرغبة فيما رغبنا فيه، والرهبة مما رهبنا منه، ذلك ما نفهمه ويفهمه كل مسلم من قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَٰرَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَٰرَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَٰرَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٥٠].

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

٣. الاقتداء بالمباركين.

من وسائل تحصيل البركة الاقتداء بالمباركين الذين غنموا عناية الله لهم باصطفائهم وبصلاحهم وطاعتهم للحق سبحانه واهب البركة، وأئمة التقى ومعدن الصلاح، هم أنبياء الله ورسله، ومن سار على نهجهم واهتدى بهديهم، وقد قص علينا القرآن الكريم -تعيينًا- بعضًا منهم، وصفوا بالبركة لفظًا، كنبي الله نوح عليه السلام، حيث دعا ربه بالبركة.

فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَٰرَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩].

وقال الله تعالى مباركًا إياه ومن اتبعه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٨].

والخليل إبراهيم، وأهل بيته وولده إسحاق عليهم السلام، حيث قال الله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات:١١٣].

وفي أهل بيته الكريم يقول الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٢-٧٣].

وممن ذكرهم القرآن من الأنبياء عيسى

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش ٣/ ٣٦٧.
وانظر: المفردات، الراغب ص ١١٩، بدائع الفوائد ابن القيم ٢/ ١٨٥-١٨٧.

ابن مريم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم:٣١].

هذا ولا يفوتنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يوصف بلفظ البركة في القرآن؛ لأن البركة فيه صلى الله عليه وسلم بدهية لا تحتاج إلى ذكر ولا إلى تذكير، فهو نبي أعطاه الله القرآن بركة وحي السماء، وأصل الفيوضات، وبارك أمته بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وبفرائض الدين وسننه، وبارك عمره فانتشر الدين على يديه وتم، ومن بركاته الحسية الكثير والكثير حيث: نبع الماء من بين أصابعه، وحفول شارف الشاة باللبن، وكثرة الطعام يوم الخندق عند جابر بن عبد الله رضي الله عنه...، وهلم جرا، ومن أجل هذا وغيره كان صلى الله عليه وسلم جديرًا بالبركة، وإن لم تذكر في وصفه صراحة.

ونخلص إلى أنه من وسائل تحصيل البركة الاقتداء بالأنبياء والصالحين، قال تعالى آمرًا حبيبه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠].

ونحن أمرنا أن نقتدي به صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

فكرم الله لعباده منوط بالاقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم، والاقتداء به هو اقتداء بكل الأنبياء عليهم السلام.

٤. الحرص على التعرض للبركة.

من وسائل جلب البركة الحرص على التعرض لها من خلال ولوج الأماكن المباركة، كبيت الله الحرام، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٦].

والمسجد الأقصى، حيث قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١].

وبلاد الشام ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف:١٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾[الأنبياء:٨١].

وطور سيناء حيث قال تعالى: ﴿إِذْ

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[النمل:٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[القصص:٣٠].

ومما لا شك فيه أن الله تعالى ذكر هذه البقاع موصوفة بالبركة؛ كي يلفت الأنظار إليها ليلجوها وينتفعوا بما استودعها الله من خيرات حسية كانت أو معنوية.

وكما يكون تحصيل البركة بملابسة المكان، فإن تحصيلها يكون بطعمة النبات الموصوف بالبركة كثمرة الشجرة المباركة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور:٣٥].

وكما أن البركة يكون تحصيلها بملابسة المكان، والطعمة من النبات، يكون أيضًا بالانتفاع بالزمان المبارك كليلة القدر تلك الليلة المباركة التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[القدر:١-٥].

وقال سبحانه منوهًا بليلة القدر، وأنها هي ليلة مباركة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[الدخان:٣-٥].

والأوقات المباركة التي يجب اغتنامها كثيرة: كشهر رمضان، وأوقات الصلاة، والسجود من الصلاة، والثلث الأخير من الليل، وأثناء الحج والعمرة، وأوقات الطاعات بصفة عامة كتلاوة القرآن وختمه، ووقت وقوف الإمام على المنبر، وساعة الإجابة من يوم الجمعة، وهلم جرا.

ومن وسائل تحصيل البركة: التعرض لماء السماء المبارك: لوصفه بالبركة.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾[ق:٩].

كما أن من أسباب تحصيل البركة إفشاء السلام، ونشر الأمن والأمان في ربوع بلاد المسلمين، حيث وصف تحية الإسلام بالبركة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[النور:٦١].

ولعل جماع وسائل الوصول إلى بركة

الله تعالى كلها يكمن في الإيمان والتقوى، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف:٩٦-٩٧].

هذه الآية الكريمة تشابه قوله تعالى في حق اليهود والنصارى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[النحل:٩٧].

وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

وقوله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الطلاق:١١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[الجن:١٦].

كل هذه الآيات تدور حول الإيمان والتقوى، ونتيجة ذلك عند الله.

«وأصل البركة: المواظبة على الشيء، أي: تابعنا عليهم المطر والنبات، ورفعنا عنهم القحط والجدب...»[(١)].

وبركات السماء والأرض متعددة، إن كان العلماء وغيرهم عرفوا منها نوعًا فقد غابت عنهم أنواع: فمن قائل بركات السماء: بالمطر، وبركات الأرض بالنبات، وقيل: بركات السماء: إجابة الدعوات، وبركات الأرض: تسهيل الحاجات[(٢)].

يقول الفخر: «اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الذين عصوا وتمردوا أخذهم الله بغتةً، بين في هذه الآية أنهم لو أطاعوا لفتح الله عليهم أبواب الخيرات، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا﴾[الأعراف: ٩٦].

أي: آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما نهى الله عنه وحرمه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بركات السماء: بالمطر، وبركات الأرض: بالنبات والثمار، وكثرة المواشي والأنعام، وحصول الأمن والسلامة؛ وذلك لأن السماء تجري مجرى الأب، والأرض تجري مجرى الأم، ومنهما يحصل

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢١٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٠٠.

جميع المنافع والخيرات بخلق الله تعالى وتدبيره»[1].

والظاهر أن قوله: ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يراد بها معينٌ؛ ولذلك جاءت نكرةً، وقيل: البركات النمو والزيادات فمن السماء بجهة المطر والريح والشمس، ومن الأرض بجهة النبات والحفظ لما نبت هذا الذي تدركه فطر البشر، ولله خدامٌ غير ذلك لا يحصى عددهم، وما علم الله أكثر[2].

والمقصود من الجمع في (بركات) تعددها، باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة، وجماع معناها، هو الخير الصالح الذي لا تبعة عليه في الآخرة، فهو أحسن أحوال النعمة...، وما يناله الناس من الخيرات الدنيوية لا يعدو أن يكون ناشئًا من الأرض؛ وذلك معظم المنافع، أو من السماء مثل ماء المطر وشعاع الشمس وضوء القمر والنجوم والهواء والرياح الصالحة[3].

ويرجع الشيخ الشعراوي سبب ندرة البركة لأفعال البشر المتعلقة بالإيمان والتقوى، حيث يقول رحمه الله: «فالبشر إذا تركوا رب الإنسان يضع منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان في كل خير، -وسبحانه وتعالى- أوضح أنهم إن اتقوا تأت لهم بركات من السماء والأرض، فإن أردتها بركات مادية تجدها في المطر الذي ينزل من أعلى، وبركات من الأرض مثل النبات، وكذلك كنوزها التي تستنبط منها الكماليات المرادة في الحياة، وما معنى البركة؟ البركة هي أن يعطي الموجود فوق ما يتطلبه حجمه؛ كواحد مرتبه قليل جدًا، ونجده يعيش هو وأولاده في رضا وسعادة، ودون ضيق، فنتساءل: كيف يعيش؟ ويجيبك: إنها البركة، وللبركة تفسير كوني؛ لأن الناس دائمًا -كما قلنا سابقًا- ينظرون في وارداتهم إلى رزق الإيجاب، ويغفلون رزق السلب، رزق الإيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلافًا كثيرة، لكنك قد تحتاج إلى أضعاف ما تأخذ، ورزق السلب يجعل دخلك القليل مع سلبه -سبحانه- عنك مصارف كثيرة، كأن يمنحك العافية، فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج، إذن فقوله: ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أن يعطي الحق سبحانه وتعالى القليل الكثير في الرزق الحلال، ويمحق الكثير الذي جاء من الحرام كالربا؛ ولذلك سمى المال الذي نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة زكاة مع أن الزكاة في ظاهرها نقص»[4].

ثانيًا: آثار البركة:

تنوعت آثار البركة حسب استعمال

(١) مفاتيح الغيب ١٤/ ٣٢١.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١١٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٠.
(٤) تفسير الشعراوي ٦/ ٣٢٨٢.

القرآن كالآتي:

١. الهداية إلى أقوم السبل، ومن ثم دخول الجنة.

ذلك أن القرآن الكريم الذي وصف الله تعالى ليلة نزوله بالبركة، ووصفه هو بالكتاب المبارك تظهر بركته جلية من خلال أنه يهدي للتي هي أقوم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٢].

٢. عموم خيرات الله لسكان الأرض.

لولا بركة الله لمجمل الأرض ما انتفعنا بخيراتها التي لا تحصى ولا تعد: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾[فصلت:١٠].

ولولا بركة التقوى ما تفضل الله علينا ببركات الأمطار، وإجابة الدعاء في السماء إلى بركات الأنهار والبحار والزروع والثمار ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف:٩٦].

٣. كثرة الزروع والثمار والأنهار في بعض البقاع.

يظهر ذلك في أرض الشام التي باركها الله، وبارك أهلها في أكثر من آية تم ذكرها في هذا البحث، وفي طور سيناء.

٤. بركة الزروع والثمار.

وذلك كما بينا في الزيتون ومنافعه في هذا البحث.

٥. تسخير الموجودات للبشر.

من آثار البركة تسخير الله للموجودات خدمة للبشر (السماء، الأرض، تعاقب الليل والنهار، الشمس، القمر، النجوم)؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

فلولا بركة الله ما تنعمنا بما حوته هذه الآية من نعم.

٦. منع الإيذاء عمن اتقى ربه.

كما حدث مع نبي الله نوح عليه السلام عندما نزل من السفينة بسلام وأمن لم يمسسه سوء.

٧. البشرى بالذرية.

من آثار البركة في القرآن: تبشير الصالحين بالذرية، كما حدث مع الخليل إبراهيم عليه السلام ؛ حيث رزقه الله الذرية الصالحة، وقد بلغه الكبر وكانت امرأته عاقرًا لا تلد.

٨. زيادة الثواب بالمكانية وبالزمانية.

من آثار البركة في القرآن زيادة الثواب بالمكانية، كزيادة ثواب الصلاة في المسجد

الحرام بمائة ألف صلاة عما سواه، وفي المسجد النبوي بألف صلاة، والمسجد الأقصى بخمسمائة، وأما الزيادة في الثواب المتعلقة بالزمان فذلك مثل ليلة القدر، والعشر الأول من ذي الحجة، وما شابه ذلك، وهذا يمثل بركة في العمر؛ إذ العمر القصير في الطاعة ينال الثواب الجزيل رغم قصره.

٩. نشر السلام بين الناس.

من آثار البركة نشر السلام بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين غيره من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور (٦١)].

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الإسراف، الإنفاق، البخس، الرزق، الطعام، الماء، المال

البُشرى

عناصر الموضوع

مفهوم البشرى	١٣٠
البشرى في الاستعمال القرآني	١٣١
الألفاظ ذات الصلة	١٣٢
اقتران البشارة بالنذارة في القرآن	١٣٤
أنواع البشارات	١٣٥
المبشر به	١٤٠
المبشرون في القرآن	١٤٥
المبشرون بالثواب أو العقاب	١٥٥
المستبشرون	١٦٢
آثار البشرى	١٦٧

مفهوم البشرى

أولًا: المعنى اللغوي :

الباء والشين والراء أصل واحد: هو ظهور الشيء مع حسن وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، وسمي البشر بشرًا لظهورهم، والبشير الحسن الوجه، والبشارة الجمال، وأبشرت الرجل وبشرته وبشرته: أخبرته بسار بسط بشرة وجهه؛ وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر، واستبشر: إذا وجد ما يبشره من الفرح، ويقال للخبر السار: البشارة والبشرى، ويقال: أبشر، أي: وجد بشارة، وتباشير الوجه وبشره: ما يبدو من سروره، وتباشير الصبح: ما يبدو من أوائله، وتباشير النخيل: ما يبدو من رطبه، ويسمى ما يعطى المبشر: بشرى وبشارة، والمباشرة: الإفضاء بالبشرتين، وكني بها عن الجماع، والبشرى: ما يبشر به، وما يعطاه المُبشر [(١)].

من خلال ما سبق تبين أن المعنى اللغوي للبشرى يدور حول الخبر السار والمفرح، والحسن والجمال الذي يظهر على الوجه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الجرجاني البشارة بقوله: «كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه، ويستعمل في الخير والشر، وفي الخير أغلب»[(٢)].

وقال الراغب الأصفهاني البشرى: «إظهار غيب المسرة بالقول» [(٣)].

وذكر ابن عاشور تعريف للبشرى بقوله: «خبر بحصول ما فيه نفع ومسرة للمخبر به»[(٤)].

وقال الفخر الرازي البشرى: «عبارة عن الخبر الدال على حصول الخير العظيم »[(٥)].

ويتضح مما سبق أن البشرى في الاصطلاح تعني نقل الأخبار السارة التي تحمل النفع والمسرة والاستبشار بحصول الخير لمن نقل إليه الخبر.

وبهذا تظهر العلاقة الواضحة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظة البشرى

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٢٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٥١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،١/ ٥٨.
(٢) التعريفات، ص ٤٥.
(٣) المفردات، ص ٧٨.
(٤) التحرير والتنوير، ٤/ ٧٨.
(٥) مفاتيح الغيب،٣/ ٦١٣.

البشرى في الاستعمال القرآني

ووردت مادة (بشر) في القرآن الكريم (١٢٣) مرة، يخص موضوع البشرى منها (٨٤) مرة.

والصيغ التي وردت هي[١]:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩	﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات:١١٢]
الفعل المضارع	١٦	﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى:٢٣]
فعل الأمر	٢١	﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب:٤٧]
المصدر	١٨	﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة:٩٧]
اسم الفاعل	١١	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الفتح:٨]
صيغة المبالغة	٩	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر:٢٤]

وجاءت البشرى في الاستعمال القرآني بالمعنى اللغوي وهو: الإخبار بخبر سارٍ يبسط بشرة الوجه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١١٩-١٢١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٢٥-١٢٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٥١، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢/ ٢٠٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ السرور:

السرور لغة:

يقال: سررت برؤية فلانٍ وسرني لقاؤه، وقد سررته أسره أي فرحته، السرور خلاف الحزن؛ تقول: سرني فلانٌ مسرةً، والسرور: ما ينكتم من الفرح [(١)].

السرور اصطلاحًا:

«حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد وعلم أو ظن لحصول شيء لذيذ»[(٢)].

الصلة بين البشرى والسرور:

إن الاستبشار هو السرور بالبشارة، والاستفعال للطلب، والمستبشر بمنزلة من طلب السرور في البشارة فوجد، وأصل البشرة من ذلك لظهور السرور في بشرة الوجه [(٣)].

٢ الضحك:

الضحك لغة:

يقال ضحك يضحك ضَحِكًا، ومن ذلك الضحك وهو دليل الانكشاف والبروز[(٤)].

الضحك اصطلاحًا:

"انبساط الوجه وتكشر الأسنان من سرور النفس" [(٥)].

الصلة بين البشرى والضحك:

الضحك: انبساط الوجه ويكون بعد سماع الخبر السار كالبشرى مثلًا، فالضحك يكون بعد البشرى السارة.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٣٦١.
(٢) التوقيف، المناوي، ص ١٩٣.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٢٦٥.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٤٥٩، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٩٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٠١.

٣ الفرح:

الفرح لغة:

يقال فرح يفرح فرحًا، فهو فرحٌ على خلاف الحزن [١].

الفرح اصطلاحًا:

«انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية»[٢].

الصلة بين البشرى والفرح:

الفرح قد يكون بما ليس فيه نفع ولا لذة، والبشرى على الأكثر تستعمل في الخير، والخبر السار الذي يصاحبه النفع واللذة[٣].

٤ الإنذار:

الإنذار لغة:

أصلها النون والذال والراء كلمةٌ تدل على تخويفٍ أو تخوفٍ، منه الإنذار: الإبلاغ ولا يكاد يكون إلا في التخويف [٤].

الإنذار اصطلاحًا:

« الإعلام بما يحذر، ولا يكاد يكون إلا في تخويف يسع زمانه الاحتراز » [٥].

الصلة بين البشرى والإنذار:

الإنذار: إخبارٌ وإعلام معه تخويف، عكسه التبشير: الذي هو إخبار فيه سرور ولذة ومنفعة [٦].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٩٩.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٢٨.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٦٥.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤١٤.
(٥) التوقيف، المناوي، ص ٦٤.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٧٩٧، الفروق اللغوية، العسكري، ص٧٨.

اقتران البشارة بالنذارة في القرآن

قرن الله سبحانه وتعالى في القرآن بين البشارة والنذارة في آيات كثيرة، وقدم فيها البشارة على النذارة إلا في آيتين مكيتين، هما:

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

من الآيات التي قدمت فيها البشارة على النذارة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وهنا تساؤل: لماذا قال: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مع أنه نذير وبشير للمؤمنين والكافرين؟

والجواب فيه قولان:

أحدهما: أنه نذير وبشير للمؤمنين والكافرين إلا أنه ذكر إحدى الطائفتين وترك ذكر الثانية؛ لأن ذكر إحداهما يفيد ذكر الأخرى.

والثاني: أنه صلى الله عليه وسلم وإن كان نذيرًا وبشيرًا للكل إلا أن المنتفع بتلك النذارة والبشارة هم المؤمنون. فلهذا السبب خصهم الله بالذكر[(١)].

وبدأ بالنذارة لأن السائلين عن الساعة كانوا كفارًا، إما مشركو قريش وإما اليهود، فكان الاهتمام بذكر الوصف من قوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ آكد وأولى بالتقديم[(٢)].

«والرسول صلى الله عليه وسلم نذير وبشير للناس أجمعين، ولكن الذين يؤمنون هم الذين ينتفعون بما معه من النذارة والبشارة، فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذي جاء به، ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين، إن الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي إلا للقلب المفتوح لها، والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها، وإن هذا القرآن لا يفتح كنوزه، ولا يكشف أسراره، ولا يعطي ثماره إلا لقوم يؤمنون»[(٣)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٢٦.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٤٢.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤١٠.

أنواع البشارات

تنوعت البشارات في القرآن على النحو الآتي:

أولًا: البشارات العامة:

بُشِّرَ المؤمنون ببشارات عامة، لم يذكر فيها المبشر به ليدل على العموم، وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

فإن قلت: لم لم يذكر ما يبشرهم به؟

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «لم يذكر ما يبشرهم به لتعظيم شأنه، وشموله لخير الدنيا، وسعادة الآخرة»[1].

فإن قلت: لم لم يذكر مقدار البشرى وصفتها؟

قيل: لأن مقدارها وصفتها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم، قوة وضعفًا، وعملًا بمقتضاه.

وهذه البشرى للمؤمنين تدل دلالة واضحة على محبة الله للمؤمنين، ومحبة ما يسرهم، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

وقد ذكرت صفات للمؤمنين المبشرين بالبشارات العامة في آيات منها:

١. المقيمون الصلاة.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

أي: وبشر مقيمي الصلاة المطيعي الله بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين لهم وتنجيتهم من ظلمهم وبالنصر والتأييد، وإظهار دينهم.

٢. الممتثلون لأحكام الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

فالآية تبشر المؤمنين الذين يتقون الله عز وجل في إتيان أزواجهم في موضع الحرث، بأن هذا العمل عبادة لله عز وجل؛ لأنهم يحققون حكمة الله من خلقه للزوجين، وذرء النسل وخلافة البشر في الأرض.

٣. المجاهدون في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

أي: وبشر يا محمد المؤمنين بنصر الله إياهم على عدوهم، وفتحٍ عاجلٍ لهم[2].

(١) المنار ١١/ ٤٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦١٩.

٤. الموفون ببيعتهم مع الله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١١-١١٢].

هاتان الآيتان تبينان حال المؤمنين حق الإيمان، البالغين فيه ما هو غايةٌ له من الكمال، وهم:

﴿التَّائِبُونَ﴾ أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

﴿الْحَامِدُونَ﴾ لله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار.

﴿السَّائِحُونَ﴾ فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أي: المكثرون من الصلاة، المشتملة على الركوع والسجود.

﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلًا وتركًا[1].

ثم أمر الله رسوله ببشارتهم، فقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي المتخلقين بها بكل ما يسرهم بعد تخصيصهم بدار السعادة، وفي الآيتين بالبشارة تارة من الخالق ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾، وتارة من أكمل الخلائق ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أعظم مزية للمؤمنين، وفي جعل الأولى من الله أعظم ترغيب في الجهاد، وأعلى حث على خوض

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٣.

غمرات الجلاد[1].

قاعدتا الثواب في القرآن:

يقرن القرآن دائمًا بين الإيمان والعمل الصالح، كلما ذكر العمل والجزاء، فلا جزاء على إيمان عاطل خامد لا يعمل، ولا يثمر، ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان.

ثانيًا: البشارات الخاصة:

١. التبشير بالولد.

من أعظم ما يبشر به المؤمن في الدنيا الولد الصالح الحامل لنور الهداية:

- تبشير إبراهيم بإسحاق عليهما السلام مع كبر سنه وامرأته عجوز.

قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

وهو إسحاق عليه السلام ، تضمنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أنثى، عليم، أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات ١١٢].

فقال لهم متعجبًا من هذه البشارة: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ وصار نوع إياس منه ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي: على أي وجه تبشرون، وقد عدمت الأسباب؟

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه؛ لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص -يا أهل هذا البيت- رحمة الله وبركاته عليكم فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم[2].

وقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ قيل: إنه يستطيب تلك البشارة، فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى، ومرتين وأكثر طلبًا للالتذاذ بسماع تلك البشارة، وطلبًا لزيادة الطمأنينة والوثوق، مثل قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقيل أيضًا: استفهم أبأمر الله تبشرون أم من عند أنفسكم واجتهادكم؟[3].

وقال أبو حيان رحمه الله « قولهم له: فلا تكن من القانطين نهي، والنهي عن الشيء لا يدل على تلبس المنهي عنه به ولا بمقارنته. وقوله: ومن يقنط رد عليهم، وأن المحاورة في البشارة لا تدل على القنوط، بل ذلك على سبيل الاستبعاد لما جرت به العادة، وفي ذلك إشارة إلى أن هبة الولد على الكبر من رحمة الله؛ إذ يشد عضد والده به ويؤازره حالة كونه لا يستقل ويرث منه علمه ودينه »[4].

- تبشير زكريا بيحيى عليهما السلام مع كبر سنه وامرأته عاقر.

قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ

(١) نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٣٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٥١.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٤٨٦.

﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٧-٩].

أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ«يحيى» وسماه الله له «يحيى» وكان اسمًا موافقًا لمسماه: يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد، فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذي طلبه استغرب وتعجب، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

والحال أن المانع من وجود الولد، موجود بي وبزوجتي؟ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال، حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فأجابه الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩].

أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل ولم يكن شيئًا[1].

وهنا تساؤل: لماذا تعجب زكريا عليه السلام من البشارة بالولد؟

هذا التعجب تعجب مكنى به عن الشكر، فهو اعتراف بأنها عطية عزيزة غير مألوفة؛ لأنه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولدًا، ثم يتعجب من استجابة الله له[2].

❁ تبشير مريم بعيسى عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله؛ لأنه كان بالكلمة من الله؛ لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته[3].

٢. تبشير عيسى عليه السلام بمحمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٦/ ١٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٣٠.

لقد بشر كل نبي قومه بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والله أفرد عيسى بالذكر في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا صلى الله عليه وسلم، فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحدًا بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام.

العلامات والدلائل التي بشرت برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لما أراد الله تعالى إعداد البشر لقبول رسالة الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم استودعهم أشراطه وعلاماته على لسان كل رسول أرسله إلى الناس.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢].

أي: أأخذتم إصري من أممكم على الإيمان بالرسول الذي يجيء مصدقًا للرسل، وقوله: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أي: على أممكم.

وقال تعالى في خصوص ما لقنه إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وأوصى به عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وصية جامعة لما تقدمها من وصايا الأنبياء[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٨/ ١٦٠.

المبشر به

بشر الله تعالى أولياءه ببشارات في الدنيا والآخرة نتناولها فيما يأتي:

أولًا: البشارة بالثواب:

١. البشارة بالثواب في الدنيا.

بشر أولياء الله في الدنيا ببشارات، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

من هذه البشارات: الرؤيا الصالحة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) قالوا: وما المبشرات؟ قال: (الرؤيا الصالحة)[(١)].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الستارة والناس صفوفٌ خلف أبي بكرٍ، فقال: (أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له)[(٢)].

٢. البشارة بنصر من الله وفتح قريب.

قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

أي: وبشر يا محمد المؤمنين بنصر الله إياهم على عدوهم، وفتحٍ عاجلٍ لهم[(٣)] تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع.

وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الإخبار بالغيب[(٤)].

ثانيًا: البشارة بالثواب في الآخرة:

١. البشارة بالأجر الكبير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

عن ابن جريجٍ رحمه الله ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ قال: «الجنة، وكل شيءٍ في القرآن أجرٌ كبيرٌ، أجرٌ كريمٌ، ورزقٌ كريمٌ فهو الجنة»[(٥)].

٢. البشارة بالمغفرة والأجر الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المبشرات ٩/ ٣١، رقم ٦٩٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ١/ ٣٤٨، رقم ٤٧٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦١٩.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٧٥.

(٥) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥١١.

أي: بشرهم بمغفرة الذنوب، ودخول الجنات.

٣. البشارة بالأجر الحسن.

قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢].

الأجر الحسن: هو الفوز برضا الله، ودخول الجنة، وفي وصفه بالحسن دلالة على أنه لا مكدر فيه، ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك لم يكن حسنه تامًا، ومع ذلك فهذا الأجر الحسن لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد.

٤. البشارة بالفضل الكبير.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٧].

الفضل: العطاء الذي يزيده المعطي زيادة على العطية؛ لأنه لا يكون فضلًا إلا إذا كان زائدًا على العطية، والمراد أن لهم ثواب أعمالهم الموعود بها وزيادة من عند ربهم[(١)].

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وذكر في هذه الآية الكريمة: المبشر، وهم المؤمنون، وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق الدارة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع[(٢)].

وفي أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالتبشير تأنيس عظيم، ووعد كريم بالثواب الجزيل[(٣)].

٥. البشارة بقدم صدق عند الله.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

أي: «لهم أعمالًا صالحةً عند الله يستوجبون بها منه الثواب»[(٤)].

وكلمة قدم صدق تعني أيضًا: « قدم ثابتة راسخة موقنة لا تتزعزع ولا تضطرب ولا تتزلزل ولا تتردد، في جو الإنذار وفي ظلال الخوف، وفي ساعات الحرج ﴿قَدَمَ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٨٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٧.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٣٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١١١.

﴿صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الحضرة التي تطمئن فيها النفوس المؤمنة، حينما تتزلزل القلوب والأقدام»[1].

٦. البشارة بالجنة ونعيمها.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

أي: بشرهم يا محمد أن لهم بساتين جامعة من الأشجار العجيبة، والثمار الأنيقة، والظل المديد، تجري من تحتها أنهار الماء، واللبن، والعسل، والخمر، يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتشرب منها تلك الأشجار فتنبت أصناف الثمار المتشابهة في الحسن واللذة والفكاهة، ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة، فهم دائمًا متلذذون بأكلها.

ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم، ذكر أزواجهم، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه، وأوضحه فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

فلم يقل «مطهرة من العيب الفلاني» ليشمل جميع أنواع التطهير فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل، والأدب القولي والفعلي، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضًا، بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح[2].

وهذه الآية الكريمة من الآيات الجامعة في البشرى حيث ذكر فيها: المبشر والمبشر، والمبشر به، والسبب الموصل لهذه البشارة.

فالمبشر: هو الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن قام مقامه من أمته.

والمبشر: هم المؤمنون العاملون الصالحات.

والمبشر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٦٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦ بتصرف يسير.

والسبب الموصل لذلك: هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة، على يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب.

ثانيًا: البشارة بالعقاب:

الغالب في استعمال البشارة أن تكون في الإخبار بما يسر، فهي إذًا مأخوذةٌ من انبساط بشرة الوجه، كما أن السرور مأخوذٌ من انبساط أساريره، وعلى هذا يقولون: إن استعمالها فيما يسوء يكون من باب التهكم، وقيل: إن البشارة تستعمل فيما يسر وفيما يسوء استعمالًا حقيقيًا؛ لأن أصلها الإخبار بما يظهر أثره في بشرة الوجه في الانبساط والتمدد، أو الانقباض والتغضن[1].

١. البشارة بالعذاب الأليم.

تستعمل البشرى في الشر بقيد، كما قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨].

والعذاب الأليم: هو الموجع، وذلك عذاب جهنم.

قال ابن عطية رحمه الله: «جاءت البشارة هنا مصرحًا بقيدها، فلذلك حسن استعمالها في المكروه، ومتى جاءت مطلقة فإنما عرفها في المحبوب»[2].

٢. رؤية المجرمين للملائكة لا تبشرهم بخير.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢].

أي: لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ لهم؛ وذلك يصدق في ثلاث مواضع:

١. وقت الاحتضار: حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم، وظل من يحموم، فتأبى الخروج، وتتفرق في البدن، فيضربونه[3].

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ بِرِيحٍ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٣٧٦.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٢١١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠١.

﴿أَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

٢. في القبر: حيث يأتيهم منكر ونكير فيسألهم عن ربهم ونبيهم ودينهم، فلا يجيبون جوابًا ينجيهم فيحلون بهم النقمة، وتزول عنهم بهم الرحمة.

كما روى أبو داود بسنده عن البراء بن عازبٍ قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله، كأنما على رءوسنا الطير، وفي يده عودٌ ينكت به في الأرض، فرفع رأسه، فقال: (استعيذوا بالله من عذاب القبر) مرتين أو ثلاثًا...، ثم قال: (وإن الكافر) فذكر موته قال: (وتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: هاه هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار) قال: (فيأتيه من حرها وسمومها) قال: (ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه) زاد في حديث جريرٍ، قال: (ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبةٌ من حديدٍ لو ضرب بها جبلٌ لصار ترابًا) قال: (فيضربه بها ضربةً يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابًا) قال: (ثم تعاد فيه الروح)[1].

٣. يوم القيامة: حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه إن استمروا على إجرامهم، لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذٍ يتعوذون من الملائكة ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم ٤٧٥٥.
وصححه الألباني في المشكاة ١/ ٤٧.

المبشرون في القرآن

أولًا: الله عز وجل:

بشر الله سبحانه وتعالى عباده ببشارات تنشرح بها الصدور، وتتلألأ بها الوجوه نورًا وبهجة وحسنًا من عظمة ما بشروا به من خير الدنيا والآخرة، من هؤلاء: الأنبياء والرسل، والمهاجرون المجاهدون في سبيله، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وترجع عظمة البشرى لعظمة المبشر بها، وعظمة ما قام به المبشرون.

١. تبشير الأنبياء والرسل بالأولاد الصالحين.

بشر الله الأنبياء والرسل بخير ما في الدنيا وهم الأولاد الصالحين الذين يحملون ميراث الآباء، وهو ميراث النبوة، وأعظم به ميراثًا، من هؤلاء:

- بشر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بإسماعيل عليه السلام.

كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

وصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر والعفو عمن جنى.

وقال ابن عاشور رحمه الله: «الحليم: الموصوف بالحلم، وهو اسم يجمع أصالة الرأي، ومكارم الأخلاق، والرحمةبالمخلوق»[1].

- بشر الله سبحانه وتعالى زكريا عليه السلام بيحيى عليه السلام.

كما قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

وسماه الله له «يحيى» وكان اسمًا موافقًا لمسماه: يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين.

٢. تبشير الله سبحانه وتعالى المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيله بالرحمة والرضوان.

بشر الله تعالى المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيله بالرحمة الواسعة والرضوان الذي لا سخط بعده، ومصيرهم إلى جنات الخلد والنعيم الدائم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

«قال ابن عباس رضي الله عنه: هي في المهاجرين خاصة، وأسند التبشير إلى قوله:

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٤٩.

«ربهم» لما في ذلك من الإحسان إليهم بأن مالك أمرهم والناظر في مصالحهم هو الذي يبشرهم؛ فذلك على تحقيق عبوديتهم لربهم؛ ولما كانت الأوصاف التي تحلوا بها وصاروا بها عبيده حقيقة هي ثلاثة: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالمال والنفس، قوبلوا في التبشير بثلاثة: الرحمة، والرضوان، والجنات، فبدأ بالرحمة لأنها الوصف الأعم الناشئ عنها تيسير الإيمان لهم، وثنى بالرضوان؛ لأنه الغاية من إحسان الرب لعبده، وهو مقابل الجهاد؛ إذ هو بذل النفس والمال، وقدم على الجنات؛ لأن رضا الله عن العبد أفضل من إسكانهم الجنة»[1].

وقد روى مسلم بسنده عن أبي سعيدٍ الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)[2].

وأتى ثالثًا بقوله: ﴿وَجَنَّٰتٞ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢].

أي: دائم لا ينقطع، وهذا مقابل لقوله: «وهاجروا» لأنهم تركوا أوطانهم التي نشأوا فيها، وكانوا فيها منعمين، فآثروا الهجرة على دار الكفر إلى مستقر الإيمان والرسالة، فقوبلوا على ذلك بالجنات ذوات النعيم الدائم، فجاء الترتيب في أوصافهم على حسب الواقع: الإيمان، ثم الهجرة، ثم الجهاد، وجاء الترتيب في المقابل على حسب الأعم، ثم الأشرف، ثم التكميل[3].

«وإسناد التبشير إلى الرب بصيغة المضارع، المفيد للتجدد، مؤذن بتعاقب الخيرات عليهم، وتجدد إدخال السرور بذلك لهم؛ لأن تجدد التبشير يؤذن بأن المبشر به شيء لم يكن معلوما للمبشر»[4].

٣. تبشير الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات.

أخبر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم النعيم والكرامة في الآخرة، وهو البشرى التي يبشر الله بها عباده.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٨٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ٨/ ١١٤، رقم ٦٥٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا ٤/ ٢١٧٦، رقم ٢٨٢٩.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٩٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٥٣.

﴿يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٢-٢٣].

وهذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه:

الأول: أن الله سبحانه رتب على الإيمان، وعمل الصالحات روضات الجنات، والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاء دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ يدخل في باب غير المتناهي؛ لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها.

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ والذي يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق كان في غاية الكبر.

الرابع: أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم، فقال: ﴿ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وذلك يدل أيضًا على غاية العظمة[1]. وجمع العباد المضاف إلى اسم الجلالة للتقريب، ورفع الشأن.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٩٣.

ثانيًا: الملائكة:

١. تبشير الملائكة مريم بعيسى عليهما السلام.

أخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

٢. تبشير الملائكة إبراهيم عليه السلام وزوجه بإسحاق ويعقوب عليهما السلام.

أخبر تعالى أن الملائكة بشرت إبراهيم عليه السلام بإسحاق عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر: ٥٣].

والعليم: أي عليم بالشريعة بأن يكون نبيًا، كما قال في آية الصافات: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

والملائكة بشرت زوج إبراهيم عليه السلام بإسحاق ويعقوب عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

فالمبشر إبراهيم وزوجه، لكن وقت البشارة قد يكون في وقت واحد، وقد يكون في وقتين متقاربين بشروه بانفراد، ثم جاءت

امرأته فبشروها.

٣. تبشير المستقيمين على الصراط المستقيم بالجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك، تنشيطهم، والحث على الاقتداء بهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى ، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علمًا وعملًا، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ على ما يستقبل من أمركم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولًا ويقولون لهم أيضًا، مثبتين لهم، ومبشرين ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

ويقولون لهم أيضًا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ قد أعد وهيئ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، نزلٌ وضيافة ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾ غفر لكم السيئات ﴿رَّحِيمٍ﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم، فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٨.

ثالثًا: الرسل:

أخبر الله سبحانه وتعالى أن من سنته في خلقه إرسال الرسل ببشارة أهل طاعته بالجنة والفوز العظيم يوم القيامة، وإنذار أهل معصيته بالنار والعقاب الأليم يوم القيامة، فتقوم عليهم الحجة، فيسعد أهل الجنة عن بينة، ويشقى أهل النار عن بينة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد، حصلت له البشارة، وقد تكرر هذا المعنى في مواضع أخر من القرآن.

منها قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

فإرسال الرسل لقطع عذر البشر إذا سئلوا عن جرائم أعمالهم، واستحقوا غضب الله وعقابه.

وهذه الحجة التي بعث الرسل لقطعها بينها بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

وأشار لها في قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

وإنها لتبعة عظيمة ألقيت على الرسل صلوات الله عليهم ومن بعدهم على المؤمنين برسالاتهم، تجاه البشرية كلها، وهي تبعة ثقيلة بمقدار ما هي عظيمة، إن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم، فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم، ويترتب ثوابهم أو عقابهم، في الدنيا والآخرة.

فأما رسل الله صلوات الله عليهم فقد أدوا الأمانة، وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها -مع هذا- قدوة ممثلة في العمل، وجهادًا مضنيًا بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق، سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك، وضلالات تزين، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم في الدين، كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، بما أنه المبلغ الأخير، وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات، فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان، إنما أزالها كذلك بالسنان ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وبقي الواجب الثقيل على من بعده، على

المؤمنين برسالته، فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده صلى الله عليه وسلم وتبليغ هذه الأجيال منوط بعده بأتباعه، ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة -تبعة إقامة حجة الله على الناس وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا- إلا بالتبليغ والأداء على ذات المنهج الذي بلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدى.

فالرسالة هي الرسالة والناس هم الناس، وهناك ضلالات وأهواء وشبهات وشهوات، وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة، الموقف هو الموقف والعقبات هي العقبات، والناس هم الناس، ولا بد من بلاغ، ولا بد من أداء، بلاغ بالبيان، وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة مما يبلغون، وبلاغ بإزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة، وتفتن الناس بالباطل وبالقوة، وإلا فلا بلاغ ولا أداء، إنه الأمر المفروض الذي لا حيلة في النكوص عن حمله، فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعة؟ وهي تبعة تقصم الظهر، وترعد الفرائص، وتهز المفاصل؟! [1].

١. تبشير موسى عليه السلام قومه بالنصر على فرعون في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

٢. تبشير الرسول صلى الله عليه وسلم أمته بما أمره به ربه عز وجل.

أمر الله عز وجل رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بتبشير أصناف من عباده بما يسرهم ويفرحهم في الدنيا والآخرة، وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

أي: وأخبر -أيها الرسول- أهل الإيمان والعمل الصالح خبرًا يملؤهم سرورًا، بأن لهم في الآخرة حدائق عجيبة، تجري الأنهار تحت قصورها العالية وأشجارها الظليلة، كلما رزقهم الله فيها نوعًا من الفاكهة اللذيذة، قالوا: قد رزقنا الله هذا النوع من

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨١١.

قبل، فإذا ذاقوه وجدوه شيئًا جديدًا في طعمه ولذته، وإن تشابه مع سابقه في اللون والمنظر والاسم، ولهم في الجنات زوجات مطهرات من كل ألوان الدنس الحسي كالبول والحيض، والمعنوي كالكذب وسوء الخلق، وهم في الجنة ونعيمها دائمون، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

أي: وبشر -أيها النبي- الصابرين بما يفرحهم ويسرهم من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

ومنها قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وبشر المؤمنين -أيها النبي- بما يفرحهم ويسرهم من حسن الجزاء في الآخرة.

ومنها قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

أي: وبشر -أيها النبي- هؤلاء المؤمنين المتصفين بهذه الصفات برضوان الله وجنته.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

أي: وبشر الذين آمنوا بالله ورسله أن لهم أجرًا حسنًا بما قدموا من صالح الأعمال.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

أي: وبشر -أيها النبي- المتواضعين الخاضعين لربهم بخيري الدنيا والآخرة.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

أي: وبشر -أيها النبي- المحسنين بعبادة الله وحده والمحسنين إلى خلقه بكل خير وفلاح.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

أي: وبشر -أيها النبي- أهل الإيمان بأن لهم من الله ثوابًا عظيمًا، وهو روضات الجنات.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ

﴿ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

أي: وبشر المؤمنين -أيها النبي- بالنصر والفتح في الدنيا، والجنة في الآخرة.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

أي: وبشر من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من أحكام الله، والخائف من الرحمن بمغفرة من الله لذنوبه، وثواب منه في الآخرة على أعماله الصالحة، وهو دخوله الجنة.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

أي: والذين اجتنبوا طاعة الشيطان، وعبادة غير الله، وتابوا إلى الله بعبادته، وإخلاص الدين له، لهم البشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والتوفيق من الله، وفي الآخرة برضوان الله، والنعيم الدائم في الجنة.

ومن تتبع الآيات السابقة وجد اختلاف البشرى للمبشرين حسب حالتهم الإيمانية، فكلما زادت الحالة الإيمانية، ومقتضياتها زادت درجات البشرى.

٣. تبشير الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم المنافقين بالعذاب الأليم.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

أي: وبشر -أيها الرسول- المنافقين -وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر- بأن لهم عذابًا موجعًا.

٤. تبشير الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الكافرين بالعذاب الأليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

أي: إن الذين يجحدون بالدلائل الواضحة، وما جاء به المرسلون، ويقتلون أنبياء الله ظلمًا بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالعدل، واتباع طريق الأنبياء، فبشرهم بعذاب موجع.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

أي: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إن كثيرًا من علماء أهل

الكتاب وعبادهم ليأخذون أموال الناس بغير حق كالرشوة وغيرها، ويمنعون الناس من الدخول في الإسلام، ويصدون عن سبيل الله، والذين يمسكون الأموال ولا يؤدون زكاتها، ولا يخرجون منها الحقوق الواجبة، فبشرهم بعذاب موجع.

وبالمقارنة بين آيات البشرى في حق المؤمنين وحق المنافقين والكافرين نجد كثرة عدد آيات البشرى في حق المؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بها، وقلة عدد آيات تبشير المنافقين والكافرين، والتي هي على سبيل التهكم؛ تحقيقًا لسنته في خلقه (إن رحمتي سبقت غضبي)[1].

وإبرازًا لصفة الرحمة في حق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وحق رسالته، كما قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

رابعًا: القرآن:

قال تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

المراد بالمسلمين الذين آمنوا، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وهدى وبشرى لهم، فعدل إلى الإظهار لزيادة مدحهم بوصف آخر شريف[2].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

هذه الآية من الآيات الجامعة التي تبين فضل القرآن، فهذا الكتاب الذي نزل به جبريل «فيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي، لمن آمن به»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدٗى﴾ فالمراد به أن القرآن مشتمل على أمرين:

أحدهما: بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وهو من هذا الوجه هدى.

وثانيهما: بيان أن الآتي بتلك الأعمال كيف يكون ثوابه وهو من هذا الوجه بشرى؟ ولما كان الأول مقدمًا على الثاني في الوجود لا جرم قدم الله لفظ الهدى على لفظ البشرى.

فإن قيل: ولم خص كونه هدى وبشرى بالمؤمنين مع أنه كذلك بالنسبة إلى الكل؟

الجواب من وجهين:

الأول: أنه تعالى إنما خصهم بذلك لأنهم هم الذين اهتدوا بالكتاب، فهو كقوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء)، ٩/ ١٢٥، رقم ٧٤٢٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٣٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

والثاني: أنه لا يكون بشرى إلا للمؤمنين؛ وذلك لأن البشرى عبارة عن الخبر الدال على حصول الخير العظيم، وهذا لا يحصل إلا في حق المؤمنين، فلهذا خصهم الله به[(١)].

وقيل: خص الهدى والبشرى بالمؤمنين لأن غير المؤمنين لا يكون لهم هدى به ولا بشرى، كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولأن المؤمنين هم المبشرون ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧][(٢)].

«فالقرآن هدى وبشرى للقلوب المؤمنة، التي تتفتح له وتستجيب، وهذه حقيقة ينبغي إبرازها، إن نصوص القرآن لتسكب في قلب المؤمن من الإيناس، وتفتح له من أبواب المعرفة، وتفيض فيه من الإيحاءات والمشاعر ما لا يكون بغير الإيمان، ومن ثم يجد فيه الهدى، كما يستروح فيه البشرى»[(٣)].

ومن بلاغة القرآن حديثه عن نفسه بأنه (بشرى) المصدر الذي ليس له زمان معين، والمعنى أن القرآن (بشرى) للمؤمنين به في كل زمان بما يناسب هذا الزمان، وبما يناسب حالة المؤمنين الإيمانية، أي (بشرى) القرآن للمؤمنين امتدت طولًا حتى شملت آفاق الزمان، وامتدت عرضًا حتى شملت آفاق الأمم، واختلفت درجات البشرى باختلاف درجات المؤمنين في الإيمان والعمل الصالح.

خامسًا: الرياح:

الرياح أثر من آثار قدرة الله، ورحمة من رحماته على عباده؛ وهي كالرسل؛ ولذلك كانت موصوفة بالخير، كما روى البخاري بسنده عن ابن عباسٍ - رضي الله عنهما- قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة)[(٤)].

وقد ذكر سبحانه وتعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقيبها؛ الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، وتجري الفلك في

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٦١٣.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٥١٥.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٩٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي، صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٨، رقم ٣٥٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان النبي، صلى الله عليه وسلم، أجود الناس بالخير من الريح المرسلة ٤/ ١٨٠٣، ٢٣٠٨.

البحر، وتسير بالريح، ويبتغون من فضل الله في التجارات والمعايش، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

وبين تعالى أثرًا من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله[(١)].

وفي الآية: «تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم، ونذارة المشركين بالقحط والجوع»[(٢)].

المبشرون بالثواب أو العقاب

أولًا: الرسل:

بشر الله سبحانه وتعالى إبراهيم وزكريا عليهما السلام بالأولاد الصالحين، والذرية الطيبة التي ستكون منها مادة الهداية لأقوامهم، فبهم بعد توفيق الله يهتدي المهتدون، ولعظم هذه البشرى التي حدثت على غير العادة، أرسل الله بها ملائكته لتبشيرهما؛ لأنه سبحانه وتعالى مصدر البشرى، والملائكة والرسل سفراء لقومهم بها.

١. تبشير إبراهيم بإسحاق عليهما السلام مع كبر سنه وسن زوجه.

قال تعالى لإبراهيم على لسان الملائكة: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، وتضمنت هذه البشارة بأنه عليم، أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

٢. تبشير الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بإسماعيل عليه السلام.

بشر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بإسماعيل عليه السلام ، كما قال

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٣٧.

تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١].

وصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، والحليم: اسم يجمع أصالة الرأي ومكارم الأخلاق، والرحمة بالمخلوق[(١)].

٣. تبشير زكريا بيحيى عليهما السلام مع كبر سنه وكون امرأته عاقرًا.

قال تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٧-٩].

أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ«يحيى» وسماه الله له «يحيى» وكان اسمًا موافقًا لمسماه: يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين.

ثانيًا: المؤمنون:

بشر الله سبحانه عباده المؤمنين ببشارات عظيمة ترجع لقيامهم بأعمال جليلة منهم المهاجرون المجاهدون في سبيله، وأمر ملائكته أن تبشر المؤمنين المستقيمين على طاعته والمنيبين إليه، وأمر رسوله بتبشير المؤمنين بما ينشطهم على العمل، وما يسرهم ويفرحهم، وجعل القرآن بشيرًا للمؤمنين بالنصر في الدنيا والكرامة في الآخرة، وجعل الرياح مبشرات بالبركات والنماء بعد القحط والجدب.

ثم اختلفت أنواع البشرى باختلاف العمل الصالح الذي قام به المبشرون.

تبشير الرسول صلى الله عليه وسلم أمته بما أمره به ربه عز وجل:

أمر الله عز وجل رسول الكريم صلى الله عليه وسلم بتبشير عباده بما يسرهم ويفرحهم في الدنيا والآخرة، وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه:

١. بشارة المؤمنين الذين جمعوا مع الإيمان العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥].

٢. بشارة المخبتين.

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦٢.

﴿ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

بشر المخبتين بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده، ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ أي: خوفًا وتعظيمًا، فتركوا لذلك المحرمات، لخوفهم ووجلهم من الله وحده ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من البأساء والضراء، وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والمماليك، والأقارب، والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع وجوهها، وأتي بـ(من) المفيدة للتبعيض ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه، فيا أيها المرزوق من فضل الله، أنفق مما رزقك الله، ينفق الله عليك، ويزدك من فضله[1].

٣. بشارة المحسنين.

قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

والمحسنون المبشرون هم من عبدوا الله، كأنهم يرونه، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة عبدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم، ورؤيته إياهم، والمحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان من نفع مال، أو علم، أو جاه، أو نصح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك.

والبشارة المبشرون بها هي سعادة الدنيا والآخرة، وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][2].

٤. بشارة الخائفين من الله بالغيب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

أخبر الله في هذه الآية أن من اتصف بالقصد الحسن في طلب الحق، وخشية

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٣٨.

(٢) المصدر السابق.

الله تعالى فهو أحق بالبشارة بمغفرة ذنوبه، والأجر الكريم وهو الجنة.

٥. بشارة المؤمنين بالله واليوم الآخر والمجاهدين.

أخبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين المهاجرين والمجاهدين في سبيله بالبشرى منه بالرحمة الواسعة والرضوان الذي لا سخط بعده، ومصيرهم إلى جنات الخلد والنعيم الدائم.

قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ١٩-٢٢].

٦. بشارة المستقيمين على طريق الله.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن الذين استقاموا على شريعته، تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين لهم: لا تخافوا من الموت وما بعده، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من أمور الدنيا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

٧. بشارة المتقين:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

أي: لهؤلاء الأولياء البشارة من الله في الحياة الدنيا بما يسرهم، وفي الآخرة بالجنة، لا يخلف الله وعده ولا يغيره؛ ذلك هو الفوز العظيم؛ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب.

٨. بشارة الصابرين.

أخبر الله الصابرين بأن لهم ثناء ورحمة عظيمة منه سبحانه، وأنهم مهتدون إلى الرشاد.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ

﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ثالثًا: الكفار:

أمر الله رسوله بتبشير الذين كفروا بعذاب موجع في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء، وفي الآخرة بالنار وبئس القرار، وذكر الأسباب الموجبة لهذا العذاب:

١. التولي والإعراض عن الحق البين الواضح.

قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣].

وجعل الإنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم[(١)].

٢. شراء لهو الحديث ليضل عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

و﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب، فدخل في هذا كل كلام محرم، وكل لغو، وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة ونميمة وكذب وشتم وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الوسائل الملهية التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا، وإضلاله في هذا الحديث صده عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصراط المستقيم، ولا يتم له هذا حتى يقدح في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزوًا، ويسخر بها، وبمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق، والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده وخدعه بما يوحيه إليه، من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعرف حقيقته.

وهذا ما تمارسه الأقلام المأجورة في الصحف، ودعاة السوء في القنوات الفضائية الممولة من أعداء الله في الداخل والخارج، وأصحاب مواقع الانترنت الضالة المضلة.

٣. الاستكبار عن سماع آيات الله.

ومن أسباب البشارة بالسوء التي تؤثر في قلب الكافر بالحزن والغم وفي بدنه بالألم الموجع الاستكبار عن سماع آيات الله.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٧٠.

قيل: نزلت في أبي جهل، وقيل: في النضر بن الحارث، وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية عامة فيمن كان مضارًا لدين الله[1].

والبشارة في هذا الموضوع نوع من التهكم المهين يليق بالمتكبرين المستهزئين.

٤. الجحود بالدلائل الواضحة وما جاء به المرسلون، وقتل الأنبياء ظلمًا بغير حق، وقتل الذين يأمرون بالعدل واتباع طريق الأنبياء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

فهؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية أشد الناس جرمًا، وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد، ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم، ونصرهم، وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضًا الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبحهم الله ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين[2].

٥. أكل أموال الناس بالباطل وكنز الذهب والفضة وعدم إنفاقها في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتًا وظلمًا، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم، ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما

(١) المصدر السابق ٢٥/ ٣٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٦.

أنزل الله، فهؤلاء الأحبار والرهبان ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدهم الناس عن سبيل الله.

رابعًا: المنافقون:

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتبشير المنافقين بأقبح بشارة وأسوئها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم، وتركهم موالاة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

والعذاب الأليم هو الموجع، وذلك عذاب جهنم.

والمنافقون هم الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم في الآية التالية بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء ١٣٩].

أي: الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون، أي: بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة، قال الله تعالى منكرًا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩].

وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعًا، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين؛ وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم[(١)].

وهكذا تكشف لنا هذه الآية: «عن طبيعة المنافقين، وصفتهم الأولى، وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين، كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التي يطلبها عندهم أولئك المنافقون، وتقرر أن العزة لله وحده فهي تطلب عنده وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين! ألا إنه لسند واحد للنفس البشرية تجد عنده العزة، فإن ارتكنت إليه استعلت

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٩.

على من دونه، وألا إنها لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررها، العبودية لله، فإن لا تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى وأشخاص شتى واعتبارات شتى، ومخاوف شتى، ولم يعصمها شيء من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل اعتبار، وإنه إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق، وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال، ولمن شاء أن يختار، وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن، وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله، وإن الحمية لتكبت في أول الأمر عمدًا، ثم تهمد، ثم تخمد، ثم تموت! »[1].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٨١.

المستبشرون

أولًا: الاستبشار بالخير:

١. استبشار الشهداء بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم.

من فضائل الشهداء وكرامتهم عند الله تسليتهم الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۛ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ۚ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٤].

والمعنى: ويفرحون بمن لم يلحق بهم من إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياءٌ في الدنيا على مناهجهم، من جهاد أعداء الله

مع رسوله، لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فلحقوا بهم، صاروا من كرامة الله إلى مثل الذي صاروا هم إليه، فهم لذلك مستبشرون بهم، فرحون أنهم إذا صاروا كذلك، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا خوفٌ عليهم لأنهم قد آمنوا عقاب الله، وأيقنوا برضاه عنهم، فقد أمنوا الخوف الذي كانوا يخافونه من ذلك في الدنيا، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من أسباب الدنيا، ونكد عيشها، للراحة التي صاروا إليها والدعة والزلفة[1].

والنعيم الذي قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم النعيم والسرور، وجعلوا يبشر بعضهم بعضًا، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ويهنئ بعضهم بعضًا، بأعظم مهنأ به، وهو: نعمة ربهم وفضله وإحسانه[2].

٢. استبشار المؤمنين بفهم آيات القرآن والعمل بها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

أي: يبشر بعضهم بعضًا بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها، وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

٣. الاستبشار بنزول المطر بعد القحط.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

أي: عند نزول المطر نقطًا صغيرة يبشر الناس بعضهم بعضًا بنزوله؛ وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه، كما قال: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩].

أي: آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه، فلما نزل في تلك الحال صار له موقع عظيم عندهم، وفرح واستبشار، ولما نزل في هذه الحال على الأرض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٣٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٦.

﴿ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

٤. استبشار الموفين للبيعة مع الله بالفوز العظيم والنعيم المقيم.

أمر الله عباده المؤمنين الموفين للبيعة معه بإظهار السرور والفرح الذي يظهر أثره على بشرة الوجه، ويبشروا بعضهم البعض بما بايعوا الله عليه، وبما وعدهم به من الجنة والرضوان.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

والفوز العظيم: هو الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل؛ لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله -جل جلاله-، وإلى العوض وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها وهو النفس والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان، وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب كُتِب، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

٥. الاستبشار بالجنة.

أخبر الله أن الملائكة تقول للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها أبدًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل محبوب، ونجوا من كل شر ومرهوب، ولذلك أخبر الله عن أثر هذه البشارة على وجوههم، فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

أي: مسرورة فرحة من سرور قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم.

ومن حسن البيان قوله تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾[الحديد: ١٢].

فهو ليس إخبارًا عن أمر مستقبل، بل هو أمر كائن يوم القيامة، وأضاف البشرى إلى ضمير المخاطبين لتنال البشرى كل واحد.

ثانيًا: الاستبشار بالسوء:

١. استبشار المشركين بذكر معبوداتهم.

أخبر الله عن حال المشركين بأنهم: إذا ذكر الله وحده نفرت قلوبهم، وإذا ذكر الذين من دونه من الأصنام والأوثان والأولياء إذا هم يفرحون ويسرون؛ لكون الشرك موافقًا لأهوائهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وهذه الحال أشر الحالات وأشنعها؛ لأنها «تصف حالة نفسية تتكرر في شتى البيئات والأزمان، فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلهًا، وإلى شريعة الله وحدها قانونًا، وإلى منهج الله وحده نظامًا، حتى إذا ذكرت المناهج الأرضية والنظم الأرضية والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد، هؤلاء هم بعينهم الذين يصور الله نموذجًا منهم في هذه الآية، وهم بذاتهم في كل زمان ومكان، هم الممسوخو الفطرة، المنحرفو الطبيعة، الضالون المضلون، مهما تنوعت البيئات والأزمنة، ومهما تنوعت الأجناس والأقوام»[1].

٢. استبشار قوم لوط بضيوفه.

أخبر الله سبحانه وتعالى عن قوم لوط أنهم حين علموا بمن عنده من الضيوف، فرحوا واستبشروا بضيوفه؛ ليأخذوهم ويفعلوا بهم الفاحشة، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٦٧].

«والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة. يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية، هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر -فوق المنكر ذاته- شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه، لولا أنه وقع. فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه، ويتخفى بمرضه، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء، وهو يخجل أن يطلع عليه الناس، وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية، بل حين تكون شرعية، وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك، بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها، ويتجمهرون لتحصيلها، ويستبشرون جماعات، وهم يتلمظون عليها! إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير»[2].

وفي العصر الحاضر وفي الدول

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٥٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٤٩.

الأوروبية أخذ الشذوذ الجنسي ومخالفة الفطرة في الزواج، طريقه عبر التشريعات والقوانين، ذكرت جريدة الرياض السعودية أنه: «بعد أربع محاولات فاشلة في الثمانية أعوام الماضية، وافقت الهيئة التشريعية بولاية كاليفورنيا على مشروع قانون حقوق الشاذين جنسيًا في كاليفورنيا التي يوجد فيها أكبر جماعات الشاذين، وأكثرها نفوذًا سياسيًا، وكانت نتيجة التصويت على مشروع القانون هي (٢٢) صوتًا موافقًا، واعتراض (١٦) رغم الانتقاضات المريرة من قبل المعارضين»[(١)].

ولقد علا شأن الشذاذ حتى أصبحت لهم محطات إذاعية، ذكرت مجلة المجتمع الكويتية أن: «السلطات الفرنسية منحت الترخيص الرسمي لإذاعات يهودية، وحتى جماعات الشذوذ الجنسي منحوا ترخيصًا بإذاعة خاصة بهم، كما أصبحت لهم أصوات في الانتخابات تؤثر على نجاح الناخبين أو إسقاطهم؛ لذا نجد بعض الرؤساء يلتمسون ودهم، ويسمعون إلى مطالبهم، فقد ذكرت مجلة المجتمع أنه: في الولايات المتحدة تعتبر مدينة سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا عاصمة الشاذين وأصوات هؤلاء الشاذين تمثل ربع ناخبي المدينة تقريبًا، وتقدر نسبة اللوطيين والسحاقيات بواحد من كل عشرة أمريكيين في الولايات المتحدة، مما يجعل عدد الشاذين بين الأمريكيين حوالي ١٧ مليون رجلًا وامرأة من كافة الأصول العرقية والمهنية والغريب في الأمر أن هؤلاء الشاذين لهم مؤسسات تجارية وسياسية مختلفة، وعلى سبيل المثال لا الحصر: تبلغ أرصدة اتحاد أطلس للادخار والقروض للشاذين حوالي ٤٢ مليون دولار»[(٢)].

«وتقول الإحصائيات الحديثة أن عدد الشاذين جنسيًا في الولايات المتحدة الأمريكية يبلغون ١٧ مليون، ويقدرهم بعض الباحثين بعشرين مليونًا، وهناك معابد وكنائس خاصة في الولايات المتحدة تقوم بتزويج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء في حفلات خاصة.

وفي مدينة لوس أنجلوس فقط يتجمع ثلاثمائة ألف شاذ جنسيًا، وهذا يؤكد ما تقوله دائرة المعارف البريطانية (طبعة ٨٢) من أن أكبر تجمعات الشاذين جنسيًا هي في المدن الكبيرة مثل نيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو ولندن وباريس وأمستردام.

وأبيح الشذوذ الجنسي في بريطانيا، وصدر قانون بذلك وافق عليه مجلس العموم البريطاني بأغلبية (١٦٤) صوتًا ضد

(١) انظر: جريدة الرياض ٢٨/٥٧١٨ في ١٧ جمادى الأول ١٤٠٤هـ، ١٨ فبراير ١٩٨٤م.

(٢) أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الشذوذ الجنسي: مصطفى فوزي غزال، ص٥، ١٩.

(١٠٧) كما وافق عليه مجلس اللوردات بأغلبية (٩٤) صوتًا ضد (٤٩)»[١].

إن الحضارة التي تشيع فيها الفاحشة حضارة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار والهلاك، ومقدمات الدمار والانهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد.

(١) انظر: ضريبة الخروج على الفطرة: محمد السقا عيد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص٤٢.

آثار البشرى

أولًا: آثار البشرى في الدنيا:

للبشرى آثار عظيمة في نفوس المبشرين منها:

١. حب المبشر لمن يبشره واستئناسه به.
٢. محبة الله عز وجل والسعي في مرضاته؛ لحبه لتبشير المؤمنين لما فيه مسرتهم.
٣. حصول الفرج بعد الشدة.
٤. انشراح الصدر، وسعادة القلب.
٥. استقرار النفس، وراحة البال.
٦. الطمأنينة، وسكون النفس، ورفع الروح المعنوية.
٧. نشاط المؤمنين وشوقهم لما أعد الله عز وجل لهم من كريم فضله.
٨. المبادرة في امتثال الأحكام الشرعية.
٩. ثبات الأقدام ويقين القلب في مواضع النزال مع العدو.
١٠. الشوق للجهاد في سبيل الله عز وجل رغبة لما أعد الله عز وجل للشهداء في سبيله.
١١. اليقين بنصر الله عز وجل للمؤمنين المجاهدين في سبيله.

ثانيًا: آثار البشرى في الآخرة:

للبشرى آثار في الآخرة تظهر على وجوه المبشرين منها:

١. بياض الوجوه أو اسوادها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. أي: تبيض وجوه أهل السعادة الذين آمنوا بالله ورسوله، وامتثلوا أمره، وتسود وجوه أهل الشقاوة ممن كذبوا رسوله، وعصوا أمره.

٢. لا يغشى وجوه المؤمنين غبار ولا ذلة، كما يلحق أهل النار.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]. أي: للمؤمنين الذين أحسنوا عبادة الله فأطاعوه فيما أمر ونهى، الجنة، وزيادة عليها، وهي النظر إلى وجه الله تعالى في الجنة، والمغفرة والرضوان، ولا يغشى وجوههم غبار ولا ذلة، كما يلحق أهل النار.

٣. نضارة وجوه السعداء، وعبوس وجوه الأشقياء.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]. أي: وجوه أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة ناعمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤].

ووجوه الأشقياء يوم القيامة عابسة كالحة.

٤. استنارة وجوه أهل النعيم واسوداد وجوه أهل الجحيم.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨]. أي: وجوه أهل النعيم في ذلك اليوم مستنيرة.

وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠﴾ [عبس: ٤٠]. أي: ووجوه أهل الجحيم مظلمة مسودة.

٥. ظهور أثر النعمة على وجوه أهل السعادة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ [الغاشية: ٨]. وظهور الذلة على وجوه أهل الشقاوة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢].

٦. ثبات الأقدام والقلوب، ورسوخهما في أهوال القيامة.

٧. يؤمن الله عز وجل خوف المؤمن، ويقر عينه فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين.

٨. التأنيس من وحشة القبور، وعند النفخة في الصور، والتأمين من عذاب الله عز وجل يوم البعث والنشور، وتجاوز الصراط المستقيم، والتمتع والتلذذ من جميع مما تشتهيه النفوس، وتقر به

العيون في جنات النعيم.

٩. كرم الضيافة والعطاء والإنعام من غفران للذنوب والرحمة بالعباد.

١٠. النجاة من العذاب الأليم.

موضوعات ذات صلة:

الإنذار، الترغيب، الترهيب، الدعوة

البصر

عناصر الموضوع

مفهوم البصر	١٧٢
البصر في الاستعمال القرآني	١٧٣
الألفاظ ذات الصلة	١٧٤
فوائد بلاغية متعلقة بالبصر	١٧٦
البصر من صفات الله تعالى	١٧٧
البصر نعمة إلهية	١٨٠
أنواع البصر	١٨٢
مسئولية البصر وصيانته	١٨٥
إدراك البصر	١٨٨
آفات تصيب البصر وأسبابها	١٩٦
دلالة البصر على الحالة النفسية	٢٠٠
لمسات إعجازية في البصر	٢٠٤

مفهوم البصر

أولًا: المعنى اللغوي:

البصر من الجذر(ب ص ر) ويعني العين، أو حاسة الرؤية، والجمع أبصار.

يقال: أبصرت الشيء رأيته، والبصير خلف الضرير، والبصر العلم، وبصرت بالشيء: علمته وهو نفاذ في القلب.

ويقال: بَصُرَ بَصَرًا وبَصَارَةً، واستبصر في أمره ودينه إذا كان ذا بصيرةٍ.

والبصيرة اسمٌ لما اعتقد في القلب من الدين، وحقيق الأمر، وهي العلم والخبرة، أو هي البرهان.

والتبصر: التأمل والتعرف، والتبصير: التعريف والإيضاح، والبصير هو العالم[1]،.

صوأصل كل المعاني وضوح الشيء[2].

ومما سبق يتضح أن البصر ورد بمعنى العين وحاسة الرؤية، والعلم، والنور، ويشترك في كل المعاني الوضوح والإدراك.

ثانيًا: البصر اصطلاحًا:

عرفه بعض العلماء «أنها القوة المودعة في العصبتين المجوفتين اللتين تتلاقيان ثم تفترقان، فيتأديان إلى العين تدرك بها الأضواء والألوان والأشكال»[3]، والبصيرة هي قوة في القلب تدرك بها المعقولات، بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها، وهي التي يسميها الحكماء العاقلة النظرية، والقوة القدسية[4].

وقد نخلص إلى أن البصر هو تلك القوة الربانية التي أوجدها الله في عيني الإنسان ليدرك بها ما حوله، وأودعها في قلبه وعقله ليميز بين الخبيث والطيب، ويختار لنفسه الطريق الصحيح.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٧/ ١١٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥٩، الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٩١، مختار الصحاح، الرازي ١/ ٣٥.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٥٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٥٠ .

(٣) التعريفات، الجرجاني ١/ ٤٦.

(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ٤٦، الكليات، الكفوي ١/ ٢٤٧، التوقيف، المناوي ١/ ٧٩.

البصر في الاستعمال القرآني

ووردت مادة (بصر) في القرآن الكريم (١٤٨) مرة [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٠٤]
الفعل المضارع	٢٥	﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود:٢٠]
فعل الأمر	٤	﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الصافات:١٧٥]
المصدر	١	﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق:٨]
اسم الفاعل	٨	﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل:١٣]
الصفة المشبهة	٥١	﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت:٤٠]
اسم	٥٥	﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦]

وجاء البصر في القرآن على ثلاثة وجوه [(٢)]:

الأول: بصر العين: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦].

الثاني: بصر القلب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف:١٩٨]. يعني: بقلوبهم.

الثالث: بصر الحجة والبرهان: ومنه قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه:١٢٥]. يعني: بصيرًا بالحجة.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٢٣، ١٢١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الباء ص ٣٢٢، ٣٢٠.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٢٦، ١٢٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص١٩٩-٢٠٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٢٢٣-٢٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ النظر:

النظر لغة:

تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته[١]، قال ابن فارس: «(نظر) النون والظاء والراء أصل صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد، وهو تأمل الشيء ومعاينته»[٢].

والنظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام، وما كان بالبصائر كان للمعاني[٣].

النظر اصطلاحًا:

«تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الروية»[٤].

الصلة بين النظر والبصر:

يوجد تقارب كبير في المفردتين، فهما يشتركان في معنى الرؤية العينية، والعلم، وكذلك يشتركان في مفهوم الانتظار.

٢ الرؤية:

الرؤية لغة:

وتعني إدراك المرئي والإقبال بالبصر نحوه، قد يدرك وقد لا يدرك؛ ولذلك قد ينظر الشخص ولا يرى المرئي، وعليه فيجوز أن يقال لله تعالى: إنه راءٍ، ويقال: إنه ناظر.

الرؤية اصطلاحًا:

هو «المشاهدة بالبصر حيث كان في الدنيا والآخرة»[٥].

الصلة بين الرؤية والبصر:

المفردتان متقاربتان؛ لأنهما تشتركان في معنيي العلم والمشاهدة بجارحة النظر.

---

(١) المفردات، الراغب ص٨١٢.
(٢) مقاييس اللغة ٥/ ٤٤٤.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات ابن الأثير ٥/ ٧٧.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢ / ٤٣٨.
(٥) التعريفات، الجرجاني ١/ ١٠٩.

٣ العمى:

العمى لغة:

«هو ذهاب البصر»[١].

العمى اصطلاحًا:

هو «ضد البصر والبصيرة»[٢].

الصلة بين العمى والبصر:

المفردتان متضادتان، فالبصر هو الرؤية والعلم والنور، أما العمى فهو عكسه.

(١) العين، الفراهيدي ٢/ ٢٦٦.
(٢) التوقيف، المناوي ١/ ٢٤٧.

فوائد بلاغية متعلقة بالبصر

أولًا: تقديم السمع على البصر في مواضع:

تقدم السمع على البصر في العديد من المواضع القرآنية، كقوله عز وجل: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٧].

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

قال ابن عجيبة: «قدم في جميع القرآن نعمة السمع على البصر لأنه أنفع للقلب من البصر، وأشد تأثيرًا فيه، وأعم نفعًا منه في الدين، إذ لو كانت الناس كلهم صمًا، ثم بعثت الرسل، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يدركون آداب العبودية وأحكام الشرائع؟ إذ الإشارة تتعذر في كثير من الأحكام»[(١)].

وقد ذكر الشعراوي ما رآها أسبابًا لتقديم السمع على البصر في القرآن الكريم، وهي:

- كون السمع هو أول حاسة تعمل في جسم الإنسان، فهو يسمع بمجرد ولادته بخلاف البصر.
- يقظة السمع في كل الأوقات، فالبصر ينام في الليل، والأذن لا تنام، وهي الوسيلة التي تتنبه للأصوات فيستيقظ صاحبها بسببها، وقد امتن الله تعالى على أصحاب الكهف فأنام أسماعهم حتى لا تزعجهم الأصوات، ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[الكهف: ١١][(٢)].

وقد نبه بعض المتكلمين في فضل السمع على البصر على أن البصر يعتمد على الضوء، ولا رؤية في الظلام، بينما السمع يعمل دون الحاجة إلى شيء، ثم بينوا أن من العلماء من فضل البصر على السمع، وقد استندوا إلى أن أفضل النعيم النظر إلى الرب تعالى وهو يكون بالبصر، والذي يراه البصر لا يقبل الغلط، بخلاف ما يسمع، فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم، فمدرك البصر أتم وأكمل، وقالوا: إن محله أحسن وأكمل وأعظم عجائب من محل السمع، وبهذا يظهر شرف البصر وفضله[(٣)].

قال ابن تيمية: «والتحقيق: أن السمع أوسع والبصر أخص وأرفع، وإن كان إدراك السمع أكثر، فإدراك البصر أكمل»[(٤)].

(١) البحر المديد ٣/ ١٥٢.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٣/ ٨١١٥.

(٣) انظر: مقال إلكتروني: الإعجاز العلمي في تقديم السمع على البصر، عادل الصعدي، بتاريخ: ٢/ ١/ ٢٠١٣: www. jameataleman. org

(٤) مجموع الفتاوى ١٦/ ٦٩.

ثانيًا: إفراد السمع، وجمع البصر:

أما إفراد السمع وجمع البصر في كثير من الآيات فله حكمة بينها بعض العلماء، قال ابن عجيبه: «وإنما أفرده (يعني السمع)، وجمع الأبصار والأفئدة لأن متعلق السمع جنس واحد، وهي الأصوات، بخلاف متعلق البصر، فإنه يتعلق بالأجرام والألوان، والأنوار والظلمات، وسائر المحسوسات، وكذلك متعلق القلوب معاني ومحسوسات، فكانت دائرة متعلقهما أوسع مع متعلق السمع»[1].

وقد بين الشعراوي أن السبب في إفراد السمع وجمع البصر كون الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات، كما أن للعين غطاءً يسدل عليها ويمنع عنها المرئيات، فالسمع واحد لي ولك وللجميع، الكل يسمع صوتًا واحدًا، أما المرئيات فمتعددة، فما تراه أنت قد لا أراه أنا، وقد وردت بعض الاستثناءات في ذلك، فقد جاء البصر مفردًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[الإسراء: ٣٦].

لأن الآية تتكلم عن المسئولية، والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى، فلابد أن يكون واحدًا[2].

البصر من صفات الله تعالى

أثبت الله تعالى لنفسه البصر، وأوجب علينا الإيمان ببصره وبجميع صفاته عز وجل كالسمع والخبرة وغير ذلك، كما غلب في القرآن اقتران اسم الله البصير بالسميع والخبير خاصةً، وسيأتي بيان ذلك فيما يلي:

أولًا: صفة البصر في حق الله تعالى:

تقررت صفة البصر لله تعالى فيما يقارب المائة آية، حيث ختمت كثير من الآيات بفاصلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ١١٠].

وفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[آل عمران: ١٥٦].

وفاصلة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقد أكد المولى عز وجل تفرده بالصفات العلا، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال الإمام أبو حنيفة: «لا يشبه شيئًا من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه»[3].

ثم قال بعد ذلك: «وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا»[4].

(١) البحر المديد ٣/ ١٥٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٩/ ١١٨٠٨.
(٣) الفقه الأكبر ١/ ٢٤.
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٤.

والذي يتوجب علينا نحن المسلمين هو الإقرار بما ورد، والإيمان بما صح من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا إلحاد ولا تعطيل، بل نذعن ونسلم بذلك، مع إيمان ويقين، ونثبته إثبات وجود بلا تكييف ولا تمثيل، ومن ذلك صفة العين لله تعالى ، فقد أثبتها في قوله عز وجل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

وقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور: ٤٨].

وغيرها من المواضع[(١)].

وفي الآيات الكريمة يثبت الله سبحانه لنفسه عينًا يرى بها جميع خلقه مهما بعدوا أو لطفوا، فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

والرؤية بالعين صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، فلا يقتضي إثباتها كونها جارحة مركبة من شحم وعصب وغيرهما، فهي غير جسم ولا جوهر ولا عرض، فلا يعرف لها ماهية ولا كيفية، وقد فسر المعطلة تلك العين بأنها كناية عن الحفظ والرعاية الربانية، وهذا نفي صريح وتعطيل لصفة من صفات كمال الله عز وجل التي لا ينبغي في حقها إلا التصديق والتسليم[(٢)].

وقد عاب الله تعالى على المشركين عبادتهم لما لا يسمع ولا يبصر، فقد قال عز وجل على لسان نبيه إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

أقول: إن لم يكن في إثبات صفة السمع والبصر لله عز وجل غير ما قاله نبي الله إبراهيم في هذه الآية لكفتنا.

قال السعدي: «(البصير) الذي يبصر كل شيء، وإن رق وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ويبصر ما تحت الأرضين وما فوق السماوات السبع، وأيضًا بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته»[(٣)].

وقال ابن القيم: «البصير الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة، وأعضائها، ولحمها، ودمها، ومخها، وعروقها، ويرى دبيبها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء»[(٤)].

ثانيًا: حكمة اقتران اسم الله البصير بالسميع والخبير في القرآن:

ذكر ابن القيم: «أن لاقتران صفات الله في الآيات قدرًا زائدًا على مفرديهما، فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده،

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية، السفاريني ١/ ٢٣٩.

(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص٩٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٩٤٦.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ١٢٧.

وكمال من اقتران أحدهما بالآخر»[1].

ولعل في ذكر السميع والبصير في كثير من الفواصل القرآنية دلالة تأكيدية على علم الله الذي يشمل كل شيء، المسموعات والمرئيات ودواخل النفوس.

تأمل قول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ١٣٤].

ففي الآية تشجيع على العمل لاستحقاق ثواب الدنيا والآخرة، ولو أفرد الله تعالى السمع مثلًا لدخل في النفس أن الأعمال التي تجعله أهلًا للثواب هي المسموعة فقط، كالذكر والدعاء.. الخ، أما مع اقتران البصر مع السمع تأكد لنا أن الله تعالى يحكم بناءً على كل أعمالنا، ما يسمع منها وما يبصر، فلا يخفى عليه مثقال ذرة، وهو العليم بكل أفعالنا، وفي اقترانهما تكامل يقرر الإحاطة الشاملة والقدرة المطلقة له عز وجل على مراقبة أعمال العباد.

وقد اقترن ذكر البصر مع اسم الله الخبير في بعض الآيات، كقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣].

ولا يخفى تجانس إدراك الأبصار، واطلاعه عليها، وعلى ما تطلع عليه مع الخبرة التي تفيد بإحاطته علمًا بكل معلوم[2].

والخبير كما وضح ابن القيم: «هو الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها، ولعل من الإبداع اقتران الأبصار التي تدرك الظواهر باسم الله الخبير الذي يدرك البواطن»[3].

(١) مدارج السالكين ١/ ٥٨.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ١٥٠.

(٣) الصواعق المرسلة ٢/ ٤٩٢.

البصر نعمة إلهية

نعم الله تعالى عظيمة، من أهمها نعمة البصر، ومن كمال الشكر الاعتناء بهذه الحاسة، واستعمالها فيما يرضي خالقها، وسنتحدث عن هذه الأمور في السطور الآتية:

أولًا: نعمة الإيجاد:

أوجد الله تعالى لنا نعمة من أجل وأعظم النعم، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

وقد ذكر الله عباده بهذه النعمة العظيمة في عدة مواضع، منها قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[الملك: ٢٣].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[السجدة: ٩].

فقد خلق الله تعالى أداة الإبصار في دقة متناهية، وجعلها مكونة من طبقات ثلاث، الأولى للحماية الخارجية، والثانية هي المشيمية التي تغذي شبكية العين وتمدها بالأوكسجين، والثالثة هي الشبكية، وهي الطبقة التي تحتوي على المستقبلات الضوئية والمسئولة عن البصر، حيث إنها تستقبل الضوء الواقع عليها وتحوله لإشارات كهربائية تنتقل عن طريق الألياف العصبية البصرية، كما تحتوي العين على جسم هلامي كروي شفاف يحافظ على رطوبتها، وكذلك على القرنية والقزحية التي تعطي العين لونها الجميل ويتوسطها البؤبؤ، وفيها نظام دمعي يضمن سلامة العين، وفيها مجموعة من العضلات التي تتحكم بحركة العين للأعلى والأسفل، واليمين والشمال، وتتبادل أدوارها ببالغ الدقة والروعة والتكامل ودون أدنى جهد من البشر، كيف لا تكون كذلك وهي هبة الخالق القادر العظيم تبارك وتعالى وتنزه عن كل نقص[1].

قال عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[الأنعام: ٤٦].

ثانيًا: شكر نعمة البصر:

يعتبر شكر النعم سجيةً من سجايا المحمودين؛ ذلك لأن الكثير من الناس يرفلون بآلاء الله التي لا تعد ولا تحصى، إلا

(١) انظر: مقال إلكتروني: تشريح العين، خليل رضا اليوسفي، بدون تاريخ.:
www. gulfkids. com

أنهم كثيرو الغفلة عنها، ولا يستشعرونها إلا إذا افتقدوها، وهنا يتضح البون ويظهر فضل الشاكرين على الجاحدين، وقد أمر الله عز وجل عباده أن يتأدبوا بأدب الشكر، يقول تبارك وتعالى مخاطبًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم ومن بعده أمته: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الزمر: ٦٦].

وقد حبب الله تعالى إلى عباده أدب الشكر، بأن جعله سببًا لزيادة النعم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم: ٧].

يقول السعدي في تفسيره: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ «أي على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقرارًا بالنعم واعترافًا، وباللسان ذكرًا وثناءً، وبالجوارح طاعةً لله وانقيادًا لأمره واجتنابًا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة»[(١)].

وقد امتن المولى عز وجل علينا بنعمة البصر التي لا تقدر بثمن، ولا تقاس بمقياس، فمن خلالها ينتقل المجهول إلى حيز المعلوم، وبها يدرك الإنسان ما حوله، فيميز الجميل من القبيح ويتتبع سلوك البشر، فيعي ببصره الفرق بين الحق والباطل، ولعل من أهم طرق شكر هذه النعمة العظيمة هو استخدامها فيما يرضي الله عز وجل، ومن هذا:

- التدبر في الكون ومخلوقاته.
- تأمل كتاب الله تعالى والاستبصار به.
- الإحسان إلى الناس بالنظرة العطوفة مع حسن الإصغاء.
- تجنب النظر إلى ما حرم الله تعالى من صور أو أفلام، وغض البصر عما لا يحل.

وقد وصف الله المكذبين بأنهم قليلو الشكر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

فمن وفقه الله وسدده كان شاكرًا لأنعم الله عليه، عاملًا بهذا الشكر، ومن حرمه الله ذلك فقد خذل وخسر خسرانًا مبينًا[(٢)].

يقول القشيري: «وشكرهم عليها استعمالها في طاعته، فشكر السمع ألا تسمع إلا بالله ولله، وشكر البصر ألا تنظر إلا بالله ولله»[(٣)].

المعنى أن يكون السمع والبصر بحق الله، ومراعاة حرماته، وهدفه إرضاء الله ونيل مجازاته.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٥٧.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ١٢١.

(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٥٨٣.

أنواع البصر

بعد جمع آيات البصر بجميع مشتقاتها، وجد أن البصر ورد في القرآن الكريم بمعنيين هما:

أولًا: بصر حقيقي:

ورد البصر في القرآن الكريم بالمعنى الحقيقي، أي بمعنى النظر بالعين في آيات كثيرة، منها قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١٢].

وتأتي الآية في سياق قصة سيدنا موسى عليه السلام حينما ألقته أمه في اليم؛ طاعة لله تعالى ، فتلقاه فرعون ورباه في كنفه، فتصف الآية شعور الأم الرءوم التي من رحمتها بابنها طلبت من ابنتها أن تتبع أثر موسى عليه السلام ، فكانت الأخت تتبع أخاها بالنظرات المتوارية كي لا يحسوا بها أو يعلموا أنها أخته، فتتحسس أخباره وتنقلها لأمها حتى تحقق وعد الله للأم، بأن رفض موسى عليه السلام كل المراضع، حتى جاءته أمه فأقبل عليها وعاد إلى أحضانها[(١)].

وقد ذكر الواحدي: «أن أخت موسى أبصرت أخاها بصرًا حقيقيًا لا واهمًا، وقد تابعته تراقبه بعينيها فعرفت إلى من ذهب وماذا حل به»[(٢)].

ولا يخفى أن ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ التي ختمت بها الآية مؤكدة أن البصر المقصود في الآية هو الحاسة البشرية التي محلها العين، فهي التي تدرك بالشعور الإنساني.

وقد ذكر البصر بمعناه الحقيقي في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

فقد ضرب المولى عز وجل مثلًا حتى يوضح الفرق بين المؤمن والكافر، فجاء الاستفهام الإنكاري: هل يتساوى الأعمى الذي لا يرى والبصير الذي يرى بعينه كل شيء؟ وهل الظلمة الحالكة كالضياء الذي يمكن الإنسان من رؤية الأشياء؟

ونعلم أن المثل القرآني يقوم بتشبيه الخفي بالجلي المعلوم لدى البشر حتى يرغب أو يرهب، والجلي لدينا هو الحاسة الناظرة، فقد شبه الكافر الذي ارتكب الكفر بالأعمى الذي فقد بصره فتاه واحتار، وشبه المؤمن الذي تلبس بالإيمان بالبصير الذي يميز الأشياء وخصائصها، ويتلذذ بنعم الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٣١-٥٣٣.

(٢) التفسير الوسيط ٣/ ٣٩٢.

حوله[1].

وكذلك ورد المعنى الحقيقي للبصر في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

فالبصير في الآية هي صفة من صفات الله عز وجل التي أثبتها لنفسه، فنؤمن بها دون تحريف أو تكييف أو تمثيل، ونقر أن لله تعالى بصرًا لا كبصرنا، وسمعًا لا كسمعنا، تعالى وتنزه عن كل نقص[2]، فهو الذي يرى عباده ويطلع على أحوالهم، وما يحتاجون فيمدهم بالرزق والعون[3].

ثانيًا: بصر معنوي:

جاء البصر ومشتقاته بمفهوم آخر غير الحاسة المتعلقة بالعين الباصرة، فقد وردت البصيرة في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨].

وكان المقصود بالبصيرة الحجة الواضحة، التي يستدل على قدرة الله وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته من خلالها، والتي تعتمد على الآيات الكونية الكثيرة، وعلى الأدلة النظرية والعقلية[4].

وقد ذكر أن معنى ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ هنا أي على «علم ويقين، من غير شك، ولا امتراء، ولا مرية»[5].

وكذلك أتى البصر المعنوي في قوله جل وعلا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ٢٣].

حيث ضل من جعل مع الله إلهًا من الهوى، فأطاعه حتى ختم على حواسه فهو لا يتعظ، وقد جعل على بصره الإدراكي غشاوة مانعةً عن الاستبصار والاعتبار، وعن فهم الآيات وسماع الحق[6].

وقد ورد البصر المعنوي في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[آل عمران: ١٣].

والآية تصف ما حصل يوم بدر، فقد رأى الكفار - على كثرتهم- المسلمين

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٤٨٨.
(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية،السفاريني ١/ ٢٣٩.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٥٥.
(٤) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٥٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٤٠٦.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٩٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٧٣.

القليلين ضعفيهم، أو على المعنى الثاني وهو أن المسلمين رأوا الكفار مثليهم، وهم في الحقيقة كانوا ثلاثة أمثالهم، والعبرة في أيٍ من المعنيين هي نزول تأييد الله ونصره لعباده المؤمنين المتقين، ولا يدرك هذه العبرة إلا أولي ﴿ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي العقول المدركة التي تتدبر سنن الله في خلقه[1].

وجاءت البصائر بمعنى البرهان أو القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٣].

قال ابن أبي زمنين عن البصائر: هي «القرآن»[2]، أي أن معنى الآية: قل لهم يا محمد على سبيل التبكيت ردًا على تهكمهم بك: إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي فأنا متبع لا مبتدع، فأنا أبلغكم الوحي دون تغيير أو تبديل[3].

وفي الاستخدام المعنوي تشبيه بليغ، فقد شبه الدلالات على صدق النبوة وبرهان القرآن الكريم المعجز بالبصائر، حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه.

والمعنى: هذا القرآن بمنزلة بصائر القلوب التي تجعلها تدرك وتقر[4]ز

والبصائر التي أمدنا بها كتاب الله تعالى بها يبصر الإنسان الحق، ويدرك الصواب، وهي الحجج البينة، والبراهين النيرة على وحدانية الخالق، وعلى كماله وجلاله -عز وعلا-[5].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٧٢.
(٢) تفسير القرآن العزيز ٢/ ١٦٣.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٥/ ٤٦١.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٢٢٤.
(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٤٤.

مسئولية البصر وصيانته

كما تكرم الله تعالى علينا بالبصر، أوجب علينا صيانته وحفظه، والتقصير في ذلك نكران للنعمة، لذا نحن مسئولون عنه ملزمون بتهذيبه ومنعه من الوقوع فيما حرم الله، فهو شاهد علينا يوم القيامة، ولبيان ذلك نفصل الحديث كما يلي:

أولًا: مسئولية البصر:

البصر نعمة وأمانة، وفي التقصير بهذه النعمة العظيمة جحود ونكران، ولعلنا مسئولون عن توجيه البصر بنوعيه للخير، فعلينا أن نقوي بصيرتنا ونغذيها بالعلم والإيمان، كما علينا الاهتمام ببصرنا من خلال حفظ العين من الإصابة بمكروه، فلا يعرضها الإنسان إلى الأخطار ولا يهملها إذا ما تعرضت للأسقام، بل يعتني بها كل العناية، وعليه حفظها من النظر إلى ما حرم الله تعالى ، فلا يتلفها بالتلصص على الآخرين، أو باستراق النظر إلى النساء الأجنبيات، فهذا باب الزنا ومدخله الأساس؛ فلا يتصور أن يتجرأ الإنسان على انتهاك الحرمات والسقوط في الرذائل وهو غاضٌ لبصره، إذ لابد للشيطان من مدخل يدمر به الأخلاق ويزين من خلاله الفاحشة، وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)[1].

قال ابن عاشور: «ولم يذكر الرجال لأن ميل النساء إلى الرجال أضعف في الطبع، وإنما تحصل المحبة منهن للرجال بالإلف والإحسان»[2].

لكنهن مأمورات أيضًا بغض البصر عمن لا يحل لهن: قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

فالأمر بالغض عام للجنسين؛ لأن السماح للعين برؤية الحرام يجعلها تعتاد وتدمن على ذلك، وهذا الأمر يورث خللًا في السلوك وضعفًا في الإيمان، وقد يسبب لصاحبه مشاكل اجتماعية ونفسية جمة، فالحرام يجر حرامًا، والنظر الحرام لا يأتي بخير.

ثانيًا: صيانة البصر:

على المسلم صيانة بصره وتربيته على عدم النظر إلى الحرام، ومن الأمور التي تساعد على ذلك:

- الإخلاص في الرغبة في غض البصر، والعزم الداخلي على ذلك.
- مراقبة الله تعالى واستحضار وجوده

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة ٧/ ٨ رقم ٥٠٩٦.
(٢) التحرير والتنوير ٣/ ١٨١.

دومًا، فهذا مانع قوي للذنوب.

- الاستعانة بالدعاء، فمن دعا الله مخلصًا واثقًا في الاستجابة أكرمه الله في الدنيا والآخرة، قال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

- تكثيف الطاعات وإشغال النفس بالنافع من الأفعال؛ سدًا لأبواب الشيطان ومداخله، ومن هذه الطاعات الوضوء، فقد ورد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا توضأ العبد المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء -أو مع آخر قطر الماء-، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء -أو مع آخر قطر الماء-، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء -أو مع آخر قطر الماء- حتى يخرج نقيا من الذنوب)[1].

- تجنب الاستسلام لوسائل الإعلام الفاسدة، فقد كثر هذه الأيام المحتوى السيء على المواقع الإلكترونية من صور ومقاطع، وكذلك محطات التلفاز المتزايدة التي تبث سمومها في أبناء هذا الجيل، فالسمة الغالبة على القنوات الفضائية هي الفجور والعري، ولا تخلو الأفلام والمسلسلات التي تبث ليلًا ونهارًا من الأفكار الهدامة والمناظر التي توقد شهوة الشباب، وتحرفهم عن الطريق القويم.

والرسالة الموجهة إلى الآباء والأمهات هي أن يتقوا الله في أبنائهم، فقد جعلوا أمانة عندهم، فليراقبوهم جيدًا، وليحرصوا أن يوجهوهم إلى ما فيه النفع للأمة، فالنفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، والشاب يملك القوة والوقت اللذين يمكنانه من الإبداع والابتكار إن لم تترك طاقاته فريسة للشهوات والنزوات.

وعلى رجال الإعلام تقوى الله فيما يبثون من أفكار، فعقول الشباب أمانة، وعليهم استغلالها وتوجيهها إلى ما فيه خير الأمة.

أما ولاة الأمر فعليهم أكبر المسئوليات؛ لأنهم يملكون الميزانيات التي يمكن أن تنفق في إصلاح الإعلام ورقابته، وزيادة وعي الناس بالتثقيف ونشر الدعاة، بدلًا من إتلافها فيما لا تستفيد منه الأمة لا من قريب ولا من بعيد.

ثالثًا: شهادة البصر:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء ١/ ٢١٥ رقم ٢٤٤.

قرر القرآن الكريم أن أعضاء الجسم تشهد يوم القيامة على صاحبها، فتنطق بما فعلت في الدنيا، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[القيامة: ١٤].

وقد ذكر الطبري في تفسيره للآية: «أن جوارح الإنسان كلها من سمع وبصر وأيدي وأرجل، وكل الأركان تشهد بما فعل من خير وشر»[(١)]، ولا حاجة لله تعالى بهذه الشهادة لأنه عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩].

لكنه عز وجل يجعل من شهادة الجوارح أمام صاحبها حجة له أو عليه، وفي الحديث الشريف عن أنس بن مالك، قال: (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: هل تدرون مم أضحك؟ قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال فيقول: بعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت أناضل)[(٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦].

والمعنى: أن حواس الإنسان تسأل، يسأل السمع على حدة عما سمع، ويسأل البصر على حدة عما بصر، ويسأل القلب عما عزم[(٣)].

فالمسئولية ثابتة في حق جميع الأركان، وفي حق البصر والبصيرة على حد سواء.

(١) جامع البيان ٢٤/ ٦٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٨٠ رقم ٢٩٦٩.
(٣) انظر: تفسير يحيى بن سلام، ١/ ١٣٥.

إدراك البصر

من كمال حكمة الله تعالى أن جعل العين البشرية تدرك بعض الأمور؛ لغاية الاهتداء والعبادة، وتعجز عن إدراك أمور أخرى استأثر الله تعالى بها في علم الغيب عنده، نبين المدركات وغير المدركات كما يلي:

أولًا: ما يدركه البصر:

١. الآيات في الآفاق.

من حكمة الله جل وعلا أن تدرك العين البشرية جزءًا من قدرات الله المطلقة في آيات الكون؛ حتى تذعن وتستسلم للخالق العظيم الذي ليس له ندٌّ، فهي تبصر خلق السماء بلا عمد، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[الرعد: ٢].

فالسماء أعجوبة بتوازنها ومكوناتها، وقد ذكر بعض المفسرين: «أنها مرفوعة بأعمدة ربانية لا يراها الإنسان، لكن العين وإن لم تدرك العمد فإنها تدرك الأعظم، وهي السماء المحكمة البديعة التي تحمل الخير والغيث، وتتألق فيها النجوم والكواكب»[(١)].

وحفظ السماء هو بحد ذاته آية من الآيات العظيمة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

فلم يكن فيها -على كبر مساحتها- صدوع أو فتوق[(٢)]، وفي الآية: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحج: ٦٥].

قال ابن كثير: «فالله هو الذي يمسكها بقدرته وفضله، وكونها كذلك هو الأكمل في القدرة»[(٣)].

ومما تدركه العين أيضًا نزول الغيث من السماء الذي تتجلى فيه قدرة الله تعالى العظيمة، حيث يمر الماء بمراحل التبخر من المسطحات المائية بفعل الحرارة، ثم التكثف بفعل البرودة والنزول على هيئة ماء صافٍ عذب يشربه الناس ويسقي الزرع؛ فيخرج الثمر بإذنه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

ومن آياته التي تتجلى في السماء تسخير الشمس والقمر، يقول عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[إبراهيم: ٣٣].

أي: خلقهما دائرين لإدارة الزمان وتجديد الأيام، وعدد الشهور والأعوام،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٩، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٢٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٠٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٩.

وتنظيم الهواء على الوجه الملائم لمصالح البشر ومعايشهم، كل هذا بنظام بالغ الدقة والحكمة[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[الحجر: ١٦].

وقد فسرت البروج في الآية بالنجوم، تشبيهًا لها بحصون الأرض وقصورها؛ لأن النجوم هياكل فخمة عظيمة، وقد زينت السماء بتلك النجوم المختلفة الأشكال والأضواء المرئية للناظرين إلى حركاتها وأضوائها، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدها ووحدانيته[2].

وفي الآية الكريمة: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤].

يقول سيد قطب: «وهذه الطريقة في تنبيه الحواس والمشاعر جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون، العجائب التي تفقدنا الألفة جدتها وغرابتها وإيحاءاتها للقلب والحس، وهي دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذي يراه أول مرة مفتوح العين، متوفز الحس، حي القلب، وكم في هذه المشاهد المكررة من عجيب وكم فيها من غريب، وكم اختلجت العيون والقلوب وهي تطلع عليها أول مرة، ثم ألفتها ففقدت هزة المفاجأة، ودهشة المباغتة، وروعة النظرة الأولى إلى هذا المهرجان العجيب»[3].

ومن فضل الله علينا أنه يذكرنا دومًا بضرورة التأمل في آياته الكثيرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل: ٧٩].

فمن يقدر على تسخير هذا الطير الذي نراه في الجو؟ إنه الخالق العظيم! ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾[الحج: ٦٥].

فقد أنعم علينا بالأرض وما فيها وعليها، وبالفلك التي تسير في البحر لتنقلنا من مكان إلى آخر، وقد أنعم علينا كذلك بمطعومات البحر وحليته، وكانت هذه النعم المسخرة للإنسان عبرة لمن له عين تبصر وقلب يدرك.

قال عز وجل: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[النحل: ١٣].

وقال أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ١٥٩.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٣٢.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٥٢.

حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل: ١٤].

وقد نبه الله تعالى على نعمه الوفيرة، مثل تثبيت الأرض، ووجود الأنهار والبحار، والدواب التي نتخذ منها طعامنا ووسيلة نقلنا وملبسنا، والبيوت التي تقي الإنسان البرد والحر، وكل ما خلق.

يقول رب العزة: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٥-١٨].

ويقول أيضًا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[النحل: ٨٠-٨١].

٢. الآيات في الأنفس.

أجل النعم التي أنعمها الله تعالى علينا هي خلقنا، فقد أبدع تعالى في تكوين الإنسان، ابتداءً بإخراجنا من ذلك الماء المهين.

قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[يونس: ٣١].

والمعنى إخراج الناس الأحياء من النطف، والنطف من الأحياء، وكذلك الأنعام والنبات الذي يخرج من البذور اليابسة[(١)].

ثم تطور مراحل الخلق مرورًا بمرحلة النطفة والعلقة والمضغة ثم خلق العظم واللحم واكتمال جميع الحواس.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وكذلك تفضل الله تعالى علينا بإبداع الخلق في أجسامنا، والمطلع بقليل من التفكر في خلق الإنسان يدرك أن هذا التكامل بين أجهزة جسم الإنسان، وتوافق عملها بهذه الآلية لابد وأنه من صنع خبير قدير، وليتأمل جهازه البصري.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٢٥٥.

﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان: ٢].

ذلك الجهاز فائق الدقة الذي ينقل له كل ما يدور حوله بكل التفاصيل الشكلية واللونية، ثم لينظر إلى طريقة عمل جهازه السمعي، وكيف تنتقل الذبذبات الصوتية في أجزاء الأذن بكل سلاسة، وليتخيل كيف يمكن أن يكون حاله لو خلق بلا سمع، ولو تأمل قليلًا في جهازه الهضمي وكيف يعمل في هدوء ونظام لينتج للجسم ما يحتاجه من عناصر، ويخلصه مما يضره من سموم، وكيف له أن يعيش إن ثقبت معدته أو أزيلت أمعاؤه؟ وكيف سنشعر بالأشياء من حولنا إن فقدنا الشعور بالإحساس في جلدنا؟

إنه التفكر، ما يلزمنا للارتقاء بعقولنا وزيادة إيماننا بالله عز وجل، فقد وجهنا ربنا إلى ذلك في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾[الحج: ٥].

٣. آثار إهلاك الأمم السابقة.

من الأمور التي ندركها بأبصارنا أيضًا آثار إهلاك الأمم الماضية، فالكثير منها باقٍ إلى يومنا هذا، ولا يأخذ العبرة منها إلا من يعتبر، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

أي سافروا في الأرض فانظروا وتأملوا ماذا حل بالمكذبين الكفرة من هلاك وعذاب، وكيف أصبحوا عبرة للمعتبرين[(١)].

وقد أتى الأمر للكفار بالتفكر أثناء سيرهم، فقد كانت قوافل القرشيين إلى الشام واليمن يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين، سواء من أهل ثمود أو قوم عاد أو غيرهم، وكان عليهم أن يأخذوا العبرة من ذلك ويؤمنوا، والآية عامة لكل من له عين تبصر وعقل يدرك[(٢)].

وقد أثبت الله تعالى وجود آثار إهلاك الأمم البائدة في أكثر من موضع، وأكد وجود آثار المساكن التي عاشوا فيها.

قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾[العنكبوت: ٣٨].

فقد كان أهل مكة يمرون على أماكن

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣٥٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٦/ ٣٥١٩.

سكنى الأمم السابقة في الحجاز واليمن، وبالرغم من ذلك استسلموا للشيطان الذي زين لهم كفرهم وعنادهم، وكفروا مع إبصارهم للحق وتمييزهم[1].

والتبيان المذكور في الآية مدرك بالبصر، ويستحيل أن يحثنا الله تعالى على التفكر في آثار إهلاك الكافرين دون تمكن حواسنا من إدراك هذه الآثار!.

وتثبت الدراسات التاريخية التي تكتشف يوما بعد يوم هذه الآثار، فمنذ أعوام اكتشفت آثار يعتقد أنها لمدينتي سدوم وعمورة اللتين وجدتا في قاع البحر الميت في المياه الأردنية، والتي يعتقد الباحثون أنها أنقاض قوم لوط الذين أهلكهم الله سبحانه وتعالى بعد ارتكابهم الفاحشة وعصيانهم لأمر ربهم الذي أتاهم عبر نبيهم لوط عليه السلام[2].

وجسد فرعون شاهد على عقاب الله للكافرين، يراه الناس إلى يومنا هذا فيتعظ من يتعظ ويغفل من يغفل.

يقول عز وجل: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[يونس: ٩٢].

فقد شكك بنو إسرائيل أول الأمر في غرق فرعون وقالوا عله تأخر في البحر لعلة، فأمر الله تعالى البحر أن يلفظه، فألقاه على نجوة مرتفعة ليكون عبرة للمعتبرين من قومه وممن تبعهم إلى يومنا، وما التمثال الموجود في مصر لرمسيس الثاني إلا جثته الباقية، والله أعلم.

٤. النعيم والعذاب يوم القيامة.

من كمال عدالة الله عز وجل أن يرى المؤمن ببصره الثاقب يومئذ النعيم الذي أعده الله له، كما يرى الكافر عذابه بذات الحاسة.

قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق: ٢٢].

وقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٥-١٦٦].

وقد ذكر الطبري في تفسيره «أن الذين ظلموا سيعاينون عذاب الله بأمهات أعينهم، وسيتبرأ القدوات في المنكرات من المقتدين بهم»[3].

يقول طنطاوي: «وعبر بالماضي في قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ لتحقق الوقوع، وكل ما كان كذلك فإنه يجرى مجرى ما

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٠٧.
(٢) انظر: وثائقي أجنبي، موقع يوتيوب بتاريخ ٦/ ١/ ٢٠١١م، مقال إلكتروني: البيضاء برس، الجريمة والعقاب، بتاريخ ١٥/ ١٠/ ٢٠١٢م.
(٣) انظر: جامع البيان ٣/ ٢٨٣.

وقع وحصل»[1].

ويؤكد رؤية العذاب يوم القيامة قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٧].

وقوله جل وعلا: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾[القصص: ٦٤].

أما أصحاب الجنة فيتلذذون بفضل الله ونعمه عيانًا، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٥].

أي: سيجد أصحاب الجنة ما وعدوا به من نعيم، وسينادي أصحاب الجنة أصحاب النار قائلين: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ تهكمًا بهم وتقريعًا لهم[2]، بعد أن حمدوا الله تعالى على ما أعطاهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩-١٠].

وقد أكد الله عز وجل مشاهدة النعيم بالعين، وقمة النعيم هو رؤية وجه الله عز وجل في الجنة، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦].

وقد فسرت الزيادة برؤية وجه الله الكريم في الجنة[3].

وفي موضع آخر يقول المولى عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢-٢٣].

وقد ذكر مجاهد أن الله تعالى نضر وجوه أهل الجنة بالنظر إلى وجهه الكريم[4].

وفي الحديث: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)[5].

ثانيًا: ما لا يدركه البصر:

أراد الله تعالى بحكمته البالغة أن يغيب عن حواسنا أو علمنا بعض الأمور، فتكون في علمه عز وجل وحده، ومن تلك الأمور:

١. إدراك المولى عز وجل في الدنيا.

يقول الحق عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

(١) التفسير الوسيط ١/ ٣٣٨.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٥/ ٥٥.
(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ١٧٤.
(٤) انظر: تفسير مجاهد ١/ ٦٨٧.
(٥) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، سبحانه وتعالى، ١/ ١٦٣ رقم ١٨١.

﴿الْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣].

أي «لا يراه شيء، وهو يرى الخلائق»[(١)]، أو لا تحيط به الأبصار وهو يحيط بالأبصار، أو أن الأبصار لا تدركه؛ لأنها تدرك كل ذات لون، ولما امتنع أن يكون ذا لون امتنع أن يكون مرئيًا، وهناك من قال: إن أبصار المؤمنين لا تراه في الدنيا، بينما تراه في الآخرة، وأن أبصار المشركين لا تراه دنيا وأخرى[(٢)].

٢. مفاتح الغيب.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩].

ومفاتح الغيب هي خزائن ما غاب عن ابن آدم من الرزق، والمطر، ونزول العذاب، والثواب والعقاب[(٣)].

وقد ذكر الطبري في تفسير مفاتح الغيب التي استأثر الله بعلمها، فلم يطلع عليها ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا أنها مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة، أو في أي شهر، أو ليل، أو نهار ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلًا أو نهارًا ينزل؟ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أو أنثى، أحمر أو أسود، أو ما هو؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ خير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ لعلك الميت غدًا، لعلك المصاب غدًا؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض في بحر أو بر، أو سهل أو جبل[(٤)].

ولعل مفاتح الغيب من القضايا الغيبية المحضة التي يستحيل تحصيل العلم بها، لكن الله عز وجل ربطها بما ألفته النفس واستحضرته، فقد ذكر بعد الإشارة إلى مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو، أنه يعلم أيضًا ما في البر والبحر وسقوط الأوراق؛ حتى يقرب الصورة إلى أذهاننا، والله أعلى وأعلم بماهية تلك المفاتح[(٥)].

٣. المخلوقات غير المبصرة.

أقسم الله جل وعلا بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنها من عظيم آياته[(٦)].

وقد بين الله عز وجل أنه قد أقسم بأمور

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٦٤.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ١٥١.
(٣) انظر: التفسير الوجيز، الواحدي ١/ ٣٥٧.
(٤) جامع البيان ٢٠/ ١٦٠.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٠.
(٦) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص ١٠-١٣.

نبصرها وأمور لم نبصرها، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[الحاقة: ٣٨-٤٠].

فالله جل وعلا أقسم على كل خلقه الذين نراهم والذين لا نراهم على صحة القرآن الكريم[(١)].

وذكر في التفسير المنسوب لابن عباس رضي الله عنه قوله: «يقال: بما تبصرون، يعني السماء والأرض، وما لا تبصرون يعني الجنة والنار. ويقال: بما تبصرون يعني الشمس والقمر، وما لا تبصرون العرش والكرسي. ويقال: بما تبصرون يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، وما لا تبصرون يعني جبريل أقسم الله بهؤلاء الأشياء»[(٢)].

وقد يكون المقصود أن الله تعالى قد أقسم بما نبصر وهي المخلوقات كالشمس والليل والفجر والنهار، وما لا نبصر وهي ذات المولى عز وجل، التي أقسم بها في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[النساء: ٦٥].

ويتبين أن الله عز وجل قد ذكر في كتابه الكريم الأمور المدركة ببصر الإنسان كثيرًا بينما لم يشر إلى الأمور غير المدركة بالبصر بكثرة، ولا يخفى ما في هذا من رحمة، فالمقصد الأساس من القرآن هو هداية البشر إلى توحيد الله، وإفراده عز وجل بالعبادة دون سواه، ولا تتم هذه الهداية بحق إلا بالبراهين التي تدركها حواس البشر، وتصل بهم إلى اليقين بأن الله تعالى هو المبدع لهذا الكون المتوازن، وهو وحده الذي يستحق العبادة دون شريك.

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٥/ ٣٣.

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ١/ ٤٨٤.

آفات تصيب البصر وأسبابها

تصاب عين الإنسان بآفات مختلفة، منها ما هو متعلق بابتلاء دنيوي كالأمراض الجسدية المختلفة، ومنها ما هو متعلق بعقاب إلهي، أو أمر أخروي، ومن هذه الآفات ما يلي:

١. الغشاوة.

يقول المولى عز وجل في حق الكافرين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يس: ٩].

وقال أيضًا: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٧].

وقد عرفت الغشاوة لغة أنها «ما غشي القلب من الطبع، والغشاء: الغطاء»[(١)].

وعرفت اصطلاحًا أنها «ما يتركب على وجه مرآة القلب من الصدأ، ويكل عين البصيرة، ويعلو وجه مرآتها»[(٢)].

وقد ذكر الطبري «أن الله يصيب الكافرين بغشاوة فهم لا يبصرون هدى ولا ينتفعون به»[(٣)].

وذكر الشوكاني في معنى الغشاوة «أنهم عموا عن البعث، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا، وقرأ الجمهور بالغين المعجمة: أي غطينا أبصارهم، فهو على حذف مضاف. وقرأ ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم بالعين المهملة من «العشا»، وهو ضعف البصر»[(٤)].

٢. الطمس.

ذكر الطمس في القرآن الكريم في حق آل لوط الذين راودوه عن ضيفه من الملائكة وأرادوهم بسوء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

وقد ذكر أن «المطموس هو الذي لا يتبين له حرف جفن عينيه، ولا يرى شفر عينيه»[(٥)].

وقد نقل المناوي أن «الطمس هو محو الأثر، فهو تغير إلى الدثور والدروس»[(٦)].

وعن السدي قال: «لما قال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، بسط حينئذ جبريل عليه السلام جناحيه، ففقأ أعينهم، وخرجوا يدوس بعضهم في أدبار بعض عميانًا يقولون: النجاء النجاء! فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض»![(٧)].

وذكر سيد قطب «أنهم لم يعودوا يرون شيئًا، والإشارة إلى طمس أعينهم لا ترد إلا في هذا الموضع بهذا الوضوح، لأنه

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٤٥.
(٢) التعريفات، الجرجاني ١/ ١٦٢.
(٣) جامع البيان ٢٠/ ٤٩٥.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤١٥.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٤٦.
(٦) التوقيف ١/ ٢٢٨.
(٧) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٢٧.

في موضع آخر قال الله تعالى على لسان الملائكة الذين حلوا ضيوفًا على لوط عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[هود: ٨١].

وفي الطمس بيان للطريقة التي قدرها الله لمنع وصول الكفار إلى لوط وضيفه قبل إهلاكهم في اليوم التالي»[١].

٣. البرق.

ذكر برق البصر في سياق ذكر أهوال يوم القيامة في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ [القيامة: ٧].

فالكافر يسأل أيان يوم القيامة؟ استخفافًا واستهزاءً، فجاء الرد من الله تعالى بذكر بعضٍ من أهوال ذلك اليوم العظيم، فبدأ الأهوال بذكر برق البصر، وبرق البصر هو لمعانه من شدة شخوصه فهو فزعٌ مبهوت[٢].

وقد ذكر المناوي أن معنى «برقت العين اضطربت وجالت من خوف»[٣]، وقد قرئت «برق» بفتح الراء، قيل: برق يبرق بالفتح: أي شق عينيه وفتحهما، وبالكسر «برق» بمعنى تحير فلم يطرف[٤].

وقد نقل ابن كثير: أن معنى «برق» أي: حار، وشبه ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[إبراهيم: ٤٣].

بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر بصرهم على شيء من شدة ما أصابهم من الرعب[٥].

٤. الصرف.

ورد الصرف في قصة أهل الأعراف في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

والمعنى اللغوي للصرف عند ابن فارس: هو «أنه شيء صرف إلى شيء، كأن الدينار صرف إلى الدراهم، أي رجع إليها، إذا أخذت بدله»[٦].

وذكر ابن سيده: «أن الصرف هو رد الشيء عن وجهه، وصرف الله قلوبهم أي أضلهم الله مجازاة على فعلهم»[٧].

والأعراف هو سور بين الجنة والنار، وأهل الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم مع سيئاتهم كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: فوقفوا بين الناحيتين، ينادون أهل الجنة، وقد عرفوا في وجوههم علامات أهل الجنة أن سلامٌ عليكم، وهم يتوقون لدخولها، ثم يصرفون أنظارهم إلى أهل

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٣٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٢٤.
(٣) التوقيف ١/ ٧٥.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٩٥.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢٧٧.
(٦) مقاييس اللغة ٣/ ٣٤٣.
(٧) انظر: المحكم ٨/ ٣٠١.

النار، وقد عرفوا في وجوههم علامات أهل النار، من شدة التفاتهم كأنهم يصرفون، ثم يلجأون إلى ربهم ألا يجعلهم مع الظالمين من أهل النار[1]، ومعنى الصرف تبدل اتجاه أبصار أصحاب الأعراف بعد النظر إلى أهل الجنة إلى النظر ناحية أهل النار، وتكرار التضرع إلى الله تعالى في أن لا يجعلهم من زمرتهم[2].

٥. الطبع.

الطبع في اللغة: «هو الختم، وهو التأثير في الطين ونحوه»[3].

قال عز وجل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[النحل: ١٠٨].

وقد نقل المناوي: أن الطبع هو «تصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة الدرهم، وهو أعم من الختم وأخص من النقش»[4]، والطِبَاع «هي الأخلاق التي لا تزايلنا»[5].

والطبع هو أحد الموانع المانعة من الإيمان، ووصول الخير إلى القلوب كالغشاوة والختم التي جعلها الله عليهم بسبب مسارعتهم لتكذيب الرسل، والتمادي على الكفر، فعاقبهم الله على ذلك[6]، وقد بين طنطاوي: «أن الطبع هو الوسم الذي لا يخرج من الشيء ما هو بداخله، ولا يسمح لما بخارجه من الدخول إليه، أي أن أولئك الذين شرحوا صدورهم بالكفر، وطابوا به نفسًا، قد طبع الله تعالى على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فصارت ممنوعة من وصول الحق إليها، وعاجزة عن الانتفاع به، وأولئك هم الكاملون في الغفلة والبلاهة؛ إذ لا غفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية»[7].

٦. الذهاب.

ذكر ذهاب الأبصار في قوله عز وجل: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[النور: ٤٣].

والذهاب بالشيء وإذهابه تعني إزالته[8]، ومعنى الآية أن الله تعالى يسوق السحاب بقدرته ويجمع قطع السحاب المتفرقة بعضها فوق بعض، ثم يخرج المطر من خلاله، وينزل من السماء حبات

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٢٥.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٥١.
(٣) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٢.
(٤) التوقيف ١/ ٢٣٥.
(٥) تاج العروس، الزبيدي ٢١/ ٤٣٧.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٨٩.
(٧) التفسير الوسيط ٨/ ٢٤٢.
(٨) انظر: المحكم، ابن سيده ٤/ ٢٩٥، الكليات، الكفوي ١/ ٤٦٣.

البرد، فيصيب بهذا البرد من يشاء فيهلكه وأمواله، ويبعده عن من يشاء فلا يضره، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ أي: ضوء برق السحاب ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ فيمحوها من شدة إنارته وبريقه[1]، وقيل: يخطف الأبصار الناظرة لهذا الضوء الحاد[2].

٧. العمى.

أعمى الله سبحانه وتعالى أبصار أصحاب القلوب المريضة الذين ذكرهم في قوله جل وعلا: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد: ٢٠-٢٣].

والعمى لغةً: «هو ذهاب البصر»[3]، واصطلاحًا هو «ضد البصر والبصيرة»[4].

وقد أعماهم الله أي أذهب بصرهم، ومعنى الآية أن الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون إذا نزلت سورة محكمة، وذكر فيها القتال نظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر المغشي عليه، لا يريدون نصرة رسول الله ولا القتال معه، وحذرهم إن تقاعسوا عن القتال وفارقوا أحكام القرآن الكريم، وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم، أن يعصوا الله في الأرض، فيكفروا به، ويسفكوا فيها الدماء، ويعودوا لما كانوا عليه في جاهليتهم من التشتت والتفرق بعد ما قد جمعهم الله بالإسلام، وألف به بين قلوبهم!

ثم يلعنهم الله ويذهب بسمعهم ويعمي أبصارهم، وهم لم يفقدوا السمع، ولم يفقدوا البصر، ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر، أو عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة.

ثم يتساءل مستنكرًا في الآية التي تليها: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؟!

فتدبره هو الذي يزيل هذه الغشاوة، وهو الذي يفتح القلوب لسماع الحق وإدراكه[5].

فهم لا يسمعون الحق، ولا يهتدون لرشد، وقلوبهم غير منجذبة لأفعال الخير والصلاح معميّة عنها ولا تراها، فلا يتدبرون القرآن بالرغم من فهمه، أو لا يفهمونه عند تلقيه، وكلا الأمرين عجيب![6].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٠٠.
(٢) انظر: تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ١/ ٤٦٦.
(٣) العين، الفراهيدي ٢/ ٢٦٦.
(٤) التوقيف، المناوي ١/ ٢٤٧.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٩٦.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١١٣، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ١٢٧.

دلالة البصر على الحالة النفسية

جاءت الحالات المختلفة للبصر في القرآن الكريم للدلالة على بعض الحالات النفسية التي تصيب صاحبها، ومن تلك الحالات ما يلي:

١. الزيغ.

ذكر زيغ البصر في قصة غزوة الخندق في قول المولى عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

وهذه الآيات تتحدث عن الصعوبات الجمة التي واجهها المسلمون بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد تكالب عليهم مشركو العرب من كل النواحي واليهود الذين أرادوا أن يمحى الإسلام عن الوجود، فكانت لحظات عصيبة جدا على المسلمين، وقد زاد من قسوتها نقض العهد الذي بين الرسول صلى الله عليه وسلم ويهود بني قريظة الذين سمحوا للأحزاب بالدخول إلى المدينة من جهتهم، وكون عددهم أكثر من ثلاثة أضعاف المسلمين، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه إلا التوكل على الله وحفر الخندق حتى يحموا المدينة من هذا الهجوم الصعب.

وقد تبين حينها المؤمن الحق من المنافق الذي اتخذ حماية أهله حجة كي يترك أرض المعركة ويعود فارًا خائفًا، وواصل المسلمون الرباط على الخندق متحملين الجو البارد والظرف النفسي الصعب، والهجوم عليهم من كل اتجاه، فزاغت أبصارهم ومالت عن سننها فلم تلتفت إلى العدو لكثرته.

بل انحرفت عنهم من شدة عددهم، وبلغت القلوب الحناجر كناية عن شدة الخوف والفزع، وظنوا مختلف الظنون، فمنهم مؤمن ثابت الإيمان لا يتزحزح عن موقفه ومنهم من تراجع، فكان ذلك الموقف من أعظم الابتلاءات التي صدمت أبصارهم وزلزلت قلوبهم من الفزع حتى أتاهم نصر الله، فساندهم بالملائكة الكرام وأرسل الريح لتقلب خيام المشركين وتكفأ قدورهم ففروا هاربين[(١)].

وقد عرف الزيغ الوارد في الآية أنه «الميل عن الاستقامة، والانحراف عن جهة الصواب»[(٢)].

فالعين في الوضع الطبيعي تنظر باتجاه

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ٢٦٧.
(٢) التعريفات، الجرجاني ١/ ٩٨.

الهدف، لكن هول الموقف وشدته جعلتها تنحرف عن مواجهة المشهد ذعرًا وفزعًا، والكلمة القرآنية «زاغت» تبين قسوة ما تعرض له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محنة، وما كان لله عليهم من فضل بعد أن نجاهم منها وأخرجهم مؤزرين منتصرين.

٢. الخشوع.

ورد خشوع البصر في قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[القمر: ٤-٨].

وقد صورت الآيات الكريمة خروج الكفار الذين لم يؤمنوا بالحق، وأنكروا ما كان لنبي الله صلى الله عليه وسلم من معجزات تدلل على صدقه، وهؤلاء المكذبون قد آتاهم الله من البراهين ما فيه الكفاية والحجة، لكنهم لم يذعنوا، فسيكون خروجهم من القبور عند البعث خروجًا ذليلًا، خشعًا أبصارهم، وخشوع البصر «رميك ببصرك إلى الأرض.. وأخشعت أي طأطأت الرأس كالمتواضع، والخشوع المعنى من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن وهو الإقرار بالاستخدام، والخشوع في البدن والصوت والبصر»[(١)].

يكونون كالجراد في انتشاره واضطرابه، ومفهوم الخشوع اصطلاحًا هو «الانقياد للحق»[(٢)].

فينتشرون لموقف العرض يوم يدع الداع، ذليلة أبصارهم خاضعة، مستسلمة لله تعالى، لا تملك دفع العقاب عن نفسها، ولا إنكار ما كان منها، فهي منكسرة خاضعة لا تتجرأ على رفع بصرها[(٣)].

٣. الشخص.

جاء وصف البصر بالشخوص في قول المولى عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾[إبراهيم: ٤٢].

والمعنى أن الله تعالى لا يغفل عن عمل الظالمين، ولو اعتقد الإنسان ذلك كان مخطئًا، فهو العادل جل وعلا، يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنيوية ولا يعجل عقوبتهم؛ للتغليظ عليهم في العقاب، ولعل إيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر إنما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مرصدون لأمر ما، لا أنهم باقون باختيارهم، وترتفع أبصار أهل الموقف فتبقى مفتوحةً لا

(١) العين، الفراهيدي ١/ ١١٢.
(٢) التوقيف، المناوي ١/ ١٨٨.
(٣) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧١٨٦.

تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه، ولا تقر في مكانها، واعتبار عدم قرارها فهي إما مرتفعة في جرم العين، وإما بمعنى الارتفاع بالنظرات من مكان إلى مكان[1].

و﴿تَشْخَصُ﴾ تعني «لا تقر في أماكنها من هول ما ترى»[2]، وقيل: «يقال: شخص بصره، فهو شاخصٌ، إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف»[3]، و«شخص ببصره إلى السماء: ارتفع»[4].

وقد يجمع بين المعاني أن شخص العين هو أن تفتح دون طرف، وهي مرتفعة للأعلى، تحملق من ناحية لأخرى، مفجوعة بالحدث.

٤. التقليب.

أشار القرآن الكريم إلى تقليب الأبصار في قوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠].

ومعنى الآية أن الكفار يقسمون للنبي عليه السلام أنه إذا جاءهم بآية تدلل على صدقه فسيؤمنون، ولكنهم كاذبون؛ فقد أتاهم بالقرآن والكثير من الدلالات لكنهم أصروا على إنكار الحق، وقد ذكرت الآيات أن الله تعالى يقلب قلوب هؤلاء المكذبين وأبصارهم، والتقليب هو تغيير الشيء من حال إلى حال، وتحويل الشيء عن وجهته[5].

وفي معنى الكلام أربعة أقوال:

أحدها: لو أتاهم الله بآية كما سألوا، لقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها، فظلوا منكرين ضالين، ولحال بينهم وبين الهدى، فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها؛ عقوبة لهم على ذلك.

والثاني: أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا، فالمعنى: لو ردوا لحلنا بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا.

والثالث: ونقلب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان بالآيات كما لم يؤمن أوائلهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات.

والرابع: أن ذلك التقليب في النار عقوبة لهم[6].

والقلب والبصر اللذان لم يؤمنا بآيات الله في هذا الكون وفي خلق الأنفس رغم دقة وبراعة تلك الأنظمة الربانية، هما

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبي السعود ٥/ ٥٥.
(٢) الكليات، الكفوي ١/ ٣١٩.
(٣) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٠٤٢.
(٤) العين، الفراهيدي ٤/ ١٦٥.
(٥) انظر: التوقيف، المناوي ١/ ١٠٦.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٦٦.

مقلوبان عن الحقيقة معميان عنها، والله تعالى يعلم بكذب هؤلاء المنكرين، فلو نزل عليهم ملائكة من السماء لأنكروا أيضًا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله، وهو تعالى لا يشاء؛ لأنهم لا يجاهدون في الله ليهديهم الله إليه، وهذا الإنكار المتلبس في قلوبهم وبصرهم ينسجم مع عقابهم بتقليب حواسهم وتحويلها عن الحق في الدنيا، أو تقليبها في الآخرة جزاءً وفاقًا على إعراضهم عن الحق في الدنيا[1].

٥. السكر.

ورد سكر البصر في قول المولى عز وجل في حق الكافرين: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٣-١٥].

أي: أن المكذبين الكفرة الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد مضت سنة الله في الأمم السابقة التي لا تؤمن، فمصيرهم الهلاك، هؤلاء المهلكين باعتبار ما سيكون لو فتح الله عليهم بابًا من السماء؛ لأنه حصل منهم أن طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالملائكة، هؤلاء لو فتح لهم باب من السماء فظلوا فيه يصعدون بأجسامهم ويرون تلك السماء وما فيها من خلق عظيم، أو على الرأي الآخر فنظروا من خلال الباب إلى الملائكة وحركتهم وعبادتهم وأدركوها عيانًا، لقالوا إنما سكرت وسدت أبصارنا، أو عميت، أو سحرت، أو على قراءة التخفيف (سكرت) بمعنى حبست ومنعت النظر كما يسكر النهر لحبس الماء، وسيدعون أنهم مسحورون بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم[2].

قال ابن فارس: السكر «يدل على حيرة»[3].

وقد عرف السكر أنه: «غيبة بواردٍ قوي، وهو أقوى من الغيبة وأتم منها، والسكر من الخمر»[4].

وكل المعاني الخاصة بسكر البصر تبين أن الكفار إن ظهر لهم أي مدخل للإيمان احتاروا فيه، وتهافتوا على رده بأي مبرر، ولجأوا لمخرج السحر والتزييف عند بروز أي برهان يقضي بتكذيبهم وتصديق رسالة الإسلام، فهم كاذبون متعامون عن الحق مهما بلغ وضوح الدليل المقام عليهم.

يقول سيد قطب واصفًا الحالة النفسية لهؤلاء المكذبين: «يكفي تصورهم على هذا النحو لتبدو المكابرة السمجة ويتجلى العناد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٧٠.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥١.

(٣) مقاييس اللغة ٣/ ٨٩.

(٤) التعريفات، الجرجاني ١/ ١٢٠.

المزري، ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء، ويثبت أن ليس الذي ينقصهم هو دلائل الإيمان، وليس الذي يمنعهم أن الملائكة لا تنزل، فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة، إنما هم قوم مكابرون، مكابرون بلا حياء وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف! إنه نموذج بشري للمكابرة والاستغلاق والانطماس يرسمه التعبير، مثيرًا لشعور الاشمئزاز والتحقير»[1].

لمسات إعجازية في البصر

ذكرت في القرآن الكريم بعض الآيات التي تحمل نواحٍ إعجازية للبصر، ومن تلك البدائع الربانية التي استطاعت قدرة الإنسان اليسيرة فهمها نسبيًا ما يلي:

أولًا: الإعجاز في آلية عمل العين:

إن كرة العين التي لم يتعد وزنها ثمانية جرامات آية من آيات الله تعالى ، ففي طبقة واحدة من طبقات شبكية العين يوجد خمسمائة مليون خلية بصرية «مستقبل بصري» وإنه عندما تسقط أشعة الصورة على الشبكية تلتقطها خلايا ضوئية متخصصة، ثمانية ملايين خلية منها من نوع (المخاريط) المتخصصة في الضوء الساطع، ومئة وخمسون مليون خلية من نوع (العصي) على جوانب الشبكية متخصصة في الضوء الخافت.

ويلعب فيتامين (أ) دورًا رئيسًا في رؤية الأشياء والألوان؛ لأنه المصدر الرئيس لمادة «الرتينال»، وتحدث تغيرات كيميائية في أقل من البليون في الثانية، ويخرج من قاع العين العصب البصري المؤلف من نصف مليون ليف عصبي الذي ينقل طيف الضوء إلى مركز البصر في الدماغ، والذي يحولها إلى صورة مرئية، وتبلغ سرعة إرسال الصورة في العصب البصري ألف مرة في الثانية.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٢٩.

ومن حكمة الله أنه أثناء الضوء بالنهار والظلام بالليل تتبادل كل من العصي والمخاريط عملها لتمكن الإنسان من الرؤية في الظروف المختلفة، ولو لم يكن الأمر كذلك لهلكت، كما تتأثر بطريقة شديدة لو تعرضت لظلام أو إضاءة لفترة طويلة، فإذا اشتد الظلام وطال أصيبت العين بغشاوة وعميت لتوقف دورة فيتامين (أ) والريتينول عن تكوين الرودبسين اللازم للرؤية في غياب الضوء. ومثال على ذلك ما حدث لرواد الفضاء الأولين عندما خرجوا من الأرض فلم يروا السماء إلا ظلامًا دامسًا، مغطاة بالسديم المعتم[1].

وصدق الله تعالى إذ يقول في محكم آياته: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[الحجر: ١٤-١٥].

ثانيًا: ذكر إصابة البصر بالغشاوة في القرآن الكريم:

الغشاوة: سحابة تغشى عدسة العين، وقد يحدث ذلك التأثير لعين واحدة أو للاثنتين معًا، وترتبط الغشاوة في العادة بتقدم السن، فتصبح العدسة أقل مرونة، وتفقد بعض قدرتها على تركيز الضوء في الشبكية، وبسبب عدم مرونتها تصبح منعدمة الشفافية، وهذا يعني بداية إصابتها بانسداد العدسة، وفي النهاية قد تتكون غشاوة بيضاء تملأ العين، فيفقد الإنسان قدرته على الإبصار، كما تحدث الغشاوة أيضًا نتيجة لبعض الأمراض مثل مرض السكري، وقد تتسبب الغشاوة بسبب بعض الجروح والتهابات العيون، كما أنه قد يولد بعض الأطفال مصابين، وأيضًا تسببها بعض العقاقير وبعض أنواع من الأشعة.

وقد ذكر الله تعالى هذه الغشاوة في حق العين خاصة، فقد وصف سمع وقلب الكفار بالختم، أما البصر فخصه بالغشاوة التي تمنع من الرؤية، وجاء هذا الوصف في كتابه الكريم قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، عندما بين حال المتعامي عن الحق ولا يجتهد في طلبه، تأمل قول الله عز وجل واصفًا حال الكافر المعرض: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٧].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ٢٣].

وقد فسرت الغشاوة بأنها العمى، فهم لا يبصرون سبيل الهدى.

وكذا قال قتادة: إن المعنى لا يبصرون

(١) انظر: مقال بعنوان: الإعجاز العلمي في البصر، وائل الشيمي ومحمد الديب، في موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

الهدى.

وقال السدي: لا يبصرون محمدًا حين ائتمروا على قتله[1].

وإذا ما أصاب العين غشاوة فلا نور يصلها ولا هدى[2].

موضوعات ذات صلة:

الرؤى، الرؤية، السمع، العين

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤١٥.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٢.

البعث

عناصر الموضوع

مفهوم البعث	٢٠٨
البعث في الاستعمال القرآني	٢٠٩
الألفاظ ذات الصلة	٢١١
منهج القرآن في تقرير مبدأ البعث	٢١٣
المنكرون للبعث بعد الموت ودوافعهم	٢٣٥
آثار الإيمان بالبعث	٢٥٠

مفهوم البعث

أولًا: المعنى اللغوي:

الباء والعين والثاء أصلٌ واحد، وهو الإثارة. ويقال بعثت الناقة إذا أثرتها. وقال ابن أحمر:

فبعثتها تقص المقاصر بعدما ... كربت حياة النار للمتنور[1].

قال الراغب: «أصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه»[2].

والبعث ضربان:

- بشري، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة.
- وإلهي، وذلك ضربان:

أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس (أي من عدم)، وذلك يختص به الباري تعالى، ولم يقدر عليه أحد.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه، كعيسى صلى الله عليه وسلم وأمثاله، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]. يعني: يوم الحشر[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يعرف البعث بعد الموت بأنه: «إحياء الله تعالى الأموات وإخراجهم من قبورهم وهم أحياء للحساب وللجزاء»[4].

وقال ابن كثير: «هو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة»[5].

والحاصل أن البعث: «هو أن يعيد الله تعالى الإنسان بروحه وجسده كما كان في الحياة الدنيا، وهذا كائن عندما تتعلق إرادة الرب جل وعلا بذلك فيخرج الخلق جميعهم من قبورهم، وهم حفاة عراة غرل بهم، ويساقون إلى أرض الموقف لينال كل إنسان ما يستحقه من الجزاء العادل وفق ما عمل في حياته الدنيا»[6].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٦٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٣٢.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٣٢، التوقيف، المناوي ص٨٠.
(٤) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص٥٦٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٣٩٥.
(٦) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص٥٦٧.

البعث في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بعث) في القرآن الكريم (٦٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٠	﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٦]
الفعل المضارع	٢٨	﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]
فعل الأمر	٥	﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ [البقرة:١٢٩]
اسم مفعول	٩	﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾ [المطففين:٤]
مصدر	٥	﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٨]

وجاء البعث في الاستعمال القرآني على سبعة أوجه[٢]:

الأول: الإلهام: قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:٣١]. يعني فألهم الله غرابًا.

الثاني: الإحياء في الدنيا: قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٦].أي: ثم أحييناكم في الدنيا.

الثالث: اليقظة من النوم: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠]. أي: من النوم.

الرابع: التسليط: قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص١٢٤-١٢٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١١٨، ١٧٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٢٠٤-٢٠٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢/ ٢١٤-٢١٥.

[الإسراء:٥]. أي: سلطنا عليكم عبادًا لنا.

الخامس: إرسال الرسول: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]. أي: أرسل رسولًا.

السادس: النصب والتعيين: قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ [النساء:٣٥]. أي: انصبوا حكمًا.

السابع: النشور من القبور: قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج:٧]. يعني: ينشر من في القبور.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإحياء:

الإحياء لغة:

قال ابن فارس: «الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة؛ فأما الأول فالحياة والحيوان، وهو ضد الموت والموتان، ويسمى المطر حيًا لأن به حياة الأرض»[(١)].

الإحياء اصطلاحًا:

لم يعرف أهل السنة الإحياء في مؤلفاتهم لوضوح معناه، وإنما تحدثوا عن هذا اللفظ بكلام عام يبين معناه عندهم، وقد ورد الإحياء في الشرع بمعنى نفخ الروح في الجسد، وإيجاد الحياة فيه[(٢)].

الصلة بين الإحياء والبعث:

أنهما يدلان على شيء واحد وهو إعادة الحياة للميت.

٢ النشور:

النشور لغة:

الحياة بعد الموت، ينشرهم الله إنشارًا، ونشرت الأرض تنشر نشورًا، إذا أصابها الربيع فأنبتت، فهي ناشرة[(٣)].

النشور اصطلاحًا:

يطلق ويراد به معنى البعث، وهو انتشار الناس من قبورهم إلى الموقف للحساب والجزاء.

الصلة بين البعث والنشور:

أن بعث الخلق اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢].

والنشور اسم لظهور المبعوثين وظهور أعمالهم للخلائق، ومنه قولك نشرت اسمك،

---

(١) مقاييس اللغة، ٢/ ١٢٢.
(٢) الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو، ص١٤٠- ١٤١.
(٣) العين، الفراهيدي ٦/ ٢٥٢.

ونشرت فضيلة فلان، إلا أنه قيل: أنشر الله الموتى بالألف، ونشرت الفضيلة والثوب للفرق بين المعنيين»[1].

ووجه الصلة بين البعث والنشور أنهما مرحلتان متتاليتان للموتى يوم القيامة البعث يكون بإحيائهم وإخراجهم من قبورهم والبعث يكون بانتشارهم بعد خروجهم من قبورهم كالفراش المبثوث.

٣ الإخراج:

الإخراج لغة:

أصله من «خرج خروجًا: برز من مقره أو حاله، سواء كان مقره دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواء كان حاله حالة في نفسه، أو في أسبابه الخارجة»[2].

الإخراج اصطلاحًا:

«هو البعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاء»[3].

الصلة بين الإخراج والبعث:

أن البعث يشمل الإحياء والخروج، فالإخراج أخص من البعث.

(١) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٨٩
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٧٨.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٣٧٥.

منهج القرآن في تقرير مبدأ البعث

سلك القرآن الكريم مسلك الاستدلال العقلي والقياس في إثبات قضية البعث بعد الموت وأنها ممكنة عقلا، وذلك من خلال النظر في المشاهدات الكونية الدالة على قدرة الله تعالى عليه، وأنه أهون من كثير مما لا ينكرون أن الله يقدر عليه، فمن ذلك ما يلي:

أولًا: الاستدلال بالنشأة الأولى:

دل القرآن الكريم على قضية البعث بقياسها على قضية مسلمة عند منكريه وهي قضية الخلق الأول، أو النشأة الأولى، فهم يقرون بأن الله هو الذي خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

فبين القرآن إنهم إن أقروا بذلك وأن الله هو الذي خلقهم بقدرته وأنشأهم من عدم، لزمهم الإقرار بقدرته كذلك على بعثهم بعد موتهم، وذلك في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩]

ذكر الواحدي: «عن أبي مالكٍ: أن أبي بن خلفٍ الجمحي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظمٍ حائلٍ ففته بين يديه، وقال: يا محمد يبعث الله هذا بعدما أرم؟ فقال: (نعم، يبعث الله هذا ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم)[(١)]، فنزلت هذه الآية»[(٢)].

«وقيل: إن هذا الكافر قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت إن سحقتها وأذريتها في الريح أيعيدها الله! فنزلت ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي من غير شيء فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيء وهو عجم الذنب، ويقال عجب الذنب بالباء»[(٣)].

«ولا شك أن الإحياء بعد أهون من الإنشاء قبل، فمن قدر على الإنشاء كان على الإحياء أقدر وأقدر، ولا احتمال لعروض العجز فإن قدرته عز وجل ذاتية لا تقبل الزوال ولا التغير بوجه من الوجوه»[(٤)].

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ «فإن قدرته كما كانت لامتناع التغير فيه، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها»[(٥)].

«وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علما يقينا لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٦٠٦. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.
(٢) أسباب النزول، ص٣٦٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٥٨.
(٤) روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ٥٣.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٧٤.

قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور»[1].

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٠-٦٢].

قال النسفي: «﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وعلى أن ننشئكم في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها، يعني أنا نقدر على الأمرين جميعًا على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟ ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل، أي على أن نبدل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا تعلمونها»[2].

وقال المراغي: «أي نحن قسمنا الموت بينكم، ووقتنا موت كل واحد بميقات معين لا يعدوه بحسب ما اقتضته مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة، وما نحن بعاجزين عن أن نذهبكم ونأتي بأشباهكم من الخلق، وننشئكم فيما لا تعلمون من الأطوار والأحوال التي لا تعهدونها.. ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي لقد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداية قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى»[3].

قال الشوكاني: «﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ وهي ابتداء الخلق من نطفةٍ، ثم من علقةٍ، ثم من مضغةٍ ولم تكونوا قبل ذلك شيئًا، وقال قتادة والضحاك: يعني خلق آدم من ترابٍ فلولا تذكرون أي: فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة وتقيسونها على النشأة الأولى»[4].

وقال الصابوني: «﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم كما قدر على خلقكم أول مرة؟ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧].»[5].

وقد رد القرآن الكريم على من أنكروا البعث كذلك وسألوا سؤال استبعاد لا سؤال استفهام أيبعثون بعد موتهم وآباؤهم بعد أن صاروا عظاما ورفاتا من جديد ردا مفحما غاية في البيان والإيجاز والإعجاز والإفحام.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٩٩.
(٢) مدارك التنزيل، ٣/ ٤٢٦
(٣) تفسير المراغي، ٢٧/ ١٤٦
(٤) فتح القدير، ٥/ ١٨٩
(٥) صفوة التفاسير، ٣/ ٢٩٥

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١].

«وقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ قالوا إنكارا منهم للبعث بعد الموت: إنا لمبعوثون بعد مصيرنا في القبور عظاما غير منحطمة، ورفاتا منحطمة، وقد بلينا فصرنا فيها ترابا، خلقا منشأ كما كنا قبل الممات جديدا، نعاد كما بدئنا، فأجابهم جل جلاله يعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم، وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقا جديدا، على أي حال كانوا من الأحوال، عظاما أو رفاتا، أو حجارة أو حديدا، أو غير ذلك مما يعظم عندهم أن يحدث مثله خلقا أمثالهم أحياء، قل يا محمد ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾»[1].

«وتقرير الشبهة: أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع؟ فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمرٌ ممكنٌ، ولو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شيءٍ من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد، فهو كقول القائل: أتطمع في وأنا ابن فلانٍ، فيقول: كن ابن السلطان أو ابن من شئت، فسأطلب منك حقي»[2].

«وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾؟ يخبر تعالى رسوله أن منكري البعث سيقولون له مستبعدين البعث: من يعيدنا؟ وعلمه الجواب فقال له: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ أي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهو جواب مسكت فالذي خلقكم ثم أماتكم هو الذي يعيدكم كما بدأكم وهو أهون عليه»[3].

«والمعنى أنه لما قال لهم: كونوا حجارةً أو حديدًا أو شيئًا أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين فإن إعادة الحياة إليه ممكنةٌ، فعند ذلك قالوا: من هذا الذي يقدر على إعادة الحياة إليه، قال تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد: ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني أن القول بصحة الإعادة فرعٌ على تسليم أن خالق الحيوانات هو الله تعالى، فإذا ثبت ذلك فنقول: إن تلك الأجسام قابلةٌ للحياة والعقل، وإله العالم قادرٌ لذاته، عالمٌ لذاته فلا يبطل علمه وقدرته البتة، فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرًا على الإعادة، وهذا كلامٌ تامٌ وبرهانٌ قويٌ»[4].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٦٣.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٧٨.

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري، ٣/ ٢٠١، ٢٠٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣٥٣.

ثانيًا: القياس العقلي:

دلل القرآن الكريم على قضية البعث بعد الموت بالقياس العقلي الجلي على قضية بدء الخلق، وبين أنه قياس بطريق الأولى، فكل من صدق بأنه تعالى ابتدأ خلق الإنسان وهو أمر فطري لم ينازع فيه المشركون، لزمه بطريق الأولى التصديق بقدرته تعالى على إعادته مرة أخرى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

قال القرطبي: «أما بدء خلقه فبعلوقه في الرحم قبل ولادته، وأما إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث، فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلًا على ما يخفى من إعادته، استدلالًا بالشاهد على الغائب، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾»[(١)].

«والهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى، فإذا قال قائلٌ إن الرجل القوي لا يتعب من نقل شعيرة من موضعٍ وسلم السامع له ذلك، فإذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلةٍ يكون ذلك كلامًا معقولًا مبقىً على حقيقته»[(٢)].

قال القرطبي: «ووجهه أن هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لعباده، يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء»[(٣)].

كذلك برهن القرآن الكريم على قضية البعث بحكمة الله وعدله اللذين يقتضيان محاسبة الناس على أعمالهم في الدنيا في دار أخرى بعد موتهم، وإلا كان وجودهم في هذه الحياة الدنيا ضربا من العبث يتنزه الله تعالى عنه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

قال الزحيلي: «﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا، أي لعبا وباطلا بلا قصد ولا حكمة لنا، بل خلقناكم للعبادة والتهذيب والتعليم وإقامة أوامر الله تعالى، وهل ظننتم أنكم لا تعودون إلينا في الدار الآخرة للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

أي: هملًا.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي: تنزه وتقدس الله صاحب الملك الواسع، الثابت الذي لا

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٠
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ٩٦
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢١-٢٢.

يزول، أن يخلق شيئا عبثا، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، وهو ذو العرش العظيم الحسن البهي الذي يدبر فيه نظام الكون بحكمة ومقصد سام»[1].

«وبيان كونه عبثًا أنه لو خلق الخلق فأحسن المحسن وأساء المسيء ولم يلق كلٌ جزاءه لكان ذلك إضاعةً لحق المحسن وإغضاءً عما حصل من فساد المسيء فكان ذلك تسليطًا للعبث»[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]

«وتقريره أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المفاسد يقتضي كونه تعالى راضيًا بقبائح الأفعال، وذلك لا يليق بحكمته، فإذًا لا بد من التكليف والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة»[3].

ثالثًا: الاستشهاد بالدورة النباتية:

استدل القرآن الكريم على إمكان البعث بما هو مشاهد من إحياء الأرض الميتة الجرز بنزول الماء عليها فتهتز بالخضرة والحياة بعد موتها، فمن قدر على إحياء تلك الأرض بعد موتها قادر لا محالة على إحياء الموتى من البشر.

وقد تكرر هذا المثل في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧].

«يلفت الله تعالى نظر المشركين المنكرين للبعث والحساب والعقاب، إلى أنه يرسل الرياح فتثير السحاب، وتجعله يتكون في جو السماء، ثم تسوقه الرياح إلى الأرض الموات، التي لا نبات فيها، فيفرغ السحاب ما فيه من فوق هذه الأرض الميتة، فتحيا الأرض بالماء، وتهتز وتربو، ويخرج منها النبات، وكما أحيا الله تعالى الأرض الميتة، وأخرج منها النبات النضير، كذلك يحيي الله الأموات من البشر، ويخرجهم من قبورهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم»[4].

قال السعدي: «يبين تعالى أثرا من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١١٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ١٣٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/ ٧٣٧
(٤) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ٣/ ١٠٦٨.

﴿ثِقَالًا﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى، وألحقه ريح أخرى ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿ٱلْمَآءَ﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحا تدره وتفرقه بإذن الله، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعد ما كانوا رفاتا متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعادا له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد، وإنكار المحسوسات»[1].

وقال الزحيلي: «هذه آية اعتبار واستدلال على وجود البعث، وفهم الدليل بسيط جدا؛ فإن الله تعالى كما أنه يحيي الأرض وينبتها نباتا حسنا بالمطر فإنه قادر على إعادة الموتى أحياء يوم القيامة، كإحياء الأرض بعد موتها.. وإحياء الأرض بعد موتها بالنباتات يحدث بقدرة الله الخالق، فكذلك إعادة الحياة إلى الأجساد يكون بقدرة الله أيضا»[2].

وقد جمع بين الطريقتين السابقتين في إثبات البعث قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج: ٥].

«﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ إقامة للحجة التي تلقم المجادلين في البعث حجرا إثر الإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهم، واستظهر أن المراد بالناس هنا الكفرة المجادلون المنكرون للبعث، والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب أي الشك مع أنهم جازمون بعدم إمكانه إما للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب في شأنه، وإما الجزم بعدم الإمكان فخارج من دائرة الاحتمال كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع، وإما للتنبيه على أن جرمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإمكان ونهاية قوتها، وإنما لم يقل وإن ارتبتم في البعث للمبالغة في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٦٧٨.

تنزيه أمره عن شائبة وقوع الريب والإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لا من جهته، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لا قوته وكثرته»[1].

«فيا أيها البشر، إن كنتم في شك من إمكان البعث ومجيئه، فانظروا إلى بدء خلقكم، فمن قدر على البدء قدر على الإعادة، بدليل مراحل خلق الإنسان السبع.. وهذا هو الدليل الأول على قدرة الله على البعث، يعتمد على التأمل في مراحل خلق الإنسان، والدليل الثاني: هو خلق النبات المشابه لخلق الإنسان، فإذا تأمل المرء أحوال الأرض، يراها أولا ميتة يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات، ودبت فيها الحياة، وارتفعت وانتفخت بالماء والنبات، ثم أنبتت من كل صنف من النبات والزرع ما هو جميل المنظر، طيب الرائحة، متناسق الألوان أو مختلفها، لاختلاف ألوان الثمار والزروع والطعوم والروائح، والأشكال والمنافع، كما يلاحظ كل إنسان في فصل الربيع والصيف وغيرهما»[2].

وهذا ارتقاءٌ في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل لأنه استدلالٌ بحالةٍ مشاهدةٍ فلذلك افتتح بفعل الرؤية، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان فإن مبدأه غير مشاهدٍ فقيل في شأنه فإنا خلقناكم من ترابٍ الآية، ومحل الاستدلال من قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾، فهو مناسبٌ قوله في الاستدلال الأول فإنا خلقناكم من ترابٍ، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت»[3].

فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٦-٧]»[4].

رابعًا: الاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت:

استدل القرآن الكريم على قضية البعث بوقائع حدثت فعلا، ووقع فيها أمر الإحياء بعد الموت في هذه الحياة الدنيا بشكل معاين، وهي وقائع عديدة ذكرها الله تعالى في كتابه ليدلنا بها على إمكان وقوع إحياء الموتى حتى في هذه الحياة الدنيا، وأن من قدر على ذلك فهو قادر لا محالة على إحياء

(١) روح المعاني، الألوسي، ٩/ ١١١.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦٢٦-١٦٢٧ مختصرًا.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ٢٠٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٣٣-٥٣٤.

الموتى جميعا يوم القيامة، فمن هذه الوقائع:

١. قصة الرجل الذي قتل في بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣].

«وحكاية ذلك: أن رجلًا موسرًا قتله بنو عمه ليرثوه، وطرحوه عند باب المدينة، ثم جاءوا يطالبون بديته؛ فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيل ببعضها؛ فيحيا ويخبرهم بقاتله. فضربوه بذنبها، فحي وقال: قتلني فلان وفلان - يريد ابني عمه - فاقتص منهما، وحرما ميراثه»[1].

«روي عن ابن عباسٍ وسائر المفسرين أن رجلًا من بني إسرائيل قتل قريبًا لكي يرثه ثم رماه في مجمع الطريق ثم شكا ذلك إلى موسى عليه السلام فاجتهد موسى في تعرف القاتل، فلما لم يظهر قالوا له: سل لنا ربك حتى يبينه، فسأله فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فتعجبوا من ذلك ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام حالًا بعد حالٍ واستقصوا في طلب الوصف فلما تعينت لم يجدوها بذلك النعت إلا عند إنسانٍ معينٍ ولم يبعها إلا بأضعاف ثمنها، فاشتروها وذبحوها وأمرهم موسى أن يأخذوا عضوًا منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فصار المقتول حيًا وسمى لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قودًا»[2].

وقد اختلفوا في المخاطب بقوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ «قال القفال: ظاهره يدل على أن الله تعالى قال هذا لبني إسرائيل أي: إحياء الله الموتى يكون مثل هذا الذي شاهدتم؛ لأنهم وإن كانوا مؤمنين بذلك إلا أنهم لم يؤمنوا به إلا من طريق الاستدلال، ولم يشاهدوا شيئًا منه، فإذا شاهدوه اطمأنت قلوبهم، وانتفت عنهم الشبهة، فأحيا الله القتيل عيانًا، ثم قال لهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ

(١) أوضح التفاسير، ابن الخطيب ١/ ١٣
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٤٣

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: كما أحياها في الدنيا يحييها في الآخرة من غير احتياج إلى مادة ومثال وآلة التي لا يخلو منها المستدل»[1].

وقال أبو جعفر الطبري: «وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مخاطبة من الله عباده المؤمنين، واحتجاج منه على المشركين المكذبين بالبعث، وأمرهم بالاعتبار بما كان منه جل ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدنيا، فقال لهم تعالى ذكره: أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإني كما أحييته في الدنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث، وإنما احتج جل ذكره بذلك على مشركي العرب، وهم قوم أميون لا كتاب لهم، لأن الذين كانوا يعلمون علم ذلك من بني إسرائيل كانوا بين أظهرهم، وفيهم نزلت هذه الآيات، فأخبرهم جل ذكره بذلك، ليتعرفوا علم من قبلهم..

﴿وَيُرِيكُمْ﴾ الله أيها الكافرون المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله من آياته، و ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: أعلامه وحججه الدالة على نبوته لتعقلوا وتفهموا أنه محق صادق، فتؤمنوا به وتتبعوه»[2].

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ٢/ ١٨١.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٣٢.

٢. قصة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الموت.

ومن الوقائع التي استدل بها القرآن على صدق وقوع البعث بعد الموت ووقعت فعلا ما حدث لألوف من بني إسرائيل ذكرهم القرآن في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣]

«يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول: ألم ينته إلى علمك قصة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف، وهم أهل مدينة من مدن بني إسرائيل أصابها الله تعالى بمرض الطاعون ففروا هاربين من الموت فأماتهم الله عن آخرهم ثم أحياهم بدعوة نبيهم حزقيل عليه السلام»[3].

«وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فرارًا من الموت إلى البرية، فنزلوا واديًا أفيح، فملؤا ما بين عدوتيه فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد فحيزوا

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٢٣١.

إلى حظائر وبني عليهم جدران وقبور وفنوا وتمزقوا وتفرقوا فلما كان بعد دهر مر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: حزقيل فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك بأن تكتسي لحمًا وعصبًا وجلدًا. فكان ذلك، وهو يشاهده ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره. فقاموا أحياء ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة»[1].

«فكما كان قادرًا على إحيائهم في الدنيا هو قادرٌ على إحياء المتوفين في الآخرة، فيجازي كلًا منهم بما عمل. ففي هذه القصة تنبيهٌ على المعاد، وأنه كائنٌ لا محالة، فيليق بكل عاقلٍ أن يعمل لمعاده بأن يحافظ على عبادة ربه، وأن يوفي حقوق عباده»[2].

«إن الله لذو فضل على الناس فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة»[3].

٣. قصة صاحب القرية.

ومن الوقائع التي تؤكد إمكان البعث بعد الموت قصة صاحب القرية.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

اختلف المفسرون في صاحب القصة الذي مر على القرية، هل كان نبيا عبدا صالحا أو كان كافرا شاكا في البعث، كما اختلفوا في اسمه، «واختلفوا في القرية المذكورة في الآية، لكن القرآن ضرب صفحا عن تعيين اسم الشخص واسم القرية كعادته في مثل هذه القصص التي يكون المقصد القرآني فيها هو إظهار الحكمة من ذكرها وما تشتمل عليه من المواعظ والآيات والعبر، ولا تخص شخوصها وزمانها ومكانها، والذي يعنينا هنا هو دلالة هذه القصة على قدرة الله على البعث، وإيقاعه فعلا أمام من استبعده

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٦١.
(٢) البحر المحيط، ابن حيان، ٢/ ٥٥٩، ٥٦٠.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٤١٣

ليكون ذلك دليلا له ولكل من سمع القصة على إثبات قدرة الله على إحياء الموتى.

وتفسيرها كما قال ابن كثير: «﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ليس فيها أحد من قولهم: خوت الدار تخوي خواءً وخويا، وقوله: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكرا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِـۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾، قال: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه؟

فلما استقل سويا قال الله له -أي بواسطة الملك-: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله في آخر نهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وذلك: أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما فقده لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب تعفن ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي: كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دليلا على المعاد»[1].

«فأجيب: بل لبثت مائة عام، فانظر لترى دلائل قدرتنا إلى طعامك وشرابك طوال هذه المدة، لم يتغير ولم يفسد، مع أن العادة جرت بفساد مثله بمضي مدة قليلة، وانظر أيضا لترى الدليل على قدرتنا إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتقطعت أوصاله، لتتبين تطاول مرور الزمان عليه وعليك وأنت راقد أو نائم فعلنا بك ما فعلنا لتعاين ما استبعدته، ولتتيقن ما تعجبت منه، ولنجعلك دليلا على المعاد، وآية دالة على تمام قدرتنا على البعث يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

فقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ دليل على البعث بعد الموت»[2].

٤. قصة إبراهيم عليه السلام مع الطير.

كما استدل القرآن على وقوع البعث بعد الموت بما وقع لسيدنا إبراهيم عليه السلام حين سأل الله أن يريه إحياء الموتى عيانا،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٨٨.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ٣٣.

فاستجاب الله له وأجرى له الأمر على يديه بإذنه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد تكلم بعض المفسرين في سبب سؤال إبراهيم لربه أن يريه كيفية إحياء الموتى وهل كان شكا منه في البعث أو كان طلبا للترقي في درجات اليقين؟

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى الثاني واستبعاد الأول لكونه لا يليق بمقام النبوة فضلا عن الخلة.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان قلقًا مضطربًا في اعتقاده بالبعث وذلك شكٌّ فيه، وما أبلد أذهانهم وأبعد أفهامهم عن إصابة المرمى، وقد ورد في حديث الصحيحين نحن أولى بالشك من إبراهيم أي أننا نقطع بعدم شكه كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعًا، نعم ليس في الكلام ما يشعر، بالشك، فإنه ما من أحدٍ إلا وهو يؤمن بأمورٍ كثيرةٍ إيمانًا يقينيًا وهو لا يعرف كيفيتها ويود لو يعرفها»[(١)].

قال القرطبي: «ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفرٌ، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث.

وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيلٌ فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقال اللعين: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

وإذا لم يكن له عليهم سلطنةٌ فكيف يشككهم، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقوله:» أرني كيف» طلب مشاهدة الكيفية»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «فإن إبراهيم لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس»[(٣)].

وما وقع لخليل الله إبراهيم عليه السلام من إجابة الله دليل واقعي على البعث بعد الموت، قال السعدي: «وهذا فيه أيضا أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي

(١) تفسير المنار، ٣/ ٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٢٩٩.

(٣) التحرير والتنوير، ٣/ ٣٨.

الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عيانا ليحصل له مرتبة عين اليقين.

فلهذا قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيله أولو العرفان، فقال له ربه ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك. ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد»[1].

«فأخذ هذه الطير حسب ما أمر وذكاها، ثم قطعها قطعًا صغارًا، وخلط لحوم البعض إلى لحوم البعض مع الدم والريش حتى يكون أعجب، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءًا على كل جبلٍ، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وأمسك رءوس الطير في يده، ثم قال: تعالين بإذن الله، فتطايرت تلك الأجزاء وطار الدم إلى الدم والريش إلى الريش حتى التأمت مثل ما كانت أولًا وبقيت بلا رءوسٍ، ثم كرر النداء فجاءته سعيًا، أي عدوًا على أرجلهن. ولا يقال للطائر: (سعى) إذا طار إلا على التمثيل، قاله النحاس. وكان إبراهيم إذا أشار إلى واحدٍ منها بغير رأسه تباعد الطائر، وإذا أشار إليه برأسه قرب حتى لقي كل طائرٍ رأسه، وطارت بإذن الله. وقال الزجاج: المعنى ثم اجعل على كل جبلٍ من كل واحدٍ جزءًا»[2].

وقال الألوسي: «وفي الآية دليل لمن ذهب إلى أن إحياء الموتى يوم القيامة بجمع الأجزاء المتفرقة وإرسال الروح إليها بعد تركيبها وليس هو من باب إعادة المعدوم الصرف لأنه سبحانه بين الكيفية بالتفريق ثم الجمع وإعادة الروح ولم يعدم هناك سوى الجزء الصوري والهيئة التركيبية دون الأجزاء المادية»[3].

٥. ما أجراه الله تعالى على يد المسيح عليه السلام.

ومن تلك الوقائع التي حدث فيها إحياء الموتى ما أجراه الله تعالى على يد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة له، وقد حكى القرآن الكريم ذلك.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٣٠٠، ٣٠١.

(٣) روح المعاني، ٢/ ٣٠.

الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

«وإحياء الموتى معجزةٌ للمسيح أيضًا، كنفخ الروح في الطير المصور من الطين، فكان إذا أحيا ميتًا كلمه ثم رجع ميتًا، وورد في الأناجيل أنه أحيا بنتًا كانت ماتت فأحياها عقب موتها. ووقع في إنجيل متى في الإصحاح السابع عشر أن عيسى صعد الجبل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا أخوه وأظهر لهم موسى وإيلياء يتكلمان معهم، وكل ذلك بإذن الله له أن يفعل ذلك»[(١)].

«قال الكلبي: كان عليه الصلاة والسلام يحيي الموتى بيا حي يا قيوم أحيا عازر وكان صديقًا له فعاش وولد له، ومر على ابن عجوز ميت فدعا الله تعالى فنزل عن سريره حيًا، ورجع إلى أهله وبقي وولد له، وبنت العاشر أحياها وولدت بعد ذلك، فقالوا إنك تحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة، فأحي لنا سام بن نوحٍ، فقال: دلوني على قبره، ففعلوا فقام على قبره، فدعا الله عز وجل، فقام من قبره وقد شاب رأسه، فقال عليه السلام: كيف شبت ولم يكن في زمانكم شيبٌ؟ قال: يا روح الله، لما دعوتني سمعت صوتًا يقول أجب روح الله، فظننت أن الساعة قد قامت، فمن هول ذلك شبت، فسأله عن النزع، قال: يا روح الله، إن مرارته لم تذهب من حنجرتي، وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنةٍ، وقال للقوم: صدقوه فإنه نبي الله، فآمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحرٌ»[(٢)].

«وروي في إحيائه الموتى أنه كان يضرب بعصاه الميت أو القبر أو الجمجمة، فيحيي الإنسان ويكلمه، وروي أنه أحيا سام بن نوح عليه السلام، وروي أن الذي كان يحييه كانت تدوم حياته، وروي أنه كان يعود لموته سريعا، وفي قصص الإحياء أحاديث كثيرة لا يوقف على صحتها، وإحياء الموتى هي آيته المعجزة المعرضة للتحدي، وهي بالمعنى متحدى بها وإن كان لم ينص على التحدي بها، وآيات عيسى عليه السلام إنما تجري فيما يعارض الطب لأن علم الطب كان شرف الناس في ذلك الزمان وشغلهم وحينئذ أثيرت فيه العجائب، فلما جاء عيسى عليه السلام بغرائب لا تقتضيها الأمزجة وأصول الطب، وذلك إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص علمت الأطباء أن هذه القوة من عند الله، وهذا كأمر السحرة مع موسى، والفصحاء مع محمد عليه السلام»[(٣)].

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٥٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٣٩.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٤٤٠.

٦. قصة أصحاب الكهف.

ومن الوقائع التي تشهد على إمكان البعث بعد الموت قصة أولئك الفتية الذين آووا إلى الكهف وكان من أمرهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢﴾ [الكهف: ٩ - ١٢].

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف والرقيم على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم كما قال ابن جريج عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك»[1].

وقال الطبري: «وأما الكهف، فإنه كهف الجبل الذي أوى إليه القوم الذين قص الله شأنهم في هذه السورة، وأما الرقيم، فإن أهل التأويل اختلفوا في المعني به، فقال بعضهم: هو اسم قرية، أو واد على اختلاف بينهم في ذلك»[2].

«ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ أي: الشباب، ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي أنمناهم ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ وهي ثلاث مائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم وليكون

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٣٨.
(٢) جامع البيان، ١٧/ ٦٠٢.

آية بينة، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ أي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾[الكهف:١٩].

وفي العلم بمقدار لبثهم، ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم»[(١)].

وقال القرطبي: «﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ عبارةٌ عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، وهذه من فصيحات القرآن التي أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله، قال الزجاج: أي منعناهم عن أن يسمعوا، لأن النائم إذا سمع انتبه، وقال ابن عباسٍ: ضربنا على آذانهم بالنوم، أي سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها، وقيل: المعنى» فضربنا على آذانهم» أي فاستجبنا دعاءهم، وصرفنا عنهم شر قومهم، وأنمناهم، والمعنى كله متقاربٌ»[(٢)].

وقد ذكر ابن الجوزي سبب بعثهم فقال: «فأما سبب بعث أصحاب الكهف من نومهم، فقال عكرمة: جاءت أمةٌ مسلمةٌ، وكان ملكهم مسلمًا، فاختلفوا في الروح والجسد، فقال قائل: يبعث الروح والجسد. وقال قائل: يبعث الروح وحده، والجسد تأكله الأرض فلا يكون شيئًا، فشق اختلافهم على الملك، فانطلق فلبس المسوح، وقعد على الرماد، ودعا الله أن يبعث لهم آية تبين لهم، فبعث الله أصحاب الكهف»[(٣)].

ويستفاد من ذلك أن الله ضرب على آذان هؤلاء الفتية في كهفهم حتى لا يفزعهم شيء ولا يوقظهم من سباتهم صوت إلى ما شاء الله، ثم بعثهم سبحانه بقدرته أي أيقظهم من نومهم لحكم عظيمة منها أن يعرف الناس قصتهم فيدركوا قدرته تعالى على البعث وليكون لهم في ذلك آية عليه، وأن من قدر على بعثهم بعد كل هذه السنين من نومهم مع حفظ أجسادهم من التلف والفساد قادر على أن يحييهم بعد موتهم وتحلل أجسادهم، فالنوم هو صورة صغرى للموت، إذ يتوفى الله فيه الأنفس كما في الموت، وقد صرح القرآن بذلك، وسيأتي تفصيله.

وكل هذه براهين واقعية وأدلة مشاهدة حسية على إمكان البعث بعد الموت ووقوعه بقدرة الله عز وجل على يد من شاء من عباده إظهارا لقدرته سبحانه، ودليلا على وقوع البعث يوم القيامة.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٧١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٦٣
(٣) زاد المسير، ٣/ ٦٧.

خامسًا: الاستدلال باليقظة بعد النوم:

من أعظم وأظهر الأدلة الحسية المشاهدة على إمكان البعث بعد الموت، تلك الحقيقة التي تقع لكل إنسان مرة على الأقل كل يوم وهي النوم واليقظة بعده، فالنوم ما هو إلا صورة مصغرة وحالة مؤقتة من الموت، ولهذا قالوا النوم موت أصغر، وقد بين الله في كتابه أن يقظة الإنسان بعد نومه وما يحدث في هذا النوم من تعطل الحواس جميعا بحيث يصبح النائم في حالة تشبه الميت في بعض الأمور دليل على بعثه بعد موته الموتة الكبرى، وسمى النوم وفاة كما سمى الاستيقاظ منه بعثا، وقد جاء هذا الاستدلال في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠].

قال أبو حيان في معنى الآية: «ذكر شيئًا محسوسًا قاهرًا للأنام وهو التوفي بالليل والبعث بالنهار وكلاهما ليس للإنسان فيه قدرةٌ، بل هو أمرٌ يوقعه الله تعالى بالإنسان والتوفي عبارةٌ في العرف عن الموت وهنا المعنى به النوم على سبيل المجاز للعلاقة التي بينه وبين الموت وهي زوال إحساسه ومعرفته وفكره، ولما كان التوفي المراد به النوم سببًا للراحة أسنده تعالى إليه»[1].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وأطلق التوفي على الموت؛ لأن الأرواح تقبض وتؤخذ أخذًا تامًا حتى لا يبقى لها تصرفٌ في الأبدان، وأطلق على النوم في هذه الآية وفي آية الزمر التي نذكرها قريبًا، فقال العلماء: إنه إطلاقٌ مجازيٌ مبنيٌ على تشبيه النوم بالموت لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس والتمييز، وإنما جعلوه استعارةً عن النوم بناءً على جعله حقيقةً في الموت، وهو كذلك في العرف العام لا في أصل اللغة؛ يقولون توفي فلانٌ - بالبناء للمفعول - بمعنى مات، وتوفاه الله بمعنى أماته، وما أعلم أن العرب استعملت التوفي في الموت، وإنما هو استعمالٌ إسلاميٌ مبنيٌ على الموت، يحصل بقبض الأنفس التي تحيا بها الناس»[2].

وقال ابن الجوزي: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ يريد به النوم، لأنه يقبض الأرواح عن التصرف، كما يقبض بالموت، وقال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم. و﴿جَرَحْتُم﴾: بمعنى كسبتم، ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ أي: يوقظكم فيه، أي: في النهار، ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم،

(١) البحر المحيط ٤/ ٥٣٧.
(٢) تفسير المنار ٧/ ٣٩٨، ٣٩٩.

فدل باليقظة بعد النوم على البعث بعد الموت»[1].

وقال الرازي: «بين كمال قدرته بهذه الآية وهو كونه قادرًا على نقل الذوات من الموت إلى الحياة ومن النوم إلى اليقظة واستقلاله بحفظها في جميع الأحوال وتدبيرها على أحسن الوجوه حالة النوم واليقظة»[2].

«﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثم إليه وحده يكون رجوعكم إذا انتهت آجالكم ومتم، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إذ يبعثكم من مراقد الموت كما كان يبعثكم من مضاجع النوم؛ لأنه عالمٌ بتلك الأعمال كلها فيذكركم بها، ويحاسبكم عليها، ويجزيكم بها، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًا فشرٌ، وفيه تنبيهٌ على أن القادر على البعث من توفي النوم قادرٌ على البعث من توفي الموت»[3].

وكذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

قال ابن كثير: «قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦٠-٦١].

فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى»[4].

وقال القرطبي: «وقال ابن زيد: النوم وفاةٌ والموت وفاةٌ.. وقال عمر: النوم أخو الموت»[5].

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ قال: (النوم أخو الموت و لا ينام أهل الجنة)[6].

قال ابن العربي: «خلق الله للعبد النوم، ليعلم به كيفية الانتقال من حال إلى حال، وصفة الخروج من دار إلى دار، فإنه موت

(١) زاد المسير ٢/ ٣٨.
(٢) مفاتيح الغيب ١٣/ ١٢.
(٣) تفسير المنار، ٧/ ٤٠٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٠١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٢٦١.
(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم ٩١٩، والبيهقي في شعب الإيمان، باب تعديد نعم الله عز وجل وما يجب من شكرها، فصل في النوم الذي هو نعمة من نعم الله في دار الدنيا وما جاء في آدابه، رقم ٤٤١٦.
وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ٣/ ١٦١، رقم ١٠٨٧: صحيح من بعض طرقه عن جابر.

أصغر، وقد يقال بنظر آخر أنه يقظةٌ صغرى، فإن نظرنا إليه من حيث عدم الحركة والحس والتصرف بالأفعال معه، قلنا هو موت لعدم ذلك كله به، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وإن نظرنا إليه من حيث إنه انقطاع عن عالم التصرف الأدنى مع الآدميين والإكباب على الدنيا ومعانيها، وأنه إقبال على الملائكة المقربين، وتفريغ القلب لإدراك الحقائق بطريق الأمثال، واطلاع على ما يكون غدًا، رأينا أنه حياة صحيحة، ويقظة محققة بدلًا عن موت مفقد، ونوم مفسد»[(١)].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يقبض الأرواح حين موت أجسادها ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ أي: ويتوفى التي لم تمت في منامها. فيمسك أي: عن الجسد والنفس ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ إلى الجسد إلى أجلٍ مسمًى وهو انقضاء العمر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمر البعث»[(٢)].

وقال الطبري: «وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في قبض الله نفس النائم والميت وإرساله بعد نفس هذا ترجع إلى جسمها، وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر، وبيانا له أن الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء، ويميت من شاء إذا شاء»[(٣)].

«وقال مقاتل: لعلامات لقوم يتفكرون في أمر البعث، يعني أن توفي نفسِ النائم وإرسالها بعد التوفي دليلٌ على البعث»[(٤)].

تأكيد مبدأ البعث بالقسم الرباني:

يأتي القسم لتأكيد الخبر لمنكريه، وقد أمر الصادق صلى الله عليه وسلم أن يقسم على قضية البعث تأكيدا لها في وجه من كذبوه وأنكروها، وهو الذي لم يجربوا عليه كذبا قط باعترافهم، وقسمه عليها رغم أنها من الغيب، حيث لم يعاين أمر البعث لأن إخبار الله له به أشد يقينا في قلبه مما يشاهده بعينه.

قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

«يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه، أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنه وإن كان عسيرًا

(١) قانون التأويل، ص٤٦٩.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٠.
(٣) جامع البيان، ٢١/ ٢٩٩.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٥٢٠.

بل متعذرًا بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم، لو اجتمعت على إحياء ميت واحد، ما قدروا على ذلك»[1].

«والمراد بالذين كفروا هنا المشركون من أهل مكة ومن على دينهم، واجتلاب حرف لن لتأكيد النفي فكانوا موقنين بانتفاء البعث، ولذلك جيء إبطال زعمهم مؤكدًا بالقسم لينقض نفيهم بأشد منه، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم عن الله أن البعث واقعٌ وخاطبهم بذلك تسجيلًا عليهم أن لا يقولوا ما بلغناه ذلك، وجملة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ معترضةٌ بين جملة ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجملة ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وحرف بلى حرف جوابٍ للإبطال خاصٌ بجواب الكلام المنفي لإبطاله»[2].

قال الرازي: «﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما بعد أن وهو البعث وقيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ يحتمل أن يكون تعليمًا للرسول صلى الله عليه وسلم، أي يعلمه القسم تأكيدًا لما كان يخبر عن البعث وكذلك جميع القسم في القرآن»[3].

«أي زعموا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم ﴿قُلْ﴾ ردا عليهم وإظهارا لبطلان زعمهم بإثبات ما نفوه بلى تبعثون، وأكد ذلك بالجملة القسمية فهي داخلة في حيز الأمر، وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي لتحاسبن وتجزون بأعمالكم، وزيد ذلك لبيان تحقق أمر آخر متفرع على البعث منوط به ففيه أيضا تأكيد له ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من البعث والجزاء ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لتحقق القدرة التامة وقبول المادة»[4].

«وجواب القسم لتبعثن، أي: لتخرجن من قبوركم لتنبؤن بما عملتم أي: لتخبرن بذلك إقامةً للحجة عليكم، ثم تجزون به وذلك البعث والجزاء على الله يسيرٌ إذ الإعادة أيسر من الابتداء»[5].

ومثله قوله تعالى تأكيدا لأمر البعث بالقسم ردا على قولهم بإنكارها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ: ٣].

«﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبةً لا أنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفي إتيانها نفي وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحققها في نفس الأمر، وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها، ولأن وجود الأمور الزمانية المستقبلة لا سيما

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ٢٧١.
(٣) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٥٥٣.
(٤) روح المعاني، ١٤/ ٣١٧، ٣١٨.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٨٢

أجزاء الزمان لا يكون إلا بالإتيان والحضور، وقيل هو استبطاءٌ لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد، ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم وإثباتٌ لما نفوه على معنى ليس الأمر إلا إتيانها، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تأكيدٌ له على أتم الوجوه وأكملها، وقرئ (ليأتينكم) على تأويل الساعة باليوم أو الوقت، وقوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ الخ إمداد للتأكيد وتسديدٌ له إثر تسديدٍ وكسر لسورة تكيرهم واستبعادهم، فإن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر، ولا ريب في أن المستشهد به كلما كان أجل وأعلا كانت الشهادة آكد وأقوى، والمستشهد عليه أحق بالثبوت وأولى، لا سيما إذا خص بالذكر من النعوت ماله تعلقٌ خاصٌ بالمقسم عليه كما نحن فيه، فإن وصفه بعلم الغيب الذي أشهر أفراده وأدخلها في الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم، وكونه مما لا يحوم حوله شائبة ريبٍ ما، وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذرٌ ما أصلًا، فإنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلًا عن اليمين الفاجرة، وإنما لم يصدقوه مكابرة»[1].

ومن القسم على وقوع البعث قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾ [القيامة: ١ - ٤].

«وصيغة لا أقسم صيغة قسمٍ، أدخل حرف النفي على فعل أقسم لقصد المبالغة في تحقيق حرمة المقسم به بحيث يوهم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول: لا أقسم به، أي ولا أقسم بأعز منه عندي، وذلك كنايةٌ عن تأكيد القسم»[2].

«قوله عز وجل: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال الحسن: أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية. وقال قتادة: حكمها حكم الأولى، وفي «النفس اللوامة» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها المذمومة، قاله ابن عباس. فعلى هذا: هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم.

والثاني: أنها النفس المؤمنة، قاله الحسن. قال: لا ترى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال.

والثالث: أنها جميع النفوس. قال الفراء: ليس من نفس برةٍ ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيرا قالت: هلا زدت. وإن كانت عملت سوءا قالت: ليتني

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٢١

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٣٨.

لم أفعل»[1].

والأظهر هو القول الثاني، لأن الله تعالى أقسم بها، والقسم من الله تعظيم لشأن المقسم به وتنبيه على مكانته، وهذا يليق بالنفس المؤمنة بخلاف النفس الفاجرة أو المذمومة، والله أعلم.

«وجواب القسم ما دل عليه قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، وهو: لتبعثن. انتهى، وهو تقدير النحاس. وقول من قال جواب القسم هو: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ﴾. وما روي عن الحسن أن الجواب: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ﴾، وما قيل أن لا في القسمين لنفيهما، أي لا أقسم على شيء، وأن التقدير: أسألك أيحسب الإنسان؟ أقوالٌ لا تصلح أن يرد بها، بل تطرح ولا يسود بها الورق، ولولا أنهم سردوها في الكتب لم أنبه عليها، والإنسان هنا الكافر المكذب بالبعث»[2].

«وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ﴾ تقرير وتوبيخ، والإنسان اسم جنس وهذه أقوال كانت لكفار قريش فعليها هو الرد،.. وقال القتبي: ﴿نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ معناه نتقنها سوية، والبنان: الأصابع، فكأن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل لهم إنما تجمع ويسوى أكثرها تفرقا وأدقها أجزاء وهي عظام الأنامل ومفاصلها، وهذا كله عند البعث، وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: ﴿نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ معناه نجعلها في حياته هذه بضعة أو عظما واحدا كخف البعير لا تفاريق فيه، فكأن المعنى قادرين في الدنيا على أن نجعلها دون تفرق، فتقل منفعته بيده، فكأن التقدير بلى نحن أهل أن نجمعها قادرين على إزالة منفعة بيده، ففي هذا توعد ما»[3].

(١) زاد المسير ٤/ ٣٦٨

(٢) البحر المحيط ١٠/ ٣٤٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٠٢.

المنكرون للبعث بعد الموت ودوافعهم

رغم وضوح الأدلة والآيات لكل ذي قلب وعينين على إمكان البعث بعد الموت وأن الله قادر عليه، إلا أن فريقا من الناس أنكروا البعث بعد الموت وكذبوا به وراحوا يلقون الشبه على استحالته، وهم في ذلك أصناف متعددة.

أولًا: أصناف المنكرين للبعث بعد الموت:

المنكرون للبعث بعد الموت يصنفون بحسب إنكارهم للمبدأ ولوجود الخالق أربعة أصناف:

الصنف الأول: أنكروا المبدأ والمعاد، وزعموا أن الأكوان تتصرف بطبيعتها فتوجد وتعدم بأنفسها، ليس لها ربٌ يتصرف فيها، إنما هي أرحامٌ تدفع وأرضٌ تبلع، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية.

والصنف الثاني: من الدهرية طائفةٌ يقال لهم الدورية، وهم منكرون للخالق أيضًا، ويعتقدون أن في كل ستةٍ وثلاثين ألف سنةٍ يعود كل شيءٍ إلي ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مراتٍ لا تتناهى، فكابروا في المعقول، وكذبوا المنقول، قبحهم الله تعالى.

وهاتان الطائفتان يعمهم قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ولهذا عن السلف الصالح فيها تفسيران الأول معنى قول منكري البعث: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت الآباء ويحيا الأبناء هكذا أبدًا، وهو قول الطائفة الأولى، والمعنى الثاني أنهم عنوا كونهم يموتون ويحيون هم أنفسهم، ويتكرر ذلك منهم أبدًا ولا حساب ولا جزاء، بل ولا موجد ولا معدم، ولا محاسب ولا مجازي، وهذا قول الدورية.

الصنف الثالث: الدهرية من مشركي العرب ومن وافقهم، وهم مقرون بالبداءة، وأن الله تعالى ربهم وخالقهم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ومع هذا قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الدخان: ٣٥].

فأقروا بالبداءة والمبدئ، وأنكروا البعث والمعاد، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة رضي الله عنه (وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته)[1].

والصنف الرابع: ملاحدة الجهمية ومن وافقهم، أقروا بمعادٍ ليس على ما في القرآن ولا فيما أخبرت به الرسل عن الله عز وجل، بل زعموا أن هذا العالم يعدم عدمًا محضًا، وليس المعاد هو بل عالمٌ آخر غيره، فحينئذٍ تكون الأرض التي تحدث أخبارها وتخبر

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٩١١٤.
وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

بما عمل عليها من خيرٍ وشرٍ ليست هي هذه، وتكون الأجساد التي تعذب وتجازى وتشهد على من عمل بها المعاصي ليست هي التي أعيدت بل هي غيرها، والأبدان التي تنعم في الجنة وتثاب ليست هي التي عملت الطاعة، ولا أنها تحولت من حالٍ إلى حالٍ، بل هي غيرها تبتدأ ابتداءً محضًا، فأنكروا معاد الأبدان، وزعموا أن المعاد بداءةٌ أخرى[1].

أما من حيث الاختلاف في إنكار المعاد الجسماني أو الروحاني أو هما معا فالمنكرون للبعث المخالفون لما عليه الكتاب والسنة وإجماع أهل الملل على المعاد الروحاني والجسماني معا أصناف ثلاثة:

١. المنكرون للمعاد الروحاني فقط.

وهؤلاء يقولون بمادية الروح وأنها حالة في الجسم سارية فيه سريان الماء في العود الأخضر أو النار في الفحم، والإنسان عندهم روح وبدن وكلاهما جسم مادى.

وهؤلاء خلافنا معهم بالأساس في حقيقة الروح، وأنها ليست مادية، بل هي خلق من خلق الله ليست بجسم ولكنها تحل في الأجسام كما يشاء الله.

أو نقول إن كانت تسميتهم للروح مادة تسمية اصطلاحية فلا مشاحة في الاصطلاح، وحينئذ لا يكونون منكرين لبعث الأرواح والأجسام.

٢. المنكرون للمعاد الجسماني فقط.

وهؤلاء من يطلقون عليهم الفلاسفة الإلهيين، وينتسبون إلى الإسلام رغم مخالفتهم لكثير من عقائده الأساسية ولما هو معلوم من الدين بالضرورة كالفارابي وابن سينا ومن سار على دربهم من المتكلمين والمشتغلين بالفلسفة، ويتلخص مذهبهم في قضية البعث أو المعاد أن الأجساد لا تحشر ولا تبعث، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية، ولعلهم فى مقالتهم هذه متأثرين بأساتذتهم فى هذا الاتجاه، الذين يمثلهم في الفكر اليوناني سقراط وأفلاطون وأرسطو، فهؤلاء جميعًا يرون أن النفس لها وجود متقدم على البدن، وأن البعث هو عودة الروح إلى عالمها بعد مفارقة البدن الذى هو من جملة المركبات التي مصيرها الانحلال والفناء.

وهذا شأن المنافقين الذين يظهرون الإسلام وتعظيم الرسل والانقياد للشرائع في الظاهر من المتفلسفة والمتصوفة ومن لف لفهم، وهم في الباطن كفار منكرون لما هو معلوم من الدين بالضرورة، يخلطون

(١) معارج القبول، حافظ حكمي، ٢/ ٧٧٦.

تعاليم الرسل بقول الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلام عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثالٌ ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام، وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب، أو متطبب، أو متكلم، أو متصوف، كأصحاب رسائل «إخوان الصفا» وغيرهم، أو منافق، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان»[1].

٣. المنكرون للمعاد الجسماني والروحاني معا.

وهؤلاء هم من يسمون الفلاسفة الطبيعيين، وقد فسر هؤلاء الفلاسفة الإنسان تفسيرًا ماديا بحتًا وينكرون كل ما وراء الحس والتجربة المادية، لذا فإنهم يرفضون أن تكون الطبيعة الإنسانية مشتملة على نفس تغاير في طبيعتها المادية المحسوسة وصفاتها، ومن هنا أجمع القدماء منهم والمحدثون على إنكار عقيدة البعث بعد الموت، لأن الموت عندهم عدم محض، وليس هناك يوم آخر يعاد فيه الإنسان فيحاسب على ما قدمت يداه، وما الأمر -في نظر هؤلاء- إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، وهؤلاء من يسمون الدهرية والطبائعية والطبيعيين، يقول رب العزة حاكيًا مذهبهم ومبكتا لهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويوجد لهم أشباه في العصر الحديث من الملحدين كالشيوعيين وسائر أصحاب المذاهب المادية الباطلة، والعقلانية الفاسدة، الذين لا يتبعون الرسل ولا يدينون بالأديان والشرائع، وإنما يتبعون أهواءهم ويستندون إلى العقل ويرفضون الوحي الإلهي، وأولئك كفار خارجون عن الملل كلها، متفق على كفرهم بين جميع أصحاب الشرائع والديانات.

ثانيًا: أسباب إنكار البعث:

١. الاستدلال العقلي الخاطئ.

من أسباب إنكار البعث عند هؤلاء المنكرين للبعث هو اعتمادهم على بعض الشبه العقلية، والاستدلال العقلي الخاطئ.

وأعظم شبهة لدى المنكرين للبعث هي استبعاد إعادة الأجسام بعد تمزقها، وتفتتها، ثم اختلاطها بأجزاء الأرض، إذ

(١) مجموع الفتاوى، ٤/ ٣١٤.

تصبح متصورة بصورة التراب، فكيف يمكن إعادتها إلى حالتها التي كانت عليها من قبل؟!

هذا أمر غريب على عقول المنكرين، وعجيب في نفس الوقت عندهم، والحديث عنه خرافة، والمتحدث به، إما مفتر على الله الكذب، وإما مجنون سلب عقله، فخيل له جنونه ذلك الحديث وأجراه على لسانه.

وقد عبر شاعرهم عن ذلك الإنكار، مبينًا أن الحديث عنه خرافة بقوله[1]:

حياة ثم موت ثم نشر
حديث خرافة يا أم عمرو

وقال آخر[2]:

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا
وكيف حياة أصداء وهام

ويقول الحق جل شأنه، مخبرا عن ذلك الجحود العنيد والإنكار الشديد، ونسبتهم إلى قائله الجنون، أو الكذب والافتراء على الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝٨﴾ [سبأ: ٧ - ٨].

«أي هل نرشدكم إلى رجلٍ ينبئكم، أي يقول لكم: إنكم تبعثون بعد البلى في القبور، وهذا صادرٌ عن فرط إنكارهم»[3].

«يعنون بذلك الرجل، رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه، وأعجوبة يسخرون منه، وأنه كيف يقول إنكم مبعوثون بعدما مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟!»[4].

«ثم إنه تعالى أجابهم مرةً أخرى وقال: بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب في مقابلة قولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وقوله: ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ وكلاهما مناسبٌ. أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذيةٌ، لأنه شهادةٌ عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب. وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه في الإيذاء، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون، ثم وصف ضلالهم بالبعد، لأن من يسمي المهتدي ضالًا يكون هو الضال، فمن يسمي الهادي ضالًا يكون أضل، والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد»[5].

(١) نسبه الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص١٣٠ إلى ابن الزِبَعْرَى.
(٢) نسبه الأبشيهي في المستطرف في كل نفس مستطرف ص٤٦٧ إلى الأسود بن يعفر.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٦٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٧٥.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٩٥.

«ثم ذكرهم بتلك الأدلة فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٨ - ٩].

أي: دلالة واضحة على قدرة الله، فكيف يستبعد عليه إعادة تلك الأجسام الضعيفة بعد تفرقها، وهو القادر على خلق هذه الآيات العظيمة، من السماء والأرض، ذلك هو دليل البعث؛ لأنه يدل على كمال القدرة، ومن المقدور عليه إعادة خلق الإنسان وإيجاده مرة أخرى.

وقد قرن هذا الدليل بالتهديد حيث قال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

ثم بين تعالى أن المنتفع بتلك الآيات كل من يرجع إلى ربه، ويتوب إليه، لا من يتمادى في عناده وتعصبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾»[1].

ويقول الله تعالى حاكيًا عن المشركين استبعادهم وقوع البعث بعد الموت، وعدم إمكانه، وتعجبهم من شأنه وشأن القائل به: ﴿قٓ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ١ - ٣].

«قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي إنهم لم يستنكروا أصل الإرسال إليهم، وإنما أنكروا كون المرسل بشرًا مثلهم ينذرهم عذاب يوم القيامة وهم لا يؤمنون بالبعث الآخر فلذا قالوا ما أخبر تعالى به عنهم وقوله ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ أي بالبعث ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أمر يدعو إلى التعجب إذ من مات وصار ترابا لا يعقل أن يبعث مرة أخرى فيسأل ويحاسب ويجزي وقد أفصحوا عن معتقدهم بقولهم ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ذلك الرجوع إلى الحياة رجوع بعيد التحقيق»[2].

«الواقع أنهم يعبرون بذلك عن أنفسهم، ويستبعدون البعث ووقوعه ظنا منهم أن قدرة الله تشبه قدرتهم، فقاسوا قدرة الله على قدرتهم، وقياس الغائب على الشاهد باطل في نظر العقلاء، ولذلك صور الله عز وجل هذا الظن الخاطئ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

ولذا فقد استعظمت عقولهم هذا الأمر، وجعلته في حكم المستحيل، و إلا فلو نظروا بغير هذه النظرة القاصرة، وتأملوا في أنفسهم في مبدأ خلقهم، وفيما بين أيديهم من الآيات الدالة على القدرة الإلهية التي لا

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص٦٨.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري، ٥/ ١٣٧.

يعجزها شيء متى ما أرادته لما صدر منهم هذا القول المنكر»[1].

وقد رد على قولهم ذلك بقوله سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝﴾ [ق: ٤ - ٥]

«ردٌّ لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

فإن إحالتهم البعث ناشئةٌ عن عدة شبهٍ منها: أن تفرق أجزاء الأجساد في مناحي الأرض ومهاب الرياح لا تبقي أملًا في إمكان جمعها، إذ لا يحيط بها محيطٌ، وأنها لو علمت مواقعها لتعذر التقاطها وجمعها، ولو جمعت كيف تعود إلى صورها التي كانت مشكلةً بها، وأنها لو عادت كيف تعود إليها، فاقتصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذراتها.. والمعنى: أن جمع أجزاء الأجسام ممكنٌ لا يعزب عن علم الله، وإذا كان عالمًا بتلك الأجزاء كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي وكان قد أراد إحياء أصحابها كما أخبر به، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجسامًا كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة»[2].

وهذا من الإعجاز فقد رد على تلك الشبه المتعددة والاحتمالات الكثيرة برد موجز مفحم، فالذي خلقها عالم بمحل كل جزء منها بعد تفرقها، لا يعزب عنه منها شيء، وهو قادر على إعادة تركيبها كما كانت، كما ابتدأ خلقها أول مرة.

«فقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إيماءٌ إلى دليل الإمكان، لأن مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا، فأساس مبنى الرد هو عموم علم الله تعالى، لأن يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبهتهم، فلو قال: نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم لخطر في وساوس نفوسهم شبهة أن الله وإن سلمنا أنه قادرٌ فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها الله حتى تتسلط على جمعها قدرته، فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم، واعلم أن هذا الكلام بيانٌ للإمكان رعيًا لما تضمنه كلامهم من الإحالة، لأن ثبوت الإمكان يقلع اعتقاد الاستحالة من نفوسهم، وهو كافٍ لإبطال تكذيبهم، ولاستدعائهم للنظر في الدعوة، ثم يبقى النظر في كيفية الإعادة، وهي أمرٌ لم نكلف بالبحث عنه»[3].

«وبعد أن بين الله لهم شمول علمه، وإحاطته بالجزئيات والكليات -إذ إن العالم بجزئيات الأشياء لا تخفى عليه كلياتها- بين لهم سبب اضطرابهم في أمر البعث وأنه

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص٦٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٨٠-٢٨١

(٣) المصدر السابق.

تكذيبهم للحق الذي جاءهم من خالقهم، إذ الإخبار عنه حق، والمخبر به صادق، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مضطرب غير مستقر»[1].

٢. شبهة عدم عودة الموتى إلى الحياة والرد عليها.

كان من بين الشبه التي أثارها المشركون على إنكارهم للبعث ما حكاه القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٣٨-٤٠].

وهذا «انتقالٌ لحكاية مقالةٍ أخرى من شنيع مقالاتهم في كفرهم، واستدلالٌ من أدلة تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخبر به إظهارًا لدعوته في مظهر المحال، وذلك إنكارهم الحياة الثانية والبعث بعد الموت»[2].

«قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ معناه أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن الشيء إذا فني وصار عدمًا محضًا ونفيًا صرفًا، فإنه بعد هذا العدم الصرف لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئًا آخر غيره. وهذا القسم واليمين إشارةٌ إلى أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن عوده بعينه بعد عدمه محالٌ في بديهة العقل: وأقسموا بالله جهد أيمانهم على أنهم يجحدون في قلوبهم وعقولهم هذا العلم الضروري»[3].

وقال الألوسي: «وهو مبني على أن الميت يعدم ويفنى وأن البعث إعادة له وأنه يستحيل إعادة المعدوم، وقد ذهب إلى هذه الاستحالة الفلاسفة ولم يوافقهم في دعوى ذلك أحد من المتكلمين إلا الكرامية وأبو الحسين البصري من المعتزلة، واحتجوا عليها بما رده المحققون، وبعضهم ادعى الضرورة في ذلك وأن ما يذكر في بيانه تنبيهات عليه»[4].

وتقرير هذه الشبهة كما قال الرازي: «أن الإنسان ليس إلا هذه البينة المخصوصة، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه، لأن الشيء إذا عدم فقد فني ولم يبق له ذاتٌ ولا حقيقةٌ بعد فنائه وعدمه، فالذي يعود يجب أن يكون شيئًا مغايرًا للأول فلا يكون عينه»[5].

«فقال تعالى مكذبا لهم وردا عليهم:

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص٧١.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٠٦، ٢٠٧.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٧/ ٣٨٠.
(٥) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢٠٦.

﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لابد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر.

ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء، و﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي: في أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت»[(١)].

قال الرازي: «ثم إنه تعالى بين أن القول بالبعث ممكنٌ ويدل عليه وجهان:

الوجه الأول: أنه وعدٌ حقٌّ على الله تعالى، فوجب تحقيقه، ثم بين السبب الذي لأجله كان وعدًا حقًّا على الله تعالى، وهو التمييز بين المطيع وبين العاصي، وبين المحق والمبطل، وبين الظالم والمظلوم، وهو قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

والوجه الثاني: في بيان إمكان الحشر والنشر أن كونه تعالى موجدًا للأشياء ومكونًا لها لا يتوقف على سبق مادةٍ ولا مدةٍ ولا آلةٍ، وهو تعالى إنما يكونها بمحض قدرته ومشيئته، وليس لقدرته دافعٌ ولا لمشيئته مانعٌ فعبر تعالى عن هذا النفاذ الخالي عن المعارض بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وإذا كان كذلك، فكما أنه تعالى قدر على الإيجاد في الابتداء وجب أن يكون قادرًا عليه في الإعادة، فثبت بهذين الدليلين القاطعين أن القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق»[(٢)].

وقد ذكر الله تعالى قولهم باستحالة البعث بعد الموت في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣].

قال محمد الأمين الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الكفار المنكرين للبعث قالوا: إنهم وعدوا بالبعث، ووعد به آباؤهم من قبلهم، والظاهر أنهم يعنون أجدادهم، الذين جاءتهم الرسل، وأخبرتهم بأنهم يبعثون بعد الموت للحساب والجزاء، وقالوا: إن البعث الذي وعدوا به هم وآباؤهم كذبٌ لا حقيقة له، وأنه ما هو ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما سطروه وكتبوه من الأباطيل والترهات، والأساطير: جمع أسطورةٍ، وقيل: جمع أسطارةٍ، وهذا الذي ذكره عنهم من إنكارهم البعث ذكر

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٧١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢٠٧.

مثله في سورة النمل في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: ٦٧-٦٨].

ثم إنه تعالى أقام البرهان على البعث، الذي أنكروه في هذه الآية بقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]؛ لأن من له الأرض، ومن فيها، ومن هو رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ومن بيده ملكوت كل شيءٍ، وهو يجير ولا يجار عليه، لا شك أنه قادرٌ على بعث الناس بعد الموت»[(١)].

قال ابن عاشور: «فالمقصود منه حكاية دعوى البعث بأن الرسول الذي يدعيها بتحقيقٍ وتوكيدٍ مع كونها شديدة الاستحالة، ففي حكاية توكيد مدعيها زيادةٌ في تفظيع الدعوى في وهمهم، وجملة لقد وعدنا إلخ تعليلٌ للإنكار وتقويةٌ له. وقد جعلوا مستند تكذيبهم بالبعث أنه تكرر الوعد به في أزمانٍ متعددةٍ فلم يقع ولم يبعث واحدٌ من آبائهم، ووجه ذكر الآباء دفع ما عسى أن يقول لهم قائلٌ: إنكم تبعثون قبل أن تصيروا ترابًا وعظامًا، فأعدوا الجواب بأن الوعد بالبعث لم يكن مقتصرًا عليهم فيقعوا في شكٍ باحتمال وقوعه بهم بعد موتهم وقبل فناء أجسامهم بل ذلك وعدٌ قديمٌ وعد به آباؤهم الأولون وقد مضت أزمانٌ وشوهدت رفاتهم في أجداثهم وما بعث أحدٌ منهم، وجملة ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من القول الأول، وهي مستأنفة استئنافا بيانا لجواب سؤالٍ يثيره قولهم ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ وهو أن يقول سائلٌ: فكيف تمالأ على هذه الدعوى العدد من الدعاة في عصورٍ مختلفةٍ مع تحققهم عدم وقوعه؟ فيجيبون بأن هذا الشيء تلقفوه عن بعض الأولين فتناقلوه»[(٢)].

وقد أفحمهم القرآن بالجواب، قال الخازن: «قوله تعالى: ﴿قُل﴾ أي يا محمد لأهل مكة ﴿لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ من الخلق ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي خالقها ومالكها؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي لا بد لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة لله ﴿قُلْ﴾ أي قل لهم يا محمد إذا أقروا بذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فتعلموا أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت»[(٣)].

وقد عرض القرآن مقالتهم بإنكار البعث، وادعاءهم استمرار الحياة الدنيا، وقدم العالم، وأنها ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، وأنهم لا حجة لهم في مواجهة الآيات

(١) أضواء البيان، ٥/ ٣٤٨، ٣٨٥.

(٢) التحرير والتنوير، ١٨/ ١٠٧.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٥.

واضحة الدلالة على أمر البعث بعد الموت إلا طلبهم بأسلوب يملؤه الصلف والتحدي والعناد بعث آبائهم الأولين في هذه الحياة الدنيا.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: ٢٤- ٢٥].

«أي وقال منكرو البعث والجزاء يوم القيامة ما هناك إلا حياتنا هذه التي نحياها وليس وراءها حياة أخرى، إننا نموت ونحيا أي نموت نحن الأحياء ويحيى أبناؤنا من بعدنا، وهكذا تستمر الحياة أبدًا يموت الكبار ويحيى الصغار، وما يهلكنا إلا الدهر أي وما يميتنا ويفنينا إلا مرور الزمان وطول الأعمار، وهو إلحاد كامل وإنكار للخالق عز وجل، وهو تناقض منهم لأنهم إذا سئلوا من خلقهم يقولون الله، فينسبون إليه الخلق، وهو أصعب ولا ينسبون إليه الإماتة وهي أهون من الخلق، فرد تعالى عليهم مذهبهم «الدهري» بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ليس لهم على معتقدهم هذا أدنى علم نقليًا كان ولا عقليًا، أي يتلقوه عن وحي أوحاه الله إلى من شاء من عباده، ولا عن عقل سليم راجح لا ينقض حكمه، كالواحد مع الواحد اثنان، والأبيض خلاف الأسود، وما إلى ذلك من القضايا العقلية التي لا ترد، فهؤلاء الدهريون ليس لهم شيء من ذلك، ما لهم إلا الظن والخرص، وقضايا العقيدة لا تكون بالظن، والظن أكذب الحديث»[(١)].

«﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي بأن الله باعث خلقه يوم القيامة ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين أي انشروهم أحياء، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا، وإطلاق الحجة على ذلك، إما حقيقة بناء على زعمهم، فإنهم ساقوه مساق الحجة، أو هو مجاز تهكما بهم. كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. بمعنى أن لا حجة لهم البتة، وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس»[(٢)].

قال الرازي: «واعلم أن هذه الشبهة ضعيفةٌ جدًا، لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول، فإن حصول كل واحدٍ منا كان معدومًا من الأزل إلى الوقت الذي حصلنا فيه، ولو كان عدم الحصول في وقتٍ معينٍ يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك، وذلك باطلٌ بالاتفاق[(٣)].

وقد رد عليهم القرآن العظيم بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣٧.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٤٣٣
(٣) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٧٩

﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٦]

«﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم على ما دل عليه الحجج لا الدهر كما تزعمون ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي فيه وجوز كون الفعل مضمنا معنى مبعوثين أو منتهين ونحوه ومعنى في أظهر أي يجمعكم في يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في جمعكم فإن من قدر على البدء وقدر على الإعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة في ذلك اليوم والوعد الصدق بالآيات دل على قرعها، وحاصله أن البعث أمر ممكن أخبر به الصادق وتقتضيه الحكمة وكل ما هو كذلك لا محالة واقع والإتيان بالآباء حيث كان منافيا للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقا للحق وتنبيها على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر لا لأن فيه شائبة ريب ما»[1].

٣. استمراء الملذات في الحياة الدنيا وعدم الرغبة في التذكير بمفارقتها.

ومن أسباب رفض أولئك المنكرين للبعث وبذل كل جهد في إنكاره أنهم ألفوا شهوات الحياة الدنيا؛ فهم يخشون تبعات الإيمان بالبعث، والانقياد للدين الذي يحجزهم عن شهواتهم، ويحول دونهم ودون أهوائهم، وقد سجل القرآن ذلك وبين سوء حالهم ومآلهم في قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧ - ٨].

قال ابن عاشور: «هذا استئناف وعيدٍ للذين لم يؤمنوا بالبعث ولا فكروا في الحياة الآخرة ولم ينظروا في الآيات نشأ عن الاستدلال على ما كفروا به من ذلك جمعًا بين الاستدلال المناسب لأهل العقول وبين الوعيد المناسب للمعرضين عن الحق إشارةً إلى أن هؤلاء لا تنفعهم الأدلة وإنما ينتفع بها الذين يعلمون ويتقون وأما هؤلاء فهم سادرون في غلوائهم حتى يلاقوا العذاب، وإذ قد تقرر الرجوع إليه للجزاء تأتى الوعيد لمنكري البعث الذين لا يرجون لقاء ربهم والمصير إليه»[2].

«﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بيانٌ لمآل أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل إليه تعالى، وأنه يعيدهم بعد بدئهم للجزاء ثوابًا وعقابًا، وتفصيل بعض الآيات

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٣/ ١٥٢.

(٢) التحرير والتنوير، ١١/ ٩٨.

الشاهدة بذلك، والمراد بلقائه إما الرجوع إليه تعالى بالبعث، أو لقاء الحساب، كما في قوله عز وعلا ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]»[١].

«وفي الآية إشارةٌ إلى أن البهجة بالحياة الدنيا والرضى بها يكون مقدار التوغل فيهما بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة. وليس ذلك بمقتضى الإعراض عن الحياة الدنيا فإن الله أنعم على عباده بنعمٍ كثيرةٍ فيها وجب الاعتراف بفضله بها وشكره عليها والتعرف بها إلى مراتب أعلى هي مراتب حياةٍ أخرى والتزود لها. وفي ذلك مقاماتٌ ودرجاتٌ بمقدار ما تهيأت له النفوس العالية من لذات الكمالات الروحية، وأعلاها مقام قول النبيء صلى الله عليه وسلم (فقلت ما لي وللدنيا)[٢]»[٣].

«قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر»[٤].

وقد ضرب الله المثل بهذا الكافر صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه وما كان من صنوف النعم فيهما فقال ما حكاه القرآن: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٦].

«يقول تعالى ذكره: هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ وهي بستانه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وظلمه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه»[٥].

«ثم حكى تعالى عن الكافر أنه قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فجمع بين هذين، فالأول قطعه بأن تلك الأشياء لا تهلك ولا تبيد هذه أبدًا مع أنها متغيرةٌ متبدلةٌ، فإن قيل: هب أنه شك في القيامة فكيف قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ مع أن الحدس يدل على أن أحوال الدنيا بأسرها ذاهبةٌ باطلةٌ غير باقيةٍ؟ قلنا: المراد أنها لا تبيد مدة حياته ووجوده»[٦].

قال ابن عطية: «و«ظلمه لنفسه»: كفره وعقائده الفاسدة في الشك في البعث، فقد

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ١٢٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة باب هدية ما يكره لبسه، رقم ٢٤٧١ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٩٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٤٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٢.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٣.

نص على ذلك قتادة وابن زيد، وفي شكه في حديث العالم إن كانت إشارته بهذه إلى الهيئة من السماوات والأرض وأنواع المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط، فإنما في الكلام تساخف واغترار مفرط وقلة تحصيل، وكأنه من شدة العجب بل والسرور أفرط في وصفها بهذا القول ثم قاس أيضا الآخرة على الدنيا، وظن أنه لم يمل له في دنياه إلا لكرامة يستوجبها في نفسه، قال: فإن كان ثم رجوع كما يزعم فستكون حالي كذا وكذا»[1].

قال الطبري: «وقوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يقول جل ثناؤه: قال لما عاين جنته، ورآها وما فيها من الأشجار والثمار والزروع والأنهار المطردة شكا في المعاد إلى الله: ما أظن أن تبيد هذه الجنة أبدا، ولا تفنى ولا تخرب، وما أظن الساعة التي وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم فتحدث، ثم تمنى أمنية أخرى على شك منه، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ فرجعت إليه، وهو غير موقن أنه راجع إليه ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ يقول: لأجدن خيرا من جنتي هذه عند الله إن رددت إليه مرجعا ومردًا، يقول: لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ولي عنده أفضل منها في المعاد إن رددت إليه»[2].

(١) المحرر الوجيز، ٣/ ٥١٧
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٢٢.

قال الرازي: «ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

والسبب في وقوع هذه الشبهة: أنه تعالى لما أعطاه المال في الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقًا له، والاستحقاق باقٍ بعد الموت فوجب حصول العطاء، والمقدمة الأولى كاذبةٌ فإن فتح باب الدنيا على الإنسان يكون في أكثر الأمر للاستدراج والتملية، والمقصود عود الكناية إلى الجنتين، والباقون منها، والمقصود عود الكناية إلى الجنة التي دخلها»[3].

وفي قوله هذا ذكر السعدي احتمالين ثم رجح أحدهما على الآخر فقال: «وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالما بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظا من العقل، فأي: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب، أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة

(٣) مفاتيح الغيب، ٢١/ ٤٦٣- ٤٦٤.

نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام، على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده»[1].

٤. الهروب من تصور الحساب والعذاب.

من الدوافع التي تكمن وراء إنكار هؤلاء المكذبين بالبعث ذلك الخوف الكامن من تصور أنهم بعد البعث محاسبون ومجازون بأعمالهم التي عملوها في حياتهم الدنيا، فكلما تصوروا ذلك الأمر رفضوا تصديقه واستبعدوه حذرا من وقوعه بالفعل فهم لا يتصورون أن يحاسبوا على ما جنوه من الجرائم والشنائع التي يخشون مغبة الحساب عليها والمعاقبة بها، لذا فهم يعبرون عن إنكارهم للبعث باستبعادهم للحساب والجزاء في الآخرة، وقد عبر القرآن عن ذلك من خلال ذلك المشهد الأخروي الذي يجري لأهل الجنة وهم يتذاكرون بعض ما كان في الدنيا من حوار بين بعضهم وبين مكذبي البعث.

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: ٥٠ - ٥٣].

«والمعنى: أهل الجنة يسأل بعضهم بعضًا عن حاله في الدنيا، قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي في الدنيا ينكر البعث، و﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبًا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي لمحاسبون ومجازون، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار»[2].

«والمدين: المجازى يقال: دانه يدينه، إذا جازاه، والأكثر استعماله في الجزاء على السوء، والدين: الجزاء كما في سورة الفاتحة»[3].

ومما يدل على ذلك قوله تعالى في سبب إنكار منكر البعث: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ [القيامة: ٥ - ٦].

«وقوله ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي ما يجهل الإنسان قدرة خالقه على إعادة خلقه، ولكنه يريد أن يواصل فجوره مستقبله كله فلا يتوب من ذنوبه ولا يؤوب من معاصيه لأن شهواته مستحكمة فيه.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ يخبر تعالى عن المنكر للبعث من أجل مواصلة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٧٧.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٣٠٥.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٣/ ١١٦.

الفجور من زنا وشرب خمور بأنه يقول أيان يوم القيامة استبعادا واستنكارا»[1].

وقال ابن الجوزي: «قوله عز وجل: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يكذب بما أمامه من البعث والحساب، قاله ابن عباس.

والثاني: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، ويقول: سوف أتوب، قاله سعيد بن جبير. فعلى هذا: يكون المراد بالإنسان: المسلم. وعلى الأول: الكافر.

وقوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أي: متى هو؟ تكذيبًا به، وهذا هو الكافر»[2].

وذكر ابن كثير أن ابن زيد رجح القول الأول فقال: «وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب. وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد؛ ولهذا قال بعده ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾؟ أي: يقول متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده»[3].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ قال بعض المتأولين: الضمير في أمامه عائد على الإنسان، ومعنى الآية أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبدا قدما راكب رأسه ومطيع أمله ومسوفا بتوبته، قاله مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسدي.

وقال السدي: المعنى ليظلم على قدر طاقته.

وقال الضحاك: المعنى يركب رأسه في طلب الدنيا دائمًا.

وقوله تعالى: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ تقديره لكن يفجر، وقال ابن عباس ما يقتضي أن الضمير في أمامه عائد على يوم القيامة، والمعنى أن الإنسان هو في زمن وجوده أمام يوم القيامة وبين يديه، ويوم القيامة خلفه فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه»[4].

قال الألوسي: «وفيهما إيماء إلى أن ذلك الإنسان عالم بوقوع الحشر ولكنه متغاب، واعتبر الدوام في ﴿لِيَفْجُرَ﴾ لأنه خبر عن حال الفاجر بأنه يريد ليفجر في المستقبل على أن حسبانه وإرادته هما عين الفجور، وقيل لأن ﴿أَمَامَهُ﴾ ظرف مكان استعير هنا للزمان المستقبل فيفيد الاستمرار، وفي إعادة المظهر ثانيًا ما لا يخفى من التهديد والنعي على قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأبى هذا الحسبان والإرادة وعود ضمير أمامه على هذا المظهر هو الأظهر»[5].

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ٥/ ٤٧٥.
(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٧٦، ٢٧٧.
(٤) المحرر الوجيز، ٥/ ٤٠٢-٤٠٣.
(٥) روح المعاني، ١٥/ ١٥٣.

آثار الإيمان بالبعث

هناك ثمرات وآثار تظهر على المؤمن بالبعث قولًا وفعلًا وحالًا وسلوكًا، منها ما يكون في الدنيا، ومنها ما يكون في الآخرة.

أولًا: في الحياة الدنيا:

للإيمان بالبعث آثار على حياة المؤمن في الحياة الدنيا، ومن هذه الآثار:

١. عدم الركون إلى الدنيا وملذاتها.

من ثمار الإيمان بالبعث بعد الموت الإقبال على الله وعلى الدار الآخرة، والإعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها، والتخفف منها، والقناعة باليسير من متاعها في حدود ما أحل الله، فتجد المؤمن الحق يعلم أنها ظل زائل وعرض حائل، فلا ينغمس في شهواتها، ولا يركن إليها، وهؤلاء هم الفائزون يوم القيامة بالنعيم المقيم مصداقا لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: تلك الدار الآخرة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحق في الأرض وتجبرا عنه ولا فسادا. يقول: ولا ظلم الناس بغير حق، وعملا بمعاصي الله فيها»[(١)].

وقال القرطبي: «قال أبو معاوية: الذي لا يريد علوًا هو من لم يجزع من ذلها. ولم ينافس في عزها، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعًا، وأعزهم غدًا ألزمهم لذلِ اليوم. وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالدٍ قال: مر علي بن الحسين وهو راكبٌ على مساكين يأكلون كسرًا لهم، فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[القصص: ٨٣].

ثم نزل وأكل معهم، ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني. فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم. خرجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبلٍ، قال حدثني أبي، قال حدثنا سفيان بن عيينة. فذكره. وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من اتقى، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له، لأنها تضره ولا تنفعه»[(٢)].

وذلك لأنهم يخافون من مغبة يوم البعث وأهواله ويعدون له ويتخففون من شهوات الدنيا لما يجدونه في أنفسهم من الخوف من هذا اليوم واليقين بوقوعه.

وقال تعالى: «﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا

(١) جامع البيان، ١٩/ ٦٣٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٢٠.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٧ - ١٨].

قال الألوسي: «﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال إنكار واستهزاء، كانوا يقولون: متى هي ليتها قامت حتى يظهر لنا أهو الذي نحن عليه أم كالذي عليه محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها مع اعتناء بها فإن الإشفاق عناية مختلطة بخوف، فإذا عدي بمن كما هنا، فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بعلى فمعني العناية أظهر، وعنايتهم بها لتوقع الثواب، وزعم الجلبي أن الآية من الاحتباك والأصل يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الأمر المتحقق الكائن لا محالة»[1].

وقال السعدي: «﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عنادا وتكذيبا، وتعجيزا لربهم، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه»[2].

٢. السعي الحثيث للأخرى.

فإن الإيمان بالبعث من أكبر الدواعي والدوافع للمرء على السعي الحثيث نحو الآخرة بكثرة العمل الصالح والاستعداد لها بالمسارعة في الخيرات.

قال تعالى: «﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

قال الطبري: «﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يقول: خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، فلا ينجيهم ما فعلوا من ذلك من عذاب الله، فهم خائفون من المرجع إلى الله.. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه الصفات صفاتهم، يبادرون في الأعمال الصالحة، ويطلبون الزلفة عند الله بطاعته»[3].

وقال الخازن: «قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، وعن عائشة قالت: (قلت يا رسول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال لا

(١) روح المعاني ١٣/ ٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٥٦.

(٣) جامع البيان، ١٩/ ٤٤- ٤٥.

يا بنت الصديق ولكن هم الذين يصومون ويتصدقون ويخافون أن لا يقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات)[1]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي يبادرون إلى الأعمال الصالحة ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي إليها، وقال ابن عباس: سبقت لهم من الله السعادة، وقيل: سبقوا الأمم إلى الخيرات»[2].

وقال ابن عاشور: «ومعنى وهم لها سابقون أنهم يتنافسون في الإكثار من أعمال الخير، فالسبق تمثيلٌ للتنافس والتفاوت في الإكثار من الخيرات بحال السابق إلى الغاية، أو المعنى وهم محرزون لما حرصوا عليهم، فالسبق مجازٌ لإحراز المطلوب لأن الإحراز من لوازم السبق»[3].

٣. محاسبة النفس.

إن من أيقن بالبعث بعد الموت وما يقع له بعده من الحساب والثواب أو العقاب جدير به أن يحاسب نفسه قبل المثول بين يدي ربه للحساب وأن يلوم نفسه على التقصير والتفريط فيكون ذلك دافعا له إلى التوبة من ذنوبه وغدراته وغفلاته، فيحسن عمله ويتقي ربه في كل حركاته وسكناته، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر: ١٨].

قال أبو السعود: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي في كل ما تأتون وما تذرون ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ أي: أي شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل لغدٍ لا يعرف كنهه لغاية عظمه وأما تنكير نفسٍ فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم الهائل كأنه قيل ولتنظر نفسٌ واحدةٌ ذلك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تكريرٌ للتأكيد أو الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل وهذا في ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي من المعاصي»[4].

وقال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرا وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة المؤمنون، رقم ٣١٧٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٠٤، رقم ١٦٢.
(٢) لباب التأويل، ٣/ ٢٧٣.
(٣) التحرير والتنوير، ١٨/ ٧٨
(٤) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٣٢.

كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضا، أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد، وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة»[1].

ثانيًا: في الآخرة:

أما في الآخرة فإن ثمار الإيمان باليوم الآخر والبعث بعد الموت أحلى وأفضل وهي كثيرة منها:

١. الحساب اليسير.

فإن من آمن باليوم الآخر وما فيه من بعث الأجساد من أجداثها وأعد له عدته فإن الله ييمن كتابه وييسر حسابه يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾ [الانشقاق: ٦- ٩].

«قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي يا ابن آدم ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾ أي أنك عامل تعمل يوميا ليل ونهار إلى أن تموت وتلقى ربك إنك لا تبرح تعمل لا محالة وتكسب بجوارحك الخير والشر إلى الموت حيث تنتقل إلى الدار الآخرة وتلقى ربك وتلاقيه هذا يشهد له قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح (كلكم يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها)[2] إذا فمن الخير لك أيها الإنسان المكلف أن تعمل خيرًا تلاقي به ربك فيرضى عنك به ويكرمك إنك حقا ملاق ربك بعملك فأنصح لك أن يكون عملك صالحا وانظر إلى الصورة التالية ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ لأنه حوى الخير ولا شر فيه ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ ينظر في كتابه ويقرر هل فعلت كذا فيعترف ويتجاوز عنه وينقلب إلى أهله في الجنة وهم الحور العين والنساء المؤمنات والذرية الصالحة يجمعهم الله ببعضهم كرامة لهم»[3].

٢. ثقل الموازين.

فإن من آمنوا بالبعث بعد الموت يثقل الله

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٥٣

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٥٥٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «كل الناس يغدو».

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٥٤٣

موازينهم يوم القيامة، وينجيهم من العذاب، ويكرمهم بدخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ [الأعراف: ٨].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «والوزن في ذلك اليوم الذي يسأل الله فيه الرسل والأمم، ويقص عليهم كل ما كان منهم، هو الحق الذي تحق به الأمور وتعرف به حقيقة كل أحدٍ وما يستحقه من الثواب والعقاب.. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قيل: إن الموازين جمع ميزانٍ فهي متعددةٌ لكل امرئٍ ميزانٌ وقيل: لكل عملٍ. والجمهور على أن الميزان واحدٌ وأنه يجمع باعتبار المحاسبين وهم الناس أو على حد قول العرب: سافر فلانٌ على البغال وإن ركب بغلًا واحدًا، وقيل: إن الموازين جمع موزونٍ، والمعنى فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة حسناته فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب والنعيم في دار الثواب»[(١)].

وقال القاسمي: «والوزن يومئذٍ الحق أي: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، يوم يسأل الله الأمم ورسلهم، العدل. فمن ثقلت موازينه أي: حسناته في الميزان فأولئك هم المفلحون أي: الناجون من السخط والعذاب»[(٢)].

٣. جنات الخلد.

فإن المؤمنين بالبعث بعد الموت هم الفائزون بجنات الخلد يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٣ - ٥].

«حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر. إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله. فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه. بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله، ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله

(١) تفسير المنار، ٨/ ٢٨٣.

(٢) محاسن التأويل ٥/ ٦.

به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها»[1].

«وأما معنى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم.. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي أولئك هم المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله تعالى ذكره بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله، من الفوز بالثواب، والخلود في الجنان، والنجاة مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب»[2].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: ٩ - ١٠].

قال الماوردي: «قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: يجعل لهم نورًا يمشون به، قاله مجاهد.

الثاني: يجعل عملهم هاديًا لهم إلى الجنة، وهذا معنى قول ابن جريج.

الثالث: أن الله يهديهم إلى طريق الجنة.

الرابع: أنه وصفهم بالهداية على طريق المدح لهم. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: من تحت منازلهم، قاله أبو مالك.

الثاني: تجري بين أيديهم وهم يرونها من علو، لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. يعني بين يدي، وحكى أبو عبيدة عن مسروق أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود»[3].

قال الشوكاني: «قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ أي: دعاؤهم ونداؤهم، وقيل: الدعاء العبادة، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[مريم:٤٨].

وقيل معنى دعواهم هنا: الادعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنى: أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعايب والإقرار له بالإلهية. قال القفال: أصله من الدعاء، لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما، وقيل معناه: طريقتهم وسيرتهم، وذلك أن المدعي للشيء مواظبٌ عليه فيمكن أن تجعل الدعوى كنايةً عن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٠.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١/ ٢٤٩.
(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٢٣.

الملازمة وإن لم يكن في قوله ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ دعوى ولا دعاءٌ وقيل معناه: تمنيهم كقوله: ولهم ما يدعون وكأن تمنيهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه، وهو مبتدأ وخبره ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، و﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة. والمعنى على القول الأول: أن دعاءهم الذي يدعون به في الجنة هو تسبيح الله وتقديسه. والمعنى: نسبحك يا الله تسبيحًا، قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: تحية بعضهم للبعض، فيكون المصدر مضافًا إلى الفاعل، أو تحية الله، أو الملائكة لهم، فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول.. قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»[1].

وقال السعدي: «يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائض، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

وأما تحيتهم فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سَلَامٌ﴾ وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ﴾

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٨٦.

إلى آخر الآية: إن أهل الجنة -إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما- قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال، فإذا فرغوا قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[1].

موضوعات ذات صلة:

الثواب، الجزاء، الجنة، الحساب، العذاب، الموت، النار، اليوم الآخر

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٥٨.

البُكاء

عناصر الموضوع

مفهوم البكاء	٢٦٠
البكاء في الاستعمال القرآني	٢٦١
الألفاظ ذات الصلة	٢٦٢
الضحك والبكاء من دلائل القدرة	٢٦٣
أسباب البكاء	٢٦٦
أنواع البكاء	٢٧٥
فوائد البكاء	٢٧٩

مفهوم البكاء

أولًا: المعنى اللغوي :

الباء والكاف والواو والهمزة أصلان: أحدهما سيلان الدمع، والآخر نقصان الشيء وقلته[١].

فالأول: بكى يبكي بكًا وبكاءً،فهو باك، والجمع بكاة وبكي، فالبكاء بالمد سيلان الدمع عن حزن وعويل، يقال إذا كان الصوت أغلب كالرغاء والثغاء وسائر هذه الأبنية الموضوعة للصوت، وبالقصر يقال إذا كان الحزن أغلب[٢].

وقيل: هو بالقصر خروج الدمع فقط، وبالمد خروج الدمع مع الصوت.

قال الشاعر[٣]:

بكت عيني وحق لها بكاها ... وما يغني البكاء ولا العويل

والأصل الآخر: قولهم للناقة القليلة اللبن هي بكيئةٌ، ومنه قول الشاعر[٤]:

يقال محبسها أدنى لمرتعها ... ولو تعادى ببكيءٍ كل محلوب

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «البكاء بالمد سيلان الدمع عن حزن وعويل».[٥]

وقال السمعاني: «والبكاء حالة تعتري الإنسان من الهم وضيق القلب مع جريان الدمع على الخد»[٦].

و الملاحظ أن هذه التعريفات عرفت البكاء بحالته الأكثر انتشارًا، وإلا فهناك بكاء لم ينشأ عن غم أو حزن؛ كبكاء الخشية من الله، وبكاء الفرح، وهو ما تنبه له ابن عاشور، فقال: «البكاء انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن شوق»[٧].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢٨٥/ ١.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١٤١.
(٣) البيت لكعب بن مالك كما رجحه ابن بري، انظر: لسان العرب ١/ ٤٧٥.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٨٦، والبيت في ديوان سلامة بن جندل السعدي، ص٦.
(٥) المفردات ص١٤١.
(٦) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٣٣
(٧) التحرير والتنوير١٥/ ٢٣٥، وقارنه بالتعريف الوارد في روضة النعيم ٣/ ٨٣٣:«إراقة الدموع من أثر الخوف من الله أو للتعبير عن حزن في الفؤاد».

البكاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بكي) في القرآن الكريم (٧) مرات[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان:٢٩]
الفعل المضارع	٤	﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩]
اسم الفاعل	١	﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨]

وجاء البكاء في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: سيلان الدمع عن حزن وغيره[(٢)].

(١)[١] انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١٣٣.

(٢)[٢] انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٨٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢/ ٢٦٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٤١، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٢٢-٢٢٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخشوع:

الخشوع لغة:

خضع وذل وخاف، والخشوع: الخضوع والسكون والتذلل والخوف.

الخشوع اصطلاحًا:

إقبال المرء بقلبه على الله في دعائه وصلاته؛ خوفًا وانقيادًا، مع خضوع الجوارح والأعضاء[١].

الصلة بين الخشوع والبكاء:

البكاء أثر من آثار الخشوع، والخشوع محله القلب.

٢ الضحك:

الضحك لغة:

يقال ضحك يضحك ضحكًا وضحكًا وضحكًا وضحكًا أربع لغاتٍ، ومن ذلك الضحك وهو دليل الانكشاف والبروز[٢].

الضحك اصطلاحًا:

«انبساط الوجه وتكشر الأسنان من سرور النفس»[٣].

الصلة بين الضحك والبكاء:

الضحك ضد البكاء.

(١) ١ المفردات للأصفهاني ص٢٨٣، الفروق اللغوية العسكري ص٢٤٨، التعريفات للجرجاني ص٩٨.
(٢) ٢ لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٤٥٩، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٩٣.
(٣) ٣ المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٠١.

الضحك والبكاء من دلائل القدرة

ذكر الحق سبحانه وتعالى- في معرض إثبات كمال قدرته وانفراده بالخلق والإيجاد في سورة النجم - «جملة من عجائب صنع الله في خلقه، ولاسيما ما في خلق الإنسان وتكوينه من أسرار ظاهرة و باطنة، لم يصل الإنسان نفسه حتى الآن إلى تحديدها، واستكناه حقيقتها»[(١)].

فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾ [النجم:٤٣].

أولًا: نسبة الإضحاك والإبكاء لله عز وجل:

نسب الله تعالى لنفسه القدرة على الإضحاك والإبكاء بصيغة القصر الدالة على مطلق اختصاصه تعالى بهذا الفعل، ونفي إسناده لغيره، فقال: «﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ﴾».

كما أن الفعلين ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾، لا مفعول لهما في هذا الموضع؛ لأنهما سيقا لبيان قدرة الله، لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول[(٢)].

وقد اختلف أهل التأويل في بيان من المقصود بالإضحاك والإبكاء:

فقال مقاتل: أضحك أهل الجنة، وأبكى أهل النار[(٣)].

وقال التستري: أضحك المطيع بالرحمة، وأهلك العاصي بالسخط، وأضحك قلوب العارفين بنور معرفته، وأبكى قلوب أعدائه بظلمات سخطه[(٤)].

وقيل: أضحك بالوعد، وأبكى بالوعيد[(٥)].

وقال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر[(٦)].

والراجح من الأقوال أن الله تعالى أضحك الناس وأبكاهم؛ قال السمعاني:» والأصح من الأقاويل أنه أضحك الخلق وأبكاهم «[(٧)].

لكن، إذا كان فعل الإضحاك والإبكاء موجها للإنسان، فما المراد بذلك؟

اختلف المفسرون أيضًا في تعيين المراد بذلك، وهذا جماع أقوالهم:

قال الهواري: «خلق الضحك والبكاء»[(٨)].

وقال الماتريدي: «قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾ يخرج على

(١) التيسير في أحاديث التفسير، المكي الناصري ٦/ ١١٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ١٩.
(٣) تفسير مقاتل ٣/ ٢٩٤.
(٤) تفسير التستري، ص١٥٧.
(٥) تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٠١.
(٦) زاد المسير ابن الجوزي ٨/ ٨٣.
(٧) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٠١.
(٨) تفسير كتاب الله العزيز، الهواري ٤/ ٢٤٧. التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري ٩/ ١٣١.

وجهين:

أحدهما: على الكناية والاستعارة؛ جعل الضحك كناية عن السرور، والبكاء كناية عن الحزن؛ وكذا العرف في الناس أنه إذا اشتد بهم السرور ضحكوا، وإذا اشتد بهم الحزن بكوا.

والثاني: على حقيقة الضحك والبكاء، فهو على وجهين:

أحدهما: أي أنشأهم بحيث يضحكون، ويبكون.

والثاني: يخلق منهم فعل الضحك والبكاء؛ فهو أشبه التأويلين عندنا»[1].

وقال مكي بن أبي طالب القيسي: أضحك من شاء في الدنيا بأن سره، وأبكى من شاء بأن غمه[2].

وقال القرطبي: «قضى أسباب الضحك والبكاء»[3].

وقال الزمخشري: « ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، خلق قوتي الضحك والبكاء»[4].

و أرى أن حمل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ على حقيقة الضحك والبكاء أولى؛ لأن حمل الألفاظ على حقيقتها أولى من صرفها إلى المجاز؛ ولذلك قال ابن حيان: «الظاهر حقيقة الضحك والبكاء»[5].

وقال الماتريدي- بعد أن ذكر المعنى الحقيقي للإضحاك والإبكاء-: « فهو أشبه التأويلين عندنا»[6]،

ثم إن باقي المعاني تؤول إليه؛ لأن الضحك والبكاء من القوى والاستعدادات الغريزية التي فطر الله عليها الإنسان؛ وجعلها مقترنة بأسبابها وبواعثها من السرور والحزن؛ ولذلك قال الطاهر ابن عاشور:» وإسناد الإضحاك والإبكاء إلى الله تعالى؛ لأنه خالق قوتي الضحك والبكاء في الإنسان، وذلك خلق عجيب؛ ولأنه خالق طبائع الموجودات، التي تجلب أسباب الضحك والبكاء من سرور وحزن»[7].

ثانيا: البكاء نعمة ومنة كبرى على جنس الإنسان:

البكاء نعمة من النعم الكبرى التي امتن بها سبحانه على جنس البشر، واختصهم بها دون سائر مخلوقاته الأخرى، وهي آية معجزة دالة على انفراده سبحانه وتعالى بالإيجاد والقهر، وقد دل على إعجاز صفة البكاء في تكوين الإنسان، أن العلم لا يستطيع تعليله وفهم كيفية وقوعه، و لا تعيين مختلف المتغيرات المؤثرة في إنشائه

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤/ ٦١٤ .
(٢) تفسير الهداية، مكي بن أبي طالب، ص ٧١٧٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٠٣ .
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٢٨.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان، ٨/ ١٦٥ .
(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤/ ٦١٤.
(٧) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٤٣ .

وإحداثه.

قال الامام الرازي: «اختار هذين الوصفين للذكر والأنثى؛ لأنهما أمران لا يعللان، فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدي في اختصاص الإنسان بالضحك والبكاء وجها وسببا، وإذا لم يعلل بأمر، ولا بد له من موجد فهو الله تعالى، بخلاف الصحة والسقم فإنهم يقولون: سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال، ويدلك على هذا أنهم إذا ذكروا في الضحك أمرا له الضحك، قالوا: قوة التعجب، وهو في غاية البطلان؛ لأن الإنسان ربما يبهت عند رؤية الأمور العجيبة ولا يضحك، وقيل: قوة الفرح، وليس كذلك؛ لأن الإنسان يفرح كثيرا، ولا يضحك، والحزين الذي عند غاية الحزن يضحكه المضحك، وكذلك الأمر في البكاء، وإن قيل لأكثرهم علما بالأمور التي يدعيها الطبيعيون إن خروج الدمع من العين عند أمور مخصوصة لماذا ؟ لا يقدر على تعليل صحيح»[1].

وقد بين سيد قطب كثيرًا من حقائق الإعجاز في خلق الإنسان كائنا ضاحكا باكيا، بأسلوب بليغ وعبارة رشيقة فقال: «أضحك وأبكى.. فأودع هذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البكاء؛ وهما سر من أسرار التكوين البشري لا يدري أحد كيف هما، ولا كيف تقعان في هذا الجهاز المركب المعقد، الذي لا يقل تركيبه وتعقيده النفسي عن تركيبه وتعقيده العضوي، والذي تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه، وتتشابكان، وتتفاعلان في إحداث الضحك، وإحداث البكاء. وأضحك وأبكى.. فأنشأ للإنسان دواعي الضحك ودواعي البكاء، وجعله - وفق أسرار معقدة فيه - يضحك لهذا ويبكي لهذا، وقد يضحك غدا مما أبكاه اليوم، ويبكي اليوم مما أضحكه بالأمس، في غير جنون و لا ذهول؛ إنما هي الحالات النفسية المتقلبة، والموازين والدواعي والدوافع والاعتبارات التي لا تثبت في شعوره على حال!

وأضحك وأبكى.. فجعل في اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين، كل حسب المؤثرات الواقعة عليه، وقد يضحك فريق مما يبكي منه فريق؛ لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك.. وهو هو في ذاته؛ ولكنه بملابساته بعيد من بعيد!

وأضحك وأبكى.. من الأمر الواحد صاحبه نفسه، يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبته غدا أو جرائره فإذا هو باك، يتمنى أن لم يكن، وأن لم يكن ضحك، وكم من ضاحك في الدنيا باك في الآخرة حيث لا ينفع البكاء !

(١) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٠.

هذه الصور والظلال والمشاعر والأحوال.. وغيرها كثير، تنبثق من خلال النص القصير، وتتراءى للحس والشعور، وتظل حشود منها تنبثق من خلاله؛كلما زاد رصيد النفس من التجارب؛ وكلما تجددت عوامل الضحك و البكاء في النفوس؛ وهذا هو الإعجاز في صورة من صوره الكثيرة في هذا القرآن»[1].

فقد بين هذا النص أن قدرة الضحك و البكاء، من الخصائص المودعة في الإنسان، وهي سر من أسرار التكوين؛ إذ لا تعقل ماهيتهما و لا كيفية وقوعهما،كما لا يفهم سببهما ودواعيهما؛ إذ كيف يضحك قومٌ مما يبكي منه آخرون؟ وكيف يبكي الواحد اليوم ما كان أضحكه بالأمس القريب؟ وصدق الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات:٢١].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤١٥-٣٤١٦.

أسباب البكاء

سبق القول إن البكاء عملية معقدة تتفاعل في إحداثها عوامل داخلية عضوية ونفسية وفطرية، وأخرى خارجية وفق سنة الله تعالى في ربط الأسباب بمسبباتها.

وإن تتبع جميع الأسباب التي تثير البكاء وتحمل عليه شأنه أن يحيد بنا عن صلب هذا البحث المخصص للمفهوم في القرآن، ولذلك سأقتصر على الأسباب الواردة في السياقات القرآنية المتضمنة للبكاء بلفظه أو بمعناه:

أولًا: البكاء لسماع آيات الله والتأثر بمواعظه:

يعد البكاء لسماع آيات الله تعالى من أعظم أوصاف أنبياء الله تعالى وعباده المتقين، ولذلك مدحهم الله به في مواضع من كتابه العزيز، منها:

قوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾ [مريم:٥٨].

فقد ذكر الله أن هؤلاء المنعم عليهم من النبيين إذا تتلى عليهم آيات الله خروا سجدًا وبكيًا، استكانة لله، وتذللًا وخضوعًا لأمره وانقيادًا.

والمراد بآيات الرحمن في هذا السياق: «أدلة الله وحججه التي أنزلها عليهم في كتبه»[1].

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٦-١٠٨].

وقد وردت هذه الآيات في سياق محاجة الكفار المكذبين بالقرآن، و المطالبين بالآيات المعجزة، يأمر الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم:» آمنوا بهذا القرآن - الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - أو لا تؤمنوا به، فإن إيمانكم به لن يزيد في خزائن رحمة الله، ولا تركككم الإيمان به ينقص ذلك، وإن تكفروا به، فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته -من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتابين- إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون تعظيما له وتكريما، وعلما منهم بأنه من عند الله، لأذقانهم سجدا بالأرض»[2].

وقد ذكر مجاهد أن المراد بالذين ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل الله على محمد قالوا سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولًا[3].

وذكر مقاتل أنها نزلت في مؤمني أهل التوراة عبد الله بن سلام وأصحابه[4].

أما المتلو فهو القرآن الكريم لدلالة السياق عليه.

وهو الذي رجحه ابن جرير الطبري فقال: «وإنما قلنا: عني بقوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن، لأنه في سياق ذكر القرآن لم يجر لغيره من الكتب ذكر، فيصرف الكلام إليه، ولذلك جعلت الهاء التي في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ من ذكر القرآن؛ لأن الكلام بذكره جرى قبله، وذلك قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ وما بعده في سياق الخبر عنه؛ فلذلك وجبت صحة ما قلنا، إذا لم يأت بخلاف ما قلنا فيه حجة يجب التسليم لها»[5].

فهؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان، تلين قلوبهم لسماع القرآن، ويخرون على وجوههم سجدا وبكيا، وهو «مشهد مصور لحالة شعورية غامرة، يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه؛ العارفة بطبيعته وقيمته؛ بسبب ما أوتيت من العلم قبله»[6]، خلافًا لمن يقابل آيات الله

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢١٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٧ / ٥٧٧.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٧/ ٥٧٨.
(٤) تفسير مقاتل ٢/ ٢٧٦.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٧٨-٥٧٩.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٥٤.

بالإستهزاء والصدود، كأولئك المخاطبين بقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ [النجم:٥٩-٦٢].

إن هذه الآيات لما سمعها أهل الصفة بكوا حتى أخضلوا؛ فعن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الآية، بكى أصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينهم بكى معهم، وبكينا لبكائه، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى، ولا يدخل الجنة مصر على معصية، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون، ثم يستغفرون، فيغفر لهم)[1].

وبهذا يتبين أن البكاء لسماع القرآن سمة العلماء وأمارة الشوق والمحبة، وحري بكل سالك إلى الله تعالى أن يجتهد في تحصيل وبلوغ هذه المنزلة.

ثانيًا: البكاء لمعرفة الحق:

ما أعظم فرح القلب سرورا بمعرفة الحق، وما أشد هذا الفرح إذا فاضت العين بالدمع تعبيرا عن تأثرها العميق بهذا الحق.

هذا مقام طائفة من النصارى حكى القرآن أحوالهم، فقال عز وجل: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣﴾ [المائدة:٨٢٩٨٣].

وقد قال بعض المفسرين: إنها نزلت في النجاشي وأصحابه؛ لما كان جعفر وأصحابه رضوان الله عليهم يتلون عليهم بعض ما أنزل من القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام؛ جعلت دموعهم تفيض بسبب ما عرفوا من الحق[2].

وقال غيرهم: إنها نزلت في الوفد من العلماء والقساوسة الذين بعثهم النجاشي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينظرون إليه ويسألونه، فلما لقوه فقرأ عليهم ما أنزل إليه، بكوا وأسفوا، فأنزل الله فيهم ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلى آخر الآية[3].

وقال آخرون: بل هذه صفة قوم كانوا على شريعة عيسى من أهل الإيمان، فلما

(١) أخرجه الترمذي في الجامع، رقم ١٦٣٣، ورقم ٢٣١١، والنسائي في السنن الصغرى، رقم٣١٠٧-٣١٠٨.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٩٤.

(٣) انظر: المصدر السابق ٨/ ٥٩٤، وتفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٤/ ١١٨٤.

بعث الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم آمنوا به[1].

والآيات تحمل على عمومها؛ فتشمل كل من علم الحق من النصارى، فزاده ما نزل من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم إيمانا وتصديقا.

ولذلك قال ابن جرير الطبري: «والصواب في ذلك من القول عندي: أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا: ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم يجدهم أقرب الناس ودادًا لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسم لنا أسماءهم؛ وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي، ويجوز أن يكون أريد به قومٌ كانوا على شريعة عيسى، فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه»[2].

وقد وصف القرآن الكريم أعين هذه الطائفة بأنها تفيض من الدمع، أي تمتلئ بالدمع حتى يسيل من جوانبها.

وذكر الإمام الرازي أن قوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ فيه وجهان:

الأول: المراد أن أعينهم تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء وغيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه.

الثاني: أن يكون المراد المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها[3].

وسبب هذا البكاء العميق تأثرهم بالحق الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، وتطابقه مع ما أوتوه من العلم، وتيقنهم من صدقه عليه الصلاة والسلام.

قال أبو زهرة: «معناه أن سبب البكاء هو ما عرفوه من الحق، وهذا يدل على أمرين: أولهما: أنه تحقق لديهم ما وجدوه من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم. ثانيهما: أنهم كانوا لنفاذ بصائرهم، وعظم مداركهم يحسون بأنهم كانوا في ضلال فعرفوا الطريق، وكانوا في ظلام فاستناروا وكانوا في حيرة فاطمأنوا»[4].

إن هذه الطائفة من النصارى استحقت التنويه والإشادة بحالها الخاشعة وهي لم تعلم إلا بعض الحق،كما هو واضح من حرف التبعيض المقرون بالحق ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾، فكيف لو عرفوا الحق كله ؟

وهذا يبين مبلغ هؤلاء القساوسة والرهبان من الخشية والرهبة، واستعدادهم لتلقي الحق والانخراط مع أنصاره وأتباعه: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

(١) انظر: جامع البيان ٨/ ٥٩٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مفاتيح الغيب ١٢/ ٧٢.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٣٢٨.

ثالثًا: البكاء لفوات الخير وتحسرا عليه:

مشهد آخر من مشاهد البكاء يقصه القرآن الكريم عن نفر من المومنين[1]، جاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يسألونه نفقة تعينهم على الخروج إلى الجهاد وقتال العدو مع المومنين، لكنهم صادفوا شحة في الرواحل، ونقصا في النفقات، لم يستطع النبي عليه الصلاة والسلام - معها- أن يوفر لهم ما يطلبون من الحملان، فعذرهم في الخروج، وسامحهم في التخلف لهذا السبب.

ولكنهم من فرط حبهم للجهاد، وصدق رغبتهم في الخروج للقتال، لم يستسيغوا التخلف، ولم يطيقوا التأخر عن صفوف النافرين لقتال العدو، وإذ لم يجدوا حيلة ولا اهتدوا إلى سبيلٍ للجهاد، فقد تولوا وأعينهم تفيض من الدمع، حزنا على حالهم، وتحسرا على ما فاتهم من فضل الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩٢].

إن مشهد التخلف عن صفوف الزاحفين إلى ذروة سنام الإسلام يفلق الأكباد ويقطع الأحشاء، ولو كان لعذر وضرورة، وهذا ما جعل هذه الطائفة المؤمنة المأذون لها بالقعود تعود إلى ديارها، والحزن يعتصر قلبها، ويفيض الدمع من أعينها، «وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه»[2].

ولذلك سمي هؤلاء النفر من المومنين (البكاؤون)[3]، واستحقوا أن يخصوا بالذكر رغم أنهم مندرجون مع أصحاب الأعذار- لاسيما الذين لا يجدون ما ينفقون- المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة:٩١].

« لأنهم بالغوا في تحصيل ما يخرجون به إلى الجهاد حتى أفضى بهم الحال إلى المسألة، والحاجة لبذل ماء وجوههم في طلب ما يحملهم إلى الجهاد، والاستعانة به حتى يجاهدوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يفوتهم أجره»[4].

قال المراغي: «وهؤلاء -وإن دخلوا في

(١) لمعرفة اختلاف العلماء في تعين أسماء البكائين.
انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٤/ ٤٢١ وما بعدها.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٨٥.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام ٤/ ٣٩٩.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٨٨.

عموم الذين لا يجدون ما ينفقون للجهاد لفقدهم الرواحل- قد خصوا بالذكر اعتناء بشأنهم، وجعلهم كأنهم قسم مستقل»[1].

وفي ذلك تنويه بصدق البكائين وإخلاصهم وعلو مكانتهم عند الله.

رابعًا: البكاء بسبب نزول المصائب وتتالي الأحزان:

من أسباب البكاء الواردة في القرآن الكريم الحزن الشديد على فقد حبيب من الأحبة، وهذا كان حال نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام؛ فقد فجع بفقد ولده يوسف عليه السلام، وظل يندبه لسنين طويلة، ثم تتالت عليه الأحزان بفقد ابنه الآخر، فثوى إلى معزل، واستأنف البكاء والتفجع حتى ابيضت عيناه.

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤]. والأسف أشد الحزن.

قال البقاعي: «﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ أي يا أشد حزني، والألف بدل عن ياء الإضافة، لتدل على بلوغ الأسف إلى ما لا حد له»[2].

وهذا الحزن الشديد الطويل تسبب في ابيضاض عيني يعقوب عليه السلام، أي في إصابتها بالعمى، لأن الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى؛ وإنما كان البكاء الدائم يوجب العمى؛ لأنه يورث كدورة في سوداء العين.

قال الزمخشري: «إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين، وقلبته إلى بياض كدر»[3]، لأن توالي إحساس الحزن على الدماغ يفضي إلى تعطيل عمل عصب الإبصار[4].

وهذا العمى حقيقي- كما قرره جمهور المفسرين- وليس مجرد امتلاء العين بالماء، لغلبة البكاء فتصير كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء، لأن الله عز وجل حكى عن يوسف أنه قال لإخوته: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٣].

وقال تعالى كذلك: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف:٩٦].

و ورد ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ مقابلا ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ في آيات القرآن الكريم، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ [فاطر:١٩].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ رجع وعاد مبصرًا بعينيه، بعد ما قد عمي»[5].

(١) تفسير المراغي ١٠/ ١٨٣.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٨٩.
(٣) الزمخشري ٢/ ٤٦٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٤٣.
(٥) جامع البيان ١٣/ ٣٣٢.

وقال ابن كثير: «وكان قد عمي من كثرة البكاء»[1].

وقال ابن عاشور: «وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار»[2].

ولا يتعارض هذا مع القول بعصمة الأنبياء، واستحالة اتصافهم بما ينفر، أو يمنع من التبليغ؛ لأن بياض عيني يعقوب حصل بعد التبليغ؛ و لم يكن أصليا في خلقته؛بل عرض له، وهو من البلاء الذي يشتد على الأنبياء؛ لرفعة قدرهم، وعلو شأنهم عند الله تعالى، والله تعالى أعلم.

وابيضاض عيني يعقوب عليه السلام ليس بسبب الحزن، ولكن بسبب توالي البكاء، فقوله ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ تعليل بالأصل الذي نشأ منه البكاء وهو الحزن[3].

ويستفاد من قصة يعقوب وحزنه على ولده يوسف، جواز التأسف والبكاء عند النوائب؛ فإن الكف عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف؛ فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم، وقال: (إن العين تدمع، و القلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)[4].

(١) تفسير ابن كثير٤/ ٤٠٩.
(٢) التحرير والتنوير١٣/ ٤٣.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٣٣.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٣٠٢.

خامسًا: بكاء الحسرة والندم ونزول العذاب:

توعد الله المنافقين بالبكاء المرير يوم القيامة، حسرة على تضييع حدود الله، وندامة على اتخاذ آياته هزؤا، ومعاقبة لهم على تخلفهم عن رسول الله، وفرحهم بخذلان المؤمنين.

قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة:٨١-٨٢].

عن ابن عباس قال: «الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا ﴿وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا»[5].

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن في قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا﴾، قال: «يضحكوا قليلًا في الدنيا، وليبكوا كثيرًا في الآخرة في نار جهنم، جزاء ما كانوا يكسبون»[6].

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم:»إنا بك لمحزونون»،رقم ١٣٠٣، عن أنس بن مالك.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٥٥.
(٦)تفسير الصنعاني ١/ ٢٤٨.

فالآيات القرآنية السابقة إذن متضمنة إخبارًا بحقيقة ضحك وبكاء المنافقين، فإنهم مهما ضحكوا وتمتعوا في هذه الدنيا، فإن ذلك يعد قليلًا، بالنظر إلى ما ينتظرهم من عذاب الآخرة، وما يعقبه من حسرة وبكاء دائم، لأن الدنيا «دار قلعة وزوال وانزعاج وارتحال»[1]، أما الآخرة فهي دار قرار ومقام وخلود.

وقد أخرج هذا الإخبار من الله تعالى بما سيؤول إليه حال المنافقين على صيغة الأمر، للدلالة على أنه حتم واجب.

قال رشيد رضا: «وإنما كان الأمر في الآية بمعنى الخبر؛ لأنه إنذار بالجزاء لا تكليف، وقد قيل في فائدة هذا التعبير عن الخبر بالإنشاء أنه يدل على أنه حتم لا يحتمل الصدق والكذب كما هو شأن الخبر لذاته في احتمالهما، لأن الأصل في الأمر أن يكون للإيجاب وهو حتم؛ ويمكن أن يقال: إن الأمر بما ذكر يتضمن الإخبار بسببه؛ فيكون مؤكدا للخبر ببناء الحكم عليه، ويقابله التعبير عن الأمر بصيغة الخبر للتفاؤل بمضمونه كأنه وقع بالفعل»[2].

ويستفاد من هذا الوعيد الموجه للمنافقين أنهم لن يطيب لهم فيها عيش بعد أن هتك الوحي أستارهم، وكشف عوارهم، وأمر الرسول والمؤمنون بمعاملتهم بما يقتضيه نفاقهم، وعدم الاعتداد بما يظهرون من إسلامهم، وأن فرحهم عاقبته الحزن والكآبة، والخيبة والندامة، في الدنيا ويوم القيامة[3].

في سياق هذا الوعيد أيضًا نفهم بعض الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم التي يأمر فيها بالإكثار من البكاء والتقليل من الفرح، كقوله عليه الصلاة والسلام:(لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا)[4].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة ؟ قال: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)[5].

(١) نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٣٦٩.
(٢) تفسير المنار ١٠/ ٤٩٨.
(٣) تفسير المنار ١٠/ ٤٩١-٤٩٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»، رقم ٦٤٨٥- ٦٤٨٦، وأخرجه أيضًا في كتاب التفسير، باب (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)، رقم٤٦٢١، من حديث أنس بن مالك و أبي هريرة. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله، رقم ٢٣٥٩.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، ٤/ ٦٠٥. وقال حديث حسن، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٧٤١.

سادسًا: البكاء بسبب الكذب والمخادعة:

قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦﴾ [يوسف:١٦].

هذا كان شأن أبناء يعقوب لما ألقوا أخاهم يوسف في غيابات الجب، جاءوا أباهم باكين أو متباكين، ومعهم قميصه مضمخا بالدماء؛ ليوهموه أنهم صادقون في نسبة افتراسه للذئب؛ ولأنهم كاذبون، فقد «جاءوا في ظلمة العشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب»[(١)].

والعشاء محل الظلمة، وهو ستر للانفعالات التي توجد على الوجوه من الاضطراب؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذي حدث؛ بل بحديث مختلق، وقد تخدعهم حركاتهم، ويفضحهم تلجلجهم، وتنكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم؛ فقالوا: الليل أخفى للوجه من النهار، وأستر للفضائح؛ وحين ندخل على أبينا عشاء؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا؛ وبذلك اختاروا الظرف الزمني الذي يتوارون فيه من أحداثهم[(٢)].

وإذا كان البكاء انفعالًا غريزيًا يسيل معه الدمع من العينين عند ورود باعثه على القلب، فقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي، « وإنما اصطنعوا البكاء تمويها على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف عليه السلام، ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد»[(٣)].

ويستفاد من تباكي إخوة يوسف أمام أبيهم يعقوب عليه السلام أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله؛ لاحتمال أن يكون تصنعا[(٤)].

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٤.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٨٨٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٣٦.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٣٨-٣٩.

أنواع البكاء

عدد ابن قيم الجوزية في كتابه (زاد المعاد)أنواع البكاء، وحصرها في عشرة أنواع:

أحدها: بكاء الرحمة والرقة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبة والشوق.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن.

والسابع: بكاء الخور والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين، والقلب قاسٍ.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه؛ كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها- كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه-: «تبيع عَبْرَتَها، وتبكي شجو غيرها».

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم، فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون؛ ولكن يراهم يبكون، فيبكي[1].

ترى ما أنواع البكاء الواردة في القرآن الكريم ؟

تبين من المبحث السابق أن أسباب البكاء في القرآن الكريم متعددة، و لا يخفى أن كل سبب من هذه الأسباب يرتبط به نوع أو أكثر من أنواع البكاء، فإذا كان سبب البكاء- على سبيل التمثيل- تأثرًا بسماع القرآن ومواعظه كان البكاء بكاء خشية أو خشوع أو فرح... وإذا كان السبب حزنا، كان البكاء من جنسه، إما بكاء حسرة وندم، أو بكاء تألم وكرب...

وعمومًا يمكن تقسيم أنواع البكاء الواردة في القرآن الكريم باعتبارات متعددة:

أولًا: باعتبار السبب الباعث عليه:

يمكن ترتيب البكاء الوارد في القرآن الكريم باعتبار السبب الباعث عليه والجالب له إلى الأنواع الآتية:

١ . بكاء الفرح.

البكاء الناشئ عن سرور القلب وبهجة النفس وانشراح الصدر.

٢ . بكاء الخشوع والإنابة.

وهو بكاء الأنبياء والرسل والصالحين والمهديين والمجتبين.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨].

و هو أيضًا بكاء الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا

(١) زاد المعاد ١/ ١٨٤.

يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٨].

٣. بكاء معرفة الحق.

وهو بكاء العارفين بالله تعالى، العالمين بأمره، المسارعين إلى مغفرته ورضوانه حينما تتجلى لهم الحقائق، وتلوح لهم البصائر.

و يأتي الموقف الذي حكاه الله تعالى عن بعض قساوسة ورهبان النصارى صورة مجلية لهذا النوع من البكاء، إذ لما سمعوا بينات القرآن وبصائره تتلى عليهم، فاضت أعينهم فرحًا وانشراحًا وحبورًا.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة:٨٢-٨٣].

٤. بكاء الحزن.

حينما تشتد الأحزان على القلب وتتوالى عليه المصائب وتنزل به الكروب، يفيض الدمع، ويبكي المحزون والمكروب،ويتخذ هذا النوع من البكاء صورا في القرآن الكريم منها:

- بكاء الحزن على فقد محبوب.

وأدق مثال له بكاء يعقوب عليه السلام على فقد فلذة كبده يوسف عليه السلام، فقد بكاه حتى شرق بماء دمعه،وشحب وجهه، وتقرحت أجفانه.

قال تعالى حكاية لشأنه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤].

ويمكن عد هذا البكاء أيضًا بكاء شوقٍ وحنينٍ للقاء المحبوب.

- بكاء الحزن على فوات مرغوب.

وأغلى مرغوب للمؤمن تحصيل الطاعات وعمل الصالحات، فإذا فاته شيئ من ذلك -لعجزه عنه مع حبه واشتياقه إليه- لم يجد ما يعبر به عن هذا الفوات إلا بإسبال العبرة و إذراء الدمعة، كما صنع البكاؤون لما فاتهم شرف الخروج مع الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الجهاد، قال عز وجل: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩٢].

٥. بكاء الحسرة والندم على التفريط في جنب الله.

وهذا بكاء المنافقين المستهزئين بالحق، والمعرضين عن سبيل الله، يكثر بكاؤهم ويطول يوم القيامة، كما كثر

فرحهم وتخلفهم في الدنيا،قال الحق سبحانه وتعالى منذرا ومخبرا بمصيرهم: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة:٨٢].

٦. البكاء المصطنع.

وهو بكاء مفتعل، لم يصدر على السجية، ولم يبعث عليه باعث مقبول من فرح أو حزن، وإنما هو دمعة مختلقة، وعبرة مصطنعة، غايتها التضليل والخداع، وإخفاء الحقيقة؛كما هو حال بكاء إخوة يوسف، وقد أضاعوا أخاهم، وجاؤوا على قميصه بدم كذب، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف:١٦].

٧. بكاء السماء والأرض.

قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان:٢٩].

نفت هذه الآية أن تكون السماء والأرض بكت على قوم فرعون، فاقتضى أن للسماء والأرض بكاء.

واختلف المتأولون في معنى ذلك، فحمله قوم على الحقيقة، وقالوا: إن الرجل المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عبادته أربعين صباحًا، وبكى عليه من السماء موضع صعود عمله، ولم يكن في قوم فرعون من هذه حاله.

وممن ذهب إلى هذا القول: علي بن أبي طالب، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير[(١)].

وقال ابن عطية: «والمعنى الجيد في الآية أنها استعارة باهية فصيحة تتضمن تحقير أمرهم،وأنهم لم يتغير عن هلاكهم شيء، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦]»[(٢)].

ورجح القرطبي: القول الذي يحمل بكاء السماء والأرض على الحقيقة، إذ لا استحالة في ذلك، وكما أن السماوات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم... فهي كذلك تبكي، مع ما جاء من الخبر في ذلك[(٣)].

فإذا كان الأمر كذلك، لم نحتج إلى

(١) «عن سعيد بن جبير، قال: أتى ابن عباس رجلٌ، فقال: يا ابن عباس، أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فهل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكى عليه وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، قال: فلم تبك عليهم السماء والأرض». أخرجه الصنعاني في تفسيره ٢/ ٢٠٨، والطبري في تفسيره ٢٢/ ٣٤،وابن أبي حاتم في تفسيره١٠/ ٣٢٨٨-٣٢٨٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١٤٢.

تكلف كيفية هذا البكاء، كما فعله بعض المفسرين، لأن ذلك يتوقف على الخبر الصحيح المرفوع.

ويتحصل لنا من هذه الآية أن الدموع رحمة لا يستحقها إلا المطيعون والمخبتون، ولو صدرت من السماء والأرض.

ثانيًا: باعتبار القصد:

يقسم البكاء باعتبار قصد الباكي إلى قسمين:

١. البكاء الممدوح.

وهو البكاء المحمود المشروع الذي يكون قصد صاحبه مشروعا وحسنا، «كالبكاء من خشية الله تعالى، وخوفا منه، وطمعا في رحمته، أو البكاء من سماع القرآن وما فيه بعد تدبره وتأمله، أو البكاء لمعنى إنساني نبيل؛ كما فعل سيد البشر صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم»[(١)].

٢. البكاء المذموم.

وهو ما كان قصد صاحبه سيئا ومنكرا، مثل «بكاء التصنع وما فيه، سواء أكان ذلك لإثبات صدق قول أم دعوى أم ما إلى ذلك، كما فعل إخوة يوسف، فهذا من البكاء المذموم؛ لأنه لا يكاد يدل على صدق الإنسان في فعله أو فعاله»[(٢)].

ثالثًا: باعتبار الموافقة أو المخالفة للشرع:

ينقسم البكاء باعتبار الموافقة والمخالفة إلى:

١. بكاء موافق.

وهو ما كان الباعث عليه أمرا فطريا مقبولا، وكان القصد منه محمودا، و صدر عن صاحبه موافقا لشرع الله، ومنسجما مع هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢. بكاء مخالف.

وهو البكاء الذي اختل فيه شرط إما في سببه، أو في قصد صاحبه، أو في كيفية وقوعه، ويدخل في ذلك البكاء النابع من تسخط النعمة، وعدم الرضا بالمقدور، أو كان قصد صاحبه إبطال الحق، وخداع الناظرين إليه، أو كان بكاء مقرونا بالعويل والصياح المنكر كما يفعله «جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير»[(٣)].

(١) انظر: نضرة النعيم ٣/ ٨٣٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: هذا المعنى في الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٦٦.

فوائد البكاء

فوائد البكاء كثيرة، واستقصاؤها جميعا ليس من مقاصد هذا البحث، وحسبي أن أورد نماذج منها، مرتبة في محورين هما:

أول: كيفية حدوث البكاء وفوائده الجسدية:

تتكون الدموع من ثلاثة مكونات:

١. الزيت.
٢. الماء.
٣. المخاط.

كما تحتوي الدموع على مواد معروفة باسم الأجسام المضادة التي تحمي من العدوى.

تصنع الدموع من قبل جهاز من الغدد والقنوات الخاصة تتوضع حول العينين،يعرف باسم الجهاز الدمعي.

توجد الغدد الدمعية، أو الغدد المنتجة للدمع:

- تحت عظم الحاجب خلف الجفن العلوي.
- عند حواف تجويف العين.
- في الجفون.

تنتقل الدموع من الغدد الدمعية إلى سطح العينين عبر قنوات صغيرة، كما أن هناك دورًا للجفون في الحفاظ على رطوبة العينين بنشر الدموع على امتداد العينين.

تصرف الدموع من العينين عبر ثقوب صغيرة جدًا اسمها النقاط الدمعية، وتعرف تلك الثقوب الصغيرة جدًا أيضًا باسم قنوات الدمع؛ وهي تتوضع عند الجفنين العلوي والسفلي، وتدخل الدموع من النقاط إلى أنابيب صغيرة اسمها النفيقات، توجد تلك الأنابيب عند الزاوية الداخلية للجفنين، ومن هناك، تعبر الدموع إلى كيس الدمع؛ يقع كيس الدمع بجوار الزاوية الداخلية للعينين (الموق)؛ بين العينين والأنف. عندما تطرف العين، تجبر الحركة كيسي الدمع على الانضغاط؛ وهذا يعصر الدموع لخارج كيسي الدمع، ويحركها بعيدًا عن العينين، ولداخل القناة الأنفية الدمعية.

تصرف القناة الأنفية الدمعية الدمع إلى مؤخرة الأنف، وتعرف القناة الأنفية الدمعية والقنوات الدمعية أيضًا باسم قنوات الدمع[(١)].

بعد هذا السرد الفيزيولوجي التشريحي، نجمل بعض الفوائد الصحية العضوية للدموع فيما يأتي:

- تساعد الدموع على مرونة حركة الجفون العلوية والسفلية.
- تساعد أيضًا على حمايتها كأداة لتطهيرها بصورة مستمرة.

(١) موسوعة الملك عبد الله بن عبد العزيز العربية للمحتوى الصحيح.

- تساعد على حمايتها من الإصابة بالجفاف.
- كما تساعد على طرد أي مواد مهيجة للعين، مثل الفلفل والدخان أو مواد صلبة كالأتربة.
- وتقوم عن طريق الغدة الدمعية بإدرار الدموع، وطرد هذه الأجسام الغريبة، لتعود إلى شفافيتها وتنظيفها.
- كما تقوم الدموع على شفافية القرنية وحمايتها من الجفاف.
- تساعد على وضوح الرؤية وقوة الابصار ودقتها.
- تخلص الجسم من المواد الكيماوية المتعلقة بالضغط النفسي[1].

ثانيًا: الفوائد النفسية و الروحية للبكاء:

الفوائد الروحية المعدودة في هذا المطلب مستندة إلى نصوص شرعية من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهي غيض من فيض، غايته التمثيل الباعث على الامتثال وسلوك هدي الشرع في البكاء:

١ . البكاء دليل الصدق والإخلاص.

أوضح مثال لذلك دموع البكائين المشار إليهم آنفًا التي فاضت شوقا للجهاد في سبيل الله، وتحسرا على فوات الطاعة.

٢ . البكاء من سمات الخاشعين، ومن علامات الخائفين.

ولقد حكى الله تعالى عن أنبيائه عليهم الصلاة و السلام أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن، خشعت قلوبهم، واهتزت جوارحهم، فخروا على أذقانهم ساجدين لعظمة الله، باكين من خوفه تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨].

وكذلك يفعل المنعم عليهم من العلماء، والصالحين، والعارفين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي حتى يسمع لصوته أزيز؛ فعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء)[2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال:

(١) أسرار الدموع، محمد السقا عيد، ص ١٠، مقال منشور في مجلة حراء العدد: ٣٥ مارس، أبريل ٢٠١٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب البكاء فى الصلاة، رقم ٩٠٤، والنسائي في الصغرى، كتاب الصلاة، باب البكاء فى الصلاة، رقم ١٢١٤.
وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الترغيب »رقم ٥٤٤ .

«لَأَنْ أَدْمَعَ دمعةً من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بألف دينارٍ»[1].

٣. البكاء دليل المعرفة و التبصر.

يتبوأ النبي عليه الصلاة والسلام مقامًا عليًا في المعرفة بالله والتبصر بحقائق الآخرة، ولذلك تعددت صور بكائه الشاهدة على هذا المقام السني،ومن ذلك حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ علي) قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك، وعليك أنزل ؟ قال: (فإني أحب أن أسمعه من غيري) فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء:٤١].

قال: (أمسك)، فإذا عيناه تذرفان)[2].

وإنما بكيصلى الله عليه وسلم عند هذا «لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بتصديقه، والإيمان به وسؤاله الشفاعة لهم ليريحهم من طول الموقف وأهواله؛ وهذا أمر يحق له طول البكاء والحزن »[3].

وعن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: (لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا)، فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم ولهم خنين[4].

وإنما بكى النبي عليه الصلاة والسلام؛ لاطلاعه على ما ينتظر أمته من منازل الآخرة و أهوالها.

وسبق ذكر أحوال الرهبان والقساوسة، ومسارعتهم إلى الإنابة والخضوع لأمر الله، وقد دل فيض الدمع وسكب العبرات على امتلاء قلوبهم بالمعرفة، واستبصارهم للحقائق الإيمانية التي يتنكر لها كثير من عميان البصائر.

٤. البكاء دليل الرحمة والرقة في قلب المومن.

إذا كانت الرحمة رقةً طبع الله تعالى قلوب عباده المومنين عليها، فإن البكاء أحد مظاهرها الخارجية.

ولذلك ثبت من حديث أسامة بن زيد (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت؛ ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمةٌ جعلها الله تعالى في قلوب عباده؛ وإنما

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢ / ٢٥٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)، رقم ٤٥٨٢، ومسلم في صحيحه، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، رقم ٨٠٠.
(٣) شرح صحيح البخاري ابن بطال ١٠/ ٢٧٩.
(٤) سبق تخريجه.

يرحم الله من عباده الرحماء)[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: (أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم:٣٦].

وقول عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٨].

فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى؛ فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال - وهو أعلم - فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك)[2].

٥. البكاء من سمات الشاكرين.

يعد البكاء الصادر من المؤمن شكرا عمليا؛ لأنه جمع رقة القلب، وعمل الجارحة، وهذا أبلغ الشكر وأعظمه؛ ولذلك حرم الله تعالى على النار عينا بكت من خشية الله؛ لأنها أدت شكر المنعم بفيض الدمع، وقد يفصح الدمع عما لا يستطيع القول كشفه وبيانه.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد ربه ويبكي حتى تخضل لحيته، إقرارًا بالعبودية الخالصة بين يدي الله تعالى، وشكرًا له عز وجل على جزيل العطاء وجميل الامتنان.

فعن عبيد بن عمير رحمه الله، أنه قال لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: فسكتت ثم قالت: (لما كانت ليلة من الليالي، قال: يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي، قلت: والله إني أحب قربك، وأحب ما يسرك. قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي، حتى بل حجره ! قالت: وكان جالسًا فلم يزل يبكي صلى الله عليه وسلم حتى بل لحيته ! قالت: ثم بكى حتى بَلَّ الأرض! فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله تبكي،وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟!، قال: أفلا أكون عبدًا شكورا ؟!، لقد أنزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ! ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩٠])[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم:»يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته، رقم ١٢٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم ٩٢٣ ، من حديث أسامة بن زيد .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأمته وبكائه شفقة عليهم، رقم ٢٠٢.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢ / ٣٨٦ .

٦. البكاء طريق موصل إلى محبة الله ورضوانه.

من الأشياء التي توصل إلى محبة الله تعالى، وتكسب رضوانه عبراتٌ تسكب من خشية الله، فعن أبي أمامة قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة من دموع خشية الله، وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله**)[١].

٧. البكاء من طرق الفوز بظل عرش الرحمن.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**سبعةٌ يظلهم الله: رجلٌ ذكر الله ففاضت عيناه**)[٢].

٨. البكاء من خشية الله منجاة من النار.

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان نار جهنم**)[٣].

وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**)[٤].

موضوعات ذات صلة:

الحزن، الغم، الفرح

قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب ٢/ ٨٨، رقم ١٤٦٨، والسلسلة الصحيحة، رقم ٦٨.

(١) أخرجه الترمذي في سننه،كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله، رقم ١٦٦٩.
وقال: هذا حديث حسن غريب.
وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي رقم ١٣٦٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب البكاء من خشية الله، رقم ٦٤٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٠٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في فضل البكاء من خشية الله، رقم ١٦٣٣.
والنسائي في السنن كتاب الجهاد، فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، رقم ٣١٠٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم ٧٧٧٨.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم ١٦٣٩.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق.
وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة ٦ / ٣٨٠ رقم٢٦٧٣.

بنو إسرائيل

عناصر الموضوع

التعريف ببني إسرائيل	٢٨٦
ذكر بني إسرائيل في القرآن	٢٩٠
من نعم الله على بني إسرائيل	٢٩١
صفات بني إسرائيل	٢٩٥
بنو إسرائيل مع موسى وفرعون	٣٠٧
أخذ الميثاق على بني إسرائيل	٣٢٥
موقفهم من الأنبياء بعد موسى	٣٣١
عقوبات الله على بني إسرائيل	٣٣٥
الدروس المستفادة من قصة بني إسرائيل	٣٤٠

التعريف ببني إسرائيل

أولًا: التسمية:

يطلق المؤرخون أسماء العبرانيين واليهود وبني إسرائيل، ويريدون بها طائفة واحدة معينة من الناس وهم: أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

١ . العِبْرِيُّون.

اختلفت الآراء في سبب تسميتهم بهذا الاسم، فقيل: إنهم سموا بالعبريين نسبة إلى إبراهيم عليه السلام، فقد ذكر في سفر التكوين باسم (إبراهيم العبراني)؛ لأنه عبر نهر الفرات وأنهار أخرى، ورجحه أكثر العلماء، وقيل: إنهم سموا بالعبريين نسبة إلى (عبر) وهو الجد الخامس لإبراهيم عليه السلام، وقيل: إن كلمة (عبري) ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك أنهم كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، وتتنقل من مكان إلى آخر بماشيتها بحثا عن الماء والمرعى، وكلمة عبري أصلها من العبور والتنقل، وكانوا يسمون بذلك تميزًا لهم عن أهل العمران، ثم لما عرفوا المدنية نفروا من هذه التسمية، وآثروا أن يعرفوا ببني إسرائيل[(١)].

٢ . بنو إسرائيل.

سموا بذلك نسبة إلى أبيهم إسرائيل، وهو إسحاق بن يعقوب بن إبراهيم عليهم السلام، وإسرائيل كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى عبد أو صفوة، ومن (إيل) وهو الله، فيكون معنى الكلمة عبد الله أو صفوة الله[(٢)].

٣ . اليهود.

قيل إنهم سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل، وقالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]. أي: تبنا ورجعنا، وقيل: إنهم سموا بذلك لأنهم يتهودون، أي: يتحركون عند قراءة التوراة، وقيل: سُمُّوا بذلك نسبة إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام[(٣)].

---

(١) انظر: معجم الحضارات السامية، عبودي هنري ص: ٥٨٢، بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ٩، بنو اسرائيل، مهران محمد بيومي ١ / ٢٩.

(٢) انظر: معجم الحضارات السامية، عبودي هنري ص: ٥٨٢، بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ١١، بنو اسرائيل، مهران محمد بيومي ١ / ٣٥.

(٣) انظر: معجم الحضارات السامية، عبودي هنري ص: ٥٨٢، بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد

ثانيًا: المكان:

يذكر المؤرخون أن العبريين: وهم من نسل إسحاق ويعقوب عليهما السلام كانوا يسكنون في بلاد كنعان، وكانوا يسكنون في جنوبي بلاد الشام، فلسطين وشرق الأردن، وكانوا عبارة عن بدو رحل يهتمون بتربية المواشي[1].

ولما اشتد القحط في هذه البلاد هاجر يعقوب عليه السلام إلى أرض مصر، وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصة وبين ما حدث بين يوسف عليه السلام وإخوته.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف:٨٨].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

عاش بنوا إسرائيل في مصر حياة كريمة آمنه في ظل يوسف عليه السلام، ويقال أن حكام مصر خلال هذه الفترة هم الهكسوس، وكان حكمهم في القرن السادس عشر ق.م.

ثم لما قامت الأسرة التاسعة عشرة والتي من ملوكها (رمسيس الثاني) جاهر المصريون بعداوتهم لبني إسرائيل وساموهم سوء العذاب، وقد ذكر القرآن الكريم هذا العذاب الذي حل على بني إسرائيل.

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم:٦].

ثم من الله تعالى على بني إسرائيل فأرسل إليهم نبي الله موسى عليه السلام لإنقاذهم وهدايتهم، ثم استمر الأذى والهوان في عصر موسى عليه السلام حتى خرجوا من مصر بقيادة موسى عليه السلام إلى بلاد الشام، فتوجه بهم إلى مدينة أريحا، وأمرهم بدخولها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤].

سيد طنطاوي ص: ١٢، بنو اسرائيل، مهران محمد بيومي ١ / ٣٥.

(١) انظر: أطلس الأنبياء والرسل لسامي بن عبد الله المغلوث ص: ١٢١.

فلما أحجموا عن دخول الأرض المقدسة حل بهم عذاب الله فتاهوا في الصحراء أربعين سنة، وبعد ذلك بأعوام قلائل توفي هارون عليه السلام، ثم توفي بعده موسى عليه السلام[1].

وبعد وفاة موسى عليه السلام شعر بنو إسرائيل بسوء أعمالهم وقبح تصرفاتهم مع نبيهم، فنصبوا عليهم يوشع بن نون عليه السلام، وهو الذي عبر بهم نهر الأردن إلى أريحا، ثم انتصروا على الملوك العموريين ثم سيطروا بعد ذلك على كامل الأرض المقدسة (فلسطين)[2].

بعد موت يوشع تقسم الأسباط أرض الشام، فسلط الله سبحانه وتعالى بعضهم على بعض، فانقسموا إلى مملكتين، مملكة (يهوذا) في الجنوب بقيادة داود عليه السلام، وتضم بيت المقدس، ومملكة (إسرائيل) في الشمال بقيادة إيشبعل وتضم سامريا، وبعد ذلك قتل إيشبعل، فبايع أهل الشمال داود عليه السلام وتوحدت دولة إسرائيل، وأصبحت أورشليم عاصمة دينية وسياسية لها، وبعد وفات داود عليه السلام خلفه في الملك سليمان عليه السلام، وكانت هذه المرحلة هي العصر الذهبي لدولة بني إسرائيل[3].

وبعد موت سليمان عليه السلام انقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتين، مملكة (يهوذا) في الجنوب، وعاصمتها أورشليم، بقيادة (رحبعام)، وعمرت (٤٠٠ عام)، وكانت نهايتها على يد البابليين، ومملكة (إسرائيل) في الشمال وعاصمتها شكيم، بقيادة (يربعام)، وعمرت (٢٥٠) سنة، وكانت نهايتها على يد الأشوريين[4].

قال عبد الكريم الخطيب: «ثم إذا أعدنا النظر إلى بني إسرائيل بعد الأسر البابلي، لم نجد لهم دولة ظاهرة ولا ملكا قائما، وإنما هم دويلات ممزقة، متقاتلة فيما بينها، تخرج من حكم البابليين لتقع تحت حكم الفرس في سنة (٥١٨ ق. م)، ثم تحت حكم الرومان، إلى أن جاء الفتح الإسلامي، الذي أدخل بيت المقدس في دولته، فأصبح المسجد الأقصى من مساجد الإسلام، ليس لبنو إسرائيل شأن به منذ ذلك الوقت إلى يوم الناس هذا»[5].

ثالثًا: الزمان:

يمكن تلخيص الفترة الزمنية التي عاشها بنو إسرائيل كما يأتي:

(١) انظر: أطلس تأريخ الأنبياء والرسل، سامي بن عبد الله المغلوث ص: ١٤٧، معجم الحضارات السامية، عبودي هنري ص: ٥٨٢.
(٢) انظر: معجم الحضارات السامية ، عبودي هنري ص: ٥٨٦.
(٣) انظر: معجم الحضارات السامية ، عبودي هنري ص: ٥٨٦.
(٤) انظر: بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ٤٨.
(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن ٨ / ٤٤٨.

أولًا: يذكر المؤرخون أن الفترة الزمنية التي عاشها بني إسرائيل في أرض كنعان كانت الفترة التي عاشها يعقوب عليه السلام، (١٨٣٧ - ١٦٩٠ ق. م).

ثانيًا: يرى كثير من المؤرخين أن استيطان بني إسرائيل في مصر كان خلال حكم الهكسوس لمصر (خلال السنوات ١٧٢٠ - ١٥٧٠ ق.م)[١]، وقيل: إن بني إسرائيل نزلوا إلى مصر (سنة: ١٦٧٨ ق.م)[٢].

ثالثًا: يرى بعض المؤرخين أن بني إسرائيل خرجوا من مصر بقيادة موسى عليه السلام في عهد (منفتاح بن رمسيس الثاني) حوالي (١٢١٣ ق.م)[٣].

رابعًا: دخل بنو إسرائيل فلسطين بقيادة يوشع بن نون لما خرجوا من التيه في صحراء سيناء بعد أربعين سنة، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد[٤].

خامسًا: تأسست المملكة اليهودية حوالي (١٠٩٥ ق٠م)، وأبرز ملوكها الأول طالوت وداود وسليمان عليهم السلام، واستمرت هذه المملكة حتى تم القضاء عليها وزوالها على يد بختنصر (سنة ٥٨٦ ق٠م)[٥].

سادسًا: انقسمت مملكة بني إسرائيل بعد وفاة سليمان عليه السلام (سنة ٩٧٥ ق. م) إلى مملكتين:

- مملكة (يهوذا) في الجنوب، وعاصمتها أورشليم، بقيادة (رحبعام)، وقد تعاقب عليها من بعده عشرون ملكًا، وعمرت (٤٠٠ عام)، وكانت نهايتها على يد البابليين (سنة ٥٨٦ ق.م)[٦].
- مملكة (إسرائيل) في الشمال وعاصمتها شكيم، بقيادة (يربعام)، وقد تعاقب عليها من بعده حوالي تسعة عشر ملكًا، وعمرت (٢٥٠) سنة، وكانت نهايتها على يد الأشوريين (سنة ٧٢١ ق.م)[٧].

(١) انظر: العبرانيون وبني إسرائيل في العصور القديمة، إبراهام مالمات ص: ١٢١.
(٢) انظر: رحلة بني إسرائيل إلى مصر، غطاس بن عبد الملك ص: ١٥٢.
(٣) انظر: بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ٢٣.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: المصدر السابق ص: ٢٦، أرض الميعاد، حسين فوزي النجار ص: ٤٤.
(٦) انظر: بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ٤٨.
(٧) انظر: بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ٤٩.

ذكر بني إسرائيل في القرآن

ورد ذكر (بني إسرائيل) في القرآن الكريم (٤١) مرة، في (١٦) سورة.
وأما قصة (بنو إسرائيل) فذكرت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	٤٠-٤٧-٤٣-٨٣-٦١-٨٦- -٢٤٦-٢٤٨-
الأعراف	١٣٨-١٤١
الإسراء	٤-٨-١٠١-١٠٣
طه	٨٠-٨٢-٨٦-٩٧
الصف	٦-١٤

من نعم الله على بني إسرائيل

أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بنعم عظيمة، حيث فضلهم على العالمين، وأنزل عليهم التوراة لهدايتهم، ومكن لهم في الأرض، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: التفضيل على عالمي زمانهم:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى فضل بني إسرائيل على العالمين، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة:٤٧].

والتفضيل إنما أتاهم لتمسكهم بالفضائل وتركهم للرذائل، إذ من يرى نفسه مفضلا شريفا يترفع عن الدنايا، وذكرهم بهذا الفضل لينبههم إلى أن الذي فضلهم على غيرهم له أن يفضل غيرهم كمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته، وإلى أنهم أجدر من جميع الشعوب بالتأمل فيما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات، فإن المفضل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل عليه، وهذا الفضل إن كان بكثرة الأنبياء فلا مزاحم لهم فيه، ولا تقتضي هذه الفضيلة أن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، ولا تمنع أن يفضلهم أخس الشعوب إذا انحرفوا عن جادة الحق وتركوا سنة أنبيائهم واهتدى بهديها غيرهم، وإن كان بالقرب من الله باتباع شرائعه، فذلك إنما يتحقق في أولئك الأنبياء والمهتدين من أهل زمانهم، ومن تبعهم بإحسان ما داموا على الاستقامة وسلكوا الطريق الذي استحقوا به التفضيل[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد، وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوة الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان، وإلى عهد الله شكرًا على تفضيله لآبائهم، ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون[2].

قال سيد قطب: «ومعنى هذا التفضيل أن الله قد جمع لهم من المحامد التي تتصف بها القبائل والأمم ما لم يجمعه لغيرهم، وهي شرف النسب، وكمال الخلق، وسلامة العقيدة، وسعة الشريعة، والحرية

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٥٢، تفسير المراغي ١ / ١٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٤٨٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٤٨٤.

والشجاعة، وعناية الله تعالى بهم في سائر أحوالهم، وقد أشارت إلى هذا آية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة:٢٠].

وهذه الأوصاف ثبتت لأسلافهم في وقت اجتماعها، وقد شاع أن الفضائل تعود على الخلف بحسن السمعة وإن كان المخاطبون يومئذ لم يكونوا بحال التفضيل على العالمين، ولكنهم ذكروا بما كانوا عليه فإن فضائل الأمم لا يلاحظ فيها الأفراد ولا العصور»[1].

وقال محمد رشيد: «ثم طلب منهم أن يذكروا نعمته، وتفضيله إياهم على الناس، إحياء لشعور الكرامة في نفوسهم، ووصله بالأمر باتقاء يوم الدين والجزاء، وهذا أسلوب حكيم في الوعظ، فينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بإحياء إحساس الشرف وشعور الكرامة في نفوس الموعوظين لتستعد بذلك لقبول الموعظة، وتجد من ذلك الإحساس معونة من العزيمة الصادقة التي هي من خصائص النفوس الكريمة على عوامل الهوى والشهوة، فإن النفس إذا استشعرت كرامتها وعلوها إلى ما في الرذائل من الخسة أبى لها ذلك الشعور - شعور العلو والرفعة - أن تنحط إلى تعاطي تلك الخسائس، وكان ذلك من أقوى الوسائل لمساعدة الواعظ على بلوغ قصده من نفس من يوجه إليه وعظه، ثم إن في الوعظ ما يؤلم نفس الموعوظ، وحرجا يكاد يحملها على النفرة من تلقينه، والاستنكاف من سماعه، فذكر الواعظ لما يشعر بكرامة المخاطب ورفعة شأنه، وإباء ما ينمي إليه من الشرف أن يدوم على مثل ما يقترف يقبل بالنفس على القبول، كما يقبل الجريح على من يضمد جراحه ويسكن آلامه»[2].

ثانيًا: إيتاء موسى التوراة لهداية بني إسرائيل:

ذكر القرآن الكريم أن من نعم الله تعالى على بني إسرائيل إعطاء موسى عليه السلام التوراة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة:٥٣].

هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم، مع الإشارة إلى تمام النعمة، وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم حتى كانت كتابا فكانوا به أهل كتاب أي أهل علم تشريع، والكتاب والفرقان: اسمان لشيء واحدٍ لكن يقالان

(١) في ظلال القرآن ١ / ٦٩.

(٢) تفسير المنار ١ / ٢٥١.

باعتبارين مختلفين، أما الكتاب، فلجمع الأحكام المتفرقة فيه، وأما الفرقان: فلكونه مفرقًا بين الحق والشبهة وبين الأحكام المختلفة، وأتى باللفظين تنبيهًا على تضمين التوراة للمعنيين[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر ويعدكم بهذه الأحكام والشرائع للاهتداء ويهيئكم للاسترشاد، فلا تقعوا في وثنية أخرى، وإن من كمال الاستعداد للهداية بفهم الكتاب أن يعرفوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو هدى ونور يرجعهم إلى الأصل الذي تفرقوا عنه واختلفوا فيه، وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون، وجاحده الرؤساء المستكبرون، والمقلدون الذين لا يعقلون، وهذا هو محل المنة؛ لأن إتيان الشريعة لو لم يكن لاهتدائهم وكان قاصرا على عمل موسى به لم يكن فيه نعمة عليهم[(٢)].

ثالثًا: التمكين في الأرض:

ذكر القرآن الكريم أن من نعم الله تعالى على بني إسرائيل التمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧].

بينت الآية نعمة الله العظيمة على بني إسرائيل، ولطفه بهم حيث رفعوا من حضيض المذلة إلى أوج العزة والكرامة، فتأسست لهم دولة عظيمة في بلاد الشام، وصاروا يتصرفون في أرض مصر كما شاءوا، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾، أي: وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر بالاستعباد وقتل الأبناء واستحياء النساء وأخذ الجزية واستعمالهم في الأعمال الشاقة، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده، وذكروا بهذا العنوان إظهارا لكمال اللطف بهم وعظم الإحسان إليهم حيث رفعوا من حضيض المذلة إلى أوج العزة، ولعل فيه إشارة إلى أن الله سبحانه عند القلوب المنكسرة[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾، قيل: أرض مصر، وقيل: أرض الشام، ومشارقها من حدود الشام، ومغاربها من حدود مصر، وقيل: جهاتها بما

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١ / ١٩١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٠١.
(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٠٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣ / ٧٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤ / ٣٤٨، تفسير المراغي ٩ / ٤٨، روح المعاني، الألوسي ٥ / ٣٦.

فيها بيت المقدس ومصر والشام، وهذا أولى من الاقتصار على أرض مصر التي كانوا فيها عبيدا هم ونساؤهم، وهذه الأرض هي: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، بكثرة الثمار والزروع والأشجار والخصب وسعة الرزق وكونها مساكن الأنبياء والصالحين ومرقدهم، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، بسبب صبرهم، وحسبك به حاثًا على الصبر[1].

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: ونفذت كلمة الله ومضت على بني إسرائيل تامة كاملة، بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه، وقد كان وعد الله تعالى إياهم مقرونا بأمرهم بالصبر والاستقامة، كما أمرهم نبيهم عليه السلام مبلغا عن ربه، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف:١٢٨].

ومن قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج، وقد تم وعد الله تعالى لهم بذلك، ثم سلبهم تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس ولم يكن من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى[2].

وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾، أي: وخربنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المباني والقصور التي كانوا يبنونها للمصريين، والمكايد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة لإبطال آياته والتشكيك فيها، وما كانوا يعرشون من الجنات والبساتين[3].

وقد جاء في آية أخرى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص:٥].

أي: ونريد أن نتفضل بإحساننا على من استضعفهم فرعون وأذلهم، وننجيهم من بأسه، ونريهم في أنفسهم وفي أعدائهم فوق ما يحبون، وأكثر مما يؤملون، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾، مقتدى بهم في الدين والدنيا، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، لملك الشام لا ينازعهم فيه منازع[4].

---

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢ / ٢٥٤، الكشاف، الزمخشري ٢ / ١٤٩، بيان المعاني، عبد القادر ملا ١ / ٤١٠.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٥٩٩، تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٨٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٧٦.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥ / ١٥٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٧٦.

(٤) انظر: تفسير المراغي ٢٠ / ٣٤.

صفات بني إسرائيل

تظهر صفات بني إسرائيل من خلال النقاط الآتية:

أولًا: التبديل والتحريف:

ذكر القرآن الكريم أن من صفات بني إسرائيل الاستهزاء ومخالفة الأوامر وتبديلها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة:٥٨-٥٩].

بينت الآية أن من صفات بني إسرائيل القبيحة تبديل آيات الله وتحريفها وفق رغباتهم وأهواءهم، فخاطب الله تعالى بهذه الآيات يهود بني إسرائيل الذين كانوا في المدينة بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم وجحودهم نبوته كآبائهم وأسلافهم، الذين كذبوا الرسل السابقين وتمردوا عليهم واستهزؤا بهم، واستعمال ضمير المخاطب في توجيه الكلام حتى ليكاد يكون للسامعين، مع أنه في صدد اليهود القدماء، وذلك لبيان وتوكيد شدة اللحمة في الأخلاق والجبلة والمواقف بين القديمين والحاضرين، وهو بصدد التنديد بأفعال الأبناء المكروهة إذا كانت على وتيرة أفعال الآباء، وفي ذلك توكيد بأن اليهود السامعين هم أنسال بني إسرائيل القدماء كما هو المتبادر، وتحذيرهم أن يفعلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فعل أباءهم مع أنبيائهم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، أي: وإذ أمرنا بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام فبلغه للقوم، والقرية: البلدة المشتملة على المساكن المبنية من حجارة وهي مشتقة من القري، وهو الجمع، يقال: قرى الشيء يقريه إذا جمعه، وهي تطلق على البلدة الصغيرة وعلى المدينة الكبيرة ذات الأسوار والأبواب، وهذه القرية: هي الأرض المقدسة، قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة:٢١].

وهو أصح الأقوال، وقيل: هي حبرون، وقيل: هي أريحا، لتكون مركزًا أولًا لهم، والأمر بالدخول أمر بما يتوقف الدخول عليه وهو القتال كما دل عليه قوله: ﴿وَلَا

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ١ / ١٣٥، التفسير الحديث، دروزة محمد عزت ٦ / ١٧٠.

﴿تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾، فإن الارتداد على الأدبار من الألفاظ المتعارفة في الحروب.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال:١٥][1].

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي: فكلوا من هذه القرية حيث شئتم عيشا هنيا واسعا بغير حساب، وفيه دلالة على أن المأمور به الدخول على وجه الاقامة والسكنى، ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، أي: باب القرية، وقيل: هو باب الحطة من بيت المقدس.

وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، والمراد بالحطة: الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر[2].

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: فلما دخلوا الباب خالفوا أمر الله، وقالوا بخلاف ما قيل لهم، وتبديل القول تبديل جميع ما قاله الله لهم، وفائدة إظهار لفظ القول دون أن يقال فبدلوه، لدفع توهم أنهم بدلوا لفظ حطة خاصة وامتثلوا ما عدا ذلك لأنه لو كان كذلك لكان الأمر هينا، وقيل: قالوا: مكان حطة حنطة، وقيل قالوا: بالنبطية حطا سمقاثا، أي: حنطة حمراء، استهزاء وتبديلًا منهم بما قيل لهم، وعدولًا عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا، وكان هذا رغبة في المخالفة وإصرارًا على العناد، ما يكشف عما في طبيعة القوم من عناد، وإنه عناد الأطفال، يأبون إلا ركوب رءوسهم، والاتجاه إلى غير ما يوجهون إليه، ولو كان في ذلك تلفهم وهلاكهم، وقد بينت السنة هذا التبديل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، فدخلوا يزحفون على أستاهم فبدلوا وقالوا: حطة حبة في شعرة)[3][4].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾، أي: عذابًا، وفي تكرير الذين ظلموا زيادة في تقبيح أمرهم وإيذان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم، وإنما جاء بالظاهر

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١ / ١٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٢٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢ / ١٠٣، روح البيان، إسماعيل حقي ١ / ١٤٣، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١ / ٢٦٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥١٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٣ ، ٤/ ١٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم ٣٠١٥، ٤/ ٢٣١٢.

(٤) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٥٦، مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٩٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥١٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١ / ٨٨.

في موضع المضمر، فقال: ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ولم يقل: عليهم؛ لئلا يتوهم أن الرجز عم جميع بني إسرائيل، ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾، وإنما جعل من السماء لأنه لم يكن له سبب أرضي من عدوى أو نحوها، فعلم أنه رمتهم به الملائكة من السماء بأن ألقيت عناصره وجراثيمه عليهم فأصيبوا به دون غيرهم، ولأجل هذا خص التبديل بفريق معروف عندهم، فعبر عنه بطريق الموصولية لعلم المخاطبين به وبتلك الصلة، فدل على أن التبديل ليس من فعل جميع القوم أو معظمهم؛ لأن الآية تذكير لليهود بما هو معلوم لهم من حوادثهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، بسبب فسقهم [1].

[انظر: اليهود: تحريفات اليهود]

ثانيًا: التعنت:

من صفات بني إسرائيل الذميمة التي ذكرها القرآن الكريم التعنت.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة:٦٧-٧٣].

بينت هذه الآيات قصة بني إسرائيل في تلقيهم لأوامر الله تعالى، وعدم التوقير لأنبيائهم، والتعنت في الأسئلة، وسوء الفهم في مقاصد الشريعة، وذلك أنه وجد قتيل فيهم، وكانوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله تعالى بذبح بقرة، وأن يضربوه ببعضها ليحيى ويخبر بقاتله، فأخبرهم موسى عليه السلام بذلك.

وإنما أمر -والله أعلم- بذبح البقرة دون غيرها؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

وقدم هنا قول موسى عليه السلام؛ لأن خطاب موسى عليه السلام لهم قد نشأ

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٥٦، مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٩٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥١٦.

عنه ضرب من مذامهم في تلقي التشريع، وهو الاستخفاف بالأمر حين ظنوه هزؤا، والإعنات في المسألة، فأريد من تقديم جزء القصة تعدد تقريعهم، ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، أي: سخرية يهزأ بنا، وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم وجهلهم بعظمة الله تعالى وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتثال، وإن لم تظهر حكمته[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، لأن الهزو في أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهل وسفه نفى عنه عليه السلام ما توهموه من قبله على أبلغ وجه وآكده، بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه، استفظاعا له، واستعظاما لما أقدموا عليه من العظيمة التي شافهوه بها، والعوذ: اللجوء من متخوف لكاف يكفيه، والجهل: التقدم في الأمور بغير علم، وكان في هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم، ويرجعوا إلى ربهم، وينفذوا أمر نبيهم[2].

ولما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله عز وجل سألوه الوصف، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، وقالوا لموسى تماديًا في تعنتهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، أي: ما حالها وصفتها، وكان حقهم أن يقولوا: أي بقرة هي؟ أو كيف هي؟ لأن ما يسأل به عن الجنس غالبًا.

لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حال لم يوجد بها شيء من جنسه، أجروه مجرى ما لم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾، أي: لا كبيرة ولا صغيرة، والفارض: المسنة التي لا تلد، يقال: منه فرضت تفرض فروضا، والبكر: الفتية الصغيرة التي لم تلد قط، وحذفت الهاء منهما للاختصاص بالإناث كالحائض.

﴿عَوَانٌۢ﴾، وسط نصف بين ذلك، أي: بين السنين، يقال: عونت المرأة تعوينا إذا زادت على الثلاثين، وقيل: العوان التي لم تلد قط، وقيل: العوان التي نتجت مرارًا.

وجاء في جوابهم بهذا الإطناب دون أن يقول من أول الجواب إنها عوان تعريضا بغباوتهم واحتياجهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يترك لهم مجالًا لإعادة السؤال، وزجرهم عن التعنت والتمادي والمراجعة، بقوله: ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾، أي: كفاكم مجادلة ونفذوا أمر الله واذبحوا البقرة، ولكنهم لم يسكنوا أنهم يريدون أن

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١ / ١٣٧، محاسن التأويل، القاسمي ١ / ٣٢٥، تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٨٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٤٦.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١ / ١٣٧، محاسن التأويل، القاسمي ١ / ٣٢٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٧٨.

يحاوروا، ولذلك غيروا صيغة السؤال[1].

ومما يبين تعنت بني إسرائيل وسوء أدبهم مع نبيهم موسى عليه السلام، وهم يسألون: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، وإضافة الرب إلى موسى عليه السلام، ولم يقولوا أدع لنا ربنا، فكأنه رب موسى عليه السلام، والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى هازئًا فيما أنهى إليهم! فهم أولًا: يقولون: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه![2].

ثم تمادوا في تعنتهم وتماديهم بما يوحي أنه صفة من صفاتهم القبيحة وخلق من أخلاقهم المتجذرة في نفوسهم، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾، أي: صاف لونها، ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾، أي: تعجب الناظرين، وكان يجب أن يكتفوا بهذه المميزات ولكنهم زادوا تنطعا إذ قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ أي: لم يذللها العمل، ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾، أي: وليست بذلول تثير الأرض، ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾، يقول: ولا تعمل في الحرث، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، أي: مسلمة من العيوب، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾، لا بياض فيها[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، اعتذار عن إعادة السؤال، وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين واعتذروا الآن؛ لأن للثالثة في التكرير وقعا في النفس في التأكيد والسآمة وغير ذلك، وقولهم: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، تنشيط لموسى عليه السلام، ووعد له بالامتثال لينشط إلى دعاء ربه بالبيان، ولتندفع عنه سآمة مراجعتهم التي ظهرت بوارقها في قوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾، ولإظهار حسن المقصد من كثرة السؤال وأن ليس قصدهم الإعنات، تفاديا من غضب موسى عليهم، والتعليق بـ ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾، للتأدب مع الله في رد الأمر إليه في طلب حصول الخير[4].

ولما استوفى جميع المميزات والمشخصات ولم يروا سبيلا إلى سؤال آخر، ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، أي: وما قاربوا أن

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١ / ١٥٤، الكشاف، الزمخشري ١ / ١٤٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ١ / ٨٦، معالم التنزيل، البغوي ١ / ١٢٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٥١، تفسير الشعراوي ١ / ٣٩٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٧٨.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١ / ١٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٢٩٥، تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٨٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٥٤.

يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم، وانقطع ما كان من تنطعهم وتعنتهم[1].

قال أبو زهرة: «إن الله تعالى يختبرهم في إيمانهم بأن يذبحوا بقرة، ولكنهم تأثرًا بالمصريين وما كانوا عليه من عبادة العجل، يترددون في ذبح البقرة، فيجادلون في ذبحها متجاهلين أمرها، ولو أتوا إلى أي بقرة فذبحوها لكان في ذلك الاستجابة الكاملة، ولكنهم يثيرون الريب حول الطلب، سألوا عن حقيقتها، وعن كونها صغيرة أو كبيرة، فأجيبوا، ثم سألوا عن لونها فأجيبوا، ثم سألوا عن كونها متخذة معلوفة للنماء والتوالد، أم هي ذلول عاملة، فذبحوها وما كادوا يفعلون تقليدًا للمصريين وتأثرًا فأفكارهم، وأوهامهم في دينهم»[2].

ثالثًا: التحايل على الأحكام:

ذكر القرآن الكريم تحايل بني إسرائيل على الأحكام.

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٥].

يقول الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾.

والسؤال فيه للتقرير المتضمن للتقريع، والإدلال بعلم ماضيهم، والمعنى: واسأل بني إسرائيل عن أهل القرية التي كانت حاضرة البحر، أي قريبة منه، راكبة لشاطئه.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، أي: اسأل عن حالهم في الوقت الذي كانوا يعتدون في السبت، ويتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه[3].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، أضيفت الحيتان إليهم لما كان من ابتلائهم بها، واحتيالهم على صيدها، وكانت تأتيهم يوم سبتهم، أي: تعظيمهم للسبت، فهو مصدر سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة.

﴿شُرَّعًا﴾، أي: ظاهرة من كل مكان، وهي جمع شارع، من شرع عليه إذا دنا وأشرف، وكانت الحيتان تأتي ظاهرة،

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٨٩.
(٢) المعجزة الكبرى القرآن ص: ١٣٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣ / ١٨٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٤٩٣، تفسير المنار، محمد رشيد ٩/ ٣١٧.

فكانوا يحتالون بحبسها في يوم السبت، ثم يأخذونها في يوم الأحد، ويقال: إنهم جاهروا بأخذها في يوم السبت.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾، أي: ولا تأتيهم يوم لا يعظمون السبت فعلا وتركا، قيل: إنها اعتادت ألا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت، فأمنت وصارت تظهر فيه، وتختفي في الأيام التي لا يسبتون فيها لما اعتادت من اصطيادها فيها، فلما رأوا ظهورها وكثرتها في يوم السبت أغراهم ذلك بالاحتيال على صيدها ففعلوا[1].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل لهم صيده.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: مثل هذا البلاء بظهور السمك لهم نبلوهم، أي نختبرهم أو نعاملهم معاملة المختبر لحال من يريد إظهار كنه حاله ليترتب الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر عن أمر ربهم، واعتدائهم حدود شرعه، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام[2].

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٣١٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٤٩٣.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك وأنكرت واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه.

ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟

أي: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم.

قالت لهم المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقديره: هذا معذرة وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

أي: نعظهم وعظ عذر نعتذر به إلى ربكم عن السكوت على المنكر، وقد أمرنا بالتناهي عنه، ورجاء في انتفاعهم بالموعظة، وحملها على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه.

أي: فنحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق يأسكم، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم[3].

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٤٩٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٤٦٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣ / ٣٩، تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٣١٧.

قال ابن عاشور: «إن صلحاء القوم كانوا فريقين، فريق منهم أيس من نجاح الموعظة وتحقق حلول الوعيد بالقوم، لتوغلهم في المعاصي، وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار.

فأنكر الفريق الأول على الفريق الثاني استمرارهم على كلفة الموعظة، واعتذر الفريق الثاني بقولهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

فالفريق الأول: أخذوا بالطرف الراجح الموجب للظن.

والفريق الثاني: أخذوا بالطرف المرجوح جمعًا بينه وبين الراجح لقصد الاحتياط، ليكون لهم عُذرًا عند الله إن سألهم: لماذا أقلعتم عن الموعظة؟ ولما عسى أن يحصل من تقوى الموعوظين بزيادة الموعظة، فاستعمال حرف الرجاء في موقعه؛ لأن الرجاء يقال على جنسه بالتشكيك، فمنه قويٌّ، ومنه ضعيف»[1].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، أي: فلما نسي العادون المذنبون، ما ذكرهم ووعظهم به إخوانهم المتقون، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسي في كونه لا تأثير له.

﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾، أي: عن العمل الذي تسوء عاقبته أي: أنجيناهم من العقاب الذي استحقه فاعلو السوء بظلمهم، ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وحدهم، ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، أي: شديد، من البأس وهو الشدة، أو البؤس، وهو المكروه أو الفقر، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: بسبب فسقهم المستمر لا بظلمهم في الاعتداء في السبت فقط[2].

رابعًا: الحرص على الحياة:

ذكر القرآن الكريم أن بني إسرائيل أحرص الناس على حياة.

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة:٩٦].

بينت الآية أن بني إسرائيل أحرص الخلق على حياة وأشدهم كراهة للموت، لما يعلمون من مآلهم السيء وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[3]، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحذرون واقع بهم لا محالة، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾، أي: أنك تجدهم في حال دعائهم إلى تمني الموت أحرص الناس على حياة، وعطف هذه الآية على قوله تعالى:

(١) التحرير والتنوير ٩ / ١٥٢

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٣١٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتبا الزهد والرقائق، رقم ٢٩٥٦ ٤ / ٢٢٧٢.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة:٩٥].

للإشارة إلى أن عدم تمنيهم الموت ليس على الوجه المعتاد عند البشر من كراهة الموت ما دام المرء بعافية، بل هم تجاوزوا ذلك إلى كونهم أحرص من سائر البشر على الحياة، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: حتى إنهم أحرص من جميع الناس حتى من الذين أشركوا، الذين لا يرجون بعثا ولا نشورا ولا نعيما فنعيمهم عندهم هو نعيم الدنيا، وفي هذا توبيخ وإيلام عظيم لهم، إذ أن المشركين لا يؤمنون ببعث ولا يعرفون إلا هذه الحياة، فحرصهم عليها ليس بالغريب، أما من يؤمن بكتاب ويقر بالجزاء فالأولى ألا يكون شديد الحرص عليها[1].

وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: يتمنى كل منهم أن يبقى على قيد الحياة ألف سنة أو أكثر، مع ما يعتري صاحب هذا العمر من سوء الحالة ورذالة العيش، لأنه يتوقع سخط الله وعقابه، فيرى أن الدنيا على ما فيها من الآلام والأكدار خير له مما يستيقن وقوعه في الآخرة، والعرب تضرب الألف مثلا للمبالغة في الكثرة، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾، أي: وما بقاؤه فيها بمنجيه ولا بمبعده من العذاب المعد له، فإن العمر مهما طال فهو منته لا محالة، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: والله عليم بخفيات أعمالهم، وبجميع ما يصدر منهم وهو مجازيهم به، فطول العمر لا يخرجهم من قبضته، ولا ينجيهم من عقابه، فالمرجع إليه، والأمر كله بيديه[2].

قال الشنقيطي: «فاعلم أن الله قد أوضح هذا المعنى مبينا أن الإنسان لو متع ما متع من السنين، ثم انقضى ذلك المتاع وجاءه العذاب أن ذلك المتاع الفائت لا ينفعه، ولا يغني عنه شيئا بعد انقضائه وحلول العذاب محله، وذلك في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

وهذه هي أعظم آية في إزالة الداء العضال الذي هو طول الأمل، كفانا الله والمؤمنين شره»[3].

وقال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ [البقرة:٩٦]: «أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق!

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣ / ٦٠٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٣٣٤، تفسير المراغي ١ / ١٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٦١٧.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٣٤، تفسير المراغي ١ / ١٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٦١٧.

(٣) أضواء البيان ١ / ٤١.

حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام! إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء، وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة، فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباه جبنًا وحرصًا على الحياة.. أي حياة! ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة، وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة، إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة، نعمة يفيضها الإيمان على القلب، نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني، المحدود الأجل الواسع الأمل وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة، فالإيمان بالآخرة- فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق، وجزائه الأوفى- هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعدًا إلى جوار الله»[1].

خامسًا: الإفساد في الأرض:

ذكر القرآن الكريم فساد بني إسرائيل في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝﴾ [الإسراء:٤-٧].

يخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه قضى إلى بني إسرائيل، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علوًا كبيرًا، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، ويعصون الله تعالى ويخالفون أوامره، وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة ويسيطرون عليها، وكلما ارتفعوا زادوا في الإفساد في الأرض.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾، أي:

(١) في ظلال القرآن ١/ ٩٢.

أولى الإفسادتين، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولي بأس شديد، أي: قوة وعدة وسلطة شديدة، ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾، أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، أي: مقضيا لا صارف له[1].

وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾، أي: الدولة والغلبة بعد هذه العقوبة الشديدة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾، على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، قيل: هي قتل بختنصر واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، وقيل: أعدنا لكم الدولة بملك طالوت وقتل داود جالوت.

﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، مما كنتم وهو تمييز جمع نفر وهو من ينفر مع الرجل من قومه[2].

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، أي: فعليها.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾، أي: المرة الآخرة، أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم، ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾، أي: يهينوكم ويقهروكم، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي بيت المقدس، ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾، أي: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء:٨]، أي: فيصرفهم عنكم.

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، أي: متى عدتم إلى الإفساد الذي تقدم منكم، عدنا للعقوبة فعاقبناكم في الدنيا بمثل ما عاقبناكم به في المرتين الأوليين، مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء:٨]، أي: مستقرا وسجنا لا محيد لهم عنه[3].

قال ابن كثير: «وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟

فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزري وجنوده، سلط عليهم أولًا ثم أديلوا عليه بعد ذلك، وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧ / ٣٥٦، مدارك التنزيل، النسفي ٢ / ٢٤٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٤٧.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣ / ٢٢٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٦ / ٨٣، مدارك التنزيل، النسفي ٢ / ٢٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٤٨، روح المعاني، الألوسي ٨ / ٢١.

نَفِيرًا ﴿٦﴾ [الإسراء:٦].

وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده، وعنه أيضا، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل، ثم قال: وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد، وفيما قص الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم، وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء»[(١)].

والذي عليه أكثر المفسرين أن هاتين المرتين قد وقعتا بالفعل، وأن إحداهما كانت عند الأسر البابلي، على يد بختنصر، الذي استولى على دولة بني إسرائيل ودمرها تدميرا، وهدم بيت المقدس، وساق القوم أسرى إلى بابل، وأما المرة الثانية، فكانت بعد أن قتلوا النبي أرميا، وقيل بعد أن قتلوا النبي يحيا[(٢)].

ويرى بعض المفسرين المعاصرين أن المرة الأولى وقعت عند دخول المسلمين المسجد الأقصى في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد ظل في أيديهم إلى أن دخله بنو إسرائيل في هذه الأيام، من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وثمانين للهجرة، واليوم المسجد الأقصى في يد بني إسرائيل ويعيثون فيه أنواع البغي والعدوان، والإفساد في الأرض، بنسف الدور، وبقتل الأطفال والنساء، بلا وازع من حياء أو ضمير، وبلا خوف من قوة رادعة في الأرض، أو في السماء! المرة الثانية إذن هي ما فيه إسرائيل الآن، من فساد في الأرض، وعلو واستكبار، فساد إلى أبعد مداه، وعلو واستكبار إلى غاية حدودهما[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم ٥ / ٤٧.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢ / ٣٠١، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨ / ٤٤٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ٨ / ٤٥١.

بنو إسرائيل مع موسى وفرعون

تظهر قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام وفرعون من خلال النقاط الآتية:

أولًا: قصتهم مع فرعون:

١. عذاب فرعون لهم.

ذكر القرآن الكريم تعذيب فرعون لبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف:١٤١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

بينت هاتان الآيتان الصورة القبيحة لفرعون، وهي أنه تجبر وطغى وجاوز الحد في الظلم، واستكبر وافتخر بنفسه ونسي العبودية، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، معنى العلو هنا الكبر، وهو المذموم من العلو المعنوي، ومعناه: أن يستشعر نفسه عاليا على موضع غيره ليس يساويه أحد، فالعلو مستعار لمعنى التفوق على غيره، غير محقوق لحق من دين أو شريعة أو رعي حقوق المخلوقات معه، فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرفاته برعي صلاح وتجنب فساد وضر، وإنما يتبع ما تحدوه إليه شهوته وإرضاء هواه، وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلها وأنه ابن الشمس، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، في أرض مصر، وعلا أهلها وقهرهم، حتى أقروا له بالعبودية، وفي التعبير بالأرض تبكيت عليه، أي: علا في محل التذلل والانخفاض، وصورت عظمة فرعون في الدنيا، بقوله: ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، لتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو أكبر العبر [(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، والشيع: جمع شيعة، والشيعة: الجماعة التي تشايع غيرها على ما يريد، أي تتابعه وتطيعه وتنصره على ما يريد، ولا يملك أحد منهم أن يلوي عنقه، أي: فرقًا مختلفة يكرم طائفة ويهين أخرى فأكرم القبطي وأهان الإسرائيلي وجعل كل طائفة تمتهن من هي تحتها، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، من أهل مصر هم بنو إسرائيل، وقد بالغ فرعون في استضعاف بني إسرائيل، فجعل بعضهم ينقل الحجارة من الجبل، وبعضهم يعملون له عمل النجارة، وبعضهم أعمال الطين، ومن كان لا يصلح لشيء من أعماله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩ / ٥١٦، تفسير السمرقندي ٢ / ٥٩٧، الكشاف، الزمخشري ٣ / ٣٩١، مدارك التنزيل، النسفي ٢ / ٦٢٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠ / ٦٦.

يأخذ منه كل يوم ضريبة درهما، فإذا غربت الشمس، ولم يأت بالضريبة غلت عليه يده اليمنى إلى عنقه، ويأمره بأن يعمل بشماله هكذا شهرًا، وأشار بقوله: ﴿طَآئِفَةً﴾، إلى أنه استضعف بني إسرائيل كاملًا، فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جاريا على أشخاص معينين لأسباب تقتضي استضعافهم ككونهم ساعين بالفساد، أو ليسوا أهلا للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم، بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾، أي: يأمر بذبح الذكور، ويترك البنات أحياء للخدمة، وإسناد الذبح إليه مجاز عقلي، وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم، حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة، وسبب ذبح الأبناء: أن كاهنا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده.

وفيه دليلٌ بَيِنٌ على ثخانة حُمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن، وإن كذب فما وجه القتل؟ ويستحيي النساء، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق، عليهم اسم النساء باعتبار المآل إيماء إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء فتصلحن لما تصلح له النساء، وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج، وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء إذ كل ذلك اعتداء على الحق[1].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: إن الفساد مستحكم متغلغل في أطواء نفسه، وقد بعثه على جعل الأمة متفرقة، وتحكيم طائفة من طائفة، فأغرى بينهم العداوة والبغضاء، يحس كل فريق منهم بأنه مظلوم، وظالمه هو الفريق الآخر، يتظالمون فيما بينهم ويتعادون؛ ليتمكن الظالم من ظلمهم والتحكم في رقابهم، وأن يقول لهم: أنا ربكم الأعلى، ولا ينكر أحد، ولو في قلبه؛ لأن كل فريق يتهم الآخر بأنه عين عليه، ويريد النكاية به، وقد أكد سبحانه وصف الإفساد فيهم بأن وبكان الدالة على أن الفساد كان في الماضي، ومستمر في الحاضر، ودال على شدة تمكن الإفساد من خلقه ولفعل الكون إفادة تمكن خبر الفعل من اسمه[2].

٢. نجاتهم منه.

ذكر القرآن الكريم نجاة بني إسرائيل من فرعون.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٦، تفسير السمرقندي ٢/ ٥٩٧، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٩١، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٢٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٦٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٦٨، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ١٠٩.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: ٣٠-٣٣].

وقال سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

ذكر جل وعلا في هذه الآيات الكريمة امتنانه على بني إسرائيل في نجاتهم وهلاك عدوهم، فبعد تصوير الله تعالى طغيان فرعون، وأنه إذا وصل الطغيان إلى أقصى حده كانت النهاية؛ وإرادة الله سبحانه فوق كل إرادة، ولو كانت طغيان فرعون، ولا شك أن إزالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على إيصال المنفعة، ولا شك أن إيصال المنفعة الدينية أعظم في كونه نعمة من إيصال المنفعة الدنيوية.

فلهذا بدأ الله تعالى بقوله: ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾، وهو إشارة إلى إزالة الضرر، فإن فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرًا من القتل والإذلال والإخراج والإتعاب في الأعمال، ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهي قوله: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾.

ووجه المنفعة فيه أنه أنزل في ذلك الوقت عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم، وتعدية واعدناكم إلى ضمير جماعة بني إسرائيل، وإن كانت مواعدة لموسى ومن معه الذين اختارهم من قومه، باعتبار أن المقصد من المواعدة وحي أصول الشريعة التي تصير صلاحا للأمة، فكانت المواعدة مع أولئك كالمواعدة مع جميع الأمة، ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية، وهي قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

ثم زجرهم عن العصيان، بقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾، ثم بين أن من عصى ثم تاب كان مقبولا عند الله، بقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾، وهذا بيان المقصود من الآية [1].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾، والمن: هو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر، وقيل: هو الترنجين، وقيل: المن ما يمن الله به من غير تعب ولا نصب، والسلوى: طائر كالسماني، وذكر إنه كان يأتيهم من هذين ما فيه كفايتهم، والسلوى وهو طائر السماني يساق إليهم في الصحراء، قريب المتناول سهل التناول،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢ / ٨٢، البحر المحيط، أبو حيان ٧ / ٣٦٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦ / ٢٧٤.

كان نعمة من الله ومظهرا لعنايته بهم في الصحراء الجرداء، وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد[1].

قال الشنقيطي: «والأظهر عندي في المن: أنه اسم جامع لما يمن الله به على عبده من غير كد ولا تعب، فيدخل فيه الترنجبين الذي من الله به على بني إسرائيل في التيه، ويشمل غير ذلك مما يماثله، ويدل على هذا قوله: صلى الله عليه وسلم الثابت في الصحيحين: (الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين)[2] والأظهر عندي في السلوى: أنه طائر، سواء قلنا إنه السماني، أو طائر يشبهه، لإطباق جمهور العلماء من السلف، والخلف على ذلك. مع أن السلوى، يطلق لغة على العسل، كما بينا»[3].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾، أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾، يعني يجب عليكم غضبي، ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾، يعني هلك وسقط في النار، ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾، قال ابن عباس: تاب عن الشرك، ﴿وَآمَنَ﴾، يعني وحد الله وصدق رسوله، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، يعني أدى الفرائض، ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾، قال ابن عباس: علم أن ذلك توفيق من الله تعالى، وقيل: لزم الإسلام حتى مات عليه، وقيل: علم أن لذلك ثوابا، وقيل: أقام على السنة[4].

ثانيًا: مواقف من قصتهم مع موسى عليه السلام:

من مواقف بني إسرائيل مع موسى عليه السلام ما يأتي:

١ . طلبهم اتخاذ الآلهة.

ذكر القرآن الكريم أن بني إسرائيل طلبوا من موسى اتخاذ آلهة.

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١ / ١٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٣٠٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٣٤٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٤ / ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، بابٌ: وقوله تعالى: (وظللنا عليكم الغمام)، رقم ٤٤٧٨ ، ٦ / ١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة، ومداواة العين بها، رقم ٢٠٩٤ ، ٣/ ١٦١٩.

(٣) أضواء البيان ٤ / ٧٥

(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٠٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٣٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦ / ٢٧٤.

بَيَّنَتْ الآيات جهل بني إسرائيل وسفاهة عقولهم وأنهم قوم لا تؤثر فيهم الآيات والمواعظ والعبر، فيخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾، أي: إنهم تجاوزوه بعناية الله وتأييده، فكأنه معهم بذاته فجاوزه مصاحبا لهم.

﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾، فأتوا عقب تجاوزهم إياه ودخولهم في بلاد العرب من البحر الأسيوي، على قوم يعبدون أصناما لهم، والقوم هم الكنعانيون ويقال لهم عند العرب العمالقة.

والعكوف: الملازمة بنية العبادة.

واختير طريق التنكير في أصنام ووصفه بأنها لهم، - أي: القوم - دون طريق الإضافة ليتوسل بالتنكير إلى إرادة تحقير الأصنام وأنها مجهولة، لأن التنكير يستلزم خفاء المعرفة، وإنما وصفت الأصنام بأنها لهم ولم يقتصر على قوله: ﴿أَصۡنَامٖ﴾، زيادة تشنيع بهم وتنبيه على جهلهم وغوايتهم في أنهم يعبدون ما هو ملك لهم فيجعلون مملوكهم إلاههم[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾، حنينا منهم إلى ما ألفوا في مصر من عبادة المصريين وتماثيلها وأنصابها وقبورها، ونداؤهم موسى وهو معهم مستعمل في طلب الإصغاء لما يقولونه، إظهارا لرغبتهم فيما سيطلبون، وسموا الصنم إلاها لجهلهم، فهم يحسبون أن اتخاذ الصنم يجدي صاحبه، كما لو كان إلاهه معه.

وهذا يدل على أن بني إسرائيل قد انخلعوا في مدة إقامتهم بمصر عن عقيدة التوحيد وحنيفية إبراهيم ويعقوب التي وصى بها في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة:١٣٢]؛ لأنهم لما كانوا في حال ذل واستعباد ذهب علمهم وتاريخ مجدهم واندمجوا في ديانة الغالبين لهم، فلم تبق لهم ميزة تميزهم إلا أنهم خدم وعبيد.

والتشبيه في قوله: ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾، أرادوا به حض موسى على إجابة سؤالهم، وابتهاجا بما رأوا من حال القوم الذين حلوا بين ظهرانيهم، وكفى بالأمة خسة عقول أن تعد القبيح حسنا، وأن تتخذ المظاهر المزينة قدوة لها، وأن تنخلع عن كمالها في اتباع نقائص غيرها[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾،

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٩٣، تفسير المراغي ٩ / ٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٨٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٨١.

أي: تجهلون عظمة الله وقوة سلطانه ولا تقدرون نعمه، أتريدون أن تشركوا بالله وتكفروا نعمه بعد أن نجاكم.

وكان جواب موسى لهم بعنف وغلظة، لأن ذلك هو المناسب لحالهم، والجهل: انتفاء العلم، أو تصور الشيء على خلاف حقيقته، والمراد جهلهم بمفاسد عبادة الأصنام، وكان وصف موسى إياهم بالجهالة مؤكدا لما دلت عليه الجملة الاسمية من كون الجهالة صفة ثابتة فيهم وراسخة من نفوسهم، ولولا ذلك لكان لهم في بادئ النظر زاجر عن مثل هذا السؤال، فالخبر مستعمل في معنييه: الصريح والكناية، مكنى به عن التعجب من فداحة جهلهم.

وفي الإتيان بلفظ ﴿قَوْمٌ﴾، وجعل ما هو مقصود بالإخبار وصفا لقوم، تنبيه على أن وصفهم بالجهالة كالمتحقق المعلوم الداخل في تقويم قوميتهم، وفي الحكم بالجهالة على القوم كلهم تأكيد للتعجب من حال جهالتهم وعمومها فيهم بحيث لا يوجد فيهم من يشذ عن هذا الوصف مع كثرتهم، ولأجل هذه الغرابة أكد الحكم (بإن)؛ لأن شأنه أن يتردد في ثبوته السامع[1].

وبعد أن بين لهم جهلهم وسفههم، بين لهم فساد ما طلبوه عسى أن تستعد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: إن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضى على ما هم فيه بالتبار بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار، وزائل ما كانوا يعملون من عبادة غير الله ذي الجلال، فإنما بقاء الباطل في ترك الحق له وبعده عنه.

وفي هذا بشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض.

ثم انتقل إلى بيان أن العبادة لغير الله لا تصح، ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: قال لهم موسى: أأطلب لكم معبودا غير الله رب العالمين وخالق السموات والأرض، وقد فضلكم على العالمين بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين، فماذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه؟

والاستفهام بقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾، للإنكار والتعجب من طلبهم أن يجعل لهم إلاها غير الله، وقد أولي المستفهم عنه الهمزة للدلالة على أن محل الإنكار هو اتخاذ غير الله إلاها، فتقديم المفعول الثاني للاختصاص، للمبالغة في الإنكار، أي: اختصاص الإنكار ببغي غير الله إلاها[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٨١، بيان المعاني، عبد القادر ملا ١ / ٤١٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٩ / ٥٣، التحرير

ثم بَيَّنَ لهم إنكاره طلب آلهة غير الله بما يعرفون من فضل الله عليهم، بتفضيلهم على أهل زمانهم ممن كانوا أرقى منهم مدنية وحضارة وسعة ملك وسيادة على بعض الشعوب، وهم فرعون وقومه، بقوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، جملة في موضع الحال، وحين كان عاملها محل إنكار باعتبار معموله، كانت الحال أيضا داخلة في حيز الإنكار، ومقررة لجهته.

وظاهر صوغ الكلام على هذا الأسلوب أن تفضيلهم على العالمين كان معلوما عندهم لأن ذلك هو المناسب للإنكار، ويحتمل أنه أراد إعلامهم بذلك وأنه أمر محقق، ومجيء المسند فعليا: ليفيد تقديم المسند إليه عليه تخصيصه بذلك الخبر الفعلي، أي: وهو فضلكم، لم تفضلكم الأصنام، فكان الإنكار عليهم تحميقا لهم في أنهم مغمورون في نعمة الله ويطلبون عبادة ما لا ينعم.

والمراد بالعالمين: أمم عصرهم، وتفضيلهم عليهم بأنهم ذرية رسول وأنبياء، وبأن منهم رسلا وأنبياء، وبأن الله هداهم إلى التوحيد والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبطوا فيه، وبأنه جعلهم أحرارًا بعد أن كانوا عبيدًا، وساقهم إلى امتلاك أرض مباركة وأيدهم بنصره وآياته، وبعث فيهم رسولا ليقيم لهم الشريعة، وهذه الفضائل لم تجتمع لأمة غيرهم يومئذ، ومن جملة العالمين هؤلاء القوم الذين أتوا عليهم، وذلك كناية عن إنكار طلبهم اتخاذ أصنام مثلهم، لأن شأن الفاضل أن لا يقلد المفضول، لأن اقتباس أحوال الغير يتضمن اعترافا بأنه أرجح رأيا وأحسن حالا، في تلك الناحية[1].

قال سيد قطب: عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف:١٣٨].

«إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية، وطبيعة بني إسرائيل- كما عرضها القرآن الكريم عرضًا صادقًا دقيقًا أمينًا في شتى المناسبات- طبيعة مخلخلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس.. ذلك إلى غلظ في الكبد، وتصلب عن الحق، وقساوة في الحس والشعور! وهاهم أولاء على طبيعتهم تلك، هاهم أولاء ما يكادون يمرون بقوم

والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٨٣.

(١) انظر: تفسير المراغي ٩ / ٥٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٨٤.

يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عامًا منذ أن جاءهم موسى- عليه السلام- بالتوحيد- فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عامًا منذ أن واجه فرعون وملأه برسالته إلى يوم الخروج من مصر مجتازًا ببني إسرائيل البحر- بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين!»[1].

٢. عبادتهم للعجل.

ذكر القرآن الكريم عبادة بني إسرائيل العجل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة:٥١-٥٢].

وقال سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٢-٩٣].

وقال جل وعلا: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٨-١٥٣].

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري، ونسب الاتخاذ إلى قوم موسى كلهم على طريقة المجاز العقلي، لأنهم الآمرون باتخاذه والحريصون عليه، وقد أضافهم الله إلى موسى هكذا: ﴿قَوْمُ مُوسَىٰ﴾، تذكيرًا لهم بتلك الآيات التي أجراها الله على يديه، تلك الآيات التي لم يكن لهم منها عبرة أو عظة.

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٦٦.

وفي هذا توبيخ لهم، واسترذال لعقولهم، وأنه ما كان لقوم ينتسبون إلى موسى الذي جاءهم بهذا الخير الكثير، وبتلك الآيات المشرقة، أن يفعلوا هذا الفعل المنكر الذي فعلوه.

﴿مِن حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾، من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلًا جسدًا لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى صار يسمع له خوار، أي صوت كصوت البقر، وإنما أضاف الصوت إليه، لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه:٨٥][1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، جملة استفهامية للتقرير وللتعجيب من حالهم، وقد سفه رأي الذين اتخذوا العجل إلاهًا، بأنهم يشاهدون أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، ووجه الاستدلال بذلك على سفه رأيهم هو أنهم لا شبهة لهم في اتخاذه إلاهًا بأن خصائصه خصائص العجماوات، فجسمه جسم عجل، وهو من نوع ليس أرقى أنواع الموجودات المعروفة، وصوته صوت البقر، وهو صوت عمى الجهل والضلال.

وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾، أي: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، ولما اشتد ندمهم وازدادت حسرتهم على ما فرط منهم في جنب الله وعلموا أنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا بعبادة العجل، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، أي: حزينا على ما صنع قومه من بعده، ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾، أي: بئس خلافة خلفتمونيها حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله، وقد كنت لقنتكم التوحيد، وكففتكم عن الشرك وبينت لكم فساده وسوء مغبته وحذرتكم صنيع القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر، وقد كان من الحق عليكم أن تقتفوا أثرى، وتتبعوا سيرتى بيد أنكم سلكتم ضد ذلك، فصنعتم صنما كأحد أصنامهم فعبده بعضكم

(١) انظر: تفسير لقرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٤٢٧، محاسن التأويل، القاسمي ٥ / ١٨٤، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥ / ٤٨٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ١٠٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٧، تفسير المراغي ٩ / ٦٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ١١٠.

ولم يردعكم عن ذلك باقيكم، ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، أي: استعجلتم ميعاد ربكم، ويقال: أعصيتم أمر ربكم، ويقال: معناه أعجلتم بالفعل الذي استوجبتم به عقوبة ربكم، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، أي: وطرح الألواح من يديه وأخذ برأس أخيه يجره إليه بذؤابته ظنا منه أنه قد قصر في ردعهم وتأنيبهم وكفهم عن عبادة العجل كما فعل هو بتحريقه وإلقائه في اليم إن قدر، أو أن يتبعه إلى جبل الطور إن لم يستطع، كما حكى الله تعالى عنه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه:٩٢-٩٣].

أي: ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن؟ ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهدًا؟[1].

ثم ذكر سبحانه جواب هارون لموسى فقال: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾، أي: يا ابن أمي لا تعجل بلومي وتعنيفي وتظنن تقصيري في جنب الله فإني لم آل جهدا في الإنكار على القوم والنصح لهم، لكنهم قد استضعفوني ولم يرعووا لنصحي ولم يمتثلوا لأمري بل أوشكوا أن يقتلوني.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: فلا تفعل بي من اللوم والتقريع ما يجعل الأعداء يشمتون بي، ولا تجعلني في زمرة القوم الظالمين لأنفسهم، وهم الذين عبدوا العجل فتغضب منى كما غضبت منهم وتؤاخذني كما اخذتهم، فإني لست منهم في شيء، وفى هذا دليل على أن هرون كان دون موسى في شدة العزيمة وقوة الإرادة وأخذ الأمور بالحزم، وهذا ما أطبق عليه المسلمون وأهل الكتاب.

ثم أبان سبحانه أثر هذا الاستعطاف في قلب موسى عليه السلام، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، أي: قال رب اغفر لي ما فرط منى من قول وفعل فيهما غلظة وجفاء، واغفر له ما عساه يكون قد قصر فيه من مؤاخذة القوم على ما اجترموه من الآثام خوفا مما توقعه من الإيذاء الذي قد يصل إلى القتل.

﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾، التي وسعت كل شيء واغمرنا بجودك وفضلك فأنت أرحم بعبادك من كل رحم، والآية صريحة في براءة هرون من جريمة اتخاذ العجل وفى إنكاره على متخذيه[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨ / ٣٥٠، تفسير السمرقندي ١ / ٥٥٢، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٦٠، تفسير المراغي ٩/ ٧١.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٩ / ٧٢.

﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: إن الذين بقوا على اتخاذ العجل واستمروا عليه كالسامري وأشياعه- سيصيبهم غضب من ربهم بألا يقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، وذلة عظيمة في الحياة الدنيا بالخروج من الديار والغربة عن الوطن.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾، أي: ومثل هذا الجزاء في الدنيا نجزى المفترين على الله في كل زمان إذا فضحوا بظهور افترائهم كما فضح هؤلاء، قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين[1].

٣. طلبهم رؤية الله.

ذكر القرآن الكريم أن بني إسرائيل طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة، وأن يشاهدوه بعيونهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

بينت الآيتان عنجهية وعجرفة بني إسرائيل وتجرؤهم على الله تعالى، وأن النعم والآيات لم تزدهم إلا كبرًا وبطرًا، حيث طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله تعالى جهرةً، وإنما قالوا: جهرة، توكيدًا للرؤية لئلا يتوهم متوهم أن المراد بالرؤية العلم، ووجه الخطاب ليهود المدينة وهم لم يفعلوا ذلك وإنما فعله أسلافهم، وذلك لمتابعتهم لهم على تصويبهم في تلك الأفعال.

وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾، يحتمل أنهم توقعوا الكفر إن لم يروا الله تعالى، أي أنهم يرتدون في المستقبل عن إيمانهم الذي اتصفوا به من قبل، ويحتمل أنهم أرادوا الإيمان الكامل الذي دليله المشاهدة، أي: أن أحد هذين الإيمانين ينتفي إن لم يروا الله جهرة، وليس في الآية ما يدل على أنهم كفروا حين قولهم هذا، ولكنها دالة على عجرفتهم وقلة اكتراثهم بما أوتوا من النعم وما شاهدوا من المعجزات حتى راموا أن يروا الله جهرة، وإن لم يروه دخلهم الشك في صدق موسى وهذا كقول القائل إن كان كذا فأنا كافر، وليس في القرآن ولا في غيره ما يدل على أنهم قالوا ذلك عن كفر، وإنما عدى نؤمن باللام لتضمينه معنى الإقرار بالله ولن نقر لك بالصدق والذي دل على هذا الفعل المحذوف هو اللام وهي طريقة التضمين[2].

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، أي: تموتون، والصاعقة: نار كهربائية من

(١) انظر: المصدر السابق ٩ / ٧٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩ / ٤٣٣، لباب التأويل، الخازن ١ / ٤٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٠٦.

السحاب تحرق من أصابته، وقد لا تظهر النار ولكن يصل هواؤها إلى الأحياء فيختنقون بسبب ما يخالط الهواء الذي يتنفسون فيه من الحوامض الناشئة عن شدة الكهربائية، وقد قيل: إن الذي أصابهم نار، وقيل: سمعوا صعقة فماتوا.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، أي: وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض، وقيل: تحدقون الأنظار عند رؤية السحاب على جبل الطور طمعا أن يظهر لهم الله من خلاله؛ لأنهم اعتادوا أن الله يكلم موسى كلاما يسمعه من خلال السحاب كما تقوله التوراة في مواضع، ففائدة الحال إظهار أن العقوبة أصابتهم في حين الإساءة والعجرفة إذ طمعوا فيما لم يكن لينال لهم[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يرى بعض المفسرين أن الله أحياهم بعد أن وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، وكانت تلك الموتة لهم كالسكتة القلبية لغيرهم، ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل، أي: إنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وظن أنهم سينقرضون، بارك الله في نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، نعمة البعث بعد الموت، أو نعمة الله بعد ما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت[2].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٥-٥٦]: «إن الحس المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة، أم لعله التعنت والمعاجزة، والآيات الكثيرة، والنعم الإلهية، والعفو والمغفرة، كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادًا عميقًا، وليس أشد إفسادًا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد: استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمردًا حين يرفع

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١ / ١٤٠، معالم التنزيل، البغوي ١ / ١١٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٠٧.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١ / ١١٩، تفسير المراغي ١ / ١٢٠.

عنها السوط، وتبطرًا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة، وهكذا كانت إسرائيل، وهكذا هي في كل حين»[1].

ثالثًا: قصتهم مع التيه:

١. امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة.

ذكر القرآن الكريم امتناع بني إسرائيل من دخول الأرض المقدسة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

إن هذه الآيات تصور اللحظات الأخيرة التي عاشها موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، فها هو ذا يدعوهم إلى خير ساقه الله إليهم، ويوجههم إلى دار أمن وقرار وعدهم الله بها، وقدم موسى عليه السلام أمره لبني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة بتذكيرهم بنعمة الله عليهم ليهيء نفوسهم إلى قبول هذا الأمر العظيم عليهم وليوثقهم بالنصر إن قاتلوا أعداءهم، فذكر نعمة الله عليهم، ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فقد جعل الله فيهم أنبياء وملوكا، وملوكا أنبياء، يجمعون بين سلطان الدنيا والدين، كما كان ذلك لداود وسليمان عليهما السلام، الأمر الذي لم يكن لأنبياء من قبل، ولا لملوك في الأرض، وموقع النعمة في إقامة الأنبياء بينهم أن في ذلك ضمان الهدى لهم والجري على مراد الله تعالى منهم، وفيه أيضا حسن ذكر لهم بين الأمم وفي تاريخ الأجيال[2].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: أنه آتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين، أي عالمي زمانهم وشعوبه

(١) في ظلال القرآن ١ / ٧٢.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦ / ٨٩، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ١٠٦٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٦١.

التي كانت مستعبدة للطغاة من الملوك فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام، فقد فلق البحر لهم وأهلك عدوهم، وأورثهم أموالهم، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأظل فوقهم الغمام، وهذا من شأنه يقوى صلتهم بالله، ويوثق إيمانهم به، ولكن كانت هذه النعم أسلحة يحاربون بها الله، ومعاول يهدمون بها معالم الحق، ومنارات الهدى[1].

وبعد أن ذكرهم موسى بهذه النعم وشرحها لهم أمرهم بمجاهدة العدو، وأبان لهم أن الله ناصرهم ما نصروه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، وكرر اللفظ الذي ابتدأ به مقالته وهو النداء بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ لزيادة استحضار أذهانهم، والأمر بالدخول أمر بالسعي في أسبابه، أي تهيأوا للدخول، والأرض المقدسة المباركة المطهرة من الوثنية، لما بعث الله فيها من الأنبياء الدعاة إلى التوحيد، أو لأنها قدست بدفن إبراهيم الخليل عليه السلام، وهذه الأرض هي أرض فلسطين، وفي وصفها بـ ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ﴾، أي: كتب الله في اللوح المحفوظ إنها لكم مساكن، وقيل: فرض الله عليكم دخولها وأمركم بسكناها، يريد به ما وعد الله به إبراهيم من حق السكنى في تلك البلاد المقدسة، لا أن المراد أنها تكون كلها ملكا لهم لا يزاحمهم فيها أحد، لأن هذا مخالف للواقع، ولن يخلف الله وعده، فاستنباط اليهود من ذلك الوعد أنه لا بد أن يعود لهم ذلك الملك ليس بصحيح وذلك أن الله وعد إبراهيم أن يورثها ذريته، ووعد الله لا يخلف.

﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾، تحذير مما يوجب الانهزام، لأن ارتداد الجيش على الأعقاب من أكبر أسباب الانخذال، والارتداد افتعال من الرد، يقال: رده، فارتد، والرد: إرجاع السائر عن الإمضاء في سيره وإعادته إلى المكان الذي سار منه[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾، وأرادوا بالقوم الجبارين في الأرض سكانها الكنعانيين، والعمالقة، والحثيين، واليبوسيين، والأموريين، والجبار لغة: الطويل القوى المستكبر العاتي المتمرد الذي يجبر غيره على ما يريد، فامتنعوا من اقتحام القرية خوفا من أهلها، وأكدوا الامتناع من دخول أرض العدو توكيدا قويا بمدلول (إن) و (لن) في إنا لن ندخلها

(١) انظر: تفسير المراغي ٦ / ٨٩، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ١٠٦٧.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢ / ٢٧، تفسير المراغي ٦ / ٩٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٦٢.

تحقيقا لخوفهم، وفي إجابتهم هذه دليل على منتهى الضعف وحور العزيمة، وعلى أنهم لا يريدون أن يأخذوا شيئا باستعمال قواهم البدنية ولا العقلية، ولا أن يدفعوا الشر عن أنفسهم ولا أن يجلبوا لها الخير، بل يريدون أن يعيشوا بالخوارق والآيات ما داموا في هذه الحياة ولا شك أن أمة كهذه لا تستحق أن تتمتع بنعيم الاستقلال، وتحيا حياة العز والكرامة، وتكون ذات تصرف مطلق في شئونها، ومن ثم لم تقم لها دولة بعد[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾، قوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله تعالى، وقيل: يخافون الخوف من العدو فيكون المراد باسم الموصول بني إسرائيل، جعل تعريفهم بالموصولية للتعريض بهم بمذمة الخوف وعدم الشجاعة.

وقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾، أي: بالطاعة والتوفيق لما يرضيه، وبسلب الخوف من نفوسهم وبمعرفة الحقيقة، والرجلين هما: يوشع بن نون وكالب بن يفنة، وأنهما كانا يحثان القوم على الطاعة ودخول أرض الجبارين، ثقة بوعد الله بالنصر وتأييده إياهم، وهذا يقتضي أن الشجاعة في نصر الدين نعمة من الله على صاحبها[2].

وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: ادخلوا عليهم باب المدينة فإذا فعلتم ذلك نصركم الله وأيدكم بروح من عنده، بعد أن تعملوا ما في طاقتكم من طاعة ربكم وتثقوا به فيما لا يصل إليه كسبكم، وبعد أن أمرا القوم باتخاذ الأسباب والوسائل أمراهم بالتوكل على الله والاعتماد على وعده ونصره وخبر رسوله.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، بأن وعد الله حق، وأنه قادر على الوفاء به، وإنما جزم هذان الرجلان بأنهم سيغلبون إذا دخلوا، ثقة بنبوة موسى، وهو قد أخبرهم بأن الله أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتبها لهم، لا جرم قطعا بالنصر والغلبة على العدو[3].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، أي: إنهم أصروا على العناد والتمرد، وأكدوا الامتناع من الدخول بعد المحاورة أشد توكيد دل على شدته في العربية بثلاث مؤكدات: (إن)، و (لن)، وكلمة (أبدا).

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، تركوا آداب الخطاب فصرحوا ببيان الجحد ولم

(١) انظر: تفسير المراغي ٦ / ٩١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ١٦٣.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

يحتشموا من مجاهرة الرد، قيل: إنهم طلبوا منه معجزة كما تعودوا من النصر فطلبوا أن يهلك الله الجبارين بدعوة موسى، وقيل: أرادوا بهذا الكلام الاستخفاف بموسى، وهذا بعيد، لأنهم ما كانوا يشكون في رسالته، ولو أرادوا الاستخفاف لكفروا، وليس في كلام موسى الواقع جوابا عن مقالتهم هذه إلا وصفهم بالفاسقين، والفسق يطلق على المعصية الكبيرة، فإن عصيان أمر الله في الجهاد كبيرة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾، أي: قال موسى باثا شكواه إلى ربه، معتذرا من فسق قومه عن أمره الذي يبلغه عنه، إني لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلا أمر نفسي وأمر أخي، ولا أثق بغيرنا أن يطيعك في اليسر والعسر والمنشط والمكره المحبوب والمكروه.

﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: لا تؤاخذنا بجرمهم، لأنه خشي أن يصيبهم عذاب في الدنيا فيهلك الجميع فطلب النجاة، ولا يصح أن يريد الفرق بينهم في الآخرة لأنه معلوم أن الله لا يؤاخذ البريء بذنب المجرم، ولأن براءة موسى وأخيه من الرضا بما فعله قومهم أمر يعلمه الله، ويجوز أن يراد بالفرق بينهم الحكم بينهم وإيقاف الضالين على غلطهم[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، التيه: الحيرة، يقال تاه يتيه: إذا تحير ومفازة تيهاء إذا تحير فيها سالكها لعدم الأعلام التي يهتدى بها، والتحريم: المنع، أي: قال الله لموسى عليه السلام مجيبا دعوته: إن الأرض المقدسة محرمة على بني إسرائيل تحريما فعليا لا تكليفا شرعيا، مدة أربعين سنة.

﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يسيرون فيها في برية تائهين متحيرين لا يدرون أين مصيرهم.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، الأسى: الحزن، يقال أسيت عليه أسى وأسيت له أي فلا تحزن عليهم، لأنهم فاسقون متمردون مستحقون لهذا التأديب الإلهي[3].

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١ / ٤١٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ١٦٦.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢ / ١٢٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ١٦٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ١٦٧.

٢. إنزال المن والسلوى.

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل على بني إسرائيل المن والسلوى.

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:٥٧].

بَيَّنَت الآية نعم الله تعالى على بني إسرائيل ورعايته لهم في الصحراء، حيث يسر لهم السحاب يظللهم من هجير الصحراء وحر الشمس المحرق بتدبيره، حين خرجوا إلى الأرض المقدسة، ويسر لهم طعامًا شهيًا لا يجهدون فيه ولا يكدون.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾، والمن: هو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر، وقيل: هو الترنجين، وقيل: المن ما يمن الله به من غير تعب ولا نصب، والسلوى طائر كالسماني، وذكر إنه كان يأتيهم من هذين ما فيه كفايتهم، والسلوى وهو طائر السماني يساق إليهم في الصحراء، قريب المتناول سهل التناول، كان نعمة من الله ومظهرا لعنايته بهم في الصحراء الجرداء، وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد[١].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، أي: وقلنا لهم كلوا من ذلك الرزق الطيب الحلال، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين.

﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: فكفروا تلك النعم الجزيلة، وما عاد ضرر ذلك إلا عليهم باستيجابهم عذابي وانقطاع ذلك الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مئونة ولا مشقة، وفي هذا إيماء إلى أن كل ما يطلبه الله من عباده فإنما نفعه لهم، وما ينهاهم عنه فإنما ذلك لدفع ضر يقع عليه، والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة كانوا والفعل المضارع يظلمون يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم، لأنك لا تقول في ذم إنسان كان يسيء إلى الناس إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الأخرى[٢].

٣. سقيا الماء.

ذكر القرآن الكريم أن موسى عليه السلام استسقى الماء لبني إسرائيل.

قال تعال: ﴿۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٠٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٣٤٥، أضواء البيان الشنقيطي ٤ / ٧٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٢٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص: ٥٣، التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ١ / ١٣٩.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة:٦٠].

بَيَّنَتْ هذه الآية نعمة أخرى من نعم الله تعالى التي آتاها بني إسرائيل فكفروا بها، وذلك أنهم حين خرجوا من مصر إلى التيه أصابهم ظمأ من لفح الشمس، فاستغاثوا بموسى، فدعا ربه أن يسقيهم فأجاب دعوته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾، يفيد أن الذي سأل ربه السقيا هو موسى عليه السلام وحده، لتظهر كرامته عند ربه لدى قومه، وليشاهدوا بأعينهم إكرام الله تعالى له، حيث أجاب سؤاله، وفجر الماء لهم ببركة دعائه.

﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾، أي: فأجبناه إلى ما طلب، وأوحينا إليه أن اضرب الحجر بعصاك، وقد أمره أن يضرب بعصاه التي ضرب بها البحر حجرا من أحجار الصحراء، قال الحسن: لم يكن حجرا معينا، بل أي حجر ضربه انفجر منه الماء، وهذا أظهر في حجة موسى عليه السلام، وأدل على قدرة الله تعالى [(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، أي: فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بقدر عدد الأسباط، فاختص كل منهم بعين حتى لا تقع بينهم الشحناء.

وفيه إشارة إلى تدفق الماء بقوة وغزارة أكثر مما في قوله تعالى: ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف:١٦٠].

فالانبجاس دون الانفجار، قوة وأثرًا، وهذا الاختلاف في التعبير إنما هو لاختلاف الحال، فحين ضرب موسى الحجر كان الانبجاس أولا، ثم تلاه الانفجار، فكل من الانبجاس والانفجار وصف لحال من أحوال ضربة العصا، وأثر من آثارها، وذلك وجه مشرق من وجوه الإعجاز، في التكرار الوارد على الأحداث، في القصص القرآني.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، أي: قد صار لكل سبط منهم مشرب يعرفه، لا يتعداه إلى مشرب غيره [(٢)].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾، وبدأ بالأكل لأن قوام الجسد به، والاحتياج إلى الشرب حاصل عنه، ومن لابتداء الغاية، ويحتمل أن تكون للتبعيض، وفي ذكر الرزق مضافا تعظيم للمنة، وإشارة إلى حصول ذلك لهم من غير تعب ولا تكلف.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال

(١) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٢٦، روح المعاني، الألوسي ١ / ٢٧١.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٢٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١ / ٩٠.

النعمة في غير ما وضعت له، بعد أن أذن لهم في التمتع بالطيبات، لأن النعمة عند ما تكثر قد تنسي العبد حقوق خالقه فيهجر الشريعة، ويعيث في الأرض فسادا[1].

أخذ الميثاق على بني إسرائيل

تظهر المواثيق التي أخذها الله تعالى على بني إسرائيل من خلال النقاط الآتية:

أولًا: أخذ الميثاق على بني إسرائيل أن يأخذوا الكتاب بقوة:

ذكر القرآن الكريم أخذ الميثاق على بني إسرائيل لكي يأخذوا الكتاب بقوة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة:٦٣-٦٤].

يقول تعالى مذكرًا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، أي: واذكروا يا بني إسرائيل وقت أخذنا العهد على أسلافكم بالعمل بما في التوراة وقبولهم ذلك، والميثاق في هذه الآية مراد به الشريعة ووعدهم بالعمل بها وقد سمته كتبهم عهدا، وهو إلى الآن كذلك في كتبهم، وهذه معجزة علمية لرسولنا صلى الله عليه وسلم.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، والطور: علم على جبل ببرية سينا، وكانت هذه الآية بعد أخذ الميثاق لكي يأخذوا ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد، لأن رؤية ذلك مما

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥١٩، التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ١ / ١٤٥، روح المعاني، الألوسي ١ / ٢٧٢.

يقوى الإيمان ويحرك الشعور والوجدان[1].

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، أي: وقلنا لهم خذوا الكتاب وهو التوراة بجد وعزيمة، ومواظبة على العمل بما فيه، والأخذ مجاز عن التلقي والتفهم، والقوة مجاز في الإيعاء وإتقان التلقي والعزيمة على العمل به، ويجوز أن يكون الذكر مجازا عن الامتثال، أي: اذكروه عند عزمكم على الأعمال حتى تكون أعمالكم جارية على وفق ما فيه، أو المراد بالذكر التفهم بدليل حرف (في) المؤذن بالظرفية المجازية أي استنباط الفروع من الأصول.

﴿وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أي: وادارسوه ولا تنسوا تدبر معانيه واعملوا بما فيه من الأحكام، فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخا في النفس مستقرا عندها[2].

ثم ذكر لهم فائدة ذكره فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي: ليعد نفوسكم لتقوى الله عز وجل: ذلك أن المواظبة على العمل تطبع في النفس سجية المراقبة لله، وبها تصير تقية نقية من أدران الرذائل راضية مرضية عند ربها[3].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: ثم أعرضتم وانصرفتم عن العمل بالميثاق الذي أخذه عليكم، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، أي: فلولا لطف الله بكم وإمهاله إياكم إذ لم يعاملكم بما تستحقون، لكنتم من الهالكين بالانهماك في المعاصي[4].

يقول سيد قطب: «وتفصيل هذا الميثاق وارد في سور أخرى، وبعضه ورد في هذه السورة فيما بعد، والمهم هنا هو استحضار المشهد، والتناسق النفسي والتعبيري بين قوة رفع الصخرة فوق رؤوسهم وقوة أخذ العهد، وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة، وأن يعزموا فيه عزيمة، فأمر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة، إنه عهد الله مع المؤمنين، وهو جد وحق، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق، وله تكاليف شاقة، نعم! ولكن هذه هي طبيعته، إنه أمر عظيم، أعظم من كل ما في هذا الوجود، فلا بد أن تقبل عليه النفس إقبال الجاد القاصد العارف بتكاليفه، المتجمع الهم والعزيمة المصمم على هذه التكاليف، ولا بد أن يدرك صاحب هذا الأمر أنه إنما يودع حياة الدعة والرخاء والرخاوة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نودي للتكليف: (مضى عهد النوم يا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٨٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٤٢.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٣٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٤٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٣٧.
(٤) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٣٧، التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ١ / ١٦٠.

خديجة)، وكما قال له ربه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل:٥].

وكما قال لبني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ولا بد مع أخذ العهد بقوة وجد واستجماع نفس وتصميم، لا بد مع هذا من تذكر ما فيه، واستشعار حقيقته، والتكيف بهذه الحقيقة، كي لا يكون الأمر كله مجرد حماسة وحمية وقوة، فعهد الله منهج حياة، منهج يستقر في القلب تصورًا وشعورًا، ويستقر في الحياة وضعًا ونظامًا، ويستقر في السلوك أدبًا وخلقًا، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير»[1].

ثانيًا: أخذ الميثاق على بني إسرائيل في العبادات والمعاملات:

ذكر القرآن الكريم أخذ المواثيق على بني إسرائيل في العبادات والمعاملات.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾ [البقرة:٨٣].

يخبر تعالى أنه أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وهذا الميثاق الذي أخذه عليهم في أصول الدين والمعاملات والأخلاق التي تنفعهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أظهر هنا لفظ بني إسرائيل لأن ما سيذكر هنا لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآن، تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح ليتأتى توجيه الخطاب من بعد ذلك إلى المخاطبين حتى لا يظن أنه من الخطاب الذي أريد به أسلافهم، ثم بين هذا الميثاق فقال: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، هذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، وقد نهوا عن عبادتهم غير الله مع أنهم كانوا يعبدون الله خوفا من أن يشركوا به سواه من ملك أو بشر أو صنم بدعاء أو غيره من أنواع العبادات، ودين الله على ألسنة الرسل جميعا فيه الحث على عبادة الله وعدم الشرك بعبادة أحد سواه، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦].

فالتوحيد عماده الأمران معًا[2].

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾،

(١) في ظلال القرآن ١ / ٧٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣١٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧، تفسير المراغي ١ / ١٥٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٨٢.

أي: أحسنوا إليهما، بأن تعطفوا عليهما وترعوهما حق الرعاية، وتنزلوا عند أمرهما فيما لا يخالف أوامر الله، وقد جاء في التوراة أن من يسب والديه يقتل، والحكمة في البر بهما أنهما قد بذلا للولد وهو صغير كل عناية وعطف بتربيته والقيام بشئونه، حين كان عاجزا ضعيفا لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، مع الشفقة التي لا مزيد عليها، أفلا يجب عليه بعدئذ مكافأتهما جزاء وفاقا لما صنعا؟ قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۝٦٠﴾ [الرحمن:٦٠][1].

وقوله تعالى: ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾، قدم ذا القربى لأنهم أقدم والشفقة عليهم أعظم أجرا منها على غيرهم لأن الإحسان إليهم مما يقوى الروابط بينهم، فما الأمة إلا مجموعة الأسر والبيوت، فصلاحها بصلاحها وفسادها بفسادها، ومن لا بيت له لا أمة له، ومن قطع لحمة النسب فكيف يصل ما دونها، وكيف يكون جزاء من الأمة، يسره ما يسرها ويؤلمه ما يؤلمها، ويرى في منفعتها منفعته، وفي مضرتها مضرته، ونظام الفطرة قاض بأن صلة القرابة أمتن الصلات، وجاء الدين حاثا عليها مؤكدا لأواصرها، مقويا لأركانها، مقدما لحقوقها على سائر الحقوق بحسب درجات القرابة[2].

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ أي: أحسنوا إليهم لخلوهم عمن يقوم بمعاشهم ومصالحهم، وأخر المساكين لأنهم دون اليتامى القاصرين عن درجة البلوغ؛ لأنهم يقدرون على أن ينتفعوا بأنفسهم في الجملة، ويقدرون على نفع غيرهم بالخدمة، والإحسان إلى اليتيم بحسن تربيته، وحفظ حقوقه من الضياع، والكتاب والسنة مليئان بالوصية به، وحسبك من ذلك حديث سهل بن سعد، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)، وقال بإصبعيه السبابة والوسطى[3].

والسر في هذا أن اليتيم لا يجد في الغالب من تبعثه العاطفة على تربيته والقيام بشئونه وحفظ أمواله، والأم وإن وجدت تكون في الغالب عاجزة عن تنشئته وتربيته التربية المثلى، إلى أن الأيتام أعضاء في جسم الأمة، فإذا فسددت أخلاقهم وساءت أحوالهم، تسرب الفساد إلى الأمة جمعاء، إذ يصبحون قدوة سيئة بين نشئها، فيدب فيها الفساد ويتطرق إليها الانحلال، وتأخذ في الفناء، والإحسان إلى المساكين يكون بالصدقة عليهم ومواساتهم حين البأساء والضراء.

وقدم اليتيم على المسكين، لأن هذا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣١٦، تفسير المراغي ١ / ١٥٦.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٥٧، بيان المعاني، عبد القادر ملا ٥ / ٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، رقم ٦٠٠٥، ٨/ ٩.

يمكنه أن يسعي بنفسه للحصول على قوته، بخلاف الأول فإن الصغر مانع له من ذلك[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، أمر الله أولًا بالإحسان بالمال لأقوام مخصوصين، وهم الوالدان والأقربون واليتامى والمساكين، إذ لا يمكن الشخص أن يحسن به إلى الناس جميعا، لأنه لا يسع كل الأمة، ومن ثم اكتفى في حقوق سائر أفرادها بحسن العشرة والقول الجميل، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ونحو ذلك مما هو نافع لهم في الدين والدنيا، وفي القيام بهذه الفرائض إصلاح لحال المجتمع وسعى في رقيه وتقدمه حتى يبلغ ذروة المجد والشرف[2].

وبعد أن أمرهم سبحانه بعبادته وحده على سبيل الإجمال، فصل بعضا من ذلك مما لا يهتدى إليه إلا بهدى إلهى ووحي سماوي، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، لأن الصلاة هي التي تصلح النفوس وتنقيها من أدران الرذائل، وتحليها بأنواع الفضائل، وروحها هو الإخلاص لله والخشوع لعظمته وسلطانه، فإن فقدته كانت صورا ورسوما لا تغنى فتيلا، وهم ما تولوا ولا أعرضوا عن تلك الصور والرسوم إلى عصر التنزيل، بل إلى يومنا هذا، ثم الزكاة لما فيها من إصلاح شئون المجتمع، وقد كان لهم ضروب من الزكاة منها مال خاص يؤدى لآل هارون، وهو إلى الآن في اللاويين (سبط من أسباطهم)، ومنها مال للمساكين، ومنها ما يؤخذ من ثمرات الأرض، ومنها سبت الأرض وهو تركها في كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع، وكل ما يخرج منها في تلك السنة فهو صدقة[3].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾، أي: توليتم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به، فأشركتم بالله وعبدتم الأصنام وعققتم الوالدين وأسأتم لذوي القربى واليتامى والمساكين وقلتم للناس أفحش القول وتركتم الصلاة ومنعتم الزكاة، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾، إنصاف لهم في توبيخهم ومذمتهم وإعلان بفضل من حافظ على العهد، وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾، أي: وأنتم قوم عادتكم الإعراض والتولي عن المواثيق، وفي الجملة مبالغة في الترك المستفاد من التولي، لأن الإنسان قد يتولى عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويؤدى ما يجب له، فليس كل من تولى عن شيء يكون معرضا عنه، والتعبير بالجملة الإسمية

(١) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٥٧، بيان المعاني، عبد القادر ملا ٥ / ٥٦.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٥٨.

(٣) انظر: المصدر السابق.

تفيد أن الإعراض وصف ثابت لهم وعادة معروفة منهم[1].

ثالثًا: أخذ الميثاق على بني إسرائيل ألا يقتل بعضهم بعضا، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم:

ذكر القرآن الكريم أخذ الميثاق على بني إسرائيل ألا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة:٨٤-٨٦].

بَيَّنَت الآيات أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل العهد بالتضامن، فلا يقتل بعضهم بعضا ولا يظاهر أحد منهم غريبا على أحد منهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: وإذ أخذنا عليكم العهد: لا يريق بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم وأوطانهم، وقد جعل غير الرجل كأنه نفسه، ودمه كأنه دمه إذا اتصل به دينا أو نسبا، إشارة إلى وحدة الأمة وتضامنها، وأن ما يصيب واحدا منها فكأنما يصيب الأمة جمعاء، فيجب أن يشعر كل فرد منها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم، فالروح الذي يحيا به والدم الذي ينبض في عرقه هو كدم الآخرين وأرواحهم، لا فرق بينهم في الشريعة التي وحدت بينهما في المصالح العامة.

ويجوز أن يكون المعنى: لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل قصاصًا، أو بالإخراج من الديار، فتكونون كأنكم قد قتلتم أنفسكم؛ لأنكم فعلتم ما تستحقون به القتل، كما يقول الرجل لآخر قد فعل ما يستحق به العقوبة: أنت الذي جنى على نفسه[2].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، أي: ثم أقررتم بهذا الميثاق أيها الحاضرون المخاطبون واعترفتم به سلفًا بعد خلف، ولم تنكروه بألسنتكم،

(١) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٥٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٨٤، روح المعاني، الألوسي ١ / ٣١٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٦٠، روح المعاني، الألوسي ١ / ٣١٠.

بل شهدتم به وأعلنتموه، فالحجة عليكم قائمة، وقيل: وأنتم أيها الحاضرون تشهدون على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق وقبوله، وشهودهم الوحى الذي نزل به على موسى عليه السلام.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: ثم أنتم بعد ذلك التوكيد في الميثاق تنقضون العهد فتقتلون أنفسكم: أي يقتل بعضكم بعضا كما كان يفعل من قبلكم، مع أنكم معترفون بأن الميثاق أخذ عليكم كما أخذ عليهم، ومن حديث ذلك أن بنى قينقاع من اليهود كانوا حلفاء الأوس وأعداء لإخوانهم في الدين بنى قريظة، كما كان بنو النضير حلفاء الخزرج، وكان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء يقتتلون، ومع كل حلفاؤه.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، كان كل من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالإثم كالقتل والسلب.

موقفهم من الأنبياء بعد موسى

من مواقف بني إسرائيل التي ذكرها القرآن الكريم مع أنبيائهم ما يأتي:

أولًا: القتل:

ذكر القرآن الكريم أن من مواقف بني إسرائيل مع أنبيائهم القتل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢].

كشفت هذه الآية عن الجرائم العظيمة التي أرتكبها بنو إسرائيل في حق الأنبياء، حيث أقدموا على قتل الأنبياء والرسل، وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وهى الكفر بآيات الله التي حملها إليهم رسل الله، وهى آيات لا يكذب بها إلا كل معتد أثيم، كفلق البحر بالعصا، وتفجير الماء من الصخر بها، على يد موسى عليه السلام، فكفروا بتلك الآيات وعبدوا العجل من دون الله، وكذلك فعلوا مع الآيات التي أجراها الله سبحانه على يد عيسى عليه السلام

من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فكفروا بتلك الآيات، ورموا عيسى بالبهت والشعوذة، حتى دفعهم ذلك إلى السعي في قتله، وتقديمه للمحاكمة والصلب، ولكن الله أبطل كيدهم، وأفسد تدبيرهم، وهم يحسبون أنهم صلبوه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء:١٥٧][1].

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، وقد قتل اليهود من الأنبياء أشعياء بن أموص قتله الملك منسي ملك اليهود (سنة ٧٠٠ ق. م)، نشر نشرًا على جذع شجرة، وأرمياء النبي، وذلك لأنه أكثر التوبيخات والنصائح لليهود فرجموه بالحجارة حتى قتلوه، وزكرياء، قتله هيرودس العبراني ملك اليهود من قبل الرومان؛ لأن زكرياء حاول تخليص ابنه يحيى من القتل وذلك في مدة نبوءة عيسى، ويحيى بن زكرياء قتله هيرودس لغضب ابنة أخت هيرودس على يحيى[2].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أي: بدون وجه معتبر في شريعتهم، فإن فيها: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٣٢].

فهذا القيد من الاحتجاج على اليهود بأصول دينهم لتخليد مذمتهم، وإلا فإن قتل الأنبياء لا يكون بحق في حال من الأحوال، وأضاف القتل للنبيين، ولم تضاف إلى الرسل؛ لأن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

ومن ثم كان ادعاء النصارى أن عيسى قتله اليهود ادعاء منافيا لحكمة الإرسال ولكن الله أنهى مدة رسالته بحصول المقصد مما أرسل إليه[3].

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص: ١٢٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٢ / ٤٢٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٣٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص: ١٢٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٣٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٣٠.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾، إنهم لم يكتفوا بقتل النبيين، بل يقتلون أيضا كل من يأمر بالعدل، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهم مؤمنو بني إسرائيل يأمرونهم بالمعروف، فكانوا يقتلونهم، فعيرهم الله بذلك، وأوعدهم النار.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: وجيع، ويقال: أليم: يعني مؤلم، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي: بطل ثواب حسناتهم، فلا ثواب لهم، ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، أي: مانعين يمنعونهم من النار[1].

ثانيًا: التكذيب:

ذكره القرآن الكريم أن من مواقف بني إسرائيل مع أنبيائهم التكذيب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

ذم الله تعالى بني إسرائيل فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديما وحديثا، التي بلغتهم إياها الرسل، استكبارا عليهم وعنادا لهم، وتعاظما على الحق واستنكافا عن اتباعه، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، أي: أعطينا موسى التوراة جملة واحدة ويقال: الألواح، ﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، أي: أتبعنا وأردفنا، معناه: أرسلنا رسولًا على أثر رسول، يقال: قفوت الرجل إذا ذهبت في أثره، ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾، أي: الآيات والعلامات مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، أي: إغاثة بجبريل حين أرادوا قتله فرفعه إلى السماء، وقال بعضهم: أيدناه أي قويناه وأعناه باسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى[2].

وقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾، يقول: بما لا يوافق هواكم، ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، تعظمتم عن الإيمان، وأنفتم أن تكونوا له أتباعًا؛ لأنهم كانت لهم رئاسة وكانوا متبوعين، فلم يؤمنوا مخافة أن تذهب عنهم الرياسة، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾، فنشأ عن الاستكبار مبادرة فريق من الرسل بالتكذيب فقط، حيث لا يقدرون على قتله، وفريق بالقتل إذا قدروا على قتله، وتهيأ لهم ذلك، ويضمن أن من قتلوه فقد كذبوه، واستغنى عن التصريح بتكذيبه للعلم بذلك، فذكر أقبح أفعالهم معه، وهو قتله، وبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلونه من الشر، ولأنه المشترك بين الفريقين: المكذب والمقتول،

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٢٠٢، تفسير الشعراوي ٣ / ١٣٧٥.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٧١، الكشف والبيان، الثعلبي ١ / ٢٣٢، التفسير الوسيط، الواحدي ١ / ١٧١.

﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، ونسب القتل إليهم مع أن القاتل آباؤهم لرضاهم به ولحوق مذمته بهم، وعبر بالمضارع حكاية للحال الماضية واستحضارا لصورتها لفظاعتها واستعظامها، أو مشاكلة للأفعال المضارعة الواقعة في الفواصل فيما قبل، أو للدلالة على أنكم الآن فيه فإنكم حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم ولولا أني أعصمه لقتلتموه ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة، فالمضارع للحال ولا ينافيه قتل البعض[1].

وتقديم المفعول في قوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾، لما فيه من الدلالة على التفصيل، والتفصيل راجع إلى ما في قوله: رسول من الإجمال لأن ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾، أفاد عموم الرسول وشمل هذا موسى عليه السلام، فإنهم وإن لم يكذبوه بصريح اللفظ لكنهم عاملوه معاملة المكذبين به، إذ شكوا غير مرة فيما يخبرهم عن الله تعالى، وأساءوا الظن به مرارا في أوامره الاجتهادية، وحملوه على قصد التغرير بهم والسعي لإهلاكهم كما قالوا حين بلغوا البحر الأحمر وحين أمرهم بالحضور لسماع كلام الله تعالى، وحين أمرهم بدخول أريحا، وغير ذلك، وأما بقية الرسل فكذبوهم بصريح القول، مثل عيسى، وقتلوا بعض الرسل مثل أشعياء وزكرياء ويحيى ابنه وأرمياء[2].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٧١، البحر المحيط، أبو حيان ١ / ٤٨٣، روح المعاني، الألوسي ١ / ٣١٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٩٨.

عقوبات الله على بني إسرائيل

لقد عاقب الله تعالى بني إسرائيل على سوء أعمالهم القبيحة بصنوف العقوبات ومنها ما يأتي:

أولًا: تسليط العذاب عليهم:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى سلط على بني إسرائيل من يسومهم سوء العاب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف:١٦٧].

بينت هذه الآية خاتمة بني إسرائيل وإيلاء الله تعالى على نفسه بأن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة بسبب ما ارتكبوه من انحرافات دينية وأخلاقية واجتماعية، واقترفوه من آثام ونقضوه من مبادئ ووصايا، واستغرقوا فيه من أعراض الحياة الدنيا وبيعهم دينهم وكتابهم بالدنيا.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أي: واذكر أيها الرسول إذ أعلم ربك هؤلاء القوم مرة إثر أخرى أنه قضى عليهم في علمه وفقا لما قامت عليه نظم الاجتماع، ليبعثن ويسلطن عليهم إلى يوم القيامة، ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أي يريده ويوقعه بهم، عقابا على ظلمهم وفسقهم وفسادهم، وهو مجاز من سوم الشيء، كما يقال سامه خسفا، وسوء العذاب ما يسوء صاحبه ويذله، وهو هنا سلب الملك، وإخضاع القهر، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تلقيت باللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على اليهود، فسلط الله عليهم الملوك البابليين واليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، فقهروهم وأذلوهم وشردوهم وأذاقوهم الويلات.

ثم سلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذي أقاموه بعد نجاتهم من السبي البابلي، وقهروهم واستذلوهم، ثم جاء الإسلام فعاداه منهم الذين كانوا هربوا من الذل والنكال، ولجئوا إلى بلاد العرب فعاشوا فيها أعزاء آمنين، ولم يفوا للنبي صلى الله عليه وسلم بما عاهدهم عليه إذ أمنهم على أنفسهم وحرية دينهم، بل غدروا به وكادوا له، ونصروا المشركين عليه، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم، فأجلى بعضهم، وقتل بعضا، وأجلى عمر من بقي منهم، ثم فتح عمر سورية، بعضها بالصلح كبيت المقدس، وبعضها عنوة، فصار اليهود من سيادة الروم الجائرة القاهرة فيها إلى سلطة الإسلام العادلة، ولكنهم ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال[1].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ /

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، أي: لمن عصاه وخالف أمره وشرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: لمن تاب إليه وأناب، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف[1].

ثانيًا: تحريم بعض الطيبات:

ذكر القرآن الكريم تحريم الطيبات على بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء:١٦٠].

يخبر الله تعالى في هذه الآية أنه بسبب ظلم بني إسرائيل وكفرهم بآيات الله حرم عليهم طيبات كانت حلالًا لهم، وقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، يعني بشركهم حرمنا عليهم أشياء كانت حلالًا لهم، وهو كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم أحلت لهم، وقد أبهمها الله هنا، لأن الغرض من السياق العبرة بكونها عقوبة، لا بيانها في نفسها، كما أبهم الظلم الذي كان سببا في العقوبة، ليعلم أن أي نوع منه يكون سببا للعقاب في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، أي: صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه؛ ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خلقا من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمدا، صلوات الله وسلامه عليهما[2].

والآية اقتضت: أن تحريم ما حرم عليهم إنما كان عقابا لهم، وأن تلك المحرمات ليس فيها من المفاسد ما يتقضي تحريم تناولها، وإلا لحرمت عليهم من أول مجيء الشريعة[3].

ثالثًا: المسخ:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى مسخ العصاة من بني إسرائيل قردة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة:٦٥].

يخبر تعالى في هذه الآية ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا

٤٩٧، تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٣٢١، تفسير المراغي ٩ / ٩٧.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٤٩٧.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٣٥٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٤٦٧، تفسير المراغي ٦ / ١٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ٢٦.

﴿مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾، أي: قد عرفتم الذين جاوزوا ما حدلهم في السبت من التجرد للعبادة فيه وتعظيمه واشتغلوا بالصيد، وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا في السبت، ثم ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت فإذا مضى تفرقت، فحفروا حياضًا عند البحر، وشرعوا إليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لأمنها من الصيد، فكانوا يسدون مشارعها من البحر فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم، وهذه القصة غير مسطورة في الأسفار القديمة وكانت معروفة لعلمائهم وأحبارهم فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عليها وتلك معجزة غيبية وأوحى إليه في لفظها ما يؤذن بأن العلم بها أخفى من العلم بالقصص الأخرى فأسند الأمر فيها لعلمهم إذ قال: ولقد علمتم[1].

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، أي: مبعدين من رحمة الله صاغرين ذليلين، وأصله في اللغة من البعد، يقال: خسأ الكلب إذا بعد، فجازاهم الله بأشد أنواع الجزاء، فخرج بهم من محيط النوع الإنساني وأنزلهم أسفل الدركات، فجعلهم يرتعون في مراتع البهائم، وليتهم كانوا في خيارها، بل جعلهم في أخس أنواعها، فهم كالقردة في نزواتها، والخنازير في شهواتها، مبعدين من الفضائل الإنسانية، يأتون المنكرات جهارا عيانا بلا خجل ولا حياء، حتى احتقرهم كرام الناس، ولم يروهم أهلا لمعاشرة ولا معاملة[2].

قال ابن عاشور: «وفي ذلك دليل على أن الله تعالى لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه، فإن شرائع الله تعالى مشروعة لمصالح وحكم، فالتحيل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة مع تحقق تعطيل الحكمة منها جراءة على الله تعالى، ولا حجة لمن ينتحل جواز الحيل، بقوله تعالى في قصة أيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص:٤٤].

لأن تلك فتوى من الله تعالى لنبي لتجنب الحنث الذي قد يتفادى عنه بالكفارة، ولكن الله لم يرض أصل الحنث لنبيه؛ لأنه خلاف الأولى فأفتاه بما قاله، وذلك مما يعين على حكمة اجتناب الحنث؛ لأن فيه محافظة على تعظيم اسم الله تعالى، فلا فوات للحكمة في ذلك»[3].

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٩٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٤٣.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٦١، تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٨٤، تفسير المراغي ١ / ١٣٨.

(٣) التحرير والتنوير ١ / ٥٤٥.

رابعًا: سخط الله عليهم ولعنهم:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى لعن بني إسرائيل وغضب عليهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة:٦٠].

يخبر تعالى في هذه الآية عن غضبه على بني إسرائيل وأن جزاءهم على أعمالهم القبيحة هو اللعن والغضب، والمسخ.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية، والذين قالوا لكم: ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينا شرا من دينكم، قل لهم على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم: هل أخبركم بشر من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة؟ هو: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾، أي: أبعده من رحمته، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، أي: غضبا لا يرضى بعده أبدا، ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾، فالقردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار مائدة عيسى عليه السلام، ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، أي: جعل منهم عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سول له، ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، أي: أولئك المتصفون بما ذكر من الفسوق واللعن والطرد من رحمة الله أولئك المتصفون بذلك شرٌّ مكانًا من غيرهم وأكثر ضلالا عن طريق الحق المستقيم من سواهم، فهم في الدنيا يشركون بالله، وينتهكون محارمه وفي الآخرة مأواهم النار وبئس القرار [(١)].

خامسًا: ضرب الذلة والمسكنة عليهم:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى ضرب الذلة والمسكنة على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة:٦١].

بينت الآية قبائح اليهود ودناءة نفوسهم، وأن الله تعالى ضرب عليهم الذلة والمسكنة وهي محيطة بهم كما تظلل الخيمة من فيها، وكانوا نتانى أهل كراث وأبصال وأعداس فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢ / ٢٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ١٤٢، التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ٤ / ٢٠٨.

واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، وذلك أنهم سئموا من المن والسلوى وملوه، فاشتهوا عليه غيره لأن المواظبة على الطعام الواحد تكون سببا لنقصان الشهوة، وإنما قالوا على طعام واحد وهما طعامان؛ لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يتبدل ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، يقال لا يأكل فلان إلا طعامًا واحدًا ويراد بالوحدة نفي التبدل والاختلاف أو أرادوا أنهما ضرب واحد لأنهما معا من طعام أهل التلذذ والترف وكانوا من أهل الزراعات فأرادوا ما ألفوا من البقول والحبوب وغير ذلك.

﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾، الفوم: الخبز، وقيل: هو الحنطة، وقيل: هو الثوم، ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، إنما طلبوا هذه الأنواع لأنها تعين على تقوية الشهوة أو لأنهم ملوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة[1].

وقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾، أي: الذي هو أخس وأردأ وهو الذي طلبوه، ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، يعني بالذي هو أشرف وأفضل وهو ما هم فيه، ﴿ٱهْبِطُوا مِصْرًا﴾، يعني إن أبيتم إلا ذلك، فأتوا مصرا من الأمصار، وقيل: بل هو مصر البلد الذي كانوا فيه، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، يعني من نبات الأرض[2].

وقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، أي: جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذل والهوان، ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، أي: الفقر والفاقة، وسمي الفقير مسكينًا؛ لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، فترى اليهود وإن كانوا أغنياء مياسير كأنهم فقراء، فلا ترى أحدا من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود.

﴿وَبَآءُو﴾، أي: رجعوا ولا يقال باء إلا بشر، ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وغضب الله إرادة الانتقام ممن عصاه ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الغضب، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم التي في التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، النبي: معناه المخبر من أنبأ ينبئ، وقيل: هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة، وهو المكان المرتفع، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي، بغير جرم[3].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١ / ٤٢٢، مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٩٣، لباب التأويل، الخازن ١ / ٤٩.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١ / ٤٩.

(٣) انظر: المصدر السابق.

سادسًا: تفريقهم في الأرض:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى فرق بني إسرائيل في الأرض، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف:١٦٨].

بينت الآية أن الله تعالى فرق بني إسرائيل في الأرض جماعات متفرقة، فقل أرض لا يكون منهم فيها شرذمة وهذا حالهم في كل مكان تحت الصغار والذلة، سواء كان أهل تلك الأرض مسلمين أم كفارا، وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾، وفرقناهم فيها، ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، أي: من هؤلاء الذين وصفهم الله من بني إسرائيل صالحون، وهم من آمن بالله ورسوله وثبت منهم على دينه، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه، وهم الكفرة والفسقة، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، بالنعم والنقم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا إليه [1].

الدروس المستفادة من قصة بني إسرائيل

إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم فيها الدروس والعظات والعبر الكثير ومنها:

أولًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم تدور في جملتها حول قضية العقيدة وغرسها في نفوس بني إسرائيل، وإعدادهم للنهوض في حملها وقيادة البشرية، وفي ذلك إشارة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوة لهم لحمل العقيدة بقوة ولا يكونوا كبني إسرائيل.

ثانيًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم تدور حول محور الأخلاق، فبينت أخلاق بني إسرائيل القبيحة والمهينة، أخلاقهم مع الله جل جلاله، وأخلاقهم مع أنبيائهم، أخلاقهم مع العلماء والدعاة، وفي هذا إشارة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يتجنبوا هذه الأخلاق القبيحة ويحذروا منها.

ثالثًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم ناقشت البعد الاجتماعي الطائفي الذي يدمر المجتمعات الإنسانية ويستعبدها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٧٣، مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٦١٥.

﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص:٤-٥].

وفي هذا تحذير للمؤمنين من أسباب الفرقة، ومحاربة الطائفية والحزبية التي تدمر المجتمعات.

رابعًا: إن الفساد والظلم والطغيان والتكبر ونسيان النعم من أسباب الزوال، ولقد ذكر القرآن الكريم نهاية بني إسرائيل، وأن سبب ذلك هو الفساد والعلو والتكبر والظلم والطغيان.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ [الإسراء:٤-٨].

وهذا يكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وفشو الفساد فيها، وفاقا لسنة الله في هلاك الأمم، وذلك أنه إذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سببا لهلاكها وتدميرها، وفيه تحذير وعبرة لهذه الأمة[1].

خامسًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم تدور حول بعث موسى عليه السلام إلى فرعون وملأه، وكيف نصره الله على عدوه، ونصر قومه بني إسرائيل، وأهلك عدوهم كشأن سنة الله في نصر الحق على الباطل، وفي ذلك طمأنينة نفوس المؤمنين الصالحين والمستضعفين أن الله تعالى سوف ينصرهم، وتحذيرهم مما يرمي بهم إلى غضب الله فيما يحقرون من المخالفات، لما في ذلك كله من التشابه في تدبير الله تعالى أمور عبيده، وسنته في تأييد رسله وأتباعهم، وإيقاظ نفوس الأمة إلى مراقبة خواطرهم ومحاسبة نفوسهم في شكر النعمة ودحض الكفران[2].

سادسًا: والعبرة الاجتماعية في قصة بني إسرائيل أن الخطاب في كثير من الآيات كان موجها إلى الذين كانوا في عصر التنزيل، وأن الكلام عن الأبناء والآباء واحد لم تختلف فيه الضمائر حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالتوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار وبالشكر، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة، واعتبار أن كل ما يبلوها الله

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢١٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٧٩.

به من الحسنات والسيئات، وما يجازيها به من النعم والنقم، إنما يكون لمعنى موجود فيها يصح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق، كأنه وقع به؛ ليعلم الناس أن سنة الله تعالى في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة، يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم، ويتوقع نزول العقوبة إذا فشت الذنوب في الأمة وإن لم يواقعها هو، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال:٢٥].

وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقيها؛ لأنه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين[(١)].

سابعًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم بينت عقاب الله تعالى لهم بسبب ما ارتكبوه من انحرافات دينية وأخلاقية واجتماعية، واقترفوه من آثام ونقضوه من مبادئ ووصايا، واستغرقوا فيه من أعراض الحياة الدنيا وبيعهم دينهم وكتابهم بالدنيا، وإن في هذا العقاب الإلهي لعبرة لأولي الألباب، ففي ذلك عظة وذكرى وإنذار للمسلمين ودعوة للاعتبار والازدجار.

كما يستفاد منها أن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستعباد تذهب أخلاقها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة وتأنس بالمهانة، وإذا طال عليها الأمد أصبحت تلك الصفات غرائز وطباعا خلقية لها، فإذا خرجوا من بيئتهم ورفع عنهم نير الظلم والاستعباد حنوا إلى ما كانوا فيه، وتاقت نفوسهم إلى الرجوع إليه، وهذا شأن البشر في جميع ما يألفون، ويجرون عليه من خير وشر[(٢)].

ثامنًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم بينت حال بني إسرائيل في مواجهة الرسل وكشفت مكرهم وكيدهم في إثارة النعرات، وعرت وسائلهم القبيحة وأظهرت نفاقهم والشكوك والتحريفات حول العقيدة، وفي ذلك كله كشف للمجتمع المسلم ليعرف من هم أعداءه، وما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم؟

ولقد علم الله أنهم هم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله، فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفًا ووسائلهم كلها مكشوفة. فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة- وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها -بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ وتعرف مزالق

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٦٧.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦ / ٩٤، التفسير الحديث، دروزة محمد عزت ٢ / ٥٢٣.

الطريق، وعواقبها ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة - إلى حصيلة تجاربها وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون. ولتتقي -بصفة خاصة- مزالق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدى التجارب الأولى[1].

تاسعًا: ومن الدروس المستفادة في، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة:٨٤].

أي: وإذ أخذنا عليكم العهد: لا يريق بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم وأوطانهم، وقد جعل غير الرجل كأنه نفسه، ودمه كأنه دمه إذا اتصل به دينا أو نسبا، إشارة إلى وحدة الأمة وتضامنها، وأن ما يصيب واحدا منها فكأنما يصيب الأمة جمعاء، فيجب أن يشعر كل فرد منها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم، فالروح الذي يحيا به والدم الذي ينبض في عرقه هو كدم الآخرين وأرواحهم، لا فرق بينهم في الشريعة التي وحدت بينهما في المصالح العامة.

وهذا ما يومئ إليه الحديث: (**إنما المؤمنون في تراحمهم وتعاطفهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**)[2][3].

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الاقتصاد، الزكاة، المال، المن

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٨٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم ٦٠١١، ٨/ ١٠.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٦٨.

البنوة

عناصر الموضوع

مفهوم البنوة	٣٤٦
البنوة في الاستعمال القرآني	٣٤٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٨
البنوة بين الفتنة والنعمة	٣٥٠
حقوق الأبناء	٣٦٢
واجبات الأبناء	٣٦٥

مفهوم البنوة

أولًا: المعنى اللغوي:

ابنٌ: جمعه: أبناءٌ، وبنون «الولد الذكر». والابن: الولد، ولامه في الأصل منقلبةٌ عن واوٍ عند البعض، وقيل في معتل الياء: الابن الولد، فعلٌ محذوفة اللام مجتلبٌ لها ألف الوصل، وإنما قضى أنه من الياء؛ لأن بنى يبني أكثر في كلامهم من يبنو، والجمع أبناء. والاسم البنوة، فالبنوة مصدر الابن. يقال: ابنٌ بين البنوة. ويقال: تبنيته أي ادعيت بنوته. وتبناه: اتخذه ابنًا[1]، وسمي بذلك لأنه بناءٌ للأب، فإن الأب هو الذي بناه، وجعله الله بناءً في إيجاده، ومؤنثه ابنة وبنت، وجمعه بنات[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال فيه الراغب: «يقال لكل ما يحصل من جهة شيء أو من تربيته، أو بتفقده أو كثرة خدمته له أو قيامه بأمره: هو ابنه»[3].

وذكر بعض المفسرين كالشوكاني قوله: «الابن: هو أخص القرابة، وأولاهم بالحماية، والدفع، والنفع، فإذا لم ينفع، فغيره من القرابة والأعوان بالأولى»[4]، وقال فيه الشعراوي: «الابن هو الإنسان الوحيد في الوجود الذي يود أبوه أن يكون الابن أفضل وأحسن حالًا منه، ويتمنى أن يعوض ما فاته في نفسه في ولده، ويتدارك فيه ما فاته من خير»[5].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٨٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٢- ٦٣.
(٣) المفردات، ص١٤٧.
(٤) فتح القدير، ٤/ ١٢٣.
(٥) تفسير الشعراوي، ١٩/ ١١٦٣٦.

البنوة في الاستعمال القرآني

وردت صيغ مادة «بنو» الدالة على بنوة الأبناء في القرآن الكريم (١٦٢) مرة[١].
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٤٠	﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ [هود:٤٢]
المثنى	٢	﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٢٧]
الجمع	١٢٠	﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصافات:١٤٩]

وجاءت مادة (بنو) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو الشيء يتولد عن الشيء، كابن الإنسان وغيره[٢].

قال الله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣].
أي: وحلائل أبنائكم الذين ولدتموهم[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص١٣٦- ١٣٩.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٠٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الولد:

الولد لغةً:

الولد: كل ما ولد، ويطلق على الذكر والأنثى، والمثنى والجمع، وجمعه: أولادٌ، ولد الشيء من الشيء: أنشأه وأنتجه[١].

الولد اصطلاحًا:

قال الراغب: «الولد:المولود. يقال للواحد والجمع والصغير والكبير»[٢].

الصلة بين الولد والابن:

١. أن الابن يفيد الاختصاص ومداومة الصحبة، و لهذا يقال الناس بنو آدم؛ لأنهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل.
٢. الابن في كل شئ صغير فيقول الشيخ للشاب:يا بني، ويسمي الملك رعيته الأبناء.
٣. الولد يقتضي الولادة، ولا يقتضيها الابن، والابن يقتضي أبًا، والولد يقتضي والدًا، ولا يسمى الإنسان والدًا إلا إذا صار له ولد.
٤. يطلق اسم الولد حقيقة في ولد الصلب، واستعمال الابن والولد في ابن الابن مجاز.
٥. يطلق الابن على الذكر، ويطلق الولد على الذكر والأنثى، والنسل والذرية يقع على الجميع[٣].

٢ الطفل:

الطفل لغةً:

الطاء والفاء واللام أصله المولود الصغير؛ يقال هو طفلٌ، والأنثى طفلة[٤].

الطفل اصطلاحًا:

الولد الصغير من الإنسان والدواب. وقيل ويبقى هذا الاسم له حتى يميز[٥].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٣/ ٢٨١.
(٢) المفردات، ص٨٨٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ١/ ١٢، الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص٢٧.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٢٢.
(٥) انظر: التوقيف، المناوي، ص٢٢٧.

الصلة بين الطفل والابن:

يكون الابن طفلًا في فترة عمرية معينة، فالطفل يطلق على المولود منذ أن يولد إلى أن يميز.

٣ الصبي:

الصبي لغةً:

يقال:رأيته في صباه أي في صغره، والصبي:من لدن يولد إلى أن يفطم، والجمع أصبيةٌ وصبوةٌ وصبيةٌ[١].

الصبي اصطلاحًا:

قال الراغب: «الصبي:من لم يبلغ الحلم»[٢].

الصلة بين الصبي والابن:

يكون الابن صبيًا في فترة عمرية معينة، فالصبي يطلق على الإنسان منذ أن يميز إلى أن يبلغ الحلم.

٤ الغلام:

الغلام لغةً:

«هو من حين يولد إلى أن يشيب، والجمع أغلمةٌ وغلمةٌ وغلمانٌ»[٣].

الغلام اصطلاحًا:

«يقع هذا الاسم على الصبي من حين يولد على اختلاف حالاته إلى أن يبلغ»[٤].

الصلة بين الغلام والابن:

يكون الابن غلامًا حين تظهر عليه علامات البلوغ.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٤٥٠.
(٢) المفردات، ص٤٧٥.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٤٤٠.
(٤) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص٦٧٢.

البنوة بين الفتنة والنعمة

أولًا: البنوة نعمة:

إن الأولاد نعمة عظيمة، وهبة من الله سبحانه قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

كما أن من أعظم نعم الله على الإنسان في هذه الحياة نعمة الأولاد، فهم منحة إلهية، وهبة ربانية، يختص الله بها من يشاء من عباده ولو كان فقيرا، ويمنعها عمن يشاء من خلقه ولو كان غنيًا، والأولاد نعمة يتضح من عدة أوجه:

١. إن من سنن الله تعالى في الأنبياء والرسل أن جعل لهم أزواجًا وذرية.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨].

والله تعالى لا يختار لرسله إلا أكمل الأحوال وأفضلها.

قال ابن كثير رحمه الله: «وكما أرسلناك يا محمد رسولًا بشريًا، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرًا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجًا وذرية»[1].

٢. حب الأبناء فطرة.

كما أن النفس الإنسانية مفطورة على حبهم وطلبهم، وقد ذكر سبحانه الأولاد في سياق ذكر النعم فقال سبحانه ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

٣. الأولاد زينة الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]فهم زهرتها، يخففون عن آبائهم متاعب الحياة وهمومها، وجودهم في البيت كالأزهار في الحدائق، يضفون عليهم البهجة والسرور، تسر الفؤاد مشاهدتهم، وتقر العين رؤيتهم، وتبتهج النفس بمحادثتهم، وهم بسمة الأمل، وأريج النفس، وريحان القلب، وهم أكبادنا التي تمشي على الأرض.

وقد توجه بعض الأنبياء إلى الله بالدعاء في أن يرزقه الولد وألا يدعه فردًا بلا خلف، فقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقد أثنى الله على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٦٨.

[مريم:٣]والنداء هنا بمعنى الدعاء.

فالولد نعمة ومتعة من متع هذه الحياة، وهم كما قال عنهم الأحنف بن قيس: «ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة»(١)

ومن تمام النعمة على أهل الجنة أن يلحق الله تعالى بهم ذريتهم وإن قصر عملهم، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور:٢١].

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك»(٢).

ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ [غافر:٨].

ومع هذا تكون النعمة ممزوجة بالفتنة، قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد...، وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح»(٣)

يقول الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

يقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ [المدثر:١٢-١٣].

فالأولاد هبة من الله للإنسان يسر الفؤاد بمشاهدتهم وتقر العين برؤيتهم وتبتهج النفس بمحادثتهم فهم زهرة الحياة الدنيا وزينتها، ولكي نعرف قيمة هذه النعمة لننظر

(١) انظر: زهر الآداب، أبو إسحاق القيرواني، ١/ ٦٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٣٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٩ باختصار.

فيمن حرمها ممن ابتلاه الله بالعقم كيف يبذل المستحيل لعله أن يظفر ولو بطفل واحد ليملأ عليه دنياه بهجة وسرورًا.

كما أن الأموال والأولاد نعمة يسبغها الله على عبد من عباده؛ حين يوفقه إلى الشكر على النعمة، والإصلاح بها في الأرض، والتوجه بها إلى الله؛ فإذا هو مطمئن الضمير، ساكن النفس، واثق من المصير؛ فكلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخرًا، وكلما أصيب في ماله أو بنيه احتسب؛ فإذا السكينة النفسية تغمره. والأمل في الله يسري عنه.

ولقد قرن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الأموال والأولاد في أربعة وعشرين موضعًا قدمت فيها الأموال على الأولاد، وفي موضعين قدم الأولاد على الأموال.

وإن المتأمل في الحكم والأسرار ليستنتج أن المال والبنون زينة وتفاخر في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف:٤٦].

وقال سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[الحديد:٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف:٣٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾[مريم:٧٧].

قال القرطبي رحمه الله: إنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا؛ لأن في المال جمالًا ونفعًا، وفي البنين قوة ودفعًا، فصارا زينة الحياة الدنيا»[(١)].

وقال السعدي رحمه الله: «أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا؛ أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره: الباقيات الصالحات»[(٢)].

فالمال والبنون زينة الحياة، والإسلام لا ينهى عن التمتع بالزينة في حدود الطيبات. ولكنه يعطيهما القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد.

إنهما زينة ولكنهما ليستا قيمة؛ فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما في الحياة؛ إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات[(٣)].

وإن من وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم أن كل لفظة موضوعة بما يتناسب مع سياقها وموضوعها، فترى الكلمة قدمت في موضع وأخرت في موضع آخر تناسبًا مع سياقها وموضوعها وغرضها، فليس التقديم والتأخير والتكرار عبثًا أو هدرًا، ومن ذلك

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٤١٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٤٧٩.
(٣) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٧٢.

قوله تعالى في آية الكهف: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

ونظير ذلك قوله تعالى في آية التغابن: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥].

في حين أنك تجد تقديم البنين على المال في آية آل عمران في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤].

والحكمة في هذا التأخير وذاك التقديم أن السياق يقتضيه، فنجد تقديم المال على الولد حيث تكون الفتنة والإغراء والزينة والاستعانة، وذلك لأن المال قوام الحياة والزينة أشد فتنة من فتنة الولد فقدم عليه.

وحينما يكون السياق عن الحب والمحبة يقدم الولد على المال لأنه الأحب إلى الرجل، ولذلك تجد تقديمه على المال في آية آل عمران حيث قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

كما أن من دقائق التعبير القرآني في سورة الإسراء أنه تعالى قدم رزق الأبناء على الآباء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء:٣١].

وفي سورة الأنعام قدم رزق الآباء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

والسر في ذلك أن قتل الأولاد في سورة الإسراء كان خشية وقوع الفقر بسببهم، فقدم تعالى رزق الأولاد.وفي سورة الأنعام كان قتلهم بسبب فقر الآباء فعلا، فقدم رزق الآباء. فلله در التنزيل ما أروع أسراره![1]

إن سنة الأنبياء والفضلاء التحرز في الدعاء بطلب الولد: فهذا زكريا عليه الصلاة والسلام تحرز فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨].

وقال: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦].

وتحرز إبراهيم فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات:١٠٠]

وتحرز المؤمنون فقالوا ما حكى الله تعالى عنهم، ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤].

وتحرز الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته لأنس بن مالك رضي الله عنه فدعا له بالبركة في ماله وولده فقال: (اللهم أكثر ماله وولده وبارك له في ما أعطيته)[2].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩٨٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة، رقم ٦٣٧٨.

والولد إذا كان بهذه الصفة كان نفعًا لأبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حد العداوة والفتنة إلى حد المسرة والنعمة.

ثانيًا: البنوة فتنة:

ورد التحذير من فتنة الأبناء في أكثر من موضع من القرآن الكريم منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٨].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن:١٤-١٥].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

والمتأمل في كلمة فتنة نجد أنها تحتمل معان منها:

الأول: أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم، فانتبهوا لهذا، وحاذروا وكونوا أبدًا يقظين لتنجحوا في الابتلاء وتخلصوا وتتجردوا لله.

الثاني: أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية.

والفتنة ليست مذمومة في ذاتها؛ لأن معناها اختبار وامتحان، وقد يمر الإنسان بالفتنة وينجح؛ كأن يكون عنده الأموال والأولاد، وهم فتنة بالفعل فلا يغره المال؛ بل إنه استعمله في الخير، والأولاد لم يصيبوه بالغرور بل علمهم حمل منهج الله، وجعلهم ينشؤون على النماذج السلوكية الصحيحة في الدين؛ لذلك فساعة يسمع الإنسان أي أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيئ؛ بل عليه أن يتذكر أن الفتنة هي اختبار وابتلاء وامتحان، وعلى الإنسان أن ينجح مع هذه الفتنة؛ فالفتنة إنما تضر من يخفق ويضعف عند مواجهتها.

والكافرون لا ينجحون في فتنة الأموال والأولاد، ويأتي يوم لا يملكون فيه هذا المال، ولا أولئك الأولاد؛ وحتى إن ملكوا المال فلن يشتروا به في الآخرة شيئًا، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولًا بنفسه.

يقول الإمام البغوي عند تفسير آية التغابن: «وقال عطاء بن يسار: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، وقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق لهم ويقيم،

فأنزل الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥].

بلاء واختبار وشغل عن الآخرة، يقع بسببها الإنسان في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام»[(١)].

ويعلق سيد قطب رحمه الله على آية التغابن ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥].

ويقول: « التنبيه هنا إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوًا.. إن هذا يشيرإلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية، ويمس وشائج متشابكة ودقيقة في التركيب العاطفي فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير كما يتعرض هو وأهله للعنت، وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتلمه في زوجته وأولاده فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال! فيكونون عدوًا له، لأنهم صدوه عن الخير، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا»[(٢)].

ومن معان الفتنة في الأولاد أن تكون نقمة يصيب الله بها عبدًا من عباده؛ لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل؛ فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيمًا، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه في ما يتلفه ويعود عليه بالأذى، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ويشقى بهم إذا صحوا. وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب! وهؤلاء الذين يملكون الأموال ويرزقون الأولاد، يعجب الناس ظاهرها، وهي لهم عذاب[(٣)].

وتظهر معالم الفتنة بالأولاد في الصور الآتية:

١. الانشغال بها عن الآخرة، والاستعداد لها.

فالتفريط في الصالحات، والحرص على المال والأولاد والمحبة الشديدة لهما تدفع إلى الوقوع في المحرمات، التحاسد والتدابر والتباغض، التقاتل على الدنيا وأموالها. ومعها الوقوع في صفتين ذميمتين بسبب الأموال والأولاد هما. البخل والجبن. وقد نبه الرسول صلى الله عليه وسلم عليهما بقوله: (إن الولد مبخلة مجبنة)[(٤)].

والبخل يدفع إلى الوقوع في المال

(١) معالم التنزيل ٨/ ١٤٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٦٦٦.
(٤) المسند الجامع ٢٧ / ١٥٣.

الحرام، وإلى أن تمنع الحقوق الواجبة، وهذا هو الشح المذموم الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦].

٢. البغي والتكبر على الناس.

قال الله عز وجل: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى:٢٧].

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧].

كما أن هناك من الناس من يعذب بماله وولده في الدنيا قبل الآخرة، وتتحول عنده الأمور التي يحبها الناس ويحرصون على تكثيرها من كونها مصدر نعمة وسعادة إلى أن تكون مصدر نقمة وشقاء وعذاب.

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٥].

وهذه الآية وإن كانت في المنافقين الكافرين إلا أنه يمكن الاستشهاد بها في هذا المقام للحذر من هذه النهاية.(١)

ولقد حذر الله سبحانه وتعالى من هذه الفتنة في آيتي الأنفال والتغابن.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن:١٥].

وكلمة ﴿فِتْنَةٌ﴾ تأتي في مثل هذه الموارد بمعنى وسيلة الامتحان، والحقيقة أن أهم وسيلة لامتحان الإيمان والكفر والشخصية وفقدانها وميزان القيم الإنسانية للأفراد هي (المال والأولاد). فكيفية جمع المال وكيفية إنفاقه والمحافظة عليه.

وميزان التعلق به ميزان لامتحان البشر، فكم من أناس يلتزمون بظاهر العبادة وشعائر الدين حتى المستحبات يلتزمون بأدائها، لكنهم إذا ما ابتلوا بقضية مالية تراهم ينسون كل شيء، ويدعون الأوامر الإلهية، ومسائل الحق والعدل والإنسانية جانبًا، هذا من جانب المال.

أما عن الأبناء فهم ثمار قلب الإنسان وبراعم حياته المتفتحة، ولهذا نجد الكثير من الناس المتمسكين بالدين والمسائل الأخلاقية والإنسانية لا يراعون الحق والدين بالنسبة للمسائل المتعلقة بمصلحة أبنائهم، فكأن ستارًا يلقى على أفكارهم فينسون كل الأمور ويصير حبهم لأبنائهم سببًا ليحلوا الحرام ويحرموا الحلال، ومن

(١) انظر: ففروا إلي الله. أبو زر القلموني، ص ٢١٦

أجل توفير المستقبل لأبنائهم يمنعون كل حق ويقدمون على كل منكر، فيجب علينا الاعتصام بالله العظيم في هذين الميدانين العظيمين للامتحان، وأن نحذر بشدة، فكم من أناس زلت أقدامهم وسقطوا فيهما وظلت لعنة التأريخ تلاحقهم أبدًا، فإذا زلت لنا قدم يومًا وجب علينا الإسراع إلى تصحيح المسير.

٣. تحول الأبناء إلى أعداءً

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [التغابن:١٤].

ربما يكون من الأولاد والنساء من هو عدو للإنسان، فيجب الحذر منهم.

ومعنى ﴿مِنۡ﴾ في ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ للتبعيض، وسياق الخطاب بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وتعليق العداوة بهم يفيد التعليل أي أنهم يعادونهم بما أنهم مؤمنون، والعداوة من جهة الايمان لا تتحقق إلا باهتمامهم أن يصرفوهم عن أصل الايمان، أو عن الأعمال الصالحة كالانفاق في سبيل الله والهجرة من دار الكفر، أو أن يحملوهم على الكفر، أو المعاصي الموبقة كالبخل عن الانفاق في سبيل الله شفقة على الأولاد والأزواج، والغصب واكتساب المال من غير طريق حله. فالله سبحانه يعد بعض الأولاد والأزواج عدوًا للمؤمنين في إيمانه، حيث يحملونهم على ترك الايمان بالله أو ترك بعض الأعمال الصالحة أو اقتراف بعض الكبائر الموبقة، وربما أطاعوهم في بعض ذلك شفقة عليهم وحبًا لهم، فأمرهم الله بالحذر منهم.

فعن أبي جعفر رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن:١٤] «وذلك أن الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه وامرأته وقالوا: ننشدك الله أن تذهب عنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذرهم الله من أبنائهم ونسائهم ونهاهم عن طاعتهم، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول: أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبدًا»(١).

٤. منع الأبناء عن ذكر الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون:٩].

فلقد خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ﴾ أي لا تشغلكم ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الصلوات الخمس المفروضة.

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ص ٢٧١

وقيل. ذكر الله جميع طاعاته، عن أبي مسلم. وقيل: ذكره شكره على نعمائه والصبر على بلائه والرضا بقضائه، وهو إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يغفل المؤمن عن ذكر الله في بؤسٍ كان أو نعمةٍ، فإن إحسانه في الحالات لا ينقطع، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي من يشغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ:٣٧].

فإن كثرة الأولاد والأموال لا تعني القرب من الله. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم﴾، خطاب إلى عامة الناس من الكفار وغيرهم، والوجه فيه أن ما ذكره من الحكم - حكم الأموال والأولاد - سواء في ذلك المؤمن والكافر، فالمال والولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان وعمل صالح وإلا فلا يزيدان الإنسان إلا وبالًا.

كما تكون الأموال والأولاد استدراج وإملاء للكافرين ليزدادوا إثمًا.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون:٥٥ - ٥٦].

وعن قتادة رحمه الله قال: (مكر - والله - بالقوم في أموالهم وأولادهم فلا تعتبروا الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبروهم بالإيمان والعمل الصالح)[1].

وذلك لأنهم استخدموا أموالهم وأولادهم لأجل الطغيان والاستكبار عن الحق؛ كما قال تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القلم:١٤].

وأغروا بهما الناس وصدوهم عن سبيل الله؛ كما قال تعالى: عن قوم نوح ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح:٢١].

فذكر أنهم أهل أموال وأولاد؛ إيماءً إلى أن ذلك سبب نفاذ قولهم في قومهم وائتمار القوم بأمرهم؛ فأموالهم إذ أنفقوها لتأليف أتباعهم، وأرهبوا بأولادهم من يقاومهم، والمعنى: واتبعوا أهل الأموال والأولاد التي لم تزدهم تلك الأموال والأولاد إلا خسارًا؛ لأنهم استعملوها في تأييد الكفر والفساد فزادتهم خسارًا إذ لو لم تكن لهم أموال ولا أولاد لكانوا أقل ارتكابًا للفساد[2].

الأموال والأولاد اختبار وامتحان في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٨].

فهذا تنبيه على الحذر من الخيانة التي يحمل عليها المرء حب المال؛ وهي خيانة

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١٠/ ٥٨٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٩٢.

الغلول وغيرها؛ فتقديم الأموال لأنها مظنة الحمل على الخيانة في هذا المقام، وعطف الأولاد على الأموال لاستيفاء أقوى دواعي الخيانة فإن غرض جمهور الناس في جمع الأموال أن يتركوها لأبنائهم من بعدهم.

وجعل نفس (الأموال والأولاد) فتنة لكثرة حدوث فتنة المرء من جراء أحوالهما؛ مبالغة في التحذير من تلك الأحوال وما ينشأ عنها، فكأن وجود الأموال والأولاد نفس الفتنة، وعطف قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ على قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ للإشارة إلى أن ما عند الله من الأجر على كف النفس عن المنهيات هو خير من المنافع الحاصلة عن اقتحام المناهي لأجل الأموال والأولاد[1].

والفتنة: هي البلاء والمحنة؛ لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة، ولا بلاء أعظم منهما، وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة[2].

إن فتنة الأموال والأولاد عظيمة لا تخفى على ذوي الألباب؛ إذ أموال الإنسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائبه وشهواته، ودفع كثير من المكاره عنه؛ من أجل ذلك يتكلف في كسبها المشاق ويركب الصعاب ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ويرغبه في القصد والاعتدال، ويتكلف العناء في حفظها، وتتنازعه الأهواء في إنفاقها، ويفرض عليه الشارع فيها حقوقًا معينة وغير معينة: كالزكاة ونفقات الأولاد والأزواج وغيرهم. ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وهذا مصير يليق بمن يقع في خديعة نفسه بالمال أو الأولاد[3].

وقال السمرقندي رحمه الله: «إنما ذكر الأموال والأولاد؛ لأن أكثر الناس يدخلون النار لأجل الأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أنه لا ينفعهم في الآخرة؛ لكيلا يفني الناس أعمارهم لأجل المال والولد؛ وإنما ذكر الله تعالى الكفار، لكي يعتبر بذلك المؤمنون»[4].

فعلى العاقل أن يعتبر بالآيات ولا يغتر بكثرة الأعداد من الأموال والأولاد وعدم اجتهاده؛ لمعاده فإن الله يمتعه قليلًا ثم يضطره إلى عذاب غليظ[5].

الأموال والأولاد قد تقعد المسلم عن العمل لدين الله والاستجابة خوفًا وبخلًا. والحياة التي يدعو إليها الإسلام حياة كريمة، لا بد لها من تكاليف، ولا بد لها من تضحيات؛ لذلك يعالج القرآن هذا الحرص

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٧٩.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٠٩.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١١٤٢
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٢١.
(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ١/ ١٢.

بالتنبيه إلى فتنة الأموال والأولاد - فهي موضع ابتلاء واختبار وامتحان - وبالتحذير من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان، ومن التخلف عن دعوة الجهاد وعن تكاليف الأمانة والعهد والبيعة؛ واعتبار هذا التخلف خيانة لله والرسول، وخيانة للأمانات التي تضطلع بها الأمة المسلمة في الأرض؛ وهي إعلاء كلمة الله وتقرير ألوهيته وحده للعباد، والوصاية على البشرية بالحق والعدل ومع هذا التحذير التذكير بما عند الله من أجر عظيم يرجح على الأموال والأولاد، التي قد تقعد الناس عن التضحية والجهاد[1].

فإذا انتبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار، كان ذلك عونًا له على الحذر واليقظة والاحتياط؛ أن يستغرق وينسى ويخفق في الامتحان والفتنة. ثم لا يدعه الله بلا عون منه ولا عوض... فقد يضعف عن الأداء بعد الانتباه؛ لثقل التضحية وضخامة التكليف وبخاصة في موطن الضعف في الأموال والأولاد؛ إنما يلوح له بما هو خير وأبقى، ليستعين به على الفتنة ويتقوى.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾. إنه سبحانه هو الذي وهب الأموال والأولاد... وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلي على فتنة الأموال والأولاد، فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمانة وتضحيات الجهاد[2].

ومن أجل ذلك حذر الله المؤمنين من الاشتغال بالأموال والأولاد عن ذكره فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون:٩].

خص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بها اشتغالًا يلهي عن ذكر الله؛ لأن الأموال مما يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها؛ بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد. ولأنها كما تشغل عن ذكر الله بصرف الوقت في كسبها ونمائها، تشغل عن ذكره أيضًا بالتذكير لكنزها؛ بحيث ينسى ذكر ما دعا الله إليه من إنفاقها.

وأما ذكر الأولاد فهو إدماج؛ لأن الاشتغال بالأولاد والشفقة عليهم وتدبير شؤونهم وقضاء الأوقات في التأنس بهم من شأنه أن ينسي عن تذكر أمر الله ونهيه في أوقات كثيرة فالشغل بهذين أكثر من الشغل بغيرهما.

وفيه أن الاشتغال بالأموال والأولاد الذي لا يلهي عن ذكر الله ليس بمذموم[3].

وهنا نلحظ أنه قدم في سورتي آل عمران والتوبة البنون على الأموال، قال تعالى في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٩٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٥١٧

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٢٥.

آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

وقال في التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤]

فعندما يذكر سبحانه الحب الفطري يؤخر الأموال؛ لأن الأموال تترك للأبناء؛ يعمل ويكد ويعلم أنه ميت ويترك الأموال للأبناء.

أما في مواطن الإلهاء فقدم الأموال على الأولاد مع أن حب الأولاد أكثر لكن الالتهاء بالمال يكون أكثر؛ لذا قدم الأموال على الأولاد للتحذير.

قال أبو حيان رحمه الله: (لما كان المال في باب المدافعة والتقرب والفتنة أبلغ من الأولاد قدم، بخلاف قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾؛ فإنه ذكر هنا حب الشهوات، فقدم فيه البنين على ذكر الأموال)[1]. فالفتنة بالمال أكثر؛ لأنه يعين على تحصيل الشهوات المحرمة بخلاف الأولاد، فإن الإنسان قد يفتن بهم ويعصي الله من أجلهم، ولكن الفتنة بالمال أكثر وأشد، ولهذا بدأ سبحانه بالأموال قبل الأولاد كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ:٣٧].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥].

وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٩٥.

حقوق الأبناء

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

الأولاد أمانة ومسؤولية عند الوالدين، كلفهما الله بحفظها ورعايتها، وأوصاهما بتربيتهم تربية صالحة في دينهم ودنياهم، وهم أولى الناس بالبر وأحقهم بالمعروف، والأبوان مسؤولان بين يدي الله عن تربية أبنائهم، قال صلى الله عليه وسلم: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالرجل راع في بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها)[1]

وما دام الأولاد نعمة ومتعة وزينة، فإن الإسلام رتب لهؤلاء الأبناء حقوقًا من قبل الآباء، وهي حقوق تقضي بها الفطرة السوية، ولكن الإسلام مع هذا وضع الضوابط والقواعد التي تحافظ عليها، وتحول دون التفريط فيها أو إساءة القيام بها»[2]

والعناية بها في ظلال القرآن والسنة، منذ كان نطفة ثم جنينا ثم بعد الولادة حتى البلوغ، ومنها حق النسب، وحق اختيار الاسم الحسن، وحق الرضاع والحضانة، وحق التربية، وحق النفقة، وغيرها مذكرا أنه تعالى خلق الجميع من نفس واحدة نصت عليه الآية السابقة.

وعندما أرسل الله تعالى الرسل جعل لهم أزواجًا وذرية، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨].

وقد بين القرآن الكريم أن الأبناء زينة الحياة الدنيا ومتاعها، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة، وقد يجمعها لأقوام».

وأخبرنا المولى تعالى أن بعض الأنبياء توجه إليه بالدعاء في أن يرزقه الولد وألا يدعه فردًا بلا خلف، فقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقد أثنى الله على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ٢/ ٥، رقم ٨٩٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٩، رقم ١٨٢٩.

(٢) انظر: حقوق الأولاد قبل الوالدين، بحث أعده د. عبد الحميد الأنصاري، بحولية كلية الشريعة، جامعة قطر، العدد الثاني عشر ١٤١٥هـ، ص ٣١١.

[مريم:٣]. والنداء هنا بمعنى الدعاء.

أولًا: حقوق مادية:

١. حق الحياة.

قال تعالى: و ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير:٨-٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء:٩٢].

والإجهاض من أنواع قتل الولد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير:٨-٩].

وفي الحديث الصحيح سئل عليه الصلاة والسلام أي الذنب أعظم؟ قال (أن تجعل لله ندًا وهوالذي خلقك، ثم قيل أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك)[1].

وأن الله سبحانه وتعالى حينما أمر النبي أن يبايع النساء بايعهن على أن: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٢].

٢. حق رضاعة الطفل.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٣٣﴾ [البقرة:٢٣٣].

ومنه إحضار مرضعة إذا لم ترض الأم المطلقة أن ترضع طفلها.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾ [الطلاق:٦].

التشاور مع الأمهات فى عملية الفطام، أي: الفصال التى يحكمها ألا تقل عن عامين.

وفى هذا قال تعالى ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فلا تجعلوا لله أندادا)، ٦/ ١٨، رقم ٤٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، ١/ ٩٠، رقم ٨٦.

٣. حق الإنفاق عليهم.

ويشمل الطعام والكسوة.

قال تعالى ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

٤. حق الميراث.

وقد شرع الله عز وجل في ذلك نظامًا فريدًا، يحفظ لكل ذي قرابة حقه دون نقص أو زيادة.

ثانيًا: حقوق معنوية:

لقد عني القرآن بتنمية الشعور الفطري الذي ينشأ من خلال الرابطة الأسرية والمحافظة عليها وتقويتها فحدد دائرة معينة من الأقارب حرم فيها الزواج سموًا بهذه القرابة ووقاية لهذه القلوب المتآلفة من شواهد الخصومة والبغضاء التي تنشأ من خلال الممارسات اليومية.

فقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء:٢٣].

١. حق النسب.

فإن الإسلام يقرر حفظ الأنساب، لذلك أمر الله بالزواج وحرم السفاح.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾ [النور:٦-٩].

كما قرر القرآن تحريم التبني في موضعين:

أحدهما: بسلوك النبي العملي ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

والآخر: توجيهي في قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب:٥].

كما منع الإسلام الزواج من زوجات الأبناء.

قال تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ

﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣].

دققوا في تشديد الإسلام على صفاء النسب، وعلى عدم اختلاط الأنساب.

٢. حق صلة الأرحام.

وقرر استمرارها بالبر والزيارة والتعهد والرعاية فقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء:٣٦].

وجعل قطيعتها من خصال الكافرين، ومن الفساد الذي نهى عنه الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد:٢٢].

٣. حق التربية.

ويتاكد هذا في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

ولهذا فإن من أعظم الأعمال التربية الصحيحة للأبناء، لأنهم استمرار للمرء، وله صدقة جارية لا تنقطع.

واجبات الأبناء

أوصى الله تعالى بالآباء خيرًا، وأوجب لهم على أبنائهم حقوقًا، منها معنوية؛ كتوقيرهما، والتلطف في مخاطبتهما، وعدم التأفف منهما، وأخرى ومادية؛ كالنفقة بالمعروف على الموسر.

وإن كان الله تعالى قد أمر: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣].

فإنه يجمع بين الحق المعنوي والمادي للآباء على الأبناء، وورد النص بأن لهم حقًا ثابتًا في أموال أبنائهم، حيث إن حصولهم على هذا الحق وتمكينهم منه واجب ماديٌّ على الأبناء، وجعل ذلك لهم بمثابة الكسب الحلال الذي لا ينازعون في أخذه، ولا فضل ولا منة لأحدٍ فيه عليهم يترك أثرًا معنويًا حسنًا في نفوسهم.

قال تعالى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء:١١].

أولًا: واجبات مادية:

وقد قضت الشريعة الغراء بأن للأب أن يأخذ من مال ابنه مقدار حاجته بكرامةٍ وعزة نفس لا يتبعها أذىً ولا منة، كيف وهو في ذلك إنما يأكل من كسبه الطيب، ويأخذ من حقه الثابت.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن

رجلًا قال: يا رسول الله إن لي مالًا وولدًا، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال عليه الصلاة والسلام: (أنت و مالك لأبيك)[1].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه و سلم، فقال: إن لي مالًا، وإن والدي يحتاج إلى مالي، قال: (أنت ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم، كلوا من كسب أولادكم)[2].

ولا فرق بين الأب والأم في أن لكل منهما الحق في أن يأخذ من مال ولده، لما روي عن عمارة بن عمير، عن عمته، أنها سألت عائشة رضي الله عنها: في حجري يتيم أفآكل من ماله؟ فقالت أم المؤمنين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه)[3].

أما وقد تقرر ذلك فلا بد من الإشارة إلى أن بعض أهل العلم ذهبوا إلى أن للأب الأخذ من مال ولده بدون قيدٍ أو حدٍ، لحاجته وفوق حاجته، سواء رضي بذلك الابن أم لم يرض.

قال الشوكاني رحمه الله في شرح حديث أم المؤمنين رضي الله عنها: «يدل على أن الرجل مشاركٌ لولده في ماله، فيجوز له الأكل منه سواء أذن الولد أو لم يأذن، ويجوز له أيضًا أن يتصرف به كما يتصرف بماله، ما لم يكن ذلك على وجه السرف والسفه»[4].

واعترض على من ذهب هذا المذهب بما رواه الحاكم بإسنادٍ صححه، وقال: هو على شرط الشيخين، عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أولادكم هبة الله لكم، يهب لمن يشاء إناثًا، ويهب لمن يشاء الذكور، فهم وأموالهم لكم إذا احتجتم إليها)[5].

وإن كان العقل والاعتبار يشهدان لمذهب تقييد حق الأب في مال ابنه بمقدار الحاجة لا غير، إذ لو كان معنى قوله: (أنت ومالك لأبيك) على ظاهره وإطلاقه لاستحق الأب الاستئثار بمال ولده بعد وفاته

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، ٢/ ٧٦٩، رقم ٢٢٩١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣١١، رقم ١٤٨٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٦١، رقم ٦٦٧٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣١١، رقم ١٤٨٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في الرجل يأكل من مال ولده، ٣/ ٢٨٨، رقم ٣٥٢٨.

(٤) نيل الأوطار ٥/ ٣٩.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٢٨٤.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٥٦٤.

لا يشركه فيه غيره من الورثة، و لكانت عليه زكاته في حياته إن قصر في أدائها الولد، و ليس الأمر كذلك.

قال ابن الهمام الحنفي بعد ذكر حديث عائشة المتقدم: (ومما يقع بأن الحديث يعني أنت ومالك لأبيك ما أول أنه تعالى ورث الأب من ابنه السدس مع ولد ولده، فلو كان الكل ملكه لم يكن لغيره شيء مع وجوده)[1].

قال ابن قدامه رحمه الله: «وللأب أن يأخذ من مال ولده ما شاء مع غناه وحاجته بشرطين:

أحدهما: أن لا يجحف بالإبن، و لا يأخذ ما تعلقت به حاجته.

الثاني: أن لا يأخذ من مال أحد ولديه فيعطيه لآخر؛ لأن تفضيل أحد الولدين غير جائز، فمع تخصيص الآخر بالأخذ منه أولى. فإذا وجد الشرطان جاز الأخذ»[2].

فليتق الأبناء والآباء ربهم فيما أعطوا و ما تركوا، و لا يجاوزن أحدهم حدود ما شرعه الله تعالى له، فإنه ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء:١٤].

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

(١) انظر: فتح القدير، ابن الهمام ص٢٣٥.
(٢) انظر: الكافي ٢ / ٤٧١.

واجبات معنوية:

قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣]

يتناول القرآن الكريم كيفية تعاطي الأبناء مع الوالدين، كشكلٍ من أشكال العلاقات التي يبنيها الإنسان في حياته، فهناك من ينفتح على الله وعلى أجواء الصلاح في علاقته بهما، ليبقى معهما في خط الصلاح في شبابه، كما كان كذلك في طفولته، وهناك من ينغلق عن الله ويصم أذنيه عن سماع ندائهما الذي يدعوه إليه.

يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف:١٥].

أن يحسن إليهما، وأن يتطلع، بعمقٍ وانفتاح وإنسانيةٍ، إلى الجهد الذي بذلاه في تربيته، بما لم يبذله أحدٌ معه، ولم يقدمه إليه إنسانٌ، ولا سيما الأم التي تتحمل الجهد الجسدي الشاق في حمله وولادته ورضاعه، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥].

فكان حملها له مشقة ومعاناة ثقيلة تواجه فيها حالة صحية صعبة، حيث يتغير مزاجها، ويضطرب وضعها الجسدي بكل أجهزته، وكانت ولادته حركة آلام قاسية في مكابدة

الجهد والخطر على الحياة، ولكنها بالرغم من حالة الكره الطبيعي للإحساس الجسدي بالثقل والألم والمعاناة، تتقبل ذلك كله بالرضى والحنان والعاطفة، فتحتضن ولدها بالعاطفة الدافقة الطاهرة، وتستمر في رعايته في حمله ورضاعه.

وتستمر الرعاية مدة طويلةً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، عندما تشتد قواه ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾، وهي المدة التي يقوى فيها جسده، ويكمل فيها عقله، وتهدأ فيها شهواته، وتتوازن فيها انفعالاته، ويبدأ بالتطلع إلى نعمة الله عليه في حركة وجوده، بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة، ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل:١٩].

أي: اجعلني أعيش وعي النعمة، إلهامًا روحيًا، يلزمني بمسؤولية الشكر لك قولًا وفعلًا يلتزمان سبل رضاك ومواقعه وغاياته، وبما يحولها إلى طاقةٍ حيةٍ منفتحةٍ على مواقع القرب منك والحب والصدق لك.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأخوة، الأمومة، التبني

بيت النبوة

عناصر الموضوع

مفهوم بيت النبوة	٣٧٠
بيت النبوة في الاستعمال القرآني	٣٧١
الألفاظ ذات الصلة	٣٧٢
رعاية الله تعالى لبيت النبوة	٣٧٤
خصوصيات بيت النبوة	٣٨٦
قصص من بيت النبوة	٣٩٥
حقوق بيت النبوة	٤١١

مفهوم بيت النبوة

أولًا: المعنى اللغوي:

بالنظر في مصطلح (بيت النبوة) نجد أنه مركبٌ إضافي يتكون من كلمة (بيت) وكلمة (النبوة) ولا بد من تعريف كل كلمة على حدة، ثم يعرف المركب كله بعد ذلك.

أما كلمة (بَيْت) فأصلها: مأوى الإنسان بالليل؛ لأنه يقال: بات: أقام بالليل، كما يقال: ظل بالنهار، ثم قد يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه أبيات وبيوت، لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشِعْر... وعبر عن مكان الشيء بأنه بيته، وصار أهل البيت متعارفًا في آل النبي صلى الله عليه وسلم[(١)]

وأما النبوة فمختلف فيها، هل هي من النبأ أو من النبوة؟ فإن كانت من النبأ فهي متروكة الهمزة، وإن كانت من النبوة فهي على أصلها، قال ابن السكيت: «النبي وهو من أنبأ عن الله عز و جل فترك همزه، وإن أخذته من النبوة وهو الارتفاع من الأرض، أي: شرف على سائر الناس، فأصله غير الهمز»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها ابن حزم بأنها «الوحي من الله تعالى بأن يعلم الموحى إليه بأمرٍ ما يعلمه لم يكن يعلمه قبل»[(٣)]

أقول: وإذا كانوا عرفوا النبي بأنه «من اختصه الله سبحانه و تعالى بسماع وحي بحكم شرعي تكليفي سواء أمر بتبليغه أم لا»[(٤)] فإنه يمكن أن تعرف النبوة بأنها إيحاء الله تعالى إلى نبيٍ من الأنبياء بأي طريقٍ من طرق الوحي بحكم أو شرعٍ، أمر بتبليغه أو لم يؤمر.

بيت النبوة كمركب إضافي:

أما إذا أردنا تعريف مصطلح (بيت النبوة) باعتباره مركبًا إضافيًا، فيكون تعريفه باعتبار مفرداته؛ فهو المنزل الذي كان ينزل فيه الوحي على أي نبيٍ من الأنبياء.

وشاع إطلاقه على أسرة نبينا صلى الله عليه وسلم من شخصه وأقاربه.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٥.
(٢) إصلاح المنطق ص ١٥٨.
(٣) المحلى، ١/ ٥٠.
(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ١٦٢.

بيت النبوة في الاستعمال القرآني

لم يرد مصطلح (بيت النبوة) في الاستعمال القرآني.

وقد عبّر عن القرآن عن معناه بألفاظ أخرى، وهي:

١. بيوت النبي: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب:٥٣].

٢. أهل البيت: قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب:٣٣].

٣. نساء النبي: قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب:٣٢].

الألفاظ ذات الصلة

١ أهل البيت:

أهل البيت لغة:

«أهل الرجل: من يجمعه وإياهم نسب أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد، وأهل الرجل في الأصل: من يجمعه وإياهم مسكن واحد، ثم تجوز به فقيل: أهل الرجل لمن يجمعه وإياهم نسب، وتعورف في أسرة النبي صلى الله عليه وسلم مطلقًا -إذا قيل: أهل البيت- لقوله عز و جل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب:٣٣]. وعبر بأهل الرجل عن امرأته»[١].

بل صرح بعضهم بأن أهل البيت «عبارة عن النساء، الواحد والجمع فيه سواء. ولكن الضمير الذي يرجع إليه يكون جمعًا ومذكرًا اجتنابًا عن التصريح، لأجل حرمة النساء»[٢].

أهل البيت اصطلاحًا:

«كل من يكون من ألزام النبي صلى الله عليه وسلم من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب، وكلما كان الإنسان منهم أقرب وبالنبي صلى الله عليه وسلم أخص وألزم كان بالإرادة أحق وأجدر»[٣].

الصلة بين بيت النبوة وأهل البيت:

لفظان مترادفان، فأهل البيت، هم بيت النبوة.

٢ آل البيت:

آل البيت لغة:

الآل: «أهل الرجل وعياله أيضًا: أتباعه وأولياؤه،... وأصله أهلٌ، أبدلت الهاء همزةً، فصارت: أألٌ، توالت همزتان، فأبدلت الثانية ألفًا فصار: آل. وتصغيره: أويلٌ وأهيلٌ»[٤]

«وقد ورد الآل في القرآن على ثلاثة أوجهٍ:

الأول: بمعنى القوم والتبع: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ٤١﴾ [القمر:٤١]

الثاني: بمعنى أهل البيت والحاضرين من أهل القوت والنفقة: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ [القمر:٣٤]

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٩.
(٢) مفردات القرآن، الفراهي، ص ٢٥٩.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ١٠٢، السراج المنير، الشربيني ٣/ ٣٠٦.
(٤) تاج العروس، الزبيدي ٢٨/ ٣٧.

الثالث: بمعنى القرابة والذرية الكلية: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عمران:٣٣].
﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦].
ويستعمل فيمن يختص بالإنسان (اختصاص ذاته) إما بقرابة قريبة، أو بموالاة.

آل البيت اصطلاحًا:

وآل النبي: أقاربه. وقيل: المختصون به من حيث العلم. وذلك أن أهل الدين ضربان: ضرب مختص بالعلم المتقن والعمل المحكم. فيقال لهم: آل النبي وأمته وضرب مختصون بالعمل على سبيل التقليد.

ويقال لهم: أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يقال لهم: آل النبي. وكل آل النبي أمته، وليس كل أمته آله. وقيل لجعفر الصادق: الناس يقولون: المسلمون كلهم آل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: صدقوا وكذبوا. فقيل: ما معناه؟ قال: (كذبوا في أن الأمة كافتهم آله، وصدقوا أنهم إذا قاموا بشرائط شريعته فهم آله»[1] وآل البيت أصبح علمًا على آل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

الصلة بين بيت النبوة والآل البيت:

آل البيت أعم من بيت النبوة، فـ(آل البيت) يشمل زوجاته صلى الله عليه وسلم، وقرابته، سواء الذي كانوا في حياته، أو الذين جاؤوا بعد مماته.

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ١٦٢.

رعاية الله تعالى لبيت النبوة

بيت النبوة محط أنظار الأمة، وموطن قدوتها، لذلك حظي برعاية خاصة من المولى عز و جل، تتمثل هذه العناية في إرادة الله تعالى تطهيرهم، وفي مجموعة وصايا أمر الله بها أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

أولًا: إرادة الله تعالى تطهير بيت النبوة:

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

هذا جزء آية، بدايتها ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ جاءت ضمن مجموعة وصايا وتوجيهات لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت هذه في خاتمتها لتكون بمثابة التعليل لها، فكأنه قال: إنه أمركم بهذه الأوامر إرادة إذهاب الرجس عنكم، وإرادة تطهيركم. ولئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم، ولتصونوا عنها بالتقوى[1].

فيخبر المولى عز و جل بأسلوب الحصر أنه يريد إذهاب الرجس عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ويريد تطهيرهم، والقصر قصر قلب، والمعنى: «ما يريد الله لكن مما أمركن ونهاكن إلا عصمتكن من النقائص وتحليتكن بالكمالات ودوام ذلك، أي: لا يريد من ذلك مقتًا لكن ولا نكاية»[2].

بعد جملة توجيهات لهذا البيت الطاهر، بيت النبي صلى الله عليه وسلم تأتي هذه الجملة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فالتكاليف فيها مشقة على النفس الإنسانية، فتأتي مثل هذه التعليلات لتخففها على النفس، فالإنسان إذا علم الحكمة من التكليف، والغاية السامية التي ترتب عليه خفت شدته عليه، ويسر أمره، «وفي التعبير إيحاءاتٌ كثيرةٌ، كلها رفاف، رفيق، حنون؛ فهو يسميهم ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ بدون وصفٍ للبيت ولا إضافة. كأنما هذا البيت هو البيت الواحد في هذا العالم، المستحق لهذه الصفة. فإذا قيل: «البيت» فقد عرف وحدد ووصف... فالتعبير عن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك تكريم وتشريف واختصاص عظيم.

وهو يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.. وفي العبارة تلطف ببيان علة التكليف وغايته. تلطفٌ يشي بأن الله سبحانه و تعالى يشعرهم بأنه بذاته العلية يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم. وهي

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٤٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٦.

رعاية علوية مباشرة بأهل هذا البيت»[1].

وأهل البيت في هذه الآية يشمل أزواجه صلى الله عليه وسلم ومن ذكر في الحديث من ذريته وقرابته، فعن عائشة قالت: (خرج النبي صلى الله عليه وسلم غداة وعليه مرط مرحل[2] من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾)[3].

وعن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ في بيت أم سلمة، فدعا فاطمة وحسنًا وحسينًا فجللهم بكساء[4] وعليٌّ خلف ظهره، فجللهم بكساء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، قالت: أم سلمة وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك، وأنت على خير)[5].

قيل: «لم يدخلها لاستغنائها بظاهر الكتاب، فليطمئن قلبها»[6].

وفي بعض الروايات تقول السيدة أم سلمة رضي الله عنها: (فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله، قال: إنك إلى خير، إنك إلى خير)[7].

وقد اختلف العلماء في ذلك، فذهب بعضهم إلى أن الآية خاصة بأزواجه صلى الله عليه وسلم لأن الآية نزلت فيهن ابتداءً، وذهب آخرون إلى أنها خاصة بذريته صلى الله عليه وسلم للحديث المتقدم.

و«توسطت طائفةٌ بين الطائفتين فجعلت هذه الآية شاملةً للزوجات ولعليٍ وفاطمة والحسن والحسين؛ أما الزوجات فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات، ولكونهن الساكنات في بيوته النازلات في منازله، وأما دخول عليٍ وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما ورد من الأحاديث المصرحة بدخولهم»[8].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٦٢.
(٢) المرط: كساء من صوفٍ أو غيره كانوا يأتزرون بها.
انظر: غريب الحديث، ابن الجوزي ٢/ ٣٥٣.
المرحل: الذي قد نقش فيه تصاوير الرحال.
انظر: غريب الحديث، ابن الجوزي ١/ ٣٨٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٨٣، رقم ٢٤٢٤.
(٤) ألبسهم إياه.
انظر: غريب الحديث، الحربي ١/ ١١٧.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة الأحزاب، ٥/ ٣٥١، رقم ٣٢٠٥.
وقال: هذا حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة.
(٦) درج الدرر، الجرجاني ٣/ ١٤٠٨.
(٧) أخرجه أحمد، ٦/ ٢٩٢، رقم ٢٦٥٥١.
(٨) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري ٩/ ٤٩.

ودخول أزواجه فيهم أمر لم يخالف فيه إلا الرافضة، وهم مردود عليهم، «والتحقيق أنهن داخلات في الآية، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت. أما الدليل على دخولهن في الآية، فهو أن سياق الآية صريحٌ في أنها نازلة فيهن، والتحقيق: أن صورة سبب النزول قطعية الدخول.

وأما الدليل على دخول غيرهن في الآية، فهو الأحاديث التي تنص على دخول علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنه. وبما ذكر من دلالة القرآن والسنة، تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنه كلهم»[1].

وقد اختلف في المراد بالرجس هنا على أقوال كثيرة، فقيل: «الإثم، وقيل: الشرك، وقيل: الشيطان، وقيل: المعاصي، وقيل غير ذلك»[2].

والمعاني كلها متقاربة، ولا يوجد تعارض بينها، ولعلها كلها مرادة.

فإذهاب الرجس إزالة الأقذار العالقة، والتطهير: صيانة عن الأقذار التي يمكن أن تلحق الإنسان، وفي الجمع بين إرادة إذهاب الرجس وإرادة التطهير «لطيفة، وهي أن الرجس قد يزول عينًا ولا يطهر المحل؟

فقوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي: يزيل عنكم الذنوب، ويطهركم أي يلبسكم خلع الكرامة»[3]

ثانيًا: وصايا الله تعالى لنساء بيت النبوة:

وإذا كان للبيت النبوي الشريف خصوصياته وفضائله فإن عليه أيضًا تكاليف كثيرة، وقد ذكر في سورة الأحزاب مجموعة من التكاليف والوصايا التي أمر بها نساء هذا البيت الشريف.

ذكرت هذه التكاليف في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤].

وهذه التكاليف وإن كانت عامة في كافة النساء إلا أنها أكدت في حق نساء هذا البيت لمكان القدوة عندهن.

ولنتناول هذه التكاليف بشيء من

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٣٧.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٠١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٨١.

الإيضاح الذي يجليها.

١. النهي عن إلانة القول، والأمر بالقول المعروف.

تبدأ الآية الكريمة بنداء أمهات المؤمنين بأفضل وصف لهن، وهو وصفهن بـ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ثم تذكرهن بمكانتهن، وتخبرهن أن مكانتهن عالية جدًا، ومنزلتهن رفيعة وذلك في حال ما إذا التزمن التقوى، ثم ينهاهن ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ ويأمرهن ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ وفي تذكيرهن بهذه المكانة وأنهن لسن كبقية لنساء لتنبيههن إلى أنه ينبغي أن يبالغن في امتثال هذه التكاليف، فهو توجيه لهيئة الكلام بأن يكون في غير ميوعة ولينٍ، ولموضوع الكلام، فيما هو متعارف عليه بين الناس.

والمعنى «لا تلين القول، فيطمع الذي في قلبه فجور ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ صحيحًا لا يطمع فاجرًا»[(١)].

وهذا تحذير من هيئة الكلام «فإن الناس متفاوتون في لينه، والنساء في كلامهن رقةٌ طبيعيةٌ وقد يكون لبعضهن من اللطافة ولين النفس ما إذا انضم إلى لينها الجبلي قربت هيئته لهيئة التدلل لقلة اعتياد مثله إلا في تلك الحالة. فإذا بدا ذلك على بعض النساء ظن بعض من يشافهها من الرجال أنها تحبب إليه، فربما اجترأت نفسه على الطمع في المغازلة فبدرت منه بادرة تكون منافية لحرمة المرأة»[(٢)].

وفي الإتيان بقوله ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ بعد فاء السببية لطيفة، وهي أنه سبحانه و تعالى ينفي التهمة عنهن، فنهيهن عن إلانة القول أمام الأجانب ليس اتهامًا لهن، وإنما حفاظًا عليهن من الفساق مرضى القلوب.

وبهذا يرد على أذناب الغرب الذين يعيشون بيننا، فهم يقولون: أنتم ضعاف القلوب، ولهذا تسترون نساءكم وتنهونهن عن مخاطبة الرجال، وأما نحن فلسنا بحاجة إلى مثل هذه الأمور لأنا أقوياء النفوس، لا يتطرق إلى أذهاننا ما يتطرق إلى أذهانكم من الفحشاء.

فنقول لهم: إننا لا نتهمكم، ولكن نحافظ على نسائكم، فلنفترض جدلًا أنا ضعاف النفوس سيئي القصد، ألا تخاف على زوجتك وابنتك منا-إن كنا بهذه الصفات-!

ثم إننا إذا نظرنا إلى مجتمعاتكم لا نرى فيه الطهر الذي تزعمون، والعفاف الذي تدعون، بل نرى فحشًا وخيانات، ونرى اغتصابًا واعتداءً على الأعراض، كم من حالات الخيانة حدثت عندكم من خلال غنج النساء ولينهن بالقول،! رأينا انطلاق

(١) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٤٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٠.

سعار الشهوات، سعارٌ حيواني لا يخبو ولا ينطفأ، بل أدى بكم إلى عقد وأمراض نفسية، أدى بكم إلى الشذوذ بكافة أشكاله.

والمرض نوعان:

١. مرض القلوب.

٢. مرض الأبدان.

ومرض القلوب: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي.

وأما مرض الأبدان: فمثل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1] [النور:٦١].

والمراد هنا مرض الشهوة الذي يعتري القلوب.

«وعطف ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ على ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ بمنزلة الاحتراس، لئلا يحسبن أن الله كلفهن بخفض أصواتهن كحديث السرار»[2].

يقول صاحب الظلال: «ومن هن اللواتي يحذرهن الله هذا التحذير؛ إنهن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين، اللواتي لا يطمع فيهن طامع، ولا يرف عليهن خاطر مريض، فيما يبدو للعقل أول مرة. وفي أي عهدٍ يكون هذا التحذير؟ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد الصفوة المختارة من البشرية في جميع الأعصار.. ولكن الله الذي خلق الرجال والنساء يعلم أن في صوت المرأة حين تخضع بالقول، وتترقق في اللفظ، ما يثير الطمع في قلوب، ويهيج الفتنة في قلوب. وأن القلوب المريضة التي تثار وتطمع موجودة في كل عهد، وفي كل بيئة، وتجاه كل امرأة، ولو كانت هي زوج النبي الكريم، وأم المؤمنين. وأنه لا طهارة من الدنس، ولا تخلص من الرجس، حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس. فكيف بهذا المجتمع الذي نعيش اليوم فيه»[3] في عصر الفتن والشهوات يجب على المرأة أن تحتشم في زيها وصوتها وحركاتها وسكناتها حتى تبقى نبعًا للطهر والنقاء في مجتمع يغرق الكثير منه في الرذيلة.

٢. القرار في البيوت.

ثم يأتي هذا الأمر الإلهي لهن بالقرار في البيوت ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وقد قرئت بفتح القاف وكسرها «فمن كسر جعله من الوقار. ومن فتح جعله من الاستقرار»[4].

فهو «من وقر يقر وقارًا في المكان: إذا ثبت فيه، وقيل: هو من قررت في المكان أقر، والأصل واقررن، حذفت الراء الأولى وألقيت حركتها على القاف فصار وقرن.

(١) انظر: الطب النبوي، ابن القيم ٢/ ٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤١.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٥٩.
(٤) الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص ٢٩٠.

قال النحاس: يجوز أن يكون ﴿وَقَرْنَ﴾ من قررت به عينًا أقر، فيكون المعنى: واقررن به عينًا في بيوتكن»[1].

قال ابن فارس: «الواو والقاف والراء: أصلٌ يدل على ثقل في الشيء. منه الوقر: الثقل في الأذن. يقال منه: وقرت أذنه توقر وقرًا. والوقر: الحمل. ويقال نخلةٌ موقرةٌ وموقرٌ، أي: ذات حملٍ كثير»[2].

وأيًا كان أصله فإنَّ المقصود الأمر لهن بملازمة البيت إشارة إلى أن البيت هو المهمة الأولى للمرأة، وليس المراد نهيهن عن الخروج من البيوت على الإطلاق.

قيل: هو أمر وجوب لهن «خصصن به، وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرًا لهن. وتقويةً في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبي صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة... وهذا الحكم وجوب على أمهات المؤمنين وهو كمال لسائر النساء»[3].

و«إضافة البيوت إليهن لأنهن ساكنات بها، أسكنهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت بيوت النبي صلى الله عليه وسلم يميز بعضها عن بعضٍ بالإضافة إلى ساكنة البيت، يقولون: حجرة عائشة، وبيت حفصة، فهذه الإضافة كالإضافة إلى ضمير المطلقات في قوله تعالى ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١].

وذلك أن زوج الرجل هي ربة بيته، والعرب تدعو الزوجة البيت، ولا يقتضي ذلك أنها ملك لهن، لأن البيوت بناها الرسول صلى الله عليه وسلم تباعًا تبعًا لبناء المسجد، ولذلك لما توفيت أزواجه كلهن أدخلت ساحة بيوتهن إلى المسجد في التوسعة التي وسعها الخليفة الوليد بن عبد الملك في إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة، ولم يعط عوضًا لورثتهن»[4].

أقول: كأني بالآية تشير إلى أمرين اثنين يجب أن تتحلى بهما المرأة المسلمة:

الأول: الوقار والاحترام، فلا تتميع ولا تتسكع كما تفعل المستهترة.

الثاني: أن المهمة الأساسية للمرأة المسلمة هي بيتها، فيلزمها الاعتناء به أولًا، وهي مهمة شاقة ليست بالهينة، فهو مصنع الرجال.

ولصاحب الظلال كلام رائع في هذا الأمر، أذكر بعضه -خشية الإطالة- يقول: «وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقًا. إنما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن، وهو المقر وما عداه استثناء طارئًا لا يثقلن فيه ولا يستقررن. إنما هي الحاجة تقضى، وبقدرها.

(١) معاني القرآن، النحاس: ٥/ ٣٤٦.
(٢) مقاييس اللغة ٦/ ١٣٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٢.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٣.

والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة»[(١)].

٣. النهي عن التبرج.

لما كان الغرض من أمرهن بملازمة البيوت هو الستر عليهن، وألا يفتح سبيلٌ للفساق للنيل منهن، وكان هناك حاجات تحملهن على الخروج نهاهن عن إظهار زينتهن فقال سبحانه و تعالى ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ أي: لا تظهرن زينتكن.

والتبرج أصله التباعد والظهور، فـ«البرج: تباعد ما بين الحاجبين، وكل ظاهر مرتفع فقد برج... والتبرج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال. وتبرجت المرأة: أظهرت وجهها. وإذا أبدت المرأة محاسن جيدها ووجهها قيل: تبرجت، وترى مع ذلك في عينيها حسن نظرٍ»[(٢)].

واختلف في صفة التبرج المذكور في الآية، فقيل: «التبختر، وقيل: كانت لهن مشية تكسرٍ وتغنجٍ، فنهاهن عن ذلك، وقيل: كانت المرأة تمشي بين يدي الرجل، فذلك هو التبرج، وقيل: هو أن تلقي الخمار على رأسها ولا تشده ليواري قلائدها وعنقها وقرطها، ويبدو ذلك كله منها، فذلك هو التبرج، وقيل: أن تبدي من محاسنها ما أوجب الله تعالى عليها ستره»[(٣)].

وأرى أنه لا يوجد تعارض بين هذه الأقوال، ولعلها كلها صور لما كان يحدث في الجاهلية من تبرج.

و﴿الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ اختلفوا فيها؛ قيل: ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام وقيل: هي زمن داود وسليمان عليهما السلام وكانت المرأة تلبس قميصًا من الدر غير مخيط الجانبين فيرى خلفها فيه. وقيل: الجاهلية التي هي الزمان الذي فيه ولد إبراهيم عليه السلام، وكانت المرأة من أهل ذلك الزمان تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه ثم تمشي وسط الطريق ليس عليها شيء غيره، وتعرض نفسها على الرجال. وقيل: هي ما بين آدم ونوح ثمانمائة سنة، وكان نساؤهم أقبح ما يكون من النساء ورجالهم حسان. فكانت المرأة تريد الرجل على نفسها. وقيل: هي ما قبل الإسلام[(٤)].

ورجحه ابن عطية، فقال: «والذي يظهر عندي أنه أشار للجاهلية التي لحقنها، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة، لأنهم كانوا لا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٥٩.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٣٦.
(٣) النكت والعيون، الماوردي٤/ ٤٠٠.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٣٥.

غيرة عندهم وكان أمر النساء دون حجاب، وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه، وليس المعنى أن ثم جاهليةً أخرى»[1].

«ووصفها بـ﴿الأُولَىٰ﴾ وصف كاشف، لأنها أولى قبل الإسلام وجاء الإسلام بعدها، وليس ثمة جاهليتان. ومن المفسرين من جعلوه وصفًا مقيدًا، وجعلوا الجاهلية جاهلتين، فمنهم من قال: الأولى هي ما قبل الإسلام وستكون جاهلية أخرى بعد الإسلام، يعني حين ترتفع أحكام الإسلام -والعياذ بالله-»[2].

أقول: ما المانع من كونه وصفًا مقيدًا، فالجاهلية وصف لحالة معينة، وليست فترةً زمنيةً بعينها، وإن كان الميل إلى أن هذا الوصف متحقق في الفترة التي سبقت الإسلام مباشرة، وإذا نظرنا في أوصاف هذه الفترة التي استحقت أن توصف بالجاهلية لأجلها نجد أننا في عصرنا هذا نعيش جاهليةً لا تقل في عنفوانها وقوتها عن تلكم الفترة، بل قد تكون أشد منها.

ولن نطيل بالمقارنة بين الفترتين من جميع الجوانب، ولكن نقارن بينهما في الجانب الذي نتحدث فيه، وهو جانب التبرج، فإذا نظرنا إلى تلكم الحقبة من الزمان نجد أن التبرج الذي كانت تفعله المرأة أنها كانت تمشي ضاربة بصدرها مظهرة لنحرها حتى يراها الرجال، أو كانت تضرب الأرض برجلها حتى يسمع الرجال قرع خلخالها، وما جاء من تعرٍ زائدٍ عن ذلك فإنما هو تعرٍ مؤقت مرتبط بعبادة الحج، لغرض ديني عندها، فكانت تتعرى من ثيابها متفائلة بالتعري من ذنوبها، ومع ذلك كانت تأخذ خرقة تضعها على فرجها تستره بها.

أما عن ما أحدثه نساء زماننا من تبرجٍ وتعرٍ، فحدث ولا حرج، أظهرت جميع جسدها بلا استثناء، معلنة أن ذلك حرية، بل اعتبرت أن ممارسة الرزيلة حرية شخصية، وأن عفتها تخلفٌ ورجعية، في حين أن الجاهلية الأولى كانت تنظر إلى فعل الرزيلة على أنه يتنافى مع الحرية، يتجلى ذلك في عبارة هند زوج أبي سفيان رضي الله عنهما في قصة مبايعتها الشهيرة (أو تزني الحرة)[3] فاعتبرت الزنا منافيًا للحرية.

ويؤيد ما ذكرته قول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: (وهل كانت من أولى إلا ولها آخرة؟)[4].

قال المهدوي: «وقوله: ﴿الْجَٰهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ يدل على أن ثم جاهليةً أخرى في الإسلام»[5].

فـ«الجاهلية ليست فترة معينة من الزمان.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٨٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٥.
(٣) أخرجه أبو يعلى، ٨/ ١٩٤، رقم ٤٧٥٤.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٢٦٢.
(٥) الهداية، مكي بن أبي طالب ٩/ ٥٨٣٢.

إنما هي حالة اجتماعية معينة، ذات تصورات معينة للحياة. ويمكن أن توجد هذه الحالة، وأن يوجد هذا التصور في أي زمان وفي أي مكان، فيكون دليلًا على الجاهلية حيث كان! وبهذا المقياس نجد أننا نعيش الآن في فترة جاهلية عمياء، غليظة الحس، حيوانية التصور، هابطة في درك البشرية إلى حضيض مهين»[1].

٤. الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

يأتي بعد هذا الأمر لهن بأداء أصول العبادات، إقامة الصلاة وأداء الزكاة، ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وذلك أنه سبحانه و تعالى لما قال لهن ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ...﴾ قد يتطرق إلى أذهانهن أنهن مأمورات بالأشياء المذكورة فقط، ولسن مأمورات ببقية العبادات الأخرى، فأمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ليدفع هذا الوهم.

ومن المعلوم أن الصلاة أصل العبادات البدنية، والزكاة أصل العبادات المالية.

والمراد بالصلاة والزكاة الواجبتان، وإقامة الصلاة: الإتيان بها كاملة الأركان والهيئات في أوقاتها التي حددها الشرع. وإيتاء الزكاة: دفع ما أوجبه الشرع الحنيف في الأموال على الوجه الذي بينته الشريعة الغراء.

و«أريد بهذه الأوامر الدوام عليها، لأنهن متلبسات بمضمونها من قبل، وليعلم الناس أن المقربين والصالحين لا ترتفع درجاتهم عند الله تعالى عن حق توجه التكليف عليهم. وفي هذا مقمعٌ لبعض المتصوفين الزاعمين أن الأولياء إذا بلغوا المراتب العليا من الولاية سقطت عنهم تكاليف الشريعة»[2].

ونلحظ هنا أنه أتى بالأمر بالصلاة والزكاة بعد أوامر ونواهٍ تتعلق بالنواح السلوكية، وكأنه يعطي إشارة إلى أن العبادات في الإسلام ليست بمعزل عن سلوكيات الإنسان وحياته، فلا يأتي متنطع يزعم أنه يلزم فصل الدين عن الحياة، فالدين كلٌ لا يتجزأ، يشمل سلوكيات الإنسان، وجميع جوانب الحياة.

يقول صاحب الظلال: «وعبادة الله ليست بمعزل عن السلوك الاجتماعي أو الأخلاقي في الحياة؛ إنما هي الطريق للارتفاع إلى ذلك المستوى؛ والزاد الذي يقطع به السالك الطريق. فلا بد من صلة بالله يأتي منها المدد والزاد. ولا بد من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه. ولا بد من صلة بالله يرتفع بها الفرد على عرف الناس وتقاليد المجتمع وضغط البيئة؛ ويشعر أنه أهدى وأعلى من الناس والمجتمع والبيئة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٦١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٥.

وأنه حري أن يقود الآخرين إلى النور الذي يراه؛ لا أن يقوده الآخرون إلى الظلمات وإلى الجاهلية التي تغرق فيها الحياة، كلما انحرفت عن طريق الله... ومن ثم كان الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، هو خاتمة التوجيهات الشعورية والأخلاقية والسلوكية لأهل البيت الكريم. لأنه لا يقوم شيء من تلك التوجيهات بغير العبادة والطاعة»[1].

٥. الأمر بطاعة الله ورسوله.

وبعد أن أمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانت العبادات غير مقتصرة على هاتين الشعيرتين، بل هي أعم من ذلك، فهي امتثال جميع الأوامر، واجتناب جميع النواهي، جاء هذا الأمر العام بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فهو عطف للعام على الخاص.

وقد «جاء الأمر عامًا بالطاعة لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات، فمن اعتنى بهما حق العناية جرتاه إلى ما وراءهما، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]»[2].

٦. تعليم ما يتلى من القرآن والسنة.

وبعد أن أمرهن بما تقدم يأتي الأمر لهن بتذكر النعمة الكبرى والمنة العظمى، ألا وهي نزول الوحي في بيوتهن، فلذا يجب عليهن شكرها بالعمل بما جاء به من أحكام، وبالقيام بتبليغ الوحي للأمة كلها ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٤].

الفعل ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ «يجوز أن يكون من الذكر -بضم الذال- وهو التذكر، وهذه كلمة جامعة تشمل المعنى الصريح منه، وهو أن لا ينسين ما جاء في القرآن ولا يغفلن عن العمل به، ويشمل المعنى الكنائي، وهو أن يراد مراعاة العمل بما يتلى في بيوتهن مما ينزل فيها وما يقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فيها، وما يبين فيها من الدين، ويشمل معنًى كنائيًا ثانيًا وهو تذكر تلك النعمة العظيمة أن كانت بيوتهن موقع تلاوة القرآن»[3].

«ويجوز أن يكون من الذكر -بكسر الذال-، وهو إجراء الكلام على اللسان، أي: بلغنه للناس بأن يقرأن القرآن، ويبلغن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته. وفيه كناية عن العمل به»[4].

قلت: ولا مانع من إرادة المعنيين، فيكون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٦١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٩.
(٤) انظر: المصدر السابق.

من قبيل ما يسمى عند البلاغيين بأسلوب الاستخدام، وما يسمى عند الأصوليين استخدام المشترك في معنييه، ويكون هذا من الإعجاز القرآني، إذ يشمل اللفظ القليل المعاني الكثيرة.

وآيات الله لا خلاف في أن المراد بها القرآن الكريم. واختلف في المراد بالحكمة «قيل: هي السنة. وقيل: هي أحكام القرآن ومواعظه»[1].

والمعنى عليه «من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع»[2].

والميل إلى أن المراد بها السنة، وذلك حتى يكون هناك مغايرةٌ بين المعطوف والمعطوف عليه. ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تزوجهن بأمر الله تعالى ؛ لحاجة أرادها الله تعالى فقد يتصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرفًا عند إحداهن لم يتصرفه عند غيرها، فتبلغه وتذكره، كزاوجه من أمنا ميمونة رضي الله عنها.

وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ «تعليل للأمر وتذييل للجمل السابقة، والتعليل صالح لمحامل الأمر كلها لأن اللطف يقتضي إسداء النفع بكيفية لا تشق على المسدى إليه.

وفيما وجه إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر والنهي ما هو صلاح لهن وإجراء للخير بواسطتهن، وكذلك في تيسيره إياهن لمعاشرة الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلهن أهل بيوته، وفي إعدادهن لسماع القرآن وفهمه، ومشاهدة الهدى النبوي، كل ذلك لطف لهن هو الباعث إلى ما وجهه إليهن من الخطاب ليتلقين الخبر ويبلغنه، ولأن الخبير، أي العليم إذا أراد أن يذهب عنهن الرجس ويطهرهن حصل مراده تامًا لا خلل ولا غفلة»[3].

٧. ارتداء الحجاب.

من الأشياء المهمة للمرأة المسلمة، بل وللمجتمع كله ستر العورات، لمنع إثارة الشهوات، لذلك حرص الإسلام الحنيف على ستر جسد المرأة، حفاظًا عليها، وحفظًا للمجتمع كله، لذا يأتي هذا التوجيه الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يأمر أزواجه وبناته وجميع المؤمنات بستر العورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩].

عن عائشة: (أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع -وهو صعيد أفيح- فكان عمر

(١) لباب التأويل، الخازن٣/ ٤٢٥.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٣.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٥٠.

يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة -حرصًا على أن ينزل الحجاب- فأنزل الله آية الحجاب)[1].

ومن المعلوم أن ارتداء المرأة المسلمة للحجاب فريضة عليها، لا تقل في وجوبها عن الصلاة والصيام، وإن كان هناك خلاف بين العلماء في القدر الواجب ستره من بدنها، والخلاف مشهور في عورة المرأة، ولسنا بصدد الحديث عن الخلاف في المسألة، وإنما يعنينا القول بوجوب ستر العورة.

وفي هذه الآية الكريمة ينادي المولى عز و جل نبيه صلى الله عليه وسلم آمرًا إياه أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن. والجلباب: كل ما يستر الكل، مثل الملحفة، والمعنى: قل للحرائر يرخين أرديتهن وملاحفهن، ليعلم أنهن حرائر فلا يؤذين. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقرب وأجدر ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ من الإماء ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ وذلك أن النساء في أول الإسلام كن على زيهن في الجاهلية متبذلات، لا فصل بين الحرة والأمة. وكان الفتيان يتعرضون للإماء، إذا خرجن بالليل لقضاء حاجتهن، وكن يخرجن مختلطات مع الحرائر، فربما تعرضوا للحرة، يحسبونها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زي الإماء بلباس الجلابيب.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أمر الله تعالى نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب، ويبدين عينًا واحدةً»[2].

«وابتدئ بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبناته لأنهن أكمل النساء»[3].

وعندما نزلت الآية سارع النساء وقت نزولها إلى الامتثال، فعن أم سلمة قالت: «لما نزلت ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩]. خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من الأكسية»[4].

وعن عائشة أنها قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١]. شققن أكنف -قال ابن صالحٍ أكثف- مروطهن فاختمرن بها»[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب خروج النساء للبراز، ١/ ٦٧، رقم ١٤٦. والصعيد: وجه الأرض. أفيح: واسع.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٥٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٢٨.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: (يدنين عليهن من جلابيبهن)، ٤/ ١٠٥، رقم ٤١٠٣.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: (وليضربن بخمرهن على

خصوصيات بيت النبوة

أولًا: النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا بدعوة:

ذكر الله تعالى عدة أحكام لبيت النبوة، منها ما ذكره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ [الأحزاب:٥٣].

في الآيات السابقة بين تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما ينبغي له مراعاته من شأن أزواجه، فجاءت هذه الآية لتبين ما يجب على المؤمنين مراعاته أيضًا نحو أزواج النبي أمهاتهم[(١)].

والآية تتضمن من الأدب ما يتعلق بالطعام وما يتعلق بالحجاب، فأما ما يتعلق بالطعام فيتفرع عنه أمران، الأدب قبل تناول الطعام، والأدب بعد تناوله، فأول هذه الآداب ما قبل الطعام، فنهوا عن دخول بيوته إلا بدعوة، فقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ «حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة»[(٢)].

وذلك أن البيوت أماكن راحة لأصحابها وسكن لهم، فينبغي مراعاة أحوال أهلها، لذلك كان هذا التوجيه الإلهي.

والسبب في ذلك ما روي عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نهض إلى بيته بادروه فأخذوا المجالس فلا يعرف ذلك في وجه رسول الله ولا يبسط يده إلى الطعام استحياءً منهم، فعوتبوا في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾[(٣)].

ومعنى ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ إلا أن تقدم لكم دعوةٌ إلى طعام، وقد ضمن ﴿يُؤۡذَنَ﴾ معنى: تُدْعَوا، «للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن تحقق الإذن، كما يشعر به قوله ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾»[(٤)]. أي: غير منتظرين بلوغه وإنضاجه[(٥)]، وكأنه نهيٌ عن دخول بيوت النبي إلا بشرطين: «الإذن بالدخول، وأن

جيوبهن)، ٤/ ١٠٥ رقم ٤١٠٣.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٥٤.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٧٤. في إسناد ابن سعد الواقدي، وهو ضعيف. انظر: النكت على ابن الصلاح: ٢/ ٦٦٦.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١١٢.

(٥) انظر: ياقوتة الصراط ص٤١١، تفسير غريب القرآن، ابن الملقن ص٢٦٢.

يكون الجلوس بمقدار الحاجة»[1].

وفي هذه الآية «دليل على تحريم التطفيل، وهو الذي تسميه العرب الضيفن»[2].

وهذه الآية قد يفهم منها عدم جواز دخول بيوته صلى الله عليه وسلم إلا بعد الدعوة إلى طعام، ولا يجوز الدخول لطلب علم ونحو ذلك، وهذا الفهم باطل، لأنه «قد دلت الأدلة على جواز دخول بيوته صلى الله عليه وسلم بإذنه لغير الطعام، وذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصحابة وغيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام فيأذن لهم، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذي نزلت فيه، وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وسلم فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه وأمثالهم، فلا تدل على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلك، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام، واللازم باطل فالملزوم مثله»[3].

ثم إنه «لا يشترط في الإذن التصريح به بل إذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ﴾ من غير بيان فاعلٍ، فالآذن إن كان الله أو النبي أو العقل المؤيد بالدليل جاز، والنقل دالٌ عليه حيث قال ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور:٦١].

فلو جاء الرجل وعلم أن لا مانع في البيت من تكشف أو بحضور غير محرم، أو علم خلو الدار من الأهل وهي محتاجة إلى إطفاء حريقٍ فيها أو غير ذلك جاز الدخول»[4].

ثم أمرهم أن ينصرفوا بعد تناول الطعام، فقال سبحانه و تعالى ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ «أي: فاخرجوا، فدل على أن الدخول للأكل يمنع من المقام بعد الفراغ من الأكل»[5] والسبب في الأمر بالانصراف بعد تناول الطعام ما رواه البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٥٤. والضيفن: الذي يحضر مع الضيف ليأكل ما يقرى الضيف. انظر: المخصص:٣/ ٤٦٩.
(٣) فتح البيان، القنوجي ١١/ ١٢٨.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٥/ ٥٨٢.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤١٨.

﴿تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآية»[1].

ثانيًا: النهي عن الانتظار للاستئناس والتسلية:

بعد أن بين سبحانه و تعالى أنه يجب عليهم الانصراف بعد تناول الطعام الذي دعوا إلى تناوله نهاهم عن الجلوس للسمر والتسلية، فقال ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ فلا «تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعضٍ، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك»[2].

أقول: هذا المعنى يفهم من الأمر بالانتشار بعد تناول الطعام، ولكنه أعاده لكي لا يفهم أن الجلوس للسمر بعد تناول الطعام مباح، وأن الأمر بالانتشار مشروط بما إذا لم يكن هناك سمر.

ثم علل لكل ما تقدم بقوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ «لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإيجابه للاشتغال بما لا يعينه وصده عن الاشتغال بما يعنيه[3] وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحتمل إطالتهم كرمًا منه، فيصبر على الأذى في ذلك، فعلم الله من يحضره الأدب، فصار أدبًا لهم ولمن بعدهم»[4]

أقول: جرى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ مجرى المثل، وذلك لأن فيه لطيفة ذكرها ابن عاشور، وهي « أن من واجبات دين الله على الأمة أن لا يستحيي أحدٌ من الحق الإسلامي في إقامته، وفي معرفته إذا حل به ما يقتضي معرفته، وفي إبلاغه وهو تعليمه، وفي الأخذ به، إلا فيما يرجع إلى الحقوق الخاصة التي يرغب أصحابها في إسقاطها أو التسامح فيها مما لا يغمص حقًا راجعًا إلى غيره، لأن الناس مأمورون بالتخلق بصفات الله تعالى اللائقة بأمثاهم بقدر الإمكان.

وهذا المعنى فهمته أم سليم وأقرها النبي صلى الله عليه وسلم على فهمها، فقد جاء في الحديث الصحيح: جاءت أم سليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: (يا رسول الله؛ إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت)[5].

فهي لم تستح في السؤال عن الحق

(١) أخرجه البخاري، في صحيحه، واللفظ له، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، ١٧٩٩/٤ ، رقم ٤٥١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحشٍ ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس، ١٠٤٦/٢ ، رقم ١٤٢٨ .

(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٣٤.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣٨٣/٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١١٢/٧.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١٧٨/٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، ٦٠/١ ، رقم ١٣٠ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض ، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، ٢٥١/١ ، رقم ٣١٣ .

المتعلق بها، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يستح في إخبارها بذلك. ولعلها لم تجد من يسأل لها أو لم تر لزامًا أن تستنيب عنها من يسأل لها عن حكم يخص ذاتها»[1].

ويمكن القول مثل ذلك عن قول الله تعالى ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ أيضًا ذهبت مثلًا بين الناس، فإذا بقي بعض الناس في المجلس بعد الأكل قال أحدهم، فذكر الآية ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾.

وهذه الآية وإن كانت تشتمل على أدب يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن فيها حفظًا للأدب وتعليمًا «أن الرجل إذا كان ضيفًا لا ينبغي أن يجعل نفسه ثقيلًا، ولكنه إذا أكل ينبغي أن يخرج»[2].

«وما أحوج المسلمين اليوم إلى هذا الأدب الذي يجافيه الكثيرون، فإن المدعوين إلى الطعام يتخلفون بعده، بل إنهم ليتخلفون على المائدة، ويطول بهم الحديث؛ وأهل البيت الذين يحتفظون ببقية من أمر الإسلام بالاحتجاب متأذون محتبسون، والأضياف ماضون في حديثهم وفي سمرهم لا يشعرون! وفي الأدب الإسلامي غناءٌ وكفاءٌ لكل حالة، لو كنا نأخذ بهذا الأدب الإلهي القويم»[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣١٣.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٦٦.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٨.

ثالثًا: مخاطبة نساء أهل البيت من وراء حجاب:

نص غير واحد من العلماء على أن من فضائل نبينا صلى الله عليه وسلم أنه لا يحل أن يسأل زوجاته صلى الله عليه وسلم إلا من وراء حجاب[4].

ثم إن نساء النبي صلى الله عليه وسلم «أمهات المؤمنين في التحريم والحرمة فقط لا في المحرمية فليس لأحد أن يخلو بهن ولا ينظر إليهن بل قد أمرهن الله بالاحتجاب عمن حرم عليه نكاحهن من غير أقاربهن ومن بينهن وبينه رضاعٌ»[5].

بل إنهن خصصن بهذا الحكم الزائد عن بقية النساء، فلا يجوز مخاطبتهن ومشافهتهن إلا من وراء سترٍ، مع وجوب ارتدائهن للحجاب، هذا التوجيه الإلهي مذكور في قوله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: و«كما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب»[6].

(٤) انظر: غاية السول في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم، ابن الملقن ص ٦٣، سبل الهدى والرشاد، الصالحي ١٠/ ٤٤٨.
(٥) زاد المعاد، ابن القيم ٥/ ٤٩١.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٥٥.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ أنتم أيها الرجال وقلوبهن أيتها الأمهات؛ أنقى من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء وللنساء في أمر الرجال[1].

«وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله، وأحصن لنفسه، وأتم لعصمته»[2].

والآية «تقرر أن هذا الحجاب أطهر لقلوب الجميع: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ فلا يقل أحدٌ غير ما قال الله، لا يقل أحدٌ إن الاختلاط وإزالة الحجب، والترخص في الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب، وأعف للضمائر، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك.. إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين. لا يقل أحدٌ شيئًا من هذا والله يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

يقول هذا عن نساء النبي الطاهرات. أمهات المؤمنين. وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن لا تتطاول إليهن وإليهم الأعناق! وحين يقول الله قولًا ويقول خلق من خلقه قولًا. فالقول لله سبحانه و تعالى وكل قولٍ آخر هراءٌ، لا يردده إلا من يجرؤ على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الباقي الذي خلق هؤلاء العبيد!

والواقع العملي الملموس يهتف بصدق الله، وكذب المدعين غير ما يقوله الله. والتجارب المعروضة اليوم في العالم مصدقة لما نقول. وهي في البلاد التي بلغ الاختلاط الحر فيها أقصاه أظهر في هذا وأقطع من كل دليل. وأمريكا أول هذه البلاد التي آتى الاختلاط فيها أبشع الثمار»[3].

بينما فهم فريق آخر من العلماء أن المراد هو الحجاب الشرعي للمرأة المسلمة، وعليه يكون لفظ الآية خاصًا بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أن حكمها عام لجميع المسلمات، فإن تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين إن غير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا حاجة إلى أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة منهن.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٩٦، أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٢٨٨.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٦١٦.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٨.

وقد تقرر في الأصول: أن العلة قد تعمم معلولها، ففيها إذًا الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام في جميع النساء، وليس خاصًا بأزواجه صلى الله عليه وسلم وإن كان أصل اللفظ خاصًا بهن؛ لأن عموم علته دليل على عموم الحكم فيه[1].

ويكون وجه الخطاب لهن لمكان القدوة بالنسبة لهن، فهن قدوة لبقية نساء الأمة.

رابعًا: النهي عن نكاح نساء رسول الله بعد وفاته:

النبي صلى الله عليه وسلم له مكانته الخاصة، فهو ﴿أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

أمهاتهم في المكانة والمنزلة، والتوقير والاحترام، وحرمة الزواج بهن، وحرمة الزواج بهن مراعاةً لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه، فإن الرجل الغيور يأنف أن تتزوج امرأته برجل آخر، ولذلك لما نزلت آية القذف ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور:٤].

قال سعد بن عبادة -وهو سيد الأنصار-: أهكذا نزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار ألا تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟! قالوا: يا رسول الله؛ لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجلٌ منا على أن يتزوجها من شدة غيرته...»[2] فمن غيرة سعد لم يجرؤ رجل على أن يتزوج بامرأة طلقها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أشد غيرةً منه، كما قال في القصة ذاتها (أتعجبون من غيرة سعد؟! لأنا أغير منه، والله أغير مني)[3].

فلكي يطمئن الله رسوله من هذه الجهة حرم على جميع الأمة الزواج بأمهات المؤمنين فقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣].

وكأن هذا تقريرٌ لحكم أمومتهن للمؤمنين المتقدم ذكره في أول السورة، وبيانٌ لهذه الأمومة، فهو في أشياء خاصةٍ، في المكانة والاحترام وحرمة التزوج بهن، أما بالنسبة للخلوة بهن وحجابهن أمام الرجال فيعاملن كبقية النساء، بل أشد من بقية النساء-كما تقدم-.

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٤٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٢٣٨ رقم ٢١٣١ قال الأرنؤوط: حسن.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله، ٦/ ٢٥١١، رقم ٦٤٥٤.

وقد «شرعت الآية أن حكم أمومة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين حكم دائم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده، ولذلك اقتصر هنا على التصريح بأنه حكم ثابت من بعد، لأن ثبوت ذلك في حياته قد علم من قوله ﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]»[(١)].

وقوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ «العظم هنا في الإثم والجريمة، وتقييد العظيم بكونه عند الله «للتهويل والتخويف، لأنه عظيم في الشناعة. وعلة كون تزوج أحد المسلمين إحدى نساء النبي صلى الله عليه وسلم إثمًا عظيمًا عند الله: أن الله جعل نساء النبي صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين، فاقتضى ذلك أن تزوج أحد المسلمين إحداهن له حكم تزوج المرء أمه، وذلك إثمٌ عظيمٌ»[(٢)].

وهنا مسألة ذكرها العلماء وأطالوا فيها الكلام، لا أرى في إطالة الكلام فيها كبير فائدةٍ، حيث إنهن كلهن قد توفين، وهي أنه هل يدخل في أزواجه اللاتي يحرمن على الأمة من طلقها النبي صلى الله عليه وسلم ؟

لذا فإني أكتفي بنقل كلام الإمام ابن كثير في المسألة، قال رحمه الله: «أجمع العلماء قاطبةً على أن من توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره -والحالة هذه- نزاعًا»[(٣)].

فأزواجه اللاتي مات عنهن وهن في عصمته يحرم على الأمة الزاج بواحدة منهن، بلا خلاف بين العلماء. ومن تزوجها وطلقها قبل أن يدخل بها فلا تحرم على غيره من الأمة بلا خلاف، وإنما الخلاف فيمن طلقها بعد أن دخل بها، والبحث في المسألة قليل الجدوى لأمرين:

الأول: ما تقدم من أنهن كلهن قد توفين.

والثاني: أنه لم يوجد واحدة من نسائه بهذه الصفة، فهي مسألة افتراضية.

قلت: ذكر بعض المفسرين هنا قصة كسببٍ لنزول هذه الآية، ولم أرها تروى من طريق صحيح، لذا أعرضت عن ذكرها، إذ لا حاجة بها، ولا يلزم أن تكون الآية نزلت على سبب، فإن كثيرًا من آي القرآن نزل ابتداءً بدون سبب.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣١٧.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٥٥.

خامسًا: مضاعفة الأجر أو العقوبة لآل البيت:

ولأهل البيت خصيصة أخرى، وهي مضاعفة العذاب لمن يفعل فاحشة، وبما أن الغنم بالغرم، فإنه في المقابل من يفعل حسنة يضاعف له ثوابها.

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١].

الضعف: «من الألفاظ المتضايفة التي يقتضي وجود أحدهما وجود الآخر، كالنصف والزوج، وهو تركب قدرين متساويين، ويختص بالعدد، فإذا قيل أضعفت الشيء وضعفته وضاعفته ضممت إليه مثله فصاعدًا»[(١)].

والمراد بمضاعفة العذاب: «مثليه»[(٢)].

وقيل: «﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ أي: يجعل لها العذاب ثلاثة أعذبة، لأن ضعف الشيء مثله، وضعفي الشيء مثلا الشيء، ومجاز ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ أي: يجعل الشيء شيئين حتى يكون ثلاثة»[(٣)]

والأول أظهر لمقابلته بإعطاء الأجر مرتين.

قال الزجاج عن هذا القول: «وليس هذا بشيء؛ لأن معنى ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ يجعل عذاب جرمها كعذاب جرمين. الدليل عليه قوله ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾، فلا يكون أن تعطى على الطاعة أجرين وعلى المعصية ثلاث أعذبة»[(٤)].

وجه تضعيف العذاب لهن على الفاحشة:

- «شرف منزلتهن، وفضل درجتهن، وتقدمهن على سائر النساء أجمع؛ وقد ثبت في الشريعة أنه كلما تضاعفت الحرمات فهتكت تضاعفت العقوبات؛ ولذلك ضوعف حد الحر على حد العبد، والثيب على البكر؛ لزيادة الفضل والشرف فيهما على قرينهما»[(٥)].
- «أنهن لما شاهدن من الزواجر وما يروع من الذنوب ينبغي أن يمتنعن منها أكثر مما يمتنع من لا يشاهد ذلك ولا يحضره، فإذا لم يمتنعن استحققن تضعيف العذاب»[(٦)]، و«ليست المعصية في القرب كالمعصية في

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٩٩.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٣٧٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠١.
(٣) مجاز القرآن، أبو عبيدة ٢/ ١٣٧.
(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٧١، وانظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٢٩.
(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٦٧.
(٦) التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٣١.

البعد»[1].

❁ أنه «إن حدث من إحداهن ذنبٌ بينها وبين نفسها فهو ذنبٌ واحدٌ مقصورٌ عليها، فإن كان علانيةً فهو مضاعفٌ؛ لأنهن أسوة وقدوة تتطلع العيون إلى سلوكهن، فإن ظهرت منهن فاحشة كان تشجيعًا للأخريات، ولم لا وقد جاءت الفاحشة من زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ، فمضاعفة العذاب -إذن- لأن الفساد تعدى الذات إلى الآخرين، وأحدث قدوة سوء في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستحقت مضاعفة العذاب، فإن ضاعف لها الله العذاب ضعفين فحسب فهو رفق بها، ومراعاة لماضيها في زوجية رسول الله»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ «إيذان بأن كونهن نساءً للنبي صلى الله عليه وسلم ليس بمغنٍ عنهن شيئًا، وكيف يغني عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب، فكان داعيًا إلى تشديد الأمر عليهن غير صارف عنه»[3].

ثم وعد من تفعل طاعة لله تعالى بمضاعفة الثواب، فتؤتى مثلي ثواب غيرها، «وإنما ضوعف أجرهن لطلبهن رضا رسول الله، بحسن الخلق وطيب المعاشرة والقناعة والتوقر على عبادة الله»[4].

والقنوت: «لزوم الطاعة مع الخضوع»[5].

والرزق الكريم، وهو «رزق الجنة قال تعالى ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ [البقرة:٢٥]. ووصفه بالكريم لأنه أفضل جنسه»[6].

أو أنه منازلهن في الجنة «فإنهن في منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش»[7].

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٣٥.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٩/ ١٢٠١١.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٤٤، السراج المنير، الشربيني ٣/ ٢٩٨، روح المعاني، الألوسي ٢١/ ١٨٤.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٢١، وانظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٢.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤١٤.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٣٩.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٠٨.

قصص من بيت النبوة

البيت النبوي الشريف شأنه شأن أي بيت له واقعه المعاش، وما الواقع إلا أحداثٌ تصير قصصًا بعد ذلك، إلا أن كثيرًا من البيوت يطوي قصصها الأيام، وينساها الزمان، بيد أن بيت النبوة لا يمكن أن يحدث له ذلك، فهو محط أنظار المسلمين، وموضع اهتمامهم، لذلك فإنه عرف عنه كل صغيرة وكبيرة، وسجل التاريخ عنه كل شيء، كيف لا وهذا البيت قدوتهم الذي به يقتدون، ونورهم الذي به يهتدون؟! وقد ذكر القرآن الكريم بعض هذا القصص، ونذكر بعضًا منه في المطالب الآتية-إن شاء الله-.

أولًا: قصة الغيرة بين نساء بيت النبوة:

الغيرة المعتدلة خلق محمود، فقد روي (الغيرة من الإيمان)[1].

خلق محمود إذا دفعت صاحبها للذود عن الحرمات والابتعاد عن المحرمات، ولم تؤد إلى الشك في سلوك الآخرين، أو إلى فعل مذمومٍ، فإذا أدت إلى ذلك تكون خلقًا مشينًا، وسلوكًا بغيضًا، وغالبًا ما يحدث هذا النوع بين النساء، ولا سيما إن كن ضرائر، ونساء النبي صلى الله عليه وسلم باعتبار أنهن ضرائر كن-أحيانًا- يغلب عليهن الطبع النسوي، فيقعن في شيءٍ من هذا النوع، رغم مكانتهن، والتزامهن بالآداب الإسلامية الرفيعة.

ورغم أن الوحي كان ينزل في بيوتهن، وقد عاتبهن الله تعالى على شيءٍ فعلنه من هذا النوع، فقد صحبن النبي صلى الله عليه وسلم الكريم وعاونه على أداء رسالته وارتفعن إلى ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة.

وقد آخذهن الله بأمرين معروفين في السيرة:

الأول: اتفاقهن على مطالبة النبي بالمزيد من النفقة، وضيقهن بالمعيشة الناشفة التي التزمها. وقد رضين جميعًا بالبقاء معه عندما أكد لهن أنه ما بدٌّ من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة!

أما الأمر الثاني: فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان لطيف العشرة لين الجانب دمث الأخلاق، فأطمع ذلك بعض نسائه في الجراءة عليه. وكانت الغيرة هي السبب.

فزعمت إحداهن أنها شمت منه رائحةً غير طبيعية، فقال: شربت عسلًا عند زينب! فقالت: لعل نحله وقع على نباتٍ سيءٍ.

(١) أخرجه البيهقي عن زيد بن أسلم، مرسلاً، في السنن الكبرى:١٠/ ٢٢٥ رقم ٢٠٨١٢، وفي شعب الإيمان:٧/ ٤١١ رقم ١٠٧٩٧ ووصله الشهاب في مسنده عن زيد ين أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، مرفوعًا، انظر: مسند الشهاب:١/ ١٢٣ رقم ١٥٤ وهو ضعيف. انظر: لسان الميزان:٤/ ٧، السلسلة الضعيفة مختصرة ٤/ ٢٨٩.

فقال: (لا أعود إليه ولا تخبري أحدًا). ثم ظهر أن القصة مفتعلة، وأنها مؤامرة لتزهيده في فلانة! وغضب الرسول لما وقع، وهجر نساءه جميعًا حتى شاع أنه طلقهن! ونزلت سورة التحريم تطفئ هذه الفتنة وتؤدب من أحرج الرسول وأساء المسلك[1].

والقصة كما رواها أصحاب الصحاح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلًا، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني أجد فيك ريح مغافير[2] أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال (بل شربت عسلًا عند زينب بنت جحش ولن أعود له) فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [التحريم:١-٤]. لعائشة وحفصة)[3].

القصة أشارت إليها الآيات الأولى من سورة التحريم، فالسورة تبدأ بالإنكار على النبي صلى الله عليه وسلم لتحريمه شرب العسل على نفسه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ «استفهام فيه إنكار، والإنكار من الله عز و جل نهيٌ، وتحريم الحلال مكروه، ولا يحرم الحلال إلا بتحريم الله عز و جل»[4].

وهذا التحريم من النبي صلى الله عليه وسلم «تحريم امتناع عن الانتفاع بها أو بالعسل لا تحريم اعتقاد بكونه حرامًا بعد ما أحله الله فالنبي صلى الله عليه وسلم امتنع عن الانتفاع بذلك مع اعتقاده أن ذلك حلال»[5].

ثم يذكر سبحانه و تعالى أنه شرع لنا تحلة القسم، ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم:٢].

فمن حلف على يمين ورأى غيره خيرًا منها فليفعل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فعن عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير)[6].

(١) انظر: نحو تفسير موضوعي، محمد الغزالي ١/ ٤٦٩.

(٢) شيءٌ شبيه بالصمغ ينضجه شجر العرفط، حلوٌ له ريحٌ منكرةٌ، واحدها مغفور.
انظر: غريب الحديث، ابن سلام ٢/ ٢٥٦، النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير ٣/ ٧٠٣، غريب الحديث، ابن الجوزي ٢/ ١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الطلاق باب : يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك)، ٥/ ٢٠١٦ ، رقم ٤٩٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، ٢/ ١١٠٠ ن رقم ١٤٧٤ .

(٤) التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٨.

(٥) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣١٢.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان، ٦/ ٢٤٤٣ ، رقم ٦٢٤٨ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى

ثم يخبر سبحانه وتعالى ما تسارت به حفصة وعائشة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

«وإنما نبأها النبي صلى الله عليه وسلم بأنه علم إفشاءها الحديث بأمر من الله ليبني عليه الموعظة والتأديب فإن الله ما أطلعه على إفشائها إلا لغرض جليل.

ولم يختلف أهل العلم في أن التي أسر إليها النبي صلى الله عليه وسلم الحديث هي حفصة ويأتي أن التي نبأتها حفصة هي عائشة»[1].

ثم يرغبهما في التوبة ويرهبهما من الاستمرار على حالهما ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من التعاون على النبي صلى الله عليه وسلم بالإيذاء: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ عدلت ومالت عن الحق[2].

قوله ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ تعاونا على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: وليه وناصره ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ وليه وناصره أيضًا ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصون من المؤمنين الذين ليسوا بمنافقين ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين أعوان للنبي صلى الله عليه وسلم ينصرونه[3].

ثم خوف نساءه بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم:٥].

المعنى: واجب من الله إن طلقكن رسوله أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، والله تعالى كان عالمًا أنه لن يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته أنه إن طلقهن أبدل خيرًا منهن؛ تخويفًا لهن[4].

وقد اختلف المفسرون هل المذكور في الآيات الخمس قصة واحدة، أم أنهما قصتان انتهت أولاهما مع الآية الثانية، وبقية الآيات تذكر قصة أخرى؟

فذهب بعضهم إلى الأول، وقالوا: إن الحديث الذي أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة تحريم ما حرمه على نفسه، فلما ذكرته لعائشة وأطلع الله نبيه على ذلك عرفها بعض ما ذكرت، وأعرض عن بعضه. بينما ذهب فريق آخر إلى الثاني، وقالوا إن الحديث الذي أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة تحريم مارية، وقال لها: اكتميه عن عائشة وكان يومها منه، وأسرك أن أبا بكر الخليفة من بعدي، وعمر

غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خيرٌ ويكفر عن يمينه، ٣/ ١٢٦٨، رقم ١٦٥٢.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣١٣.

(٢) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ١٦.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٦٨، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣١٥.

(٤) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٢٠.

الخليفة من بعده، فذكرتها لعائشة، فلما أطلع الله نبيه ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ فكان الذي عرف ما ذكره من التحريم، وكان الذي أعرض عنه ما ذكره من الخلافة لئلا ينتشر[1].

والظاهر أن الآيات كلها تتحدث عن قصة واحدة، وكأن قوله ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ بيان لبعض تفاصيل القصة التي حرم النبي صلى الله عليه وسلم بسببها بعض ما أحله الله له. لما في الصحيح عن عبيد الله بن عمير يقول سمعت عائشة: تزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلًا، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير! فدخل على إحداهما، فقالت ذلك له، فقال: (لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له) فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لقوله: (بل شربت عسلًا)[2].

تنبيه: ما تقدم من أن الآيات نزلت بسبب القصة المذكورة هو أصح ما قيل فيها، وهناك أقوالٌ أخرى مبنية على روايات دون المذكورة في الصحة، منها، ما روي عن ابن عباس: في قوله عز و جل ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ قال: اطلعت حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم مع أم إبراهيم عليه السلام، فقال: لا تخبري عائشة وقال لها: إن أباك وأباها سيملكان، أو سيليان بعدي، فلا تخبري عائشة، فانطلقت حفصة فأخبرت عائشة فأظهره الله عليه، فعرف بعضه وأعرض عن بعضٍ، قال أعرض عن قوله إن أباك وأباها يكونان بعدي، كره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينشر ذلك في الناس فأعرض عنه)[3].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري، في صحيحه، واللفظ له، كتاب الأيمان والنذور باب إذا حرم طعامًا، ٦/ ٢٤٦٢ ، رقم ٦٣١٣ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ٢/ ١١٠٠ ، رقم ١٤٧٤.

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه كتاب الوصايا ٤/ ١٥٣ ، رقم ١٥ ، وبنحوه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٨٥، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١١٧ ، رقم ١٢٦٤٠ وفي إسناد الدارقطني الكلبي عن أبي صالح، قال ابن حجر: «الكلبي هو محمد بن السائب متروك الحديث بل كذاب. تلخيص الحبير:١/ ١٢٨. وفي إسناد ابن سعد الواقدي، وهو ضعيف. انظر: النكت على ابن الصلاح:٢/ ٦٦٦. وفي رواية الطبراني الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس، والضحاك لم يثبت له سماع من ابن عباس، بل قال العجلي: ليس بتابعي. تهذيب التهذيب:٤/ ٣٩٧.

ولكن ما في الصحيح أصح.

ثانيًا: قصة الإفك:

الإفك: «الكذب»[1] ولكنه ليس أي كذبٍ، بل هو «أسوأ الكذب وأقبحه»[2].

فيفرق بينه وبين الكذب: «أن الكذب اسم موضوع للخبر الذي لا مخبر له على ما هو به، والإفك هو الكذب الفاحش القبح، مثل الكذب على الله ورسوله أو على القرآن ومثل قذف المحصنة وغير ذلك مما يفحش قبحه»[3].

وأصبح الإفك علمًا بالغلبة على اتهام أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها العفيفة البريئة ورميها بالزنا. وتعد حادثة الإفك من أشهر الأحداث التي مر بها البيت النبوي الشريف، وهي حادثة كان لها أكبر الأثر على هذا البيت، بل وعلى المجتمع المسلم كله، كادت تودي ببعض المسلمين الذين خاضوا فيها، والقصة كما ترويها السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجٍ وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدٌ لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه -وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام- فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأممت منزلي الذي كنت به، فظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسانٍ نائم، فأتاني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٤١٦، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٩٠، تاج العروس، الزبيدي ٢٧/ ٤٤.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ١٦/ ١٥١.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٥٠.

سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرًا يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجعي أني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، وإنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهت.

فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا لا نخرج إلا ليلًا إلى ليلٍ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مرطها: فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت؛ أتسبين رجلًا شهد بدرًا! فقالت: يا هنتاه؛ ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت أبوي فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنية؛ هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأةٌ قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. فقلت: سبحان الله، ولقد يتحدث الناس بهذا؟ قالت: فبت الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمعٌ ولا أكتحل بنومٍ، ثم أصبحت، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم؛ فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله؛ لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة؛ فقال: يا بريرة هل رأيت شيئًا يريبك؟ فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي) فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد ابن عبادة وهو سيد الخزرج -وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية- فقال: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر

على ذلك. فقام أسيد بن الحضير؛ فقال: كذبت لعمر الله، والله لتقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت، وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي قد بكيت ليلتين ويومًا حتى أظن أن البكاء فالقٌ كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد، ثم قال: (يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئةً فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بشيءٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه).

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيرًا من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة -والله يعلم إني لبريئة- لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر -والله يعلم أني بريئة- لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف إذ قال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

ثم تحولت إلى فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيًا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله، فو الله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ، فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: (يا عائشة، احمدي الله فقد برأك الله) فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور:١١].

الآيات، فلما أنزل الله هذا في براءتي

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه -وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه-: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد ما قال لعائشة. فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال: (يا زينب ما علمت ما رأيت؟) فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا. قالت: وهي التي كانت تساميني فعصمها الله بالورع)[1]

وقد ذكرت حادثة الإفك في القرآن الكريم، في حديث مستفاضٍ عنها وعن براءة السيدة عائشة رضي الله عنها وبراءة الصحابي الجليل صفوان بن المعطل رضي الله عنه، وعن الوعيد والتهديد لمن خاض في الأمر، وعن تحذير المؤمنين من الانجراف إلى مثل هذه الأمور، ثم إلى الحديث عن موقف الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح، وحثه على الإنفاق عليه، ثم تعود الآيات لذكر الأدلة على براءة السيدة عائشة رضي الله عنها، ويمكن إيجاز الحديث القرآني في النقاط التالية:

- تبدأ الآيات بالإخبار أنه خاض في هذا الأمر جماعة من المؤمنين، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ «والذين ذكروا منهم مسمى في الآثار: حسان ابن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش أخت عبد الله بن جحش الأسدي، والمنافق عبد الله بن أبي»[2].
- ثم ثنى بالإخبار بأن هذا الأمر فيه خير كثير للرسول عليه الصلاة والسلام، وأبي بكر، وعائشة، وصفوان رضي الله عنهم «لاكتسابهم الثواب العظيم، وظهور كرامتهم على الله عز وجل بإنزال القرآن الذي يتلى إلى يوم الدين في نزاهة ساحتهم وتعظيم شأنهم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيهم، والثناء على من ظن خيرًا بهم، مع ما فيه من صدق الرجعى إلى الله، والافتقار إليه، والإياس مما سواه»[3].
- ثم ذكر وبال من وقع فيها بقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ من أولئك العصبة ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ له من الجزاء بقدر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا:٢/ ٩٤٢ ، رقم ٢٥١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف:٤/ ٢١٢٩ رقم ٢٧٧٠ .

(٢) التفسير البسيط، الواحدي ١٦/ ١٥٢.

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥٦.

ما خاض فيه، وكان بعضهم ضحك، وبعضهم تكلم، وبعضهم سكت[1].

- ثم ذكر عقابًا خاصًا لعبد الله بن أبي بن سلول -قبحه الله ولعنه-[2] الذي تولى معظمه ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
- ثم ذكر سبحانه و تعالى ما يجب أن يتأدب به المؤمنون في قضية عائشة رضي الله عنها «حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ، وما ذكر من شأن الإفك، فقال: ﴿لَوْلَآ﴾ بمعنى: هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ذلك الكلام، أي: الذي رميت به أم المؤمنين ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى، وهلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن»[3] أو «ظن بعضهم ببعض خيرًا، والبعض هاهنا الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين، وصفوان بن المعطل رضي الله عنه»[4].
- «﴿وَقَالُوا۟﴾ بألسنتهم ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب ظاهر على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرةً على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا -لو قدر- خفية مستورا، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة والصفقة الخاسرة»[5].
- ثم يذكر دليلًا على كذب القائلين، وهو أنهم لم يحضروا شهداء على قولهم، ولن يستطيعوا، لأنه لم يقع ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.
- ثم يذكر بعض نعمه تعالى عليهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ «أيها الخائضون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦.
(٤) درج الدرر، الجرجاني ٣/ ١٢٨٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦.

الدار الآخرة ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾، من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كمسطح، وحسان، وحمنة بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه. وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقًا مشروطا بعدم التوبة، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه»[1].

- ثم يصور حالهم وقت خوضهم في هذا الجرم، بحيث استحقوا العقوبة فعلًا ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ «تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم»[2] ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾: «تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيرًا سهلًا، ولو لم تكن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم لما كان هينا، فكيف وهي زوجة النبي الأمي، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين»[3].

- ثم يوجههم إلى أمر آخر كان ينبغي أن يفعلوه ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ فهو «عتاب لجميع المؤمنين، أي: كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان»[4].

- ثم يحذرهم من الوقوع في مثل هذا الأمر مرة أخرى ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

- ثم بين سبحانه و تعالى ما يترتب على إشاعة الفحشاء ونشرها بين الذين آمنوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وذلك لأنها إذا شاعت في الأتقياء ذوى المكانة سهل ارتكاب الفاحشة، فإذا تسامع من يكون في قلبه نزغة أن فلانة من أزواج الكبراء، قد ارتكبتها فلا تجد حرجًا أو لائمةً أن ترتكبها، فكان الذين يلوكون بألسنتهم اتهام أزواج الكبراء قاصدين إليها غير

(١) المصدر السابق ٦/ ٢٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٠٥.

متأثمين من ترويجها يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا؟ لأنهم إذا علموا النتائج المترتبة على قولهم، واستمروا في غيهم، فهم يحبون هذه النتيجة ويسعون بعملهم إليها، وقد ذكر سبحانه و تعالى ذلك ليعلم العابثون أنهم إن استمروا أنهم يحبون هذا الفساد، وقد ذكر سبحانه و تعالى جزاءهم، فقال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أما عذاب الدنيا فهو العقاب الصارم وهو الحد، والحد يتضمن ثلاثة أنواع لا يكفر إلا آخرها، وهي الجلد ثمانين جلدة، والثاني: ألا تقبل لهم شهادة أبدًا، والثالث: الحكم عليهم بأنهم فاسقون، وهذا ما تكفره التوبة. وأما عذاب الآخرة فإن الله تعالى اختصه بعلمه، حتى نراه يوم القيامة عيانا، ثم قال تعالى مؤكدا العواقب الوخيمة من رمى البريئات والبرآء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ الله وحده يعلم صحة الاتهام إن كان صحيحًا، ومواضع التهمة، ويعلم أثر ذلك في الجماعات من إشاعة الفساد، وانحلال الرابطة الاجتماعية، وإشاعة الأقوال الباطلة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو أسرار البيوت ودخائلها، فإن ذلك في كنٍ مستورٍ، ومن المصلحة ستره»[1].

- ثم يذكر المؤمنين مرة أخرى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ «إن الحدث لعظيم، وإن الخطأ لجسيم، وإن الشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء. ولكن فضل الله ورحمته، ورأفته ورعايته، ذلك ما وقاهم السوء، ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة»[2].
- ثم يصور «لهم عملهم بأنه اتباع لخطوات الشيطان. وما كان لهم أن يتبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم. وحذرهم ما يقودهم الشيطان إليه من مثل هذا الشر المستطير ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقًا غير طريقه المشؤوم!... ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.. وحديث الإفك نموذج

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٦٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب٤/ ٢٥٠٤.

من هذا المنكر الذي قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه. وهو نموذج منفر شنيع. وإن الإنسان لضعيف، معرضٌ للنزعات، عرضةٌ للتلوث. إلا أن يدركه فضل الله ورحمته. حين يتجه إلى الله، ويسير على نهجه»[1].

- ثم يوجه الأغنياء أن لا يعبؤوا بمثل هذه الأمور، ولا تمنعهم من فعل الخيرات ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يحلف أصحاب الفضل والسعة ألا يؤتوا أولى القربى كمسطح[2]. «ولما كان النهي عن ذلك غير صريح في العفو، عطف عليه مصرحًا بالمقصود قوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عن زللهم بأن يمحوه ويغطوه بما يسبلونه عليه من أستار الحلم حتى لا يبقى له أثر. ولما كان المحو لا ينفي التذكر قال ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ أي يعرضوا عنه أصلًا ورأسًا، فلا يخطروه لهم على بال ليثمر ذلك الإحسان، ولما كانت لذة الخطاب تنسي كل عتاب، أقبل سبحانه و تعالى بفضله ومنه وطوله على أولي الفضل، مرغبًا في أن يفعلوا بغيرهم ما يحبون أن يفعل بهم، مرهبًا من أن يشدد عليهم إن شددوا فقال ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ يا أولي الفضل ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ﴾ الملك الأعظم ﴿لَكُمْ﴾ ما قصرتم في حقه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إن شاء يغفر لكم ذنوبكم بأن يمحوها فلا يدع لها أثرًا ويرحمكم بعد محوها بالفضل عليكم كما فعلتم معهم، فإن الجزاء من جنس العمل»[3].

- ثم يبين سبحانه وتعالى جزاء من يرمي عفيفة بريئة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٣-٢٥].

- لهم الطرد من رحمة الله في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم يوم القيامة، حين تشهد عليهم جوارحهم، فيعطيهم الله تعالى جزاءهم الذي يستحقونه، ووقتها يوقنون أن الله تعالى هو الحق الواضح.

- ثم يذكر سبحانه و تعالى أنه لا يتكلم بالكلمات الخبيثات إلا الخبيث من

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٠٤.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٨٦.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٢٤٨.

الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء، وأن الكلمات الخبيثات إنما تلصق بالخبيثات من النساء، والرجال، فأما الطاهرات الطيبات فلا يلصق بهن السب[1]. ثم يأتي النص على براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها صراحة، وبراءة صفوان رضي الله عنه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [النور:٢٦].

- «وما في اسم الإشارة من معنى البعد، للإيذان بعلو رتبة المشار إليهم، وبعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك الموصوفون بعلو الشأن: مبرؤون مما يقوله أهله الإفك في حقهم من الأكاذيب الباطلة»[2].

ثالثًا: قصة التخيير بين متاع الدنيا والآخرة:

وهي من القصص ذات الأثر الكبير على البيت النبوي الشريف.

ذكرها الله تعالى في سورة الأحزاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾ [الأحزاب:٢٨-٢٩].

«لقد اختار النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف، لا عجزًا عن حياة المتاع، فقد عاش حتى فتحت له الأرض، وكثرت غنائمها، وعم فيؤها، واغتنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد! ومع هذا فقد كان الشهر يمضي ولا توقد في بيوته نار. مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا. ولكن ذلك كان اختيارًا للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله. رغبة الذي يملك ولكنه يعف ويستعلي ويختار.. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكلفًا من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التي أخذ بها نفسه وأهل بيته، فلم تكن الطيبات محرمةً في عقيدته وشريعته؛ ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفوًا بلا تكلف، وتحصل بين يديه مصادفة واتفاقًا، لا جريًا وراءها ولا تشهيًا لها، ولا انغماسًا فيها ولا انشغالًا بها.. ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش عيشته التي اختارها لنفسه، إلا أن يختارها من يريد، استعلاء على اللذائذ والمتاع؛ وانطلاقًا من ثقلتها إلى حيث الحرية التامة من رغبات النفس وميولها، ولكن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن نساءً من البشر، لهن مشاعر البشر. وعلى

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٦/ ١٨٤.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٦٣.

فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة، فإن الرغبة الطبيعية في متاع الحياة ظلت حية في نفوسهن»[1].

ولما فتحت البلدان، ووجدن سعة سبل سألنه في عرض الدنيا ومتاعها أشياء، وطلبن منه زيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهن بعضًا، فهجرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلى -أي حلف- لا يقربهن شهرًا[2] فعن جابر بن عبدالله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر، فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسًا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا، قال: فقال: لأقولن شيئًا أضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا أبدًا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرًا أو تسعًا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ حتى بلغ ﴿لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ قال: فبدأ بعائشة فقال: يا عائشة؛ إني أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك؛ قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نساءك بالذي قلت. قال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها؛ إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا)[3].

وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: (إني ذاكرٌ لك أمرًا، فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك) قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: إن الله جل ثناؤه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى ﴿لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ قالت: فقلت: ففي أي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ثم فعل

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٥٣.
(٢) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٢٥، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٤٥، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٢٣، سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٩/ ٦٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، ٢/ ١١٠٤ ، رقم ١٤٧٨ .

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت)[1].

والأمر في قوله: ﴿قُل﴾ للوجوب ووجوب التخيير خاص به صلى الله عليه وسلم، ولا يجب ذلك على غيره[2].

«وكان تحته يومئذٍ تسع نسوةٍ: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم حبيبة، وسودة، وزينب بنت جحشٍ، وميمونة بنت الحارث، وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي»[3].

ومعنى ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ «التوسعة في الدنيا وكثرة الأموال والحلل، ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أقبلن بإرادتكن واختياركن. ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطكن متعة الطلاق»[4]. «والتمتيع: أن يعطي الزوج امرأته حين يطلقها عطية جبرًا لخاطرها لما يعرض لها من الانكسار»[5] ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أطلقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لا ضرر فيه»[6].

ولما خيرهن صلى الله عليه وسلم «فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة. وعشن مع النبي صلى الله عليه وسلم معينات على الحق، راغبات في الثواب. وبهذا التفاني في خدمة الرسالة، والإهمال لمطالب النفس، رفع الله درجاتهن، فلم يصبحن زوجات رجل يطلبن في ظله المتاع. بل صرن شريكات في حياة فاضلة غالية، واستحققن قول الله عز وجل: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]»[7].

وهذا التخيير كان سنة تسع[8]، وبدأ بعائشة رضي الله عنها على غيرها من أزواجه صلى الله عليه وسلم لفضلها[9].

وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه على قولين:

الأول: أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق، فاخترن البقاء.

ومنهن من قال: إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكهن، لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن، ولم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب التفسير، باب سورة الأحزاب، ٤/ ١٧٩٦، رقم ٤٥٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، ٢/ ١١٠٣، رقم ١٤٧٥.
(٢) انظر: الخصائص الكبرى، السيوطي ٢/ ٣٤٧، غاية السول في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم، ابن الملقن ص ١٤، سبل الهدى والرشاد، الصالحي ١٠/ ٤٠٦.
(٣) معرفة الصحابة، أبو نعيم ٦/ ٣٢٤٤.
وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨١، التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٢٥.
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٣٣.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٣٤.
(٦) البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٣٣.
(٧) فقه السيرة، الغزالي ص٣٤٧.
(٨) الإصابة، ابن حجر ٨/ ٢٠٩.
(٩) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ٧/ ٢٩٥.

يخيرهن في الطلاق.

والقول الأول أصح[1].

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله، وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية. ومنها: سلامته صلى الله عليه وسلم بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء منع.

ومنها: تنزيهه عما لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم، والتعرض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التخيير عنهن، التسخط على الرسول، الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن، وعلو درجتهن، وبيان علو هممهن، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة، مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار، للأمر الخيار للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملات مكملات، طيبات مطيبات.

ومنها: أن هذا التخيير داع، وموجب للقناعة، التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا سببًا لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكن بمرتبةٍ ليس فيها أحد من النساء[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٧٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٢.

حقوق بيت النبوة

أهل البيت النبوي رضي الله عنه لهم على الأمة حقوق كثيرة، يجب أن تؤدى إليهم، هذه الحقوق منها ما هو عام يشتركون فيه مع بقية المؤمنين، وهي حقوق الأخوة الإيمانية، ومنها ما هو خاص لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحقوق الخاصة منها حقوق مادية ومنها حقوق معنوية، ونحاول أن نذكر بعض هذه الحقوق في النقاط الآتية:

أولًا: الحقوق المعنوية:

من أبرز حقوقهم المعنوية: المحبة.

يقول تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣]

في هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أنه لم ولن يطلب أجرًا منهم على تبليغ رسالة ربه إليهم، ولكنه يطلب منهم المودة في القربى، وفي معنى ذلك أربعة أقوال:

الأول: إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم، فتكفوا عني أذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم.

الثاني: لا تؤذوا قرابتي وعترتي واحفظوني فيهم.

الثالث: إلا أن تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح.

الرابع: إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم[(١)].

أقول: ذكر العلماء هذه الأقوال، وأخذ كل واحدٍ منهم يرجح قولًا ويضعف بقية الأقوال، ولا أرى مانعًا من إرادتها كلها، فكلها مطالب شرعية، والذي يعنينا هنا هو القول الثاني، فمودة آل البيت ومحبتهم محبة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال ابن كثير-بعد أن رجح القول الأول-: «ولا تنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته رضي الله عنه.

و قد ثبت في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته بغدير خم: (إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض)[(٢)].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٦٩.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، واللفظ له، كتاب معرفة الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، باب من مناقب أهل رسول الله صلى

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «ارقبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته»[(١)].

وفي الصحيح: أن الصديق قال لعلي رضي الله عنهما: «والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصل من قرابتي»[(٢)].

وعن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا فينا خطيبًا بماءٍ يدعى خمًا بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: (أما بعد؛ ألا أيها الناس فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين؛ أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور؛ فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به -فحث على كتاب الله ورغب فيه- ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، فقال له حصين: ومن أهل بيته؟ يا زيد؛ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده قال: وهم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم)[(٣)].

ومن حقوقهم أيضًا الدعاء لهم والثناء عليهم والصلاة عليهم، وما زال المسلمون يصلون عليهم مع الصلاة والسلام على المصطفى صلى الله عليه وسلم فقد أمر الله تعالى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب:٥٦].

الصلاة: من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أراد أن الله يرحمه والملائكة يدعون له[(٤)].

وقد اتفق العلماء على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم اختلفوا، فقيل: تجب في العمر مرة، وهو الأكثر، وقيل: تجب في التشهد الأخير، وهو مذهب الشافعي، وإحدى الروايتين عن أحمد، وقيل: تجب كلما ذكر، واختاره الطحاوي

الله عليه وسلم:٣/ ١٦٠ رقم ٤٧١١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد:٣/ ١٧ رقم ١١١٤٧، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح بشواهده.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٣/ ١٣٦١، رقم ٣٥٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٣/ ١٣٦٠، رقم ٣٥٠٨. وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٠١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ٤/ ١٨٧٣، رقم ٢٤٠٨.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١١٣.

من الحنفية، والحليمي من الشافعية»[1] «وقيل: تجب في كل مجلس مرة، وإن تكرر ذكره، والذي يقتضيه الاحتياط الصلاة عليه عند كل ذكر»[2].

ولها صيغ كثيرة واردة في أحاديث صحيحة، منها: عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[3].

فالآل مشمولون معه صلى الله عليه وسلم في الصلاة لا خلاف في ذلك، وإنما الخلاف في إفرادهم بالصلاة، فقد وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم، فقال قائلون: يجوز ذلك، وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعارًا للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: قال: علي صلى الله عليه، وإن كان المعنى صحيحًا، كما لا يقال: قال محمد عز وجل، وإن كان عزيزًا جليلًا، لأن هذا من شعار ذكر الله عز و جل، وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم[4].

قال ابن حجر: «ذلك كله وقع من النبي صلى الله عليه وسلم ولصاحب الحق أن يتفضل من حقه بما شاء وليس لغيره أن يتصرف إلا بإذنه ولم يثبت عنه إذن في ذلك»[5].

ثانيًا: الحقوق المادية:

يقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال:٤١].

ويقول: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر:٧].

«الغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب. و«الفيء»: ما أخذ

(١) لباب التأويل، الخازن٣/ ٤٣٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري٣/ ٢٧٣.
(٣) أخرجه: البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب التفسير، باب (إن الله وملائكته يصلون على النبي)، ٤/ ١٨٠٢، رقم ٤٥١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد، ١/ ٣٠٥، رقم ٤٠٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٧٨.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٥٣٤.

منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف. ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة»[1].

«والغنيمة يأخذ الإمام الخمس منها، والباقي يقسم بين المجاهدين، والفيء يأخذه الإمام فيضعه في مصلحة المسلمين، وليس فيه الخمس»[2].

وقد جعل الله تعالى نصيبًا من الغنائم ونصيبًا من الفيء لآل البيت رضي الله عنه وذلك نظير أنهم حرموا من الصدقات، فهم لا يجوز التصدق عليهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن الصدقة لا تنبغي لآل محمدٍ، إنما هي أوساخ الناس)[3].

فالغنيمة تقسم خمسة أخماس، يعطى أربعة أخماسها للمجاهدين، واختلف في كيفية تقسيم الخمس الباقي، «فقال مالك: الرأي للإمام، يلحقه ببيت الفيء، ويعطي من ذلك البيت لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رآه، كما يعطي منه اليتامى والمساكين، وغيرهم، وإنما ذكر من ذكر على جهة التنبيه عليهم، لأنهم من أهم ما يدفع إليهم. وقال الشافعي: يعطي للخمسة المعطوفة على الله، ولا يجعل لله سهمًا مختصًا، وإنما ذكر ابتداءً تعظيمًا، لأن الكل ملكه، وسهم الرسول يأخذه الإمام، يصرفه في المصالح، فيعطي للأربعة المعطوفة على الرسول، ويفضل أهل الحاجة. قال مالك: لا يجب التعميم، فله أن يعطي الأحوج، وإن حرم غيره. وقال أبو حنيفة: على ثلاثة أسهم، لليتامى والمساكين وابن السبيل، قال: وسقط الرسول وذوو القربى بوفاته صلى الله عليه وسلم . وقال أبو العالية: يقسم على ستةٍ، أخذًا بظاهر الآية، ويصرف سهم الله إلى الكعبة، وسهم الرسول في مصالح المسلمين، وسهم ذوي القربى لأهل البيت الذين لا تحل لهم الزكاة، ثم يعطى سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل»[4].

وهذا الأخير هو القول الأوفق بظاهر الآية الكريمة.

ومذهب الشافعي رضي الله عنه أن الفيء يقسم خمسة أقسام، فقسم منها يقسم خمسة أقسام للرسول صلى الله عليه وسلم ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأربعة أقسام لرسول الله خاصة فيكون له من الفيء أربعة أخماس وخمس خمس، وهو أحد وعشرون سهمًا من خمسة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٢٠٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة، ٢/ ٧٥٦، رقم ١٠٧٢ .
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٣٠.

وعشرين سهمًا، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل السهم الذي كان له من الخمس إلى المصالح، وأما الأربعة الأخماس ففيها قولان: أحدهما: أنها انتقلت إلى الغزاة المرصدين للجهاد. والثاني: أن ترصد لمصالح المسلمين كخمس الخمس، وذلك بأن تصرف إلى الغزاة والقضاة وأهل العلم وبناء المساجد والقناطر والسقايات ونحو ذلك. قال أبو حنيفة: الفيء لا يخمس ويصرف جميعه مصرف الخمس[1].

ولا يعنينا الدخول في تفصيل الخلاف بين الفقهاء في هذه المسألة، فهي مسألة متشعبة الفروع، تطلب من مظانها، وإنما يعنينا الاستدلال على أن لآل البيت نصيبًا من الغنيمة ونصيبًا من الفيء.

موضوعات ذات صلة:

البيوت، محمد صلى الله عليه وسلم، النبوة

(١) الشافي في شرح مسند الشافعي، ابن الأثير ٤/ ٢٦٤.
وانظر: أحكام القرآن، الشافعي ١/ ١٥٤، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣١٨.

البيعة

عناصر الموضوع

مفهوم البيعة	٨
البيعة في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
منزلة البيعة ومجالاتها	١٢
أركان البيعة	٣٥
آثار البيعة	٤٩

المجلد الثامن

مفهوم البيعة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (بيع) تدل على بيع الشيء، وربما سمي الشراء بيعًا، والمعنى واحد[١].

والبيعة: بفتح الباء، مصدر من بايع يبايع بيعةً ومبايعةً، يقال: بايعه مبايعةً، وبياعًا: عقد معه البيع. وبايع فلانًا على كذا: عاهده وعاقده عليه، وبذل العهد على الطاعة والنصرة، وكأنّ كل واحد من المتبايعين باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه وطاعته، ودخيلة أمره[٢]، وتبايعا: عقدًا بيعًا أو بيعةً[٣].

والمقصود أن البيعة في مفهومها اللغوي: إعطاء شيء مقابل ثمن معين، أو إعطاء العهد بقبول ولاية أو خلافة[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّف العلماء البيعة قديمًا وحديثًا بتعاريف عدة، فعرّفها المناوي بقوله: «البيعة -بالفتح- بذل الطاعة للإمام»[٥].

وعرّفها ابن الأثير بقوله: «البيعة: المعاقدة على الإسلام والإمامة والإمارة، والمعاهدة على كل ما يقع عليه اتفاق»[٦].

ومن التعاريف الجامعة تعريف ابن خلدون، حيث قال: «البيعة: العهد على الطاعة لولي الأمر»، ثم شرح هذا التعريف قائلًا: «كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلّفه به من الأمر على المنشط والمكره، وكانوا إذا بايعوا الأمير، وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدًا للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، وصارت البيعة تقترن بالمصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في اللغة ومعهود الشرع»[٧].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٢٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٦.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٧٩.
(٤) انظر: المعجم العربي الأساسي، جماعة من كبار اللغويين العرب، ص١٨٨.
(٥) التوقيف ص١٥٣.
(٦) جامع الأصول ١/ ٢٥٢.
(٧) تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٠٩.

البيعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بايع) في القرآن الكريم (٧) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ [التوبة:١١١]
الفعل المضارع	٤	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠]
فعل الأمر	١	﴿فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ [الممتحنة:١٢]
المصدر	١	﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ [التوبة:١١١]

وجاءت البيعة في الاستعمال القرآني بمعناها في اللغة وهو: اسم مرَّة من بَايَعَ السلطان: إذا تضمن بذل الطاعة له[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١١٧.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٥٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشراء:

الشراء لغةً:

الشين والراء والحرف المعتل، له أصولٌ ثلاثة: أحدها يدلّ على تعارضٍ من الاثنين في أمرين أخذًا وإعطاءً مماثلةً، تقول: شريت الشيء واشتريته: إذا أخذته من صاحبه بثمنه، وربما قالوا: شريت: إذا بعت[١].

الشراء اصطلاحًا:

هو إعطاء الثمن، وأخذ المثمّن[٢].

الصلة بين البيعة والشراء:

الشراء والبيع متلازمان، فالمشتري دافع الثمن وآخذ المثمن، والبائع دافع المثمن، وآخذ الثّمن، والعلاقة بينهما عكسية، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده؛ جعلوا أيديهم في يده تأكيدًا للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، وصارت البيعة تقترن بالمصافحة بالأيدي.

٢ العهد:

العهد لغةً:

هو الموثق الذي يعطيه الإنسان لغيره، ويقال: عهد إليه، أي: أوصاه. فهو: التزام بين اثنين، أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به، وسمي عهدًا لأنهما يتحالفان بعهد الله، أي: بأن يكون الله رقيبًا عليهما في ذلك[٣].

العهد اصطلاحًا:

قال الراغب: «العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال»[٤].

الصلة بين البيعة والعهد:

البيعة هي عهدٌ على الالتزام بطاعة ولي الأمر، كما ذكر في التعريف الاصطلاحي.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٠٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٧.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ص٢٨١٩.
(٤) المفردات ص٥٩١.

٣ العقد:

العقد لغةً:

يقال: عقد الحبل والبيع والعهد يعقده: شدّه، وعاقدته عقدًا، مثل عاهدته عهدًا، وتعاقدوا: تعاهدوا، من العقد وهو العهد[١]،

العقد اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «العقد: ربط أجزاء التصرف بالإيجاب والقبول شرعًا»[٢]، ومنه سمي عقد البيع، أو عقد الزواج عقدًا؛ لأنه يعقد ويربط بين طرفين[٣].

الصلة بين البيعة والعقد:

البيعة هي عقدٌ بين الإمام والرعية يتم بموجبه نصرة الإمام على من يخرج عليه؛ حفاظًا على وحدة الأمة، وتماسك بنيانها أمام الأعداء في داخل الدولة الإسلامية وخارجها مقابل التزام الإمام بتنفيذ شرع الله تعالى، ويدل عليه كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبة مبايعته، وفيها: أطيعوني ما أطعت الله فيكم.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٠٠، تاج العروس، الزبيدي ٨/ ٤٠١.
(٢) التعريفات ص١٥٣.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي ١/ ٣١٧، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ١/ ٢٥٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦١٤.

منزلة البيعة ومجالاتها

أولًا: منزلة البيعة:

البيعة مصطلح شرعي ذكره القرآن في أكثر من موضع، وجاء في السنة كثيرٌ من الأحاديث في شأن البيعة، وأفردت كتب الحديث بابًا خاصًّا للبيعة، فقد بوّب البخاري باب: البيعة على إقام الصلاة، وباب: البيعة على إيتاء الزكاة، وباب: البيعة في الحرب أن لا يفروا، وفي مسلم باب: البيعة على السمع والطاعة فيما استطاع.

وبوّب ابن ماجه باب: البيعة، وفي موطأ مالك باب: البيعة على الجهاد، وبوّب النسائي باب: البيعة على أن لا ننازع الأمر أهله، وباب: البيعة على القول بالحق، وباب: البيعة على الصلوات الخمس، وهكذا. مما يدل على أهميتها في النظام السياسي والاجتماعي في الإسلام.

وبالنظر إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم نجد أن البيعة قد تمت في المجتمع الإسلامي قبل أن يتحول إلى دولة في المدينة بين الرسول صلى الله عليه وسلم ونفر من الأنصار، كما حصل في بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، وكان موضوع البيعة الأولى هو إقناع طائفة من الأنصار بالإسلام، ودخولهم فيه، وكان موضوع البيعة الثانية هو مناصرة الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتأييدهم لدعوته، ومنع أي اعتداء يقع عليه؛ ثم حصلت البيعة بعد أن قامت دولة الإسلام في المدينة، مما يدل على أهمية البيعة في الإسلام في بناء الدولة، ومناصرة الإسلام، واجتماع الكلمة.

ثم بعد ذلك صار عقد البيعة الأساس الضروري لشرعية الحكم الإسلامي، حيث يختار أهل الحل والعقد من يرونه صالحًا من المسلمين لتولي أمورهم، ثم يبايعونه على الإمارة، وبعد ذلك يقوم المسلمون جميعًا بالمبايعة؛ لذلك كان كل الحكّام في تاريخ الدولة الإسلامية يحرصون على الحصول على البيعة حتى لو كانت إمارتهم قد تمت بالاستيلاء والمغالبة، فقد اعتبرت البيعة السند الشرعي لأي حاكم يختار من المسلمين لحكم الدولة الإسلامية.

ولأهمية أمر البيعة في المنظور الحضاري الإسلامي نجد أن القرآن الكريم يشير إليها في أكثر من موضع، حيث يقول تعالى في سورة الفتح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

وفي السورة ذاتها يقول: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

كما أشار القرآن الكريم إلى بيعة النساء،

فقال تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وفي ذلك دلالة على أهمية دورهن الفاعل في بناء الحضارة الإسلامية، وخدمة الإسلام ومناصرته.

ومما يدل على أهمية البيعة: أن البيعة بدأت منذ فجر الحضارة الإسلامية؛ حيث بايع النبي صلى الله عليه وسلم صحابته أكثر من بيعة: كبيعتي العقبة الأولى والثانية، وكذلك بيعة الرضوان.

وكانت طوائف المسلمين كلها تبايعه صلى الله عليه وسلم ، فمن الرجال الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد لا يمكن حصره، ومن النساء العدد الجمّ، وقد أحصى الإمام ابن الجوزي عدد من بايع النبي صلى الله عليه وسلم من النساء، فبلغن (٤٥٧) امرأة[١]، وبايعهن كلهن بالكلام، كما سيأتي.

بل وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع الأطفال، حيث بايع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، وهو ابن سبع سنين. فقد أخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أنهما بايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ابنا سبع سنين، فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسّم، وبسط يده، فبايعهما[٢].

وخرّج البيهقي في دلائل النبوة عن محمد بن الأسود بن خلف أخبره أن أباه الأسود حضر النبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس يوم الفتح، قال: جلس عند قرن مسفلة[٣]، قال: وقرن مسفلة الذي إليه بيوت ابن أبي ثمامة، وهو دار ابن سمرة وما حولها، قال الأسود: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم جلس إليه فجاءه الناس الصغار والكبار، والرجال والنساء، فبايعوه على الإسلام والشهادة[٤].

وهذا يدل على أن الحضارة الإسلامية حضارةٌ بنّاءة، فهي تعي قيمة أفرادها، وضرورة مشاركتهم في الأحداث المحيطة بهم، ومن ثمّ وجدنا أسوة المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسي مبدأ البيعة منذ اليوم الأول لقيام الدولة الإسلامية.

ولمكانة البيعة في الإسلام فقد عظّم الله شأنها، وحذّر من نكثها، يقول سبحانه

(١) انظر: تلقيح فهوم أهل الأثر، ابن الجوزي ص٢٣٤، فقد ذكر المبايعات له صلى الله عليه وسلم لا في خصوص يوم الفتح على حروف المعجم.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٣/ ٣٦٠، رقم ٣٤٠٢، والكبير ١٣/ ٧٣، رقم ١٨٠.
وانظر: حياة الصحابة، الكاندهلوي ١/ ٣٠٦.

(٣) في أسد الغابة مصقلة، وفي تاج العروس: مسفلة، وهو محلة بأسفل مكة.

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب بيعة الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ٥/ ٩٤.

وتعالى في كتابه العزيز مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وذلك لما في البيعة من معاني القوة والجماعة والتآلف، وقد فرض الشرع المطهر على المسلم الوفاء بالعهد، سواء كان ذلك بين المسلمين بعضهم البعض، أم مع غير المسلمين، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

والبيعة بما أنها عقد وعهد بين المسلمين وخليفتهم فإنها داخلة في هذه الآيات، وحكم من نكث البيعة على النصرة أو الجهاد أو السمع والطاعة دون أن يصدر عنه ما ينافي أصل الإيمان فهو عاص مرتكب لكبيرة من أعظم الكبائر؛ لأنها نقض للعهد، وقد وردت فيها أحاديث كثيرة تحرّم نكثها، أشهرها: ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع)[1].

ومما يدل على مكانة البيعة: أن قضية الإمامة في الإسلام من القضايا الكبرى العظيمة؛ وقد صنف فيها العلماء مصنفاتٍ مستقلة، بيّنوا فيها شروط الإمامة، وواجبات الإمام، وكان هذا التفصيل العظيم منهم بيانًا لأهمية هذا الأمر في حياة المسلمين؛ ولأن إقامة السلطان وولي الأمر من الواجبات الدينية، ومما لا تتم مصالح الناس الدينية والدنيوية إلا به، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لابد للناس من أمير برٍّ أو فاجر، يعمل فيه المؤمن، ويستمتع فيه الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل»[2]. وقال الحسن البصري رحمه الله: «والله لا يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، مع أن طاعتهم والله لغبطة، وأنّ فرقتهم لكفر»[3] يعني: أنه كفر للنعمة، وهو كفر أصغر، وهذا يدل على أن وجود الإمام أمر ضروري في الدين.

وقد أجمع العلماء على وجوب نصب إمام للأمة، يقيم لهم أحكام شرع الله، قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول ٣/ ١٤٧٢، رقم ١٨٤٤.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب الرعاة، باب القوم يظهرون رأي الخوارج لم يحل به قتالهم ٨/ ٣١٩، رقم ١٦٧٦٤.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ١١٧.

الماوردي: «وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع، وإن شذ عنهم الأصم»[1].

وقال ابن خلدون: «نصب الإمام واجب، وقد عرف وجوبه بالشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه، وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذلك في كل عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعًا دالًّا على وجوب نصب الإمام»[2].

وممن نقل الإجماع على ذلك ابن حزم[3] والقرطبي[4].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «يجب أن يعرف أن ولاية أمور الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها...؛ ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتم إلا بالقوة والإمارة؛ ولهذا روي: أن السلطان ظل الله في الأرض، ويقال: ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان، والتجربة تبيّن ذلك...، فالواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال»[5].

وقال ابن رجب رحمه الله: «وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم، وطاعة ربهم»[6].

وقد ورد في القرآن الإشارة إلى إقامة الأئمة للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

قال القرطبي رحمه الله: «هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة، ولا بين الأئمة»[7].

ولقد تواتر أن الصفوة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين بايعوا الصّدّيق رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن يدفنوه صلى الله عليه وسلم ؛ ولما أحس الصديق بدنوّ أجله استخلف الفاروق رضي الله عنه ؛ ولما

(١) الأحكام السلطانية، الماوردي ص١٥.
(٢) تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٣٩.
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٨٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٦٤-٢٦٥.
(٥) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٩٠-٢٩١.
(٦) جامع العلوم والحكم ٢/ ١١٧.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٢٦٤.

طعن الفاروق رضي الله عنه جعل الأمر شورى في ستة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، واتفقوا على أن يخلف الفاروق عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ ولما استشهد عثمان رضي الله عنه بايعوا أبا الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فهذه طريقتهم في الخلافة، فنجد أنهم حرصوا كل الحرص على تنصيب الإمام، ولم يتهاونوا في ذلك، وهذا مما يجب على المسلمين أن يقتدوا بهم فيه، فالبيعة إذن من الأمور المهمة للحاجة الماسة إلى نصب الإمام الشرعي في الأمة.

ومما يدل على منزلة البيعة للخليفة أن فقهاء المسلمين عقدوا لها خمسة شروط لازمة التحقق، وهي:

أن يجتمع في المأخوذ له البيعة شروط الإمامة، المذكورة في باب شروط الخلافة في كتب الفقه.

أن يكون المتولّي لعقد البيعة أهل الحلّ والعقد من العلماء والرؤساء، وسائر وجوه الناس.

أن يجيب المبايع إلى البيعة، فلو امتنع لم تنعقد إمامته ولم يجبر عليها.

الإشهاد على المبايعة فيما إذا كان العاقد واحدًا، أما إذا كان العاقد للبيعة جمعًا، فإنه لا يشترط الإشهاد.

أن يتّحد المعقود له، بأن لا تعقد البيعة لأكثر من واحد[1].

وهذه الشروط التي أقرّها فقهاء الإسلام لاشك أنها تعدّ من المعالم الحضارية البارزة في مؤسسة الحكم الإسلامية؛ لأن غرض هذه الضوابط جلب كل المصالح التي يحتاجها المجتمع الإسلامي.

ومما يشير إلى ما تحتله البيعة من أهمية: أن بيعة ولي الأمر مما يسبّب استقرار المجتمع المسلم؛ لأنهم إذا اجتمعوا على رجلٍ واحد، وعلى خليفةٍ واحد، وعلى إمامٍ واحد استقام كثيرٌ من أمورهم، ولاشك أن التفرّق عن هذه البيعة يسبّب الخصومة والافتراق، والحرب بين المسلمين؛ لأن كلًّا منهم يريد أن ينصب إمامًا تكون له الهيمنة والسيطرة، والنتيجة إراقة الدماء، ووقوع الحروب بينهم؛ ولذلك كان وجود الإمام الذي يجمع هؤلاء جميعًا من أعظم المصالح الشرعية، وقد حكى الفقهاء الإجماع على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خيرٌ من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين الدهماء، وقد قال محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «الأمة مجمعون من كل مذهب على أن من تغلّب على بلدٍ أو بلدان له حكم الإمام»[2].

(١) انظر: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، القلقشندي ١/ ٢٠ - ٢٣.

(٢) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ابن قاسم ٩/ ٥، الإمامة العظمى، الدميجي

وذلك ما أقام فيهم شرع الله، وأقام الصلاة، فلا يجوز الخروج عليه بحال، فنكث البيعة مع الإمام الذي يقيم شرع الله حرامٌ، ومن فعل ذلك فمات فميتته جاهلية، وقد سبق قوله عليه الصلاة والسلام: (ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر)[1].

ثانيًا: مجالات البيعة:

تتنوع البيعة في الشرع بحسب الأمر المبايع عليه، وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم البيعة من المسلمين على أمور مختلفة، وبحسب الواقع واللحظة الراهنة، وبحسب قدرة الفرد واستعداده، فقد ثبت في القرآن الكريم والسنة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب البيعة من أصحابه أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة، كما وردت بذلك الأحاديث، والذي يعنينا هنا هو البيعة في القرآن الكريم، فلفظ (البيعة) والمبايعة في القرآن ورد بمعنى جامع، وهو (أخذ المواثيق والعهود)، وبالنظر إلى ما جاء في القرآن بإمكاننا أن نذكر بعض مجالات البيعة، ومن أهمها:

١ . البيعة على الإسلام.

وهي البيعة المشهورة، وهي أوجب وآكد أنواع البيعة، ولا شيء من أنواع البيعة نكثه كفر إلا هذه البيعة؛ لأنها الحد الأدنى من الإسلام الذي يلزم على كل مسلم ومسلمة في الأمة؛ ولأنها أصل البيعات كلها، وأكثر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع عامة الناس عليه هو الإسلام؛ وذلك بأن يأتي الرجل الذي يريد الدخول في الإسلام فيسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويضع يده في يده، ويتشهد الشهادتين، ويتعهد بالتزام الإسلام كله، فيصير بذلك مسلمًا مبايعًا للرسول صلى الله عليه وسلم .

والبيعة على الإسلام قد أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

يقول ابن جرير الطبري بعد أن ذكر معنى الآية: «وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل على اختلاف بينهم فيمن عني بهذه الآية، وفيما أنزلت، فقال بعضهم: عني بها الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، وفيهم أنزلت...، وذكر بسنده إلى بريدة، في قول الله عز وجل: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١].

ص٢٢٢.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول ٣/ ١٤٧٢، رقم ١٨٤٤.

قال: أنزلت هذه الآية في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ، كان من أسلم بايع على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

البيعة، فلا يحملكم قلة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام، وإن كان فيهم قلة، والمشركين فيهم كثرة»[(١)].

كذا قال ابن جرير، بل قدّم هذا القول على غيره، ونقله عنه ابن كثير، ولم يعلّق عليه بشيء[(٢)].

وقال الشوكاني: «وظاهره العموم في كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره، وخص هذا العهد المذكور في هذه الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام، وهو خلاف ما يفيده العهد المضاف إلى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله، ولو فرض أن السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجبًا لقصره على السبب، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[(٣)].

ومن البيعة على الإسلام: بيعة النساء المشهورة المذكورة في القرآن، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة: ١٢])[(٤)].

ففي هذه الآية أمر سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إذا جاءه المؤمنات، أي: قاصدات لمبايعته على الإسلام، وعلى أن لا يشركن بالله شيئًا من الأشياء كائنًا ما كان، وهذا كان يوم فتح مكة، فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعنه، فأمره الله أن يأخذ عليهن أن لا يشركن بالله شيئًا، وأمورًا أخرى قد ذكرتها الآية.

قال مقاتل بن حيان: «أنزلت هذه الآية يوم الفتح، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال على الصفا، وعمر يبايع النساء تحتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»[(٥)].

فنلحظ أن الله تعالى ذكر في هذه الآية في صفة البيعة خصالًا ستًّا، أوّلهنّ: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: شيئًا من الأشياء، أو شيئًا من الاشتراك، والظاهر أن المراد:

(١) جامع البيان، ١٧/ ٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٩٨.
(٣) فتح القدير، ٣/ ٢٢٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب بيعة النساء، ٩/ ٨٠، رقم ٧٢١٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٩٩.

الشرك الأكبر، ويجوز التعميم، فيكون المراد الشرك الأكبر والأصغر الذي هو الرياء، والمعنى: بايعهن على أن لا يتخذن إلهًا غير الله، ولا يعملن إلا خالصًا لوجهه[(١)].

قال الإمام الشافعي في الأم: «وإنما يبايع النساء على الإسلام، فأما على الطاعة فهن لا جهاد عليهن»[(٢)]. فكان نص بيعة النساء مختلفًا عن غيره من أنواع البيعات؛ وذلك بتربيتهنّ على عظائم الأمور، وزجرهن عن كبائر الفواحش الواردة في الآية الكريمة وأكبرها الشرك، قال تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ ففي الآية تقرير للتوحيد، وإعلان المفاصلة بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك.

فبدأ تعالى بالنهي عن الشرك؛ لأنه مقابل للإيمان الذي تقوم عليه قاعدة الحياة السليمة لكل بشر، فالشرك نزعة نفسية منحطة تسفل بالإنسان، وتشدّه إلى ذاته البدنيّة؛ وذلك في حالة من سيطرة الوهم، وغياب الوعي، وعمى في البصيرة عن الحقيقة[(٣)].

لذا كان من أولويات البيعة في الإسلام عمومًا وبيعة النساء خصوصًا إعلان المفارقة بين الشرك والتوحيد، فهو أصل الميثاق، وأساس الحياة.

وهذه البيعة على الإسلام قال بعض العلماء: إنها من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول ابن رجب: «وقد ذكر طائفة من العلماء، منهم: القاضي أبو يعلى في كتاب (أحكام القرآن) من أصحابنا: أن البيعة على الإسلام كانت من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ؛ واستدلوا بأن الأمر بالبيعة في القرآن يخصّ الرسول بالخطاب بها وحده، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [الممتحنة: ١٢]»[(٤)].

والمقصود أن هذه البيعة على الإسلام قد ذكرت في القرآن، وهي التي تسمى بيعة النساء أيضًا ، وهي نفس بيعة الرجال، قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم على مثل ما بايع عليه النساء، من مات منا ولم يأت شيئًا منهن ضمن له الجنة، ومن مات منا وقد أتى شيئًا منهن، وقد أقيم عليه الحد فهو كفارة، ومن مات منا وقد أتى شيئًا منهن فستر عليه، فعلى الله حسابه[(٥)].

٢. البيعة على الأعمال الصالحة.

ومن مجالات البيعة الهامة البيعة على الأعمال الصالحة، ومنها:

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٩/ ٣٩٤.
(٢) الأم، ٤/ ٢١٩.
(٣) انظر: بيعة النساء، محمد علي قطب ص٦٤.
(٤) تفسير ابن رجب ٢/ ٤١٩.
(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٣٠١، رقم ٢٢٥٩.

❁ البيعة على النصرة والمنعة.

البيعة على نصرة الدين من أفضل الأعمال، وأوضح مثال على هذا النوع من البيعة -وهي بيعة المنعة والنصرة- البيعة التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم من وفد الأنصار في بيعة العقبة الثانية في منى، وكان عددهم آنذاك ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين، فبعد أن تلا الرسول الكريم القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، قال: (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم، وأبناءكم...). فبايعه البراء بن معرور وسائر الوفد على المنعة والنصرة، ومما قاله البراء بن معرور: «نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله؛ فنحن أهل الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر»[1].

وما قبل النبي صلى الله عليه وسلم عرض الأوس والخزرج في النصرة إلا بعد أن استوثق له عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه منهم، وبعد أن تيقن هو صلى الله عليه وسلم من صدق إيمانهم، وقوة شكيمتهم، واستعدادهم للشهادة في سبيل الله، وأن قلوبهم قد تطهّرت من مطالب الدنيا، فهم يريدون فقط الله ورسوله، والدار الآخرة، ومما يدل على ذلك ما جاء في عقد البيعة: «السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله»[2].

وهذه البيعة هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فقد روى القرطبي وغيره من المفسرين[3] أن هذه الآية نزلت في البيعة الثانية، بيعة العقبة الكبرى، وكان فيها الأنصار نيّفًا وسبعين، وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة، فقال عبد الله بن رواحة للنبي صلى الله عليه وسلم: «اشترط لربك ولنفسك ما شئت»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا،

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٢٥/ ٨٩، رقم ١٥٧٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سترون بعدي أمورًا تنكرونها)، ٩/ ٤٧، رقم ٧٠٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٧٠، رقم ١٧٠٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٨.

وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم)، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: (الجنة)، قالوا: «ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل»؛ فنزلت الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

وهذه الآية وإن نزلت في بيعة العقبة فحكمها عام في كل مؤمن مجاهد في سبيل الله إلى يوم القيامة، قال بعضهم: ما أكرم الله! فإن أنفسنا هو خلقها، وأموالنا هو رزقها، ثم وهبها لنا، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقة رابحة[١].

فهذه الآية وأمثالها تمثيل عبّر فيه عن إثابة الله المؤمنين الباذلين أنفسهم وأموالهم في سبيله بأن لهم الجنة بالشراء والمعاوضة، وهذا تفضل منه وكرم، وترغيب في الجهاد ببيان فضله إثر بيان حال المتخلفين عنه، وهم المنافقون.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ اشترى منهم وعوّضهم ما فيه الخير كله، مع أن ما في الكون هو ملكه، وهذا من غاية لطفه وكرمه بعباده المؤمنين، وقدّم الأنفس على الأموال ابتداء بالأشرف، وبما لا عوض له إذا فقد[٢].

وفي لفظة ﴿ٱشۡتَرَىٰ﴾ لطيفة، وهي: أن فيها دلالة على رغبة المشتري فيما اشتراه، واغتباطه به...، والظاهر أن هذا الشراء هو مع المجاهدين، وقال ابن عيينة: اشترى منهم أنفسهم أن لا يعملوها إلا في طاعة، وأموالهم أن لا ينفقوها إلا في سبيل الله، فالآية على هذا أعم من القتل في سبيل الله، وعلى هذا القول يكون ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ مستأنفًا، ذكر أعظم أحوالهم، ونبه على أشرف مقامهم[٣].

وقال أبو السعود في الآية: «ترغيب المؤمنين في الجهاد ببيان فضيلته، إثر بيان حال المتخلفين عنه، ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه، حيث عبّر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى، وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية، ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم، والثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة، ولم يجعل الأمر على العكس، بأن يقال: إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم؛ ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة، وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها؛ إيذانًا بتعلق كمال العناية بهم

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٩١.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٥٠٩.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٥٠٨.

وبأموالهم، ثم إنه لم يقل: بالجنة، بل قيل: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ مبالغة في تقرير وصول الثمن إليهم، واختصاصه بهم، كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم، المختصة بهم»[1].

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ جملة مستأنفة؛ جيء بها لبيان الوسيلة التي توصلهم إلى الجنة، وهي القتال في سبيل الله، أي: إنهم يقاتلون في سبيل الله، فمنهم من يقتل أعداء الله، ومنهم من يقتل على أيدي هؤلاء الأعداء، وكلا الفريقين: القاتل والمقتول، جزاؤه الجنة[2].

وقرأ حمزة والكسائي ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ﴾ بتقديم الفعل المبني للمفعول على الفعل المبني للمعلوم[3]. قال في الوسيط: «وهذه القراءة فيها إشارة إلى أن حرص هؤلاء المؤمنين الصادقين على الاستشهاد أشد من حرصهم على النجاة من القتل؛ لأن هذا الاستشهاد يوصلهم إلى جنة عرضها السموات والأرض، وإلى الحياة الباقية الدائمة»[4].

وكأن الجمع بين الفعلين: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواء قَتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة[5]؛ ولهذا جاء في الصحيحين: (وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة)[6].

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: ثواب الجنة لهم وعد وحق في التوراة والإنجيل والقرآن، يعني: أن الله عز وجل وعدهم هذا الوعد وبيّنه في هذه الكتب، وفيه دليل على أن أهل الملل كلهم أمروا بالجهاد على ثواب الجنة[7].

وفي هذا التعبير تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[8].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٠٤.
(٢) الوسيط، طنطاوي ٦/ ٤٠٩.
(٣) انظر: التيسير في القراءات السبع، أبوعمرو الداني ص٩٣، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٤٦.
(٤) الوسيط، طنطاوي ٦/ ٤٠٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٨.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أحلت لكم الغنائم)، ٤/ ٨٥، رقم ٣١٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ٣/ ١٤٩٥، رقم ١٨٧٦.
(٧) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٩١.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٨.

قال ابن كثير: «أخبر الله تعالى بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ كتاب موسى عليه السلام، ﴿وَٱلْإِنجِيلِ﴾ كتاب عيسى عليه السلام، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: قد أثبته فيهما كما أثبته في القرآن، أي: الكتاب الجامع لكل ما قبله، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: لا أحد أوفى منه سبحانه؛ لأن الإخلاف لا تقدم عليه الكرام من الناس، فكيف بخالقهم الذي له الغنى المطلق»[1].

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد، ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، وفي هذا تحريض على القتال، وإعلام لهم بأنهم رابحون في هذه الصفقة، والاستبشار: الشعور بفرح البشرى، شعورًا تنبسط له أسارير الوجه، أي: إذا كان الأمر كذلك، فافرحوا ببيعكم الذي بايعتم به غاية الفرح، وارضوا به نهاية الرضا، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه، قال بعض العلماء: ولا ترى ترغيبًا في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية؛ لأنه أبرزه في صورة عقد عقده رب العزة، وثمنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل إذا كانوا قاتلين أيضًا لإعلاء كلمته، ونصر دينه، وجعله مسجلًا في الكتب السماوية، وناهيك به من صكّ، وجعل وعده حقًّا، ولا أحد أوفى من وعده، فنسيئته أقوى من نقد غيره، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم، وهو استعارة تمثيلية، حيث صوّر جهاد المؤمنين، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء، وأتى بقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ بيانًا لمكان التسليم، وهو المعركة، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: (الجنة تحت ظلال السيوف)[2]، ثم أمضاه بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

والمقصود أن من أنواع البيعات التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه، البيعة: أن يمنعوه وينصروه، وهي ما تسمى ببيعة النّصرة والمؤازرة، وهي مذكورة في القرآن، وعبّر عنها بالبيع والشراء، قال عمر رضي الله عنه: إن الله عز وجل بايعك وجعل الصفقتين لك، وقال قتادة: ثامنهم الله عز وجل فأغلى لهم، وقال الحسن: اسعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الجنة تحت بارقة السيوف، ٤/ ٢٢، رقم ٢٨١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، ٣/ ١٣٦٢، رقم ١٧٤٢.

(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ٦/ ٤٠٩.

كل مؤمن. وعنه أنه قال: إن الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها. قال بعضهم: ناهيك عن بيع، البائع فيه رب العلا، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم [(١)]؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم -والله- فأغلى ثمنهم، وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة، وفّى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية؛ ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله، أي: قبل هذا العقد، ووفّى به[(٢)].

❁ البيعة على الجهاد وعدم الفرار.

ومن أمثلة البيعة على الأعمال الصالحة أيضًا: البيعة على الجهاد، وعدم الفرار، وأوضح مثال على هذا النوع من البيعة -وهي البيعة على الجهاد في سبيل الله وعدم الفرار- البيعة التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه تحت الشجرة يوم الحديبية، وهي بيعة الرضوان، التي قال الله فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لقد رضي الله يا محمد عن المؤمنين ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني: بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفرّوا، ولا يولوهم الدبر تحت الشجرة، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة، وكان سبب هذه البيعة ما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالته إلى الملأ من قريش، فأبطأ عثمان رضي الله عنه عليه بعض الإبطاء، فظنّ أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم على ما وصفت، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان»[(٣)].

٣. البيعة على تجنب السيئات.

ومن أبرز الأمثلة على البيعة على تجنب السيئات: ما جاء في بيعة النساء المشهورة المذكورة في القرآن، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

ففي هذه الآية ذكر في صفة البيعة خصالًا ستًّا، هن أركان ما نهى عنه في الدين، ولم

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٩١.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٥٠٩.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٢٢٣.

يذكر أركان ما أمر به، وهي الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والاغتسال من الجنابة وغيرها؛ وذلك لأن النهي عن هذه دائم في كل زمان وكل حال، فكان التنبيه على اشتراط الدائم أهم وآكد، أو أنه لم يذكر في بيعتهن الصلاة والزكاة والصيام والحج لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين، وشعائر الإسلام، وإنما خص الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء[1].

وقد ذكرت هذه المنهيات على ترتيب بديع، ووجه هذا الترتيب بين هذا المنهيات أنه قدّم الأقبح على ما هو أدنى قبحًا منه، ثم كذلك إلى آخرها؛ ولذا قدم ما هو الأظهر والأغلب فيما بينهن.

وقد ذكر الله تعالى هذه الأمور، وهناك أمور أخر لم تذكر في كتاب الله، ولكنها ذكرت في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، منها قول أم عطية: (أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند البيعة ألا ننوح، فما وفّت منا امرأة إلا خمس نسوة فقط)[2]. فانظر مع أن المبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنهن نقضن البيعة كلهن، ولا وفّى منهن بالبيعة إلا خمس نسوة فقط، فهذا يدل على قلة التزام النساء بالعهود والمواثيق، وكان مما بايعهن في هذه الآية:

* ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾.

بايعهن الرسول صلى الله عليه وسلم على ما ذكره الله في كتابه، وهو ألا يشركن بالله شيئًا، أي: شيئًا من الأشياء، أو شيئًا من الإشراك، والظاهر أن المراد الشرك الأكبر، ويجوز التعميم له وللشرك الأصغر الذي هو الرياء، فالمعنى على أن لا يتخذن إلهًا غير الله، ولا يعملن إلا خالصًا لوجهه.

* ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾.

أي: ولا يرتكبن جريمة السرقة، قال ابن كثير: «أي: أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج معسرًا في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان من غير علمه، عملًا بحديث هند بنت عتبة رضي الله عنها»[3]. لما جاءت لتبايع بعد إسلامها في فتح مكة خافت من ذلك الشرط العظيم؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن هندًا قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ، فأحتاج أن آخذ من ماله، قال صلى الله عليه وسلم: (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف)[4].

وفي الحديث: تقييده صلى الله عليه وسلم الأخذ من مال الزوج بالمعروف، وهو ما تعارف عليه الناس دون إفراط ولا

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٠٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما ينهى من النوح والبكاء، رقم ١٣٠٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٩٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب القضاء على الغائب، رقم ٧١٨٠.

تفريط.

وقال ابن عاشور: «فقد شملت الآية التخلّي عن خصال في الجاهلية، وكانت السرقة فيهنّ أكثر منها في الرجال»[1].

* ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾.

أي: ولا يرتكبن جريمة الزنا التي هي من أفحش الفواحش، قال الرازي: «يحتمل حقيقة الزنا، ودواعيه أيضًا»[2] على ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم: (اليدان تزنيان، والعينان تزنيان، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه)[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة -أخت هند- تبايع النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ عليها: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية، فوضعت يدها على رأسها حياءً، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقرّي أيتها المرأة، فو الله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعم إذًا، فبايعها بالآية[4].

وهذه الرواية تدل على كراهة الزّنا عند النساء الحرائر، وبشاعته في الجاهلية، وإن كان مشهورًا في بعض النساء كالبغايا والإماء؛ لذا جاءت أحكام الإسلام السامية تدعو إلى الترفّع عن السفاسف، وتطييب النفس بالمباح من النكاح، وسد أبواب الفتنة بالمنع من الاختلاط المحرّم بين الرجال والنساء؛ لسدّ أبواب الغواية، وحبائل الشيطان؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فإذا لم يكتف الإنسان بالنّكاح المباح ووقع في الزنا فقد أعدّ الله له عذابًا عظيمًا؛ قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وجعل حكم الزاني المحصن الرجم حدًّا مصلتًا قاسيًا شديدًا؛ لينتهي من كان في قلبه إيمان وإحسان عن سلوك طريق الحرام.

* ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾.

أي: ولا يئدن البنات، كما كان يفعله أهل الجاهلية، خوف العار، أو خشية الفقر، قال ابن كثير: «وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار، ويعم قتله وهو جنين، كما يفعله بعض النساء الجاهلات، تطرح نفسها لئلا تحبل، إما لغرض فاسد، أو ما أشبهه»[5].

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٦٦.
(٢) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٢٦٦.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٢١٥٣.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٥٦: «إسناده جيد».
(٤) أخرجه أحمد في المسند، ٦/ ١٥١.
قال محقق المسند ٤٢/ ٩٥: «حديث صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين».
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ١٠٠.

وقال ابن عاشور: «والمراد بقتل الأولاد أمران:

أحدهما: الوأد الذي كان يفعله أهل الجاهلية بناتهم.

والآخر: إسقاط الأجنة، وهو الإجهاض، وأسند القتل إلى النساء، وإن كان بعضه يفعله الرجال؛ لأن النساء كن يرضين به، ويسكتن عنه»[1].

وقال ابن حجر: «خص القتل بالأولاد لأنه قتل وقطيعة رحم، فالعناية بالنهي عنه آكد؛ ولأنه كان شائعًا فيهم وهو وأد البنات، وقتل البنين خشية الإملاق، أو خصهم بالذّكر لأنهم بصدد ألا يدفعوا عن أنفسهم»[2].

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢] أي: لا تنسب إلى زوجها ولدًا لقيطًا ليس منه، تقول له: هذا ولدي منك، قال المفسرون: كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل التقطت ولدًا ونسبته له ليبقيها عنده، فالمراد بالآية: اللقيط، وليس المراد الزنا لتقدمه في النهي صريحًا.

قال ابن عباس: لا تلحق بزوجها ولدًا ليس منه، وقال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، وإنما قال: ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها[3].

وأوضح ذلك الزمخشري بقوله: «كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك؛ كني بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبًا؛ لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين، فهو غير الزنا، فلا تكرار فيه»[4].

والبهتان: الكذب الذي يبهت سامعه، وخص الأيدي والأرجل بالافتراء؛ لأن معظم الأفعال تقع بهما، إذ كانت هي العوامل والحوامل للمباشرة والسعي، وكذا يسمون الصنائع الأيادي، وقد يعاقب الرجل بجناية قولية، فيقال: هذا بما كسبت يداك...، وأصل هذا كان في بيعة النساء، ويعني: نسبة المرأة الولد الذي تزني به أو تلتقطه إلى زوجها، ثم لما استعمل هذا اللفظ في بيعة الرجال احتيج إلى حمله على غير ما ورد أولًا، فيحتمل أن يكون المراد بين الأيدي والأرجل (القلب)؛ لأنه هو الذي يترجم اللسان عنه؛ فلذلك نسب إليه الافتراء، كأن المعنى: لا ترموا أحدًا بكذب تزوّرونه في أنفسكم، ثم تبهتون صاحبه بألسنتكم[5].

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٦٦.
(٢) فتح الباري ١/ ٦٤.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣٤٢.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٢٠.
(٥) انظر: فتح الباري ١/ ٦٥.

وفي هذه البيعة بالنسبة للرجال والنساء دلالة عظيمة على حرص القرآن الكريم على تربية النفوس، وتهذيبها مما قد علق بها من صنائع الجاهلية المذمومة؛ ليبني مجتمعًا سليمًا من الرجال الصادقين، والنساء العفيفات، والدليل على ذلك ما قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: «لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن»[(١)].

«ولعل هذا التحفّظ -بعد المبايعة على عدم الزنا- كان للحالات الواقعة في الجاهلية من أن تبيح المرأة نفسها لعدّة رجال، فإذا جاءت بولدٍ نظرت أيهم أقرب به شبهًا، فألحقته به، وربما اختارت هي أحسنهم، فألحقت به ابنها، وهي تعلم من أبوه، وعموم اللفظ يشير إلى هذه الحالة وغيرها من كلّ بهتان مزور يدّعى، ولعل ابن عباس رضي الله عنهما خصّصه بذلك المعنى لمناسبة واقعة وقتذاك»[(٢)].

وفي هذا تأكيد على حفظ الأنساب بسدّ أبواب الزنا والافتراء، وعدم قتل الأولاد الشرعيين أو اللقطاء، أو وأد البنات خشية العار الذي انتشر في الجاهلية، وتأكيد البيعة على كلّ هذه الأمور؛ ليبني الإسلام دعائم الحياة الاجتماعية الجديدة؛ لينطلق في أرجاء الأرض داعيًا إليها، ومبشّرًا بصلاح الدنيا والآخرة حين تكون الحال، كما جاء في هذه الأركان العالية، والشروط السامية.

وهذه البيعة قد بايع بها النبي صلى الله عليه وسلم النساء والرجال جميعًا؛ كما ورد في حديث عبادة بن الصامت حيث قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس: (تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه) فبايعناه على ذلك[(٣)].

٣. البيعة على السمع والطاعة بالمعروف.

ومن أمثلتها ما جاء في بيعة النساء: أن النبي صلى الله عليه وسلم بايعهن على ما بايع عليه الرجال، ومن ذلك السمع والطاعة بالمعروف، وهو الذي يدل عليه قوله تعالى:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ٣٤٠.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٠.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، وبيعة العقبة، ٥/ ٥٥، رقم ٣٨٩٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم ١٧٠٩.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[الممتحنة: ١٢].

أي: ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهن به من معروف، أو نهيتهن عنه من منكر، بل يسمعن ويطعن، وهذا نص عام في جواز أخذ البيعة من النساء على عدم العصيان في أي معروف يأمر به.

وهذا القيد من باب البيان وإلا فالنبي لا يأمر إلا بمعروف، وفي هذا تقريرٌ عظيم أن طاعة الرعية للحاكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم لا تكون إلا في المعروف الذي يتّفق مع دين الله وشريعته.

قال الشنقيطي في تفسيره للآية: «القيد بالمعروف هنا للبيان، ولا مفهوم له؛ لأن كل ما يأمر به صلى الله عليه وسلم معروف، وفيه حياتهن، وفيه تنبيه على أن من كان في موضع الأمر من بعده لا طاعة له إلا في المعروف»[(١)].

والمعروف كما قال في النهاية: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والإحسان إلى الناس، وكل ما أمر به الشرع، ونهى عنه[(٢)]. وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما المعنى بشكل مجملٍ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ حيث قال: «إنما هو شرط شرطه الله على النساء»[(٣)].

والطاعة بالمعروف هو مقتضى قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢].

ومن حيث الاستطاعة من جهة المأمور فالمقصود بها أنه لا يلزم المأمور طاعة أميره فيما لا يستطيعه، ومدار أحكام الشريعة كلها على الاستطاعة، والله تعالى لا يكلّف نفسًا إلا وسعها، ولا يكلّف الإنسان شيئًا لا يستطيع أداءه، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦].

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)[(٤)].

كما أن الاستطاعة من عدمها أمر يعلمه الله تعالى من عبده، فإن قصّر العبد في الطاعة مدّعيًا عدم الاستطاعة فإن الله تعالى يحاسبه على ذلك، فإن كان كاذبًا فالله مطلع عليه ومجازيه عليه، ويدل على ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما حيث قال: كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه

(١) أضواء البيان ٥/ ٣٣٠ بتصرف.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٢١٦.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب(إذا جاءك المؤمنات يبايعنك)، رقم ٤٨٩٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٩/ ٩٤، رقم ٧٢٨٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، ٤/ ١٨٣٠، رقم ١٣٣٧.

وسلم على السمع والطاعة، يقول لنا: (فيما استطعتم)[1].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، فلقنني: (فيما استطعت)[2].

وعن عبد الله بن دينار قال: لما بايع الناس عبد الملك بن مروان كتب إليه عبد الله بن عمر: «إلى عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيما استطعت، وإن بني قد أقروا بذلك»[3].

وهذا المعنى الذي ذكرناه واضح في كثير من الأدلة.

وقد جاء في الرّوايات الواردة في بيعة النساء تقييد هذا الركن بالنياحة. والنياحة أمر منكر في الإسلام، ويقصد به اجتماع النساء لإظهار شعائر الحزن[4].

فقد جاء في حديث أم عطية رضي الله عنها قالت: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأةٌ يدها، فقالت: أسعدتني فلانة، فأريد أن أجزيها، فما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا، فانطلقت ورجعت، فبايعها[5].

وقد فسّر زيد بن أسلم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: «لا يخدشن وجهًا، ولا يشققن جيبًا، ولا يدعون ويلًا، ولا ينشدن شعرًا»[6].

وهذا بسبب الخوف على النساء في أول الإسلام من التمسّك بشيء من أحوال الجاهلية النكراء، كهذه الأفعال من النياحة المصاحبة للاعتراض على قدر الله عز وجل، ولشناعة هذا الفعل كان الوعيد العظيم عليه ببراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ممن يقارفه عند المصيبة، فأكد صلى الله عليه وسلم على النهي عنه أثناء البيعة العظيمة للنساء؛ لما جبلت عليه النساء من العاطفة الجياشة، والاستسلام للضعف عند نزول المصيبة، ونسيان حكم الله، فتوعد عليه الوعيد الشديد؛ فعن أبي مالك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ٩/ ٧٧، رقم ٧٢٠٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب البيعة على السمع والطاعة فيما استطاع، رقم ١٨٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ٩/ ٧٧، رقم ٧٢٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٥، رقم ٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس ٩/ ٧٨- ٧٢٠٥.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (إذا جاء المؤمنات يبايعنك)، رقم ٤٨٩٢.

(٦) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٤١.

الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقوم يوم القيامة وعليها سربالٌ من قطران، ودرعٌ من جرب)[1].

استغفار الرسول للمبايعات:

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن يبايع النساء أن يستغفر لهن الله تعالى، وهذا الدعاء الكريم بالمغفرة هو الجائزة العظيمة التي حصل عليها أولئك النساء المبايعات اللاتي ذكرهن ابن سعد في الطبقات الكبرى في الجزء الثامن، تسمية النساء المسلمات المبايعات، وقسمهن إلى أقسام؛ من قريش (٦٦) وغرائب نساء العرب (٥٩) والأنصاريات المسلمات المبايعات (٣٣٧) وبلغ عددهن جملة (٤٦٢)[2].

قال السعدي: «فكان إذا جاءته النساء يبايعنه والتزمن بهذه الشروط بايعهن وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله فيما يحصل منهن من التقصير، وأدخلهن في جملة المؤمنين»[3].

فقوله: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أمر من المبايعة، أي: إذا جاء إليك النساء المؤمنات للبيعة فبايعهن على هذه الأمور الستة الهامة، وفي مقدمتها عدم الإشراك بالله جل وعلا، أي: فبايعهن على ما ذكر وما لم يذكر لوضوح أمره، وظهور أصالته.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ زيادة على ما في ضمن المبايعة من ضمان الثواب، والاستغفار طلب المغفرة للذنوب، والستر للعيوب[4].

فبايعهن الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يمد يده لبيعتهن، ولم يصافح أحدًا منهن عليه الصلاة والسلام، فعن أميمة بنت رقيقة في قصة البيعة، وفيها: «ألا تصافحنا يا رسول الله؟!» قال: (إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة)[5]. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: (والله ما مست يد رسول الله يد امرأة قط)[6].

وقد علق ابن حجر على لفظ: (فقبضت امرأة يدها)[7] بقوله: «وقد يؤخذ من قول أم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، رقم ٩٣٤.
(٢) الطبقات الكبرى، ٨/ ١٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧٩٥ بتصرف.
(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ٩/ ٣٩٦.
(٥) أخرجه أحمد في المسند، ٤٤/ ٥٥٦، رقم ٢٧٠٠٦، والنسائي في سننه، كتاب البيعة، بيعة النساء، ٧/ ١٤٩، رقم ٤١٨١، وابن حبان في صحيحه، باب بيعة الأئمة وما يستحب لهم، ١٠/ ٤١٧، رقم ٤٥٥٣، والطبراني في الكبير، ٢٤/ ١٨٦، رقم ٤٧١.
وصححه الألباني في الصحيحة، رقم ٥٢٩.
(٦) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب (إذا جاءك المؤمنات مهاجرات)، ٦/ ١٥٠، رقم ٤٨٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، ٣/ ١٤٨٩، رقم ١٨٦٦.
(٧) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (إذا

عطية في الحديث: (فقبضت امرأة يدها) أن بيعة النساء كانت أيضًا بالأيدي، فتخالف ما نقل عن عائشة رضي الله عنها: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ قالت: وما مسّت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة، إلا امرأة يملكها)[1]، ويحتمل أنهن كنّ يشرن بأيديهن عند المبايعة بلا مماسة»[2].

وقال النووي في شرح مسلم: «وفيه: أن بيعة النساء بالكلام من غير أخذ كف، وبيعة الرجال بأخذ الكف مع الكلام»[3]. فيكون الأخذ بالأيدي من باب تأكيد البيعة؛ ولهذا لما تخوّف عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاختلاف بين المسلمين قال لأبي بكر: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسطها فبايعه، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار[4].

تكرر مبايعته صلى الله عليه وسلم للنساء:

قد تكرّرت مبايعة النساء للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها كانت بيعة شرعية إيمانية أخلاقية، تتعهّد فيها المرأة بالالتزامات الإيمانية والأخلاقية، وليست بيعة ترشيح النبي صلى الله عليه وسلم للقيادة السياسية، فلم يكن صلى الله عليه وسلم يفتقر إلى موافقة الأمة على قيادته، وهو النبي الخاتم، في حين كانت بيعة الرجال سياسيةً يلتزمون فيها بالجهاد، إضافة إلى التزامهم الإيماني والأخلاقي.

فإذا رأى الوالي ضرورة مشاورة النساء في أمور الدولة، أو في تأدية بعض الحقوق السياسية، أو بعض الأعمال الإدارية، إذا كانت هناك ضرورة ماسة، ولم يتضمن ذلك الأمر معصيةً لله تعالى، أو تضييعًا لنفسها، أو بيتها، أو الوقوع في الاختلاط المحرّم، المفضي إلى المفاسد العظيمة، فعلى النساء طاعته بالمعروف، مثل ضرورة الإذن بالجهاد لقتال العدو الصائل وغيره؛ لأن في ذلك مصلحةً للبلاد والعباد[5].

والمقصود أنه قد ثبت في القرآن الكريم والسنة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب البيعة من أصحابه أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة، وأنه أخذ منهم البيعة قبل قيام الدولة الإسلامية، وقبل الهجرة في

جاء المؤمنات يبايعنك)، رقم ٤٨٩٢.

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب (إذا جاءك المؤمنات مهاجرات)، ٦/ ١٥٠، رقم ٤٨٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، ٣/ ١٤٨٩، رقم ١٨٦٦.

(٢) فتح الباري، ١٣/ ٢٠٤ بتصرف.

(٣) شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ١٠.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت ٨/ ١٦٨- ٦٨٣٠.

(٥) انظر: المفصل في أحكام المرأة، عبد الكريم زيدان، ٤/ ٢٩٩ - ٣٥١.

موضعين، هما بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية، كما أخذها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة وقيام الدولة الإسلامية أكثر من مرة، فأخذها في الحديبية، حين أشيع خبر مقتل عثمان رضي الله عنه ، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وأخذها النبي صلى الله عليه وسلم من النساء بعد الحديبية، فقد كان يبايع من تهاجر إلى المدينة، ولا يرجعها إلى مكة، كما كان يفعل بمن هاجر من الرجال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

كما بايع النبي صلى الله عليه وسلم الرجال والنساء بعد فتح مكة، وكانت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان من المبايعات بعد الفتح.

ومن هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة التي ذكرت نستنتج أن:

البيعة متنوعة، فقد تكون على الإسلام، مثل البيعة التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة، فقد جاءه الناس الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإسلام والشهادة.

وتكون البيعة على كل طاعة من الطاعات، وعبادة من العبادات، كالبيعة على الهجرة والجهاد والصلاة والزكاة والنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام.

وقد استفاض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الناس كانوا يبايعونه تارةً على الهجرة والجهاد، وتارةً على إقامة أركان الإسلام، وتارةً على الثبات والقرار في معركة الكفار، وتارةً على التمسك بالسنة، واجتناب البدعة، والحرص على الطاعات.

وقد جاء عن أنس رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: (اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة)، فقالوا مجيبين له: نحن الذين بايعوا محمدًا، على الجهاد ما بقينا أبدًا[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على القتال، ٤/ ٢٥، رقم ٢٨٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق، ٣/ ١٤٣٢، رقم ١٨٠٥.

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عدلت إلى ظل الشجرة، فلما خف الناس، قال: (يا ابن الأكوع ألا تبايع؟!) قلت: قد بايعت يا رسول الله، قال: (وأيضًا) فبايعته الثانية، فقال الراوي عنه: يا أبا مسلم على أي شيء كنتم تبايعون يومئذٍ؟ قال: على الموت[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مائة، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة -وهي سمرة- وبايعناه على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت[2].

والظاهر -والله أعلم- أن ألفاظ البيعة كانت تختلف من شخص إلى شخص، وإن كانت كلها بمعنى واحد، فعدم الفرار هو الثبات حتى الموت، وهو عين ما بايع عليه سلمة رضي الله عنه، فعن يزيد بن أبي عبيد مولى سلمة بن الأكوع قال: قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية؟ قال: على الموت[3].

وقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم بعض الناس بيعات مخصوصة، فقد بايع بعض أصحابه على أن يقول الحق دائمًا، وأن لا يسأل الناس شيئًا، فوفوا بذلك، فكان السوط يقع من أحدهم فلا يقول لغيره: ناولنيه، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: بايعني رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسًا، وأوثقني سبعًا، وأشهد الله علي تسعًا؛ أن لا أخاف في الله لومة لائم، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (هل لك إلى بيعة ولك الجنة؟) قلت: نعم، وبسطت يدي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشترط علي: (أن لا تسأل الناس شيئًا) قلت: نعم، قال: (ولا سوطك إن يسقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه)[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت، ٤/ ٥٠، رقم ٢٩٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم ١٨٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، ٣/ ١٤٨٣، رقم ١٨٥٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، ٣/ ١٤٨٦، رقم ١٨٦٠.

(٤) أخرجه أحمد في المسند، ٣٥/ ٤٠١، رقم ٢١٥٠٩.
قال محقق المسند: «إسناده ضعيف، لكن يشهد له قوله: (أن لا تسأل الناس شيئًا)، حديث عوف بن مالك عند مسلم ١٠٤٣».

أركان البيعة

من خلال التعريفات السابقة للبيعة، والتكييف الفقهي لها، يمكن أن نستنبط بسهولة أن للبيعة ثلاثة أركان:

الركن الأول: (موضوع البيعة): وهو إقامة نظام الخلافة الإسلامية، وفقًا لكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من تطبيق للحدود والأحكام، أو البيعة على فرائض الإسلام وشرائعه، والدفاع عنه.

الركن الثاني: (المبايع)، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الخليفة من بعده، أو المربي، أو أمير القوم في السفر والمهمات القصيرة، وهو الطرف الذي أخذت له البيعة ليتولى منصب الخلافة، أو الإمامة، ويلقب بالأمير أو الخليفة.

الركن الثالث: (المبايع)، وهو الطرف الذي أعطي البيعة لمن يستحقها، وهم أهل الحل والعقد خاصة، والأمة الإسلامية عامة. وسنتكلم فيما يأتي عن هذه الأركان الثلاثة بالتفصيل:

أولًا: البيعة:

التكييف الشرعي والفقهي للبيعة أنها (عقد)، وهذا التكييف له آثار جوهرية بليغة، فمعنى كونها عقدًا: أنه يجري فيها ما يجري في العقود الشرعية من أركان: كالعاقدين، والصيغة، والشروط.

وقد سبق القول أن موضوع البيعة هو إقامة نظام الخلافة الإسلامية، وفقًا لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من تطبيق للحدود والأحكام التي نصت عليها الشريعة الغراء، أو البيعة على فرائض الإسلام وشرائعه، والدفاع عنه.

وقد تكون على الإسلام، مثل البيعة التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة، فقد جاءه الناس الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإسلام والشهادة.

وقد تكون على الإسلام ومكارم الأخلاق، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس: (تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه) فبايعناه على ذلك[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب بيعة النساء، ٩/ ٧٩، رقم ٧٢١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، ٣/ ١٣٣٣، رقم ١٧٠٩.

وقد تكون بيعة السياسة والحرب، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان من نسائنا، فاجتمعنا في الشعب حتى جاءنا رسول الله ومعه العباس، قلنا: يا رسول الله على ما نبايعك؟ قال: على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة، فقمنا إليه رجلًا رجلًا، فأخذ علينا البيعة[1].

وقد تكون بيعة على الموت، كما حدث في بيعة الشجرة في الحديبية، والبيعة تكون للرجال وللنساء وللكبار وللصغار على حد سواء.

١ . حكم البيعة.

يختلف حكم المبايعة باختلاف المبايعين، فأهل الحل والعقد يجب عليهم بيعة من يختارونه للإمامة، ممن قد استوفى الشروط الشرعية لها، وأما سائر الناس فالأصل وجوب البيعة على كل واحد منهم بناءً على بيعة أهل الحل والعقد؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهليةً)[2]. ولكن المالكية ذهبوا إلى أنه يكفي سائر الناس أن يعتقدوا أنهم تحت أمر الإمام المبايع، وأنهم ملتزمون بالطاعة له[3].

هذا بالنسبة للمبايعين من أهل الحل والعقد وسائر الناس، أما من جهة المختار ليكون إمامًا فيجب عليه قبول البيعة إن تعيّنت الإمامة، بأن لا يوجد غيره مستوفيًا للشروط، فإن كان المستوفون للشروط أكثر من واحد كان قبول البيعة فرض كفاية.

لأن البيعة عقد مراضاة واختيار، لا يدخله إكراه ولا إجبار، وهو عقد بين طرفين: أحدهما: أهل الحل والعقد، وثانيهما: الشخص الذي أدّاهم اجتهادهم إلى اختياره ممن قد استوفوا شرائط الإمامة؛ ليكون إمامًا لهم، فإذا اجتمع أهل الحل والعقد للاختيار، وتصفّحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدّموا للبيعة منهم أكثرهم

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٢٣/ ٢٢، رقم ١٤٦٥٣.
قال محقق المسند: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل يحيى بن سليم، وهو الطائفي».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ٣/ ١٤٧٨، رقم ١٨٥١.

(٣) انظر: الشرح الكبير، الشيخ الدردير، وحاشية الدسوقي ٤/ ٢٩٨، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، الحطاب ٦/ ٢٧٩.

فضلًا، وأكملهم في تلك الشروط، ومن يسرع الناس إلى طاعته، ولا يتوقّفون عن بيعته، فإذا تعيّن لهم من بين الجماعة من أدّاهم الاجتهاد إلى اختياره عرضوها عليه، فإن أجاب إليها بايعوه عليها، وانعقدت ببيعتهم له الإمامة، فلزم كافة الأمة الدخول في بيعته، والانقياد لطاعته، وإن امتنع من الإمامة ولم يجب إليها لم يجبر عليها، وعدل عنه إلى من سواه من مستحقّيها.

٢. مشروعية البيعة.

دل على مشروعية البيعة الكتاب والسنة والإجماع:

فمن القرآن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

والآية تدل أن مبايعة المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم إنما هي في الحقيقة مبايعة لله تبارك وتعالى ؛ فيده سبحانه فوق أيديهم، والمراد بالمبايعة في الآية: بيعة الرضوان بالحديبية، وقد أنزل الله تعالى فيمن بايعه فيها قوله جل شأنه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: «كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، وقال: بايعناه على أن لا نفرّ»[(١)].

ومما يدل على مشروعية البيعة قوله سبحانه في بيعة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وهذا لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جاءه نساء أهلها يبايعنه فأخذ عليهن: أن لا يشركن... إلخ.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحنّ بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ [الممتحنة: ١٢].. إلى آخر الآية، قالت عائشة: فمن أقرّ بهذا من المؤمنات فقد أقرّ بالمحنة)[(٢)].

وقالت أم عطية رضي الله عنها: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، ٣/ ١٤٨٣، رقم ١٨٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي أو الحربي، ٧/ ٤٩، رقم ٥٢٨٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، ٣/ ١٤٨٩، رقم ١٨٦٦.

جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام على الباب، فسلّم، فرددن عليه السلام، فقال: أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكنّ: أن لا تشركن بالله شيئًا، فقلن: نعم)[1].

ومما يدل مشروعية البيعة أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ البيعة من الصحابة في مواقف كثيرة، وعلى أمور مختلفة، كما في بيعة العقبة الأولى حيث بايع المسلمون الرسول صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء قبل أن تفرض عليهم الحرب، وفي بيعة العقبة الثانية، وفي بيعة الرضوان، وغيرها من البيعات.

كما دل على مشروعية البيعة الإجماع، فقد أجمع الفقهاء في الجملة على وجوب بيعة المسلمين لإمام لهم يمثّلهم، ويقوم على أمورهم؛ حتى لا تذهب ريحهم، ويتولى أمر البيعة في بادئ الأمر بعض وجهاء المسلمين من أهل الحل والعقد، الذين يختارون الإمام الصالح بحسب اجتهادهم ومشورتهم، ثم يدعون عموم الناس لمبايعته، فقد قال الإمام النووي: «أجمع العلماء على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة»[2].

فالبيعة لخليفة المسلمين أمر معلوم من الدين بالضرورة، وعدم نصب خليفة أو حاكم مسلم سيورث الإضرار والفوضى والاختلاف والتنازع.

٣. الفرق بين مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم ومبايعة غيره.

إن موضوع بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم يقتصر على التزام المبايعين وتعهّدهم بالسمع والطاعة، وخاصةً الالتزام بما بايعوا عليه، أما تعيينه صلى الله عليه وسلم للإمامة فإنما كان ذلك بالوحي، وأما بيعة غيره فهي التزام من كل من الطرفين، فهي من أهل الحل والعقد التزام للإمام بالسمع والطاعة، والإقرار بإمامته، والتزام من المبايع بإقامة العدل والإنصاف والقيام بفروض الإمامة، ويترتّب على البيعة إذا تمّت على الوجه المشروع انعقاد الإمامة لمن بايعه أهل الحل والعقد، وأما سائر الناس غير أهل الحل والعقد فعليهم أن يبايعوه بعد ذلك تبعًا لأهل الحل والعقد.

٤. أثر البيعة في انعقاد الإمامة.

اختيار أهل الحل والعقد للإمام، وبيعتهم له، هي إحدى طرق التولي، بل هي الأصل في انعقاد الإمامة، وأهل الحل والعقد هم العلماء وجماعة أهل الرأي والتدبير، الذين اجتمع فيهم العلم والأمانة والعدالة والرأي.

والأصل في البيعة أن تكون على الكتاب

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٣٤/ ٣٩٤، رقم ٢٠٧٩٧.

(٢) شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢/ ٢٠٥.

والسنة، وإقامة الحق والعدل من قبله، وعلى السمع والطاعة في المعروف من قبلهم، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي كان يلقنهم قيد الاستطاعة عند المبايعة، وقد بايعوه أيضًا على الإسلام، وعلى الهجرة، وعلى الجهاد، وعلى الصبر وعدم الفرار من القتال، وعلى بيعة النساء المنصوصة في القرآن.

وهذه الطريق هي إحدى الطرق الصحيحة عند أهل السنة لتولي الخلافة، وتنعقد الإمامة أيضًا بالتغلب، أو أن يجعل الخليفة الأمر شورى بين أهل الحل والعقد.

٥. البيعة العامة.

البيعة قد تكون بيعة عامة كبرى، تعطى لإمام المسلمين الذي اجتمع عليه الناس كلهم، لاستيفاء شروط الإمامة، أو لكفاءته أكثر من غيره، أو لتغلبه، وهذا النوع هو المقصود عند إطلاق لفظ البيعة، ففي بيعة المتغلب قال الإمام الشاطبي: «قيل ليحيى بن يحيى: البيعة مكروهة، قال: لا، قيل له: فإن كانوا أئمة جور، فقال: قد بايع ابن عمر لعبد الملك بن مروان، وبالسيف أخذ الملك، أخبرني بذلك مالك عنه أنه كتب إليه: أقر له بالسمع والطاعة على كتاب الله وسنة رسوله»[١].

وهذه البيعة العامة لا تكون إلا بمبايعة أهل الحل والعقد للمرشح للإمامة، وعليه فإن أداءها واجب على الأمة كافة، ويعدّ من نقضها باغيًا، والتارك لها من غير تأول يموت ميتة جاهلية؛ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)[٢].

وقوله: (مات ميتة جاهلية) أي: مات كميتة أهل الجاهلية، وليس أنه مات على الكفر، كما فهمه بعضهم، قال النووي رحمه الله: «أي: على صفة موتهم، من حيث هي فوضى لا إمام لهم»[٣].

وقال ابن حجر رحمه الله: «والمراد بالميتة الجاهلية -وهي بكسر الميم-: حالة الموت، كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له إمام مطاع؛ لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافرًا، بل يموت عاصيًا»[٤].

وهذه البيعة لا تقبل التعدد؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)[٥].

(١) الاعتصام، ٢/ ١٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ٣/ ١٤٧٨، رقم ١٨٥١.

(٣) شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٢/ ٢٣٨.

(٤) فتح الباري ١٣/ ٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب إذا بويع لخليفتين، ٣/ ١٤٨٠، رقم ١٨٥٣.

وتنخرم هذه البيعة، ويسقط واجب الطاعة إذا ما طرأ على الإمام الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله تعالى البرهان، أو طرأ عليه أمر يعجز معه عن القيام بأعبائها كالجنون ونحوه، كما هو مفصل في كتب الفقه والسياسة الشرعية[1].

٦. البيعة الخاصة.

وقد تكون البيعة بيعة صغرى جزئية خاصة، وللعلماء في هذا النوع من التحالف والعهد تفصيل:

فإذا كان موضوع التحالف مخالفًا للشرع فالعهد باطل؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن اشترط مائة شرط؛ شرط الله أحق وأوثق)[2] وإذا كان العقد على أمر شرعي كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويكون العهد على طاعة من يرتضونه لعلمه، أو كفايته، فقد سوغها بعض العلماء. وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية مشروعية هذا التعاهد، فقال: «ولكن يحسن أن يقول لتلميذه: عليك عهد الله وميثاقه أن توالي من والى الله ورسوله، وتعادي من عادى الله ورسوله، وتعاون على البر والتقوى، ولا تعاون على الإثم والعدوان، وإن كان الحق معي نصرت الحق، وإن كنت على الباطل لم تنصر الباطل، فمن التزم هذا كان من المجاهدين في سبيل الله تعالى الذين يريدون أن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا»[3].

وقد علّق شيخ الإسلام ابن تيمية على الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة، إلا أمّروا عليهم أحدهم)[4] بقوله: «فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهًا بذلك على سائر أنواع الاجتماع؛ ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة»[5].

فتأمير الأمير وأخذ البيعة له أمر فطري، ونجد أنه كانت هناك إمارات تتم في ظروف خاصة لمهام خاصة، مثل: إمارة الحج، وإمارة السفر والقتال، ومنها: تأمير خالد بن الوليد في مؤتة، والأمر في هذه الإمارات والبيعات يتم بصورة طبيعية لا يفهم منها

(١) انظر مسببات العزل في: الأحكام السلطانية، الماوردي ص١٧-٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب البيع والشراء مع النساء، ٣/ ٧١، رقم ٢١٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، ٢/ ١١٤١، رقم ١٥٠٤.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢١.

(٤) أخرجه أحمد في المسند، ١١/ ٢٢٧، رقم ٦٦٤٧.

(٥) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٩٠.

أنها تحل محل الإمارة أو البيعة العامة.

فالناس لهم أن يتعاهدوا على فعل أي طاعة من الطاعات، كالجهاد أو الدعوة، أو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم وهكذا، فلا يشترط لصحة هذه البيعات أن تكون على إقامة أحكام الإسلام كلها، وهذا أيضًا قد سبق بيانه فيما سقناه من أدلة.

٧. كيفية البيعة.

كيفيّتها أن يقول كل من أهل الحل والعقد المبايعين لمن يبايعونه بالخلافة: قد بايعناك على إقامة العدل والإنصاف والقيام بفروض الإمامة، ولا يحتاج ذلك إلى صفقة اليد، إلا إذا اقتضى الأمر التأكيد، كما حصل في مبايعة أبي بكر رضي الله عنه حين تخوّف عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاختلاف بين المسلمين، قال لأبي بكر رضي الله عنه: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعه، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار[١].

وكانت البيعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين بالمصافحة، وبيعة النساء بالكلام، وما مست يده الكريمة صلى الله عليه وسلم يد امرأة لا يملكها، فيقول لمن يبايعه: بايعتك، أو أبايعك على السمع والطاعة، في العسر واليسر والمنشط والمكره[٢].

فلما ولي الحجاج رتّبها أيمانًا تشتمل على اليمين بالله والطلاق والعتاق وصدقة المال، قال ابن القيم: «ومن هذه الالتزامات التي لم يلزم بها الله ولا رسوله لمن حلف بها، الأيمان التي رتّبها الفاجر الظالم الحجاج بن يوسف، وهي أيمان البيعة...، فأحدث الحجاج في الإسلام بيعة غير هذه تتضمن اليمين بالله تعالى، والطلاق، والعتاق، وصدقة المال، والحج»[٣].

والذي يأخذ البيعة في حاضرة الدولة هو الخليفة، وأما في الأقاليم فقد يأخذها الإمام، وقد يأخذها نواب الإمام، كما حدث في بيعة الصديق رضي الله عنه ، فأهل مكة والطائف أخذها نواب الخليفة.

٨. نقض البيعة.

البيعة عهد وموثق يعطيه المسلم طائعًا مختارًا لربه، مستسلمًا لمشيئته، مدافعًا عن دينه، فإذا كانت البيعة على الإسلام، فعهدهم أن لا يشركوا بالله شيئًا، وإذا كانت البيعة على الجهاد فعهدهم أن يبذلوا أنفسهم حمية لدينهم لا لأنفسهم حتى تكون كلمة الله هي العليا، وإذا كانت البيعة على النصرة فعهدهم أن يسمعوا ويطيعوا للقيادة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، ٨/ ١٦٨، رقم ٦٨٣٠.

(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم ٣/ ٦٢.

(٣) المصدر السابق.

المؤمنة، وأن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، وأن لا ينازعوا الأمر أهله.

وقد حرّم الشرع على المسلم إذا بايع الإمام أن ينقض بيعته، أو يترك طاعته، إلا لموجب شرعي يقتضي انتقاض البيعة، كردة الإمام، فإن نقض البيعة لغير ذلك فهو حرام، وقد ورد النهي عنه في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فذكر الله سبحانه وتعالى بيعتهم لرسوله، وأكدها بكونها بيعة له سبحانه، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم؛ إذ كانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك، وهو رسوله ونبيه، فالعقد معه عقد مع مرسله، وبيعته بيعته، فمن بايعه فكأنما بايع الله، ويد الله فوق يده، ثم أخبر أن ناكث هذه البيعة إنما يعود نكثه على نفسه، وأن للموفي بها أجرًا عظيمًا، فكل مؤمن قد بايع الله على لسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه، فناكث وموف، ثم ذكر حال من تخلف عنه من الأعراب، وظنهم أسوأ الظن بالله أنه يخذل رسوله وأولياءه وجنده، ويظفر بهم عدوهم، فلن ينقلبوا إلى أهليهم؛ وذلك من جهلهم بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق به، وجهلهم برسوله وما هو أهل أن يعامله به ربه ومولاه، ثم أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذٍ من الصدق والوفاء، وكمال الانقياد والطاعة، وإيثار الله ورسوله على ما سواه، فأنزل الله السكينة والطمأنينة والرضا في قلوبهم، وأثابهم على الرضا بحكمه والصبر لأمره فتحًا قريبًا، ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ومغانمها، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر[(١)].

فبيعة إمام المسلمين واجبة على كل مسلم، لا يسع أحد التنصل منها أو الخروج عليها ألبتة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(وستكون خلفاء فتكثر)**، قالوا: **فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: (فوا ببيعة الأول فالأول)**[(٢)]. وقال صلى الله عليه وسلم: **(من بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع)**[(٣)].

فأمر بالوفاء ببيعتهم وطاعتهم، وذم من

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٧٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤/ ١٦٩، رقم ٣٤٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم ١٨٤٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ٣/ ١٤٧٢، رقم ١٨٤٤.

لم يبايع في قوله صلى الله عليه وسلم: (ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية)[1].

وأمر بلزوم هذه البيعة في قوله صلى الله عليه وسلم: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)[2].

وقد قال أحمد بن حنبل رحمه الله: «ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين، لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إمامًا عليه، برًّا كان أو فاجرًا، فهو أمير المؤمنين»[3].

أما بيعات الناس وعهودهم على الطاعات فلا تجب إلا على من دخل فيها برضاه، فتجب عليه بالعهد الذي ألزم به نفسه، كأن يتعاهد اثنان على حفظ القرآن أو بعضه، فحفظ القرآن ليس بواجب على كل مسلم من حيث الأصل، أما إذا عاهد غيره عليه فقد وجب عليه الحفظ بالعهد لا بالأصل.

ثانيًا: المبايَع:

المبايَع هو الركن الثاني من أركان البيعة، وهو الرسول أو الإمام، أو المربي، أو أمير القوم في السفر والمهمات القصيرة، فالإمام يبايع على الحكم بالكتاب والسنة، والخضوع التام للشريعة الإسلامية عقيدة وشريعة، ونظام حياة، والأمة تبايع على الخضوع والسمع والطاعة للإمام في حدود الشريعة.

فعملية البيعة أو المبايعة هي في جوهرها وأصلها عقدٌ وميثاق بين طرفين: الأمير، أو الإمام المرشح لرئاسة الدولة، والجمهور، أما هو فيبايع على الحكم بالكتاب والسنة والنصح للمسلمين، وأما الجمهور المبايع فعلى الطاعة في حدود طاعة الله ورسوله[4].

وهذا يعني أن الحاكم والأمة كليهما مقيد بما جاء به الإسلام من الأحكام الشرعية، لا يحق لأحدهما سواء كان الحاكم أو الأمة ممثلة بأهل الحل والعقد الخروج على أحكام الشريعة، أو تشريع الأحكام التي تصادم الكتاب والسنة، أو القواعد العامة في الشريعة، ويعد فعل مثل ذلك خروجًا على الإسلام، بل إعلان الحرب على النظام العام للدولة الإسلامية، بل أبعد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ٣/ ١٤٧٨، رقم ١٨٥١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ٩/ ٥١، رقم ٧٠٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ٣/ ١٤٧٥، رقم ١٨٤٧.

(٣) الأحكام السلطانية، أبو يعلى الفراء، ص ٢٠-٢٣.

(٤) انظر: نظام الإسلام الحكم والدولة، محمد المبارك، ص٣٠ بتصرف.

من هذا نجد أن القرآن الكريم نفى عنهم صفة الإيمان، حيث قال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

ونلحظ أن عقد البيعة يتضمن -دائمًا- الشروط التي قبل المسلمون بمقتضاها تولية الحاكم، فقد كان الخليفة أو الإمام يعلن عن هذه الشروط، وإن اعتبرت معلنة ضمنًا بعد عصر الخلافة الراشدة، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول بعد أن بايعه المسلمون بالخلافة: «أما بعد: أيها الناس، فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[(١)].

ومن هذا الخطاب نستنتج أن البيعة لا تعطي الحاكم سلطة مطلقة كما يعتقد بعضهم، وإنما سلطات مقيدة، فالخليفة -أولًا: ملتزم بتنفيذ أحكام الشريعة «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله»، والمسلمون لهم حق المراقبة لأعمال الحاكم «فإن أسأت فقوموني»، بل لهم أن يعزلوه إن أساء وخالف أحكام الإسلام، وهناك إعلان آخر هام بالمساواة بين عناصر الأمة، وتطبيق العدل بين كل الناس، بصرف النظر عن قوة المحكوم أو ضعفه «والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه».

١. شروط المبايَع.

كما أنه يشترط لأهل الحل والعقد شروط يجب توافرها فيهم؛ كالأمانة والعدل وحسن الرأي، فكذلك للخليفة المبايَع شروط يجب توافرها فيه، وبعض هذه الشروط مختلف فيها، وبعضها الآخر متفق عليه، فشرط الإسلام لم يختلف عليه أحد من أهل العلم؛ لأن مقتضى البيعة تطبيق شرع الله تعالى، وإقامة الحدود، وحراسة الثغور، فكيف سيطبق كافرٌ شرع الله تعالى، ويقوم بهذه الأعمال؟! بل إن كان مسلمًا وطرأ عليه الكفر فإنه يعزل لكفره.

قال ابن حزم رحمه الله في بيان شروط الإمامة: «وأن يكون مسلمًا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

والخلافة أعظم السبيل؛ ولأمره تعالى بإصغار أهل الكتاب، وأخذهم بأداء الجزية»[(٢)].

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٢٣٨، السيرة النبوية، ابن هشام ٦/ ٨٢.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ٤/ ١٢٨.

وقال النووي رحمه الله: «قال القاضي: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل»[1].

وفي بيعة الإمامة يجب أن يكون المبايع له مستوفيًا لشرائط الإمامة من قرشيةٍ وغيرها، وقد تستثنى بعض الشروط لمن غلب بالقهر، أما في بيعات الناس وعهودهم على الطاعات فلا تلزم هذه الشروط؛ لأنها بيعات خاصة، فقد يبايع الناس من ليس بقرشي ولا مجتهد ولا حر، وهذا مستفاد مما جاء من الأدلة.

ولكي تكون البيعة واقعة على الوجه الصحيح لا بد من توافر بعض الشروط، وهي:

١. أن تجتمع في المأخوذ له البيعة الشروط المطلوبة في الإمام، وعلى هذا فلا تنعقد الإمامة لواحد فقد شرطًا من الشروط إلا في حال الضرورة، غير شرط الإسلام فإنه لا يسقط.

٢. أن يكون الذين عقدوا البيعة للإمام هم أهل الحل والعقد، فإذا عقدها له غيرهم فلا تنعقد، يقول شمس الدين الرملي: «أما بيعة غير أهل الحل والعقد من العوام فلا عبرة بها»[2].

٣. أن يقبل الشخص الذي عقدوا له الإمامة هذا المنصب، يقول الإمام النووي: «ويشترط لانعقاد الإمامة أن يجيب المبايع، فإن امتنع لم تنعقد إمامته، ولم يجبر عليها، إلا أن لا يكون من يصلح إلا واحد، فيجبر بلا خلاف»[3].

٤. الإشهاد على البيعة، وهو شرط اختلف فيه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن البيعة لا تحتاج إلى إشهاد؛ لأنه لم يقم دليل من السمع على وجوب الإشهاد؛ ولا يوجب العقل ذلك، وممن قال بهذا الرأي إمام الحرمين الجويني، حيث قال: «ثم ربما كان الأمر ينجر إلى إنكار وجحود، ونزاع في مقصود، ومس الحاجة إلى شهود، وقد ندبنا إلى الإشهاد على البيوع...، والمسألة مظنونة مجتهد فيها»[4].

الثاني: وجوب الإشهاد عليها؛ وذلك لأنه لو لم يجب الإشهاد لم نأمن أن يدعي أناس انعقاد الإمامة لهم سرًّا، فيؤدي إلى الهرج والفتنة، وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني[5].

الثالث: ينظر إلى عدد العاقدين، فإن كانوا جمعًا لم يشترط الإشهاد، وإن كان العاقد واحدًا اشترط ذلك، وممن ذهب إلى ذلك الإمام النووي رحمه

(١) شرح صحيح مسلم، ١٢/ ٢٢٩.
(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، ٧/ ٤١٠.
(٣) روضة الطالبين ٣/ ٤٣٤.
(٤) غياث الأمم ص٧٤.
(٥) المصدر السابق ص٧٣.

الله حيث قال: «قلت: الأصح: لا يشترط إن كان العاقدون جمعًا، وإن كان واحدًا، اشترط الإشهاد»[1].

٥. ألا يقارن هذا العقد عقد لآخر؛ فلا يجوز أن تعقد الإمامة لأكثر من واحد، وقد أجمع العلماء أنه لا يصح أن تعقد البيعة لأكثر من إمام، سواء أكان ذلك التعدد حاصلًا بطريق الصدفة والاتفاق؛ أم غير ذلك، قال إمام الحرمين: «إن عقد الإمامة لشخصين في صقع واحد؛ متضايق الخطط والمخالف غير جائز، وقد حصل الإجماع عليه»[2].

وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)[3].

والمقصود أنه يشترط في المختار عشرة أوصاف: أن يكون ذكرًا، حرًّا، بالغًا، عاقلًا، مسلمًا، عدلًا، شجاعًا، عالمًا، كافيًا لما يتولاه من سياسة الأمة ومصالحها، فإذا اختاروه على هذه المواصفات فقد تمت البيعة له من قبل الأمة، ولزمهم طاعته، وتنفيذ ما أمر به، وترك ما نهى عنه، إلا إذا أمر بمعصية الله فلا يطاع؛ لقوله: (لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف)[4].

٢. دوام البيعة له.

بيعة الإمام دائمة لا تنقطع إلا إذا مات الإمام، أو طرأ عليه سبب يوجب العزل من نقص في الدين، أو نقص مؤثر في البدن[5].

ثالثًا: المبايع:

الركن الثالث للبيعة هو المبايع، وهو الطرف الذي أعطي البيعة لمن يستحقها، وهم صنفان:

- أهل الحل والعقد خاصة.
- الأمة الإسلامية عامة.

ولهذا فالبيعة نوعان:

بيعة خاصة: يقوم بها أهل الحل والعقد، الذين يختارون فيما بينهم واحدًا يكون أصلح الموجودين لتولي الإمارة، بحيث يتم الاختيار بحرية تامة دون إكراه.

بيعة عامة: وتأتي بعد البيعة الخاصة، وتكون عامة لكل الناس يأخذها الخليفة، أو الأمير بنفسه، أو من ينيبه عنه، وهي عبارة

(١) روضة الطالبين ١٠/ ٤٣.
(٢) الإرشاد، الجويني ص٤٢٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب إذا بويع لخليفتين، ٣/ ١٤٨٠، رقم ١٨٥٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة، ٩/ ٨٨، رقم ٧٢٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٦٩، رقم ١٨٤٠.
(٥) انظر مسببات العزل في: الأحكام السلطانية، الماوردي، ص ١٧-٢٠.

عن إعلان الولاء والطاعة والاعتراف بالأمر الواقع، وعدم الخروج على الجماعة[1].

فإذا بايع الإمام أهل الحل والعقد، وهم العلماء والفضلاء ووجوه الناس ثبتت ولايته، ولا يجب على عامة الناس أن يبايعوه بأنفسهم؛ وإنما الواجب عليهم أن يلتزموا طاعته في غير معصية الله تعالى؛ لأن المقصود بذلك المجموع لا الجميع؛ لأنه لو كلف الناس كلهم أن يبايعوا ويباشروا البيعة لشق ذلك على السلطان نفسه، وللحق الناس من ذلك المشقة العظيمة، بل يكفي أن يبايع أهل الحل والعقد، ويكون الناس تبعًا لهم، قال المازري: «يكفي في بيعة الإمام أن يقع من أهل الحل والعقد ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحد أن يحضر عنده ويضع يده في يده، بل يكفي التزام طاعته والانقياد له بأن لا يخالفه ولا يشق العصا عليه»[2].

وقال النووي رحمه الله: «أما البيعة فقد اتفق العلماء على أنه لا يشترط لصحتها مبايعة كل الناس، ولا كل أهل الحل والعقد، وإنما يشترط مبايعة من تيسر إجماعهم من العلماء والرؤساء ووجوه الناس...، ولا يجب على كل واحد أن يأتي إلى الإمام فيضع يده في يده ويبايعه، وإنما يلزمه الانقياد له، وألا يظهر خلافًا، ولا يشق العصا»[3].

١ . عدد من تنعقد بمبايعتهم الإمامة.

ليس من شرط البيعة إجماع الناس عليها، ومبايعتهم جميعهم، كما هو مقرر عند العلماء في السياسة الشرعية، قال ابن جماعة: «ولا يشترط في أهل البيعة عدد مخصوص، بل من تيسر حضوره عند عقدها، ولا تتوقف صحتها على مبايعة أهل الأمصار، بل متى بلغتهم لزمهم الموافقة إذا كان المعقود له أهلًا لها»[4].

وقال المازري: «يكفي في بيعة الإمام أن يقع من أهل الحل والعقد، ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحد أن يحضر عنده ويضع يده في يده، بل يكفي التزام طاعته والانقياد له بأن لا يخالفه، ولا يشق العصا عليه»[5].

وقال النووي رحمه الله: «أما البيعة فقد اتفق العلماء على أنه لا يشترط لصحتها مبايعة كل الناس، ولا كل أهل الحل والعقد، وإنما يشترط مبايعة من تيسر إجماعهم من العلماء والرؤساء ووجوه الناس، وأما عدم القدح فيه؛ فلأنه لا يجب على كل واحد أن يأتي إلى الإمام فيضع يده في يده ويبايعه، وإنما يلزمه إذا عقد أهل الحل والعقد للإمام

(١) انظر: البيعة في النظام السياسي الإسلامي، أحمد صديق عبد الرحمن، ص٣٤- ٣٥.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٤٩٤.
(٣) شرح صحيح مسلم، ١٢/ ٧٧.
(٤) تحرير الأحكام، ابن جماعة ص٥٣.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٤٩٤.

الانقياد له، وأن لا يظهر خلافًا، ولا يشق العصا»[1].

وقال أبو يعلى: «أما انعقاد الإمامة باختيار أهل الحل والعقد فلا تنعقد إلا بجمهور أهل الحل والعقد، قال أحمد في رواية إسحاق بن إبراهيم: الإمام الذي يجتمع قول أهل الحل والعقد عليه كلهم يقول: هذا إمام، قال أبو يعلى: وظاهر هذا أنها تنعقد بجماعتهم»[2].

وقيل: تنعقد بأقل من ذلك، وممن قال بعدم انعقادها إلا بجمهور أهل الحل والعقد المالكية والحنابلة، وقال المعتزلة بانعقادها بخمسة، وقال الشافعية بانعقادها بالأربعة والثلاثة والاثنين. وقال الحنفية بانعقادها بواحد[3].

والصواب ما قدمناه من أنه لا يشترط في البيعة إجماع الناس عليها، ولا عدد مخصوص.

والناظر في أدلة معظم هذه الأقوال التي فيها اشتراط عدد معين لا يجد فيها حجة ناهضة، أو دليلًا شرعيًّا معتبرًا، وعلى ذلك فالحكم الشرعي هو أن يقوم بانتخاب الخليفة جمعٌ يتحقق في تنصيبهم له رضا المسلمين بأي أمارة من أمارات التحقق، سواء أكان ذلك بكون المبايعين أكثر أهل الحل والعقد، أم بكونهم أكثر الممثلين للأمة، أو كان بسكوت المسلمين عن بيعتهم له، أو مسارعتهم بالطاعة بناء على هذه البيعة، أو بأي وسيلة من الوسائل، ما دام قد توفّر لهم التمكين التام من إبداء رأيهم، ولا يشترط كونهم أربعين، أو أكثر أو أقل، أو كونهم أهل العاصمة، أو الأقاليم والأمصار؛ لأن كل ذلك يرتبط بالحال والواقع الذي يشير إلى يسر وسائل الاتصال أو صعوبتها، فمع ثورة الاتصالات وإمكان التعرف على الآراء في وقت قصير يمكن بوساطة ما الاستدلال على الرضا والاختيار، فإن ذلك يعد من قبيل الوسائل التي يتم بها الواجب، وعلى هذا فإن الخلافة تنعقد إذا جرت البيعة من أكثر الممثلين لأكثر الأمة الإسلامية ممن يدخلون تحت طاعة الخليفة الذي يراد انتخاب خليفة مكانه، كما جرت الحال في عهد الخلفاء الراشدين، وتكون بيعتهم حينئذٍ بيعة عقد للخلافة، أما من عداهم فإن بيعتهم تصير بيعة طاعة.

٢. العبرة في البيعة بأهل الحل والعقد.

أهل الحل والعقد من المسلمين هم الذين يتولون اختيار إمام المسلمين وخليفتهم ولا عبرة بقول العوام في بيعة الانعقاد، قال القرطبي: «إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحلّ والعقد، أو بواحد على ما

(١) شرح صحيح مسلم ١٢/ ٧٧.
(٢) الأحكام السلطانية، أبو يعلى الفراء ص٢٣.
(٣) انظر: الأحكام السلطانية، الماوردي ص٦ - ٧.

تقدّم، وجب على الناس كافة مبايعته على السمع والطاعة، وإقامة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن تأبّى عن البيعة لعذر عذر، ومن تأبى لغير عذر جبر وقهر؛ لئلا تفترق كلمة المسلمين»[1]. وقد سبق قول الرملي: «أما بيعة غير أهل الحل والعقد من العوام فلا عبرة بها»[2].

والمقصود أن البيعة في إطارها العام تتكون من ثلاثة عناصر رئيسة، أولها: الطرف الذي أخذت البيعة له، وهو الشخص الذي يتولى منصب الإمامة. وثانيها: الطرف الذي أعطى البيعة لمن يستحق الإمامة، وهم أهل الحل والعقد خاصة، وجماهير الأمة الإسلامية عامة. وثالثها: موضوع البيعة، وهو إقامة نظام الخلافة الإسلامية، وفقًا لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٧٢.
(٢) نهاية المحتاج ٧/ ٤١٠.

آثار البيعة

أولًا: وحدة الكلمة وجمع الشمل:

من آثار البيعة وحدة الكلمة، وجمع الشمل، ومن المعلوم أن الاجتماع في شريعة الإسلام له أهمية كبرى، بل هو من مقاصد الشريعة؛ فالإسلام دين الاجتماع، ينهى عن الفرقة، ويأمر باجتماع الكلمة تحت لواء واحد، وسلطان واحد، وإمام واحد، ولهذا شرعت الجمع والجماعات من أجل الاجتماع، ومنع من إقامة جماعتين في آن واحد؛ لئلا تتفرق الكلمة.

ومن أجل هذا المقصد العظيم شرع الاجتماع على ولي أمر واحد، ومبايعته، وعدم منازعته، أو الخروج عليه.

ونجد أن الشارع الحكيم قد رتب القتل، وأمر به نتيجة الخروج على الإمام، مما يدل على حرمة هذا الفعل؛ لأنه به يحصل النزاع والشقاق، قال صلى الله عليه وسلم: **(من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه)**[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: **(ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه**

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، ٣/ ١٤٨٠، رقم ١٨٥٢.

ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر)[1].

وهذا يدل على أهمية اجتماع الناس على البيعة؛ لما لها من أهمية في استقرار المجتمع، وجمع الشمل، ووحدة الصف.

وقد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تدعو المسلمين، وتأمرهم بالاجتماع والتآلف، وتنهى عن التفرق والاختلاف المؤديين إلى التنازع والفشل، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال: ٤٦].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى، ووجه الدلالة من هذه الآيات أنها جميعًا جاءت متفقة على الأمر بالوحدة والتضامن، والنهي عن التشتت والافتراق والاختلاف؛ لما ينجم عن ذلك عادة من التنازع والفشل الممقوت، وكلها تدل على وجوب وحدة الأمة الإسلامية وتضامنها، وذلك لا يتأتى إلا إذا كان إمامها واحدًا لا ينازعه أحد؛ إذ إن وجود إمامين فأكثر يؤدي إلى غيرة أحدهما من الآخر، ومنافسته له، ومحاولة التعالي عليه، ومن ثم إلى الشقاق والتناحر لا محالة، وهذا مما نهى الإسلام عنه، فدل على وجوب أن يكون إمام المسلمين واحدًا؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ونتعلم من مبايعة الأمة للصديق رضي الله عنه بأن الحاكم في الدولة الإسلامية إذا وصل إلى الحكم عن طريق أهل الحل والعقد، وبايعته الأمة بعد أن توفرت فيه الشروط المعتبرة، فإنه يجب على المسلمين جميعًا مبايعته، والاجتماع عليه، ونصرته على من يخرج عليه؛ حفاظًا على وحدة الأمة، وتماسك بنيانها أمام الأعداء في داخل الدولة الإسلامية وخارجها[2].

ومن أجل هذا أوجب النبي صلى الله عليه وسلم البيعة بقوله: (ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)[3]. فهذا الحديث فيه حث على وجوب إعطاء البيعة، والتوعد على تركها، فمن مات ولم يبايع

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، ٣/ ١٤٧٢، رقم ١٨٤٤.

(٢) انظر: نظام الحكم في الإسلام، عارف أبو عيد ص٢٤٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ٣/ ١٤٧٨، رقم ١٨٥١.

مات على الضلال؛ ومن هنا ندرك أهمية إعطاء البيعة، والوفاء بها، وليس هذا في الإمامة العظمى فقط، بل حتى فيما دون ذلك. وقد علّق شيخ الإسلام ابن تيمية على الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم)[1] قائلاً: «فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر؛ تنبيهًا بذلك على سائر أنواع الاجتماع؛ ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة...، فالواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقربة إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات»[2].

ولأن البيعة الغرض منها اجتماع الناس على إمام واحد وجمع الكلمة، فقد ورد أن ابن عمر رضي الله عنه ما- كان من عادته عدم البيعة في حال الاختلاف، وكان يبايع عند اجتماع الكلمة.

فقد أخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «ما كنت لأعطي بيعتي في فرقة، ولا أمنعها من جماعة»[3].

وقد روى البخاري عن عبد الله بن دينار قال: شهدت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حيث اجتمع الناس على عبدالملك، قال: «إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله ما استطعت، وإن بنيّ قد أقرّوا بذلك»[4].

قال ابن حجر: «قوله: (حيث اجتمع الناس على عبد الملك) يريد ابن مروان بن الحكم، والمراد بالاجتماع: اجتماع الكلمة، وكانت قبل ذلك مفرقة، وكان في الأرض قبل ذلك اثنان كل منهما يدعى له بالخلافة، وهما: عبد الملك بن مروان، وعبد الله بن الزبير»[5].

وقال: «وكان ابن عمر في تلك المدة امتنع أن يبايع لابن الزبير أو لعبد الملك، فلما غلب عبد الملك، واستقام له الأمر بايعه»[6].

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسمع والطاعة، فقال: (اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه

(١) أخرجه أحمد في المسند، ١١/ ٢٢٧، رقم ٦٦٤٧.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٣٩١.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ١٩٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ٩/ ٧٨، رقم ٧٢٠٥.
(٥) فتح الباري ١٣/ ١٩٤.
(٦) المصدر السابق ١٣/ ١٩٥.

زبيبة)[1].

قال المناوي: «وهذا حث على السمع والطاعة للإمام ولو جائرًا؛ وذلك لما يترتب عليه من اجتماع الكلمة، وعز الإسلام، وقمع العدو، وإقامة الحدود، وغير ذلك، وفيه التسوية في وجوب الطاعة بين ما يشق على النفس وغيره، وقد بين ذلك في رواية بقوله: (فيما أحب وكره)[2]، ووجوب الاستماع لكل من تجب طاعته، كالزوج والسيد والوالد، واستدل به على أن الإمام إذا أمر بعض رعيته بالقيام ببعض الحرف والصنائع من زراعة وتجارة وعمل أنه يتعين على من عينه لذلك، وينتقل من فرض الكفاية إلى فرض العين عليه بتعيين الإمام»[3].

وجاء عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على العسر واليسر، في المنشط والمكره، على أن نقول، أو نقوم بالحق لا نخاف في الله لومة لائم)[4].

وهذه الطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره لولي الأمر لا تنافي النصح، فالدين النصيحة حتى لأئمة المسلمين، فلا يعني أن الإنسان إذا أسدى النصيحة لولي الأمر أنه يكون قد نقض بيعته، وانتقص حقه.

قال ابن جماعة: «وعلى طائفة الأمير امتثال أمره، والتزام طاعته، والرجوع إلى تدبيره ورأيه لتكون الكلمة مجتمعة والآراء متفقة، فإن الخير في اجتماع الكلمة، فإن ظهر لبعضهم صواب خفي على أميره، بينه له بأدب، وإن نابهم أمر رفعوه إليه»[5].

وكما أن للناس حقوقًا على ولي الأمر فكذلك له عليهم حقوق أعظمها وأهمها محبته، وطاعته في غير معصية الله، والدعاء له بالصلاح والهداية والتوفيق والإعانة، ونحو ذلك مما فيه منفعة له؛ ولعموم رعيته وللمسلمين عامة، وعلى هذا المنهج كان سلفنا الصالح من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، حتى وإن نالهم شيء منهم، كما حصل للإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما، وقد كان الإمام أحمد يقول: «لو كان لنا دعوة مستجابة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إمامة العبد والمولى، ١/ ١٤٠، رقم ٦٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ٩/ ٦٣، رقم ٧١٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم ١٨٣٩.

(٣) فيض القدير ١/ ٥١٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ٩/ ٧٧، رقم ٧١٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٧٠، رقم ١٧٠٩.

(٥) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ص٨٦.

لدعونا بها لإمام عادل؛ لأن في صلاحه صلاحًا للمسلمين»[1].

وقال: «إني لأدعو له بالتوفيق والتسديد»[2]، وذلك اتباعًا لما يعلمونه من شرع الله عز وجل، وإيمانًا منهم بما يحصل من طاعته وصلاحه من اجتماع الكلمة، ووحدة الصف، واستتباب الأمن، وأداء الحقوق، وقيام مصالح الناس وحياتهم على الوجه السوي، وما يحصل بضدّ ذلك من الأضرار والمفاسد التي لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل، ولا يعرف ذلك إلا من جربه.

ثانيًا: تأييد الله سبحانه وتعالى ومباركته:

ومن آثار البيعة تأييد الله سبحانه وتعالى للمتبايعين، ومباركته لهم، وفيض نعمه عليهم بسبب مبايعتهم، ووفائهم مع ربهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

قال السعدي: «هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي (بيعة الرضوان)، التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها»[3]. وهؤلاء الموفون بالبيعة، وما عاهدوا الله ورسوله عليه كانت عاقبة صدقهم تأييد الله لهم، وكبت أعدائهم، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

والحصر المفاد من (إنما) حصر الفعل في مفعوله، أي: لا يبايعون إلا الله، وهو قصر ادعائي بادعاء أن غاية البيعة وغرضها هو النصر لدين الله ورسوله، فنزل الغرض منزلة الوسيلة، فادعى أنهم بايعوا الله لا الرسول[4].

فلما كانوا صادقين مع الله في تلك المبايعة أيدهم ونصرهم، وآتاهم أجرًا عظيمًا، وجعل يده فوق أيديهم، قال ابن كثير: «أي: هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ

(١) انظر: الفروع، ابن مفلح، ٢/ ١٢٠، الإنصاف، المرداوي، ٢/ ٣٩٨.
(٢) انظر: الفروع، ابن مفلح، ٢/ ١٢٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٩٢.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٥٧.

﴿ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١][1].

فهؤلاء في حقيقة الأمر أنما ﴿يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ويعقدون العقد معه، وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، فقوة الله تعالى وقدرته ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم، كما يقال: اليد في هذه المسألة لفلان، أي: الغلبة والنصرة له، أو المعنى: يد الله تعالى بالوفاء بما وعدهم من الخير والنصرة فوق أيديهم».

والمراد بهذه الجملة زيادة التأكيد على وجوب الوفاء والثبات، وتقرير أن عقد الميثاق من الرسول صلى الله عليه وسلم كعقده مع الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصلة له[2].

قال سيد قطب: «أما الحديث عن الوفاء بالبيعة، والنكث فيها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فالإيحاء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين، وتعظيم شأن البيعة، والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين؛ وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات، فهي إشارة عابرة، تدل على ضعف موقف هذه الطائفة»[3].

والمقصود أن جملة ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فيها ترغيب في الوفاء، وفيها دلالة أن الله حاضر معهم بتأييده ونصره إن هم صدقوا في البيعة، وعزموا الوفاء، وأخلصوا النية، وقد حصل هذا منهم رضوان الله عليهم.

ومذهب السلف في هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات أنه يجب الإيمان بها، وتفويض كيفيتها إلى الله تعالى، وترك تأويلها، وإن كان ابن كثير -كما سبق- قد قال: إن المعنى هو أنه سبحانه وتعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله.

ثم بيّن سبحانه سوء عاقبة الناكثين، فقال: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه، فمن نكث البيعة، ولم يف بما بايع عليه فإنما نكثه راجع عليه؛ لأنه يحرم نفسه الأجر الجزيل، والعطاء العظيم في الآخرة، والتأييد والنصر في الدنيا.

قال ابن كثير: «وقد قال محمد بن كعب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٠٦.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٢.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣١٥.

القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به، من مكر، أو بغى، أو نكث، وتصديقها في كتاب الله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]. ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]»[(١)].

فالإنسان الذي يخدع تحيق به خديعته، والإنسان الذي ينكث في عهده ويغدر يتسبب في إصابة نفسه وهلاكها، كذلك الإنسان الذي يبغي ويظلم عقوبته على نفسه في النهاية؛ ولذلك قيل: لا تمكر ولا تعن ماكرًا، ولا تخدع أحدًا؛ لأن خداعك سيعود عليك، ولا تبغ ولا تعن باغيًا، ولا تظلم ولا تعن ظالمًا، فهذه الأعمال بعواقبها، فمن مكر بغيره مكر به، ومن بغى على غيره فالبغي في الحقيقة عليه، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

ثم بيّن سبحانه جزاء الموفين، فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أي: أتى به كاملًا موفرًا ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

والمقصود أن النصر والتأييد حليف الموفين ببيعتهم وعهودهم مع الله ورسوله، والخذلان رفيق الناكثين الباغين.

يقول سيد رحمه الله: «وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة، وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة، إنّ وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله قائم في كل لحظة، ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة -ولو قل عددها- قائم كذلك في كل لحظة، وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف، وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة، وتثق في ذلك الوعد، وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة، وتصبر حتى يأذن الله، ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة»[(٢)].

ثالثًا: رضوان الله تعالى والأجر العظيم في الآخرة:

لما كانت البيعة هي التعاهد والتعاقد على الالتزام بالإسلام، أو بعض شرائعه، كالمبايعة على الجهاد، وبذل النفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ونشر دينه، ونصرة نبيه، فالموفي بهذه البيعة ينال رضوان الله تعالى، والأجر العظيم في الآخرة، وقد قال الله تعالى في شأن أصحاب بيعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٥٥٩.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٢.

﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

فالله تعالى هنا يخبر عن رضاه عن المؤمنين؛ إذ يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم تلك المبايعة التي بيّضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب هذه البيعة -التي يقال لها: بيعة الرضوان، لرضا الله عن المؤمنين فيها- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجئ لقتال أحد، وإنما جاء زائرًا هذا البيت، معظمًا له، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان لمكة في ذلك، فجاء خبر غير صادق، أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم من معه من المؤمنين، وكانوا نحوًا من ألف وخمسمائة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين، وأن لا يفروا حتى يموتوا[(١)]. فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال، التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات[(٢)].

فيا له من فوز! ويا له من رضوان!؛ لأن مصدره من الله العظيم لعبيده الضعفاء، فقد أنال المبايعين رضوانه، وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وشهد لهم بإخلاص النية، وأنزل السكينة على قلوبهم، ووعدهم بفتح قريب، ومغانم كثيرة.

فالله سبحانه وتعالى يرضى ويرضي، يرضى عن عباده المحسنين، ويرضيهم بإحسانه، كما قال سبحانه عن النفس المؤمنة: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨].

ففي الجمع بين صفة الرضا للنفس والرضا من الله عنها، إشارة إلى أن هذا الرضا الذي تجده النفس هو رضا دائم متصل؛ لأنه مستمد من رضا الله عنها، وأنه ليس مجرد شعور يطرقها، أو خاطر يطوف بها، ثم يذهب هذا الشعور ويغيب هذا الخاطر مع موجات الخواطر والمشاعر التي تموج في كيان الإنسان، كلا إنه رضا لا ينقطع أبدًا[(٣)].

وفي هذه الجملة أسمى وأعلى ما يتمناه إنسان، وهو رضا الله تعالى عنه ودخوله في زمرة العباد الذين ظفروا بمغفرته سبحانه ورحمته[(٤)]. «فيا لله! كيف تلقوا -أولئك السعداء- تلك اللحظة القدسية، وذلك

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٣١٥، السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ٣١٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٣.
(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٦/ ١٥٦٣.
(٤) الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٢٧٧.

التبليغ الإلهي؟! التبليغ الذي يشير إلى كل أحد في ذات نفسه، ويقول له: أنت، أنت بذاتك، يبلغك الله: لقد رضي عنك، وأنت تبايع تحت الشجرة، وعلم ما في نفسك، فأنزل السكينة عليك. إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فيسعد، يقول في نفسه: ألست أطمع أن أكون داخلًا في هذا العموم؟! ويقرأ أو يسمع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فيطمئن، يقول في نفسه: ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟! وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون واحدًا واحدًا أن الله يقصده بعينه وبذاته، ويبلغه: لقد رضي عنه، وعلم ما في نفسه، ورضي عما في نفسه، يا لله! إنه أمر مهول ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم طائعين مسلمين صابرين، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هيئة وهدوء ووقار، تضفي على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة بردًا وسلامًا وطمأنينة وارتياحًا ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو هذا الصلح بظروفه التي جعلت منه فتحًا، وجعلته بدء فتوح كثيرة، قد يكون فتح خيبر واحدًا منها، وهو الفتح الذي يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذي جعله الله للمسلمين، ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر، وإما تاليًا له إن كان الفتح هو هذا الصلح الذي تفرغ به المسلمون لفتوح شتى»[1].

واللام في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هي الموطئة للقسم[2]. والرضا: ما يقابل السخط ﴿عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن جميع المؤمنين، وهم أهل الحديبية الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة، وقد علم الله ما في قلوبهم من الصدق والإيمان، وولاء وتسليم لله، مع ما كانوا يجدون في صدورهم من حرج في التوفيق بين ما جاءوا له، وهو دخول المسجد الحرام، وبين هذا الصلح، فرضى الله عنهم لمبايعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقهم في بيعتهم.

و﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ ظرف متعلق

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٦.
(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٢٧٥.

بـ﴿رَضِيَ﴾، وفي تعليق هذا الظرف بفعل الرضا ما يفهم أن الرضا مسبب عن مفاد ذلك الظرف الخاص بما أضيف هو إليه...، والمضارع في قوله: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ مستعمل في الزمان الماضي؛ لاستحضار حالة المبايعة الجليلة[1].

والتعريف في الشجرة للعهد، وهي: الشجرة التي عهدها أهل البيعة حين كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسًا في ظلها، وهي شجرة من شجر السّمر -بفتح السين المهملة وضم الميم- وهو شجر الطلح...، وذكر تحت الشجرة؛ لاستحضار تلك الصورة تنويهًا بالمكان، فإن لذكر مواضع الحوادث وأزمانها معاني تزيد السامع تصورًا؛ ولما في تلك الحوادث من ذكرى مثل مواقع الحروب والحوادث، كقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (ويوم الخميس وما يوم الخميس اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه)[2] الحديث[3].

وقد كان الناس بعد ذلك يترددون على تلك الشجرة ويصلون تحتها، ويدعون الله تعالى، فأمر عمر رضي الله عنه بقطعها خشية الافتتان بها. قال الحافظ ابن حجر: «روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قومًا يأتون الشجرة، فيصلّون عندها، فتوعّدهم، ثم أمر بقطعها، فقطعت»[4]. والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر، كما نراه الآن مشاهدًا فيما هو دونها، وإلى ذلك أشار ابن عمر رضي الله عنهما بقوله: (رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من الله)[5]. أي: كان خفاؤها عليهم بعد ذلك رحمة من الله تعالى.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾؛ شكرًا لهم على ما في قلوبهم، وزادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو: فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها، جزاءً لهم، وشكرًا على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٧٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، ٦/ ٩، رقم ٤٤٣١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٧٥.
(٤) فتح الباري، ٧/ ٤٤٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت، ٤/ ٥٠، رقم ٢٩٥٨.

ووصف الفتح بأنه قريب وذلك لقرب زمانه؛ إذ كان على أيام من صلح الحديبية، ثم لقرب تناوله؛ إذ لم يلق المسلمون من أهل خيبر بلاء كثيرًا، بل سرعان ما استسلم يهود خيبر ليد النبي صلى الله عليه وسلم، ونزلوا على حكمه[١].

وإضافةً إلى رضوانه عنهم وعدهم سبحانه وتعالى مغانم، فقال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، والمغانم الكثيرة المذكورة هنا هي: مغانم أرض خيبر، والأنعام والمتاع والحوائط، فوصفت بكثيرة لتعدد أنواعها، وهي أول المغانم التي كانت فيها الحوائط، وفائدة وصف المغانم بجملة: ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل، ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريبًا، وبشارة لهم بأنهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح[٢].

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة والقدرة التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يبتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر[٣].

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١٣/ ٤١٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٧٦.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٩٣.

وهو تعقيب مناسب للآيات قبله، ففي الرضا والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة، كما تتجلى الحكمة والتدبير، وبهما يتم تحقيق الوعد الإلهي الكريم[٤].

والمقصود أن في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ أسلوبًا تبشيريًّا وتنويهيًّا، كما هو ظاهر للذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة الحديبية تحت الشجرة...، والجملتان منطويتان كذلك على القصد التطميني والتبشيري الذي استهدفته آيات السورة.

وقد رويت بعض الأحاديث في فضل الذين بايعوا تحت الشجرة؛ منها:

- حديث عن جابر رضي الله عنه قال: (قال النبي صلى الله عليه وسلم حينما بايعه الناس تحت الشجرة: (أنتم خير أهل الأرض)[٥].
- وحديث أم مبشر، قالت: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة: (لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة التي بايعوا تحتها أحد)[٦].

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٦.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ٥/ ١٢٣، رقم ٤١٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم ١٨٥٦.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل

وكل هذه الفضائل لهم لما علم جل وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل، والوفاء التام، وقد نوه عن إخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الإيمان والإخلاص، وكان من نتائج ذلك ما ذكره الله جل وعلا في قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢١].

فصرح جل وعلا في هذه الآية بأنهم لم يقدروا عليها، وأن الله جل وعلا أحاط بها، فأقدرهم عليها؛ وذلك من نتائج قوة إيمانهم، وشدة إخلاصهم، فدلت الآية على أن الإخلاص لله وقوة الإيمان به هو السبب لقدرة الضعيف على القوي، وغلبته له ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فقوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ في معنى: لا قدرة لكم عليها، وهذا يعم سلب جميع أنواع القدرة؛ لأن النكرة في سياق النفي تدل على عموم السلب وشموله لجميع الأفراد الداخلة تحت العنوان، كما هو معروف في محله؛ وبهذا تعلم أن جميع أنواع القدرة عليها مسلوب عنهم، ولكن الله جل وعلا أحاط بها، فأقدرهم عليها؛ لما علم من الإيمان والإخلاص في قلوبهم...، وقد جاء ما يبين سبب رضوان الله تعالى عليهم، وهو بسبب أعمالهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ فكانت المبايعة سببًا للرضوان[1].

وفي هذه الآية رد على طعن الرافضة في الصحابة رضوان الله عليهم، ولا سيما أصحاب بيعة الرضوان، الذين أثنى الله تعالى عليهم في القرآن، وأقسم أنه رضي عنهم، وجعل ذلك مما يتعبد به المسلمون إلى آخر الزمان.

موضوعات ذات صلة:

السياسة، العهد، والميثاق، الوفاء

الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أصحاب الشجرة، ٤/ ١٩٤٢، رقم ٢٤٩٦.

(١) انظر: أضواء البيان ٣/ ٥٢ بتصرف.

البيوت

عناصر الموضوع

مفهوم البيوت	٦٢
البيوت في الاستعمال القرآني	٦٣
الألفاظ ذات الصلة	٦٤
البيوت نعمة	٦٨
أنواع البيوت	٧٧
الخروج من البيت ابتغاء مرضاة الله	٩٤
آداب دخول البيوت	١٠٣
البيوت والفتنة	١١٠
البيوت والعذاب	١١٥
النساء والبيوت	١١٨

مفهوم البيوت

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «(بيت) الباء والياء والتاء أصل واحد، وهو المأوى والمآب ومجمع الشمل، يقال: بيت وبيوت وأبيات[1]».

والبيت سمي بيتًا؛ لأنه يبات فيه ليلًا[2].

قال الراغب: «أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل؛ لأنه يقال: بات: إذا أقام بالليل، كما يقال: ظل بالنهار، ثم قد يقال للمسكن: بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه: أبيات وبيوت، لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه ابن العربي بقوله: « كل ما علاك فأظلك فهو سقف، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت»[4].

وقال القرطبي: «البيت سمي بذلك؛ لأنها ذات سقف وجدار، وهي حقيقة البيتية، وإن لم يكن بها ساكن»[5].

وعرفه إسماعيل حقي بقوله هي: «اسم مبنى مسقف مدخله من جانب واحد، بنى للبيتوتة سواء كان حيطانه أربعة أو ثلاثة»[6].

وعرفه ابن عاشور بقوله: «البيت: اسم جنس للمكان المتخذ مسكنًا لواحد، أو عدد من الناس في غرض من الأغراض، وهو مكان من الأرض يحيط به ما يميزه عن بقية بقعته من الأرض ليكون الساكن مستقلًا به لنفسه، ولمن يتبعه فيكون مستقرًا له، وكنًّا يكنّه من البرد، وساترًا يستتر فيه عن الناس، ومحطًّا لأثاثه وشؤونه»[7].

---

(١) مقاييس اللغة ١/ ٣٢٤.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢٣٨.
(٣) المفردات ص١٥١.
(٤) أحكام القرآن ٣/ ١٤٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٢٥.
(٦) روح البيان ٤/ ٤٨٣.
(٧) التحرير والتنوير ١/ ٧٠٨.

البيوت في الاستعمال القرآني

ورد (البيت) في القرآن الكريم (٦٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
مفرد	٢٦	﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥]
جمع	٣٧	﴿أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ [النور:٦١]

وجاءت البيوت في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: المكان المعد للمبيت، ويشمل المنزل والخيمة وغيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]. أي: منازل.

الثاني: المسجد: ومنه قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦]. أي: مساجد.

الثالث: الكعبة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥].

أي: جعلنا الكعبة.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٣٤٧-٣٤٨.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/١٩٦-١٩٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٠٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ المنزل:

المنزل لغة:

موضع النزول، وهو الحلول، تقول: نزلت نزولًا ومنزلًا؛ ويطلق المنزل على المنهل والدار[(١)]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون:٢٩].

المنزل اصطلاحًا هو:

اسم لما يشتمل على بيوت وصحن مسقف ومطبخ ليسكنه الرجل بعياله[(٢)]، وهو عند الفقهاء دون الدار وفوق البيت، وأقله بيتان أو ثلاثة[(٣)].

الصلة بين البيت والمنزل:

أن البيت أخص من المنزل، والمنزل أعم من البيت.

٢ الدار:

الدار لغة:

المحل الذي يجمع البناء والعرصة، وهو من دار يدور؛ لكثرة حركات الناس فيها[(٤)]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف:٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس:٢٥].

الدار اصطلاحًا:

هو اسم لما اشتمل على بيوت ومنازل وصحن غير مسقف[(٥)].

الصلة بين البيت والدار:

أن الدار أشمل من البيت والمنزل لاشتمالها عليهما[(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٥٦، المصباح المنير، الفيومي١/ ٢٠٦، تاج العروس، الزبيدي٣٠/ ٤٧٨.
(٢) انظر: أنيس الفقهاء، القونوي ص٧٨.
(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخورازمي ص٤٦١.
(٤) انظر: المحكم، ابن سيده ٩/ ٤١٨، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٩٨.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص٢٣٩.
(٦) انظر: دستور العلماء، القاضي نكري٢/ ٦٩.

٢ المسكن:

المسكن لغة:

مكان السكنى، والموضع الذي يسكن فيه[١]، كما يطلق المسكن: على المنزل والبيت[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ:١٥].

المسكن اصطلاحًا:

هو البيت سواء كان بناء، أم خيمة، أم غير ذلك[٣].

الصلة بين البيت والمسكن:

أن المسكن هو البيت الذي يسكن فيه الإنسان إلا أن المسكن فيه معنى الإقامة والاستيطان والاستقرار بالمكان[٤].

٤ المأوى:

المأوى لغة:

المكان[٥]، قال الجوهري: «المأوى كل مكان يأوي إليه شيء ليلاً أو نهارًا»[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥﴾ [النجم:١٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النازعات:٣٩].

المأوى اصطلاحًا:

هو كل مكان يأوي إليه شيء، ويكون ملجأ للشخص ومستراحًا يستريح إليه من الحر والبرد[٧].

الصلة بين البيت والمأوى:

أن البيت هو محل المأوى الذي يأوي إليه الإنسان ويجتمع شمله بمن أوى إليهم.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد٢/ ٨٥٦.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٢١٢، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٦٧.
(٣) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٤٣.
(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي ص٤٢٩.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٤/ ٥٢، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ١١٥.
(٦) انظر: الصحاح ٦/ ٢٢٧٤.
(٧) انظر: الكليات، الكفوي ص٨٠٣، روح المعاني، الألوسي ١١/ ١٣١.

٥ العمارة:

العمارة لغة:

نقيض الخراب: يقال: عمر أرضه: يعمرها عمارة، قال تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [التوبة:١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٨].

إما من العمارة التي هي حفظ البناء، أو من العمرة التي هي الزيارة، أو من قولهم: عمرت بمكان كذا، أي: أقمت به[١].

وعمر المنزل بأهله عمرًا، وعمره أهله: إذا سكنوه، وأقاموا به، وعمرت الدار عمرًا أيضًا: بنيتها، والاسم العمارة بالكسر، والعمران: اسم للبنيان[٢].

العمارة اصطلاحًا:

هي اسم للبيت المؤلف من طبقات وشقق[٣].

الصلة بين البيت والعمارة:

أن العمارة اسم للبيت الواسع المكون من طوابق وشقق إلا أن فيه معنى حفظ البناء والإقامة فيه.

٦ الخراب:

الخراب لغة:

ضد العمارة، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة:١١٤][٤].

قال ابن فارس: «(خرب) الخاء والراء والباء أصل يدل على التثلم والتثقب، فالخربة: الثقبة، ومن الباب، وهو الأصل، الخراب: ضد العمارة»[٥].

الخراب اصطلاحًا:

هو ذهاب العمارة[٦].

---

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٥٨٦.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٢٩.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي ص٣٢١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٢٧٧.
(٥) مقاييس اللغة٢/ ١٧٤.
(٦) انظر: التوقيف، المناوي ص١٥٤.

الصلة بين البيوت والخراب:

أن الخراب هو نقيض البيوت وعمارتها والسكن فيها.

٧ الخواء:

الخواء في اللغة:

قال ابن فارس: «(خوى) الخاء والواو والياء أصل واحد يدل على الخلو والسقوط»[(١)]، وخوت الدار: تهدمت وسقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾ [النمل:٥٢].

أي: خالية، كما قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصْرٖ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ [الحج:٤٥]؛ أي: خالية، وقيل: ساقطة على سقوفها، وأرض خاوية: خالية من أهلها[(٢)].

الخواء اصطلاحًا:

سقوط البيوت وتهدمها بعد خلوها من سكانها الذين كانوا يعمرونها[(٣)].

الصلة بين البيوت والخواء:

أن الخواء صفة للبيوت الخالية من سكانها بسبب ما حل بها من عذاب، كما يلاحظ ذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ: (خاوية)، قال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصْرٖ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ [الحج:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾ [النمل:٥٢].

---

(١) مقاييس اللغة٢/ ٢٢٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور١٤/ ٢٤٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٩٠، فتح القدير، الشوكاني١/ ٣٢٠.

البيوت نعمة

من نعم الله تعالى على عباده أن جعل البيوت مكانًا للعبادة، ومكانًا للأمن ومكانًا للستر، وللراحة والاستقرار، ومكانًا للأكل والإدخار، وبيان ذلك في الفقرات الآتية:

أولًا: مكان للعبادة:

إن البيوت التي جعلها الله للعبادة على ثلاثة أنواع:

١ . البيت الحرام.

وهو مكان للعبادة حيث يجب على المسلم استقبال البيت الحرام في كل صلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦].

قال أبو جعفر الطبري: «ومعنى ذلك: إن أول بيت وضع للناس لعبادة الله فيه»[(١)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: «كانت البيوت قبلة، ولكن كان أول بيت وضع لعبادة الله»[(٢)].

وقد أمر الله تعالى باستقبال البيت الحرام بقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:١٤٤].

والمعنى: «من أي مكان وبقعة شخصت فخرجت يا محمد، فول وجهك تلقاء المسجد الحرام، وهو شطره، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فولوا وجوهكم في صلاتكم تجاهه وقبله وقصده»[(٣)].

كما أنه مكان لعبادة الحج قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

أي: ويجب الحج على المستطيع من هذه الأمة، واستطاعة السبيل إلى الشيء إمكان الوصول إليه، وتختلف الاستطاعة باختلاف الأشخاص، واختلاف البعد عن البيت والقرب منه[(٤)].

والمعنى: ولله على من استطاع من الناس حج البيت، أي: فرض واجب لله تعالى على من استطاع من أهل التكليف السبيل إلى حج بيته الحرام[(٥)].

٢ . المساجد.

إن المساجد بيوت ومكان للعبادة، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ

(١) جامع البيان ٦/ ٢٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٧٠٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٩٩.
(٤) تفسير المراغي ٤/ ٩.
وانظر: جامع البيان، الطبري٦/ ٣٧، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٣.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٧، الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٧.

﴿فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦][1].

والبيوت المذكور في الآية هي: المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، أي: أذن الله أن تبنى، فيصلى فيها الصلاة المفروضة بالغدو والآصال بالبكر والعشايا[2].

٣. بيوت المؤمنين.

إن بيوت المؤمنين مكان للعبادة كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧] يقول: واجعلوا بيوتكم مساجد تصلون فيها[3]، وقيل: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: صلوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف؛ لأنهم آمنوا على خوف من فرعون[4]، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: في بيوتكم، وفي ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالنصرة في الدنيا، والجنة في العقبى[5].

كما أن الله تعالى أخبر عن حال عباده في بيوتهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:٦٤].

أي: والذين يبيتون ساجدين قائمين لربهم، أي: يحيون الليل كله أو بعضه بالصلاة، وخص العبادة بالبيتوتة؛ لأن العبادة بالليل أخص وأبعد عن الرياء، وقال ابن عباس رضي الله عنه: من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدًا قائمًا، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة:١٦].

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

وقوله عز وجل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٩][6].

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل الرجل من صلاته غير المفروضة في بيته شيئًا، فقد روى ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبورًا)[7].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٣٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩٢، الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٧١.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٠.
(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٥٦.
(٦) انظر: تفسير المراغي ١٩/ ٣٧.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كراهية الصلاة في المقابر، رقم٤٣٢، ١/ ٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم٧٧٧، ١/ ٥٣٨.

وروى زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ حجرة قال: حسبت أنه قال من حصير- في رمضان، فصلى فيها ليالي، فصلى بصلاته ناس من أصحابه، فلما علم بهم جعل يقعد، فخرج إليهم فقال: (قد عرفت الذي رأيت من صنيعكم، فصلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة)[1].

وفي هذه الأحاديث بيان بأن بيوت المؤمنين مكان للصلاة، وفيها أيضًا حث للصلاة في البيوت فيما عدا الفروض، فإنها تكون في المساجد من أجل الجماعة.

ثانيًا: مكان للأمن:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا يأمن فيه الإنسان على نفسه وأهله وماله، وجعل لهذه البيوت حرمة لا يجوز دخولها إلا بإذن من صاحبها فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور:٢٧].

وشرع الاستئذان لمن يزور أحدًا في بيته؛ لأن الناس اتخذوا البيوت للاستتار مما يؤذي الأبدان من حرٍّ وقرٍّ ومطرٍ، ومما يؤذي العرض والنفس من انكشاف ما لا يحب الساكن اطلاع الناس عليه، فإذا كان في بيته وجاءه أحد فهو لا يدخله حتى يصلح ما في بيته وليستر ما يحب أن يستره، ثم يأذن له أو يخرج له فيكلمه من خارج الباب[2].

وحكمة الاستئذان هي: توفير حرمة المسكن وحرية السكان، لذا قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أن الاستئذان خير وأفضل للطرفين، المستأذن وأهل البيت، فهو خير من الدخول فجأة، والمعنى: قد أنزل الله عليكم هذا الأدب، وأرشدكم إليه، لتتذكروا وتتعظوا، وتعملوا بالأصلح لكم، ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨﴾ [النور:٢٨] أي: فإن لم تجدوا في بيوت غيركم أحدًا يأذن لكم، فلا تدخلوها حتى يأذن لكم صاحب الدار، فلا يحل الدخول في هذه الحالة؛ لأنه تصرف في ملك الغير بغير إذنه؛ ولأن للبيوت حرمة، وهي محل السكن الخاص والطمأنينة الشخصية، والراحة والوداعة[3].

وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم حرمة من تطلع في بيوت الغير بغير إذن،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب صلاة الليل، رقم٧٣١، ١/ ١٤٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم ٧٨١، ١/ ٥٣٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٩٦.

(٣) انظر: الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٧٤٤.

وأهدر كل جناية تقع عليه؛ لما أخرجه الشيخان في صحيحيهما، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بعصاة ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح)[1]، وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (من اطلع في بيت قوم من غير إذنهم، حل لهم أن يفقؤوا عينه)[2].

وفي هذه الأحاديث دليل على أن البيوت مكان للأمن حيث يأمن فيها الإنسان على نفسه وحرمه وأهله، ولهذا فقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الجناح عن من تطلع في بيت غيره بغير إذن بأن يفقأ عين من يفعل ذلك، وأن ذلك هدر لا قصاص فيه، ولا دية.

والأمن في البيوت نعمة تستوجب الشكر؛ لما رواه سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي، عن أبيه، وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)، وحِيزَت: جُمِعَت[3].

وقد جعل الله تعالى بيته الحرام مكانًا للأمن العام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥].

فقد استجاب الله دعوة خليله إبراهيم عليه السلام فجعل مكة المكرمة بلدًا آمنًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦].

فجعل الله مكة المكرمة بلدًا آمنًا من الظلم والإغارات الواقعة على غيره، فكان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهيجه[4].

وقال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران:٩٧].

أي: وأمن من دخله، والعرب جميعًا قد اتفقوا على احترامه وتعظيمه، فمن دخله أمن على نفسه من الاعتداء والإيذاء، ومن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه، رقم ٦٩٠٢، ٩/ ١١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، رقم ٢١٥٨، ٣/ ١٦٩٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، رقم ٢٣٤٦، ٤/ ٥٧٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، رقم ٤١٤١، ٢/ ١٣٨٧.
والحديث حسنه الترمذي، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم٦٠٤٢، ٢/ ١٠٤٤.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٩.

أن يسفك دمه أو تستباح حرماته ما دام فيه، وقد مضوا على ذلك الأجيال الطوال في الجاهلية على كثرة ما بينهم من الأحقاد والضغائن، واختلاف المنازع والأهواء، وقد أقر الإسلام هذا، وكل ذلك بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦]»[1].

والمعنى: ومن دخله كان آمنًا يعني: حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه.

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش:٣-٤].

وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها[2].

ثالثًا: مكان للستر:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا لستر العورات والحرمات، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل:٨٠].

أي: جعل لكم موضعًا تسكنون فيه أيام مقامكم، وقيل: معناه: جعل لكم من بيوتكم ما تسكن إليه أنفسكم من ستر العورة والحرم، فتهدأ فيه جوارحكم[3].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ موضعًا تسكنون فيه، قال ابن عباس، ومجاهد: يعني: المساكن من الحجر والمدر يستر عوراتكم وحرمكم، وذلك أن الله خلق الخشب والمدر والآلة التي بها يمكن تسقيف البيوت وبناؤها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ يعني: الأنطاع والأدم، بيوتًا يعني: القباب والخيام، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ يخف عليكم حملها في أسفاركم، ومعنى الظعن: سير أهل البوادي لنجعة، أو حضور ماء، أو طلب مرتع، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قال مقاتل: لا تثقل عليكم في الحالتين[4].

(١) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٨.

(٣) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٠٥٨.

(٤) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٧٦.

رابعًا: الراحة والاستقرار:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا للراحة والاستقرار، وهذا ما يفيده معنى السكن الذي جعله الله تعالى في البيوت.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل: ٨٠].

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضًا من جلود الأنعام بيوتًا، أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ بما يحقق لهم الراحة والاستقرار فيها في كلا الحالين[1].

قال سيد قطب: «والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين

لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة، وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب، وظل السكن ليس غريبًا عن ظل الغيب، فكلاهما فيه خفاء وستر، والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة.

ونستطرد هنا إلى شيء عن نظرة الإسلام إلى البيت، بمناسبة هذا التعبير الموحي: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ فهكذا يريد الإسلام البيت مكانًا للسكينة النفسية والاطمئنان الشعوري، هكذا يريده مريحًا تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض، وبسكن من فيه كل إلى الآخر، فليس البيت مكانًا للنزاع والشقاق والخصام، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام.

ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه، فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان، ولا يقتحمه أحد- بغير حق- باسم السلطان، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب، ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منهم أو غيبة، فيروع أمنهم، ويخل بالسكن الذي يريده الإسلام للبيوت، ويعبر عنه ذلك التعبير الجميل العميق!

ولأن المشهد مشهد بيوت وأكنان وسرابيل، فإن السياق يعرض من الأنعام جانبها الذي يتناسق مع مفردات المشهد: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٠٧.

﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل:٨٠].

وهو هنا كذلك يستعرض من نعمة الأنعام ما يلبي الضرورات وما يلبي الأشواق، فيذكر المتاع، إلى جانب الأثاث، والمتاع ولو أنه يطلق على ما في الأرحال من فرش وأغطية وأدوات، إلا أنه يشي بالتمتع والارتياح»[1].

فهذه البيوت التي جعلها الله سكنًا للإنسان، يأوي إليها، ويجد فيها أنس النفس وروح الروح، بما يجتمع إليه فيها من زوج وولد.. أليس هذا من نعم الخالق ومن سابغات أفضاله؟ ثم هذه البيوت الخفيفة الحمل التي يتخذها الإنسان من جلود الأنعام، أو مما على جلودها من أصواف وأوبار وأشعار- أليست مما يسر الله للإنسان، ومكن له منها؟[2].

خامسًا: مكان للأكل والادخار:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا للأكل، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور:٦١].

فالآية الكريمة قد أجازت الأكل من هذه البيوت المذكورة -وهي أحد عشر بيتًا- وإن لم يكن فيها أصحابها، ما دام الأكل قد علم رضا صاحب البيت بذلك، وأنه لا يكره هذا ولا يتضرر منه، استنادًا إلى القواعد العامة في الشريعة، والتي منها: (لا ضرر ولا ضرار)[3]، وأنه (لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه)[4][5].

«قال سعيد بن المسيب: إن المسلمين كانوا إذا غزوا وخلفوا زمناهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا. وكانوا يتحرجون من ذلك، وقالوا: لا ندخلها وهم غيب.

فنزلت هذه الآية رخصة لهم، ومعنى الآية: نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيت أقاربهم، أو بيت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو، وقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ [النور:٦١].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٦.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٣٣٦.
(٣) انظر: الأشباه والنظائر، ابن نجيم ص٧٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٠٦٩٥، ٣٤/ ٢٩٩، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم ١٦٧٥٦، ٨/ ٣١٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٦٦٢، ٢/ ١٢٦٨.
(٥) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.

أي: ليس عليكم حرج أن تأكلوا من أموال عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الرجل، وقال ابن قتيبة: أراد أن تأكلوا من بيوت أولادكم، فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء، لأن الأولاد كسبهم وأموالهم كأموالهم»[1].

وذكر سبحانه بيوتهم هنا مع أنه من المعروف أنه لا حرج في أن يأكل الإنسان من بيته، للإشعار بأن أكلهم من بيوت الذين سيذكرهم سبحانه بعد ذلك من الآباء والأمهات والأقارب، يتساوى في نفي الحرج مع أكلهم من بيوتهم، أي: أن أكل الناس من بيوتهم لم يذكر هنا لنفي حرج كان متوهمًا، وإنما ذكر لإظهار التسوية بين أكلهم من بيوت أقاربهم وأصدقائهم، وبين أكلهم من بيوتهم[2].

ثم ذكر سبحانه بيوتًا أخرى لا حرج عليهم في الأكل منها، فقال: ﴿بُيُوتِ مَا مَلَكْتُم أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ [النور:٦١].

يعني: بيوت عبيدكم ومما يملكون، وذلك أن السيد يملك منزل عبده، والمفاتح معناها الخزائن، كقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام:٥٩][3].

ويجوز أن تكون التي يفتح بها، وهذا قول عطاء، عن ابن عباس.

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ [النور:٦١] ما خزنتموه لغيركم، قال ابن عباس: يعني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر حائطه، ويشرب من لبن ماشيته، قال عكرمة: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير، وقال السدي: الرجل يولى طعام غيره يقوم عليه، فلا بأس أن يأكل منه[4].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور:٦١] معطوف على ما قبله والصديق هو من يصدق في مودتك، وتصدق أنت في مودته، وهو اسم جنس يطلق على الواحد والجمع، والمراد هنا: الجمع، أي: ولا حرج عليكم أيضًا في الأكل من بيوت أصدقائكم[5]، والمعنى: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل أصدقائكم وأصحابكم إذا دخلتموها وإن لم يحضروا من غير أن تتزودوا وتحملوا[6] إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك.

(١) الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.
(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.
(٥) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.
(٦) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.

وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه[1].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور:٦١].

قال ابن كثير: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:٢٩] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك، أن يأكلوا جميعا أو أشتاتًا، وقال قتادة: كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعًا أو أشتاتًا، فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل»[2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٩.
(٢) المصدر السابق.
وانظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.

أما الادخار في البيوت:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا للادخار وحفظ ما يحتاجه الإنسان في المستقبل، وذلك لأن مسكن الإنسان أعز البيوت عنده وأخفى لما يريد أن يخفيه، ومكان أمنه واستقراره فلا غرابة أن يكون مكان مدخراته، وهذه المدخرات لا يعلم بها إلا صاحبها[3]، ولهذا جعلها الله تعالى من معجزات سيدنا عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩].

والمعنى: أن عيسى عليه السلام قد قال لقومه بنى إسرائيل: وإن من معجزاتي التي تدل على صدقي فيما أبلغه عن ربي أني أخبركم بالشيء الذي تأكلونه وبالشيء الذي تخبئونه في بيوتكم لوقت حاجتكم إليه[4].

والادخار هو: إعداد الشيء لوقت الحاجة إليه، ويقال: لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل، أما الحمار مثلًا مع قدرته على الحمل لا يحمل

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٤٠٦.
(٤) انظر: الوسيط، طنطاوي ٢/ ١١٥.

رزقه؛ لذلك تراه إن شبع لا يدخر شيئًا، وربما يدوس الأكل الباقي، أو يبول عليه، وكذلك كل الحيوانات[1].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٨/ ١١٢٥١.

أنواع البيوت

إن البيوت المذكورة في القرآن الكريم على أنواع، منها: بيوت الله تعالى، وبيوت الأنبياء عليهم السلام، وبيوت المؤمنين، وبيوت الظالمين، وبيوت المخلوقات من غير بني آدم، وسيكون بيانها في المطالب الآتية:

أولًا: بيوت الله تعالى:

إن بيوت الله تعالى المذكورة في القرآن هي: البيت المعمور، والبيت الحرام، والمسجد الأقصى، وعامة المساجد، ويمكن بيانها بإجاز في الفقرات الآتية:

١. البيت المعمور.

من بيوت الله تعالى المذكورة في القرآن الكريم: البيت المعمور، وقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطور:٤].

وفي البيت المعمور فيه قولان:

القول الأول: أنه بيت في السماء، وفي أي سماء هو؟ فيه ثلاثة أقوال:

أولًا: إنه في السماء السابعة، وهذا هو مذهب جمهور المفسرين[2]، وهو الصحيح، ويدل على ذلك ما رواه أنس

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٥، الوسيط، الواحدي٤/ ١٨٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٧/ ٣٩٨.

رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه)، قال: (فركبته حتى أتيت بيت المقدس)،....، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه)[1].

ويدل عليه كذلك حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه في «الصحيحين» قال: «قال النبي صلى الله عليه وسلم: (بينا أنا عند البيت بين النائم، واليقظان فأتينا السماء السابعة، قيل من هذا؟ قيل: جبريل، قيل من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، مرحبًا به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه، فقال: مرحبًا بك من ابن ونبي، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم)[2].

ثانيًا: إنه في السماء السادسة، قاله علي رضي الله عنه[3].

ثالثًا: إنه في السماء الدنيا، روي عن ابن عباس رضي الله عنه، وقال: هو حيال الكعبة يحجه كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه حتى تقوم الساعة، يسمى الضراح[4].

القول الثاني: أنه البيت الحرام، وعمارته بالحج والطواف، قاله الحسن[5].

ووصف هذا البيت بأنه معمور لكثرة غاشيته، وقاصديه[6].

قال الماوردي: «وفي ﴿ٱلْمَعْمُورِ﴾ وجهان: أحدهما: أنه معمور بالقصد إليه،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٢، ١/ ١٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٧، ٤/ ١١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٢، ١/ ١٤٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ١٨٤، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٦٠.

(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٧٨، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٥.

(٦) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٤.

والثاني: بالمقام عليه»[1].

وقال ابن كثير: «ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: (ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا، لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[2]، يعني: يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة»[3].

ولعظمة هذا البيت فقد أقسم تعالى به مع ما ذكر في الآية من غيره من مخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة على أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم[4].

٢. البيت الحرام.

إن البيت الحرام هو: أول بيت وضع في الأرض، وأعظم المساجد وأفضلها، وأهم موضع في مكة، وهو اسم لمسجد الكعبة، وقد يمتد إلى حدود الحرم، وهو قبلة المسلمين، وإليه يحجون من كل فج عميق[5].

وقد ورد ذكر البيت في القرآن الكريم في عشرة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥].

كما ورود بلفظ المسجد الحرام في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعًا، منها قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٨.
(٢) سبق تخريجه قريبًا.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٨.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥١.

﴿٢﴾ [المائدة:٢] وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١][1].

٣. المسجد الأقصى.

من بيوت الله تعالى: المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس، وهو أولى القبلتين، ومسرى الرسول الكريم، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١].

وسمي الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام[2] أو لأنه أبعد المساجد التي تزار، ويبتغى في زيارته الفضل بعد المسجد الحرام[3].

وقد بارك الله حوله بالماء والأنهار والأشجار والثمار، قال مجاهد: سماه مباركًا؛ لأنه مقر الأنبياء، وفيه مهبط الملائكة والوحي، ومنه يحشر الناس يوم القيامة[4].

وقد ذكر المسجد الأقصى في القرآن مرتين مرة باللفظ الصريح كما سبق في الآية السابقة والثانية بلفظ المسجد في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء:٧].

والمعنى: وليدخلوا المسجد، أي: بيت المقدس كما دخلوه أول مرة، أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار، وليتبروا أي: يدمروا ويخربوا ما علوا أي: ما ظهروا عليه تدميرًا[5].

اختلف المفسرون في من بنى المسجد الأقصى؟ على قولين:

القول الأول: ذهب بعض المفسرين إلى أن أول من بناه هو إبراهيم عليه السلام ويدل على ذلك الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه)[6]، وقدر بعض

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٢٦، الوسيط، الواحدي ٣/ ٩٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٣٣.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٥٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٤٥.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٨٨، النكت والعيون الماوردي ٣/ ٢٣١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث

المفسرين أن ما بين إبراهيم وسليمان عليهما السلام من الزمان عشرة قرون[1].

القول الثاني: إن أول من بناه هو سليمان عليه السلام[2].

واستدلوا بما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أن سليمان بن داود صلى الله عليه وسلم لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلالًا ثلاثة: سأل الله عز وجل حكمًا يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه)[3].

الراجح: الجمع بين القولين فقد جمع بعض المفسرين بين القولين: بأن الذي بنى المسجد الأقصى هو إبراهيم عليه السلام لحديث أبي ذر السابق، وهو يدل على أنه قد كان بني أيضًا زمن إبراهيم أو إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام[4].

وهو أحد المساجد التي تشد إليها الرحال دون غيرها؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى)[5].

٤. عامة المساجد.

أما عامة المساجد المنتشرة في بقاع الأرض فهي بيوت الله تعالى التي أمر بأن ترفع، ويذكر فيها اسمه، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦].

قال الماوردي: «في هذه البيوت قولان:

أحدهما: أنها المساجد، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد.

الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلا)، رقم٣٣٦٦، ٤/ ١٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم٥٢٠، ١/ ٣٧٠.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية١/ ٤٧٤، البحر المحيط، أبو حيان٣/ ٢٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور١٥/ ١٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٣٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٦.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب المساجد، فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه، رقم٦٩٣، ٢/ ٣٤.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم٢٠٩٠، ١/ ٤٢٠.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٧٤ البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٦٨ التحرير والتنوير، ابن عاشور١٥/ ١٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم١١٨٩، ٢/ ٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم١٣٩٧، ٢/ ١٠١٤.

الثاني: أنها سائر البيوت، قاله عكرمة.

وفي قوله: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أن تبنى، قاله مجاهد، كقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة:١٢٧]. أي: يبني.

الثاني: أنها تطهر من الأنجاس والمعاصي، حكاه ابن عيسى.

الثالث: أن تعظم، قاله الحسن.

الرابع: أن ترفع فيها الحوائج إلى الله»[1].

كما ذكر الله تعالى هذه البيوت باسم المساجد في آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

فقد ذكر المفسرون أن المراد بالمساجد: بيوت الله التي وضعت للصلاة على أحد المعاني الواردة في الآية، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله، فأمر الله أن يخلص المسلمون له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم، وقال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، أي: أن هذه الأعضاء التي يقع السجود عليها مخلوقة لله، فلا يسجدوا عليها لغيره، وقال الحسن: أراد البقاع كلها، يعني: أن الأرض كلها مواضع للسجود، وجعلت مسجدًا لهذه الأمة[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨].

وفي هذه المساجد قولان:

أحدهما: أنها مواضع السجود من المصلى، فعلى هذا عمارتها تحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: بالمحافظة على إقامة الصلاة.

والثاني: بترك الرياء.

والثالث: بالخشوع والإعراض عما ينهى.

والقول الثاني: أنها بيوت الله تعالى المتخذة لإقامة الصلوات.

فعلى هذا عمارتها تحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: إنما يعمرها بالإيمان من آمن بالله تعالى.

والثاني: إنما يعمرها بالزيارة لها والصلاة فيها من آمن بالله تعالى.

والثالث: إنما يرغب في عمارة بنائها من آمن بالله تعالى[3].

وعمارة المساجد نوعان: حسية،

(١) النكت والعيون ٤/ ١٠٦.
وانظر: الوسيط، الواحدي٣/ ٣٢١.

(٢) الوسيط، الواحدي٤/ ٣٦٧.
وانظر: النكت والعيون، الماوردي٦/ ١١٩.

(٣) النكت والعيون، الماوردي٢/ ٣٤٧.

ومعنوية؛ فالحسية: بالتشييد والبناء والترميم والتنظيف والفرش والتنوير بالمصابيح والدخول إليها والقعود فيها، والمعنوية: بالصلاة وذكر الله والاعتكاف والزيارة للعبادة فيها، وذلك يشمل العمرة، ومن الذكر: درس العلم، بل هو أجله وأعظمه وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا، فضلًا عن فضول الحديث[1].

والمعنى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما يستحق عمارة المساجد وتستقيم منه العمارة، ويكون أهلًا لها من اتصف بالإيمان بالله تعالى إيمانًا صحيحًا، على النحو المبين في القرآن من الإقرار بوجود الله والاعتراف بوحدانيته، وتخصيصه بالعبادة، والتوكل عليه، وآمن باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه العباد، ويجزي فيه بالثواب للمحسنين وبالعقاب للمسيئين، وأقام الصلاة المفروضة على الوجه المستكمل لأركانها وشروطها وتدبر تلاوتها وأذكارها، وخشوع القلب لله وخشيته، وآتى الزكاة لمستحقيها المعروفين كالفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ في قوله وعمله إلا الله وحده، دون غيره من الأصنام والعظماء الذين لا ينفعون ولا يضرون في الحقيقة، وإنما النفع والضر بيد الله. أما إنه لم يذكر الإيمان بالرسول فلأنه دل عليه ما ذكر من إقامة الصلاة وغيرها لأنه مما جاء به الرسول، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما يصح من المؤمن بالرسول.

وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم الذين يقتصر عليهم عمارة المساجد الحسية بالبناء والتشييد والترميم، والمعنوية بالعبادة والأذكار وحضور دروس العلم، فلا يعمر بيوت الله غيرهم، وهؤلاء هم الذين يرجى بحق أن يكونوا من المهتدين إلى الخير دائمًا، وإلى ما يحب الله ويرضيه، المستحقون الثواب على أعمالهم، لا أولئك المشركون الضالون الذين يجمعون بين الأضداد، فيشركون بالله ويكفرون بما جاء به رسوله، ويسجدون للطواغيت (الأصنام) ثم يقدمون بعض الخدمات للمسجد الحرام[2].

كما أن الله تعالى ذم من يسعى في خراب المساجد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

قال الرازي في تفسيرها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ «فإن ظاهرها يقتضي أن يكون الساعي في تخريب المساجد أسوأ حالًا من

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ١٣٥.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ١٣٨.

المشرك؛ لأن قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يتناول المشرك؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

فإذا كان الساعي في تخريبه في أعظم درجات الفسق وجب أن يكون الساعي في عمارته في أعظم درجات الإيمان»[١].

وقد ورد ذكر بيوت الله التي هي المساجد في السنة النبوية، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة)[٢].

وفيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)[٣].

(١) مفاتيح الغيب ٤/ ١٣.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم٦٦٦، ١/ ٤٦٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

ثانيًا: بيوت الأنبياء:

ذكرت بيوت الأنبياء في سياقات متعددة، وسيتم الحديث أولًا عن بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم ثم بيوت غيره من الأنبياء فيما يأتي:

١. بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ذكر القرآن بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم في سياقات مختلفة كما يأتي:

- في سياق الجهاد.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال:٥].

والإخراج من البيت: هو الإخراج المعين الذي خرج به النبي صلى الله عليه وسلم غازيًا إلى بدر.

والمعنى: أن الله أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمرًا موافقًا للمصلحة في حال كراهة فريق من المؤمنين ذلك الخروج[٤].

- في سياق الآداب الواجبة معها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور٩/ ٢٦٣، وانظر: النكت والعيون، الماوردي٢/ ٢٩٥.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب:٥٣].

وقد تضمنت الآية- فيما يتعلق بالبيوت- حكمين:

الحكم الأول: النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال إلا بالإذن لتناول طعام، غير منتظرين وقت نضجه، والمعنى: فيا أيها الذين آمنوا أو صدقوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيتًا من بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال إلا بالإذن لتناول طعام، غير منتظرين وقت نضجه، فإذا نضج فادخلوا، إذا دعيتم، فإذا تناولتم الطعام فانتشروا في الأرض غير مستأنسين أو مشتغلين بلهو الحديث، إن دخولكم بيت النبي واشتغالكم بالحديث قبل نضج الطعام كان يؤذي النبي، وإيذاؤه حرام، وكان النبي يتضايق من ذلك، ويكره أن ينهاكم عن ذلك من شدة حيائه صلى الله عليه وسلم، والله لا يستحيي من بيان الحق، وهو الأمر بالخروج من البيت، ومنع البقاء فيه، وهذا أدب عام يشمل النبي صلى الله عليه وسلم وسائر المؤمنين[1].

الحكم الثاني: النهي عن النظر إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى: فكما نهيتكم عن الدخول إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم من غير إذن، ودون انتظار نضج الطعام، كذلك نهيتكم عن النظر إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فإذا طلبتم منهن شيئًا من الأمتعة، كالمواعين وسائر مرافق الدين والدنيا، فاطلبوه من وراء حجاب ساتر، وذلك الحجاب أطهر وأطيب للنفس، وأبعد عن الريبة، لقلوبكم وقلوبهن، من الهواجس ووساوس الشيطان.

وذلك لأنه لم يصح لكم أن تؤذوا رسول الله وتضايقوه، كالبقاء في منزله، والاشتغال بالحديث، وانتظار نضج الطعام، ويحرم عليكم أبدًا التزوج بنسائه بعد الفراق بموت أو طلاق، تعظيمًا له، إن إيذاء صلى الله عليه وسلم وزواج نسائه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير، والبعد عن الإيذاء سرًّا وعلنًا مطلوب، فإنكم إن تظهروا شيئًا من الأذى أو تكتموه، فإن الله تام العلم به، يعلم السرائر والخفايا، والظواهر والأحوال كلها.

ثم استثنى الله من حكم حجاب أزواج النبي: المحارم، فلا إثم ولا حرج على

(١) الوسيط، الزحيلي٣/ ٢٠٨٢، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٩٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٠.

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الحجاب أمام الآباء والأبناء، بسبب النسب أو الرضاع، والإخوة وأبناء الإخوة والأخوات، وأمام النساء المؤمنات، والأرقاء من الذكور والإناث، بعدًا عن الحرج والمشقة في ذلك بسبب الخدمة، ودخل الأعمام في الآباء[1].

❁ في سياق ذكر أمهات المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطبًا لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أي: دغل ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ قال ابن زيد: قولًا حسنًا جميلًا معروفًا في الخير، ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها[2].

وفي قوله تعالى: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه عنى عليًّا وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم ، قاله أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم.

الثاني: أنه عنى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، قاله ابن عباس وعكرمة.

الثالث: أنها في الأهل والأزواج ، قاله الضحاك[3].

وقد اختلف الفقهاء والمفسرون في أهل البيت المذكورين في الآية على أقوال، والراجح والصحيح منها: أنهم الذين حرمت عليهم الصدقة، وهم: بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، أو بنو هاشم خاصة، أو بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب؛ وهذا القول هو اختيار الجمهور والأكثرين من العلماء، ولا شك أن بعضهم أخص بكونه من آل

(١) الوسيط، الزحيلي٣/ ٢٠٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٦٣.

(٣) النكت والعيون، الماوردي٤/ ٤٠١.

البيت من بعض، فعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين: أخص من غيرهم[1]، [2]، وكذلك زوجاته صلى الله عليه وسلم يدخلن دخولًا أوليًّا، قال ابن عطية: «والذي يظهر إلي أن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتة، فأهل البيت زوجاته وبنته وبنوها وزوجها، وهذه الآية تقضي أن الزوجات من أهل البيت؛ لأن الآية فيهن والمخاطبة لهن»[3].

وقال الشوكاني- بعد أن ذكر تلك الأقوال-: «أما الزوجات فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات، ولكونهن الساكنات في بيوته صلى الله عليه وسلم النازلات في منازله، ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره، وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله، وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي، وابن كثير، وغيرهما»[4].

(١) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٦٠، لباب التأويل، الخازن٤/ ٩٨، بيان المعاني، العاني٤/ ٣٧.
(٢) انظر في بقية الأقوال وأدلتها: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٤، فتح القدير، الشوكاني٤/ ٣٢٣.
(٣) المحرر الوجيز٤/ ٣٨٤.
(٤) فتح القدير٤/ ٣٢٣.

٢. بيوت غيره صلى الله عليه وسلم من الأنبياء.

- ذكر القرآن الكريم بيت نوح عليه السلام في سياق الدعاء.

قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٨].

فقد ذكر المفسرون في معنى بيتي المذكور في الآية: بيتي منزلي، وقيل: مسجدي، فيما قال ابن عباس وجمهور المفسرين، وقيل: سفينتي[5]. وقال ابن عباس أيضا: بيته: شريعته ودينه استعار لها بيتًا، كما يقال: قبة الإسلام، وفسطاط الدين[6].

- بيت إبراهيم عليه السلام.

قال سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود:٧٣] يعني قالت الملائكة لسارة ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ معناه: لا تعجبي من ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، فإذا أراد شيئًا كان سريعًا ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ يعني: بيت إبراهيم عليه السلام، وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة، وفيه دليل على أن أزواج

(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري٤/ ٦٢١.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ٣٧٧.

الرجل من أهل بيته ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ يعني: هو المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها، وهو المستحق لأن يحمد في السراء والضراء والشدة والرخاء، فهو محمود على كل حال ﴿مَّجِيدٌ﴾ ومعناه: المنيع الذي لا يرام، وقال الخطابي: المجيد الواسع الكرم[1].

❁ ذكر القرآن الكريم بيت لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات:٣٦].

أي: لوطًا عليه السلام وابنتيه[2]، وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعًا؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم[3].

❁ بيت موسى وهارون عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧].

وذلك حين منعهم فرعون الصلاة، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم، وأن يوجهوها نحو القبلة[4].

وقال الزجاج: صلوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف[5]، وقال عكرمة، عن ابن عباس: واجعلوا بيوتكم مساجد[6].

ثالثًا: بيوت المؤمنين:

ذكرت بيوت المؤمنين في سياقات متعددة يمكن بيانها فيما يأتي:

❁ في سياق الهجرة.

قال تعالى: ﴿❁ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠].

❁ في سياق الأكل في البيوت.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور:٦١].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي٢/ ٤٥٧، لباب التأويل، الخازن٢/ ٤٩٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ٤٠٥.
(٣) انظر: الوسيط، الواحدي٤/ ١٧٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ١٧٥.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ٣٠.
(٦) الوسيط، الواحدي٢/ ٥٥٦.

❁ في سياق آداب دخول البيوت.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور:٢٧].

رابعًا: بيوت الظالمين:

ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام التذكير بنعم الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف:٧٤].

فقد ذكّر نبي الله صالح عليه السلام قومه بالنعم التي أنعم الله بها عليهم، والمعنى: أي وتذكروا نعم الله عليكم وإحسانه إليكم، إذ جعلكم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس، وأنزلكم منازلهم تتخذون من سهولها قصورًا زاهية، ودورًا عالية، بما ألهمكم من حذق في الصناعة، فجعلكم تضربون اللّبن وتحرقونه آجرًا (الطوب المحرق) وتستعملون الجص، وتجيدون هندسة البناء ودقة النجارة، وتنحتون من الجبال بيوتًا، إذ علمكم صناعة النحت، وآتاكم القوة والجلد.

فقد كانوا يسكنون الجبال في الشتاء لما في البيوت المنحوتة من القوة، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في باقي الفصول للزراعة والعمل.

قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

أي: وتذكروا هذه النعم العظام، واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة، ولا تتصرفوا فيها تصرف كفران وجحود بفعل ما لا يرضي الله الذي خلقها لكم، فما بالكم بالكفر والعثي في الأرض بالفساد[1].

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام العذاب الذي استحقته.

قال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢﴾ [النمل:٥٢].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحد، قد أهلكهم الله فأبادهم ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ يقول تعالى ذكره: بظلمهم أنفسهم بشركهم بالله، وتكذيبهم رسولهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في فعلنا بثمود ما قصصنا عليك يا محمد من القصة، لعظة لمن يعلم فعلنا بهم ما فعلنا، من قومك الذين يكذبونك فيما جئتهم به من عند ربك

(١) انظر: تفسير المراغي٨/ ١٩٩.

وعبرة»[1].

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام تذكير المكذبين برسلهم وكيف كانت سنة الله تعالى فيمن كان قبلهم وسلك مسلكهم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه:١٢٨].

قال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أفلم يهد لقومك المشركين بالله، ومعنى يهد: يبين، يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفًا أن يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما أصابهم»[2].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة:٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٥-٤٦].

أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبرًا ومواعظ ودلائل متناظرة تبين أخبار من تقدم كيف كان أمرهم[3].

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام النفاق وأنها سبب للفرار من الجهاد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب:١٣].

وكذلك ذكر سبحانه بيوت الظالمين بأنها بيوت شهوات وانحلال وخيانة، كما ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

وتشير الآية إلى أن اتباع الشهوات

(١) جامع البيان ١٩/ ٤٨٠.
(٢) جامع البيان ١٨/ ٣٩٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣٢.

وارتكاب الخيانات في البيوت من الظلم، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: إنه تعالى لا يفلح الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس بخيانة وتعد على الأعراض، لا في الدنيا ببلوغ الإمامة والرياسة، ولا في الآخرة بالوصول إلى رضوان الله تعالى ودخول جنات النعيم[1].

خامسًا: بيوت المخلوقات:

إن بيوت المخلوقات من غير بني آدم المذكورة في القرآن هي:

١. بيوت العنكبوت.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت:٤١].

يقول تعالى ذكره: مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ لنفسها، كيما يكنها، فلم يغن عنها شيئًا عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله، وحل بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئًا، ولم يدفعوا عنهم ما أحل الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم[2].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئًا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها»[3].

٢. بيوت النحل.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل:٦٨].

وقوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

أي: خلايا، وهي الأمكنة التي يضع النحل فيها العسل، ويقال: إنما يضع العسل

(١) انظر: تفسير المراغي١٢/ ١٣٠.

(٢) جامع البيان، الطبري٢٠/ ٣٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم٦/ ٢٥٢.

في أجواف الأشجار، وقد يضع على أغصان الأشجار، وقوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني: يبنون، وقد جرت عادة أهلها أنهم يبنون لها الأماكن فهي تأوي إليها بتسخير الله إياها لذلك[1].

قال الرازي: في تفسير قوله: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

يقال: وحى وأوحى، وهو الإلهام، والمراد من الإلهام: أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر، وبيانه من وجوه: الأول: أنها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار، والثاني: أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة، أما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فإنه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة، فإهداء ذلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب، والثالث: أن النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية، وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقي، ويكون نافذ الحكم على تلك البقية، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران، وذلك أيضًا من الأعاجيب، والرابع: أنها إذا نفرت من وكرها ذهبت إلى موضع آخر، فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى، وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردها إلى وكرها، وهذا أيضًا حالة عجيبة، فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة، وكان حصول هذه الأنواع من الكياسة ليس إلا على سبيل الإلهام، وهي حالة شبيهة بالوحي، لا جرم، قال تعالى في حقها: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل:٦٨][2].

النظرة العلمية: إن بعض العلماء الذين كرسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات وقفوا على حقائق عجيبة وألفوا مئات الكتب التي أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل برية من النحل تسكن الجبال وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكنًا بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار وتتخذ منها بيوتًا تأوي إليها، ولما أراد الإنسان أن ينتفع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين أو الخشب

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٣٦.

يعيش فيها، وهكذا تبين الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوى إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا[1].

٣. بيوت النمل.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٧- ١٩].

وقد ذكر الله تعالى بيوت النمل في سياق الملك العظيم الذي وهبه لنبيه سليمان عليه السلام، والمعنى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ يعني: في بيوتكم، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يهلكنكم، ويقال: لا يكسرنكم سليمان وجنوده بأن يظلموكم، وإنما خاطبهم بقوله ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ بخطاب العقلاء؛ لأنه حكى عنهم ما يحكى عن العقلاء، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: قوم سليمان لا يشعرون بكم، ولو كانوا يشعرون بكم، لا يحطمونكم؛ لأنهم علموا أن سليمان ملك عادل لا بغي فيه ولا جور فيه، ولئن علم بها لم توطأ، ويقال: وهم لا يشعرون يعني: جنوده خاصة؛ لأنه علم أن سليمان يعلم بمكانه ويتعاهده ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ كما يكون ضحك الأنبياء عليهم السلام، وإنما ضحك من ثنائها على سليمان بعدله في ملكه، يعني: أنه لو شعر بكم لم يحطمنكم. ويقال: فتبسم ضاحكًا أي: متعجبًا ويقال: فرحًا بما أنعم الله تعالى عليه[2].

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص١٥١.

(٢) تفسير السمرقندي٢/ ٥٧٦.
وانظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥٣٨٦.

الخروج من البيت ابتغاء مرضاة الله

إن الهجرة والخروج من البيوت ابتغاء لمرضات الله تعالى يكون في أمور، منها: الهجرة، والجهاد في سبيل الله تعالى، والسفر المباح، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الهجرة:

الهجرة هي: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضًا في أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح: هي القصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان، فإن بقي في دار الحرب، ولم يهاجر عصى[1].

وفي الهجرة ترك البيوت ابتغاء مرضاة الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠].

أي: إن من يهاجر فى سبيل الله، أي: لقصد رضاه وإقامة دينه كما يجب وكما يحب الله تعالى، يجد فى الأرض سبيلًا يرغم به أنوف من كانوا مستضعفين له، ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل، وفي هذا وعد للمهاجرين فى سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم[2].

كما وعد من يموت فى الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم الذي ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله ونصرة رسوله فى حياته، وإقامة سننه بعد وفاته، وكان مستحقًّا لهذا الأجر ولو مات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعبًا ولا مشقة، فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه له، كما في حديث عمر رضي الله عنه (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[3].

وفى إبهام هذا الأجر وجعله حقًّا واجبًا عليه تعالى إيذان بعظم قدره وتأكيد ثبوته ووجوبه، ولله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئًا، إذ لا سلطان فوق سلطانه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٠]

أي: وكان شأن الله الغفران أزلًا وأبدًا لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله، والرحمة

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦/ ٦٠٠.

(٢) تفسير المراغي٥/ ١٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم١، ١/ ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنية»، رقم١٩٠٧، ٣/ ١٥١٥.

الشاملة لهم بعطفه وإحسانه[1].

واختلف المفسرون في معنى المراغم المذكورة في الآية: فقال بعضهم: هو التحول من أرض إلى أرض، وقال آخرون: مبتغى معيشة، وقال آخرون: المراغم، المهاجر[2]، وقال مجاهد: المرغم: المتزحزح، وقال الكسائي: المراغم: المذهب.

قال أبو جعفر النحاس: «وهذه الأقوال متفقة المعاني فالمراغم هو المذهب والمتحول في حال هجرة، وهو اسم للموضع الذي يراغم فيه، وهو مشتق من الرغام، ورغم أنف فلان، أي: لصق بالتراب، وراغمت فلانًا هجرته وعاديته»[3].

أما السعة فقال أبو جعفر بعد أن ذكر أقوال المفسرين في معنى السعة: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطربًا ومتسعًا، وقد يدخل في«السعة»، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهم والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني(السعة)، التي هي بمعنى الروح والفرج من مكروه ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظهري المشركين وفي سلطانهم. ولم يضع الله دلالة على أنه عنى بقوله:(وسعة)، بعض معاني(السعة) التي وصفنا، فكل معاني(السعة) التي هي بمعنى الروح والفرج مما كانوا فيه من ضيق العيش، وغم جوار أهل الشرك، وضيق الصدر بتعذر إظهار الإيمان بالله وإخلاص توحيده وفراق الأنداد والآلهة، داخل في ذلك»[4].

والهجرة ابتغاء مرضات الله تعالى هي سنة النبيين عليهم، فقد هاجر نبي الله إبراهيم ولوط عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ ﴾ [العنكبوت:٢٦].

فقد خرج إبراهيم عليه السلام من أرض العراق مهاجرًا إلى ربه، وخرج معه لوط عليه السلام وسارة، فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة الله حتى نزل حران من دمشق، فمكث بها ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج منها مهاجرًا حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام ونزل بلاد السبع من أرض فلسطين، ونزل لوط عليه السلام بالمؤتفكة، وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة وأقرب من ذلك، فبعثه الله سبحانه نبيًّا[5].

يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم أنه آمن له

(١) تفسير المراغي ٥/ ١٣٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ١١٩.
(٣) إعراب القرآن، النحاس ١/ ٢٣٥.
(٤) جامع البيان ٩/ ١٢٢.
(٥) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٨٣.

لوط عليه السلام، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ولم يؤمن به، من قومه سواه وسارة امرأة إبراهيم الخليل، ثم أخبر عنه عليه السلام بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية[1].

وكذلك فعل نبي الله موسى عليه السلام فقد خرج من مصر، خائفًا يترقب، أي: ينتظر الطلب، قال: رب نجني من القوم الظالمين الكافرين، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢١-٢٢].

أي: سلك الطريق التي يلقى مدين[2] فيها، وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام من مصر ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢].

أي: قصد الطريق إلى مدين[3].

والهجرة بترك البيوت هي كذلك سنة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

وفي الآية إخبار بهجرة رسول إلى المدينة وتركه مكة وبيته فيها ابتغاء مرضات الله تعالى.

والمعنى: إلا تنصروه أي: تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين في عام الهجرة لما همّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر رضي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٢٤٦.

(٢) مدين: اسم بلاد ذكر في القرآن، وكانت تمثل إقليمًا كبيرًا وواسعًا، وكانت تقع في شمال غرب الجزيرة العربية بين تبوك والبحر الأحمر، وتعرف اليوم باسم: البدع، وهي بلدة بين تبوك وساحل البحر الأحمر على بعد١٣٢كيلًا غرب تبوك، وشرق رأس الشيخ حميد، على البحر، بمسافة٧٠كيلًا، وهي تابعة لمنطقة تبوك التي تقع شمال غرب المملكة العربية السعودية.
انظر: معجم المعالم الجغرافية، عاتق البلادي ص٢٨٤، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سامي الملغوث ص ١٣٩.

(٣) معالم التنزيل، البغوي٣/ ٥٢٨.

الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أذى، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يسكنه ويثبته ويقول: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[(١)(٢)].

ثانيًا: الجهاد:

إن في الجهاد تركًا للبيوت ابتغاء مرضات الله تعالى، كما قال تعالى عن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾ [الأنفال:٥].

وفي قوله عز وجل: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ قولان:

أحدهما: كما أخرجك ربك من مكة إلى المدينة بالحق مع كراهة فريق من المؤمنين، كذلك ينجز وعدك في نصرك على أعدائك بالحق.

والثاني: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ من المدينة إلى بدر بالحق، كذلك جعل لك غنيمة بدر بالحق.

وفي قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ وجهان:

أحدهما: أنك خرجت ومعك الحق.

الثاني: أنه أخرجك بالحق الذي وجب عليك.

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: كارهون خروجك.

الثاني: كارهون صرف الغنيمة عنهم؛ لأنهم لم يعلموا أن الله تعالى قد جعلها لرسوله صلى الله عليه وسلم[(٣)].

وقد أمر الله تعالى بالخروج من البيوت والمنازل للجهاد الواجب وتوعد من لم يخرج بالعذاب الأليم والاستبدال بقوم يخرجون للجهاد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة:٣٨- ٣٩].

وهذه الآية حث من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم على الجهاد وغزو الروم، وذلك غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك، والمعنى: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿مَا لَكُمۡ﴾، أي: شيء أمركم ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: إذا قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم٢٣٨١، ٤/ ١٨٥٤، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٦.

(٣) النكت والعيون، الماوردي٢/ ٢٩٥.

لكم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿انفِرُوا﴾، أي: اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم، وأصل النفر، مفارقة مكان إلى مكان لأمر هاجه على ذلك[1].

وقد أمر الله تعالى بالخروج من البيوت للجهاد في كل الأحوال والظروف.

قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤١].

قوله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: شبيًا وشبانًا[2]، وموسرين ومعسرين، خفت عليكم الحركة أو ثقلت، ركبانًا ومشاة[3].

قال الإمام البغوي: «قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: شبانًا وشيوخًا، وعن ابن عباس: نشاطًا وغير نشاط، وقال عطية العوفي: ركبانًا ومشاة، وقال أبو صالح: خفافًا من المال، أي: فقراء، وثقالًا أي: أغنياء، وقال ابن زيد: الثقيل الذي له الضيعة، فهو ثقيل يكره أن يضيع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له، ويروى عن ابن عباس قال: خفافًا أهل الميسرة من المال وثقالًا أهل العسرة، وقيل: خفافًا من السلاح، أي: مقلين منه، وثقالًا أي: مستكثرين منه، وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال مرة الهمداني: أصحاء ومرضى، وقال يمان ابن رباب عزابًا ومتأهلين، وقيل: خفافًا من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالًا مستكثرين بهم، وقيل: خفافًا مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالًا بعد التروي فيه والاستعداد له»[4].

ثم بين سبحانه شرط الخروج من البيوت للجهاد الذي يقصد به ابتغاء مرضات الله بأن لا يتخذ الخارجون أعداء الله تعالى أولياء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة:١].

وجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: إن كنتم -أيها المؤمنون- قد خرجتم من مكة من أجل الجهاد في سبيلي، ومن أجل طلب مرضاتي، فاتركوا اتخاذ عدوي وعدوكم أولياء، واتركوا مودتهم ومصافاتهم.

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٥١.
(٢) المصدر السابق ١٤/ ٢٦٢.
(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٤٩.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٥٣.

فالمقصود من الجملة الكريمة: زيادة التهييج للمؤمنين، حتى لا يبقى في قلوبهم أي شيء من المودة نحو الكافرين[1].

ثم بين سبحانه موقف المنافقين من الخروج للجهاد بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:٤٢-٤٣].

والعرض كل ما عرض لك من منافع الدنيا، فالمعنى: لو كانت غنيمة قريبة، أي: لو كان ما دعوا إليه غنمًا، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: سهلًا قريبًا لاتبعوك ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾، أي: بعدت عليهم الغاية التي تقصدها، وكان هذا حين دعوا إلى غزوة تبوك، فثقل عليهم الخروج إلى نواحي الشام[2].

والمعنى: لو كان ما دعوا إليه عرضًا قريبًا غنيمة قريبة، وسفرًا قاصدًا قريبًا هينًا، لاتبعوك طمعًا في المال ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة:٤٢].

المسافة، وقال الكلبي: يعني: السفر إلى الشام، والشقة السفر البعيد؛ لأنه يشق على الإنسان، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني المنافقين إذا رجعتم إليهم: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة:٤٢] أي: لو قدرنا وكان لنا سعة في المال، يهلكون أنفسهم بالكذب والنفاق، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:٤٢]؛ لأنهم كانوا يستطيعون الخروج وكانوا مياسير، ذوي زاد وسلاح وعدة، قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣][3].

ثم قال سبحانه: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٦-٤٧].

أي: إن المنافقين لو أرادوا الجهاد لتأهبوا أهبة السفر، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أي: خروجهم معك ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: حبسهم عنك وخذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين، ويدل على هذا أن بعده: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ قيل: هو من قول بعضهم

(١) الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٣٢٣.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٤٩.
(٣) الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٠٠.

لبعض، وقيل: هو من قول النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون هذا هو الإذن الذي تقدم ذكره، قيل: قاله النبي صلى الله عليه وسلم غضبًا فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا: قد أذن لنا، وقيل: هو عبارة عن الخذلان، أي: أوقع الله في قلوبهم القعود، ومعنى: ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي: مع أولي الضرر والعميان والزمنى والنسوان والصبيان[1].

ثم ذكر الحكمة في ذلك، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: نقصًا، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم. ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فلله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفًا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم[2].

وهؤلاء قال تعالى عنهم: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة:٨٣].

يقول تعالى آمرًا لرسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلًا ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزيرًا لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠][3].

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ يعني: مع المتخلفين من النساء والصبيان، وقيل: مع المرضى والزمنى، وقال ابن عباس رضي الله عنه: مع الذين تخلفوا بغير عذر، وقيل: مع المخالفين يقال: صاحب خالف إذا كان مخالفًا كثير الخلاف.

وفي الآية دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٨/ ١٥٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ١٦٩.

عنه وترك مصاحبته؛ لأن الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد، وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم؛ لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات[1].

ثالثًا: السفر:

في السفر ترك للبيوت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء:١٠١].

والضرب في الأرض هو السفر، قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠][2].

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية، كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك، فمن قائل: لا بد أن يكون سفر طاعة من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، وغير ذلك، كما هو مروي عن ابن عمر وعطاء ويحيى عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ومن قائل: لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحًا، لقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣].

كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصيًا بسفره، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة[3].

وهناك أسفار فيها ترك البيوت ابتغاء مرضات الله تعالى يمكن ذكرها بإيجاز فيما يأتي:

أولًا: سفر العلم، وهو مشهور لدى العلماء؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[4].

ثانيًا: سفر الحج والعمرة، وسفر الحج واجب على المستطيع، وهو من فروض العين[5]، وسفر العمرة مندوب[6].

ثالثًا: سفر الكسب والمعاش: فقد يتعذر على الرجل معاشه مع الإقامة، فيخرج في طلبه لا يزيد عليه، ولا ينقص من صيد أو احتطاب أو احتشاش أو استئجار، وهو فرض عليه[7]، وهو جائز إذا أراد التوسع

(١) لباب التأويل، الخازن٢/ ٣٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير١/ ٥٤٢.
(٣) المصدر السابق٢/ ٣٤٨.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي١/ ٦١٣، بيان المعاني، عبد القادر العاني٤/ ٥٠٠.
(٥) بيان المعاني، عبد القادر العاني٤/ ٥٠٠.
(٦) أحكام القرآن، ابن العربي١/ ٦١٣.
(٧) المصدر السابق١/ ٦١٣.

بأكثر مما هو فيه، وواجب إذا كان محتاجًا له لنفسه أو لمن يعوله[1].

رابعًا: سفر التجارة والكسب الزائد على القوت، وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]. أي: التجارة في البيع والشراء[2]، يعني التجارة، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج، فكيف إذا انفردت[3].

خامسًا: سفر الزيارة: وسفر الزيارة إما يكون للإخوان في الله[4].

ومن الترغيب فيه روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن رجلًا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته، ملكًا فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[5][6].

ومنه قصد البقاع الكريمة، وهو مطلوب لثلاث أمكان، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى)[7][8].

(١) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ١٦٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٥١. وانظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٣٧٤.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، رقم٢٥٦٧، ٤/ ١٩٨٨.
(٦) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم١١٨٩، ٢/ ٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم١٣٩٧، ٢/ ١٠١٤.
(٨) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠. وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١٢.

آداب دخول البيوت

هناك آداب لدخول البيوت سواء أكانت بيوت الله تعالى، أو بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أو بيوت سائر المخلوقات من الإنس والجن، كما سيأتي توضيح ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: آداب بيوت الله تعالى:

١. يستحب لدخول بيوت الله تعالى الطهارة، وأخذ الزينة عند كل مسجد.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف:٣١][1].

قال الزمخشري: «﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ أي: ريشكم ولباس زينتكم عند كل مسجد، كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة، وعن طاوس: لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدكم يطوف عريانًا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه، ضرب وانتزعت عنه؛ لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها»[2].

وقال أبو حيان: «والذي يظهر أن الزينة هو ما يتجمل به ويتزين عند الصلاة، ولا يدخل فيه ما يستر العورة؛ لأن ذلك مأمور به مطلقًا»[3].

أما الطهارة: فإنها من آداب دخول بيوت الله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فيه فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة)[4]، ما لم يكن الدخول للصلاة أو الطواف بالبيت الحرام، فإنها تكون واجبة.

٢. التيمن في دخول المسجد.

من آداب دخول بيوت الله تعالى أن يدخل على السنة الواردة في دخولها، فقد أخرج البخاري في ذلك قوله: «وكان ابن عمر رضي الله عنه - عند دخول المسجد - يبدأ برجله اليمنى، فإذا خرج بدأ برجله اليسرى، فيه: عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي يحب التيمن ما استطاع في شأنه كله في طهوره، وترجله، وتنعله)»[5].

٣. الدعاء عند الدخول في المسجد والخروج منه.

عن أبي حميد، أو عن أبي أسيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٩.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٠.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم٦٦٦، ١/ ٤٦٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التيمن في دخول المسجد وغيره، رقم٤٢٦، ١/ ٩٣.

دخل أحدكم المسجد، فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج، فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك)[1].

٤. تحية المسجد.

يستحب لداخل بيوت الله تعالى أن يركع ركعتين تحية المسجد قبل أن يجلس، وذلك لما رواه أبو قتادة السلمي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس)[2].

والقول بذلك هو مذهب الشافعي وأحمد والجمهور، وذهب قوم مالك والثوري وأصحاب الرأي إلى أنه يجلس ولا يصلي[3]، والراجح هو مذهب الجمهور لحديث أبي قتادة السابق فهو نص في المسألة.

أما تحية المسجد الحرام فقد ذكر ابن القيم أن تحية المسجد الحرام الطواف؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بدأ فيه بالطواف[4]، وتعقب بأنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس، إذ التحية إنما تشرع لمن جلس، والداخل إلى المسجد الحرام يبدأ بالطواف، ثم يصلي صلاة المقام، فلا يجلس إلا وقد صلى، فأما لو دخل المسجد الحرام، وأراد القعود قبل الطواف، فإنه يشرع له أن يصلي التحية[5].

والطواف بالبيت ورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج:٢٩].

ومما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم من أن الطواف هو تحية المسجد الحرام ما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطواف بالبيت صلاة، إلا أن الله عز وجل قد أحل فيه المنطق، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير)[6].

٥. عدم رفع الصوت في المسجد.

من آداب دخول بيوت الله تعالى: عدم رفع الصوت في المسجد بغير الذكر، فقد ورد ما يدل على كراهة ذلك فيما رواه السائب بن يزيد رضي الله عنه، قال: كنت قائمًا في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، قال: من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقول إذا دخل المسجد، رقم٧١٣، ١/ ٤٩٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس، رقم٤٤٤، ١/ ٩٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي٤/ ١٥.
(٤) زاد المعاد ٢/ ٢٠٨.
(٥) نيل الأوطار، الشوكاني ٣/ ٨٥.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده ، رقم١٥٤٢٣، ٢٤/ ١٤٩، والنسائي في سننه، كتاب مناسك الحج، باب إباحة الكلام في الطواف، رقم٢٩٢٢، ٥/ ٢٢٢.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم٣٩٥٤، ٢/ ٧٣٣.

أنتما- أو من أين أنتما؟ - قالا: من أهل الطائف، قال: (لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1].

وفيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(من سمع رجلًا ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا أداها الله إليك، فإن المساجد لم تبن لهذا)[2].

٦. المحافظة على نظافة المسجد.

إن المحافظة على نظافة بيوت الله تعالى من البصاق والروائح الكريهة وغيرها من آداب الداخل إليها؛ لما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها)[3].

وكذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غزوة خيبر: (من أكل من هذه الشجرة -يعني: الثوم- فلا يقربن مسجدنا)[4].

ثانيًا: آداب دخول بيت النبوة:

ذكر الله تعالى آداب دخول بيت النبوة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب:٥٣].

وهذه الآداب يمكن إجمالها فيما يأتي:

١. النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا كانت الدعوة لطعام غير منتظرين إدراكه ونضجه.

والمعنى: أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيوت نبيه صلى الله عليه وسلم إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه، وانتهى إعداده، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت في شغل عنكم، وقد يلبسن ثياب البذلة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المساجد، رقم٤٧٠، ١/ ١٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد، رقم ٥٦٨، ١/ ٣٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كفارة البزاق في المسجد، رقم٤١٥، ١/ ٩١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، رقم ٨٥٣، ١/ ١٧٠.

والعمل فلا يحسن أن ترونهن وهن على هذه الحال، إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه[1].

٢. الانتشار بعد الطعام.

والمعنى: ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا ولا تمكثوا فيه لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة.

وعلة ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: إن ذلك اللبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجاته، إلى ما فيه من تضييق المنزل على أهله، لكنه كان يستحيي من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج.

وفي هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت، ولو كان البيت غير بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فالتثقيل مذموم في كل مكان، محتقر لدى كل إنسان[2].

٣. سؤال نساء النبي متاعًا من وراء حجاب.

فإذا سألتم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج، شيئًا تتمتعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهن ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان والريب؛ لأن العين رسول القلب، فإذا لم تر العين لم يشته القلب، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة[3].

ثالثًا: آداب بيوت سائر المخلوقات:

هناك آداب في دخول بيوت المخلوقين من الإنس والجن:

١. أن يكون الدخول على سنة الإسلام، وهو الإتيان من أبواب البيوت لا من ظهورها.

قال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا

(١) تفسير المراغي ٢٢/ ٢٨.

(٢) المصدر السابق ٢٢/ ٢٩.

(٣) المصدر السابق ٢٢/ ٣٠.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩].

فقد كان قوم من قريش وجماعة معهم من العرب إذا خرج الرجل منهم في حاجة فلم يقضها ولم تتيسر له رجع، فلم يدخل من باب بيته سنة، يفعل ذلك تطيرًا، فأعلمهم الله عز وجل أن ذلك غير بر، أي: الإقامة على الوفاء بهذه السنة ليس ببر، وقال الأكثر من أهل التفسير: إنهم الحمس، وهم قوم من قريش، وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة، كانوا إذا أحرموا لا يأقطون الأقط، ولا ينفون الوبر ولا يسلون السمن، وإذا خرج أحدهم من الإحرام لم يدخل من باب بيته، وإنما سموا الحمس لأنهم تحمسوا في دينهم، أي: تشددوا.

وأعلمهم أن البر التقي، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾ والمعنى: ولكن البر بر من اتقى مخالفة أمر الله عز وجل، فقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ فأمرهم الله بترك سنة الجاهلية في هذه الحماسة[1]، ومن ثم أصبح إتيان البيوت من أبوابها هو السنة والأدب الذي ينبغي في إتيانها.

٢. الاستئذان.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور:٢٧].

ففي الآية هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان فقد أمرهم أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف[2].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:٢٧].

يقول: استئناسكم وتسليمكم على أهل البيت الذي تريدون دخوله، خير لكم؛ لأنكم لا تدرون أنكم إذا دخلتموه بغير إذن، على ماذا تهجمون؟ على ما يسوؤكم أو يسركم؟ وأنتم إذا دخلتم بإذن، لم تدخلوا على ما تكرهون، وأديتم بذلك أيضًا حق الله عليكم في الاستئذان والسلام، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: لتتذكروا بفعلكم ذلك أوامر الله عليكم، واللازم لكم من طاعته، فتطيعوه[3].

٣. السلام.

فمن دخل دارًا وجب عليه أن يسلم على الحاضرين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج١/ ٢٦٢.
وانظر: البحر المحيط، أبو حيان٢/ ٢٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٩.

﴿ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

ويدل على وجوب السلام ما يأتي:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧].

ولما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفشوا السلام بينكم) والأمر للوجوب[١].

الثاني: أن من دخل على إنسان كان كالطالب له، ثم المدخول عليه لا يعلم أنه يطلبه لخير أو لشر، فإذا قال: السلام عليك، فقد بشره بالسلامة وآمنه من الخوف، وإزالة الضرر عن المسلم واجبة، قال صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه)[٢] فوجب أن يكون السلام واجبًا، الثالث: أن السلام من شعائر أهل الإسلام، وإظهار شعائر الإسلام واجب، وأما المشهور فهو أن السلام سنة، وهو قول ابن عباس والنخعي[٣].

والسلام واجب في دخول عموم البيوت قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

فيجب السلام عند الدخول على الأهل والأقارب في البيوت المسكونة، وكذا غير المسكونة، فيسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وكذا المساجد، فيسلم على من كان فيها، فإن لم يكن في المساجد أحد، فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله إبراهيم النخعي والحسن البصري عن آية: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ أراد: المساجد[٤].

قال ابن العربي: «القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص»[٥]، «وبيانه أن الله سبحانه قال في الآية الأولى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧].

فنص على بيوت الغير، ثم قال في هذه الآية الثانية: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٥٤، ١/ ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم١٠، ١/ ١١، من حديث عبدالله ابن عمرو رضي الله عنه، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، رقم٤١، ١/ ٦٥، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي١٠/ ١٦٣.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي١٨/ ٣٠٩.

(٥) أحكام القرآن٣/ ٤٢٧.

﴿أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١].

أي: ليسلم بعضكم على بعض، وأطلق القول؛ لأنه قد بين الحكم في بيوت الغير، ليدخل تحت هذا العموم كل بيت، كان للغير أو لنفسه، وقال: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١].

ليتناول اللفظ سلام المرء على عينه، وليأخذ المعنى سلام الناس بعضهم على بعض، فإذا دخل بيتًا لغيره استأذن، وإن دخل بيتًا لنفسه سلم، كما ورد في الحديث يقول: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)؛ قاله ابن عمر، وهذا إذا كان فارغًا.

فأما إذا كان فيه أهله وعياله وخدمه فليقل: السلام عليكم، فإنهم أهل للتحية منه، وإن كان مسجدًا فليقل كما جاء في الحديث: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)[(١)]، وعليه حمل ابن عمر البيت الفارغ.

والذي اختاره إذا كان البيت فارغًا أنه لا يلزم السلام، فإنه إذا كان المقصود الملك فالملائكة لا تفارق العبد بحال، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله»[(٢)].

وقال الطبري: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال معناه: فإذا دخلتم بيوتًا من بيوت المسلمين، فليسلم بعضكم على بعض، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ ولم يخصص من ذلك بيتًا دون بيت، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض، فكان معلومًا إذ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنه معني به جميعها، مساجدها وغير مساجدها، وقوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، بمعنى: تحيون أنفسكم تحية من عند الله السلام تحية فكأنه قال: فليحي بعضكم بعضًا تحية من عند الله، ووصف جل ثناؤه هذه التحية المباركة الطيبة لما فيها من الأجر الجزيل والثواب العظيم»[(٣)].

٤. دعاء دخول البيت.

ومن آداب دخول البيت: أن يقول الداخل الدعاء الوراد في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج، وخير المخرج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله)[(٤)].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم٣٥١٤، ٢/ ٤٣٤.
قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي.
(٢) أحكام القرآن ٣/ ٤٢٦.
(٣) جامع البيان ١٩/ ٢٢٧.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول الرجل إذا دخل بيته، رقم٥٠٩٦، ٤/ ٣٢٥.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع

٥. السواك.

فعن المقدام بن شريح، عن أبيه، قال: سألت عائشة، قلت: بأي شيء كان يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته؟ قالت: (بالسواك)[(١)].

أما آداب دخول مساكن الجن مبسوطة في السنة فليرجع إليها.

[انظر: الاستئذان: الاستئذان لدخول بيوت الآخرين]

البيوت والفتنة

إن البيوت والفتنة في القرآن الكريم تتمثل في: الاغترار بالبيوت، وأنها سبب للفرار من الجهاد، والبيت قد يكون مكانًا للخلوة بالنساء، وما يظن المنافقون من أن البيوت تمنع الموت، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الاغترار بالبيوت:

من الفتنة بالبيوت الاغترار بها، وهي من صفات الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء:١٤٩].

أي: وتتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا من غير حاجة إلى سكناها مع الجد والاهتمام في بنائها[(٢)].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء:١٤٩].

قال ابن عباس وغير واحد: يعني: حاذقين، وفي رواية عنه: شرهين أشرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب السواك، رقم٢٥٣، ١/ ٢٢٠.

(٢) تفسير المراغي١٩/ ٩١.

الصغير وزيادته، رقم ٨٣٩، ١/ ٢٠٦.

حالهم لمن رأى منازلهم[1].

والاغترار بالبيوت يؤدي إلى الأمن المذموم في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر:٨٢].

فقد كان أصحاب الحجر، وهم ثمود قوم صالح، ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين من عذاب الله، وقيل: آمنين من الخراب أن تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال، وقيل: آمنين من الموت[2].

قال ابن عطية: «وقوله ﴿آمِنِينَ﴾: قيل: معناه: من انهدامها، وقيل: من حوادث الدنيا، وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأعمال، قال القاضي أبو محمد ابن عطية: وهذا كله ضعيف، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة. فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها»[3].

كما أن الاغترار بالبيوت يؤدي أيضًا إلى كفران النعم والفساد في الأرض، كما قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

وذلك؛ لأن بناء البيوت وتشييد القصور ونحت الجبال بيوتًا من النعم التي تستوجب الشكر، فقد ذكر صالح عليه السلام قومه بما أنعم الله به عليهم، وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم، وما اختصوا به من اتخاذ القصور من السهول ونحت الجبال بيوتًا، ثم طلب منهم شكر هذه النعم بقوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾[4]، أي: نعمه عليكم لتصرفوها إلى ما خلقها لأجله ولا تعثوا في الأرض مفسدين بالمعاصي وعبادة غيره تعالى[5].

ثانيًا: سبب للفرار من الجهاد:

بين الله سبحانه وتعالى أن البيوت فتنة للمنافقين وسبب للفرار من الجهاد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب:١٣].

فقد ذكر الله تعالى أن المنافقين يحرضون بعض المجاهدين على ترك الجهاد والرجوع

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ١٤٠.
وانظر: الوسيط، الواحدي٣/ ٣٦٠، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٣٠، مدارك التنزيل، النسفي٢/ ٥٧٦.
(٢) جامع البيان، الطبري١٧/ ١٢٧.
(٣) المحرر الوجيز٣/ ٣٧٢.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان٥/ ٩٣.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي٥/ ١٢٧.
وانظر: جامع البيان، الطبري١٢/ ٥٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي١٤/ ٣٠٦.

إلى بيوتهم، بل إن بعضهم جعل البيوت سببًا للفرار من الجهاد، والمعنى: لا مقام لكم أي: هاهنا يعنون عند النبي صلى الله عليه وسلم في مقام المرابطة، فارجعوا أي: إلى بيوتكم ومنازلكم[(١)].

ويستأذن بعضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإذن بالانصراف عنه إلى منزله، ولكنه يريد الفرار والهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكذبهم الله تعالى وأعلم أن قصدهم الهرب والفرار، لضعف إيمانهم، وجبن نفوسهم[(٢)].

ثالثًا: البيت قد يكون مكانًا للخلوة:

من فتنة البيوت ما يقع فيها من خلوة محضورة بالنساء وقد صور الله تعالى فتنة البيوت هذه بقوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف:٢٣].

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حبًّا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، وقالت: هيت لك، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي أي: منزلي، وأحسن إلي فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٣)].

والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف صلى الله عليه وسلم لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوعه لمرادها، وبيتها بيت سكناها الذي تبيت فيه، فمعنى هو في بيتها أنه كان حينئذ في البيت الذي هي به، ويجوز أن يكون المراد بالبيت: المنزل كله، وهو قصر العزيز، ومنه قولهم: ربة البيت، أي: زوجة صاحب الدار، ويكون معنى هو في بيتها أنه من جملة أتباع ذلك المنزل[(٤)].

ولمنع هذه الفتنة فقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم الدخول على النساء، وذلك فيما رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والدخول على النساء) فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٤٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري٢٠/ ٢٢٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٤/ ٢١٩، الوسيط، طنطاوي ١١/ ١٨٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٣٢٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور١٢/ ٢٥٠.

قال: (الحمو الموت)[1].

والحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه، اتفق أهل اللغة على أن الاحماء أقارب زوج المرأة كأبيه وعمه وأخيه وابن أخيه وابن عمه ونحوهم، والأختان أقارب زوجة الرجل والأصهار يقع على النوعين، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: الحمو الموت، فمعناه: أن الخوف منه أكثر من غيره، والشر يتوقع منه، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه بخلاف الأجنبي، والمراد بالحمو هنا: أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه فأما الآباء والأبناء فمحارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت وإنما المراد: الأخ وابن الأخ والعم وابنه ونحوهم ممن ليس بمحرم وعادة الناس المساهلة فيه ويخلو بامرأة أخيه، فهذا هو الموت وهو أولى بالمنع من الأجنبي[2].

وكذلك ما رواه جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا لا يبيتن رجل عند امرأة ثيب، إلا أن يكون ناكحًا أو ذا محرم)[3].

قال الإمام النووي: «ومعناه: لا يبيتن رجل عند امرأة إلا زوجها أو محرم لها، قال العلماء: إنما خص الثيب لكونها التي يدخل إليها غالبًا، وأما البكر فمصونة متصونة في العادة مجانبة للرجال أشد مجانبة، فلم يحتج إلى ذكرها؛ ولأنه من باب التنبيه؛ لأنه إذا نهي عن الثيب التي يتساهل الناس في الدخول عليها في العادة، فالبكر أولى، وفي هذا الحديث تحريم الخلوة بالأجنبية وإباحة الخلوة بمحارمها، وهذان الأمران مجمع عليهما»[4].

رابعًا: البيوت لا تمنع الموت:

إن البيوت لا تمنع الموت.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، رقم٥٢٣٢، ٧/ ٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، رقم٢١٧٢، ٤/ ١٧١١.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٤/ ١٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، رقم٤/ ١٧١٠، ٢١٧١.

(٤) شرح صحيح مسلم١٤/ ١٥٣.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران:١٥٤].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: قل، يا محمد، للذين وصفت لك صفتهم من المنافقين: لو كنتم في بيوتكم لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم، ولم تحضروا معهم حرب أعدائهم من المشركين، فيظهر للمؤمنين ما كنتم تخفونه من نفاقكم، وتكتمونه من شككم في دينكم ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾، أي: لظهر للموضع الذي كتب عليه مصرعه فيه، من قد كتب عليه القتل منهم، ولخرج من بيته إليه حتى يصرع في الموضع الذي كتب عليه أن يصرع فيه»[1].

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامة بالمدينة ولم ينج منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضائه لا معقب لحكمه.

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

أي: وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق، ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾، أي: وليكشفه ويميزه أو يخلصه من الوساوس.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفياتها قبل إظهارها، وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء، وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين[2].

والخلاصة: إن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير فالذين قدر عليهم القتل لا بد أن يقتلوا على كل حال، وإلا انقلب علم الله جهلًا، فقتل من قتل إنما جاء لانتهاء آجالهم كما قدر ذلك فى اللوح المحفوظ، وكتب مع ذلك أنهم هم الغالبون، وأن العاقبة لهم، وأن دين الإسلام سيظهر على الدين كله.

وفى هذا ترغيب وترهيب، وتنبيه إلى أن الله غني عن الابتلاء والامتحان، وإنما يظهر ذلك على هذه الصورة لحكم يعلمها كمران المؤمنين على الصبر وتحمل المشاق وإظهار حال المنافقين؛ لأن الحقائق قد تخفى على أربابها، فينخدعون للشعور العارض بدون تمحيص ولا ابتلاء، كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقوه[3].

(١) جامع البيان، الطبري٧/ ٣٢٤.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي٢/ ٤٤.

(٣) تفسير المراغي٤/ ١٠٥.

البيوت والعذاب

ذكر القرآن الكريم البيوت والعذاب على صور مثل: خراب البيوت وخوائها، وترك بعضها آية وعبرة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: خراب البيوت:

ذكر الله تعالى خراب البيوت في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر:٢].

والمعنى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي: في أول حشرهم من جزيرة العرب إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك، أو في أول حشرهم للقتال أو الجلاء إلى الشام، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه تعالى عنه إياهم من خيبر إليه، أو في أول حشر الناس إلى الشام وآخر حشرهم أنهم يحشرون إليه عند قيام الساعة فيدركهم هناك، أو أن نارًا تخرج من المشرق فتحشرهم إلى المغرب، والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر، ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وتغيير النظم وتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة بسببها، ويجوز أن تكون حصونهم فاعلًا لـ ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾، ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: عذابه، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء، ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ لقوة وثوقهم، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وأثبت فيها الخوف الذي يرعبها أي: يملؤها، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضنًّا بها على المسلمين وإخراجًا لما استحسنوا من آلاتها، ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم أيضًا كانوا يخربون ظواهرها نكاية وتوسيعًا لمجال القتال، وعطفها على «أيديهم» من حيث إن تخريب المؤمنين مسبب عن نقضهم، فكأنهم استعملوهم فيه[1].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير، قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد، فأجلاهم النبي صلى

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٩٨.

الله عليه وسلم وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئًا وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم[1].

ثانيًا: خواء البيوت:

إن خواء البيوت من العذاب الواقع عليها قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:٥٢].

أي: فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحد، قد أهلكهم الله فأبادهم بسبب ظلمهم أنفسهم بشركهم بالله وتكذيبهم رسولهم[2].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أي: أن في فعلنا بثمود ما قصصناه عليك لعظة لمن كان من أولي المعرفة والعلم، فيعلم ارتباط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها بحسب السنن التي وضعت فى الكون[3].

«خاوية» أي: ساقطة متهدمة، لا أثر لحياة فيها.. والإشارة هنا، لفت للأنظار إلى هذه الديار الخاوية، حيث ينظر المشركون إلى حيث متجه الإشارة، فلا يرون إلا أطلالًا، يرى فيها أولو العلم وأهل النظر، آية من آيات الله، فيما يحل بالظالمين من بأسه، وما يرميهم به من عذابه[4].

وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة، ثلاثة أمور:

الأول: أنه دمر جميع قوم صالح، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾، أي: خالية من السكان لهلاك جميع أهلها، ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾، أي: بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم، وقال بعضهم: خاوية، أي: ساقطًا أعلاها على أسفلها.

الثاني: أنه جل وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية، أي: عبرة يتعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به ما نزل بهم من التدمير، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب، وهو نبي الله صالح عليه السلام ومن آمن به من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٨/ ٨٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري١٩/ ٤٨٠.
(٣) انظر: تفسير المراغي١٩/ ١٤٩.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب١٠/ ٢٥٦.

قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل:٥٣][1].

ثالثًا: ترك بعضها آية وعبرة:

ترك الله تعالى بعض البيوت التي وقع عليها العذاب آية وعبرة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص:٥٨].

فتلك دور القوم الذين أهلكناهم بكفرهم بربهم، ومنازلهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا يقول: خربت من بعدهم، فلم يعمر منها إلا أقلها، وأكثرها خراب. ولفظ الكلام وإن كان خارجًا على أن مساكنهم قد سكنت قليلًا فإن معناه: فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا منها، كما يقال: قضيت حقك إلا قليلًا منه[2].

والمعنى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: فلم يعمر منها إلا أقلها، وأكثرها خراب، قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يومًا أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ نظيره قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٠][3].

قال ابن عباس رضي الله عنه: في قوله: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص:٥٨].

لم يسكنها إلا المسافرون، ومار وا الطرق يومًا أو ساعة. والمعنى: لم تسكن من بعدهم إلا سكونًا قليلًا، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥٨].

يعني: لم يخلفهم أحد بعد هلاكهم في منازلهم، فبقيت خرابًا غير مسكونة، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠][4].

فقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: رجعت خرابًا ليس فيها أحد[5].

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات:٣٦-٣٧].

والمعنى: وتركنا في القرية المذكورة، وهي سدوم أثرًا من العذاب باقيًا مؤرخًا لا يفنى ذكره فهو: آية أي: علامة على قدرة الله وانتقامه من الكفرة، ويحتمل أن يكون، المعنى: وتركنا في أمرها، كما قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي٦/ ١٢٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري١٩/ ٦٠٣.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي٧/ ٢٥٦.
(٤) انظر: الوسيط، الواحدي٣/ ٤٠٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٢٢٣.

﴿٧﴾ [يوسف:٧][1].

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات:٣٧].

أي: جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم[2].

وقد عقب الله تعالى على الآيات الواردة في عذاب البيوت بأن جعلها عبرة وعظة للمعتبرين، ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر:٢].

أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم[3].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٧٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ٨/ ٨٦.

النساء والبيوت

ذكر القرآن الكريم النساء والبيوت في موضوعات تتعلق بهن مثل: القرار في البيوت، والتعلم والتعليم فيها، وفي لزوم البيوت في قضاء العدة، والحبس في البيوت عند ارتكاب الفاحشة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: القرار في البيوت:

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٣].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، وذلك فيما يأتي:

١. القرار في البيوت.

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تفلات)[4].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم؟، رقم ٩٠٠، ٢/ ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب

وفي رواية (وبيوتهن خير لهن)[1][2].

ولهذا كانت الدعوة إليهن بالقرار في البيوت مقترنة بالدعوة بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله، فهذا هو دأبهن في الحياة.. الاتجاه إلى الله، والعمل لما يرضي الله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

وخص تعالى الصلاة والزكاة، لأهميتهما وخطورتهما وآثارهما الكبرى، فالأولى طهارة النفس وعماد الدين، والثانية طهارة المال وطريق مقاومة الفقر، فهما عمودا الطاعة البدنية والمالية[4].

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قرئت على وجهين: فقرأ المدنيان، وعاصم بفتح القاف، وقرأ الباقون بكسرها[5].

فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من الوقار، تقول: وقر يقر وقارًا أي: سكن، وتأويلها كن أهل وقار وسكينة.

والوجه الثاني: أن يكون من القرار، تقول: قررت بالمكان (بفتح الراء) وأما قراءة أهل المدينة وعاصم، فعلى لغة العرب: قررت في المكان إذا أقمت فيه[6].

ومعنى هذه الآية: الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة، فأمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهن، وخاطبهن بذلك تشريفًا لهن[7].

وبهذا تكون الآية قد طلبت من النساء القرار في البيوت والإقامة فيها مع لزوم السكينة والوقار في أقوالهن وأفعالهن عملًا بالقراءتين.

٢. النهي عن التبرج.

وهو: إظهار الزينة، وإبراز المرأة محاسنها للرجال[8].

عليه فتنة، وأنها لا تخرج مطيبة، رقم٤٤٢، ١/ ٣٢٧.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٥٤٦٨، ٩/ ٣٣٧، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد، رقم٥٦٧١/ ١٥٥، والحاكم في مستدركه، رقم٧٥٥، ١/ ٣٢٧.
والحديث صححه الحاكم، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم٧٤٥٨، ٢/ ١٢٤٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣٦٣.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب١١/ ٧٠٦.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي٢٢/ ١٠.

(٥) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٣٤٨.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٧٨.

(٧) انظر: المصدر السابق ١٤/ ١٧٩.

(٨) انظر: جامع البيان، الطبري٢٠/ ٢٦٠.

قال الشوكاني: التبرج: «أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره، مما تستدعي به شهوة الرجل»[(١)].

والمقصود من الآية: مخالفة من قبلهن من المشية على تغنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعًا، وذلك يشمل الأقوال كلها ويعمها فيلزمن البيوت، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكن على تبذل وتستر تام[(٢)].

والجاهلية الأولى هي: القديمة التي يقال لها: الجاهلية الجهلاء، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام: كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال، وقيل: ما بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، وقيل: بين إدريس ونوح عليهما الصلاة والسلام، وقيل: زمن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، فكأن المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر[(٣)].

(١) فتح القدير ٤/ ٣٢٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٨٠.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٣٧.

قال ابن عاشور: «والجاهلية: المدة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام والجاهلية نسبة إلى الجاهل؛ لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، ووصفها بـ(الأولى) وصف كاشف؛ لأنها أولى قبل الإسلام، وجاء الإسلام بعدها ومن المفسرين من جعلوه وصفًا مقيدًا، وجعلوا الجاهلية جاهليتين، فمنهم من قال: الأولى هي: ما قبل الإسلام، وستكون الجاهلية أخرى بعد الإسلام يعني: حين ترتفع أحكام الإسلام والعياذ بالله، ومنهم من قال: الجاهلية الأولى هي القديمة من عهد ما قبل إبراهيم عليه السلام ولم يكن للنساء وازع ولا للرجال، ووضعوا حكايات في ذلك مختلفة أو مبالغًا فيها أو في عمومها، وكل ذلك تكلف دعاهم إليه حمل الوصف على قصد التقييد»[(٤)].

ثانيًا: التعلم والتعليم:

دل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٤].

على التعلم والتعليم للنساء أنه يكون في البيوت.

يقول تعالى ذكره لأزواج نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكرن نعمة الله عليكن؛

(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٣.

بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك، واحمدنه عليه، وعني بقوله ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: واذكرن ما يقرأ في بيوتكن من آيات كتاب الله والحكمة، ويعني بالحكمة: ما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام دين الله، ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة[1].

ولفظ (الذكر) هنا يحتمل مقصدين كلاهما موعظة وتعديد نعمة: أحدهما: أن يريد ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾، أي: تذكرنه واقدرنه قدره وفكرن في أن من هذه حاله ينبغي أن تحسن أفعاله، والآخر: أن يريد ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ بمعنى: احفظن واقرأن والزمنه الألسنة، فكأنه يقول: واحفظوا أوامر الله ونواهيه، وذلك هو الذي يتلى في بيوتكن من آيات الله، وذلك مؤد بكن إلى الاستقامة[2].

وهذا حث لهن على حفظ القرآن والأخبار، ومذاكرتهن بهما للإحاطة بحدود الشريعة، والخطاب وإن اختص بهن فغيرهن داخل منه؛ لأن مبنى الشريعة على هذين القرآن والسنة، وبهما يؤقت على حدود الله ومفترضاته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بأوليائه، ﴿خَبِيرًا﴾ بجميع خلقه[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٦٧.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٤.
(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٧٠.

ثالثًا: العدة:

نهى الله تعالى الرجال عن إخراج المطلقات من البيوت، كما نهى المطلقات عن الخروج باختيارهن.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ [الطلاق:١].

والمعنى: لا تخرجوهن من بيوتهن، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: لا تخرجوا المطلقات من بيوتهن في مدة العدة، فلكل امرأة معتدة حق السكنى على الزوج، ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضًا الخروج، فليس للمعتدات الزوجات الخروج من تلك البيوت ما دمن في العدة إلا لأمر ضروري، رعاية لحق الزوج، فإذا خرجت المعتدة لغير ضرورة ليلًا أو نهارًا، كان الخروج حرامًا.

وفيه دليل على وجوب السكنى للزوجات المطلقات أو المعتدات ما دمن في العدة، وأضاف البيوت إليهن، وهي لأزواجهن لتأكيد النهي عن الإخراج والخروج، ببيان كمال استحقاقهن للسكنى،

كأنها ملك لهن[1].

وقد جعل الله لهن هذا الحق ما لم يأتين بفاحشة، والمعنى: أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا، كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب والشعبي، والحسن وابن سيرين ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو قلابة، وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والسدي وسعيد بن أبي هلال وغيرهم، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: شرائعه ومحارمه، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، فقد ظلم نفسه أي بفعل ذلك[2].

رابعًا: الإمساك في البيوت:

كان من حكم النساء اللاتي يأتين بالفاحشة ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء:١٥].

قال ابن كثير: «كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة، حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت، ولهذا قال ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني: الزنا من نسائكم ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥].

فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم، وكذا روي عن عكرمة، وسعيد بن جبير والحسن وعطاء الخراساني وأبي صالح وقتادة وزيد بن أسلم والضحاك: أنها منسوخة، وهو أمر متفق عليه»[3].

قال الرازي: «واعلم أنه كان في أول الإسلام عقوبة الزاني الحبس إلى الممات في حق الثيب، والأذى بالكلام في حق البكر، ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنا على الثيب الرجم وحد البكر الجلد والتغريب»[4]، والحجة عليه: حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه:(خذوا عني

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي٢٨/ ٢٦٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٨/ ١٦٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم٢/ ٢٠٤، وانظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي٢/ ٣٥٥.
(٤) مفاتيح الغيب ٢٣/ ٣٠٥.

خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة)[(١)(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الاستئذان، بيت النبوة، العذاب، الفتنة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم ١٦٩٠، ٣/ ١٣١٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٤٠٦.

التَّبَنِّي

عناصر الموضوع

مفهوم التبني	١٢٦
الألفاظ ذات الصلة	١٢٧
تنزيه الله تعالى عن التبني	١٣٠
التبني في الأمم السابقة	١٣٢
التبني عند العرب في الجاهلية	١٣٤
أساليب القرآن في إبطال التبني	١٣٧
بدائل التبني في الإسلام	١٥٣

مفهوم التبني

أولًا: المعنى اللغوي:

أصله من بنى: بنا في الشرف يبنو[1]، ويقال: تبنيته، أي: ادعيت بنوته، وتبناه: اتخذه ابنًا[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو ضم طفل أجنبي إلى أسرة معينة، وجعله بمنزلة الابن الحقيقي أو الصلبي، له ما له، وعليه ما عليه من واجبات، يثبت له النسب كما يثبت للابن الحقيقي[3].

ولم يرد لفظ (التبني) في القرآن الكريم.

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٨٩.
(٢) الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢٨٧، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٩١..
(٣) حقوق الطفولة في الشريعة، هلالي عبدالإله أحمد ص ٧٨٩، المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان، ٩/ ٤٣٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الدّعيُ:

الدّعيّ لغة:

المتبنّي: الذي تبناه رجل فدعاه ابنه ونسبُه إلى غيره[١]، وادعى فلانًا: صيّره يُدعى إلى غير أبيه، والدّعيُّ: المتهم في نسبه والمنسوب إلى غير أبيه. والدِّعوة بكسر الدال: ادعاء الولد الدَّعِي غير أبيه[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾[الأحزاب: ٤] أي: من تبنيتموه من أولاد غيركم، جمع دعي، فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه مدعو بالبنوة[٣].

وقد يطلق على الدَّعي: المستلاط، أي: المستلحق في النسب، ويدعى له، أي: يُنسب إليه، فيقال: فلان بن فلان، ويدعى به، أي: يكنَّى، فيقال: هو أبو فلان، وهو مع ذلك لا يرث؛ لأنه ليس بولد حقيقي[٤].

الدعيّ اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين التبني والدعي:

غلب في استعمال العرب لفظ (ادعاء) على التبني[٥].

٢ البنوة:

البنوة لغة:

ابن أصله: (بنو) الباء والنون والواو كلمة واحدة، وهو الشيء يتولد عن الشيء، كابن الإنسان وغيره[٦]، والبِنْو عند بعض أهل العربية: أصل بناء الابن والنسبة إليه بنوي[٧]، وسماه بذلك لكونه بناء للأب، فإن الأب هو الذي بناه، وجعله الله بناءً في إيجاده، ويقال

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٦١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جامع البيان في مفردات القرآن، عبدالحميد هنداوى، ٣/ ١١٩٢، السراج في بيان غريب القرآن، محمد الخضيري، ص٢١٥.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٦١- ٢٦٢.
(٥) انظر: المصباح المنير، الفيومي ص١٩٥.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٠٣.
(٧) مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٢٣٦.

لكل ما يحصل من جهة شيء أو من تربيته، أو بتفقده أو كثر خدمته له أو قيامه بأمره: هو ابنه، وجمع ابن: أبناء وبنون[1].

البنوة اصطلاحًا:

قال فيه الراغب: «يقال لكلّ ما يحصل من جهة شيء أو من تربيته، أو بتفقده أو كثرة خدمته له أو قيامه بأمره: هو ابنه»[2].

الصلة بين التبني والبنوة:

الفرق بين البنوة والتبني: أن البنوة ترجع إلى النسب الأصلي، أما التبني فهو ادعاء الرجل أو المرأة من ليس ولدًا لهما[3].

٣ الأبوة:

الأبوة لغة:

الأب بالتخفيف بمعنى الوالد الذي إليه يرجع النسب[4].

الأبوة اصطلاحًا:

قال المناوي «الأب: الوالد، والأبوان: الأب والأم أو الأب والجد أو الأب والعم أو الأب والمعلم، وكذا كل من كان سببًا لإيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره»[5]، وقال الجرجاني: الأب هو كل من تكون من نطفته شخص آخر من نوعه[6].

الصلة بين التبني والأبوة:

الأبوة هو ما يرجع إليه النسب، ولا يحصل بالتبني، ويحرم على الأب أن يتزوج زوجة ابنه الذي من صلبه و ليس المتبنى، كذا لا يحصل التوارث بالتبني.

(١) جامع البيان في مفردات القرآن، عبدالحميد هنداوي ١/ ١٢٩.
(٢) المفردات ص١٤٧.
(٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٠/ ١٢٠.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٦.
(٥) التوقيف ص٣٥، وانظر: مفردات غريب القرآن، الأصفهاني، ١/ ٧.
(٦) انظر: التعريفات، ١/ ٧.

٤ الأمومة:

الأم لغةً:

أم الشيء أصله، والأم: الوالدة، وتجمع على أُمَّات، وأصل الأُم: أُمَّهة؛ لذا تجمع على أمهات[١].

الأم اصطلاحًا:

اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم دنية، وأمهاتها وجداتها وأم الأب وجداته وإن علون»[٢].

وعرف بعض العلماء الأمومة بأنها: «نظام تعلو فِيهِ مكانة الْأُم على مكانة الْأَب فِي الحكم وَيرجع فِيهِ إِلَى الْأُم فِي النّسَب أَو الوراثة»[٣].

الصلة بين التبني والأمومة:

المتبنى - إن كان ذكرًا - شخص أجنبي، ولا يحصل المحرمية بمجرد التبني، بل على الأم بالتبني أن تتحجب عنه، كذا لا يحصل التوارث بينهما.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٨٦٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ١٠٨.
(٣) المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية ١/ ٢٧.

تنزيه الله تعالى عن التبني

إن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية[1]. والله سبحانه ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصًا أو حدوثًا فإن الله منزهٌ عنه حقيقة، فالله تعالى مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته؛ إذ لا يوجد شيء إلا وُجد من شيء ما خلا الله تعالى، فإن ذاته المقدسة لا تماثل شيئًا من الذوات، وصفاته مختصة به فلا تماثل شيئًا من الصفات، فاسمه ﴿أَحَدٌ﴾ دل على نفي المشاركة والمماثلة، واسمه ﴿الصَّمَدُ﴾ دل على أنه مستحق لجميع صفات الكمال، فهذان الاسمان العظيمان ﴿أَحَدٌ﴾ ﴿الصَّمَدُ﴾ يتضمنان تنزيهه من كل نقص وعيب، وتنزيهه في صفات الكمال أن لا يكون له مماثل في شيء منها، واسمه ﴿الصَّمَدُ﴾ يتضمن إثبات جميع صفات الكمال، فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال، ونفي جميع صفات النقص.

لذلك نزّه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد كما زعمه اليهود والنصارى والمشركون، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٢].

ما دلت عليه الآيات:

١. قالت اليهود والنصارى[3] والمشركون[4]: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنسبوه إلى مالا يليق بجلاله، وأساءوا كل الإساءة وظلموا أنفسهم[5].

٢. قال جل ثناؤه مكذّبًا قيلهم ما قالوا من ذلك، ومنتفيًا مما نحلوه، وأضافوا إليه بكذبهم وفريتهم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهًا

(١) تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية، خالد فوزي ١/ ١٠٨.

(٢) العقيدة الصافية للفرقة الناجية، سيد سعيد ص ٣٣٠.

(٣) قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: ٣٠].

(٤) قال جل شأنه عن المشركين: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل: ٥٧].

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨.

له أن يكون له ولد؛ لأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته[1]، وهو سبحانه مالك لجميع المخلوقات، ومن له ملك السموات والأرض، لا يحتاج إلى ولد، ولأنه لو كان له ولد لكان الولد مماثلًا له، والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء[2].

وأصل التسبيح: التنزيه له من إضافة ما ليس له من صفاته إليه والتبرئة له من ذلك[3]، فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه[4].

٣. أنكر الله تعالى على من زعم أن له ولدًا -تقدس وتنزه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: الذي لا منعم غيره، فكل أحد محتاج إليه وهو غني عن كل أحد[5].

٤. ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي: عظيمًا، ثقيلًا منكرًا[6]. وهو ردٌّ لمقالتهم الباطلة، وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفات المنبيء عن كمال السخط، وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة[7].

٥. بيَّن الله ثِقل هذا القول من فجرة بني آدم بقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠].

إن السموات على إحكامها مع بُعدها عن أصحاب هذا القول ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي: تتشقق فرقًا من عظمة الله وغضبًا له، ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ على تحتها شقًّا نافذًا واسعًا ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾ أي: تسقط الجبال سقوطًا شديدًا ويتكسر بعضها على بعض بالرغم من صلابتها[8].

٦. إن هذه المخلوقات مؤسسة على توحيده عز وجل وأنه لا إله إلا هو، ولا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد؛ لذلك لم تطق هذه الأجرام العظام هول تلك الكلمة الشنيعة فتفتّت، ولولا حلمه تعالى لخرب العالم وبُدِّدت قوائمه غضبًا على من تفوه بها[9].

٧. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ استحالة تحقق مضمونها فلا يليق به سبحانه اتخاذ الولد، ولا يتطلب له طلب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٤٦١.
(٢) تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين، ١/ ١٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٥٠٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٨.
(٥) نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٥٨.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٢، نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٥٨.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٤٥.
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٣، نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٥٨.
(٩) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٤٥.

مثلٍ لاستحالته في نفسه، ووضع (الرحمن) موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى إما نعمة أو منعم عليه، فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولي أصولها وفروعها حتى يتوهم أن يتخذه ولدًا!؟[1]، فاتخاذ الولد ينافي كمال صمديته عز وجل وغناه وملكه، وتعبيد كل شيء له[2].

إن نسبة مالا يليق بكمال الله وجلاله إليه، تقدست أسماؤه، تغيير لمعالم الحق الذي قامت عليه السموات والأرض، وإحلال للباطل والزيف مكان الحكمة والعدل. إن نسبة هذه الأمور إليه -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- نسبة الحاجة، والنقص، والافتقار، والعجز إلى الكمال المطلق، وهو هدم لنظام الكون الذي يقوم على الحق والعدل والميزان[3].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٤٥-٤٤٦.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١ / ٣٥.
(٣) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ١٥٩.

التبني في الأمم السابقة

التبني معروف منذ القدم، وقد أشار القرآن الكريم إليه في موضعين:

أولًا: تبني عزيز مصر ليوسف عليه السلام:

قص الله تعالى علينا قصة يوسف عليه السلام ، فقد كان أشرف إخوته وأجلّهم وأعظمهم[4]، رأى رؤيا قبل أن يبلغ الحُلم فقصّها على أبيه يعقوب عليه السلام . قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٤-٥].

فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية، ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة؛ لذلك أمره بكتمانها وألا يقصّها على إخوته؛ كيلا يحسدوه ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر[5].

وقد كان من أمره وأمرهم ما قصّه الله علينا في القرآن الكريم حتى استقر به المقام في بيت عزيز مصر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٣١.
(٥) المصدر السابق ١/ ٢٣٢.

وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها، وهو الوزير بها، الذي كانت الخزائن مسلمة إليه[1]، ومعنى ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ أي: منزله ومقامه، والمثوى: موضع الإقامة، وقيل: أكرميه في المطعم والملبس والمقام[2]، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: عسى أن ينفعنا ببيعه بالربح إن أردنا البيع، أو يكفينا بعمله بعض أمورنا إذا بلغ[3]. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتخذه ولدًا، أي: نتبناه[4]، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد[5]، وكان ذلك لما تفرّس فيه من مخايل الرشد والنجابة[6].

وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة[7].

ثانيًا: تبني فرعون لموسى عليه السلام:

عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى في منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والسحرة، وسألهم عن ذلك فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان[8]. ثم إن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يُفنى بنو إسرائيل، فيَلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة؛ فأمر فرعون بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، ووُلد موسى عليه السلام في العام الذي يُقتل فيه الولدان، فأُلهمت أمه وأُلقي في خلدها ونُفث في روعها[9]، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وهكذا ذهب به الماء إلى دار فرعون ولما رأته امرأة فرعون أوقع الله محبته في قلبها وقالت لزوجها: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

أي: أترجى نفعه لنا لو كان له أبوان معروفان؛ فإن فيه مخايل اليُمن ودلائل النفع لأهله، فقد توسّمت في سيماه النجابة المؤذنة بكونه نفعًا، وقد أنالها الله ما رجت من النفع، أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها الله جنته بسببه.

أو عسى أن نتبناه إذا لم يعرف له أبوان،

(١) المصدر السابق ١/ ٢٣٥.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٢٢٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٢٥. زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٧/ ٣٨١٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٦٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢/ ٤٠٦.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٩٠.
(٧) البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٣٥.
(٨) المصدر السابق ١/ ٢٧٤.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٧.

فإنه أهل للتبني؛ لما فيه من الوسامة وجمال المنظر التي تجعله أهلًا لتبني الملوك، وكانت امرأة فرعون لا تلد، ولم يكن لفرعون ولد ذكر[١]، وهكذا تربى موسى عليه السلام في بيت فرعون يركب ركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون[٢].

ثالثًا: التبني عند الرومان:

كان التبني معروفًا في القانون الروماني، فمن حق الأب أن يجعل له ابنًا من غير سلالته، ومن غير ذريته، ولو كان المتبنَّى له أب معروف ونسب ثابت[٣]، فلم يقتصر التبني على مجهول النسب، وإذا كان من ألحقه بنسبه كبيرًا، كان الإلحاق بما يشبه العقد[٤]، وكان للابن بالتبني كافة الحقوق الشرعية في ممتلكات أبيه المتبنِّي، فهو لم يكن يعتبر ابنًا من الدرجة الثانية، بل كان مساويًا لسائر الأبناء.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٦٦، البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٧٦.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٦٩.
(٣) تنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة ص ٧.
(٤) المصدر السابق ص ١٢٥.

التبني عند العرب في الجاهلية

كان المجتمع العربي في الجاهلية كغيره من المجتمعات الأخرى من يونان ورومان وغيرهما، يسير على مزاج ذاتي، وتصورات ضيقة الأفق، مما أدى إلى وجود بعض العادات والتقاليد الموروثة التي تتعارض مع أصول الأخلاق القويمة وسلامة المجتمع، ووحدة الأسرة وانسجامها.

وكان التبني أحد هذه العادات الشائعة المتأصلة فيهم والمتمكنة عندهم، يتوارث به ويتناصر[٥]، وكان الرجل يتبنى ولد غيره فتجري عليه أحكام البنوة كلها[٦]، وكان هذا يقع بخاصة في السبي؛ حين يؤخذ الأطفال والفتيان في الحروب والغارات، فمن شاء أن يلحق بنسبه واحدًا من هؤلاء دعاه ابنه، وأطلق عليه اسمه، وصارت له حقوق البنوة وواجباتها[٧].

أولًا: دواعي التبني في الجاهلية:

كان العربي إذا أعجبه من الفتى قوته ووسامته ضمه إلى نفسه، ونسبه إليه، فيقال: فلان بن فلان. وجعل له نصيبًا من الميراث كأحد أولاده[٨]، لا فرق بينه وبين أحد من أبنائه من نكاح أو غيره.

(٥) المصدر السابق ص١٤.
(٦) ثبوت النسب، ياسين الخطيب ص ٣٣٥.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٥٣٥.
(٨) تنظيم الإسلام للمجتمع، أبو زهرة ص ١٤.

للتجاوب مع النـزعة الفطرية في حب الأولاد حال العقم، أو اليأس من الإنجاب، أو الاستلطاف، أو استحسان ولد أو بنت الآخر.

رعاية ولد لقيط، أو مفقود، أو مجهول النسب، أو لا عائل ولا مربي له.

وظل العمل بهذه العادة حتى ظهر الإسلام، نظرًا لأن الله تبارك وتعالى تدرج في التشريع، فالعادات المستهجنة المستحكمة في النفوس، المتشبثة بالأذهان لم تُحرّم في العهد المكي، وإنما أُخِّر تحريمها إلى العهد المدني؛ حتى تتعمق العقيدة والوحدانية في القلوب، فتكون الاستجابة والطاعة أسرع وأعمق، ومنها التبني الذي حُرِّم في السنة الخامسة من الهجرة لما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥].

ومن الصحابة الذين وقع عليهم التبني:

١. **المقداد بن عمرو بن ثعلبة البهراوي، المعروف بالمقداد بن الأسود، وهذا الأسود الذي يُنسب إليه هو الأسود بن عبد يغوث الزهري، وإنما نُسب إليه لأن المقداد حالفه[١]، فتبناه الأسود في الجاهلية فنُسب إليه، وهو قديم الإسلام من السابقين، وهاجر إلى أرض الحبشة، وشهد بدرًا، وله فيها مقام مشهور، وشهد المشاهد مع النبي صلى الله عليه وسلم وشهد فتح مصر، كانت وفاته بالمدينة في خلافة عثمان رضي الله عنه، وكان عمره ٧٠ سنة[٢].**

٢. **سالم مولى أبي حذيفة، وهو سالم بن عبيد بن ربيعة، كان من أهل فارس من اصطخر، وكان من فضلاء الصحابة والموالي وكبارهم، تبناه أبو حذيفة لما أعتقته زوجته ثُبيتة الأنصارية، وكان أبو حذيفة يرى أنه ابنه، فأنكحه ابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة. وشهد سالم المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم وقُتل يوم اليمامة شهيدًا[٣].**

٣. **زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، وأمه سعدى بنت ثعلبة من طي[٤]، خرجت أمه لزيارة قومها، فأغارت عليهم خيل، فأسروا زيدًا وباعوه، واشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد[٥]، وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعًا**

(١) حالفه: أي: تحالفا بالأيمان أن يكون أمرهما واحدًا بالوفاء.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٥٤.
(٢) أسد الغابة، ابن الأثير ٤/ ٤٧٥-٤٧٨.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٥٥-١٥٦.
(٤) الروض الأنف، السهيلي ١/ ٢٨٦.
(٥) تاريخ الإسلام، الذهبي ١/ ٣٣.

شديدًا، ولما علم بوجوده بمكة قدم هو وأخوه إلى مكة لفدائه[1]، فاختار زيد البقاء مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: (أُشهدكم أن زيدًا ابني يرثني وأرثه)، فصار يُدعى زيد بن محمد[2].

عن ابن عمر رضي الله عنهما: (إن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾)[3]. أسلم في أول يوم من أيام الدعوة[4]، ويعتبر من كبار السابقين الأولين[5]، رافق النبي صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى الطائف للدعوة في السنة العاشرة من البعثة[6].

هاجر إلى المدينة قبل النبي صلى الله عليه وسلم[7]، شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم باستثناء غزوة بني المصطلق[8]، فإن النبي صلى الله عليه وسلم استخلفه على المدينة[9]، وجعله النبي صلى الله عليه وسلم أميرًا على سبع سرايا. عن سلمة بن الأكوع قال: (غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم تسع غزوات، وغزوت مع ابن حارثة استعمله علينا)[10]، وهو حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (وأيم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ)[11]. وهو الصحابي الوحيد الذي ذُكر اسمه صراحة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا

(١) أسد الغابة، ابن الأثير ٢/ ١٢٩-١٣٠.
(٢) زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٤٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ٩/ ٤٧١ رقم ٤٧٨٢.
(٤) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٦٥.
(٥) تاريخ الاسلام، الذهبي ١/ ٣٣٠.
(٦) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٤٦. الرحيق المختوم، المباركفوري ص ١١٣.
(٧) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٤٤٨، الروض الأنف، السهيلي ٢/ ٢٢٠.
(٨) كانت في شعبان سنة ست من الهجرة. انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٢٩٨.
(٩) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ٦٣.
(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، ٨/ ٣٠٨، رقم ٤٢٧٢. وهذا الحديث ورد في بعث أسامة، لكن ذكر ابن حجر العسقلاني في الفتح في شرح باب غزوة زيد بن حارثة هذا الحديث وعلق بأن الصواب هو زيد بن حارثة بلفظ: غزوت مع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره علينا. انظر: فتح الباري ٨/ ٢٨٤.
(١١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله ابن عمر، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب زيد بن حارثة، ٧/ ٤٥٤، رقم ٣٧٣٠.

﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾[الأحزاب: ٣٧].

استُشهد في غزوة مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة، وكان أميرًا على الجيش رضي الله عنه وأرضاه[١].

أساليب القرآن في إبطال التبني

أولًا: نفي البنوة عن المتبنَّى:

قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤-٥].

يقول الله تعالى موطئًا قبل المقصود المعنوي أمرًا حسيًّا معروفًا، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: (أنت عليّ كظهر أمي) أمًّا له، كذلك لا يصير الدَّعي ولدًا للرجل إذا تبناه فدعاه ابنًا له.

فبيّنت الآية أن الأمور الثلاثة باطلة لا حقيقة لها، ولقد ساوت الآية بين شيء محسوس ظاهر بيّن، وهو عدم وجود قلبين في جوف الرجل، وبين عادتين مستعملتين عند العرب وهما الظهار والتبني، وذلك ليبين فظاعتهما وأنهما مخالفتان للواقع[٢].

فعندما أراد الله تعالى أن يبطلهما

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة ٢/ ٤٢٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٠. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٣.

ويزيلهما -الظهار والتبني- قدّم بين يدي ذلك بيان قبحه وأنه باطل وكذب؛ وكل باطل وكذب لا يوجد في شرع الله ولا يتصف به عباد الله[1].

فقد حرص الإسلام على صفاء النسب، فالنسب لا يثبت إلا بولادة حقيقية ناشئة من علاقة غير محرمة؛ لذلك نفى الإسلام أن يكون التبني سببًا لثبوت النسب، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾[الأحزاب: ٤].

فكل موضع علّق الله فيه حكم القول بالفم فإشارة إلى الكذب وتنبيه إلى أن الاعتقاد لا يطابقه، فالبنوة نسب أصيل عريق، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلًا وغير أصيل[2] فذلكم ادعاؤكم بقولكم: هذا ابني ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة في الأعيان، فإذن هو بمعزل من استتباع أحكام البنوة كما زعمتم[3]، فالتبني حرام؛ لأنه يخلط بين الأنساب وفيه قلب للحقائق وتغيير للحقيقة، وهو يؤدي لمفاسد كثيرة أخرى[4].

وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ إشارة إلى معنى لطيف؛ وهو أن العاقل ينبغي أن يكون قوله إما عن عقل أو عن شرع، وفي الدَّعي لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به، فهذا خلاف الحق، وقول الله هو الحق لا غير؛ لأن قائله هو الحق تعالى، ولا يصدر عنه إلا الحق؛ لذلك يجب اتباعه[5].

وقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أمر تبارك وتعالى بوجوب دعوة الأبناء إلى آبائهم ولادة ونسبًا وتحريم دعوتهم لغير آبائهم، فالإنسان يدعى لأبيه بظاهر فراش أمه، ويثبت به النسب والميراث وتجري به الأحكام، وأن هذا هو العدل والقسط والبر[6]، عدل للوالد الذي نشأ هذا الولد من بضعة منه حية، وعدل للولد الذي يحمل اسم أبيه ويكون امتدادًا له بوراثاته الكامنة، وتمثيله لخصائصه وخصائص آبائه وأجداده، وهذا هو النظام الذي يجعل التبعات في الأسرة متوازنة، ويقيم الأسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع[7].

روى ابن عمر رضي الله عنهما: (ماكنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٤/ ١٣٤.
(٢) حدائق الروح والريحان، الهرري ٢٢/ ٤٠٥.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٣٠٧.
(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين، ٦/ ٧٦-٧٧.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٩٢، التفسير الموضوعي لسور القران الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٧٤.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٤، نكت القرآن، القصاب ٣/ ٦٤١.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٥٣٦.

نزل القرآن: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[الأحزاب: ٥])[١].

وأوضحت الآية وجوب أن يُدعى الإنسان إلى أبيه، ويحرم دعوته إلى غير أبيه لفظًا وحقيقةً، وهو محرم بالإجماع[٢]، فالله تعالى يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألحِق نسب زيد بأبيه حارثة ولا تدعه زيد بن محمد، فهذا أعدل عند الله، وأصوب وأصدق من دعائكم إياهم لغير آبائهم، ونسبتكموهم إلى من تبناهم وادعاهم، وليسوا له بنين[٣].

قال صلى الله عليه وسلم: (ليس من رجل ادُعي لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر بالله، ومن ادعى قومًا ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار)[٤]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كُفْرٌ)[٥].

الحديثان فيهما زجر وتغليظ وتهديد ووعيد أكيد في التبري من النسب المعلوم، فمن استحل هذا القول مع علمه بالتحريم فقد فعل فعلًا شبيهًا بفعل أهل الكفر؛ لأن فيه كذبًا على الله كأنه يقول: خلقني الله من ماء فلان وليس كذلك.

قال العلماء في معنى (كفر): إنه من يعتقد إباحة ذلك فقد كفر وخرج عن الإسلام. وإن لم يعتقد إباحته ففي معنى كفره وجهان:

أحدهما: أنه أشبه فعله فعل الكفار أهل الجاهلية.

ثانيهما: أنه كافر نعمة الله والإسلام عليه[٦].

فلو انتمى مُنْتَمٍ إلى أب من الناس، وهو لا يعلم الحقيقة في ضد ذلك، لم يكن داخلًا في هذا الوعيد؛ وذلك لأن ارتكاب الفاحشة إذا كان منها ما تُعَرُّ له الأعراض، وتنكس له الرءوس وتخجل فيه الوجوه؛ فإنما ذلك كله من أجل نتيجته أن يكون شخص لغير أبيه، فإذا سعى إنسان في أن ينتمي إلى غير أبيه راضيًا بأحوال أولاد الزنا، فقد رضي من الدناءة وسقوط المنزلة بما ينافي أخلاق أهل الجنة[٧].

إن تحريم الإسلام وسائر الأديان السماوية للتبني له أسباب:

١. أن التبني مخالف للفطرة الإنسانية وكذب، فإنّ جعل شخص ولدًا وهو

(١) سبق تخريجه.
(٢) منحة الكريم الوهاب، سليمان اللاحم ص ٢١- ٢٢. ثبوت النسب، ياسين الخطيب ص ٣٣٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ٥، ٧/ ٢٢٧، رقم ٣٥٠٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب من ادعى إلى غير أبيه، ١٣/ ٥٤٧، رقم ٦٧٦٨.
(٦) تفسير آيات الأحكام، محمد السايس، ص ٦٢٨.
(٧) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، ١/ ٣٣٧.

ليس بمولود له، هو افتراء على الحقيقة وضد الطبيعة الإنسانية؛ ذلك أن الأبوة والأمومة ليست ألفاظًا تُردّد ولا عقدًا يُعقد فحسب، إنما هو ارتباط لحم ودم، وارتباط علاقة الوراثة للخصائص التي تحملها النطفة وعلاقة المشاعر الطبيعية الناشئة عن كون الولد بضعة حية من جسم والده الحي، فهذه هي علاقات الدم والأبوة والبنوة الواقعية؛ لذلك قرر القرآن الكريم أن التبني ليس إلا بنوة بالأفواه، لا بالطبع والفطرة والحقيقة، والكلام لا يغيّر واقعًا، ولا ينشيء علاقة، فإقامة العلاقات الحقيقية لا تكون إلا على أساس الولادة الحقيقية وليس على أساس التبني[1].

٢. منع اغتصاب الأنساب وتجريد الطفل من نسبه الأصلي؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

٣. الإسلام يقوم في جميع علاقاته الاجتماعية على أساس من الحق والعدل ورعاية الحقيقة، وهذا يقتضي نسبة الولد إلى أبيه الحقيقي، لا لأبيه المزعوم أو المزوّر، والحق أحق أن يُتّبع.

٤. الواجب على الوالد أن ينسب ابنه إليه لا إلى غيره، فيكون التبني ظلمًا للوالد الحقيقي، وإهدارًا لمعنوياته، ومساسًا بكرامته وحقوقه.

٥. التبني مجرد تحقيق نسب مزعوم أو قول باللسان، لا أساس له من شرع أو منطق أو حكمة ثابتة، وحينئذ لا تكون نسبة الولد إلى غير أبيه الصحيح نسبة صحيحة، وإنما هي مزوّرة[2].

٦. بنسخ نظام التبني وإبطال آثاره بطل النسب عن طريق التبني، فلا يجوز لأحد أن يفعله لأي سبب كان، فما يفعله بعض الناس اليوم من تبني بعض اللقطاء أو مجهولي النسب بحجة الرحمة به والعطف عليه وتربيته أو غيرها من الأسباب، لا تجعله حلالًا؛ بل يبقى حرامًا، ولا يترتب على الولد بالتبني أي آثار شرعية، ولا أيّ حكم من أحكام البنوة الحقيقية[3].

٧. إن المتبنَّى سيكتشف الحقيقة آجلًا أو عاجلًا، ومن ثَمَّ ستسبب له اضطرابات نفسية، وينشأ نشأة غير طبيعية؛ لأنه يدرك أن أباه الحقيقي تخلى عنه.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٥٣٥، تنظيم الإسلام للمجتمع، أبو زهرة ص١٢٧.

(٢) أحكام اللقيط، عمر السبيل ص١٧٥.

(٣) المفصل في أحكام المرأة، عبدالكريم زيدان ص٤٣٩.

آثار التبني ومفاسده في الماضي والحاضر، تتضح فيما يأتي:

١. أنه مخالف للفطرة البشرية والطبيعة الإنسانية؛ لما فيه من الكذب والزور واختلاط الأنساب.

٢. فيه ظلم للوالدين الحقيقين، وإهدار لمعنوياتهما، ومساس بكرامتهما وحقوقهما.

٣. يؤدي إلى تحريم ما أحل الله من النكاح بتحريم زوجة المتبنَّى على المتبنِّي أو أولاده، وبالعكس.

٤. قد يؤدي إلى الزواج بالمحارم لانقطاع صلة المتبنَّى بأسرته الأصلية.

٥. فيه اعتداء على المحرمات باختلاط زوجة المتبنِّي وبناته وجميع محارمه بهذا المتبنَّى، والخلوة بهن، والسفر معهن.

٦. التبني فيه مشاركة الآخرين حقوقهم المالية من النفقة والميراث، فهو أخذ حق مالي بغير وجه شرعي.

٧. قد يُتخذ التبني ذريعة للكيد بأحد الورثة؛ لحرمانه من حقه الذي خصّصه الشرع له.

٨. المتبنَّى غالبًا لا يوجد لديه انتماء حقيقي لأسرته المتبناة ولا لمجتمعه الذي يعيش فيه؛ لأنه يعرف أنه غريب عنهم، وقد يتخلون عنه لأي ظرف أو عند أول طارئ يطرأ عليهم.

٩. قد يكون التبني بدون موافقة الزوجين (المتبنِّي وزوجته) مما يجعل المتبنَّى في وضع مأساوي؛ لأنه يلاقي من الطرف الذي لا يوافق على تبنيه الذل والهوان، وينشأ نشأة معقّدة.

١٠. تخلّي المتبنَّى عن جنسيته الأصلية؛ لأنه تبع لجنسية المتبنِّي له، وتبعًا لذلك تخلّيه عن الأعراف والتقاليد التي تؤمن بها أسرته الأصلية.

١١. بما أن الله تعالى جعل في كل جسد من جينات مورثة ما هو ظاهر في شكله وأخلاقه وكثير من تصرفاته؛ فإن هذا ينعكس سلبًا على المتبنَّى فيما لو كان متبنيه من بلد آخر، وعادات وتقاليد مختلفة تمامًا، مما يجعله يصطدم بالقيم الاجتماعية والدينية.

١٢. إذا كان المتبنَّى فتاة، فقد يمارس من تبنّاها معها الفاحشة؛ لعدم وجود الحاجز المعنوي الذي يتولد عند المرء بسبب القرابة القريبة المحرّمة، وعندما يكون ذكرًا فقد يقع في الفاحشة مع أحد محارم متبنيه.

ثانيًا: بيان الأم الحقيقية:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ [المجادلة: ٢].

يقول تعالى ذكره: الذين يُحرّمون نساءهم على أنفسهم، فيقولون لهن: أنتن علينا كظهور أمهاتنا، وذلك كان طلاق الرجل امرأته في الجاهلية[(١)] ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ لا تصير المرأة بقول الرجل: أنت عليّ كظهر أمي أو كأمي أمًّا[(٢)]؛ لأن الزوجة محللة، والأم محرّمة، وتشبيه المحللة بالمحرمة في وصف الحل والحرمة كذب[(٣)]. ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ أي: إنما أمه التي ولدته[(٤)]، فأمهاتهم على الحقيقة اللائي ولدنهم، فلا يشبّه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الله بهن[(٥)] [(٦)] وهن:

١. أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾[الأحزاب: ٦].

قررت الآية الأمومة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذلك حرمة له وتشريفًا لقدره صلى الله عليه وسلم[(٧)]. فهن منزّلات منزلة الأمهات في تحريم نكاحهن، واستحقاق تعظيمهن، ومن حيث وجوب أداء حقوقهن من الاحترام والإكرام والتوقير والإعظام ومحبتهن والدفاع عنهن، وعدم أذيتهن وبغضهن، وأما غير ذلك فهن أجنبيات، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وليس أمومتهن لهم من حيث الميراث، ولا من حيث جواز خلوتهم بهن، ولا كونهم محارم لهن؛ بل حرمتهن عليهم أشد من حرمة غيرهن[(٨)].

٢. الأم من الرضاع.

قال الله عز وجل في شأن المحرمات

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٥٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤٥.
(٥) تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٧٢٠.
(٦) حرم الإسلام النكاح بأصناف من النساء هن سبع من النسب: الأمهات مهما علون، والبنات مهما نزلن، والأخوات، والعمات، والخالات سواء الشقيقات أو لأب أو لأم، وبنات الأخوة والأخوات مهما نزلن، ومثلهن من الرضاع. وسبع من المصاهرة: زوجات الأبناء، وقيد الله تعالى حلائل الأبناء بـ الذين من أصلابكم ليخرج الابن الدعيّ، فهذا تحل حليلته لمن تبناه، وذلك فائدة التقييد، وأمهات الزوجات، وبنت الزوجة المدخول بها، والجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها.
انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٢٥٧، التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٤/ ٣١٢- ٣١٥.
(٧) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٧٧.
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٧، منحة الكريم الوهاب، اللاحم ص٣٢-٣٣، تفسير آيات الأحكام، السايس ص٦٢٩-٦٣٠.

من النساء: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: ٢٣].

أي: وُحِّرمت عليكم أمهاتكم اللاتي أرضعنكم، وسواء امتص الطفل من ثدي المرأة مباشرة، أو وضعت اللبن في إناء وأسقته للطفل، فإنها تُسمّى أمه من الرضاع مادام تغذى بلبنها امتصاصًا أو شربًا[١]، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يحرم من الرضاعة مايحرم من النسب)[٢]، وفي رواية: (فإنما الرضاعة من المجاعة)[٣]. والحكمة من التحريم بالرضاعة أن المولود يتكوّن جسمه من جسم التي أرضعته فيكون جزءًا منها، كما هو جزء من أمه التي حملته، وإذا كانت هذه غذّته بدمها في بطنها، فتلك غذّته بلبنها في حجرها، وربما تكون مدة الإقامة في حجرها أطول كثيرًا من مدة الحمل، فكان لابد أن يثبت لهذه الأم الرضاعية ما يثبت للأم النسبيه من حرمة وكرامة، وفي هذا التحريم تنبيه إلى أن يتخير الآباء من يرضعن أولادهم؛ لأنهم إذا علموا أن أولادهم ستكون أجزاؤهم ممن يرضعنهم تخيروهن من ذوات الأجسام القوية، والدماء النقية التي لا يدنّسها مرض ينتقل بالوراثة، ولقد كان العرب والسلف الصالح يتخيرون مراضع أولادهم لهذه المعاني[٤].

أما الأم من التبني فهي أمومة مصنوعة تؤتي ثمارها وتنكشف حقيقتها إذا ما دارت الأيام، قال تعالى عن امرأة العزيز: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولولا أنه نبي معصوم لوقع في الخطأ أو المحظور ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤].

فألهمه الله أن الفرار من هذا الموقف هو الخير[٥].

هذا ما حدث مع نبي، إذًا فمن يفلت من الوقوع في المعصية مع التبني واستباحة العورات، مع أن أحدهم ليس من محارم الآخر، مما يكون سببًا للوقوع في المعاصي[٦].

(١) تفسير آيات الأحكام في سورة النساء، سليمان اللاحم ١/ ٣٧٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض، ٥/ ٥٨٠، رقم ٢٦٤٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض، ٥/ ٥٨٠، رقم ٢٦٤٧.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٦٣٢.
(٥) تفسير المراغي ٤/ ٣٩٣.
(٦) انظر: التبني في الإسلام، يحيى الشامي ص ٣٧.

ثالثًا: زواج النبي من زينب:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧-٣٨].

لما زوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة بزينب بنت جحش رضي الله عنهما وكان من أغراض هذا الزواج:

- إلغاء الفوارق الطبقية.
- أنه كان مقدمة لتشريع آخر يقوم عليه، وإن لم تُعلم الحكمة في بداية الأمر للزوجين[١].

فمكثت عنده تقريبًا من سنة أو فوقها[٢]، لكن حياة الزوجين لم تصفُ لهما، فكان زيد مرة بعد مرة يشكو إلى رسول الله اضطراب حياته معها، والنبي صلى الله عليه وسلم يحسّ ثِقل التبعة فيما ألهمه الله من أمر زينب، فيواجه القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق[٣].

قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أي: أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أعتقه من الرق، وتبنّاه[٤]، ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ الآية، يعاتب الله فيها نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأنه يقول لزيد: أبقِ زوجك زينب بنت جحش ولا تعجل بطلاقها، واتق الله يا زيد في أمرها[٥]. ويدل هذا على أنه ينبغي لمن بدا له طلاق زوجته أن لا يتعجل، وأن يستشير من يثق به من أهل العلم والرأي والنصح والشفقة، وأن المستشار عليه أن يأمر بالإمساك مهما أمكن صلاح الحال فهو خير من الفرقة[٦].

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ والذي كان يخفيه النبي صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله تعالى به إليه أن زينب سيطلّقها زيد، ويتزوجها بعدُ النبي صلى الله عليه وسلم والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خوف لوم الناس وتعييرهم بأن يقولوا: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ

(١) انظر: مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش، زاهر الألمعي ص ٦٤.
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٣١٢.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٥٩٥.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٤٤.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: منحة الكريم الوهاب، سليمان اللاحم ص ١١١.

في الإبطال منه، وهو تزوُّج امرأة الذي يدعى ابنًا، ووقوع ذلك من إمام المسلمين؛ ليكون أدعى لقبولهم[1]. فقد اختار الله بيت النبوة، بل نبي الرسالة الخاتمة؛ ليتم على يديه وفي بيته الإعلان العملي لإبطال هذه العادة من خلال تشريع يتردد صداه بأقوى قوة في المجتمع، فالتعليم الفعلي، أبلغ من القولي خصوصًا إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور[2].

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ يشير إلى أن رعاية جانب الحق أحق من رعاية جانب الخلق؛ لأن لله تعالى في إبداء هذا الأمر، وإجراء هذا القضاء حِكمًا كثيرة، فالواجب على النبي صلى الله عليه وسلم -وأمته تبع له في ذلك- إذا عُرض له أمران، في أحدهما رعاية جانب الخلق، وفي الآخر رعاية جانب الحق، أن يختار رعاية جانب الحق على الخلق، فإن للحق تعالى في إجراء حكم من أحكامه، واختيار أمر من أوامره حِكمًا كثيرة، كما قال تعالى في تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾[3].

عن أنس رضي الله عنه قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اتق الله وأمسِك عليك زوجك). قال أنس: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا لكتم هذه)[4].

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها قالوا: تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وكان رسول الله تبنّاه وهو صغير فلبث حتى صار رجلًا يقال له: زيد بن محمد؛ فأنزل الله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾[5].

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ الوطر: هو الحاجة والأرب، أي: لما فرغ منها وفارقها ولم تبق له بها حاجة، طلّقها باختياره[6]، ولما انتهت عدتها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ صرّح الله تعالى بأنه هو الذي زوّجه إياها ولم يُحوجه إلى ولي وشهود وعقد وصداق؛ تشريفًا له ولها، قال أنس: (فكانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: زوّجكن أهاليكن، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع

(١) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٥.
(٣) انظر: حدائق الروح والريحان، الهرري ٢٣/ ٢٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء. ١٥/ ٣٦١ رقم ٧٤٢٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٣.
(٦) أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ٢٤١.

سماوات)[1]. وفي رواية كانت تقول: (إن الله أنكحني في السماء)[2].

وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين[3]، وفيه دليل على ثبوت الولي في النكاح[4]، وفيه دليل على أن أولياء النساء وكلاء الله في تزويجهم؛ لأنهن إماؤه فإذا ولي الإنكاح هو جل وعز لم يكن لوكلائه معه ولاية[5].

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: إذا طلقوهن وانقضت عدتهن، وفيه دليل على أن الأمة مساوية للنبي صلى الله عليه وسلم في الأحكام، إلا ما قام دليل على تخصيصه به؛ لأنه صرّح بأنه فعل ذلك لنبيه ليرتفع الحرج عن المؤمنين في مثله[6].

وفيه إشارة إلى أن التزويج من النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن لقضاء شهوة، بل لبيان الشريعة بفعله، فإن الشرع يستفاد من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وقوله، كما يستفاد من القرآن الكريم، ثم بيّن أن زواجه صلى الله عليه وسلم بها مع أنه كان مبيّنًا لشرع، مشتملًا على فائدة كان خاليًا من المفاسد[7]، فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة، أعلمهم أنه لا حرج ولا ضيق على رسول الله صلى الله عليه وسلم في نيل ما فرض الله وقسم وقدر له من تزويج زينب بعد زيد، ثم أعلم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء الذين مضوا من أن ينالوا ما أحل الله لهم ووسع عليهم، فلم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردٌّ على من توهم من المنافقين نقصًا في تزويجه صلى الله عليه وسلم امرأة زيد مولاه ودعيِّه الذي كان قد تبنّاه[8] ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: أمرًا وقضاءً وحكمًا مقضيًّا وكائنًا لا محالة، محددًا وقت وقوعه وكيفية وقوعه، لا يتأخر ولا يتقدم ولا يتغير، فلا حرج على أحد فيما أحل له[9]، فما شاء الله كان ومالم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، ١٥/ ٣٦١، رقم ٧٤٢٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، ١٥/ ٣٦١، رقم ٦٤٢١.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٧٠.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٣٧.
(٥) انظر: نكت القرآن، القصاب ٣/ ٦٥٦.
(٦) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي، ص ٥١٥-٥١٦.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢١٢.
(٨) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١٣/ ٧٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٣٢٣.
(٩) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١٣/ ٢٦٦،

يشأ لم يكن[1].

فوائد مستفادة من قصة زيد وزينب رضي الله عنهما:

١. إظهار صلابة الأنبياء في بيان الأحكام الإلهية، وأن يكون ظاهرهم وباطنهم سواء؛ لأن الله تعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بأن زيدًا سيطلّق زينب وينكحها هو، فما الداعي لوعظه وقوله له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾[2].

إن هذا الزواج كان امتحانًا قاسيًا للنبي صلى الله عليه وسلم حيث يؤمر به ويعلم نهايته، وزينب تحت مولاه زيد، والحكمة كما نطق القرآن هو تحطيم مبدأ كان معمولًا به ومشهورًا عند العرب، هو تحريم زواج امرأة الابن من التبني كتحريمها إذا كان الابن من النسب[3]، قال تعالى في المحرمات من النساء، ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

أي: من ولدتموه لا من تبنيتموه[4]، فيُفهم منه أن حليلة دعيِّه الذي تبناه لا تحرم عليه[5]؛ لأنه ليس من صلبه، فأما الابن من الرضاعة فمنزل منزلة ابن الصلب شرعًا[6] بقوله صلى الله عليه وسلم: (يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)[7].

إن نظام التبني كانت له آثار واقعية في حياة الجماعة العربية، ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية في حياة المجتمع ليمضي بالسهولة التي يمضي بها إبطال تقليد التبني ذاته؛ لذلك شاء الله أن يحمّل نبيه صلى الله عليه وسلم مؤنة إزالة آثار التبني، ويواجه المجتمع بهذا العمل الذي لا يستطيع أحد غيره أن يواجه المجتمع به[8].

ويدل تحرج النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الزواج على أن للأعراف والعادات تأثيرًا كبيرًا في المجتمعات والسلوك[9].

٢. زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب مسألة يتدخل فيها الله تعالى تدخلًا مباشرًا، وفي هذا درس للمؤمنين فيعطوا هذا الموضوع حقه من الفهم والعلم والاحترام والتوقير[10].

منحة الكريم الوهاب، اللاحم ص١٢١.

(١) انظر: حدائق الروح والريحان، الهرري ٢٣/ ٣٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٣٤-٣٥.

(٣) انظر: النبوة والأنبياء، الصابوني، ص٩٧.

(٤) انظر: نكت القرآن، القصاب ٣/ ٦٥٨.

(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٣٢.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٤.

(٧) سبق تخريجه.

(٨) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٥٩٤-٥٩٥.

(٩) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٣٦.

(١٠) الأساس في التفسير، سعيد حوى، ٥/ ١٤٦.

٣. ينبغي لمن أراد طلاق زوجه أن لا يتعجل، وأن يستشير من يثق به من أهل العلم والرأي والنصح والشفقة؛ لأن زيدًا استشار النبي صلى الله عليه وسلم أنصح الناس للخلق أجمعين، وعلى المستشار تقديم النصيحة والأمر بإمساك الزوجة مهما أمكن صلاح الحال؛ فهو خير من الفرقة[١].

٤. إكرام الله تعالى لزيد رضي الله عنه بأن جعل اسمه يُقرأ على ألسنة المؤمنين إلى يوم الدين[٢].

٥. استخارة الله في الأمور، عن أنس قال: (لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: (فاذكرها عليّ)، قال: فانطلق زيد، أتاها وهي تخمّر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها؛ فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن...)[٣].

٦. منقبة عظيمة لزينب بنت جحش رضي الله عنها ، ورفعة لها وإعلاء لشأنها؛ حيث تولى الله عز وجل تزويجها لرسوله صلى الله عليه وسلم بسبب طاعتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كرهت زواجها لزيد، ثم رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤]. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اتق الله، وأمسِك عليك زوجك)، قال أنس: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا لكتم هذه الآية. قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: زوَّجكن أهاليكن، وزوَّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات). وفي رواية: (إن الله أنكحني في السماء)[٥].

(١) منحة الكريم الوهاب، اللاحم ص ١١٨.
(٢) أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٧٤٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب واثبات وليمة العرس، ٢/ ١٠٤٨، رقم٨٩.
(٤) انظر: فتح الباري ٩/ ٤٧٩.
(٥) سبق تخريجه.

شبهات وردود على زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضي الله عنها:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾

ذكر المفسرون روايات كثيرة في تفسيرها نذكر منها:

- أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل منزل زيد بن حارثة أبصر امرأته قائمة في درع وخمار، وكانت بيضاء جميلة ذات خلق، من أتم نساء قريش. فأعجبته، فقال: (سبحان مقلّب القلوب)، فلما سمعت زينب ذلك جلست، وجاء زيد إلى منزله، فذكرت ذلك له زينب، فعلم أنها وقعت في نفسه، فأتى زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن بها غيرة وإذاية بلسانها»، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمسِك أهلك)، وفي قلبه غير ذلك، فطلّقها زيد[1].
- وفي رواية: «فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا يريده، وعلى الباب ستر من شعر، فرفعت الريح الستر فانكشف، وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي صلى الله عليه وسلم. فلما وقع ذلك كُرِّهت إلى الآخر، قال: فجاء فقال: «يا رسول الله، إني أريد أن أفارق صاحبتي». قال: (مالك، أرابك منها شيء؟) قال: «لا والله ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلا خيرًا». فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمسِك عليك زوجك واتق الله)، فذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ .. ﴾ تخفي في نفسك إن فارقها تزوجتها[2]. وفي رواية: وتخفي في نفسك محبة فراقه إياها؛ لتتزوجها إن هو فارقها[3].
- وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم جاء إلى بيت زيد فلم يجده، وعرضت زينب عليه دخول البيت فأبى أن يدخل، وانصرف راجعًا يتكلم بكلام لم تفهم منه سوى (سبحان الله العظيم، سبحان

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٦٢، أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٥٤١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١١٦.
(٣) المصدر السابق ١٩/ ١١٥.

مصرّف القلوب)، فجاء زيد فأخبرته بما كان، فأتى رسول الله فقال له: «بلغني يا رسول الله أنك جئت منزلي، فهلا دخلت يا رسول الله، لعل زينب أعجبتك فأفارقها»، فقال عليه الصلاة والسلام: (أمسِك عليك زوجك، واتق الله)، فما استطاع زيد إليها سبيلًا بعد ففارقها[1].

الرد على هذه الشبهة:

قال صاحب الرحيق المختوم: «إن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين قرروا أن يشنّوا حربًا دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم أول هدف لهذه الدعاية.

وقد ظهرت خطتهم بعد غزوة الأحزاب، حينما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين زينب بنت جحش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة، فوجد المنافقون ثلمتين -حسب زعمهم- لإثارة المشاغب ضد النبي صلى الله عليه وسلم.

الأولى: أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة، والقرآن لم يكن أذن في الزواج بأكثر من أربع نسوة فكيف صح له هذا الزواج؟

الثانية: أن زينب كانت زوجة ابنه -متبناه- فالزواج بها من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب، وأكثروا من الدعاية في هذا السبيل، واختلقوا قصصًا وأساطير، قالوا: إن محمدًا رآها بغتة، فتأثر بحُسنها وعلقت بقلبه، وعلم بذلك ابنه زيد فخلّى سبيلها لمحمد، وقد نشروا هذه الدعاية المختلقة نشرًا بقيت آثاره في كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان، وقد أثّرت تلك الدعاية تأثيرًا قويًّا في صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات فيها شفاء لما في الصدور، وينبيء عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]»[2].

أما قولهم: إن النبي صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت في قلبه، فباطل وجهل من القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله، ونسبته رسول الله إلى ما برّأه الله منه، فإن زينب ابنة عمته، وكان يراها ولم يكن حينئذ حجاب، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج، حاشا لذلك القلب المطهّر من هذه العلاقة الفاسدة[3].

إن الله تعالى كان قد أوحى إلى نبيه صلى

(١) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٤.

(٢) الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٣٠٠-٣٠١.

(٣) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٥٤٣.

الله عليه وسلم أن زيدًا يطلّق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية: (اتق الله في قولك، وأمسِك عليك زوجك)، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه وخشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو متبناه[1] ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: مما أخبرك الله من أنها ستصير إحدى زوجاتك بعد طلاق زيد لها[2] وهو مطابق للتلاوة؛ لأن الله أعلم أنه مبدي ما أخفاه عليه الصلاة والسلام ، وهذا الذي أبداه الله جل وعلا هو زواجه إياها في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ ولم يُبد جل وعلا شيئًا مما زعموه أنه أحبها، ولو كان ذلك هو المراد لأبداه الله تعالى[3].

فإن قيل: فلأي معنى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: أمسِك عليك زوجك، وقد أخبره الله أنها زوجته؟

قلنا: إنه أراد أن يختبر منه ما لم يُعلمه الله به من رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى له زيد من النفرة عنها والكراهية لها ما لم يكن علمه منه في أمرها[4]. ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ تخاف لائمة الناس أن يقولوا: أمر رجلًا بطلاق امرأته ثم نكحها، أو تزوج امرأة ابنه؛ لأن زيدًا كان يُدعى ابنه، والله أحق أن تخشاه من الناس ولا تجمع خشية الناس مع خشية الله في أن تؤخر شيئًا أخبرك به لشيء يشق عليك. قال جمع من الصحابة: «ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد عليه من هذه الآية»[5].

فمتعلق الخشية على رأي القائلين بالعشق والغرام هو خشيته صلى الله عليه وسلم أن يطّلع الناس على ما في قلبه من الحب والميل إلى زينب. أما على رأي المحققين العارفين بأحوال الأنبياء، فمتعلق الخشية خشيته صلى الله عليه وسلم من وقوع الناس في عِرضه وقولهم: تزوج بزوجة ابنه. والفرق واضح بين متعلق الخشيتين في كلتا الحالتين[6] والعتاب عليه على إظهار ما ينافي الإضمار[7].

وليس معنى الخشية هنا: الخوف، وإنما

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٦٨.
(٢) انظر نظم الدرر، البقاعي ٦/ ١٠٨.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٤. أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٤١.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٥٤٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٥٥.
(٦) انظر: مع المفسرين والمستشرقين، زاهر الألمعي ص٧٨.
(٧) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٤.

معناه الاستحياء، أي: يستحي منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه، وأن خشيته صلى الله عليه وسلم من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه، بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء، فعتبه الله تعالى على هذا، أو نزّهه عن الالتفات إليهم فيما أحله الله[1]، قال بعض العلماء: «ليس هذا من النبي صلى الله عليه وسلم خطيئة؛ ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالإستغفار منه، وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس[2]، وأن يقولوا قولًا ويظنوا ظنًّا فيهلكوا، والرسول صلى الله عليه وسلم رءوف رحيم بأمته، فهو يخشى عليها من الوقوع في الهلاك باعتقاد ما يتنافى مع كرامة الأنبياء وعصمتهم»[3].

وخاصة أن في المؤمنين حدثاء الإسلام من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، فكانت خشية رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة بهم أن يلقي الشيطان في أنفسهم شيئًا يأثمون به ويهلكون، فهذه الخشية كانت من قبيل الرحمة والإحسان إلى المؤمنين ليحفظ صلى الله عليه وسلم عليهم إيمانهم[4].

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

هو جواب عن سؤال مقدر، تقديره: أمحمد أبو زيد؟ فأجيب بنفي الأعم المستلزم لنفي الأخص؛ إذ لو اقتصر على قوله: ما كان محمد أبا زيد، لقيل: ماذا يلزم منه؟ فقد كان للأنبياء أبناء، فجيء بنفي الأعم تمهيدًا للاستدراك بأنه رسول الله وخاتم النبيين[5].

والخلاصة في الرد على هذه الشبهة:

١. الروايات في قصة الحب والغرام ضعيفة من حيث السند.
٢. تتنافى مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ومكانته من حيث المتن.
٣. لو كان الذي أخفاه صلى الله عليه وسلم هو محبته لها لأظهره الله تعالى؛ لأنه تعالى قد وعد باظهاره، ولكن الله تعالى أظهر أنه سيتزوجها.
٤. أن هذا الزواج لحكمة لا تعلوها حكمة في زواج أحد من أزواجه صلى الله عليه وسلم، وهي إبطال بدعة التبني، فما أظهره الله تعالى هو رغبته صلى الله عليه وسلم في تنفيذ أمر الله

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١٣/ ٢٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٦٩.
(٣) انظر: مع المفسرين والمستشرقين، زاهر الألمعي ص٨٩.
(٤) انظر: آيات عتاب المصطفى صلى الله عليه وسلم في ضوء العصمة والاجتهاد، عويد المطرفي، ص٢٦٧-٢٦٨.
(٥) انظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا الأنصاري ص٣٣٩.

بالزواج من مطلقة متبنيه (زيد) لإبطال حكم التبني وتحريم زوجة الدّعي على من تبنّاه[1].

٥. قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أخبرهم الله تعالى أن نساء الأدعياء حلال لهم إذا طلقوهن.

وقضاء الوطر: بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء. فليس على رسول الله صلى الله عليه وسلم حرج في هذا النكاح[2].

ففيه أكبر حجة على الذين خاضوا في عِرض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم، الصابوني ص٤٥-٤٩.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٤٥.

بدائل التبني في الإسلام

شرع الإسلام بدائل للتبني تغني عنه، ومن تلك البدائل:

أولًا: الأخوة والولاء في الدين:

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

حرص الإسلام على إقامة المجتمع الإسلامي على أساس الحق والعدل والصدق والواقع، فمن أهم صفات أهل الإيمان: الولاية في الله خاصة[3]، فإن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم[4]، يتولى بعضهم بعضًا في النصرة والحماية والمحبة

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٢٢٩.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٥٦.

والتأييد[1]؛ لأنهم جمعتهم الرحمة والمودة، والإخلاص لله تعالى وللحق، وجماعتهم وأسرهم تقوم على الفضيلة، والإخلاص والتراحم، فقلوبهم قد صغت لله تعالى، ولانت أفئدتهم له سبحانه، فهم مرتبطون برباط معنوي لا ينفصهم؛ لأنه مربوط بالعروة الوثقى لا انفصام لها، فهي رباط المؤمنين الذي يستمسكون به[2]، جماعتهم كالجسد الواحد، وهم كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا، بينهم ولاية النصرة في الدفاع عن الحق والعدل وإعلاء كلمة الله[3].

فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة، وإلى تعاون وتكافل وتضامن في تحقيق الخير ودفع الشر[4]، يعين فيه المسلمون بعضهم بعضًا في أمورهم الحياتية، وتنتشر المودة والرحمة والبركة بين أفراد المجتمع، وبذلك نحمي المجتمع من الفتن والجرائم، ويعيش الجميع في أمان واطمئنان[5].

فالناس يحتاج بعضهم إلى بعض في كل شئون الحياة، وهم في مجموعهم قوة متماسكة لا تبدو في تمامها واكتمالها إلا بقوة كل فرد من أفرادها وسعادته، أما الذين تحول ظروف الحياة بينهم وبين تمتعهم بالحقوق التي كفلها الإسلام، فاعتبر المجتمع هو المسئول عن تحقيقها لهم[6].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)[7].

ولا عبرة للتقاليد والعادات المنتشرة بين الناس والجارية على أفواههم إذا ما خالفت الحقيقة أو الشريعة[8].

لذلك قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

أي: أدعياؤكم الذين لم تعلموا آباءهم من هم، فتنسبوهم إليهم، ولم تعرفوهم فتلحقوهم بهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ إن كانوا من أهل ملتكم ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ إن كانوا محرريكم وليسوا ببنيكم[9]، فادعوهم

(١) انظر: أيسر التفاسير، أسعد حومد ١/ ٦٧٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٣٧٠-٣٣٧١.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١٣٠.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢-٢٥٣.
(٥) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٣/ ٢٦٨.
(٦) انظر: منهاج الصالحين، عز الدين بليق، ص٤٢٣-٤٢٤.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ١٢/ ٥٠، رقم ٦٠١١، عن النعمان بن بشير.
(٨) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين ٦/ ٧٦.
(٩) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٢.

بالأخوة والمولوية بتأويلهما بالأخوة والولاية في الدين، وكأن دعاءهم بذلك لتطييب قلوبهم؛ ولذا لم يؤمر بدعائهم بأسمائهم فقط[(١)].

ففيه دليل على أن من لا أب له معروف من ولد دعيّ أو لعان لا ينتسب إلى أمه ولكنه يقال له: أخو معتقه ومولاه إن كان حرًّا، أو عبده إن كان رقًّا[(٢)].

ولهذا قيل لسالم بعد نزول الآية: مولى أبي حذيفة، وكان قد تبنّاه قبل[(٣)]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لزيد: (أنت أخونا ومولانا)[(٤)].

بمعنى أنه حتى في حال عدم علمكم بآبائهم لا يجوز لكم أن تنسبوهم لغير آبائهم، بل ادعوهم بقولكم إخواننا في الدين وموالينا؛ لأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض[(٥)].

وظاهر الآية أيضًا يدل على أنه يحرم على الإنسان أن يتعمد دعوة الولد لغير أبيه، وذلك محمول على ما إذا كانت الدعوة على الوجه الذي كان في الجاهلية، وأما إذا لم تكن كذلك كما يقول الكبير للصغير: يا بني، فالظاهر عدم الحرمة، وظاهر الآية أيضًا أنه يباح أن يقال في دعاء من لم يعرف أبوه: يا أخي أو يا مولاي إذا قصد الأخوة في الدين والولاية فيه، بشرط ألا يكون المدعو فاسقًا فمثل هذا يدعى باسمه أو بـ يا عبدالله، أو يا هذا. ونحوه[(٦)].

قال ابن كثير: «وأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نُهي عنه في هذه الآية»[(٧)].

ولذوي الأرحام حق عظيم على الإنسان؛ إذ جعل الله تعالى لهم الأولوية على غيرهم، ومن هنا مدح الإسلام الذين يصلون أرحامهم ويتقون الله فيهم[(٨)].

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾[النساء: ١].

وهذه الآية ناسخة لما كان في صدر الإسلام من الموارثة: بالحلف[(٩)]،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ١٤٦.
(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٥٠٦.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ١٤٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان، ٥/ ٦٤٣، رقم ٧٦٩٩.
(٥) انظر: منحة الكريم الوهاب، اللاحم ص٢٣.
(٦) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص٦٢٧-٦٢٩.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٤.
(٨) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٨٠.
(٩) فقد كان الرجل يقول لآخر: دمي دمك وهدمي هدمك وترثني وأرثك وتُطلب بي وأطلب بك، فإذا فعلا ذلك ومات أحدهما كان للحي ما اشترط من مال الميت.
انظر: تفسير المراغي ٢/ ١٦٢.

والهجرة[1]، والتبني، والمعاقدة[2][3].

أي: ذوو القرابة من المسلمين بعضهم أحق بميراث بعض في حكم الله وشرعه من الإرث بالايمان والهجرة -كما كان في أول الإسلام- إلا أن تفعلوا -أيها المسلمون- إلى غير الورثة معروفًا بالنصر والبر والصلة والإحسان والوصية[4].

وولاية المؤمنين بعضهم بعضًا مستمرة، فلا مانع أن تفعلوا إلى من بينكم وبينهم موالاة ومناصرة معروفًا بالإحسان إليهم بالوصية والنصرة والبر والصلة وغير ذلك[5].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ويدخل في الآيتين[6] سائر الولايات من المناكح والأموال والعقل[7] والموت»[8].

والاستثناء في فعل المعروف واقع على من كان وليًّا للميت من المؤمنين والمهاجرين، ويكون المعروف وصية يوصى له حيث نسخ الميراث عنه إلى ذي الرحم[9].

ثانيًا: كفالة اليتامى:

المجتمع الإسلامي مجتمع متعاون على البر والخير، مجتمع يرى أن التكافل الاجتماعي هو القاعدة التي ينبغي أن يرتكز عليها هذا المجتمع، فعلى المسلمين أن يكفلوا ويراعوا مصالح الضعفاء في مجتمعهم، كما يراعون حقوق أقويائهم وأغنيائهم.

واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف، أحوج الناس إلى الرحمة والرفق بهم، والمساهمة الفعالة في تخفيف آلامهم، ودفع ما ينزل بهم من ضر وجور، فإكرام اليتامى فيه تقوية للأمة بإنشاء نشء على الخُلق القويم؛ لذلك:

حث الله تعالى على كفالة اليتامى

(١) فكان المهاجِر يرث من المهاجَر إليه، وإن كان أجنبيًّا عنه، إذا كان بينهما مخالطة وود ولا يرثه غير المهاجر وإن كان من أقاربه.
انظر: تفسير المراغي ٢/ ١٦٢.

(٢) كان الرجل من أهل الجاهلية يعاقد الرجل أي: يحالفه، فيستحق من ميراثه نصيبًا.
انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٥٩١.

(٣) انظر: أحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٥٩، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٥٣.

(٤) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص ٤١٨.

(٥) منحة الكريم الوهاب، اللاحم ص٣٦.

(٦) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال:٧٥].
وقال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب:٦].

(٧) العقل: الدية، وإنما قيل للدية: العقل؛ لأنهم كانوا يأتون بالإبل فيعقلونها بفناء ولي المقتول، ثم كثر ذلك حتى قيل لكل دية: عقل، وإن كانت دنانير أو دراهم.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٦٠.

(٨) مجموع الفتاوى ١٥/ ٤٤٣.

(٩) انظر: نكت القرآن، القصاب ٣/ ٤٥.

والإحسان إليهم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وقال جل شأنه: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٥].

والإحسان إلى اليتامى ميثاق وعهد، أخذه الله على بني إسرائيل وليس خاصًّا بهم، بل هو ميثاق النبيين في كل العصور.

ولكن بني إسرائيل مع العهود والمواثيق لا يفون، فعلى المسلمين الحذر مما وقع فيه أولئك من مخالفة الميثاق وعدم الوفاء به[(١)].

ويجب الإحسان إلى اليتيم، وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ، وإنما أوصى الله به في كثير من الآيات؛ جبرًا لما حصل له من الانكسار بموت الوالد مع صغره، فكان من رحمة الله عز وجل وحكمته أن أوصى بالإحسان إليه[(٢)]، فمن فقد أباه فقد انفرد في هذا الوجود، والأم وإن كانت هي الحانية العاطفة التي تغذيه بأنبل العواطف لا تحميه، وغالبًا لا تعوله، ولذلك لا تعوض حماية الأب وكلاءته[(٣)].

عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وقال بإصبعيه السبابة والوسطى[(٤)].

ففيه فضل رعاية اليتيم وكفالته، وإن أجر رعايته كبير، ومحبوب عند الله تعالى[(٥)].

ويجوز خلط الولي ماله بمال اليتيم، ويجوز التصرف فيه بالبيع والشراء إذا وافق الإصلاح، ويجوز دفعه مضاربة إلى غيره،

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٢٨٩-٢٩٢.

(٢) انظر: تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين، ٣/ ٤٤.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٢٩٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا، ١٢/ ٤٨، رقم ٦٠٠٥.

(٥) انظر: الشرح الميسر لصحيح البخاري، محمد علي الصابوني، ٥/ ١٣٠.

وجواز الاجتهاد في أحكام الحوادث؛ لأن الإصلاح الذي تضمنه الآية إنما يعلم من طريق الاجتهاد وغالب الظن، وفيه دلالة على أنه لا بأس بتأديب اليتيم وضربه بالرفق لإصلاحه[1].

فمن علم من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس. ومن علم الله من نيته، أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها، فذلك الذي حرج وإثم، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى وإحسان وتوسعة على المؤمنين[2].

وقد أمر أوصياء اليتامى بتسليم أموالهم إليهم، إذا هم بلغوا الحلم وأونس منهم الرشد، وتحريم استبدال الحرام من أموالهم بأموال الأوصياء الحلال لهم أو خلط أموالهم مع أموال اليتامى فتؤكل جميعًا، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة، وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم؛ لأن تمام إيتائه ماله، حفظه والقيام به بما يصلحه وينميه وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار[3].

وإن مما يعين على تجاوز أهوال الآخرة ومشقاتها: إطعام الضعفاء في أيام المجاعات، قال قتادة: «في يوم يُشتهى فيه الطعام»[4].

فإن إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس وأوجب للأجر، وخاصة إذا كان الإطعام لمن كان جامعًا بين كونه يتيمًا وفقيرًا ذا قرابة، فيجتمع فيه فضل الصدقة وصلة الرحم، وقيل: يدخل فيه القرب بالجوار كما يدخل فيه القرب بالنسب[5]. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم اثنان صدقة وصلة)[6].

وقد نهى الله عز وجل عن إهانة اليتيم وقهره.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

وقال عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١-٢].

فاوت الله تعالى بين أرزاق الناس لحِكم

(١) انظر: الإكليل، السيوطي ص١٢٣-١٢٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٧٦.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٣١٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٦٥.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٨٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٥/ ٤١٨.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزكاة، باب ماجاء في الصدقة على ذي القرابة ٣/ ٤٧. قال الترمذي: «حديث حسن».

منشودة وامتحان مقصود[1]، كلا ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوي من الإيمان، ليس بسط الرزق دليلًا على الكرامة عند الله، وليس تضييق الرزق دليلًا على المهانة والإهمال، إنما الأمر أنكم لا تنهضون بحق العطاء ولا توفون بحق المال، فأنتم لا تكرمون اليتيم الصغير الذي فقد حاميه وكافله حين فقد أباه[2].

فقد لامهم الله تعالى على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فأنتم لا تكرمون اليتيم، بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم وعدم الرغبة في الخير[3]، وترك إكرام اليتيم على وجوه، منها ترك بره، ودفعه عن حقه الثابت له في الميراث وأكل ماله، وأخذ ماله منه[4].

وقد نهى الله تعالى عن إساءة معاملة اليتيم، ونهره إذلاله وإهانته، والعبوس في وجهه[5]، فبعد أن عدّد الله تعالى نعمه على رسوله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا يضيق صدرك عليه ولا تنهره، بل أكرِمه وأعطِه ما تيسر واصنع به كما تحب أن يُصنع بولدك من بعدك[6]، قال مجاهد: «لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيمًا»، وقال الفراء والزجاج: «لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم»[7].

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله، من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة، التي لا ترعى حق ضعيف، غير قادر على حماية حقه بسيفه، فالله تعالى يغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفًا يذودون به عن هذه الحقوق[8].

وقد وصف الله عز وجل المكذبين بيوم المعاد والجزاء والثواب، الذي لا يؤمن بما جاءت به الرسل بصفات؛ منها: دفع اليتيم بعنف وشدة ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولا يطعمه ولا يُحسن إليه[9].

وحاصل الأمر في دَعِّ اليتيم أمور: دفعه عن حقه وماله بالظلم، وترك المواساة معه وإن لم تكن المواساة واجبة، وزجره

(١) انظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، ص ٥١٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٨/ ٥٧٣.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١٣.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٧٢.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٠.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٠.
(٧) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٤٥٧.
(٨) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٨/ ٦٠٤.
(٩) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٢.

والاستخفاف به والاضرار به[1].

وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريف الإيمان التقليدي، إن الذي يكذّب بالدين هو الذي يدفع اليتيم دفعًا بعنف ويهينه ويؤذيه، فلو صدّق بالدين حقًّا، ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدّع اليتيم، فالتصديق بالدين يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه المحتاجين إلى الرعاية والحماية؛ لأن الله تعالى يريد مع الإيمان أعمالًا تصدقها[2]. فالإيمان أخو العطاء والعدالة، وسورة الماعون ترفض العبادة الصورية، وترى أن إعانة محتاج شرط في الإيمان[3].

ثالثًا: بنوة الرضاعة:

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣].

قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ هي في التحريم مثل الأم الحقيقية، فإذا أرضعت المرأة طفلًا حُرّمت عليه؛ لأنها أمه، وبنتها، لأنها أخته، وأختها؛ لأنها خالته، وأمها؛ لأنها جدته، وبنت زوجها صاحب اللبن؛ لأنها أخته، وأخته؛ لأنها عمته، وأمه؛ لأنها جدته، وبنات بنيها وبناتها؛ لأنهن بنات إخوته وأخواته[4].

وينتشر التحريم بالرضاع إلى ما حُرِّم بالنسب مع الصهر، إما من جهة نسب الرجل، كامرأة أبيه وابنه، أو من جهة نسب الزوجة، كأمها وابنتها، والجمع بين الأختين، والمرأة وعمتها وخالتها[5]؛ لعموم قوله صلى الله عليه وسلم: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)[6].

والتحريم بالرضاع إنما يحصل إذا اتفق الإرضاع في الحولين[7]، ولا فرق بين قليل

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١١٣.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٨/ ٦٧٩-٦٨٠.
(٣) انظر: نحو تفسير موضوعي، محمد الغزالي ص٥٤٣.

(٤) انظر: الجامع الأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٠٤، الأساس في التفسير، سعيد حوى ١/ ٥٠٨-٥٠٩.
(٥) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٤٤٢.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) اختلف العلماء في رضاع الكبير، والراجح والله أعلم ما ذكره ابن القيم نقلًا عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «هو رخصة للحاجة لمن لا يستغني من دخوله على المرأة ويشق

الرضاع وكثيره إذا وصل الأمعاء[1] وبذلك قال مالك وأبو حنيفة، وذهب الشافعي وأحمد في الصحيح عنه وابن حزم إلى أنه لا تحرِّم إلا خمس رضعات؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تحرّم الرضعة أو الرضعتان أو المصة أو المصتان)[2].

وهو اختيار هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، وسواء كان الرضاع من الثدي مباشرة أو بواسطة إناء يوضع فيه اللبن، فإذا رضع من أحدهما أو منهما جميعًا خمس رضعات ثبت التحريم[3].

والطفل الذي لا يكون له ولي يقوم برعايته يعهد القاضي به إلى رجل صالح يقوم على رعايته، وهذا هو الأصل في الإسلام بدل إيداعه في الملاجيء أو دور الرعاية.

ويستحب للفرد التقدم لطلب رعاية أحد هؤلاء وتربيته وتنشئته بحيث يتربى في أحضان الأسرة، بشرط أن لا يلحقه بنسبه، مع مراعاة أحكام الشريعة من حيث الاختلاط، وإن أمكن إرضاعه من إحدى المحارم لكان أولى؛ حتى يكون كأحد أولادهم من حيث الخلوة والمحرمية[4].

ودليل استحباب ذلك عموم قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (ترى المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[5].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدّ بعضه بعضًا) ثم شبّك بين أصابعه[6]. ولأن ذلك يعينه في المستقبل، ويكفل للأمة الأمان من شر سوء تربيته.

ورد في فتاوى اللجنة الدائمة: «يجب على من كفل مثل هؤلاء الأطفال أن لا ينسبهم إليه أو يضيفهم معه في بطاقة العائلة؛ لما يترتب على ذلك من ضياع الأنساب والحقوق، ولارتكاب ما حرم الله، وأن يعرف من يكفلهم أنهم إذا بلغوا سن الرشد فإنهم أجانب منه كبقية الناس، لا يحل الخلوة بهم أو نظر المرأة للرجل

احتجابها، كحال سالم مولى أبي حذيفة، وأما ما عداه فلا». انظر: تفصيل المسألة في زاد المعاد ٤/ ١٧٦- ١٨٢.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب في المصة أو المصتين، ٢/ ١٠٧٤، رقم ١٤٥١، عن أم الفضل.

(٣) تفسير آيات الأحكام في سورة النساء، اللاحم ١/ ٤٠١.

(٤) الفقه الميسر، مجموعة مؤلفين ٥/ ١٥٦.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، ١٢/ ٦٤، عن أبي موسى، رقم ٦٠٢٦.

أو الرجل للمرأة منهم، إلا إن وُجد رضاع محرم للمكفول، فإنه يكون محرمًا لمن أرضعته ولبناتها وأخواتها ونحو ذلك مما يحرم بالنسب»[(١)].

ومثل هذا الطفل الذي ينشأ في ظل أسرة يعرف قيمة التكافل في محيط الأسرة التي تقوم على عواطف الرحمة والمودة والتعاطف، والستر، والطهر، والحصانة، والميول الثابتة في الفطرة الإنسانية، كما تتشرب نفسه مجموعة من الآداب والأخلاق، وهي في صميمها آداب المجتع الإسلامي[(٢)].

فرعاية المولود عمل إنساني كريم أمرنا به الإسلام، فيجب الحفاظ على وجوده، ومعاملته معاملة كريمة تقوم على الود والرحمة، وإرشاده، وتعليمه، وحمايته من الفقر والحاجة، ورعاية ضعفه وغربته.

والأطفال الذين يتربَّون في أُسَر ويكونون فيها بمنزلة الأبناء، لا يُعتبر هذا العمل من قبيل التبني؛ إنما هو من قبيل الرعاية الخاصة؛ لأن الأُسَر التي تضم هؤلاء الأطفال لا تعتبرهم منها دمًا ولحمًا ولا نسبًا ولا إلحاقًا، ولا يكون لهم حقوق الأبناء في حكم الشرع، فلا يثبت تحريم الزواج بهم، ولا يثبت لهم الميراث، ولا يثبت لهمم نفقة شرعية[(٣)].

على أن تتولى دور الرعاية الإنفاق عليهم وزيارتهم من وقت لآخر، وكل ذلك لمصلحة الطفل وتربيته تربية صحيحة، تجعله مواطنًا صالحًا في مجتمعه، بدلًا من أن يكون عامل هدم لمجتمعه؛ لأنه لم يجد من يتكفل برعايته والعناية به.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأمومة، البنوة

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، جمع أحمد بن عبد الرزاق الدويش ١٤/ ٢٥٥.

(٢) انظر: دستور الأسرة في ظلال القرآن، أحمد فايز، ص ٣٥٤- ٣٦٨.

(٣) تنظيم الإسلام للمجتمع، أبو زهرة ص ١٢٩- ١٣٠.

التثبت

عناصر الموضوع

مفهوم التثبت	١٦٤
التثبّت في الاستعمال القرآني	١٦٥
الألفاظ ذات الصلة	١٦٦
أهمية التثبت	١٦٩
مجالات التثبت	١٧٤
خطر الإشاعة وضررها	١٨٩
فوائد التثبت	١٩٤
وسائل التثبت	١٩٧
نماذج قرآنية في التثبت	٢٠٦
نماذج قرآنية في عدم التثبت	٢١٤

مفهوم التثبت

أولًا: المعنى اللغوي:

التثبت مأخوذ من الفعل ثبت، ويطلق في اللغة على أمور:

التأنّي أو التريّث وعدم الاستعجال، تقول: تثبّت في الأمر والرأي، واستثبت: تأنّى فيه ولم يعجل، واستثبت في أمره: إذا شاور وفحص عنه[1].

١. طلب ما يكون به الثبات على الأمر؛ أي: لزومه وعدم التحوّل عنه أو تجاوزه إلى غيره، وبعبارةٍ أخرى؛ طلب الدليل الموصل إلى الثبات على الأمر، فيقال: فلان ثابت عندي، ونبوة النبي صلى الله عليه وسلم ثابتة[2].

٢. التأكّد من حقيقة ما يعين على الثبات في الأمر، وبعبارة أخرى: فحص الدليل الموصل إلى الثبات في الأمر، تقول: أثبت الأمر: حقّقه، صحّحه، وأثبت الكتاب: سجّله، وأثبت الحقّ: أقام حجّته، وأثبت الشيء: عرفه حقّ المعرفة[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يمكن تعريف التثبت بأنه: التأني وعدم التسرع في كل الأحوال التي يقع للإنسان فيها نوع اشتباه، حتى يتضح له الأمر، ويتبين الرشد والصواب والحقيقة، وإفراغ الجهد والوسع لمعرفة حقيقة الحال المراد[4].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ١٩١، مختار الصحاح، الرازي ص٤٨، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٩.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٧١.

(٣) انظر: أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٦٩، مختار الصحاح، الرازي ص٤٨.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٧٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٨٢، الموسوعة الفقهية الكويتية ١٠/ ١٤٢.

التثبّت في الاستعمال القرآني

ورد لفظ (التثبّت) في القرآن الكريم (٣) مرات، في سورتين، في قراءة حمزة والكسائي وخلف [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
فعل الأمر	٣	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤]

وجاء التثبت في القرآن الكريم بمعناه اللغوي الذي يدور حول التأني والتريث وعدم الاستعجال.

(١) انظر: معاني القراءات، الأزهري ١/ ٣١٥، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح القاضي ص٨٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ التبين:

التبين لغة:

مصدر تبيّن إذا تثبّت في الأمر. ويقال: تبيّنت الأمر أي: تأمّلته وتوسّمته، واستبنت الشّيء إذا تأمّلته حتّى تبيّن لك. والبيان: ما بيّن به الشّيء من الدّلالة وغيرها. وبان الشّيء بيانًا: اتّضح، فهو بيّن، وكذلك أبان الشّيء فهو مبين. وأبنته أنا أي: أوضحته، واستبان الشّيء: ظهر. واستبنته أنا: عرفته، وتبيّن الشّيء: ظهر[(١)].

التبين اصطلاحًا:

مرتبة من مراتب وصول العلم يراد بها طلب الحقيقة بعد التباسها.

يقول الكفويّ: «اعلم أنّ مراتب وصول العلم إلى النّفس: الشّعور ثمّ الإدراك ثمّ الحفظ ثمّ التّذكّر ثمّ الذّكر ثمّ الرّأي، وهو استحضار المقدّمات وإجالة الخاطر فيها، ثمّ التّبيّن وهو علم يحصل بعد الالتباس، ثمّ الاستبصار وهو العلم بعد التّأمّل... »[(٢)].

الصلة بين التثبت والتبين:

يرى بعض أهل العلم أن التثبت والتبين بمعنى واحد، وذلك عند توجيههم لقراءة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، و﴿فتثبتوا﴾[(٣)].

ويرى بعضهم أن المعنيين متقاربان؛ لأن من تبيّن فقد تثبّت، ومن تثبّت فقد تبيّن[(٤)].

ويرى بعض أهل العلم أن بينهما فرقًا، فقد ذكر أبو علي الفارسي في توجيهه لقراءة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، و﴿فتثبتوا﴾ أن التثبّت هو خلاف الإقدام، والمراد: التأنّي، ومما يقوّي ذلك قولهم: تثبّت في أمرك. ولا يكاد يقال في هذا المعنى: تبيّن.

وأما التبيّن فليس وراءه شيء، وقد يكون تبينت أشدّ من تثبّت[(٥)].

ومن الفروق بينهما: أن «المراد من التبين: التعرّف والتفحص، ومن التثبت: الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر»[(٦)].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٨٣، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٦٧.
(٢) الكليات، الكفوي ص٨٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٨١، معاني القراءات، الأزهري ١/ ٣١٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٨٦، الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص١٢٦.
(٥) انظر: الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي ٣/ ١٧٤.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ٧/ ١٠.

والراجح أن بينهما فرقًا، فلو لم يكن بينهما فرق لما جاءت القراءة الأخرى باللفظ الآخر، فهناك فرق بينهما، والذي أراه -والله أعلم- أن التبين يكون بالبحث في الوسائل المادية التي من شأنها أن ترى وتبان، بينما التثبت يكون من جهة الأمور المعنوية كالسماع.

٢ النظر:

النظر لغةً:

يقصد به في اللغة التأمل والتفحّص، يقال: نظره، أي: تأمّله بعينه[١].

وعبارة الراغب: «نظرت إلى كذا -إذا مددت طرفك إليه-: رأيته أو لم تره، ونظرت فيه: إذا رأيته وتدبرته»[٢].

النّظر اصطلاحًا:

تقليب البصر والبصيرة؛ لإدراك الشيء ورؤيته، وقيل: هو التحديق لإدراك الصور، في أول مراتب الإبصار، ثم تليه الرّؤية، وهي من لوازمه.

الصلة بين التثبت والنظر:

يتضح من خلال تعريف التثبت والنظر أن النظر وسيلة من وسائل التثبت.

٣ التبصر:

التبصر لغة:

مصدر قولهم: تبصّر الشّيء إذا نظر إليه هل يعرفه؟ وهو مأخوذ من مادّة (ب ص ر) الّتي تدلّ على العلم بالشّيء، ومعناه: التّأمّل والتّعرّف، أمّا التّبصير فهو التّعريف والإيضاح، يقال: بصّره بالأمر تبصيرًا وتبصرة فهّمه إيّاه[٣].

التبصر اصطلاحًا:

يمكن تعريفه بأنه النّظر إلى الشّيء بقصد معرفته[٤].

وعرّفه القرطبي بأنه «معرفة الشّيء على الحقيقة من خلال البراهين»[٥].

ويمكن تعريفه بأنه: «طلب معرفة الأمور على حقيقتها من خلال البراهين الحسّيّة الّتي

(١) المعجم الاشتقاقي، محمد جبل ٤/ ٢٢١٩.
(٢) المفردات ص٨١٢.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٦٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢٢٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٦٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٤٣.

يمكن للعين رؤيتها، وللبصيرة (أي: قوّة القلب المدركة) تأمّلها واعتقاد صحّتها»[1].

الصلة بين التثبت والتبصر:

يلاحظ أن التبصر وسيلة من وسائل التثبت.

ولا شكّ بأنّ كلّ لفظة من ألفاظ القرآن الكريم لها كيانها الخاص بها، ومعانيها التي لا يمكن أن تحملها لفظة أخرى من ألفاظ الكتاب العزيز، وإنما يكون الاشتراك بين بعض الألفاظ في جزء من المعاني، لا في كلها.

٤ العجلة:

العجلة لغة:

العين والجيم واللام أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الإسراع، والآخر على بعض الحيوان، والجمع عجل وعجلات، والعجل والعجلة: خلاف البطء[2].

العجلة اصطلاحًا:

قال الرّاغب: «العجلة: طلب الشّيء وتحرّيه قبل أوانه»[3].

وقال المناوي: «العجلة: فعل الشّيء قبل وقته اللّائق به»[4].

الصلة بين التثبت والعجلة:

العجلة من الألفاظ المقابلة للتثبت، فهي ضد التثبت.

(١) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٣٥١٧-٣٥١٨.
(٢) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٦٤٩.
(٣) المفردات ص٣٢٣.
(٤) التوقيف، ص٢٣٧.

أهمية التثبت

إن للتثبت أهمية عظيمة في حياة الناس، فعندما يبني الإنسان تصوراته، ويصدر أحكامه على أساس من العلم، وليس الظن والتخريص، فإن ذلك يحميه من الوقوع في ظلم الناس، واتهامهم في أعراضهم وأموالهم[(١)].

والتثبت يعدّ من أجل الآداب والأخلاق التي طالب الشرع بالتحلي بها والاتصاف بها. وإن من يتأمل في واقع الناس اليوم، وينظر في الكم الهائل من الأخبار التي نسمعها في كل يوم، ويرى الاختلاف والتباين بين مصادر هذه الأخبار، يدرك عظمة هذا الدين، وسمو هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام، وأمر به القرآن والسنة.

ولذلك يقول سيد قطب: «التثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق.

ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم»[(٢)].

وقد جاء الأمر بالتثبت في نصوص كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

قال الشيخ السعدي: «والتثبت في سماع الأخبار وتمحصيها ونقلها وإذاعتها، والبناء عليها أصل كبير نافع، أمر الله به رسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ فأمر بالتثبت، وأخبر بالأضرار المترتبة على عدم التثبت، وأن من تثبت لم يندم، وأشار إلى الميزان في ذلك في قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ وأنه العلم والتحقق في الإصابة وعدمه، فمن تحقق وعلم كيف يسمع، وكيف ينقل وكيف يعمل، فهو الحازم المصيب، ومن كان غير ذلك فهو الأحمق الطائش الذي مآله الندامة»[(٣)].

وعبر في الآية بحرف «إن» الذي يفيد التشكيك، ولم يقل: «إذا» لأنها تفيد التحقيق؛ ليبرهن على أن وقوع مثل هذا الحدث في المجتمع الإسلامي على سبيل الندرة، وأن الأصل في المؤمن الصدق.

والأمر في الآية بالتثبت من خبر الفاسق

(١) انظر: أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية، عبدالله عودة ص٥٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٧.

(٣) الفتاوى السعدية ص٦٦-٦٧.

«لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرؤه على الاستخفاف بالمحظور، وبما يخبر به في شهادة أو خبر يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح العام، ويقوي جرأته على ذلك دومًا إذا لم يتب ويندم على ما صدر منه ويقلع عن مثله»[1].

وتتضح أهمية التثبت في العلة والنتائج التي أمر الله من أجلها بالتثبت، فالعلة في قوله: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ «أي: تثبتوا - أيها المؤمنون- من صحة خبر الفاسق؛ لئلا تصيبوا قومًا بما يؤذيهم، والحال أنكم تجهلون حقيقة أمرهم، أو خشية أن تصيبوا قومًا بجهالة؛ لظنكم أن النبأ الذي جاء به الفاسق حقًّا»[2].

وأما النتائج المترتبة على عدم التثبت فذلك قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي: فتندموا على ما فرط منكم وتتمنّوا أن لو لم تكونوا فعلتم ذلك.

فالآية ترشدنا إلى وجوب التثبت من الأخبار، والتحذير من الاعتماد على مجرد الأقوال؛ منعًا من إلقاء الفتنة بين أفراد وجماعتهم، وأخذًا بالحيطة والحذر، وعدم إيذاء الآخرين بخطأ فادح، فيصبح المتسرع في الحكم والتصديق نادمًا على العجلة، وترك التأني والتأمل.

وما أحوجنا في هذا الزمان لهذا الأدب الذي سهل فيه انتشار الأخبار بسرعة مذهلة، فبمجرد ضغطة زر ينتشر الخبر على الآلاف بل ملايين البشر، وبعض الناس لا يحتاج أن يضغط زرًّا، بل هو بنفسه مذياع ما أن يسمع الخبر إلا ويطير به طيرانًا، وهو لم يتأكد بعد من صحة الخبر وتفاصيله وأحداثه، وإنما تلقّفه ونشره وأذاعه.

قال ابن الجوزي مبينًا أهمية التثبت: «ما اعتمد أحد أمرًا إذا هم بشيء مثل التثبت، فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب، كان الغالب عليه الندم، ولهذا أمر الإنسان بالمشاورة؛ لأن الإنسان بالتثبت يطول تفكيره، فتعرض على نفسه الأحوال، وكأنه شاور، وقد قيل: «خمير الرأي خير من فطيره».

وأشد الناس تفريطًا من عمل مبادرة في واقعة من غير تثبت ولا استشارة، خصوصًا فيما يوجب الغضب، فإنه بنزقه طلب الهلاك واستتبع الندم العظيم، فالله الله، التثبت، التثبت في كل الأمور، والنظر في عواقبها»[3].

وإذا كانت آية سورة الحجرات أمرت بالتثبت في جميع الأحوال، فإن التثبت في حال الحروب آكد من غيرها؛ لكثرة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٣١.
(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/ ٣٠٥.
(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي ص٣٨٥.

الإشاعات والمغرضات في التثبيط من العزائم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

وببيان سبب نزول الآية يتبين المراد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل في غنيمة له، فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

«فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأمورًا بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية في أنه إنما سلّم تعوذًا من القتل وخوفًا على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويتبين الرشد والصواب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كلًّا ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم»[2].

قال الطبري في تفسير الآية: «فتأنّوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا من التبس عليكم أمره، ولا تتقدموا على قتل أحد إلا على قتل من علمتموه يقينًا حربًا لكم ولله ولرسوله»[3].

نرى هنا أهمية التثبت كيف وضّحها الله سبحانه وتعالى، حتى في الحرب طلب منا التثبت، وهي مظنة قتال وخداع وغيره من أمور الحروب التي جرت عليها.

ويزداد هذا الواجب توكيدًا إذا تعلّق الأمر بالدّماء والأعراض والأحكام الشّرعيّة؛ لما في انتشار الأخبار الكاذبة من ضرر عظيم، وشرّ جسيم.

وتتبين أهمية التثبت في ذم الله تعالى المسارعين في نقل الأخبار، فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وتتجلى أهمية التثبت في معرفة الأضرار الكثيرة الواقعة على الفرد والمجتمع من جراء عدم التثبت، فـ«المشاهد والواقع أن عدم التثبت وعدم التأني يؤديان إلى كثير من الأضرار والمفاسد، فقد يسمع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا)، رقم ٤٥٩١، ٦/ ٤٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٧٠.

الإنسان خبرًا، أو يقرأ نبأ في صحيفة، أو مجلة، فيسارع بتصديقه، ويعادي ويصادق، ويبني على ذلك التصرفات والأعمال التي يصدرها للمقاومة أو الموافقة، على أساس أنه حق واقع، ثم يظهر أنه كان مكذوبًا، أو محرفًا، أو مزورًا، أو مبالغًا فيه، أو مرادًا به غير ما فهمه الإنسان، ومن هنا يكتوي المتسرع بلهب الندم والحسرة بسبب استعجاله وعدم تثبته»[1].

وتأكيدًا لأهمية التثبت، وزيادة في الحرص على عدم ذيوع الإشاعات والأكاذيب في المجتمع، فقد أمرت الشريعة الإسلامية المؤمنين بالإعراض عن جميع أنواع اللغو وبأية صفة كانت وهيئة تبدّت، فهي من أعمال الجهل المنهي عنها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣].

فقد بيّنت الآيات أن التثبت والإعراض عن لغو الكلام سبب من أسباب الفلاح، وأن ذلك صفة ملازمة للمؤمنين.

ولأجل ذلك حذر الشارع أشد التحذير من نقل الشخص لكل ما يسمعه، فعن حفص بن عاصم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء كذبًا أن يحدّث بكل ما سمع)[2].

قال الإمام مالك: «اعلم أنّه ليس يسلم رجل حدّث بكل ما سمع، ولا يكون إمامًا أبدًا وهو يحدّث بكل ما سمع»[3].

قال النووي: «وأما معنى الحديث والآثار التي في الباب ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدّث بكل ما سمع فقد كذب؛ لإخباره بما لم يكن، وقد تقدم أن مذهب أهل الحق أن الكذب الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو، ولا يشترط فيه التعمد، لكن التعمد شرط في كونه إثمًا»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب)[5].

ففي قوله صلى الله عليه وسلم: (ما

(١) الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد بن وهف القحطاني ص١٧١.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١/ ١٠.

(٣) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ١١.

(٤) شرح صحيح مسلم ١/ ٧٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق. باب حفظ اللسان، رقم ٦٤٧٧، ٨/ ١٠٠، ومسلم في صحيحه. كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، رقم ٢٩٨٨، ٤/ ٢٢٩٠.

يتبين فيها) بيان أنه لا يتثبت من الخبر، ولا ما يدور حوله من معطيات ربما تكذّب هذا الخبر، فيكون أحد الكاذبين؛ لأنه استعجال دون تبين وتروي في الكلام.

ولذلك قال ابن حجر رحمه الله: «لا يتطلب معناها، أي: لا يثبتها بفكره، ولا يتأملها حتى يتثبّت فيها فلا يقولها إلا إن ظهرت المصلحة في القول»[(١)].

وأخبر سبحانه أن الإنسان مسؤول أمام الله عز وجل ومحاسب عن كل صغير وجليل فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]

وتظهر أهمية التثبت في حثّ النبي صلى الله عليه وسلم على التأني في الأمور كلها، فقال: (التأني من الله، والعجلة من الشيطان)[(٢)].

فقوله: (التأني من الله) أي: مما يرضاه، وأمر به، ويوفّق إليه، ويثيب عليه (والعجلة من الشيطان) أي: هو الحامل عليها بوسوسته؛ لأن العجلة تمنع من التثبت والنظر في العواقب[(٣)].

والشّاهد من هذه النّصوص هو: الأمر بالتثبّت في الأخبار الّتي ينقلها النّاس، هذا في عصر الهدى والنّور، والعلم والإيمان، فكيف بزمن قلّ فيه ذلك كلّه؟!

ومن خلال ما سبق يتضح أن التثبت من كل الأخبار والأحداث قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ومنهج الإسلام الدقيق، حيث إن تلقّف الأخبار بغير تبين وتروي قد يحيلها أحيانًا إلى غير مقاصدها، وينتج عنها بعد ذلك خطر عظيم، والاستماع إلى الكذب لا يجوز؛ لأن مداومة الاستماع إليه مدعاة لتصديقه وترديده وترويجه بين الناس، وقد يلتقط بعض السامعين الأحاديث الكاذبة، ويرويها دون أن يبين حقيقتها، فيأخذها غيره ويرويها على أنها أحاديث صادقة وحقائق واقعة، وقد يؤدي الاستماع إلى الباطل والأكاذيب إلى استقرار شيء منها في النفس ولو بدون قصد.

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣١١.
(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، رقم ٢٠٢٧٠، ١٠/ ١٧٨، وأبو يعلى في مسنده، رقم ٤٢٥٦، ٧/ ٢٤٧.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ٤٠٤.
(٣) انظر: فيض القدير، المناوي ٣/ ١٨٤.

مجالات التثبت

التثبت منهج إسلامي واضح المعالم، يقوم على صدقية الخبر وسلامة النقل، وهو أدب اجتماعي عام ضروري للحفاظ على وحدة الأمة، والناظر المتأمل سيجد أن التثبت له علاقة بكل مجالات الحياة المتنوعة، وليس هناك مجال إلا والتثبت أساس فيه، وهذا بيان لبعض المجالات التي يقوم عليها التثبت.

أولًا: المجال العلمي:

إن أوجب ما يدخله التثبت هو المجال العلمي بكل أنواعه وتفاصيله، بل إذا تأملنا لوجدنا أن التثبت هو العلم، والعلم هو معرفة الأمور على حقيقتها، وأخص ما يدخله التثبت في المجال العلمي التثبت في النواحي الدينية.

ويناول البحث في موضوع التثبت في النواحي الدينية أمرين:

الأول: التثبت في نقل كلام الله تعالى.

يقول ابن القيم: «وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فرتّب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلّث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه»[(١)].

إن التقول على الله بغير علم ولا دليل «هو سبب تحريف الأديان، والابتداع في الدين الحق، وهو منهج أدعياء التجديد، وتخطي الشريعة باسم الاجتهاد»[(٢)].

إن من أخطر أنواع التثبت: التثبت في القول على الله تبارك وتعالى؛ لأن القول على الله بغير علم من أشد المحرمات، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

أي: «في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها؛ لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجرؤ على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه»[(٣)].

فلابد إذن من الحذر في القول على الله بغير علم، فإنه كذب وحرام، وكثيرًا ما

(١) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٣٨.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ١٩٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٧.

نسمع الناس يقولون: قال الله في الحديث القدسي، بدون تثبت من مصدر هذا القول، ناسبين إليه سبحانه ما لم يقله، فلماذا هذه الجرأة على الله؟! ولماذا هذا التسرع وعدم التثبت في القول على الله؟!

ومن هنا كان القول على الله بغير علم سببًا للضلال والإضلال.

إن حاجة العلماء والدعاة وطلاب العلم إلى التثبت في النقل عن الله -خاصة في مجال الفتيا- ماسة وخطيرة؛ لأنهم من يصدر الأحكام، ويطبّق النصوص على الوقائع والأقوال، فلا بد من التثبت من الواقعة وملابسات حدوثها، وصحة صدور القول من قائله، ومراده منه ومقصده، والتحري من توافق ذلك مع النص عند تنزيله عليه.

إنّ ثمة حقيقة لا شك فيها؛ وهي أن الساحة الإسلامية تشهد فوضى فقهية تطاول فيها بعض أدعياء العلم وأنصاف المثقفين على الفتوى، فراحوا يخوضون فيها بدون ورع أو تثبّت، بل تجرؤوا على المسائل الكبار التي لو عرضت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر[1].

والعجيب أنّ بعض الناس عندما تراجعه في بعض تلك الفتاوى والآراء، يبادرك بضرورة اتساع الصدر للرأي المخالف؛ لأنه ما زال العلماء يختلفون ولا ينكر بعضهم على بعض! وهذا حق لا شك فيه لو أنّه صادر عمن يحق له الفتوى والاجتهاد من أهل العلم الراسخين، أما وإنه صادر في أغلب الأحوال عن غير أهله؛ فكيف يراد منا أن نعذر فيه المخالف؟! ونحسب أن بعض المفتين في هذا الزمان أحق بالسجن من السّرّاق![2].

والأخطر من هذا أن بعض محاضن الصحوة الإسلامية لم تسلم من هذه الفوضى الفقهية والمنهجية، وإذا كان المربون وروّاد العمل الدعوي يتحدثون في وقت مضى عن الموازنة بين العزائم والرّخص؛ فإن بعض المعاصرين تجاوزوا الرّخص إلى الوقوع في بعض المنكرات الواضحات بحجة الواقعية، وتغيّر الزمان، وعموم البلوى، وضرورة تقديم المصالح الدعوية، وإعادة قراءة مقاصد الشريعة، ونحوها من المعاذير الباردة التي أوجدت مناخًا دعويًّا مهيّأ للتفلت من القيود الشرعية، ولا نبالغ إذا قلنا: إن بعض الدعاة أصبحوا لا يتورعون عن ممارسة بعض المناورات السياسية والحزبية، ويقع أحيانًا فيما تقع فيه بعض التجمعات الحزبية العلمانية!

(١) انظر: أدب المفتي والمستفتي، ابن الصلاح ص٧٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٨٥.

الثاني: التثبت في نقل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

التثبت في النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ضروري، والأصل فيه قوله صلى الله عليه وسلم: (من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار)[1].

وروى مسلم في صحيحه: أنّ بشير العدوي جاء إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فجعل يحدّث ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم... فجعل ابن عباس رضي الله عنهما لا يأذن (أي: لا يصغي) لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس! ما لي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله ولا تسمع! فقال ابن عباس: إنّا كنا مرّة إذا سمعنا رجلًا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا؛ فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف[2].

وهذا النص يفيد أنّ العلماء والأئمة كانوا يتثبّتون أشدّ التثبّت في تلقّي العلم، ويتحرّون في نقلته ورواته، وبخاصة بعد أن ظهرت الفتن وكثر الابتداع؛ ولهذا قال محمد بن سيرين: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد؛ فلما وقعت الفتنة قالوا: سمّوا لنا رجالكم؛ فينظر إلى أهل السنّة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع ولا يؤخذ حديثهم»[3].

ولأهمية التثبت في النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان السلف يحتاطون ولا يأخذون برواية الضعيف، فعن ابن أبي الزناد: «أدركت بالمدينة مائة مأمون، ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله»[4].

وقد كان للصحابة رضي الله عنهم منهج واضح في تلقي الأخبار والروايات، فقد كانوا إذا بلغهم الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاطون في قبوله بطلب الشهادة أو اليمين؛ لمزيد من التأكيد والتثبت.

فعن قبيصة بن ذؤيب، أنه قال: جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها، فقال: ما لك في كتاب الله تعالى شيء، وما علمت لك في سنة نبي الله صلى الله عليه وسلم شيئًا، فارجعي حتى أسأل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم ١٢٢٩، ١/ ٤٣٤، ومسلم في صحيحه، في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣، ١/ ١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في المقدمة، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء، رقم ٧، ١/ ١٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، في المقدمة، باب إن الإسناد من الدين، رقم ٩، ١/ ١٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، في المقدمة، ١/ ١٥.

الناس، فسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس، فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة، فقال مثل ما قال المغيرة ابن شعبة، فأنفذه لها أبو بكر، ثم جاءت الجدة الأخرى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه تسأله ميراثها، فقال: مالك في كتاب الله تعالى شيء، وما كان القضاء الذي قضي به إلا لغيرك، وما أنا بزائد في الفرائض، ولكن هو ذلك السدس، فإن اجتمعتما فيه فهو بينكما، وأيتكما خلت به فهو لها[1].

وعن أسماء بن الحكم قال: سمعت عليًّا يقول: كنت رجلًا إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته[2].

ومن هنا نشأ علم الجرح والتعديل، وعلم التصحيح والتضعيف، ومعرفة ما صح وما لم يصح من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وشنّ العلماء حملة ضارية على رواة الأحاديث الموضوعة؛ لما في ذلك من كذب صريح على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن من الإثم العظيم تساهل الناس اليوم في نقل ورواية الأحاديث الموضوعة في أبواب الترغيب والترهيب، والوعظ، وغير ذلك، وهؤلاء سيكون خصمهم يوم القيامة النبي صلى الله عليه وسلم الذي توعّدهم بقوله: (من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب، فإنه أحد الكاذبين)[3].

وما أجمل كلام ابن العربي حين يقول: «على الناس أن ينظروا في أديانهم نظرهم في أموالهم، وهم لا يأخذون في البيع دينارًا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٩٨٠، ٢٩/ ٤٩٩، وأبو داود في سننه، كتاب الفرائض، باب في الجدة، رقم ٢٨٩٤، ٤/ ٥٢١، والترمذي في سننه، أبواب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الجدة، رقم ٢١٠٠، ٣/ ٤٩٠، والنسائي في سننه، كتاب الفرائض، باب ذكر الجدات والأجداد، ومقادير نصيبهم، رقم ٦٣٠٥، ٦/ ١١١، وابن ماجه في سننه، كتاب أبواب الفرائض، باب ميراث الجدة، رقم ٢٧٢٣، ٤/ ٢٦، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم ١٢٣٣٧، ٦/ ٣٨٤، والحاكم في المستدرك، رقم ٧٩٧٨، ٤/ ٣٧٦.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ولم يتعقبه الذهبي. وضعفه الألباني في إرواء الغليل ٦/ ١٢٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب أبواب فضائل القرآن، باب في الاستغفار، رقم ١٥٢١، ٢/ ٦٣٠، والترمذي في سننه، كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، رقم ٤٠٦، ١/ ٥٢٤، والنسائي في سننه، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يفعل من بلي بذنب وما يقول، رقم ١٠١٧٥، ٩/ ١٥٩. وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، في المقدمة، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين، رقم ١، ١/ ٨.

معيبًا، وإنما يختارون السالم الطيب؛ كذلك في الدين لا يؤخذ من الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا ما صح سنده؛ لئلا يدخل في خبر الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص، بل ربما أصاب الخسران المبين»[1].

ثانيًا: المجال الأمني:

لا يخفى على أحد أهمية الأمن للفرد والمجتمع والدولة، بل وللعالم أجمع؛ وذلك لما يتحقق في الحياة الآمنة من استقرار وهدوء، ونهضة إنسانية في جميع المجالات الحيوية.

ومن ضمن مقاييس قوة الدولة اليوم هو مدى ما يتحقق فيها من الأمن والأمان للقاطنين والمقيمين فيها.

كما أن الأمن أصبح في العصر الحاضر مطلبًا مهمًّا، وضرورة ملحة، ومبتغى عزيزًا في ظل الظروف القلقة والأحداث الدامية، والعواصف المدمرة التي تشهدها كثير من الدول والمجتمعات العالمية.

ومن هنا تنبع أهمية التثبت في المجال الأمني، وقد أنكر الله سبحانه وتعالى على من نشر كل خبر جاءه في أمن أو خوف دون التثبت ومراجعة أهل الاستنباط بذلك الخبر فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

يقول الشيخ السعدي: «هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها. فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطًا للمؤمنين وسرورًا لهم وتحرزًا من أعدائهم فعلوا ذلك. وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة. وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولّى من هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٦/ ٤٤٠.

الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان؟ أم لا فيحجم عنه؟ »[1].

وقد ورد من الأسباب التي نزلت لأجلها الآية ما يوضح أهمية التثبت في الناحية الأمنية، وعدم الاستعجال بإذاعة الأخبار التي تضر بأمن واستقرار الأفراد والمجتمعات، فقد ذكر أنها نزلت في أهل النفاق أو ضعفاء الإيمان، كانوا إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف من الأعداء، أذاعوا بالحديث، حتى يبلغ عدوهم أمرهم[2].

ولذلك قال الزمخشري حول هذه الآية: «هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال ولا استبطان للأمور، كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ وكانت إذاعتهم مفسدة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر منهم- وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور أو الذين كانوا يؤمرون منهم- ﴿لَعَلِمَهُ﴾ علم تدبير ما أخبروا به ﴿الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها»[3].

ففي الآية إنكار على من يبادر إلى نقل الأمور قبل التحقق منها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها أساس من الصحة.

فنفهم من الآية أنه قد يذاع الخبر عن اضطرابات أمنية من مصادر غير موثوقة إلى الجهلة أو المنافقين، أو ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالقضايا العامة، فيبادرون إلى إذاعته ونشره، وترويجه بين الناس، وهذا أمر منكر يضر بالمصلحة العامة، وتحصل به المفسدة.

«ولا يخفى أنه ينبغي التنبه للآثار السيئة لعدم التثبت على مستوى الأمن الخاص والعام، وأنه يجب تفويت الفرص على مروجي الإشاعات في محاولاتهم اختراق أمن المجتمعات الإسلامية، والعبث في مقوماتها، ومحاولة البعض الفتك بنفسية الأفراد والمجتمعات، وجعلهم فريسة سهلة للآراء والأفكار والدعاوى السيئة؛ لكي يقوموا بتنفيذ أغراضهم وأهدافهم، وينفثوا سمومهم الخبيثة في المجتمعات الآمنة، والسعي لترويج مناهجهم المنحرفة وأفكارهم الفاسدة»[4].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٠.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٦٠١.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٤١.
(٤) الإشاعة وآثارها في المجتمع، عبد الرحيم المغذوي ص٢٩٠.

ثالثًا: المجال الاجتماعي:

«ينفرد المجتمع الإسلامي عن سائر المجتمعات الأخرى أنه مجتمع انبثق من العقيدة الإسلامية، فالعلاقة الاجتماعية التي تربط أفراده تقوم على أساس العقيدة الإسلامية»[(١)].

والمجتمع في نظر الإسلام لا يقوم على الروابط المادية فقط، بل هنالك ما هو أهم، وهو الروابط الإيمانية والأخلاقية والأدبية، وهذا ما يفسر لنا قيمة المجتمع المسلم وتميزه عن غيره من المجتمعات، بل إن الإسلام ذهب إلى أبعد من ذلك، حينما «عمل على إقامة ذلك المجتمع الفاضل في كل أنحاء الأرض؛ لأنه دين يخاطب الإنسانية كلها»[(٢)].

«والإسلام يربي أبناءه وأفراد مجتمعه على التحلي بمعاني الإيمان، وما يفرضه عليه من التزام ومسئولية تجاه نفسه أولًا، وتجاه المجتمع الكبير الذي يعيش فيه ثانيًا»[(٣)].

ومن لوازم تلك المسئولية وجوب التثبت فيما يخص العلاقات الاجتماعية من زواج وطلاق، وما يحدث بين الجيران من علاقات سلبية، وما يحدث في المجتمع من مجريات الحياة المتنوعة.

ومن لوازم تلك المسئولية أيضًا: عدم القيام بإيذاء المجتمع بأي نوع من أنواع الإيذاء الحسي والمعنوي، ولعل عدم التثبت وما يجره من نشر الشائعات في العلاقات الاجتماعية من أخطر أنواع الإيذاء الاجتماعي.

وقد ندبت الشريعة الإسلامية إلى كل ما يكفل على المسلمين وحدتهم، ويحقق مقاصدهم، ويحفظ اجتماعهم من الإشاعات المغرضة الفاسدة الناتجة عن عدم التثبت.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وحذرت من كل ما من شأنه أن يشيع الفاحشة في المجتمع ويقطع أوصاله ونسيجه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ولعل من أخطر الأمثلة على تأثير عدم التثبت على العلاقات في المجتمع المسلم، ما حدث في قصة الإفك التي رميت بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وفي هذه

(١) مجتمعنا المعاصر، عبدالله المشوخي ص٣٧.
(٢) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، أبو زهرة ص١٢٢.
(٣) الدعوة وصلتها بالحياة، عبد الرحيم المغذوي ص٢٢٢.

الحادثة التي هزت كيان المجتمع الإسلامي حينئذ هزًّا عنيفًا العديد من الدروس والفوائد التي ينبغي لكل فرد في المجتمع المسلم أن يقف عندها ويستفيد منها، ويحذر كل الحذر من عدم التثبت والإشاعات المغرضة.

وهذه القصة يتضح فيها كيف كان تأثير عدم التثبت على علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة رضي الله عنها ، وعلى علاقة الذين خاضوا في الإفك برسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة رضي الله عنها وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكذلك على علاقة المجتمع الإسلامي ببعضه في ذلك الوقت.

ولعل ما يفسر ذلك ما جاء في الحديث: (فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي)، فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية - فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فنزل، فخفضهم حتى سكتوا)[1].

والمتأمل في أحداث واقعة الإفك يجد «أن مروج شائعة الإفك هذه، والتي هزت كيان المجتمع الإسلامي حينئذ هزًّا عنيفًا، قد اختلق موضوعها وأقامه على أساس جانب ضئيل جدًّا من الحقيقة، وهو رؤية الناس لابن المعطل يقود بعيره وعليه عائشة رضي الله عنها ، ثم عالج هذا القدر الضئيل جدًّا من الحقيقة بالمبالغة، وجسّمه بطريقة انفعالية، ومزجه بجوانب من شطحاته الخيالية، وصاغه صياغة خبيثة يسهل على الذين يوجه إليهم الشائعة استيعابها وترديدها»[2].

فحادثة الإفك كادت تفتك بالمجتمع الإسلامي بأسره، لولا أن النبي صلى الله عليه وسلم عالج هذه القضية بتأنٍّ، وتروٍّ، وتثبّت.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، رقم ٢٦٦١، ٣/ ١٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب رقم ١٠، رقم٢٧٧٠، ٤/ ٢١٣٠.

(٢) بحوث في الإعلام الإسلامي، محمد فريد ص٤٥.

ومن الأمثلة أيضًا على تأثير عدم التثبت على العلاقات الاجتماعية في المجتمع: ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

فقد كان جماع قبائل الأنصار بطنين: الأوس والخزرج، وكان بينهما في الجاهلية حرب ودماء، حتى منّ الله عليهم بالإسلام وبالنبي صلى الله عليه وسلم، فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم وألّف بينهم بالإسلام. فبينا رجل من الأوس ورجل من الخزرج قاعدان يتحادثان ومعهما يهودي جالس، فلم يزل يذكّرهما بأيامهم والعداوة التي كانت بينهم حتى استبا، ثم اقتتلا، فنادى هذا قومه وهذا قومه، فخرجوا بالسلاح وصفّ بعضهم لبعض، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يزل يمشي بينهم إلى هؤلاء وهؤلاء ليسكنهم حتى رجعوا، فأنزل الله في ذلك القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠][1].

ونلاحظ أن التسرع وعدم التثبت كانا سببين رئيسين في اقتتال المسلمين، ورفع السلاح على بعضهم البعض، فلما تيقنوا أنها نزعة شيطان تعانقوا وألقوا السلاح.

(١) الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٢٨٠.

رابعًا: المجال السياسي:

تعد مجالات السياسة وجوانبها المتعددة ومسائلها المتنوعة في الأحوال الداخلية، أو الإقليمية، أو الدولية من أهم المجالات التي يجب التثبت فيها؛ حيث تعد مجالًا خصبًا لانتشار الإشاعات ونموها، وبخاصة في أوقات نشوب الحروب وحدوث الأزمات والتوترات، وفتور العلاقات، وتوالي وقوع الحوادث، مع ما يحيط بتلك الحوادث والوقائع من غموض وأهمية.

وقد كان منهج النبي صلى الله عليه وسلم قائمًا على التثبت في علاقاته السياسية، ممتثلًا في ذلك أمر القرآن بوجوب التثبت، فلما بلغه صلى الله عليه وسلم أن يهود بني قريظة نقضوا عهدهم الذي عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم، بعث سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير، فقال: «انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فألحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس»[2].

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يتسرع في قتال بني قريظة، ولم يأخذ بما بلغه، حتى يتثبت عن طريق من يرسلهم هو صلى الله

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٣/ ٣٠٧ بتصرف.

عليه وسلم.

ومن نماذج التثبت الجليلة في العلاقات السياسية: ما حدث من النجاشي عندما أرسلت قريش عمرو بن العاص وعبدالله بن ربيعة إلى الحبشة بعد هجرة المسلمين إليها، وكانا يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، فقابلا النجاشي فقالا له: أيها الملك، إن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم لتردهم إليهم، فهم أعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. فقالت بطارقته حوله -وقد تسلموا الهدايا مسبقًا- صدقا أيها الملك، قومهم أعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردوهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي ثم قال: لا لعمر الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

ثم أرسل النجاشي إليهم، فتكلم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فلما سمع النجاشي منهم، والتقى بهم مرة أخرى على أثر وشاية من عمرو بن العاص، وسمع منهم ثانية، قال النجاشي لهم: اذهبوا، فأنتم شيوم[1] بأرضي، من

(١) الشيوم: الآمنون.

سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبرًا[1] من ذهب وأني آذيت رجلا منكم، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله من الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقام المسلمون عنده بخير دار مع خير جار[2].

فالنجاشي لم يسارع ويأخذ بكلام عمرو بن العاص ومن معه، وإنما تأنى وأرسل إلى المسلمين واستمع منهم، وتثبت من حالهم.

ويكون التثبت آكد في المجال السياسي حينما يتعلق الأمر بأولياء الأمور والحكام وقادة البلاد، فيجب التثبت مما ينسب إليهم، ويحكى عنهم، من تجريح، واختلاق الأكاذيب، والافتراءات عليهم، ومحاولة تنفير الناس منهم، أو تعميق الفجوة فيما بينهم وبين مواطنيهم.

ومن النماذج المهمة في هذا الأمر: ما ورد أن أهل حمص شكوا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عامله عليهم سعيد بن عامر قالوا: نشكو منه أربعًا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. ولا يجيب أحدًا بليل. وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا. وتصيبه الإغماءة بين الحين والآخر.

فجمع عمر بينهم وبينه وقال: اللهم لا تخيّب ظني فيه اليوم، وسأله عمر عن هذه الشكوى، فقال: لا أخرج إليهم حتى يتعالى النهار لأنه ليس لأهلي خادم فأعجن عجينهم، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم.

وأما قولهم: إني لا أجيب أحدًا بليل، فإني جعلت النهار لهم، وجعلت الليل لربي عز وجل.

وأما قولهم: إن لي يومًا في الشهر لا أخرج إليهم فيه، فإنه ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا ثياب أبدلها فأجلس حتى تجف، ثم أدلكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار.

وأما قولهم: تصيبني الإغماءة بين الحين والآخر، فإني شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة وقد بضعت قريش لحمه، ثم حملوه على جذع، فقالوا: أتحب أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمدًا شيك بشوكة، فكلما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم، إلا ظننت أن الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا، فتصيبني تلك الإغماءة. فقال عمر: الحمد لله الذي لم يخيب ظني فيه، فبعث إليه بألف دينار ليستعين بها على

انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٢٨٩.

(١) الدبر بلسان الحبشة: الجبل.

انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٢٨٩.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٢٨٩.

حاجته، ففرقها على المحتاجين[1].

فأهل حمص أشاعوا عن أميرهم هذه الأمور، وجعلوها منقصة في حقه دون أن يتثبتوا أو يتبينوا، وشكوا ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي أزاح هذه التهم عن سعيد بن عامر عن طريق التثبت والتبين.

فالواجب على الفرد والمجتمع المسلم أن يتنبه إلى الأخطار المحدقة من جراء الإشاعات وعدم التثبت في الميدان السياسي، والعواقب الوخيمة الناتجة عن ذلك، وأن يتنبه المسلم إلى طبيعة العلاقة المثلى الواجبة بين الحاكم والمحكوم، والراعي والرعية، التي شرعها الإسلام الحنيف، وميّزها عن غيرها من العلاقات.

خامسًا: المجال الاقتصادي:

للاقتصاد أهميته في حياة الفرد والمجتمع، بل وفي العالم أجمع. ويرتبط العالم اليوم بروابط اقتصادية كبيرة، فما يحدث في منطقة أو دولة من دول العالم -غالبًا- تتأثر بها بقية الدول سلبًا أو إيجابًا، وبخاصة في حالات الحروب والكوارث.

وبناء على ذلك فالتثبت في مجال الاقتصاد من الأهمية بمكان، فيجب عدم نشر الإشاعات والأخبار غير الموثوق فيها حول الأمور الاقتصادية، كالمسائل المتعلقة بالبيع والشراء، والأثمان، والسلع المختلفة، وكذا الأمور المالية والنقدية والتجارية بصفة عامة؛ حيث إن أكثر من يتأثر بهذه الأخبار والإشاعات أصحاب الأموال والثروات المالية الكبرى، مما ينعكس سلبًا بالتأثير على اقتصاد الدولة.

ومن الأمور الحيوية الأكثر تأثرًا في المجال الاقتصادي: سوق المال (البورصة)، فهذه السوق تتأثر سلبًا وإيجابًا بالأخبار الصادقة والكاذبة جراء التثبت وعدمه.

ومن صور التأثير السلبي على سوق المال نتيجة لعدم التثبت: «ما يقوم به بعض المضاربين من الاتفاق فيما بينهم من خلال التوصيات عبر الوسائل الحديثة، من: (الجوّال أو المنتديات أو البريد الإلكتروني أو تويتر أو فيس بوك) على شراء سهمٍ من الأسهم المدرجة بغرض رفع قيمته إلى حدٍ معين ثم بيعه بكميات كبيرة، وهو ما يسمى بـ (الجروبات)؛ ولأن الغرض منها إيهام المتداولين بأن هذا هو السعر المناسب للسهم حتى يقبلوا على شرائه بعد ارتفاعه، ثم يصعب خلاصهم منه بعد تصريفه من قبل تلك المجموعات (الجروبات).

والهدف من هذا البيع: إيهام المتعاملين أن تغيّرات سعرية حدثت للورقة المعنية،

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي ١/ ٢٥٧.

وأن تعاملًا نشطًا يجري عليها، ولما كانت البورصات تقوم بنشر كافة المعلومات بشأن الصفقات أولًا بأول، فإن هذه السلسلة من البيوع للأوراق المالية من شأنها أن تؤدي إلى انخفاض قيمتها السوقية بشكلٍ يوحي بتدهور حالة المنشأة المصدرة لها، وهنا يصاب البعض بالذعر مما يدفعهم إلى التخلص مما يمتلكونه من هذه الأسهم، الأمر الذي يترتّب عليه عروض كبيرة بدون طلبٍ موازٍ فيهبط السعر، وعندها يتدخّل المستثمر المخادع مشتريًا، ويحدث عكس ما تقدّم في المضاربة على البيع»[1].

فالتثبت وعدمه في الأمور الاقتصادية له أثر كبير في نمو أو تدهور الحالة الاقتصادية للمؤسسات والشركات والدول.

سادسًا: المجال القضائي:

إن حاجة الإنسانية إلى القضاء بمنزلة حاجتها إلى الشمس والهواء، فلو رفع القضاء من حياتها لهبطت إلى دركة البهائم والعجماوات، وأكل قويها ضعيفها، وكبيرها صغيرها.

ومهمة القضاء في الإسلام هي إرساء دعائم العدل؛ ولهذا كان للقضاء في الإسلام منزلة رفيعة سامية، فهو فريضة من أقوى الفرائض، وعبادة من أشرف العبادات لمن ابتغى به وجه الله تعالى؛ لأنه إظهارٌ للعدل، وإزالةٌ للباطل، وبالعدل قامت الأرض والسموات.

وحاجة القضاء إلى التثبت قبل إصدار الأحكام واضحة جلية، فلا يمكن تحقيق العدل في القضاء إلا بالتثبت والتبين.

ولقد نبه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور إلى أن مجال القضاء هو المجال الأحوج إلى اعتماد منهج التثبت في الحكم، فقال: «الأمر بالتبين أصل عظيم في وجوب التثبت في القضاء، وألا يتبع الحاكم القيل والقال، ولا ينصاع إلى الجولان في الخواطر من الظنون والأوهام»[2]، وذلك لأن خطأ القاضي خاصة في الإدانة والحكم، وهو يقضي في اليوم في أكثر من قضية تضيع به الحقوق، وتتضرر به الأعراض، فكان مطالبًا أكثر من غيره بالتثبت.

ومن لوازم التثبت في القضاء:

أولًا: أن يسمع القاضي من الخصمين، لا أن يسمع كلام خصم دون الآخر؛ فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال: فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني، وأنا حدث لا أبصر القضاء؟ قال:

(١) انظر: صناديق الاستثمار في البنوك الإسلامية، أشرف دوابه ص١٣٣، تطهير الكسب الحرام في الأسهم والصناديق الاستثمارية، عطية فياض ص٣٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٣١.

فوضع يده على صدري، وقال: (اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه، يا علي، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء) قال: فما اختلف علي قضاء بعد، أو ما أشكل علي قضاء بعد[1].

ثانيًا: طلب البينة والدليل على الدعوى من خلال الشهود، أو طلب اليمين من الطرف الآخر عند النكول [2] وعدم البينة، وهي وسيلة من وسائل إثبات الحق الذي يدعيه المدعي[3]:

فقد قال صلى الله عليه وسلم: (لو يعطى الناس بدعواهم، لادعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه)[4].

ثالثًا: بناء الأحكام على العلم واليقين، بعيدًا عن الشك والتسرع؛ لأن تبرئة المذنب خير من إدانة البريء.

ومن النماذج التي ذكرها القرآن في وجوب التثبت عند القضاء: ما جاء في قصة داود عليه السلام مع الخصمين، وهو ما ذكره الله في قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢١ - ٢٦].

فداود عليه السلام عندما سمع القضية من المدّعي عرف أنه مظلوم، وأن خصمه ظلمه وبغى عليه، وتأثر داود بما سمع، وظن أن الأمر لا يتطلب سماع الطرف الآخر[5].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٧٤٤، ٢/ ١٤٣، والنسائي في السنن الكبرى. كتاب الخصائص، باب ذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: (إن الله سيهدي قلبك، ويثبت لسانك)، رقم ٨٣٦٦، ٧/ ٤٢٢، والحاكم في المستدرك، رقم ٧٠٢٥، ٤/ ١٠٥.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) النكول: امتناع من وجبت عليه اليمين، أو له. انظر: شرح حدود ابن عرفة، الرصاع ص٤٧٢.

(٣) انظر: نظام القضاء في الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان ١/ ١٥٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، رقم ١٧١١، ٣/ ١٣٣٦.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٧٨.

فعاتب الله داود عليه السلام على هذا الأمر؛ لأن مقتضى التثبت أن يسمع من الطرفين، لا أن يسمع طرفًا دون الآخر.

ومن النماذج التي ذكرها القرآن أيضًا في وجوب التثبت عند القضاء، ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَاأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٥ - ١٠٩].

وسبب نزول هذه الآيات أن نفرًا من الأنصار- قتادة بن النعمان وعمه رفاعة- غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته. فسرقت درع لأحدهم (رفاعة). فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم: بنو أبيرق. فأتى صاحب الدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي. فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي (اسمه زيد بن السمين). وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع، وألقيتها في بيت فلان. وستوجد عنده. فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع فلان. وقد أحطنا بذلك علمًا. فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك. ولما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدرع وجدت في بيت اليهودي، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس. وكان أهله قد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي-: إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت! قال قتادة: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته. فقال: (عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة؟).

قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك. فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزلت: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾

[النساء: ١٠٥][(١)].

فالله سبحانه يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم: «إن عليك ألا تتهاون في تحرى الحق اغترارًا بلحن الخائنين وقوة جدلهم في الخصومة؛ لئلا تكون خصيمًا لهم وتقع في ورطة الدفاع عنهم، والآيات فيها إيماء إلى أن الاعتقاد الشخصي والميل الفطري والديني لا ينبغي أن يظهر لهما أثر في مجلس القضاء، وإلى أن القاضي لا يساعد من يظن أنه صاحب الحق، بل عليه أن يساوى بين المتخاصمين في كل شيء.

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يحكم في هذه القضية قبل نزول الآيات ولم يعمل بغير ما يعتقد أنه تأييد للحق، لكنه أحسن الظن في أمر بيّن له علام الغيوب حقيقة الواقع فيه، وما ينبغي له أن يعامل به ذويه»[(٢)].

فالآيات السابقة ترشدنا إلى أنه يجب على القاضي أن يجعل الحق والصدق هدفه في جميع مواقفه، وأن يدقّق فيما يعرض عليه، فلا يأخذ بظواهر الأمور، ولا ينخدع بتزويق الخصوم، وعليه أن يحذر تلبيسهم ولا ينساق بأي اعتبار غير اعتبار الحق والعدل والحقيقة. ولا يتسرع في تصديق فريق وتبرئته والدفاع عنه. وأن يرجع عن الخطأ إذا ما ظهر له.

(١) انظر في سبب النزول: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٧٦ ، تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٠٦٣.
(٢) تفسير المراغي ٥/ ١٤٧-١٤٨ بتصرف.

خطر الإشاعة وضررها

منذ أن خلق الله الخليقة وجد الصراع بين القوى، صراعٌ يستهدف أعماق الإنسانية، ويؤثر في كيان البشرية، وإذا كانت الحروب والأزمات والكوارث والنكبات تستهدف بأسلحتها الفتاكة الإنسان من حيث جسده وبنائه، فإن هناك حربًا سافرة مستترة تتوالد على ضفاف الحوادث والملمّات، وتتكاثر زمن التقلبات والمتغيّرات، وهي أشدّ ضراوة وأقوى فتكًا؛ لأنها تستهدف الإنسان من حيث عمقه وعطائه، وقيمه ونمائه، إنها حرب الشائعات.

الشائعات من أخطر الحروب المعنوية، والأوبئة النفسية، بل من أشد الأسلحة تدميرًا، وأعظمها وقعًا وتأثيرًا، وليس من المبالغة في شيء إذا عدّت ظاهرة اجتماعية عالمية، لها خطورتها البالغة على المجتمعات البشرية. وفيما يأتي بيان لتعريف الإشاعة وخطرها وضررها.

و«الإشاعة: فكرة خاصة تنشر ليؤمن بها الناس، تنتقل من شخص إلى آخر، ويتم هذا عادة بواسطة الكلمة التي يتفوه بها الإنسان، دون أن تستند إلى دليل أو شاهد»[(٣)].

وقيل: «الإشاعة: أخبار مشكوك في صحتها، ويتعذر التحقق من أصلها، وتتعلق

(٣) الرأي العام، حسنين عبد القادر ص١٤٠.

بموضوعات لها أهمية لدى الجهة الموجهة إليها، ويؤدي تصديقهم أو نشرهم لها إلى إضعاف روحهم المعنوية»[1].

وللإسلام نظرته الحكيمة في الإشاعة حسب طبيعتها، ومن ثم ترتيب الحكم الشرعي والجزاء العادل عليها.

والمتأمل في النصوص المتعددة في القرآن والسنة يجد أن الإسلام يحرم نقل الإشاعات وترويجها بين الناس بغرض الإفساد والتخريب، وهدم الكيان والبنيان الاجتماعي، وصرف الناس عن عبادة الله وعمارة الأرض، وعمل ما ينفع الناس، إلى الاشتغال فيما لا ينفع.

ومعلوم أن نقل الإشاعة وترويجها في المجتمع من أنواع الفحش والإثم والبغي التي حرمها الله عز وجل بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقد توعد سبحانه محبي رواج الإشاعة في المجتمع المسلم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فإذا كان هذا جزاء من يحب شيوع الفاحشة والإشاعة في المجتمع، فكيف يكون جزاء مروجي الإشاعات في المجتمع المسلم؟!

وتوعده النبي صلى الله عليه وسلم بأفظع عقاب، فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت الليلة رجلين أتياني، قالا: الذي رأيته يشق شدقه فكذاب، يكذب بالكذبة تحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة)[2].

وكذلك حذرت الشريعة الإسلامية من الاستماع للإشاعات وتصديقها وقبولها، وأمرت بالتثبت والتروي عند سماعها، فقد تكون تلك الأخبار كاذبة ومضللة، ولها أهداف سامة وبغيضة وهادمة للمجتمع، بل قد تعود بالضرر البالغ على المستمع لها، ومعلوم أن لناقلي الإشاعات ومروجيها أساليب خلابة ووسائل مغرية في عرض ما لديهم، الأمر الذي يجعل المستمع لهم يقع في شباكهم، وتلتف حوله حبائلهم، فلا يستطيع الفكاك منها.

قال تعالى موجهًا النصح لعباده

(١) أساليب مواجهة الشائعات، جمال محفوظ ص١٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، رقم ٦٠٩٦، ٨/ ٢٥.

المؤمنين: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

قال الشوكاني: «المراد من التبين: التعرف والتفحص، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر»[(١)].

والشائعات لها خطر عظيم وضرر جسيم على الفرد والمجتمع وعلى مستوى الدول والحكومات[(٢)]، فبجانب أضرارها المعروفة من:

- اتهام البريء بما ليس فيه.
- تلوث الذمم والألسنة نتيجة الخوض في أمور بلا تثبت.
- انعدام الثقة المتبادلة في المجتمع.
- شماتة الناس، وخاصة إذا كان منشأ الإشاعة من العاملين في حقل الدعوة وشباب الصحوة.

فإن لها أضرارًا وأخطارًا أخرى في مجالات متنوعة، يتجلى ذلك في عدة أمور:

أولًا: أخطار وأضرار تتعلق بالناحية الشرعية:

فالإشاعات يعظم خطرها حينما تتناول موضوعات الشريعة الإسلامية وجوانبها المتعددة، كاتهام عقيدة الإسلام بالتهم الباطلة، وإشاعة الكذب نحوها، كذلك الإشاعات الموجهة إلى الشريعة وما تضمنته من عبادات ومعاملات وأخلاق وحدود وغير ذلك.

ولا شك أنه لتلك الإشاعات المتعددة ضد الشريعة الإسلامية بعض الأضرار والأخطار على أبناء المجتمع المسلم، وبخاصة ممن ليس لديهم حصانة عقدية وفكرية قوية.

وقد حذر الله من الآثار السيئة المتوقع حدوثها من كيد أعداء الإسلام، وإشاعاتهم الخبيثة في المجتمع المسلم.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ثانيًا: أضرار فكرية:

المتأمل في مسيرة التاريخ الإسلامي يجد العديد من الإشاعات التي سرت في المجتمع المسلم، واستهدفت فكره وعقله

(١) فتح القدير، ٥/ ٦٠.
(٢) انظر: الإشاعة وأثرها في المجتمع، عبدالرحيم المغذوي ص٢٥٨، اتجاهات النهضة والتغيير في العالم الإسلامي، عباس حسيني ص٥٣.

وشعوره، وأثرت في معطياته ومنجزاته، وخاصة في العصر الحاضر، وذلك رغبة في الهيمنة الفكرية على العالم الإسلامي، ولتأكيد ذلك فقد استخدم أعداء الإسلام سلاح الإشاعات التي يحملها الغزو الفكري لتحقيق مآربهم، مما أسفر عن كثير من الانحرافات الفكرية في بعض المجتمعات الإسلامية، وولّدت لديها بعض الشكوك والمخاوف من الشريعة الإسلامية دون دليل تستند عليه أو برهان تنطلق منه.

ثالثًا: أضرار نفسية:

تنتظم الإشاعات فيما يسمى بالحرب النفسية، والتي تتوجه بالدرجة الأولى إلى نفسية الفرد والمجتمع المستهدف، فتقوم بمحاولات لاختراقها، ومن ثمّ النفاذ إلى داخلها وتحطيمها والهيمنة عليها، وإلحاق الهزيمة المروعة بها.

وقد أشار القرآن إلى نوعية هذا الأثر النفسي الخطير وأسماه بالأذى فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

ونظرًا لذلك كله يأمر الله تعالى المسلمين بعدم الوهن والحزن، ويذكّرهم بأنهم في علو عن غيرهم إن تمسكوا بإيمانهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

والمتأمل في أحوال المجتمعات الإسلامية اليوم يجد أن الآثار النفسية التي لحقت بها عديدة، من خلال الإشاعات التي شملت الفرد والأسرة والمجتمع.

رابعًا: أضرار اجتماعية:

تقوم الإشاعات بإحداث آثار سلبية عديدة في حياة المجتمع، سواء على مستوى الفرد أو الأسرة أو نطاق النسيج الاجتماعي عامة.

وإذا ما سرت الإشاعة في المجتمع وحملت مضامين سيئة أو مخيفة أو محبطة أو ليست في صالح ذلك المجتمع عامة أو تلك الفئة الاجتماعية خاصة، فإن الإشاعة سوف تنجح في مهمتها، ويستجيب لها الناس، وتحدث الأثر المطلوب.

خامسًا: أضرار اقتصادية:

تقوم الإشاعات بدورها في التأثير على الحياة الاقتصادية، ومحاولة التأثير على المستهلكين أو المنتجين، سواء كانوا أفرادًا أم أسرًا أم مجتمعات أم شركات ومؤسسات أم دولًا ومنظمات.

ولا يخفى أن للمنافسات الاقتصادية

وما يموج به سوق العمل والمال من محاولات للربح والتضخم أمر يساعد على ترويج الإشاعات، ومحاولة كل جهة نشر الإشاعات ضد أعمال ومنشآت ومنتجات الطرف الآخر ورميها بعدم الجودة أو الغش أو ارتفاع الأسعار وما إلى ذلك من إشاعات.

والحقيقة أن تلك الإشاعات مضرة باقتصاد أي مجتمع، وتنعكس سلبًا على أفراده، ولا تخدم بأي حال من الأحوال قضايا المجتمع ومسائله الاقتصادية المتنوعة.

سادسًا: أضرار سياسية:

تكمن خطورة الإشاعات في المجال السياسي حينما تتعلق بشخصيات الحكام وأولي الأمر، ومحاولات تتبع أحوالهم وشئونهم الخاصة والعامة، وتوظيف ذلك بصورة خبيثة تهدف للنيل منهم وزعزعة مكانتهم في قلوب الناس.

كما تهدف الإشاعات إلى محاولة تدمير المجتمع عن طريق توهين رموز النظام السياسي الحاكم، أو التشكيك في مؤسساته وهيئاته، والتشكيك بالمواقف والخطط التي يضعها النظام السياسي، وتعتمد هذه الإشاعات على أسلوب التهويل والتضخيم والتشويش والتشكيك، وأخطرها ما يطلق منها أثناء الحروب والاضطرابات الداخلية.

وهذه الإشاعات السياسية المغرضة تحدث الشكوك، وتعصف بالمجتمع، فينتج عن ذلك الأخطار العظيمة التي تهدد كيان المجتمع بأسره.

يتضح مما سبق أن الإشاعات لها أضرارها الخطيرة في مناحي الحياة الخاصة والعامة، وهي لا تقتصر على مجال محدد، بل تمتد لتشمل كل مجالات النشاط البشري.

فوائد التثبت

إن للتثبت فوائد كثيرة، نذكر منها[1]:

١. التثبت علامة من علامات الإيمان.

فقد وجّه الله النداء لعباده المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

فدل ذلك على أن من علامات الإيمان التثبت في الأخبار، وبمفهوم المخالفة فإن عدم التثبت في الأخبار يقدح في الإيمان.

٢. السلامة من الأخطاء.

إن التثبت يجعل الإنسان المسلم قريبًا من الصواب، وسالمًا من الأخطاء والعثرات، فلا يتعجل ولا يتسرع في نشر الأخبار حين سماعها، بل يتأمل ويتبين قبل أن يتكلم، وينظر متفحصًا هل هذا الكلام فيه مصلحة فيقدم عليه، أو فيه مفسدة فيحجم عنه ويتوقف؛ لأنه لم يصدر عن علم[2].

فالتثبت يحمي الإنسان من الغم والهم اللذين يصاحبان الإنسان صحبة لها دوام، وبه يميز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، ويحميه من الجهل والوقوع في الأخطاء والآثام العظام التي ربما تؤدي إلى تلف النفوس والأموال بغير حق[3].

لذلك كان توجيه الله للمؤمنين بالتثبت حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

٣. الثقة بالمؤمنين.

فقد اتهمت عائشة رضي الله عنها بأسوأ الكذب والبهتان، وهي صاحبة الطهر والعفاف، ولحق بالمؤمنين هم وكرب من جراء هذا الاتهام الباطل، حتى نزل القرآن يبرؤها من فوق سبع سماوات، ويحرّم على المؤمنين أن يخوضوا في هذا الباطل، ويوجب عليهم أن يثقوا بالمؤمنين، وأن يظنوا بأنفسهم خيرًا[4]، لذلك قال تعالى لهم: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٢ - ١٣].

فالظن السيئ وإشاعة الفاحشة في المؤمنين من صفات شرار الخلق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا

(١) انظر: التثبت والتبين في المنهج الإسلامي، العليمي ص١٠٦، التثبت في القرآن، محمد حسين ص١٠٧.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٠.

(٣) انظر: الكشاف ٤/ ٣٦٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٠٠.

(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٨٦١.

أخبركم بخياركم؟). قالوا: بلى. قال: (الذين إذا رؤوا ذكر الله، أفلا أخبركم بشراركم؟)، قالوا: بلى. قال: (المشّاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبّة، الباغون البرآء العنت)[1].

٤. المحافظة على الدماء والأموال.

فبعض الصحابة قتل نفرًا من الناس، وسلب ماله بغير تثبت، حتى نزلت فيه وفي أمثاله الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٩٤].

وبالتثبت نحافظ على الدماء والأموال والأعراض، وبدون التثبت فإن كل ضرورة من ضرورات الحياة تضيع، ويضيع معها الإنسان.

٥. الشعور بالسكينة والطمأنينة النفسية.

فإن بعض الصحابة الذين خاضوا في الإفك ونشروه من غير تثبت ولا تبين، وكذلك الذين قتلوا الرجل وأخذوا ماله بعد أن سلّم وشهد أن لا إله إلا الله مثل أسامة بن زيد رضي الله عنه، كل أولئك لم يشعروا بالسكينة والطمأنينة في نفوسهم، بل أصابتهم الحسرة وعمهم الندم لما نزل الوحي من السماء يكشف الموقف، ويضع النقاط فوق الحروف، وتمنوا أن لم يكونوا أسلموا قبل ذلك اليوم[2]، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

فالتثبت يشعرنا بالسكينة والطمأنينة، ويبعد عنا كل شعور بالحسرة والندامة على أقوال أو أفعال صدرت منا دون أن نتحقق منها.

٦. نيل محبة الله ورضاه.

فالعجلة من أبواب الشيطان، ومن شأنها أن تمنع صاحبها من الخير والتثبت والوقار والحلم، وتجلب عليه الشرور والندم. وفي المقابل فإن التثبت والتأني من الرحمن، ومن التزم بهذا الخلق العظيم نال محبة الله ورضوانه، وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (التأني من الله، والعجلة من الشيطان)[3].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٧٦٠٢، ٤٥/ ٥٧٧، والبخاري في الأدب المفرد، رقم ٣٢٣، ص١٦٨.
وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص١٣٣.

(٢) انظر: آفات على الطريق، السيد محمد نوح ٢/ ١٥٣.

(٣) سبق تخريجه.

٧. توثيق عرى الأخوة ووحدة الصف.

فالتثبت يؤدي إلى توثيق عرى الأخوة ووحدة الصف، وحفظ المجتمع من كل أسباب الخلاف والفرقة والعداوة والبغضاء.

وإن عدم الالتزام بهذه الفضيلة يؤدي إلى اضطراب الصف، وإعطاء العدو فرصة للانخراط في الصف المسلم.

وإن أسباب العداوة والفرقة والبغضاء ترجع إلى اتهام المؤمنين بالظنون الضعيفة، والتجسس عليهم، وتتبع عوراتهم، والغيبة التي تأكل لحومهم وأعراضهم، والنميمة التي تفسد عليهم حياتهم، فالتثبت من شأنه أن يحفظ المؤمنين من هذه الأسباب، وأن يقيم مجتمعًا خاليًا من الحقد والحسد والظلم.

٨. حفظ الكرامات والحريات والأعراض والأموال.

فإن من شأن التثبت وعدم التسرع أن يقيم سياجًا متينًا لحفظ كرامات الناس وحرياتهم وأعراضهم وأموالهم، ويبقيها مصونة من عبث العابثين، ويحفظها من الظن الآثم والتخريص الباطل، وذلك من خلال الأمر بالتأني والتثبت، والنهي عن الاستعجال والتخمين، وسوء الظن، والخوض في الباطل، وشهادة الزور.

ومن شأن ذلك كله أن يحفظ المجتمع بما فيه من كرامات وحريات وأعراض وأموال، انطلاقًا من قوله صلى الله عليه وسلم: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا)[1].

٩. تحقيق العدل بين الناس.

فالإسلام عندما أمرنا بالتثبت وعدم قبول الأخبار إلا بعد التمحيص والتدقيق، والتروي والتأني في إصدار الأحكام، ونهانا عن اتهام الناس بالظنون الكاذبة، وعن الكذب والغيبة والنميمة، إنما أراد من خلال هذه الأوامر والنواهي تحقيق العدل الإلهي الذي لا تصلح الدنيا والآخرة إلا به، وإعطاء كل ذي حق حقه.

١٠. تطهير المجتمع المسلم من المنافقين.

فالتثبت يطهر المجتمع المسلم من المنافقين وإرجافاتهم التي لا تنفك عن الكذب، وإحداث البلبلة والفتنة، والسعي إلى إيقاع المسلمين في الحيرة والاضطراب.

فالتثبت يعلّم المؤمنين أن يضبطوا ألسنتهم فلا تمتد إلى الناس بأي سوء، ولا يشيعون الفاحشة في المجتمع المسلم، مما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم ١٠٥، ١/ ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨، ٢/ ٨٨٦.

يؤدي إلى التماسك وثقة المؤمنين بعضهم ببعض، وعدم السماح للمنافقين بالتغلغل بين صفوفهم.

هذا الضبط اللساني الشديد أدب وخلق حرصت تعاليم هذا الدين على إيجاده في المسلمين، لذلك قال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وسائل التثبت

هناك وسائل عديدة للتثبت بشكل عام، منها[١]:

١. عدم التسرع في تصديق الأخبار، قبل التأكد من صحتها أو كذبها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

قال ابن القيم: «هاهنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق»[٢].

إذًا قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فيه أن أمر الله بالتبين والتثبت في أمر الفاسق يدل على عدم إهمال أمر الفاسق مطلقًا في نفس الوقت الذي لا يعتمد عليه بثقة مطلقًا.

إن مما يسهم اليوم في مجانبة الحق والصواب في المواقف: المسارعة في نقل وتداول الأخبار ونقل الأحداث دون توثيق وتثبت منها، والتعامل معها كأنها صدق وحق لا ريب فيه، ومن ثم تتخذ المواقف

(١) انظر: التثبت والتبين في المنهج الإسلامي، أحمد العليمي ص١٠٢، نحو منهج شرعي في تلقي الأخبار وروايتها، أحمد الصويان ص٤٥.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٦٨.

والأحكام المتسرعة على أساسها، ما ينجم عنه الأحكام والمواقف الجائرة التي قد يندم صاحبها عليها، لكن حين لا ينفع الندم؛ لأنها قد طارت كل مطير. ويشتد خطر هذه المواقف وإثمها إذا كانت قد صدرت من متبوع في علم أو دعوة أو جهاد.

وتتأكد أهمية التثبت والتوثق بصورة أكبر في زماننا اليوم، الذي كثرت فيه وسائل النقل والاتصالات الاجتماعية السريعة، وتسارع الناس في نشر أي خبر والحكم عليه دون أدنى تثبت منه؛ حرصًا من الناشر على السبق والشهرة في نقل الأخبار، أو حرصًا على إلحاق الأذى والتهم بخصمه.

فالتثبّت من كل خبر ومن كل ظاهرة قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم ومنهج الإسلام القويم، ومتى استقام القلب واللسان على هذا المنهج لم يبق مجال للظن والشبهة في عالم المواقف والأحكام. فكم من مظلوم في دينه وعرضه أو بدنه أو ماله كان سبب ذلك التسرع في نقل الأخبار وتلقيها دون تثبت وتمحيص. وكم من أواصر قطعت بين الأقارب والإخوان كان سببها الظنون الكاذبة وتلقي الأخبار والشائعات دون تثبت.

والتثبت المنشود هنا يعني نوعين من التثبت:

١. التثبت من صحة الخبر المسموع أو المقروء أو المشاهد، والتوثق التام من صحته والاطمئنان إلى صدقه؛ لأنه قد يتبيّن بعد التثبت أنه كذب مختلق، أو فيه زيادة ونقصان، وعند ذلك يرفض الخبر ويسلم الإنسان من نقل الأخبار المكذوبة والشائعات، ويسلم من إثم ذلك.

٢. إذا تبيّن صحة الخبر المنقول فلا يسوغ بناء الأحكام والمواقف منه حتى يقف وقفة أخرى من التثبت، ألا وهي التثبت من خلفيات الخبر والملابسات التي أحاطت به، والظروف التي عاشها من نقل عنه الخبر، ومحاولة إحسان الظن به؛ لأن في ذلك سلامة من المواقف والأحكام الجائرة التي يحكم بها على الخبر في حال عدم معرفة ملابسات حصوله؛ لأنه بمعرفة الملابسات والظروف التي أحاطت بالخبر وتسبّبت في حصوله، يحصل وضع الحكم والموقف منه في حجمه الطبيعي دون جور أو عدوان، وقد يظهر فيه عذر ومبرر شرعي لأصحابه.

وهذا النوع من التثبت هو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في مواقفه من الأخبار، أو في مواقفه من الأخطاء التي تنجم عن بعض أصحابه رضي الله عنهم، فقد تكرر في مواقف كثيرة، وقبل أن يتخذ

الرسول صلى الله عليه وسلم موقفًا من صاحب الخطأ، أن يقول لصاحب الخطأ: (ما حملك على ما صنعت)، وهذا تثبت منه صلى الله عليه وسلم من أسباب وملابسات الوقوع في الأخطاء.

وهذا يشمل الأخبار التي تنقل عن الأفراد أو الطوائف.

٢. التأكد من ضبط النقلة وصحة فهمهم.

من القضايا المشكلة التي يغفل عنها بعض الأفاضل أنهم ينظرون إلى عدالة الناقل وأمانته، دون النظر إلى ضبطه وإتقانه في النقل.

وعندما تكون استجابة الإنسان عاطفية، فإنه -عادة - يعجز عن تمييز الحقائق، فقد يكون الناقل قد بلغ الغاية في التقوى والورع، لكنه قليل الضبط، ضعيف الحفظ لما يسمع.

وهذا يذكّرنا بقول ابن أبي الزناد: «أدركت بالمدينة مائة مأمون، ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله»[(١)].

ومن الناس من يسمع الخبر، وينقله على غير وجهه، ليس من باب الكذب والخيانة، ولكنه لم يستطع أن يفهم الكلام على وجهه الصحيح، فالله سبحانه لم يرزقه حسن الفهم والتيقظ، ولهذا تراه يقوّل الناس ما لم يقولوا، ويحمّل كلامهم ما لم يحتمل.

إن هناك تفاوتًا كبيرًا بين الناس في الإدراك والقدرة على تفسير الأحداث، وحينما يفهم السامع من كلام القائل شيئًا، ثم ينقل للناس مفهومه هو -لا منطوق القائل ونص كلامه- فإن هذا سوف يؤدي إلى لبس شديد عند الناس.

وعدم مراعاة هذه الجوانب والتنبه لها قد يؤدي إلى التسليم ببعض الأخبار الواهية التي ليس لها أساس من الصحة، ثم تؤدي هذه الأخبار دورها في إثارة الضغائن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكثير من الناقلين ليس قصده الكذب، لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم وسائر ما به يعرف مرادهم، قد يتعسر على بعض الناس، ويتعذر على بعضهم»[(٢)].

٣. الاعتماد على القرائن في قبول الأخبار وردها.

إذا نقل الخبر عن أحد من العلماء أو الدعاة، ولم يتأكد لنا صحة النقل، أو صحة فهم الدلالة، فينبغي أن يعرض ذلك الخبر على أقواله وأفعاله السابقة واللاحقة، ويقاس بطريقته وأحواله، فإن خالف ذلك الخبر المعروف من سيرته وقوله، كانت هذه قرينة مهمة في رد الخبر، أو حمله على المعروف من حاله.

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، ١/ ١٥.

(٢) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية ٦/ ١٩٣.

وهذا من الوسائل المفيدة جدًّا في تمييز الأخبار وتنقيحها، قال ابن القيم: «والكلمة الواحدة يقولها اثنان، يريد بها أحدهما أعظم الباطل، ويريد بها الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه، وما يدعو إليه ويناظر عليه»[(١)].

وقال السبكي: «فإذا كان الرجل ثقة مشهودًا له بالإيمان والاستقامة، فلا ينبغي أن يحمل كلامه وألفاظ كتاباته على غير ما تعوّد منه ومن أمثاله، بل ينبغي التأويل الصالح، وحسن الظن الواجب به وبأمثاله»[(٢)].

ومن الأمثلة التطبيقية على ذلك ما نقل عن الجنيد أنه قال: «انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة»[(٣)].

قال ابن تيمية: «فهذا ما أعرفه من كلام الجنيد. وفيه نظر هل قاله، ولعل الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود؛ فإن كان قد قال هذا فأراد عدم العلم بما لم يصل إليه؛ لم يرد بذلك أن الأنبياء والأولياء لم يحصل لهم يقين ومعرفة وهدى وعلم؛ فإن الجنيد أجل من أن يريد هذا، وهذا الكلام مردود على من قاله»[(٤)].

ثم قال ابن تيمية: «كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ثمّ معصوم من الخطأ غير الرسول؛ لكن الشيوخ الذين عرف صحة طريقتهم علم أنهم لا يقصدون ما يعلم فساده بالضرورة من العقل والدين»[(٥)].

٤. عدم التسرع في اتخاذ الأحكام والقرارات.

وينبغي التفكر والتبصر في عاقبة التسرع في الحكم، وما يؤدي إليه من الندامة، وتمني عدم وقوعه.

فالعاقل هو الذي يتأنى ويتأمل ويتثبت، ولا يتسرع، ويعرف عاقبة عدم الالتزام بذلك. قال لقمان الحكيم: «إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة»[(٦)].

٥. الجمع بين طرفي الخصومة والاستماع إليهم، وعدم الحكم لطرف قبل التثبت والسماع من الطرف الآخر.

الجمع بين طرفي الخصومة وسيلة من وسائل التثبت التي من شأنها أن تعطي حكمًا صائبًا صحيحًا خاليًا من الظلم والجور. ولذلك كان رسول الله صلى لله عليه وسلم يعلّم أصحابه أسلوب التثبت في القضاء.

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال: فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني، وأنا حدث لا أبصر

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٤٨١.
(٢) قاعدة في الجرح والتعديل، السبكي ص٩٣.
(٣) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٩١.
(٤) المصدر السابق ١١/ ٣٩٢.
(٥) المصدر السابق ١١/ ٣٩٣.
(٦) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٣٩٦.

القضاء؟ قال: فوضع يده على صدري وقال: (اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه، يا علي، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء) قال: فما اختلف علي قضاء بعد، أو ما أشكل علي قضاء بعد[١].

وقال عمر بن عبد العزيز: «إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه، فلا تحكم له حتى يأتي خصمه، فلعله قد فقئت عيناه جميعًا»[٢].

فلا يدفعه وجود أحد الخصمين وشعوره بأنه مظلوم أن يحكم له قبل الاطلاع على حجة الفريق الآخر، بل يجب عليه أن يسمع دعوى الخصمين قبل الحكم، فلعل الذي يظهر في هيئة المظلوم يكون قد أوقع على خصمه ظلمًا أكبر من الذي حاق به.

عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا، بقوله: فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها)[٣].

(١) سبق تخريجه.
(٢) العقد الفريد، ابن عبد ربه ١/ ٨٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، رقم ٢٦٨٠، ٣/ ١٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم ١٧١٣، ٣/ ١٣٣٧.

٦. مناقشة صاحب الشأن قبل الحكم.

وخير ما يوضح هذا السبب موقف النبي صلى الله عليه وسلم من حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه لما أخبر أهل مكة بغزو النبي صلى الله عليه وسلم لهم.

فقد روى البخاري عن علي رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال: (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[٤]، فإن بها ظعينة[٥] ومعها كتاب فخذوه منها)، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها[٦]، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا حاطب ما هذا؟)، قال: يا رسول

(٤) منطقة بين مكة والمدينة قرب حمراء الأسد. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٢/ ٣٣٥.
(٥) الظعينة: كل جمل يركب، وهذا هو الأصل، وإنما سميت المرأة ظعينة؛ لأنها تركبه. انظر: غريب الحديث، ابن سلام ٤/ ٤٣٧.
(٦) العقاص الضفيرة. انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢١٤.

الله لا تعجل عليّ، إني كنت أمرأ ملصقًا في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد صدقكم). قال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. قال: (إنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[1].

نلاحظ من خلال هذه القصة أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل حاطبًا عن سبب فعلته، واستمع إلى جوابه وتبريره لما فعل، وناقشه في ذلك، ولم يستعجل في رميه بتهمة الخيانة، وكان صلى الله عليه وسلم يريد من خلال ذلك أن يعلمنا التبين والتثبت، وعدم الاستعجال في إطلاق الأحكام على الناس.

ونستفيد من هذه القصة في واقع حياتنا، عدم الحكم على ظواهر الأمور قبل تبيّن حقيقتها، فربما تحدث حادثة معينة، فيتعجل الإنسان ويحكم على أشخاصها قبل معرفة الأسباب والدوافع، وسماع وجهة نظرهم، فيقع في لحومهم وأعراضهم، وفي ذلك ظلم عظيم، فماذا سيخسر إن أرسل أو اتصل بصاحب الشأن ليتأكد منه شخصيًّا دون وسيط، ربما يكون هو سبب الفرقة التي حدثت والكذب الذي نقل إلينا.

٧. الظن الحسن بالمؤمنين.

فينبغي أن يقيس ما يسمعه عنهم على نفسه، فإن استبعده عن نفسه يستبعده عن غيره: وفي هذا يقول الله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

فمن الناس من يطلق لخياله العنان، ويصوغ شتى التصورات التي تنسب إلى الناس التهم، وتوقعهم في البلاء، وسوء الظن يجعل الإنسان يتجه اتجاهًا مغايرًا لما أراده الناس، ويقوم بتفسير الكلمات والوقائع والأخبار بناء على خلفيات نفسية مبيّتة، فيفرّغ كل كلمة من مضمونها، ويملؤها بمعانٍ أخرى عديدة ليست من مدلولها، ثم يمارس هذا الإنسان -دون وعي- نوعًا من التحليل لما يراه ويسمعه، ثم يضخّم إحساسه تضخيمًا مسرفًا بدون أي تحفّظ.

فالظن السيئ هو ظلم للمؤمنين، بل يتعدى إلى العدوان على أعراضهم وكرامتهم بغير حق، بل لابد من إدانة ظان السوء ليثبت ما يقول أو يتحمل الحكم الشرعي الذي يصدر بحقة فيمن قذفهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الجاسوس، رقم ٣٠٠٧، ٤/ ٥٩.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا»[(١)].

وقال القرطبي: «قال علماؤنا: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة. ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلًا ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قول تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصر ويستمع لتحقق ما وقع له من تلك التهمة. فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك»[(٢)].

ثم قال القرطبي مبينًا طريقة تمييز الظنون: «والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب. وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث»[(٣)].

وخلاصة القول: حسن الظن من التثبت، وتحريم سوء الظن بأي مسلم؛ لأنه ينافي التبين والتثبت الذي أمر الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في التخلق بهما ورتب عليهما الأجور.

٨. عدم الالتفات للألفاظ البراقة.

فكثيرًا ما يسمع الإنسان مجموعة من الألفاظ البراقة، والعبارات الخلابة، فيغتر بهذه الألفاظ وتلك العبارات، وتعجبه بما لها من بريق وزخرف، ويتسرع ويأخذ بها دون تثبت. وقد لفت النبي صلى لله عليه وسلم إلى هذا الأمر حين قال: (إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا، بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها)[(٤)].

ومعنى (ألحن بحجته من بعض) أي: أفصح وأفطن بحجته من بعض، فيزين كلامه حيث أظنه صادقًا في دعواه، وأن

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ٣٣١.
(٣) المصدر السابق ١٦/ ٣٣١-٣٣٢.
(٤) سبق تخريجه.

الحق معه وهو كاذب»[1].

وكثيرًا ما نسمع اليوم عبر وسائل التواصل والإعلام المرئي والمسموع من كلمات وأخبار وما هي إلا تنافس القائمين بهذا العمل الإعلامي في نقل الأحداث، فكلًّا يلمع الخبر الذي حصل عليه رغبة بكسب المتابعين أو المشاهدين له، حتى ولو كانت تلك العبارات مجحفة في حق أصحابها، فبعضهم يدس السم بالعسل، وخاصة ما نسمع من مطالبات مستميتة لحقوق المرأة، وكأن الإسلام قد هضم حقها، وليس خلفها إلا أهل النفاق الذين يريدون إشاعة الفاحشة بين المسلمين، بل هم لا يريدون حرية المرأة، هم يريدون حرية الوصول إليها بعد أن صانها الإسلام عن الرذائل، فالتبين من كل خبر وحادثة ومن خلف الخبر مهم لوضوح الحقائق.

٩. الاستماع الجيد، والمراجعة الدقيقة لكل ما يطلب من الإنسان تنفيذه من أوامر.

فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال يوم خيبر: (لأعطين هذه الراية رجلًا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه)، قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال: فتساورت[2] لها رجاء أن أدعى لها، قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، فأعطاه إياها، وقال: (امش، ولا تلتفت، حتى يفتح الله عليك)، قال: فسار علي شيئًا ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: (قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله)[3].

فنجد أن عليًّا رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم متثبتًا على ماذا يقاتل الناس، ثم مضى مطمئنًّا إلى ما طلب منه على أكمل وجه بعد أن وقف على حقيقة الأمر.

١٠. الحكم على الآخرين من خلال التجربة والمصاحبة والمعايشة.

فقد أثنى رجل على رجل عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: هل صحبته في سفر قط؟ قال: لا. قال: هل ائتمنته على أمانة قط؟ قال: لا. قال: هل كانت بينك وبينه مداراة[4] في حق؟ قال: لا. قال: اسكت، فلا أرى لك به علمًا،

(١) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٣٠١.
(٢) فتساورت: أي رفعت لها شخصي.

انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٨٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رقم ٢٤٠٥، ٤/ ١٨٧١.
(٤) مداراة: ملاينة.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٨٦.

أظنك والله رأيته في المسجد يخفض رأسه ويرفعه[1].

١١. المطالبة بالشهود أو البينة على الدعوى، أو اليمين من الطرف الآخر عند النكول وعدم البينة.

وهي وسيلة من وسائل إثبات الحق الذي يدّعيه المدّعي.

والأصل في ذلك ما ورد عن الأشعث بن قيس قال: كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: (شاهداك أو يمينه)، قلت: إنه إذا يحلف ولا يبالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من حلف على يمين يستحق بها مالًا، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان)، فأنزل الله تصديق ذلك، ثم اقترأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧][2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (لو يعطى الناس بدعواهم، لادعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه)[3].

١٢. أن لا يقضي القاضي مدفوعًا بشهوة التشفي أو الحقد.

ولا يستعجل في القضاء، وأن لا يقضي وهو غضبان، أو جوعان، أو نعسان، أو مرهق، ولا وهو يدافع الأخبثين (البول والغائط).

١٣. عدم بناء الأحكام على الشك، بل لابد من اليقين.

فيجب أن يفسر الشك في صالح المتهم؛ ذلك لأن اليقين لا يزول بالشك، ولأن يخطئ القاضي فيبرئ مذنبًا خير له من أن يخطئ ويتسرع بإدانة بريء ومعاقبته.

١٤. أن يطلب القاضي من الله أن يلهمه الرشد والصواب في الأمر كله.

فلا صواب إلا بالإلهام من الله، وإن العبد البعيد عن عون الله هالك.

١٥. الاستعانة بأهل العلم والخبرة والورع.

ويستعين بالنظر في اجتهادات السابقين من الأئمة المجتهدين، وما ينتج عن هذه

(١) الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي ١/ ٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرهن، باب إذا اختلف الراهن والمرتهن، رقم ٢٥١٥، ٣/ ١٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، رقم ١٣٨، ١/ ١٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، رقم ١٧١١، ٣/ ١٣٣٦.

الاستعانة من تثبت تقتضيه المسالك الشرعية، ويؤدي إلى أن يكون الرأي أو الحكم أوفق للحق، وأقرب للصواب، وأطيب لنفس الخصوم.

١٦. دراسة النماذج العملية للتثبت من خلال القرآن والسنة.

وكذلك سيرة السلف الصالح، ومعايشتها، والاستفادة منها في الواقع العملي.

نماذج قرآنية في التثبت

ذكر القرآن الكريم نماذج كثيرة للتثبت متمثلة في عدد من القصص، وهذا بيان بعضها:

أولًا: قصة موسى عليه السلام والخضر:

وردت قصة موسى والخضر عليهما السلام في سورة الكهف، في قول ربنا سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ

مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا
غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ
جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن
تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ
بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾
فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا
فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن
يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا
﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ
مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ
وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا
الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا
طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا
خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ
لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ
عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

[الكهف: ٦٠ – ٨٢].

لم يذكر لنا القرآن اسم العبد الصالح الذي ذهب إليه موسى عليه السلام، لكن بيّن لنا النبي صلى الله عليه وسلم أن اسمه الخضر[١]، وسمي بهذا الاسم لأنه جلس على فروة بيضاء[٢]، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء[٣].

ويلاحظ على هذه القصة أنها «قصة تثبّتٍ في صورة عملية؛ ذلك أن الإنسان يبني حكمه على ما يشاهده ويشعر به؛ ولذلك يخطئ ويتعثر كثيرًا، ولو انكشفت له حقائق الحياة، ومواطن الأمور وعواقبها، لتغير حكمه كثيرًا، ونقض ما أبرم، وتثبّت أنه لا ثقة له بأحكامه، وأنه لا يصح الإسراع في الحكم، وأن حياتنا اليومية العامة مليئة بالأخطاء الفاحشة، والأحكام السريعة، والخطوات المتهورة، والآراء المرتجلة، ولو أسندت إليه إدارة هذا العالم الفسيح، لأفسد العالم وأهلك الحرث والنسل؛ لأن نظره قاصر، وعلمه محدود، وخلق من عجل، وفطر على السرعة وقلة البصر»[٤].

وتظهر مواضع التثبت في هذه القصة فيما يأتي[٥]:

أولًا: لقد اختار الله سبحانه وتعالى لتقرير هذه الحقيقة العظيمة أعظم شخصية

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر، رقم ٧٤، ١/ ٤٠.

(٢) الأرض اليابسة.
انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي ١/ ٥٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب بدء الوحي، رقم ٣٢٢١، ٣/ ١٢٤٨.

(٤) تأملات في سورة الكهف، أبو الحسن الندوي ص٩٣-٩٤.

(٥) انظر: التثبت في القرآن الكريم، محمد حسين ص١٢٠.

في عصره، وهو موسى عليه السلام، أحد أولي العزم، الذي ظن متعجلًا غير متثبت أنه أعلم الناس، فعاتبه الحق سبحانه؛ لأنه لم يرد العلم إليه، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم: (أن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك)[1].

ثانيًا: بعد أن قابل موسى الخضر عليهما السلام ، وسأله أن يعلّمه من علمه، وأخبره الخضر أنه لن يستطيع صبرًا على ما يرى، وتعهد موسى عليه السلام أنه سيكون صابرًا، ولا يعصي له أمرًا، أخذ الخضر عليه السلام الشرط على موسى عليه السلام إن أراد صحبته ألا يسأله عن شيء حتى يوضّحه له ووافق موسى عليه السلام ألا يتسرع بالإنكار على الخضر عليه السلام عندما يقوم ببعض الأمور التي يبدو ظاهرها المنكر؛ لأن التسرع ينافي التثبت[2]، فقبل موسى عليه السلام شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم[3].

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٥ – ٧٠].

ثالثًا: «وتمضي الرحلة، وينكر موسى على الخضر عليهما السلام تصرفات أثارت الاستغراب والدهشة، من خرق للسفينة التي أقلتهما بدون أجر، وقتل للغلام الزكي الذي لم يبلغ الحلم، وبناء للجدار في قرية لم يضيفهما أهلها، لذلك لم يملك موسى عليه السلام نفسه أمام هذه التصرفات الغريبة ونسي وعده، وأسرع بالإنكار والتساؤل قائلًا للخضر عليه السلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]»[4].

إذن لم يصبر موسى عليه السلام على ما قام به الخضر عليه السلام، وتسرعه هذا ينافي التثبت، فلو صبر وتأنى لرأى العجب، لكنه أكثر الاعتراض فتعين الفراق[5]، لذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله موسى لو كان صبر لقص علينا من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾، رقم ٤٤٤٨، ٤/ ١٧٥٢.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٥.

(٣) معاني القرآن، النحاس ٤/ ٢٦٩.

(٤) تأملات في سورة الكهف، أبو الحسن الندوي ص٩٥.

(٥) التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ٣٢٧.

أمرهما)[1].

وقد «كان على موسى عليه السلام أن يتريث ويتأنى حتى يوضّح له الخضر أسباب ما يقوم به، لكنه تسرع وقال كلامًا يدل على ندمه الشديد ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦].

ولما لم يلتزم موسى عليه السلام بالشرط الذي وضعه على نفسه، وأنكر إنكارًا قائمًا على العجلة وعدم التريث، قرر الخضر عليه السلام مفارقته ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]»[2].

رابعًا: «يمضي الخضر عليه السلام بتؤدة وأناة حتى تنتهي الرحلة إلى غايتها المقدرة، ويكشف القناع عن هذه القضايا الثلاث، التي كانت موضع دهشة واستغراب من موسى عليه السلام ومن كل من يقرأ هذه القصة في القرآن، فيتجلى أن الخضر عليه السلام كان مصيبًا محسنًا، فقد أحسن إلى صاحب السفينة بخرقها؛ إذ حفظها من اغتصاب الملك الظالم ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

وأحسن إلى أبوي الغلام بقتله؛ إذ كان فتنة لهما ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

وأن بكاء ساعة أفضل من البكاء طول الحياة، وأن الغلام يعوّض، ولا عوض عن الدين والعافية ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١].

وأصلح الجدار وأقامه؛ لأنه كان ليتيمين من أبوين صالحين، وكان تحته كنز لهما، ولو تهدم الجدار لانكشف الكنز واختطفه الناهبون، فظهر أن صلاح العمل ينفع في الحياة وبعد الممات، وأن البذور الصالحة تظهر نتيجتها كما أن البذور السيئة تظهر نتيجتها»[3]، ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

هذه القصة العظيمة درس لكل المسلمين -وخاصة الدعاة- في التأني والتثبت قبل الإنكار، وهذا يوصلنا إلى الحقيقة والصواب، والعاقبة المحمودة، فكم من قضية أو حكم كنا نجهله أو ننكره، فلما وقفنا على حقيقته تبين لنا خطأ اعتقادنا وتفكيرنا!

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠١، ٤/ ١٥٤.

(٢) تأملات في سورة الكهف، أبو الحسن الندوي ص٩٥.

(٣) المصدر السابق ص٩٦-٩٧.

ثانيًا: قصة سليمان عليه السلام والهدهد:

وردت هذه القصة في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٦ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٠ – ٢٨].

تتجلى مظاهر التثبت في هذه القصة من خلال الآتي[(١)]:

أولًا: قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ففي هذه الآية عدة فوائد:

الأولى: أن الخلل لا بد أن يعالج بالعقوبة ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ وهذا يثبت أن سليمان عليه السلام كان على إحاطة تامة وعلم شامل بأمر الجند.

الثانية: لم يتسرع سليمان عليه السلام بعقاب من لم يثبت تقصيره، فربما يكون هناك عذر أو سبب لهذا الغياب، ومن ثمّ قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فقبل العقوبة لابد من التثبت، ومعرفة سبب الغياب.

الثالثة: دقة كلام الحاكم وإحاطته واختصاره، وإظهار الغضب إذا وجد الخلل، والتهديد بالعقوبة بحيث يسمعها الجند.

يقول سيد قطب: «ومن ثمّ نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ولكن سليمان ليس ملكًا جبارًا في الأرض، إنما هو نبي، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيًّا قبل أن يسمع منه، ويتبين عذره، ومن ثمّ تبرز سمة النبي العادل: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذة عنه»[(٢)].

«إذن فالسلطان المبين هو العذر البيّن

(١) انظر: الأساس في التفسير، سعيد حوى ٧/ ٤٠٠٨، القصص القرآني، صلاح الخالدي ٣/ ٥٢٧، التثبت في القرآن الكريم، محمد حسين ص١٢٥.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٨.

الواضح المقبول، وهذا الاستدراك من سليمان عليه السلام يدل على حزمه وضبطه وعدله وتثبّته، فقد أعطى المتهم فرصة لبيان حجته والدفاع عن نفسه؛ لأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، أما إذا قدّم عذرًا أو حجة فلابد أن يقبل منه»[1].

ونستفيد من فعل سليمان عليه السلام في واقعنا، عدم جواز إصدار الأحكام على الناس المتهمين في نظرنا، حتى يعطوا الفرصة للدفاع عن أنفسهم، والإتيان بالبينات القاطعة التي تشهد ببراءتهم مما نسب إليهم، لكن الناس في هذه الأيام يصدرون الأحكام الجاهزة على الناس دون أدنى تثبت، مما يجعل المجتمع المسلم أسيرًا للشائعات الكاذبة التي تقوّض بنيانه.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إن قول الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ تدل على تثبته؛ لأن الإحاطة تعني «العلم بالشيء من جميع جهاته»[2]، وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ يدل على تأكده وتيقّنه مما رأى وشاهد.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ومن دروس التثبت في هذه الآية:

الأول: قوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ وهذا يدل على النظر والتأمل، والتصفح، والتثبت من الأخبار، والكشف عن الحقائق بوجه من وجوه المعرفة والعلم[3].

الثاني: «قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يلاحظ أن سليمان عليه السلام لم يشرع في تصديقه أو تكذيبه، ولم يستخفه النبأ العظيم الذي جاء به، إنما أخذ في تجربة الهدهد ليتأكد من صحة ما قاله ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٢٨]»[4].

الثالث: لا بد للإنسان أن يتمهل، ويتثبت من الأخبار التي ترد إليه، وأن يفحصها ويتأكد منها، فإن ظهر له صدقها أخذ بها، وإن ظهر له كذبها رفضها، ولا يلام على موقفه هذا، وهذا ما فعله سليمان عليه السلام، تثبّت من كلام الهدهد فظهر له صدقه[5].

ثالثًا: قصة داود عليه السلام والخصمين:

وردت هذه القصة في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ

(١) القصص القرآني، صلاح الخالدي ٣/ ٥٢٧.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٤١٤.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٦٧، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٣٦.
(٤) المستفاد من قصص القرآن، عبدالكريم زيدان ١/ ٤٣٠.
(٥) القصص القرآني، صلاح الخالدي ١/ ٥٣٥.

﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ٢٤ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢١ - ٢٦].

وبيان هذه القصة «أن داود النبي الملك، كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس.

ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحًا لله في المحراب. وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس.

وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه، ففزع منهم، فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين! فبادرا يطمئنانه ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ وجئنا للتقاضي أمامك ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وبدأ أحدهما فعرض خصومته: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: اجعلها لي وفي ملكي وكفالتي ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: شدد علي في القول وأغلظ.

والقضية- كما عرضها أحد الخصمين- تحمل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يحتمل التأويل. ومن ثمّ اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثًا، ولم يطلب إليه بيانًا، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ أي: الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾.

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان، فقد كانا ملكين جاءا للامتحان! امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس، ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم. وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة، ولكن القاضي عليه ألا يستثار، وعليه ألا يتعجل، وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعًا أو كاذبًا أو ناقصًا!»[1].

ومن دروس التثبت المستفادة من هذه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠١٨.

القصة[1]:

أولًا: لقد ورد في تفسير هذه الآيات كثير من القصص الإسرائيلية التي لا دليل عليها، وفيها ما يقدح في عصمة الأنبياء. ولذلك ردّ كثير من المفسرين هذه القصص الإسرائيلية في تفسير هذه الآيات[2].

ثانيًا: الظاهر من هذه القصة أن داود عليه السلام سمع قول المتظلم من الخصمين وهو المدعي، ولم يخبرنا القرآن عن داود عليه السلام أنه سأل المدّعى عليه عما يقول المدّعي، وهل يقر بدعواه أم لا؟ وهل عنده ما يدفع هذه الدعوى.

ويبدو أن داود عليه السلام عندما سمع القضية من المدّعي عرف أنه مظلوم، وأن خصمه ظلمه وبغى عليه، وتأثر داود بما سمع، وظن أن الأمر لا يتطلب سماع الطرف الآخر، فقال داود عليه السلام مستعجلًا للمتظلم: لقد ظلمك، مع إمكان أنه لو سأل المتظلم منه لنفى ذلك ولم يعترف به[3].

والأصل أن يسمع القاضي من الخصمين، لا أن يسمع كلام خصم دون الآخر؛ لأن قضية التثبت من أصول الحكم التي لا يمكن تجاوزها، ومقتضى التثبت أن يسمع من الطرفين.

ثالثًا: نتعلم من قصة داود عليه السلام عدم جواز إصدار الحكم من غير تثبت ولا إقرار من الخصم؛ إذ هذا محل الفتنة التي كانت لداود عليه السلام، فينبغي التأني في إصدار الأحكام، حتى تسمع الدعوى من الخصمين معًا[4].

رابعًا: إن من قواعد الحكم الأساسية التثبت والعدل في الأحكام، ومن مقتضيات ذلك ألا يحكم القاضي في الدعوى إلا بعد أن ترفع إليه، وألا يميل مع أحد الخصمين لقرابة أو صداقة، أو محبة، أو بغض للآخر؛ فإن ذلك يخرجه عن الصراط المستقيم[5] ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

خامسًا: لا يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه الشخصي، إلا إذا كان معه شاهد آخر يعزز هذا العلم، فقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «لو رأيت أحدًا على حد لم أحده، حتى يشهد عندي شاهدان بذلك»[6].

(١) انظر: التثبت في القرآن الكريم، محمد حسين ص١٣٠.
(٢) انظر: معاني القرآن، النحاس ٦/ ٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠١٨.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٧٨.
(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٤٤٤.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧١١.
(٦) انظر: تلخيص الحبير، ابن حجر ٤/ ١٩٧

فهذه القصة تعلمنا وجوب الحكم بالحق والعدل، ومقتضى ذلك التأني والتثبت في إصدار الأحكام، من خلال الوقوف على الطرفين المتخاصمين، وعدم الاكتفاء بسماع طرف دون الطرف الآخر، وعدم الالتفات إلى الشائعات، والاكتفاء بما يشاع منها دون سماع المعنيّ بها، فكم من شائعة انتشرت واشتهرت، لكنها عين الباطل والكذب والزور.

نماذج قرآنية في عدم التثبت

من النماذج القرآنية في عدم التثبت، حادثة الإفك، فقد أظهرت هذه الحادثة مدى خطورة عدم التّثبّت والإشاعة على المجتمع المسلم، فقد افترى عبد الله بن أبيّ على عرض رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فرمى أحبّ نسائه إلى قلبه، وبنت أحبّ أصحابه إليه بالإفك، واتهم صحابيًّا كريمًا بهذه التّهمة النّكراء، وماجت المدينة شهرًا كاملًا بالفتنة، وانتقل الحديث من لسانٍ إلى لسانٍ ومن بيتٍ إلى بيتٍ، حتى وصل خبره إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلم وعلم به أبو بكر الصّديق ثم عرفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

وهذه الحادثة وردت في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

وصحح إسناده مع وجود انقطاع فيه.

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا
سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن
تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ
أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾
وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى
ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ
وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ
ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ
يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ
ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ
لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ٢٦].

وجاء تفصيل الحادثة في كتب السنة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودج، وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع أظفار[1] قد انقطع، فرجعت، فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحّلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج، فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحد، فأممت منزلي الذي كنت به، فظننت أنهم سيفقدونني، فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي، فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني وكان

(١) جزع أظفار: الجزع اسم مدينة بحمير في اليمن.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥١٧.

يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته فوطئ يدها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهرًا والناس يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجعي، أني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم، ثم يقول: (كيف تيكم)[1]، لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهت، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع[2] متبرزنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف[3] قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مرطها[4]، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلًا شهد بدرًا، فقالت: يا هنتاه[5]، ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم فقال: (كيف تيكم)، فقلت: ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيت أبوي، فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، ولقد يتحدث الناس بهذا، قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة، فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية

(١) تيكم: هي إشارة بالتنبيه للمؤنث مثل ذا للمذكر.
انظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض ١/ ١٢٥.

(٢) المناصع: موضع بعينه خارج المدينة، وكن النساء يتبرزن إليه بالليل على مذاهب العرب بالجاهلية.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٥٦.

(٣) الكنف: المراحيض.
انظر: غريب الحديث، ابن سلام ٣/ ١٤٣.

(٤) المرط: أكسيةٌ من صوف أو خزٍّ كان يؤتزر بها.
انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٥٩.

(٥) هنتاه: لفظة تختص بالنداء. وقيل: معنى يا هنتاه: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٢٨٠.

تصدقك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: (يا بريرة هل رأيت فيها شيئًا يريبك؟)، فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرًا أغمصه [1] عليها قط، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي)، فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية - فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس، والخزرج حتى هموا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فنزل، فخفضهم حتى سكتوا، وسكت وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيت ليلتين ويومًا حتى أظن أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي، وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد، ثم قال: (يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه)، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيرًا من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم إني لبريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر،

(١) أغمصه: أعيبه.
انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١٠٤٧.

والله يعلم أني بريئة لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلًا، إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيًا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات، فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها، أن قال لي: (يا عائشة احمدي الله، فقد برأك الله)، فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات[1].

وقد حملت هذه القصة دلالات كثيرة على عدم التثبت لمن خاض فيها، منها:

أولًا: قصة الإفك الكذب فيها ظاهر جدًّا؛ لأنه لا يمكن أن تكون زوجة نبي الله صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف؛ لأن الله لا يختار لنبيه إلا الطيبات، كما قال: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

فمن خاض في هذه الحادثة غاب عنه هذا الأمر بسبب عدم التثبت.

ثانيًا: يظهر عدم التثبت في هذه القصة، في عدم تأمل الخائضين في حال حامل لواء الإفك، إنه عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين والذي كان معهم في غزوة بني المصطلق -وكانت فيها حادثة الإفك- وحدث منه ما حدث في هذه الغزوة مما ذكره القرآن في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٥ - ٨].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، رقم ٢٦٦١، ٣/ ١٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب رقم ١٠، رقم ٢٧٧٠، ٤/ ٢١٣٠.

فكيف يصدّق بعد ذلك وقد حدث منه ما حدث؟!

يقول الشيخ محمد الغزالي عن موقف ابن سلول في غزوة بني المصطلق وحادثة الإفك: «لم يدر بخاطر أحد أنّ هذه الأوبة المتعجّلة سوف تتمخّض عن أكذوبة دنيئة يحيك أطرافها عبد الله بن أبيّ، ثم يرمي بها بين الناس، فتسير مسير الوباء الفاتك، فقد اختفى كالعقرب الخائنة، ثم شرع يلسع الغافلين، قبع هذا المنافق في جنح الظلام وبدأ ينفث الإشاعات المريبة.

وتدلّى- في غوايته- إلى حضيض بعيد، فلم يبال أن يتهجّم على الأعراض المصونة، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات.

في عودة الرسول صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق إلى المدينة، نبت حديث الإفك وشاع، واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شرره في كل مكان قاصدين- من وراء هذا الأسلوب الجديد في حرب الإسلام- أن يدمّروا على الرسول صلى الله عليه وسلم بيته، وأن يسقطوا مكانة أقرب الرّجال لديه، وأن يدعوا جمهور المسلمين- بعد ذلك- يضطرب في عماية من الأسى والغم! !.

وللوصول إلى هذه الغاية استباح ابن أبي لنفسه أن يرمي بالفحشاء سيدة لمّا تجاوز مرحلة الطفولة البريئة، لا تعرف الشرّ، ولا تهمّ بمنكر، ولا تحسن الحياة إلا في فلك النبوة العالي، وهي التي تربّت في حجر صدّيق، وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة»[1].

ثالثًا: الخوض في عرض عائشة رضي الله عنها وعدم الظن بها خيرًا، فهذا من التعجل وعدم التثبت الذي أنكره الله على الخائضين في قوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

فهذه الآية فيها عتاب للمؤمنين، إذ كان الواجب عليهم إنكار ما سمعوه من إفك وكذب حول بيت النبوة، وأن يقيس فضلاء المؤمنين الأمر على أنفسهم، فإذا استبعدوه عن أنفسهم، فأم المؤمنين أبعد لفضلها، فقد «كان الأولى أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الحمأة، وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم. فظن الخير بهما أولى.

فإن ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلا خيرًا»[2].

وقد كان ظن بعض المؤمنين بزوجة

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي ص٢٩١ بتصرف.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٠١ بتصرف يسير.

نبيهم صلى الله عليه وسلم خيرًا، كما ورد أن أبا أيوب رضي الله عنه قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك[1].

رابعًا: عدم إقامة البينة على هذا الإفك من الخائضين فيه: وهذا ما ذكره الله في قوله: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

قال الزمخشري: «جعل الله التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب: ثبوت شهادة الشهود الأربعة وانتفاءها، والذين رموا عائشة رضى الله عنها لم تكن لهم بينة على قولهم، فقامت عليهم الحجة وكانوا عند اللّه أي: في حكمه وشريعته كاذبين. وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا في دفعه وإنكاره، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع، من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين، فكيف بأمّ المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبيبة حبيب الله؟»[2].

خامسًا: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

ويتجلى عدم التثبت في هذه الآية في ثلاثة أمور وهي:

الأول: تلقي الإفك بألسنتهم بالسؤال عنه وبإشاعته، لا مجرد السماع عفوًا، وإنما يأخذه بعضهم من بعض، ويذيعه وينشره بدون تحقق.

الثاني: التكلم بما لا علم لهم به، ولا دليل عليه، وهذا ينافي التثبت، وهو حديث باللسان دون القلب «لأن من المعلوم بداهة أن التلقي إنما يكون بالأذن ثم يعرض على العقل والقلب، وحينئذ يكون الكلام باللسان، فإنما هي لفتة إلى السرعة وعدم التأني أو التروي في إصدار الحكم، بل في تداوله والتحرك به كأن الإفك عندما وقع من ابن سلول صمت الآذان، وسترت العقول، وغلفت القلوب، فلم يبق إلا أن لاكته الألسن وتحركت به الشفاه، دون فهم للواقع، ودون معرفة بالظروف والملابسات»[3].

ولقد صوّر صاحب الظلال ذلك تصويرًا بديعًا حين قال: «وهي صور فيها الخفّة والاستهتار، وقلّة الحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ لسان يتلقى عن لسان،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢١٢.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢١٩.
(٣) آفات على الطريق، السيد محمد نوح ٢/ ٧٠.

بلا تدبر ولا تروّ، ولا فحص ولا إمعان نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبّره القلوب، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، بأفواهكم لا بوعيكم، ولا بعقلكم، ولا بقلبكم، إنّما هي كلمات تقذف بها الأفواه قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول... »[1].

الثالث: استصغار ذلك القول، وهو عند الله عظيم الإثم، موجب لشدة العقاب ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ قال الزحيلي: «وهذا يدل على أمور ثلاثة: هي أن القذف من الكبائر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وأن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها، وإنما بالواقع، فربما كان جاهلًا لعظمها، لقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ وأن الواجب على المكلف في كل محرم أن يستعظم الإقدام عليه، فربما كان من الكبائر»[2].

وهكذا يتبين من هذه القصة أن للإشاعات وعدم التثبت دورًا خطيرًا في تحريك النسيج الاجتماعي، والتأثير في تماسكه، واللعب بعواطفه، وتوجيهه نحو الهاوية إذا لم يتدارك الأمر.

موضوعات ذات صلة:

المسابقة، المسارعة

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٠٢.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٨١.

التدبّر

عناصر الموضوع

مفهوم التدبر	٢٢٤
التدبر في الاستعمال القرآني	٢٢٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٢٦
مقاصد التدبر	٢٢٨
الأسباب المعينة على التدبّر	٢٤١
صوارف التدبّر	٢٥٢
أساليب القرآن في الحث على تدبرّه	٢٥٨

مفهوم التدبر

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (دب ر) تدل على آخر الشّيء وخلفه، فمعظم الباب أنّ الدّبر خلاف القبل، ودابرت فلانًا: عاديته، وذلك أن يترك كلّ واحدٍ منهما الإقبال على صاحبه بوجهه، ورجلٌ أدابرٌ: يقطع رحمه؛ وذلك أنّه يدبر عنها ولا يقبل عليها[(١)].

والتدبير: أن يعتق الرجل عبده عن دبر، وهو أن يعتق بعد موته، والتّدبير أيضًا: أن يدبّر الإنسان أمره، وذلك أنّه ينظر إلى ما تصير عاقبته، ودُبُره يعني: آخره[(٢)].

وتدبّر الكلام: النظر في أوله وآخره، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة؛ ولهذا جاء على وزن التفعّل كالتجرّع والتفهّم والتبيّن[(٣)]، ودبّر الأمر أي: فعله بعناية وعن فكر ورويّة، أو نظر فيه وصرّفه على ما يريد[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور»[(٥)].

أما ابن القيم فعرّفه: «تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبّره وتعقّله»[(٦)].

وقيل في معناه: هو التفكر الشامل الموصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[(٧)].

وقيل: هو تفهّم معاني ألفاظ القرآن والتفكر فيما تدل عليه آياته، وما دخل في ضمنها وما لا تتم إلا به، مما لم يعرّج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات وانتفاع القلب بذلك بخشوعه عند مواعظه وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه[(٨)].

فبهذا تتضح العلاقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي، إذا خص التدبر في المعنى الاصطلاحي بالتفكر والتأمل في كلام الله تعالى.

(١) انظر: العين، الفراهيدي، ٨/ ٣١، تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤/ ٧٨، الصحاح، الجوهري، ٢/ ٦٥٣، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣٢٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٢٧٣.
(٣) انظر: دستور العلماء، القاضي نكري، ٢/ ٢٦٩.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ١١/ ٢٦٥.
(٥) التعريفات، ص٥٤.
(٦) مدارج السالكين، ١/ ٤٤٩.
(٧) انظر: قواعد التدبر الأمثل، الميداني، ص ١٠.
(٨) انظر: تدبر القرآن، سليمان السنيدي، ص ٦٤.

التدبر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (دبر) في القرآن الكريم (٤٤) مرة، ويخص مادة التدبر منها (٤) مرات[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٤	﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:٢٩]

وجاء التدبر في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: التفكر والنظر في أدبار الأمور[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٥٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الدال ص ٤٩٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢١١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٥٨٨، تاج العروس، الزبيدي، ١١/ ٢٦٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ التفسير:

التفسير لغةً:

هو بيان الشيء وإيضاحه. من ذلك الفسر، يقال: فسرت الشيء وفسّرته[١].

التفسير اصطلاحًا:

«علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»[٢].

الصلة بين التدبّر والتفسير:

إن التدبر لا يكون إلا بعد معرفة التفسير الصحيح للآية، وأن المقصود الأصلي للتفسير هو: بيان معاني كلام الله تعالى، ومقصود التدبر هو: الاتعاظ والاعتبار.

٢ التأويل:

التأويل لغةً:

التأويل من (الأول)، أي: الرجوع إلى الأصل، ومنه: (الموئل) للموضع الذي يرجع إليه، وذلك هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علمًا كان أو فعلًا[٣]، وقيل: من (الإيالة)، وهي السياسة، كأن المؤول للكلام يسوسه ويضع المعنى في موضعه[٤].

التأويل اصطلاحًا:

عند السلف المتقدمين: كانوا يطلقون مصطلح التأويل على التفسير، وعند المتأخرين: (التأويل): هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، بما لا يخالف نصًّا من كتاب الله سبحانه و تعالى ولا سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥].

الصلة بين التدبّر والتأويل:

على اعتبار أن التأويل بمعنى التفسير، فيكون الفرق بين التدبر والتأويل نفس الكلام المذكور سابقًا، أما على المعنى الثاني، فيلتقي التأويل مع التدبر في الغايات والمقاصد،

(١) انظر: العين، الخليل بن أحمد، ٧/ ٢٤٨.
(٢) مناهل العرفان، الزّرقاني، ٢/ ٣.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٩٩، لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٣٢.
(٤) انظر: الإتقان، السيوطي، ٤/ ١٩٢.
(٥) انظر: معجم علوم القرآن، إبراهيم الجرمي، ص ٧٨.

لكن التدبر لعامة المؤمنين، والتأويل لأهل العلم والنظر.

٣ الاستنباط:

الاستنباط لغةً:

كلمة تدل على استخراج شيء. واستنبطت الماء: استخرجته، والماء نفسه إذا استخرج نبط. ويقال: إنّ النّبط سموا به لاستنباطهم المياه[١].

الاستنباط اصطلاحًا:

هو استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح[٢].

الصلة بين التدبّر و الاستنباط:

إن التدبر أصل الاستنباط، فلا يمكن الاستنباط من النص قبل تدبّره، وأن التدبّر يعم العلماء وغيرهم؛ لأنه متوجه للمقاصد الأصلية للقرآن، والاستنباط خاصٌّ بأولي العلم فقط؛ لأنه يكون لدقائق الأمور.

٤ التفكّر:

التفكّر لغةً:

تردد القلب في الشيء. يقال: تفكر إذا ردّد قلبه معتبرًا. ورجل فكّير: كثير الفكر[٣].

التفكّر اصطلاحًا:

تصرّف القلب في معاني الأشياء؛ لدرك المطلوب، وقيل: هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء[٤].

الصلة بين التدبّر والتفكّر:

إن التدبر: تصرّف القلب بالنظر في العواقب. والتفكر: تصرّف القلب بالنظر في الدلائل. وأن التفكر أظهر في النظر في الآيات الكونية الواقعة والمشاهدة، أما التدبر فهو أظهر في النظر في الآيات القرآنية[٥].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٣٨١.
(٢) انظر: مفهوم التفسير، مساعد الطيار، ص١٦٠.
(٣) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٠٤.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٦٣.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٧٥.

مقاصد التدبر

إنّ التدبّر في القرآن هو الغاية الأسمى من نزوله، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[ص: ٢٩].

وهذا ما دعا العلماء إلى البحث في موضوع التدبر، ومعرفة مقاصد وأهداف التدبر، ولمعرفة مقاصد وأهداف التدبّر نعرضها فيما يلي:

أولًا: زيادة الإيمان:

إنّ أهم مقصد من مقاصد التدبر في القرآن الكريم، هو أنه عندما يتلى القرآن الكريم بتدبّر، يشعر القارئ بزيادة الإيمان في قلبه، بل إن مقياس التدبر يعرف بزيادة الإيمان، فإذا كان المسلم يشعر بزيادة في إيمانه فإنه يتدبّر القرآن، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

ويقول الإمام السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب؛ ولأنه لابد أن يبيّن لهم معنًى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقًا إلى كرامة ربهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان»[(١)].

والمراد بـ (زيادة الإيمان): هي زيادة انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات[(٢)]، وقوة اليقين في نفس الموقن، فتلك القوة هي المعبّر عنها بالزيادة، وتفاوتها تدرج في الزيادة، ويجوز أن تسمى: قلة التدرج في الأدلة نقصًا، لكنه نقص عن الزيادة، وذلك مع مراعاة وجود أصل حقيقة الإيمان؛ لأنها لو نقصت عن اليقين لبطلت ماهية الإيمان، وقد أشار البخاري رحمه الله إلى هذا بقوله: (باب زيادة الإيمان ونقصانه)[(٣)]، فإذا ترك شيئًا من الكمال فهو ناقص، وهذا هو المراد من وصف الإيمان بالزيادة[(٤)].

وجاء التعبير بصيغة الفعل المبنى للمفعول في قوله: ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾، ﴿تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ للإيذان بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين إذا كانوا يخافون، ويزداد إيمانهم عندما يسمعون من غيرهم آيات الله، فإنهم يكونون أشد خوفًا، وأكثر زيادةً للإيمان عند

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣١٥.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٢٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، ١/ ١٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٢٥٧.

ذكرهم لله، وعند تلاوتهم لآياته بألسنتهم وقلوبهم. فالمقصود من هذه الصيغة: مدحهم، والثناء عليهم، وبيان الأثر الطيب الذي يترتب على ذكر الله، وعلى تدبر آياته[1].

والقلب المؤمن يجد في آيات القرآن ما يزيده إيمانًا، وما ينتهي به إلى الاطمئنان، فالقرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة، ولا يحول بينهما شيء إلا الكفر الذي يحجبه عن القلب، ويحجب القلب عنه، فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، ووجد في آياته المتكررة زيادة في الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان[2].

وكان المؤمنون إذا أنزلت سورة من القرآن ازدادوا إيمانًا وتصديقًا وإقرارًا؛ حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة: ١٢٤].

وذلك لا يكون إلا بعد التدبر في هذه السورة، ولعل المسلمين كانوا إذا سمعوا القرآن قالوا: قد ازددنا إيمانًا، كقول معاذ بن جبل للأسود بن هلال رضي الله عنهما: (اجلس بنا نؤمن ساعة)[3]، يعني: بمذاكرة القرآن والتدبر في آياته[4]، والتعبير في الآية بقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ يدل على أن أعظم آثار القرآن هو الإيمان، وذلك لا يكون إلا بالتدبر، فالإيمان إذًا مقصد من مقاصد المتدبر للقرآن، فعندما تفهم ما تقرأ وتستشعر عظمة الخطاب الموجّه إليك، فإن ذلك يزيد من إيمانك بربك، ويجعلك مستبشرًا بعظيم فضله ومنته، بعكس المنافق المعرض صاحب القلب المريض؛ إذ لا تزيده السورة إلا شكًّا وإعراضًا.

ومن علامات زيادة الإيمان الناتجة عن تدبر القرآن: البكاء من خشية الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

والقشعريرة خوفًا من الله تعالى، ثم غلبة الرجاء والسكينة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

ومن العلامات أيضًا: السجود تعظيمًا لله عز وجل وزيادة الخشوع، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي، ٦/ ٣٠.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٤٧٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بني الإسلام على خمس، ١/ ١٠.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ٦٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

ثانيًا: العمل الصالح:

إنّ المقصد الثاني من مقاصد تدبر القرآن، هو العمل الصالح، والامتثال لأمر الله ونهيه، وهو ثمرة الإيمان وعاقبة التدبر؛ لذلك حتى يتحقق التدبر في القرآن، يجب أن يكون بنية العمل والامتثال بما فيه، ولو أننا تلونا القرآن، ولم نعمل بما فيه لا يمكن أن نكون قد تدبرناه. ولو تدبرناه لكان القرآن واقعًا عمليًّا في حياتنا وسلوكنا. وهذا ما أكّدته عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: (فإنّ خلق نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن)[1]، ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك، فإنّه خيرٌ يؤمر به، أو شرٌّ ينهى عنه»[2]، وذلك استعدادًا لتنفيذ الأوامر.

إن التدبر في القرآن هو الطريق للعمل بما جاء فيه؛ وذلك لأن العمل بالقرآن يتوقف على فهمه، وفهم القرآن لا يمكن إلا بالتدبر في آياته. ولقد حثّنا القرآن على العمل والامتثال لما جاء فيه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

الغالبية العظمى من المفسرين على أن المقصود من قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، أي: يتبعونه حق اتباعه، فيكون: يتلونه من تلاه، يتلوه: إذا اتّبعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢].

أي: اتبعها، فهم يعملون بما فيه، فيحلّون حلاله، ويحرّمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه[3]، ويقول أبو السعود: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، «بمراعاة لفظه عن التحريف وبالتدبّر في معانيه والعمل بما فيه»[4]؛ لأنهم إن تدبروه تدبرًا صادقًا، علموا أنه حق، وأن اتباعه واجب، وتصديق من جاء به لازم[5]. بل إن الفائدة المنشودة من تلاوة القرآن بتدبر هي العمل به، فهو كما ثبت في الحديث الصحيح من حديث أبي مالكٍ الأشعريّ: (والقرآن حجّةٌ لك، أو عليك)[6]، وهذا الذي كان عليه السلف

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب جامع صلاة الليل، رقم ١٦٦٨، ٢/ ١٦٩.
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق، ١/ ١٣.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٥٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٥.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٥٣.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٥/ ٣٣٩.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة،

الصالح -رضي الله عنهم وأرضاهم-، كما قال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-: «إن من قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبّرونها بالليل وينفّذونها بالنهار»[(١)]. ومن يتلو القرآن، وهو معرض عن آياته والعمل به، يكون كالمستهزئ بربه، أما الأميّ فعليه سؤال العلماء؛ لشرح معنى القرآن، وإفهامه مراده: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٤٣][(٢)].

ومن هنا فإن الذين لا يتدبّرون القرآن، سوف يفوتهم تطبيق الكثير من مبادئ الدين في حياتهم العملية، وهم لا يشعرون.

ولقد اقترنت دعوة القرآن الكريم للعمل الصالح بالدعوة للإيمان بالله، فلقد كرر القرآن الكريم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خمسين مرة، في اثنتين وثلاثين سورة.

ويجعل القرآن العمل الصالح جزءًا من صفات المؤمن وشرطًا لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف: ١٠٧].

وهناك ارتباط وثيق في عقيدة أهل السنة والجماعة بين الإيمان والعمل الصالح؛ فالإيمان شرطه العمل الصالح، وإلا كان قولًا لا دليل عليه، والعمل الصالح شرطه الإيمان؛ لكي يكون مقبولًا عند الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[النساء: ١٢٤].

وقال في شأن الذين يقدّمون أعمالًا خيّرة، ولكنهم كفار: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣].

إنّ الاستخلاف في الأرض لا يكون إلا بالعمل الصالح بعد الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥][(٣)].

والتدبر في القرآن الكريم يجعل الفرد المؤمن الصالح إيجابيًّا ونافعًا، ويعيش حياة آمنة مطمئنة، وصفها القرآن بالحياة الطيبة، وجعلها لمن عمل صالحًا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

باب الطهور شطر الإيمان، ١/ ١٣٩، رقم ٤٠٤.

(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، ص ٥٤.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٢٩٧.

(٣) انظر: فقه النصر والتمكين، علي الصلابي، ص١٨٦.

وبهذا الترابط الوثيق بين الإيمان والعمل الصالح يقدّم الإسلام نموذجًا رائعًا وفريدًا بالتطابق بين النظرية والتطبيق، فليس الإيمان مجرد شعارات وأقوال، بل هو تصديق قلبي ينعكس على عمل المؤمن، وعلاقته بمن حوله، فالإيمان الصحيح يزداد، ويقوى، وينمي، ويترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة، وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره.

وليس العمل لمجرد النفع الدنيوي البعيد عن الأخلاق، بل هو مرتبط بحياة أخرويّة، هي بالتأكيد الأفضل والأعلى ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[الضحى: ٤].

ولقد حفّزنا القرآن الكريم بأساليب مختلفة على العمل والامتثال، منها: أسلوب الأمر والنهي، وأسلوب الجزاء والعقاب، وأسلوب الوعد والوعيد، وأسلوب الترغيب والترهيب، وهذه الأساليب وغيرها دالة على أن القرآن أنزل للعمل والامتثال.

ومنهج النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح، وغاية مرادهم من القرآن، العمل الصالح، ويشهد له: ما أخرجه الإمام مسلم عن سعد بن هشام بن عامر قال: (سألت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أمّ المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإنّ خلق نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن، قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحدًا عن شيءٍ حتّى أموت، ثمّ بدا لي، فقلت: أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ألست تقرأ يا أيّها المزّمّل؟ قلت: بلى، قالت: فإنّ اللّه عز وجل افترض قيام اللّيل في أوّل هذه السّورة، فقام نبيّ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولًا، وأمسك اللّه خاتمتها اثني عشر شهرًا في السّماء، حتّى أنزل اللّه في آخر هذه السّورة التّخفيف، فصار قيام اللّيل تطوّعًا بعد فريضةٍ)[1].

ففي هذا الحديث دلالة على منهج النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع القرآن، وهو التخلّق بأخلاقه، والعمل بأوامره.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال له عيينة بن حصن: «هي يا ابن الخطّاب، فواللّه ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل»، فغضب عمر حتّى همّ أن يوقع به، فقال له الحرّ بن قيس: «يا أمير المؤمنين، إنّ اللّه تعالى قال لنبيّه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وإنّ هذا من الجاهلين»، واللّه ما جاوزها عمر حين تلاها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب جامع صلاة الليل، ٢/ ١٦٩، رقم ١٦٦٨.

عليه، وكان وقّافًا عند كتاب اللّه[1].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «وما يتدبّر آياته إلّا اتّباعه بعلمه، واللّه يعلمه، أما واللّه ما هو بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتّى أنّ أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كلّه فما أسقط منه حرفًا، وقد أسقطه واللّه كلّه ما بدا له القرآن في خلقٍ ولا عملٍ»[2].

ثالثًا: الهداية إلى الحق والصواب:

قد علم أن المقصد الأول من مقاصد التدبر هو: زيادة الإيمان، وأن المقصد الثاني هو: العمل الصالح، وهو ثمرة ونتيجة الإيمان، وأنهما متلازمان، فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان. فالأول مبتور لم يبلغ تمامه، والثاني مقطوع لا ركيزة له، وبهما معا يتحقق المقصد الثالث من مقاصد التدبر وهو: الهداية إلى الحق والصواب.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩- ١٠].

فالإيمان والعمل هما القاعدتان الأصيلتان التي تبنى عليهما الهداية.

فأما الذي لا يهتدي بهدي القرآن، فهو لا يتدبّره، بل هو متروك لهواه، والإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته، ولو كان من ورائها الشر له، ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها، ولقد يفعل الفعل وهو شر، ويعجل به على نفسه، وهو لا يدري، أو يدري ولكنه لا يقدر على كبح جماحه، وضبط زمامه، فأين هذا من هداية القرآن له إلى الخير والصواب؟ يقول الله سبحانه وتعالى في حقه: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وإنّه مما يؤكّد على أنّ الهداية مترتبة على العمل والاتّباع: قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

فمن الذي يهتدي بالقرآن؟ إنّه الذي يتّبع ما يرضي الله.

وهذه الهداية حسب الآية لها ثلاث فوائد:

١. إن المتبع لما يرضي الله يهديه إلى الطريق المؤدي إلى النجاة والسلامة من الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة باتباع الإسلام؛ لأنه دين الحق والعدل والإخلاص والمساواة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، ٦/ ٦٠، رقم ٤٦٤٢.

(٢) فضائل القرآن، الفريابي، ص ٢٤٧، فهم القرآن ومعانيه، المحاسبي، ص٢٧٦.

٢. إنه يخرج المؤمنين به من ظلمات الكفر والشرك والوثنية والوهم والخرافة إلى نور التوحيد الخالص.

٣. إنه يهدي إلى الطريق الموصل إلى الهدف الصحيح من الدين، وإلى خيري الدنيا والآخرة[(١)].

ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه: ١٢٣].

أي: أن الإنسان إذا اتبع الهدى الوارد من الله سبحانه وتعالى على لسان رسله سلم من أن يعتريه شيء من ضلال في الدنيا، بخلاف من اتبع ما فيه هدى وارد من غير الله، فإنه وإن استفاد منه في بعض الأحوال لا يسلم من الوقوع في الضلال في أحوال أخرى، وهو أيضًا لا يشقى في الآخرة؛ لأنه إذا سلم من الضلال في الدنيا سلم من الشقاء في الآخرة[(٢)].

إنّ هنالك خيارات صعبة وعديدة تطرح أمام الفرد، وأمام الأمة كل يوم، ولاختيار الطريق السليم بين هذه الخيارات، ونهتدي إلى الصواب لابد من الرجوع إلى القرآن، والتدبر في آياته. ومن هنا يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فيشمل الهدى أقوامًا وأجيالًا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلّ منهج وكلّ طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

إن التدبر في القرآن الكريم للحظات قليلة فقط، كان منعطفًا تغييريًّا كبيرًا، في حياة الكثير من العصاة. فهذا الفضيل بن عياض كان في بداية حياته مجرمًا خطيرًا، وكان ذكر اسمه كافيًا لإثارة الرعب في القلوب، لقد كان يقطع الطريق على القوافل، ويسلب المسافرين كل ما يملكون، وذات يوم وقعت نظراته على فتاة جميلة، وفي تلك الليلة، كان يتسلق جدار ذلك البيت الذي تسكن فيه الفتاة، وفي هذه الأثناء، تناهى إلى مسامعه صوت يتلو هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

فأخذ يفكّر في الآية بضع ثوان، وأخذ يردد مع نفسه: «يا رب قد آن»، ثم هبط من الجدار، وتولى بوجهه شطر المسجد، وجاور الحرم حتّى مات[(٣)].

انظر ماذا فعل التدبر في آية واحدة، حوّل رجلًا من مجرم متمرس بالجريمة، إلى معتكف في محراب العبادة، فكيف إذا تدبر الإنسان في كل القرآن؟ ألا يتحوّل إلى رجل كامل!.

رابعًا: تحصيل العلم النافع:

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٦/ ١٣٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٦/ ٣٣٠.
(٣) انظر: الرسالة القشيرية، القشيري، ١/ ٤٠.

إنّ المقصد الرابع من مقاصد تدبر القرآن الكريم هو: تحصيل العلم النافع، وهو أمر مهم لتحقيق المقاصد الثلاثة السابقة؛ ليكون الإيمان والعمل والهداية عن علم واتباع لما جاء به الشرع.

ولقد حثّ القرآن الكريم على طلب العلم وتحصيله في أكثر من موضع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢].

قال العلماء: في هذه الآية مشروعية الخروج لطلب العلم، والتفقّه في الدين، جعله الله سبحانه متصلًا بما دل على إيجاب الخروج إلى الجهاد، فيكون السفر نوعين، الأول: سفر الجهاد، والثاني: السفر لطلب العلم. ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر[(١)].

وفي السياق ذاته، قال سبحانه أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٤٣].

فسؤال أهل الذكر والعلم، هو شكل من أشكال طلب العلم.

وطلب العلم فضيلة عظيمة، ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل؛ لما رواه الترمذي: عن ابن عبّاسٍ، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (من يرد اللّه به خيرًا يفقّهه في الدّين)[(٢)].

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهّل اللّه له به طريقًا إلى الجنّة، وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلاّ نزلت عليهم السّكينة، وغشيتهم الرّحمة وحفّتهم الملائكة، وذكرهم اللّه فيمن عنده)[(٣)].

كما مدح الله العلماء في مواضع كثيرة في كتابه العزيز، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر: ٢٨].

وقال أيضًا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[المجادلة: ١١].

وذمّ سبحانه الجهل والجاهلين فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب إذا أراد اللّه بعبدٍ خيرًا فقّهه في الدّين، ٥/ ٢٨، رقم ٢٦٤٥.
قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الذّكر، ٨/ ٧١، رقم ١٦٦٨.

﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩][1].

وبعد معرفة أهمية طلب العلم، فيجب معرفة أن المنبع الأصيل والمصدر العظيم لطالب العلم هو القرآن الكريم، فهو زاخر بالعلوم النافعة للإنسان في حياته الدنيا وآخرته، ولا يستطيع المسلم أن يحصل عليها إلا من خلال الغوص في هذا البحر المتدفق، والتدبر في آياته؛ لاستخراج الدرر المكنونة فيه؛ حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

أي: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبيّن فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية، حتى إنه تعالى يثنّي فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة؛ لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء صار حجة الله على العباد، وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح[2].

ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

فأمر في هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل حكم سنه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته قد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز، بهذه الآية، وبنحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وبقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥].

فكانت السنة والإجماع والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثمّ كان تبيانًا لكل شيء[3]. وفي نفس المعنى قال سبحانه أيضًا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

أي: ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين؛ إما تفصيلًا أو إجمالًا[4].

ومن جهة أخرى، فيخشى أن تكون حال من يقرأ ويحفظ دون تدبر كحال من سبقنا

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١١/ ٧٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٤٧.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦٢٨.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٢٤.

من الأمم التي عاب الله عليها مثل ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨].

قال ابن عاشور رحمه الله: «الأماني القراءة؛ أي: لا يعلمون الكتاب إلا كلمات يحفظونها ويدرسونها لا يفقهون منها معنًى، كما هو عادة الأمم الضالة؛ إذ تقتصر من الكتب على السرد دون فهم»[(١)].

قال ابن تيمية: «والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني، ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه»[(٢)].

خامسًا: الجهاد بالقرآن:

مقاصد التدبّر السابقة نفعها ذاتي يعود على المسلم وحده فقط؛ لذلك كان لابد من تسخير هذه المقاصد لأمر يتعدّى فيه النفع إلى الآخرين، وهذا هو المقصد الخامس من مقاصد التدبر؛ وهو: الجهاد بالقرآن، فلا يمكن تحقيق هذا المقصد من دون تحقيق المقاصد السابقة فهي مترتبة بعضها على بعض.

وقد دعانا القرآن لهذا النوع من الجهاد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وجاء هذا الأمر بعد أن حذّر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من الوهن في الدعوة، أمره بالحرص عليها والمبالغة فيها، وعبّر عن ذلك بالجهاد، وهو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة، وصيغة المفاعلة فيه ليفيد مقابلة مجهودهم بمجهوده فلا يهن ولا يضعف؛ ولذلك وصف بالجهاد الكبير؛ أي: الجامع لكل مجاهدة.

وضمير (به) عائد إلى القرآن؛ أي: جادلهم بالحجج القرآنية والبراهين الربانية أعظم الجهاد وأكبره ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وليس ذلك من العدوان، وإنما هو من الدعوة إلى الله لصالح المخالف؛ ليرجع إلى الحق[(٣)].

وفي قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ لفتة عظيمة أن الكافرين والمنافقين لا يتركون لك القرآن، بل يثيرون على آياته الشبهات، فأنت مطالب أن تتحرك في أكثر من محور، تذود عن القرآن شبه الكافرين والمنافقين.

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٥٧٥.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٧/ ٢٣٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩/ ٥٣.

فهذا الدين قام على الدعوة والجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فلا يجوز للمسلمين ترك البشرية تعيش في ضلالها، وعند المسلمين الهدى والنور، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهذه الأمة مكلّفة بدعوة غيرها من الأمم؛ لإخراجها من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وجعل التواصي بالحق والصبر من صفات الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

والجهاد بالقرآن والحجة والبرهان أفضل أنواع الجهاد؛ لأنه جهاد خواص الأمة، وأتباع الرسل، وورثة الأنبياء، وهو أصعبها؛ لأنه جهاد للمنافقين والمرجفين والذين في قلوبهم مرض من أبناء جلدتنا، وللمستشرقين والمغرضين من الكفار[1].

فالدعوة والأمر والنهي والتواصي نوع من الجهاد؛ ولذلك ساغ لنا أن نتعرّف على كثير من جوانب وصفات الدعوة والداعية قياسًا على أحكام جهاد القتال، بل لذلك أيضًا وجب على الداعية -إن حجب عن خوض القتال لأسباب مختلفة- أن يفهم آيات الجهاد وأحاديثها على أنها خطاب له هو أيضًا ، وهو في أمره ونهيه، ولذلك أيضًا يحق للمجاهد بالقرآن أن يمنّي نفسه بثواب المقاتلين -إن شاء الله-. وهذا ما قرّره الإمام ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فقال: «قالت طائفة من السلف: هذا يدخل فيه من آمن وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة، وهكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه أو أوقعه في معصية، ثم هجر السيئات وجاهد نفسه وغيرها من العدو، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك، وصبر على ما أصابه من قول أو فعل»[2].

---

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري، ٣/ ٢٥٠٧.

(٢) مجموع الفتاوى، ١٨/ ٢٨٤.

إن ميادين المقارعة بالحجة في كثير من الأوقات أشد على النفس من ميادين المقارعة بالقوة، وتطويع العقول أصعب بكثير من تطويع الأبدان.

وإنّ حياة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كلها كانت جهادًا بالقرآن، وموحيات الآيات، وما في طياتها من صور الألم والمعاناة التي لحقت بنفس النبي صلى الله عليه وسلم خلال جهاده بالقرآن يعجز القلم عن بيانها، ويصوّر لنا القرآن ذلك، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

ومن أمثلة الجهاد بالقرآن عند النبي صلى الله عليه وسلم: صعوده صلى الله عليه وسلم جبل الصفا، ومناداته بطون قريش بطنًا بطنًا، ويروي البخاري رحمه الله طرفًا من هذه القصة، فعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: (لمّا نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

صعد النّبيّ صلى الله عليه وسلم على الصّفا، فجعل ينادي: (يا بني فهرٍ، يا بني عديٍّ) -لبطون قريشٍ- حتّى اجتمعوا فجعل الرّجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا؛ لينظر ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدّقيّ؟) قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلّا صدقًا، قال: (فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ) فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد١-٢].

ومن أمثلة الجهاد بالقرآن عند الصحابة: قصة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مع النجاشي ملك الحبشة، عندما قرأ عليه صدر سورة مريم، ثمّ قال النّجاشيّ: «إنّ هذا والّذي جاء به موسى ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ»[(١)].

ومن ميادين الجهاد بالقرآن مناصحة ولاة الأمر بالتي هي أحسن، ولا يخاف في ذلك لومة لائم، فعن أبي سعيدٍ الخدريّ، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم:(أفضل الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطانٍ جائرٍ، أو أميرٍ جائرٍ)[(٢)].

ومن أشكال الجهاد بالقرآن الكريم:

- الدعوة إلى الإيمان به كلّه، والعمل بمحكمه، وردّ متشابهه إلى المتكلم به سبحانه، وألا نكون كمن قال الله تعالى

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت، حديث جعفر بن أبي طالب، ٣/ ٢٦٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٤، رقم ٤٣٤٤. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١/ ٨٨٦.

فيه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[البقرة:٨٥].

- الدعوة إلى الاحتكام إليه فيما شجر بين المسلمين من خلافات في كل مجال، والرجوع إليه عند النوازل؛ التماسًا للخروج من الأزمات، وحل المشكلات، والارتقاء بواقع المسلمين. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وتبيين أن القرآن هو المرجع الأوّل للتوحيد والعقيدة والمنهج والتشريع، وأن ما خالف القرآن من عقائد ومناهج وقوانين جاهلية هي باطلة مردودة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

- تأكيد عقيدة الولاء والبراء على القرآن ومن القرآن، فكل من آمن بهذا الكتاب وعظّمه تجب محبته ونصرته وموالاته، وأما من سواه فكيف يحب المؤمن بالقرآن من يكفر بالقرآن أو من ينتقص القرآن ويزدريه بمقاله أو بلسان حاله من أهل الأهواء، ويقول عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١ - ٣٢].

الأسباب المعينة على التدبّر

تركّز هذه النقاط على العوامل التي تعين وتساعد العبد على التدبر، وأيّة عبادة من العبادات لاشك أن لها عوامل مساعدة على أدائها، وهذه الأسباب والعوامل تجعل عبادة التدبر في القرآن أيسر وأسهل على المسلم، بل إن الأسباب المعينة تجعل أداء عبادة التدبر تكون على أكمل وجه، وأحسن حال، وهذه الأسباب هي كالآتي:

١. الاستعاذة.

إن أوّل سبب من الأسباب التي تعين على التدبر والتخشّع بالقرآن، هو بدء القراءة بالاستعاذة بالله من الشّيطان الرجيم، فإنّها مطردة ومبعدة له، وما أكثر ما يزعج الشيطان إلا قراءة القرآن بتدبر، فوجب العمل على إبعاده، ولا يكون ذلك إلا بطلب الالتجاء والاحتماء بالله؛ كي لا يكون عدو الإنسان اللدود حائلًا بين المسلم وبين تدبره.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالاستعاذة من الشيطان في أي وقت يشعر المسلم بمحاولة إفساد الشيطان عليه، أي: أمر من أمور الخير، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠- ٢٠١].

أي: إما يصيبنك ويعرض لك وسوسة من الشيطان، فاطلب النجاة من الله[(١)]؛ لأنّ الله الذي تستعيذ به من نزغ الشيطان سميع لاستعاذتك به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه[(٢)]، إن الذين اتقوا الله فخافوا عقابه إذا أصابهم عارض من وسوسة الشيطان تذكّروا ما أوجب الله عليهم من طاعته، والتوبة إليه، فإذا هم منتهون عن معصية الله على بصيرة[(٣)].

وإن أكثر ما يعمل الشيطان على إفساده، هو التدبر في قراءة القرآن؛ لذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى بالاستعاذة عند قراءة القرآن، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠].

حيث أمر الله عباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم إذا أرادوا قراءة القرآن أن يلجأوا إلى الله من وساوس الشيطان المرجوم الملعون المطرود من رحمة الله؛

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٣٤٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٣٣.
(٣) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ١/ ١٧٦.

حتى لا تلتبس عليهم القراءة، ولتتدبر معاني القرآن[1]، وأنّ وسوسة الشيطان لا أثر لها على المؤمنين الصادقين، فالشيطان مهما تمرد وعتا، فإنه ليس له تسلط واستيلاء واستحواذ بالقهر والغلبة على نفوس الذين آمنوا بالله حق الإيمان، والذين هم على الله وحده يتوكلون. وإنما تسلّط الشيطان وتأثيره على الضالين الفاسقين الذين يتولونه ويطيعونه ويتبعون خطواته[2].

وحكم الاستعاذة: هي مندوبة عند كلّ تلاوة داخل الصّلاة وخارجها؛ للأمر بها في كتاب الله تعالى، والذي صرف الأمر من الوجوب إلى الندب، أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن في الأحوال المختلفة، فلم يرد عنه التزام الاستعاذة، كلّما قرأ القرآن قليلًا منه أو كثيرًا، فدلّ ذلك على استحبابها[3].

وأما صيغتها: الّذي عليه اختيار جميع القرّاء من حيث الرّواية، وعليه عامّة الفقهاء، الصيغة المذكورة في الآية السابقة، وهي: (أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم)، وأمّا الزّيادة على ذلك فقد وردت في خمس صيغ، وهي:

١. أعوذ باللّه السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم.

٢. أعوذ باللّه العظيم من الشّيطان الرّجيم.

٣. أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم، إنّ اللّه هو السّميع العليم.

٤. أعوذ باللّه العظيم من الشّيطان الرّجيم، إنّ اللّه هو السّميع العليم.

٥. أعوذ باللّه السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم، إنّ اللّه هو السّميع العليم[4].

٢. الدعاء.

إنّ أيّة عبادة من العبادات لابد أن نستعين بالله عز وجل على أدائها بحيث تكون على أكمل وجه، حيث يقول الله سبحانه وتعالى على لسان المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والدعاء والتضرع إلى الله أفضل شيء نستعين بهما على أداء العبادة، وقد حثّنا الله سبحانه على دعائه، والتضرع له، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وأعلم الله سبحانه عباده الذين يدعونه أنه قريب منهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٢٣٢.
(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٣٤
(٣) انظر: المقدمات الأساسية، عبد الله الجديع، ص٤٩٨.
(٤) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٤٩

وإن من أجلّ العبادات التي يجب أن نلجأ إلى الله ليوفقنا لها، هي التدبر في كتابه، ولقد حثّنا الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب العون من الله سبحانه لأداء عبادة الذكر وتلاوة القرآن.

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: أخذ بيدي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال: (إنّي لأحبّك يا معاذ)، فقلت: وأنا أحبّك يا رسول اللّه، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (فلا تدع أن تقول في كلّ صلاةٍ: ربّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[1]، ومعلوم أن تلاوة القرآن من أفضل الذكر.

وإن العامل الرئيس لتدبر القرآن، وتذوقه، واستخراج كنوزه، هو استشعار الحاجة إليه والرغبة فيه، وهذا الشعور لابد أن يترجم في هيئة دعاء وتضرع إلى الله، بأن ييسّر لنا فهم كتابه، وحسن تدبره، والعمل بما فيه، وندعوه سبحانه وتعالى بأن يمنع عنا كل ما يثبّط عزائمنا، ويبعدنا عن التدبر، ونلحّ عليه بأن يحبّب إلى قلوبنا تدبر القرآن، وأن ينوّر قلوبنا بنوره[2].

ولا ينبغي أن يدفعنا تأخر الإجابة إلى اليأس، وترك الدعاء، وحسبنا في ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي)[3].

وبحسب الاستعداد من العبد، يكون الإمداد من الله، كما قال تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠].

فالبداية تكون من العبد: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥].

فلنر الله من أنفسنا خيرًا، ولنكثر من الاستغفار والتوبة، ولنداوم قرع الباب، وإن رددنا.

٣. القراءة في الصلاة مع حضور القلب.

إن من الأسباب المهمة التي تعين العبد على تدبر القرآن الكريم: حضور القلب في أثناء قراءته، وخاصة في الصلاة، ويجب على العبد إذا أراد الانتفاع بالقرآن أن يجمع قلبه عند تلاوته وسماعه، وأن يحضر حضور من يخاطب به، فإنه خطاب من الله للعبد على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم،

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب السهو، باب الداء بعد الذكر، ٣/ ٥٣، رقم ١٣٠٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٠، رقم ٧٩٦٩.

(٢) انظر: العودة إلى القرآن، مجدي الهلالي، ص٩٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، ٨/ ٧٤، رقم ٣٦٤٠.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وذلك أن تمام التّأثير يجب أن يكون موقوفًا على مؤثر، ومحل قابل للتأثر، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الّذي يمنع منه، وقد تضمّنت الآية بيان ذلك كلّه بأوجز لفظ، وأبينه، وأدلّه على المراد[(١)].

وإلقاء السمع: مستعار لشدة الإصغاء للقرآن، ولمواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم، كأن أسماعهم طرحت في ذلك، فلا يشغلها شيء آخر تسمعه. والشهيد: صيغة مبالغة للدلالة على قوة المشاهدة، أي: تحديق العين إليه؛ للحرص على فهم مراده، فإن النظر يعين على الفهم[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال لي النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (اقرأ عليّ). قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (فإنّي أحبّ أن أسمعه من غيري). فقرأت عليه سورة النّساء، حتّى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قال: (أمسك)، فإذا عيناه تذرفان[(٣)].

ومما يعين على تدبر القرآن: القيام به في الليل، وهو من أهم مفاتح تدبر القرآن، وأعظمها شأنًا، وقد ورد عدد من النصوص تؤكد أهميته، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنه، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (وإذا قام صاحب القرآن فقرأه باللّيل والنّهار، ذكره، وإذا لم يقم به نسيه)[(٤)].

وأهم شيء في تدبر القرآن، هو تذكّر آيات القرآن الكريم، وكونها حاضرة في القلب في كل آن، وخاصة في المواقف الصعبة في الحياة، مواقف الشدة والذهول، المواقف التي يفتتن فيها المرء ويمتحن ويختبر، فمن كان يقوم به آناء النهار فتجد إجابته حاضرة وسريعة وقوية، تجده وقّافًا عند كتاب الله تعالى، تجده آمنًا مطمئنًّا في جميع المواقف، تجده قويًّا متماسكًا حتى في أصعب الظروف.

٤. التفكر في معاني الآيات والتفاعل معها.

وإن مما يعين على تدبر القرآن: التفكر في معاني الآيات والتفاعل معها، والقرآن

(١) انظر: الفوائد، ابن القيم ص ٣
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٣٢٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد)، ٦/ ٤٥، رقم ٤٥٨٣.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب مثل صاحب القرآن كمثل الإبل، ٢/ ١٩١، رقم ١٧٩٠.

يحثنا علي التأمل والتفكر، وإعمال العقل، والنظر في هدايات الآيات؛ لننتفع بها في الدنيا والآخرة، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وفي عطف لعلهم يتفكرون حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكّر الناس في معانيه وفهم فوائده، وتأملهم فيما يقرّبهم إلى رضا الله تعالى [(١)].

وأن يستحضر أنّه مخاطب بما يقرأ، فيتأمّل ذكر التّوحيد والإيمان، والأمر والنّهي، والوعد والوعيد، والقصص والأمثال، ويلاحظ ما يلزمه من ذلك من التّصديق والامتثال والاعتبار، ويراعي الجواب في موضع السّؤال، ولا يفوّت ما تقتضيه الآية من تسبيح أو تحميد أو تكبير أو استغفار أو دعاء، ويغتنم ذكر الجنّة بالرّغبة إلى ربّه وسؤاله الفوز بدخولها، وذكر النّار بالرّهبة وسؤاله ربّه النّجاة منها.

وفي السنة المطهرة ما يدلنا علي هذا الأمر كذلك، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (صلّيت مع النّبيّ صلى الله عليه وسلم ذات ليلةٍ، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثمّ مضى، فقلت: يصلّي بها في ركعةٍ، فمضى، فقلت: يركع بها، ثمّ افتتح النّساء، فقرأها، ثمّ افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسّلًا، إذا مرّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبّح، وإذا مرّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرّ بتعوّذٍ تعوّذ)[(٢)].

وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم: كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: (سبحان ربّي الأعلى)[(٣)].

وقد أثنى الله ورسوله على من يقرأ القرآن، ويفقه معانيه، ويعمل بما جاء فيه، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وفي قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال الإمام الطبري: «يعني: الفهم في القرآن»[(٤)].

إن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها؛ لأن المقصود من

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ١٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة اللّيل، ١/ ٥٣٦، رقم ٧٧٢.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصّلاة، باب الدّعاء في الصّلاة، ١/ ٢٣٣، رقم ٨٨٣. وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم، ٤/ ٣٨.

(٤) جامع البيان، ٥/ ٥٧٦.

القرآن فهمه والتفقّه فيه والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى التدبر فيه. وقال بعض العلماء: «إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجلّ وأرفع قدرًا، وإن ثواب كثرة القراءة أكثر عددًا»[(١)].

ولا يجب أن تكون صيغة الجواب توقيفيّة، بل لك أن تجتهد فيه؛ فإنّ عموم الهدي النّبويّ في ذلك يجعل للمتدبّر السّعة في أن يستعمل من الصّيغ ما بدا له ممّا يتحقّق به المقصود، كذلك فهمه السّلف، وذلك في الصلاة وفي غيرها[(٢)].

وأخيرًا يجب علينا المداومة على استخدام هذه الوسيلة، والتي سنجد لها أثرًا عظيمًا بمشيئة الله في دوام يقظة العقل، وسرعة تجاوب القلب.

٥. اختيار الوقت المناسب.

إنّ من العوامل المساعدة على التدبر في القرآن أيضًا: قراءته وسماعه في موضع سكون، وتجتنب القراءة في مواضع اللّغط وارتفاع الأصوات؛ لما يقع بها من التّشويش عليه، فلا يتحقّق له المقصود من التّلاوة على وجهه[(٣)].

إن أفضل القراءة ما كان في الصلاة، أما القراءة في غير الصلاة، فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير من الليل أفضل من النصف الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما القراءة في النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح، ولا كراهية في القراءة في أي وقت من الأوقات[(٤)].

ويحثنا الله عز وجل على إطالة القراءة في الصلاة، وخاصة صلاة الفجر فقال سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

و﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ حثًّا على تطويل القراءة في صلاة الفجر؛ لأن هذا الوقت يكون مشهودًا تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار[(٥)].

ولهذين الوقتين خاصّيتهما، وهما إدبار النهار وإقبال الليل، وإدبار الليل وإقبال النهار. ولهما وقعهما العميق في النفس، فإن قدوم الليل وزحف الظلام، كمطلع النور وانكشاف الظلمة، وكلاهما يخشع فيه القلب، وكلاهما مجال للتأمل والتفكر في نواميس الكون التي لا تفتر لحظة، ولا تختل مرة. وللقرآن -كما للصلاة- إيقاعه في الحس في مطلع الفجر ونداوته، ونسماته

(١) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ١/ ٢٠٨.
(٢) العودة إلى القرآن، مجدي الهلالي، ص ٩٩.
(٣) انظر: المقدمات الأساسية، عبد الله الجديع، ص ٤٩٥.
(٤) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، ص ١٥٦.
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ١٨٩.

الرخية، وهدوئه السارب، وتفتّحه بالنور، ونبضه بالحركة، وتنفّسه بالحياة[1].

٦. الإنصات عند سماع القراءة.

وقد أمر الله تعالى من حضر التّلاوة بالإنصات؛ لئلّا يشغل عن القرآن بغيره وهو يسمعه، ولئلّا يرد عليه من التّشويش ما يفوّت عليه التّدبّر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وإن الناس يخسرون خسارة كبيرة عندما ينصرفون عن القرآن، وإن الآية الواحدة لتصنع أحيانًا في النفس -حين تستمع لها وتنصت- أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والإدراك، والطمأنينة والراحة، وإنّ العكوف على هذا القرآن في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة والترنم لينشيء في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى، ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة، ومن الحرارة والحيوية والانطلاق، ومن الإيجابية والعزم والتصميم ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب، وإن رؤية حقائق الوجود، ورؤية الحياة البشرية وطبيعتها وحاجاتها من خلال التصوير القرآني، لهي رؤية واضحة عميقة. وهذا كله أرجى إلى الرحمة، ويكون ذلك في الصلاة وفي غيرها. وليس هناك ما يخصص هذا التوجيه القرآني العام بالصلاة فقط[2].

وقال الإمام السعدي: «والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له: فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبّر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه؛ ولهذا رتّب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير»[3].

وقال العلامة ابن قيم الجوزية في معنى السماع في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤]: «والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقرّبين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا، وإجابة، وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه، فهو هذا السماع»[4].

ولتحقيق هذا المعنى منع المصلّي من

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٤٦.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٣/ ١٤٢٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣١٤.

(٤) مدارج السالكين، ١/ ٤٨١.

رفع صوته بالقراءة إذا كان مع غيره، كما في حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم خرج على النّاس وهم يصلّون. وقد علت أصواتهم بالقراءة، فقال صلى الله عليه وسلم: (إنّ المصلّي يناجي ربّه، فلينظر بما يناجيه به، ولا يجهر بعضكم على بعضٍ بالقرآن)[1].

٧. الخشوع عند سماع القرآن.

ومن الأسباب المعينة على التدبر أيضًا الاجتهاد في الخشوع عند سماع القرآن، ولا بأس بالبكاء، بل هو حسن لمن قدر عليه من غير تكلّف، وأنه تقشعرّ، وتضطرب جلود الذين يخافون ربهم من سماعه؛ تأثرًا بما فيه من ترهيب ووعيد، ثم تلين جلودهم وقلوبهم؛ استبشارًا بما فيه من وعد وترغيب، وذلك كله من تأثير الخشوع، قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزّمر: ٢٣].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وكما قال عز وجل في وصف الذين أنعم عليهم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

فهذه الآيات البيّنات واضحة الدّلالة على الأمر بالخشوع، وبيان ما يكون من حال الصّفوة من عباد الله من النّبيّين، وأولي العلم عند سماع الآيات تتلى عليهم من الخضوع والبكاء من خشية الله. وفي حديث ابن مسعود، رضي الله عنه، عندما قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة النساء، قال: (فإذا عيناه تذرفان)[2].

وهذا معنى يشترك فيه التّالي والمستمع. وعلى هذه الصّفة كان أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (إنّ أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء)[3]. وذلك واقع في صلاة وفي غيرها، وهو أمر يجلبه الخشوع للقرآن، ولا يملك الخاشعون ردّه، وهم يتلون آيات الله، أو تتلى عليهم؛ ولذا سيق ذلك عنهم مساق المدح.

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب العمل في القراءة، ١/ ٨٠، رقم ٢٩.
وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٤/ ١٢٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، بابٌ: أهل العلم والفضل أحقّ بالإمامة، ١/ ١٣٦، رقم ٦٧٨.

وكذلك حكت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما من حال الصّحابة: فعن عبد اللّه بن عروة بن الزّبير، عن جدّته أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله عنها قال: قلت لها: كيف كان أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: «كانوا كما نعتهم اللّه، تدمع أعينهم، وتقشعرّ جلودهم»، قال: فإنّ ناسًا إذا قرئ عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشيًّا عليه، قالت: «أعوذ باللّه من الشّيطان»[(١)].

وفي هذا إنكار من أسماء رضي الله عنها أن يبلغ الخشوع بصاحبه إلى الغشيان، وإنّما ذلك بالقشعريرة ودمع العين، كذلك كان حال النّبيّ صلى الله عليه وسلم وحال أصحابه، ولا يعرف ذلك الغشيان فيهم، ولا يثبت عن أحد منهم، أنّه كان يصعق عند القرآن، إنّما ذكر ذلك عمّن بعدهم، وهدي النّبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحسن الهدي وأكمله[(٢)].

٨. ترديد الآيات وتكرارها.

إنّ ترديد الآية وتكرارها وإعادتها مع التأمل وزيادة التفهم لها، من الأسباب المعينة على التدبر، وقد استعمل القرآن هذا الأسلوب، فمثلًا في سورة الرحمن كرّر الله سبحانه وتعالى آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

إحدى وثلاثين مرة؛ لتذكير الجن والإنس بهذه النعم؛ كي يشكروا الله تعالى عليها شكرًا جزيلًا[(٣)]. وفي سورة الشعراء كرّر الله سبحانه وتعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨].

ثماني مرات، مما يجعلنا نتدبرها ونتفكر بها مرة بعد مرة؛ حتى نصل إلى أفضل النتائج من التدبر، والقرآن العظيم متشابهٌ في حسنه وإحكامه وعدم اختلافه، تكرّر فيه القصص والأحكام، والحجج والبينات، وتعاد تلاوته فلا يملّ على كثرة الترداد ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣][(٤)].

وقد ثبت من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه قال: (قام النّبيّ صلى الله عليه وسلم حتّى إذا أصبح بآيةٍ)، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][(٥)].

وإن النبي صلى الله عليه وسلم قام بهذه الآية طول الليل، وهذا الترديد من أجل أن يعلّم النبي صلى الله عليه وسلم أمته تأمل

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق، ١/ ٣٥٩.
(٢) انظر: المقدمات الأساسية، عبد الله الجديع، ص ٥٠٦.
(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي، ١٤/ ١٢٧.
(٤) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ١/ ٤٦١.
(٥) أخرجه النسائي في سننه، كتاب السهو، باب الداء بعد الذكر، ٢/ ١٧٧، رقم ١٠١٠.
وحسنه الألباني في أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢/ ٥٣٤.

وتفهم خطورة هذه الآية، وتظل هذه الأمة تسأل، وتتوقف عند دلالاتٍ كثيرةٍ في الآية.

يقول ابن القيم: «ولو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كرّرها ولو مائة مرة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر ولا تفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح»[(١)].

والهدف من التكرار، هو التوقف لاستحضار المعاني، وكلما كثر التكرار زادت المعاني التي تفهم من النص، والتكرار أيضًا قد يحصل لا إراديًّا تعظيمًا أو إعجابًا بما قرأ[(٢)]. ولنعمل على دخول أكبر قدر من النور إلى قلوبنا بترديد تلك الآية مرات ومرات، وعلينا ألا نمل من ذلك طالما وجد التجاوب، وشيئًا فشيئًا ستتبدد الظلمات من القلب ويطرد الهوى، ويصبح النور هو الغالب فيه، فيسهل عليه التأثر بالآيات ويزداد لينه وخشوعه بها[(٣)].

٩. الترسّل والتمهّل عند القراءة.

ومن الأسباب المعينة على التدبر أيضًا الترسل والتمهل أثناء القراءة، قال الله تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

والترتيل يعني: الترسل والتمهل، ومن ذلك مراعاة المقاطع والمبادئ وتمام المعنى، بحيث يكون القارئ متفكرًا فيما يقرأ، فمن أسرع القراءة، فقد اقتصر على مقصد واحد من مقاصد قراءة القرآن، وهو: ثواب القراءة، ومن رتّل وتأمل، فقد حقّق المقاصد كلها وكمل انتفاعه بالقرآن، واتبع هدي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم[(٤)].

قال ابن كثير في تفسيره للآية: «أي: اقرأه على تمهّل؛ فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره»[(٥)]، وعندما سئل أنسٌ كيف كانت قراءة النّبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: (كانت مدًّا، ثمّ قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]. يمدّ ببسم اللّه، ويمدّ بالرّحمن، ويمدّ بالرّحيم)[(٦)].

وقد أمر الله تعالى بالترتيل وأكّده بقوله: ﴿تَرْتِيلًا﴾، وهو مفعول مطلق مؤكّد، وهذا ما يجعله للوجوب، لكن جمهور العلماء

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ١/ ١٨٧
(٢) انظر: علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص ٢٧٨.
(٣) انظر: العودة إلى القرآن، مجدي الهلالي، ص ٩٩.
(٤) انظر: مفاتح تدبر القرآن، خالد اللاحم، ص٤٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٥٠.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب مدّ القراءة، ٦/ ١٩٥، رقم ٥٠٤٦.

على أن الأمر للندب، ويقرأ القرآن على منازله: فإن كان يقرأ تهديدًا كان أداؤه كالمتهدّد، وإن كان يقرأ لفظ تعظيم كان أداؤه على التعظيم، وإن كان تساؤلًا كان أداؤه كالمتسائل، وهكذا[1].

وقال الإمام النووي: «واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع ويسمى: الهذّ، قالوا: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين في قدر ذلك الزمن بلا ترتيل، قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر، ولأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير، وأشد تأثيرًا في القلب؛ ولهذا يستحب الترتيل للأعجمي الذي لا يفهم معناه»[2].

١٠. المدارسة الجماعية.

ومن المعينات على التدبر كذلك: حلقات المدارسة الجماعية، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ومعنى هذه الآية: «أنّ الذين يستغرق جميع أوقاتهم قيامهم بذكر الله وبحقّه، وإتيانهم بأنواع العبادات وصنوف القرب فلهم القدر الأجلّ من التقريب، والنصيب الأوفر من الترحيب»[3]، ولا شكّ أن من تمام التلاوة والذكر المدارسة الجماعية لهذا القرآن الكريم بتدبر الآيات، والعيش معها، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلاّ نزلت عليهم السّكينة، وغشيتهم الرّحمة وحفّتهم الملائكة، وذكرهم اللّه فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله، لم يسرع به نسبه)[4].

إن وجود حلقات المدارسة القرآنية من الأهمية بمكان لتعليم الناس، كيف يدخلون إلى عالم القرآن فيهتدون بهداه، ويستشفون بشفائه. قال الإمام النووي: «اعلم أن قراءة الجماعة مستحبة بالدلائل الظاهرة، وأفعال السلف والخلف المتظاهرة»[5].

وهذه الحلقات، وإن كانت منتشرة في المساجد هنا وهناك إلا أن مفهومها قد اختزل على تعلم أحكام التجويد، وتصحيح النطق فقط، وهذا الأمر مهم وضروري، ولكنه لا يكفي لتعلم القرآن كما يريد الله عز وجل، بل هو بداية لابد أن يتبعها تعلّم

(١) انظر: علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص ٢٧٩.
(٢) المجموع شرح المهذب، النووي، ٢/ ١٦٥.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ٢٠٣.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الذّكر، ٨/ ٧١، رقم ١٦٦٨.
(٥) التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، ص ١٠١.

المعاني وجوانب الهدى والإيمان فيما يتلى من آيات، فيسهل على من يواظب عليها، التعامل مع القرآن بمفرده.

وأما القراءة بالدور: وعبّروا عنها بقولهم (الإدارة بالقرآن)، وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عشرًا، أو أكثر أو أقل، ثم يسكت ويقرأ الآخر من حيث انتهى الذي قبله، فهذا جائز حسن أيضًا، ولا إشكال فيه، وثوابه عظيم -إن شاء الله-[1].

(١) انظر: علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص ٢٨٤.

صوارف التدبّر

تركّز هذه النقاط على الأمور التي تكون مانعًا لتدبّر الإنسان في خلق الله تعالى، أو في القرآن الكريم، ومن ثمّ يصل ذلك الإنسان إلى مراحل متقدمة من الجحود والإنكار لكافة جوانب الدين؛ لأنه لا يمارس هذه العبادة، التي هي من أعظم معينات الطاعة، وصوارف التدبر كثيرة، منها:

أولًا: الطبع والختم على القلوب:

وقد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فقد بيّنت الآية السابقة أن الله تعالى طرد المنافقين أشدّ الطرد لما ذكر من إفسادهم وتقطيعهم الرحم، ثم بيّن سبب لعنهم، وهو أنهم صمّوا عن الانتفاع بما يسمعون، وعميت أبصارهم عن الارتفاق بما يبصرون، وتأتي هذه الآية الكريمة لتبين السبب الموجب للعن المسبب للصمم والعمى، وذلك من خلال قول الله تعالى المنكر الموبّخ المظهر[2]، «لتاء التفعّل إشارة إلى أن المأمور به صرف جميع الهمة إلى التأمل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾، أي: كل من له أهلية التدبر بقلوب منفتحة منشرحة؛ ليهتدوا إلى كل خير ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾، بأن

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٨/ ٢٤٣.

يجهدوا أنفسهم في أن يتفكروا في الكتاب الجامع لكل خير الفارق بين كل ملبس تفكر من ينظر في أدبار الأمور، وماذا يلزم من عواقبها؛ ليعلموا أنه لا عون على الإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، والإخلاص لله في لزوم كل طاعة والبراءة من كل معصية، مثل الأمر بالمعروف من الجهاد بالسيف وما دونه، وربما دل إظهار التاء على أن ذلك من أظهر ما في القرآن من المعاني، فلا يحتاج في العثور عليه إلى كبير تدبر»[1]، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لهذه الآية الكريمة فتبدأ بحرف الإضراب ﴿أَمْ﴾ الذي هو بمعنى: بل؛ للانتقال من توبيخ إلى توبيخ، فيكون المعنى: بل إن أولئك المنافقين بلغوا من هول حالهم وفظاعة شأنهم أنّ قلوبهم مطبوعٌ عليها؛ فهم لا يعقلون ولا يسمعون[2].

ثانيًا: اتباع الهوى:

قد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد بيّنت الآيات السابقة أن المؤمن لا يساويه الكافر في درجات السعادة، واستدلّ على صحة هذا القول بأنه خلق السماوات والأرض بالحق، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، ويقرر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أسباب ضلال المضلّين بقوله: أنظرت يا محمد صلى الله عليه وسلم فرأيت من ترك متابعة الهدى والمداومة عليها، إلى مطاوعة الهوى والعبودية لها من دون الله تعالى، وأضله الله تعالى؛ حيث إن الكافر عالم بأنه ضالٌّ، وأنه يبدّل فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها؛ حتى أصبح مختومًا على سمعه وقلبه؛ فلا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكّر في الآيات والنذر، ولم يكتف بذلك؛ بل جعل على بصره غشاوةً مانعةً من الاستبصار والاعتبار.

وإن الاستفهام استفهام تعجبي، فالله عز وجل في الآية يعجّب محمدًا صلى الله عليه وسلم وكل مخاطب، ولا يقتصر على تعجبه هو عز وجل، وتأتي الفاصلة القرآنية في سؤالٍ يفيد القدرة الإلهية، وأن الله تعالى وحده المتفرد بالهداية التوفيقية، وذلك بقوله: فمن يهدي ذلك الكافر المتبع للهوى من بعد إضلاله تعالى إياه بموجب تعاميه عن ذلك الهدى، وتماديه في الغيّ، وسؤالٌ آخر غرضه الحث والحضّ للكافرين على الانصراف عمّا هم عليه، بقوله: أفلا تلاحظون فتتذكرون واجباتكم والتزاماتكم؟[3].

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي، ١٣/ ٧١.
(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري، ٦/ ١١٣،

ثالثًا: الكبر:

قد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٨-٣٩].

فقد بيّنت الآيات السابقة تكذيب فرعون وقومه لنبي الله موسى صلى الله عليه وسلم؛ فرغم مجيء المعجزات البيان على يد ذلك النبي المؤيّد من الله تعالى، إلا أنهم ردّوا على نبيهم صلى الله عليه وسلم بقولهم: «ما هذا الذي جئتنا به إلا سحرٌ افتريته من قبلك وتخرّصته كذبًا وباطلًا ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي تدعونا إليه من عبادة من تدعونا إلى عبادته في أسلافنا وآبائنا الأولين الذين مضوا قبلنا»[(١)].

وعندها قال موسى صلى الله عليه وسلم مجيبًا فرعون: ربي أعلم بمن هو على حقٍّ منا يا فرعون من المبطل، ومن الذي جاء بالرشاد إلى طريق الصواب والبيان، من خلال واضح الحجة من عنده، وربي أعلم من الذي له العقبى المحمودة في الدار الآخرة منّا[(٢)]، وتأتي هذه الآيات الكريمات لتستأنف الحوار بين موسى صلى الله عليه وسلم وفرعون، فقد بيّنت هذه الآيات مدى فظاعة العلو والاستكبار عند فرعون وقومه، حيث تعمّد الكذب؛ إذ إنه يعلم أن موسى صلى الله عليه وسلم رسول الله، ولكنه بيّن بلسانه أنه ما علم لقومه من إله غيره، فأمر هامان أن يطبخ له آجرًا، وأن يبني له قصرًا، ففعل ذلك، وبنى له صرحًا عاليًا[(٣)].

ولم يكتف فرعون بذلك، بل استكبر استكبارًا عظيمًا هو وجنوده في شتى بقاع الأرض التي يحكمونها عن ظلمٍ كبيرٍ منهم، وإن هذا الكبر صرفهم عن التدبّر في عبادة الله تعالى؛ إذ إنهم ظنّوا أنهم لن يرجعوا إلى الله تعالى، فلم يتدبّروا هذه اللحظات التي سيورد إليها الكل ملكًا كان أو جنديًّا.

وقد وردت آيةٌ أخرى تبيّن صرف الله تعالى المتكبرين عن التدبر في آيات الله تعالى، حيث قال جل جلاله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٧٣.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٥٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق، ١٩/ ٥٨٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٣/ ٣٢٦.

أي: سأصرفهم أن يتفكّروا في آياتي، وسأمنع قلوبهم من التفكير في أمري؛ إذ إنهم إن يروا الآيات الدالة على صدق النبوة لا يؤمنوا بها، وإن يروا الحق لا يتبعوه، وكذلك إن يروا الباطل يتبعوه، ذلك بأنهم كذبوا بآيات الله تعالى، وغفلوا عن هذه الآيات[1].

رابعًا: ارتكاب المعاصي:

قد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٦].

هذه الآيات وما قبلها تبيّن مدى غرق فرعون وقومه بالمعاصي الكفرية، من جميع جوانبها، فقد بيّنت الآيات السابقة قصة موسى صلى الله عليه وسلم مع قومه من بني إسرائيل، حيث إنه بعد إيمان السحرة الذين شاهدوا المعجزات برب العالمين، فأيقنوا بنبوته صلى الله عليه وسلم؛ إذ بالنبي موسى عليه السلام يجتهد في إحالة هؤلاء المؤمنين من بني إسرائيل على الله تعالى حاثًّا إياهم على رجوعهم إليه، وتوكلهم عليه، وتعرّضهم لنفحات يسره، فإنه تعالى حكم لأهل الصبر بجميل العقبى، فكان رد هؤلاء المؤمنين من بني إسرائيل، بأنهم توالت عليهم البلايا، ففي حالك يا موسى صلى الله عليه وسلم بلاء، وقبلك شقاء، فما الفضل؟ فأجابهم موسى عليه السلام بما علّق رجاءهم بكشف البلاء، فقال: عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون[2].

وتبيّن هذه الآيات أن الله تعالى أراد أن يأخذ آل فرعون المكذّبين ببعض العذابات الدنيا، منها الجدوب لأهل البوادي، والنقص من الثمرات لأهل القرى، وصرّف الله تعالى الآيات وبيّنها لهم من كل نوعٍ؛ لعلهم يتعظون ويتدبّرون بعقولهم وقلوبهم؛ كي يرجعوا إلى ربهم، لكنهم ردّوا على

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٥/ ١٥٦٧.

(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ١/ ٥٥٩.

هذا البلاء بأنهم إذا جاءتهم سعة الرزق والخصب قالوا: إن هذا هو استحقاقنا على العادة التي جرت لنا من النعمة، فينسون بذلك أنه من الله تعالى، ومن ثمّ لا يشكرونه على نعمه، وإن يصبهم قحط وجدب يتشاءموا بنبيهم موسى صلى الله عليه وسلم وقومه، ويقولون: إنما أصابنا هذا الشر بشؤمهم، فيرد الله تعالى عليهم بقوله: ألا إنما شؤمهم جاء بكفرهم بالله تعالى، ولكنهم أكثرهم لا يعلمون أن الذي أصابهم من الله تعالى، ولم يكتف هؤلاء القوم الكافرون بذلك؛ بل قالوا: مهما تأتنا به يا موسى عليه السلام من آية معجزة لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين، فأرسل الله تعالى في سبعة أيام الطوفان والجراد والقمّل والضفادع فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين، ولكنهم لما وقع عليهم ذلك العذاب، إذ بهم يدعون موسى عليه السلام لأن يدعو الله تعالى بما أوصاه به، وهم يظنون أنهم يمنّون على نبيهم موسى عليه السلام، بأنهم إن كشف الله تعالى عنهم هذا العذاب يؤمنوا لموسى صلى الله عليه وسلم، وسيرسلون بني إسرائيل من المؤمنين الضعاف إلى موسى صلى الله عليه وسلم، فلمّا كشف عنهم العذاب إلى الأجل الذي غرّقهم فيه، إذا هم ينقضون العهد، ولا يوفون، فكان لابدّ من الانتقام باستئصال شأفتهم، فسلب الله تعالى نعمتهم بالعذاب، وأغرقهم في البحر، جزاء تكذيبهم وعدم اعتبارهم بآيات الله تعالى، وتفكّرهم بقلوبهم وعقولهم؛ حيث إنهم لم يتوجّهوا إلى الله تعالى بالصدق، ولم يتذكّروا الله تعالى [1].

خامسًا: زيغ القلوب:

وقد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[آل عمران: ٧].

حيث بيّنت هذه الآية ذينكما النوعين اللذين يختصان بالقرآن الكريم، ومعلومٌ أن القرآن الكريم كله محكمٌ إحكامًا عامًّا؛ لقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

كما أن القرآن الكريم كله متشابهٌ؛ إذ إنه يشبه بعضه بعضًا في الإحكام والإتقان، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾[الزمر: ٢٣].

إلا أن هذه الآية التي هي شاهد هذا العنوان تبيّن أن الإحكام المقصود هنا والتشابه، هو ذانكما الإحكام والتشابه

(١) انظر: الوجيز، الواحدي، ص٤٠٩، ٤١٠.

الخاصان[1].

فأما المحكم الخاص هنا فهو بمعنى: الإحكام والإتقان والمنع عمّا لا ينبغي؛ بمعنى: أنه ما لا يحتمل التأويل ولا التخصيص ولا النسخ ولا التدرج، ويكون معناه واضحًا وضوحًا قويًّا، وأما المتشابه فقد اختلف العلماء فيه، وليس هذا العنوان هو مقام عرض الخلاف، ولكن يكفي القول بأن المتشابه هو ما استأثر الله تعالى بعلمه، وعلى هذا فإن معنى الآية، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، أي: «طلبًا منهم لفتنة الناس في دينهم، والتلبيس عليهم، وإفساد ذات بينهم، وابتغاء تأويله، أي: طلبًا لتأويله على الوجه الذي يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسد»[2]، ومعنى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أي: وما يعلم المراد منه إلا الله تعالى، ثم يستأنف الربّ تعالى مقررًا لحقيقةٍ ألا وهي أن الراسخين في العلم يقولون: آمنا به كلٌّ من عند ربنا، وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أنه لا يتدبّر ولا يتذكر آيات الله تعالى ولا محكمه أو متشابهه إلا أصحاب العقول، وعلى هذا فإن الآية تبيّن أن من كان يتصف بالعقل، وأنه صاحب لبٍّ ينبغي أن يسلّم بالمتشابه، ولا يقحم عقله بفهم مراده، فهذا هو التدبّر الذي يكون في غير محله، بل يصرف الإنسان عن التدبر الحق.

سادسًا: التعصب والتقليد:

وقد ورد ذلك واضحًا في آياتٍ، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

حيث إن هذه الآية تأتي في سياق الحديث عن كفار قريش، فتبيّن أن الله تعالى ذمّهم بأنهم أبطلوا ما خص الله تعالى به الإنسان من الفكر والرويّة، وركزه فيه من المعارف، وذلك أن الله تعالى ميّز الإنسان بالفكر؛ ليعرف به الخير من الشر في الاعتقاد، والصدق من الكذب في المقال، والجميل من القبيح في الفعال[3]، فحال الكافرين إذا قيل لهم -من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام-: اتّبعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن، وما شرعت به السنة النبوية، يقولون: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا؛ فهم كانوا أفضل وأعلم منا، ثم تأتي الفاصلة القرآنية في هذه الآية لتبيّن في تساؤلٍ غرضه التوبيخ، كيف يتبعون آباءهم، وآباؤهم لا يعقلون شيئًا، فهم كانوا جهّالًا لا يعرفون شيئًا من أمور الدين، ولا يهتدون

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٧/ ١٣٧، ١٣٨، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٣/ ٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٦١.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٣٦٧.

لاتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ لعدم تعقّلهم[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

فقد بيّنت الآيات السابقة حال الكافرين من الاستكبار والعلو والبعد عن الطاعة، والإدبار عن التفكّر في آيات الله تعالى، وتأتي هذه الآية الكريمة لتبيّن في تساؤلٍ غرضه التوبيخ، وذلك بما جاء في قول الله تعالى: أفلم يتدبّروا هذا القرآن الذي خوطبوا به، بل جاءهم ما لا عهد لآبائهم به، ولذلك أنكروه وتركوا التدبر به[2].

سابعًا: تعطيل أدوات التدبر:

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

حيث إن الكفار بعدما وصلوا من ضلال وإضلال؛ إذ بأدوات التدبر عندهم من قلب وعين وأذن تتعطل عن الاستجابة إلى الهدى؛ حتى وصموا بالأنعام، بل هم أضل، وأنهم هم الغافلون[3].

أساليب القرآن في الحث على تدبره

تنوعت أساليب القرآن الكريم في الحث على تدبّره؛ فمنها ما جاء بأسلوب الحض على التدبر في آياته وأحكامه، ومنها ما كان بجعل التدبّر حكمةً لإنزاله، وهذا بيان لهذه الأساليب، من خلال ما يأتي:

أولًا: الحض على التدبر:

وقد ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۞ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨١-٨٢].

حيث إن الآية الأولى بيّنت أن المنافقين يقولون باللسان: مرنا؛ فإن أمرك طاعة، فإذا خرجوا من عند النبي محمد صلى الله عليه وسلم بدّل طائفة منهم غير الذي تقول، فيخاطب الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، بقوله: إن الله تعالى يحصي ويحفظ ما يبدّلون؛ ليجازي كلًّا بما قدّم، فعليك ألّا تخبر بأسمائهم -وكان عليه الصلاة والسلام يعرف المنافقين-، وعليك أيضًا أن تتوكل على الله فهو حسيبك وكافيك، وتأتي الآية الكريمة الثانية لتبيّن

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/١٩٨-١٩٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/١٣٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ٢/١٥٤.

في تساؤلٍ غرضه الحث على انصراف المنافقين عمّا هم عليه، والإقبال إلى ما عند الله تعالى، كما وضّح في كتابه الكريم، فيقول تعالى: أفلا يتدبّرون بنظرهم في الأمر إلى آخره، وبالتفكير في هذا القرآن الذي ليس فيه تناقض ولا تفاوت؛ إذ لو كان من عند غير الله تعالى مهما عظمت فصاحته- لما استطاع هذا المفتري على القرآن أن يخبر عن الغيب أو غيره مما هو في القرآن؛ بل لوجد الناس بعضه صدقًا، ومعظمه كذبًا[1].

ولا شكّ أن هذه الآية الكريمة كافية للمؤمن المخاطب بها بطريقة غير مباشرة؛ كي تكون زادًا له في الحث على تدبّر القرآن الكريم آيةً آيةً، بل كلمةً كلمةً، كيف لا؟! وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

ثانيًا: جعل التدبّر حكمة إنزال القرآن:

ورد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٧-٢٩].

فقد بيّنت الآيات السابقة أن الله تعالى لم يخلق السماء والأرض وما بينهما هزلًا ولعبًا، وأن ذلك حسبان الذين كفروا؛ فهم الذين أعدّ الله تعالى لهم ويلًا ونارًا، وتساءلت الآية السابقة سؤالًا غرضه التقرير للمؤمنين، والتوبيخ للكافرين، وذلك بقوله: أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل أصحاب محمد عليه السلام المتقين كالكفار، وتأتي هذه الآية الكريمة بأسلوب استئنافيٍّ؛ لتقرير حقيقةٍ، ألا وهي: أنّ هذا الكتاب الكريم الذي هو القرآن إنما هو منزّلٌ من الله تعالى إلى قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو مباركٌ؛ ليتدبّر الناس هذا القرآن، بل يتوجّب عليهم معرفة معانيه، والترتيل لآياته؛ إذ لا يصح التدبر إلا إذا قرئت أحكام التلاوة، وتأتي الفاصلة القرآنية لتبيّن سببًا آخر لإنزال هذا القرآن المبارك، وهو أن يتعظ ويعتبر أصحاب العقول بما فيه من أحكام وهدايات[2].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، التفكر، العقل، الغفلة، الفقه، القرآن

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٤٥٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ١٩٢.

التدرج

عناصر الموضوع

مفهوم التدرج	٢٦٢
التدرج في الاستعمال القرآني	٢٦٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٦٤
سنة التدرج وآفة الاستعجال	٢٦٥
التدرج سنة إلهية في الخلق والتشريع	٢٦٦
مجالات التدرج	٢٧٢
ضوابط التدرج	٢٨٩
مقاصد التدرج	٢٩٨

مفهوم التدرج

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الدّال والرّاء والجيم أصلٌ واحدٌ، يدلّ على مضيّ الشّيء، والمضيّ في الشّيء»[1]، وعليه فلفظ (درج) دال على المشي والمضي.

وأما (درّج) بالتشديد فتشير هذه المادة في معاجم اللغة إلى الترقي شيئًا فشيئًا، وصولًا إلى غاية محددة، ومنه يقال -كما في لسان العرب-: «درّجت العليل تدريجًا إذا أطعمته شيئًا قليلًا؛ وذلك إذا نقه حتى يتدرج إلى غاية أكله، كما كان قبل العلة درجة درجة»[2].

فعلى هذا يكون لفظ (درّج) دالًّا على التأني في تناول الشيء أو بلوغه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى التدرج في الاصطلاح عن معناه في اللغة، فجماع دلالات التدرج: أنه أخذ الأمر شيئًا فشيئًا، لا دفعة واحدة.

أو: هو الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أعلى منها، وأرفع في الحس، أو في المعنى، أو في كليهما، وفي ضوء هذا المعنى قيل لمنازل الجنة: درجات من جهة أن بعضها يرتفع فوق بعض أخذًا من الدرجة التي تعني الرفعة والمنزلة.

والتدرج في الدين يعني: الدخول فيه شيئًا فشيئًا، رويدًا رويدًا، واستدراج الناس إليه درجة درجة.

وقد عرّف الدكتور الزحيلي التدرج بقوله: «التدرج في التشريع: هو نزول الأحكام الشرعية على المسلمين شيئًا فشيئًا، طوال فترة البعثة النبوية، حتى انتهى بتمام الشريعة، وكمال الإسلام»[3].

والتدرج لا يقتصر على مجال التشريع ونزول الأحكام فقط، بل يشمل تطبيق الأحكام بعد اكتمال التشريع، فعندما نطلق كلمة التدرج التشريعي إنما نقصد بها المعنيين:

- في مجال التشريع ونزول الأحكام (التدرج في النزول).
- وفي مجال تطبيق الأحكام بعد اكتمال التشريع (التدرج في التنفيذ).

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٧٥.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٦٧.
(٣) التدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية، محمد مصطفى الزحيلي ص ٢٧.

التدرج في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ (التدرج) في القرآن الكريم، وإنما ورد لفظ قريبٌ منه، وهو لفظ (الاستدراج).

وقد ورد في القرآن الكريم في موضعين، وهي:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف:١٨٢].

وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم:٤٤].

ومعناه: نأخذهم درجة فدرجة؛ وذلك إدناؤهم من الشيء شيئًا فشيئًا، كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزولها [(١)].

وهو قريب من معنى التدرج، الذي هو اقترابٌ من الهدف شيئًا فشيئًا [(٢)].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣١١.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٧٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٧٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الترقي:

الترقي لغة:

ترقّى في العلم وغيره، أي: رقّي درجة درجة[١].

الترقي اصطلاحًا:

التنقل في الأحوال والمقامات والمعارف[٢].

الصلة بين التدرج والترقي:

أن بينهما تشابهًا كبيرًا؛ إذ إن في كليهما تنقل من حال إلى حال، ومن منزلة إلى أخرى.

٢ الاستعجال:

الاستعجال لغة:

فهو طلب الأمر قبل مجيئه، وتحريه قبل أوانه[٣].

واستعجله، أي: حثّه وطلب عجلته، قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

الاستعجال اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة الاستعجال والتدرج:

أن الاستعجال نقيض التدرج؛ إذ التدرج الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة، والاستعجال عكسه، وهو طلب الأمر قبل أوانه.

(١) شمس العلوم، نشوان الحميري ٤/ ٢٦٠٣.
(٢) التوقيف، المناوي ص ٩٦.
(٣) انظر: التوقيف، المناوي ص ٤٨، دستور العلماء، القاضي نكري ١/ ٧٧.

سنة التدرج وآفة الاستعجال

التدرج في الأمور من سنن الله تعالى، ومن سنن رسله -عليهم الصلاة والسلام-، واستعماله دليل على عمق فقه الرجل لكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم واضح الدلالة على شرعية التدرج، سواء في طريقة نزوله، أو في تشريعه للأحكام، أو في دعوته، وسيأتي -إن شاء الله- بيان هذه الأنواع.

وفي المقابل فإن الاستعجال آفة عظيمة، توقع المرء في الزلل، وتورده في الخطل، وقد ورد النهي عنها في غير موضع في القرآن، فقد وردت هذه اللفظة (الاستعجال) ومشتقاتها (عجل، وتعجل، وعجّل، وعجّل، وعجّلنا، وأعجل، وأعجلك، وعجلت، واستعجل، ويستعجل، ويستعجلون، وتستعجلون، ويستعجلونك، واستعجالهم، وتستعجلوه، واستعجلتم) في القرآن الكريم في زهاء أربع وثلاثين مرة (٣٤) وكانت بمعنى الذم في الغالب، أو صفة للكافرين والمنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾[الرعد: ٦].

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٤].

وقوله جل شأنه: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وغيرها من الآيات التي جاءت كلها في النهي عن الاستعجال، والأمر بترك العجلة؛ والتي غالبًا ما توقع في العثرة والزلل، والمقصود أن سياق اللوم والتوبيخ، والأمر بترك العجلة كان ينتظم الاستعمال القرآني لهذه اللفظة.

بل قد جاء النهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن استعجال أمر محبوب في الظاهر، وهو الاستعجال في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[طه: ١١٤].

وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦].

والمقصود أن العجلة تنافي التدرج الذي هو سنة من سنن الله سبحانه وتعالى، وقانون من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل، وهو سنة من سنن الخلق الإلهي للكون والعالم بسماواته وأراضيه، وهذه السنة الربانية يجب مراعاتها والأخذ بها في التربية والتعليم والدعوة وغيرها من الأمور.

التدرج سنة إلهية في الخلق والتشريع

تحدث القرآن الكريم عن سنة الله في التدرج وعرضها في صور منها: الخلق والتشريع، وسوف نبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: التدرج في الخلق:

خلق الله تعالى السماوات والأرض في ستة أيام -وهو قادر على خلقهن بكن فتكون- لحكم عالية أرادها الله تعالى منها: تعليم عباده الأناة والتدرج في إيجاد الأشياء شيئًا فشيئًا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق: ٣٨].

وقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

قال ابن عاشور: «وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض مدرجًا، وأن لا يكون دفعة؛ لأنه جعل العوالم متولدًا بعضها من بعض؛ لتكون أتقن صنعًا مما لو خلقت دفعة؛ وليكون هذا الخلق مظهرًا لصفتي علم الله تعالى وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة، لكن العلم والحكمة اقتضيا هذا التدرج، وكانت تلك المدة أقل زمن يحصل فيه المراد من التولد بعظيم القدرة؛ ولعل تكرر ذكر هذه الأيام في آيات كثيرة لقصد التنبيه إلى هذه النكتة البديعة من كونها مظهر سعة العلم، وسعة القدرة»[(١)].

وكذلك خلق الله تعالى الإنسان في أطوار مختلفة، وهو قادر سبحانه أن يخلقه دفعة واحدة، فخلقه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، فخلق المضغة عظامًا، فكسا العظام لحمًا.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ثم إن هذا الخلق الذي يبتديء بخلق النطفة إلى أن يصير بشرًا سويًّا، يتم في ظلمات ثلاث، كما أشارت إليه الآية في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٦١.

﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

والمراد بالظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[(١)]، ففي تلك الظلمات الثلاث يتم ذلك الخلق العجيب، فعلى الإنسان أن يتصور نفسه وهو في تلك الظلمات الثلاث: لا عين تراه، ولا يد تلمسه، ولا حيلة له في التماس الغذاء.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾[الروم: ٥٤].

أي: إن الله تعالى هو الذي جعل الإنسان يمر في أطوار متفاوتة من الخلق حالًا بعد حال، فجعل أصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم كوّن عظامه، ثم كسا العظام لحمًا، ونفخ فيه الروح، ثم أخرجه من بطن أمه ضعيفًا نحيفًا، واهن القوى، فقوله: ﴿مِّن ضَعۡفٖ﴾ أي: ابتدأه ضعيفًا، ثم يشبّ قليلًا قليلًا، فيكون صغيرًا، ثم شابًّا بالغًا، وهذا دور القوة بعد الضعف، ثم يأتي دور الضعف من ابتداء الكهولة، إلى الهرم والشيخوخة، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة.

هذا الانتقال والتدرج والتحول من حال إلى حال دليل على القدرة الإلهية الخالقة، وبرهان على البعث الذي ينكره المشركون، فإن القادر على هذا التغيير والتبديل قادر على الإعادة مرة أخرى إلى الحياة الأولى كما كانت؛ لأن من كانت قدرته تامة شاملة لا يصح مقارنتها بقدرة الإنسان النسبية، ولا يعجزه شيء، سواء في بدء الخلق أم حال إعادته[(٢)].

قال ابن القيم: «فأعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية من الذي دبّرك بألطف تدبير، وأنت جنين في بطن أمك في موضع لا يد تنالك، ولا بصر يدركك، ولا حيلة لك في التماس الغذاء، ولا في دفع الضرر، فمن الذي أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك، كما يغذو الماء النبات، وقلب ذلك الدم لبنًا، ولم يزل يغذّيك به في أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم، وقوي أديمك على مباشرة الهواء، وبصرك على ملاقاة الضياء، وصلبت عظامك على مباشرة الأيدي، والتغلب على الغبراء، هاج الطلق من أمك، فأزعجك إلى الخروج أيما إزعاج إلى عالم الابتلاء»[(٣)].

فابن القيم رحمة الله عليه وضّح لنا وجه الدلالة من التدرج في خلق الإنسان

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٥٩.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ١١٤ بتصرف.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٥٥- ٢٥٦.

على أن هناك مدبرًا حكيمًا قادرًا عليمًا وراء هذا الكون، وما فيه من المخلوقات، دبّره فأحسن تدبيره، فسبحانه من إله حكيم أحكم خلقه، وقدره تقديرًا.

وهذه المراحل إنما سيقت؛ لتبيّن لنا كيف خلق الإنسان؟ وكيف نما؟ وكيف تحوّل بحكم المراحل المتعاقبة إلى كائن حيواني؟ ثم كيف انتقل إلى ذلك الإنسان العاقل المدرك الواعي؟ عنده من المؤهلات والاستعدادات ما يجعله يتبوأ عمارة هذه الأرض، ومسئولية بنائها.

ولتبيّن أن ذاك التعريف بخلق الإنسان إنما جاء دليلًا على قدرة الله وعلمه وحكمته، وعندئذٍ يكون التعريف بتلك المراحل إنما هو تعريف بالله وبصفاته اعتمادًا على التعريف بأحد مخلوقاته المعتبرة اعتبارًا أوليًّا[1].

وكذا قال في الظل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان ٤٥-٤٦].

فقد جعل مدّ الظل وقبضه تمثيلًا لحكمة التدريج في التكوينات الإلهية، والعدول بها عن الطفرة في الإيجاد؛ ليكون هذا التمثيل بمنزلة كبرى القياس للتدليل على أن تنزيل القرآن منجّمًا جارٍ على حكمة التدرج؛ لأنه أمكن في حصول المقصود؛ وذلك ما دل عليه قوله سابقًا: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

فكان في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، زيادة في التعليل على ما في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢][2].

وانظر كذلك للقمر وهو يبدو صغيرًا، ثم يكبر رويدًا حتى يكمل، ثم يعود إلى النقص، وهو يشبه الإنسان؛ حيث إنه يخلق من ضعف، ثم لا يزال يترقى من قوة إلى قوة، حتى يعود إلى الضعف مرة أخرى، فتبارك الله أحسن الخالقين، قال -تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

ومع هذه السنة في الخلق -وهي سنة التدرج- إلا أن الإنسان يتجاهل هذا التدرج، فيبذر البذرة اليوم ويريد النتيجة غدًا، ويعمل العمل اليوم ويريد النتيجة غدًا، وسنة الله عز وجل في الخلق والحياة على الترتيب والتدرج.

فالليل لا يفجؤك بسواده، والنهار لا يفجؤك بضوئه؛ وذلك لأن الله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦] تدريجيًّا.

(١) انظر: مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص ٣٣٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٣٨.

والإنسان لا يولد من بطن أمه فتنبت لحيته، ويكتمل عقله، ويتكلم على المنبر، بل يولد رضيعًا، ثم طفلًا، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا هرمًا، حتى يصل إلى الله، هذه سنة الله.

فهذا التدرج في الخلق لحكمة أرادها الله سبحانه، وإلا فهو قادر على خلق الخلق كلهم في أسرع من لمح البصر؛ لأنه أخبر أنه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

ثانيًا: التدرج في التشريع:

من خصائص التشريع الإسلامي ومزاياه أنه لم يوجب على المسلمين الشرائع دفعة واحدة، ولكن تدرّج بهم، وأوجبها عليهم مرة بعد مرة، وتدرّج بهم من الأخف إلى الأثقل؛ تكريمًا لهذه الأمة، ورحمة بها، وقد جاء فرض الصلاة والصيام وتحريم الخمر والربا وغيرها على هذا النحو.

ويمكن القول: أن التدرج في التشريع سار وفق طريقين:

الطريق الأولى: التدرج بين الفرائض فيما بينها:

فتدرّج الشارع في فرض العبادات عمومًا، يشرع للناس عبادة، ثم يوجب عليهم أخرى، ثم يفرض عليهم ثالثة، ثم يختم لهم برابعة، وهكذا، ولم تفرض كلها في وقت واحد.

فالصلاة فرضت في السنة العاشرة من البعثة، أي: قبل الهجرة، والصوم شرع بعد ذلك بخمس سنوات، في العام الثاني من الهجرة، والزكاة في السنة الثانية من الهجرة عقب الصوم، والحج بعدهما، في السنة الخامسة أو السادسة أو الثامنة أو التاسعة، على خلاف في ذلك[1].

فسنة الله في التشريع كسنته في التكوين، يرى المتأمل فيها من الحكم البالغة ما يبهر النظر؛ فإنه سبحانه بدأ في إنزال أوضاع الشريعة بالضروري الذي لا تصلح الأمة بدونه، ولا تخرج من ظلمة الجاهلية بغيره؛ فشرع لها بمكة ما يكفل ذلك، ثم لما صلب عودها، وبلغت أشدّها، واستعدت العقول لما يكمل ذلك من الأوضاع الشرعية شرع لها بالمدينة ما أكمل به الدين، وأتم به النعمة، ولولا ذلك التدرج لنأت الأمة بالتكاليف، وشرد عن قبولها كثير؛ فلله الحمد والمنة.

الطريق الثاني: التدرج في فرض كل عبادة:

وكذلك تدرج الشارع في فرض كل عبادة على حدة؛ حتى تكتمل كل عبادة بأركانها، وشروطها، وهيئاتها، وأعدادها، فيقيم في كل مرحلة ركنًا، أو يحدّد عدد الفريضة، أو

(١) انظر: السراج المنير، الشربيني ٤/ ٤١٣، تاريخ التشريع الإسلامي، مناع القطان ص ١٥١.

يوضّح شرطًا من شروط صحتها، وهكذا.

والحكمة من ذلك أن الشارع الحكيم يراعي مصالح عباده، فلو أنزل الأحكام باتّةً على الوجه الذي تستقر عليه، دون تدرج ومرور بتلك المراحل، لكان ذلك أدعى لعدم الاستجابة، فكان من لطفه وحكمته أن ينزل الأحكام متدرجة على ما ذكرنا، وهذا النوع من التدرج -في التشريع- يتناول:

١. التدرج في تحريم ما كان مألوفًا عندهم على مراحل.

فحينما يكون الحكم متعلقًا بتحريم عادة متأصلة في النفوس فإن الشريعة حينئذٍ لا تفاجيء الناس بتحريم هذا الأمر مرة واحدة، بل تتدرج بهم على مراحل، في رفق وأناة، وفي تدرج، ففي الخمر بيّن الله أن في الخمر والميسر منافع ومضار، وإثمهما أكبر من نفعهما، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة: ٢١٩].

ثم حرّم السّكر عند الصلاة في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ثم لما صارت حالة الإسلام والمسلمين تتحمل ذلك حرم الخمر تحريمًا قطعيًّا في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وفي تحريم الخمر بهذا الترتيب حكمة بليغة؛ وذلك أن القوم ألفوا شرب الخمر، وأصبحت جزءًا من حياتهم، فلو حرّمت عليهم دفعة واحدة لشق ذلك على نفوسهم، فإنه من الصعب جدًّا أن يتركوا شرابًا طالما عاقروه، وشبوا عليه وشابوا.

يقول صاحب المنار: «والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج: أن الناس كانوا مفتونين بها حتى إنها لو حرّمت في أول الإسلام لكان تحريمها صارفًا لكثير من المدمنين لها عن الإسلام، بل عن النظر الصحيح المؤدي إلى الاهتداء به؛ لأنهم حينئذٍ ينظرون إليه بعين السخط، فيرونه بغير صورته الجميلة، فكان من لطف الله، وبالغ حكمته أن ذكرها في سورة البقرة بما يدل على تحريمها دلالة ظنية فيها مجال للاجتهاد؛ ليتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه»[(١)].

ومما يدل على أن القوم كانوا متعلقين بها، ما روي عن الأعشى أنه لما توجه إلى المدينة؛ ليسلم لقيه بعض المشركين في الطريق، فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقالوا: لا تصل إليه، فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الرب واجبة، فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء، فقال: اصطناع المعروف

(١) المنار ٧/ ٤٢.

واجب، فقيل له: إنه ينهى عن الزنا، فقال: هو فحش وقبيح في العقل، وقد صرت شيخًا فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر، فقال: أما هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع وقال: أشرب الخمر سنة، ثم أرجع إليه، فلم يصل إلى منزله حتى سقط عن البعير، فانكسرت عنقه، فمات[1].

٢. التدرج من الخفيف من الأحكام إلى الثقيل، إلى ما هو أثقل منه.

ومن أمثلة ذلك: الصيام، فالشارع لما أراد أن يفرض على المسلمين صيام شهر رمضان لم يفرضه عليهم دفعة واحدة، بل تدرج في إيجابه والإلزام به على مرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة التي فرض الله فيها الصوم على الأمة مع التخيير بين الصيام أو الإفطار مع الفدية، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فكان من أطعم كل يوم مسكينًا ترك الصوم، وهو يطيقه على قول الجمهور[2].

وروي عن قتادة وعطاء ومعاذ بن جبل رضي الله عنه أن فرض الصيام كان أول الأمر ثلاثة أيام من كل شهر مع التخيير بين الصوم والفدية[3].

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الإلزام والتحتيم، وإكمال الفرض والإيجاب بصوم شهر رمضان؛ وذلك بنزول قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أخرج النسائي عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

كان من أراد منا أن يفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها، فنسختها»[4].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ٤١٤.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب نسخ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾، ٢/ ٢٩٦، رقم ٢٣١٥، والترمذي في سننه، أبواب الصوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، ٢/ ١٥٤، رقم ٧٩٨، والنسائي في سننه، كتاب الصيام، باب تأويل قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، ٤/ ١٩٠، رقم ٢٣١٦. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٥٤.

مجالات التدرج

للتدرج مجالات تحدث عنها القرآن نبيّنها فيما يأتي:

أولًا: التدرج في العبادات:

كان التدرج سنة مرعية ومطردة في الشعائر والعبادات -بما فيها الكثير من أركان الإسلام- وليس فقط في أحكام الواقع والمعاملات، وقد سلك القرآن في ذلك منهجًا فريدًا، ومسلكًا بديعًا، فبدأ الشارع في فرض العبادات عمومًا، يشرع للناس عبادة، ثم يوجب عليهم أخرى، وهكذا التدرج في كل عبادة حتى تمامها وكمالها.

والتدرج في تقرير الشارع للعبادات وفرضها لا يخفى على من قرأ القرآن بتدبر؛ وفي ذلك تنبيه للدعاة، وفتح لعيونهم، وطرق لآذانهم، وإيحاء للمصلحين أن يرتكزوا على التدرج في التغيير والإصلاح، وأن ينتهجوا التدريج في التكليف والتبليغ.

فالصلاة بصورتها التامة والحالية اكتملت فريضتها ليلة الإسراء والمعراج، في السنة الثانية قبل الهجرة، الحادية عشرة من البعثة، والصوم فرض بالمدينة، وكذلك الزكاة والحج إلى بيت الله الحرام، وفيما يلي تفصيل ذلك.

١. التدرج في تشريع الصلاة.

فلم يكتمل تشريعها إلا بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: وكانت الصلاة فيها ركعتين في الغداة، وركعتين في العشي. أخرج ذلك البيهقي، وذكره بعض المفسرين[(١)].

وبهما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ومن معه في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[غافر: ٥٥].

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: «وقيل: صلّ لهذين الوقتين؛ إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة، وركعتين عشيًّا»[(٢)].

وقال ابن أبي زمنين: «وهي صلاة مكة قبل أن تفترض الصلوات الخمس، حين كانت الصلاة ركعتين غدوة، وركعتين عشية»[(٣)].

وذكر ابن رجب هذا القول بصيغة التمريض، حيث قال: «لكن قد قيل: إنه كان قد فرض عليه ركعتان في أول النهار، وركعتان في آخره فقط، ثم افترضت عليه الصلوات الخمس ليلة الإسراء، قاله مقاتل

(١) أخرجه البيهقي السنن الكبرى في كتاب الصلاة، باب أول فرض الصلاة ١/ ٥٢٩-١٦٨٨.
وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١٤٣، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٣، الدر المنثور ١/ ٤٢٩.

(٢) أنوار التنزيل، ٥/ ٦١.

(٣) تفسير القرآن العزيز، ٤/ ١٣٨.

وغيره، وقال قتادة: كان بدء الصلاة ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي، وإنما أراد هؤلاء: أن ذلك كان فرضًا قبل افتراض الصلوات الخمس ليلة الإسراء»[(١)].

بينما يقول ابن عاشور: «إن الجمهور على أن الصلوات الخمس فرضت بمكة في أوقاتها، على أنه لا يتعين أن يكون المراد بالتسبيح في تلك الآية الصلوات، بل يحمل على ظاهر لفظه من كل قول ينزّه به الله تعالى»[(٢)].

المرحلة الثانية: وهي مرحلة فرض الصلاة ثلاث مرات في اليوم، الفجر والعصر، وقيام الليل، بإضافة العصر إلى ما كان قد فرض في المرحلة الأولى؛ وذلك بأمر الله تعالى للأمة من خلال نبيهم صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

قال ابن كثير: «إنما كان يجب من الصلاة صلاتان، صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة»[(٣)].

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي اكتمل فيها التشريع، وتم إيجاب الصلوات الخمس؛ وذلك بقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[الإسراء: ٧٨].

قال الرازي: «أراد بالدلوك زوالها، فدخل فيه صلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ثم قال: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ أراد صلاة الصبح»[(٤)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: (فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين، ثم أتمها في الحضر، فأقرّت صلاة السفر على الفريضة الأولى)[(٥)].

٢. التدرج في تشريع الصيام.

وكذلك صيام شهر رمضان لما أراد الشارع أن يفرضه على المسلمين لم يفرضه عليهم دفعة واحدة، بل تدرج في إيجابه والإلزام به على مرحلتين، كما سبق.

وعن حكمة التدرج في فرض هذه العبادة، واستكمال تشريعها، يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: «ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها، تأخر فرضه -أي: الصوم- إلى وسط الإسلام بعد الهجرة؛ لما توطنت

(١) فتح الباري، ابن رجب ٢/ ٣٠٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٤/ ٧٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٥.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٨٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟، ١/ ٧٩، رقم٣٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، ١/ ٤٧٨، رقم ٦٨٥ واللفظ له.

النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فنقلت إليه بالتدريج»[1].

٣. التدرج في فرض الزكاة.

أما فرض الزكاة فقد استمر تشريعه سنين عددًا، حتى اكتمل في السنة الثامنة بعد الهجرة، أخريات سنين الوحي.

فقد جاء ذكر الزكاة والأمر بها في السور المكية الأولى، مما يؤكد أن بدء تشريعها كان في مكة، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الليل، وهي مكية: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧-١٨].

وقوله تعالى في سورة لقمان، وهي مكية: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤].

وفي سورة الروم: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

ثم يأتي ذكرها في أوائل السور التي نزلت في المدينة بالتشريع والتوجيه، مثل البقرة، فجاء فيها: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وهكذا يستمر تشريع الزكاة وفرضها هذه السنين؛ لتكتمل صورتها في السنة الثامنة من الهجرة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

فتشريع الزكاة لم يكتمل إلا بعد عشر سنين، أو يزيد، وهذا يدل على التأكيد على ضرورة الارتكاز على التدرج كمنهج دعوي حكيم.

التدرج في الدعوة إلى الله:

مراعاة سنّة التدرج في الدعوة والبيان والتعليم والأمر والنهي من الأمور المهمة، وندرك هذه الحقيقة في القرآن الذي هو كتاب الدعوة، فنجد التدرج فيه من ثلاثة جوانب:

١. التدرج في نزوله.

عند الحديث عن نزول القرآن جاء التعبير بالفعل ﴿نَزَّلَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وعند النظر في الفعل (نزّل) في هذه

(١) زاد المعاد ٢/ ٢٩.

الآيات وغيرها نجده جاء على وزن (فعّل) الذي يفيد التكثير والمبالغة غالبًا، نحو: (قطّع وكسّر وفتّح وحرّق وسعّر) ومن مقتضيات التكثير والمبالغة في الحدث استغراق وقت أطول، وأنه يفيد تلبثًا ومكثًا، فـ (نزّل) يفيد استغراق وقت أطول من (أنزل).

فـ(نزّل): يفيد التدرج والتكرار، و(أنزل) عام؛ وذلك هو الأكثر؛ ولذلك يوصف نزول القرآن بالتنزل؛ لأنه لم ينزل جملة واحدة، بل سورة سورة، وآية آية، فلفظ (نزّل): يفيد التفصيل والتنجيم والتفرق في النزول، أما لفظ (أنزل) فلا يقطع بذلك بل يحتمله.

ويؤيد هذا التفريق ما قاله العسكري في معجم الفروق اللغوية، حيث قال: «الفرق بين الإنزال والتنزيل، قال بعض المفسرين: الإنزال: دفعي، والتنزيل: للتدريج...، ويدلك عليه قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

حيث خص القرآن بالتنزيل لنزوله منجمًا، والكتابين بالإنزال لنزولهما دفعة، وأما قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١].

فالمراد هناك مطلقًا من غير اعتبار التنجيم، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

فإن المراد إنزاله إلى سماء الدنيا، ثم تنزيله منجمًا على النبي صلى الله عليه وآله في ثلاث وعشرين، كما وردت به الروايات»[1].

وقد صرح القرآن بهذا التدرج في النزول في قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

يقول مناع القطان: «فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية، وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا، فالمراد به نزوله منجّمًا، ويدل التعبير بلفظ (التنزيل) دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتنجيم، فإن علماء اللغة يفرّقون بين الإنزال والتنزيل، فالتنزيل لما نزل مفرقًا، والإنزال أعم.

ومن المعلوم أن القرآن قد نزل منجّمًا في ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة بمكة على الرأي الراجح، وعشر بالمدينة، وجاء التصريح بنزوله مفرّقًا في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

(١) الفروق اللغوية ص ٧٩.

أي: جعلنا نزوله مفرقًا؛ كي تقرأه على الناس على مهل وتثبت ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ بحسب الوقائع والأحداث.

أما الكتب السماوية الأخرى -كالتوراة والإنجيل والزبور- فكان نزولها جملة، ولم تنزل مفرّقة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقًا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجّمًا، فمعنى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ هلّا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ وما له أنزل على التّنجيم؟ ولم أنزل مفرقًا؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنته في إنزال الكتب السماوية كلها، كما رد عليهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]»[1].

الحكمة من نزوله منجمًا:

ذكر العلماء بعض الحكم من نزول القرآن منجمًا، فقال القرطبي: «ولو أنزل جملة بما فيه من الفرائض؛ لثقل عليهم...، وأيضًا: في تفريقه تنبيه لهم مرة بعد مرة، وهو أنفع لهم، وأيضًا فيه ناسخ ومنسوخ ولو نزل ذلك جملة؛ لنزل فيه الأمر بالشيء وبتركه وهو لا يصح»[2].

وقال النسفي في معنى ﴿لِنُثَبِّتَ﴾: «لنقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه؛ لأن المتلقي إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئًا بعد شيء، وجزءًا عقب جزء، ولو ألقي عليه جملة واحدة؛ لعجز عن حفظه، أو لنثبّت به فؤادك عن الضجر؛ وذلك بتواتر الوصول، وتتابع الرسول؛ لأن قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب»[3].

قال صاحب الغرائب في بيان الحكمة من ذلك: «وتقريره من وجوه:

أحدها: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئًا كاتبًا، بخلاف موسى وداود وعيسى عليهم السلام فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ، فأنزله الله عليه منجّمًا -في عشرين سنة، وعن ابن جريج: في ثلاث وعشرين-؛ ليكون أقرب إلى الضبط، وأبعد عن النسيان والسهو.

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص ١٠٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٩.
(٣) مدارك التنزيل، ٢/ ٥٣٦.

وثاني هذه الحكم: أن الاعتماد على الحفظ أقرب إلى التحصيل من الاعتماد على الكتابة، والحفظ لابد فيه من التدرج.

وثالثها: إن نزول الشرائع متدرجة أسهل على المكلف منها دفعة.

ورابعها: أن نزول جبريل ساعة فساعة مما يقوي قلبه، ويعينه على تحمل أعباء النبوّة والرسالة.

وخامسها: أن نزوله مفرّقًا يوجب وقوع التحدي على أبعاض القرآن وأجزائه، ونزوله جملة يقتضي وقوع التحدي على مجموعه، ولا ريب في أن الأول أدخل في الإعجاز.

وسادسها: أن نزوله بحسب الوقائع والحوادث أوفق في باب التكاليف والاستبصار، وأدل على الأخبار عن الحوادث في أوقاتها.

وسابعها: أن في تجديد منصب السفارة في كل حين مزيد شرف لجبريل»[1].

والمقصود أن القرآن نزل منجّمًا مفرقًا على وفق المناسبات والحوادث والوقائع، أخذًا بمبدأ تربوي ناجح ألا وهو التدرج في التشريع لإصلاح المجتمع العربي الجاهلي تدريجيًا، ومراعاة للمصالح، وتمكينًا من التخلص من العادات والتقاليد الموروثة شيئًا فشيئًا، وإعدادًا للحكم الشرعي المستقر بتقبل النفوس له، وتربيتها على وفق الغاية الشرعية بنحو بطيء، واقتناع عقلي ذاتي بأفق التشريع ومراميه البعيدة، فإذا توافرت المصلحة العامة للأمة بقي الحكم، وإن لم تتوافر عدّل أو بدل ونسخ.

والنسخ الذي هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر يكون إما بنسخ لفظ الآية ومعناها أو أحدهما، أو بانتهاء الحكم المستفاد منها مع بقاء نصها، كل ذلك بحسب المصلحة أو الحاجة، كالطبيب الذي ينوّع الأدوية والأغذية باختلاف الأزمنة والأمزجة والأحوال الصحية، والأنبياء صلوات الله عليهم هم أطباء الأمة، ومصلحو النفوس، يوحى إليهم بتبديل الحكم الشرعي لمراعاة الأحوال الحاضرة أو المستقبلية، فما قد يصلح علاجًا في الماضي قد لا يصلح في المستقبل؛ وذلك كله يدل على مرونة الإسلام[2].

٢. التدرج في تشريعاته.

وقد سبق بيان ذلك في نقاط مستقلة.

٣. التدرج في أسلوب في دعوته الناس.

لقد تدرج القرآن الكريم في أسلوبه في الدعوة، حيث اتخذ القرآن في علاج العادات السيئة التي تأصّلت في المجتمع أسلوبين:

الأسلوب الأول: هو تأجيل العلاج حتى

(١) غرائب القرآن ٥/ ٢٣٦.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٢٦١.

يستقر الإيمان في قلوب المسلمين، بحيث يمكن الاستعانة بقوة الإيمان كدافع قوي يسهّل عملية التخلص من العادات السيئة المستحكمة، وتعلم عادات جديدة بدلًا منها.

أما الأسلوب الثاني: فهو عبارة عن التهيئة المتدرجة لنفوس المسلمين للتخلص من هذه العادات، ومثاله الخمر، وقد مر معنا مثاله.

ولنأخذ مثالًا آخر يبيّن لنا طريقة القرآن في التدرج في أسلوبه الدعوي في علاج العادات السيئة التي تأصّلت في المجتمع وهو تحريم الربا، فقد مر تحريم الربا بأربعة أدوار، كما حدث في تحريم الخمر؛ وذلك تمشيًا مع قاعدة التدرج:

الدور الأول: نزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[الروم: ٣٩].

فالله تعالى يقول في هذه الآية: إن الربا لا ثواب فيه عند الله.

فهذه الآية الكريمة نزلت في مكة وهي- كما يظهر- ليس فيها ما يشير إلى تحريم الربا، وإنما إشارة إلى بغض الله للربا، وإنما الربا ليس له ثواب عند الله.

الدور الثاني: ألقى الله تعالى على المسلمين درسًا وعبرة من سيرة اليهود الذين حرّم الله عليهم أكل الربا فأكلوه، فعاقبهم الله بمعصيتهم، فقد جاء في سورة النساء قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء ١٦٠-١٦١].

وهذه الآية مدنية، وهي درس قصّه الله سبحانه علينا من سيرة اليهود الذين حرّم عليهم الربا، فأكلوه، واستحقوا عليه اللعنة والغضب، وهو تحريم (بالتلويح) لا (بالتصريح)؛ لأنه حكاية عن جرائم اليهود، وليس فيه ما يدل دلالة قطعية على أن الربا محرّم على المسلمين، وهذا نظير (الدور الثاني) في تحريم الخمر ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

حيث كان التحريم فيه بالتلويح لا بالتصريح.

الدور الثالث: جاء فيه النهي الصريح إلا أنه كان نهيًا جزئيًا عن الربا الفاحش الذي يتزايد حتى يصير أضعافًا مضاعفة، حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وهذه الآية مدنية، وفيها تحريم للربا صريح، ولكنه تحريم (جزئي) لا (كلي)؛

لأنه تحريم لنوع من الربا الذي يسمى (الربا الفاحش) وهو الربا الذي بلغ في الشناعة والقبح الذروة العليا، وبلغ في الإجرام النهاية العظمى، حيث كان الدين فيه يتزايد حتى يصبح أضعافًا مضاعفة، يضعف عن سداده كاهل المستدين، الذي استدان لحاجته وضرورته، وهو يشبه تحريم الخمر في المرحلة الثالثة حيث كان التحريم جزئيًّا لا كليًّا في أوقات الصلاة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

الدور الرابع: وفي هذا الدور الأخير نزل التحريم الكلي القاطع الذي لا يفرّق بين قليل أو كثير، والذي تدل النصوص الكريمة على أنه قد ختم فيه التشريع السماوي بالنسبة إلى حكم الربا، فقد نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة ٢٧٨-٢٧٩].

وهذه الآيات الكريمة التي كانت المرحلة النهائية في تحريم الربا، تشبه المرحلة النهائية في تحريم الخمر في المرحلة الرابعة منه، حيث حرّمت الخمر تحريمًا قاطعًا جازمًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وبهذا البيان يتضح لنا سر التشريع الإسلامي في معالجة الأمراض الاجتماعية التي كان عليها العرب في الجاهلية بالسير بهم في طريق التدرج[1].

ومن الأمثلة أيضًا على التدرج، التدرج في عقوبة الزنا.

فقد كان شائعًا ومنتشرًا في الجاهلية، وسعى الإسلام إلى اقتلاع هذه الرذيلة بالتربية والتوجيه على طريق التدرج، شأن الطبيب الذي يعالج المريض، ويرعى أحواله شيئًا فشيئًا، ثم نزل تحريم الزنا في عدة آيات بعد أن استقر الإيمان في القلوب، وتهيأت النفوس للقبول، وفرضت العقوبة على سبيل التدرج، فجعل الله تعالى عقوبة الزنا أولًا: الحبس في البيوت في سورة النساء: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٥].

ولما تأهلت النفوس لتقبّل العقوبة أنزل الله تعالى جلد الزاني غير المحصن (أي: غير المتزوج) في سورة النور ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) انظر: روائع البيان، الصابوني ١/ ٣٩٠.

﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

ثم نزل حكم الزاني المحصن (المتزوج) بالرجم في آية: (الشيخ والشيخة)[١] المنسوخة لفظًا لا حكمًا، حتى كانت التربية الإيمانية تدفع الزاني للاعتراف، وطلب التطهر من دنس الزنا، مثل ماعز[٢] والغامدية[٣] اللذين أقرا بالزنا، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمهما، فكان للتدرج أثر بالغ في التكليف، وتقرير العقوبة، واجتثاث الفاحشة.

وجاء في السنة ما يؤيد أسلوب القرآن في التدرج، فقد ثبت أنه لما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه واليًا على اليمن، وأرشده إلى ما يجب أن يعمله، وابتداء ذلك بالدعوة إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة فقال: (فإذا عرفوا الله، فأخبرهم...)[٤].

فإن عليه أن يخبرهم بأوجب الواجبات بعد التوحيد، وهما الصلاة والزكاة، فإن امتثلوا أمره، فإن عليه أن يراعي فيهم جانب العدل، فلا يضارهم بأخذ خيار أموالهم؛ لأن ذلك ظلم لهم؛ وذلك مما يستثيرهم، فيدعون عليه، ودعوة المظلوم لا تردّ.

وهذا الحديث صريح في التدرج، وأن الشرائع يبنى بعضها على بعض (فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله)[٥]، وقوله: (فليكن أول) فيه التدرّج في الدعوة، وأنه يبدأ بالأهم فالأهم، وهذه طريقة الرسل أنهم أول ما يبدءون بالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله؛ لأنها الأصل والأساس الذي يبنى عليه الدين، فإذا تحققت شهادة أن لا إله إلا الله فإنه يمكن البناء عليها بالأمور الأخرى، أما إذا لم تحقّق شهادة أن لا إله إلا الله فلا فائدة من بقية الأمور، فلا تأمر الناس بالصلاة وعندهم شرك، ولا تأمرهم بالصيام والصدقة والزكاة وصلة الأرحام وغيرها، وهم يشركون بالله؛ لأنك لم تضع الأساس أولًا، وهذا بخلاف كثير من دعاة اليوم الذين لا يهتمون بشهادة أن لا إله إلا

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٣٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٥.

(٢) أخرج حديثه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب هل يقول الإمام للمقر: لعلك لمست أو غمزت، ٨/ ١٦٧، رقم ٦٨٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ٣/ ١٣١٩، رقم ١٦٩٢.

(٣) أخرج قصتها مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ٣/ ١٣٢١، رقم ١٦٩٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ٢/ ١١٩، رقم ١٤٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ١/ ٥١، رقم ١٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ٢/ ١١٩، رقم ١٤٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ١/ ٥١، رقم ١٩.

الله، وإنما يدعون الناس إلى ترك الربا، وإلى المعاملات الحسنة...، لكن التوحيد لا يذكرونه، ولا يلتفتون له، وكأنه ليس مفروضًا -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، فهؤلاء مهما أتعبوا أنفسهم فإن عملهم لا ينفع؛ حتى يحقّقوا الأصل في الأساس الذي تبنى عليه أمور الدين، من حاكمية، ومن صلاة، ومن زكاة، ومن حج، إلى آخره، هذا منهج الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦][1].

فمن الحكمة والاتّباع أن يراعي الداعية مبدأ التدرج في الدعوة؛ فلقد استقر في المنهج الشرعي النظر إلى المقاصد والغايات ورعايتها، ومما يوصل إلى تحقيق الغايات والمقاصد الأخذ بسنّة التدرج؛ لئلا تثمر الخطوة نتائج عكسيّة غير مرغوبٍ فيها؛ وتطبيقًا لهذا المعنى ينبغي أن يكون معلومًا لدى الداعية أنّ تحصيل الكليات من الدين مقدّمٌ على تحصيل الأمور الفرعية، ولا مانع من تحصيل شيءٍ من الفروع قبل الأصول إذا كانت في الطريق، ولم يكن ذلك على حساب تحصيل الأصول، أما إذا كان تحصيل الفروع على حساب الأصول فإن الحكمة وإن مراعاة سنة التدرج تقتضي تأجيل هذا المقصد إلى وقته المناسب[2].

ثالثًا: التدرج في التربية والتعليم:

سلك القرآن الكريم في تغيير أحوال النفس وتربيتها وتزكيتها وتعليمها منهج التدرج.

ومن الأدلة التي تدل على التدرج في التربية قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وأكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)[3].

وقال: (إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق)[4].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (والقصد

(١) انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح الفوزان ١/ ١٠٧.

(٢) انظر: دعوة إلى السنة في تطبيق السنة منهجًا وأسلوبًا، عبد الله الرحيلي ص ٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ١/ ١٦، رقم ٣٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٤٦، رقم ١٣٠٥٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٤٧، رقم ٢٢٤٦.

القصد تبلغوا)[1].

وكل هذه الأدلة تدل على أن الإسلام لم يكلّف النفس إلا وسعها واستطاعتها، وأن الله لم يرد بها إلا اليسر، ولم يرد بها العسر، وأن من اليسر بها: أنه تدرج بها نحو التزكية والكمال درجة درجة.

وامتدح الله تعالى الذين يسلكون هذا المسلك -التدرج- في تربية الناس، فقال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ففي البخاري: (الرّبّانيّ: الّذي يربّي النّاس بصغار العلم قبل كباره)[2].

وقال ابن الأثير رحمه الله: «الربانيّ: قيل: هو من الربّ بمعنى التربية، كانوا يربّون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها»[3].

ويقول الراغب الأصفهاني: «الرب في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام»[4]. وهذا هو التدرج.

وهذا يعني أن تربية الأمم والمجتمعات لا تتم إلا بهذه السنة الربانية، والطريقة النبوية، وسبب ذلك أن التربية على منهج الإسلام تحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل، ولا تتم بين يوم وليلة، يقول سيد قطب: «ولقد جاء هذا القرآن ليربي أمة، ولينشيء مجتمعًا، ويقيم نظامًا، والتربية تحتاج إلى زمن وتأثّر وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثّر والانفعال إلى واقع، والنفس البشرية لا تتحوّل تحوّلًا كاملًا شاملًا بين يوم وليلة بقراءة كتاب شامل للمنهج الجديد، إنّما تتأثر يومًا بعد يوم بطرف من هذا المنهج، وتتدرج في مراقيه رويدًا رويدًا، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئًا فشيئًا، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدّم لها ضخمًا ثقيلًا عسيرًا»[5].

فالداعية الذي يريد تأثيرًا لكلماته، وثمارًا لدعوته فعليه أن يسلك هذا الطريق القرآني النبوي في الدعوة إلى الإسلام؛ لأنّ بهذه الطريقة بنى النبي صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام، يقول ابن تيمية: «فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه كما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم شيئًا فشيئًا، بمنزلة بيان الرسول لما بعث شيئًا فشيئًا، ومعلوم أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لا يبلّغ إلا ما أمكن عمله والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فامر بما يستطاع»[6].

وقد أشار الإمام النووي لهذا المسلك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ٨/ ٩٨، رقم ٦٤٦٣.
(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، ١/ ٢٤.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ١٨١.
(٤) المفردات ص ٣٣٦.
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٦٢.
(٦) مجموع الفتاوى ٣٠/ ٦٠.

التربوي، فقال: «وينبغي أن يؤدّب المتعلم على التدريج بالآداب السنية، والشيم المرضية»[1].

والتدرج في التعليم والتربية هو ما نراه ملموسًا وعمليًّا في تعليم النشء على مراحل، وصفوف، وحصص، وساعات مدرسية وسنوات، وهذا المنهج في التدرج أحد خصائص التشريع الإسلامي الذي أنزله الله تعالى الحكيم في شرعه، الخبير بنفوس عباده، وأشرف على تطبيقه عمليًّا المعلم الأول، والمربي الرحيم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه الله واجتباه، وكلّفه حمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، وتربية الأمة، والأخذ بها إلى جادة الصلاح والرشاد، فهو مبدأ تربوي مقبول عقليًّا وواقعيًّا.

والمتأمل في التربية القرآنية للصحابة رضي الله عنهم يجد أنها كانت تربية متدرّجة، فبدأت بتصحيح العقيدة، ونبذ الشرك والأوثان، وإفراد الله تعالى بالعبودية، ثم بعد بضع سنين من تصحيح العقيدة وتثبيتها في قلوب المؤمنين فرضت الصلاة، ثم الصوم، وباقي الأركان، وكذلك التدرج في تحريم المنكرات مثل الخمر كان على مراحل، بدأ بتذكير المؤمنين بما له من مضار ومفاسد، ثم بعد ذلك كان التحريم النهائي على وجه القطع.

بل إن مراعاة التدرج كانت سمة لازمة للتربية النبوية للصحابة في مكة والمدينة؛ لأن تربية النفس الأمارة بالسوء، وغسلها وتزكيتها وتطهيرها حتى يزول ما علق بها من شرك وجبروت وآفات ليس بالخطب الهين، كما أن ما تجذّرت عليه من مألوفاتها لا يمكن إزالتها في وقت وجيز، بل الأمر يحتاج إلى تدرج، ومراحل عديدة.

والذي يمكن التأكيد عليه أن التدرج لازم لتربية النفوس؛ إذ هو سنة من سنن الله في خلقه التي يجب مراعاتها والأخذ بها، فكما بدأت الدعوة النبوية بالتدرج عبر مراحل، فكذلك التربية والدعوة جزء منها، وهذا في غاية الأهمية؛ إذ لا يمكن أن نتصور تغييرًا بين عشية وضحاها، فلو كان الأمر كذلك لكان سيد الوجود أولى به، وقد أخذ بسنة التدرج في كل أنواع الجهاد، من تربية ودعوة وقتال في سبيل الله، وبناء المجتمع الإسلامي؛ لأن التربية عليها مدار كل شيء؛ إذ لا يمكن أن نتصور جهادًا بدون تربية، هذا فضلًا على أن التربية تقوم بمعالجة أشخاص لهم ماضٍ وبيئة اجتماعية مفتونة، واستعدادات، هذه المعالجة تريد من المربي أن يتدرج في التربية، وتريد منه حلمًا كثيرًا وتؤدة، وصبرًا طويلًا، وتنويعًا في الوسائل والأساليب، حتى تنضج الثمرة،

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٤١.

ويشتد عود الغرس.

وقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عامًا في مكة، وعشر سنوات في المدينة يربي أصحابه على الإيمان والمحبة والبذل والتؤدة والجهاد، مراعيًا سنة التدرج، وسنة الله في تغيير الأنفس، فتدرجت التربية من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان بكل أركانه، وذكر الله وعبادته، إلى اختبار الصدق والإخلاص بالابتلاء، إلى البذل والسخاء، إلى ربط العلم بالعمل، إلى التميز عن المشركين ومفارقتهم، إلى الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، إلى تجديد قصدٍ ومضاءٍ في الطريق، إلى اكتمال الرجولة والجهاد والموت في سبيل الله.

وجدير بالذكر أن إعداد هذا الجيل قد تم تأسيسه على مدى ثلاثة وعشرين عامًا؛ أي: إنه لم يتم ذلك في دفعة واحدة، ولا بجرة قلم، ولا بأوامر واجبة التنفيذ في الحال، ولكنه تم بتدرج؛ مراعاة لأحوال النفس البشرية، فإنها لا تتخلى عن مألوفاتها ومعتقداتها في يوم وليلة، ولكن الله الحكيم العليم الخبير الرحيم، سلك بهم طريق التدرج حتى صار الإيمان في قلب الواحد منهم كالجبل، وصار الدين عند أحدهم أغلى وأعزّ عليه وأحب إليه من ماله وولده ونفسه والناس أجمعين[1].

رابعًا: التدرج في الإصلاح والتغيير:

لقد تدرّج القرآن في عملية الإصلاح والتغيير، سواء كان هذا الإصلاح للمجتمع أو للفرد، أيًّا كان هذا الفرد، ابنًا أو زوجة أو عبدًا.

ولنأخذ مثالًا على هذا التدرج في عملية الإصلاح والتغيير، وهي من الحالات التي ينبغي التدرج فيها، وهي حالة نشوز وعصيان الزوجة.

قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

فهذه الآية تتحدث عن وسائل ناجعة لعلاج المرأة عند ظهور بدايات النشوز والتمرد عندها، وقبل أن يستفحل النشوز عندها، وتعلن تمرّدها، وهذا لا يصيب كل الزوجات إنما يصيب بعضهن، ومعظم الزوجات المسلمات ملتزمات بأحكام الشرع، تعرف الواحدة منهن واجبها فتؤدّيه، وتعرف حقّها على زوجها فتأخذه، فالآية لا تضع تشريعًا لكل الزوجات وإنما للنسبة القليلة الناشزة منهن!.

وترشد الآية زوج الناشز إلى اتخاذ ثلاث خطواتٍ متدرجة، فإن تم العلاج في الأولى

(١) انظر: القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ص٣٨٥.

فبها ونعمت، وإلا انتقل للثانية، والثالثة آخر الخيارات.

وهذا الترتيب بين هذه الأفعال المعطوفة غير متلقّى من صيغة لفظية؛ إذ العطف بالواو وهي مسلوبة الدلالة على الترتيب متمحضة الإشعار بالجمعية فقط، وإنما يتلقّى الترتيب المذكور من قرائن خارجة عن اللفظ، مفهومة من مقصود الكلام وسياقه.

قال القاسمي: «وجمهور العلماء على أن من الواجب على الزوج أن يسلك في معالجته لزوجته تلك الأنواع الثلاثة على الترتيب، بأن يبدأ بالوعظ، ثم بالهجر، ثم بالضرب؛ لأن الله تعالى قد أمر بذلك؛ ولأنه قد رتّب هذه العقوبات بتلك الطريقة الحكيمة التي تبدأ بالعقوبة الخفيفة، ثم تتدرج إلى العقوبة الشديدة، ثم إلى الأكثر شدة»[1].

فالأمور الثلاثة مرتبة؛ لأنها لدفع الضرر كدفع الصائل، فاعتبر فيها الأخف فالأخف، وقيل: إنه لا يهجرها إلا بعد عدم تأثير الوعظ، فإن أثّر الوعظ لم ينتقل إلى الهجر، وإن كفاه الهجر لم ينتقل إلى الضرب.

حتى الطريقة الثالثة وهي: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ فلابد أن يكون ضرب تأديب غير مبرّح ولا مشين.

قال الرازي: «وبالجملة، فالتخفيف مراعى في هذا الباب على أبلغ الوجوه، والذي يدل عليه أنه تعالى ابتدأ بالوعظ، ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع، ثم ترقى منه إلى الضرب؛ وذلك تنبيه يجري مجرى التصريح في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف، وجب الاكتفاء به، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق»[2].

وهذه طريقة من قال: حكم هذه الآية مشروع على الترتيب والتدرج، فإن ظاهر اللفظ وإن دل على الجمع إلا أن فحوى الآية يدل على الترتيب.

والتعبير بالخوف في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ ظاهره أنّ ترتب العقوبات المذكورة يكون بمجرد خوف النشوز وإن لم يقع النشوز بالفعل، إلا أن هذا الظاهر بعيد؛ لذلك أوّل العلماء هذه الآية عدة تأويلات، فمنهم من فسّر الخوف بالعلم، ومنهم من قدّر مضافًا: تخافون دوام نشوزهن، أو أقصى مراتب نشوزهن، ومنهم من قدّر معطوفًا محذوفًا: تخافون نشوزهن ونشزن[3].

ومنهم من أبقى الخوف على أصله، وجعل جزاءه الوعظ فقط، تخافون نشوزهن بظهور أماراته، كخشونة بعد لين، وتعبيس بعد طلاقة، وإدبار بعد إقبال، ومتى ظهرت

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٩٩.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ٢٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٢.

هذه الأمارات كان للزوج أن يعظها فقط، ويخوّفها عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، فإن لم تمتثل كان ذلك نشوزًا محققًا، وله فيه الوعظ والهجران والضرب.

والمراد بالوعظ: أن يقول لها مثلًا: اتقي الله! فإنّ لي عليك حقًّا، وارجعي عما أنت عليه، واعلمي أن طاعتي فرض عليك، ونحو ذلك.

واختلفوا في معنى الهجران في المضاجع، فقيل: إنه كناية عن ترك جماعهن، وقيل: المراد: تركهنّ منفردات في حجرهنّ ومحل مبيتهن، فيكون في ذلك ترك جماعهن، وترك مكالمتهن، ولا يزيد في هجر الكلام عن ثلاثة أيام، وفسّر العلماء الضرب المباح بأنه الضرب غير المبرّح[1].

وسنة التدرج في الإصلاح والتغيير تقتضي النظر إلى العواقب، والسير برفق وتأنٍّ، فليس كل منكر تجب إزالته أو تغييره على الفور، وإنما ذلك مشروط بألا يؤدي إلى منكر أكبر منه، فإن أدى إلى منكر أكبر منه وجب التوقف بشأنه، مع الكراهة القلبية له، ومقاطعته، ومع البحث عن أنجح الوسائل لإزالته، والأخذ بها، ومع العزم الصادق على الوقوف في أول الصف حين تتاح فرصة التغيير[2].

(١) تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٢٨٤.
(٢) انظر: آفات على الطريق، السيد محمد نوح ١/ ٣٥.

وفي السنة والسيرة شواهد على ذلك:

فهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث والأصنام تملأ جوف الكعبة، وتحيط بها وتعلوها من كل جانب، ثم لا يقبل على إزالتها بالفعل إلا يوم فتح مكة في العام الثامن من الهجرة، أي: أنها بقيت منذ بعث إلى يوم تحطيمها إحدى وعشرين سنة؛ ليقينه صلى الله عليه وسلم بأنه لو قام بتحطيمها من أول يوم قبل أن يحطمها من داخل النفوس لأقبلوا على تشييدها وزخرفتها بصورة أبشع وأشنع فيعظم الإثم، ويتفاقم الضرر؛ لذلك تركها، وأقبل يعد الرجال، ويزكي النفوس، ويطهّر القلوب، حتى إذا تم له ذلك أقبل بهم يفتح مكة، ويزيل الأصنام مرددًا: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وتوقف النبي صلى الله عليه وسلم في شأن تجديد الكعبة، وإعادتها إلى قواعد إبراهيم خوفًا من أن يؤدي ذلك إلى منكر أكبر، وهو الفرقة والشقاق؛ بدليل قوله في رواية أخرى: (ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم)[3].

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، ٢/ ١٤٦، رقم ١٥٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب جدر الكعبة وبابها، ٢/ ٩٧٣، رقم ١٣٣٣.

بل إن المسلم حين يسكت عن منكر خوفًا من أن يؤدي إلى منكر أكبر مع الرفض القلبي والمقاطعة، ومع البحث عن أفضل السبل للتغيير، ومع العزم الصادق على أنه حين تتاح الفرصة لن يكون هناك توانٍ ولا تباطؤ لا يكون آثمًا بذلك، وصدق الله الذي يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦].

والمقصود أن سنن الله في التغيير وإصلاح المجتمعات جرت على اعتبار سنة التدرج، وسنة الأجل المسمى؛ لأن ما تراكم من الخطأ والانحراف في سنين لا يمكن تغييره بين عشية وضحاها؛ ولذلك وجب التأني والتدرج في علاج الأمور.

وقد قال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقد جعل الله لكل حال وواقع أجلًا مسمى يمضي فيه؛ ولذلك قال ابن عطاء الله السكندري: «ما ترك من الجهل شيئًا من أراد أن يحدث في الوقت ما لم يظهره الله فيه»[(١)].

ومن أشهر أمثلة التدرج في الإصلاح ما وقع من الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز؛ فإنه جاء إلى الحكم بعد مظالم اقترفها بعض الذين سبقوه، فتدرّج في الإصلاح، ولم يتعجل في التغيير، فدخل عليه ولده عبد الملك، فقال له: يا أبت: ما منعك أن تمضي لما تريده من العدل؟ فو الله! ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك، قال: يا بنيّ! إني إنّما أروّض النّاس رياضة الصّعب، وإنّي أريد أن أحيي الأمر من العدل، فأؤخّر ذلك حتّى أخرج معه طمعًا من طمع الدّنيا، فينفروا من هذه، ويسكنوا لهذه[(٢)].

ومما يبيّن أهمية التدرج في التغيير والإصلاح ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «فأمّا إذا كان المأمور والمنهيّ لا يتقيّد بالممكن: إمّا لجهله، وإمّا لظلمه، ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فربّما كان الأصلح الكفّ والإمساك عن أمره ونهيه...، فالعالم في البيان والبلاغ كذلك؛ قد يؤخّر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التّمكّن، فإذا حصل من يقوم بالدّين من العلماء، أو الأمراء أو مجموعهما؛ كان بيانه لما جاء به الرّسول شيئًا فشيئًا بمنزلة بيان الرّسول لما

(١) حكم ابن عطاء الله السكندري، الحكمة ١٧ ص٧.

(٢) انظر: الزهد، أحمد بن حنبل، ص ٢٤٣، رقم ١٧٢٩.

بعث به شيئًا فشيئًا، ومعلومٌ أنّ الرّسول لا يبلّغ إلّا ما أمكن علمه والعمل به، ولـم تأت الشّريعة جملةً...، فكذلك الـمجدّد لدينه، والـمحيي لسنّته لا يبلّغ إلّا ما أمكن علمه والعمل به...، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرّمات، وترك الأمر بالواجبات؛ لأنّ الوجوب والتّحريم مشروطٌ بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشّرط، فتدبّر هذا الأصل فإنّه نافعٌ»[1].

إنّ هذه المنهجيّة، منهجيّة التدرّج والمرحليّة في التغيير تضع أسسًا علميّة وشرعيّة بين أيدي الدّعاة والعاملين على تغيير المجتمع، من أوضاعه غير الإسلامية إلى أوضاع تقوم على أساس الإسلام، في الفكر والثّقافة والتّشريع والقيم والأعراف والعادات.

فإنّ مجتمعات المسلمين الحاضرة تحمل في أبعادها المختلفة أوضاعًا غير إسلامية؛ ولكي يتمّ استئصال تلك الظواهر وتغييرها واستبدالها بأوضاع إسلاميّة، فهم في حاجة إلى أن يتبعوا منهج القرآن في سنّة التدرّج، رغم إنّ المسلمين جميعًا يؤمنون بالإسلام غير أنّ الغالبية منهم يعوزها فهم الإسلام ووعي مناهجه.

والمشكلة الأخرى هي عدم العمل بالإسلام وتطبيقه شريعةً ونظامًا ومنهج حياة للفرد والمجتمع والدولة؛ لذا فإنّ عمل الدعاة إلى الإسلام يتركّز في التوعية والتثقيف وتعميق الوعي الإسلامي، وتبصير المسلمين بدينهم، متّخذين من الرسول الكريم محمّد صلى الله عليه وسلم أسوة وقدوة، ومن القرآن دليلًا وهاديًا.

إنّ التّغيير كما في ثقافة القرآن ومنهجه يبدأ من أعماق الذات الإنسانية، فما لم تتغيّر الأفكار والثقافة والعواطف والأخلاق لا يتغيّر الوضع الاجتماعي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

جدير ذكره أنّ الأوضاع الاجتماعية الخارجية لها آثارها وبصماتها في سلوك الأفراد وثقافتهم؛ لذا فإنّ إصلاح البيئة الاجتماعية، وحلّ مشاكل الإنسان الماديّة والمعاشيّة هي إحدى أهم الوسائل في إصلاح المجتمع إذا قام الإصلاح المادي على أساس قويم من الإصلاح الفكري والسّلوكي.

(١) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٦٠.

ضوابط التدرج

للتدرج ضوابط، نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: البدء بالأهم والأيسر:

لما كانت الشريعة منها ما هو أركان، ومنها ما هو واجبات، ومنها مستحبات، كان لابد عند الأخذ بمبدأ التدرج الانتباه إلى البدء بالأهم والأيسر.

ولهذا نجد أن الشارع قد بدأ في الدعوة بالأهم، ثم المهم، فافترض عليهم أول شيء بعد التوحيد الصلاة؛ وذلك لعظيم أهميتها، فكان فرض الصلاة متقدمًا قبل بقية أركان الشريعة، يدل على ذلك حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: (فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ففرضت أربعًا، وتركت صلاة السفر على الأولى)[1].

ففي قولها: «ثم هاجر» دليل على تقدّم فرض الصلاة، وأنها فرضت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم ؛ مما يدل على مزيتها على سائر الفرائض والعبادات، يؤكد هذه الأهمية أنه صلى الله عليه وسلم كان يبايع عليها بعد التوحيد، يدل على ذلك ما رواه البخاري عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم)[2].

يقول ابن حجر مبيّنًا البدء بالصلاة بعد التوحيد: «وكان النبي صلى الله عليه وسلم أول ما يشترط بعد التوحيد إقامة الصلاة؛ لأنها رأس العبادات البدنية، ثم أداء الزكاة؛ لأنها رأس العبادات المالية، ثم يعلم كل قوم ما حاجتهم إليه أمس»[3].

وكما كان صلى الله عليه وسلم يشترط بعد التوحيد الصلاة قبل غيرها، فقد كان صلى الله عليه وسلم يقدّمها على غيرها في فعله، يدل على ذلك حديث عتبان رضي الله عنه قال: (أصابني في بصري بعض الشيء، فبعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي فأتخذه مصلى، قال: فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ومن شاء الله من أصحابه...)[4].

وقد استنبط الإمام النووي فائدة عظيمة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب التاريخ، من أين أرخوا التاريخ؟، ٥/ ٦٨، رقم ٣٩٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، ١/ ٤٧٨، رقم ٦٨٥، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب البيعة على إقام الصلاة، ١٣/ ٥٠١، رقم ١٩٦.

(٣) فتح الباري ٢/ ١٨٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، ١/ ٣٣، رقم ٦١.

من هذا الحديث الكريم، حيث قال: «وفيه البداءة بالأهم فالأهم، فإنه صلى الله عليه وسلم في حديث عتبان هذا بدأ أول قدومه بالصلاة، ثم أكل»[(١)].

فدل هذا العمل النبوي الكريم على أهمية التدرج، ومراعاة البدء بالأهم فالأهم في الدعوة إلى الشريعة، وقد نبّه الإمام القرطبي إلى هذا التدرج الحكيم، فقال: «قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعث النبي صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة، فلما صدقوه زادهم الزكاة، فلما صدقوه زادهم الصيام، فلما صدقوه زادهم الحج، ثم أكمل لهم دينهم»[(٢)].

ويدل على ذلك أيضًا حديث ابن عباس رضي الله عنهما حيث يقول: (لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى نحو أهل اليمن، قال له: (إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم، تؤخذ من غنيهم فتردّ على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتوقّ كرائم أموال الناس)[(٣)]، فقرر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث التدرج في الدعوة إلى هذه الأركان، والبدء بالأهم فالمهم، وإلى هذا يشير النووي بقوله: «ولأنه صلى الله عليه وسلم رتّب ذلك في الدعاء إلى الإسلام وبدأ بالأهم؛ ألا تراه بدأ بالصلاة قبل الزكاة»[(٤)]، فدل على أهمية مراعاة التدرج في الدعوة والتعليم، والبدء بالأهم فالأهم[(٥)].

وكما تدرج الشارع في الدعوة إلى أركان الإسلام مراعيًا بالبدء بالأهم ثم المهم؛ فقد راعى هذا الجانب في الدعوة إلى أخلاق الإسلام؛ حيث ابتدأ بالدعوة إلى أصول الأخلاق من الصدق والعدل وأداء الأمانة والعفة[(٦)] مراعيًا في ذلك جانب التدرج في الوجوب والعلو[(٧)] حيث حاجة الفرد إليها أمس، وأداؤها عليه أوجب، وقد جاءت الأدلة تؤكد اهتمامه صلى الله عليه وسلم

(١) شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٤٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٦٤.
وهذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره ٢٦/ ٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم ٦٩٣٧.
(٤) شرح صحيح مسلم ١/ ١٩٨.
(٥) انظر: التدرج في دعوة النبي، إبراهيم المطلق ص ٥١.
(٦) انظر: الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز ص٨٨، الفضائل الخلقية في الإسلام، أحمد إبراهيم ص١١٩.
(٧) انظر: الفضائل الخلقية في الإسلام، أحمد إبراهيم ص١٣٨.

في هذا الجانب في عهد مبكّر من دعوته، من ذلك ما رواه البخاري عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان أخبره: «أن هرقل أرسل إليه، فقال: فما يأمركم؟ يعني: النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة»[(١)]، فدل هذا على أن هذه حاله صلى الله عليه وسلم مع الناس في ابتداء دعوته»[(٢)].

يؤيد هذا حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مع النجاشي، وفيه قوله: (فأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء...)[(٣)]، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم وطبّق المسلمون الإسلام، وامتد ميدان الدعوة، واتسعت البيئة أصّل الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى ركائز أخرى في أخلاق المسلم من التآخي والتراحم والتعاون وترك التباغض والتحاسد، حيث حاجة الأمة المسلمة إلى هذه الأخلاق أشد، ممتثلًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وكما كان صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على التخلّق بكماليات الأخلاق، فقد كان يحذّرهم من الأخلاق السيئة التي تفضي بهم إلى التشبه بالمنافقين، والتخلّق بأخلاقهم[(٤)]، ويستفاد من هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان يركّز في هذا العهد على الدعوة إلى كماليات الأخلاق التي فيها خير وصلاح للأمة الإسلامية[(٥)].

وكذلك من التدرج البدء بالأيسر قبل الأثقل والأصعب، فالحانث مثلًا في اليمين مخيّر في الإطعام أو الكسوة أو العتق، وبدأ الله تعالى عباده بالأيسر فالأيسر.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

قال الفخر: «وبدأ سبحانه بالإطعام لأنه أعمّ وجودًا، والمقصود منه التنبيه على أنه سبحانه يراعي التخفيف والتسهيل في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، ٨/ ٤، رقم ٥٦٣٥.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ٦٤.
(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٥٠، رقم ١٧٣٩.
(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ٤٧.
(٥) انظر: التدرج في دعوة النبي، إبراهيم المطلق ص ٥١.

التكاليف»[1].

وكذلك في حالة الدفاع عن النفس، فقد قال أهل العلم: «الدافع عن نفسه يجب عليه أن يدفع بالأيسر فالأيسر، وليس له أن يقصد القتل، بل يجب عليه أن يقصد الدفع، ثم إن لم يندفع إلا بالقتل جاز له ذلك».

وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها: (ما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه)[2].

قال النووي: «فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق، ما لم يكن حرامًا، أو مكروهًا، قال القاضي: ويحتمل أن يكون تخييره صلى الله عليه وسلم هنا من الله تعالى فيخيّره فيما فيه عقوبتان، أو فيما بينه وبين الكفار من القتال، وأخذ الجزية، أو في حق أمته في المجاهدة في العبادة أو الاقتصار، وكان يختار الأيسر في كل هذا»[3].

ثانيًا: مراعاة حال المخاطبين:

من ضوابط التدرج ودواعيه مراعاة حال المخاطب، ومستوى فهمه، واستيعابه للأمور، فإن من الناس من يكون حي القلب، تام الفطرة، ومنهم من يكون عكس ذلك.

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (ما أنت بمحدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[4].

وفي صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه قال: (حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله؟)[5]، وقوله: «بما يعرفون» أي: بما يفهمون، قال الحافظ: «وزاد آدم بن أبي إياس في كتاب العلم له، عن عبد الله بن داود عن معروف في آخره: ودعوا ما ينكرون، أي: ما يشتبه عليهم فهمه، قال: وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة»[6].

وممن رأى التحديث ببعض دون بعض: أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة في الجرابين، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة.

قال الشيخ ابن عثيمين: «ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٦٤-٦٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيح، كتاب الفضائل، باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام، واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، ٤/ ١٨١٣، رقم ٢٣٢٧.
(٣) شرح صحيح مسلم ١٥/ ٨٣.
(٤) أخرجه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ١/ ١١.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، ١/ ٣٧، رقم ١٢٧.
(٦) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٢٢٥.

يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويدًا رويدًا حتى تستقر عقولهم، وليس معنى: «بما يعرفون» أي: بما يعرفونه من قبل؛ لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل... فإن قيل: هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس وإن كانوا محتاجين لذلك؟

أجيب: لا ندعه، ولكن نحدّثهم بطريقة تبلغه عقولهم؛ وذلك بأن ننقلهم رويدًا رويدًا حتى يتقبّلوا هذا الحديث، ويطمئنوا إليه، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم، ويقال: هذا شيء مستنكر لا نتكلم به.

ومثل ذلك: العمل بالسنّة التي لا يعتادها الناس ويستنكرونها، فإننا نعمل بها، ولكن بعد أن نخبرهم بها، حتى تقبلها نفوسهم، ويطمئنوا إليها، ويستفاد من هذا الأثر: أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل، وأنه يجب على الداعية أن ينظر في عقول المدعوين، وينزّل كلّ إنسانٍ منزلته»[1].

فالحاصل أن طالب العلم والواعظ والمعلم يجب عليه أن يراعي أحوال الحاضرين وأحوال الناس، ويعطيهم ما يحتاجون إليه من المسائل، ولا يلقي عليهم المسائل الغريبة التي لم يتوصلوا إليها، فلو أتيت عند طلبة علم مبتدئين، فلا تلق عليهم غرائب المسائل التي لا يعرفها إلا الراسخون في العلم، بل تعلّمهم مبادئ ميسّرة سهلة يتدرّجون بها شيئًا فشيئًا.

ولهذا لما سئل صلى الله عليه وسلم عن الهلال: لم يبدو دقيقًا، ثم يزيد حتى يمتلئ نورًا -أي: يصير بدرًا- ثم يعود دقيقًا كما كان؟! نزل القرآن منبهًا إلى فائدة، دون الإجابة عن الحقيقة العلمية مع أنها محطّ السؤال، قال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

والله سبحانه وتعالى وهو خالق الكون علويّه وسفليّه ومدبّره، والعليم بكل أسراره، كان يعلم الحقيقة العلمية ولا ريب، وكان من الممكن اليسير أن يعلّمها لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ ليجيب بها، أو لعله أعلمه بها، ولكن جاء القرآن على هذا الأسلوب الحكيم، بالتنبيه إلى الفائدة والغاية من هذا؛ رحمة بالناس، ورفقًا بعقولهم، فليست كل العقول كانت متهيئة في هذا الزمن البعيد لتقبّل الحقيقة العلمية، وقد يكون لبعضهم فتنة، فمن ثمّ ترك ذلك إلى العقول؛ لتصل إلى الحقيقة بعلمها وجدّها وبحثها، والعالم في تقدّمه مدين لهذا المنهج القرآني، فهو الذي فتح للبشرية آفاق العلم، والمعرفة، وقد كان صلى الله عليه وسلم يخاطب الناس على قدر عقولهم، واستعداداتهم،

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين ١٠/ ٧٧٤- ٧٧٥ بتصرف.

وله في ذلك السياسة الحكيمة، والتوجيهات الرشيدة[1].

ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في هذه الإجابة التي جاء بها القرآن الكريم للسائلين عن أوجه القمر بصرفهم عن السؤال ولفت أنظارهم إلى فوائد ذلك ومزاياه... (ومنها): أن القرآن الكريم لو عرض لبيان هذه الشئون كلها، واستوعب حقائقها وتفصيلاتها لصعب على الناس حفظه، ولمضت الأزمان الطويلة دون استيعابه نزولًا أو معرفة، ولنسي الناس هديه وإرشاده، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا، ولقد يسّره الله تعالى وسهّله؛ ليكون ذلك أدعى إلى تذكّره، وأقرب للوصول إلى مقاصده، والعمل بما فيه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر: ١٧].

وهذه من بعض الحكم التي من أجلها لم يتناول القرآن الكريم حقائق العلوم الكونية بالتفصيل والتوضيح، وترك ذلك للعقل البشري يرقى إليه ببحثه المتواصل، ويتذوق لذة معرفته بكفاحه وجهاده، وهناك حكم أخرى لا نطيل القول فيها، وحسبك من القلادة ما أحاط بالجيد، والكلام في أسرار كتاب الله ذو سعة.

ومن ذلك: أن القرآن الكريم جاء بهذه الظواهر واستعرضها وعرضها على الناس في كثير من المواضع لغرض واحد؛ هو العبرة والعظة، ولفت العقل والقلب إلى ما فيها من جمال وروعة ورقة، وإعجاز وإبداع لا يكون إلا عن صانع حكيم[2].

والمقصود أن التدرج ومراعاة أحوال المخاطبين ونفسياتهم وأفهامهم، وبخاصة أن الناس مختلفون، فيراعى في أهل الريف محدودية ثقافتهم، وضعف مستواهم التعليمي، مما يجعل الداعية يستخدم من العبارات ما يتناسب مع قدراتهم الذهنية، وأيضًا فالمتعلمون أنفسهم تتفاوت درجاتهم، فالمتعلم في رحاب جامعة أكاديمية يختلف عن المتعلم في رحاب وسيلة من وسائل الإعلام الأخرى، فالأول لا يخشى عليه عند عرض المادة العلمية من اختلاف المختلفين؛ إذ إنه يعلم عند التعارض والاختلاف كيف يكون الجمع أو الترجيح؟

ولهذا لا ينبغي أن يطرح على العوام بعض أحاديث الصفات -كحديث الصورة- التي لا تصل إليها أفهامهم، أو بعض شبهات المبتدعة والكافرين، أو بعض النصوص التي قد تبدو للجاهل وبادي الرأي متعارضة، أو بعض مسائل الاختلاف، أو الحديث عن

(١) انظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبة ص ٤٩.

(٢) انظر: نظرات في كتاب الله، حسن البنا ص ٣٦٠.

مسائل القضاء والقدر، وأطفال المشركين، ووالدي الرسول، ونحو ذلك من المسائل التي قد تكون فتنة للجاهل والعامي؛ ولأجل هذا جاء النهي عن كثير من السلف عن الأغلوطات والمسائل المشكلة، وقد ترجم لهذا المعنى البخاري في صحيحه، فقال: «باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا»[(١)] [(٢)].

فليعلم الداعية إلى الله أن مفاجأة الناس بالسنّة التي يجهلونها، والإنكار عليهم بما يفعلونه؛ قد يسبّب بغضًا للسنّة وأهلها من قبلهم، وهو ما يصنع الحواجز بين الدعاة وبعض الناس في تعليمهم وتبيين السنّة لهم، ولا يعني هذا ترك نصحهم، وإنما المراد التدرج في دعوتهم.

ثالثًا: القدرة:

التدرج في تطبيق الشريعة المحكمة هو التدرج المبني أو المرتبط بالقدرة والعجز، فما قدرنا عليه وجب فعله، وما عجزنا عنه فلا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها، ومن المعلوم وجوب امتثال المكلف لأمر الله عز وجل قدر استطاعته، وأن من قدر على فعل المأمور، وترك المحظور لم يسعه المخالفة.

فالتدرج يكون حسب قدرة المكلّف، والله تعالى قد قيّد التكليف بالقدرة والاستطاعة، والوسع والطاقة، فلا تكلّف نفس إلا وسعها، وقد قرّر الله سبحانه وتعالى ذلك المبدأ في كثير من الآيات، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والحجة تقوم على الإنسان، ويجب عليه العمل إذا كان مستطيعًا له، عالمًا به، يقول الإمام ابن تيمية: «والحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به»[(٣)].

فإذا عجز المكلّف عن فعل الأثقل، تدرّج به إلى ما هو دونه، وأسهل منه، مع الأخذ في الاعتبار أن العجز نوعان:

- حسي.
- ومعنوي.

فمن صور العجز الحسي: المرض والكبر وغيرهما.

ومن صور العجز المعنوي: ترتب مفاسد أكبر من المصلحة التي تم تحصيلها بإقامة الشرع، وقد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

ولا يجوز تغيير المنكر بمنكر أعظم منه، فإذا ترتب على فعل المعروف أو النهي عن المنكر ما هو أشد منه فسادًا في عرف الشرع

(١) صحيح البخاري، ١/ ٣٧.
(٢) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها، سعيد الغامدي ٢/ ٣٣.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٩.

كان المكلف في حكم العاجز في هذه الحالة.

ومن هذا الباب امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن هدم الكعبة وبنائها بناءً صحيحًا خشية الفتنة، وأن يرتد الناس عن الإسلام، فهذا من أدلة العجز المعنوي، رغم كونه كان فاتحًا لمكة، ومع ذلك امتنع عن تطبيق بعض المعروف لما ذكرنا.

ومن هذا امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل بعض المنافقين خشية من الضجيج الإعلامي الذي قد يشوّه صورة الإسلام عند من لا يعرف حقيقته، فيصد عن الدخول فيه؛ إذ سينتشر الخبر في الشام والعراق وغيرها أن محمدًا يقتل أصحابه[1].

وليس من التدرج في شيء: الامتناع عن تطبيق ما قدرت عليه، أو ما ترتب عليه مفسدة أقل من المصلحة المترتبة على الفعل، فقد دل الشرع على إهدار بعض المفاسد، وعدم اعتبارها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨].

ونقل القرطبي الإجماع على أن اللوم والتوبيخ من الفاسق لا يعدّ من الإكراه الذي يسقط وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[2].

وليس من التدرج في شيء: الوقوع في الحرام، أو التوسع فيه وتكثيره أو إقراره! قال ابن رجب: «والتحقيق في هذا أن الله لا يكلّف العباد من الأعمال ما لا طاقة لهم به، وقد أسقط عنهم كثيرًا من الأعمال بمجرد المشقة رخصة عليهم، ورحمة لهم، وأما المناهي فلم يعذر أحد بارتكابها بقوة الداعي والشهوات، بل كلّفهم تركها على كل حال، وأن ما أباح أن يتناول من المطاعم المحرمة عند الضرورة ما تبقى معه الحياة، لا لأجل التلذذ والشهوة، ومن هنا يعلم صحة ما قاله الإمام أحمد: «إن النهي أشد من الأمر»، وقد روي عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- من حديث ثوبان وغيره أنه قال: (استقيموا ولن تحصوا)[3] يعني: لن تقدروا على الاستقامة كلها»[4].

والحاصل: أنه ينبغي الالتزام بهذه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ٦/ ١٥٤، رقم ٤٩٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، ٤/ ١٩٩٨، رقم ٢٥٨٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٤٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٦٠، رقم ٢٢٣٧٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء، ١/ ١٠١، رقم ٢٧٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٢٢٥، رقم ٩٥٢.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/ ٢٥٥.

الضوابط عند الأخذ بالتدرج، وإلا تحوّل التدرج في تطبيق الشريعة إلى شعار يؤدي لتفريغ الشريعة من مضمونها.

رابعًا: ما لا يجوز التدرج فيه:

التدرج بصفته منهجًا ربانيًّا تشريعيًّا لا يمكن أن يؤخذ على إطلاقه، بدون ضوابط ولا قيود، بل لابد من معرفة ضوابطه، وما يجوز فيه التدرج وما لا يجوز، ومما لا يدخل فيه التدرج ما يلي:

١. أصول العقيدة.

إن عقيدة المسلم تقوم على الإيمان بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وهي تتعلق بالفكر والقلب، وهي أمور نظرية، فلا تخضع للتدرج؛ لأنها جازمة باتة، ولا تقبل المساومة، ولا التجزؤ، ولا المهادنة في إعلانها رسميًّا، والنطق بها أمام العالم في الداخل والخارج، وهي في الغالب أمور فردية وشخصية، ولا علاقة لها بالتنظيم والتقنين والتشريع.

وهذا منهج الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أول البعثة، وعند تبليغ الدعوة، وهو ما سار عليه الصحابة والتابعون ومن بعدهم[١].

٢. التدرج في الشريع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

إن الأحكام الشرعية الأساسية تثبت بالنصوص القاطعة، وتواتر النقل فيها تواترًا حقيقيًّا أو معنويًّا، واستقر العمل عليها بالقبول، وأصبحت مسلمات في الدين، فلا تحتاج إلى دليل كأركان الإسلام، وأصول المباحثات والعقود، وكبائر المنهيات والمحرمات، فهذه الأحكام لا تقبل التدرج أيضًا كأمور العقيدة؛ لأنها ثوابت الشرع التي يقوم عليها، وتحدد الإطار العام للشريعة، ومقاصد التشريع، وإن المساس بها يخل بالموازين والأسس التي يقوم عليها المجتمع[٢].

فالأمور المحرمة قطعًا والثابتة في النصوص كالزنا والربا والخمر لا يمكن التدرج بها بإقرارها وإباحتها مبدئيًّا، ثم التدرج في إبطالها؛ لأنها تدخل ضمن المعلوم من الدين بالضرورة؛ لذلك يجب الإعلان عنها، والتصريح بتحريمها؛ ولكن يمكن التدرج في تعليم الناس، فيسكت عن بعضها إلى حين تمكن الإيمان من القلب وتعلم الأهم فالمهم.

(١) انظر: التدرج في تطبيق الشريعة، الشريف ص٦٦، والتدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية، الزحيلي ص ٩٨.

(٢) التدرج في تطبيق الشريعة، الشريف ص ٦٨.

مقاصد التدرج

شرع الله سبحانه وتعالى التدرج لحكم عظيمة، ومقاصد جليلة، منها:

أولًا: تهيئة النفوس لتقبل التكاليف:

سلك الشرع أسلوب التدرج؛ لترويض النفوس على تقبّل أحكام الله، فلم تفرض التكاليف كلها مرة واحدة، ولم تفرض بشكلها النهائي دفعة واحدة، بل تدرج بهم شيئًا فشيئًا.

فمثلًا: نجد أن الصلاة شرعت في أول الأمر صلاتين فقط، صلاة في الغداة، وصلاة في العشي، واستمر المسلمون على ذلك في مكة حتى نهاية العام العاشر للبعثة، ووقع الإسراء والمعراج وفرض الله خمس صلوات على المسلمين، وكانت صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين ركعتين، فأقرّت في السفر، وزيدت في الحضر إلى أربع، كما سبق بيان ذلك.

قال ابن القيم: «كان فرض الصلاة أولًا ركعتين ركعتين؛ لما كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يكونوا معتادين لها، ولا ألفتها طباعهم وعقولهم فرضت عليهم بوصف التخفيف، فلما ذالت بها جوارحهم، وطوّعت بها أنفسهم، واطمأنت إليها قلوبهم، وباشرت نعيمها لذتها وطيبها، وذاقت حلاوة عبودية الله فيها، ولذة مناجاته، زيدت ضعفها، وأقرّت في السفر على الفرض الأول؛ لحاجة المسافر إلى التخفيف، ولمشقة السفر عليه، فتأمل كيف جاء كل حكم في وقته مطابقًا للمصلحة والحكمة! شاهدًا لله بأنه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، الذي بهرت حكمته العقول والألباب، وبدا على صفحاتها بأن ما خالفها هو الباطل، وأنها هي عين المصلحة والصواب»[1].

وكانت الزكاة في أول الأمر اختيارية، وكان المسلم يخرج ما شاء صدقة لله تعالى؛ لقوله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم فرضت الزكاة في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وكذلك الصيام لم يفرض جملة واحدة، وإنما شرع على التدرج، كان مفروضًا في يوم عاشوراء، وفي بعض الأيام المعدودات، حتى فرض الصيام شهرًا كاملًا في رمضان.

قال ابن القيم في بيان الحكمة من ذلك: «لما كان -أي: الصوم- غير مألوف لهم ولا معتاد، والطباع تأباه إذ هو هجر مألوفها ومحبوبها ولم تذق بعد حلاوته وعواقبه المحمودة، وما في طيّه من المصالح والمنافع فخيّرت بينه وبين الإطعام، وندبت

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٩.

إليه، فلما عرفت علته -يعني: حكمته- وألفته، وعرفت ما ضمنه من المصالح والفوائد حتّم عليها عينًا، ولم يقبل منها سواه، فكان التخيير في وقته مصلحة، وتعيين الصوم في وقته مصلحة، فاقتضت الحكمة البالغة شرع كل حكم في وقته؛ لأن المصلحة فيه في ذلك الوقت»[1].

وقال ابن حجر الهيتمي: «وحكمته -أي: التدرج في الصوم- الرفق بالأمة؛ لأنهم لما لم يألفوا الصوم كان تعيينه عليهم ابتداء فيه مشقة، فخيّروا بينه وبين الفدية أولًا، ثم لما قوي يقينهم، واطمأنت نفوسهم حتّم عليهم الصوم وحده، ونظير ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أول ما بعث لم يكلّف الناس إلا بالتوحيد فقط، ثم استمر على ذلك مدة مديدة، ثم فرض عليهم من الصلاة ما ذكر في سورة المزمل، ثم نسخ ذلك كله بالصلوات الخمس، وكان كلما ازداد ظهورًا وتمكنًا ازدادت الفرائض وتتابعت، كل ذلك لما قررته من الرفق والتدرج في المراتب حتى تؤخذ بحقها»[2].

ثانيًا: التمهل في استئصال العادات القبيحة المتأصلة في النفوس:

كان التدرّج في تحريم المحرّمات والعادات القبيحة لاسيما العادات المتوارثة على مرّ قرون طويلة مراعاةً لأحوال الناس، ورحمةً بهم، وتيسيرًا عليهم؛ إذ جاء الإسلام والعرب قد تأصّلت في نفوسهم غرائز ألفوها، ولا يسهل اقتلاعها مرة وحدة؛ فتدرج بهم التشريع في تحريمها على مراحل.

وقد جاء الإسلام إلى مكة وكان أهلها قد استحكم فيهم عادات وأعراف، ولم يكن من السهل نهيهم عنها جملة؛ لذلك تدرج بهم حتى تخلّصوا منها.

فمثلًا الخمور كانت منتشرة في المجتمع قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى صار شرب الخمر في البيئة العربية جزءًا من السلوك الاجتماعي الذي يفاخر به، ويتغنى به الشعراء.

قال النعمان بن نضلة العدوي[3]:

فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني
ولا تسقني بالأصغر المتثلّم

فلم يكن من الحكمة تحريم الخمر مرة واحدة، إنما الأنفع والأصلح هو التدرج في

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٩.
(٢) إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام ص ٧٨-٧٩.
(٣) البيت للنعمان بن نضلة العدوي، انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٧٢، نهاية الأرب، النويري ٤/ ١٠٢.

التحريم، ومن ثمّ حرّمت الخمر على أربع مراحل كما سبق ذكره.

قال القفال: «والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أنّ الله تعالى علم أنّ القوم كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بها كثيرًا، فعلم الله أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق عليهم، فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدرج وهذا الرفق»[(١)].

والمقصود أن بعض العادات السيئة التي إذا ألفها الإنسان، واعتاد عليها، واستحكمت في نفسه، لا يمكن تغيّرها إلا بنوع مخصوص من أنواع العلاج، وهو جعل الإنسان يتخلى عنها رويدًا رويدًا.

فكان التدرج هو العلاج الناجع لهذه الأمراض، يقول الشيخ عبد القادر بن ملا العاني: «وذلك أنه صلى الله عليه وسلم بعث والعرب على عادات مستحكمة فيهم، منها ما هو صالح للبقاء، لا ضرر فيه على تكوينها، ومنها ما هو ضار، يجب إبعادهم عنها، فاقتضت حكمته أن يتدرج في نهيهم عنها شيئًا فشيئًا»[(٢)].

ثالثًا: تسهيل الانقياد للحق:

لقد جاء القرآن في بيئة لا تعرف للحق نصرة، وتتخبط في ظلمات الضلال والفساد، ولم يكن إخراجهم من هذه الحياة وهذا الواقع إلى نور الإسلام بالأمر السهل، فراعى التشريع الإسلامي ذلك، فنزلت التشريعات متدرجة حتى يسهل انقيادهم للحق، ويمتثلون الإسلام دينًا ودولة.

يقول الأستاذ مصطفى شلبي: «والحكمة في ذلك التدرج أن هذا النوع من التشريع يكون أقرب إلى القبول والامتثال، خصوصًا مع أولئك العرب الذين كانوا في إباحية مطلقة، تجعلهم ينفرون من التكليف بالجملة»[(٣)].

فإذا كان نزول التشريعات مدرّجة يسهل الانقياد والامتثال، فإن نزولها جملة ينفّر المجتمع، ولا ينقاد إلى هذه التشريعات الجديدة، يقول الإمام القرطبي: «﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

مبالغة وتأكيدًا بالمصدر للمعنى المتقدم، أي: أنزلناه نجمًا بعد نجم، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا»[(٤)].

لأنها تكلّفهم ما لا يستطيعون تحمله، وفي امتثالهم لها عنت ومشقة؛ لأن الإنسان إذا كان في حياة منحلّة عن التدين واعتادت نفسه عليها لا يستطيع أن يكلّف نفسه الخروج من هذه الحياة إلى حياة أخرى مختلفة تمامًا، ويمتثل تشاريع أخرى جديدة بين يوم وليلة، وعدم استطاعته لها سببان:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٩٦.
(٢) بيان المعاني، العاني ١/ ٢٠.
(٣) المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، مصطفى شلبي ص ٧٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٤٠.

الأول: أنه لا يستطيع أن يخرج بغتة عن حياة ألفها وانقاد إليها ردحًا من الزمان؛ لأن فطرته تأبى عليه ذلك.

والثاني: أن امتثال تكاليف جديدة جملة واحدة تتكاثر عليه، ولا يستطيع أن يؤديها على وجهها المراد، بخلاف إذا ما كلّف بحكم واحد أو اثنين، ثم لما اعتاد عليهما وأتقنهما كلّف بحكم آخر، يقول الإمام الشاطبي: «فلو نزلت دفعة واحدة لتكاثرت التكاليف على المكلف، فلم يكن لينقاد إليها انقياده إلى الحكم الواحد أو الاثنين»[1].

ومن أول من أشار إلى الحكمة من التدرج في التشريع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: (... إنما نزل أوّل ما نزل منه -أي: القرآن- سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا...)[2].

وقد بيّن ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث الحكمة من هذا التدرّج، فقال: «أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب النزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام؛ ولهذا قالت: «ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندعها»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف»[3].

فسهل عليهم قبول الأحكام والالتزام بالتكاليف بعد أن تجهّزوا وتهيّأت نفوسهم لقبولها؛ لأن الإيمان قد خالط قلوبهم، وصاروا طائعين لله، مستجيبين لأوامره.

والخلاصة: أن من دواعي التدرج: أنه جاء تخفيفًا على الناس، وتماشيًا مع فطرة الإنسان التي يتطلب التعامل معها التزام التدرج لتغييرها، وحسن الارتقاء بها، كما أن التدرج يتلاءم مع منهج التغيير بشكل عام؛ إذ لا يمكن تغيير أوضاع المجتمعات لتتفق مع الشريعة إلا بأسلوب التدرج.

موضوعات ذات صلة:

التربية، الدعوة، العلم

(١) الموافقات ٢/ ١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ٦/ ١٨٥، رقم ٤٩٩٣.

(٣) فتح الباري ٩/ ٤٠.

التربية

عناصر الموضوع

مفهوم التربية	٣٠٤
التربية في الاستعمال القرآني	٣٠٦
الألفاظ ذات الصلة	٣٠٧
الله تعالى المربي لعباده	٣٠٩
الأنبياء عليهم السلام والتربية	٣١٢
مجالات التربية	٣١٤
خصائص التربية في القرآن	٣٢١
مقاصد التربية في القرآن	٣٢٧
من أساليب التربية في القرآن	٣٣١
التربية بين القرآن والمناهج البشرية	٣٣٩

مفهوم التربية

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل كلمة التربية: إذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية وجدنا لكلمة التربية أصولًا ثلاثة:

الأول: ربا يربو.

الثاني: ربا يربي على وزن خفى يخفي.

الثالث: ربّ يربّ بوزن مدّ يمدّ[(١)].

وكلمة التربية في المعاجم العربية استخدمت لعدة معان، ويمكن إرجاع تلك المعاني إلى أصول خمسة، وهي:

١. **النماء والزيادة:** من ربا يربو بمعنى زاد ونما، ويقول ابن منظور: «ورب المعروف والصنيعة والنعمة، أي: نماها وأتمها وأصلحها»[(٢)].

٢. **النشأة:** قال ابن منظور: «ربي يربى على وزن خفي يخفى، أي: نشأ وترعرع، وعليه قول ابن الأعرابي: فمن يكون سائلًا عني فإني بمكة منزلي، وبها ربيت»[(٣)].

٣. **الحفظ والرعاية:** قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]. أي: ألم ننعم عليك ونقم بتربيتك منذ كنت وليدًا في مهدك ولم تزل كذلك. ولبثت فينا من عمرك سنين»[(٤)].

٤. **الإصلاح والتأسيس:** قال ابن سيده: «ربّيت أي: أصلحت»[(٥)]. ويقول أبو هلال العسكري: «والصفة برب أيضًا تقتضي معنى المصلح، ومنه ربّيت النعمة إذا أصلحتها بإتمامها»[(٦)]. ولم نجد غيرهما يذكر هذا المعنى.

٥. **الرسوخ في العلم:** قال ابن منظور: «الرّبّاني من الرب بمعنى التربية، وقال ابن الأعرابي: الرباني: العالم المعلم الذي يغذو الناس بصغار العلوم قبل كبارها. والرباني: الراسخ

---

(١) انظر: الخلاصة في أصول التربية الإسلامية، علي الشحود، ص ٧-٨، أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي ص ١٧-١٨.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٩٩.

(٣) المصدر السابق ١٤/ ٣٠٤.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ١٩/ ٣٦٧.
وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣٨٢.

(٥) المخصص، ابن سيده ٣/ ١٠.

(٦) الفروق اللغوية ١/ ٢٤٧.

في العلم، أو الذي يطلب بعلمه وجه الله تعالى»[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هناك اختلاف في معنى التربية بين القدماء والمعاصرين:

فالتربية في القديم هي وسيلة لتحصيل المعرفة، ولكن التربية عند المعاصرين أخذت معنى أشمل، فالتربية عندهم طريقة لإعداد الإنسان الصحيح والصالح والمتميز بسلوكه الفكري والإنساني والقادر على توظيف مصادر المعرفة لديه في حل مشاكله ومشاكل مجتمعه[2].

فالتربية هي: «كل عملية أو مجهود أو نشاط تؤثر في سلوك الإنسان أو تكوينه، أيًا كان مصدر هذه العملية: سواء أكان الإنسان بنفسه، أم البيئة الطبيعية، أم المجتمع الذي يعيش فيه.فالإنسان خاضع باستمرار لعمليات تغيير في تكوينه الجسمي والعقلي والخلقي والنفسي والاجتماعي، وهذه العمليات هي التربية. فغاية التربية هي مساعدة الإنسان على تنمية ملكاته وقدراته واستعداداته ودوافعه جميعها، وتكييفها، وإيجاد التوازن بينها وبين البيئة التي تعيش بها»[3].

(١) لسان العرب، ١/ ٤٠٠.
(٢) انظر: المبادىء التربوية في القرآن الكريم، محمد صالح، ص ٤.
(٣) مدخل إلى أصول التربية الإسلامية، محمد الدخيل،ص ١٢.

التربية في الاستعمال القرآني

وردت (التربية) في القرآن الكريم مرتين[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	١	﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٤]
الفعل المضارع	١	﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨]

وجاءت التربية في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: الحفظ والرعاية[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الراء، ص٥٦٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣٨٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ التزكية:

التزكية: لغة:

التزكية في مادتها اللغوية تدور حول: الإصلاح، والتطهير، والثناء الجميل والمدح، والنماء والزيادة[١].

التزكية اصطلاحًا:

تخليص النفس الإنسانية من كل ما يتعلق بها من شوائب، ونواقص، وسلبيات، وترسيخ الفضائل والقيم النبيلة والأخلاق السامية فيها، وتوجيهها إلى كل ما فيه الخير والصلاح[٢].

الصلة بين التزكية والتربية:

عن العلاقة بينهما يقول الشيخ محمد الغزالي: «والتزكية أقرب الكلمات وأدلها على معنى التربية، بل تكاد التزكية والتربية تترادفان في إصلاح النفس، وتهذيب الطباع، وشد الإنسان إلى أعلى؛ كلما حاولت المثبطات والهواجس أن تسفّ به وتعوجّ»[٣].

٢ الرعاية:

الرّعاية لغةً:

الحفظ؛ يقال: رعاه يرعاه رعيًا ورعاية: حفظه. وكلّ من ولي أمر قوم فهو راعيهم وهم رعيّته. وقد استرعاه إياهم: استحفظه، واسترعيته الشيء فرعاه: حفظه. وفي المثل: من استرعى الذئب ظلم؛ لأنّ من ائتمن خائنًا فقد وضع الأمانة في غير موضعها[٤].

الرعاية اصطلاحًا:

من معاني الرعاية في مجال التربية والتعليم -كما ذكر أحد الباحثين- المسؤولية والإشراف والحرص والمساعدة والإرشاد والتوجيه ومراقبة الطفل والسهر عليه[٥].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٨، مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٣٦، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٥٨.

(٢) مفهوم التزكية، نايف الشريف ص ٢١٩.

(٣) نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع، ص١.

(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٦٢ - ١٦٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٨١ - ١٨٣.

(٥) انظر: مدخل إلى التربية الإسلامية،الغامدي، ص ٦.

الصلة بين الرعاية والتربية:

المربي يشرف على التربية ويرشد ويرعى مراحل التربية.

٣ التأديب:

التأديب لغة:

أصل مادة الكلمة (الهمزة والدال والباء) تدل على (الجمع والدعاء)، يقال: أدبهم على الأمر، أي: جمعهم عليه، ومنه سمي حسن الخلق أدبًا؛ لأنه أمرٌ قد أجمع عليه وعلى استحسانه[(١)].

التأديب اصطلاحًا:

هو التعليم والمعاقبة على الإساءة بقصد الإصلاح، يقال: أدّبه، أي: علّمه الأدب، وعاقبه على إساءته؛ لأنه سبب يدعو إلى حقيقة الأدب، و(التأديب) لفظ يدل على المبالغة والتكثير[(٢)].

الصلة بين التأديب والتربية:

وظيفة المؤدب والمربي واحدة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٧٤، أساس البلاغة، الزمخشري، ١/ ٣.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٧٥.

الله تعالى المربي لعباده

أضاف الله سبحانه لنفسه كلمة العالمين بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يقول الطبري: «والعالمون جمع عالم، والعالم: جمعٌ لا واحد له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جماعٍ لا واحد له من لفظه. والعالم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالمٌ، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالم، وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان. والجنّ عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كلّ جنس منها عالم زمانه. ولذلك جمع فقيل: عالمون، وواحده جمعٌ»[1].

والله سبحانه هو المربي للخلق، كما يدل عليه كلمة (الرب). يقول ابن الجوزي: «فأما الرب فقيل: هو مأخوذ من التربية، يقال: رب فلان صنيعتها يربها ربًّا: إذا أتمها وأصلحها»[2].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «وقيل: إن ربوبية الله تظهر بتربيته إياهم، وهي تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية، وتربية شرعية تعليمية للمحافظة على فطرتهم»[3].

(١) جامع البيان، ١/ ١٤٣.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ١٨.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/ ٥١.

ويذكر الرازي في تفسيره أهم الفروق بين تربية الله تعالى وتربية الخلق بعضهم لبعض، منها:

١. أنه تعالى يربي عبيده لا لغرض نفسه، بل لغرضهم، وغيره يربون لغرض أنفسهم لا لغرض غيرهم.
٢. أن غيره إذا ربى فبقدر تلك التربية يظهر النقصان في خزائنه وفي ماله، وهو تعالى متعال عن النقصان والضرر.
٣. أن غيره من المحسنين إذا ألح الفقير عليه أبغضه وحرمه ومنعه، والحق تعالى بخلاف ذلك.
٤. أن غيره من المحسنين ما لم يطلب منه الإحسان لم يعط، أما الحق تعالى فأنه يعطي قبل السؤال.
٥. أن غيره من المحسنين ينقطع إحسانه إما بسبب الفقر أو الغيبة أو الموت، والحق تعالى لا ينقطع إحسانه البتة.
٦. أن غيره من المحسنين يختص إحسانه بقوم دون قوم ولا يمكنه التعميم، أما الحق تعالى فقد وصل تربيته وإحسانه إلى الكل[4].

وقد قسم العلماء والمربون هذه التربية إلى قسمين: تربية عامة وتربية خاصة، فإن أطلقت فالمراد بها المعنى الأول، مثل قوله

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ١/ ١٩٩.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ونحو ذلك.

وحيث قيدت بما يحبه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم. فإن المراد بها النوع الثاني. وهو متضمن للمعنى الأول وزيادة؛ لهذا تجد أدعية الأنبياء وأتباعهم في القرآن باسم الرب غالبًا، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

أولًا: تربية عامة.

يقول العلامة السعدي رحمه الله حول تربية لله سبحانه العامة لعباده: «وهي خلقه تعالى للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا»[(١)].

فالتربية العامة تشمل نقاطًا ثلاثة:

١. خلق الله تعالى المخلوقات: يقول العلامة العثيمين: «الرب هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق والملك والتدبير، فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور»[(٢)].

٢. رزقهم، بعد أن يذكر الرازي كيفية تكوين الشجرة من الغصن والساق والعروق والثمار، يبين لنا هذا الجانب من تربية الله سبحانه، وهي رزقهم فيقول: «والحكمة في كل هذه التدبيرات تحصيل ما يحتاج العبد إليه من الغذاء والأدام والفواكه والأشربة والأدوية، كما قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس:٢٥-٢٦]»[(٣)].

٣. هدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا، يقول الراغب الأصفهاني: «رب العالمين هو المتكفل بمصلحتهم»[(٤)].

ويذكر الرازي رحمه الله في تفسيره وجوهًا كثيرة لتربية الله سبحانه للعبد، منها خلقه للإنسان من نطفة فعلقة فمضغة فعظام، ثم خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والأرض والجبال والمعادن، والنبات والحيوان، ثم يعلق على كل ذلك بقوله رحمه الله: «واعلم أنك إذا تأملت في عجائب أحوال المعادن والنبات والحيوان وآثار حكمة الرحمن في خلق الإنسان قضى صريح عقلك بأن أسباب تربية الله كثيرة، ودلائل رحمته لائحة ظاهرة»[(٥)].

فالتربية العامة تكون بالنعم التي أنعمها الله على عباده من رزق وإرسال الرسل، فيهدي بهدايته العامة من ينيب إليه، بعد أن عرف النعمة وأحس بجميع الدلائل الكونية والشرعية على أن الله تعالى هو رب البرية،

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٤.
(٢) تفسير القرآن الكريم، سورتي الفاتحة والبقرة، ١/ ١٠.
(٣) مفاتيح الغيب، ١/ ٢٠٠.
(٤) تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٥٤.
(٥) مفاتيح الغيب، ١/ ٢٠٠.

فأناب إليه، ثم هداه تعالى ووفقه[1].

ثانيًا: تربية خاصة.

يقول الشيخ السعدي مبينًا التربية الخاصة: «وهي تربية لأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكملهم به ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى:١٣].

والمعنى: الله يجتبي إليه من يشاء أي: يختار من خلقه من يعلم أنه يصلح للإجتباء برسالته وولايته، ومنه أن اجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وآخرها»[2].

ويقول البيضاوي مفسرًا آية ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: «ثم سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه»[3].

فالله سبحانه هو الحافظ للخلق لأنه مربيهم وخالقهم.

وقيل في قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ [غافر:٦٦].

أي: المربي لي تربية خاصة، هي أعلى من كل مخلوق سواي، فأنا أعبده عبادة تفوق عبادة كل عابد[4].

فالتربية الخاصة لله سبحانه، تكون لأنبيائه والصالحين. يقول الشيخ الشعراوي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه:١٢]: «أي: ربك أنت بالذات، لا الرب المطلق، لأن الرسل مختلفون عن الخلق جميعا، فلهم تربية مخصوصة، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[طه:٣٩]. وقال سبحانه: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١]. فالحق تبارك وتعالى يربي الرسل تربية تناسب المهمة التي سيقومون بها»[5].

ويعرف صاحب تفسير التحرير والتنوير كلمة الاصطناع في الآية بأنها: «صنع الشيء باعتناء، واللام للأجل، أي: لأجل نفسي، والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئًا لفائدة نفسه، فيصرف فيه غاية إتقان صنعه»[6].

فالنبي صلى الله عليه وسلم اصطفاه ربه وتولى أمر تربيته حيث صانه عن أفعال الجاهلية المنكرة، فلم يعبد الأصنام، ولم يلهو كأقرانه ولم يسمع لهوًا قط. فهذه تربية ورعاية ربانية خاصة[7].

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي، ص ٢١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ٤/ ٤١٤.
(٣) أنوار التنزيل، ١/ ٢٨.
(٤) انظر: السراج المنير، الشربيني، ٣/ ٤٩٥.
(٥) تفسير الشعراوي، ١٥/ ٩٢٣١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٦/ ٢٢٣.
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، ص ١٢٥-١٢٦.

مما سبق عرفنا أن الله سبحانه يربي أوليائه وأصفيائه تربية خاصة، وهذه التربية تكون بتوفيقهم للإيمان والهداية ودفع الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

الأنبياء عليهم السلام والتربية

الأنبياء عليهم السلام صفوة الخلق اختارهم الله تعالى لأداء الأمانة وتبليغ الرسالة وتربية الناس. فهم عليهم السلام أكثر الناس حاجة للتربية نظرًا للمسؤلية الثقيلة عليهم. فالله سبحانه رباهم تربية خاصة ليكونوا أهلًا للحمل الثقيل. وهم بدورهم حملوا أمانة تربية الناس وإصلاحهم. ومن هنا قسمنا هذا المبحث إلى:

أولا: تربية الله سبحانه للأنبياء.

قال تعالى لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:١٢].

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه:٤١].

يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري في معنى هذه الآية: «أنعمت عليك يا موسى هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن، اجتباء مني لك واختيارًا لرسالتي والبلاغ عني والقيام بأمري ونهيي»[(١)].

ثانيا: تربية الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم.

يقول الدكتور أحمد أبو زيد حول مهمة الأنبياء عليهم السلام في الحياة وكيفية تربيتهم لأقوامهم: «قامت دعوات الأنبياء عليهم السلام على تكوين الإنسان الذي يوحد الله تعالى ويراقبه في سره وعلانيته،

(١) جامع البيان، ١٦/ ٧٢.

ويسارع في الخيرات، لذلك تبدأ بغرس كلمة الإيمان في النفس وتعمل بوسائل شتى على ترسيخها وتثبيت جذورها في القلب، لأن الإيمان إذا تغلغل في القلب كان قوة ذاتية تدفع الإنسان إلى السلوك القويم والتحلي بالأخلاق الحميدة والاستقامة على طريق الصلاح»[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

ومهمة تكوين الإنسان الموحد لله تعالى المسارع إلى الخيرات، ليست مهمة سهلة.

إن تربية الأنبياء ودعوتهم -كما ذكرها الشيخ التويجري في مختصر الفقه الإسلامي- اشتملت على أربعة أمور: تحصيل الإيمان، وحفظ الإيمان، والاستفادة من الإيمان، ونشر الإيمان.

فالاجتهاد لتحصيل الإيمان بالنظر والتفكر في آيات الله ومخلوقاته، والعبادة والتزكية وكثرة ذكر الله. واجتهادهم لحفظ الإيمان، بلزوم الإيمان والبيئات الصالحة والعمل الصالح، والإكثار من ذكر الله، ومواصلة الدعوة إلى الله وبذل كل جهد في سبيل إعلاء كلمة الله.

ثم اجتهدوا لقضاء حاجاتهم وحاجات الدين بالاستفادة من الإيمان، فيرون أن الله معهم حيثما كانوا، ويطلبون منه وحده كل شيء... وهكذا استفادوا من قدرة الله وخزائنه. ثم اجتهدوا على نشر هذا الإيمان وهذا اليقين بين أقوامهم، ومن أرسلوا إليه، ليعبدوا الله وحده لا شريك له[2].

والدارس لقصص الأنبياء في القرآن الكريم يجد نماذج عديدة لتربية الأنبياء لغيرهم وتعليمهم بشتى الوسائل. وما عانوه في سبيل أداء مهمتهم على أكمل وجه.

(١) الأبعاد التربوية للعبادة في الإسلام، أحمد أبو زيد، ص٧٧.

(٢) نقل بتصرف من: مختصرالفقه الإسلامي في ضوء القرآن والسنة،محمد بن إبراهيم التويجري، ١/ ٧٩-٨٠.

مجالات التربية

أولًا: التربية الإيمانية:

يقصد بالتربية الإيمانية: «ربط المسلم منذ نعومة أظفاره بأصول الايمان وأركانه وترسيخها في خوالج نفسه ابتداءً بوجود الله تعالى وصفاته، مرورًا بعظمة كلام الله تعالى وإعجازه وبيانه بالسنة المشرفة، وإنتهاءًا بالاعتياد على تطبيق أركان الإسلام، وتمثل مباديء الشريعة الغراء حتى تتسامى روحه إلى الأفق الأعلى بإيمان صادق ويقين ليس بعده كفر. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم:٣٠]»[(١)].

ويراد بأصول الإيمان: الحقائق الإيمانية والأمور الغيبية الثابتة عن طريق الخبر الصادق: كالإيمان بالله سبحانه، والإيمان بملائكته، والإيمان بالكتب السماوية، والإيمان بالرسل، والبعث والحساب والجنة والنار وسائر المغيبات. وأركان الإسلام هي: كل العبادات البدنية والمالية، وهي: الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج من استطاع إليه سبيلا. ونعني بمبادىء الشريعة: كل ما يتصل بالمنهج الرباني من عقيدة وعبادة وأخلاق وتشريع وأنظمة[(٢)].

فالتربية الإيمانية عملية متدرجة ومقصودة، لتوجيه الإنسان نحو خالقه من خلال مجموعة من المباديء، والقيم المستمدة من الكتاب، والسنة، والتي تعمل على النمو السليم المتوازن بالروح، والعقل، والنفس، والجسم، وتحدث التكيف الاجتماعي[(٣)].

والناظر للآيات القرآنية التي تبحث في قضية الإيمان يجد أن هذه الآيات تعمل بشتى الوسائل والأساليب بغرس الإيمان في النفس وترسيخها وتثبيت جذورها في قلب الإنسان، والإيمان يدفع الإنسان إلى التحلي بالأخلاق والاستقامة على الطريق الصحيح.

وقد استخدم القرآن الكريم أساليب عدة لغرس هذا الإيمان في النفس، منها:

١. الأساليب البنائية.

فقد ذكر القرآن الكريم أساليب لتقوية الإيمان وتنميته وغرسه في النفوس، منها:

١. النظر في الآفاق والأنفس، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ

(١) التربية وأساليبها في التشريع الاسلامي، سناء هدلة، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، عدد ٢٥٨، سنة ٢٠١١، ص ٢٠٣١.

(٢) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/ ١٤٤.

(٣) انظر: من أساليب التربية في القرآن الكريم، زينب بشارة يوسف، ص ٢٤.

﴿يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

٢. تلاوة آيات القرآن الكريم وتدبر معانيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]. وعن جندب بن عبد اللّه، قال: كنّا مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ونحن فتيانٌ حزاورةٌ، فتعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن، ثمّ تعلّمنا القرآن فازددنا به إيمانًا)[1].

٣. معرفة أسماء الله وصفاته، لاشك أن النظر في الأسماء والصفات بتدبر معانيها ودلالاتها في المخلوقات مما يزيد الإيمان ويقويه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٤. العبادة المتمثلة في اتباع الأوامر واجتناب النواهي. قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

٥. التفكر في الموت، فالموت هو الطريق الذي يعبر من خلاله الإنسان، عند انتقاله من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة. قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

٢. الأساليب الوقائية.

فالتربية القرآنية لا تقف عند تنمية الإيمان وتقويته، بل تستمر في المحافظة عليه بأساليب أخرى، منها:

١. التمسك بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٢. التقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

٣. التحلي بالصبر، وللصبر أثر كبير في المداومة على العبادات، قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

٣. الأساليب العلاجية.

بعد الأساليب البنائية والأساليب الوقائية، يعالج القرآن الكريم ضعف الإيمان حين يقع المؤمن في الأخطاء بأساليب،

(١) أخرجه في سننه، باب في الإيمان، ١/ ٣٧-٣٨.

منها:

١. التوبة، فقد ذكر القرآن الكريم في كثير من الآيات هذا الأسلوب منبهًا لهم أنه لا فلاح ولا نجاة لكل مؤمن إلا بالتوبة من الذنوب صغيرها وكبيرها. قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

٢. الاستغفار، من صفات المتقين إذا وقعوا في ذنب المسارعة إلى الاستغفار؛ لإيمانهم بأن الله غفور رحيم. قال تعالى﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥][1].

فالقرآن الكريم -كما رأينا- يولي أهمية خاصة للتربية الإيمانية، مستخدمًا شتى الوسائل والأساليب والطرق. وهذا التنويع في الوسائل كفيل بتحقيق الغاية المنشودة، وهي غرس الإيمان في النفس.

ثانيًا: التربية الأخلاقية:

التربية الأخلاقية هي: «تنشئة الفرد على المباديء الخلقية والفضائل السلوكية والوجدانية التي توجه الفرد من وقت تمييزه، حتى يعتاد الصلاح وترسخ في نفسه القيم، فتكون دافعًا له إلى كل فضيلة وعونًا له على كمال دينه ومروءته وشخصيته، ومنها بر الوالدين واحترامهم والتزام الأدب في التعامل مع الغير ابتداءًا بالأسرة، وانتهاءًا بمختلف المؤسسات الاجتماعية»[2].

والمتأمل للقرآن الكريم يرى بوضوح مدى الاهتمام بالتربية الخلقية للإنسان وتوجيهه نحو الخير، وما فيها من توجيهات خير شاهد على ما نقول.

فمن هذه الآيات التي توجه السلوك وترسم خط الاستقامة: قوله تعالى:﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:١-٧].

وفي التربية على القول الحسن يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

وفي الصدق يقول عزوجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ

(١) انظر: الفكر التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي، سعيد القرني، ص ١٨٣-٢٢٤.

(٢) التربية وأساليبها في التشريع الاسلامي، سناء هدلة، ص ٢٠٣١-٢٠٣٢.

﴿الصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وحينما يأمرنا بالتواضع يقول: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨ – ١٩].

ويأمرنا بالعفة والاحتشام بقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠][1].

ويأمرنا سبحانه بالابتعاد عن سوء الظن بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا)[2].

فالتربية الأخلاقية أخذت حيزًا كبيرًا من آيات القرآن الكريم.

ثالثًا: التربية العقلية:

العقل هي الأداة التي عن طريقها يسلك الفرد طريق النجاة في الدارين، وعقول الناس تتفاوت في سلوك هذا الطريق. وهذا ما لا خلاف فيه. ولكن العقول قابلة للنماء والتطور والارتقاء حسب استخدامها في مجالها المقدر لها. والارتقاء بها تكون «بتدريبها على ممارسة العمليات العقلية من تفكر وتدبر وتأمل؛ لذلك نجد أن الكثير من الآيات القرآنية تختم بقوله تعالى: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾. وعقول الأفراد مجتمعة تكون عقل المجتمع أو الأمة؛ لذلك كان الاهتمام بالقدرات العقلية ومحاولة تطويرها على النطاق الفردي أو الجماعي عمل في غاية الأهمية»[3].

ويدل على أهمية العقل في القران الكريم أنه حث على التعقل والتفكير في مخلوقات الله تعالى، وأن الانحراف والضلال نتيجة لعدم التعقل والنظر بالحكمة في الأمور. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

لذلك نرى الله سبحانه يشبه الذين لا

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، الحازمي، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى من التحاسد والتدابر، رقم ٦٠٦٦.

(٣) من أساليب التربية في القرآن الكريم، زينب بشارة يوسف، ص ١٨.

يستخدمون عقولهم بالدواب.

يقول الرازي: «شبههم بالدواب لجهلهم وعدولهم عن الانتفاع بما يقولون، ويقال لهم؛ ولذلك وصفهم بالصم والبكم وبأنهم لا يعقلون. وقيل: بل هم من الدواب؛ لأنه اسم لما دب على الأرض، ولم يذكره في معرض التشبيه، بل وصفهم بصفة تليق بهم على طريقة الذم، كما يقال لمن لا يفهم الكلام: هو شبح وجسد وطلل، على جهة الذم»[1].

وفي عملية تربية العقل اتبع القرآن الكريم أساليب تربوية عدة، منها:

١. تربية العقل بالعلم والمعرفة.
٢. تربية العمليات العقلية.
٣. تربية العقل وتزكيته بالقيم والمباديء الاسلامية.
٤. تربية العقل من خلال علاقة الانسان بالله عزوجل والكون والحياة[2].

وقد حرر القرآن الكريم عقل الإنسان من عوائق عدة تعيقه عن مهامه الموكلة له:

فقد حرره من الخرافة والمعتقدات الباطلة التي تتنافى وتكريم الله له «وقدم الإجابات الواضحة للإنسان عن الكون ومفرداته وفلسفته، وحقيقة خلقه، وكيف تتم إدارته وحركة القوة فيه»[3]. وحرره من التبعية والعبودية لغير الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

يقول الرازي في تفسير هذه الآية: «إن الله تعالى أمرهم بأن يتبعوا ما أنزل الله من الدلائل الباهرة، فهم قالوا: لا نتبع ذلك، وإنما نتبع آباءنا وأسلافنا، فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد، وأجاب الله تعالى عنهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾»[4].

لقد حرر القرآن العقل من إتباع الهوى والشهوات بالعلم والمعرفة ودعا إلى التحرر من عبادة غير الله تعالى فكل الخلق في ميزان العبودية سواء، «فإذا تمكنت عبوديته لله من قلبه، وتحرر من عبودية غير الله، كان أهلًا لأن يأمنه الناس على كل شيء؛ لأنه لا يستجيب لرغبة، ولا يخضع لرهبة، ولا يقوده إغراء ولا شهوة، ولا يتبع هوى، وإنما يستجيب لأمر الله، وأمر الله لا يوجد فيه إلا عمل الخير الذي فيه غاية الأمن لكل البشر»[5].

(١) مفاتيح الغيب، ١٥/ ٤٦٩.
(٢) انظر: منهاج التربية الاسلامية في بناء الشخصية، أحمد الغامدي، ص٤٢.
(٣) أثر التربية القرآنية في آمن المجتمع، عبد الله قادري الأهدل، ص٨٥.
(٤) مفاتيح الغيب، ٥/ ١٨٨.
(٥) أثر التربية القرآنية في آمن المجتمع، عبد الله

والقرآن الكريم دعا من خلال تشريعاته إلى المحافظة على العقل من التلف. «وقد بنى القرآن الكريم تربية العقل على ضرورة ترك كل ما يمكن أن يتلفه أو يضره، فحرم الخمر وجميع المذهبات للعقل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[المائدة:٩٠]»[١].

والقرآن الكريم يدعو إلى الحوار والإقناع ويبتعد عن الإكراه. قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

قال الزمخشري: «أي: لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر ولكن على التمكين والإختيار»[٢].

ومن أجل احترام العقل وتربيته جعل الإيمان على الإقتناع لا الإجبار، «فإذا كان الدين لا إكراه فيه، فلا إكراه فيما سواه وهي دعوة صريحة في غالب آيات القرآن الكريم تدعوا إلى التفكر والتأمل في كل ما يعرض، وعدم الاغترار بالظواهر، فالحقيقة أهم من المظهر، وعليها المعول والحساب»[٣].

مما سبق عرفنا أهم ملامح التربية القرآنية للعقل، وهي: حثه على التفكر في مخلوقات الله، وتحريره العقل البشري من الخرافات والتبعية والجمود واتباع الهوى.

رابعًا: التربية البدنية:

عنى القرآن الكريم عناية بالغة بجسم الإنسان ووضع له منهاجًا للتربية السليمة، تتجلى مفردات هذا المنهج في التشريعات والتوجيهات المذكورة في القرآن الكريم.

والمقصود بالتربية الجسمية: «أنها التربية التي تهتم ببناء وتنمية الجانب الجسمي وكيفية تفاعله الإيجابي مع غيره من الجوانب الأخرى للشخصية الإنسانية، لأداء وظائفه في الحياة، وتحقيق التكيف اللازم مع ما يحيط بها من كائنات ومكونات أخرى وفق منهج الله سبحانه»[٤].

والله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وصوره في أحسن صورة، وخلقه فسواه فعدله، وجعل له السمع والبصر والفؤاد. كل ذلك ليدلنا على أهمية البدن والجسم للإنسان. يقول العلامة السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي

قادري الأهدل، ص٨٥.

(١) من أساليب التربية في القرآن الكريم، زينب بشارة يوسف، ص ٢١.

(٢) الكشاف، ١/ ٣٣١.

(٣) من أساليب التربية في القرآن الكريم، زينب بشارة يوسف، ص ٢١.

(٤) مقومات التربية الجسمية في الإسلام، صالح بن علي أبو عراد الشهري، ص ٥٠.

﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:٤].

أي: «تام الخلق، مستقيمًا، معتدل القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا وباطنًا شيء»[(١)]. والقرآن كلام الله سبحانه جاء لتربية الإنسان، عقله وقلبه وروحه وبدنه.

ومن خلال تتبعنا للآيات القرآنية التي تهتم بجسم الإنسان وجدنا ملامح أساسية للتربية البدنية أو الجسمية في القرآن. ومن أبرز تلك الملامح:

من حق الطفل أن يرضع رضاعة طبيعية مدة عامين كاملين، حتى ينشأ نشأة سليمة، قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[البقرة:٢٣٣].

تناول الحلال من الأطعمة الطيبة لإشباع حاجات الجسم، والبعد عن الحرام.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[المائدة:٨٨].

يقول السعدي: «كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالًا لا سرقةً ولا غصبًا ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضًا طيبًا، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث»[(٢)].

وحفاظًا على سلامة الجسم، يجب الابتعاد عن أكل الميتة ولحم الخنزير وكل ما يضر الجسم أكله، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ﴾[المائدة:٣].

قال سيد قطب: «وسواء وصل العلم البشري إلى حكمة هذا التحريم أم لم يصل، فقد قرر العلم الإلهي أن هذه المطاعم ليست طيبة وهذا وحده يكفي. فالله لا يحرم إلا الخبائث. وإلا ما يؤذي الحياة البشرية في جانب من جوانبها. سواء علم الناس بهذا الأذى أو جهلوه»[(٣)].

وإشباع الحاجة الجنسية بالطريقة الشرعية كما أمر الله تعالى والبعد عن اللذة المحرمة.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾[الروم:٢١].

الاهتمام بممارسة التدريبات الرياضية التي تقوي الجسم، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠].

الاهتمام بالرعاية الصحية والنظافة في المأكل والمشرب والملبس، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة:٢٢٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢٩.
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢.
(٣) في ظلال القرآن، ٢/ ٨٤٠.

خصائص التربية في القرآن

أولًا: الربانية:

من أهم خصائص التربية في القرآن الكريم: الربانية. فالإنسان من خلق الله سبحانه، وليس هناك أعلم من الله عزوجل به.

قيل في نسبتها أقوال كثيرة ذكرها الراغب الأصفهاني،منها: «إنه منسوب إلى الربان، وقيل: منسوب إلى الرب الذي هو المصدر، وهو الذي يرب العلم كالحكيم، وقيل: منسوب إلى الرب أي: الله سبحانه وتعالى»[1]. والمعنى المراد هنا: الإنتساب إلى الرب، أي: الله سبحانه، ويطلق على الإنسان أنه رباني إذا كان وثيق الصلة بالله عالمًا بدينه وكتابه، معلمًا له. وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[آل عمران:٧٩].

قال ابن كثير في تفسير الآية: «ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين. قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد، أي: حكماء علماء حلماء. وقال الحسن وغير واحد: فقهاء، وكذا روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعطاء الخراساني، وعطية العوفي، والربيع بن أنس. وعن الحسن أيضًا: يعني: أهل عبادة وأهل تقوى»[2].

معنى الربانية في التربية:

يراد بالربانية أمران:

- **ربانية الغاية والوجهة.**

فالتربية القرآنية «ربانية في غايتها تهدف إلى تربية الإنسان المسلم الذي يحسن صلته بربه، فيعيش في سعادة ورضا تام، يبعده عن الصراعات النفسية والفكرية، فيعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا»[3].

- **ربانية المصدر والمنهج.**

فالقرآن الكريم هو المصدر الرئيسي للتربية القرآنية، تستمد منها أصولها وتوجيهاتها.

«وأساس التربية الربانية أنها تنزيل من الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:٨٩].

فهي تقوم على أسس ربانية، فتأتي مبرأة من كل عيب وقصور»[4].

ومن معاني الربانية في التربية: تربية الإنسان على التحرر من الأهواء والأشخاص وعدم الخضوع والإنقياد

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ١٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٦٦.

(٣) فصول في تدريس التربية الإسلامية، حسن جعفر الخليفة وكمال الدين محمد، ص ٦.

(٤) المصدر السابق.

إلا لله وحده، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢].

يقول السعدي: «من أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾أي: ما آتيه في حياتي، وما يجريه الله علي، وما يقدر علي في مماتي، الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداعًا مني، وبدعًا أتيته من تلقاء نفسي، بل ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرًا حتمًا، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة»[1].

ثانيًا: التدرج:

التدرج سنة كونية ابتداءً في إنشاء هذا الكون؛ فالله سبحانه لم ينشأ الكون دفعة واحدة مع القدرة عليه، بل خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

ويعرف المختصون التدرج في التربية بأنه: «الارتقاء التصاعدي في إكساب الفرد معالي الأمور»[2]. أو «البدء بالسهل ثم الصعب والانتقال في التعلم من البسيط إلى المعقد مراعاة للفروق الفردية بين المتعلمين، وللقدرة العقلية على الفهم والاستيعاب، حيث إن فروقًا كثيرة بين الناس في استعداداتهم وقدراتهم النفسية العقلية»[3].

والتدرج في التربية أسلوب يدلّ على حكمة صاحبه، وقدرته على التلطف في مخاطبة العقول والأفهام، فينتقل من فكرة إلى فكرة، معتمدًا على المحاكمة العقلية، والحجة المقنعة، والبرهان الواضح.

التدرج في التربية في القرآن الكريم:

نزل القران الكريم منجمًا رحمة للمؤمنين حتى يمكنهم من حفظه وتلاوته وفهمه وإدراك الأمور ويكون ذلك عونًا على ثباته في أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

يقول السعدي حول التدرج المشار إليه في الآية الكريمة: «كلما نزل عليه شيء من القرآن إزداد طمأنينة وثباتًا وخصوصًا عند ورود أسباب القلق فإن نزول القرآن عند حدوث السبب يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلًا قبل ذلك، ثم تذكره عند حلول سببه»[4].

والتدرج مظهر من مظاهر التبشير

(١) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ٢٨٢.
(٢) أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي، ص ٢٧٣.
(٣) منهاج التربية الاسلامية في بناء الشخصية، أحمد الغامدي، ص٤٢٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ٥٨٢.

والتيسير المذكور في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥].

ونزول القرآن الكريم منجمًا حوى عدة حكم تربوية، ذكرها الله سبحانه في الآية الكريمة. ومن هذه الحكم:

الحكمة الأولى: تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

قال القاسمي: «أي: نقوّيه به على القيام بأعباء الرسالة، والنهوض لنشر الحق بين قادة الجهالة. فإن ما يتواتر إنزاله لذلك، أبعث للهمة وأثبت للعزيمة وأنهض للدعوة، من نزوله مرة واحدة»[(١)].

الحكمة الثانية: التدرج في تربية هذه الأمة، وتستمد هذه الحكمة من قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ حيث فسر ذلك سيد قطب بقوله: «الترتيل هنا هو: التتابع والتوالي، وفق حكمة الله وعلمه بحاجات تلك القلوب وإستعدادها للتلقي»[(٢)].

فلو جاءتهم جملة واحدة لثقلت عليهم؛ لأنه من العسير أن يتحول أمة بين ليلة وضحاها إلى حياة أخرى مختلفة تمامًا عن التي إعتادوها.

الحكمة الثالثة: مراعاة مناسبات الأحداث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

والمتأمل للقرآن الكريم يجد جوانب من التدرج، نذكر منها:

أولًا: التدرج في الحفظ والفهم.

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

ثانيًا: التدرج في انتزاع الفاسد وتثبيت الصحيح من العقائد والعبادات.

ومن العادات التي علاجها بالقطع الحاسم ما يلي:

- الشرك بكل عاداته وتصوراته من عبادة للاوثان واجتماع حولها وأداء لمراسم معينة من أجلها.
- عادة وأد البنات، لم يكن يمكن مهادنتها وهي تقوم على أساس غير إيماني ولا إنساني.
- العادات النفسية من كذب وغيبة ونميمة وغمز ولمز وكبر وعنجهية..إلخ، كان لابد من مواجهتها مواجهة حاسمة[(٣)].

ثالثا: التدرج في انتزاع المنكر من العادات والأخلاق وتثبيت المعروف.

(١) محاسن التأويل، ٧/ ٤٢٧.
(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٥٦٣.
(٣) انظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ١/ ٢٠١.

يقول الدكتور محمد قطب في كتابه القيم (منهج التربية الاسلامية):

«وقد بدأ الاسلام -وهو ينشأ في الجاهلية- بإزالة العادات السيئة التي وجدها سائدة في البيئة العربية، واتخذ لذلك إحدى وسيلتين: إما القطع الحاسم، وإما التدرج البطيء، حسب نوع العادة التي يعالجها، وطريقة تمكنها في النفس»[1].

والقرآن الكريم زاخر بالأمثلة على الأخذ بمبدأ التدرج، منها:

التدرج في تحريم الخمر، والتدرج في تحريم الربا، والتدرج في تعليم الولد الآداب الإجتماعية.

ثالثًا: الشمول والتكامل:

الشمول مصدر شمل، ومعناه العموم، قال ابن فارس: «شمل: شملهم الأمر يشملهم، إذا عمهم»[2].

والعموم والإتمام وعدم الاحتياج إلى غيره، من أهم خصائص التربية في القرآن الكريم.

فالشمول في التربية القرآنية تعني: أنها تتناول كل جوانب الحياة، وتهتم بالإنسان ككل، روحه وجسمه وعقله ونفسه. وأنها تشمل كل الأزمنة والأمكنة. فالشمول في التربية تعني:

١. أنها تربية شاملة لجميع جوانب الشخصية الإنسانية للمسلم (الجسم، العقل، الروح).

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

يقول الرازي: «قوله ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ يجب أن يكون مخصوصًا ببيان الأشياء التي يجب معرفتها»[3]. فالقرآن الكريم عالج كل جوانب الشخصية الإنسانية فاهتم بالجسم ومتطلباته وبالروح وبالعقل. وفي مبحث (مجالات التربية) فصلنا القول في ذلك.

٢. إنها شاملة لجميع فئات المجتمع.

فلا تقتصر على فئة دون أخرى. فالقرآن الكريم اهتم بالطفل كاهتمامه بالشاب، واهتم كذلك بالشيوخ والعجائز. تربيته شملت المرأة كالرجل. فحفاظًا على سلامة الأم أثناء الحمل، دعا لتحقيق حاجاتها ومعاملتها بأحسن ما يمكن.

قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦].

٣. إنها تربية شاملة لكل الأزمنة والأمكنة.

فالقرآن الكريم ربى بتوجيهاته الجيل الذي عاش في زمن النبوة وما بعدها،

(١) المصدر السابق.
(٢) مجمل اللغة، ١/ ٥١٢.
(٣) مفاتيح الغيب، ١٢/ ٥٢٦.

ويربي كذلك الإنسان في عصرنا الحاضر والمستقبل. وتنبع شمولية التربية القرآنية من قدرة الواضع لها على إدراك ومعرفة صغائر الأمور وكبائرها، فلم تتخلف قابلية المنهج في التطبيق على زمان دون آخر.

والتربية القرآنية إلى جانب شمولها، متكاملة.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «فليست التربية مقصورة الغاية على جانب واحد من جوانب الإنسان، التي يهتم بكل واحدة منها أهلها والمختصون بها. إنها لا تضع كل إهتماماتها في الناحية الروحية أو الخلقية التي يهتم بها الفلاسفة والعقليون. ولا تجعل أكبر همها في التدريب والجندية التي يحرص عليها العسكريون. ولا تحصر نشاطها في التربية الإجتماعية كما يصنع المصلحون الإجتماعيون. إنها في الواقع تهتم بكل هذه الجوانب وتحرص على كل هذه الألوان من التربية»[1].

والقرآن الكريم يؤكد على هذا التكامل من خلال استنكاره على المنكرين له عدم تدبر تشريعاته وأحكامه وأوامره. ولو تدبروه لوجدوه متكاملًا يكمل بعضه بعضًا.

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

(١) التربية الإسلامية، ص ٣٢.

يقول سيد قطب: «والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبدًا.. ومستوياتها ومجالاتها، مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها. ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها -بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه- ما يملك إدراكه، في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى. ومن ثم فإن كل أحد، وكل جيل، مخاطب بهذه الآية. ومستطيع -عند التدبر وفق منهج مستقيم- أن يدرك من هذه الظاهرة -ظاهرة عدم الاختلاف، أو ظاهرة التناسق- ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه. وتلك الطائفة في ذلك الجيل كانت تخاطب بشيء تدركه، وتملك التحقق منه بإدراكها في حدودها الخاصة»[2].

رابعًا: الواقعية:

الواقعية تعني: «مراعاة الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس والإعتراف بالضعف البشري، وبالدوافع البشرية، وبالحاجات الإنسانية؛ نفسية أو مادية»[3].

والمتأمل للتوجيهات التربوية للقرآن يجد أنها توافق الفطرة وتنسجم مع الواقع؛ لأن الله تعالى هو صاحب القرآن وهو

(٢) في ظلال القرآن، ٢/ ٧٢١.
(٣) الوسطية في القرآن الكريم، علي الصلابي، ٣/ ٨٥.

خالق الإنسان وهو أعلم بمطالبه وحاجاته وطاقاته. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤].

قال الطبري: «﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ الرب جل ثناؤه ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ من خلقه؟ يقول: كيف يخفي عليه خلقه الذي خلق ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ بعباده ﴿الْخَبِيرُ﴾ بهم وبأعمالهم»[1].

وطاقة الإنسان محدودة، فلم يكلفه الله سبحانه إلا في حدود طاقته. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:٢٦].

والمتأمل في أوامر ونواهي وتوجيهات القرآن الكريم يرى بوضوح هذه الخاصية.

والإنسان ضعيف بطبعه،والله عزوجل يعرف ضعفه إزاء المغريات.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[آل عمران:١٤].

وللتغلب على هذا الضعف جعل محفزات ومرغبات للعمل الصالح، ومرهبات ومنفرات عن العمل السيء، وهو ما يعرف بمبدأ (الثواب والعقاب).

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣].

يقول العلامة السعدي: «أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها، ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾[آل عمران:١٣٤].

أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئًا ولو قل»[2].

ومظاهر الواقعية في القرآن الكريم كثيرة، منها: اليسر والتيسير، ورفع الحرج، وتحريم الخبائث، وغيرها من الأمور[3].

خامسًا: الوسطية:

التربية القرآنية تربية متوازنة، حيث يتميز الإسلام بالوسطية، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

«فالتربية الإسلامية توازن بين الأشياء، وتميل إلى أن تكون هناك نقطة توازن بين جوانب الحياة المختلفة، فهي توازن مثلًا

(١) جامع البيان، ٢٢/ ٥١١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ١٤٨.

(٣) انظر: فصول في تدريس التربية الإسلامية، حسن جعفر الخليفة و كمال الدين محمد هاشم، ص ٧-٨.

بين النظرية والتطبيق في التربية، وبين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، كما توازن بين الحياة المادية والحياة الروحية.

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص:٧٧]»[١].

فالقرآن الكريم لا يرضى للمسلم أن يهمل الحياة الدنيا بحجة العمل للأخرى.

قال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسير الآية: «اطلب بكنوزك أسباب حصول الثواب بالإنفاق منها في سبيل الله وما أوجبه ورغب فيه من القربان ووجوه البر ولا تنس نصيبك من الدنيا»[٢].

ما أجمل قول سيد قطب حين يقول: «وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم، المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة. ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها»[٣].

(١) فصول في تدريس التربية الإسلامية، حسن جعفر الخليفة وكمال الدين محمد هاشم، ص٧.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٠/ ١٧٨.
(٣) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٧١١.

مقاصد التربية في القرآن

التربية في القرآن الكريم تسعى إلى تحقيق غايات ومصالح ومقاصد شتى، نذكر فيما يلي أبرزها:

أولًا: المحافظة على الفطرة من الانحراف:

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[٤].

وفي معنى الفطرة ذكر العلماء عدة أقوال، منها:

١. إن فطرة الله هي ما ركز في الطفل من قوة العقل.
٢. إن الفطرة هي الخلقة التي يخلق عليها المولود من المعرفة بربه. وأنكر الذين قالوا هذا القول أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان، وإنما يولد على السلامة في الأغلب خلقًا وطبعًا ومنية ليس فيها إيمان ولا كفر.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣٨٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٣. إن الفطرة هي الإسلام. قال ابن عبدالبر: هو المعروف عند السلف. وأجمع أهل العلم بالتأويل أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]: الإسلام. وقد أمر الله نبيه بلزومها، فعلم أنها الإسلام.

٤. البداءة التي خلقهم عليها، أي: على ما فطر الله تعالى عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ.

٥. ما يقلب الله تعالى قلوب الخلق بما يريد ويشاء،يقول عبدالله بن المبارك: إن المراد أنه يولد على ما يصير إليه من شقاوة أو سعادة. فمن علم الله أنه يصير مسلمًا، ولد على الإسلام ومن علم الله أنه يصير كافرًا ولد على الكفر[١].

موقف التربية من الفطرة:

من معاني الفطرة الإسلام، وهو يحتاج إلى تنمية ورعاية ومعرفة بأحكام الشريعة. فوظيفة التربية تجاه الفطرة هي تنمية هذه المعارف وتبصيره بأحكام الشريعة، حتى تبقى الفطرة نقية بيضاء.

ومن معانيها السلامة من العيوب، والتربية يبقي الطفل سليمًا من الإنحراف.

واستخلص سيد قطب من الآية الكريمة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

أن القرآن يربط بين فطرة النفس البشرية وبين طبيعة الإسلام،وأن الله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل عليه هذا الدين، ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الإنحراف، وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير. والفطرة ثابتة والدين ثابت ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم بردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع فطرة البشر وفطرة الوجود[٢].

ثانيًا: تربية العقل على التدبر والتفكر:

في مطلب التربية العقلية من هذا البحث ذكرنا اهتمام القرآن الكريم بالعقل وأهم الوسائل التي يتبعها للارتقاء بالعقل البشري.

فقد شرف الله تعالى العقل بأن خاطبه وجعله مناط التكليف، وحثه على البحث والنظر والتفكير والتدبر، ووجه انتباهه إلى خلق السماوات والأرض وما فيهما من نجوم وأفلاك وبحار وأنهار وما فيهما من عجائب المخلوقات، وسنن الكون وأنظمة الوجود.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر: نظرات في التربية الإسلامية، عزالدين التميمي وبدر إسماعيل سمرين، ص٨٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، ٦/ ٤٥٤.

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:١٠١].

يقول أبو حيان الأندلسي في تفسيره لهذه الآية: «أمر تعالى بالفكر فيما أودعه تعالى في السموات والأرض؛ إذ السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكر في مصنوعاته، ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب، وما يختص بذلك من المنافع والفوائد، وفي العالم السفلي في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان، وخصوصًا حال الإنسان. وكثيرًا ما ذكر الله تعالى في كتابه الحض على الفكر في مخلوقاته تعالى وقال: ماذا في السموات والأرض تنبيهًا على القاعدة الكلية، والعاقل يتنبه لتفاصيلها وأقسامها»[(١)].

فالعقل هو السبيل الذي يوصلنا إلى وجود الله تعالى وإلى قدرته تعالى.

وقد ذم الله تعالى الذين لا يتفكرون بقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

يقول أبو حيان: «إنهم لفرط كفرهم يمرون على الآيات التي تكون سببًا للإيمان ولا تؤثر فيهم، وأن تلك الآيات هي في العالم العلوي وفي العالم السفلي»[(٢)].

(١) البحر المحيط، ٦ / ١٠٩.
(٢) المصدر السابق ٦ / ٣٩١.

ويشير القرطبي إلى القراءات الواردة في الآية، «وقرأ عكرمة وعمروبن فائد (والأرض) رفعًا ابتداء، وخبره ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ وقرأ السدي (والأرض) نصبًا بإضمار فعل، والوقف على هاتين القراءتين على: السماوات وقرأ ابن مسعود: (يمشون عليها)»[(٣)].

تهدف التربية القرآنية إلى ترقية عقل الإنسان من خلال تأهيله للإيمان بالله كما تؤهله للبحث عن حقائق الأشياء ومعرفة مكانه من هذا الكون، وترتفع به لإدراك الحق.

ومن الأدلة على أن الهدف من التربية القرآنية تربية العقل:

ما ورد في القرآن الكريم من آيات تعلي من شأن العقلاء حين مدحت أولي الألباب، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران:١٩١].

إن آيات القرآن تحمل بشدة على الذين لا يرتقون بعقولهم وتفكيرهم، بل يبقون في مراتب هابطة من التفكير، وقد وصفهم الله تعالى بالأنعام.

إن الإيمان بالله ينبع من احترام العقل وحب العلم وتحري الحقيقة: فالله سبحانه

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٢٧٢.

أعطى الإنسان أكبر منحة وأكبر ميزة ألا وهي العقل. بالعقل يصبح الإنسان إنسانًا[1].

وقد زخرت الآيات القرآنية ببيان إعمال العقل في التفكير، لتعليمنا الدقة وكيفة الاستنتاج والاستدلال والاستنباط، وهذه العمليات العقلية معنية بتربية العقل والذهن، فالقرآن يربي الإنسان على إعمال عقله في التفكير في مخلوقات الله عزوجل، وذلك ليعلمه الدقة وكيفية الاستدلال والاستنتاج، وهذا هو المعني في تربية العقل والذهن ومطالبته بالتدبر والتفكير والاستنتاج القياسي والاستقرار.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف:٣].

«والقرآن يربي الفكر على عدم قبول شيء بغير حجة أو برهان أو علم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[الحج:٨-٩]»[2].

ثالثًا: إعداد الإنسان الصالح:

تهدف التربية القرآنية إلى إعداد الإنسان الصالح الفاضل ذي الخلق القويم والعزيمة القوية، القادر على التلاؤم مع حياة المجتمع الذي ينتمي إليه وممارسة دوره النافع فيه، وهو الذي يكون بحق خليفة الله في هذه الأرض؛ لذا ينبغي أن يكون هذا الإعداد شاملًا لجوانب حياته كافة الخاصة والعامة في الدنيا والاخرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾[القصص:٧٧][3].

وهذا الإنسان كرمه الله تعالى وفضله على غيره بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء:٧٠]

وهذا الإنسان سخر الله له جميع الكائنات.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:١٣].

والإنسان المفضل على غيره من الكائنات، له دور مهم في الحياة، وإنه ذو

(١) انظر: نظرات في التربية الاسلامية، عزالدين التميمي وبدر اسماعيل سمرين، ص ٦٨.
(٢) التربية الإسلامية وأثرها في الفرد والمجتمع، محمد خلف عساف، ص١٩٢.
(٣) انظر: التربية وأساليبها في التشريع الإسلامي، سناء هدلة، ص ٢٠٢٦.

فطرة خيرة.

وقد دعا القرآن الكريم إلى المحافظة على هذه الفطرة وتربيتها، وذلك من خلال: تنمية جسمه وبدنه، من خلال التربية البدنية، وتثقيف عقله وتسديد أفكاره من خلال التربية العقلية، وتوجيه مستمر لأعماله في الحياة، من خلال التربية الأخلاقية.

وقد حدد الله تعالى معيار الإنسان الصالح في سورة العصر، وجمعه في نقاط أربعة:

١. الإيمان.
٢. العمل الصالح.
٣. التواصي بالحق.
٤. التواصي بالصبر.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

من أساليب التربية في القرآن

أولًا: القدوة الحسنة:

المراد من القدوة كما يبينه إسماعيل حقي: «هي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره؛ إن حسنًا، وإن قبيحًا، وإن سارًّا، وإن ضارًّا»[(١)].

فالقدوة من حيث هي متابعة من المقتدي للمقتدى به في فعله، ويرادفها في المعنى: الأسوة، والتقليد، والمحاكاة، والتشبه.

والقدوة هي أنجح الوسائل للتربية على الإطلاق وأجداها وأنفعها: لأن من السهل تأليف كتاب أو جملة من الكتب تضل حبرًا على الورق، ما لم يترجم إلى أفعال وتصرفات ومشاعر.

يقول الأديب المبدع مصطفى صادق الرافعي: «لو أقام الناس عشر سنين يتناظرون في معنى الفضائل ووضعوا في ذلك مائة كتاب ثم رأوا رجلًا فاضلًا وخالطوه وصاحبوه لكان الرجل وحده أكبر فائدة من كل المناظرة وأدل على الفضيلة من ألف كتاب. ولهذا أرسل الله رسولًا مع كل كتاب»[(٢)].

والقرآن الكريم أبدى اهتمامًا بالقدوة الحسنة مبينًا تأثيرها في الإيمان، وأمر

(١) روح البيان، ٩/ ٣٨٥.
(٢) وحي القلم، ٣/ ٣٨.

المسلمين بالتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

قال البيضاوي: «قد كان لكم في رسول اللّه أسوةٌ حسنةٌ خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد، أو هو في نفسه قدوة يحسن التأسي به كقولك في البيضة عشرون منًّا حديدًا، أي: هي في نفسها هذا القدر من الحديد، وقرأ عاصم بضم الهمزة، وهو لغة فيه»[(١)].

ويتجلى هذا الأسلوب في القرآن الكريم بإبراز النماذج الحسنة في التأريخ لكي يقتدي بهم المؤمنون، وكذلك تسليط الضوء على النماذج السيئة من أفراد وجماعات للتحذير منهم ومن أفعالهم.

وهذه القدوة ليست محصورة في زمن النبوة، بل هي باقية ما بقيت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧].

«إن شخصية الرسول هي القدوة الحسنة الدائمة المتجددة على مر الأجيال والعصور. تظل حيويتها دافعة شاخصة ولا تتحول إلى خيال مجرد. حقًّا كان رسول الله بشخصيته وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن وتعاليمه وأدابه وتشريعاته، ولما فيه من أسس تربوية إسلامية وأساليب تربوية قرآنية»[(٢)].

ثانيًا: الحوار:

الحوار هو مبادلة الكلام بين شخصين أو أكثر في صورة سؤال وجواب أو غيره، دون وجود دليل على خصومة بينهما.

وهناك مصطلحات قريبة من معنى الحوار مثل: الجدل والجدال والمجادلة. وفي معنى هذه المصطلحات.

يقول النووي: «الجدل والجدال والمجادلة مقابلة الحجة بالحجة، وتكون بحق وباطل، وأصله الخصومة الشديدة، ويسمى جدلًا؛ لأن كل واحد يحكم خصومته وحجته إحكامًا بليغًا على قدر طاقته تشبها بجدل الحبل، وهو إحكام فتله»[(٣)].

ولكن يبدو أن هناك فروقًا بين هذه المصطلحات، فالجدال يفيد معنى الصراع، لكن الحوار تتسع للصراع ولغيره[(٤)].

الحوار أوسع مدلولًا من الجدال الذي يفيد معنى الصراع بينما تتسع كلمة الحوار للصراع ولغيره مما يراد منه إيضاح الفكرة. فحيثما وجد الجدال وجد الحوار، وليس

(١) أنوار التنزيل، ٤/ ٢٢٨.

(٢) منهج القرآن الكريم في تربية الإنسان، رؤية منظومية، مصطفى محمود حوامدة، ص ٦٩.

(٣) تهذيب الاسماء واللغات، ٣/ ٤٥.

(٤) انظر: منهجية الحوار في القرآن الكريم، محمد عبداللطيف ص ١٨٤.

كلما وجد الحوار وجد الجدال، لأن الجدال ومعه المحاجة يعطيان الحوار قوة العناد للفكرة والإصرار عليها.

وقد وردت مادة حوار في ثلاثة مواضع:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤].

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[الكهف:٣٧].

والحوار هنا وما قبله، يدور بين صاحبين: أحدهما: غني طاغ، والآخر: فقير صابر مؤمن.

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١].

يقول شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي حول تفسير هذه الآية: «وقوله- سبحانه-: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ جملة حالية، والتحاور: مراجعة الكلام من الجانبين. يقال:حاور فلان فلانا في الكلام إذا راجعه فيما يقوله، أي: والحال أن اللّه تعالى يسمع ما يدور بينك- أيها الرسول الكريم- وبين تلك المرأة، من مراجعة في الكلام،ومن أخذ ورد في شأن قضيتها، والمقصود بذلك: بيان الاعتناء بشأن هذا التحاور، والتنويه بأهميته، وأنه تعالى قد تكرم وتفضل بإيجاد التشريع الحكيم لحل هذه القضية. وعبر- سبحانه- بصيغة المضارع، لزيادة التنويه بشأن ذلك التحاور، واستحضار صورته في ذهن السامع، ليزداد عظةً واعتبارًا»[(١)].

والقرآن الكريم استخدم في آياته ولأغراض تربوية عدة أسلوب الحوار والجدال، منها: تنبيه الغافل أو إرشاد لمسترشد، أو إفحام لمعاند .

وفي القرآن الكريم كثير من نماذج الحوار في قصص الأنبياء مع أقوامهم، وقصص الأقوام السابقين، والحوار بين الله سبحانه وإبليس، والحوار مع الملائكة حول خلق آدم والسجود له، وكل ذلك يدلنا على أهمية الحوار واستخدامه في الحياة.

ثالثًا: القصص:

اهتم القرآن الكريم بالقصة، ونظرًا للأثر الكبير للقصة على أفهام سامعيها، وكونها وسيلة ناجحة وتربوية، وللميل الفطري للقصة لما لها من تأثير كبير، وذكرها بأساليب متنوعة مستخدمًا كل أنواعها.

يقول محمد قطب: «يدرك الاسلام الميل الفطري إلى القصة ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم.. وهو يستخدم كل أنواع القصة»[(٢)].

(١) الوسيط ١٤/ ٢٤٥.
(٢) منهج التربية الإسلامية، ١/ ١٩٣.

وكون القرآن الكريم كتاب هداية، فقد استخدم أسلوب القصة لهداية الناس وتحذيرهم وتنبيههم من الغفلة ومن مخاطر الدنيا وويلاتها ومصائبها. وأغلب القصص القرآنية من حوادث الغيب المتعلق بالماضي، والمؤمن عليه الإيمان بالغيب. فالقصة تربينا على الإيمان بها. قال تعالى معلقًا على قصة كفالة زكريا لمريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران:٤٤].

قال الرازي: «كان معلومًا عندهم علمًا يقينيًا أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي وإن كانت في غاية الاستبعاد إلا أنها نفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع ولا قراءة، ونظيره ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص:٤٤].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٦].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]»[1].

وقد أبرز القرآن الكريم أهمية القصص الإيجابية، وتأثيرها النفسي والأخلاقي في التربية وتهذيب النفس البشرية.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف:٣].

فقد سمى الله سبحانه قصة يوسف بأحسن القصص لما اشتملت عليه من مواعظ ودروس وعبر في كيفية التعامل الأب مع الأولاد، ومواجهة النفس والشيطان وغيره من العبر.

يقول السعدي: «﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورونق معانيها، ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذاك محض منة من الله وإحسان»[2].

والقرآن مليء بالقصص الهادفة كقصة يوسف ونوح وإبراهيم وأصحاب الكهف ومريم وغيرها. وقد ركزت القصة في القرآن

(١) مفاتيح الغيب، ٨/ ٢١٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ٣٩٣.

الكريم على الجوانب الروحية والخلقية التي تعمل على تزكية الروح والنفس، وترقية الوجدان وترسيخ الفضائل، وهي تهدف أيضا إلى تثبيت الفؤاد والتفكر والإعتبار[1].

يقول الشيخ محمد عبدة: «إن قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن الكريم لم يقصد بها سرد الوقائع مرتبة حسب أزمنتها، وإنما المراد بها: الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب لها وبيان النقم بعللها لتتقي من وجهتها، ومتى ما كان هذا هو الغرض من السياق، فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التربية وأدعى إلى التأثير»[2].

رابعًا: الترغيب والترهيب:

آيات الترغيب والترهيب في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى.

فقد استخدم القرآن الكريم لكل عمل صالح ترغيبًا فيه بيان ثوابه، وعلى فعل كل سيئة ترهيبًا يتضمن بيان عقابه، سواء كان العقاب في الدنيا أو في الآخرة.

ففي الترغيب في العمل الصالح، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

ما أجمل قول سيد قطب في تفسير الآية حين يقول: «وبمناسبة الحساب والجزاء قرر الله سبحانه ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباده، فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن- فليس مع الكفر من حسنة!- فله عشر أمثالها. ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، لا يظلم ربك أحدًا ولا يبخسه حقه»[3].

وفي الترهيب من ترك الصلاة، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:١-٧].

قال سيد قطب: «إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾، فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون!

إنهم ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

إنهم أولئك الذين يصلون، ولكنهم لا يقيمون الصلاة.

الذين يؤدون حركات الصلاة، وينطقون بأدعيتها، ولكن قلوبهم لا تعيش معها، ولا تعيش بها، وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسبيحات. إنهم يصلون رياء للناس

(١) انظر: فصول في تدريس التربية الإسلامية. حسن جعفر الخليفة وكمال الدين محمد هاشم، ص ٣١.

(٢) طرق تعليم التربية الإسلامية، محمد عبدالقادر أحمد، ص٦٢-٦٣.

(٣) في ظلال القرآن، ٣/ ١٢٤٠.

لا إخلاصًا لله. ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها»[١].

خامسًا: ضرب الأمثال:

ضرب المثل من الأساليب التربوية الناجحة، فهو «يعتمد على تصوير المعاني وتحليلها بضرب الأمثلة والتشبيهات، وهذا الأسلوب له دور في التربية أبلغ أثرًا من مجرد التلقين المباشر، لأنه يثير عواطف المتلقي ويحرك مشاعره، ويجسد المعاني مما يجعله تسهل في الفهم وترسخ في الذهن»[٢].

وقد أطلق علماء البلاغة على الأمثال بالمصطلح القرآني عبارة (التشبيه التمثيلي).

يقول محمد أبو زهرة: «يعرف علماء البلاغة التشبيه التمثيلي بأنه جعل أحد الشيئين في مقام الشيء الآخر لأمر مشترك بينهما، والأمثال القرآنية باب من أبواب التشبيه التمثيلي، وقد جعلها الله من ينابيع الاستدلال في القرآن»[٣].

الأغراض التربوية للأمثال في القرآن الكريم:

١. استخدام الأمثال لتقريب المعاني.

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، ولكن ذكر مسائل صعبة الإدراك على الناس، فاحتاج إلى التوضيح لتقريب هذه المعاني إلى أذهان الناس. يقول الباحث يزيد الحمزاوي: «كانت أغلب الأمثال القرانية في العقائد والإيمانيات، أما المعاملات والسلوكيات فقد كثرت أمثالها في السنة النبوية، فالأمثال تلعب دورًا هامًّا في تحويل الغيبيات إلى مشاهد حاضرة أمام العيان، حتى لا يشرد الخيال بعيدًا في إدراك الحقائق كما هي»[٤].

٢. ضرب المثل لإقناع المخاطب واستثارة تفكيره.

القرآن الكريم كتاب هداية للناس، عندما يريد استثارة التفكير للتأمل يستخدم لذلك الأمثال، «فالأمثال ساقها الله في القرآن للناس لتكشف الغامض أمامهم وتقنعهم بما يساق لهم من الدليل الواضح الناتج عن الموازنة الحسية، أو المعنوية الدقيقة التي لا تدع مجالًا للشك»[٥].

ومن خلال التفكر في معنى المثل يصل الإنسان إلى معرفة الله بمعرفة آثاره الدالة عليه، فالعقلاء العالمون هم الذين يصلون ببصيرتهم إلى هذه المعرفة، عندئذ يخشونه حق خشيته ويتعظون بالحوادث

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٩٨٥.
(٢) فصول في تدريس التربية الإسلامية، حسن جعفر خليفة وكمال الدين محمد هاشم، ص٢٧.
(٣) القرآن المعجزة الكبرى، ص٢٦٠.
(٤) المدولات التربوية للأمثال القرآنية، ص٤٥-٤٦.
(٥) الأمثال في القرآن الكريم خصائصها التربوية وسماتها التربوية،سامي عطا حسن، ص١٨.

والأمثال وينتفعون بما فيها من عبر وأحكام، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

ومن الأمثلة عليه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

والنسيان من طبيعة الإنسان، والمثل يعمل على ترسيخ الأفكار في الذاكرة وصعوبة نسيانها. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤].

٣. ضرب المثل للترغيب والترهيب.

المتأمل لآيات الترغيب والترهيب يجد في بعضها ضربًا للأمثال، وذلك لكي يتأكد وقوعه في القلب.

يقول الشيخ مناع القطان: «يضرب المثل في الترغيب في الممثل، حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس، ويضرب المثل للتنفير أو الترهيب ويكون الممثل به مما تكرهه النفوس»[(١)].

ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦١].

٤. ضرب المثل لإبراز النموذج للإعتبار أو لإبراز القدوة.

استخدم معنى المثل لغرض إبراز نموذج ما، للاقتداء به أو للنفور منه في عدة آيات من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد:٣].

يقول سيد قطب: «وكذلك يضع لهم القواعد التي يقيسون إليها أنفسهم وأعمالهم. فيعلمون المثل الذي ينتمون إليه ويقاسون عليه. ولا يحتارون في الوزن والقياس! ذلك الأصل الذي قررته الآية الأولى في السورة، يرتب عليه توجيه المؤمنين لقتال الكافرين. فهم على الحق الثابت الذي ينبغي أن يتقرر في الأرض، ويستعلي ويهيمن على أقدار الناس والحياة ليصل الناس بالحق وليقيم الحياة على أساسه. والذين كفروا على الباطل الذي ينبغي أن يبطل وتذهب آثاره من الحياة»[(٢)].

(١) مباحث في علوم القرآن، ص٢٨٨.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٢٨١.

مما سبق عرفنا مدلول المثل وأهميته وتوظيف القرآن الكريم له بأساليب شتى لخدمة أغراض تربوية.

سادسًا: العبر والمواعظ:

اهتم القرآن الكريم بأسلوب الموعظة كعامل محفز وباعث على أعمال الخير:

يقول الدكتور عبدالله ناصح علوان عن هذا الأسلوب: «من أهم الأساليب التي يسلكها القرآن الكريم في نصائحه ومواعظه، وهي أساليب متنوعة لها إيحاءاتها المؤثرة وحساسياتها البالغة واهتزازاتها الضاربة على أوتار القلوب»[1]. وقد راعى القرآن الكريم في أسلوب الموعظة، عدة أمور منها:

١. أن تكون النصيحة بالسر؛ لأن تأثر الكلام والنصيحة بالسر أبلغ وأقوى. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾[النساء:٦٣].

٢. أن تكون النصيحة بأحسن ما يمكن متخيرًا أحسن الألفاظ. قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥].

٣. أن يكون الناصح من العاملين بالنصيحة قبل أن ينصح به غيره. يقول تعالى مذممًا أشخاصًا يقولون ما لا يفعلون: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

(١) تربية الأولاد في الإسلام، ٢/ ٣.

التربية بين القرآن والمناهج البشرية

بعد أن سلطنا الضوء على التربية القرآنية وعرفنا خصائصها ووسائلها، استكمالًا للفائدة نبحث عن نقاط الاختلاف والاتفاق بينها وبين التربية في المناهج البشرية قديمها وحديثها، وذلك من حيث النقاط التالية:

١. المصدر.

فالتربية القرآنية مصدرها الله تعالى خالق الكون وخالق الإنسان، فهي بذلك مبرأة من كل عيب ونقصان يعتري المناهج التربوية البشرية. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

٢. المبادئ العامة.

يتجلى المبدأ الواضح للتربية في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فالتربية القرآنية تعرف الإنسان بخالقه وتنظم العلاقة بينهما على أساس من ربانية الخالق وعبودية المخلوق. بينما التربيات والأفكار الأخرى تتخبط في أفكارها:

«مبدأ الفلسفة الطبيعية هو أن الطبيعة الذاتية هي التي ترعى وتهذب السلوك للأفراد، أما المثالية فآمنت بوجود أفكار عامة ثابتة مطلقة مستقلة من عالم الخبرات اليومية ومقرها العالم المثالي، والحقيقة النهائية توجد في عالم الأفكار أو عالم الحقيقة المطلقة، ومبدأ الواقعية هو أن الواقع يشمل الحقائق جميعها وهو عالم مستقر وثابت، في حين نظرت البراجماتية إلى أن العالم نسبي غير ثابت وفي حالة تغيير مستمر»[(١)].

٣. النظرة إلى التربية.

تربية القرآن الكريم للإنسان تربية شاملة لروحه وعقله وجسده ونفسه، بحيث تخلق التوازن المسمى بالتكامل، بخلاف التربيات الأخرى:

تقول الدكتورة ليلى البيومي: «فالتربية اليونانية مثلًا قد اهتمت اهتمامًا بالغًا بالجانب العقلي للإنسان في الوقت الذي أهملت فيه بقية الجوانب الأخرى، في حين أن التربية الرومانية ركزت اهتمامها على الجانب الجسمي مقابل إهمال غيره من الجوانب. أما التربية المسيحية فقد عنيت كثيرًا بالجانب الروحي للإنسان على حساب غيره من الجوانب الأخرى، وهكذا»[(٢)].

فالتربية التي ركزت على القوة والجسم

(١) التربية من وجهة نظر الفلسفات الفكرية والتربية الإسلامية، المعتصم بالله الجوارنة، بحث منشور في موقع تربيتنا بتأريخ ١٤/١/١٤٣١هـ.

(٢) نموذج التميز بين التربية الإسلامية والغربية، ليلى البيومي، مقال منشور على موقع المسلم بتأريخ ٢٠/٧/١٤٢٧هـ.

وحدها، ولم توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح، كانت وبالًا على قومها وشرًّا أصاب غيرها [١].

٤. النظرة إلى القيم.

المقصود بالقيم والمباديء الإسلامية: «توجيهات الإسلام في مختلف شؤون الحياة، والتي تقوم أساسًا على التعامل مع الفرد والجماعة والجماد والحيوان. فمن ذلك: الإخلاص والإتقان في العمل، الصدق، الأمانة، الشفقة، الرحمة، الرفق» [٢]. فالقيم القرآنية لا تتغير بتغير الزمان والمكان: فقيم الصدق والأمانة والوفاء ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

بينما ترى الفلسفة الطبيعية أن القيم متغيرة، والفلسفة المثالية ترى أن القيم لا تتغير، والفلسفة البراجماتية ترى أن قيم الحق تتغير بتغير الزمان والمكان [٣].

٥. أساليب التربية.

رأينا في مبحث أساليب التربية في القرآن تنوعًا وتجددًا في الأساليب من التربية بالقدوة إلى أسلوب القصة والعظة والترغيب والترهيب. وهو ما يميز التربية القرآنية عن غيرها من التربيات. فالأساليب والوسائل التربوية التي أشار إليها القرآن الكريم متعددة ومتنوعة وترك اختيار الأسلوب المناسب لتنفيذها لحكمة المربي وخبرته بما يتوافق والحالة التي يتعامل معها والبيئة المحيطة به والظروف المتغيرة على مر الزمن ووفق قواعد وأسس تقوم على ركائز (العقيدة - العبادات - الأخلاق) [٤].

٦. الهدف من التربية.

التربية القرآنية تدعو الإنسان إلى أن يرتبط بخالقه وتسلك سلوكًا يتفق مع عقيدة الإسلام، وهذا معناه اشتمال التربية على العملية التربوية والتعليمية معًا، سواء في البيت أو المدرسة أو المجتمع. ولكن المناهج التربوية الأخرى تفصل بين التربية والتعليم.

تتميز التربية القرآنية عن غيرها في أنها: «تسعى إلى ايجاد الإنسان الصالح بكل ما تحمله هذه الكلمة من المعاني الإنسانية، فهي تنمي في الإنسان المسلم حسن التعامل مع كل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأوطانهم على أنهم بشر خلقهم الله عزوجل، وأن مقياس التفاضل بينهم ما قرره الله عزوجل في كتابه العزيز ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) انظر: تربية المسلم في عالم معاصر، يوسف عبدالمعطي، ص ٤١.
(٢) التوجيه الإسلامي لأصول التربية، عبدالرحمن الحازمي، ص ٢٠٤.
(٣) انظر: التربية من وجهة نظر الفلسفات الفكرية والتربية الإسلامية، المعتصم بالله الجوارنة، بحث منشور في موقع تربيتنا بتأريخ ١٤/ ١/ ١٤٣١هـ.
(٤) انظر: إعداد الإنسان الصالح في ضوء التربية القرآنية، داود درويش حلّس، ص ٢٦.

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣]»[١].

فالهدف من التربية في المناهج البشرية هو إعداد المواطن الصالح، أي: الصالح لوطنه ولمجتمعه فقط، وليس صالحًا للمجتمعات الأخرى، بينما يهدف منهج القرآن الكريم إلى إعداد الإنسان الصالح. وفي مبحث الغاية من التربية، تكلمنا عن الإنسان الصالح واهتمام القرآن الكريم بتربيته.

موضوعات ذات صلة:

التربية، الدعوة، الترهيب، النصيحة

(١) الخلاصة في أصول التربية الإسلامية، علي بن نايف الشحود، ص ٢٣-٢٤.

الترغيب

عناصر الموضوع

مفهوم الترغيب	٣٤٤
التّرغيب في الاستعمال القرآني	٣٤٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٦
أساليب عرض الترغيب	٣٤٨
مجالات الترغيب	٣٥٠
صور الترغيب في القرآن الكريم	٣٧١
أثر الترغيب في سلوك المرء	٣٨٠
فوائد الترغيب في التربية والدعوة	٣٨١

مفهوم الترغيب

أولًا: المعنى اللغوي:

يرجع أصل كلمة الترغيب إلى الفعل الثلاثي (رغب)، ويأتي هذا الفعل على معنيين:

الأول: الإرادة، يقول الراغب الأصفهاني: «والرّغبة والرّغب والرّغبى: السّعة في الإرادة»[1]، يقال: رغب في الشيء رغبًا ورغبةً ورغبى، ورغبًا بالتحريك بمعنى أراده وحرص عليه، وأرغبني في الشّيء ورغّبني ورغّبه أعطاه ما رغب، أي: ما أراد، والرغبة إرادة الشيء والسعة في الإرادة، فإذا قيل: رغب فيه وإليه؛ اقتضى الحرص عليه إذا أراده، والرغيبة العطاء الكثير لكونه مرغوبًا فيه.

الثاني: ويأتي بمعنى الترك، يقال: رغب عن الشيء تركه متعمدًا، وزهد فيه ولم يرده، فإذا قيل: رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّفه عبد الكريم زيدان: «كل ما يشوّق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق، والثبات عليه»[3].

وقال عبد الرحمن النحلاوي: الترغيب: «وعد يصحبه تحبيب وإغراء، بمصلحة أو لذة أو متعة آجلة، مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة أو عمل سيء؛ ابتغاء مرضات الله، وذلك رحمة من الله لعباده»[4].

والتعريف المختار هو: «وعد من الله سبحانه و تعالى لعباده فيه تحبيب وإغراء بمصلحة، أو لذة أو متعة عاجلة أو آجلة، يتبعه حرص وإرادة، مقابل القيام بعمل صالح أو ترك عمل سيء؛ طاعة لله سبحانه وتعالى»[5].

فلا يبعد المعنى الاصطلاحي للفظ عن معناه اللغوي الأول، إلا أن المعنى الاصطلاحي فيه زيادة توضيح.

(١) المفردات، ص ٣٥٨.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ١/ ٢٦٧،لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٤٢٢، المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٢٣١.
(٣) أصول الدعوة، ص٤٣٧.
(٤) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص٢٥٧.
(٥) الترغيب والترهيب ودورهما في استقامة الإنسان ص ٣.

الترغيب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رغب) في القرآن الكريم (٨) مرات، يخصّ موضوع البحث منها (٥) مرات[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	١	﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ [النساء:١٢٧]
فعل الأمر	١	﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح:٨]
المصدر	١	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]
اسم الفاعل	٢	﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة:٥٩]

وجاء الترغيب في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: طلب الشيء، والحرص عليه، والطمع فيه[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الراء، ص٥٩١.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤١٥، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٥٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٨٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإرادة:

الإرادة لغة:

القصد، يقال: إرادتي بهذا لك، أي: قصدي[١].

الإرادة اصطلاحًا:

ميل يعقب اعتقاد النفع[٢].

الصلة بين الإرادة والترغيب:

الإرادة تعني الميل لتحقيق نفع أو فائدة، والترغيب وعد يصحبه تحبيب وإغراء للحصول على نفع أو فائدة، فكلاهما يحقق النفع والفائدة.

٢ الوعد:

الوعد لغةً:

(الوعد) يستعمل في الخير والشّرّ، يقال: (وعد) يعد بالكسر (وعدًا)، قال الفرّاء: يقال: (وعدته) خيرًا ووعدته شرًّا، فإذا أسقطوا الخير والشّرّ قالوا في الخير[٣].

الوعد اصطلاحًا:

العهد في الخير[٤].

الصلة بين الوعد والترغيب:

الوعد أكثر ما يستعمل في الخير، والترغيب وعد يصحبه حرص وإرادة لحصول متعة أو منفعة، وتكون في الخير.

(١) لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ١٨٨.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص ١٦.
(٣) مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٤٢.
(٤) التوقيف، المناوي، ص ٣٣٩.

٣ الحث:

الحث لغةً:

السرعة والتّحرّز[١].

الحث اصطلاحًا:

«التحريض على الشيء، والحمل على فعله بتأكيد وإسراع»[٢].

الصلة بين الحث والترغيب:

الحث يعني: التأكيد على فعل أمر معين والإسراع فيه، والترغيب تحفيز وحث وإسراع لتحقيق منفعة أو لذة في الدنيا أو الآخرة.

٤ الترهيب:

الترهيب لغةً:

رهب الشيء رهبًا ورهبًا ورهبةً خافه[٣].

الترهيب اصطلاحًا:

وعيد وتهديد من الله سبحانه و تعالى بعقوبة عاجلة أو آجلة؛ لتخويف العباد من اقتراف الذنوب والمعاصي، أو التهاون في أداء الفرائض التي أمر الله بها[٤].

الصلة بين الترغيب والترهيب:

أنّ الترغيب من الألفاظ المقابلة للترهيب، فالترغيب وعد وتحبيب وإرادة ولذة ومتعة، أما الترهيب فهو وعيد وتهديد وخوف وفزع.

(١) المفردات، الراغب، ص٢١٨.
(٢) التوقيف، المناوي، ص ١٣٥.
(٣) انظر: المفردات، ص٣٦٧.
(٤) الترغيب والترهيب ودورهما في استقامة الإنسان، أحمد رزق، ص ٣.

أساليب عرض الترغيب

إنّ المتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أنّ أسلوب الترغيب جاء على ثلاثة أنواع:

أولًا: الجمع بين الترغيب والترهيب في آية واحدة:

جاء هذا الأسلوب في آيات كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فهذه الآية الكريمة اشتملت على الترغيب والترهيب معًا، فالترغيب تمثّل في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والترهيب جاء في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، لأعدائه بإهلاكهم في الدنيا، ثم رغّب من يستحق الترغيب من المسلمين فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: كثير الغفران لأوليائه عظيم الرحمة بجميع خلقه[1].

ثانيًا: الجمع بين الترغيب والترهيب في آيتين منفصلتين متتابعتين:

قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠].

فقد جاء الترغيب في آية مستقلة بذاتها ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، والترهيب في آية أخرى ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، يقول السعدي: «ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنة والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى، فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ أي: أخبرهم خبرًا جازمًا مؤيدًا بالأدلة، ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته سعوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته»[2].

ومثال آخر على هذا الأسلوب: قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

فقد اشتملت الآية الأولى على الترهيب من انتقام الله وبطشه، وجاءت الثانية للترغيب في رحمة الله ومغفرته.

ثالثًا: الجمع بين الترغيب والترهيب في مقطع قرآني:

وهذا الأسلوب يأتي ضمن مجموعة من الآيات تشتمل على الترغيب والترهيب، فقد رهّب سبحانه وتعالى من حال الكافرين وهم يساقون جماعات إلى جهنم، ورغّب بحال المتقين، وهم يدخلون الغرفات

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي، ٤/ ٢٩٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٣٢.

وبالثواب الذي أعده الله للفائزين بالجنة.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١- ٧٢].

يقول ابن عاشور في تفسيره: «ابتدئ في الخبر بذكر مستحقّي العقاب؛ لأنّه الأهمّ في هذا المقام؛ إذ هو مقام إعادة الموعظة والتّرهيب للّذين لم يتّعظوا بما تكرّر في القرآن من العظات مثل هذه، فأمّا أهل الثّواب فقد حصل المقصود منهم، فما يذكر عنهم فإنّما هو تكرير بشارةٍ وثناءٍ»[1].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤].

ومن الأمثلة على هذا النوع أيضًا: قوله تعالى واصفًا نعيم أهل الجنة: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٤٠].

يقول أبو بكر الجزائري في تفسيره: «﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ وهم الذين إذا وقفوا في عرصات القيامة أخذ بهم ذات اليمين وهم أهل الإيمان والتقوى في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ تفخيم لشأنهم وإعلان عن كرامتهم، ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ إنهم في هذا النعيم الدائم المقيم، إنهم يتفكّهون بالنبق الذي هو أحلى من العسل، وأنعم من الزبد، شجره مخضود الشوك لا شوك به، ويتفكّهون بالطلح، أي: ثمره وهو الموز، والماء المصبوب الجاري، والفاكهة الكثيرة التي لا تقطع بالفصول الزمانية كما هي الحال في فاكهة الدنيا، يوجد منها في الصيف ما لا يوجد في الشتاء مثلًا، ولا ممنوعة بثمن غال ولا رخيص، وفي فرش مرفوعة عالية علو الدرجات التي هي فيها، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ يعني:

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/ ٦٩.

الحور العين»[1].

وفي المقابل وصف القرآن صور العذاب الذي أعدّه الله لأهل النار جزاء لهم على كفرهم وعدم إيمانهم، فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٥].

يصف الله سبحانه وتعالى حال أهل النار وعذابهم، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ وهم أهل النار، الذين يؤخذ بهم ذات الشمال من موقف الحساب إلى النار ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ماذا لهم، وماذا أعدّ لهم، ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ تهبّ عليهم ريح شديدة الحرارة، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ وظل من دخان شديد السواد[2].

مجالات الترغيب

القرآن الكريم حافل بالآيات القرآنية المتضمنة للترغيب ومجالاته المتعددة، كالترغيب في الإيمان بالله والأعمال الصالحة والأخلاق، وسوف نتحدث عن كل مجال من هذه المجالات.

أولًا: الترغيب في الإيمان:

الإيمان بالله أول واجب على الإنسان، وعليه يقوم الإيمان ببقية أركان الإيمان؛ إذ لا يصح إيمان أحد بشيء من أركان الإيمان إلا بعد إيمانه بالله؛ حيث إن الله عز و جل هو الذي شرع الأركان الأخرى، وأمر العباد باعتقادها؛ لذا يذكر الإيمان بالله تعالى متقدمًا على بقية الأركان حين يذكر معها، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد رغّب القرآن الكريم بالإيمان في كثير من الآيات، ومن صور الترغيب ما يأتي:

١. نيل رضا الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

(١) أيسر التفاسير، ٥/ ٢٤٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ١٢٨.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٧٢].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «وأما قوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فإن معناه: ورضى الله عنهم أكبر من ذلك كله، بذلك جاء الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»[(١)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم»[(٢)]، فهذا الرضوان لا يكون إلا للمؤمنين كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

٢. تحصيل الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فإن الله أمر بالإيمان به سبحانه وتعالى، ووعد على ذلك الأجر العظيم في الآخرة[(٣)].

وقد ذكر الله عز و جل ثواب الذين آمنوا به سبحانه و تعالى بأن لهم أجورًا عنده قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢].

وذكر الله أجورهم نكرة ليدل على أنها أجورٌ عظيمة، كل حسب حاله؛ ليجتهد المؤمن فيعمل صالحًا، ويتقرّب إليه سبحانه و تعالى؛ كي يحصّل الأجر والثواب الجزيل، وبذلك يستمر المؤمن على طاعة ربه فيستقيم أمره في الدنيا والآخرة.

٣. الهداية والثبات في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

بيّن الله عز و جل أن من أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فآمن بالله عز وجل وبما كتب له فصبر واحتسب؛ كانت له الهداية القلبية، في جميع أحواله وأقواله وأفعاله وفي علمه وعمله، ويهديه في الآخرة لدخول الجنة، فيستقيم أمره كله[(٤)].

وقال عز و جل: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ

(١) جامع البيان، ١٤/ ٣٥٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٧٧.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٥٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣٧٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٦٧.

﴿لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فقد بيّن الله أن الذين آمنوا به سبحانه وتعالى فقد استمسكوا بالعروة الوثقى وهي الدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، فمن يؤمن بالله فقد اعتصم من طاعة الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانه إياه، كالمتمسك بالوثيق من عرى الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها[(١)]، وشبّه الله عز وجل ثبات المؤمن على إيمانه بالعروة القوية التي لا تنفصم؛ لإحكامها وشدة ربطها، فكان المتمسك بذلك على ثقة من أمره فيثبت على هذا الدين.

٤. الرفعة والعلو في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فإن الله يكرم المؤمن بالثواب في الآخرة، والكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم[(٢)].

٥. التمكين في الأرض والأمن.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

إن الله وعد من آمن به سبحانه و تعالى وعمل الأعمال الصالحات، بالاستخلاف في الأرض -أي: يجعلهم خلفاء فيها، ويثبت لهم دينهم ويظهره على جميع الأديان، ويذهب عنهم أسباب الخوف بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه وتعالى[(٣)].

٦. الحياة الطيبة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل٩٧].

إن الله وعد من آمن به سبحانه و تعالى وعمل صالحًا، أن يحييه حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمل في الدار الآخرة، واختلف في تفسير الحياة الطيبة: قيل: الرزق الطيب الحلال، وقيل: القناعة، وقيل: السعادة، وقيل: توفيقه إلى الطاعات، وقيل: الحياة في الجنة[(٤)]، فإنه وإن اختلف

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٢٥١.
(٣) انظر: تفسير القران العظيم، ابن كثير، ٦/ ٧٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٦٤١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٧٢.

في تأويل معنى الحياة الطيبة، فكل المعاني فيها ترغيب للمؤمن بالعمل الصالح؛ حتى يفوز بهذا الوعد، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه)[1].

٧. ولاية الله للمؤمنين,

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

يقول الطبري في تفسيره: «والله ناصر المؤمنين بمحمد، المصدّقين له في نبوّته وفيما جاءهم به من عنده، على من خالفهم من أهل الملل والأديان»[2].

٨. دخول الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

أكد الله سبحانه و تعالى لأولئك الذين آمنوا به، وصدّقوا بما جاء به، أن يدخلهم جنات وليس جنة واحدة، وفي ذلك ترغيب للمؤمن لتحصيلها، وذكر بعض ما فيها من النعيم مثل الأنهار التي تجري من تحتها، والأساور من الذهب والحرير، التي يلبسها الرجال والنساء ويتنعمون بها [3]، وأعظم فوز للمؤمنين دخول الجنة، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثانيًا: الترغيب في الأعمال الصالحة:

الأعمال الصالحة في القرآن الكريم كثيرة، ومن أهم الأعمال الصالحة التي لابد للمسلم أن يحرص عليها: العبادات، كالصلاة والزكاة والحج والصيام؛ لذلك نجد القرآن الكريم حافلًا بالآيات المرغبة بهذه العبادات ومن أهم هذه العبادات:

١. الترغيب في الصلاة.

إن الله ميّز الصلاة عن غيرها من العبادات بمميزات كثيرة، فهي صلة بين العبد وربه، وأول ما يحاسب عليها العبد يوم القيامة، وفرضت في السماء ليلة المعراج؛ لذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بإقامتها في كثير من الآيات؛ وذلك لأهميتها وعظم منزلتها، وأمرنا بالاستعانة بها في كل الأمور،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، ٢/ ٧٣٠، رقم ٢٤٧٣.
(٢) جامع البيان، ٦/ ٤٩٧.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٣٦.

قال سبحانه و تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال سبحانه و تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ولقد رغّب القرآن في الصلاة، ومن صور ترغيبه ما يأتي:

أنها سبب للانتهاء عن المعاصي: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالصلاة سياج للمؤمن من كل منكر، فجمعت طرفي المقصد شرعًا، وهما العون على الخير والحفاظ من الشر؛ ولذا فقد عني بها النبي صلى الله عليه وسلم كل العناية، كما هو معلوم إلى الحد الذي جعلها الفارق والفيصل بين الإسلام والكفر، فعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)[(١)].

تجلب الرزق: حيث إن المحافظة على الصلاة من أعظم الأسباب لتحصيل الرزق، قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

يخاطب الله سبحانه وتعالى محمدًا طالبًا منه أن يأمر قومه بالمداومة على الصلاة، وأن يوجّه أهله بتأدية الصلاة في أوقاتها، فإن أول واجبات المسلم أن يحوّل بيته إلى بيتٍ مسلم، ونحن لا نكلّفك رزق أحد، بل نطلب عملًا نؤتيك عليه أجرًا عظيمًا[(٢)].

فهذا الارتباط في الآية بين الصلاة والرزق لدليل على أن إقامة الصلاة، وأمر الأهل بها، باب عظيم من أبواب الرزق.

وقال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فلولا صلاة مريم في المحراب ومداومتها على الصلاة، لما نالت هذا الرزق الذي دهش له نبي الله زكريا عليه السلام[(٣)].

٣. تكفير السيئات ودخول الجنات.

قال تعالى: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في ترك الصلاة، ٤/ ٣٦٥، رقم ٢٦٢١.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي ٦/ ١٢١.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٣٠٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٢٨.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢].

لما أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل، أمرهم بإقامة الصلاة، فبيّن لهم ثواب تلك العبادة، بأنها سبب لتكفير السيئات ودخول الجنة، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما لم تغش الكبائر)[(١)].

تحصيل الرحمة: قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النور: ٥٦].

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وبطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ كي يرحمهم وينجيهم من عذابه يوم القيامة، فالصلاة سبب لتحصيل الرحمة من الله سبحانه و تعالى[(٢)].

وللصلاة دور كبير في استقامة الإنسان في الدنيا والآخرة، فهي ترشد إلي الخير، وتساعد على ترك الرذيلة والفاحشة، كما أنها سبب للظفر بثواب الله ودخول جنته، والصلاة بما اشتملت عليه من أقوال وأفعال تعوّد الإنسان أن يقرن العلم بالعمل، كما يظهر ذلك في ركوعه وسجوده، كما أن فيها تعويدًا على الإخلاص في العمل، وعلى النظام في الحياة بما فيها من ضبط للأوقات، وتنسيق لأداء أركانها، كما أن فيها تعويدًا على النظافة بما يشترط لها من طهارة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه سمع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: (أرأيتم لو أنّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كلّ يومٍ خمس مرّاتٍ هل يبقى من درنه شيء؟)، قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: (فذلك مثل الصّلوات الخمس يمحو اللّه بهنّ الخطايا)[(٣)].

وقد ذمّ الله المتخلفين عنها، وتوعّدهم بالوعيد الشديد، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥].

أي: مضيّعون لها، تاركون لوقتها، مفوّتون لأركانها وهم المنافقون؛ وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، ١/ ١٤٤، رقم ٥٧٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢١٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا، ٢/ ١٣١، رقم ١٥٥٤.

والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم، وأما السهو في الصلاة، فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة[1].

٢. الترغيب في الزكاة.

الزكاة الركن الثالث من أركان الإسلام، وفريضة من فرائضه؛ لذلك نجد القرآن الكريم حثّ على فعلها، وأدائها في كثير من الآيات، وهي قرينة الصلاة في مواضع كثيرة من كتاب الله، حيث قرنت الزكاة بالصلاة في اثنتين وثمانين آية، وفي ذلك دلالة على مكانتها عند الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، والحجّ، وصوم رمضان)[2]، وقد رغّب الله سبحانه وتعالى في أداء الزكاة، فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

«يقول سبحانه مخاطبًا رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن قام مقامه، آمرًا له بما يطهّر المؤمنين، ويتمّم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تطهّرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة»[3].

فقد شرع الله الزكاة تطهيرًا لنفوس البشرية من الشح والبخل والطمع، ومواساة للفقراء والمساكين والمحتاجين، وتطهيرًا للمال وتنميته، وإحلال البركة فيه، ووقايته من الآفات والفساد، وإقامة المصالح العامة التي تتوقف عليها حياة الأمة وسعادتها.

ولأهمية الزكاة ومكانتها عند الله سبحانه وتعالى، فقد جعلها إحدى الصفات التي يتميّز بها المؤمنون، عن المنافقين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، ١/ ١١، رقم ٨.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٥٠.

﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

يقول الطبري في تفسيره: «ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله، ويكفّونها عن الصدقة، فيمنعون الذين فرض الله لهم في أموالهم ما فرض من الزكاة حقوقهم»[(١)].

فهؤلاء المنافقون يقبضون أيديهم حرصًا على المال وشحًّا، فاستحقوا نسيان الله لهم، أما أولئك المؤمنون فيبسطون أيديهم بذلًا وإيمانًا، فاستحقوا أن يرحمهم الله، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتال من يمتنع عن دفع الزكاة، ويرفض أدائها، فعن ابن عمر رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّدًا رسول الله، ويقيموا الصّلاة، ويؤتوا الزّكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله)[(٢)].

وقد وصى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذًا حينما بعثه إلى اليمن أن يأمر أهلها بالزكاة، فقال صلى الله عليه وسلم: (إنّك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاّ اللّه وأنّي رسول اللّه، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ اللّه افترض عليهم خمس صلواتٍ في كلّ يوم وليلةٍ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ اللّه افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم)[(٣)].

وقد رغّب الله في الزكاة حيث إيتاء الزكاة ثمرة من ثمرات التمكين، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات أن من صفات الأبرار الإحسان، وأن مظهر إحسانهم يتجلى في القيام من الليل، والاستغفار في السّحر، كما يتجلى في إعطاء الفقير حقه؛ رحمةً وحنوًّا عليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ – ١٩].

حيث بيّنت هذه الآيات صفات المتقين الذين يستحقون دخول الجنة، بأنهم جعلوا في أموالهم جزءًا معيّنًا خصّصوه للسّائل المحتاج، الذي وضّحه الرسول صلى الله عليه وسلم في وصف المسكين في الحديث الذي رواه أبو هريرة، أنّ رسول الله

(١) جامع البيان، ١٤/ ٣٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، ١/ ١٤، رقم ٢٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، ١/ ٣٧، رقم ١٣٠.

صلّى اللّه عليه وسلّم، قال: (ليس المسكين بهذا الطّوّاف الّذي يطوف على النّاس، فتردّه اللّقمة واللّقمتان، والتّمرة والتّمرتان، قالوا: فما المسكين؟ يا رسول الله، قال: الّذي لا يجد غنًى يغنيه، ولا يفطن له، فيتصدّق عليه، ولا يسأل النّاس شيئًا)[1].

ويتمثل ترغيب القرآن في الزكاة بما يأتي:

الزكاة تطهر صاحبها من الشّح وتحرّره من عبوديّة المال، وهذان مرضان من أخطر الأمراض النّفسية التي ينحطّ معها الإنسان ويشقى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

يقول أبو السعود في تفسيره: «﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ﴾ الشّح بالضمّ والكسر، وقد قرئ به أيضًا: اللؤم، وإضافته إلى النفس لأنّه غريزةٌ فيها، مقتضيةٌ للحرص على المنع الذي هو البخل، أي: ومن يوق بتوفيق الله تعالى شحّها حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حبّ المال وبغض الإنفاق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى ﴿وَمَن﴾ باعتبار معناها العامّ المنتظم للمذكورين انتظامًا أوليًّا ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه»[2].

١. الزّكاة تدريبٌ على الإنفاق في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

٢. قد ذكر الله تعالى الإنفاق في سبيل الله على أنّه صفةٌ ملازمة للمتّقين في سرّائهم وضرّائهم، في سرّهم وعلنهم، وجعلها من أهمّ صفاتهم على الإطلاق، وقد قرنها بالإيمان بالغيب والاستغفار بالأسحار، والصّبر والصدق، والقنوت، ولا يستطيع الإنسان الوصول إلى الإنفاق الواسع في سبيل الله، إلا بعد أن يعتاد على أداء الزكاة، وهي الحدّ الأدنى الواجب إنفاقه.

٣. الزّكاة شكرٌ لنعمة الله، وعلاجٌ للقلب من حبّ الدنيا، وتزكية للنفس، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

٤. كما أنّها تزكية للمال نفسه ونماءٌ له[3]، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

٥. الزكاة تقرّب الفوارق بين طبقات الناس: حيث إنّ الإسلام يقر التفاوت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ما جاء في المسألة، ٣/ ٩٥، رقم ٢٣٥٧.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٢٩.
(٣) انظر: العبادة أحكام وأسرار، عبد الحليم محمود، ٢/ ١١.

في الأرزاق؛ لأنّه نتيجة للتّفاوت في المواهب والطّاقات، ولكنه يرفض أن يصير الناس طبقتين، إحداهما: تعيش في النعيم، والأخرى: في الجحيم، ويحرص على أن يشارك الفقراء الأغنياء في النعيم، كما يحرص على أن يملّكهم ما يسدّ حاجاتهم، والزّكاة إحدى الوسائل التي يستعملها الإسلام لبلوغ هذه الغاية، لذلك جعلها لأصناف معينة من الناس، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٦٠].

٦. للزكاة دور كبير في القضاء على ظاهرة التّسوّل، وفي التّشجيع على إصلاح ذات البين، ولو اضطر المصلحون إلى تحمل أعباء مالية، يمكن أن تؤدى من الزكاة.

٧. الزكاة تنجي العبد من الاتصاف بخصال المنافقين، وهي سبب لسعة الرزق، لا كما يعتقد أصحاب القلوب المريضة، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

٨. الزكاة سبب لمعية الله عز و جل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨].

٣. الترغيب في الصيام.

الصيام عبادة من أعظم العبادات، وفريضة من أوجب الفرائض، بل ركن من أركان الإسلام، وقربة من أشرف القربات، وطاعة مباركة، لها آثارها العظيمة والكثيرة العاجلة والآجلة، فالنصوص في فضل الصيام كثيرة، وكلها تحثّ عليه وترغّب فيه، وتبيّن ما للصائم من الثواب عند الله يوم القيامة، فمن ثمرات الصيام ما يأتي:

- تحصيل التقوى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣].

يخبر تعالى بما منّ به على عباده؛ حيث فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة؛ لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق، و فيه تنشيط لهذه الأمة، بأن تنافس غيرها في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى فعل الخيرات[1].

جمال الفاصلة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٦.

﴿تَتَّقُونَ﴾ جملة تعليلة جيء بها لبيان حكمة مشروعية الصيام، فكأنه سبحانه وتعالى يقول لعباده المؤمنين: فرضنا عليكم الصيام كما فرضناه على الذين من قبلكم، لعلكم بأدائكم لهذه الفريضة تنالون درجة التقوى والخشية من الله، وبذلك تكونون ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه»[1].

فالتقوى تتألف من عنصرين:

الأول: عنصر إيجابي، وهو القيام بما أمر الله سبحانه وتعالى به من فروض وواجبات، في القول، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان مع الإيمان مناط خيرية الأمة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

وكذلك بما أمر الله سبحانه و تعالى في الفعل، كالصلاة والصيام والحج وغيرها من العبادات.

والثاني: وهو الانتهاء عما نهى الله سبحانه وتعالى، كالغيبة والنميمة والغش ونحوهما. فإذا تحقق التقوى بالصوم، فقد تحققت القيم الروحية التي أحبها الله سبحانه وتعالى، وأراد أن يغرسها في قلب المؤمن[2].

❁ الصيام من أسباب استجابة الدعاء.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦].

❁ المغفرة والأجر والعظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

❁ الصيام يشفع لصاحبه يوم القيامة.

لما روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربّ؛ منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان)[3].

❁ فرح الصائم بما يناله في العاجل

(١) الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ١/ ٣٠٠.
(٢) انظر: العبادة أحكام وأسرار، عبد الحليم محمود، ٢/ ٨٥.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ١٧٤، رقم ٦٦٢٦، والحاكم في المستدرك، ١/ ٥٥٤، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ١٩٩٤. وصححه الحاكم على شرط مسلم، ولم يتعقبه الذهبي.

والآجل.

كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه)[1].

وهذا من الفرح المحمود؛ لأنه فرح بفضل الله ورحمته، ولعل فرحه بفطره لأن الله منّ عليه بالهداية إلى الصيام، والإعانة عليه حتى أكمله، وبما أحله الله له من الطيبات، ويفرح عند لقاء ربه حين يلقى الله راضيًا عنه، ويجد جزاءه عنده كاملًا موفرًا[2].

شرع الصوم ليحصل الإنسان على التقوى، باعتبارها تركيزًا للإرادة في كلّ كيانه وحفظًا للاستقامة بعيدًا عن خط الانحراف، فالصوم يخلق ضميرًا داخليًّا، يؤدي دور الرقيب الدائم والحسيب المسيطر، وبهذه الرقابة الداخلية تتأكد صفة الإنسان المسلم في كلّ الأحوال والأوقات، فيكون مسلمًا حقيقيًّا، يسلم الناس من لسانه ويده، ويجدون فيه ومنه كلّ ما يدلّ على معاني الإسلام؛ المعاني التي تتحقق من عبادة الصوم، فبالصيام تحفظ النفس البشرية من الوقوع في المعاصي، وفيه تنقية لقلب المؤمن من الأحقاد والشرور، وشهر الصيام يذكّرنا بالفقراء والمساكين، بل ويعود المسلم على البذل والعطاء من تقديم الصدقات للفقراء والمحتاجين، وهو أيضًا حمية للبدن، وصحة الجسد، ويمثّل صوم رمضان دورةً تدريبية للمسلم، تتولى تهيئة الإنسان لأن يكون قادرًا على أداء الصوم الكبير، حيث تتصلّب إرادته فيقوى على ترك المحرمات في كل زمان ومكان، وليس في نهار رمضان فقط، فيكون بذلك إنسانًا مالكًا لكلّ إرادته في طاعة الله وترك معاصيه، ومعايشًا لثمرة التقوى في حياته كلها.

٤. الترغيب في الحج.

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، تجتمع فيه كل شعائر العبادات، ففيه يعلن الناس الشهادة بالوحدانية لله سبحانه و تعالى.

وفيه تؤدى الصلاة طوعًا لله ورجاء.

وفيه ينفق الناس المال على حبه ابتغاء مرضات الله.

وفيه يجاهد الناس بالمال والنفس، وبكل نفيس في سبيل الفوز بالجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين.

وقد رغّب القرآن الكريم في هذه العبادة؛

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شتم، ٣/ ٢٦، رقم ١٩٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصوم، باب فضل الصوم، ٣/ ١٥٨، رقم ٢٧٦٣.

(٢) انظر: تذكرة الصوام بشيء من فضائل الصيام والقيام، عبدالله القصير، ص ٧٠.

لأنها تحقق أهدافًا وغايات عظيمة، ونذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

- **الحج تعويد للنفس على الطاعة والامتثال لأمر الله.**

فرض الحج في العمر مرة على كل مسلم ومسلمة لمن استطاع ذلك، ومن ينكر فرضية الحج فقد كفر، وأصل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

«يعني: أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه، والخروج عن عهدته لمن استطاع إلى ذلك سبيلًا»[(١)].

ولقد بيّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضية الحج، فعن أبي هريرة قال: خطب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم النّاس فقال: (إنّ اللّه عز و جل قد فرض عليكم الحجّ، فقال: رجلٌ في كلّ عام؟ فسكت عنه حتّى أعاده ثلاثًا، فقال: لو قلتُ: نعم، لوجبت، ولما قمتم بها، ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بالشّيء فخذوا به ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه)[(٢)].

فنجد أن الحجاج يؤدون المناسك مثل: الطواف، والوقوف بعرفة، والسعي، والحلق والتقصير، والهدى، وغير ذلك من النسك دون نقاش أو جدل، بل طاعة وامتثالًا واستسلامًا لأمر الله سبحانه وتعالى، وفي هذا تعويد للنفس البشرية على طاعة الله والاتحاد على دعوته، ولقد وعد الله سبحانه وتعالى أصحاب هذه النفوس المطيعة والمستسلمة له بالمغفرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت النّبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: (من حجّ للّه فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمّه)[(٣)].

- **الحج تزويد للقلوب بالإيمان والتقوى.**

من منافع الحج الروحية التزود بالتقوى، ولقد بيّن الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقوله جل شأنه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ولقد ورد في تفسير هذه الآيات أن من أهم مقاصد أداء مناسك الحج هو «استشعار

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ١٢.
(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب المناسك، باب وجوب الحج، ٥/ ١١٦، رقم ٢٦١٨.
وصححه الألباني في كتاب صحيح وضعيف سنن النسائي ١/ ٥٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج، ٢/ ١٣٣، رقم ١٥٢١.

التقوى والتزود منها»، فقد ورد في ظلال القرآن في هذا الشأن: «والتقوى زاد القلوب والأرواح، منه تقتات، وبها تروى وتشرق، وعليها تستند في الوصول والنجاة، وأولوا الألباب هم أول من يدرك التوجيه إلى التقوى وخير من ينتفع بهذا الزاد»[1]، فالحج مناسبة طيبة ومباركة لتزويد القلوب بالتقوى، وهو خير الزاد يتزود به المسلم.

❁ تحصيل المنافع الدنيوية والأخروية.

قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

يقول ابن كثير: «أن للناس في الحج منافع في الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات»[2].

الحج مدرسة لتربية النفس والسمو بها إلى العلا، فيها يتعلم المسلم كيف يعيش في عبادة خالصة لله سبحانه وتعالى، وأن يكبح جماح الشهوات واللذات، فيها يعوّد الإنسان نفسه على التضحية والجهاد والالتزام بالطريق السوي، وفيها يربّي الإنسان نفسه على حب الله ورسوله والولاء للإسلام كمنهج حياة، فيها يقتدي الإنسان برسول الله وبأصحابه والمجاهدين، الذين جاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين، وتركوا لنا راية الإسلام مرفوعة في ربوع العالم، إن من يتعلم في هذه المدرسة، ويحرص على الاستفادة بما فيها من دروس تربوية؛ يكون جزاؤه الجنة، وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحج من أفضل الأعمال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سئل النّبيّ صلى الله عليه وسلم أيّ الأعمال أفضل؟ قال: إيمانٌ بالله ورسوله، قيل: ثمّ ماذا؟ قال: جهادٌ في سبيل الله، قيل: ثمّ ماذا؟ قال: حجٌّ مبرورٌ)[3].

فللحج دور كبير في استقامة الإنسان على الطاعة والطريق المستقيم، وهو فترة تدريب عملي على الكف عن الخطايا والآثام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمّه)[4].

ولهذا كان الترغيب في هذه العبادات لما لها من أجر عظيم يناله العبد عند الله تعالى، ولما لها من أثر على سلوكه مع نفسه وأهله ومجتمعه، فلله الحمد والمنة، أن هدانا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٧٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١٠/ ٤٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ٢ / ١٣٣، رقم ١٥١٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة، ٤/ ١٠٧، رقم ٣٣٥٧.

للعمل بهذا الدين ورغبنا فيه.

ثالثًا: الترغيب في الأخلاق الحسنة:

رغّب القرآن الكريم بالأخلاق الحسنة، وجعل لها مكانة رفيعة، حيث أثنى الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وبعث رسوله لكي يتمّم مكارم الأخلاق، من خلال مبادئ الإسلام الحنيف، فقال عليه الصلاة والسلام: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[١].

وأثقل شيء يوضع في ميزان العبد يوم القيامة حسن الخلق، عن أبي الدّرداء، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (ما من شيءٍ أثقل في الميزان من حسن الخلق)[٢].

والأخلاق الحسنة في القرآن الكريم كثيرة، وسوف نتعرف على بعض هذه الأخلاق كخلق الصبر والرحمة والصدق في القرآن الكريم، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. الترغيب في الصبر.

ترجع عناية القرآن البالغة بالصبر لما له من قيمة كبيرة، وأثر في الحياتين الدنيا والأخرى، الصبر من أكثر الأخلاق التي اعتنى بها دين الإسلام؛ لذا تكرر ذكره في القرآن في مواضع كثيرة، قال أبو عبد الله أحمد ابن حنبل: «ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعًا»[٣]، فليس هو من الفضائل الثانوية، بل من الضرورات اللازمة التي لا انفكاك للإنسان عنها، فلا نجاح في الدنيا ولا نصر ولا تمكين إلا بالصبر، ولا فلاح في الآخرة، ولا فوز ولا نجاة إلا بالصبر، ولقد رغّب القرآن الكريم في الصبر في العديد من الآيات القرآنية، وبيان ذلك فيما يلي:

- الصبر سبب في تحصيل الفلاح.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

يقول السعدي: «حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٥١٢، رقم ٨٩٥٢.
صححه الألباني في الأدب المفرد ١ / ١٢٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق ٤/ ٢٥٣.
وصححه الألباني.

(٣) عدة الصابرين، ابن القيم، ص ٧١.

على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك»[1].

❁ ظفر الصابرين بمعية الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

قال الشوكاني في تفسيره للآية: «فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال؛ وإن كانت كالجبال»[2].

❁ الصبر سبب في تحقيق النصر.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

«يعني: تصبروا على مصابرة عدوّكم وتتّقوني وتطيعوا أمري، فيتحقق لكم النصر والظفر بالعدو»[3].

❁ فوز الصابرين بمحبة الله.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

فالله يحب هؤلاء الصابرين؛ لأنهم استجابوا لأمره وطاعته وطاعة رسوله في جهاد عدوه[4].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص١٦٢.
(٢) فتح القدير، ١/ ٢٤٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٧٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٧٠.

❁ فوز الصابرين بالمغفرة والأجر الكبير.

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ١١].

بيّن الله سبحانه و تعالى ثواب أولئك الصابرين فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور. ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وهو: الفوز بجنات النعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين[5].

❁ نجاة الصابرين من الخسران والهلاك.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣].

إن كل إنسان لفي نوع من الخسران؛ لما يغلب عليه من الأهواء والشهوات، إلا الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات، وأقاموا على الطاعات، وأوصى بعضهم بعضًا بالتمسك بالحق اعتقادًا وقولًا وعملًا، وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على المشاق التي تعترض لهم، فهؤلاء ناجون من الخسران، مفلحون في الدنيا والآخرة، وإنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاء ببيان المقصود؛ فإن المقصود بيان ما فيه الفوز بالحياة

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٧٨.

الأبدية والسعادة السرمدية[1].

ولما يعلم الإنسان ما أعد الله للصابرين، يحرص على تحصيله، والمداومة عليه، فبالصبر يتغلب الإنسان على شهوات النفس والدنيا، ويمسك عن المعاصي والفتن، ويسارع إلى فعل الطاعات والفوز برضا الله عز و جل، ويشعر بالرضا والطمأنينة بقضاء الله وقدره، فهو يحقّق العزة و والكرامة والاستقامة للفرد والنصر للأمة والمجتمع، وهذه ثمرة عظيمة، وغاية يسعى إليها كل مؤمن صادق، مخلص لله في عبادته؛ لأنه يدرك ما لهذه الثمرة من مكانة عند الله عز و جل.

٢. الترغيب في أسباب تحصيل الرحمة.

الرحمة خلق من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، وأمرنا بالاتصاف بها، فإن الله سبحانه و تعالى وصف نفسه بها، ووصف بها نبيه صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وحث القرآن الكريم على تحصيل هذا الخلق؛ لما له من آثار طيبة تنعكس على حياة المسلم.

ومن أسباب تحصيل الرحمة في القرآن الكريم:

- الصبر على المصائب.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

أخبر الله سبحانه و تعالى أن المؤمن إذا سلّم لأمر الله تعالى، وصبر على مصيبته، كتب الله تعالى له ثلاث خصال، الصلاة من الله، والرحمة، وتحقيق سبيل الهدى[2].

- القتال في سبيل الله.

قال ابن عاشور في تفسيره للآية: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨].

«ذكر ترغيبًا وترهيبًا، فجعل الموت في سبيل الله والموت في غير سبيل الله، إذا أعقبتهما المغفرة خيرًا من الحياة وما يجمعون فيها، وجعل الموت والقتل في سبيل الله وسيلة للحشر والحساب؛ لحصول المغفرة والرحمة»[3].

- الاستماع والإنصات للقرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي، ١٠/ ٣٩١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ٤/ ١٤١.

(٣) التحرير والتنوير، ٤/ ١٤٣.

﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

«هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب اللّه يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب اللّه؛ فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدىً متزايدًا، وبصيرةً في دينه؛ ولهذا رتّب اللّه حصول الرحمة عليهما»[(١)].

- **إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.**

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

قال الشنقيطي في تفسيره: «هذه الآية الكريمة تدل على أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لرحمة الله سبحانه و تعالى»[(٢)].

- **الإصلاح بين الناس.**

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

يقول تعالى ذكره لأهل الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ في الدين، ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ وخافوا الله أيها الناس، بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل؛ ليرحمكم ربكم، فيصفح لكم عن سالف إجرامكم، إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه في السر والعلن[(٣)].

للرحمة آثار طيبة تعود على الفرد والمجتمع، كيف لا، وقد اتصف الرسول صلى الله عليه وسلم بها، عن النّعمان بن بشيرٍ قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى**)[(٤)].

فذكر الرسول صلى الله عليه وسلم من بين صفات المؤمنين التراحم؛ فبالرحمة ترتفع الأحقاد والضغائن، وتختفي الشحناء والبغضاء، ويندحر الشيطان وأعوانه، فيعطف الغني على الفقير، فيقوى فيهم التناصر والتعاون على الخير، ويكونون يدًا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.
(٢) أضواء البيان، ٥/ ٥٥٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٢٩٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٨/ ٢٠، رقم ٦٧٥١.

واحدةً في الشدائد والمحن، وبذلك تستقيم حياة الإنسان على شرع الله ودينه.

٣. الترغيب في الصدق.

الصدق خلق إسلامي عظيم يدل على إيمان صاحبه بالله، وعلى طهارة قلبه، وسمو أخلاقه، ولما كان الصدق من أشرف السمات الأخلاقية، وأكثرها فضيلة وتكاملًا للنفس الإنسانية؛ كان من البديهي تركيز القرآن الكريم على هذا الخلق، ولقد أمرنا القرآن بالتزامه مرارًا وتكرارًا.

فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وذلك ليسري إلينا صدقهم.

وبيّن الله عز و جل في كتابه أن من صفات الأنبياء عليهم السلام الصدق، فأثنى عليهم بهذا الخلق، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

ومن ثمرات الصدق في القرآن ما يأتي:

❁ تحقيق التقوى.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

وقال أبو بكر الجزائري في تفسيره للآية: «هذا إخبار بفريق الفائزين من عباد الله وهم الصادقون في كل ما يخبرون به، والمصدّقون بما أوجب الله تعالى التصديق به، ويدخل في هذا الفريق دخولًا أوليًّا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر الصديق، ثم سائر الصحابة والمؤمنين إلى يوم الدين»[(١)].

❁ المغفرة والأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ «أي: مغفرة لذنوبهم التي أذنبوها، وأجرًا عظيمًا على طاعاتهم التي فعلوها، ووصف الأجر بالعظم للدلالة على أنه بالغ غاية المبالغ»[(٢)].

(١) أيسر التفاسير، ٤ / ٤٨٧.
(٢) فتح القدير، ٤ / ٤٠١

❁ الفوز بدخول الجنة.

قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١].

قال الطبري في تفسيره: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ «هذا الذي أعطاهم الله من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها مرضيًّا عنهم وراضين عن ربهم، وهو الظفر العظيم»[(١)].

قال ابن القيم: «الصدق منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميّز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلًا إلا أرداه، وصرعه، من صال به لم تردّ صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحكّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين»[(٢)].

(١) جامع البيان، ١١ / ٢٤٥.
(٢) مدارج السالكين، ٢ / ٢٦٨.

وهكذا نجد أن القرآن الكريم اهتم بالأخلاق الحسنة اهتمامًا بالغًا؛ لما لها من آثار إيجابية على سلوك المسلم في حياته، وبما يناله من الأجر العظيم يوم القيامة.

رابعًا: الترغيب في الثواب:

ورد لفظ الثواب في القرآن بمعان مختلفة، وقد عرّفه الراغب الأصفهاني بقوله: «ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله»[(٣)]، فيسمى الجزاء ثوابًا، وجعل الله تعالى الجزاء من جنس العمل في قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

ولم يقل جزاءه، والثواب يقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف في الخير، وعلى هذا قوله عز وجل: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وتستعمل في الشر كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠].

والإثابة تستعمل في المحبوب، قال تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ٨٥].

«الثواب» يعني: «الرجوع»، ويطلق «الثواب» على أفعال العباد وأعمالهم، بمعنى ما يرجع إليهم من جزاء أعمالهم،

(٣) جامع البيان، ١١ / ٢٤٥.

ولفظ (الثواب)، وإن كان في اللغة يطلق على الجزاء الدنيوي والأخروي، إلا أنه قد اختص في العرف بالجزاء الأخروي على الأعمال الصالحة من العقائد الحقة، والأعمال البدنية والمالية.

وقد جاء لفظ الثواب في القرآن على خمسة معانٍ:

الأول: بمعنى الطاعة.

ومنه قوله تعالى: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

أي: نعم الأجر والثواب الجنة جزاء وفاقًا على جميل أعمالهم، وحسنت منزلًا ومقيلًا[(١)].

الثاني: بمعنى الفتح والظفر والغنيمة.

قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

يقول الطبري في تفسيره: «يعني بذلك تعالى ذكره: فأعطى اللّه الّذين وصفهم بما وصفهم من الصّبر على طاعة اللّه بعد مقتل أنبيائهم، وعلى جهاد عدوّهم، والاستعانة باللّه في أمورهم، واقتفائهم مناهج إمامهم، على ما أبلوا في اللّه ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ يعني: جزاء في الدّنيا، وذلك النّصر على عدوّهم وعدوّ اللّه، والظّفر والفتح عليهم، والتّمكين لهم في البلاد؛ ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ يعني: وخير جزاء الآخرة، على ما أسلفوا في الدّنيا من أعمالهم الصّالحة، وذلك الجنّة ونعيمها»[(٢)].

الثالث: بمعنى المكافأة.

قال تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥].

يقول سيد طنطاوي في تفسيره: «أي: فكافأهم الله تعالى بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم، جنات تجرى من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار خالدين فيها، أي: باقين في تلك الجنات بقاء لا موت معه، وذلك العطاء الجزيل الذي منحه الله لهم جزاء المحسنين، أي: المؤمنين المخلصين في أقوالهم وأعمالهم»[(٣)].

الرابع: بمعنى المتاع.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

أي: متاعها الزائل وحطامها الفاني؛ كالمجاهد الذي يريد بجهاده الغنيمة والفخر، لا الثواب والأجر، والذي يريد بصلاته وحجه الرياء والسمعة، ولا يبتغي بعباداته وجه الله تعالى؛ فقد أخطأوا جميعًا

(١) انظر: تفسير المراغي، ١٥/ ١٤٥.

(٢) جامع البيان، ٦/ ١٢٣.

(٣) الوسيط، ٤/ ٢٥٨.

وجه الصواب، فثواب الله أفضل من ثواب الدنيا الزائل[1].

الخامس: الزيادة على الزيادة.

قال تعالى ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾[آل عمران: ١٥٣].

يقول السيوطي في تفسيره: «الغم الأوّل الجراح والقتل والغم الآخر حين سمعوا أن النّبي صلى الله عليه وسلم قد قتل، فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل وما كانوا يرجون من الغنيمة»[2].

(١) انظر: أوضح التفاسير، الخطيب ص١١٦.
(٢) الدر المنثور، ٢/ ٣٥١.

صور الترغيب في القرآن الكريم

ذكر القرآن الكريم صور وطرقًا عديدة تحفّز المؤمن على حصول المنفعة والأجر العظيم في الدنيا، وترغّب المؤمن بصور النعيم الذي أعده الله له في الآخرة، فمن طريقة القرآن الكريم وأساليبه ترغيب المؤمن بملذات ومنافع دنيوية، وأيضًا بملذت أخروية، وكل ذلك حتى يكون المؤمن على طاعة مستمرة لربه، وبذلك يحصل الفوز في الدنيا والآخرة.

أولًا: الترغيب بملذات دنيوية:

رغّب القرآن بملذات دنيوية كثيرة، ومن هذه الملذات ما يأتي:

١. الحياة الطيبة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والحياة الطيبة تكون في الدنيا؛ بالراحة والرزق الطيب الحلال والقناعة والسعادة[3].

٢. الأمن والهداية في الدنيا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٨٧.

[الأنعام٨٢].

يقول السعدي في تفسيره: «﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ أي: يخلطوا ﴿إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا، لا بشرك، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها، ومفهوم الآية الكريمة: أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء»[1].

حلول الخيرات والبركات:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف٩٦].

يقول ابن كثير في تفسيره: «آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرّسل، وصدّقت به واتّبعته، واتّقوا بفعل الطّاعات وترك المحرّمات، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: قطر السّماء ونبات الأرض»[2].

الإمداد بالأموال و البنين:

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

فمن أساليب القرآن في ترغيبه للمؤمنين ترغيبهم بالأعمال الصالحة في الدنيا كالاستغفار الذي هو سبب للمتاع والإمداد بالأموال والبنين في الدنيا، يخبر الله سبحانه وتعالى عن نوح في دعوته لقومه من ترغيبه إياهم بالتوبة والاستغفار.

يقول ابن كثير في تفسيره: «أي: إذا تبتم إلى اللّه واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرّزق عليكم، وأسقاكم من بركات السّماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزّرع، وأدرّ لكم الضّرع، وأمدّكم بأموالٍ وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنّاتٍ فيها أنواع الثّمار، وخلّلها بالأنهار الجارية بينها، وهذا مقام الدّعوة بالتّرغيب»[3].

ثانيًا: الترغيب بملذات الآخرة:

أعد الله سبحانه و تعالى لعباده المؤمنين في الجنة ملذات وصورًا من النعيم؛ وذلك ليرغب المؤمن بالأجر والثواب الذي أعده الله له في الآخرة، ولقد جاءت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، لتصف لنا

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٦٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣ / ٤٥١.
(٣) المصدر السابق ٨/ ٢٣٣.

هذا النعيم، الذي أعده سبحانه وتعالى لمن أطاعه، وتظهر عظمة هذا النعيم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

فأهل الجنة في سعادة دائمة وفرح مستمر، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨- ٣٩].

فمهما طال نعيم الدنيا فهو زائل لا محالة، أما نعيم الآخرة فهو سرمدي دائم، لا يكتنف صاحبه سقم ولا ألم ولا ملل.

وقد وصف الله تبارك وتعالى هذا النعيم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥١ – ٥٦].

وسنتحدث عن بعض ملذات الآخرة وصور النعيم الذي أعده الله لعباده، كالنظر لوجه الله الكريم، و درجات الجنة وغرفها، وطعام أهلها وشرابهم، وكل ذلك شحذًا للهمم، وإيقاظًا للغافلين، المتمسكين بنعيم الدنيا الزائل، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أهلها، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. النظر لوجه الله الكريم.

إن أعظم نعيم أعده الله سبحانه وتعالى لعباده في الجنة، التمتع برؤية وجه الله الكريم، الذي يغمر الوجوه نضارة وإشراقًا، وقد رغّب الله سبحانه في القرآن الكريم بهذا النعيم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣].

قال الخازن في تفسيره: «هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة»[(١)].

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى ثواب المؤثرين الآخرة على الدنيا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تنظر إلى ربها، على حسب مراتبهم، فمنهم من ينظر كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور، ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، فازدادوا جمالًا إلى جمالهم[(٢)].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

(١) لباب التأويل، ٢/ ١٦٧.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٩٩.

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضًا.

ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان، من القصور، والحور، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم؛ بل بفضله»[(١)].

فالحسنى هي الجنة.

عن أبي بكرٍ الصّدّيق، في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قال: «الزّيادة: النّظر إلى وجه اللّه عز وجل»[(٢)].

وقال البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: «يعني: الزيادة لهم في النعيم ما لم يخطر ببالهم وقال جابر وأنس: هو النظر إلى وجه الله الكريم»[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٣٥٤.
(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده، ٣/ ٧٩٣، رقم ١٤٢٤
(٣) معالم التنزيل، ٧/ ٣٦٣.

٢. الترغيب في درجات الجنة.

لقد رغّب القرآن الكريم في الجنة ودرجاتها، وبيّن أن الناس في الجنة يتفاضلون، كما يتفاضلون في الدنيا، كل بحسب إيمانه وعمله، وابتعاده عن المعاصي.

قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

قال السعدي: «﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضّل الله العباد بعضهم على بعض بها، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه، فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات، والسرور والخيرات، والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذّب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحد عده»[(٤)].

وبيّن الله سبحانه و تعالى أن الذي يفوز بالدرجات العلى في الجنة: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٥٥.

﴿ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

يقول الشنقيطي: «ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: في الدنيا حتى مات على ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ﴾ عند الله ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ والعلى: جمع عليا وهي تأنيث الأعلى، وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ ونحو ذلك من الآيات»[1].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بصفات عديدة، وبيّن ما لهم من الدرجات عند ربهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

قال الطبري «﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: لهؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم ﴿دَرَجَٰتٌ﴾، وهي مراتب رفيعة في الجنة»[2].

وفضّل الله سبحانه وتعالى المجاهدين على القاعدين درجة.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

فنفى سبحانه وتعالى التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد، وبين المجاهدين في سبيله، و أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات، باعتبار المنازل الرفيعة بعد دخول الجنة، والمغفرة باعتبار ستر الذنب، والرحمة باعتبار دخول الجنة[3].

يقول ابن القيم: «ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق؛ عبودية لربه، وأعلمهم به، وأشدهم له خشية، وأعظمهم له محبة، كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله، وهي أعلى درجة في الجنة، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الإيمان»[4].

(١) أضواء البيان، ٤ / ٦٨.
(٢) جامع البيان، ١٣ / ٣٨٩.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٣ / ٣٤٧.
(٤) حادي الأرواح، ص٥٨.

٣. الترغيب في غرف الجنة.

أعد الله في الجنة لعباده غرفًا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، متألقة كأنها النجوم، ولقد ورد لفظ «غرف» في القرآن الكريم مرتين في سورة الزمر، وورد لفظ «غرفًا» مرة واحدة في سورة العنكبوت، وورد لفظ «الغرفات» مرة واحدة في سورة سبأ.

وبيّن الله سبحانه وتعالى صفات من يستحق دخول هذه الغرف وهم:

- المؤمنون الذين يعملون الصالحات لهم في الجنة غرف.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: «﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء، وخمر، وعسل، ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يبغون عنها حولًا ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ نعمت هذه الغرف أجرًا على أعمال المؤمنين»[(١)].

ووصف الله سبحانه وتعالى حال المؤمنين في غرف الجنة بأنهم آمنون، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٦].

يخبر سبحانه وتعالى عن حال المشركين المغترين بالمال، والولد، فيقول لهم: وما أموالكم ولا أولادكم بالحال التي تقربكم منا، وتجعلنا نرضى عنكم، وندنيكم منا زلفى، أي: قربى.

﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: لكن من فعلوا الواجبات والمندوبات.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أي: المذكورون لهم جزاء الضعف، أي: جزاء تضاعف لهم حسناتهم فيه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة، وذلك بسبب عملهم الصالح.

﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنة العالية، آمنون من الموت، ومن كل بأس، ومكروه، ومنغص لسعادتهم، ومن كل شر وخوف وحزن[(٢)].

- المتقون لربهم لهم غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

(١) تفسير القرآن العظيم، ١٠/ ٥٢٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١١/ ٢٩٢، أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٣٢٦.

وعد الله سبحانه و تعالى عباده السعداء، الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه، واجتناب محارمه، أن لهم غرفًا في الجنة، وهي قصور شاهقة من فوقها غرف مبنية مزخرفات عاليات[(١)].

❁ الذين يطعمون الطعام، ويفشون السلام، ويصلّون بالليل والناس نيام.

فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة غرفًا، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل، والناس نيام)[(٢)].

فبيّن النبي صلى الله عليه وسلم، أصناف الناس الذين يدخلون هذه الغرف في الجنة، وهم الذين يطعمون الطعام، ويمدون يد العون والمساعدة للمحتاجين، وكذلك الذين يفشون السلام على من يعرفون ومن لا يعرفون، ومن يصلّون بالليل، والناس نيام.

فهؤلاء أكرمهم الله سبحانه و تعالى بهذا الثواب، جزاءً على أعمالهم الصالحة التي قدموها في دنياهم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٢٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٢/ ١١٩.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب وصف الغرف لمن أطعم الطعام، ٢/ ٢٦٢، رقم ٥٠٩.

٤. الترغيب في ثمار الجنة وطعام أهلها.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبشّر المؤمنين المستقيمين بما رزقهم من جنات تجري من تحتها الأنهار، كما أخبر عنهم بأنهم إذا قدّم لهم أنواع الثمار المختلفة، قالوا: هذا الذي رزقنا مثله في الدنيا، فهو يشبه طعام الدنيا في اللون، غير متشابه في الطعم، زيادة في حسنه وكماله، وعظيم الالتذاذ به، فدلت الآية على كمال النعيم والسرور الذي أعده سبحانه و تعالى لعباده المؤمنين[(٣)].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: «﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ولهؤلاء المتقين في هذه الجنة من هذه الأنهار التي ذكرنا من جميع

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١/ ٤٤٦، أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٣٦.

الثمرات التي تكون على الأشجار»[1]، فرزق الجنة متتابع التدفق على المؤمنين، فكما قال الله سبحانه وتعالى لآدم عندما وضعه في الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

هكذا سيكون حال جميع أهل الجنة الموعودة.

وقد أباح الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين في الجنة أن يتناولوا من خيراتها، وألوان طعامها ما يشتهون، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب.

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وسيأكل أهل الجنة أنواعًا من اللحوم.

قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

وقد خص لحم الطير بالذكر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]؛ لأن لحوم الطير أطيب اللحوم وألذها، وقد يتبادر إلى الذهن أن طعام الجنة، ينتج عنه ما ينتج عن طعام أهل الدنيا، من البول والغائط، فالأمر ليس كذلك، فالجنة دار خالصة من الأذى، وأهلها مطهرون من أوشاب الدنيا[2].

وحينما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن بقايا الطعام والشراب، أفاد أنها تتحول إلى رشح كرشح المسك، يفيض من أجسادهم.

فعن جابر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أهل الجنة يأكلون فيها، ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك...)[3].

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم، أن أول طعام يتحف به أهل الجنة، زيادة كبد الحوت، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يكفؤها الجبار بيده، كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلًا لأهل

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ١٦٨.

(٢) انظر: الجنة والنار، عمر الأشقر، ص٢٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها، ٨/ ١٤٧، رقم ٧٣٣١.
انظر: الجنة والنار، عمر الأشقر، ص٢٢٣، والجشاء: تنفس المعدة من الامتلاء.

الجنة، قال: فأتى رجل من اليهود، فقال: بارك الرحمن عليك أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى، قال: تكون الأرض خبزة واحدة - كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: فنظر إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك حتى بدت نواجذه، قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: بلى، قال: إدامهم بالام ونون[1]، قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفًا)[2].

٥. الترغيب في شراب الجنة.

أكرم الله سبحانه وتعالى أهل الجنة إلى جانب الطعام الكثير، بأنواع من الشراب اللذيذ، من ماءٍ ولبنٍ وخمرٍ وعسل.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

مثل الجنة التي أعدّها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعتها وصفتها أنّ: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغير الطعم والرائحة، لا بمرارة، ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحًا، وألذها شربًا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بحموضة ولا غيرها، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذة الطعم، طيبة الشرب، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه، ويصدع الرأس، ويذهب العقل.

قال الشنقيطي: «وقد بيّن تعالى من صفات خمر الجنة، أنها لا تسكر شاربها، ولا تسبّب له الصداع، الذي هو وجع الرأس في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]. وقوله: ﴿لَّا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]»[3].

قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: «أهل الجنة يسقون في الجنة كأسًا من الخمر ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته»[4].

وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم نهر الكوثر في الجنة، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكوثر نهر في

(١) بالام: الثور معربة عن العبرانية، النون: الحوت.
انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ١٣٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة الجنة والنار، باب نزل أهل الجنة، ٨/ ١٢٨، رقم ٧٢٣٥.

(٣) أضواء البيان، ٧/ ٢٥٣.

(٤) فتح القدير، ٥/ ٤٩٣.

الجنة، حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج)[1].

ومن خلال ما سبق تبين لنا أن الله سبحانه وتعالى استخدم أساليب كثيرة ترغّب المؤمن بالثواب العظيم والأجر الكبير الذي أعدّه الله لعباده، سواء في الدنيا أو الآخرة، وهذا يدل على كرم الله لعباده المؤمنين الموحدين.

أثر الترغيب في سلوك المرء

إنّ المتأمل في القرآن الكريم أمرًا أو نهيًا أو قصصًا عن الأمم الماضية، يجد أن من أهم مقاصده وغاياته العظمى تهذيب سلوك المسلم وأخلاقه، وتزكية نفسه والرقي بها إلى معالي الأمور، ومكارم الأخلاق؛ حتى يصير من أفضل الناس سلوكًا، وأنبلهم أخلاقًا، وأحسنهم سيرةً وتعاملًا، وأكرمهم شيمًا ومروءة.

قال الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

ومن أجل ذلك بعث الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم لعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور وليتمم لهم مكارم الأخلاق، ويزكيهم لأحسن الأقوال والأفعال.

والمسلم إذا تدبر كتاب الله وما اشتملت آياته من الترغيب التي لا تكاد سورة تخلو منه، وعمل بما في هذه الآيات، فاجتنب طريق الضالين المفسدين والمنافقين، واتبع طريق أولياء الله المتقين، وتقرّب إلى الله في السر والعلن بصالح العمل، وأدى العبادات من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج كما شرع الله كاملة بأركانها وواجباتها

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٩/ ٥٢٧، رقم ٥٣٥٥.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ٣/ ٢٦١، رقم ٣٧١٩.

مخلصًا بذلك وجهه لله تعالى، وأحسن معاملته للناس، واقتدى بأخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإن نفسه تسمو، وهمته تعلو، وتتطلع إلى معالي الأمور ومكارم الأخلاق، وتعزف عن سفساف الأمور ورذائل الأخلاق، وينعكس ذلك على سلوكه وأخلاقه، ويكون ذلك سببًا لاستقامته ظاهرًا وباطنًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

يقول السعدي في تفسيره: «اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علمًا وعملًا فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة»[(١)].

فإذا استقام المرء على الطاعة، ينال بذلك رضا المولى جل وعلا ومحبته والقرب منه، ويفوز بالدرجات العلا من الجنة.

فوائد الترغيب في التربية والدعوة

لاشك أن الترغيب في القرآن له فوائد كثيرة على جميع المناحي ومختلف الأصعدة، لاسيما في التربية والدعوة إلى الله، وسوف نقتصر في هذا المبحث على الحديث عن فوائد الترغيب في التربية والدعوة إلى الله.

أولًا: فوائد الترغيب في التربية:

الترغيب منهج تربوي قرآني، يجب على المربّين اعتماده وأن لا يهملوه، خاصة إذا كان الأمر المراد بيانه أمرًا شرعيًّا دينيًّا، وردت فيه نصوص شرعية صريحة ترغّب فيه أو ترهّب منه؛ ذلك أن النفس البشرية بطبعها تميل إلى الثمرات الطيبة للأعمال وتطمع في الثواب، وتكره النتائج السيئة وتخاف من العقاب.

وبمثل هذا الأسلوب ينشّأ المرء على محبة الله تعالى والحرص على طاعته، ويغرس في قلبه الخوف منه والرجاء فيه سبحانه وتعالى، فهذا الأسلوب يغرس الفضائل الإسلامية والقيم النبيلة.

وأما من نشأ بعيدًا عن هذه المعاني فإنه من العسير جدًّا التحكم في أخلاقه وتقويم سلوكه إذا ما وقع في بعض الانحراف.

وإنّ التربية الحقة إنّما تكون في تدريب الفرد وترغيبه على أعمال الخير وإرشاده

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٤٨.

إلى الصّراط المستقيم، وتعليمه الأخلاق الطّيبة، وذلك كله لا يتحقّق إلّا بالإيمان باللّه وحده وعدم الشّرك به تعالى؛ ولذلك كان أول نصائح لقمان لابنه البعد عن الشرك والإيمان بالله وحده.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فمن الآية الكريمة يتبيّن أن الأصل الأول لهذه التربية الإيمان باللّه وعدم الشّرك به تعالى؛ ولهذا يجب أن تكون عظة لقمان لابنه نبراسًا يستضيء به الآباء في توجيه أبنائهم وسراجًا يقودهم من الظّلمات إلى النّور.

ثانيًا: فوائد الترغيب في الدعوة:

إنّ الترغيب في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من أجلّ الأفعال، وأعظم الأعمال التي يؤديها المسلم في دنياه، فالدعاة إلى الله يقومون بمهمة بالغة الشأن، عظيمة الأهمية، ولما كانت الدعوة إلى الله أمرًا عظيمًا، فقد تولاها الله سبحانه وتعالى بنفسه.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

وأرسل بها رسله مبشرين ومنذرين، يدعون الناس إلى كل خير وينهونهم عن كل شر، يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله، وأقام من بعدهم عباده الصالحين من ورثة الأنبياء الصادقين، الذين جعلهم حجة على الناس في كل وقت وحين، ينشرون دين الله بين الأنام ويدعونهم إلى الجنة دار السلام.

فكم من أرض أناروها بنور الإسلام، وكم من أمم أخرجوها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

وأعظم فضائل الدعوة على هذه الأمة هي الخيرية المطلقة التي نالت بها السبق على كل الأمم.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

أي: عند الله في اللّوح المحفوظ، يعني: أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثمّ مدحهم بما فيهم من خصال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم خير الأمم وأنفع الناس للناس، وهذا شرف لأمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم قاموا بتبليغ الرسالة المحمدية للناس[1].

ويكفي الدعاة شرفًا أن قولهم من أحسن الأقوال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٩٣.

﴿وَمَنْ دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ومن صور الدعوة إلى الله تحبيب العبد في ربه، بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وأوصاف كماله، ونعوت جلاله، ومن الدعوة إلى الله: الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، بكل طريق موصل إليه.

ومن ذلك: الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم، والعوارض، والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك، مما لا تنحصر أفراده، مما تشمله الدعوة إلى الخير كله[1].

فالحاجة ماسة إلى الدعوة في هذه الأزمان بسبب كثرة التضليل، وانتشار الذنوب والمعاصي، وأمراض القلوب والشبهات والشهوات.

ومن هنا تظهر فوائد الدعوة إلى الله بأنها تقوّم السلوك، وتربي النفس على حب الطاعة لله والابتعاد عن المعصية، فقد بيّن سبحانه وتعالى أنّ من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة الدعوة إلى الله.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والخير المذكور في الآية هو كل شيء يرغب فيه من الأفعال الحسنة، وقيل: هو هنا كناية عن الإسلام.

والمعنى: لتكن أمة، أي: جماعة دعاة إلى الإسلام وإلى كل فعل حسن يستحسن في الشرع والعقل، وقيل: الدعوة إلى فعل الخير يندرج تحتها نوعان:

أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي، وهو الأمر بالمعروف.

والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر.

فذكر الحسن وهو الخير، ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان، والمعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه، والمنكر ضد ذلك، وهو ما عرف بالعقل والشرع قبحه[2].

يقول السعدي في تفسير قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: «الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب»[3].

فمن خلال ما سبق ظهر لنا أنّ الترغيب له فوائده التربوية، التي تعود على الفرد بالنفع

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٤٩.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٢٨١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٤٢.

والخير والصلاح في الدنيا والآخرة، وكذلك أهمية الترغيب في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى فهي مهنة الأنبياء، والدعاة إلى الله موعودون بالفلاح في الدنيا والآخرة.

موضوعات ذات صلة:

التربية، الترهيب، الدعوة، النصيحة

التَّرَف

عناصر الموضوع

مفهوم الترف	٣٨٦
الترف في الاستعمال القرآني	٣٨٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٨٨
أسباب الترف ومظاهره	٣٩٠
أخلاق المترفين وعاقبتهم	٤٠٤

مفهوم الترف

أولًا: المعنى اللغوي:

تطلق كلمة (ترف) ومشتقّاتها في اللغة العربية على عدة معانٍ، تدور كلها حول التنعّم، والتّرفّه، والرفاهية، فالتّرف والإتراف: النّعمة. والتّنعّم، والتّرفة: الطّعام الطّيّب[١]، وقيل: التوسّع في النّعمة[٢].

والمترف كـ(مكرم): المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع منه[٣]، يقال: رجلٌ مترفٌ منعّمٌ، وترّفه أهله إذا نعّموه بالطّعام الطّيّب والشّيء يخصّ به[٤]، وصبيٌّ مترفٌ، كـ(مكرمٍ): إذا كان منعّم البدن مدلّلًا، ورجلٌ مترّفٌ، كـ(معظّمٍ): موسّعٌ عليه[٥].

والمترف: الّذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش. وأترفته النّعمة، أي: أطغته[٦]، وإنّما سمّي المتنعّم المتوسّع في ملاذّ الدّنيا وشهواتها مترفًا؛ لأنّه مطلقٌ له، لا يمنع من تنعّمه، وأترف فلانٌ: أصرّ على البغي[٧].

فمعاني الترف تدور حول: النعمة، والمتعة، والدعة، والشهوة، والسلطة، وما تستعذبه النفس، وتستريح إليه من ملاذ الحياة وشهواتها[٨].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الترف هو: مجاوزة حدّ الاعتدال في التنعّم وإشباع رغبات النفس[٩]. فالمترفون إذن حريصون على الزيادة في أحوالهم وعوائدهم، وساعون إلى بلوغ الغاية في حاجات النفس الحسية من المآكل، والمشارب، والمساكن، والمراكب.

---

(١) انظر: المحكم، ابن سيده، ٩/ ٤٧٦.
(٢) انظر: الدر المصون، الحلبي، ٦/ ٤٢٥.
(٣) انظر: الدر المصون، الحلبي، ٦/ ٤٢٥.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٤٥.
(٥) انظر: تاج العروس، الزّبيدي، ٢٣/ ٥٤.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ١٧.
(٧) انظر: تاج العروس، الزّبيدي، ٢٣/ ٥٤.
(٨) انظر: الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي، نادر فرج زيادة، ص٩.
(٩) عرّف الترف بعدة تعريفات، كلها متقاربة.
انظر: الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ٩، الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي، نادر فرج زيادة ص٤٥.

الترف في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ت ر ف) في القرآن الكريم (٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون:٣٣]
اسم المفعول	٥	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥﴾ [الواقعة:٤٥]

وجاء الترف في القرآن بمعناه في اللغة: التوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٦٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسراف:

الإسراف لغةً:

السين والراء والفاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على تعدّي الحدّ والإغفال أيضًا للشيء. تقول: في الأمر سرفٌ، أي: مجاوزة القدر[١].

الإسراف اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «صرف الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي»[٢].

وقال الطاهر ابن عاشور: « والإسراف: الإفراط والإكثار في شيءٍ غير محمودٍ»[٣].

الصلة بين الإسراف والترف:

العلاقة بين الترف والإسراف علاقة وثيقة مترابطة، فالسّرف هو أوّل ظواهر الترف وأولى لبناته، والإسراف يجرّ حتمًا إلى الترف، وهو من الأخلاق التي تنهار معها أخلاق الفرد وأخلاق المجتمع.

٢ التبذير:

التبذير لغةً:

بذّره تبذيرًا: خرّبه وفرّقه إسرافًا. وتبذير المال: تفريقه إسرافًا، وإفساده[٤].

التبذير اصطلاحًا:

هو «صرف الشيء فيما لا ينبغي»[٥].

وقيل: هو إنفاق المال في المعاصي أو في غير حق.

الصلة بين التبذير والترف:

إذا تفاقم الترف في تجاوزه للحدّ فإنه يصل إلى حدّ التبذير، وإضاعة الأموال في أمور ضارّة، أو لا حاجة لها.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١١٩.
(٢) التعريفات، ص٢٤.
(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ١١٢.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٦/ ٦٧.
(٥) التعريفات، الجرجاني، ص٢٤.

٣ التقتير:

التقتير لغة:

من قتر، وفلان قتر ضاق عيشه، وضيق على عياله في النّفقة[١].

التقتير اصطلاحًا:

عرفه المناوي بقوله: هو «تقليل النفقة، ويقابله الإسراف، وهما مذمومان»[٢].

الصلة بين التقتير والترف:

كما هو واضح، فإن العلاقة بينهما علاقة تضادّ، فالتقتير تضييق في النفقة، والترف مجاوزة الحدّ في الإنفاق.

٤ الشح:

الشح اللغة:

«البخل مع حرص»[٣]. وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: «الشح أشد البخل»[٤].

والشح اصطلاحًا:

هو: «حرص النفس على ما ملكت وبخلها به، وما جاء في التنزيل من الشح، فهذا معناه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]»[٥].

قال الراغب رحمه الله تعالى: «الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة»[٦].

وقال الجرجاني رحمه الله تعالى: «بخل الرجل من مال غيره»[٧].

الصلة بين الشح والترف:

العلاقة بينهما أيضًا علاقة تضادّ، فالشّحّ فيه منع الإنفاق، والترف مجاوزة الحدّ فيه.

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧١٤.
(٢) التوقيف، ١/ ١٠٥.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٧٨.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٩٥.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٤٩٦.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٤٦.
(٧) التعريفات ص ٤٢.

أسباب الترف ومظاهره

للترف أسباب ومظاهر بيّنها القرآن الكريم سوف نتناولها فيما يأتي:

أولًا: أسباب الترف:

الترف ظاهرة اجتماعية، وآفة إنسانية خطيرة، تنشأ وتظهر لأسباب ودواعٍ كثيرة، منها:

١ . بسط الدنيا ووفرة النعم.

انفتاح الدنيا على الناس، ووفرة النعم يكون غالبًا من أكبر دواعي الترف وأسبابه؛ وذلك لأنه يدعو إلى الركون والمتعة والراحة، ويدفع إلى البذخ والإنفاق في غير حاجة، وواقع المجتمعات يشهد بذلك، فإنه كلما بسطت الدنيا على الناس اقتربوا من الترف والبطر.

وقد أوضح الله تعالى في كتابه هذه الحقيقة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ٧].

ومن أجلى صور الطغيان وأوضحها البطر بالنعمة والإنفاق في غير حاجة ترفًا ومباهاة وحبًّا للظهور.

وهذا ما خشيه النبي صلى الله عليه وسلم علينا، فقال محذرًا لنا: (فو اللّه ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدّنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم)[(١)].

وقد بيّن الله تعالى أن التوسعة في النّعم على العباد في الدنيا إنما هو امتحان وابتلاء، وليس رضًا عليهم ولا محبة لهم بخلاف ما يعتقدونه؛ فإنهم يعتقدون أو يظنون بأن النّعم التي تأتيهم علامة على رضا الله عنهم، وليس هذا في الحقيقة، فمن عاش في حياة الترف وألهاه التنعّم بالانغماس فيه والاستكثار منه عن التعبد لله تعالى وأشغلته هذه الأمور عن طاعة الله تعالى فهذا مسكين.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ -٥٦].

قال قتادة: «مكرٌ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح»[(٢)]. إن هؤلاء: «يحسبون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا، ٧/ ١٧٢- ١٧٣، رقم ٦٤٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٧٤، رقم ٢٩٦٢، من حديث عمرو بن عوف.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤١٧.

أن الإملاء لهم بعض الوقت، وإمدادهم بالأموال والبنين في فترة الاختبار، مقصود به المسارعة لهم في الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وإنما هي الفتنة، وإنما هو الابتلاء ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لا يشعرون بما وراء المال والبنين من مصير قاتم ومن شر مستطير! »[1].

ويزداد تأثير كثرة النعم ووفرتها على الإنسان، وجرّه إلى الترف وغاية الرفاهية حين يكون مولودًا في النّعم، لم تمرّ به حالات بؤس، ولم يعرف شدّة البلاء ومعاناة الفقر، بل جاءه المال وتوفرت لديه النّعم بسهولة ويسر من دون ما كسب أو بذل جهد.

٢. حب النفس للشهوات.

«حبّب الله تعالى للبشر زينة الحياة الدنيا وزخرفها، فقال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وليست المشكلة في ذلك الحب الذي وضعه الله تعالى في القلوب، بل إنه فطري، وضروري لاستمرار الحياة والقيام بواجب الخلافة في الأرض، ولكنها تكمن في تقديم حبّ تلك الأشياء على محبوبات الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وما ينتج عن ذلك من التشاغل بها والركون إليها، حتى يصير الإنسان كأنه مسترقٌّ لها لا يستطيع عمل ما يخالفها، وإن كانت في ذلك سعادته ونجاحه، وقد حذّر الله تعالى في كتابه عباده من تقديم حبّهم لشهواتهم وملذّاتهم على حبّه وحبّ رسوله صلى الله عليه وسلم، والعمل لدينه، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فليحذر الإنسان من الترف الذي يجعل نفسه عرضةً لعبودية الهوى والشهوات، ويردّ الحقّ ويكذّب به، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٢.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]»[١].

٣. طول الأمل ونسيان الموت.

«الانشغال بمتاع الدنيا وشهواتها ناتج عن طول الأمل، ونسيان الإنسان كونه في رحلة إلى الدار الآخرة تكتمل بنزول ملك الموت لقبض الروح، ونظرًا لخطورة تلك الغفلة عن ذلك المصير وما تنتجه من ضعف الخوف من الله تعالى وقلّة الخشية له، وبالتالي عدم المحاسبة للنفس والمراقبة لعملها.

قال تعالى محذّرًا من ذلك: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

قوله: ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ أي: يشغلهم أملهم في الدنيا والتزيّد منها عن النظر والإيمان بالله ورسوله»[٢]، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ «أي: عاقبة أمرهم»[٣].

وقال صلى الله عليه وسلم موصيًا ابن عمر: (كن في الدّنيا كأنّك غريبٌ أو عابر سبيلٍ)[٤].

«وذلك لأن الغريب لا تعلق له ببلد الغربة، ولا تشاغل لديه بملذاتها وملهياتها، بل قلبه معلّق بوطنه الذي يرجع إليه»[٥] «والمسافر لا همّ له في الاستكثار من متاع الدنيا أثناء قطعه لمنازل السفر، وإنما يكتفي بتحصيل زاد السفر له و لراحلته لا غير»[٦].

٤. الاغترار بالمال والسلطان.

« قال الله تعالى عن قارون أنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

أي: فضّلت به على النّاس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه»[٧]. «إنها قوله المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال ويعميه الثراء. وهو نموذج مكرر في البشرية. فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه. ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابًا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه!»[٨].

«إنّ الجاه والمنصب قد يحمل على الظلم، والتعدّي، وعدم المبالاة بحقوق الآخرين، كما هي عادة المترفين»[٩].

(١) الترف وخطره على الدعوة والدعاة، فيصل البعداني، مجلة البيان، بتصرف يسير.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كن في الدّنيا كأنّك غريبٌ أو عابر سبيلٍ)، ٨/ ٨٩، رقم ٦٤١٦، من حديث عبد الله بن عمر.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٧٨ بتصرف.
(٦) المصدر السابق ٢/ ٣٨١.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٥.
(٨) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٢.
(٩) الترف وذمه في القرآن الكريم، محمد المحيميد ص٢٣٤.

«ومن مضار الجاه أن يستخدمه فيما يسوء الخلق، فالأمير قد يظلم المأمور بتوقيفه بحجّة باهتة، أو بالاستيلاء على ماله، أو بمنعه من دخول البلاد، والموظف -وهو أمير على من تحته- قد يظلمهم...، ولا يعمل تلك الأعمال إلا المترفون المنعمون بحصول الجاه لهم»[1].

٥. ضعف الإيمان.

من أبرز أسباب الترف: ضعف الإيمان أو انعدامه، وقلة الوازع الديني؛ فإن «الترف مرتبط بالبعد عن دين الله ارتباطًا وثيقًا؛ ولذا فإن الترف إنما ورد ذكره في السور المكية، وفي ذمّ القوم المعاندين للرسل الذين أبطرتهم النعمة وصدتهم عن الإذعان للحق النازل من عند الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

إنّ النعمة إذا لم تصادف قلبًا مؤمنًا خاشعًا فإنها تتحول في كثير من الأحيان والأحوال إلى أداة للترف والبطر والطغيان.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥].

ولا يعني ذلك أن الترف خاصّ بالكفار والمكذبين، بل هو خلقٌ عامّ ينطبق على كل من اتصف به، والله تعالى يذكر صفات القوم ليحذّرنا من الوقوع فيها، وقد وقع كثير من المسلمين في الترف، وهذا راجع إلى ضعف الإيمان، وقلة الوازع، والانغماس في المعاصي، والاغترار ببريق الدنيا وزخارفها»[2].

٦. التقليد.

إنّ الإنسان يتأثر ببيئته تأثّرًا كبيرًا، فمن نشأ في بيئةٍ مترفةٍ لا تهتم بتربية النّشء على الجلد والخشونة، ولا توجهه في كيفية التعامل مع فتنة الحياة الدنيا وزخرفها، فإنّه يتأثر بذلك حتمًا إلا من رحم الله.

وقد جاء في بعض آيات الترف الإشارة إلى تأثّر المترفين ببيئتهم وأسلافهم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

يقول المترفون: «وجدنا آباءنا في نعمةٍ من الله وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضاه عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك

(١) الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ١٨.

(٢) الترف وذمه في القرآن الكريم، محمد المحيميد ص٢٣٦.

على آثارهم»[1].

ثانيًا: مظاهر الترف ومجالاته:

المتأمل لحقيقة الترف يجد أنّ صوره وأشكاله قد تعدّدت وتنوّعت في القرآن مما يدّل على خطورته وأثره في سلوك العبد مسلمًا كان أم كافرًا، وهذه المظاهر حينما يتأملها المسلم في الآيات يشعر بمدى عظم ذلك الجرم، ويرى في ثنايا الآيات رحمة الله بعباده المسلمين حيث حذّرهم من هذه الآفات التي أهلكت الأمم السابقة، فيدفعه ذلك إلى شكر نعم الله تعالى عليه، والتحدّث بها ظاهرًا والإقرار بها باطنًا، وتصريفها في مرضاته.

وللترف مظاهر كثيرة، من أبرزها ما يلي:

١ . الترف في مواجهة الأنبياء.

للترف أثرٌ بالغ في الدول والمجتمعات، بل هو معول هدمٍ لطاقاتها وقدراتها؛ فهو يغري صاحبه بالإخلاد إلى الأرض والخوض في الدنيا، والتعلّق بالمناصب والجاه والمال، ونسيان معالي الأمور وعدم المخاطرة بالنفس في طلب العلم والجهاد؛ ولهذا عدّ المترفون أعداءً للأنبياء والمرسلين؛ لأنهم يقفون في طريق الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

❁ المترفون وعقيدة التوحيد.

ما من رسول إلا دعا قومه إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى وإفراده بالعبودية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن خلال تتبع قصص الأنبياء في القرآن الكريم وجد أن الصفة التي تكاد تطّرد في جميع مكذبيهم هي الترف الحامل على رفع لواء العتوّ والاستكبار والإباء، فالمترفون «هم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء»[2]، وهم الملأ الذين يتولون كبر معارضة الرسل، كما ورد في آيات كثيرة من القرآن.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧].

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥١.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦٧.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٤].

وحينما دعا نبي الله هود عليه السلام قومه لدعوة التوحيد أجابوه بقولهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

ومثل ذلك وقع من قوم نبي الله صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ - ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٤-٦].

* المترفون وجحد الرسالات.

واجه المترفون رسلهم أيضًا في أصل رسالتهم ونبوّتهم من الله تعالى، وأخذوا يشكّكون في ذلك، ويرفضون قبول أنهم مرسلون من الله تعالى مبلّغون عنه، مما زاد من الضيق والحرج في صدور أنبياء الله، وقد بيّن القرآن هذه المواجهة في آيات كثيرة، منها:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في هذين الوصفين إيماء إلى أنهما الباعث على تكذيبهم رسولهم؛ لأن تكذيبهم بلقاء الآخرة ينفي عنهم توقّع المؤاخذة بعد الموت، وثروتهم ونعمتهم تغريهم بالكبر والصلف؛ إذ ألفوا أن يكونوا سادةً لا تبعًا.

وجملة: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة؛ لتوهمهم أن البشرية تنافي أن يكون صاحبها رسولًا من الله، فأتوا بالملزوم وأرادوا لازمه.

وجملة: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ في موقع التعليل والدليل للبشرية؛ لأنه يأكل مثلهم ويشرب مثلهم ولا يمتاز فيما يأكله وما يشربه[1].

ولذلك لم يتقبلوا ما دعاهم إليه رسولهم من اتقاء عذاب يوم البعث وطلبهم النجاة باتباعهم ما يأمرهم به، فقال بعضهم لبعض: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال.

❁ المترفون وعقيدة البعث.

رفض المترفون الإقرار والإذعان بعقيدة البعث بعد الموت، واستهزءوا برسولهم فيما قال، وواجهوا هذه العقيدة بالسخرية، فقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٨].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والاستفهام في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ للتعجب، وهو انتقال من تكذيبه في دعوى الرسالة إلى تكذيبه في المرسل به، وجعلوا موجب الاستبعاد هو حصول أحوال تنافي أنهم مبعوثون بحسب قصور عقولهم، وهي حال الموت المنافي للحياة، وحال الكون ترابًا وعظامًا المنافي لإقامة الهيكل الإنساني بعد ذلك»[2].

وبيّن سبحانه وتعالى أن ذلك التكذيب من أسباب عذابهم يوم القيامة.

فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٥٠].

فقد «كانوا يقيمون على الكفر بالله والإشراك به ومعصيته، ولا ينوون التوبة من ذلك، وكانوا يقولون إنكارًا للبعث: أنبعث إذا متنا وصرنا ترابًا وعظامًا بالية؟ وهذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له»[3].

قال البيضاوي رحمه الله: «﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كررت الهمزة للدلالة على إنكار البعث مطلقًا وخصوصًا في هذا الوقت، كما دخلت العاطفة في قوله:

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ٥٢-٥٣ باختصار.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التفسير الميسر لنخبة من العلماء ١/ ٥٣٥.

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ للدلالة على أن ذلك أشد إنكارًا في حقهم لتقادم زمانهم، وللفصل بها حسن العطف على المستكن في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾»[1].

ولذلك جاءت الآيات لتواسي النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهته لعتو قومه من المترفين وكفرهم بدعوته.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣- ٢٤].

٢. الترف في متاع الحياة الدنيا.

من أبرز مظاهر الترف في الحياة الدنيا ما يلي:

- **الترف في المال.**

الإنسان بطبعه يحب المال حبًّا كثيرًا؛ فهو وسيلته للعيش في الحياة الدنيا، وللزينة فيها كثرت أو قلّت، قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقد جعل الله الأموال قيامًا للناس، وقسمها بين عباده كما يشاء، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وكان هذا المال مجالًا لطاعة الله وعبادته لأهل الإيمان والدين، ينفقونه في مرضات الله بعدما يكتسبونه مما أحلّ الله، وأما أهل الشر والفساد؛ فإنهم يكتسبونه من الحرام، أو ينفقونه في الحرام، أو هما معًا.

وقد قال تعالى عن إبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

ومشاركة إبليس للعباد في أموالهم هو ما يأمرهم به من إنفاقها في معاصي الله تعالى، فكل مال عصي الله فيه بإنفاق في حرام، أو اكتساب في حرام، فهو من مشاركات إبليس لعنه الله، والله تعالى لا يحب الفساد.

والمال في الأصل هو مال الله، أعطاه للإنسان وديعة؛ لينفقه على نفسه، وعلى مجتمعه في سبيل الخير، وهذا ما صرّح به

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٨٠.

القرآن، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فإسراف الغني في إنفاق المال وتبذيره بغير الطرق المشروعة هو اعتداء على مجموع الأمة؛ لأن المال عصب الحياة، ومصدر قوّة الأمّة.

ولقد وصف الله المبذرين بالسفه، وأمر بالحجر على أموالهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]. يعني: لئلا يضيعوها.

وإضاعة المال تكون بإنفاقه في غير وجوهه الشرعية، وكذلك تعريضه للتلف.

ولقد راج التبذير في مجتمعنا في الطبقة الغنية والطبقة المتوسطة، وهذا ما ينذر بأوخم العواقب.

ومن صور الترف في المال ما ذكره الله تعالى في قصة قارون؛ فهذا الرجل قد أعطاه الله من الخير المال الكثير والرزق العميم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه، ولكنه لم يشكر الله تعالى، وبدّل نعمته تعالى كفرًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦ - ٨٣].

هذه الآيات قد فصّلت حاله، وبيّنت مآله، وكشفت شيئًا من ترفه في المال، فمن ذلك:

- أن مفاتح كنوزه تعيي المجموعة من أقوياء الرجال ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.
- أنه لم ينتصح بما أسداه إليه قومه من نصح، بل استعد وتجمّل بأعظم ما

يمكنه ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ مريدًا بذلك إظهار عظمته وكثرة أمواله. فكان مآله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

وهنا يجب مراعاة أمر مهم ألا وهو أن ما سبق لا يعني محاربة أو رفض الحياة الهانئة، بل إن الأمر يتعلق بمدى الانغماس في النعيم، فلا يجب إنكار هذا التنعم إذا ما وقع في إطار الاعتدال.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

أما ما كان منه في إطار المبالغة التي تصل إلى حدّ الإسراف والتبذير فإنه ولا شك مذموم مرفوض.

❁ **الترف في الطعام.**

لا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

لكن البعض يأكل ليس لأجل الحاجة لأكل، بل لأجل التعوّد، فهو مثلا تعوّد على نظام الوجبات الثلاث، والتوسّع في المآكل والمشارب، والتفنّن في إعداد الطعام وتزيينه، والإكثار من الحديث عنه والتفاخر به، والبحث عن أطايبه، والتنادي إلى كل ذلك، والاجتماع عليه والتواصي به، وذلك من مظاهر الترف الذي جعل الجم الغفير من الناس يعانون بسببه من السمنة وكثيرٍ من الأمراض الناشئة عن التّخمة.

ومعظم أمراض الإنسان ناتجة عما يدخله الإنسان إلى جوفه، وقد نهى الحكماء عن إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: «إن ذلك أساس المرض». «والذي يضبط لك هذا الباب، ويحفظ قانونه على الميزان: أن تأكل ما وجد، طيبًا كان أو قفارًا، ولا تتكلف الطيب وتتخذه عادة»[1].

وينبغي أن يكون القصد من الأكل عند الإنسان أن يكون بلغة إلى الآخرة، ومعينًا على عبادة الله، وتحقيق الموازنة القائلة: لا ضرر ولا ضرار. فالقصد هو الاعتدال دون التّخمة في الأكل. وهذه قاعدة نافعة، مبعدة للآخذ بها عن الترف، وقد أمرنا بعدم الإسراف في الطعام.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

والمقصود بالإسراف في الطعام «إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره

(١) قمع الحرص بالزهد والقناعة، القرطبي ص ٢٠٥ بتصرف.

في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفّه في المآكل والمشارب واللباس»[1].

❁ الترف في المسكن والبناء.

من مظاهر الترف صرف الأموال الضخمة في بناء المنازل والدور، والتباهي في إعدادها وتصاميمها البديعة في الشكل الخارجي والداخلي، مع الحرص على تعدّد مواقعها، فبعضها للشتاء والآخر للصيف، وبعضها للسكن وبعضها للنزهة، ومع الحرص على سعتها وكثرة غرفها ووجود ملحقات لها ووفرة وسائل الترفيه فيها، مع الإكثار من الفرش الوثيرة والأواني الفاخرة والمتاع الراقي، مع أن الذي يكفي الإنسان من ذلك الشيء القليل، وأيام العمر تقصر، وتأبى أن تتسع للعبد لكي ينتفع بها ويستخدمها.

وكلامنا هذا لا يعني أن لا نبني بيوتنا بوسائل البناء الحديثة، بل نستفيد مما هو موجود في حدود الاعتدال، مع البعد عن المفاخرة والتظاهر، ومع تذكر أننا راحلون إلى دار آخرة هي خير من هذه، فلا نتمادى في تشييد المباني، بل القصد هو الخير.

والقرآن ذكر لنا صورًا من ترف الأمم المترفة السابقة في المسكن والبناء، من هذه الصور:

الصورة الأولى: قوم (عاد) المترفون: حيث أنكر نبي الله هود عليه السلام عليهم هذا الترف في المساكن بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾ أي: معلمًا بناء مشهورًا، ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: وإنما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكر عليه نبيهم عليهم السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان، وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة»[2].

«فبناء قوم عاد للمساكن يبدو من الآيات أنه كان ترفًا، وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثمّ سماه عبثًا، ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة»[3].

الصورة الثانية: قوم ثمود: فهؤلاء القوم المترفون ذكر القرآن عنهم على لسان نبيهم صالح عليه السلام أنه قال لهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «قال ابن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ١٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٠٩ بتصرف.

عباس وغير واحد: «يعني: حاذقين»، وفي رواية عنه: «شرهين أشرين» وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها»[1].

فنخلص من هذا إلى أنّ البناء إذا كان للترف والمفاخرة، وعدم الحاجة فهو المنهي عنه، والمذموم صاحبه، أما إذا كان البناء للحاجة مع الاعتدال، وعدم المفاخرة والتباهي فلا شيء في ذلك، والشرع لم ينه عنه، والله أعلم.

❁ الترف في الملبس.

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

عندما أمر الله تعالى بالزينة في الملبس قصد من ذلك أن تضمن لصاحبها مظهرًا مقبولًا، يستر ما تحته من عورة، ويقي من البرد في فصل الشتاء، ويمنع الحرّ في فصل الصيف، وأن لا يكون في ذلك الملبس أي نوع من الخيلاء؛ لأن من سلك مسلك المترفين فلا شك أنه أصيب بالمخيلة، وهو مرض عضال، يسقط صاحبه من حيث رفعه، فهو في نفسه رفيع، وفي نظر الله والناس وضيع، وإن اغترّ به البعض.

ومن مظاهر الترف جعل المال في الملابس الراقية، والاكتفاء بلبس الجديد والفاخر، حتى كثرت بسبب ذلك الملابس غير المستخدمة في المنازل، وتكدست مع وجود تنوع في الاستعمال حسب تعدد فصول العام، واختلاف أوقات اليوم، ويبرز ذلك الجانب أكثر لدى النساء.

قال صلى الله عليه وسلم: (إن من شرار أمتي الذين غذوا في النعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب يتشدّقون بالكلام)[2].

وليس معنى هذا أن نترك زينة الدنيا ونحرّمها على أنفسنا ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولكن الأساس في هذا النوع من التنعم وغيره من سائر وجوه التنعم أن ينضبط بحد القصد والاعتدال.

ومن صور الترف في الملبس: لبس الحرير للرجال، فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: (لا تشربوا في إناء الذّهب والفضّة، ولا تلبسوا الدّيباج والحرير، فإنّه لهم في الدّنيا، وهو لكم في الآخرة يوم القيامة)[3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ١٥٦.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٧٧.
وصححه الألباني بمجموع طرقه، في السلسلة الصحيحة ٤/ ٥١٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس

٣. الافتخار بالنفر والجاه.

مما درج عليه المترفون في حياتهم افتخارهم بالنفر والجاه، والاستعلاء بهما على الناس، وهذا أمر مطرد بين كل الأمم المترفة، والقرآن ذكر لنا من حال هؤلاء المترفين في افتخارهم بالنفر والجاه عدة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤- ٣٥].

«هذا هو رد المترفين على كل دعوة إلى الإيمان بالله، وتلك هي حجتهم عند أنفسهم وعند الناس، إنهم بما يملكون من كثرة في الأموال، وما عندهم من كثرة في الأولاد والرجال لن يكونوا تابعين لغيرهم، ولن يجعلوا لأحد كلمة عندهم، حتى ولو كان رسولًا من رسل الله، يدعوهم إلى الله، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الحق والهدى! إنهم أكثر أموالًا وأولادًا من هذا الرسول، فكيف يقوم فيهم مقام الناصح ذي الرأي والسلطان؟! وكيف يتفضّل إنسان على من كان أكثر منه مالًا وولدًا؟!

وفي قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إشارة إلى أنهم بما لهم من كثرة في المال والأولاد، لن ينزلوا عن مقام السيادة لأحد، ثم إنهم إذا عذّب غيرهم من الفقراء والمستضعفين لن يعذبوا هم؛ فإن الله ما أعطاهم هذا الوفر في المال والكثرة في الأولاد إلا لأنهم أهل للكرامة، وموضع للفضل عنده، وكما كانوا في الدنيا في هذا المقام بين الناس، فهم في الآخرة -إن كانت هناك عندهم آخرة- في هذا الموضع أيضًا، حيث يعذّب الفقراء والمستضعفون، أما هم فلن يعذّبوا، بل ينزلوا منازل الإكرام والإعزاز؛ ذلك ظنهم بأنفسهم»[1].

والمتمعن في الآية يستطيع أن يستنبط السبب الرئيس للتكذيب من قبل المترفين لأنبيائهم، ألا وهو خوفهم من زوال النعم والشهوات التي نعّموا بها، من قبيل كثرة الأموال والأولاد، واستعلاؤهم بما آتاهم الله من فضله ونعمائه، حيث اعتقدوا أنّ الفيصل في المفاضلة بين الناس هو الثروة وكثرة النسل من الذكور.

وقد ذكر لنا القرآن مثالًا عمليًّا من تكبّر المترفين بنفرهم، واعتزازهم بأولادهم في قصة صاحب الجنتين، حيث قال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا

والزينة، باب تحريم الشرب في آنية الذهب وخاتم الذهب والحرير على الرجل، ٣/ ١٦٣٧، رقم ٢٠٦٧، عن البراء بن عازب.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٨٢٩-٨٣٠٩ بتصرف يسير.

﴿خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٦].

فصاحب الجنتين «تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا، أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلا بد أن يكون جنابه ملحوظًا في الآخرة! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

إنه الغرور يخيّل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ»[1].

والقرآن الكريم لم يترك هذا الاعتقاد عند المترفين دون ردٍّ عليهم وبيان لخطئهم، بل بيّن لهم موازين القيم، وأنها مرتبطة بالإيمان والعمل الصالح، وليس بكثرة النفر والأولاد، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقد بيّن الله تعالى أن التوسعة في النعم على العباد في الدنيا إنما هو امتحان وابتلاء، بخلاف ما يعتقدونه، فقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وكما ذكر القرآن مثالًا عن افتخار المترفين بالنفر فإنه ذكر لنا مثلًا على الافتخار بالجاه يتجلّى في موقف قريشٍ من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

رجلٍ عظيمٍ كبير في أعينهم من القريتين! يعنون: مكة والطائف»[1]، «فهم يرون أنفسهم أحق بالرسالة لعظم جاههم، وهذا الجاه النابع عن المادة مردٍ، ويزول بزوال صاحبه، أما الجاه النابع عن الروح -وهو ما يضطر الإنسان إليه- فإنه منجٍ، وباقٍ ولو توفي صاحبه»[2].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢٥ بتصرف يسير.

(٢) الترف وأثره في المجتمع، ناصر العمار ص ١٨ بتصرف.

أخلاق المترفين وعاقبتهم

تحدث القرآن الكريم عن المترفين وأخلاقهم وعاقبتهم، وهو ما نتناوله فيما يأتي:

من أخلاق المترفين وسلوكهم:

أولًا: من أخلاق المترفين:

١. الكبر.

المتأمل في نصوص القرآن الكريم يجد أن الله تعالى ذمّ الترف والمترفين، وذكر للمترفين أخلاقًا عرفوا بها في القرآن الكريم، ومن هذه الأخلاق الكبر، وهو بطر الحقّ، وغمط النّاس[3][4].

ونجد الكبر ورفض الحقّ واضحًا جليًّا في مقابلة الملأ المترفين لدعوة رسلهم وأنبيائهم.

فمنذ عهد نوحٍ عليه السلام نجد هؤلاء الملأ المترفين المستكبرين يقفون في وجه الدعوة، مستقلّين شأن المتبعين لها من الفقراء الذين لا مال لهم ولا جاه، بل ويطلبون أن يطرد هؤلاء الأراذل في رأيهم؛ قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ

(٣) بطر الحق: أي دفعه وأنكره وترفّع عن قبوله. غمط الناس: احتقارهم والتهاون بحقوقهم. انظر: فيض القدير، المناوي ٥/ ٦٢.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ٩١ عن عبد الله بن مسعود.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

فانظر إلى هؤلاء المترفين للتعرف على كبرهم ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ «فهم يسمون الفقراء من الناس أراذل كما ينظر الكبراء دائمًا إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان»[(١)].

فزينة الحياة الدنيا ومتاعها، أخذت بعقول هؤلاء، فقادهم الترف فيها إلى الكبر، وهذا تجده في القرآن عامًّا في جميع الرسالات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤ - ٣٥].

فـ«الترف يفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور»[(٢)].

٢. الحرص على الشهوات والمتع.

من أخلاق المترفين التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم، الحرص على الشهوات والمتع والزينة.

فأهل الترف يؤثرون الشهوات والمتع في الدنيا -وإن كانت على حساب الشرع- على الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

قال الطبري: «اتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله وتجبروا وصدوا عن سبيله»[(٣)]. وهذه الآية تنعي على القرى المهلكة عدم وجود جماعة أولي «عقل ورأي وصلاح ينهونهم عن الفساد في الأرض باتباع الهوى والشهوات التي تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم، فيحولون بينهم وبين الفساد»[(٤)].

فهؤلاء المترفون «صبّ عليهم النعمة صبًّا، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات»[(٥)]، حتى فجأهم العذاب ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[(٦)].

وهذا يوحي بأن المرء متى تجرّد للحق فإنه لا يملك إلا اتباع الكتاب والسنة، ما لم يصب بآفة الترف التي تقطعه عن هذا الاتباع المحمود، وتجعله يركن إلى الشهوات ويألف التمرّد والعصيان، ومن ثم تخرجه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٧٢.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩١٠ بتصرف.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٢٩.
(٤) تفسير المراغي ١٢/ ٩٧.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٧/ ٢٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦١.

عن حدّ الاعتدال إلى حدّ الإسراف والظلم للآخرين.

وبذلك يظهر شؤم الترف وأنه «هو الباعث على الفسوق والعصيان والظلم والإجرام، ويظهر ذلك أول ما يظهر في السادة والرؤساء، ومنهم ينتقل إلى العامة والدهماء فيكون ذلك سببًا في الهلاك بالاستئصال، أو في فقد العزّة والاستقلال، وتلك هي سنّة الله في خلقه، كما قال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]»[1].

ثانيًا: من سلوك المترفين:

الترف آفة مفسدة ومتى استوطنت كيانًا نخرته ونشرت فيه شتى العلل والأوبئة، وأظهرت عليه الكثير من السلوكيات السيئة، ولقد أشار القرآن الكريم إلى شيء من سلوك المترفين:

١. التمرد على أحكام الشرع.

من النماذج القرآنية التي يتجلّى فيها سلوك التمرّد على الشرع وتعاليم السماء عند المترفين هو ما قصّه الله علينا في شأن قوم ثمود.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٤].

ففي هذه الآيات يظهر سلوك التمرد عند الملأ المترف[2]، وكيف أنهم استقبلوا دعوة نبيهم لا بالطاعة والإذعان، ولكن بالرفض والإنكار والتكذيب.

ويقص علينا القرآن في موضع آخر كيف أنهم طلبوا من نبيهم أن يأتيهم بآية: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤].

قال ابن كثير: «اقترحوا عليه آية يأتيهم بها؛ ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه -وقد اجتمع ملؤهم- أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة عندهم- ناقة عشراء من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح عليه السلام العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليصدقنه وليتبعنه، فأنعموا بذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى، ثم دعا الله تعالى أن يجيبهم

(١) المصدر السابق ١٢ / ١٥٨.

(٢) الأظهر أن المراد بهم: قوم ثمود؛ لأنهم من أهلكوا بالصاعقة، كما جاء في خاتمة الآيات. انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٤٩.

إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء، على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم»[1].

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل دفعهم ترفهم إلى مزيد من التمرّد، فقد قال لهم نبيهم: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

يعني: «ترد ماءكم يومًا، ويومًا تردونه أنتم»[2] ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ «بعقر أو غيره فخرجت واستمرّت عندهم بتلك الحال فلم يؤمنوا واستمرّوا على طغيانهم»[3]، وفي النهاية قاموا بعقرها ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧-١٥٨].

وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على شدة عتوّهم وتمرّدهم، فآية الناقة آية عظيمة لا يملك الإنسان أمامها إلا الإيمان والتصديق، ولا غرو فقد وصفها الله بقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: ٥٩].

«إشارة إلى أنها كانت آية واضحة، تعيش في الناس، وتتمشّى بينهم، يمرّون بها مصبحين وممسين»[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦ / ١٥٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٥٩٦.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨ / ٥٠٩.

ولكن هكذا الترف «يغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب فتغدو قاسية عاصية متمردة، والعياذ بالله»[5].

٢. الجزع والفزع عند المصيبة.

قد ظهر في العنصر السابق كيف أن التمرد هو مسلك أهل الترف، والمرء قد يخال أن المترفين لفرط تمردهم أقوياء، وأنهم لعتوّ عصيانهم أشداء، ولكن على العكس تمامًا فهم خوّراون جبناء لا ثبات لهم إذا دهمتهم مصيبة، ولا صبر لهم إن نزل بساحتهم بلاء.

قال تعالى: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وفي هذه الآيات يظهر مدى شدة فزع المترفين والذعر الذي يملأ نفوسهم إذا حلت بهم الكوارث وكيف أنهم يولون هاربين، ويظهر اشتداد فزعهم عند حلول البأس من خلال أمور:

التعبير بـ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ والإحساس هو: الإدراك بالحسّ فيكون برؤية ما يزعجهم

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٤٦٧ بتصرف.

أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح[1]. فإذا كانوا يفرون هاربين لمجرد رؤية العذاب ومشاهدة بوادره، فهذا لا شك يكشف عن شدة فزعهم.

التعبير بـ﴿يَرْكُضُونَ﴾ والركض هو: سرعة سير الفرس، وأطلق الركض في هذه الآية على سرعة سير الناس على وجه الاستعارة تشبيهًا لسرعة سيرهم بركض الأفراس[2]. ففرارهم بهذه السرعة يدل حتمًا على الفزع الكبير الذي يتملكهم ويسكن نفوسهم عند نزول المصائب.

التعبير بـ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ أي: ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هجّيراهم حتى حصدناهم حصدًا، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خمودًا[3]، فاستمرار هذه المقالة معهم حتى إهلاكهم يدل على اشتداد جزعهم.

ومما يدل على جزعهم أيضًا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٤].

ومعنى: ﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ يصرخون، وهو كناية عن شدة ألم العذاب بحيث لا يستطيعون صبرًا عليه، فيصدر منهم صراخ التأوّه والويل والثبور[4].

وهذا يدل على غاية الضعف والخور؛ فالإنسان لا يصرخ إلا إذا كان في محنة لا تقدر أسبابه على دفعها، فيصرخ طلبًا لمن ينجده، ويرفع صوته ليسمع كلّ من حوله.

وهكذا يظهر سلوك المترفين، وكيف أنهم يكونون أشدّ ما يكونون خوفًا وفزعًا عند المصائب، وأنهم «لا يصبرون على الابتلاء، بل يخرّون صاغرين أمام أي شدة، أو كارثة تصيبهم»[5].

ثالثًا: عاقبة المترفين:

«المترفون هم آفة المجتمع في كل أمة، وفي كل جيل؛ إذ فيهم ينشأ الفسق، والمجون، وكل ما من شأنه أن يغذي العواطف الخسيسة»[6].

ومتى تركوا في المجتمع دون ردع وضرب على أيديهم «عاثوا في الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثمّ تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها»[7].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧ / ٢٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٣٣٥.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٨٤.
(٥) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠ / ٥٠٩٠ بتصرف.
(٦) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١ / ٨٢٩.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٧.

ولذلك توعّدهم الله بعقاب أليم كما أنه نوّع عقوبتهم، فمنها ما هو دنيوي، وما هو أخروي.

١ . العقاب الدنيوي.

ذكر الله صورًا لعقاب المترفين في الدنيا منها:

- التدمير والإهلاك.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

وها هنا يخبر الرب تبارك وتعالى أنه إذا أرد إهلاك قرية لظلمهم وفجورهم أمر مترفيهم «بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة»[(١)]. وحقّ عليهم بذلك الهلاك والدمار.

وإنما خصّ المترفين بالذكر؛ لأن «العامة والدهماء يقلدونهم فيما يفعلون؛ ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبله »[(٢)].

وهكذا يجلب الترف الهلاك والدمار ليس على أصحابه فحسب، بل على المجتمع بأسره، وتأمّل كيف أن العذاب طال القرية بأكملها وما ذلك إلا «لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلّطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلّط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك»[(٣)].

وخاتمة الآية تظهر بجلاء حجم الدمار الذي يلحق أهل الترف فالله تعالى أكد التدمير بمصدره «للمبالغة في العذاب الواقع بهم»[(٤)]، ولإظهار شدة الهلاك الواقع على تلك القرية.

وتظهر هذه العقوبة المؤلمة للمترفين في الدنيا أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وهذه الآية تبين مدى شدة العقاب الذي يحل بالمترفين في الدنيا، ويظهر ذلك من خلال التعبير بالقصم الذي هو «الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع، واستعير للاستئصال والإهلاك القوي»[(٥)].

وفي النهاية تذكر الآيات كيف أنهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٦١.
(٢) تفسير المراغي ١٥ / ٢٦.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠ / ٢٣٤.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧ / ٢٥.

ذكروا ظلمهم واستفاقوا بعد فوات الأوان ﴿قَالُوا يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤ - ١٥].

«والمراد: أنهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة، وجفّوا كما يجفّ الحصيد، وتخمّدوا كما تخمد النار»[1]. وهذا لا شك يظهر شدة الأخذ والإهلاك الذي أصابهم وقطع دابرهم.

❁ انقطاع الذكر.

قال الله تعالى عن قوم ثمود: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٤١].

«والغثاء ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة لا خير فيها، ولا قيمة لها، ولا رابط بينها.

وهؤلاء لما تخلوا عن الخصائص التي كرّمهم الله بها، وغفلوا عن حكمة وجودهم في الحياة الدنيا، وقطعوا ما بينهم وبين الملأ الأعلى، لم يبق فيهم ما يستحق التكريم، فإذا هم غثاء كغثاء السيل، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام. ويزيدهم على هذه المهانة الطرد من رحمة الله، والبعد عن اهتمام الناس ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعدًا في الحياة، وفي الذكرى في عالم الواقع، وفي عالم الضمير»[2].

٢. العقاب الأخروي.

إذا كانت عاقبة المترفين في الدنيا هي الإهلاك والتدمير، وانقطاع الذكر، فما لهم في الآخرة أعظم وأشد، قال تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٥].

وهذه صورة عصيبة لعذاب المترفين في الآخرة، إنهم ﴿فِي سَمُومٖ﴾ والسّموم: الرّيح الحارّة الّتي تدخل في مسامّ البدن، والمراد هنا: حرّ النّار ولفحها، ﴿وَحَمِيمٖ﴾ أي: ماء حارّ قد انتهى حرّه، إذا أحرقت النّار أكبادهم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢ / ١٢٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٤٦٨.

وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالّذي يفزع من النّار إلى الماء ليطفئ به الحرّ فيجده حميمًا حارًّا في نهاية الحرارة والغليان[(١)].

ونلحظ هنا أنه ذكر السموم والحميم دون النار، وذلك «إشارة بالأدنى إلى الأعلى، فإن هواءهم إذا كان سمومًا، وماءهم الذي يستغيثون به حميمًا، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها، فما ظنّك بنارهم، فكأنه قال: إن أبرد الأشياء لديهم أحرّها، فما بالك بحالهم مع أحرّها؟!»[(٢)].

وهم من شدة ما يلقونه من هذا السموم وذاك الحميم يفزعوا إلى الظّلّ كما يفعل أهل الدنيا؛ ولكنهم يجدونه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: من دخان جهنّم أسود شديد السّواد[(٣)]. ووصف الله هذا الظل بأنه ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ «أي: ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: ولا كريم المنظر»[(٤)]. والمقصود «أن هناك الهمّ والغمّ والحزن والشرّ الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لضده»[(٥)].

أما الذي أنزلهم هذا المنزل المشئوم، وألقى بهم في هذا البلاء العظيم، فهو ترفهم في الحياة الدنيا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي: متنعّمين في ترك أمر الله، فشغلهم ترفهم عن الاعتبار والتعبّد[(٦)].

ونلحظ هنا أن عذابهم جاء مطابقًا لحالهم، فالله أفاض عليهم بالنعم التي كان من حقها «أن تفتح لهم طريقًا إلى الله، فيحمدوا له ويشكروه، ولكنهم بطروا، وأشروا واستكبروا في الأرض، وعتوا عن أمر ربهم، وصدّوا عن سبيله»[(٧)]. فأبدلهم الله به السموم والحميم والظل الذي لا هو بارد ولا كريم.

ومن الآيات الدالة على عقوبة المترفين في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم.

وقوله تعالى: «﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: رويدًا»[(٨)]. وقد جاء وصفهم بـ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ «توبيخًا لهم بأنهم كذبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم»[(٩)].

وقد ذكرت الآيات بعد ذلك من ألوان

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧ / ٢١٣.
(٢) تفسير المراغي ٢٧ / ١٤١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧ / ٢١٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٨٣٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ٥٣٨.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩ / ٢٦٩.
(٧) زاد المسير، ابن الجوزي ٤ / ٢٢٥.
(٨) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤ / ٧١٩.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٥٦.

العذاب المعدّ للمترفين في الآخرة أمورًا أربعة:

أولًا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ أي: «إن لدينا لهؤلاء المكذبين بآياتنا قيودًا ثقيلة توضع في أرجلهم كما يفعل بالمجرمين في الدنيا إذلالًا لهم[1].

قال الشعبي: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا؟ لا والله! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم[2].

ثانيًا: ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي السعير المضطرمة.

ثالثًا: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج[3].

رابعًا: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعًا مفظعًا[4].

ومما يكشف عن شدة العذاب المعدّ لهم أن أجناس العذاب الأربعة جاءت منكرة وذلك «لقصد تعظيمها وتهويلها»[5].

ويكفي أن نستحضر أنّ عذابهم في الآخرة أيضًا جاء مضادًّا لأصول النعمة التي خوّلوها، فبطروا بها «فالأنكال مقابل كفرانهم بنعمة الصحة والمقدرة؛ لأن الأنكال القيود، والجحيم وهو نار جهنم مقابل ما كانوا عليه من لذة الاستظلال والتبرد، والطعام ذو الغصة مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنيئة من الثمرات والمطبوخات والصيد»[6].

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الإنفاق، المال

(١) تفسير المراغي ٢٩ / ١١٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ٤٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٥٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١ / ٨٩٣.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩ / ٢٧١.
(٦) المصدر السابق ٢٩/ ٢٧١.

الترهيب

عناصر الموضوع

مفهوم الترهيب	٤١٤
الترهيب في الاستعمال القرآني	٤١٥
الألفاظ ذات الصلة	٤١٦
أساليب عرض الترهيب	٤١٨
مجالات الترهيب في القرآن	٤٢٢
صور الترهيب في القرآن الكريم	٤٤١
أثر الترهيب في سلوك المرء	٤٤٣
فوائد الترهيب في التربية والدعوة	٤٤٤

مفهوم الترهيب

أولًا: المعنى اللغوي:

يرجع أصل الترهيب إلى الفعل الثلاثي (رهب) بالكسر يرهب رهبةً، ورهبًا بالضم ورهبًا بالتحريك، أي: خاف، ورهب الشيء رهبًا ورهبًا ورهبةً: خافه، والاسم الرّهب والرّهبى والرّهبوت والرهبوت، يقال: رجلٌ رهبوتٌ بفتح الهاء أي: مرهوب، وأرهبه واسترهبه أخافه[1].

قال تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. أي: تخوفونهم.

قال تعالى: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]. أي: فخافون، الرهبة والرهب مخافة مع تحرز واضطراب، وتعني: الخوف والفزع، قال سبحانه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣].

فيرجع معنى الترهيب إلى التخويف بالعقاب والفزع والاضطراب[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّفه عبد الرحمن النحلاوي بتعريفين:

«وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب، مما نهى الله عنه، أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به».

وعرّفه أيضًا بقوله: «تهديد من الله يقصد به تخويف عباده، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية؛ ليكونوا دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي»[3].

وقيل: «وعيد وتهديد من الله سبحانه و تعالى بعقوبة عاجلة أو آجلة؛ لتخويف العباد من اقتراف الذنوب والمعاصي، أو التهاون في أداء الفرائض التي أمر الله بها»[4].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي؛ إذ يرجع معنى الترهيب لغة إلى التخويف بالعقاب والفزع والاضطراب.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٤٣٧، القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ١/ ١١٨، مختار الصحاح، الرازي، ١/ ٢٦٧، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٤١، التعاريف، المناوي، ١/ ٣٧٥.

(٢) انظر: المفردات، ص٣٦٧

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص٢٥٧.

(٤) الترغيب والترهيب ودورهما في استقامة الإنسان، أحمد رزق ص٤.

الترهيب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رهب) في القرآن الكريم (١٢) مرة، يخص موضوع البحث منها (٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف:١١٦]
الفعل المضارع	٢	﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾ [الأعراف:١٥٤]
فعل الأمر	٢	﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾ [البقرة:٤٠]
مصدر	٣	﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ [القصص:٣٢]

وجاء (الترهيب) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو الخوف والفزع، أو مخافة مع تحرز واضطراب[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء:٩٠]. يعني: طمعًا وخوفًا[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٣٢٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٦٦.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٦٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ التخويف:

التخويف لغة:

الإخافة، وهو إدخال الخوف في نفس المخاطب[١].

التخويف اصطلاحًا:

إدخال الفزع في قلب المخاطب[٢]؛ حثًّا على التّحرّز من ارتكاب محظور[٣].

الصلة بين الترهيب والتّخويف:

الترهيب أعم من التخويف، فالترهيب يكون بالتخويف وبغيره.

٢ التهديد:

التهديد لغة:

التّخويف[٤]، والتوعّد بالعقوبة[٥].

التهديد اصطلاحًا:

زعزعة أمن المخاطب بالوعيد[٦]، وتخويفه بأمر مكروه مفسد لحاله.

الصلة بين الترهيب والتهديد:

التهديد: الوعيد والتّخويف بالعقوبة[٧]، فيتعلق بالعقوبة المحققة لمن أعرض عن الإنذار، والترهيب أعم.

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٩٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ٩٩.
(٣) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٣٠٣.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٥.
(٥) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٩٧٦.
(٦) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٨٣٤.
(٧) لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٣٣.

٣ الوعيد:

الوعيد لغة:

التّهديد بالشّرّ[١].

الوعيد اصطلاحًا:

إنذار بما سيحدث من دمار ونكبات[٢].

الصلة بين الترهيب والوعيد:

الوعيد يكون حاصلًا عن غضبٍ، قد يسكن ويزول[٣] بزوال سببه، أما الترهيب فهو أعم.

٤ الترغيب:

الترغيب لغة:

يقول الراغب الأصفهاني: «والرّغبة والرّغب والرّغبى: السّعة في الإرادة»[٤]، والرغبة إرادة الشيء والسعة في الإرادة، فإذا قيل: رغب فيه وإليه؛ اقتضى الحرص عليه إذا أراده، والرغيبة العطاء الكثير لكونه مرغوبًا فيه.

الترغيب اصطلاحًا:

«وعد من الله سبحانه و تعالى لعباده فيه تحبيب وإغراء بمصلحة، أو لذة أو متعة عاجلة أو آجلة، يتبعه حرص وإرادة، مقابل القيام بعمل صالح أو ترك عمل سيء؛ طاعة لله سبحانه و تعالى»[٥].

الصلة بين الترهيب والترغيب:

أن الترهيب فيه إثارة للخوف والقلق، ويؤثّر في النفس تنغيصًا، بينما الترغيب يعزز الأمن والاطمئنان، ويؤثر في النفس سرورًا، وعليه فإن اللفظين متضادان.

---

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٣٠٩، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر مختار ، ٣/ ٢٤٦٧.

(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر مختار، ٣/ ٢٤٦٧.

(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٦٥.

(٤) المفردات، ص ٣٥٨.

(٥) الترغيب والترهيب ودورهما في استقامة الإنسان، أحمد رزق ص٣.

أساليب عرض الترهيب

إنّ المتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أنّ أسلوب الترهيب جاء على أربعة أنواع:

أولًا: أن يأتي الترهيب في آية واحدة مستقلة:

وقع هذا النوع في كثير من الآيات القرآنية التي جاء الترهيب فيها بآية مستقلة بذاتها، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

يقول الشنقيطي في تفسيره: «نهى اللّه جل وعلا في هذه الآية الكريمة جميع البشر عن أن يعبدوا إلهًا آخر معه، وأخبرهم أنّ المعبود المستحقّ لأن يعبد وحده واحدٌ، ثمّ أمرهم أن يرهبوه، أي: يخافونه وحده؛ لأنّه هو الّذي بيده الضّرّ والنّفع، لا نافع ولا ضارّ سواه»[1]، ومن الأمثلة على هذا النوع أيضًا قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ذكر الشوكاني ما أجمع عليه أهل التأويل في بيانه لهذه الآية: «إنّ المراد بالسّيّئة هنا الشّرك، ووجه التّخصيص قوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فهذا الجزاء لا يكون إلّا بمثل سيّئة الشّرك، ومعنى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أنّهم كبّوا فيها على وجوههم وألقوا فيها وطرحوا عليها، يقال: كببت الرّجل: إذا ألقيته لوجهه فانكبّ وأكبّ، وجملة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بتقدير القول: أي: يقال ذلك، والقائل: خزنة جهنّم، أي: ما تجزون إلّا جزاء عملكم»[2]، ومن الآيات الدالة على هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

فهذا نوع من أنواع الترهيب إلى أولئك الذين فسقوا وخرجوا عن طاعة الله، فهؤلاء مقرّهم النار التي جمعت الشقاء والعذاب، فكلما ظنوا بأنهم سوف يخرجون منها أعيدوا وردّوا للعذاب مرة أخرى، واشتد عليهم الكرب، فيقال لهم -إذلالًا وإهانة-: ذوقوا العذاب الذي كنتم تكذبون به في دنياكم بسبب إنكاركم البعث والحساب[3].

ثانيًا: أن يأتي الترهيب في آيتين متتابعتين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

(١) أضواء البيان، ٢/ ٣٨٢.

(٢) فتح القدير، ٤/ ١٧٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٣١، أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٢٣٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٥٦.

﴿لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٣ - ٦].

يقول الإمام الطبري: «إن الذين لا يصدّقون بالدار الآخرة، وقيام الساعة، وبالمعاد إلى الله بعد الممات والثواب والعقاب، ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ يقول: حبّبنا إليهم قبيح أعمالهم، وسهّلنا ذلك عليهم. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: فهم في ضلال أعمالهم القبيحة التي زيّناها لهم يتردّدون حيارى يحسبون أنهم يحسنون»[1]، فكان جزاء هؤلاء العذاب كالقتل والأسر في الدنيا، وفي الآخرة كانوا أشد الناس خسارة لفوات المثوبة واستحقاق العقوبة[2].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦- ٧].

«﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي﴾ ما يلهي عن طاعة الله، ويصد عن سبيله، مما لا خير ولا فائدة فيه ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ليضل الناس عن طريق الهدى، ويبعدهم عن دينه القويم، بغير حجة ولا برهان ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي: ويتخذ آيات الكتاب المجيد سخرية واستهزاءً، وهذا أدخل في القبح، وأغرق في الضلال ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أي: وإذا قرئت عليه آيات القرآن ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: أعرض وأدبر متكبرًا عنها كأنه لم يسمعها، شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام، ويجعل نفسه كأنها غافلة ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي: كأن في أذنيه ثقلًا وصممًا يمنعانه عن استماع آيات الله ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أنذره يا محمد بعذاب مؤلم، مفرطٍ في الشدة والإيلام، ووضع البشارة بأشد العذاب»[3].

وهكذا نجد أن القرآن الكريم ذكر آيات كثيرة في كتابه تندرج تحت هذا النوع من أنواع الترهيب؛ حتى يكون المسلم على حذرٍ من الوقوع في أي معصية أو ذنب، يستحق بسببهما العذاب سواء في الدنيا أو الآخرة.

ثالثًا: أن يأتي الترهيب في مقطع قرآني:

قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ۝٢٢ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَاءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ

(١) جامع البيان، ١٩/ ٤٢٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٣٧، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ١٥٤.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ٤٤٨.

﴿حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١ - ٣٠].

يقول الزحيلي في تفسيره: «﴿مِرْصَادًا﴾ موضع رصد، يرصد فيه خزنة النار للطّاغين الكافرين، الذين طغوا بمخالفة أوامر ربهم، ﴿مَآبًا﴾ مرجعًا ومأوى، لابثين مقيمين، ﴿أَحْقَابًا﴾ دهورًا لا نهاية لها، جمع حقب، وواحدها حقبة، وهي مدة مبهمة من الزمان، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ برودة الهواء، ويطلق أيضًا على النوم، ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ أي: ما يشرب تلذذًا لتسكين العطش، ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ الحميم: الماء الحارّ الشديد الغليان، ﴿وَغَسَّاقًا﴾ قيح وصديد أهل النار الدائم السيلان من أجسادهم، ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ أي: جوزوا بذلك جزاء موافقًا لأعمالهم وكفرهم، فلا ذنب أعظم من الكفر، ولا عذاب أعظم من النار، ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون أو لا يتوقعون ﴿حِسَابًا﴾ محاسبة على أعمالهم لإنكارهم البعث، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿كِذَّابًا﴾ تكذيبًا كثيرًا، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: من الأعمال ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ضبطناه، ﴿كِتَابًا﴾ أي: ضبطناه بالكتابة، ﴿فَذُوقُوا﴾ أي: فيقال لهم في الآخرة عند وقوع العذاب عليهم: ذوقوا جزاءكم، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي: فوق عذابكم»[1].

ومن الأمثلة على الترهيب في مقطع قرآني، ما وصفه الله سبحانه وتعالى من العذاب لأهل النار، في قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤].

يقول جلال الدين المحلي: «﴿فِي سَمُومٍ﴾ ريح حارّة من النّار تنفذ في المسامّ ﴿وَحَمِيمٍ﴾ ماء شديد الحرارة ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ دخان شديد السّواد، ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كغيره من الظّلال ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ حسن المنظر»[2].

وبعد هذه الآيات ذكرت لنا السورة أسباب استحقاق هؤلاء الكفار للعذاب في أنهم كانوا منعّمين بالحرام في الدنيا، وكانوا يصرّون على الشرك بالله، وأنكروا البعث والجزاء، ثم جاءت الآيات لتصف لنا أنواعًا أخرى من العذاب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

يقول القاسمي في تفسيره: «﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ أي: الجاهلون المصرّون على جهالاتهم، والجاحدون للبعث، ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وهو من أخبث شجر

(١) التفسير المنير، ٣٠/ ١٦.

(٢) تفسير الجلالين، ص٧١٥.

البادية في المرارة، وبشاعة المنظر، ونتن الريح ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾ منها ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ أي: من ثمراتها الوبيئة البشعة المحرقة، ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي: الماء الذي انتهى حره وغليانه، ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ أي: الإبل التي بها الهيام، وهو داء لا ريّ معه؛ لشدة الشغف والكلب، بها ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: جزاؤهم في الآخرة»[1].

رابعًا: أن يأتي الترهيب في سورة قرآنية:

من أنواع الترهيب في القرآن الكريم ما جاء في سورة قرآنية، مثل ما جاء في سورة الهمزة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة: ١ -٩].

يقول الطبري: «﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ الوادي يسيل من صديد أهل النار وقيحهم، ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾: لكل مغتاب للناس، ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ ولم ينفقه في سبيل الله، ولم يؤدّ حق الله فيه، ولكنه جمعه فأوعاه وحفظه، يحسب أن ماله الذي جمعه وأحصاه وبخل بإنفاقه مخلّده في الدنيا، فمزيل عنه الموت، ثم أخبر -جلّ ثناؤه- أنه هالك ومعذّب على أفعاله ومعاصيه التي كان يأتيها في الدنيا، فقال -جل ثناؤه-: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ ليقذفنّ يوم القيامة في الحطمة، والحطمة: اسم من أسماء النار، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ وأيّ شيء أشعرك يا محمد ما الحطمة، ثم أخبره عنها ما هي، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ يقول: التي يطلع ألمها ووهجها القلوب، ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يعني: على هؤلاء الهمازين اللمازين ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: مطبقة، ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ أنهم يعذّبون بعمد في النار، والله أعلم كيف تعذيبه إياهم بها»[2].

من خلال ما سبق بيانه، ظهر لنا أنّ القرآن الكريم استخدم أنواع الترهيب المختلفة في كتابه، وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أنّ القرآن الكريم لم يغفل هذا الجانب؛ لأهميته في حياة المسلم، وأثره الكبير في استقامة الإنسان على طاعة ربه وامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ كي ينجو من العذاب الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى لمن عصاه وأشرك به، ويفوز بالجزاء العظيم، والنعيم المقيم الذي أعدّه لعباده المتقين.

(١) محاسن التأويل، ٩/ ١٢٥.

(٢) جامع البيان، ٢٤/ ٥٩٩.

مجالات الترهيب في القرآن

يسعى الشيطان جاهدًا ليوقع الإنسان في الضلال والغواية، ويجعله يرتكب جرائم عديدة، أخطرها تلك التي تتعلق بحق الله سبحانه و تعالى، كالكفر والشرك والنفاق، وقد رهّب سبحانه و تعالى من هذه الجرائم ورتّب عليها عقوبات زاجرة؛ حتى تكون مانعة للإنسان من الوقوع فيها، فإن الشرك خطره كبير، فهو من أكبر الكبائر، ومن أعظم الظلم، فهو سبب في عدم مغفرة الذنب، كذلك النفاق أشد خطرًا من الكفر والشرك، وقد جاءت الآيات القرآنية تحذّر من الوقوع فيه، وقد توعّد الله سبحانه و تعالى المنافقين بالعذاب الشديد يوم القيامة، وإن الكفر من الجرائم المتعلقة في حق الله سبحانه وتعالى؛ لأنه منافٍ للإيمان، ومحبط للعمل، فقد رتّب الله سبحانه و تعالى على مرتكبي هذه الجرائم أشد العقوبات وأبشعها؛ لأنها من الأعمال السيئة؛ كي تكون رادعة للإنسان في حياته الدنيا وزاجرة له، وسوف نتحدث في هذه السطور عن مجالات الترهيب في القرآن كالكفر والشرك والنفاق، والأعمال السيئة والعقاب:

أولًا: الكفر:

إنّ الكفر والشرك والنفاق من الجرائم المتعلقة بحق الله سبحانه وتعالى.

ولذا فقد رهّب الله سبحانه وتعالى من هذه الأمور، ورتّب عليها العقوبات، وهذا ما سنتحدث عنه:

ويعدّ الكفر من الجرائم المتعلقة بحق الله؛ لأنه منافٍ للإيمان، وقد ذم الله سبحانه و تعالى الكفر.

وبيّن سوء عاقبته على الكافرين في كثير من آيات القرآن الكريم، وتوعّدهم بالعذاب والهلاك، ومن صور الوعيد ما يلي:

١ . العذاب الأليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

بيّن سبحانه و تعالى حال أولئك الكافرين ومصيرهم، فهم يكفرون بآيات الله، وهي الدلائل الواضحة، وما بعث به رسله، ويقتلون مع ذلك النبيين بغير حق ولا سبب موجب للقتل، ويقتلون الذين يأمرونهم من أتباع الأنبياء المؤمنين الصالحين، فكان مصيرهم العذاب أليم[1].

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٣٠٠.

٢. العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

توعّد الله سبحانه وتعالى الكافرين بالعذاب المهين وهو الذي يهين صاحبه ويذله في الدنيا والآخرة؛ وذلك بسبب كفرهم بالله وما أنزل على رسله[(١)].

٣. الضلال المبين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وبمحمد وما جاء به من عند الله.

يقول السعدي في تفسيره: «واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات، كالكفر بجميعها؛ لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض»[(٢)].

وقد بيّن سبحانه و تعالى جزاء من يكفر بهذه المذكورات ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فإنه يعني: فقد ذهب عن قصد السبيل، وجار عن محجّة الطريق إلى المهالك؛ لأن كفر من كفر بذلك، خروجٌ منه عن دين الله الذي شرعه لعباده، والخروج عن دين الله فيه الهلاك والبوار، وفيه الضلال عن الهدى[(٣)].

٤. لعنة الله والملائكة على الكافرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

يقول ابن كثير في تفسيره: «ثم أخبر تعالى عمن كفر به، واستمر به الحال إلى مماته بأنّ ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي لا يخفّف عنهم العذاب فيها، أي: لا ينقص عما هم فيه، ولا هم ينظرون، أي لا يغيّر عنهم ساعة واحدة ولا يفتر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك»[(٤)]، وقال سبحانه و تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤].

٥. شراب الكافرين من الحميم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

يخبر سبحانه و تعالى عن أولئك الذين جحدوا وحدانية الله، ورسالة رسوله صلى الله عليه وسلم، بأن لهم شرابًا من ماء حارٍّ شديد الحرارة، يشوي الوجوه ويقطّع

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٦٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٩/ ٣١٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ١٣٨.

الأمعاء، ولهم عذاب موجع بسبب كفرهم وضلالهم[1].

٦. الكافرون لا مولى لهم، ولا ناصر ينصرهم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

إن الله سبحانه و تعالى ولي المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم، أما الكافرون فـ ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ينصرهم، أو يدفع عنهم ما حلّ بهم من دمار وخسران بسبب كفرهم وجحودهم[2].

٧. الخلود في نار جهنم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

يقول البغوي: «﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: جحدوا، ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالقرآن، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يوم القيامة، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها»[3].

وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى توعّد من كفر، أو وقع في الكفر بأنواع عديدة من العذاب، ولما علم الإنسان ماله من الوعيد حينما يكفر بالله عز و جل وآياته، وأن مأواه جهنم، وأن الله عز و جل سيذله ويذيقه من العذاب الأليم والشراب الحميم، ويلعنه الله والملائكة والناس أجمعون، ويخلد في نار جهنم، كما قال سبحانه و تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

فإن الإنسان لا يستقيم حاله إلا بإقراره بوحدانية ربه وتوحيده، وتجعله يسير وفق ما يريد الله عز و جل، ويجتنب الأمور التي توقع صاحبها في الكفر، فإن علم الإنسان المسلم ذلك، فإنه سينقاد إلى طاعة خالقه عز وجل، ويبتعد عن الكفر، ويكفر بكل ما عبد من غير الله عز وجل، من حجر، وشجر وغيره.

يقول الله عز و جل: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالإيمان بالله سبب من أسباب استقامة الإنسان على طاعة الرحمن، والبعد عن طاعة الشيطان.

ثانيًا: الشرك:

إن الشرك جريمة عظيمة بحق الله سبحانه و تعالى، فالشرك ظلم النفس، حيث وصفه سبحانه وتعالى بأنه أعظم الظلم،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٧/ ٤٣٠.
(٢) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ١/ ٣٨٨٦.
(٣) معالم التنزيل، ١/ ٨٦.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وذلك لأن المشرك يجعل المخلوق في منزلة الخالق؛ لذلك جاء التحذير منه في القرآن الكريم، واعتبره الرسول صلى الله عليه وسلم كبيرة من كبائر الذنوب، فالشرك: جعل شريك لله في ربوبيته أو إلهيته، كأن يدعو مع الله غيره، أو يصرف له شيئًا من أنواع العبادة، كالذبح والنذر والخوف والرجاء[(١)].

ولقد تنوعت دلالة النصوص على ذم الشرك، والتحذير منه وبيان خطره، وسوء عاقبته على المشركين في الدنيا والآخرة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

١. الشرك الذنب الذي لا يغفر إلا بتوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

يقول أبو بكر الجزائري: «فأخبر تعالى عن نفسه بأنه لا يغفر الذنب المعروف بالشرك والكفر، وأما سائر الذنوب كبيرها وصغيرها فتحت المشيئة، إن شاء غفرها لمرتكبها فلم يعذّبه بها، وإن شاء آخذه بها وعذّبه، وأن من يشرك به تعالى فقد اختلق الكذب العظيم؛ إذ عبد من لا يستحق العبادة، ومن لا حق له في التأليه؛ فلذا هو قائل بالزور وعامل بالباطل، ومن هنا كان ذنبه عظيمًا»[(٢)]، فمن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أنه يغفر الذنوب مهما عظمت، فإذا تاب المشرك عن شركه، ورجع إلى ربه وأناب، فإن الله سبحانه وتعالى يغفر لـه، يقول الإمام السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب، وأما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

أي: لمن تاب إليه وأناب؛ ولهذا حتّم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب»[(٣)]، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

٢. وصف الله الشرك بأنه ظلم عظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

يقول ابن عاشور في تفسيره: «والمراد بالظالمين ابتداءً: المشركون، أي: الذين ظلموا أنفسهم إذ أشركوا بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم يشمل أيضًا عمل المعاصي الكبائر، كما وقع في قوله تعالى: ﴿وَمِن

(١) انظر: عقيدة التوحيد، صالح الفوزان، ص٥١.

(٢) أيسر التفاسير، ١/ ٤٨٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص١٨١.

﴿ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقد وصف القرآن اليهود بوصف الظالمين في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

فالمراد بالظلم: المعاصي الكبيرة وأعلاها الشرك بالله تعالى»[١]، وإنّ أول وصية وصى بها لقمان ابنه وهو يعظه ألا يشرك بالله؛ لخطره على صاحبه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

٣. الشرك محبطٌ لجميع للأعمال، وسببٌ في خسران صاحبه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

أي: أوحى الله سبحانه و تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى الأنبياء من قبله، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بنا غيرنا في عبادتنا ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي: يبطل كله، ولا تثاب على شيء منه وإن قلّ، ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ بعد ذلك من جملة الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك هو الخسران المبين[٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

يقول ابن كثير: «هذا تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته»[٣].

٤. تحريم دخول الجنة على المشرك.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

يقول ابن جرير الطبري في تفسيره: «﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾، أن يسكنها في الآخرة، ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ يقول: ومرجعه ومكانه الذي يأوي إليه ويصير في معاده، من جعل لله شريكًا في عبادته نار جهنم، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾، يقول: وليس لمن فعل غير ما أباح الله له، وعبد غير الذي له عبادة الخلق، ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾، ينصرونه يوم القيامة من الله، فينقذونه منه إذا أورده جهنم»[٤].

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٧٠٦.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٤/ ٥٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٤٤٥.

(٤) جامع البيان، ١٠/ ٤٨١.

٥. المشرك حلال الدم والمال.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي: «التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي الأشهر الحرم الأربعة[١]، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في أي مكان وزمان»[٢]، يقول القرطبي: «يقتضي جواز قتلهم بأي وجه كان، إلا أن الأخبار وردت بالنهي عن المثلة»[٣]، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ أي: ضيّقوا عليهم واحبسوهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه، التي جعلها الله معبدًا لعباده، فهؤلاء ليسوا أهلًا لسكنها، ولا يستحقون منها شبرًا؛ لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المتنابذون له ولرسله، المحاربون الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون، ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: كل ثنية وموضع يمرون عليه، ورابطوا في جهادكم، وابذلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر؛ حتى يتوبوا من شركهم»[٤].

٦. براءة الله سبحانه و تعالى من المشركين ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣].

أمر النبي صلى الله عليه وسلم مؤذنه أن يؤذّن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بأنّ الله بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، ثم رغّب تعالى المشركين بالتوبة، ورهّبهم من الاستمرار على الشرك[٥].

فقال تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل

(١) الأشهر الحرم أربعة هي: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، رجب.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٢٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٧٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٢٩.
(٥) المصدر السابق، ص٣٢٨.

عملًا فأشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك)[1].

٧. نجاسة المشرك (المعنوية).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

يقول الإمام السعدي: «﴿نَجَسٌ﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع اللّه آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئًا، وأعمالهم ما بين محاربة للّه، وصد عن سبيل اللّه ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح»[2].

٨. الشرك افتراءٌ و إثم عظيمٌ على الله سبحانه و تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ومن يشرك بالله في عبادته، ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: اختلق ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وإنما جعله الله تعالى مفتريًا؛ لأنه قال زورًا، وإفكًا بجحوده وحدانية الله، وإقراره بأن لله شريكًا من خلقه.

لما يعلم الإنسان خطر الشرك، فإنه سيبذل قصارى جهده من أجل عدم الوقوع فيه؛ لأن الشرك سبب في عدم مغفرة الذنوب، فالمشرك حلال الدم والمال، وإنّ الله سبحانه و تعالى تبرأ من المشركين ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فالشرك يوجب لصاحبه العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

فهو أبغض الأشياء إلى الله، قال ابن القيم: «إنّ الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله، وأكرهها له وأشدها مقتًا لديه، ورتّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعدًاء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم وأن يتخذوهم عبيدًا؛ وهذا لأن الشرك هضم لحقّ الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلهية»[3].

فيجب على الإنسان أن يتحرر من جميع مظاهر الشرك، وأن يقلع عنها، ويستنير بنور التوحيد؛ لأنه سبب في مغفرة الذنوب واستقامة الإنسان، يقول ابن القيم: «فإن التوحيد الخالص الذي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله، ٤/ ٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٣٣.
(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ١/ ٦٠.

لا يشوبه شرك، لا يبقى معه ذنب فإنه يتضمن من محبة الله تعالى، وإجلاله، وتعظيمه وخوفه، ورجائه وحده مما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض»[1]، فالذي يتوجه إلى ربه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يصرف شيئًا من العبادة لغيره، فقد حقّق التوحيد واستقام على شرع الله سبحانه و تعالى.

ثالثًا: النفاق:

إن النفاق داء عضال، وانحراف خطير في حياة الأفراد والمجتمعات والأمم، فخطره عظيم، وشرور أهله كثيرة، وتكمن خطورته في آثاره المدمرة على حياة الأفراد والمجتمعات.

النفاق معناه: إظهار الإسلام وإبطان الكفر والشرك[2].

وسوف نتحدث عن النفاق ونبين صفات المنافقين؛ حتى يكون المسلم على حذر من الوقوع في النفاق، ومما يعين المسلم على ذلك تدبر ما ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه من صفاتهم، وما صحت به السنة النبوية، إن للمنافقين صفات كثيرة نشير إليها مجرد إشارات مختصرة، وإلا فإن التفصيل يحتاج إلى مؤلفات تفضح ما هم عليه، ومن أهم صفات المنافقين ما يأتي:

١. أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

ومن الناس فريق يتردد متحيرًا بين المؤمنين والكافرين، وهم المنافقون الذين يدّعون الإيمان بألسنتهم ويضمرون الكفر في قلوبهم، وهم في باطنهم كاذبون لم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر، فنفى الله سبحانه و تعالى عنهم صفة الإيمان؛ لأنهم أشد خطورة من الكافرين[3].

٢. خداع الله سبحانه وتعالى والمؤمنين.

قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

يقول ابن كثير في تفسيره للآية: «﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخادعون الله بذلك، وأنّ ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

(١) المصدر السابق، ١/ ٦٤.
(٢) انظر: عقيدة التوحيد، صالح الفوزان، ص٥٨.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٢٥.

﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[المجادلة: ١٨]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم»[(١)].

٣. الإفساد في الأرض بالقول والفعل.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

يقول سيد طنطاوي في تفسيره: «الفساد: خروج الشيء عن حالة الاعتدال والاستقامة، وعن كونه منتفعًا به، وضده الصلاح، يقال: فسد الشيء فسادًا، وأفسده إفسادًا، والمراد به هنا: كفرهم، ومعاصيهم، ومن كفر بالله وانتهك محارمه فقد أفسد في الأرض؛ لأن الأرض لا تصلح إلا بالتوحيد والطاعة، ومن أبرز معاصي هؤلاء المنافقين، ما كانوا يدعون إليه في السر من تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلقاء الشّبه في طريق دعوته، والتحالف مع المشركين ضد المسلمين، كلما وجدوا لذلك سبيلًا»[(٢)].

٤. الاستهزاء بالمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

«هؤلاء المنافقون إذا قابلوا المؤمنين قالوا: صدّقنا بالإسلام مثلكم، وإذا انصرفوا وذهبوا إلى زعمائهم الكفرة المتمردين على الله، أكّدوا لهم أنهم على ملة الكفر لم يتركوها، وإنما كانوا يستخفّون بالمؤمنين، ويسخرون منهم، فالله سبحانه وتعالى يستهزئ بهم معاملة لهم بالمثل؛ لتزداد حيرتهم، وتضطرب نفوسهم، وتضل عقولهم؛ لأنهم استبدلوا الإيمان بالكفر والإخلاص بالنفاق»[(٣)].

٥. المنافقون يحلفون كذبًا ليستروا جرائمهم.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

يقول ابن كثير في تفسيره: «أي: اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة، والحلفان الآثمة؛ ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون، وصدّقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالًا -مفسدة- فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس»[(٤)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٨٣.
(٢) الوسيط، ١/ ٢٧.
(٣) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٢٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ١٤/ ٥.

٦. موالاة المنافقين للكافرين ونصرتهم على المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

يقول الإمام الشوكاني: «إطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم تهكم بهم»[(١)].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى حال المنافقين بأنهم يوالون الكافرين، ويتخذونهم أعوانًا لهم، ويتركون ولاية المؤمنين، ولا يرغبون في مودتهم، أيطلبون بذلك النصرة والمنعة عند الكافرين؟ إنهم لا يملكون ذلك، فالنصرة والعزة والقوة جميعها لله تعالى وحده[(٢)].

وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحًا في آيات من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يونس: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ ﴾ [المنافقون: ٨].

٧. المنافقون يعملون على تهوين المؤمنين وتخذلهم.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٢ – ١٨].

يقول المنافقون والذين في قلوبهم شك ومرض: ما وعدنا الله ورسوله من النصر والتمكين إلا باطلًا من القول والغرور، فلا تصدّقوا، واذكر يا محمد قول طائفة من المنافقين الذين ينادون المؤمنين من أهل المدينة: لا إقامة لكم في معركة خاسرة، فارجعوا إلى منازلكم؛ لأنها غير محصنة، فالحق أنهم قصدوا بذلك الفرار من القتال،

(١) فتح القدير، ١/ ٧٩٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ٢٨٠.

فهؤلاء المنافقون عاهدوا الله سبحانه وتعالى ألا يفروا من الحرب، وألا يتأخروا إذا دعوا إلى الجهاد؛ لكنهم خانوا عهدهم وسيحاسبهم الله سبحانه وتعالى على تلك الخيانة وعدم وفائهم بالعهد، وقل يا محمد لهؤلاء المنافقين: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ من المعركة خوفًا من الموت أو القتل، فإن ذلك لا يؤخّر آجالكم، وإن فررتم فلن تتمتعوا إلا بقدر أعمالكم المحدودة، وهو زمن يسير جدًّا بالنسبة للآخرة، ومن الذي يمنع المنافقين من عذاب الله وسخطه، فالمنافقون ليس لهم من دون الله ناصر ينصرهم، وإن الله سبحانه وتعالى يعلم المثبطين من المنافقين عن الجهاد في سبيل الله، فكان ديدن هؤلاء المنافقين العمل على تهوين المؤمنين وتثبيطهم وتخذلهم[1].

٨. التحاكم إلى الطاغوت.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

هكذا حال المنافقين: إنهم يتركون التحاكم إلى الله ورسوله، فهم حين لا يقبلون حكم الله ورسوله، ويفتضح نفاقهم، يأتون بأعذار كاذبة ملفقة، ويحلفون الأيمان لتبرئة أنفسهم، إننا لم نرد مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحكامه، إنما أردنا التوفيق والمصالحة، وأردنا الإحسان لكل من الفريقين المتخاصمين، ومن عجيب أمرهم في ذلك، أنهم إذا وجدوا الحكم لصالحهم قبلوه[2]، وإن يكن عليهم يعرضوا عنه.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بذلك ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٧ – ٤٩].

٩. طعنهم في المؤمنين وتشكيكهم في نوايا الطائعين.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

إن الله سبحانه وتعالى توعد بالعذاب الأليم للمنافقين الذين يسخرون من

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٥/ ٥٥، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٤٧.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٦/ ٤٥٢.

المؤمنين المتصدقين، فإذا تصدق الأغنياء بالمال الكثير عابوهم واتهموهم بالرياء، وإذا تصدق الفقراء بما في طاقتهم استهزءوا بهم، وقالوا: إن الله غني عن هذه الصدقة، وقد روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: (لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: ٧٩])[1].

والنفاق انحراف خطير يطرأ على سلوك الإنسان، وقد رهّب منه القرآن الكريم؛ حيث توعد الله سبحانه وتعالى المنافقين بالعذاب الشديد في نار جهنم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[التوبة: ٦٨].

وقد حذّر الله سبحانه وتعالى من النفاق؛ لما له من آثار جسيمة على الفرد والمجتمع، فلما يعلم الإنسان خطر النفاق وآثاره المدمرة وصفات المنافقين، وما أعد لهم من الوعيد الشديد، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء: ١٤٥].

فإن الإنسان يحرص كل الحرص، ويحذر كل الحذر من الوقوع في النفاق بأنواعه، فيبدأ بتصحيح نواياه ومعتقداته، ويجعلها خالصة لله عز وجل، مما يدفعه ذلك إلى الاستقامة على طاعة ربه، فيترفع عن أخلاق المنافقين وصفاتهم الذميمة التي أشار إليها القرآن والسنة، وبذلك تتحقق الاستقامة للفرد والمجتمع.

رابعًا: الأعمال السيئة:

رهّب الله سبحانه وتعالى من الأعمال السيئة، وبيّن أن الإنسان مسئول عن أعماله سواء كانت صالحة أو سيئة، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦].

وسوف نتحدث هنا عن بعض الأعمال السيئة في القرآن، كالقتل، والزنا، والقذف، والسرقة.

١. القتل.

إن القتل جريمة خطيرة، لها أضرارها على الفرد والمجتمع، وقد ذكر الله تحريمها في مواطن كثيرة من القرآن الكريم.

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، ٢/ ١٠٩، رقم ١٣٤٩.

لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٩٢، ٩٣].

جاءت الآية الأولى تبين حكم من قتل مؤمنًا خطأً، والقتل الخطأ هو القتل الحادث بغير قصد الاعتداء لا للفعل، ولا للشخص، كأن وقع شخص على آخر فمات، أو رمى شجرة أو دابة، فأصابت الرمية إنسانًا فمات، أو رمى آدميًّا فأصاب غيره فمات، فإذا حصل ووقع القتل بطريق الخطأ؛ فعلى القاتل عتق رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهل القتيل، إلا إذا عفوا عنه وأسقطوا الدية باختيارهم فلا تجب حين إذن، وإذا كان المقتول مؤمنًا وأهله من الكفار، فالواجب على قاتله عتق رقبة مؤمنة، ولا تجب الدية لأهله؛ لأنهم أعداء محاربون فلا يعطوا من أموال المسلمين ما يستعينون به على قتالهم، وأما إذا كان المقتول معاهدًا أو ذميًّا فالواجب في قتله كالواجب في قتل المؤمن، وهي دية مسلمة إلى أهله تكون عوضًا عن حقهم، وعتق رقبة مؤمنة كفّارة عن حق الله، فمن لم يجد الرقبة التي يحررها فعليه صوم شهرين متتابعين، توبة من الله على عباده المؤمنين؛ لأن الله عليم بما يصلح الناس، وحكيم في تشريعه[1].

وجاءت الآية الثانية تبيّن حكم وجزاء من يقتل مؤمنًا متعمدًا، حيث غلّظ الشارع في العقوبة على هذه الجريمة؛ لعظمها عند الله تعالى، فعن البراء بن عازبٍ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (لزوال الدّنيا أهون على اللّه من قتل مؤمنٍ بغير حقٍّ)[2].

ولم يذكر القرآن الكريم له كفارة، بل جعل عقابه أشد عقاب توعّد به القاتل، فهو سبب في هلاك صاحبه في الدنيا والآخرة، حيث قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٨٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٩٢، الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٧/ ٥٣٧، روائع البيان، الصابوني، ١/ ٤٩٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلمًا، ٤/ ٢١٢، رقم ٢٦١٩.
وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، ٦/ ١١٩.

﴿مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

فقد حكمت الآية على القاتل المتعمد بعقوبات ثلاثة، وذلك كما يأتي:

الأولى: الخلود في جهنم.

الثانية: استحقاق الغضب واللعنة.

الثالثة: العذاب العظيم في الآخرة.

وثبت في السنة تشريع عقوبة أخرى للقتل العمد، وهي الحرمان من الإرث، والوصية، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: **(ليس لقاتل ميراث)**[(١)].

فإذا قتل الوارث مورثه، أو الموصى له الموصي، حرم من الميراث والوصية، عملًا بمبدأ سد الذرائع؛ حتى لا يطمع أحد بمال مورثه، فيتعجل موته بالقتل، فمن تعجّل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه[(٢)].

ومن أضرار جريمة القتل ما يأتي:

١. خسران القاتل الآخرة باستحقاقه العذاب والغضب واللعنة.

٢. إنها من الكبائر المنصوص عليها في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: **(اجتنبوا السبع الموبقات...)**[(٣)] وعدّ منها قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

٣. إنّ قتل نفسٍ واحدةٍ كقتل الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

قال ابن كثير: «أي: من قتل نفسًا بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس»[(٤)].

٤. إنّ القتل أول ما يقضى فيه بين العباد يوم القيامة، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(أول ما يقضى بين الناس في الدماء)**[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب ليس لقاتل ميراث، ٤/ ٣٣٣، رقم ٢٦٤٦. وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، ٦/ ١٤٦.

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبه الزحيلي، ٧/ ٦٢٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٦٤، رقم ٨٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٨٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا،

فمن خلال ما سبق ظهرت لنا بعض أضرار جريمة القتل على مرتكبها، فلابد للإنسان أن يضع مخافة الله سبحانه و تعالى نصب عينيه قبل أن يقدم على هذه الجريمة؛ حتى لا يقع في الهلاك والخسران.

٢. الزنا.

قال تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٣٢].

يقول الإمام السعدي رحمه الله: «والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه»[(١)]، وقد كانت عقوبة الزانية في صدر الإسلام الحبس في البيت، وعدم الإذن لها بالخروج، وكانت عقوبة الرجل التأنيب والتوبيخ قولًا، قال تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٥].

ثم نسخ ذلك بجلد الزاني أو الزانية البكر، ورجم المحصن منهم[(٢)].

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[النور: ٢، ٣].

ذكر الله سبحانه و تعالى عقاب من انتهك حرمات الله تعالى بالزنا، وبيّن عقوبة كلًّا من الزانيين، وهي مائة جلدة، تستوفونها منهما كاملة دون رحمة أو شفقة، ودون تخفيف من العقاب، أو انتقاص من الحد، وقدّم الزانية لأن الزنا كان حينئذ في النساء أكثر، فإنه كان منهنّ إماء وبغايا يجاهرن بتلك الجريمة، فإن جريمة الزنا أخطر وأعظم من أن تستدر العطف، أو تدفع إلى العفو عن مرتكب هذه الجريمة النكراء، فإن من عرف آثار جريمة الزنا وأضرارها من تدنيس للعرض والشرف وضياع للأنساب، واعتداء على كرامة الإنسان، وتلطيخ لهم بالعار، وتعريض الأولاد للتشرد والضياع؛ حيث يولد اللقيط وهو لا يدري أباه، ولا يعرف حسبه ولا نسبه، فمن عرف ذلك أدرك حكمة الله تعالى في تشريع هذا العقاب الزاجر الصارم، وليس هذا فحسب بل لابد

٨/ ١١١، رقم ٦٤٧١.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٥٧.

(٢) انظر: روائع البيان، الصابوني، ٢/ ١٩.

أن تشهدوا على هذه العقوبة؛ لتكون زاجرًا له ولأفراد المجتمع من اقتراف مثل هذا المنكر الشنيع، فتحصل العبرة والعظة[1].

وعبّر القرآن بقوله «﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ ولم يقل: (فاضربوا) للتنبيه على أن الغرض من هذا العقاب هو الإيلام، حيث يصل ألمه إلى الجلد؛ وذلك لعظم هذا الجرم»[2].

وفرّقت الشريعة الإسلامية بين حد البكر (غير المتزوج) وحد المحصن (المتزوج) فخففت العقوبة في الأول فجعلتها مائة جلدة، وغلّظت العقوبة في الثاني فجعلتها الرجم بالحجارة حتى الموت؛ وذلك لأن جريمة الزنا بعد الإحصان (التّزوج) أشد وأغلظ من الزنا قبل الإحصان في نظر الإسلام، فالجريمة التي يرتكبها رجل محصن مع (امرأة محصنة) عن طريق الفاحشة أشنع وأقبح من الجريمة التي يرتكبها مع البكر؛ لأنه قد أفسد نسب غيره، ودنّس فراشه، وسلك لقضاء شهوته طريقًا غير مشروع، مع أنه كان متمكنًا من قضائها بطريق مشروع، فكانت العقوبة أشد وأغلظ[3].

وبيّن الله تعالى أن الزاني لا يليق به أن ينكح المؤمنة العفيفة الشريفة، إنما ينكح من هي مثله أو أخس منه، ينكح الزاني الفاجرة، أو المشركة الوثنية، ولا عجب في أنّ الفاسق الخبيث لا يرغب غالبًا إلا في فاسقة مثله أو مشركة، والزانية الخبيثة، كذلك لا ترغب إلا في خبيث مثلها أو مشرك[4].

وقد صدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [النور: ٢٦].

هكذا نجد أنّ الله تعالى حرّم جريمة الزنا لما فيها من أضرار عظيمة ومخاطر جسيمة تودي بحياة الأفراد والجماعات، حيث جعل الله تعالى عقوبة الزاني المحصن الرجم حتى الموت، والبكر الجلد مائة جلدة، وفي ذلك ردع له عن الإقدام على مثل هذه الفعلة ولا حتى قربانها، وقد بيّن الله سبحانه أنه لابد من حضور طائفة من المؤمنين ليشهدوا عذاب الزاني، قال تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يفيد حضور جمع من المؤمنين عند إقامة الحد؛ وذلك تنكيلًا وعبرةً وعظةً لغيره من التفكير في الإقدام عليها، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٣٢].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٠/ ١٥٩، روائع البيان، الصابوني، ٢/ ١١٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/ ١٦٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٢٧٦.
(٤) انظر: روائع البيان، الصابوني، ٢/ ١٢.

نهـى عن مقاربته بالمقدمات، كالعزم والنظر وشبهه، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: فعلة ظاهر فحشها وقبحها، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾؛ قبح طريقًا طريقه؛ لمـا فيه من اختلاط الأنساب وهتك محارم الناس، وتهييج الفتـن، فلما يعلم الإنسان أنه ينفضح على رءوس الأشهاد، يقـف ويفكّر مليًّا في ما سيفعله، فيكون هذا الترهيب دافعًا له على الاستقامة، وإذا استقام الإنسان يستقيم حال المجتمع، فتصان الأعراض وتحفظ الأنساب[1].

٣. القذف.

القذف جريمة عظيمة نص عليها القرآن والسنة، فهو من الكبائر، ومن أشنع الذنوب وأبلغها في الإضرار بالمقذوف والإسـاءة إليه؛ لذا كان التحذير منه في القرآن الكريم شديدًا، وقد عاقب الله سبحانه وتعالى القاذفين بعقوبات عديدة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: والذين يشتمون العفائف من حرائر المسلمين، فيرمونهنّ بالزنا، ثم لم يأتوا على ما رموهن به من ذلك بأربعة شهداء عدول يشهدون عليهن أنهم رأوهن يفعلن ذلك، فاجلدوا الذين رموهن بذلك ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا، وأولئك هم الذين خالفوا أمر الله وخرجوا من طاعته ففسقوا عنها»[2].

يقول الإمام القرطبي: «للقذف شروط عند العلماء تسعة: شرطان في القاذف، وهما: العقل والبلوغ؛ لأنهما أصلا التكليف؛ إذ التكليف ساقط دونهما، وشرطان في الشيء المقذوف به وهو: أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد، وهو الزنا واللواط أو بنفيه من أبيه دون سائر المعاصي، وخمسة من المقذوف وهي: العقل، والبلوغ، والإسلام، والحرية، والعفة عن الفاحشة»[3].

بيّنت الآية حكم جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلًا فكذلك يجلد قاذفه أيضًا، وليس فيه نزاع بين العلماء، فإن أقام القاذف بيّنة على صحة ما قاله درأ عنه الحد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وقوله: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يدل على أن شهادة الأربعة شرط في إثبات الزنا[4].

أوجب الله سبحانه وتعالى على القاذف

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ١٢٦.

(٢) جامع البيان، ١٩/ ١٠٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ١٧٣.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي، ٤/ ٢٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٠/ ١٧١.

إذا لم يأت بالبينة على صحة ما قال ثلاث عقوبات، حسية ومعنوية ودينية:

أولًا: العقوبة الحسية: وتتمثل في جلد القاذف ثمانين جلدة.

ثانيًا: العقوبة المعنوية: وتتمثل في عدم قبول شهادة القاذف، فيهدر قوله، ويصبح في المجتمع من المنبوذين، فلا ثقة له بين الناس.

وقد توعد الله سبحانه وتعالى لأولئك الذين يرمون المؤمنات المحصنات ويتهمونهن بالزنا، باللعنة في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم لجرم الذنب الذي ارتكبوه في حقهن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

يقول الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: «﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال العلماء: إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة، فالمراد باللعنة: الإبعاد وضرب الحد واستيحاش المؤمنين منهم وهجرهم لهم، وزوالهم عن رتبه العدالة، والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين»[(١)].

لذلك نجد الله سبحانه وتعالى شدّد في عقوبة القذف، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا؛ وذلك صيانة للأعراض من التهجم، وقطع ألسنة السوء، فيمتنع ضعاف النفوس من أن يجرحوا مشاعر الناس، وجريمة القذف تولّد أخطارًا جسيمة في المجتمع، فكم من فتاة عفيفة شريفة لاقت حتفها بسبب كلمة قالها قائل، فوصل خبرها إلى الناس، وافتضح أمرها، وانتشر صيتها، وهي بريئة من ذلك، فجاءت حكمة التشريع في بيان العقوبة المترتبة على هذه الجريمة؛ ردعًا للقاذف من أن يتهم الناس بالفاحشة، وحماية سمعتهم من التدنيس، ومنع إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، فإن كثرة الترامي بها، وكثرة سماعها، وسهولة قولها، يجرئ السفهاء على ارتكابها، فكانت العقوبة غليظة؛ حتى لا يتجرأ أحد على ارتكابها، ولا يقدم على فعلها، فيمتنع عن هذا الفعل الشنيع، وبذلك يستقيم الإنسان، وتصان الأعراض من أن تنتهك، وتحفظ كرامة الأمة، ويطهر المجتمع من مقالة السوء، وتنتشر المودة والمحبة بين الأفراد، وبذلك تستقيم حياة الأمة[(٢)].

٤. السرقة.

السرقة من الجرائم العظيمة في الإسلام، فهي لا تحل في شرع الله، ولا في أي قانون وضعي؛ لأن إباحة السرقة تخلّ بأمن الناس، وتفقد الطمأنينة؛ ومن ثمّ يتزعزع استقرار المجتمع؛ لذا فقد جعل الله سبحانه

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٢١٠.

(٢) انظر: التشريع الجنائي في الإسلام، عبدالقادر عودة، ٢/ ١٧٧.

و تعالى عقوبة السرقة القطع زجرًا لأخذ الأموال بغير حق.

يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨، ٣٩].

الأحكام التشريعية المستنبطة من النص:

جاءت الآية الأولى تبيّن حكم السرقة، فكل من يسرق فحكمه أن تقطع يده اليمنى من الكوع، وكذا يد السارقة؛ مجازاة لهما على ظلمهما بالاعتداء على أموال غيرهم، وقد ذكر ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾ عطفًا على ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ حتى لا يفهم منها أنّ الحكم مقتصرٌ على الذكور فقط دون الإناث، فقد كانت العرب لا تقيم الحدود على الإناث قبل الإسلام، ونلاحظ أن الآية لم تبيّن مفهوم السرقة ولا النصاب الذي تسمى عنده سرقة فتوجب الحد، ولا كيفية القطع ومكانه، فقد بيّنت ذلك السنة النبوية، كما بيّنت الآية أن هذا الحكم إنما هو جزاءً من الله على ظلم السارق والسارقة في اعتدائهما على حقوق العباد، وأنه عقوبة من الله تعالى لهما تجعل غيرهما لا يقدم على أخذ أموال الناس بطريق السرقة المحرمة، وذلك الحكم لأن الله سبحانه و تعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ في ملكه لا يغالبه مغالب، و﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وقضائه[1].

وبيّنت الآية الثانية أنّ من تاب من السارقين بعد قيامه بالسرقة فأقلع عن السرقة وعمل عملًا صالحًا، فإن الله يقبل توبته، لكن مع الانتباه أن الآية لم تذكر إسقاط عقوبة السرقة، وإن جاء السارق تائبًا قبل القدرة عليه[2].

وقد جعل الله تعالى عقوبة السرقة هي القطع «ليكون هذا العقاب الصارم عبرة للناس؛ حتى يرتدع أهل البغي والفساد، ويأمن الناس على أموالهم وأرواحهم»[3].

وعليه فالجزاء على السرقة جزاء يقصد منه الردع وعدم العود، فليس بانتقام، ولكنه استصلاح وتهذيب لسلوك الفرد والمجتمع، فلا يكون المراد أن القطع تعويض عن المسروق، فعندما يعلم المكلف أن يده ستقطع، وأنه سيصبح بلا يد فتكون علامة مادية للمجتمع أنه سارق، فإنه سيفكر جيدًا في هذا التصرف من حيث أنه سيلقى عقابه بقطع يده، وسيلقى الخزي بين مجتمعه بيده المقطوعة؛ ومن ثمّ يصبح هذا الحكم دافعًا له للاستقامة على الطاعة وحفظ الأمانة، واجتناب المعصية.

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٦٢٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ٦/ ١٩٠-١٩٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي ، ١/ ٢٥٣.

صور الترهيب في القرآن الكريم

ذكر القرآن الكريم صور وطرقًا عديدة تخوّف المؤمن من حصول العذاب في الدنيا والآخرة، فمن طريقة القرآن الكريم وأساليبه، ترهيب المؤمن بما أعد الله من أصناف العذاب لمن خالف أمره، وكل ذلك حتى يكون على طاعة مستمرة لربه، وبذلك يحصل له الفوز في الدنيا والآخرة.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أن أسلوب الترهيب لم يأت بصيغة الترهيب الصريحة فحسب، بل جاء في العديد من المواضع بطريق التلميح والتعريض والتهديد، وبطرق أخرى نبيّنها فيما يلي:

١ . التهديد والتخويف بصيغة العلم.

فكثيرًا ما يقع التهديد في القرآن بذكر (العلم)، والمثال على هذا قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

فالأمر بـ (العلم) بأن لقاء الله آتٍ لا مفر منه مشعر بالتهديد[(١)]، ومن هذا القبيل أيضًا ، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

٢ . الترهيب بصيغة (أفعل).

والمراد: المبالغة في التهديد والزجر، والمثال عليه قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

ففي الآية تهديد عظيم لمن منع مساجد الله أن تقام فيها العبادة، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

٣. الإملاء للمعرضين والإمداد لهم.

والمثال عليه قوله سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

ونظير هذا قوله عز وجل: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥].

٤ . التعبير بصيغة المستقبل بالإخبار عن عاقبة المعرضين.

ومثاله قوله تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

يقول ابن كثير: «سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدّمار والتّباب»[(٢)]، ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ٧٦٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٢٦.

٥. الأمر بطاعة الله سبحانه والرهبة منه.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

فالأمر هنا متضمن معنى التهديد والوعيد.

٦. تكرار الكلام بلفظه، والقصد التهديد.

قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

فقد تكررت هذه الآية كثيرًا في سورة الرحمن؛ بقصد التهديد لمن تنكّر لنعم الله عليه وأفضاله.

٧. إخباره سبحانه بعدم غفلته عما يفعله عباده.

والمثال عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

فالمراد: التهديد، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٍ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

٨. الخطاب بلفظ (الإنذار).

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]. فالإنذار يتضمن معنى الترهيب.

٩. ختم الآيات بعبارات تفيد أنّ من يخالف أوامر الله سبحانه فإنه معرّض للعذاب الشديد.

كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

١٠. الإخبار بلفظ الغلبة والحشر.

كقوله سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

فالمراد بـ(الغلبة) و(الحشر) هنا التهديد.

١١. التذكير بالأمم السالفة، وما نزل بها من العقاب والعذاب.

كقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥].

فالآية سيقت مساق التهديد بتذكيرهم بالأمم السالفة التي كذّبت رسلها، وكيف عاقبهم الله على ذلك، وكانوا أشد قوة من قريش، وأعظم سطوة منهم.

ومن خلال ما تقدم تبيّن أن أساليب القرآن الكريم تعددت في خطاب النفس البشرية، ما بين ترهيب وإنذار، ووعيد، وتخويف، وكان الترهيب من الأساليب التي اعتمدها القرآن في خطابه؛ وذلك أن من النفوس البشرية من لا تستجيب لنداء الحق إلا إذا خوطبت بخطاب فيه تهديد ووعيد.

أثر الترهيب في سلوك المرء

إنّ القرآن الكريم استخدم الكثير من الآيات المتضمنة للترهيب، قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

قال البيضاوي في تفسيره: «﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر العدد مع أن المعدود يدل عليه دلالة على أن مساق النهي إليه، أو إيماء بأن الاثنية تنافي الألوهية، كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإلهية، أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية، ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب، وتصريحًا بالمقصود، فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير»[(١)]، وفي قوله: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكًا، فدلت هذه الآية على مخافة العبد من غضب الله وسخطه وعذابه[(٢)].

ولا شك أن الترهيب بأنواعه المتعددة وأساليبه المختلفة له أثره الكبير على سلوك المرء؛ لكون هذا الأسلوب رادعًا للفرد حينما يقصّر في أداء ما فرضه الله سبحانه وتعالى عليه من العبادات، وللعبادات تأثير واضح في سلوك الفرد، فهي التي تزكّي نفسه، وتزيد مراقبته لربه تعالى في السر والعلن، والخوف منه، فينزجر عن المعاصي والإضرار بالناس، ويسارع إلى عمل الخير، ولاشكّ أن المجتمع سيكون سعيدًا إذا زاد فيه عدد الصالحين الخائفين من الله تعالى، وأنّ كمية الخير في المجتمع ستكثر، وأن الجرائم تقل، فالعبادات في الإسلام تصلح الفرد والمجتمع، ولها الأثر الكبير في استقامة الإنسان[(٣)].

وكذلك إذا اجتنب المرء ما نهى الله عنه من كبائر الذنوب والمعاصي، يبقى الفرد في اتصال دائم مع ربه فيخاف عقابه وعذابه ويرجو رحمته، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

يقول القاسمي في تفسيره: «﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: كبائر الذنوب التي نهاكم الشرع عنها، مما ذكر هاهنا ومما لم يذكر، ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: صغائر ذنوبكم، ونمحها عنكم، وندخلكم الجنة»[(٤)].

(١) أنوار التنزيل، ٣/ ٢٢٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٢٠.
(٣) انظر: أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص ٦٩.
(٤) محاسن التأويل، ٣/ ٨٨.

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن جعل باب التوبة مفتوحًا لمن أقدم على كبيرة من الكبائر، كالقتل والشرك والزنا والعقوق وغيرها من الآثام، قال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

أي: إن الله يغفر لمن رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية، وآمن بقلبه، وعمل الصالحات بجوارحه ثم استقام على طاعة ربه[1].

فلما يعلم المرء أن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب والكبائر والمعاصي، فإنه يبادر إلى التوبة والرجوع والإنابة إلى الله وحده، فيستقيم على طاعة ربه، ويبتعد عن كل ما يسخط الله ويغضبه؛ لأنه يعلم الوعيد الذي أعده الله سبحانه لمن خالف أمره وعصاه، فلو استطاع الإفلات من عذاب الدنيا، فإن العقاب الأخروي ينتظره، فمن ثمّ يكون لهذا الترهيب الأثر البالغ على سلوك المرء، لاسيما وإنّ الترهيب يثير عند الإنسان عامل الخوف، وعامل الرجاء والأمل، وهما في الواقع يوجّهان اتجاه الإنسان إلى السلوك الأفضل والطريق الأقوم.

فوائد الترهيب في التربية والدعوة

أولًا: فوائد الترهيب في التربية:

لاشك أن الترهيب في التربية له فوائده الكثيرة التي تعود بالنفع على صاحبه، وتظهر مكانة الترهيب وأهميته من أمر الله تعالى الصريح بتطبيقه واستعماله في حقّه جلّ ثناؤه، قال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

فالترهيب من ركائز الإيمان، فيقتضي الخوف؛ لذا قيّده الله تعالى بالإيمان في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فجعل الخوف والرهبة شرطًا في تحقيق الإيمان، فإذا تحقق الشرط وهو الخوف، تحقق المشروط وهو الإيمان، فالمقصود أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه، فالخوف يربي المؤمن على طاعة ربه، ومن ثمّ يبقى على صلة بالله؛ فيزداد إيمان المؤمن بالطاعات، وبالبعد عن المنكرات.

وكذلك فإن الترهيب سبب في وصول المسلم إلى أعلى الدرجات، فمثلًا صاحب القلب الخائف، هو الّذي يقيم الصلاة على أكمل وجه، وهو الّذي يؤدي الزكاة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/٣٠٩.

بنفس طيبة، وهو الّذي يخشى الله في السر والعلن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

ولهذا كان جزاؤه الفوز والفلاح وميراث جنة الفردوس.

وقد بيّن سبحانه وتعالى اتصاف أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم به، بعد أن أثنى عليهم ومدحهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى عن ملائكته الكرام الذين أمنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وقال سبحانه عن عباده العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وهكذا نجد أن الأنبياء والملائكة والعلماء كانوا يدعون ربهم خوفًا ورهبة منه سبحانه وتعالى، وفي ذلك دعوة لنا أن نتذكر هذا الأسلوب الناجع في حياتنا، فالأفضل منا جميعًا كانوا يتصفون به، فمن باب أولى أن نكون أول من يلتزم ويتذكر هذا الأسلوب التربوي الذي ذكره الله سبحانه في كتابه؛ كي يكون رادعًا لنا في حياتنا اليومية.

والترهيب سبب في الانتفاع بالعبر والقصص القرآنية التي تحدثت عن مصير الأمم الغابرة؛ لأنّ من طبع النفس النسيان والغفلة؛ لذلك فإن الترهيب يصبح نوعًا من التذكير بما آلت إليه النفس من ارتكاس ونكوص، ووقوع في الرذائل والآثام هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن من رهب الله تعالى وخاف وعيده أوجب له ذلك الحذر، ومن ثمّ الانتفاع بالعظات والآيات والعبر، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

ومن خلال ما سبق ذكره من الآيات ظهر لنا فوائد الترهيب في التربية، فهو سبب في القضاء على كثير من الأمراض والجرائم الاجتماعية، والمخالفات السلوكية، وسبب في تقوية وزيادة الإيمان، بمعنى أن من لم يرتدع بالترغيب والإرشاد والجدل واللين، واستمرّ على ما هو عليه، فلابد له حينئذٍ من سياط التخويف وسطوات السيوف من خلال الترهيب العمليّ، فمثلًا المرتد المصرّ على ردّته يقتل، والزاني المحصن يرجم، والسارق المستمر في فعله تقطع يده، ومن خلال ما سبق ظهر لنا فوائد هذا الأسلوب في التربية.

ثانيًا: فوائد الترهيب في الدعوة إلى الله:

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

الدعوة إلى الله واجب كل مسلم، كما كانت من قبل وظيفة الأنبياء والرسل، ولقد شرع لنا الله سبحانه في دعوتنا للناس أساليب ووسائل تتنوع بين الحين والآخر، فقد يستخدم مع المدعو أحيانًا أسلوبًا أو وسيلة تختلف عنه مع مدعو آخر.

ومن هنا يبرز لنا أهمية أسلوب الترهيب في الدعوة إلى الله؛ لأن هنالك بعضًا من الناس وأصنافًا منهم لا يجدي فيهم الترغيب والوعود الجميلة، وإنما ينفع معهم التقريع والتعنيف والتهديد، وكسر حدة النفس ونتوئها وإعراضها عن الحق، وإلزامها كلمة التقوى والمتابعة، فكان الترهيب والتخويف مناسبًا لذلك.

ومن صوره: الترهيب من ترك جنس الطاعات، وعدم القيام بأركان الإسلام والإيمان والإحسان، أو التهاون في بقية أنواع الطاعات الأخرى، والحقوق والواجبات المترتبة على المسلم، فناسب تنبيهه إلي ما ينبغي عليه العمل بـه والتحلي بموجبه[1].

لذلك ينبغي للداعية عندما يلجأ إلى الترهيب في الدعوة إلى الله، أن يوازن بين ما يحصل من مفاسد، وما يترتب على ترهيبه من مصالح، إذ لابد أن تكون المصلحة الترهيبية راجحة على المفسدة؛ لأن هذا هو الذي يحبه الله ويرضاه، وبهذا بعثت الرسل وأنزلت الكتب، لذا إن تأكد الداعية حدوث مفسدة أعظم من التي أراد إزالتها بسبب ترهيبه فليس له أن يرهّب، وكذلك لابد للداعية أن يكون حريصًا على إيصال الحق إلى الخلق، فهو مطالب باستخدام هذه الوسيلة، فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذهب إلى عكاظ وذي المجاز وغيرهما وغشى أندية قريش واجتماعاتهم، ولكن لابد للداعية أن يكون متسلحًا بالعلم وقوة الإيمان والأسلوب الأمثل للمدعوين زمانًا ومكانًا وتأهيلًا[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فلابد للداعية المسلم أن يكون حريصًا على دعوة أخيه إلى الخير، وينهاه عن المنكر في دنياه؛ لأن هناك الكثير من الناس يتعلق

(١) انظر: وسائل الدعوة، عبد الرحيم المغذوي، ص٢٠٥.

(٢) انظر: من وسائل الدعوة، محمد بن عبد العزيز الثويني، ص ٢٩.

بهذه الدنيا الزائلة، ويجعلها همه وغايته، ولما كان الإنسان يعيش في الدنيا ويتعرض لإغراءاتها مما قد يجرّه إلى الركون إليها، والتعلق بها، ونسيان الآخرة، فلابد إذن من تنفير المدعوين من إيثارها على الآخرة، لا من الفرار منها جملة واحدة، مع بيان حقيقتها وقيمتها وقدرها بالنسبة إلى الآخرة ونعيمها.

وقد بيّن ذلك كله القرآن الكريم خير بيان، مما يجعل أيّ مسلم عاقل يؤثر الآخرة على الدنيا، بل ويجعل المدعو غير المسلم منجذبًا إلى هذه الحقائق في موازنة الدنيا مع الآخرة، وقد يجرّه ذلك إلى الإيمان لما يحسه من صدق هذا البيان والتصوير لقيمة الدنيا الفانية، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

يقول السعدي في تفسيره: «يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله، وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، بخلاف أهل اليقظة وعمّال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقرّبهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي»[1].

وهكذا تظهر لنا فوائد الترهيب في الدعوة إلى الله؛ لأن هناك بعض المدعوين لا ينفع معهم الترغيب، فهو بحاجة لأسلوب رادع وزاجر كأسلوب الترهيب في القرآن.

موضوعات ذات صلة:

التربية، الترغيب، الدعوة، النصيحة

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٤١.

التزكية

عناصر الموضوع

مفهوم التزكية	٨
التزكية في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
من له تزكية النفوس؟	١٣
أنواع الثناء على النفس	١٧
أنواع التزكية	٢٢
التزكية وظيفة الأنبياء وأتباعهم	٢٥
وسائل التزكية في القرآن	٢٩
جزاء التزكية	٤٧

مفهوم التزكية

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (زكا) على النمو والزيادة[1]. قال الراغب: «وأصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية. يقال: زكا الزرع يزكو: إذا حصل منه نمو وبركة، ومنه الزكاة: لما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة، أو لتزكية النفس، أي: تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعا، فإن الخيرين موجودان فيها»[2].

ويقال: «زكى الرجل نفسه تزكيةً أي: مدحها. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. قيل: لا تمدحوها بحسن أعمالها»[3].

وقد تطلق التزكية على الصلاح، قال الفيومي رحمه الله: «زكا الرجل يزكو إذا صلح وزكيته -بالتثقيل- نسبته إلى الزكاء وهو الصلاح»[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

التزكية: إنها تعني: تطهير النفس من نزعات الشر والإثم، وتنمية فطرة الخير فيها؛ مما يؤدي إلى استقامتها، وبلوغها درجة الإحسان[5].

وقيل: تخليص النفس الإنسانية من كل ما يتعلق بها من شوائب، ونواقص، وترسيخ الفضائل والقيم النبيلة والأخلاق السامية فيها، وتوجيهها إلى كل ما فيه الخير والصلاح[6].

وترجمة ذلك كله في كلمتين مشهورتين عن أهل السلوك والطريق، وهما: (التخلية) و(التحلية). والمقصود من التخلية: هو تطهير النفس من الرذائل؛ كالحسد والرياء والكبر، والعجب وحب الدنيا، وغيرها من الرذائل. والمقصود بالتحلية: هو العمل بالطاعات والمبرات والقربات؛ مما يترتب عليه تحلي النفس وتزكيتها بالفضائل؛ كالعفة والشجاعة والعدل والصدق.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٨١.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٩٠.
(٤) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٥٤.
(٥) منهج الإسلام في تزكية النفس، د أحمد كرزون ١/ ٥.
(٦) مفهوم التزكية وتطبيقاتها في التربية الإسلامية، نايف الشريف ص ٢١٩.

التزكية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (زكى) في القرآن (٢٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس:٩]
الفعل المضارع	١٥	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]
صيغة المبالغة	٢	﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم:١٩]

وجاءت التزكية في الاستعمال القرآني على ثلاثة وجوه:

الأول: الإصلاح: ومنه قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]. أي: تصلحهم بها.

الثاني: الثناء والمدح: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]. أي: فلا تمدحوها[٢].

الثالث: الطهارة والنقا: ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس:٩] أي: طهرها من الذنوب والمعاصي[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٣٣١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٧.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٨٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ التربية:

التربية لغة:

قال ابن فارس: «الراء والباء والحرف المعتل يدل على أصلٍ واحد، وهو: الزيادة والنماء. تقول: ربا الشيء يربو، إذا زاد». ويتعدى بالتضعيف فيقال: ربيته وتربيته فتربى. وهذا مما يكون على معنيين:

أحدهما: من الذي ذكره، وهو النمو والزيادة؛ لأنه إذا ربي نما وزكا وزاد.

والمعنى الثاني: من ربيته من التربيب، من رب، بمعنى أصلحته وأحسنت القيام على أمره[(١)].

التربية اصطلاحًا:

يرى ابن سينا: أن التربية تعني: إبلاغ الذات إلى كمالها الذي خلقت له. وقيل: التربية: تعني: تنمية وزيادة الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية عند الإنسان، وذلك بهدف البلوغ إلى الكمال والرقي والتمام الإنساني، ولا يتم ذلك إلا عن طريق التدريب والمجاهدة المستمرة، بالإضافة إلى وجود القابلية والطواعية لدى هذا الإنسان[(٢)]. وقيل: التربية طريقة لإعداد الإنسان الصحيح والصالح والمتميز بسلوكه الفكري والإنساني، والقادر على توظيف مصادر المعرفة لديه في حل مشاكله ومشاكل مجتمعه[(٣)].

الصلة بين التزكية والتربية:

عن العلاقة بينهما يقول الشيخ محمد الغزالي: «والتزكية أقرب الكلمات وأدلها على معنى التربية، بل تكاد التزكية والتربية تترادفان في إصلاح النفس، وتهذيب الطباع، وشد الإنسان إلى أعلى؛ كلما حاولت المثبطات والهواجس أن تسف به وتعوج»[(٤)].

---

(١) انظر: مادتي ربا و رب في مقاييس اللغة ٢/ ٣٨١- ٤٨٤، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢١٧، ٢١٤.

(٢) انظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا ص٢٦٦، جوانب التربية الإسلامية الأساسية، مقداد يالجن، ص ٢٢، التربية الوالدية في مرحلة الطفولة المبكرة، محمد القزاز ص١٤١.

(٣) انظر: المباديء التربوية في القرآن الكريم، ثاراس محمد صالح، ص ٤.

(٤) انظر: نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع، محمد الغزالي، ص١٠.

٢ التطهير:

التطهير لغة:

هو النقاء من الدنس والنجس ومن كل ما يشين[١].

فالتطهير في المفهوم اللغوي يدور حول: النزاهة والنظافة، والخلوص من الأدناس؛ حسية كانت كالأنجاس، أم معنوية كالعيوب من الحقد والحسد ونحوهما[٢].

التطهير اصطلاحًا:

المقصود به في بحثنا: تطهير النفس وتنزيهها من الذنوب والخطايا والعيوب المعنوية، كالحقد والغل والكبر ونحوهم.

الصلة بين التزكية والتطهير بناءً على ماسبق ذكره:

يكونان متقاربين إلى غاية كبيرة في المفهوم والمضمون.

٣ التهذيب:

التهذيب لغة:

التنقية مما يعيب. قال ابن فارس: «الهاء والذال والباء: كلمة تدل على تنقية شيء مما يعيبه. يقال: شيء مهذب: منقى مما يعيبه. وأصله الإهذاب: السرعة في الطيران والعدو، ومعناه أنه لا يمكن التعلق به... كذلك المهذب لا يتعلق منه بعيب»[٣]، فتنقية كل شيءٍ وإصلاحه وتخليصه من الشوائب يسمى تهذيبًا[٤].

التهذيب اصطلاحًا:

لايخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين التزكية و التهذيب:

هما متقاربان في المفهوم والمضمون.

(١) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٦٨.
(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٧/ ١٠٩.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٤٥.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٣٨٦.

٤ التدسية:

التدسية لغة:

إدخال الشيء تحت الشيء بما يفيد الستر والخفاء[١].

قال ابن منظور: «دسس: الدس: إدخال الشيء من تحته، دسه يدسه دسًا فاندس ودسسه.....، ودسه يدسه دسًا إذا أدخله في الشيء بقهرٍ وقوة»[٢]. وقال الفيومي: «دسه في التراب دسا -من باب قتل- أي: دفنه فيه، وكل شيء أخفيته فقد دسسته، ومنه يقال للجاسوس: دسيس القوم»[٣].

وفي التنزيل العزيز: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

يعني: ﴿أَفْلَحَ مَن﴾ جعل نفسه زكيةً مؤمنةً، و﴿خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ في أهل الخير وليس منهم[٤]. قال البغوي: «و﴿دَسَّىٰهَا﴾ أصله: دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشيء، فأبدلت السين الثانية ياء. والمعنى هاهنا: أخملها وأخفى محلها بالكفر والمعصية»[٥].

التدسية اصطلاحًا:

لا تخرج عن المفهوم اللغوي.

الصلة بين التزكية والتدسية:

العلاقة بينهما التناقض كما هو واضح. قال الزمخشري: «ودسى نفسه: نقيض زكاها»[٦].

(١) مختار الصحاح، الرازي ص١٠٤.
(٢) لسان العرب ٦/ ٨٢.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ص. ١٩٤.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٧٧.
(٥) معالم التنزيل ٨/ ٤٣٩.
(٦) أساس البلاغة، ١/ ٢٨٦.

من له تزكية النفوس؟

مما لاشك فيه أن الحق سبحانه وتعالى هو المطهر للنفوس المزكي لها بهدايته وتوفيقه؛ ولهذا نسبت التزكة إليه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩-٥٠].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ عام في ظاهره، ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد اليهود[(١)].

قال النيسابوري: «ويدخل فيه كل من زكى نفسه، ووصفها بزكاء العمل أو قبول الطاعة والزلفى عند الله»[(٢)].

والرؤية: إما بمعنى الإبصار: أي ألم تنظر إليهم، وإما بمعنى الإدراك القلبي متضمنًا معنى الوصول والانتهاء: أي ألم ينته علمك إليهم. والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجب من أحوالهم، والتهوين من شأنهم، حيث بالغوا في مدح أنفسهم مع أنهم كاذبون في ذلك. فهم يصفون أنفسهم بالأفعال الحسنة، ويمدحونها مدحًا كثيرًا، مع أنهم لا يستحقون إلا الذم بسبب سوء أقوالهم وأفعالهم[(٣)].

قال أبو جعفر: «وأولى الأقوال بالصواب في: معنى (تزكية القوم)، الذين وصفهم الله بأنهم يزكون أنفسهم، وصفهم إياها بأنها لا ذنوب لها ولا خطايا، وأنهم لله أبناء وأحباء، كما أخبر الله عنهم أنهم كانوا يقولونه في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]؛ لأن ذلك هو أظهر معانيه؛ لإخبار الله عنهم أنهم إنما كانوا يزكون أنفسهم دون غيرها»[(٤)].

فالمراد بتزكيتهم أنفسهم: ادعاؤهم الطهارة عن المعاصي والرذائل، وهذا يدل على إدعائهم الصلاح. ولكن الحق سبحانه وتعالى يبطل معتقدهم وإدعائهم بإثبات ضده، فيقول تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ وهذا إضراب وإعراض عن قولهم.

قال أبو السعود: «عطفٌ على مقدر ينساق إليه الكلام: كأنه قيل هم لا يزكونها في الحقيقة لكذبهم وبطلان اعتقادهم، بل الله يزكي من يشاء تزكيته ممن يستأهلها من المرتضين من عباده المؤمنين؛ إذ هو العليم الخبير بما ينطوي عليه البشر من المحاسن

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٤٦، الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٢٤٧.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٤٢٥.
(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٧٩.
(٤) جامع البيان، ٨/ ٤٥٥.

والمساويء»[1].

فهذه الآية تقتضي الغض من المزكي لنفسه بلسانه، والإعلام بأن الزاكي المزكى من حسنت أفعاله، وزكاه الله عز وجل، فليدع العباد تزكية أنفسهم، ويفوضوا أمر ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة، تحمل عليها محبة النفس، وطلب العلو، والترفع والتفاخر[2].

قال الإمام الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]: «لما بالغ اليهود في تزكية أنفسهم -يعني: أثنوا على أنفسهم بما ليسوا هم له بأهل- ذكر تعالى في هذه الآية أنه لا عبرة بتزكية الإنسان نفسه، وإنما العبرة بتزكية الله له؛ لأن التزكية متعلقةٌ بالتقوى، والتقوى صفةٌ في الباطن، ولا يعلم حقيقتها إلا الله، فلا جرم لا تصلح التزكية إلا من الله، وفى هذا دلالة على أن الإيمان يحصل بخلق الله تعالى ؛ لأن أجل أنواع الزكاة والطهارة وأشرفها هو الإيمان، فلما ذكر تعالى أنه هو الذي يزكي من يشاء؛ دل على أن إيمان المؤمنين لم يحصل إلا بخلق الله تعالى »[3].

وبعد أن بين الحق تعالى أنه لا تصلح التزكية إلا من الله، أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وهذه الجملة عطفٌ على جملةٍ قد حذفت تعويلًا على دلالة الحال عليها، وإيذانًا بأنها غنيةٌ عن الذكر، أي: يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب[4].

فالمقصود من الجملة: أنهم لا ينقصون أي قدر من أعمالهم، ولو كان كأصغر الأشياء التي لا يلتفت إليها، ولا يتجه النظر نحوها، ولو كان بقدر الفتيل، وهو الخيط الذي يكون في شق نواة التمر، أو القشرة التي تكون حول النواة، أو هو ما تفتله بين أصابعك من وسخ وغيره[5].

وفى الآية موضع من العبرة: حيث يحذر الحق المسلمين الغرور بدينهم كما كان أهل الكتاب فى عصر التنزيل، وأن يبتعدوا عن تزكية أنفسهم بالقول، واحتقار من عداهم من المشركين، وأن يعلموا أن الله لا يحابى فى نظم الخليقة أحدًا، لا مسلمًا ولا يهوديًا ولا نصرانيًا، ألا ترى أن خاتم النبيين قد شج رأسه، وكسرت سنه، وردي فى حفرة من جراء تقصير عسكره فيما يجب من اتباع أمر القائد وعدم مخالفته، وأن يهتدوا بكتاب الله وبسنته فى الأمم، وأن يتركوا وساوس

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٨٨.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٢٤٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٥١.
(٣) مفاتيح الغيب، ١٠/ ١٠٠.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٨٨.
(٥) انظر: مراح لبيد، الجاوي ١/ ٢٠١.

الدجالين الذين يصرفونهم عن الاهتداء بهدى كتابهم، ويشغلونهم بما لم ينزل الله به عليهم سلطانًا، فإنه ما زال ملكهم وما ذهب عزهم إلا بتركهم لهدى دينهم، واتباعهم لأولئك الدجالين والمشعوذين[1].

ولما أخبر تعالى أن التزكية إنما هي إليه بما له من العظمة والعلم الشامل، وكان ذلك أمرًا لا نزاع فيه، وشهد عليهم بالضلال، والكذب، ثبت كذبهم فزاد في توبيخهم فقال معجبًا لرسوله صلى الله عليه وسلم من وقاحتهم واجترائهم على من يعلم كذبهم، ويقدر على معالجتهم بالعذاب: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾[النساء: ٥٠][2].

فالآية: تشجب لمدعيات هؤلاء القوم، وتكذب مفترياتهم، وتفضحهم على رؤوس الأشهاد، وتدعو الناس جميعًا أن ينظروا إليهم وهم فى هذا الثوب الكاذب المفضوح[3]!!.

وهو تعجيب إثر تعجيب، وتنبيه على أن ما ارتكبوه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجيب: ادعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه. وافتراؤهم على الله سبحانه، فإن ادعاءهم الزكاء عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضاءه إياهم، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، ولكون هذا أشنع من الأول جرمًا، وأعظم قبحًا -لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكلية من قبول الكفر وارتضائه لعباده، ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه- وجه النظر إلى كيفيته؛ تشديدًا للتشنيع وتأكيدًا للتعجيب. والتصريح بالكذب، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبًا؛ للمبالغة في تقبيح حالهم[4]. فجعل افتراءهم الكذب، -لشدة تحقق وقوعه-، كأنه أمر مرئي ينظره الناس بأعينهم، وإنما هو مما يسمع ويعقل، وكلمة ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ نهاية في بلوغه غاية الإثم[5].

وإنما وصف ﴿إِثْمًا﴾ بقوله: ﴿مُّبِينًا﴾ في: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ لأن كذب الإنسان على مثله ممن قد يصدقه هذا معقول، لكن إن كذب على الله فهو قبيح؛ لذلك قال الحق: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾. إذن فالكذب مطلقًا هو إثم، والكذب المبين: هو الكذب على الله[6].

ولما كانت التزكية من الله للعباد فضلًا وكرمًا، امتن عليهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(١) تفسير المراغي، ٥/ ٦١.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٢٦٦.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٨١٣
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ١٨٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٨٥.
(٦) انظر: تفسير الشعراوي ٤/ ٢٣١١.

[النور: ٢١].

قال الشيخ الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية، أنه لولا فضله ورحمته، ما زكا أحد من خلقه، ولكنه بفضله ورحمته يزكي من يشاء تزكيته من خلقه. ويفهم من الآية أنه لا يمكن أحدًا أن يزكي نفسه بحال من الأحوال»[(١)]. فالآية: بيان لمظاهر فضله تعالى ولطفه بعباده المؤمنين. والمراد بالتزكية هنا: التطهير من أرجاس الشرك، ومن الفسوق والعصيان[(٢)].

قال الإمام الطبري: «ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته لكم، ما تطهر منكم من أحد أبدًا من دنس ذنوبه وشركه، ولكن الله يطهر من يشاء من خلقه. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: والله سميع لما تقولون بأفواهكم، وتلقونه بألسنتكم، وغير ذلك من كلامكم، عليم بذلك كله وبغيره من أموركم، محيط به، محصيه عليكم، ليجازيكم بكل ذلك»[(٣)].

وقال الإمام ابن عجيبة عند تفسيره لهذه الآية: «﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالهداية والتوفيق لأسباب التطهير والعصمة والحفظ، ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ أي: ما طهر من أدناس العيوب ولوث الفواحش ﴿مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ إلى ما لا نهاية له، وإذا كان التطهير والعصمة بيد الله فلا تروا لأنفسكم؛ فضلًا عمن لم يعصمه الله، فإنه مقهور تحت مجاري الأقدار، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ يطهر من يشاء من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه بالحفظ والرعاية، أو بالتوبة بعد الجناية، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم وإن خفيت، ومن جملتها: الحلف على ترك فعل الخير، عليم بنياتكم وإخلاصكم»[(٤)].

(١) أضواء البيان ٥/ ٤٨٥.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١/ ٣٠٦١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٥.
(٤) البحر المديد ٤/ ٢٣.

أنواع الثناء على النفس

أولًا: الثناء المذموم:

إن هناك أناسًا كثيرين يظنون أن ثناء الإنسان على نفسه أمر مذموم مطلقًا، وفي كل الأحوال والمواطن، وفي المقابل هناك مبالغون في الثناء على أنفسهم في كل الأحوال والأوقات، والكل مجانب للصواب، فالثناء قد يكون مذمومًا في بعض الأحوال، و قد يكون محمودًا في بعضها، وإذا كان الأمر كذلك يمكن القول بأنه يمنع ثناء الإنسان لنفسه لغير ضرورة أو حاجة؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

قال صاحب اللباب: «التزكية -ها هنا- عبارةٌ عن مدح الإنسان نفسه»[١]. قال ابن عباس: «أي: فلا تمدحوها». ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: بمن بر وأطاع وأخلص العمل لله تعالى[٢]. وقال الحسن: «علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة، فلا تزكوا أنفسكم، ولا تبرؤوها عن الآثام، ولا تمدحوها بحسن أعمالها»[٣].

قال أبو حيان: «أي: لا تنسبوها إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصي، ولا تثنوا عليها، واهضموها، فقد علم الله منكم الزكي والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم، وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم. وقال الكلبي ومقاتل: كان الناس يعملون أعمالًا حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[٤].

قال الثعالبي: «وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ ظاهره النهي عن تزكية الإنسان نفسه»[٥].

وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة، والتحدث بها، فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكرها. والأحسن في إيراد الاعتراف والشكر أن يقدم ذكر نقصه، فيقول مثلًا: كنا جهالًا فعلمنا الله، وكنا ضلالًا فهدانا الله، وكنا غافلين فأيقظنا الله، وهكذا، فنحن اليوم كذا وكذا[٦].

وقال الزمخشري: «وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء: فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح: لم يكن من المزكين أنفسهم؛ لأن المسرة بالطاعة طاعة،

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦/ ٤١٩.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٤١٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١١٠، الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٦٥٨.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٩٠، البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ١٩، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢١٢.
(٥) الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٣٢٩. إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٦٢.
(٦) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥١١.

وذكرها شكر»[1].

وقد جاء في صحيح مسلم: عن محمد ابن عمرو بن عطاءٍ، قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم، وسميت برة)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم) فقالوا: بم نسميها؟ قال: (سموها زينب)[2].

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: «فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه»[3].

ذلك أن المثني على نفسه يكون قد وقع في عدة محاذير شرعية، منها: الكبر والعجب وأن يكون فخورًا... إلخ وكلها أمراض خطيرة تورث النفس الهلكة، وتقودها إلى جهنم وبئس المصير. وقد قيل لحكيم: ما الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقا، فقال: «مدح الرجل نفسه، وقد قال معاوية رحمه الله لرجل: من سيد قومك، فقال: أنا، فقال: لو كنته لما قلته»[4].

(١) الكشاف، ٤/ ٤٢٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية. رقم٢١٤٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٤٦.
(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص١٩٧.

خلاصة القول: أن الأصل منع الإنسان الثناء على نفسه؛ لما قد يصاحبه من العجب أو الفخر؛ ولذا يحذر الحق سبحانه وتعالى أتباع هذا الدين الحنيف من مدح أنفسهم والثناء عليها بأي شئ مما تمدح له النفس، أو يتباهى به تباهيًا وتفاخرًا على الغير؛ لأن هذا ثناء ومدح مذموم، فإذا كان الله تعالى ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، يعلم البر والفاجر التقي والعاصي، فلا حاجة لمثل هذا الثناء البغيض. فأعرف الناس بنفسه أشدهم إيقاعًا للتهمة بها في كل ما يبدو ويظهر له منها، وأجهلهم بمعرفتها وخفايا آفاتها وكوامن مكرها من زكاها، وأحسن ظنه بها؛ لأنها مقبلةٌ على عاجل حظوظها، معرضةٌ عن الاستعداد لآخرتها[5].

ثانيًا: الثناء المحمود:

إذا دعت حاجة أو ضرورة لأن يمدح الإنسان نفسه فإن الأمر يكون جائزًا ومباحًا ولاشيء فيه، بل قد يستحب أو يجب في بعض الأحوال. قال الإمام السيوطي: «يحسن من الإنسان الثناء على نفسه في مواضع مستثناة من الأصل الغالب، وهو أن الإنسان يهضم نفسه ولا يثني عليها»[6].

(٥) الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٣٢٩.
(٦) نزول الرحمة في التحدث بالنعمة، السيوطي ص٢٣.

وقال السيوطي أيضًا: «قال ابن الجوزي رحمه الله: اعلم أن المدحة إذا خلت عن البغي والاستطالة على أهل الحق، وكان مقصود قائلها إقامة حق أو إبطال جور أو إظهار نعمة، لم يلم»[1].

ومن المواطن التي يجوز فيها للإنسان أن يثني على نفسه: الموطن الذي يشبه ما قال فيه يوسف صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]

قال ابن كثير: «مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: خازن أمين، ﴿عَلِيمٞ﴾ ذو علم وبصر بما يتولاه. وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما في ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يجعل على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات؛ لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها؛ ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦ - ٥٧]»[2].

(١) المصدر السابق ص٣٢- ٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٦.

وقال القرطبي: «دلت الآية أيضًا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل، قال الماوردي: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصفه، أو تعلق بظاهره مكسب، وممنوع منه فيما سواه؛ لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله، فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظفر بأهله»[3].

ومن المواطن التي يجوز فيها الثناء: ما قاله شعيب: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

قال الطبري: «﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في حسن الصحبة والوفاء بما قلت»[4].

وقال الزمخشري: «يريد بالصلاح: حسن المعاملة ولين الجانب. ويجوز أن يريد الصلاح على العموم»[5].

والمراد باشتراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح: الاتكال على توفيقه فيه ومعونته؛ لأنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ذلك[6].

يقول شمس الدين ابن قيم الجوزية

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢١٧.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦٥.
(٥) الكشاف ٣/ ٤٠٥.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٣٩.

عن هذا الموطن المحمود: قال: «وكذلك -يعني من الثناء الجائز- إذا اثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر، أو ليستوفى بذلك حقًا له يحتاج فيه الى التعريف بحاله، أو ليقطع عنه اطماع السفلة فيه أوعند خطبته الى من لا يعرف حاله»[(١)].

وكذلك يكون الثناء على النفس ممدوحًا: إذا لم ينصف الإنسان أو نوزع أو عورض، أو كان بين قوم لا يعرفون مقامه، فسيدنا أبو بكر رضي الله عنه لما ولى الخلافة وخطب قائلًا: «إني وليت عليكم ولست بخيركم»[(٢)] على قاعدة التواضع وهضم النفس، ثم بلغه عن بعض الناس كلام، فخطب فقال: «ألست أحق الناس بها؟ ألست أول من أسلم؟ ألست صاحب كذا؟ ألست صاحب كذا؟»[(٣)] فحدث بمناقبه وأثنى على نفسه بمحاسنه عندما تكلم بعضهم في مبايعته[(٤)].

ومن مواطن الثناء الجائزة: المواطن التي يكون المقصد منها التحدث بنعمة الله، كما قال الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: «رزقني الله البارحة خيرًا، قرأت كذا وصليت كذا، فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا؟ قال: يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله». وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف، وأن يقتدى به غيره، وأمن على نفسه الفتنة، والستر أفضل[(٥)].

وروي عن الحسن بن علي في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قال: «إذا أصبت خيرًا فحدث إخوانك ليقتدوا بك». وعن عمرو بن ميمون أنه قال: «من قام لورده في الليل فلا بأس أن يحدث به الثقة من إخوانه، ويقول: رزقني الله كذا وكذا»[(٦)].

ولما سئل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن الصحابة فأثنى عليهم وذكر خصالهم، فقالوا له: فحدثنا عن نفسك فقال: «مهلًا، فقد نهى الله عن التزكية. فقيل له: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فقال: فإني أحدث، كنت إذا سئلت أعطيت، وإذا سكت ابتديت، وبين الجوانح علم جم، فاسألوني»[(٧)].

استحب بعض السلف التحدث بما عمله من الخير إذا لم يرد به الرياء والافتخار،

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٣٩
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٥/ ٢٦٩.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب رقم ١٦، ٥/ ٦١١، رقم ٣٦٦٧.
(٤) نزول الرحمة، السيوطي ص٣٢، ٣٣.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٦٩.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٤٤٤، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٢٤٦، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٥٤٥.
(٧) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٦٩.

وعلم الاقتداء به[1].

وقال ابن القيم: «الشيء الواحد يكون صورته واحدة، وهو ينقسم إلى: محمود، ومذموم، فمن ذلك: التحدث بالنعمة شكرًا، والفخر بها. فالأول: القصد به إظهار فضل الله وإحسانه ونعمته، والثاني: القصد به الاستطالة على الناس والبغي عليهم، والجور والتعدي، وإهانتهم واستعبادهم، وهذا هو المذموم»[2].

قال النووي: «باب مدح الإنسان نفسه وذكر محاسنه: قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

اعلم أن ذكر محاسن نفسه ضربان: مذموم، ومحبوب. فالمذموم: أن يذكره للافتخار، وإظهار الارتفاع، والتميز على الأقران، وشبه ذلك. والمحبوب: أن يكون فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمرًا بمعروف، أو ناهيًا عن منكر، أو ناصحًا، أو مشيرًا بمصلحة، أو معلمًا، أو مؤدبًا، أو واعظًا، أو مذكرًا، أو مصلحًا بين اثنين، أو يدفع عن نفسه شرًا، أو نحو ذلك، فيذكر محاسنه ناويًا بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله واعتماد ما يذكره، أو أن هذا الكلام الذي أقوله لا تجدونه عند غيري فاحتفظوا به، أو نحو ذلك»[3].

خلاصة القول: أن الثناء على النفس يبين حكمه آيتان في القرآن، الأولى قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وهذا لمن يقصد الفخر والعجب والاستطالة على خلق الله، وهذا مذموم، والثانية: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وهذا لمن بعد عن الفخر والعجب، ويريد التحدث بنعم الله عليه والتعريف بها، والاعتراف بفضل الله عليه، أو التعريف بنفسه لمن لا يعرفه، وعلى ذلك يحمل قول النبي: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع)[4].

وأشباه ذلك كثيرة[5].

(١) انظر: حاشية الشهاب ٨/ ٣٧٢.
(٢) انظر: الروح، ص٢٣٠، ٢٧٤.
(٣) الأذكار، ١/ ٢٧٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق رقم ٢٢٧٨.
(٥) قال النووي: «وقوله صلى الله عليه وسلم: أنا سيد ولد آدم قاله لوجهين أحدهما: امتثال قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ والثاني: أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته؛ ليعرفوه ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه، ويوقروه صلى الله عليه وسلم بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى».
انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/ ٣٧.

أنواع التزكية

إن الناظر في آيات القرآن يجد أنه قد تحدث عن نوعين:

أولًا: التزكية الفطرية:

التزكية الفطرية هي التي تكون مع الإنسان وملازمة له منذ ولادته، وعندما يكون في مرحلة الطفولة والبراءة إلى أن يبلغ الحلم، فعنده فطرية الإيمان، ونقاء السريرة، وطهارة النفس، وصفاء القلب، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

وردت هذه الآية في سياق سرد القرآن الكريم لقصة سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح الخضر، فبعد المشهد العجيب الأول وهو خرق السفينة، كان المشهد العجيب الثاني وهو قتل الغلام الصغير، المشار إليه بقوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُۥ﴾ فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، فانطلق لسانه عليه السلام ولعله هنا يمثل كل إنسان على سليقته حال رؤيته مثل هذا المشهد- حيث قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ كيف عرف سيدنا موسى عليه السلام وحكم أن نفس الغلام زكية هكذا، رغم أنه لأول مرة يرى هذا الغلام؟، إنها التزكية الفطرية التي هي الأصل الذي يولد بها كل إنسان، لقد وصف النفس بالزاكية لأنها نفس غلام لم يبلغ الحلم فلم يقترف ذنبًا فكان زكيًا طاهرًا[(١)] على أصل خلقته، وهذه هي التزكية الفطرية، فكل إنسان يولد على التزكية الفطرية التي تشمل كونه على عبادة الله، وطاهرًا من العيوب والذنوب[(٢)].

أولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، أو يمجسانه..)[(٣)]؟.

ولما انضم إلى ذلك كون هذا القتل (بغير نفس) أي: بغير مستند لقتله[(٤)] ازداد عجب سيدنا موسى عليه السلام فقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا عظيمًا. يقال: نكر الأمر، أي: صعب واشتد. والمقصود: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا﴾ أشد من الأول -وهو خرق السفينة- في فظاعته واستنكار العقول

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٧٨.

(٢) وللمفسرين فيها أقوال: منها: أن الزكية: المطهرة، قاله أبو عبيدة. وهو الراجح؛ لأن ذلك هو المتناسب مع لفظ الغلام، فالغلام به تزكية فطرية وتطهير رباني وفطرة سليمة، فالنفس المطهرة هي التي لا ذنب لها، ولم تذنب قط لصغرها أي: أنها لم تبلغ حد التكليف...، وقال الشيخ ابن عاشور: «والزكاة: الطهارة، مراعاة لقول موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾». ١٦/ ١٣. والله أعلم.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه؟ رقم ١٣٥٩.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٩١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٣.

له[1].

ومن قبيل التزكية الفطرية أيضًا ما جاء في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦-١٩].

يقول الإمام الرازي: «لما علم جبريل عليه السلام خوفها قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ليزول عنها ذلك الخوف، ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول، بل لابد من دلالة تدل على أنه كان جبريل عليه السلام وما كان من الناس»[2].

قال القرطبي: «قال لها جبريل عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ﴾، أسند الفعل إليه وإن كانت الهبة من الله تعالى لأنه أرسل به ﴿لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾. قال ابن عباس: ولدًا صالحًا طاهرًا من الذنوب»[3]. وهو عيسى عليه السلام، أو ناميًا على الخير، أي مترقيًا من سن إلى سن على الخير والصلاح[4].

(١) الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥٥٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٢٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٨٤.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨.

قال الإمام أبو زهرة: «أي: غلامًا طاهرًا ناميًا في جسمه ونفسه وروحه، وكل ما يتصل بالنمو الإنساني الكامل»[5].

خلاصة القول: أن التزكية الفطرية هي تزكية يمر بها كل إنسان يولد في هذه الحياة الدنيا، وتكون تلك التزكية الفطرية في مرحلة بداية ولادة الإنسان، إلى مرحلة أن يصير غلامًا؛ لأنه في تلك المرحلة غير مكلف، بل هو في مرحلة الصفاء والنقاء والإيمان الفطري بالله. وتمتد التزكية الدائمة من الله بعد ذلك للأنبياء دون غيرهم؛ لأنهم متصفون بالعصمة والوقوع في الزلل.

ثانيًا: التزكية المكتسبة:

يقصد بالتزكية المكتسبة: التزكية التي يكتسبها الإنسان من خلال مجاهدته لنفسه الأمارة بالسوء، ومقاومة شهواته المختلفة؛ لتتخلى تلك النفس عن القبائح والرذائل، وتتحلى بالفضائل من السلوكيات والأخلاق، من خلال العمل بالطاعات والمبرات والقربات، وهذا يعني أن التزكية المكتسبة تحتاج لأمرين: الأمر الأول: عزيمة قوية وإرادة متينة. الثاني: الاستمرار طالما بقي الإنسان على قيد الحياة.

من أجل ذلك أمر الله الحق بها، فقال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى

(٥) زهرة التفاسير ٩/ ٤٦٢٣.

﴿ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ٨١].

يحض الحق سبحانه وتعالى على تزكية النفوس وتطهيرها فيقول: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

يقول تعالى ذكره: ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى الله، والإيمان به، والعمل بطاعته، فإنما يتطهر لنفسه، وذلك أنه يثيبها به رضا الله، والفوز بجنانه، والنجاة من عقابه الذي أعده لأهل الكفر به[١].

فالجملة الكريمة دعوة من الله تعالى للناس إلى تزكية النفوس وتطهيرها من كل سوء، بعد بيان أن كل نفس مسؤولة وحدها عن نتائج أفعالها، وأن أحدًا لن يلبي طلب غيره في أن يحمل شيئًا عنه من أوزاره[٢].

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني: وإلى الله مصير كل عامل منكم أيها الناس، مؤمنكم وكافركم، وبركم وفاجركم، وهو مجازٍ جميعكم بما قدم من خير وشر على ما أهل منه[٣].

قال الرازي: «ثم قال تعالى: «﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مصير المتزكي إن لم تظهر فائدته عاجلًا، فالمصير إلى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء، والوازر إن لم تظهر تبعة وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة؛ إذ المصير إلى الله»[٤].

قال صاحب الظلال: «﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لا لك ولا لغيرك. إنما هو يتطهر لينتفع بطهره. والتطهر معنى لطيف شفاف، يشمل القلب وخوالجه ومشاعره، ويشمل السلوك واتجاهاته وآثاره. وهو معنى موحٍ رفاف. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهو المحاسب، والمجازي، فلا يذهب عمل صالح، ولا يفلت عمل سيئ، ولا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون»[٥].

إذن القرآن يدعوا إلى تزكية النفس ويدعو الإنسان إلى السعي والبحث عن الوسائل التي تساعده على تزكية نفسه، وتطهيرها من الآثام والذنوب، وسيأتي الحديث عن تلك الوسائل في السطور القادمة إن شاء الله.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥٦.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١١/ ٣٤٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥٦.
(٤) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٢٣١.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٣٩.

التزكية وظيفة الأنبياء وأتباعهم

لقد نسب الحق سبحانه وتعالى التزكية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه المربي والمزكي لأمته، والمرشد لها إلى طريق الخير، وهذه هي المهمة التي كلفه الله تعالى بها وأمره بأدائها.

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥١-١٥٢].

وقد اختلف المفسرون في اتصال قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ بما قبلها أو بعدها على قولين: قال العلماء: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ كاف التشبيه تحتاج إلى شيء ترجع إليه:

فقيل: ترجع إلى ما قبلها: والتقدير: لقد حولت القبلة إلى شطر المسجد الحرام لأتم نعمتي عليكم إتماما مثل إتمام نعمتي عليكم؛ بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم فيكم؛ إجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وإن قلنا: إنها متعلقة بما قبلها كان وجه التشبيه: أن النعمة في أمر القبلة كالنعمة بالرسالة. وهو تشبيه يدل على عظم شأن تحويل القبلة إلى الكعبة[1].

وقيل: إن الكاف متعلقة بما بعدها وهو قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾: والتقدير: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ يعلمكم الدين القويم، والخلق المستقيم ومنحتكم هذه النعمة فضلًا مني وكرمًا، ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بالشكر عليها ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ برحمتي وثوابي، ووجه التشبيه أن النعمة بالذكر جارية مجرى النعمة بإرسال الرسول.

وتبين الآية الكريمة صفات الرسول صلى الله عليه وسلم والتي من بينها التزكية، فعدد هنا خمس صفات هي بمثابة وظائف للرسول، وهي على النحو الآتي:

الصفة الأولى: ﴿أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ وقوله: ﴿فِيكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وقدم على المفعول تعجيلًا بإدخال السرور، وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ في موضع نصب؛ لأنه صفة لقوله: ﴿رَسُولًا﴾ والمخاطبون بهذه الآية الكريمة هم العرب. وفي إرساله الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وهو منهم نعمة تستوجب المزيد من الشكر؛ لأن إرساله منهم يسبقه معرفتهم لنشأته الطيبة وسيرته العطرة، ومن شأن هذه المعرفة أن تحملهم على المسارعة إلى تصديقه والإيمان به، ولأن في إرساله فيهم وهو منهم شرف عظيم لهم، ومجد لا يعدله

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٢.

مجد؛ حيث جعل سبحانه خاتم رسله من هذه الأمة، ولأن المشهور من حالهم الأنفة الشديدة من الانقياد، فكون الرسول منهم ادعى إلى إيمانهم به وقبولهم لدعوته[1].

فالحق يمن على العرب بأن جعل فيهم رسولًا منهم ليقول مانًا عليهم بذلك، كما من عليهم بجعل القبلة إلى الحرم الآمن الذي قدسوه وكرموه، فالرسول صلى الله عليه وسلم أرسل فيهم وهو منهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. [التوبة: ١٢٨].

فهو فيهم ومنهم، وهو أكثر تأليفًا لقلوبهم، ورعاية لنفوسهم وهو الحق من ربهم[2].

وقد قال كذلك: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

الصفة الثانية: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

قال صاحب اللباب: «فيه نعمٌ عليكم عظيمة؛ لأنه معجزة باقية تتأدى به العبادات، ومستفاد منه مجامع الأخلاق الحميدة. وإذا كان المراد بالآيات القرآن، فالتلاوة فيه ظاهرة، وإذا كان المراد بالآيات المعجزات، فمعنى التلاوة لها تتابعها؛ لأن الأصل في التلاوة التتابع، يقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا أي بعضهم إثر بعض»[3].

وفي هذه الجملة -كما قال الألوسي- إشارة إلى طريق إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام؛ لأن تلاوة الأمي للآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التي ينتظم بها أمر المعاد والمعاش؛ أقوى دليل على نبوته[4].

الصفة الثالثة: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

قال ابن كثير: «أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية»[5].

من وأد البنات، وقتل الأولاد؛ تخلصًا من النفقة، وسفك الدماء لأوهن الأسباب، ويغرس فيها فاضل الأخلاق وحميد الآداب. وبهذه الزكاة التي زكوا بها أنفسهم فتحوا الممالك الكبرى، وكانوا أئمة الأمم التي كانت تحتقر هذا الجنس، وعرفوا لهم فضلهم بعدلهم وسياستهم للأمم سياسة حكيمة أنستهم سياسة الأمم التي قبلهم، وجعلت لذلك الدين أثرًا عميقًا في

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٢٣، لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٢.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٦٢.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٧٤.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٢/ ١٨
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٤.

نفوسهم، فدانوا لحكمه خاضعين، واهتدوا بهديه راشدين[1].

فالتزكية تطهير النفس؛ لأن في أصل خلقة النفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل، فتهذيب النفوس وتقويمها يزيدها من ذلك الخير المودع فيها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤-٦].

وفي الحديث: (بعثت لأتمم حسن الأخلاق)[2]، ففي الإرشاد إلى الصلاح والكمال نماء لما أودع الله في النفوس من الخير في الفطرة[3].

«إن الإسلام كما جاء بالتوحيد الماحي للشرك، جاء بالتهذيب المطهر من سفساف الأخلاق وقبائح العادات والمعاصي التي كانت فاشية في العرب، فقد كانوا يئدون بناتهم -يدفنونهن أحياء- ويقتلون أولادهم للتخلص من النفقة عليهم، وذلك نهاية القسوة والشح، وكانوا يسفكون الدماء فيما بينهم لأهون سبب يثير حميتهم الجاهلية؛ لما اعتادوه من البغي في الثارات، ومن شن الغارات، ونهب بعضهم بعضًا، وكان عندهم من التسفل أن أحدهم يتزوج زوج أبيه أو يعضلها حتى تفتدي منه، إلى غير ذلك. وقد زكاهم النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كله باقتدائهم بأخلاقه العظيمة في عباداته الكاملة وآدابه العالية، وجمعهم بعد تلك الفرقة، وألف الله بينهم على يديه، حتى صاروا كرجل واحد، وجعلت شريعته ذمتهم واحدة يسعى بها أدناهم، فإذا أعطى مولى أو رقيق لهم أمانا لأي إنسان محارب؛ كان ذلك كتأمين أمير المؤمنين له، فأي تزكية أعلى من هذه التزكية؟»[4].

وقدمت جملة ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ هنا على جملة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ عكس ما جاء في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقدم ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم، وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتمامًا بها، وبعثًا لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلًا للبشارة بها. أما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما

(١) تفسير المراغي ٢/ ١٨.
(٢) أخرجه أحمد في المسند، ١٤/ ٥١٢، رقم ٨٦٥٢.
قال ابن عبدالبر في الاستذكار ٨/ ٢٨٠: «وهذا حديثٌ مسندٌ صحيحٌ».
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٤٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٩.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٣.

تضمنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنن. وقيل: حيث يقدم التزكية يكون معظم المخاطبين عوامًا مقلدين ليسوا أهلًا لتعلم الحكمة والكتاب، فتكون التزكية أهم، وحيث يقدم التعليم يكون المخاطبون خواصًا، فيكون الأهم التعليم مع أن كلا الأمرين مطلوب[1].

وإذا أشرقت النفوس بنور الحق، وتحلت بالأخلاق الحميدة، قويت على تلقي ما يرد عليها من الحقائق السامية. فقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي صفة رابعة للرسول صلى الله عليه وسلم. أي: ويعلمكم القرآن الكريم، ويبين لكم ما انطوى عليه من الحكم الإلهية، والأسرار الربانية، التي لأجلها وصف بأنه هدى ونور، فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يتلوه عليهم ليحفظوا نظمه ولفظه؛ حتى يبقى مصونًا من التحريف والتصحيف، ويرشدهم إلى ما فيه من أسرار وحكم ليهتدوا بهديه، ويستضيئوا بنوره. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي العلم المقترن بأسرار الأحكام ومنافعها، الباعث على العمل بها، ذاك أن سنة الرسول العملية وسيرته صلى الله عليه وسلم في بيته، ومع أصحابه في السلم والحرب، والسفر والإقامة، فى القلة والكثرة، جاءت مفصلة لمجمل القرآن، مبينة لمبهمه، كاشفة لما في أحكامه من الأسرار والمنافع، ولولا هذا الإرشاد العملي لما كان البيان القولي كافيًا في انتقال الأمة العربية من طور الشتات والفرقة والعداء والجهل، إلى الائتلاف والاتحاد، والتآخي والعلم، وسياسة الأمم.

فالنبى صلى الله عليه وسلم وقف أصحابه على فقه الدين، ونفذ بهم إلى سره، فكانوا حكماء علماء عدولًا أذكياء، حتى إن أحدهم كان يحكم المملكة العظيمة، ويقيم فيها العدل، ويحسن السياسة، وهو لم يحفظ من القرآن إلا بعضه، لكنه فقهه وعرف أسرار أحكامه[2].

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ صفة خامسة له صلى الله عليه وسلم. قال القاسمي: «تنبيه على أنه تعالى أرسل رسوله على حين فترة من الرسل، وجهالة من الأمم، فالخلق كانوا متحيرين ضالين في أمر أديانهم. فبعث الله تعالى النبي بالحق، حتى علمهم ما احتاجوا إليه في دينهم، فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة، وذلك من أعظم أنواع النعم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية.

وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٥.

(٢) تفسير المراغي ٣/ ١٩.

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال ابن عباس يعني: بنعمة الله، محمدًا صلى الله عليه وسلم. والمراد بعدم علمهم: أنه ليس من شأنهم أن يعلموه بالفكر والنظر وغير ذلك من طرق العلم؛ لانحصار الطريق في الوحي.

ومما لم يكونوا يعلمونه وعلمهم إياه صلى الله عليه وسلم: وجوه استنباط الأحكام من النصوص أو الأصول المستمدة منها، وأخبار الأمم الماضية، وقصص الأنبياء، وغير ذلك مما لم تستقل بعلمه عقولهم. وبهذا النوع من التعليم صار الدين كاملًا قبل انتهاء عهد النبوة[(١)].

إذًا التزكية هي إحدى وظائف الأنبياء عليهم السلام جميعًا، وقد أدوها خير الأداء دون تقصير أو إخلال، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة و أدى الأمانة، وبما أن العلماء الذين هم الصف الأول في اتباع الأنبياء، فهم ورثة الأنبياء، والأنبياء عليهم السلام لم يورثوا درهما ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر، إن مهمة التزكية تنتقل إليهم بوفاة الأنبياء.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢١١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٧٩.

وسائل التزكية في القرآن

إن طبيعة الأديان تعتبر النفس الصالحة هي البرنامج المفضل لكل إصلاح، والخلق القوي هو الضمان الخالد لكل حضارة. وليس في هذا تهوين، ولا غض من عمل الساعين لبناء المجتمع والدولة، بل هو تنويه بقيمة وأهمية تزكية النفوس والإصلاح النفسي في صيانة الحياة وإسعاد الأحياء.

إن النفس المختلسة تثير الفوضى في أحكم النظم، وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة، والنفس الكريمة ترقع الفتوق في الأحوال المختلفة، ويشرق نبلها من داخلها، فتحسن التصرف والمسير وسط الأنواء والأعاصير[(٢)]، ومن هنا كان حتمية تزكية النفس وإصلاحها وتقويمها، وسوف نستعرض أهم وسائل التزكية من خلال القرآن على النحو الآتي:

لكن قبل ذلك نقول: أنه يقصد بوسائل التزكية: الأعمال التي تؤثر تاثيرًا مباشرًا على النفس بأن تشفيها من مرض، أو تخرجها من أسر، أو تحققها بخلق[(٣)].

أولًا: الإيمان:

الأساس الأول في التزكية هو الإيمان

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي ص٢١.
(٣) المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى ص ٢٧.

بالله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، فهذا هو الوسيلة الأساسية والأولى التي تبنى عليها كافة الوسائل الأخرى للتزكية، فلابد لكل بناء من أساس، وبمقدار قوة ذلك الأساس ورسوخه بمقدار ما ينهض البناء ويعلو ويقاوم الأعاصير، وبناء النفس على الاستقامة والصلاح، أساسه العبودية الحقة لله وحده، والإيمان به سبحانه وتعالى وبالدين الحق الذي ارتضاه لعباده؛ ليكون لهم شرعة ومنهاجًا، والإيمان ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أو كلمات يرددها بين الحين والآخر، وإنما هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، فهو عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويصحبه الخضوع والطاعة والتسليم والعبادة، وكلما ازداد الإيمان رسوخًا أثمر ثمراته اليانعة في تزكية النفس واستقامة السلوك[1].

والقرآن قد بين أركان الإيمان الستة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقد جاء في حديث جبريل المشهور بيان لأصل الإيمان الذي هو التصديق الباطن، وفيه تفصيل لما يجب أن نؤمن به، وذلك جوابًا عن قوله صلى الله عليه وسلم: (فأخبرني ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال صلى الله عليه وسلم: صدقت)[2].

فالإيمان بالله من شأنه أن يفجر المشاعر النبيلة، ويوقظ حواس الخير، ويربي ملكة المراقبة، ويبعث على طلب المعالي من الأمور وأشرفها، وينأى بالمرء عن محقرات الأعمال وسفسافها.

والإيمان بالملائكة يدعو إلى التشبه بهم والتعاون معهم على الحق والخير، كما يدعو إلى الوعي الكامل واليقظة التامة، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن، ولا يتصرف إلا لغاية كريمة.

والإيمان بالكتب السماوية السابقة، إنما هو عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للإنسان كي يصل بالسير عليه إلى كماله المادي والأدبي.

(١) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي ص ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم ٩.

والإيمان بالرسل إنما يقصد به ترسم خطاهم، والتخلق بأخلاقهم، والتأسي بهم، باعتبارهم أنهم يمثلون القيم الصالحة، والحياة النظيفة التي أرادها الله للناس. فالتمسك بما جاءوا به هو الطريق الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

والإيمان باليوم الآخر هو أقوى باعث على فعل الخير، وترك الشر، فيحرص الإنسان على طاعة الله؛ رغبة في ثواب ذلك اليوم، والبعد عن معصيته؛ خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره، يزود المؤمن بقوى وطاقات إيمانية تساعده على تحدي كل العقاب والصعاب. والمؤمن بالقدر إذا رزقه الله مالًا، أو جاهًا أو علمًا أو غير ذلك تواضع لله؛ لعلمه أن هذا من الله وبقدر الله، ولو شاء لانتزعه منه، إنه على كل شيء قدير، كما أنه يجعله يرضى بالله ربًا مدبرًا مشرعًا، فتمتليء نفسه بالرضا عن ربه، فإذا رضي بالله أرضاه الله[1].

وهكذا يبدو بجلاء أن العقيدة الإسلامية، وأسسها يقصد بها تهذيب السلوك، وتزكية النفوس، وتوجيهها نحو الأمثل، فضلًا عن أنها حقائق ثابتة، بل هي تعد من أعلى المعارف الإنسانية إن لم تكن أعلاها على الإطلاق، وتهذيب سلوك الفرد وتزكية نفسه من خلال الإيمان وغرس العقيدة الإيمانية هو من أعظم أساليب التربية، ذلك أن للدين سلطانًا على النفوس وتأثيرًا على المشاعر والأحاسيس، لا يكاد يدانيه في سلطانه وتأثيره شيء آخر من الوسائل التي ابتكرها العلماء والحكماء ورجال التربية[2].

ولهذا جعل القرآن الإيمان رأس تزكية النفوس، فقال موسى عليه السلام لفرعون عدو الله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩]

قال الطبري: «فقل له يا موسى: هل لك إلى أن تتطهر من دنس الكفر، وتؤمن بربك؟»[3]. يعني: هل ترغب في توحيد ربك، وتشهد أن لا إله إلا الله، وتزكي نفسك من الكفر؛ فتطهر من الذنوب[4] وهذا لطف في الاستدعاء؛ لأن كل عاقل يجيب مثل هذا السؤال بنعم، وتزكى[5].

فالمقصود من الآية: حثه على أن يستعد لتخليص نفسه من العقيدة الضالة التي هي خبث مجازي في النفس، فيقبل إرشاد من يرشده إلى ما به زيادة الخير، فإن فعل المطاوعة يؤذن بفعل فاعل يعالج نفسه ويروضها إذ كان لم يهتد أن يزكي نفسه

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص١١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠١.

(٤) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٤٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢٠١.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٩٨.

بنفسه[1].

فالحق أرشده إلى طريق الدعوة بألطف طريق؛ وذلك أن يعرض عليه ليؤامر نفسه ويرى رأيه، كما تقول للضيف: ألا تنزل بنا؟ وهذا فحوى قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾[2].

وهنا يرد سؤال: لم أمرا بتليين القول للعدو المعاند؟ جوابه: لأن من عادة الجبابرة إذا أغلظ لهم في الكلام أن يزدادوا عتوًا وعلوًا. وقيل: لما له من حق تربية موسى شبه حق الأبوة[3].

ولما أشار له إلى الطهارة عن الشرك، أتبعها بالأعمال فقال: ﴿وَأَهۡدِيَكَ﴾ أي: أبين لك بعد التزكية بالإيمان الذي هو الأساس: كيف المسير ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: الموجد لك، والمحسن إليك، والمربي لك بتعريفك ما يرضيه من الأعمال، وما يغضبه من الخصال، بعد أن بلغك في الدنيا غاية الآمال ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ أي: فيتسبب عن ذلك أنك تصير تعمل أعمال من يخاف من عذابه خوفًا عظيمًا، فتؤدي الواجبات وتترك المحرمات وسائر المنهيات، فتصير إلى أعلى رتب التزكية، فتجمع ملك الآخرة إلى ملك الدنيا، فإن الخشية هي الحاملة على كل خير، والأمن هو الحامل على الشر. وتقديم التزكية على الهداية لأنها تخلية[4].

أي: أن المطلوب أولًا: التخلي عن دنس الشرك والكفر بالإيمان، ثم التحلي ثانيًا بخصال الخير والفضائل وملء النفس بالأخلاق الفاضلة، وإحلالها محل الأخلاق الرذيلة -وعلى رأسها الشرك- بعد أن خليت منها.

وقوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ خبر مبتدأ مضمر. و﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ متعلق بذلك المبتدأ، وهو حذفٌ سائغٌ، والتقدير: هل لك سبيل إلى التزكية، ومثله: هل لك في الخير، تريد: هل لك رغبة في الخير[5].

وفى هذا الأسلوب القرآنى الخطة المثلى، والمثل الكامل القويم لأصحاب الدعوات، من القادة، والزعماء، والمصلحين، إنهم لن يبلغوا بدعوتهم مواطن الإقناع، ولن يحصلوا منها على ثمر طيب، إلا إذا جعلوا الرفق واللين سبيلهما إلى الناس، والا إذا غذوها بمشاعر الحب، والرغبة الصادقة فى الإصلاح، وبخاصة إذا كان الداعي يدعو إلى حق، ويهدف إلى هدى وإصلاح، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[النحل: ١٤٥].

وليس مما يدخل فى هذا الباب،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٧٧.
(٢) غاية الأماني، الكوراني ص٣٢٤.
(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٥٤٧.
(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ٢٣١، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٣٠.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ١٣٦.

المداهنة، والمخادعة، والنفاق، فذلك كله شر، إذا اختلط بالدعوة الصالحة أفسدها، وإذا خالط الحق أثار الدخان الكثيف في سمائه الصافية، فغشى على الأبصار، وحجب الرؤية عن مواقع الهدى[(١)].

ومن هنا يظهر لنا أن نقطة البداية والنهاية في تزكية النفس هي التوحيد، فهو الذي يطهر النفوس من أدران الشرك، وما يستتبعه الشرك من عجب وغرور، وكبر وحسد، وغير ذلك، وبقدر ما يتعمق التوحيد في النفس بقدر ما تزكو وتتحقق بثمرات التوحيد من صبر وشكر، وعبودية، وتوكل، ورضا[(٢)].

ثانيًا: أمهات العبادات:

إن العبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركانًا في الإيمان به ليست طقوسًا مهمة في النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلفه بأداء أعمال غامضة، وحركات لا معنى لها، كلا، فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه، هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يطهر نفسه من قبائح الأعمال، فالصلاة والصيام والحج، وما أشبه هذه الطاعات من تعاليم الإسلام هي مدارج الكمال المفرد، وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويعلي شأنها، فإذا لم يستفد المرء منها ما يزكي قلبه، وينقي لبه، ويهذب بالله وبالناس صلته فقد هوى[(٣)] وسوف نعرض لذلك كما يلي:

الوسيلة الأولى: الصلاة:

تأتي الصلاة في الرتبة الأولى من العبادات التي لها دور في تزكية النفس، وتطهيرها من الآثام والشرور، ولأهمية هذه الشعيرة عند الحق لم يعف منها مسلم ولا مسلمة -كأصل عام- مهما كانت ظروفهما، فلا يحول دون أدائها فقر ولا ضعف، ولا مرض ولا سفر، بل لم يعف منها مسلم وقت الحرب -ولذلك كانت صلاة الخوف-، وهذا دليل قاطع على منزلة الصلاة عند الله؛ لما فيها من فوائد تعود على مؤديها بالخير والصلاح في الدنيا والآخرة[(٤)].

فالصلاة أبان الله لنا الحكمة منها قائلًا: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكبوت: ٤٥].

يقول الإمام ابن كثير: «إن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: إن مواظبتها تحمل على

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٤٣٨.
(٢) المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى ص٢٨.
(٣) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ٩.
(٤) القرآن والسلوك الإنساني، محمد سليم ص٥٧.

ترك ذلك»[1].

فالصلاة تنأى بالمؤمن عن الغرور بمتاع الدنيا، والاستعلاء على غيره من خلق الله وظلمهم والطغيان فيهم، حين يقف بين يدي الواحد الديان، خاشعًا مكبرًا ومتجردًا ومنصرفًا عن كل متاع الدنيا وزخرفها، متوجهًا إلى الحق سبحانه إيمانًا بأن العزة كلها لله. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ حين تقام حق القيام ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ذلك أنها اتصال بالله، يخجل صاحبه ويستحيي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها، وهي تطهرٌ وتجردٌ لا يتسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلهما[2].

فالصلاة في الإسلام تشكل دعامة أساسية من دعامات التهذيب النفسي، فالإبعاد عن الرذائل، والتطهير من سوء القول، وسوء العمل، هو حقيقة الصلاة، وهذا هو جوهر التزكية.

الوسيلة الثانية: الزكاة:

إن الزكاة -ومثلها الصدقة- ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي تطهير للنفس من داء البخل والشح، وتدريبها على البذل والسخاء، وتربيتها على الإنفاق والعطاء. وعليه فتشكل الزكوات والإنفاق في سبيل الله الوسيلة الثانية في الأهمية في باب التزكية، قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

والإنفاق في سبيل الله هو الذي يطهر النفس من الشح فتزكو بذلك النفس[3] كما قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة ١٠٣].

قال ابن عباس: لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وصاحبيه انطلق أبو لبابة وصاحبه، فأتوا بأموالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: خذ أموالنا وتصدق بها عنا، وصل علينا، يريدون استغفر لنا وطهرنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا آخذ شيئًا منها حتى أومر به)، فأنزل الله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ...﴾ الآية. فظاهر قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أن الزكاة إنما وجبت لكونها طهرة من الآثام. فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم به[4].

وكأن الحق يقول: ﴿خُذْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: من أموال هؤلاء المذنبين التائبين النادمين عما صدر عنهم

(١) تفسير القرآن العظيم٦/ ٢٨٠.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٨، القرآن والسلوك الإنساني، محمد سليم ص٦٠.
(٣) المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى ص٥١.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٠٣.

من المخالفة حين أذنوا لك أن تخرج أنت منها ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن أدناس الطبيعة المولعة بحب المال والحرص في جمعها ونمائها ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تصفي بواطنهم عن الشواغل العائقة عن اللذات الروحانية.

قال ابن كثير: «وهذا عام، وإن أعاد بعضهم الضمير في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلى الذين اعترفوا بذنوبهم، وخلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا»[1].

فالزكاة تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله، وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى[2]؛ ولهذا جعل الحق الإنفاق والزكاة سببًا من الوقاية من النار فقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧-١٨].

غاية القول: أن للزكاة دورًا في تزكية النفس؛ ذلك أنها تدرب الإنسان على قهر نفسه وقمع شهواتها، بل يتعدى دور الزكاة إلى تزكية وتطهير نفس المحتاجين من الحقد والحسد، والمقاربة بين نفوس المؤمنين، فيحل التحاب والتواد محل البغضاء والكراهية.

الوسيلة الثالثة: الصوم:

يأتي الصوم في المرتبة الثالثة من الأهمية في تزكية الأنفس، فمن الشهوات العاتية عند الإنسان شهوتا البطن والفرج، ذلك أن المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية؛ لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين.

وتضيق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارا لمحبة الله ومرضاته، وهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم[3].

إن الصوم علاج للنفس للبشرية، فرضه

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٠٧.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ٢١٤.
(٣) زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٢٧.

الله لحكمة ارتضاها؛ وقاية وصيانة وجهادًا وتربية وترقية وتهذيبًا، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

لأن الصيام وصلة إلى التقى؛ إذ هو يكف النفس عن كثير مما تتطلع إليه من المعاصي[(١)].

فالحق سبحانه بين بهذا الكلام أن الصوم يورث التقوى؛ لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى، فإنه يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهون لذات الدنيا ورئاستها؛ وذلك لأن الصوم يكسر شهوتي البطن والفرج، وإنما يسعى الناس لهذين، كما قيل في المثل السائر: المرء يسعى لعارية بطنه وفرجه، فمن أكثر الصوم هان عليه أمر هذين، وخفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعًا له عن ارتكاب المحارم والفواحش، ومهونًا عليه أمر الرياسة في الدنيا، وذلك جامع لأسباب التقوى[(٢)].

والحديث عن الصيام ذو شجون، جملة الحديث: أن الصوم كما يقول الإمام الكمال بن الهمام -أحد فقهاء الحنفية- في فوائد الصوم: «أن الصوم يسكن النفس الأمارة بالسوء ويكسر سورتها في الفضول المتعلقة بجميع الجوارح، من العين واللسان والأذن والفرج؛ ولذلك قيل: إذا جاعت النفس شبعت جميع الأعضاء، وإذا شبعت جاعت كلها»[(٣)].

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يوصي الشباب، والذين تموج بهم عواصف الشهوات، وتكون غرائزهم مهيأة لاقترافها أكثر من غيرهم بالزواج، فإن لم يستطيعوا إليه سبيلًا، فإن أنجع طريق لهم مقيدة لشهواتهم وكسر حدتها الصوم؛ فيقول صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء)[(٤)].

الوسيلة الرابعة: الحج:

الحج في الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة، بالغ، عاقل، قادر على تكاليف الحج والقيام به، كما قال الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد نوه الحق بشأن دور الحج في

(١) زاد المسير، ابن الجوزي١/ ١٤١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٤١.
(٣) فتح القدير، ابن الهمام ٢/ ٣٠٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، رقم ٥٠٦٥، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، رقم ١٤٠٠.

تهذيب النفوس ومعالجته لها من بعض أمراضها فقال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[البقرة: ١٩٧].

بين الحق أثر الحج في تهذيب النفوس والسلوكيات فقال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]

يبين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية ثلاثة أمور ينبغي أن ينتبه إليها كل مسلم، لأهميتها في تزكية النفوس:

أولًا: الرفث:

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: من أحرم بالحج أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذا التكلم به بحضرة النساء. أي: التعريض بذكر الجماع، ذلك بأن يقول مثلًا: (إذا حللنا فعلت بك كذا وكذا)، وما أشبه ذلك»[(١)].

قال ابن العربي: «المراد بقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ نفيه مشروعًا لا موجودًا، فإنا نجد الرفث فيه ونشاهده، وخبر الله سبحانه لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره، وإنما يرجع النفي إلى وجوده مشروعًا لا إلى وجوده محسوسا»[(٢)].

ثانيًا: الفسوق:

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قيل: هي المعاصي. وقيل: الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم. وقيل: الفسوق هاهنا السباب، متمسكين بما ثبت في الصحيح (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)[(٣)].

ثم قال بعد ذكر تلك الأقوال: «والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصي، معهم الصواب، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهيا عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم آكد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال في الحرم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]»[(٤)].

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٤٣.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم ٦٠٤٤، ومسلم في صحيحه، كتب الإيمان، باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم: سباب المسلم فسوق وقتاله كفرٌ، رقم ٦٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٤٦.

صلى الله عليه وسلم: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[1].

ثالثًا: الجدال:

قال ابن عباس: الجدال هو المراء، وهو أن يماري الرجل صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه. وقيل: هو الجدال الذي يخاف معه الخروج إلى السباب، والتكذيب، والتجهيل[2].

فالمراد النهى عن المماراة والمنازعة التي تؤدى إلى البغضاء وتغير القلوب. قال النيسابوري: «﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: لا نزاع للسالك الصادق في طلب الوصول لا بالفروع ولا بالأصول، فلا في مالها -أي: الدنيا- مع أحد يخاصم، ولا في جاهها لأحد يزاحم، فمن نازعه في شيء من ذلك يسلمها إليه ويسلم عليه ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]»[3].

فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى ذكر هذه الألفاظ الثلاثة: وهي الرفث، والفسوق، والجدال في الحج، من غير زيادةٍ ولا نقصٍ؟. فالجواب: لأنه ثبت في العلوم العقلية أن للإنسان أربع قوىً: قوة شهوانيةٌ بهيميةٌ، وقوةٌ غضبيةٌ سبعيةٌ، وقوةٌ وهميةٌ شيطانيةٌ، وقوة عقليةٌ ملكيةٌ، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاث، أعني: الشهوانية والغضبية والوهمية. فقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ إشارةٌ إلى قهر الشهوانية. وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ إشارةٌ إلى قهر القوة الغضبية التي توجب المعصية والتمرد. وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ إشارةٌ إلى قهر القوة الوهمية، التي تحمل الإنسان على الجدال في ذات الله، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأسمائه، وهي الباعثة على منازعة الناس، ومماراتهم، والمخاصمة معهم في كل شيءٍ، فلما كان سبب الشر محصورًا في هذه الأمور الثلاثة؛ لا جرم لا يذكر معها غيرها[4].

وقال القاسمي: «قال بعضهم: النكتة في منع هذه الأشياء على أنها آداب لسانية: تعظيم شأن الحرم، وتغليظ أمر الإثم فيه، إذ الأعمال تختلف باختلاف الزمان والمكان، فللملأ آداب غير آداب الخلوة مع الأهل. ويقال في مجلس الإخوان ما لا يقال في مجلس السلطان. ويجب أن يكون المرء في أوقات العبادة والحضور مع الله تعالى على أكمل الآداب، وأفضل الأحوال، وناهيك بالحضور في البيت الذي نسبه الله سبحانه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم ١٥٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، بابٌ في فضل الحج والعمرة، ويوم عرفة، رقم ١٣٥٠.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل٣/ ٤٠٢.
(٣) غرائب التأويل، النيسابوري ١/ ٥٧٣.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل٣/ ٤٠٥.

إليه! وأما السر فيها على أنها محرمات الإحرام، فهو أن يتمثل الحاج أنه بزيارته لبيت الله تعالى مقبل على الله تعالى، قاصد له، فيتجرد عن عاداته ونعيمه، وينسلخ من مفاخره ومميزاته على غيره، بحيث يساوي الغني الفقير، ويماثل الصعلوك الأمير، فيكون الناس من جميع الطبقات في زي كزي الأموات، وفي ذلك -من تصفية النفس، وتهذيبها، وإشعارها بحقيقة العبودية لله، والأخوة للناس- ما لا يقدر قدره، وإن كان لا يخفى أمره!»[1].

جملة القول: أن الحج تعويد للنفس على معانٍ، منها بذل الجهد والمال في سبيل الله، والاستسلام والخضوع لأمر الله، وتربية للنفس على خصال الخير ومحامد الطبائع والأخلاق.

ثالثًا: الأخلاق والقيم:

إذا كان القرآن قد بين أن للإيمان أثرًا في تزكية النفوس من خلال التخلي عن الكفر والنفاق، والتحلي بالإيمان والعبودية لله تعالى، كما بين أن للعبادات أثرًا في تزكية النفوس مثل الصلاة والزكاة والحج ونحوهم، أيضًا بين لنا القرآن أثر القيم والأخلاق في تزكية النفوس والارتقاء بها نحو الفضيلة والاستقامة على منهج الإسلام وطريقه الواضح القويم، ويمكن بيان أهمها كما يلي:

أولًا: أكل الطيبات:

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى في سياق الحديث عن أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: كما أرقدنا هؤلاء الفتية في الكهف، فحفظناهم من وصول واصل إليهم، وعين ناظر أن ينظر إليهم، وحفظنا أجسامهم من البلاء على طول الزمان، وثيابهم من العفن على مر الأيام بقدرتنا، فكذلك بعثناهم من رقدتهم، وأيقظناهم من نومهم؛ لنعرفهم عظيم سلطاننا، وعجيب فعلنا في خلقنا، وليزدادوا بصيرة في أمرهم الذي هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة، وإخلاصهم لعبادة الله وحده لا شريك له، إذا تبينوا طول الزمان عليهم، وهم بهيئتهم حين رقدوا.

وقوله: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ يقول: ليسأل بعضهم بعضًا ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ يقول عز ذكره: فتساءلوا، فقال قائل

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٧١.

منهم لأصحابه: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ يقول: فأجابه الآخرون فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ظنًا منهم أن ذلك كذلك كان، فقال الآخرون: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فسلموا العلم إلى الله»[1].

وقوله: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ يعني: مدينتهم التي خرجوا منها هرابًا، التي تسمى (أفسوس) ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ ذكر أنهم هبوا من رقدتهم جياعًا، فلذلك طلبوا الطعام[2].

وعليه فالمعنى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾، أي: أحل من جهة أنه ذبيحة مؤمن، أو من جهة أنه غير مغصوب، وأطهر وأجود وأطيب وأكثر بركة وأرخص: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾، أي: بطعام منه. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، أي: وليرفق في السؤال. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، أي: لا يعلمن بمكانكم أحدًا من الناس. ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، يعني: إن يطلعوا عليكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾، يقتلوكم. ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾، أي لن تفوزوا، ولن تسعدوا ﴿إِذًا أَبَدًا﴾ إن عبدتم غير الله تعالى[3].

والآية تحمل جملة من الفوائد لها تأثير في تزكية النفس الإنسانية والارتقاء بها: منها كما قال الإمام الألوسي: «والإشارة فيه.... إلى أن اللائق بأهل الإسلام استعمال الورع، ألا ترى كيف طلب القائل الأزكى، ولذلك قال ذو النون: العارف من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه...»[4].

ومنها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه؛ لكون الله بعثهم لأجل ذلك. ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده. ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك. ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه؛ لقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين. ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم وتركهم أوطانهم في الله. ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه، وأن هذه الطريقة،

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٦٢٧.
(٢) المصدر السابق ١٧/ ٦٢٨.
(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٤٢.
(٤) انظر: روح المعاني، ٨/ ٢٤٧.

هي طريقة المؤمنين المتقدمين، والمتأخرين لقولهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف: ٢٠][(١)].

ثانيًا: الاستئذان عند دخول البيوت أو الرجوع:

وإليه يشير قوله تعالى في سوة النور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٧-٢٨].

جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، فلا يزال يدخل علي رجل من أهلي فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ﴾ الآية[(٢)].

والنداء للذين آمنوا، وفي ذلك إشارة إلى ما يطلبه سبحانه من خواص أهل الإيمان، وهو من الأدب الذي يناسب إيمانكم وهو عدم التهجم على الأسر، وتكشف أستارها، وتحاشي إزعاجها[(٣)]. ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوتًا ليست لكم[(٤)].

والصواب من القول في الاستئناس: أن يقال: إن الاستئناس: الاستفعال من الأنس، وهو أن يستأذن أهل البيت في الدخول عليهم، مخبرًا بذلك من فيه، وهل فيه أحد؟ وليؤذنهم أنه داخل عليهم، فليأنس إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إياهم. وقد حكي عن العرب سماعًا: اذهب فاستأنس، هل ترى أحدًا في الدار؟ بمعنى: انظر هل ترى فيها أحدًا؟[(٥)].

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ بيان حكم الآية أنه لا يدخل بيت الغير إلا بعد الاستئذان والسلام. واختلفوا في أيهما يقدم فقال الأكثرون: يقدم السلام، ففي الآية تقديم وتأخير، وهذا صفة الاستعلام والسلام[(٦)].

فتأويل الكلام إذن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ﴾ (تسلموا وتستأذنوا) وذلك أن يقول أحدكم: السلام عليكم، أأدخل؟[(٧)].

وعبر سبحانه عن الاستئذان في الدخول بالاستئناس؛ لأنه يوحي بأن القادم قد استأنس بمن يريد الدخول عليهم وهم قد

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٢.
(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٨٤. ٨٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢١٣، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٠.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٧٥.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٨٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٩.
(٦) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٨٨.
(٧) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٩.

أنسوا به، واستعدوا لاستقباله، فهو يدخل عليهم بعد ذلك وهم متهيئون لحسن لقائه، فإذا ما صاحب كل ذلك التسليم عليهم، كان حسن اللقاء أتم وأكمل[1].

فإن قيل: أن كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها، فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ يقتضي جواز الدخول بعد الاستئذان، وإن لم يكن من صاحب البيت إذن، فما قولكم فيه؟

الجواب: من وجوه:

أحدها: أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان، والاستئناس لا يحصل إلا إذا حصل الإذن بعد الاستئذان.

وثانيها: أنا لما علمنا بالنص أن الحكمة في الاستئذان أن لا يدخل الإنسان على غيره بغير إذنه فإن ذلك مما يسوءه، وعلمنا أن هذا المقصود لا يحصل إلا بعد حصول الإذن، علمنا أن الاستئذان ما لم يتصل به الإذن وجب أن لا يكون كافيًا.

وثالثها: أن قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ فحظر الدخول إلا بإذن، فدل على أن الإذن مشروط بإباحة الدخول في الآية الأولى[2].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: استئناسكم وتسليمكم على أهل البيت الذي تريدون دخوله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تحية الجاهلية والدمور -وهو الدخول بغير إذن- فكان الرجل من أهل الجاهلية إذا دخل بيت غيره يقول: حييتم صباحًا، وحييتم مساء، ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قيل لكم هذا لكي تذكروا وتتعظوا وتعملوا ما أمرتم به في باب الاستئذان[3] وغيره مما أمركم الله به.

وقد خاطب بالإشارة بأمرين: أولهما- أنه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لكي تصان الأعراض، وتستر العورات، ولا يكون نطاق اتهام، ونفور بالاستيحاش، وحيث كشفت الأستار كانت الفتن وكان ظن السوء، فتسود القطيعة، والتفاحش، ورمي الأبرياء. ثانيهما- رجاء التذكر وتعرف المصلحة وتحري الاحتشام، حتى من الآباء والأمهات[4].

وقد ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثًا، فلم يؤذن له، انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله صلى

(١) الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٠٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣٥٨.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٩٨.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٧٦. ٥١٧٧

الله عليه وسلم يقول: (إذا استأذن أحدكم ثلاثًا، فلم يؤذن له، فلينصرف). فقال: لتأتين على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا. فذهب إلى ملأ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق[1].

من خلال ما سبق يتضح: أن الاستئناس والتسليم لثلاثة أسباب:

أولها: أن يكون صاحب البيت ليس على حال يصح للقاء واستقبال الناس.

وثانيها: احترام الملكية، سواء أكانت ملكية عينية بأن يكون البيت ملكه، أو ملكية منفعة إذا كان مؤجرًا.

وثالثها: إزالة وحشة المفاجأة[2].

ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨].

قال أبو بكر بعد نزول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا﴾ الآية: يا رسول الله، أرأيت الخانات والمساكن التي ليس فيها ساكن، فنزل ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [النور: ٢٩] الآية[3].

قال ابن العربي: «هذا تبيان من الله لإشكال يلوح في الخاطر، وهو أن يأتي الرجل إلى منزل لا يجد فيه أحدًا، فيقول في نفسه: إذا كانت المنازل خالية فلا إذن؛ لأنه ليس هناك محتجب، فيقال له: إن الإذن يفيد معنيين. أحدهما: الدخول على أهل البيت. والثاني: كشف البيت واطلاعه، فإن لم يكن هنالك أحد محتجب، فالبيت محجوب لما فيه، وبما فيه، إلا بإذن من ربه»[4].

يعني: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ أي: إن وجدتموها خالية ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي: إن ردوكم فلا تقفوا على أبوابهم وتلازموها. والضمير في ﴿تَجِدُوا فِيهَا﴾ للبيوت التي هي بيوت الغير[5] ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: الرجوع هو أطهر وأطيب وأصلح لكم؛ لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة؛ ذلك أنه لا يخلو الإلحاح والوقوف على الباب وفي ذلك من الكراهة وترك المروءة، وهذا لا يليق بكرامة الكريم، أو أنفع لدينكم ودنياكم. قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب التسليم، رقم ٦٢٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب الاستئذان، رقم ٢١٥٣.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٧٦.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي٧/ ٨٤. ٨٦. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢١٣. البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٠.

(٤) أحكام القرآن ٢/ ٣٧٤.

(٥) زاد المسير، ابن الجوزي٣/ ٢٨٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢١٩.

من الدخول بالإذن وغير الإذن. ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه، فيجازيكم عليه، وهو وعيد للمخاطبين، فالمقصود من هذا الإخبار: إفادة لازمه، وهو المجازاة على هذه الأعمال[1].

وهكذا فإن الآيات تظهر عظمة الإسلام في حرصه على حفظ العرض، واحترام الخصوصية، ومراعاة مشاعر الناس، وتقف في وجه النفس الإنسانية التي دوما تريد التطلع والنظر دونما قيود أو شروط، فتأتي تلك الضوابط والتوجيهات لتسمو بالنفس من الدنية إلى الطهر والتزكية التي تصلح الحال وتريح البال.

قال الزمخشري: «وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس»[2].

فهذه آداب اجتماعية شرعية ذات مدلول حضاري، وتمدن رفيع؛ لما فيها من تنظيم لحياة المجتمع، وأحوال الأسر في البيوتات؛ حفظًا لروابط الود والمحبة، وإبقاء على حسن العشرة، وتبادل الزيارات بين المؤمنين[3].

ثالثًا: غض البصر وحفظ الفرج:

ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وبك يا محمد ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي: يكفوا من نظرهم إلى ما يشتهون النظر إليه، مما قد نهاهم الله عن النظر إليه ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ هذا أمر بالتعفف، و(من) للتبعيض، والمراد غض البصر عما يحرم، والاقتصار به على ما يحل.

فإن قلت: كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفروج؟

قلت: دلالة على أن أمر النظر أوسع. ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن وثديهن وأعضادهن وأسوقهن وأقدامهن، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين. وأما أمر الفرج فمضيق، وكفاك فرقًا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه. -وهذا على أن المراد حفظها عن الإفضاء إلى ما لا يحل[4]-، ولم يذكر

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٩٩، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ٣٤٧، الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١١٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٨.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ٢٠٠.

(٤) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٠٨، الكشاف ٣/ ٢٢٩.

الله تعالى ما يغض البصر عنه ويحفظ الفرج، غير أن ذلك معلوم بالعادة، وأن المراد منه المحرم دون المحلل[1].

وقيل: المراد حفظها عن الإبداء.. يعني على المعنى الثاني: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا﴾ أبصارهم عن عورات النساء، ويحفظوا فروجهم عن أبصار الناس.

قال الإمام ابن كثير: «وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنى، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: ٢٩-٣٠].

وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: (احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)[2]»[3].

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ يقول: فإن غضها من النظر عما لا يحل النظر إليه، وحفظ الفرج عن أن يظهر لأبصار الناظرين أو عن الإفضاء إلى ما لا يحل، أطهر لهم عند الله وأفضل ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ يقول: إن الله ذو خبرة بما تصنعون -أيها الناس- فيما أمركم به من غض أبصاركم عما أمركم بالغض عنه، وحفظ فروجكم عن إظهارها لمن نهاكم عن إظهارها له، أو عن ما لا يحل لها[4].

فالأمر للمؤمنين بغض البصر فيه تزكية للنفوس، وتطهير للمجتمع من أدران الفاحشة، والتردي في بؤرة الفساد والتحلل الخلقي، وتجنيب للنفوس من أسباب الإغراء والغواية.

قال الإمام أبو زهرة: «﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ ذلك، وهو غض البصر، وحفظ الفروج، أطهر لكم، فيكون المجتمع طاهرًا نقيًا سليمًا، والبيوت طاهرة سليمة، وهم في ذات أنفسهم أطهار طيبون، ويكونون خيرًا في خير يظلهم الخير دائمًا، ويكونون في قبة من الفضيلة تظلهم، وتؤدي بهم جميعًا إلى جنة الآخرة، كما كانوا في ظلة من الفضيلة في الدنيا»[5].

لذلك فإن رسوله صلى الله عليه وسلم نهى عن النظر إلى الحرام وسماه زنا العين، ففي الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله كتب على ابن

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٢٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٣/ ٢٣٥، رقم ٢٠٠٣٤، وأبو داود في سننه، كتاب الحمام، باب ما جاء في التعري، ٤/ ٤٠، رقم ٤٠١٧، والترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في حفظ العورة، ٤/ ٤٩٣، رقم ٢٧٦٩، والنسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب نظر المرأة إلى عورة زوجها، ٨/ ١٨٧، رقم ٨٩٢٣، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب التستر عند الجماع، ١/ ٦١٨، رقم ١٩٢٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٩/ ١٥٤.
(٥) زهرة التفاسير ١٠/ ٥١٨١.

آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه)[1].

قال الشعراوي: «﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ...﴾ [النور: ٣٠].

يعني: أطهر وأسلم وأدعى لراحة النفس؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرمًا، ويلج في أعراض الناس، وإما ألا ينزع فيكدر نفسه ويؤلمها بالصبر على ما لا تطيق. ثم يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة، وليحقق بها عملية النسل وبقاء الاستخلاف في الأرض، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملحة لزهد الكثيرون في الزواج وفي الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات»[2].

وفي غض البصر عدة منافع:

منها: أنه امتثالٌ لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده.

ومنها: أنه يورث القلب أنسًا بالله وجمعيةً عليه.

ومنها: أنه يقوي القلب ويفرحه.

ومنها: أنه يكسب القلب نورًا.

ومنها: أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها.

ومنها: أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انتقال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه، ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب، فسد النظر، وإذا فسد النظر، فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح، فإذا خربت العين وفسدت، خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه، والأنس به والسرور بقربه فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك[3].

جملة القول: أن غض البصر فيه تزكية للنفس وتطهيرها من أوحال الرذيلة؛ ولذا قال تعالى بعد الأمر بغض البصر: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، كما أن في غض البصر استعلاء على النفس الأمارة بالسوء، وإغلاقًا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية، ودليلًا صادقًا على قوة العزيمة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، رقم ٦٢٤٣.

(٢) تفسير الشعراوي ١٣/ ١٠٢٥٤.

(٣) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ص١٧٩-١٨٠.

جزاء التزكية

لقد اهتم القرآن الكريم اهتمامًا كبيرًا بتزكية النفس، ولا أدل على ذلك من أن القرآن قد جعل التزكية من وظائف الأنبياء، فضلًا عن كونه بين الكثير من الوسائل التي تعين الإنسان على التزكية بداية من الإيمان، مرورًا بالعبادات، وانتهاءً بالأخلاق -كما رأينا في ثنايا البحث-، وكنتيجة طبيعية لهذا الاهتمام والترغيب في سلوك طريق التزكية رتب القرآن الكريم على تزكية النفس جزاءً عظيمًا في الدنيا والآخرة. فبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان مستحقًا في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة[1].

ويمكننا بيان ذلك الجزاء في القرآن كما يلي:

أولًا: الفلاح والنجاح:

كما قرر ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى ١٤-١٥]

قال الإمام ابن كثير ما مضمونه: «يعني قد فاز وظفر من تطهر من دنس الشرك والمعاصي، وتعهد نفسه بالتزكية والتهذيب والتطهير من الرذائل والمفاسد والأخلاق الوضيعة، وتابع ما أنزل الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه. وعمل بما أمره الله به، ونهاه الله عنه»[2].

ومن هذا تعلم أن تزكية النفس إنما تكون بالإيمان بالله ونفي الشركاء، والتصديق بكل ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم مع صالح العمل والأخلاق الطيبة[3].

وقد قال الله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات ٤٠-٤١].

قال القاسمي: «﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي: تذكر جلال ربه وعظمته، فخشع وأشفق وقام بما له وعليه»[4].

قال صاحب الظلال: «يقرر أن هذا الذي تطهر وذكر اسم ربه، فاستحضر في قلبه جلاله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾.. إما بمعنى خشع وقنت. وإما بمعنى الصلاة الاصطلاحي، فكلاهما يمكن أن ينشأ من التذكر واستحضار جلال الله في القلب، والشعور بمهابته في الضمير.. هذا الذي تطهر وذكر وصلى ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ يقينًا. أفلح في دنياه، فعاش موصولًا، حي القلب، شاعرًا بحلاوة الذكر وإيناسه، وأفلح في أخراه، فنجا من النار الكبرى، وفاز بالنعيم والرضى»[5].

وعبر سبحانه بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ليجمع في هذا التعبير البليغ، كل معاني الخير

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٨١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٣٨١.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ١٢٨.

(٤) محاسن التأويل، ٩/ ٤٥٩.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٩٣.

والنفع؛ لأن الفلاح معناه: وصول المرء إلى ما يطمح إليه من فوز ونفع. وجاء التعبير بالماضي المسبوق بقد للدلالة على تحقيق هذا الفلاح بفضل الله تعالى ورحمته.

وقد اشتملت هاتان الآيتان على الطهارة من العقائد الباطلة والمعاصي والذنوب وسوء الأخلاق ﴿تَزَكَّىٰ﴾ وعلى استحضار معرفة الله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ وعلى أداء التكاليف الشرعية التي على رأسها الصلاة فصلى. وهذه المعاني هي التي أوصلت صاحبها إلى الفلاح الذي ليس بعده فلاح[1].

وقد أكد ذلك مرة أخرى: فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس ٩-١٠]

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: دسسها، أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل[2]. وأصل فعل دسى: دسس، فلما اجتمع ثلاث سينات، قلبت الثالثة ياء، يقال: دس فلان الشيء إذا أخفاه وكتمه.

قال ابن القيم: «فالطاعة والبر: تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى. وبهذا الذل لله حصل لها العز والشرف والنمو، فما صغر النفس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله»[3].

قال العلامة البقاعي عند تفسيره لتلك الآية: «قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي ظفر بجميع المرادات ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: نماها وأصلحها وصفاها تصفية عظيمة بما يسره الله له من العلوم النافعة والأعمال الصالحة، وطهرها على ما يسره لمجانبته من مذام الأخلاق؛ لأن كلًا ميسّر لما خلق له، والدين بني على التحلية والتخلية و(زكى) صالح للمعنيين، ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي: حرم مراده مما أعد لغيره في الدار الآخرة وخسر، وكان سعيه باطلًا ﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: أغواها إغواء عظيمًا، وأفسدها، ودنس محياها وقذرها وحقرها وأهلكها بخبائث الاعتقاد ومساوىء الأعمال، وقبائح النيات والأحوال، وأخفاها بالجهالة والفسوق، والجلافة والعقوق..»[4].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها)[5].

ثم قال: «فالتزكية أن يحرص الإنسان

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٣٦٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١٢.
(٣) التفسير القيم ص٥٧١.
(٤) نظم الدرر ٢٢/ ٧٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم ٢٧٢٢.

على شمسه أن لا تكسف، وقمره أن لا يخسف، ونهاره أن لا يتكدر، وليله ألا يطفى، والتدسيس أقله إهمال الأمر حتى تكسف شمسه، ويخسف قمره، ويتكدر نهاره، ويدوم ليله، وطرق ذلك اعتبار نظائر المذكورات من الروحانيات وإعطاء كل ذي حق حقه، فنظير الشمس هي النبوة؛ لأنها كلها ضياء باهر وصفاء قاهر، وضحاها الرسالة، وقمرها الولاية، والنهار هو العرفان، والليل عدم طمأنينة النفس بذكر الله وما جاء من عنده، وإعراضها عن الانقياد لقبول ما جاء من النبوة أو الولاية، والعلماء العاملون هم أولياء الله، ونظير السماء العزة والترفع عن الشهوات، وعن خطوات الشياطين من الإنس والجن، والأرض نظيرها التواضع لحق الله ولرسوله وللمؤمنين، فيكون بإخراجه المنافع لهم كالأرض المخرجة لنباتها، والتدسية خلاف ذلك، من عمل بالسوء»[1].

ثانيًا: الدخول في الجنة ونيل نعيمها:

ويقرر ذلك تعالى في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه ٧٤-٧٦]

قال الإمام ابن كثير: «الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد»[2].

والمجرم: فاعل الجريمة، وهي المعصية والفعل الخبيث. والمجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩][3].

والهاء في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن، أي: حال وشأن ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿مُجْرِمًا﴾ أي: مرتكبًا لجريمة الكفر والشرك بالله تعالى ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي: لهذا المجرم ﴿جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها عذابًا شديدًا، من مظاهره: أنه لا يموت فيها فيستريح، ولا يحيى حياة فيها راحة[4].

قال ابن عطية: «هذا مختص بالكافر؛ فإنه معذب عذابًا ينتهي به إلى الموت، ثم لا يجهز عليه فيستريح، بل يعاد جلده ويجدد عذابه، فهو لا يحيى حياة هنية، وأما من يدخل النار من المؤمنين بالمعاصي فهم قبل أن تخرجهم الشفاعة في غمرة، قد قاربوا الموت، إلا أنهم لا يجهز عليهم ولا يجدد عذابهم فهذا فرق ما بينهم وبين الكفار»[5].

(١) نظم الدرر ٢٢/ ٧٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٠٥- ٣٠٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٦٨.
(٤) الوسيط، طنطاوي ٩/ ١٣٠.
(٥) المحرر الوجيز، ٤/ ٥٣.

وقوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ أي: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الطاعات وما أمر به ونهي عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى (من)، وفي التعبير بـ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم، أي: فأولئك المؤمنون العاملون للأعمال الصالحات -وما أمر به ونهي عنه- لهم بسبب إيمانهم وعملهم ذلك ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات[1].

قال الإمام الطبري: «ثم بين تلك الدرجات العلى ما هي، فقال: هن ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ يعني: جنات إقامة لا ظعن عنها ولا نفاد لها ولا فناء ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ يقول: تجري من تحت غرفها وسررها وأشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من الخمر والعسل واللبن والماء ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة؛ فالجنات من قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ مرفوعة بالرد على الدرجات. أي: بدل من ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾.

وهذه الدرجات العلى -التي هي جنات عدن على ما وصف جل جلاله- ثواب من طهر نفسه من الدنس والخبث والذنوب، فعبد الله وحده لا شريك له، وصدق المرسلين فيما جاءوا به من خبر وطلب. فأطاع الله فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه. وهذا معنى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ﴾»[2].

قال الشيخ الشعراوي: «فمعنى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهر من المعاصي، ثم نمى نفسه، ومعنى التنمية هنا: ارتقاءات المؤمن في درجات الوصول للحق، فهو مؤمن بداية، لكن يزيد إيمانه وينمو ويرتقي يومًا بعد يوم، وكلما ازداد إيمانه ازداد قربه من ربه، وازدادت فيوضات الله عليه. والطهارة للأشياء سابقة على تنميتها؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

إذن: زكى نفسه: طهرها أولًا: ثم ينميها ثانيًا، كمن يريد التجارة، فعليه أولًا: أن يأتي برأس المال الطاهر من حلال ثم ينميه، لكن لا تأتي برأس المال مدنسًا ثم تنميه بما فيه من دنسٍ. وكلما نمى الإنسان إيمانه ارتقى في درجاته، فكانت له الدرجات العلا في الآخرة»[3].

ثالثًا: النجاة من النار:

ويبين ذلك قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل ١٤-١٨].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٠٥-٣٠٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٤٢.

(٣) تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٣٣٦.

في هذه الآيات يبين لنا القرآن صفات صنفين من الناس: صنف من الذين يكون مصيرهم النار، وصنف من الذين يكون مصيرهم الابتعاد عنها، كما يبين أعمال كلٍ منهم التي قادته إلى مصيره.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أيها الناس ﴿نَارًا﴾ تتوهج، وهي نار جهنم، يعني: احذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا، وتكفروا به، فتصلونها في الآخرة»[1].

قال السمرقندي: «قوله عز وجل: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ يعني: لا يدخل في النار -فيصلى بسعيرها- ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ يعني: الذي ختم له بالشقاوة ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يعني: كذب بالتوحيد، وتولى عن الإيمان، وعن طاعة الله تعالى، وأخذ في طاعة الشيطان»[2].

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى صفات عباده الذين سيبتعدون عن النار، وينجون منها فقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ أي: وسيبتعد عن هذه النار المتأججة الأتقى، وهو من بالغ في صيانة نفسه عن كل ما يغضب الله تعالى، وحرص كل الحرص على فعل ما يرضيه عز وجل، فالمراد بالأشقى والأتقى: الشديد الشقاء، والشديد التقوى، والتعبير بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ يشعر بابتعاده عنها ابتعادًا تامًا، بحيث تكون النار في جانب، وهذا الأتقى في جانب آخر[3].

فصفات الإنسان المبالغ في تقواه وطاعته لربه أنه ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: هذا الإنسان الشديد التقوى من صفاته أنه يقدم ماله لغيره، وينفقه في وجوه البر والطاعة، رجاء أن يكون عند ربه زاكيًا ناميًا، خاليًا من شبهة الرياء والتفاخر وأملًا في أن يتطهر به من الذنوب. فقوله: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿يُؤْتِى﴾ أي: يؤتى ماله حال كونه لا يطلب من وراء ذلك إلا تزكية ماله، وتطهير نفسه. وفائدة الحال التنبيه على أنه يؤتي ماله لقصد النفع والزيادة من الثواب تعريضًا بالمشركين الذي يؤتون المال للفخر والرياء والمفاسد والفجور[4].

قال القاسمي: «وفي حصر ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ بالمنفق، على الشريطة المذكورة، عناية عظيمة به، وترغيب شديد في اللحاق به، كيف لا؟ وبالمال قوام الأعمال، ورفع مباني الرشاد وهدم صروح الفساد»[5].

قال ابن كثير: «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حتى إن بعضهم

(١) جامع البيان، ٢٤/ ٤٧٧ .
(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(٣) الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٤٢٢.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٤٨٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٩١.
(٥) محاسن التأويل ٩/ ٤٨٧.

حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ [الليل ١٧-١٩].

ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقًا، تقيًا، كريمًا، جوادًا، بذالًا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله...»[1].

موضوعات ذات صلة:

التربية، الدعوة، الزكاة، العفة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٢٢.

التسبيح

عناصر الموضوع

مفهوم التسبيح	٥٤
التسبيح في الاستعمال القرآني	٥٥
الألفاظ ذات الصلة	٥٦
تسبيح الله عز وجل نفسه	٥٧
المسبحون لله عز وجل من المخلوقات	٦٤
من صيغ التسبيح	٨٨
مواطن التسبيح	٩٤
أزمنة التسبيح	١٠٢
فوائد التسبيح	١٠٩

مفهوم التسبيح

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ب ح) تدل على معنيين: أحدهما: جنسٌ من العبادة، ومنه التسبيح، وهو تنزيه الله جل ثناؤه من كل سوء. والمعنى الآخر: جنسٌ من السعي، وهو السبح والسباحة، وهو العوم في الماء[(١)].

يتبين مما سبق أن للتسبيح في اللغة معنيين: أحدهما: التنزيه والتبرئة من السوء، والآخر: قول: (سبحان الله)، والمعنى الثاني راجع إلى المعنى الأول[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يعد التسبيح من الألفاظ الشرعية التي اشتهرت في الشرع أكثر من اشتهارها في اللغة، والمعنى الاصطلاحي (الشرعي) للتسبيح هو نفس المعنى اللغوي، لا يختلف عنه، أي: بمعنى تنزيه الله عن السوء، وقد ورد هذا المعنى للتسبيح عن النبي صلى الله عليه وسلم[(٣)]، وعن ابن عباس رضي الله عنه، وعن كثير من أئمة السلف والخلف[(٤)].

وقال أبو السعود: «والتسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقادًا وقولًا وعملًا، عما لا يليق بجنابه سبحانه»[(٥)].

وقال ابن القيم: «ومعنى هذه الكلمة - يعني (سبحان الله) - تنزيه الرب وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به»[(٦)].

وبهذا يمكن أن نخرج بتعريف اصطلاحي للتسبيح بأنه: تنزيه الله عز وجل في الاعتقاد والقول والعمل، عما لا يليق به سبحانه.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٥.
(٢) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ١/ ٢٣.
(٣) جاء ذلك في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن تفسير سبحان الله قال: هو تنزيه الله عن كل سوء، أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء، ١/ ٥٠٢ ح١٨٠٢، وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.
(٤) جمع كثيرًا من تلك الأقوال الدكتور محمد كندو في كتابه التسبيح في الكتاب والسنة ١/ ٧٢-٧٥.
(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١/ ٨٣.
(٦) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٤٥٢.

التسبيح في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سبح) في القرآن (٩٢) مرة، يخص التسبيح منها (٨٧) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد:١]
الفعل المضارع	٢٠	﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة:٣٠]
فعل الأمر	٢	﴿فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ۝٤٠﴾[ق:٤٠]
المصدر	٢	﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء:٤٤]
اسم المصدر	٤١	﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾[يوسف:١٠٨]
اسم الفاعل	٢	﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥﴾[الصافات:١٦٦]

وجاء (التسبيح) في القرآن بمعناه اللغوي، وهو تنزيه الله جل ثناؤه من كل سوء[(٢)]. ولم يخرج عن هذا المعنى.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٦٣٨-٦٤٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ التقديس:

التقديس لغة:

مشتق من الفعل (قدس) بمعنى: طهر، والتقديس هو التطهير والتبريك، وتقدس أي تطهر، من ذلك قيل للسطل: القدس؛ لأنه يتقدس منه، أي: يتطهر، وسمي بيت المقدس بذلك لأنه البيت المطهر، والمكان الذي يتطهر به من الذنوب، والتقديس: تنزيه الله عز وجل[١].

التقديس اصطلاحًا:

التقديس: التطهير الإلهي، والتعظيم لله عز وجل، والتطهير هنا غير التطهير الذي هو إزالة النجاسة المحسوسة[٢].

الصلة بين التقديس والتسبيح:

اللفظان يحملان نفس المعنى من تبعيد الله عن السوء؛ إلا أن التقديس أعم من التسبيح؛ إذ كل مقدس مسبح، وليس العكس؛ فالتسبيح يختص بالله عز وجل دون سواه، أما التقديس فلا يختص به سبحانه؛ بل يستعمل في حق الآدميين وغيرهم من المخلوقات، فيقال: فلان رجل مقدس: إذا أريد تبعيده عن مسقطات العدالة ووصفه بالخير، ولا يقال: رجل مسبح، ويقال: قدس الله روح فلان، ولا يقال: سبحه، ويقال: الأرض المقدسة، ولا يقال: الأرض المسبحة[٣].

وذكر بعض المفسرين: أن التسبيح يكون بتنزيه الله عز وجل بالقول والعمل، والتقديس تنزيه الله عز وجل باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذات العلية[٤].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٥٥٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٩٦.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٢٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٠٦.

تسبيح الله عز وجل نفسه

كل ما في القرآن الكريم من تمجيد الله عز وجل لنفسه العلية؛ وذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وبيان قدرته وعظمته، والحديث عن آياته وآلائه، وقوته وجبروته سبحانه وتعالى، كل ذلك يدخل في تسبيح الله عز وجل لنفسه، وهذا كثير في كتاب الله عز وجل لا يمكن حصره؛ ومن أمثلته آية الكرسي، وسورة الإخلاص، وأواخر سورة الحشر، وغير ذلك كثير في كتاب الله عز وجل.

والذي نريد بيانه في هذا المبحث هو ما ورد من تسبيح الله عز وجل لنفسه في كتابه العزيز بلفظ التسبيح الصريح، ولقد سبح الله عز وجل نفسه العلية في كتابه العزيز -بلفظ التسبيح- في مواضع كثيرة، بلغت سبعة وعشرين موضعًا.

وباستقراء الآيات التي سبح الله عز وجل فيها نفسه نجد أن الله عز وجل قد نزه نفسه فيها عن الولد، وعن الشريك، وعن أن يلحقه نقص أو ضعف.

أولًا: تنزيه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الولد:

لقد ورد في كتاب الله عز وجل آيات تسع نزه الله عز وجل فيها نفسه المقدسة -بلفظ التسبيح- عما وصفه به المشركون المفترون من نسبة الولد له سبحانه، ففي سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

بين سبحانه في هذه الآية أن جميع ما في السماوات والأرض مملوك له، وعبيد له سبحانه، وفي هذا بيان للمانع عقلًا من اتخاذ الولد[(١)].

وفي سورة النساء قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

فبين سبحانه في هذه الآية أيضًا أن ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فلا شريك له سبحانه، فكل الخلق -في السماوات والأرض- له، وعيسى عليه السلام وأمه مريم من جملة ما في السموات وما في الأرض؛ فكيف يكون عيسى إلهًا أو ولدًا لله وهو مخلوق لله عز وجل؟![(٢)].

وفي سورة يونس قال سبحانه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٣٨٨، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٤٢٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٥.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

فأخبر سبحانه أنه ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فأقام الحجة على بطلان قول المشركين؛ حيث بين أنه سبحانه هو الغني الذي لا يفتقر إلى غيره، فكيف إذًا يحتاج إلى ولد أو بنت فيستغني به وهو الغني الحميد؟! وبرهان آخر على غناه أن له ما في السموات وما في الأرض، فالجميع خلقه وملكه، فهل يعقل أن يتخذ السيد المالك عبدًا من عبيده ولدًا له[1].

وفي سورة النحل سبح الله عز وجل نفسه عما نسبه إليه المشركون من أن له البنات، فقال عز وجل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

وفي التسبيح في هذه الآية تعجب من قول أولئك المشركين، حيث جعلوا لأنفسهم ما يشتهون من البنين، ونسبوا ما يكرهون من البنات لله عز وجل، ففضحهم الله عز وجل، وقال في الآية التالية لتلك الآية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

وفي سورة مريم والأنبياء والمؤمنون نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الولد، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فهو سبحانه بيده كل شيء ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

وكل المخلوقات ملكه وطوع أمره، حتى الملائكة العظام - الذين قال عنهم المشركون أنهم بنات الله - ما هم إلا عباد لله، مكرمون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا، لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به؛ بل يبادرون إلى فعله، وهو سبحانه محيط بهم، عليم خبير، فلا يخفى عليه منهم خافية ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨][2].

وفي سورة الزمر بين الله عز وجل بطلان ما نسبه إليه المبطلون من اتخاذ الولد؛ بأن بين أنه سبحانه له ملك كل شيء، وهو سبحانه الذي يعبده كل شيء، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٤٩١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٣٩٨.

ولو كان له ولد لم يكن له عبدًا، فأنى يكون له ولد، وهو الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه، والقهار لخلقه بقدرته، فكل شيء له متذلل، ومن سطوته خاشع، فتعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد؛ فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كل شيء فقير إليه، وهو الغني عما سواه، قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا[1].

وفي آيتي الزخرف يسبح الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الولد بقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨١ - ٨٢].

قال القرطبي: «المعنى: قل يا محمد: إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد ولده؛ ولكن يستحيل أن يكون له ولد؛ وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت بالدليل فأنا أول من يعتقده؛ وهذا مبالغة في الاستبعاد؛ أي لا سبيل إلى اعتقاده. وهذا ترقيق في الكلام، والمعنى على هذا: فأنا أول العابدين لذلك الولد؛ لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد. وقال مجاهد: المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده، على أنه لا ولد له.

وقال السدي أيضًا: المعنى لو كان له ولد كنت أول من عبده على أن له ولدًا؛ ولكن لا ينبغي له ذلك سبحانه»[2].

وفي سورة الصافات نزه الله عز وجل نفسه عما نسبه المبطلون ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨ - ١٥٩].

لقد افترى المشركون بهتانًا عظيمًا، وقالوا زورًا كبيرًا؛ إذ زعموا أن بين الله وبين الجن نسبًا؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم من الجن، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله ليجازيهم عبادًا أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب، لم يكونوا كذلك، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، الملك العظيم، الكامل الحليم، سبحانه عما يصفه به المشركون[3].

وفي الآية الأخرى من السورة ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

«ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدسها ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ١١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١١٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠٨.

علوًا كبيرًا، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين»[1].

ثانيًا: تنزيه الله عز وجل نفسه عن الشريك:

ورد في كتاب الله عز وجل عشر آيات نزه الله عز وجل فيها نفسه -بلفظ التسبيح- عن أن يكون له شريك يشاركه في الخلق أو الملك أو الحكم[2].

وقد ساق الله عز وجل -في هذه الآيات- لعباده الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة المقنعة على بطلان القول باتخاذ الشريك؛ فالله سبحانه غني عن الشركاء، فهو خالق جميع المخلوقات، فكيف لمخلوق أن يشارك الخالق؟!

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ومن أعظم الأدلة التي ساقها الله عز وجل على نفي الشريك: قوله سبحانه في آية الإسراء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢ - ٤٣].

فلو كان هناك آلهة أخرى لتسابقوا وتنافسوا إلى ذي العرش لإزالة ملكه والتغلب عليه، أو المعنى لو كان آلهة أخرى لسعوا إلى ذي العرش يبتغون رضاه لأنهم دونه، وفي ذلك كله ردٌّ على أولئك المشركين الذين نسبوا لله الشريك، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا[3].

وكذلك آية الأنبياء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، «فلو كان في السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله عز وجل تدبر أمرهما، لفسدتا، ولخرجتا عن نظامهما البديع، الذي لا خلل فيه ولا اضطراب؛ وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم، فيختل نظام الكون، ويضطرب الأمر، ويعم الفساد في العالم، ولما كان المشاهد غير ذلك؛ إذ كل شيء في هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق، دل الأمر على أن لهذا الكون كله إلهًا واحدًا قادرًا حكيمًا لا شريك له»[4].

أما في آية المؤمنون فقد نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ الشريك، مبينًا دليلًا قطعيًا آخر على وحدانيته واستغنائه عن الشركاء

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٨٠٣.
(٢) هذه الآيات هي: الأنعام: ١٠٠، التوبة: ٣١، يونس: ١٨، النحل: ١، الإسراء: ٤٢-٤٣، الأنبياء: ٣١-٣٣، المؤمنون: ٩١، القصص: ٦٨، الروم: ٤٠، الطور: ٤٣.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٣٨.
(٤) الوسيط، طنطاوي ٩/ ١٩٧.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال ابن القيم: «فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين؛ فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلًا، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه؛ بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضًا بممالكهم، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد أمور ثلاثة: إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد، وملك واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم عليه ولا يمتنعون من حكمه عليهم، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون»[1].

وفي آية القصص ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

«يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه، وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئًا»[2].

أما في آية الروم فقد نزه سبحانه نفسه مبينًا بعض أفعاله التي لا يقدر عليها إلا هو سبحانه، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]. فهل يقدر الشركاء على شيء من ذلك؟[3].

ثالثًا: تنزيه الله عز وجل نفسه عن النقائص من خلال بيان عظمته وقدرته:

سبح الله عز وجل نفسه في كتابه العزيز عن كل ما نسبه إليه الكافرون المفترون، وعن كل ما قد يظنه المبطلون من نقص أو عجز أو سوء، ومجد سبحانه نفسه ببيان بعض مظاهر قدرته وعظمته، وبيان بعض أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وورد ذلك في كتاب الله عز وجل بلفظ التسبيح الصريح في تسعة مواضع[4] في سبع سور،

(١) التفسير القيم ص ٣٣٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٤٧٩.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٨١.

(٤) هذه المواضع هي: الإسراء: ١، النمل:

وهذه المواضع هي:

قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

حيث «ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها؛ لأن له الأفعال العظيمة، والمنن الجسيمة، التي من جملتها أنه أسرى بعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام -الذي هو أجل المساجد على الإطلاق- إلى المسجد الأقصى -الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء-؛ فأسري به في ليلة واحدة، إلى مسافة بعيدة جدًا، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد بها هدى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا، وهذا من اعتنائه ولطفه به صلى الله عليه وسلم؛ حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين»[1].

وفي سورة النمل يقص علينا ربنا عز وجل قصة موسى عليه السلام عندما قال لأهله -في طريق عودته إلى مصر-: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٧ - ٨].

ففي ذيل الآية الأخيرة نزه الله عز وجل نفسه المقدسة عن كل نقص أو سوء قد يتطرق إلى بعض العباد؛ فنزه سبحانه نفسه عن مشابهة المخلوقات، يفعل سبحانه ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، لا تكتنفه الأرض والسموات؛ بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات[2].

أما في آيتي سورة الروم: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

فيسبح الله عز وجل نفسه، ويأمر عباده أن يسبحوه في هذه الأوقات، وقد حمل كثير من المفسرين المقصود بالتسبيح في هاتين الآيتين على الصلوات الخمس المفروضة.

قال ابن الجوزي: «قال المفسرون: المعنى فصلوا لله حين تمسون، أي حين تدخلون في الظهيرة، وهي وقت الزوال، وعشيًا: أي وسبحوه عشيًا، وهذه الآية قد جمعت الصلوات الخمس؛ فقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يعني به صلاة المغرب والعشاء،

٦-٧، الروم: ١٧-١٨، يس: ٣٦، ٢-٨٣، الصافات: ١٥٨-١٥٩، ١٨٠، الزمر: ٦٧، الحشر: ٢٣.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٣٩٣.

﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يعني به صلاة الفجر، ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر»[1].

وفي سورة يس سبح الله عز وجل نفسه في موضعين: الأول: قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

والآخر: قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ - ٨٣].

وفي كلا الموضعين ينزه الله عز وجل نفسه ببيان بعض مظاهر عظمته وقدرته، وبديع خلقه وعظيم سلطانه وملكوته، فتنزه من خلق الأزواج والأصناف جميعًا، من النبات والحيوان والإنسان ومما لا نعلم[2]، وتنزه من بيده ملك كل شيء، وخزائن كل شيء، المتصرف في كل شيء، والجميع راجع إليه سبحانه[3].

وفي سورة الزمر بيان لعظيم قدرة الملك سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فالمشركون الذين أشركوا مع الله غيره، أو نسبوا لله الصاحبة أو الولد، أو افتروا على الله الكذب والبهتان، ما عرفوا الله حق المعرفة، وما عظموه وما قدروه حق قدره، وهو الذي يجعل الأرض بكل طبقاتها وأجزائها في قبضته، والسموات يطويها بيمينه -وذلك يوم القيامة-، فالسموات والأرض جميعًا في يده، ويقول: أنا الملك، أين الملوك؟ صاحب هذه القدرة العظمى كيف يعبد معه آلهة أخرى؟!

لذا نزه الله تعالى نفسه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزه وتقدس عن الشريك والنظير والصاحبة والولد، وعن صفات المحدثين، وتعالى عما يشركون، وترفع عن أن يكون له شريك، وهو رب كل شيء ومليكه[4].

أما في آية الحشر فقد نزه الله عز وجل نفسه بعد أن ذكر بعض أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

«فالله سبحانه هو المعبود بحق، الذي لا إله إلا هو، الملك لجميع الأشياء، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، المنزه عن كل نقص، الذي سلم من كل عيب، المصدق

(١) زاد المسير ٦/ ٢٩٣.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ١١٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٥٧.
(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٠٧.

رسله وأنبياءه بما يرسلهم به من الآيات البينات، الرقيب على كل خلقه في أعمالهم، العزيز الذي لا يغالب، الجبار الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، المتكبر الذي له الكبرياء والعظمة. تنزه الله تعالى عن كل ما يشركونه به في عبادته»[1].

هذه هي المواضع من كتاب الله عز وجل التي ورد فيها تسبيح الله عز وجل لنفسه بلفظ التسبيح الصريح، وقد رأينا أن التسبيح فيها كان بمعنى تقديس الله عز وجل وتنزيهه عن كل ما لا يليق به سبحانه؛ فنزه تعالى نفسه عن اتخاذ الولد، ونزه نفسه عن اتخاذ الشريك، ونزه نفسه عن المثيل والشبيه، وسمى سبحانه نفسه بأعظم الأسماء وأحسنها، ونبه سبحانه عباده على بعض مظاهر قدرته وعظمته وجبروته، وفي ذلك توجيه عظيم للعباد بأن يعظموا ربهم، ويسبحوه، ولا يغفلوا عن ذكره سبحانه طرفة عين.

المسبحون لله عز وجل من المخلوقات

لقد بين الله عز وجل في كتابه العزيز أن جميع المخلوقات تسبح له سبحانه، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وذكر عز وجل في كتابه العزيز تسبيح بعض مخلوقاته على وجه الخصوص؛ فذكر تسبيح الملائكة، وتسبيح بعض الأنبياء، وتسبيح المؤمنين، وتسبيح من عبدوا من دون الله، وفي المطالب التالية سنقف بإذن الله تعالى مع الآيات التي ذكرت تسبيح هذه المخلوقات لربها عز وجل.

أولًا: تسبيح الملائكة عليهم السلام:

الملائكة خلق من خلق الله عز وجل، وهم عباد مكرمون، خلقهم سبحانه لعبادته، ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة، فمن أنكرهم فهو كافر، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ولقد أخبر الله عز وجل عن تسبيح الملائكة لربها سبحانه في عشرة مواضع من

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٥٤٨.

الكتاب العزيز[1].

وبتأمل الآيات التي ورد فيها ذلك نستخرج منها الحقائق الآتية:

١. وظيفة الملائكة عبادة الله عز وجل وتسبيحه وتقديسه وتنزيهه سبحانه.

فهم عبادٌ لله، لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وفي هذا إبطال لما افتراه المفترون من أن الملائكة بنات الله، أو أنهم شركاء لله عز وجل، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وقد صرحت الملائكة نفسها بذلك في قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠].

وتسبيح الملائكة لله بمعنى تعظيمه سبحانه، وتنزيهه عن كل سوء أو نقص، وقيل: تسبيح الملائكة: أي صلاتهم لله عز وجل، وقيل: تسبيحهم: أي التسبيح المعلوم، وهو قولهم سبحان الله[2].

قال القرطبي: «اختلف أهل التأويل في تسبيح الملائكة، فقال ابن مسعود وابن عباس: تسبيحهم: صلاتهم. وقيل: تسبيحهم: رفع الصوت بالذكر، قاله المفضل. وقال قتادة: تسبيحهم: سبحان الله، على عرفه في اللغة. وهو الصحيح لما رواه أبو ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده، سبحان الله وبحمده)[3]»[4].

٢. الملائكة يبدؤون حديثهم مع ربهم عز وجل بتسبيحه سبحانه.

وذلك من شدة تعظيمهم له، وعظيم تأدبهم معه سبحانه، فعندما علم الله عز وجل آدم الأسماء كلها وقال لملائكته: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

ردت ملائكة الرحمن بأدب جم وتعظيم وإجلال للرب سبحانه: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

فبدأوا قولهم بتسبيح ربهم عز وجل، وفي ذلك تقديس وتنزيه لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، أو أن يعلم

(١) هذه المواضع هي: البقرة: ٣٠-٣٢، الأعراف: ٢٠٦، الرعد: ١٣، الأنبياء: ١٩-٢٠، سبأ: ٤٠-٤١، الصافات: ١٦٤-١٦٦، الزمر: ٧٥، غافر: ٧، فصلت: ٣٨، الشورى: ٥.

(٢) انظر جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل سبحان الله وبحمده، رقم ٢٧٣١، ٤/ ٢٠٩٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٧٦.

الملائكة شيئًا إلا ما علمهم الله تعالى[1].

ويوم القيامة يحشر الله عز وجل الخلق جميعًا، ويقول لملائكته: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

فيكون جوابهم لربهم مبتدءًا بالتسبيح له سبحانه: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

فالملائكة بدأت كلامها بتنزيه الله عز وجل عن الشرك أو الند، ثم تبرأت مما افتراه المشركون من عبادتهم من دون الله عز وجل، ثم أقرت الملائكة لربها بأنهم مفتقرون إلى ولايته، مضطرون إليها، فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم؟ أم كيف يصلح لأن يتخذوا من دون الله أولياء وشركاء؟ فما هم إلا عباد لله منقادون مطيعون له سبحانه[2].

٣. الملائكة تسبح ربها عز وجل تسبيحًا دائمًا متواصلًا من غير انقطاع ولا فتور ولا سآمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني بهم الملائكة[3].

وقد وصفهم الله عز وجل في الآية بثلاثة أوصاف: أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى، وأنهم يسبحونه، وأنهم يسجدون له، وهذه الأوصاف الثلاثة دالة على كمال عبوديتهم لله تعالى ؛ حيث قد اجتمعت لهم العبادة القلبية والقولية والبدنية؛ فعدم استكبارهم عبادة قلبية نشأ عنها العبادة القولية والبدنية[4].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠].

وقد تضمنت هذه الآية بيان أن الملائكة -زيادة على عدم استكبارهم عن عبادة ربهم عز وجل- ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون[5]، ولهذا فهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، وهذا كالبيان لقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ لأن من يحب أمرًا ولا يتعب منه، لا يتركه ولا يمل منه؛ بل يواظب عليه[6].

ونظير هذا أيضًا في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٩٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٥٠.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٥٧.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٤٥٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٣٩٦.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٣٦.

﴿يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

فهذه الآيات دالة على قوة الملائكة وكمال حياتهم، وشدة الداعي القوي منهم إلى تسبيح الله تعالى وملازمته، فلا يلحقهم فيه فتور ولا سآمة، ولا يشغلهم عنه شاغل، وهم مستغرقون دائمًا في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ ولا خالٍ منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمة الله عز وجل وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته[(١)].

٤. لقد أخبر القرآن الكريم عن تسبيح الملائكة على العموم، وأخبر كذلك عن تسبيح حملة العرش والحافين من حوله من الملائكة على الخصوص.

وذلك في موضعين منه.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن أحداث يوم القيامة وما يقع فيه من القضاء بين العباد، ووفيت كل نفس ما عملت، ودخول أهل الجنة الجنة، ودخول أهل النار النار، فقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾، أي في ذلك اليوم العظيم ترى الملائكة محدقين محيطين بالعرش ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، أي: يمجدونه ويعظمونه ويقدسونه، وينزهونه عن الظلم والجور، وعن كل ما لا يليق بجلاله، وقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: قضي بين الخلائق بالعدل، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا إخبار عن حمد الكون أجمعه لله رب العالمين، عقب قضائه سبحانه بالحق بين خلقه[(٢)].

أما الموضع الآخر: فهو قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

حيث بينت الآية الكريمة تسبيح صنفين من ملائكة الرحمن: من يحملون العرش، ومن يطوفون حول العرش، ثم أخبرت الآية الكريمة بثلاثة أمور عن هؤلاء الملائكة العظام:

الأمر الأول: أنهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وهذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله عز وجل، وخصوصًا التسبيح والتحميد[(٣)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨١.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٣٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ١٦٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.

والأمر الثاني: أنهم ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: «يقرون بالله أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته»[1].

والأمر الثالث: أنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، ممن آمن بالغيب، وأقر بمثل إقرار الملائكة من توحيد الله عز وجل والبراءة من كل معبود سواه[2].

وتخصيص هذين الصنفين من الملائكة بالذكر في الموضعين السابقين دليل على ما لهما من شأن عظيم؛ إذ اختارهم الله عز وجل لحمل عرشه العظيم والطواف من حوله، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم وأقربهم منه عز وجل[3].

٥. الملائكة تمدح نفسها بتسبيحها لربها عز وجل؛ إظهارًا لعبوديتها له سبحانه، وإخبارًا بفضله وامتنانه عليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والشاهد من الآية هنا: قول الملائكة مقرين بتسبيحهم لله عز وجل، مادحين أنفسهم بذلك: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: ننزهك ونبرئك مما يصفك المشركون مما لا يليق بك[4].

وفي سورة الصافات[5] تمدحت الملائكة بتسبيحها لله عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥ - ١٦٦].

قال قتادة: «هذا قول الملائكة يثنون بمكانهم من العبادة»[6].

وقال ابن كثير في قوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾: «أي نصطف، فنسبح الرب، ونمجده ونقدسه، وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه»[7].

٦. وصف الله عز وجل حال الملائكة في تسبيحهم له سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

فالملائكة تسبح ربها عز وجل من خيفته؛ ومن هنا: للتعليل، وخيفته يعني:

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٥٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٩٠٩.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٤٤.
(٥) ذكر المفسرون أن المراد بالصافات الملائكة الصافات لربها في السماء.
انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٥٧.
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ١٢٨.
(٧) تفسير القرآن العظيم ١٢/ ٨٠٠.

هيبته وإجلاله ورهبته[1].

وعلى هذا فلا يظن ظانٌّ من وصف الملائكة بأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم يلهمون التسبيح كما يلهم الناس النفس[2] أن التسبيح يصدر منهم على وجه العادة بلا شعور ولا اهتمام، فهذا الظن بعيد غير صحيح؛ إذ الملائكة يسبحون الله خاشعين له، خائفين منه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «يخافون الله، وليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه، ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله شيء»[3].

٧. إذا علم المؤمن بتسبيح الملائكة لربها عز وجل كما أخبر سبحانه، فينبغي له أن يقتدي بهم في ذلك.

فيكثر من تسبيح ربه عز وجل بالليل والنهار على قدر طاقته؛ فإن إخبار الله عز وجل عن تسبيحهم فيه حثٌّ للمؤمنين، وترغيبٌ لهم أن يقتدوا بهم فيما ذكر عنهم[4].

ثانيًا: تسبيح الأنبياء عليهم السلام:

الأنبياء عليهم السلام هم صفوة البشر، وأكملهم علمًا وعقلًا وخلقًا، وأعظمهم عبادة وتسبيحًا وتقديسًا لله عز وجل؛ اعتقادًا وقولًا وعملًا؛ لأن الله عز وجل قد اصطفاهم على الناس برسالاته، وخصهم بوحيه، وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ دينه، وأقام بهم الحجة على خلقه.

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه تسبيح بعض أنبيائه، وذلك في سياق ما قصه سبحانه من قصصهم وأخبارهم، فقد ذكر الله عز وجل تسبيح يونس عليه السلام، وتسبيح موسى عليه السلام، وتسبيح داود عليه السلام، وتسبيح زكريا عليه السلام، وتسبيح عيسى عليه السلام، وتسبيح محمد صلى الله عليه وسلم، وسنقف بإذن الله مع الآيات التي ورد فيها ذلك فيما يأتي:

أولًا: تسبيح يونس عليه السلام.

قص الله عز وجل في غير موضع من كتابه العزيز جوانب من قصة يونس عليه السلام، ويونس عليه السلام قد بعثه الله عز وجل إلى أهل قرية نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا في كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاثٍ، فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم يتضرعون

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٦٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٠٤.
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفًا على كعب الأحبار، ١٥٨، ١/ ٣١٧، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٣٩٧.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣١٤.
(٤) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ١/ ٢٩٢.

إلى الله عز وجل، فرفع الله عنهم العذاب.

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قومٍ في سفينة، فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، فقام عليه السلام وألقى بنفسه في اليم، فالتقمه الحوت، وغاص به في ظلمات البحار[1].

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٤].

لقد أخبر الله عز وجل أن عبده ونبيه يونس عليه السلام بادر -وهو في تلك الظلمات- إلى مناداة ربه عز وجل، وتسبيحه وتوحيده، واعترف بظلمه لنفسه.

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وبهذا الدعاء العظيم، الذي فيه إقرار لله تعالى بكمال الألوهية، وتنزيه عن كل نقص وعيب، واعترف بظلم النفس وجنايتها، كان الفرج من الله عز وجل[2]، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

لقد كان تسبيح يونس عليه السلام لربه عز وجل سببًا لتفريج كربته وزوال شدته، ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

وللمفسرين ثلاثة أقوال في معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾:

أولها: من المصلين، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير.

والثاني: من العابدين، قاله مجاهد ووهب بن منبه.

والثالث: قول ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، قاله الحسن[3].

أما الزمن الذي كان فيه هذا التسبيح فقد قال بعض المفسرين: إنه عليه السلام كان من المسبحين قبل أن يلتقمه الحوت.

وقال آخرون: إنه كان من المسبحين وهو في بطن الحوت[4]، ولا خلاف بين القولين؛ فإن نبي الله يونس عليه السلام

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٤٣٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٩.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٧/ ٨٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٠٨.

كان -ولاشك- من المسبحين قبل التقام الحوت له، فهو نبي من أنبياء الله، وهم خير خلق الله عز وجل، وخير من سبحه سبحانه.

وأما كونه من المسبحين في بطن الحوت فقد دل عليه قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والخلاصة: أن تسبيح يونس عليه السلام كان سببًا في تفريج كربته، وفي ذلك موعظة وفائدة للعباد جميعًا بأن التسبيح سبب لتفريج الكروب وزوال الشدائد[(١)].

فقد قال الله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ففي الآية بشارة لكل مؤمن يقتدي بيونس عليه السلام في إخلاصه وصدق توبته، ودعائه لربه، بأن الله عز وجل ينجيه من كربه، ويخلصه من همه[(٢)].

وقد جاء هذا المعنى في حديث النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال: (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)[(٣)].

ثانيًا: تسبيح موسى عليه السلام.

ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه وكليمه موسى عليه السلام في موضعين من كتابه العزيز:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ففي هذه الآية بيان أن موسى عليه السلام طمع في رؤية ربه عز وجل حين كلمه من وراء حجاب، ولم يعنفه الله عز وجل على ذلك؛ لأنه سأل ما يجوز[(٤)]؛ ولكن الله عز وجل أراد أن يري موسى عليه السلام من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار الدنيا لا تثبت لرؤيته ومشاهدته عيانًا، ولهذا قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾، يعني أن الجبل -رغم صلابته

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٤، الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢٤٥.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب رقم ٨٢، ٥/ ٤٨٤، رقم ٣٥٠٥، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٨٣.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٧٥.

وعظمته- لا يستقر مكانه إذا تجلى الله عز وجل له، فكيف بالإنسان الضعيف؟![1].

وقد تبين ذلك لموسى عليه السلام حين رأى الجبل قد صار دكًا عندما تجلى له ربه سبحانه، وسقط موسى عليه السلام مغشيًا عليه من هول ما رأى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[2].

ولما أفاق موسى عليه السلام من غشيته كان أول ما نطق به تسبيح الله عز وجل ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، سبح ربه في هذا الموقف الجليل الهائل الذي رأى فيه من عظمة ربه وجلاله ما يستدعي التسبيح؛ تعظيمًا لله عز وجل، وتنزيهًا له عما لا يليق بكماله وعظمته سبحانه، ومن أن يقوى أحد من الخلق على رؤيته عيانًا في هذه الحياة الفانية.

ولهذا أتبع التسبيح بقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: تبت إليك من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية، وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات، وقيل: المراد أول المؤمنين من بني إسرائيل بما توحيه إلى[3].

أما الموضع الثاني: فهو قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩ - ٣٥].

ففي الآيات بيان أن موسى عليه السلام طلب من الله تعالى أن يجعل له من أخيه هارون معينًا على تبليغ الرسالة وتحمل أعبائها، يتقوى به ظهره، وذلك بأن يكون معه نبيًا مرسلًا من الله عز وجل، وعلل موسى عليه السلام طلبه هذا بقوله: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾، حيث علم موسى عليه السلام أن مدار العبادات كلها والدين كله على ذكر الله عز وجل وتسبيحه؛ فسأل الله أن يجعل أخاه معه يساعده ويعاونه على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات[4].

ثالثًا: تسبيح داود عليه السلام.

ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه داود عليه السلام من خلال ذكر تسبيح الجبال والطير معه، وقد جاء ذلك في كتاب الله عز وجل في ثلاثة مواضع وهي:

١. قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٥٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٠٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٣٤٦.

[الأنبياء: ٧٩].

٢. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

٣. وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

فهذه الآيات الثلاث بينت تسبيح نبي الله داود عليه السلام، حيث كان عليه السلام إذا سبح الله تعالى وأثنى عليه، سبحت بتسبيحه الجبال والطير، وجاوبته بالذكر والثناء على الله تبارك وتعالى[(١)].

وقد ذكر المفسرون أن الله عز وجل منح نبيه داود عليه السلام من الصوت الحسن العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، تسبيحًا معه لله رب العالمين[(٢)].

رابعًا: تسبيح زكريا عليه السلام.

ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه زكريا عليه السلام، وجاء ذلك في سياق ذكر قصته عليه السلام حينما طلب من الله عز وجل أن يهب له ذرية طيبة، فاستجاب الله عز وجل دعاءه، وبشره بالولد على لسان الملائكة، وحينها طلب زكريا من ربه أن يجعل له علامة يستدل بها على حصول الولد، فجعل الله عز وجل له علامة ذلك أن ينحبس لسانه عن الكلام مع الناس من غير آفة أو مرض، فلا يستطيع النطق إلا رمزًا وإشارة.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ولقد أمره الله عز وجل بكثرة التسبيح والذكر في هذه الحال، فرغم أن لسانه في هذه الحال ممنوع من كلام الناس؛ إلا أنه لم يكن ممنوعًا من التسبيح والتهليل وذكر الله عز وجل، فعكف زكريا عليه السلام في محرابه وقد اطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتثل أمر الله عز وجل له بكثرة الذكر، والتسبيح، والصلاة والعبادة[(٣)].

ولم يكتف زكريا بأن يسبح وحده لله عز وجل؛ بل خرج على قومه وأمرهم -بالإشارة- بتسبيح الله عز وجل؛ مزيدًا من شكر الله عز وجل على ما بشر به من نعمة الولد[(٤)]، قال تعالى عن نبيه زكريا: ﴿قَالَ

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٣٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣١٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٢٦١.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٢٢٠.

﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١٠ - ١١].

وفي هذا بيان لعظم تسبيح نبي الله زكريا عليه السلام لربه عز وجل، وفيه بيان أن التسبيح من أجل العبادات التي يشكر بها العبد ربه عز وجل على ما أولاه من نعم.

خامسًا: تسبيح عيسى عليه السلام.

ورد في القرآن الكريم تسبيح عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام لربه عز وجل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ويكون هذا يوم القيامة، يوم يجمع الله الرسل ويسألهم ماذا أجبتم؟ ويسأل عيسى بمفرده توبيخًا للنصارى -الذين اتخذوه إلهًا- على شركهم، فيقول الله عز وجل هذا لعيسى عليه السلام، فيتبرأ عليه السلام من شركهم ومن مقولتهم الكفرية، وينزه الله عز وجل عن ذلك بالتسبيح له سبحانه[(١)].

لقد بدأ عيسى عليه السلام كلامه مع رب العزة سبحانه بالتسبيح -قبل أن يبرأ نفسه- تنزيهًا له سبحانه عما افتراه المفترون، وتعظيمًا له وإجلالًا، وثناءً عليه، وخضوعًا له وخوفًا منه، وهذا التسبيح من عيسى عز وجل متضمن لبراءته من أن يكون قال للناس شيئًا من ذلك؛ لأنه إذا كان قد نزه الله عز وجل عن ذلك فلاجرم أنه لم يأمر أحدًا به[(٢)].

سادسًا: تسبيح النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين وسيدهم، وهو أعظم من نزه الله وسبحه من الخلائق، ولقد ورد في كتاب الله عز وجل كثير من الآيات التي جاء فيها ذكر تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم[(٣)].

والملاحظ أنه في كل هذه الآيات كان الأمر موجهًا للنبي صلى الله عليه وسلم بتسبيح ربه عز وجل، وبتأمل هذه الآيات نقف على بعض الحقائق المستفادة من تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك فيما يأتي:

١. جميع الآيات التي ورد فيها أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتسبيح هي آيات

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١١٣.

(٣) من هذه الآيات: الحجر: ٩٨، طه: ١٣٠، الفرقان: ٥٨، غافر: ٥٥، ق: ٣٩-٤٠، الواقعة: ٩٦، الإنسان: ٢٦، الأعلى: ١، النصر: ٦.

مكية، ما عدا آية سورة الإنسان[1]، وآية سور النصر.

٢. أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمداومة التسبيح؛ في الليل والنهار. قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِ الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]. وقال سبحانه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال عز وجل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠].

وفي ذلك بيان لعظيم عبادة التسبيح عند الله عز وجل، وحثٌّ للمؤمنين بمداومة التسبيح لربهم سبحانه.

٣. كثيرًا ما يقرن الأمر بالتسبيح مع الأمر بالصبر، كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠]. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨ - ٤٩]. ويفهم من ذلك أن التسبيح معينٌ على الصبر، وأن في ملازمة التسبيح كشفًا للضيق، وتسلية عند الشدائد، ولعل ذلك مفسرٌ لكثرة ورود الأمر بالتسبيح في القرآن المكي، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعرض في مكة لأذى المشركين، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم (إذا حزبه أمر صلى)[2]. والصلاة فيها تسبيح لله تعالى بالقول والفعل.

٤. قرن الله عز وجل الأمر بالتسبيح مع الأمر بالتوكل عليه سبحانه. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]. وفي ذلك بيان أن التسبيح فيه العون الكبير للعبد على الثبات والصبر[3].

٥. التسبيح شكر لله عز وجل على نعمه العظيمة. قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ - ٣]. فلقد أمر

(١) سورة الإنسان مدنية عند جمهور المفسرين، ومكية عند بعضهم.
انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٤٢٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١١٨.

(٢) ورد ذلك في حديث حذيفة رضي الله عنه الذي أخرجه أبو داود في سننه، كتاب التطوع، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، رقم ١٣٢١، ١/ ٥٠٧.
والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ١/ ٢٤٥، رقم ١١٧١.

(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢١٣.

الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمداومة التسبيح والتحميد لله عز وجل مع مداومة الاستغفار؛ شكرًا له سبحانه على نعمة النصر والفتح المبين، قال الدكتور وهبة الزحيلي: «أمر الله تعالى بالتسبيح أولًا: ثم بالحمد ثم بالاستغفار؛ لأنه قدم الاشتغال بما يلزم للخالق وهو التسبيح والتحميد على الاشتغال بالنفس، والسورة تدل على فضل التسبيح والتحميد، حيث جعل كافيًا في أداء ما وجب على النبي صلى الله عليه وسلم وأمته من شكر نعمة النصر والفتح»[1].

ثالثًا: تسبيح المؤمنين:

تسبيح الله عز وجل من هدي أصفياء الله المرسلين، ودأب عباد الله المؤمنين، وشغل أوليائه المتقين، وقد ذكر الله عز وجل في كتابه تسبيح عباده المؤمنين له سبحانه، وذلك في عدد من الآيات التي مدحت المسبحين، والتي أمرت المؤمنين بالمداومة على التسبيح.

أولًا: مدح المسبحين من المؤمنين:

جاءت عدة آيات في كتاب الله عز وجل تمدح المؤمنين الذين يسبحون الله عز وجل.

وأول هذه الآيات -من حيث ترتيب المصحف الشريف- قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

ففي هاتين الآيتين أخبر الله عز وجل عن آياته العظيمة، ودلائل قدرته الباهرة؛ من خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وما في ذلك كله من آيات عجيبة، تبهر الناظرين، وتقنع المتفكرين، وتجذب أفئدة الصادقين، ففي هذا الكون من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، والمنافع للخلق، ما يدل على عظمة خالقه، وعظمة سلطانه، وشمول قدرته، وعظيم حكمته، وسعة رحمته، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره[2].

هذه الآيات التي بثها الله عز وجل في السماوات والأرض إنما يعقلها أولوا الألباب والنهى، الذين استنارت قلوبهم بنور الإيمان، فأبصرت حقيقة الأشياء، إنهم المؤمنون الموقنون، الذين يتفكرون

(١) التفسير المنير ٣٠/ ٤٥٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦١.

في خلق الله عز وجل، ويقفون على آياته؛ فيزيدهم ذلك إيمانًا على إيمانهم، فتخشع قلوبهم، وتنشط ألسنتهم بذكر ربهم وتسبيحه في كل أحوالهم، ويديمون التفكر والنظر في عظيم خلق الله عز وجل، ولسان حالهم ومقالهم يقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، أي: لم تخلق يا ربنا هذا الخلق عبثًا ولا لعبًا، ولم تخلقه إلا لأمر عظيم؛ من ثواب وعقاب ومحاسبة ومجازاة، فأنت سبحانك منزه عن اللعب والعبث، ومنزه عن كل نقص أو عيب، لا يكون خلقك إلا لحكمٍ عظيمةٍ[1].

لقد مدح الله عز وجل المؤمنين المتفكرين في آياته، المسبحين له على الدوام، الذين دفعهم تفكرهم وتسبيحهم إلى الرغبة في ثواب ربهم عز وجل، والنجاة من عذابه ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

والموضع الثاني الذي مدح فيه الله عز وجل عباده المؤمنين المسبحين هو قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨].

ففي هاتين الآيتين يخبر الله عز وجل عن تسبيح مؤمني أهل الكتاب، وابتدأ الله عز وجل في فيهما بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار المكذبين بالقرآن الكريم: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾، وهذا على وجه التبكيت لهم والتهديد، لا على وجه التخيير.

والمعنى: سواء آمنتم بالقرآن أم لم تؤمنوا، فهو حق في نفسه، أنزله الله عز وجل، وإن إيمانكم لا يزيده كمالًا، وتكذيبكم به لا يلحق به نقصًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، أي: إن العلماء الذين أوتوا الكتب السابقة من قبل القرآن، وعرفوا حقيقة الوحي من مؤمني أهل الكتاب إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون سجدًا تعظيمًا له وتكريمًا، وعلمًا منهم بأنه من عند الله عز وجل[2].

ثم ذكر الله عز وجل تسبيحهم له مادحًا لهم فقال: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، أي أنهم عندما يخرون سجدًا لسماع القرآن، يسبحون ربهم عز وجل في سجودهم؛ تسبيح تنزيه لله تعالى عن تكذيب المكذبين بالقرآن، وتعظيم وتبجيل لله عز وجل على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء السابقين المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا قالوا: ﴿إِن كَانَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٩١.

﴿وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[1].

ومن الآيات التي ورد فيها مدح الله عز وجل لعباده المؤمنين المسبحين له سبحانه قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

ففي هذه الآية مدح لأولئك المسبحين لربهم عز وجل، الذين لم تلههم الدنيا وما فيها من تجارة وبيع ومتاع عن عبادة ربهم، وعن صلاتهم، وزكاتهم، وتسبيحهم، وقد وعدهم الله عز وجل بحسن الجزاء وعظيم الثواب، مع الزيادة بغير حساب؛ لأنهم قدموا طاعته ورضاه على كل ما سواه.

وفي قول الله عز وجل: ﴿رِجَالٌ﴾ مدح لهم، وإشعار بهمتهم العالية، وعزيمتهم الصادقة، التي بها صاروا عمارًا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه[2].

وفي سورة السجدة مدحٌ آخر للمؤمنين الساجدين لله، المسبحين له سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

فلقد أثنى الله عز وجل على هؤلاء المؤمنين الذين يؤمنون بآياته، ووصفهم بالصفة الحسنى بسجودهم عند التذكير والوعظ بآياته، وبتسبيحهم لربهم، وعدم استكبارهم، بخلاف ما يصنع الكفار من الإعراض عند التذكير، وإظهار التكبر[3].

ولقد وعد الله عز وجل أولئك المؤمنين المسبحين ربهم عز وجل، والذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وعدهم بعظيم المثوبة والجزاء، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]

وبمدح الله عز وجل لعباده المؤمنين المسبحين نعلم علم اليقين مدى عظم التسبيح، ومدى محبة الله عز وجل لعباده المسبحين له على الدوام، ونعلم أن التسبيح عبادة جليلة، ترفع مقامات العبد عند ربه عز وجل، وهذا كله يدفع العباد الصادقين إلى الحرص الشديد على ملازمة تسبيح الله عز وجل في كل الأوقات، وعلى كل الأحوال.

ثانيًا: أمر المؤمنين بالمداومة على تسبيح الله عز وجل:

لقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بأن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٩١.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٥٠.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٦١.

يسبحوه بكرةً وأصيلًا، في الصباح والمساء، في الشدة والرخاء، في كل أوقاتهم، وعلى كل أحوالهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

يأمرهم سبحانه أن يذكروه ذكرًا كثيرًا؛ من تهليل، وتحميد، وتسبيح، وتكبير، وغير ذلك من كل قول فيه قربةً إلى الله سبحانه وتعالى، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات، وعلى جميع الأحوال؛ فإن ذكر الله عبادة عظيمة، يفوز بها العبد برضوان ربه عز وجل، وينال محبته، ويفوز بأعلى الدرجات في جنته، وذكر يعين العبد على الخير، ويعينه على كف لسانه عن الكلام القبيح[(١)].

ولقد أردف الله عز وجل الأمر بالإكثار من ذكره بالأمر بتسبيحه، مع أن التسبيح داخل في الذكر، وفي ذلك بيان لشرف التسبيح وعظمه عند الله عز وجل.

قال الزمخشري: « والتسبيح من جملة الذكر؛ وإنما اختصه من بين أنواعه ليبين فضله على سائر الأذكار؛ لأن معناه تنزيه الله عز وجل عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال»[(٢)].

ومن الآيات التي ورد فيها أمر المؤمنين بالتسبيح في كل الأوقات قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨ - ٩].

ففي الآية الأولى من هاتين الآيتين بين الله عز وجل الوظيفة التي كلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أن يكون صلى الله عليه وسلم شاهدًا على الناس؛ شاهدًا بالإيمان لمن آمن منهم، وشاهدًا بالكفر لمن كفر منهم، بعد أن بلغهم رسالة ربه تبليغًا تامًا كاملًا، ومن مهمته أيضًا تبشير المؤمنين برضا الله عز وجل، وبما أعد الله لهم من النعيم المقيم، ومن مهمته أيضًا: أن يكون نذيرًا للكافرين وللعصاة بسوء المصير، إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم.

ثم بين الله عز وجل الحكمة من إرسال النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾، أي: لتؤمنوا بالله سبحانه وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وتعزروا الرسول صلى الله عليه وسلم وتوقروه، أي: تعظموه، وتفخموه، وتجلوه، وتقوموا بحقوقه صلى الله عليه وسلم، ولتسبحوا الله عز وجل بكرة وأصيلًا، أي تنزهوه سبحانه وتصلوا له، وتديموا ذكره

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٧.
(٢) الكشاف ٥/ ٧٧.

وتسبيحه، في أول النهار وآخره[1].

قال السعدي: «ذكر الله عز وجل في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، وذكر الحق المختص بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو التعزير والتوقير، وذكر الحق المختص بالله عز وجل، وهو التسبيح له والتقديس بالصلاة وغيرها»[2].

وهناك آيتان في كتاب الله عز وجل أمر الله سبحانه فيهما عباده المؤمنين بأن يسبحوه في حالات مخصوصة -زيادة على التسبيح العام في كل حال-، والآيتان هما:

الآية الأولى: قوله تعالى في سياق الحديث عن حادثة الإفك: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

لقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين في هذه الآية بأن يحسنوا الظن بإخوانهم عند سماع شيء يطعن في أعراضهم، وأن لا يخوضوا في حديث ينتهك أعراض إخوانهم من غير بينة أو دليل، وبين لهم سبحانه أنه كان الواجب عليهم عند سماع خبر الإفك في عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكذبوه ويكذبوا قائله، وأن يبادروا إلى تبرئة النبي صلى الله عليه وسلم وزوجه من هذا البهتان العظيم[3].

قال القرطبي: «الآية عتاب لجميع المؤمنين، أي: كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هـذا من زوج نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان»[4].

وفي الآية: إرشاد حكيم من رب العزة سبحانه لعباده المؤمنين؛ بأن يسبحوه عند سماع مثل هذه الأخبار المكذوبة التي تطعن في عرض النبي صلى الله عليه وسلم، أو عرض المؤمنين الصالحين، ومناسبة التسبيح في مثل هذه الحالة: تنزيه الله عز وجل من أن يقال مثل هذا الكلام في نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو في نساء صالحي المؤمنين، ولبيان التعجب من تجرؤ الخائضين في مثل هذا الإفك والبهتان العظيم[5].

الآية الثانية: قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٢٦٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٧٩٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٥٦٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٢٠٥.
(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ١٩٥.

[الزخرف: ١٢ - ١٣].

ففي هاتين الآيتين: يذكر الله عز وجل عباده ببعض نعمه عليهم؛ من تسخير الفلك التي تحملهم في البحار بما ينفعهم، وتسخير الدواب والأنعام ليأكلوا منها ويركبوا على ظهورها، وأمرهم سبحانه بأن يذكروا هذه النعم العظيمة عليهم، ويسبحوا ربهم عز وجل؛ شكرًا على هذه النعم، وذلك حين التلبس بمنافعها والاستواء على ظهورها[١].

فقوله عز وجل: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ توطئة وتمهيد إلى ذكر نعمة الله عز وجل في قوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي حينئذ؛ فإن ذكر النعمة في حال التلبس بمنافعها أوقع في النفس وأدعى للشكر عليها، وأحرى بعدم الذهول عنها، اللساني بالتسبيح لأنه جامع للثناء؛ إذ التسبيح تنزيه الله عما لا يليق، فهو يدل على التنزيه عن النقائص بالصريح، ويدل ضمنًا على إثبات الكمالات لله عز وجل»[٣].

ويفهم من هذه الآية أن التسبيح من أعظم ألفاظ الشكر لله عز وجل؛ فإذا ما تلبس عبد بنعمة من نعم الله عز وجل فشعر بها في قلبه، فلينطلق لسانه بتسبيح ربه تنزيهًا له وتعظيمًا، شكرًا على آلائه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى.

ولعظم تسبيح الله عز وجل فإنه سيكون دعاء أهل الجنة وهم منعمون فيها، فتسبيح المؤمنين لربهم عز وجل لا ينتهي بانتهاء الدنيا؛ بل يبقى معهم في دار الخلد والنعيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة»[1].

رابعًا: تسبيح المخلوقات كلها لله عز وجل:

لقد أسند الله عز وجل في كتابه العزيز التسبيح إلى أصناف مخلوقاته جميعًا؛ من الحيوانات، والنباتات، والجمادات، العاقلة منها وغير العاقلة، والناطقة وغير الناطقة، وكل شيء مما خلق الله عز وجل في السماوات أو في الأرض أو فيما بينهما من المخلوقات التي لا يحيط بعلمها، ولا يعلم عددها إلا الله عز وجل الذي خلقها، والذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا.

ففي كتاب الله عز وجل نحو إحدى عشرة آية من عشر سورٍ[2] أسند فيها التسبيح إلى مخلوقات الله عز وجل؛ من هذه الآيات ما أسند فيها التسبيح إلى المخلوقات مجملة، ومنها ما أسند فيها التسبيح إلى مخلوقات معينة.

أولًا: الآيات التي أسند فيها التسبيح لجميع المخلوقات:

الآيات التي أسند فيها التسبيح إلى جميع المخلوقات هي ثماني آيات:

أولها: قول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ففي هذه الآية يخبر سبحانه بأن السماوات والأرض وجميع مخلوقاته تنزهه سبحانه، وتمجده، وتسبحه بلسان الحال والمقال؛ فما من شيء من خلق الله عز وجل إلا ويسبح بحمده؛ ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إلا ما كان تسبيحه بمثل ألسنتكم[3].

يقول محمد طنطاوي في تفسير هذه الآية: «بين الله سبحانه أن جميع الكائنات تسبح بحمده، فقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي تنزه الله تعالى وتمجده السموات السبع، والأرض، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك، وما من شيء من مخلوقاته التي لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه سبحانه؛ ولكن أنتم يا بني آدم لا تفقهون تسبيحهم؛ لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم، وفوق مستوى فهمكم، وإنما الذي يعلم تسبيحهم هو

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٥٨.
(٢) هذه السور هي: الرعد: ١٣، والإسراء: ٤٤، والأنبياء: ٧٩، والنور: ٤١، وص: ١٨، والحديد: ١، والحشر: ١، ٢٤، والصف: ١، والجمعة: ١، والتغابن: ١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٥٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥٨.

خالقهم عز وجل.

والمتدبر في هذه الآية الكريمة يراها تبعث في النفوس الخشية والرهبة من الخالق عز وجل؛ لأنها تصرح تصريحًا بليغًا بأن كل جماد وكل حيوان وكل طير وكل حشرة.. بل كل كائن في هذا الوجود يسبح بحمد الله عز وجل، وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعة الله، وإخلاص العبادة له، ومداومة ذكره؛ حتى لا يكون -وهو الذي كرمه ربه وفضله- أقل من غيره طاعة لله تعالى»[1].

أما الآية الثانية التي أخبر فيها ربنا عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له سبحانه فهي قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

قال ابن كثير: « يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء يسبح له، ويمجده، ويقدسه، ويصلي له، ويوحده سبحانه»[2].

ومعنى قول الله عز وجل: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ يحتمل توجيهين: الأول: أن يكون الضمير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ عائد على الله عز وجل، فيكون معنى الكلام: كل مصل ومسبح منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه، والتوجيه الآخر: أن يكون الضمير عائدًا على قوله: ﴿كُلٌّ﴾ فيكون المعنى: قد علم كل مصل ومسبح منهم صلاة نفسه وتسبيحه، الذي كلفه الله به وألزمه إياه[3].

أما الآيات الأخرى التي يخبر فيها ربنا عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له سبحانه، فهي فواتح كل من السور التالية: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، ففي سورة الحديد والحشر والصف جاء الإخبار بصيغة الفعل الماضي.

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

وقال سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

وقال عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف: ١].

أما في سورتي الجمعة والتغابن فقد جاء الإخبار بصيغة الفعل المضارع.

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

وقال عز وجل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

(١) الوسيط ٨/ ٣٥٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١٣/ ٥٣٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٠.

وقد وجه المفسرون الحكمة من إخبار الله عز وجل عن تسبيح مخلوقاته بالفعل الماضي تارة، وبالفعل المضارع تارة أخرى؛ بأن الفعل الماضي فيه دلالة على أن تنزيه المخلوقات وتسبيحهم لله عز وجل أمرٌ مقرر، أمر الله عز وجل به خلقه وعباده من قبل، وأمر به الناس، فالمخلوقات مسبحة لله عز وجل أبدًا في الماضي، وستظل مسبحة له سبحانه في المستقبل[1].

أما الفعل المضارع فيدل -كما هو معلوم عند أهل اللغة- على الدوام والاستمرار والتجدد، وفي ذلك بيان بأن أهل السماوات والأرض والمخلوقات كلها يجددون تسبيحهم لله عز وجل، وهم مستمرون فيه، لا يفترون عنه أبدًا[2].

قال الشوكاني: «وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضيًا، وفي بعضها مضارعًا، وفي بعضها أمرًا؛ للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات، لا يختص تسبيحها بوقت دون وقت؛ بل هي مسبحة أبدًا في الماضي، وستكون مسبحة أبدًا في المستقبل»[3].

ويبقى آية أخيرة أخبر الله عز وجل فيها عن تسبيح جميع خلقه له سبحانه، وهي الآية التي ختمت بها سورة الحشر، وهي قول الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على ذكر بعض أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، فأخبر سبحانه بأنه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ لجميع المخلوقات، المنشئ لها من العدم، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي مصور المخلوقات ومركبها على هيئات مختلفة، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: له سبحانه الأسماء الكثيرة العظيمة، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحدٌ إلا هو سبحانه، وكلها حسنى تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها: أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها، ومن كماله سبحانه وكمال أسمائه وصفاته أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئًا إلا ويكون، ولا يكون شيء إلا لحكمة عظيمة[4].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣،٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٥٧.
(٣) فتح القدير ٥/ ٢٣٣.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي

ثانيًا: الآيات التي أسند فيها التسبيح لمخلوقات معينة:

أخبر الله عز وجل عن تسبيح مخلوقات معينة له سبحانه، والآيات التي أخبر فيها ربنا عز وجل عن ذلك ثلاث آيات:

الآية الأولى: قول الله عز وجل: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

وللمفسرين قولان في المقصود بالرعد في هذه الآية:

أحدهما: أنه اسم الملك الذي يزجر السحاب، وصوته: تسبيحه.

والثاني: أنه الصوت المعهود، المسموع عند حدوث البرق.

والآية تحتمل المعنيين، وإنما خص الرعد بالتسبيح؛ لأنه من أعظم الأصوات[1].

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

ففي هذه الآية الكريمة أخبر سبحانه عن تسبيح مخلوقات معينة له سبحانه، حيث أخبر عن تسبيح الجبال والطير لله عز وجل مع نبي الله داود عليه السلام؛ وذلك أن داود عليه السلام كان من أعبد الناس، وأكثرهم لله ذكرًا وتسبيحًا وتمجيدًا، وكان قد أعطاه الله عز وجل من حسن الصوت ورقته ورخامته ما لم يؤته أحدًا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله، جاوبته الجبال الصم، والطيور البهم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه، فلهذا قال: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2].

قال القرطبي: «قال وهب: كان داود عليه السلام يمر بالجبال مسبحًا والجبال تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير. وقيل: كان داود عليه السلام إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق؛ ولهذا قال: ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح. وقال قتادة: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يصلين معه إذا صلى، والتسبيح: الصلاة، وكلٌّ محتمل، وذلك فعل الله تعالى بها»[3].

والآية الثالثة: يخبر فيها ربنا عز وجل أيضًا عن تسبيح الجبال والطير مع نبيه داود عليه السلام.

قال سبحانه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَٰقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

---

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٠٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٣١٩.

ص٨٥٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣١٧.

فهذه الآيات مثل آية الأنبياء؛ إلا أنه سبحانه ذكر هنا أن التسبيح كان ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، والعشي: من وقت العصر إلى الليل، والإشراق: شروق الشمس إلى الضحى، وهذا يدل على كثرة تسبيح نبي الله داود عليه السلام، وكثرة تسبيح الجبال والطير معه[1].

خامسًا: تسبيح من عبدوا من دون الله عز وجل:

لقد عبد بعض الضلال من الناس مخلوقات لله عز وجل، بهتانًا وزورًا وافتراءً على الله، فمنهم من عبد نبي الله عيسى عليه السلام، ومنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد غير ذلك، وكل ذلك شرك وكفر يستحق من فعله الخلود في عذاب الله عز وجل.

ولقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز أن عيسى عليه السلام والملائكة الذين عبدوا من دون الله سيتبرؤون يوم القيامة مما فعله المبطلون، ومن شرك المشركين، وسيسبحون الله عز وجل وينزهونه عما افتراه المفترون، فعيسى عليه السلام ما دعا أحدًا إلى عبادته؛ وإنما دعا الناس لعبادة الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

لقد بدأ عيسى عليه السلام كلامه مع رب العزة -سبحانه بالتسبيح -قبل أن يبرأ نفسه- تنزيهًا له سبحانه عما افتراه المفترون، وتعظيمًا له وإجلالًا، وثناءً عليه، وخضوعًا له وخوفًا منه، وهذا التسبيح من عيسى عز وجل متضمن لبراءته من أن يكون قال للناس شيئًا من ذلك؛ لأنه إذا كان قد نزه الله عز وجل عن ذلك فلاجرم أنه لم يأمر أحدًا به[2].

أما الملائكة الذين عبدهم الضلال من دون الله عز وجل، فقد أخبر الله عز وجل بأنهم سيتبرؤون يوم القيامة من عبادة أولئك المشركين لهم، وسيسبحون الله عز وجل تنزيهًا له عن شرك المشركين وافتراء الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٦٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٨١٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١١٣.

﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٨].

وفي هذا تقريع للكفار الذين عبدوا الملائكة من دون الله عز وجل.

وفي سورة سبأ آيات مماثلة لهذه الآيات، إذ يقول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

فالملائكة تقر لله عز وجل بأنه ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدًا سواه سبحانه، لا هم ولا غيرهم؛ وتسبح الملائكة ربها عز وجل يوم القيامة قائلين: ما دعونا هؤلاء الكفار إلى عبادتنا؛ فما يكون لنا ذلك؛ بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم؛ فما ينبغي لأحد أن يعبدنا؛ فإنا عبيد لك، فقراء إليك، وكذلك الخلق كلهم[(١)].

وبعد هذا الاستعراض لتسبيح الخلائق كلها لله عز وجل -من الملائكة، والنبيين، والمؤمنين، وسائر المخلوقات- نستشعر عظمة من سبح له الخلق كله؛ فما استكبر مخلوق عن تسبيح خالقه، وما استنكف عبد علم قدر ربه عن عبادة مولاه؛ فالكون كله خلق الله، والخلق كله قد سبح لله، سبحانه وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٢٩١.

من صيغ التسبيح

من خلال تتبع الآيات التي ورد فيها التسبيح في كتاب الله عز وجل، نجد أن التسبيح فيها ورد بعدة صيغ؛ وذلك كما يأتي:

أولًا: التسبيح بصيغة: (سبحان) مضافًا إليها هاء الضمير العائد إلى الله عز وجل (سبحانه).

وهذه الصيغة هي أكثر صيغ التسبيح ورودًا في كتاب الله عز وجل؛ حيث إنها وردت في أربع عشرة آية[1].

وبتتبع هذه الآيات التي ورد فيها التسبيح بهذه الصيغة نجد أنها كلها جاءت في سياق تسبيح الله عز وجل لنفسه العلية؛ فمن هذه الآيات -على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]

والملاحظ أيضًا أن كل هذه الآيات قد وردت: إما في سياق تنزيه الله عز وجل نفسه عما افتراه المفترون من اتخاذ الولد، أو في سياق تنزيهه سبحانه لنفسه عما نسبه المشركون إليه سبحانه من اتخاذ الشريك، وإما في سياق تعظيم الله عز وجل لنفسه، وبيان بعض مظاهر آيات قدرته وملكه، وامتنانه سبحانه على عباده بما يوجب الشكر والثناء له سبحانه، بتنزيهه وتسبيحه وتمجيده.

ثانيًا: التسبيح بصيغة (سبحان) مضافًا إليها كاف المخاطب (سبحانك).

التسبيح بصيغة (سبحانك) ورد في كتاب الله عز وجل في تسع آيات[2].

(١) وردت هذه الصيغة من صيغ التسبيح في المواضع التالية من كتاب الله عز وجل: البقرة: ١١٦، والنساء: ١٧١، والأنعام: ١٠٠، والتوبة: ٣١، ويونس: ١٨، ٦٨، والنحل: ١، ٥٧، والإسراء: ٤٣، ومريم: ٣٥، والأنبياء: ٢٦، والروم: ٤٠، والزمر: ٤، ٦٧.

(٢) هذه الآيات هي: البقرة: ٣٢، آل عمران: ١٩١، المائدة: ١١٦، الأعراف: ١٤٣، يونس: ١٠، الأنبياء: ٨٧، النور: ١٦، الفرقان: ١٨، سبأ: ٤١.

وبتتبع هذه الآيات نجد أن التسبيح بهذه الصيغة قد ورد على لسان الملائكة المكرمون في ثلاث آيات منها، وورد على لسان ثلاثة أنبياء من أنبياء الله عز وجل -وهم يونس عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام - في ثلاث آيات أخرى، والآيات الثلاث المتبقية ورد فيها التسبيح بهذه الصيغة على لسان المؤمنين.

ثالثًا: التسبيح بصيغة (سبحان الله).

وهذه الصيغة هي أشهر صيغ التسبيح، وتكثر هذه الصيغة أيضًا في سياق الآيات التي يسبح الله عز وجل فيها نفسه العلية عن شرك المشركين وافتراء المفترين؛ من نسبة الولد أو الشريك لله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨-١٥٩].

وقوله أيضًا: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣].

ووردت هذه الصيغة أيضًا في سياق أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن دعوته التي يدعو هو وأتباعه الناس إليها، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يعلن تسبيحه وتنزيهه لربه عز وجل كما أمر أن يعلن عن دعوته[1].

ووردت هذه الصيغة كذلك في سياق أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بتسبيحه في أوقات مخصوصة، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: فسبحوا الله أيها الناس: أي صلوا له، ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وذلك صلاة المغرب، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾، وذلك صلاة الصبح، ﴿وَعَشِيًّا﴾ يقول: وسبحوه أيضًا عشيًا، وذلك صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ يقول: وحين تدخلون في وقت الظهر»[2].

ففي هذه الآية: إخبار عن تنزه الله عز وجل عن السوء والنقص، وعن أن يماثله أحد من الخلق، وفيها أيضًا: أمر للعباد أن يسبحوا ربهم عز وجل حين يمسون وحين يصبحون، ووقت العشي ووقت الظهيرة؛ فهذه الأوقات هي أوقات

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٨٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٦٦.
(٢) جامع البيان ٢٠/ ٨٣.

الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل[1].

رابعًا: التسبيح بصيغة: (سبحان الذي) (الاسم الموصول العائد على الله عز وجل).

ورد التسبيح بهذه الصيغة في أربع آيات من كتاب الله عز وجل؛ وكل هذه الآيات قد وردت في سياق بيان بعض مظاهر قدرة الله عز وجل وعظمته سبحانه، وبيان بعض نعمه على عباده؛ وهذه الآيات هي: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ - ٨٣].

خامسًا: التسبيح بصيغة: (سبحان ربي)، و(سبحان ربك)، و(سبحان ربنا).

ورد التسبيح مضافًا إلى الرب -جل وعلا- في خمسة مواضع من كتاب الله عز وجل، في موضعين من هذه المواضع ورد بصيغة الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٧٨ - ١٨٢].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

ففي هذه الآيات الأخيرة أمر الله عز

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٨.

وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينزه ربه عز وجل عما طلبه أولئك الكفار السفهاء من مطالب فيها سوء أدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، طلبوها على سبيل التعنت والتعجيز له صلى الله عليه وسلم؛ حيث طلبوا منه أمورًا لا يقدر عليها إلا الله عز وجل، وليست في مقدور أحد سواه، فأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينزهه عن أقوالهم الباطلة، ومطالبهم السفيهة، فتنزه الله سبحانه عن أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة[1].

وورد التسبيح مضافًا إلى رب السماوات والأرض في موضع واحد، وهو قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨١- ٨٢].

وهذه الآية من الآيات التي نزه الله عز وجل فيها نفسه عما افتراه عليه المفترون من اتخاذ الولد، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وفي ذكره عز وجل في هذا الموضع بصفته رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم -وهذه المخلوقات أعظم ما خلق الله سبحانه- يفيد انتفاء أن يكون له سبحانه ولد؛ فهو سبحانه مستغنٍ عن الولد؛ وهو سبحانه رب كل شيء، قال ابن عاشور: «ووصفه -في هذه الآية- بربوبية أقوى الموجودات وأعظمها؛ يفيد انتفاء أن يكون له ولد؛ لانتفاء فائدة الولادة، فقد تم خلق العوالم ونظام نمائها ودوامها، وعلم من كونه خالقها أنه غير مسبوق بعدم، وإلا لاحتاج إلى خالق يخلقه، واقتضى عدم السبق بعدم أنه لا يلحقه فناء؛ فوجود الولد له يكون عبثًا»[2].

وورد التسبيح بصيغة: (سبحان ربنا) في موضعين من كتاب الله عز وجل.

الموضع الأول: على لسان مؤمني أهل الكتاب، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٨].

لقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول للكافرين الذين كفروا بالقرآن الذي أنزل: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾، أي سواء آمنتم به أم لا فهو حق في نفسه، أنزله الله، ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي من صالحي أهل الكتاب، الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٦٦.

ولم يبدلوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي لله عز وجل شكرًا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلًا أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم[1].

والموضع الثاني: هو قول الله عز وجل إخبارًا عن أصحاب الجنة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩].

فبعد أن ذكرهم أوسطهم، وعادوا إلى رشدهم، سارعوا إلى تنزيه ربهم عز وجل وتسبيحه، نزهوه سبحانه عن أن يكون ظالمًا فيما فعل بهم؛ بل هم الذين ظلموا أنفسهم بتركهم قول: إن شاء الله، وبما قصدوا من حرمان المحتاجين[2].

سادسًا: التسبيح المقرون بالحمد (سبحان الله وبحمده).

ورد الأمر بقرن التسبيح لله عز وجل بحمده سبحانه في سبع آيات من كتاب الله عز وجل؛ حيث قال تعالى في أربع آيات منها: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[3]، وفي آيتين: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[4]، وفي آية واحدة قال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾[الفرقان: ٥٨].

كما جاء في كتاب الله عز وجل الخبر عن قرن التسبيح بالتحميد في مواضع متعددة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

وقوله تعالى عن ملائكته: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥] وغير ذلك من الآيات.

وتسبيح الله عز وجل بهذه الصيغة يكون بأن يجمع بين التسبيح والتحميد، وذلك بأن يقول القائل: سبحان الله وبحمده، وهذا ما دل عليه فعل النبي صلى الله عليه وسلم، حيث إنه جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: (سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)[5].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٩١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٤٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٤١٢.
(٣) ورد ذلك في أربع آيات من كتاب الله عز وجل، وهذه الآيات هي: طه: ١٣٠، غافر: ٥٥، ق: ٣٩، الطور: ٤٨.
(٤) الآيتان هما: الحجر: ٩٨، النصر: ٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير،

وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد وضح لنا تسبيح الملائكة لربها عز وجل، وذلك عندما سئل: أي الكلام أفضل؟ فقال: (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده)[1].

وهذا التسبيح المقرون بالحمد يتضمن التعظيم لله تعالى على الإجمال والكمال؛ وذلك لأن التسبيح مع التحميد يجمع النفي والإثبات: نفي المعايب كلها عنه سبحانه، وإثبات المحامد كلها له سبحانه[2].

وإن تسبيح الله عز وجل بهذه الصيغة هو أحب الكلام إليه سبحانه، ففي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله)؟ قلت: يا رسول الله، أخبرني بأحب الكلام إلى الله. فقال: (إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده)[3].

سابعًا: التسبيح باسم الله العظيم.

ورد الأمر بالتسبيح باسم الله العظيم في ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[4]، وفي موضع واحد ورد الأمر بقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وليس المراد من التسبيح باسم الله أن يقول العبد: سبحان اسم الله؛ وإنما المراد بذلك التسبيح أن يسبح العبد بقلبه ولسانه لله عز وجل[5].

قال ابن القيم: «إن الذكر الحقيقي محله القلب؛ لأنه ضد النسيان، والتسبيح نوع من الذكر، فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك دون اللفظ باللسان، والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعًا، ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما واجتماعهما، فصار معنى الآيتين: سبح ربك بقلبك ولسانك، واذكر ربك بقلبك ولسانك، فأقحم الاسم تنبيهًا على هذا المعنى، حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان»[6].

ومما يؤيد أن المراد من التسبيح باسم الله العظيم هو قول: (سبحان ربي العظيم) ذكرًا بالقلب واللسان ما جاء في الحديث

رقم ٤٩٦٧، ٦/ ١٧٨، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل سبحان الله وبحمده، ٤/ ٢٠٩٣، رقم ٢٧٣١، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) انظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، ابن تيمية ص ٢٢.

(٣) سبق تخريجه في الحديث السابق.

(٤) وردت هذه الآية في كتاب الله عز وجل في ثلاث مواضع: الواقعة: ٧٤، ٩٦، الحاقة: ٥٢.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٧٣.

(٦) التفسير القيم ٢/ ١٨٥.

عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجعلوها في ركوعكم)، فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال صلى الله عليه وسلم: (اجعلوها في سجودكم)[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٤٥٠، ٤/ ١٥٥، وأبو داود في سننه، تفريع أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، ١/ ٢٣٠، رقم ٨٦٩، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة، باب التسبيح في الركوع والسجود، ١/ ٢٨٧، رقم ٨٨٧، والحاكم في المستدرك، رقم ٣٧٤٢، ٢/ ٤٧٧.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وتعقبه الذهبي بقوله: إياس ابن عامر الراوي عن عقبة ليس بالمعروف.

مواطن التسبيح

إن المتدبر للآيات التي ورد فيها التسبيح في كتاب الله عز وجل يجد أن التسبيح يشرع في مواطن مخصوصة -فضلًا عن التسبيح العام في كل وقت وعلى كل حال- ، ومن خلال استقراء تلك الآيات نجد أن معظم التسبيح الوارد فيها جاء في مواطن تنزيه الله عز وجل عن شرك المشركين، وافتراء المفترين، أو في مواطن الحديث عن عظمة الله تعالى وجلاله، وبيان آياته الباهرة في خلقه، ويشرع التسبيح أيضًا في مواطن التعجب، وعقيب الطاعات، وبعد الفوز بنصر الله عز وجل.

ونقف فيما يأتي على بيان هذه المواطن، مستشهدين ببعض الآيات في ذلك:

أولًا: التسبيح في موطن تنزيه الله عز وجل:

لقد سبح الله عز وجل نفسه العلية عن كل نقص أو عيب نسبه إليه الكفار المشركون الجاهلون بربهم عز وجل؛ فنزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد، ونزه نفسه عن الشريك والند والمثيل، والآيات في ذلك أكثر من أن تحصى في بحث واحد.

فمن الآيات التي نزه الله عز وجل فيها نفسه عن اتخاذ الولد، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

﴿وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقوله عز وجل: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

أما الآيات التي سبح الله عز وجل فيها نفسه عن شرك المشركين، وعن أن يكون له شريك في ملكه أو ألوهيته، فهي أيضًا كثيرة في كتاب الله عز وجل، منها -على سبيل المثال-: قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٣].

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

ولقد أمر الله عز وجل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يسبحه عندما طلب منه سفهاء المشركين -على سبيل الاستهزاء- أن يأتيهم بمعجزات لا يقدر عليها البشر، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

فأمر الله عز وجل نبيه أن يسبحه في موطن خاض فيه أولئك المشركون فيما ينافي تنزيه الله عز وجل وإجلاله.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، القائلين لك هذه الأقوال، ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تنزيهًا لله عما يصفونه به، وتعظيمًا له من أن يؤتى به أو بملائكته، أو يكون لي سبيل إلى شيء مما تسألونيه، ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ يقول: هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله عز وجل، الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك غيره»[1].

وقد ذكر الله عز وجل تسبيح عبده ونبيه عيسى عليه السلام له سبحانه يوم القيامة

(١) جامع البيان ١٧/ ٥٥٥.

عما افتراه المبطلون؛ من عبادته عليه السلام من دون الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

وكذلك الملائكة المكرمون يسبحون ربهم عز وجل، منزهين له سبحانه عن افتراء المفترين وشرك المشركين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

«وفي هذه الآية: دليل على أن العبد المؤمن يسبح الله تعالى عند حدوث ما ينافي تنزيهه وتعظيمه سبحانه؛ من قول أو فعل أو اعتقاد»[١].

ثانيًا: التسبيح في المواطن الدالة على قدرة الله عز وجل وعظمته:

إن المواطن التي يستشعر فيها العبد عظمة ربه عز وجل، ويرى من عجيب قدرة الله عز وجل؛ لا يمكن لمخلوق حصرها، ولا يحيط بها إلا الذي خلقها سبحانه وتعالى، وكم من عجائب لله تعالى في العالمين يتغافل عنها الناس ويتجاهلونها؛ إلا أولي الألباب منهم، الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

إن هؤلاء المتفكرين في خلق الله عز وجل من أولي الألباب لما استشعروا عظمة الخالق امتلأت قلوبهم تنزيهًا له سبحانه، وانطلقت ألسنتهم بتسبيحه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾، فإن المواطن التي يقف فيها العبد على شيء من عظيم قدرة ربه وبديع صنعه، لا يملك العبد فيها إلا أن يلهج بتسبيح ربه وتنزيهه عن كل نقص أو عيب نسبه إليه المبطلون.

«إن المؤمن المتفكر بعد أن تدبر ونظر، ودقق وتفكر، يتوجه إلى الله تعالى متضرعًا معلنًا قناعته بحكمة الله العليا في خلق المخلوقات»[٢].

ولقد افتتح الله عز وجل سورة الإسراء بالتسبيح؛ لأن السياق يتحدث عن معجزة عظيمة لا يقدر عليها أحد إلا الله سبحانه، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

(١) التسبيح في الكتاب والسنة/ محمد كنده ٢/ ١٨.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٢٠٧.

فالإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم آية من آيات الله دالة على عظيم قدرته سبحانه.

قال ابن عاشور: «الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام يؤذن بأن خبرًا عجيبًا يستقبله السامعون، دالًا على عظيم القدرة من المتكلم سبحانه»[(١)].

ومن الآيات التي ورد فيها التسبيح في موطن بيان عظمة الله عز وجل، قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقوله في ذات السورة: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢- ٨٣].

قال ابن كثير: «أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه رجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم المعاد، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل»[(٢)].

ثالثًا: التسبيح في مواطن التعجب:

ومن المواطن التي يرد فيها التسبيح ويشرع: مواطن التعجب، وقد ورد التسبيح في عدد من الآيات في موطن التعجب -سواء كان التعجب من عظمة قدرة الله عز وجل أو تعجبٌ من غير ذلك-، ومن الآيات في ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

فتسبيحه تعالى لنفسه في هذه الآية كما يتضمن تنزيهه عن اتخاذ الولد، يتضمن كذلك التعجب من هذه المقولة الباطلة[(٣)].

ومن ذلك -أيضًا: قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم جوابًا عما اقترحه الكفار من الآيات: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

ففي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾ تعجبٌ من تعنت هؤلاء الكفار ومن ظنهم السيء في الله عز وجل، وتنزيه له عز وجل عما لا يليق به مما يصفونه به، ومن أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكه[(٤)].

وفي هذه الآية: دليل على أن العبد المؤمن يشرع له أن يسبح الله عز وجل عند حدوث ما ينافي تنزيهه وتعظيمه، من قول أو فعل أو اعتقاد[(٥)].

ومن الآيات التي ورد فيها التسبيح في

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١١/ ٣٨٧.
(٣) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ٢/ ١٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٣١.
(٥) انظر: التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو ٢/ ١٨.

موطن التعجب، قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

ففي هذه الآية يؤدب الله عز وجل المؤمنين بما يجب عليهم فعله وقوله إذا سمعوا كلامًا يسيء إلى عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالذي عليهم أن يبادروا إليه هو إنكار هذا الكلام أشد الإنكار، وأن يزجروا أنفسهم عنه زجرًا ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، أي: ما يصح منا إطلاقًا أن نتكلم بهذا الحديث البالغ أقصى الكذب والافتراء، وعلمهم ربهم في هذا الموطن أن يسبحوه سبحانه؛ يسبحوه على سبيل التعجب من شناعة هذا الخبر، فقولهم في هذا الموطن: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: نتعجب يا ربنا من شناعة ما سمعناه؛ فإن ما سمعناه عن أم المؤمنين عائشة كذب يبهت ويدهش من يسمعه، وهو في الشناعة لا تحيط بوصفه عبارة[1].

رابعًا: التسبيح عقيب الطاعات:

ومن المواطن التي يشرع فيها التسبيح أيضًا: بعيد الانتهاء من الطاعات والعبادات، كالتسبيح في أدبار الصلوات، وقد أمر الله عز وجل بذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩- ٤٠].

ففي هذه الآية يأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر، ويأمره بأن يسبح بحمد ربه في أوقات مخصوصة خصها سبحانه، وذكر سبحانه من هذه الأوقات: أدبار السجود، وللمفسرين أقوال في المقصود بالتسبيح في أدبار السجود، ذكرها الإمام الطبري فقال: «واختلف أهل التأويل في معنى التسبيح الذي أمر الله نبيه أن يسبحه أدبار السجود، فقال بعضهم: عني به الصلاة، فقالوا: وهما الركعتان اللتان يصليان بعد صلاة المغرب. وقال آخرون: عنى به التسبيح في أدبار الصلوات المكتوبات، دون الصلاة بعدها. وقال آخرون: هي النوافل في أدبار المكتوبات»[2].

وسواء كان التسبيح المأمور به في أدبار السجود هو صلاة النوافل أم كان مطلق التسبيح؛ فالأمران يصلح أن يطلق عليما تسبيح؛ فالصلاة تسبيح، والتسبيح المطلق المعروف تسبيح، وقد جاءت السنة بالحث على التسبيح في أدبار الصلوات، وذلك في عدة أحاديث، من ذلك: ما رواه كعب ابن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (معقبات لا يخيب قائلهن -أو

(١) الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٩٨.

(٢) جامع البيان ٢٢/ ٣٧٧.

فاعلهن-: ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة، في دبر كل صلاة)[1].

خامسًا: التسبيح بعد النصر:

إن النصر بيد الله عز وجل، يمتن به على من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

فإذا أنعم الله عز وجل على الأمة بالنصر على أعدائها، فعليها أن تجتهد في شكر ربها على هذه النعمة العظيمة، ولقد علم الله عز وجل الأمة المؤمنة كيف تشكر ربها عز وجل عند حصول نعمة النصر، وذلك من خلال تلك السورة العظيمة التي أنزلها الله عز وجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم - وهي آخر سورة أنزلت كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم -، موجهًا له كيف يقابل نعمة ربه بالنصر والفتح المبين.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إذا جاءك نصر الله يا محمد على قومك من قريش، والفتح: فتح مكة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ من صنوف العرب وقبائلها ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ يقول: في دين الله الذي بعثك به أفواجًا، يعني: زمرًا، فوجًا فوجًا، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقول: فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، على ما أنجز لك من وعده، وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ يقول: وسله أن يغفر ذنوبك؛ إنه كان ذا رجوع لعبده المطيع إلى ما يحب»[2].

ومن هذه السورة الكريمة نعلم: أن من أعظم المواطن التي يشرع فيها التسبيح شكرًا لله عز وجل، موطن حصول النصر للمؤمنين.

ولقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم أمر ربه عز وجل فيما أمره به في هذه السورة، فعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: كان صلى الله عليه وسلم يكثر -بعد نزول هذه السورة- أن يقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي) يتأول القرآن[3].

قال النووي في شرحه لهذا الحديث:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم ١٣٧٨، ٢/ ٩٨.

(٢) جامع البيان ٢٤/ ٦٧١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ١١١٢، ٢/ ٥٠

«معنى يتأول القرآن: يعمل ما أمر به في قول الله عز وجل: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وكان صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام البديع في الجزالة، المستوفي ما أمر به في الآية، وكان يأتي به في الركوع والسجود؛ لأن حالة الصلاة أفضل من غيرها، فكان يختارها لأداء هذا الواجب الذي أمر به ليكون أكمل»[1].

سادسًا: التسبيح عند الاستواء على المركوب:

يشرع للمسلم إذا ركب مركوبًا من دابة، أو سفينة، أو سيارة، أو طائرة، أو غيرها من وسائل النقل أن يسبح الله عز وجل تسبيحًا مقرونًا بالحمد والتهليل والتكبير والاستغفار، وذلك امتثالًا لقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

ففي هذه الآيات يذكر الله عز وجل عباده بما خلق من أصناف المخلوقات المتنوعة، ويمتن سبحانه على عباده بما جعله لهم من أنواع المراكب التي يركبونها في البحر والبر، إلى حيث قصدوا في الأرض لمعايشهم ومطالبهم، ويعلمهم ما يقولون إذا استقروا على ظهور هذه المراكب، من تسبيح الله عز وجل، وشكره على نعمه، التي منها: تسخير هذه المراكب للناس، والتي لولاه سبحانه ما أطاقوها ولا ضبطوها؛ ولكنه سبحانه من لطفه وكرمه سخرها وذللها ويسر أسبابها، وهذا معنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[2].

ولقد شرع الله عز وجل تسبيحه عند الاستواء خاصة ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لأن العبد في هذا الموطن -موطن الشعور بالانتفاع بالنعمة- يكون أدعى لشكر النعمة، وأوقع في نفسه، وأبعد ما يكون عن الغفلة عنها[3].

ولقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ما أمر الله به معلمًا الأمة كيفية الامتثال لأمر ربها عز وجل، فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا، ثم قال: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم، ٤/ ٢٠١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٦٧٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٨٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٤.

العمل ما ترضى...)[1].

وفي مشروعية التسبيح عند الاستواء على ظهر المركوب شكرًا لنعمة الله عز وجل تذكير بمشروعية التسبيح عند الانتفاع بكل ما سخر الله عز وجل لنا في هذه الدنيا، فشكر النعمة واجب، ومن أعظم أوجه شكر المنعم سبحانه تسبيحه وتقديسه وتنزيهه، فسبحان الله وبحمده.

سابعًا: التسبيح عند الكرب:

فمن المواطن التي أشار القرآن الكريم إلى مشروعية التسبيح فيها أيضًا: موطن الكرب والشدة، فقد يتعرض العبد في هذه الدنيا إلى الوقوع في شدة أو كرب، يحتاج عندئذ إلى الالتجاء إلى من ينجي من الكرب، ويفرج الشدائد، و﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

ولقد علمنا ربنا عز وجل ماذا نقول في مناجاتنا له سبحانه عند الكرب، وذلك من خلال ما أخبر به سبحانه من قصة ذي النون عليه السلام، عندما ناجى ربه في الظلمات.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

فقد اشتمل دعاء ذي النون عليه السلام على التسبيح لله عز وجل، وبهذا نعلم أن التسبيح مشروع في موطن الكرب والشدة؛ ليكون فيه تضرع إلى الله عز وجل المنجي من الكرب.

ولقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن دعاء ذي النون عليه السلام في الكرب سبب لتفريج الله عز وجل عن المكروبين، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر، رقم ٣٣٣٩، ٤/ ١٠٤.

(٢) سبق تخريجه.

أزمنة التسبيح

ذكر الله عز وجل التسبيح في كتابه العزيز مقيدًا بأوقات مخصوصة وأزمنة معينة، حاثًا عباده على الإكثار من تسبيحه في تلك الأوقات المباركة، ومن خلال تتبع الآيات التي ورد فيها ذلك[1] يمكن أن نجملها بما يأتي:

أولًا: التسبيح في العشي والإبكار:

ورد الأمر بالتسبيح بالعشي والإبكار موجهًا إلى نبي الله زكريا عليه السلام، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ففي هذه الآية: أمر الله عز وجل نبيه زكريا عليه السلام بأن يذكره كثيرًا، وبأن يسبحه في وقتين مخصوصين؛ وهما: العشي والإبكار[2].

والعشي: هو من حين زوال الشمس إلى أن تغيب. قال الأزهري: «ويقع العشي على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها، كل ذلك عشي، فإذا غابت الشمس فهو العشاء»[3].

وأما الإبكار فهو مصدر أبكر، بمعنى خرج ما بين مطلع الفجر إلى وقت الضحى، فوقت الإبكار هو أول النهار، من الفجر إلى الضحى[4]، وبذلك يكون الله عز وجل قد أمر زكريا عليه السلام بأن يكثر من التسبيح في آخر النهار وأوله.

ومن الآيات التي ورد فيها التسبيح في وقتي العشي والإبكار أيضًا: ما ذكره الله عز وجل عن نبيه زكريا عليه السلام، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ١١].

فبعد أن أمره الله عز وجل بأن يكثر من ذكر ربه، ويداوم على تسبيحه في العشي والإبكار، خرج عليه السلام إلى قومه، وأشار إليهم بأن يسبحوا هم أيضًا في هذين الوقتين العظيمين؛ شكرًا لله عز وجل على ما أنعم عليه[5].

ومن الآيات التي فيها أمرٌ بالتسبيح في وقتي العشي والإبكار: قول الله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ

(١) بلغ عدد المواضع التي ورد فيها التسبيح مقيدًا بزمن معين في كتاب الله عز وجل اثني عشر موضعًا، في اثنتي عشرة سورة، وهذه المواضع هي: آل عمران: ٤١، مريم: ١١، طه: ١٣٠، النور: ٣٦، الروم: ١٧-١٨، الأحزاب: ٤٢، ص ١٨، غافر: ٥٥، الفتح: ٩، ق: ٣٩-٤٠، الطور: ٤٩، الإنسان: ٢٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٨.

(٣) تهذيب اللغة ٣/ ٥٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٩٢، الوسيط، الواحدي ص٢٠٩

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩/ ٢٢٠.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وهذه الآية جاءت عقب الآيات التي أخبر الله عز وجل فيها عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وذكر ما تعرض له عليه السلام من شدة وأذى من فرعون وملئه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣- ٢٤].

وذكر أخبار ذلك الرجل المؤمن الذي وقف في وجه فرعون نصرةً لموسى عليه السلام، باذلًا وسعه في هداية قومه وإرشادهم ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

جاءت هذه الآية بعد ذلك تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر تأسيًا بمن سبقه من الرسل والأنبياء، ومبشرةً له صلى الله عليه وسلم بأن ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ سينصر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم كما نصر موسى عليه السلام، ثم أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يستغفر لذنبه[1]، وبأن يكثر من تسبيح ربه عز وجل وتنزيهه عند حلول الليل وعند تباكير الصباح، فإن هذا الاستغفار وذلك التسبيح خير زاد للوصول إلى السعادة، والفوز في الدنيا والآخرة[2].

قال السعدي: «أمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصًا ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما؛ لأن في ذلك عونًا على جميع الأمور»[3].

ومن الآيات التي ذكرت التسبيح في أول النهار وآخره: قول الله عز وجل مخبرًا عن عبده ونبيه داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨- ١٩].

أي: إن الله تعالى سخر الجبال تسبح مع داود عليه السلام عند إشراق الشمس وآخر النهار، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه،

---

(١) قال القرطبي في معنى لذنبك: «قيل: لذنب أمتك، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: لذنب نفسك على من يجوز الصغائر على الأنبياء، ومن قال لا تجوز قال: هذا تعبد للنبي عليه السلام بدعاء، والفائدة زيادة الدرجات، وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده، وقيل: فاستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة». الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٣٢٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٢٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧٣٩.

وترجع بترجيعه؛ إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب؛ بل يقف في الهواء ويسبح معه، وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعًا له[1].

ويُفهم من الآية أن نبي الله داود عليه السلام كان يسبح ربه تسبيحًا خاصًا في هذين الوقتين ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، وتسبح معه الجبال والطير فيهما، والإشراق الوارد في الآية: هو وقت شروق الشمس إلى وقت الضحى، وهو بذلك مرادف لوقت الإبكار الوارد في الآيات السابقة.

ثانيًا: التسبيح بكرة وأصيلًا:

ورد التسبيح في كتاب الله عز وجل مقيدًا بوقتي البكرة والأصيل في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١- ٤٢].

ففي هاتين الآيتين: يأمر الله عز وجل عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى وبكثرة تسبيحه في الصباح والمساء؛ لما لهم في ذلك من جزيل الثواب وجميل المآب[2].

فوقت البكرة هو وقت الإبكار، وهو -كما ذكرنا- أول النهار، أما الأصيل فهو الوقت من بعد العصر إلى غروب الشمس، وهو بذلك مرادف لوقت العشي، وحدده بعض أهل اللغة بأنه آخر العشي، قال ابن فارس: «الأصيل بعد العشي»[3].

وذكر بعض المفسرين أن المقصود بالتسبيح بكرة وأصيلًا: صلاة الصبح وصلاة العصر[4]، والصلاة متضمنة للتسبيح ولاشك، وذكر بعضهم أن الله عز وجل يأمر في الآية بالتسبيح في كل الأوقات، مجددًا الزمان بطرفي نهاره وليله[5].

والموضع الثاني: قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨- ٩].

ففي الآية الأولى من هاتين الآيتين: بيان للوظيفة التي كلف الله عز وجل بها رسوله صلى الله عليه وسلم؛ من الشهادة على الناس، وتبشير المؤمنين، وإنذار العصاة والكافرين، وفي الآية الثانية: بيان للحكمة من إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي أن يقوم الناس بالإيمان بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ويعظموا الرسول ويوقروه، ويسبحوا الله عز وجل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٨٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ١٨٠.
(٣) تهذيب اللغة ١/ ١١٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٧٩.
(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٨.

أول النهار وآخره[1].

أما الموضع الثالث: فهو قول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

وفي هاتين الآيتين: مدح لعمار بيوت الله عز وجل، الذين يديمون التسبيح له سبحانه في بيوته في أول النهار وآخره، «وخص هذين الوقتين لشرفهما، ولتيسر السير فيهما إلى الله عز وجل وسهولته، ويدخل في ذلك التسبيح في الصلاة وغيرها؛ ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء»[2].

والمراد بالغدو الوارد في الآية: هو نفس وقت البكرة الوارد في الآيات السابقة، وهو وقت أول النهار[3].

ثالثًا: التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وآناء الليل وأطراف النهار، وأدبار السجود:

ورد التسبيح في هذه الأزمنة في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل:

الموضع الأول: قول الله تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

لقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بأن يصبر على ما يقوله المشركون المكذبون من أباطيل، وأمره بأن يسبح بحمد ربه في أوقات مخصوصة؛ وهي: قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وفي ساعات الليل، وفي ساعات النهار.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بالتسبيح في هذه الأوقات: هو الصلوات المكتوبة، فقد روى ابن أبي حاتم «عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ قال: هي الصلاة المكتوبة. وعن قتادة في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قال: هي صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ قال: صلاة العصر، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ قال: صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ قال: صلاة الظهر»[4].

ولا يخفى أن الصلاة مشتملة على تسبيح الله عز وجل، فيكون الأمر بالتسبيح هنا مشتملًا الأمر بالصلاة والأمر بالتسبيح فيها،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٩.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ١٤٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٥.

فيكون المعنى: «وسبح بحمد ربك في صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وفي صلاة العصر قبل غروبها، وفي صلاة العشاء في ساعات الليل، وسبح بحمد ربك أطراف النهار في صلاة الظهر -إذ وقتها طرف النصف الأول والنصف الثاني من النهار- وفي صلاة المغرب؛ كي تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به»[1].

والموضع الثاني: قول الله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠].

وهاتان الآيتان مماثلتان للآية السابقة، حيث أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله المشركون، وهما أيضًا متضمنتان للأمر بالصلوات الخمس المفروضة؛ فالتسبيح قبل طلوع الشمس يشمل صلاة الفجر، والتسبيح قبل غروبها يشمل صلاة العصر، وقيل: يشمل الظهر والعصر، والتسبيح من الليل يشمل صلاتي المغرب والعشاء[2].

«وللمفسرين في هذا التسبيح -أي التسبيح في أدبار السجود- ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنه الركعتان بعد صلاة المغرب. والثاني: أنه النوافل بعد المفروضات. والثالث: أنه التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات»[3].

وفي أمر الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار دليلٌ عظيمٌ على أن التسبيح فيه إعانة على الصبر المأمور به[4].

والأمر بالتسبيح في نهاية الليل قد ورد أيضًا في قول الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨ - ٤٩].

فالمراد بإدبار النجوم وقت آخر الليل[5]، فيكون هذا الوقت داخلًا في وقت آناء الليل، وداخلًا أيضًا في وقت قبل طلوع الشمس.

أما الموضع الثالث: ففيه أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالتسبيح في جزء طويل من الليل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥ - ٢٦].

فأمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم -بعد أمره بالذكر بكرة وأصيلًا- بتسبيحه في مقدار من الليل طويل، والمراد بذلك: صلاة التهجد التي كانت مفروضة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل المراد بالتسبيح هنا: الذكر المطلق سواء كان في الصلاة أو

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٣٢١.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٦٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٤.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٢٣.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٣٢.
(٥) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ص ٢٥١.

في غيرها[1].

رابعًا: التسبيح في الصباح والظهر والمساء وحين القيام:

ورد الأمر بالتسبيح في وقت الصباح والمساء والظهيرة موجهًا للمؤمنين جميعًا في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد من هاتين الآيتين أمر المؤمنين بالصلوات الخمس؛ فقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي: صلاة المغرب والعشاء، وقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي: صلاة الصبح، وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي: صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي: صلاة الظهر[2].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالتسبيح هنا معناه اللغوي، أي تنزيه الله عز وجل، فيكون المراد في الآية: الأمر بتنزيه الله عز وجل عما لا يليق به سبحانه، في وقت الصباح والمساء، وفي العشي، وفي وقت الظهيرة[3].

ووقت المساء هو وقت إقبال الليل بظلامه، فيكون هذا أمرًا بالتسبيح في بعض الليل، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي: تدخلون في الصباح، والصباح إسفار النهار بضيائه، وهذا الوقت مرادف لوقت البكرة والإبكار، ومرادف أيضًا لوقت قبل طلوع الشمس، وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي حين تزول الشمس إلى المغيب، وهذا مرادف لوقت قبل غروب الشمس، وقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي حين يشتد الضياء من النهار، وهذا الوقت داخل في وقت أطراف النهار[4].

قال السعدي: «فهذه الأوقات الخمسة، أوقات الصلوات الخمس أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب، كأذكار الصباح والمساء، وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله عز وجل أفضل من غيرها؛ فالتسبيح والتحميد والعبادة فيها أفضل من غيرها؛ بل العبادة وإن لم تشتمل على قول (سبحان الله) فإن الإخلاص فيها تنزيه لله عز وجل بالفعل أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه سبحانه

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٧٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٣.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣١١.
(٤) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ٩/ ٣٦.

من الإخلاص والإنابة»[1].

وذكر بعض المفسرين أن المراد: أن الله سبحانه أمر عباده بتنزيهه في هذه الأوقات؛ لما يتجدد فيها من النعم.

ويحتمل أن تكون هذه الأوقات كناية عن استغراق الزمان كله في التسبيح، فيكون العبد ذاكرًا ربه في كل وقت وعلى كل حال[2].

أما الأمر بالتسبيح عند القيام فقد ورد في قول الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

وللمفسرين أقوال في المراد بقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾، عدد ابن الجوزي ستة منها، أشهرها: أن المراد بذلك: حين تقوم من منامك للصلاة. وقيل: حين تقوم من مجلسك[3]، ورجح الإمام الطبري القول الأول[4].

وفي ختام هذا المبحث تبين أن الله عز وجل جعل للتسبيح أوقاتًا مخصوصة، وأن هذه الأوقات قد شغلت معظم أوقات الإنسان -إن لم يكن كلها-.

ولعل الحكمة من تخصيص تلك الأوقات للتسبيح هي أن تعاقب هذه الأوقات وتتابعها، وما يحدث فيها من أمور مختلفة عجيبة دالة على قدرة الله عز وجل وعظمته، وذلك موجب لتسبيحه عز وجل وتنزيهه عن النقائص والعيوب.

ثم إن لهذه الأوقات مزية خاصة؛ حيث إن الله عز وجل خصصها لشرفها، ولتيسر السير فيها إلى الله عز وجل، فكان التسبيح لله سبحانه فيها من أحسن ما تنهض إليه عقول المؤمنين، وترطب به ألسنة الصالحين، تنزيهًا لله سبحانه، وتعظيمًا له وثناءً عليه[5].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٦٣٨.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ١٦١.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٦٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٨٩.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٩.

فوائد التسبيح

إن من تأمل في الآيات التي ورد فيها التسبيح في كتاب الله عز وجل يعلم -ولا ريب- مدى عظم هذه العبادة الجليلة، وعظم فوائدها على العبد المؤمن في الدنيا والآخرة، ونذكر فيما يأتي بعض هذه الفوائد:

أولًا: التسبيح من أعظم العبادات وأجل القربات إلى الله عز وجل.

فهو عبادة الملائكة المكرمين؛ بل هو عبادة المخلوقات جميعًا، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولقد ذكر الله عز وجل أنه أرسل رسوله ليقوم الناس بالإيمان، وليقوموا بتسبيح الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨ - ٩].

وبهذا فإن العبد المؤمن يجتهد في تسبيح ربه عز وجل؛ في الليل والنهار، وفي السر والعلن، في الشدة والرخاء، مبتغيًا رضا الرحمن، مقتديًا بالملائكة الأطهار، راجيًا الأجر الجزيل والثواب العظيم من الله رب العالمين، سبحانه وتعالى.

ثانيًا: الفوز بثناء الله عز وجل.

إذ إن الله عز وجل قد أثنى في كتابه العزيز على عباده المسبحين، فقال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

وفي موضع آخر مدح الله سبحانه عباده المسبحين فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

ثالثًا: التسبيح عون على الصبر، وسبب لزوال الكرب وضيق الصدر.

ولهذا أمر الله عز وجل به نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم في كثير من المواضع في القرآن الكريم؛ ليكون له فيه العون على الصبر، والفرج من الكرب، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن

﴿مِنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨].

ولقد نجا الله عز وجل نبيه يونس عليه السلام من الظلمات بسبب تسبيحه، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

رابعًا: التسبيح من أعظم ما يشكر به العبد ربه عز وجل على عطاياه التي لا تعد، ونعمه التي لا تحصى.

قال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

خامسًا: التسبيح سبب لمغفرة الخطايا والذنوب.

ولقد رغبنا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما ترغيب، فمن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال: (من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة؛ حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)[1]، وقال صلى الله عليه وسلم: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[2].

سادسًا: التسبيح أفضل ما يستعد به العبد للقاء ربه عز وجل.

فقد اختاره الله عز وجل لنبيه وصفيه ليختم به أجله في هذه الدنيا، وليلقى به ربه عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ٣﴾ [النصر: ١ - ٣].

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، الحمد، الدعاء، الذكر، الصلاة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم ٦٤٠٥، ٨/ ٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ونضع الموازين القسط ليوم القيامة، رقم ٧٥٦٣، ٩/ ١٦٢.

التسخير

عناصر الموضوع

مفهوم التسخير	١١٢
التسخير في الاستعمال القرآني	١١٣
الألفاظ ذات الصلة	١١٤
دلالات التسخير العقدية	١١٦
مظاهر التسخير	١٢٢
آثار التسخير الإيمانية على العبد	١٣١
آثار التسخير في عمارة الأرض	١٣٦

مفهوم التسخير

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «سخر: السين والخاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال، من ذلك قولنا سخر الله عز وجل الشيء، وذلك إذا ذلله لأمره وإرادته، ثم قال: ومن الباب: سخرت منه، إذا هزئت به، ولا يزالون يقولون: سخرت به، وفي كتاب الله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]»[(١)].

والتسخير: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣]. أي: ذللهما، وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك على ما تريد فقد سخر لك[(٢)].

فالتسخير له معنيان:

الأول: التسخير والتذليل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١١٠].

والثاني: السخرية والاحتقار، ومنه قوله: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠].

وقد استعمل القرآن الكريم هذا المعنى اللغوي للتسخير، وعلى ذلك وردت أقوال المفسرين في بيان هذه اللفظة كما سيأتي.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

والتسخير اصطلاحًا: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣][(٣)].

قال ابن عاشور: «والتسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاق، أو شاغل بقهر وتخويف، أو بتعليم وسياسة بدون عوض»[(٤)].

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٤٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٥٣، تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٥٢٢.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٢٠٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ١٦٨.

التسخير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سخر) في القرآن (٤٢) مرة، يخص التسخير منها (٢٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٢	﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل:١٤]
المصدر	١	﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢]
اسم المفعول	٤	﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤]

وجاء (التسخير) في القرآن بمعناه اللغوي العام، وهو السياقة إلى الغرض المختص قهرًا[٢]، ومنه تسخير العبيد والأسرى، وتسخير البهائم، وكذلك تصريف الشيء غير ذي الإرادة، في عمل عجيب، يصعب استعماله فيه، بحيلة أو إلهام؛ كتسخير الفلك للمخر في البحر بالريح، وتسخير السحاب للأمطار، وتسخير النهار للعمل، والليل للسكون، وتسخير الليل للسير في الصيف، والشمس للدفء في الشتاء، والظل للتبرد[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٤٧-٣٤٨.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٠٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ التذليل:

الذل لغة:

ضد العز، ومنه: التذليل، وهو الخضوع والانقياد والاستكانة، واللين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: ٧٢]. أي: وصيرناها سهلة غير مستعصية عليهم في شيء مما يريدون بها[١].

التذليل اصطلاحًا:

الخضوع والانقياد والاستكانة، واللين، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٩]. أي: منقادة غير متصعبة[٢].

والتذليل: جعل الشيء منقادًا من غير صعوبة، وتسهيله على وجه ينتفع منه العباد[٣].

الصلة بين التسخير والتذليل:

أنهما بمعنى واحد، وهو تذليل الشيء، وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، وبينهما عموم وخصوص، فالتذليل يخص الله كما يخص البشر، بينما التسخير فلا يسخر إلا الله[٤].

٢ الانقياد:

الانقياد لغة:

الخضوع والطاعة والإذعان، تقول: قدته فانقاد، واستقاد لي، إذا أعطاك مقادته، وانقاد فلان للأمر وأعطى القياد إذا أذعن طوعًا أو كرهًا[٥].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٤٥، تاج العروس، الزبيدي ٢٩/ ١٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٣٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٧ تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٣٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٣٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٣٢١.
(٥) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥١٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٣١٣، تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٧٧.

الانقياد اصطلاحًا:

الخضوع والذل والطاعة والإذعان، يقال: انقاد للأمر والطريق سهل واستقام[1]، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي له.

الصلة بين التسخير والانقياد:

أنهما بمعنى واحد، وهو: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، والتسخير أعم من الانقياد، فيشمل ما كان داخلًا تحت قدرة الإنسان وتسخيره حقيقة، كالحيوان، وما كان داخلًا تحت تصرفه بتسخير وإلهام وتعليم، كتسخير الفلك[2].

٣ التسليط:

التسليط لغة:

التغليب، وإطلاق القهر والقدرة، يقال: سلطه الله عليه، أي: جعل له عليه قوة وقهرا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النساء: ٩٠][3].

التسليط اصطلاحًا:

التحكم، والتمكين، والسيطرة، والقوة، والقهر، والغلبة، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٠][4]، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي له.

الصلة بين التسخير والتسليط:

أنهما بمعنى واحد، وهو: تذليل الشيء وجعله منقادًا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرًا، ولكن التسخير يقال في المحبوب والمكروه، والتسليط يقال في المكروه.

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٦٥، تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٧٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٨.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٥، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٢١، تاج العروس، الزبيدي ١٩/ ٣٧٧.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٢٤٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٤٣.

دلالات التسخير العقدية

إن تسخير هذا الكون بما فيه من المنافع لهذا الإنسان العاجز الضعيف، فيه دلالة على الربوبية والألوهية وصفات الله تعالى، كما أنها تدل على البعث والنشور، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: دلالاته على الربوبية والألوهية:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على الربوبية والألوهية.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: ١٢].

الرب: هو السيد والمالك، والخالق والمدبر، والمربي والمصلح، والقيم والمنعم، والإله: هو المعبود، أي: الذي يتوجه إليه الإنسان عند الشعور بالحاجة إلى ما يعجز عنه بكسبه ومساعدة الأسباب له، فيدعوه لكشف الضر أو جلب النفع، ويتقرب إليه بالأقوال والأعمال التي يرجى أن ترضيه، وأما اسم الجلالة الأعظم (الله) فهو اسم لرب العالمين، خالق الخلق أجمعين، الذي ينفي الموحدون الحنفاء ربوبية غيره وألوهية سواه، ويقول بعض المشركين: إنه أكبر الأرباب أو رئيسهم، وأعظم الآلهة أو مرجعهم الذي يشفعون عنده، وكان مشركو العرب وأمثالهم ينفون وجود رب سواه، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه[1].

يخبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه سخر لخلقه خمسة أشياء عظام، وهي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم، وفيها من عظيم نعمته ما لا يعلمه إلا هو، وفيها الدلالات الواضحات لأهل العقول: على أنه الواحد المستحق لأن يعبد وحده، وكرر في القرآن ذكر إنعامه بتسخير هذه الأشياء، وأنها من أعظم أدلة وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢﴾ [الرعد: ٢].

افتتح الآية باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى ﴿رَبِّكَ﴾ [الرعد: ١]، لأنه معين به لا يشتبه غيره من آلهتهم ليكون الخبر المقصود جاريا على معين لا يحتمل غيره؛ إبلاغا في قطع شائبة الإشراك، والذي رفع هو الخبر، وجعل اسم موصول لكون الصلة معلومة الدلالة على أن من تثبت

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٩٥، تفسير المراغي ٨/ ١٦٩، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو ص١٣٨، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٦٣.

له هو المتوحد بالربوبية؛ إذ لا يستطيع مثل تلك الصلة غير المتوحد ولأنه مسلم له ذلك، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١][1].

وقوله جل جلاله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وإغشاؤه الليل النهار: هو تسخيرهما، وقوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقوله جل وعلا: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٧-٣٩].

فقد بين سبحانه إلهيته وربوبيته: بأن هذا الكون وكل ما فيه من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة؛ فهي منه، وتحت تدبيره وتسخيره، فيجب على عباده أن يشكروه عليها، ويعبدوه دون غيره مما عبدوه معه وليس له من الخلق ولا من الأمر شيء[2].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر: ٥].

«وهذه اللفتة إلى ملكوت السماوات والأرض، وإلى ظاهرة الليل والنهار، وإلى تسخير الشمس والقمر، توحي إلى الفطرة بحقيقة الألوهية التي لا يليق معها أن يكون هناك ولد ولا شريك، فالذي يخلق هذا الخلق وينشئه إنشاء، لا يحتاج إلى الولد ولا يكون معه شريك، وآية الوحدانية ظاهرة في طريقة خلق السماوات والأرض، وفي الناموس الذي يحكم الكون، والنظر المجرد إلى السماوات والأرض يوحي بوحدة الإرادة الخالقة المدبرة»[3].

ثانيًا: دلالاته على أسماء الله وصفاته:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على أسماء الله وصفاته.

قال تعالى: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

(١) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٧٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٨٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٧٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٤٠.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٣٨.

﴿١٣﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

يخبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن من فضله وإنعامه أنه سخر لخلقه هذا الكون بما فيه، فلا يوجد شيء في هذا الكون إلا وللإنسان به انتفاع من وجوه، فهو سبحانه الذي خلق البحر بهذه الخصائص، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص، وجعل خصائص الضغط الجوي، وسرعة الرياح، وجاذبية الأرض، وسائر الخصائص الكونية الأخرى؛ مساعدة على أن تجري الفلك في البحر، وهدى الإنسان إلى هذا كله، فأمكنه أن ينتفع به، وأن ينتفع كذلك بالبحر في نواح أخرى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾، كالصيد للطعام وللزينة، وكذلك التجارة، والمعرفة، والتجربة، والرياضة، والنزهة، وسائر ما يبتغيه الحي من فضل الله في البحار، فالسماء لهم بناء، والأرض لهم مهاد، وفي البحر منافع عظيمة، والشمس ضياء، وفي كل مخلوق من هذه المخلوقات منافع، وقد هدى الله تعالى الإنسان للانتفاع بهذه النعم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، هذا تعميم بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أولًا، ثم التعميم ثانيًا، فمن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم والشمول، فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما في السماوات وما في الأرض، من قوى وطاقات، ونعم وخيرات، مما يصلح له ويدخل في دائرة خلافته: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، فكل شيء في هذا الوجود منه وإليه، وهو منشئه ومدبره، وهو مسخره أو مسلطه، وهذا المخلوق الصغير الإنسان، مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية، وأتاح لهم الانتفاع به في كل وجه من وجوه الانتفاع، حسب استعدادهم وقدرتهم على التصرف فيه[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: في ذلك المذكور من خلقها وتدبيرها وتسخيرها؛ دالٌّ على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دالٌّ على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دالٌّ على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دالٌّ على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٢٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٣٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٢٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٣٧.

والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًا[1].

قال الرازي: «وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر: فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

واعلم أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة: النوع الأول: قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام، وذلك لأن الأجسام متماثلة، فهذه الأجرام قابلة للحركة والسكون، فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لا بد له من مخصص، وأيضًا أن كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة، فلا بد أيضًا من مخصص، لا سيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات، وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الأحياز وتسكن في البعض، فحصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر؛ لا بد فيه أيضًا من مرجح....

ثم قال: والنوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وفيه قولان:

الأول: قال ابن عباس: للشمس مائة وثمانون منزلًا، كل يوم لها منزل، وذلك يتم في ستة أشهر، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد منها في ستة أشهر أخرى، وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا، فالمراد بقوله: كل يجري لأجل مسمى هذا، وتحقيقه: أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرًا خاصًا إلى جهة خاصة، بمقدار خاص من السرعة والبطء، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك.

والقول الثاني: أن المراد: كونهما متحركين إلى يوم القيامة، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات، كما وصف الله تعالى ذلك في قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ١-٢]»[2].

وقال المهايمي: «إن ربط العالم بعضه ببعض دليل توحيده، وجعل البعض سبب البعض، دليل حكمته، وجعل الكل مسخرًا للإنسان، دليل كمال جوده، فمن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم، استوجب أعظم وجوه الانتقام»[3].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٨/ ٥٢٦.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٢٨.

ثالثًا: دلالاته على البعث:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على البعث.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٥﴾ [الزمر: ٥].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد: ٢].

فقد بين سبحانه أن هذا الكون وكل ما فيه من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة، وهذه الصفات الدالة على كمال قدرته، دليل على قدرته في البعث والإعادة، فخلق السماوات والأرض، وتسخير الشمس والقمر؛ هو تذليلهما للعمل على ما جعل الله لهما من نظام السير، سير المتبوع والتابع.

وعطفت جملة ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ على جملة ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾؛ لأن ذلك التسخير مناسب لتكوير الليل على النهار وعكسه، فإن ذلك التكوير من آثار ذلك التسخير. فتلك المناسبة اقتضت عطف الجملة التي تضمنته على الجملة التي قبلها.

والأجل: هو أجل فنائهما، فإن جريهما لما كان فيه تقريب فنائهما جعل جريهما كأنه لأجل الأجل، أي: لأجل ما يطلبه ويقتضيه أجل البقاء.

ويجوز أن يكون المراد بالأجل: أجل حياة الناس الذي ينتهي بانتهاء الأعمار المختلفة، وليس العمر إلا أوقاتًا محدودة وأنفاسًا معدودة، وجري الشمس والقمر تحسب به تلك الأوقات والأنفاس، فصار جريهما كأنه لأجل.

والمسمى: المجعول له وسم، أي: ما به يعين، وهو ما عينه الله لأن يبلغ إليه.

ويشهد لهذا حديث أبي ذر، رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يومًا: (أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك،

فتصبح طالعة من مغربها)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨])[(١)(٢)].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾، أي: أن الذي فعل هذه الأفعال وأنعم على خلقه هذه النعم، هو العزيز في انتقامه ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين إليه منها بعفوه لهم عنها، والجملة استئناف ابتدائي، هو في معنى الوعيد والوعد، فإن وصف العزيز كناية عن أنه يفعل ما يشاء لا غالب له، فلا تجدي المشركين عبادة أوليائهم، ووصف الغفار مؤذن باستدعائهم إلى التوبة باتباع الإسلام، وفي وصف الغفار مناسبة لذكر الأجل؛ لأن المغفرة يظهر أثرها بعد البعث الذي يكون بعد الموت، وانتهاء الأجل تحريضا على البدار بالتوبة قبل الموت حين يفوت التدارك[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، أي: يبين الآيات التي تدل على أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتسخيرها قادر على البعث والإعادة، ﴿تُوقِنُونَ﴾، أي: تتيقنوا وتتحققوا، أو لتعلموا علم اليقين القاطع الذي لا شك فيه أن الله قادر على البعث والإعادة، والحساب والجزاء، وإحياء الموتى من القبور في أي مكان دفنوا، في البر أو البحر أو في أجواف الحيوان[(٤)].

قال الشوكاني: «والمراد من هذا: تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة، ولذا قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]. أي: لعلكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه، ولا تمترون في صدقه»[(٥)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم ١٥٩، ١/ ١٣٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٢٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٥٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٢٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ١٠٤.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٣٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٩.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٧٧.

مظاهر التسخير

إن الله تعالى سخر كل ما في هذا الكون لخدمة العباد واستخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فسخر الشمس والقمر والأرض وسخر ما يركب ويؤكل ويلبس، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: تسخير الشمس:

من نعم الله العظيمة تسخير الشمس في منافع العباد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢].

بينت الآيات: أن من نعم الله على العباد تسخير الشمس والقمر لمنافعهم، وتأثير الشمس والقمر أظهر الآثار السماوية، وتأثير الشمس أظهر من تأثير القمر، وأظهر الآثار بعد الشعاع التسخين الحاصل منه، ولولا ذلك ما كان كون ولا فساد، ولا استحالة ولا ليل، ولا نهار ولا فصول، ولا مزاج ولا حيوانات، ولا غيرها، ومن آثارهما انتشار الضوء[1]، ومعرفة عدد السنين والحساب، وتأثيرهما في إزالة الظلمة، وإصلاح النبات والحيوان، فالشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، فلولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية[2].

ومنافع الشمس والقمر اللذين سخرهما الله لأهل الأرض لا يحصيها إلا الله، وقدم القرآن الكريم ذكر الشمس على القمر، لأن نعمة الشمس أكثر نفعًا وأعم فضلًا من نعمة القمر.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٦].

وقدم هنا القمر على الشمس، قيل: لمراعاة الفاصلة، وقيل: لأن انتفاع أهل السموات العائد عليهن الضمير به أكثر[3].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقال جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢١٠.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٣٩١.
(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ٤٢، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ١٣٩.

﴿ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

إلى غير ذلك من الآيات المبينة لذلك التسخير لأهل الأرض[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

أي: دائمين في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات، وأصل الدأب: العادة المستمرة[(٢)].

قال علي صبح: «ومن روعة الإعجاز في التصوير القرآني في مجال ذكر النعم التي سخرها الله تعالى لعباده؛ لينتفعوا بها، مع تأتي النعمة الأكثر نفعًا والأعظم فضلًا للعباد متقدمة على ما دونها في النفع والفضل؛ لذلك تقدمت الشمس على القمر، لأن نعمة الشمس أكثر نفعًا وأعم فضلًا من نعمة القمر، ويؤيد هذا اتساق الآيات بعضها مع بعض، وتلاؤم ما بعدها وما قبلها في ترابط وتلاحم وثيق»[(٣)].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٦٤.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٧٤، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢١٠.
(٣) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ١٣٩.

وقال سيد قطب: «إن هذا المخلوق الصغير.. الإنسان.. يحظى من رعاية الله سبحانه بالقسط الوافر، الذي يتيح له أن يسخر هذه الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى سنن الكون الإلهي الذي يحكمها، والذي تسير وفقه ولا تعصاه! ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة، بل ما استطاع أن يعيش معها وهو هذا القزم الصغير، وهي هذه المردة الجبابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام، والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التي سخرها الله للإنسان، فهداه إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها عرف منه هذه الفلك التي تمخر هذا الخلق الهائل، وهي تطفو على ثبج أمواجه الجبارة ولا تخشاها!»[(٤)].

ثانيًا: تسخير الأرض:

سخر الله عز وجل الأرض لعباده وذللها وهيأها لهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٦٥].

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٢٢٦.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال جل وعلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣].

بينت الآيات: أن الله تعالى سخر لخلقه ما في السماوات وما في الأرض، من دابة، وشجر، وجبل، وجماد، وسفن، وغير ذلك لمنافعكم ومصالحكم.

وبدأ بذكر السموات والأرض لأنهما أصلان يتفرع عليهما سائر ما يذكر بعد من النعم، ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، أي: نعمة منه عليكم، فإياه فاحمدوا واشكروا.

وقد جاء هذا التسخير مبينًا في آيات أخر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

الذلول: فعول بمعنى مفعول، وهو مبالغة في التذليل، تقول: دابة ذلول بينة الذل، وهو تمكين الانتفاع منها عن تسهيل الاستقرار عليها وتثبيتها بالجبال، كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣][1].

ومن تسخيرها: استخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فذللها لنا لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج معادنها وبركتها، وجعلها طوع علومنا وأعمالنا؛ لنستخرج منها الصناعات النافعة، فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها -لاسيما في هذه الأوقات- كل ذلك داخل في تسخيرها لنا، وقد عرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع وترقية الصنائع إلى ما لا حد له، وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها فوائد عظيمة للخلق.

قال تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٧-٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٠-١٣].

وقوله جل في علاه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦٥، الهداية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٧٧٤، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢١١.

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧].

أي: أن من تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتًا للإنسان في حياته؛ بتسهيل معيشته منها وحياته على ظهرها، فإذا مات كانت له أيضا كفاتًا بدفنه فيها.

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ١٥]؛ لترتبه على ما قبله بالفاء، أي: بسبب تذليلها بتيسير المشي في أرجائها، وطلب الرزق في أنحائها؛ بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ.

والأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، فيه امتنان من الله تعالى على خلقه، مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهًا وحثًا للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب؛ لتسخيرها وتذليلها، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

وعليه، فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى، والاستغناء والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل وأضاعت من حقها في هذا الوجود[1].

ثالثًا: تسخير البحر لاستخراج المأكل والملبس:

لقد ذكر القرآن الكريم تسخير البحر لاستخراج ما يؤكل ويلبس منه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤﴾ [النحل: ١٤].

يخبر تعالى في هذه الآية أنه هو الذي سخر البحر، وهو الذي سخر ما فيه من منافع للناس، وهذه نعمة عظيمة من الله؛ حيث جعل البحر مستودعًا لا ينضب لمادة غذائية تعتبر شيئًا أساسيًا في حياة معظم الشعوب، يتناولونها من البحر دون أن يخسروا مالًا وجهدًا في تربيتها، ولولا ذلك لضاقت معيشة أكثر الناس؛ حيث إن عليها اعتمادهم في الغذاء، وبها يتجرون ويتكسبون، ومن رحمة الله إباحتها حية وميتة في الحل والإحرام، حيث يؤكل منها السمك الطري.

والطري: ضد اليابس، ووصف سبحانه لحم أسماكه بالطراوة، لأن أكله في هذه الحالة أكثر فائدة، وألذ مذاقًا، فالمنة بأكله

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨، القواعد الحسان، السعدي ص ٧١.

على هذه الحالة أتم وأكمل.

وقيل: في وصفه بالطراوة، تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله؛ لأنه يسرع إليه الفساد والتغير، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء، فسبحان الخبير بخلقه، ومعرفته ما يضر استعماله وما ينفع، وفيه أيضًا إيماء إلى كمال قدرته تعالى في خلقه الحلو الطري في الماء المر الذي لا يشرب[1].

وقوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، أي: لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما، وأسند اللبس إليهم لأنهن من جملتهم، ولأنهن يتزين بها لأجلهم، والحلية: اسم لما يتحلى به الناس، وجمعها حلى وحلي، يقال: تحلت المرأة إذا لبست الحلي، والتعبير بقوله سبحانه: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا﴾ يشير إلى كثرة الإخراج فالسين والتاء للتأكيد، كما يشير إلى أن من الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما في البحر من كنوز، وألا يتركوا ذلك لأعدائهم[2].

ومما جاء في بهيمة الأنعام قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ٦٦-٦٧].

وقوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣].

لقد خلق الله سبحانه وتعالى بهيمة الأنعام لمصالح عباده، وجعلها مذللة مسخرة لقضاء شؤونهم الحياتية، إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم.

وعلى الرغم من أن هذه البهائم تملك من القوة الجسمية والعضلية أضعاف ما يملكه الإنسان؛ إلا أن سنة التسخير قد سلبها المقاومة والتمرد على إرادة الإنسان وتدبيره، وهذا ما يوجب أداء حق الشكر لله سبحانه وتعالى، ولو ترك أمر تذليل هذه المخلوقات للإنسان لعجز عن تذليل ذبابة كما عجز من خلقها، ولكنها المشيئة الإلهية وقدرته في الخلق والتذليل والتسخير[3].

قال القاسمي: «والسر في إفراده هذه

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٢٧٧، الوسيط، طنطاوي ٨/ ١١٨، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٤٠.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٢٢، الوسيط، طنطاوي ٨/ ١١٨.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٤١، مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ١٣٨.

النعمة، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وآلائه، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم، إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم، فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم، لما قامت لهم قائمة، لأن أرضهم ليست بذات زرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة، ومن كانوا كذلك، فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يبقيهم، ويشكروه ويعرفوا له حقه، من عبادته وحده وتعظيم حرماته وشعائره، فالاعتبار بها من ذلك، موجب للاستكانة لرازقها، والخضوع له والخشية منه، هذا أولًا. وثانيًا: قد يقال: إنما أفردت لتتبع بما هو البر الأعظم والخير الأجزل، وهو مواساة البؤساء منها، نظير الآية -على ما ظهر لنا- قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: ٣-٤]. فإن ذلك من أجل ما يرضيه تعالى»[1].

وقال سيد قطب: «إن هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملكهم إياها، وذللها لهم، يركبونها، ويأكلون منها، ويشربون ألبانها، وينتفعون بها منافع شتى، وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره، ومن إبداعه: ما أودع من الخصائص في الناس والأنعام، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها، وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم؛ فإنه يحس لتوه إنه مغمور بفيض من نعم الله، فيض يتمثل في كل شيء حوله، وتصبح كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل فيها قطعة لحم، أو يشرب جرعة من لبن، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن، أو يلبس ثوبًا من شعر أو صوف أو وبر، لمسة وجدانية، تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته، ويطرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله، وكل ما يستخدمونه في حي أو جامد في هذا الكون الكبير، وتعود حياته كلها تسبيحًا لله وحمدًا، وعبادة آناء الليل وأطراف النهار»[2].

وفي هذه الآية: دعوة للمؤمنين إلى استغلال هذه النعمة العظيمة والاستفادة منها بكل الوسائل الممكنة والمتاحة، وشكر الله تعالى عليها.

رابعًا: تسخير ما يركب:

من نعم الله تعالى على عباده تسخير ما يركب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا

(١) محاسن التأويل ٧/ ٢٤١.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٦.

﴿ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

يخبر جل وعلا في هذه الآية خلقه بما سخر لهم من قوى وطاقات، ووسائل المواصلات والنقل والتجارة، وأنه هو الذي سخر لهم ما يركبونه في البر والبحر من الفلك، التي هي السفن، ومن الأنعام والدواب وغيرها من كل ما يركب، فيدخل فيه الطائرات والغواصات والسيارات على اختلاف أنواعها.

والتسخير: التذليل والتطويع، وتسخير الله الدواب هو: خلقه إياها قابلة للترويض فاهمة لمراد الراكب، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحًا لسبح السفن على مائه، وخلق الرياح تهب فتدفع السفن على الماء، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك، ورصد مهاب الرياح، ووضع القلوع والمجاذيف، ولولا ذلك لكانت قوة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية، ولهذا عقب بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، أي: مطيقين، أي: بمجرد القوة الجسدية، أي: لولا التسخير المذكور[1].

وقوله تعلى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ إن تسخير وسائل النقل والمواصلات من الأنعام والدواب والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل من أعظم النعم على البشرية.

وهذا التسخير سهل للناس سبل الحياة، ولذلك يمتن الله على عباده بتسخيرها، وجيء بفعل جعل مراعاة؛ لأن الفلك مصنوعة وليست مخلوقة، والأنعام قد عرف أنها مخلوقة؛ لشمول قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ إياها، ومعنى جعل الله الفلك والأنعام مركوبة: أنه خلق في الإنسان قوة التفكير التي ينساق بها إلى استعمال الموجودات في نفعه، فاحتال كيف يصنع الفلك ويركب فيها، واحتال كيف يروض الأنعام ويركبها.

وقدم الفلك على الأنعام؛ لأنها لم يشملها لفظ الأزواج، فذكرها ذكر نعمة أخرى، ولو ذكر الأنعام لكان ذكره عقب الأزواج بمنزلة الإعادة، فلما ذكر الفلك بعنوان كونها مركوبًا عطف عليها الأنعام، فصار ذكر الأنعام مترقبًا للنفس لمناسبة جديدة[2].

ولما كانت هذه النعمة عظيمة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٥، بيان المعاني،عبد القادر العاني ٤/ ٦٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٨٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٣.

بألسنتكم، وتقييدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة؛ لأن كثيرًا من الخلق تسكرهم النعم، وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم الأشر والبطر، فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، وهذا يشير إلى أن الإنسان إذا غفل عن ذكر الله، والنعمة غائبة عنه، فإنه لا ينبغي أن يغفل والنعمة حاضرة بين يديه، يعيش فيها وينعم بها، ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾، أي، وتقولوا سبحان الذي ذلله وجعله منقادًا لنا، متعجبين من ذلك، وليس الإشارة للتحقير، بل تصوير الحال وفيها مزيد تقرير لمعنى التعجب، والكلام -وإن كان إخبارًا على ما سمعت أولًا- يشعر بالطلب[1].

خامسًا: تسخير بني آدم بعضهم لبعض:

سخر الله تعالى العباد بعضهم لبعض.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

ذكرت الآية أن الله تعالى هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل، على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهو الذي جعل لكل واحد من عباده درجة معينة في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان.

وجعل لكل واحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة، ومنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام.

وجعل الله تعالى هذا التفاوت بين العباد لحكمة؛ لأنه لو سوى بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحدًا، ولم يصر أحد منهم مسخرًا لغيره، وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا.

وفي هذا التفاوت الذي بين الناس، وفي درجات التفاضل المقسومة بينهم، يتحرك الناس، فيلحق المتأخر بالمتقدم، ويسعى المتقدم ليلحق بمن تقدم عليه وفضله، أو ينزل عن مكانه الذي هو فيه ليأخذه غيره.

وهكذا يتحرك الناس في الحياة صعودًا وهبوطًا، ويتبادلون المواقف، ويتنازعون منازل الفضل، وبهذا تظل ريح الحياة في حركة دائمة مجددة، يتنفس فيها الناس

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٥، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٣٤٥، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ١١٣، تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٧٢١.

أنفاس الأمل، والقوة، والحياة[1].

وقد أوضح تعالى الحكمة من هذا التفاضل والتفاوت في الأرزاق والحظوظ، والقوة والضعف، ونحو ذلك، فقال تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: يخدم بعضهم بعضًا، ويسخر بعضهم لبعض؛ لأن نظام العالم في الدنيا يتوقف قيامه على ذلك.

فمن حكمته جل وعلا أن يجعل هذا فقيرًا مع كونه قويًا قادرًا على العمل، ويجعل هذا ضعيفًا لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيء له دراهم يؤجر بها ذلك الفقير القوي، فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي؛ فتنتظم المعيشة لكل منهما.

وهكذا ليس فيهم خادم ومخدوم، بل كلهم يخدم ويخدم، ويستوى في هذا العالم والجاهل، والزارع، والصانع، والقوى والضعيف، والحاكم والمحكوم، إنهم جميعًا أشبه بالآلة الميكانيكية، لا تكون آلة عاملة، ذات قوة محركة، إلا إذا عمل كل جزء من أجزائها، أيًا كان وضعه فيها، وأيًا كانت قيمته الذاتية بين أجزائها، بل إنهم أشبه بالجسد الإنساني في تجاوب أعضائه جميعًا في العمل على كل ما من شأنه أن يحفظ عليه حياته، ويوفر له أمنه وسعادته[2].

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، يعني أن النبوة والاهتداء بهدى الأنبياء، وما يناله المهتدون يوم القيامة خير مما يجمعه الناس في الدنيا من حطامها[3].

قال سيد قطب: «وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد، والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل، والتفاوت في مدى إتقان هذا العمل.

وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض، ولو كان جميع الناس نسخًا مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض بهذه الصورة، ولبقيت أعمال كثيرة جدًا لا تجد لها مقابلًا من الكفايات، ولا تجد من يقوم بها، والذي خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها، وعن هذا التفاوت في الأدوار يتفاوت الرزق، هذه هي القاعدة.

أما نسبة التفاوت في الرزق فقد تختلف من مجتمع إلى مجتمع، ومن نظام إلى نظام، ولكنها لا تنفي القاعدة الفطرية المتناسقة مع طبيعة الحياة الضرورية لنمو الحياة، ومن

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٨٤، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٣٥٩.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١٢٢٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١٢.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١٤.

ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعة المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس، ولا بين أجر الجندي وأجر القائد، على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم، وهزموا أمام الناموس الإلهي الذي تقرره هذه الآية من كلام الله، وهي تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٨٧.

آثار التسخير الإيمانية على العبد

إن تسخير هذا الكون بما فيه من المنافع والنعم العظيمة في المأكل والملبس والمشرب والزينة ووسائل النقل والمواصلات، وغيرها من النعم، يوجب على الإنسان شكر الله تعالى وتعظيمه، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: شكر الله تعالى:

من آثار التسخير الإيمانية التي ذكرها القرآن الكريم شكر الله.

قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج: ٣٦].

إن تسخير البحار وجعلها خاضعة وميسرة لمنافع الإنسان، فتجري عليها السفن في حمل البضائع والأسفار واستخراج الطعام واللباس منها، وتسخير وسائل النقل والمواصلات من الأنعام والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل.

وتسخير الأنعام من إبل وبقر وغنم فتذبح

وتركب وتحلب، وتمكنه من الانتفاع بها من أعظم النعم على البشر، لذا يوجههم إلى الأدب الواجب في شكر هذه النعمة وتذكر المنعم كلما عرضت النعمة، لتبقى القلوب موصولة بالله عند كل حركة في الحياة.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه، وأثابكم على شكركم أجرًا جزيلًا.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣].

استفهامٌ تعجيبيٌ لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العدة فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار لأن تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين[(١)].

وأصل الشكر في اللغة: الوصف بالجميل على جهة التعظيم على النعمة، من اللسان والجنان والأركان، وقيل: الظهور، ويضاده الكفران، وهو نسيان النعمة وسترها، وشكر العبد لربه: هو أن يستعين بنعمه على طاعته، وشكر الرب لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، وأما من يستعين بنعم الله على معصيته فليس من الشاكرين؛ وإنما هو كنود كفور.

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها، إلا ما كان استدراجًا، فقال في شكر النعمة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال في الكفران وعواقبه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

وبهذه المناسبة: فعلى كل المسلمين أفرادًا وجماعات، أن يقابلوا نعم الله بالشكر، وأن يشكروها بالطاعة والعبادة لله، وأن يحذروا كفران النعم[(٢)].

ويخص البدْن بالذكر لأنها أعظم الهدي، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم، فجعل فيها خيرًا وهي حية تركب وتحلب، وهي ذبيحة تهدى وتطعم، فجزاء ما جعلها الله خيرًا لهم أن يذكروا اسم الله عليها، ويتوجهوا بها إليه وهي تهيأ للنحر بصف أقدامها، ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾، والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، واطمأنت على الأرض

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٠، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٣٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٨٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦٩.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٧٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦٠.

بموتها أكل منها أصحابها استحبابًا، وأطعموا منها الفقير القانع الذي لا يسأل، والفقير المعتر الذي يتعرض للسؤال، فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة[1].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم، تفعلون بها ما شئتم من نحر وركوب، وحلب وغير ذلك من المنافع، ولولا أن الله ذللها لكم لم تقدروا عليها؛ لأنها أقوى منكم، ألا ترى البعير إذا توحش صار صاحبه غير قادر عليه، ولا متمكن من الانتفاع به، وقوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قد قدمنا مرارًا أن لعل تأتي في القرآن لمعان، أقربها اثنان: أحدهما: أنها بمعناها الأصلي، الذي هو الترجي والتوقع[2].

وفي الآيات تسخير الله تعالى لهذا الكون دون مقابل يستوجب الشكر، وهذا هو الأدب الواجب في حق المنعم، يوجهنا الله إليه، لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التي تغمرنا، والتي نتقلب بين أعطافها ثم ننساه.

ثانيًا: تعظيم الله تعالى:

من آثار التسخير الإيمانية التي ذكرها القرآن الكريم: تعظيم الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

إن تسخير وسائل النقل والمواصلات من الأنعام والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل من أعظم النعم على البشرية، لذا يجب على الإنسان تعظيم الله حين ركوبها والاستواء عليها، وقد نبهنا ربنا جل وعلا وعلمنا كيفية هذا التعظيم بقوله: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق، فهو يدل على التنزيه عن النقائص، وهو من مادة السبح والسباحة، وهي: الذهاب السريع البعيد في البحر أو البر.

و ﴿سُبْحَانَ﴾، اسم يدل على الثبوت والدوام، فكأن تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزه، كما نقول في الخلق، فالله خالق ومتصف بهذه الصفة قبل أن يخلق شيئًا، وهو يدل على تنزيه الله جل وعلا أكمل التنزيه وأتمه، عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

والإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا﴾، راجعة إلى لفظ ﴿مَا﴾، من قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وجمع الظهور نظرًا إلى معنى ما؛ لأن معناها عام

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٢٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٦٠.

شامل لكل ما تشمله صلتها، ولفظها مفرد، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، ثم تذكروا مع التعظيم في قلوبكم وألسنتكم نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وذلك الذكر هو: أن يعرف أن الله تعالى خلق وجه البحر، وخلق الرياح، وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي جانب شاء وأراد.

فإذا تذكروا أن خلق البحر، وخلق الرياح، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكاته ليس من تدبير ذلك الإنسان، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى، فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التي لا نهاية لها.

وتقييدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة؛ لأن كثيرًا من الخلق تسكرهم النعم، وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم الأشر والبطر، فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، فإنه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعم الله، وأن أصولها وتيسيرها وتيسير أسبابها وبقائها ودفع ما يضادها أو ينقصها، كله من فضل الله وإحسانه، خضع لله وذل، وشكره وأثنى عليه، وبهذا تدوم النعمة ويبارك الله فيها، وتكون نعمة حقيقية.

فأما إذا قابلها بالأشر والبطر، ونسي المنعم، وربما تكبر بها على عباد الله، فهذه نقمة في صورة نعمة، وهي استدراج من الله للعبد سريعة الزوال، وشيكة بالعقاب عليها والنكال، نسأل الله أن يوزعنا شكر نعمه[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، أي: بمجرد القوة الجسدية[3].

وفي الآية: تعظيم الله تعالى وتمجيده وشكره؛ لأنه هو الذي سخر لنا ما نركبه من الأنعام والسفن وذللها، ولو لم يذللها الله لهم لما قدرنا عليها، ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذلله لهم ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شيء من ذلك.

وقد علمنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم تعظيم الله عند الركوب.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٢٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٨٦.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٢١، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٣٤٥، التفسير المنير، الزحيلي ٢٥/ ١٢٥.

(٣) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٣٤٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٥.

قال: (إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا ركب راحلته، كبر ثلاثًا، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ثم يقول: اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا السفر، واطو لنا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، وأخلفنا في أهلنا)، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلى أهله قال: (آيبون تائبون إن شاء الله عابدون، لربنا حامدون)[1].

وإن تسخير الأنعام من إبل وبقر وغنم للإنسان وتمكنه من الانتفاع بها من أعظم النعم على البشر، لذا يطلب تعظيم الله حين ذبحها والتسمية عليها، والأكل منها.

وإن الله لا ينتفع من أعمال العباد بشيء، ولكن النفع يعود على الإنسان ذاته.

فما يقدمه من قرابين وهدايا للحرم المكي أو أضاحي أو نذور، فإنما يقصد به تربية الإنسان، وغرس جذور التقوى في نفسه، وأداء واجبه، وشكر نعمة الله عليه، وتكبيره على هداية الله إياه، وإحسانه القول والعمل.

قال الله تعالى مبينًا ما يطلب حال ذبح الإبل: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٦-٣٧].

والتكبير في الآية: قيل: إنه ما يكون عند الذبح: بسم الله، الله أكبر، والأحسن أن يفسر بالتعظيم والتقديس والشكر، وترى أيضًا أنه قد أعيد في الآية حديث تسخير الأنعام، وتذليلها للناس، لأن في الإعادة تذكيرًا بالنعمة يبعث على شكرها والثناء على الله من أجلها، والقيام له بما يجب لعظمته وكبريائه، لأنه تعالى سخر لهم تلك البهائم، وأخضعها لتصريفهم، وأراهم ما يصنعون فيها، وكيف يتقربون بها[2].

وفي الآية: دلالة على أن التقوى وشكر الله تعالى والإحسان في العمل له جل شأنه من أهم المطالب الشرعية، التي لا يجوز لأحد إغفالها أو التهاون فيها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم ١٣٤٢، ٢/ ٩٧٨.

(٢) انظر: الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٦٤٧، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٥١٢.

آثار التسخير في عمارة الأرض

لقد ظهر أثر هذا التسخير في الكون في كل مناحي الحياة، في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فظهرت آثار مادية ومعنوية، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الآثار الحسية:

لقد ذكر القرآن الكريم آثار التسخير المادية في عمارة الأرض.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٦-٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٢-١٣].

بينت الآيات الآثار الحسية، والتي منها: التجارة، والاقتصاد، والصناعة.

فأخبر تعالى أنه سخر لسليمان عليه السلام الريح، ومعنى تسخيره الريح: خلق ريح تلائم سير سفنه للغزو أو التجارة، فجعل الله لمراسيه في شواطئ فلسطين رياحًا موسمية تهب شهرًا مشرقة لتذهب في ذلك الموسم سفنه، وتهب شهرًا مغربة لترجع سفنه إلى شواطئ فلسطين.

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١].

فأطلق الغدو على الانصراف والانطلاق من المكان تشبيهًا بخروج الماشية للرعي في الصباح، وهو وقت خروجها، أو تشبيهًا بغدو الناس في الصباح[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، والإسالة: جعل الشيء سائلًا في الأرض كمسيل الوادي، وعين القطر ليست عينًا حقيقة، ولكنها مستعارة لمصب ما يصهر في مصانعه من النحاس، حتى يكون النحاس المذاب سائلًا خارجًا من مساقي، ونحوها من الأنابيب، كما يخرج الماء من العين لشدة إصهار النحاس وتوالي إصهاره، فلا يزال يسيل ليصنع له آنية وأسلحة ودرقًا، وما ذلك إلا بإذابة وإصهار خارقين للمعتاد بقوة إلهية.

شبه الإصهار بالكهرباء أو بالألسنة النارية الزرقاء، وذلك ما لم يؤته ملك من ملوك زمانه، ويجوز أن يكون السيلان مستعارًا لكثرة القطر كثرة تشبه كثرة ماء العيون والأنهار[(٢)].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٥٨.

(٢) انظر: المصدر السابق.

وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قصور حصينة ومساكن شريفة، سميت بها؛ لأنها يذب عنها ويحارب عليها، والمحاريب: جمع محراب، وهو الحصن الذي يحارب منه العدو والمهاجم للمدينة، أو لأنه يرمى من شرفاته بالحراب، ثم أطلق على القصر الحصين، وقد سموا قصور غمدان في اليمن: محاريب غمدان، وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية، ثم أطلق المحراب على المكان الذي يختلى فيه للعبادة، فهو بمنزلة المسجد الخاص[(١)].

والتماثيل: هي الصورة الممثلة، أي: المجسمة، فكان النحاتون يعملون لسليمان تماثيل للملائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم[(٢)].

والجفان: جمع جفنة، وهي القصعة العظيمة التي يجفن فيها الماء، وشبهت الجفان في عظمتها وسعتها بالجوابي، وهي جمع جابية، وهي: الحوض العظيم الواسع العميق، الذي يجمع فيه الماء لسقي الأشجار والزروع[(٣)].

(١) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٩/ ٥٨٩٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٦٠.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٦٢.
(٣) انظر: المصادر السابقة.

وقوله تعالى: ﴿وَغَوَّاصٍ﴾، من يغوصون له من الشياطين، أي: يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة، كاللؤلؤ والمرجان، والغوص: النزول تحت الماء، والغواص: الذي يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملًا دون ذلك، أي: سوى ذلك الغوص المذكور، أي: كبناء المدائن، والقصور، وعمل المحاريب، والتماثيل، والجفان، والقدور الراسيات، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة[(٤)].

وظهر أثر هذا التسخير في الكون في كل مناحي الحياة، في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فشيدت ناطحات السحاب، وأقيمت السدود العملاقة لإنتاج الطاقة، وحولت الصحاري إلى مناطق زراعية خصبة، وعمرت المدن الكبيرة.

ومن هذه الأثار الحسية: ما نشاهد من مصانع تشاد لصناعة وسائل النقل بمختلف أنواعها، السفن البحرية، الشراعية والنارية، والطائرات والسيارات والقطارات، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

ومن آثار التسخير الحسية التي ذكرها القرآن الكريم: صناعة الدروع والأسلحة

(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٦، الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢٣٩.

من الحديد.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقال سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠-١١][1].

ومن آثار التسخير الحسية التي ذكرها القرآن الكريم: صناعة السدود، فيصور القرآن ما صنعه ذو القرنين ليوقف زحف يأجوج ومأجوج على الآخرين.

فقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٤-٩٧].

وكان إقامة هذا السد لدفع الأذى عن الإنسان، وقد استخدمت السدود اليوم في توليد طاقة المياه الجارية، فيقيم على مسارها عجلات تحركها المياه فتدير الطواحين لغلاله.

كذلك عرف الإنسان كيف يقيم مراوح تحركها الرياح، وكيف يحول تلك الحركة إلى إدارة الطواحين، وساهم هذا الاختراع في توليد الطاقة الكهربائية، التي تستخدم في جميع المجالات والاحتياجات الإنسانية، ومن الرياح ما يحمل النفع للناس، ففيها تحريك السفن التي تنقل الناس والتجارة، ومن الرياح ما يحمل السحاب ويسوق المطر.

قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤][2].

ومن آثار التسخير المادية: صناعة الأسورة وأدوات الزينة من الذهب، واستخراج الأحجار الكريمة في خدمة البشر. فمن المياه كان يستخرج اللؤلؤ والمرجان، واللؤلؤ: إفراز كلسي تحتضنه قواقع معينة ذات ضلفتين (صدفتين)، ويكون اللؤلؤ في حبيبات مستديرة أو قريبة من الاستدارة في حجم حبة الحمص، وقد تكون أصغر أو أكبر، بيضاء اللون عادة، وقد يشوبها لون آخر، واشتهرت المياه الدافئة بوجود أصداف اللؤلؤ، ويمارس غواصو اللؤلؤ صناعة الحصول على اللؤلؤ

(١) انظر: التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ٢٨٧.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٣، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٣١.

من أصدافه، أما المرجان فيكون في أعواد متشعبة ذات لون برتقالي أو أحمر، ولها مظهر أعواد النبات، إلا أنها حيوان بحري من عائلة المرجانيات، وهو حيوان رخوي يحتمي داخل أعواد كلسية مجوفة، هي أعواد المرجان، ويمكن الحصول على اللؤلؤ وعلى المرجان من المياه المالحة أساسًا، ومن المياه العذبة في ظروف خاصة.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢][1].

ثانيًا: الآثار المعنوية:

لقد ذكر القرآن الكريم الأثار المعنوية للتسخير، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠-١١].

بينت هذه الآية الصورة الكريمة والثناء الجميل للإنسان الذي يحقق معنى التسخير، وفي هذا التسخير للجبال والطير مع كونه معجزة لداود عليه السلام وكرامة وعناية من الله به إذ آنسه بتلك الأصوات في وحدته في الجبال وبعده عن أهله وبلده، على التمام والكمال، وإذا كان داود وسليمان قد خلع الله سبحانه وتعالى عليهما هذه الخلع العظيمة من نعمه، فإن هذه النعم قد وضعها الله تعالى للبشرية جميعًا، وتسخير هذا الكون بما فيه من الطاقات الهائلة التي تغطي احتياجات البشرية هو الذي يحقق للأمة كرامتها وعزها ومجدها.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقد جمعت الآية خمس منن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات. والتكريم: جعله كريمًا، أي: نفيسًا غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته، والتكريم بما جعل الله فيه من المعارف والصنائع، وقبول التطور في أساليب حياته وحضارته، وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة

(١) انظر: القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح ص ١٩١.

والباطنة، ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾، على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية، ﴿وَالْبَحْرِ﴾، في السفن والمراكب، ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، من المآكل والمشارب والملابس والمناكح، فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير، ومن التكريم: أن يكون الإنسان قيمًا على نفسه، محتملًا تبعة اتجاهه وعمله، فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانًا، حرية الاتجاه وفردية التبعة، وبها استخلف في دار العمل، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب[1].

وإن آيات التسخير في القرآن الكريم فيها دلالة عظيمة ودعوة للمؤمنين إلى أن هذا التسخير يجب أن يستفيدوا منه في الحصول على كل الطاقات المسخرة في هذا الكون بما يغطي جميع الاحتياجات، ويدفع المسلمين إلى النهضة، ويلفتهم إلى جلال القرآن، ويحركهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم الذي سخره الله لنا، انتفاعًا يعيد لأمة الإسلام نهضتها ومجدها وكرامتها، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣].

فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطبون بهذا أن يفروا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهدوا في علوم الكون، ولا أن يحرموا أنفسهم فوائد التمتع بثمرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله لخلقه في خزائن سماواته وأرضه، ولهذا نص علماؤنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية وحذق هذه الصناعات الفنية فرض من فروض الكفايات؛ ما داموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع، وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح، والحياة في هذا الوجود إنما تقوم على التمهر في العلوم، وعلى السبق في حلبة الصناعات والفنون.

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]؛ لترتبه على ما قبله بالفاء، أي: بسبب تذليلها بتيسير المشي في أرجائها، وطلب الرزق في أنحائها بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ، والأمر في قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٦٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٣، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٧٨٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٦٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤١.

﴿رِزْقِهِۦ﴾، للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، فيه امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهًا وحثًا للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب؛ لتسخيرها وتذليلها، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

وعليه، فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى، والاستغناء والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل، وأضاعت من حقها في هذا الوجود، وإن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها حتى الإبرة؛ لتستغني عن غيرها، وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت في الإنتاج، وهذا هو واقع العالم اليوم، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية، وقد أعطى الله العالم الإسلامي الأولوية في هذا كله، فعليهم أن يحتلوا مكانهم، ويحافظوا على مكانتهم، ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معا[1].

قال عبد الكريم الخطيب: «ولكن هذه الخلقة المهيأة لأن تكون بمقام الخلافة لله تعالى على الأرض، لا يتحقق لها هذا، حتى تحقق هي ذاتيتها، وتخرج القوى الكامنة فيها، وتفجر الطاقات المندسة في كيانها، كالنواة التي تضم في كيانها عناصر شجرة عظيمة، أو نخلة باسقة، تظل هكذا شيئًا ضئيلًا ميتًا، حتى تندس في صدر الثرى، ثم تتفاعل معه، وتخرج خبأها بعد جهد وصراع، أما الإنسان الذي لا يعمل على الانتفاع بما أودع الله فيه من قوى، فسيظل كتلة باردة من لحم ودم، لا يرتفع كثيرًا عن مستوى أدنى الحيوانات وأحطها منزلة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٤-٦].

هذا هو مقام الإنسان في العالم الأرضي، إنه سيد المخلوقات كلها في هذا العالم، مادام محتفظًا بإنسانيته، عاملًا على الارتقاء بوجوده، أما المخلوقات التي في غير هذا العالم الأرضي، فلا شأن للإنسان بها، كما أنها لا شأن لها بالإنسان، ومن ثم فالمفاضلة بينه وبينها شيء غير وارد، وغير منظور إليه، إذ لا تعامل بين الإنسان وبين تلك المخلوقات!»[2].

ومن الآثار المعنوية للتسخير في قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨، مناهل العرفان، الزرقاني ١/ ٢٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٨/ ٥٢٥.

أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٦-٣٨]. ففي هذه الآية دليل على عظمة وقوة ملك سليمان عليه السلام وعزة سلطانه، وذلك أن الريح قوة عاتية وجبارة وقد سخرها الله تعالى في خدمة سليمان عليه السلام ومملكته العظيمة، وكذلك الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة تسخر هذه الطاقة في خدمة مملكة سليمان عليه السلام.

وقال تعالى يصف معجزة سليمان في تسخير الرياح: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

وقال جل وعلا: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وهكذا صور القرآن الكريم الحرف الصناعية تصويرًا معجزًا ليرسي الخلق الإسلامي، خلق القرآن الكريم؛ فيتحقق ما يأتي: التشريع والتقرير لهذه الصناعات، وأنها مشروعة من قبل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وغرس القيم وتنمية الفضائل من خلال التشريع لهذه الصناعات المتنوعة، لتحقق الغاية من الإسلام وهي الأخلاق، كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[(١)]، كما حث الإسلام على العمل والصمود فيه، فخير الكسب ما كان من عمل اليد.

عن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أكل أحد طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده)[(٢)][(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الأنهار، الشمس، القمر، الجبال

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٨٩٥٢، ١٤/ ٥١٢، والبيهقي في السنن الكبرى رقم كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، ٢٠٧٨٢، ١٠/ ٣٢٣.
والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢، ٣/ ٥٧.

(٣) انظر: النكت، القصاب ٣/ ٦٨٧، روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٦٩.

التَّشَاؤُم

عناصر الموضوع

مفهوم التشاؤم	١٤٤
الألفاظ ذات الصلة	١٤٥
التشاؤم عادة جاهلية	١٤٧
أسباب التشاؤم	١٥٣
صور التشاؤم	١٦٣
نسبة المصائب إلى أشخاص	١٧٧
آثار التشاؤم	١٧٨
علاج التشاؤم	١٨٠

مفهوم التشاؤم

لم يرد لفظ التشاؤم في القرآن الكريم، بل جاء ما يدل عليه في بعض الآيات الكريمة بالمعنى نفسه وبسياقات متنوعة، لذا لا بد أن نبين معنى التشاؤم في اللغة والاصطلاح.

أولًا: المعنى اللغوي:

التشاؤم في اللغة: مصدر شئم، والشؤم: خلاف اليمن، يقال: رجل مشؤوم على قومه، أي: غير مبارك، والجمع مشائيم، وتشاءم القوم به مثل تطيروا به، ويقال: شؤم الدار: ضيقها وسوء جارها، نذير شؤم: علامة وقوع مكروه، ما ينبئ بشر ويبعث على الخوف، والتشاؤم: توقع الشر[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي.

عرفه الحليمي: بأنه سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق[2].

أو هو توقع حدوث الشر أو المكروه من شيء ما تراه أو تسمعه وتتوهم وقوع المكروه به[3]، ويكون وجوده سببًا في وجود ما يحزن ويضر[4].

«ويأتي بمعنى تشاؤم الإنسان بشيء يقع تحت المناظر والمسامع مما تنفر منه النفس مما ليس بطبيعي، فأما نفارها مما هو طبيعي في الإنسان كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار فلا يعد من هذا، وأصله في زجر الطير، وما سواه ملحق به، ثم كثر في غيره حتى قال تعالى حكاية عمن أخبر عنه: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧]. أي: السبب الذي يسعدكم ويشقيكم عند الله»[5].

ويتضح من المعنى اللغوي والاصطلاحي أن التشاؤم: حالة نفسية تلازم بعض الناس، وتبعث في نفوسهم اليأس وعدم الرضا بقدر الله عز وجل.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٥٧، لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٣١٤، المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٣٢٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٢/ ١١٥٤.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ٢١٥.

(٣) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، ١/ ٤٨٢.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٦٦.

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الاصفهاني، ص١٤٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ التطير:

التطير في اللغة:

وهو مأخوذ من مادة (ط ي ر)، والطاء والياء والراء أصل واحد يدل على خفة الشيء في الهواء، ثم يستعار ذلك في غيره وفي كل سرعة، فأما قولهم: تطير من الشيء، فاشتقاقه من الطير، كالغراب وما أشبهه[١]، والاسم (الطيرة) وهو ما يتشاءم به من الفأل الرديء، قال تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ [النمل: ٤٧]أصله: تطيرنا، فأدغم[٢].

التطير في الاصطلاح:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن اللغوي.

قال ابن القيم رحمه الله: «التطير: هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع»[٣].

قال الشيخ ابن عاشور رحمه الله: «وإنما غلب لفظ الطيرة على التشاؤم لأن للأثر الحاصل من دلالة الطيران على الشؤم دلالةً أشد على النفس، لأن توقع الضر أدخل في النفوس من رجاء النفع»[٤].

الصلة بين التطير والتشاؤم:

يتضح من المعنى اللغوي والاصطلاحي أن التطير مأخوذ من الطير في الأصل، ويأتي بمعنى التشاؤم أو التيمن بحركات الطير وأصواتها، ثم صار لفظًا عامًا لكل ما تشاءمت به من طائر أو إنسان أو حيوان أو جماد، وغير ذلك، وعلى هذا فالتطير هو التشاؤم بما يرى من مرور الطير ونحو ذلك ناحية الشمال أو بما يسمع من صوت طائر، كائنًا ما كان، وعلى أية حال كان، ثم أطلق على كل ما يتوهم أنه سبب في حصول الشر.

٢ التفاؤل:

التفاؤل في اللغة:

وأصله الفأل (الفاء والألف واللام)، أي: ما يتفاءل به، وضد الطيرة، والجمع: فؤول، قال الجوهري: الجمع أفؤل، وتفاءلت به وتفأل به؛ قال ابن الأثير: يقال تفاءلت بكذا وتفألت،

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٤٣٦
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ١/ ١٩٤.
(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ٢/ ٢٤٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ٩/ ٦٦.

على التخفيف والقلب، والفأل: أن يكون الرجل مريضًا فيسمع آخر يقول يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول يا واجد، فيقول: تفاءلت بكذا، ويتوجه له في ظنه كما سمع أنه يبرأ من مرضه أو يجد ضالته، والطيرة: ضد الفأل، وهي فيما يكره كالفأل فيما يستحب، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، والفأل يكون فيما يحسن وفيما يسوء، والاسم الفأل مهموز، يقال: لا فأل عليك، بمعنى لا ضير عليك، ولا طير عليك، ولا شر عليك[1].

التفاؤل في الاصطلاح:

وهو حسن ظن بالله عز وجل[2].

الصلة بين التفاؤل والتشاؤم:

العلاقة بين التفاؤل والتشاؤم هو: أن الفأل يأتي من طريق حسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه، بينما التشاؤم لا يكون إلا في السوء والمكروه.

٣ التوكل:

التوكل في اللغة:

مصدر توكل يتوكل، وهو مأخوذ من مادة (وك ل) التي تدل على اعتماد على الغير في أمر ما، ومن ذلك التوكل، وهو: إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك[3].

التوكل في الاصطلاح:

صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار[4].

الصلة بين التوكل والتشاؤم:

التوكل هو ثقة العبد بالله تعالى والاعتماد عليه في كل الأمور، والرضا بقضائه وقدره، بخلاف التشاؤم الذي يظهر فيه سوء الظن بقضاء الله تعالى وقدره.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٦٨، لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٥١٣.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ٢١٥.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٧٣٦، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٧٠.
(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص٤٠٩، التعريفات، الجرجاني ص ٧٠.

التشاؤم عادة جاهلية

لا شك أن التشاؤم هو من عادات أهل الجاهلية والأمم الوثنية السابقة حيث كانوا يتشاءمون من أمور كثيرة، لذا جاء الإسلام فأبطلها؛ لأنها تخل بعقيدة المسلم الصحيحة القائمة على الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، وفي هذا المبحث سنبين بعض الأقوام الذين كانت أبرز صفاتهم التشاؤم وذلك من خلال النماذج الآتية:

أولًا: تشاؤم قوم صالح عليه السلام:

كان دأب الكفار من قبل أنهم يتطيرون بالأنبياء والرسل عليهم السلام، كما أخبر الله تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، أو ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرًا، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحدًا منهم سوء إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه[1].

وأجاب صالح عليه السلام فقال لهم: «﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، بأنه ومن معه ليسوا سبب شؤم، ولكن سبب شؤمهم وحلول المضار بهم هو قدرة الله، واستعير لما حل بهم اسم الطائر مشاكلة لقولهم ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، ومخاطبة لهم بما يفهمون لإصلاح اعتقادهم، بقرينة قولهم اطيرنا بك»[2].

ثم بين أن هذا جهل منهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أي: تختبرون بتعاقب السراء والضراء، والإضراب من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه، ويحتمل أن غيرهم دعاهم إلى هذا القول، ويحتمل أن يكون المراد أن الشيطان يفتنكم بوسوسته[3].

ثم ذكر مآل أمرهم وشديد عقابه بهم فقال تعالى عنهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٧-٦٨].

ويتضح مما تقدم: أن ثمود -وهم قوم صالح عليه السلام- كانوا يتشاءمون من نبيهم ومن معه من المؤمنين، كأنهم يقولون لهم: أنتم نحس علينا، بمعنى أنك يا صالح كنت أنت ومن معك سببًا لتشاؤمنا، فرد عليهم صالح عليه السلام: طائركم الذي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٤٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٩٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٨١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٥٦٠، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ١٦٢.

تدعونه لأنفسكم عند الله وحده، وإنكم تمتحنون بتلك الأوهام من التشاؤم، وتظنون أنه يسعدكم أو يشقيكم، وأن علم الغيب الذي تتعرفونه بالطير هو عند الله تعالى علام الغيوب، ونتيجة تشاؤمهم وكفرهم بنبيهم ومن معه أهلكهم الله تعالى بالصيحة، فصعقوا بها جميعًا، فانكبوا على وجوههم ولم ينج منهم أحد.

ثانيًا: تشاؤم أصحاب القرية:

قال تعالى مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ [يس: ١٨-١٩].

وقولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي: لم نر على وجوهكم خيرًا في عيشنا.

وقال قتادة: يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم.

وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها، وقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾، قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشتم، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: عقوبة شديدة[1].

قال الزمخشري: «وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه، وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا: ببركة هذا، وبشؤم هذا»[2].

قال ابن عاشور: «لما غلبتهم الحجة من كل جانب وبلغ قول الرسل ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾ [يس: ١٧] من نفوس أصحاب القرية مبلغ الخجل، والاستكانة من إخفاق الحجة، والاتسام بميسم المكابرة والمنابذة للذين يبتغون نفعهم؛ انصرفوا إلى ستر خجلهم وانفحامهم بتلفيف السبب لرفض دعوتهم بما حسبوه مقنعا للرسل بترك دعوتهم؛ ظنًا منهم أن ما يدعونه شيء خفي لا قبل لغير مخترعه بالمنازعة فيه، وذلك بأن زعموا أنهم تطيروا بهم ولحقهم منهم شؤم، ولا بد للمغلوب من بارد العذر»[3].

وقول أصحاب القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي: «إنا تشاءمنا بكم، ومعنى «بكم» بدعوتكم، وليسوا يريدون أن القرية حل بها حادث سوء يعم الناس كلهم، من قحط أو وباء أو نحو ذلك من الضر العام، مقارن لحلول الرسل أو لدعوتهم، -وقد جوزه بعض المفسرين- وإنما معنى ذلك: أن أحدًا لا يخلو في هذه الحياة من أن يناله مكروه،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٦٩، ٥٧٠.

(٢) الكشاف، ٤/ ٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٣٦٢.

ومن عادة أصحاب الأوهام السخيفة والعقول المأفونة أن يسندوا الأحداث إلى مقارناتها دون معرفة أسبابها، ثم أن يتخيروا في تعيين مقارنات الشؤم أمورًا لا تلائم شهواتهم وما ينفرون منه، وأن يعينوا من المقارنات للتيمن ما يرغبون فيه وتقبله طباعهم، يغالطون بذلك أنفسهم، شأن أهل العقول الضعيفة، فمرجع العلل كلها لديهم إلى أحوال نفوسهم ورغائبهم»[1].

«ويجوز أن يكونوا أرادوا بالشؤم أن دعوتهم أحدثت مشاجرات واختلافًا بين أهل القرية، فلما تمالأت نفوس أهل القرية على أن تعليل كل حدث مكروه يصيب أحدهم بأنه من جراء هؤلاء الرسل، اتفقت كلمتهم على ذلك فقالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أي: يقولها الواحد منهم أو الجمع، فيوافقهم على ذلك جميع أهل القرية»[2].

حينئذ أجابهم الرسل بقولهم: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي قالوا لهم: سبب شؤمكم من أفعالكم لا من قبلنا كما تزعمون، فأنتم أشركتم بالله سواه، وأولعتم بالمعاصي واجترحتم السيئات، أما نحن فلا شؤم من قبلنا، فإنا لا ندعو إلا إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له والإنابة إليه، وفي ذلك منتهى اليمن والبركة[3].

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق، ٢٢/ ٣٦٣.
(٣) تفسير المراغي، ٢٢/ ١٥٢.

قال قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي: أعمالكم معكم[4].

ثم قالوا: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، أي: «أمن جراء أنا ذكرناكم وأمرناكم بعبادة الله مخلصين له الدين تقابلوننا بمثل هذا الوعيد؟ بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف ومجاوزة الحد في الطغيان، ومن ثم جاءكم الشؤم، ولا دخل لرسل الله في ذلك»[5].

ويتضح مما تقدم أن أصحاب القرية قد تشاءموا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى لهم وتوقعوا الشر منهم ومن دعوتهم، لذلك كذبوهم وهددوهم بالتعذيب أو القتل أو الرجم، إلا أن الله تعالى نجاهم من أصحاب تلك القرية، ولم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية، ولا ما هي القرية، ولعل عدم الإفصاح عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئًا في دلالة القصة، بل ذكرت على سبيل الاتعاظ والاعتبار.

ثالثًا: تشاؤم آل فرعون:

قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٥٠٣.
(٥) انظر: تفسير المراغي، ٢٢،١٥٢.

﴿طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١].

والمعنى: «فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون في دنياهم ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، نحن أولى بها ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾، يعني جدوب وقحوط وبلاء ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، يقول: يتشاءموا ويقولوا: ذهبت حظوظنا وأنصباؤنا من الرخاء والخصب والعافية، مذ جاءنا موسى عليه السلام»[1].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والمراد به في الآية: أنهم يتشاءمون بموسى ومن معه، فاستعمل التطير في التشاؤم بدون دلالة من الطير، لأن قوم فرعون لم يكونوا ممن يزجر الطير فيما علمنا من أحوال تاريخهم، ولكنهم زعموا أن دعوة موسى فيهم كانت سبب مصائب حلت بهم، فعبر عن ذلك بالتطير على طريقة التعبير العربي»[2].

«فمعنى ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ﴾ يحسبون حلول ذلك بهم مسببًا عن وجود موسى ومن آمن به؛ وذلك أن آل فرعون كانوا متعلقين بضلال دينهم، وكانوا يحسبون أنهم إذا حافظوا على اتباعه كانوا في سعادة عيش، فحسبوا وجود من يخالف دينهم بينهم سببًا في حلول المصائب والإضرار بهم، فتشاءموا بهم، ولم يعلموا أن سبب المصائب هو كفرهم وإعراضهم، لأن حلول المصائب بهم يلزم أن يكون مسببًا عن أسباب فيهم لا في غيرهم»[3].

لذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

ومقصود الآية الرد عليهم فيما نسبوا إلى موسى عليه السلام من الشؤم.

قال ابن عباس: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: «مصائبهم عند الله»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: «لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلم ولكن لا يعمل بمقتضى علمه. وقالوا شروع في بيان بعض آخر مما أخذوا به من فنون العذاب التي هي في أنفسها آيات بينات وعدم ارعوائهم عما هم عليه من الكفر والعناد»[5].

وبعد أن ذكر أن هذه الحسنات والسيئات التي لم تردعهم عما هم فيه من الطغيان ذكر أنه أصابهم بضروب أخرى من العذاب، وهي في أنفسها آيات بينات، كما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ

(١) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٧.
(٢) التحرير والتنوير، ٩/ ٦٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٨.
(٥) روح المعاني، الألوسي، ٥/ ٣٣.

﴿يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وهم مع ذلك لم يرعووا عن كفرهم وعنادهم وتشاؤمهم بموسى عليه السلام ومن معه، ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾ [الأعراف: ١٣٢].

فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله تعالى بالغرق، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: ١٣٦].

رابعًا: تشاؤم كفار قريش:

سار كفار قريش على ما سار عليه الأقوام والأمم السالفة في تشاؤمهم برسلهم وأنبيائهم عليهم الصلاة والسلام، وقد فعلوا ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم، فتطيروا به، وردوا كل مصائبهم إليه وإلى ما يدعو إليه، فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

«أي: إن تصبهم حال حسنة تحسن عندهم، من رخاء أو خصب أو ظفر أو غنيمة أو سعة في الرزق، يقولوا: هذه الحال من عند الله تعالى، فإن كان النصر قالوا: من عند الله، وإن يصبهم أمر يسيئهم، كالهزيمة، قالوا: ذلك من محمد، كأنهم ينسبونه إلى سوء تدبيره عليه الصلاة والسلام، أو يتشاءمون به، ويهبطون بذلك هبوطًا شديدًا فالحسنة ما يحسن عندهم، والسيئة ما يسوؤهم، وذلك التفكير الذي يفكرونه ناشئ من ضعفهم النفسي، وضعفهم الإيماني، وسوء ظنهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك شأن أهل النفاق ومن يستمعون إليهم من ضعفاء أهل الإسلام»[1].

وجيء في حكاية قولهم: ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، بكلمة (عند) للدلالة على قوة نسبة الحسنة إلى الله ونسبة السيئة للنبي عليه الصلاة والسلام، أي: قالوا ما يفيد جزمهم بذلك الانتساب، ولما أمر الله رسوله أن يجيبهم قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ مشاكلة لقولهم، وإعرابًا عن التقدير الأزلي عند الله[2].

«والقول المراد في قوله: ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، هو قول نفسي، لأنهم لم يكونوا يجترئون على أن يقولوا ذلك علنًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يظهرون الإيمان به، أو هو قول يقولونه بين إخوانهم من المنافقين، يقولون: هذه من عند محمد، فيكون الإتيان

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٤/ ١٧٧٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٣٤.

بكاف الخطاب من قبيل حكاية كلامهم بحاصل معناه على حسب مقام الحاكي والمحكي له، وهو وجه مطروق في حكاية كلام الغائب عن المخاطب إذا حكى كلامه لذلك المخاطب»[1].

فأخبر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يقول لهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أي: «الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر، والمؤمن والكافر»[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الحسنة والسيئة من عند الله، أما الحسنة فأنعم بها عليك، وأما السيئة فابتلاك بها»[3].

ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، أي: لا يكادون يعلمون حقيقة ما تخبرهم به، من أن كل ما أصابهم من خير أو شر، أو ضر وشدة ورخاء فمن عند الله، لا يقدر على ذلك غيره، ولا يصيب أحدًا سيئة إلا بتقديره، ولا ينال رخاءً ونعمة إلا بمشيئته، وهذا إعلام من الله عباده أن مفاتح الأشياء كلها بيده، لا يملك شيئًا منها أحد غيره[4].

وقال ابن القيم رحمه الله: «ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا بما جئت به؛ لأنه ليس فيما جاء به الرسول ما يقتضي الطيرة، فإنه كله خير محض لا شر فيه، وصلاح لا فساد فيه، وحكمه لا عبث فيها، ورحمة لا جور فيها، فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا؛ فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة، وليس فيما أتيتهم به لو فهموا ما يوجب تطيرهم، بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم، وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التي يتناولوها منه بأعمالهم وكسبهم، ويحتمل أن يكون المعنى: طائركم معكم، أي: راجع عليكم، فالطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم»[5].

(١) المصدر السابق، ٥/ ١٣٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٦٢.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٥٥٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٨/ ٥٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٦٢.
(٥) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٢/ ٢٣٣.

أسباب التشاؤم

للتشاؤم أسباب عديدة ومتنوعة، من أهمها:

أولًا: الكفر:

إن التشاؤم شرك بالله تعالى، خصوصًا إذا اعتقد المتشائم أن ما يتشاءم به مؤثر بذاته، فهو شرك أكبر، وذلك لأنه اعتقد مع الله عز وجل موجدًا وخالقًا آخر، وأما إذا اعتقد أن المؤثر هو الله تعالى ولكن هذه سبب، فيعد هذا شركًا أصغر، لأنه جعل التشاؤم سببًا في التأثير، والشرع لم يجعله سببًا.

ولا شك أن التشاؤم قد يصل بالإنسان إلى الكفر لما فيه من شرك وادعاء علم الغيب واعتقاد جلب النفع ودفع الضر، واليأس مما عند الله تعالى من خير؛ مما يؤدي إلى انتفاء الإيمان من المتشائم تدريجيًا وصولًا إلى الكفر؛ لذلك ذم الله تعالى اليائسين منه بقوله تعالى: ﴿لَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

أي: «أنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون؛ لأن من آمن يعلم أنه متقلب في رحمة الله ونعمته فلا ييأس من رحمته، وأما الكافر فإنه لا يعلم رحمة الله ولا تقلبه في رحمته؛ فييأس من رحمته»[1].

قال الإمام الرازي رحمه الله: «واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم بل هو بخيل، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرًا، والله أعلم»[2].

وقد يصل العبد بتشاؤمه أيضًا إلى القنوط والوقوع في الكبائر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم: ٣٦].

أي: «﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي: بلاء من جدب أو ضيق أو مرض، والسبب فيها شؤم معاصيهم، قنطوا من الرحمة»[3].

وذم الله تعالى أقوامًا كما مضى سابقًا في تشاؤم قوم موسى عليه السلام وأصحاب القرية من رسلهم عليهم السلام، فقد كان تشاؤمهم سببًا في كفرهم بالله تعالى، ومن ثم بأنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٦/ ٢٧٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/ ٥٠١.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤٨٠.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وإنهم مسرفون في قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشؤم الذي أتاكم من عند الله بكفركم»[(١)].

وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الطيرة شرك)[(٢)].

وإنما جعل التشاؤم شركًا لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعًا أو يدفع ضررًا، فاعتمدوا عليها، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى، وذلك مثل أن يريد الرجل سفرًا، فيسمع: يا راشد، أو يا غانم، أو يا سالم؛ فيمضي في سفره اعتمادًا على ما سمع، أو يريد سفرًا فيسمع صياح الغراب، أو البومة فيرجع عن سفره تشاؤمًا منه، كل ذلك شرك؛ لكونه لم يخلص توكله على الله عز وجل.

لذلك نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وبين كفارته، فقد روي عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)، قالوا: يا رسول الله، فما كفارة ذلك؟ قال: (يقول: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله إلا أنت)[(٣)]، أو يقول: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)[(٤)].

وقال عليه الصلاة والسلام: (لا طيرة، وخيرها الفأل) قالوا: وما الفأل؟ قال: (الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم)[(٥)].

قال الإمام النووي: «معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (لا طيرة) أي: اعتقاد أنها تنفع أو تضر إذا عملوا بمقتضاها معتقدين تأثيرها فهو شرك؛ لأنهم جعلوا لها أثرًا في الفعل والإيجاد، وأما الفأل وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بالكلمة الصالحة والحسنة والطيبة، قال العلماء: يكون الفأل فيما يسر وفيما يسوء، والغالب في السرور،

(١) لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٦٨٧، ٣/ ٥٤٦، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩١٠، ٤/ ١٧، والترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الطيرة، رقم ١٦١٤، ٤/ ١٦٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل، رقم ٣٥٣٨، ٢/ ١١٧٠.
قال الترمذي: «وهذا حديث حسن صحيح».

(٣) اخرجه أحمد في مسنده، رقم ٧٠٤٥، ٦/ ٤٧١، والطبراني في المعجم الكبير، رقم ٢٢/ ١٣، ٣٨.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات».

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩١٩، ٦/ ٦١.
وصححه النووي في رياض الصالحين ص ٤٧٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الطيرة، رقم ٥٧٥٤، ٧/ ١٣٥.

والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «إن التطير هو: التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك، بل ولجه، وبرىء من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، والتطير مما يراه أو يسمعه، وذلك قاطع له عن مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] و﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠] فيصير قلبه متعلقًا بغير الله عبادة وتوكلًا، فيفسد عليه قلبه وإيمانه»[2].

ويتضح مما تقدم: أن التشاؤم قد يكون من الشرك الأصغر المنافي لعبادة الله تعالى وتوحيده، لما فيه من سوء الظن بالله تعالى كما مر سابقًا، وقد يتحول إلى شرك أكبر، إذا اعتقد المتشائم أن ما يتشاءم به كان مؤثرًا في حصول المكروه، أو جلب النفع ودفع الضر وأنها فاعلة بذاتها، إذ لا فاعل إلا الله تعالى، ولا مؤثر في الكون سواه، وقد يصل إلى الكفر بالله تعالى الذي يوجب الوعيد.

ثانيًا: سوء الظن بالله تعالى:

لا يخلو التشاؤم من سوء الظن بالله تعالى وبأقداره الجارية، وتوقع الشر والبلاء مع اعتقاد حصول الضر والنفع من غير الله تعالى، وإن من أعظم الذنوب عند الله: إساءة الظن به جل وعلا، وقد ذم الله تعالى في آياته الكريمة الذين يظنون بالله تعالى ظن السوء بقوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

«ومعنى ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: حدثتهم أنفسهم بما يدخل عليهم الهم، وذلك بعدم رضاهم بقدر الله تعالى، وبشدة تلهفهم على ما أصابهم، وتحسرهم على ما فاتهم مما يظنونه منجيًا لهم لو عملوه: أي من الندم على ما فات، وإذ كانوا كذلك كانت نفوسهم في اضطراب وتحرق يمنعهم من الاطمئنان»[3].

ومعنى قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، أي: أنهم ذهبت بهم هواجسهم إلى أن ظنوا بالله ظنونا باطلة من أوهام الجاهلية، وفي هذا تعريض بأنهم لم يزالوا على جاهليتهم

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم ١٤/ ٢١٩.
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٢/ ٢٤٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٣٤.

ولم يخلصوا الدين لله تعالى.

وقد بين لهم المراد بالظن بقوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، و﴿هَل﴾ للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، وهو تبرئة لأنفسهم من أن يكونوا سببًا في مقابلة العدو.... ويظنون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس برسول؛ إذ لو كان لكان مؤيدًا بالنصر.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

والشاهد في الآية الكريمة أن التشاؤم هو صفة من صفات بعض أهل الجاهلية، وهو سوء ظن بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، واعتراض على أقدار الله تعالى.

وهذا كله من صفات المنافقين والمشركين الذين توعدهم الله تعالى بالوعيد الشديد بقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٤٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٣٥.

وقد بين الإمام ابن القيم أن الظن الوارد في الآية: ظنٌّ لا يليق بالله تعالى؛ بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته؛ ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن لا يليق به سبحانه ولا بحكمته وحمده ووعده الصادق؛ فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة؛ فذلك ظن الذين كفروا؛ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء[2].

وقال أيضًا في وصفه لحال هذا الصنف من الناس: «فأكثر الخلق بل كلهم إلا ما شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق،

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٠٦.

ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: «ظلمني ربي ومنعني ما أستحق» ونفسه تشهد عليه وإن كان لسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامة له، وأنه ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر»[1].

لذلك يقول ابن عاشور: «الشؤم يقع على من يتشاءم، جعل الله ذلك عقوبة له في الدنيا لسوء ظنه بالله تعالى[2]».

وتوعد الله تعالى الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

فكان جزاؤهم بأن أرداهم الله تعالى فقال تعالى عنهم: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣].

ثالثًا: الإسراف في المعاصي والآثام:

لا شك أن الإسراف في المعاصي هو أساس كل شر وضلالة، فالإسراف: هو الإكثار من الشيء، والمجاوزة عن الحد[3]، ويأتي أيضًا بمعنى مجاوزة الحد في العصيان، كما حصل مع قصة أصحاب القرية التي مر ذكرها، حيث إن المعاصي والذنوب كانت سببًا في الشؤم الذي أصابهم نتيجة كفرهم برسلهم.

وقد وصف الله تعالى أصحاب القرية بالمسرفين في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٩].

أي: قوم عادتكم الإسراف في العصيان، فمن ثم جاءكم الشؤم، أو في الضلال، ولذلك توعدتم وتشاءمتم بمن يجب أن يكرم ويتبرك به[4].

قال قتادة رحمه الله: «مسرفون في تطيركم»[5].

قال الشيخ ابن عاشور: «﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: لا طيرة فيما زعمتم، ولكنكم قوم كافرون، غشيت عقولكم الأوهام، فظننتم ما فيه نفعكم ضرًا لكم، ونطتم الأشياء بغير أسبابها من إغراقكم في الجهالة والكفر وفساد الاعتقاد، ومن إسرافكم اعتقادكم بالشؤم والبخت»[6].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «فلا شؤم إلا المعاصي والذنوب؛ فإنها تسخط

(١) المصدر السابق، ٣/ ٢١١.
(٢) التحرير والتنوير، ٩/ ٦٦.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٤٨٨.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٦٥.
(٥) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٤١٩.
(٦) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٣٦٤.

الله عز وجل، فإذا سخط على عبده شقي في الدنيا والآخرة، كما إنه إذا رضي عن عبده سعد في الدنيا والآخرة»[1].

وقال أيضًا: «فالعاصي مشؤوم على نفسه وعلى غيره، فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعم الناس، خصوصًا من لم ينكر عليه عمله، فالبعد عنه متعين، فإذا كثر الخبث هلك الناس عمومًا، وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها يتعين البعد عنها والهرب منها خشية نزول العذاب»[2]، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما مر على ديار ثمود بالحجر: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم)[3].

ويتضح مما تقدم ومن خلال الآية الكريمة: أن الإسراف في المعاصي والآثام سبب من أسباب التشاؤم الذي لحق أصحاب القرية، فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله تعالى بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم، كما قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٩].

(١) لطائف المعارف، ابن رجب، ١/ ٧٦.
(٢) المصدر السابق، ١/ ٧٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم ٤٣٣، ١/ ٩٤.

رابعًا: الجهل والضلال:

لا شك أن الجهل من أسباب التشاؤم؛ لذا وصف الله تعالى آل فرعون وغيرهم بأن أكثرهم لا يعلمون، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: «فلجهلهم بذلك كانوا يطيرون بموسى عليه السلام ومن معه»[4].

قال الزمخشري: «ويجوز أن يكون معناه: ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله، ويعاقبون له بعد موتهم، بما وعدهم الله في قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]. ولا طائر أشأم من هذا»[5].

قال الخازن رحمه الله: «وإنما قال: ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى القضاء والقدر»[6].

ويتضح من الآية الكريمة: أن الله تعالى ذم آل فرعون، ووصفهم بأنهم لا يعلمون بسبب جهلهم؛ حيث أسندوا حوادث هذا

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٨.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ١٤٥.
(٦) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٣٩.

العالم لا إلى قضاء الله تعالى وقدره، بل إلى شؤمهم.

وعلى هذا فالجهل: هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، واعترضوا عليه بأن الجهل قد يكون بالمعدوم، وهو ليس بشيء، والجواب عنه: أنه شيء في الذهن، ويكون بسيطًا، أو مركبًا، والجهل البسيط هو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالمًا، أما الجهل المركب فهو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع[1].

وقد جعل الراغب الأصفهاني الجهل على ثلاثة أضراب:

«الأول: هو خلو النفس من العلم وهذا هو الأصل، وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مقتضيًا للأفعال الخارجة عن النظام كما جعل العلم معنى مقتضيًا للأفعال الجارية على النظام.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أم فاسدًا، كتارك الصلاة عمدًا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فجعل فعل الهزؤ جهلًا، وقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦]»[2].

والمتأمل في القرآن الكريم يجد آيات كثيرة ذم الله تعالى الجهل وأهله؛ لأنه هو سبب الشر والذنوب والمعاصي، ومنه: ما حصل من تشاؤم آل فرعون وقومه من موسى عليه السلام، وثمود مع صالح عليه السلام، وأصحاب القرية مع رسلهم، ومشركو قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم، فسبب اعتقادهم هذا الشيء على خلاف ما هو عليه، فالأنبياء والرسل عليهم السلام لا دخل لهم بما نسبوه إليهم من الشؤم.

وجاء في السنة النبوية ذم الجهل، فمن ذلك ما ورد في الحديث الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ذات يوم في خطبته: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...) الحديث[3].

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٨٠.

(٢) المفردات ص٢٠٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥، ٤/ ٢١٩٧.

وقوله: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم)، أي: مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيبين لقبول الهداية، (وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)، أي: استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل[1].

ودلالة الحديث واضحة في بيان أن الجهل سبب الضلال؛ لذلك حذر الله تعالى منه عباده المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٦].

واستعاذ نبي الله موسى عليه السلام من الجهل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وكذلك استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم منه، بما صح عن الشعبي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «ما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: (اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي)[2].

والجهل لا يزول إلا بالعلم؛ لذا فعلى المسلم إذا جهل أمرًا ما فعليه الرجوع إلى العلماء قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

ويتضح مما تقدم أن الجهل والضلال واقع في أكثر الناس، لذا لا بد للمؤمن أن يتبين من الأمور ما كان جاهلًا بها، وخصوصًا من كان لديه اعتقاد الشؤم، فالأولى به أن يعالج نفسه بالعلم النافع، ويبذل قصارى جهده فيه، لكي ينقذ نفسه من ضلالة الجهل الذي وقع فيه.

خامسًا: وساوس الشيطان:

حذر الله تعالى في القرآن الكريم عباده من اتباع وساوس الشيطان؛ فهو عدو للإنسان، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

(١) انظر: شرح النووي على مسلم، ١٧/ ١٩٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم ٥٠٩٤، ٧/ ٤٢٤، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب رقم ٣٥، رقم ٣٤٢٧، ٥/ ٤٩٠، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من أن يظلم، رقم ٧٨٧٠، ٧/ ٢٢٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته، رقم ٣٨٨٤، ٢/ ١٢٧٨. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

أي: إن الشيطان معلن عداوته لكم بوسوسته، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به، ثم ذكر أعماله ودعوته أتباعه إلى الغواية والضلالة فقال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي ما غرضه من دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى لذات الدنيا إلا إضلالهم وإلقاؤهم في العذاب الدائم من حيث لا يشعرون [(١)].

ولا شك أن وساوس الشيطان هي سبب من أسباب التشاؤم؛ لذلك وصف الله تعالى قوم صالح عليه السلام بأنهم قوم فتنوا بتشاؤمهم من نبيهم صالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧].

ومعنى قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أي: تختبرون، أو تعذبون، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة، وقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال [(٢)].

قال قتادة رحمه الله: «تبتلون بالطاعة والمعصية» [(٣)].

وعلى أية حال، فإن القصد بيان أن سبب نزول الشر بهم هو عصيانهم وكثرة ذنوبهم، وكلها تعود إلى وساوس الشيطان لهم.

وكل هذه الوساوس التي يلقيها الشيطان من باب الفتنة، لذلك قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٥٣].

ونهى الله تعالى عن اتباع خطوات الشيطان وحذر منها بقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

وشرع لنا الاستعاذة منه ومن وسوسته فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وعلى هذا فالأحرى بالمسلم الذي تنتابه دواعي الشؤم وتنقدح في قلبه أن يستعيذ بالله تعالى مما ألقى الشيطان في نفسه من تلك الوساوس والعوارض، ويلجأ إلى الله تعالى بكثرة الدعاء، مع حسن الظن بالله والتوكل عليه في كل الأحوال.

---

(١) انظر: تفسير المراغي، ٢٢/ ١٠٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٥٦٠، البحر المحيط، أبو حيان، ٨/ ٢٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٩٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٩٨.

سادسًا: التقليد:

لا شك أن التقليد سبب من أسباب التشاؤم، فهو عادة سارت عليها الأمم الوثنية القديمة، وتبعها بعد ذلك أهل الجاهلية، وبقيت مستمرة إلى وقتنا الحاضر، ويأتي التقليد بأشكال متعددة، منها: ما كان في الاعتقاد أو الأفعال أو الأقوال، والسير على ما سار عليه الآباء والأجداد، وذلك بتقليدهم في الباطل دون استناد إلى دليل في ذلك، وهذا ما حصل مع الأقوام التي ذكرناها سابقًا، مثل قوم صالح عليه السلام، وأصحاب القرية، وغيرهم حيث كان التشاؤم عندهم من باب تقليد الآباء والأجداد.

لذلك ذم الله تعالى المقلدين لآبائهم في كل أنواع الضلالة والباطل بما فيها التشاؤم؛ فقال تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢﴾ [الزخرف: ٢٢].

أي: ليس لهم علم فيما قالوه ولا نقل، فكان هذا الكلام مسوقًا مساق الذم لهم؛ إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرسول وبين ما تلقوه من آبائهم، فإن شأن العاقل أن يميز ما يلقى إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق، و﴿أُمَّةٖ﴾ هنا بمعنى الملة والدين، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾، أي: أنهم لا حجة لهم في عبادتهم الأصنام إلا تقليد آبائهم، وذلك ما يقولونه عند المحاجة إذ لا حجة لهم غير ذلك، وجعلوا اتباعهم إياهم اهتداء لشدة غرورهم بأحوال آبائهم، بحيث لا يتأملون في مصادفة أحوالهم للحق[1].

«والمقصود أنه تعالى لما بين أنه لا دليل لهم على صحة ذلك القول البتة بين أنه ليس لهم حامل يحملهم عليه إلا التقليد المحض، ثم بين أن تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلًا من قديم الدهر، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣]»[2].

ورد الله تعالى على المقلدين لآبائهم وأجدادهم في العقائد الضالة وأبطل شبههم وتمسكهم بالتقليد الباطل، حيث قال تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

«أي أيتبعون ما ألفوا عليه آباءهم في كل حال وفي كل شيء، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا من عقائد الدين وعباداته: أي حتى لو تجردوا من دليل عقلي أو نقلي في عقائدهم وعباداتهم»[3].

وهو كقوله تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ [الزخرف:

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٨٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ٦٢٧.
(٣) تفسير المراغي، ٢/ ٤٤.

٢٤].

«فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة، ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣][1].

فكان جزاؤهم أن حلت عليهم النقمة من الله تعالى؛ وذلك لتقليدهم الأعمى في العقائد الضالة، وتكذيبهم للرسل عليهم الصلاة والسلام، فقال الله تعالى عنهم: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٢٥﴾ [الزخرف: ٢٥].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٢٤.

صور التشاؤم

اشتهرت العرب في الجاهلية بالتشاؤم كما مر، ولا شك أن التشاؤم يظهر بصور متعددة متنوعة بحسب اختلاف الأمكنة والأزمنة والناس، وسنذكر في هذا المبحث بعض صور التشاؤم، والتي منها:

أولًا: التشاؤم بالصور:

ويشمل هذا النوع من التشاؤم أنواعا متعددة منها ما يأتي:

١. التشاؤم بالبشر.

وهذا النوع من التشاؤم قد حصل مع بعض أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام من قبل أقوامهم، كما أخبر الله تبارك وتعالى عن ذلك في قصصهم.

قال الله تعالى عن تشاؤم فرعون وقومه من موسى عليه السلام: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ «أي: الخصب والسعة ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾، أي: هذا ما كنا نعرفه أبدًا وما جرينا على اعتياده، أو أن يقولوا: لنا هذه بفرعون وبعبادتنا له، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾، قيل:

الضيق والقحط، ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ﴾، وقالوا بشؤمه»[1].

وهذا كما قال العرب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

ويتضح من هذه الآيات وغيرها أن التشاؤم بالبشر عادة قديمة كانت عند بعض الأقوام كفرعون وقومه، حيث كانوا يتشاءمون ويتطيرون من موسى وأتباعه، معتقدين أنهم هم سبب ما أصابهم من الجدب والضيق والقحط، وتبعهم في ذلك قوم صالح وأصحاب القرية وغيرهم، فبين الله تعالى لهم أن ما أصابهم إنما هو بقضاء الله وقدره، ولا دخل للرسل عليهم الصلاة والسلام في ذلك.

وكذلك منهم من يتشاءم بملاقاة الأعور أو الأعرج أو المهزول أو الشيخ الهرم أو العجوز الشمطاء، وكثير من الناس إذا لقيه وهو ذاهب لحاجة صده ذلك عنها ورجع معتقدًا عدم نجاحها، وكثير من أهل البيع لا يبيع ممن هذه صفته إذا جاءه أول النهار، حتى يبيع من غيره تشاؤمًا به وكراهة له، وكثير منهم يعتقد أنه لا ينال في ذلك اليوم خيرًا قط[2].

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٥٤٥.
(٢) انظر: معارج القبول، الحكمي، ٣/ ٩٩٠.

٢. التشاؤم بالطيور.

ورد لفظ الطير في القرآن الكريم بغير معناه الحقيقي بل ببعض اشتقاقاته التي تدل على معنى التشاؤم كما مر ذكره في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٨-١٩].

قال الأزهري: «وقيل للشؤم: طائر وطير وطيرة، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها وبنعيق غربانها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيرًا وطائرًا وطيرة لتشاؤمهم بها وبأفعالها»[3].

قال الشافعي رحمه الله: «وكان العربي إذا لم ير طائرًا سانحًا، فرأى طائرًا في وكره حركه من وكره ليطير، فينظر أيسلك طريق الأشائم، أو طريق الأيامن، فيشبه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أقروا الطير على مكناتها)[4]، أي: لا تحركوها، فإن تحريكها

(٣) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤/ ١٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٧١٣٩، ٤٥/ ١١٣، أبو داود في سننه، كتاب الضحايا، باب في العقيقة، رقم ٢٨٣٥، ٤/ ٤٥٥، وابن حبان في صحيحه، رقم ٦١٢٦، ١٣/ ٤٩٥، والحاكم في المستدرك، رقم ٧٥٩١، ٤/ ٢٦٥.
قال الحاكم: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

وما تعملونه، من الطيرة لا يصنع شيئًا، إنما يصنع فيما توجهون به قضاء الله تعالى»[1].

وعلى هذا فإن أصل التشاؤم يعتمد على حركة الطيور وأصواتها، كما قال الإمام البيهقي: «وذلك بزجر الطائر وإزعاجها عن أوكارها عند إرادة الخروج للحاجة، حتى إذا مرت على اليمين تفاءل به ومضى على وجهه، وإن مرت على الشمال تشاءم به وقعد، فهذا من فعل أهل الجاهلية الذين كانوا يوجبون ذلك، ولا يضيفون التدبير إلى الله عز وجل»[2].

ومن أبرز الطيور التي كانت العرب تتشائم منها قديمًا وحديثًا ما يأتي:

١. الغراب.

وهو أعظم ما يتطيرون به، ويسمونه غراب البين؛ لأنه إذا بان أهل الدار للنجعة وقع في موضع بيوتهم يلتمس ويتقمم، فتشاءموا به وتطيروا إذا كان يعتري منازلهم إذا بانوا، وليس شيء مما يزجرونه من الطير والظباء وغيرها أنكد منه، ولست تراه محمودًا في شيء من الأحوال، ويشتقون من اسمه الغربة[3].

ويسمونه أيضًا حاتمًا؛ لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير بذلك؛ إذ كان أصح الطير بصرًا، ويقال: سمي أعور لقولهم: « عورات الرجل عن حاجته » إذا رددته عنها[4].

وعلى هذا فالغراب أكثر ما يتطير به في الشؤم، كلما ذكروا مما يتطيرون منه شيئا ذكروا الغراب معه.

٢. الهامة.

اسم طائر، كان أهل الجاهلية يتشاءمون بها، وهي من طير الليل، وقيل: هي البومة، وقيل: كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يدرك بثأره تصير هامة، فتقول: اسقوني، فإذا أدرك بثاره طارت، وقيل: كانوا يزعمون أن عظام الميت، وقيل روحه، تصير هامة فتطير، ويسمونه الصدى، فنفاه الإسلام ونهاهم عنه[5].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال القزاز: الهامة طائر من طير الليل كأنه يعني البومة، وقال ابن الأعرابي كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نعت إلي نفسي، أو أحدًا من أهل داري»[6].

وعلى هذا فالهامة هي نوع من أنواع الطيور، وربما تكون البومة حيث كانت العرب تتشاءم منها، فجاء في الحديث

(١) السنن المأثورة للشافعي، المزني ١/ ٣٤٢.
(٢) شعب الإيمان، ٢/ ٣٩٦.
(٣) انظر: المعاني الكبير، ابن قتيبة الدينوري، ١/ ٢٦٤.
(٤) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق، ٢/ ٢٦١.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الاثير، ٥/ ٢٨٣.
(٦) فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ٢٤١.

الشريف النهي عن التطير بالهامة، بما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر)[1].

٣. البارح والسانح.

«البارح من الظباء والطير، لكن خص البارح بما ينحرف عن الرامي إلى جهة لا يمكنه فيها الرمي فيتشاءم به، وجمعه بوارح، وخص السانح بالمقبل من جهة يمكن رميه، ويتيمن به»[2].

قال ابن الأثير: «فالسانح: ما مر من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمن به لأنه أمكن للرمي والصيد، والبارح ما مر من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف»[3].

ويتضح مما تقدم أن التشاؤم بالطيور كالغراب والبومة ونحوهما عادة كانت منتشرة عند أهل الجاهلية والأمم السالفة، يتشاءمون منها ومن حركاتها وأصواتها وأفعالها، وهي من مخلوقات الله لا أثر لها في حكم الله وقضائه، فجاء الإسلام ونهى عن كل ذلك.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب لا هامة، رقم ٥٧٥٧، ٧/ ١٣٥.
(٢) المفردات، الراغب ص١١٦.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/ ١١٤.

٣. التشاؤم بالحيوانات.

لا يختلف التشاؤم بالحيوانات عن التشاؤم بالطيور الذي مضى ذكره؛ لذا نجد أن كثيرًا من أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون ببعض الحيوانات وأصواتها، منها:

١. النطيح والناطح.

«الظبي والطائر الذي يستقبلك بوجهه، كأنه ينطحك، ويتشاءم به، والقعيد من الوحش»[4].

٢. الفرس النطيح.

إذا طالت غرته حتى تسيل تحت إحدى أذنيه، وهو يتشاءم به[5].

٣. الكلب الأسود.

وهناك من يتشاءم بالأسود من الكلاب، وربما يعود هذا التشاؤم لما ورد في الحديث بقوله صلى الله عليه وسلم: (الكلب الأسود شيطان)[6].

والمراد بالحديث ليس التشاؤم منه، بل الإخبار بأن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة، وعلى ذلك فلا يصح التشاؤم به.

٤. الظباء.

وذلك بتنفيرها، فإن تيامنت ذهبوا لحاجتهم، وإن تياسرت تركوها.

(٤) المفردات، الراغب ص ٨١١، ٦٧٩.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٦٢١.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي، رقم ٥١٠، ١/ ٣٦٥.

وكثير مما شاكل هذا كان الناس في الجاهلية قبل النبوة يتشاءمون به، فجاء الإسلام فنهى عن كل ذلك وأبطله.

ثانيًا: التشاؤم بالأصوات:

يتشاءم كثير من أهل الجاهلية وغيرهم من بعض ما يصدر من الإنسان والحيوان من أصوات، منها ما يأتي:

١. أصوات الطيور.

ومنه: التشاؤم بنعيق الغراب، أو صوت البومة إذا صاحت، قالوا: إنها ناعبة أو مخبرة بشر، ونحو ذلك.

«قال عكرمة: كنا جلوسًا عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر، مبادرة بالإنكار عليه لئلا يعتقد له تأثير في الخير أو الشر، وخرج طاووس مع صاحب له في سفر فصاح غراب، فقال الرجل: خير، فقال طاووس: وأي خير عنده؟! والله لا تصحبني»[(١)].

٢. الثعلب.

وذلك بالتشاؤم من صوته.

٣. صوت العطاس.

وهو من العادات الجاهلية فإذا سمع المتشائم صوت العاطس تشاءم منه، وكذلك التثاؤب لأنه من الشيطان، وأما العطاس فقد كان أثره في إيجاد الشؤم شديدًا.

وقيل: إن العرب كانت تتطير منه، فإذا عطس العاطس، قالوا: قد ألجمه، كأنها قد تلجمه عن حاجته[(٢)].

قال ابن القيم رحمه الله: «وكانوا إذا عطس من يحبونه قالوا له: عمرًا وشبابًا، وإذا عطس من يبغضونه، قالوا له: وريًا وقحابًا، والوري كالرمي: داء يصيب الكبد فيفسدها، والقحاب: كالسعال وزنًا ومعنى، فكان الرجل إذا سمع عطاسًا يتشاءم به، يقول: بكلابي إني أسال الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لأبي»[(٣)].

وقال أيضًا: «وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد، كما حكي عن بعض الملوك أن سامرًا له عطس عطسة شديدة راعته، فغضب الملك فقال سميره: والله ما تعمدت ذلك، ولكن هذا عطاسي، فقال: والله لئن لم تأتني بمن يشهد لك بذلك لأقتلنك، فقال: أخرجني إلى الناس، لعلي أجد من يشهد لي، فأخرجه، وقد وكل به الأعوان، فوجد رجلًا فقال: يا سيدي، نشدتك بالله إن كنت سمعت عطاسي يومًا، فلعلك تشهد لي به عند الملك. فقال: نعم، أنا أشهد لك، فنهض معه وقال: يا أيها الملك، أنا أشهد أن هذا الرجل عطس يومًا فطار ضرس من

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ٢/ ٢٣٥.

(٢) المعاني الكبير، ابن قتيبة الدينوري، ٣/ ١١٨٥.

(٣) مفتاح دار السعادة، ٢/ ٢٦٢.

أضراسه، فقال له الملك: عد إلى حديثك ومجلسك. فلما جاء الله سبحانه بالإسلام وأبطل برسوله ما كان عليه الجاهلية من الضلالة»[1].

وهذا خلاف ما جاء في السنة النبوية الشريفة التي بينت أن العطاس أمر يحبه الله تعالى، وذلك بما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس فحمد الله، فحق على كل مسلم سمعه أن يشمته...الحديث)[2].

ثالثًا: التشاؤم بالأزمنة:

لا شك أن التشاؤم ببعض الأزمنة، مثل شهر شوال وصفر ومحرم، أو بيوم من أيامه هو من باب التشاؤم المنهي عنه، فعلى سبيل المثال كان أهل الجاهلية وغيرهم يتشاءمون من الزواج في شهر شوال.

قال ابن رجب: «كذلك تشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة، وقد قيل: إن أصله أن طاعونًا وقع في شوال في سنة من السنين فمات فيه كثير من العرائس، فتشاءم بذلك أهل الجاهلية، وقد ورد الشرع بإبطاله، قالت عائشة رضي الله عنها: «تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نسائه كان أحظى عنده مني»[3].

قال ابن كثير رحمه الله: «وفي دخوله صلى الله عليه وسلم بها -أي: بعائشة رضي الله عنها- في شوال رد لما يتوهمه بعض الناس من كراهية الدخول بين العيدين؛ خشية المفارقة بين الزوجين، وهذا ليس بشيء»[4].

«وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال، وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة في شوال أيضًا»[5].

ووقع زواج علي بن أبي طالب رضي الله عنه من السيدة فاطمة رضي الله عنها في شهر صفر، كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وأما فاطمة رضي الله عنها فتزوجها ابن عمها علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفر سنة اثنتين، فولدت له الحسن والحسين، ويقال: ومحسن، وولدت له أم كلثوم وزينب»[6].

فلم يتشاءم النبي صلى الله عليه وسلم بشهر شوال ويمتنع عن الزواج به من عائشة رضي الله عنها، ولم يؤخر زواج علي بن أبي طالب من فاطمة رضي الله عنهما في شهر

(١) المصدر السابق، ٢/ ٢٦٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يستحب من العطاس وما يكره من التثاؤب، رقم ٦٢٢٣، ٨/ ٤٩.
(٣) لطائف المعارف، ابن رجب ١/ ٧٤، ٧٥.
(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ٢٣١.
(٥) لطائف المعارف، ابن رجب ١/ ٧٤، ٧٥.
(٦) البداية والنهاية، ابن كثير ٥/ ٣٠٩.

صفر، وهذا خلاف ما تفعله الشيعة، الذين يزعمون أنهم أتباع آل البيت وهم يتشاءمون من شهر صفر ومحرم، ولا يتزوجون فيهما أبدًا.

وجاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر)[1].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (ولا صفر): أي كانت العرب تزعم أن في البطن حية يقال لها: الصفر، تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه، وإنها تعدي، فأبطل الإسلام ذلك، وقيل: أراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وهو تأخير المحرم إلى صفر، ويجعلون صفر هو الشهر الحرام، فأبطله الإسلام[2].

وكل هذه الأقوال غير صحيحة، أبطلها النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث المتقدم ذكره، فشهر صفر كبقية الشهور لا أثر له في حكم الله تعالى وقضائه، ولا أصل للتشاؤم فيه ولا بغيره في الإسلام، حيث إن الزواج مطلب شرعي، ومن يتزوج فقد أحرز شطر دينه، فكيف يحرمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في شهر من الشهور، أو يوم من الأيام؛ وهي كلها لله تعالى، ولم يرد نص شرعي يمنع الزواج في أي وقت من الأوقات إلا للحاج أو المعتمر حال إحرامهما.

ومن صور التشاؤم عند العرب بالأزمنة أيضًا: أنهم كانوا يتشاءمون ببعض الأيام أو ببعض الساعات، كالحادي والعشرين من الشهر، وآخر أربعاء فيه، ونحو ذلك، فلا يسافر فيها كثيرٌ من الناس، ولا يعقد فيها نكاحًا، ولا يعمل فيها عملًا مهمًا ابتداءً، يظن أو يعتقد أن تلك الساعة نحسٌ، وكذا التشاؤم ببعض الجهات في بعض الساعات، فلا يستقبلها في سفرٍ ولا أمرٍ حتى تنقضي تلك الساعة أو الساعات، وهي من أكاذيب المنجمين الملاعين؛ يزعمون أن هناك فلكًا دوارًا يكون كل يوم أو ليلة في جهة من الجهات، فمن استقبل تلك الجهة في الوقت الذي يكون فيها هذا الفلك لا ينال خيرًا، ولا يأمن شرًا، وهم في ذلك كاذبون مفترون قبحهم الله[3].

ومنهم من يترك أكل اللبن والسمك في يومي السبت والأربعاء، ويحرمون الخياطة يوم الجمعة ويوم عرفات، ويمنعون الإبرة والمنخل ليلًا تشاؤمًا، ويعتقدون أن كنس البيت بالليل يجلب الفقر[4].

وغير ذلك، كثير من الأمور التي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب لا هامة، رقم ٥٧٥٧، ٧/ ١٣٥.
(٢) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، ٢١/ ٢٤٧.
(٣) انظر: معارج القبول، حافظ حكمي ٣/ ٩٩١.
(٤) انظر: السنن والمبتدعات، الشقيري، ص٣٣٤.

يتشاءمون منها ولا أصل لها سوى سوء الظن بالله تعالى وضعف التوكل عليه.

رابعًا: التشاؤم بالأماكن:

وهو إظهار التشاؤم من عدة أماكن بحسب ما يتوقع المتشائم حصول الشر منها، كالدار التي يسكنها أو يريد أن يشتريها، فيخطر بباله الشؤم منها لأي سبب كان.

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله إنا كنا في دار كثير فيها عددنا، كثير فيها أموالنا، فتحولنا إلى دار أخرى، فقل فيها عددنا، وقلت فيها أموالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذروها ذميمة)[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وإنما أمرهم بالخروج منها لاعتقادهم أن ذلك منها، وليس كما ظنوا، لكن الخالق جل وعلا جعل ذلك وفقًا لظهور قضائه، وأمرهم بالخروج منها لئلا يقع لهم بعد ذلك شيء فيستمر اعتقادهم، قال ابن العربي: وأفاد وصفها بكونها ذميمة جواز ذلك، وأن ذكرها بقبيح ما وقع فيها سائغ من غير أن يعتقد أن ذلك كان منها، ولا يمتنع ذم محل المكروه وإن كان ليس منه شرعًا، كما يذم العاصي على معصيته وإن كان ذلك بقضاء الله تعالى»[2].

وقال الخطابي: «هو استثناء من غير الجنس، ومعناه: إبطال مذهب الجاهلية في التطير، فكأنه قال: إن كانت لأحدكم دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس يكره سيره؛ فليفارقها، قال: وقيل: إن شؤم الدار ضيقها وسوء جوارها»[3].

وورد في السنة النبوية روايات تؤكد الشؤم في بعض الأمور، منها: الدار، مما يوهم التعارض مع النصوص التي ورد فيها النهي عن التشاؤم، حيث جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا عدوى، ولا طيرة، وإنما الشؤم في ثلاث: في الفرس والمرأة والدار)[4]، وفي رواية أخرى: عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: ذكروا الشؤم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن كان الشؤم في شيء ففي الدار، والمرأة، والفرس)[5].

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٩١٨، باب الشؤم في الفرس، ١/ ٣١٦، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩٢٤، ٦/ ٦٧.
قال الحافظ ابن حجر: «له شاهد من حديث عبد الله بن شداد أحد كبار التابعين وله رواية باسناد صحيح إليه عند عبد الرزاق»، فتح الباري ٦/ ٦٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ٦/ ٦٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب لا عدوى، رقم ٥٧٧٢، ٧/ ١٣٨.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقي من شؤم المرأة، رقم ٥٠٩٤، ٧/ ٨.

والأمر ليس كذلك، بل يعني: أن الشؤم لو كان له وجود في شيء لكان في هذه الأشياء؛ فإنها أقبل الأشياء له، لكن لا وجود له فيها أصلًا، وعلى هذا فالشؤم في الحديث السابق وغيره محمول على الإرشاد منه صلى الله عليه وسلم، يعني: إن كانت له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس لا تعجبه، فليفارق بالانتقال من الدار، ويطلق المرأة، ويبيع الفرس، حتى يزول عنه ما يجده في نفسه من الكراهة[1].

قال الطبري: «وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس»، فإنه لم يثبت بذلك صحة الطيرة، بل إنما أخبر صلى الله عليه وسلم أن ذلك إن كان في شيء ففي هذه الثلاث، وذلك إلى النفي أقرب منه إلى الإيجاب، لأن قول القائل: إن كان في هذه الدار أحد فزيد، غير إثبات منه أن فيها زيدًا، بل ذلك من النفي أن يكون فيها زيد، أقرب منه إلى الإثبات أن فيها زيدًا»[2].

قال ابن القيم: «فإخباره بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانًا مشؤمة على من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولدًا مشؤمًا نذلًا يريان الشر على وجهه، فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لون، والطيرة الشركية لون آخر»[3].

وعلى هذا فلا يوجد تعارض بين هذه الأحاديث وغيرها التي جاء النهي فيها عن التشاؤم بالأماكن كالدار ونحو ذلك.

خامسًا: التشاؤم بالألقاب:

ومن صور التشاؤم عند العرب ما ذكره ابن القيم رحمه الله حيث قال: «وقد كانت العرب تقلب الأسماء تطيرًا وتفاؤلًا، فيسمون اللديغ سليمًا باسم السلامة، وتطيرًا من اسم السقم، ويسمون العطشان ناهلًا، أي: سينهل -والنهل: الشرب- تفاؤلًا باسم الري، ويسمون الفلاة مفازةً، - أي: منجاةً - تفاؤلًا بالفوز والنجاة، ولم يسموها مهلكة لأجل الطيرة»[4].

وقال أيضًا: «وكانت لهم مذاهب في تسمية أولادهم، فمنهم: من سموه بأسماء تفاؤلًا بالظفر على أعدائهم، نحو غالبٍ وغلابٍ، ومالكٍ، وظالمٍ، وعارمٍ، ومنازلٍ، ومقاتلٍ، ومعاركٍ، ومسهرٍ، ومؤرقٍ، ومصبحٍ، وطارقٍ، ومنهم: من تفاءل بالسلام كتسميتهم بسالم، وثابت، ونحوه، ومنهم:

(١) إرشاد الساري، القسطلاني، ٨/ ٢٥.
(٢) تهذيب الآثار، الطبري، ٣/ ٣٢.
(٣) مفتاح دار السعادة، ٢/ ٢٥٧.
(٤) المصدر السابق، ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦.

من تفاءل بنيل الحظوظ والسعادة كسعدٍ، وسعيد، وأسعد، ومسعود، وسعدى، وغانم، ونحو ذلك، ومنهم: من قصد التسمية بأسماء السباع ترهيبًا لأعدائهم نحو أسد، وليث، وذئب، وضرغام، وشبل، ونحوها، ومنهم: من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلًا بالقوة كحجر، وصخر، وفهرٍ، وجندلٍ، ومنهم: من كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمي ما تلده باسم أول ما يلقاه كائنا من كان من سبع أو ثعلب أو ضب أو كلب أو ظبي أو حشيش أو غيره»[(١)].

ومنعا للتشاؤم سمت العرب المنهوش بالسليم، والبرية بالمفازة؛ تفاؤلًا في تجاوزها والفوز، لئلا يهلكوا فيها عند قطعها، وكنوا الأعمى أبا بصير، والأسود أبا البيضاء، وسموا الغراب بحاتم، إذ كان يحتم الزجر به على الأمور[(٢)].

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تسمية المولود بما يتطير به، وذلك بما صح عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تسم غلامك رباحًا، ولا يسارًا، ولا أفلح، ولا نافعًا)[(٣)].

وفي رواية أخرى: (ولا تسمين غلامك يسارًا، ولا رباحًا، ولا نجيحًا، ولا أفلح، فإنك تقول: أثم هو؟ فلا يكون، فيقول: لا. إنما هن أربع فلا تزيدن علي)[(٤)].

وكذلك عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: (أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينهى عن أن يسمى بيعلى، وببركة، وبأفلح، وبيسار، وبنافع، وبنحو ذلك، ثم رأيته سكت بعد عنها، فلم يقل شيئًا، ثم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينه عن ذلك) ثم أراد عمر أن ينهى عن ذلك، ثم تركه[(٥)].

ومعنى هذه الأحاديث: «أن الناس يقصدون بهذه الأسماء التفاؤل بحسن ألفاظها أو معانيها، وربما ينقلب عليهم ما قصدوه إلى الضد إذا سألوا فقالوا: أثم يسار أو نجيح؟ فقيل: لا، فتطيروا بنفيه وأضمروا اليأس من اليسر وغيره، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي يجلب سوء الظن والإياس من الخير»[(٦)].

«وقول جابر رضي الله عنه: «ثم سكت عنها»: دليل أنه ترك النهي، وأن نهيه أولًا

(١) المصدر السابق، ٢/ ٢٤٦.
(٢) الحيوان، الجاحظ، ٣/ ٢٠٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، رقم ٢١٣٦، ٣/ ١٦٨٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، رقم ٢١٣٧، ٣/ ١٦٨٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، رقم ٢١٣٨، ٣/ ١٦٨٦.
(٦) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٢٩٩٧.

إنما كان نهي تنزيه وترغيب؛ مخافة سوء الفأل، وما يقع في النفس مما ذكره، وعكس ما قصده المسمى بهذه الأسماء من حسن الفأل، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم غلام اسمه رباح، ومولى اسمه يسار، وسمى ابن عمر غلامه نافعًا، وكراهته صلى الله عليه وسلم اسم حزن وسماه سهلًا، واسم حرب ومرة لقبح معانيها، وكراهة النفوس لها، وكذلك غير اسم غراب لتشاؤم العرب به، ولما في اسمه من الغربة، ولخبثه وفسقه، وقد غير اسم شيطان وحباب، وقيل أيضًا: لأنه اسم الحية، وغير اسم أصرم؛ لما فيه من ذكر الصرم وهو القطيعة، واسم شهاب؛ لأنه شعلة من نار»[1].

سادسًا: التشاؤم بالأرقام:

التشاؤم بالأرقام عادة لم تكن موجودة عند العرب، ولم يكن هذا الأمر معروفًا إلا عند الغربيين، ومعناه أنهم يتوقعون ما سوف يحصل لهم من أحداث سيئة بسبب رؤيتهم بعض الأرقام التي يحسبون أنها تجلب الشؤم والحظ السيء، وهذا بعيد عن مبادئ الإسلام الحنيف الذي يفوض كل ما يصيب الإنسان إلى قضاء الله وقدره الجاري على كل الكون.

حيث يتشاءم النصارى وغيرهم من بعض الأرقام، وأشهر رقم يتشاءمون به هو الرقم - ١٣ - ولذلك حذفته بعض شركات الطيران من ترقيم المقاعد، وحذفته بعض العمارات من أرقام الطوابق والشقق؛ لأن الناس يتشاءمون من ذلك الرقم، ويقال: إن قصة ذلك سببها خرافة نصرانية تزعم أن حواريي عيسى عليه السلام عددهم اثنا عشر حواريًا، فانضم إليه يهوذا الأسخريوطي فصاروا ثلاثة عشر، وهذا الأخير هو الذي وشى بعيسى عليه السلام وتسبب في صلبه - كما يزعمون -؛ فلذلك كرهوا هذا الرقم وتشاءموا منه، وهذه خرافة ظاهر بطلانها؛ ذلك أن الأرقام لا تقدم ولا تؤخر، وأن عيسى عليه السلام لم يصلب ولم يقتل، بل رفعه الله إليه[2].

وقد نفى الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

ولا دخل للرقم(١٣) في ذلك.

وسار على منهج هؤلاء في التشاؤم من الأرقام الشيعة كما أشار إليه ابن تيمية رحمه الله بقوله عنهم: «وأما سائر حماقاتهم فكثيرة جدًا، منها: كونهم يكرهون التكلم بلفظ العشرة، أو فعل شيء يكون عشرة، حتى في

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، ٧/ ١٣.

(٢) انظر: الطيرة، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٤٠.

البناء لا يبنون على عشرة أعمدة، ولا بعشرة جذوع، ونحو ذلك، لكونهم يبغضون خيار الصحابة، وهم العشرة المشهود لهم بالجنة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، ويبغضون هؤلاء إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويبغضون سائر المهاجرين، والأنصار من السابقين الأولين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم -تحت الشجرة- وكانوا ألفًا وأربعمائة، وقد أخبر الله أنه قد رضي عنهم، ومعلوم أنه لو فرض في العالم عشرة من أكفر الناس لم يجب هجر هذا الاسم (يعني الرقم عشرة) لذلك، كما أنه سبحانه وتعالى لما قال: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨] لم يجب هجر اسم التسعة مطلقًا، بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه في مواضع، كقوله تعالى في متعة الحج: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ [الفجر: ١-٢].

وقد ثبت في الصحيح (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله تعالى)[1]، وقال في ليلة القدر: (التمسوها في العشر الأواخر) ومن العجب أنهم يوالون لفظ التسعة، وهم يبغضون التسعة من العشرة، فإنهم يبغضونهم إلا عليًا[2].

ويتضح مما تقدم: أن التشاؤم بالأرقام عادة مستحدثة لم يكن لها وجود إلا عند الغربيين، ثم انتقلت إلى المسلمين، فصار بعضهم يتشاءم من بعض الأرقام، وهو اعتقاد باطل لا صحة له؛ لأنه لا دخل للأرقام فيما يصيب الإنسان من خير أو شر، بل الأمر متعلق بقضاء الله تعالى وقدره.

سابعًا: التشاؤم بالأحداث:

هو التشاؤم بالمصائب والبلايا التي تصيب الإنسان، أو الحروب، أو الزلازل، أو المجاعات، فيذيع خبرها بين الناس، فيصيب بعضهم الجزع واليأس والشؤم، ومنهم من إذا أصيب بمصيبة أو بلية من مرض، أو خسارة، أو موت ونحو ذلك نسب كل ما أصابه إلى سوء الحظ، وذلك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر في المسجد كلها، رقم ٢٠٢٦، ٣/ ٤٧.
(٢) انظر: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ١/ ٤٠.

لسوء ظنه بالله تعالى، وعدم الرضا والتسليم لقضاء الله تعالى وقدره، وهذا كله منافٍ لإيمان المسلم؛ لأنه لا يجتمع الإيمان مع التشاؤم، فالأمر كله لله تعالى؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

«فيه إخبار أن ما يصيب العبد من الضر والخير إنما يصيب به، ثم الضر المذكور في الآية لا يخلو من أن يراد به سقم النفس، أو ضيق العيش، أو شدة وظلم يكون من العباد، لا يخلو من هذه الأوجه الثلاثة، فإذا كان كذلك فدل إضافة ذلك إلى الله تعالى على أن لله فيه فعلًا، وهو أن خلق فعل ذلك منهم، فهو على كل شيء قدير من كشف الضر له، والصرف عنه، وإصابة الخير، لا يملك ذلك غيره»[(١)].

قال الزمخشري: «﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من غنى أو صحة ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادرًا على ادامته أو إزالته»[(٢)].

وجاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا، فقال: (يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف)[(٣)].

ولا يجوز للعبد التشاؤم من الزمان وحوادثه؛ لما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر)[(٤)].

ودلالة الحديث: أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها، من موت أو هرم أو تلف مال أو غير ذلك، فيقولون: يا خيبة الدهر، ونحو هذا من ألفاظ سب الدهر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر، أي: لا تسبوا فاعل النوازل؛ فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٣٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ١٠.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٦٦٩، ٣/ ١٩٥، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب رقم ٥٩، رقم ٢٥١٦، ٤/ ٦٦٧. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم ٢٢٤٦، ٤/ ١٧٦٣.

السب على الله تعالى؛ لأنه هو فاعلها ومنزلها، وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى، ومعنى: (فإن الله هو الدهر)، أي: فاعل النوازل والحوادث وخالق الكائنات[1].

ولا يصح التشاؤم من البلايا والمصائب كالمرض مثلًا؛ لأن فيه تهذيبًا للنفس وتكفيرًا للخطايا، وقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم السائب -أو أم المسيب-، فقال: (ما لك؟ يا أم السائب -أو يا أم المسيب- تزفزفين[2]؟) قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، فقال: (لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد)[3].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له)[4].

وهكذا يكون المسلم دائمًا مع الأحداث، ويترك دواعي الشؤم التي تعتريه وتبعث في نفسه الخوف وتوقع حدوث الشر، ويرجعها إلى خالقها، ويسأله من خيرها، وأن يدفع عنه شرها، وأن يؤمن أن الله تعالى قد يبتلي العبد بشتى البلايا والمصائب ومكاره الدنيا، من القحط والجدب والمرض ونحو ذلك، مثلما ينعم عليه من النعم التي لا تحصى.

وليعلم أن ما أصابه من الأحداث مما يكره إنما هو بتقدير الله تعالى، وربما تتسلط عليه بسبب ذنوبه كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ولا شك أن الله عز وجل يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر؛ لذلك قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالأمر كله راجع إلى الله تعالى، والواجب على المسلم حسن الظن به والتوكل عليه، وأن ما أصابه مما يكره إنما هو بسبب ذنوبه، فيلقي باللوم على نفسه لا على ما تجري به الأقدار.

---

(١) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/ ٣.

(٢) الزفزفة: أي الارتعاد من البرد.
انظر: لسان العرب، ٩/ ١٣٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم ٢٥٧٥، ٤/ ١٩٩٣

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٢٩٩٩، ٤/ ٢٢٩٥.

نسبة المصائب إلى أشخاص

يعتقد المتشاءمون قديمًا وحديثًا بنسبة المصائب والبلايا التي تصيبهم إلى أشخاص معينين، حيث يظنون أن ما يصيبهم من بلاء وشر إنما هو بسببهم، كما أخبر الله تعالى عن تشاؤم آل فرعون وقومه بموسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٣١].

أي: «يتشاءمون بهم، ويقولون: هذا من أجل اتباعنا لك وطاعتنا إياك، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، يعني أن طائر البركة وطائر الشؤم من الخير والشر والنفع والضر من الله تعالى لا صنع فيه لمخلوق»[1].

وكذلك تشاؤم قوم ثمود، حيث نسبوا ما أصابهم من بلاء إلى نبيهم صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٧].

أي: قالت ثمود لرسولها صالح عليه الصلاة السلام: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، فأجابهم صالح فقال لهم: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، أي: ما زجرتم من الطير علمه عند الله، ولا يدرى أيكون ما تظنون من المصائب أو المكاره، أم ما ترجونه من العافية والمحاب[2].

ولحقهم في ذلك أصحاب القرية التي جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٨-١٩].

ومن ثم قوله تعالى فيما أخبر عن كفار قريش بأنهم يضيفون ما يصيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

ولا يقتصر التشاؤم على العرب فقط، بل تشائمت اليهود أيضًا من قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فقالوا: «غلت أسعارنا، وقلت أمطارنا مذ أتانا»[3].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٢٨٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٤٧٦.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ٣٤٤.

آثار التشاؤم

لا شك أن للتشاؤم آثارا سيئة تنعكس على المتشائم، وتسبب له خللًا في عقيدته، وتورث في نفسه أمورًا كثيرة، كضعف الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره، والتسخط على كل ما يصيبه في حياته من أقدار، وعدم التوكل على الله تعالى، مع اعتقاده أن التشاؤم يضره.

وقلما يخلو من التشاؤم أحد لا سيما من عارضته المقادير في إرادته، وصده القضاء عن طلبته، فهو يرجو واليأس عليه أغلب، ويأمل والخوف إليه أقرب، فإذا عاقه القضاء، وخانه الرجاء، جعل الطيرة عذر خيبته، وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيئته، فإذا تطير أحجم عن الإقدام، ويئس من الظفر، وظن أن القياس فيه مطرد، وأن العبرة فيه مستمرة، ثم يصير ذلك له عادة، فلا ينجح له سعي، ولا يتم له قصد[1].

وقد ذكرت الطيرة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)[2].

«ومعنى هذا: أن من تشاءم تشاؤمًا منهيًا عنه، وهو أن يعتمد على ما يسمعه أو يراه مما يتطير به، حتى يمنعه مما يريد من حاجته؛ فإنه قد يصيبه ما يكرهه، فأما من توكل على الله ووثق به، بحيث علق قلبه بالله خوفًا ورجاءً وقطعه عن الالتفات إلى هذه الأسباب المخوفة، وقال ما أمر به من هذه الكلمات -أي ما ذكر في الحديث المذكور آنفا- ومضى، فإنه لا يضره ذلك»[3].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا تضر الطيرة إلا من تطير»[4].

قال ابن القيم: «والتشاؤم إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئًا لم يضره البتة، ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه: «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[5].

ولا يخلو المتشائم بتشاؤمه من الوقوع في الشرك ووساوس الشيطان.

ويقول أيضًا: «فالطيرة باب من الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، يكبر ويعظم شأنها على من اتبعها نفسه واشتغل

(١) انظر: أدب الدنيا والدين، الماوردي، ١/ ٣١٥.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩١٩، ٦/ ٦٢.
(٣) لطائف المعارف، ابن رجب ١/ ٧٢.
(٤) روح البيان، إسماعيل حقي، ٣/ ٢١٨.
(٥) انظر: مفتاح دار السعادة، ٢/ ٢٣٠.

بها وأكثر العناية بها، وتذهب وتضمحل عمن لم يلتفت إليها ولا ألقى إليها باله ولا شغل بها نفسه وفكره. واعلم أن من كان معتنيًا بها قائلًا بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدر، فتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه، فإذا سمع سفرجلًا أو أهدي إليه تطير به، وقال: سفر وجلاء. وإذا رأى ياسمينًا أو سمع اسمه تطير به، وقال: يأس ومين. وإذا رأى سوسنة أو سمعها قال: سوء يبقى سنة. وإذا خرج من داره فاستقبله أعور أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطير به، وتشاءم بيومه»[1].

«والمتطير متعب القلب، منكد الصدر، كاسف البال، سيئ الخلق، يتخيل من كل ما يراه أو يسمعه، أشد الناس خوفًا، وأنكدهم عيشًا، وأضيق الناس صدرًا، وأحزنهم قلبًا، كثير الاحتراز والمراعاة لما لا يضره ولا ينفعه، وكم قد حرم نفسه بذلك من حظ، ومنعها من رزق، وقطع عليها من فائدة»[2].

وقد يصل المتشائم عند شعوره باليأس وضعف الإيمان بالله تعالى إلى الكفر، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَايْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

قال ابن عباس: «إن المؤمن من الله على خير، يرجوه في الشدائد، ويشكره ويحمده في الرخاء، وإن الكافر ليس كذلك»[3].

وعلى هذا: فإن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرًا، والمؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال، فلا يجتمع إيمانه بالله عز وجل مع اليأس وكراهيته ما قدره الله تعالى له.

وتتلخص آثار التشاؤم في عدة أمور منها[4]:

١. ينافي الإيمان، ويضاد التوكل.
٢. لا يدفع مكروها ولا يجلب محبوبًا.
٣. دليل قلة العقل وذهاب الحلم.
٤. اضطراب النفس وبلبلة الفكر.
٥. الفشل في الحياة.
٦. دعوة إلى تعطيل المصالح وترك السعي.
٧. صفة من صفات الجاهلية، وعادة مذمومة من عاداتهم.
٨. دعوة صريحة للكفر بالقضاء والقدر.
٩. فيها مخالفة صريحة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم.

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٣١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الوسيط، الواحدي، ٢/ ٦٢٩.
(٤) انظر: نضرة النعيم، ٩/ ٤١٩٩.

علاج التشاؤم

أولًا: الإيمان بالقضاء والقدر:

لا شك أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان العقيدة الصحيحة، وأصل من أصول الإيمان لا يصح إيمان إلا به، ومعلوم أن التشاؤم ينافيه؛ لأن فيه اعتراضًا وتسخطًا على أقدار الله تعالى الجارية على خلقه، وأنه لا يقع شيء إلا بقدر الله وقضائه ومشيئته، فالمؤمن يجب أن يؤمن بذلك، ويتوكل على الله تعالى، ولا يرده شعوره بالتشاؤم عن شيء فإنه لا يضره بشيء، فالأقدار سارية عليه بما قدرها الله تعالى له من الخير والشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

أي: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، وإن كل كائن في هذه الحياة، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل، وبحسب السنن التي وضعها في الخليقة، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها[(١)].

ونحو الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١-٣].

وبما إن التشاؤم من الأقدار عادة من عادات أهل الجاهلية لذلك نرى أن كفار قريش كانوا يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر، كما صح في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر، فنزلت: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩][(٢)].

ومعنى الحديث: أن المشركين وأهل الفسق يتعلقون بالأقدار، طالبين بذلك النكول عن الأعمال، فيريدون بخوضهم في ذلك الفتنة، لا التماس الحق، وقد أنزل الله عز وجل في ذلك الكافي المقنع في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، ومعناه إنا خلقنا كل شيء، خلقناه بقدر، فيستنبط من هذا أن الله سبحانه خالق كل شيء من خير وشر، وأن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلقه بقدر سبق، ومقدار لا يزيد عنه شيء من ذلك ولا ينقص[(٣)].

قال الماوردي رحمه الله: «اعلم أنه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٨٢، تفسير المراغي، ٢٧/ ١٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، رقم ٢٦٥٦، ٤/ ٢٠٤٦.

(٣) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة، ٨/ ١٩٢.

ليس شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة -التشاؤم-، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدورا فقد جهل»[1].

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

أي: «بقضاء الله وقدره وإرادته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي يصدق أنه لا يصيبه مصيبة من موت أو مرض أو ذهاب مال ونحو ذلك إلا بقضاء الله وقدره وإذنه، ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، أي: يوفقه لليقين، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيسلم لقضاء الله تعالى وقدره، وقيل يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾»[2].

ويحتمل أن يريد بالمصيبة الرزايا، وخصها بالذكر لأنها أهم على الناس، أو يريد جميع الحوادث من خير أو شر، وبإذن الله عبارة عن قضائه وإرادته تعالى ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قيل: معناه من يؤمن بأن كل شيء بإذن الله يهد الله قلبه للتسليم والرضا بقضاء الله، وهذا أحسن، إلا أن العموم أحسن منه[3].

قال ابن كثير رحمه الله: «ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرًا منه»[4].

فمن لا يتشاءم ولا يستجيب لدواعي التشاؤم، ويتوكل على الله تعالى؛ فإنه ينال أفضل الدرجات وأكملها وأرفعها عند الله تعالى، وهي الجنة.

وقد بين الله تعالى أثر الإيمان بالقضاء والقدر في تخليص العبد من القلق، والحزن، والخوف من حصول المكروه والمصائب والبلايا الناتج من التشاؤم وغيره، بقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وعلم النبي صلى الله عليه وسلم أمته كيف يتخلصون مما يجدونه في نفوسهم من تشاؤم، وذلك بما صح عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله أمورًا كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكهان، قال: (فلا تأتوا الكهان). قال: قلت: كنا نتطير. قال: (ذاك شيء يجده أحدكم في

(١) أدب الدنيا والدين، ص٣١٤.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٣٠٣.
(٣) التسهيل، ابن جزي، ٢/ ٣٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٣٧.

نفسه، فلا يصدنكم)[1].

«فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه، فأوضح لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه؛ لتطمئن قلوبهم ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى»[2].

وبشرهم عليه الصلاة والسلام بدخول الجنة ما لم يتشاءموا بما صح عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب، هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)[3].

«فأما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لإقدامه؛ ثقة بإقباله، وتعويلًا على سعادته، فلا يصده خوف ولا يكفه حزن، ولا يثوب إلا ظافرًا، ولا يعود إلا منجحًا؛ لأن الغنم بالإقدام، والخيبة مع الإحجام، فصارت الطيرة من سمات الإدبار، واطراحها من أمارات الإقبال، فينبغي لمن مني بها وبلي أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى[4]، ودواعي الخيبة، وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطانًا في نقض عزائمه ومعارضة خالقه، ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب، وأن رزقه له طالب، إلا أن الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقًا ولا يدفع مقدورًا، وليمض في عزائمه واثقًا بالله تعالى إن أعطي، وراضيًا به إن منع»[5].

ويتضح مما تقدم: أن من آمن بالقضاء والقدر، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه لن يصيبه إلا ما كتب له، وأن ما يجري من المصائب والبلايا والمحاب والمكروهات كله بقضاء الله وقدره، فقد سلم نفسه من الوقوع في آفة التشاؤم.

ثانيًا: حسن الظن بالله والتوكل عليه:

لا شك أن حسن الظن بالله تعالى له أثر كبير في حياة المؤمن وبعد مماته، فالمؤمن حين يحسن الظن بالله تعالى لا يزال قلبه مطمئنًا، ونفسه راضية بقضاء الله وقدره وما يصيبه في السراء والضراء، بخلاف التشاؤم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم ٥٣٧، ٤/ ١٧٤٨.

(٢) مفتاح دار السعادة، ٢/ ٢٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه، رقم ٦٤٧٢، ٨/ ١٠٠.

(٤) والأنوك: أي الأحمق، وجمعه النوكى. انظر: لسان العرب، ١٠/ ٥٠١.

(٥) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣١٥، ٣١٦.

الذي هو سوء ظن بالله عز وجل بغير سبب، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه في كل أحواله.

وحقيقة التوكل: «هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة كلها، ووكلت الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه»[(١)].

وعلى هذا فالتوكل مرتبط بحسن الظن بالله تعالى، وكلاهما علاج لما يصيب المسلم من دواعي الشؤم.

قال ابن القيم رحمه الله: فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، وأن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

أي: «ومن يكل أمره إلى الله ويفوض إليه الخلاص منه كفاه ما أهمه فى دنياه ودينه، والمراد بذلك: أن العبد يأخذ بالأسباب التي جعلها الله من سننه في هذه الحياة، ويؤديها على أمثل الطرق، ثم يكل أمره إلى الله فيما لا يعلمه من أسباب لا يستطيع الوصول إلى علمها، وليس المراد أن يلقي الأمور على عواهنها، ويترك السعي والعمل ويفوض الأمر إلى الله تعالى»[(٣)].

ثم ذكر السبب في وجوب التوكل عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

أي: إن الله تعالى منفذ أحكامه في خلقه بما يشاء، وقد جعل لكل شيء مقدارًا ووقتًا، فلا تحزن أيها المؤمن إذا فاتك شيء مما كنت تؤمل وترجو، فالأمور مرهونة بأوقاتها، ومقدرة بمقادير خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨][(٤)].

وعلى هذا: فإن التوكل على الله تعالى هو حسن الظن بالله عز وجل، والبعد عن التشاؤم الذي من أسبابه سوء الظن بالله تعالى وبأقداره السارية على خلقه سواء أكان خيرًا أم شرًا؛ لأن كل هذا ينافي إيمان المسلم، ويخل بعقيدته وحسن عبادته لله تعالى.

وروي عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن حسن الظن بالله من حسن العبادة)[(٥)].

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ٢/ ٤٩٧.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/ ١٢١.
(٣) تفسير المراغي، ٢٨/ ١٤١.
(٤) المصدر السابق، ٢٨/ ١٤٢.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٨٠٢٣،

ودلالة الحديث واضحة في أن حسن الظن عبادة من العبادات الحسنة، كما أن سوء الظن معصية من المعاصي.

ويؤكد هذا المعنى ما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله: أنا عند ظن عبدي بي)[1].

فحسن الظن بالله تعالى يذهب الشعور بالشؤم؛ لأن الله تعالى هو الذي ينفع وحده ولا يضر سواه، ثم إن شعور المسلم بالشؤم لا يذهبه إلا التوكل على الله تعالى في كل حال، لذلك بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك من خلال تعليمه الصحابة الكرام كيفية علاج التشاؤم، كما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الطيرة من الشرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل)[2].

ولا مانع أن يتوكل العبد على الله تعالى مع اجتناب الأسباب التي تكون سببًا للبلاء لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

إذًا: حسن الظن بالله والتوكل عليه يزيل من النفس دواعي التشاؤم، وهما من أقوى الأسباب في علاجه، لذا على المسلم أن يثق بالله تعالى ويوقن أن قضاءه عليه ماض، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه جل وعلا.

ثالثًا: العلم النافع:

كما أن الجهل والضلال سبب من أسباب التشاؤم كما مر، فإن العلم النافع هو علاج له، فما كان التشاؤم عادة من عادات الجاهلية والأمم السالفة إلا بسبب جهلهم وضلالتهم، لذلك عندما جاء الإسلام حث على طلب العلم، ومدح الله سبحانه وتعالى أهل العلم في آيات كثيرة، وكذلك السنة الشريفة، إذ هو من أفضل الأعمال الصالحة، ومن أفضل العبادات وأجلها، فقد رفع الله تعالى شأن أهل العلم بقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ولم يساوهم أحد في منزلتهم ولا رتبتهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ودلالة الآيات واضحة في بيان منزلة العلم النافع وأهله، فإنه يخرج الناس من

٨/ ١٣٤، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن الظن، رقم ٤٩٩٣، ٤/ ٢٩٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: يريدون أن يبدلوا كلام الله، رقم ٧٥٠٥، ٩/ ١٤٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٦٨٩، ٣/ ٥٤٦، والترمذي في سننه، كتاب الطب، باب ما جاء في الطيرة، رقم ١٦١٤، ٤/ ١٦٠. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

الجهل والضلال إلى النور والمعرفة.

ولأهمية العلم في حياة الناس أمر الله تعالى رسوله أن يطلب المزيد منه في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قال قتادة رحمه الله: «لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام، ولكنه قال للخضر عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦][(١)].

والعلم النافع يدل على أمرين:

أحدهما: معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه، وخشيته ومهابته، ومحبته ورجاءه، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات، والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال[(٢)].

وإن العلم النافع طريق الجنة كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ومن سلك طريقا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة)[(٣)].

ولهذا لا نجد أحدًا أنعم الله تعالى عليه بالعلم النافع إلا كان متفائلًا، بعيدًا عن التشاؤم، منشرح الصدر، ومطمئن النفس والقلب، ومؤمنًا بأقدار الله تعالى وما يحصل له في الحاضر والمستقبل، وهذا حال المؤمن؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «العلم هادٍ والحال الصحيح مهتد به، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووراثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال، به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ١/ ٤١٨.

(٢) فضل علم السلف على الخلف، ابن رجب، ص١٥٠-١٥١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام، والعمل مأموم، وهو قائد، والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام»[1].

ويتضح مما مضى: إن العلم النافع هو نعمة من نعم الله تعالى على عباده، وعلاج لكل ما يصيب الإنسان من الآفات النفسية والقلبية، بما فيها الاعتقادات الخاطئة كالتشاؤم بالبشر، والمصائب والبلايا والطير والحيوان والأسماء، وغير ذلك، وكلها تعود إلى سبب الجهل والضلال.

رابعًا: مصاحبة المتفائلين:

للصحبة الصالحة مكانة عظيمة في الإسلام، لما لها من أثر واضح في حياة الإنسان، سواء في معتقده وسلوكه وأفعاله وتوجهاته، والإنسان ميال بفطرته إلى مخالطة الآخرين ومصاحبتهم، ومجالستهم والتأثر بهم.

ولعل المبتلى بالتشاؤم أولى من غيره بمصاحبة المتقين الأخيار؛ لأن مصاحبتهم وملازمتهم ستؤدي إلى اكتساب صفاتهم من تقوى وإيمان، ومكارم أخلاق، وتفاؤل وجد وإقدام، وحسن توكلٍ على الله تعالى في السراء والضراء.

لذلك أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتزام الصادقين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

وحث على صحبة العابدين بقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

ونهى الله تعالى عن صحبة الظالمين لما فيها من حسرة وندامة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨].

وجعل كل صحبة لا تبنى على محبة الله تعالى وتقواه مصيرها العداوة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثالًا على الصحبة الصالحة بقوله عليه الصلاة

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/ ٤٤٠.

والسلام: (مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثة)[1].

«وقوله: في تمثيل الجليس السوء والجليس الصالح بحامل المسك أو نافخ الكير: فيه تجنب خلطاء السوء ومجالسة الأشرار وأهل البدع والمغتابين للناس؛ لأن جميع هؤلاء ينفذ أثرهم إلى جليسهم، والحض على مجالسة أهل الخير وتلقي العلم والأدب، وحسن الهدى والأخلاق الحميدة»[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)[3].

«قال ابن العربي: أي عادة خليله، فمن كانت عادته في خلق الله ما عودهم الله من لطائف مننه وأسبغ عليهم من جزيل نعمه، وعطف بعضهم على بعض، فلم يظهر في العالم غضبًا لا يشوبه رحمة، ولا عداوة لا يتخللها مودة فذلك الذي يستحق اسم الخلة؛ لقيامه بحقها، واستيفائه لشروطها»[4].

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي)[5].

وفي هذه الأحاديث المتقدمة حث على صحبة الصالحين والمتقين وتجنب جلساء السوء، وبما أن التشاؤم عادة سيئة فالأحرى بالمتشائم أن يصاحب المؤمنين الصالحين ليقتدي بإيمانهم وصلاحهم؛ فتنعكس أخلاقهم وأفعالهم وعاداتهم على سلوكه؛ فيجد نفسه قد تخلص من عاداته السيئة، ومنها التشاؤم.

خامسًا: الدعاء:

إن الدعـاء هو الصلة القوية بين الخالق والمخلوق، وهو وقوف العبد بين يدي الله تعالى وسؤاله على وجه الافتقار والعجز والانكسار.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، رقم ٢١٠١، ٣/ ٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم ٢٦٢٨، ٤/ ٢٠٢٦.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٨/ ١٠٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٨/ ١٣٠، رقم ٨٠١٤، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم ٤٨٣٣، ٤/ ٢٥٩، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب رقم ٤٥، رقم ٢٣٧٨، ٤/ ١٦٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٤) فيض القدير، المناوي، ٦/ ٢٦٦.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم ٤٨٣٢، ٤/ ٢٥٩، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن، رقم ٢٣٩٥، ٤/ ٦٠٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

قال الخطابي في معنى الدعاء: «استدعاء العبد ربه عز وجل العناية واستمداده إياه المعونة»[1]، وإلى نفس هذا المعنى ذهب الإمام الرازي[2].

لذا فإن الإقبال على الله تعالى واللجوء إليه، وكثرة الإلحاح عليه بالدعاء هو من أفضل الأعمال، وعلاج لكل الآفات التي تصيب المسلم، ومنها: شعوره بالتشاؤم، فلا يمنعه ذلك من التضرع إلى الله تعالى أن يشرح صدره، وييسر أمره، ويتجاوز ما يصيبه من دوافع الشؤم بالإيمان وحسن التوكل على الله تعالى في السراء والضراء، ولا يكن كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وعلى هذا: يجب على المسلم اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء في اليسر والشدة، والاستعانة به في كل الأحوال، مع الاعتقاد بإجابة الدعاء كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ويؤكد هذا الأمر ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ)[3].

وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته دعاء الوقاية لمن وجد في نفسه ما يكره من الأشياء وما يبعث في نفسه من شؤم، وذلك بما روي عن عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)[4].

وفي هذا الدعاء علاج لمن يجد في نفسه كراهية حدوث بعض الأشياء، فالأولى به أن لا ترده عن حاجته ويذهب متوكلًا على الله تعالى، فإن الله تعالى يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك.

سادسًا: الفأل الحسن:

حث الله تعالى عباده على التفاؤل والبعد عن التشاؤم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

(١) انظر: شأن الدعاء، الخطابي، ص٤.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ٧٧٨.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٦٥٥، ١١/ ٢٣٥، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب رقم ٦٦، رقم ٣٤٧٩، ٥/ ٥١٧.
قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».
(٤) سبق تخريجه.

﴿يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح: ٥- ٦].

وجاء أيضًا في الحديث عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة)[١].

والفأل هو: الكلمة الصالحة والطيبة والحسنة؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم عندما سئل ما الفأل؟ فقال: (الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم)[٢].

قال القرطبي رحمه الله: الفأل هو: الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنًا، فإن سمع مكروهًا فهو تطير -تشاؤم-، وأمره الشرع بأن يفرح حاجته فليفعل ذلك، وإن رآه بضد ذلك فلا يقبله بل يمضي لسبيله، فلو قبل وانتهى عن المضي فهو الطيرة التي اختصت بأن تستعمل في الشؤم، والله أعلم»[٤].

وقال ابن بطال رحمه الله: «جعل الله تعالى في فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافي وإن كان لا يملكه ولا يشربه»[٥].

والفأل الحسن فيه تقوية للعزم، وباعث على الجد، ومعونة على الظفر، فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه، فينبغي لمن تفاءل أن يتأول الفأل بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلًا[٦].

ويضرب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المثل الأعلى في الفأل الحسن من خلال قصصهم الواردة في القرآن الكريم، منها: ما جاء في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

أي: فلما تناظر الجمعان: جمع موسى عليه السلام وهم بنو إسرائيل، وجمع فرعون وهم القبط ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، أي: إنا لملحقون، الآن يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا، وذكر أنهم قالوا ذلك لموسى، تشاؤمًا بموسى عليه السلام، ولما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر، وقال ﴿كَلَّآ﴾ لن تدركوا ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، أي سيهدين لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه[1].

ثم ذكر سبحانه كيف هداه ونجاه وأهلك أعداءه فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

وكذلك ما حصل مع النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضي الله عنه في الغار، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

وجاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: حدثني أبو بكر رضي الله عنه، قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[2].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما) أي: «معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد، وهو

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٣٥٥-٣٥٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، رقم ٤٦٦٣، ٦/ ٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم ٢٣٨١، ٤/ ١٨٥٤.

داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

وفيه: بيان عظيم توكل النبي صلى الله عليه وسلم حتى في هذا المقام. وفيه: فضيلة لأبي بكر رضي الله عنه وهي من أجل مناقبه، والفضيلة من أوجه: منها: هذا اللفظ، ومنها: بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته في طاعة الله تعالى ورسوله، وملازمة النبي صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيه، ومنها: جعله نفسه وقاية عنه وغير ذلك»[(١)].

فأنزل الله طمأنينته وسكونه على رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قيل: على أبي بكر رضي الله عنه، وقواه بجنودٍ من عنده من الملائكة، لم تروها أنتم، وجعل كلمة الذين كفروا وهي كلمة الشرك السفلى، لأنها قهرت وأذلت، وأبطلها الله تعالى، ومحق أهلها، وكل مقهور ومغلوب فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى وكلمة الله هي العليا، أي: دين الله وتوحيده وقول لا إله إلا الله، وهي كلمته العليا، على الشرك وأهله[(٢)].

وقد تفاءل النبي صلى الله عليه وسلم في وقائع كثيرة ومن ذلك: تفاؤله بالنصر في غزوة بدر، وإخباره بمصرع كبار صناديد قريش، ويوم الحديبية فإنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد سهل لكم من أمركم)[(٣)].

وغير ذلك كثير من هذه الوقائع والقصص التي فيها الحث على التفاؤل وحسن الظن بالله تعالى، والتوكل عليه في الضراء والسراء، وأن التفاؤل من صفات المؤمنين والصالحين، خاصة أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، فالمؤمن يتوقع حصول الخير دائمًا، على عكس المتشائم فإنه يتوقع حدوث الشر ووقوعه في الحاضر والمستقبل.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، الطير، القدر، اليأس

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/ ١٥٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٢٦١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم ٢٧٣١، ٣/ ١٩٣.

التطوع

عناصر الموضوع

مفهوم التطوع	١٩٤
التطوع في الاستعمال القرآني	١٩٧
الألفاظ ذات الصلة	١٩٨
أنواع التطوع	١٩٩
الحث على التطوع	٢٠٣
دوافع التطوع في القرآن الكريم	٢٠٨
أسس التطوع	٢١٢
عقبات التطوع	٢١٤
مجالات التطوع الاجتماعي في القرآن	٢١٦
نماذج قرآنية للتطوع الاجتماعي	٢٢٦

مفهوم التطوع

أولًا: المعنى اللغوي:

وردت مادة (ط و ع) في معاجم اللغة العربية لعدة معانٍ، من أشهرها وأكثرها تداولًا:

١. التنفل: هو التقرب إلى الله تعالى بما ليس بفرض من العبادات؛ فيقال: تنفل: لمن أدى العبادة طائعًا مختارًا دون أن تكون فرضًا عليه[١]، والتنفل والتطوع بمعنى واحد؛ فـ«كل متنفل خير متطوع»[٢]، يقال: صلى نافلة، وصام تطوعًا، وتطوع في لجنة كفالة الأيتام، بيد أن التنفل يستعمل غالبًا مع التطوع التعبدي؛ أما التطوع فيستعمل فيه وفي غيره من التطوع الاجتماعي.

٢. التبرع: يقال: تطوع فلانٌ بالشيء إذا تبرع به[٣]، ويستعمل ذلك غالبًا مع التطوع الاجتماعي.

٣. الانقياد والخضوع: يقال: انطاع لك فلانٌ،أو فلانٌ طوع يديك، أو هو طوع أمرك، إذا انقاد لك وخضع[٤].

٤. الموافقة: فالمطاوعة: الموافقة، ويقال لمن وافق غيره«طاوعه»[٥].

٥. تكلف الطاعة: يقال: تطوع: أي تكلف الطاعة[٦].

٦. الليونة: يقال: « طاع وأطاع: لان وانقاد، وتطوع، أي: لان»[٧].

٧. الطوع: الذي هو نقيض الكره، يقال: «لتفعلن هذا الأمر طوعًا أو كرهًا، يعني طائعًا أو كارهًا»[٨].

٨. الطاعة: التي هي ضد المعصية، يقال: «إذا مضى في أمرك فقد أطاعك»، والطاعة اسم لأطاع، وفيها معنى الانقياد كذلك[٩].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٥٧٠.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٩٦٢ مادة طاع.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٣/ ١٢٥٥، لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٢٤٣
(٤) العين، الفراهيدي ٣/ ٦٦، الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٦، تاج العروس، الزبيدي، ١٦/ ٤٦٢.
(٥) العين، الفراهيدي ٣/ ٦٦، الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٦.
(٦) العين، الفراهيدي، ٣/ ٦٥، الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٥.
(٧) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٥٧٠.
(٨) انظر: كتاب العين، الفراهيدي، ٣/ ٦٥.
(٩) العين، الفراهيدي ٣/ ٦٦.

٩. الاستطاعة: بمعنى إطاقة فعل الشيء، يقال: تطاوع لهذا الأمر حتى تستطيعه، وتطوع له، أي: تكلف استطاعته، يعني: زاوله حتى يستطيعه[(١)].

ويتأمل المعاني اللغوية السابقة نلحظ: أن ثمة علاقة وثيقة بين مادة (ط و ع) والكلمات المشتقة منها، والمعاني التي تدل عليها تلك المشتقات؛ وأن ثمة تناسب واضح بينها وبين المعنى الأصلي للمادة الذي هو (الانقياد واللين)؛ كيفما قلبت حروفها.

فالطاعة مثلًا: فيها معنى الانقياد والخضوع، كما أنها تستلزم من المطيع تكلف الطاعة، ليتدرب على استطاعتها وإطاقتها؛ مع مجاهدة نفسه ليحملها عليها، وليكون هواه موافقًا لمرغوب ربه سبحانه؛ ليحصل له التلذذ بالطاعة بعد ذلك التكلف، وتصدر عنه الطاعة بسهولة ولين.

ومثل ذلك: ما يتطوع به العبد تنفلًا مما لم يجب عليه من عبادات، أو ما يتبرع به من وقت أو جهد أو مال مسارعة في الخيرات؛ فإن هذا أو ذاك إنما يصدر عنه طوعًا لا كرهًا، ولذا يجد نفسه منقادًا لفعل هذا الخير، فيفعله بسهولة طائعة به نفسه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لقد عرف العلماء السابقون التطوع بتعريفات متعددة تشمل نوعي التطوع (التعبدي والاجتماعي)، من هذه التعريفات:

ما قاله الخليل: «التطوع: ما تبرعت به مما لا يلزمك فرضه»[(٢)].

وقول الجرجاني: « التطوع اسم لما شرع زيادة على الفرض والواجبات»[(٣)].

وقول المناوي: « هو التبرع بما لا يلزم كالنفل»[(٤)].

لكننا لما وجدنا الذهن ينصرف إلى التطوع الاجتماعي خاصة عند إطلاق مصطلح (التطوع) سنخص (التطوع الاجتماعي) بمزيد بيان في السطور التالية:

ويتأمل المعاني اللغوية السابقة: نجد أن التطوع الاجتماعي يتطلب هذه المعاني اللغوية السابقة جميعها؛ فالمتطوع: متبرع بوقته أو بدنه أو ماله أو بهما جميعًا، وهو يقوم بعمل نافلةٍ لا فرضٍ، ثم هو في تطوعه هذا منقاد وخاضع لله سبحانه وتعالى، متكلف ومجاهد نفسه

(١) العين، الفراهيدي، ٣/ ٦٥، الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٥.
(٢) العين، الفراهيدي ٣/ ٦٥، تاج العروس، الزبيدي ١٦/ ٤٦٦
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص٥٥.
(٤) التوقيف، المناوي، ص٣٥.

على العمل التطوعي، سهل لين في تعامله مع الفئات المستفيدة من تطوعه[1].

ولذا: عرف بعضهم التطوع الاجتماعي بأنه: «كل ما يقدمه الفرد من خدمات للآخرين بلا أجر مادي، سواء كان ما يبذل علمًا، أو مالًا، أو وقتًا، أو جهدًا بدنيًا، أو رأيًا، أو غيرها مما يملكه الفرد ويحتاجه الآخرون»[2].

وعلى الرغم من كثرة التعريفات للتطوع: إلا أن الباحث يستحسن تعريف الدكتور محمد القاضي له بأنه: «كل جهد بدني أو فكري أو عقلي أو قلبي يأتي به الإنسان أو يتركه تطوعًا دون أن يكون ملزمًا به لا من جهة الشرع ولا من غيره»[3].

لأن هذا التعريف يدخل فيه «التطوع بالترك» وأعني به الأعمال التطوعية التي يتركها الإنسان ابتغاء الأجر والثواب من الله تعالى دون أن يكون ملزمًا بتركها، كالتنازل عن الدية، ونصف المهر للمطلقة قبل الدخول، ونحو ذلك مما يترك تطوعًا، والتي سنأتي عليها بشيء من التفصيل في ثنايا هذا البحث بمشيئة الله تعالى.

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن بعض معانيه اللغوية.

(١) انظر: التربية على العمل التطوعي وعلاقته بالحاجات الإنسانية، عبداللطيف الرباح، ص٤-٥.
(٢) المصدر السابق، ص٥.
(٣) الأعمال التطوعية في الإسلام، محمد القاضي، ص٣.

التطوع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طوع) في القرآن بصيغتين، بلغت(٣) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة:١٥٨]
اسم الفاعل	١	﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة:٧٩]

الأصل في التطوع: تكلف الطاعة، ثم غلب استعماله على التنفل بما لا يلزم من العبادات، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٣٠-٤٣١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٧٢٥-٧٢٦.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٤٢٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٥١٩-٥٢٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخير:

الخير لغة:

الخير: ضد الشر [١].

الخير اصطلاحًا:

الخير: ما يرغب فيه الكل، كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع [٢].

الصلة بين التطوع والخير:

يمكننا تلخيص الصلة بين (التطوع) و(الخير): بأن الخير يشمل الواجب وغيره من نفل ومندوب، أما التطوع؛ فإنه يقتصر على ما لم يجب؛ فهو: «اسم لما شرع زيادة على الفرض والواجب»، أو: « هو التبرع بما لا يلزم» كما صرح بذلك الخليل والمناوي [٣].

والعمل التطوعي يندرج تحت عموم فعل الخير المأمور به في الكتاب والسنة؛ فكل من فعل معروفًا أو خيرًا لا يلزمه، يبتغي بذلك الأجر من الله عز وجل عد عمله هذا عملًا تطوعيًا.

٢ الإحسان:

الإحسان لغة:

مصدر حسن، والحسن: ضد القبح ونقيضه، والإحسان: ضد الإساءة [٤]

الإحسان اصطلاحًا:

إتقان الأعمال، والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه [٥].

الصلة بين التطوع والإحسان:

أن الإحسان قد يكون واجبًا وقد يكون غير واجب، أما التطوع فلا يكون واجبًا؛ إذ الإيجاب والإلزام يفقد التطوع معناه.

---

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٢٣٨.
(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٣٤٨.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي، ٣/ ٦٦، التوقيف، المناوي، ص٣٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٧.
(٥) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ٢١٢.

أنواع التطوع

إن مفهوم التطوع في القرآن الكريم يتسع ليشمل نوعي التطوع الرئيسين (التعبدي والاجتماعي)؛ إذ التطوع بمختلف ميادينه يندرج تحت عموم «فعل الخير» المأمور به في غير آية من القرآن الكريم؛ لعل أجمعها قوله سبحانه: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]؛ بل إنه يعد من أسمى صور التعاون على البر والتقوى، الذي حث عليه القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وفضلًا عن ذلك: فإنه يعد صورة من صور شكر المنعم سبحانه وتعالى على نعمه وآلائه؛ حيث قال حبيبنا صلى الله عليه وسلم: (كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة)[1].

والتطوع ينقسم إلى نوعين رئيسيين، هما:

الأول: التطوع التعبدي:

والذي يمكننا أن نعرفه-في ضوء التعريف اللغوي للتطوع المذكور سابقا - أنه: «عبادة زائدة عن الفرض يتقرب بها العبد لربه سبحانه وتعالى، رغبة في نيل رضاه سبحانه ومحبته».

يعني: ما يفعله العبد من الشعائر التعبدية المعروفة كالصلاة والصيام والحج، ونحوها، تطوعًا من غير فريضة.

وهذا النوع من التطوع يصدق فيه قول الله عز وجل في الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)[2].

ومما ينبغي ملاحظته هنا: أن ثمرة التطوع التعبدي وإن كانت تعود على المتطوع نفسه بالمقام الأول، إلا أن للمجتمع فيها نوع فائدة تتمثل في أثر هذه العبادات في نفس المتطوع وخلقه؛ ففي ذلك نفع للمجتمع لا يخفى.

وباستقراء آيات القرآن الكريم نجد: أن «التطوع»[3]، قد ورد فيها مرتين بصيغة الفعل المضارع «تطوع»:

الأولى: في قوله تعالى ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم ٢٨٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم ٦١٦٤.

(٣) الذي هو فعل غير الواجب بلا مقابل.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨].

والثانية: في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: ١٨٤].

كما ورد مرة ثالثة بصيغة اسم الفاعل «المطوعين» في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

أما الآية الأولى: فقيل في المراد بالخير فيها: إنه الزيادة على الطواف شوطًا ثامنًا وتاسعًا، وقيل: المراد به الطواف بين الصفا والمروة في حجة تطوع أو عمرة تطوع.

وقيل: ليس المراد بالخير هنا خصوص السعي وإنما هو حكم كلي يعم كل أفعال الخير، فيشمل كل ما ليس بفرض من صلاة أو زكاة أو صيام، أو أي نوع من أنواع الطاعات؛ لأن ﴿خَيْرًا﴾ نكرة وردت في سياق الشرط فتفيد العموم، ولذلك عطفت بالواو دون الفاء؛ لئلا يكون الخير قاصرًا على الطواف بين الصفا والمروة، ولذا رجح كثير من المفسرين إفادة ﴿خَيْرًا﴾ لعموم فعل الخير من الطاعات والنوافل ولم يقصروها على خصوص السعي.

وعليه: فيكون معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: من فعل خيرًا -أيًا كان هذا الخير- فإن الله عز وجل يجزيه خيرًا منه؛ لأنه سبحانه ﴿شَاكِرٌ﴾ لا يضيع أجر المحسنين: ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء[(١)].

وأما الآية الثانية: فقيل في المراد بالخير الأول فيها في قوله تعالى ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: إنه خصوص الصوم، يعني: أن الصوم مع وجود الرخصة في الفطر أفضل من تركه، وقيل: المراد به أن الزيادة على إطعام مسكين أفضل من الاقتصار عليه[(٢)].

وقد رجح ابن عاشور هذا القول الثاني قائلًا: «لا شك أن الخير هنا متطوعٌ به؛ وهو الزيادة من الأمر الذي الكلام بصدده وهو الإطعام لا محالة، وذلك إطعام غير واجب فيحتمل أن يكون المراد: فمن زاد على إطعام مسكينٍ واحد فهو خير، أو أن يكون: من أراد الإطعام مع الصيام فهو خير»[(٣)].

وأما ﴿خَيْرٌ﴾ الثاني في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾؛ فيجوز أن يكون المراد به: خيرًا آخر أي خير الآخرة، ويجوز أن يكون المراد به التفضيل، أي: فالتطوع بالزيادة أفضل من تركها[(٤)].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور٢/ ٦٤، في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ٢/ ٦٤.
(٣) المصدر السابق، ٢/ ١٦٧- ١٦٨.
(٤) المصدر السابق، ٢/ ١٦٨.

وأما الآية الثالثة: فقد نزلت بسبب حادث حدث في مدة نزول السورة، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وجاء عاصم بن عدي بأوسقٍ كثيرة من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر؛ فقال المنافقون: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياءً، وأحب أبو عقيل أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات؛ فأنزل الله فيهم هذه الآية[1].

الثاني: التطوع الاجتماعي:

وهذا النوع من التطوع هو المراد غالبًا عند إطلاق نحو مصطلح: العمل التطوعي، العمل الخيري، العمل الاجتماعي، وهي مصطلحات تدل على: «كل جهد بدني أو فكري أو عقلي أو قلبي يأتي به الإنسان أو يتركه تطوعًا دون أن يكون ملزمًا به لا من جهة الشرع ولا من غيره؛ ليحقق به نفعًا لغيره دون عوض مالي».

العلاقة بين التطوع الاجتماعي والتطوع التعبدي:

ثمة علاقة وثيقة بين التطوع التعبدي، والتطوع الاجتماعي؛ فالتطوع التعبدي وإن كان يخص (العبادات المحضة) من صلاة وصيام وحج، ونحوها، مما يتقرب به العبد لربه سبحانه ابتغاء مرضاته ومحبته، فكذلك التطوع الاجتماعي يتحول بالنية الصالحة إلى (عبادات غير محضة) ينال بها العبد رضا ربه سبحانه وتعالى ومحبته.

ومن ثم كان هذا النوع من التطوع خلق الأنبياء والمرسلين، وشعار الصالحين من عباد الله أجمعين:

فقد رغب نبينا صلى الله عليه وسلم في الأعمال التطوعية قولًا وعملًا؛فشارك بنفسه تارة في بعض الأعمال التطوعية: كحلف الفضول[2]، وإعادة بناء الكعبة[3]، وبناء مسجد المدينة[4].

وتارة أخرى: رغب فيها قولًا في كثير من أحاديثه الشريفة: حتى أنه صلى الله عليه وسلم قد جمع لنا في حديث واحد أصنافًا من الأعمال التطوعية، كـ: الصلح بين المتخاصمين، ومساعدة المحتاج، والكلمة الطيبة، وإماطة الأذى عن الطريق، وإرشاد الضال، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإفشاء السلام، وغيرها[5] ترغيبًا لنا

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص١٠٣، الدر المنثور، السيوطي،٤/ ٢٤٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور،٢/ ١٦٧.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٨٧.

(٣) المصدر السابق، ١/ ١٢٤.

(٤) انظر القصة في: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، رقم ٤٢٨.

(٥) كما أن سياق الحديث- المشار إليه- يدل على: أن هذه الأعمال إنما هي بمثابة الشكر للمنعم سبحانه وتعالى، الذي وهب الإنسان

في فعلها.

وتارة ثالثة: نجده صلى الله عليه وسلم يكرم أصحاب الأعمال التطوعية ويهتم بشأنهم، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رجلًا أسود، أو امرأةً سوداء،كان يقم المسجد؛ فمات، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عنه، فقالوا: مات، قال: أفلا كنتم آذنتموني به؟دلوني على قبره، أو قال: قبرها، فأتى قبرها فصلى عليها)[١].

بل بين لنا صلى الله عليه وسلم: أن هذه الأعمال لا يقتصر مجالها على الإنسان فحسب؛ وإنما تشمل الحيوان والطير كذلك؛ فقال صلى الله عليه وسلم: (في كل ذات كبد رطبة أجرٌ)[٢].

وموسى عليه السلام: سقى للفتاتين وهو الغريب الذي لا يعرف ولا يعرف[٣].

والخضر: أقام جدار الغلامين اليتيمين حفظًا لمالهما بدون أجر[٤].

وذو القرنين: بنى السد تطوعًا[٥].

ويوسف عليه السلام: تطوع بتفسير رؤيا الملك دون أن يشترط لنفسه شيئًا[٦].

والصديق رضي الله عنه: حلب لجواري الحي مناتحهم[٧]، وتعهد سرًا امرأة عمياء يقضي لها أشغالها[٨].

وذو النورين رضي الله عنه: اشترى بئر رومة وأوقفها على المسلمين[٩].

وعلي رضي الله عنه: كان يكنس بيت مال المسلمين بنفسه[١٠].

وبذلك يكون قد تبين لنا بجلاء: أن التطوع الاجتماعي كان خلقًا أصيلًا عند الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباد الله أجمعين.

نعمة الصحة والعافية، وأن كلها أعمال تطوعية، لا سيما وأن نافلة الضحى تجزيء عنها.

(١) انظر القصة في: صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، رقم ١٦٥١.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم ٢٢٦٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٨٥-٢٦٨٨.

(٤) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٢٨٠-٢٢٨١.

(٥) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٢٩٢-٢٢٩٤

(٦) انظر: المصدر السابق ٤/ ١٩٩٢-١٩٩٥.

(٧) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، طبقات البدريين من الأنصار، ٣/ ١٨٦.

(٨) انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ١/ ٣٩٧.

(٩) انظر: سنن الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب اثبت حراء فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد، رقم ٣٧٩٠، وقال: حسن صحيح غريب.

(١٠) انظر: فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، فضائل علي بن أبي طالب، رقم ٨٧٤،٩٠٥.

الحث على التطوع

لقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في الحث على التطوع، ما بين أمر بالمبادرة إليه، والثناء على فاعله، وبيان أنه أهل لمحبة الله تعالى ورضوانه، ووعده بالثواب العظيم، وما بين ذم لضد من هم على هذه الصفات من المثبطين للهمم الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، وسنزيد ذلك بيانًا فيما يلي:

أولًا: دعوة القرآن للتسابق في العمل التطوعي:

لقد تنوع الخطاب القرآني في الدعوة إلى التسابق في فعل الخير على سبيل العموم؛ فتارة: أمر سبحانه باغتنام الفرص عن طريق المنافسة والمسارعة إلى فعل الخير وإيقاعه على أكمل الأحوال قبل فوات الأوان.

وتارة أخرى: قص علينا نماذج عملية للتسابق في فعل الخير.

وفي ثالثة: مدح أقوامًا اغتنموا الفرص وسارعوا إلى فعل هذه الخيرات.

فمن الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]

فـ«الاستباق»: يعني التسابق، وهو يطلق مجازًا على المنافسة؛ لأن الفاعل للخير لا يمنع غيره من أن يفعل مثل فعله أو أكثر؛ فشابه التسابق، والمراد به هنا: المعنى المجازي وهو الحرص على فعل الخير والإكثار منه؛ فإن المبادرة إلى الخير محمودة، ومن ذلك: فضيلة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

ومن الثانية: قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فهذه الآية الكريمة: تشير إلى أنهم تنافسوا - بل وتنازعوا-في شأن كفالة مريم حين ولدت، وأنهم استهموا لأجل الفوز بذلك الفضل؛ ولمعرفة أيهم ستكون مريم في كفالته وتحت كنفه ورعايته[1].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

فهنا أيضًا: صورة من صور التنافس في فعل الخير؛ وكلا المتنافسين يعرض مهاراته

(١) روح المعاني، الألوسي، ٣/ ١٥٩.

ومقوماته الشخصية التي تؤهله للفوز بهذا الشرف.

ومن الثالثة: مدحه عز وجل لطائفة من أهل الكتاب بأنهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٤].

ومدحه لزكريا عليه السلام وأهله بأنهم: ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالقاسم المشترك بين المذكورين في الآيات السابقة والذي كان من جملة ما استحقوا لأجله هذا الثناء من رب الأرض والسماء هو أنهم ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يعملونها مبادرين غير متثاقلين، أو يجدون في طاعة الله ويتسابقون في فعل الطاعات وعمل الصالحات، أو يبادرون إلى أبواب الخير[(١)].

كما ذكر سبحانه: أن المسارعة لفعل الخير من أخص صفات عباده المؤمنين؛ فقال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١].

أي: لأجلها فاعلون السبق، أو سابقون الناس إلى الطاعة[(٢)].

ثانيًا: وعد المتطوع بالثواب العظيم:

مما لا شك فيه: أن العمل التطوعي يندرج تحت عموم فعل الخير والعمل الصالح الموعود صاحبه بالثواب العظيم في آيات عديدة من القرآن الكريم، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧-٨].

يعني: أن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح هم خير الخليقة التي خلقها الله تعالى وبرأها، وأن جزاء ما قدموه من إيمان وعمل صالح ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ولهم زيادة على ذلك رضوان الله تعالى عليهم؛ فقد ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما قدموا في الدنيا من طاعات وأعمال صالحة، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من الخيرات والكرامات، ثم ذيلت الآية بقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ لبيان أن الحسنة هي ملاك الأمر والباعث على كل خير[(٣)].

كما بين الحق تبارك وتعالى: أن كل أعمال الإنسان ستكون عاقبتها الخسارة

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ١٤٠، صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ١٢٨، ٢/ ١٨٠.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٠٧، صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ٢١٩.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣١٣، البحر المديد، ابن عجيبة، ٨/ ٣٣٦، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٨٣.

والبوار إلا الأعمال الصالحة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

ففي هذه السورة الكريمة: أقسم سبحانه بالعصر، وهو الدهر والزمان لأنه رأس عمر الإنسان، أو بصلاة العصر لفضلها وشرفها على أن الإنسان في خسران لتفضيله العاجلة على الآجلة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: إلا من جمعوا بين الإيمان والأعمال الصالحة، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الخير كله من الإيمان التصديق وعبادة الرحمن، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على الطاعات والشدائد وترك المحرمات؛ فهؤلاء وحدهم هم الفائزون[1].

كما وعد سبحانه كل من يأتي بشيء من ذلك الخير الذي رغب فيه القرآن الكريم بالأجر العظيم؛ فقال عز وجل: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١١٤﴾ [النساء: ١١٤].

يعني: لا خير في كثير من محاورات الناس وأحاديثهم التي يسرونها فيما بينهم، إلا ما اشتمل منها على دعوة إلى فعل خير كـ: (الصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس)؛ فالنجوى: هي المسارة في الحديث.

والمقصود من الآية: التربية الاجتماعية للمسلم، فإن شأن المحادثات، والمحاورات أن تكون جهرة، فلا يصار إلى المناجاة إلا في أحوال شاذة يناسبها إخفاء الحديث، ومعنى ﴿لَّا خَيْرَ﴾ أنه شر، بناء على المتعارف في نفي الشيء أن يراد به إثبات نقيضه، كقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقد نفت الآية الخير عن كثير من نجواهم، فعلم من مفهوم الصفة أن قليلًا من نجواهم فيه خير، إذ لا يخلو حديث الناس من تناج فيما فيه نفع، كالتشاور في أمر نكاح ونحوه.

والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ على تقدير مضاف، أي: إلا نجوى من أمر بصدقة، أو معروف، أو إصلاح بين الناس.، وهذه الثلاثة المستثناة: لو لم تذكر لدخلت في القليل من نجواهم الثابت له الخير، فكان ذكرها للعناية والتنويه بشأنها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعدٌ بالثواب على فعل المذكورات إذا كان لابتغاء مرضاة الله تعالى؛ فدل على أن كونها خيرًا وصف ثابت لها لما فيها من المنافع،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ١٧٩، البحر المديد، ابن عجيبة، ٨/ ٣٤٩، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٥٣.

ولأنها مأمور بها في الشرع، إلا أن الثواب لا يحصل إلا عن فعلها ابتغاء مرضاة الله تعالى؛ لحديث: (إنما الأعمال بالنيات)[1].

كما بين لنا القرآن الكريم: أن أي عمل من أعمال الخير والبر مهما دق في عين صاحبه فإنه يثاب عليه إذا كان خالصًا لوجه الكريم موافقًا للشرع الحكيم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠].

فهاتان الآيتان الكريمتان تشيران إلى: أن الله تعالى لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة، ولا كبيرة، خيرًا كانت أم شرًا، من مسلم كانت أم من كافر، لاسيما إذا كانت الذرة لا وزن لها.

وعليه قال ابن عباس رضي الله عنه: « فمن يعمل من الكفار مثقال ذرة خيرًا يره في الدنيا، ولا يثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة ويتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه، ويضاعف له في الآخرة »[2].

ثالثًا: القائمون بالأعمال التطوعية أهل لمحبة الله تعالى ورضوانه:

قال سبحانه: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

والعفو عن المسيء يعد من جملة التطوع بالترك، كما سيأتي لذلك مزيد بيان- بمشيئة الله تعالى-عند حديثنا عن مجالات التطوع الاجتماعي في القرآن الكريم.

رابعًا: ذم أولئك الذين يحول داعي الشح والبخل بينهم وبين التطوع:

لقد ذم الله تعالى البخل في غير آية من كتابه الكريم، وبين أنه قد يحمل صاحبه على الإمساك عن إخراج الواجب؛ فضلًا عن المستحب، وأن أولئك الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله على المحاويج من عباده، قد أضروا بدينهم ودنياهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم ١. وانظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ١٩٨.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٢٠/ ٤٥٠.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فالآية هنا تبين لأولئك البخلاء حال البخل وشؤم عاقبته، وتخطئة أهله في توهم خيريته، كما أكدت أن البخل شرٌّ لهم؛ إذ التنصيص على شريته هنا مع فهمها من نفى الخيرية إنما ورد للمبالغة[1].

وفي تذييل الآية بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تنبيه لأولئك الغافلين إلى أن ثمة شيء من رواسب الجاهلية قد ران على قلوبهم، وأن تلك الرواسب تتنافى مع نور الإيمان الذي يدرك معه المؤمن أن ما استخلفه الله عليه في هذه الدنيا إنما هو ملكية مجازية، وأن الملكية الحقيقية المطلقة لله الواحد القهار خالق القوى والقدر، فهو سبحانه له ميراث السموات والأرض؛ فتدفع تلك العقيدة المؤمن دفعًا لإنفاق المال تطوعًا في سبيل الله عن اطمئنان ورضا، «أما حين يقفر القلب من نور الإيمان الصحيح، فالشح الفطري يهيج في نفسه كلما دعي إلى نفقة أو صدقة، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل، فيبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار[2].

وفي ختام هذا المبحث أود أن أشير لأمرين:

أولهما: أن الأعمال التي قد تعد من قبيل المشترك الإنساني والتي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات؛ كمساعدة الفقراء والمحتاجين ونحو ذلك، أضفى عليها الإسلام مفهومًا خاصًا ينبع من شموليته؛ ويؤكد على استقلال هوية من يدينون به؛ فمساعدة الفقراء والمحتاجين مثلًا، والتي قد تأخذ في بعض المجتمعات مسمى(المعونات) أو نحوه، سماها الإسلام (صدقة) وجعلها لا تقتصر على إعطاء الفقير والمحتاج فقط؛ وإنما تتسع لتشمل الكثير من أعمال الخير والبر كـ: العدل بين المتخاصمين، وإماطة الأذى عن الطريق، وغيرها من أفعال الخير التي لا تحصى.

ثانيهما: أن ديننا الإسلامي قد أعلى من شأن الأعمال التطوعية، عندما قرن حبيبنا صلى الله عليه وسلم بين بعض مجالاتها وبين الإيمان؛ كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وسبعون-أو بضع وستون-شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)[3].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود: ٢/ ١٢٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٤٣٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم ٨٠.

دوافع التطوع في القرآن الكريم

لقد أسلفنا في فاتحة هذا البحث أن العمل التطوعي يدخل في عموم فعل الخير المأمور به في كثير من آيات القرآن الكريم: التي من أجمعها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧].

فـ ﴿ٱلْخَيْرَ﴾ هنا أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة؛ يعني: افعلوا كل ما يصح أن يطلق عليه لفظ «خير» من الصلة، والإحسان، وحسن المعاملة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر مكارم الأخلاق[1].

ومن ثم كانت هذه الدعوة القرآنية ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تصلح أن تكون بمفردها دافعًا رئيسًا يدفع المسلم دفعًا للمساهمة في الأعمال التطوعية ابتغاء الأجر من الله تعالى.

وفي ضوئها: يمكننا تلخيص الدافع الرئيس الذي يدفع المسلم للقيام بالأعمال التطوعية، ويميزه عن غيره ممن يقومون بمثل هذه الأعمال في: نيل رضا الله تعالى ومحبته، وابتغاء الأجر والثواب منه سبحانه.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ١٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ٣٤٦.

ويعد العمل التطوعي:

أولًا: من أسمى صور التعاون على البر والتقوى المأمور بهما شرعًا.

في نحو قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

فالبر لغة: يعني التوسع في فعل الخير، كما أسلفنا، وهو في الآية يعني: الصلة والخير والاتساع في الإحسان والصدقة، وسائر أعمال الخير المقربة إلى الله تعالى[2].

ثانيًا: صورةً من صور شكر المنعم سبحانه وتعالى.

فالشكر الحقيقي يكون باللسان قولًا، وبالجوارح عملًا؛ فيبذل العبد جوارحه في طاعة المنعم سبحانه، ويكفها عن معصيته.

قال تعالى حكاية عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٣٥.

﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٠-١٣].

فبعد أن عدد سبحانه نعمه على داود وسليمان عليهما السلام، عقب ذلك بقوله سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ أي: اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة واعملوا بطاعته شكرًا له سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ أي: وقليل من العباد من يقوم بهذا الشكر، ولعل حديث السلامى المشار إليه -سابقًا- يؤيد هذا المعنى ويؤكده.

ثالثًا: وسيلة مهمة لاستثمار الوقت.

الذي يستشعر المسلم قيمته وأهميته في حياته، عندما يتدبر القسم الوارد في القرآن الكريم في نحو قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١-٣].

وغيرها من الآيات الكريمة التي يقسم فيها ربنا سبحانه بالزمن أو أجزائه.

وعندما يتدبر إشارة القرآن الكريم إلى تعاقب الليل والنهار على الإنسان؛ ليعمل في النهار، ويستريح في الليل، وأن ذلك آية من آياته سبحانه؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣﴾ [الروم: ٢٣].

فيفهم المسلم-من التنصيص على تلك القضية-ضرورة احترام الوقت، وأهميته في حياته.

وفضلًا عن هذا وذاك: فإن في كتاب الله تعالى ما يدفع المسلم دفعًا لاستثمار كل لحظة من لحظات عمره فيما يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه، عندما يقرأ نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون: ٩-١١].

أقول: لو استشعر المسلم تلك اللحظة التي قد يتمنى فيها مهلة قصيرة يقدم فيها عملًا صالحًا، بعد أن ضيع عمرًا طويلًا هدرًا؛ لدفعه ذلك دفعًا لاستثمار كل لحظة من لحظات عمره فيما يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه.

ثم إن مما ينبغي التأكيد عليه في معرض حديثنا عن دوافع التطوع: أنه إن كانت «الراحة النفسية التي يشعر بها المتطوع من جراء مساعدة الآخرين دون مقابل، أو الرغبة في زيادة احترام الذات، أو الرغبة في شغل أوقات الفراغ»[1] «أو اكتساب مهارات

(١) انظر: التربية على العمل التطوعي،

وخبرات جديدة قد يحتاجها المتطوع مستقبلًا في حياته العملية، والتي قد لا تتوفر له إلا من خلال مراكز التطوع»[1]، أو غيرها من الدوافع الأخرى هي التي تدفع المتطوعين للتطوع في مختلف المجالات والميادين؛ فإنا نجد المسلم: وإن شاركهم فيها أو في بعضها يتميز عنهم بدافع آخر اكتسبه من هويته الإسلامية؛ فتميز به على سائر المشتغلين بالعمل التطوعي، وهو الدافع الذي أشرنا إليه من قبل وهو: (نيل رضا الله تعالى ومحبته وابتغاء الأجر والثواب منه سبحانه). وهو الذي تشهد له نصوص القرآن الكريم.

فالمستقرئ لنماذج التطوع الاجتماعي المبسوطة في القصص القرآني يجد أن القاسم المشترك بين أبطال هذه الأعمال التطوعية والدافع الرئيس الذي دفعهم للقيام بها هو: ابتغاء الأجر من الله تعالى وحده سبحانه.

فموسى عليه السلام: سقى للفتاتين وهو الغريب الذي لا يعرف ولا يعرف ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤].

سقى لهما ولم ينتظر أجرًا على ما فعل، لم ينتظر منهما جزاء ولا شكورًا؛ وما دفعه إلى ذلك إلا ما أودعه الله تعالى في قلبه وفطره عليه من حب الخير والمسارعة فيه ابتغاء رضا ربه ومولاه.

والخضر: لما أنكر عليه موسى بناء الجدار بدون أجر وقال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

قال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]. أي: هذا وقت الفراق بيننا حسبما قلت أنت: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦].

إن دافعه لبناء الجدار أكبر وأعظم من الأجر الدنيوي، إنه طاعة ربه سبحانه وابتغاء فضله ورحمته.

وذو القرنين: لما قالوا له ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي: نفرض لك جزءا من أموالنا ضريبة وخراجًا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

أي: لتبني لنا سدًا يحمينا من شر يأجوج ومأجوج؛ رد عليهم ردًا ينبئ عن شهامة الرجال، ويبرز معدن أهل الصلاح؛ حيث رفض قبول المال وتطوع ببناء السد، واكتفى بمعونة الرجال له في البناء؛ فقال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

أقول: إن المستقرئ للآيات الكريمة التي تحكي لنا القصص المشار إليها آنفًا: يجد أن الدافع الرئيس الذي يجمع بين من قاموا بتلك الأعمال المشار إليها في الآيات

عبداللطيف رباح، ص١٠.

(١) تفعيل العمل التطوعي، صالح التويجري، ص ٣.

السابقة هو: نيل رضا الله تعالى ومحبته وابتغاء الأجر والثواب منه سبحانه.

بل إن المستقرئ لآيات القرآن الكريم يجد هذا الدافع متأصلًا في كل دعوة خير وصلاح في القرآن الكريم؛ خذ مثلًا:

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ١٧-٢٠]. أي: لا يفعل ذلك مكافأة لأحد على نعمة أنعمها عليه، وإنما إنفاقه لوجه الله وابتغاء مرضاته[(١)].

وقوله تبارك اسمه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨-٩].

أي: ويطعمون الطعام مع حبهم وشهوتهم له وحاجتهم إليه، ولكنهم يؤثرون المحتاجين على أنفسهم، أو أن حبهم لله أنساهم حبهم للطعام فآثروا به غيرهم، وهم حين يفعلون ذلك فإنما يفعلونه ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ وابتغاء مرضاته وطلب ثوابه، فلا يبغون مكافأة الناس ولا حمدهم وثناءهم، وإنما حسبهم رضا ربهم سبحانه[(٢)].

نعم: إن الدافع الرئيس للعمل التطوعي عند المسلم هو (نيل رضا الله تعالى ومحبته وابتغاء الأجر والثواب منه سبحانه)؛ فذلكم هو المحرك الرئيس الذي يدفع المسلم لفعل الخير على سبيل العموم، ويجعله أكثر إقبالًا من غيره على العمل التطوعي؛ ففي دراسة ميدانية: «حصلت الأعمال الخيرية المرتبطة مباشرة بطلب الأجر والثواب من الله تعالى على تراتيب متقدمة ضمن قائمة المجالات التطوعية المرغوبة من وجهة نظر أفراد عينة الدراسة»[(٣)].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٠٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ١٦٨، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٥٦٦.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ١٩٩، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٤٩٢.

(٣) دراسة استطلاعية لاتجاهات بعض أفراد المجتمع نحو مفهوم العمل التطوعي واتجاهاته من وجهة نظرهم، عبدالحكيم موسى، نقلا عن: التربية على العمل التطوعي، عبداللطيف رباح، ص ٢٥.

أسس التطوع

يبنى العمل التطوعي على أسس، منها:

أولًا: الإيمان.

فالإيمان بالله تعالى هو القاعدة الأساسية لقبول الأعمال؛ فمن تطوع بأي عمل دون إيمان كان تطوعه مردودًا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة: ١٧]؛ فكفرهم كان مانعًا من قبول نفقاتهم في الآية الاولى، وعمارتهم للمساجد في الآية الثانية[١].

ثانيًا: الإخلاص لله عز وجل.

لأنه إذا كان الدافع الرئيس للمسلم نحو العمل التطوعي هو (نيل الثواب من الله عز وجل) - كما أسلفنا- وإذا كانت الأمور بمقاصدها، ولا ثواب إلا بالنية، كما يفهم من قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وكما يفهم من حديث النبي صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات)[٢] فإنه يتأكد لنا أن الإخلاص هو روح أي عمل؛ «وأن العمل لا يكون صالحًا أو مقبولًا إلا بتوسط الإخلاص الذي هو عمل القلب»[٣]؛ فرب صائم لا حظ له من صيامه إلا العطش، ورب قائم لا حظ له من قيامه إلا السهر، إن دخل الرياء، وغاب الإخلاص.

ومن ثم: فإنه يجب على المتطوع أن يخلص عمله لله عز وجل وحده، لا يريد بذلك حمدًا من الناس ولا ثناءً، ولا سمعة ولا عجبًا ولا رياء، ولا جلب نفع، أو دفع ضر، وذلك أمر لا يقوى عليه إلا من وفقه الله تعالى له.

يضاف إلى ذلك: أن هذا الإخلاص - فضلًا عن أنه معيار قبول العمل- يحول التطوع الاجتماعي إلى عبادة، ينال بها العبد الثواب والأجر من الله تعالى؛ وبسببه يعظم الجزاء مع قلة العمل، وقصة بغي بني إسرائيل، التي سقت كلبًا؛ فغفر الله لها مشهورة معروفة[٤].

ثالثًا: مراعاة حال الناس وأعرافهم.

فرب متطوع بعمل أو شيء لفئة يستهدفها

(١) انظر: التطوع في القرآن الكريم، المثنى محمود، ص٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم ١.

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١١/ ٨١.

(٤) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، رقم ٣١٦٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بتطوعه وهو يظن أنه يوفر لهم شيئًا ضروريًا به قوام معاشهم، ولكن لجهله بعاداتهم وأعرافهم، تذهب ثمرة تطوعه سدى، ولا ينتفعون به؛ ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك: ما ذكره الشيخ عبدالرحمن السميط رحمه الله من أن أهل الصومال لا يأكلون الدجاج، وينظرون إلى من يأكل الدجاج منهم نظرة استصغار، بل إن بعضهم لا يزوجه ولا يتزوج منه، وأن أحد أهل الخير قد أخبر الشيخ أنه يريد التبرع بمليون دجاجة لمسلمي الصومال؛ فأخبره الشيخ بعادتهم تلك؛ وطلب منه أن يتبرع بشيء آخر.

رابعًا: الترجيح بين الأعمال التطوعية إذا تزاحمت.

وذلك الترجيح يتسق تمام الاتساق مع فقه الأولويات، أو الموازنة بين المصالح والمفاسد الذي أشار إليه القرآن الكريم في بعض آياته الكريمة، منها: قوله تعالى حكاية عن الرجل الصالح ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩].

فكما أن المفاسد تتفاوت، وبعضها أفسد من بعض؛ فكذلك المصالح بعضها أهم من بعض؛ فيوازن ويرجح بينها بتقديم الأهم على المهم؛ والمصلحة العامة على الخاصة، والدائمة على المنقطعة، والمتيقنة على المظنونة، والجوهرية على الشكلية - على التفصيل الذي قرره الفقهاء والأصوليون في بابه[1].

وعليه: فإن العمل التطوعي الذي يستهدف تحقيق الضروريات، يقدم بلا شك على غيره من الأعمال التطوعية التي تستهدف الحاجيات أو التحسينيات، وعمل تطوعي نفعه عام يقدم بلا شك على تطوع نفعه خاص؛ لاسيما وقد قرر الفقهاء« أن الحاجة العامة تنزل منزلة الضرورة»[2].

(١) انظر: الأشباه والنظائر، السيوطي٨٨، فقه الأولويات،يوسف القرضاوي، ص١١.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: أثر القواعد الأصولية في تأصيل العمل الخيري، عبد الجليل ضمرة، بحث مقدم إلى مؤتمر العمل الخيري الخليجي الثالث، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، بدبي، ٢٠٠٨م، ص ٣٠، وما بعدها.

عقبات التطوع

ثمة عقبات كثيرة قد تقف في طريق التطوع، كغياب ثقافة العمل التطوعي الذي يشجع الفرد على القيام به، أو سوء التنظيم والتنسيق بين الجهات ذات العلاقة في العمل التطوعي الواحد، أو شح الموارد المالية الذي يحول بين تنفيذ برامج العمل التطوعي أو التوسع فيها، وغيرها من العقبات التي يمكن مراجعتها فيما كتبه المتخصصون في هذا المجال[1].

غير أنه لما كان بحثنا لموضوع «التطوع» في ضوء القرآن الكريم،كان من المهم أن نلفت النظر هنا إلى أمرين رئيسين أشار إليهما القرآن الكريم قد يكونا عقبتين رئيستين في طريق التطوع، أولهما: نفسي أو داخلي وهو الشح والبخل، والثاني: يمكننا أن نعده عقبة خارجية، وهو لمز المطوعين، وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: الشح والبخل وهو عقبة نفسية تحول دون التطوع.

لقد ذم الله تعالى البخل في غير آية من كتابه الكريم، وبين أنه قد يحمل صاحبه على الإمساك عن إخراج الواجب؛ فضلًا عن المستحب.

كما بينت لنا آيات أخرى: أن نفس الإنسان مجبولة على الشح الذي هو: «عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له»[2]، وذلك في نحو قوله تعالى ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

كما أنها مجبولة على حب المال والحرص عليه؛ وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: ٢٠]. يعني حبًا كثيرًا.

غير أنه مما ينبغي الإشارة إليه هنا: أنه إذا كان حب المال، والحرص عليه أمرًا فطريًا؛ فإن القرآن الكريم قد حرص على اقتلاع هذا الحرص-إن تحول عن طوره الإيجابي الدافع لعمارة الأرض بالجد المثمر والعمل النافع إلى حرص(مرضي)-من نفوس المؤمنين، فذكرهم المرة بعد المرة لاسيما في ختام الآيات الآمرة بالبذل والإنفاق:

أن: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وأن: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

وأن: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨].

(١) انظر: العمل التطوعي أهميته، معوقاته، عوامل نجاحه، حميد الشايخي، مقالة منشورة إلكترونيًا على موقع أسبار للبحوث والدراسات والإعلام بتاريخ سبتمبر٢٠٠٧م.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٨٧.

وأن مثل الحياة الدنيا ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠].

ليربي النفس المؤمنة على البذل والعطاء، ويقتلع منها داء الحرص والشح؛ «فمن سلم من الشح أفلح وأنجح»[(١)]. وقد صدق الله العظيم حين قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثانيًا: السخرية من المتطوعين.

لقد قص الله تعالى علينا لونًا من خبث المنافقين؛ ومحاولاتهم الخبيثة لتثبيط همم المؤمنين عن البذل والعطاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

فكما لم يسلم من تطوع بماله من أذاهم وعيبهم، لم يسلم من سخريتهم -كذلك- من تطوع بجهده وعمله؛ ففي سبب نزول الآية كما هو عند مسلم عن أبي مسعود قال: «أمرنا بالصدقة؛ قال: فكنا نحامل، قال: فتصدق أبو عقيل بنصف صاع، قال: وجاء إنسان بشيء أكثر منه؛ فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا؛ وما فعل هذا الآخر إلا رياء؛ فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ...﴾[(٢)]، فكما سخر المنافقون ممن تطوع بالمال، سخروا كذلك من أولئك الذين لا يجدون سبيلًا إلى إيجاد ما يتصدقون به إلا طاقتهم وجهد أبدانهم، فلم يسلم من عيبهم ولمزهم أحد في جميع الأحوال.

والذي نود التنبيه إليه هنا: ونحن في معرض الحديث عن الاستهزاء كعقبة خارجية في طريق التطوع، هو أنه إذا كان لمز المنافقين وعيبهم لم يفت في عضد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن حائلًا بينهم وبين التطوع بالخير؛ فإن الشيطان قد يجد في ذلك سبيلًا ومدخلًا إلى بعض ضعاف الإيمان؛ فيصرفهم عن فعل الخير، أو التطوع به؛ لئلا يكونوا وسيلة لاستهزاء المستهزئين، أو سخرية المنافقين.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٨٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحمل أجرة يتصدق بها والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق، رقم ١٧٦٦.

مجالات التطوع الاجتماعي في القرآن

إن ميدان التطوع الاجتماعي في القرآن الكريم يتسع ليشمل كل خير يفعله المسلم ابتغاء فضل ربه سبحانه ورضوانه؛ بل إنه يتسع أكثر ليشمل ما لم يفعله الإنسان؛ وإنما يتركه ابتغاء الثواب من الله عز وجل.

وعليه: سيكون حديثنا عن مجالات التطوع الاجتماعي في القرآن الكريم، في ضوء التقسيم الرئيس التالي: (التطوع بالفعل، والتطوع بالترك).

وباستقراء آيات القرآن الكريم وقفنا على بعض مجالات للتطوع الاجتماعي التي رغب القرآن الكريم فيها وحث عليها، والتي سنلخصها في السطور التالية تحت النوعين المشار إليهما أعلاه:

أولًا: التطوع بالفعل.

وله صور، منها:

١. الكفالة.

وهي لغة: بمعنى الالتزام؛ أو الضم، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة..)[١].

أي: ضام اليتيم إلى نفسه، ونعني بها هنا: معناها اللغوي الأعم من المعنى الذي اصطلح عليه الفقهاء[٢]؛ ليدخل فيها: كفالة ورعاية اليتيم والمعوز والمحتاج.

ودليلها من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ [يوسف: ٧٢].

قال ابن عباس: الزعيم الكفيل[٣]، وقوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [القلم: ٤٠].

يعني: سل يا محمد هؤلاء المكابرين تهكمًا بهم، أيهم كفيل وضامن لهذا الذي يزعمون[٤].

ثم ساق لنا القرآن الكريم نموذجًا للتسابق في هذا النوع من العمل التطوعي؛ فقال تعالى حكاية عن بني إسرائيل: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فبينت الآية: اختصامهم وتنافسهم على كفالة مريم عليها السلام، حتى أنهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا، ٥٦٨٢، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) الذي هو: ضم ذمة الكفيل إلى ذمة الأصيل في المطالبة.
انظر: الذخيرة، لشهاب الدين القرافي، ٩/ ١٨٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٣٠.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٢٨، السراج المنير، الخطيب الشربيني ٤/ ٣٩٦، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٤٢٣.

استهموا لأجل ذلك[1]، كما سيأتي مفصلاً في موضعه من المبحث التالي بمشيئة الله تعالى

وعليه: فالكفالة تعد من مجالات التطوع الاجتماعي التي أشار إليها القرآن الكريم.

٢. الشفاعة الحسنة للضعفاء وأرباب الحاجات عند أصحاب الجاه والغنى.

دليلها: قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء: ٨٥].

والشفاعة: هي الوساطة في إيصال خير أو دفع شر، سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا، وجملة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ تذييل لجملة ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ لإفادة أن الله يجازي على كل عمل بما يناسبه من حسن أو سوء، و« المقيت» هو: الحافظ، والرقيب، والشاهد، والمقتدر[2].

وعليه فيكون المقصود من الآية: الترغيب في التوسط في الخير والترهيب من ضده.

ويدخل في هذا النوع من الشفاعة: ما حكاه الله تعالى من مجادلة إبراهيم عليه السلام في شأن قوم لوط حيث قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٤-٧٥].

فإبراهيم عليه السلام جادل ربه سبحانه ﴿فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: في عقابهم، على تقدير مضاف. ومجادلته عليه السلام قيل إنها: كانت دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم ربه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم[3].

وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم في هذا النوع من الشفاعة: فقال فيما رواه الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (اشفعوا فلتؤجروا، وليقض الله على لسان نبيه ما شاء)[4]. ولكن يستثنى من ذلك الحدود إذا رفعت للسلطان فلا شفاعة فيها[5]؛ لمعاتبته صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد عندما شفع للمخزومية قائلًا: (..أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة)[6].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٨، روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٤٣، ١٤٤.
(٣) المصدر السابق ١٢/ ١٢٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا، رقم ٦٠٢٦، ٦٠٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٥.
(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٢/ ٦٦.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع للسلطان، رقم ٦٤٣٥.

٣. حفظ الوديعة.

والوديعة: ما يودع من مال وغيره لدى من يحفظه، وهي من أبواب التعاون على البر والتقوى، إن علم المستأمن من نفسه قدرة على حفظها وعدم إفسادها.

دليلها: قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وإنه: وإن كانت الآية الأولى قد نزلت في شأن الدين خاصة، فالخطاب في الآية الثانية يعم كل أحد وكل أمانة[١].

وعليه: فامتثال المسلم للأمر الوارد في هذه الآية الكريمة؛ وحفظه للمال، وتسليمه لصاحبه عند الطلب، دون أن يأخذ أجرًا على الحفظ؛ يعد من جملة الأعمال التطوعية.

٤. القرض الحسن.

أطلق هذا المصطلح في القرآن الكريم وأريد به معنيان:

الأول: ما يدفع للفقراء والمحتاجين، وفي سائر وجوه الخير، دون نية استرجاع، طلبًا لثواب الآخرة.

الثاني: إقراض مال ونحوه بنية إرجاع مثله.

ومن جملة الآيات القرآنية التي ورد فيها هذا المصطلح قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١].

فـ«يقرض» في هذه الآية يحتمل كلا المعنيين السابقين، إلا أنه يكون مجازًا على المعنى الأول: «على تقدير مضاف، أي: يقرض عباد الله المحاويج»[٢]. لتعاليه تعالى عن ذلك، وعليه: يكون التعبير بـ«يقرض» هنا «على سبيل التأنيس والتقريب للناس بما يفهمونه، فالله تعالى هو الغني الحميد؛ لكنه تعالى شبه إنفاق المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض»[٣]، يعني: كما أن قضاء القرض واجب على المقترض؛ فكذلك الثواب الموعود للمنفق في سبيل الله تعالى واصل إليه لا محالة.

أو كما هي عبارة الجصاص رحمه الله: «إنما هو استدعاء إلى أعمال البر والإنفاق في سبيل الخير بألطف الكلام وأبلغه؛ وسماه قرضًا تأكيدًا لاستحقاق الثواب به؛ إذ لا يكون قرضًا إلا والعوض مستحق به»[٤].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٠٥.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ٢٥٧،

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٤٢.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٥٤٧.

ويكون حقيقة على المعنى الثاني: وإنما علق باسم الجلالة؛ لأن الذي يسلف الناس طمعًا في الثواب، يكون كأنه أقرض الله تعالى؛ أو لأن القرض من الإحسان الذي أمر الله تعالى به، لما فيه من توسعة على المسلم وتفريج عنه[1].

ولقد رغب القرآن الكريم في هذا النوع من القروض الذي ما وصف بأنه «حسن» إلا لأنه لا تشوبه شائبة حرام، ولا منٍ ولا أذىً أو نفع دنيوي مشروط يعود على المقرض، وإنما ينفقه صاحبه محتسبًا طيبة به نفسه، وهذا لا يقوى عليه إلا من كمل إيمانه فآثر ما يبقى على ما يفنى.

وإنما كان ذلك من التطوع الاجتماعي: لأن المنفق تطوع بإنفاق ماله طمعًا في ثواب الآخرة، هذا لو استعملنا القرض في معناه المجازي، أما لو استعملناه في معناه الحقيقي الذي هو (إقراض مال ونحوه بنية إرجاع مثله)؛ فدخوله في باب التطوع لا يحتاج إلى مزيد إيضاح؛ لأن قضاء القرض وإن كان واجبًا على المقترض؛ إلا أن المقرض بإقراضه إياه يكون قد أعانه في وقت ضيق، وفرج عنه كربة من ناحية، ويكون كالمتطوع والمتبرع بفائدة ونتاج هذا المال في مدة القرض من ناحية أخرى.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٨١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٤٢.

٥. الإصلاح بين المتخاصمين.

وهذا المجال من أهم مجالات العمل التطوع الاجتماعي؛ فبذل الوقت والجهد والمال في سبيل الإصلاح بين المتخاصمين قربة عظيمة يحبها الله تعالى ووعد فاعلها بالأجر العظيم؛ فقال تعالى:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

فأفادت الآية: أن من يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح بين الناس طلبًا لرضا الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا؛ فإن الله تعالى سوف يعطيه ثوابًا جزيلًا وهو الجنة[2].

وبين لنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن هذا العمل من أعظم القربات والطاعات؛ فقال صلى الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة)[3].

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٦٤، صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ١٨٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٢٧٥٤٨، ٦/ ٤٤٤، وأبوداود في سننه، كتاب الأدب، باب إصلاح ذات البين، رقم ٤٩١٩، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة، رقم ٢٥٤٦.

٦. إطعام الطعام.

وهو من الصفات الطيبة التي حرص الإسلام على تأصيلها في نفوس المسلمين، وترغيبهم فيها بما وعد عليها من الثواب العظيم، وبما حكاه لنا القرآن الكريم من مشاهد كرم أنبياء الله ورسله، والصالحين من عباده وإطعامهم للطعام، لا يريدون بذلك سوى الأجر العظيم من ربهم الغني الكريم.

فقال تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٧].

والآيتان الأخيرتان هما شاهدنا في تلك القصة: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: مضى إليهم في سرعة وخفية عن ضيفه؛ لأن من أدب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة دون أن يشعر به الضيف لئلا يمنعه ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: فجاءهم بعجل سمين مشوي، واختاره لهم سمينًا زيادة في إكرامهم ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا أيضًا من أدب الضيافة؛ فهو لم يضعه بعيدًا ويطلب منهم الاقتراب، وإنما وضعه قريبًا منهم، ثم قال لهم بتلطف ولين ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل: إن أردت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل[(١)].

كما حكى القرآن الكريم نموذجًا آخر لهذا النوع من الأعمال التطوعية الاجتماعية؛ فقال سبحانه: في شأن بعض خواص عباده الصالحين - الذين وصفهم في الآية السابقة على موضع الشاهد بأنهم «عباد الله»-: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨-٩].

أي: إنما نفعل ذلك ابتغاء مرضات ربنا سبحانه وطلب ثوابه، فلا نبغي مكافأة الناس ولا حمدهم وثناءهم.

ثم أكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى المستفاد من الآية الكريمة؛ فقال صلى الله عليه وسلم لما سئل: أي الإسلام خير؟ قال: (تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)[(٢)].

٧. التطوع بالنصيحة.

وهذا باب من الدعم المعنوي للمنصوح، سواء أكان نصحه لإيصال خير إليه، أو

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٥٩٥.

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٦، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إطعام الطعام من الإسلام، رقم ١٢، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

لتحذيره من شر سينزل به، لاسيما إذا سكت المجموع؛ فالمتكلم حينئذ يكون كالمتطوع بالكلام، ولهذا النوع من التطوع الاجتماعي شواهده من القرآن الكريم، منها:

قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: ٢٠].

فهذا الرجل أشفق على موسى عليه السلام؛ فجاء من أبعد أطراف المدينة يشتد ويسرع في مشيه حتى انتهى إلى موسى عليه السلام؛ فبذل له النصح بالخروج لئلا يقتله فرعون وجنوده؛ وهو لم يبتغ بتلك النصيحة سوى الأجر من الله تعالى[1].

ومن ذلك: ما قصه لنا القرآن الكريم من خبر النملة التي نصحت رفيقاتها بدخول بيوتهم ليسلموا من إيذاء سليمان عليه السلام وجنوده لهم بدون علم.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٨].

وكأن هذه الآية وهي تقص علينا تطوع هذه النملة بالنصيحة لرفيقاتها تحذرهم من شر محتمل، ترشدنا إلى أن هذا الأمر ينبغي أن يكون متأصلًا في نفس بني الإنسان من باب أولى.

ومما ينبغي الإشارة له هنا: أن للنصيحة جملة من الآداب، أهمها فيما يتعلق بالناصح: (الإخلاص) فينبغي على الناصح أن لا يبغي من نصحه إظهار رجاحة عقله، أو فضح المنصوح والتشهير به، وإنما يكون غرضه من النصح حب الخير للمنصوح له، وابتغاء مرضاة الله تعالى.

٨. التطوع بالإيثار.

لما كان الإيثار يعني: «تقديم الغير على النفس في النفع له، والدفع عنه»[2] كان درجة سامية لا يقوى عليها إلا من عظمت هممهم وخلصت سرائرهم، وهانت الدنيا في أعينهم؛ فباعوها بجنة عرضها السموات والأرض.

ولقد مدح الله تعالى الأنصار الذين اتخذوا المدينة منزلًا قبل المهاجرين بحبهم لإخوانهم المهاجرين ومواساتهم لهم بأموالهم؛ حيث أنزلوهم منازلهم وأشركوهم في أموالهم، وهم مع ذلك لم يجدوا في قلوبهم غيظًا ولا حسدًا، عندما قسم النبي صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير للمهاجرين دونهم؛ وإنما طابت أنفسهم بتلك القسمة.

فأثنى عليهم ربهم سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٥/ ١٦٩.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص ٥٩.

﴿مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩].

بل إنهم قد بلغوا منزلة فوق تلك المنزلة؛ وهي أنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] إنهم يؤثرون إخوانهم بالمال على أنفسهم، حتى ولو كانوا في غاية الفقر؛ فإيثارهم ليس عن غنى وإنما عن حاجة وفقر، وذلك غاية الإيثار[(١)].

التطوع بالدعاء: أعني دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب؛ وهو نوع من التطوع التلقائي؛ حين يذكر المسلم أن أخاه في ضيق أو كرب، فيلهج بالدعاء له أن يفرج الله كربه وييسر أمره؛ فيكون بذلك داعمًا لأخيه بدعائه.

ولقد مدح الله تعالى من جاء بعد المهاجرين والأنصار من المؤمنين التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين بدعائهم لإخوانهم بظهر الغيب قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ثانيًا: التطوع بالترك.

إن هذا النوع من التطوع «التطوع بالترك» يدل على سعة مفهوم التطوع في القرآن؛ فالمسلم الذي لا يستطيع أن يقدم عملًا نافعًا للآخرين؛ يمكنه أن يسهم بحظ ونصيب في نفعهم حين يكف شره عنهم؛ فهذا الكف يعد صدقة منه على نفسه وعلى الناس.

وإنما سمينا هذا النوع من التطوع «تطوعًا بالترك»؛ لأن المتطوع هنا لم يفعل شيئًا، وإنما ترك ما كان سيفعله من الشر؛ فصار متطوعًا بترك فعل هذا الشر.

ومثال ذلك: لو أن مجموعة من الشباب تطوعوا بالمساعدة في إزالة ما يتأذى منه الناس في الطريق؛ فهذا عمل تطوعي؛ فمن لم يساهم في هذا العمل بالفعل، ولكنه امتنع عن إلقاء المهملات والقاذورات في غير الأماكن المخصصة لها، فامتناعه هذا يعد عملًا تطوعيًا بالترك، لأن المجتمع أفاد من تركه لفعل هذا الشر.

ويستأنس لذلك بحديث أبي هريرة رضي الله عنه لما قال صلى الله عليه وسلم: **(إرشادك ابن السبيل صدقة، وإماطتك الأذى صدقة، قالوا: يا رسول الله فمن لم يستطع ذلك؟ قال: يكف شره عن الناس؛ فإنها صدقة يتصدق بها على نفسه)**[(٢)]. ومن صور التطوع بالترك في القرآن الكريم:

١. كف الأذى عن المسلمين.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ١٢٩، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣٤٥.

(٢) أخرجه أبونعيم في حلية الأولياء، ١٢٦٩٦، وقال: غريب من حديث الأعمش فلم يروه عنه إلا أبوبكر و أبوعوانة.

لقد توعد الله تعالى في كتابه الكريم كل من يؤذي المؤمنين والمؤمنات- ظلمًا بغير حق- فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

هذا الإيذاء الذي اختلف في كيفيته تبعًا للاختلاف في سبب نزول الآية؛ حيث قيل: نزلت في منافقين كانوا يؤذون عليًا كرم الله تعالى وجهه ويسمعونه مالا خير فيه، وقيل: نزلت في رماة عائشة رضي الله عنها، وقيل: نزلت في زناة كانوا يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن[(١)].

قلت: وتعدد الأقوال في سبب نزول الآية يفهم منه أن الوعيد الوارد فيها يلحق كل من يؤذي المؤمنين بأي نوع من الإيذاء.

ويستأنس لذلك بقول الألوسي رحمه الله: «والظاهر عموم الآية لكل ما ذكر ولكل ما سيأتي من أراجيف المرجفين»[(٢)].

فإذا كانت: الآية السابقة قد توعدت كل من يؤذي المؤمنين- ظلمًا بغير حق- فيكون: كف الأذى عنهم يتضمن نفعهم بوجه من الوجوه، ويكون فاعله أهلًا لنيل رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه العظيم؛ لكف أذاه عن المسلمين ولتصدقه على نفسه بهذا الترك؛ لحديثه صلى الله عليه وسلم المشار إليه آنفا (يكف شره عن الناس؛ فإنها صدقة يتصدق بها على نفسه)[(٣)]، وفي رواية البخاري: (فيمسك عن الشر فإنه له صدقة)[(٤)].

وإذا كان: من يؤذي المؤمنين والمؤمنات يوجب لنفسه العذاب الأليم بما احتمله من الذنب العظيم المعبر عنه بالبهتان في قوله تعالى ﴿احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ أي: ذنبًا شنيعًا، وكذبًا فظيعًا ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أي: ظاهرًا بينًا واضحًا بسبب إيذائهم للمؤمنين.

فيكون: من يكف الأذى عن المسلمين أهلًا للثواب والأجر العظيم؛ ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (لقد رأيت رجلًا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس)[(٥)].

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٢٢/ ٨٨.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٢/ ٨٨، التفسير الواضح، محمود حجازي، ١/ ٢٠٦٧.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة، رقم ٥٦٩٩.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، رقم ٤٨٧٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢. التنازل عن الحقوق المالية الواجبة.

مثل: دية القتل الخطأ، ونصف المهر للمطلقة قبل الدخول، والتجاوز عن المدين المعسر، ونحو ذلك:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢].

يعني: إلا أن يتصدق أهل المقتول على القاتل فيعفون عنه بلا دية؛ فالعفو عن الدية هنا: يعد تطوعًا بالترك؛ لأن صاحب الحق أسقط حقًا كان واجبًا له.

مع ملاحظة: أن الدية حق موروث لجميع ورثة المقتول كسائر الأموال، فيجري عليها ما يجري على التركة؛ وعليه: فلا يجوز لولي الصغير العفو عن الدية؛ لأنه لا يملك إسقاط حقه[1].

وفي العفو عن نصف المهر الواجب للمطلقة قبل الدخول يقول تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٣٧].

فالمخاطب بـ ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ هي المطلقة، أو وليها، يعني: يعفون عن نصف المهر فيتركونه للزوج. ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ يعني: الزوج يعفو فيكمل لها الصداق ويعطيها المهر كله؛ كما روي أن جبير بن مطعم رضي الله عنه تزوج وطلق قبل الدخول؛ فأكمل الصداق، وقال: أنا أحق بالعفو[2].

٣. العفو عن المسيء.

وهو خلق كريم يحتاج إلى همة عالية، ومزيد من مجاهدة الإنسان لنفسه؛ وإنما كان(تطوعًا بالترك) لأن صاحب الحق لما ترك حقه والانتصار لنفسه ابتغاء الأجر من الله تعالى، كان كالمتطوع بهذا الترك.

وعندما نستقرئ آيات القرآن الكريم نجده قد رغب في هذا الخلق الكريم في غير آية من آياته الكريمة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

فهذه الآية: نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف ألا ينفع ابن خالته مسطح بن أثاثة بنفع، بعدما خاض مع أهل الإفك في شأن عائشة رضي الله عنها؛ فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، شرع تبارك وتعالى

(١) المغني، ابن قدامة ٩/ ٤٧٦.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٢/ ٢٤٥

يعطف الصديق على قريبه مسطح؛ فلما نزلت هذه الآية وفيها ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الصديق: بلى، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة[1].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فـ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ هم الذين إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم؛ فلا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، وإنما يكظمون غيظهم، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم بإساءته ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ تشمل: العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم؛ لأن العفو ترك المؤاخذة مع مسامحة المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بمكارم الأخلاق، وتاجر مع الخلاق سبحانه، فعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، ليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه، لا على العبد الفقير، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠][2].

وقوله تعالى في وصف عباده المؤمنين ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

يعني: أن خلقهم وطبعهم يقتضي الصفح والعفو عن الناس؛ فإذا غضبوا على أحد ممن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا[3].

بل رغب القرآن الكريم في العفو عن الجاني الذي استوجب الحد فقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥] يعني: من تصدق من أصحاب الحق وعفا فهو كفارة له أي: للمتصدق؛ لعفوه وإسقاطه حقه[4].

ولقوله سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فإن الله يأجره على ذلك[5].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣١.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢١٠، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ١٢٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٣٦٩، صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٢٤٤.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٤١.

وقال السعدي: ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم؛ فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، ومرتبة الفضل: العفو عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يجزيه أجرًا عظيمًا، وثوابًا كثيرًا، وأما مرتبة الظلم: فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم[1].

وقد زاد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الخلق تأصيلًا في نفوس المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)[2].

فـ(عزًا) في قوله: (ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا) تحتمل عز الدنيا وعز الآخرة.

أما عز الدنيا: فبأن يعظم شأنه في قلوب الناس ويزيد عزه، وأما عز الآخرة: فبأن يكون أجره على عفوه في الآخرة وعزته هناك[3].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم ٤٨١٧.

(٣) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، ٨/ ٥٩.

نماذج قرآنية للتطوع الاجتماعي

عندما نستقرئ آيات القصص القرآني نجدها تقدم لنا نماذج واضحة لبعض الأعمال التطوعية ما بين أعمال تطوعية جماعية، وأخرى فردية، والتي سنلخص الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: التطوع الفردي:

ويعرف كذلك بـ« التطوع التلقائي»؛ لأنه غالبًا ما يكون: فردي الأداء، عفوي التوجه، تلقائيًا -أي: وليد ساعته- يأتي استجابة لظرف طارئ، ويصدر بنازع النخوة والشهامة، والفطرة السليمة، كإنقاذ غريق، أو نحو ذلك[4].

ومن نماذج هذا النوع من التطوع في القرآن الكريم:

١. كفالة زكريا لمريم عليهما السلام.

سبق وأن بينا أننا نعني بالكفالة هنا المعنى اللغوي الأعم من معناها الذي اصطلح عليه الفقهاء[5]؛ ليدخل فيها: كفالة ورعاية اليتيم والمعوز والمحتاج.

(٤) انظر: مشكلة العمل التطوعي بين الانتهازية والوجاهة الاجتماعية، فايز الشهري، ص٣.

(٥) الذي هو: ضم ذمة الكفيل إلى ذمة الأصيل في المطالبة.
انظر: الذخيرة، لشهاب الدين القرافي، ٩/ ١٨٩.

وقد ساق لنا القرآن الكريم نموذجًا للتسابق في هذا النوع من التطوع الاجتماعي؛ فقال تعالى حكاية عن زكريا وقومه في شأن كفالة مريم وأيهم أولى بذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

يعني: أنك لم تكن حاضرًا يا محمد حين اجتمع زكريا وقومه واقترعوا في شأن مريم؛ لينظروا أيهم يكفلها ويضمها إليه، واختصموا في أمرها؛ فالآية الكريمة وإن كانت قد سيقت - في المقام الأول: شاهدًا وبرهانًا على صدق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنها بينت كذلك: اختصامهم وتنافسهم على كفالة مريم عليها السلام، حتى أنهم استهموا لأجل ذلك، غير أن الله تعالى قد خص زكريا عليه السلام بتلك المهمة العظيمة؛ فجعله كافلًا لمريم، وقائمًا على شؤونها[1]، كما قال ربنا عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].

٢. تطوع يوسف عليه السلام بتفسير رؤيا الملك دون أن يشترط لنفسه شيئًا.

. ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَىٰ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٣-٤٩].

وسأكتفي هنا ببيان شاهد موضوعنا في الآيات السابقة[2]؛ فأقول مستعينًا بالله تعالى: إن الإجابة السريعة من يوسف عليه السلام تشهد لكرم نفسه ونبل أخلاقه؛ فتأويله لرؤيا الملك دون أن يفكر في استغلال الموقف لصالحه، أو يعاتب الساقي على نسيانه ذكر قصته وصفته وأمانته عند الملك عسى أن يخلصه مما يعانيه؛ حيث قال له من قبل ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

أقول: لم يشتغل يوسف عليه السلام بهذا ولا بذاك؛ لما علم من الرؤيا أن البلاد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٨، روح المعاني، الألوسي، ٣/ ١٥٨.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩٩٢-١٩٩٥.

مقبلة على خطر عظيم ومجاعة محققة؛ إن لم يستعدوا لذلك بالعمل في الرخاء لأيام البلاء، ويستعينوا بسعتهم على ضيقهم، ولكن من ذا الذي سيفهمهم ذلك ويدلهم عليه، إنه الصديق الذي علمه ربه تأويل الأحاديث؛ فبادر بتأويل الرؤيا؛ تلك المبادرة التي تفهم من نظم الآيات وسياقها ﴿..لَعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٦ قَالَ تَزۡرَعُونَ...﴾ هكذا دون أن يفكر في جني منفعة لنفسه، وإنما فكر في الصالح العام؛ فلم يشترط الخروج أو مقابلة الملك لكي يعبر الرؤيا؛ بل إنه لكرم نفسه ومروءته ونخوته قرن لهم تعبير الرؤيا بفوائد ونصائح تفيدهم في محنتهم القادمة؛ وأرشدهم إلى كيفية التصرف السليم حيالها.

نعم: إنها أخلاق الأنبياء بشهامتهم ومروءتهم وكرم أنفسهم؛ فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣. تطوع موسى عليه السلام بمساعدة الضعيف ونصرة المظلوم.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: ١٥-١٦].

تقص علينا الآيات قصة دخول موسى عليه السلام مصر في وقت لم يعتد أهلها دخوله فيه؛ فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من شيعته (بني إسرائيل) والآخر من قبط مصر المخالفين له في الدين؛ فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام وطلب منه أن يعينه على القبطي؛ الذي يظلمه؛-« فقد روي أنه كان خبازًا وأراد أن يجبر الإسرائيلي على حمل حطب له؛ فأبى الإسرائيلي فضربه»[(١)]-فضرب موسى القبطي بكفه فقتله؛ فقال موسى عليه السلام: هذا من عمل الشيطان؛ «لأنه أغضبه فبالغ في شدة الوكز، أو لأن حفظ النفس المعصومة من أصول الأديان كلها»[(٢)]، وسماه ظلمًا، واستغفر منه جريًا على سنن المقربين في استعظام ما فرط منهم ولو كان من محقرات الصغائر[(٣)].

٤. تطوع موسى عليه السلام بالسقيا للفتاتين.

قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٥٩.
(٢) المصدر السابق، ٩/ ٥٩.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٦.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٣-٢٤].

لقد خرج موسى عليه السلام من مصر، فانتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين، وصل إليه وهو مجهود مكدود؛ فبينا هو على تلك الحالة إذا به يطلع على مشهد لم تسترح إليه نفسه ذات المروءة والفطرة السليمة؛ فماذا رأى؟ رأى جماعة من الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء، ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء، فأنكرت فطرته السليمة هذا الأمر؛ فالأولى عند ذوي المروءة أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولًا، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما.؛ فلم يقعد موسى ليستريح من تعبه وهو يشاهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف.

وتقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب قائلًا: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ فأطلعتاه على سبب انزوائهما وذودهما لغنمهما عن ورود الماء وأجابتا قائلتين ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

إنه الضعف، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال، وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال!، فثارت نخوة موسى- عليه السلام- وفطرته السليمة، وتقدم ليسقي للمرأتين - وهو غريب في أرض لا يعرف فيها أحدًا، ولا يعرفه أحد ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مما يشهد بشهامته ومروءته ونبل نفسه التي صنعت على عين الله. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: يا رب إني فقير إلى فضلك وإحسانك[(١)].

وشاهدنا في هذه القصة: هو أنه عليه السلام تطوع فسقى للفتاتين بدون أجر، وهو الذي كان في أمس الحاجة إلى الأجر في ذلك الوقت؛ لما روي أنه مكث سبعة أيام لا يأكل إلا بقل الأرض[(٢)].

ولما دعاه الرجل الصالح ليطعمه جزاء سقايته لابنتيه[(٣)]، دخل موسى عليه السلام عليه فإذا هو بالعشاء؛ فقال له الرجل الصالح: كل؛ فقال موسى عليه السلام: أعوذ بالله! قال: ولم؟ ! ألست بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضًا لما سقيت لهما؛ وأنا من أهل بيت لا نبتغي شيئًا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبًا؛ فقال:

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٦٨٥- ٢٦٨٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٩/ ٢٩٦١، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٢٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٦٩.

(٣) ورد ذلك في رواية لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٩/ ٢٩٦٥ الرواية رقم ١٦٨٣٥.

لا والله ولكن عادتي وعادة آبائي أن نقري الضيف ونطعم الطعام؛ فجلس موسى عليه السلام فأكل[1].

نعم، إنهم صفوة خلق الله، صنعهم الله تعالى على عينه؛ فكانوا القدوة والمثل لمن يريد لنفسه المثل الأعلى في الشهامة والنخوة والمروءة، وكل الخصال الكريمة، والشمائل الحميدة.

ثانيًا: التطوع الجماعي:

ويعرف كذلك بالتطوع «المنظم»؛ لأنه لا يأتي استجابة لظرف طارئ؛ بل يأتي نتيجة الإيمان بفكرة أو قضية ما؛ ومن ثم الدعوة لهذه الفكرة وتلك القضية[2].

ومن أهم خصائص هذا النوع من التطوع: التنظيم، والقناعة، والإيمان المسبق برسالة أو فكرة أو قضية[3].

ومن أمثلته في القرآن الكريم:

١. تطوع الخضر ببناء الجدار.

قال تعالى حكاية عن موسى والخضر عليهما السلام: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف: ٧٧].

فهذه الآية: تحكي طرفًا من قصة موسى مع الخضر عليهما السلام؛حيث كان الجوع قد بلغ منهما مبلغًا؛ فطلبا طعامًا من أهل قرية دخلوها؛ فلم يطعموهما؛ فقد كانوا بخلاء، لا يطعمون جائعًا، ولا يستضيفون ضيفًا، وبينا هما كذلك وجدا جدارًا مائلًا يكاد ينهدم؛ فاشتغل الخضر بإقامة الجدار دون مقابل!!!

وهنا تعجب موسى من موقف الرجل؛ ما الذي يدفعه لإقامة جدار يهم بالانقضاض في قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان؛ أفلا أقل من أن يصب عليه أجرًا يأكلان منه؟ فقال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[4].

وهذا الموضع من الآية الكريمة هو شاهدنا في هذه القصة: فالجدار الذي أقامه الخضر كان يغيب وراءه مالًا لغلامين يتيمين ضعيفين في المدينة؛ فلو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته المال ولم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه؛ فحفظ لهما بذلك مالهما، وهو في ذلك: لم يأخذ أجرًا على إقامته للجدار، ولم ينتظره؛ وإنما حسبه رضا ربه سبحانه؛ فهو وحده الذي ينتظر منه الأجر.

وإنما أدرجنا هذا النموذج تحت (العمل

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٤٠٧.
(٢) انظر: مشكلة العمل التطوعي بين الانتهازية والوجاهة الاجتماعية، فايز الشهري، ص٤.
(٣) التطوع، يوسف العثيمين، ص ٥، ورشة عمل: إدارة التطوع، مركز دراسات وبرامج التنمية البديلة، ص١٠.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٨١، ٢٢٨٠.

التطوعي الجماعي) مع أن الآية تسند بناء الجدار للخضر وحده؛ لأنه يبعد أن يشتغل الخضر بإقامة الجدار ويتركه موسى بلا عون أو مساعدة؛ فإن هذا أبعد ما يكون عن أخلاق ذوي المروءة والنخوة من عامة الناس فضلًا عن أنبياء الله ورسله؛ وإنما أسند الفعل إلى الخضر وحده في الآية؛ لأنه البادئ بالفعل أو الآمر به.

٢. تطوع ذي القرنين ببناء السد.

قال تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٣-٩٧].

وسأقصد هنا أيضًا إلى موضع الشاهد في القصة قصدًا: فأقول مستعينًا بالله تعالى: «إن كل ما يؤخذ من النص أن ذا القرنين وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين أو صناعيين، يفصلهما ممر؛ فوجد هنالك قومًا ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؛ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم، فلما وجدوه فاتحًا قويًا، وتوسموا فيه الصلاح؛ عرضوا عليه أن يبني لهم سدًا يقيهم شر يأجوج ومأجوج الذين يغيرون عليهم من ذلك الممر، وذلك في مقابل جزء من المال يجمعونه له من بينهم كخراج أو ضريبة؛ فقالوا له: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾»[1].

ولكن تبعًا لمنهج أهل الصلاح الذين تخلقوا بأخلاق الأنبياء، رد عليهم الملك الصالح الفاتح عرضهم الذي عرضوه من المال، وتطوع لهم بإقامة السد بلا مقابل؛ لأنه يعلم علم اليقين أن خراج ربه سبحانه خير من خراجهم؛ فربه وخالقه ومليكه خير الرازقين، بل قد رأى بعين اليقين أن ما آتاه الله في الدنيا خير مما آتاهم؛ فكان قوله كقول سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦].

ثم شرع في تنظيم العمل وتوزيع الأدوار: «فرأى أن أيسر طريقة لإقامة السد هي ردم الممر الذي بين الحاجزين؛ فطلب منهم أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ فجمعوا له قطع الحديد، وكومها في الفتحة بين الحاجزين، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ وأصبح الركام بمساواة القمتين ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ على النار لتسخين

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٤٤، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٩٢.

الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ كله لشدة توهجه واحمراره ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ أي نحاسًا مذابًا يتخلل الحديد، ويختلط به فيزيده صلابة.، وبذلك التحم الحاجزان، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ فيتسوروه ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا﴾ فينفذوا منه»[1].

وإنما أدرجنا هذا النموذج تحت (العمل الجماعي)؛ لما فيه من تنظيم وتوزيع للأدوار على فريق العمل، وتلك سمة من أهم سمات العمل الجماعي المنظم، كما أشرنا من قبل.

٣. تطوع الأنصار للمهاجرين بالمال والسكن، وإيثارهم لهم على أنفسهم.

ذلك النموذج المشرق الذي سطره لنا القرآن الكريم بحروف من نور في معرض مدحه سبحانه للأنصار بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

فالآية مستأنفة؛ لمدح الأنصار بخصال حميدة، من جملتها: محبتهم للمهاجرين، ورضاهم باختصاص فيء بني النضير بالمهاجرين وحدهم؛ فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قسمه على المهاجرين؛ إذ لم يكن لهم أموال، ولم يعط منه الأنصار إلا ثلاثة نفر لشدة حاجتهم، وهم: أبو دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة-وكل ذلك تصرف باجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله جعل تلك الأموال له - ولم يكن في نفوس الأنصار شيء من حسد أو غيظ لإخوانهم المهاجرين بسبب اختصاصهم بذلك الفيء؛ وليس ذلك فحسب؛ بل إنهم ضربوا أعظم الأمثلة للتضحية والإيثار، حين آثروا إخوانهم المهاجرين وقدموهم على أنفسهم وأبنائهم في كل شيء من أسباب المعاش[2].

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، البر، الخير، العطاء

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٩٣-٢٢٩٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٢٢٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ٦٢.

التَّغيير

عناصر الموضوع

مفهوم التغيير	٢٣٤
التغيير في الاستعمال القرآني	٢٣٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٣٦
التغيير المسند لله تعالى	٢٣٨
أنواع التغيير	٢٤٣
أسباب التغيير	٢٥٥
مجالات التغيير	٢٧١
ثمرات التغيير وآثاره	٢٧٥

مفهوم التغيير

المعنى اللغوي والاصطلاحي.

أولًا: المعنى اللغوي: مصدر غير، والمضارع منه يغير، وهو فعل متعدٍ. والتغير مصدر من تغير، وهو فعلٌ لازمٌ، والمضارع منه يتغير. جاء في اللسان: «وتغير الشيء عن حاله تحول، وغيره حوله وبدله كأنه جعله غير ما كان. وفي التنزيل العزيز ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. قال ثعلب: معناه: حتى يبدلوا ما أمرهم الله».... «والغير: تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد، والغير: الاسم من قولك: غيرت الشيء فتغير»[(١)]. وورد في السنة النبوية: عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).[(٢)]

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن نطاق المعنى اللغوي بل يطابقه، قال أبو البقاء: والتغيير: عبارة عن تبديل صفة إلى صفة أخرى، مثل: تغيير الأحمر إلى الأبيض. والتغيير إما في ذات الشيء أو جزئه أو الخارج عنه. ومن الأول: تغيير الليل والنهار، ومن الثاني: تغيير العناصر بتبديل صورها، ومن الثالث: تغيير الأفلاك بتبديل أوضاعها. والتحويل يتعدى ويلزم، والتغيير لا يكون إلا متعديًا.[(٣)]

وقال الراغب: «والتغيير تبديل شيء بما يضاده، فقد يكون تبديل صورة جسم كما يقال: غيرت داري، ويكون تغيير حال وصفة، ومنه تغيير الشيب، أي: صباغه، وكأنه مشتق من الغير، وهو المخالف.[(٤)] وفرق الجرجاني بين التغيير والتغير، فقال: التغيير: هو إحداث شيء لم يكن قبله، والتغير: هو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى.[(٥)]

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١/ ٥٠، رقم ٤٩.
(٣) الكليات، الكفوي ص ٤٥١.
(٤) المفردات ص٦١٩.
(٥) التعريفات ص٨٧.

التغيير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غير) في القرآن الكريم (٦) مرات فقط[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٥	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]
اسم فاعل	١٥	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ [الأنفال:٥٣]

وجاءت صيغ (غير) -المضعف- في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: التحويل والتبديل[٢].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ [الأنفال:٥٣]. معناه: حتى يبدلوا ما أمرهم الله.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٥٠٧-٥٠٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإصلاح:

الإصلاح لغة:

خلاف الإفساد[١].

الإصلاح اصطلاحًا:

التغيير إلى استقامة الحال[٢].

وقيل: هو «إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من الفساد»[٣].

الصلة بين التغيير والإصلاح

التغيير قد يكون للحسن وقد يكون للسيء، أما الإصلاح فلا يكون إلا من فسادٍ أو خلل فهو تغيير للخير وللأحسن. والإصلاح يشمل التغيير للأحسن بوجه عام أو الإصلاح بين متخاصمين.

٢ التبديل:

التبديل لغة:

تبديل الشيء تغييره وإن لم تأت ببدل. واستبدل الشيء بغيره وتبدله به إذا أخذه مكانه والمبادلة التبادل[٤].

والتبديل: التغيير والعين قائمةٌ. ويقال: بدلٌ وبدلٌ وبديل. والإبدال: أن تأتي بالبدل[٥].

التبديل اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، وهو: تغيير الشيء عن حاله.

الصلة بين التغيير والتبديل

قال أبو حيان: «التغيير قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات، فقد تكون النعمة أذهبت رأسًا، وقد تكون قللت وأضعفت»[٦].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٤٢.
(٢) انظر: التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٥١.
(٣) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ١/ ٢١٥.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٨.
(٥) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ٩/ ٣١٨.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٠٧.

قال الفراء: التبديل تغيير الشيء عن حاله، والإبدال جعل الشيء مكان الشيء [١].

وجاء في لسان العرب: «والأصل في التبديل تغيير الشيء عن حاله، والأصل في الإبدال جعل شيء مكان شيء آخر» [٢]، وقيل: هما بمعنى.

التغيير في الأشياء يقع مع بقاء أصلها، وفي الأحوال تقلبها وتبدلها إلى أحوال أخرى، ولكن تبديل الأشياء يستلزم تحويلها إلى غيرها.

٣ الإفساد:

الإفساد لغة:

هو ضد الإصلاح [٣].

الإفساد اصطلاحًا:

هو جعل الشيء فاسدًا خارجًا عما ينبغي أن يكون عليه وعن كونه منتفعًا به. وفي الحقيقة هو إخراج الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح [٤].

الصلة بين التغيير والإفساد:

الفساد من أسباب التغيير، فالتغيير قد يكون للأصلح، وقد يكون للفساد أو للأفسد.

(١) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ١١٣.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٨.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٣.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٥٤.

التغيير المسند لله تعالى

التغيير سنة من سنن الله في الكون، وسنة اجتماعية نلمسها في عالمنا، وكل تغيير يطرأ على هذا الكون إنما هو بإرادة الله تعالى وتدبيره.

أولا: التغيير سنة كونية:

التغيير سنة من سنن هذا الكون، كما أن الثبات من سننه، إذ تدل حركة الأجرام العلوية على ثبات ودقة وانتظام، فالشمس لا تتخلف عن موعدها طرفة عين، والقمر له دورته الثابتة لا يتخلف عنها، ومنازله فلا يبرح فلكه ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]، والنجوم تتراءى في مواقعها وكأنها ثابتة، ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة: ٧٥]

سنة مطردة في هذا الكون كما أن الثبات سنة مطردة، تشرق الشمس في الصباح فتملأ الدنيا نورًا ودفئًا، ثم تغرب في المساء فيحل الظلام، والليل والنهار يتعاقبان، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢]، وفصول السنة متتابعة، لا ينتهي فصلٌ إلا ويسلم لفصلٍ، فهذا فصلٌ باردٌ ممطرٌ وذاك معتدلٌ تهب فيه الرياح، فتثير الغبار وتلقح الأزهار، وتذوب الثلوج، وتنحدر من المرتفعات وتكسو الخضرة البراري والقفار وتجري الجداول في الحقول والبساتين، وهذا فصل الصيف حارٌ رطبٌ أو جاف، تورف فيه الظلال وتنضج الثمار، وذاك فصل الخريف يابس معتدل، تتساقط فيه الأوراق وتجفف الفواكه والحبوب، في تنوعٍ رائع، ولولا هذا التغيير لما استقامت الحياة ولما تحققت المنافع للإنسان.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧]

قال الشيخ رشيد رضا: «أيْ: إنك بحكْمتك في تدْبير الأرْض وتكْويرها وجعْل الشمْس بحسْبانٍ تزيد في أحد الْجديديْن ما يكون سببًا لنقْص الْآخر، فلا ينْكر على قدْرتك وحكْمتك أنْ تؤْتي النبوة والْملْك منْ تشاء كمحمدٍ وأمته، وتنْزعهما ممنْ تشاء كبني إسْرائيل، فإنك تتصرف في شئون الناس كما تتصرف في اللّيْل والنهار[1].

وفي عالم النبات نرى صورًا ومشاهد

(١) المنار، رشيد رضا ٣/ ٢٢٦.

للتغيير التدريجي، تبدأ النبتة ضعيفة لينة، ثم تشتد وتمتد أغصانها، ثم تزهر وتثمر، ويصفر النبات ويذبل ويجف في دورة عجيبة، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف:٤٥].

والتغير الكوني يقابله تغيرٌ في حياة البشر بتقلب الأحوال وتبدل الزمان وتداول الأمم، تأمل في قوله تعالى ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: ٦٠-٦٣]، فنجد الترابط بين السنن الاجتماعية الإنسانية: سنة النصر والتمكين وبين السنن المادية الكونية سنة تعاقب الليل والنهار وتداخلهما يطول هذا ويقصر هذا في اختلاف عجيب.

قال صاحب التحرير والتنوير: «والمناسبة الرابطة بين نصر الله من بغي عليه فصبر، وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، هي الإيماء إلى تقلب أحوال الزمان؛ فقد يصير المغلوب غالبًا، ويصير ذلك الغالب مغلوبًا، فإن النصر يقتضي تغليب أحد الضدين على ضده، وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرب له مثلًا بتغليب مدة النهار على مدة الليل في بعض السنة، وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها، والحاصل أنه لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينًا بعد أن كان أمرها على العكس حينًا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي.

ويقول سيد قطب -رحمه الله- عن المناسبة بين الآيتين: والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكررة حتى لا يمر الناس عليها غافلين، ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة، وهي تطوي النهار من جانب وتسدل الليل من جانب، وهي تطوي الليل من جانب وتنشر النهار من جانب في دقة عجيبة لا تختل، وفي اطراد عجيب لا يتخلف، وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يدفع عن نفسه العدوان، إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، فكذلك يزوي الله سلطان المتجبرين وينشر سلطان العادلين، فهي سنة كونية، تلك السنة يمر عليها الناس غافلين، كما يمرون على دلائل القدرة في

صفحة الكون وهم لا يشعرون[1].

إن كل شيء في حياتنا عرضةٌ للتغير المستمر وعلى الدوام، فكل يوم في حياتنا هو يوم جديد، وكل لحظة تمثل حدثًا مستجدًا في العمر، وعلى حد تعبير الفيلسوف اليوناني ـ قليطس ـ فإن المرء لا يستحم في النهر مرتين، لأن النهر يتغير بجريان الماء فيه، مثلما يتغير الشخص فور إحساسه أو ملامسته لماء النهر، ورغم دقة هذه الملاحظة وصدقها الواقعي فإننا نميل في العادة إلى إسباغ طابع الثبات والديمومة، ولو لفترات محددة على أنفسنا وعلى ما حولنا، ورغم ما يحدث من وجوه التغير سواء كانت طفيفة أو كبيرة، فإننا نظل نعتقد أن للنهر شكلا ثابتًا. وأن للإنسان ولشخصيته ملامح تبقى على حالها دون تغيير[2].

وتلك سمة الكون والإنسان: الجمع بين التغير والثبات.

ثانيًا: التغيير سنة اجتماعية:

١. الإنذار بالتغيير.

قال تعالى ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

لما ذكر تعالى استعجال كفار قريشٍ للعذاب وحلول النقم على ما هم عليه من إمهالٍ ونعمٍ وخفض عيشٍ، بين تعالى أن من سنته العادلة أن لا يغير ما بقوم من عيش رغيدٍ وأمنٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم بالكفر والعصيان والتمرد والجحود، وفي هذا وعيدٌ لكفار قريش، وقد حل بهم أمر الله، كما في غزوة بدرٍ حيث قتل صناديدهم وأسر أكابرهم.

قال الرازي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ «كلام جميع المفسرين يدل أن المراد: لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام»[3].

ولكن يستفاد بمفهوم المخالفة أن الله لا يغير ما بقوم من سوء أو بلاء إلا إذا غيروا ما بأنفسهم فاستحقوا رفع البلاء وتبدل الحال السيئة إلى حالة حسنة.

٢. التغيير حقيقة ماثلة.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال:٥٣]، فأسند التغيير لله تعالى بصيغة اسم الفاعل (مغير). وقد نزلت هذه الآية بعد غزوة بدر، حيث هزمت قريشٌ، وقتل سبعون أغلبهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٤١
(٢) علم الاجتماع، أنطوني جيدنز، ترجمة فايز الصباغ ص ١٠٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٣١.

من رؤوس الكفر، فبدل الله حالهم من عزةٍ ومنعةٍ، إلى قتلٍ وأسرٍ وخزيٍ، فكان شأنهم كشأن آل فرعون الذين عاقبهم الله تعالى أشد العقاب بكفرهم وتكذيبهم، قال الطبري: «إن الله لا يغير ما بقوم من عافية، ونعمة، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك، بظلم بعضهم بعضًا، واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره»[1].

وقد استحقت قريش العقوبة بتبدل حالهم وهزيمتهم ومقتل صناديدهم في غزوة بدر لما بدلوا نعمة الله كفرا، حيث اضطهدوا النبي ومن آمن معه وأخرجوهم من ديارهم فغير الله حالهم.

وقال أبو حيان: «وظاهر النعمة أنه يراد بها ما يكونون فيه من سعة الحال والرفاهية والعزة والأمن والخصب وكثرة الأولاد، والتغيير قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات، فقد تكون النعمة أذهبت رأسًا، وقد تكون قللتْ وأضعفت ... والظاهر من قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ العموم في كل من أنعم الله عليه من مسلم وكافر، وبرٍ وفاجر، وأنه تعالى متى أنعم على أحدٍ فلم يشكر، بدله عنها بالنقمة»[2].

وقال ابن كثير: يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]، وقوله ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين[3].

مقارنة بين الآيتين:

- الآية الأولى من سورة الرعد مكية نزلت وقريشٌ في عنفوان غرورها وأوج قوتها، وهي تستعجل العذاب تهكما وسخريةً وعنادًا واستبعادًا، فكانت وعيدًا لهم، وإنذارًا مبكرًا لعلهم يرجعون عن مكابرتهم وجحودهم، بينما الآية الثانية من سورة الأنفال مدنية، نزلت إثر غزوة بدرٍ حيث تمرغت أنوف صناديد الكفر في رمال بدرٍ، وقصم الله رؤوس الشرك وجبابرة الطغيان، كأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم من الجبابرة المكابرين، وقرن الله حالهم بحال قوم فرعون

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٨.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٠٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٨.

الذين طغوا وبغوا واتبعوا أمر فرعون، فساقهم إلى الهلاك والبوار. وتلك سنة الله تعالى في التغيير، تدل على عدله تعالى وحكمته.

- التغيير سنة من سنن الله تعالى، وقد اقترن في آية الرعد بسنن الله الكونية والإنسانية وآياته الملموسة، وفي سورة الأنفال ارتبط بآيةٍ إلهية: هزيمة قريش أمام المسلمين وربطها بهلاك آل فرعون.
- الآية الأولى مؤكدة بإن، وقد ارتبطت بآية واقعية هي حفظ الله للعبد في يقظته ونومه في سائر أحواله وأوقاته، وحفظ الله لنا أمرٌ مسلمٌ، وكم لله من ألطافٍ! وهنا ربطٌ بين حفظ الله لنا تلك الحقيقة المستيقنة، وبين سنة الله في التغيير، فالذي حفظ الخلق وثبتهم على حالٍ قادر على تغيير الأحوال وتبديل الأمور. والآية الثانية أيضًا جاءت مؤكدة بإن، والإشارة لما وقع لقريش يوم بدرٍ من عقوبةٍ وتبدل حالٍ، وأنه بعدل الله تعالى.
- في آية الرعد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ﴾، وفي الأنفال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ الأولى بالفعل المضارع المنفي، والثانية باسم الفاعل، ودلت الآيتان على أن التغيير سنة مطردة متكررة عبر العصور. الأولى: بيانٌ لكونها ثابتةً جارية، والثانية: بيان لكونها واقعة ماضية.
- في آية الرعد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، وفي الأنفال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ فمفعول التغيير في الأولى ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ أي: الذي بهم، حالهم، والثاني النعمة، يعني: تبديلها لنقمة ومحنة.
- التغيير في الآيتين من الله تعالى فالذي يغير هو الله تعالى.
- سبب التغيير في الآيتين هو تغيير ما بالأنفس، فالتغيير من جهة الله تعالى مقرون بالتغيير من جهة الأنفس، لا من جهة خارجة عنها، فلن يحاسب الإنسان على أخطاء غيره ما لم يرتضها أو يسكت عنها، والتغيير الإيجابي لا بد أن ينبع من النفس لا من الغير.

أنواع التغيير

التغيير منه ما هو إيجابي، ومنه ما هو سلبي، فقد يكون التغيير للأفضل، وقد يكون للأسوأ، ولكل عوامله ونتائجه، وفي هذا المبحث يدور الحديث حول أنواع التغيير المحمود والمذموم.

أولًا: التغيير المحمود:

١. تغيير الأنفس.

تغيير الأنفس إلى الأحسن إنما يكون بتزكيتها، أي: تطهيرها والارتقاء بها وتنميتها، قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس:٧-٩].

قال مالك بن دينار: «رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائدًا»[(١)].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «رحم الله امرءًا عرض نفسه وعمله على كتاب الله؛ فإن وافق كتاب الله حمد الله وسأله المزيد، وإن خالف أعتب نفسه ورجع من قريب»[(٢)].

إن شأن من اختار لنفسه طريق التغيير للأحسن فسعى لتزكيتها، بتطهيرها من الآفات وتنميتها بالخيرات، كالفلاح يحرث الأرض وينقيها من الأعشاب الضارة بالنبات، ويسويها ويهيئها ثم يدفن البذور ويغرس الفسائل، ثم يروي الأرض ويتعهد النباتات فلا يغفل عن رعايتها وحفظها من الآفات، كذلك النفس البشرية تحتاج لتخلية ثم تحلية ثم تنقية ثم تنمية.

قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾ [التوبة:١٠٨]، فإن حب التطهر نابعٌ من إرادة التغيير للأحسن والأصلح، وتزكية النفس طهرٌ ونماءٌ، وتخليةٌ وتحليةٌ وارتقاءٌ.

وتغيير الأنفس هو أساس كل تغيير، فالفرد لبنةٌ من لبنات المجتمع، بصلاحه واستقامته صلاح المجتمع ونهوضه، ولذا جاء التعبير القرآني ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فلن يتحقق تغيير المجتمعات بدون تغيير الأنفس، وتغيير ما بالأنفس يعني: إصلاحها وتهذيبها وتقويمها، إنها رحلةٌ في أعماق النفس وغوص في مكنونها من أجل إصلاحها وتقويم سلوكها، وسبر أغوارها لتصحيح مسارها؛ كالطبيب الذي يوغل بمبضعه في جسم الإنسان، فيعالج ما استعصى من مرضٍ وما عضل من داء.

قال الأستاذ جودت سعيد: «وكذلك من

(١) محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا، ص ٢٦، إغاثة اللهفان، ابن القيم، ص٩٦.
(٢) أخلاق أهل القرآن، الآجري ص٣٩.

المفارقات أن نتطلع بشوق إلى تغيير الواقع دون أن يخطر في بالنا أن ذلك لن يتم إلا إذا حدث التغيير قبل ذلك بما في الأنفس، ونحن مطمئنون إلى ما بأنفسنا، ولا نشعر أن كثيرًا مما فيها هو الذي يعطي حق البقاء لهذا الواقع الذي نريد أن يزول. ونحن نشعر بثقل وطاته علينا، ولكن لا نشعر بمقدار ما يساهم ما في أنفسنا لدوامه واستمراره»[(١)].

قال الشوكاني: «ما بأنفسهم من الأحوال والأخلاق، بكفران نعم الله وغمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه»[(٢)].

والدعوة لتغيير النفوس بتزكيتها هي محور دعوات الأنبياء قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٧-١٩]، فدعاه بترفق ولينٍ إلى تزكية النفس؛ فهي أساس كل إصلاح وتغيير، دعاه إلى أن يتطهر من الشرك ويتخلى عن الرذائل ويتحلى بالفضائل.

قال ابن كثير: «هلْ لك أنْ تجيب إلى طريقة ومسْلك تزكى به وتسْلم وتطيع»[(٣)].

وقال السعدي: «هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟»[(٤)].

وجاءت دعوة الإسلام بالتغيير قائمةً على تزكية الأنفس استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩] وتلك نعمةٌ عظيمةٌ تستوجب شكر الله تعالى ومداومة ذكره.

قال تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٠-١٥٢].

ومنة كبرى سيما حين نقارن حال العرب في الجاهلية بحالهم بعد الإسلام.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد ص١٥.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣١٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣١٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٠٩.

﴿٢﴾ [الجمعة:٢].

ولقد كان القرآن الكريم هو منهج هذه التزكية ومصدرها وزادها ونبراسها، وكان لمدرسة الليل أثرٌ كبيرٌ في التزكية والارتقاء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل:١-٦].

وكان للصحابة رضوان الله عليهم منهجٌ فريدٌ في التربية بالقرآن إذ كانوا يتعلمون عشر آيات من القرآن، فلا يجاوزونها إلى غيرها حتى يتعلموا ما فيها من العمل، ويعملوا بما فيها، فتعلموا بذلك العلم والعمل جميعًا[1].

وبهذا حدث هذا التغيير العظيم لهذا الجيل القرآني الفريد الذي صنع الأمجاد وفتح الفتوحات، وأحدث تغييرًا كبيرًا، وحمل مشاعل النور إلى العالم.

لقد كان العالم يرزح تحت نير الجهل والظلم، ويعيش الناس في فوضى، العرب قبائل متمزقة، والعالم بين طغيان الفرس وفساد الروم، والجاهلية تضرب بأطنابها في جزيرة العرب بشتى مظاهرها، من الجهل والظلم والعادات المرذولة، كيف واجهت رسالة الإسلام هذا الركام الفاسد فأزالته، وهيئت التربة للإنبات مجددًا، فخرج ذلك الجيل الراشد، جيل الصحابة، نعم الغرس الطيب، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

لقد كان لمدرسة القرآن دورٌ عظيمٌ في صياغة هذا الجيل وإعداده، فالقرآن زادٌ ومنهاجٌ، شفاءٌ وعلاجٌ، طاقةٌ وسراجٌ.

قال رشيد رضا رحمه الله: «واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه مع التدبر بنية الاهتداء به، والعمل بأمره ونهيه. فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمي وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار ومصروا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته»[2].

حين نتأمل ونقارن بين ما كان عليه الصحابي قبل أن يسْلم وما صنعه الإسلام

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ٤/ ٢٧١ من قول أبي عبدالرحمن السلمي.

(٢) المنار ٩/ ٤٦٣.

فيه من تغييرٍ ندرك أثر القرآن العظيم في الإصلاح والتغيير، لقد غير القرآن من سلوكهم وأفكارهم، غير من نظرتهم للحياة ومن مفاهيمهم، غير هممهم وطموحاتهم، نقلهم من الجهل إلى العلم ومن الظلام إلى النور. وهل هناك تغييرٌ أعظم من هذا! ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم:١].

قال عمر رضي الله عنه: «والله إنْ كنا في الْجاهلية ما نعد للنساء أمْرًا حتى أنْزل الله فيهن ما أنْزل، وقسم لهن ما قسم»[(١)].

جاء القرآن الكريم ونفر مما كان في الجاهلية من مفاسد وشرور، فنهى عن الظنون والأوهام والتصورات الفاسدة التي تعد من أمر الجاهلية، قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران:١٥٤]. كما نهى عن ظلم الجاهلية الذي تمثل في الأحكام المستبدة والأقضية الجائرة، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة:٥٠]. ونهى عن تبرج الجاهلية ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]. وعن حمية الجاهلية وما فيها من طيش وحماقةٍ واندفاع وعصبية عمياء ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]. جاء الإسلام بهذه الثورة العارمة على أوضاع الجاهلية الفاسدة وتقاليدها الراكدة. وفي حجة الوداع كان من خطبته صلى الله عليه وسلم إبطال كل ما كان عليه أهل الجاهلية من عادات وخصال ذميمة، كالأخذ بالثأر وأكل الربا وظلم النساء، وفي هذا يعلن نبينا صلى الله عليه وسلم في خطبته أمام الحجيج: (ألا كل شيْءٍ منْ أمْر الْجاهلية تحْت قدمي موْضوعٌ، ودماء الْجاهلية موْضوعةٌ، وإن أول دمٍ أضع منْ دمائنا دم ابْن ربيعة بْن الْحارث، كان مسْترْضعًا في بني سعْدٍ فقتلته هذيْلٌ. وربا الْجاهلية موْضوعٌ، وأول ربًا أضع ربانا ربا عباس بْن عبْد الْمطلب، فإنه موْضوعٌ كله)[(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الطلاق، رقم ٤٦٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، رقم ١٤٧٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي، رقم ١٢١٨.

٢. تغيير المجتمعات.

أولا: تغيير المجتمعات نابع من تغيير الأنفس.

تغيير المجتمعات أو التغيير الاجتماعي يقوم على تغيير الأنفس أولًا ؛ فهي لبنات المجتمع وعماده، ثم التغيير العام للمجتمع، بالإصلاح والدعوة والتربية. لقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتربية الرعيل الأول من الصحابة على القرآن، يثبت إيمانهم ويرسخ عقيدتهم ويعلمهم مكارم الأخلاق، ويبصرهم بسنن الله في الكون، ويقص عليهم قصص السابقين، ويربيهم على أصول التشريع من العبادات والمعاملات، حتى أعد هذا الجيل الذي هب لنصرة الحق وحمل لواء الدعوة ونشرها في الآفاق.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩] .

لقد نما هذا الجيل وترعرع، بدأ كالنبتة الضعيفة أطلت ببرعمها اللدن وأشرفت على سطح الأرض، تنمو وترتفع، وسرعان ما كبرت واشتد عودها، وامتدت جذورها تقوي صلتها بالأرض وتثبتها، وتفرعت أغصانها بما يبهج الناظرين ويعجب الزراع لحسنه ونضرته.

عن الضحاك قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم قليلًا، ثم كثروا واستغلظوا[(١)].

وإنما مثلهم بالزرع المشطئ؛ لأنهم ابتدءوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمو[(٢)].

وللتغيير الاجتماعي أهميته فهو الهدف المنشود والأثر الفعال في الوجود، ولا يتحقق إلا بتغير الأنفس.

ونلاحظ هنا: قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: حيث إسناد فعل التغيير إلى واو الجماعة، وجمع النفس لبيان كون التغيير أقرب إلى العمل الجماعي التعاوني، وليس لكل فرد حرية التغيير كيفما يشاء، بل هو منهج عامٌ شامل ومنظومة موحدة، فالمسئولية وإن كانت فرديةً في أصلها حيث يحاسب الفرد عن نفسه ويسأل.

قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/ ٢٦٩ .
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢١، ٣٢٧ .

﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم:٩٣-٩٥]، إلا أن ثمة مسئولية جماعية تقع على الجميع، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢٥﴾ [الأنفال:٢٥].

ولا بد من ملاحظة التغييرات الجزئية، فهي نذير أو مؤشرٌ للتغيير الكلي، فما التغيير العظيم إلا نتاج تغييرات صغيرة متعاقبة، فالنبات ينمو كل يوم، وقد لا نشعر به حتى نفاجأ باستوائه ونضجه، كذلك التغيير الكبير مجموعة من التغييرات اليسيرة، فإذا تكاثر الخبث شيئًا فشيئًا أفضى للهلاك، لذا تأتي أهمية ملاحظة التغييرات الجزئية؛ لأنها مؤشر على التغيير الكلي.

عنْ زيْنب بنْت جحْشٍ رضي الله عنْها (أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليْها فزعًا يقول: لا إله إلا الله، ويْلٌ للْعرب منْ شرٍ قدْ اقْترب، فتح الْيوْم منْ ردْم يأجوج ومأجوج مثْل هذه، وحلق بإصْبعه الإبْهام والتي تليها، قالتْ زيْنب بنْت جحْشٍ: فقلْت: يا رسول الله، أنهْلك وفينا الصالحون؟ قال: نعمْ، إذا كثر الْخبث)[1].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل الْقائم على حدود الله والْواقع فيها: كمثل قوْم اسْتهموا على سفينةٍ فأصاب بعْضهمْ أعْلاها وبعْضهمْ أسْفلها، فكان الذين في أسْفلها إذا اسْتقوْا منْ الْماء مروا على منْ فوْقهمْ، فقالوا: لوْ أنا خرقْنا في نصيبنا خرْقًا، ولمْ نؤْذ منْ فوْقنا؟ فإنْ يتْركوهمْ وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإنْ أخذوا على أيْديهمْ نجوْا ونجوْا جميعًا)[2].

وقوله ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: من طبائع وأخلاق ومن أفكار ومفاهيم، ومن ظروف وأحوال.

وإن تغيير ما بالنفس لا بد وأن يكون عن علم بطبيعة النفس وسنن التغيير، ولا سبيل لمعرفة كافية إلا بالاسترشاد بنور الوحي، فالله تعالى أعلم بنا.

قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٤] ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٢٥].

فتغيير ما بالأنفس يبدأ بمعرفتها والوقوف على علل وأدوائها، والتبصر بالمنهج الأمثل للتغيير.

يقول الأستاذ جودت سعيد: «فما لم نسيطر على خارطة تغيير ما بالأنفس وما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣١٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم ٢٨٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم ٢٣٦١

لم نتمكن بوضوح من سنة التغيير، وما ينبغي أن نغيره سنظل نسير في طريقنا بعفوية لا قصد فيها، ونحافظ على أفكار تعوق تقدمنا، وننبذ أفكارًا ونعاديها بينما لا غنى لنا عنها، مثال ذلك عدم مبالاتنا بعلم تغيير ما بالأنفس، هذا فضلًا عن إعراضنا عن عبر التاريخ التي توضح لنا ما ينبغي أن نغيره، فهنا نحتاج لعلمين، علم تغيير ما بالأنفس، وعلم آخر وهو ما نميز به ما ينبغي أن نغيره وما ينبغي أن نبقيه»[1].

ثانيًا: من عوامل التغيير.

أ - الاستقامة على المنهج، من عوامل التغيير الاستقامة على الطريق، كالمسافر حتى ينتقل من بلد إلى بلد لا بد أن يوجه شطره نحو البلد التي يريدها، ويأخذ طريقه إليها ؛ كذلك لن يتحقق التغيير بدون الاستقامة على الطريق الذي حدد القرآن معالمه، وبين حدوده ومراسمه، ودعا إليه، وحذر من النكوب عنه .

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن:١٦] .

«قيل: المراد: الخلق كلهم، أي: لو استقاموا على طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين» لأسقيناهم ماءً غدقًا «أي: كثيرًا»[2]. «وضرب الماء الغدق مثلاً لأن الخير والرزق كله في المطر»[3].

ب - الإيمان والتقوى وإقامة ما أنزل الله

لا تغيير بدون إيمانٍ خالصٍ وتقوى صادقةٍ وإقامةٍ لما أنزل الله بتبينه والامتثال له والدعوة إليه، هنا يحدث التغيير للأفضل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦]

«فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، وكان معه الصلاح والأمن والرضا.. وكم من أمة غنية قوية، ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها، مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال . فهي قوة بلا أمن . وهو متاع بلا رضى . وهي وفرة بلا صلاح . وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد . وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال..

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، بركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة.. بركات تنمي الحياة وترفعها في آن. وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال»[4].

وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد ص ١٠٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ١٨.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٥ / ١٦١ .
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣ / ٢٦٢ .

ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة:٦٥-٦٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنزلت عليهم القطر، وأخرجت لهم من نبات الأرض[(١)].

وهذه دعوة لأهل الكتاب مع ما سلف منهم، دعوة لإصلاح ما فسد ووصل ما انقطع، والتخلي عن الجحود والنكران، والتحلي بالإيمان، والتزود بالتقوى، ليفتح الله لهم باب التوبة والرجاء، لو آمنوا حق الإيمان بجميع الرسل وسائر الكتب واتقوا محارم الله لغير الله من حالهم، وتلك بداية رحلة الإيمان، من أنقاض تلك الكتب وما بقي فيها من حقائق تسرج المشاعل التي تنير درب الحق، ففي تلك الكتب المرشد والدليل، ولو أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم من سائر الكتب التي بين أيديهم لو أقاموها نصب أعينهم حتى ينظروا ما انطوت عليه من بشاراتٍ تدل على النبي صلى الله عليه وسلم ، لآمنوا بخاتم النبيين. والآية تحمل لهم روح العتاب على أعمارٍ طويت وسنواتٍ تولت بعيدًا عن الحق، فاليهود لم يؤمنوا بعيسى، بل جحدوا ما بأيديهم من بشارات تشهد بنبوته، ثم زاد نكوبهم عن الصراط ونكولهم عن الحق بجحودهم نبوة خاتم النبيين، وتخاذلهم عن نصرته، بل ونقضهم العهود والمواثيق، والنصارى نكبوا عن الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام. فلو أقاموا التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة لعمهم الخير وأقبل من كل مكان.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩]

قال مجاهد: مخرجًا في الدنيا والآخرة. وقال مقاتل بن حيان: مخرجًا في الدين من الشبهات، وقال عكرمة: نجاة، أي: يفرق بينكم وبين ما تخافون. وقال الضحاك: بيانًا. وقال ابن إسحاق: فصلًا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم، ويطفئ باطل من خالفكم[(٢)].

ولا شك أن حصول هذه الأمور تغييرٌ جذريٌ في حياة الإنسان؛ أن يمتلك الرؤية الثاقبة، والنظرة الواعية؛ فيستطيع التفريق بين الحق والباطل والخير والشر سيما عند التباس الأمور وتشابك المصالح.

ت - عبادة الله وحده وكثرة الاستغفار

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٦٨.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٨٦.

والتوبة الخالصة من الذنوب.

نهى القرآن عن عبادة غير الله ؛ ودعا إلى كثرة الاستغفار والتوبة النصوح ووعد بطيب العيش والعافية وطول العمر في طاعته ومرضاته، والارتقاء والتفوق على سائر الأمم، في القوة والعلم والمنعة والفضل. قال تعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود:٢-٣].

وقد سجل القرآن الكريم دعوات الأنبياء لأقوامهم كيف بدأت بإخلاص العبادة لله جل وعلا فهي الركيزة الأساسية لأي إصلاح وتغيير، فالعبادة محور حياة المؤمن. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [الأعراف:٥٩]

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝﴾ [الأعراف:٦٥]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٧٣]

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٨٥]

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ [العنكبوت:١٦]

وأخبر الله تعالى عن عيسى قوله لبني إسرائيل ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝﴾ [آل عمران:٥١].

وهكذا جميع الأنبياء استهلوا دعوتهم بالدعوة إلى عبادة الله وحده، وانطلقوا من خلاله إلى إصلاح النفس والمجتمع.

ثانيًا: التغيير المذموم:

١. تغيير في الأنفس.

خلق الله النفس البشرية وسواها على الفطرة وبين لها طريق الغواية وطريق الرشاد، وأوكل الاختيار إليها، إما أن تسلك طريق الفلاح بتهذيب النفس والنهوض بها، وإما طريق الخيبة والضياع بإهمالها ودفنها في حفرة الأهواء والملذات.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝﴾ [الشمس:٧-١٠].

طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ونماها وأعلاها بالباقيات الصالحات، وقد خاب من دساها: أهلكها وأضلها وأغواها[1].

٢. تغيير في المجتمعات.

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات، عبدالعزيز السلمان ٣ / ٤٥٧.

قد يتغير المجتمع إلى الأسوأ وفي القرآن الكريم نماذج عديدة لهذا التغير ومظاهره وأسبابه، وحديث القرآن في هذا السياق تارة يكون عامًا لا يشمل مجتمعا بعينه بل يبين عموم هذه السنة واطرادها، وتارة يأتي الحديث عن قرى بعينها كمثالٍ واقعي.

أولًا: التغيير سنة عامة ومطردة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٢-٤٤].

يخبر تعالى عن سنته الجارية في الأمم الماضية الذين واجهوا دعوات الأنبياء بالتكذيب والإعراض، كيف حول الله حالهم من سعةٍ وخصبٍ إلى شدةٍ وبؤس، ومن منح وعطاء إلى محن وحرمان، وذلك امتحانٌ لهم هل يتضرعون لربهم ويلوذون ببابه، فيكشف عنهم البلاء ويغير من شدتهم وكربهم إلى فرجٍ ورخاء؟ لكن قسوة قلوبهم حرمتهم من التضرع لربهم ليغير مابهم، وزين لهم الشيطان سوء عملهم فلم يسعوا للتغيير ولم يفكروا فيه، وهنا يبتليهم الله بالسراء ويفتح لهم أبواب الرخاء فيفرحون بما أوتوا فرح المغرور المفتون، فيحق عليهم العذاب وتحل بهم النقم ويتبدل الحال إلى شقاءٍ لا نعيم بعده، فإذا هم نادمون آيسون.

قال السدي: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ «معناه: هالكون قد انقطعت حجتهم، نادمون على ما سلف منهم، متغير حالهم»[1].

وقال ابن زيد: المبلس: الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه[2].

فالابتلاء الجماعي للأمم والشعوب بالحروب والمجاعات والأوبئة والأزمات؛ إنما يقع تمحيصًا لها وتصحيحًا لمسارها، وإصلاحًا لفسادها، وإزالةً لتراكمات السنين من آثار المعاصي والذنوب، وتجريدًا للقلوب وترقيقًا للمشاعر، وتوجها إلى الله تعالى، لترى الأكف ضارعةً والأعين دامعةً والقلوب خاشعةً، لكن أهل الجحود والهوى لا تزيدهم الشدائد إلا قسوةً وعنادًا، وصدودًا وإعراضًا، فتصب أنهار المحن في بحار الذنوب، فلا يخرجون من هذا الابتلاء إلا بالخيبة والخسران. ثم يستأنف الاختبار من جديدٍ، لكنه هذه المرة يكون أشد صعوبةً لأنه ابتلاء بالنعمة، إنها فتنة الاستدراج، وقد أقبلت الدنيا عليهم وفتحت لهم أبوابها ففرحوا بما أوتوا فرح العجب والاغترار

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٦١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ٢٠٢٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٦١.

والخيلاء والاستكبار، فرحوا بالنعم وانشغلوا بها عن المنعم، أعلنوا عن فرحهم بالمعاصي والموبقات ؛ تفاخرًا بما أوتوا من ظلٍ زائلٍ وعاريةٍ مستردة، وزعموا أن تبدل الحال وقع اتفاقًا ومصادفة؛ غافلين عن الحكمة في ذلك، ومتجاهلين كونه امتحانًا لهم فهم في غفلة عن سنن الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨].

فكم من قرى كثيرة أهلكها الله حين تمردتْ على النعمة واغترت بها وضيعت حقها، وتلك مساكنهم أضحت مدائن دارسة وأطلالًا خربة ؛ عبرة صامتة وموعظة ناطقة، يمر عليها المسافر، ويعبرها العابر، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها . قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافرون، ومار الطريق يومًا أو ساعة . معناه: لم تسكن من بعدهم إلا سكونًا يسيرًا قليلًا، وقيل: لم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب[1].

وقال أبو حيان: هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش، فعظموا النعمة، وقابلوها بالأشر والبطر، فدمرهم الله وخرب ديارهم[2].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق:٨-٩]

وكم من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وخالفوه، وخرجوا عن أمر رسله وشاقوه، فتمادوا في طغيانهم وعتوهم، ولجوا في كفرهم، فبدل الله حالهم من لطف وإنعام وستر إلى شدة وبؤسٍ وعذابٍ وإرهاقٍ لا يطاق، فلم تنفعهم قوتهم ولم تغن عنهم كثرتهم .

قال ابن عباس: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: أعرضت عنه. وقال مقاتل: خالفت أمر ربها، وخالفت رسله[3].

ثانيًا: نماذج من التاريخ.

في القرآن الكريم أمثلة واقعية كثيرة لسنة التغيير، من ذلك ما وقع لقوم سبأ من تبدل الحال بعد نعمةٍ وخفض عيشٍ إلى شظفٍ ونقمةٍ حين كفروا بنعمة الله وأعرضوا عن

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٥/ ٢٧٦.
(٢) البحر المحيط ٧/ ١٢٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٥.

الحق.

❁ قوم سبأ.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ:١٥-١٩].

لم يشكروا ربهم بل أعرضوا عن المنعم جل وعلا، وقابلوا النعم بالجحود والنكران، فسلط الله عليهم السيل الجرار الذي خرب سدهم وأفسد زرعهم، وأتلف أشجارهم، فتبدلت تلك الحقول والبساتين المثمرة، بأشجارٍ رديئة الثمر، كالطرفاء والسدر وغيرها من الأشجار التي لا تغني من جوع. ذلك العقاب بسبب كفرهم وجحودهم، فلا نعاقب إلا من كفر بالنعم وأصر على ذلك وتمادى فيه، فيتبدل حاله من رغد العيش وطيب الحياة ووفرة الثمر إلى القحط والجدب وتلف الزروع وقلة الثمر.

فتبطروا على هذه النعم وطلبوا زوالها وتمنوا لو كان السفر طويلًا، وبلغ الترف ببعضهم والدعة أن اشتكى من بعد الأسفار جحودًا وإنكارًا لنعم الله تعالى، وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتمللهم، فجعلناهم عبرةً يتحدث الناس بها ويتعجبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفرقهم بعد اجتماع شملهم وذلهم بعد عزهم، حتى صار تفريقهم مثلًا سائرًا فقالوا في الأمثال: ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا أيدي سبا.[1]

❁ قوم فرعون.

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال:٥٢-٥٤].

حين كذب قوم فرعون وعصوا رسول ربهم عاقبهم الله بعقوبات شتى عاجلة، كدرت عليهم صفو حياتهم، وضيقت معيشتهم فلم يغيروا من حالهم شيئًا، فكانت العقوبة الكبرى حين أهلكهم الله بالغرق.

(١) مجمع الأمثال، الميداني ١ / ٢٧٥ .

أسباب التغيير

للتغيير المحمود أسبابه وكذا للتغيير المذموم، وهذا دليل على عدل الله وحكمته ولطف تدبيره، فمن أسباب التغيير الإيجابي الإيمان وما ينبثق عنه من عمل صالح، وما يشع من أنوار تذكره بالماضي ليعتبر بمصير السابقين، وتضيء له حاضره ومستقبله.

أولًا: أسباب التغيير المحمود:

١. الإيمان.

إن الإيمان هو القاعدة لأي إصلاح، والركيزة لأي منطلق، والسبيل إلى كل خير.

قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:٢١٨]. فكل عمل صالح منبعه الإيمان، لا ينهض به إلا أهل الإيمان، فهم جديرون بنيل الهداية والرشاد وإحراز التوفيق والسداد.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء:١٧٥].

والخير كله في أهل الإيمان والعمل الصالح فهم صفوة الخلق وخيارهم، إيمانهم يرقى بهم ويهذب سلوكهم ويصلح من حالهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة:٧].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥].

فالإيمان مع عمل الصالحات هو الركيزة الأساسية للاستخلاف والتمكين، والتغيير للأفضل، التمكين بعد الابتلاء والاستضعاف والتضييق، والخوف بعد الأمن والعزة بعد الهوان والقوة بعد الضعف.

والإيمان طريق الفلاح في الدارين.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون:١].

وذكر الله من صفاتهم وأحوالهم ما نالوا به الفلاح، واستحقوا به التغيير إلى الأفضل بإيمانهم ولوازمه.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢-١٢٣].

فالإيمان أعظم عطاء؛ لأنه سبيل كل عطاء وأساس كل تغيير، فالإيمان حياة القلوب ونور البصائر وجلاء الأذهان، لا يستوي من عاش بنور الإيمان مع من يتخبط في ظلمات الكفر، ويتردى في دركاته، لا يسعى إلى الخروج منها؛ فلا يتغير حاله إلى الخير.

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا، أي: في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لإتباع رسله»[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

وأي تغيير أعظم وأي تحولٍ أكبر من الانتقال بالإيمان والاستجابة لداعي الحق من الموت والعدم إلى الوجود والحياة، حياة القلوب والأرواح! فالموت والحياة ضدان لا يجتمعان، والانتقال إلى الحياة والتحول من الظلام الدامس إلى النور الساطع تغيير شامل جذري في حياة الإنسان.

إن الإيمان نور؛ نور في القلب، ونور في الجوارح، ونور في الحواس، نور يكشف حقائق الأشياء، والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعادٍ، فالمؤمن ينظر بهذا النور نور الله فيرى الحقائق، ويتعامل معها، ولا يخبط في طريقه، ولا يتعثر في خطواته، والإيمان بصرٌ يمضي بصاحبه في الطريق على نور، وعلى ثقة، وفي اطمئنان. والإيمان ظلٌ ظليلٌ، تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظلٌ من هاجرة الشك والقلق، والحيرة في التيه المظلم بلا دليل. والإيمان حياة في القلوب والمشاعر، حياةٌ في القصد والاتجاه.. كما أنه حركةٌ بانيةٌ، مثمرة، لا خمود فيها، ولا همود، ولا عبث فيها ولا ضياع[2].

«إنه الإيمان الصادق الذي يقر في القلب تصديقًا ويقينًا، ويفيض على الجوارح سلوكًا وعملًا، إنه الإيمان الذي يضيء القلب، ويحرك الإرادة، ويوجه العقول، ويوظف الطاقات ليكون صورة عملية واقعية يتجلى فيها ليثبت وجوده، ويترجم عن حقيقته، إنه الإيمان الذي يصلح القلوب، ويهيئ النفوس، ويصنع العجائب وينشئ الإنسان خلقًا آخر، ويصبه في قالب جديد يغير هدفه ويهذب سلوكه وذوقه ونظرته للحياة»[3].

وبالإيمان حياة القلوب ونور البصائر وجلاء الأفهام، وبه تسمو الأرواح وتتآلف، وتتفتق الأذهان وتتوقد القرائح وتنشط الجوارح، وتعلو الهمم وتنهض الأمم،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٦٦.

(٣) خصائص المجتمع الإسلامي، محمد الخطيب ص ١٨ - ١٩.

فكلما ضعفت إرادة العبد، ووهنت قواه وكل جهده في السعي إلى المعالي، أمده هذا الإيمان الصادق بالزاد الروحي وأذكى في فؤاده روح المثابرة وأشعل في قلبه وقود الانطلاق، وكلما أحاطت به المخاوف كان هذا الإيمان ملاذًا آمنًا، وحصنًا حصينًا، يفيء إليه المؤمن، فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه، والإيمان سر التفوق وإكسير النجاح، بالإيمان يرقى وينهض، فهو زاد القلوب وضياء العقول ونور البصائر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية واصفًا أهل الإيمان: «ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في القرون والأجيال»[1].

إنه الإيمان الذي يصنع المعجزات، ويقود إلى التغيير، فترتقي الأمم وتنهض، وتهبط عليها البركات.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

والإيمان الذي تنهض به الأمة ليس المقصود به مجرد معرفة ذهنية، وحواشٍ كلامية، أو إضاعة للأعمار في حوارات ومساجلات عقيمة، وإنما هو الإيمان الحي العملي الصادق المخلص، الذي ينير القلوب ويرهف الأحاسيس، ويرقق المشاعر ويهذب النفوس، ويحرك الوجدان، وينشط الجوارح، ويوجهها إلى العمل الصالح، الإيمان الذي يصنع البطولات والأمجاد ويغير النفوس ويقلب وجه التاريخ في سرعةٍ فائقةٍ وفي تحولٍ مذهلٍ.

«إن مفتاح شخصية هذه الأمة ومصدر طاقاتها هو الإيمان الذي جعل هذه الأمة من قبل خير أمة أخرجت للناس، وحقق لها النصر على أعظم الإمبراطوريات في الأرض على الرغم من قلة عددها وضعف عدتها، وبهذا الإيمان انتصرت بعد هجمات التتار الزاحفين من الشرق، والصليبيين الزاحفين من الغرب، وبه تستطيع اليوم الانتصار على ورثة هؤلاء وهؤلاء»[2].

فما أحوجنا إلى الإيمان بمفهومه الصحيح الشامل الذي ورد في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الإيمان الذي فهمه الصحابة الكرام والتابعون وتابعوهم بإحسان.

ما أحوجنا إلى إيمانٍ خالصٍ راسخٍ يعيد لنا مجدنا وعزنا .

(١) نقض المنطق، ابن تيمية ص ٨.

(٢) أين الخلل؟ د. يوسف القرضاوى ص٢١.

وصدق الشاعر هاشم الرفاعي[1]:

ملكْنا هذه الدنيا قرونًا
وأخْضعها جدودٌ خالدون
وسطرنا صحائف من ضياء
فما نسي الزمان وما نسينا
وما فتئ الزمان يدور حتى
مضى بالمجد قومٌ آخرون
وأصبح لا يرى بالمجد قومي
وقد عاشوا أئمتهم سنين
وآلمني وآلم كل حـــــرٍ
سؤال الدهر أين المسلمون
ترى هل يرجع الماضي فإني
أذوب لذلك الماضي حنينًا
فهاتوا لي من الإيمان نـورًا
وقووا بين جنبي اليقين
فمد يديك وانتزع الرواسي
لتبني المجد خفاقًا مبينًا

لقد جاء القرآن كله لتوثيق الصلة بين العقيدة والسلوك.

تأمل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥٤].

ترى كيف يتجلى أثر العقيدة القوية في إصلاح النفوس واستقامتها وتساميها ورقيها وريادتها، محبة الله للعبد ومحبته لربه وأثرها في رشاده وثباته وتوازنه في معاملاته ورحمته ولينه لإخوانه وشدته وحزمه مع أعدائه وقوته في الحق فلا يجبن ولا يداهن.

وهكذا كلما تأملنا في القرآن وجدنا أثر الإيمان على سلوك الإنسان، فتوجيهات القرآن كلها موجهة للمؤمنين، ينادي عليهم ربهم في كتابه لخير يأمر به أو لشرٍ يحذر منه، أو لترهيبٍ أو لترغيبٍ. أو لتذكيرٍ أو لتبصيرٍ، وتربط آيات القرآن بين الإيمان والعمل الصالح، وتهيج مشاعر المؤمنين للأعمال الصالحة والأخلاق الطيبة.

تأمل على سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة:٢٧٨].

حيث بدأت الآية بالإيمان وختمتْ به، بدأت بنداء إيماني وتحذير وأمرٍ رباني، ثم ختمت بتهييج مشاعر الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

فأهل الإيمان هم أهل الثبات واليقين وأهل العزة والتسامي بإيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور:١٧].

والآية مما نزل في شأن قصة الإفك

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص١٩٦.

وفيها تحذير لمن وقع في الإفك، وأنه لا يليق بمؤمن أن يخوض في عرض العفائف، وهكذا نرى أثر الإيمان على النفوس وأنه مفتاح التغيير.

كذلك يقترن الإيمان بالعمل الصالح فهما متلازمان لا يفترقان، حيثما ذكر الإيمان عطف عليه العمل الصالح، فلا إيمان بدون عمل صالح يعبر عنه ويبرهن عليه، ولا قيمة للعمل الصالح بدون إيمان يقوم عليه ويركن إليه، فالإيمان بدون عمل كالشجر بلا ظل ولا ثمر. والعمل الصالح بدون إيمان كالجسد بلا روح، فلا إيمان بدون عمل ولا عمل بدون إيمان.

٢. الواقع السيء.

استشعار الداء هو أول الطريق إلى التغيير أن يدرك الإنسان أنه في حاجة للتغيير، وأن ينبري العقلاء إلى كشف الخلل وتشخيص العلل من أجل البحث عن علاج ناجع، وإن لم يستشعر العقلاء مواطن العلل ومواضع الخلل فلن يحدث التغيير، ولقد فرق القرآن الكريم بين نفسين: نفس لوامة تلوم صاحبها على تقصيره وتسعى لارتقائه، ونفس خبيثة أمارة بالسوء تبرر الأخطاء وتستعذب الذنوب.

قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة:١-٢]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾ [يوسف:٥٣].

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس عن الحسن ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي ما أردت بأكلتي ما أردت بحديثي نفسي ولا أراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه[(١)].

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال: التي تلوم على الخير والشر تقول: لو فعلت كذا وكذا.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال: تندم على ما فات وتلوم عليه[(٢)].

قال ابن جزي: «النفس اللوامة هي التي تلوم نفسها على فعل الذنوب أو التقصير في الطاعات فإن النفوس على ثلاثة أنواع؛ فخيرها النفس المطمئنة، وشرها النفس الأمارة بالسوء، وبينهما النفس اللوامة.

وقيل: اللوامة هي المذمومة الفاجرة. وهذا بعيدٌ؛ لأن الله لا يقسم إلا بما يعظم من المخلوقات، ويستقيم إن كان ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ نفيًا للقسم»[(٣)].

قلت: على كونه نفيًا للقسم فهو تنويه بالمقسم عليه؛ لأن الآيات التي وردت بهذه

(١) الدر المنثور، السيوطي ١٥ / ٩٧ .
(٢) المصدر السابق ١٥ / ٩٦ .
(٣) التسهيل، ابن جزي ٣ / ٢٥٥ .

الصيغ كل ما ورد فيه من محل القسم ذو شأن عظيم.

كذلك لا شأن بالنسبة لأمراض المجتمع ومواطن الخلل فيه إن لم ينتبه لها العقلاء أودت بالمجتمع وجرته إلى المهالك، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال:٢٥]، وقد جاء في الحديث عنْ زيْنب ابْنة جحْشٍ رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليْها فزعًا يقول: لا إله إلا الله، ويْلٌ للْعرب منْ شرٍ قد اقْترب، فتح الْيوْم منْ ردْم يأْجوج ومأْجوج مثْل هذه، وحلق بإصْبعه الإبْهام والتي تليها، قالتْ زيْنب ابْنة جحْشٍ: فقلْت: يا رسول الله أنهْلك وفينا الصالحون؟ قال: نعمْ، إذا كثر الْخبْث.[1]

وروى الإمام أحمد في المسند: عنْ ثوْبان رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليْه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليْه وسلم: «يوشك أنْ تداعى عليْكم الْأمم منْ كل أفقٍ، كما تداعى الْأكلة على قصْعتها». قال: قلْنا: يا رسول الله، أمنْ قلةٍ بنا يوْمئذٍ؟ قال: «أنْتمْ يوْمئذٍ كثيرٌ، ولكنْ تكونون غثاءً كغثاء السيْل، تنْتزع الْمهابة منْ قلوب عدوكمْ، ويجْعل في قلوبكم الْوهْن». قال: قلْنا: وما الْوهْن؟ قال: «حب الْحياة وكراهية الْموْت»[2].

٣. الخوف من سوء العاقبة.

لا شك أن الحذر من سوء العاقبة مما يحمل العبد على أن يغير من نفسه ويصلح من شأنه، حذرًا من أن يصيبه ما أصاب الظلمة والعصاة، ولقد حذر الله المؤمنين من سوء العواقب، ورد ذلك في آيات كثيرة.

تأمل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

فقد نزلت الآية في بداية التعقيب على غزوة أحد تسلية للقلوب وتسرية عن النفوس، فالأمور بعواقبها، والأيام دولٌ، وأمر الله بالسير في الأرض للنظر في عواقب المكذبين للعظة والاعتبار والتسلي والثبات على الحق. سيروا في الأرض كيفما شئتم ونقبوا في البلاد فلن تجدوا من أفلت من حكمنا من المكذبين، بل عاقبتهم واحدة ونهايتهم محتومة مؤلمة.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطبًا عباده الْمؤْمنين لما أصيبوا يوْم أحد وقتل منْهمْ سبْعون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أيْ: قدْ جرى نحْو هذا على الْأمم الذين كانوا منْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣١٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم ٢٨٨٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٨٢.

قبلكمْ منْ أتْباع الْأنبياء، ثم كانتْ الْعاقبة لهمْ والدائرة على الْكافرين، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

وأمر الله تعالى بالسير في الأرض للنظر في عاقبة المكذبين نظر اعتبار وادكار، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام:١١].

والخطاب موجه للمشركين وكانوا يضربون في الأرض للتجارة، فأمرهم الله بالاتعاظ بغيرهم ممن كذب.

قال سيد قطب: «إن هذه اللفتة -بعد ذكر إعراضهم عنادًا وتعنتًا؛ وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة؛ وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم- لترمي إلى غرضين ظاهرين:

الأول: تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسرية عنه، مما يلقاه من عناد المعرضين، وعنت المكذبين؛ وتطمين قلبه -صلى الله عليه وسلم- إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين المستهزئين بالرسل؛ وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعًا في تاريخ الدعوة إلى الحق. فقد لقي مثله الرسل قبله؛ وقد لقي المستهزئون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب، ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف.

والثاني: لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين، وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب. وقد أخذ الله -من قبلهم- قرونًا كانت أشد منهم قوةً وتمكينًا في الأرض؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء، كما قال لهم في مطلع هذه الموجة؛ التي ترج القلوب رجًا بهذه اللفتات الواقعية المخيفة»[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل:٦٩] والدعوة لمنكري البعث الهازئين به المشككين فيه، فلينظروا في عواقب من سبقهم من المجرمين الذين أنكروا الآخرة فلم يتورعوا عن أي إثم ولم يرعووا عن أي جرم، فكان عاقبتهم الهلاك والدمار.

وحذر الأنبياء أقوامهم من مصير الهالكين السابقين.

قال تعالى في قصة شعيب: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩٩.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٤٨٠.

[هود:٨٩-٩٠].

وكثر في القرآن الكريم التحذير من مصارع الغابرين وسوء عواقب المكذبين بما فيه المزدجر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر:٤-٥].

فالاعتبار بالسابقين والاتعاظ بمصيرهم مما يزجر النفس عن المعاصي ويصرفها عن القبيح، ويقيمها على طريق الرشاد.

ثانيًا: أسباب التغيير المذموم:

١. اتباع الشيطان وأعوانه.

الشيطان داعي الهوى، يزين القبيح، ويقبح الحسن، كم من معصية هونها، وكم من طاعة سوفها، وكم من بدعة حسنها، وكم من سنة صرف الناس عنها، وأعوانه من الشياطين يسعون إلى غواية الناس وإضلالهم وإفساد دينهم ودنياهم، وكذلك أعوانه من شياطين الإنس.

قال تعالى عن قوم سبأ وقد تغير حالهم وتبدل من النعمة إلى النقمة ومن الرخاء إلى الشدة، بإعراضهم وكفرانهم وتبطرهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾ [سبأ:٢٠-٢١]

تبين الآية الكريمة كيف وقع قوم سبأ في مصائد الشيطان فصدق عليهم ظنه: لما أعرضوا عن شكر النعم ونسوا المنعم، وأخلدوا إلى الترف، وتنافسوا في المتع والملذات، فوقعوا في حبائل الشيطان وانقادوا لوساوسه، فصدق عليهم قوله كما أخبر رب العزة: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص:٨٢-٨٣].

فتركوا له الزمام وأذعنوا له وساروا في ركابه، إلا من عصمهم الله من وساوسه ونجاهم من إغوائه. وما تسلط عليهم بقوة وقهر بل بمكره وحيله التي تنطلي على أهل الأهواء والشكوك.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ۝١١٣﴾ [الأنعام:١١٢-١١٣].

عن مالك بن دينارٍ رحمه الله أنه قال: «شياطين الإنس أشد علي من شياطين الجن؛ وذلك أني إنْ تعوذْت بالله منْ شياطين الجن ذهبتْ عني، وشياطين الإنس تجيئني فتجرني إلى المعاصي عيانًا»[1].

عن ابْن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «إن

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٨٠.

للجن شياطين يضلونهمْ مثْل شياطين الإنْس يضلونهمْ، قال: فيلْقى شيْطان الإنْس شيْطان الْجن، فيقول هذا لهذا: أضْلله بكذا، وأضْلله بكذا، قال: فهو قوْله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾».

قال ابن الجوزي: «وأما قوله ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ فهو ما زين منه، وحسن، وموه»[1]، «يزين بعضهم لبعض ما يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة،فيعتقدون الحق باطلا والباطل حقًا»[2].

وقال البقاعي: «والغرور: هو الذي يعْتقد فيه النفع وليس بنافعٍ»[3].

ويقول الشيخ عبد الحميد طهماز: «ولا يخفى ما في الآية من تحذيرٍ للمؤمنين من الوقوع في شراك الضالين المضلين، فعليهم أن يتجنبوا استماع كلامهم المزوق المزخْرف الذي يخفون في طياته السم الناقع، فما أكثر ما يخلطون السم بالدسم، فالاستماع إلى أقوالهم قد يؤدي إلى الرضا بها، ثم الاستجابة الفعلية لما فيها من إثم وفجور. وكأني بالآية الكريمة قد نزلت لهذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطانٌ كبير، وتأثيرٌ شديدٌ على الناس، لقد وجه شياطين الإنس من أعداء الإنسانية بوحيٍ من شياطين الجن كثيرًا من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة إلى الشعوب الإسلامية، ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، وقد ملؤوها بالبرامج المزخرفة المموهة التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم، وإشاعة الفواحش والفجور في مجتمعاتهم»[4].

وقال تعالى ناهيًا ومحذرًا من خطوات الشيطان التي يستدرج بها الإنسان حتى يوقعه في الحرام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة:١٦٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور:٢١]

«قال الضحاك: هي الخطايا التي يأمر بها، وقال أبو إسحاق: أي: لا تقفوا آثاره؛ لأن تركم شيئًا من شرائع الإسلام اتباع الشيطان»[5].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٩٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٦٩.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٣/ ١١٣.
(٤) بصائر الحق في سورة الأنعام، عبدالحميد طهماز ص ١٠٦-١٠٧.
(٥) معاني القرآن ١/ ١٥٤.

فلا يزال الشيطان بالإنسان حتى يدفعه إلى تعاطي الحرام، من المآكل والمشارب والمناكح، فالحذر الحذر من وساوسه وخطواته، وحبائله وخطراته التي يستدرج بها أهل الغفلة، فإذا تعاطى الناس الحرام فشا الظلم وخيم الضلال، وانتشر الخنا والفجور، وفسدت المجتمعات وتردت إلى الهاوية.

٢. اتباع الهوى.

واتباع الهوى: «السير وراء ما تهوى النفس وتشتهي أو النزول على حكم العاطفة من غير تحكيم العقل أو الرجوع إلى شرع أو تقدير لعاقبة»[(١)].

واتباع الهوى يفضي إلى الانسياق وراء الملذات والانغماس في الشهوات، والنفور من الحق، وكراهيته، وما ينبثق عن ذلك من ظلمٍ وافتراء، وتردي الأخلاق، وانفراط عقدَ المجتمع، وفقدان نعمة الأمن وتلاشي العدالة الاجتماعية، وسقوط المجتمع في براثن الطغيان والاستبداد، وتسلط الظلمة، وتصدر الفسقة، وتمكن المنافقين ومرضى القلوب. ولقد حذرنا المولى عز وجل في كتابه الكريم من إتباع الهوى، وأنذر الذين ملك الهوى زمام قلوبهم، ودعا إلى تجنب أصحاب الأهواء، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

قال ابن عباس: ما ذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه. وقال الشعبي: إنما سمى الهوى لأنه يهوي بصاحبه[(٢)].

فصاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، والهوى طريق الهلكة والضياع: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثٌ منْجياتٌ، وثلاثٌ مهْلكاتٌ: فأما الْمنْجيات: فالْعدْل في الْغضب والرضا، وخشْية الله في السر والْعلانية، والْقصْد في الْغنى والْفقْر، وأما الْمهْلكات: فشحٌ مطاعٌ، وهوًى متبعٌ، وإعْجاب الْمرْء بنفْسه)[(٣)].

ولقد أورد ابن الجوزي في كتابه ذم الهوى آثارًا للسلف في ذلك منها ما رواه عن مالك بن دينار: أنه قال: بئس العبد عبدٌ همه هواه وبطنه، وقال ابن السماك: إن شئت أخبرتك بدائك وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك ودواؤك ترك هواك[(٤)].

واتباع الهوى من الأسباب الرئيسة في تردي المجتمعات وانتكاسها؛ فإن الإعراض

(١) آفات على الطريق، سيد نوح ٢/ ١٦.

(٢) ذم الهوى لابن الجوزي ص١٦.

(٣) أخرجه البزار في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، كما في كشف الأستار عن زوائد البزار، رقم ٨٠، ١/ ٥٩.
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٥١٢٢.

(٤) انظر: ذم الهوى، ابن الجوزي ص١٢.

عن الحق والنكوب عن الهدى، والميل إلى الهوى، مما يعمي القلوب والأبصار، ويفسد المجتمعات؛ لأنه يفضي إلى الظلم والفوضى والتخبط حين يترك العنان لكل نفسٍ وما تهوى.

والأهواء متباينة ومتنازعة، ولذا جاءت بصيغة الجمع.

من آثار اتباع الهوى على النفس والمجتمع:

١. التخبط والضلال والجور في الحكم.

فإن من أسباب التخبط والجور في الأحكام وما يعقبها من مظالم تهدم المجتمعات، فإما حكم بين الناس بالحق وإما اتباع للأهواء المضلة.

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

والمتبع للهوى يحرم نفسه من نعمة الهداية، إذ لم ينتفع بعلمه وأغلق سمعه وبصره عن قوارع الحق وشواهده.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣].

٢. الانتكاس والسقوط.

ولا شك أن في اتباع أهل الأهواء مع وضوح الحق وقيام حجته مفسدة عظيمة سيما ممن نال حظا من العلم، وهو مع ذلك ينساق للجهال، فيضيع نفسه ويضيع غيره.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

قال الشيخ رشيد رضا: «وهذا الرجل صفته كصفة الْكلْب في حالته هذه، وهي أخس أحواله وأقبحها، والْمراد -والله أعْلم- أنه كان منْ إخْلاده إلى الْأرْض، واتباع هواه في أسْوأ حالٍ، خلافًا لما كان يبْغي منْ نعْمة الْعيْش وراحة الْبال، فهو في همٍ دائمٍ مما شأنه أنْ يهْتم به، وما شأنه ألا يهْتم به منْ صغائر الْأمور وخسائس الشهوات، كدأب عباد الْأهْواء وصغار الْهمم تراهمْ كاللاهث من الْإعْياء والتعب، وإنْ كان ما يعْنون به، ويحْملون همه حقيرًا لا يتْعب ولا يعْيي، ولا ترى أحدًا منْهمْ راضيًا بما أصابه منْ شهواته وأهْوائه، بلْ يزيد طمعًا وتعبًا كلما أصاب سعةً وقضى أربًا:

فما قضى منْها أحدٌ لبانته
ولا انْتهى أربٌ إلا إلى أرب[1]

(١) المنار، رشيد رضا ٩/ ٣٤٢.
والبيت من ديوان المتنبي ٢/ ١٩٦، ومعنى البيت: لم يقض أحد حاجته من الليالي؛ لأن حاجات الإنسان لا تنقضي، ولا انتهى أربٌ إلا إلى أرب. واللبانة الحاجة والأرب

٣. الإفراط.

والإفراط يفضي إلى التقصير والعجز، وإضاعة الحقوق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

أي: «ضياعًا وهلاكًا، وهو من التفريط والتضييع، أو من الإفراط والإسراف، فإن الغفلة عن ذكر الله تعالى تؤدي إلى اتباع الهوى المؤدي إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ تسفيهٌ لهؤلاء المشركين، وما هم فيه من عناد يسوقهم إلى الهلاك، ويخرجهم من الدنيا، وقد خسروا الدنيا والآخرة جميعًا[٢].

٤. الإعراض عن الحق مع جلائه.

قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:٤٩-٥٠]. فلا أضل ممن ساقه الهوى، وبعد عن الهدى.

٥. الخذلان والحرمان من ولاية الله ونصرته.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد:٣٧].

فجزاء اتباع أهل الأهواء الخذلان والضياع. أخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ قال: من أحد يمنعك من عذاب الله تعالى[٣].

٦. العمى والصمم عن الحق.

فمتبع الهوى له عين لا يبصر بها وله أذن لا يسمع بها وله عقل لا يعقل به، فحياته كالبهائم بل أضل، إذ البهيمة لا تخرج عن دورها في الحياة، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤]. وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قال: كلما هوى شيئًا ركبه وكلما اشتهى شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى[٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا

الغرض.

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٢٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٥٠.

(٣) الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٤٦٥.

(٤) المصدر السابق ١١/ ١٨٢.

﴿قَالَ مَاذَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد:١٦]. فقرنت الآية بين الطبع على قلوبهم وبين اتباع الأهواء، فداء القلب وعماه في اتباع الأهواء.

٣. الركون وترك العمل.

لا شك أن الخلود إلى الراحة والدعة وترك العمل والاشتغال بأسباب الترف أو الكلام والجدل مما يفسد النفس والمجتمع، فمن قل عمله كثرت شهواته، والترف مفسدةٌ عظيمة، ومهلكةٌ خطيرةٌ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٦-١١٧].

فهلا كان فيمن قبلكم أولو معادن نفيسة، ونفوس زكية، وهمم عالية،، ينهون الناس عن الفساد في البلاد، إلا قليلًا ممن أنجاهم الله تعالى بصلاحهم ونصحهم، واتبع الذين ظلموا سبيل الترف، فنافسوا على الرياسة والسلطان والثراء، لينعموا بالمال والجاه، وسلكوا لذلك كل سبيل، وكانوا مجرمين بفجورهم وفسادهم، ونكوبهم عن طريق الصلاح ومحاربتهم للحق، فاستحقوا الهلاك، فالترف من أسباب الفسوق والانحلال الموجب للنقمة والعقوبة التي لا تكون إلا للمفسدين.

قال صاحب الظلال: «لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الرياسة والسعي لها وجمع الثروة وطلب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك مما ينفعهم في الآخرة ونبذوه وراء ظهورهم. فالترف يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل ولا تتفتح للنور»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء:١٦-١٧].

فالمترفون هم الذين يقودون عجلة الحضارة إلى الدمار بفسقهم ومجونهم، وقسرهم ضعفاء القلوب على الكفر والضلال، حتى يكون الهلاك الذي يعمهم جميعًا، بعد أن أمرهم الله بالطاعة فبادروا إلى التمرد والعصيان، قرئ (أمرنا)[(٢)]: أي

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٨٥.

(٢) قال أبو حيان في البحر: «قرأ ابن عباس وأبو عثمان النهدي والسدي وزيد بن علي وأبو العالية: أمرْنا بتشديد الميم وروي ذلك عن علي والحسن والباقر وعاصم وأبي عمر

أكثرنا فصاروا هم الكثرة الفاسدة، الأغلبية الطاغية. والمترف عالة على مجتمع، لا يعمل ولا ينتج، بل هو نديم الشهوات قعيد الملذات، لا يفكر إلا في ملء بطنه وإفراغ شهوته، فالترف داعية السرف المفضي إلى الفسوق والعصيان والظلم والإجرام، يظهر هذا في الكبار والموسرين، ثم ينعكس على الفقراء المعوزين فتسوء حال الأمم وتتدهور أخلاقها.

قال الألوسي: «وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد»[1]، فالأمم إنما يهلكها بطرها واستكبارها وغفلتها عن الحق واستغراقها في شهواتها الدنيوية دون تدبر وترو، وإنما يصلحها تدبرها وبصيرتها واعتدالها وسلوكها طريق الحق وتفكيرها في العواقب وعدم إسرافها في متع الحياة وشهواتها.[2]

والصلة بين الانغماس في الترف والتشبث به وبين الإجرام وثيقة، فالمترف والباحث عن الترف قد لا يتورع عن سلوك أي طريق وركوب أي حيلة ليعيش حياة الترف، والترف من دواعي القعود عن عزائم الأمور والركون للدعة.

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة فكذبوا رسل الله وردوا دعوة الله أن يهلكهم ويذيقهم العذاب في الدنيا كما يذيقهم العذاب في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

تصور الآيات الكريمة مشهد العذاب الذي حل بالظلمة المترفين، فانطلقوا يركضون هربًا من ملاحقته، فيقال لهم على سبيل الاستهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة، «وارْجعوا إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم، ارجعوا إلى ما أترفتم فيه من العيش والرفاهية والحال الناعمة»[3].

وتأمل في حال قوم سبأ حين تبطروا على هذه النعم وطلبوا زوالها وتمنوا لو كان

وعدي أمر بالتضعيف، والمعنى أيضًا كثرنا». البحر المحيط ٦/ ١٢.

(١) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٤٢.

(٢) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ١/ ١٨٥٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٧٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٤٦.

السفر طويلًا، وبلغ الترف ببعضهم والدعة أن اشتكى بعضهم من بعد الأسفار جحودًا وإنكارًا لنعم الله تعالى، وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتمللهم، فجعلناهم عبرةً يتحدث الناس بها ويتعجبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفرقهم بعد اجتماع شملهم وذلهم بعد عزهم، حتى صار تفريقهم مثلًا سائرًا فقالوا في الأمثال: ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا أيدي سبا[1]، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ:١٨-١٩].

٤. الأمن من مكر الله.

من أسباب التغيير: الأمن من مكر الله تعالى، فيغتر العبد ويتمادى في الذنوب والعصيان، ويمسي ويصبح في غفلةٍ لا يلقي بالا لما قدمته يداه.

قال الراغب رحمه الله: مكر الله: صفة حقيقة على ما يليق بجلال الله وكماله، ومن لوازمها إمهال العاصي وتمكينه من أعراض الدنيا، ولذلك قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: من وسع عليه في دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع في عقله[2].

والمراد: المسرف على نفسه، العاصي لربه، وقد يوسع على العبد الصالح تمكينًا له لصلاحه وإكرامًا.

وقال ابن حجر الهيتمي: «الأمن من مكر الله يتحقق بالاسترسال في المعاصي مع الاتكال على الرحمة»[3].

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

أفأمن أولئك الذين يكذبون بآيات الله ويجحدونها إمهال الله لهم واستدراجهم؛ بإمدادهم بالنعم في دنياهم من صحة البدن ورخاء العيش فيأخذهم على غرة بعذاب لا رجعة فيه ولا مهرب منه، وهم في نومٍ ورقادٍ، أو في لعبٍ ومرحٍ، أفأمن أولئك العصاة مكر الله بهم ونقمته عليهم فلا يأمن مكر الله إلا أهل الخسران.

قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار. وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار! أفأمنوا مكر الله؛ وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين، الذين هلكوا بذنوبهم، وجنت عليهم غفلتهم؟ أما كانت مصارع

(١) مجمع الأمثال، الميداني ١/ ٢٧٥.
(٢) المفردات، الراغب ص٤٧١.
(٣) انظر: الزواجر، ابن حجر الهيتمي ١/ ٨٧.

الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم؟[1].

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤])[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحول عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن جميع سخطك وغضبك)[3].

وسياق آيات الأعراف وإن كانت في المكذبين الكافرين إلا أن الواجب على المؤمن الحذر من سوء العاقبة بإفراطه وتفريطه.

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

أنكر عليهم كيف يأمنون عقاب الله مع ما هم عليه من إدمان الذنوب، أفأمنوا أن يخسف الله بهم الأرض فتبتلعهم في بطنها، أو يأتيهم العذاب وهم في غفلة من نوم أو لهو، ومن حيث لا يحتسبون أو يتوقعونه فيعجزون عن دفعه، أو يأتيهم في أسفارهم وهم يتقلبون من بلد إلى بلد في البر أو البحر، فلا يستطيعون دفع العذاب أو التخلص منه، أو يأخذهم وهم في حذر ويقظةٍ فلا تغني عنهم شيئًا، إذ لا يخطئهم العذاب، أو يأخذهم بالتدرج دون أن يشعروا بهذا التنقص يومًا بعد يوم حتى يفاجئوا، فالتغيير الكبير قد يكون نتيجة تراكمية للتغييرات الصغيرة التي لا يشعر بها الإنسان غالبًا.

قال الشنقيطي: «أنكر الله جل وعلا على الذين يعملون السيئات من الكفر والمعاصي، ومع ذلك يأمنون عذاب الله ولا يخافون أخذه الأليم، وبطشه الشديد، وهو قادر على أن يخسف بهم الأرض، ويهلكهم بأنواع العذاب»[4].

فالآيات وإن كانت عن الكفرة العصاة لكن على المؤمن أن يحذر من سوء العاقبة بإدمان المعاصي والتفريط في الطاعات.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٢٦٣.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٥٤٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، ٤/ ٢٠٩٧، رقم ٢٧٣٩.
(٤) أضواء البيان ٢/ ٣٨٠.

مجالات التغيير

مجالات التغيير شاملة وميادينه متشعبة، فالتغيير منظومة متكاملة وعلاج شامل، لن يحقق الثمرة المرجوة ما لم يجمع بين التغيير في العقائد والأفكار والتغيير في الأخلاق والسلوك، كما سنبين في هذا المبحث:

أولًا: التغيير في العقائد:

جاءت دعوات الأنبياء بالتغيير ولا شك أن أول خطواته وأركانه إصلاح العقيدة، والتطهر من أدران الشرك والتحرر من الخرافات والأوهام، فبدأ كل نبي دعوته إلى التوحيد.

قال تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

كان النبي صلى الله عليه وسلم في بدء دعوته يطوف بالأسواق ويذهب إلى منازل الحجيج يدعوهم لقول لا إله إلا الله.

عن ربيعة بن عباد الديلي، وكان جاهليًا أسلم، فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بصر عيني بسوق ذي المجاز، يقول: (يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا)[1].

فكلمة التوحيد هي الكلمة الطيبة التي ينبثق منها كل خير، هي النبتة الطيبة بأصولها الثابتة وفروعها المثمرة.

والتغيير في العقائد هو الأساس؛ لا نجاح لأي تغيير وإصلاح بدون إصلاح العقيدة، ولقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة يربي أصحابه على العقيدة الصحيحة وأصول الأحكام ومكارم الأخلاق، وركزت السور المكية على إصلاح العقيدة وإصلاح المجتمع من تقاليد الجاهلية وعاداتها السيئة، وإعداد الفرد المسلم وصياغة شخصيته. وبعد بيعة العقبة الأولى أرسل مصعب بن عمير رضي الله عنه ليعلم أهل يثرب، فما من بيت إلا ودخله الإسلام، فنشأ جيلٌ مباركٌ شارك في حمل رسالة الإسلام.

وتوحيد الله تعالى ومعرفته هو النور الذي يمحو كل ظلمة والحق الذي يفند كل شبهة، والحقيقة التي تبدد الأوهام والأساطير والخرافات التي تستبد بكثير من الناس وتستهويهم وتطاردهم، فتنكد عيشهم وتكدر صفوهم، أما عقيدة التوحيد فإنها تجمع القلوب وتشرح الصدور، وتؤلف النفوس وتنير العقول وتشحذ الهمم وتسمو بالأرواح وتنهض بالمجتمعات.

قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٥/ ٤٠٤.

[الطلاق:١٠-١١].

من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، من ظلمات الجهل والأوهام إلى نور العلم، من ظلمات الشك والحيرة إلى نور اليقين. فأي تغيير أعظم من التغيير في العقائد فهو منبع كل تغيير.

ثانيًا: التغيير في الأخلاق:

جاء القرآن بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وتقويم السلوك؛ فاشتمل القرآن الكريم على جميع محاسن الأخلاق يدعو إليها ويرغب فيها، ونهى القرآن عن جميع مساوئ الأخلاق ونفر منها، وجعل لنا في حياة الأنبياء والصالحين المثل العليا لمكارم الأخلاق؛ فما من خلق كريم إلا وفي قصص القرآن نموذج يحتذى منه، وما من خلق رديء إلا وفي قصص الغابرين مثال له حتى ننفر منه ونحذره.

بل وجاء القرآن بآيات جامعة لمكارم الأخلاق من ذلك أجمع آية في كتاب الله.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل:٩٠].

قال ابن مسعود: أجمع آية في القرآن لخيرٍ وشرٍ آية في النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ الآية.

وقال قتادة: ليس من خلق حسن، كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عز وجل عنه[1].

ثالثًا: التغيير في المعاملات:

جاء القرآن الكريم بإصلاح المعاملات فدعا إلى حسن المعاملة والوفاء بالحقوق، وفي مقدمتها بر الوالدين وصلة الأرحام وحسن العشرة الزوجية، والإحسان إلى الجار والصاحب، وشرع كل معاملة حسنة، ونهى عن كل معاملة سيئة، فأحل البيع وحرم الربا، و نهى عن أكل أموال اليتامى ظلمًا، ودعا لحسن التعامل والصبر على مخالطة الناس، وتحمل أذاهم والعفو والإحسان.

وقال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الإسراء:٢٣-٢٧].

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٠٧٣.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء:٣٦].

فاشتمل القرآن المكي وكذلك المدني على هذه الفضائل في المعاملات، التوحيد الذي هو أساس الشريعة والأخلاق، والدعوة إلى بر الوالدين، فهم السبب في وجودنا، ومهما بذلنا من إحسان، فلن نوفيهما حقوقهما، كما دعا إلى مراعاة حق القرابة والجوار، وحق الضعيف وحق الخادم وملك اليمين وحق اليتيم والمسكين وابن السبيل، ونهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ونهى عن الربا وأكل مال اليتيم وأكل أموال الناس بالباطل، وجاء الإسلام بالتشريعات التي تحفظ الحقوق وتصون الكرامات.

ولعل من أصدق التعبيرات عن مجيء الإسلام بالتغيير لما كان عليه العرب من الواقع المرير الذي أثقل كاهل المجتمعات قبل بزوغ فجر الإسلام، وكيف كان منهج التغيير: مقالة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بين يدي النجاشي ملك الحبشة؛ وذلك حينما هاجر المسلمون الأوائل إلى حمى ذلك الملك العادل؛ فرارًا بدينهم، فأبى الظالمون إلا متابعتهم ورصدهم فأرسلوا في طلبهم، فكان ذلك الحوار الذي دار بين يدي النجاشي.

وفيه: (فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا

نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت أم سلمة: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ الآيات... قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكم أبدًا)[1].

وهذا ربعي بن عامر رضي الله عنه لما سأله رستم قائد الفرس: فقال ما جاء بكم؟ قال: «الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»[2].

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٢٠١، رقم ١٦٤٩، عن أم سلمة رضي الله عنها.
(٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٤٠١، البداية والنهاية، ابن كثير ٧/ ٣٩.

ثمرات التغيير وآثاره

للتغيير الإيجابي ثمراته المباركة، وللتغيير السلبي آثاره السلبية على الفرد والمجتمع، كما سنبين في هذا المبحث:

أولًا: ثمرة التغيير الممدوح:

من أعظم ثمرات التغيير: التمكين للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥].

والتمكين تحول في مسار الأمة من ضعف وفرقة إلى قوة ومنعة وعزة، فللتمكين مقدماته ومؤهلاته، والتي من أهمها الإيمان والعمل الصالح، وله عوامل تحفظه، وهو القيام بواجبات العبودية لله والإصلاح.

وللتغيير ثمراته الطيبة فهو سبيل النجاة وطريق الفلاح، وبه تلتمس البركات. وهو متاحٌ لكل من شرع فيه وأخذ بأسبابه مهما كان من فساد حاله وضلاله قبل التغيير.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة:٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:١٠٣].

وقال عن المنافقين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦-٦٨].

وقال عن سائر المكذبين: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

فالتغيير متاح أمام جميع المخالفين، مهما سلف منهم، ومهما أوغلوا في طريق الضلال، فالفرصة لا تزال سانحة أن يغيروا من أحوالهم، بدءًا من إصلاح العقيدة بالإيمان إلى إصلاح السلوك بالتقوى، والتوبة الصادقة والاستجابة للمواعظ ففي ذلك خير الدنيا والآخرة وتحصيل بركات الدنيا وثواب الآخرة.

ثانيًا: آثار التغيير المذموم:

أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين هداة ومصلحين، فاستجاب لهم الصادقون وكفر وأعرض الجاحدون المنكرون، فابتلاهم الله تعالى بالشدائد والمحن لعلهم يرجعون ويتضرعون، لكن القلوب قاسية والأعين متحجرة، والعقول في غفلة وذهول، وهنا يبتليهم الله بالنعم والرخاء؛ استدراجًا لهم، فيزدادون بطرًا وعجبًا وغفلةً، ويمهلهم فيتمادون في الغي والطغيان، فتحل عليهم النقم ويغشاهم العذاب الذي لا كاشف له ولا عاصم منه.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٦]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

ومن آثار التغيير المذموم:

١. ضيق العيش في الدنيا والعمى في الآخرة.

قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

فالإعراض عن منهج الله من أسباب الشقاء والنكد والضيق وتبدل الحال.

٢. الغشاوة على القلوب.

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

فمن أسباب التغيير إلى الأسوأ، غشاوة القلوب بإدمان الذنوب والمعاصي مما يحجب عنه نور الهداية.

٣. هلاك الأمم وخراب الديار.

قال تعالى عن الأمم الهالكة بذنوبها: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فتراكم الذنوب من أسباب الهلاك والدمار الذي يحل بالأمم المكذبة، فيتبدل حالها من خفض عيش ورغد وأمن إلى

هلاكٍ وخراب وتدميرٍ، فلا تبقى لهم باقية.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه)، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلًا: (كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق، فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها).

موضوعات ذات صلة:

الإصلاح، التدرج، التربية، الدعوة

التفكر

عناصر الموضوع

مفهوم التفكر	٢٨٠
التفكر في الاستعمال القرآني	٢٨٢
الألفاظ ذات الصلة	٢٨٣
الحث على التفكر	٢٨٧
مجالات التفكر	٣٠٢
نتائج التفكر وثمراته	٣٢١

مفهوم التفكر

أولًا: المعنى اللغوي:

يحدد ابن فارس الجذر الثلاثي لمصطلح التفكر بقوله: «الفاء والكاف والراء تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبرًا»[(١)].

أما عند ابن منظور: «الفكر والفكر: إعمال الخاطر في الشيء، قال سيبويه: ولا يجمع الفكر ولا العلم ولا النظر»[(٢)].

ويذكر صاحب القاموس: «الفكر -بالكسر ويفتح-: إعمال النظر في الشيء»[(٣)].

وفي المعجم الوسيط: «(فكر) في الأمر فكرًا: أعمل العقل فيه، ورتب بعض ما يعلم؛ ليصل به إلى مجهول... (التفكير): إعمال العقل في مشكلة؛ للتوصل إلى حلها... (الفكر): إعمال العقل في المعلوم؛ للوصول إلى معرفة مجهول»[(٤)].

هذه خلاصة ما جادت به كتب اللغة في هذا المصطلح، ومن خلال التمعن في هذه التعريفات يلاحظ أنها تشترك في المعاني التالية وهي أن التفكر:

يعتمد على إعمال القلب والعقل والنظر والخاطر، ويكون بالتردد والتكرار، ويكون في المعلوم طلبًا للمجهول.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

اعتمادًا على ما جاء في التعريفات اللغوية اختلفت تعاريف المفسرين والعلماء لمصطلح التفكر على أن أغلبها لم تخرج عن إطار المعاني اللغوية، وفيما يأتي عرض لبعض التعريفات:

يقول الراغب الأصفهاني: «الفكرة: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر: جولان تلك القوة بحسب نظر العقل؛ وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب...، ورجل فكير كثير الفكرة، قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها»[(٥)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٤٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٤٣٥١.
(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٢/ ١١٥.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٩٨.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٢٠٢.

ويقول الجرجاني: «التفكر تصرف القلب في معاني الأشياء؛ لدرك المطلوب»[1].

وخلاصة القول: أن هذه التعريفات اتفقت على ما يأتي:

- الفكر قوة أو ملكة، والتفكر إعمال لتلك الملكة، فليس كل من يملك تلك القوة هو متفكر، بل يمكنه ذلك بحسب إرادته.
- التفكر حالة خاصة بالإنسان دون الحيوان، كما أشار إلى ذلك الراغب.
- التفكر عملية يشترك فيها العقل مع القلب، فهي حالة ذهنية وجدانية.
- التفكر عملية هدفها استثمار المعارف للوصول إلى حقائق جديدة مطلوبة، ولا معنى للتفكر بدون تحقيق هذا الهدف.

ومن مجموع هذه التعاريف يمكن استخراج تعريف عام للتفكر بأنه:

عملية عقلية وجدانية، تعمل على استثمار المعارف والدلائل للتوصل إلى حقائق الأمور، بالنظر فيها، والاعتبار بنتائجها.

(١) التعريفات، الجرجاني ص٨٨.

التفكر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فكر) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(٨) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾ [المدثر:١٨]
الفعل المضارع	١٧	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية:١٣]

وجاء التفكر في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: إعمال الخاطر في الشيء[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن، عبد الله جلغوم، ص٨٨٣-٨٨٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٦٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العقل:

العقل لغةً:

جاء في لسان العرب: العقل: الحجر والنهى ضد الحمق، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، وسمي العقل عقلًا؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي: يحبسه[١]. إذًا فمعنى العقل في اللغة يدور حول المنع والإمساك والإحكام، كما يستخدم أيضًا في الفهم.

العقل اصطلاحًا:

قيل: هو «القوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة: عقل»[٢].

وقيل: «العقل: العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها»[٣].

ويمكن تعريفه بأنه هو: الإدراك المانع من الخطأ لحقيقة الأشياء والعلم بصفاتها عن طريق استعمال الحواس. فأساسه الاعتماد على المعنى اللغوي الذي يعود إلى المنع والحبس للإدراك.

الصلة بين التفكر والتعقل:

يظهر الفرق بينهما من خلال أن التعقل هو ربط المعلومات الناتجة عن الإدراك الحسي لها في صورة منظمة، وأن التفكر هو تعميق الفكر في هذه الصورة، فالتعقل من المراحل الأساسية في عملية التفكر.

٢ التدبر:

التدبر لغةً:

«هو آخر الشيء...، والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره؛ وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبته وآخره، وهو دبره»[٤]. ويعرفه الفيومي بقوله: «دبرت الأمر تدبيرًا فعلته عن فكر وروية»[٥].

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٠٦٤.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ١١٠.
(٣) الكليات، الكفوي ص٩٧٨.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٢٤.
(٥) المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٨٩.

التدبر اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني بقوله: «عبارة عن النظر في عواقب الأمور»[١].

الصلة بين التفكر والتدبر:

يظهر الفرق بينهما في أن «التدبر تصرف القلب بالنظر في العواقب، والتفكر تصرف القلب بالنظر في الدلائل»[٢].

٣ التذكر:

التذكر لغةً:

«ذكرت الشيء خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان»[٣].

فالتذكر في اللغة يدور حول حفظ الشيء، والذي قد يكون بالقلب أو باللسان.

التذكر اصطلاحًا:

«وهو محاولة النفس استرجاع ما زال من المعلومات، ثم الذكر وهو رجوع الصورة المطلوبة إلى الذهن»[٤]، فهو يجعل من التذكر عملية للقيام بالذكر.

الصلة بين التفكر والتذكر:

١. يجعل الإمام ابن عاشور الفرق بينهما دقيقًا فهو يجعل التذكر من العمليات العقلية التي تستلزم وجود المعلومات المسبقة، حتى إذا أصاب العقل سهو، جاءت عملية التفكر؛ لتفتح لها الآفاق من جديد وتبقيها عالقة في الذهن[٥].

٢. التذكر في القرآن ليس فيه إعمالٌ للعقل بالتحليل والتركيب والاستنتاج، لكنه عبارة عن استحضار لما هو منسي، ومن ثم توظيفه لاستخراج الحكم والعبر أو طلب معاني أخرى منه، لذلك فمعنى التذكر دائمًا يرتبط بدلائل التوحيد والبراهين الواضحة من «الأشياء المبثوثة في الكون والنفس الإنسانية والتاريخ الإنساني وآيات القرآن الكريم»[٦].

---

(١) التعريفات ص٥٤.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٧٥.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٥٨- ٣٥٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٨١.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٨٩.
(٦) العمليات العقلية في القرآن الكريم، عبدالرحمن صالح عبد الله، مجلة جامعة الملك سعود، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية، السعودية ١٩٩٥م، عدد ٧، ص ١١٦.

٤ التفقه:

التفقه لغةً:

أصل الفقه في اللغة: «العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين؛ لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم...، وفقه الشيء: علمه...، والفقه: الفطنة»[١]. فالفقه في اللغة هو الفهم والعلم بالشيء وحسن إدراكه.

التفقه اصطلاحًا:

يأتي بمعنى: «التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم»[٢]. ويرى البقاعي أنه «العلم بمفهوم الكلام ظاهره الجلي وغامضه الخفي بسرعة فطنة وجودة قريحة»[٣].

ويمكن تعريف الفقه بأنه: إعمال العقل للتوصل للمعاني الخفية، اعتمادًا على الفهم الدقيق للأمور والنظر في أعماق الأشياء.

الصلة بين التفكر والتفقه:

«التفقه هو خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، فالتفقه هو الحصيلة التي تنتج عن عملية التفكير، وتجعل الإنسان أكثر وعيًا لما يحيط به، وأعمق إدراكًا لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دومًا»[٤]. وهذا المعنى وارد إن كان المقصود به عملية التفكير التي تختلف في أصلها عن عملية التفكر التي قد تشير إلى مرحلة تعقل الأشياء فقط.

بهذا يكون مصطلح الفقه يعبر عن مرحلة الفهم الدقيق والعميق لخفايا الأمور والمعاني.

٥ الاعتبار:

الاعتبار لغةً:

جاء عند ابن منظور «عبر الكتاب يعبره عبرًا: تدبره في نفسه...، العبر جمع عبرة، وهي كالموعظة مما يتعظ به الإنسان ويعمل به ويعتبر؛ ليستدل به على غيره»[٥]. فمعنى الاعتبار في اللغة هو النظر في الأمور المتساوية والانتقال فيها من حال إلى حال عن طريق الاستدلال على غيرها والاتعاظ بها.

(١) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٤٥٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٢٠١.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٥٣١.
(٤) مدخل إلى موقف القرآن من العلم، عماد الدين خليل ص٩٤.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٧٨٣.

الاعتبار اصطلاحًا:

قال الرازي: «الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها»[1]. وجاء في التحرير والتنوير: «الاعتبار: النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها، وهو افتعال من العبرة، وهي الموعظة»[2]. فالاعتبار اصطلاحًا يعني: النظر في حقائق الأشياء المعلومة ودلالتها على أسبابها ونتائجها والاتعاظ بها.

الصلة بين التفكر والاعتبار:

إذا كان التفكر هو عملية عقلية وجدانية، تعمل على استثمار المعارف والدلائل؛ للتوصل إلى حقائق الأمور بالنظر فيها، فإن الاعتبار هو نتيجة هذه العملية العقلية، وما تم التوصل إليه من نتائج من خلال التفكر.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٧٢.

الحث على التفكر

تنوعت أساليب القرآن في الحث على التفكر، وسوف نتناول هذه الأساليب بالبيان فيما يأتي:

أولًا: سرد القصص والتعقيب عليها:

القصة هي أحد أساليب الهداية في القرآن الكريم؛ لما فيها من سحر يطغى على النفوس؛ ولأن الإنسان بطبعه مولع بتتبع الأخبار ومعرفة الأحوال، فهي تجعل الإنسان يعيش وقائعها وكأنه يحضرها، فيعيش بإحساسه وعقله الموقف القصصي، ما يرسخ نتائجه وعبره ويطبعها داخل النفس، فالاتعاظ والاعتبار هو الغرض الأساس الذي سيقت من أجله القصة في القرآن لا مجرد الاطلاع على قصص الأمم السابقة والشخصيات الماضية.

وتمتاز صياغة القصة في القرآن بإيصال المعنى في قالب سهل، يشد القارئ فيثير انتباهه ويرسخ المعنى في الذهن، كما تعمل على هز العقول ودغدغة المشاعر، وتغيير السلوك عن طريق تجديد الهمم، وزيادة خبرات الإنسان والانتفاع بخلاصة تجارب السابقين، فهي أسلوب رقيق دقيق يأخذ بالألباب يلخص المعنى في أسمى صورة وأبدع عبارة؛ لأنها تعتمد على أسلوب المشاركة الوجدانية للأحداث، واستعمال أسلوب الإقناع العقلي من خلال الدعوة للتفكر فيها، وأخذ العبرة منها وتذكر الدروس الإيمانية والحياتية، ما يجعل قارئها لا يمل منها، ويستشف في كل مرة معنى جديدًا؛ لأجل هذا كانت القصة القرآنية مدعاة للتفكر فيها، فالاعتبار لا يكون إلا بعد النظر في الدلائل.

ويلخص سيد قطب هدف القصة بقوله: «يتمثل في إثارة الفكر البشري ودفعه للبحث عن الحق، وتقديم خلاصات للتجارب البشرية، والخروج بالعبر والعظات والسنن التي تحكم حركة الإنسان ومصيره، وإزاحة ستار النسيان عنه، وإمداده بطاقات تضيء له الطريق، وتساعده على مقاومة الإغراءات؛ تجنبًا للمصير السيئ، فتساعده على الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة»[1].

ومن القصص التي وردت في موضوع التفكر قصة تابع الهوى الذي آتاه الله الآيات، لكنه انزوى عنها، ورضي بسفاسف الأمور، وقد وردت قصته في سورة الأعراف التي جاءت؛ لتبين أسباب الهداية والضلال، فوافق أن ترد فيها قصة المنسلخ من آيات الله.

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ

(١) انظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص١٢٥.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥- ١٧٦].

جاء في التفاسير أن قصة هذا الرجل تخص عالمًا من العلماء آتاه الله آياته، وقد اختلفوا على تسميته، فقد أورد الطبري[(١)] عن ابن مسعود و ابن عباس رضي الله عنهما أنه بلعم بن باعوراء، وهو من بني إسرائيل، كما ذكر رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنها نزلت في أمية بن أبي الصلت[(٢)].

وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره[(٣)] رواية عن ابن عباس أنها في زوج البسوس، وهي من بني إسرائيل أعطي ثلاث دعوات مستجابات أذهبها على زوجته، وروايات أخرى ملئت بها كتب التفسير أغلبها من الإسرائيليات لا يمكن الاعتماد عليها؛ لعدم ثبات صحتها، والمختار أن هذه الآية عامة في كل من كانت هذه حاله وصفته، فالإبهام بصلة الموصول (الذي) يدل على أن لا حكمة في معرفة اسمه ونسبه، بل هي حال عام لكل من يسلك دربه ويتبع هواه.

بدأت القصة بالأمر الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقرأ على قريش قصة ذلك العالم الذي آتاه الله تعالى العلم وحججه فأصبح عالمًا ربانيًا، وهذا من فضله تعالى وحسن توفيقه له، ولم يكن بتحصيله لها وجهده كما ظن، ما جعله يكفر بها وينبذها وراء ظهره، وقد شبه الله هذا الإعراض عن آياته بالانسلاخ كانسلاخ الجلد من الشاة، «وحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيء فارق شيئًا على أتم وجه: انسلخ منه، وفي التعبير به ما لا يخفى من المبالغة»[(٤)].

وإسناد فعل السلخ للعالم ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[الأعراف: ١٧٥].

يدل على أنه كان باختيارٍ منه، ما سهل وصول الشيطان له بعد أن كان محجوبًا عنه ببركة آيات الله وعلمه، فأصبح من الغاوين، والغواية بمعنى الانهماك في الغي والضلال.

ويذكر الله في الآية التي بعدها أنه لو كان في هذا العالم خير لرفعه الله بتلك الآيات إلى المقام الأعلى، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف ١٧٦].

وأسند الرفعة له جل وعلا؛ لأنه هو الموفق لها والهادي إليها، قال تعالى:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٢٥٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٣/ ٢٥٥-٢٥٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٧-١٦١٨.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٩/ ١١١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١].

لكن لسبق علمه تعالى بأنه سيختار الخلود والميل والنزول إلى الأرض انحطاطًا وهوانًا، وقد رضي بالدنيا لما تزينت له وسار وفق هواه فيها، فاجتمع عليه الشيطان والهوى، فضاع في الدنيا، وأضاع الآخرة.

هذه هي القصة التي تتكرر في كل زمان ومكان، ومع كل عالم لم ينفعه علمه؛ إذ لم يقده إلى العمل؛ وليبين الله عظم الظلم الذي ارتكبه هذا العالم الجاهل في نفسه، ويوضح صورته ومكانته، مثل له بحيوان هو الأكثر خسة في مجموع الحيوانات، وهو الكلب ومن يقبل أن يشبه به، ثم بين محل التشابه بينهما ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ [الأعراف ١٧٦].

فهو حيوان دائم اللهاث في حال التعب أو الراحة، والعالم الجاهل دائم اللهفة على الدنيا والحرص على ما يطيب له هواه فتراه لا يشبع منها أبدًا، ثم ختم الآية بالتعميم وضربها مثلًا للمكذبين بآيات الله ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فمشركي مكة جاءهم نور الله، ودعاهم داعي الهدى، فأبوا واتبعوا أهواءهم، فكانوا بمنزلة الكلب، ويذكر أن حالة اللهاث طبيعية في الكلب؛ لضيق في مجاري تنفسه إلا أنها في المكذبين حالة مكتسبة تخالف ما فطروا عليه من العهد الذي واثقوا الله به، وفي فاصلة الآية «تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكرًا وموعظة، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم؛ لأن للأمثال واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة؛ لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس»[1].

ومن جميل القصص التي سردها القرآن على الناس والتي تستحثهم معانيها على التفكر في ملكوت الله قصة سيدنا إبراهيم مع عبدة الكواكب الواردة في سورة الأنعام، رغم أنه لم يرد فيها التفكر كمصطلح إلا أن معانيها تشير إليه وتبرز دوره في هداية البشر.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١٧٩.

﴿كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٧٥-٧٩].

وهذا المنهج الحكيم الذي سار عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام في نقض دعوى قومه؛ من أن الكواكب آلهة تعبد هو من فيض التفكر في ملكوت الله؛ ليجعلها سنة باقية في قومه ومن بعدهم، لمن أراد السير في طريق البحث الجاد الموصل إلى الحقيقة، فأراه الله سبيل التفكر في الكون؛ ليقوى إيمانه ويصل إلى «درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى، وهذا لا يقتضي سبق الشك كما لا يخفى»[(١)].

والقصة تبدأ بانتظار إبراهيم الليل، ومسايرته لقومه في عبادة الكواكب، فلما تبدى له أحد الكواكب أظهر أمام قومه اعترافه له بالربوبية، لكن هذا الكوكب ما لبث أن اختفى، هنا سلك سيدنا إبراهيم طريق العقل؛ ليبين لقومه كيف يعقل أن يعبد إله يأفل ويختفي، وأين يذهب إذا أفل؟ ومن سيخلفه ويسير الكون في هذه الحال؟ ما يدل على ضعف هذا المعبود وعجزه، وهو ما أراد سيدنا إبراهيم أن يوصل قومه إليه بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ﴾ ثم عاد يبحث عن كوكب آخر يصلح؛ لأن يعبد، فرأى القمر وضاءً بنوره باهي الجمال، فأظهر لقومه استحقاقه للربوبية، لكن وجد أنه كسابقه يختفي، هنا كان على عقول البشر بمبادئها البسيطة أن تعي خطأ عقيدتها ومنهجها، وتنقض منهج العبادة، ما أقام عليهم الحجة بضلالهم.

نقل الألوسي عن ابن المنير أنه قال: «وإنما ترقى عليه السلام إلى ذلك؛ لأن الخصوم قد أقامت عليهم بالاستدلال الأول حجة، فأنسوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون، ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرض لهم عليه السلام بأنهم على ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم له إلى آخره»[(٢)].

ومجاراةً لقومه، واستدراجًا لهم؛ ليكملوا بقية الاستدلال، وجه نظره إلى الشمس وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ٧٨].

فالنظر فيها يدل على أنها أكبر الكواكب وأعظمها نورًا، إذًا هو الرب الذي يجب أن

(١) روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٩٨.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٢٠٠.

يعبد بلا شك، ومع أفولها ظهرت البراءة التامة من عبادة هذه الكواكب، وتحقق إعلان الخضوع التام لخالق هذه الكواكب والسموات والأرض دون إشراك لأي شيء في فرض العبودية له.

بهذا التدرج وهذه المرونة وباستعمال طريق التفكر اهتدى إبراهيم عليه السلام إلى محاججة قومه وإبطال دعاويهم ومعتقداتهم، مشيرًا أن الإله الأعظم يجب أن يتقبله العقل والحس معًا، وهذه الكواكب تخالف بديهيات العقل في تصور عظمة الإله، ولا تتوافق مع مقتضيات الإحساس بالربوبية، فكيف يليق بكم أن تعبدوه؛ لهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (نحن أحق بالشك من إبراهيم)[1].

إن التفكر في قصة المنسلخ من الآيات، وقصة إبراهيم عليه السلام، هما نموذجان من مجموع قصص القرآن، يوحي بهدف القرآن من الدعوة للتفكر في قصصه، واستخلاص العبر منه، كي يلامس الإيمان القلوب الضالة، ويزين اليقين القلوب المسترشدة، ولم يكن هدفها التثقيف فقط.

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، ٤/ ١٤٧، رقم ٣٣٧٢.

ثانيًا: ضرب الأمثال والتعقيب عليها:

اعتمد القرآن أسلوب ضرب المثل كلون من ألوان الهداية الربانية، وأسلوب من أساليب البيان الإلهي، يعالج فيها قضايا التوحيد وأحكام الشريعة، وإقامة الحجة عليها، ويعرض الحقائق؛ ليقربها من الأفهام، ويوضح خفاياها، بما يحفل به من حكم ومواعظ مجملة ومختصرة ذات طابع عقلي وجداني؛ لأنه: «تمثيل المعاني المعقولة بالصور الحسية وعكسه»[2].

وأورد صاحب البرهان أنه سمي مثلًا؛ «لأنه ماثلٌ بخاطر الإنسان أبدًا، أي: شاخص، فيتأسى به ويتعظ ويخشى ويرجو»[3].

واهتم القرآن بهذا اللون البلاغي لما له من قوة على النفس البشرية تطغى على انفعالاتها، وتوجه فكرها وتحركه؛ ليستبين التشخيص الحسي للأمر المجرد عبر صور بيانية ذات طابع فني تحقق المقصود؛ من تصحيح للعقائد، وتهذيب للسلوك، واكتساب للأخلاق، والتزام بالنهج الصحيح، بأبلغ معنى، وأوجز عبارة، يتحرك خلالها الفكر لتجلية معانيها، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١/ ١٤٠.
(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٤٨٧.

فكان واجبًا على تالي كتاب الله أن يتمعن في أمثاله، ويفهمها، ويعرف المراد الله منها باستخراجه للحكم المقصودة منها، وارتبطت الأمثال بموضوع التفكر في خمس آيات كريمات؛ وذلك لدقة معانيها الخفية التي تتطب جهدًا وتركيزًا؛ لاستبيانها.

فالآية الأولى هي آية سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾[البقرة: ٢٦٦].

وهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن مجموعة أمثال ساقها الله في موضوع الإنفاق في سبيله، واختلفت أقوال المفسرين في مضرب هذا المثل، فمنهم من يعد أن هذا المثل ضرب للمنفق المرائي[(١)]، ومنهم من يقول: ضرب مثلًا للمرائي بأعماله[(٢)]، ومن المفسرين من يعده ضرب للذي عمل بالطاعة في حياته ثم ختمها بعمل سيئ أذهب ما كان يعمل[(٣)].

وأخرج البخاري في صحيحه عن عبيد بن عمير قال: قال عمر رضي الله عنه يومًا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾[البقرة: ٢٦٦].

قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا أخي قل، ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»[(٤)].

وقد بدأ هذا المثل باستفهام إنكاري في قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ والود هو محبة الشيء الكاملة مع تمنيه، وجاء بصيغة أحدكم؛ ليدل أن الخطاب فردي لكل إنسان؛ لأن الإنسان أناني بطبعه، ولا يوجد من لا يحب لنفسه أن يمتلك مثل هذه الجنة، والتي وصفها الله سبحانه وتعالى بأعظم صفات الجنان؛ فقد حوت أكرم الشجر من نخيل وأعناب وأكثرهما نفعًا، مياهها تجري أنهارًا، وفيها من كل صنوف الثمار؛ ليأتي بعدها على وصف حال صاحبها بأشد

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٣٢٦.
وذكره الطبري عن السدي قال: هذا مثل آخر للمرائي، وهو المرجح عنده، وروى عن ابن زيد: هو مثل للمان في الصدقة، وقال مجاهد وقتادة والربيع: للمفرط في الطاعة.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٤١.
(٣) التفسير القيم، ابن القيم ص١٦٥.
(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، ٤/ ١٦٥٠، رقم ٤٢٦٤.

صفات الحاجة والحرص؛ فقد أصابه الكبر، وكان له عيال صغار لا يقدرون على كسب قوتهم، وكانت هذه الجنة مورد رزقهم فعظم حرصه لجني ثمارها، فإذا هم كذلك حتى أصاب الجنة إعصار شديد، وفي جمع الإعصار مع النار معنى آخر: «فلو اقتصر على ذكر الإعصار لكان كافيًا، ولكن لما علم الله سبحانه أن مجرد الإعصار لا تحصل به سرعة الهلاك، كما يحصل إذا كان فيه نار، قال سبحانه: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ثم أخبرنا باحتراقها؛ لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا يقوم احراقها بإطفاء أنهارها، وتجفيف أوراقها وثمارها، فأخبر بإحراقها؛ احتراسًا من ذلك؛ وهذا أحسن استقصاء وأتمه، بحيث لم يبق في المعنى موضع استدراك»[(١)].

والتفكر في مورد المثل ومضربه يوحي لنا بالتشابه الكبير بين الحالتين من ناحية وجه الشبه، وهو حصول الخيبة في وقت انتظار الحصاد؛ ولهذا قال الحسن: «هذا مثل قل والله من يعقله من الناس شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا»[(٢)].

وختم الله هذا المثل بالدعوة للتفكر فيما بينه الله من حكم وعبر فيه، ولكي يحسن الناس التفكر في عواقب الأعمال ونتائجها وأسبابها وغاياتها؛ ولهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة؛ ليثير انتباههم للتفكر فيه.

والمثل الثاني الذي يدعو الله فيه عباده للتفكر في معانيه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[الأعراف: ١٨٤].

وهو مثل خاص بموضوع النبوة، ورد في معرض الحديث عن الذين يكذبون بآيات الله المنزلة على نبيه، فأمر الله الرسول أن يقول لهم أن ما يطلبونه منه ليس في مقدوره، «ولأن أمر الرسالة في خيالهم ينافي البشرية التي حقرها في أنفسهم جهلهم وسوء حالهم وفساد أعمالهم»[(٣)]. فنفى عن نفسه قدرة التصرف في خزائن العطاء والإحاطة بالعلم الغيب، وما خفي من أمورهم في المستقبل مما هي من خصائص الإله، ثم نفى خصائص الملك وقدرته على الخوارق مما ليس في إمكان البشر؛ ليبين لهم أن حقيقة الرسالة تكمن في كونه بشرًا أرسل إلى بشر؛ يعايش واقعهم، ويحس بهم، ويكون قدوة وأسوة لهم حتى يلتزموا ما جاءهم به، فهو رسول يتبع ما جاءه من

(١) أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، ملك حسن عبد الرزاق بخش ص١٤١، ١٤٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٣٧.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٣٥٢.

عند الإله العظيم، وإذا بدت هذه الحقيقة فمن أعرض عنها فهو مثل الأعمى، «وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلتهم وعقم أقيستهم، ولحال المؤمنين الذين اهتدوا ووضعوا الأشياء مواضعها، أو تمثيل لحال المشركين التي هم متلبسون بها، والحال المطلوبة منهم التي نفروا منها؛ ليعلموا أي الحالين أولى بالتخلق»[1].

والمثل الثالث جاء في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وهو مثل ساقه الله بعدما ذكر بغي الناس في الأرض وإفسادهم فيها، وهوان الآخرة في قلوبهم مقابل عظم الدنيا وزينتها عندهم، واستعمل المثل؛ لأنه أبلغ في الوصف وأقرب لإصابة المعنى، وأكثر تأثيرًا في النفوس، فالحديث عن الدنيا والآخرة من الأمور المجردة التي لا يستطيع الإنسان استحضارها أو تصورها، لذلك فالكلام عنها لا يقنع كما يقنع تصويرها بالأرض التي هي بين ناظريهم يوميًا، وهي حقيقة يدركها الكبير والصغير.

واستهل المثل بقصر دورة هذه الحياة الدنيا على دورة حياة النبات بكلمة (إنما) وهي «هنا لتشير إلى أن قصر الحياة الدنيا على هذا المثل المصور لبدايتها ونهايتها، أمر واضح معلوم لا يجوز لذي عقل أن ينكره، فما أشد جهل أولئك الغافلين عن هذه الحقيقة، المطمئنين لهذه الحياة الدنيا»[2].

وتم تشبيه الماء النازل من السماء بالخبرات والنعم النازلة من عند المولى، ووجه الشبه بين الصورتين أن الماء هو سبب حياة النبات، وكانت النعم التي أعطاها الله للناس من مال وجاه وعلم وصحة وشباب هي سبب افتتان الناس بالدنيا، قال ابن عاشور: «شبه به ابتداء أطوار الحياة من وقت الصبا؛ إذ ليس ثمة سوى الأمل في نعيم العيش ونضارته، فذلك الأمل يشبه حال نزول المطر من السماء في كونه سبب ما يؤمل منه من زخرف الأرض ونضارتها»[3].

فاختلط هذا الأمل الناتج عن هذه النعم بحياة الناس، فازدهرت وطاب عيشهم بسرعة، وامتزجت هذه النعم بحياة الناس بحيث لم تعد منفصلة عن حقيقة الدنيا،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٤٣.

(٢) أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، ملك بخش ص١٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٤٢.

وبدت مظاهر زينة لها، كاختلاط الماء بالنبات بحيث لم يعد يظهر أمام نضارة النبات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه وصف لنمو النبات ونضوجه وتكاثره وتنوعه «وذلك؛ لأن التزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء، فجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون»[1]. وتزينت؛ لتحلو في عين زوجها، وعظم رجاء أصحاب الأرض فيها، وظنوا أن خيراتها لهم ولن يمنعهم منها أحد، وفي هذا إشارة إلى زخرف الدنيا وملذاتها وبهجتها وتزينها في عين طلابها حتى ظنوا أنه لا حائل بينهم وبين التمتع الدائم بها، ونسوا العمل للدار الآخرة، فلما جاء أمر الله بالهلاك أصبحت كالأرض المحصودة؛ حتى إذا رأيتها كأنها لم تكن ذات بهجة، ما أصاب صاحبها بالحسرة والندامة، ومثلها الدنيا إذا جاء أمر الله بإهلاكها، وقيام القيامة وتغيرت حالها، وتقلبت شئونها، ولم يجد صاحب الدنيا حينئذٍ ما ينفعه، وجملة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ تشير إلى قصر مدة التمتع بها، ولو كانت في نظر الإنسان طويلة.

لمثل هذه الحكم والعبر ختم الله الآية بالدعوة للتفكر في هذا المثل بعد أن فصل الآيات؛ ببيان مراحل نمو النبات من بداية النشأة إلى عاقبته، فقوله: «﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يعني: نبين علامات غرور الدنيا وزوالها؛ لكيلا يغتروا، ونبين بقاء الآخرة؛ ليطلبوها، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بأمثال القرآن ويعتبرون بها»[2].

والمثل الرابع الذي ورد بشأنه التفكر هو قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف ١٧٥- ١٧٦].

وهي قصة العالم الذي لم ينفعه علمه وهو مثل «من آتاه الله آياته فكان عالمًا بها حافظًا لقواعدها وأحكامها، قادرًا على بيانها والجدل بها، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفًا لعلمه تمام

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٣٨.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ١١١.

المخالفة فسلبها»[1].

وتشبيه هذا العالم بالكلب؛ لتشابههما في الحال، فالكلب دائم اللهاث في حال الإعياء أو الراحة عادة وطبيعة فيه، يقول الرازي: «وهو مواظب عليه كعادته الأصلية، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، فكذلك من آتاه الله العلم والدين أغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقى نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة»[2].

واختيار الكلب للتشبيه؛ لأنه «من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه[3] في الأرض يتشمم»[4]، وبهذا يشبهه العالم الحريص على اتباع هواه واللاهف على الدنيا، وذيلت الآية بالدعوة للتفكر «رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم، وقبح مثلهم على التفكر والتأمل، فإذا هم تفكروا في ذلك تفكروا في المخرج منه، ونظروا في الآيات وما فيها من البينات بعين العقل والبصيرة، لا بعين الهوى والعداوة، ولا طريق لهدايتهم غير هذه»[5]؛ لأن هذا المثل هو أسوأ الأمثال المضروبة والتي لا يطيقها أي بشر.

أما المثل الخامس فجاء في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وهو مثل ضربه الله لإيقاظ القلوب الغافلة عن التدبر في معاني كتابه الجليل، يتمثل فيه عظم الجبل وصلابته مع قلة تأثره بما ينزل عليه، يتشقق ويتصدع لما في هذا القرآن من المواعظ وعلو شأنه مقابل إهمال الإنسان له، والغرض منه «توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن، وتدبر قوارعه وزواجره»[6].

فالجبل بشموخه وانتصابه يخشع لنزول القرآن عليه، فيذل ويستكين ويخشع، يقول ابن عاشور: «الخشوع: التطأطؤ والركوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض»[7]. كما فيه إشارة إلى أن الجبل لو تميز بمكرمة الإنسان في العقل، وأدرك ما في هذا القرآن لتصدع وانهار؛ لشدة عظمته، ما يوحي أن

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٣٤٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٠٦.
(٣) خطمه: أنفه.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٩٨.
(٤) التفسير القيم، ابن القيم ص٢٨٠، ٢٨١.
(٥) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٣٤٢.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٠٨.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٧.

الذي لا يلين قلبه لهذا الذكر هو غير عاقل أبدًا، ولا يختلف عن الأشياء التي لا تعقل، وقد استعمل الله تعالى ملمح الجبل؛ لتظل الصورة ثابتة في الأذهان على مر الزمن لجميع الأجيال، كونها صورة موجودة في كل عصر، وكون حقيقة الإعراض عما في القرآن موجودة في كل زمان.

ثالثًا: أسلوب الاستفهام:

الاستفهام في اللغة: «طلب الإفهام، والإفهام تحصيل الفهم... وقد يكون الاستفهام لفظًا وهو في المعنى توبيخ أو تقرير»[(١)].

والاستفهام في القرآن «إنما يقع في خطاب الله تعالى على معنى أن المخاطب عنده علم ذلك الإثبات، أو النفي حاصل فيستفهم عنه، ونفسه تخبره به؛ إذ قد وضعه الله عندها...، فإن الرب تعالى لا يستفهم خلقه عن شيء، وإنما يستفهمهم؛ ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء، فهذا أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن، وهو في كلام البشر مختلف»[(٢)].

فكل استفهام في القرآن لا يقصد الله به انتظار الإجابة من الناس، بل هو تقرير لما وقر في أنفسهم وعلموه.

وجاء أسلوب الاستفهام في القضايا التي فيها آيات وبراهين ظاهرة للعيان وبادية للعقل، «فلكي يبلغ تأثيرها مبلغه من قلب المخاطب، ويثير عواطفه ورغبته في التفكر والتأمل، جاءت على شكل أسئلة تتحدى فكره وتثير انفعالاته، وتفتح بصيرته أو تعينه على الاستبصار والتعلم بجهده الذاتي...؛ لذلك تركت النصوص القرآنية الشريفة مجالًا للمتأمل؛ ليجيب بنفسه عن أسئلة القرآن الكريم، ويكون جوابه مرة من المقدمات البرهانية...، وتارة يصل بجوابه إلى النتيجة المطلوبة في الاستدلال أو البرهان؛ ليجد لذة وقناعة»[(٣)].

لذلك استعمل أسلوب الاستفهام الإنكاري عادة كتقريع لأفعال المشركين، وتوبيخًا لهم على أعمالهم، وعدم استخدام عقولهم وتفكرهم في القضايا المطروحة بين أيديهم، وقد ورد مرتين بصيغة ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ في سورة الأعراف الآية (١٨٤)، وفي سورة الروم الآية (٨)، وورد بصيغة ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ مرة واحدة في سورة الأنعام الآية (٥٠)، وجاءت هذه الصيغة الاستفهامية موجهة للمشركين؛ للتفكر في أمور قد عاينوا حقيقتها بأنفسهم، وكانت مدركة لهم، وموصولة بحياتهم، وهي أمور

(١) اللباب في علل البناء والإعراب، العكبري ٢/ ١٢٩.
(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٢/ ٣٢٧.
(٣) من أساليب التربية بالقرآن التربية بالآيات، عبد الرحمن النحلاوي ص٥٢.

عظيمة بالنسبة لعدم تفكرهم فيها، فآيتا الأعراف والأنعام أثارتا استفهامًا حول قضية الوحي، وإنزاله على الرسول صلى الله عليه وسلم، واستنكرت معاداتهم له.

ففي آية الأنعام جاء الخطاب للرسول؛ ليبين لقومه ماهية رسالته وطبيعة بعثته، فأمره الله أن ينفي لهم ما طالبوه به من معجزات وخوارق، وقرنه بمثل ضربه لبعد الاستواء بين الأعمى والبصير؛ ليدلل على الفرق الشاسع بين من يسمع الحجج فيخضع، وبين من تأخذه العزة بالإثم فيعمى عن رؤية الحق؛ لذا ختم الآية بسؤال على وجه التبكيت والتقريع لعدم تفكرهم واستخدامهم عقولهم بالنظر في أمر النبوة، ولم يكن ينتظر منهم الجواب، فالجواب واضح وضوح الشمس لمن تأمل في صورة الاستواء بين الأعمى والبصير، «فإن قالوا: نعم، كابروا الحس، وإن قالوا: لا، قيل: فمن تبع هذه الآيات الجليات فهو البصير، ومن أعرض عنها فهو الأعمى، ومن سوى بين الخالق وبين شيء من خلقه فهو أعمى العمي؛ ثم أمره بعد الإنكار للتسوية بينهما بأن ينكر عليهم فساد نظرهم وعمى فكرهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]. أي: فيردكم فكركم عن هذه الضلالات»[(١)].

ومثلها آية الأعراف التي جاءت؛ لتوبيخ الكافرين على اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنون، قال الطبري: «أولم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جنة به ولا خبل، وأن الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدين القويم، والحق المبين»[(٢)].

وورود الاستفهام؛ تعجبًا للطريقة التي ينظرون بها إلى الأمور بها، فهذا الذي ولد منهم وعاش بينهم، وعرفوا حاله، وخبروا معدنه وصفاته ورزانته، ثم يصفونه بالجنون كبرًا وعنادًا: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

وهو الذي بعث؛ لينذرهم يوم الحساب، ويبين لهم العقاب والعذاب المقدر لكفرهم، «وفي هذا استغباء أو تسفيهٌ لهم بأن حاله لا يلتبس بحال المجنون للبون الواضح بين حال النذارة البينة، وحال هذيان المجنون، فدعوى جنونه إما غباوة منهم بحيث التبست عليهم الحقائق المتمايزة، وإما مكابرة وعناد وافتراء على الرسول»[(٣)].

وفي آية الروم جاء الاستفهام بصيغة التعجب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٦٤١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٨٩.

(٣) التحرير والتنوير ٩/ ١٩٥-١٩٦.

أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وهذه الآية وردت في غفلة الناس عن يوم القيامة، والانشغال بالدنيا، قال ابن عاشور: «والاستفهام تعجيبي من غفلتهم وعدم تفكرهم، والتقدير: هم غافلون، وعجيب عدم تفكرهم، ومناسبة هذا الانتقال أن لإحالتهم رجوع الدالة إلى الروم بعد انكسارهم سببين: أحدهما: اعتيادهم قصر أفكارهم على الجولان في المألوفات دون دائرة الممكنات؛ وذلك من أسباب إنكارهم البعث، وهو أعظم ما أنكروه لهذا السبب، وثانيهما: تمردهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن شاهدوا معجزته، فانتقل الكلام إلى نقض آرائهم في هذين السببين»[(١)].

«وجاءت هذه الآية؛ للتدليل على قضية البعث، وهي من أهم قضايا العقيدة التي جاء القرآن يدعو للتفكر في مقدماتها الظاهرة في حياة الناس؛ وذلك بالتفكر في النفس البشرية وغاية وجودها ومحلها بعد نهاية أجلها، ومن بعدها النظر في السموات والأرض، أين سيدرك أن لكل شيء في هذا الوجود نهاية، ويتفطن بعدها إلى حقيقة اللقاء الأخروي والحساب والجزاء، هذه الحقيقة التي يسعى الناس لإنكارها؛ لظنهم الخلود في دار الدنيا؛ لذا قال الألوسي: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ إنكار واستقباح لقصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة»[(٢)].

وبهذا يظهر هدف استخدام أسلوب الاستفهام الانكاري كمحرض على التفكر كونه شديدًا على أنفس الكافرين، ويحمل في طياته الإنذار بالوعيد، وبهذا يمنحهم فرصة للتفكر العميق، ثم الإجابة السليمة عن هذه الأسئلة الموجهة إليهم بعدها الاستجابة التلقائية لنداء الفطرة وداعي الحق.

رابعًا: الثناء على المتفكرين:

«اعتمد القرآن أسلوب المدح في إثارة عملية التفكر؛ لأنه أسلوب محبب للنفوس، فالإنسان بطبيعته يحب المدح والثناء والظهور في مظهر حسن خلقًا وخلقًا؛ ليثير إعجاب من حوله، كما أن الإنسان لا يميل إلى الأسلوب المباشر في النصح والإرشاد؛ لأنه يحب دائمًا أن يشعر أنه عندما يأتي فعلًا طيبًا، فإنما يفعل ذلك بدافع داخلي لا بناء على أوامر ونواهٍ»[(٣)]. والله تعالى يخاطب

(١) المصدر السابق ٢١/ ٥١.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٢١/ ٢٢.

(٣) منهج القرآن الكريم في تربية الإنسان، مصطفى حوامدة، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، أكتوبر ٢٠٠٦م، المجلد ٣، العدد ٣ ص ٣٢.

النفس على ما جبلت عليه؛ فذلك أدعى للاستجابة؛ لهذا جاء الثناء على المتفكرين من أولي الألباب، هذه الفئة التي استحقت الثناء بجدارة؛ لأنها عملت بوصايا ربها، فوصلت إلى أعلى منازل السالكين إليه، فكانت بحق قدوة وجب التأسي بها.

وقد نالوا هذه المرتبة حين مدحهم الله سبحانه وتعالى في أواخر سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ٠٩١-١٩١].

و(أولو الألباب) هم أصحاب العقول الصافية، والقلوب النيرة، والألباب جمع (لب) ويذكر اللب في مقابل القشر، يقول ابن عاشور: «واللب في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان؛ لأنه أنفع شيء فيه»[1].

وقد وردت لفظة (أولي الألباب) في القرآن ست عشرة مرة، كلها على سبيل المدح والثناء.

وحاز أولو الألباب هذه المكانة المرموقة في رحاب الله؛ لأنهم تمسكوا بحبلي الذكر والفكر، هذا الذكر الذي ملأ القلوب وفاض على الألسنة، وكان مرافقًا لهم في كل حركاتهم وسكناتهم، ما يدل على استحضارهم للمعية الربانية في كل وقت، وعلى كل حال.

فهم قيام في نهارهم يعملون ويجاهدون ويذكرون الله، وهم قعود وقت الراحة لا ينسون ذكره، بل حتى وهم نيام على جنوبهم يذكرونه.

هذه الحالة الربانية والخوف الشديد من الله جعلهم يرون كل شيء في هذا الكون دليلًا على وجود الله، وبديع خلقه، وعظيم حكمته.

فانطلقوا بأبصارهم يتفكرون ما بين السموات والأرض، فزادهم الانفتاح على كتاب الله المنظور معرفة لأسرار الوجود، وفقهًا لسننه ونظامه الدقيق، فامتلأت قلوبهم بنور الله، وفاضت خشوعًا وإنابة لرب الكون ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

لتتفجر ينابيع التسبيح والإقرار بتلك العظمة والقدرة من قلوبهم على ألسنتهم فتلهج بالدعاء، راجين النجاة من عذاب النار، فبعملية التفكر هذه يغذون القلب بالإيمان، ويزيدون فيه نفحة اليقين، كما يصبغونه بصبغة الجمال النابع من جمال الكون وسحره، فتنطبع أقوالهم وأفعالهم ذوقًا وإحسانًا مع الناس، وإبداعًا وإتقانًا في

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٦٤.

الحياة.

وقد جاء في صحيح ابن حبان عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة -رضي الله عنها- فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أمه، كما قال الأول: (زر غبًا تزدد حبًا). قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه، قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: (يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي) قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبك وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠])[(١)].

وفي وصف السيدة عائشة رضي الله عنها لحالة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية، بيانٌ لأسمى نموذج للمتفكرين في ملكوت الله سبحانه وتعالى، وفي هذه صورة لما ينتج عن التفكر من زيادة في العبادة، وسمو في الإيمان.

والظاهر أن الذكر الوارد في الآية على العموم، ويشمل الصلاة، وهو ذكر باللسان، وحضور القلب، فهم «الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم باطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته»[(٢)].

ولما وصفهم تعالى بالذكر، ثنى بعدها بالفكر؛ لأن الذكر لا يكمل إلا مع الفكر.

وفي هذا يقول الألوسي: «قدم الذكر على الدوام على التفكر للتنبيه على أن العقل لا يفي بالهداية ما لم يتنور بنور ذكر الله تعالى وهدايته، فلا بد للمتفكر من الرجوع إلى الله تعالى ورعاية ما شرع له»[(٣)].

يقول الرازي في تفسيره: «في هذه الآية جمع لأصناف العبودية الثلاث، وتحقيق لمعنى الإيمان الذي هو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

إشارة إلى عبودية اللسان، وقوله: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء، وقوله:

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٢/ ٣٨٦، رقم ٦٢٠.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٦٨.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٥٨.
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٥٤.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلا هذا المجموع»[1].

ولنا في قصص السلف الصالح عبرة ومثل، فقد قال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة، أو لي فيه عبرة[2]. وأخرج ابن المنذر[3] عن عون قال: سألت أم الدرداء: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار.

فـ(أولو الألباب) ناس ارتقوا بقلوبهم وعقولهم عن براثن الأرض، فلم تعد تلامسها، وحلقوا ما بين السموات والأرض في رحلة فكرية قلبية، وصلوا من خلالها إلى عمق الأشياء، وانقلبت عقولهم من حالها إلى حال اللب، وهو أكمل وأخلص الأحوال، رأوا من خلالها غاية الوجود وحكمه العجيبة، وأسراره العظيمة، فنادوا ربنا ما خلقت هذا باطلًا، فكانت نتيجة هذا التواصل اعترافًا بالربوبية وتنزيها عن العبثية، منبعها الذكر الكثير والفكر الرصين؛ لينتهوا من هذه الرحلة الإيمانية بإدراك عظم ذنوبهم وتقصيرهم أمام نعم الله فاختاروا الآخرة، وطمعوا في الوقاية من عذاب النار.

مجالات التفكر

تعددت مجالات التفكر في القرآن وسوف نتناولها فيما يأتي بالبيان:

أولًا: التفكر في الآفاق:

يعتبر الكون مجالًا واسعًا ورحبًا تدور فيه أنظار الناس، ويعملون فيه عقولهم، ما جعل ميدان الآفاق أوسع مجالات في موضوع التفكر حتى غلب عليه، وأصبح إذا أطلق مصطلح التفكر أريد به آيات الله المنظورة المنتشرة في الكون، فكان مجالًا تنوعت فيه الصور والمظاهر، وتعددت حوله الآيات والدلائل، وكثرت داخله الأسرار والحكم.

والتفكر في الكون يكون تفكرًا في خلق الله من جهة دلالته على خالقه؛ لهذا استعمل لفظ (خلق) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فالتفكر ليس مقصودًا لذاته، بل الهدف منه بيان سر الإعجاز والقدرة، ومعرفة عظمة الخلق والخالق، والتفكر في خلق السموات يكون من جهة ارتفاعها بغير عمد ورحابة آفاقها، وإحكام صنعها، وشدة إتقانها، ودقة نظامها، وثبات نواميسها بما يوافق حياة الإنسان، وما حوته من كواكب كالشمس

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٥٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٤.
(٣) أخرجه ابن المنذر في تفسيره، ٢/ ٥٣٤.

والقمر وغيرها، ونجوم مسخرات، وفي كل ذلك آية على صنع القدير، فلو أن الشمس تبتعد عن الأرض لتجمد كل شيء، ولو أنها تقترب منها لاحترق كل شيء، فكل قوانين الكون مبنية على نسب كمية وكيفية تناسب وجود الإنسان وتسهيل مهمته على الأرض، ففي اختلاف الليل والنهار من جهة الظلام والنور مراعاة لتحقيق الراحة والهدوء في الليل، والحاجة للضوء في النهار سعيًا للعمل.

والتفكر في الأرض وما حوته من آيات وعجائب تعجز الألباب عن حصرها، من تنوع للكائنات إلى عظم الجبال وشق الأنهار واتساع البحار، وما تحويه من معادن، وفي كل منها عالم دقيق كبير المعاني كثير الغرائب تعجز العقول عن إدراكه؛ لذلك خصها الله سبحانه وتعالى بالتفصيل، وهي أقرب للإنسان من عالم السماء، فآفاق الكون لا يستطيع معرفة كنهها عوام الناس.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

فالأرض بسيطة للإنسان يسير فيها ويتقلب بين جنباتها، منها خلق، وفيها يعاد، وبها معاشه، جعلها الله قرارًا للإنسان، وسخر له ما فيها؛ ليقيم شئونه عليها، فمدها فيه تسهيل لعمل الإنسان من إقامة الزراعة على سطحها التي هي عماد أكله وحياته، وبسطها طولًا وعرضًا يسهل الانتقال في أجزائها شرقًا وغربًا شمالًا وجنوبًا، ومن عظيم آيات الله فيها تثبيت تربتها بالجبال الرواسي، وشق الأنهار فيها، وجعل فيها المياه الباطنية قريبة من سطح الأرض؛ ليسهل على الإنسان استغلالها، فلو كان على الإنسان إحضار المياه من البحار لما قامت زراعة ولا تجارة ولا حضارة، وذكر الأنهار بعد الجبال؛ لأن ماء النهر عادة ما يكون من ذوبان ثلج الجبل، فهذه آيات عظيمة على الإنسان الانتباه لها.

ولأن الإنسان بطبعه يكره البقاء على نمط واحد كان تنوع الثمار وكثرتها آية أخرى، وجعل من هذه الأنواع زوجين اثنين الحلو والحامض، الأبيض والأسود...، كما أن فيه إشارة إلى وجود الذكر والأنثى في كل نبات، فبهما يتحقق معنى الزوجية، ويتكاثر النبات.

«ومن هذا يتبين أن كلمة زوجين تتضمن التقابل الذي يعم التقابل بين الذكر والأنثى، والتقابل في الألوان، والتقابل في الطعم، والتقابل في الصغر والكبر، وهذا كله في أرض واحدة، وكان في اتحاد الأرض واتحاد الماء أن تكون شيئًا واحدًا في لونه أو طعمه...، ولكن تعددت وتخالفت، فدل

هذا على وحدة الصانع الحكيم العليم المريد الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»[1].

وأشار إلى سنة التسخير، وهي سنة لها ارتباط وثيق بموضوع التفكر؛ لأنها تدخل ضمن إطار مهمة الإنسان على الأرض، وجاء البيان الإلهي عامًا شاملًا في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ ليطلب من الإنسان «أن يحلق في فضاء السموات وأن يغوص في أعماق الأرض بفكره ولما تفيده (ما) من الإبهام، فإنها تدفع الإنسان إلى التعمق في اكتشاف أسرار ما في السموات وما في الأرض، فهي شاملة للباطن المخفي، وللظاهر المشاهد من أسباب التسخير؛ لاستثماره في نفع الإنسان»[2].

فإبهام الآيات يشير إلى كثرتها وتنوعها «وذلك؛ لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية»[3].

كما أن في تنكيرها دلالة على الكثرة والتعظيم، فكل ذلك يتناسق مع العموم المدلول عليه بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ولأن التسخير بعيد الإدراك والمشاهدة جيء بالتفكر الذي يغوص في معاني ودلائل الأشياء، وكل إنسان على قدر علمه وفهمه وتركيزه يصل إلى إدراك المطلوب.

وبالمقابل من ذكر التفكر في الأمور الكبيرة في الكون جاءت الإشارة إلى الأمور الصغيرة والتي قد يغفل عنها كثير من الناس، والتي تمثل في حد ذاتها معجزة من معجزات الخلق.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهام والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم[4].

فجاء لفت الانتباه في القرآن إلى عالم النحل، هذه المملكة الحصينة التي تحكمها قواعد وأركان يستحق أن يعي الإنسان نظامها ويحتذي به، والعجيب من أمرها أنها

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٨٩٥.
(٢) منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان، زياد خليل الدغامين، مجلة الفرقان، ص٢٠٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٠٢.

تسير بدقة متناهية لا ترى فيها عوجًا أبدًا، فتختار مكانًا آمنًا في الجبال، وعلى الشجر؛ لتبني فيه خليتها حتى لا تصلها الحيوانات، ولا تطالها الأيدي، وتهندسه في أشكال سداسية؛ لتضمن استغلالًا تامًا للمكان يساعدها على وضع البيض والاعتناء به، كما أن كل فرد في هذه الخلية مكلف بمهام يدركها منذ فقسه، إضافة إلى أن النحل مضرب المثل للتفاني في الجد والنشاط، ودليل ذلك الشراب المعجز الذي شهد له القرآن الحكيم بالنفع والشفاء.

يقول الألوسي: «إن من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة التي مرت الإشارة إليها، وخروج هذا الشراب الحلو المختلف الألوان، وتضمنه الشفاء جزم قطعًا أن لها ربًا حكيمًا قادرًا، ألهمها ما ألهم وأودع فيها ما أودع، ولما كان شأنها في ذلك عجيبًا يحتاج إلى مزيد تأمل ختم سبحانه الآية بالتفكر»[1].

ومن حكم المولى أنه بين أن التفاضل بين الخلق ليس من جهة الفضل والاستحقاق؛ إذ إنه لا ميزة للنحل في الطول أو العرض أو الجمال، لكن بعمله وجهده وإتقانه نال العسل، وفوقها اختصاصه بسورة تتلى إلى يوم القيامة، وفي هذا لفت لعقول الناس، ألا يحقروا خلق الله، أو يحقروا أنفسهم، فكل ميسر لما خلق له.

فنظرة القرآن للكون جاءت مناقضة لما شاع في فكر الإنسان القديم، من أن الكون والطبيعة مضادة تمامًا «للتصورات الكونية الميثولوجية القديمة التي جعلت الإنسان البدائي يستشعر الخوف من الكون، ويعتبره خارجًا تمامًا عن نطاق عمله وقدرته، ويفسر ظواهره المختلفة بعلل وهمية خيرة أو شريرة، أو آلهة يسترضيها بألوان الطقوس البدائية»[2]. بل جعل منها دلائل على قضايا مصيرية؛ ليكون ذلك أزيد في إيمانه بالاعتماد على العلم واليقين، ويحسن التصرف في هذا الكون.

ثانيًا: التفكر في الأحكام الشريعة:

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

أي: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: في زوال الدنيا وفنائها،

(١) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ١٨٧.

(٢) الإنسان والكون في الإسلام، التفتزاني ص٣٨.

وإقبال الآخرة وبقائها[1].

قال ابن عاشور رحمه الله: «ولا يخفى أن الذي يصلح للتفكر هو الحكم المنوط بالعلة، وهو حكم الخمر والميسر»[2].

من أدب المؤمن مع ربه التفكير في أحكامه الشرعية، واليقين بأن المصالح متحققة يقينًا بالأخذ بأحكامه سبحانه وتعالى، وما أصاب الأمة من بؤس وانحطاط إلا بالبعد عن تطبيق الأحكام الشرعية.

ثالثًا: التفكر في النفس الإنسانية:

إن النفس البشرية مجال صغير من مجالات التفكر في الخلق، لكنه عظيم عظم ما يحويه من آيات ودلائل على قدرة المولى -جل وعلا-، ودعوة القرآن للتفكر في النفس تعمل على إثارة العقل للبحث في آفاقها، وتجلية كنهها واكتشاف أسرارها، وجاء الحديث عن النفس في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وفيه توبيخ للكفار الذين قصرت مداركهم على الحياة الدنيا وشواغلها ونسوا العمل للآخرة، وفي خضم هذه الحياة تكون النفس البشرية مجالًا قريب التأمل، فلو تفكر الإنسان في أصله ونشأته[3] ومراحل خلقه، أطوارًا في بطن أمه يتقلب ما بين النطفة والعلقة والمضغة؛ ليتشكل جنينًا، ويخرج من الرحم وليدًا، لا قدرة له على الإدراك أو التعقل ولا طاقة له بأي عمل، ثم يصير طفلًا فشابًا يافعًا، ثم شيخًا هرمًا، نفذت قوته، وساءت حاله؛ ليستقبله بعدها القبر، لأدرك قصر هذه الدنيا وفناء لذاتها، ما يبعث على إعادة النظر في حياته وتصرفاته؛ ليجعل منها دربًا موصلًا إلى الجنة.

وجاءت آيات كثيرة تنبئ الإنسان بحقيقة نشأته وتذكره بأصله، حتى لا تأخذه العزة بنفسه وقوتها وجمالها وينسى فضل الخالق عليه وما أمره به من تكاليف، وتفرقت آيات الخلقة في القرآن وتشعبت الدلائل في كل آية بما يخدم السياق القرآني في كل سورة، وليعظم الأثر في القلب، ويحصل الإدراك الواعي بالمعجزات البينات، فيعترف القلب والعقل بقدرة الخالق وإعجازه.

فشكل الإنسان وجمال صورته واستواء أعضائه ووظائفها على هذه الهيئة المعتدلة «أمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم، والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة تفضلًا منه ورعاية ومنة...، وإن عجائب الإبداع في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٣.
(٣) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٤٣٥-٤٤٠، مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٩٦.

خلقه لأضخم من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله»[1].

كما أن هناك من الحقائق التي تعيش في داخل الإنسان وهو غير قادر عن إدراكها كماهية العقل والروح، ولا يمكنه الاستغناء عنها «فهي وإن كانت من مكونات الإنسان التي بها صار إنسانًا إلا أنها ليست مادية، ولا يمكن حصرها بين فكي الزمان والمكان اللذين لا قدرة للعقل البشري على الإدراك خارج نطاقهما، فهذا في حد ذاته أكبر تحد يدعو الإنسان للتواضع والإذعان»[2]، وعدم قدرته للوصول إلى حقيقة الأشياء نابعة من كونه بعيدًا عن منهج الحق والإيمان.

والتفكر في النفس ينبه إلى التفكر في صفاتها وأعمالها، فالنفس كما يقول ابن القيم: «النفس دنيئة وطبيعتها أنها أمارة بالسوء»، وأمارة من صيغ المبالغة الدالة على الكثرة والاستمرار، فإذا عرف الإنسان طبيعة النفس حاول تغييرها ومجاهدتها وعدم الخضوع لطلباتها.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

لذا يبين ابن القيم أن أصل أفعال الإنسان نابع من أفكاره وخواطره التي تركها تجول في نفسه ولم يمحصها ويدافعها، وفي هذا يقول: «دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، ودافع الفكرة فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلًا، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها»[3].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

فيه دعوة للنظر في النفس من جانبين؛ جانب خلقها وعجائب صفاتها وسيرورة أجهزتها، وجانب النظر في أفعالها ومقاربتها للصواب، وصفاتها وكيفية تهذيبها.

وجعل أبو حامد الغزالي مجاري الفكر تصب كلها بما يزكي النفس ويهذبها، فهي أربعة عنده: الطاعات، المعاصي، الصفات المهلكات والصفات المنجيات، ثم يفصل في كيفية استشعار هذه المعاني الروحية بواسطة التفكر في كل نوع على حدة، نذكر مثالًا منها، يقول فيه: «فليتفكر كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم، وإن العلوم لا يثمرها إلا أفكار، فإذا أراد أن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٤٨.
(٢) التفكر من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدري ص٦٩.
(٣) الفوائد، ابن قيم ص٣١.

يكتب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش في ذنوبه أولًا، وليتفكر فيها، وليجمعها على نفسه، وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد الشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم»[1].

وقلما يتنبه الإنسان إلى فضل المولى عليه في منحه نعمة الزوجية، وكونها من نفسه؛ ليسهل التقارب والتوافق، وجعل في تلك العلاقة التي بين الجنسين «سكنًا للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، واستقرارًا للحياة والمعاش، وأنسًا للأرواح والضمائر، واطمئنانًا للرجل والمرأة على السواء»[2].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فالسكينة والمودة والرحمة أسس بناء الأسرة السعيدة، وأركانها القويمة التي تقف بها سدًا منيعًا في وجه المشكلات التي تعصف بها، فوجود هذه الأسس لا يعني انعدام المشاكل الزوجية؛ لأن الاختلاف حاصل بين البشر خاصة بين الزوجين من جهة التركيب والوظيفة والتفكير.

«واختلفت أقوال العلماء في المراد بالمودة والرحمة، فعن ابن عباس ومجاهد المودة: الجماع، والرحمة: الولد؛ وقاله الحسن. وقيل: المودة والرحمة عطف قلوبهم بعضهم على بعض، وقال السدي: المودة: المحبة، والرحمة: الشفقة؛ وروي معناه عن ابن عباس قال: المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء»[3].

وكلها حالات يتجسد فيها معنى المودة والرحمة وليس بينها تعارض، «فتفسير المودة بالجماع هو بداية ومؤشر على السكن القلبي، والجماع غالبًا لا يحدث إلا بعد وجود طمأنينة وسكينة بين الزوجين، فهذا هو الاستقرار الجسدي المؤقت يتبعه استقرار دائم، هو وجود التراحم والرحمة بين الزوجين، فهذه المودة والرحمة مدعاة لحصول التناسل وإيجاد الولد»[4].

ونلاحظ أن هذه الأسس المتينة هي في حقيقتها أسس عاطفية لبناء اللبنة الأساسية في المجتمع والحضارة وهي الأسرة.

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لم ير للمتحابين مثل النكاح)[5].

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٤٣٠.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٦٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٧.
(٤) البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، ميساء كمال قلجة ص٦٧.
(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح،

وهذا يدل على أن الإسلام لم يهمل هذا الجانب المتأصل في الإنسان، وراعى فيه تكوينه النفسي والروحي، وجعلها آيات يتعمق فيها العقل بالتفكر؛ ليكتشف مدى دلالتها على مبدع هذه النفس البشرية.

فالمودة بين الزوجين تمحو آثار الأخطاء والزلات الواقعة في الحياة، وتنمي روح المشاركة بينهما في مصاعب الحياة بالتعاون والتكافل في الأفراح والأتراح، والرحمة بينهما تجعلهما يغضان الطرف عن التقصير الوارد منهما، وتحمل بعضهما في حال المرض أو الكبر.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «وأما الود فهو خالص الحب وألطفه، وأرقه وأصفاه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة»[(١)].

والمقصود من السكينة السكن القلبي؛ لأنها ارتبطت بحرف الجر (إلى)، والتي تأتي بمعنى الغاية، في حين تأتي (عند) بمعنى المكان؛ لأنه «يقال: سكن (إليه) للسكون القلبي، ويقال: سكن (عنده) للسكون الجسماني»[(٢)].

باب ما جاء في فضل النكاح، ١/ ٥٩٣، رقم ١٨٤٧، والحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ٢/ ١٧٤، رقم ٢٦٧٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٦٢٤.

(١) روضة المحبين، ابن القيم ص٤٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٩٣.

وهي من السكون، والذي يكون بعد الحركة والنشاط.

وتعلقت السكينة بالمرأة لحاجة الرجل لها وطلبه لها حتى إذا وجدها هدأت نفسه واستقرت حياته، واستطاع أن يحقق النجاح في حياته، وهذه السكينة هي خصيصة في المرأة ووظيفتها الأساسية، بما ركب الله فيها من العاطفة والحنان؛ لتكون ملاذ الرجل الآمن، ومحضن الأولاد الحصين، وفق فطرة الله التي فطرها عليها، وبالمقابل يعمل الرجل على مبادلة المرأة مشاعر المودة والرحمة؛ وذلك لحاجة المرأة لهما، فطبيعة المرأة العاطفية تجعلها تنظر للأمور بمقياس العواطف، ونقصها في العقل والدين يجعلها تحتاج دائمًا إلى الرحمة، وبمعنى أشمل، فالسكينة والمودة والرحمة مطلوبة في كل طرف.

ثم تأتي الرحمة في آخر هذه الأسس «لأن البشر عامة أبناء أغيار، وكثيرًا ما تتغير أحوالهم، فالقوي قد يصير إلى الضعف، والغني قد يصير إلى فقر، والمرأة الجميلة تغيرها الأيام أو يهدها المرض»[(٣)].

وبهذا الرباط المتين تتوثق عرى البيت النموذجي، ويلاحظ في الآية أن الله سبحانه وتعالى جعل السكينة هدفًا للتزاوج، ومقصدًا له، فهي هبة ربانية، في حين أن

(٣) تفسير الشعراوي ١٨ / ١١٣٦٠.

المودة والرحمة ربطهما بفعل الجعل، والذي يقتضي إحداث الشيء بعد تكوينه فهما أمران يعمل الإنسان على إحداثهما؛ ذلك أن الرجل لا تربطه بالمرأة أية معرفة أو رابطة، لكن بفطرته يميل إليها ويسكن لها، حتى إذا تم الزواج يحدث الله بينهما المودة والرحمة بعد أن لم تكن.

من أجل هذه المعاني استدعي التفكر في آية الزوجية؛ لاحتوائها على عدة آيات، يفصلها الطاهر بن عاشور بقوله: «منها أن جعل للإنسان ناموس التناسل، وأن جعل تناسله بالتزاوج، ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه، ولم يجعلها من صنف آخر؛ لأن التأنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنسًا بين الزوجين ولم يجعله تزاوجًا عنيفًا أو مهلكًا كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة»[1].

فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار...، لذلك تأمل دقة البيان القرآني حين جمع بين الليل والنهار، وبين الذكر والأنثى، وتدبر هذا المعنى الدقيق في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١-٤].

فهذا الاختلاف ناتج؛ لأن لكلٍ منهما مهمته، كما أن الليل للراحة، والسكون والنهار للسعي والعمل، وبتكاملهما تمضي الأيام، وفي هذا إشارة إلى التكامل بين الرجل والمرأة، فكما أن الليل لا يساوي النهار في العمل المؤدى في كل منهما، فلا مجال لمساواة وظيفة الرجل بوظيفة المرأة في الحياة، فلكل منهما خصائصه الجسدية والعقلية والنفسية التي تمنحه القدرة على أداء مهمته، ومن أجل ذلك كان المناسب لآية الزوجية لما تحتويه من آيات عدة وأسرار في خلق الله تعالى وحكمه أن يربط تحصيلها بالتفكر.

رابعًا: التفكر في آلاء الله ونعمه:

يعتبر عرض آلاء الله ونعمه المتفضل بها على البشر من أكثر الأساليب انتشارًا في القرآن الكريم، وذلك بهدف تنبيه الناس على آيات الله وبيان قدرته وعظمته وحكمته في الخلق، ودعوة لهم للتفكر فيها قصد زيادة الإيمان وشكرًا لخالقها، وإيقاظ الهمم النائمة للاستفادة مما مكن الله الإنسان منه، كما أن فيها لمسة من الجمال تريح الإنسان،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٧١.

هذا ما يؤثر على نفسية الناظر والمتفكر فيها بما يكسبه الراحة والتركيز، ويحدث تغييرًا في معتقداته وأفكاره. وهذه الآلاء تملأ السماء وتفيض بها الأرض، لكن قلوب الناس غافلة عنها، فتكريرها وإعادة التذكير بها يبعثها من جديد ويستثير العقل فيها.

ويهدف القرآن من عرض الآيات الكونية والمخلوقات وربطها بالعمليات العقلية تنبيه الإنسان إلى دور العقل في اكتشاف نعم الله عليه، وتسخيرها لإقامة الخلافة الخاضعة لله وإحداث التكامل والتوازن الكوني، وكل آلاء الله المرتبطة بموضوع التفكر تعتبر من أساسيات الوجود.

ويعرضها القرآن الكريم كنموذج يحتذى به، ولعقل الإنسان الحرية في استكشاف باقي الآيات بواسطة المنهج الذي علمه الله له في القرآن.

ونعم الله تعالى على الإنسان كثيرة، يقول تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وهي دعوة لذوي العقول النيرة أن ينهضوا بأعباء النظر الدقيق في آلاء الله ونعمه، التي لا يحصيها حاصٍ، ولا يعدها عاد، ولو اجتمع كل البشر وأعملوا عقولهم لن ينتهوا أبدًا من القراءة، ولن يطووا هذه الصحف؛ إذ كلما نظروا إلى آيات الله جاءهم منها جديد، كما نبه سبحانه وتعالى إلى أن هذه النعم تحتاج إلى إعمال الملكات العقلية التي أمد الله بها الإنسان، وعلى رأسها التفكر؛ للقيام بأداء حق هذه النعم في الشكر.

ومن أعظم هذه النعم نعمة الهداية الربانية، فما كان إنزال القرآن عبثًا بل هو الحق، به تستبين حياة الناس، فلولا القرآن ما كان العقل وحده قادرًا على كشف نظم الحياة، وإدراك مغزاها، ولما كان القرآن معجزة تعجز عن فهم بعض آياته العقول، أرسل الله الرسل؛ لتبين للناس معاني الذكر الحكيم، وليكونوا قدوة لهم في التطبيق، وأيدهم بالمعجزات؛ لإقامة الدليل القاطع على منكري الرسالة.

كما ذكرهم تعالى بنعمة الماء التي بها يحيا من على الأرض، فهو شرابهم، وهو سقي زروعهم التي منها غذاؤهم وحيواناتهم، ونسب الإنزال إليه؛ لأنه لو تركه في أيدي البشر لاستقوى به القوي، وضاع حق الضعيف فيه؛ لذلك جعله آية يستحق الشكر عليها، وهذه النعمة في حد ذاتها قد تصبح نقمة إذا ابتعد الإنسان عن المنهج القويم، فتكون مطرًا شديدًا يدك عرش الظالمين.

والتذكير بالنعم يكون في جو مليء بصفات الرحمة والكرم والفضل، تجعل قلب الإنسان يستحي من خالقه وتستنهضه للتأمل فيها وفي غيرها، وترغبه في البحث

والاستكشاف؛ لأن هذه النعم من الممكن التفكر فيها وإعمال العقل من غير أدوات علمية أو أجهزة مخبرية أو وسائل تكنولوجية دقيقة، فمجرد النظر الدقيق والبحث في دلالتها وغايتها يجعلها موضوعًا قابلًا للتفكر.. إضافة إلى أنها موجودة على مر الزمن، ظاهرة للعيان ليلًا ونهارًا، تعاقب عليها جميع البشر، ثابتة لمن أراد تجديد النظر فيها.

وهي متعددة الأشكال، فمن السماء إلى الأرض، وما بينهما من كائنات، هذا التنوع يضفي عليها طابع التعدد والتجدد، فأين حلقت ببصرك تجد آية من آيات الله تأخذ بألباب العقول في حسنها وجمال إبداعها، ما ينفي عنها رتابة السأم والملل.

وما يميز هذه الآلاء أن كلها هدفها واحد، فهي لم ترد عبثًا في القرآن، بل هي دلائل لقضايا أكبر منها تتعلق بأصول الإيمان (الألوهية، النبوة والوحي، البعث)، تعتمد على مرتكزات مشتركة، وإن اختلفت مواضيعها، وتنوعت، فهي ليست غاية في نفسها، بقدر ما هي دليل للوصول إلى اليقين، وهو ضابط ينبغي التنبه له، والتقيد به لكي لا يجنح التفكر فيها إلى مجال التفلسف، ويخرج عن دائرة الإيمان؛ لذلك استعمل القرآن أسلوب التعميم والإجمال في عرض هذه النعم، حتى لا يبتعد عن الغاية الأصيلة من عرضها، مع دعوته إلى البحث في أعماقها، واستثارة الفكر والوجدان؛ لاستلهام الحكم والعبر منها.

وهو منهج قرآني فريد، يخرج القرآن من دائرة الكتب العلمية التفصيلية، ويبقي له دور الدافع المثير للعقل لكي يقوم بدوره المنوط به، وهو دور قد لا يبين للمستشرقين الذين ينفون عن القرآن دوره في الاهتمام بالعقل والعلم، ويطمسون أعينهم عن حقيقة موقع العقل كأداة ووسيلة كشف لنواميس الكون، لا كما يقدسونه هم ويجعلونه مصدر المعرفة الأساسي.

خامسًا: التفكر في المآل والمصير:

وهذا المجال هو أحد مجالات التفكر التي أمر الله عز وجل بها، فالدنيا دار ابتلاء وعمل، والآخرة دار راحة وقرار، وكان التفكر في الدنيا والآخرة أول دعوة قرآنية للتفكر، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]؛ لأنها وردت في سورة البقرة، وفيها دعوة؛ لتحصيل الخير الكثير، وتحقيق لمصالح الدارين، ومعرفة فضل الآخرة على الدنيا، وجاءت هذه الآية بعد بيان حكم الشرع في أمور شديدة تميل إليها النفس هي الخمر والميسر والإنفاق. وختمت الآية بالتفكر؛

تحريضًا على استحضار العقل دائمًا، في كل ما يخص أحكام الحياة، ومعرفة الغاية منها.

وبيان حقيقة الدنيا وسرعة زوالها جاء في عدد كثير من الآيات والأحاديث، وكان هديه صلى الله عليه وسلم أن يحث الصحابة والمؤمنين على الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، فقد أورد مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء)[1].

وعند البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله، فقال: (إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)[2].

ومن الآيات التي دعت للتفكر في الدنيا قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ففي هذه الآية يضرب تعالى مثلًا للحياة الدنيا التي يتنافس عليها الجاهلون، ويتكالب عليها الغافلون، حتى ينسون العمل للآخرة، وهي في حقيقتها كأرض أنبتت نباتًا فنما وازدهر وافتتن به الناس، وظنوا أنهم أحاطوا بثمره وجنيه، حتى جاء أمر الله بالإهلاك، وغدت الجنة حصيدًا خامدًا، وهذا لاغترار أهلها بها، ونسيانهم فضل الله عليهم.

وجاء تشبيه الحياة الدنيا بالنبات لعدة وجوه[3] ملخصها:

«أحدها: أن عاقبة هذه الحياة التي ينفقها المرء في هذه الدنيا، كعاقبة هذا النبات، الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه؛ لأن المتمسك بالدنيا إذا عظمت رغبته فيها يأتيه الموت.

وثانيها: أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها، لا يحصل له عاقبة تحمد.

وثالثها: لما صار سعي هذا الزرع باطلًا بسبب حدوث المهلك، فكذلك سعي المغتر بالدنيا.

ورابعها: أن مالك هذا البستان لما أتعب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، ٤/ ٢٠٩٨، رقم ٢٧٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، ٢/ ٥٣٢، رقم ١٣٩٦.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٣٠٣.

نفسه في عمارته، وعلق قلبه بالانتفاع به، فإذا حدث السبب المهلك صار العناء الشديد سببًا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل، فكذلك حال من أحب الدنيا وأتعب نفسه في تحصيلها، فإذا مات صار العناء الذي تحمله في تحصيل الدنيا سببًا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة.

وخامسها: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد؛ لأنا نرى الزرع الذي انتهى إلى الغاية في الحسن، ثم إن ذلك الحسن يزول بالكلية، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى، فذكر تعالى هذا المثال؛ ليدل على أن من قدر على ذلك كان قادرًا على إعادة الأحياء في الآخرة؛ ليجازيهم على أعمالهم».

والتعبير بالأكل عن التمتع بالحياة تعبير حسي غاية في البلاغة، فهو يوحي بالحركية في الوصف، كصورة الناس وهم يتهافتون في يومهم، وهمهم كسب القوت، وتحصيل لقمة العيش، كل ذلك والغفلة تغمرهم، والشهوات محيطة بهم يتسابقون نحوها، وعند تأمل المثل يلاحظ «أن المثل يحكي قصة مضت وانتهت، ويتحدث عن حياة قامت ثم بادت، ولكن هذه اللقطة ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [يونس: ٢٤].

تظل تنبض بالحركة ترى فيها الناس والأنعام لا يزالون يأكلون».

وفي تصوير زينة الأرض وزخرفتها كالعروس إبراز لحقيقة الدنيا في عيون الغافلين والمفتتنين بها، وفي ظن أهلها تصوير لجهالة الإنسان بتمكنه من نعيمها، لظنه أنه أصبح أقوى وأقدر، وأنه وصل إلى كل ما يتمنى من الدنيا، فكلما رأى لذة أو زينة أو منصبًا أو مالًا سعى ليكون صاحبها، لهذا ارتبط التفكر بحقيقة الدنيا؛ لينبئ على أن معرفة حقيقتها من الأمور العظيمة التي لا يجب أن يذهل العقل عنها، فهي دار بناء ومزرعة للآخرة، وعدم إدراك هذه الحقيقة يعني الخسران في الدارين.

ولكون هذه الحقيقة قد تغيب في لحظات النشوة الدنيوية، فينسى الإنسان حقيقة الموت ويغره أمل الحياة، فلا دوام لحال ولا لبشر أو لذة فيها؛ لهذا لا بد من تعميق الفكر فيها، والتبصر بأحوالها والاعتبار بأحوال السابقين فيها؛ ليزيد الإيمان، ويتنور القلب ويزهد فيها؛ لذا خص أهل التفكر بالنظر فيها، لأنهم «أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشبه في الصدور»[1].

وفي المقابل من بسط الأمثال للتزهيد في حال هذه الدنيا، جاء التفكر في موضوع عظيم فيه من الدلائل على قدرة الله وتفرده

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٥.

بالملك والحكمة، وهو الموت هذه الحقيقة الربانية التي وضعها الله سبحانه وتعالى فيصلًا بين الدنيا والآخرة؛ لتنتهي دار الفناء، وتبدأ دار البقاء، وتجازى كل نفس بما كسبت.

والموت هو أعظم المصائب في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [المائدة: ١٠٦]؛ لأنه انقطاع عن الدنيا ونفاذ لأجل الإنسان المكتوب فيها، وأعظم منه الغفلة التي تنسي صاحبها فيه، كما أنه من أقوى الدلائل التي ضربها الله دعوة للناس للإيمان بيوم البعث، هذا اليوم الذي كفر به الناس منذ القدم، ما جعل الله يقيم عليهم الحجج والبراهين، كآية لهم لعلها تثير الإيمان فيهم، فجعله معجزة من معجزات الأنبياء؛ فقد ذكره إبراهيم عليه السلام دليلًا على وحدانية الخالق حين حاج به الملك الظالم ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وموافقة الحاكم له، وعدم منازعته أو اعتراضه دليل على أن الإنسان حتى الكافر منه يؤمن بأن الحياة والموت من خصائص قدرة الإله؛ ولذلك طلب سيدنا إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى لا عن شك، بل لينتقل من مرحلة علم اليقين التي حاج بها الملك، إلى مرحلة عين اليقين التي يرى بها صورة البعث ماثلة أمام ناظريه من خلال إحياء الطير بعد موتها.

وجاءت معجزة إحياء الموتى بين يدي سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ودلل الله على إحياء الموتى في عدة قصص قرآنية منها: قصة أهل الكهف، وقصة الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه، والقوم الذي خرجوا من بيوتهم خائفين من الموت حتى أماتهم الله ثم أحياهم، ومع بني إسرائيل حين أرادوا رؤية الله فأخذتهم الصاعقة، ثم بعثهم الله من بعد موتهم، فيلاحظ أنه في كل عصر يجعل الله سبحانه وتعالى الموت والإحياء دليلًا يسوقه للمكذبين من بني البشر بيوم البعث والحساب لعلهم يستفيقون من غفلتهم.

كما أن تذكير الله للناس بهذه الحقيقة التي هم عنها غافلون جاء بطريق التمثيل بظاهرة متكررة في حياة الناس يمرون عليها

كل يوم وهم عنها ساهون، ألا وهي النوم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

ففي هذه الظاهرة يقبض الله الأنفس كلها، فيتوفى التي انتهى أجلها، ويرسل الأخرى حتى يحين أجلها، وفي قبض الأرواح عند النوم منع للنفس عن التصرف أو الإدراك مع بقاء الجسد حيًا تسير عملياته البيولوجية بصفة عادية، ومن كان قادرًا على قبضها وإمساكها كل يوم ثم بعثها للحياة من جديد هو أقدر على قبضها إلى يوم القيامة، ومن ثم بعثها لتحاسب على أعمالها.

فقد جاء عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: (باسمك اللهم أموت وأحيا)، وإذا قام قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)[1].

وفي هذا إشارة إلى ربط نعمة الاستيقاظ بوقت المعاد الأكبر، وحقيقة البعث، وفيه تأكيد على حقيقة القبض والإمساك، وتربية للمؤمن على تذكر الموت حال نومه.

فالنوم في أصله موت صغير، فيه تحضير الناس لموعد الموت الأكبر، فكما أنكم تنامون كل يوم ولا تفيقون إلا بإذن الله تعالى فكذلك الموت هو نوم بإذن الله لا عودة بعده إلى هذه الحياة إلا إلى يوم الحساب؛ لأنه نهاية الطريق في عالم الشهادة، ونقطة البداية في عوالم الآخرة؛ لذا وجب على كل نفس التزود له، فمن يدري في أي لحظة يحل أجله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي استعمال لفظ (آيات) في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

دليل على ما تحويه آيتا النوم والموت من أسرار لا يفقهها إلا «من كان مكينًا في علمه ومعرفته، قديرًا على البحث والتمحيص، بصيرًا بخطى الفكر والأنحاء التي قد تفضي إليها نتائج البحث والتقصي»[2]، لهذا كانت الخاتمة بالتخصيص لقوم تتوفر فيهم هذه الصفات فيتفكرون فيها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، ٥/ ٢٢٦، رقم ٥٩٥٣.

(٢) القرآن ومنهج التفكير، محمد حجازي ص١٢٩.

«فمن تعرف على أسرار النوم، وما يتخلله من أحلام مرعبة ورؤى طيبة مبشرة استطاع أن يتصور الموت وما يصاحبه من أحوال القبر والبرزخ»[1].

وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم الحث على زيارة القبور بعد النهي عنها مخافة دخول الشرك للقلوب؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، فقد قال: (زوروا القبور، فإنها تذكر الموت)[2].

«هذه الزيارة هدفها الأول التذكير بالموت، وترقيق القلب بتذكر الذنوب، ما يجعل الإنسان يعتبر بمن قبله، وما كانوا فيه من نعيم وصحة، ثم صاروا إلى قبور تأويهم، ولم يغن عنهم مالهم ولا جاههم ويسارع بالتوبة، فالموت حقيقة لا يمكن الهروب منها.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

ولا حتى العودة بعدها لتصحيح الخطأ، وتصليح العمل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠١].

ومع كل هذه المواعظ إلا أن كثيرًا من الناس على كفرهم بالبعث واللقاء».

ويلاحظ أن القرآن قد خاطب الناس في هذه القضية بأدلة عقلية وأمثله واقعية؛ لأنها من دلائل عالم الغيب الذي لا يستطيع الإنسان التكهن به، واستحضار التفكر كعملية عالية من عمليات العقل يشير إلى أهمية الموضوع وأثره في حياة الإنسان وآخرته؛ لتعلقه بدار الابتلاء ودار الجزاء.

سادسًا: التفكر في آيات القرآن الكريم:

إن القرآن العظيم هو معجزة الله الخالدة على الأرض، والمتحدى بها كل البشر، أنزله الله تعالى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، نورًا وهداية للخلق، معجز بألفاظه ومعانيه، لا تنقضي عجائبه لمن يمعنون التفكر في رحاب آياته، ويجيلون العقول والقلوب في أسرار كلماته ونظمه، يقول الإمام السعدي: «ولعلهم يتفكرون فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه»[3].

وارتبط التفكر في آيات الذكر بآيتين هما:

(١) التفكر من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدري ص٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، ٢/ ٦٧١، رقم ٩٧٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤١.

قوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فالآية الأولى وردت في معرض بيان وظيفة الرسل، وتأكيد على بشريتهم، ما فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بما كان يتهمه به المشركون، ورد واضح على افتراءاتهم وشبهاتهم التي كانوا يثيرونها حول الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر لما تميزت به دعوات الرسل من الحجج الداحضة، والحقائق الدامغة؛ لتنتهي ببيان دور هذا القرآن في كونه ذكر للإنسان لما فطر عليه، وموعظة للغافلين، وأن الرسول الكريم موضح لما جاء فيه، مفصل لأحكامه.

وتحصيل هذه المعاني لا يكون إلا بالتفكر فيه والتدبر لمعانيه، فجاءت الغاية بالبيان وأسندت للرسول توضيحًا للمهمة الأساسية له كون الناس غير قادرين على فهم مقاصد الشرع وحكمه بأنفسهم؛ لقصور مداركهم عن ذلك، وتسهيلًا لهم بالأخذ به.

والآية الثانية جاءت تتحدث عن عظم تأثير القرآن في النفوس، وتمثيل أثره بصورة محسوسة لعل القلوب تثوب له فتخشع عند تلاوته، وتتدبر معانيه، وتعمل بأحكامه، وتتخذه دستور حياة، قال السعدي: «فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طريق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن، والتدبر لمعانيه»[1].

كما أن من التفكر في آيات القرآن التفكر في عاقبة من لا يتعظ بها أو يعمل بها، وفي هذا تنبيه لعظم الجرم المقترف، فالهدف من إنزال القرآن هو العمل به في ميادين الحياة، وإهمال هذا مخالفة للقرآن الكريم وللمقصد منه، وجاء الحث والترغيب على ذلك بتصوير حال المهمل لأحكام القرآن بحال خسيسة في آية سورة الأعراف؛ لينهض كل فرد ويغير حاله، والمطلوب التفكر العميق في هذه القصة؛ للاعتبار والاتعاظ بها.

ومن النظر في القرآن النظر في نظمه، وهذه خصيصة امتاز بها عن سائر المعجزات، فهو حسن التنسيق، محكم الترتيب، قوي الأثر، سهل الفهم، موسع التفسير، متلاحم النسيج، مترابط الأفكار، ودقيق المعاني، يجعل لقارئه ملكة تمكنه من «تقييم أقواله وأفعاله وحركاته وخطراته وأفكاره ونواياه وجل تصرفاته، ووزنها بذلك الفرقان...، فالقرآن يكون بمثابة

(١) المصدر السابق ص٧٩٢.

النموذج المعرفي الكلي للإنسان»[1].

والتفكر في آياته باعث على الخشية الإلهية لما فيه من أوامر ومواعظ وزواجر، كما أن هذه الخشية تجعل الإنسان يتلذذ بمعانيه وتكسبه الإحساس بالأمان والطمأنينة القلبية، والسكون النفسي.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)[2].

وفي هذا تنبيه للإنسان الغافل المعرض عنه؛ كي يتفطن لقسوة قلبه وغلظة طبعه، كما أن فيه إشارة إلى ثبات النبي صلى الله عليه وسلم، وقوته التي امتن الله بها عليه، وجلده في تحمل تبعات التنزيل والبيان.

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

فهو مدح للنبي؛ لتحمله ما لا تطيقه الجبال الرواسي ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَلْ لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

والتلاوة لها معنيان:

الأول: قراءة آياته بتحقيق حروفه وصفاتها والتمكن من أحكام تجويده.

والثاني: اتباع آياته بالاستجابة لأوامره، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه، والعمل به في الحياة.

وذلك معنى أداء التلاوة بحقها، كما كان عمل الصحابة، وليس مجرد تحريك اللسان بالكلمات والقلب لاهٍ والعقل ساهٍ.

فقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: «فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا».

لذا ينبه ابن تيمية قارئ القرآن على أن يظل «دائم التفكر والتدبر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده»[3].

(١) الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، طه جابر العلواني ص٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٥٠.

لأن قراءة القرآن بالتفكر أصل صلاح القلب، ففيه حياة القلوب والأبدان، «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا، والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله...، فإذا قرأه بتفكر ومر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم»[1].

ويعد القرآن قائدًا للعقل، ودليلًا له في معترك الحياة، يأخذ بناصيته إلى النور المبين، والطريق المستقيم، فالعقل ذو رؤية محدودة لا تجاوز الواقع المرئي أمامه، والقرآن هو التفسير السليم الوحيد لحقائق الكون والكاشف للسنن الإلهية فيه، يخاطب العقل على حسب مستواه، ويوقظ الفطرة بأسلوبه السلس، فيحفز النفس على النهوض بتكاليف الأمانة الربانية.

«ولا يخرج كنوزه إلا المتفكرون الذين يكررون الفكرة فيه، ويعيدون النظر مرة بعد أخرى، ويتعاملون معه بالتدبر الطويل...؛ إذ إن المتفكر بما يتضمنه من عمق النظر وتكرار الفكر والتأمل هو الكفيل بإخراج شيء من كنوزه المخبوءة»[2].

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٨٧.

(٢) مفهوم التفكر في القرآن الكريم، زيلعي هندي ص٧٧.

نتائج التفكر وثمراته

للتفكر ثمرات يجنيها العبد المتفكر منها:

أولًا: الاهتداء إلى وجود الخالق ووحدانيته:

لقد كانت دعوة القرآن الكريم للتفكر والتدبر في آفاق الكون ذات أهمية بالغة، كونها تهدف إلى ترسيخ معنى حقيقة خلق هذا الوجود ومعرفة خالقه، وإدراك عظمة جلاله، وبديع قدرته، والتمعن في عجيب خلقه، ولطيف حكمته؛ لذا فقد عني القرآن ببلورة العقيدة الإيمانية وزرعها في النفس بحيث تكون القاعدة التي ينطلق منها الإنسان في رحلته إلى الكون والحياة؛ قاعدة تحكم أهدافه وتصوراته وقراراته، وهي أول مبادئه في الحياة، فإذا حسنت علاقته بخالقه استطاع أن يحسن علاقاته بكل ما في الكون، وكلما عظم اكتشافه لما في الكون عظمت معرفته بخالق الكون؛ لذا يقول ابن رشد في حسن معرفة الكائنات: «وكلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم»[(١)].

هذا ما جعل منهج بناء العقيدة في القرآن يقوم على أساسين متينين:

أولهما: إبطال عبادة غير الله، ونقض الأوهام والخرافات التي تدعو إلى اتباع معتقدات الآباء، وترفع هالة التقديس عن الأفكار والمعتقدات المتوارثة، ببيان الآيات الدالة على ضعف تلك الآلهة.

وثانيها: إثبات وحدانية الله عن طريق الدعوة إلى التفكر، والنظر الدقيق في آفاق الكون وعجائب النفس، والانطلاق من بديع صنعه، ودقة نظامه للوصول إلى وحدانية خالقه وفاطره.

وهذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الإسلامي عن هذا الكون والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان، فقد كان القرآن يستعمل السموات والأرض كدليل وبرهان؛ ذلك أنها أجل وأعظم من دليل النفس.

كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

لذا يقول الكندي: «إن في نظم هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه في بعض، وانقياد بعضه لبعض، وتسخير بعضه لبعض، وإتقان هيئته على الوجه الأصلح في كون كل كائن، وفساد وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل؛ لأعظم دلالة على أتقن تدبير، ومع كل تدبير مدبر، وعلى أحكم حكمة، ومع كل حكمة حكيم»[(٢)].

(١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد ص٢، ص٢٥.

(٢) رسائل الكندي الفلسفية، الكندي ص٢١٥.

والقرآن لا ينفك يوجه الأنظار والعقول والقلوب إلى كتاب الدنيا المفتوح، ويأمره بتفعيل وسائل إدراكه؛ لتتبدى له آفاق الجمال والجلال، وتريه الكون محرابًا كبيرًا للعبادة، ويتيقن بأن الدليل على وجود الله هو نفسه الدليل على وحدانيته سبحانه وتعالى؛ ذلك أن حقيقة وجود الرب الخالق المدبر لهذا الكون كامنة في نفوس البشر، ومرتكزة في أذهانهم، وتعود في أساسها إلى الميثاق الذي أخذه الله على البشر عند خلقه لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

لكن الدعوة إلى التفكر في الكون والوحي ارتبطت بضابط مهم هو تجنب التفكر في ذات الله، هذا الضابط الذي جاء التحذير منه في السنة النبوية بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عز وجل)[(١)].

وفي هذا يقول أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء: «فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمرًا إمرًا، وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلمًا وجورًا، فقد انبهرت العقول دون مبادئ إشراقه، وانتكصت على أعقابها اضطرارًا وقهرًا»[(٢)].

ولقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن أناسًا سيتفكرون في الخلق حتى يؤدي بهم إلى الوقوع في ظلمات الكفر، فقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله)[(٣)].

وهنا يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم كيفية معالجة الشكوك والوساوس عندما تعرض لنا، ويأمرنا بوجوب التوقف عن التفكر، وتشهير الإيمان خوف تتبع زلات العقل، والوصول إلى الضلال، فهذا الحديث وسابقه يبين لنا الحد المسموح به من التفكر، بسبب نقص الإدراك وقصور تحقيق المعرفة وسوء التقدير.

فكيف تختار العقول مبدأ التعطيل،

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ٢٥٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٨٤٢، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٣٦.
والحديث حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٣٩٥، رقم ١٧٨٨.

(٢) التفكر في خلق الله الإنسان، الأرض، السموات، الغزالي ص٢٢- ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، ١/ ١١٩.

وتستحل الفهوم مبدأ التشبيه للخالق، واختلاف الكائنات وتنوعها سر إبداعه، فقدرته الغير محدودة، وعلمه ليس لهما نظير فهو الخالق العليم القدير، وقد حاولت بعض الفرق الإسلامية الولوج من هذا الباب لكن تاهت وخابت، ولم تبصر النور؛ لاحتجابه عن العقل.

والنظر العميق في الآيات التي تدعو إلى التفكر ترسم لنا صورة التوحيد الحقيقي، فسورة الرعد بآياتها الكونية تزرع في النفوس بذور التوحيد من خلال عرضها لبراهين الإيمان، بالنظر في الأرض، وما عليها من آيات، ثم خروج النبات والثمار وتنوعها واختلافها، وتأصيل الأشياء إلى زوجين اثنين، ثم الانتقال إلى ما به بقاء الحياة على هذه الأرض من تعاقب لليل والنهار، وختمها بالحث على التفكر.

كما جاءت الإشارة إلى عالم الحيوان، وما فيه من أدلة بسيطة تنبئ بوحدانيته تعالى، وإليه تمت الإشارة في القرآن بمملكة النحل، تلك المملكة التي تحويها خلية صغيرة، لكن فيها نظام يعجز البشر عن وضعه وعن اتباعه، نظام قائم على معرفة كل فرد لدوره في هذه الحياة، فيسارع للقيام به بجد وتفانٍ، نظام أساسه التعاون والعمل والإتقان، فمن علم النحل هذه القوانين ومن يسر لها طعامها وهي أضعف خلق الله، ومن يخرجها كل صباح تطوف في الحقول والبساتين، وتنتقل من زهرة لأخرى؛ لتعلم زميلاتها بوجود الرحيق، فتجمعه وتحفظه ثم تعود إلى خليتها من نفس طريق الذهاب ولو كان على بعد أميال، ثم تصنع منه شرابًا متنوعًا، شهد له القرآن بالشفائية، فهذا دليل على عناية الله بمخلوقاته وحسن تدبيره ودعوة للتمعن والتفكر فيها وفي عالم الحشرات أيضًا؛ ليزيد إيماننا بأن خالق النحلة، ومدبر شئونها هو نفسه خالق السموات والأرض وما بينهما.

ومن العوالم التي طالب الله سبحانه وتعالى الإنسان بالتفكر فيها هو النفس البشرية، فالتعمق في أسرارها يجعل الإنسان يؤمن إيمانًا جازمًا بالله؛ لعلمه أنه غير قادر على الإحاطة بكيفية عمل أجهزته الحيوية، ولا التحكم فيها أو تسيير عمليات الحياة فيها وفق هواه، بل هو عاجز حتى على شفاء نفسه في حال المرض، أو إمساك نفسه عن الموت، فيتأكد أنه كما لنفسه أجل محدد فلهذا الكون أجل آخر تنتهي به الحياة على هذه الأرض، ويجازى على أفعاله فيها، ما يقوده للإيمان بالبعث والجزاء، وبحسب هذه المعرفة الإلهية تعظم درجة المتفكر في الآخرة.

ومقدرة الإنسان على تطويع الطبيعة، والاستفادة من ثرواتها، والسيطرة على

قوتها بقانون التسخير الإلهي، تؤكد استحالة أن تكون هي مسيرة نفسها، وما اهتداء الإنسان إلى هذا القانون إلا بما أكسبه الله له من وسائل تعينه على ذلك بما فيها العقل وملكاته، وضعف الإنسان أمام قوة المخلوقات الأخرى، ثم سيطرته عليها بفضل الله تعالى لدليل أكيد على صفاته العلية -جلا وعلا-، كما أن قانون الزوجية الذي يحكم هذا الكون يبين التفرد الإلهي، فكل شيء في هذا الكون أصله من ذكر وأنثى إلا خالق الكون، والتفكر في هذا القانون، والبحث عنه في أرجاء هذا العالم يجعل القلب يصدق بوحدانيته تعالى.

كما أن التفكر يعزز في النفس الإيمان بالأسماء والصفات التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم، أو وصفه بها نبيه عليه الصلاة والسلام، فتجزم العقول حينما ترى المخلوقات أن لها موجدًا، وأنها لم يخلقها العدم، كما تدرك العقول السليمة صفة الحكمة عندما ترى أثر الإحكام في المخلوقات، وصفة الخبرة عندما ترى الإتقان، وصفه الرزق عندما ترى عمليات تدبير الأرزاق، وصفة الرحمة عندما ترى آثار رحمة الله في مخلوقاته، وصفة الوحدانية عندما ترى التكامل في بناء الكون والثبات الذي لا يهدده الفساد، فتكون المخلوقات التي تملأ الأرض والسموات بذلك آثارًا مشاهدة تدل على صفات الله سبحانه وتعالى.

وبهذه النظرة الإجمالية للآيات، وبهذه الدعوة للتفكر نتبين أنها كلها مجالات تدل على أن خالقها ومدبرها واحد، إلا لمن عاند واستكبر وأبى، فإذا كان الكون بما فيه من «آفاق السماء وفجاج الأرض، تسبح بحمد ربها، فلماذا نشذ نحن ولا نصطبغ بما اصطبغ به الكون كله»[1].

ويمكن الاستفادة من التفكر في هذا العصر لمواجهة موجة الضلال المنتشرة في العالم اليوم، فبالرغم من كل التطور العلمي والتكنولوجي الحاصل، إلا أن الإنسان اليوم بات أكثر بعدًا عن الفطرة السليمة، وعن اكتشاف العلاقة بينه وبين خالقه وبين الكون، وقد يكون أقرب الناس إلى التوحيد هم العلماء، كونهم أكثر الناس إعمالًا للعقل، أو اكتشافًا للحقائق؛ لذا نسمع بين الفينة والأخرى عن دخول عالم من الغرب إلى الإسلام نتيجة ما أوصلته إليه بحوثه التي تلخص له مفهوم الخالق الواحد القادر المبدع.

وفي هذا يقول أحد العلماء: «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته، وعندما

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي ص٢٩.

نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته؛ ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكن نرى آياته في أنفسنا، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته»[(١)].

كما يقول (لورد كيافي) وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم هذه العبارة القيمة: «إذا فكرت تفكيرًا عميقًا فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله»[(٢)].

بهذا يتبين أنه لا يوجد طريق يسير وآمن ومقنع مثل التفكر، للاهتداء إلى خالق الكون، والإيمان بوحدانيته، والعمل بمقتضى أوامره.

ثانيًا: تزكية النفس واستقامتها على هدى الوحي:

إن من أهداف التفكر السامية بعد وجوب الإيمان بالله خالقًا وربًا لهذا الكون هو ضرورة تعزيز القوة الإيمانية في القلب، وتحصينها من كل ما يمكن أن يؤثر فيها، بفضل التفكر فيما تحويه آيات الكون والوحي في طياتها، ترشد الضال إلى الإيمان بالله، وتزيد من قوة هذا الإيمان في القلب، فكما نعلم أن الإيمان أسس وأركان، دعامته الدليل والبرهان، فتفكر المؤمن في آلاء الله يوثق رابطته بالله تعالى، ويزيد من عزيمته وهمته لنشر هذا النور والطمأنينة وتعميمه على كل البشر.

وأثناء هذه العملية يدرك المؤمن وظيفته الدنيوية في إقامة شرع الله على هذه الأرض، عن طريق التفاعل الإيجابي مع مخلوقات الله، فيعمد إلى استغلالها، واستخراج منافعها، ومعرفة الحكمة منها ومن خلقها، ودلالتها على صانعها وخالقها، ومدى تحقق صفات الجمال فيها مما يعكس حكمة التقدير ودقة الإبداع، ويبرز كمال الصفات الإلهية، فالتفكر في خلق الله «هو العمود الفقري للإيمان الذي ينبثق عنه كل عمل خير»[(٣)].

وتتجلى لنا الصياغة القرآنية للروح الإنسانية عبر مداخل التفكر في تكوين الصفات والأخلاق والرقائق التي تحيا بها الأرواح، واستثارتها إذا أسدل عليها غطاء الغفلة، فالإحساس الذي يشعر به المتفكر وهو يجول في ملكوت الله سبحانه وتعالى،

(١) الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض، حرره: جون كلوفر مونسيما، ترجمة: عبد المجيد سرحان الدمرداش ص٢١.

(٢) المصدر السابق ص٢٢.

(٣) التفكر من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدري ص٣١.

مستحضرًا المعية الربانية، والتسبيح الكوني لمخلوقات الله، يجعله يعيش حالة من الصفاء الذهني والإشراق القلبي، تفيض عليه من المعارف والمواهب الربانية ما كتبه الله له، وتكون محصلة هذه الرحلة اكتسابًا لمفاهيم جديدة، ومعارف غير مسبوقة، تهيمن على روحه، وتصبغها بصبغة الإيمان، وتثمر أعمالًا صالحة، تملأ الأرض عدلًا وصلاحًا.

وأول ما يناله المؤمن من التفكر هو ذلك الجلال الذي يملك على القلب ويهيمن على الروح، فيلهج اللسان بالشكر والذكر لما يشاهده ويحسه من آثار قدرة الله في الكون وفي حياته؛ ليمتلئ القلب حياءً من الله سبحانه وتعالى.

فكلما تمعن المتفكر في نعم الله عليه وأحس بفضل الله عليه، وتقصيره بجانب ما منحه الله، وتعاظمت ذنوبه أمامه، أحس بمدى غفلته، هو إحساس يعرفه الجنيد رحمه الله بقوله: «الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء»[(١)].

ويقول السعدي رحمه الله: «ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء لا محالة»[(٢)].

كما أن من الصفات التي تنتج عن التفكر الخشية والخوف من الله تعالى، فإدراك الإنسان لعظمة الملك، وبديع الصنع وجلال القدرة تجعل القلب يهتز خوفًا وخشية لله تعالى، فهي ثمرة الإيمان وعلامة على لين القلب ونقاء السريرة، وغالبًا ما تكون هذه المعرفة متعلقة بجلال الله تعالى.

لهذا يقول تعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وفي هذه الآيات يربط الله تعالى بين الخشية وبين الإيمان بالآيات سواء الكونية أو القرآنية التي تجعل المؤمنين موحدين، يبيعون الدنيا في مقابل الآخرة والفوز في يوم المعاد، فتنقلب حياتهم سباقًا في ميدان الأعمال الصالحة، وهي الهبة التي منحها الله لقارئ القرآن وسامعه.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

يقول الألوسي: «وفي هذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم ٢/ ٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥٣.

من المواعظ والزواجر، والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن، وتدبر ما فيه من القوارع، وهو الذي لو أنزل على جبل وقد ركب فيه العقل لخشع وتصدع»[١].

والخشية لا تنبع إلا إذا أدرك الإنسان مكانة هذا القرآن وعظمة الخالق، حينها يمتلئ القلب بالتقوى، فتراه يحرص على العمل بطاعة الله، ما يجعله مستقيم الفكر، حسن السلوك.

وكل هذا يشع في النفس يقينًا بالله، واطمئنانًا بسلامة الطريق، وإحساسًا عاليًا بالمعية الإلهية، ما يبعث في المؤمن زهدًا لملذات الدنيا، ويستنبت في قلبه بذور الذل والتواضع والرحمة والانكسار بين يدي مولاه، ويحس حقارة نفسه بجانب خضوع مخلوقات الله له، فيعظم حب الله تعالى في القلب، وينطلق اللسان بالشكر والثناء، فتكثر الطاعات؛ تقربًا إليه، حتى لا يكون شيء أحب إليه في الوجود منه تعالى.

«فالأثر النوراني لهذا التفكر يعرقل عمل الشهوات في القلب، ويدفع أهواءها على حسب قوة الوارد من أنوار التفكر؛ فتسلب الشهوة من عاجل لذتها، فما يتبقى منها سوء عاقبتها»[٢].

لذا قال بشر الحافي: «لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه»[٣].

هذا التغير السلوكي والأخلاقي للنفس البشرية بتأثير التفكر يؤكده علماء النفس في العصر الحديث، فالتفكير التأملي لدى الأفراد «يساهم في تنمية: الإحساس بالمسؤولية، العقل المتفتح، والإخلاص، والفرد المتأمل أكثر قدرة على توجيه حياته، وأقل انسياقًا للآخرين، واستخدام التفكير التأملي لا يعني أن يكون لدينا فكر واضح، ولكن أيضًا امتلاك السلوك الذكي»[٤].

وهذا ما جعل الدكتور البدري يعتبر التفكر «العمود الفقري لتصور المسلم عن نفسه، واستعداده بعد ذلك لتغيير سلوكه وعاداته، فبدون التغيير لا يمكن تعديل السلوك والعادات»[٥].

وهذا يؤكد أن هناك رابطًا عجيبًا بين أفكار الإنسان وأخلاقه، وهو ما سبقه إليه الإمام ابن القيم حين بين أثر التفكر؛ «فالتفكر يوقع

(١) روح المعاني، الألوسي ٢٨/ ٦٨.
(٢) التفكر عبادة ربانية وضرورة دعوية، محمد عادل، مقال من مجلة البيان على الانترنيت، ١٤٣٠هـ.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٥.
(٤) فعالية استخدام بعض استراتيجيات ما وراء المعرفة في تحصيل الفيزياء وتنمية التفكير التأملي والاتجاه نحو استخدامها لدى طلاب الصف الثاني الثانوي الأزهري، فاطمة عبدالوهاب، مجلة التربية العلمية القاهرة مصر ديسمبر ٢٠٠٥م، المجلد الثامن، عدد ٤، ص١٧٧.
(٥) التفكر من الشهود إلى المشاهدة، مالك البدري ص٣١.

صاحبه من الإيمان على مالا يوقعه عليه العمل المجرد، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له، وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها...، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة، فتجاوز فكره لذته، وفرح النفس به إلى سوء عاقبته، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذة والفرحة، ومن فكر في ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه»[1].

ويزيدنا بيانًا الإمام الغزالي حين يوضح لنا بالمثال كيفية تغير أحوال القلوب والنفوس بمفاهيم الفكر: «فإن الفكر يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقينًا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وهذا ما عنيناه بالحال؛ إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة، وقلة الرغبة فيها»[2].

هذه الصفات النبيلة وغيرها تثمر في القلب حكمة تزين المتفكر، فلا تجده ذو فكر سقيم، أو رأي عديم، بل له من نفاذة البصر، وسداد الرأي ما يوجه به حياته إلى بر الأمان، كونه يتعمق في أسرار الأمور، ويدرك بدايتها وغايتها، ويميز بين النافع والضار، كما أن التفكر يعتبر سبيلًا للعمل، فلا معنى لإنسان يقضي ساعات يومه ينظر في ملكوت السموات والأرض، ويقلب بصره بين عوالم الخلق، دون أن يجعله هذا الأمر يشمر على ساعد الجد والاجتهاد للتقرب إلى الله بالطاعات، وبالقيام بمسئوليته تجاه هذا الكون قيادة وتسييرًا على منهج الرسل الكرام بما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة.

فالتفكر عمومًا فيه تهذيب للأخلاق، وتليين لقسوة القلب، وترويح عن النفس، وزاد للعقل، وحفظ للجوارح عن الحرام، وفي الخلوة يستشعر الإنسان مراقبة الله، ويتذكر ذنوبه فيها، فتحلو المناجاة، وتعظم محاسبة النفس ومعاتبتها، فتنفلت من ربقة الحياة الدنيا، وبهذا يتمكن المتفكر من تقوية إيمانه، وتحصين نفسه، وسمو أخلاقه، فتشرق أنوار المعرفة الإلهية في قلبه ويسير في مدارج السالكين إلى الله تعالى، ويصبح قادرًا على الانسجام في توليفة التسبيح الكونية التي تتجلى في أسمى معانيها في اليقين القلبي برسالته، وإلمامه بزمام العلم والمعرفة، وحسن تسخيره وتسييره لهذا الكون.

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٨٠.
(٢) التفكر في خلق الله، أبو حامد الغزالي ص٤٢.

ثالثًا: التعرف على سنن الله في الآفاق والأنفس:

من الأهداف الأساسية التي وضعها القرآن الكريم لموضوع التفكر هو معرفة السنن الإلهية الكونية والإنسانية التي تقوم عليها المنظومة الكونية بشقيها الخاص بمجال الآفاق، أو ما يخص النفس البشرية «ذلك أن حوادث الكون خاضعة لسنن وقوانين سنها الله تعالى وفق أقدار قدرها...؛ ليبحث الإنسان عن سنن الله في الأمم السابقة، مما يجعل تفكيره سليمًا مبنيًا على قانون ثابت»[(١)].

وقد جاء في القرآن آيات كثيرة تبحث في السنن، وتدعو الإنسان للوقوف عندها، والتأمل فيها ودراستها لاستبيانها أكثر، وهي دعوة إلى إدراك حقيقة هذه الحياة وروابطها على مدار الزمان، ووحدتها من حيث المنشأ والمصير، واكتشاف العلائق الحاكمة لها منذ خلق البشرية؛ «كي لا ينعزل جيل من الناس بنفسه وحياته، وقيمه وتصوراته، ويغفل عن الصلة الوثيقة بين أجيال البشر جميعًا، وعن وحدة السنة التي تحكم هذه الأجيال جميعًا، ووحدة القيم الثابتة في حياة الأجيال جميعًا»[(٢)].

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومعرفة هذه السنن يجعل الإنسان يفهم سر هذه الحياة، ويمسك بزمام الأمور فيها، ويفقه قوانينها، ويساعده على فهم ظواهرها، وتسخيرها لتلبية حاجاته، وتيسير حياته، كما يعرفه على نتاج أعماله إن خالف هذه السنن، وعمل على الاستبداد والظلم وإثارة الفساد، فستسري عليه سنة الله بالهلاك والعقاب في الدنيا والآخرة، وإن أحسن وعمل على الإصلاح والتعمير، كانت سنة النصر والتوفيق للتقدم مصيره، وكتب له النجاح في امتحاني الدنيا والآخرة.

وقد بين الله سبيل التعرف على هذه السنن بالاعتماد على التفكر العميق في عواقب الأمور، والتدبر في الآثار وما بقي من دلائل وآثار الأقوام السابقة، وهذا لا يتأتى إلا بالسير المعتمد على النظر العقلي.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والاستقراء العلمي والتاريخي لأسبابها وحقائقها، وربطها بالعقيدة؛ لتقريبه من خالقه، وبيان أهميتها في دنياه وأخراه؛ لأن النظر في الكون دليل لمعرفة سنن الله في الكون، والتي هي في حد ذاتها دليل على

(١) التربية بالآيات، النحلاوي ص٥٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٦٠.

معرفة الله الواحد، وفي هذا إقرار بوجود مثل هذه السنن، وحث على معرفتها والاعتبار بها وتوظيفها في البناء الحضاري.

والمؤمن مطالب بالتنقيب عن هذه السنن واكتشافها؛ ليتبين له النظام الدقيق الذي يحكم هذا الكون، ويستخلص الحكم والعبر من الوقائع والأحداث؛ لأن سنن الله مترابطة ومتماسكة برباط محكم تبرز فيه الحكمة والإبداع، كما أنها تتميز بالنظام والثبات، فهي المقوم لانحراف الإنسان في سيره إلى الدار الآخرة، وسنن الله في خلقه كثيرة، ربط الله منها عدة سنن بموضوع التفكر، وجعله أساسًا للوصول إلى معرفتها، وبيان حقيقتها، من هذه السنن ما يأتي:

١ . السنن الطبيعية في الكون.

يعرض الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة من القرآن الظواهر الكونية، وكيفية عملها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ففي هذه الآية يشبه الله الحياة الدنيا بالنبات؛ وذلك في دورة حياته وسنة الله في حياته، وفي سورة الرعد ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل إنعامه على الإنسان فقد خلق له الأرض ممدودة مبسوطة؛ ليسهل عليه السير فيها والزراعة فيها، فالمد والبسط سنة الله في الأرض، وإن كان هذا لا ينفي كرويتها في الشكل العام، هذه الكروية في حد ذاتها هي سبب في دورانها حول نفسها ما يحدث تعاقب الليل والنهار، وسبب في دورانها حول الشمس ما يحدث اختلاف الفصول، وفي كل هذا منافع للناس، ثم ثبتها بالجبال الرواسي، وجعلها كالأوتاد لها، وشق خلالها الأنهار، ومن الأرض والأنهار يكون النبات والثمار.

وهي سنة جارية في الكون ذكرت وتكررت في القرآن كثيرًا؛ للتنبيه عليها، ومعرفة التعامل معها والاستفادة منها في طلب الرزق، وجعل سبحانه وتعالى النباتات ثابتة في الأرض؛ لأن الإنسان لا يستطيع الاستغناء عنها فهي غذاء أساسي، ولو جعلها متحركة كالحيوان لشق عليه الحصول إليها، لكن جعل غذاءه جزءان أحدهما نبات ثابت سهل المنال، وجزء متحرك يتمثل في الحيوان، وسخر له الوسائل المساعدة للتمكن منه.

وفي آية النحل بين الله هدايته لعالم الحيوان وسنته فيه، وكيف تسعى هذه الحشرات الصغيرة في الأرض بهداية الله

وتحصل على رزقها فتستفيد وتفيد معها البشر، وهي سنة الله في الأرض فكل مخلوق مقدر له في هذه الأرض أن يأخذ منها ويعيد لها، في دورة لحياة الكائنات سنها الله تعالى، وهي قوانين دقيقة تحكم النظام الكوني لا يمكن أن تنفصم أو أن تختلف حتى لو مرت عليها ملايين السنين.

٢. سنة الزوجية.

يبين الله سبحانه وتعالى هذه السنة في كثير من الآيات.

يقول جل جلاله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فالتناسل والتوالد والنمو بين الكائنات لا يكون إلا بزوجين متكاملين، وعادة ما يكونان من نفس الجنس؛ ليحدث التآلف والانسجام بينهما، وتستقر الحياة، وهي سنة تحكم الكون بكل ما فيه من جمادات وكائنات.

ففي عالم النبات يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

يقول الرازي: «المراد بزوجين اثنين: صنفين اثنين، والاختلاف إما من حيث الطعم كالحلو والحامض، أو الطبيعة كالحار والبارد، أو اللون كالأبيض والأسود»[(١)].

والعلم الحديث اكتشف أن النباتات هي أيضًا تتزاوج، ففي كل نبتة أوجد الله سبحانه وتعالى أعضاء التكاثر الذكرية والأنثوية، وبفعل قوة الريح أو انتقال الحشرات على النبتة أو على النباتات التي تحمل بذور الطلع يحدث هذا التزاوج.

وفي عالم الحيوان يقول تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ويختار ابن عاشور أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الرعد: ٣].

يتوقف فيها عند الثمرات، وتستأنف معنى آخر يشير إلى سنة الزوجية في الحيوان حيث يقول: «والظاهر أن جملة ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ مستأنفة؛ للاهتمام بهذا الجنس من المخلوقات، وهو جنس الحيوان المخلوق صنفين ذكرًا وأنثى أحدهما زوج مع الآخر»[(٢)]. وهو معلوم وظاهر في حياة هذه الكائنات.

وفي عالم البشر يجعلها الله سبحانه وتعالى من أعظم الآيات، بحيث ربطها بآية الخلق والوجود.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٨٣.

مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠ - ٢١].

وفي هذا امتنان من الله على الإنسان بهذه النعمة، فهذه الزوجية تمنح الإنسان سواء الذكر أو الأنثى السكن والمودة والرحمة، وهي عناصر الاستقرار والاستمرار على الأرض.

كما أن هذه السنة هي أساس عالم الجماد، فالذرة أصغر ما في هذا الكون، وتتكون من زوجين بروتون ونيترون، حتى الكهرباء الغير مرئية تتكون من شحنتين موجبة وأخرى سالبة، ومن بديع حكمة المولى أنه جعل أزواج الأشياء من نفس جنسها، ومتقاربة الخصائص، وركب ذلك في المخلوقات، فترى كل نوع يميل ويسكن إلى بني جنسه ومثيله.

٣. سنة الحياة والموت.

وهي سنة تأسر النفس البشرية، وتجعلها تحاط بإطار زمني مغلق، يبدأ في لحظة معينة، وينتهي إلى أجل مسمى، تنحصر فيه أعمال الإنسان وأقواله وتصرفاته، وهي دليل على حكمة التدبير، وحسن التنظيم والقدرة العظيمة لخالقه، لا ترتبط بالحياة البشرية، فقط بل يخضع لها الكون بأسره بكل ما فيه، فكل يسير إلى أجله المقدر له، وارتبط التفكر بهذه السنة في آية يونس (٢٤) ليعبر عن حقيقة الوجود الإنساني على هذه الأرض بأبلغ تشبيه، وأوجز عبارة، فمدة الحياة على هذه الأرض مذ بدء الخليقة لا تتجاوز في حقيقتها مدة نمو النبات وحصاده، فما بالك بحياة الفرد الواحد عليها، وهو مثل يحفل بالتوجيه والتنبيه؛ لعدم الركون إلى هذه الدنيا، ويحذر من الانحدار إلى شهواتها حتى تأتي لحظة النهاية ولا ينفع حينها الندم.

فالتفكر في هذه المثل يقودنا إلى الإيمان بحقيقة فناء الكون، من خلال تحقق سنة الحياة والموت في مستويين يقودان إلى مستوى ثالث «فالمستوى الأول يتمثل في إحياء الأرض بعد موتها، أو موتها بعد حياتها، فتكون الأرض مخضرة في الربيع، ثم يأتي الخريف فتكون حصيدًا، والمستوى الثاني تحقق في أهل القرى، فكم من قرية كانت عامرة بأهلها، تزدهر فيها الحياة بكل مظاهر الزينة من أنهار وزروع وثمار...

ثم أصبحت بعد ذلك خرابًا بما كسبت أيديهم...

فالمستوى الأول يشير إلى نهاية الحياة الدنيا، والمستوى الثاني يشير إلى نهاية الأمم والمجتمعات، ويكون المستوى الثالث هلاك كل شيء، فعلم أن لا خلود في هذه الحياة، وهذا مدعاة إلى التفكير الجدي

بمصير الإنسان، ومصير الحياة»[1].

كما جاء الحث على التفكر في سنة الموت في سورة الزمر، حين ربطت بالموازاة مع ظاهرة النوم في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]؛ ليتمكن المتفكر أن يوازن بين هاتين الظاهرتين من حيث كونهما دليلًا على توقف الحياة والانتقال إلى عالم آخر غير هذه الحياة، فالنوم يشبه الموت في انقطاع الإدراك والإحساس والتصرف، وإن كان حالة مؤقتة، لكنها تنبئ عن حالة النوم الأبدي هي الموت.

إذن سنة الحياة والموت هي سنة كتبت على كل من في الأرض فما من شيء حي إلا وله نهاية.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

٤. سنة التسخير.

وهي من السنن التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، يعلم بها البشر طرق التعامل مع الكون والاستفادة منه، فكل هذه العوالم التي هي أكبر من الإنسان حجمًا هي مذللة لهذا المخلوق الضعيف، قصد تسهيل خلافته على الأرض، رحمة وفضلًا من عند الخالق.

وهذه السنة تحكم النظام الكوني بطريقة منظمة وثابتة لا انفلات فيها، ما يسمح بالتفاعل الإيجابي للإنسان مع الكون، وهذا التسخير لا يكون إلا بالتعرف على خواص الأشياء وحقائقها باستعمال وسائل الإدراك والحس، والاستعانة بهدي القرآن الذي «يضبط صيغ التعامل بين الطرفين بقيم ومبادئ وأعراف، تحقق أقصى درجات التكشف والإبداع...، وتنشئ أكثر الصيغ الحضارية ملائمة لطموح الإنسان وأخلاقيته ومكانته في الكون»[2]؛ لأن التسخير هو قهر للمخلوقات وإرغامها على القوانين الكونية التي ركبها فيها الله؛ لذا حث القرآن على البحث في دقائق المخلوقات وخصائصها، واستكشاف مكامن الخير والنفع فيها؛ وذلك بالتعمق الدقيق في تفاصيلها وحقائقها التي لا تتبدى إلا بعد التفكر فيها.

كما حاول القرآن أن يضع الإنسان على هذه الطريق من خلال فتح بصره على بعض طرق الانتفاع بهذه الكائنات، فهو يضرب لنا مثلًا للتفكر في كائن صغير لا يكاد الإنسان يولي له شأنًا، لكن فائدته كبيرة بالنسبة له،

(١) منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان، زياد الدغامين ص٢٠٦.

(٢) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، عبد الحميد أبو سليمان ص٢١.

وهو آية النحل، فقد خصها الله بسورة كاملة في محكم تنزيله، مبينًا لنا طريقة عيشها وعملها وفائدتها.

وفي هذا يقول الإمام السعدي: «في خلق هذه النحلة الصغيرة التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة، فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه»[1].

فسنة التسخير قانون إلهي وضعه في يد الإنسان؛ ليسهل به مهمته على الأرض، فيجب على الإنسان أن يعرف كيف يستغله ويصل به إلى إرضاء مولاه.

٥. سنة الهداية والضلال.

هي سنة جارية على الإنسان منذ أن خلقه الله وقدر عليه الحياة والعمل، فأهل الجنة هم أهل الهداية العاملون المجدون المخلصون، وأهل النار هم أهل الضلال والغواية والكفر، والهداية سنة بيد الله تعالى، يقول -جل في علاه-: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد ارتبطت سنة الهداية والضلال بموضوع التفكر في آية الأعراف التي جاءت في معرض الذم للذين كفروا وكذبوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، بالرغم من الحجج الدامغة والدلائل الباهرة التي جاءهم بها، وضرب لهم مثل العارف بآيات الله الذي آتاه الله علمًا واسعًا كان سبيل النجاة لو أراد ذلك العارف، لكن نفسه أبت إلا الركون إلى دار الفناء، وكان عمله مخالفًا تمامًا لعلمه، فسلبه الله ذلك العلم، وكتب عليه الضلال في الدنيا والآخرة.

يقول الألوسي: «وما ألطف نسبة إتيان الآيات والرفع إليه تعالى، ونسبة الانسلاخ والإخلاد إلى العبد، مع أن الكل من الله تعالى؛ إذ فيه من تعليم العباد حسن الأدب ما فيه»[2].

وفي هذه الآيات ترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، وفيه ترهيب من إلقاء الآيات وراء الظهر، ما يدعوه لاتباع الهوى، والإخلاد إلى الشهوات، ونزولًا إلى أسفل سافلين.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٤.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٩/ ١١٤.

٦. سنة الابتلاء.

ومن سنن الله على البشر سنة الابتلاء، وهي سنة كتبها الله؛ ليتميز بها الصالح عن الطالح، ويتباين منهج الحق عن مناهج الباطل، فتكون الدنيا هي دار الابتلاء، بما تحمله من مغريات وشهوات وملذات تغري بها الطامعين؛ لتكون حجة لمن انحط وغفل عن الغاية الكبرى وتقوم الحجة على من اتبع النهج السوي، وأمسك نفسه عن الهوى.

والتفكر في سنة الابتلاء وارد في قصة المثل الذي ضربه الله تعالى للمنفق المرائي الذي ابتلاه الله في جنته التي كانت عامرة وذات زينة وبهجة، وله ذرية ضعيفة يعولها، لكنه اغتر واستكبر، ونسي حق الله، فما كان إلا أن جرت عليه سنة الله بالابتلاء؛ لينتبه من نوم الغفلة، ويعود إلى الصراط المستقيم.

كما أنه سنة الله على رسله عند تبليغ دعوتهم، فمن ابتلاء النبي صلى الله عليه وسلم وصمه بالجنون والكذب.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وفي هذا تسلية للدعاة على طريق دعوتهم وحث لهم على الصبر والاحتساب، فالابتلاء في الدنيا هو محبة من الله لعباده قصد تنبيههم إلى غفلتهم وتقصيرهم، وكثرة أخطائهم، وزيادة في حسناتهم، ورفعًا لدرجاتهم في الجنة.

وهذه بعض من السنن التي تحكم الحياة والكون، وهناك نواميس أخرى، حري بالعقل أن يبحث عنها ويفهمها ويوظفها؛ لتسهيل الحياة وخدمة الرسالة الربانية، وأن يتفكر فيها وفي معانيها قصد إدراك حقيقة وجوده على الأرض.

٧. سنة الله في الظالمين.

ويكون معنى ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أنهم يرون آيات صدقه في أحوال تصيب أنفسهم، أي: ذواتهم مثل الجوع الذي دعا عليهم به النبيء صلى الله عليه وسلم، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠].

ومثل ما شاهدوه من مصارع كبرائهم يوم بدر وقد توعدهم به القرآن بقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

وأية عبرة أعظم من مقتل أبي جهل يوم بدر، رماه غلامان من الأنصار وتولى عبد الله بن مسعود ذبحه وثلاثتهم من ضعفاء المسلمين وهو ذلك الجبار العنيد. وقد قال عند موته: لو غير أكار قتلني، ومن مقتل أبي بن خلف يومئذ بيد النبيء صلى الله عليه وسلم وقد كان قال له بمكة: (أنا أقتلك) وقد أيقن بذلك فقال لزوجه ليلة خروجه إلى بدر: والله لو بصق علي لقتلني.

رابعًا: إدراك مقاصد الحياة والوحي:

إن من أهداف التفكر العامة والتي جاءت في رحاب آياته بيان مقاصد الحياة لكثير من الناس الذين يجهلونها؛ وذلك عن طريق إنزال الوحي وهداية البشر، ودعوة القرآن لاستكشاف هذه المقاصد بغرض تسهيل فهم الحياة لهم وإدراك سر خلقهم ووجودهم، وبيان مهمتهم والطريق المستقيم الذي يجب أن يسيروا عليه.

وبما أن التفكر من العمليات الراقية في العقل البشري، كان لابد أن تتصل مواضيعه بإدراك حكمة الحياة، وكشف مقاصد الشرع؛ لذا جاءت آياته واضحة في هذا المعنى مؤيدة له، عن طريق عرض مشاهد الكون والاستدلال بها عن عدم عبثية الخلق، ومن ثم هي تنبيه للإنسان إلى أنه الراعي المستخلف لشئون الكون بهدف القيام بأمور الرسالة الموكلة إليه.

فبعد تحقق الأهداف السابقة لموضوع التفكر من معرفة الإنسان لخالق الكون والإيمان به، ثم طاعة أوامره واجتناب نواهيه، مرورًا بتزكية نفسه وتهذيبها، ثم إحاطته بالسنن والنواميس الكونية، يبدأ عمله على هذه الأرض من خلال القيام بالمهمة التي من أجلها أرسل إلى الأرض، وهي تحقيق العبودية لله تعالى عن طريق حسن الاستخلاف في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

هذه الأمانة الاستخلافية التي قبلها الإنسان بالرغم من الضعف الكائن فيه، بعد إباء من هو أعظم منه في ميزان الوجود من سموات وأرض وجبال على حملها، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وللقيام بأعباء هذه الأمانة كرمه الله تعالى بأن جعل حواسه المختلفة نوافذه على عالمه الخارجي، وميزه بالعقل عن سائر المخلوقات، وجعل لعقله سلطانًا على قوى نفسه، وركب فيه المشاعر؛ ليطل بها على نفسه الداخلية، وهداه بنور الوحي الرباني، وبعث إليه الرسل، كل هذه الوسائل؛ لينهض بهذه المسئولية الثقيلة، ويقوم بها على أكمل وجه، فيتحقق معنى العبودية التامة لله تعالى، وإن كان جل وعلا غنيًا عن هذه العبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

هي رسالة ألم بها أرباب العقول ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فسمت أرواحهم بعبير الذكر، وتغذت عقولهم برحيق الفكر، فأدركوا حكمة الخلق ورسالة الوجود، واعترفوا بالحق، وفهموا أن هذه الحياة ما هي إلا دار اختبار لطاقة الإنسان على حمل الأمانة والقيام بتبعاتها، وأن كل ما في الكون شاهد على هذه الحقيقة، ثم يكون اللقاء يوم القيامة؛ ليحاسبوا على أداء الرسالة، ويجازوا إما إلى الجنة أو إلى النار.

ومن إدراك هذه الحقيقة ينطلق المسلم بهذه المعرفة اليقينية، ويقابل عوالم الكون ويتعامل معها مراعيًا مبادئ وسنن النظام الكوني؛ لتحقيق مصالحه العليا على الصعيد الإنساني والحضاري وفق سياسة التوافق والانسجام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهي علاقة تكريم تتجسد فيها سيادة الإنسان ومحوريته، وتظهر مسئوليته الواعية تجاه نفسه وتجاه ما يحيط به عن طريق التفاعل الإيجابي معه، هذه المكانة ناتجة عن امتلاكه مفاتيح معرفة الكون، والوسائل والأدوات التي تجعله يحسن التحكم به.

هذه النظرة للكون والحياة هي جوهر التصور الإسلامي المخالف للنظريات الغربية التي تدفع بالإنسان للدخول في صراع مع الطبيعة للسيطرة على قواها، ومن ثم تسخيرها لخدمة أهدافه وتحقيق مصالحه، أما قمة العلاقة في الإسلام فتنشأ عن طريق الرحمة بالمخلوقات، والإحساس بدورها ومكانتها في المنظومة الكونية، والاستثمار الإيجابي لها، ما يكسب الإنسان فيها وحدة مع هذا الوجود وتناغما مع تسبيحاته؛ لأنهما خلقا من أجل هدف واحد هو تحقيق العبودية الكاملة للخالق الواحد.

ومن فهم هذه الرسالة استطاع أن يجمع بين مرتكزات الحضارة الإنسانية التي تقوم على الإيمان بالله، والعلم النافع، والعمل الصالح، وهي منظومة لا يمكن الفصل بين ركائزها وإلا حدث اختلال في التوازن الحضاري، وانتشر الضلال والفساد وكثر الشر، حينها لا بد أن يحدث الركود الحضاري، وتتوقف عجلة الرقي والتطور، ما ينبئ عن سقوط الحضارة، ولنا في حضارات الأمم السابقة عبرة، أين تزعزعت ركيزة الإيمان بالله، ما عجل بسقوط أمم كانت قد عمرت الأرض وآثارها شاهدة

عليها إلى يومنا هذا، لكننا نجد في المقابل أن الحضارة الإسلامية لم تسقط ذلك السقوط المريع لباقي الحضارات، كونها ما تزال تحمل بذور قيامها في جنباتها، وإن فصلنا أكثر نجد أن القاعدة الصلبة التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية هي الإيمان بالله، وهي قاعدة ما زالت صلبة عند المسلمين إلى يومنا هذا، لكن تخاذلهم عن اكتساب العلم النافع، وتضييع أسباب العمل الصالح هو ما أدى إلى أفول نجمهم، وتأخر ركبهم.

ولأن حل الأزمة وزمام الأمر في إيقاظ العقل ودعوته للتفكر، لم يهمل القرآن دور الفكر في هذه التربية، فقد اعتنى بمواءمة فكر الإنسان مع دوره المنوط به، من خلال فتح باب التفكر والتأمل على الكون على مصرعيه، فكانت آياته دعوة لاستثمار طاقة العقل فيما يفيد بني البشر بضوابط محددة، تغاير في أهدافها ووسائلها السياحة العقلية التي يدعو اليها الفكر الغربي اليوم، أو ما يسمى التأمل الارتقائي الذي لا تجاوز نتائجه حدود النفس البشرية -هذا إذا تحقق ذلك- دون أن ينعكس على الواقع والمجتمع.

وما الوضع المتردي الذي تمر بها الأمة الإسلامية في هذا العصر إلا وجه من وجوه التأزم الفكري وعدم وجود منهجية لتقويم مفاهيم الحضارة وتصحيح النظر إلى دور الإنسان في هذه الحياة، كل هذا ناتج عن عدم فقه التكامل الوحيي الفكري لرسالة الإسلام، ما أدى إلى اختلال الموازنة بين جانب الروح وجانب الفكر؛ لذا تبدو حاجة الإنسان الملحة إلى توفر تربية شمولية منظومية «تربط بين الإيمان والأخلاق الفاضلة، والعلم الصحيح والعمل الصالح وإن هذه العناصر الأربعة للتربية ينبغي أن تصبح متلازمة متماسكة إذا شئنا سعادة البشر أفرادًا وجماعات، ونجاة الإنسانية مما يحيط بها من شرور وأخطار»[1].

وهي التربية التي غرسها القرآن في نفوس الجيل الأول فأثمرت.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وستثمر في أي وقت متى وجدت تربة النفوس مهيأة؛ لتنهل من معينه.

وركز القرآن على الارتباط الوثيق بين العقل والوحي وتكاملهما في البناء الحضاري، فأمر العقل بالبحث في أرجاء الكون مسترشدًا بهدي الوحي، كاشفًا عن سر الخلق والخالق، فالوحي يتبدى في كتاب الله وسنة رسوله، وهما باب النجاة، ومفتاح هذا الباب نور الفكر الصحيح، هذه

(١) نحو تربية مؤمنة، محمد الحمالي ص٥.

الثنائية تجعل البناء الحضاري بناءً حصينًا ومتينًا، وهذا التكامل هو الذي كان الدعامة القوية لتحفيز المسلمين للبحث في أسرار هذا النظام الكوني، وتفعيل هذا البحث في إرساء سفينة الاستخلاف؛ لتبنى حضارة استمرت عدة قرون.

لذا وجب على المتفكر وهو يجول في رحاب الكون أن يستأنس بنور الوحي الذي يمده بحقيقة الأشياء، ويكشف الغطاء عنها، فيقوم عقله بسبر أغوارها والتأمل فيها، كما أن الوحي يبصر العقل بأمور الغيب التي لا طاقة له بها، وتوجيهه للسير في هذه الحياة وتوضيح مهمته فيها، ومن ثم تزويده بطاقة إيمانية ومعرفية يحتاجها في الطريق، فآيات الله المنصوصة في الكتاب هي المدخل الصحيح للعلم بطبيعة الكون وسننه ونظامه الخاص، وبالتالي اكتناه أسراره وخفاياه، فآيات الله في الكون وآياته في الكتاب تبدوان في الوحي القرآني متساوقتان، بل ومتناسبتان تمام التناسب»[1].

كما أن من مقاصد الوحي بيان وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم فما هو إلا تابع لما يوحى له، فبالتفكر الصادق يتبين أن الرسول لا يملك صفات الإله، ولا خصائص الملائكة، فهو بشر يتبع ما يأتيه به أمين الوحي جبريل عليه السلام ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وليس لديه أي قدرة في تغيير شيء أو آية إلا بإذن الله تعالى، كما أن مهمته إنذار الكفار لما ينتظرهم من عقاب شديد نتيجة عدم اتباعهم للحق، وعملهم به، وارتباط الإنذار بآيات التفكر؛ ليثير في القلب الخوف والرهبة ومحاسبة النفس على أعمالها والاستعداد ليوم الجزاء.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، التدبر، العبرة، العقل، الغفلة، القرآن

(١) أصول المنهج العلمي في القرآن، محمد مجذوب ص١٣١.

التقليد

عناصر الموضوع

مفهوم التقليد	٣٤٢
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٤
أسباب التقليد	٣٤٦
مجالات التقليد	٣٦٤
آثار التقليد والتبعية	٣٩٠
مواجهة التقليد والتبعية	٤٠٢

مفهوم التقليد

أولًا: المعنى اللغوي:

التقليد مصدر للفعل الرباعي «قلد» بتضعيف اللام المفتوحة. ويأتي في اللغة على معان كثيرة، منها:

١. الإحاطة: أي ما يحيط بالشيء. ومنه القلادة، وهي «اسم لما يشتمل على الشيء ويحيط به كاللفافة والعمامة»[١]. فكأن المقلد يجعل ما اكتسبه ممن قلده، قلادة في عنقه، تحيط به، كما تحيط القلادة بالعنق.
٢. الإلزام: يقال: «قلده الأمر ألزمه إياه»[٢] فالمقلد ألزم المقلد فكرته وحمله إياها.
٣. التناوب: قال الزمخشري: «وهم يتقالدون الماء: يتناوبونه»[٣]. فالعادات والأفكار التي هي محل التقليد، تتناوب بين الأجيال، وتنتقل من جيل إلى جيل.
٤. المحاكاة والاتباع من غير تفكير[٤]. فالمقلد يحاكي من يقلده، ويفعل مثل فعله من غير تفكير ولا نظر ولا تأمل.
٥. السبق: «المقلد من الخيل السابق يقلد شيئًا ليعرف أنه قد سبق»[٥]، فيكون المقلد قد سبق بفكرته وعمله من يقلده، فالمقلد سابقٌ، والمقلد مسبوق.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

التقليد يتناوله أهل الفقه وأهل الاجتماع والذي يهمنا في هذه الدراسة، ما تناوله أهل الاجتماع من عادات وتقاليد وسلوكات سلبية توارثها الناس فرادى وجماعات. وقد ورد لكلمة التقليد في الاصطلاح عدة تعريفات، منها:

قال الجرجاني: «التقليد عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقدًا للحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل، كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه، وعبارة عن قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل»[٦].

(١) تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٦٧.
(٢) العين للفراهيدي ٥/ ١١٧، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٦٧.
(٣) أساس البلاغة، الزمخشري، ٣٧٥.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥٢٦.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٦٧.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص٩٠.

«والمقصود بالتقليد الأعمى بالنسبة للمسلم: ما سلكه بعض المسلمين -من غير إدراك ولا وعي ولا تمحيص- من اتباع الكفار، والأخذ منهم، والتشبه بهم، في شتى ألوان الحياة وأنماط السلوك والأخلاق، وأشكال الإنتاج، في الاعتقاد والتصور والفكر والفلسفة والسياسة والاقتصاد والأدب والفن والثقافة والنظم والتشريع، من غير اعتبار للعقيدة والشريعة الإسلامية والأخلاق الفاضلة، ومن غير إلزام للمنهج الإسلامي الأصيل»[1].

ومن هذه التعريفات، يمكن بيان الآتي:

١. المقلد أقل علمًا من المقلد في المسألة التي اعتمد المقلد فيها على رأي من قلده.
٢. الواجب قبول قول صاحب الاختصاص، فخرج من ذلك القبول بقول من ليس من أهل الاختصاص.
٣. إن التقليد هو الأخذ بقول الغير، أما الأخذ بالكتاب والسنة والإجماع وأصحاب العلم والمذاهب فلا يسمى تقليدًا وإنما هو اتباع، فيكون المراد من قول الغير: رأيه واجتهاده.
٤. التقليد لا يكون إلا مع عدم معرفة الدليل، وهذا إنما يتأتى من العامي المقلد الذي لا نظر له في الأدلة.
٥. التقليد يجب أن يكون لمن يتصف بالعلم والعدالة، فتقليد من لا يوصف بعلم ولا عدالة، فيه تضييع للشخصية وإذابة لها في شخص من يقلده من الناحية السلبية.

فالمعنى الاصطلاحي للتقليد لا يخرج عن معنى الإحاطة والمحاكاة، وهما من المعاني اللغوية للكلمة.

(١) التقليد والتبعية وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية، ناصر العقل ص٥٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاتباع:

الاتباع لغة:

التاء والباء والعين: أصل واحدٌ لا يشذ عنه من الباب شيء، وهو التلو والقفو، يقال: تبعت فلانًا، إذا تلوته واتبعته، وأتبعته إذا لحقته[١].

والمعنى اللغوي يدور حول الاقتفاء والاقتداء، واللحاق بشيء أو شخص والسير خلفه.

الاتباع اصطلاحًا:

قال الشرباصي: «والمعنى الأخلاقي للاتباع هو: أن يميز الإنسان الخبيث من الطيب، وأن يتبين طريقه على بصيرة، وأن يعرف من تقدمه على طريق الحق والصدق، فيتخذه أسوة وقدوة، فيمضي اللاحق على سنن السابق، فتوجد عند الإنسان روح الاتباع، وينأى بنفسه عن ضلال الابتداع... وخير اتباع ينبغي أن يتحلى به المرء ويلتزمه ويحرص عليه، اتباع هدي الله، والتزام صراطه المستقيم؛ لأن ذلك طريق الأمان والاطمئنان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]»[٢].

الصلة بين الاتباع والتقليد:

في الاتباع يميز الإنسان الخبيث من الطيب، ويتبين طريقه على بصيرة، بخلاف التقليد الذي يحصل من غير إدراك ولا وعي ولا تمحيص، وينبه إلى أنه ورد في نصوص القرآن الكريم الاتباع بمعنى التقليد في مجموعة من الآيات.

٢ التشبه:

التشبه لغة:

ترد هذه الكلمة بمعنى: «المماثلة والمحاكاة والتقليد»[٣]. قال ابن منظور: «وأشبه الشيء الشيء: ماثله... وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحبه»[٤]. يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: «تشاكل علينا في أسنانها وألوانها»[٥].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٦٢.
(٢) موسوعة أخلاق القرآن، الشرباصي ٥/ ١٣٨.
(٣) من تشبه بقوم فهو منهم، ناصر العقل، ص٧.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٥٠٣.
(٥) تفسير السمرقندي، ١/ ٦٣.

والتشبه اصطلاحًا:

هو عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبه المتشبه به وعلى هيئته وحليته ونعته وصفته، أو هو عبارة عن تكلف ذلك وتقصده وتعلمه، وقد يعبر عن التشبه بالتشكل والتمثل والتزيي والتحلي والتخلق[1].

الصلة بين التشبه والتقليد:

التقليد صفة نقص لا تقع إلا من الجانب الضعيف، وفيه معاني الانقياد، والتفويض، والاستسلام، والطاعة العمياء من غير نظر وتمييز بين ما يضر وما ينفع، وأما التشبه فقريب من التقليد إلا أن فيه تكلفًا وتعلمًا وتقصدًا.

وغلب استعمال التقليد في الأقوال، وأما التشبه فقد غلب استعماله في الأفعال.

(١) انظر: التدابير الواقية من التشبه بالكفار، عثمان أحمد دوكلي ص٣٤.

أسباب التقليد

أسباب التقليد يمكن إجمالها في مطالب أربعة، على النحو الآتي:

أولًا: الجهل:

عندما ينتشر الجهل، ينتشر التقليد؛ فيستقبل الجاهل ما يلقى إليه من عقائد فاسدة، وتشريعات ضالة. وقد حدثنا القرآن الكريم بأمور يكون الجهل فيها سببًا للتقليد، وهي:

١. الجهل بحقيقة التوحيد.

تحدث القرآن الكريم عن أناس جهلوا حقيقة الألوهية والربوبية، وحقيقة المنعم عليهم؛ فعبدوا غيره. فهاهم بنو إسرائيل يطلبون من موسى عليه السلام -وهم حديثو عهد بمعجزة فلق البحر، وإغراق فرعون وقومه على مرأى من أبصارهم- أن يجعل لهم إلهًا صنمًا، تقليدًا لعبدة الأصنام. فقال الله سبحانه مبينًا سبب تقليدهم الذي هو الجهل: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: ١٣٨] فوصفهم الله بالجهل على أتم وجه، لأنهم جهلوا حقيقة التوحيد[1].

وشبيهٌ بذلك ما طلبه جهال الأعراب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط كما للكفار. فقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين. قال: (وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط. قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة. قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ إنها لسننٌ، لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة)[2].

كذلك وجدنا كفار مكة يطلبون من نبي الله صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم، التي هرعوا في عبادتها مستنين بآبائهم دون علم، فكان الأمر الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يرد على المشركين ردًا فيه الشدة والوصف بالجهل.

فقال الله سبحانه: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر: ٦٤].

فكان جهلهم بالله تعالى، وفساد جهلهم بعبادة الأصنام يضاهي جهل بني إسرائيل.

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٩/ ٤١، المنار، محمد رشيد رضا، ٩/ ١١٠-١١١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٢٢٥، رقم ٢١٨٩٧.
وصححه الألباني في ظلال الجنة، ١/ ٣١، رقم ٧٦.

وها نحن نرى اليوم عبادة المادة من دون الله تعالى من قبل بعض أبناء الأمة استجابة لطلب الغرب الذي صارت المادة في حياة غالبية أهله كل شيء.

ووجد في البشرية من صفته الجهل بحقيقة العبادة ومدلولها ومستحقها، فافتتن بالقبور والأضرحة فعبدها تقليدًا لآبائه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»[1].

فهي لم تعبد إلا بعد هلاك الصالحين ونسخ العلم وانتشار الجهل.

والأمم والشعوب عندما يغشاها الجهل ويندس بين صفوفها المشعوذون والمبطلون؛ فإن التقاليد الباطلة والأخلاق الفاحشة تتسلل اليهم، ويبتعدون عن ضياء الحق[2]. واليوم نرى من سرى إليه تقليد السابقين في التمسح بالقبور وتقديسها من جهلة الأمة.

وبلغ من جهل الكفار أن اختلقوا لله تعالى بنين وبنات بغير علم منهم، فنسبوا إليه الولد، فكان من جهلهم أن نسبت اليهود عزيرًا إلى الله، وكان مثلهم النصارى في قولهم المسيح ابن الله، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠].

ويشبههم الكفار في قولهم: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فقال الله فيهم وفي أمثالهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ولقد وجد في البشرية قديمًا وحديثًا من علية القوم من يستخف بعقول الدهماء، طالبًا منهم عبادته من دون الله، وهذا من جهله بحقيقة ربه عز وجل، بل ومن جهله بحقيقة نفسه.

فقد قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

فالطغاة يعزلون الجماهير عن كل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، ٦/ ٧٣، رقم ٤٩٢٠.

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية، البوطي، ٤٧-٤٨.

سبل المعرفة، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة؛ وبهذا يسهل استخفافهم، ويلين قيادهم، فيقودونهم ذات اليمين وذات الشمال وهم مطمئنون (١).

إن الذي لا يستقيم على طريق، ولا يمسك بحبل الله، ولا يزن بميزان الله، هو الجاهل بهذا الطريق، فجهله كان سببًا في سهولة انقياده لمن استجهله. والناظر في زماننا اليوم، يرى الأمر جليًا في سلوك الكثيرين. فلقد جهلت الأمة حقائق كثيرة عن الله عز وجل، منها حقيقة أن الرزق بيد الله وحده، فصاروا طوعًا في يد المستكبرين؛ فذلوا أنفسهم بطاعة من أقرضهم من الغرب الذي في غالبيته كفر، وأذلوا شعوبهم بأن مارسوا عليهم عقيدة غير المسلمين وثقافتهم، ظنًا منهم أنه من خلالهم يكون الرزق، وأنهم لو تركوا طاعتهم ما طعموا وما شربوا!!.

٢. الجهل بحقيقة النبوة.

إن الأقوام الكافرة جهلت رسالة النبي المبعوث بها، وأنه مكلف بالبلاغ وليس الإتيان بالعذاب، فأخذت الأقوام تطلب من أنبيائها أن تأتيها بالعذاب والمعجزات، ولم يكن هذا من أجل الاهتداء، بل عنادًا. وهذا الأمر تكرر على مر القرون، بسبب جهل الأقوام بحقيقة النبوة فوصف الله جهلهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨].

فبنو إسرائيل اشترطوا -لجهلهم- على موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة كي يؤمنوا، فقال سبحانه عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

ومثلهم كان مشركو مكة في الجهل وطلب الخوارق، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

ولما جهلت علية الأقوام ميزان الله تعالى في التفاضل بين الناس وهو التقوى؛ أنفت أنفسهم الجلوس مع ضعفاء المؤمنين كبرًا، فطلبوا من الأنبياء عليهم السلام الانفصال في المجلس عنهم. فقال الله سبحانه عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود: ٢٩].

وتبع قوم نوح صناديد مكة حينما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣١٩٤.

يجعل لهم مجلسًا سوى مجلس الضعفاء الداعين ربهم غدوًا وعشيًا. فجاء التوجيه الرباني للرسول صلى الله عليه وسلم في رفض الطلب: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

٣. الجهل بحقيقة التشريع.

والقرآن الكريم لا يصم المقلد بالجهل فقط، بل ويصم المتبوع كذلك. فمن حيث التشريع وجدنا القرآن الكريم ينعى على المقلد الذي يتبع آباءه الذين شرعوا له مالم يأذن به الله، هؤلاء الآباء الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

فقال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

وهذه الآية سبقتها آيتان تتحدثان عن حق الله في التشريع الذي يجب أن يطبق لا أن ينازع.

إن الله تعالى هو الخالق المالك الرازق؛ ومن حقه وهو يعلم من خلق، ويعلم ما يصلح الخلق ويفسده أن يضع التشريع الذي يصلح خلقه ولا يفسدهم. ولما جهل الكفار حقيقة علم الله، وجهلوا حقيقة أنفسهم وقلة علمهم وجهلوا حقيقة الكون، ذهبوا ينازعون الله هذا الحق وأخذوا يشرعون مالم يأذن به الله. فالنزاع بين الرسل والدعاة من جهة، وأقوامهم من جهة أخرى، لم يكن -في الأغلب الأعم- حول قضية الربوبية، فأهل الكفر يعترفون لله بالربوبية.

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩].

ولكنه كان حول من تكون له السلطة والحاكمية. فوجدنا حكم الطاغوت وتشريعاته، ينازع حكم الله تعالى دائمًا.

وأراد بعض الصحابة رضي الله عنه أن يحرموا على أنفسهم بعض ما أحل الله من نساء وطعام ونوم[1]، تقليدًا لرهبانية النصارى، ظنًا منهم أن ذلك فيه زيادة قربى إلى الله تعالى، فكان قول الله تعالى ناهيًا إياهم عن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧].

فسمى الله تعالى تحريم ما أحل اعتداء، فهو اعتداء من حيث جعل النفس هي المشرعة من دون الله، وتحرم ما يصلحها، وتحل ما يفسدها، وهذا لا يكون إلا من جاهل.

واليوم جهل كثير من المسلمين من له

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص٢٠٦.

الحق في التشريع؛ فقصروا فهمهم للإسلام على عبادات تقام، ويستفتونه في لباس أو شراب أو نكاح، أما النظم العامة، فلم يعد الاستفتاء فيها للإسلام، بل للدساتير الوضعية.

والجهل من أسباب الارتماء في أحضان الحضارة الغربية، فمن فسد تصوره عن الإسلام وأحكامه، وتاريخه ومدنيته وحضارته، لا بد أن يتأثر بكل غزو فكري، وينقاد لكل فكرة لا أخلاقية لأنه فارغ العقيدة والعلم[1].

وهذا ماثل في حياة المسلمين اليوم، ففي تقليد الحياة الاجتماعية حينما سفهت المرأة أمر دينها خرجت عارية متبرجة تبرج الجاهلية الأولى، الذي ينهى الله عنه بقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وفي جاهلية المجال الاقتصادي، نجد الكثير من المسلمين يتعاملون بالربا، والاستغلال تقليدًا للفكر الرأسمالي الغربي. وفي مجال الحكم، قلد من بيده مقاليد المسلمين الغرب في تطبيق التشريع العلماني، متخذين تشريع الله وراءهم ظهريًا. وهذا كله لجهلهم بحقيقة تشريع الله النافع الصالح، ولجهلهم بحقيقة التشريع الوضعي الضار.

ثانيًا: اتباع الهوى:

اتباع الهوى مذموم في كتاب الله تعالى، ويكون في أمور أهمها:

١. اتباع الهوى في الشبهات.

اتباع الهوى يكون في شبهات كثيرة منها: شبهة الغلو والشرك، والحكم بغير ما أنزل الله، واستبدال التشريع الرباني بالتشريع الوضعي.

أما اتباع الهوى في شبهة الغلو، فقد نهى الله تعالى أهل الكتاب عن اتباع أسلافهم في الغلو في عيسى عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

وجاءت الشبهة من أن الذين عبدوا مع الله غيره، كانوا يرون أن الحق في اتخاذ آلهة مع الله تعالى[2].

وقريب من غلو النصارى في عيسى عليه السلام تبعًا لأهواء من ضل قبلهم وأضل، وجدنا كذلك متبعي الأهواء من كفار مكة قلدوا آباءهم في عبادة الأصنام.

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ

(١) انظر: الشباب المسلم في مواجهة التحديات، عبد الله علوان، ص١٩٥، التقليد والتبعية، ناصر العقل، ص١١١-١١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي. ٢٣/ ٩٧.

﴿١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

وصاحب الهوى متقلب في عبادته، واختيار معبوده، فيتنقل بين معبوداته حسب هواه. يروي الطبري عن سعيد قال: «كانت قريش تعبد العزى، وهو حجر أبيض، حينًا من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر، فأنزل الله ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية: ٢٣]»[(١)].

واتباع الهوى سبب في الصد عن اتباع الحق، فالله عز وجل خاطب موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ١٦﴾ [طه: ١٥-١٦].

وخاطب نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم مبينًا تشابه كفار مكة مع قوم موسى عليه السلام في ترك الحق اتباعًا لأهوائهم فقال الله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [القصص: ٥٠].

يقول صاحب التفسير الوسيط: «ما يتبع هؤلاء الجاهلون في عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة، إلا الظنون الكاذبة، وإلا ما تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء، وتقليد للآباء بدون تفكر أو تدبر»[(٢)].

ووجد في المسلمين فرق غالت في الرجال والعقائد اتباعًا لهواها -مضاهاة لليهود والنصارى- ومنها بعض الشيعة الذين غلوا في آل البيت والحسن والحسين والأئمة، حتى رفعوهم إلى درجة النبوة، بل ومنهم من رفع الأئمة فوق مرتبة النبوة.

وكما كان اتباع الهوى في شبهة العقائد، كذلك كان في شبهة التشريع.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ١١٩﴾ [الأنعام: ١١٩].

وشبهة الكفار في تحليل الميتة أن ما ذبح الإنسان فحلال، وما قتل الله فحرام، فهل الإنسان أحسن من الله؟! فلا بد من تحليل ما قتل الله (الميتة) بزعمهم[(٣)].

وكان من تشريع كفار مكة تلاعبهم في الأشهر الحرم، كما أخبرنا الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٧٦.

(٢) الوسيط، طنطاوي، ١٤/ ٧٠.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٨٠.

﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧][1].

وكانت العرب تمتنع من الغارات في هذه الأشهر. فلما كان ترك القتال يطول هذه المدة- ثلاثة أشهر متتالية- أخذوا يحلون هذه الأشهر ويحرمون بدلًا منها غيرها. وهذا التحليل والتحريم كان تبعًا لأهوائهم. وهذا الفعل لكفار مكة، وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، يشابه فعل اليهود من قبل في التبديل والتحريف.

فقد قال الله عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١].

فقد غيروا حكم الزاني المحصن من الرجم إلى الجلد والتحميم، وهذا تبعًا لهوى أنفسهم التي كبر عليها رجم علية القوم إذا زنوا.

ولقد خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم محذرًا إياه من اتباع أهواء اليهود وأن يحكم لأشرافهم على خصومهم بغير حق: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

والتحذير الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم، تحذير لأمته. واليوم نرى تبديل حكم الله تعالى في عالمنا الإسلامي، فتشابه حكام المسلمين باليهود والغرب العلماني في تعطيل حكم الله تعالى، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ كي لا يتهموا بالرجعية. فالحدود معطلة، إذ السارق من ضعفاء القوم له السجن بدل قطع اليد. والزانيان بالرضا لا عقوبة عليهما. وشارب الخمر لا جلد عليه. والقصاص معطل، فالقاتل عمدًا يسجن، ويقتل غيره من أقربائه ثأرًا، كما هو الحال في الجاهلية الأولى. والقانون يحكم به على الضعيف دون الشريف.

٢. اتباع الهوى في الشهوات.

بين الله تعالى في كتابه العزيز حب الناس للشهوات، فقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومن الناس من يحبها حبًا جمًا، ويتبع هواه في حبها لدرجة هلاكه من حيث لا يشعر، فيعميه حبها عن اتباع الحق، وتكون له إلهًا يعبد.

يقول ابن تيمية: « فهذا الاتباع والتقليد الذي ذمه الله هو اتباع الهوى إما للعادة والنسب كاتباع الآباء، وإما للرئاسة كاتباع الأكابر والسادة والمتكبرين، فهذا مثل تقليد

(١) والأشهر الحرم التي حرمها الله تعالى أربعة: ثلاث سرد، وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وواحد فرد؛ وهو رجب.

الرجل لأبيه أو سيده أو ذي سلطانه»[1].

ووجدنا آيات كثيرة تتحدث عن اتباع الهوى في كثير من الشهوات منها:

❁ اتباع الهوى بسبب الكبرياء.

إن خلق الكبرياء، خلق يعمي عن اتباع الصراط المستقيم ومن اتبع هواه في هذا الخلق واستكبر، وجد نفسه معاندًا للحق، صادًا عن سبيل الله تعالى. ولقد وجد هذا الأمر في الأمم والأفراد، فقال الله سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧].

فبنوا إسرائيل استكبروا عن سماع الحق واتباع الرسل، فقتلوا فريقًا منهم وكذبوا فريقًا. وفعلهم هذا مثل فعل فرعون وقومه حينما أنكروا الحق ظلمًا وعلوًا.

إذ قال الله تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فأنفسهم أيقنت الحق، ولكنهم رفضوه تكبرًا، ففرعون استكبر عن الحق تبعًا لهوى نفسه في جعلها إلهًا من دون الله، وقومه اتبعوه عبادة له من دون الله تعالى.

فصدق قول الله عز وجل فيهم: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩].

فكانت صفة الاستكبار ماثلة في بني إسرائيل وفي فرعون وجنوده. والأمر ذاته نجده ماثلا في أبي جهل، الذي نزل فيه قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدث في شأن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق! فقال له: مه! وما دلك على ذلك؟ قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين؛ فلما تم عقله وكمل رشده، نسميه الكاذب الخائن!! والله إني لأعلم أنه لصادق! قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به! قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى إن اتبعته أبدًا. فنزلت ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾[2].

فأبو جهل أيقن أن محمدًا صلى الله عليه وسلم على الحق، إلا أنه كذبه اتباعًا لهواه، وصدًا عن سبيل الله تعالى كبرياء من نفسه، وبقي بهذا مقلدًا لدين آبائه. واليوم نرى هذا الأمر ماثلًا في كثير من أهل الكبرياء استنكافًا عن الحق، واتباعًا لما سبق.

❁ اتباع الهوى في العمل بخلاف ما يعلم.

علم الله تعالى الإنسان مالم يعلم، والأصل في الإنسان أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة بأن يؤدي حق الله فيها، إلا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢٠/ ١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١٣.

أن هناك ممن تعلم حتى إذا صار عالمًا اتبع هواه، فعندها قال أو عمل خلاف ما يعلم.

ولقد ذكر الله تعالى هذا الصنف في كتابه العزيز فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وهذه الآية كانت في يهودي آتاه الله علمًا، فذهب إلى من أغدق عليه العطاء فتبعه وترك دين موسى عليه السلام[(١)].

وعلماء السلاطين موجودون في كل حين، تتعاقب وتتشابه فعالهم في إرضاء سلاطينهم تبعًا لأهوائهم.

يقول سيد قطب: «وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله، ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعًا»[(٢)].

والآية تبين أن هذا الصنف من العلماء: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: اطمأن إليها وسكن حيث ملذاته وشهواته واتبع الهوى في حبها، والأصل أن يرفعه علمه إذا عمل به، إلا أنه آثر الحياة الدنيا، فنزل من العلو إلى السفل، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وكان من الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: ٤٤].

وابتلي بعض علماء أمة الإسلام بمثل ذلك، فباعوا آيات الله تعالى بمنصب رخيص، ورضى حاكم جائر، تثبيتًا لعرشه، واتباعًا للهوى، فبئس ما يشترون. وهذا الصنف من العلماء أخطر على الأمة من ملأ الحاكم الجائر وجنده؛ لأن الحاكم الظالم يستند في شريعة أفعاله إليهم، ويعد نفسه على الحق؛ وبهذا يزداد السلطان عتوًا وإفسادًا.

- اتباع الهوى في قلب الحقائق.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦].

ففرعون ينظر إلى موسى على أنه المفسد ويرى نفسه مصلحًا، فأصبح المعتدي على الألوهية الحقة -طمعًا في إبقاء ألوهيته الزائفة المتبعة للهوى- هو الحق، ومن أراد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٣١.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٣٩٨.

إرشاد العباد لخالقهم هو المفسد! بل وعد نفسه أنه الهادي قومه إلى الرشاد، الآتي لهم بشرع رشيد.

قال الله سبحانه عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وتكرر الأمر من قوم لوط، حينما نظروا إلى من ترفع عن الفاحشة وتنزه عنها، بأنه لا يستحق مجاورة ولا مساكنة، فهم الجديرون للأرض والوطن، وغيرهم ممن لا يفعل فعلهم ليس له إلا الطرد والنفي!

فقال سبحانه عنهم: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦].

كذلك نجده هذا الأمر من أهل مكة الذين شاركوا فرعون وقوم لوط في قلب الحقائق تلبية لرغباتهم وشهواتهم، حينما حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم لأنه عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، واتهموه بالسحر والكذب والكهانة، وأنه أفسد بين الولد ووالده، وفرق بين المرء وزوجه، فلا بد من سجنه أو قتله أو طرده، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

وتتوالى السنون والأيام، وتمشي معها الحالة المكرورة من قلب للحقيقة، فيصبح: الأمين خائنًا، والخائن أمينًا، والمصلح مفسدًا، والمفسد مصلحًا، والمجاهد إرهابيًا لا يستحق الحياة، ولا بد من محاصرته ومطاردته ونفيه من الأرض. فتصنف الناس حسب الأهواء والأمزجة. تشابهت القلوب، فحاكت الأفعال بعضها بعضًا.

ثالثًا: الخوف والاستضعاف:

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه بالعقل والإرادة. وحينما يتنازل عن هذا التكريم الإلهي، فإنه يصبح موبوءًا بوباء التبعية، ويسلم قياد نفسه لغيره، ويعطل عقله، ويسيطر الخوف والضعف عليه. ومن هنا نجده يمتثل أمر سيده، ويجتنب نهيه، تاركًا كتاب ربه وراءه ظهريًا، ومعرضًا عن سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، حجته في ذلك: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾، أو ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ومن خلال ذلك سيكون تحت هذا المطلب أمران هما:

١. الخوف.

يعرف الخوف بأنه «توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب»[(١)].

والخوف جبلي-وهو ماكان مفطورًا عليه المرء- لا مؤاخذة فيه، وأما النفعي،

(١) التعريفات، الجرجاني، ص١٣٧.

فهو الذي يجلبه المرء لنفسه نتيجة ضعفها. والخوف النفعي قد يكون خوفًا من قوة متوقعة، وخوفًا على المال أو المنصب. وهذا كان سببًا في تقليد الكافرين ومتابعتهم، والإعراض عن سبيل المؤمنين.

يقول الله عز وجل: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

نزلت هذه الآية في المنافقين - وعلى رأسهم ابن سلول - الذين والوا اليهود[(١)]، وعملوا بأعمالهم مقلدين إياهم في الصد عن دين الله. ويحملهم على ذلك؛ خوفهم أن يهزم المسلمون، فتكون لهم يد عند من يوالونهم، يحفظون بها أنفسهم «ولكن حجة ابن سلول، هي حجة كل ابن سلول على مدار الزمان؛ وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب لا يدرك حقيقة الإيمان»[(٢)].

وتتكرر صورة ابن سلول وأعوانه اليوم في خشيتهم من اليهود، ومسارعتهم في المحافظة على كيانهم وأمنهم، قائلين: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ فالمسارعة في خدمة يهود، والبحث عن رضاهم، ديدن المنافقين في هذه الأمة قديمًا وحديثًا، محتسبين أن كل صيحة عليهم.

وتعدية المسارعة بكلمة (في) وليس بكلمة إلى كما في قوله الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

دليل على أنهم غارقون في التقليد والتبعية، وهذا ينم عن نفسية مريضة، فهم يهرعون في نصرة العدو ونقل أخبار المسلمين إليه. وفي هذا دليل على عميق مرض أنفسهم، وعدم ثقتهم بوعد الله بالنصر. فلما كانت النفس بهذا السوء والهزيمة؛ سهل انقيادها لليهود والنصارى وأشياعهم، وعملت -وهي راضية- ما تطلبه يهود في مطاردة الإسلام وأهله، ونشر الفساد والإلحاد، وحمايته بالأموال والأنفس؛ فالأمر ماثل للعيان في هذا الزمان مشابهة لابن سلول. وحيثما وجدت نفس بهذا المرض، كانت مقلدة ذائبة في غيرها. وهذا في كل زمان.

والمخاطب بالرؤية معروف وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، أو من يصلح للخطاب من أمته. والفعل (ترى) مضارع يدل على الاستمرارية، وهذا يعني أن المسألة تتكرر في كل زمان، ولم يكن الحديث مع غائب، ولعل ذلك -والله أعلم- من باب أهمية المؤمن المخاطب، وحظه عند الله تعالى، وتحذيره من أن يصيبه ما أصاب المسارعين فيهم.

وكما أن الخوف من الدائرة، سبب

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ١٩٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب. ٢/ ٩١٦.

تقليد، كان الخوف على المصالح المادية أيضًا، فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧]. وهذا كان من أهل مكة للرسول صلى الله عليه وسلم، رغم أن الله جعل لهم حرمًا آمنًا يجبى إليه ثمرات كل شيء. وشابه ذلك أهل زماننا، فكم من دولة عربية وإسلامية تتبع أوروبا وأمريكا، خوفًا على مصالحها الاقتصادية، أو حبًا في تخفيف الديون المتراكمة عليها، أو خوفًا من ضربة عسكرية، رغم ما أنعم الله عليهم ما لم ينعم به على غيرهم من طاقات بشرية وإمكانات اقتصادية.

ولئن كان الخوف من التخطف -إن اتبع الدين- هو شأن علية القوم، فقد وجدنا العامة من الناس، تلوك ألسنتهم الفكرة نفسها، فلكم تشنفت الآذان من ثقافة المجتمع المستضعف الخائف من البغي السلطاني، أو عدم الحصول على وظيفة، إن عمل لدينه حق العمل بشموله، أو جاهد نصرة له، محاربًا الظلم وأهله، ذابًا عن شرع الله تعالى، ومطالبًا بتحكيمه كاملًا غير منقوص. فسبحانك ربي، ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

فالحالة ذاتها على مر الأجيال.

ولئن سألتهم عن قناعتهم بهذه الفعال لقالوا: لسنا على قناعة بذلك ولكنها الوظيفة!! سبحان الله العظيم تشابهت القلوب مع قلوب قريش، ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾ فاعترف الفريقان بأن ما يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم والدعاة في كل زمان هو الهدى، لكنهم أعرضوا عن اتباعه، وبقوا على دين كبرائهم خوفًا، فحالهم كحال فرعون وجنده: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ولقد برر القوم عدم تبعيتهم لشرع الله بكلمة ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ الدالة على الأخذ بسرعة[1]. دلالة على شدة الهلع والخوف من الناس، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

والإهراع: «إسراع فيه شبه بالرعدة».[2] فالإسراع الشديد في التقليد والتبعية ثمرة الخوف الشديد. وهذه الحالة النفسية التي يصفها القرآن العظيم للمقلدين، تدل على ذوبان شخصية صاحبها في المتبوعين، وخوفها منهم.

٢. الاستضعاف.

وصف الله سبحانه وتعالى حالة الضعف كحالة تعتري النفس البشرية، تؤدي إلى الانقياد والتبعية للآخر المستكبر، فقال: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ١١٨.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٤٧.

لَكُم تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

والضعفاء هم الذين تنازلوا عن كرامتهم وحريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد، وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين الطغاة. والقوة المادية -مهما كانت- لا تملك إلا تعذيب الجسد، أما العقل والروح فلا يملك أحد حبسها إلا إذا أسلمها صاحبها للحبس والإذلال، فحينما ضعفت الأرواح والعقول سقطت همتهم، واتبعوا المستكبرين[(١)].

والضعاف هم الذين فقدوا صناعة القرار الذاتي، فأصبحوا مصنوعين لا صانعين، مقودين لا قادة. وهم الذين ذابت شخصياتهم فذاب قرارها الخاص بها في غيرها، ومن هان على نفسه، هان على الناس. فالضعفاء يقولون للمستكبرين: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، «أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا»[(٢)]، بل هم سادة في التطبيق والامتثال من فرط ضعفهم وذلهم وعبوديتهم، فهم: «لشدة تبعيتهم كأنهم عين التبعية»[(٣)].

لقد قلد الضعفاء الكبراء في أنواع الضلالات المختلفة، فلما كذب المستكبرون الأنبياء، كذلك كان الضعفاء، ولما كان المستكبرون معذبين للرسل عليهم السلام كان الضعفاء جلادين لديهم، منقادين للأمر دون تفكير.

والله تعالى لم يقبل عذر المستضعف، إذا كان قادرًا على الانتفاضة على ضعفه وذله، تاركًا تبعية كبيره، بل وحتى تكثير سواده -إذا لم يكن في الانتفاضة منكر أكبر من منكر الضعف والذلة-. يقول المولى عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

ولقد عبر القرآن الكريم عن المستضعفين بصيغة الفعل المبني للمجهول(استضعفوا)، لهوانهم على الله كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

وفي التعبير بصيغة المبني للمجهول دلالة على شدة مهانتهم لأنفسهم وعدم تقديرهم لكرامتها، فأذلوها مقلدين الذين استكبروا. وفي المقابل كان التعبير عن المستكبرين بصيغة المبني للمعلوم، لإظهار تفننهم في قيادة المستضعفين بالليل والنهار. فهم وجدوا قطيعًا ينفذ، فلماذا لا يأمرون؟! ووجدوا ضعفًا سهل انقياده، فلماذا لا يتكبرون! والكبر شعارهم، «والسين والتاء

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٥٤.
(٣) روح المعاني، الألوسي، ٢٤/ ٧٤.

للمبالغة في الكبر»[1]. وذلك أن المتكبر سعى في طلب الكبر.

ويبين يوسف العظم أن أعمق معاني الهزيمة تلك التي تنبع من داخل الإنسان، ولا يشعر بها، لأنه مخدر الذهن يحيا أجواء الغرور، ولا يفسح لغيره حوارًا[2].

وهذا ماثل تمامًا في حاضر أمة الإسلام اليوم، فقد انهزمت من داخلها، ولم تعد تعرف سر قوتها، وسر ضعف غيرها، فانبهرت بحضارة غيرها واتبعتها.

وقريب من هذا -الهزيمة النفسية التي كانت سببًا في التقليد- قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فبمجرد دعاء الشيطان استجابوا، وهذا دليل الخواء الروحي، والضعف العقلي، والفراغ الذاتي، أن لبوا نداء الشيطان في الضلال والإغواء، بمجرد الدعوة، كما هو شأن كل متبعي الشيطان في كل زمان.

والمغلوب مولع دائمًا بالاقتداء بمن غلبه، لاعتقاد الكمال في الغالب، فتجده يتشبه بالغالب في زيه ومركبه وسلاحه.[3]

والمتأمل في المجموعات الإنسانية، يرى أن نسبةً عظمى منها تضعف إرادتها وتنحني أمام إرادة ذوي السلطة السياسية أو الاجتماعية أو الروحية، وحينها تتعطل ملكاتهم فيكونوا إمعة. ويستغل القادة صفة الطاعة العمياء هذه لبث أفكارهم وعقائدهم التي فيها تمكين نفوذهم، وتسخيرهم لتحقيق ما تشتهي أنفسهم الآثمة من سلطان أو مال.[4]

رابعًا: تعظيم الأنبياء والأولياء:

يخرج في كل أمة أشخاص بارزون لهم بصمات في تاريخها، فمنهم من يبرز في ميدان العبادة، ومنهم من يبرز في ميدان المعارك، ومنهم من يبرز في ميدان العلم، ومنهم من يبرز في ميدان القيادة. وهذه الفئة من كل أمة يكون لها وزنها في أنفس الجماهير. ولما كان قول أهل النباهة له مكانة في الأنفس، فإن العامة تقول بقولهم، وتعمل عملهم. يقول القرطبي: «وأقوال النبهاء أبدًا مشهورة في الناس يحتج بها، فمن هنا صح أن تقول الجماعة قول نبيهها»[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ٢١٦.
(٢) انظر: المنهزمون دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة، يوسف العظم، ص١٩.
(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٧.
(٤) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، الميداني، ص٦٩٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٨٥.

فالنبيه تتبعه العامة، ويقلدونه في القول والعمل. ويكون الناس معهم أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: الغالي فيهم، المعظم لهم لدرجة العبادة.

الصنف الثاني: الجافي عنهم، إما جاهلًا بهم، أو حاسدًا لهم.

الصنف الثالث: الوسط بين الصنفين السابقين، ويتعامل مع هذه الفئة البارزة دون إفراط ولا تفريط.

وهذا المطلب سيدور حول الصنف الأول دون الثاني الذي لا يكون فيه تقليد، بسبب جهلهم الذي لا يدفعه إلى التقليد، أو حسده الذي يسبب معاداتهم والتي تمنع التقليد من الناس، وذلك في أمرين:

١. المبالغة في تعظيم الأنبياء عليهم السلام.

لقد بين الله تعالى أن اليهود زعموا أن عزيرًا ابن الله، وكذلك بالنسبة للنصارى في عيسى عليه السلام، فقال سبحانه عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠].

فعزير، مختلف فيه أنبي هو أم عالم من علماء بني اسرائيل؟ وأيًا كان الأمر، فالذي يهم هنا أنه قدس، بزعمهم أنه ابن الله زورًا وكذبًا.

يقول محمد سيد الطنطاوي: «وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة، وأطلقوا عليه لقب(ابن الله)»[(١)].

فعزير عظم عند اليهود، لما له من شأن في حفظ التوراة، في الوقت العصيب الذي ذهبت منهم هذه التوراة.

أما بالنسبة لعيسى عليه السلام، فقد أخبر الله تعالى عن فرية النصارى حين قالوا عنه بأنه ابن الله، وذلك لأنهم رأوا على يديه من المعجزات التي لا تصدر إلا عن إله، أو لأنه ولد لغير أب. فمن هنا، كان تعظيمهم له.

ولقد غالت النصارى في المسيح عليه السلام، وأطروه إطراءً تجاوزوا به الحد، فقال الله سبحانه وتعالى ناهيًا إياهم عن الغلو فيه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

والآية تنهى عن رفع عيسى عليه السلام من مقام النبوة إلى مقام الألوهية، فسلفهم ضل في هذه الفرية وأضل من بعده.

وبين الله تعالى كفر النصارى في عقيدة التأليه والتثليث لعيسى عليه السلام فقال

(١) الوسيط، طنطاوي، ٦/ ٢٥٧.

سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣].

فهاتان الآيتان تظهران كفر من اعتقد هذه العقيدة. وفيهما تحذير لأهل مكة التي ضاهى مشركوها اليهود والنصارى، حين خرقوا لله بنين وبنات بغير علم، وجعلوا الملائكة -الذين هم عباد الرحمن- بنات الله، وكذلك فيهما تحذير للمسلمين من أن يغلو في نبيهم صلى الله عليه وسلم، مشابهة لليهود والنصارى في العزير وعيسى، والذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا حينما قال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله)[١].

ومع هذا التحذير والإرشاد، إلا أنه وجد في الأمة من أعطى النبي صلى الله عليه وسلم بعض صفات الألوهية، كالتضرع إليه في قضاء الحاجات وتفريج الكربات ومغفرة الذنوب[٢].

فمن أهل التصوف من أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس له وما هو بريء منه، فاعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الله المستوي على العرش، وأن السماوات والأرض والعرش والكرسي وكل الكائنات خلقت من نوره وإنه أول موجود؛ وهذه عقيدة ابن عربي[٣].

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا رضي الله عنه حينما أراد السجود له، تقليدًا لنصارى الشام في السجود لأساقفتهم، وبين أن هذا لا ينبغي إلا لله وحده[٤].

خامسًا: تعظيم الأولياء:

بشر الله تعالى أولياءه الصالحين بألا يخافوا ولا يحزنوا فقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

و«أولياء الله هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة»[٥]، وهم الأقرب إلى الله تعالى، والأكثر طاعة له، وخشية منه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٥.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله، ص ٢٧٣، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، الفوزان، ١/ ٦٢.

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ٢/ ١١٥٧.

(٤) انظر: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة، ١/ ٥٩٥، رقم ١٨٥٣.

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٤٤.

والأولياء الصالحون وجدوا عبر التاريخ، فهم يتبعون الأنبياء والرسل عليهم السلام، وكانوا من الطاعة والعبادة لله ما ميزهم عن غيرهم، فأخذت الدهماء تنظر إليهم نظرة تقدير وإجلال وإكبار، فمنهم من ظن فيهم الشفاعة عند الله تعالى، ومنهم من أوصلهم إلى مرتبة الألوهية، فتوجهوا إليهم من أجل قضاء الحاجات، وتلبية الرغبات.

والناظر إلى آيات القرآن الكريم يجد ما يدل على ذلك. فقوم نوح قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

هؤلاء رجال صالحون كان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا جعل أتباعهم لهم صورًا ليتذكروهم، فينشطوا في العبادة والطاعة كلما رأوها. واستمر الحال حتى نسخ العلم وانتشر الجهل، وزين لهم الشيطان، أن هؤلاء الرجال الصالحين كان يستمطر ويستنصر بهم، فزاد تعظيمهم في الأنفس حتى وصلوا إلى عبادتهم.

وظاهرة تقديس الصالحين عادة سرت إلى أمة الإسلام ممن قبلنا وموجودة حتى يومنا هذا، فزمن ابن تيمية يقول عنهم: «وهؤلاء الذين يحجون إلى القبور يقصدون ما يقصده المشركون الذين يقصدون بعبادة المخلوق، ما يقصده العابدون لله منهم من قصده قضاء حاجته وإجابة سؤاله يقول هؤلاء أقرب إلى الله مني فأنا أتوسل بهم وهم يتوسطون لي في قضاء حاجتي... ومنهم من يجعل لصاحب القبر نصيبًا من ماله أو بعض ماله، أو يجعل ولده له كما كان المشركون يفعلون بآلهتهم، ومنهم من يسيب لهم السوائب، فلا يذبح ولا يركب، وما يسيب لهم من بقر وغيرها كما كان المشركون يسيبون لطواغيتهم»[1].

والناظر اليوم لعباد القبور، يرى الأعاجيب من سجود لأصحاب المقامات، واستشفاء بهم، وطلب رزق منهم، وغير ذلك مما لا ينبغي إلا لله وحده سبحانه.

وها هم قوم إبراهيم عليه السلام يعكفون على أصنام لهم، تعظيمًا لها، وتقليدًا لآبائهم. فقد دار الحوار بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه كما أخبرنا الله سبحانه عنهم في سورة الشعراء.

فإبراهيم عليه السلام يسأل قومه عن معبوداتهم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾، فيجيبون بأنها أصنام يظلون لها عاكفون: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾. فأخبرهم بصيغة السؤال الاستنكاري أنها لا تضر ولا تنفع ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾. فكان ردهم الذي يكشف خبايا

(١) الرد على الأخنائي، ابن تيمية، ص ٥٩.

أنفسهم في التقليد: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾. وكلمة ﴿بَلْ﴾ تظهر إضرابهم عن كلام إبراهيم عليه السلام، وعدم سماعهم له؛ لأن قضية تقليد الآباء أهم وأعظم عندهم. وهذا ينم عن تصميم، وقوة إرادة في أنفسهم لمسألة التقليد. فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فيه دلالة واضحة على تقليدهم آباءهم في الفعل، فالكاف للتشبيه. فهم يفعلون كما فعل آباؤهم، ومن تعظيمهم لهذه الأصنام أنهم ظلوا لها عاكفين.

وعاكفون من «عكف على الشيء يعكف ويعكف عكفًا عكوفًا: أقبل عليه مواظبًا لا يصرف عنه وجهه... لزم المكان[1]، فالعكوف من ملازمة الشيء.

وهذا من تعظيم الملازم للملازم. فهم عاكفون على عبادة الأصنام، منكبون على تعظيم من لا يستحق التعظيم، إظهارًا لما في أنفسهم من الابتهاج بهذه العبادة.

وكما عكف قوم إبراهيم عليه السلام على أصنام وتماثيل؛ تقليدًا لأسلافهم واقتفاءً لآثارهم، فقد وجدنا هذا العكوف عند قوم موسى عليه السلام، لكن مع معبود آخر هو العجل، صنعه لهم السامري، وتكررت كلمة (العكوف)، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩٠-٩١].

فكان الرد الذي فيه الغلظة وينم عن شدة التقليد: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩١].

وكلمة (لن) نفي فيه الشدة والتأبيد، وفيه دلالة على أنهم أشربوا حب العجل حتى أعماهم عن التأدب مع نبي الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

وكلمة ﴿فِي﴾ الدالة على الظرفية، تبين مدى الحب لعبادة العجل، وتعمقه في قلوبهم.

(١) لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ٢٥٥.

مجالات التقليد

أولًا: التقليد في العقيدة:

العقائد مسائل ثابتة، يجب الإيمان بها، ولا مجال للتلاعب فيها. إلا أن الأقوام حينما جاءتهم رسلهم بالبينات، مبشرين ومنذرين، جابهوا أنبياءهم بالكفر والنكران، وحجتهم في ذلك: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢].

والتقليد في العقيدة تكرر من الأمم في موقفها من رسلها، وإنكار البعث، والاحتجاج بالقدر. وولوج هذا الجانب من التقليد العقائدي سيكون في مسائل ثلاث:

١. التقليد في موقف الأمم من الرسل والدعاة.

أرسل الله تعالى الرسل تترا إلى الناس مبشرين ومنذرين، فمنهم من آمن، ومنهم من صد عن سبيله. والذين صدوا عن سبيله هم الأكثرية، وكانت لهم مواقف تجاه الرسل متكررة على مر الأجيال، ومن هذه المواقف: شبهة بشرية الرسل، وموقف التكذيب والاستهزاء بهم وبالدعاة. وسيكون الحديث عن هذين الموقفين.

الموقف الأول: شبهة بشرية الرسل.

تكررت هذه الشبهة على لسان الأقوام المكذبة للرسل عليهم السلام، ظنًا منهم أن الرسالة لا تنبغي إلا لملك مقرب، والبشر أدنى من هذا المستوى، ولئن كانت هذه لبشر، فتنبغي أن تكون لرجل عظيم في المال والجاه.

وجاءت هذه الشبهة على لسان الأقوام في أكثر من آية، منها قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن: ٦].

فهذه الآية ذكرت اتهام الأقوام للرسل عليهم السلام بأنهم بشر، وهذا الكلام لمجموع الرسل (رسلهم)، وفيه بيان أن الأقوام توارثت هذه الشبهة، وتفوه بها اللاحقون تقليدًا للسابقين.

فقد كانت حكاية هذه الشبهة على لسان الملأ من قوم نوح عليه السلام حين دعاهم: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦].

فكان ردهم كما قال الله سبحانه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤].

والأمر نفسه يتبعه قوم عاد وثمود، فقال الله سبحانه مقولتهم: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ

﴿كَٰفِرُونَ ١٤﴾ [فصلت: ١٤].

وتتوالى الأمم في إنكارها لبشرية الرسل عليهم السلام، حتى يصل الأمر لقوم فرعون فيخبر الله تعالى عنهم استنكارهم لبشرية موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧].

كذلك قوم شعيب عليه السلام يتابعون غيرهم في هذه الشبهة، فيقول الله عنهم: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٦].

وكذلك يقولها أهل أنطاكية لرسلهم الثلاثة الذين أرسلهم إليهم عيسى عليه السلام: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس: ١٥].

وتستمر البشرية في التواصي على هذه الشبهة، حتى يأتي أهل مكة فيكرروها لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ [يونس: ٢].

وهذا العجب الذي حصل من أهل مكة في بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم سبقهم إليه قوم نوح إذ قال الله تعالى عن ذلك: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ﴾ [الأعراف: ٦٣].

وكذلك جاء هذا العجب من قوم عاد وبنص الآية السابقة نفسها[1]، «فإنكار رسالة البشر عام في كل الأمم»[2].

الموقف الثاني: التكذيب والاستهزاء والطرد.

المجتمعات البشرية تكون على نمط معين من الحياة، فيها كبراء يقودون رعية هي لهم تبع، فإذا كانت هذه المجتمعات ظالمة منحرفة عن عقيدة التوحيد، أرسل الله إليها الرسل مبشرين ومنذرين، وتكون هذه الرسالة تحريرًا للضعفاء من التبعية العمياء للكبراء، وهداية الجميع لله وحده. وهذه الرسالة الجديدة تجد الاستجابة من الضعفاء، والصد والعنت -عادة- من الكبراء، وحجتهم أن الرسل وأتباعهم ليسوا من علية القوم وملئهم، بل هم من الضعفاء.

وعند توالي تبعية المستضعفين للرسل والدعاة، يستشعر الكبراء الخطر في ضياع نفوذهم، وذهاب طاعة المستضعفين لهم، فيبدأ هؤلاء الكبراء بإثارة الشبهات حول الرسالة الجديدة لهدمها، فيكذبونها ويستهزؤون بها. وحينما لا تفلح حجتهم أمام حجة دين الله تعالى يلجئون إلى القوة والبطش وطرد الرسل والدعاة. وهذا الأمر

(١) الأعراف: ٦٩.
(٢) أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٤٠.

ديدن الكافرين قديمًا وحديثًا، كما أخبرنا القرآن العظيم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١١﴾ [الحجر: ١٠-١١].

يقول ابن عاشور: «﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يدل على تكرر ذلك منهم، وأنه سنته، (فكان) دلت على أنه سجية لهم، والمضارع دل على تكرره منهم»[1].

وكذلك بين الله تعالى أن اتهام الرسل عليهم السلام بالسحر أو الجنون ديدن الأقوام الكافرة، فقال الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

والآية تتحدث عن عموم الأقوام الذين جاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان قولهم لرسلهم إلا أن قالوا: ساحر أو مجنون. وهذا ما قالته قريش لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوم نوح عليه السلام يتهمونه بالجنون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

والتهمة نفسها وجهت إلى سيدنا موسى عليه السلام من فرعون، حيث قال الله تعالى مقولته: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧﴾ [الشعراء: ٢٧].

وكذلك فعل كفار مكة مع محمد صلى الله عليه وسلم فوصفوه بالكذب والجنون في أكثر من موطن، فقال الله سبحانه عنهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨].

وكما كانت الأقوام تتوالى في الاستهزاء بالرسل عليهم السلام، كذلك كان الحال بأتباع الرسل المؤمنين.

فقوم نوح عليه السلام اتهموا من آمن به بأنهم ليسوا من أهل العقل، وليس لهم رأي سديد، فقال الله سبحانه: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود: ٢٧].

وشابه ملأ قريش ملأ قوم نوح في ازدراء المؤمنين أتباع الرسل، فكان أغنياء مكة وكبراؤها، إذا مروا على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ورأوا ضعفاء المسلمين كعمار وخباب وصهيب رضي الله عنهم، استهزؤوا بهم وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى، لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقونا إليه، وما خصهم الله به دوننا[2].

ومن مسلمي اليوم من يستهزئ بالملتزمين بشرع الله تعالى في أفلام فضائيات هابطة وجوالات محمولة. وهؤلاء

(١) التحرير والتنوير. ابن عاشور ١٤/ ٢٣.
وانظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٩٥.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ٢٣٧.

يشبهون المنافقين في أخلاقهم وصفاتهم الذين قالوا في غزوة تبوك عن الصحابة: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء»، يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأنزل الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦][1].

ولما لم يجد التكذيب والاستهزاء نفعًا أمام المستمسكين بدينهم، الثابتين عليه، رفع أهل الكفر سقف المحاربة إلى التهديد والوعيد لرسل الله وأتباعهم بالإخراج من أوطانهم.

فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

فهذه الآية جاءت بعد الحديث عن أقوام موسى ونوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله[2]، والآية تكلمت بلسان الجمع ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾، وهذا يعني أن النفي والطرد من سنة الكافرين، فقلد اللاحقون السابقين.

وهذا النفي والإخراج كان تهديدًا من قوم شعيب لشعيب عليه السلام ومن آمن معه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وكذلك من قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦] إلى أن جاء زمن النبي صلى الله عليه وسلم فكانت المؤامرة التي أخبر الله تعالى عنها: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وتستمر المؤامرة ضد أتباع الرسل عليهم السلام، وضد الدعاة الصادقين المنادين بتطبيق شرع الله تعالى، والواقفين في وجه الظلم والاحتلال والاستعباد. فترى السجون في طول البلاد وعرضها للدعاة المخلصين الذين نادوا بتطبيق دستور الإسلام، حتى إنه من شدة البطش والتنكيل كانت الهجرة القصرية إلى بلاد الكفر، هروبًا من بطش الظلمة في ديار المسلمين، إذ إنهم وجدوا بلاد الكفر أكثر أمنًا من بلادهم.

٢. التقليد في إنكار البعث.

اليوم الآخر يوم أخبرت به الرسل جميعًا وهو يدرك عقلًا، إن أحسن العقل التفكير. إلا أن من الناس من عطل عقله وأسلمه لغيره انقيادًا له وتبعية؛ وبات يتذرع بأن ما جاءت به الرسل، إن هو إلا أساطير الأولين.

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص١٦٩.
(٢) انظر: سورة ابراهيم: ٩.

فقال الله تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون: ٨١-٨٣].

فأهل مكة قالوا مثل ما قال أسلافهم: أنه لا بعث بعد رميم العظام.

ومتكأ القوم في تكذيبهم للبعث، أنه وعد متكرر لآبائهم الأقدمين، فهم قالوا مثل ما قال أسلافهم، وكذبوا مثل ما كذب الأولون. والملاحظ أن(سورة المؤمنون) ذكرت قوم نوح، فقوم ثمود، فقرونًا آخرين، فقوم موسى ثم ذكرت حكاية أهل مكة في إنكار البعث كما في الآيات السابقة.

ويبين الله تعالى أن قوم عاد ردوا على هود عليه السلام دعوته بالإيمان بالبعث، منكرين التعذيب لهم بعد الموت، عذرهم كما وصفهم الله تعالى بأن هذا خلق الأولين، فقال الله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣].

إلى أن يقول عنهم: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨].

فقوم عاد يقتدون بمن سبقهم في إنكار البعث. وأشار القرآن الكريم إلى إنكار قوم موسى عليه السلام للآخرة، حين نهاه الله عن اتباع من صد عنها كفرًا بها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥-١٦].

ويستبعد الكافر البعث؛ لأنه بزعمه مخالف للمعهود عنده. ويعبر عن ذلك بسؤال استنكاري، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: ٦٦].

وكذلك يستعظمه؛ لأن الله في ظنه المزعوم غير قادر عليه.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩].

وهم يتعجبون منه، إذ يقول الله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٥].

ولك أن تتصور شدة العناد في إنكار البعث من أهل الكفر، حينما تعلم أن القرآن الكريم أورد آيات كثيرة إثباتًا لهذه العقيدة، أمام صلف الكفار، بل إن سورًا كسورة الكهف ومريم وسبأ يكاد يكون موضوعها الأساس إثبات البعث[1].

(١) انظر: في ظلال القرآن. سيد قطب. ٤/ ٢٢٩٩، و ٥/ ٢٨٨٨.

وفي العصر الحديث أطل علينا مكر شيوعي إلحادي لا يؤمن إلا بالمادة. فكل ما هو محسوس ومشاهد فهو موجود، أما غير ذلك من غيب غير مشاهد فلا إيمان به ألبتة. وبناءً على ذلك فليس للكون نهاية ولا حدود، ولا يوم آخر!

وهؤلاء القوم امتداد للماديين قديمًا أعداء الرسل الذين تطاولوا بالمادة وأنكروا البعث.

والذي يتولى كبر إنكار البعث هم المترفون، كما يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥].

فذكرت أنه ما من قرية أرسل الله إليها رسولًا، إلا كان من ضمن ما أنكره مترفوها: البعث ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. وهذا يتابع فيه المترفون اللاحقون إخوانهم المترفين السابقين أيضًا، ويحاكونهم في ذلك. وقد ذكر الله سبحانه إنكار عموم المترفين للبعث حينما تحدث عن أصحاب الشمال، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة: ٤٥-٤٧].

ومن غرور المنكرين للبعث ظنهم أن الله أعطاهم في الدنيا أموالًا وأولادًا، اعتقادًا منهم أن ذلك كرامة لهم من الله، فلئن رجعوا إلى يوم القيامة- على تقدير حصوله عندهم حسب اعتقادهم الفاسد- فسوف يكون لهم الحسنى، فهم يعتقدون أن الله سيؤتيهم يوم القيامة خيرًا مما آتاهم في الدنيا- إن وجد حسب ظنهم-. وتكرر هذا الغرور في سورتي الكهف ومريم المتتاليتين في المصحف ترتيبًا.

فقال الله سبحانه عن رجل من بني اسرائيل[1]: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦].

وتحدثت سورة مريم عن العاص بن وائل[2]: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧].

فكلاهما أنكر اليوم الآخر، وزعم أنه لو جاء يوم القيامة ليكونن لكل منهما خير مما أوتي في الدنيا. وانظر للتوكيدات في الآيتين: ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ و﴿لَأُوتَيَنَّ﴾، وهذا يدل على شدة الغرور والجهل.

٣. التقليد في الاحتجاج بالقدر.

الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، وهذا من الأركان التي يساء فهمها، ويحمل

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ٥٤٠.
(٢) انظر: صحيح مسلم، لمسلم، كتاب التوبة، باب في نزول ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، رقم ٧١٦٤، ٨/ ١٢٩.

من التفسيرات ما لا يحتمل. وإساءة الفهم هذه قديمة جديدة، عايشها القدماء، وسايرها المحدثون. ولقد بين الله عز وجل في كتابه الكريم فهم الأقوام الخاطئ لهذا الركن حينما كانوا يتعذرون بالقدر على فعل المنكر، بعبادة غير الله تعالى، وتحريم ما أحل الله من الحرث والأنعام، وكذلك التلاعب في كيفية اللباس عند الطواف.

فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٥].

يقول المشركون: ما نعبد هذه الأصنام، ولا نحرم ما حرمنا من السوائب والبحائر، إلا بمشيئة الله ورضاه، ولولا ذلك لعاقبنا على ذلك. وهذا كما فعلت الأمم المشركة الذين استن هؤلاء سنتهم، فقالوا مثل قولهم، وسلكوا سبيلهم في تكذيب رسل الله، واتباع أفعال آبائهم الضلال.

وهذا طريق متعين لكل الكفار المتقدمين والمتأخرين في تكذيب الأنبياء وفي دفع دعوتهم عن أنفسهم[(١)].

كذلك بين الله تعالى احتجاج الأقوام المتعاقبة على فعل المعاصي بالقدر في سورة الأنعام حيث قال الله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

يقول ابن عاشور: «﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: كذب الذين من قبلهم أنبياءهم مثل ما كذبك هؤلاء. وهذا يدل على أن الذين أشركوا قصدوا بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ تكذيب النبي- صلى الله عليه وسلم إذ دعاهم إلى الإقلاع عما يعتقدون، بحجة أن الله رضيه لهم وشاءه منهم مشيئة رضى، فكذلك الأمم قبلهم كذبوا رسلهم مستندين إلى هذه الشبهة»[(٢)].

فهم حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم كما فعل آباؤهم، وأرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي من عند الله!.

وكانت قبيلة من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا عذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم وعوتبوا عليه، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نقتدي بهم ونستن بسنتهم، والله أمرنا به[(٣)]، فأنكر الله عليهم ذلك وقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٠٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٨٤-١٨٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٤٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧٨-٣٧٩.

فهم يحتجون على فعل الفواحش بأنهم وجدوا آباءهم عليها، وأنها طاعات أمر الله بها، فنحن نستن بسنة الآباء، ونتبع أوامر الله بزعمهم.

وقدوة هؤلاء الكفرة إبليس حينما احتج بالقدر على معصيته في عدم السجود لآدم متوعدًا بني آدم بالإغواء والإضلال؛ لأن الله أراد له الغواية -بزعمه-، فقال الله سبحانه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦].

والباء سببية، كما يقول الزمخشري[(١)].

ومن الفرق التي احتجت بالقدر على المعاصي: فرقة المباحية[(٢)] التي أسقطت الشريعة مطلقًا، وأسقطوا الأوامر والنواهي الربانية، واحتجوا على ذلك بالقدر قائلين: إن الحبيب رفع عنه التكليف[(٣)].

ومن الفرق كذلك الجبرية[(٤)] الذين سلبوا العبد قدرته واختياره، وجعلوا حركاته بمنزلة حركات الجماد لا قدرة له عليها، ولا اختيار، وكل ما خلقه الله فقد رضيه وأحبه، وهؤلاء أعرضوا عن الأمر والنهي والوعد والوعيد، وتركوا الأعمال الصالحة والأخذ بالأسباب المنجية من عذاب الله تعالى، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا ما ذكره الله عنهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨][(٥)].

ومن المسلمين من شاكل هؤلاء المحتجين بالقدر على المعاصي وترك الفرائض، فإن قلت لمسلم تارك لفريضة الصلاة: لم لا تصلي؟ رد مجيبًا: الله قدر لي ذلك، وعندما يهديني سأصلي، فيا سبحان الله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾.[مريم: ٧٨].

فعلم ما كتب الله له، أم هو مكلف بمعرفة ذلك!! أم إنه لا يدري الفرق بين علم الله تعالى بكل شيء قبل حصوله، ووقوعه كما قدر وعلم، وبين أنه مكلف بالعمل والترك كما أمر الله تعالى ونهى!

وكذلك احتج بالقدر ذرية من ذرية آدم في تبريرهم شركهم أنهم وجدوا آباءهم مشركين فتبعوهم على شركهم، فقال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

(١) انظر: الكشاف، ٢/ ٨٧.

(٢) هم قوم يحفظون طاعات لا أصل لها، وتلبيسات في الحقيقة، وهم يدعون محبة الله، ويخالفون الشريعة، ويقولون: إن الحبيب رفع عنه التكليف.
انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي، ص٧٤.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٨/ ١٧٩.

(٤) الجبرية: يزعمون أن العبد ليس قادرًا على فعله. ومن ضلالاتهم: أن الجنة والنار تفنيان.
انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي ص٦٨.

(٥) انظر: أقسام الناس في الايمان بالقضاء والقدر، عبدالله الغفيلي، مجلة البحوث الإسلامية، عدد ٧٩، ص٩٠٣.

﴿بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾. [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

ومن وراء الاحتجاج الخاطئ بالقدر، تضيع الحقوق. ففي حالات القتل مثلًا، يأتي أهل الإصلاح لأولياء المقتول من باب القدر، وأن هذا الأمر مكتوب على قتيلكم، وذلك من أجل التخفيف عن المجرم أو العفو عنه. وبهذا تضيع الحقوق، فيزداد أهل الحق يأسًا، ويزداد المجرم إجرامًا.

ثانيًا: التقليد في الأحكام الشرعية:

خلق الله الكون، وهو يعلم ما يصلحه وما يفسده، ومن حقه وحده أن يضع له التشريع الذي يناسبه؛ فهو الأعلم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

فالحلال ما أحل والحرام ما حرم. إلا أن من الناس من يأبى إلا أن يأتي بتشريع من لدن نفسه، فمنهم من يتلاعب في العبادات والشعائر، فيغير فيها زيادةً أو نقصًا، ومنهم من يرى لنفسه حق التشريع، فيأتي بشرع غير شرع الله تعالى.

١ . التقليد في الشعائر.

الله تعالى خلقنا لعبادته، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وحتى تكون العبادة صحيحة ومقبولة فلا بد لها من شرطين: أن تكون خالصة لوجهه الكريم، وموافقة للشرع، يقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

إلا أن من الناس من يزين له الشيطان أن يعبد الله وفق هواه، فيأتي بعبادة لم يأذن بها الله. وهذا الصنف أمرنا الله تعالى بمخالفته في عبادات منها:

أولًا: الصلاة.

بالنسبة لشعيرة الصلاة، فقد ورد في السنة المطهرة ما فيه الأمر بمخالفة المشركين، فقد روى مسلم عن جابر: (اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلينا وراءه، وهو قاعد، وأبو بكر يسمع الناس تكبيره، فالتفت إلينا فرآنا قيامًا، فأشار إلينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعودًا، فلما سلم قال: إن كدتم آنفًا لتفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود. فلا تفعلوا، ائتموا بأئمتكم إن صلى قائمًا فصلوا قيامًا، وإن صلى قاعدًا فصلوا قعودًا)[1].

ففي هذا الحديث نهى عن التشبه بفارس والروم حتى في مجرد الصورة، وإن كانت نيتنا غير نيتهم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، رقم ٩٥٥، ٢/ ١٩.

ثانيًا: الحج.

وبالنسبة لبعض مناسك الحج، فقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ما فيه مخالفة للمشركين في الوقوف بعرفة والمزدلفة والدفع منهما، امتثالًا لقول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فقد ورد أنها نزلت في قريش، وكانوا يسمون أنفسهم بالحمس[(١)].

كانوا لا يقفون في عرفات، بحجة أنهم لا يخرجون من الحرم وقت الطاعة، وكان غيرهم يقفون بعرفات. ومن وقف بعرفة أفاض قبل غروب الشمس، ومن وقف بالمزدلفة أفاض إذا طلعت الشمس. فأمر الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم بمخالفة القوم في الدفعتين. وذلك بأن يفيض من عرفات بعد المغرب، ومن مزدلفة قبل طلوع الشمس، فبينت السنة المراد من الآية الكريمة[(٢)].

والحديث قصد فيه مخالفة المشركين[(٣)].

وقد دفع القرآن الكريم حرج الصحابة في السعي بين الصفا والمروة حينما ظنوا أن السعي بينهما من فعل الجاهلية.

روى البخاري عن هاشم بن عروة أنه قال: قلت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]. فما أرى على أحد شيئًا أن لا يطوف بهما.

فقالت عائشة: (كلا، لو كانت كما تقول، كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾)[(٤)].

فمن باب حرص الصحابة رضي الله

(١) الحمس: جمع أحمس وهو المشدد على نفسه في الدين.
انظر: عمدة القاري، العيني، ١٠/ ٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٢٨٣، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٤٢٢.

(٣) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٢/ ٣٦٧، واقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ص١١٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، رقم ٤٤٩٥، ٥/ ١٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، رقم ٣١٤٠، ٤/ ٦٩.

عنهم على مخالفة أفعال المشركين في الجاهلية، وألا يتشبهوا بهم في عباداتهم، تحرج بعضهم من السعي بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى ما يدفع هذا الحرج. وكان بالصفا والمروة صنمان إساف ونائلة، وقيل: إنهما رجل وامرأة زانيان، مسخهما الله تعالى فنصبا على الصفا والمروة ليتعظ بهما الناس، ثم نحر قصي بن كلاب عندهما وأمر بعبادتهما، فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة كسرهما كراهية لذينك الصنمين، والسعي بينهما، وكان ذلك سنة في آبائهم[(١)].

ثالثًا: الصيام.

وفي باب الصيام، وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح لنا مخالفة اليهود والنصارى في صيامهم. ففي مجال الترغيب في تعجيل الفطر، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(لا يزال الدين ظاهرًا ما عجل الناس الفطر، إن اليهود والنصارى يؤخرون)**[(٢)]. قال الطيبي: «في هذا التعليل دليل على أن قوام الدين الحنيفي على مخالفة الأعداء من أهل الكتاب وأن في موافقتهم تلفًا للدين»[(٣)].

وفي مجال مخالفة اليهود والنصارى في كيفية صيام يوم عاشوراء: روى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول حين صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى. فقال: **(فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع)**[(٤)].

فحينما أخبر صلى الله عليه وسلم بتعظيم أهل الكتاب ليوم عاشوراء، أضاف لصيامه التاسع؛ وذلك تركًا لمشابهتهم، وأمرًا بمخالفتهم.

٢. التقليد في الشرائع.

أمر الله تعالى كل رسول بتشريع يناسب قومه وحالهم، موصيًا إياهم بإقامته، فقال الله سبحانه: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

إلا أن المشركين ردوا شرع الله تعالى، زاعمين أنهم أهل للتشريع والتحليل والتحريم؛ فضلوا وأضلوا.

---

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٤٦-٤٧، تحفة الأحوذي، المباركفوري، ٨/ ٢٤٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٩٨١٠، ١٥/ ٥٠٣، وأبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب ما يستحب من تعجيل الفطر، ٢/ ٣٠٥، رقم ٢٣٥٣، والحاكم في المستدرك، رقم ١٥٧٣، ١/ ٥٩٦..
وصححه الحاكم على شرط مسلم.

(٣) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي، ٦/ ٣٤٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٦٣٦، ٣/ ١٥١.

قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ولقد ذكر الله تعالى قضية التحليل والتحريم في سور كثيرة -كانت الأنعام المكية والمائدة المدنية في مقدمتها- وربطها بالعقيدة، ليبين لنا أنه لا يمكن أن تكتمل دائرة الإيمان إلا بالعقيدة والشريعة معًا.

فأهل الجاهلية إن قيل لهم: اتبعوا شرع الله في الأنعام، قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه الآباء.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] نزلت في قبائل عربية حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة[١] والسائبة[٢] والوصيلة[٣] والحام[٤][٥].

والآية السابقة جاءت بعد نداء الله للناس بأكل الحلال الطيب من الأرض والنهي عن اتباع خطوات الشيطان[٦].

وجاء السياق بعدها يأمر المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم الله، ويبين لهم المحرمات الأربعة من المأكولات[٧].

ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

فهذه الآية جاءت بعد آية[٨] تنفي تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة التي كانت الجاهلية تصنع منها جزءًا من تشريعها.

فإذا دعي الكفار لاتباع ما أحل الله، واجتناب ما حرم قالوا مستكبرين: بل نتبع شرع آبائنا، فنحل ما أحلوا، ونحرم ما حرموا، فهم لنا سلف في التشريع، ونحن لهم خلف في التقليد. وهذا يظهر تغلغل

(١) البحيرة: ما كان العرب يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها، فيسيبوها فلا تركب ولا يحمل عليها.
انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٧

(٢) السائبة: التي كانت العرب تسيبها في المرعى فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن.
انظر: المصدر السابق. ٢٤٦

(٣) الوصيلة: هي الشاة إذا ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبحون أخاها من أجلها.
انظر: المصدر السابق. ٥٢٥.

(٤) الحام: الفحل إذا ركب ولد ولده، ويقال: إذا أنتج من صلبه عشرة أبطن، قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء.
انظر: غريب القرآن، السجستاني، ص١٢٠.

(٥) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص٤٨.

(٦) انظر: سورة البقرة: ١٦٨-١٦٩.

(٧) انظر: سورة البقرة: ١٧٢-١٧٣. والمحرمات الأربعة هي: الدم، ولحم الخنزير، والميتة، وما أهل لغير الله به.

(٨) انظر: سورة المائدة: ١٠٣.

التبعية للآباء في صدور المدعوين للإسلام، فحتى لو لم يكن الآباء يعقلون من أمر التحليل والتحريم شيئًا، وليس عندهم علم بما أحلوا وما حرموا، ولا عندهم كتاب اهتدوا من خلاله للتحريم والتحليل، فهم يتبعونهم في ذلك. وهذا عناد شديد وغلظة وجفوة وشدة في الصد عن دين الله تعالى.

وأراد قوم من الصحابة رضي الله عنهم أن يوجدوا تشريعًا لهم من عند أنفسهم، تشبهًا بالنصارى وذلك بتحريم بعض الطيبات من النساء والطعام كما يفعل القسيسون والرهبان، واتفقوا على صيام النهار، وقيام الليل، ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ولا يقربوا النساء والطيب، وأن يلبسوا المسوح، ويترهبوا، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنهاهم عن ذلك، ونهاهم عن التشبه بالقسيسين والرهبان. وبين أن تشددهم كان سببًا لهلاكهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧][1].

فالصحابة أرادوا تحريم طيبات أحلت لهم؛ فكان النهي عن ذلك، وسماه الله اعتداءً، فهذا ليس لهم ولا للبشر. وقد عد الله تعالى طاعة الجاهليات التي تتواصى بمجادلتنا في شرع ربنا شركًا، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].

والاعتداء على التشريع، لا يقتصر على تحريم طيبات أحلت، وتحليل خبائث حرمت. فالقضية قضية مبدأ، ولمن يكون التشريع في الأمور كلها، هل يكون لله وحده سبحانه؟ أم يكون للبشر؟ وبناءً عليه وجدنا الأحبار والرهبان نصبوا من أنفسهم آلهة لها الحق في التشريع بما تهوى أنفسهم، فكان لهم أتباع اتخذوهم أربابًا من دون الله.

يقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

روى الترمذي عن عدي ابن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه)[2].

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص٢٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة التوبة، رقم ٣٠٩٥. وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن

وكان على شاكلة هؤلاء، العرب الذين جاءهم عمرو بن لحي بتشريع جديد، غير فيه دين إبراهيم عليه السلام، فاتبعه جهلة العرب يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب)[1].

فهناك المشرعون في الأرض من دون الله، ولهم أتباع يأخذون بتشريعهم. فحق الحاكمية المطلقة-كما يبين سيد قطب- لله وحده، والبشر مجردون من مزاولة هذا المبدأ في أي صورة من الصور. وحينها تكون الصغيرة كالكبيرة، ولا يهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة، أو أمر دولة، فهذه كتلك من ناحية المبدأ[2].

ولقد أخبرنا القرآن العظيم عن تشريعات أهل الكتاب وأهل الجاهلية المخالفة لشريعة الله تعالى، من رفض لحكم الله تعالى سواءٌ في النظام الاجتماعي، أم النظام الاقتصادي، أم نظام العقوبات، أم غيرها من النظم. وتوالت الجاهليات في ذلك مستبدلة تشريع الله تعالى بتشريعها، تاركة كتاب ربها وراءها ظهريًا، وشرعت ما لم يأذن به الله.

فقد روى مسلم عن البراء بن عازب قال: (مر على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي محممًا مجلودًا، فدعاهم صلى الله عليه وسلم فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم. فدعا رجلًا من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك. نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، وكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه. فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ الى قوله ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١].

يقول: ائتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا[3].

فاليهود شرعوا التحميم والجلد على

الترمذي، ٣/ ٢٤٧.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة خزاعة، ٤/ ١٦٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١١٩٢-١١٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب يقول الله تعالى: (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)، رقم ٣٦٣٥، ٤/ ١٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، رقم ٤٥٣٦، ٥/ ١٢٢.

الزاني المحصن بدل الرجم مخالفين بذلك تعاليم التوراة. والحديث يبين لنا أن اليهود كثر في أشرافهم الزنا، وعز عليهم أن يقيموا عليهم الحد، فغير الأحبار شرع الله تعالى من الرجم إلى الجلد والفضيحة والتحميم. ولقد حاول بعض الصحابة رضي الله عنهم أن يفعلوا فعل اليهود بتغيير حد السرقة في المرأة المخزومية التي سرقت، لأنها من قبيلة لها اعتبارها وشأنها، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم، مبينًا لهم أن عدم إقامة الحد على الشرفاء وعلية القوم، وإقامته على الضعفاء فقط، ديدن الأمم السابقة، وكان هذا سببًا في هلاكهم.

فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة ابن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتشفع في حد من حدود الله). ثم قام فاختطب، ثم قال: (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[1].

وهذا التحاكم المذموم حسب الأهواء صفة المنافقين إخوة اليهود في الأخلاق، فقد أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: ٤٧-٤٨].

وهذا ينطبق على ساسة الأمة اليوم في عدم قبول حكم الله تعالى واستبدالهم إياه بحكم الطاغوت. فقانون البشر الوضعي هو المطبق في حياة الأمة الإسلامية، بدل الشريعة الإسلامية. ففي الناحية الاجتماعية، تجد خروج المرأة كاشفة عن مفاتن جسمها، أمر يحفظه القانون! واتخاذ الخليلات حرية شخصية لا يجوز التعرض لها، فالقانون يكفله! ولم نر حالة رجم أو جلد لزانٍ- وما أكثرهم- بل هي حرية شخصية لا يعاقب عليها القانون، بل يحميها!. وفي المجال الاقتصادي تجد التعامل بالربا عنوان غالبية البنوك في طول بلاد المسلمين وعرضها. وفي مجال العقوبات لم نر أي قطع يد للسارق- وما أكثرهم-، بل يسجنون شهورًا أو قليلًا من السنين، ثم يخرجون محترفين أكثر، هذا إن كان من العامة، أما علية القوم، فمعفو عنهم، مبرر لهم. ولم تكن هناك حالة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، رقم ٦٧٨٨، ٤/ ١٥٠.

قصاص لقاتل عمدًا، بل يقتل من لا ناقة له ولا جملًا من أقربائه. وهكذا نجد أن حياتنا يحكمها الحكم الذي قلد الطاغوت العلماني الغربي، لا بحكم الله تعالى. ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

ثالثًا: التقليد في الأخلاق:

بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق، ووصف الله عز وجل خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

ومكارم الأخلاق جاءت الأنبياء عليهم السلام لتبثها في الناس، ناهية في الوقت ذاته عن سيئها. وجاء القرآن الكريم ليحذر المؤمنين من التشبه بأخلاق أهل الكتاب والمنافقين والمشركين. ومن هنا سيكون تحت هذا المسألة العناوين الآتية:

١. تقليد أخلاق أهل الكتاب.

تحدث القرآن الكريم كثيرًا عن أهل الكتاب، مبينًا للمسلمين صفاتهم وأخلاقهم السيئة، ليكونوا على بينة من دينهم، وليحذروا هذه الصفات؛ حتى لا يصيبهم ما أصابهم. ومن صفات أهل الكتاب التي حذر القرآن المؤمنين منها: قسوة القلب، وقلة الأدب مع الرسل عليهم السلام، وإيذاء الأنبياء عليهم السلام، والتفرق والاختلاف.

فقسوة القلب نتيجة طبيعية لاقتراف المعاصي، والقلوب القاسية توعدها الله تعالى بالويل، فقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولقد اتصف أهل الكتاب بهذه الصفة- وخاصة اليهود- حينما طال عليهم الأمد؛ فلما كان الأمر كذلك نهى الله تعالى المؤمنين عن مشابهتهم في هذه الصفة الذميمة، وأمرهم بطاعته والخشوع لذكره، فقال الله سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

وسبب نزولها: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا قد أصابوا من العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم القحط والجهد، ففتروا عن بعض ما كانوا عليهم من الطاعة. أو أنهم أخذوا رضي الله عنهم في المزاح فنزلت[1].

والآية تنهى المؤمنين أن يسلكوا طريق أهل الكتاب في الانغماس في الشهوات ومتابعة الملذات؛ فتكون النتيجة قسوة قلوبهم، كما قست قلوب أهل الكتاب. والناظر اليوم لأمة الإسلام يجد هذه الصفة الذميمة موجودة في كثير من أبناء الأمة، لكثرة الذنوب، لا يعرفون معروفًا ولا

(١) انظر: لباب النقول، السيوطي، ص٢٠٤

ينكرون منكرًا. فشابهنا اليهود في حب الدنيا فكثرت الذنوب، فكانت النتيجة تشابهًا في قسوة القوب.

ومن أخلاق اليهود التي نهانا الله تعالى عن التخلق بها، قلة الأدب مع الأنبياء وإيذاؤهم. فنهى الله تعالى المؤمنين عن التشبه باليهود في قلة التأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾ [البقرة: ١٠٤].

وسبب نزولها- كما ذكر السيوطي- أنه: كان رجلان من اليهود: مالك بن الصيف، ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبي صلى الله عليه وسلم قالا وهم يكلمانه: راعنا سمعك واسمع غير مسمع، فظن المسلمون أن هذا الشيء كان أهل الكتاب يعظمون به أنبياءهم، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْ﴾[1].

وكلمة راعنا سب بلغة اليهود يورون عنها بالرعونة، وكان المسلمون يقولونها ظنًا منهم أن الأنبياء تفخم بها، فكره الله تعالى للمؤمنين أن يقولوه لنبيهم ذلك؛ سدًا للذريعة، ونهيًا عن تقليد اليهود في قصدهم.

فالله تعالى نهى المؤمنين عن التشبه باليهود في أقوالهم وكيفية مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت اليهود لهم كلمة عبرانية يتسابون بها تشبه كلمة (راعنا) وهي (راعينا) ومعناها: اسمع لا سمعت، أو أنت راعي غنمنا، وكان المؤمنون يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم إذا حدثهم بحديث: راعنا يا رسول الله، أي: راقبنا وانظرنا حتى نفهم كلامك ونحفظه، فتلقفها اليهود لموافقتها الكلمة السيئة عندهم، وأخذوا يلوون بها ألسنتهم، إساءة للنبي صلى الله عليه وسلم موهمين أنهم يريدون الانتظار، فنهى الله عز وجل المؤمنين عن هذه الكلمة، حتى لا يتخذها اليهود وسيلة الى إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، وكرهها لهم[2].

ولقد حاكى اليهود الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم، أسلافهم في إيذاء الأنبياء عليهم السلام. فقد آذوا الأنبياء بالقتل والتعنت والصلف، وعدم طاعتهم، وعلى رأس هؤلاء الأنبياء الذين تعرضوا لإيذاء اليهود سيدنا موسى عليه السلام، فقال الله سبحانه مخبرًا عن هذا الإيذاء: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ [الصف: ٥].

(١) المصد السابق ص ٢٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٤٦٠، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٢٥٣.

ومن إيذاء اليهود لموسى عليه السلام ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله عليه وسلم: (إن موسى كان رجلًا حييًا ستيرًا لا يرى من جلده شيء؛ استحياء منه. فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أدرة[1] وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني اسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون...فذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾)[2].

فجاء القرآن الكريم ناهيًا المؤمنين أن يفعلوا فعل اليهود بإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

فالله تعالى ينهى كل مؤمن أن يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بقول يكرهه، أو بفعل لا يحبه، ونهاهم أن يكونوا أشباه الذين آذوا موسى عليه السلام.

وقد وقع الخلاف فيما أوذي به النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية، فبين النقاش: أن إيذاءهم للنبي صلى الله عليه وسلم بقولهم: زيد بن محمد. وقيل: نزلت في شأن زيد بن حارثة وزينب بنت جحش، وما سمع فيه من قالة بعض الناس، أو إيذاءه في اتهام زوجته الطاهرة عائشة رضي الله عنها بالفاحشة من قبل أصحاب الإفك، وقول بعضهم وقد قسم مالًا: اعدل فينا يا رسول الله. فقال له: ويحك إذا لم أعدل أنا فمن يعدل؟ وكان يقول: يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر[3].

فالله تعالى ينادي مؤمني هذه الأمة ناهيًا إياهم عن إيذاء نبيهم بأدنى أذى، ولا يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا موسى في غير موطن.

ومن الذين حاكى اليهود في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، المنافقون إذ طعنوا في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فاتهموها بالفاحشة.

حيث أنزل الله تعالى في رأس النفاق

(١) أي: نفخة في الخصية.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٠، ٤/ ١٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، رقم ٦٢٩٦، ٧/ ٩٩.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٢٩٨.

عبد الله بن أبي بن سلول وأناس معه قذفوا عائشة، قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧][1].

فنحن نرى أن سورة الأحزاب، تتحدث عن إيذاء المنافقين للنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك عن إيذاء اليهود لموسى عليه السلام، ونهينا عن التأسي بالفريقين. ومعلوم أن المنافقين إخوان اليهود في أخلاق السوء، بنص القرآن: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

وتتوالى الأنفس المريضة الكافرة في إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، متبعًا اللاحق منها السابق، سواء بالاعتداء على شخصه أو أتباعه المؤمنين، أم بالافتراء والكذب عليه بوضع الحديث. ويتداول خلق الإيذاء هذا أناس، منهم المشركون ومنهم اليهود ومنهم المنافقون، حتى العصر الحديث. ففي العهد المكي: كان من أوائل من آذوه عمه أبو لهب وزوجته حمالة الحطب. وألقى الشقي عقبة بن أبي معيط سلا الجزور على ظهره صلى الله عليه وسلم. وفي العهد المدني آذاه اليهود بالقول والفعل، فقد كان اليهودي كعب بن الأشرف يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بشعره، وحاول يهود بني النضير إيذاءه بالقتل. ويتوالى الإيذاء في العهد الأموي، حيث وصف النصراني الحاقد يوحنا الدمشقي الرسول صلى الله عليه وسلم باستغلاله الدين لمصالحه الشخصية. ويتبع مرضى العصر الحديث أسلافهم المرضى في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشابه هذا الإيذاء، ما كان من صحيفة بلاند بوستن. وكذلك ما كان من فيلم الإساءة للنبي صلى الله عليه وسلم والذي عرض في أمريكا.

إن الإيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم ولدينه، تتشابه فيه فئات من الناس على اختلاف ألوان مللهم، وعلى توالي الزمان، ونسمع من المسلمين- وللأسف- شتمه للنبي صلى الله عليه وسلم. ومنهم من لا يتأدب عند رواية أحاديثه، ولا عند مناقشتها، ولا عند رؤية من يلتزم بسنته صلى الله عليه وسلم، وهذا كله من الإيذاء.

ومن أخلاق السوء التي نهانا الله عن امتثالها، وعن فعلها كما فعلها أهل الكتاب: التفرق والاختلاف والتشرذم.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

أي: لا تكونوا يا معشر المؤمنين كأهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا في

(١) لباب النقول، السيوطي، ص١٧١.

دين الله تعالى، وخالفوا أمره، من بعد ما جاءهم البينات. فلا تفعلوا فعلهم، وتستنوا سنتهم[1].

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم تفرق اليهود والنصارى وتفرق أمة الإسلام في حديث واحد، حيث قال: (تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)[2].

وفي هذا دلالة على وقوع التفرق والاختلاف في الأمة كما وقع في أهل الكتاب.

ويحذرنا الله عز وجل في آيات أخرى من مشابهة أهل الكتاب في التفرق، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وأوحى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، أن يتبرأ من الذين تفرقوا في دينهم، وأصبحوا شيعًا وأحزابًا. والتبرؤ يقتضي المخالفة، وترك المشابهة بأفعالهم وتفرقهم. فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ومن كرامة هذه الأمة على الله تعالى، أن يأمرهم بما أمر به أولي العزم من الرسل، وينهاها عما نهاهم عنه، فقال الله سبحانه: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وهذا فيه حث لهذه الأمة أن تسلك سبيل صفوة الصفوة من الخلق وهم أولوا العزم وتلتزم بصفاتها، وألا يسلكوا سبيل من اتبع غير سبيل المؤمنين.

والناظر لحال أمة الإسلام يرى التفرق والتشرذم والتناحر والتباغض، سواء على مستوى الأفراد، أم الجماعات، أم المؤسسات، أم الدويلات الإسلامية. كل مستوى يخطئ الآخر، ويرى نفسه الحق، وما عداه باطل، وسرى هذا الداء إلى أنفس العاملين للإسلام. وقليل من أبناء الأمة من ينظر بعين الحاذق إلى حقيقة الاختلاف، وأنه لا يجوز -ولا بأي حال- أن يؤدي إلى تناكر القلوب وتباغضها. وتعددت الأفكار

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٩٢

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم ٤٥٩٦، ٤/ ١٩٧، والترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، رقم ٢٦٤٠، ٥/ ٢٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم ٣٩٩١، ٢/ ١٣٢١.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
ووافقه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، ٣/ ٥٣.

والرؤى التي ينتمي إليها أبناء المسلمين، فأصبحنا شيعًا وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون. وانتشرت البغضاء فيما بين هذه الأحزاب، حتى ضرب بعضها رقاب بعض، ولا أدل على ذلك مما حصل في فلسطين، حينما كانت الاستجابة لأوامر يهود.

٢. تقليد أخلاق المنافقين.

النفاق صفة ذميمة يلجأ إليها بعض البشر حينما لا يستطيعون الوصول الى أهدافهم بسهولة، فيلجأون الى النفاق. وهذه الفئة البشرية تتصف بصفات بذيئة، ويتخلقون بأخلاق مسمومة ذميمة، حذرنا الله تعالى منها، والتشبه بها، أو سلوك سبيلهم في مثل هذه الأخلاق. ومن صفاتهم الذميمة التي نهينا عن تقليدهم فيها: الظن السيء، والإعراض عن الحق، والخوض في آيات الله بالباطل.

لقد جاء القرآن الكريم ينهانا عن التأسي بالمنافقين في صفتهم الظن السيء الذي ينص على أن خروج المؤمنين غزاة طائعين لله تعالى سبب في قتلهم وموتهم.

فقال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزًّى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةً فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وهذه في عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه المنافقين[(١)]. وصيغة ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾ صيغة استقبال في معنى الاستمرار[(٢)].

وهذا الظن السيء، يتكرر ويتجدد، مشابهة للمنافقين السابقين. فترى ضعاف الإيمان يثبطون عن الجهاد والاستشهاد، قائلين لإخوانهم المجاهدين: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا! ولو لم يجاهدوا ما غيبوا في غياهب السجون! ولو لم يخالطوا المجاهدين ما أبعدوا عن أوطانهم ولا توقفت عطاياهم!

ولقد شابه المنافقين في الظن السيء، ظن أهل الجاهلية، الذين ظنوا أن الله تعالى لا ينصر رسوله والمؤمنين، فقال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

يقول ابن القيم: «وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل، وقد فسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه»[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان. الطبري، ٧/ ٣٣٠.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٧/ ٣٣٠.
(٣) زاد المعاد، ابن القيم، ٣/ ٢٢٨.

وتتجدد واقعية الآية، وتتكرر أخلاق النفاق في زماننا اليوم، إذ التثبيط عن الجهاد، والتخويف من شأنه وشأن المجاهدين وسلاحهم، مقابل تهويل المنافقين لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب. ويظنون بالله ظن السوء، وأن الله تعالى لن ينصر العاملين لدينه المستمسكين بحبله المتين، فهم لا قبل لهم بأعدائهم، فعدتهم أضعف من عدة عدوهم. كذلك ينتظر هؤلاء المنافقون، عثرات المجاهدين والإصابة منهم.

فصدق قول الله فيهم: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٥٠].

ومن أخلاق النفاق، التي كان الزجر عن التشبه بها: خلق الإعراض عن الحق، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢٠-٢١].

فصفة المنافقين أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، يقولون: نسمع كلام الله، لكنهم لا ينتفعون بما سمعوا، ويتولوا وهم معرضون.

يقول القرطبي: «فدلت الآية على أن قول المؤمن: سمعت وأطعت، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله»[1].

واليوم ترى الذين في قلوبهم مرض يتولون عن أمر الله تعالى، فهم يقولون: سمعنا، وهم لا يسمعون. فكم من سامع لآيات الله تتلى عليه سماع أذن لا عمل فيه. فمثلًا تنهى عن التشبه بالكفار في التحاكم إلى الطاغوت فلا استجابة، وتنهى عن التشبه بالكفار في الزي والمظهر فلا سمع ولا طاعة، وتؤمر الفتاة المقلدة لفاجرات الكفر، بمواراة السوءة فلا تلبي، وتنهى عن نصرة الظالم بالباطل -كما هي جاهلية مكة الأولى- فلا تلبية ولا استجابة، وتنهى عن أكل أموال الناس بالباطل فلا يستجيبون.

ومن صفات المنافقين التي ذكرها القرآن الكريم: الخوض في آيات الله بالباطل والاستهزاء بها، ومن شدة خطورة هذه الصفة، لم ينهنا الله تعالى فقط عن فعلها، بل وعن الجلوس مع الخائضين والمستهزئين بها، فقال الله سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

وأمر الله المؤمنين بالإعراض عمن هذه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٤٦.

صفته، نراه في قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وهذه «نزلت في قوم من المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن، ويكذبون به ويحرفونه، فنهى المسلمين عن مجالستهم.

قال ابن عباس: ودخل في هذه الآية كل محدث في الدين ومبتدع إلى يوم القيامة»[(١)].

والأمر بالإعراض عن الخائضين من المنافقين، وعن مجالستهم، أبلغ في الزجر من النهي عن مشابهتهم في هذا الخلق الذميم.

يقول أبو السعود: «المراد بالإعراض: إظهار المخالفة بالقيام عن مجالستهم، لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط»[(٢)].

ومن الجلوس مع المستهزئين بآيات الله، الجلوس أمام شاشات بعض الفضائيات التي تستهزىء بالعاملين لدين الله تعالى، وتصورهم بصور تنفر العامة من الدين، كأن تصورهم بأنهم قاطعوا طريق، أو أصحاب قوة يستخدمونها في سفك الدماء والاعتداء على حقوق الناس، وأنهم إرهابيون. كل ذلك وأمثاله من باب الطعن والنيل من المعتصمين بدين الله تعالى، وتنفير الناس منهم.

فصدق قول الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

٣. تقليد أخلاق المشركين.

المشرك له من الأخلاق الذميمة الكثير، فهمه الأكبر نفسه، ينظر إليها على أنها غايته، فيحقق لها ما يستطيع من متاع الدنيا، وكلما ازداد في البحث عن شهواته ورغباته، ازداد تأصل الأخلاق السيئة في نفسه. وذكر الله أخلاقًا للمشركين لنكون- نحن المؤمنين- أبعد الناس عنها تشبهًا وتقليدًا وفعلًا. ومن أخلاق المشركين التي نهينا عن التخلق بها، خلق البطر والرياء، والعصبية القبلية التنتة، والتبرج المذموم.

فعن خلق البطر والرياء، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

لما رأى أبو سفيان أن عيره نجت، أرسل إلى أبي جهل يخبره بذلك، طالبًا منه العودة، إلا أن أبا جهل ركب رأسه وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم عليها ثلاثًا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام،

(١) البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ١٦٥.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٤٥.

ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا[1].

فالكبر والبطر يملآن قلب أبي جهل. فكان النهي الرباني للمؤمنين عن أن يزاولوا مثل هذه الأخلاق، وزجرهم أن يكونوا مثلهم في أفعالهم.

وهكذا يتكرر فعل أبي جهل، من قبل أحفاده، نظروا إلى الدنيا، ظانين أن النصر من خلال الخمر والسهر والقيان، فشربوا الخمر حتى ثملوا، وعزفت لهم القيان، فضاعت العباد والبلاد. ولو أنهم كانوا ممن عرف الله، لأقاموا الليل بالقرآن، بدل عزف القيان، ولسمعوا قول الله تعالى وهو يناديهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

سماع المجيب، ولكان قدوتهم جند صلاح الدين الذين كان وصفهم: رهبان بالليل، فرسان بالنهار. فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فكانت الذلة والمسكنة، كما كان حال أبي جهل الذي شرب كأس المنايا بدل كأس الخمر، وناحت عليه النوائح بدل زغاريد القيان، وذكرتهم العرب بالصغار بدل الفخار. وما زالت الأمة تتجرع كأس الهوان من وراء أفعال أتباع أبي جهل البطر الأشر.

ومن أخلاق المشركين التي نزل فيها القرآن يحذر المسلمين من مزاولتها: دعوى الجاهلية، فقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

وسبب نزولها أن شاس بن قيس اليهودي -وكان شديد الضغن على المسلمين- مر على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ألفتهم بالإسلام من بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من عداوة، فقال: والله مالنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شابًا من اليهود أن يعمد إليهم، ويذكرهم بعاثًا[2]، وما كان فيه من قتل بينهم، ففعل، فتنازع الفريقان، مناديًا كلًا منهما قبيلته فخرًا، كما كانوا عليه في الجاهلية. فبلغ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر المسلمين، أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم. عندها عرفوا أنها نزعة الشيطان، فتعانقوا،

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/ ١٦٦.

(٢) بعاث موضع بالمدينة، كانت فيه وقعة عظيمة بين الأوس والخزرج، قتل فيها خلق من أشرافهم وكبرائهم.
انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ١١٧.

فأنزل الله الآيات السابقة[1].

ففي هذه الآية يحذر الله تعالى المؤمنين من إثارة الجاهلية والنعرات العصبية، التي أثارها اليهود بينهم، مبينًا أن طاعة اليهود توصل إلى الكفر والردة بعد الإسلام والإيمان.

ويعيد التاريخ نفسه، ويحسد الكفار المسلمين على تجمعهم ووحدتهم وتآلفهم، ويقف التآلف هذا عقبة في وجه الاستعمار في العصر الحديث، ففكر أحفاد شاس بن قيس، كما فكر في الإيقاع بين المسلمين، ونشر دعوى الجاهلية؛ لتسهل السيطرة وليهون الاستيلاء. فقد أقيمت الجامعة الإسلامية في أواخر الدولة العثمانية على أساس إعادة الوحدة للأمة، ونشر ثقافة المقاومة للمستعمر، فما كان من دول الاستكبار يرأسهم يهود، إلا أن أثاروا النعرات الإقليمية في أوساط الشعب الإسلامي الواحد، وكان في الأمة أمثال أبي رغال[2] الذين يصنعون من أنفسهم جسرًا لعبور الأجنبي الدخيل إلى حصن الأمة، فنعقوا بما نعقت به السياسة البريطانية (فرق تسد)، وسبحوا بحمد النعرات القبلية، التي أثارها المستعمر في البلاد الإسلامية. فأثار في المصريين الفرعونية، وفي العراق الآشورية، وفي فلسطين الكنعانية، وكان هذا في البداية على مستوى الدولة الإسلامية الأم، ثم لما كان ذلك للمستعمر من خلال الأبواق الناعقة بلغته وفكره، مقلدة له في هذه النعرات، راح ينشر فكر العصبية والقبلية التتنة على مستوى الدويلة نفسها، فأخذ ينشر ثقافة مدني وفلاح، وقروي وحضري، وفي بلادنا ثقافة لاجئ وغير لاجئ. وهكذا كان للقبيلة وتعظمها بالآباء مكان في أنفس المقلدين الناعقين بما نعقت به الصهيونية والصليبية.

وكذلك نشر الاستعمار، العصبية القبلية، والعنصرية البغيضة، باسم القومية العربية، وذلك من أجل فصل العرب عن جسمهم الأم دولة الإسلام التي كانت متمثلة في الدولة العثمانية. والقومية العربية فكرة صليبية حاقدة، تهدف إلى ما هدف إليه شاس بن قيس من تفتيت الأمة وضياعها وتفرقها.

وهكذا نجد الثمار الخبيثة التي حذرت منها آيات آل عمران السابقة من تفرق الأمة، وضرب بعضهم رقاب بعض، والخلافات الحدودية والسياسية وغيرها، موجودة اليوم.

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ٧٦-٧٧.

(٢) أبو رغال: رجل من نجد كان دليلاً لأبرهة الحبشي على البيت الحرام لهدمه، فلما وصل مع أبرهة إلى موضع يسمى المغمس مات أبو رغال، فصارت العرب ترجم قبره.
انظر: تاريخ الأمم والرسل والملوك، الطبري، ١/ ٤٤١.

ومن بلاغة الآية وإعجازها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾ [آل عمران: ١٠٠].

أنها حذرت من طاعة أهل الكتاب اليهود والنصارى-جميعًا، ولم تذكر اليهود فقط الذين كانوا سببًا في نزول الآية؛ وذلك لعلم الله تعالى أن أمر الدس والتفريق سيتكرر، لكن على يد النصارى هذه المرة، وإن كانت اليد اليهودية الأثيمة لها شأن في ذلك.

ومن الأخلاق التي انتشرت في الجاهلية ونهى القرآن عن التشبه بها أو مقارفتها، خلق التبرج، حيث يقول المولى عز وجل: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وتبرج الجاهلية: كان بخروج المرأة تمشي بين يدي الرجال، مع تكسر وتبختر وتغنج، أو أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده، فيواري قلائدها وقرطها[١] وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، مما يستدعي به شهوة الرجل[٢].

فجاء القرآن الكريم ناشرًا العفة والطهر في المجتمع، بنهيه عن التشبه بالكافرات الفاجرات، وألا يتبرجن مثل تبرجهن. ولئن كان النهي في الآية لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، إلا أنه يعم المسلمات جميعًا.

يقول الشوكاني: «ولا تبرجن أيها المسلمات بعد إسلامكن تبرجًا مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها، وكان عليها من قبلكن، أي: لا تحدثن بأفعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل»[٣]، ولئن نهت الآية عن تبرج مثل تبرج الجاهلية الأولى، إلا أن الجاهلية تتكرر، ولا تختص بفترة زمنية معينة، بل هي حالة اجتماعية معينة، لها تصورات معينة للحياة، ويمكن أن توجد هذه الجاهلية في أي مكان وفي أي زمان[٤].

لقد حرر الكفر اليوم المرأة على طريقته الشيطانية حينما تعرت على عينه من لباس الباطن لباس التقوى أولًا، ثم من لباس الظاهر لباس الحشمة والوقار ثانيًا، فنشره الغربي في شارعه ومتجره وجامعته، بل وأنشأ دورًا خاصة للعري والبغاء، وعز عليه حسدًا أن يرى المسلمات محتشمات عفيفات فصنع على عينه من شراذم الأمة، من يتطبع بطبعه، ويصنع رذيلته، وينقل فكرته إلى ديار المسلمين، تقليدًا للكافرات الفاجرات.

فانتشرت فكرة تبرج الجاهلية الأولى في

(١) القرط: نوع من حلي الأذن.
انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ٣٧٤.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٤٦، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٣٧٣.
(٣) المصدر السابق، ٤/ ٢٧٨.
(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ص٧٦.

ديارنا، حتى غدا في جامعاتنا، ومدارسنا، وقرانا ومدننا، وفي السفر والحضر، وفي الحل والترحال، وهذا مصاحب بالزينة، والجلسات المشبوهة، خاصة في الجامعات، فأصبح هذا الجانب من التبرج لا تختلف فيه بشيء كثير عن جاهلية الغرب الذي صدر لنا هذا التهتك والعري، فاستقبله كثير من جاهلات الأمة ظنًا منهن أنه الرقي والفخار. فكانت جاهلية اليوم أشد من جاهلية الأمس في تبرجها هذا.

آثار التقليد والتبعية

لما كان لكل عمل نتيجة، ولما كانت الأسباب مرتبطة بالمسببات، كان لما يصدر عن الإنسان المكلف من أعمال، نتائج وآثار، والمرء حينما يقوم بأعمال متشبهًا فيها بغيره، فإنه ينجم عن ذلك نتائج وآثار، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وذلك حسب المتبوع وأعماله المقلدة.

والإنسان المكلف يتحمل تبعة تقليده للآخرين، والآثار الناتجة عن ذلك، سواءٌ أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة، ومن هنا سيكون هذا المبحث ضامًا للمطلبين الآتيين:

أولًا: آثار التقليد في الدنيا:

الصاحب مع صاحبه مؤثر أو متأثر، وكذلك الجماعات والدول، ترى فيها التابع والمتبوع. والأعمال المتبعة منها خير ومنها شر، والخير ينتج عنه الخير، والشر لا ينتج عنه إلا الشر. والتقليد لأعمال السوء لا ينتج عنه إلا السوء. ففي الدنيا تنتشر التفرقة، ويتخلى الله تعالى عن هذا الصنف من الناس فيخذلهم ولا ينصرهم، وتكون الموالاة السيئة لأعداء الله تعالى، حيث الفساد والردة. ومن هنا يندرج تحت هذا المطلب الأمور الآتية:

١. التفرق والميل عن سبيل الله تعالى.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

جعل الله تعالى البشر فريقين: فريقًا يدعو إلى الجنة، وفريقًا يدعو إلى السعير. والذي يدعو إلى الجنة له طريق واحد لا ثاني له يتلقاه من ربه عز وجل، فيلتزم به ويدعو إليه، أما الذين يدعون إلى النار فإنهم كثيرون، يتلقون الأوامر والنواهي من جهات شتى، فيدعو كل منهم حسب هواه إلى بدعته، ولهذا كانت لهم سبل شتى يدعون إليها أتباعهم، فتكون نتيجتها التفرق والاختلاف والشتات والزيغ والضلال.

وآية الأنعام السابقة كانت خاتمة للوصايا العشر[١] التي وردت في آيتين سابقتين لهذه الآية. والذي وصى به ربنا، في هاتين الآيتين هو صراطه ودينه الذي ارتضاه لعباده، وهو طريق قويم لا اعوجاج فيه، أمرنا بالعمل به، وأن نجعله لأنفسنا منهاجًا نسلكه، وألا نسلك منهاج غيرنا، من اليهودية والنصرانية والمجوسية والعلمانية والإلحادية وغيرها من سبل الكفر، ولئن سلكنا هذه السبل فمصيرنا التشتت بنا عن طريقه ودينه الذي ارتضاه وهو الإسلام وهذا ما هو حاصل للأمة اليوم.

فسبيل الحق واحد لا تشعب فيه، وسبل الباطل كثيرة كالبدع والخوض في الباطل، والأهواء ومبادئ الضلال، وهذا كله تضاد يسبب التفرق والتشرذم.

يقول ابن كثير: «إنما وحد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها»[٢].

والذي يأتي بما يخالف شرع الله تعالى فإنه مبتدع، والبدعة تتضمن تفريق الأمة الإسلامية؛ إذ إن صاحب البدعة، يدعي أنه على الحق وغيره ضال، وبهذا يتفرقون ويصبحون شيعًا وأحزابًا.

وهذا حاصل اليوم، فعلى مستوى الأفكار والرؤى، يوجد في الأمة من ابتدع فكرة العلمانية متبعًا فيها الغرب العلماني، وفي الأمة من اتبع بدعة الشيوعية الملحدة، وكل منهم ينظر لنفسه أنه على الحق والقادر على إعادة حقوق الأمة المسلوبة، وتحرير مقدساتها، ويذم الآخرين؛ فتفرقوا.

والفرق بين الفريقين أن أهل الحق وإن اختلفوا في أمر اجتهادي فسرعان ما

(١) وهي: عدم الإشراك بالله شيئًا، والإحسان إلى الوالدين، وتحريم قتل الأولاد خشية الفقر، والابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحريم قتل النفس إلا بالحق، والنهي عن تناول مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، والوفاء بالكيل والميزان، والعدل، والوفاء بالعهد، واتباع الصراط المستقيم.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٧٠.

يحتكمون للكتاب والسنة فيلتزمون، وكل يخضع للحق، فتبقى صفة الوحدة والألفة شعارهم، بينما أهل الضلال كل واحد منهم يركب رأسه، ويريد تعظيم نفسه، وتصغير الآخرين، ولا يريد الحق، فتجدهم دائمًا في اختلاف وصراع، لتشعب مناهجهم وتنوعها، وكل حين يخرج منهم مذهب جديد[(١)].

ومنهج الله تعالى واحد، وكتابه واحد، والذين يتبعونه من الأمة يكونون موحدين، أما غير منهج الله فإنها مناهج مفرقة مشتتة وفيها الاختلاف الكثير، وما دام الأمر كذلك فإن نتيجة متبعيها التفرق والتشتت والميل عن سواء السبيل.

يقول الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم)[(٢)].

فاختلاف القلوب مسبب لتباغض القلوب وتناحرها وتفرقها.

٢. الخذلان وفقدان النصير.

بين الله سبحانه للبشر طريق الخير وأمرهم بها، وبين لهم طريق الشر وحذرهم منها. ومن خالف ذلك متبعًا مخالفي أوامر الله تعالى، كان خصمًا لله تعالى يخذله ولا ينصره.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

فالله تعالى بين للمؤمنين حقيقة اليهود والنصارى، وأنهم لا يرضون منا إلا اتباع ملتهم، فجاء التحذير الإلهي: بأن اتباع ملتهم فيه فقدان ولاية الله ونصرته.

ولقد تحدثت سورة الجاثية عن بني إسرائيل[(٣)] وأنهم اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات.

ثم حذرت النبي صلى الله عليه وسلم من اتباع أهواء الذين لا يعلمون من كفار مكة وغيرهم؛ فالظالمون بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين.

فقال المولى عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ

(١) انظر: إعانة المستفيد، الفوزان ص٤١.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف والكراهية التأخر، رقم ٦٧٥، ٢/ ٢٥٣.
وصححه لألباني في صحيح سنن أبي داود رقم ٦٧٩، ٣/ ٢.
(٣) الجاثية: ١٦-١٧.

﴿وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

ولئن كان اتباعٌ من النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأهواء من أهل الكتاب والكفار، من بعد ما جاءه من الحق -وحاشاه-؛ فليس له من نصير ينصره من عذاب الله، وليس له منهم من أحد عنه حاجزين.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ٣٧﴾ [الرعد: ٣٧].

والملاحظ أن الخطاب في آيات البقرة: ١٢٠، والرعد: ٣٧، والجاثية: ١٨ السابقة موجه للرسول صلى الله عليه وسلم، بأنك إن اتبعت أهواء الذين لا يعلمون، وأهواء أهل الكتاب- وحاشاه أن يفعل ذلك- فإن لك عذابًا، لا يدفعه عنك أحد. والخطاب هذا خطاب لأمته. فإذا كان الأمر كذلك مع سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن دونه من الناس، وفي هذا تحذير شديد، ووعيد كبير لمن اتبع غير سبيل الله بأنه سيفقد الولي والنصير.

ورفع الله ولايته ونصرته عن الذين يركنون إلى الذين ظلموا، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هود: ١١٣].

والركون إلى الذين ظلموا يعني: محبتهم والميل بالقلب إليهم، ومداهنتهم والرضى بأعمالهم، والدنو منهم، وطاعتهم، والاعتماد عليهم في قضاء المصالح[1].

والذي يركن إلى الذين ظلموا بشيء من ذلك؛ فإنه يفقد الولاية والنصرة من دون الله تعالى. والأمة اليوم فقدت نصرة الله تعالى، وذلك لأنها رضيت أعمال الذين ظلموا، بل شابهت أعمالهم وفعلت فعلهم، فكانت جديرة بأن يتخلى ربها عنها ويتركها من ولايته ونصرته.

وإذا كان الميل اليسير إلى الذين ظلموا، يفقد النصرة والمعونة والولاية من الله تعالى، فكيف بالميل كل الميل إلى الظالمين! بل كيف بالظالمين أنفسهم! وإذا كان بمجرد الميل القلبي ترتفع النصرة ويكون الخذلان، فكيف -والحال اليوم- المخالطة والمشاورة، والمشاركة في مطاردة الإيمان وأهله ومحبة الظالمين وتبجيلهم وتقديرهم، بل وتعظيمهم، ونقل أسرار المسلمين إليهم! فهل يبقى بعد ذلك لنا من ولي من الله أو نصير!

ولقد ذكر الله تعالى في أكثر من آية أن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٥٠٠، النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٥٠٨، الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٤٠٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ٧٢.

الظالمين ليس لهم نصير[1].

وركون الذين ظلموا أنفسهم إلى الظالمين، وخضوعهم لجورهم، من أهم أسباب تفشي الظلم في الأرض، وانتفاش الظالمين، وزيادة بطشهم، فيكون الذين ركنوا أدوات في أيدي الظلمة يحركونهم لتوسيع نفوذهم، وتنفيذ أوامرهم في ضرب الناس، ويبلغ العجز والهوان بالذين ظلموا أنفسهم إلى التسابق من أجل إرضاء الظلمة، فيتبعونهم في استجابة أمرهم، عندها تكون العقوبات الثلاث: فقد ولاية الله تعالى، وتخلف نصره، والنار.

٣. ضرر موالاة الكافرين.

المؤمن ولي للمؤمن، يحبه، ويأمره بالخير، وينهاه عن الشر، ويعادي من عاداه، ويوالي من والاه، وينصره، فالذين آمنوا بعضهم أولياء بعض. وعندما يكون الأمر كذلك؛ فإن الخير يعم، والصلاح ينتشر، والفساد يضمحل. وهكذا أمرنا من الله تعالى أن نكون، إلا أن ضعاف الإيمان من المسلمين حينما يوالون أعداء الله، وينصرونهم ويعينونهم، ويطلعونهم على أسرار المسلمين؛ فإنك تجد ضرر ذلك بالفساد والردة.

فالفساد الناتج عن موالاة الكافرين، حذرنا الله منه، بعد أن أمرنا بموالاة المؤمنين حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٣].

فالآيتان فيهما المفاصلة بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، والكافرون بعضهم أولياء بعض. و«الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا»[2].

والمؤمنون إذا لم يوال بعضهم بعضًا نصرة ومحبة وولاءً، ويعادوا الكافرين بغضًا وخذلانًا لهم وحربًا عليهم؛ تكن فتنة عظيمة وهي الشرك وقوة الكفر، وفساد كبير بانتشار المعاصي وضعف الإسلام وأهله، ويختلط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وتعدم كثير من العبادات الهامة، كالجهاد والحكم بما أنزل الله[3].

(١) انظر: البقرة: ٢٧٠، وآل عمران: ١٩٢، والحج: ٧١، والشورى: ٨.

(٢) الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، ص٩٠.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٣٨٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٢٧.

والمرء إذا أحب آخر، أحب عمله، وقلده فيه واتبعه، وانتقل ذلك إلى إكرام محبوبه، وتقديره واحترامه، فيخالطهم، وينتقل معهم، وحينها يكثر سوادهم وأعمالهم. فإذا كان مثل هذه الأعمال من مسلم لكافر، فهذا يعني الفتنة وانتشار الفساد، فالمسلم الموالي للكافر يقلده في أعماله وأقواله، وينشر فكرته، ويسيء لدينه وأمته ووطنه، بجلب فساد الكافرين إلى ديار المسلمين.

وهذا الفساد متنوع:

فعقيدة: كان التشكيك في المسلمات.

وسياسة: لسنا إلا ذيلًا للغرب الكافر.

وأخلاقًا: فسدت الشباب، وطغت النساء، وحميت الرذيلة، وحوربت الفضيلة، وأصبح المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وسفلة الأمة ورويبضتها تتكلم في أمر العامة.

وبهذا نشر الإعلام الضال المضلل أنواع الفساد هذه وأضعافها.

وكلمتا (فتنة وفساد) في الآية السابقة نكرة، وذلك لتعم كل فتنة وكل فساد، ووصف هذا الفساد بالكبير يظهر ضخامته. ومن الفتنة تخويف العامة من المساجد وطريقها وأهلها، وتحذيرهم بالسجن والمساءلة وعدم الحصول على وظيفة، وفي المقابل فتح الطريق أمام الجيل للذهاب إلى السوء وأهله، فطريقه آمن، لا مساءلة فيه ولا محاكمة.

ومن ضرر موالاة الكافرين أيضًا: الردة؛ فمن والاهم فهو منهم، ويتبرأ الله منه. يقول المولى عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وسبب نزولها: أن عبادة بن الصامت قال: «لما حاربت بنو قينقاع تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي له من عبدالله بن أبي، فحالفهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ من حلف الكفار وولايتهم. قال: ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت القصة في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية[1].

والآية تعني: لا تعتمدوا على الاستنصار باليهود والنصارى، ولا تتودوا لهم، ولا تصافوهم مصافاة الأحباب، ومن يتولهم من المؤمنين؛ فإنه من جملتهم، وحكمه حكمهم، ويكون مثلهم[2].

ولقد تبرأ الله تعالى من كل من يتخذ

(١) لباب النقول، السيوطي، ص١٠٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ١٥، روح المعاني، الألوسي، ٦/ ١٥٦.

الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فقال الله سبحانه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

فمن اتخذ الكافرين أنصارًا يواليهم ويظاهرهم على المسلمين؛ فقد برئت منه ذمة الله، وارتد عن دينه. ونادى رب العزة المؤمنين، محذرًا إياهم طاعة أهل الكتاب وطاعة الكافرين، وفي السورة نفسها، لما يؤدي ذلك إلى الردة بعد الإيمان(١).

ولقد زين الشيطان لأتباعه من أهل الكتاب وإخوانهم المنافقين الردة بعد ما تبين لهم الهدى، وكان ذلك نتيجة لطاعة بعض أوامر الكارهين لما أنزل الله.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [محمد: ٢٥-٢٦].

فاليهود والمنافقون قالوا للمشركين -الكارهين ما أنزل الله- سرًا: سنطيعكم في عداوة محمد والمظاهرة عليه، والقعود عن الجهاد(٢).

والمنافقون اتبعوا ما أسخط الله، وكرهوا ما يرضيه عنهم من قتال الكافرين، فقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨].

فاتباع نواهي الله، وعدم امتثال أمره، ينتج عن ذلك إحباط العمل وبطلانه. وإحباط العمل كان ثمرة سيئة للعمل السيء في موالاة المنافقين والكافرين، فقال الله سبحانه في معرض الحديث عن الولاء: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: ٥٣].

ولما كان الجزاء من جنس العمل، كان العقاب مناسبًا لسببه، فاليهود اتبعوا ما أسخط الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨].

فكانت النتيجة سخط الله عليهم: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠].

ثانيًا: آثار التقليد في الآخرة:

الحياة لا تنتهي بالموت، ولو أنها كذلك لاستراح الكثير من الكبراء وضعفائهم، إذ يقول الله عن المتحسرين النادمين يوم القيامة: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٤].

(١) سورة آل عمران: ١٠٠، ١٤٩.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ٢٨٧، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ١٢٣.

فهناك الحياة الآخرة، التي ليس بعدها حياة، ولا دار، إلا الجنة أو النار. وفي هذه الدار تبلى السرائر، وتتكشف الحقائق، ويذهب الزيف والخداع، وإذا بالمقلد المتبوع يظهر على حقيقته، فهالته التي كانت في الدنيا زالت اليوم، وقوته التي صارع بها الحق في الدنيا ضعفت، وأتباعه المقلدون انكشف لهم العوار، وزال عنهم القناع الزائف، والكذب الخادع، فأخذتهم الحمية أمام هذا الموقف الرهيب، وانتفضوا على ذلتهم وصغارهم الذي كان في الدنيا، فجابهوا أسيادهم وواجهوهم- حيث لا تنفع المجابهة ولا المواجهة- بالشتائم والتلاعن والتباغض والتلاوم والتبرؤ والدعاء عليهم بمضاعفة العذاب.

وهذه الآثار السيئة نتيجة للتقليد الأعمى، والاتباع المذموم، والتي يمتد أثرهما إلى يوم القيامة. وسيتناول الباحث هذه الآثار على النحو الآتي:

١. التلاعن بين الأتباع والمتبوعين.

فقد قال الله تعالى عن السبب الذي أوصل التابع والمتبوع إلى التلاعن يوم القيامة: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فالسبب إضلال المتبوع للتابع.

وكل أمة تلعن أختها في الدين والملة. فيلعن اليهود اليهود، والنصارى النصارى، والمشركون المشركين، والأتباع القادة، قائلين لهم: أنتم ألقيتمونا هذا الملقى حين أطعناكم، وحينما أضللتمونا في الدنيا فاتبعناكم[(١)].

وبين الله تعالى التلاعن بين المتوادين على عبادة الأصنام، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فهم تحابوا على عبادة الأوثان، وتوادوا على خدمتها في الدنيا، ولأجلها عادوا دين الحق وهذا الأمر يحصل لهم مودة في دار الدنيا فقط، ثم هي منقطعة عنهم يوم القيامة، وإذا بهم يلعن كل غوي صاحبه الذي أغواه، وتنقلب المودة بغضًا ولعنًا.

٢. التبرؤ والحسرة.

ومن الثمار الخبيثة للتقليد والتبعية الهوجاء: التبرؤ، حيث يتبرأ المتبوعون من الأتباع، والحسرة على ما فرطوا في جنب الله تعالى. فعن تبرؤ المتبوعين من أتباعهم،

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٩٤، نظم الدرر، البقاعي، ٣/ ٣٢، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٢٨٩-١٢٩٠.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

فهاهم -الأتباع والمتبوعون- وجهًا لوجه أمام العذاب الشديد، وحينها لم يعد نفع من التابعين لأسيادهم، وتنقطع أسباب المودة التي كانت في الدنيا، فحينها يتبرأ الكبراء من الضعفاء، علهم يخفف عنهم من عذاب التبعية ووزرها، ويتمنى التابع الكرة إلى الدنيا -ولكن هيهات- فالتابع والمتبوع في النار، كلما رأوا أعمالهم السيئة ومعاصيهم التي اتبعوا أسيادهم في فعلها، كلما ازدادوا حسرة وندامة وتقليبًا للكفين على ما أنفقوا من أعمارهم وأموالهم في مرضاة المجرمين.

ويتجلى التبرؤ الأكبر، من قائد الغواية والضلالة الأكبر: الشيطان، حينما يقف خطيبًا على منبر من نار في أهلها.

فأخبر الله سبحانه عن التبرؤ هذا فقال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فالشيطان يجحد أن يكون شريكًا لله فيما أشركه أتباعه فيه من العبادة في الدنيا، ولم يكن له من سلطان وقوة على إجبارهم على الشرك، وما كان منه إلا أن دعاهم فقط للغواية فاستجابوا وتابعوه. فهو يتبرأ من جعل أتباعه له في الدنيا شريكًا لله، ومن طاعتهم إياه. وهذه الخطبة تزيدهم حزنًا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم.

والشيطان يزين للإنسان المعصية، حتى إذا وقع فيها تركه وتبرأ منه، فبين الله تعالى أن اتباع الشيطان في المعصية أثمر التبرؤ والخلود في النار، فقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦].

فالشيطان يخذل الإنسان في كل حين، فهل من معتبر!.

ولك أن تتصور شدة الحسرة والندم، حينما تعلم أن القرآن العظيم صور الحسرة والندم بالعض على اليدين، فقال الله

سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

يقول الطبري: «ويوم يعض الظالم نفسه، المشرك بربه، على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه، يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلًا يعني: طريقًا إلى النجاة من عذاب الله»[1].

ويظهر تبرؤ المتبوعين من أتباعهم يوم القيامة، حينما يناديهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص: ٦٢-٦٣].

فالآيات توضح إغواء المعبودين لمن أشركهم بالله وجعلهم له ندًا، في الدنيا كما غووا هم، وعند مواجهة استحقاق العذاب، اعترفوا بهذه الغواية، وتبرؤوا من عبادتهم، لما رأوا العذاب وندموا أشد الندم، وتمنوا أن لو كانوا مهتدين.

٣. العذاب المهين والاستقبال المشين في جهنم.

عادة الحبيب أن يستقبل حبيبه بالترحاب والابتسامة والكلمة الطيبة التي تدخل السرور إلى القلب، إشعارًا بمدى محبته عنده. إلا أن الأمر يختلف يوم القيامة عند الذين رحب بعضهم ببعض على السوء في الدنيا، وفرحوا بلقاء بعضهم بعضًا على موائد المؤامرات، صادين عن سبيل الله، ماكرين برسله ودعاته، ومكذبين بآياته، ففي جهنم يكون حميم وغساق.

واستقبال المتبوعين أتباعهم بعدم الترحاب، وبالدعاء عليهم، والتذمر منهم، جزاءً بما كانوا في الدنيا يكسبون، ولكبرائهم يتبعون.

فيقول الله تعالى واصفًا حالتهم هذه: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص: ٥٥-٦١].

تقول خزنة جهنم لرؤساء الطغيان والكفر: هذا فوج من أتباعكم الذين أضللتموهم، اقتحموا معكم النار، كما اقتحموا معكم الجهل والعصيان، فعندها

(١) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢٦٢.

تقول رؤوس الكفر: لا مرحبًا بهم أي: لا رحبت بكم الأرض ولا وسعت، وضاقت عليكم أماكنكم. فترد الأتباع الدعاء عليهم بأن لا مرحبًا بكم أنتم، معللين هذا الرد بأنكم أيها الرؤساء قدمتم لنا هذا العذاب؛ إذ بدأتم بالكفر قبلنا وشرعتموه لنا، ودعوتمونا إليه، وإلى العمل الذي يوجب لنا هذه النار. والدعاء بالضيق وعدم الكرامة، تبعه دعاء آخر، وهو من قدم لنا هذا العذاب أي: سنه وشرعه فزده عذابًا ضعفًا في النار[1].

إنها صورة بائسة، معكوسة لما كان في الدنيا، التي كان فيها الترحاب والقبلات، والفرح الشديد عند الإساءة للرسل والدعاة وإصابة الهدف بدقة للخطة الماكرة، مع زيادة الرتبة والراتب من المتبوع للتابع المنفذ. فأين اليوم التصفيق للخطابات! وأين الحراسات! وأين اليوم الفداء بالأرواح والمهج والأنفس!

٤. التخاصم والتلاوم.

أمام الموقف الرهيب، الذي يقترن فيه كل مع شاكلته في المعاصي والآثام، وترتفع الأصوات المتلاومة كل يلقي بالتبعة والمسؤولية على غيره في السبب الذي أوصلهم إلى هذا العذاب الأليم. هذا التخاصم والتلاوم يذكره الله تعالى في مواطن من كتابه الكريم، منها: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الصافات: ٢٧-٣٤].

أي: أقبل الأتباع على المتبوعين يتساءلون لائمين إياهم بقولهم: كنتم تزينون لنا الباطل، وتحولون بيننا وبين الخير؛ فأطعناكم في ذلك. فرد المتبوعون عليهم بأنكم ما كنتم صالحين فأفسدناكم، ولا مؤمنين فكفرناكم، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للعصيان. وكذلك لم يكن لنا عليكم من حجج قوية ألزمناكم بها بأن تتبعونا على الكفر، فحق العذاب علينا جميعًا بسبب أنا كنا غاوين، فدعوناكم إلى الغواية دون قهر ولا سلطان فاستجبتم لها فنحن في العذاب مشتركون، كما اشتركنا في الصد عن سبيل الله في الدنيا، والكفر والضلال[2].

والتخاصم وتراجع الكلام بين المستضعفين والمستكبرين، تذكره آيات أخرى.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٧/ ١٥٢، اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن القيم، ص٢٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٣١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٧.

يقول الله فيها: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

ولو رأينا، لرأينا موقفًا يحول دونه الوصف ويعجز عنه التصور، حيث المضللون من المستضعفين والمضللون من المستكبرين، والمحاججة بين الخصمين على أشدها في التلاوم وإرجاع الكلام، إذ يقول التابع المستضعف -وقد أخذته بعض شجاعة-: لولا أنتم لكنا مؤمنين، فقد كنتم شديدي الحرص على كفرنا لنقلدكم فيه، ولولاكم أيها الرؤساء في الدنيا لكنا مؤمنين بالله وآياته. فكان رد المستكبرين: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾.

والاستفهام استنكاري، إنكارًا للتهمة، وردًا على الأتباع بأنكم كنتم مجرمين، فإجرامكم هو الذي صدكم عن الإيمان. فكانت مجابهة المستضعفين على رد المستكبرين: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ بل مكركم الذي لم يفتر ليلًا ولا نهارًا للصد عن الهدى، ولتمكين الباطل، ولتلبيس الحق، ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء.

وقول الله سبحانه: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كناية عن دوام الإلحاح عليهم في التمسك بالشرك.

عندها خاف الخصمان من الفضيحة في الموقف فأسروا الندامة في قلوبهم وصدورهم كمدًا، وهذا من الذلة بمكان. ومن ثم كانت الأغلال التي تنتظرهم؛ لتغل بها الأيدي إلى الأعناق، ويلقى بهم إلى جهنم جزاءً لأعمالهم الخبيثة التي كثروا بها سواد المستكبرين من القادة والمتبوعين في الدنيا، فما أغنى تقليدهم عنهم شيئًا.

وذكرت الآية الليل والنهار، لبيان كثرة المكر وتواصله وعدم يأس أصحابه المجرمين، لنعلم نحن المسلمين في هذا الزمان، مدى ما يمكر بنا، ويحاك ضدنا من مؤامرات، مؤامرات عسكرية وإعلامية واجتماعية وثقافية وفكرية واقتصادية، لكل منها مختصون وأهلون. ونتيجة هذا المكر الخبيث يوم الحسرة: التخاصم والتلاوم والأغلال والعذاب الشديد جزاءً وفاقًا.

مواجهة التقليد والتبعية

الأمم تصح وتمرض، تبتلى وتعافى، ومن أراد السلامة فلا بد له من وقاية نفسه من المرض، ولئن أصابه؛ فإنه يحرص على الاستشفاء. والأمراض التي تصيب الأمم كثيرة، منها- كما أخبر القرآن الكريم- مرض التقليد والتبعية العمياء الذي يوهن العقول، ويذيب الشخصية، ويضعف الإرادة؛ فتتبع سبل سابقيها وكبرائها، وتنحرف عن منهج الله الذي ارتضاه لعباده. ولقد وقع في هذا الأمر كثير من القرون، فأصاب القرون اللاحقة المقلدة، ما أصاب القرون السابقة المقلدة في المعاصي والذنوب، حينما لم يعتبروا ولم يتعظوا بالهالكين قبلهم.

وجاء القرآن الكريم يقص علينا أمراض الأمم التي أصيبت بها وعوقبت عليها؛ لتكون آية وموعظة للمتقين. فكان ذلك دواء من الأدوية التي وصفها لنا القرآن الكريم لنتعافى مما ابتلي به كثير من الخلق. وحتى يثبت الشفاء ويزداد، كان لا بد من وجه مضاد لوجه أئمة السوء والشر، وهم أئمة الهدى، ولا بد من إظهار الصورة المنفرة للمقلدين أيضًا؛ زجرًا لهم، وردعًا لغيرهم. وكذلك لا بد من بيان المسؤولية الفردية التي يتحملها كل فرد عن عمله. ومن هنا فقد جاء هذا المبحث في أربعة مطالب:

أولًا: الاعتبار بمصارع القرون الأولى:

قص علينا القرآن الكريم قصصًا للغابرين، أظهر فيها عللهم، التي كانت سببًا في دمارهم واستحقاقهم العقوبة من الله تعالى. وقصصهم هذه، فيها الإرشاد والتوجيه للخلق ألا يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء السابقون من العلل؛ حتى لا يصيبهم ما أصابهم.

ولقد عذب الله تعالى الأقوام بأنواع مختلفة من العذاب، كل بما يناسب ذنبه حيث يذكر الله سبحانه ذلك بقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فقوم عاد أهلكوا بريح صرصر عاتية، وقوم ثمود أهلكوا بالصيحة، وقوم نوح بالطوفان، وقوم فرعون بالغرق، وجعل ديار قوم لوط عاليها سافلها. وهذه الألوان من العذاب، ليست من الظالمين ببعيد.

وسبب هذا العذاب: كفرهم، وعتوهم عن أمر ربهم، وعصيان رسله، وتكذيبهم بآياته، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

وكل هذا لم يكن ليقصه الله عبثًا- وحاشاه-، بل كان ذلك للموعظة ولتكون آية، آية للمؤمن ليصبر على ما يلقاه في

سبيل الله من أذى، إذ إنه مطمئن لوعد ربه أن العاقبة للمتقين، ويقتدي بمن سبقه من المؤمنين الصابرين، وليزداد خشية وإيمانًا، وآية لغير المؤمن لعله يزدجر عما يقترف من آثام وسيئات.

ومن أسباب الهلاك الظلم والكفر، فقد قال الله سبحانه عن قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

يخبر الله تعالى أن الحجارة التي أصابت قوم لوط حاضرة لكل ظالم طغى وتجبر، وهي بانتظار كل من حاكى فعالهم. فالله سبحانه لا يحابي أحدًا من الخلق، وليس بينه وبين أحد نسبًا.

والظلم ذنب عظيم يعذب الله تعالى بسببه الظالمين، ويعجل لهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف: ٥٩].

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[1].

واليوم لا نرى ردعًا للظالم، ولا أخذًا على يديه لزجره عن ظلمه، وليت الأمر بقي على ذلك، بل وصل الأمر إلى التزلف والتملق للظلمة، والمداهنة لهم، ورفع قدرهم، واعتبار زيارتهم، والجلوس معهم مفخرة، فكان حري أن يعم العقاب، حيث التشريد والشتات، وأن يحل العذاب، حيث التشرذم والتفرق، والتقاطع والتدابر. ولا يدفع ذلك كله إلا الإنابة إلى العزيز الغفار، وترك التشبه بمن ظلم نفسه من الأمم السابقة.

وخاطب الله تعالى المنافقين بأن يعتبروا بما حل بالأمم من قبلهم، حيث قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: ٧٠].

فأهل النفاق مطالبون بالاتعاظ مما أصاب الذين ذكرتهم الآية وأتتهم الرسل بالبينات، فردوها كفرًا وظلمًا؛ فكان الغضب الإلهي، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وسياق الآية وإن كان يتحدث عن المنافقين، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالمنافقون وغيرهم في كل زمان عليهم الاعتبار.

ولم يكن الظلم وحده سببًا في الهلاك، بل والتكذيب بآيات الله ورسله أيضًا والذي حذر منه القرآن الكريم. وأمر الله تعالى

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم ٤٣٤٠، ٤/ ٢١٤. وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، ٣/ ١١٥.

بالسير في الأرض للاعتبار بمن أصابهم سخط الله وغضبه بسبب تكذيبهم الرسل، فقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١].

وكل موضع أمر فيه بالسير في الأرض، فإنه يدل على الاعتبار والحذر، أن يحل بالمخاطبين من أفعال الله مثل ما حل بالسابقين[(١)] وسمى القرطبي السير في الأرض: «سفر العبرة»[(٢)].

وسورة الشعراء جاءت آيتها السادسة تهديدًا لمن كذب الرسول صلى الله عليه وسلم قريش، ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾ [الشعراء: ٦].

ومن ثم ذكرت تكذيب الأقوام لرسلها فيما بعد[(٣)]، فأهلكهم الله بهذا التكذيب.

ويقول الله عز وجل عن عادة آل فرعون والذين من قبلهم في التكذيب بآيات الله وإهلاكهم بسبب ذلك: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٤].

ولما تشابه حال قريش، بحال آل فرعون والذين من قبلهم في التكذيب والكفر، كان تغيير حالهم جميعًا بالعذاب؛ فهم غيروا أوامر الله وشرعه، فغير الله حالهم؛ جزاءً وفاقًا لجنس عملهم. فعلى كل من يريد النجاة مما حصل للقرون السالفة عليه أن يتقي الله تعالى ويكون مع الصادقين، وألا يكون كآل فرعون والذين من قبلهم في التكذيب.

ومن أسباب الهلاك التي حذرنا القرآن منها: الترف والبطر، يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

أي: أمرنا المترفين بطاعة الله وتوحيده، وتصديق رسله واتباعهم، فخرجوا عن طاعة ربهم وعصوا أمره، فوجب عليهم عذاب الاستئصال. وأكد فعل التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم[(٤)].

وجاءت الآية التي تلي السابقة محذرة مما أصاب القرون الأولى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧].

والله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من عقيدة صحيحة، وعبادة مشروعة، وأخلاق حسنة، إلى ضدها؛ فإن فعلوا عاقبهم الله تعالى، بتغيير حالهم.

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم، ١/ ١٤٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٢٢٥.
(٣) انظر: سورة الشعراء: ١٠٥، ١٢٣، ١٤١، ١٦٠، ١٧٦.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١٨/ ١٤١.

يقول المولى عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

جاءت هذه الآية بين آيتين تبدأ كل منهما بقول الله سبحانه: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عاقبهم الله بكفرهم وتكذيبهم بآيات الله، وغيروا أحوالهم من الصلاح إلى الفساد، فغير الله ما بهم من النعم إلى النقم.

وجاء الزجر الشديد لأولئك المغترين بأموالهم وأولادهم، بأنه كان من قبلكم من هو أشد منكم قوة، وأكثر أموالًا، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرتموها أنتم، فلما عصوا رسل ربهم، وجحدوا آياته عاقبهم الله تعالى، ولم يكن لهم من دونه ولي ولا واق، ولم تغن عنهم أموالهم ولا قوتهم من الله شيئًا.

فطلب الله تعالى من هؤلاء المغترين أن يسيروا في الأرض ويعتبروا بمن سبقهم، ممن هو أكثر منهم أموالا وأشد منهم قوة.

فقال الله سبحانه: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]

ولقد أهلك الله تعالى قرى كثيرة تشابهت في جريمة بطر النعمة و كفرانها، فيقول عز من قائل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨].

وأرسل الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم لأهل مكة التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان[1]، فكذبوا به، وجحدوه رغم معرفتهم بصدقه وأمانته، فأبدل الله رغدهم جوعًا، وأمنهم خوفًا.

وفي المقابل انقلب حال من اتبعوه من المؤمنين من خوف إلى أمن، ومن ضعف إلى قوة، و من قلة إلى كثرة، ومن هزيمة إلى نصر: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

وختم الآية بالشكر، وهذا الذي يناسب ذكر النعم وزيادتها.

ومن المنكرات الخطيرة المعلنة: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولقد قص الله علينا نبأ بني إسرائيل حينما تركوا هذا الواجب، فانتشر الفساد بينهم، فلعنهم الله، وضرب قلوب بعضهم ببعض.

فقال الله سبحانه مخبرًا عن ذلك: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ

(١) وانظر: سورة النحل: ١١٢.

عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وحذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)[1].

فعلى الأمة في هذا الزمان أن تحسب لنقم الله وغضبه الحساب الذي يليق، ولا تبقى شاردة في غيها وضلالها، وألا تتبع الذين ظلموا أنفسهم، بل تتبع سبيل من أناب إلى الله. وعلى تاركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اعتقادًا منهم النجاة من أذى الظلمة، أن يعلموا أن الفساد الخلقي سيصيبهم؛ والفساد الخلقي أشد وأخطر من الأذى الجسدي، فالأول يربي على الركون إلى الظلمة، والثاني يربي على التحدي والاستعلاء بالإيمان.

والمستقرئ لكتاب الله تعالى، يرى التعقيب على قصص الغابرين يدعوه إلى الصبر وأخذ العبرة. فبعد إغراق قوم نوح، يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

وتعقيبًا على هلاك ثمود، قال الله سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٥٢].

وكذلك الأمر بعد هلاك فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦].

وتعقيبًا على هلاك قوم لوط: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥].

وعن بدر، وبعد هلاك صناديد قريش، قال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣].

وبعد هزيمة يهود في خيبر: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

وطريق الأنبياء عليهم السلام محفوف بالأذى الجسدي، أما الإيمان فمقره القلب،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٢١٦٩، ٤/ ٤٦٨.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن». ٤/ ٤٦٨.

ولا سلطان لأحد عليه إلا الله، يقول الله سبحانه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]؛ فعلى المؤمن أن يتأسى بطريقهم عليهم السلام؛ فهو الطريق الأسلم والأقرب للنصر في الدنيا، والنجاة في الآخرة.

ثانيًا: القدوة الحسنة:

السنة أن يكون للناس إمام يؤمهم، يحاكون فعله وقوله، ويتبعون أمره، وينصرون فكره. والإمام هذا أحد نوعين -كما سماهم القرآن الكريم- أئمة يدعون إلى النار، وأئمة يهدون بأمر الله.

وأئمة الهدى حتى يستطيعوا تغيير ما أفسده الناس، ويحيلوا طريقهم المعوج إلى استقامة؛ لا بد أن يكون معهم المنهج الواضح البين، الذي يقنع الناس المضللين بأن ما هم فيه ضلال. ويبقى المنهاج جافًا حتى يتحول إلى بشر تمشي على الأرض. فكان هذا الأمر مع أنبياء الله عليهم السلام ومع الذين ربوا على أيديهم من أتباعهم المؤمنين؛ ليكونوا قدوة حسنة للناس من بعدهم في كل جيل.

والأنبياء أحسن الناس خلقًا وإيمانًا، وأعلاهم منزلة، والواجب أن يتأسى بهم الناس، وأن يتبعوهم في فعلهم وقولهم، ويتركوا الاقتداء بأئمة الكفر. وحتى يكونوا قدوة، جعل الله تعالى لهم صفات، وآتاهم بينات من الهدى، فقال سبحانه مخاطبًا النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكر ثمانية عشر نبيًا ممن سبقوه[1]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

يقول الطبري: «هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه والعمل بما فيه... فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم ﴿ٱقۡتَدِهۡ﴾ يا محمد، أي: فاعمل، وخذ به واسلكه»[2].

ويبين الإمام الرازي أن صفات الشرف وخصال الكمال هذه كانت مفرقة في الأنبياء بأجمعهم. فأيوب كان من أصحاب الصبر. وداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر. وسيدنا يوسف كان مستجمعًا لهاتين الصفتين -الصبر والشكر-. وموسى كان صاحب الشريعة القاهرة والمعجزات الظاهرة، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب زهد، وإسماعيل كان صاحب الصدق، ويونس كان صاحب التضرع. وبعد

(١) انظر: الأنعام: ٨٤-٨٦.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٥١٨-٥١٩.
وانظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٨/ ٢٧٢.

ذكرهم، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، أي: اقتد بكل هذه الصفات المفرقة فيهم؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أفضلهم [(١)].

ومن الصفات التي تحلى بها الأنبياء عليهم السلام، وأمرنا أن نتأسى بهم فيها، البراءة من الأعداء، وإظهار العداوة والبغضاء بيننا وبينهم أبدًا حتى يؤمنوا بالله وحده.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

فالمؤمنون عليهم التأسي بإبراهيم والذين معه في عدم الرضا بعبادة الأصنام، وأن يتشبهوا بهم في البراءة من الكفار في كل الأحوال، حتى وإن كانوا ضعفاء، أيًا كان الضعف، سواءٌ أكان ضعف النصرة، كما كان زمن النبي صلى الله عليه وسلم في الفترة المكية، أم ضعف الإرادة، كما هو حال مسلمي اليوم.

وأن يقتدوا بإبراهيم والذين معه في عظمة البراءة، وألا تكون على خجل، كما يصنع بعض الناس اليوم. وأن يقتدوا بإبراهيم والذين معه في الكفر بجميع المعبودات، سواءٌ أكان المعبود بشرًا- كعبادة الزعماء في بعض الدول- أم عبادة المؤسسات- كالتي تشرع من دون الله. وأن تستمر البراءة من ذلك أبدًا حتى يؤمنوا بالله وحده.

وعلينا أن نقتدي بإبراهيم والذين معه في خصال الخير، في عدم الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وفي التبرؤ من حولنا وقوتنا إلى حول الله وقوته، وأن نتشبه بهم في التوكل على ربنا، وفي الإنابة إليه، فالمصير إليه.

ونقتدي بهم في مناجاة ربنا ألا يجعلنا فتنة للقوم الكافرين، وأن يغفر لنا: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ [الممتحنة: ٤-٥].

وأول سورة الممتحنة نزل في حاطب بن أبي بلتعة [(٢)]، الذي والى أهل مكة في محاولة إنبائهم سير النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة، فكان التوجيه الرباني في هذه الآية إلى المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم والذين معه في البراءة من المشركين.

وكانت الوصية الربانية، في اتخاذ الأنبياء عليهم السلام أسوة حسنة في سورة الممتحنة نفسها، فقال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣/ ٥٨.

(٢) انظر: لباب النقول، السيوطي، ص٢٥٦.

﴿كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦].

فالذي يقتدي بأئمة الهدى هؤلاء، هو من آمن بالله واليوم الآخر. وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، إنما تسهل على من آمن واحتسب الأجر[(١)].

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم سيد الخلق، وأكرمهم على الله تعالى، ولما كان على خلق عظيم، جاء التوجيه الرباني بتخصيصه أن يكون أسوة حسنة.

فقال الله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولكي يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة، فقد أهله الله لذلك في كل ميدان من ميادين الدين والدنيا. ففي مجال الثبات على العقيدة وعدم التنازل عنها، ثبت أمام مغريات المال والجاه والنساء التي عرضت عليه مقابل ثنيه عن الدعوة، فثبت ولم يساوم[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾. [الكافرون: ١-٦].

وفي مجال الأخلاق، كان النبي صلى الله عليه وسلم الأعلى فيها كلها، ويكفيه شرفًا أن زكى الله خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

وحرف الجر يفيد الاستعلاء، فكأنه صلى الله عليه وسلم اعتلى الأخلاق كلها، وكلمة عظيم توحي بشأن هذه الأخلاق العظيمة؛ فهو صلى الله عليه وسلم صاحبها الذي امتلأت حياته بها.

وفي مجال التعامل، كان صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة. فكان باشًا مع أصحابه، محترمًا إياهم، محبًا لهم، ملبيًا حاجاتهم. وغير ذلك من مجالات الاقتداء التي يستطيع كل فرد في المجتمع -أيًا كان مركزه وعمله- أن يقتدي به صلى الله عليه وسلم، سواءٌ أكان زوجًا أم أبًا أم جارًا أم مربيًا أم قائدًا أم مجاهدًا.

وختمت صفات عباد الرحمن بدعائهم ربهم أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال البخاري: «أيمة نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا»[(٣)].

وصفات العباد الذين نسبهم الرحمن لنفسه هي: التواضع، ومخاطبة الجاهلين بالسلام، والدعاء، والاعتدال، في الإنفاق

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٥٦.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ١٣٠.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٨/ ١٣٩.

ولا يشركون ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، وكذلك من صفاتهم التوبة وعمل الصالحات، ولا يشهدون الزور، والإعراض عن اللغو، والإصغاء لآيات الله[1].

وختم هذه الصفات بدعاء ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ فيه إشارة إلى أن هذه الصفات هي جزء من صفات عباد الله الواجب على الناس أن يتبعوهم فيها، والتي تؤهلهم للإمامة وقيادة الناس.

واليوم يعيش المسلمون أزمة قدوات فصار جزء منهم يقتدي بمن فسدت عقائده، وساءت أخلاقه، وراج سوؤه. فصار باطن الجيل وظاهره مقلدًا للكفر، ولدعاة على أبواب جهنم. وحتى يحسن حالنا، ويسوء وجه عدونا؛ لا بد من أئمة للهدى يقتدي بهم التائهون، ويؤوب إليهم المرضى بهم يستشفون.

وأئمة الاقتداء والهدى هؤلاء، لا بد لهم من صفات يتصفون بها، وسمات تعلو باطنهم وظاهرهم، ومنها:

١. أن تتحدث عنهم أفعالهم أكثر من أقوالهم.

٢. ألا يخالف فعلهم قولهم، اقتداء بشعيب عليه السلام الذي ذكر الله قيله لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

٣. أن يكونوا على خلق عظيم، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي زكى الله أخلاقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

٤. أن يكون القدوة حرًا طليقًا من القيود المذلة، كالمهنة التي تحجبه عن قول الحق، اقتداءً بالرسل عليهم السلام الذين خاطبوا أقوامهم: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠] وهذه الآية نفسها التي تبدأ بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، والتي تم الحديث عنها سابقًا.

٥. العلم: كما أمر الله تعالى نبيه- وكل من يصلح له الخطاب- بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فقدم العلم على التوحيد؛ إذ لا نعرف التوحيد إلا بالعلم؛ لذا كان أول ما نزل: ﴿ٱقْرَأْ﴾.

وغيرها من الصفات التي تؤهل المسلم ليكون قدوة للمتقين.

ثالثًا: إظهار الصورة المنفرة للمقلدين:

أنعم الله تعالى على الإنسان بنعم كثيرة، فقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

وعلى الإنسان أن يقوم بواجب الشكر لله

(١) انظر: سورة الفرقان: ٦٣-٧٤.

على هذه النعم، وشكرها يكون باستعمالها فيما أمر الله، فإن استعملها صاحبها في غير ما أمر الله تعالى فقد كفر هذه النعمة، وحينها يستحق الذم.

ومن النعم التي أنعم الله بها على الإنسان السمع والبصر والعقل؛ لتكون له عونًا على اتباع الحق، واجتناب الباطل، ومن عطلها عن هذه الوظيفة التي خلقت لأجلها؛ فقد شبهه القرآن الكريم بالبهائم.

فقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهؤلاء لهم قلوب لا يفقهون بها الخير والهدى، ولهم أعين لا يبصرون بها طريق الحق، ولهم آذان لا يسمعون بها مواعظ القرآن سماع اتعاظ. هؤلاء مثلهم كمثل الأنعام لا تفقه ما يقال لها. بينما الأنعام وهي غير مكلفة، طائعة لربها، وهي مفطورة على ذلك؛ فهي: «تبصر منافعها، وتتبع مالكها، وهم بخلاف ذلك»[(١)].

ووصفهم الله تعالى بالغفلة الكاملة، فهي خاصة بهم ﴿هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[(٢)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٠٦. وانظر: نظم الدرر، البقاعي، ٣/ ١٥٩.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٧٧، نظم الدرر، البقاعي، ٣/ ١٥٩.

إن تفضيل الله تعالى للأنعام على من أنكر حق الله تعالى في الوجود، وفي العبادة متبعًا في ذلك غيره، ومعطلًا ما وهبه الله من حواس، لهو تفضيل في غاية البشاعة والازدراء، فناسب تعطيلهم الحواس، تصويرهم البشع بأنهم أضل من الأنعام، فلو كان عندهم شيء من الإحساس والأنفة والعزة، لاهتزت مشاعرهم، وانتفضت قلوبهم الصدئة على تبعية عمياء، وجاهلية حمقاء، ولأنصت السمع للحق، ولنطق به اللسان، وعملت به الجوارح. يقول عبيد الله بن المعتمر: «لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد»[(٣)].

وقريب من آية الأعراف السابقة، آية الفرقان التي يقول تعالى فيها: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

والملاحظ أن كلتا الآيتين جاء فيهما الإضراب لزيادة الذم.

أما ارتباط الآيتين بما قبلهما، فقد جاءت آية الأعراف السابقة بعد الحديث عن الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وآتاه الله علمًا لكنه أخلد إلى الأرض متبعًا هواه[(٤)]؛ فلما كان حاله ترك آيات الله، واتباع هواه، شبهه

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٣١٢.
(٤) انظر: سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٩.

الله تعالى بالكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. وهذا مثل في غاية السوء، وهذا استنفار لذي الحجر؛ ليقلع عن كل عمل يوصل إلى مثل هذا الحال. أما آية الفرقان فقد سبقتها آيات تخبر عن استهزاء الكفار بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ووصفهم إياه بالضلال، واتخاذهم الهوى إلهًا من دون الله، فكان الرد الرباني عليهم بأنهم من الجهل بمكان وأنهم أضل من الأنعام سبيلًا. يقول سعيد حوى: «إن القيام بأمر الله هو وحده الذي يطلق طاقات الإنسان كلها في طريقها الصاعد نحو الكمال، وترك أمر الله يعني إطلاق هذه الطاقات نحو الحيوانية الحرة»[(١)].

ولم يكتف القرآن الكريم بتشبيه الذين يتبعون آباءهم -معرضين عن داعي الله تعالى لهم باتباع ما أنزل الله- بالأنعام، بل شبههم أيضًا بالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً. وهذه الصورة منفرة من التقليد الذي لا يقوم على دليل، قال سبحانه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

والآية هذه سبقت بالآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

يقول الرازي: «ضرب لهم هذا المثل تنبيهًا للسامعين لهم إنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء، وقلة الاهتمام بالدين، فصيرهم من هذا الوجه بمنزل الأنعام، ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسرًا لقلبه، وتضييقًا لصدره، حيث صيره كالبهيمة فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد»[(٢)].

هؤلاء المقلدون عطلوا حواسهم-التي خلقها الله لهم لينتفعوا بها-واتبعوا آباءهم مقلدين لهم دون وعي وتفكير، ولم يتبعوا الرسل معاندين لهم. فهم صم عن سماع الحق، بكمٌ عن النطق به والدعوة إليه، عميٌ عن اتباعه؛ لأجل ذلك وصفهم القرآن في سورة الأنفال: بأنهم من الدواب، وأنهم شرها.

قال الله سبحانه: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

ويلاحظ أن آيتي البقرة والأنفال وصفتا المقلدين بالصم والبكم وعدم العقل، وهذا الوصف يليق بهم في الدنيا إذ إنهم كذلك. أما يوم القيامة حينما يرون ما وعدهم ربهم

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم، حوى، ص٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٥/ ٨.

من النار، فإنهم يحسنون استعمال سمعهم وعقولهم؛ فيندمون ولات حين مناص.

يقول الله تعالى واصفًا حالهم هذه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ [الملك: ١٠-١١].

وفي هذا أكبر الزجر لأولئك المقلدين، كي يتوبوا من غيهم، ويفيقوا من غفلتهم ولا يكونوا إمعات[(١)] معطلين لأسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم، متبعين كل ناعق.

ويخرج عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الإمعة من زمرة العلماء والمتعلمين حينما يقول: «اغد عالمًا أو متعلمًا ولا تكونن إمعة»[(٢)].

ولقد صور الله تعالى الكافرين بصورة مزرية، حينما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: ١٢].

فهم كالبهائم لا هم لهم إلا شهوة البطن والفرج، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦].

ولئن شبه المتبعون غير ما أنزل الله، بالأنعام، فقد كان للحمار دور في التشبيه به أيضًا. فالله تعالى وصف اليهود الذين لا يلتزمون أمره بالحمار في الحقارة والبلادة والجهل، قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥].

فالله تعالى كلف اليهود بالعمل بما في التوراة، ومن ذلك اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، إلا إنهم كتموا، وحرفوا وبدلوا، وظاهروا المشركين على المسلمين فلما كانوا كذلك، شبههم بالحمار يحمل أسفارًا، لا يدري ما يحمل ولا ينتفع بما يحمل، إنزالًا من قدرهم، وحطًا من شأنهم. والحمار يضرب به المثل في الجهل والبلادة والحقارة[(٣)].

والغاية من ذلك تحقير المقلد ليكون ذلك أدعى لدفعه لترك التقليد. وهذا المثل فيه ترهيب للمسلمين من أن يتهاونوا بشيء من أحكام القرآن؛ فيكونوا أكثر سوءًا من اليهود؛ ومن ثم يكونون دون الحمار؛ فرسولهم صلى الله عليه وسلم أعظم، وكتابهم أعلى.

وفي الأمة الإسلامية اليوم من يحفظ كتاب الله تعالى ويعلم ما فيه، إلا إنه يخالفه في عمله وأخلاقه وتصرفاته وتصوراته، فشابه اليهود في هذه الصفة المذمومة.

وعليه أن يعتبر ويتعظ ويعمل بما علم، كي لا يلحقه من الذم ما لحق اليهود.

(١) جمع إمعة وهو: الذي لا رأي له ولا عزم، فهو يتبع كل أحد، ولا يثبت على شيء.
انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٣.

(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم، ٢/ ٢٦٨.

(٣) انظر: اللباب في العلوم الكتاب، ابن عادل، ١٩/ ٧٦.

رابعًا: إعلان المسؤولية الفردية:

المسؤولية الفردية تعني تحمل الإنسان تبعة معتقداته وأفعاله وأقواله، في الدنيا والآخرة، ولا يشاركه أحد في ذلك. ومن عدل الله تعالى أن أرسى هذا المبدأ، فلا يحمل أحد وزر أحد.

يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

فالآية تحث المقلد على الانتباه، وعدم الانجرار وراء الناعقين دون وعي وإدراك، لأن المتبوع لن يحمل شيئًا من أثقال التابع وآثامه. والمقلد غيره على غير هدى، يتحمل تبعة تقليده، ولا يغني عنه المتبوع شيئًا، فهو أضعف من أن يدفع العذاب عن نفسه، فضلًا عن أن يدفعه عن غيره.

هذا المبدأ الرباني وردت آيات كثيرة تقره وتعلنه، وضرب الله تعالى أمثلة عدة توضحه، تمثلت في أولي العزم من الأنبياء كإبراهيم عليه السلام مع أبيه، ونوح عليه السلام مع ولده وزوجه، والنبي صلى الله عليه وسلم مع عمه؛ ليكونوا أسوة حسنة لغيرهم من المؤمنين في التبرؤ من المشركين. فإبراهيم عليه السلام خاطب أباه أنه لا يملك له من الله شيئًا، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] فهو-على مكانته من الله تعالى- لا يستطيع أن يمنع أدنى شيء عن أبيه ﴿مِن شَىْءٍ﴾، وفي هذا إظهار لمبدأ المسؤولية الفردية عن الأعمال. والتعبير في الآية عن الملك ﴿وَمَآ أَمْلِكُ﴾ ليظهر أن الكل ملك لله تعالى، والمرء لا يملك نفسه التي بين جنبيه، فكيف يملك غيرها ليرد عنها العذاب. وهذا فيه تحذير للمغرورين في الدنيا وتبعية أهلها ألا تعملوا إلا وفق ما أراد المالك سبحانه، لأن مخالفته تعني تحمل النتيجة من العذاب.

أما بالنسبة لمبدأ المسؤولية على مستوى البنوة، فقد قدم القرآن الكريم صورة نوح عليه السلام مع ولده الكافر الذي ناداه للنجاة من الغرق كما أخبر القرآن الكريم: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

فنوح عليه السلام أمر ولده أن يتبع سبيله، وألا يتبع سبيل الكافرين، إلا أن الابن كان مطيعًا للكافرين لا لأبيه، فكانت النتيجة أن هلك مع الذين كثر سوادهم، واتبع سبيلهم، وأطاع أمرهم من الكافرين، ولم تنفع قرابة الأبوة شيئًا، حتى مجرد المناجاة التي كانت من نوح عليه السلام لربه لم تستجب، والتي ذكرها القرآن العظيم: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

[هود: ٤٥-٤٦].

فكان التسليم المطلق من النبي الطائع بعدها مباشرة لأمر الله، والإنابة إليه من ندائه هذا، فقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود: ٤٧].

نوح هذا الذي هو من أولي العزم لم يستطع أن يرفع العذاب عن ابنه الذي هو من صلبه، ولم يستجب دعاؤه في أكثر الناس قربًا له، فكانت الثمرة أن تحمل الولد وزر نفسه، وثمرة اختياره، وكان والده من الذين رضي الله عنهم، بينما ولده من الذين غضب الله عليهم فأهلكه معهم.

وأكد القرآن الكريم هذا النموذج في المسؤولية الفردية بين الابن إبراهيم عليه السلام وأبيه الكافر، وبين الأب نوح عليه السلام وبين ابنه الكافر، حينما جعله مبدأً عامًا بين كل ابن وأب، وبين كل أب وابن، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالِدٖ هُوَ جَازٍ عَن وَلَدِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [لقمان: ٣٣].

كذلك كانت المسؤولية الفردية على مستوى الزوجية، ولم يغن الزوج النبي عن زوجته الكافرة شيئًا، فقال الله سبحانه عن الزوجتين الكافرتين لنوح ولوط عليهما السلام: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: ١٠].

إن الصلة بين الزوجين صلة متينة قوية، والعلاقة بينهما علاقة حميمة، وكلًا منهما لباس للآخر، يسترها وتستره، هذه المودة لم تكن لتجدي نفعًا عند الله تعالى حتى في ظل النبوة والرسالة.

ورغم أن الزوج نبي مرسل من عند الله تعالى، إلا إنه لم يستطع أن يغني شيئًا من عذاب الله تعالى عمن عاش معها حينًا من الدهر، حينما اختارت الكفر على الإيمان، ورضيت لنفسها طريق الكافرين على طريق المؤمنين، واتبعت خطوات الشيطان، وكفرت بخالقها وعصت زوجها إذ دعاها إلى الإيمان.

فالنتيجة لم يحمل من آثامها وأثقالها شيئًا، وحصدت هي وحدها -ووحدها فقط- ثمرة غراسها السيء ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾. بينما هو النبي كانت له ثمرة غراسه الطيب رضوان الله تعالى والفوز بالجنة لطاعته ربه، ومخالفة الهوى والكافرين. يقول الله سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٧].

ويقول سبحانه: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

كذلك الأمر كان بالنسبة لسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم حينما جمع أهل مكة وحذرهم وبين لهم حقيقة المسؤولية الفردية للأعمال، وأنه لا يغني عنهم من الله شيئًا، وأن الجميع: ﴿ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

وأن ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧].

فقال صلى الله عليه وسلم مؤكدًا هذا المبدأ: (يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا)[1].

فالنبي صلى الله عليه وسلم على قدر كرامته عند الله تعالى، وهو أحب الخلق إليه؛ إلا إنه لا يغني عن أقرب الناس إليه شيئًا، فكيف بالأباعد عنه نسبًا ممن يدعون أنهم من أمته، ولا يهتدون بهديه، ويتبعون غيره مستبدلين بشرعه شرع غيره، هؤلاء يؤتى بهم يوم القيامة ولا يردون الحوض، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إني لكم فرط على الحوض، فإياي لا يأتين أحدكم فيذب عني كما يذب البعير الضال، فأقول: فيم هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقًا)[2]

ولو أن أحدًا يملك لأحد شيئًا، لكان هذا الأمر من سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب الذي دافع عنه في أيام الدعوة الإسلامية الأولى دفاع المستميت، إلا إنه صلى الله عليه وسلم نهي عن الاستغفار لعمه أبي طالب حينما مات على الكفر وعلى ملة الآباء والأجداد.

قال الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

وسبب النزول أنه: «لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: أي عم قل معي: لا اله إلا الله، أحاج لك به عند السله. فقال أبو جهل وابن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم ٢٧٥٣، ٣/ ١٩٠-١٩١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا وصفاته، رقم ٢٢٩٥، ٤/ ١٧٩٥.

أنه عنه، فنزلت[1].

فالنهي كان للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن يستغفروا للمشركين، حتى ولو كانوا أولي قربى. هذا النهي كان قد توجه لنبيين من أولي العزم هما نوح وإبراهيم عليهما السلام، فنوح نهاه ربه أن يدعو لابنه الكافر، وإبراهيم نهاه ربه أن يستغفر لأبيه المشرك، فكان الموقف مماثلًا مع النبي صلى الله عليه وسلم. وكذلك كان النهي للمؤمنين في كل زمان أن يشفعوا للكافر ولو كان ذا قربى، لأنه حاد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

هذا الأمر وجدنا الصحابة رضوان الله عليهم يطبقونه أفضل تطبيق.

فقال الله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله يوم أحد، وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد، وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وفي علي وحمزة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر[2].

هكذا تكون المفاصلة، وهكذا تكون النتيجة، صفين: صف إيمان لا كفر فيه، وصف كفر لا إيمان فيه، يحمل كل منهما تبعة اختياره، وثمرة زراعته، ولا يحمل أحد وزر أحد ولو كان ذا قربى. ليحذر المرء وليتنبه من غفلته وغروره، وأنه لن يحمل أحد عنه من أوزاره شيئًا؛ كي يبقى طائعًا لله وحده، مخالفًا كل ذي هوى.

ولقد ضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون في إيمانها وصبرها أمام أعتى جبابرة الأرض.

فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

هذه المرأة الصابرة، رغم ضعفها الجسدي إلا إنها قوية بإيمانها، صبرت على أذى زوجها وتعذيبه، لأنها علمت أن ليس لها إلا ما سعت، وأن زوجها الكافر لن يغني عنها من الله شيئًا، ولن يدفع عنها ضرًا، فكان قرارها الراسخ أن لا عودة إلى الكفر بعد إذ هداها الله إلى الإيمان، وفي هذا عبرة للمؤمنين.

هذه النماذج، ما ذكرها القرآن على هذا المستوى -مستوى النبوة- إلا لتؤكد مبدأ المسؤولية الفردية، وأن المرء مهما علت

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص١٧٧.
(٢) المصدر السابق، ص٢٧٨.

مكانته عند ربه، ومهما كان قريبًا من ربه، فإنه لن يستطيع أن يحمل عن أحد وزرًا ولو كان ذا قربى. فإذا كانت الأنبياء مع آبائها وأبنائها وأزواجها على هذا النحو، فكيف بمن هم أبعد من ذلك، كيف بمن اجتمعوا من أنساب شتى على الكفر والصد عن سبيل الله، والتآمر على دينه ويوم القيامة لا نسب ولا سؤال.

يقول الله سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وفي هذا بيان للناس أجمعين -في كل زمان- أن يستشعروا خطورة الموقف، وتبعة المسؤولية الشخصية حينما يتبعون غير أمر الله، ويطيعون العصاة في معصية الله، ويحادون الله ورسوله تبعًا لكبرائهم، أو لأهوائهم ومصالحهم الذاتية، حيث تنقطع الصلات ومصالح الدنيا.

فقال الله سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

ولقد وجد في البشرية من يتكل على فضائل الآباء، ظنًا منه أنها تنفع الأبناء، ومن هؤلاء اليهود الذين ادعوا نسبتهم إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، ولم يقتدوا بهم، ظانين أن النسب إليهم سينفعهم.

فرد الله تعالى عليهم هذا الادعاء: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤].

فلكل ما كسب واكتسب، ولن ينفعوكم يوم القيامة.

ويزعم النصارى -حسب معتقداتهم- أن المسيح عليه السلام حمل خطايا الآخرين وكفر عنها بدمه، فجاء القرآن العظيم نافيًا هذا الاعتقاد الخاطئ، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وصناديد الكفر يصدون عن سبيل الله تعالى، ويحرضون الناس على عدم اتباع الأنبياء والدعاة إلى الله، ويحثونهم على اتباع طريقتهم والعمل بمنهجهم، وتكثير سوادهم؛ لتبقى لهم القوة والغلبة، مؤملين أتباعهم بالأماني الفارغة، والوعود الكاذبة وأنهم سيحملون أوزارهم عنهم.

حتى إذا حانت لحظة الشدة -في الدنيا والآخرة- تبرءوا من أتباعهم، فكان القرآن العظيم يقص قصتهم هذه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ

﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

إن الكبار يحملون وزر إضلال الصغار ويتحملون تبعة الافتراء على الله، وسيحاسبون على جريمة إضلال الضعفاء، وللضعفاء تبعة تبعية الضالين المضلين، فكانت النتيجة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

فإعلان مبدأ المسؤولية الفردية على هذا المستوى، هو إعلان فيه التحذير الشديد من التقصير أو التهاون في شأن الطاعات والتزام أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، وألا يتكل أحد على حسنات أحد مهما كان قربه من الله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، القدوة

التقوى

عناصر الموضوع

مفهوم التقوى	٤٢٢
التقوى في الاستعمال القرآني	٤٢٣
الألفاظ ذات الصلة	٤٢٤
أصناف المخاطبين بالتقوى	٤٢٦
أساليب الأمر بالتقوى	٤٢٨
صفات المتقين	٤٣٠
مكانة التقوى	٤٤٩
فضائل التقوى	٤٥٣
عاقبة التقوى وآثارها	٤٧١

مفهوم التقوى

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «وقي: الواو والقاف والياء: كلمة واحدة تدل على دفع شيء بغيره، والوقاية: ما يقي الشيء. واتق الله: توقه»[1]. وقال ابن منظور: «وقي: وقاه الله وقيًا ووقاية وواقية: صانه.. ووقيت الشيء: أقيه إذا صنته وسترته عن الأذى.. وتوقى واتقى بمعنًى، وقد توقيت واتقيت الشيء وتقيته أتقيه تقًى وتقية وتقاء: حذرته. والاسم: التقوى، التاء بدل من الواو، والواو بدل من الياء»[2]. وقال القرطبي: «والأصل في التقوى: وقوى، على وزن فعلى، فقلبت الواو تاء من وقيته أقيه أي: منعته، ورجل تقي، أي: خائف، أصله: وقى، وكذلك: تقاة كانت في الأصل وقاة»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف ابن كثير التقوى فقال: «التقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات»[4].

ويقول ابن رجب الحنبلي: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه»[5].

قال البيضاوي: «والوقاية: فرط الصيانة، وهو في عرف الشرع: اسم لمن يقي نفسه مما يضره في الآخرة»[6].

قال أبو حيان في تعريف المتقي: «والمتقي في الشريعة هو الذي يقي نفسه أن يتعاطى ما توعد عليه بعقوبة من فعل أو ترك»[7].

فالتقوى في الاصطلاح: هي عبارة عن اجتناب ما نهى الله عنه، ويدخل فيه أداء ما فرضه الله على المسلم من الطاعات والواجبات.

---

(١) مقاييس اللغة ٦/ ١٣١.
(٢) معجم لسان العرب ١٥/ ٤٠١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٤١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٠٠.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص١٣٨.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٤٨.
(٧) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٨.

التقوى في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (و ق ي) في القرآن (٢٥٨) مرة، يخص موضوع البحث منها(٢٣٩) مرة [(١)].
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٧	﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[البقرة:٢١٢]
الفعل المضارع	٥٧	﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾[النساء:٧٧]
الفعل الأمر	٨٢	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾[البقرة:٢٠٦]
المصدر	١٧	﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[البقرة:١٩٧]
اسم الفاعل	٤٩	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[البقرة:١٩٤]
اسم	٢	﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[آل عمران:٢٨]
صفة مشبهة	٣	﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾[مريم:١٣]
اسم تفضيل	٢	﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾[الليل:١٧]

وجاءت التقوى في القرآن بمعناها في اللغة، وهي: من الوقاية التي تعني: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٥٨-٧٦١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٨٨١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإيمان:

الإيمان لغة:

الإيمان في اللغة يراد به معنيان، يظهر معناهما بحسب السياق، وهما: الأمن وضده الخوف، والتصديق وضده التكذيب، والمعنيان متداخلان[(١)].

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى معنى لغويًا آخر للإيمان؛ وهو أن يكون الإيمان بمعنى الإقرار؛ فيقول فيه: ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد[(٢)].

الإيمان اصطلاحًا:

التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أخبر الله ورسوله عنه في القرآن والسنة، وأمر بالإيمان به؛ والانقياد له ظاهرًا وباطنًا[(٣)].

الصلة بين الإيمان والتقوى:

الإيمان هو التصديق بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والتقوى هي العمل بمقتضى هذا التصديق، فالتقوى مترتبة على الإيمان، والإيمان سبب لها.

٢ الخشية:

الخشية لغة:

قال ابن فارس: «الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوفٍ وذعرٍ»[(٤)].

الخشية اصطلاحًا:

وعرف الأصفهاني الخشية بأنها: «خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]»[(٥)].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٩١، الإيمان، حقيقته، خوارمه، نواقضه، عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبدالحميد، ص١٩-٢١.

(٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٤٨.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣.

وعرفها الجرجاني بأنها: «تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل»[1].

الصلة بين الخشية و التقوى:

إن في الاتقاء معنى الاحتراس مما يخاف، وليس ذلك في الخشية[2]، فالخشية مقترنة بالعلم، ففيها زيادة العلم والمعرفة بالمعبود سبحانه وتعالى فهي خوف مع تعظيم.

(١) التعريفات، الجرجاني ص ٨٦-٨٧.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٤٣.

أصناف المخاطبين بالتقوى

تنوعت أساليب القرآن الكريم في الأمر بالتقوى والحض عليها، فورد الأمر بالتقوى للناس أفرادًا وجماعات: مؤمنين وغير مؤمنين، كما وردت على لسان كثير من الأنبياء والأولياء، مما يشير للأهمية الكبيرة للتقوى.

١. النبي عليه السلام.

فقد أمر الله سبحانه نبيه بالتقوى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

قال البيضاوي: «ناداه بالنبي وأمره بالتقوى؛ تعظيمًا له وتفخيمًا لشأن التقوى. والمراد: الأمر بالثبات عليه؛ ليكون مانعًا له عما نهي عنه بقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يعود بوهن في الدين»[(١)].

وقال ابن الجوزي: «فإن قيل: ما الفائدة في أمر الله تعالى رسوله بالتقوى، وهو سيد المتقين؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن المراد بذلك استدامة ما هو عليه. والثاني: الإكثار مما هو فيه. والثالث: أنه خطاب ووجه به، والمراد: أمته»[(٢)].

٢. الصحابة.

من الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فقد أمرهم الله سبحانه بالتقوى عسى أن تكون شكرًا للنعمة على نصره العظيم وقد كانوا قلة. قال ابن عطية: «أمر تعالى المؤمنين بالتقوى ورجاهم بالإنعام الذي يوجب الشكر. ويحتمل أن يكون المعنى: اتقوا الله عسى أن تكون تقواكم شكرًا على النعمة في نصرة بدر»[(٣)].

٣. أولو الألباب.

أمر الله أولي الألباب بالتقوى في أكثر من موضع في كتابه منها قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

يعني بذلك جل ثناؤه: واتقون يا أهل العقول والأفهام بأداء فرائضي عليكم التي أوجبتها عليكم في حجكم ومناسككم وغير ذلك من ديني الذي شرعته لكم، وخافوا عقابي باجتناب محارمي التي حرمتها عليكم؛ تنجوا بذلك مما تخافون من غضبي عليكم وعقابي، وتدركوا ما تطلبون من الفوز بجناتي. وخص -جل ذكره- الخطاب بأولي الألباب؛ لأنهم أهل التمييز بين الحق والباطل، وأهل الفكر الصحيح والمعرفة بحقائق الأشياء التي بالعقول تدرك وبالألباب تفهم، ولم يجعل لغيرهم من أهل الجهل في الخطاب بذلك حظا؛ إذ

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٧٦.
(٢) زاد المسير ٣/ ٤٤٦.
(٣) المحرر الوجيز ص٣٥٢.

كانوا أشباحا كالأنعام، وصورا كالبهائم، بل هم أضل سبيلا من البهائم[1].

وقال ابن عطية رحمه الله «وخص ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بالخطاب وإن كان الأمر يعم الكل؛ لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله، وهم قابلو أوامره والناهضون بها، وهذا على أن اللب لب التجارب وجودة النظر، وإن جعلناه لب التكليف فالنداء بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ عام لجميع المكلفين، واللب العقل»[2].

٤. المؤمنون.

أكثر آيات الأمر بالتقوى موجهة للمؤمنين؛ لأن فيها جماع الخير كله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والآيات كثيرة في ذلك؛ لأن القرآن الكريم يربط التقوى بالأوامر والنواهي والنصر والتمكين وغيرها، بصور وأشكال وأساليب مختلفة.

٥. أهل الكتاب.

وقد كانت وصية الله سبحانه لأهل الكتاب بالتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

٦. جميع الناس.

وكذلك ورد الأمر بالتقوى لجميع الناس.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

فقد ورد الأمر بالتقوى في الخطاب لجميع الناس، قال البيضاوي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب يعم بني آدم... وترتيب الأمر بالتقوى...؛ لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشى، والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليها، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه، على ما دلت عليه الآيات التي بعدها»[3].

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٠١.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٧٤.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٣٢٩.

أساليب الأمر بالتقوى

أولًا: أسلوب الغيبة أو الخطاب:

وقد تنوعت صيغة الخطاب فاستخدم القرآن الكريم الغيبة والخطاب المباشر في الحديث عن التقوى، وكان أكثر حديث القرآن بلفظ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بصيغة الخطاب المباشر المفيد للأمر بالتقوى، والمرتبط بمختلف الأحكام الشرعية وغيرها.

وقد يبتدأ بالأمر بالتقوى أولًا؛ تمهيدًا للدخول في الموضوع، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقد يأتي الأمر بالتقوى لاحقًا للأمر أو النهي عن أحكام معينة، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وهذه الأوامر وردت بصيغة الأمر.

وقد يرد الخطاب بالتقوى بصيغة الفعل المضارع، كقوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وصيغة الفعل المضارع؛ للتجدد والاستمرار.

وقد يضاف الخطاب بنسبته المباشرة إلى الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد خص بالخطاب أولي الألباب، قال البيضاوي: «حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه، وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى، فلذلك خص أولي الألباب بهذا الخطاب»[1].

كما أنه سبحانه أضاف الأمر بالتقوى بالخطاب المباشر لذاته؛ لتربية المهابة، وتأكيد الأمر بالتقوى.

كما ترد التقوى بصيغة الغائب، كقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

سواء كان ذلك بصيغة الفعل الماضي كما ذكر في الآية، أو بصيغة الفعل المضارع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٧٨.

٢-٣].

ثانيًا: أسلوب الحض على التقوى:

وقد ورد الحض على التقوى بألفاظ وأساليب مختلفة:

فقد يرد الحض بتحصيل التقوى لذاتها؛ لما فيها من جوامع الخير، وسعادة الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ويراد به القيام بما يقتضيه الأمر بالتقوى.

لكن لما كان الأمر غير مقدور للإنسان أن يتقي الله حق تقواه طلب من المرء أن يتقي الله حسب استطاعته. عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال: «لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ تخفيفًا على المسلمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فنسخت الآية الأولى». لكن روي عن ابن عباس أنه قال عن آية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أنها لم تنسخ، ولكن حق تقاته: أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم، ويقوموا لله سبحانه بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم[(١)].

المهم أن المأمور به من التقوى ما يستطيعه الإنسان؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

ثم إن التقوى هبة من الله سبحانه وتعالى، لا يملك المرء هذه الملكة إلا بتوفيق منه سبحانه، فيبذل الإنسان جهده في تحصيلها، وأهم وسيلة أن يطلب بصدق من الله تعالى أن يهب له التقوى.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

يقول سيد قطب: «فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء، فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل: ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] ...، والتقوى حالة في القلب تجعله أبدًا واجفًا من هيبة الله، شاعرًا برقابته، خائفًا من غضبه، مستطلعًا إلى رضاه، متحرجًا من أن يراه الله على هيئة أو في حالة لا يرضاها»[(٢)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٥ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٤ .

صفات المتقين

تحدث القرآن عن صفات المتقين وسوف نتناولها فيما يأتي:

أولًا: صفات اعتقادية:

١. الإيمان بالغيب.

ورد من صفات المتقين الإيمانية أنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

والغيب: ما غاب عن الحواس، ويقابله الشهادة، أي: ما تشاهده الحواس.

ولقد نفى الله تبارك وتعالى علم الغيب عن جميع المخلوقات إلا من أراد هو أن يطلعه على الغيب بالقدر الذي يشاء. فقد نفى علم الغيب عن الإنسان وعن الجان وحتى عن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه.

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

والجن الذين آتاهم الله بعض القدرة، حيث كانوا يسترقون السمع نفى عنهم علم الغيب فقال: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

والإنسان محاط بالغيب المجهول الذي يقف العقل عنده عاجزًا قاصرًا. وقد أثبت القرآن علم الغيب وجعل له مفاتح لا يعلمها إلا الله تعالى، وأن علم الغيب منفي عن المخلوقات إلا ما يشاؤه الله تعالى، والإيمان بالغيب يجعل الإنسان يتجاوز ما تدركه الحواس فيتجاوز مرتبة التفكير في هذا الوجود الذي كانت فيه دلائل الوحدانية، ولهذا امتدح الله المؤمنين المتقين بأنهم الذين يؤمنون بالغيب.

فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢ - ٤].

قال الألوسي: «واختلف الناس في المراد به هنا على أقوال شتى..، والذي يميل إليه القلب أنه ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام وهو الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره؛ لأن الإيمان المطلوب شرعًا هو ذاك»[(١)].

وفي التعبير بالفعل المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وهو فعل يفيد الاستمرار، فإيمانهم حاضر لا يغيب وهو مستمر في نفوسهم، ولا تجدهم لحظة يفقدون إيمانهم، ولا مستلزمات إيمانهم، أو لاستحضار تلك الصورة البديعة.

وفي اقتران الإيمان بالغيب بإقام الصلاة

(١) روح المعاني، الألوسي ١/ ١١٤ .

وإيتاء الزكاة نجد أن الآيات تتحدث عن الإيمان قبل ذكر الصلاة والزكاة بعدها؛ لأن بينهما صلة: إن علاقة الصلاة بالإيمان بالغيب أنها المظهر العملي له، فالصلاة بها يستشعر الإنسان صفات الله، ويتذكر القرآن والرسل والملائكة واليوم الآخر، فالصلاة مذكرة بهذه المعاني كلها...

وأما علاقة الإنفاق بالإيمان بالغيب فذلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الصدقة برهان)[1].

فالإنسان الذي ينفق ماله مع حبه له وحرصه عليه لا لشيء وبدون مقابل سوى ابتغاء وجه الله فذلك دليل على إيمانه الله واليوم الآخر بشكل عملي ودقيق.

وإذا كان الإيمان بالغيب يشمل أركان الإيمان وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وقد أجملت الآية هذه القضايا بقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ولكن كان لإيمان المتقين بكل ركن من أركان الإيمان صفة خاصة.

٢. الإيمان باليوم الآخر.

من صفات المتقين الإيمانية أنهم يؤمنون باليوم الآخر إيمانًا يقينيًا لا يخالطه أي شك أو ريبة.

ومن صفاتهم أنهم مشفقون من الساعة، فكانت لهم في الإيمان باليوم الآخر صفتان اثنتان:

الأولى: يوقنون بالآخرة.

اليقين هو الاعتقاد بالشيء من حيث لا يعتريه شبهة ولا شك، فإذا انتفت الشبهة والشك عن الشيء سمي يقينًا.

قال الراغب: «اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم...، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]. أي: ما قتلوه قتلًا تيقنوه، بل إنما حكموا تخمينًا ووهمًا»[2].

ومن صفات المؤمن أنه يعتقد اعتقادًا يقينًا فينبغي أن لا يخالط اعتقاده أية شبهة أو شك. وقد جعل الله الأدلة التي تورث اليقين في النفس.

قال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وامتدح الله أنبياءه وعباده الصالحين حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وذم الله الكافرين والمنافقين لعدم يقينهم فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٢٢٣، ١/ ٢٠٣.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٥ .

﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وقال: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقد امتح الله المتقين بيقينهم بالآخرة حيث قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

أي: إن اعتقادهم بالآخرة لا يخالطه شك ولا ريبة، فهم يعتقدون اعتقادًا جازمًا بأمر الآخرة وأحوالها.

الثانية: مشفقون من الساعة.

الصفة الثانية التي امتدحهم الله بها هي إشفاقهم من الساعة.

قال تعالى: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨ - ٤٩].

قال الراغب في بيان معنى الإشفاق: «الشفق: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦].

والإشفاق: عناية مختلطةٌ بخوف؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه، قال: ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

فإذا عدي بـ(من) فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بـ(في) فمعنى العناية فيه أظهر»[(١)].

فمعنى أنهم من الساعة مشفقون أي: خائفون منها مع الاعتناء بأمورها.

قال أبو السعود: ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩] «أي: خائفون منها بطريقة الاعتناء... وإيثار الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه»[(٢)].

ثانيًا: صفات المتقين الفعلية:

١. إقامة الصلاة.

وردت بعض الآيات في وصف صلاة المتقين أنهم يقيمون الصلاة.

قال تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ١ - ٣].

وورد في آية البر: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي آية أخرى أنهم يقيمون الليل بالصلاة والاستغفار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].

فالمتقون يقيمون الليل بالتهجد والاستغفار.

وقبل الحديث عن قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ لابد من الحديث عن معنى إقامة الصلاة وأقوال المفسرين في

(١) المصدر السابق ص٢٦٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم، ٦/ ٧٠ .

معنى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣].

قال الراغب في بيان معنى القيام: «يقال: قام يقوم قيامًا فهو قائم، وجمعه: قيام... والقيام على أضرب: قيامٌ بالشخص إما بتسخير أو اختيار، وقيام للشيء هو المراعاة للشيء والحفظ له، وقيام هو على العزم على الشيء. فمن القيام بالتسخير: ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

ومن القيام الذي هو بالاختيار: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩].

ومن المراعاة للشيء قوله: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

ومن القيام الذي هو العزم قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦].

وقوله ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [المائدة: ٥٥].

أي: يديمون فعلها ويحافظون عليها»[(١)].

فمعنى ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يداومون على أفعالها ويحافظون عليها.

وذكر البيضاوي معنى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فقال: «أي: يعدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع زيغ في أفعالها، من أقام العود إذا قومه، أو يواظبون عليها، من قامت السوق: إذا نفقت وأقمتها: إذا جعلتها نافقة.. فإنه إذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذي يرغب فيه، وإذا ضيعت كانت كالكاسد المرغوب عنه. أو يتشمرون لأدائها من غير فتور ولا توانٍ، من قولهم: قام بالأمر وأقامه إذا جد فيه وتجلد، وضده قعد عن الأمر وتقاعد. أو يؤديها، عبر عن الأداء بالإقامة؛ لاشتمالها على القيام، كما عبر عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح. والأول أظهر؛ لأنه أشهر، وإلى الحقيقة أقرب وأفيد؛ لتضمنه التنبيه على أن الحقيقة بالمدح من راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى، لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، ولذلك ذكر في سياق المدح المقيمين الصلاة، وفي معرض الذم فويل للمصلين»[(٢)].

٢. إيتاء الزكاة والإنفاق.

وصف الله المتقين بأنهم يؤتون الزكاة، وذكر صفة زكاتهم وإنفاقهم، ومن هذه الصفات هي: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه الآية تبين أن المتقين يؤتون المال على حبه.

- إيتاء المال على حبه.

فهذه الصفة من صفات المتقين أنهم يؤتون المال على حبه، أي: يدفعون

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤١٧.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٥٧.

للصدقات أفضل ما عندهم من مال، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يحتمل أن يكون المقصود به الزكاة المفروضة ويحتمل أن يراد به النوافل، قال البيضاوي: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

«يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الزكاة المفروضة، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها، ومن الثاني أداؤها والحث عليها. ويحتمل أن يكون المراد بالأول نوافل الصدقات أو حقوقًا كانت في المال سوى الزكاة»[(١)].

وقال الألوسي: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] «بناءً على أن المراد بما مر من إيتاء المال نوافل الصدقات. وقدمت على الفريضة؛ مبالغة في الحث عليها، أو حقوق كانت في المال غير مقدرة سوى الزكاة»[(٢)].

وعليه فقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يحتمل أن يكون في الزكاة أو في نوافل الصدقات. وأيًا ما كانت فإنها صفة امتدح الله بها المتقين، وهي أنهم يؤتون المال على حبه.

والضمير المجرور في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧].

عائد على المال «أي: أعطى المال كائنًا على حب المال. والتقييد بقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ لبيان أفضل أنواع الصدقة»[(٣)].

وقال ابن كثير: «أي: أخرجه وهو محب له راغب فيه»[(٤)].

- الإنفاق في السراء والضراء.

وهناك آية أخرى وصفت إنفاق المتقين، وهي قوله تبارك وتعالى في وصف المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال الراغب في بيان معنى الإنفاق: «نفق الشيء: مضى ونفذ.. والإنفاق قد يكون في المال وغيره، وقد يكون واجبًا، وقد يكون تطوعًا»[(٥)].

وقال الألوسي: «والإنفاق: الإنفاد، يقال: أنفقت الشيء وأنفدته بمعنًى، والهمزة للتعدية، وأصل المادة تدل على الخروج والذهاب»[(٦)].

وقد حث الله تبارك وتعالى على الإنفاق وبذل المال، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

(١) المصدر السابق ١/ ٣١٣.
(٢) روح المعاني ٢/ ٤٧.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٩٧.
(٥) المفردات ص٥٠٢.
(٦) روح المعاني ١/ ١١٨.

وحث على إخراج الطيبات من الرزق، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

بين سبحانه أجر الإنفاق فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

كما بين الله تعالى أن الصدقة والإنفاق لا يذهبان بالمال، بل على العكس فهما ينميان المال أكثر.

قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وبهذه الصورة وامتثالًا لأمر الله تبارك وتعالى وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام لبى المتقون نداء ربهم، فجادت نفوسهم بالعطاء، فكان العطاء بالنسبة لهم خيرًا من الأخذ، وقد علموا أن ما أعطوه إنما هو ذخرٌ لهم عند ربهم تبارك وتعالى، وقد أنفقوا أموالهم في سبيله لا يبتغون إلا رضاء وجهه الكريم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أي: في اليسر والعسر.

قال أبو السعود: «في حالتي الرخاء والشدة واليسر والعسر، أو في الأحوال كلها؛ إذ الإنسان لا يخلو من مسرة أو مضرة. أي: لا يخلون في حالٍ ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير»(١).

وقال ابن كثير: «أي: في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى، والإنفاق في مراضيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر»(٢).

وقد عبر عن الإنفاق بالفعل المضارع؛ لأنه يفيد التجدد والاستمرار.

قال الألوسي: «وأما الإنفاق حيث كان أمرًا متجددًا عبر عنه بما يفيد التجدد

(١) إرشاد العقل السليم، ٣/ ٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٨٢.

والحدوث»[1].

بينما عبر في آية أخرى بالجملة الاسمية فقال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧].

وذلك أن الجملة الاسمية تفيد الثبات والاستقرار، فالجملة الأولى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ تفيد التجدد والاستمرار والتي تبين استمرار إنفاقهم وتصدقهم. والجملة الثانية: ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ تفيد المدح؛ لأنها منصوبة على المدح. وقد تم الجمع بين الجملة الفعلية والاسمية.

أما قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

فقد عبر هنا عن الشيء الذي ينفقونه بالرزق، والرزق: العطاء... وقيل: أصل الرزق الحظ. قال الراغب: «الرزق يقال للعطاء تارة -دنيويًا كان أم أخرويًا- وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة، يقال: أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علما»[2].

وفي الآية ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

«أسند الرزق إلى نفسه تبارك وتعالى؛ للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله، ويسمى رزقًا منه...، وقدم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم، وكأنه قال: يخصون بعض المال الحلال بالتصدق به»[3].

٣. الاستغفار.

وصف الله المتقين بأنهم يستغفرون الله تبارك وتعالى، وكانت لهم في ذلك صفات مميزة.

قال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالمتقون يستغفرون بالأسحار ولا يصرون على المعاصي.

- الاستغفار بالأسحار.

الاستغفار هو مغفرة الذنوب. وأصل الغفر: الستر والتغطية.

قال ابن منظور في لسان العرب: «وأصل الغفر: الستر والتغطية. وغفر الله ذنوبه، أي: سترها... واستغفر الله ذنبه -على حذف الحرف-: طلب منه غفره»[4].

فأصل كلمة غفر: ستر وغطى، وفي الاصطلاح: ستر الذنوب.

(١) روح المعاني ٤/ ٥٨.
(٢) المفردات ص١٩٤.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٣.
(٤) لسان العرب، ٥/ ٢٥.

والسحر: هو الوقت الذي يكون قبل طلوع الفجر.

قال الراغب في المفردات: «السحر والسحرة: اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار»[1].

فوقت السحر ينتهي بطلوع الفجر. وهو آخر الليل قبيل الصبح. قال ابن كثير: «وأصح ما ورد في تحديد وقت السحر ما ثبت في الصحيحين وغيرهما... من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟)[2]»[3].

وقد اختلف المفسرون في بيان معنى الاستغفار في الآية ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

فقال بعضهم: المراد به: الدعاء. قال ابن جرير الطبري: «اختلف أهل التأويل في القوم الذين هذه صفتهم، فقال بعضهم: هم المصلون بالأسحار.. وقال آخرون: هم المستغفرون... وقال آخرون: هم الذين يشهدون الصبح في جماعة.. وأولى هذه الأقوال قول من قال: هم السائلون ربهم أن يستر عليهم فضيحتهم بها بالأسحار، وهي جمع سحر، وأظهر معاني ذلك أن تكون مسألتهم إياه بالدعاء. وقد يحتمل أن يكون معناه: تعرضهم لمغفرته بالعمل والصلاة، غير أن أظهر معانيه ما ذكرنا من الدعاء»[4].

وقال القرطبي: «لا تناقض في ذلك فإنهم يصلون ويستغفرون»[5].

والحكمة في تخصيص وقت السحر بالدعاء والاستغفار: أنه أفضل الأوقات للعبادة والدعاء. فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟)[6].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: «وحكمة تخصيص السحر: أن العبادة تكون حينئذ أشق على أهل البداية؛ لأنه الوقت الذي يطيب فيه النوم ويعزب الرياء، وأروح لأهل النهاية؛ لأن النفس تكون أصفى، والقلب أفرغ من الشواغل»[7].

(١) المفردات ص٢٢٦

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، رقم ٧٤٩٤، ٩/ ١٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء، رقم ١٦٩، ١/ ٥٢١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٣٣.

(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٩.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ٢٥٣.

وقال القاسمي في تفسيره: «والحكمة في تخصيص الأسحار: كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية والألطاف السبحانية. وعند ذلك تكون العبادة أشق، والنية خالفة، والرغبة وافرة، مع قربه -تعالى وتقدس- من عباده»[1].

وقال الرازي: «واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر في قوة الإيمان وفي كمال العبودية من وجوه:

الأول: أن وقت السحر يطلع نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل، وبسبب طلوع نور الصبح كأن الأموات يصيرون أحياء، فهناك وقت الجود العام والفيض التام، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير يطلع صبح العالم الصغير وهو ظهور نور جلال الله تعالى في القلب.

والثاني: أن وقت السحر أطيب أوقات النوم، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة وأقبل على العبودية كانت الطاعة أكمل...»[2].

وقال النسفي: «وخص الأسحار؛ لأنه وقت إجابة الدعاء، ولأنه وقت الخلوة»[3].

❁ عدم الإصرار على المعصية.

قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قال الراغب في بيان معنى الفاحشة: «الفحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال»[4].

وقال البيضاوي: «﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ فعلة بالغة في القبح كالزنى ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أذنبوا أي ذنب كان. وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة»[5].

فكل تجاوز أو كل ذنب يسمى ظلمًا، والذنب سواء كان كبيرًا أم صغيرًا فإنه يسمى ظلمًا، وعليه فمعناه في الآية: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أي: أذنبوا في حق الله تعالى، وعليه تكون الفاحشة: المعصية البالغة في القبح، والظلم: الذنب مطلقًا، كما ذكر الألوسي سابقًا.

والمتقون -إن وقع منهم ذنب سواء كان كبيرًا أو عظيمًا والتي سماها (الفاحشة) أو أذنبوا ذنبًا صغيرًا والتي سماها ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، يسارعون ويتذكرون حق الله تعالى ويتذكرون عقابه ويتذكرون عفوه فيستغفرون الله عما وقع منهم.

ومعنى ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾: أي: تذكروا حقه

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٦٥ .
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٢٠٢ .
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٤٩ .
(٤) المفردات ص٣٧٤.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٣ .

العظيم ووعيده، أو ذكروا العرض عليه، أو السؤال عن الذنب يوم القيامة أو نهيه أو غفرانه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾.

قال ابن كثير في معناه: «أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه»[1].

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة)[2]

قال الراغب: «الإصرار: التعقد في الذنب والتشدد فيه والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله من الصر، أي: الشد»[3].

٤. خشية الله تعالى.

من صفات المتقين الإيمانية أنهم ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

والخشية: خوف يشوبه تعظيم.

قال الراغب: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم. وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]. أي: من خاف خوفًا اقتضاه معرفته بذلك من نفسه»[4].

والخشية ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى ولا يكون فيها خشية للناس.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

ولقد نهى رسوله أن يخشى الناس؛ إذ الخشية ينبغي أن تكون لله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وبما أن الخشية أكثر ما تكون عن علم بما يخشى منه فإن خشية الله أكثر ما تكون من خلال معرفته عز وجل بصفاته وآياته وأفعاله، فمن كان أعلم بالله تعالى كان أخشى له، لهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال الألوسي: «والمراد بالعلماء: العالمون بالله عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الحميدة وسائر شئونه الجميلة، لا العارفون بالنحو والصرف مثلًا، فمدار الخشية ذلك العلم لا هذه المعرفة، فكل من كان أعلم به تعالى كان أخشى...

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٨٥ .
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم ١٥١٤، ٢/ ٨٤.
وحسنه ابن كثير في تفسيره ١/ ٣٨٥ .
(٣) المفردات ص٢٧٩ .
(٤) المفردات ص١٤٩ .

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أنا أخشاكم لله وأتقاكم له)[1].

ولكونه المدار ذكرت الخشية بعد ما يدل على كمال القدرة، ولهذه المناسبة فسر ابن عباس -كما أخرج عنه ابن المنذر وابن جرير- (العلماء) في الآية بالذين يعلمون أن الله تعالى على كل شيء قدير»[2].

فمعرفة الله تبارك وتعالى تورث الخشية له، والعلماء العارفون بآيات الله وصفاته أكثر خشية له. ويدخل في إطار العلماء علماء الكون والطبيعة الذين يتوصلون لمعرفة أسرار الله في خلقه. فالكون هو كتاب الله المنظور الذي يدل فيه على أن الله هو خالق هذا الكون والمتصرف فيه، حيث جعل فيه دلائل قدرته وبديع صنعه، فحث على النظر في ملكوت السموات والأرض، والتفكر في شئونهما، لذا كان العلماء الذين يتوصلون لاكتشاف بدائع صنع الله تعالى داخلون في الخشية التي خصهم الله بها، وهذا إن كانت هذه الأمور توصلهم لخشية الله تعالى.

٥. القنوت.

وصف الله المتقين بالقنوت، وهو طاعة الله عز وجل مع الخضوع له.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

قال الراغب: «القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع، وفسر بكل واحد منهما في قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقيل: خاضعون، وقيل: طائعون، وقيل: ساكتون، ولم يعن به كل سكوت، وإنما عنى به ما قال عليه الصلاة والسلام: (إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيءٌ من كلام الآدميين: إنما هي قرآن وتسبيح)، وعلى هذا قيل: أي الصلاة أفضل؟ فقال: (طول القنوت)، أي: الاشتغال بالعبادة ورفض كل ما سواه»[3].

وقال الألوسي: «﴿قَانِتِينَ﴾ أي: المطيعين، قاله ابن جبير، أو المداومين على الطاعة والعبادة، قاله الزجاج، أو القائمين بالواجبات، قاله القاضي»[4].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، رقم ١١١٠، ٢/ ٧٨١.
(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٩١.
(٣) المفردات ص٤١٣.
(٤) روح المعاني ٣/ ١٠٢.

وقال الألوسي عند قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] : «﴿قَانِتِينَ﴾ أي: مطيعين كما هو أصل معنى القنوت عند البعض، وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما»[١].

فأصل معنى القنوت: هو الطاعة مع الخضوع، وإذا فسر معناه بعبارات أخرى فإنه ينطوي تحت هذا المعنى، وقد وصف الله المتقين بالقنوت، وهذا يشمل الصلاة وغيرها.

ثالثًا: صفات المتقين الخلقية والسلوكية:

١. الصبر.

وصف الله تبارك وتعالى المتقين بالصبر، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فقد وصف المتقين بالصبر، وأنهم يصبرون في كل حال، وإليك بيانها.

- الصبر في البأساء.

قال أبو حيان: «واختلف المفسرون في البأساء والضراء، فأكثرهم على أن البأساء هو الفقر»[٢]، وقال الألوسي: «(البأساء): البؤس والفقر»[٣]، وقال الراغب: «البؤس والبأساء في النكاية»[٤].

وأصل كلمة بؤس وبأس: الشدة والمكروه، لكن ورد عن كثير من المفسرين أن المراد بها هنا: الفقر، ولا يمنع أن يراد بها كل شدة أو مكروه، ومنها الفقر.

وقضية الفقر ابتلاء من الله تبارك وتعالى لعباده، فمن صبر كان من المتقين الذين وصفهم الله وامتدحهم بالصبر على الفقر، لذلك كان الفقراء الصابرون أكرم عند الله تعالى، وكان أكثر أهل الجنة من الفقراء. روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام)[٥]. وروى البخاري ومسلم

(١) المصدر السابق ٢/ ١٥٧ .

(٢) البحر المحيط، ٢/ ٨ .

(٣) روح المعاني ٢/ ٤٨ .

(٤) المفردات ص٦٦.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ١٦/ ٣٨٣، رقم ١٠٦٥٤، والترمذي في سننه، أبواب الزهد باب ٣٨، ٤/ ٥٧٨، رقم ٢٣٥٤.
قال الترمذي: حسن صحيح .

عن ابن عباس وعمران بن الحصين رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء)[1].

❁ الصبر في الضراء.

الضراء من الضر، وهو عكس النفع، وهو سوء الحال إما في النفس أو في البدن أو في حالة ظاهرة من قلة مالٍ أو جاه أو نحوه.

وقد ورد عن المفسرين تفسير الضراء بالمرض والأسقام.

قال أبو حيان في تفسير البحر المحيط: «واختلف المفسرون في البأساء والضراء، فأكثرهم على أن البأساء هو الفقر، وأن الضراء الزمانة في الجسد، وإن اختلفت عباراتهم»[2].

وقال الألوسي: «الضراء: السقم والوجع»[3].

وقد يراد به كل ما يضر الإنسان من مرض أو غيره.

فما يصيب الإنسان من ضر أصابه سواء كان في بدنه أو في نفسه أو غير ذلك إنما هو ابتلاء من الله تبارك وتعالى؛ ليعلم الصابر من غير الصابر.

ففي الابتلاء في المرض تكفير للسيئات وحط للذنوب حتى يلقى الله وما عليه خطيئة من كثرة ما أصابه من البلاء.

ففي الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة)[4].

❁ الصبر حين البأس.

أي: في مواطن القتال عند لقاء الأعداء، وعندها يكون الصبر فريضة لازمة ويكون الفرار من الزحف من الموبقات التي حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا ما ذكر القتال والحث عليه فإنه غالبًا يذكر الصبر، وغلبة الأعداء مقترنة بالصبر بعد إعداد العدة والتوكل على الله وإخلاص النية لله تعالى، فلا غلبة بلا صبر.

ولهذا يأمر الله المؤمنين بالقتال والثبات والصبر، فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٦].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ٨/ ١١٣، رقم ٦٥٤٦.
(٢) البحر المحيط ٢/ ٨.
(٣) روح المعاني ٢/ ٤٨.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٣/ ٢٤٨، رقم ٧٨٥٩، والترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ٤/ ٦٠٢، رقم ٢٣٩٩. قال الترمذي: حسن صحيح.

ويشتد الأمر بطلب الصبر عندما تتحكم القوى والنفوس، وعندها يتبين الصابر من غيره.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الثبات عند لقاء العدو، فقد روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)»[1].

٢. كظم الغيظ.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

والغيظ يعني: حبس النفس عند الغضب، وهو: أشد أنواع الغضب، والغضب: هيجان في الطبع.

قال الراغب في بيان معنى الغيظ: «الغيظ: أشد غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه»[2].

وقال الألوسي: «والغيظ: هيجان في الطبع عند رؤية ما ينكر»[3].

والكظم معناه: الحبس.

قال أبو السعود: «والكظم: الحبس يقال: كظم غيظه، أي: حبسه، قال المبرد: تأويله أنه كتمه على امتلائه منه، يقال: كظمت السقاء إذا ملأته وشددت عليه»[4].

والمعنى المراد: «والمتجرعين للغيظ، الممسكين عليه عند امتلاء نفوسهم منه، فلا ينقمون ممن يدخل الضرر عليهم، ولا يبدون له ما يكره، بل يصبرون على ذلك مع قدرتهم على الإنفاذ والانتقام، وهذا هو الممدوح»[5].

روى الترمذي وأبو داود عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله سبحانه وتعالى على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور ما يشاء)[6].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، ٤/ ٦٣، رقم ٣٠٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب كراهية تمني لقاء العدو، ٣/ ١٣٦٢، رقم ١٧٤٢.

(٢) المفردات ص٣٦٨.

(٣) روح المعاني ٤/ ٥٨ .

(٤) إرشاد العقل السليم، ٢/ ٨٥ .

(٥) روح المعاني ٤/ ٥٨ .

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من كظم غيظًا، ٤/ ٢٤٨، رقم ٤٧٧٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، رقم ٢٤٩٨.
قال الترمذي: حسن غريب.

فصفة حبس النفس عند الغضب وعدم الانتقام من صفات المتقين التي امتدح الله بها المتقين. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرشد أصحابه أن لا يغضبوا، وبين أن الشديد ليس الذي يصرع الناس، إنما الشديد هو الذي يملك نفسه ويضبطها عند الغضب. فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: (لا تغضب) فردد مرارًا، قال: (لا تغضب)[1].

وروى البخاري أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[2].

ورسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم كما كان مثالًا يحتذى في كل شيء حسن كان مثالًا في عدم الغضب وفي كظم الغيظ، فكان صلى الله عليه وسلم لا يغضب إلا لأمر يستدعي الغضب، فإنه كان لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الشريعة.

روى البخاري عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا! فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ، فقال: (إن منكم منفرين، فأيكم أم الناس فليوجز، فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة)»[3].

٣. العفو.

بعد أن أخبر الله تعالى عن المتقين أنهم (الكاظمين الغيظ) فلا يظهرون غيظهم إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله تعالى، أخبر الله عنهم -إتمامًا لتلك الصفة- أنهم يعفون عن الناس.

فقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فكانت صفة العفو من صفات المتقين الراسخة فيهم.

ومعنى العفو: ترك عقوبة المذنب أو المخطئ.

قال الراغب: «عفوت عنه: قصدت إزالة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٨/ ٢٨، رقم ٦١١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٨/ ٢٨، رقم ٦١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، ٤/ ٢٠١٤، رقم ٢٦٠٩.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب تخفيف الإمام في القيام، ١/ ١٤٢، رقم ٧٠٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة، ١/ ٣٤٠، رقم ٤٦٦.

ذنبه»[1].

ومعنى قوله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أنهم يتركون عقوبة من استحقها.

قال الألوسي: «﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا مؤاخذته، إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين»[2].

وقد أمر الله تبارك وتعالى بالعفو، فقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

كما وصف الله تعالى نفسه بالعفو، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وصفة العفو صفة حميدة «لا تصدر إلا من نفس كبيرة راجحة العقل، صبرت على اعتداء الغير وأذاه... وإن مقابلة الإساءة بالإحسان تنزع من المعتدي البغضاء، وتتركه مندهشًا فيرتد غالبًا عن غيه وتنقلب بغضاؤه إلى مودة»[3].

وقد بين القرآن أن المعاملة الحسنة مع الأعداء تجعلهم ينقلبون عن عداوتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولهذا أمر الله تعالى بالعفو ووصف به المتقين. وفي الآية: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وصف للمتقين بالجملة الاسمية التي تفيد الثبات والاستمرار وأنها صفة راسخة فيهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الناس تمثلًا بصفة العفو، فكان العفو شيمته صلى الله عليه وسلم، روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيًا من الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)»[4].

٤. الصدق.

وصف الله المتقين بالصدق حيث قال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ

(١) المفردات ص٣٣٩.
(٢) روح المعاني ٤/ ٥٨.
(٣) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة ص٢١٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ٤/ ١٧٥، رقم ٣٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب غزوة أحد، ٣/ ١٤١٧، رقم ١٧٩٢.

النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

وفي آية البر بعد أن ذكر أوصاف الأبرار قال عنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

ففي الآية الأولى قال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ وهذه الصفة امتدح الله بها المتقين، وهي منصوبة بتقدير يدل على الاختصاص، أي: أخص أو أعني الصادقين.

وفي الآية الثانية -آية البر- وصف المستجمع لخصال البر بالصدق، حيث قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فقد وصف الله تعالى المستكمل لهذه الخصال بالصدق كما وصفه بالتقوى، فبين أن المتقين صادقون في جميع هذه الخصال وهي:

- الصدق في الاعتقاد، وأشار إليه بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾.
- الصدق في حسن المعاشرة، أي: الصدق في حسن معاملة الناس جميعًا، وخاصة الفقراء والمحتاجين، وإليه أشار: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.
- الصدق مع نفسه، وذلك بتهذيبها وتعويدها على الخصال الحميدة التي تعود على نفسه بالخير، سواء كان تعامل النفس مع الله أو تعاملها مع الناس، وإليه أشار: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

كما تم الإخبار عنهم باسم الإشارة ﴿أُولَٰئِكَ﴾، وهذا الاسم يستخدم للإشارة إلى البعيد؛ ليدل على أنهم متأصلون في هذه الصفة.

وفي الآية الثالثة: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

قال ابن عاشور: «الذي جاء به هو: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصدق:

القرآن... وجملة: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ صلة موصول محذوف تقديره: والذي صدق به؛ لأن المصدق غير الذي جاء بالصدق»[1].

وقال الشوكاني: «وقيل: إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله وأرشد إلى ما شرعه لعباده. واختار هذا ابن جرير، وهو الذي اختاره من هذه الأقوال»[2].

وعليه يحتمل أن يكون المعنى أن الذي جاء بالصدق هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الذي صدق به هم المؤمنون، فقد ترجموا القرآن إلى سلوك عملي، كما كان رسول صلى الله عليه وسلم عندما أخبرت عنه عائشة: «كان خلق رسول صلى الله عليه وسلم القرآن». فهؤلاء المؤمنون الذين ترجموا القرآن إلى واقع هم المتقون.

٥. الوفاء بالعهد.

قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومعنى الوفاء بالعهد: إتمامه وافيًا بكامل حقوقه وشروطه، وعدم نقضه. ومعنى وفى وأوفى: أعطى الحق وافيًا. والعهود نوعان: عهد مع الله، وعهد مع الناس.

❁ العهد مع الله تعالى.

والمراد به: ما عاهد عليه المسلم الله من الوفاء والتكاليف والالتزامات التي شرعها، قال الراغب: «وعهد الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب وبالسنة ورسله، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع كالنذور وما يجري مجراها، وعلى هذا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾[التوبة: ٧٥]»[3].

وقد جعل الأخير عهدًا مع الله؛ لأن الإنسان يتعامل مع الله من خلال تعامله مع الناس، فلا يجوز نقض العهد؛ لأن الله أمرنا بذلك.

وأول عهد يطالب الإنسان بالوفاء به: عهده مع الله عز وجل بالإقرار له بالربوبية، وعلى نفسه بالعبودية.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا يفي الإنسان بهذا العهد حتى يعتقد علمًا وعملًا أن الله وحده له حق الأمر والنهي، والتحليل والتحريم، فعنه يتلقى وله يطيع. ومتى أعطى المسلم حق الطاعة المطلقة، أو حق التشريع والتحليل والتحريم لأحد غيره من هيئة أو جماعة أو

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٨.
(٢) فتح القدير ٤/ ٢٦٣.
(٣) المفردات ص٣٥٠.

فرد أو مجلس فقد نكث بعهد الله وميثاقه.

ومن العهد مع الله الالتزام بالشريعة الإسلامية وتوفية حقوق الله كاملة، فإن من حق الله على عباده أن يطاع فلا يعصى. والوفاء بالالتزام بالشريعة يعني أداء الحقوق كاملة، فالصلاة تؤدى كاملة، وكما أمر تبارك وتعالى من الشروط الظاهرة والباطنة كالخشوع وغيره، وكذلك الزكاة، وكذلك كل عمل يقوم به المرء يقصد التقرب إلى الله تعالى، فإن الوفاء بالعهد يعني توفيته كاملًا غير منقوص ومراعاة حقوقه وشروطه. والوفاء بعهد الله في الجهاد يعني أن يجاهد المرء ويثبت في ذلك حتى ينال الموت في سبيل الله أو النصر على الأعداء، وعلى هذا قوله تعالى في مدح رجال من المؤمنين: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

- العهد مع الناس.

ويدخل فيه كل تعامل مع الناس. والواقع أن هذا العهد يدخل في العهد الأول؛ لأن التعامل مع الناس يعني التعامل مع الله، ولهذا لا يجوز للمسلم نقض العهد مع أي إنسان كان مسلمًا أو غير مسلم.

والوفاء بالعهد واجب سواء كان تعاملًا مع المسلمين أم مع غير المسلمين.

أ- التعامل مع المسلمين: ويدخل فيه كل عهد أو عقد يجعله الإنسان مع غيره من أمور الدنيا وغيرها، كالوفاء بالالتزامات التي يجريها الإنسان في معاملاته اليومية، في زواجه وبيعه وشرائه وشركته ومزارعته ما دامت عقوده جائزة شرعًا.

ويدخل فيه الوفاء ببيعة الخليفة، وهي أن يطاع الخليفة أو الأمير الذي اختاره الخليفة مكانه في غير معصية، لذلك حث الله ورسله على طاعة أولي الأمر، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[1].

ب- التعامل مع غير المسلمين: ويدخل فيه العهد مع المشركين حينما كان جائزًا في أول الإسلام، والذي انتهى بنزول سورة التوبة التي تأمر بقتل المشركين أينما وجدوا. كما يدخل فيه العهد مع أهل الكتاب، حيث لا يجوز نقضه إلا إذا نقضوه أو ظهر منهم ما يشير إلى الخيانة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب، باب السمع والطاع للإمام، ٤/ ٤٩، رقم ٢٩٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ٣/ ١٤٦٩، رقم١٨٣٩ .

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

ومعنى ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أن يخبرهم إخبارًا ظاهرًا مكشوفًا بالنقض، ولا يناجزهم الحرب بغتة[١].

ولذلك وصف الله المتقين بالوفاء بالعهد حيث قال سبحانه: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

والمراد بالعهد هنا: ما يشمل كل الحقوق سواء كانت حقوقًا لله أو حقوقًا للناس.

(١) فتح القدير ٢/ ٣٢٠.

مكانة التقوى

للتقوى مكانة عظيمة في الدين؛ لأن فيها سعادة الدنيا والآخرة، وقد ورد في مكانتها الكثير، منها أنها خير زاد وأجمل لباس، لذلك أوصى الله بها وصية للأولين والآخرين، وأوصى بها جميع الرسل أقوامهم. ويمكن بيانها من خلال ما يأتي:

أولًا: التقوى خير زاد:

قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأصل الزاد من الزيادة، ومعناها: أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر. والزيادة قد تكون زيادة فضل، وقد تكون زيادة مذمومة، فإن كانت لا حاجة لها أو تؤدي إلى ضرر فهي مذمومة، وإن كانت زيادة فضل فهي محمودة. والزاد هو الشيء المدخر الزائد على ما يحتاج إليه في الوقت. والتزود هو أخذ الزاد[٢].

والتقوى خير زاد يتزود به.

واستخدام القرآن الكريم لفظ الزاد للتقوى للإشارة إلى استخدامها وقت الحاجة، بمعنى أن يبذل الإنسان جهده في فعل الخير وقت الرخاء؛ ليستخدمه وقت الحاجة والشدة.

(٢) المفردات ص٢١٦.

والمرء بحاجة إلى الزاد في الدنيا والآخرة؛ فأما في الآخرة فهو أمر ظاهر؛ لأن الإنسان إذا مات انقطع عمله في الدنيا، ولن يكون له من عمله إلا ما سعى، ويبقى عمله مستمرًا في العلم الذي ينتفع به الآخرون والصدقة الجارية والولد الصالح الذي يدعو له.

وكذلك يحتاج المرء إلى التزود في الحياة الدنيا، فيبذل جهده في فعل الخير وقت الرخاء؛ ليكون عونًا له على ذلك وقت الشدة.

وفي الحديث: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)[1].

ولا يعني مفهوم التزود بالتقوى ترك زاد الدنيا، أو ترك الأخذ بأسباب الحياة، فإن هذا المفهوم خاطئ، بل إن الأخذ بأسباب الحياة من التوكل الحقيقي مطلوب. وما ورد من روايات وأسباب النزول يوضح المعنى الحقيقي لمفهوم التزود.

فكان بعض العرب يحجون ولا يتزودون من الطعام، معتبرين أن ذلك هو التوكل الحقيقي، وكانوا يقولون: كيف نحج بيت ربنا ولا يطعمنا؟ فكانوا يحجون بلا زاد، ويقولون: نحن متوكلون على الله سبحانه![2].

بل إن بعضهم كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادًا آخر فكان يتوكل بعضهم على بعض. فنزلت الآية تبين لهم خطأ هذا المفهوم، وأن التزود بالطعام لا يتنافى مع أعمال الحج، وأرشدهم للزاد الحقيقي الذي هو التقوى.

وذكر البخاري أن هذا المفهوم كان عند أهل اليمن، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]»[3].

ثانيًا: التقوى أجمل لباس يتزين به العبد:

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

واللباس اسم للشيء الذي يستر عورة الإنسان، سواء كانت مادية أو معنوية. والعورة: سوأة الإنسان، وهي كناية، وأصلها من العار. والسوأة هي كل ما يسيء

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ١٩، رقم ٢٨٠٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٩٦١.

(٢) فتح القدير ١/ ٢٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾، ٢/ ١٣٣، رقم ١٥٢٣.

الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية. وكني بالسوأة عن الفرج[1]؛ لأن كشف السوأة أمر مناف للفطرة.

فاللباس يستخدم لمعنى التغطية والستر، فيسمى ما يستر عورة الإنسان لباسًا، وكذا تغطية معايبه. وسمي الأزواج من الذكور والإناث لباسًا، حيث يمنع كل واحد الآخر ويكون عونًا له في ستر معايبه.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قال أبو السعود: «وجعل كل من الرجل والمرأة لباسًا للآخر؛ لاعتناقهما واشتمال كل منهما على الآخر بالليل... أو لأن كلًا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور»[2].

وجعل الليل لباسًا؛ لكونه يستر الناس بظلامه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

واستخدم القرآن الكريم كلمة اللباس للجوع والخوف؛ لكونه غشيهم من كل جانب.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

لذلك كان لباس التقوى أجمل لباس يلبسه المرء، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وللمفسرين في معنى (لباس التقوى) عشرة أقوال أوردها ابن الجوزي في زاد المسير، وهي:

١. السمت الحسن.
٢. العمل الصالح.
٣. الإيمان.
٤. خشية الله تعالى.
٥. الحياء.
٦. ستر العورة للصلاة.
٧. الدرع وآلات الحرب.
٨. العفاف.
٩. ما يتقى به الحر والبرد.
١٠. ما يلبسه المتقون في الآخرة خير مما يلبسه أهل الدنيا[3].

ولا مانع من إرادة الجميع. ولباس التقوى خير من الثياب؛ لأن الفاجر وإن كان حسن الثوب فهو بادي العورة.

(١) المفردات ص٢٥٣ .
(٢) إرشاد العقل السليم، ١/ ٢٠١ .
(٣) انظر: زاد المسير ص٤٨٩ .

ثالثًا: وصية جميع الرسل لأقوامهم بالتقوى:

التقوى شعار المؤمنين ووصية الله تعالى للخلق أجمعين، وكانت هدفًا عامًا بعث من أجله الرسل، كما كانت من أهم ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمته.

فقد أوصى الله تبارك وتعالى جميع الخلق بتقواه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وكانت التقوى من أهم ما دعا إليه الأنبياء أقوامهم. فهذا نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه لتقوى الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١١٠].

وإبراهيم عليه السلام يدعو للتقوى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وكذلك موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠ - ١١].

وعيسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

وهود: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٤ - ١٢٦].

ولوط: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٦١ - ١٦٣].

وإلياس: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٢٤].

وصالح: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٢ - ١٤٤].

وشعيب: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٧ - ١٧٩].

وكذلك وصف يحيى بن زكريا بالتقوى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٢ - ١٣].

فهذه نبذة عما ورد على لسان الأنبياء من التقوى تتبين فيها الأهمية البالغة للتقوى.

فضائل التقوى

للتقوى فضائل بينها القرآن الكريم للحث على التخلق بها، نبينها فيما يأتي:

أولًا: فضائل التقوى في العلاقة مع الله:

١ . معية الله تعالى.

ومعيته تعالى نوع من ولايته، فالمعية تعني التأييد والنصر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قال الراغب: «(مع): يقتضي الاجتماع إما في المكان، أو في الزمان، أو في المعنى.. وإما في الشرف والرتبة نحو: هما معًا في العلو، ويقتضي معنى النصرة، وأن المضاف إليه لفظ (مع) هو المنصور، نحو قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].. أي: ناصرنا»[(١)].

فأصل هذا الحرف يقتضي الاجتماع كما يقتضي معنى النصرة.

وذهب أبو السعود إلى أن المعية تعني: «الولاية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الحزن»[(٢)].

فالمعية أبلغ من الولاية.

والمعية لم تذكر إلا مع أصناف من المسلمين بلغوا درجةً إيمانية عالية، فقد ذكرت المعية مع المتقين والمحسنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وذكرت المعية مع الصابرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أما الولاية فهي عامة لكل المؤمنين: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وهذه المعية هي المعية الخاصة؛ لأن المعية معيتان: خاصة وعامة، فالمعية العامة لكل البشر، وهي معية ملاحظة ومراقبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

أما المعية الخاصة فهي تعني: العون والتأييد والنصر والهداية.

قال ابن كثير: « ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه، وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

وقوله لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصديق -الذي ذكره القرآن وهما في الغار-: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

(١) المفردات ص٤٧٠ .
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٦٦ .

وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]»[(١)].

٢. ولاية الله تعالى.

من ثمرات التقوى أن الله تعالى يكون وليًا للمؤمنين يتولاهم بعنايته وتأييده ونصره.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وتدل أصل كلمة الولاية على القرب، قال الألوسي: «والأولياء جمع ولي من الولي، بمعنى: القرب والدنو، يقال: ولي، أي: قرب»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «والولي: الموالي، أي: المحالف والناصر. وكلها ترجع إلى معنى الولي -بسكون اللام-، وهو القرب، وهو في معنى الولي كلها قرب مجازي»[(٣)].

وقال الراغب: «الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعدًا، حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما. ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة، والنصرة، والاعتقاد. والولاية -بكسر الواو-: النصرة، والولاية -بفتح الواو- تولي الأمر.. وحقيقته: تولي الأمر»[(٤)].

فأصل كلمة الولاية تعني القرب. والولاية تعني تولي الأمر بالرعاية والعناية لأوليائه على أعدائه؛ لأنه يتولاهم بتأييده ونصره.

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه الولي فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩].

أي: إن الله وحده هو الولي، فالولاية الحقيقية له تبارك وتعالى.

والولاية ولايتان:

- ولاية عامة لكل الناس جميعًا.
- ولاية خاصة للمؤمنين.

فالله ولي المؤمنين والكافرين من حيث التصرف في شئونهم وأرزاقهم ونصرهم أو خذلانهم.

قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٧٣ .
(٢) روح المعاني ١١/ ١٤٦ .
(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٢١٦.
(٤) المفردات ص٥٣٣ .

﴿وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣].

أي: إن الذين اتخذوهم أولياء لا ينصرونهم في شيء فالولاية والنصرة الحقيقية من الله تعالى.

أما الولاية الخاصة فهي ولاية المؤمنين، وذلك بتأييدهم ونصرهم على عدوهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ولهذا أمر الله تعالى المؤمنين باتخاذ الله وليهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥].

وبين أن النصر والغلبة والتأييد من عنده تبارك وتعالى، وأن الذين يجعلون الله وليهم ورسوله والمؤمنين هم الغالبون الظافرون.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

كما أنه تعالى يخرج أولياءه من الظلمات إلى النور: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأنه يكفي المؤمنين أن يكون الله وليهم: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

أما الذين يتخذون من دون الله وليًا فإنهم خاسرون ولا يجدون وليًا أبدًا يرعاهم ويؤيدهم وينصرهم، لهذا نهى الله المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء لهم.

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وبين أن صف الكافرين واحد، وأنهم أولياء لبعضهم البعض: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

كما بين أنه لا قيمة أبدًا لمن اتخذه الكافرون أولياء، وأنه لا يملك لغيره، بل ولا لنفسه نفعًا ولا ضرًا: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

لهذا عبر عنهم أنهم ليس لهم ولي: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

كما بين أن الولاية الحقيقية لمن لا يؤمنون هي ولاية للشيطان: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقد نفى الإيمان عن الذين يوالون الكافرين: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١].

وقد شبه الله الذين اتخذوا أولياء من دون الله بالعنكبوت عندما تتخذ بيتًا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وبهذا وصف المتقين بأنهم أولياؤه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

وقد فسر معنى الأولياء هنا بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

قال ابن عاشور: «ودل قوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ على أن التقوى ملازمة لهم، أخذًا من صيغة ﴿وَكَانُوا۟﴾، وأنها متجددة منهم؛ أخذًا من صيغة المضارع في قوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾»[1].

وقال أبو السعود: «فملاك أمر الولاية هو التقوى»[2].

وقال ابن عاشور: «وهذه الآية هي أقوى ما يعتمد عليه في تفسير حقيقة الولي شرعًا»[3].

وكذلك وصف الله تعالى نفسه أنه ولي المتقين، فقال جل شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

فإنه إذا كان صف الظالمين واحدًا وأنهم أولياء بعضهم فإن صف المتقين صف واحد، والله وليهم جميعًا، فهو متولي أمرهم بتيسير أمورهم ونصرهم وعونهم وتأييدهم.

٣. حب الله تعالى.

تدل أصل كلمة الحب على ميل القلب إلى أمر يراه خيرًا ويستلذ به، قال الراغب: «والمحبة: إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا، وهي ثلاثة أوجه: محبة للذة؛ كمحبة الرجل المرأة... ومحبة للنفع؛ كمحبة شيء ينتفع به... ومحبة فضل؛ كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض؛ لأجل العلم. وربما فسرت المحبة بالإرادة في نحو قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ [التوبة: ١٠٨].

وليس كذلك، فإن المحبة أبلغ من الإرادة، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

فمحبة الله تعالى للعبد إنعامه عليه، ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه»[4].

وقد تحدث الألوسي عن المحبة ومعناها فقال: «فالمحبة لغة: ميل المتصف بها إلى أمر ملذ» ثم تكلم عن أنها يمكن توفرها في العبد حقيقة... أما محبة الله للعبد فهي من المتشابهات، فقال: «وأنت تعلم أن ذلك من المتشابه، والمذاهب فيه مشهورة»[5].

وقال البيضاوي: «ومحبة الله تعالى للعباد إرادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة»[6].

(١) التحرير والتنوير ١١/ ٢١٧ .
(٢) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٥٩ .
(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٢١٧ .
(٤) المفردات ص١٠٥.
(٥) روح المعاني ٦/ ١٦٣ .
(٦) أنوار التنزيل، ٢/ ١٥٥ .

وذكر ابن القيم عن محبة الله لعبده فقال: «محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وبره أتم نصيب»[(١)].

وعلى كل حال فإن المحبة كما قال ابن القيم: «لا تحد بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها. ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة. وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها»[(٢)].

وقد رسم لنا القرآن الكريم الطريق العام لنيل محبة الله تعالى، فقال جل شأنه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فإن الطريق لنيل محبة الله اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله.

وكذلك بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم الطريق لنيل محبة الله تعالى، فقال صلى الله عليه وسلم: **(إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)**[(٣)].

وإذا أحب الله تعالى عبدًا من عباده فإنه يوقع له المحبة من أهل السماء وأهل الأرض. ففي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانًا فأحبيه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.. وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض)**[(٤)].

وكذلك إذا أحب الله تعالى عبده فإنه يؤيده وينصره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته،**

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٨ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ٩ .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢، عن أبي هريرة .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، ٤/ ٢٠٣٠، رقم ٢٦٣٧.

ولئن استعاذني لأعيذنه)[1].

لذلك قال الله تعالى في ذكر بعض ثمرات التقوى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

والتقوى صفة من جملة الصفات التي إن تحلى بها المرء نال حب الله تعالى، فقد ذكر القرآن أن الله يحب من اتصف بصفات معينة، وهذه الصفات هي أمهات الفضائل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم: (إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي)[2].

فالتقوى صفة من الصفات التي يحب الله من اتصف بها.

٤. رحمة الله تعالى.

ومن ثمرات التقوى نيل رحمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

ومعنى رحمة الله تعالى لعباده هي: العطف والإنعام والإحسان والرأفة.

والله رحيم بهذا الإنسان يرعاه ويعينه في كل لحظة من لحظات حياته، ولولا رحمة الله بهذا الإنسان لما استطاع العيش ولا للحظة واحدة، إنه المخلوق الضعيف الذي يحتاج إلى الرعاية والعناية.

ورحمة الله واسعة لا تشمل الإنسان فحسب، بل تشمل كل مخلوق خلقه الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فالله تعالى هو المتصرف في شئون هذا الكون، وكل ما في الكون ملك له، والإنسان وغيره مخلوقات ضعيفة منقادون لله تعالى، ومع هذا فإن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة؛ تفضلًا وتكرمًا، وهذه نعمة عظيمة على المرء أن لا يغفل عنها.

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، رقم ٢٩٦٥، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وإذا كانت رحمة الله تعالى تقتضي الإحسان والتخفيف والرأفة على هذا المخلوق الضعيف، وأنها تشمل المؤمن والكافر، إلا أن هناك رحمات خاصة يخص بها عباده المؤمنين الطائعين، وهذه الرحمة تعني: زيادة العطف والعناية والرأفة بهؤلاء المؤمنين، فالله يحيطهم برحمة خاصة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقد رسم لنا القرآن الطريق لنيل رحمة الله التي خص بها عباده، فمن هذه الطرق:

١. تلاوة القرآن الكريم والاستماع مع الإنصات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٢. إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله والرسول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

٣. الاستغفار: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

٤. الإصلاح مع التقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

والملاحظ في هذه الآيات وغيرها أن الله تعالى يعبر عن نيل رحمته بـ (لعل) كما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهذا يفيد الرجاء، أي: رجاء أن ترحموا. وفي هذا التعبير دلالة على أن الرحمة من الله يعطيها لمن يشاء، فلتطلب الرحمة من طرقها مع رجاء الله في نيل رحمته، أي: إن من أهم طرق الرحمة هو: رجاء الله في نيلها، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لن يدخل هو الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته. فرجاء رحمته تعالى هي أهم شيء في طلبها.

قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ولهذا نجد القرآن الكريم يحثنا كثيرًا على طلب رحمة الله وعدم القنوط من رحمته تبارك وتعالى التي وسعت كل شيء، وسعت الإنسان مهما عمل من المعاصي إذا تاب.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

والله تعالى يختص برحمته من يشاء، وقد خص بها أصنافًا من المؤمنين، ومن هؤلاء الأصناف: المتقون.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

﴿وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

ففي هذه الآية نجد أن من يتقي الله فإن الله يؤتيه كفلين من رحمته. وأصل الكفل: الحظ الذي فيه الكفاية، أي: يؤتكم نصيبين من رحمته.

قال ابن عاشور: «والكفل -بكسر الكاف وسكون الفاء-: النصيب، وأصله: الأجر المضاعف، أي: يؤتكم أجرين عظيمين، وكل أجر منهما هو ضعف الآخر مماثل له، فلذلك ثني كفلين»[(١)].

وقال سيد قطب: «أي: يعطكم نصيبين من رحمته، وهو تعبير عجيب، فرحمة الله لا تتجزأ، ومجرد مسها الإنسان يمنحه حقيقتها، ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والرحمة هنا ذكرت مقابل العذاب: «قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء» ففي مقابل العذاب جاء ذكر الرحمة؛ لبيان أن الرحمة تسبق العذاب، كما ورد في الحديث القدسي: (إن رحمتي تغلب غضبي).

قال أبو السعود: «وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات. وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد»[(٣)]. وقد كانت الرحمة هنا أولًا للذين يتقون.

٥. قبول العمل.

وقبول العمل يعني: أخذه مع إعطاء الثواب عليه، أو الرضا به مع إثابة العامل.

وقد امتن الله على المؤمنين بأن أثابهم على استقامتهم بقبول أفضل أعمالهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

ثم قال عنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

وقبول العمل عطاء من الله تعالى، ولهذا ورد الدعاء بقبول العمل. فهذا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام يأمرهما الله تعالى ببناء الكعبة المشرفة، فيقومان بعملهما؛ امتثالًا لأمره تبارك وتعالى، ثم يدعوان الله أن يتقبل عملهما.

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٢٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٦ .
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٧٨ .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وهذه امرأة عمران تدعو الله تعالى أن يتقبل منها نذرها، فيكرمها الله تعالى بقبول نذرها.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

وهنا نقدر قيمة ما أعطى الله تعالى للمتقين من قبول العمل، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وذلك أن ابني آدم عليه السلام قربا قربانًا فقبل الله من أحدهما ولم يقبل من الآخر، فأراد الآخر قتل أخيه، فأخبره أن عدم قبوله؛ لانسلاخ نفسه من التقوى.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

قال أبو السعود: «﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لا من غيرهم، وإنما تقبل قرباني ورد قربانك؛ لما فينا من التقوى وعدمه، أي: إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلي، فلم تقتلني؟! خلا أنه لم يصرح بذلك بل سلك مسلك التعريض؛ حذرًا من تهيج غضبه، وحملًا له على التقوى، والإقلاع عما نواه»(١).

وقال الزمخشري: «إنما أتيت من قبل نفسك؛ لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي فلم تقتلني؟ وما لك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان. وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعةً إلا من مؤمن متقٍ»(٢).

٦. التقوى ميزان التفاضل بين العباد.

خصلة التقوى هي التي يتم بها التفاضل عند الله تبارك وتعالى، فأكرم الناس عنده من كان تقيًا. ولا فضل لأي إنسان، ملكًا كان أو أميرًا، صاحب مال أوجاه أو سلطان على غيره من الضعفاء والفقراء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٧ .
(٢) الكشاف ١/ ٣٣٣ .

فهو ميزان التفاضل الحقيقي الذي يضع الناس في أماكنهم، ويجعل تقييمهم حسب المبادئ والقيم والأخلاق. وليس حسب مقاييس اجتماعية براقة كاذبة خداعة. المقاييس التي تجعل من الناس طبقات يتسلط فيها القوي على الضعيف، والغني على الفقير، يتسلط فيها أصحاب الفساد في المجتمعات، فتشترى الذمم وتنتشر الرذائل.

والكرم: اسم للأخلاق والأفعال المحمودة، ويقال: لفظ الكرم لمن ينفق في المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالًا؛ ليجهز جيشًا في سبيل الله، أو يتحمل حمالة تحقن دماء قوم من الناس[1].

وأكرم الأفعال وأشرفها ما يقصد به وجه الله تعالى، وأشرفها التقوى، لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

يقول سيد قطب في بيان معنى الآية: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى... وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبًا وقبائل، إنها ليست التناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والاخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون؛ للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله، إنما هنالك ميزان واحد تتحد به القيم، ويعرف به فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.. والكريم حقًا هو الكريم عند الله»[2].

٧. التقوى طريق للعلم.

والتقوى طريق لتحصيل العلم، حيث قرن القرآن الكريم بين العلم وتقوى الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والعلم الحقيقي هو العلم الموصل إلى الهداية؛ لأن كل ذرة في هذا الكون تشهد بأن الله هو خالق هذا الكون، فمخلوقات الله تشهد على خالقها، وهذا النوع حث القرآن على النظر فيه والتفكر في شأن السماوات والأرض.

فإذا لم يكن العلم موصلًا إلى الهداية ومؤكدًا لحقيقة الإيمان بالله تبارك وتعالى، فليس هو العلم الذي دعا إليه القرآن الكريم وحث على التعلم فيه، لذلك نجد كثيرًا ممن لا تزيدهم علومهم إلا جهلًا بالحقيقة وابتعادًا عن الإيمان بالله تعالى وهم قلة، وقد قص علينا القرآن مثال الذي آتاه الله

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٤٢٩.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٨.

علمًا فأضله الله على علم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

والعلم الحقيقي هو الذي يبتغي به الإنسان وجه الله، ويكون سببًا في هداية المرء وتعرفه على مخلوقات الله، فيعرف الله سبحانه وتعالى من معرفة مخلوقاته، ولهذا نجد أن القرآن الكريم يمتدح الذين يعقلون والذين يتفكرون في مخلوقاته، وينعى باللائمة على الذين لا يعقلون والذين لا يتدبرون.

ولهذا أشار القرآن إلى أن العلماء هم الذين يخشون الله حق خشيته، وقد خصهم بخشيته فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ويدخل في إطار العلماء كل من كان له علم حقيقي، سواء كانوا عالمين بالله وبصفاته وبقدرته أم بمخلوقاته وأسرار خلقه من علم بأمور الطبيعة والكون، فالكون هو كتاب الله المنظور الذي يدل على أن الله خالقه ومبدعه. والله جعل في هذا الكون دلائل قدرته وأظهر فيه بدائع صنعه، لذا كانت العلوم الكونية موصلة إلى معرفة أسرار المخلوقات الدالة على خالقها.

وعلى هذا فالعلم الحقيقي موصل إلى الهداية، ومعرف بالحقيقة الأزلية؛ حقيقة خلق الله للأشياء وقدرته وإبداعه، والعلم بهذه الصفات عطاء إلهي، فمنها ما يتوصل إليه بأسباب، ومنها ما لا يكون للوصول إليها إلا بإرادة الله تعالى، ولهذا نجد أن الله تعالى أعطى العبد الصالح -صاحب موسى عليه السلام- من العلم ما لم يعطه لموسى عليه السلام نفسه، وهو نبيه ورسوله، والذي جاء خبره في سورة الكهف، حيث قال تعالى عن العبد الصالح: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقد أوحى الله إلى موسى أن هناك عبدًا أعلم منه، وأرشده للذهاب إلى لقياه والتعلم منه[1].

وقد جعل القرآن بعض الأمور سببًا في منح شيء من علم الله لهم منها التقوى، فقد جعل القرآن التقوى سببًا من أسباب منحهم شيئًا من علمه تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ ينبئ عن أن التقوى تثمر العلم.

يقول رشيد رضا: «أي: اتقوا الله في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٩١ .

جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون بذلك»[1].

ويقول سيد قطب: «ثم -وعلى عادة القرآن في إيقاظ الضمير، لا من مجرد ضغط النص- يدعو المؤمنين إلى تقوى الله في النهاية، وذكرهم بأن الله هو المتفضل عليهم، وهو الذي يعلمهم ويرشدهم، وأن تقواه تفتح قلوبهم للمعرفة وتهيء أرواحهم للتعليم؛ ليقوموا بحق هذا الإنعام بالطاعة والرضى والإذعان»[2].

ويقول ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ تذكير بنعمة الإسلام الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشريعة، ونظام العالم الذي هو أكبر العلوم وأنفعها، ووعدٌ بدوام ذلك؛ لأنه جيء فيه بالمضارع.

وفي عطفه على الأمر بالتقوى إيماء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل، أي: ليعلمكم»[3].

فالتقوى سبب إفاضة العلوم على الإنسان، فإن من ابتعد عن معاصي الله تعالى ورثه علم ما لم يعلم. وهذا كما قال الإمام الشافعي[4]:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصي

ثانيًا: البركة في الرزق:

ومن ثمرات التقوى: الرزق، فإن من يتق الله فينتهي عما نهى عنه، ويعمل بما أمره به، فالله يرزقه من حيث لا يحتسب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

والرزق من القضايا التي استأثر الله بها وأعطى منها الإنسان بما يشاء تبارك وتعالى وكيف يشاء.

والله وصف نفسه بأنه هو الرزاق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

ومعنى ذلك: أنه هو الذي خلق الأرزاق وجعل في الأحياء الباعث على اكتسابها، وخلق فيهم أسباب التمتع بها. لذا كان الرزق من الله وحده، يعطيه لمن يشاء.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [البقرة: ٢١٢].

والله تبارك وتعالى قسم الرزق بين عباده فأعطى كلًا منهم بما يشاء، أعطاه لحكمة

(١) المنار، ٣/ ١٣١ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٣٧ .
(٣) التحرير والتنوير ٣/ ١١٨ .
(٤) ديوان الشافعي ص ٧٦.

يعلمها هو تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٣٦].

فمسألة بسط الرزق وتقديره تتعلق بحكمة من عند الله تبارك وتعالى فهو يوسع على من يشاء ويقدر على من يشاء، فقد يغدق على أهل الخير أو على أهل الشر، وقد يضيق عليهم، كل ذلك؛ ليبتليهم بأمرِ هذا الرزق.

وبسط الرزق وتقديره يرجع لحكمة، فيعطي الله تعالى كل إنسان بما يشاء وبالقدر الذي يكون أفضل للإنسان المؤمن، فالله تعالى يعلم من أحوال بعض المؤمنين أن قلة المال أفضل لهم حتى لا يشغلهم المال عن ربهم فيضيق عليهم. والمال في حد ذاته فتنة: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

إلا من عصمه الله تبارك وتعالى، ولهذا يضيق الله على بعض المؤمنين حتى لا تكون فتنة لهم: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

فلولا الخشية رحمة بالمؤمنين من أن يكون المال فتنة لهم لكان علامة الكافرين أن يغدق عليهم المال الكثير.

والله تبارك وتعالى جعل للرزق أسبابًا معينة وربط بها الرزق، وحث على طلب الرزق في مظانه، ومن جملة هذا الأسباب:

١ . السعي في طلب الرزق.

فقد أمر الله تعالى الإنسان أن يسعى في طلب رزقه، فقال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للسائل: «إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة».

وينبغي أن يكون مع السعي توكل على الله تعالى واعتماد على أنه هو مصدر الرزق، فيسعى للرزق وقلبه معلق بالرزاق يدعوه مبتغيًا منه الرزق.

قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

لذلك كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو الله أن يرزق زوجته وولده: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

٢ . الاستقامة على هدي الله.

وقد يكون من أسباب إفاضة الرزق على العباد الاستقامة على هدي الله

تبارك وتعالى، فإن آمن بالله وعبده واتقاه واستغفره وعمل ما أمر به فإن الله يفيض عليه من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

وكثيرًا ما يربط القرآن بين الإيمان وصلاح القلوب وبين إفاضة النعم الدنيوية، فضلًا عن الأخروية.

فقد جاء على لسان نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وقد ربط القرآن في أكثر من موطن بين التقوى وبين إفاضة النعم، فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

ربط فيه بين التقوى وبين إفاضة النعم الدنيوية.

والحديث وإن كان في معرض الكلام عن أحكام الطلاق إلا أن الآية عامة ويندرج فيه أمور الطلاق.

قال الألوسي: «وجوز أن يكون اعتراضًا جيء به على نهج الاستطراد عند ذكر قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ﴾ [الطلاق: ٢]. وهو أولى؛ لعموم الفائدة»[1].

ومعنى قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ «أي: من جهة لا تخطر بباله»[2].

فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجًا مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فيدفع عنهم ما يضرهم، ويجلب لهم ما يحتاجون إليه، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللًا فليستغفر الله وليتب إليه.

ثالثًا: غفران الذنوب وتكفير السيئات:

ومن ثمرات التقوى أن الله يغفر ذنوب المتقين، وذلك أن الإنسان لابد له من الخطأ والذنب، والله تعالى وعد المتقين بمغفرة الذنوب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

ومعنى غفران الذنوب هو كما قال الراغب: «أن يصون العبد من أن يمسه العذاب»[3].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية.

والله تعالى يغفر ذنوب المتقين، أي: يسترها ولا يحاسبهم عليها. قال ابن عاشور:

(١) روح المعاني ٢٨/ ١٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٠.

(٣) المفردات ص٣٦٢.

«وغفران الذنوب جزاء على التقوى؛ لأن عمود التقوى اجتناب الكبائر، وقد غفر الله للناس الصغائر باجتناب الكبائر، وغفر لهم الكبائر بالتوبة»[1].

ويقول سيد قطب: «﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. فالإنسان إنسانٌ مهما وهب من النور، إنسانٌ يقصر حتى لو عرف الطريق، إنسانٌ يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

فليس الأجر على التقوى تكفير السيئات فحسب، بل زيادة في الأجر، فإن الله يضاعف الحسنة إلى سبعمائة ضعف أو أكثر.

أما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩].

فقد جمع هنا بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب مما يدل على اختلافهما.

قال ابن عاشور: «والتقوى تشمل التوبة، فتكفير السيئات يصح أن يكون المراد به تكفير السيئات الفارطة التي تعقبها التقوى.

ومفعول ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ محذوف، وهو ما يستحق الغفران وذلك هو الذنب، ويتعين أن يحمل على نوع من الذنوب، وهو الصغائر التي عبر عنها باللمم، ويجوز أن يكون العكس بأن يراد بالسيئات الصغائر وبالمغفرة مغفرة الكبائر بالتوبة المعقبة لها.

وقيل: التكفير: الستر في الدنيا، والغفران: عدم المؤاخذة بها في الآخرة»[3].

وهذا الأخير قاله الألوسي حيث قال: «﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: يسترها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالتجاوز عنها في الأخرى، فلا تكرار»[4].

رابعًا: تيسير الأمور وتفريج الهموم:

ومن ثمرات التقوى أن الله يجعل أمور المتقين ميسرة، ويخرجهم من الضيق الذي يعانون منه، ويصلح لهم أعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

فمن كان في ضيق أو تعسر عليه أمر وأراد تيسير أموره فعليه بتقوى الله تعالى. واليسر هو جعل الأمور سهلة غير معقدة، ولا ضيق فيها، يضاده: العسر، الذي هو تضييق الأمور وجعلها معقدة غير ميسرة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]. أي: سهل خروجه.

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٢٣ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٦ .
(٣) التحرير والتنوير ٩/ ٣٢٧ .
(٤) روح المعاني ٩/ ١٩٦ .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

أي: سهل غير صعب، وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

واليسر نعمة من الله تعالى يمن بها على عباده المؤمنين المتقين، ولهذا عندما كلف الله موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون، طلب موسى من الله تعالى أن يجعل أمره سهلًا يسيرًا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥ - ٢٦].

فتيسير الأمور نعمة كبرى يمن الله بها على عباده.

يقول سيد قطب: «واليسر في الأمر غاية ما يرجوه إنسان، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده. فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيق. يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره، وينالها بيسر في حرفته وعمله، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها»[(١)].

والعسر -الذي هو ضيق في الأمور سواء كان في المعيشة أو غيرها-؛ ابتلاء من الله تعالى يبتلي به العباد؛ ليعلم الصابر من غيره. وقد امتن الله على عباده بأنه رحيم بهم لم يجعل أمورهم كلها في عسر وضيق، بل جعل الفرج من شدة الضيق.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦].

فقد جعل الله تعالى مع كل عسر يسرًا، فإن العبد قد يشتد عليه أمرٌ ما، ولكن الله جعل مع كل عسر يسرًا. وجاء في الآية تكرار ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، ليؤكد هذا الأمر، وجاء اليسر منونًا بينما العسر معرفًا؛ لتفخيم أمر اليسر. وجعل بعضهم اليسر يسران أخذًا من الآية، وحمله بعضهم على يسر الدنيا ويسر الآخرة[(٢)].

فالله جعل اليسر ملازمًا للعسر، وقد عبر عنه بالمعية مع العسر؛ للدلالة على ملازمته الأكيدة والتامة. وفي هذا حث لمن أصيب بالعسر أن يصبر على العسر فإن اليسر معه.

فمن العسر ما يصيب الإنسان من ضيق في أمر معيشته، فإن على المرء أن يصبر ويحتسب ذلك عند الله تعالى؛ لأنه فيه ابتلاء، كما أن الفرج ملازم لهذا الضيق.

ومن العسر ما يصيب الإنسان من ضر في بدنه، فعلى المرء الصبر على ذلك؛ فإن الفرج لابد آتيه، وهذا ما حصل لنبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام فصبر واحتسب، فمن الله عليه بالشفاء، وأخرجه من هذا الضيق الذي عاناه.

وهذا نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام يقع في الضيق فيسجن، ولكنه صبر واحتسب، فكان أن من الله عليه بالفرج

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٢.

(٢) انظر: روح المعاني ٣٠/ ١٧٠.

والخروج من الضيق.

ومن العسر ما يصيب الأنبياء، وكذلك الدعاة من عدم استجابة الناس للدعوة الإلهية، فيصبرون، ثم يأتيهم الفرج والخروج من ذلك الضيق.

والخروج من الضيق والعسر إما أن يكون في الدنيا أو في الآخرة، فيكون في الدنيا بتفريج الأمور وقلبها من الشدة إلى اليسر، وهذا ما حصل ليوسف عليه السلام عندما خرج من السجن وجعله الملك أمينًا للخزائن، وكذلك حصل لأيوب حينما برأه الله ووهب له أهله ومثلهم معهم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

وقد لا يكون التفريج في الدنيا، فيكون في الآخرة بأن يثيبه الله تعالى عليه في الآخرة بالثواب العظيم.

ولكن الله تعالى جعل بعض الأمور تزيد في تسهيل الأمور والخروج من الضيق الذي يعانيه المرء، ألا وهي التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

خامسًا: النصر والتمكين:

من أهم عوامل النصر للمسلمين التقوى؛ لأن المسلمين لا يتغلبون على أعدائهم بمجرد العدد والعدة، بل لابد من طاعتهم لله تبارك وتعالى، لذا كانت التقوى من أهم المواصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المجاهدون في سبيل الله؛ لتحقيق النصر.

وكثيرًا ما يتم التعبير عن المؤمنين -في سياق القتال والجهاد- بالمتقين، وذلك؛ إبرازًا لصفة التقوى وأهميتها، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذه المعية ليست خاصة بصنف من المؤمنين وهم المتقون، ولكنها عامة لكل المؤمنين، وقد عبر عنهم بالمتقين؛ إبرازًا وتأكيدًا لأهمية هذا الوصف في هذا الجانب وهو القتال في سبيل الله.

قال أبو السعود: «ووضع الظاهر موضع الضمير؛ للتنصيص على أن الإيمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى، والشهادة بكونهم من زمرة المتقين»[(١)].

أي: إنه قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] ولم يقل: إن الله معكم.

وقال الألوسي: «وإنما وضع المظهر موضع المضمر؛ مدحًا لهم بالتقوى، وحثًا للقاصرين على ذلك، وإيذانًا بأنه المدار في

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١١٢ .

النصر»[1].

وفي سورة التوبة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

والمعنى: واعلموا أن الله معكم، ولكنه جعل معيته للمتقين؛ إبرازًا لهذه الصفة، كأنها صارت مثل الشرط، كما قال ابن كثير: «واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه»[2].

وفي سورة محمد يتحدث عن القتال فيذكر الجنة التي أعدها الله للمؤمنين فيقول: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥].

فيبرز صفة التقوى؛ لأهميتها في هذا المجال.

ومن أهم واجبات المؤمن في المعركة الصبر في مواطن القتال، فلا نصر بلا صبر. وكثيرًا ما تحدث القرآن عن الصبر وقرنه بالتقوى، فإن من تمسك بالصبر والتقوى كان في مأمن من كيد الأعداء وكانت له العاقبة والنصر.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

كما يبين تبارك وتعالى أنه لابد من الصبر والمصابرة والمرابطة مع اقترانهما بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقد بين الله تعالى أن المؤمنين في غزوة أحد لو أنهم صبروا واتقوا ربهم لأمدهم بالملائكة ونصرهم على أعدائهم.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

فلابد من الصبر في المعركة واقترانه بالتقوى حتى يكون النصر والتمكين للمؤمنين المتقين. لذلك نجد في مواطن كثيرة يعقب عليها القرآن بقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

قال أبو السعود: «﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لأهل التقوى، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ تنبيهًا على أن ملاك الأمر هو التقوى»[3].

وكذلك نجد أن القرآن الكريم يمتن على المؤمنين بالنصر في غزوة بدر ويطلب منهم أن يشكروا الله على هذا النصر، طلب منهم أن يشكروه بالتقوى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ

(١) روح المعاني ١٠/ ٩٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٨٤.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٥١.

﴿بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فإن في التقوى شكرًا له على النصر، وحتى يدوم لهم النصر فلابد من التقوى.

فالقرآن يلوح دومًا بالتقوى في مجال الجهاد وفي المعركة، فلابد من ملازمتها للمجاهد في سبيل الله تعالى، وأنه بقدر تقوى المؤمنين يعطيهم النصر، وبقدر ابتعادهم عن التقوى يسلط عليهم عدوهم كما حصل يوم حنين عندما أعجب البعض بكثرتهم.

عاقبة التقوى وآثارها

بين الله سبحانه وتعالى عاقبة التقوى وآثارها في القرآن الكريم، وسوف نتناول ذلك فيما يأتي:

أولًا: عاقبة التقوى في الدنيا وآثرها على الفرد والمجتمع:

بين الله تبارك وتعالى أن العاقبة الحسنى للتقوى والمتقين.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فقد أمر الله تبارك وتعالى بالتقوى وتحصيل مبادئها وترك الالتفات إلى ما سواها؛ لأن العاقبة والنتيجة الحسنى للتقوى، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة.

وأصل العقب هو مؤخر الرجل، وخص العقب والعقبى بالثواب، وكذلك العاقبة[(١)]، أي: الثواب الحسن للتقوى، مما يدل على أن التقوى هي ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير[(٢)].

فالتقوى سبيل المؤمنين، وخلق الأنبياء والمرسلين... ووصية الله تعالى لعباده الأولين والآخرين. يقول القرطبي: «التقوى

(١) المفردات، الراغب ص٣٤٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٩٥ .

فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان»[1].

ويقول العلامة الفيروزآبادي عن التقوى: «لو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للأجر وأجل في العبودية، وأعظم في القدر، وأولى في الحال، وأنجح في المآل من هذه الخصلة لكان الله سبحان أمر بها عباده، وأوصى خواصه بذلك؛ لكمال حكمته ورحمته.

فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة جميع الأولين والآخرين من عباده، واقتصر عليها، علمنا أنها الغاية التي لا متجاوز عنها ولا مقتصر دونها. وأنه عز وجل قد جمع كل محض نصحٍ ودلالةٍ وإرشاد وسنة وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الوصية الواحدة»[2].

يقول سيد قطب: «فالإنسان هو الرابح بالعبادة في دنياه وأخراه، يعبد فيرضى ويطمئن ويستريح، ويعبد، فيجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى، والله غني عن العالمين»[3].

لذلك فإن للتقوى أثرًا عظيمًا على حياة الناس:

فالفرد التقي يجمع كل صفات الخير وينال كل أسباب السعادة الدنيوية، من الرزق والعلم وراحة البال، وكل ما يسعد الإنسان في حياته، يسلم أمره لله في كل شأنه من شئون حياته، ويعلم علم اليقين أن الله الذي يعلم السر وأخفى متكفل به.

والمجاهد في سبيل الله يدرك تمام الإدراك بأنه لو اتقى الله حق تقواه فلابد أن ينصره الله على عدوه، وإن لم يظهر نصره فلخلل في تقواه، إلا أن العاقبة الحسنى في الدنيا للمتقين.

والمجتمع المسلم التقي الذي يؤمن أن في التقوى خيره وما يسعده، فيظهر أثر التقوى في سلوك ذلك المجتمع، وتجد التكافل في أبلغ صوره من التكافل بين الأفراد، وسد حاجة بعضهم لبعض، ويظهر في المجتمع أثر التعاون والإحسان للمحتاج، كما يظهر أثر الإيثار بين الناس، وكرائم الأخلاق، من الصدق والإحسان وكظم الغيظ والعفو عن الناس.

لذلك فإن كان بين العباد فرد فاضل ومجتمع فاضل ومدينة فاضلة فهو مجتمع التقوى والمتقين.

وهذه المثالية لم توجد في مجتمع آخر، كما وجدت في مجتمع المسلمين الأتقياء، لقد وصل الناس في زمن من تاريخ المسلمين لأن ينادى في الشوارع بالصدقات إذا كان هناك أحد يستحقها فلا يجدون، والفرد يتعلم العلم في جميع

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٦٢ .
(٢) بصائر ذوي التميز ٢/ ١١٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٧ .

مراحل حياته وهو مكفول في كل مراحل طلبه للعلم من خلال الأوقاف الكثيرة التي تنفق على طلبة العلم، ولم يعد عند القضاء إلا مسائل معدودة يختلف فيها الناس، ومثل ذلك وغيره كثير.

ثانيًا: عاقبة التقوى في الآخرة:

للمتقين في الحياة الآخرة شأن عظيم، ومهما كان أمرهم في الحياة الدنيا فإنهم في الآخرة أفضل مقامًا وأجرًا.

وقد بين لنا القرآن الكريم أن الدار التي يقيم فيها المتقون في الآخرة أفضل منها في الدنيا، فإنه بقدر ما أعطاهم من ثمرات على التقوى في الدنيا فإنه يعطيهم أفضل منها في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وكذلك يكون الجزاء في الآخرة أفضل، قال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقد أكرم الله المتقين إكرامًا خاصًا في كل مشهد من مشاهد الآخرة، إليك بيانها:

١ . عند الوفاة.

يبين القرآن الكريم مشهد المؤمنين المتقين عندما تقبض الملائكة أرواحهم، وكيف تتلقاهم الملائكة بطيب وسرور بالغ وهم يزفون تلك الروح إلى جنة الخلد.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٠ - ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي: طاهرين من دنس الشرك والمعاصي.

قال الراغب: «وأصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس..، والطيب من الإنسان من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال، وإياهم قصد بقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٠]»[1].

(١) المفردات ص٣٠٨ .

فالملائكة تتوفى المؤمنين حال كونهم طيبي النفوس، أي: طاهرين من دنس الشرك والمعاصي، وقيل: «فرحين طيبي النفوس ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم؛ لتوجه نفسهم بالكلية إلى جانب القدس»[1].

فإن النفس المؤمنة تكون طيبة فرحة بلقاء ربها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

٢. يحشر المتقون حشر تكريم.

فإذا كان المجرمون يحشرون على وجوههم صمًا وبكمًا وعميًا فإن المتقين يحشرون حشر تكريم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥].

قال ابن عاشور: «أي: حشر الوفود إلى الملوك، فإن الوفود يكونون مكرمين»[2].

وقال ابن كثير: «إنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا، والوفد: هم القادمون ركبانًا، ومنه الوفود»[3].

وقال الألوسي: «أي: ركبانًا... وأصل الوفد جمع وافد، كالوفود والأوفاد والوفد، من وفد إليه وعليه وفدًا ووفودًا ووفادة وإفادة: قدم وورد.. وقال الراغب: الوفد والوفود هم الذين يقدمون على الملوك مستنجزين الحوائج.. وهذا المعنى الذي ذكره هو المشهور، ومن هنا قيل: إن لفظة الوفد مشعرة بالإكرام والتبجيل، حيث آذنت بتشبيه حالة المتقين بحالة وفود الملوك، وليس المراد حقيقة الوفادة من سائر الحيثيات؛ لأنها تتضمن الانصراف من الموفود عليه، والمتقون مقيمون أبدًا في ثواب ربهم عز وجل. والكلام على تقدير مضاف، أي: إلى كرامة الرحمن أو ثوابه وهو الجنة أو إلى دار كرامته أو نحو ذلك...، وكان الظاهر بأن يقال: يوم نحشر المتقين إلينا، إلا أنه اختير الرحمن؛ إيذانًا بأنهم يجمعون من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة إلى من يرحمهم»[4].

٣. عند اجتياز الصراط.

وبعد بعث الناس وحشرهم يأتي الحساب، فيعطى كل إنسان كتابه بيمينه أو بشماله، ثم يمرون على الصراط.

والصراط جسر على جهنم يمر عليه الناس مؤمنون وكافرون، فيسقط في النار الكافرون ومن قضي عليه بالعذاب، بينما ينجي الله المؤمنين المتقين من الوقوع في النار.

وقد وردت روايات في وصف الصراط بأنه أحد من السيف وأدق من الشعر.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١١١ .
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ١٦٨ .
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٣٤ .
(٤) روح المعاني ١٦/ ١٣٦ .

وعلى هذا الصراط يعبر المؤمنون المتقون، ولكن سرعة عبورهم على حسب أعمالهم، وذلك أن المتقين يمرون فلا يقعون، وعندها ينجيهم الله برحمته من الوقوع في جهنم.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢].

واختلف المفسرون في المراد بالورود، فقال بعضهم: يراد بورود النار: دخولها، فيدخلها المؤمنون، ولكنها تكون عليهم بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم عليه السلام. وقال آخرون: إن المراد بالورود: المرور عليها من غير دخول.

٤. عند دخول الجنة.

وأول ما نلاحظه في الآيات من دخول المتقين الجنة: أن المتقين قبل دخولهم الجنة فإن الجنة تقرب لهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].

ومعنى الإزلاف: التقريب، أي: قربت الجنة للمتقين.

قال أبو السعود: «أي: قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشورون إليها»[(١)].

وقال ابن عاشور: «والمعنى أن المتقين يجدون الجنة حاضرة فلا يتجشمون مشقة السوق إليها»[(٢)].

بينما قال عن الضالين المجرمين: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

«أي: جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة، ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها»[(٣)].

وكذلك فإن المتقين يصلون إلى الجنة فيجدون أن الأبواب قد فتحت لهم وأن خزنة الجنة واقفة عند باب الجنة؛ لاستقبالهم.

أما عن استقبال الملائكة لهم وكيفيته فقد قال الله فيه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فالملائكة تستقبلهم بالسلام قائلين لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ويبينون لهم سبب هذا الدخول وهذا الاستقبال بقولهم: ﴿طِبْتُمْ﴾ أي: طبتم من دنس المعاصي والآثام، والتطيب هو التطهير، أي: تطهرتم من المعاصي والشرك، قال سيد قطب: «فهو الاستقبال الطيب والثناء المستحب. وبيان السبب ﴿طِبْتُمْ﴾ وتطهرتم، كنتم طيبين، وجئتم طيبين»[(٤)].

وقال الألوسي: ﴿طِبْتُمْ﴾ أي: من

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢١٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٩/ ١٥١.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٩/ ١٠١.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٦٣.

دنس المعاصي، وقيل: طبتم نفسًا بما أتيح لكم من النعيم المقيم، والأول مروي عن مجاهد، وهو الأظهر»[1].

وقال أبو حيان: «طبتم أي: أعمالًا ومعتقدًا ومستقرًا أو جزاءً»[2].

فالملائكة تستقبل المتقين مسلمة عليهم كما ذكر في سورة (ق): ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ﴾ [٣٤].

وبعد دخولهم إلى الجنة واستقبال الملائكة لهم يتوجه المتقون إلى ربهم بالحمد والشكر على هذه النعمة العظيمة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۚ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

والمراد بالأرض: أرض الجنة، قال ابن كثير: «أي: أرض الجنة»[3].

وقال الزمخشري: «﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقرًا ومتبوأ، وقد أورثوها، أي: ملكوها وجعلوا ملوكها، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاءون تشبيهًا؛ بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه وذهابه في إنفاقه طولًا وعرضًا.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿حَيۡثُ نَشَآءُ﴾؟ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟

قلت: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره»[4].

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، الإيمان، البر، الخشية

(١) روح المعاني ٢٤/ ٣٤.
(٢) البحر المحيط، ٧/ ٤٤٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٦٩.
(٤) الكشاف ٣/ ٣٥٨.

التمكين

عناصر الموضوع

مفهوم التمكين	٤٧٨
التمكين في الاستعمال القرآني	٤٧٩
الألفاظ ذات الصلة	٤٨٠
التمكين مشيئة إلهية	٤٨٢
أنواع التمكين	٤٨٥
مقومات التمكين	٤٨٩
أهداف التمكين	٥٠٤
أسباب زوال التمكين	٥٠٦

مفهوم التمكين

أولًا: المعنى اللغوي:

مشتق من تمكن يتمكن تمكنًا فهو متمكن، يقال: تمكن الشخص بالمكان: أي: استقر فيه ورسخ، يقال: مكانك أيها اللص: أي: اثبت في مكانك، وتمكنت من الأمر، أي: صار عندي سهلًا، وتمكن الشخص من الأمر، أي: أصبح ذا قدرة عليه أو ظفر به، وتمكن عند الناس، أي: علا شأنه عندهم[(١)].

نستدل مما سبق أن التمكين في اللغة يدل على معاني القوة، والقدرة، والاستقرار، والعلو، وعلى ذلك يكون المراد به لغة: إعطاء ما يصح به الفعل من الآلات والأدوات، وإزالة ما يمنع هذا الفعل[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يرى الخازن أن التمكين: «هو أن لا ينازع الممكن منازع فيما يراه ويختاره»[(٣)].

ويرى ابن عرفة: «التمكين هو القدرة على الفعل»[(٤)].

وقد سئل الإمام الشافعي رحمه الله يومًا: أيٌّ أفضل الصبر أو المحنة، أو التمكين؟

فقال الشافعي رحمه الله: «التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر، وإذا صبر مكن، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه، وامتحن سليمان عليه السلام، ثم مكنه، وآتاه ملكًا، والتمكن أفضل الدرجات»[(٥)].

واستنادًا لما سبق يمكن القول بأن التمكين اصطلاحًا: هو منزلة رفيعة يهبها الله سبحانه وتعالى للصالحين من عباده بعد صبرهم على الابتلاءات والمحن، فتسمو مكانتهم، وتعلو كلمتهم، ويسود شرعهم، وتمتلأ الدنيا بنورهم عدلًا، وبهديهم إحسانًا وبرًا.

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن معانيه اللغوية.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٧٩، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٧٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٨١.

(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١١١، شمس العلوم، نشوان الحميري ٩/ ٦٣٦١.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٣٦.

(٤) انظر: تفسير ابن عرفة، ١/ ٣٥٨.

(٥) تفسير الإمام الشافعي ٢/ ٩٧٨.

التمكين في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مكن) الدالة على (التمكين) في القرآن الكريم(١٨) مرة[١]، وهي على النحو الآتي:

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٠	﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[يوسف:٢١]
الفعل المضارع	٤	﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص:٥٧]
صيغة المبالغة	٤	﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾[التكوير:٢٠]

وجاءت مادة (مكن) الدالة على (التمكين) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو من القدرة على الشيء وإطاقته، مع زوال المانع[٢]، أو من الرسوخ والاستقرار[٣]، وأصله من المكان، والمكان لغةً: هو الحاوي للشيء، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾[الكهف:٨٤].

يعني: «أعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم»[٤].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٧٢.
(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٤/ ١٠٤.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٦٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ النصر:

النصر لغة:

النون والصاد والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على إتيان خيرٍ وإيتائه. ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم[(١)].

النصر اصطلاحًا:

العون، ويختص لفظ النصر بأنه إعانة في مقابل العدو المتربص، إما بالظفر عليه، وإما بدفع مضرته[(٢)].

الصلة بين التمكين والنصر:

التمكين أعظم من النصر، وذلك أن حدوث التمكين قد يتطلب سلسلة من الانتصارات.

٢ الغلبة:

الغلبة لغة:

من غلب يغلب غلبةً، وهو القهر[(٣)].

الغلبة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قال الراغب: «الغلبة القهر»[(٤)]. والمقصود هو قهر العدو.

الصلة بين التمكين والغلبة:

أن الغلبة قد تكون مؤقتة سرعان ما تزول، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ٣].

والفرس غلبت الروم، ولكن سرعان ما أعقب هذه الغلبة هزيمة للفرس على يد الروم[(٥)]، ولكن التمكين يكون معه دوام الغلبة واستقرارها.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٥.
(٢) المفردات، الراغب ص٨٠٨، الفروق اللغوية، العسكري ص١٨٩، الكليات، الكفوي ص ٩٠٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨٨.
(٤) المفردات، ص٦١١.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٩٥.

٣ الاستخلاف:

الاستخلاف لغةً:

من خلف، ويعني أن يجيء شيء من بعد شيء يقوم مقامه[١].

الاستخلاف اصطلاحًا:

هو «استرعاء يختص لمن ينصح للمرعي، فيؤدي عن الله أمره ونهيه، ولا يأخذه في الدين لومة لائم، ولا سطوة جبار»[٢].

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

الصلة بين الاستخلاف والتمكين:

أن الاستخلاف لا يكون إلا مع الاستبدال (أي: استبدال الصالحين مكان الطالحين)، ولا يشترط الاستبدال مع التمكين[٣].

٤ العزة:

العزة لغةً:

عز أي: اشتد وقوي[٤].

العزة اصطلاحًا:

صفة تفيد حصول الفوقية والغلبة لله سبحانه وتعالى وعباده الصالحين على أعدائهم[٥]، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨].

الصلة بين العزة والتمكين:

أن العزة من لوازم التمكين.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢١٠.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري، ١/ ٣٩٥.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٥٦.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٢٩.

التمكين مشيئة إلهية

يقول مصطفى مسلم: «إن لفظة التمكين في القرآن الكريم لا تأتي إلا للشيء الذي لا تسعفه الأسباب المادية من الوصول إليها، فيأتي بأسباب وتدابير ربانية غير عادية»[(١)].

وذلك يعني أن حصول التمكين مرتبط بالمشيئة الإلهية التي تقتضي توفير أسباب غير عادية تؤدي إلى حصول هذا التمكين، وفيما يلي أمثلة تبرهن على ذلك:

- تمكين الله سبحانه وتعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام.
- تمكين الله سبحانه وتعالى لنبيه يوسف عليه السلام.
- تمكين الله سبحانه وتعالى عباده المسلمين من الانتصار على أعدائهم المشركين خلال فترات الصراع بين المسلمين والمشركين على الرغم من اختلال موازين القوى، وذلك كما حدث على سبيل المثال في غزوة بدر، والخندق، والحديبية.

فإن قيل: ما الأسباب والتدابير الربانية التي توفرت فيما سبق ذكره من أمثلة؟

فالجواب كما يأتي:

أولًا: بالنسبة لإبراهيم عليه السلام، فبعد أن صبر على دعوته لقومه إلى عبادة الله وحده، وصبر على ما لاقاه من الأذى والتنكيل في سبيل هذه الدعوة مكنه الله سبحانه وتعالى بأن أنجاه من النار، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ولما اعتزل قومه وأصنامهم وهبه الله سبحانه وتعالى الولد على الرغم من كبر سنه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ولما أمره الله سبحانه وتعالى بترك ذريته في مكة عند البيت الحرام دون أن يتوفر عندهم المياه، ففجر الله عين زمزم[(٢)].

ثانيًا: بالنسبة ليوسف عليه السلام: فبعد أن ألقاه إخوته في الجب لهلك وحيدًا، مكنه الله سبحانه وتعالى بأن خلصه من الجب، وآواه في بيت العزيز.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص٢١٦.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٠١.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ١٩-٢١].

يقول الدكتور وهبة الزحيلي: «خطط إخوة يوسف للتخلص نهائيًا من أخيهم، فباءوا بالخيبة والفشل؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الإله القادر المنفذ لما يريد»[(١)].

وبعد أن كبر وصار شابًا وقع في محنة مراودة امرأة العزيز له عن نفسه.

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولما استعصم سجن ظلمًا وعدوانًا.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فمكنه الله سبحانه وتعالى، بأن أخرجه من السجن ليكون عزيز مصر[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٦].

ثالثًا: بالنسبة للمسلمين أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: فقد مكنهم الله سبحانه وتعالى من أعدائهم المشركين في مواطن عديدة منها:

يوم بدر، حيث كان المسلمون على قلة في العدد والعدة مقارنة بالمشركين، ومع ذلك نصرهم الله تعالى على عدوهم نصرًا مؤزرًا، علت بسببه مكانة المسلمين بين الأمم، وفي المقابل انحدرت مكانة المشركين وضاعت هيبتهم بين الأمم[(٣)].

وقد حكى القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

وبغية تحقيق هذا الوعد الإلهي.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

واستمر الدعم الإلهي للمؤمنين في هذه الغزوة حتى وصل إلى ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وقد روى ابن حبان في صحيحه قال: قال أبو زميل: حدثني ابن عباس قال: بينما

(١) الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٠٩٨.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢١٧.
(٣) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ٢٧٧.

رجل من المسلمين، يومئذ يشد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس فوقه يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقيًا فنظر إليه، فإذا هو خطم أنفه، وشق وجهه بضربة سوط، فاخضر ذاك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: (صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة)[1].

يوم الخندق: حيث تكالبت قوى الشر الممثلة في الأحزاب لضرب المسلمين عن قوس واحدة، وقد كانت ظروف المسلمين حينها غاية في الصعوبة، فلا وفرة في الطعام ولا دفء، إضافة إلى خذلان المنافقين، ونكوث العهد من قبل يهود بني قريظة بتحالفهم مع الأحزاب ضد المسلمين.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

ومع ذلك مكن الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ونصرهم على عدوهم دون قتال[2].

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

يوم الحديبية: حيث ظن المسلمون في بداية الأمر أن قريشًا غدرت بهم، وقتلت عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولم يكونوا قد أعدوا العدة لمواجهة هذا الموقف العصيب؛ إذ لم يكن معهم سوى سلاح الراكب المسافر، ومع ذلك قرروا إعلاء شأن دينهم، وبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على قتال المشركين، وبعدها جاء التمكين الإلهي للمؤمنين، فقد عاد عثمان رضي الله عنه سالمًا، وأرسلت قريش سهيل بن عمرو ليفاوض النبي صلى الله عليه وسلم، فنجم عن ذلك صلح الحديبية والذي كان بمثابة بداية الطريق لنصر عظيم مؤزر من الله سبحانه وتعالى به على المؤمنين، فما هي إلا سنتين حتى نكثت قريش عهدها مع الرسول صلى الله عليه وسلم، مما أدى إلى فتح مكة عام (٨هـ)[3].

وقد حكى القرآن الكريم ذلك، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣، رقم ١٧٦٣.

(٢) انظر: السيرة النبوية، كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، محمد الصوباني ٣/ ٩٤.

(٣) انظر: دلائل النبوة، البيهقي، ٤/ ١٦٠.

١٨].

وقد أكد الله مشيئته بتمكين المؤمنين بوعد يساوي في قوته القسم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ومما يؤكد أن وعد الله بذلك يساوي القسم دخول اللام في جواب القسم المفهوم من الوعد، وذلك في الوعود الثلاثة: (الاستخلاف والتمكين واستبدال الخوف بالأمن) إضافة إلى وجود نون التوكيد الثقيلة في الوعود الثلاثة، مما يؤكد أن ذلك واقع لا محالة إن تحقق الإيمان والعمل الصالح، عبادة بلا شرك.

وهذا دليل قاطع على أن التمكين يتبع لمشيئة الله عز وجل، وليس لإرادة بشرية مهما كانت قوية، فالله يعز من يشاء بعزه، ويذل من يشاء متى يشاء بما يشاء، سبحانه وتعالى القوي القدير صاحب العزة والجبروت.

أنواع التمكين

للتمكين أنواع تحدث عنها القرآن الكريم، نعرضها فيما يأتي:

أولًا: التمكين الخاص:

والتمكين الخاص هو ما كان خاصًا بالأفراد، وبحسب القرآن الكريم فقد حصل لنبي الله يوسف عليه السلام، ولذي القرنين من البشر، ولجبريل عليه السلام من الملائكة، وبيان ذلك فيما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

يقول الشيخ الشعراوي: «وقد بدأ التمكين في الأرض من لحظة دخوله بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

يقول الشيخ الشعراوي: «وهكذا كان تمكين الله ليوسف عليه السلام في الأرض

(١) تفسير الشعراوي ١١/ ٦٨٩٩.

بحيث أدار شئون مصر»[1].

ويقول الشيخ محمد الناصري في تفسير هذه الآية أن فيها: «إشارة إلى ما أكرم الله به يوسف من الحرية والسعة والنفوذ والتصرف في أرض مصر...»[2].

والملاحظ أن التمكين في الآيتين السابقتين هو تمكين خاص بفرد واحد هو نبي الله يوسف عليه السلام، كما يلاحظ أن الآية الأولى أشارت إلى تمكين جزئي ليوسف عليه السلام، فكل ما حصل له أنه نجا من الجب، وانتقل للعيش في بيت يكفل له الحياة الكريمة، فهذا وإن كان بمثابة نقلة نوعية في حياة يوسف عليه السلام، إلا أنه لا يرقى ليصل إلى درجة العلو والهيمنة، وهذا ما نوه إليه الشيخ الشعراوي رحمه الله، حين وصف التمكين المذكور في الآية الأولى بأنه بداية التمكين وليس تمام التمكين[3].

بينما نجد أن الآية الثانية قد أشارت بالفعل إلى التمكين الكلي لنبي الله يوسف عليه السلام، حيث أصبح يدير شئون مصر كما ذكر المفسرون.

يقول الدكتور علي الصلابي: «فإذا تأملت في الآيتين تلاحظ أن الآية الأولى أشارت للتمكين الجزئي ليوسف عليه السلام، والآية الثانية للتمكين الكلي في حقه...»[4].

وبناءً على ذلك يمكن القول بأن التمكين المذكور في الآية الثانية هو تمكين خاص كلي.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣- ٨٤].

يقول المراغي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ «أي: مكنا له أمره من التصرف فيها كيف شاء، بحيث يصل إلى جميع مسالكها، ويظهر على سائر ملوكها، وآتيناه من كل شيء أراده من مهام ملكه وبسطة سلطانه طريقًا يوصله إليه، فآتيناه العلم والقدرة والآلات التي توصله إلى ذلك»[5].

ويتضح من خلال كلام المراغي رحمه الله، أن تمكين الله سبحانه وتعالى لذي القرنين هو تمكين خاص كلي.

قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

ومعنى مكين هنا: أن جبريل عليه السلام، ذو جاه ومنزلة رفيعة عند الله سبحانه وتعالى[6]، ومن ثم فتمكين الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام هو

(١) المصدر السابق ١١/ ٧٠٠١.
(٢) التيسير في أحاديث التفسير ٣/ ١٨٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٨٩٩.
(٤) فقه النصر والتمكين ص٧.
(٥) تفسير المراغي، ١٦/ ١٦.
(٦) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦٠٧.

تمكين خاص كلي.

ثانيًا: التمكين العام:

والتمكين العام هو ما كان غير مختص بفرد معين، وإنما يكون للجماعات، وبحسب القرآن الكريم فقد ثبت هذا التمكين لأصحاب القرون الأولى مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، ولأهل مكة، وللمؤمنين الصادقين، وبيان ذلك فيما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول سبحانه وتعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي، الجاحدون بنبوتك، كثرة من أهلكت من قبلهم من القرون الذين وطأت لهم البلاد والأرض توطئة لم أوطئها لهم، وأعطيتهم فيها ما لم أعطهم»[(١)].

ويقول أبو الحسن النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ «أعطيناهم من المال والعبيد والأنعام ما لم نعطكم»[(٢)].

وبناءً على ذلك، نفهم من كلام المفسرين أن تمكين الله سبحانه وتعالى لأصحاب القرون الأولى مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، كان تمكينًا عامًا كليًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

يقول أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ «لما أمر الله سبحانه أهل مكة باتباع ما أنزل إليهم، ونهاهم عن اتباع غيره، وبين لهم وخامة عاقبته بالإهلاك في الدنيا والعذاب المخلد في الآخرة ذكرهم ما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبًا في الامتثال بالأمر والنهي إثر ترهيب، أي: جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، أو ملكناكم فيها وأقررناكم على التصرف فيها»[(٣)].

ويفهم من هذا الكلام أن تمكين الله سبحانه وتعالى لأهل مكة كان تمكينًا عامًا كليًا.

ومن الجدير بالذكر أن الله تعالى قد مكن لتلك الأقوام على الرغم من كفرها؛ لأنها أخذت بأسباب التمكين المادية كإعداد الجيوش، وامتلاك الأموال وغير ذلك، ولكنهم لما تركوا السبب الأهم لبقاء التمكين وهو اتباع الرسل، أهلكهم الله تعالى.

(١) جامع البيان ١١/ ٢٦٣.
(٢) الوجيز ص٣٤٥.
(٣) إرشاد العقل السليم ٣/ ٢١٤.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

يقول مقاتل بن سليمان في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، «يعني: أرض المدينة وهم المؤمنون بعد القهر بمكة»[(١)].

ومعنى التمكين في هذه الآية: النصر على العدو[(٢)]، وبالفعل فإن الله سبحانه وتعالى قد مكن الصحابة الكرام ومن بعدهم من المؤمنين من عدوهم بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة فألحقوا به الهزيمة تلو الهزيمة بدءًا بغزوة بدر عام (٢هـ) مرورًا بغزوة فتح مكة عام (٨هـ) ووصولًا إلى اتساع الفتح الإسلامي حتى وصل إلى الصين شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا، وقد كان هذا التمكين تمكينًا عامًا كليًا.

وقد وعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين الصادقين بتمكينهم في الأرض تمكينًا عامًا كليًا ما داموا على إخلاصهم له سبحانه، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

يقول الدكتور مازن عيسى: «فهذا الوعد مناسب لكل من اتصف بهذا الوصف، فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد، وقد اتصف بعدهم به قوم بحسب إيمانهم وعملهم الصالح، فمن كان أكمل إيمانًا وعمل صالحًا، كان استخلافه المذكور أتم، فإن كان فيه نقص وخلل كان تمكينه خللًا ونقصًا؛ وذلك أن هذا جزاء هذا العمل، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء»[(٣)].

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ١٣٠.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ٩/ ٥٨.
(٣) الإصابة في الذب عن الصحابة رضي الله عنه ص١١٩.

مقومات التمكين

مما لا شك فيه أن الإنسان مطالب إلى جانب عبادة الله سبحانه وتعالى وحده، أن يحصل على التمكين في الأرض، فقد قال ربنا جل علا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وإسناد هاتين المهمتين للناس دليل على أنه لا مجال لأداء العبادات بحرية دون قيد إلا بتحقيق الاستخلاف في الأرض، وإن الاستنكاف عن السعي لتحقيق أي من المهمتين يعني ضياع المهمة الأخرى وعدم التمكن من تحقيقها، وهذا يعني الإفساد في الأرض، يفهم هذا من رد الملائكة لما أخبرها الله عز وجل أنه سيجعل في الأرض خليفة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قالوا ذلك لعلمهم بما كان من الجن الذين أفسدوا في الأرض، فعاقبهم الله سبحانه وتعالى، وحتى يتجنب الإنسان من الوقوع فيما وقع فيه الجن من قبل، لابد له من المحافظة على ما أسند له ربه سبحانه وتعالى من مهمات، ولضمان ذلك لابد له أن يحصل على التمكين في الأرض، وللحصول على هذا التمكين لابد من توفر المقومات الواردة فيما يلي:

أولًا: الإيمان:

يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

في هذه الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ربط بين تحقيق الإيمان وحصول الاستخلاف، ويفهم من هذا الربط أن تحقق الإيمان شرط أساس لحصول الاستخلاف، فلا استخلاف دون إيمان[1].

وهذه القاعدة لا تقف عند هذا الحد فقط، بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى كون الاستخلاف باقيًا ما دام الإيمان متحققًا عبر الأجيال التي حصل آباؤها على الاستخلاف في الأرض، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك من خلال إحدى قصص بني إسرائيل، وهي تلك التي وردت في سورة الإسراء.

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ

(١) انظر: نور الإيمان وظلمات النفاق، الدكتور سعيد القحطاني ص٢٣.

نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾[الإسراء: ٢-٧].

فهذه الآيات تبين أن الله سبحانه وتعالى قد من على المؤمنين الذين كانوا مع نوح عليه السلام، بأن نجاهم من الغرق الذي أصاب الكافرين آنذاك وذلك يعتبر تمكينًا لهم.

ثم جاء من بعدهم خلفٌ من ذريتهم أفسدوا في الأرض، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم من يهزمهم شر الهزيمة، وهذا زوال للاستخلاف، وبعد ذلك عاد بنو إسرائيل لرشدهم وإيمانهم، فأعاد لهم العزة والهيمنة، وبذلك عاد لهم الاستخلاف.

ثم أخبر القرآن أنهم سيعودون بعد ذلك إلى الفساد مرة أخرى، وهذا سيؤدي إلى إهلاكهم مرة أخرى، وهذا يعني زوال الاستخلاف تارة أخرى عن بني إسرائيل، ثم يقرر الله سبحانه وتعالى أنه في كل عودة للكفر والإفساد يزول الاستخلاف، وفي كل رجعة إلى الله تعالى بالإيمان والإحسان يرجع الاستخلاف، وهذه القاعدة ليست خاصة ببني إسرائيل وحدهم، وإنما هي سنة إلهية تتكرر لكل من أوكل الله سبحانه وتعالى إليهم مهمة الاستخلاف، يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ونصرة الله سبحانه وتعالى تكون بالجهاد في سبيله، وإعلاء شأن دينه، واتباع رسوله، وموالاة أوليائه، والتزام أوامره، واجتناب نواهيه، وهذه من لوازم الإيمان بالله سبحانه وتعالى [(١)].

ثانيًا: العمل الصالح:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

كما هو ملاحظ في هذه الآية، فإن القرآن قد استخدم أحد أهم وأقوى أساليب التوكيد وهو الوعد المكافئ للقسم، من أجل تقرير الوعد الإلهي لمن تحقق فيهم الإيمان مع

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ٢٦٦.

المداومة على العمل الصالح بالاستخلاف في الأرض.

وقد دلنا ربنا جل وعلا على الأسس التي يرتبط على وفقها حصول التمكين بالعمل الصالح، وهذه الأسس تتمثل في أنه لحصول العبد على التمكين لابد له من الجمع بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

كما تتمثل هذه الأسس أيضًا في أنه من غرق في المعاصي والذنوب فإن عاقبته الهلاك وزوال التمكين عنه إن كان من الممكنين.

قال تعالى في سياق وعيده لأهل مكة بسبب كفرهم وعصيانهم بالهلاك أسوة لمن سبقهم من الأقوام الفاسدة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ٨-١٠].

وقد جمع ربنا بين الأساسين السابقين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وشكر الله سبحانه وتعالى بطاعته وعمل الصالحات، وكفره بجحود نعمه والانغماس في الشهوات[1].

ومن الأسس أيضًا أن أفضل الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى حصول التمكين هي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أمة التمكين بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن الأسس أن أخطر ما يؤدي إلى زوال التمكين هو ترك التناهي عن المنكر، وقد استحق كفار بني إسرائيل اللعنة بسبب ذلك.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨- ٧٩].

وقال رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه،

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٩.

وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد)[1].

ومن الأسس أيضًا أنه لابد من المداومة على العمل الصالح لضمان بقاء التمكين واستمراره.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٠-١٣].

وفائدة الشكر هي استمرار العطاء للشاكر، وترك الشكر يعني الحرمان مما يستوجبه الشكر وترك الشكر عليه[2].

وباستقراء التاريخ يلاحظ أن استخلاف الله سبحانه وتعالى لعباده اقترن بإيمانهم وعملهم الصالحات، وذلك كما حدث مع بني إسرائيل كما هو مبين فيما سبق، وكما حدث مع غيرهم من الأقوام، وفي مقدمتهم الصحابة الكرام، والتابعون وتابعوهم بإحسان، وفي كتب السيرة والتاريخ وغيرها ما يشهد بذلك.

ثالثًا: الأخذ بالأسباب:

إن العبد مأمور بالأخذ بالأسباب، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

فالآية تحتوي على أسلوب شرط، وقد ربط الشرط هنا بين الإيمان بالله والتوكل عليه -جل وعلا-، واستنادًا إلى تعريف الشرط بأنه أحد أساليب الخطاب التي تقوم على الربط بين الشرط وجوابه، فلا يتحقق الثاني إلا بتحقيق الأول، يمكن القول بأنه لا يتحقق الإيمان إلا بتحقق التوكل، ومعنى الآية: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾.

وقد حذف جواب الشرط؛ لأنه تقدم في الآية ما يدل عليه وهي جملة ﴿فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾، ومن المعلوم أن التوكل على الله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بأمرين هما:

١. الأخذ بالأسباب الممكنة.
٢. ثم تفويض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى مع كامل الثقة به جل وعلا[3].

ومن ثم فإن الأخذ بالأسباب جزء من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ٤/ ١٧٥، رقم ٣٤٧٥.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ٢/ ٢٤٨.

(٣) انظر: جهود الشيخ محمد الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، عبد العزيز الطوبان ١/ ١٦٣.

التوكل على الله سبحانه وتعالى، وبتركه يصبح التوكل تواكلًا، والتواكل مذموم، كما أشار إلى ذلك الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما قال لأبي عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه: «أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله!»[1].

ويستفاد من كلام عمر رضي الله عنه، ضرورة الأخذ بالأسباب، مع العلم أن الأخذ بالأسباب من القضاء والقدر.

ولقد علمنا ربنا جل وعلا ضرورة الأخذ بالأسباب، ونجد ذلك جليًا في قوله تعالى لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥].

والله سبحانه وتعالى قادر على أن يسقط الرطب دون أن تقوم الصديقة مريم عليها السلام بهز النخلة، كما أنه جل وعلا علمنا أيضًا ألا نستهين بالأخذ بالأسباب وإن بدا لنا أنه لا تجدي نفعًا، فمن المعلوم أن المرأة النفساء لا تقوى على هز جذع النخلة، فضلًا عن أن يتسبب ذلك الهز في إسقاط الرطب، فذلك يحتاج إلى جهد يفوق ما تقوى عليه النفساء، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى أمرها بالهز، كما علمنا جل شأنه كذلك أن فاعلية الأسباب التي أمرنا بالأخذ بها مرهونة بمشيئته جل وعلا، فهو المسبب للأسباب، والقادر على تعطيلها، ويفهم ذلك من قوله تعالى خلال سرد قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨- ٦٩].

كما علمنا أنه سبحانه لو أراد أن يجعل ما لم تجر العادة بكونه سببًا لجعل منه سببًا لما أراد أن يكون سببًا له، فهذه العصا التي سأل الله سبحانه وتعالى موسى عنها فرد عليه قائلًا: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

فذكر موسى عليه السلام الأسباب التي اتخذ العصا من أجلها ولم يكن من ضمنها فلق البحر، ومع ذلك جعلها الله سبحانه وتعالى سببًا لفلق البحر، وأنقذ المؤمنين من فرعون وجنوده.

قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦].

هذا بالإضافة جعلها سببًا لتحقيق أمور أخرى لا تحققها العصا بالعادة، كما علمنا

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦٣.

ربنا -جل وعلا- أنه واهب الأسباب، وأنه ما على العبد إلا أن يكون صاحب إرادة لتوظيف هذه الأسباب فيما يرضيه سبحانه يدل على ذلك:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقوله تعالى عن الرجل الصالح الذي سار معه موسى عليه السلام [١]: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقوله تعالى عن ذي القرنين: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا﴾ [الكهف: ٨٤].

والمفهوم من تلك الآيات وغيرها أن الله سبحانه وتعالى هو واهب الملك، والعلم، والقدرة، وسائر الأسباب، وقد فقه أهل الصلاح ذلك كله لذلك: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

والرجلان هما من أهل الصلاح ممن كانوا على دين موسى عليه السلام [٢].

ولذلك أيضًا رفع رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء قبيل غزوة بدر حتى ظهر بياض إبطه الشريف راجيًا ربه أن ينجز له ما وعده من النصر [٣]، مستخدمًا بذلك أقوى الأسباب فاعلية في جلب المصالح ودفع المضار، ألا وهو سلاح الدعاء الخالص لله سبحانه وتعالى [٤]، فنصره الله سبحانه وتعالى، ومن معه من المؤمنين، ولذا أيضًا حفر الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين الخندق بأظفارهم وبما توفر لديهم من وسائل يسيرة، مصدقين بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فأيدهم الله سبحانه وتعالى ونصرهم على الأحزاب [٥]، ولذلك أيضًا حافظ المسلمون على سنة السواك في معاركهم، فكان ذلك سببًا من أسباب نصرهم على

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٩٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨٢.
(٣) انظر: مغازي الواقدي، ١/ ٦٧.
(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص٤٦٦.
(٥) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٣٩٩.

أعدائهم أصحاب القوة والبأس[1]، والتاريخ حافل بدلائل التمكين الإلهي للمؤمنين الآخذين بكل ما توفر لديهم من أسباب النصر والعزة والغلبة.

رابعًا: العلم:

معلوم أن من أحد أهم عوامل تحقيق التمكين في الأرض هو العلم، لاسيما وأنه السبيل إلى الرفعة والهيمنة، وتبيانًا لذلك يقول ربنا جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد ربطت الآية الكريمة بين الإيمان وطلب العلم، وذلك الربط يأتي في إطار الإشارة إلى أن طلب العلم يؤتي ثماره الطيبة إذا كان طالب العلم مؤمنًا، فالإيمان هو الضابط لطالب العلم، فلا يوظف علمه إلا بما يرضي الله سبحانه وتعالى، كما يعود بالنفع على البشرية[2].

ومما يبرز الدور الهام لطالب العلم في تحقيق التمكين في الأرض هو المضمون الذي اشتملت عليه آيات القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين الصادقين بأن يستخلفهم ويمكن لهم دينهم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

والدين الذي يرتضيه ربنا جل وعلا هو الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء جميعًا، وإن أول ما أوحى به الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن هو الأمر بالقراءة.

قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

والقراءة تعد من أهم وسائل طلب العلم، ومن ثم فلا تمكين إلا بإقامة الدين، ولا دين غير الإسلام، وقد بدأ الإسلام بالدعوة إلى طلب العلم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

هذه الآية هي ثناء من الله سبحانه وتعالى على نبيه يعقوب عليه السلام لما حصل من العلوم، وبالنظر في نصوص القرآن نجد أن

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٩/ ١٩٨٧.
(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٣٦٦.

يعقوب عليه السلام قد وظف علمه خلال نصحه لأبنائه، فهذا يوسف عليه السلام يروي لأبيه يعقوب الرؤية التي رآها في منامه، فنصحه أبوه ألا يقص رؤيته لإخوته فيكيدوا له.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٤ - ٥].

فيعقوب عليه السلام علم من خلال سماعه الرؤيا أمرين:

الأول: تأويل الرؤيا.

الثاني: الأثر السلبي الذي قد تتركه الرؤيا على إخوة يوسف عليه السلام إذا سمعوا بها، فكانت نصيحته لولده يوسف عليه السلام تهدف إلى المحافظة على بقاء اللحمة بين أولاده، وهذا يؤدي إلى حصول التمكين.

وفي موقف آخر ينصح أبناءه عندما أرادوا الخروج من عنده، والتوجه إلى مصر قائلًا لهم: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وذلك خوفًا عليهم من العين[1]، ومما لا شك فيه أن نصيحته هذه تدل على علمه بالضرر الذي قد يسبب فيه دخولهم من باب واحد، وتجنب الضرر يؤدي إلى حصول التمكين.

وقال تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١].

يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه داود عليه السلام في هذه الآية أن يتقن صنعة الحدادة، وذلك من خلال قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾، أي: تمهل وترو في السرد كي تحكمه[2]، وإتقان الصنعة يؤدي إلى حصول التمكين.

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

يقول الزمخشري: «وانتصاب ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ على الحال من ﴿عَلَّمْتُم﴾، فإن قلت: ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها ب﴿عَلَّمْتُم﴾؟

قلت: فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح تحريرًا في علمه مدربًا فيه، موصوفًا بالتكليب ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية أو استئناف، وفيه فائدة جليلة وهي أن على كل آخذ علمًا أن

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٢/ ١٧٣.

(٢) معجم وتفسير لغوي كلمات القرآن، حسن الجمل ٣/ ٣١٨.

لا يأخذه إلا من أقتل أهله علمًا، وأنحرهم دراية، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل»[1].

وإتقان المهارات يؤدي إلى حصول التمكين.

خامسًا: القوة:

جرت سنة الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لمن أراد التمكين لهم الوسائل التي يستطيعون من خلالها الحصول على التمكين، وذلك يعني أنه لابد للذي يسعى للحصول على التمكين في الأرض أن يكون صاحب بضاعة تعينه على تحقيق ما يسعى للحصول عليه، وإن أهم ما تحويه تلك البضاعة هو عنصر القوة، وأهمية هذا العنصر تكمن في أنه الوسيلة التي تتم من خلالها عمليتي الحصول، والمحافظة على التمكين، وتنقسم هذه القوة إلى قسمين هما:

- القوة المادية: فهي تتمثل في قوة الجسد، وكثرة العدد والعدد.
- القوة المعنوية: فهي تتمثل في رجاحة العقل، وشجاعة القلب.

الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يهب التمكين لأحد أعطاه القوة.

قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

والملاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد جمع لطالوت بين القوة المادية الجسدية، والقوة المعنوية العلمية، بحيث أنه فاق بما آتاه الله سبحانه وتعالى من القوة أهل زمانه، فكان أهلًا لاختياره ملكًا[2].

وقد قدم الله سبحانه وتعالى قوة العلم على قوة الجسم لبيان أنه لابد من تقديم القوى العقلية على القوى المادية عند استخدام القوة؛ وذلك لتوجيه الطاقات في الاتجاه الصحيح، وعدم تدبيرها وإحسان استثمارها، وفي قصة ملكة سبأ التي أرسل الله إليها سليمان عليه السلام رسالة يدعوها فيها وقومها للإسلام، فاستشارت رؤوس دولتها، فردوا عليها ما مفاده أنهم جاهزون للمواجهة العسكرية ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

فردت عليهم ردًا يبين رجاحة عقلها، قال تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤ - ٣٥].

وهذا الرد من الملكة يبرز أن تغليب العقل على امتلاك القوة المادية من شأنه أن

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣١٣.

يحقن الدماء، ويحفظ الممتلكات، ويبقي على السيادة.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالسعي بكل جهد للحصول على أسباب القوة؛ بغية الحصول على التمكين.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقد دل الله سبحانه وتعالى عباده على أهم الأسباب التي يؤتي الله سبحانه وتعالى عباده من خلاله وهو الاستغفار.

قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وفي مقابل ذلك حذر من الوقوع في الآثام والمخالفات التي من شأنها تدمير القوة مهما بلغت، وإزالة التمكين.

قال تعالى مخاطبًا الكفرة الفجرة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

سادسًا: الأمانة:

جعل الله سبحانه وتعالى الحصول على التمكين أمانة في أعناق المؤمنين، والشواهد على ذلك في القرآن عديدة، منها:

قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

في هذه الآية يأمر ربنا سبحانه يحيى عليه السلام بأن يعرف أحكام الله، وأن يحكم بها وهو صغير[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

في هذه الآية يكلف الله سبحانه وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقضي بين الناس بما علمه من أحكام الدين[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وفي هذه الآية يأمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يقاتلوا المشركين الناكثين عهودهم مع المسلمين وحبسهم ومحاصرتهم ومطاردتهم، وعدم التسامح معهم إلا في حال توبتهم، وإيمانهم بالله

(١) انظر: المصدر السابق ص٤٩٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٧٥.

سبحانه وتعالى، وأدائهم حقوق الله سبحانه وتعالى عليهم[1].

ومما سبق يمكن القول بأن الله سبحانه وتعالى استأمن يحيى عليه السلام على الحكم بالكتاب الذي أنزله ليكون هدى للناس، واستأمن محمدًا صلى الله عليه وسلم للقضاء بين الناس بموجب أحكام القرآن، واستأمن المسلمين على المحافظة على بلاد المسلمين وتطهيرها من الفجار، وذلك كله يعني أن الله سبحانه وتعالى استأمن عباده على المحافظة على الإسلام، وتطبيق أحكامه في الأرض من خلال بسط المسلمين سيطرتهم على الأرض وتمكنهم منها.

وقد ذم الله سبحانه وتعالى الذين فرطوا في المحافظة على أمانة التمكين.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد استأمن اليهود والنصارى على حمل التوراة والعمل بموجب أحكامها، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم خانوا هذه الأمانة فهم بذلك كالحمار الذي يحمل الكتب التي تحتوي على العلوم الكثيرة، ولكنه لا يعي منها شيئًا[2].

وحتى يتجنب أتباع محمد صلى الله عليه وسلم تلك المذمة لابد لهم من المحافظة على أعظم أمانة استحفظ الله سبحانه وتعالى عليها الإنسان، وهي أمانة الدين.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومسئولية الحفاظ على هذه الأمانة العظيمة وإن كانت تقع على عاتق المسلمين جميعًا، إلا أن الجزء الأكبر من هذه المسئولية إنما تقع على العلماء وأولي الأمر من المسلمين، وقد أعانهم الله سبحانه وتعالى على تحمل هذه المسئولية من خلال توجيه الأمر لعامة المسلمين بطاعة أولي أمرهم وعلمائهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

والمقصود بالذين يستنبطونه هم:

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٣٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٧٧.

العلماء النحارير[1]، وقد أعانهم أيضًا من خلال الحث على طلب العلم الشرعي؛ بغية نشره بين الناس.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومما يدل على أن المسئولية الكبرى في حفظ أمانة الدين تقع على عاتق العلماء والقادة قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

والربانيون هم الولاة والأحبار هم العلماء[2].

ومما يدل على مشاركة عامة الناس للقادة والعلماء في مسئولية حفظ أمانة الدين: ذمه سبحانه وتعالى اليهود والنصارى طاعة علمائهم في معصية الله سبحانه وتعالى والإيغال في ذلك.

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فعلى العلماء والقادة تقع أمانة التبليغ والتطبيق لأحكام الدين، وعلى العامة الطاعة في غير معصية الله سبحانه وتعالى.

ولا يعني التخصيص لأمانة حفظ الدين بالذكر أن المحافظة على باقي الأمانات أمر ثانوي لحصول التمكين، وإنما كان الاختيار لأمانة حفظ الدين لأمرين مهمين:

الأول: أن الحفاظ على هذه الأمانة هو الأساس لحصول التمكين، يفهم ذلك من تركيز القرآن على الدعوة لحفظ هذه الأمانة العظيمة.

الثاني: أن المحافظة على هذه الأمانة باعث للحفاظ على باقي الأمانات التي هي فرع، ولا انفصال بين الأصل والفرع كما هو معلوم، وبهذا الفهم الدقيق مكن الله سبحانه وتعالى للصالحين في الأرض، ومن الأمثلة على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٠-٣٣].

هذا نبي الله سليمان عليه السلام يشغله حب الخيل وبهاء منظرها عن الصلاة، فيغضب لذلك، ويدرك خطورة الانشغال بمتاع الدنيا عن حفظ أمانة الدين، فيقوم

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٠٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٤٣.

بعقر تلك الخيل[1].

وهذا هو الأساس الذي مكن الله سبحانه وتعالى به لسليمان عليه السلام.

ولما ارتد أناس عن الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بتركهم للزكاة أمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بتحريك الجيوش وقتال المرتدين؛ وذلك ليقينه بضرورة حفظ أمانة الدين من أجل بقاء التمكين للمسلمين[2].

وقد سار المسلمون الأوائل على هذا النهج القويم، وحافظوا على الأمانات التي استحفظ الله سبحانه وتعالى عباده عليها، متأولين بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

فأمكن الله سبحانه وتعالى لهم حتى وصلت فتوحات المسلمين الصين شرقًا، والمحيط الأطلسي غربًا[3].

سابعًا: العدل:

يمثل العدل أحد أهم الركائز التي يستند إليها للحصول على التمكين مع ضمان بقائه واستمراره، وإن من أهم الدلالات على ذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر بالعدل وجعله من جوامع الخير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

كما أنه سبحانه وتعالى نهى عن الجور، وذلك كما جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا...)[4].

والعدل مما أوصى به ربنا جل وعلا في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

والعدل كما هو مفهوم من هذه الآية لابد له من أن يكون بعيدًا عن حظوظ النفس، فلا تؤدي العداوة لقوم إلى عدم إنصافهم[5].

ومما يعلل كون صفة العدل أحد أهم سبل الوصول إلى حالة التمكين أنه لا أحد

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٧/ ١٧٧.
(٢) انظر: حياة محمد صلى الله عليه وسلم، محمد حسين هيكل ص٣٣٢.
(٣) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص٢٨٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.
(٥) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٦٠٢.

من الخلق يقبل وقوع الهضم والحيف عليه، ومن ثم فإن النفوس تكره كل ظالم وبالذات إذا كان في موقع النفوذ والسلطان؛ لأن ظلمه يكون أشد وفرص معاقبته تكون محدودة إن لم تكن معدومة، والعكس صحيح، وهذا يعني أنه لابد لمن أراد التمكين في الأرض أن يتصف بالعدل؛ حتى ينال محبة الناس وثقتهم، فيحصل بذلك على ما أراد.

وقد أيقن المسلمون الأوائل أهمية العدل في حصول التمكين فحافظوا عليه، فحفظ الله سبحانه وتعالى عليهم ملكهم، ويسر لهم فتح البلاد، وحبب منهم العباد، ومن الشواهد على عدل الخلفاء الراشدين ما كان يوصي به عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلًا: «إني لم أسلطكم على دماء المسلمين، ولا على أموالهم، ولكني بعثتكم تقيموا بهم الصلاة، وتحكموا بينهم بالعدل»[1]، وغير ذلك من الشواهد كثير.

ثامنًا: التعاون:

العباد مأمورون من الله سبحانه وتعالى بأن يكونوا متعاونين متآزرين في الحق، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

والبر هو ما أمر الله سبحانه وتعالى به، والتقوى هو اجتناب ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه[2].

ومن أبرز ما دعا الإسلام للتعاون من أجل تحقيقه هو الحصول على التمكين، أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وهذه دعوة من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالتضامن مع بعضهم البعض لنصرة دين الله سبحانه وتعالى وإعلاء كلمته[3].

ومن المعلوم أن الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى هو الطريق إلى تمكين المسلمين في الأرض يؤيد دعوة التناسب بين دعوة المسلمين إلى رص صفوف المجاهدين في سبيل الله سبحانه وتعالى وبين نهي المسلمين عن موالاة الكافرين قبل تلك الدعوة.

فقد قال سبحانه وتعالى في آخر آية من سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

ثم قال تعالى في أول سورة الصف التي تلي سورة الممتحنة مباشرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم

(١) شعب الإيمان، البيهقي، ٩/ ٤٩٣، رقم ٧٠٠٩.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتردي ٣/ ٤٢٣، لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٣٩٨.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٥٢.

﴿بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

يقول المراغي عن مطلع سورة الصف: «ومناسبتها لما قبلها أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه، وفي ذلك تأكيد المنهي الذي تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين»[(١)].

وطلب المعونة من الغير ممن تجوز الاستعانة بهم في سبيل تحقيق التمكين للمسلمين في الأرض أمر مطلوب، وأولى من يستعان به لذلك هو الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٧- ١٢٨].

كما أنه يستعان بأسباب القوة المختلفة من أجل تحقيق التمكين.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٤- ٩٥].

فذي القرنين طلب المعونة من أجل بناء السد على الرغم من أنه صاحب قوة.

وتاريخ المسلمين يشهد بأنهم طلبوا العون في سبيل تحقيق التمكين، ومن ذلك ما حصل في غزوة الأحزاب حيث استعان الرسول صلى الله عليه وسلم بالصحابي الجليل نعيم بن مسعود الغطفاني رضي الله عنه من أجل تفريق كلمة الأحزاب[(٢)]. وغير ذلك من الشواهد كثير.

(١) تفسير المراغي ٢٨/ ٧٩.

(٢) انظر: معارج القبول، حافظ الحكمي ٢/ ٥٦٥.

أهداف التمكين

تحدث القرآن الكريم عن أهداف التمكين وسوف نبينها فيما يأتي:

أولًا: إقامة شعائر الدين:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وأوكل إليه مهمة الاستخلاف، وهذه المهمة تشمل أمرين أساسيين، هما:

١. عبادة الله سبحانه وتعالى على الوجه الذي يرضيه جل وعلا.

٢. الإصلاح والتعمير في الأرض.

دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فرد الملائكة لما أخبرها ربها جل وعلا أنه سيجعل في الأرض خليفة بقولهم: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، دل على أن الاستخلاف يلزم منه الإصلاح والتعمير، وقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، دل على أن الاستخلاف يلزم منه العبودية لله سبحانه وتعالى [(١)].

مما سبق يتبين أن مهمة الخلافة هي مهمة حساسة؛ لكونها شديدة التأثر بما يحيطها من العوامل، وأبرز تلك العوامل هو عامل التمكين، فليس لأحد أن يقوم بمهام الاستخلاف في الأرض إلا إذا كان ممكنًا فيها، ويجب على المؤمنين بمجرد أن يمكن الله سبحانه وتعالى لهم في الأرض أن يسعوا بكل جهد إلى تحقيق مهام الاستخلاف التي أسندها الله سبحانه وتعالى إليهم، وأولى هذه المهام هي مهمة العبادة لله سبحانه وتعالى وحده، وإقامة شعائر دينه.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وفي مقدمة المؤمنين الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم [(٢)]، ومما يشهد بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة المنورة قام ببناء المسجد الذي يعتبر المقر الرئيس لإقامة شعائر الدين.

كما حرص الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم على السير على ذات الدرب الذي سار عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم فكان في عهدهم أن جمع القرآن ونقط وشكل، وحورب المرتدون، وفتح

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٩، التفسير البسيط، الواحدي ١/ ١٩٤.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٤٤.

بيت المقدس، وعلا دين الله سبحانه وتعالى على ما سواه[1].

ثانيًا: عمارة الأرض:

الإسلام هو دين التعمير والبناء والإصلاح في الأرض، وقد أوجب الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يعمروا في الأرض، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

والعمارة هنا نوعان:

الأول: معنوية بالصلاة والاعتكاف والذكر في هذه المساجد.

الثاني: مادية بالبناء والتشييد والتوسيع بهذه المساجد[2].

ودل على وجوب الإصلاح والتعمير في الأرض قوله صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[3].

والمقصود بالعلم هو كل علم نافع سواءً أكان علمًا دينيًا أو دنيويًا، وكما أن علوم الدين تدعو إلى توظيف الإمكانات للبناء والتعمير، فإن علوم الدنيا تشرف مباشرة على ذلك البناء والتعمير.

(١) انظر: ثلاثية البردة بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، حسن حسين ص١٢٩.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٧.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ١/ ١٠١، رقم ٢٢٤.
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٩١٣.

أسباب زوال التمكين

وضح القرآن الكريم أسباب زوال التمكين، وسوف نتناولها بالبيان فيما يلي:

أولًا: الكفر:

الكفر بأقسامه وأنواعه يؤدي إلى زوال التمكين، يؤيد ذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: ١٧-٢٧].

فهذه الآيات تتحدث عن فرعون وملئه، وعن عاقبة إفسادهم في الأرض، حيث أغرقهم في البحر بعد أن كانوا أهل سيادة في الأرض[(١)].

ثانيًا: الظلم:

الظلم بأنواعه سبب من أسباب زوال التمكين، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ٩٦-١٠١].

فهذه الآيات تتحدث عن إهلاك الله سبحانه وتعالى لقوم موسى عليه السلام بسبب ظلمهم أنفسهم بالكفر والمعاصي[(٢)].

ثالثًا: كفران النعمة:

مما لا شك فيه أن إنكار ونسيان النعم التي من الله سبحانه وتعالى بها على عباده من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى زوال تلك النعم، ولما كانت نعمة التمكين من أعظم ما يمن به الله سبحانه وتعالى على عباده كان إهمالها ونكرانها أحد أعظم الأسباب التي تؤدي إلى زوال تلك النعمة والحرمان منها.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ١١٨.

(٢) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١١/ ٥٤٦.

﴿كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن يكون في رغد من العيش وسعة، ثم يكفر بما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليه لتكون عاقبته الحرمان من تلك النعم[(١)].

ونظرًا لخطورة كفران النعمة فقد حذر الله سبحانه وتعالى عباده من الانجرار وراء رغبات نفوسهم التي تأمرهم بالجحود والنكران.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

﴿لَكَنُودٌ﴾ هو الكفور[(٢)] الذي يذكر المصائب، وينسى النعم[(٣)].

وقد أكد الحق جل وعلا بالمؤكدات الثلاث: القسم، وإن، واللام؛ للمبالغة في تحذير الإنسان من كفران النعمة الذي ينجم عن الانصياع للنفس التي تنسى ما أنعم الله سبحانه وتعالى به عليها، وتذكر ما ابتلاها به فقط، ومن ثم يكون من الواجب على العبد أن يؤدب نفسه، ويذكرها بوافر نعم الله سبحانه وتعالى كلما حرضته على جحود تلك النعم العظيمة، والتي في مقدمتها نعمة التمكين.

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٢٨٤.
(٢) انظر: تفسير التستري، ١/ ٢٠٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٨٥.

رابعًا: ارتكاب الذنوب:

وعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين الصالحين المداومين على فعل الطاعات بالغلبة والتمكين في الأرض، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ويفهم من هذا الوعد الإلهي بالمخالفة أن الكفر بالله وإتيان الذنوب يؤديان إلى زوال التمكين.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨- ٩].

والعتو عن أمر الله سبحانه وتعالى إنما يكون بمعصيته وارتكاب الذنوب[(٤)].

لذلك فإنه من الواجب على العباد أن يحذروا من الوقوع في الذنوب؛ لئلا تزول عنهم نعمة التمكين.

موضوعات ذات صلة:

الخلافة، النجاة، النصر

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٩.

فهرس المحتويات

التزكية ٧

مفهوم التزكية ٨

التزكية في الاستعمال القرآني ٩

الألفاظ ذات الصلة ١٠

من له تزكية النفوس؟ ١٣

أنواع الثناء على النفس..... ١٧

أنواع التزكية..... ٢٢

التزكية وظيفة الأنبياء وأتباعهم..... ٢٥

وسائل التزكية في القرآن..... ٢٩

جزاء التزكية..... ٤٧

التسبيح ٥٣

مفهوم التسبيح..... ٥٤

التسبيح في الاستعمال القرآني ٥٥

الألفاظ ذات الصلة ٥٦

تسبيح الله عز وجل نفسه ٥٧

المسبحون لله عز وجل من المخلوقات ٦٤

من صيغ التسبيح ٨٨

مواطن التسبيح ٩٤

أزمنة التسبيح..... ١٠٢

فوائد التسبيح..... ١٠٩

التسخير ١١١

مفهوم التسخير ١١٢

التسخير في الاستعمال القرآني ١١٣

الألفاظ ذات الصلة ١١٤

دلالات التسخير العقدية..... ١١٦

مظاهر التسخير ١٢٢

آثار التسخير الإيمانية على العبد ١٣١

آثار التسخير في عمارة الأرض..... ١٣٦

التشاؤم ١٤٣

مفهوم التشاؤم..... ١٤٤

الألفاظ ذات الصلة ١٤٥

التشاؤم عادة جاهلية ١٤٧

أسباب التشاؤم ١٥٣

صور التشاؤم ١٦٣

نسبة المصائب إلى أشخاص..... ١٧٧

آثار التشاؤم ١٧٨

علاج التشاؤم..... ١٨٠

التطوع ١٩٣

مفهوم التطوع ١٩٤

التطوع في الاستعمال القرآني..... ١٩٧

الألفاظ ذات الصلة ١٩٨

أنواع التطوع ١٩٩

الحث على التطوع ٢٠٣

دوافع التطوع في القرآن الكريم ٢٠٨
أسس التطوع ٢١٢
عقبات التطوع ٢١٤
مجالات التطوع الاجتماعي في القرآن ٢١٦
نماذج قرآنية للتطوع الاجتماعي ٢٢٦
التغيير ٢٣٣
مفهوم التغيير ٢٣٤
التغيير في الاستعمال القرآني ٢٣٥
الألفاظ ذات الصلة ٢٣٦
التغيير المسند لله تعالى ٢٣٨
أنواع التغيير ٢٤٣
أسباب التغيير ٢٥٥
مجالات التغيير ٢٧١
ثمرات التغيير وآثاره ٢٧٥
التفكر ٢٧٩
مفهوم التفكر ٢٨٠
التفكر في الاستعمال القرآني ٢٨٢
الألفاظ ذات الصلة ٢٨٣
الحث على التفكر ٢٨٧
مجالات التفكر ٣٠٢
نتائج التفكر وثمراته ٣٢١
التقليد ٣٤١
مفهوم التقليد ٣٤٢
الألفاظ ذات الصلة ٣٤٤
أسباب التقليد ٣٤٦
مجالات التقليد ٣٦٤
آثار التقليد والتبعية ٣٩٠
مواجهة التقليد والتبعية ٤٠٢
التقوى ٤٢١
مفهوم التقوى ٤٢٢
التقوى في الاستعمال القرآني ٤٢٣
الألفاظ ذات الصلة ٤٢٤
أصناف المخاطبين بالتقوى ٤٢٦
أساليب الأمر بالتقوى ٤٢٨
صفات المتقين ٤٣٠
مكانة التقوى ٤٤٩
فضائل التقوى ٤٥٣
عاقبة التقوى وآثارها ٤٧١
التمكين ٤٧٧
مفهوم التمكين ٤٧٨
التمكين في الاستعمال القرآني ٤٧٩
الألفاظ ذات الصلة ٤٨٠
التمكين مشيئة إلهية ٤٨٢
أنواع التمكين ٤٨٥

مقومات التمكين ٤٨٩
أهداف التمكين ٥٠٤
أسباب زوال التمكين ٥٠٦
فهرس المحتويات ٥٠٩

التواضع

عناصر الموضوع

مفهوم التواضع	٨
التواضع في الاستعمال القرآني	١٠
الألفاظ ذات الصلة	١١
درجات التواضع	١٢
مظاهر التواضع	٢٢
نماذج قرآنية في التواضع	٣٩
فوائد التواضع	٥١

مفهوم التواضع

أولًا: المعنى اللغوي:

وضع: الواو والضّاد والعين: أصلٌ واحدٌ -كما يقول ابن فارس- يدلّ على الخفض للشّيء وحطّه.

ووضعته بالأرض وضعًا، ووضعت المرأة ولدها، ووضع في تجارته يوضع: خسر، والوضائع: قومٌ ينقلون من أرضٍ إلى أرضٍ يسكنون بها[١].

والتواضع: التذلل[٢]. و(تواضع) فلان تذلل وتخاشع، والقوم على الأمر: اتّفقوا عليه، والأرض: انخفضت عمّا يليها[٣].

والمقصود: أن معنى الجذر (وضع) يدور حول الخفض للشيء وحطّه، كما ذكر ابن فارس، وجاء منه التواضع بمعنى التذلل، والتواضع بمعنى الانخفاض، كقول العرب: تواضعت الأرض: انخفضت عما يليها، ثم توسع المتأخرون في معنى الكلمة، فقالوا: أجرٌ متواضعٌ، وأصلٌ متواضعٌ، وهديةٌ متواضعةٌ... الخ، على سبيل المجاز.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وأما في الاصطلاح فقد عرّف التواضع بعدة تعريفات، نذكر منها:

التّواضع: استعظام ذوي الفضائل من دونه في المال والجاه، وقيل: الرّضا بمنزلة دون ما يستحقّه فضله ومنزلته[٤].

وقيل: التّواضع: الاستسلام للحق، وترك الاعتراض على الحكم، وقيل: التواضع: قبول الحق، وقيل: افتخار بالقلة، واعتناق المذلة، وتحمل أثقال أهل الملّة[٥].

وعرّفه المناوي بقوله: «التواضع: تحقير النفس وإهانتها بالنسبة إلى عظمة الله، وقبول الحق بحسن الخلق. وقيل: ترك الصول، والتبرؤ من القوة والحول، قال التونسي: التواضع: تذلل القلوب لعلام الغيوب، بالتسليم لمجاري أحكام الحق»[٦].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١١٧.
(٢) العين، الفراهيدي ٢/ ١٩٦، تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٤٨.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٤٠.
(٤) مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٣.
(٥) انظر: المصدر السابق ص ٢١٧، التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي ص ٩٧.
(٦) التوقيف ص ١١١.

وقيل: «التواضع: ضد التكبر، وهو أن يرى المرء نفسه دون غيره في صفة الكمال»[١].

وقيل: «التواضع: ألا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب»[٢].

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله[٣].

وقال الجنيد: «التواضع خفض الجناح، وكسر الجانب»[٤]. أي: لين الجانب.

وقال رويم: «التّواضع: تذلل القلوب لعلام الغيوب»[٥].

وعرّفه من المعاصرين سليمان بن عبد الرحمن الحقيل بقوله: «التواضع: معرفة المرء قدر نفسه، وتجنّب الكبر، ويتطلب أن يتجنب الإنسان المباهاة بما فيه من الفضائل، والمفاخرة بالجاه والمال»[٦].

ومما سبق ندرك أنه وإن اختلفت عبارات العلماء في تعريفهم للتواضع إلا أن كل هذه التعريفات مجتمعة تدل على أن التواضع هو: خفض النفس، وهضمها في ذات الله، ومعرفة المرء قدر نفسه، واجتناب الكبر والبطر والخيلاء، وقبول الحق، والانقياد له.

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن أصله اللغوي.

(١) معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي ص ١٥٠.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣١٤.
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ١٠/ ٥١٠، رقم ٧٨٩٥.
وانظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣١٤، ترتيب الأمالي الخميسية، الشجري ٢/ ٣٠٣.
(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي ص ٩٧.
(٥) المصدر السابق ص ٩٧.
(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء كتاب الله ١/ ١٤٩.

التواضع في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ (التواضع) في القرآن، ولكن ورد جذره (وضع) في القرآن (١٢) مرة.

والمعاني التي استعمل القرآن فيها الجذر (وضع) لا تخرج عن المعنى اللغوي العام، الذي يدل على الخفض للشيء وحطه[١].

وقد تحدث القرآن عن التواضع باستخدام ألفاظٍ قريبة، مثل: الذل، واللين.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١١٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ العجب:

العجب لغةً:

العجب بالضم: الزّهو والكبر، ورجلٌ معجبٌ: مزهوٌّ بما يكون منه حسنًا أو قبيحًا[١].

العجب اصطلاحًا:

مسرة بحصول أمر، يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله، بقول أو ما في حكمه، من فعل، أو ترك، أو اعتقاد[٢].

الصلة بين التواضع والعجب:

أن العجب بالشيء شدة السرور به حتى لا يعادله شيء عند صاحبه، تقول هو معجب بفلانة إذا كان شديد السرور بها، وهو معجب بنفسه إذا كان مسرورًا بخصالها،ولهذا يقال: أعجبه، كما يقال: سر به، فليس العجب من الكبر في شيء[٣]، بل هو أحد أسبابه الداعية إليه[٤].

٢ الكبر:

الكبر لغة:

تدل على خلاف الصّغر، والكبر: معظم الأمر، والكبر: العظمة، وكذلك الكبرياء[٥]، والكبر والتّكبّر والاستكبار تتقارب،وأصل ذلك أن يستعمل في الأعيان ثم استعير للمعاني.

الكبر اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «الكبر: الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره.»[٦].

الصلة بين التواضع والكبر:

التواضع ضد الكبر، فالأول محمود، والثاني مذموم.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٤٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٢، تاج العروس، الزبيدي، ٣/ ٣١٨.
(٢) البحر الزخار، ابن المرتضى الصعدي ٦/ ٤٩٠.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٣٥٢.
(٤) انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٢/ ٤٥٦.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٣-١٥٤.
(٦) المفردات، ص٥٤٥.

درجات التواضع

التواضع خلقٌ حميد، وجوهر لطيف، يستهوي القلوب، ويستثير الإعجاب والتقدير، وهو من أخصّ خصال المؤمنين المتقين، ومن كريم سجايا العاملين الصادقين، ومن شيم الصالحين المخبتين.

والتواضع هدوء وسكينة ووقار واتزان، والتواضع ابتسامة ثغر، وبشاشة وجه، ولطافة خلق، وحسن معاملة، بتمامه وصفائه يتميّز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب.

وهو على ثلاث درجات: تواضع للدين، وتواضع للحق، وتواضع للخلق.

أولًا: التواضع للدين:

من أعظم درجات التواضع الانقياد لما جاء به الرسول، والاستسلام له والإذعان، وهذا هو معنى ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: ويخضعوا لأمرك في القضاء خضوعًا، وقال الزجاج: تسليمًا مصدر مؤكد، فإذا قلت ضربه ضربًا فكأنك قلت: لا شك فيه، كذلك ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: ويسلّمون لحكمك تسليمًا، لا يدخلون على أنفسهم شكًّا[1].

ونلحظ أنه جمع بين الجملتين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وكأن الأولى- المراد بها الانقياد في الباطن، والثانية- المراد منها: الانقياد في الظاهر[2].

نفى الله عنهم الإيمان أو كماله، إذا تحاكموا إلى غير الرسول، أو لم يرضوا بحكمه، والحرج هو الشك.

وليس المراد الحرج الذي يجده المحكوم عليه من كراهية ما يلزم به إذا لم يخامره شك في عدل الرسول، وفي إصابته وجه الحق، وقد بيّن الله تعالى في سورة النور كيف يكون الإعراض عن حكم الرسول كفرًا، سواء كان من منافق أم من مؤمن، إذ قال في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

ثم قال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا﴾ [النور: ٥١].

لأن حكم الرسول بما شرع الله من الأحكام لا يحتمل الحيف؛ إذ لا يشرع الله

(١) تفسير السمرقندي ١/ ٣١٥.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٢٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٩.

إلا الحق، ولا يخالف الرسول في حكمه شرع الله تعالى ؛ ولهذا كانت هذه الآية خاصة بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم، فأما الإعراض عن حكم غير الرسول فليس بكفر إذا جوّز المعرض على الحاكم عدم إصابته حكم الله تعالى، أو عدم العدل في الحكم[1].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والخيرة: الاختيار، أي: يريد غير ما أراد الله، ويمتنع مما أمر الله ورسوله.

ولفظ (ما كان) و(ما ينبغي) ونحوهما معناهما المنع، والحظر من الشيء، والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعًا، وقد يكون لما يمتنع عقلًا، كقوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾[النمل: ٦٠][2].

وإنما الواجب عليهم أن يخضعوا لما جاء من عند الله ورسوله، ويقبلوه ويتواضعوا له، ويتركوا التكبر عنه، فليس لهم الخيرة في قبوله أو عدم قبوله، وليس لهم الخيرة أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعًا لرأيه صلى الله عليه وسلم، واختيارهم تلو اختياره.

فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئًا بعد أمره صلى الله عليه وسلم، بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا خفي أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتّباع لا واجب الاتّباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصيًا لله ورسوله[3].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. أي: في الإسلام.

قال مجاهد: في أحكام أهل الإسلام وأعمالهم، ﴿كَافَّةً﴾ أي: جميعًا.

وقيل: ادخلوا في الإسلام إلى منتهى شرائعه كافين عن المجاوزة إلى غيره، وأصل السلم من الاستسلام والانقياد[4].

وقد ذكر الهروي هذه الدرجة من درجات التواضع، وهي التواضع للدين، وأنها تكون بثلاثة أشياء:

الأول: أن لا يعارض شيئًا مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة: بالمعقول والقياس والذوق والسياسة.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١١١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٢٥.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٢١٣.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٦٧.

الثاني: أن لا يتهم دليلًا من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة أو ناقص الدلالة أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه، ومتى عرض له شيء من ذلك فليتّهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبلية فيه.

الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلًا ألبتة لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله، بل إذا أحسّ بشيء من الخلاف فهو كخلاف المقدم على الزنا وشرب الخمر وقتل النفس، بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك، وهو داعٍ إلى النفاق، وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم[1].

وفي كلام الهروي -السابق- شرحٌ وافٍ لدرجة عظيمة من درجات التواضع، بل هي أعظم درجات التواضع وأعلاها، وهي التواضع للدين، بمعنى الاستسلام له، والانقياد لما جاء في الشرع دون معارضة، وألا يحكّم العقل في النقل، فمن يحكّم العقل في النقل فهو متكبّر، فالعقل لا يكون حاكمًا في النقل، وإنما العقل له ثلاث وظائف، هي: أن يتحقق من صحة النقل، وأن يفهم مضمون النقل، وأن يتفكر في خلق السماوات والأرض؛ لكي يعرف الله عز وجل، أما غير هذه الأمور فلا يمكن أن يدركها العقل الضعيف المحدود العلم.

فمن التواضع للدين ألا تعارض المنقول بالمعقول، وألا تتهم للدين دليلًا، والكبر أن تأبى حكمًا شرعيًا، أو آيةً أو حديثًا، أو أن تأخذ من الدين ما تحب وتدع ما لا تحب، فكل هذا كبرٌ وبطرٌ للحق، وردٌّ له.

ومن التواضع للدّين ألا تعارضه برأيٍ أو هوى، ولا تعرض عن تعلّمه والعمل به، وإذا أسدي إليك نصحًا فاقبله واشكر قائله، ومن أمرك بمعروفٍ أو نهاك عن منكرٍ فامتثل لرشده، فالحظوة في التواضع للطاعة، قال رجل لمالك بن مغول: «اتّق الله» فوضع خدّه على الأرض؛ تواضعًا لله[2].

وروي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: اتق الله، فوضع خده على الأرض تواضعًا لله[3].

ينسى بعض الناس هذا كله فيتعاظمون في أنفسهم، ويأخذهم العجب بأجسادهم وألوانهم، وامتداد قاماتهم، وجمال ثيابهم، فإذا هم يمشون في الأرض مشية الخيلاء المتكبرين، وينظرون إلى الناس نظرة احتقار وازدراء، ويظن أحدهم أنه خير الناس وهو أرذلهم.

وقد قسم ابن القيم التواضع بقوله: «والتواضع المحمود على نوعين:

النوع الأول: تواضع العبد عند أمر الله امتثالًا، وعند نهيه اجتنابًا، فإن النفس لطلب

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣١٨-٣١٩.

(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ٥٧٥.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٦٤، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٠٨.

الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشراد هربًا من العبودية، وتثبّت عند نهيه طلبًا للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

والنوع الثاني: تواضعه لعظمة الرب وجلاله، وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك، وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأن لهيبته، وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع، وهو يستلزم الأول من غير عكس، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين، والله المستعان»[1].

والمقصود أن التواضع يكون للشرع بالخضوع التام لأوامر الله، والاستسلام له، فلا يعارض بمعقول ولا رأي ولا هوى، والانقياد التام لما جاء به خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم، وأن يعبد الله وفق ما أمر، وأن لا يكون الباعث على ذلك داعي العادة.

ثانيًا: التواضع للحق:

ومن درجات التواضع وأنواعه: التواضع للحق، والعمل به، وقبوله، والفرح به، وقد أخبر الله عن قوم من أهل الكتاب أنهم قبلوا الحق لما جاءهم، وفرحوا به، وتواضعوا له، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وهذا وصف برقة القلوب، والتأثر بسماع القرآن، والظاهر أن الضمير يعود على قسيسين ورهبانًا فيكون عامًا، ويكون قد أخبر عنهم بما يقع من بعضهم، كما جرى للنجاشي، حيث تلا عليه جعفر سورة مريم إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤].

وسورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩].

فبكى، وكذلك قومه الذين وفدوا على الرسول، حين قرأ عليهم يس فبكوا.

قال ابن عطية: «الضمير في ﴿سَمِعُوا﴾ ظاهره العموم، ومعناه الخصوص فيمن آمن من هؤلاء القادمين من أرض الحبشة، إذ هم عرفوا الحق وقالوا: آمنا، وليس كل النصارى يفعل ذلك، وصدر الآية في قرب المودة عامٌّ فيها، ولا يتوجه أن يكون صدر الآية خاصًّا فيمن آمن؛ لأن من آمن فهو من الذين آمنوا، وليس يقال فيه: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾، ولا يقال في مؤمنين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ ولا يقال: إنهم أقرب مودة، بل من آمن فهو أهل مودة محضة... فالقوم الذين وصفوا بأنهم عرفوا الحق هم الذين بعثهم النجاشي ليروا النبي صلى الله عليه

(١) الروح ص ٢٣٣.

وسلم ويسمعوا ما عنده، فلما رأوه قرأ عليهم القرآن، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ فاضت أعينهم بالدمع من خشية الله، ورقت القلوب»[1].

وقال ابن كثير في قوله تعالى قبل الآية السابقة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]: «تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. أي: مع من يشهد بصحة هذا، ويؤمن به»[2].

قال الألوسي: «وفي الآية: دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات؛ محمودة أينما كان»[3].

وفي قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إشارة إلى أنهم يقبلون الحق إذا فهموه، ويتواضعون ولا يتكبرون كاليهود.

وأخبر الله تعالى عنهم بعد ذلك أنهم قالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤].

فكأنهم ليموا على إيمانهم ومسارعتهم فيه، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأي مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجبًا للمسارعة والانقياد للإيمان، وعدم التخلف عنه.

قال الله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٨٥].

أي: بما تفوهوا به من الإيمان، ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥].

قال السعدي: «وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم، وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام»[4].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٢٢٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٦٨.
(٣) روح المعاني، ٤/ ٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٢.

وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم الكبر بأنه بطر الحق، وغمط الناس[1]، يعني: وضده التواضع للحق، وهو قبوله حيث كان، ومع من كان.

وبطر الحق: جحده ودفعه ورده، والتعالي والتعاظم عن القيام به، والأنفة من اتّباعه، وتضييع الحق في أوامر الله ونواهيه، والمعنى: أن المتكبر يرفض الحق، ويأبى أن يدخل فيه، وأن يتبعه؛ ومن بطر الحق أيضًا الحيرة فيه، بمعنى: أن يتحير عند سماع الحق فلا يقبله، ولا يجعله حقًا، ومن بطر الحق أيضًا التكبر، يعني: أنه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله.

وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم واستصغارهم. وهذا مما نهى الله عنه، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند الله، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾[الحجرات: ١١].

فنص على نهي الرجال، وعطف بنهي النساء[2].

والحاصل: أن اتباع الحق والانقياد له لهو من أهم علامات التواضع في العبد، بل لا يصح له خلق التواضع حتى يقبل الحق ممن يحب، وممن يبغض، فيقبله من عدوه كما يقبله من وليه.

ثالثًا: التواضع مع الخلق:

ومن درجات التواضع: التواضع مع الخلق، وهو: خفض جناح الذل والرحمة للخلق، حتى لا يرى له على أحد فضلًا، ولا يرى له عند أحد حقًا.

قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن كثير: «هذه صفات المؤمنين الكُمَّل: أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾[الفتح: ٢٩]»[3].

فقوله: ﴿أَذِلَّةٍ﴾ يعني: أرقاء عليهم، رحماء بهم، من قول القائل: ذل فلان لفلان: إذا خضع له واستكان[4].

قال السمعاني: «﴿أَذِلَّةٍ﴾ ليس من الذل وإنّما هو من الذلة، وهي: اللين»[5].

وقال البغوي: «ولم يرد به الهوان، بل أراد به أن جانبهم ليّن على المؤمنين، وقيل: هو من الذل، من قولهم: دابة ذلول، يعني أنهم متواضعون، كما قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ١٤٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٧٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٣٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٢٧.
(٥) تفسير القرآن، ٢/ ٤٧.

﴿هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]»[١].

﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ عدي ﴿أَذِلَّةٍ﴾ بـ﴿عَلَى﴾ وإن كان الأصل باللام؛ لأنه ضمّنه معنى: الحنو والعطف، كأنه قال: عاطفين على المؤمنين على وجه التذلل والتواضع، أو لأنه على حذف مضاف، والتقدير: على فضلهم على المؤمنين، والمعنى: أنهم يذلون ويخضعون لمن فضلوا عليه مع شرفهم وعلو مكانهم[٢].

وآثر الأسلوب الحكيم ﴿أَذِلَّةٍ﴾ على أحنّة وأحدبة لإغراء المؤمنين بالاتصاف بها دون سواها؛ لما فيها من نسيان الذات، وغياب الأنا، مع اللين واليسر والسماحة والود، إنها أخوة ترفع الحواجز، وتزيل الكلف، وتصفّي النفوس، ذلة ليس فيها مهانة، ذلة ليس معها حساسية بالذات تجعله عصيًّا على أخيه[٣].

وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين، فالمؤمن ذلول للمؤمن، غير عصي عليه ولا صعب، هيّنٌ ليّنٌ، ميسّر مستجيب، سمحٌ ودود، وهذه هي الذلة للمؤمنين، وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة، إنما هي الأخوة، ترفع الحواجز، وتزيل التكلف، وتخلط النفس بالنفس، فلا يبقى فيها ما يستعصي، وما يحتجز دون الآخرين.

يقول سيد رحمه الله: «إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هي التي تجعله شموسًا عصيًّا شحيحًا على أخيه، فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه فلن يجد فيها ما يمنعه، وما يستعصي به، وماذا يبقى له في نفسه دونهم، وقد اجتمعوا في الله إخوانًا يحبهم ويحبونه، ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمونه؟! ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فيهم على الكافرين إباء واستعلاء؛ ولهذه الخصائص هنا موضع، إنها ليست العزة للذات، ولا الاستعلاء للنفس، إنما هي العزة للعقيدة، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين، إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين! ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى، وبغلبة قوة الله على تلك القوى، وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية، فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك، في أثناء الطريق الطويل»[٤].

ولما قيل: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ربما توهم أنّ مفهوم القيد غير معتبر، وأنهم موصوفون

(١) معالم التنزيل، ٣/ ٧٢.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٩٨.
(٣) التضمين النحوي في القرآن الكريم، محمد فاضل ١/ ٣٤٤.
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٩١٩.

بالذل دائمًا، وعند كل أحد، فدفع بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

ففي قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ تكميل؛ لأنه لما وصفهم بالتذلل ربما توهم أن لهم في نفسهم حقارة، فقال: ومع ذلك هم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

واستدل بالآية على فضل التواضع للمؤمنين، والشدة على الكفار[2].

وهذا الوصف هو وصف لهؤلاء القوم بعد أن دخلوا في الإسلام، فكانت تلك صفتهم، وهذا سلوكهم، فهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: متخاضعين للمؤمنين، لا يلقونهم إلا باللّين والتواضع ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: أشدّاء وأقوياء، لا يلقى منهم أهل الكفر إلا بلاء في القتال، واستبسالًا في الحرب...، أما في السّلم فهم جبال راسخة في الإيمان، لا ينال أحد منهم نيلًا في دينه، ولا يطمع أحد من أعداء الإسلام في موالاتهم، أو في تعاطفهم معه[3].

والأذلة والأعزة وصفان متقابلان وصف بهما القوم باختلاف المتعلق بهما...، ويطلق الذل على لين الجانب والتواضع، وهو مجاز...، فالمراد هنا الذل بمعنى لين الجانب، وتوطئة الكنف، وهو شدة الرحمة، والسعي للنفع؛ ولذلك علق به قوله: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، والأعزة: جمع العزيز، فهو المتصف بالعز، وهو القوة والاستقلال، ولأجل ما في طباع العرب من القوة صار العز في كلامهم يدل على معنى الاعتداء، ففي المثل (من عزّ بزّ) وقد أصبح الوصفان متقابلين؛ فلذلك قال السموأل[4]:

وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل

وإثبات الوصفين المتقابلين للقوم صناعة عربية بديعية، وهي المسماة: الطباق، وبلغاء العرب يغربون بها، وهي عزيزة في كلامهم، وقد جاء كثير منها في القرآن، وفيه إيماء إلى أن صفاتهم تسيرها آراؤهم الحصيفة، فليسوا مندفعين إلى فعلٍ ما إلا عن بصيرة، وليسوا ممن تنبعث أخلاقه عن سجية واحدة، بأن يكون لينًا في كل حال، وهذا هو معنى الخلق الأقوم، وهو الذي يكون في كل حال بما يلائم ذلك الحال، كما قال[5]:

(١) حاشيه الشهاب على أنوار التنزيل، ٨/ ٦٨.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١٧٢.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٣/ ١١٢٠.
(٤) انظر: البيان والتبيين، الجاحظ، ٣/ ١٢٨، العقد الفريد، ابن عبدربه ١/ ٢٠٨.
(٥) البيت لكعب بن سعد الغنوي، يرثي أخاه. انظر: جمهرة أشعار العرب، القرشي ص ٥٦٠، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٢٨.

حليم إذا ما الحلم زين أهله
مع الحلم في عين العدو مهيب[1]

فالقرآن عندما يعبّر عن الإنسان السويّ فهو لا يضع المؤمن في قالب حديدي، بحيث لا يستطيع أن يتغير، فيقول سبحانه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

إذن فليس المؤمن مطبوعًا على الذلة، ولا مطبوعًا على العزة، لكنه ينفعل للمواقف المختلفة، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعًا للمؤمنين، فيكون المؤمن ذليلًا، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المتكبرين، فيكون المؤمن عزيزًا[2].

وكيف يكون الإنسان المؤمن ذليلًا وعزيزًا في آن واحد؟ لأن الحق لا يريد أن يطبع الناس على لون واحد من الانفعال، ولكنه يريد أن ينفعلوا تبعًا للموقف، فعندما يحتاج الموقف إلى أن يكون المؤمن عطوفًا فالمؤمن يواجه الموقف بالعاطفة، وعندما يحتاج الموقف إلى الشدة فالمؤمن يواجه الموقف بالشدة، وإن احتاج الموقف إلى الكرم فالمؤمن يقابل الموقف بالكرم، فالمسلم إذن ينفعل انفعالًا مناسبًا لكل موقف، وليس مطبوعًا على انفعال واحد، ولو انطبع المؤمن على موقف ذلة دائمة فقد يأتي لمواجهة موقف يتطلب العزة فلا يجدها، ولو طبع المؤمن على عزة دائمة فقد يأتي لمواجهة موقف يتطلب الذلة فلا يجدها؛ لذلك جعل الحق قلب المؤمن لينًا قادرًا على المواجهة كل موقف بما يناسبه[3].

فالشدة في محلّ اللين هي من الحمق والخرق، واللين في محلّ الشدة هو من الضعف والخور، والسداد والحكمة أن تكون الشدة في محلّ الشدة، واللين في محلّ اللين[4].

قال أبو السعود: أي: يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة، قال المفسرون: وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمسّ أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه.

وقد قال عطاء في هذا: إنهم للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته[5].

ومما يدل على التواضع للخلق قوله عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٣٧-٢٣٨.
(٢) تفسير الشعراوي ٣/ ١٧١٦.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٣٢١٣.
(٤) العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ١٥٢.
(٥) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢١١.

٨٨].

والخفض: معناه في اللغة: نقيض الرفع، ومنه قوله تعالى في وصف القيامة ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣].

أي: أنّها تخفض أهل المعاصي، وترفع أهل الطّاعة، وجناح الإنسان: يده.

قال الليث: يد الإنسان جناحه، قال تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾[القصص: ٣٢].

وخفض الجناح كناية عن اللّين والرّفق والتّواضع، والمقصود: أنه نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار، وأمره بالتّواضع لفقراء المؤمنين، ونظيره: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩][1].

وإذا أردت أن تعرف نفسك هل أنت متواضع أو لا؟ فانظر لنفسك حين تخاطب الفقير والمسكين، صاحب الحاجة، فحين تخاطبه متذكرًا فضل الله عز وجل، وتحنّ عليه، وترحمه، فهذا هو التواضع.

فيظهر تواضعك مع من هو دونك من الخلق، وليس مع من هو أعلى منك؛ لأن الذي هو أعلى منك إما أن تتواضع له اختيارًا، وإما أن يجبرك على ذلك؛ لأنك لا تقدر أن تترفع عليه، ولن يقبل منك.

فالتواضع الحقيقي يكون لمن هو أقل منك، وتحمد ربك سبحانه على ما أعطاك من فضله.

وإذا تعارض التواضع للحق مع التواضع للخلق فأيهما يقدّم؟

يقدّم التواضع للحق، فمثلًا: لو كان هناك إنسان يسب الحق، ويفرح بمعاداة من يعمل به، فهنا لا تتواضع له، تواضع للحق، وجادل هذا الرجل حتى وإن أهانك، أو تكلم فيك، فلا تهتم به، فلابد من نصرة الحق[2].

قال ابن تيمية: «نهى الله على لسان نبيه عن نوعي الاستطالة للخلق الفخر والبغي؛ لأن الاستطالة إن بحق فافتخار، وإن بغيره فبغي، فلا يحل هذا ولا ذاك، مثل أن يذكر فضل بني هاشم أو قريش أو العرب أو بعضهم، فلا يكن حظه استشعار فضل نفسه، والنظر إلى ذلك، فإنه مخطيء في هذا؛ لأن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص كما قدمناه، فرب حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش»[3].

ويتأكد للشيخ التواضع مع طلبته...، وإذا طلب التواضع لمطلق الناس، فكيف لمن له حق الصحبة، وحرمة التودد وصدق المحبة؟! لكن لا يتواضع معهم مع اعتقاد أنهم دونه، وممن يتأكد التواضع لهم: الضعفة والمساكين.

قال الإمام النووي: «وليكن شريف

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٤٨٩.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ٢٦/ ٢١٨.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٥٣.

النّفس عفيفًا، متواضعًا للصّالحين، وضعفة المسلمين»[1].

والمقصود: أن الله يحب من عباده أن يتواضعوا، ولا يعلو أحد على أحد، متكئًا على نسب، أو مال، أو جاه، أو حسب.

والكتاب والسنة حافلان بما يحث على التواضع للخلق، وخفض الجناح لهم، وما سبق ذكره غيض من فيض، وقليل من كثير مما ورد في ذلك.

مع ملاحظة أن التواضع للخلق لا يعني الذلة للأغنياء من أجل غناهم وأموالهم؛ لأن العلماء قد قسّموا التواضع إلى نوعين هما: محمود، وهو: ترك التطاول على عباد الله، والإزراء بهم، ومذموم، وهو: تواضع المرء لذي الدنيا رغبة في دنياه، فالعاقل يلزم مفارقة التواضع المذموم على الأحوال كلها، ولا يفارق التواضع المحمود على الجهات كلها.

مظاهر التواضع

التواضع وإن كان خلقًا من الأخلاق وعلاقته بالقلب، إلا أن له مظاهر ودلالات ظاهرية تدل عليه في المأكل والملبس وغيرها، ومن هذه المظاهر:

١ . قبول الحق والانقياد له.

من مظاهر التواضع قبول الحق ممن جاء به كائنًا من كان، وإن خالف الرأي والهوى، وقد جاء في تعريف التواضع أنه: قبول الحق[2].

وقال ابن عطاء: «التواضع: قبول الحق ممن كان»[3].

وقد امتدح الله المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

والمعنى: أن من صفات المؤمنين الصادقين أنهم إذا ما دعوا إلى حكم شريعة الله تعالى التي أوحاها إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقولوا عندما يدعون لذلك: سمعنا وأطعنا بدون تردد أو تباطؤ، وذلك لكمال إيمانهم، ومعرفتهم للحق، وتواضعهم له، وعدم تكبرهم عنه، ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿هُمُ

(١) المجموع شرح المهذب، النووي ٢/ ١٦٩.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي ص ٩٧.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣١٤.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فلاحًا تامًّا في الدنيا والآخرة.

وهذه هي الصورة المشرقة لإيمان المؤمنين، وما فى قلوبهم من صدق ويقين، إنهم إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم أجابوا بالسّمع والطاعة، ورضوا بما يقضي به الله ورسوله فيهم، سواء أكان ذلك لهم أم عليهم، هكذا الإيمان، وهكذا شأن المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

إنه السمع والطاعة لما يأمر به الله ورسوله دون تردد أو ارتياب؛ إذ لا إيمان مع تردد فى أمر من أمر الله، أو شك فى حكم من أحكامه[(١)].

إذ لابد من الانقياد للحق في جميع الأمور، ظاهرًا وباطنًا، والتسليم له كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، والسمع والطاعة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، يقول سيد رحمه الله: «فهو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف، السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم، وما عداه الهوى، النابعان من التسليم المطلق لله، واهب الحياة، المتصرف فيها كيف يشاء، ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير مما يشاءونه لأنفسهم، فالله الذي خلق أعلم بمن خلق»[(٢)].

وقال في المقابل عن المنافقين المتكبرين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

أي: تعالوا إلى ما أنزل الله فى القرآن لنعمل به ونحكّمه فيما بيننا، وإلى الرسول ليحكم بيننا بما أراه الله، رأيتهم يعرضون عنك ويرغبون عن حكمك إعراضًا متعمدًا منهم بسبب ما فيهم من الضلال والكبر عن اتباع الحق.

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج: ٥٤].

والإخبات: هو الخشوع والتواضع والانقياد.

أي: ولكى يعلم أهل العلم بالله أن الذي أنزله الله من آياته التي أحكمها ونسخ ما ألقى الشيطان أنه الحق من ربهم، فيصدّقوا به، وتخضع له قلوبهم، وتذعن للإقرار به نفوسهم، وتعمل بما فيه من عبادات وآداب وأحكام وهى مثلجة الصدر هادئة مطمئنة ببرد اليقين، والسير على نهج سيد

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٣١٠.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٧.

المرسلين[1].

وكما هو معلوم أن من الأسباب المانعة من قبول الحق هو الكبر وعدم التواضع والخضوع للحق.

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فمن تكبّر لرياسة نالها دل على دناءة عنصره، ومن تفكر فى تركيب ذاته فعرف مبدأه ومنتهاه وأوسطه عرف نقصه، ورفض كبره، ومن كان تكبّره لغنية فليعلم أن ذلك ظل زائل، وعارية مستردة، وإنما قال: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى أن التكبر ربما يكون محمودًا، وهو التكبر والتبختر بين الصفين[2].

ولهذا كان أكثر من يتكبر عن الحق هم المترفون المتكبرون، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ومترفوها هم: أهل الرفاهية والمال في الغالب؛ لأنهم أهل الشر وعدم قبول الحق، خلاف الضعفاء والفقراء فإن الغالب عليهم التواضع وقبول الحق، فأهل الترف هم أصحاب الجاه وأصحاب المال ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي: أصحاب المال والجاه فيهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على ملة ودين، وإنّا متبعون لهم على دينهم، يعني: لسنا بحاجة إليكم أيها الرسل، يزعمون أن هذا يغنيهم عن اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهذا هو التقليد الأعمى، وهو من أمور الجاهلية.

واحتقار المكذّبين للرسل عليهم السلام وأتباعهم، واعتقاد نقصهم، والتهكم بهم، والتكبر عليهم من الموانع الصادة عن وصول الإيمان إلى القلب، واتباع الحق، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وهذا الداء منشؤه من الكبر؛ فإذا تكبّر وتعاظم في نفسه، واحتقر غيره اشمأز من قبول ما جاء به من الحق، وقد سبق في الحديث أن الكبر (بطر الحق)[3] وهو ردّه، وعدم قبوله كبرًا، إذا خالف هواه، أو جاءه ممن هو دونه.

ومن هنا قال بعض السلف: التواضع أن تقبل الحق من كل من جاء به، وإن كان صغيرًا، فمن قبل الحق ممن جاء به، سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا، وسواء أكان يحبه أم لا يحبه فهو متواضع، ومن أبى قبول الحق تعاظمًا عليه فهو متكبر[4].

(١) تفسير المراغي ١٧/ ١٣١.
(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٤٠٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ١٤٧.
(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/ ٣٠٧.

فالمتواضع يقبل الحق ممن جاء به كائنًا من كان، ولو كان عدوًّا مخالفًا في الدين؛ لأنه يحب الحق، وينشده، ويخضع له.

قال صاحب المنازل: «التواضع: أن يتواضع العبد لصولة الحق».

قال ابن القيم: «يعني: أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل والانقياد، والدخول تحت رقه، بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف المالك في مملوكه، فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع»[1].

والحاصل: أن من علامات التواضع قبول الحق، والانقياد له، وإن خالف الرأي والهوى.

وقد ذم الله قومًا بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وهؤلاء أقوام استولى عليهم التكبّر، وزال عنهم خضوع الإنصاف، فشمخت آنافهم عن قبول الحق، فإذا أمرته بمعروف قال: ألمثلي يقال هذا؟! وأنا كذا وكذا! ثم يتكبر عليك، فيقول: وأنت أولى بأن تؤمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فإن من حالك وقصتك كذا وكذا، ولو ساعده التوفيق، وأدركته الرحمة، وتقلّد المنة بمن هداه إلى رؤية خطئه، ونبّهه على سوء وصفه، لم يطوِ على النصيحة جنبيه[2].

٢. اللين مع الخلق.

ومن مظاهر التواضع: اللين مع الخلق، والرفق بهم، والشفقة عليهم، والتواضع لهم، وترك الترفع عليهم، وخفض الجناح لهم، والرأفة والرحمة بهم، وبخاصة العوام والجهلة، ففي اللين والرحمة والشفقة بهم اقتضاءً للحكمة، وتحقيقًا للعدل والإنصاف والتواضع، ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون ليّن الجانب، متواضعًا لإخوانه المؤمنين، متسربلًا بالعزّة حيال الكافرين والمنافقين.

وقد مدح الله نبيّه يحيى بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ [مريم: ١٤].

أي: لم يكن متكبرًا على الناس، بل كان ليّن الجانب متواضعًا لهم[3].

وأمر الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا في قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

ووصفه بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا الكلام لسيد البشر عليه الصلاة والسلام، فلا شك أن من هو دونه أولى بهذا.

وممن أمر الله بخفض الجناح لهم:

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣١٧.

(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٧١.

(٣) انظر: تفسير المراغي ١٦/ ٣٩، الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٤٦٦.

الوالدان، فهما أولى الناس بذلك، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤].

وخفض الجناح: كناية عن لين الجانب، ولطف المعاشرة، ورقّة الحديث.

والإنسان فيه جانبان من كل شيء: جانب الخير وجانب الشر، جانب القوة وجانب الضعف، جانب الشدة وجانب اللين، وهكذا، وبين جانبي الإنسان إرادة هي التي تنزع به إلى أي الجانبين، فهو في هذا أشبه بالطائر حين يريد الاتجاه إلى أية جهة يخفض جناحه لها، على حين يفرد الجناح الآخر، فكأنّ الإنسان حين دعي إلى أن يلين لأبويه، وأن يرّق لهما، قد مثّل بطائر أراد أن يأخذ هذا الجانب من جانبيه، وهو جانب الرحمة والعطف، فخفض جناحه ومال إليه[1].

وقد كان صلى الله عليه وسلم دائم البشر، سهل الخلق، لطيف المعاملة، ليّن الجانب، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح، يتغافل عما لا يشتهيه، ولا يؤيّس منه، ولا يجيب فيه، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه قاصده، ولا يذم أحدًا، ولا يعيّره، ولا يطلب عورته، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق سواء، فأحبوه حبًّا ملك مشاعرهم، فما حكاه التاريخ الصادق عنهم، من أنه ما كان أحد يحب أحدًا مثل ما كان يحب أصحاب محمد محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وكان صلى الله عليه وسلم يؤلّف أصحابه ولا ينفّرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، ينصرف إلى من جالسه أو قاربه لحاجة حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردّه، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا.

وقد مدحه الله بقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وهذه الآية تبين ما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام من الأخلاق العظيمة تجاه أمة دعوته، من كونه يعزّ عليه مشقتهم وهلاكهم، وضررهم وأذاهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب، ويحرص على هداهم، ويرأف بهم ويرحمهم.

وأخبره سبحانه فقال: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٨/ ٤٧٣.

أي: والحال أنهم مجتمعون حوله صلى الله عليه وسلم بفضل الله وبرحمته، فهو الذي جعل في قلبه الشفقة والحنان والرحمة على المؤمنين؛ ليقتدي به المؤمنون، فكل إنسان مؤمن قدوته النبي صلى الله عليه وسلم، فهو مهما أنفق على الناس من مال فلن يجمع قلوبهم، وقد يجمع أبدانهم، لكن القلوب يجمعها الله سبحانه وتعالى بما يجعله في خلق الإنسان من تواضع، ومن لين جانب، ومن حب للغير، فمن يحب الخلق يحبه الخلق، أما من يكره الناس تكرهه الناس؛ ولذلك كان الرجل الجاهلي يقول[1]:

لا أسأل الناس عما في ضمائرهم
ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

أي: لا أسأل أحدًا هل تحبني، أو لا تحبني؟ ولكن أبحث في قلبي إذا كنت أحب إنسانًا، فإن الله عز وجل يجعل في قلب هذا الإنسان المحبة لي، أما إذا كنت أكرهه فكيف أرجو المحبة منه؟! فعلى ذلك لا تطلب محبة من تكرهه.

فجعل الله عز وجل في قلب النبي صلى الله عليه وسلم المحبة للمؤمنين، فكان يدعو لهم، ويشفق عليهم، ويرحمهم، ويرأف بهم، فيحبونه، ويجتمعون حوله صلوات الله وسلامه عليه. وهكذا ينبغي أن يكون حال المسلم في معاملته مع الناس، وتواضعه معهم.

والمقصود: أن من علامات التواضع أن يكون المسلم لين الجانب للخلق على اختلاف طبقاتهم وطبائعهم، مع الأقارب والأجانب، وأن يكون حسن الصحبة، ذا رفق مع الشريف والضعيف، مع تواضعه للحق والدين؛ لأنه ربما يكون صاحب النار ليّن الجانب للناس، حسن الأخلاق، لكنه جبار بالنسبة للحق، مستكبر عن الحق، فلا ينفعه لينه وعطفه على الناس، بل هو موصوف بالجبروت والكبرياء ولو كان لين الجانب للناس؛ لأنه تجبر واستكبر عن الحق.

فيجب على الإنسان المسلم أن يكون ليّن الجانب لإخوانه، وبخاصة من اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم، فليخفض له جناحه أكثر؛ لأن المتبع للرسول عليه الصلاة والسلام أهل لأن يتواضع له، وأن يكرم، وأن يعزز، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال الله تعالى لرسوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

(١) البيت لذي الإصبع العدواني.
انظر: العقد الفريد، ابن عبدربه ٢/ ١٧٧.

فاصبر نفسك: احبسها مع هؤلاء القوم السادة الكرماء الشرفاء، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي: يعني صباحًا ومساءً، لا رياء ولا سمعة، ولكنهم يريدون وجه الله عز وجل في دعائهم له، وعبادتهم وذكرهم وتسبيحهم له.

وتواضع المؤمن ولينه يجب أن يكون لينًا ليس معه ضعف، فيكون لين الجانب، سهل الأخلاق، مسفر الوجه، طليقه، يتواضع مع الصغير والكبير، ولكن بحيث لا يطمع فيه أهل الظلم، فيغتنم دينه ويخدعه، ويصرفه عن طريق الحق، لابد أن يكون ليّنًا، ولكن لا يكون مع اللين ضعف شديد، وأن يكون حليمًا فلا يعجل، وإذا تكلم عليه أحد لم يغضب، ولم يشتد في كلامه، بل يغلبه الحلم.

وليعلم المسلم: أن لين الجانب المعروف بالتواضع على ثلاثة أقسام:

١. واجب: كالتواضع لله ولرسوله وللحاكم والعالم والوالد.
٢. حرام: كالتواضع لأهل النار والظلم والكبر؛ لأن التواضع لهؤلاء هو الذل الذي لا عز معه، والخسة التي لا رفعة معها.
٣. مندوب: كالتواضع لعباد الله سوى من ذكر.

ومفهوم المؤمنين أن الكفار لا يجوز موالاتهم بالمعنى المذكور؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم مبعوثًا بأعدل الأمور وأكملها، فهو نبي المرحمة، ونبي الملحمة، فكان صلى الله عليه وسلم في مظهر الكمال الجامع بين القوة والعدل والشدة في الله، وبين اللين والرأفة والرحمة، فشريعته أكمل الشرائع، وأمته أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات؛ ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجابًا له وفرضًا، وبالفضل ندبًا إليه واستحبابًا، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه.

بل أمته موصوفون بذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

٣. خفض الجناح للوالدين وللمؤمنين.

ومن مظاهر التواضع: التواضع للوالدين بطاعتهما بما لا يخالف الشرع، وبالإحسان إليهما وإكرامهما، وبالتواضع لهما، والشفقة

عليهما، والتلطف بهما، بأن يقول لهما قولًا حسنًا، وكلامًا طيبًا، مقرونًا بالاحترام والتعظيم، مما يقتضيه حسن الأدب، وغير ذلك مما يجب لهما، عملًا بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

والعبادة: هي التذلل للمعبود والتواضع له، وكذلك الإحسان إلى الوالدين يقتضي التواضع لهما؛ وذلك ينافي الاختيال والعجب والتفاخر؛ ولهذا قرن بينهما.

ثم زاد الأمر بالإحسان إلى الوالدين تأكيدًا، فصوّر ما ينبغي أن تكون عليه حال الولد من والديه دائمًا، وأخرج معنى الرحمة بهما، والإحسان إليهما، والتواضع لهما في مظهر شيء متخيل محسوس مبالغة في الإلزام به، والدعوة إليه، فقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

فصوّر الذلّ المأمور به بطائر خرّ هاويًا إلى الأرض، ثم صوّر مبالغة وضوح الذلّ والتواضع بنشر هذا الطائر -مع ذلك- جناحيه يخفضهما نحو الأرض، بيد أنه استدرك كي لا تحسب أنه ذلّ الحطّة والصغار، وهو ما ينهى عنه الإسلام، ولا يمكن أن يأمر به، فقال: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: بسبب وبعامل الرحمة بهما، وهو شرف لك، وليس بصغار عليك، ومع ذلك فلا تقتصر على أن تعاملهما برحمة من عندك، بل ادع الله لهما أيضًا على أن يشملهما برحمة من عنده ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أي: رحمة كرحمتهما بي إذ كنت صغيرًا، أو في مقابل رحمتهما بي إذ ذاك[1].

والمقصود أن قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ المقصود منه المبالغة في التواضع، أي: ابسط لهما جناح الذّلّ والمسكنة والتواضع، الناشئة من كمال الرّحمة والشفقة عليهما، وقد ورد: (الجنة تحت أقدام الأمهات)[2] معناه: أن التواضع للأمهات سبب دخول الجنة.

والأمر في ﴿وَٱخْفِضْ﴾ أمر للولد بالتواضع للوالدين تواضعًا يبلغ حد الذل لهما؛ لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد؛ لأن الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لولدهما، والقصد من ذلك التخلق بشكره على إنعامهما السابقة عليه.

قال ابن عاشور: «وصيغ التعبير عن

(١) من روائع القرآن، البوطي ص ٢٦٠.
(٢) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده، ١/ ١٠٢، رقم ١١٩، والدولابي في الكنى والأسماء، ٣/ ١٠٩١، رقم ١٩١١. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ٣٩٤، رقم ٢٦٦٦.

التواضع بتصويره في هيئة تذلل الطائر عند ما يعتريه خوف من طائر أشد منه؛ إذ يخفض جناحه متذللًا، ففي التركيب استعارة مكنية، والجناح تخييل بمنزلة تخييل الأظفار للمنية في قول أبي ذؤيب[1]:

وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

وهذه أحكام عامة في الوالدين وإن كانا مشركين، ولا يطاعان في معصية ولا كفر، كما في آية سورة العنكبوت، ومقتضى الآية التسوية بين الوالدين في البر وإرضاؤهما معًا في ذلك؛ لأن موردها لفعل يصدر من الولد نحو والديه؛ وذلك قابل للتسوية، ولم تتعرض لما عدا ذلك مما يختلف فيه الأبوان، ويتشاحان في طلب فعل الولد إذا لم يمكن الجمع بين رغبتيهما، بأن يأمره أحد الأبوين بضد ما يأمره به الآخر، ويظهر أن ذلك يجري على أحوال تعارض الأدلة، بأن يسعى إلى العمل بطلبيهما إن استطاع»[2].

وقال الله تعالى عن يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

أي: ولم يكن مستكبرًا عن طاعة ربه وطاعة والديه، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعًا متذللًا يأتمر لما أمر به، وينتهي عما نهي عنه، لا يعصي ربه، ولا والديه[3].

فجمع بين القيام بحق الله وحق خلقه؛ ولهذا حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها؛ فلذا قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

وذلك يقتضي سلامته من الشيطان والشر والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال ومن أهل دار السلام، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا من أتباعهم، إنه جواد كريم[4].

٤. بذل السلام.

ومن مظاهر التواضع: بذل السلام على كل أحد، فالمؤمن المتواضع يفشي السلام، ويبذله لكل أحد، صغيرًا أو كبيرًا، غنيًا أو فقيرًا، عرفه أو لم يعرفه، فإفشاء السلام من أجل القربات، وهو من صفات المؤمنين المتواضعين، ومن أسباب المحبة والألفة، والمحبة من أسباب دخول الجنة، فمن أراد دخول الجنة فعليه أن يفشي السلام، ويسلم على كل من لقي، وفي هذا إزالة للوحشة؛ فإنك إذا لقيت شخصًا ولم تسلّم عليه دخلت الجفوة والوحشة بينك وبينه.

وقد روي: «رأس التّواضع ثلاثةٌ: الابتداء

(١) انظر: جمهرة أشعار العرب، القرشي ص ٥٣٦، تهذيب اللغة، الأزهري ١١/ ٢٦٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٧٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٦٠.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩١.

بالتّسليم على كلّ أحدٍ، والرّضا بالمجلس عن شرف المجلس، وحبّ العبد المساجد، وترك الرّياء والسّمعة في شيءٍ من دينه»[1].

وقد أمر الله في القرآن بإلقاء السلام على أهل البيوت التي يدخلها المسلم، فالسلام هنا للاستئذان والاستئناس والتواضع والبركة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[النور: ٦١].

وجعل الله عز وجل السلام علمًا وشعارًا فيما بين المسلمين، وأمانًا يؤمّن بعضهم بعضًا من شره؛ ألا ترى أن أهل الريبة لا يسلّمون، ولا يردّون السلام، وإن كانوا لا يعرفون تفسيره ولا معناه؟! ولكن على الطبع جعل ذلك لهم[2].

وقوله: ﴿بُيُوتًا﴾ نكرة في سياق الشرط فتعمّ البيوت المسكونة وغير المسكونة، فأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه، فإذا دخل بيتًا لغيره استأذن، وإذا دخل بيتًا لنفسه سلّم.

قال السعدي: «﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: فليسلّم بعضكم على بعض؛ لأن المسلمين كأنهم شخص واحد من توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت من غير فرق بين بيت وبيت»[3].

وقوله: ﴿تَحِيَّةً﴾ أصل التحية: الدعاء بالحياة وطولها، ثم استعملت في كل دعاءٍ، وكانت العرب إذا لقي بعضهم بعضًا يقول: حياك الله، ثم استعملها الشرع في السلام، وهي تحية الإسلام، قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[يونس: ١٠].

وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النور: ٦١].

قالوا: في السلام مزيةٌ على التحية؛ لما أنه دعاءٌ بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية، وهي مستلزمةٌ لطول الحياة، وليس في الدعاء بطول الحياة ذلك؛ ولأن السلام من أسمائه تعالى، فالبداءة بذكره مما لا ريب في فضله ومزّيته، أي: إذا سلّم عليكم من جهة المؤمنين[4].

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: ثابتة بأمره تعالى، مشروعة من لدنه عز وجل، وكانت ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لأنه أمر بها؛ ولأنها يحفّها رضاه وبركته وطيبه، ولا شيء أبرك وأكرم

(١) ترتيب الأمالي الخميسية، الشجري ٢/ ٣٠١.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٢٨٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٥.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٧٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢١١.

مما جاء من عند الله، واختاره وأحبه وشرعه!

قال ابن عاشور: «ولكون كلمة (السلام) جامعة لهذا المعنى امتن الله على المسلمين بها بأن جعلها من عند الله؛ إذ هو الذي علّمها رسوله بالوحي»[(١)]. وقيل: ذكر القرآن السلام من عند الله تعالى على معنى كونه معاملة منه سبحانه بكرامة الثناء، وحسن الذكر للذين رضي الله عنهم من عباده في الدنيا[(٢)].

فلا يليق بالمسلم أن يدع هذه التحية إلى تحية الجاهلية، أو ما شابهها من ألفاظٍ مستحدثة، كقولهم: احتراماتي، تحياتي، صباح الخير، إلى غير ما هنالك من ألفاظ وعبارات ليس فيها ذلك المعنى اللطيف أو المغزى الدقيق الذي قصد إليه الإسلام، دين الإنسانية الخالد[(٣)].

و ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي: حسنة جميلة، ويقال: ذكر البركة والطيب ها هنا لما فيه من الثواب، ومن أهدى سلامًا إلى إنسان فهي هدية خفيفة المحمل، طيبة الريح، مباركة العاقبة[(٤)]. فوصف سبحانه هذه التحية بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن، وكلاهما يرجو بها من الله تعالى زيادة الخير، وطيب الرزق.

قال السعدي: «ثم مدح هذا السلام فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

أي: سلامكم بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ إذ تدخلون البيوت ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، ﴿طَيِّبَةً﴾؛ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة»[(٥)].

فالتعبير في قوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين في الآية، فالذي يسلّم منهم على قريبه أو صديقه يسلّم على نفسه، والتحية التي يلقيها عليه هي تحية من عند الله، تحمل ذلك الروح، وتفوح بذلك العطر، وتربط بينهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهكذا ترتبط قلوب المؤمنين بربهم في الصغيرة والكبيرة[(٦)].

ونظير الآية السابقة قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٣٠٤.
(٢) المصدر السابق ٢٠/ ٧.
(٣) روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني ٢/ ٢٣٤.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٥٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٥.
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٣٤.

﴿بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ أي: سلّم عليكم فإن التحية في ديننا بالسلام في الدارين ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ هي تفعلة من حيّا يحيّي تحية ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي: قولوا: وعليكم السلام ورحمة الله، إذا قال: السلام عليكم، وزيدوا: وبركاته، إذا قال: ورحمة الله، ويقال لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام وبركاته ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي: أجيبوها بمثلها، ورد السلام جوابه بمثله؛ لأن المجيب يرد قول المسلّم، وفيه حذف مضاف، أي: ردوا مثلها[1].

وقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه يبدأ من لقيه بالسلام، ويسلّم على الصبيان إذا مر بهم[2].

٥. ترك التفاخر والبغي.

ومن علامات التواضع: ترك التفاخر والبغي، فهما صفتان تنافيان التواضع.

وقد ضرب الله في القرآن مثلًا لرجلين:

الأول: متكبر فخور بما آتاه الله من فضله.

والآخر: متواضع خاشع لله.

فقال عن الأول: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦].

إلى آخر الآيات التي ساق فيها مثلًا للنفس الإنسانية المغرورة المتفاخرة بزينة الحياة الدنيا، الجاحدة لنعم الله، وللنفس الإنسانية المتواضعة المعتزة بعقيدتها السليمة، الشاكرة لربها؛ لكي يكون في هذا المثل عبرة وعظة لمن كان له قلب.

فقال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن الشاكر: أنا أكثر منك مالًا، وأعز منك عشيرة وحشمًا وأعوانًا، وهذا شأن المطموسين المغرورين، تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها بطرًا وفسادًا في الأرض.

ثم انتقل صاحب الجنتين من غروره هذا إلى غرور أشد، حكاه القرآن في قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: أن هذا المغرور لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن، بل سار به

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٨٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان، ٨/ ٥٥، رقم ٦٢٤٧، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان، ٤/ ١٧٠٨، رقم ٢١٦٨.

نحو جنته حتى دخلها، وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره، وقوله: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: وهو معجب بما أوتي مفتخر به، كافر لنعمة ربه، معرّضٌ بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم، وقوله: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: قال هذا الكافر لصاحبه: ما أظن أن هذه الجنة تفنى أو تهلك أبدًا.

والمتدبر لحال صاحب الجنتين يراه أولًا: قد زعم أن مدار التفاضل هو الثروة والعشيرة، ويراه ثانيًا: قد بنى حياته على الغرور والبطر، واعتقاد الخلود لزينة الحياة.

ثم حكى سبحانه بعد ذلك ما قاله الرجل المؤمن المتواضع لصاحب الجنتين، الذي نطق بأفحش، وأفجر الفجور، فقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: قال الرجل الفقير المؤمن في رده على صاحبه الجاحد المغرور، منكرًا عليه كفره، قال له على سبيل المحاورة والمجاوبة: يا هذا ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ بقدرته ﴿مِن تُرَابٍ﴾ أي: خلق أباك الأول من تراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: خلق أباك آدم من تراب، ثم أوجدك أنت من نطفة عن طريق التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: ثم صيّرك إنسانًا كاملًا، ذا صورة جميلة، وهيئة حسنة، والاستفهام في قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ للإنكار والاستبعاد؛ لأن خلق الله تعالى له من تراب ثم نطفة، ثم تسويته إياه رجلًا، يقتضي منه الإيمان بهذا الخالق العظيم، وإخلاص العبادة له، وشكره على نعمائه، وترك الفخر والتكبر.

ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح، فيقول لصاحبه صاحب الجنتين: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: إن كنت أنت يا هذا قد كفرت بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة، ثم سوّاك رجلًا، فإني لست بكافر، ولكني أنا مؤمن، أعترف له بالعبادة والطاعة، وأخضع وأتواضع[1].

فمما ينافي التواضع: البغي، وهو العدوان على الناس بالقول وبالفعل ونحو ذلك.

قال ابن منظور: «وأصل البغي مجاوزة الحدّ»[2]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥١٦.
(٢) لسان العرب ١٤/ ٧٨.

أي: إن اسم البغي وعقوبة البغي على الباغي (على أنفسكم الباغية).

والمقصود أن من مظاهر التواضع ترك هذه الأمور، وهي: (الغرور والعجب والكبر والبغي) فكلها رذائل، والتواضع فضيلة، وقد جعل الله تعالى الدار الآخرة للذين لا يريدون علوًا في الأرض، قال الكلبي ومقاتل: استكبارًا عن الإيمان، وقال عطاء: استطالة على الناس، وتهاونًا بهم، وقال الحسن: لم يطلبوا الشرف والعز عند ذي سلطانهم، وعن علي رضي الله عنه: أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل المقدرة، يعني: من كان من الولاة وأهل القدرة متواضعًا فهو لا يريد علوًا في الأرض ولا فسادًا[1].

قال السعدي: «﴿وَلَا فَسَادًا﴾[القصص: ٨٣] وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق، والعمل الصالح»[2].

ومدح الله من عباده ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

أي: وعباد الله المخلصين الربانيين الذين لهم الجزاء الحسن من ربهم هم الذين يمشون في سكينة ووقار من غير تجبّر ولا استكبار، يطؤون الأرض برفق، ويعاملون الناس بلين، لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، كما قال تعالى حاكيًا وصية لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنّعًا ورياء، وإنما بعزة وأنفة، هي عزة المؤمن المتواضع لله وحده.

فلا ينبغي التفاخر بمظاهر الدنيا، فإن كل ما فيها من ثروات وقصور ومبانٍ وآلات هو متاع يستمتع به في أيام قليلة تنقضي وتذهب، وما عند الله من الثواب على الطاعة خير وأدوم للذين صدّقوا بالله ووحّدوه، وتوكلوا على ربهم وفوّضوا إليه أمورهم.

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم العباد أن يتواضع بعضهم لبعض، حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد، فقال: (وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد)[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٤٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٤/ ٢١٩٨، رقم ٢٨٦٥.

تعالى في اقتضاء الصراط المستقيم في التعليق على هذا الحديث: «فنهى سبحانه عن نوعي الاستطالة على الخلق، وهو الفخر والبغي؛ لأن المستطيل إن استطال بحقٍّ فقد افتخر، وإن كان بغير حقٍّ فقد بغى، فلا يحل لا هذا ولا هذا»[(١)].

٦ مشاركة الضعفاء والمساكين.

ومن مظاهر التواضع: مشاركة الضعفاء والمساكين، والجلوس معهم، وتفقّد أحوالهم، وقد نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن طرد المؤمنين الضعفاء، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

يعني: المصلّين، بلالًا وابن أم عبد، كانا يجالسان النبي صلى الله عليه وسلم، قالت قريش محقرتهما: لولاهما وأمثالهما لجالسناه، فنهي عن طردهم[(٢)].

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جالس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسّن خلقه، وقرّبهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم[(٣)].

قال الطبري: «ذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين، قال المشركون له: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك!»[(٤)].

وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا! قال: وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾

وهذه وصية له صلى الله عليه وسلم في باب الفقراء والمستضعفين؛ وذلك لما قصروا لسان المعارضة عن استدفاع ما كانوا بصدده من أمر إخلاء الرسول صلوات الله عليه وسلامه مجلسه منهم، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدي الله، أراد أن يبيّن له أثر حسن الابتهال، فتولّى سبحانه خصيمتهم، وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٥٣.
(٢) انظر: تفسير مجاهد ١/ ٣٢٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥٨
(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٧٤.

﴿رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ لا تنظر يا محمد إلى خرقتهم على ظاهرهم، وانظر إلى حرقتهم فى سرائرهم، ويقال: كانوا مستورين بحالتهم، فشهرهم بأن أظهر قصتهم، ولولا أنه سبحانه قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فشهد لهم بالإرادة وإلا فمن يتجاسر أن يقول: إن شخصًا مخلوقًا يريد الحق سبحانه؟![1].

وجاء هذا النهي إلى النبي الكريم ليقرع أسماع المشركين، وليريهم أن محمدًا لن يتخلى أبدًا عن هؤلاء الفقراء الذين تزدري أعينهم، وأنه إذا كان ألف صحبة هؤلاء الفقراء، وأنس بهم قبل أن يتلقى أمر ربه بشأنهم، فإنه الآن وقد جاءه من ربه هذا النهي الذي يلبس صورة الأمر بالحفاظ على تلك الجماعة الفقيرة المؤمنة، وملء يده منها، وإعطائها وجهه كله، إنه لن يتخلّى أبدًا عن تلك الجماعة، ولو وقعت السماء على الأرض، إنه لن يعصي أمر ربه، ولن يخرج عنه بحال أبدًا، هذا ما تعرفه قريش فيما عرفت من محمد، وأخذه بكل كلمة جاءته من ربه، أو يقول إنها جاءته من ربه، كما تزعم قريش، إذن فهذا النهي هو كبتٌ لقريش ولزعمائها خاصة، واستخفاف بهم، وأنهم أقلّ شأنًا، وأخفّ ميزانًا عند الله الذي يدعوهم محمد إليه، وأن حساب الناس فى هذا الدين الذي يدعو إليه ليس بجاههم وسلطانهم وأنسابهم وأحسابهم، وإنما هو مائدة ممدودة من الله لعباد الله، فمن أخذ مكانه منها لم يكن لأحد أن يزحزحه عنه[2].

ومن كمال تواضعه صلى الله عليه وسلم مع الضعفة والمساكين: أن الأمة من إماء أهل المدينة كانت تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنطلق به إلى حيث شاءت[3].

وفي رواية الإمام أحمد: «إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنطلق به في حاجتها»[4]. وفي رواية أخرى له: «إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت»[5].

٧ الاعتدال في اللباس.

ومن مظاهر التواضع: عدم المباهاة باللباس، ولبس المتوسط منه، وقد ذكر الله

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٤٧٥.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٤/ ١٩٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكبر، ٨/ ٢٠، رقم ٦٠٧٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ٩، رقم ١١٩٤١.
قال المحقق: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ١٧٨، رقم ١٢٧٨٠.
قال المحقق: «إسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان، وقد صح الحديث بغير هذا اللفظ».

تعالى في القرآن الحكمة من اللباس، فهو من أجل أن يقي من الحر والبرد، ويستر العورة، لا للفخر والمباهاة ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

قال قتادة: من القطن والكتان والصوف، وقد قال في أول السورة: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥] من البرد[١].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فقد امتن الله على الخلق بأن جعل لهم لباسًا وريشًا، والرياش: جمع ريش: وهو اللباس، قال الفراء: ريش ورياش كما يقال: لبس ولباس، وريش الطائر ما ستره الله به، وقيل المراد بالريش هنا: الخصب ورفاهية العيش، قال القرطبي: والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة، وحكى أبو حاتم عن أبي عبيدة: وهبت له دابة وريشها، أي: وما عليها من اللباس، وقيل المراد بالريش هنا: لباس الزينة؛ لذكره بعد قوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ وعطفه عليه[٢].

ولما كان هذا هو المقصود من اللباس، وهو الوقاية والستر، عقب بعده بقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: ولباس التقوى ذلك الذي قد علمتموه، خير لكم يا بني آدم، من لباس الثياب التي تواري سوءاتكم، ومن الرياش التي أنزلناها إليكم، هكذا فالبسوه[٣].

والحاصل: أن من علامات التواضع التوسط في اللباس، وعدم المبالغة فيه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (البذاذة من الإيمان)[٤].

والبذاذة: رثاثة الهيئة، يقال: بذّ الهيئة، وباذّ الهيئة، أي: رثّ اللبسة، والمراد: التواضع في اللباس، وترك التبجّح به[٥].

وقوله: (من الإيمان) أي: من كمال أهله، والمراد من الحديث: أن التواضع في اللباس، والتوقي عن الفائق في الزينة من أخلاق أهل الإيمان، والإيمان هو الباعث عليه[٦].

ولا يمنع هذا من التجمل، فخير الهدي -في قضية اللباس- هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن هديه في اللباس أجمل الهدي وأحسنه، فقد كان صلى الله عليه وسلم متواضعًا في لباسه،

(١) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٨٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٢٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧٠.
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب من لا يؤبه له، ٢/ ١٣٧٩، رقم ٤١١٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٦٠١، رقم ٣٤١.
(٥) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١/ ١١٠.
(٦) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٢٧٨٢.

ومع ذلك كان يتجمل للوفود، وفي يوم الجمعة، ويحث أمته على إظهار نعمة الله عليهم، فقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله جميل، يحبّ الجمال)[1].

فكان صلى الله عليه وسلم يلبس ما وجد، فتارة يلبس لباس الأغنياء من حلل اليمن، وثياب الشام ونحوها، وتارة يلبس لباس المساكين، فيلبس جبّة من صوف أحيانًا، وأحيانًا يتّزر بعباءة ويهيئ إبل الصدقة، يعني: أنه يطلبها بيده ويصلحها، كما يفعل أرباب الإبل بها[2].

والمقصود: أن ترك اللباس الفاخر والثياب الغالية -وإن كانت حلالًا- تواضعًا لله ليس بخلًا على النفس ولا شهرة؛ علامة على التواضع، فالتوجيه الشرعي في أمر اللباس أنه يستحب للناس أن يتوسطوا ويعتدلوا فيه، من غير إسراف ولا مخيلة، ومن غير رداءة ولا رثاثة، فالاعتدال مندوب في جميع الأمور، ومنها اللباس الذي يقي الإنسان من الحر أو البرد، ويتزين به للناس.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٣، رقم ١٤٧.
(٢) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، ابن رجب ص ١١١.

نماذج قرآنية في التواضع

التواضع للحق وللخلق من صفات الأنبياء والمرسلين، الذين عرفوا الحق فاتبعوه، والباطل فاجتنبوه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة، وهو كذلك من صفات أتباعهم الصالحين، كما سيأتي بيانه في الآتي:

أولًا: تواضع الأنبياء والرسل:

١. تواضع النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

أشار القرآن في غير موضع إلى تواضعه صلى الله عليه وسلم فقال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

والمعنى: من رحمة الله عليك أن عاملت أصحابك باللين والرفق، وهذا شيء خصّك الله به، فقد حباك بآداب القرآن العالية، وحكمه السامية، فهانت عليك المصائب، هذا مع أنّ كثيرًا من أصحابك قد استحقوا اللوم والتعنيف؛ إذ تركوك وقت اشتداد الهول فيما الحرب قائمة على أشدها.

وتنوين ﴿رَحْمَةٍ﴾ للتعظيم. أي: فبرحمةٍ عظيمة لهم كائنةٍ من الله تعالى، وهي ربطه على جأشه، وتخصيصه بمكارم الأخلاق، كنت ليّن الجانب لهم، وعاملتهم بالرفق،

والتلطّف بهم...، ولو ﴿كُنتَ فَظًّا﴾ جافيًا في المعاشرة قولًا وفعلًا، والفظّ: هو الكريه الخلق، أو هو الغليظ الجانب، السيئ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرّقوا من عندك، ولم يسكنوا إليك، وتردّوا في مهاوي الردى[1].

والفظاظة والشراسة والخشونة في المعاشرة، والقسوة والغلظة والتكبر من الأخلاق المنفّرة للناس، لا يصبرون على معاشرة صاحبهما وإن كثرت فضائله، ورجيت فواضله، بل يتفرّقون ويذهبون من حوله، ويتركونه وشأنه، لا يبالون ما يفوتهم من منافع الإقبال عليه، والتحلق حواليه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ وإذًا لفاتهم هدايتك، ولم يبلغ قلوبهم دعوتك.

وتقديم المجرور ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ مفيد للحصر الإضافي، أي: برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم، وهذا القصر مفيد التعريض بأن أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم، ولكن الله ألان خلق رسوله؛ رحمة بهم، لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمة[2].

ودل الفعل الماضي في قوله: ﴿لِنتَ﴾ على أن ذلك وصف تقرر وعرف من خلقه، وأن فطرته على ذلك برحمة من الله؛ إذ خلقه كذلك، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فخلق الرسول مناسب لتحقيق حصول مراد الله تعالى من إرساله؛ لأن الرسول يجيء بشريعة يبلغها عن الله تعالى، فالتبليغ متعين لا مصانعة فيه، ولا يتأثر بخلق الرسول، وهو أيضًا مأمور بسياسة أمته بتلك الشريعة، وتنفيذها فيهم، وهذا عمل له ارتباط قوي بمناسبة خلق الرسول لطباع أمته؛ حتى يلائم خلقه الوسائل المتوسل بها لحمل أمته على الشريعة الناجحة في البلوغ بهم إلى مراد الله تعالى منهم[3].

وهذه الآية: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ دلالة على اختصاص نبينا بمكارم الأخلاق، ومن عجيب أمره صلى الله عليه وسلم أنه كان أجمع الناس لدواعي العظمة، ثم كان -مع ذلك- أدناهم إلى التواضع، فكان أشرف الناس نسبًا، وأوفرهم حسبًا، وأزكاهم عملًا، وأسخاهم كرمًا، وأفصحهم بيانًا، وكلها من دواعي العظمة، ثم كان من تواضعه عليه السلام أنه كان يرقع الثوب، ويخصف النعل، ويركب الحمار، ويجلس على الأرض، ويجيب دعوة العبد المملوك، فصلوات الله وسلامه على السراج المنير بحر المكارم والفضائل[4].

ويبيّن السعدي رحمه الله ما للأخلاق

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٠٥.
(٢) التحرير والتنوير ٤/ ١٤٤.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ١٤٥.
(٤) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٢٢١.

الحسنة في الرئيس من أثر على عامة الناس، فيقول: «والأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين تجذب الناس إلى دين الله، وترغّبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفّر الناس عن الدين، وتبغّضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم من اللين وحسن الخلق والتأليف؛ امتثالًا لأمر الله، وجذبًا لعباد الله لدين الله»[1].

والمقصود: أن هذه الآية وما أشبهها من الآيات الدالات على اتصافه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق، ومن جملة هذه الأخلاق التواضع، ولين الجانب لأصحابه، فهو سيد المتواضعين صلى الله عليه وسلم، فليس هناك خلق تجلّى في سيرة سيد المتواضعين، وسيد الخلق أجمعين -صلوات الله وسلامه عليه- كما تجلّى خلق التواضع، وإنك لتجد هذا الخلق سجيّة في شخصه الكريم، في سائر أحواله، في بيته، وبين أصحابه، في سفره وإقامته، في لباسه ومركبه، ومأكله ومشربه، ويقظته ومنامه، وفي سائر حياته، يسلّم على الغلمان ويداعبهم، ويذهب مع الفقير والجارية وسائر أصحاب الحاجات ليقضي لهم حاجاتهم، وكان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، وكان لا يشرب حتى يفرغ أصحابه فيشرب فضلتهم، وكان ينام على الحصير فيؤثر في جنبه.

فتواضعه ظاهر في كل أخلاقه، ركب الحمار، وأردف عليه، والعرب في كبرياء نفوسهم لا يرون ذلك لذوي الزعامة والشأن منهم، أجاب دعوة الداعي الذي دعاه إلى إهالة سنخة وخبز من شعير فأجاب، يغشى الأنصار في بيوتهم فيسلم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم، -صلوات الله وسلامه عليه-، توقظه الأمة حتى يقضي حاجتها، كلّمه رجل يوم فتح مكة فلما كلّمه أصاب ذلك الرجل رعدة احترامًا وتقديرًا لرسول الله، فقال: (هوّن عليك! إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد)[2].

سئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: (كان يكون في مهنة أهله -تعني خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٥٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد، ٢/ ١١٠١، رقم ٣٣١٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١١٨٥، رقم ٧٠٥٢.

الصلاة)[1].

وقالت: (كان يخصف نعله، ويرقّع ثوبه)[2].

والمقصود: أن التواضع خلقه وصفته في حضره وسفره، والتواضع خلقه مع أصحابه ومع أعدائه، والتواضع خلقه مع الأغنياء والفقراء، مع الصغار والكبار، رقيق القلب، رءوفًا بأمته، حريصًا عليهم، ساعٍ في تأليفهم، فأحبّوه المحبة الصادقة فوق محبة المال والأهل والولد، يقول له أحد أصحابه: يا رسول الله! إني أحبك، فكلما ذكرتك لم تقر عيني حتى أنظر إليك، ولكنني أفكر بعد موتي وعلو منزلتك ماذا سأفعل؟ فأنزل الله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩][3].

٢. تواضع إبراهيم عليه السلام.

من تواضعه عليه السلام: أنه خدم أضيافه بنفسه، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦-٢٧].

قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ الروغان: هو الذهاب في اختفاء بحيث يكاد لا يشعر به، وهذا من كرم رب المنزل المضيّف، أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف، فيشق عليه ويستحي، فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام، بخلاف من يسمع ضيفه وهو يقول له أو لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام، ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه[4].

والمقصود أنه ذبحه، فشواه في الرضف، وأتاهم به، قال تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ يدل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل: فأمر لهم، بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه، ولم يبعثه مع خادمه، وهذا أبلغ في إكرام الضيف[5].

وقوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أخذ العلماء فقهًا آخر من فقه الضيافة، ألا وهو أن صاحب البيت نفسه يستحب له أن يباشر خدمة الأضياف بنفسه، ولا يجعل الخدم فقط هم الذين يتولون تقديم الطعام، فإن مباشرة صاحب البيت تقديم الطعام بنفسه للأضياف تفهمهم مدى حفاوته واهتمامه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، ١/ ١٣٦، رقم ٦٧٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤١/ ٢٦٩، رقم ٢٤٧٤٩.
قال المحقق: «حديث صحيح».

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، ١/ ٥٣، رقم ٥٢، وفي المعجم الأوسط، ١/ ١٥٢، رقم ٤٧٧، والبيهقي في شعب الإيمان، ٢/ ٥٠٤، رقم ١٣١٧.

(٤) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤٨٨.

(٥) المصدر السابق.

بهم، وإن كان المؤدى واحد، لكن حسن الاستقبال مع القيام على الخدمة كل ذلك يشعر الأضياف باهتمام صاحب البيت بهم، وهذا ينعكس بمودة ومحبة في قلب الضيف؛ لأن المضيف جمع له بين الحسنيين: حسن الضيافة، وحسن البشاشة والاستقبال.

ومن أوجه تسميتهم مكرمين، قيل: لأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم بتعجيل قراهم، والقيام بنفسه عليهم، وطلاقة الوجه، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: خدمته بنفسه إياهم[(١)].

والمقصود أن من تواضعه عليه السلام أنه ذهب إلى أهله، وأحضر العجل، وذبحه بنفسه، وقرّبه إليهم، مع الإمكان أن يقوم غيره بهذه المهمة.

٣. تواضع موسى عليه السلام.

وهذا موسى كليم الرحمن، أحد أولي العزم من الرسل، يذكر الله عنه قصته مع الخضر العبد الصالح، التي تعلّمنا كيف يتعلم الأكبر والأعلم من الأصغر، والأقل منه رتبة، فإن موسى عليه السلام كليم الله، مع كثرة علمه وعمله أمره الله أن يصحب العبد الصالح وهو الخضر، في رحلة استطلاعية، وجولة ميدانية، تدل على أن التواضع خير من العجب والكبر، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: ٦٦].

فموسى وهو نبيٌّ عظيم، ورسول كريم عزم على الذهاب إلى الخضر، والتفتيش عنه، ولو أنّه يمضي حقبًا من الزمان، قيل: ثمانين سنة، ثمّ لما اجتمع به، تواضع له، وعظّمه، واتبعه في صورة مستفيد منه.

قال الزجاج: وفيما فعل موسى عليه السلام، وهو من جلة الأنبياء من طلب العلم، والرحلة في ذلك، ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه[(٢)].

قال الرازي: «اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعًا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر.

فأحدها: أنه جعل نفسه تبعًا له؛ لأنه قال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾

وثانيها: أن استأذن في إثبات هذا التبعية، فإنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعًا لك، وهذا مبالغة عظيمة في التواضع.

وثالثها: أنه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالجهل، وعلى أستاذه بالعلم.

ورابعها: أنه قال: ﴿مِمَّا عُلِّمۡتَ﴾ وصيغة (من) للتبعيض، فطلب منه تعليم بعض ما

(١) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٨٥.

(٢) الوسيط، الواحدي ٣/ ١٥٨.

علمه الله، وهذا أيضًا مشعر بالتواضع؛ كأنه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساويًا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءًا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءًا من أجزاء ماله.

وخامسها: أن قوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم.

وسادسها: أن قوله: ﴿رُشْدًا﴾ طلب منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

وسابعها: أن قوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ معناه: أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علي عند هذا التعليم شبيهًا بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم.

وثامنها: أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلًا لذلك الغير، فإنا إذا قلنا: لا إله إلا الله، فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة، فلا يجب كوننا متبعين لهم في ذكر هذه الكلمة، لأنا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها، بل إنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما أتينا بها لأجل أنه عليه السلام أتى بها؛ لا جرم كنا متابعين في فعل هذه الصلوات لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتيًا بها، وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم، وترك المنازعة والاعتراض.

وتاسعها: أن قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقًا في جميع الأمور، غير مقيد بشيء دون شيء.

وعاشرها: أنه ثبت بالأخبار أن الخضر عرف أولًا أنه نبي بني إسرائيل، وأنه هو موسى صاحب التوراة، وهو الرجل الذي كلّمه الله عز وجل من غير واسطة، وخصّه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة، والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع؛ وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيًا في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به؛ لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد.

والحادي عشر: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فأثبت كونه تبعًا له أولًا، ثم طلب ثانيًا أن يعلّمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة، ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم.

والثاني عشر: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن

﴿تُعَلِّمَنِ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئًا، كأنه قال: لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه، ولا غرض لي إلا طلب العلم»[1].

والمقصود: أنه راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه، واستأذن أن يكون تابعًا له، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم.

وأيضًا مما يدل على تواضعه عليه السلام أنه سقى للفتاتين اللتين أرادتا السقيا فعجزتا، قال جل وعلا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٣-٢٤].

فسقى لهما، وأعانهما على سقيهما، فارتاحتا من انتظار من هو أقوى منهن.

ثم هو عليه السلام لما خطب من صاحب مدين ابنته جعل مهر ابنته أن يرعى غنم مدين ثماني أو عشر سنين، كل ذلك من التواضع الذي يتخلق به عليه السلام.

٤. تواضع عيسى عليه السلام.

وهذا نبي الله عيسى عليه السلام يقول الله عنه: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠].

فتواضع لله بأنه عبد لله، والعبد خاضع لمالكه وسيده.

وفي آية أخرى قال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢].

وعدل عن طريق الإضافة في قوله: ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ فأظهر الحرف الذي تقدّر الإضافة عليه؛ لأن التنكير هنا أظهر في العبودية، أي: عبدًا من جملة العبيد، ولو قال: «عبد الله» لأوهمت الإضافة أنه العبد الخصيص، أو أن ذلك علم له، وأما ما حكى الله عنه في الآية السابقة: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، فلأنه لم يكن في مقام خطاب من ادعوا له الإلهية[2].

وقال الله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

أي: ولم يجعلني متعظّمًا عاصيًا مستكبرًا عن عبادة ربي، وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك.

والجبار: المتعظّم، وهي صفة مقرونة بالشقاء؛ لأنّها مناقضة لجميع الناس، فلا يلقى صاحبها من كل أحد إلا مكروهًا، وكان عيسى عليه السلام في غاية التّواضع، يأكل الشجر، ويلبس الشّعر، ويجلس على الأرض، ويأوي حيث جنّه الليل، لا مسكن له، قال قتادة: وكان يقول: سلوني فإني ليّن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٨٣-٤٨٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٥٩.

القلب، صغيرٌ في نفسي[1].

وقوله: ﴿شَقِيًّا﴾ أي: في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك، بل جعلني مطيعًا له خاضعًا خاشعًا متذللًا متواضعًا لعباد الله، سعيدًا في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني.

فلما تم له الكمال ومحامد الخصال قال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

أي: من فضل ربي وكرمه حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة؛ وذلك يقتضي سلامته من الأهوال ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر على أنه رسول الله، وعبد الله حقًا[2].

٥. تواضع داود عليه السلام.

ومن الأنبياء الذي عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام، فقد كان حدّادًا يصنع الدروع، وفي نفس الوقت كان ملكًا، وكان يأكل مما تصنعه يداه، وهذا من كرم أخلاقه، وعظيم تواضعه.

قال الله تعالى عنه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

يقول تعالى ذكره: وعلّمنا داود صنعة لبوس لكم، واللبوس عند العرب: السلاح كله، درعًا كان أو جوشنًا أو سيفًا أو رمحًا، يدلّ على ذلك قول الهذليّ[3]:

ومعي لبوسٌ للّبيس كأنّه
روقٌ بجبهة ذي نعاجٍ مجفل

وإنما يصف بذلك رمحًا.

وأما في هذا الموضع فإن أهل التأويل قالوا: عني الدروع[4].

قال قتادة: أول من صنع الدروع داود عليه السلام، وإنما كانت صفائح، فهو أول من سردها وحلقها[5].

وبيّن الله تعالى العلة من هذا التعليم، فقال: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ أي: لتحرزكم وتمنعكم ﴿مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: من حرب عدوكم[6].

وهذا دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وهي شهادة للعمال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شرف، واتخاذ الحرفة كرامة، وهذه الآية: فيها إشارة لحث أهل الإيمان على العمل والإبداع، والأخذ بأسباب النصر

(١) الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٢.
(٣) البيت منسوب لأبي كبير الهذلي.
انظر: الجليس الصالح الكافي، أبو الفرج الجريري ص ٣١٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٨٠.
(٥) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٨٦.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٠١.

على الأعداء، ومحاربة الفساد بإعداد الجيوش مقودة بقيم الإيمان، وتعاليم الرحمن، وشريعة الديان[1].

ونتعلم من هؤلاء الأنبياء عدم الاعتماد على أحد إلا على الله سبحانه وتعالى، في مطعمنا ومشربنا وملبسنا، فهو الذي يرزقنا، وقد كانوا عليهم السلام أصحاب حرف وصناعات...، يأكلون ويشربون من هذه الحرف، ومما عملت أيديهم...، وما من أحد إلا ويعلّمه الله عز وجل شيئًا يصلح له، ويكون فيه معاشه ورزقه، فمن الناس من لا يستفيد مما علّمه الله سبحانه، فيترك العمل ويسأل الناس، ويستسهل أن يأخذ رزقه من الحرام، وما من مخلوق إلا وقد قسم له الله عز وجل رزقه، ولابد أن يأتيه هذا الرزق، فعلى الإنسان المؤمن أن يبحث عن وظيفته بالطرق الحلال، ولا يقول: قد ضيّق الله عز وجل عليّ، ثم يتوجّه إلى الحرام؛ فإن رزقك مقسوم، وكسبك معلوم، ولن يزداد شيئًا على ما قسمه الله عز وجل، فابحث عن الحلال تجد الحلال، ويرزقك الله سبحانه وتعالى، واتّس بهؤلاء الأنبياء الذين كانوا لا تلهيهم صنعتهم ولا كسبهم الرزق عن الدعوة إلى الله عز وجل، ولا تشغلهم عن المرتبة العظيمة التي هم فيها، وهي مرتبة النبوة.

(١) الإيمان بالقدر، الصلابي ص ٢٠٧.

ثانيًا: تواضع الصالحين:

لقد حكى القرآن بعض النماذج من تواضع الصالحين، منها:

١. لقمان.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

فأخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم بالحق على وجهه وحكمته، وهي أيضًا العلم بالأحكام ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالمًا ولا يكون حكيمًا، وأما الحكمة فهي مستلزمة للعلم والعمل؛ ولهذا فسّرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح...، وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمرًا، وإلى تركها إن كانت نهيًا، وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها[2].

فمن حكمته وتواضعه: أنه أوصى ابنه بعدة وصايا.

منها: أنه قال له: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٤٨.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨-١٩].

أي: ولا تمش فى الأرض مختالًا متبخترًا؛ لأن تلك مشية الجبارين المتكبرين الذين يبغون فى الأرض، ويظلمون الناس، بل امش هونًا؛ فإن ذلك يفضي إلى التواضع.

وهذه كلمة جامعة من الحكمة والتقوى؛ إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير، وبثّه في الناس، وكفّه عن الشر، وزجره الناس عن ارتكابه.

وهي وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس، ويقتدوا بها، بعد أن امتثلها هو فكان حكيمًا متواضعًا لله ولخلقه.

فبعد أن أمر ابنه بأصل الدين وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك...، نهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وفي قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨].

قالوا في معناها: لا تمل خدك للناس كبرًا عليهم، وإعجابًا بنفسك، واحتقارًا للخلق...، وقيل في معناها أيضًا: ﴿تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: أن تولي شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره، فكل إنسان له قدر عند نفسه، وله قدر عند خالقه سبحانه وتعالى، والله أعلم بهذا الإنسان، فلا تحتقر أحدًا من الخلق، ولكن ادع إلى الله سبحانه وتعالى، وظنّ الخير في غيرك؛ لعل هذا الذي تنظر إليه بازدراء واحتقار يكون أفضل منك في يوم من الأيام.

فعامل الناس بالصورة التي تحب أن يعاملوك بها، وانظر للذي تأمره وتنهاه وضع نفسك مكانه، إذا كنت أنت مكانه في هذه المعصية وهو يأمرك، فإنك تحب أن يأمرك باللين، فكن ليّنًا أنت معه، وأمره بالطريقة التي تحب أن يأمرك هو بها في يوم من الأيام، وعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «فالمعنى: أقبل عليهم -أي: الناس- متواضعًا مؤنسًا مستأنسًا، وإذا حدّثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل»[1].

قال سيد قطب: «ويستطرد لقمان في وصيته التي يحكيها القرآن هنا إلى أدب الداعية إلى الله، فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس، والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير، ومن باب أولى يكون التعالي والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح وأرذل.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٧٠.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ والصعر: داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها، والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصّعر، حركة الكبر والازورار، وإمالة الخد للناس في تعالٍ واستكبار! والمشي في الأرض مرحًا هو المشي في تخايل ونفخة، وقلة مبالاة بالناس، وهي حركة كريهة يمقتها الله، ويمقتها الخلق، وهي تعبير عن شعور مريض بالذات، يتنفس في مشية الخيلاء!

ومع النهي عن مشية المرح بيان للمشية المعتدلة القاصدة ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ والقصد هنا من الاقتصاد، وعدم الإسراف، وعدم إضاعة الطاقة في التبختر والتثني والاختيال ومن القصد كذلك؛ لأن المشية القاصدة إلى هدف لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر، إنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق.

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته، وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيء الأدب، أو شاكٌّ في قيمة قوله، أو قيمة شخصه، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق!

والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبّحه في صورة منفّرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية مع النفور والبشاعة، ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع، ثم يحاول شيئًا من صوت هذا الحمير!»[1].

٢. ذو القرنين.

ذو القرنين هذا الملك الصالح الذي ملك الأرض، وهو أحد أربعة[2] حكموا الناس شرقًا وغربًا، حكى الله قصته في سورة الكهف في عدة آيات، وفي قصته دروس عظيمة، وفوائد جمة، تدل على عقله الراجح، وحنكته السياسية، ومقدرته على الحكم، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان في قمة التواضع لربه وخالقه جل وعلا، ولعباده.

حكى الله عنه أنه قال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨].

وقال: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف:

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٠.
(٢) مسلمان، وهما: ذو القرنين وسليمان عليهما السلام، وكافران، وهما: النمرود وبختنصر، كذا قيل، والله أعلم.
انظر: فنون العجائب، أبو سعيد النقاش ص ١٠٩.

٩٥-٩٦].

وقال تعالى عنه أنه قال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

قال سيد: «﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكّنه الله في الأرض، وييسّر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقًا وغربًا، ولكنه لا يتجبّر ولا يتكبّر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخّر أهلها في أغراضه وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحلّ به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسّرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان، وإحقاق الحق، ثم يرجع كل خير يحقّقه الله على يديه إلى رحمة الله، وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله»[(١)].

والمقصود: أن التواضع خلق الصالحين في أحوالهم كلها، ولقد كان سلف هذه الأمة لا تغيّرهم المناصب ولا الدنيا، ولا يحتقرون أحدًا صغر عنهم أو كبر، بل كانوا شديدي التواضع والانكسار لله، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا.

فهذا ابن عباس رضي الله عنهما مع جلالته يأخذ بركاب زيد بن ثابت الأنصاري ويقول: «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا»[(٢)]. وقال مجاهد: «ربما أخذ لي ابن عمر بالركاب»[(٣)].

وقد كان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله آية في التواضع في ملبسه وكلامه وتصرفاته ومعاملته للخلق، يعامل جميع الناس على حد سواء، في الرفق والاحتفاء والبشر والاهتمام بأحاديثهم، فلا يفرّق بين غني وفقير، وبين عالم وجاهل، وشريف ووضيع، لا يعنف أحدًا، ولا يترفع على أحد مع عظم منزلته، حتى إنه يقول: «إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: سبقني بالإيمان والعمل الصالح؛ فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي؛ فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظّمونك فقل: هذا فضل أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيرًا فقل: هذا ذنب أحدثته»[(٤)].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٣.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام، الذهبي ٤/ ٥٧، البداية والنهاية، ابن كثير ١٢/ ٩٤.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام، الذهبي ٧/ ٢٣٧، تاريخ دمشق، ابن عساكر ٥٧/ ٣٤.

(٤) صفة الصفوة، ابن الجوزي ٢/ ١٤٦.

فوائد التواضع

لا شك أن خلق التواضع من أعظم الأخلاق الكريمة، والشمائل الحميدة، التي يتحلى بها المؤمن الكريم، فيضفي على إخوانه المسلمين المحبة والمودة والألفة، ويرضي ربه، ويقتدي برسوله صلى الله عليه وسلم سيد المتواضعين، وللتواضع فوائد عديدة، نذكر بعضًا منها:

أولًا: دخول الجنة.

من أعظم ما يناله المتواضعون هو دخول جنات النعيم.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

والمعنى: تلك الدار الآخرة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرًا عن الحقّ في الأرض، وتجبرًا عنه ولا فسادًا، يقول: ولا ظلم الناس بغير حقّ، وعملًا بمعاصي الله فيها[١].

و ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ إشارة تعظيم، كأنه قال: تلك التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها، تعظيم لها، وتفخيم لشأنها[٢].

ويراد بالدار الآخرة هنا: الجنة؛ وذلك معهود في إطلاقها على الجنة، ومعلوم أن ما يجعل لهؤلاء هو الجنة...، والأحسن أن يكون ذلك على حذف مضاف دل عليه المعنى، أي: نعيم الدار الآخرة وحظوتها وخيرها؛ لأن الدار الآخرة هي موضع الإقامة بعد انقضاء الدنيا، وسميت آخرة؛ لأنها متأخرة عن الدنيا، أو هي آخر ما يسكن[٣].

ومعنى جعلها لهم: أنها محضرة لأجلهم ليس لهم غيرها، وأما من عداهم فلهم أحوال ذات مراتب، أفصحت عنها آيات أخرى، وأخبار نبوية[٤].

وعن الفضيل: أنه قرأها -أي: هذه الآية-، ثم قال: ذهبت الأماني هاهنا.

وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كان يرددها حتى قبض[٥].

وقوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله،

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٣٧.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٦٠، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٨٦.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٤٩٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٨٩.
(٥) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٨١

والانقياد للحق، والعمل الصالح[1].

ومعنى: ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ كناية عن: لا يفعلون؛ لأن من لا يريد الفعل لا يفعله إلا مكرهًا...، والعلو: التكبر عن الحق وعلى الخلق، والطغيان في الأعمال. والفساد: ضد الصلاح، وهو كل فعل مذموم في الشريعة أو لدى أهل العقول الراجحة، وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ العاقبة: وصف عومل معاملة الأسماء لكثرة الوصف به، وهي الحالة الآخرة بعد حالة سابقة، وغلب إطلاقها على عاقبة الخير[2].

فهؤلاء متواضعون: لا يريدون التكبر على خلق الله، ولا الاستعلاء على عباد الله، ولا يتيهون بأحسابهم ولا بأنسابهم ولا بأمومتهم أو أبوتهم، ولا بأموالهم، ولا بما ملّكهم الله في هذه الدنيا، وإلا لكان ذلك ابتلاءً وفتنة، كما كانت كنوز قارون لقارون، فقد فتن بها وعذّب في الدنيا؛ وعذاب يوم القيامة أشد.

والدار الآخرة إنما جعلها الله للذين لا يستعلون على عباد الله، ولا يتكبرون على الإيمان والمؤمنين...، والدار الآخرة وجنتها ورضاها ورحمتها مقصورة على الذين لا يتكبرون، ومن ينازع الله في كبريائه أذله وحقره[3].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٩٠.
(٣) انظر: تفسير المنتصر الكتاني ٦/ ١٥٦.

وقال في آية أخرى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

يعني: بالجنة[4]. وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال: «هم المتواضعون»[5].

ثانيًا: محبة الله للمتواضع.

ومن فوائد التواضع العظيمة محبة الله للمتواضع، يقول الله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فأخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة: أنهم إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضًا عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين؛ وبهذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥][6].

فالتواضع يورث محبة الله للمتواضع،

(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٣٧٥.
(٥) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره، ٢/ ٤٠٦، والطبري في تفسيره ١٦/ ٥٥١.
(٦) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤١٥.

ومحبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأعظم فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدًا يسر له الأسباب، وهوّن عليه كل عسير، ووفّقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومحبة الله حال من أحوال الذات العلية لا نعرف كنهها، ولا ندرك حقيقتها، وهي تليق بذاته الكريمة، وتتفق مع صفات الجلال والكمال التي يتصف بها واجب الوجود، والذي خلق بقدرته كل موجود، وهي غير الإحسان، وإن كانت من فضل الله، وغير الرحمة وغير الرضا؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعلها لبعض عباده، والإحسان والرحمة يعمّان كل موجود، والرضا وإن جعله جزاء أعلى للمحسنين، كما قال في جزاء المؤمنين بعد ذكر الجنات والنعيم المقيم: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فالمحبة أكبر منه، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى، فكان هذا دليلًا على أنهما متغايران بالنسبة لذاته العلية، كما أن المدلول اللفظي لهما متغاير، وإن كانت المحبة تتضمن الرضا لا محالة، بل إنها لا تكون إلا حيث يكون أقصى الرضا، هذه إشارة إلى محبة الله لبعض عباده الذين اصطفاهم[1].

والمقصود: أن من الأسباب التي يترتب عليها محبة الله: الذّلة على المؤمنين بأن يكون المسلم للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته، والعزة على الكافرين، أي: لا يخضعون للكافرين، ولا يحالفونهم على المؤمنين، ولا يختارون أن يدخلوا في ولايتهم ويتركوا ولاية المؤمنين.

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الخشوع، الذل، الغرور

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١١٨٧.

التَّوْبَةُ

عناصر الموضوع

مفهوم التوبة	٥٦
التوبة في الاستعمال القرآني	٥٧
الألفاظ ذات الصلة	٥٨
اقتران التوبة بالإصلاح والاستغفار	٦٠
التواب من أسماء الله تعالى	٦٢
مجالات التوبة	٦٣
قبول التوبة	٧٥
نماذج من التائبين في القرآن	٧٩
الأسلوب القرآني في الحث على التوبة	٨٥
ثمرات التوبة وعاقبة الإعراض عنها	٨٩

مفهوم التوبة

أولًا: المعنى اللغوي:

توب: التّاء والواو والباء كلمةٌ واحدةٌ تدلّ على الرّجوع. يقال: تاب من ذنبه، أي رجع عنه، يتوب إلى اللّه توبةً ومتابًا، فهو تائبٌ. والتّوب: التّوبة. قال اللّه تعالى: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣][(١)].

وتاب إلى اللّه توبًا وتوبةً ومتابًا وتابةً وتتوبةً: رجع عن المعصية، وهو تائبٌ وتوّابٌ، وتاب الله عليه: وفّقه للتّوبة، أو رجع به من التّشديد إلى التّخفيف، أو رجع عليه بفضله وقبوله، وهو توّابٌ على عباده[(٢)].

والتائب يقال لباذل التوبة ولقابل التوبة؛ فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده.

والتّوّاب: العبد الكثير التوبة، وذلك بتركه كلّ وقت بعض الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركًا لجميعه، وقد يقال ذلك لله تعالى؛ لكثرة قبوله توبة العباد حالًا بعد حال[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

التوبة في الشرع: الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة.

والتوبة النصوح: ألا يبقي على عمله أثرًا من المعصية، سرًّا وجهرًا[(٤)].

قال الطبري رحمه الله: «التوبة من العبد إلى ربه: إنابته إلى طاعته، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يسخطه من الأمور التي كان عليها مقيمًا مما يكرهه ربه، فكذلك توبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك، ويتوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه»[(٥)].

وهذا التعريف في الاصطلاح لا يخرج عن معناه في اللغة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٥٧.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٦٢.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦٩.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٧٠.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٨٧.

التوبة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (توب) في القرآن(٨٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٤	﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾[التوبة:١١٧]
الفعل المضارع	٢١	﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[النساء:١٧]
الفعل الأمر	٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم:٨]
المصدر	٨	﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾[الشورى:٢٥]
اسم الفاعل	٢	﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾[التوبة:١١٢]
صيغة المبالغة	١٢	﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾[النصر:٣]

وجاءت التوبة في القرآن على وجهين[٢]:

أحدها: الندم على فعل الشيء والرجوع عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣﴾[الأعراف:١٤٣].يعني: ندمت ورجعت إليك.

والثاني: التجاوز، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[النساء:٢٧].يعني: يتجاوز عنكم.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٦ - ١٥٨، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٦٩-٣٧١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاعتذار:

الاعتذار لغة:

(اعتذر) فلان: صار ذا عذر، وإليه: طلب قبول معذرته، ويقال: اعتذر من ذنبه واعتذر عن فعله: تنصل واحتج لنفسه[١].

الاعتذار اصطلاحًا:

تحري الإنسان ما يمحو به أثر ذنبه، وذلك ثلاثة: الأول: أن يقول: لم أفعل أو فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه عن كونه ذنبًا، الثاني: أن يقول: فعلت ولا أعود ونحو ذلك، والثالث: هو التوبة، فكل توبة عذر ولا عكس[٢].

الصلة بين التّوبة والاعتذار:

التوبة من الذنب الذي لا عذر في اقترافه، والمعتذر يذكر أن له في ما أتاه من المكروه عذرًا، ولو كان الاعتذار التّوبة لجاز أن يقال: اعتذر إلى الله، كما يقال: تاب إليه، وأصل العذر: إزالة الشّيء عن جهته، أي: أزال ما كان في نفسه عليه في الحقيقة أو في الظّاهر[٣].

٢ النّدم:

النّدم لغة:

(ندم) على الأمر ندمًا وندامة: أسف وكرهه بعدما فعله فهو نادم[٤].

النّدم اصطلاحًا:

التّحسّر من تغيّر رأي في أمر فائتٍ[٥].

الصلة بين النّدم والتّوبة:

التّوبة من النّدم؛ وذلك أنّك قد تندم على الشّيء ولا تعتقد قبحه، ولا تكون التّوبة من غير قبح، فكل توبة ندم، وليس كل ندم توبة[٦].

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٩٠.
(٢) انظر: التوقيف، المناوي ص ٧٤.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٥.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩١١.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٩٦.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٣٥.

٣ الاستغفار:

الاستغفار لغة:

(استغفر): أي طلب المغفرة، واستغفر اللّه ذنبه: طلب منه غفره[١]، وفي اللغة العربية إذا دخلت السين والتاء على الفعل أفادت معنى الطلب.

وبهذا، فإنّ معنى الاستغفار في اللغة: طلب السّتر، وطلب ترك المؤاخذة على الذّنب.

الاستغفار اصطلاحًا:

طلب ستر الذنب بالعفو عنه، وعدم العقوبة عليه[٢].

الصلة بين التوبة والاستغفار:

قال ابن القيم: «الاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله»[٣].

٤ الإصرار:

الإصرار لغة:

(أصر) على الأمر: ثبت عليه ولزمه، وأكثر ما يستعمل في الآثام[٤].

الإصرار اصطلاحًا:

وهو: التّعقّد في الذّنب والتّشدّد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٥].

الصلة بين التوبة والإصرار:

علاقة تضاد، فالعبد إذا عصى وطال زمان التوبة وقع في الإصرار، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، أي تبتدئ التوبة من زمانٍ قريب من زمان المعصية؛ لئلا يقع في الإصرار[٥].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٢٧٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٨٥، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٧.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٣٠٨.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥١٢.
(٥) الدر المصون، السمين الحلبي ٣/ ٦٢٤.

اقتران التوبة بالإصلاح والاستغفار

أولًا: اقتران التوبة بالإصلاح:

قرن الله سبحانه بين التوبة والإصلاح في مواضع من كتابه، منها: قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٦٠].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٥].

فالآيات تدل دلالةً واضحةً على أنه ليس المقصود بالتوبة ترك القبيح فحسب، بل يجب فعل الحسن، وهو الإصلاح.

ومن أجل ذلك شرط سبحانه وتعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك، شرط أن يصلحوا العمل في نفوسهم، ويبيّنوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠].

وشرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياءً وسمعةً: أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم رياءً وسمعةً،

فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها[1]، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١٤٦].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك أعمالًا طلب الله فيها التوبة فقط، وأعمالًا طلب فيها التوبة والإصلاح، وأعمالًا طلب فيها التوبة والإصلاح والبيان.

ثانيًا: اقتران التوبة بالاستغفار:

قرن الله سبحانه وتعالى بين التوبة والاستغفار على ألسنة رسله.

قال محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[هود: ٣].

وقال هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢].

وقال صالح عليه السلام: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[هود: ٦١].

وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٩٠].

الاستغفار: طلب وقاية شرّ ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله[2].

وقيل في العلاقة بينهما: التوبة: هي الرجوع إلى الله مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا؛ ندمًا على ما مضى، وتركًا في الحال، وعزمًا على أن لا يعود، والاستغفار: طلب المغفرة من الله، فإن اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذي رتّبت عليه المغفرة، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب، وهو بنفسه عبادة من العبادات، فهو دعاء عبادة، ودعاء مسألة[3].

(١) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٧.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٣٤٥
(٣) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ٢/ ٣٦٤.

التواب من أسماء الله تعالى

اشتقّ الله سبحانه وتعالى من التوبة اسمًا له، وهو التوّاب؛ دلالة على عظم التوبة وفضلها:

أولًا: معنى اسم الله التواب:

قال الطبري رحمه الله: «إن الله جل ثناؤه هو التوّاب على من تاب إليه من عباده المـذنبين من ذنوبه، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه»[(١)].

وجاء (توّاب) على أبنية المبالغة لقبوله توبة عباده، وتكرير الفعل منهم دفعة بعد دفعة، وواحدًا بعد واحد على طول الزمان، وقبوله عز وجل ممن يشاء أن يقبل منه؛ فلذلك جاء على أبنية المبالغة، فالعبد يتوب إلى الله عز وجل ويقلع عن ذنوبه، والله يقبل توبته. فالعبد تائب والله توّاب[(٢)].

وقال ابن القيم في نونيته[(٣)]:

وكذلك التوّاب من أوصافه
والتوّاب في أوصافه نوعان
إذن بتوبة عبده وقبولها
بعد المتاب بمنة المنان

ويقول السعدي رحمه الله: «فهو التائب على التائبين أولًا بتوفيقهم للتوبة، والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولًا لها، وعفوًا عن خطاياهم»[(٤)].

ثانيًا: الأسماء المقترنة باسمه التوّاب:

ورد اسم الله سبحانه وتعالى (التَّوَّاب) في إحدى عشرة آية في القرآن الكريم[(٥)]:

١. الرحيم.

اقترن اسم التواب باسم الرحيم في (٩) آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾[الحجرات: ١٢].

ومناسبة هذا الاقتران: أن توبة الله على عباده وتوفيقهم إليها ثم قبولها منهم، هو من آثار رحمته تعالى وبره وإحسانه.

قال الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١١٨]: «إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفق من أحب توفيقه منهم

(١) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٨٧
(٢) اشتقاق أسماء الله، ص ٦٢.
(٣) الكافية الشافية، ابن القيم ص٢٠٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٦.
(٥) المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٣٧٠.

لما يرضيه عنه، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه»[1].

وقال السعدي رحمه الله: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية»[2].

٢. الحكيم.

اقترن اسم التواب باسم الحكيم مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[النور: ١٠].

فهو ﴿تَوَّابٌ﴾ يقبل العاصين منكم، ويردّهم إلى دائرة المؤمنين الصالحين، إذا هم تابوا وأصلحوا، وهو سبحانه: ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حدّ من حدود ورصد من عقوبات، للمعتدين على حدوده[3].

وفي ذكر وصف ﴿حَكِيمٌ﴾ هنا مع وصف ﴿تَوَّابٌ﴾ إشارةٌ إلى أن في هذه التوبة حكمة، وهي استصلاح الناس[4].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٥٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٤.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٢٢٦.
(٤) التحرير والتنوير، ١٨/ ١٣٥.

مجالات التوبة

تنوّعت مجالات التوبة وتنوّعت معها شروطها. وشرط التوبة من ذنب هي فعل ضده، فشرط توبة المشرك: الإيمان؛ لأن ذنبه الإشراك، وشرط توبة المنافق الإخلاص؛ لأن ذنبه الرياء، وشرط توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى: البيان، وتوبة القاذف إكذابه نفسه؛ لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف.

وسوف نوضّح مجالات التوبة فيما يلي:

أولًا: التوبة عن الشرك والكفر:

أرسل الله الأنبياء والرسل لدعوة أقوامهم إلى التوبة من الشرك والكفر، بأمرهم بالاستغفار من الشرك ثم بالتوبة من بعده:

قال هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ٥٢].

أي: آمنوا به حتى يغفر لكم ذنوبكم. والاستغفار: هو الإيمان بالله في هذا الموضع؛ لأن هودًا عليه السلام إنما دعا قومه إلى توحيد الله؛ ليغفر لهم ذنوبهم، ثم توبوا إلى الله من سالف ذنوبكم وعبادتكم غيره بعد الإيمان به[5].

(٥) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٤٤.

والذنب الذي طلب هود عليه السلام قومه التوبة منه هو ذنب الشرك، قال أبو بكر الأصم: «استغفروا: أي سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم، ثم توبوا من بعده بالندم على ما مضى، وبالعزم على أن لا تعودوا إلى مثله»[1].

وقال صالح عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾[هود: ٦١].

«اعملوا عملًا يكون سببًا لستر الله عليكم ذنوبكم، وذلك الإيمان به، وإخلاص العبادة له دون ما سواه واتباع رسوله صالح، ثم اتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم إلى ما يرضاه ويحبه، إن ربي قريب ممن أخلص له العبادة ورغّب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه»[2].

ويظهر من ختام الآية بجملة: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ أنهم استعظموا أن يكون جرمهم مما يقبل الاستغفار عنه، فطمأنهم صالح عليه السلام إلى استجابته سبحانه وتعالى لتوبتهم إذا تابوا وقبولها منهم.

ويستفاد من الآيات أنه: يجب على كل داعٍ إلى الله أن يحبّب عباد الله إلى خالقهم، ويبشّرهم بحبه سبحانه لتوبتهم واستجابته ممن تاب إليه.

وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: ٩٠].

واستغفروا ربكم من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ أي: لمن تاب وأناب[3]. ويستفاد من الآية: أن الله شديد المحبة لمن يتقرب إليه بالتوبة.

وأخبر سبحانه وتعالى أن الذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي، ثم رجعوا من بعد فعلها إلى الإيمان والعمل الصالح، فإنه سبحانه وتعالى من بعد التوبة النصوح لغفور لأعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الأعراف: ١٥٣].

هذا خبر من الله تعالى ذكره أنه قابل من كل تائب إليه من ذنب أتاه صغيرة كانت معصيته أو كبيرة، كفرًا كانت أو غير كفر، كما قبل من عبدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل، وارتدادهم عن دينهم[4].

ويستفاد من الآية: أنه سبحانه وتعالى يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/ ٣٦٣.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٥٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٢٩٧.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٤٦٥.

وأخبر سبحانه وتعالى إن رجع المشركون عن كفرهم، ودخلوا الإسلام، والتزموا شرائعه من إقام الصلاة وإخراج الزكاة، فاتركوهم، فقد أصبحوا إخوانكم في الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ٥].

﴿فَإِن تَابُوا﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقيها ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه، للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه[(١)].

ورغّب سبحانه وتعالى المشركين في التوبة، ورهّبهم من الاستمرار على الشرك، فقال: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: ٣].

«يقول تعالى: فإن تبتم من كفركم أيها المشركون، ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، فالرجوع إلى ذلك خير لكم من الإقامة على الشرك في الدنيا والآخرة، وإن أدبرتم عن الإيمان بالله وأبيتم إلا الإقامة على شرككم، فأيقنوا أنكم لا تفيتون الله بأنفسكم من أن يحل بكم عذابه الأليم وعقابه الشديد على إقامتكم على الكفر، كما فعل بذويكم من أهل الشرك، من إنزال نقمه به وإحلاله العذاب عاجلًا بساحته، وأعلم يا محمد الذين جحدوا نبوتك وخالفوا أمر ربهم بعذاب موجع يحل بهم»[(٢)].

والترغيب والترهيب في آية البراءة يشيران إلى أن المنهج الإسلامي منهج هداية قبل كل شيء، فهو يتيح للمشركين هذه المهلة لا لمجرد أنه لا يحب أن يباغتهم ويفتك بهم متى قدر- كما كان الشأن في العلاقات الدولية ولا يزال!- ولكنه كذلك يمهلهم هذه المهلة للتروي والتدبر، واختيار الطريق الأقوم، ويرغّبهم في التوبة عن الشرك والرجوع إلى الله، ويرهّبهم من التولي، وييئسهم من جدواه، وينذرهم بالعذاب الأليم في الآخرة فوق الخزي في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢٩.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٣٤٠.

الدنيا. ويوقع في قلوبهم الزلزلة التي ترجها رجًّا، لعل الركام الذي ران على الفطرة أن ينفض عنها، فتسمع وتستجيب![1].

ثانيًا: التوبة عن النفاق:

استثنى الله سبحانه وتعالى من الوعيد بالدرك الأسفل من النار من آمن من المنافقين، وأصلح حاله، واعتصم بالله دون الاعتزاز بالكافرين، وأخلص دينه لله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشرّ الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق إلا من منّ الله عليهم بالتوبة من السيئات، وأصلحوا له الظواهر والبواطن، والتجأوا إلى الله في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾ فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وتأمل كيف خصّ الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾؛ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح؛ لشدة الحاجة إليهما خصوصًا في هذا المقام الحرج، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيًا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأن هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبدئ فيها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٩٩.

ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتّب عليه ثوابًا أو عقابا وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتّب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم[1].

والمتدبر لآيات التوبة في مواضعها في القرآن يلحظ أنه «كان يكتفي بأن يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله، ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله؛ لأنه يواجه نفوسًا تذبذبت، ونافقت، وتولت غير الله، فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح، على التجرد لله، والاعتصام به وحده، وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة، وتلك الأخلاق المخلخلة.. ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك، وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد.

بذلك تخف تلك الثقلة التي تهبط بالمنافقين في الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض، وتهبط بهم في الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار.

وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصاف المؤمنين المعتزين بعزة الله وحده، المستعلين بالإيمان، المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان»[2].

وأخبر سبحانه وتعالى عن المنافقين أنهم إذا رجعوا إلى الإيمان والتوبة فهو خير لهم، وإن يعرضوا، أو يستمروا على حالهم، يعذّبهم الله العذاب الموجع في الدنيا على أيدي المؤمنين، وفي الآخرة بنار جهنم.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ٧٤].

قال أبو جعفر: «اختلف أهل التأويل في الذي نزلت فيه هذه الآية، والقول الذي كان قاله، الذي أخبر الله عنه أنه يحلف بالله ما قاله، ثم قال: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن المنافقين أنهم يحلفون بالله كذبًا على كلمة كفر تكلموا بها أنهم لم يقولوها، وجائز أن يكون ذلك القول ما روي عن عروة أن الجلاس قاله، وجائز أن يكون قائله عبد الله بن أبي بن سلول، والقول ما ذكره قتادة عنه أنه قال، ولا علم لنا بأن ذلك من أيٍّ؛ إذ كان

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٨٥.

لا خبر بأحدهما يوجب الحجة ويتوصل به إلى يقين العلم به، وليس مما يدرك علمه بفطرة العقل، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله جل ثناؤه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[التوبة: ٧٤]»[(١)].

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة رفقًا بهم ولطفًا بالرغم من أفعالهم العظيمة، فقال تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[التوبة: ٧٤].

فإن يتب هؤلاء القائلون كلمة الكفر من قيلهم الذي قالوه فرجعوا عنه، يك رجوعهم وتوبتهم من ذلك خيرًا لهم من النفاق، وإن يدبروا عن التوبة فيأبوها، ويصروا على كفرهم يعذّبهم عذابًا موجعًا في الدنيا، إما بالقتل، وإما بعاجل خزي لهم فيها، ويعذّبهم في الآخرة بالنار[(٢)].

وفي الآية دلالة أنه لا يحصل الخير إلا عند التوبة؛ لأن التوبة أصل السعادة في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: التوبة عن المعاصي:

أخبر سبحانه وتعالى أن العبد إذا تاب من أمهات الكبائر: الشرك والقتل والزنا، وفّقه للتوبة وقبلها منه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[الفرقان: ٦٨-٧١].

روى مسلم بسنده، عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ ناسًا من أهل الشّرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثمّ أتوا محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا: إنّ الّذي تقول وتدعو لحسنٌ، ولو تخبرنا أنّ لما عملنا كفّارةً، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[(٣)].

ومعنى الآية: «والذين لا يعبدون مع الله إلها آخر فيشركون فى عبادتهم إياه، بل يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة، ولا يقتلون النفس بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها، كالكفر بعد الإيمان، والزنا بعد الإحصان، وقتل النفس بغير حق، ولا يأتون ما حرّم الله عليهم إتيانه من الفروج، ومن يفعل خصلة من خصال الفجور السالفة، يلق في الآخرة

(١) جامع البيان، ١١/ ٥٧٢.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٥٧٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحجّ، ١/ ٣٠٥، رقم ١٧٤.

جزاء إثمه وذنبه الذي ارتكبه، بل سيضاعف له ربه العذاب يوم القيامة ويجعله خالدا أبدًا في النار مع المهانة والاحتقار، فيجتمع له العذاب الجسمي والعذاب الروحي. وبعد أن أتم تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه بترغيب الأبرار في التوبة والرجوع إلى حظيرة المتقين فيفوزون بجنات النعيم، فقال: لكن من رجع عن هذه الآثام مع إيمانه وعمله الصالحات فأولئك يمحو الله سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت لهم لواحق طاعته، ومن تاب عن المعاصي التي فعلها، وندم على ما فرط منه، وزكى نفسه بصالح الأعمال، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحًا، مقبولة لديه، ماحية للعقاب، محصلة لجزيل الثواب، إلى أنه ينير قلبه بنور من عنده يهديه إلى سواء السبيل، ويوفقه للخير، ويبعده عن الضير»[1].

❁ التوبة من القتل خطأ.

أخبر سبحانه وتعالى بأنه لا يحق لمؤمن الاعتداء على أخيه المؤمن وقتله بغير حق، إلا أن يقع منه ذلك على وجه الخطأ الذي لا عمد فيه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ٩٢].

اختلف المفسرون فيمن نزلت: منهم من قال: نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتيله.

قال السدي: «نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي، فكان أخًا لأبي جهل بن هشام لأمه، وإنه أسلم وهاجر في المهاجرين الأولين قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطلبه أبو جهل والحارث بن هشام ومعهما رجل من بني عامر بن لؤي، فأتوه بالمدينة، وكان عياش أحب إخوته إلى أمه، فكلّموه وقالوا: إن أمك قد حلفت أن لا يظلها بيت حتى تراك وهي مضطجعة في الشمس، فأتها لتنظر إليك ثم ارجع.

وأعطوه موثقًا من الله لا يحجزونه حتى يرجع إلى المدينة، فأعطاه بعض أصحابه بعيرًا له نجيبًا، وقال: إن خفت منهم شيئًا فاقعد على النجيب، فلما أخرجوه من المدينة أخذوه فأوثقوه، وجلده العامري، فحلف ليقتلن العامري. فلم يزل محبوسًا بمكة حتى خرج يوم الفتح، فاستقبله العامري وقد أسلم ولا يعلم عياش بإسلامه، فضربه فقتله، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن

(١) تفسير المراغي، ١٩/ ٤٠.

﴿يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ يقول: وهو لا يعلم أنه مؤمن ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ فيتركوا الدية»[1].

وقال آخرون: نزلت في أبي الدرداء: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ الآية. قال: نزل هذا في رجل قتله أبو الدرداء كانوا في سرية، فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له، فوجد رجلًا من القوم في غنم له، فحمل عليه بالسيف، فقال: لا إله إلا الله قال: فضربه ثم جاء بغنمه إلى القوم. ثم وجد في نفسه شيئًا، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا شققت عن قلبه؟) فقال: ما عسيت أجد. هل هو يا رسول الله إلا دم أو ماء؟ قال: (فقد أخبرك بلسانه، فلم تصدّقه) قال: كيف بي يا رسول الله؟ قال: (فكيف بلا إله إلا الله؟) قال: فكيف بي يا رسول الله؟ قال: (فكيف بلا إله إلا الله؟) حتى تمنيت أن يكون ذلك مبتدأ إسلامي. قال: ونزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ حتى بلغ: ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾

قال الطبري رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عرّف عباده بهذه الآية ما على من قتل مؤمنًا خطأ من كفارة ودية. وجائز أن تكون الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتيله، وفي أبي الدرداء وصاحبه. وأي ذلك كان: فالذي عنى الله تعالى بالآية تعريف عباده ما ذكرنا، وقد عرف ذلك من عقل عنه من عباده تنزيله، وغير ضائرهم جهلهم بمن نزلت فيه»[2].

ومعنى الآية: «على القاتل الخطأ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء، ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ جبرًا لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما ترك.

وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أي: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية، فإنها

(١) جامع البيان، ٧/ ٣٠٨.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٣١٠.

تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية؛ لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم ﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم. ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم، وتكفيرًا لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان[1].

❁ التوبة من الذنوب.

أخبر الله سبحانه أنه يقبل التوبة من الذين يرتكبون المعاصي والذنوب بجهل منهم لعاقبتها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٧].

المعنى: ما التوبة على الله لأحد من خلقه إلا للذين يأتون ما يأتونه من ذنوبهم جهالة منهم وهم بربهم مؤمنون، ثم يراجعون طاعة الله ويتوبون منه إلى ما أمرهم الله به من الندم عليه والاستغفار، وترك العود إلى مثله من قبل نزول الموت بهم[2]، فالله سبحانه لا يطارد عباده الضعاف، ولا يطردهم متى تابوا إليه وأنابوا. وهو سبحانه غني عنهم، وما تنفعه توبتهم، ولكن تنفعهم هم أنفسهم، وتصلح حياتهم وحياة المجتمع الذي يعيشون فيه. ومن ثمّ يفسح لهم في العودة إلى الصف تائبين متطهرين[3].

وأجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل معصية هي بجهالة عمدًا كانت أو جهلًا[4].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٠٧.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠٤.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٤.

قبول التوبة لا يجب على الله عقلًا، وأما من جهة السمع فتضافرت ظواهر الآي والسنة على قبول الله التوبة، وأفادت القطع بذلك[1].

اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وذهب الجمهور إلى أنها تصح من ذنب دون ذنب؛ خلافًا للمعتزلة[2].

❁ التوبة من الربا.

أخبر سبحانه وتعالى أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

أي: عقاب شديد من نوع الحروب، فإنّ الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص يقدر الإمام عليه قبض عليه وأجرى عليه حكم الله: من التعزير والحبس، إلى أن تظهر منه التوبة، وإن كان له عسكر وشوكة حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية، وكما حارب أبو بكر رضي الله عنه مانعي الزكاة[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ يعني إن تركتم الربا وتبتم إلى الله منه، وقد عاقدتم عليه، فإنما لكم رؤوس أموالكم، لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها فيظلمكم من أخذها[4].

❁ التوبة عن السرقة.

أخبر سبحانه وتعالى أنه من تاب من بعد سرقته، وأصلح في كل أعماله، فإن الله يقبل توبته.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨-٣٩].

يقول جل ثناؤه: من رجع من هؤلاء السراق عما يكرهه الله من معصيته إياه إلى ما يرضاه من طاعته من بعد ظلمه، وظلمه: هو اعتداؤه وعمله ما نهاه الله عنه من سرقة أموال الناس، وأصلح نفسه بحملها على مكروهها في طاعة الله والتوبة إليه مما كان عليه من معصيته، فإن الله عزو جل يرجعه إلى ما يحب ويرضى عما يكرهه ويسخط من معصيته، إن الله -عز ذكره- ساتر على من تاب وأناب عن معاصيه إلى طاعته ذنوبه

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٦٠
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٥٠٥.
(٣) تفسير آيات الأحكام، السايس، ص١٨٠.
(٤) التفسير القيم، ابن القيم، ص١٧٥.

بالعفو عن عقوبته عليها يوم القيامة، وتركه فضيحته بها على رؤوس الأشهاد، رحيم به وبعباده التائبين إليه من ذنوبهم[(١)].

قال الشافعي: «إذا تاب السارق قبل أن يتلبس الحاكم بأخذه، فتوبته ترفع عنه حكم القطع قياسًا على توبة المحارب»[(٢)]. «فأما أموال الناس فلابد من ردّها إليهم أو بدلها عند الجمهور»[(٣)]، أو الاستحلال منها[(٤)].

رابعًا: التوبة عن التقصير:

المؤمن الحق لا يمكنه القطع أنه أتى بالعبادات كما ينبغي، فخوف التقصير ملازم له طالما فيه عين تطرف، وقلب ينبض، وقد يحدث التقصير: إما على سبيل السهو، أو على سبيل ترك الأولى.

وهذا الخلق من شيم الكرماء، يأتون بأبلغ وجوه الكرم ويستقلونه، ويعتذرون من التقصير، وفي قمة هؤلاء: الأنبياء عليهم السلام، والصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وقد ذكر الله لنا أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام طلبا التوبة بالرغم من أنهما قاما ببناء قواعد البيت بتكليف إلهي، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨].

عن وهيب بن الورد أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧].

ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن، وأنت مشفق أن لا يتقبل منك[(٥)].

وقال تعالى عن رحمته بالنبي والمهاجرين والأنصار: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١١٧].

قال ابن عطية رحمه الله: «التوبة من الله رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر رجوعًا من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله، وأما توبته على «المهاجرين والأنصار» فحالها معرضة، لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجدٍّ في الغزو ونصرة الدين، وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من حالة محطوطة إلى حال غفران ورضا»[(٦)].

(١) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٤١١.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٠٠.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٥٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٠٢.
(٦) المحرر الوجيز، ٣/ ٩٢.

هذا وقد حكى الله تعالى لنا عن حال المؤمنين الخلّص في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم وجلة[(١)].

في الآيات: دلالة على أنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى الأنبياء عليهم السلام والمهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، والخلّص من المؤمنين.

خامسًا: التوبة عن كتمان العلم:

أخبر سبحانه وتعالى أن من شروط قبول توبة كاتم العلم أن يصلح ما أفسده، وأن يبيّن ما كتمه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٥٩-١٦٠].

أي: إن أهل الكتاب الذين كتموا أمر الإسلام وأمر محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل بيّنًا واضحًا، يستحقون الطرد والبعد من رحمة الله، ويستوجبون بأعمالهم الدعاء عليهم باللعن من الملائكة والناس أجمعين. وحكم هذه الآية شامل لكل من كتم علمًا فرض الله بيانه للناس، ومن هنا ترى أن الذي يرى حرمات الله تنتهك أمام عينيه، والدين يداس جهارًا بين يديه، ويرى البدع تمحو السنن، والضلال يغشى الهدى، ثم هو لا ينتصر بيد ولا لسان، يكون ممن يستحق وعيد الآية.

ثم استثنى سبحانه وتعالى من الوعيد من تاب إليه: فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إلا من أناب عن كتمانه، وراجع التوبة بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وأقرّ بنبوته، وصدّق ما جاء به من عند الله، وأصلح حال نفسه بالتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، وبيّن ما علم من وحي الله إلى أنبيائه، وما عهد إليهم في كتبه، فلم يكتمه ولم يخفه، فهؤلاء يتوب الله عليهم، ويفيض عليهم مغفرته تفضّلًا منه ورحمة، وهو الذي يرجع قلوب عباده المنصرفة عنه ويردّها إليه بعد إدبارها عن طاعته، وهو الرّحيم بالمقبلين عليه يتغمدهم برحمته ويشملهم بعفوه، ويصفح عما كانوا اجترحوا من السيئات. وفي الآية: ترغيب للقلوب الواعية التي تخاف سخط الله وشديد عقابه في التوبة عما فرط من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٠٢.

الذنوب، وطرد لليأس من رحمة الله مهما ثقلت الذنوب وكثرت الآثام[1].

وفي هذه الآية: دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه[2]، وتوبته أن يبيّن للناس أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، ولا يكفي اعترافه وحده أو في خلواته.

قال ابن عاشور رحمه الله: «فالعالم يحرم عليه أن يكتم من علمه ما فيه هدى للناس؛ لأن كتم الهدى إيقاع في الضلالة، سواء في ذلك العلم الذي بلغ إليه بطريق الخبر كالقرآن والسنة الصحيحة، والعلم الذي يحصل عن نظر كالاجتهادات إذا بلغت مبلغ غلبة الظن بأن فيها خيرًا للمسلمين، ويحرم عليه بطريق القياس الذي تومىء إليه العلة أن يبثّ في الناس ما يوقعهم في أوهام بأن يلقّنها وهو لا يحسن تنزيلها ولا تأويلها، وكذلك كل ما يعلم أن الناس لا يحسنون وضعه»[3].

(١) تفسير المراغي، ٢/ ٢٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٤٣.
(٣) التحرير والتنوير، ٢/ ٧٢.

قبول التوبة

أخبر سبحانه وتعالى أنه غافر الذنب للمذنبين، وقابل التوب من التائبين، قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[غافر: ٣].

عطف قابل التوب على صفة غافر الذنب؛ لإفادة أنه يجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعة، وبين أن يمحو عنه بها الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها، فيصبح كأنه لم يفعلها. وهذا فضل من الله[4].

وأخبر الله سبحانه وتعالى أنه هو وحده الذي يقبل التوبة عن عباده إذا رجعوا إلى توحيده وطاعته.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾[التوبة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾[الشورى: ٢٥].

يقول تعالى ذكره: والله الذي يقبل مراجعة العبد إذا رجع إلى توحيد الله وطاعته من بعد كفره، ويعفو أن يعاقبه على سيئاته من الأعمال، وهي معاصيه التي تاب منها، ويعلم ربكم أيها الناس ما تفعلون من خير وشر، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم على كل ذلك جزاءه، فاتقوا

(٤) المصدر السابق ٢٤/ ٨٠.

الله في أنفسكم، واحذروا أن تركبوا ما تستحقون به منه العقوبة[1]. ومن الحكمة في استخدام الحرف (عن) بدلًا من (من) في قوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ أن التوبة التي يقبلها الله من عباده تضع عنهم ما حمّلوا به من أوزار، وما أثقل كاهلهم من ذنوب، فكان في قبول التوبة منهم رفع لهذه الآثام عنهم، ولهذا ضمّن الفعل (يقبل) معنى الفعل يضع، أو يسقط.. ونحو هذا، كما نظر إلى التوبة على أنها شيء محمّل بالذنوب والآثام؛ لأن التوبة لا تكون إلا عن ذنب وقع، أو إثم اقترف.. فكان قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعني: ألم يعلموا أن الله يضع الذنوب والآثام عن عباده[2].

شروط قبول التوبة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

ذكرت الآية لقبول التوبة قيدين: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ و﴿مِن قَرِيبٍ﴾.

والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية، وهي ما قابل الحلم؛ ولذلك تطلق الجهالة على الظلم. قال عمرو بن كلثوم[3]:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال تعالى حكاية عن يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

والمراد هنا ظلم النفس[4]. وعلى ذلك فالجهالة: سفاهة وقلة تحصيل أدى إلى المعصية[5].

وقوله: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ إلى وقت الذنب، ومدة الحياة كلها.

وجمهور المفسرين على أنها التوبة قبل المعاينة، قال عكرمة: قبل الموت، وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت، وقال السدي والكلبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته[6].

وقد روى الترمذي بسنده عن ابن عمر، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ اللّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[7].

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٥٠٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ٦/ ٨٩٠.
(٣) البيت من معلقته المشهورة.
انظر: ديوان عمرو بن كلثوم ص ٧٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٧٨.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٤.
(٦) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٩٥.
(٧) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدّعوات، باب إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، رقم ٣٥٣٧.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٠٣.

وإنما صحت التوبة من العبد في هذا الوقت؛ لأن الرجاء فيه باقٍ، ويصح منه الندم، والعزم على ترك الفعل[1].

ولا خلف في وعده سبحانه وتعالى على قبول توبة العبد «إذا كانت بشروطها المصححة لها، وهي أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من الله تعالى لا من غيره، فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة. وقد قيل من شروطها: الاعتراف بالذنب وكثرة الاستغفار»[2].

عدم قبول التوبة:

أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يكون قبول التوبة من الذين يصرّون على ارتكاب المعاصي، ولا يرجعون إلى ربهم إلى أن تأتيهم سكرات الموت، ولا تقبل توبة الذين يموتون وهم كافرون.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء: ١٨].

يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ من أهل الإصرار على معاصي الله، ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ يقول: إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاين ملائكة ربه قد أقبلوا إليه لقبض روحه قال: وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه بشغله بكرب حشرجته وغرغرته: ﴿إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾، يقول: فليس لهذا عند الله تبارك وتعالى توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة[3].

وسنة الله عز وجل أن العبد إذا عاين الانتقال الى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع[4]؛ وذلك أن التوبة في هذه الحاله توبة المضطر، لجّت به الغواية، وأحاطت به الخطيئة، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب، ولا فسحة لمقارفة الخطيئة. وهذه لا يقبلها الله؛ لأنها لا تنشيء صلاحًا في القلب ولا صلاحًا في الحياة، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه.

﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، وهؤلاء قد قطعوا كل ما بينهم وبين التوبة من وشيجة، وضيّعوا كل ما بينهم وبين المغفرة من فرصة[5].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يقبل التوبة عندما يأتي بعض أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على مجيئها، وهي طلوع الشمس

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٩١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥١٦.
(٤) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨٣.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٦٠٤

من مغربها، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقلع عما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥][1].

قال جمهور أهل التأويل: الآية التي لا تنفع التوبة من الشرك أو من المعاصي بعدها، هي طلوع الشمس من المغرب[2].

وقد روى البخاري بسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم السّاعة حتّى تطلع الشّمس من مغربها، فإذا رآها النّاس آمن من عليها، فذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾)[3].

ومن نماذج الذين لم تقبل توبتهم عند المعاينة: فرعون، قال تعالى في وصف فرعون: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١]، فلم يقبل الله توبته عند مشاهدة العذاب[4].

ومن استمر على ذنوبه وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفاتٍ راسخةً، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة، والغالب أنه لا يوفّق للتوبة، ولا ييسّر لأسبابها، الذي يعمل السوء على علم تام ويقين وتهاون بنظر الله إليه، فإنه سدّ على نفسه باب الرحمة[5].

وقوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ﴾ تنبيهٌ على نفي القبول عن نوع من التوبة، وهي التي تكون عند اليأس من الحياة[6].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨١.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الأنعام، باب لا ينفع نفس إيمانها، ١٤/ ١٧٤، رقم ٤٢٦٩.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٧١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٨٠.

نماذج من التائبين في القرآن

أولًا: الأنبياء:

١. توبة آدم عليه السلام.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن آدم عصاه بأكله من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[طه: ١٢١].

ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه وفّق آدم إلى التوبة؛ وذلك بإلهامه قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

فتلقاها آدم بالقبول، فتاب الله عليه، وغفر له ذنبه، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٧].

أي: استقبلها بالأخذ والقبول، والعمل بها حين علمها، ووفّق لها[(١)].

القراءات في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾:

قرأ ابن كثير: (فتلقى آدم) بالنصب (كلماتٌ) بالرفع، جعل الفعل للكلمات؛ لأنها تلقت آدم عليه السلام، وحجته أن العرب تقول: تلقيت زيدًا، وتلقاني زيد، والمعنى واحد؛ لأن من لقيته فقد لقيك، وما نالك فقد نلته.

وقرأ الباقون: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ رفع بفعله؛ لأنه تلقى من ربه الكلمات، أي أخذها منه وحفظها وفهمها، والعرب تقول: تلقيت هذا من فلان، المعنى: إن فهمي قبلها منه، وحجتهم ما روي في التفسير في تأويل قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي قبلها، فإذا كان آدم القابل، فالكلمات مقبولة[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تأكيد فائدته أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله، لا من العبد وحده؛ لئلا يعجب التائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه[(٣)].

والتعقيب بالرحيم؛ لأن الرحيم جارٍ مجرى العلة للتواب؛ إذ قبوله التوبة عن عباده ضرب من الرحمة بهم[(٤)].

٢. توبة نوح عليه السلام.

أخبر سبحانه وتعالى عن توبة نوح عليه السلام في مسألته ربه عن ابنه.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ٩٢.

(٢) حجة القراءات، ابن زنجلة ص٩٤- ٩٥.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٣١.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٣٩.

أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[هود: ٤٥-٤٧].

«يقول تعالى ذكره مخبرًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم عن إنابة نوح عليه السلام بالتوبة إليه من زلته في مسألته التي سألها ربه في ابنه، قال: رب إني أستجير بك أن أتكلف مسألتك، مما قد استأثرت بعلمه، وطويت علمه عن خلقك، فاغفر لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك أكن من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها وهلكوا»[1]. فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة، على ما صدر منه.

ودلت الآية على أن نوحًا عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرّم، داخل في قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: ﴿أَهْلِكَ﴾، وبعد ذلك تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم، والمراجعة فيهم[2].

٣. توبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

أخبر سبحانه وتعالى عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أنهما دعوا الله أن يتوب عليهما.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قال الطبري رحمه الله: «فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟ قيل: إنه ليس أحد من خلق الله إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة. فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالا من ذلك، وإنما خصا به الحال التي كانا عليها من رفع قواعد البيت؛ لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما، وليجعلا ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصل من الذنوب إلى الله»[3].

وقال السعدي رحمه الله: «ولما كان العبد -مهما كان- لابد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾»[4].

٤. توبة موسى عليه السلام.

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه تاب على موسى عليه السلام من مسألته الرؤية في هذه الحياة الدنيا.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٣٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٨٢.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٧٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٦.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أي: من أن أسألك الرؤية في الدنيا وأنت لا تبيحها[١]، أو إني تبت إليك من سؤال الرؤية بغير إذنك، وأنا أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا، أو يقال: وأنا أول المؤمنين بأنه لا يجوز السؤال منك الا بإذنك[٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: «ولا نشك في أنه سأل رؤية تليق بذات الله تعالى، وهي مثل الرؤية الموعود بها في الآخرة، فكان موسى عليه السلام يحسب أن مثلها ممكن في الدنيا، حتى أعلمه الله بأن ذلك غير واقع في الدنيا، ولا يمتنع على نبي عدم العلم بتفاصيل الشؤون الإلهية قبل أن يعلّمها الله إياه؛ ولذلك كان أئمة أهل السنة محقين في الاستدلال بسؤال موسى رؤية الله على إمكانها بكيفية تليق بصفات الإلهية، لا نعلم كنهها، وهو معنى قولهم: «بلا كيف»، وكان المعتزلة غير محقين في استدلالهم بذلك على استحالتها بكل صفة»[٣].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٥٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ٣٥٩.
(٣) التحرير والتنوير، ٩/ ٩١.

٥. توبة داود عليه السلام.

ذكر الله تعالى نبأ خصمين اختصما عند داود في قضية جعلها الله فتنة له، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه، وغفر له، وقيّض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ٢٤ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٢١-٢٥].

فسأل داود ربه غفران ذنبه، وخرّ ساجدًا لله، ورجع إلى رضا ربه، وتاب من خطيئته[٤]، وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها[٥].

(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٦٤.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي

٦. توبة يونس عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ -٨٨].

أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون وهو: يونس، أي: صاحب النون، وهو الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمد سمّاه لهم، فجاءهم العذاب ورأوه عيانًا، فعجّوا إلى الله، وضجّوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾[يونس: ٩٨].

وقال: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الصافات١٤٧-١٤٨].

وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام، ذهب مغاضبًا، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب، التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها؛ لقوله: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾[الصافات: ١٤٠].

﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾[الصافات: ١٤٢].

أي: فاعل ما يلام عليه، وظن أن الله لا يضيّق عليه في بطن الحوت، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، من يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابت القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأقرّ لله تعالى بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص، وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنايته، ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ أي الشدة التي وقع فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف لإيمانه كما فعل بـيونس عليه السلام[1].

ثانيًا: التوبة على الثلاثة الذين خلّفوا:

أخبر سبحانه وتعالى عن توبته على الثلاثة الذين خلّفوا من الأنصار، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

ص٧١١.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٩.

يخبر سبحانه وتعالى عن الثلاثة الذين خلّفوا عن غزوة تبوك -وهم كعب بن مالك، وهلال بن أميّة، ومرارة بن الربيع- حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بسعتها غمًا وندمًا على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضاقت عليهم أنفسهم بما نالهم من الوجد والكرب بذلك، وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجئون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء بتخلفهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينجّيهم من كربه، ولا مما يحذرون من عذاب الله إلا الله. ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته، والرجوع إلى ما يرضيه عنهم؛ لينيبوا إليه ويرجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه، إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفّق من أحب توفيقه منهم لما يرضيه عنه، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه[1].

قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عز وجل ؛ ليكون ذلك منبّهًا على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي عن المذنب، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ ليكون هذا أشد تقريرًا للذنب عليهم، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومعجز اتساقه.. وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك؛ لأن الشرع يطلبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدّمهم فيه؛ إذ هم أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين، إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر. وفي هذا ما يقتضي أن الرجل العالم والمقتدى به أقل عذرًا في السقوط من سواه[2].

وفي الآية: دليل على أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد.

وقد ذكر البخاري في صحيحه حديث كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم، عن عبد الرّحمن بن عبد اللّه بن كعب بن مالكٍ عن أبيه قال: سمعت أبي كعب بن مالكٍ وهو أحد الثّلاثة الّذين تيب عليهم أنّه لم يتخلّف عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في غزوةٍ غزاها قطّ غير غزوتين، غزوة العسرة، وغزوة بدرٍ، قال: فأجمعت صدقي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ضحًى، وكان قلّما يقدم من سفرٍ سافره إلّا ضحًى، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين، ونهى النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن كلامي وكلام صاحبيّ، ولم ينه عن كلام أحدٍ من المتخلّفين غيرنا، فاجتنب النّاس كلامنا،

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٥٤.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٩٤.

فلبثت كذلك حتّى طال عليّ الأمر، وما من شيءٍ أهمّ إليّ من أن أموت فلا يصلّي عليّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم، أو يموت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فأكون من النّاس بتلك المنزلة، فلا يكلّمني أحدٌ منهم ولا يصلّي ولا يسلّم عليّ، فأنزل اللّه توبتنا على نبيّه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثّلث الآخر من اللّيل، ورسول اللّه صلى الله عليه وسلم عند أمّ سلمة، وكانت أمّ سلمة محسنةً في شأني معنيّةً في أمري، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (يا أمّ سلمة، تيب على كعبٍ). قالت: أفلا أرسل إليه فأبشّره، قال: (إذًا يحطمكم النّاس فيمنعونكم النّوم سائر اللّيلة). حتّى إذا صلّى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر آذن بتوبة اللّه علينا وكان إذا استبشر استنار وجهه حتّى كأنّه قطعةٌ من القمر، وكنّا أيّها الثّلاثة الّذين خلّفوا عن الأمر الّذي قبل من هؤلاء الّذين اعتذروا حين أنزل اللّه لنا التّوبة، فلمّا ذكر الّذين كذبوا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم من المتخلّفين واعتذروا بالباطل ذكروا بشرّ ما ذكر به أحدٌ، قال اللّه سبحانه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾[1].

ثالثًا: توبة حفصة وعائشة رضي الله عنهما:

أخبر سبحانه وتعالى عن حفصة وعائشة رضي الله عنهما أنه وجد منهما ما يوجب التوبة حيث مالت قلوبهما إلى محبة ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم، من إفشاء سرّه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[التحريم: ٣-٤].

«يقول تعالى ذكره: إن تتوبا إلى الله أيتها المرأتان فقد مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم من اجتنابه جاريته، وتحريمها على نفسه، أو تحريم ما كان له حلالًا مما حرمه على نفسه بسبب حفصة»[2].

فلما سمعن -رضي الله عنهن- هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة براءة، ١٤/ ٢٤٨، رقم ٤٣٠٩.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٩٣.

الأسلوب القرآني في الحث على التوبة

تنوعت أساليب القرآن في الحث على التوبة على النحو الآتي:

أولًا: أسلوب الطلب:

قال تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في طلبهما التوبة من الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ استتابة لذريتهما وحكايتها عنهما لترغيب الكفرة في التوبة والإيمان، أو توبةٌ لهما عما فرط منهما سهوًا، قالاه هضمًا لأنفسهما وإرشادًا لذريتهما، ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وهو تعليلٌ للدعاء، ومزيد استدعاء للإجابة، قيل: إذا أراد العبد أن يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاته[(١)].

ففي هذا الدعاء إرشاد للمؤمنين للاقتداء بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في طلب التوبة من الله تعالى.

ثانيًا: أسلوب الأمر:

قال تعالى آمرًا عباده بالتوبة مما يقع منهم من تقصير: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٦١.

أي: وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم، من غضّ البصر، وحفظ الفرج، وترك دخول بيوت غير بيوتكم من غير استئذان ولا تسليم، وغير ذلك من أمره ونهيه[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا﴾ أمر. ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها، وأنها فرض من فرائض الدين[(٣)].

وهو دعوة للمؤمنين والمؤمنات إلى التوبة إلى الله، والرجوع إليه من قريب؛ حيث إن الإنسان في هذه المواقف معرّض للزلل والعثار، من خطرات نفسه، أو نظرات عينه، أو فحش لسانه، إلى غير هذا مما لا يكاد يسلم منه أحد، وليس لهذا من دواء إلا التوبة إلى الله من كل زلّة أو عثرة.. فإن هذه التوبة هي التي تصحّح للمؤمن إيمانه، وتبقي على ما في قلبه من جلال وخشية لله رب العالمين[(٤)].

وفي الآية: أمر بالتوبة مطلقًا من كل شيء صغير وكبير.

وأمر الله المؤمنين بالتوبة النصوح، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٧٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٠.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٢٦٩.

﴿ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم: ٨].

أمر بالتوبة، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان[(١)].

قال العلماء: التوبة النصوح هي: أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه[(٢)].

وكان من أساليب الرسل في دعوة أقوامهم أمرهم بالتوبة: قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾[البقرة: ٥٤]. أي: خالقكم.

وقال هود عليه السلام آمرًا قومه بالتوبة: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٣].

وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ٥٢].

وقال صالح عليه السلام آمرًا قومه بالتوبة: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود: ٦١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٧٤].

قال الفراء: «هذا أمر في لفظ الاستفهام»[(٣)].

ثالثًا: أسلوب الترغيب والترهيب:

قال تعالى في سياق الحديث عن المنافقين مرغّبًا لهم في التوبة، ومرهّبًا لهم إن أعرضوا عنها كعادة القرآن في ذكر الترهيب بعد الترغيب والعكس: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ٧٤].

هو تنبيه لهؤلاء الضالّين، وإشارة مضيئة تطلع في ليلهم المطبق عليهم؛ رجاء أن يتوبوا إلى الله، ويستقيموا على طريق الحقّ، فإن فعلوا رشدوا وأمنوا، وإن أبوا، ضلوا وهلكوا، وأخذهم الله بالعذاب الأليم في الدنيا، بما يصيبهم على يد المؤمنين من خزي وبلاء، وبعذاب السعير في الآخرة، حيث لا وليّ لهم، ولا نصير، يردّ عنهم بأس

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ١٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٩٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤٠٩.

الله الواقع بهم[1].

رابعًا: الأسلوب الخبري:

أخبر سبحانه وتعالى أنه يتوب على عباده كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[النساء: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

وإظهار اسم الجلالة في قوله: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ﴾ وكان الظاهر إضماره؛ لزيادة العناية بتلك التوبة؛ لما في الإظهار في مقام الإضمار من العناية[2].

ومن أمثلة الأسلوب الخبر: الإخبار عن محبة الله للتائبين.

فقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يحب من يرجع إليه تائبًا من ذنوبه، وهذا من لطفه بعباده، وحثًّا للاقتداء بهم.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ٨٤٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣٢.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢].

أي: من ذنوبهم على الدوام[3].

فهي دعوة إلى التزام الطريق القويم لمن كان قد انحرف عنه، وأتى المرأة من غير المأتى الطبيعي لها، فباب التوبة مفتوح لمن أناب إلى الله والتزم حدوده، فالتوبة تغسل الحوبة.. وليس مصيبة الإنسان في أن يخطيء ويزل، فالإنسان بحكم أنه بشرٌ عرضة للخطأ والزلل، ولكن المصيبة ألّا يتأثّم من الإثم، ولا يتحرج من الانحراف، فيقيم على إثمه، ويصر على انحرافه، وليس يستنقذ الإنسان من أن يحيط به ذنبه إلّا أن يرجع إلى الله من قريب، وأن يلقاه نادمًا تائبًا، هنالك يجد من ربه رحمة ومغفرة، ورضى ورضوانًا[4].

وقد روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم (للّه أشدّ فرحًا بتوبة أحدكم من أحدكم بضالّته إذا وجدها)[5].

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٠.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١/ ٢٥٤.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التّوبة، باب في الحضّ على التّوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٢،

ومن أمثلة الأسلوب الخبري: الثناء على التائبين.

فأخبر الله سبحانه وتعالى أن من صفات المؤمنين الذين لهم البشارة بدخول الجنة أنهم الراجعون عما كرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه؛ وذلك حثًّا لعباده على الاقتداء بهم.

قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١١٢].

التائبون: هم الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى الحالة المحمودة في طاعة الله، والتائب هو الراجع. والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين[(١)].

«والتوبة شعور بالندم على ما مضى، وتوجّهٌ إلى الله فيما بقي، وكفٌّ عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك. فهي طهارة وزكاة، وتوجّهٌ، وصلاح»[(٢)].

وفي سياق تهديد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالطلاق وإبداله خيرًا منهن من النساء اللاتي من صفاتهن أنهن راجعات إلى ما يحبه الله من طاعته، حثًّا للمؤمنات على الاقتداء بهن في الخيرية، قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[التحريم: ٥].

والتوبة هي الندم على ما وقع من معصية، والاتجاه إلى الطاعة[(٣)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٢٦٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧١٩.
(٣) المصدر السابق، ٦/ ٣٦١٦.

ثمرات التوبة وعاقبة الإعراض عنها

للتوبة إلى الله ثمرات، وللمعرضين عنها عاقبة، نتناولهما فيما يلي:

أولًا: ثمرات التوبة:

ذكر القرآن ثمرات للتوبة؛ لحض العباد على المسارعة إليها، منها:

١. الفلاح في الدنيا والآخرة.

علّق الله سبحانه وتعالى الفلاح على التوبة، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]

فمن سبل الفلاح التوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، ودل هذا أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة؛ لأن الله خاطب المؤمنين جميعًا، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة[(١)].

٢. دعاء حملة العرش للتائبين.

ذكر سبحانه وتعالى دعاء الذين يحملون عرش الرحمن من الملائكة ومن حول العرش ممن يحف به منهم، بالمغفرة للذين تابوا من الشرك والمعاصي.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[غافر: ٧].

أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا، وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات[(٢)].

٣. المتاع الحسن.

ذكر الله سبحانه وتعالى أن هودًا عليه السلام دعا قومه أن يسألوا الله أن يغفر لهم ذنوبهم، ثم يرجعوا إليه نادمين يمتعّهم في دنياهم متاعًا حسنًا بالحياة الطيبة فيها، إلى أن يحين أجلهم.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٣].

أي: استغفروا ربكم، ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا، ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت[(٣)].

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٦٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١١٩.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٣.

كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون. والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد. وما من أمة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهًا حقيقيًا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبيء عن خشية الله، ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعًا، إلا فاضت فيها الخيرات، ومكّن الله لها في الأرض، واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء[(١)].

ووصف المتاع «بالحسن» إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل وفي ثوابه وفرحه بالتقرب إليه بمفترضاته والسرور بمواعيده[(٢)]. وفي الآية دلالة على أن ثمرة الاستغفار والتوبة سعة الرزق ورغد العيش.

٤. إبدال السيئات حسنات.

ذكر الله سبحانه وتعالى أن من تاب من الذنوب توبة نصوحًا وآمن إيمانًا جازمًا مقرونًا بالعمل الصالح، فأولئك يمحو الله عنهم سيئاتهم ويجعل مكانها حسنات؛ بسبب توبتهم وندمهم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠].

أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم السيئة تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدّل حسنات[(٣)]، وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال، وثاب إلى حمى الله، ولاذ به بعد الشرود والمتاهة[(٤)].

وفي الآية دلالة على أن باب التوبة دائمًا مفتوح، يدخل منه كل من استيقظ ضميره، وأراد العودة والمآب، لا يصد عنه قاصد، ولا يغلق في وجه لاجئ، أيًا كان، وأيًا ما ارتكب من الآثام.

وقد روى مسلم بسنده عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم (إنّي لأعرف آخر أهل النّار خروجًا من النّار، وآخر أهل الجنّة دخولًا إلى الجنّة، يؤتى برجلٍ فيقول: نحّوا كبار ذنوبه، وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا، فيقال: فإنّ لك بكلّ سيّئةٍ حسنةً، فيقول: يا ربّ عملت أشياء لا أراها هاهنا) قال: فضحك رسول اللّه صلى الله عليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٧١٣.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٤٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٨٧.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٥٧٩.

وسلم حتى بدت نواجذه[1].

٥. الإمداد بالمطر وقت الحاجة إليه.

أخبر سبحانه وتعالى أن هودًا عليه السلام قال لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾[هود: ٥٢].

يقول سبحانه: «فإنكم إن آمنتم بالله، وتبتم من كفركم به، أرسل قطر السماء عليكم، يدرّ لكم الغيث في وقت حاجتكم إليه، وتحيا بلادكم من الجدب والقحط، ورزقكم المال والولد»[2].

قيل: إنهم «كانوا أصحاب زروع وبساتين، وعمارات، حراصًا عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين بما أوتوا من هذه القوة والبطش والبأس، مهيئين في كل ناحية»[3].

في الآية دلالة على أن من ثمرة التوبة حياة البلاد من الجدب والقحط، وحياة العباد بزيادة الأموال والأولاد.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب، ما أدنى أهل الجنة منزلة، رقم ٣٠٨.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٤٤.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٦٦.

ثانيًا: عاقبة المعرضين عن التوبة:

ذكر القرآن الكريم عاقبة المعرضين عن التوبة، والتي منها:

١. عذاب جهنم.

عرض الله سبحانه وتعالى على من قتل أولياءه التوبة، وهدّدهم إن لم يتوبوا بالعذاب الشديد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾[البروج: ١٠].

أي: ثم لم يتوبوا، أي لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا، ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة[4].

وفي الآية تعريض للمشركين بأنهم إن تابوا وآمنوا سلموا من عذاب جهنم[5].

٢. استحقاق العقاب.

وأخبر سبحانه وتعالى أن على العبد أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله، والاستغفار، والمدح له مقابل ذمه، وإلا أصبح ظالمًا لنفسه مستحقًا لعقاب الله.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٣٦٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٤٦.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحجرات: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، «يقول تعالى ذكره: ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقاب الله بركوبهم ما نهاهم عنه»[(١)].

وإذا كان كل من السخرية واللمز والتنابز معاصٍ فقد وجبت التوبة منها، فمن لم يتب فهو ظالم؛ لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك، فكان ظلمه شديدًا جدًّا. فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم، كأنه لا ظالم غيرهم؛ لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا. والتوبة واجبة من كل ذنب، وهذه الذنوب المذكورة مراتب، وإدمان الصغائر كبيرة[(٢)].

٣. العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

دعا الله سبحانه المنافقين الذين أساءوا للرسول صلى الله عليه وسلم وحاولوا الإضرار به وارتدوا عن الإسلام أن يرجعوا إلى الإيمان والتوبة، فإن رجعوا فهو خير لهم، وإن يعرضوا، أو يستمروا على حالهم، يعذّبهم الله العذاب الموجع في الدنيا على أيدي المؤمنين، وفي الآخرة بنار جهنم، قال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[التوبة: ٧٤].

أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: بالقتل والهم والغم، ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، لا يحصّل لهم خيرًا، ولا يدفع عنهم شرًّا[(٣)].

وفي الآية دليل على قبول توبة الزنديق المسرّ الكفر، المظهر للإيمان، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي. وقال مالك: لا تقبل، فإن جاء تائبًا من قبل نفسه قبل أن يعثر عليه قبلت توبته بلا خلاف[(٤)].

(١) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٣٧٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٥٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٦١.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٤٦٦.

٤. العذاب الكبير.

دعا هود عليه السلام قومه للرجوع إلى الله نادمين، وهدّدهم إن أعرضوا عمّا يدعوهم إليه فسوف يحل عليهم عذاب كبير، وهو يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٣].

«يقول تعالى ذكره: وإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من إخلاص العبادة لله، وترك عبادة الآلهة، وامتنعوا من الاستغفار لله، والتوبة إليه فأدبروا مولين عن ذلك، فإني أيها القوم أخاف عليكم عذاب يوم كبير شأنه، عظيم هوله»[١]، ووصفه بالكبير لزيادة تهويله[٢].

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، الاستقامة، الذنب

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣١٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ٣١٩.

التوحيد

عناصر الموضوع

مفهوم التوحيد	٩٦
الألفاظ ذات الصلة	٩٧
التوحيد حقيقة فطرية	٩٩
التوحيد أساس دعوة جميع الرسل	١١٠
الربوبية والألوهية حقيقتا التوحيد	١١٤
أساليب القرآن في الدعوة للتوحيد	١١٦
الأدلة القرآنية على صحة التوحيد	١٢٣

مفهوم التوحيد

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (وح د) تدل على الانفراد[١].

والوَحْدة: الانفراد[٢].

و(أحد) اسم الله جل ثناؤه، لا يوصف شيء بالأحدية غيره؛ لأن أحدًا صفة من صفات الله التي استأثر بها، فلا يشركه فيها شيء، وليس كقولك: (الله واحد)، و(هذا شيء واحد)، لأنه لا يقال: شيء أحد[٣].

والتوحيد: الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحيّ:

عرف الجرجاني التوحيد بأنه: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة[٥].

وعرفه السعدي بأنه: العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال وإفراده وحده بالعبادة[٦].

ولم تأت مفردة (التوحيد) بهذه الصيغة في القرآن الكريم، وإنما استعمل القرآن الكريم جذرها (و ح د) في معانٍ أخرى، لا صلة لها بموضوع البحث.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٩٠.
(٢) الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٤٧.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ١٢٧.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٤٧.
(٥) التعريفات ص٦٩.
(٦) القول السديد ص٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: (أشرك بالله: كفر أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك)[١]، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه[٢].

الصلة بين الشرك والتوحيد:

الشرك هو الظلم العظيم، ولا يغفره الله لصاحبه -إن مات عليه-؛ لأنه يناقض أصل التوحيد، ويخرج صاحبه عن الملة، ويحبط عمله ويخلّده في النار.

٢ الإلحاد:

الإلحاد لغة:

مادة (ل ح د) تدل على معنى ميل عن استقامة، فيقال: (لحد السهم عن الهدف)، أي: عدل عنه، ولحد الرجل في الدين: طعن وحاد عنه وعدل وجادل ومارى. ولحد، أي: مال عن طريق القصد، وجار وظلم[٣].

والملحد: «الطاعن في الدين المائل عنه»[٤].

الإلحاد اصطلاحًا:

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»[٥].

الإلحاد المعاصر: الإلحاد المصطلح عليه في هذا العصر يعني: إنكار وجود الله، والقول بأن الكون وجد بلا خالق، وأن المادة أزلية أبدية، واعتبار تغيرات الكون قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار ظاهرة الحياة، وما تستتبع من شعور وفكر عند

(١) تاج العروس، الزّبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.
(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس٥/ ١٩٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٩٥، مختار الصحاح، الرازي ص٢٤٧.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٢٨٥٠.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧٢.

الإنسان، من أثر التطور الذاتي في المادة[1].

الصلة بين الإلحاد والتوحيد:

العلاقة بينهما علاقة تضاد، فالملحد انحرف عن التوحيد والدين القويم.

٢ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحّده وأطاعه، وانقاد وخضع وذلّ له، والتزم شرائع دينه، وأدّى فرائضه[2].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصّت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»[3].

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التّذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التّذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»[4].

الصلة بين العبادة والتوحيد:

وعلاقة العبادة بالتوحيد علاقة واضحةٌ، فالله جل وعلا هو المستحق للعبادة دون سواه، وتفريده جل وعلا بالعبادة على اختلاف صورها هو حقيقة التوحيد (توحيد الإلهية) وهو مضمون شهادة: لا إله إلا الله.

(١) انظر: التعريفات الاعتقادية، سعد آل عبد اللطيف ص ٥٨، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو ص ٣٢٧.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٤٤٨.
(٣) التوقيف، ص ٢٣٤.
(٤) المفردات، ص ٣١٨.

التوحيد حقيقة فطرية

القلوب مفطورة على حب خالقها وتأليهه:

إن الإيمان بوجود الله جل وعلا والإيمان بوحدانيّته تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، له دلائله الكثيرة، وشواهده المتعددة، وفي مقدّمة هذه الدلائل والشواهد (الفطرة)، إن التوحيد حقيقةٌ فطريّةٌ قبل أن يكون معرفةً نظريّةً جدليّةً، وإنّ أرقّ أساليب الإقناع وأبلغ أساليب الإذعان بأصول الإيمان: إحالة المخاطبين إلى فطرهم وغرائزهم[1]، وكذلك كان منهج القرآن الكريم في اعتماده دليل (الفطرة) في معالجة قضايا التوحيد.

لقد جاءت كلمة (الفطرة) بلفظها مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد فسّر العلماء (الفطرة) بمعانٍ مختلفةٍ متقاربةٍ، وأنسبها في هذا المقام أنّ المقصود بـ(الفطرة): هو الشعور المغروس في النفس الإنسانية بوجوده سبحانه، وبتوحيده سبحانه وتعالى بربوبيته وألوهيته، إن هذه الغريزة الدينية المركوزة في داخل كل إنسان منذ بداية خلقه، هي البوصلة التي توجّه قلبه وعقله إلى توحيد الله تعالى قبل أيّ دليلٍ آخر[2].

والسنة النبوية أيضًا تؤكد ذلك: أن الله تعالى قد خلق الإنسان مؤمنًا بربه، متّجهًا إليه بفطرته بالطاعة والعبادة، وأنّ غايته هي تحقيق العبودية والتوحيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلّ مولودٍ يولد على الفطرة)، وفي روايةٍ: (على هذه الملّة)، (فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه)، وفي رواية: (ويشرّكانه)، (كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟!، حتّى تكونوا أنتم تجدعونها) قالوا: يا رسول الله؛ أفرأيت من يموت منهم وهو صغيرٌ؟، قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)، ثمّ يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠][3].

(١) انظر: منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، تامر متولي ص ١٦٦.

(٢) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، رقم ١٣٥٨، ٢/ ٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم ٢٦٥٨، ٤/ ٢٠٤٧.

فلم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: (يسلمانه)؛ لأنّ الإسلام موافقٌ للفطرة[1].

بل هو الفطرة المركوزة في النفس الإنسانية، وهو الوضع الطبيعي لها، فلا يحتاج إذًا لتأثير الأبوين، أما باقي المذاهب الإلحادية فهي تغطي الفطرة، وتنكّسها وتصادمها؛ لذلك فهي لا تأتي على النفس من داخلها، إنما تأتي بمؤثر خارجي[2].

ويضرب الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك مثلًا محسوسًا، وهو ولادة البهيمة سالمةً من العيب، ثم يطرأ عليها العيب بعد ذلك بجناية الإنسان.

يقول ابن القيم رحمه الله: «فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتّهويد والتّنصير، وتغيير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابدّ أن يغيّرهما، فغيّر فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغيّر الصورة بالجدع والبتك، فغيّر الفطرة إلى الشّرك، والخلقة إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خلقة الرّوح، وهذا تغيير خلقة الصورة».

ويقول كذلك: «فالقلوب مفطورةٌ على حبّ إلهها وفاطرها وتأليهه، فصرف ذلك التألّه والمحبّة إلى غيره تغييرٌ للفطرة»[3].

وبما أن معرفة الله وتوحيده فطرةٌ في النفوس؛ لذلك لمّا شك الأقوام المكذبون لرسلهم في الدعوة لتوحيد الله، استغرب الرسل هذا الشك فقالوا: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؟! [إبراهيم: ١٠].

الفطرة السليمة والعقل الصحيح ينطقان الإنسان بتوحيد الخالق:

والمخاطبون حين نزول القرآن يعرفون ربهم الذي خلقهم، وتنطق فطرهم بالحق عندما تسأل، ويؤازر هذه الفطرة العقل الصحيح؛ إذ جعله الله تعالى نورًا للإنسان.

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩].

ويقول تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقد أدرك الأعرابيّ بفطرته السليمة وعقله الصحيح أنّ هذه المخلوقات العظيمة، من أرض وسماء، وليل ونهار،

(١) شرح الطحاوية، ابن أبي العزّ ١/ ٣٤.
(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦.
(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ١٠٧.

وشمس وقمر، وإنسان وحيوان، ونبات وكواكب، ورياح وسحاب، وغيرها، تدل على الخالق تبارك وتعالى، حيث قال: «البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدلّ على المسير، ليلٌ داجٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماءٌ ذات أبراج، أفلا تدلّ على الصانع الخبير؟!»[1].

الفطرة تنطق الحيوان والجمادات أيضًا بالتوحيد:

وهذه الغريزة الفطرية لم تكن مقتصرة على النفوس البشرية وحدها، بل حتى الطير والجمادات وغيرها، قد فطرها ربّها وخالقها على تسبيحه وتحميده وتنزيهه، نطقًا لا يفهمه إلاّ الذي أنطقها.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«والمقصود إذا كانت هذه الجمادات قد فطرت على معرفة ربها وتسبيحه وتنزيهه، والإنسان أشرف منها، فلأن يفطر على معرفته بربه بطريق الأولى والأحرى؛ لما ركّب فيه من العقل والتمييز والفطنة»، إلى أن يقول: «وهذا الهدهد طير من الطيور، وفي نظرنا عديم العقل، يصيح كغيره من الطيور، قد خاطب سليمان بأعظم التوحيد، وأعلمه بغير ذلك، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

إلى قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

هذا كله كلام الهدهد، كما اتفق على ذلك المفسرون»ا هـ[2].

منهج القرآن في الدعوة إلى التوحيد بتحريك الفطرة وإيقاظها:

وحيث إن القرآن الكريم يعتبر هذه القضية -قضية معرفة وجود الله والإيمان به وتوحيده- أمرًا فطريًا في النفوس البشرية السليمة، وحقيقة بدهية لا تحتاج إلى جدال أو نقاش، فكل إنسان عاقل يدرك بنفسه هذه الحقيقة، بما أودعه الله تعالى فيه من فطرة يحس بها، دون الحاجة إلى منهج إضافي يسلكه لمعرفة ربه خالقه ورازقه؛ لذلك

(١) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ص ٣٣٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٩- ٣٤٠.

فإنّ منهج القرآن الكريم ومسلكه في هذه القضية، البدء بالفطرة يوقظها، ويذكّرها بما هو مغروس في أعماقها؛ ليجد أنها معترفة ومقرة بوجود الخالق العظيم، وأنها في ذلك لا تحتاج إلى دليل.

والدلائل التي تحرّك هذه الفطرة، وتشير إلى وجود الله تعالى أكثر من أن تحصى، إنها تنبعث من كل شيء على وجه الأرض، بل ومن كل شيء في السماء، أضف إلى ذلك النظام البديع، والدقة المتناهية في صنع هذه المخلوقات، والترتيب في سيرها وحركتها، فيدرك الإنسان بعقله وبصيرته أنّ هذا النظام وذلك الإبداع، لا يمكن أن يحدث من غير محدث، أو يوجد من غير موجد؛ لأنّ تلك المخلوقات عاجزة عن إيجاد ذلك النظام الدقيق، والترتيب المحكم من تلقاء نفسها[1].

قيمة التزام التوحيد والتديّن الصحيح في إرواء الفطرة:

ولأن عقيدة التوحيد ليست غريبةً عن الفطرة أو مغايرة لها، بل هي تلائم الفطرة وتنميها ولا تصادمها، فهي العقيدة الوحيدة التي تستطيع أن تشبع الجوعة الفطرية التي لا تشبعها النظم الفلسفية، ولا المذاهب الوثنية، ولا السلطان السياسي، ولا الثراء المالي[2].

فمهما استعلنت المذاهب المادية الإلحادية وتزخرفت، ومهما تعددت الأفكار والنظريات، فلن تغني الأفراد والمجتمعات عن الدين الصحيح، ولن تستطيع أن تلبي متطلبات الروح والجسد، بل كلما توغل الفرد فيها أيقن تمام اليقين أنها لا تمنحه أمنًا، ولا تروي له ظمأ، وألا مهرب منها إلا إلى الدين الصحيح.

فالتدين الحق -الذي يعتمد على إفراد الله بالتوحيد، والتعبد له وفق ما شرع- هو عنصر ضروري للحياة؛ ليحقق المرء من خلاله عبوديته لله رب العالمين، ولتحصيل سعادته وسلامته من العطب والنصب والشقاء في الدارين، وهو ضروري لتكتمل القوة النظرية في الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا، وهو عنصر ضروري لتزكية الروح وتهذيب قوة الوجدان؛ إذ العواطف النبيلة تجد في الدين مجالًا ثرًّا، ومنهلًا لا ينفد معينه تدرك فيه غايتها[3].

(١) المصدر السابق ص ٣٣٦.

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦.

(٣) الإسلام أصوله ومبادئه، محمد السحيم ٢/ ٤٨-٥٠.

انحراف الفطرة وتشوّهها بجناية الإنسان والشيطان:

وقد يقال هنا: لو كان التوجّه إلى الله أمرًا فطريًّا حقًّا، لما عبد النّاس في مختلف العصور آلهةً شتى، فهذا واقعٌ مسلّمٌ به يخالف المدّعى.

والجواب: أنّ الفطرة -كما سبق- تدعو المرء إلى الاتجاه إلى الخالق، لكنّ الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف، ففيما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وفيما يلقيه الكتّاب والمعلمون والباحثون في أفكار الناشئة ما يبدّل هذه الفطرة ويقذرها، ويلقي عليها غشاوة، فلا تتجه إلى الحقيقة.

وقد يقال: إذا تركنا الطفل من غير أن نؤثّر في فطرته، هل يخرج موحدًا عارفًا بربّه؟!، فنقول: إذا ترك شياطين الإنس البشر، ولم يدّنسوا فطرهم، فإنّ شياطين الجنّ لن يتركوهم، فقد أخذ الشيطان على نفسه العهد بإضلال بني آدم.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣][1].

وأعطي الشيطان القدرة على أن يصل إلى قلب الإنسان، كما في الحديث الصحيح: (إنّ الشّيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم، وإنّي خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا) أو قال: (شيئًا)[2].

والقرآن الكريم وصف الشيطان المطلوب الاستعاذة منه بأنه: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

وقد صحّ أيضًا أنّ لكل إنسان قرينًا من الجنّ، يأمره بالشرّ، ويحثه عليه، وفي القرآن الكريم: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

وكما أمدّ الله الإنسان بملكٍ يهديه ويؤيده، فإنه كذلك يمدّه بشيطانٍ يوسوس له، ويزيّن له السّوء، ويغريه بالمنكر، ويدعوه إلى الفتنة، يستوي في ذلك الأنبياء وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢][3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من عندي ليلًا، فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، -وفي روايةٍ: فأدخلت يدي في شعره-، فقال: (ما لك يا عائشة، أغرت؟)، قلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال: (أقد جاءك شيطانك؟)، قلت: يا رسول الله، أو معي

(١) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ٦٩-٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب التكبير والتسبيح عند التعجب، رقم ٦٢١٩، ٨/ ٤٨، عن صفية أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٣) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ١٤٣.

شيطانٌ؟ قال: (نعم)، قلت: ومع كلّ إنسانٍ شيطانٌ؟ قال: (نعم)، قلت: ومعك يا رسول الله؟، قال: (نعم، ولكن ربّي أعانني عليه حتّى أسلم)[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكّل به قرينه من الجنّ) قالوا: وإيّاك يا رسول اللّه؟ قال: (وإيّاي، إلاّ أنّ اللّه أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلاّ بخيرٍ)[2].

وشياطين الجنّ يقومون بدورٍ كبيرٍ في إفساد الفطرة وتدنيسها؛ لأنّ أعمالهم تتّجه دائمًا إلى التمرّد على الله، وإلى التفريق والتمزيق والتخريب والتدمير، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ووصل ما أمر الله به أن يقطع، فما من شر في الأرض ولا فساد في الوجود، إلا ولهم به صلة.

وهم الذين زيّنوا للأمم السابقة سوء العمل، وحسّنوا لهم الكفر والمعاصي، ودعوهم إلى تكذيب الرّسل ومخالفة أوامر الله، ولا تزال هذه أعمالهم[3].

قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: (ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علّمني يومي هذا، كلّ مالٍ نحلته عبدًا حلالٌ، وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...) إلى آخر الحديث[4].

فالشياطين هي التي دعت إلى تحريف الدّين، والخروج على الفطرة، وإلى الإشراك بالله، وحرّمت الحلال، وأحلّت الحرام، ولا تزال الشياطين تقعد للإنسان بكلّ طريقٍ صادّةً عن سبيل الله، ومحاولةً صرفه عن جلائل الأعمال.

ففي حديث سبرة بن فاكهٍ (أو: أبي فاكهٍ) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ الشّيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟!، فعصاه فأسلم، ثمّ قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك؟!،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه، رقم ٢٨١٥، ٤/ ٢١٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه، رقم ٢٨١٤، ٤/ ٢١٦٧.

(٣) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ١٤٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥، ٤/ ٢١٩٧.

وإنّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطّول، فعصاه فهاجر، ثمّ قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النّفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال، فعصاه فجاهد)، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (فمن فعل ذلك كان حقًّا على اللّه عز وجل أن يدخله الجنّة، ومن قتل كان حقًّا على اللّه عز وجل أن يدخله الجنّة، وإن غرق كان حقًّا على اللّه أن يدخله الجنّة، أو وقصته دابّته كان حقًّا على اللّه أن يدخله الجنّة)[1].

والشيطان هو الذي قام بدور رئيس في محاولة القضاء على دعوة الإسلام في أول صدام له مع أعدائه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وهذا الشيطان هو الذي يزين لكل فرد ما تهفو إليه نفسه، ويميل إليه هواه من حب للجنس، أو طمع في المال، أو حرصٍ على المنصب، أو تطلّع إلى الجاه، أو إيثار للاستبداد، أو ميل إلى الطغيان، بل إنه ليتسلط على المتدينين أنفسهم؛ ليزيدوا في شرع الله، أو ينقصوا منه؛ ليطوّعوا الدين لأهوائهم، ويخضعوه لشهواتهم.

وهو الذي يغري العداوة والبغضاء بين الناس، فيفرّق بين الأخ وأخيه، وبين الزوج والزوجة، وبين طوائف الأمة وجماعاتها، وهو الذي يوقد نيران الحروب بين الأمم والشعوب، وينفخ فيها لتهلك الحرث والنسل، وتأتي على الأخضر واليابس.

وكلما كان الشيطان أقدر على الشر، كان أقرب منزلة وأعلى قدرًا لدى رئيسه إبليس لعنه الله.

عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ إبليس يضع عرشه على الماء، ثمّ يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنةً.. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، قال: ثمّ يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتّى فرّقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت)[2].

إن كل ما يعانيه الإنسان من فتن وويلات،

(١) أخرجه أحمد، رقم ١٥٩٥٨، ٢٥/ ٣١٥، والنسائي في سننه الصغرى، كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، رقم ٣١٣٤، ٦/ ٢١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٩٧٩، ٦/ ١١٨٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه، رقم ٢٨١٣، ٤/ ٢١٦٧.

إنما هو من نتاج إبليس وجنوده الأشرار[1].

وعودٌ على بدءٍ، فلأجل كلّ هذا الانحراف الناشئ عن الدّخائل المبطلة من جنايات الإنسان والشيطان في تلويث الفطرة، فقد جاء تمام الآية الكريمة في الفطرة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فكثيرٌ من الناس قد فقدوا الاعتقاد والمعرفة والإدراك لتلك الحقيقة العظيمة المرتبطة بحياة البشر ودينهم وأعمالهم[2].

المصائب قد تجلو الفطرة وتصحّح مسارها:

وكثيرًا ما تنكشف الحجب عن الفطرة المشوّهة؛ فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها، عندما تصاب بمصاب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عونًا، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربّه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرٍّ نزل به.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢][3].

ومهما بلغ الإنسان في الطغيان والكفر والعناد، تبقى هذه الفطرة لا يستطيع القضاء عليها مهما كابر في ذلك، وتظل دلائلها تظهر وهو يشعر أو لا يشعر.

قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وفرعون أجرم طاغية في البشر؛ أنكر وجود الله، ودعا الناس إلى عبادته، وهدد موسى عليه السلام إن اتخذ إلهًا غيره، قال له موسى عليه السلام كما قصّ الله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ثم كانت العاقبة أن قال فرعون وهو في أحضان الموج وقد أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠][4].

أقدمية التوحيد وأسبقيته على الشرك:

وإذا كان التوحيد حقيقةً فطريّة، فمن البدهيّ أن يكون الأصل في البشرية هو

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ١٤٠-١٤٣.
(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢.
(٣) حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، محمد الغامدي ص ٢٠٠.
(٤) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص ٧١.

التوحيد، وأن يكون الشرك انحرافًا طارئًا دخيلًا عليها، فالتوحيد له أقدميته وأسبقيته على الشرك، خلافًا لما تقول به بعض النظريات الضالّة في تطوّر الأديان.

لقد حكى الله تعالى في القرآن الكريم أن أبا البشرية الأول آدم عليه السلام وذريته كانوا على التوحيد، يتبعون منهجًا إلهيًّا منزّلًا إليهم من ربهم تبارك وتعالى، فهم أول البشر، يدينون بالتوحيد الخالص، وبذلك يكون التوحيد سابقًا للشرك، وليس تطوّرًا عنه، ولم يعرف الشرك والانحراف إلا بعد قرون، حينما انحرف القوم عن دين الله وتوحيده، فبعث الله تعالى لهم نوحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩][1].

بل لقد بيّن الله سبحانه أن البشرية كانت أول أمرها على التوحيد ثم طرأ عليها الشرك وتعدد الآلهة في آية واضحةٍ، وهي قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين نوحٍ وآدم عشرة قرونٍ كلّهم على شريعةٍ من الحقّ، فاختلفوا فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين»، قال: «وكذلك في قراءة عبد الله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فاختلفوا﴾»[2].

ويؤيد هذا التفسير لهذه الآية، الآية الأخرى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وعن قتادة قال: «ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى وعلى شريعةٍ من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك؛ فبعث الله عز وجل نوحًا، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»[3].

وجمهور المفسرين يقولون بأن الناس كانوا أمة واحدة على الهدى والتوحيد، فظهر فيهم الشرك عن طريق تعظيم الموتى، فبعث الله إليهم رسله؛ ليردوهم إلى التوحيد، قال

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢١٧.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر نوح النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٤٠٠٩، ٢/ ٥٩٦.
وصححه الحاكم على شرط البخاري، ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٢١٥.

الطبري: «إن دليل القرآن واضحٌ على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به. وذلك أن الله -جل وعز- قال في السورة التي يذكر فيها (يونس): ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

فتوعّد جلّ ذكره على الاختلاف، لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثمّ كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، ولو كان ذلك كذلك، لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد؛ لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحالٌ أن يتوعّد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك»[١].

ورجّح ابن كثير أيضًا قول ابن عباس وقتادة معلّلًا ترجيحه بقوله: «لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام؛ فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»، ويقول: «ثم أخبر الله تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام،...، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان؛ فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة»[٢].

ونقول أيضًا أنه لا عجب في ذلك ولا غرابة؛ لأن الإنسان كلّما كان قريبا من النبع، كان الماء أكثر صفاءً ونقاءً، وكلما ابتعد عن النبع، وجد الماء أقلّ صفاءً ونقاءً؛ لما يطرأ عليه من الأذى، وما يداخله من القذى، والشوائب التي تنصبّ فيه، وهكذا كانت البشرية الأولى على الفطرة والتوحيد؛ لقرب عهدها بربها تعالى، ثم اختلطت بعد ذلك الينابيع، وتضافرت العوامل التي أدّت إلى الانحراف عن التوحيد، فكان ظهور الشرك طارئًا بعد ذلك التوحيد، وكان انحرافًا عنه[٣].

تفنيد مزاعم تطور الأديان من الشرك إلى التوحيد:

يزعم بعض الباحثين الغربيين -ممّن يسمّون بعلماء مقارنة الأديان-، وكذلك مقلدتهم من الكتاب المسلمين بأن الشرك سابق على التوحيد، وأن عبادة الإله قد تطورت من جيل إلى جيل، حتى وصلت

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٨٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٥٧.

(٣) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢٢٠.

إلى التوحيد الخالص، حتى زعم بعضهم أن عقيدة الإله الأحد عقيدة جد حديثة، وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي.

وقد اعتمد هؤلاء على نظرية التطور والارتقاء، حيث قاسوا التوحيد في حياة البشر على نمو وتطور العلوم والصناعات التي تنمو وتتطور بسبب الجهد البشري[(١)].

وقد يظن بعض المسلمين أن في ذلك ترقيًا للإنسان وتزكية للإسلام؛ لأنهم يزعمون أن البشرية لما كانت في حال من التأخر كانت تعبد آلهة متعددة، ولما ترقّت وتقدّمت أصبحت تعبد إلهًا واحدًا؛ فنشأت ديانات التوحيد، يظنون ذلك ويدافعون عنه، وإننا لنأسف كل الأسف لانخداعهم بهذه الأفكار الغربية، وتبنيهم لتلك النظرية الملحدة[(٢)].

ولا يخفى أن هذه الأباطيل فيها إنكار سافر لكل ما سبق من الوحي السماوي والسنة النبوية، علاوةً على منافاتها للفطرة والمنطق في مكابرةٍ صارخةٍ، ولو كان هناك تطورٌ حقًّا -كما تقول هذه النظريات-، لكان من الطبيعي والمنطقي أن يكون هذا التطور من الوحدة إلى الكثرة؛ لأن الواقع يدل على ذلك، فأنت عندما تبدأ بالعدّ والحساب -مثلًا- تبدأ بالواحد وتنتهي بما بعده من كثرة، وليس العكس[(٣)].

أما استدلال القائلين بأسبقية الوثنية على التوحيد بآثار الحفريات التي زعموا بأنها تدل على أن الناس في بادئ الأمر قد تدينوا بالوثنية، ثم تطورت عباداتهم مع تطورهم الفكري، فإن ذلك ما هو إلا مجرد التخمينات والتخرصات الوهمية، والتي لا تقاوم القرآن الكريم، والسنة الثابتة.

ومن الممكن والمعقول جدًا أن تكون تلك الآثار التي اكتشفوها قد وقعت لذرية آدم عليه السلام، وقد حدث الشرك الأول كما أشرنا في قوم نوحٍ عليه السلام، والدليل متى تطرق إليه الاحتمال، فلا يصح أن يكون دليلًا يحتج به، فكيف وأدلتهم تصطدم بنصوص القرآن والسنة؟![(٤)].

(١) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ٥٨.
(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٢٢١.
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٠.
(٤) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ٦٥-٦٨.

التوحيد أساس دعوة جميع الرسل

إن الدعوة إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى، وتقرير توحيده، وتنزيهه عن الند والصاحبة والولد، وإفراده بالعبادة، والتذلل إليه، والانقياد لأمره وحكمه، هي القضية الأساسية التي من أجلها بعث الله جميع أنبيائه ورسله، وقد جاء ذلك واضحًا جليًا فيما قصه الله تعالى علينا في القرآن الكريم من دعوة الرسل إلى أممهم وأقوامهم[(١)]، يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «اعلم أنّ التّوحيد أوّل دعوة الرّسل، وأوّل منازل الطّريق، وأوّل مقامٍ يقوم فيه السّالك إلى اللّه عز وجل»[(٢)].

ويلاحظ أن الجانب الأهم في دعوة الرسل عليهم السلام هو توحيد الله تعالى بالعبادة وإفراده بها، فلم يبعثهم الله لدعوة الناس إلى مجرد الإيمان بالله وأنه خالقهم، إذ هم مقرّون بذلك تناسقًا مع الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، ولم تكن قضية وجود الله في يوم من الأيام هي القضية التي يقف الناس عندها، إلا في فترات قليلة، ولظروف خاصة عند بعض الأوروبيين الذين عرف عنهم الإلحاد، وحاولوا أن يجدوا له فلسفة خاصة؛ تبريرا لانحرافهم وفساد فطرتهم[(٣)].

ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقرّوا بأنه -سبحانه وحده- خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهيّة والمحبّة، كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

فلما سووا غيره به في هذا التّوحيد كانوا مشركين، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وقد علّم الله سبحانه وتعالى عباده كيفية مباينة الشّرك في توحيد الإلهيّة، وأنه تعالى حقيق بإفراده وليًّا وحكمًا وربًّا، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

(١) المصدر السابق ١/ ٦٩.
(٢) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ١/ ٢١.
(٣) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٣٠٥.

فلا وليّ ولا حكم ولا ربّ إلاّ الله، الذي من عدل به غيره، فقد أشرك في ألوهيّته -ولو وحّد ربوبيّته-، فتوحيد الربوبيّة هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الإلهيّة مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين[1].

ولذلك حكى الله تعالى عن الأقوام السابقين تعجّبهم من دعوة الأنبياء إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ﴾ [الأعراف: ٧٠].

أي: لنفرده بالعبادة ونخصه بها من دون آلهتنا؟! فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم إفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى، ولا قالوا: إنه لا يعبد، بل أقروا بأنه يعبد، وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، فعبدوا مع الله غيره وأشركوا معه سواه واتخذوا معه أندادا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

فأرسل الله الرسل تأمر بترك عبادة كل ما سواه، وتبين أن هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطل، وأن التقرب إليهم باطل، وأن ذلك لا يكون إلا لله وحده، وهذا هو توحيد العبادة، وقد كانوا مقرّين بتوحيد الربوبية، وهو أن الله هو الخالق وحده والرازق وحده.

ولقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى وأكده بطريقين:

الأول: الطريق الإجمالي.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فهذا تعميم على سبيل الحصر، بأن كل رسول قد أوحي إليه أن الله تعالى متصف بالوحدانية، لا إله إلا الله، ومستحق للتوحيد، وذلك في قول الله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ أي: أفردوني بالعبادة؛ لأني متفرد بالألوهية.

وقال تعالى في هذا المعنى أيضًا: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

هذه الآية تقرر أن الله تعالى قد بعث في كل أمة رسولًا، وكان أول دعوة كل رسول في كل أمة: أن اعبدوا الله ولا تشركوا به الطواغيت، والطواغيت: كل ما يعبد من دون الله تعالى، وهو مشتق من الطغيان.

وننوه إلى أن هذا الطريق الإجمالي في إثبات القرآن الكريم أن توحيد العبادة هو أساس دعوة الرسل، له صيغتان مختلفتان ومدلولهما واحد، ونمثّل لهما بقوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

(١) تجريد التوحيد المفيد، المقريزي ص ٧-٨.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

فإن مدلول الصيغة الأولى: الأمر بعبادة الله، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد غيره، ومدلول الصيغة الثانية: النهي عن عبادة غير الله، فالقرآن الكريم دعا لعبادة الله، ونهى عن عبادة غيره؛ لأن النفس البشرية بحاجة إلى النصّ القاطع على شطري هذه الحقيقة، فلم يكتف القرآن بالنهي الضمنيّ المفهوم من الأمر الصريح- على ما هو مقرر في علم الأصول من: «أن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده الذي لا يجتمع معه»، بل أتى بالنهي الصريح عن عبادة غير الله؛ لأن كثيرًا من الناس يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فيقعون في الشرك ويحسبون أنهم مسلمون[1].

الثاني: الطريق التفصيلي الاستقرائي:

هذا الطريق يذكر فيه القرآن الرسل بأسمائهم، وكيف كان التوحيد رأس دعوتهم جميعًا، ومن ذلك:

١. ما جاء في قصة نوح عليه السلام وهو أول رسول من أولي العزم بعث إلى أهل الأرض. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

٢. قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٣. ونفس الألفاظ قال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

٤. وهي الألفاظ التي جاءت على لسان شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

٥. أما إبراهيم عليه السلام فقد تحدّث القرآن بتفصيل وافر عن دعوته إلى النبوة، وتحدث القرآن عن دعوة إبراهيم بشتى الصيغ والأساليب، في المواقف المتعددة والأحوال المختلفة، ولعل السر في توسيع حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده صلى الله عليه وسلم وعلى الرسل أجمعين. وكان اليهود والنصارى والعرب يعترفون بنبوته وأبوته لهم، بل ويعتزون بالانتساب إلى إبراهيم عليه السلام، وبذلك تقوم الحجة على المنتسبين إليه جميعًا الذين انحرفوا عن دين الحق، ووقفوا في دروب من الوثنية الطامسة

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ١٠٣.

الدامسة، وبذلك تسقط دعواهم أنهم على دين إبراهيم، كما قال تعالى ردًّا عليهم مجتمعين: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. ويقول تعالى عنه وعن المؤمنين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

٦. وكذلك يقول القرآن الكريم عن موسى عليه السلام وهو يدعو إلى وحدانية الله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٣-١٤].

٧. وكذلك يخبر القرآن عن عيسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

٨. ويخبر القرآن عن دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد، لقد بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة العالمية الشاملة، وبالتقرير الأوفى، وبالبيان الأعلى في شأن الدين كله عامة، والتوحيد منه خاصة، وقد أمده القرآن الكريم بأتمّ الحجج والبراهين، وسجّل أقاويل الكفار وردود الوحي عليها؛ حتى تكون حجة الله بالغة باهرة إلى يوم الدين، وحتى لا تكون للناس على الله حجة بعد ختم النبوة؛ لأن القرآن صوتها الممدود ونداؤها الموصول، وفيه أكمل حديث عن التوحيد تقريرًا وإثباتًا، وردًّا على المشركين والملحدين، وإبطالًا للشرك وكل دروب الوثنية والانحراف عن التوحيد. ويكفي مثالًا لهذا ما أمره الله تعالى أن يقول للناس في كلمات جامعة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

فهذه السورة الكريمة على وجازتها جامعة لكل ما يليق بالله -تعالى وحده-، من صفات الكمال: أحدية، استغناء، تنزيه له عن الشركاء والأشباه، ثم هي مصحّحة لضلالات المشركين وأهل الكتاب في باب الاعتقاد[1].

(١) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص١٣-١٦.

الربوبية والألوهية حقيقتا التوحيد

التوحيد هو إفراد الله بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته جميعًا:

(التوحيد) يعني اتصاف الله تعالى بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، و(التوحيد) يعني وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالأمور الثلاثة، وهذه هي الحقيقة الشرعية للتوحيد: أن يؤمن العبد بأن الله تعالى هو وحده الرب، صاحب كل صفات التأثير والكمال، وأنه لذلك هو وحده الإله المستحقّ للعبادة والطاعة بلا شريك، وأنه لذلك هو الجدير وحده بالأسماء الحسنى والصفات العلا، فلا يصلح للمخلوق منها اسم ولا صفة، فإذا أقر العبد بأحد هذه الأركان الثلاثة فقط لم يكن موحدًا، وإنما يقال: هو مقرٌّ أو معترفٌ بأحدها، ولكن لا يصح أن يسمى موحدًا؛ لأن التوحيد هو مجموعها معًا.

ولهذا لم يطلق القرآن على الكفار أنهم موحدون توحيد الربوبية، حين أقروا أن الله تعالى هو الخالق المالك الرازق، وإنما سماهم كفارًا مشركين.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ﴾ [يونس: ٣١-٣٤].

لقد سماهم القرآن كفارًا مشركين؛ لأنهم لم يأتوا بحقيقة التوحيد الجامعة، وإنما أقروا بوصفٍ منها، والتوحيد لا يقبل التجزئة أصلًا، فمن أشرك في وصفٍ فقد أشرك في الكل؛ لأنه لم يأت بحقيقة مسمى التوحيد الشرعي الجامعة.

ولذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨][1].

الربوبية والألوهية إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا:

ولأجل هذا الترابط الوثيق بين وصفي الربوبية والألوهية، وائتلافهما في تكوين حقيقة التوحيد، نجد أن القرآن الكريم قد استعمل كل لفظ مكان الآخر، أي: هناك تلازم بين الربوبية والألوهية، فإذا ذكر أحدهما دل على الآخر، باعتبارهما وصفين متفردين لذات واحدة، ولا يليق أحدهما إلا بالله، فإذا ذكر الرب فهم منه استلزامًا أنه المستحق للعبادة والطاعة وحده، وإذا ذكر

(١) المصدر السابق ص ١٧ - ١٨.

الإله فهم منه استلزامًا أنه الخالق الرازق المالك؛ لأنه لا يكون إلهًا حقًّا إلا بهذه الصفات.

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

فالسؤال في أول الآية وقع عن أشياء تتصل بالخلق والرزق والقدرة والتدبير، وغيرها من صفات التأثير التي هي معنى لفظ الرب، فكان المقام يقتضي سؤالهم في آخر الآية عن ذلك، فيقال: أربٌّ مع الله؟!، لكن وقع السؤال بقوله: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؛ لأن اللفظين متلازمان، لا فرق بينهما من حيث الواقع.

الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية:

ويلاحظ أن استعمال كلمة (إله) هنا في الآية السابقة قد جاء لحكمة عظيمة؛ لأنه جل وعلا قد سألهم عن محل النزاع مباشرة، والمعنى: أربٌّ يخلق ويرزق مع الله فيستحق التأليه معه؟!، ولما كان الخلق والرزق والتدبير ليس محل نزاع كثير، وإنما النزاع في عبادة غير الله؛ لذلك عاجلهم باستنكار اتخاذ آلهة مع الله تعالى[1].

ونضرب مثلًا آخر بقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٣].

والمقام يقتضي أن يقول: اعبدوا الله إلهي وإلهكم، لكن استعمل كلمة الرب مكان الإله؛ للتلازم التام بين الكلمتين. والحكمة هنا -والله أعلم- أن ذكر الرب فيه تصريح بعلة العبادة، وهو ما يتضمنه لفظ الرب من معاني الخلق والرزق... إلى آخره، والمعنى: اعبدوا الله الذي خلقكم ورزقكم وتولاكم في سائر أموركم.

بل ما رأيك أنّ هذا الرّبط بين العبادة وعلّتها -وهي الربوبية وما تتضمّنه من المعاني- قد نطق به أول أمر في القرآن الكريم!!

وهو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

فتأمل هاتين الآيتين العجيبتين في نظمهما، كيف أنّ الله تبارك وتعالى ذكر في البداية: الأمر بعبادته، وفي النهاية: النهي عن اتخاذ الأنداد والشركاء مع الله، وما بين البداية والنهاية: التعليل الصريح لذلك

(١) المصدر السابق ص ٢٣.

بتفرده تعالى خلقًا ورزقًا وتدبيرًا للكون.

ولنتأمل أخيرًا في سورة الناس، وكيف جاءت الاستعاذة فيها بالأسماء الحسنى الثلاثة: الربّ، والملك، والإله، مبيّنةً هذا التناسق والتواثق بين الربوبية والألوهية، فإنه لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم، فبقي أن يقال: لمّا خلقهم هل كلّفهم وأمرهم ونهاهم؟ قيل: نعم، فجاء: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فأثبت الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربًّا موجدًا، وملكًا مكلفًا، فهل يحب ويرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر؟ قيل: ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ أي: مألوههم ومحبوبهم، الذي لا يتوجّه العبد المخلوق المكلّف العابد إلا له، فجاءت الإلهيّة خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها[1].

أساليب القرآن في الدعوة للتوحيد

جاءت أساليب القرآن في الدعوة إلى التوحيد على غاية التفنن والإبداع؛ تلطفًا في استدعاء الناس إلى التوحيد، وتأليفًا لقلوبهم، ولفتًا لأسماعهم وأبصارهم، وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب، ولا شكّ أن في هذا التنويع والتفنّن ظهورًا فائقًا للسمو البلاغي والبياني للقرآن الكريم.

وتقريبًا للوقوف على شيءٍ من هذه الأساليب القرآنية الرفيعة نقسّمها إلى ما يلي:

أولًا: أسلوب الخبر المجرّد:

في كثير من الآيات القرآنية يقرر الله تبارك وتعالى حقائق التوحيد بأسلوب الخبر المجرد، تقريرًا سهلًا مباشرًا، ليس معزّزًا بالتوكيدات، ولا مشفوعًا بالمحاورات والتشبيهات، وكأنّ الحقّ تبارك وتعالى يلقي هذه الحقائق الإيمانية والأصول التوحيديّة إلى الفطرة النقيّة السويّة، التي لا تعرف المكابرة ولا الالتواء، أو كأن القرآن الكريم يعرّض بأولئك المشركين المعاندين، ويقول لهم بمفهوم الكلام دون منطوقه: إن حقائق التوحيد لهي أوضح من الشمس، كيف لا والدلائل عليها تحاصركم من كلّ جانبٍ فطرةً وحسًّا وعقلًا وشرعًا؟! فجدير إذا أن ينزّل أولئك المعاندين المكابرين

(١) تجريد التوحيد المفيد، المقريزي ص ٩.

منزلة الخالين من العناد والمكابرة؛ فيلقى إليهم الكلام أيضًا خبرًا مجرّدًا؛ لأن معهم من الأدلّة ما يقطع كلّ شكٍّ، ويستدعي كل يقين.

والآيات التي نستطيع بها التمثيل لهذا الأسلوب كثيرة، وتكفينا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٢-٦٣].

ثانيًا: أسلوب الخبر المؤكد:

من أساليب القرآن الكريم (التوكيد)، وهو أسلوبٌ قيمته البلاغية في تقوية الكلام ابتداءً، وإضفاء مزيدٍ من الصرامة في تقريره وإثباته؛ ليكون أدعى لقبول السامع واقتناعه، أو في مجابهة المتلقّي الجاحد المنكر بما يليق بحاله من مضادّةٍ له ومدافعة، والمؤكدات التي جاء بها القرآن الكريم في شأن الوحدانية والتوحيد كثيرة ومتنوعة؛ ومنها:

١. التأكيد بـ(إنّ).

٢. التأكيد باللام (لام التقوية).

٣. التأكيد بالقسم.

ومثالها جميعًا قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ١ - ٥].

٤. التأكيد بأساليب القصر.

كأسلوب النفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

وأسلوب القصر بـ(إنما): ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

وأسلوب القصر بالتقديم والتأخير، مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

فتقديم المفعول (إياك) أفاد قصر العبادة على الله وحده، وأصل الجملة: نعبدك.

وكذلك أيضًا أسلوب القصر بتعريف طرفي الجملة: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ١٠].

فتعريف الخبر (ربّي) أفاد أنه مقصور على المبتدأ، أي: الربوبية مقصورة على الله تعالى[1].

(١) انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ٤٧٧.

ثالثًا: الأساليب الإنشائية:

من أساليب القرآن الكريم أيضًا في تقرير التوحيد: أسلوب الطلب، كالاستفهام التقريري أو الإنكاري، فهذا أسلوب قرآني عالٍ في نقاش المشركين، إنه يوالي عليهم الأسئلة ويترك لهم في كثيرٍ من الأحيان إجاباتها؛ ليصلوا إلى الحق بأنفسهم، ويلزمهم الحجة، ويقودهم إلى الصواب.

قال تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

والمعنى: أن هذه التي تسمونها آلهة ليس لها من حقيقة الألوهية أدنى نصيب، وإنما هي أسماء على غير حقائق، كالغول والعنقاء وغيرهما من الأشياء المتوهمة.

ولذلك يقول القرآن الكريم متحديًا المشركين: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الرعد: ٣٣].

والمعنى: أن الله تعالى رقيب وعليم بكل شيء، وقد جعل له المشركون شركاء لا حقيقة لهم، وإنما عبدوها بظنون من القول وأوهام من الفكر باطلة.

ويقول تعالى منددًا بالمشركين، الذين يعبدون الأوهام المطلقة، تحت هذه الأسماء المخترعة: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

ومن ذلك أيضًا: الأسلوب التلقيني، فيستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب في تلقين الجواب الظاهر، حيث إنه لوضوحه لا ينكره المشركون، بل يسلمون به، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

وفي ذات الآية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤].

ففي هذه الآيات: يأمر الله نبيه صلى

الله عليه وسلم أن يسألهم عمن ينجيهم من المخاطر، ومن رب السماوات والأرض، ومن يرزقهم، ويأمره بأن يجيب: «الله»؛ لاعترافهم أن آلهتهم لا تملك شيئًا من ذلك، وتلقينهم الجواب فيه إشارة إلى أنهم لا ينكرون ذلك، وليس عندهم جواب غيره، وأن سكوتهم عن الجواب لوضوحه فيه حجة عليهم؛ إذ إنهم ما داموا قد اعترفوا بأن فاعل ذلك هو الله، فلم يشركون به غيره؟ ومثل هذا الأسلوب يعجز الخلق كلهم عن الإتيان بمثله.

ومما يلتحق بهذا الأسلوب التلقيني: الجواب المباشر من الله تعالى على ألسنة خلقه من الملائكة أو الأنبياء وهم يدفعون عنهم دعاوى الألوهية والبنوة لله، فليسوا سوى عباد مكرمين، خاضعين لأمره، ولن يجرؤ واحد منهم على ادعاء الألوهية، أما من تجرأ منهم على تلك الدعوى؛ فجزاؤه جهنم؛ لأنه ظالم مبين، وهل هناك أقوى في هدم الدعوى من اعتراف هؤلاء العباد أنفسهم الذين يدعونهم أبناء، بأنهم ليسوا سوى عبيد خاضعين، ومن جرأة منهم على دعوى الألوهية، كان جزاؤه عذاب جهنم خالدا فيها.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء ٢٦ - ٢٩].

وعلى هذا النسق نفسه جرى في الرد على من زعم ألوهية المسيح، فقد جعل المسيح نفسه يتبرأ من ذلك وينفيه، إذ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة ١١٦- ١١٧][1].

رابعًا: أسلوب ضرب المثل:

كذلك أسلوب الأمثال، وهو باب واسع في القرآن الكريم، يقصد به تقرير المعاني في نفس السامع، وتصويرها في صورة محسوسة ملموسة، عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو غيرهما من أساليب البيان، ولقد مدح الله جل وعلا كتابه باشتماله على

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٣٤٩، من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٧.

أسلوب الأمثال فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

فقد ضرب الله تعالى مثلًا للذين يستنصرون بآلهة غير الله، صوّرهم فيه بأنهم يستنصرون بأضعف شيء، وكأنهم العنكبوت في بيتها الهش الذي تمزقه الريح، وتقتحمه الحشرات، ويعبث به الصبيان، فلا يغني عن أهله شيئًا.

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذان مثلان للمشرك في تخبطه وحيرته، وللموحد في راحته وسلامته، ولا يستويان أبدًا، كما لا يستوي عبد مملوك يسومه سادته لسوء أخلاقهم سوء العذاب، وعبد مملوك لمالكٍ واحدٍ لطيفٍ لا يشق عليه بكثرة الأوامر، واختلاف المذاهب والمشارب.

ويضرب الله الأمثال مبينا ضياع أعمال المشركين، وهو بهذه التشبيهات البليغة يدعوهم إلى التفكّر في العاقبة الخاسرة لأعمالهم -مهما كانت صالحة- ما دامت غير نابعةٍ من إيمانهم وتوحيدهم لله.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

ويضرب الله المثل بالمشركين أنفسهم، وما يعانونه من اضطراب العقيدة وفساد التصور، وما ينشأ عن ذلك من حيرة القلب، وقلق الضمير.

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ

﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

وحينًا يصوّرهم هلكى في أشد صور الهلاك وأفتكها، إذ يقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وضرب الله سبحانه وتعالى مثلًا لقلب المؤمن الموحّد بالبلد الطيب، ومثلًا لقلب المشرك الكافر الذي لا ينبت فيه توحيد ولا إيمان بالبلد الخبيث، فقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨][1].

خامسًا: أسلوب المحاورة:

كذلك استخدم القرآن أيضًا أسلوب المحاورة، وهو الذي يورد فيه الحديث عن التوحيد من خلال حوار يجري بين طرفين أو أكثر؛ فيتقرر في النفس أكثر من الخبر المجرد، والمحاورات في القرآن كثيرةٌ، كمحاورات سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤١- ٤٢] إلى آخر الآيات المتضمنة لهذه المحاورة.

فالآيات الكريمة تورد حوارًا بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه المشرك، فيسأل إبراهيم أباه: لم تعبد آلهة صماء عمياء لا تغني عنك شيئًا؟! هو سؤال يبين حقيقة هذه الآلهة الباطلة، ويتضمن صفات الله وحده بالعبادة، فهو السميع البصير الغني المغني عز وجل[2].

وكتلك المحاورة بين الرجلين المؤمن والكافر: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٨].

ففي هذه المحاورة يصوّر الله جل وعلا مشهد الرجل الكافر بإزاء متجبّري قريش أو بني تميم، ومشهد الرجل المؤمن المقر بالربوبية الذي هو بإزاء بلال وعمار وصهيب وأقرانهم، وكيف أن الرجل المؤمن الذي خالطت قلبه بشاشة التوحيد؛ قد علم ما يجب عليه من شكر خالقه ورازقه.

وكتلك المحاورة الحادة يوم القيامة بين

(١) انظر: من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٠، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ١٧٧.

(٢) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٢٧.

فتنين من أهل الضلال: بين الضعفاء الأتباع، وبين المتبوعين السادة، والمحاورة الأخرى بين الشيطان وأتباعه من الإنس، وهم في دركات الجحيم، ينبّهنا الله تعالى سلفًا في قرآنه على بنود هذا الحوار بنوعيه؛ ليحذر العاقل، ويتجنّب الانزلاق مع دعاة السوء.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢١-٢٢].

وفي هذه الآية الكريمة يرسم الله جل وعلا للمشرك صورته المستقبلية، وهو في حالٍ من الحسرة والندامة، عندما يتبرأ منه الشيطان الذي اتبعه، ويقع بينهما التلاوم والشجار؛ لعله يتبصّر؛ فيختار لنفسه مصيرًا خيرًا من هذا المصير![1].

سادسًا: أسلوب القصة:

كذلك أيضًا أسلوب القصة، وهو أسلوب من أوسع أساليب القرآن في التوحيد وغيره، وقد عني القرآن بهذا الأسلوب وأكثر منه؛ لما في القصة من تأثير في النفوس، وسهولة في الحفظ، وانتشار وذيوع بين الناس.

وقد قصّ الله جل وعلا في القرآن الكريم من قصص الأنبياء وأخبارهم، وما تعرضوا له في سبيل الدعوة إلى التوحيد من صعابٍ ومشاقٍّ، وفي ثنايا ذلك: قص علينا القرآن الكريم محاوراتهم ومجادلاتهم مع ذوي الكفر والعناد والتجبّر، وما أظهره الله على أيدي رسله من باهر المعجزات، وصادق الأدلة.

وقد ألمحنا إلى بعض هذه القصص فيما سبق، ونضيف هنا تذكيرًا بقصة أصحاب الأخدود، وقصة أولئك القوم الموحدين المؤمنين الذين لقوا الموت في سبيل عقيدة التوحيد، وقد خلّد الله ذكرهم بهذه الآيات الكريمات، ولعن الكافرين أصحاب تلك الفعلة الشنيعة، مبيّنًا مصير الفريقين.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١١٩١.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١-١٠].

لقد بيّن الله سبب قتلهم لهؤلاء المؤمنين وهو إيمانهم بالله العزيز الحميد، وعدم إيمانهم بالكفر والوثنية اليهودية وعقائدها المزيفة، والعبرة هنا موجهة بخاصة للكفار من أهل مكة، في هذه القصة القريبة العهد منهم، إما أن يكفوا عن إيذاء محمد وأصحابه المؤمنين الموحدين، ويدخلوا في دينه؛ فيكون لكم جنات تجري من تحتها الأنهار، وإما أن يستمروا على إيذائهم الموحدين من المؤمنين والسخرية بهم، كما صنع ذو نواس بالموحدين، فعندئذ يدخلون مع اليهود في اللعنة والغضب، والوعيد الشديد بعذاب جهنم وعذاب الحريق[١].

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٢٩.

الأدلة القرآنية على صحة التوحيد

لقد استوعب القرآن الكريم الاستدلال على صحة عقيدة الوحدانية، وأنها الحق المبين، وأن كل شريك أو معبود مع الله هو كذب وافتراء، بل كلها أصنام وأوهام لا حق فيها، بل لا حقيقة لها في باب الألوهية، ولم يترك القرآن الكريم دليلًا يصلح لخطاب البشر إلا أورده على أتم الوجوه؛ حتى لا نقول: إنه لم يسق الدليل على صحة الوحدانية أو وجوب التوحيد فقط، وإنما أوجب على الناس أن يتدبروا هذه الأدلة، وأن يفهموها ويحصلوها -ولو إجمالًا-؛ حتى يكونوا على بينة في أعظم حقائق الوجود، وحتى يكون إيمانهم على غاية الاستقرار؛ ولذلك نوّع الأدلة في هذا تنويعًا عجيبًا؛ حتى تناسب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم[٢].

أولًا: الأدلة الوجدانية:

المقصود بالأدلة الوجدانية، أي: النفسية أو الداخلية، هي التي تعتمد في انتزاع الدليل على الوجدانية من داخل الإنسان، لا من خارجه، ومن أعماق شعوره الداخلي ووجدانه الباطني، لا من مدركات حواسه المعروفة.

(٢) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٢٨-٢٩.

وهذا الدليل بالغ الأهمية للإنسان، وفي قضية الإيمان بالذات؛ حتى يحاط به من خارجه ومن داخله جميعًا؛ فتمتلئ نفسه يقينًا لا يتسرب إليه ريب ولا قلق، وكم من إنسان امتلأ عقله بالمعارف والأرقام وفنون الإحصاء، وامتلأ عقله بعجائب هذا الكون، ولكنه يمضي متبلّد الإحساس، والسبب في ذلك تعطل وجدانه الداخلي، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن هنا اهتم القرآن العظيم ببيان هذا الدليل النفسي، وساق الآيات؛ تذكيرًا للناس بهذا الجانب الفذ، الذي أهملوه وعطّلوه وطمروه تحت ركام من الشبهات والشهوات، التي رانت على قلوبهم؛ فأظلمتها وأماتتها.

ونجتزئ بهذه الإشارة إلى دليل الفطرة، فقد تقدّم له فيما سبق مزيد شرح واستفاضةٍ.

ثانيًا: الأدلة الكونية الحسية، والتذكير بنعم الله فيها:

آيات الله جل وعلا وعجائبه في خلقه كثيرة وعظيمة، وأنّى التفت الإنسان ببصره وجد دليل وحدانية الله تعالى ماثلًا أمامه، وإذا مني الإنسان لسببٍ أو آخر بجفاف الفطرة وضمورها، فلم يعد صوتها المنادي له بالتوحيد يصل إلى آذان قلبه، فإنّ القرآن الكريم يرشد الإنسان إلى أدواتٍ أخرى قد تسعفه وتنقذه من ورطة الغيّ والضلال، لقد زوّد الله الإنسان بمداركه وقواه الحسّيّة من سمعٍ وبصرٍ وذوقٍ وشمٍّ ولمسٍ، حواسٌّ يكتشف بها العالم من حوله، ويقف بها على عجائب مصنوعات الله، فلعلّ في ذلك ما يأخذ بناصيته إلى معارج التوحيد، ويرحم أقدامه من مواطئ الشّرك والكفران.

والقرآن الكريم إذ يذكّر الإنسان بهذه الأدلة الكونية الحسية على وحدانية الله تعالى، فإنه كثيرًا ما يسلك -من أجل هذا التذكير والتقرير- سبيل الامتنان بها كنعمٍ وعطايا حبا الله الإنسان بها، فلولاها لم يكن لهذا الإنسان من وجودٍ ولا ذكرٍ، فهي إذًا آياتٌ كبرى تحيط بالإنسان، ونعمٌ عظيمةٌ تستوعب تفاصيل حياته، فكيف له بعد ذلك أن يعمى عن توحيد الله واستحقاقه للعبادة؟!.

وهذا المنهج القرآني لم نتفطّن إليه بالتأمل والتدبر، بل إن القرآن الكريم هو من يشرح بنفسه منهجه هذا، وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ

﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦١-٦٢].

إن الله جل وعلا يربط ربطًا أكيدًا في هذه الآيات بين توجيه النظر إلى التأمل في هذه الآيات الكبيرة، وبين الامتنان بما فيها من النعم العظيمة، وبين دلالتها المفترضة ونتيجتها المتوقعة في توحيد الناس العبادة لله وقيامهم بالشكر له، أو ليس في الليل السرمد والنهار السرمد ما يبعث الخوف في النفس، والحب لمن جعل الليل والنهار خلفة؟![1].

ولذلك فقد قال تعالى في آية سورة القصص: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: يرجى ويتوقع منكم أن تشكروا الله على مخالفته بين الليل والنهار؛ فتوحّدوه وتعبدوه.

يقول الطبري: «أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار عليكم رحمة من الله بكم، وحجة منه عليكم؛ فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره، ولمن له القدرة التي خالف بها بين ذلك... فعل ذلك بكم؛ لتفردوه بالشكر، وتخلصوا له الحمد؛ لأنه لم يشركه في إنعامه عليكم بذلك شريك؛ فلذلك ينبغي أن لا يكون له شريك في الحمد عليه»[2].

وفي آية سورة غافر يقول تعالى بعد ذكر نعمته على الناس: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، فأخبر تعالى أن أكثر الناس لا يقومون بشكر نعم الله عليهم والاعتراف بوحدانيته، الذي هو المقصود الأعظم من التذكير بالنعم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: الذي فعل هذه الأشياء وأنعم بها هو الله الواحد الأحد، الذي لا إله غيره ولا رب سواه، فكيف تعبدون الأصنام التي لا تنعم عليكم؟![3].

وما من مجالٍ هنا لاستقصاء جميع ما ورد في القرآن من الآيات الكونية، ولا كل ما ورد فيه من نعم امتن الله بها على الإنسان، وإنما الغرض هو التنبيه على الاستدلال بهذا النوع من الآيات والنعم، فنكتفي بما يدل

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦١٣.

(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٦.

على المقصود.

الصورة الأولى: آيات الأرض والسماء والجبال.

إن الله جل وعلا ليضع الإنسان أمام حقيقة يسيرة ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

بل إنه يسأله سؤالًا فيه إدلال بالتحدي: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

إن كان الإنسان مغترًّا بخلقه اغترارًا؛ أغراه بالجحود والنكران لخالقه أن يشكره ويعبده، فهذه الآيات العظيمة في خلق الأرض والسماء تعرّف الإنسان بحجمه الحقيقي في هذا الكون، وتنبّهه إلى أن الذي خلقها وأبدعها ليس بعاجزٍ عن إحياء الموتى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣].

ومن كان هذا خلقه؛ فهو متعالٍ عن الشريك، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣].

فأنى يكون له شريك، وقد خلقهما بالحق وهو التوحيد، منفردًا بخلقهما وإبداعهما من غير حاجة لأحد؟![1].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قال ابن كثير: «وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له»[2].

وقال الزمخشري: «أي: هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية؛ فلا تتخذوا له شركاء»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝١٦٣ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣ - ١٦٤].

قال الطبري: «وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره أهل الشرك به على ضلالهم، ودعاءٌ منه لهم إلى الأوبة من كفرهم والإنابة من شركهم، ثم عرّفهم تعالى ذكره بالآية

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ١٥٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٩٧.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٩٥.

التي تتلوها موضع استدلال ذوي الألباب منهم على حقيقة ما نبههم عليه من توحيده وحججه الواضحة القاطعة عذرهم، فقال تعالى ذكره: أيها المشركون، إن جهلتم أو شككتم في حقيقة ما أخبرتكم من الخبر من أن إلهكم إله واحد دون ما تدعون ألوهيته من الأنداد والأوثان؛ فتدبروا حججي وفكّروا فيها، فإن من حججي خلق السماوات والأرض»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

يقول الطبري: «ولقد وطّناكم أيها الناس في الأرض، وجعلناها لكم قرارًا تستقرون فيها، ومهادًا تمتهدونها، وفراشًا تفترشونها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب؛ نعمةً مني عليكم، وإحسانًا مني إليكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وأنتم قليل شكركم على هذه النعم التي أنعمتها عليكم؛ لعبادتكم غيري واتخاذكم إلهًا سواي»[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٢٦].

إن الله سبحانه وتعالى يذكّر عباده بنعمة الأرض التي جعلها لهم كالفراش ممهّدة وموطأة ومستقرة، وهو الذي ذللها لنا؛ للاستفادة من خيراتها، ولولا تذليل الله لها ما استطعنا أن نشق فيها الطرق ولا البناء عليها ولا الحرث ولا سائر أنواع المنافع، والتي منها أن الأموات يكفتون في بطنها، فهي تكنّ الأحياء على ظهرها في المساكن والأموات في القبور، فكأنها كفتت أذى الناس أحياء، وجيفهم أمواتًا[3].

وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥ - ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٦٧.
(٢) المصدر السابق ١٢/ ٣١٥.
(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٨.

هذه نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده، حيث ثبّت الأرض بالجبال؛ حتى لا تميد بأهلها وتضطرب فلا يستطيعون التصرف لمعاشهم؛ لعدم استقرارها.

والجبال كذلك علامات يستدل بها المسافرون برًّا وبحرًا إذا ضلوا الطريق؛ فإنها متنوعة الأشكال والألوان، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

هذه الآيات الكبرى والنعم العظيمة في الأرض والجبال، توجب على العباد شكر المنعم وتوحيده وعبادته دون الآلهة والأوثان؛ لأنه هو الذي خلقهم، وخلق هذه النعم، فيكون هو وحده المستحق عليهم الطاعة والشكر والعبادة، وقد استعمل موسى عليه السلام هذا الدليل في الدعوة لتوحيد الله فقال لفرعون وقومه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٤].[1].

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي: لدلالات وحججًا وبراهين لأولي النهى، أي: لذوي العقول السليمة على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه»[2].

الصورة الثانية: آيات الشمس والقمر والليل والنهار.

ويحدثنا القرآن الكريم أيضًا عن نعمة تبادل الليل والنهار، وعما خلق له الليل من نعمة الهدوء والسكون، وعن الشمس والقمر يجريان في دقة ونظام؛ فيحسب الناس بهما حياتهم، وينظمون أعمالهم، وعن النجوم في السماء تزينها كمصابيح، ويهتدي بها السائر في ظلمات البر والبحر.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥-٦].

في هاتين الآيتين تنبيهٌ على أن الله وحده هو الذي خلق الشمس والقمر والليل والنهار بغير معين ولا شريك، والمتدبر لذلك يعلم حقيقة الوحدانية، قال الطبري: «لقوم يعلمون إذا تدبروها حقيقة وحدانية الله، وصحة ما يدعوهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم، من خلع الأنداد، والبراءة من الأوثان»[3].

وانظر هذا التقدير الحكيم بأن جعل الله الليل والنهار مرتبطين بدورة الشمس، فلا يستطيع أحد إيقاف الشمس عن دورتها، أو

(١) المصدر السابق ص ٢٣٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤.

حبس الليل والنهار عن جزء من الأرض؛ لأن الله وحده هو الذي يتولى ذلك كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٞ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦١ - ٦٢].

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: «فعلت هذا الفعل من إيلاجي الليل في النهار، وإيلاجي النهار في الليل؛ لأني أنا الحق الذي لا مثل لي، ولا شريك، ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلهًا من دونه هو الباطل الذي لا يقدر صنعة شيء، بل هو المصنوع»[1].

قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

يقول ابن كثير: «يقول تعالى منبهًا خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قدير: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في سمائه؛ ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لمّا كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي؛ نبّه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ أي: لا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره؛ فإنه لا يغفر أن يشرك به»[2].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٦].

فهذه نعمة أخرى تتعلق بنعمة الشمس، وهي نعمة الظل، وقد نبّه سبحانه وتعالى عباده لهذه النعمة؛ لما فيها من الفوائد للكائنات جميعها؛ مما يستوجب على الناس الشكر للمنعم؛ لأنه لو شاء سكون الظل وعدم تحوله لفعل، ولما استطاع أحد تحويله.

كما نبّه على ما تتم به فائدة الظل هو قبضه تدريجيًّا، ولولا ذلك لم ينتفع به أهله؛ لأن في مدِّه وتحوله من مكان إلى مكان، ثم

(١) المصدر السابق ١٨/ ٦٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٨٢.

قبضه شيئًا فشيئًا من المصالح والمنافع مما لا يحصى، وبسكونه دائمًا أو قبضه دفعة واحدة تتعطل المرافق والمصالح[1].

وقال تعالى عن النجوم: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وأقسم به: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١].

وتمدح الله جل وعلا فقال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩].

بل أقسم بمواقعها في السماء: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٦].

ولقّبها بمصابيح السماء وبروجها: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٧].

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وأقسم بها: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

وأقسم بأحد نجومها واستعجب منه: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١-٣].

أليس في هذه النجوم -وأصغرها قد يفوق شمس الدنيا حجمًا بمرات ومرات- ما يدعو إلى توحيد الله؟!.

لقد أفحم القرآن بهذه الآيات المربوبة المسخّرة من ادّعى الألوهية من البشر إفحامًا لا مخلص له منه، وذلك في الحديث الذي دار بين إبراهيم وهذا الملك، الذي ادعى أنه إله، إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨][2].

الصورة الثالثة: آيات ونعم الرياح والسحاب والمطر والنبات.

الرياح آية كبرى ونعمة عظيمة، يقول تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨].

يقول ابن القيم: «فإذا شاء الله حرّكه بحركة الرحمة؛ فجعله رخاء ورحمة

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٣٤.

(٢) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٠٣.

ويشرى بين يدي رحمته، ولاقحًا للسحاب يلقحه بحمل الماء، ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض كيف ينشئه سبحانه بالرياح؛ فتثيره كسفًا، ثم يؤلف بينه، ويضم بعضه إلى بعض، ثم تلقحه الريح وهي التي سماها -سبحانه- لواقح، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوى عليها؛ أهراق ماءه عليها، فيرسل سبحانه الرياح وهو في الجو، فتذروه وتفرقه؛ لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته، حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه؛ أقلع عنها وفارقها، فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح»[1].

ويقول تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ [المؤمنون: ١٨ - ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨ لِّنُحۡيِۦَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٥٠].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

إن المطر نعمة عظيمة من الله على عباده؛ لأن حياة الحيوان والنبات متوقفة على الماء، والله وحده هو الذي ينزل علينا الماء من السحاب عذبًا فراتًا، ولم يجعله ملحًا أجاجًا، ثم يسكنه في الأرض؛ فيخرج ينابيع ويجري أنهارًا؛ لسقي الإنسان والحيوان والنبات والثمار في الجنات.

فانظر كيف تتجلى النعمة العظمى بإنزال المطر بالقدر المطلوب، لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلًا فلا يكفي الزروع والثمار، وكيف جعل في الأرض قابلية خزنه للاستفادة منه فيما بعد، ولو شاء الله أن لا تمطر السماء لفعل، ولو شاء جعله أجاجًا لفعل، ولو شاء ذهابه في أعماق الأرض بحيث لا ينال لفعل، فامتن الله على عباده إذن بكل هذه النعم؛ منبهًا إياهم لوجوب شكره.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

يقول الطبري: «وهذا تنبيه من الله جل ثناؤه هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم، وتعريفٌ منه لهم خطأ

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٠٢.

ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياهم، يقول تعالى ذكره: إن الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان هو الله، الذي فلق الحب، يعني: شقّ الحب من كل ما ينبت من النبات؛ فأخرج منه الزرع والنوى من كل ما يغرس مما له نواة؛ فأخرج منه الشجر»[1].

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

إن التفكير في النبات والثمار وكيفية تكونها من البذرة حتى صارت زرعًا أخضر وثمرًا طيبًا بعد جفافها، واختلاف ألوان الثمار وطعومها -مع كونها متشابهة في الشكل والورق-، لا شكّ يؤدي لمعرفة الله ووحدانيته؛ ولذلك حثّ الله على النظر للثمار فقال: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ فهي تدل دلالة واضحة على وحدانية الله؛ لذلك ذم الله تعالى المشركين بعد هذه الآية مباشرة فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠٢].

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: «يا أيها الناس، إذا نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه؛ علمتم أن له مدبرًا ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجج وبرهان وبيان يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء»[2].

إن العبد يشق الأرض ويضع فيها الحب، والزارع المنبت هو الله، دون الأنداد والأوثان، ولو شاء الله أن يجعل هذا الزرع حطامًا يابسًا قبل موعد حصاده ما استطاع أحد إنباته، وأقصى ما يعمله الإنسان هو التعجب والتفجع والحزن على ما فاته من الزرع والثمر، وإن الله تعالى ليضع الإنسان أمام عجزه وضعفه في أسلوب من الاستفهام المثير فيقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٥].

وقد استنكر الهدهد على قوم بلقيس

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٥٠.

(٢) المصدر السابق ١١/ ٥٨٢- ٥٨٣.

سجودهم للشمس من دون الله، مستدلًا على وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة؛ بأنه خلق الماء والنبات، وأخرجه بعد أن كان مخبوءًا في السماء والأرض، وجعل ذلك حجة على المخالفين، حيث قال تعالى عنه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥-٢٦].

ومن مجموع هذه النعم من رياح وسحاب ومطر ونبات؛ يمتن الله جل وعلا على عباده بالرزق؛ فهو الذي يرزقهم، ويرزق ما على الأرض من دواب، لا تستطيع أن تتكفل برزق نفسها.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت ٦٠].

ويسترعي انتباههم إلى طعامهم الذي هو من فيض فضله، فيقول: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس ٢٤ - ٣٢][1].

الصورة الرابعة: الآيات والنعم في الأنعام.

آية الله جل وعلا في الأنعام عظيمة، وعجيب صنعه فيها بالغ، وليس أدلّ على ذلك من أن الله تبارك وتعالى قد قرنها بآيات السماء والأرض والجبال في سياقٍ، بل وابتدأ بها في توبيخ المشركين الغافلين عن النظر إليها نظر الاعتبار والافتكار، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

ولا شك أن للأنعام في حياة العرب بالبادية ما يستحق أن يذكّروا به، وأن يسجّل فضله عليهم بها، فكانت الإبل دليلًا قريبًا ينبغي أن توجّه أنظارهم إليه.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ [يس: ٧١ - ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٦-٨].

النعمة الأولى في الأنعام هي نعمة تذليلها؛ لأن الله وحده هو الذي جعلها مقهورة ذليلة، لا تمتنع على صاحبها عند الحاجة إليها في تسييرها وتوجيهها للرعي أو للطرق، أو للحمل، أو للوقوف، ويرتبط

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٦.

بتذليلها كونها جمالًا وزينة لنا في رجوعها من المرعى عشيًّا؛ فتكون شبعانة وخواصرها مليئة، وفي بعثها صباحًا إلى المرعى، ولولا تذليلها ما كانت زينة وجمالًا؛ لأنها تكون نافرة مستعصية.

وقال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣ - ١٤].

إن نعمة ركوب الأنعام والحمل عليها تلفت النظر وتوجب الشكر؛ لأنها توفّر كثيرًا من الجهد والتعب، فيستطيع الإنسان السير في المصالح البعيدة كالحج والغزو والتجارة بلا مشقة؛ لأن هذه الأنعام تحمله، وتحمل متاعه وطعامه وشرابه، وبدون هذه الأنعام فإن الإنسان عاجزٌ عن ذلك، وتظهر نعمة الحمل والركوب بشكل خاص في الخيل والبغال والحمير؛ ولذلك أفردت معًا في آية خاصة بها فقال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

اللبن نعمة لا توصف على هذه البشرية؛ لأن مصالح العباد كلهم قائمة عليه في معظم وجباتهم الغذائية، وخاصة الصغار، وهذا اللبن يخرج من بطون الأنعام من بين الفرث والدم خالصًا بياضه وطعمه وحلاوته، فانظر كيف يكون الطعام في المعدة؟!

فإذا نضج ذهب أقسامًا للدم والعظم واللحم، وقسم يصير لبنًا، والباقي فضلات من روث وبول، ولا يمتزج قسم بآخر ولا يتغير به؛ فيخرج اللبن خالصًا سائغًا للشاربين لا يغص به أحد.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

هذه النعمة خاتمة النعم في الأنعام، فرغم تعدد منافع الأنعام في حياتهم، فهي كذلك يؤكل لحمها، وهو أعلى أنواع الأطعمة، وعليه اعتماد كبير في حياة الناس، بل إن شعوبًا كثيرة تعيش على الرعي والتجارة بالأنعام اللاحمة[1].

إن هذه النعم الكثيرة في الأنعام تستحق الشكر لله، والاعتراف بوحدانيته، وإفراده بالعبادة، وإخلاص الطاعة له، وهذا هو المقصود الأعظم من التذكير بهذه النعم الجليلة؛ لذلك نجد في الآيات دعوة لشكر الله، وعدم اتباع خطوات الشيطان.

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٤٨-٢٥١.

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وكذلك بعد ذكر نعمة الأنعام في سورة النحل يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨١-٨٣].

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآيات في سورة النحل: «وإن الله جلّ ثناؤه إنما عرّف عباده بهذه الآية وسائر ما في أوائل هذه السورة نعمته عليهم، ونبّههم به على حججه عليهم، وأدلته على وحدانيته، وخطّأ فعل من يشرك به من أهل الشرك»[١].

وقال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى في سورة يس بعد ذكر نعمة الأنعام: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، قال: «أفلا يوحّدون خالق ذلك ومسخّره، ولا يشركون به غيره؟!»[٢].

الصورة الخامسة: نعمة البيوت وآيتها.

ويوجّه القرآن الكريم أنظار البشر إلى النعمة الكبرى التي أودعها قلوبهم، وهي نعمة الهدوء والسكينة، يحسون بها عند ما يعودون إلى بيوتهم، مكدودين منهوكي القوى، وإلى هدايتهم إلى بناء بيوت من جلود الأنعام، يجدونها خفيفة المحمل في الظعن والإقامة، وإلى اتخاذ أثاثهم وأمتعتهم من أصوافها وأوبارها، وإلى نعمة الظل يجدون عنده الأمن والاستقرار، وإن للشمس وحرارتها لوقعًا مؤلمًا في النفوس وعلى الأجسام، ومن أجمل وسائل الاستتار هذه الثياب، تقي صاحبها الحر، وبها تتم نعمة الله، فيقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل ٨٠ - ٨١][٣].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٧٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٩٢.
(٣) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٤.

الصورة السادسة: آية ونعمة الأزواج.

ويوجّه القرآن الكريم أنظار البشر أيضًا إلى ما في خلق الزوج من نعمة تسكن إليها النفس، وتجد في ظلها الرحمة والمودة، فيقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

إن التفكر في احتياج الكائنات وافتقارها إلى الزوجية، ووجودها بهذه الثنائية «الذكر والأنثى»، لأمرٌ يدفع إلى تسبيح وتقديس الإله العظيم ذي الوحدانية، الذي لم تكن له صاحبة، إنها آية عظيمة تدعو إلى تذكّر التوحيد.

يقول تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥١].

ختامًا: فإن في إكثار القرآن من الحديث عن هذه النعم، وتوجيه أنظارهم إليها، وتقريرهم بها، ما يدفعهم إلى التفكير في مصدرها، وأنه جدير بالعبادة، ولا سيما أن تلك النعم ليست في طاقة بشر، وأنها باعترافهم أنفسهم من خلق العليّ القدير، وهكذا يتكئ القرآن على عاطفة إنسانية يثيرها؛ لتدفع صاحبها إلى الإيمان بالله وإجلاله وتقديسه، وإلى عبادته عبادةً منبعثة عن حبه وشكر أياديه[1].

ثالثًا: الأدلة العقلية:

وهي الأدلة التي تعتمد على عمليات نظرية وفكرية، كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها، حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحسّ ومشاعر النفس، وإن كان الإدراك في الجميع راجعًا إلى العقل[2].

فهذا تنبيه إلى أن أدلة القرآن كلها سمعية عقلية، سمعية؛ لورودها في القرآن، وعقلية؛ لأن للعقل قدرة على التفكير فيها، والنظر والاعتبار إذا سلك المسلك الصحيح[3].

ولكنا نتوسع هنا بذكر بعض الأدلة التي لم تندرج تحت ما سبق ذكره من أدلة توحيد الله، وأيضًا قد لوحظ فيها عناية القرآن بنظمها بأسلوبٍ جدليٍّ مرتّبٍ مقصودٍ للمناظرة والمحاجّة ابتداءً، وهذا أسلوب يختلف قليلا عن أسلوب الشواهد القرآنية السابقة في أدلة الآيات الكونية، فالأسلوب هناك سمته الأوضح هي السّرد والحشد للصّور والمشاهد، ويأتي التدليل والتعليل للوحدانية في ركاب السياق والسباق.

(١) المصدر السابق ص ١٩٦.
(٢) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٣٦.
(٣) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦٠.

وقد استخرج العلماء من الأدلة العقلية القرآنية لتقرير التوحيد أنواعًا.

١. الدليل البدهي.

هو دليل (بدهي) لأنه يقوم على استخدام الحقائق المشهورة والبدهيات المستقرة، في ابتناء الدليل عليها، فيذعن الخصم للدليل إذعانًا إن كان منصفًا.

وهو دليل الخلق والملك؛ لأنه مبني على أصلين:

أن الموجودات مخترعة.

- وأن كل مخترعٍ لابدّ له من مخترعٍ ومالكٍ[1].

ونأخذ لهذا الدليل أمثلةً من آيات القرآن الكريم في نفي الولد عن الله.

فنجد القرآن الكريم قد حدثنا في صراحة عن أن الله جل وعلا ليس في حاجة إلى هذا الولد، يعينه أو يساعده، فكل من في الوجود خاضع لأمره، لا يلبث أن ينقاد إذا دعي.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

وحينًا يدفع ذلك دفعًا طبيعيًا: بأن الولد لا يكون إلا إذا كان ثمة له زوجة تلد، أما وقد خلق كل شيء، فليس ما يزعمونه ولدًا سوى خلق ممن خلق: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

ويعرض مرة أخرى لهذه الدعوى، فيقرر غناه عن هذا الولد، ولم يحتاج إليه، وله ما في السموات وما في الأرض.

يقول تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٨ - ٦٩].

ويعجب القرآن: كيف يتوهّم للمشركين أن يخصوا أنفسهم بالبنين، ويجعلوا البنات لله؟! فيقول: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

ويصور القرآن -في أقوى صور التعبير- موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة نسبة الولد إلى الله، فتكاد- لشدة غضبها- أن تنفجر غيظا، وتنشق ثورة، وتخرّ الراسيات لهول هذا الافتراء، وضخامة هذا الكذب.

وأصغ إلى تصوير هذا الغضب في قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن

(١) التفسير الموضوعي ج ١، جامعة المدينة ص ٣٧.

﴿دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩١][1].

فهذا الدليل (دليل الخلق والملك) دليل عقليٌّ يتكامل مع الأدلة الحسية الكونية السابقة، فمتى تدبر الإنسان تلك الآيات والشواهد؛ استنتج منها: أن كل ما في الكون مخلوق، والمخلوق لابد له من خالق؛ لأنه يستحيل أن يكون خلق من غير خالق، والخالق يجب أن يكون ممتازًا عن المخلوق بكل وجهٍ، وإلا لما كان بينهما فرقٌ.

٢. دليل التمانع.

ويسمى دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بنا ضمن الآيات الكونية؛ ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزاءه -بحيث يكمل بعضها بعضًا-، وقدّر كل شيء فيه تقديرًا، هو الله الواحد الأحد، ويمتنع أن يكون له تعالى أيّ شريكٍ في ألوهيته أو ربوبيته؛ لأنّ ذلك سيفضي حتمًا إلى الخلل والفساد.

ومن الآيات التي قرر القرآن فيها هذا الدليل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وتوضيح الآية الكريمة أن يقال: لو كان للعالم صانعان لكان تدبيرهما لا يجري على نظام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما؛ وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فحينئذٍ إما أن تنفذ إرادتهما معًا، فيتناقض النظام لاجتماع الضدين، وإما ألا تنفذ إرادتهما معًا؛ فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما؛ فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزًا؛ فبطل ما أدى إليه، وهو افتراض التعدد، وثبت نقيضه، وهو الوحدانية[2].

٣. دليل الفرض والتسليم.

وهذا النوع من الاستدلال يقوم على التسليم بدعوى الخصم تسليمًا جدليًّا -ولو كانت دعواه مستحيلة-، ثم يستدل على إبطال الدعوى بالنتائج الخاطئة المتناقضة التي تترتب على هذه الدعوى.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فالحقيقة أن لا إله إلا الله، ولم يتخذ الله سبحانه وتعالى ولدًا، ولكننا لو سلمنا جدلًا بهذا الافتراض الخاطئ فما هي النتائج التي تترتب على ذلك: يترتب على ذلك استعلاء بعضهم على بعضٍ؛ فلا ينتظم أمر الكون، ولا ينفذ فيه حكم، ولا تتحقق مصلحة،

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٦٠.

ومن ثمّ ففي ذلك اختلال نظام المخلوقات واستحالة استمراره.

والواقع المشاهد خلاف ذلك؛ فدل هذا الواقع على أن تعدد الآلهة محال لما يلزم عليه من المحال، كما أن افتراض وجود آلهة متعددة يؤدي إلى استعلاء بعضهم على بعضٍ، ومنع كل منهم غيره من التدخل في شؤونه، وهو محال مصادم لما تستلزمه صفات الكمال المطلق للإله المعبود بحقٍّ.

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[1].

٤. الشرك ظنون وأوهام.

في ختام هذه الاستدلالات على صحة التوحيد، يبرز القرآن العظيم وجهًا آخر من وجوه الاستدلال، حين يطالب المشركين ويتحدّاهم أن يقيموا دليلًا واحدًا من أي نوعٍ على صحة عقيدتهم، فلا يستطيعون، بل لا يملكون إلا التعلق بالظنون والأوهام، والاحتجاج بفعل آبائهم، كما قال عنهم القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ولمّا كانوا عاجزين عن إتيان ذلك، بيّن القرآن الكريم حقيقة عقائدهم، وأنها مجرّد ظنونٍ فاسدةٍ.

قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

لقد وجّه القرآن نظرهم إلى أن هذه الأصنام أقل منهم؛ فإن لعابديها أرجلًا يمشون بها، وأعينًا يبصرون بها، وآذانًا يسمعون بها، أما هذه الأوثان فجاثمة، لا تستطيع الحركة والانتقال، ولا تستطيع البطش والدفاع، ولا تبصر، ولا تسمع، ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٥].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

أو يليق بالعاقل أن يعبد من دونه، ومن يراه عاجزًا لا يستطيع شيئًا؟! ولم يعبد المرء إلهًا لا يسمع دعاءه، ولا يستطيع أن يجيبه إلى مبتغاه، ولا يقدر على أن يرد عن عابده أذى نزل به.

قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وإذا استنصره لم يجد عنده ما يؤمل من

(١) مباحث من التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ١٥٣- ١٥٤.

النصر، والمرء عند الشدائد يلجأ إلى الله، ويطلب منه المعونة والمساعدة، فماذا يصنع بعبادة إلهٍ لا يمده بهما؟! بل إن هذه الأوثان لا تستطيع أن تحمي نفسها، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وأي ضلال أشد من عبادة من لا يملك الضر والنفع؟ وماذا بقي لهم من صفات الآلهة؟!، أخلقوا شيئًا في السماوات والأرض؟ أبأيديهم الموت والحياة والبعث؟ لا: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

والقرآن يمضي في التحدي، مؤكّدًا لهم أن أولئك الذين يدعونهم شركاء لله لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا، ولو ظاهر بعضهم بعضًا، برغم حقارة الذباب وضعفه، بل إن هذا الذباب الحقير الضعيف لا يستطيعون استخلاص شيء منه، إن سلبهم إياه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وإذا كانوا لم يخلقوا شيئًا، فهل يملكون من شيء في السماء أو الأرض؟ لا، إنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢].

وإذا كانت هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر، ولا تملك من أمر نفسها شيئًا، ولا تخلق شيئًا، وليس بيدها حياة ولا موت، بل هي أقل من عابديها قدرًا، فقد انمحت عنها حقيقة الألوهية، ولا يعدو الأمر بعدئذٍ: أن تكون المسألة أسماء وضعوها، من غير أن تدل هذه الأسماء على آلهةٍ حقيقيةٍ لها ما للآلهة من سلطان وقوة، وتستحق العبادة رغبةً أو رهبةً، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم ١٩ - ٢٣].

وها هو ذا يتهكم بهم تهكّمًا لاذعًا عندما منحوا هذه الأسماء التي لا حقيقة لها صفة الشفعاء؛ فيقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

والقرآن يثير في نفوسهم الخوف والفزع من سوء المصير، حين يصوّر لهم يوم القيامة، وما ينالهم فيه من خيبة الأمل، عندما يرون هذه الآلهة التي اتخذوها؛ ليعتزوا بها، قد أنكرت أن تكون أهلًا

لعبادتهم، ويشهدون عليهم بأنهم لم يكونوا عقلاء في هذه العبادة، فيقول: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١- ٨٢][1].

موضوعات ذات صلة

الألوهية، الإيمان، الدعوة، الشرك

(١) من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ٢٥٥-٢٥٧.

التوراة

عناصر الموضوع

مفهوم التوراة	١٤٤
التوراة في الاستعمال القرآني	١٤٦
الألفاظ ذات الصلة	١٤٧
اقتران التوراة بالإنجيل في القرآن	١٥٠
تلقي موسى عليه السلام ألواح التوراة	١٥٨
صفات التوراة في القرآن	١٦٣
الأحكام التشريعية في التوراة	١٦٧
الربانيون والأحبار وحفظ التوراة	١٧١
عيسى عليه السلام والتوراة	١٧٩

مفهوم التوراة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال أبو حيان: «التّوراة: اسمٌ عبرانيٌّ، وقد تكلّف النّحاة في اشتقاقها، وفي وزنها، وذلك بعد تقرير النّحاة أنّ الأسماء الأعجميّة لا يدخلها اشتقاقٌ، وأنّها لا توزن، يعنون اشتقاقًا عربيًّا»[(١)].

وقال الطاهر بن عاشور: «هو اسمٌ عبرانيٌّ أصله (طورا) بمعنى الهدى، والظّاهر أنّه اسمٌ للألواح الّتي فيها الكلمات العشر الّتي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطّور؛ لأنّها أصل الشّريعة الّتي جاءت في كتب موسى، فأطلق ذلك الاسم على جميع كتب موسى، واليهود يقولون (سفر طورا) فلمّا دخل هذا الاسم إلى العربيّة أدخلوا عليه لام التّعريف الّتي تدخل على الأوصاف والنّكرات لتصير أعلامًا بالغلبة: مثل العقبة»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

جاء في تفسير المنار: «أما التوراة في عرف القرآن فهي ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام؛ ليبلغه قومه لعلهم يهتدون به»[(٣)].

وقيل: «التوراة اسمٌ للكتاب المنزّل على موسى عليه السلام»[(٤)].

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٤٤].

وقد أمر الله كثيرًا من الأنبياء بعد موسى بتبليغها؛ قال الرازي: «قوله ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ يريد النبيين الذين كانوا بعد موسى، وذلك أن الله تعالى بعث في بني إسرائيل ألوفًا من الأنبياء ليس معهم كتاب، إنما بعثهم بإقامة التوراة، حتى يحدوا حدودها، ويقوموا بفرائضها، ويحلوا حلالها، ويحرموا حرامها»[(٥)].

ولقد اعتمد اليهود تسعة وثلاثين سفرًا أطلق عليها اسم (العهد القديم)، ويعتبرونها

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٥.
(٢) التحرير والتنوير، ٣/ ١٤٨.
(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٢٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب ١٢/ ٣٦٥، التحرير والتنوير ٦/ ٢٠٨.

أسفارًا مقدسة، أي: موصى بها، ويطلقون على خمسة منها إطلاقًا حقيقيًّا اسم التوراة، أو كتب موسى؛ لأنها في زعمهم قد أنزلها الله على موسى عليه السلام وكتبها موسى بنفسه، وهذه الأسفار الخمسة هي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين، وسفر العدد.

ولا علاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي؛ لكون اللفظة أصلها أعجمية ثم عربت.

التوراة في الاستعمال القرآني

وردت التوراة في القرآن (١٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	١٨	﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران:٣]

وجاءت التوراة في الاستعمال القرآني اسمًا للكتاب الذي أنزله الله على نبيه موسى عليه السلام[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١٥٨.
(٢) انظر: تفسير ابن عطية ١/ ٣٩٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ القرآن:

القرآن لغة:

القاف والراء والياء أصل صحيح يدل على الشيء المجموع، وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته، وضممت بعضه على بعض، وقرأت الكتاب قراءةً وقرآنًا، ومنه سمّي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمّها[(١)].

القرآن اصطلاحًا:

كلام الله تعالى، المنزّل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، المتعبّدُ بتلاوته، المنقولُ إلينا بالتواتر، المقروءُ في المصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة، والمنتهي بسورة الناس»[(٢)].

الصلة بين التوراة والقرآن:

تتفق الكلمتان في كونهما كلام الله المنزل من عنده بواسطة جبريل لتبليغه للناس، وتختلفان في اللغة، والإعجاز، والتحريف؛ فالتوراة نزلت على موسى عليه السلام بالعبرية غير معجزة، ولم يتكفل الله بحفظها، فدخل عليها التحريف، بينما القرآن نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بالعربية، وهو معجز، وقد تكفل الله بحفظه؛ فهو بعيد عن التحريف.

٢ الإنجيل:

الإنجيل لغةً:

قال ابن منظور: «الإنجيل: كتاب عيسى، على نبيّنا وعليه -الصّلاة والسّلام-، يؤنث ويذكّر، فمن أنّث أراد الصّحيفة، ومن ذكّر أراد الكتاب»[(٣)]. ويجمع على أناجيل.

وقد اختلف العلماء في أصله اللغوي، وهل هو عربي أو معرّب، والراجح هو أن كلمة الإنجيل معرّبة.

الإنجيل اصطلاحًا:

كلمة إنجيل إذا أطلقت فلها معنيان:

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ١/ ٦٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٥٠.
(٢) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، صالح الفوزان، ص٦٦.
(٣) لسان العرب، ١١/ ٦٤٨.

الأول: الكتاب المنزل من عند الله تعالى على المسيح عليه السلام، وهو مفقود، ولم يبق منه إلا نتف قليلة مما بين أيدي النصارى الآن، قال الطاهر بن عاشور في تعريفه بهذا المعنى: «اسمٌ للوحي الّذي أوحي به إلى عيسى عليه السلام فجمعه أصحابه»[1].

الثاني: الإنجيل الذي تعظّمه النصارى الآن، وهو عبارة عن «أربعة كتبٍ تعرف بالأناجيل الأربعة».

الصلة بين التوراة والإنجيل:

تتفق التوراة والإنجيل في كونهما كلام الله أنزله من عنده على أنبيائه لتبليغه بني إسرائيل، وهما غير معجزين، ولم يتكفل الله بحفظهما، ويختلفان بأن التوراة أنزلت على موسى، بينما الإنجيل أنزل على عيسى عليهما السلام.

٣ الزبور:

الزبور لغةً:

قال ابن فارس: (زبر) «الزاي والباء والراء أصلان: أحدهما يدل على إحكام الشيء وتوثيقه، والآخر يدل على قراءة وكتابة وما أشبه ذلك، زبرت الكتاب، إذا كتبته، ومنه الزبور»[2]. وقال الكفوي: «كل كتاب غليظ الكتابة يقال له زبور»[3].

الزبور اصطلاحًا:

هو كلام الله المنزل وحيًا على رسوله داود عليه السلام ليبلغه لقومه.

الصلة بين التوراة والزبور:

تتفق التوراة والزبور في كونهما كلام الله أنزله من عنده على أنبيائه لتبليغه بني إسرائيل، وهما غير معجزين، ولم يتكفل الله بحفظهما، ويختلفان بأن التوراة أنزلت على موسى، بينما الزبور أنزل على داود عليهما السلام.

(١) التحرير والتنوير، ٣/ ١٤٩.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٤٥.
(٣) الكليات، ص٤٨٦.

٤ صحف إبراهيم وموسى:

الصحف لغةً:

قال ابن فارس: «الصاد والحاء والفاء أصل صحيح يدل على انبساط في شيء وسعة. يقال: إن الصحيف: وجه الأرض، ومن الباب: الصحيفة، وهي التي يكتب فيها، والجمع: صحائف، والصحف أيضًا، كأنه جمع صحيف»[(١)].

الصحف اصطلاحًا:

وهي كلام الله الذي أنزله على نبيه إبراهيم، وتسمى صحف إبراهيم، وكلام الله المنزل على موسى، وهو التوراة، وتسمى صحف موسى، وهو مذهب أكثر المفسرين، والله أعلم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلها في صحف إبراهيم وموسى)[(٢)].

الصلة بين التوراة وصحف إبراهيم وموسى:

مما سبق يتضح أنه لا فرق بين التوراة وبين صحف موسى، فهما اسمان لمسمى واحد، أما صحف إبراهيم؛ فقد قال ابن عاشور: «وأما صحف إبراهيم فكان المأثور منها أشياء قليلة، وقدرت بعشر صحف، أي مقدار عشر ورقات بالخط القديم، تسع الورقة قرابة أربع آيات من آي القرآن، بحيث يكون مجموع صحف إبراهيم مقدار أربعين آية»[(٣)].

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٣٣٤.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٢٩٣٠، ٢/ ٢٥٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٣٠.

اقتران التوراة بالإنجيل في القرآن

اقترن ذكر التوراة والإنجيل في القرآن ست مرات؛ وفي ذلك إشارة لأمر معين ولحكمة معينة؛ فالتوراة والإنجيل نزلتا على بني إسرائيل، «فالرسالة التي أنزلت على عيسى عليه السلام، مكمّلة لرسالة موسى عليه السلام، ومتممة لما جاء في التوراة من تعاليم، موجهة إلى بني إسرائيل، داعية إلى التوحيد والفضيلة والتسامح»[(١)].

فالتوراة أصل كالقرآن؛ قال ابن تيمية: «والقرآن أصل كالتوراة وإن كان أعظم منها؛ ولهذا علماء النصارى يقرنون بين موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، كما قال النجاشي ملك النصارى لما سمع القرآن: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.»[(٢)].

ولشيخ الإسلام في هذا الأمر كلام نفيس حيث قال: لقد علّم الله المسيح التوراة والإنجيل.

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران:٤٨].

ومن المعلوم أنه لولا أنه متبع لبعض ما في التوراة لم يكن تعلمها له منّة؛ ألا ترى أنا نحن لم نؤمر بحفظ التوراة والإنجيل وإن كان كثير من شرائع الكتابين يوافق شريعة القرآن؛ فهذا وغيره يبين ما ذكره علماء المسلمين من أن الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة، وأكثر الأحكام يتبع فيها ما في التوراة، وبهذا يحصل التغاير بين الشرعتين.

ولهذا كان النصارى متفقين على حفظ التوراة وتلاوتها كما يحفظون الإنجيل، ولهذا لما سمع النجاشي القرآن قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، وكذلك ورقة بن نوفل قال للنبي صلى الله عليه وسلم -لما ذكر له ما يأتيه- قال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى.

وكذلك قالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القصص:٤٨].

فهذا وما أشبهه مما فيه اقتران التوراة بالقرآن وتخصيصها بالذكر يبين ما ذكروه من أن التوراة هي الأصل، والإنجيل تبع لها في كثير من الأحكام، وإن كان مغايرًا لبعضها؛ فلهذا يذكر الإنجيل مع التوراة والقرآن في مثل قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/ ٥٦٤.
(٢) الجواب الصحيح ١/ ١١٦.

﴿٣﴾ [آل عمران:٣].

وقال: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة:١١١]، فيذكر الثلاثة تارة، ويذكر القرآن مع التوراة وحدها تارة لحكمة، وهي: أن الإنجيل من وجه أصل ومن وجه تبع، بخلاف القرآن مع التوراة؛ فإنه أصل من كل وجه، بل هو مهيمن على ما بين يديه من الكتاب، وإن كان موافقًا للتوراة في أصول الدين وكتبه من الشرائع، والله أعلم[١].

كما ارتبط إنزال التوراة والإنجيل بكيفية واحدة، وهي النزول كاملة غير منجمة بخلاف القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران:٣].

قال الرازي: «وإنما خص القرآن بالتنزيل، والتوراة والإنجيل بالإنزال، لأن التنزيل للتكثير، والله تعالى نزل القرآن نجمًا نجمًا، فكان معنى التكثير حاصلًا فيه، وأما التوراة والإنجيل فإنه تعالى أنزلهما دفعة واحدة، فلهذا خصهما بالإنزال»[٢].

وقال أبو السعود: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٣]. تعيينٌ لما بين يديه، وتبيينٌ لرفعة محلّه، تأكيدًا لما قبله وتمهيدًا لما بعده؛ إذ بذلك يترقى شأن ما يصدّقه رفعةً ونباهةً، ويزداد في القلوب قبولًا ومهابةً، ويتفاحش حال من كفر بهما في الشناعة واستتباع ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام، أي أنزلهما جملةً على موسى وعيسى عليهما السّلام، وإنما لم يذكرا لأن الكلام في الكتابين لا فيمن أنزلا عليه[٣].

ومن أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بجميع الكتب السماوية.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦].

والإيمان بها يعني الإيمان بصحف إبراهيم، والتوراة المنزلة على سيدنا موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود، والقرآن الكريم على سيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين، هذا مع الانتباه الشديد إلى أمرين: أولًا: أننا نؤمن أن هذه الكتب بأصلها من عند الله إلا أن يد البشر امتدت إليها، تعبث وتحرف، وتؤول وتغير، كما أخبرنا القرآن الكريم عن أهل الكتاب، ثانيًا: أن القرآن هو المنهاج الرباني الأخير للبشر، وهو آخر أمر يسأل الله عنه البشر يوم القيامة، فنزل القرآن ناسخًا لما قبله، مهيمنًا

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٦/ ٤٥.
(٢) مفاتيح الغيب ٧/ ١٣٠.
(٣) إرشاد العقل السليم ٢/ ٤.

على ما قبله من الكتب.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

وسيتناول هذا المبحث: وجوب الإيمان بالكتب المنزلة، والكفر بإحداها كفر بها جميعًا، والإيمان بأن التوراة كتاب منزل من عند الله سبحانه وتعالى، وتصديق الإنجيل والقرآن للتوراة الـمنزلة، ثم القرآن مكذّب للتوراة المحرفة، وفيما يلي تفصيل ذلك[1].

أولًا: وجوب الإيمان بالكتب المنزلة والكفر بإحداها كفر بها:

جاء ذكر الإيمان بالكتب السماوية في القرآن في صيغة الأمر تارة، وصفة للمؤمنين تارة أخرى، وبوصف الكفر لمن لم يؤمن بها تارة ثالثة.

فصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة:١٣٦].

أما وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة كلها ففي قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥].

أما وصف الذين لا يؤمنون بالكتب كلها أو الذين يؤمنون ببعضها ويكفرون ببعض بأنهم كفار ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

ومفهوم هذه الآيات وأمثالها، سواء كانت أمرًا مباشرًا أو وصفًا للمؤمنين أو وصفًا للكافرين، هو أن الإيمان بالكتب السماوية كلها أمر واجب لا يتم إيمان المرء إلا به.

إنّ الكتب السماوية كلها تحتوي على حقيقة واحدة، هي الأمر بعبادة الله وحده ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥][2].

والإيمان بالكتب ينقسم إلى: إيمان إجمالي، وإيمان تفصيلي؛ فالإيمان الإجمالي: وجوب الإيمان بكلّ كتابٍ أنزله الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ [الشورى:١٥].

فكل كتاب يجب على العباد أن يؤمنوا به، علموه أم لم يعلموه.

(١) انظر: موقع د. محمد راتب النابلسي.

(٢) انظر: كائز الإيمان، محمد قطب، ص١٨١.

والإيمان التفصيلي: وهو الإيمان بكل ما سمى الله من كتبه على وجه التفصيل، وقد علمنا من ذلك: القرآن والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وأن لله سوى ذلك كتبًا أنزلها على أنبياءه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الذي أنزلها[1].

ثانيًا: الإيمان بأن التوراة كتاب منزل من عند الله سبحانه وتعالى:

تمتاز العقيدة الإسلامية بالتكامل؛ فهي عقيدة متكاملة، فالإيمان بالكتب السماوية، يتضمن جميع الكتب، ما علمنا وما لم نعلم، ومن هذه الكتب: التوراة؛ فقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن إنزال التوراة.

قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران:٣].

وقال ايضًا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٥﴾ [آل عمران:٦٥].

قال السمرقندي: «يعني أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى من قبل هذا الكتاب»[2].

وقال الرازي: «فاعلم أنه تعالى بين أنه أنزل التوراة والإنجيل قبل أن أنزل القرآن، ثم بين أنه إنما أنزلهما هدى للناس»[3].

وقالت نعمة النخجواني: «وأنزل أيضًا التّوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما السّلام مصدقين كذلك لعموم ما مضى من الكتب السابقة، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل إنزال القرآن عليك، ومن سنته سبحانه إنزال اللاحق مصدقًا للسابق، لكون الكل هدىً للنّاس أي نازلًا من عنده سبحانه لمصلحة الهداية، يهديهم الى توحيده الذاتي عند ظهور أمارات الغي والضلال»[4].

ولقد ذم الله اليهود حيث لم يؤمنوا بما جاء في توراتهم.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣﴾ [المائدة:٤٣].

قال المراغي: «إن أمرهم لمن أعجب العجب، وما سبب ذلك إلا أنهم ليسوا مؤمنين بالتوراة إيمانًا صحيحًا، ولا هم مؤمنين بك، إذ المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضًا، أيّد به الأول، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك، ولكن هؤلاء تركوا حكم التوراة التي يدعون الإيمان بها؛ لأنه لم يوافق

(١) انظر: دراسات في العقيدة، سعد عاشور ص٢١٠.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ١٩٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٧/ ١٣٢.
(٤) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية ١/ ٩٨.

أهواءهم وجاءوك يطلبون حكمك، رجاء أن يوافق أهواءهم، ثم يتولون ويعرضون عنه، إذ لم يأت وفق مرادهم»[1].

ثالثًا: تصديق الإنجيل والقرآن للتوراة المنزلة:

جاء القرآن مؤيدًا للحق الذى ورد في الكتب السماوية من عبادة الله وحده، والإيمان برسله، والتصديق بالجزاء، ورعاية الحق والعدل، والتخلق بالأخلاق الصالحة؛ وهو في الوقت ذاته مهيمنٌ عليها، ومبينٌ ما وقع فيها من أخطاء وأغلاط، وتحريف وتصحيف، وتغيير وتبديل.

وإذا انتفت هذه الأخطاء التي أدخلها رجال الدين على الكتب السماوية وزوروها على الناس باسم الله، ظهر الحق، واستبان، والتقى القرآن مع التوراة والإنجيل.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨].

وإقامتها لا تتحقق إلا بعد تطهيرها من الزيف[2].

ولقد جاءت الآيات تؤكد على تصديق القرآن للتوراة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١].

وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء:٤٧].

وقال أيضًا: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران:٣].

قال الطبري: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني بذلك القرآن، أنه مصدّق لما كان قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله، ومحقق ما جاءت به رسل الله من عنده[3].

وقال السمعاني: «القرآن مصدق لما قبله من التوراة والإنجيل»[4].

وقال السعدي: «فهو المزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون»[5].

والإنجيل أيضًا جاء مصدقًا للتوراة؛ قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ [آل عمران:٥٠].

وفي مفهوم هذه الآية أيضًا تصديق عيسى للتوراة كما قال الطبري: «وإنما قيل:

(١) تفسير المراغي ٦/ ١٢١.
(٢) انظر: العقائد الإسلامية، سيد سابق، ص ١٦٨.
(٣) جامع البيان ٦/ ١٦٠.
(٤) تفسير القرآن ١/ ٢٩١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص١٢١.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾؛ لأن عيسى صلوات الله عليه، كان مؤمنًا بالتوراة مقرًّا بها، وأنها من عند الله. وكذلك الأنبياء كلهم، يصدّقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلف بعض شرائع أحكامهم، لمخالفة الله بينهم في ذلك، مع أنّ عيسى كان -فيما بلغنا- عاملًا بالتوراة لم يخالف شيئًا من أحكامها، إلا ما خفّف الله عن أهلها في الإنجيل، مما كان مشددًا عليهم فيها»[1].

وقال ابن عطية: «وكان عيسى عليه السلام مصدقًا للتوراة متبعًا عاملًا بما فيها، قال وهب بن منبه: كان يسبت، ويستقبل بيت المقدس»[2].

وقال الرازي: «يجب على كل نبي أن يكون مصدقًا لجميع الأنبياء عليهم السلام، لأن الطريق إلى ثبوت نبوتهم هو المعجزة، فكل من حصل له المعجز، وجب الاعتراف بنبوته، فلهذا قلنا: بأن عيسى عليه السلام يجب أن يكون مصدقًا لموسى بالتوراة، ولعل من جملة الأغراض في بعثة عيسى عليه السلام إليهم: تقرير التوراة، وإزالة شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين»[3].

ولقد جاء القرآن مهيمنًا على جميع الكتب السابقة، أي: رقيب عليها، لأنه يشهد بصحتها، ويقرر أصولها، وما يتأبّد من فروعها، ويبيّن أحكامها المنسوخة بتعين وقت انتهاء مشروعيتها، أو على معنى أنه أمين عليها، فما أخبر عن صدقه مما ورد فيها صدّق، وما أخبر بزيفه فهو باطل أو على معنى أنه الحافظ لها، فهو الذي حفظ ما جاء فيها من التوحيد، وكليات الدين إلى يوم القيامة، أو على معنى أنه دال على صدقها، أي هو دليل على أنها من عند الله، لأنه جاء كما نعتته هذه الكتب، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

قال الطبري: «أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، مصدّقًا للكتب قبله، وشهيدًا عليها أنها حق من عند الله، أمينًا عليها، حافظًا لها»[4].

وقال الزمخشري: «مهيمنًا ورقيبًا على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات»[5].

قال الواحدي: «أي: شاهدًا وأمينًا وحفيظًا ورقيبًا على الكتب التي قبله»[6].

رابعًا: القرآن مكذّب للتوراة المحرفة:

أنزل الله التوراة على اليهود، فحرفوها وخلطوا الحق بالباطل.

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٣٨.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٤١.
(٣) مفاتيح الغيب ٨/ ٢٣٠.
(٤) جامع البيان ١٠/ ٣٧٧.
(٥) الكشاف ١/ ٦٤٠.
(٦) الوجيز ٣٢٢.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة:٤٢].

ولم يتكفل الله بحفظ التوراة، لكنه فند لنا كذب اليهود وافتراءهم عليه وعلى أنبيائه في كثيرٍ من الآيات، نقف على بعض الأمثلة.

المثال الأول: وصفوا الله بأنه ندم على فعله؛ فمن ذلك قولهم: «فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه»[(١)].

وقد كذبهم الله في ذلك فقال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان:٧٧]. وهل يندم إلا الغر الجاهل بالعواقب، والله عز وجل منزه عن ذلك[(٢)].

المثال الثاني: وصفهم الله عز وجل بالتعب، فقد زعم اليهود في كتابهم أن الله عز وجل تعب من خلق السموات والأرض فاستراح في اليوم السابع، فقد ورد في توراتهم المحرفة ما نصه: «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل»[(٣)].

وورد أيضًا: «لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفس»[(٤)].

وقد ردّ الله عز وجل عليهم، وبيّن بطلان قولهم هذا في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨].

المثال الثالث: تزعم التوراة أن بني إسرائيل رأوا الله عز وجل، فتقول: «لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء»[(٥)]، «وفيها ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله، وأكلوا وشربوا»[(٦)]، وجاء أيضًا: «ويكلم الرب موسى وجهًا لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه»[(٧)].

وقد فند القرآن كذبهم فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة:٥٥].

وقال أيضًا: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ

(١) سفر الخروج ٣٢/ ١٤.
(٢) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود الخلف، ص ١٠٦.
(٣) سفر التكوين ٢/ ٢.
(٤) سفر الخروج ٣١/ ١٧.
(٥) سفر الخروج ١٩/ ١١.
(٦) سفر الخروج ٢٤/ ١٠.
(٧) المصدر السابق ١٣/ ١١.

﴿شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف:١٥٥].

بل إن موسى عليه السلام نفسه لم ير الله عز وجل كما قال القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣].

المثال الرابع: ولقد اعتدوا على أنبياء الله، فقالوا عن نوح عليه السلام: «وابتدأ نوح يكون فلاحًا، وغرس كرمًا، وشرب من الخمر وتعرى داخل خبائه»[(١)].

هكذا وصفوا نبي الله نوحًا عليه السلام وهو أول أنبياء الله إلى المشركين، والذي دعا قومه إلى دين الله ألف سنة إلا خمسين عامًا كما ذكر الله عز وجل، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت:١٤].

ولقد امتن الله على بني إسرائيل أنهم ذرية ذلك العبد الصالح نوح عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٢-٣][(٢)].

المثال الخامس: زعموا أن هارون عليه السلام هو الذي صنع لهم العجل ودعاهم إلى عبادته، فقالوا: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون، وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا... فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في أذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها.... فأخذ ذلك من أيديهم، وصوره بالإزميل، وصنعه عجلًا مسبوكًا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل»[(٣)].

وقد بين الله عز وجل في القرآن أن الذي صنع لهم العجل هو السامري، فقال عز وجل: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه:٨٥].

أما هارون عليه السلام فقد قام بواجبه من ناحية نهيهم عن عبادة العجل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾﴾ [طه:٩٠].

(١) سفر التكوين ٩/ ٢٠.

(٢) انظر: الأديان والمذاهب، جامعة المدينة، ص١٥٧.

(٣) سفر الخروج ٣٢/ ١.

تلقي موسى عليه السلام ألواح التوراة

لقد أنزل الله على النبيين الرسالات، واختص موسى بالتوراة؛ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة:٤٤].

والصحف؛ ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى:١٩].

والألواح؛ ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف:١٤٥].

وهناك من فرّق بينهم، قال ابن كثير: «وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة»[(١)].

ولم يثبت بخبرٍ صحيح أن التوراة غير الألواح وغير الصحف، بينما كثير من المفسرين اعتبروها شيئًا واحدًا.

قال القرطبي: «﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٤٥]: يريد التوراة»[(٢)].

قال السمعاني: «في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾أراد به التوراة»[(٣)].

وقال الزحيلي: «أنزل الله تعالى على موسى الألواح، وفيها التوراة المشتملة على أصول العقيدة والأخلاق والآداب والشريعة والأحكام المفصلة المبينة للحلال والحرام»[(٤)].

«وتختلف الروايات والمفسرون في شأن هذه الألواح، ويصفها بعضهم أوصافًا مفصلة- نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير- ولا نجد في هذا كله شيئًا عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فنكتفي بالوقوف عند النص القرآني الصادق لا نتعداه، وما تزيد تلك الأوصاف شيئًا أو تنقص من حقيقة هذه الألواح، أما ما هي، وكيف كتبت، فلا يعنينا هذا في شيء، بما أنه لم يرد عنها من النصوص الصحيحة شيء»[(٥)].

وما ذكره القرآن بشأنها هو تلقي موسى عليه السلام لها، وذهابه بها إلى قومه، ثم إلقائها عند غضبه منهم، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: موسى عليه السلام يتلقى الألواح على جبل الطور:

لقد تلقى موسى الألواح عند ذهابه لميقات ربه على جبل الطور.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٨١.
(٣) تفسير القرآن ٢/ ٢١٤.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٨٧.
(٥) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٠.

﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف:١٤٣-١٤٤].

بعد أن ذكر الله ما أنعم به على بنى إسرائيل، من النجاة من العبودية، ومن جعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه الله لها من العبادات والأحكام، ذكر هنا بدء وحي الشريعة لموسى عليه السلام، ممتنًا عليهم بما حصل لهم من الهداية بتكليم موسى وإعطائه التوراة، وفيها تفاصيل شرعهم وبيان ما يقرّبهم من ربهم من الأحكام، وقد روي أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر، إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله؛ فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب، وهو التوراة[1].

قال الواحدي: «ولمّا جاء موسى في الوقت الذي وقّتنا له، وسمع كلام الله، قال: ربّ إنّي قد سمعت كلامك فأنا أحبّ أن أراك، قال: لن تراني في الدّنيا، ولكن اجعل بيني وبينك ما هو أقوى منك وهو الجبل، فإن استقرّ مكانه أي: سكن وثبت، فسوف تراني، وإن لم يستقرّ مكانه فإنّك لا تطيق رؤيتي، كما أنّ الجبل لا يطيق رؤيتي، فلمّا ظهر وبان جعله دكًّا، أي: مدقوقًا مع الأرض كسرًا ترابًا، وسقط موسى مغشيًّا عليه، فلما أفاق قال: سبحانك! تبت إليك من مسألتي الرّؤية في الدّنيا، وأنا أوّل قومي إيمانًا، قال: يا موسى إني اتّخذتك صفوةً على الناس بوحيي، وكلّمتك من غير واسطة، فخذ ما آتيتك من الشّرف والفضيلة، وكن من الشاكرين لأنعمي في الدنيا والآخرة»[2].

وقد أمر الله موسى عليه السلام أن يأخذ ما في الألواح بقوة، لأن الأمور العقدية بحاجة للأخذ بقوة.

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف:١٤٥].

يقول سيد قطب: إن العقيدة أمر هائل عند الله، وأمر هائل في حساب هذا الكون، وقدر الله الذي يصرفه، وأمر هائل في تاريخ الإنسان وحياته في هذه الأرض، وفي الدار الآخرة كذلك...وأمر له هذه الخطورة عند الله، وفي حساب الكون، يجب أن يؤخذ بقوة، وأن تكون له جديته في النفس، وصراحته وحسمه، ولا ينبغي أن يؤخذ في رخاوة، ولا في تميع، ولا في ترخص، ذلك أنه أمر هائل في ذاته، فضلًا على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها من طبيعته الرخاوة

(١) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٥٥.

(٢) الوجيز، ص٤١٢.

والتميع والترخص[1].

ثانيًا: موسى عليه السلام يذهب بالألواح إلى قومه:

ولقد بدّلت بنو إسرائيل في غياب موسى عليه السلام لميقات ربه، فعبدوا العجل.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف:١٤٨].

قال الثعلبي: «وكانت بنو إسرائيل في القبط بمنزلة أهل الجزية في الإسلام، وكان لهم يوم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلي، فزامن ذلك عيدهم، فاستعاروا الحلي للقبط، فلما أخرجهم الله من مصر وغرق فرعون؛ بقيت تلك الحلي في أيديهم فاتخذ السامري منها عجلًا، وهو ولد البقر عجلًا جسدًا مجسّد لا روح فيه»[2].

فعبدوه، ثم تبين لهم الحق فندموا.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف:١٤٩].

قال القشيري: «حين تحققوا بقبح صنيعهم تجرّعوا كاسات الأسف ندمًا، واعترفوا بأنهم خسروا إن لم يتداركهم من الله جميل لطفه»[3].

ويقول ابن عطية: «وقول بني إسرائيل ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ إنما كان بعد رجوع موسى وتغييره عليهم، ورؤيتهم أنهم قد خرجوا عن الدين ووقعوا في الكفر»[4].

ولقد رجع موسى من ميقات ربه حاملًا الألواح لقومه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٥٠].

يقول بعض المفسرين إن الله قد أخبره بصنيع قومه قبل عودته، قال الطبري: «لأن الله كان قد أخبره أنه قد فتن قومه، وأن السامري قد أضلّهم، فكان رجوعه غضبان أسفًا لذلك»[5].

وقال البعض الآخر أنه عرف ذلك الصنيع بعد أن رآهم، قال الرازي مفصلًا المسألة: «اعلم أن قوله: ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا لا يمنع من أن يكون قد عرف خبرهم من قبل في عبادة العجل، ولا يوجب ذلك؛ لجواز أن يكون عند الرجوع ومشاهدة أحوالهم صار كذلك، فلهذا السبب اختلفوا فيه؛ فقال قوم: إنه عند هجومه عليهم عرف ذلك. وقال أبو مسلم: بل كان عارفًا بذلك من قبل، وهذا أقرب.

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٠.
(٢) الكشف والبيان ٤/ ٢٨٥.
(٣) لطائف الإشارات ١/ ٥٧٢.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦.
(٥) جامع البيان ١٣/ ١٢٠.

ويدل عليه وجوه:

الأول: أن قوله تعالى ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ يدل على أنه حال ما كان راجعًا كان غضبان أسفًا، وهو إنما كان راجعًا إلى قومه قبل وصوله إليهم، فدل هذا على أنه عليه السلام قبل وصوله إليهم كان عالمًا بهذه الحالة.

الثاني: أنه تعالى ذكر في سورة طه أنه أخبره بوقوع تلك الواقعة في الميقات»[1].

قال السمعاني: «وكأن موسى رجع نادمًا حزينًا يقول: ليتني كنت فيهم فلم يقع لهم ما وقع»[2].

وفي قول موسى لهم: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ﴾، قال البيضاوي: «أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين، وقدرتم موتي، وغيرتم بعدي كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم»[3].

وقال الخازن: «وقيل معناه: أعجلتم سخط ربكم بعبادة العجل»[4].

ويقول ابن كثير: «استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى»[5].

وخلاصة الأمر: أن موسى رجع من الطور بعد أن كلمه ربه، حاملًا ألواح التوراة، وقد استشاط غضبًا من قومه بسبب عبادتهم العجل.

ثالثًا: مشهد إلقاء موسى عليه السلام للألواح عند غضبه من قومه:

لقد عاد موسى من جبل الطور غضبان أسفًا حزينًا على ما صدر من قومه، ويصور لنا القرآن الكريم مشهد عودته غاضبًا مترجمًا غضبه بإلقاء الألواح، وجر رأس أخيه هارون.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف: ١٥٠].

لقد عاد موسى إلى قومه غضبان أشد الغضب، يبدو انفعال الغضب في قوله وفعله، يبدو في قوله لقومه ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ﴾، ويبدو في فعله إذ يأخذ برأس أخيه يجره إليه ويعنفه، ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ﴾، وحق لموسى عليه السلام أن يغضب، فالمفاجأة قاسية، والنقلة بعيدة: تركتكم على الهدى فخلفتموني بالضلال، وتركتكم على عبادة الله، فخلفتموني بعبادة عجل جسد له خوار.

(١) مفاتيح الغيب ١٥/ ٣٧١.
(٢) تفسير القرآن ٢/ ٢١٧.
(٣) أنوار التنزيل ٣/ ٣٥.
(٤) لباب التأويل ٢/ ٢٥٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٦.

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، وهي حركة تدل على شدة الانفعال، فهذه الألواح هي التي كانت تحمل كلمات ربه، وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه، وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه، وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب، فأما هارون فيستجيش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة، ليسكن من غضبه، ويكشف له عن طبيعة موقفه، وأنه لم يقصر في نصح القوم ومحاولة هدايتهم.

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾.

وهنا ندرك كيف كان القوم في هياجهم واندفاعهم إلى العجل الذهب، حتى لهموا بهارون إذ حاول ردهم عن التردي والانتكاس.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وهذه أخرى يستجيش بها هارون وجدان الأخوة الناصرة المعينة، حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون، ولا تجعلني مع القوم الذين ضلوا وكفروا بربهم الحق، فأنا لم أضل ولم أكفر معهم، وأنا بريء منهم، عندئذ تهدأ ثائرة موسى أمام هذه الوداعة وأمام هذا البيان، وعندئذ يتوجه إلى ربه، يطلب المغفرة له ولأخيه، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف:١٥١].

وهنا يجيء الحكم الفاصل من الله[1]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف:١٥٢-١٥٣].

واستكمالًا للمشهد، فلما هدأت نفس موسى وأذهب الله عنه الغضب عاد فأخذ الألواح.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف:١٥٤].

قال المراغي: «أي ولما سكن غضب موسى باعتذار أخيه إليه، ولجأ إلى رحمة ربه وفضله، وجأر بالدعاء له أن يغفر له ولأخيه خطاياهما؛ عاد إلى الألواح فأخذها، وفيها الهدى والرشاد من بارئ النسم لمن يرهب الله، ويخشى عقابه، ويرجو ثوابه»[2].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٧٥.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ٧٦.

صفات التوراة في القرآن

لقد وصف الله التوراة في القرآن الكريم بصفات عديدة؛ فقد وصفها بأنها هدى، وأنها نور، كما وصفها بالفرقان، والضياء، والذكر، والرحمة، وفيما يلي تفصيلٌ لتلك الصفات:

١. هدى.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة:٤٤].

قال الطبري: «إنا أنزلنا التوراة فيها بيان ما سألك هؤلاء اليهود عنه من حكم الزانيين المحصنين»[(١)].

قال الزمخشري: «فيها هدىً يهدى للحق والعدل»[(٢)].

وقال الرازي: «فالهدى: محمول على بيان الأحكام والشرائع والتكاليف»[(٣)].

ويقول ابن الجوزي: «والهدى: البيان؛ فالتّوراة مبيّنة صحة نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ومبينة ما تحاكموا فيه إليه»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ۝٢﴾ [الإسراء:٢].

قال ابن أبي حاتم: «جعله الله لهم هدى، يخرجهم من الظلمات إلى النور وجعله رحمة لهم»[(٥)].

وجاء في روح البيان: «هاديًا لأولاد يعقوب، يهتدون إلى الحق والصواب بما فيه من الأحكام»[(٦)].

وقال تعالى أيضًا: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٣-٤].

قال السمرقندي: «هدىً للنّاس معناه: وأنزل التّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما السلام، بيانًا لبني إسرائيل من الضلالة»[(٧)].

٢. نور.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة:٤٤].

قال الطبري: «﴿وَنُورٞ﴾ يقول: فيها جلاء ما أظلم عليهم، وضياء ما التبس من الحكم»[(٨)].

يقول الزمخشري: «ونورٌ يبين ما استبهم من الأحكام»[(٩)].

ويقول: ابن الجوزي: «والنور: الضياء الكاشف للشبهات، والموضح

(١) جامع البيان ١٠/ ٣٣٨.
(٢) الكشاف ١/ ٦٣٦.
(٣) مفاتيح الغيب ١٢/ ٣٦٥.
(٤) زاد المسير ١/ ٥٥١.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٠٩.
(٦) روح البيان ٥/ ١٣١.
(٧) تفسير السمرقندي ١/ ١٩٣.
(٨) جامع البيان ١٠/ ٣٣٨.
(٩) الكشاف ١/ ٦٣٦.

للمشكلات»[1].

بينما فسر الواحدي النور بأنه بيان صدق محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: «﴿وَنُورٌ﴾ بيانٌ إنّ أمرك حقٌّ»[2].

وقال تعالى أيضًا: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام:٩١].

قال ابن كثير: «إن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نورًا وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات»[3].

وقد فرّق ابن عادل بين النور والهدى فقال: وصف الكتاب بقوله: ﴿نُورًا﴾، وهو منصوبٌ على الحال، وسمّاه نورًا تشبيهًا له بالنّور الذي يبين به الطريق، فإن قيل: فعلى هذا لا يبقى بين كونه نورًا، وبين كونه هدًى للناس فرقٌ، فعطف أحدهما على الآخر يوجب التّغاير؛ فالجواب: أن للنور صفتين: أحدهما: كونه في نفسه ظاهرًا جليًّا، والثانية: كونه بحيث يكون سببًا لظهور غيره، فالمراد من كونه ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ هو هذان الأمران[4].

٣. فرقان.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة:٥٣].

قال الطبري: «ولقد آتينا موسى بن عمران وأخاه هارون الفرقان، يعني به: الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل، وذلك هو التوراة في قول بعضهم»[5].

ولقد اعتبر الثعلبي التوراة والفرقان شيئًا واحدًا، فقال: «قال مجاهد والفراء: هما شيء واحد، والعرب تكرر الشيء إذا اختلفت ألفاظه على التوهم»[6].

ويؤيد هذا الرأي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء:٤٨].

ويقول الزمخشري: «الكتاب والفرقان يعني الجامع بين كونه كتابًا منزلًا، وفرقانًا يفرق بين الحق والباطل: يعني التوراة، كقولك: رأيت الغيث والليث، تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة»[7].

ولقد فصل ابن عطية القول في ذلك وذكر أقوالًا، فقال: «والكتاب: هو التوراة بإجماع من المتأولين، واختلف في الفرقان هنا؛ فقال الزجاج وغيره: هو التوراة أيضًا، كرر المعنى لاختلاف اللفظ، ولأنه زاد معنى التفرقة بين الحق والباطل، ولفظة الكتاب لا تعطي ذلك.

وقال آخرون: الكتاب: التوراة، والفرقان سائر الآيات التي أوتي موسى عليه السلام،

(١) زاد المسير ١/ ٥٥١.
(٢) الوجيز، الواحدي، ص ٣٢٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٠٠.
(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب ٨/ ٢٧٩.
(٥) جامع البيان ١٨/ ٤٥٢.
(٦) الكشف والبيان ١/ ١٩٦.
(٧) الكشاف ١/ ١٤٠.

لأنها فرقت بين الحق والباطل.

وقال آخرون: الفرقان: النصر الذي فرق بين حالهم وحال آل فرعون بالنجاة والغرق»[1].

٤. ضياء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء:٤٨].

قال الزمخشري: أنه في نفسه ضياء، أو وآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء[2].

وفي زاد المسير: «والمعنى: أنهم استضاءوا بالتوراة حتى اهتدوا بها في دينهم»[3].

قال النسفي: «قيل: هذه الثلاثة هي التوراة، فهي فرقان بين الحق والباطل، وضياء يستضاء به، ويتوصل به إلى السبيل النجاة، وذكر: أي شرف أو وعظ وتنبيه، أو ذكر ما يحتاج الناس إليه في مصالح دينهم»[4].

ويؤكد البيضاوي هذا المعنى فيقول: «وضياءً يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة»[5].

ويقول البقاعي: «وضياء لا ظلام معه، فلا ظلم للمستبصر به، لأن من شأن من كان في الضياء أن لا يضع شيئًا إلا في موضعه»[6].

ويقول سيد قطب: «وجعل التوراة كذلك، ضياء يكشف ظلمات القلب والعقيدة، وظلمات الضلال والباطل، وهي ظلمات يتوه فيها العقل ويضل فيها الضمير، وإن القلب البشري ليظل مظلمًا حتى تشرق فيه شعلة الإيمان، فتنير جوانبه، ويتكشف له منهجه، ويستقيم له اتجاهه، ولا تختلط عليه القيم والمعاني والتقديرات»[7].

٥. ذكر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء:٤٨].

قال الثعالبي: «والذّكر: بمعنى التذكرة»[8].

أما البقاعي فقال: «وذكرًا: أي وعظًا وشرفًا»[9].

قال النسفي: «وذكر: أي شرف، أو وعظ، وتنبيه، أو ذكر ما يحتاج الناس إليه في مصالح دينهم»[10].

وقال أبو السعود: «وذكرًا: يتعظ به

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٤٤.
(٢) انظر: الكشاف ٣/ ١٢١.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٩٣.
(٤) مدارك التنزيل ٢/ ٤٠٧.
(٥) أنوار التنزيل ٤/ ٥٣.
(٦) نظم الدرر ١٢/ ٤٣١.
(٧) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٤.
(٨) الجواهر الحسان ٤/ ٨٩.
(٩) نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٤٣١.
(١٠) مدارك التنزيل ٢/ ٤٠٧.

الناس، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره، المغتنمون لمغانم آثاره، أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكام»[1].

ويقول سيد قطب: «وجعل التوراة كالقرآن ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، تذكرهم بالله، وتبقي لهم ذكرًا في الناس، وماذا كان بنو إسرائيل قبل التوراة؟ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويستذلهم بالسخرة والإيذاء»[2].

٦. رحمة.

وجاء ذلك في عدة آيات.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام:١٥٤].

قال الطبري: «ورحمة لمن كان منهم ضالًّا لينجيه الله به من الضلالة»[3].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود:١٧].

وجاءت أيضًا في الأحقاف: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف:١٢].

يقول ابن عاشور: «والرحمة: اسم مصدر لصفة الراحم، وهي من صفات الإنسان، فهي: رقة في النفس، تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه، ووصف الكتاب بها استعارة لكونه سببًا في نفع المتبعين؛ لما تضمنه من أسباب الخير في الدنيا والآخرة، وصف الكتاب بالمصدر مبالغة في الاستعارة»[4].

قال تعالى في سورة القصص أيضًا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص:٤٣].

قال الزمخشري: «ورحمةً: لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة»[5].

قال البقاعي: «ورحمة: أي نعمة هنية شريفة، لأنها قائدة إليها»[6].

(١) إرشاد العقل السليم ٦/ ٧١.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٤.
(٣) جامع البيان ١٢/ ٢٣٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤.
(٥) الكشاف ٣/ ٤١٧.
(٦) نظم الدرر ١٤/ ٣٠٢.

الأحكام التشريعية في التوراة

لقد جاءت التوراة بالدرجة الأولى لتكون منهج حياة لبني إسرائيل، وإلى جانب ذلك جاءت لتهيئ الناس لمجيئ النبي الأمي، وتهيئ عقولهم لتقبل شريعته، ولأن هذا النبي سيكون نبيًّا لجميع الأمم، جعلها شريعة عامة؛ ليسهل على الأمم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وكان بنو إسرائيل شهداء بين أهل دينهم، يثقون بهم، يشهدون بمجيئ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٩][1].

قال الرازي: أنتم شهداء أن في التوراة موجود: أن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام، وأنتم شهداء على ظهور المعجزات على نبوته صلى الله عليه وسلم[2].

لذا فقد جاء الأمر لبني إسرائيل بأن يأخذوا الكتاب بقوة؛ ذلك الكتاب الذي تضمن أحكامًا تشريعية، منها ما نسخ، ومنها ما استمر بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن بني إسرائيل لم يعملوا بتلك الشرائع، ولو عملوا بها لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولًا: حكمة الأمر بأخذ التوراة بقوة:

لقد أمر الله بني إسرائيل بأخذ التوراة وما فيها بقوة، وذلك في آيات عدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة:٦٣].

قال الطبري: «خذوا ما افترضناه عليكم في كتابنا من الفرائض، فاقبلوه، واعملوا باجتهاد منكم في أدائه، من غير تقصير ولا توان»[3].

وبعد أخذ الميثاق عليهم بقوة ورفع الجبل فوق رؤوسهم نكثوا العهود والمواثيق كعادتهم، بل وتبجحوا في ذلك الأمر، وأقروا بالعصيان، وعبدوا العجل كفرًا وجورًا؛ فكيف يتصور الإيمان من أخلافهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٣].

جاء في روح البيان: «قالوا سمعنا قولك،

(١) انظر: شرح الأحكام التشريعية في التوراة، نادي فرج درويش العطار، ١/ ٦.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب ٨/ ٣٠٨.
(٣) جامع البيان ٢/ ١٦١.

ولكن لا سماع طاعة، وعصينا أمرك ولولا مخافة الجبل ما قبلنا في الظاهر، فإذا كان حال أسلافهم هكذا، فكيف يتصور من أخلافهم الإيمان»[1].

ولا شك أن ديننا الحنيف يختلف في هذا الأمر حيث لا يعتمد على الإكراه والتخويف، رغم كونه مرغبًا ومرهبًا.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦].

قال الرازي: «أن إظلال الجبل لا شك أنه من أعظم المخوفات، ومع ذلك فقد أصروا على كفرهم، وصرحوا بقولهم: سمعنا وعصينا وهذا يدل على أن التخويف وإن عظم لا يوجب الانقياد»[2].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف:١٤٥].

يفصل المراغي الأخذ بقوة فيقول: «﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ أي: وكتبنا له في الألواح وقلنا له: هذه وصايانا وأصول شريعتنا وكلياتها، فخذها بقوة وجدّ وعزم، ذاك أنك ستكون بها شعبًا جديدًا، بعادات جديدة، وأخلاق جديدة، مخالفة في جوهرها وصفاتها لما كان عليه من الذل والعبودية لدى فرعون وقومه، وما كان عليه من الشرك والوثنية التي ألفها وراضت نفسه لقبولها، فأنّى للقائد والمرشد أن يصلح ذلك الفساد، ويرأب ذلك الصدع إذا لم يكن ذا عزيمة وقوة وبأس شديد وحزم في أوامره ونواهيه»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ [الأعراف:١٧١].

وكثرة الآيات تدلل بصورة واضحة جلية، طبيعة بني إسرائيل الملتوية، ونفسيتهم المريضة؛ فقد عرضت عليهم التوراة فرفضوا أخذها؛ فرفع الله الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة، وأمرهم بأخذ الكتاب بقوة، ويقول محمد رشيد رضا: «لعل حكمة ختم قصة بني إسرائيل بهذه الآية هنا للتذكير ببدء حالهم في إنزال الكتاب عليهم في أثر بيان عاقبة أمرهم في مخالفته والخروج عنه فإن في تلك الفاتحة إشارة إلى هذه الخاتمة، وذلك عندما أخذ عليهم الميثاق ليأخذن بالشريعة بقوة وعزم، فإنه رفع فوقهم الطور، وأوقع في قلوبهم الرعب من خوف وقوعه بهم، فلا غرو إذا آل أمرهم إلى ترك العمل به بعد طول الأمد وقساوة القلوب والأنس

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ١/ ١٨٢.
(٢) مفاتيح الغيب ٣/ ٦٠٤.
(٣) تفسير المراغي ٩/ ٦١.

بالذنوب»[1].

ثانيًا: الأحكام التشريعية في التوراة:

إن التوراة كتاب الله أنزله على نبيه موسى ليحكم بين الناس، فهو كتاب إلهي يحتوي على تشريعات ربانية، وقد ذكر لنا القرآن الكريم بعضًا منها في الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة:٨٣-٨٤].

فهذا الميثاق تضمن عدة تشريعات:

التوحيد بأنواعه؛ ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

بر الوالدين والإحسان إليهما؛ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

صلة الأرحام والإحسان إليهم؛ ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾.

كفالة اليتيم والإحسان إليه؛ ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾.

التكافل بين الناس والإحسان إلى الضعفاء؛ ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

إقامة الصلاة؛ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

إيتاء الزكاة؛ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

حفظ النفس، وتحريم سفك الدماء، ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾.

عدم إخراج الناس من ديارهم والاعتداء على ممتلكاتهم؛ ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾.

وفي آية ثانية، تشريعات أخرى؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:١٢].

- الإيمان بالرسل، ونصرتهم؛ ﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.
- ايتاء الصدقات؛ ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

قال سيد قطب: ندرك أن ميثاق الله مع بني إسرائيل، ذلك الميثاق الذي أخذه عليهم في ظل الجبل، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه، أن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله، هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضًا، فتنكروا لها وأنكروها.

(١) المنار ٩/ ٣٢٤.

لقد تضمن ميثاق الله معهم: ألا يعبدوا إلا الله، القاعدة الأولى للتوحيد المطلق، وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وتضمن خطاب الناس بالحسنى، وفي أولها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك تضمن فريضة الصلاة، وفريضة الزكاة، وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه[1].

وهذه التكاليف قد أقرتها بنو إسرائيل: قال الرازي: «ثم أقررتم بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه، وأنتم تشهدون عليها»[2].

ثالثًا: أثر عمل اليهود بالتوراة في زمانهم:

اشتملت الكتب السماوية على كل ما يصلح أحوال الناس في دنياهم وأخراهم، وما التزم قوم بما أنزل الله عليهم وأقاموا شرع الله فيهم إلا كانوا أسعد الناس في دنياهم وأخراهم، وينطبق هذا الأمر على جميع الشرائع السماوية.

ونلمس هذا الأمر في القرآن الكريم فقد جاء في حق بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة:٦٥-٦٦].

يقول سيد قطب: إن هاتين الآيتين تقرران أصلًا كبيرًا من أصول التصور الإسلامي، ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية....إن الله سبحانه يقول لأهل الكتاب- ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب- إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم، ولأدخلهم جنات النعيم- وهذا جزاء الآخرة، وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل، وما أنزله الله إليهم من التعاليم- كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل- لصلحت حياتهم الدنيا، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق، ووفرة الإنتاج وحسن التوزيع، وصلاح أمر الحياة، ولكنهم لا يؤمنون ولا يتّقون، ولا يقيمون منهج الله- إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

وهكذا يبدو من خلال الآيتين: أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه الحياة الدنيا، لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده- وإن كان هو المقدم وهو الأدوم - ولكنه كذلك

(١) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٨٧.
(٢) مفاتيح الغيب ٣/ ٥٩١.

يكفل صلاح أمر الدنيا، ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة.. وفرة ونماء وحسن توزيع وكفاية.. يرسمها في صورة حسية تجسم معنى الوفرة والفيض في قوله: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[1].

قال ابن عاشور: «وقد أومأت الآية إلى أن سبب ضيق معاش اليهود هو من غضب الله تعالى عليهم؛ لإضاعتهم التوراة، وكفرهم بالإنجيل وبالقرآن»[2].

وفي موضع آخر يبين سيد قطب أن هناك قاعدة مطردة، فيقول: «وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة، كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون، والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد. وما من أمة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهًا حقيقيًا لله بالعمل الصالح، والاستغفار المنبئ عن خشية الله.. ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعًا، إلا فاضت فيها الخيرات، ومكّن الله لها في الأرض، واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء»[3].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٣١.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٥٣.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٣.

الربانيون والأحبار وحفظ التوراة

ميّز الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم عن سائر الكتب بأن تعهد بحفظه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]؛ فالقرآن وحده هو الذي تعهد الله بحفظه، أما التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة، فقد أوكل الله حفظها إلى أهلها من الأحبار والرهبان والربانيين، ولم يتكفل بحفظها، ولما ترك حفظها لهم صار حالها إلى ما صارت إليه، من التغيير والتبديل والتحريف، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولًا: تكليف الله للربانيين والأحبار بحفظ التوراة والعمل بها:

لقد كلّف الله الربانيين والأحبار حفظ التوراة، فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة:٤٤].

قال الرازي: «دلت الآية على أنه يحكم بالتوراة: النبيون والربانيون والأحبار، وهذا يقتضي كون الربانيين أعلى حالًا من الأحبار، فثبت أن يكون الربانيون كالمجتهدين، والأحبار كآحاد العلماء، ثم قال: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾

أي: حفظ كتاب الله على وجهين: الأول: أن يحفظ فلا ينسى، الثاني: أن يحفظ فلا يضيع، وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين: أحدهما: أن يحفظوه في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم، والثاني: أن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه»[1].

وقال ابن عاشور: «والاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب: أمانة فهمه حق الفهم بما دلت عليه آياته، استعير الاستحفاظ الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم، والتبليغ للأمة على ما هو عليه»[2].

ولقد كلف الله اليهود أحبارًا وشعبًا بحفظ التوراة والعمل بها فضيعوها.

قال الثعالبي: «وقوله سبحانه: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾، أي: بسبب استحفاظ اللّه تعالى إياهم أمر التّوراة، وأخذه العهد عليهم في العمل والقول بها، وعرّفهم ما فيها، فصاروا شهداء عليه، وهؤلاء ضيّعوا لمّا استحفظوا حتى تبدّلت التوراة»[3].

ولقد استخلف الله الأحبار والرهبان لحفظ وتبليغ التوراة وإجراء أحكامها عليهم.

قال أبو السعود: «﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾، أي: بالذي استحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة، حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الإطلاق. ولا ريب في أن ذلك منهم عليهم السلام استخلافٌ لهم في إجراء أحكامها من غير إخلالٍ بشيء منها»[4].

ثانيًا: ذم القرآن للربانيين والأحبار لعدم حفظهم التوراة:

ولقد ذمّ الله الربانيين والأحبار الذين استحفظهم التوراة فضيّعوها ولم يطبقوا أحكامها، ووصفهم وصفًا شنيعًا.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة:٥].

قال الطبري: «مثل الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى، فحملوا العمل بها ثم لم يعملوا بما فيها، وكذّبوا بمحمد صلّى الله عليه وسلّم، وقد أمروا بالإيمان به فيها واتباعه والتصديق به؛ كمثل الحمار يحمل على ظهره كتبًا من كتب العلم، لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها، فكذلك الذين أوتوا التوراة التي فيها بيان أمر محمد صلّى الله عليه وسلّم مثلهم إذا لم ينتفعوا بما فيها، كمثل الحمار الذي يحمل أسفارًا فيها علم، فهو لا يعقلها ولا ينتفع بها»[5].

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٣٦٦.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٠٩.
(٣) الجواهر الحسان ٢/ ٣٨٥.
(٤) إرشاد العقل السليم ٣/ ٤١.
(٥) جامع البيان ٢٣/ ٣٧٧.

قال الزمخشري: «شبه اليهود- في أنهم حملة التوراة وقرّاؤها وحفاظ ما فيها، ثم إنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها، وذلك أنّ فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والبشارة به ولم يؤمنوا به- بالحمار حمل أسفارًا، أي: كتبًا كبارًا من كتب العلم، فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل الّذين كذّبوا بآيات اللّه، وهم: اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، ومعنى حمّلوا التّوراة: كلفوا علمها والعمل بها، ثمّ لم يحملوها، ثم لم يعملوا بها، فكأنهم لم يحملوها»[1].

ويقول سيد قطب في تفسيرها: «فبنو إسرائيل حملوا التوراة، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة ثم لم يحملوها؛ فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع. ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم- وكما هي في حقيقتها- لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة، ولا أنهم فقهوا حقيقتها، ولا أنهم عملوا بها، ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام، وليس له منها إلا ثقلها، فهو ليس صاحبها، وليس شريكًا في الغاية منها، وهي صورة زرية بائسة، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة»[2].

لم يكتف الأحبار والرهبان بتضييع التوراة، وعدم حفظها والعمل بها، وهذه في حد ذاتها جريمة، لكنهم اقترفوا جريمة أعظم؛ ذلك أن بدلوها وحرفوها واعتدوا على كلام الله، فبدلوه بما يناسب مآربهم، ويخدم مصالحهم، وكتبوها بأيدهم، ومزجوها بكلامهم، ثم قالوا هي من عند الله، وأصبح هناك توراتان: توراة أنزلها الله وأمرهم بحفظها وعدم تضييعها، وهي ما يسمى بالعهد القديم الذي نزل على موسى، وتوراة محرفة كتبها الأحبار والرهبان بأيدهم، وأسموها ظلمًا وزورًا (العهد القديم).

أولًا: تحريف اليهود للتوراة المنزلة على موسى:

أخبرنا الله في ست آيات صريحة عن تحريف التوراة بأيدي هؤلاء الأحبار والرهبان، وقد توعدهم الله بالويل والطرد من رحمة الله.

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

(١) الكشاف ٤/ ٥٣٠.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٦٧.

﴿٧٥﴾ [البقرة:٧٥].

قال الطبري:«التوراة التي أنزلها عليهم، يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالًا والحق فيها باطلًا والباطل فيها حقًّا، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق. وإن جاء أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق»[(١)].

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء:٤٦].

قال الزمخشري:«يحرّفون الكلم عن مواضعه: يميلونه عنها ويزيلونه؛ لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كلمًا غيره، فقد أمالوه عن مواضعه التي وضعها اللّه فيها، وأزالوه عنها»[(٢)].

وقال ابن الجوزي:«وفي معنى تحريفهم الكلم قولان:أحدهما:أنهم كانوا يسألون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الشيء، فإذا خرجوا، حرفوا كلامه، قاله ابن عباس. والثاني: أنه تبديلهم التوراة، قاله مجاهد»[(٣)].

(١) جامع البيان ٢/ ٢٤٦.
(٢) الكشاف ١/ ٥١٦.
(٣) زاد المسير ١/ ٤١٦.

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٣].

قال السمعاني:«تحريفهم الكلم:هو تبديلهم نعت الرسول، وقيل المراد به:تحريفهم بسوء التأويل»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١].

قال أبو حيان: «أي: يزيلونه ويميلونه عن مواضعه التي وضعها الله فيها. قال ابن عباس والجمهور: هي حدود الله في التوراة، وذلك أنهم غيروا الرجم، أي:وضعوا الجلد مكان الرجم، وقال الحسن: يغيرون ما يسمعون من الرسول عليه السلام بالكذب عليه، وقيل: بإخفاء صفة الرسول، وقيل: بإسقاط القود بعد استحقاقه. وقيل: بسوء التأويل»[(٥)].

ثانيًا: واجب المسلمين تجاه التوراة

(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٢.
(٥) البحر المحيط ٤/ ٢٦١.

المنزلة والتوراة المحرّفة:

المسلم يؤمن بأن التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام حق من عند الله تعالى، وقد اشتملا على الأحكام والمواعظ والأخبار، التي فيها هدى ونور للناس في معاشهم وحياتهم وآخرتهم، كما يعتقد المسلم أن التوراة والإنجيل أنزلا من عند الله، ولكن شابهما الكثير من التحريف والتبديل، ولا نصدق منها إلا ما وافق القرآن والسنة.

وقد أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد حرّفوا كتبهم، وأضافوا إليها وأنقصوا منها، فلم تبق كما أنزلها الله تعالى.

فالتوراة الموجودة الآن ليست هي التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، لأن اليهود حرفوا وبدّلوا، وتلاعبوا بكثير من أحكامها.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:(إن بني إسرائيل كتبوا كتابًا فتبعوه وتركوا التوراة)[(١)].

وقد استقر هذا المعنى في نفوس الصحابة والمؤمنين بعدهم.

يقول ابن عباس: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله، تقرءونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا:هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم)[(٢)].

ولا يمنع هذا من صحة بعض مواضع في التوراة، لما فيها من آثار الأنبياء؛ ففي التوراة حق وباطل كما أخبر الله ورسوله، ومن النصوص التي اشارت إلى شيء من الحق في كتبهم ألبسوه الباطل والزور قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران:٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٣﴾ [المائدة:٤٣].

وفي صحيح البخاري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(لا تصدقوا أهل

(١) أخرجه الدارمي في سننه، باب من لم ير كتابة الحديث، رقم ٤٨٠، ١/ ١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، رقم ٢٦٨٥، ٣/ ١٨١.

الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة:١٣٦][1].

وقد بينت الآيات موقف المسلمين من التوراة بجلاء ووضوح، إذ يخبرنا الله أنها وحيٌ منه.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة:٤٤].

ولكن الناس قد توارثت كتبًا بديلة عن التوراة نسبت إلى الله، لكنها خالية -إلا قليلًا- من الهدى والنور، فقد حملت هذه الأسفار في طياتها ضعف البشر وجهلهم، فجاءت متناقضة، مليئة بالكثير مما لا يرضي العقلاء نسبته إلى الله ووحيه القويم.

ومما يثبت أن هذه الأسفار ليست توراة موسى عليه السلام، أن القرآن الكريم نسب إلى أسفار موسى من المعاني التي نفتقدها في النصوص الحالية للتوراة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [التوبة:١١١].

ولا وجود لهذا المعنى في العهد القديم ولا الجديد، ومثله قوله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى:١٦-١٩].

فهذا المعنى لا وجود له في صحف الأسفار المنسوبة لموسى، والتي تخلو من الحديث عن الآخرة والقيامة[2].

وللتوراة أسماء كثيرة قد وضعها حاخامات اليهود؛ فتعرف بالعهد القديم، وهو مصطلح يستخدمه المسيحيون للإشارة إلى كتاب اليهود المقدس، بينما يستخدم مصطلح (العهد الجديد) للإشارة إلى الأسفار التي تضمنتها الأناجيل الأربعة، وأما اليهود فيستخدمون عبارة (الكتب المقدسة)، وأحيانًا (الكتب)، وأحيانًا (التوراة) للتعبير عن العهد القديم[3].

فالعهد القديم هو الكتاب الذي يضم ثلاثة أشياء: التوراة، والأنبياء، والمكتوبات.

والجزء الأول هو الذي نزل على موسى عليه السلام، وقد حرّفوه، أما الجزءان الآخران فهما صناعة بشرية خالصة[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (قولوا آمنا بالله)، رقم ٤٤٨٥، ٦/ ٢٠.

(٢) انظر: هل العهد القديم كلمة الله، منقذ السقار، ص١٥.

(٣) انظر: الخطأ والدخيل في توراة بني إسرائيل، إبراهيم ثروت حداد، ص١٧.

(٤) انظر: مدخل إلى تاريخ اللغة الآرامية، أحمد

فالتوراة والتي هي كتب موسى تطلق عندهم على الأسفار الخمسة: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين، وسفر العدد[1].

وعليه: فنحن نؤمن بتوراة موسى كل الإيمان، ونؤمن بأنها حرفت ولم تحفظ، وأن القوم أخفوا منها شيئًا وكتبوا أشياء، وضاع منها الكثير، وما بين يديهم لا يخلو من بعض الحق، وعلى المسلم أن يحترمها ولا يهينها ولا يدنسها؛ لأنها قد تحتوي في طياتها على شيء من بقايا كلام الله الذي لم يحرف.

ثالثًا: واجب المسلمين تجاه الإسرائيليات:

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة، وهي ما يأتي:

القسم الأول: ما يعلم صحته؛ بأن نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلًا صحيحًا، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحًا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عند البخاري؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (**إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء**)[2]، أو كان له شاهد من الشرع يؤيده. وهذا القسم صحيح مقبول.

القسم الثاني: ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذّبه، وتجوز حكايته، لما تقدّم من قوله صلى الله عليه وسلم: في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾)[البقرة:١٣٦][3].

وهذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا اختلافًا كثيرًا، ويأتي عن المفسّرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب

الجمل، ص١٣.

(١) انظر: حجية التوراة، أحمد الحوفي، ٠١/ ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٢، ٤/ ١٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (قولوا آمنا بالله)، رقم ٤٤٨٥، ٦/ ٢٠.

الكهف، ولون كلبهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين بعض البقرة الذى ضرب به قتيل بنى إسرائيل، ونوع الشجرة التي كلّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن ولا فائدة في تعيينه تعود على المكلّفين في دنياهم أو دينهم.

ثم إذا جاء شيء من هذا القبيل -أي: ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده- عن أحد من الصحابة بطريق صحيح، فإن كان قد جزم به فهو كالقسم الأول، يقبل ولا يرد، لأنه لا يعقل أن يكون قد أخذه عن أهل الكتاب بعد ما علم من نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تصديقهم. وإن كان لم يجزم به فالنفس أسكن إلى قبوله، لأن احتمال أن يكون الصحابي قد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، أو ممن سمعه منه، أقوى من احتمال السماع من أهل الكتاب، لا سيما بعد ما تقرر من أن أخذ الصحابة عن أهل الكتاب كان قليلًا بالنسبة لغيرهم من التابعين ومن يليهم.

أما إن جاء شيء من هذا عن بعض التابعين، فهو مما يتوقف فيه ولا يحكم عليه بصدق ولا يكذب، وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب، لما عرفوا به من كثرة الأخذ عنهم، وبعد احتمال كونه مما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا إذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير على ذلك، أما إن اتفقوا عليه: فإنه يكون أبعد من أن يكون مسموعًا من أهل الكتاب، وحينئذ تسكن النفس إلى قبوله والأخذ به[1].

ويجمل الشنقيطي الأمر فيقول: «ومن المعلوم: أن ما يروى عن بني إسرائيل من الأخبار المعروفة بالإسرائيليات له ثلاث حالات، في واحدة منها يجب تصديقه وهي: ما إذا دل الكتاب أو السنة الثابتة على صدقه، وفي واحدة يجب تكذيبه، وهي: إذا ما دل القرآن والسنة على كذبه، وفي الثالثة: لا يجوز التكذيب ولا التصديق، وهي ما إذا لم يثبت في كتابٍ ولا سنّة صدقه ولا كذبه»[2].

(١) انظر: التفسير والمفسرون، الذهبي، ١/ ١٣٠.
(٢) أضواء البيان، ٤/ ٢٠٣- ٢٠٤.

عيسى عليه السلام والتوراة

عيسى ابن مريم عليه السلام، أحد أنبياء الله الكرام، ومن أولي العزم من رسله، أرسله الله إلى بني إسرائيل، وعلمه التوراة والإنجيل، وأخبر أنه جاء مصدقًا لما في التوراة، إلا أنه نسخ بعض أحكامها، وأباح لأتباعه بعض ما حرم فيها.

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران:٤٨-٥٠].

قال السمرقندي: «فعلّمه الله بالوحي والإلهام والحكمة، يعني: الفقه، والتّوراة والإنجيل، يعني: يحفظ التوراة عن ظهر قلبه. وقال بعضهم: وهو عالم بالتوراة، وقال بعضهم: ألهمه الله بعد ما كبر حتى تعلم في مدة يسيرة»[1].

وقال ابن عطية: «والتّوراة هي المنزلة على موسى عليه السلام، ويروى أن عيسى كان يستظهر التوراة وكان أعمل الناس بما فيها، ويروى أنه لم يحفظها عن ظهر قلب إلا أربعة: موسى، ويوشع بن نون، وعزير، وعيسى عليهم السلام»[2].

وقال ابن كثير: «﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾؛ فالتوراة: هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران، والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليهما السلام، وقد كان عيسى عليه السلام، يحفظ هذا وهذا»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران:٥٠].

قال الطبري: «وإنما قيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ لأن عيسى صلوات الله عليه، كان مؤمنًا بالتوراة مقرًّا بها، وأنها من عند الله. وكذلك الأنبياء كلهم، يصدّقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلف بعض شرائع أحكامهم، لمخالفة الله بينهم في ذلك. مع أنّ عيسى كان - فيما بلغنا - عاملًا بالتوراة لم يخالف شيئًا من أحكامها، إلا ما خفّف

(١) تفسير السمرقندي ١/ ٢١٤.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٤.

الله عن أهلها في الإنجيل، مما كان مشددًا عليهم فيها»[1].

ويقول الرازي: «اعلم أنه عليه السلام لما بين بهذه المعجزات الباهرة كونه رسولًا من عند الله تعالى، بين بعد ذلك أنه بماذا أرسل، وهو أمران، أحدهما: قوله: ومصدقًا لما بين يدي من التوراة...، وأنه يجب على كل نبي أن يكون مصدقًا لجميع الأنبياء عليهم السلام، لأن الطريق إلى ثبوت نبوتهم هو المعجزة، فكل من حصل له المعجز، وجب الاعتراف بنبوته، فلهذا قلنا: بأن عيسى عليه السلام يجب أن يكون مصدقًا لموسى بالتوراة، ولعل من جملة الأغراض في بعثة عيسى عليه السلام إليهم؛ تقرير التوراة وإزالة شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين، وأما المقصود الثاني من بعثة عيسى عليه السلام قوله: ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة:٤٦].

قال القنوجي: «أي: مصدقًا وهاديًا وواعظًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وهذا ليس بتكرار للأول؛ لأن في الأول إخبارًا بأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة، وفي الثاني إخبار بأن الإنجيل مصدق للتوراة، فظهر الفرق بينهما»[3].

قال ابن كثير: «﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: متبعًا لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بيّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة»[4].

فعلم أن عيسى عليه السلام كان مؤمنًا بالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، متبعًا لها، لم يخالفها إلا في أشياء قليلة.

وموسى وعيسى وجميع الأنبياء كان دينهم الإسلام العام، وهو: توحيد الله عز وجل، وعبادته وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

وقال عن نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ

(١) جامع البيان ٦/ ٤٣٨.
(٢) مفاتيح الغيب ٨/ ٢٣٠.
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن ٣/ ٤٣٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٢٦.

﴿أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢].

وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران:٦٧].

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

فلا يقال: دين موسى عليه السلام اليهودية، بل دينه الإسلام، وأتباعه سموا باليهود؛ إما لقولهم: هدنا إليك، أي: تبنا ورجعنا، أو نسبة ليهوذا أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، وكذلك دين عيسى عليه السلام الإسلام، وليس النصرانية، والنصارى هم أتباعه الذين نصروه وآزروه.

لكنه عليه السلام كان متبعًا للتوراة حافظًا لها مقرًّا بها؛ لأنه من جملة بني إسرائيل الذين أرسل فيهم موسى عليه السلام، ثم أنزل الله عليه الإنجيل، وفيه تصديق لما في التوراة، كما سبق. فنبي الله عيسى عليه السلام من بني إسرائيل من غير خلاف، «لا ريب أن قوم موسى عليه السلام هم بنو إسرائيل، وبلسانهم نزلت التوراة، وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح عليه السلام، وبلسانهم كان المسيح يتكلم»[1].

(١) الجواب الصحيح، ابن تيمية ٢/ ٩٤.

صفات الرسول الكريم وأتباعه في التوراة

قال ابن القيم: «لو لم يظهر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديق لشهادتهم وشهادة لهم بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات:٣٧]»[2].

فلقد جاءت صفات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصفات الذين على دينه في التوراة، إلى أن وصل الحد ببني إسرائيل أن يعرفوه كما يعرفون أبناءهم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة:١٤٦].

وفيما يلي بيان لبعض صفاته وصفات الذين معه كما وردت في التوراة.

أولًا: صفات الرسول الكريم في التوراة:

إنّ وصف النبي في التوراة واضحٌ وضوح الشمس في رابعة النهار، ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ٢/ ٥٢٥.

﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

قال ابن كثير:«وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم»(١).

قال أبو السعود في معرض صفاته المذكورة في الآية:«فإن ما بيّن فيه: من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحلال الطيبات، وتحريم الخبائث، وإسقاط التكاليف الشاقة؛ كلّها من آثار رحمته الواسعة»(٢).

ولقد جاءت صفات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة كما جاءت في القرآن، ويظهر ذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه (عن عطاء بن يسار، قال:لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت:أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، قال:أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا:لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا)(٣).

فلقد جمع هذا الحديث الكثير من صفاته صلى الله عليه وسلم في التوراة، وفي القرآن والسنة نظير لها، وفيما يلي تفصيل ذلك:

الوصف الأول: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا)، ويناظره في القرآن:قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الفتح:٨].

الوصف الثاني: (حرزًا للأميين)، أي: حصنًا للأميّين، وهم: الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم، ويقابله في القرآن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة:٢].

الوصف الثالث: (أنت عبدي ورسولي)،

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٨٣.
(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ٢٧٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا)، رقم ٢١٢٥، ٣/ ٦٦.

ويقابله في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن:١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة:٢٣].

وقوله أيضًا: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء:١].

الوصف الرابع: التوكل على الله؛ (سمّيتك المتوكّل)، وقد جاءت في هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨].

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾ [النمل:٧٩].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾ [الأحزاب:٣].

الوصف الخامس: اللين والرحمة، (ليس بفظٍّ ولا غليظٍ)، ومثله في القرآن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران:١٥٩].

الوصف السادس: عدم الصخب في الأسواق، (ولا سخّابٍ في الأسواق) وقد ترجم البخاري في صحيحه لهذا الأثر وعقد بابًا أسماه: باب كراهية الصّخب في السّوق[1].

الوصف السابع: العفو والمغفرة، (لا يدفع بالسيئة السيئة، لكن يعفو ويغفر)، وقد تخلق النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخلق العظيم.

قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون:٩٦].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت:٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [آل عمران:١٥٩].

الوصف الثامن: إقامة التوحيد، (لن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله)، وقد كان ذلك أساس دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأساس دعوة الأنبياء جميعًا، ومثله في القرآن

(١) صحيح البخاري ٣/ ٦٦.

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:١٩].

الوصف التاسع:(ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا)، ومثاله في القرآن قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة:٧].

وقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة:١٨].

قال ابن القيم: «وقوله:يفتح العيون العمي والآذان الصم والقلوب، إشارة إلى أن تكميل مراتب العلم والهدى الحاصل بدعوته في القلوب والأبصار والأسماع، فباينوا بذلك أحوال الصم البكم العمي الذين لهم قلوب لا يعقلون بها، فإن الهدى يصل إلى العبد من هذه الأبواب الثلاثة، وهي مغلقة عن كل أحد، لا تفتح إلا على أيدي الرسل، ففتح الله بمحمد صلى الله عليه وسلم الأعين العمي، فأبصرت بالله، والآذان الصم، فسمعت عن الله، والقلوب الغلف، فعقلت عن الله، فانقادت لطاعته عقلًا وقولًا وعملًا، وسلكت سبل مرضاته ذللًا»[1].

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ٢/ ٣٦٤.

ثانيًا: صفات أتباع النبي عليه السلام في التوراة:

جاء وصف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، ذلك الجيل الذي نصر النبي صلى الله عليه وسلم وآزره، وحمل على أكتافه عبء إقامة دولة الإسلام، جاء وصفهم وصفًا دقيقًا كما أخبرنا القرآن في نهاية سورة الفتح.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الفتح:٢٩].

وصفتهم التوراة بأربع صفات عظيمة، على مثلها تقوم دولة الإسلام، قال سيد قطب:«إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة؛ فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها

ويجيش بها: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾»[1]، وتفصيلها كالآتي:

الصفة الأولى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

يقول الطبري: «﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ يقول: رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم»[2].

قال الزمخشري: «بلغ من تشدّدهم على الكفار: أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه»[3].

وقال البيضاوي: «والمعنى: أنهم يغلظون على من خالف دينهم، ويتراحمون فيما بينهم كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤] تراهم ركّعًا سجّدًا»[4].

الصفة الثانية: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

قال ابن كثير: «وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال»[5].

يقول سيد قطب: «وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم. ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصلية لهم في حقيقة نفوسهم فعبر عنها تعبيرًا يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعًا سجدًا»[6].

الصفة الثالثة: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.

قال السعدي: «أي: هذا مقصودهم: بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه»[7].

قال الجزائري: «يطلبون بصلاتهم بعد إيمانهم وتعاونهم وتحابيهم وتعاطفهم مع بعضهم، يطلبون بذلك ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، أي: الجنة، ورضا الله، وهذا أسمى ما يطلب المؤمن، أن يدخله الله الجنة بعد أن ينقذه من النار ويرضى عنه»[8].

ويقول سيد قطب: «فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣١.
(٢) جامع البيان ٢٢/ ٢٦١.
(٣) الكشاف ٤/ ٣٤٦.
(٤) أنوار التنزيل ٥/ ١٣٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٣٦١.
(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣٢.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٩٥.
(٨) أيسر التفاسير ٥/ ١١٨.

ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به»[1].

الصفة الرابعة: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

قال الطبري: «بياضًا في وجوههم يوم القيامة، وقال آخرون:بل ذلك سيما الإسلام وسمته وخشوعه، وعنى بذلك أنه يرى من ذلك عليهم في الدنيا»[2].

ويقول سيد قطب: «سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف، وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله:﴿مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة، واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها؛ فهو أثر هذا الخشوع؛ أثره في ملامح الوجه؛ حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة، ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة، والذبول الخفيف، الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلا»[3].

موضوعات ذات صلة:

الإنجيل، عيسى عليه السلام، القرآن، الكتب المنزلة، موسى عليه السلام

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣٢.
(٢) جامع البيان ٢٢/ ٢٦٤.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣٢.

التوكل

عناصر الموضوع

مفهوم التوكل	١٨٨
التوكل في الاستعمال القرآني	١٨٩
الألفاظ ذات الصلة	١٩٠
دلالة اقتران التوكل بالإيمان والعبادة	١٩٢
التوكل في حق الله تعالى	١٩٣
الأنبياء عليهم السلام والتوكل	١٩٨
دوافع التوكل على الله تعالى	٢٠٣
مواطن التوكل على الله تعالى	٢٠٥
ثمرات التوكل	٢٢٢

مفهوم التوكل

أولًا: المعنى اللغوي:

من الجذر «و ك ل» وأصلها: اعتمادك على غيرك[1]، تقول:وكلته إليك أكله كلةً، أي:فوضته، ورجل وكلٌ ووكلةٌ وهو الـمواكل يعتمد على غيره فيضيع أمره، وتقول:وكلت بالله، وتوكّلت على الله، ووكلت فلانًا إلى الله، أكله إليه، والوكيل: فعله التّوكّل، والتوكّل إظهار العجز والاعتماد على غيرك، وكذلك يعني «التكلان» الذي انقلبت تاؤه عن واو، ومصدر التوكل الوكالة [2]، قال ابن منظور: «يقال:توكّل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلانٍ أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه، ووكّل فلانٌ فلانًا إذا استكفاه أمره؛ ثقةً بكفايته، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

غلب استخدام مصطلح التوكل في توكل العبد على ربه؛ لذا عرفه العلماء أنه: «الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس»[4]، وقال الرازي: «التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها، بل يعول على عصمة الحق»[5]، وأضاف النسفي أن التوكل هو «قطع العلائق وترك التملق للخلائق»[6]، وقال ابن عاشور:«هو انفعال قلبي عقلي يتوجه به الفاعل إلى الله؛ راجيًا الإعانة، ومستعيذًا من الخيبة والعوائق»[7].

وقد نخلص من المعاني السابقة إلى أن التوكل على الله هو: ثقة العبد بالله تعالى، وتفويض الأمر إليه، والاعتماد عليه في جلب النفع أو دفع الضر.

والمتأمل في التعريفين اللغوي والاصطلاحي يجد توافقًا واضحًا بينهما، فالتوكل لغةً هو تفويض الأمر والاعتماد على الآخر مع الثقة، والمعنى الاصطلاحي يتضمن تفويض الأمر لله تعالى، والاعتماد عليه وحده في تسيير الأمور؛ ثقةً بقدرته الكاملة عز وجل.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣٦.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٤٠٥، مختار الصحاح، الرازي ١/ ٣٤٤.
(٣) لسان العرب ١١/ ٧٣٤.
(٤) التعريفات، الجرجاني ١/ ٧٠.
(٥) مفاتيح الغيب ٩/ ٤١٠.
(٦) مدارك التنزيل ١/ ٤٣٩.
(٧) التحرير والتنوير ٤/ ١٥١.

التوكل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وكل) في القرآن (٧٠) مرة [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٣	﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود:٨٨]
الفعل المضارع	١٨	﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل:٤٢]
فعل الأمر	١١	﴿۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال:٦١]
اسم الفاعل	٤	﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩]
الصفة المشبهة	٢٤	﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر:٦٢]

والتوكل هو: الاعتماد على الغير وتفويض الأمور له، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى [(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٦٢-٧٦٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٤٢٥-١٤٥٣.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣٣٦-٣٣٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٦٦-٢٧٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦٠٧-٦٠٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الثقة:

الثقة لغة:

الائتمان[١].

الثقة اصطلاحًا:

من يعتمد عليه في القول والفعل[٢].

الصلة بين الثقة والتوكل:

يوجد تكامل كبير في المفردتين، فلا يمكن أن يتوكل الإنسان إلا على من يثق به ويأتمنه على القيام بالأمر.

١ الثقة:

الاعتماد لغة:

اعتمد على الشيء اتكأ، واعتمد عليه في كذا اتكل، ويقال:اعتمد الشّيء: قصده وأمضاه، ويقال:اعتمد الرئيس الأمر: وافق عليه وأمر بإنفاذه[٣].

الاعتماد اصطلاحًا:

هو «القصد إلى الشيء والاستناد إليه مع حسن الركون»[٤].

الصلة بين الاعتماد والتوكل:

المفردتان متقاربتان؛ لأن في كلتيهما استنادًا إلى المعتمد عليه مع حسن الركون والاطمئنان.

٣ التواكل:

التواكل لغة:

«تواكل القوم: اتكل بعضهم على بعض[٥].

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٤٥٠.
(٢) التوقيف، المناوي ١/ ١١٦.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٣٠٢، مختار الصحاح، الرازي، ١/ ٢١٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٦٢٦.
(٤) الكليات، الكفوي ١/ ١٥١.
(٥) العين، الفراهيدي ٢/ ٢٦٦.

التواكل اصطلاحًا:

هو التخاذل وترك العمل بالأسباب، وانتظار الأماني[1].

الصلة بين التواكل والتوكل:

المفردتان متضادتان، فالتوكل هو عمل الجوارح مع توكل القلوب، أما الكسل عن الأخذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل هو حقيقة التواكل.

٤ التفويض:

التفويض لغة:

«فوض إليه الأمر تفويضًا: رده إليه، وجعله الحاكم فيه»[2].

التفويض اصطلاحًا:

هو «ردّ الأمر إلى الله والتبرؤ من الحول والقوة»[3].

الصلة بين التفويض والتوكل:

المفردتان متقاربتان، فالتفويض والتوكل يشتركان في رد الأمور إلى الآخر فيما لا تستطيعه قدرة الشخص.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ١٤٢.
(٢) تاج العروس، الزبيدي ١٨/ ٤٩٦.
(٣) التوقيف، المناوي ١/ ١٠٤.

دلالة اقتران التوكل بالإيمان والعبادة

التوكل من أعظم العبادات المرتبطة بالإيمان؛ لذلك كثر اقترانه بمصطلحي «العبادة» و«الإيمان»، فالتوكل على الله هو أجمع أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد وأعظمها وأجلها؛ لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة؛ فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل ما سواه؛ صح إخلاصه ومعاملته مع الله، وكذلك لا يصح إيمان الإنسان إذا فسد توكله، فالتوكل شرط في الإيمان[1]، بدلالة قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]. أي على الله وحده اعتمدوا وثقوا، فهو وكيلكم الأعلم بما يصلح لكم إن كنتم مؤمنين، وإن لم تكونوا متوكلين فلن ينطبق عليكم سمت المؤمنين[2].

وفي موضع آخر قال جل وعلا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس:٨٤].

وهنا يظهر اشتراط التوكل للإسلام، فيجب أن يسلّم الإنسان أموره لله عز وجل خالصة دون تخليط؛ حتى ينال الرضا من الله تعالى[3].

وقد قرن التوكل بالعبادة في أكثر من موضع، منها قول الله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣].

وقد بيّن الرازي أن أول درجات السير إلى الله تعالى هو عبودية الله، وآخرها التوكل على الله، وأن هذا هو السبب الذي أدّى إلى ترتيب الآية هكذا: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾، بمعنى أن المخلص في العبادة المؤدي لها بيقين وتأمل وصفاء يصل به التدبر إلى عظم الخالق عز وجل وروعة إبداعه، وأنه لا يملك أمام تلك القدرة المطلقة سوى تفويض أموره كلها والاعتماد عليه تعالى في تسيير شؤون حياته كلها[4].

ولعل ترتيب الآية السابقة يؤكد على مبدأ العبادة والعمل، ومن ثمّ تفويض الأمور لله تعالى، وهذا هو التوكل الصحيح، خلافًا لما يفعله المتواكلون من القعود عن العمل، وترك الأمور بحجة التفويض، وإسناد الأمور للخالق عز وجل، فالله يحب العاملين ولا يحب المتخاذلين.

(١) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، صالح الفوزان ١/ ٧٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٠٣.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٦٤.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤١٤.

التوكل في حق الله تعالى

من أسماء الله تعالى الوكيل، وقد حقّ لجلاله وعزته وحكمته هذا الاسم، فعليه يجب أن يتوكل المؤمنون، وعلى غيره لا يصح التوكل؛ لأن التوكل عبادة قلبية، لا تصرف إلا لله عز وجل[1]، وسيأتي بيان معنى اسم الله الوكيل واستحقاقه جل وعلا لهذا الاسم فيما يأتي:

أولًا: الوكيل من أسماء الله الحسنى:

أثبت الله تعالى لنفسه اسم الوكيل، يقول الحق عز وجل: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر:٦٢].

وقال في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران:١٧٣].

والوكيل هو المتكفل باحتياجات عباده، وقيل: الموكول إليه ذلك، فإن عباده وكّلوا إليه مصالحهم اعتمادًا على إحسانه عز وجل[2].

يقول الطوسي: الوكيل «هو الموكول إليه الأمور، ولكن الموكول إليه ينقسم إلى من يوكل إليه بعض الأمور، وذلك ناقص، وإلى من يوكل إليه الكل، وليس ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، والموكول إليه ينقسم إلى: من يستحق أن يكون موكولًا إليه لا بذاته ولكن بالتفويض والتوكيل، وهذا ناقص؛ لأنه فقير إلى التفويض والتولية، وإلى من يستحق بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه، والقلوب متوكلة عليه لا بتوليةٍ وتفويضٍ من جهة غيره، وذلك هو الوكيل المطلق، والوكيل أيضًا ينقسم إلى: من يفي بما وكّل إليه وفاءً تامًا من غير قصور، وإلى: من لا يفي بالجميع، والوكيل المطلق: هو الذي الأمور موكولة إليه وهو مليٌّ بالقيام بها، وفيٌّ بإتمامها، وذلك هو الله تعالى»[3].

والفرق بين وكالة الله ووكالة العباد، أن الوكيل صفة الله التي تعني المتولي القائم بتدبير خلقه؛ لأنه مالك لهم رحيم بهم، أما توكيل العباد إنما يعقد بالتوكيل، ولا يتضمن الرحمة[4]، لذا حريٌّ بنا أن نتوجه إلى الله جل جلاله بالدعاء باسمه الوكيل، وبجميع أسمائه الحسنى، فالله تعالى حقيق بذلك، وقد أمرنا بهذا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف:١٨٠].

وعلى الإنسان أن يستحضر لحظة الدعاء عزة الربوبية وذلة العبودية، فبذلك يعظم

(١) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ١/ ١٣٧.
(٢) انظر: المواقف، الإيجي ٣/ ٣٢٢.
(٣) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢٩.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٥٧٧.

الدعاء ويحسن الذكر[1].

ثانيًا: استحقاق الله تعالى للتوكل لاتصافه بصفات الكمال:

لله تعالى من الصفات المطلقة ما يجعلنا نسارع إلى عبادته، ونجتهد في التوكل عليه، توقًا إلى رحمته، وحرصًا على استحقاق جنته، فمن أهم ما يجعل المؤمن يتوكل على ربه عز وجل:

١. سعة علمه.

الله عز وجل هو العليم، فقد أثبت العلم المطلق لنفسه تبارك وتعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال:٦١].

وأثبتها له صفوة عباده المؤمنين، فقد وردت على لسان أنبياء الله الكرام، كقول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧].

وأيضًا أثبت العلم المطلق لله تعالى يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف:٨٣].

وقال تعالى عن مريم ابنة عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران:٣٥].

والعليم يعني: أن الله تعالى يحيط بكل شيء علمًا، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، عاقبته وفاتحته، فمعلوماته تعالى لا نهاية لها، وكذلك وضوحها وكشفها على أتم ما يمكن فيه، بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه، ثم لا يكون تعالى مستفيدًا من المعلومات، بل تكون المعلومات مستفادة منه، فهو تعالى الذي يمدّ بالعلم من يشاء[2]، وهذا العلم الإلهي يجعلنا نسلّم أمورنا متوكلين على الله تعالى؛ فنحن الجاهلون وهو الأعلم بحالنا وبما يصلح لشؤون ديننا ودنيانا، وهو الراضي عنا بهذا التوكل، وهو كافينا ما أهمّنا.

٢. سعة رحمته.

وصف الله عز وجل ذاته المقدسة بالرحمة الواسعة، فقد قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال أيضًا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة:١٦٠].

(١) انظر: مراح لبيد، محمد الجاوي ١/ ٤٠٩.

(٢) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الطوسي ص٨٦.

وتقررت الصفة مرة أخرى في موضع ليس ببعيد عن الموضع السابق في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣].

وقد أثبت صفة الرحمة لله تعالى أنبياء الله الكرام، فقد قال تعالى عن موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة:٥٤].

وعن سليمان ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٣٠].

وأثبتها لله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف:٨].

ورحمة الله تعالى هي تفضله وكرمه على المؤمنين، فقد أوجب تعالى الرحمة على نفسه تفضلًا وإحسانًا، ولم يوجبها عليه أحد[1] في قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢].

فهو الممتنّ عليهم بعطائه الجزيل، وهو الذي يتوب على عباده،

يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء العادلين بي الجاحدين نبوتك يا محمد، إن تابوا وأنابوا قبلت توبتهم، وإني قد قضيت في خلقي: أن رحمتي وسعت كل شيء»[2]، ونحن نقول: إذا كانت هذه رحمته بالمعرضين عنه، فكيف تكون رحمته بالمقبلين عليه، الساجدين بين يديه، المتوكلين عليه في تسيير أمورهم، وكيف لهم ألا يتوكلوا إذا ما علموا عطفه على عباده ورفقه بهم، ورحمته فيما يقدّر لهم من مقادير!

٣. عزته وقوته.

عزاء المؤمن المظلوم والمقهور في هذه الدنيا يقينه أن الله تعالى هو القوي العزيز، الذي لا تضيع عنده الحقوق ولا يفلت من عقابه الظالمون.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود:٦٦].

وتتجلى قوة الله وعزته في الآية: كونه تعالى قد أوصل العذاب إلى الكفار بصالح عليه السلام، وصان أهل الإيمان عنه، وهذا لا يصحّ إلاّ من القادر الذي يقدر على قهر طبائع الأشياء، فيجعل الشّيء الواحد بالنّسبة إلى إنسان بلاء وعذابًا، وبالنسبة إلى

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص١٠٧.

(٢) جامع البيان ١/ ١٠٧.

إنسان آخر راحة وريحانًا[1].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى:١٩].

أي: أن رب العزة ذو لطف بعباده مؤمنهم وكافرهم، فهو الذي يطعمهم ويسقيهم، وحتى في خلوات المعصية يمرّر إليهم الهواء فيحييهم، وهو تعالى على كرمه معهم قادر على أخذهم بقوته التامة؛ فهو الذي لا يعجزه شيء، وهو العزيز في انتقامه إذا أراد الانتقام من أحد[2].

وقد ابتلى الله ابن آدم بالموت؛ ليرى نتيجة عمله، والله هو العزيز المنتقم من الظالمين، القابل توبة التائبين[3]: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك:٢].

والذي يفهم بحق معنى عزة الله وقوته، ويدرك أن الله مقتص من الظالمين، ناصر للطائعين عاجلًا كان أم آجلًا، سيفوّض أموره كلها لله واثقًا متوكلًا موقنًا أنه لن يضيع له حق.

٤. حكمته.

من أسماء الله تعالى: الحكيم، فهو سبحانه صاحب الحكمة المطلقة.

يقول عز وجل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨].

قال ابن القيم: «الحكمة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي»[4].

وقال الطوسي: «الحكمة: هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.. ولا يعرف كنه معرفته غيره، فهو الحكيم الحق؛ لأنه يعلم أجلّ الأشياء بأجلّ العلوم، إذ أجلّ العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله، المطابق للمعلوم مطابقةً لا يتطرق إليها خفاءٌ ولا شبهةٌ، ولا يتصف بذلك إلا علم الله سبحانه وتعالى، وقد يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها حكيم، وكمال ذلك أيضًا ليس إلا لله تعالى، فهو الحكيم الحق»[5].

وقد أثبتت آيات القرآن الكريم هذه الصفة لله تعالى، قال جل وعلا على لسان ملائكته الكرام: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة:٣٢].

وقال على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٥١٧.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٦٠٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٠٥.
(٤) مدارج السالكين ٢/ ٤٤٩.
(٥) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢٠.

﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

وفي الآية الأخيرة تقرير لحكمة الله العليم، فقد مرت بيوسف عليه السلام ظروف صعبة، ابتداءً من إلقائه في الجب وانتهاءً بسجنه واتهامه ظلمًا، إلا أن نبي الله المعصوم يعلم أن ربه حكيم، يجري كل حدث بمراد دقيق، وبما تقتضيه مصلحة الإنسان[١]، فإذا تيقن المرء من وجود الحكمة في تقدير الله تعالى وتدبيره، فسيترك التفكير، ويقطع السعي فيما ليس للبشر قدرة عليه، وسيفوّض أموره كلها لخالقه الحكيم العالم بمراد البشر، المتوكل بمصالحهم.

ثالثًا: نفي الإيمان عن غير المتوكل على الله تعالى:

التوكل على الله واجب وشرط لحصول الإيمان، وانتفاؤه انتفاء للإيمان بمقتضى قول الله تعالى[٢]: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

ولأن التوكل عبادة قلبية، فلا يصح صرفه لغير الله، فهذا من الشرك.

وقد قسّم العلماء التوكل على غير الله إلى قسمين:

الأول: التوكل على غير الله في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالذين يتوكلون على الأموات، ويطوفون بالقبور استشفاءً أو طلبًا للنصر والرزق، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل على غير الله في الأمور التي يقدر عليها العباد؛ كأن يتوكل على وزير أو أمير في فيما جعله الله في يده من سلطة أو وظيفة، في جلب مصلحة أو دفع أذى، فهذا ينافي كمال الإيمان ويضعفه.

والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسان في فعلٍ مقدور عليه، ولكن ليس له أن يتوكل عليه، وإن وكّله، بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكّل صاحبه فيه[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وما رجا أحدٌ مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك»[٤].

وقد قال رب العزة: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

والمشرك المتوكل على غير الله يوقع الله في قلبه التعلق بالمخلوقين، فيخافهم ويرجوهم فيحصل له رعب، كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:١٥١].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٠٨٦.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٧/ ١٦.
(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالوهاب ١/ ٤٢٨.
(٤) الفتاوى الكبرى ٥/ ٢٣٢.

والخالص من الشرك يحصل له الأمن واطمئنان النفس والتعفف عن سؤال الناس[1].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

ولعل من أهم قوادح التوكل التي نراها في هذه الأيام اعتماد الإنسان على الرقية بواسطة شخص معين، أو العلاج على يد طبيب بعينه اعتقادًا بقدرته على الشفاء، وهذا الأمر منافٍ للتوكل الصحيح الذي يعتمد على رجاء الله أولًا، ثم عمل ما يلزم بواسطة البشر مع عدم تعليق الأمل على أشخاصهم ثانيًا.

الأنبياء عليهم السلام والتوكل

أنبياء الله الكرام هم صفوة خلقه، وقد أبرز القرآن الكريم الأسوة الحسنة من خلال قصصهم مع أقوامهم عليهم السلام، فكانوا خير المؤدّبين لأممهم والمخلّصين لها من أرذال الجاهلية، والمتحلّين بأجمل الخلال، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقد تحلى أنبياء الله عليهم السلام بالتوكل، وحثوا أقوامهم على ذلك، وسنبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: دعوة أقوامهم إلى التوكل على الله تعالى:

دعا أنبياء الله الكرام أقوامهم إلى التوكل؛ لأنه من أجلّ العبادات.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١٢].

وهذه العبارة نقلها القرآن الكريم ليصور لنا حال أنبياء الله الكرام الذين اجتهدوا في دعوة أنبيائهم إلى التوكل، فقد علّموهم التوكل بالقدوة، وحضّوهم عليها بالقول، وبيّنوا لهم أن هداية الله ونصره وتأييده لا تأتي إلا بالتوكل، ولا ننسى دعوة يعقوب عليه السلام لأبنائه وقومه أن يتوكلوا،

(١) انظر: المصدر السابق ٥/ ٢٣٢.

وأمرهم باتخاذ الأسباب التي تحميهم، ومن ثمّ تفويض الأمر لله عز وجل برعايتهم وحفظهم.

قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف:٦٧].

قال ابن عاشور:«أراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة؛ تأدبًا مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها»[1].

وقد وردت في قصة موسى عليه السلام دعوة إلى التوكل، تأمل قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس:٨٤].

فالتوكل من أهم الأمور التي دعا إليها موسى عليه السلام وعلمها لقومه، ويظهر ذلك التأديب في قصة نقباء موسى الذين تربوا على يديه.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة:٢٣].

والقصة تحكي عن اثنين من النقباء الذين أرسلوا إلى الجبارين لاستكشاف قوتهم، وهؤلاء المذكورون في الآية من المؤمنين الذين رباهم موسى عليه السلام على التوكل، فحثوا قومهم على ذلك، وبيّنوا لهم أن قوة الجبارين في أجسادهم فقط، وأنهم إذا غزوهم في عقر دارهم ذلّوهم وهزموهم، وهذه هي التربية المؤمنة التي تعلّم أبناءها بذل الجهد وعدم الانشغال بالنتائج؛ لأن الله ناصر عباده وكافيهم شر الأعداء إن صدقوا الإخلاص وأحسنوا التوكل[2].

ثانيًا: الأنبياء أسوة في التوكل على الله تعالى:

التوكل سمة مشتركة لدى الأنبياء عليهم السلام، وقد ظهر التوكل في القصص القرآني بشكل واسع.

قال تعالى: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [إبراهيم:١١].

ويظهر في الآية التأكيد على صفة التوكل والحث عليها بقوة، فقد بيّنت أن الرسل

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٠.

(٢) انظر: المصدر السابق.

عليهم السلام أكدوا بشريتهم لأقوامهم وأن الله قد منّ عليهم بالتوحيد والدعوة، وأن الله ناصرٌ أنبياءه بقوته وجبروته تعالى، فقد تحدوا أقوامهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدهم ومكرهم، وأن الأنبياء كانوا جازمين بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرّهم، على الرغم من حرص المكذبين من أقوامهم على إطفاء ما معهم من الحق، وقد كان توكل الرسل عليهم الصلاة والسلام في أعلى المطالب وأشرف المراتب؛ فهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.[1]

وإمام المتوكلين محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الذي توكل على ربه في دعوته وربّى أصحابه الكرام على تلك الصفة، فقد تخفّى عليه الصلاة والسلام مع أبي بكر رضي الله عنه في الغار فرارًا بدينه من بطش المشركين.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: (لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك يا أبا بكر في اثنين الله ثالثهما)[2]، فرد عليه حبيبه عليه السلام: (لا تحزن) حاثًا إياه على مجاهدة النفس وتوطينها على عدم الاستسلام، وقال له: (إنّ اللّه معنا) يعني بنصره وتأييده[3].

يقول الخازن: «وفيه بيان عظيم على توكل النبي صلى الله عليه وسلم.. وفيه فضيلة لأبي بكر وهي من أجلّ مناقبه، والفضيلة من أوجه، منها: اللفظ الدال على أن الله ثالثهما، ومنها: بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وملازمته النبي صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيها، ومنها: جعله نفسه وقاية عنه، وغير ذلك»[4].

ولا يخفى ما أظهره أبو بكر الصديق وأصحابه من التوكل على الله عزّ وجل، فها

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٤/ ١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ٥/ ٤، رقم ٣٦٥٣.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢١٣.

(٤) لباب التأويل ٣/ ٩٤-٩٥.

هو أبو بكر رضي الله عنه يتصدق بكل ماله في سبيل الله، ويجيب حبيبه صلى الله عليه وسلم عندما سأله: (ماذا أبقيت لأهلك؟) فيقول: أبقيت لهم الله ورسوله[1].

لا يخاف على أهله الموت فقرًا وجوعًا، ومنّا الآن من يستعظم صدقته إذا تجاوزت دخل يوم أو أقل، فلله درك يا أبا بكر!

وقد ظهر التوكل جليًا في قصة نوح عليه السلام عندما قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١].

أي: إن كان الدين الذي أدعو إليه ثقيلًا عليكم ولا تتحملون مكوثي معكم ودعوتي لكم، فاجتمعوا أنتم وجميع شركائكم وافعلوا أقصى ما تستطيعون جهرًا لا خفية، ولا تمهلوني أو ترحموني أو تألوا في ذلك سبيلًا، فأنا متعلق بالله الذي سيكفيني أمركم وسينصرني بقوته وعزته، وهذه قمة التحدي المبني على التوكل على الله والاعتزاز بالله عز وجل.

كما ظهر توكل سيد المتوكلين إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧].

انظر كيف يترك إبراهيم عليه السلام زوجه وابنه في صحراء مقفرة لا زرع فيها ولا مياه، يترك ابنه الذي رزقه الله إياه بعد سنين في مكان لا يتصور أحد أن يترك فلذة كبده فيه، وتسأله زوجه: الله أمرك بهذا؟ فيشير برأسه أن نعم، فتقول متوكلة على الله: إذًا لا يضيعنا الله أبدًا، هذه هي أسرة المتوكلين على الله حين علموا أن الله يريد أن يتم أمره الذي قدره[2].

ويذكر الإدريسي أن في فعل إبراهيم عليه السلام إشارة إلى تربية أهله بحقائق التوكل والرضا والتسليم، ونعمت التربية تلك، فأعلمنا بسنته القائمة على الحنيفية السمحة السهلة: أن المؤمن الصادق ينبغي ألا يكون معوّلًا على الأسباب فحسب، بل يلزمه التوكل على الله في جميع أموره[3].

وعلينا ألا نستغرب هذا التوكل العظيم منه عليه السلام، فهو الذي تبرأ من قومه جهرًا وهو يتوقع أنهم سيلحقون به الضرر، ولم يكن يملك ما يدفع به مكرهم، لكنه لم يخش إلا الله، فقال عليه السلام داعيًا ربه عز وجل: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك خروج الرجل من ماله، ٢/ ١٢٩، رقم ١٦٧٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٦٨.

(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٣٧٥.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤].

ولما ألقوه في النار ظهرت نتيجة توكله فكانت تلك الآية الرائعة، والمعجزة العظيمة في تحول النار عن صفة الاحتراق إلى صفة البرودة مع السلام.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء:٦٩-٧٠].

فلما رأى النمرود تلك الآية ترك إبراهيم وكف أذاه عنه، فمن ذا الذي يخاف كيد الكافرين ومكرهم وهو في كنف المولى عز وجل، الغالب على أمره ولو كره الكافرون[1].

وقد توكل هود عليه السلام على ربه، وتحدى قومه المكذبين أن يضروه، فهو المتوكل على الله ولا يخسر المتوكلون أبدًا، قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

وكذلك توكل شعيب عليه السلام على ربه، واعتز بهذا التوكل قائلًا: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٩].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

ولا يخفى أن التوكل إشارة إلى التوحيد المحض، فكل الأنبياء خصوا الله تعالى وحده بالتوكل، وأكدوا على ذلك في دعوتهم لأقوامهم، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على كونه عملًا عقديًّا مهمًّا ينبغي ألا يشوبه شوائب[2].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٣٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٨٩.

دوافع التوكل على الله تعالى

للتوكل على الله تعالى دافعان رئيسان، وهما: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالقدر، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: الإيمان بالله تعالى:

التوكل مبني على الإيمان، لقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

قال ابن القيم: «فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا، فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية»[1].

وانتفاء التوكل يعني انتفاء الإيمان، يقول المولى عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال:٢-٣].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ٢٥٥.

هذا وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الآية تعني أن من اتصف بتلك الأوصاف هو المؤمن كامل الإيمان، بينما من لم يتصف بها هو المؤمن ناقص الإيمان، فلا ينتفي عنه الإيمان بالجملة[2]، لكن المتأمل في الآية وفي معنى التوكل يعلم أن التوكل أمر عقدي، لذا يستبعد أن يكون المتوكل على غير الله مؤمنًا إيمانًا ناقصًا، بل يرجّح انتفاء الإيمان عنه، والله أعلى وأعلم.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٩.

ثانيًا: الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر من أهم ما يدفع إلى التوكل على الله؛ فالذي يعلم يقينًا أن الله تعالى قد قدّر حياته ومعاده ورزقه وذريته وزوجه وأمور معاشه كلها، لا يتوانى في تسليم أموره كلها لله، ولا يقلق ولا يجزع من المستقبل، فالذي خلقه هو من قدّر سير حياته، فيعيش مطمئن البال راضيًا بما كتب الله له، لا يلهث وراء الدنيا ولا يتكالب على المناصب والأرزاق، فالله تعالى قد كتب له مقدارًا من الخير سيأتيه دون غيره.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: ٧٠-٧٢].

وعن محمد بن عمران قال: قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: «أربع خلال:

١. علمت أن رزقي ليس يأكله غيري، فلست أشغل به.

٢. وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا مشغول به.

٣. وعلمت أن الموت يأتيني بغتة، فأنا أبادره.

٤. وعلمت أني بِعَيْنِ الله في كل حال، فأنا مستحي منه»[(١)].

والتوكل على الله تعالى لا يعني ترك الأسباب بحجة كون الأمور مقدرة عند الله، فترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع أو فساد في العقل، فالتوكل محله القلب، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح، ولا يكمل التوكل إلا بالعمل، فالمؤمن يعمل ويأخذ بالأسباب ثم يتوكل على الله تعالى في جلب المنفعة[(٢)].

وقد أمر الله تعالى بأخذ الأسباب في كل الأحوال، تأمل قول الله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

فبالرغم من كون الرزق مقدرًا إلا أننا مأمورون بالسعي من أجله، وبالاجتهاد في استصلاح الأرض والحصول على ثرواتها[(٣)].

وانظر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

فالحذر عمل بأسباب النصر، وكذلك الاستعداد للمعركة من عوامل النصر،

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٩٤، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١١/ ٤٨٤.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٧٠.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠].

وفي الآية: تنبيه إلى ضرورة الاستعداد وعدم الاتكال على حسن النوايا وطيب الهدف، فيجب ألا نقصر في إعدادنا للقوة التي تعيننا على ملاقاة الأعداء ونبذل في سبيل ذلك جهودنا وأموالنا؛ حتى نستحق نصر الله وتأييده[1]، وتدبر قول يعقوب عليه السلام لابنه يوسف: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥].

فقد أمر يعقوب ابنه يوسف عليهما السلام أن يجتنب ذكر أمر الرؤيا أمام إخوته، على الرغم من فهمه ويقينه أن الله سيجعل ليوسف مستقبلًا عظيمًا، إلا أن هذا لا يمنع من صيانة الإنسان لنفسه وحفظه لأموره من الحسد والكيد[2].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٧٧٥.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٥٢.

مواطن التوكل على الله تعالى

يدخل التوكل في تفاصيل حياتنا كلها، فلا يخلو سلوك المؤمن من استحضار التوكل على الله عز وجل في جميع أموره، ومن تلك المواطن التي نتوكل فيها على الله تعالى:

أولًا: تحقيق المصالح ودفع المضار:

يمر الإنسان في حياته بلحظات يكون فيها بأمسّ الحاجة إلى توفيقٍ رباني وحفظٍ إلهي، فالدراسة للامتحان والاجتهاد وحده ليس كافيًا للحصول على درجة عالية، أو التنافس على وظيفة راقية، ووجود الزوجة ليس ضامنًا لإنجاب الذرية، ووجود الذرية ليس مؤشرًا على الراحة عند الكبر، واتباع وسائل الإنذار من الحرائق والسرقات لا يضمن عدم حصول كوارث في المنزل أو المؤسسة، وكل ما يفعله الإنسان من اجتهادات لا يغير شيئًا؛ لو لم يقترن بحفظ الله تعالى ونصره وتسديده.

يقول المولى عز وجل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠].

وفي الآية: خطاب للمؤمنين أنه إن ينصركم الله ويثبتكم ويوفقكم فلن يستطيع أحد خذلانكم أو مضرتكم، وإن ترك الله

نصرتكم فلن يستطيع أحد نفعكم، فتوكلوا على ربكم وثقوا بنصره، وفوضوا جميع أموركم إليه؛ حتى تنالوا إسناده وتوفيقه ونصرته[1].

قال الراغب الأصفهاني: «إن حصل لكم النصرة فلا تعتدّوا ما يعرض من العوارض الدنيوية في بعض الأحوال غلبة، وإن خذلكم في ذلك فلا تعتدّوا ما يحصل لكم من القهر في الدنيا نصرة، فالنصرة والخذلان معتبران بالمآل»[2].

وفي السنة النبوية ما يدلل على دوام توكل النبي صلى الله عليه وسلم قولًا وفعلًا، من ذلك ما ورد عن ابن عباس: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد، قال: اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، أو: لا إله غيرك)[3].

فدعاؤه عليه السلام دليل على توكله القولي، واجتهاده في التنبه ليلًا والتوجه إلى الله بالصلاة والدعاء والرجاء على الرغم من كونه نبي هذه الأمة، وأول من يدخل الجنة على الإطلاق؛ دليل عل أهمية العمل لأجل طاعة الله ولاستحقاق رحمته وجنته، هذا إلى جانب مواقفه صلى الله عليه وسلم التي يصعب عدّها والتي جسّد لنا فيها القدوة الرائعة للتوكل على الله تعالى.

فعلى المؤمن أن يقتدي برسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم الذي علّمنا ألا ندع التوكل على الله في كل صغيرة وكبيرة؛ فهو راحة وطمأنينة واستقرار للرضا في قلب المؤمن، بالإضافة إلى أنه يعود على الإنسان بالعزة والاستغناء عن البشر.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ..﴾ [الطلاق:٣]، أي: كافيه ومغنيه عمن سواه[4].

فيجب أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وينبغي أن نتوكل على الله وكأن الأسباب ليست بشيء، فكأن الطريق الصحيح عن يمينه واد سحيق، وعن يساره واد سحيق، إن أخذنا بالأسباب واعتمدنا

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ١١٦٢.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ٩٥٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل ٨/ ٧٠، رقم ٦٣١٧.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٦١.

عليها فقد وقعنا في وادي الشرك، وإن لم نأخذ بها وقعنا في وادي المعصية والتواكل، لكن الموقف الأعقل والأكمل أن نأخذ بالأسباب؛ لأنها طريق الأهداف، ثم نتوكل على الله؛ لأن الله جل جلاله لا يمكن أن يعطي لهذه الأسباب فاعليةً إلا بمشيئته وقدرته.

ثانيًا: الجهاد في سبيل الله:

التوكل في ميدان الجهاد في سبيل الله من أهم الأمور التي تعود على المؤمنين بالنصر والتوفيق، وقدوتنا في ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب السيرة الزاخرة بالتوكل على الله تعالى، وجهاده منذ نزول الوحي عليه وبدئه الدعوة السرية، ثم انتقاله للدعوة الجهرية، فالهجرة والحروب كلها تجسيد لهذا الأدب العظيم الذي لا بد أن نحتذيه في جهادنا ضد أعداء الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٥٩-١٦٠].

وانطلاقًا من الأمر الإلهي بالتوكل سلك النبي صلى الله عليه وسلم مسلك الثقة واتخاذ الأسباب في شؤون الجهاد والهجرة.

فقد رتب أمور الهجرة بشكل دقيق حتى يتجنب اللحاق به من قبل المشركين، وقد حرص على عدم إلحاق الأذى بالمسلمين فجعلهم يهاجرون قبله، وأبقى معه أبا بكر رضي الله عنه، وأمره بتجهيز الدواب للسفر، ثم خرج خروج الواثق بربه المستند إلى الحق، فمر من بين المشركين وهم ينتظرون رؤيته ليقتلوه، فأراد الله لعبده المتوكل النصر، فأعمى أبصارهم وحفّه برعايته تعالى.

ثم التقى عليه السلام بخليله الصديق رضي الله عنه، فانطلقا تحفهما رعاية الرحمن، واتخذ صلى الله عليه وسلم دليلًا خبيرًا ليدله على الطريق، كما استعان بمن يمسح آثار خيله أثناء الرحلة حتى لا يكتشف المشركون أمره.

وقد أطال الرحلة التي تحتاج ثلاثة أيام إلى أسبوع؛ تحقيقًا للأمن، وتمويهًا للعدو، فأدلج إلى غار ثور حتى يهدأ الطلب وتفتر الهمم في اقتفاء أثره، فيتمكن من السير وهو آمن، وطلب في هذه الفترة من ابن أبي بكر موافاته بأخبار المشركين أولًا بأول، واختار أسماء بنت أبي بكر لتزويدهم بالغذاء؛ فقد كانت تستعد للمخاض ولم تكن تحركاتها

لتثير شكوك قريش.

ورغم بذله عليه السلام للجهد في التخفي إلا أن قريشًا وصلت إلى الغار! لكن لا يخشى من وثق بالله وبذل في سبيل ذلك كل الأسباب، فلا يضيع الله عمل المتوكل العامل، فكان مطمئنًا ومثبتًا لقلب أبي بكر رضي الله عنه[1].

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

هذا هو نبينا القدوة الذي لم يركن إلى أنه رسول من رب العالمين بعثه ليبلغ دينه، ولم ينتظر النصرة وهو قاعد في بيته، فالإنسان -وإن سمت رسالته وتعلقت بالله تعالى- عليه أن يبذل من أجلها الأسباب؛ حتى تتحقق الغاية منها.

وفي حروبه صلى الله عليه وسلم مع المشركين نماذج كثيرة من التوكل، أهمها غزوة بدر، أولى الغزوات التي خرج فيها المسلون للقاء من يفوقهم عدة وعتادًا، خرجوا واثقين بنصر الله مصطحبين ما استطاعوا جمعه من عتاد، وقد لا نتصور اطمئنان هذه الفئة وهم أمام جمع غفير من الجنود المدججين الذين أرادوا استئصال الإسلام، لكنه التوكل على الله والثقة بنصره التي لا يوازيها شيء.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال:٩-١٢].

قال الزجاج: «أمر بدر كان من أعظم الآيات؛ لأن عدد المسلمين كان قليلًا جدًا، وكانوا رجّالةً، فأيدهم الله، وكان المشركون أضعافهم، وأمدّهم الله بالملائكة»[2].

وقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاستعداد لغزوة الأحزاب،

(١) انظر: الهجرة النبوية، محمد السيد الوكيل ١/ ١٧٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٤٠٤.

التي تكالب فيها المشركون واليهود على المسلمين، وكانت أعدادهم ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، لكن هذا لم يفتّ في عضد المؤمنين الصادقين، فحفر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصحابة الكرام الخندق في جو من البرد والجوع، لا يؤازرهم سوى انتصارهم لدين الله تعالى.

وقد مَنَّ الله عليهم بأن أرعب الأحزاب وشردهم[1].

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب:٢٥-٢٧].

فالله تعالى هو ناصر المؤمنين المتوكلين.

قال السعدي: «لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة، قوتهم وعزتهم، إن لم يعنهم بقوته وعزته»[2].

ثالثًا: طلب الرزق:

التوكل على الله تعالى في طلب الرزق سمة المؤمنين؛ لأن الرزق مكفول بربوبية الله تعالى للمؤمن والكافر إن عمل الاثنان بالأسباب.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت:٦٠-٦٢].

فالله تعالى يرزق بفضله جميع عباده، ولا أدلّ على كرمه تعالى من امتنانه بكنوز قارون التي بسطها له بسطًا، فلله خزائن السماوات والأرض، وهو الممتن علينا بالطعام والشراب والذرية وكل ما نملك، وهو المتكفل بأرزاق المستقبل.

قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات:٢٢-٢٣].

والآية الكريمة تلفت انتباه الإنسان إلى السبب الأهم للرزق، فالسبب الظاهر للرزق هو رعاية الأرض التي تخرج النبات والثروات، لكن المؤمن العاقل عليه أن يرفع بصره نحو السماء؛ فالسبب الحقيقي للرزق هو الله تعالى، الذي يرزق عباده بفضله لا بجهدهم، فالأصل أن يتوكل الإنسان على الله تعالى جازمًا أنه وحده هو المانح

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ٢٦٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٦٦٠.

للأرزاق، وأن يعمل بأسباب تلك الأرزاق حتى ينال رحمة الله تعالى وفضله.

يقول سيد قطب في تعليقه على الآية: «والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها، ويفهمها على وضعها ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها، فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها، إنما المقصود هو ألا يعلق نفسه بها، وألا يغفل عن الله في عمارتها، ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء، وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه، فرزقه مقدر في السماء، وما وعده الله لا بد أن يكون»[1].

وقد وعد الله عز وجل المتوكل عليه بكفايته ورزقه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق:٢-٣].

وفي الآيات بيانٌ لضرورة تقوى الله في أمور الطلاق أو الإمساك، وحضٌّ على التوكل على الله؛ لأنه الرزاق، ولأن الله تعالى بالغ أمره، توكل الإنسان عليه أو لم يتوكل عليه، غير أن المتوكل يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجرًا[2]، وقد قسّم ابن عجيبة الأسباب من حيث الأخذ والترك إلى ثلاثة أسباب:

أولها سبب معلوم قطعًا قد أجراه الله، وهو سنة من سنن الدنيا، فهذا لا يجوز تركه، كالأكل لرفع الجوع واللباس لرفع البرد، والثاني: سبب مظنون، كالتجارة وطلب المعاش، وشبه ذلك، فهذا لا يقدح فعله في التوكل، فإن التوكل من أعمال القلوب لا من أعمال البدن، ويجوز تركه لمن قوي عليه، لكنه أخذ بأسباب الرزق وفعله محمود، والثالث: سبب موهوم بعيد، فهذا يقدح فعله في التوكل، ثم بيّن أن الثالث مثل طلب الكيمياء والكنوز وعلم النار والسحر، وشبه ذلك[3].

قال الزحيلي: «ومن شروط التوكل الصحيح: تنفيذ الأحكام الشرعية، ومراعاة السنن المطلوبة في الحياة، من اتخاذ الأسباب ثم تفويض الأمر إلى الله تعالى»[4].

وقد حثت السنة النبوية على التوكل في طلب الرزق، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لو أنّكم كنتم توكّلون على اللّه حقّ توكّله لرزقتم كما يرزق الطّير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا)[5].

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٧.
(٣) انظر: البحر المديد ١/ ٤٢٨
(٤) التفسير المنير ٩/ ٨.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب

وفي الآن نفسه أمر المؤمن بالأخذ بأسباب الرزق اقتداءً بأنبياء الله الكرام، فعن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أكل أحد طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده)[1].

أما ترك الكسب والاعتماد على الخوارق والجوائز الربانية فهذا سمت المتقاعسين الذي ذمّه الله عز وجل؛ لأن فيه إبطالًا لقانون الأسباب والمسببات الذي وضعه الله في الكون، ودعوةً إلى التكاسل والقعود ومخالفةً لأمر الله تعالى بإعمار الأرض بالعمل.

رابعًا: الدعوة إلى الله تعالى:

الدعوة مضمار مهم يخوضه المسلم بجدّ وحب وإخلاص مقرون بالعلم، ولا يتأتى لنا جني ثمرات الدعوة إلا بعد التوكل على الله عز وجل والثقة بأنه تعالى إن شاء أجرى الحجة على لسان الداعية وقلمه، فجعل القلوب تنجذب إليه وتنقاد إلى ما يدعو إليه، وإن لم يشأ فلن يُكتب للدعوة نجاح، مهما بلغت حجة الداعية، ومهما عظمت خبرته.

وقد خلّد التاريخ نماذج عديدة من الدعاة المتوكلين الذين لم يعتمدوا على سمو الهدف وربانية مصدر الرسالة، بل اجتهدوا وأخذوا بأسباب النجاح حتى تسمو دعوتهم وتنتصر فكرتهم، ومثالنا على أولئك الدعاة مؤمن ياسين الذي بذل في سبيل دعوته كل جهد.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٠-٢٧].

ولعل المتأمل في الأسباب التي اتخذها هذا الداعية المخلص المتوكل على الله تعالى في دعوته لقومه المكذبين يعلم أنه استحق دخول الجنة بحق، ومن هذه الأسباب ما يأتي[2]:

- **السرعة وعدم التباطؤ في الدعوة،**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده ٣/ ٥٧، رقم ٢٠٧٢.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٦٣-١٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣٦٥.

في التوكل على الله ٤/ ٥٧٣، رقم ٢٣٤٤.

فحينما استشعر حقيقة الإيمان، تحركت هذه الحقيقة في ضميره، فلم يتوان في الإسراع من أجل الدعوة إليها.

- حضوره من أقصى المدينة، وهو مكان بعيد، وهذا يؤكد إخلاصه في الدعوة ما جعله يحتمل مشاق الطريق من أجل إنجاح دعوته.
- سعيه، والكلمة دالة على إسراعه مع بذله الجهد في المجيء للدعوة؛ إنقاذًا لهم من ظلمات الكفر.
- رفقه ولينه مع قومه، واستعطافه لهم بقوله «يا قومِ».
- لفته أنظارهم إلى ميزات الأنبياء من حيث الاهتداء وعدم طلب المال.
- مخاطبته لنفسه من منطلق إشعارهم أنه يخشى عليهم ما يخشى على نفسه ويحب لهم ما يحب لنفسه، واجتهاده في تغيير الأساليب لفتًا لانتباههم.
- تنبيههم إلى أن الله فاطر النفوس وإليه المعاد، وهو الخالق الذي بيده النفع والضر، وعنده الجزاء بالثواب والعقاب دون سواه.
- تكرار الدعوة وطلبه أن يهتموا بسماعه وفهم ما يقوله.
- تحمل تعذيبهم له مقابل إيصال الحق ونشر دين الله، وحرصه على إعلامهم بثواب المؤمن على الرغم من إيذائهم له.

قال القرطبي: «وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه»[1].

ولعل التوكل على الله تعالى هو المسهل الرئيس للدعوة الإسلامية، فلو استحضر الإنسان عند دعوته ما قد يعود عليه من هموم وغموم، وانتقادات وإعراض، فإنه سيترك أمر الدعوة، لكنه مع التوكل على الله تعالى يشعر بقوة وعزة ومناصرة من الله تعالى، فيهون عليه أمر الدعوة، ومن الأمور التي تبعث الداعية على التوكل:

- رسوخ التوحيد في قلبه، وإدراكه لمعاني أسماء الله وصفاته العلا، والثقة به عز وجل.
- معرفة الداعية إمكانات نفسه، وإدراكه لضعفه وعجزه إن حرم التوفيق من الله.
- المعرفة بفضل التوكل وأحوال المتوكلين من السلف والخلف.

وفي سيرة أنبياء الله الكرام جميعًا، وهم أوائل الدعاة إلى الله تعالى، نماذج عظيمة

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٧.

من التوكل على الله في الدعوة، وعلى رأسهم إمام المتوكلين محمد صلى الله عليه وسلم.

تأمل قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٨-١٢٩].

وقد بيّن الله تعالى فضل النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه جاء العرب من جنسهم ومن نسبهم، فهو عربي قرشي مثلهم، يخاف عليهم سوء العاقبة والوقوع في العذاب، حريص ألا تفلت منه أي نفس إلى النار، وهو رؤوف رحيم بحالهم، قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم يواسي الله تعالى نبيه الكريم قائلًا: فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك فاستعن وفوّض أمرك إليه، فهو كافيك معرّتهم ولا يضرونك، وهو ناصرك عليهم، وهكذا كان فعله عليه السلام دومًا، فهو الصبور على أذاهم، الحريص على دعوتهم، المتوكل على الله في كل حال[1].

خامسًا: مواجهة الظالمين والمجرمين:

يلزم على المؤمن استحضار قوة الله تعالى ومساندته عند مواجهة الظالمين والمجرمين، والتوكل عليه تعالى في ذلك، فالطاقة البشرية قاصرة، سيما وإن كانت تتجه لمحاربة الظالمين، فالظالم لا يخشى الله، ولا يردعه شيء، وهو مستعد لبذل أرخص الوسائل وأرذلها للحصول على غرضه، وقد مرّت قصص عبر التاريخ تجسد أدب التوكل على الله في محاربة الظلمة، من ذلك قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون.

تأمل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف:١٠٣-١٠٧].

إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٢٥.

وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٨].

وفي الآيات الكريمة تصوير دقيق لتفكير وسلوك الطغاة، فهم يخشون الدين؛ لعلمهم أن الأمة إن التزمت به ووحدت خالقها فستنصرف عن تقديس الظالمين ورجائهم في أمور حياتهم، وستخرج من ظلمات التبعية إلى نور التحرر من القيود البشرية والانقياد لله تعالى وحده دون شركاء، وهذا ما حصل عندما طلب موسى من فرعون أن يترك بني إسرائيل ليعبدوا الله وحده، فأدرك فرعون وملؤه أن هذا يعني سلب السلطة منهم، فأرادوا إحراجه بتقديم الحجة على صدقه أمام الناس.

وقد أظهر الله على يديه معجزاته التي أبهرت سحرة فرعون كلهم، فآمنوا، وواجهوا ذلك الطاغية المستبد الذي أراد استئصال هذا الدين وأتباعه، وعلى الرغم من تهديده ووعيده إلا أن المؤمنين أيقنوا أن مردهم إلى الله تعالى طال عمرهم أم قصر، وأنهم اختاروا الموت في سبيل لله على الموت كفارًا، وواساهم نبيهم الكريم وذكّرهم بصفة المؤمن، وهي الاستعانة بالله الكريم، السند المتين لعباده، الذي يكفيهم ما أهمّهم، فليس لهم غير الله تعالى، فهو الملاذ الحصين، وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يقدره بحكمته وعلمه، وإن الأرض لله، وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها، فيجب ألا ينظر إلى الطاغوت أنه مكين في الأرض غير مزحزح عنها، فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها، وإن العاقبة للمتقين حتمًا، فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب العالمين قلق على المصير[1].

هذا هو نبي الله الذي قال عنه جل وعلا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

فهو الذي يذكر قومه دومًا بحقيقة الإيمان واستلزامه للتوكل على الله وحده دون سواه.

وقد واجه إبراهيم عليه السلام أعتى الظالمين، فقد جسد النمرود مثالًا للطغيان.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٥٥.

[البقرة:٢٥٨].

فالنمرود بن كنعان هو أول من تجبر في الأرض وادّعى الربوبية، وكان إبراهيم عليه السلام قد دخل بلدته، فأرسل إليه النمرود، وقال: من ربك؟ ويظهر أنه لم يسأل إبراهيم ليعرف الجواب، بل سأله استهزاءً، فهو يعلم أنه نبي الله تعالى، وأنه يدعو إلى توحيد الله وعدم الإشراك به، فرد عليه إبراهيم واثقًا متوكلًا متسلحًا بالإيمان والحجة التي أجراها الله على لسانه عليه السلام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

فما كان من تفكيره القاصر، وغروره المتغلغل في أعماق نفسه إلا أن يعمد إلى سجنائه، فيقتل من صدر بحقه التخلية، ويخلي من صدر بحقه القتل، واعتقد أنه بذلك قد أبطل حجة نبي الله إبراهيم، فسأله إبراهيم حينها ما إن كان يستطيع الإتيان بالشمس من المغرب؛ فالله يأتي بها من المشرق.

وقد ذكر الماوردي أن لتحول إبراهيم للحجة الثانية دون البقاء لنصرة الحجة الأولى احتمالين:

أحدهما: أنه قد ظهر من فساد قول النمرود ما لم يحتج معه إبراهيم عليه السلام إلى النصرة، ثم أتبع ذلك بغيرها تأكيدًا عليه في الحجة.

والاحتمال الثاني: أنه لمّا كان في تلك الحجة من تحايل النمرود بما عارضها به من الشبهة، أحب أنه يحتج عليه بما لا تحايل فيه؛ قطعًا له واستظهارًا[1].

هذا هو نبينا إبراهيم عليه السلام الذي ما ترك التوكل على الله تعالى في دعوته.

يقول الحق تعالى داعيًا إلى التأسي به عليه السلام: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤﴾ [الممتحنة:٤].

وقد واجه ذو القرنين ظلم يأجوج ومأجوج بالتوكل على الله مع الأخذ بأسباب التوكل واتخاذ عوامل الحيطة منهم.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا

(١) انظر: النكت والعيون ١/ ٣٢٩-٣٣٠.

﴿٩٨﴾ [الكهف:٩٣-٩٨].

وقد ورد في تفسير الآيات أن ذي القرنين ملكٌ حكم الدنيا بأسرها، فاستغاث به قومٌ ليحميهم من يأجوج ومأجوج، وهم جماعة عظيمة من نسل ولديّ يافث بن نوح، اشتهروا بالكثرة وقد هابهم أولئك القوم وخشوا ظلمهم، فسألوا ذا القرنين أن يبني لهم سدًّا منيعًا يحميهم من أذى قوم يأجوج ومأجوج مقابل خرج من المال، فما كان منه إلا أن تواضع لله ولم يغترّ بقوته، بل اعترف بفضل الله عليه أن آتاه الصحة والعافية التي هي خير من أموالهم التي سيجمعونها له[1].

ووافق أن يبني السد متوكلًا على الله وحده، وقد أخذ بأسباب إنجاح مشروعه فطلب منهم إعانته بالرجال وعمل الأبدان والآلة التي يبني بها السد، وهذا بداية النجاح في العمل، فإن القوم لو جمعوا له خرجًا، لم يعنه أحد، ولتركوه يبني، فكان عونهم أسرع في إنجاز العمل وإنجاح المشروع، واستخدم المواد المناسبة لتقوية السد، من حديد وحرارة ونحاس، وهنا يتجلّى ظهور العمل المخلص، وهو أهم مقومات التوكل، ثم أقرّ ذو القرنين مرة أخرى بفضل الله عليه، وأن بقاء السد مرهون بإرادة الله، وأن المولى سيشاء أن يجعله دكاء في وقت يعلمه ويقدره سبحانه[2].

سادسًا: مواجهة الشيطان وأعوانه:

يتوجب على المؤمن إخلاص التوكل على الله تعالى في مواجهة الشيطان وأعوانه، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِم شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١٠].

فلولا التوكل على الله لن يكون للإنسان قدرة في مجابهة قوى الشر العظيمة التي يستخدمها الشيطان في إغواء العباد، ففي الآية الكريمة على لسان إبليس لعنه الله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٨٢-٨٣].

أي لأحسننّ لهم معاصيك، ولأحبّبنها إلى قلوبهم حتى يرتكبوها، ولأضلّنهم عن سبيل الرشاد إلا من أخلصته بتوفيقك فهديته، فإن ذلك ممن لا سلطان لي عليه ولا طاقة لي به[3].

وكان الرد الإلهي المتحدي: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٣-٦٥].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٩٦، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٣٠.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٣٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٠٣.

فقد أمره الله تعالى أمر إهانة أن يبذل كل جهده وأن يقطع من يشاء عن الحق، وأن يستخدم كل صوت له ولأعوانه في الوسوسة والإبعاد عن الدين، وأمره أن اجمع في سبيل إغوائهم خيولك ورجالك التي تمشي في الإفساد، وشاركهم في أموالهم بأن تجعلهم ينفقونها على المعاصي واجعل من أولادهم بالزنا لك نصيب، أو سيطر على عقولهم فاجعلهم يهوّدون أبناءهم وينصّرونهم، ومنّهم بالأماني الكاذبة أن لا جنة ولا نار، وأنهم غير محاسبين على ما يفعلون، فعباد الله المؤمنون لن يغتروا بكذبك، فهم المخلصون في عبادتهم، والله كافيهم وعاصمهم من سيطرة إبليس عليهم وهو الحافظ لهم من كل سوء[1].

وعلى قدر هذا التحدي الكبير يجب أن يعمل المؤمن لحماية نفسه من سيطرة الشيطان وأعوانه، فهم لا يألون جهدًا في إسقاطنا في المعصية مهما صغرت أو كبرت.

ولنا في قصة نبي الله يوسف عليه السلام نموذج رائع في تحدي الشيطان وأعوانه، فبالرغم من تعرضه عليه السلام لضغوط شديدة من أجل الوقوع في الرذيلة، إلا أنه واجهها بقوة نابعة من إيمانه بالله تعالى، وأعانه على ذلك استعانته بالله تعالى وتوكله عليه حق التوكل.

قال تعالى مصورًا لنا تفاصيل القصة: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف:٢٣-٢٥].

حتى قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٣-٣٤].

فقد عاش يوسف عليه السلام في كنف عزيز مصر، ويوسف معترف بفضله وفضل زوجه عليه، وقد تعرض لفتنة امرأة العزيز وهو في مرحلة النضج والشباب، ومن طلبت منه الفاحشة هي صاحبة الفضل عليه وهي متزينة متأهبة له، وقد أوصدت الأبواب وأخلت الأجواء لوقوع الجريمة، ورغم كل هذه العوامل التي اجتمعت على نبي الله المعصوم إلا أنه واجه تلك المحنة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٨٨.

بالتعفف الشديد عن الرذيلة[1].

ومن الأسباب التي أخذ بها يوسف عليه السلام في توكله على الله واستعانته به وحده على مواجهة الشيطان:

- استعاذته بالله تعالى عندما غلقت عليه الأبواب.
- استحضاره وتذكيره إياها بأن الإحسان لا يرد إلا بمثله.
- بذل الجهد واستباق الباب، وعدم القعود وانتظار إجباره على ارتكاب المعصية.
- الرضا بالمكوث في السجن ظلمًا على السقوط في الرذيلة، وهذا قمة الاجتهاد في البعد عن المعصية.
- اللجوء إلى الله تعالى والتوكل عليه والافتقار إليه وطلب العون والسند في مجابهة المحنة.

ولنا في هذه القصة القدوة الحسنة، فشبابنا وبناتنا الآن يتعرضون لمحن كثيرة تتعلق بالعفة، فنجدهم يستسلمون للشيطان ويسمحون له بأن يتحكم في عقولهم ويزين لهم المنكر، على أنه علاقة اعتيادية أو علاقة مبدئية لحصول الزواج، وكذلك يتدخل الشيطان في كل أمور حياتنا، فهو الذي يوسوس للسارق أن يستكثر من ماله، وللموظف ألا يؤدي ما عليه بأمانة، وللأبناء أن يتركوا بر آبائهم، وللآباء أن يقصروا في حق أبنائهم.

وليس للمؤمن للخروج من هذه الابتلاءات إلا أن يتوكل على الله تعالى، ويثق به في تصريف أموره، مع الأخذ بالأسباب المعينة على مواجهة الشيطان، ومن ذلك:

- إخلاص العمل لله تعالى، واستحضار عظمته ومراقبته عز وجل في كل الأوقات.
- الاستكثار من أعمال الخير واستغلال الوقت في ذلك؛ فهي معينة على سد مداخل الشيطان.
- الاستعاذة والدعاء والتزام الذكر وقراءة القرآن لتحصين النفس من الشيطان وأعوانه.
- الابتعاد عن أعوان الشيطان من السحرة والكهان والعرافين والقائلين بالأبراج الفلكية وما إلى ذلك.
- الاستعانة بالصحبة الصالحة المعينة على تقوى الله تعالى.

سابعًا: الإصلاح:

بذل أنبياء الله الكرام طاقاتهم القصوى من أجل إصلاح شؤون أقوامهم، وقد اعتمدوا في جهودهم الإصلاحية على توفيق الله تعالى ووكلوه أمورهم.

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٠٨.

قال تعالى مصوّرًا قصة سيدنا شعيب عليه السلام مع قومه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود:٨٧-٩٣].

وقد كان من أهم الأمور التي دعا شعيب عليه السلام قومه إليها بجانب توحيد الله هو ترك التطفيف في الكيل والميزان، فقد اشتهر عنهم هذا السلوك المخالف لمبدإ العدل الذي دعا إليه الله تعالى على لسان جميع أنبيائه، ولا يخفى ما يتبع سلوك الظلم من فساد اجتماعي واقتصادي في المجتمع، واستنكر القوم على شعيب أن يدعوهم إلى ترك ما كان يعبده آباؤهم من أوثان، وكذلك ترك التطفيف في البيع والشراء، ولم يعجبهم ذلك، بل استهزؤا به عليه السلام وبصلاته التي جعلته يقتنع بأفكار مخالفة لأفكارهم.

لكنه خاطبهم باللين والرفق، وبيّن لهم أن الله تعالى قد امتنّ عليه بالرسالة والهداية فأراد أن يهديهم إلى الحق كما هداه الله، وأنه لا يصح أن يخون الوحي، ويترك النهي عن الشرك والظلم، وأنه يريد أن ينصحهم بما نصح نفسه، وأنه لن ينهاهم عن الشيء ويأتيه، بل سيكون القدوة لهم، ووضّح أن غرضه في كل ما يفعل هو إصلاح عقيدتهم وشريعتهم وأمور مجتمعهم، ثم أعلن أن التوفيق الذي ينتظره هو من عند الله وحده وأنه عليه السلام متوكل على الله معتمد على قوته وحكمته وقدرته عز وجل في تيسير أمور دعوته، فالله تعالى هو خالقنا وإليه نعود[1].

وقد بيّن الله تعالى أثناء سرد القصة الأسباب التي اتخذها شعيب عليه السلام في توكله على الله، فلم يكتف عليه السلام على التوكل القلبي والإعلان القوليّ عن توكله، بل عمل من أجل الإصلاح الذي

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ١٦٥-١٦٦، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٢٥.

أخبر قومه به، ومن اجتهاداته الإصلاحية ما يلي:

- تكرار الدعوة لقومه، والصبر على استهزائهم به وتهديدهم له بالرجم والقتل.
- كان قدوة حسنة لهم، ووعدهم ألا ينهاهم عن شيء ويأتيه.
- بيّن لهم حسن نيته وإرادته إصلاح شؤونهم الدنيوية والأخروية.
- حذّرهم أن يحملهم بغضه إلى الكفر بالله، وإيثاره إحقاق حق الله بغض النظر عن حقه.
- ذكّرهم بما حل بالأقوام السابقة وبالعذاب الذي أصابهم.
- جذبهم إلى التوبة باللين والرفق، وأمّلهم برحمة الله تعالى وودّه.
- أعلمهم بعظمة الله تعالى، وأنه الأحق بالخشية؛ فهو العالم بالظواهر والخفايا.
- توعّدهم بالعذاب المرتقب إن لم يؤمنوا بالله ويتركوا ما هم عليه.

هذا نبي الله الكريم الذي لم يقصّر في بذل الجهد لإصلاح عقيدة قومه وسلوكهم، وهكذا لا بد أن نكون، فنبذل ما نستطيع من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، لا يمنعنا من ذلك خوفٌ من أي شيء؛ فالله تعالى وكيلنا، عليه نعتمد في كل أمر، وهو الذي وعد عباده المتوكلين المصلحين بالثواب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف:١٧٠].

ثامنًا: إبرام العقود والمعاهدات:

أمر الله سبحانه وتعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه عز وجل في عهوده، لا سيما مع غير المؤمنين، فالله تعالى الخبير بصدقهم وكذبهم، وهو كافيه شرّهم وهو الذي لا يضر عباده المتوكلين مهما مكر بهم الماكرون.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال:٦٠-٦١].

وفي الآية أمر للمسلمين بالاستعداد لقتال الأعداء، واتخاذ ما من شأنه تقويتهم على الأعداء، من أدوات الرمي والسيوف والنبال والخيول وغيرها، حتى يخاف الكفار، والمنافقون وأهل الكتاب الذين لا يعرف المسلمين أشخاصهم، لكن الله هو العليم الخبير الذي يعرفهم، ثم أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يجنح للسّلم إن هم جنحوا له ولجأوا إليه، وأن يعاهدهم

ويبرم معهم العقود على عدم التعدي على المسلمين أو المساس بهم.

وقد أمر رب العزة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه في إبرام هذه المعاهدات وألا يخاف من إبطانهم الخداع والمكر، فإن الله هو العاصم لرسوله والمؤمنين من مكرهم، وهو الذي يحيقه بهم إن قصدوه، فجاء الأمر له عليه السلام بتفويض أمره إلى الله فيما عقده مع العدو ليكون عونًا له في جميع أحواله، فهو السميع لأقوالهم العليم بما في صدورهم من نيّات[1].

وفي موضع آخر، يقول الحق عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء:٨٠-٨١].

فقد بيّن الله تعالى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي طاعة الله عز وجل وذلك لأنه عليه السلام ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣-٤].

وأن من تولى عنك يا محمد فاتركه، فلا عليك منه، إن عليك إلا البلاغ، ثم يذكر رب العزة أن هناك من المنافقين وضعاف القلوب من يعاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة والقتال معه، ثم ما إن يخرجوا من عنده حتى يتسارّوا فيما بينهم على خلاف ذلك، والله تعالى يعلم ما يضمرونه من مكر لرسوله الكريم، ويقول لمحمد صلى الله عليه وسلم: اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم ومن مكرهم، وكفى بالله وليًّا وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأناب إليه، فالتوكل هو أساس الاطمئنان، وهو سمة الأنبياء الذين لطالما عاهدوا أقوامهم، ولم يقلقوا من كيد الأعداء فالله تعالى وكيلهم وسندهم وحاميهم وكافيهم شرور الكائدين[2].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٦٥، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٢٤.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني ١/ ٤١٥.

ثمرات التوكل

للآداب الربانية آثار يشاء الله تعالى أن تظهر عاجلًا، فيرى المؤمن المتحلي بها أثرها في حياته وفي نظرة الناس إليه، ثم يكرمه الله بها في الآخرة فيعطيه جزاءه الأمثل، وللتوكل على الله تعالى ثمرات عاجلة وآجلة، نبيّنها كما يلي:

أولًا: ثمرات التوكل في الدنيا:

١. محبة الله للمتوكلين.

تأكد في القرآن الكريم حب الله عز وجل للمتوكلين، تأمل قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

فقد دعا رب العزة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم إلى مشاورة المؤمنين في أموره، ثم قال له: إذا اطمأنّ قلبك لما اخترت ففوّض أمرك إلى الله واعتمد عليه، وامض بجوارحك، فالله يحب المتوكلين، ومحبته تعالى هي أعظم محبة وهي التي تجلب النصرة والهداية والتوفيق[(١)].

يمتنّ الله تعالى على من يحب من عباده بأن يجعل له حبًّا في قلوب الناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

والمعنى: إن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم من آداب وشيم- ومن أجلّ تلك الآداب التوكل- سيوقع الله محبتهم وألفتهم في صدور عباده[(٢)].

وذكر أن الله تعالى سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تودد منهم، يحبهم الناس، ويتحابون فيما بينهم، ويحبهم اللّه تعالى ويرضى عنهم[(٣)].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل: إن الله قد أحبّ فلانًا فأحبّه، فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحبّ فلانًا فأحبّوه، فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في أهل الأرض)[(٤)].

٢. كفاية الله للمتوكلين.

وعد الله عز وجل عباده المتوكلين عليه بالكفاية.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

فقد قضى الله عز وجل على نفسه كفاية

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٢٣، السراج المنير، الخطيب الشربيني ١/ ٢٦٠.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٦٠٠.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ١٦٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ٩/ ١٤٢، رقم ٧٤٨٥.

المتوكلين، فهو سبحانه الذي يكفيهم ما أهمّهم في دينهم ودنياهم، وهو الضامن لهم الرزق، الحافظ له من كل ما يخشون[1].

قال الربيع بن خثيم يبيّن معنى ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾: «من كل ما ضاق على الناس»[2].

وقد دعا المؤمنون الله تعالى باسمه الوكيل كي يحميهم ويمنع عنهم كيد الكائدين.

عن ابن عباس رضي الله عنه: (حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣])[3].

أي: الله ربنا، وهو كافينا كل ما أهمنا وهو المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم[4].

٣. النجاة من الخذلان.

النصر والنجاة من الخذلان هي مكافأة الله تعالى للمتوكلين عليه.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠].

فنصر الله تعالى هو النصر الحقيقي، وخذلانه للعبد بتركه نصرته ومساندته هو الخذلان الحقيقي، فمهما بلغت مناصرة البشر فهي ليست بشيء أمام مناصرة رب البشر، ومن ناصره الله فلن يضره خذلان الخاذلين، ولن يضيره تقاعس المتقاعسين، قال ابن القيم: «هو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمّن الخائف ويجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليّته إليه؛ تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع»[5].

٤. النجاة من كيد الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٤-٦٥].

فقد تحدى الله تعالى الشيطان أن يبذل كل جهده وأن يقطع من يشاء عن الحق، وأن يستخدم كل صوت له ولأعوانه في

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٣٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ٨/ ٩٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، ٦/ ٣٩، رقم ٤٥٦٣.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٧.
(٥) بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٧.

الوسوسة والإبعاد عن الدين، وأن يبذل في سبيل ذلك كل الوسائل المادية المتاحة له، ووعد عز وجل عباده ألا يجعل للشيطان سلطانًا عليهم، وأنه تعالى سيكفيهم ويعصمهم من إغوائه وكيده[1]، وهو تعالى القائل في محكم كتابه: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة:١٠].

فالمؤمن لا يضره التآمر من أي كائن كان؛ لأن الله تعالى حافظه، يقول سيد قطب: «فهو الحارس الحامي، وهو القوي العزيز، وهو العليم الخبير، وهو الشاهد الحاضر الذي لا يغيب، ولا يكون في الكون إلا ما يريد، وقد وعد بحراسة المؤمنين، فأي طمأنينة بعد هذا وأي يقين ؟»[2]

٥. النجاة من الكربات.

ومن النماذج التي تبيّن نجاة المؤمنين المتوكلين بفضل الله تعالى قصة أصحاب الكهف، فقد فرّوا من ملكهم وقومهم الكافرين ولجأوا إلى حماية الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف:١٠-١١].

فقد أوى أولئك الفتية إلى الكهف خائفين لعلّهم يستترون عن الأنظار فلا يراهم أحد من قومهم، وهذا أخذٌ بالأسباب، فلم يكتفوا بالدعاء والمكوث بين الظلمة، بل تركوا المكان، وذادوا بدينهم إلى مكان أمين، ثم فوّضوا أمرهم إلى ربهم، فضرب الله على آذانهم حجابًا يمنعهم من سماع الأصوات والحركات، فناموا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين، وكانوا يتقلبون بلطف الله وتدبيره من جنب إلى جنب، حتى بعثهم من نومهم وكانت قريتهم وقتئذٍ قد آمنت ولم يعد فيها ملكٌ ظالم، وهذا تفريج الله تعالى لكربتهم واستجابته لتضرعهم[3].

وقد بيّن سيد قطب أن قلوب هؤلاء الفتية مؤمنة ثابتة راسخة، متوكلة مطمئنة إلى الحق الذي عرفت، معتزة بالإيمان الذي اختارت، وقد استحقت بذلك رحمة الله تعالى[4].

ومن أروع الأمثلة على تفريج الكربات، ما حدث أثناء هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٨٨.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥١٠.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢٣٨.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٦١.

بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

فقد خرج رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد إيذاء المشركين وتآمرهم على قتله، وليس لديه قوة تكفي لمقاومتهم ومدافعتهم، والعرب كلهم ضده، وكان معه صاحبه أبو بكرٍ رضي الله عنه، فكان المقام مقام أدب التوكل الكامل[1].

وقد لجآ إلى الغار، فأقاما فيه ثلاثة أيام ليسكن الطلب عنهما، وذلك لأن المشركين حين فقدوهما ذهبوا في طلبهما كل مذهب من سائر الجهات، وجعلوا لمن ردهما أو أحدهما مائة من الإبل، واقتصوا آثارهما حتى اختلط عليهم، واحتاروا في مكانهما، فصعدوا الجبل الذي هما فيه، وجعلوا يمرون على باب الغار، فتحاذي أرجلهم باب الغار ولا يرونهما، حفظًا من الله لهما[2].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متأدبًا بالثقة في نصر الله، فنصره الله وأعلى قدره، ومكّن دينه في سائر أنحاء الأرض، والله عزيزٌ في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يضام من لاذ ببابه واحتمى بالتمسك بخطابه، حكيمٌ في أقواله وأفعاله[3].

ثانيًا: ثمرات التوكل في الآخرة:

١ . النجاة من العذاب.

النجاة من العذاب هي مطلب كل مؤمن، وهي الحق الذي وعد الله به عباده المخلصين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس:١٠٣].

فالمؤمن المتّبع لرسل الله عليهم السلام، المخلص المتقي الشاكر المتوكل يستحق الرحمة من العذاب[4].

ويذكر السعدي أن تلك النجاة تثبت للمؤمنين في الدنيا والآخرة على السواء، وهذا من قبيل دفاع الله تعالى عن المؤمنين الذي ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨].

وأوضح أنه على قدر ما يتحلى المرء بالآداب، تحصل له النجاة من المكاره[5].

ومن نماذج نجاة المؤمنين من العذاب، نجاة سيدنا هود ومن آمن معه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود:٥٨].

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٧٥.
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٢٢٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٥٥.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢١٤.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن ١/ ٤٨٨.

وذكر ابن عجيبة أن ذكر النجاة تكرر في هذه الآية مرتين؛ لأن الله تعالى عنى بالأولى تنجيتهم من عذاب ريح السموم الذي أصاب قومهم، والتنجية الأخرى من العذاب الغليظ، قصد بها نجاتهم من النار يوم القيامة[1].

وذكر الله تعالى نجاة قوم صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود:٦٦].

وذكر القشيري أن رب العزة قد أجرى على المكذبين ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب، ونجّى نبيّهم المتوكل عليه السلام، ونجّى من اتّبعه من كل عقوبة في الدنيا والآخرة، سنّةً منه سبحانه في تنجية أوليائه أمضاها، وعادةً في تلطفه ورحمته بالمستحقين أجراها[2].

٢. دخول الجنة.

الجنة هي أسمى غايات المؤمن، وأرجى آماله، وغاية عمله وعبادته.

قال تعالى واعدًا عباده المتوكلين الصابرين بالخلود في النعيم المقيم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت:٥٨-٥٩].

فهذا وعد الله تعالى للمؤمنين المتوكلين بإسكانهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحت أشجارها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر وعسل ولبن، ماكثين فيها أبدًا، لا يبغون عنها حولًا، جزاءً لهم على أعمالهم، وأنعم به من جزاء![3].

قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى:٣٦].

حيث يكون ثواب الله نعيمًا لا يفنى، ورزقًا لا ينفد، وهذا الجزاء للذين آمنوا، وتوكلوا على ربهم، وأسلموا أمرهم له، فثواب الله خيرٌ في طبيعته، أبقى في مدته من أي ثواب[4].

وفي الحديث عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب؛ هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)[5].

موضوعات ذات صلة:

الألوهية، الإيمان، التوحيد، العبادة

(١) انظر: البحر المديد ٣/ ٣٠٤.
(٢) انظر: لطائف الإشارات ٢/ ١٤٥.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ٢٥.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٠٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ٨/ ١٠٠، رقم٦٤٧٢.

الثبات

عناصر الموضوع

مفهوم الثبات	٢٢٨
الثبات في الاستعمال القرآني:	٢٢٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٣٠
علاقة الثبات بالصبر والنصر	٢٣٣
مواطن الثبات	٢٣٤
أسباب الثبات المحمود	٢٣٧
عاقبة الثبات	٢٤٤

مفهوم الثبات

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ثبت) تدل على دوام الشيء، ويقال: ثبت ثباتًا وثبوتًا[1]، والثبات ضد الزوال[2]، وجاءت بمعنى دام واستقر[3]. ويقصد بالثبات الإقامة في المكان، فيقال: ثبت فلان في المكان: إذا أقام به[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي الدالة على لزوم المكان دون تحرّك ولا تزلزل، ويستعار للدوام على الشيء، وعدم التردد فيه[5].

والمراد به في هذا البحث: الثبات على الدين والحق، وعدم التحول والانحراف عنه.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٩٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٨.
(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٨٠.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٤٧٢، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٠.

الثبات في الاستعمال القرآني:

وردت مادة (ثبت) في القرآن الكريم (٨٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤]
الفعل المضارع	٧	﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]
فعل الأمر	٤	﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢]
المصدر	٣	﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء:٦٦]
اسم الفاعل	٢	﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم:٢٤]

وقد استعمل الثبات في القرآن الكريم في الثبات الحسي والمعنوي.

فأما المعنوي: فنحو قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢].

وأما الثبات الحسي، فنحو قوله تعالى: : ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١]، أي: يشتد الرمل حتى تثبت أقدامهم.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٨-١٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصبر:

الصبر لغة:

الحبس، صبر عنه يصبره: حبسه، والصبر في المصيبة، وأما في المحاربة فهو شجاعة، وفي إمساك النفس عن الفضول قناعة وعفة، والصّبر نقيض الجزع[١].

الصبر اصطلاحًا:

حبس النفس عند الجزع[٢].

الصلة بين الثبات والصبر:

الثبات هو التمسك والالتزام عن طواعية ورضًى، وقد يكون بمبادرة ذاتية من الشخص، أما الصبر فهو إلزام النفس الهجوم على المكاره، وتمسّك ورضًى بأمر الله، وتلقي بلائه بالرحب والسعة، فقد يأتي الأمر رغمًا عن الشخص، فيصبر ويثبت على أمر الله تعالى[٣].

٢ الفرار:

الفرار لغة:

(فر) الفاء والراء، أصول ثلاثة: فالأول: الانكشاف وما يقاربه من الكشف عن الشّيء. والثاني: جنسٌ من الحيوان. والثالث: دالٌّ على خفّة وطيش[٤]. الفرّ والفرار بالكسر: الهرب[٥].

الفرار اصطلاحًا:

الهرب، والجد في الذهاب مذعورًا[٦].

الصلة بين الثبات والفرار:

الثبات اللزوم في المكان والإقامة فيه، أما الفرار فهو المغادرة وعدم الاستقرار، وكذلك الثبات فيه طمأنينة واستقرار وأمن، أما الفرار ففيه الخوف والذعر.

---

(١) انظر: الكليات، الكفوي ١/ ٨٨٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٣٧.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٢٧٣، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٣٧.
(٣) انظر: تاج لعروس، الزبيدي ١٢/ ٢٧٣.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٣٩.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٥٨٦.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٨٣.

٣ المكث:

المكث لغة:

المكث: الأناة واللّبث والانتظار، مكث يمكث، ومكث مكثًا ومكثًا ومكوثًا ومكاثًا ومكاثةً[١].

المكث اصطلاحًا:

ثباتٌ مع انتظار طويل[٢].

الصلة بين الثبات والمكث:

المكث فيه البقاء في المكان وملازمته زمنًا، أما الثبات فهو لزوم دائم على الشيء، ولزوم دائم في المكان حتى انقضاء الغاية منه.

٤ الرسوخ:

الرسوخ لغة:

رسخ الشيء يرسخ رسوخًا: ثبت في موضعه، وأرسخه هو، والراسخ في العلم الذي دخل فيه دخولًا ثابتًا، وكل ثابت راسخ[٣].

الرسوخ اصطلاحًا:

الثبات والتمكّن. والراسخ في العلم: المتحقّق الذي لا يعترضه شبهة[٤].

الصلة بين الرسوخ والثبات:

أن الرسوخ كمال الثبات، فيقال للشيء المستقر على الأرض: ثابت، وإن لم يتعلق بها تعلقًا شديدًا، ولا يقال: راسخ. ولا يقال: حائط راسخ؛ لأن الجبل أكمل ثباتًا من الحائط، قال الله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾[آل عمران: ٧]، أي: الثابتون فيه، ويقولون: هو أرسخهم في المكرمات، أي: أكملهم ثباتًا فيها[٥].

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٩١.
(٢) انظر: التوقيف، المناوي ١/ ٦٧٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٨.
(٤) انظر: التوقيف، المناوي ١/ ٣٦٤.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٥٥.

٥ الرسوّ:

الرسوّ لغة:

أصل مادة (رسا) تدلّ على الثبات. تقول: رسا الشّيء يرسو، إذا ثبت. والله جلّ ثناؤه أرسى الجبال، أي: أثبتها. وجبلٌ راسٍ: ثابتٌ. ورست أقدامهم في الحرب. ويقال: ألقت السّحابة مراسيها، إذا دامت[(١)].

الرسوّ اصطلاحًا:

الثبات والتمكن في المكان[(٢)].

الصلة بين الرسوّ والثبات:

أما الرسوّ فلا يستعمل إلا في الشيء الثقيل، نحو الجبل وما شاكله من الأجسام الكبيرة؛ يقال: جبل راسٍ، ولا يقال: حائط راسٍ، ولا عود راسٍ وفي القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾[هود: ٤١].

شبهها بالجبل لعظمها، فالرسوّ هو الثبات مع العظم والثقل والعلو، فإن استعمل في غير ذلك فعلى التشبيه والمقاربة، نحو قولهم: أرست العود في الأرض[(٣)]؛ أما الثبات: فهو يستعمل للأشياء الثقيلة والخفيفة، وكذلك لا يكون إلا لمكلف.

العلاقة بين الثبات والصبر: العلاقة بينهما علاقة تلازم، فلا ثبات دون صبر، فهو من مقومات الثبات.

العلاقة بين الثبات والمكث: يشتركان في المعنى، فكلاهما ثبات وانتظار فيه صبر.

العلاقة بين الثبات والرسوخ: الثبات تواجد في المكان، وإقامة فيه مع حرية الحركة، أما الرسوخ فهو ثبات واستقرار دون تحرك.

العلاقة بين الثبات والمور: الثبات فيه استقرار وطمأنينة، أما المور فيه الاضطراب وعدم الاستقرار.

العلاقة بين الثبات والفرار: هما نقيضان.

العلاقة بين الثبات والرسوّ: كلاهما بمعنى واحد، وهو التمكّن في المكان.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٢٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٢١.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٥٥- ٢٥٦.

علاقة الثبات بالصبر والنصر

المتأمل والمتدبر لكتاب الله تعالى يجد التلازم بين هذه المفردات القرآنية؛ لما لهذه المفردات من أثر في اعتماد بعضها على بعض، فالثبات بحاجة إلى صبر، وكذلك النصر بحاجة إلى صبر، فالصبر عامل مشترك بين النصر والثبات، والثبات والصبر نتيجتهما النصر.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٥٠].

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٧].

وردت لفظة الثبات في هاتين الآيتين الكريمتين في سياق الصبر والنصر والدعاء، فالنصر نتيجة طبيعية للثبات والصبر بعد التوكّل على الله واللجوء إليه بالدعاء.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى: «﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وهو تعبير يصوّر مشهد الصبر فيضًا من الله يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة، واحتمالًا للهول والمشقة.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، فهي في يده سبحانه يثبتها، فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد.

﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، فقد وضح الموقف، إيمان تجاه كفر، وحق إزاء باطل، ودعوة إلى الله؛ لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين، فلا تلجلج في الضمير، ولا غبش في التصوّر، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق. وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾»[1].

وعندما نتأمل كلمة: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر، ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾؛ حتى يواجهوا العدو بالإيمان، وعند نهاية الصبر، وتثبيت الأقدام، يأتي نصر الله للمؤمنين على الكافرين، وتأتي النتيجة للعزم الإيماني في قوله الحق: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[2].

العلاقة هنا دعاء وطلب من الله أن يملأ القلوب بالصبر، فينتج عن الصبر تثبيت الأقدام، وتكون النتيجة النصر وهزيمة الكافرين.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٦٩.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١٠٧٠.

مواطن الثبات

إن الناظر في القرآن الكريم يجد أن هناك مواطن يكون فيها الثبات، وهي متعددة في كتاب الله تعالى؛ لنوطن أنفسنا، ونثبت الأقدام، وهي على عدة مطالب على النحو الآتي:

أولًا: القتال:

لقد تعددت الآيات التي تتحدث عن القتال في كتاب الله تعالى، ولكننا نقف عند آيات القتال التي لها علاقة بالثبات، ولقد ذكر الثبات في مواطن القتال في مواضع متعددة.

منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥].

﴿فَٱثْبُتُواْ﴾، أمر بالثبات عند قتال الكفار، و﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ فإنّ ذكره يعين على الثبات في الشدائد[(١)]، والثبات في هذه الآية جاء في سياق الشرط ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾، وكأنّ في ذلك إشارة من الله تعالى أنه يجب الاستعداد والأخذ بالأسباب التي تؤدّي إلى وجود التكافؤ بين المسلمين وأعدائهم.

ولا بد أن يكون الإعداد على قدر الاستطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٦٠]؛ لأن الاستعداد والأخذ بالأسباب من عوامل الثبات.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: ١٢].

يقول الطبري: قوّوا عزمهم، وصحّحوا في قتال عدوهم من المشركين، وقد قيل: إن تثبيت الملائكة المؤمنين كان حضورهم حربهم معهم[(٢)].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٥٠].

أي: أنزل علينا صبرًا من عندك، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، أي: في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز[(٣)].

وتبين هذه الآية أن من عوامل الثبات في القتال، أن يتوجه المسلم بالدعاء والطلب

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٢٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٦٩.

من الله تعالى بأن يفرغ عليه صبرًا، وأن يثبت أقدامه في القتال، وهذا ما طلبته الفئة القليلة، ودعت به عند قتالها ولقائها جالوت وجنوده.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين إن نصروا ربهم نصرهم على أعدائهم، وثبّت أقدامهم، أي: عصمهم من الفرار والهزيمة[(١)].

ولو تأملنا هذه الآية لوجدناها جاءت في سياق الشرط، وذلك أن نصر الله محقق للمؤمنين، ولكن بشرط، وهو: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾، ويتحقق مع النصر تثبيت أقدام المؤمنين.

ثانيًا: الفتنة والابتلاء:

وقد ذكر الثبات عند الفتن في مواضع متعددة.

منها: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

هذا دعاء في موطن صعب، وهو موطن بوارق السيوف والقتال، وفيه فتنة وابتلاء؛ يسأل فيه العبد ربّه الثبات؛ حتى لا يكون التولّي من الزحف، «ويفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر، ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام؛ حتى يواجهوا العدو بإيمان»[(٢)].

ومنها: قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

جاءت هذه الآية ردًّا وجوابًا على زعم الكافرين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

أي: قل -يا محمد- للقائلين لك أنت مفترٍ فيما تتلو عليهم من كتابنا...، وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، قل: نزل هذا القرآن ناسخه ومنسوخه روح القدس من ربي؛ تثبيتًا للمؤمنين، وتقويةً لإيمانهم[(٣)].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

تفيد الآيات أن صبرهم أكمل الصبر؛ إذ هو صبر مقترن ببصيرة في أمر الله تعالى، إذ

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١٤/ ٥٠.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١/ ٦٦٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٩٧.

يعلمون عند المصيبة أنهم ملك لله تعالى يتصرف فيهم كيف يشاء، فلا يجزعون مما يأتيهم، ويعلمون أنهم صائرون إليه، فيثيبهم على ذلك[1].

والصبر هنا يوحي بمعنى الثبات على أنواع متعددة من الابتلاءات التي قدرها الله تعالى على الناس.

ثالثًا: عند الموت والقبر:

أضعف ما يكون المسلم أمام ربه وخالقه عندما يخرج من الدنيا بالموت ليجد القبر وأهواله، والقبر أول منازل الآخرة؛ لذا يحتاج إلى التثبيت والتأييد من ربه وخالقه الرحيم بعباده.

يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن البراء بن عازب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم إذا سئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾)[2].

وروى الإمام مسلم رحمه الله تعالى: عن البراء بن عازب: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال: نزلت في عذاب القبر، فيقال: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيّي محمد صلى الله عليه وسلم، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾)[3].

ومعنى تثبيت الله الذين آمنوا بها: أن الله يسّر لهم فيهم الأقوال الإلهية على وجهها وإدراك دلائلها، حتى اطمأنت إليها قلوبهم ولم يخامرهم فيها شك، فأصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزعين، وعاملين بها غير مترددين.

وذلك في الحياة الدنيا ظاهر، وأما في الآخرة فبإلفائهم الأحوال على نحوٍ مما علموه في الدنيا، فلم تعترهم ندامةٌ ولا لهفٌ، ويكون ذلك بمظاهر كثيرة يظهر فيها ثباتهم بالحق قولًا وانسياقًا، وتظهر فيها فتنة غير المؤمنين في الأحوال كلها[4].

والتثبيت هنا من الله عز وجل، وهو ليس وليد اللحظة، إنما كان هذا الثبات بتوفيق الله، ثم باتباع أوامره، والتمسّك بنهجه وشرعه، والكلمة الطيبة التي ذكرت قبل هذه

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٥٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تثبيت الله الذين آمنوا، ٦/ ٨٠، رقم ٤٦٩٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة الجنة ونعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار، وباب عذاب القبر والتعوّذ منه ٣/ ١١٠٠، رقم ٢٨٧١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٢٦.

الآية، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

أسباب الثبات المحمود

الثبات المحمود: هو فضل وكرمٌ من الله تعالى على عباده، وحتى يتحصّل هذا الأمر لا بدّ من الأخذ بالأسباب لحدوثه، وهناك أسباب عديدة تحقق الثبات المحمود، ومنها:

أولًا: الإيمان بالله تعالى:

مثاله قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

تبين هذه الآية أن الإيمان من عوامل الثبات في الحياة الدنيا والآخرة؛ لأن الإيمان إذا رسخ وثبت في قلب العبد، وكان تعامله مع ربه، ونفسه، والناس نابع من إيمانه بالله تعالى كان ذلك ثباتًا له على الحق، وكانت ثمرته الثبات في الآخرة عند دخوله القبر، وسؤال الملكين العظيمين له، وقد بيّنّا -فيما سبق- أن ثبات المؤمن في الحياة الدنيا والآخرة هو ثباته وإيمانه بكلمة التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وثباته في القبر الإجابة على سؤال الملكين: من ربك؟ ما دينك؟ ومن نبيك؟[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تثبيت الله الذين آمنوا ٦/ ٨٠، رقم ٤٦٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة الجنة، باب عرض مقعد الميت من

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بالإيمان وبالقول الثابت، فهو لا يتعرّض لزيغ القلب، ولا يتزعزع عن الحق[1].

والثبات يكون بتثبيت الله للذين آمنوا في الحياة الدنيا، وفي الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة في الضمائر، الثابتة في الفطر، المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة، ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول، وبوعده للحق بالنصر في الدنيا، والفوز في الآخرة، وكلها كلمات ثابتة، صادقة، حقّةٌ، لا تتخلّف ولا تتفرق بها السبل، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب[2].

يقول السعدي في تفسيره: «يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيّي»[3].

مما سبق يتبين أن الإيمان بالله تعالى له ثمرة ونتيجة يعيش المسلم ويتوجه بالدعاء إلى الله تعالى من أجلها، وهو الثبات في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: الدعاء:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء بالثبات، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: (يا مقلب القلوب، ثبّت قلبي على دينك) فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: (نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبهما كما يشاء)[4].

فهذا دعاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبات، حريّ بنا أن نكثر منه وخاصة في أوقات الشدة كالقتال، وفي أي وقت، وهذا التوجه -وهو الدعاء- من أسباب الثبات المحمود، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

الجنة والنار، وباب عذاب القبر والتعوذ منه ٣/ ١١٠٠، رقم ٢٨٧١.

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٨/ ٤٦٧٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٤٢٥.

(٤) سبق تخريجه.

إن فطرة الإنسان أن يتوجه إلى خالقه بالدعاء في حالة الكرب والشدة، ويجأر بالدعاء أكثر حين يكون الأمر فوق طاقته، وهذا ما فعلته الفئة المؤمنة حينما توجهت إلى ربها قائلة: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ هذه هي الشحنة الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه، فهو ينادي قائلًا: ﴿رَبَّنَا﴾، إنه لم يقل: يا الله، بل يقول: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لأن الرب هو الذي يتولى التربية والعطاء، بينما مطلوب (الله) هو العبودية والتكاليف؛ لذلك ينادي المؤمن ربه في الموقف الصعب: «يا ربنا»، أي: يا من خلقتنا وتتولانا وتمدّنا بالأسباب، قال المؤمنون مع جالوت: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

وعندما نتأمل كلمة: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾؛ حتى يواجهوا العدو بإيمان، وعند نهاية الصبر وتثبيت الأقدام يأتي نصر الله للمؤمنين على القوم الكافرين.

وتأتي النتيجة للعزم الإيماني والقتال في قوله الحق: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١][1].

فالدعاء في وقت الشدة وفي أثناء المعركة مفيد ومحقق للغاية؛ لأن الدعاء آية الإيمان والعون على الثبات[2].

والمتأمل في هذه الدعوات الثلاث في الآية السابقة يراها قد جمعت أسمى ألوان الأدب وحسن الترتيب، فهم قد صدّروا دعاءهم بالتوسل بوصف الربوبية فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا خالقنا، يا منشئنا، يا مربّينا، يا مميتنا، وفي ذلك إشعار أنهم يلجئون إلى من بيده وحده النفع والضر، والنصر والهزيمة، ثم افتتحوا دعاءهم بطلب الصبر عند المخاوف؛ لأنه هو عدة القتال الأولى، وركنه الأعلى؛ إذ به يكون ضبط النفس فلا تفزع، وبه يسكن القلب فلا يجزع، ثم التمسوا منه سبحانه أن يثبت أقدامهم عند اللقاء؛ لأن هذا الثبات هو مظهر الصبر، ووسيلة النصر، وعنوان القوة، ثم ختموا دعاءهم بما هو ثمرة ونتيجة للصبر والثبات، وهو النصر على الأعداء.

فماذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع الخالص؟ كانت نتيجته النصر المؤزّر الذي حكاه القرآن في قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[3].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ٦٨٨.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٤٣٥.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٤٥٩.

ثالثًا: عون الملائكة:

تبين لنا كثيرٌ من الآيات أن الله قد تكفّل المؤمنين في رعايته ومعيّته، وأيّدهم بالملائكة في غزواتهم؛ وما كانوا ليظفروا بهذا الكرم الإلهي إلا لاتصافهم بالإيمان، فاستحقوا معيّة الله، ومشاركة الملائكة لهم في القتال؛ لذا كان التثبيت لهم في المعركة وأرض القتال، وذلك أن الله تعالى أوحى إلى الملائكة أني معكم بالعون والنصر والتأييد، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

والمعنى: بأني معكم، أي: بالنصر والمعونة، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: بشّروهم بالنصر أو القتال معهم، أو الحضور معهم من غير قتال، فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل، ويقول: سيروا فإن الله ناصركم[(١)].

ومن ذلك أن اللّه أوحى إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر والتأييد، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجراءة على عدوهم، ورغّبوهم في الجهاد وفضله[(٢)].

وتثبيت الّذين آمنوا بالإعانة والتبشير، وقيل: إن الملائكة كانوا يتشبهون بصور رجال من معارف المؤمنين، وكانوا يمدّونهم بالنصر والفتح والظفر[(٣)].

مما سبق يتبين أن الملائكة كانت تأتي المسلمين بصورة رجال؛ وهي صورة مألوفة حتى يظن المسلمون أنهم منهم، فتقوي عزمهم، وتمدّهم وتبشرهم بالنصر، فتزيد من قوة المؤمنين، وكل ذلك من عوامل الثبات في المعركة.

رابعًا: الاعتبار بقصص السابقين:

إن ذكر القصص في القرآن الكريم، وأخبار الأمم السابقة يجعل الفؤاد ثابتًا على الحق؛ لأنه جاء تسلية وتصبيرًا لهم.

يقول تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

أي: ما نجعل به فؤادك مثبّتًا بزيادة يقينه بما قصصناه عليك، ووفور طمأنينته؛ لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب، وأرسخ في النفس، وأقوى للعلم[(٤)].

وبذكر قصص السابقين يسكن الفؤاد في

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٧٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٦.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٢٦٢-٢٦٩.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٦٢.

موضعه، ويطمئن ويزداد يقينه، فلا يضيق الصدر من قولهم.

ولقد قصّ علينا القرآن الكريم بعض نماذج الثبات، ومن تلك النماذج:

١. ثبات نبي الله نوح عليه السلام.

لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، دعا إلى الله تعالى، وثبت، وما آمن معه إلا قليل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

رسول الله إبراهيم عليه السلام: دعا إلى عبادة الله وهجر عبادة الأصنام، فكذبه قومه وعادوه، حتى إنهم جمعوا الحطب، وأشعلوا نارًا عظيمة؛ وألقوه فيها ليحرقوه، ولكنه ثبت، وتوكّل على الله، فحفظه من النار.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٦٩].

٢. ثبات نبي الله موسى عليه السلام.

ثبت في دعوته لفرعون، وصبر على قومه في كثير من المواقف.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

وهناك العديد من الآيات التي تبين ثبات الرسل على الحق، وصبرها على أقوامها[1].

٣. ثبات أهل الكهف.

وذلك حين ثبتوا على عقيدتهم وفرّوا بدينهم إلى الكهف، قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

٤. ثبات أهل الأخدود.

وما أعظمه من ثبات! حين يثبت الإنسان على الحق وهو يعلم أنه إذا لم يتراجع عن دينه سيلقى في النار، ذلك حين حفر لهم أخدود، واشتعل نارًا عظيمة يلقى فيه كل من آمن برب الغلام.

قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٥٩١.

﴿يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٤ - ٨].

خامسًا: تدبر القرآن الكريم:

أنزل الله القرآن الكريم بما فيه من الخير والرحمة، ومن العبر والعظات؛ ليخرج العباد من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى. وتلاوة كتاب الله تعالى، وتدبر آياته من عوامل الثبات المحمود للإنسان على الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وجاء في بيان حكمة إنزال القرآن منجّمًا بكلمةٍ جامعة، وهي: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل ما به خير للنفس[(١)]؛ والحكمة في تفريقه أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه؛ لأنّ المتلقّن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم يلقى إليه، إذا ألقي إليه شيئًا بعد شيء، وجزءًا عقيب جزء[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

في هذه الآية عاب الله المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكّر فيه وفي معانيه[(٣)].

فالاستفهام إنكاري للتوبيخ والتعجيب منهم في استمرار جهلهم، مع توفّر أسباب التدبير لديهم، وقد تحدّى الله تعالى هؤلاء بمعاني القرآن؛ كما تحدّاهم بألفاظه لبلاغته، إذ كان المنافقون قد شكّوا في أنّ القرآن من عند الله، فلذلك يظهرون الطاعة بما يأمرهم به، فإذا خرجوا من مجلس النبي صلى الله عليه وسلم خالفوا ما أمرهم به لعدم ثقتهم، ويشكّكون ويشكّون إذا بدا لهم شيء من التعارض، فأمرهم الله تعالى بتدبير القرآن.

وقوله: ﴿يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، أي: يتأمّلون دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي: تدبّر تفاصيله[(٤)].

تبين الآيات أن المنافقين لعدم تدبرهم للقرآن الكريم، وإعراضهم عنه اضطربوا وتزلزلت قلوبهم، فهم ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣].

فلا ثبات لديهم على الإيمان واتباع الحق، وبمفهوم المخالفة أن المؤمن الذي يتدبر القرآن الكريم يطمئن قلبه ويرسخ الإيمان فيه، فهو ثابت على الحق والإيمان بالله تعالى، وعليه فإن تدبر القرآن يؤدّي إلى ثبات القلب على الحق، وهو ثبات محمود.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٩.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٨٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٩٠.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٣٧.

سادسًا: نصرة الحق:

إن من أهم مقومات الثبات وأسبابه نصرة الحق والانتصار له.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[محمد: ٧].

كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

فإن الجزاء من جنس العمل[(١)]، وهذا أمر منه تعالى للمؤمنين أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره[(٢)].

وعليه فإن من نصر الله في كل موقف جزاه الله بالنصر وتثبيت الأقدام.

وإن مواقف نصرة الحق، موقف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق، وبلال بن رباح، وآل ياسر، وخبيب بن عدي، وأذكر هنا موقف خبيب ابن عدي رضي الله عنه، وهو يضرب أروع الأمثلة في ثباته لنصرة الحق، كلّفه ذلك حياته، نعم الثبات المحمود ثباته، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عشرةً، منهم خبيبٌ الأنصاريّ، فأخبرني عبيد اللّه بن عياضٍ أنّ ابنة الحارث أخبرته أنّهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحدّ بها، فلمّا خرجوا من الحرم ليقتلوه قال خبيبٌ الأنصاريّ:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا
على أيّ شقٍّ كان للّه مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلوٍ ممزّع

فقتله ابن الحارث، فأخبر النّبيّ صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم يوم أصيبوا[(٣)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما يذكر في الذّات، والنّعوت، وأسامي اللّه، ٩/ ١٢٠، رقم٧٤٠٢.

عاقبة الثبات

يمكن تلخيص عاقبة الثبات في الدينا والآخرة في النقاط الآتية:

١. صلوات الله ورحمته.

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

تبين الآيات أن أهل الابتلاء والثبات عليه تتنزل عليهم الصلوات، والرحمة والأجر العظيم، وما نالوا هذا الأجر إلا بثباتهم ورضاهم بقدر الله تعالى وحمدهم له.

٢. التثبيت في القبر.

ثبات المؤمن على الشهادتين في حياته وقبل مماته يؤدي إلى ثباته عند موته ودخول قبره، وذلك استقرار النهاية والحياة الأبدية.

يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٣. الطمأنينة واليقين.

إن ثبات الإنسان على الحق يعطي طمأنينة في القلب، خاصة إن كان هذا الثبات من الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

٤. قوة العزيمة

إن خوض المعارك ليس بالأمر الهين؛ لذا فالإنسان بحاجة إلى عزيمة قوية ليقوم بالدفاع والقتال، وذلك ناتج عن ثباته ورباطة جأشه؛ لذا كان إمداد الله بالملائكة في غزوة بدر لتثبيتهم وتقوية عزمهم.

يقول تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

٥. النصر.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وعندما نتأمل كلمة: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر، ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾؛ حتى يواجهوا العدو بالإيمان، وعند نهاية الصبر وتثبيت الأقدام يأتي نصر الله للمؤمنين على

الكافرين، وتأتي النتيجة للعزم الإيماني في قوله الحق: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1].

٦. بلوغ الغايات والأهداف.

ويراد بذلك تحقيق الأهداف في الدنيا أو في الآخرة، وذلك ظاهر من ثبات الرسل والأنبياء ومن آمن بهم واتبع نهجهم على مدار الوقت؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

ولا تكون غلبة دون ثبات، فالرسل ثباتهم واقع بتثبيت الله لهم، والمؤمنون كذلك ثباتهم واقع من إيمانهم بالله ورسله، واتباع نهجه، ولا يكون تحقيق الأهداف إلا بالثبات.

٧. زيادة الإيمان ورسوخه.

ثبات الإنسان على دينه يؤدّي إلى زيادة الإيمان ورسوخه في القلب.

يقول تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

وثبات الإنسان في المعارك يؤدي إلى حماية الدين والأوطان واستقرارها.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

موضوعات ذات صلة:

الاستقامة، الإيمان، التمكين، الجهاد، القتال، النصر، الهزيمة

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١٠٧٠.

ثمود

عناصر الموضوع

التعريف بثمود	٢٤٨
ثمود في القرآن	٢٥٠
رسول الله إلى ثمود ورسالته	٢٥١
موقع قوم ثمود من رسولهم ومعجزته	٢٥٤
نعم الله على قوم ثمود وموقفهم منها	٢٧٠
عاقبة قوم ثمود	٢٧٣

التعريف بثمود

أولًا: التسمية:

اسم ثمود عَلَمٌ على قبيلة ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام.

وقد ذكر ابن فارس أن الثاء والميم والدال تدل على القليل من الشيء[(١)].

والثَّمَد: موضع يلزم ماء السماء، وله مسايل، وتحفر في نواحيه ركايا تُمْلأ من مائه، فيشرب الناس الماء الظاهر حتى يجف، فتبقى تلك الركايا بعده فهي الثماد[(٢)]، ولهذا سموا ثمود على تلك الأثماد التي جعلوها لريهم وشربهم، وذلك أشبه أن تكون التسمية في أصلها منسوبة لهذه الأثماد، التي ربما يكون أثمدها جدهم ثمود، فنسبوا إليه، وأصبح الاسم عَلَمًا على أبناء ثمود.

وقيل: سميت ثمود لقلة مائها، ولأن الثمد هو: الماء القليل[(٣)].

ثانيًا: موقع ثمود:

يعد المؤرخون ثمود من قبائل العرب العاربة البائدة[(٤)]، وكان مسكنهم الحجر في وادي القرى بين بلاد الشام والحجاز، ولهذا عرفوا بأصحاب الحجر[(٥)].

قال سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾ [الحجر:٨٠]. وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بالحجر في طريقهم إلى تبوك[(٦)]، والحجر، مدينة من مدن النبط للقديمة المهمة تقع على شريان التجارة في العالم القديم[(٧)].

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنهم سكنوا منطقة الحجر التي تسمى (مدائن صالح)[(٨)].

وقد جاء ذكر الموضع في القرآن: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٨٧.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٧٦.
(٣) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٢٠.
(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ١/ ١٣٣، تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٢٨.
(٥) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٢/ ٢٥٥، ومروج الذهب، المسعودي ١/ ٤٢.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (وإلى ثمود أخاهم صالحًا) ٤/ ١٨١، رقم ٣٣٨٠.
(٧) دراسات في تاريخ العرب القديم، أحمد صلبون، ص٣٤.
(٨) انظر: أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سام المغلوث ص ٩٦.

[الحجر:٨٠][1].

ثالثًا: زمن ثمود:

ظهرت ثمود بعد عاد، وقبل قوم لوط وقوم شعيب.

وعلى هذا فإن أقل تقدير لفترة ظهورهم هو ما يزيد عن أربعة آلاف سنة من الآن، حيث أن لوطًا عليه السلام هو ابن أخ إبراهيم عليه السلام، وقد عاشا قبل أربعة آلاف سنة.

وهذا الترتيب لهؤلاء الأقوام قد ورد في قوله تعالى ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود:٨٩].

وجاء في الموسوعة البريطانية: أن منشأ ثمود هو جنوب الجزيرة العربية، إلا أن مجموعة كبيرة منها انتقلت إلى الشمال في تاريخ مبكر واستقرت على منحدرات جبل أثلب، وقد كشفت الحفريات الأثرية عن كتابات حجرية وصور ثمودية ضخمة عبر وسط الجزيرة العربية أيضًا. واليوم وبالرغم من كل ما كانوا عليه لم يبق لهم من أثر سوى هذه البقايا التي تخبرنا عن الفن الذي كان يطبع عصرهم ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء:١٤٩].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٠٧.

ثمود في القرآن

ورد ذكر (ثمود) في القرآن الكريم (٢٦) مرة في (٢٢) سورة.

وقد وردت قصة ثمود في القرآن في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٧٣-٧٩
هود	٦١-٦٨
الشعراء	١٤١-١٥٩
النمل	٤٥-٥٣
فصلت	١٧/ ١٨
الذاريات	٤٣-٤٥
القمر	٢٣-٣١
الحاقة	٤-٥
الشمس	١١-١٥

رسول الله إلى ثمود ورسالته

أرسل الله تعالى إلى ثمود أخاهم صالحًا رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣].

وأمرهم بإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى، وقد جاءهم بالبرهان على صدق دعوته، فأخرج لهم من الصخرة ناقة عظيمة، وأمرهم ألا يتعرضوا لها بأي أذى، فيصيبهم عذاب موجع.

[انظر: صالح عليه السلام: التعريف بصالح عليه السلام]

رسالة سيدنا صالح عليه السلام إلى ثمود:

أولًا: رسالته دعوة للتوحيد:

فقد ورد في القرآن الكريم الخطاب ببعث الرسل وإرسالهم إلى أقوامهم بدعوة التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

وهذا على وجه الإجمال وفصل لبعضهم فقال عن نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون:٢٣].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٧٣].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٥٠].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٨٤].

وهذا خطاب واحد لهم جميعًا، وأرسل الله سبحانه وتعالى سيدنا صالحًا عليه السلام إلى قومه، وكان أوسطهم وأفضلهم أسرة وعشيرة، وموضع مشورتهم ويصدرون عن رأيه ويرجون له ومنه الخير، فلما دعاهم لتوحيد الله وحده وترك الأوثان، والتوجه بالعبادة لله وحده، وألح عليهم وأنذرهم بالوعيد والعذاب الشديد طلبوا منه أن يخرج لهم آية في عيدهم، دالة على صدقه عنادًا ونفاقًا، فآتاهم الله الناقة آية بينة، فأصروا على عنادهم، بل استمروا في

غيهم حتى ينمنوا به ويصدقون رسالته، فدعا الله فأخرج لهم الناقة مع فصيلها بالأوصاف التي طلبوها من صخرة، وكانت مميزة بكثرة لبنها وشكلها رغم أنها آية من الله وحجة ظاهرة، أصروا على عنادهم، وعتوا من أمر ربهم وتجرأوا على انتهاك حرمة الله فعقروا الناقة، فحق عليهم الهلاك، وكلمة العذاب. ولما عقروا الناقة وعدهم سيدنا صالح بالهلاك بعد ثلاث أيام.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

و قد ذاقوا مرارة الترقب والانتظار خلال تلك الأيام، فلما اكتملت الأيام الموعودة آتاهم العذاب صبيحة يوم نحس، فأخذتهم رجفة شديدة زلزلت بهم الأرض، وصاعقة محرقة من فوقهم، وصيحة واحدة مفزعة قطعت نياط قلوبهم وتركتهم أجسادًا بلا أرواح، وبقيت ديارهم عبرة على من الأيام والعصور[1].

ثانيًا: سيدنا صالح عليه السلام يدعو قومه بالحكمة والموعظة الحسنة:

كان صالح عليه السلام يخاطب قومه بأخلاق الداعي الكريمة، وآدابه الرفيعة ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة تارة، ويجادلهم تارة بالتي هي أحسن في موضع الجدال، مؤكدًا على أن عبادة الله هي الحق، والطريق المستقيم. ولكن قومه تمادوا في كفرهم، وأخذوا يدبرون له المكائد والحيل حتى لا يؤمن به أكثر الناس، وذات يوم كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله، ويبين لهم نعم الله الكثيرة، وأنه يجب شكره وحمده عليها، فقالوا له: يا صالح ما أنت إلا بشر مثلنا، بل وذلك خطاب كل الأمم المكذبة لرسلهم الذين بعثوا إليهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس:١٥].

أي: كان هذا احتجاجهم في رد الرسالات يحتجون على الرسل فيقولون -والله أعلم-: إن الرسل إنما يجيئون من عند المرسل، وأنتم نشأتم بين أظهرنا لم تأتونا من عند أحد في الظاهر، ولا نرى لك خصوصية لا في الخلقة ولا في القدرة والمال وغيره وإذا كنت تدعي أنك رسول الله، فلابد أن تأتينا بمعجزة وآية.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وكان رد الرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٠٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩.

رابعًا: منهج سيدنا صالح عليه السلام في الدعوة:

أمّا منهج النبي صالح عليه السلام فإنّه لا يختلف عن منهج أخويه نوح وهود عليهما السلام؛ في الدعوة إلى الله تعالى في عدم الشرك به وإفراده بالعبادة، لكن الكثير منهم رفض هذه الدعوة فآذوا نبي الله صالحًا وهمّوا بقتله وعقروا الناقة الّتي جعلها الله آية على صدقه، وقد كان حذّرهم من قتلها فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۖ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود:٦١] -﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾- أي: فاسألوه أن يغفر لكم ما أشركتم وما أجرمتم، ثم توبوا وارجعوا إليه كلما وقع منكم ذنبا أو خطأ[1].

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦١-٦٢].

أي: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملًا قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة لله، وترك ما كنا نعبده من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد.

ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود:٦٢-٦٣].

وهذا تلطف منه لهم في العبارة، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير، أي: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم، وأدعوكم إليه، ما عذركم عند الله، وماذا يخلصكم من بين يديه، وأنتم تطلبون مني أن أترك دعائكم إلى طاعته. وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي، ولو تركته لما قدر أحد منكم، ولا من غيركم، أن يجيرني منه ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم. أو أي: غير أن تجعلوني خاسرًا بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى أو فما تزيدونني بما تقولون غير أن أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم: إنكم الخاسرون، فالزيادة على معناه، والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من إنكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة السلام على بينة من ربه وإيتائه النبوة[2].

وقالوا له أيضًا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الشعراء:١٥٣].

أي: من المسحورين، يعنون مسحورًا لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى

(١) المنار، ١٢/ ١٠١.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٦٥.

إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. والمراد بالمسحرين: المسحورين المخدوعين[1].

موقع قوم ثمود من رسولهم ومعجزته

ما من دعوة جاء بها رسول إلى قومه وإلا انقسم القوم إلى مستجيبين وغير مستجيبين، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: موقف ثمود من رسولهم عليه السلام:

أولًا: قوم ثمود لا يستجيبون لنبيهم عليه السلام:

كانت ثمود أمة مشركة تعبد الأصنام وتجحد تفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، شأنها في ذلك شأن من كان قبلها من الأمم كقوم نوح وقوم هود، فكان مستهل دعوة صالح عليه السلام دعوتهم إلى عبادة الله وحده، وقد ورد ذلك في عدة مواضع في القرآن الكريم، ولكن الحديث عن شركهم وعبادتهم الأصنام لم يرد إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

وكان هذا جوابًا لدعوة صالح إياهم إلى التوحيد في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ١٢٥.

[هود:٦١].

فالقوم جعلوا الدعوة إلى عبادة الله وحده سببًا لحط الدرجات والقدح في المروآت، فقالوا لصالح مظهرين التحسر وخيبة الرجاء: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيدًا[١]؛ لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد[٢] قبل هذا القول العجيب الذي جئت به؛ أفأنت تدعونا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي توارثنا عبادتها أبًا عن جدّ ؟

ثم بينوا موقفهم من الدعوة إلى التوحيد بأسلوب المتهكم في صورة المنصف للحق، المشفق على صالح، فقالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ قال الفخر الرازي: والشك هو أن يبقى الإنسان متوقفًا بين النفي والإثبات، والمريب: هو الذي يظن به السوء، فقوله: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ يعني: أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله ﴿مُرِيبٍ﴾ يعني: أنه ترجح في اعتقاداتهم فساد قوله، وهذا مبالغة في تزييف كلامه[٣].

ثانيًا: تطير قوم ثمود:

التطير لون من ألوان الشرك ورد ذكره عن قوم ثمود، وأصله مأخوذ من التطير بالسوانح والبوارح[٤] من الطير والظباء وغيرهما[٥]، ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم[٦].

وقد دل على كونه شركًا حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، ثلاثًا)[٧].

قال ابن الأثير: «وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعًا أو يدفع ضرًّا إذا علموا بموجبه، فكأنهم أشركوه مع الله في ذلك»[٨].

وحديث القرآن عن تطير قوم صالح ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل:٤٧].

قال الطبري في تفسير الآية: «أي: تشاءمنا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٦٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ١٨.
(٤) السوانح: جمع سانح، وهو ما ولاَّك ميامنه من الطير والظباء وغيرهما، بأن يمر من يسارك إلى يمينك، وكانوا يتيمنون به.
والبوارح: جمع بارح وهو عكس السانح، أي: الذي يمر من يمينك على يسارك، وكانوا يتشاءمون به.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٤٦.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ١٥٢.
(٦) انظر: المفردات ص ٣١٠.
(٧) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، ٤/ ٢٣٠، رقم ٣٩١٠، والترمذي في سننه، كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة، ٤/ ١٦٠ - ١٦١، رقم ١٦١٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ١/ ٧٣٣، رقم ٣٩٦٠.
(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ١٥٢.

بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره»[1].

والقوم لشقاوتهم وخبثهم نسبوا ما يصيبهم من المكاره والمساوئ إلى صالح وأصحابه وهو أبعد الناس عنها، فهم أهل الصلاح، ودينهم سبب لجلب الخيرات لا المصائب، وقد نسوا أنهم إنما يؤخذون بجرائرهم وسوء أعمالهم.

وقد أجابهم صالح عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل:٤٧].

قال عبدالله بن عباس: «﴿طَائِرُكُمْ﴾: مصائبكم»[2].

والمعنى: عند الله علم بما يصيبكم من المكاره والمصائب، فكل ذلك بقضائه وقدره لا حسب تطيركم وتشاؤمكم[3].

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تبتلون وتختبرون، أتطيعون فتجدون الجزيل من الثواب، أم تعصون فيحل عليكم العقاب[4].

ثالثًا: ثمود لا تعتبر بما حاق بسلفها قوم عاد:

و ما كان من أمر قوم صالح عليه السلام، إلا الصد والتكذيب، وكيف نجاه الله تعالى مع من آمن به، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم، وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام. ومع إنهم شهدوا آثار هلاك قوم عاد وتسامعوا به إلا أنهم لم يعتبروا بما كان من أمر سلفهم.

ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٣-٧٤].

وفي هذه الآيات يذكرهم نبيهم بما كان من أمر سلفهم، إذ كنتم خلفاء من قوم عاد، لتعتبروا بما كان من أمرهم، وتعملوا بخلاف عملهم، وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور، وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين، أي: حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح، والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته، والعدول عن طاعته، فإن

(١) جامع البيان، ١١/ ١٩.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١١/ ١٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ١٩، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٢٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ١٩.

عاقبة ذلك وخيمة[1].

وذكر الله سبحانه وتعالى بأن صالحًا أخاهم يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٧٣]؛ لأن ثمود قبيلة. و﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ يعني: في النسب لا في الدين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وهذا قول نبيهم صالح عليه السلام حين أرسله الله تعالى إليهم: يا قوم وحدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئا فما لكم من إله يستحق أن يعبد سواه ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ما أقول وأدعو إليه من عبادة الله تعالى ولا تشركوا به شيئًا وعلى التصديق بأني رسول الله إليكم، ثم فسر تلك البينة فقال: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ يعني: علامة على صدقي.

ووجه نسبة هذه الناقة لله سبحانه وتعالى، وكون الناقة آية على صدق سيدنا صالح عليه السلام ومعجزة له، خارقة للعادة؛ لأنها خرجت من صخرة في الجبل، لا من ذكر ولا من أنثى، مع كمال خلقها.

وقيل: لأنها كان لها شرب يوم، ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم.

وهذا من المعجزات أيضًا؛ لأن ناقة تشرب ما تشربه قبيلة معجزة، وكانوا يحلبونها في يوم شربها قدر ما يكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء، وهذا أيضًا معجزة.

وقيل: إن سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء في يوم شرب الناقة، وتشرب الحيوانات الماء في غير يوم الناقة.

وهذا أيضًا معجزة، وإنما أضافها إلى الله تعالى في قوله ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ على سبيل التفضيل والتشريف، كما يقال: بيت الله.

وقيل: لأن الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى.

وقيل: لأنه لم يملكها أحد إلا الله تعالى.

وقيل: لأنها كانت حجة الله على قوم صالح.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ يعني: فذروا الناقة تأكل العشب من أرض الله، فإن الأرض لله والناقة أيضًا لله وليس لكم في أرض الله شيء، لأنه هو الذي أنبت العشب فيها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ يعني: ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من أنواع الأذى ولا تعقروها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: بسبب عقرها وأذاها[2].

(١) النكت والعيون، ٢/ ٢٣٥.

(٢) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٢٠.

ثانيًا: من صفات قوم ثمود:

١. الشك المريب.

من مظاهر معاداة الرسل من قبل أقوامهم؛ الترفع عن إفراد الله تعالى بالعباد وعدم توحيده، فقد كانت ثمود شبيهة بنظيراتها من الأمم التي سبقتها التي استنكفت إقرار تفرد الله تعالى بالعبادة تكبرًا وتجبرًا، وأنهم لن يتركوا ما كانوا عليه من عبادة الأصنام التي ورثوها من آبائهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيّدًا، وقيل: كنا نرجو أن تعود إلى ديننا[(١)].

ويقول أبو السعود: كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا سيدًا ومستشارًا في الأمور.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «فاضلًا خيرًا نقدمك على جميعنا».

وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه[(٢)].

٢. الظلم.

دمرهم الله تعالى عاقبة لظلمهم.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل:٥١-٥٣].

ذكر جلّ وعلا في هذه الآيات الكريمة، ثلاث أمور:

الأول: أنه دمّر جميع قوم صالح، ومن جملتهم تسعة رهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وذلك في قوله: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: وهم قوم صالح ثمود، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ أي: خالية من السكان لهلاك جميع أهلها، ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمرّدهم وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم، وقال بعضهم: ﴿خَاوِيَةً﴾، أي: ساقطًا أعلاها على أسفلها.

الثاني: أنه جلّ وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية، أي: عبرة يتّعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به ما نزل بهم من التدمير، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتّقون من الهلاك والعذاب، وهو نبيّ الله صالح ومن آمن به من قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ١٧٦.
(٢) إرشاد العقل السليم، ٤/ ٢٢١.

﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها جلّ وعلا هنا، جاءت موضحة في آيات أخر.

٣. الاختصام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[النمل:٤٥].

ولم يبيّن هنا خصومة الفريقين، ولكنّه بيّن ذلك في سورة «الأعراف»، في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾[الأعراف:٧٥-٧٦].

فهذه خصومتهم، وأعظم أنواع الخصومة: الخصومة في الكفر والإيمان[(١)].

٤. التكذيب.

ورد ذكر تكذيب ثمود بالبعث في موضعين:

الأول: قرن فيه مع عاد، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ [الحاقة:٤].

الثاني: هو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾[المؤمنون:٣١-٣٣].

ذكر ابن جرير الطبري وآخرون أن المعنيون بهذا الخطاب هم ثمود قوم صالح؛ لأن القصة شبيهة بقصتهم، فهم الذين أهلكهم الله بالصيحة، وقد ختمت هذه القصة بذكر هلاك المذكورين فيها بالصيحة[(٢)].

فقد وصف الله تعالى الملأ الذين تصدروا لمعارضة صالح عليه السلام بثلاث أوصاف قبيحة: الكفر بالله، والتكذيب بالبعث، والترف[(٣)].

٥. الترف.

المترف مع ما يترتب عليه سلوكه من الإنكباب على الدنيا والانغماس في الشهوات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي: كذبوا بلقاء ما فيها من الحساب والجزاء.

والمراد: بيان تكذيبهم بالبعث بالكلية

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ١٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١١، والتسهيل، ابن جزي ٣/ ٥١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٢٣.

كما تدل عليه الآيات[1].

وقد جاء تفصيل تكذيبهم بالبعث في الآيات التي بعد هذه، وذلك ضمن المسائل التي أنكروها على صالح عليه السلام، فبعد أن أنكروا عليه ادعاء الرسالة مع كونه بشرًا أنكروا ما يعدهم به من البعث والنشور بعد الموت، فقالوا مخاطبًا بعضهم بعضًا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥].

وهذا الاستفهام على جهة الاستهزاء والاستبعاد[2].

والمعنى: أيعدكم صالح أنكم بعد موتكم، ومصيركم ترابًا، أي: قبوركم، وعظامًا قد ذهب لحوم أجسادكم وأعصابها، أنكم مخرجون أحياء كما كنتم[3].

ثم لم يقتنعوا بالاستبعاد عن طريق الاستفهام حتى قرنوه بالاستبعاد عن طريق الأخبار قالوا ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون:٣٦].

أي: بعيد بعيد ما توعدون من أنكم محيون بعد مماتكم[4].

ثم أكدوا إنكارهم للبعث بذكر تصورهم للحياة، فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧].

أي: ما الحياة إلا هذه الحياة التي نحن نحياها في الدنيا، لا الحياة الآخرة التي وعدنا بها صالح بعد البعث[5].

وجملة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مفسرة لما ادعاه من أن الحياة هي الحياة الدنيا[6].

وقد ذكر في معناها أقوال:

فقيل معناها: يموت بعضنا ويولد بعضنا، وهكذا[7].

وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء[8].

وقيل: يموت قوم ويحيا قوم[9].

وقيل: بمعنى نحيا ونموت ولا نبعث[10].

وهذه الأقوال متقاربة في المعنى، غير متعارضة، فهم لا يقصدون بقولهم ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ إنهم يموتون ثم يبعثون يوم القيامة، فهم منكرون للبعث إنكارًا شديدًا،

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٢١، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٢.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٤٣، التسهيل، ابن جزي ٣/ ٥١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٨ ، تفسير السمرقندي ٢/ ٤١٤.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٢٤.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٣، روح المعاني، الألوسي ١٨/ ٣٢.
(٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٥٣، روح المعاني، الألوسي ١٨/ ٣٢.
(٨) انظر: النكت والعيون ٤/ ٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤١٧.
(٩) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤١٧.
(١٠) تفسير السمرقندي ٢/ ٤١٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٥٤.

وقد استمروا في تأكيد إنكارهم للبعث واستحالته بما يدل عليه قولهم الجازم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ثم ختموا جدالهم بقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون: ٣٨].

بذلك أحبوا ما هم عليه من الضلال على دعوة سيدنا صالح عليه السلام للهدى والإيمان، فحقت عليهم كلمة العذاب فأتاهم هلاك الصيحة، كما قال الحق عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤١].

٦. الاستهزاء.

ومما اتصف به قوم ثمود الاستهزاء بالرسل وإيذائهم، وما صاحب ذلك من الهزء والوقاحة.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢].

أي: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم تعجبًا مما قالته الرسل على سبيل الاستهزاء كحال من غلبه الضحك [(١)].

﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٢٦.

فجعلوا صالحًا عليه السلام مفتريًا على الله تعالى بسبب دعوته لهم إلى التوحيد، والإيمان بالبعث [(٢)]، وصرحوا بأنهم لن يؤمنوا به، أو أنهم فعلوا ذلك إشارة على الأنبياء بالسكوت وإطباق الأفواه استبشاعًا لما قالوه من دعوى النبوة [(٣)]، أو أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ [إبراهيم: ٩].

تنبيهًا على أن هذا هو جوابهم، ولا جواب عندهم سواه، تيئيسًا لهم من التصديق [(٤)].

وذلك ما قاله المستكبرون من قوم ثمود للمستضعفين الذين آمنوا بصالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأعراف: ٧٥].

«وقولهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ استفهامٌ على معنى الاستهزاء والاستخفاف» [(٥)].

فالرسل في نطاق دعوتهم إلى التوحيد

(٢) انظر: فتح قدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٣.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٢٦، التسهيل، ابن جزي ٢/ ١٣٨.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٩.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٣.

ونهيهم عن الشرك يبيّنون بطلان اتخاذ الأصنام آلهة، ويظهرون ضعفها وعجزها عن جلب نفع أو دفع ضرٍّ؛ وهذا في نظر المشركين مسبّةٌ شنيعة، وطعن قادح في آلهتهم التي يعتقدون أنها جالبة الخيرات، ودافعة الشرور والأضرار، فيردون على هذا بالاستهزاء بالرسل، ويسلطون عليهم ألوانًا من الأذى، وينال أتباعهم قسطًا من ذلك.

ثالثًا: استكبار قوم ثمود:

الكبر والتكبر والاستكبار من مشتقات مادة (كبر) وهي متقاربة في المعنى[1]، فالكبر ألصق بالخلق الباطني، وهو: «خلق في النفس دالٌّ على الاسترواح والركون إلى رتبة فوق المتكبّر عليه»[2]، فمتى اتصف المرء بهذا الخلق يقال: في نفسه كبر، فإذا ظهر كعمل صادر عن الجوارح كان تكبرًا واستكبارًا[3].

وبهذا فالكبر شعور باطني يستشعره المتكبر، وعندما يصبح هذا الشعور سلوكًا ظاهرًا يقال لصاحبه: متكبر مستكبر، وجاء في حديثه صلى الله عليه وسلم بيان لحقيقة الكبر المتوعد عليه بالعقاب في قوله صلى الله عليه وسلم: (الكبر بطر الحق ، وغمط الناس[4])[5].

وردت آيات مختلفة تتحدث عن استكبار قوم ثمود، فقد وصف الله سبحانه تعالى ملأ منهم بصفة الاستكبار فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

والمستكبرون تتعدد أنواعهم بحسب تكبرهم:

- التكبر على الله تعالى.

وذلك بعدم الطاعة والترفع عن عبادته، ورفض أوامره ونواهيه، التي يأتيهم بها الأنبياء والرسل في دعوتهم، وهذا أكثر ما واجه الأنبياء وهو مقرون بالتكذيب والكفر متمثلًا في رفض رسالاتهم.

- التكبر على الرسل.

وذلك يتمثل فيعدم الخضوع لهم بأسباب متعدده؛ لأنهم بشر، لأنهم ضعفاء.

- التكبر على الناس.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢١.
(٢) تصفية القلوب، يحيى الذماري ص١٨٧.
(٣) إحياء علوم الدين، ٢/ ٣٦٣.

(٤) بطر الحق: رده ودفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا. وغمط الناس: احتقارهم.
انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ٩٠.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، ١/ ٩٣، رقم ١٤٧، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

كل الرسل ووجهوا بهذا النوع من التكبر، فكان أهل الشرك والكفر يستعظمون أنفسهم ويرون أنهم فوق أتباع الرسل الذين عادة ما يكونوا من المستضعفين.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء:١١١].

وقالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود:٢٧].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى قوم ثمود بالطغيان فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة:٥].

فقد روي عن قتادة: بأن الطاغية تعني الطغيان وتجاوز الحد في اغتراف المعاصي[(١)].

ويقول ابن كثير في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾ [الشمس:١١]: «كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي»[(٢)].

وذكر البيضاوي أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢﴾ [الفجر:١١-١٢] صفةٌ للمذكورين جميعًا: عاد وثمود وفرعون[(٣)].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٢٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٥٢.
(٣) أنوار التنزيل، ٢/ ٥٩٤.

رابعًا: موقف ثمود من معجزة رسولهم عليه السلام:

كان موقف ثمود من معجزة رسولهم وآياته هو الإعراض والتكذيب.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١﴾ [الحجر:٨٠-٨١].

وقد دلت الآيات على تكذيبهم وإعراضهم عن الآيات التي أظهرها الله تعالى لهم تصديقًا لنبيه عليه السلام، دلالة على عظمته ووحدانيته. وقد أوتي سيدنا صالح عليه السلام الناقة آية، وقد جمعت آيات متعددة في إظهارها.

قال ابن الجوزي: «والمراد بالآيات الناقة، قال ابن عباس: كان فيها آيات، خروجها من الصخرة ودنو نتاجها عند خروجها، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعًا»[(٤)].

والأولى عدم تخصيص الآيات بالناقة فقط، بل تحمل على الناقة وغيرها، وهو ما جنح إليه بعض المفسرين.

قال الطبري في تفسير الآية: «يقول: وأريناهم أدلتنا وحججنا على حقيقة ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحًا»[(٥)].

وهذه الآيات يدخل فيها الناقة دخولًا

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٠١.
(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٤.

أوليًا؛ لأنها ذكرت في القرآن الكريم، ولكن عدم ذكر غيرها لا يدل على أنها هي الآية الوحيدة التي أعطيت لسيدنا صالح عليه السلام حتى يضطر لحمل الآيات على الناقة فقط.

فهذه الآيات تشتمل على الحجج والبراهين الكونية الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته، ولا شك أن صالحًا عليه السلام قد ذكّر قومه بهذه البراهين والآيات وقد تكون الآيات التي كذبوا بها غير هذه الآيات.

قال البيضاوي: «﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر:٨١] يعني: آيات الكتاب المنزل على نبيهم أو معجزاته المتضمنة في الناقة من سقيها وشربها وغيره، أو ما نصب لهم من الأدلة»[(١)].

وقد سأل قوم ثمود سيدنا صالح عليه السلام معجزة يخرجها لهم يريدونها، فأشاروا على صخرة بجوارهم، وقالوا له: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة طويلة عشراء، وأخذوا يصفون الناقة المطلوبة ويعددون صفاتها، حتى يعجز صالح عن تحقيق طلبهم، فقال لهم صالح: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم أتؤمنون بي وتصدقونني وتعبدون الله الذي خلقكم؟ فقالوا له: نعم، وعاهدوه على ذلك، فقام صالح عليه السلام وصلى لله سبحانه، ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا. وكانت الآية التي أوتيها سيدنا صالح عليه السلام هي الناقة، قال سبحانه وتعالى ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وكانت الناقة بطلب من قومه ولم يأت بها من تلقاء نفسه؛ وذكر ابن عطية عن بعضهم أنه جاء بها من تلقاء نفسه من غير طلب[(٢)]، والرأي الأول هو الأرجح والأصوب كما جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٤].

وكذلك جاء في الحديث ما يصدق رأي طلبهم الناقة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: (لا تسألوا الآيات، وقد سألها قوم صالح، فكانت -أي: الناقة- ترد من هذا الفج[(٣)]، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها)[(٤)].

(١) أنوار التنزيل، ١/ ٥٣٤.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٢/ ٤٢١.

(٣) الفج: هو الطريق الواسع بين جبلين. مختار الصحاح ص ٤٠١.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٢/ ٦٦، رقم ١٤١٦٠، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة الأعراف، ٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٤٨.

وذكر العلماء أن قوم صالح هم الذين حددوا نوع الآية أن تكون ناقة، وكيفية خروجها وشكلها وأن تخرج أمام أعينهم من الصخرة في قبيلتهم

وأما صفة الناقة التي جعلها الله عز وجل آية مبصرة لثمود، فقال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾[الحجر:٨١].

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه آتى أصحاب الحجر آياته فكانوا عنها معرضين. والإعراض: الصدود عن الشيء والإضراب عنه[(١)] وعدم الالتفات إليه؛ كأنه مشتق من العرض بالضم وهو الجانب؛ لأن المعرض لا يولي وجهه بل يثني عطفه ملتفتًا صادًّا[(٢)].

ولم يبين جل وعلا هنا شيئًا من تلك الآيات التي آتاهم، ولا كيفية إعراضهم عنها، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر، فبين أن من أعظم الآيات التي آتاهم: تلك الناقة التي أخرجها الله لهم، بل قال بعض العلماء: إن في الناقة المذكورة آيات جمة: كخروجها عشراء وبراء جوفاء من صخرة صماء، وسرعة ولادتها عند خروجها، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعًا، وكثرة شربها؛ كما قال تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥].

وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر:٢٨][(٣)].

روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: (لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله عز وجل)، قيل: من هو يا رسول الله قال: (هو أبو رغال؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابهم)[(٤)].

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على آية الأعراف عند قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ فيقول: «والسياق

وحسن إسناده ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٨٠.

(١) التوقيف، ١/ ٧٦.

(٢) انظر: لسان العرب، ٧/ ١٦٥.

(٣) التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٧.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

هنا -لأنه يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة ولعاقبة الإيمان بها وعاقبة التكذيب- لا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة، بل يعلن وجودها عقب الدعوة، وكذلك لا يذكر تفصيلًا عن الناقة أكثر من أنها بيّنة من ربهم، وأنها ناقة الله، ومن هذا الإسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية، أو أنها أخرجت لهم إخراجًا غير عادي؛ مما يجعلها بيّنة من ربهم، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى، ويجعلها آية على صدق نبوته. ولا نزيد على هذا شيئًا مما لا يرد ذكره من أمرها في هذا المصدر المستيقن، وفيما جاء في هذه الإشارة كفاية عن كل تفصيل آخر»[1].

وقد أخذ سيدنا صالح عليه السلام على قومه العهد بعد خروج الناقة.

وبعد أن أخرج الله لهم الناقة بالكيفية التي طلبوها طلب منهم صالح عليه السلام الوفاء بعهدهم ومواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم في أمور: منها:

أولًا: الإيمان بالله جل جلاله ونبذ عبادة الأوثان والتصديق برسالة صالح.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣] فاقتران الدعوة إلى التوحيد بالإشارة إلى الناقة يدل على أنه طلب منهم الإيمان عقب مجيئها.

ثانيًا: تقسيم الماء بينهم وبين الناقة.

فلقوم صالح عليه السلام يوم، وللناقة يوم، في يومهم لا ترد الناقة الماء فيأخذون ما يكفيهم ويكفي بهائمهم، وفي يوم الناقة لا يريدون الماء.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء:١٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر:٢٨].

كما حذرهم صالح عليه السلام من نقص حصة الناقة من الماء.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس:١٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ولا تعتدوا عليها يوم سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم»[2].

ثالثًا: أن لا تمس الناقة بأي سوء.

وقد حذرهم من مساس الناقة بسوء تحذيرًا صارمًا واضحًا، ونبههم بأنه يستدعي العذاب العاجل.

قال تعالى حكاية عن سيدنا صالح عليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣١٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٢.

السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣].

فقد اقتصر النهي في هذه الآيات عن مس الناقة بسوء فلم ينههم عن عقرها أو قتلها.

وفي ذلك لطيفة عبر عنها ابن عاشور بقوله: «وأنيط النهي بالمس بالسوء، لأن المس يصدق على أقل اتصال شيء بالجسم فكل ما ينالها مما يراد منه السوء فهو منهي عنه»[(١)].

وقد كان خروج الناقة ابتلاء لثمود كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر:٢٧].

فهي ابتلاء لثمود أيؤمنون بصالح عليه السلام كما وعدوه بذلك؟ أم ينكصون ويكفرون، وكان الابتلاء عدم مساسهم بالناقة بسوء وتقسيم الشرب بينهم.

أما صالح فقد أمر أن ينتظر يرتقب ما يؤول إليه أمرهم بعد هذا الامتحان وأن يصبر عليهم حتى يأتي الفرج من الله. إلا أن قوم ثمود خسروا الامتحان ونكثوا العهد وأصروا على الكفر والتكذيب، وبذلك حكموا على أنفسهم باستحقاق العذاب، وكذلك عتوا في الضلال والعناد وضاقوا ذرعًا بالناقة ويوم شربها، وكبر عليهم رؤيتها تجوب وديانهم وحقولهم شاهدة على قدرة الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الشعراء:١٥٧-١٥٨].

والربط بين عقر الناقة وهلاك القوم (بالفاء) في هذه الآيات كلها يدل دلالة واضحة على أن عقرها كان السبب المباشر لهلاكهم[(٢)].

والعقر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف[(٣)].

وأطلق العقر مكان النحر من باب إطلاق اسم المسبب على السبب.

وعلى الرغم من استجابة سيدنا صالح عليه السلام لقومه في إخراج الناقة لهم، وتحذيره إياهم، فإنهم كانوا قومًا مفسدين، فلم يستجيبوا لنداء الله تعالى ولا لتحذير رسوله فعقروا هذه الناقة. ويأتي البيان الإلهي ليصف هذا التعدي على حدود الله

(١) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ٢٩١.

(٢) انظر: أسباب هلاك الأمم، سعيد سيلا، ص٤٠٣.

(٣) انظر: لسان العرب ٥/ ٣٠٣٥.

وعاقبة ذلك. لنتأمل الآيات الثلاث الآتية:

١. ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

٢. ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الشعراء:١٥٧].

٣. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس:١٤].

فالآية الأولى تحدثت عن وعد صالح عليه السلام لهم بالعذاب جزاء فعلتهم، ثم تأتي الآية الثانية لتعبر عن ندمهم لأنهم أدركوا أن العذاب واقع لا محالة. أما الآية الثالثة فجاءت بالعذاب مباشرة.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾. إذن جاء التدرج الزمني للأحداث عبر الآيات الثلاث من الوعد بالعذاب.. إلى اقتراب هذا العذاب حيث لا ينفع الندم.

وأخيرًا وقوع هذا العذاب، ومع أن هذه الآيات متباعدة من حيث النزول ومن حيث الترتيب في القرآن فقد جاءت متناسقة ومتدرجة وتعبر تعبيرًا دقيقًا عن حقيقة هذه القصة.

وقد أسند العقر إلى قوم ثمود جميعًا مع أن الذي باشره شخص واحد منهم كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس:١١-١٢].

وذلك لأنهم كلهم متواطئون راضون على عقرها.

قال الطبري رحمه الله: «عن رضى جميعهم قتلها قاتلها وعقرها من عقرها، ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم»[(١)].

وقد سعى في قتل الناقة تسعة رجال من ثمود كانوا يحرضون من قتلها يدفعونه دفعًا.

قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر:٢٩].

وبهذا فالقبيلة مشتركة في قتلها جميعًا لا ذلك الرجل العارم[(٢)]، ولا التسعة المفسدون.

قال الطبري رحمه الله تعالى: إن الذي عقر الناقة أشقى ثمود يسمى قدار بن سالف، وكان أحد التسعة المفسدين الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل:٤٨].

وقد جاءت صفته في الحديث الصحيح الذي ذكره الإمام البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة

(١) جامع البيان ١٥/ ١٤.
(٢) العارم: هو الشرير المفسد الخبيث. وقيل: القوى الشرس.
انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٣/ ٢٢٣.

وذكر الذي عقرها فقال: (إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة)[1] الذي ظن أن منعته في قومه تحميه من العذاب الموعود به على عقر الناقة، فكانت جريمته هذه والتي مالأه عليها قومه سببًا في إنزال الهلاك بهم، فآتاهم الله سبحانه وتعالى بعذاب الصيحة، فهي صيحة واحدة قطعت نياط قلوبهم وتركتهم أجسادًا هامدة. أما ولد الناقة فيقال: إنهم ذبحوه مع أمه، وقال آخرون: إنه دخل في صخرة فغاب فيها، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف:٧٧].

فلما فعلوا ذلك وبلغ الخبر صالحًا فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود:٦٥].

خامسًا: قوم ثمود يسعون في قتل رسولهم:

فعزم بعدها التسعة رجال هؤلاء على قتل صالح، فلما عزموا على ذلك وجاءوا من الليل ليفتكوا به، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم حجارة فقتلتهم قبل قومهم. فأحبط الله بذلك مخططات القوم الكافرين وخدعتهم، وأنقذ صالحًا من بين يدي من أرادوا به سوءًا[2].

وبقي قومه على إعراضهم وعدم رغبتهم في الاستجابة له، أخبرهم بما سيصيبهم من هلاك خلال ثلاثة أيام.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:٦٧-٦٨].

فصاروا صرعى لا أرواح فيهم. ولم يفلت منهم أحدًا،لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ٤/ ١٤٨، رقم ٣٣٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٩٠، رقم ٢٨٥٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١/ ٧٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٤٢.

نعم الله على قوم ثمود وموقفهم منها

أنعم الله تعالى على ثمود بنعم جليلة توجب شكرها، لكن كان لثمود موقفٌ منها نوضحه فيما يأتي:

أولًا: نعم الله تعالى على ثمود:

بعد أن وجه سيدنا صالح عليه السلام قومه إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعباده، شرع يذكرهم بنعم الله جلّ وعلا عليهم بأنه أنشأ أباهم آدم من التراب.

وقال لهم أيضًا: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود:٦١].

أي: هو الذي خلقكم، فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها، أي: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه.

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ أي: أقلعوا عما أنتم فيه، وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم، ويتجاوز عنكم.

﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: وجعلكم عُمَّارًا فيها من العمران، فقد كانوا زُرَّاعًا وصُنَّاعًا وبنائين، ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر:٨٢].

وقيل: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾ من العمر، أي: أطال أعماركم فيها، والصحيح الأول. واستعمرهم في الأرض، أي: جعلهم عمارها بعد من كانوا فيها من سلفكم وأبيدوا، وأطال أعمارهم فيها حيث كانت أعمارهم تتراوح ما بين ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة، فكانوا ينجرون الحجارة ويتخذون لأنفسهم من الجبال بيوتًا، أي: يخرقونها في الجبال، ولذلك عدلوا عن بناء الطين[(١)].

وقيل: ومعنى الإعمار: أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع؛ لأن ذلك يعد تعميرًا للأرض، حتى سمي الحرث عمارة؛ لأن المقصود منه عمر الأرض[(٢)].

كانت لثمود حضارة عمرانية واضحة المعالم، فقد كانوا مهرة في نحتهم الجبال واتخاذها بيوتًا، يسكنون فيها في الشتاء؛ لتحميهم من الأمطار والعواصف التي تأتي إليهم من حين لآخر واتخذوا من السهول قصورًا يقيمون فيها في الصيف. كما مهارة ظاهرة في البناء وقدرة على العمارة لا زالت ماثلة إلى يومنا هذا من نقوش على الحجر، وقطع في واجهات الصخور تنم عن قدرة عظيمة على النحت[(٣)].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٤٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٨٨.
(٣) انظر: المصدر السابق.

﴿الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء:١٤٩].

يقول ابن كثير: بينما كانوا حاذقين ومهرة في البناء والنقش، ألا أنهم جعلوها للمباهاة والفخر؛ أشرًا وبطرًا وعبثًا[(١)].

وقال تعالى في حقهم أيضًا: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر:٨٢].

قال ابن كثير: أي: من غير احتياج إليها، بل أشرًا وبطرًا وعبثًا[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾ [الفجر:٩] أي: نحتوا الصخر[(٣)].

وأنعم الله عز وجل على ثمود بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، فأعطاهم الأرض الخصبة، والماء العذب الغزير، والحدائق والنخيل، والزروع والثمار. قال سبحانه وتعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٨].

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا من العذاب ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ أي: ثمرها الذي يطلع منها ﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس: لطيف يانع نضيج، وقيل: هو اللين الرخو. وقيل: متهشم يتفتت إذا مس. وقيل: الهضيم هو الذي دخل بعضه في بعض من النضج أو النعومة[(٤)].

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١].

أمرهم بالاستغفار، أي: طلب غفران الذنوب من الله جلّ وعلا والتوبة إليه؛ لأنه تواب رحيم قريب مجيب.

فإن ما فصل من فنون الإحسان داع إلى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح[(٥)].

ومن تفنن الأسلوب أن جعلت هذه النعم علة لأمرهم بعبادة الله وحده بطريق جملة التعليل، وجعلت علة أيضًا للأمر بالاستغفار والتوبة بطريق التفريع[(٦)].

وتدل الآثار الموجودة الآن في مدائن صالح على ما كانوا فيه من رغد العيش، تدل عليه واجهات الغرف الجميلة التي نحتها الثموديون في الحجر داخل الصخور، والتي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٣٥٦.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٥٤٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٣٠.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٦٣.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٨٨.

تحتوي على أشكال بديعة وعلى سلالم وزخارف وأشكال حيوانات كالأسود والطيور.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

ومع هذا العمران والحياة الطيبة كانوا مفسدين مشركين.

ثانيًا: موقف ثمود من نعم الله تعالى عليهم:

١. الجحود.

لم تقابل ثمود نعم الله تعالى عليها بالشكر والعرفان، بل قابلوا هذه النعم بالجحود والكفران والنكران، فأرسل الله تعالى إليهم أخاهم صالحًا عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، فكذبوه وطالبوه بآية دالة على صدقه صلفًا وتكبرًا وعنادًا، فآتاهم الله تعالى الناقة آية بينة وحجة بالغة.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر:٢٣-٢٦].

ويروي لنا القرآن أن ثمودًا كذبوا واستهتروا بالنذر التي أرسلها الله إليهم مثل عاد، فلاقوا نفس المصير.

وقال تعالى: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢] يعني: إنا مرتابون في قولك، من أرابه، إذا أوقعه في الريبة، وهي: قلق النفس ووقوعها في التهمة[1].

٢. المعاداة.

بدأ قادة ثمود وكبراؤها المعاداةلسيدنا صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد كان صالح فردًا من أفراد القوم، إلا أن قومه لم يكونوا يتوقعون أن يأتيهم بدين الحق، لذلك فقد فوجئوا عندما سمعوا دعوته وأنه هجر ما كانوا عليه من الانحراف والضلال، كان أول ما جابهوه به أن قذفوه وشتموه.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

(١) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٩١.

واستجاب له القليل من القوم، إلا أن غالبية القوم لم يقبلوا دعوته، وكان أشدهم عداوة علية القوم وزعماؤهم، غضبوا من صالح لأنه دعاهم لعبادة الله، فكذّبوه وحاولوا أن يضطهدوا الذين آمنوا معه ويعذبوهم، ولم تكن ثمود أول من يفعل ذلك، فهم يكررون الخطأ الذي وقع فيه كلٌّ من قوم نوح وعاد الذين عاشوا قبلهم، لهذا نجد أن القرآن يقرن بين هؤلاء الأقوام الثلاثة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم:٩].

عاقبة قوم ثمود

تحدث القرآن الكريم عن عاقبة قوم ثمود، وذكر أن الله أهلكهم، وأن هذا الإهلاك مر بمراحل، وهي:

أولًا: التحذير والإنذار من الإهلاك:

ورد تحذير سيدنا صالح عليه السلام لقومه بعبارة ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ﴾ في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل، محذرًا قومه ثمود، وأنه سيأخذهم عذاب أليم قريب عظيم.

قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود:٦٤].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء:١٥٦].

فهو حذرهم أولًا من ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولكنهم لم يستجيبوا لهذا التحذير، فأكد لهم بعدها بقوله: ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي: أن عذاب الله قد اقترب، ولن تمهلوا [(١)]، ولكنهم لم يبالوا بهذا النداء، فجاءهم التحذير الأخير ليصف أن اليوم الذي ينتظرهم قد اقترب

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٦٠.

كثيرًا فقال لهم: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فأكد صدق هذا الوعد بكلمة ﴿يَوْمٍ﴾، وأنه سيحل بكم من الله يوم عظيم عذابه[1].

ثانيًا: إهلاك قوم ثمود:

ذكر الله سبحانه وتعالى كيفية إهلاك قوم صالح في سور كثيرة؛ كهود والأعراف والحاقة والذاريات والشمس، وغير ذلك.

قصّ الله سبحانه وتعالى علينا ما بلغه قوم ثمود من الارتقاء والقوة، فأخبر أن صالحًا عليه السلام قال لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

ولكن القوم كفروا وأعرضوا عما قاله لهم أخوهم صالح عليه السلام؛ فكانت النتيجة أن أخذهم العذاب: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف:٧٨].

وقد وصف الله عز وجل عذاب ثمود بعدة صفات، منها:

١. الصاعقة.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت:١٣-١٤].

في هذه الآيات السابقة يذكر الله سبحانه وتعالى أنه عذب عاد وثمود بالصاعقة.

والصاعقة: هي الصوت الشديد من الجو وما ذكر من أنها العذاب، أو النار، أو الموت، هي تأثيرات من الصاعقة[2].

فالصاعقة تطلق على الحادثة المبيرة الشديدة الإهلاك[3].

وقد يريد بها مطلق العذاب[4].

وأضيفت الصاعقة هنا إلى عاد وثمود، وعاد لم تهلكهم الصاعقة، وإنما أهلكهم الريح، وإنما ثمود من أهلكوا بالصاعقة، فاستعمالت الصاعقة هنا في حقيقتها ومجازها[5].

٢. الصيحة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي

(١) انظر جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٦٢٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٨١.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص٥٠١، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٤٥٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٨.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٥٢.

﴿دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود:٦٧].

والصيحة: هي الصوت الشديد المرتفع، وأصله من تشقيق الصوت، ومن قولهم: إنصاح الخشب أو الثوب إذا انشق وسمع منه صوت [(١)].

وقال الألوسي: والصياح من صاح يصيح إذا صوت بقوة [(٢)].

فأخبرت الآيات أن عذاب ثمود كان بالصيحة، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر:٨٣].

٣. الطاغية.

وكذلك سميت الصيحة هذه التي أصابت ثمود في موضع آخر من القرآن الكريم بالطاغية.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة:٥].

والطاغية: من الطغيان، وهو مجاوزة الحدّ [(٣)].

وفي تفسير الطاغية أقوال:

قيل: سميت الطاغية؛ لأنها تجاوزت الحد في قوة الصوت [(٤)].

وقيل: سميت بذلك بسبب طغيانهم [(٥)].

قال صاحب أضواء البيان: «وقد اختلف في معنى الطاغية فقالوا: الطاغية عقر الناقة، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢﴾ [الشمس:١١-١٢].

فتكون الباء سببية، أي: بسبب طاغيتها.

وقيل: الطاغية: الصيحة الشديدة التي أهلكتهم، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾ [القمر:٣١].

فتكون الباء آلية، كقولك: كتبت بالقلم وقطعت بالمسكين.

والذي يشهد له القرآن هو المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ٤٣ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤﴾ [الذاريات:٤٣-٤٤]» [(٦)].

٤. الرجفة.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ [الأعراف:٧٨].

الرجفة: هي الزلزلة الشديدة [(٧)]، من الرجف، وهو الاضطراب الشديد.

وقيل: هي هنا بمعنى: الصيحة

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٩.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٥٣٢.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٩٦.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٨/ ٢٥٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩.
(٥) انظر: المصدرين السابقين.
(٦) فتح القدير، ٨/ ٢٥٧.
(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٤٢.

الشديدة[1].

أو: هي الصيحة التي تزلزلت لها الأرض[2].

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فهو من الجثوم: عدم الحراك، أي: خامدين لا حراك لهم[3]، وخمدوا من شدة العذاب.

وقال بعضهم أصبحوا كالرماد الجاثم[4].

[انظر: صالح: عاقبة قوم صالح عليه السلام]

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، صالح، عاد

(١) انظر: المصدر السابق، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٦٥.
(٢) انظر: مدارك التأويل، النسفي، ٢/ ٥٧٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٤٢.
(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٢/ ٣٥١.

الثَّوَاب

عناصر الموضوع

مفهوم الثواب	٢٧٨
الثواب في الاستعمال القرآني	٢٧٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٨٠
الثواب من الله	٢٨٢
أنواع الثواب	٢٨٨
المستحقون للثواب	٢٩٣
مقاصد الثواب	٣٠٦

مفهوم الثواب

أولًا: المعنى اللغوي:

الثواب اسم للمصدر؛ لأنّ مصدر الثلاثي ثوبٌ وثوبانٌ، ومصدر الرباعي إثابة، وفعل الثواب ثلاثي أجوف معتل العين، ولفظ الثواب في اللغة جاء على عدة معانٍ أبرزها: العود والرجوع، والاجتماع، والجزاء[1].

المعنى الأول: العود والرجوع، قال ابن فارس: «الثاء والواو والباء قياسٌ صحيحٌ من أصلٍ واحد، وهو العود والرّجوع. يقال: ثاب الرّجل يثوب ثوبًا وثوبانًا، أي: رجع بعد ذهابه، ويقال: ثاب فلانٌ إلى اللّه، وتاب، بالثّاء والتّاء، أي: عاد ورجع إلى طاعته».

المعنى الثاني: الاجتماع واللجوء، يقال: ثاب الناس، أي: اجتمعوا وجاءوا. وثاب ماله، أي: كثر واجتمع. وثاب القوم: أتوا متواترين -أي: مجتمعين-. وكذلك الماء إذا اجتمع في الحوض، يقال: ثاب الماء في الحوض، أي: اجتمع فيه.

المعنى الثالث: الثّواب والمثوبة يراد به أيضًا مطلق الجزاء في الخير والشّرّ لا جزاء الطّاعة فقط، قال ابن الأثير: «الثّواب، يكون في الخير والشّرّ، إلّا أنّه بالخير أخصّ وأكثر استعمالًا».

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قيل: الثواب: هو إعطاء ما يلائم الطبع[2].

أو الثّواب: الجزاء كيف ما كان من الخير والشّر، إلّا أن استعماله في الخير أكثر[3].

من خلال تلك التعريفات يتبين لنا أنّ الثواب هو النتيجة النهائية لعمل الإنسان وما تجنيه عليه نفسه، فإن أساء في عمله سيكون ثوابه وجزاؤه شرًّا، وإن أحسن في عمله سيكون ثوابه وجزاؤه خيرًا.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٩٣، مختار الصحاح، الرازي ص٩٠، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٤٣، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٦٤، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ١٠٣.

(٢) التعريفات، الجرجاني ص ٧٢، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٧٢

(٣) الكليات، الكفوي ص٣٢٨.

الثّواب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ثوب) في القرآن الكريم (٢٨) مرة، يخصّ موضوع البحث منها (١٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المائدة:٨٥]
المصدر	١٥	﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران:١٩٥]

وجاء الثّواب في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله[٢] سواء كان فتحًا، أو وعدًا، أو زيادة، أو منفعة[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٦٢.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٣٧.
(٣) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٤٧-١٤٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأجر:

الأجر لغة:

يطلق الأجر في اللغة على عدة معانٍ، منها: الجزاء على العمل، والثواب.

والأجر: الجزاء على العمل. والأجر الثواب، تقول: أجره الله يأجره ويأجره أجرًا من باب ضرب ونصر إذا (جزاه) وأثابه وأعطاه الأجر. فالفعل أجر يأجر أجرًا، والمفعول مأجورٌ. والأجير: المستأجر. والإجارة ما أعطيت من أجرٍ في عملٍ[(١)].

الأجر اصطلاحًا:

الأجر والأجرة: ما يعود من ثواب العمل دنيويًّا كان أو أخرويًّا، نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾[يونس: ٧٢].

﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يوسف: ٥٧].

وكلاهما -أي: الأجرة والأجر- يقال فيما كان من عقد وما يجرى مجرى العقد، ولا يقال إلاّ في النفع دون الضرّ، نحو ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[(٢)].

الصلة بين الأجر والثواب:

الثواب والأجر يوجد بينهما ترادف، فكلاهما جزاء للعمل الذي يعمله الإنسان، غير أن الأجر أخص من الثواب؛ لأن الأجر لا يكون إلا في مقابل العمل الذي فيه النفع والخير، والثواب يكون في مقابل العمل الذي فيه النفع والخير، وكذلك العمل الذي فيه ضرر وشر. إلا أنّ إطلاق الثواب -في مقابل العمل الذي فيه النفع والخير- أكثر، والأجر يقال غالبًا فيما كان من عقد وما يجرى مجرى العقد[(٣)].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٧٦، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٦٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٣، تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ٢٤.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٦٤، بصائر ذوي التمييز، الفيوزآبادي ١/ ١٣١، الكليات، الكفوي ص٤٨.

(٣) وبمعنى آخر أنّ الثواب يكون جزاءً لمطلق العمل إن خيرًا فيكون الثواب خيرًا، وإن شرًّا فيكون الثواب شرًّا، إلا أنّ الثواب قد شهر في الجزاء على العمل الذي فيه الخير والنفع،، أما الأجر فلا يقال إلا جزاءً للعمل النافع الذي فيه خير.

٢ العقاب:

العقاب لغة:

العقاب مأخوذ من (عقب): العين والقاف والباء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره. والأصل الآخر يدل على ارتفاع وشدة وصعوبة[١].

العقاب اصطلاحًا:

العقاب: هو جزاء الشّرّ، والنكال أخص منه[٢]، أو هو ما يلحق الإنسان بعد الذّنب من المحنة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا[٣].

الصلة بين العقاب والثواب:

إنّ العقاب يكون على فعل الشر، أما الثواب فيكون على فعل الشر والخير إلا أنه في الخير أكثر، وعلى هذا فالثواب أعم والعقاب أخص منه.

٣ الجزاء:

الجزاء لغة:

المكافأة على الشيء[٤].

الجزاء اصطلاحًا:

هو الغناء والكفاية والمكافأة بالشيء وما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان:٣٣][٥].

الصلة بين الثواب والجزاء:

كلا اللفظين يكونان في الخير والشر، فالثواب يكون على عمل الخير والشر، وكذلك الجزاء، إلا أن الغالب استعمال الثواب في مقابلة الخير، واستعمال الجزاء في مقابلة الشر.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٧٧.
(٢) الكليات، الكفوي ص٦٥٤.
(٣) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون، التهاوني ٢/ ١١٩٢.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٤٣، الكليات، الكفوي ص ٣٥٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٣٥١.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٩٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٨٠.

الثواب من الله

إنّ الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وهيأ له من الأسباب والوسائل ما يعينه على أداء مهمته في الحياة الدنيا من عبادة لله، وتعمير للأرض، وإصلاح للنفس وتهذيبها، كل ذلك طمعًا في تفضّل الحق سبحانه وتعالى وإكرامه بالمثوبة والمكافأة من عنده سبحانه، فهو الخالق الرازق، الذي يعطي كل ذي حق حقه، وهو بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو على كل شئ قدير.

فالإنسان المؤمن الحقيقي يسعي في عبادته ومعاملاته وأخلاقه وكل شئونه في نيل الثواب من الله، ولكن شغف بعض الناس بالحياة الدنيا يجعله يلهث وراءها وما تجلبه من سعادة خادعة وفرح مكذوب، ويرجو أن يحصل على منافع الدنيا فقط، فيعمل العمل يرجو فقط المثوبة الدنيوية من أولاد أو مال أوجاه أو سلطان أو نحو ذلك.

فالحق سبحانه يهيىء له ما يجعله يحصل على مثوبة الدنيا كما أراد -وإن كان سيحرم من الآخرة كما في حالة الكافر-؛ لأن الثواب والمكافأة من الله في كل الأحوال سواء طلب الإنسان ثواب الدنيا فقط أم طلب ثواب الدنيا والآخرة.

وهذا المعنى أشارت إليه غير آية من القرآن، فيقول جل جلاله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٥]

فالحق يقول لنا: من يرد منكم أيها المؤمنون بعمله جزاء من الحق جل جلاله يتمثل هذا الجزاء فقط في بعض أعراض الدنيا دون ما عند الله من الكرامة والنعيم في الآخرة.

﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: يعطه الحق من الدنيا ما قسم له فيها من رزق أيام حياته، ثم لا نصيب له في كرامة الله التي أعدها لمن أطاعه، وطلب ما عنده في الآخرة.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ومن يرد منكم بعمله جزاء من الحق جل جلاله يتمثل في ثواب الآخرة، مما عند الله من نعيمه وكرامته التي أعدها للعاملين له في الآخرة.

﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: يعطه من الآخرة؛ من كرامة الله التي خص بها أهل طاعته في الآخرة[1].

فعند الله ثواب الدارين: الدنيا والآخرة، فمن قصد الدنيا فقط، أعطاه الله من الدنيا ما قدّر له، وكان له في الآخرة العذاب، كالمجاهد الذي يريد بجهاده الغنيمة فقط أو نصرة راية غير إسلامية، فيأخذ الغنيمة ويحقق المطمع الدنيوي الرخيص، وليس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٠٨.

له في عالم القيامة إلا النار، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لكل قول، ﴿بَصِيرًا﴾ بكل قصد وعمل، فعلى الإنسان أن يخلص في عمله لله تعالى، ويكون قصده إرضاء الله عز وجل، ولا مانع أن يقصد بعمله وجهاده معًا ثواب الدنيا ومكافأتها، وثواب الآخرة ونعيمها الخالد في الجنة[1].

وفي ذلك تعليم للمؤمنين أن لا يصدهم الإيمان عن طلب ثواب الدنيا، إذ الكل من فضل الله، ويجوز أن تكون تذكيرًا للمؤمنين بأن لا يلهيهم طلب خير الدنيا عن طلب الآخرة؛ إذ الجمع بينهما أفضل، وكلاهما من عند الله أو هي تعليم للمؤمنين أن لا يطلبوا خير الدنيا من طرق الحرام، فإن في الحلال سعة لهم ومندوحة، وليتطلبوه من الحلال يسهّل لهم الله حصوله؛ إذ الخير كله بيد الله، فيوشك أن يحرم من يتطلبه من وجه لا يرضيه أو لا يبارك له فيه[2].

وفي الآية ملمح لحقيقة هذا الدين مفاده أنّ الدعوة للعمل لخيري الدنيا والآخرة دليل على أن الإسلام كفل لأتباعه وكل من سار على هديه سعادة الدنيا والآخرة، وهذا المنهاج المتوازن والخط المعتدل هو قوام الحياة الإسلامية القرآنية التي تعتمد الدنيا وسيلة ومزرعة، والآخرة مقصدًا وغاية، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أعمالهم في دنياهم، وينشدون ثواب الله في آخرتهم[3].

وهذه الآية وإن نزلت في الجهاد خاصة لكنها عامة في جميع الأعمال؛ ذلك لأن الأصل في ذلك كله يرجع إلى نية العبد، فإن كان يريد بعمله الدنيا فليس له جزاء إلّا فيها، وكذلك من أراد بعمله الدار الآخرة فجزاؤه أيضًا فيها[4].

فالتعبير بقوله: ﴿يُرِيدُ﴾ دليل على أن الإرادة للشخص هي التي تكيّف العمل، فتارة يكون خيرًا، وتارة يكون شرًّا؛ ولذلك روي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)**[5].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه،**

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٣٩٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٢٤.
(٣) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٣٩٣.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٠٥، التفسير الواضح، حجازي ١/ ٢٩١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم ١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنية) رقم ١٩٠٧.

وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه، وشتّت عليه أمره، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له)[1].

فالحق يقول: إن لنيل ثواب الدنيا سننًا ولنيل ثواب الآخرة سننًا، فمن سار على سنن واحدة منهما وصل إليها، فإذا كان المشركون قد استظهروا على المسلمين -يعني: في غزوة أحد- في هذه المرة فلأنهم طلبوا بعملهم الدنيا وأخذوا له أهبته من حيث قد قصّر المسلمون في اتباع السنن في ذلك بمخالفة الرسول.

كما أنه يقول لأولئك الذين ضعفوا وفشلوا وانقلبوا على أعقابهم: ما الذي تريدونه بعملكم هذا؟ إن كنتم تريدون ثواب الدنيا فالله لا يمنعكم ذلك، وما عليكم إلا أن تسلكوا طريقه، ولكن ليس هذا هو الذي يدعوكم إليه محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما يدعوكم إلى خير ترون حظًّا منه في الدنيا، والمعوّل فيه على ما في الآخرة. فالمسألة معكم بين أمرين: إرادة الدنيا وإرادة الآخرة، كل يريد أمرًا، ولكل أمر سنن تتّبع، ولكل دار طريق تسلك[2].

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

وفيها بيان أن من يطلب الدنيا وحدها ولا يعمل للآخرة عملها فليس له في الآخرة من نصيب، وأن من هدي الإسلام أن يطلب المرء خير الدنيا وخير الآخرة ويقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ فالإنسان يطلب ويريد بحسب سعة معرفته، وعلو همته، ودرجة إيمانه، وله ما يريد كله أو بعضه، بحسب سنن الله وتدبيره لنظام هذه الحياة[3].

وعلى الإنسان أن يعلم أن له طورين: طور عاجل قصير، وهو طور الحياة الدنيا، وطور آجل أبدي، وهو طور الحياة الآخرة، وسعادته في كل من الطورين مرتبطة بإرادته وما توجهه إليه من العمل، فالناس إنما يتفاضلون بالإرادات والمقاصد: فقوم يحاربون حبًّا في الربح والكسب، أو ضراوة بالفتك والقتل، فإذا غلبوا أفسدوا

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب القيامة، باب رقم ١٤، ٧/ ١٦٥. وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف، وله شاهد عند ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت في الزهد، باب الهم في الدنيا، رقم ٤١٠٥، ٢/ ١٣٧٥. قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح ورجاله ثقات».

(٢) المنار، محمد رشيد رضا، ٤/ ١٣٨.

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٣٨.

في الأرض وأهلكوا الحرث والنسل، وقوم يحاربون دفاعًا عن الحق وإقامة لقوانين العدل، فإذا غلبوا عمروا الأرض وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فهل يستوى الفريقان، وهما في المقصد مفترقان؟

كذلك يطلب الرجل الربح والكسب أحيانًا بكل وسيلة مستطاعة طلبًا للذاته، والحصول على شهواته، فيغلو في الطمع، ويمعن في الحيل، ولا يبالي أمن الحرام أكل أم من الحلال؟ يأكل الربا أضعافًا مضاعفةً، فيجمع القناطير المقنطرة، وهو مع ذلك يمنع الماعون، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣].

ولو سئل البذل في المصالح العامة كان أشد الناس بخلًا وأقبضهم كفًا، بينا يطلب آخر الكسب طلبًا للتجمل وحبًا للكرامة في قومه وعشيرته، فيقتصد فى الطلب، ويتحرى الربح الحلال، ويلتزم الصدق والأمانة، ويبتعد عن الفسوق والخيانة، وهو مع هذا ينفق مما أفاء الله به عليه، فيواسي البائسين، ويساعد المعوزين، وتكون له اليد الطّولى في الأعمال النافعة لأمته، فيشيد لها المدارس والمعابد، والملاجيء والمستشفيات، فهل ينظر الناس إلى هذين نظرة متساوية، وهل هما فى القرب عند الله بمنزلة واحدة، أو يفضل أحدهما الآخر بحسن القصد والإرادة والميل إلى الخير وحب المصلحة العامة[1].

وقصارى القول إن أقدار الرجال تتفاوت وتختلف باختلاف إرادتهم، فبينما تتسع دائرة وجود الشخص بحسب كبر إرادته وسعة مقصده، فتحيط بالكرة الأرضية، بل فوق ذلك بما يكون له من الكرامة في العالم العلوي- إذا بآخر تضيق دائرة وجوده إذا هو أخلد إلى الشهوات، وركن إلى اللذات، فيكون حظه من عمله كحظ الحشرات، يأكل ويشرب ويبغي على الضعيف ويخاف من القوي. والله قد جعل عطاءه للناس معلقًا على إرادتهم، ولا يقدر مثل هذا إلا القليل منهم[2].

فشتان بين حياة وحياة! وشتان بين اهتمام واهتمام! -مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل- والذي يعيش لهذه الأرض وحدها، ويريد ثواب الدنيا وحدها، إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب. والذي يتطلع إلى الأفق الآخر، إنما يحيا حياة الإنسان الذي كرّمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان، ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[آل عمران: ١٤٥].

(١) تفسير المراغي ٤/ ٩١.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٩٢.

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ الذين يدركون نعمة التكريم الإلهي للإنسان، فيرتفعون عن مدارج الحيوان ويشكرون الله على تلك النعمة، فينهضون بتبعات الإيمان.

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة، وحقيقة الغاية التي ينتهي إليها الأحياء، وفق ما يريدونه لأنفسهم، من اهتمام قريب كاهتمام الدود، أو اهتمام بعيد كاهتمام الإنسان! وبذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف -وهي لا تملك شيئًا في شأن الموت والحياة- إلى الانشغال بما هو أنفع للنفس، في الحقل الذي تملكه، وتملك فيه الاختيار. فتختار الدنيا أو تختار الآخرة. وتنال من جزاء الله ما تختار[1]!.

ولقد جاء هذا المعنى نفسه في آية أخرى في سورة الشورى فقال سبحانه أيضًا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٤٢-٢٠].

فمن يزرع في النشأة الأولى بذور الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة ليحصد ما يترتب عليها من المثوبات والكرامات في النشأة الأخرى ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ ونضاعف ثوابها لأجله ونعطه من اللذات الروحانية ما لا مزيد عليه تفضلًا منّا عليه وتكريمًا له، ﴿وَمَن كَانَ﴾ منهم ﴿يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ ونوى نماء بذوره فيها ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ كمال مبتغاه ومتمناه فيها؛ إذ لكل امرئ ما نوى ولكن ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ من اللذات الجسمانية والروحانية الباقية ﴿مِن نَّصِيبٍ﴾ لاختياره لذات الدنيا وشهواتها الفانية على ما في الآخرة من اللذات الروحانية الباقية؛ لذلك ليس له في الآخرة نصيب من خيراتها الباقية، ونعيمها الدائم.

ولم يذكر في عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب[2].

خلاصة القول: أنّ من أراد العمل لله بما يرضيه، أعانه الله على عبادته، ومن أراد الدّنيا مؤثرًا لها على الآخرة لأنه غير مؤمن بالآخرة، يؤته منها، وهو الذي قسم له، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لأنه كافر بها لم يعمل لها[3].

فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بشّر هذه الأمة بالسنا والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب)[4].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٨٧.

(٢) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٥١.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٦٣.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٣٥/ ١٤٥،

إذًا من يعمل العمل يبتغي به وجه الحق سبحانه وتعالى، يثيبه الله تعالى على عمله حسن الثواب والأجر؛ لأنه الكريم المتفضل على العباده، المجازاي بما يليق بعظمته وكرمه وإحسانه؛ لذا فإن الحق سبحانه يبشّر المؤمنين الذين هجروا أوطانهم فارين بدينهم، وألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار، وتحملوا الأذى من أجل دين الله، وقاتلوا أعداء الله، وقتلوا في سبيله، أنه سيمحو ذنوبهم بمغفرته ورحمته وسيدخلهم جنات النعيم جزاءً من عند الله على أعمالهم الصالحة فالله ﴿عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ والجزاء، وهي الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥][1].

فقد ختم سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله تعالى: ﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ لبيان اختصاصه سبحانه بالثواب الحسن، كأن كل جزاء للأعمال في الدنيا لا يعدّ حسنًا بجوار ما أعده الله تعالى للمحسنين من عباده، وما في الدنيا من ثمرات الأعمال لا يعد شيئًا[2].

فالحق جل جلاله يرزق العبد على قدر نيته، ويمدّه على قدر همته، فمن كانت همته في الحظوظ العاجلة والشهوات الفانية، أمده الله فيها، ومتّعه بها ما شاء، على حسب القسمة، ثم أعقبه الندم والحسرة، ومن كانت همته الآخرة، أمدّه سبحانه في الأعمال التي توصله إلى نعيمها، كصلاة وصيام وصدقة وتدريس علم، وأذاقه من حلاوتها ما يهون عليه مرارتها، ثم أعقبه النعيم الدائم من القصور والحور، وأنواع الطيبات، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ومن كانت همته الله -أي: الوصول إلى حضرته دون شيء سواه- أمدّه الله في الأعمال التي توصله إليه، وهي أعمال القلوب من التخلية والتحلية، كالتخلية من الرذائل، والتحلية بالفضائل، وكقطع المقامات بأنواع المجاهدات....[3].

ومن خلال ما سبق نستطيع أن نعلم أن على الإنسان أن يكون مخلصًا في عمله لله تعالى، ويكون قصده إرضاء الله عز وجل دون غيره، وأن من يطلب الدنيا وحدها ولا يعمل للآخرة عملها فليس له في الآخرة من

رقم ٢١٢٣٠، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٣١١ . وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ولم يتعقبه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٤٥، رقم ٢٨٢٥.

(١) وتمام الآية: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٥٥٧.

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٣٥٨.

نصيب ولاحظ. كما يتبين أن ثواب الآخرة كله في غاية الحسن.

كما أنّ الذي يعيش لهذه الأرض وحدها، ويريد ثواب الدنيا وحدها، إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام! وهي حالة من لايؤمن بالآخرة ولايؤمن بالجناة والنار والحساب، وكذلك حياة المسلمين الذي استغرقتهم ملاذ الدنيا ومنافعها الزائلة حياتهم، وغفلوا عن الآخرة وما أعده الله من الثواب والجزاء الكبير فيها لعباده المؤمنين، فلا ينبغي أن يلهيهم طلب خير الدنيا عن طلب الآخرة؛ إذ الجمع بينهما أفضل، وكلاهما من عند الله.

أنواع الثواب

قلنا عند الحديث عن المفهوم اللغوي للثّواب والمثوبة أنهما يدلان على مطلق الجزاء في الخير والشّرّ، وليس جزاء الطّاعة والخير فقط، فالثّواب يكون في الخير والشّرّ، إلّا أنّه يستعمل في الخير أكثر من استعماله في الشر، والثواب دالًّا على الخير والشر قد ورد في القرآن الكريم، وهذا ما سنتناوله من خلال السطور القادمة:

أولًا: ثواب الخير:

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]

تشير الآية السابقة إلى أبرز لونين وأزهاهما فى هذه الحياة الدنيا، التي يفتن الناس بها، وينشغلون بها عن الله، وعن الحياة الآخرة، وهما المال والبنون، وقدّم الحق سبحانه المال على البنين، لأنه المطلب الأول للإنسان، فكل إنسان طالب للمال، وليس كل إنسان طالبًا للولد، فكثير من الناس لا يطلبون الأولاد، بل يعيشون بغير سكن إلى زوجة، ولكنهم جميعًا لا يستغنون عن طلب المال، ومع هذا فإنه إذا حصل الإنسان على الولد، تعلق قلبه به، وكان الولد عنده مقدّمًا على المال! فالمال والبنون، هما أشدّ مظاهر الحياة فتنة للناس،

وأكثرها داعية لهم، وأقواها سلطانًا عليهم، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ..﴾ [التغابن: ١٥][(١)].

وفي التعبير بقوله سبحانه زينة، بيان بديع، وتعبير دقيق لحقيقتهما، فهما زينة وليسا قيمة، فلا يصح أن توزن بهما أقدار الناس، وإنما توزن أقدار الناس بالإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣].

وهذا ردٌّ على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يتزيّن به في الدنيا، لا مما ينفع في الآخرة، وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالًا ونفعًا، وفي البنين قوة ودفعًا[(٢)].

ثم بيّن الحق الأعمال التي تحقق ثواب الخير في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

فالأعمال التي تبقى ثمراتها الأخروية، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات، خير عند ربك من المال والبنين، في الجزاء والفائدة وخير مما يتعلق بهما من الأمل، فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية، أمرها إلى الزوال، وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الربانيّ والنعيم الأبديّ، لا يزول ولا يحول[(٣)].

فالباقيات وصف لموصوف محذوف، أي: والأعمال التي تبقى، ولا تفنى سريعًا، وهي صالحة في ذاتها عامرة لما بين العبد وربه أولًا، وبينه وبين الناس ويباركها الرب ثانيًا، سواء أكانت من شأنها أن تكون ذات أثر باق في الدنيا، من عمل طيب يبقى أثره بعد الموت، أم كان يرجى خيره في الآخرة، وفي الجملة الأعمال التي تكون كثيرة النفع في ذاتها ويبقى أثرها بعدها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[(٤)]، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فكل ما يحرثه العبد للآخرة يكون باقيًا، يقول عليّ رضي الله عنه: «الحرث حرثان حرث الدنيا المال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن اللّه تعالى لأقوام».

وقد حكم سبحانه بأن: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، أي: خير فائدة وعائدة وعاقبة، وتفتح باب الأمل

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨/ ٦٢٧.

(٢) انظر: زاد المسير ٣/ ٨٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤١٣، الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥٢٧.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثّواب بعد وفاته، رقم١٦٣١.

لخير عميم، ونعيم مقيم، وجنة خالدين فيها. وكرر كلمة ﴿خَيْرٌ﴾، لاختلاف نوعهما، فالأول عاجل في الدنيا، والثاني أمل ورجاء في الآخرة[1].

والظاهر أن ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ كل عمل خير، فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض العلماء، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبهذا فإن تفسير الباقيات الصالحات في الأحاديث لا ينافي إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها[2].

ومثلها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

فالطاعات التي بها تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، وتصل إلى القرب من الله، ونيل رضوان خير عند ربك منفعة وعاقبة مما متّع به أولئك الكفرة من النعم الفانية التي يفخرون بها من مال وولد وجاه ومنافع تحصل منها، فإن عاقبة الأولين السعادة الأبدية، وعاقبة أولئك الحسرة الدائمة والعذاب المقيم.

وخلاصة هذا أن الطاعات التي يبقى ثوابها لأهلها خير عند ربهم جزاء، وخير عاقبة من مقامات هؤلاء المشركين بالله وأنديتهم التي بها يفخرون على أهل الإيمان في الدنيا[3].

فإن قلت: كيف قيل: خير ثوابًا كأنّ لمفاخراتهم ثوابًا، حتى يجعل ثواب الصالحات خيرًا منه؟ قلت: كأنه قيل: ثوابهم النار، ثم بنى عليه خير ثوابًا. وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له: عقابك النار[4].

فلا يجوز أن يقال: هذا خير إلا والمراد أنه خير من غيره، فالمراد إذا: أنه خير مما ظنه الكفار بقولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣][5].

وهكذا فإنّ الأعمال الصالحة التي يفعلها الإنسان من العبادات والمعاملات والأخلاق هي التي يكون عليها خير المثوبة

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٣٩.

(٢) قال الإمام ابن جرير رحمه الله: «وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: هن جميع أعمال الخير، لأن ذلك كله من الصالحات التي تبقى لصاحبها في الآخرة، وعليها يجازى ويثاب. وإن الله عز وجل لم يخصص من قوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾ بعضًا دون بعض في كتاب، ولا بخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم». جامع البيان ١٥/ ١٦٧.

(٣) تفسير المراغي ١٦/ ٧٩.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٨.

(٥) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل ١٣/ ١٣١.

والجزاء من الله تعالى، وليس التفاخر بالمال والبنين وغيرهما من الزينة التي قد تتحول إلى نقمة إذا كانت مبعثًا للتفاخر والكبر والبطر، وأمثال ذلك مما لايرضي الله تبارك وتعالى، فمآل المال والجاه والثروة والسيادة إلى الحسرة والخسران وأنواع الخيبة والخذلان، ومآل العبادة إلى الجنة والغفران والرحمة والرضوان.

ثانيًا: ثواب الشر:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس: (إليّ عباد الله، إليّ عباد الله). فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إياهم فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ...﴾[1].

وكأنه يقول للمسلمين: تستبقون إلى الهرب في مستوى الأرض، وفي بطون الأودية والشعاب، فالإصعاد: الذهاب في صعيد الأرض، أو الإبعاد فيه، والصعيد: ما على وجه الأرض من تراب وحجر ونحوهما، وقيل: هو من الصعود، وأنهم صعدوا هاربين في أحد ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾ ولا تلتفتون والرّسول يناديكم وأنتم منهزمون: (إليّ عباد الله، إليّ عباد الله)، والمراد: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو المنهزمين إلى الثبات، وإلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى معاودة الهجوم عليهم، وهو ثابت لم يتزعزع ومعه نفر من أصحابه.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ أي: جزاكم الحق سبحانه وتعالى غمًّا، أي: هزيمة، بغمٍّ أي: مقابل غمكم للرسول -صلوات الله تعالى وسلامه عليه-، ومخالفتكم أمره. أو المعنى: غمكم بالهزيمة في أحد، مقابل غم الكافرين وهزيمتهم ببدر، وهو كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وأصل الإثابة إعطاء الثواب، وهو شيء يكون جزاء على عطاء أو فعل، ولفظ الثواب لا يستعمل في الأعم الأغلب إلا في الخير، والمراد به هنا: العقوبة التي نزلت بهم. وسميت العقوبة التي نزلت بهم ثوابًا على سبيل الاستعارة التهكمية كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[آل عمران: ٢١].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٢٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٧.

فالبشرى لا تكون إلا على الخير.

ويجوز أن يكون اللفظ مستعملًا في حقيقته؛ لأن لفظ الثواب في أصل اللغة معناه ما يعود على الفاعل من جزاء فعله، سواء أكان خيرًا أو شرًّا[1]؛ لأن الثواب يدل على مطلق الجزاء كما سبق القول.

يقول الإمام الخازن: «فمتى حملنا الثواب على أصل اللغة كان الكلام صحيحًا، ومتى حملناه على الأغلب كان على سبيل المجاز، فهو كقول الشاعر:

أخاف زيادًا أن يكون عطاؤه
أداهم سودًا أو محدرجةً سمرا

فجعل العطاء مكان العقاب؛ لأن الأداهم السود هي القيود الثقال، والمحدرجة هي السياط»[2].

وعلى كلٍّ فالمقصود تذكير للمسلمين بما كان منهم في هذه المعركة -معركة أحد- وغمزة عتاب لهم على أن فرّوا صاعدين الجبل، لا يلوون على أحد، أي: غير ملتفتين إلى من وراءهم، وإن وراءهم إخوانًا لهم صمدوا للمشركين، واستقبلوا الموت راضين، بل وراءهم، نبيّهم يواجه العدوّ وحده في بضعة رجال من أصحابه فكيف يفرّون؟ ثم إذا كانت منهم فرّة أفلا كانت منهم لفتة إلى النبي وقد أحاط العدوّ به؟ ثم ألا كانت منهم كرّة إلى العدوّ، يدفعون يده الضاغطة على رسول الله ومن معه؟ وهل شيء أحبّ إلى المسلم وأعزّ عنده من النبي، ولو كانت نفسه التي بين جنبيه؟![3].

قلت: ولا يفهم من ذلك أنّ هناك خيانة وقعت من الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا توهم غير صحيح، وإنما هو اجتهاد من الصحابة لم يصبهم التوفيق فيه، كانت نتيجته عدم تحقيق النصر على المشركين، وهو أمر كان ممكن تحقيقه لولا مخالفة الرماة أمر النبي، وتركهم لأماكنهم في المعركة بحثًا عن الغنائم.

إذًا فكانت نتيجة مخالفتهم لأمر الرسول وعدم الاستجابة لأمره ثواب الشر الذي جنته أيديهم وعملته جوارحهم، فثواب الشر يكون جزاء كل عمل لا يرضي الله ورسوله، ويخالف منهجه صلى الله عليه وسلم.

(١) الوسيط، طنطاوي ٢/ ٣٠٠.
(٢) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٠٨.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٦١٥.

المستحقون للثواب

تحدث القرآن عن المستحقين للثواب في الدنيا والآخرة، وسوف نبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: المستحقون لثواب الدنيا:

أولًا: ثواب الخير:

- **المؤمنون الصادقون الموفون بعهدهم.**

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

يعني: لقد رضي الله يا محمد عن المؤمنين ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني: بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفرّوا، ولا يولوهم الدّبر تحت الشجرة، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة.

وكان سبب هذه البيعة ما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالته إلى الملأ من قريش، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء، فظنّ أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم على ما وصفت، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان[(١)].

ثم يقول تعالى ذكره: فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك فأنزل الطمأنينة، والثبات على ما هم عليه من دينهم وحسن بصيرتهم بالحقّ الذي هداهم الله له، حتى بايعوا على أن يقاتلوا ولا يفرّوا.

﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: وعوّضهم ومنحهم -على الرّضى بقضائه- في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها فتحًا قريبًا، وذلك فيما قيل: فتح خيبر[(٢)].

فالحق أعطاهم ومنحهم فتحًا قريبًا، وهو فتح خيبر، الذي كان بعد صلح الحديبية بأقل من شهرين، وقيل: المراد به: فتح مكة، والأول أرجح؛ لأن فتح خيبر لم يكن فتح أقرب منه، ولأن المسلمين قد أصابوا من فتح خيبر غنائم كثيرة[(٣)].

وتوسع الإمام ابن كثير في المراد بـ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ حيث قال رحمه الله: «إن المراد: ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٢٤.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢٢/ ٢٢٨.
(٣) الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٢٧٦.

بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة»[1].

قال الآلوسي رحمه الله: «والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة هذه المبايعة»[2]. وقوله سبحانه: ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ متعلق ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾... وفي التقييد بذلك إشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة في النفوس. ولذا استوجبت رضا الله تعالى الذي لا يعادله شيء، ويستتبع مالا يكاد يخطر على البال.

ويكفي فيما ترتب على ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أم بشر، عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة)[3].

وصح برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر، أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: (أنتم خير أهل الأرض..)[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٤٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ١٠٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصّحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أصحاب الشّجرة أهل بيعة الرّضوان رضي الله عنهم رقم، ٢٤٩٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرّضوان تحت الشّجرة رقم، ١٨٥٦.

وهكذا كان ثواب المؤمنين المخلصين الصادقين الموفين بعهودهم تجاه الله ورسوله، أنّ أعطاهم الله النصر على الأعداء والطمأنية والسكينة، إضافة إلى -رضى الله عنهم-، ورضا الله سبب كل الخير، وإثابة ونجاح وفلاح.

❁ **المجاهدون الصامدون الخاضعون لله.**

قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]

يحكي لنا القرآن أنّ كثيرًا من الأنبياء كانوا يقاتون من أجل إعلاء كلمة الله، وأنّ هؤلاء الأنبياء قاتل معهم علماء ربانيون لم يضعفوا لما أصابهم من القتل والجراح في سبيل الله، ولم يذلوا ويخضعوا لعدوهم أثناء القتال، إلاّ أنهم طلبوا المغفرة من الله لخطايهم، وتثبيتهم في مواطن الحرب، ونصرهم على أعدائهم ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾[5].

فكانت الثمار التي ترتبت على هذا الدعاء الخاشع والإيمان الصادق والعمل

(٥) وتمام الآيات قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

الخالص لوجهه سبحانه فقال: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. والفاء في قوله: ﴿فَآتَاهُمُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

فهؤلاء الذين آمنوا بالله حق الإيمان وجاهدوا في سبيله حق الجهاد لم يخيّب الله تعالى سعيهم، ولم يقفل بابه عن إجابة دعائهم، وإنما أعطاهم الله تعالى ثواب الدنيا من النصر والغنيمة وقهر الأعداء، وصلاح الحال.

كما أعطاهم حسن ثواب الآخرة بأن منحهم رضوانه ورحمته ومثوبته وجنته، وإنما خص ثواب الآخرة بالحسن للتنبيه على عظمته وفضله ومزيته، وأنه هو المعتدّ به عنده تعالى لأنه غير زائل، وغير مشوب بتنغيص أو قلق.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، فإن محبة الله تعالى للعبد مبدأ كل خير وسعادة[1].

فأعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم، من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم، وعلى جهاد عدوهم، والاستعانة بالله في أمورهم، واقتفائهم مناهج إمامهم على ما أبلوا في سبيل الله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ يعني: جزاء في الدنيا، وذلك: النصر على عدوهم وعدو الله، والظفر، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنة ونعيمها[2].

فخص تعالى ثواب الآخرة بالحسن تنبيهًا على جلالة ثوابهم؛ وذلك لأن ثواب الآخرة كله في غاية الحسن، فما خصه الله بأنه حسن من هذا الجنس فانظر كيف يكون حسنه! ولم يصف ثواب الدنيا بذلك لقلتها، وامتزاجها بالمضار، وكونها منقطعة زائلة[3].

وبمفهوم آخر: خص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدّمه، وأنه هو المعتدّ به عنده ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[الأنفال:٦٧][4].

وهذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين ما يفعلون ويقولون عند لقاء العدوّ من الالتجاء والخضوع والتذلل لله[5].

وبالجملة فإنّ الحق سبحانه تعالى يبين لنا أنّه كلما كان العبد قريبًا من ربه متمسكًا بمنهجه، سائرًا على منهج نبيه صلى الله عليه وسلم كان له الثواب والمكافأة من الله في العاجل والآجل، في الحياة وبعد الممات.

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٢٨٩.

(٢) جامع البيان ٧/ ٢٧٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٨٢.
(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٢٥.
(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٣٢.

ثانيًا: ثواب الشر:

❁ اليهود.

قال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

يقول الإمام القرطبي في سبب نزول الآية: «قال ابن عباس رضي الله عنه: جاء نفر من اليهود -فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع- إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام، فقال: نؤمن ﴿بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًّا من دينكم، فنزلت هذه الآية وما بعدها»[1].

والمشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعود إلى ما نقمه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله وبالكتب السماوية. وقيل: يعود إلى الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب المعبّر عنها بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾. وتوحيد اسم الإشارة لكونه يشار به إلى الواحد وغيره، أو لتأويله بالمذكور ونحوه. والخطاب لأهل الكتاب المتقدم ذكرهم. وقيل: للكفار مطلقًا. وقيل: للمؤمنين.

والمثوبة: مصدر ميمي بمعنى الثواب الثابت على العمل، وأكثر استعمالها في الخير. وقد استعملت هنا بمعنى: العقوبة على طريقة التهكم بهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهي منصوبة على أنها تمييز لقوله: ﴿بِشَرٍّ﴾. وقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٠].

خبر لمبتدأ محذوف أي: هو من لعنه الله، والمراد اليهود؛ لأن الصفات التي ذكرت في الآية لا تنطبق إلا عليهم[2].

وشر اسم تفضيل، أصله أشر، وهو للزيادة في الصفة، حذفت همزته تخفيفًا لكثرة الاستعمال، والزيادة تقتضي المشاركة في أصل الوصف فتقتضي أن المسلمين لهم حظ من الشر، وإنما جرى هذا تهكمًا باليهود لأنهم قالوا للمسلمين: لا دين شر من دينكم، وهو مما عبّر عنه بفعل (تنقمون). وهذا من مقابلة الغلظة بالغلظة كما يقال: «قلت فأوجبت»[3].

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية والذين قالوا لكم: ما

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٣٣.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٥٥، الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٠٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٤٥.

نعلم أهل دين أقل حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًّا من دينكم، قل لهم على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم: هل أخبركم بشر من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة؟ هو ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بأن منع عنه رضاه ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ بأن مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير، وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: من عبد كل معبود باطل من دون الله كالأصنام والأوثان، وغير ذلك من المعبودات الباطلة التي اتبعوها بسبب طغيانهم وفساد نفوسهم[1].

فإن قيل: إن قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً﴾ يفيد أن ما عابه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله فيه شر، إلا أن ما عليه اليهود أشد شرًّا، مع أن إيمان المؤمنين لا شر فيه ألبتة، بل هو عين الخير فكيف ذلك؟.

فالجواب: أن الكلام مسوق على سبيل المشاكلة، والمجاراة لتفكير اليهود الفاسد، وزعمهم الباطل، فكأنه سبحانه يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: إن هؤلاء اليهود -يا محمد- ينكرون عليكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية، ويعتبرون ذلك شرًّا -مع أنه عين الخير-، قل لهم على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة: لئن كنتم تعيبون علينا إيماننا وتعتبرونه شرًّا لا خير فيه في زعمكم، فشر منه عاقبة ومآلا ما أنتم عليه من لعن وطرد من رحمة الله، وما أصاب أسلافكم من مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير، وما عرف عنكم من عبادة لغير الله، وشبيه بهذه الآية في مجاراة الخصم في زعمه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤][2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الممسوخون الملعونون ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جعلت الشرارة للمكان وهي لأهله مبالغة ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن قصد الطريق الموصل إلى الجنة[3].

فأثبت سبحانه الشرية لمكانهم؛ ليكون أبلغ في الدلالة على كثرة شرورهم؛ إذ إن إثبات الشرية لمكان الشيء كناية عن إثباتها للشيء نفسه. فكأن شرهم قد أثّر في مكانهم، أو عظم وضخم حتى صار متجسمًا[4]. ولذا قال في حقهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

المستحقون لثواب الآخرة:

أولًا: الخير:

- **المجاهدون والمهاجرون.**

قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟

(١) الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٥٨.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٣٩١.

﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾[آل عمران: ١٩٥].

يبين الحق سبحانه وتعالى الثواب العظيم والأجر الكبير للذين هاجروا وتركوا أوطانهم من أجل إعلاء كلمة الله، وأخرجوا من ديارهم، فرارًا بدينهم من ظلم الظالمين، واعتداء المعتدين، ﴿وَأُوذُواْ﴾ وتحملوا الأذى والاضطهاد في سبيل الحق الذي آمنوا به ﴿فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ أعداء الله ﴿وَقُتِلُواْ﴾ وهم يجاهدون من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل. فهؤلاء تكفل لهم الله تعالى بالثواب والنعيم في الآخرة فضلًا عن الدنيا.

ففي هذا النص تعداد للأعمال الصالحات التي قام بها هؤلاء واستحقوا بها نعيم الجنة، واتقوا بها عذاب النار، وهي أمور ثلاثة، آخذ بعضها بحجز بعض، ومتلاقية في معناها ومغزاها[(١)].

الأول: أنهم هاجروا وأخرجوا من ديارهم فهم هجروا مغانيهم التي تربوا فيها غير راغبين ولا محبين للخروج، بل ملجئين مضطرين، ولذلك روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مخاطبًا مكة عندما خرج منها: (إنك أحب أرض الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت)[(٢)]، ويروى أن ورقة بن نوفل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «ليتني أكون جذعًا إذ يخرجك قومك». فقال له عليه الصلاة والسلام: (أو مخرجيّ هم)؟! قال: (ما أوتي أحد بمثل ما أوتيت إلا عودي)[(٣)].

والله تعالى يقول: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ...﴾، فكان الإخراج سبب الهجرة.

الثاني: الذي استحقوا به الجزاء الأوفى هو أنهم تحملوا الأذى في سبيل الله تعالى، فهم أوذوا في مكة قبل الهجرة، واستمر الإيذاء بعدها، وكل ذلك في سبيل الله، وفي سبيل الحق وإعلائه، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، وإن هذا يزكي الخير فيهم، فإنهم ما أخرجوا من ديارهم، وهجروا أحباءهم وذويهم إلا في سبيل الله تعالى.

الثالث: أنهم قاتلوا في سبيل الله تعالى فجاهدوا الأعداء واستشهدوا في هذا القتال، فلهم فضلان: فضل القتال والتقدم،

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٥٥٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣١/ ١٣، رقم ١٨٧١٧، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب فضل مكة، رقم ٣٨٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم ٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الايمان، باب بدء الوحي، رقم ٢٣١، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

وفضل الاستمرار فيه والشهادة في سبيل الحق[1]، وإليه الإشارة ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾.

وقد ذكر الله صفات المؤمنين هكذا، لينبّهنا إلى أن نرّوض أنفسنا ونختبرها، فإن رأيناها تحتمل الأذى فى سبيل الله حتى القتل فلها الرضوان من ربها، وإلا فلنروّضها حتى تصل إلى هذه المنزلة، والسر فى هذا التكليف الشاق أن الحق لا يقوى إلا إذا وجد من ينصره ويؤيده، ويقاوم الباطل وأعوانه؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى، فيجب على أنصار الحق ألا يفشلوا ولا ينهزموا، بل يثبتوا مهما لاقوا من المحن والأرزاء، فقد كتب الله النصر لعباده المؤمنين[2].

وقد بيّن سبحانه وتعالى الجزاء والثواب بقوله تعالت كلماته: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

قلنا: الثواب والمثوبة يرادبه الجزاء، وقد جعله الدين أثرًا طبيعيًّا للعمل، فللأعمال تأثير في نفس العامل بتزكيتها فتكون منعمة في الآخرة، أو تدسيتها فتكون معذّبة فيها.

وقد وعد الله تعالى من فعل ذلك بأمور: هي بمثابة الإثابة على أعمالهم: فأثابهم بمحو السيئات وغفران الذنوب، ودل على ذلك بقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، ووعدهم كذلك بإعطائهم الثواب العظيم المتمثل في الجنة، وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهذا الثواب مقرون بالتعظيم والإجلال، وهو قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى لأكفرنّ عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم الجنات، ولأثيبنهم بذلك ثوابًا من الله لا يقدر عليه غيره.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي: هو ثواب من عنده مختص به، بحيث لا يقدر عليه غيره، وهذه الجملة تأكيد لشرف ذلك الثواب؛ لأنه تعالى قادر على كل شيء، غني عن كل أحد، فهو لا محالة فى غاية الجود والكرم والإحسان[3].

ففي قوله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن هذا الجزاء والثواب الذي يجزونه، هو فضل عليهم من الله سبحانه وتعالى، إذ هداهم إلى الإيمان، ووفّقهم للعمل الصالح من الجهاد وتحمل الأذى في سبيل الله، الذي أنزلهم منازل الرضا والقبول عند الله.

روي عن جعفر الصادق أنه قال: «من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية، قال: لأن الله حكى عنهم أنهم قالوا خمس

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٥٥٦.
(٢) تفسير المراغي ٤/ ١٦٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٧١.

مرات: ربنا، ثم أخبر أنه استجاب لهم.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ وهو تأكيد؛ ليكون ذلك الثواب في غاية الشرف؛ لأنه تعالى لما كان قادرًا على كل المقدورات، عالمًا بكل المعلومات، غنيًّا عن الحاجات، كان لا محالة في غاية الكرم والجود والإحسان، فكان عنده حسن الثواب»[1].

❁ الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٧٩-٨٠].

يبين الحق سبحانه أن الإيمان بالله والصبر عن طلب زينة الحياة الدنيا خير من طلب الزينة والتكبر والغرور على الخلق.

إن الناس لما رأوا قارون على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون من هذه الأمور والأموال، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا: ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم؛ لأن للثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة، وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث، قال صاحب الكشاف: «ويلك أصله الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى»[2].

فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ بالله، حين رأوا قارون خارجًا عليهم في زينته، -للذين قالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾: ويلكم اتقوا الله وأطيعوه، فثواب الله وجزاؤه لمن آمن به وبرسله، وعمل بما جاءت به رسله من صالحات الأعمال في الآخرة، خير مما أوتي قارون من زينته وماله لقارون.

وقوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ يقول: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾، أي: ولا يوفّق لقيل هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ والهاء والألف كناية عن الكلمة. وقال: ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ يعني بذلك: الذين صبروا عن طلب زينة الحياة الدنيا، وآثروا ما عند الله من جزيل ثوابه على صالحات الأعمال على لذّات الدنيا وشهواتها، فجدّوا في طاعة الله، ورفضوا الحياة الدنيا.

أو ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: لا يؤتى الجنة، ولا يدخلها، أو لا يوفّق للأعمال الصالحة

(١) انظر: المصدر السابق، التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٦٧٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٢.

﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعات، وعن المعاصي[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

لقد جعل اللّه تعالى سبب ما يستقبلهم من النعيم والثواب أمرين:

الأول: إيمان صادق وإخلاص يعمر القلوب، فإنه لا ثواب من غير قلب منيب.

الثاني: عمل صالح نافع بأداء ما أمر اللّه به واجتناب ما نهى اللّه عنه في استقامة قلب، وكمال قصد واتجاه إلى النفع[2].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ اعتراض، ولك أن تجعل ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ خبرين معًا. أو تجعل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ كلامًا مستأنفًا بيانًا للأجر المبهم. فإن قلت: إذا جعلت ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ خبرًا، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ينتظمهما معنى واحد، فقام ﴿مَنْ أَحْسَنَ﴾ مقام الضمير. أو أردت: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ منهم، فكان كقولك: السمن منوان بدرهم. من الأولى للابتداء، والثانية للتبيين[3].

وتنكير ﴿أَسَاوِرَ﴾ لإبهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس: وهو ما رقّ من الديباج، وبين الاستبرق: وهو الغليظ منه؛ جمعًا بين النوعين. وخص الاتكاء؛ لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرّتهم[4].

وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعًا في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئًا منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وافتتاح الجملة باسم الإشارة لما فيه من التنبيه على أن المشار إليهم جديرون لما بعد اسم الإشارة لأجل الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة، وهي كونهم آمنوا وعملوا الصالحات[5].

فبيّن الحق جزاء وثواب السعداء، الذين آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين فيما جاءوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فيقول في شأن الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح: أن لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٢٩.
(٢) زهرة الفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٢٥.
(٣) الكشاف ٢/ ٧٢٠.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٧٢٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣١١.

من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء)[1].

وقد قالوا: ثلاثة مذهبة للحزن: الماء والخضرة والوجه الحسن.

ولفظ: ﴿عَدْنٍ﴾ بمعنى: إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول. وأصله من عدن فلان بالمكان. إذ أقام به واستقر فيه.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، وهي السرر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ للعاملين أي: نعمت الجنة ثوابًا لهم على أعمالهم ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: حسنت منزلًا ومقيلًا ومقامًا يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها، يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطى جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان.

ودلت الآية الكريمة وما أشبهها على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة؛ لأنه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه[2].

ونحو الآية قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ۝٧٥ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦].

وبذلك نرى الآية الكريمة قد اشتملت على ألوان متعددة من التكريم والثواب لأولئك المؤمنين الذين عمروا دنياهم بالعمل الصالح. فقد بشّرهم سبحانه بجنات عدن، ثم بشّرهم ثانيًا بأن ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ﴾، ثم بشّرهم ثالثًا بأنهم ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، ثم بشّرهم رابعًا بأنهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم، ٢٥٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٦، تفسير المراغي ١٥/ ١٤٥.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، ثم بشّرهم خامسًا، بأنهم يتكئون في تلك الجنات ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

وفي هذه البشارات ما فيها من الحض على المسارعة إلى العمل الصالح، الذي يرفع درجات المؤمن إلى أعلى عليين، وذلك ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

نسأل الله تعالى أن يرزقنا هذا الفضل، فهو أكرم مسئول، وأعظم مأمول.

ويقول تعالى -في شأن بعض أهل النصارى الذين آمنوا- على لسانهم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٤-٨٥]

قال الإمام الطبري: «هذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في هذه الآيات»[1]، أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من كتابه، آمنوا به وصدّقوا كتاب الله، وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا﴾ نقرّ بوحدانية الله ﴿وَمَا جَاءَنَا﴾ من عند الله من كتابه وآي تنزيله، ونحن ﴿وَنَطْمَعُ﴾ بإيماننا بذلك ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

فالمقصود بـ﴿الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾: المؤمنون بالله، المطيعون له، الذين استحقّوا من الله الجنة بطاعتهم إياه. وإنما معنى ذلك: ونحن نطمع أن يدخلنا ربّنا مع أهل طاعته مداخلهم من جنته يوم القيامة، ويلحق منازلنا بمنازلهم، ودرجاتنا بدرجاتهم في جنّاته[2].

فجزاهم الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣ - ٨٤].

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ٨٥].

يعني: بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: دائمًا فيها مكثهم، لا يخرجون منها ولا يحوّلون عنها ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾، فيقول الحق: فهذا الذي جزيت هؤلاء القائلين بما وصفت عنهم من قيلهم على ما قالوا، من الجنات التي هم فيها خالدون، جزاء كل محسنٍ في قيله وفعله.

فقد بيّنت هذه الآية الكريمة أنه سبحانه قد أجابهم إلى ما طلبوا، بل أكبر مما طلبوا، فقد كانوا يطمعون في أن يكونوا ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، وأن يكتبهم مع الشاهدين، فأعطاهم سبحانه جنات تجرى من تحتها

(١) جامع البيان ١٠/ ٥١١.

(٢) الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥١٣.

الأنهار، وسماهم محسنين، والإحسان أعلى درجات الإيمان، وأكرم أوصاف المتقين.

هذا جزاء الذين ﴿سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ صلى الله عليه وسلم فآمنوا به، وقالوا ما قالوا مما يشهد بصفاء نفوسهم[1].

و(إحسان المحسن) في ذلك، أن يوحّد الله توحيدًا خالصًا محضًا لا شرك فيه، ويقرّ بأنبياء الله وما جاءت به من عند الله من الكتب، ويؤدّي فرائضه، ويجتنب معاصيه. فذلك كمال إحسان المحسنين «الذين قال الله تعالى ذكره أنه أثابهم بما قالوا جنات...»[2].

ثانيًا: ثواب الشر:

- الكفار.

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤ - ٣٦].

تأتي تلك الآيات من سورة المطففين في إطار حديث القرآن عن المقارنة بين أعمال الكفار وأعمال المؤمنين، وما يستحقه المؤمنون من الثواب العظيم والسعادة في الدنيا والأخرة والجنة التي عرضها السماوات والأرض، وما أعدّه الله لهؤلاء المؤمنين في الجنة من نعيم دائم؛ حيث يتنعمون في الجنة بكل ما يشتهون.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ أدنى أهل الجنّة منزلةً لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنةٍ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوةً وعشيّةً)[4].

وبعد أن بيّن الحق سبحانه ثواب المؤمنين المتمثل في الجنة ونعيمها، أردف ذلك ببيان ما يستحقه الكفار من ثواب الشر الذي جنته أيديهم وعملته جوارحهم من الإنكار والمكابرة، وعدم الإيمان، والاستهزاء بالرسول والرسالة، وأتباع النبي من المؤمنين، فهؤلاء الكفار كانوا يسخرون من المؤمنين ويحتقرون من شأنهم، ويتهمونهم بالضلال لإيمانهم بسيدنا محمد، وتركهم شهوات الدنيا وملاذتها.

وبعد بيان حالة هؤلاء الكفار الذين كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا،

(١) الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٥٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥١٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٤٤، ومسلم في صحيحه، أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٢٨٢٤.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة الجنة، رقم ٢٥٥٣.

يقول لهم الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يعني: ففي هذا اليوم يوم الجزاء والعدل والحساب وهو يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي: يضحك المؤمنون على الكفار في مقابلة ما ضحك بهم أولئك في الدنيا[1].

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حال، أي: يضحكون منهم، ناظرون إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والاستكبار، وهم على الأرائك -أي: على الأسرّة فى حجالها آمنون-، وقيل: يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم: هلموا إلى الجنة، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم[2].

فهذا بيان للحال التي عليها المؤمنون، وهم يضحكون من الكفار، إنهم يضحكون وهم جالسون، مستريحون على الأرائك، على حين يتقلب المجرمون على جمر جهنم[3].

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية المؤمنين، وتبشيرهم بأنهم سيأخذون بثأرهم من المشركين عما قريب، وأنهم -أي: المؤمنون- سيكونون يوم القيامة على سرر قد فرشت بأجمل الفراش، وأنهم لا ينظرون إلا إلى ما يسرّهم ويبهج نفوسهم[4].

وقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا؟ يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله[5].

فالاستفهام للتقرير كأنه خطاب للمؤمنين؛ تعظيمًا لهم وتكريمًا وزيادة في مسرتهم. أي: هل رأيتم كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم، أي: أنه فعل. و﴿مَا﴾ مصدرية أو موصولة.

وثوّبه وأثابه بمعنى جازاه، وهو من (ثاب) بمعنى: رجع. فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله. ويستعمل في الخير والشر، وهو هنا مستعمل في الشر؛ لأننا في سياق الحديث عن أحوال الكافرين وما يستحقونه من الجزاء[6].

فهم قد جوزوا يومئذ بأسوء الجزاء بسبب ﴿مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ من الاستهانة والاستهزاء بالمؤمنين، ومن ضحكهم بأعمالهم، وتغامزهم فيما بينهم بعيونهم تهكّمًا عليهم.

وجاء الجزاء بأسلوب الاستفهام لتأكيد هذا الجزاء، حتى لكأن المخاطب هو الذي نطق بهذا الجزاء العادل الذي استحقه

(١) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦١٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٥٤.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٤٩٩.
(٤) الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٣٢٩.
(٥) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦١٨.
(٦) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٣٧.

الكافرون، ولبيان أن عدالة الله تعالى تقتص من المعتدين مهما طالت بهم الحياة.

والتعبير بـ﴿ثُوِّبَ﴾ -مع أنه أكثر ما يستعمل في الخير- إنما هو من باب التهكم بهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

وهكذا تشير تلك الآيات إلى مجموعة من الومضات والإشارات الربانية، فتشير إلى أنّ المؤمنين المخلصين الذين تمسكوا بكتاب الله وسنة نبيه يرزقهم الله النعيم والثواب العظيم في الدنيا والآخرة. وتوميء إلى خبث الكافرين، وسوء أخلاقهم، وتعمدهم الاستهزاء بالمؤمنين، والتنكيل بهم، والنيل منهم بكل الوسائل والطرق. كما تشير إلى عدل الحق سبحانه وتعالى في الجزاء والعقاب، فمن يحسن يكون نصيبه الخير والفلاح، ومن يكون غير ذلك يكون نصيبه الخزي والندامة في الدنيا والآخرة، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء: ٤٠].

مقاصد الثواب

للثواب في القرآن مقاصد عديدة، يمكن إجمالها فيما يلي:

أولًا: تحفيز العباد على الأعمال الصالحة:

الأصل في المسلم أن يؤدي ما كلّفه الله من العبادات والمعاملات والأخلاق، وأن يجتهد في أداء ذلك على الوجه الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، إلا أنّ الحق سبحانه وتعالى عالم بأحوال عباده الذين قد يصيبهم ضعف في الهمة، وتكاسل عن أداء المطلوبات الشرعية، فحضّهم على الأعمال الصالحة من خلال مجموعة من المحفّزات التي تجعل الإنسان المسلم يسارع في أداء ما كلّف به بهمة ونشاط، ومن ثمّ يحصل على الثواب والأجر من الله.

فالتحفيز معناه أن تدفع الشخص لعملٍ ما، وتحثه عليه بإثارته لفعل هذا الشيء وحثه عليه، من خلال الترغيب والترهيب أو الوعد أو البشارة، وغيرها من أساليب التحفيز المختلفة المعروفة لدى علماء التربية والسلوك، وسواء أكان الثواب العظيم من الله تبارك وتعالى في الدنيا أو الآخرة، أو في الحال أو المآل، وسواء أكان الثواب ماديًّا أو معنويًّا.

فمن أولى أساليب التحفيز التي انتهجها

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٤٩٩.

القرآن، إخبار الحق أنّ عمل العبد لن يضيعه الله، وسيثيب العبد عليه، ويجازيه على عمله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

فالمراد بقوله: ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أنه لا يترك أعمال العباد تذهب ضياعًا، بل يجازي الإنسان عليه بالثواب.

فأولى المحفزات نحو العمل والعبادة بيان الحق سبحانه للعباد أنّ أي عمل يعملونه في هذه الدنيا لن يضيع عند الله، بل يجازي الحق عباده، ويثيبهم عليه أحسن الجزاء والثواب.

وجعل القرآن من وسائل وأساليب التحفيز الترغيب في فعل الخير والعمل الصالح؛ ابتغاء الثواب من الله وأجره في الآخرة، والفوز بالحياة الكريمة الطيبة في الدنيا، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧][1].

قال الإمام الشوكاني: «هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح، وجعل سبحانه الإيمان قيدًا في الجزاء المذكور؛ لأن عمل الكافر لا اعتداد به؛ لقوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون؟ وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة؛ لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[2].

وقال الإمام الطبري: «وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ بالقناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نصبه، ولم يتكدّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها، وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها»[3].

فجعل سبحانه وتعالى من المحفزات لمن آمن وعمل الصالحات الحياة الطيبة في الدنيا، مما يدفع نحو العمل الصالح؛ لنيل تلك الحياة، ولنيل القرب والثواب من الله تبارك وتعالى.

كذلك من أساليب التحفيز الوعد بالثواب، وهو يتعلق بوصف ما أعده الله من شتى ألوان النعيم في الدار الآخرة لمن آمن وعمل الصالحات، وبهذا يكون

(١) انظر: التحفيز التربوي في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية، أحمد الحافظي، ص٥، ١٧، ٢٤.

(٢) فتح القدير ٢/ ٢٣١.

(٣) جامع البيان ١٧/ ٢٩٢.

الوعد حافزًا للإنسان للقيام بتلك الأعمال الصالحة، والإكثار منها؛ لنيل ما وعد الله به عباده الصالحين.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [الرعد: ١٥].

قال القرطبي: «لما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الحج: ١٤].

وصف تلك الجنات، أي: صفة الجنة المعدّة للمتقين. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغير الرائحة. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لم تدنّسها الأرجل، ولم ترنقها الأيدي كخمر الدنيا، فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسل ما يسيل من لعاب النحل. ﴿مُّصَفًّى﴾ أي: من الشمع والقذى، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنّسه النحل. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة للتأكيد. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: لذنوبهم. ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ قال الفراء: «المعنى: أفمن يخلّد في هذا النعيم كمن يخلّد في النار»[1].

كذلك من أساليب التحفيز في القرآن البشارة أو التبشير بالثواب، من خلال تبشير المؤمنين الذين عملوا الصالحات بحسن العاقبة يوم القيامة، وفي الحياة الدنيا بالنصر والتمكين والتأييد، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قال الإمام ابن كثير: «﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير»[2].

ومن أساليب التحفيز الإيجابي التي استخدمها القرآن إحياء الأمل وطرد اليأس، الأمل في الله والرجاء فيما عنده من النعيم والرحمة والمغفرة، وهذا ينبع من الإيمان بالله وعباته حق العبادة. قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

قال الإمام الشوكاني[3]: «﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي: أعمال الخير، ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ثوابًا، وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها، ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أفضل أملًا، يعني: أن هذه الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٣٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٧٧.
(٣) فتح القدير ٣/ ٣٤٤.

أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين؛ لأنهم ينالون بها في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا»[1].

وإضافة إلى ذلك قد يتخذ التحفيز في القرآن منحى التكريم، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨].

أي: وأمّا من آمن بالله، وأحسن العمل في الدنيا، وقدّم الصالحات فجزاؤه الجنة يتنعّم فيها ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: نيسّر عليه في الدنيا، فلا نكلّفه بما هو شاق، بل بالسهل الميسّر[2].

كما قد يكون من أساليب التحفيز أسلوب المدح والثناء، كما أثنى الله تبارك وتعالى على بعض أنبيائه الأخيار ومدحهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال الإمام الخازن: «﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين في هذه السورة -الأنبياء-. وقيل: زكريا وأهل بيته، والمسارعة في الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء؛ لأنها تدل على حرص عظيم في طاعة الله عز وجل ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ يعني: أنهم ضموا إلى فعل الطاعات أمرين:

أحدهما: الفزع إلى الله لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه.

والثاني: الخشوع، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور؛ خوفًا من الوقوع في الإثم[3].

فالسبق إلى الخيرات يكشف عن المعادن النفيسة التي تواظب على الطاعات، وتستزيد من الحسنات، وتقلع عن السيئات، وتراقب رب الأرض السماوات، ووقت السبق هو الحياة الدنيا؛ لأنه وقت التكليف ووقت العمل[4]. وهكذا يحفّز القرآن إلى القيام بالعمل بهمة ونشاط، دون تكاسل أو تأخير[5].

هذا عن بعض جوانب التحفيز الإيجابية، وهناك نوع آخر من أنواع التحفيز، يسمى بالتحفيز السلبي أو الترهيبي، وهذا النوع من التحفيز يعتبر بمثابة الدرع الواقي وطوق النجاة للمسلم، حيث يمنع هذا النوع من التحفيز، أو على الأقل يحاول منع أو

(١) انظر: التحفيز التربوي في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية، أحمد الحافظي، ص٣٣-٣٥.

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ١٨٨.

(٣) لباب التاويل ٣/ ٢٤٢.

(٤) السابقون إلى الخيرات، سعد الحجري ص٩.

(٥) انظر: التحفيز التربوي في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية، أحمد الحافظي، ص٣٣-٣٥.

تقليل ارتكاب المخالفات أو المعاصي من خلال تلك الأساليب التي تكوّن لديه وازعًا دينيًّا أخلاقيًّا متينًا، يكفّه عن عمل الشرور والمنكر، وقد تنوعت تلك الأساليب:

منها: الترهيب، والترهيب ضد الترغيب، وهو تخويف الإنسان، وتهديده بالعقوبة والعذاب والسخط من عند الله، إذا لم ينته عما نهاه الله عنه، أو لم يلتزم بما فرضه الله عليه وكلّفه به من الواجبات.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٤، ١٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ الذي أذكّره به فتولى عنه، ولم يقبله، ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه ﴿لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ يقول: فإن له معيشة ضيقة، والضنك من المنازل والأماكن والمعايش: الشديد، يقال: هذا منزل ضنك، إذا كان ضيقًا»[1].

وقال أيضًا: «﴿وَرَهَبًا﴾ يعني: رهبة منهم من عذابه وعقابه، بتركهم عبادته وركوبهم معصيته»[2].

قال القرطبي عن قوله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

«أي: خافون. والرّهب والرّهب والرّهبة الخوف. ويتضمّن الأمر به معنى التّهديد»[3].

والترغيب والترهيب يمثلان قاعدة أساسية، وبناءً متينًا في تعاليم الدين الإسلامي الحنيف؛ ذلك أن الترغيب والترهيب في القرآن يأتيان مقرونين بتوضيح وبيان طبائع الحسن والقبح في الأفعال والأعمال، حتي يكون الإقبال عليها أو القيام بها، أو الابتعاد والنفور منها صادرًا عن قناعة ووعي[4].

ومن ضمن الأساليب التحفيزية للامتناع عن كل ما يخالف منهاج الشرع وأوامر الله سبحانه وتعالى الوعيد، وهو ضد الوعد، وهو التهديد والتخويف بالعذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

(١) جامع البيان ١٨/ ٣٩٠.
(٢) المصدر السابق ١٨/ ٥٢١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٣٢.
(٤) انظر: التحفيز التربوي في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية، أحمد الحافظي، ص٣٦.

قال الشوكاني: «﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ بيّنّا فيه ضروبًا من الوعيد تخويفًا وتهديدًا، أو كررنا فيه بعضًا منه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: كي يخافوا الله فيتجنبوا معاصيه، ويحذروا عقابه ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: اعتبارًا واتعاظًا»[1].

وكذلك الذم من الأساليب للحث عن الابتعاد عن الذنوب والمعاصي، وهو ضد المدح، ويعني التوبيخ واللوم لمن يرتكب ما نهى الله عنه، أو يقصّر فيما أمره الله به، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

قال الطبري: «﴿مَذْمُومًا﴾ على قلة شكره إيانا، وسوء صنيعه فيما سلف من أيادينا عنده في الدنيا ﴿مَّدْحُورًا﴾ يقول: مبعدًا، مقصى في النار.... وعن ابن عباس، قوله: ﴿مَذْمُومًا﴾ يقول: ملومًا»[2].

ويدخل في تلك الأساليب للتحفيز على تجنب ما لايرضي الله ورسوله: النذارة أو الإنذار، ويعني: التحذير من سوء العاقبة المترتبة على مخالفة أمر الله، وعدم طاعة النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

قال الإمام الطبري: «وأنذر يا محمد الناس الذين أرسلتك إليهم داعيًا إلى الإسلام ما هو نازل بهم، يوم يأتيهم عذاب الله في القيامة»[3].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

قال صاحب الظلال: «وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكرارًا في القرآن هو الإنذار بيوم الجمع، يوم الحشر، يوم يجمع الله ما تفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة؛ ليفرقهم من جديد: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ بحسب عملهم في دار العمل، في هذه الأرض، في فترة الحياة الدنيا»[4].

وقصارى القول: أنّ من مقاصد الثواب في القرآن التحفيز نحو إتيان الأفعال والأعمال التي ترضي الحق سبحانه وتعالى، ويستفيد من يأتي بتلك الأفعال وينفذها بالثواب الجزيل من الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة، أو التحفيز نحو الابتعاد

(١) فتح القدير ٣/ ٤٥٩.
(٢) جامع البيان ١٧/ ٤٠٩.
(٣) المصدر السابق ١٧/ ٣٥.
(٤) في ظلال القرآن، ٥/ ٣١٤٤.

عن الأفعال التي لا ترضي الله ورسوله، ويستفيد من ينتهي ويبتعد عن تلك الأفعال بالثواب والأجر الكبير من الله.

ولقد تنوعت أساليب التحفيز في القرآن ما بين ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، وتبشير وإنذار وغيرها، وفي ذلك التنويع ما يدل على ثراء القرآن وإعجازه في إقناع المتلقين، ومن ثمّ استمالتهم وتحفيزهم على تحصيل الثواب.

ثانيًا: المبادرة إلى أحب الأعمال وأكثرها ثوابًا:

إن الحق سبحانه وتعالى قد يرغّب في فعل بعض الأعمال وذلك بزيادة المثوبة التي تترتب على فعلها، وذلك يقع في النفوس والقلوب موضع الإقبال والمبادرة، فيبادر الإنسان لفعل تلك التكاليف والعبادات التي يكون في مقابلها من الحق مزيد الثواب والأجر، فمزيد الثواب على بعض الأعمال يقصد به الحق سرعة الاستجابة لتنفيذ الأمر الإلهي بالفعل، سواء أكان الأمر يدل على وجوب الفعل أو الندب إليه أم حتى مجرد إباحته، فتعظيم الثواب يعظّم من الاستجابة والتنفيذ، وكلما كان التنفيذ على وجه السرعة كان دليلًا على حسن الاعتقاد، وزيادة الإيمان، وكمال الإسلام.

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٢].

فهذا المثل راجع إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤].

والآية تثير في نفوس السامعين الاستشراف لما يلقاه المنفق في سبيل الله، فهذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف[1].

فقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في وجوه الخيرات من الواجب والنفل ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ لابد من تقرير مضافٍ في أحد الجانبين أي: ﴿مَّثَلُ﴾ نفقتهم ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أو مثلهم ﴿كَمَثَلِ﴾ باذر ﴿حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي: أخرجت ساقًا تشعّب منها سبع، لكل واحدة منها سنبلة ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ كما يشاهد ذلك في الذرة والدخن في الأراضي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٤٢.

المغلة، بل أكثر من ذلك، وإسناد الإنبات إلى الحبة مجازيٌ كإسناده إلى الأرض والربيع، وهذا التمثيل تصويرٌ للأضعاف كأنها حاضرةٌ بين يدي الناظر[1].

وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة.

وروي عن ابن مسعود: أن رجلًا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة)[2].

وعن عبد الله بن مسعود كذلك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل جعل حسنة ابن آدم بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلا الصوم، والصوم لي وأنا أجزي به، وللصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره وفرحة يوم القيامة، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)[3].

ومعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن المضاعفة درجات كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى ؛ لأنها تترتب على أحوال المتصدق وأحوال المتصدق عليه، وأوقات ذلك وأماكنه. وللإخلاص، وقصد الامتثال ومحبة الخير للناس، والإيثار على النفس، وغير ذلك مما يحف بالصدقة والإنفاق، تأثير في تضعيف الأجر، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: إنه تعالى لا ينحصر فضله، ولا يحد عطاؤه، وهو عليم بمن يستحق هذه المضاعفة كالمنفقين في إعلاء شأن الحق، وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله التي تسوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد، حتى إذا ما ظهرت آثار ذلك في قوة ملتهم وسعادة أمتهم جنوا من ذلك أجلّ الفوائد وعاد ذلك عليهم بالخير الوفير[5].

ثم بيّن ثواب الإنفاق في الآخرة بعد بيان منافعه في الدنيا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: إن الذين يبذلون أموالهم يبتغون بذلك مرضاة ربهم، ولا يتبعون ذلك بمنّهم على من أحسنوا إليهم ولا بإيذائهم، لهم عند ربهم ثواب لا يقدر قدره، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين يخاف الناس وتفزعهم

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٥٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الصّدقة في سبيل الله وتضعيفها، رقم ١٨٩٢.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٧/ ٢٩٠، رقم ٤٢٥٦. قال المحقق: «صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف».
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٤٢.
(٥) تفسير المراغي ٣/ ٣٠.

الأهوال، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن الباخلون الممسكون عن الإنفاق في سبيل الله، إذ هم أهل السكينة والاطمئنان والسرور الدائم[1].

مما سبق يمكن القول أن تعظيم القرآن لشأن الإنفاق، وتكثير ثوابه، وتضعيف الأجر عليه يجعل في النفس الهمة والمبادرة إلى ذلك العمل الذي يحبه الله، ويعظّم من شأنه، ويكثر من ثوابه وفضله، وهكذا فإن من مقاصد الثواب جعل الإنسان المؤمن يبادر ويسارع إلى فعل الخيرات، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فدأب المؤمنين دائمًا المسارعة والمبادرة إلى فعل الخيرات؛ لنيل الثواب من الله، وكما قال: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

ثالثًا: بيان عدل الله وفضله في معاملة الخلق:

إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق، ونظّم لهم حياتهم بما يحفظ لكل ذي حق حقه، وأمر بالعدل، وجعل العدل هو ميزان الدنيا والآخرة، فلا جور ولا حيف، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ففي الآية أمر بالعدل حتى مع الأعداء، فالعدل نظام هذا الوجود الإنساني، فلا يصح أن يكون البغض الشديد حاملًا على الاعتداء، ولا أن يكون البغض الشديد حاملًا على منع الحقوق، بل يعطي كل ذي حق حقه، ولو كان عدوًّا مبينًا، فالحق ليس منحة من شخص لشخص يسلبه إن أبغض، ويعطيه إن أحب، بل إن التمكين منه واجب مقدس أمر الله سبحانه وتعالى به، وحث عليه[2].

فعن أبي ذرٍّ، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنّه قال: (يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا، فلا تظالموا)[3].

وإذا كان العدل ينبغي أن يكون شعار كل مسلم فما بالنا بالخالق الذي من أسمائه العدل، ولذلك بيّن الحق سبحانه وتعالى أنه لا يظلم أحدًا فقال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قال الطبري: «ولا يجازي ﴿رَبُّكَ أَحَدًا﴾ يا محمد بغير ما هو أهله، لا يجازي بالإحسان إلا أهل الإحسان، ولا بالسيئة إلا

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢٠٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، رقم ٢٥٧٧، عن أبي ذر رضي الله عنه.

أهل السيئة، وذلك هو العدل»[1].

ولذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

و(المثقال) مفعال من الثقل، ويطلق على الشيء القليل الذي يحتمل الوزن، و(الذرة) تطلق على أصغر النمل، وعلى الغبار الدقيق الذي يتطاير من التراب عند النفخ فيه. والمقصود المبالغة في الجزاء على الأعمال مهما بلغ صغرها، وحقر وزنها[2].

قال الطبري: «فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير، يرى ثوابه هنالك -يعني: في الآخرة- حتى ولو كان هذا العمل في نهاية القلة»[3].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ يقول: ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه هنالك. حتى ولو كان هذا العمل أيضًا في أدنى درجات القلة.

والآية تدل على أمرين مهمين:

الأول: أن الحق سبحانه وتعالى يسجّل لكل عبد من عباده -من خلال الملائكة- الحسنات والسيئات مهما قلّت أو كثرت، كما قال: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[الكهف: ٤٩].

(١) جامع البيان ٢٠/ ١٥١.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٤٧٩.
(٣) جامع البيان ٢٤/ ٥٤٩.

الثاني: أن الحق سبحانه وتعالى يجازي كل إنسان بما كسبت يديه، فمن يعمل خيرًا يجد جزاء ذلك خيرًا، ومن يعمل شرًّا يجد جزاء ذلك شرًّا، فالجزاء من جنس العمل، والثواب والجزاء من قبل الله يكون في الدنيا والآخرة. فعدل الله أنه يثيب المحسن ويجازي المسيء.

ولذا يقول الحق مؤكدًا هذا المعنى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: فلا يظلم الله نفسًا ممن ورد عليه منهم شيئًا، بأن يعاقبه بذنب لم يعمله، أو يبخسه ثواب عمل عمله، وطاعة أطاعه بها، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، ولا يعاقب مسيئًا إلا بإساءته. وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: وإن كان الذي من عمل الحسنات، أو عليه من السيئات وزن ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ وجئنا بها فأحضرناها إياه. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ يقول: وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين؛ لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف في الدنيا من صالح أو سيِّء منا[4].

(٤) المصدر السابق ١٨/ ٤٥١.

وهكذا يتبين عدل الحق سبحانه وتعالى في معاملة الخلق، ومجازاة كل إنسان بما كسبت يداه وعملته جوارحه.

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، الجزاء، العذاب

الجاهلية

عناصر الموضوع

مفهوم الجاهلية	٣١٨
الجاهلية في الاستعمال القرآني	٣١٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٠
الجهل والطبيعة الإنسانية	٣٢١
تنزيه الرسل عن أخلاق الجاهلين	٣٢٢
أنواع الجاهلية	٣٢٤
من صور الجهالة	٣٢٨
علاج الجهالة	٣٣٠
التعامل مع الجاهلين	٣٣٣

مفهوم الجاهلية

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (جهل) تدل على معنين: أحدهما: خلاف العلم، والآخر: الخفة وخلاف الطمأنينة[١].

والجاهلية في اللغة: «يعبّر بها عن التناهي في الجهل»[٢]، «وأصل الجهل من قولهم: استجهلت الريح الغصن، إذا حرّكته، فكأن الجهل إنما هو حركةٌ تخرج عن الحق والعلم»[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الجاهلية في الاصطلاح: «هي عادة القوم قبل الإسلام»[٤]؛ «لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع»[٥]، وقد أطلق عليها القرآن أحيانًا لفظ: (الجاهلية الأولى)، «ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى- جاهلية الكفر قبل الإسلام. والجاهلية الأخرى- جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام»[٦].

فيكون بهذا لفظ الجاهلية ليس معناه شيئًا واحدًا! وإنما هو مجموعة العادات والتقاليد التي كان يتسم بها الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، مما جاء الإسلام بإبطالها.

«وأحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيرًا من الجهل، وترغيبًا في العلم؛ ولذلك يذكره القرآن في مقامات الذم في نحو قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة: ٥٠]، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣]»[٧].

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

الجهل في اللغة ضد العلم، وفي الاصطلاح وصف به أهل الشرك تنفيرًا من الجهل، وترغيبًا في العلم.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٩٠.
(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٢/ ٥٩٧.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٢٢٠.
(٤) كشف المشكل، ابن الجوزي ٢/ ٣٧٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٣٧.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٣٦.

الجاهلية في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ج هـ ل) في القرآن(٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٥	﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾[الأنعام:١١١]
مصدر صناعي	٤	﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة:٥٠]
اسم الفاعل	١٠	﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣]
مصدر سماعي	٤	﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء:١٧]
صيغة مبالغة	١	﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[الأحزاب:٧٢]

وجاءت الجاهلية في القرآن بمعناها في اللغة وهي من الجهل، والجهل في اللغة على ثلاثة أضرب[٢]:

الأول: وهو خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل.

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، كمن يترك الصلاة متعمدًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾[البقرة:٦٧].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٨٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٠٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسلام:

الإسلام لغة:

الاستسلام، والانقياد[١].

الإسلام اصطلاحًا:

الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله[٢].

الصلة بين الجاهلية والإسلام:

الجاهلية هي مجموعة العادات والتقاليد التي كان يتسم بها الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، مما جاء الإسلام بإبطالها، فالإسلام مرحلة مهمة في إبطال مجموعة العادات والتقاليد المخالفة التي انتشرت في الجاهلية.

٢ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: (أشرك بالله: كفر، أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك)[٣]، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه[٤].

الصلة بين الجاهلية والشرك:

من أخطر الأمور المتفشية في الجاهلية المتعلقة بالعقيدة هو الشرك، والذي كان للشياطين العلاقة الوطيدة فيه، روى الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة رنّ إبليس رنة اجتمعت إليه جنوده، فقال: ايئسوا أن تردّوا أمّة محمد على الشرك بعد يومكم هذا، ولكن افتنوهم في دينهم، وأفشوا فيهم النوح)[٥].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٥٢، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٩٠.
(٢) انظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع، محمد بن عبد الوهاب، ص١٤.
(٣) تاج العروس، الزّبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.
(٤) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.
(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٢/ ١١، رقم ١٢٣١٨. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة،

الجهل والطبيعة الإنسانية

قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

قال طاووس ومقاتل وغيرهما: «لا يصبر عن النساء»، وقال الحسن: «هو خلقه من ماءٍ مهينٍ»، وقال الزجاج: «ضعف عزمه عن قهر الهوى».

قال ابن القيم: «والصواب أن ضعفه يعم هذا كلّه، وضعفه أعظم من هذا وأكثر؛ فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدود»[1].

لقد فطر الله الإنسان على صفات النقص كتقدير كوني، لكنه سبحانه أرشده إلى ما يزيل به نقصه ذلك أو بعضه، فمثلًا: طبع الله الإنسان على الخطأ، كما قال صلى الله عليه وسلم: (كلّ بني آدم خطّاءٌ، وخير الخطّائين التّوّابون)[2]، فانظر كيف دلّه على ما يمحو به أخطاءه!

وكذلك طبع الإنسان على الظلم والجهل، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم دلّه ربّه سبحانه على ما يرفع به عن نفسه ذلك الظلم والجهل، فقال لرفع الظلم: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال سبحانه لرفع الجهل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وعن أول خروج الإنسان للدنيا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ثم أعطاه الله ما يرفع به عن نفسه ذلك الجهل الفطري فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

بهذا نعلم أن الجهل من طبيعة الإنسان البشري، لكنه مأمور شرعًا برفع ذلك الجهل عن نفسه؛ ليسلم من تبعات الأخطاء التي يرتكبها بسبب جهله، خاصة إن كان في حاضرة علم وعلماء.

٧/ ١٣٧٣، رقم ٣٤٦٧.

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ١٠٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب رقم ٤٩، ٤/ ٦٥٩، رقم ٢٤٩٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥١. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣١، رقم ٤٥١٥.

تنزيه الرسل عن أخلاق الجاهلين

الإيمان بأنبياء الله تعالى ركن من أركان الإيمان بالله تعالى، لا يصح إيمان عبد بدونه.

قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولا شك أن الأنبياء والرسل هم المبلّغون عن الله تعالى دينه ورسالته؛ لذا فلم يرسل الله تعالى لتلك المهمة إلا الخلّص من عباده.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

أي: «يختار ويجتبي من الملائكة رسلًا ومن الناس رسلًا يكونون أزكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم ليس جاهلًا بحقائق الأشياء! أو يعلم شيئًا دون شيء! وإنما المصطفي لهم السميع البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاختياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]»[1].

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة ثمانية عشر نبيًّا ورسولًا.

قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

ولما أمر موسى عليه السلام قومه أن يذبحوا بقرة، كان جوابهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ﴾! فكان جوابه عليه السلام أن: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]: «تبرؤٌ وتنزّه عن الهزء؛ لأنه لا يليق بالعقلاء الأفاضل، فإنه أخص من المزح؛ لأن في الهزؤ مزحًا مع استخفاف واحتقار للممزوح معه، على أن المزح لا يليق في المجامع العامة والخطابة، على أنه لا يليق بمقام الرسول؛ ولذا تبرأ منه موسى بأن نفى أن يكون من الجاهلين، كناية عن نفي المزح بنفي ملزومه، وبالغ في التنزه بقوله:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٤٦.

﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ أي: منه؛ لأن العياذ بالله أبلغ كلمات النفي، فإن المرء لا يعوذ بالله إلا إذا أراد التغلب على أمر عظيم لا يغلبه إلا الله تعالى»[1].

إذن فهم عليهم الصلاة والسلام منزّهون معصومون عن الوقوع في أعمال الجاهلين.

وما بعث الله أنبياءه عليهم الصلاة والسلام إلا لينهوا أقوامهم وأممهم عن أعمال الجاهلين، فنبينا عليه الصلاة والسلام قرأ على قومه لوم الذين ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[آل عمران: ١٥٤].

وبلّغ أمّته نكير الله على الحاكمين بالجاهلية إذ قال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وتلا عليه الصلاة والسلام على نسائه ونساء المؤمنين: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣].

وكانت أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم تنهى عن حمية الجاهلية، وبيّنت هذه الآية أنها في قلوب الكافرين لا المؤمنين بالله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

بل إن المتأمل في سيرتهم عليهم الصلاة والسلام، يجد -بلا عناء- أنهم دعاة إلى ضد الجهل والجاهلية والجهالة، ولنستعرض هنا بعض الآيات التي تدل على ذلك:

فهذا نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام يقول كلٌّ منهم لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فتوحيد الله في العبادة هو أعظم العلم، والشرك به سبحانه أعظم الجهل.

وهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وكما سيأتي معنا أن كلّ من عصى اللّه فهو جاهلٌ، وكلّ من أطاعه فهو عالمٌ، وهذا الاستغفار الذي أمرهم به هو من أعظم العلم الذي يهدم جهل المعصية، وكلما كان العبد صادقًا في توبته واستغفاره كان أكثر علمًا بالله تعالى وبعظيم قدره.

بهذا نعلم مدى بعد أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام عن أخلاق الجاهلين وأعمالهم وصفاتهم. ولله الحمد.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٤٨.

أنواع الجاهلية

تحدث القرآن عن أنواع الجاهلية، وسوف نبيّن ذلك فيما يأتي:

أولًا: الجاهلية العقدية:

وهذه أخطر أنواع الجاهلية؛ لأنها تمس دين المسلم وعقيدته -والعياذ بالله-.

ومن أدلة هذه الجاهلية العقدية:

أولًا: قوله جل في علاه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

و«إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقًا للأشياء، وبكونه مالكًا لمقاليد السموات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة؛ فقد بلغ في الجهل مبلغًا لا مزيد عليه؛ فلهذا السبب قال: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع»[1].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

ثانيًا: قول الحق سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قال ابن كثير رحمه الله في الكلام عن هذه الآية: «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان، الذي وضع لهم اليساق: وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا، يقدّمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله؛ حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يحكّم سواه في قليل ولا كثير»[2].

فالحكم من أعظم خصائص ألوهية الرب سبحانه وتعالى، كما قال تعالى:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٧١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣١.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فلا يجوز لأحد سواه أن يحكم في الناس بغير حكمه سبحانه، ولا يجوز لمسلم أن ينصاع لأحد يريد أن يحكمه بغير حكم الله تعالى، وقد حصر الله الحكم له سبحانه فقال في ثلاث آيات من القرآن: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، [يوسف: ٤٠]، [يوسف: ٦٧].

ثالثًا: قول الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

أي: «إنكم أيها القوم قوم تجهلون عظمة الله وواجب حقّه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السموات والأرض»[(١)].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بيّن أنواع نعمه على بني إسرائيل، بأن أهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم، أتبع ذلك بالنعمة العظمى: وهي أن جاوز بهم البحر مع السلامة، ولما بيّن تعالى في سائر السور كيف سيّرهم في البحر مع السلامة، وذلك بأن فلق البحر عند ضرب موسى البحر بالعصا، وجعله يبسًا؛ بيّن أن بني إسرائيل لما شاهدوا قومًا يعكفون على عبادة أصنامهم جهلوا وارتدوا وقالوا لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة! ولا شك أن القوم لما شاهدوا المعجزات الباهرة التي أظهرها الله تعالى لموسى على فرعون، ثم شاهدوا أنه تعالى أهلك فرعون وجنوده، وخص بني إسرائيل بأنواع السلامة والكرامة، ثم إنهم بعد هذه المواقف والمقامات يذكرون هذا الكلام الفاسد الباطل؛ كانوا في نهاية الجهل وغاية الخلاف»!![(٢)].

وقد قال لهم موسى عليه السلام بعد بيانه جهلهم -محذّرًا لهم عاقبة أولئك العاكفين على عبادة غير الله تعالى-: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم مبيّنًا لبعض نعم الله عليهم: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤٠-١٤١]! أي: فكيف بعد كل هذه النعم تريدون عبادة غيره؟! ما هذا إلا من أعظم أدلة جهلكم بقدر خالقكم ومنجيكم سبحانه وتعالى!

(١) جامع البيان. للطبري ١٣/ ٨٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٤٩.

ثانيًا: الجاهلية السلوكية:

وهذه الجاهلية السلوكية دون تلك العقدية، لكنها قد تصل بصاحبها إلى الكفر بالله تعالى عياذًا بالله إذا عملها مستحلًّا لها، بل حتى لو لم يعملها لكنه اعتقد حلّها بعد أن حرّمها الله تعالى.

ولهذا النوع من الجاهلية أمثلة في القرآن الكريم، نذكر هنا بعضها لتدل على ما سواها، فمن ذلك:

أولًا: قول نبي الله يوسف عليه السلام حين دعته امرأة العزيز والنسوة من ورائها ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

«فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعونه إليه لذةٌ عظيمة، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟

قلت: كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظرًا في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظرًا في مشتهى النفس ومكروهها»[1].

وقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: «من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء.

أو من السفهاء؛ لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح»[2].

والتعبير بـ«قوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أبلغ من قول: وأكن جاهلًا»[3].

وفي قوله عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ...﴾ دلالة «على أن أحدًا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله»[4].

ثانيًا: وقال لوط عليه السلام لقومه: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

أي: «تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك! أو تجهلون العاقبة، أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها»[5].

إن «مجرد الكشف عن هذه الفاحشة يكفي لإبراز شذوذها وغرابتها لمألوف البشرية، ولمألوف الفطرة جميعًا! ثم دمغهم بالجهل بمعنييه: الجهل بمعنى فقدان العلم، والجهل بمعنى السفه والحمق، وكلا المعنيين متحقق في هذا الانحراف البغيض؛ فالذي لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شيء، ولا يعلم شيئًا أصلًا! والذي يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه أحمق معتدٍ على جميع الحقوق»![6].

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٦٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٦٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٨٥.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٦٢.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٤٧.

«ثم إنه تعالى بيّن جهلهم بأن حكى عنهم أنهم أجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح أن يكون جوابًا له فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]!»[١].

«سبحان الله! ومتى كان الطهر ذنبًا وجريمة تستوجب أن يخرج صاحبها من بلدة؟ إنها نغمة نسمعها دائمًا من أهل الباطل في كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق، ويسعون لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم.

ومن عدل الله تعالى أن يظهر في منطقهم دليل إدانتهم وخبث طباعهم، فكلمة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ التي نطقوا بها تعني: أنهم أنفسهم أنجاس تزعجهم الطهارة، وما أحلّ الله من الطيبات، وكأن الله تعالى يجعل في كلامهم منافذ لإدانتهم، وليحكموا بها على أنفسهم»[٢].

ثالثًا: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

«وقوله تعالى: ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن المراد من كان في زمن نوح، والجاهلية الأخرى من كان بعده.

وثانيهما: أن هذه ليست أولى تقتضي أخرى؛ بل معناه تبرّج الجاهلية القديمة، كقول القائل:

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى»[٣].

«كأن المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر»[٤].

ثم «أمرهن أمرًا خاصًّا بالصلاة والزكاة ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ثم جاء به عامًّا في جميع الطاعات ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات، من اعتنى بهما حق اعتنائه جرّتاه إلى ما وراءهما.

ثم بيّن أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن؛ لئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم، وليتصوّنوا عنها بالتقوى، واستعار للذنوب: الرجس، وللتقوى: الطهر؛ لأنّ عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس، كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وأما المحسنات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وفي هذه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٦٢.
(٢) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٨٠٦
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٦٧.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٣٧.

الاستعارة ما ينفر أولى الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه، ويرغّبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به»[1].

من صور الجهالة

عرض القرآن الكريم صورًا للجهالة، نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الوقوع في المعصية:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧].

والسوء: «هو العمل القبيح الذي يسوء فاعله إذا كان عاقلًا سليم الفطرة»[2].

قال ابن رجب: «فإنّ كلّ من عصى اللّه فهو جاهلٌ، وكلّ من أطاعه فهو عالمٌ، وبيانه من وجهين:

أحدهما: أنّ من كان عالمًا باللّه تعالى وعظمته وكبريائه وجلاله، فإنّه يهابه ويخشاه، فلا يقع منه -مع استحضار ذلك- عصيانه، كما قال بعضهم: لو تفكّر الناس في عظمة اللّه تعالى ما عصوه، وقال آخر: كفى بخشية اللّه علمًا، وكفى بالاغترار باللّه جهلًا.

والثاني: أنّ من آثر المعصية على الطاعة فإنّما حمله على ذلك جهله، وظنّه أنها تنفعه عاجلًا باستعجال لذّتها، وإن كان عنده إيمان فهو يرجو التخلّص من سوء عاقبتها بالتوبة في آخر عمره، وهذا جهل محضٌ!

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير المراغي ٤/ ٢٠٧.

فإنّه يتعجّل الإثم والخزي، ويفوته عزّ التقوى وثوابها ولذّة الطاعة، وقد يتمكّن من التوبة بعد ذلك، وقد يعاجله الموت بغتةً، فهو كجائع أكل طعامًا مسمومًا لدفع جوعه الحاضر، ورجا أن يتخلّص من ضرره بشرب الدّرياق بعده، وهذا لا يفعله إلا جاهلٌ»[1].

ولهذا يوصف من لم يعمل بعلمه بالجهل وعدم العلم، «قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد عن هذه الآية: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ...﴾ فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، ومنه قول ابن مسعود: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا! وقيل للشعبي: أيها العالم! فقال: العالم من يخشى الله!

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨]»[2].

«وقيل: معنى الجهالة أن يأتي الإنسان بالذنب مع العلم بأنه ذنب، لكنه يجهل عقوبته»[3].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

ثانيًا: عدم التثبت في الأخبار:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

«والجهل: فوق الخطأ؛ لأن المجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلًا، والذي يبني الحكم على قول الفاسق إن لم يصب جهل، فلا يكون البناء على قوله جائزًا»[4].

قال ابن عاشور: «والجهالة: تطلق بمعنى ضد العلم، وتطلق بمعنى ضد الحلم مثل قولهم[5]:

بجهل كجهل السيف

فإن كان الأول: فالباء للملابسة، وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي: متلبسين أنتم بعدم العلم بالواقع لتصديقكم الكاذب، ومتعلق ﴿تُصِيبُوا﴾ على هذا الوجه محذوف دل عليه السياق سابقًا ولاحقًا، أي: أن تصيبوهم بضر، وأكثر إطلاق الإصابة على

(١) روائع التفسير. ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٩٧.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٥٣٩.
(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٥٥.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٩٩.
(٥) الشاهد من بيت لابن الرومي، تمامه:
بجهل كجهل السّيف والسيف منتضى
وحلم كحلم السيف والسّيف مغمد
انظر: الصناعتين. للعسكري ص ٤٢٤.

إيصال الضر.

وعلى الإطلاق الثاني: الباء للتعدية، أي: أن تصيبوا قومًا بفعلٍ من أثر الجهالة، أي: بفعل من الشدة والإضرار»[1].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٣٢.

علاج الجهالة

تحدث القرآن الكريم عن علاج الجهالة، وهذا ما سوف نبينه فيما يأتي:

أولًا: التوبة:

من رحمة الله تعالى أنه (ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً)[2]؛ لعلم الله سبحانه بضعف هذا الإنسان من كل جهة -كما سبق-، وداء الجهالة التي معناها: الوقوع في الذنب عن علم أو غير علم، جعل الله تعالى له علاجًا ناجعًا، وهذا العلاج مكوّن من أمرين اثنين، أولهما: التوبة الصادقة لله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

والجهالة هنا إما:

- عدم العلم بتحريم ذلك، وسبب عدم العلم «عدم أسبابه: من النظر التام، والاستماع التام لآيات الحق وأعلامه، وسبب عدم النظر والاستماع: إما عدم المقتضي فيكون عدمًا محضًا، وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد في

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم ٥٣٥٤.

النفس ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]»[١].

❁ وإما «بجهالة بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمدًا للذنب، فإنه لابد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مفارقة الذنب، فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب، وندم عليه، وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها»[٢].

«والتوبة: الرجوع، وصحتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيء الذي تيب منه»[٣].

ففتح باب التوبة من أعظم نعم الله تعالى على عباده، فله الحمد سبحانه.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية، يروى عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قوله: «هذه الآية خيرٌ لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها»[٤].

وقال ابن سيرين: «أعطانا اللّه عز وجل هذه الآية مكان ما جعل لبني إسرائيل في كفارات ذنوبهم»[٥].

وعند هاتين الآيتين: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

يلفت شيخ الإسلام رحمه الله الانتباه لنكتة قيّمة فيقول: «وذكر التوبة لعلمه سبحانه وتعالى أنه لابد لكل إنسان من أن يكون فيه جهل وظلم، ثم يتوب الله على من يشاء، فلا يزال العبد المؤمن دائمًا يتبين له من الحق ما كان جاهلًا به، ويرجع عن عمل كان ظالمًا فيه، وأدناه ظلمه لنفسه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]..»[٦].

ثانيًا: الإصلاح:

عطف الله سبحانه وتعالى الإصلاح على التوبة في ثماني آيات من القرآن الكريم، منها الآية التي ذكرت في العلاج الأول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٤/ ٢٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥١.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٩٧.
(٤) انظر: الترغيب والترهيب، قوام السنة ١/ ١٧١، رقم ٢١٩.
(٥) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٥٦٤.
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٤٨.

﴿ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٥].

ومنها كذلك: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء: ١٦].

ولا شك أن هذا التكرار لهذا العطف يدعو المسلم للتدبر في سر ومعنى هذا العطف.

قال الألوسي: «﴿وَأَصْلَحُوا﴾: أي: أصلحوا أعمالهم أو دخلوا في الصلاح، وفسّر بعضهم الإصلاح بالاستقامة على التوبة»[(١)].

وقال ابن كثير: «أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام عن آدم عليه السلام: «فإن قيل: وهو قد تاب فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض؟ قيل: التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله؛ فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩]»[(٣)].

وهنا لطيفة يسعفنا بها الشعراوي رحمه الله فيقول: «ومعنى كلمة (أصلح) أنه زاد شيئًا صالحًا على صلاحه، والكون ليس فيه شيء فاسد -اللهم إلا ما ينشأ عن فعل اختياري من الإنسان- وعلى التائب أن يزيد الصلاح في الكون، وهكذا نضمن ألا يجيء التائب إلى الشيء فيفسده؛ لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحًا، لن يفسد الشيء الصالح.

وربما كان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم في لحظة من لحظات غفلة وعيهم الإيماني ساعة يذكرون الذنب أو الجريرة التي اقترفوها بالنسبة لدينهم، يحاولون أن يجدّوا ويسارعوا في أمرٍ صالح حتى يجبر الله كسر معصيتهم السابقة بطاعتهم اللاحقة»[(٤)].

(١) روح المعاني، الألوسي ٧/ ٤٨٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦١٠.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٣٢٢.
(٤) تفسير الشعراوي ٣/ ١٦٠٥.

التعامل مع الجاهلين

أرشد القرآن الكريم إلى وسائل التعامل مع الجاهلين؛ ليسلكها المؤمنون مع الجاهلين، وهذه الوسائل نذكرها فيما يأتي:

أولًا: الإعراض:

قال الله تعالى لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

اعلم أن «الحقوق التي تستوفى من الناس وتؤخذ منهم، إما أن يجوز إدخال المساهلة والمسامحة فيها، وإما أن لا يجوز.

أما القسم الأول: فهو المراد بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ ويدخل فيه ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية، ويدخل فيه أيضًا التخلق مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلظة والفظاظة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف، كما قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، والعرف، والعارفة، والمعروف: هو كل أمر عرفٍ أنه لابد من الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه؛ وذلك لأن في هذا القسم لو اقتصر على الأخذ بالعفو ولم يأمر بالعرف ولم يكشف عن حقيقة الحال، لكان ذلك سعيًا في تغيير الدين وإبطال الحق وأنه لا يجوز، ثم إنه إذا أمر بالعرف ورغّب فيه ونهى عن المنكر ونفّر عنه، فربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء! فلهذا السبب قال تعالى في آخر الآية: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال في آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

وقال في صفة أهل الجنة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥]»[(١)].

«وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قولان:

أحدهما: أنهم المشركون، أمر بالإعراض عنهم، ثم نسخ ذلك بآية السيف.

والثاني: أنه عام فيمن جهل، أمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفههم، وإن وجب عليه الإنكار عليهم.

وهذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة، وعند بعضهم أن وسطها محكم وطرفيها

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٣٥.

منسوخان على ما بيّنا»[1].

قال ابن جرير: «وذلك وإن كان أمرًا من الله نبيه؛ فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الواجب عليه من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب!»[2].

وقد ورد في البخاري مثال تطبيقي لهذه الآية مع الخليفة الثاني رضي الله عنه عمر بن الخطاب، يحكيه ابن عباس رضي الله عنهما، فيقول: (قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبانًا»، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: «فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه، قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وإن هذا من الجاهلين، «والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله»[3].

ثانيًا: الخطاب بالحسنى:

لم يكتف الحق سبحانه وتعالى في أمر عباده الأتقياء بالإعراض عن الجاهلين فحسب، بل وحثهم على أن يقولوا لهم قولًا حسنًا، ويردوا عليهم ردًّا جميلًا، فقال تعالى حاكيًا حال عباده مع أهل الجهالة: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

«أي: صوابًا من القول وسدادًا.

وقال الحسن البصري رحمه الله: هذا دأبهم في النهار، فإذا دخل الليل كانوا كما وصف الله في آخر الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾»[4].

«وقال مجاهد: معنى ﴿سَلَٰمًا﴾ قولًا سديدًا، أي: يقول للجاهل كلامًا يدفعه به برفق ولين فقالوا على هذا التأويل عامل في قوله ﴿سَلَٰمًا﴾ على طريقة النحويين، وذلك أنه بمعنى قولًا، وهذه الآية كانت قبل آية السيف فنسخ منها ما يختص الكفرة، وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٨١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٣٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، ٦/ ٦٠، رقم ٤٦٤٢.
(٤) انظر: لطائف الإشارات، التستري ١/ ١١٤.

القيامة»[1].

قال الشعراوي: «والجاهل: هو السفيه الذي لا يزن الكلام، ولا يضع الكلمة في موضعها، ولا يدرك مقاييس الأمور، لا في الخلق ولا في الأدب.

وسبق أن فرقنا بين الجاهل والأمي:

الأمي خالي الذهن، ليس عنده معلومة يؤمن بها، وهذا من السهل إقناعه بالصواب. أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع؛ لذلك يأخذ منك مجهودًا في إقناعه؛ لأنه يحتاج أولًا لأن تخرج من ذهنه الخطأ، ثم تدخل في قلبه الصواب.

والمعنى: إذا خاطبك الجاهل، فحذار أن تكون مثله في الرد عليه فتسفه عليه كما سفه عليك، بل قرعه بأدب وقل: ﴿سَلَٰمٌ﴾ لتشعره بالفرق بينكما»[2].

موضوعات ذات صلة:

الأمية، العلم، الفقه

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢١٨.
(٢) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٥٠٢.

الجبال

عناصر الموضوع

مفهوم الجبال	٣٣٨
الجبال في الاستعمال القرآني	٣٣٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٠
الجبال والأرض	٣٤٢
الجبال والإنسان	٣٤٩
الجبال والساعة	٣٥٤

مفهوم الجبال

أولًا: المعنى اللغوي:

«الجيم والباء واللّام أصلٌ يطّرد ويقاس، وهو تجمّع الشّيء في ارتفاعٍ؛ فالجبل معروفٌ، والجبل: الجماعة العظيمة الكثيرة، قال[1]:

أمّا قريشٌ فإن تلقّاهم أبدًا إلّا وهم خير من يحفى وينتعل

إلّا وهم جبل اللّه الّذي قصرت عنه الجبال فما ساوى به جبل»[2].

وعلى هذا فإن الجبل يعني في اللغة: المرتفع من الأرض ارتفاعًا ملحوظًا يجعله يعظم ويطول على ما حوله من الأرض، فإن انفرد فأكمةٌ أو قنّةٌ، ودونه في الارتفاع التل، ودون التل الربوة أو الرابية، أو النتوء الأرضي، أو الأكمة وجمعها آكام، ودون الأكمة النجد أو الهضبة، ودون الهضبة السهل، ودون السهل المنخفض من تضاريس الأرض.

والجمع: أجبلٌ كأفلسٍ، وجبالٌ بالكسر، وأجبالٌ، والثّاني في القرآن كثيرٌ[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«الجبل» في الاصطلاح: هو كلّ وتدٍ للأرض، عظم وطال، وقيل: هو منطقة من الأرض ترتفع بشكل مفاجئ عما حولها.

و«السلاسل الجبلية» هي مجموعة كبيرة من الجبال تمتد لآلاف الكيلو مترات وتشكل ما يشبه الأحزمة، مثل سلسلة جبال الهملايا شمال الصين، وسلسلة جبال الألب في قلب أوربا.

وبالنظر إلى هذه التعريفات يتبين أن مصطلح الجبال حمّال لجميع مدلولاتها، وبالتالي فإن هذه الدراسة القرآنية ستركّز على بيان هذه المدلولات، واستخراج ما فيها من نتائج دعوية.

(١) البيتان من شواهد مقاييس اللغة، ولم يعلم لهما قائل. انظر: مقاييس اللغة ١/ ٥٠٢.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٠٢.
(٣) هذا البيت مما أنشده ابن الأعرابي ولم يعلم له قائل.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٢٧، الفصول والغايات، المعري ص ١٣٢.

الجبال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (جبل) في القرآن (٤١) مرة، والذي يخص موضوع البحث منها (٣٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم مفرد	٦	﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[الأعراف:١٧١]
اسم جمع	٣٣	﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[الأعراف:٧٤]

وجاءت (الجبال) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو تجمّع الشيء في ارتفاع، فالجبل معروف[٢]، وهو: ما علا من سطح الأرض واستطال وجاوز التل ارتفاعًا[٣].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، يعني: ولن تساوي الجبال طولًا بفخرك وكبرك[٤].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٦٣- ١٦٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٠٢.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٠٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٩٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأوتاد:

الأوتاد لغةً:

ما نزل في الأرض، وأوتاد الأرض الجبال، وأوتاد البلاد رؤساؤها[١].

الأوتاد اصطلاحًا:

ما يثبّت به الجبل في الأرض.

الصلة بين الأوتاد والجبال:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للأوتاد تبين أن الجبال أعم وأشمل منه؛ إذ إن الأوتاد يعني ما يثبّت به الجبل، والجبل يشمله، ويشمل ما فوقه من مرتفع.

٢ العلم:

العلم لغةً:

اسم يطلق على العلامة، والأثر، والجبل، والراية[٢].

العلم اصطلاحًا:

الجبل المرتفع الذي تعرف من خلاله الطريق، فهو كالبرق في لمعانه، واهتداء الناس من خلاله في سيرهم.

الصلة بين العلم والجبال:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للعلم تبين أن الجبل أعم منه وأشمل؛ إذ إن العلم يعني ما زاد ارتفاعه بحيث يكون دالًّا على الطريق، والجبل يعني: كل ما ارتفع من الأرض، وكان ثابتًا بوتد.

٣ السهل:

السهل لغةً:

هو «كل شيء يميل إلى اللين وقلة الخشونة»[٣].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ١٠٠٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٦٢٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٥٨.

السهل اصطلاحًا:

«أرض منبسطة لا تبلغ الهضبة»[1].

الصلة بين السهل والجبل:

السهل هو الأرض المنبسطة التي هي غير مرتفعة أبدًا، وبالتالي فإنه لا يحتاج إلى وتد وما شابه، كما أن مناخه وطبيعة منافعه تختلف عمّا يرتفع على الأرض، وأما الجبل فإنه يحتاج إلى وتدٍ إضافة إلى خاصية منافعه، إضافة إلى أن كليهما دالٌّ على قدرة الله تعالى وعظمته.

٤ الرّابية:

الرّابية لغةً:

وهي «ما ارتفع من الأرض»[2].

الرّابية اصطلاحًا:

كل شيء ارتفع عن الأرض، سواء أكان جبلًا، أم غير ذلك.

الصلة بين الرابية والجبل:

الرابية أعمّ وأشمل من الجبل، من كون الرابية تعني كل ما ارتفع عن الأرض، وهي بذلك تعني الجبل والهضبة والتل وغير ذلك؛ غير أن الجبل أوضح دلالة، وأعظم اعتبارًا في المدلول الدعوي.

٥ الوادي:

الوادي لغةً:

هو ما كان في المنخفض من الأرض، وجمعه أودية[3].

الوادي اصطلاحًا:

هو سيل الماء الواقع في منخفض بين جبلين.

الصلة بين الوادي والجبل:

الوادي منخفض عن سطح الأرض، والجبل مرتفع مثبّت بوتد.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٢٨٦.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٥٢١.

الجبال والأرض

اقترن ذكر الجبال بالأرض في القرآن؛ وذلك لعلاقتهما اللازمة؛ حيث حاجة الأرض إلى التثبيت وعدم الاضطراب، وسوف نوضح ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الجبال وخلق الأرض:

هناك مجموعة من الآيات تتحدث عن عملية تكوين الجبال وأصل نشأتها.

يقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[ق: ٧].

ويقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ﴾[النحل: ١٥ - ١٦].

قال الطاهر ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «انتقال إلى الاستدلال والامتنان بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان، وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض وموضوعة على ظاهر سطحها عبّر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض؛ ولعل خلقها كان متأخرًا عن خلق الأرض؛ إذ لعل الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم، ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار، وأما السّبل والعلامات فتأخّر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة شبيهًا بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه.

ولعل أصل تكوين الجبال كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح الأرض، كما أن الأمطار تهاطلت فكوّنت الأنهار، فيكون تشبيه حصول هذين بالإلقاء بيّنًا، وإطلاقه على وضع السّبل والعلامات تغليب، ومن إطلاق الإلقاء على الإعطاء، ورواسي جمع راسٍ، وهو الثبات والتمكن في المكان.

قال تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

ويطلق على الجبل رأس بمنزلة الوصف الغالب.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

تعليلٌ لإلقاء الرواسي في الأرض، والميد: الاضطراب، وضمير تميد عائد إلى الأرض بقرينة قرنه بقوله تعالى: ﴿بِكُمْ﴾؛ لأن الميد إذا عدي بالباء علم أن المجرور بالباء هو الشيء المستقر في

الظرف المائد، والاضطراب يعطّل مصالح الناس، ويلحق بهم آلامًا.

ولما كان المقام مقام امتنان علم أن المعلل به هو انتفاء الميد لا وقوعه.

ولعل الله جعل نتوء الجبال على سطح الأرض معدلًا لكرويتها، بحيث لا تكون بحدٍّ من الملاسة يخفّف حركتها في الفضاء تخفيفًا يوجب شدة اضطرابها»[1].

ثانيًا: الجبال والتوازن:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

قال ابن كثير: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون؛ ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح من كل زوجين اثنين، أي: من كل شكل صنفان.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: جعل كلًّا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضًا في الزمان، كما يتصرف في المكان والسكان، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في آلاء الله وحكمه ودلائله»[2].

والنظرة العلمية: في طيات هذه الآية الكريمة ثلاث حقائق أيّدها العلم بدلائل قوية، وهي:

أولًا: أن الله مدّ الأرض، وجعل فيها رواسي، ومدّ الأرض، أي: بسطها أينما سار الإنسان عليها.

ثانيًا: أنه سبحانه جعل في الأرض رواسي، أي: جبالًا لتحفظ التوازن اللازم للكرة الأرضية التي تتكون من منخفضات عميقة في البحار والمحيطات ومرتفعات شامخة من الجبال والهضاب، وأنه لابد في هذه الحالة من استقرار للأرض، واتزان لانتظام حركتها مع ثباتها.

ثالثًا: أنه سبحانه جعل من كل الثمرات زوجين اثنين، أي: جعل في الأشجار التي تحمل الثمار نوعي الذكر والأنثى حتى يتم تلقيح الأعضاء الأنثية بطريق حبوب اللقاح الموجودة بالأعضاء الذكرية، وبذلك تتوالد الأنواع وتتكاثر[3].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦ - ٧].

قال ابن كثير: «﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي:

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٠ - ١٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٣١.

(٣) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص١٤٥ - ١٤٦.

جعلها لها أوتادًا أرساها بها، وثبّتها وقرّرها حتّى سكنت، ولم تضطرب بمن عليها»[1].

والنظرة العلمية: تمكّن الإنسان بوسائله العلمية المختلفة أن يثبت أن الجزء الصلب من القشرة الأرضية يبلغ سمكه (٦٠) كيلومترًا، وأن بعض هذه القشرة يرتفع مكوّنًا الجبال وينخفض بعضها؛ ليكون قيعان البحار والمحيطات، وأن وجود الجبال على سطح الكرة الأرضية موزعة بدقة وحكمة يساعد على التوازن بين المرتفعات والمنخفضات، بحيث لا تميد الأرض ولا تضطرب، فكأن هذه الجبال تعمل عمل الأوتاد التي تحفظ توازن الخيمة واستقرارها.

وهناك حقيقة علمية أخرى وصل إليها البحث العلمي في توزيع الجبال واليابس والماء على سطح الأرض بنسب أحجامها الحالية، علاوة على التوازن بحيث لا تميد الأرض ولا تحيد عن موضعها، وهي أنه لو كانت الأرض بحجمها الحالي مكوّنة من الماء بنسبة أكبر لبلغ وزنها أقل مما هي عليه الآن؛ ولما تمكّنت من حفظ نسبة بعدها عن الشمس، بل لانجذبت إليها واحترقت، ولو كان أكثرها مكوّنًا من اليابس لزاد وزنها عما هي عليه الآن؛ ولبعدت عن الشمس البعد الذي لا تتحقق معه الحياة؛ لأنها في هذه الحالة تتجمد من شدة البرودة[2].

ثالثًا: الجبال والأنهار:

فضلًا عما تحتويه المناطق الجبلية من قدر كبير من التنوع الإحيائي العالمي، فإنها تقوم بوظيفة أخرى هامة جدًّا؛ إذ تعتبر مستجمعات لمعظم الموارد المائية في العالم، فهناك مجموعة من الآيات تصف الارتباط والعلاقة بين الجبال والماء والأنهار.

قال الرازي: من الاستدلال بأحوال الجبال أنّ بسببها تتولّد الأنهار على وجه الأرض؛ وذلك أنّ الحجر جسمٌ صلبٌ فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك، فلا تزال تتكامل، فيحصل تحت الجبل مياهٌ عظيمةٌ، ثمّ إنّها لكثرتها وقوّتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض، فمنفعة الجبال في تولّد الأنهار هو من هذا الوجه؛ ولهذا السّبب ففي أكثر الأمر أينما ذكر اللّه الجبال قرن بها ذكر الأنهار مثل ما في هذه الآية، أي: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

ومثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٠٢.

(٢) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص٦٤، ٦٥.

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧][1].

وقال أبو حيان: «ومن جهة تولّد الأنهار منها، قيل: وذلك لأنّ الجبل جسمٌ صلبٌ، ويتصاعد بخاره من قعر الأرض إليه ويحتبس هناك، فلا يزال يتكامل فيه فيحصل بسببه مياهٌ كثيرةٌ، فلقوّتها تشقّ وتخرج وتسيل على وجه الأرض، ولهذا في أكثر الأمر إذا ذكر الله تعالى الجبال ذكر الأنهار كهذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وكقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ [النحل: ١٥].

فقال المفسّرون: الأنهار المياه الجارية في الأرض، وقال الكرمانيّ: مسيل الماء»[2].

وقال النيسابوري: «من الدلائل الدالة على وجود الصانع ووحدانيته جريان الأنهار العظيمة على وجه الأرض الكائنة فيها من احتباس الأبخرة، وأكثر ذلك إنما يتكوّن في الجبال؛ فلذا قرن الجبال بالأنهار في القرآن كثيرًا؛ كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]»[3].

رابعًا: ألوان الجبال:

ورد اختلاف الألوان الجبال في آية كريمة تحدثت عن ألوان صخور الجبال، وأثر الماء في تعدد هذه الألوان وعلاقته به، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

وقد يعجب الإنسان من علاقة إنزال الماء من السماء باختلاف ألوان الجبال، ففي بحثٍ مطوّلٍ ومعقّدٍ جدًّا ملخّصه أنّ الماء هذا العنصر الحيويّ، والذي يعدّ من أعلى العناصر المذيبة والفعّالة، تبيّن أنه هو العامل الحاسم في تلوين الجبال، التي تأخذ ألوانها من ألوان معادنها التي تشترك في بنيتها، والمعادن تتلوّن بقدر أكسدتها، حيث إنّ الماء له علاقةٌ بهذه الأكسدة؛ لذلك تجد أنّ أحد عوامل تلوينها واختلاف ألوانها من جبالٍ كالغرابيب السود، وجبالٍ جددٍ بيضٍ، وحمرٍ مختلفٍ ألوانها يعود إلى الماء؛ لذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ١٩، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٥٧.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٤٦.
(٣) غرائب القرآن ٤/ ١٣٨.

فكل ما تقدّم العلم كشف عن جانب من إعجاز القرآن الكريم العلميّ من أجل أن نعلم علم اليقين أنّ الذي أنزل هذا القرآن هو الذي خلق الأكوان، وأنّ هذا التوافق بين معطيات العلم ومعطيات الوحي هو منطقيٌّ إلى درجةٍ قطعيةٍ؛ لأنّ الوحي كلام الله؛ ولأنّ الكون خلق الله، واتّحاد المصدر يعني اتّحاد الفروع، فلابدّ من تطابق العلم الحقيقيّ مع النقل الصحيح...، فلابد أن نعلم علم اليقين أنّ الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. وهنا عطفٌ.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

فقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضًا من بيضٍ وحمرٍ، وفي بعضها طرائق، وهي الجدد، جمع جدّة، مختلفة الألوان أيضًا، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: الجدد: الطرائق[1]. والغرابيب: الجبال الطوال السود.

وقال ابن جريرٍ: «والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غربيب، إذا وصفوه بشدّة السّواد، وجعل السّواد ها هنا صفةً للغرابيب»[2].

فما أعظم كمال وقدرة المولى سبحانه وتعالى في وصف بديع خلقه، فقد خلق الله الجبال مختلفة الألوان من بيضٍ وحمرٍ وأسود غرابيب أي: شديد السواد، فوضع لنا القرآن بإعجازه العلمي سرًّا من أسرار علوم الجيولوجيا، وأطلعنا على أنواع الجبال، ومهّد لنا مجال البحث في هذا العلم، حيث يقوم علماء الجيولوجيا بتصنيف الجبال تبعًا للصخور التي تغلب على تركيبها إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

١. جبال رسوبية طبقية.

وهي المشار إليها في الآية بـ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

فـ«الجدد البيض» هي صفة للجبال الرسوبية التي تكونت بفعل ترسيب الطبقات.

فمن المعاني اللفظية لكلمة ﴿جُدَدٌۢ﴾ الوارد ذكرها في الآية الكريمة معنى الشيء المتجدد، ويستدل العلماء على هذا الرأي بأن جبال الجليد الهائلة المتجمدة منذ ملايين السنين تشكّل ٩٠٪ من الماء المخزون في كوكب الأرض.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨١.

(٢) جامع البيان ١٩/ ٣٦٣.

وأيضًا «الجدد» بمعنى الغنى، ويفسّر العلماء هذا بأن جبال المعادن النفيسة والرخام والأحجار الكريمة ذات الألوان المختلفة تعدّ من مصادر الثروة للبشر.

ويقول علماء الجيولوجيا: إنها تتجدد ببطء مع مرور الزمن على الرغم مما يؤخذ منها عن طريق العوامل الطبيعية، أو ما تأخذه أيدي الإنسان، فكلما استنزفت قمم هذه الجبال ترتفع جذورها من الأعماق فتعوّض، أي: تجدد ما استنزف منها، وهي (بيض)؛ لأن اللون الغالب على هذه الجبال هو الأبيض حيث أن صخورها تنتمي إلى عائلة الصخور الجرانيتية التي تتكون أساسًا من معادن المرو الأبيض اللون، ومعادن أخرى مختلفة في ألوانها ودرجاتها مثل الفلسبار البوتاسي المقارب إلى اللون الأحمر، والبايوتايت الذي يتراوح بين الأصفر والبني المائل إلى الحمرة والعسلي؛ لذا نجد اختلاف الألوان ودرجاتها في الجبل.

٢. جبال قاعدية متبلورة.

وهي المشار إليها في الآية بـ﴿وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

ويفسّر العلماء اللون الأحمر لهذه الجبال التي ورد ذكرها في الآية الكريمة نتيجة لشيوع عنصر الحديد فيها، وهو الذي يتأكسد فيظهر الصخر بلون أحمر، ويصاحب الحديد معادن أخرى كالنحاس والرصاص، وتختلف نسبة وجود هذه المعادن؛ لذلك يظهر اللون الأحمر بدرجات متفاوتة.

٣. جبال بركانية نارية.

وهي المشار إليها في الآية بـ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

و«الغرابيب السود» هي الجبال النارية البركانية غير المتبلورة، حيث يشيع اللون الأسود عليها؛ لأن البازلت وهو صخر ناري أسود اللون يغلب على تكوين هذه الجبال ويتكون بفعل تجمد الأفا.

وهي المادة المنصهرة التي تخرج من فواهات البراكين، ربط الله سبحانه وتعالى بين اختلاف ألوان الثمار واختلاف ألوان الجبال في الآية الكريمة، ورغم غرابة هذا الارتباط إلا أنه يبدو طبيعيًّا من جانب الدراسة العلمية للألوان، فسبحان الله الذي أبدع كل شيء بكلمات موجزة معبّرة عن المعجزات خلق الله، وصف الله الجبال بمعنى آخر هو: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦ - ٧][1].

وقال تعالى أيضًا عن نزول الأمطار: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص ١٧٤.

﴿يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

قال أبو السعود: «﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الغمام، فإن كلّ ما علاك سماءٌ ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ أي: من قطعٍ عظامٍ تشبه الجبال في العظم كائنة فيها، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ مفعول ينزل، على أنّ ﴿مِنۢ﴾ تبعيضيّةٌ، والأوليان لابتداء الغاية على أنّ الثّانية بدل اشتمالٍ من الأولى بإعادة الجار أن ينزل مبتدئًا من السماء من جبال فيها بعض برد»[1].

وقال الشوكاني والبيضاوي بمثل ما قال أبو السعود إلا أنهما اعتبرا ﴿مِنۢ﴾ الثالثة بيانية، فقال: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال والمفعول محذوف؛ أي: ينزل مبتدئًا من السماء من جبال فيها من برد[2].

فقوله تعالى: ﴿خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣].

فيه سر لا يعرفه إلا من تمكّن من مراقبة مراحل تكوين البرد داخل السحاب، ومن الذي أنبأه بأن للبرد برقًا، وأن البرد هو السبب في حصوله، وأنه يكون أشد أنواع البرق ضوءًا؟ إن ذلك لا يعرفه إلا من درس الشحنات الكهربائية داخل السحاب واختلاف توزيعها ودور البرد في ذلك؛ ولشدة خفاء هذا الأمر فقد نسب المفسرون البرق إلى السحاب، وإن كان السحاب يشتمل على البرد في كلام المفسرين، ولم نجد من نسب هذا البرق إلى البرد مع أنه المعنى الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣][3].

(١) إرشاد العقل السليم، ٦/ ١٨٤.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١١٠، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٩.

(٣) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، جامعة المدينة العالمية ص٣٠٢- ٣٠٣، ٣١٥.

الجبال والإنسان

أخبر القرآن عن اتخاذ الإنسان الجبال كحصون وبيوت للسكن، وسوف نبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: الجبال والوزر:

الوزر في اللّغة: ما يلجأ إليه الإنسان من حصنٍ أو جبلٍ أو غيرهما.

ومنه قول طرفة[1]:

ولقد تعلم بكرٌ أنّنا
فاضلو الرّأي وفي الرّوع وزر

وقول حسان بن ثابت[2]:

الناس ألبٌ علينا ثم ليس لنا
إلا السيوف وأطراف القنا وزر

وقال الطاهر ابن عاشور: «الوزر: المكان الّذي يلجأ إليه للتّوقّي من إصابة مكروهٍ مثل الجبال والحصون»[3].

ومنه قول الله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١٠ - ١١].

فـ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب المفرّ وتمنّيه، و﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ ولا حصن، استعير من الجبل، فـ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: لا ملجأ من النّار. فـ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي: لا، ليس هنالك يا ابن آدم فرار ولا جبل ولا حصن، ولا مكان يلجأ إليه ويفر إليه، ولا جبل ولا معقل، ولا ملجأ من اللّه.

وقال ابن مسعودٍ والضحاك: لا حصن، وقال الحسن: لا جبل، وقال ابن عباس: ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا حصن ولا ملجأ.

وقال عكرمة: لا منعة، وقال ابن جبيرٍ: لا محيص ولا منعة، وقال مطرف بن الشخير: ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا جبل، إن الناس إذا فروا قالوا: عليك بالوزر، وقال السّدّيّ: كانوا في الدّنيا إذا فزعوا تحصّنوا في الجبال، فقال اللّه لهم: لا وزر يعصمكم يومئذٍ منّي، واشتقاقه من الوزر وهو الثقل، أي: ملجأً للخائف، وكذلك هو قول أبي قلابة ومجاهد وقتادة[4].

قال القرطبي: «المعنى في ذلك كلّه واحدٌ»[5].

وأصل هذا أنهم كانوا إذا ضيق عليهم في الحروب والهزائم الشداد لجؤوا إلى الجبال والمعاقل، فأعلموا أنه لا ملجأ من عذاب الله في القيامة إلى جبل ولا إلى غيره[6].

(١) انظر: ديون طرفة بن العبد ص٣٠.
(٢) انظر: ديوان حسان بن ثابت ص٩٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٤٦.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١٩/ ٩٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب

وقال عبد القادر العاني: «كانوا إذا فزعوا من شيء يلجأون إلى الجبال؛ ولذلك قال ابن نوح عليه السلام: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[هود: ٤٣].

فتقدّم الله تعالى لهؤلاء بما يقطع أملهم بأن لا شيء هناك يعصمهم من عذاب الله إلا هو؛ ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢]»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ [الشرح: ٢].

قال محمد ثناء الله: «﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ الوزر في الأصل الجبل، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ يعني: جبل هناك يلتجئ إليه، والمراد ها هنا الثّقل على سبيل الاستعارة»[(٢)].

ثانيًا: الجبال بيوت وسكن:

تحدثت عدة آيات عن اتخاذ الجبال بيوتًا وسكنًا، فهل سكنى الجبال أمر محمود؟ أو مرغوب فيه ابتداء؟ أم يلجأ إليه عند الحاجة فقط؟ سنقف عند هذه الآيات أولًا، ثم نذكر جوابًا جامعًا من خلالها:

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

تفسير علماء الدين: ألهم ربك النحل أسباب حياتها ووسائل معيشتها بأن تتخذ من الجبال بيوتًا في كهوفها، وتتخذ من فجوات الشجر ومن عرائش المنازل والكروم بيوتًا لها كذلك.

قال البغوي والبيضاوي في تفسير الآية: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾: «أي: ألهمها وقذف في أنفسها، ففهمته»[(٣)] أو جعل في غرائزها ذلك، كما قال السمعاني[(٤)] أي: اتخذي ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ أي: يبنون ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ أي: أوكارًا مع ما فيها من الخلايا[(٥)].

والنظرة العلمية: إن بعض العلماء الذين كرّسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات، وقفوا على حقائق عجيبة، وألّفوا مئات الكتب التي أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل برّية من النحل تسكن الجبال، وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكنًا بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار وتتخذ منها بيوتًا تأوي إليها، ولما أراد الإنسان أن ينتفع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين، أو الخشب

١٢/ ٧٨٦٨.

(١) بيان المعاني، عبد القادر العاني ١/ ٢٤٠.

(٢) التفسير المظهري، محمد ثناء الله ١٠/ ٢٩١.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٨٦، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٥.

(٥) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، جامعة المدينة العالمية ص٢٧٦.

يعيش فيها، وهكذا تبيّن الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوي إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا[(١)].

وقال تعالى في معرض الامتنان على بني آدم: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

قال الكفوي: ﴿مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ مواضع تستكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها، من «الكن» وهو السترة[(٢)].

وأخبرنا تعالى أن صالحًا عليه السلام قال لقومه ثمود: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وأخبرنا عنهم أيضًا: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

قال ابن كثير: «أي: من غير خوفٍ ولا احتياجٍ إليها، بل أشرًا وبطرًا وعبثًا، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ذاهب إلى تبوك، فقنع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: (لا تدخلوا بيوت القوم المعذّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا؛ خشية أن يصيبكم ما أصابهم)[(٣)]»[(٤)].

وقال أيضًا عنهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٩ - ١٥٠].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ قال ابن عبّاسٍ وغير واحدٍ: يعني: حاذقين، وفي رواية عنه: شرهين أشرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم؛ ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم؛ لتعبدوه، وتوحّدوه، وتسبّحوه بكرة

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص١٥١.
(٢) الكليات، الكفوي ص١٦٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ٤/ ١٤٩، رقم ٣٣٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم ٢٩٨٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٥.

وأصيلًا»[1].

وأثبت العلم الحديث أن سكان الجبال الذين تختفي أحوالهم دائمًا خلف جمالها الخلّاب، وتبعدهم عن مرمى السمع والبصر عزلتهم وصعوبة الوصول إليهم، ويواجهون تدهورًا مستمرًّا في النظم الإيكولوجية وتزايدًا في مستويات الفقر وتفاقمًا في الأوضاع المزعزعة والصراعات المسلحة.

ويقدّر على وجه العموم أن زهاء ١٠ في المائة من سكان الأرض يقطنون مناطق الجبال، وإن رأى «برونو ميسيرلي» من جامعة «برن» بسويسرا أن المسوحات الجديدة كشفت عن وجود أكثر من ٢٥ في المائة من سكان العالم يقطنون مناطق الجبال أو في محيط قدره (٥٠) كيلو مترًا منها.

ويميل سكان الجبال بسبب وجودهم في مناطق نائية أن يكونوا أفقر من نظرائهم في الأراضي الواطئة، وهو سبب يدفع كثرة من شبيبة هذه المناطق إلى هجرها.

ويقول «لاكاباشيربا» مدير برنامج «كومولانغما» للمحافظة على الطبيعة التابع لمعهد الجبال في منطقة التبت الصينية المتمتعة بالاستقلال الذاتي أنه بمجرد أن يغادر الشباب مناطق الجبال فإنهم «يحلّقون بعيدًا ولا يعودون أبدًا»، وأكد أن مشاركة أهالي الجبال أساسية في تنمية مناطقهم وتطوير أنفسهم، وبدون ذلك سيكون كسر دائرة الفقر مستحيلًا حسب رأيه.

إذن الجواب: الجبال سكن للنحل بوحي من الله، وحصن عند الحاجة، ولا يلجأ إليها للمعيشة العادية؛ نظرًا لصعوبة الحياة بها، والله أعلم.

ثالثًا: الخشوع، والإشفاق عن حمل الأمانة، والتأويب، والذكر:

بالرغم من ضخامة الجبال وعظمتها إلا أن هناك لغة مشتركة بين الجبال والإنسان، وهي لغة تسبيح الله عز وجل، ولكن لا نعلمها ولا نعرفها، إنما يعرفها خالقها -جل شأنه-.

فهناك مجموعة من الآيات الكريمة تشير إلى إحساس الجبال الإيماني، وخضوع الجبال وتسبيحها للخالق -تبارك وتعالى-، فذكر الله عز وجل في مواضع عديدة من كتابه العزيز أن هناك لغة مشتركة بين الجبال والإنسان في معرفة حقوق المولى عز وجل، ومن هذه المواضيع:

الخشوع:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

(١) المصدر السابق ٦/ ١٥٦.

في هذه الآية الكريمة يذكر المولى عز وجل أن الجبال تسابق الإنسان في معرفة الله والخوف منه، فإنها تتصدّع من خشية الله.

قال ابن كثير: «يقول تعالى معظّمًا لأمر القرآن، ومبيّنًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبّر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبرتم كتابه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]»[(١)].

الإشفاق من حمل الأمانة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

في هذه الآية الكريمة يذكر المولى عز وجل أن الجبال تشفق من حمل الأمانة التي هي بالمعنى العام.

قال السعدي: «يعظّم تعالى شأن الأمانة التي ائتمن الله عليها المكلّفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السر والخفية كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة السماوات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحتيم، وأنك إن قمت بها وأدّيتها على وجهها فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤديها فعليك العقاب.

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ﴾ أي: خوفًا أن لا يقمن بما حمّلن، لا عصيانًا لربهن، ولا زهدًا في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل»[(٢)].

التأويب والذكر:

قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

بل ذكر المولى عز وجل أن الجبال في حالة من التسبيح الدائم! فقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٧٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٧٣.

قال سيد قطب: «لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ؛ إذ يخالف مألوفهم، ويخالف ما اعتادوا أن يحسّوه من العزلة بين جنس الإنسان، وجنس الطير، وجنس الجبال! ولكن فيم الدهش؟ وفيم العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة، وراء تميّز الأجناس والأشكال والصفات والسمات، حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله: أحيائه وأشيائه جميعًا، وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء، فإن ذلك الحاجز تنزاح، وتتكشف الحقيقة المجردة لكل منهم، فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التي تميزهم وتعزلهم في مألوف الحياة! وقد وهب الله عبده داود هذه الخاصية، وسخّر الجبال معه يسبّحن بالعشي والإشراق، وحشر عليه الطير ترجّع مع ترانيمه تسبيحًا لله، وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان مع النبوة والاستخلاص»[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠١٧.

الجبال والساعة

تحدث القرآن عن أحوال الجبال في أحداث القيامة، وسوف نوضّحها فيما يأتي:

أولًا: دكّ الجبال:

اعلم أنّه جلّ وعلا بيّن الأحوال الّتي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آياتٍ من كتابه، فبيّن أنّه ينزعها من أماكنها ويحملها فيدكّها دكًّا، وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٤].

قال الطبري: «﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: فزلزلتا زلزلةً واحدةً»[2].

وقال البغوي: «﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رفعت من أماكنها ﴿فَدُكَّتَا﴾ كسرتا ﴿دَكَّةً﴾ كسرةً ﴿وَاحِدَةً﴾ فصارتا هباءً منبثًا»[3].

وقال ابن كثير: «﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

أي: فمدّت مدّا لأديم العكاظي، وتبدّلت الأرض غير الأرض»[4].

ثانيًا: الجبال كثيب مهيل، كالعهن:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

قال السعدي: «﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ

(٢) جامع البيان ٢٣/ ٢٢٤.
(٣) معالم التنزيل ٥/ ١٤٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢١.

﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ الراسيات الصّم الصلاب ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور»[1].

وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ يقول: وتكون الجبال كالصوف»[2].

وقال البغوي: «﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ كالصّوف المصبوغ»[3].

ولا يقال: عهنٌ إلّا للمصبوغ.

وقال مقاتلٌ: كالصّوف المنفوش.

وقال الحسن: كالصّوف الأحمر وهو أضعف الصّوف، وأوّل ما تتغيّر الجبال تصير رملًا مهيلًا ثمّ عهنًا منفوشًا ثمّ تصير هباءً منثورًا[4].

وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ يقول تعالى ذكره: ويوم تكون الجبال كالصّوف المنفوش؛ والعهن: هو الألوان من الصّوف»[5].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٩٣.
(٢) جامع البيان ٢٣/ ٢٥٦.
(٣) معالم التنزيل، ٨/ ٢٢١.
(٤) انظر: المصدر السابق ٥/ ١٥٢.
(٥) جامع البيان ٢٤/ ٥٩٤.

ثالثًا: نسف الجبال:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيّرها تسييرًا ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطًا واحدًا، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه، والأول أولى، وإن كان الآخر مرادًا أيضًا باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذٍ واديًا، ولا رابية، ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا، كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصري والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف»[6].

وقال الشنقيطي: «جرت العادة في القرآن: أن الله إذا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: يسألونك قال له: قل بغير فاء، كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ

(٦) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣١٦.

﴿وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤].

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

إلى غير ذلك من الآيات، أما في آية (طه) هذه فقال فيها: ﴿فَقُل يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ بالفاء.

وقد أجاب القرطبي عن هذا في تفسير هذه الآية بما نصه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: عن حال الجبال يوم القيامة، فقل، جاء هذا بفاء، وكل سؤال في القرآن (قل) بغير فاء إلا هذا؛ لأن المعنى: إن سألوك عن الجبال فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط، وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت، سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد فتفهمه انتهى منه، وما ذكره يحتاج إلى دليل، والعلم عند الله تعالى»[1].

قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦ - ١٠٧].

الضمير في قوله: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيه وجهان معروفان عند العلماء:

أحدهما: أنه راجع إلى الأرض، وإن لم يجر لها ذكر، ونظير هذا القول في هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

فالضمير فيهما راجع إلى الأرض، ولم يجر لها ذكر.

والثاني: أنه راجع إلى منابت الجبال التي هي مراكزها ومقارها؛ لأنها مفهومة من ذكر الجبال، والمعنى: فيذر مواضعها التي كانت مستقرة فيها من الأرض قاعًا صفصفًا، والقاع: المستوي من الأرض، وقيل: مستنقع الماء، والصفصف: المستوي الأملس الذي لا نبات فيه، ولا بناء، فإنه على صف واحد في استوائه، وأنشد لذلك سيبويه قول الأعشى[2]:

وكم دون بيتك من صفصف
ودكداك رمل وأعقادها

وقوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

أي: لا اعوجاج فيها ولا أمت، والأمت: النتوء اليسير، أي: ليس فيها اعوجاج، ولا ارتفاع بعضها على بعض، بل هي مستوية،

(١) أضواء البيان ٤/ ٩٨.

(٢) انظر: ديوان الأعشى ص١٢٦.

ومن إطلاق الأمت بالمعنى المذكور قول لبيد[1]:

فاجرمزت ثم سارت وهي لاهية
في كافر ما به أمت ولا شرف

وقول الآخر[2]:

فأبصرت لمحة من رأس عكرشة
في كافر ما به أمت ولا عوج

والكافر في البيتين: قيل الليل، وقيل المطر؛ لأنه يمنع العين من رؤية الارتفاع، والانحدار في الأرض.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: قد فرّقوا بين العوج، والعوج فقالوا، العوج بالكسر في المعاني، والعوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون؛ وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية، لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله عز وجل ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه: عوج بالكسر، والأمت: النتوء اليسير، يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت. انتهى منه.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ نسفت الجبال ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ والداعي: هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب، قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه، ومعنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا يحيدون عنه ولا يميلون يمينًا ولا شمالًا، وقيل: لا عوج لدعاء الملك عن أحد، أي: لا يعدل بدعائه عن أحد، بل يدعوهم جميعًا، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب، وعدم عدولهم عنه بينه في غير هذا الموضع، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ

(١) انظر: ديوان لبيد بن ربيعة ص٤٥.
(٢) البيت مذكور في: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١١٢، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٤٧ دون تسمية قائله.

﴿ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦ - ٨].

والإهطاع: الإسراع، وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١ - ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢].

إلى غير ذلك من الآيات[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠].

قال القرطبي: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي: ذهب بها كلها بسرعة، يقال: نسفت الشيء وأنسفته: إذا أخذته كله بسرعة، وكان ابن عباس والكلبي يقول: سويت بالأرض، والعرب تقول: فرس نسوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه، قال بشر[2]:

نسوف للحزام بمرفقيها

ونسفت الناقة الكلأ: إذا رعته، وقال المبرد: نسفت قلعت من موضعها، يقول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض أنسفت رجلاه، وقيل: النسف تفريق الأجزاء حتى تذروها للرياح، ومنه نسف الطعام؛ لأنه يحرّك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التبن[3].

رابعًا: تسيير الجبال:

ثمّ بيّن أنّه يسيّرها في الهواء بين السّماء والأرض؛ وذلك في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٧ - ٨٨].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠].

ثمّ بيّن أنّه يفتّتها ويدقّها كقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥].

أي: فتّتت حتّى صارت كالبسيسة، وهي دقيقٌ ملتوتٌ بسمنٍ أو نحوه على القول بذلك، وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

(١) أضواء البيان ٤/ ٩٦- ١٠٠.
(٢) انظر: ديوان بشر ص٧٤.
وتمام البيت:
نسوف للحزام بمرفقيها
يسدّ خواء طبييها الغبار

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٥٧.

ثم بيّن أنه يصيّرها كالرمل المتهايل وكالعهن المنفوش؛ وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨ - ٩].

في المعارج والقارعة، والعهن: الصوف المصبوغ، ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته[(١)]:

كأن فتات العهن في كل منزل
نزلن به حب الفنا لم يحطم

ثم بيّن أنها تصير كالهباء المنبث في قوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥ - ٦].

ثم بيّن أنها تصير سرابًا؛ وذلك في قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

وقد بيّن في موضع آخر: أن السراب لا شيء؛ وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وبيّن أنه ينسفها نسفًا في قوله هنا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥][(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ عن الأرض فنبسّها بسًّا، ونجعلها هباء منبثًا ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة، وظهورها لرأي أعين الناظرين من غير شيء يسترها من جبل ولا شجر هو بروزها، وبنحو ذلك قال جماعة من أهل التأويل»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل: ٨٨].

أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠]. قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠].

قال القنوجي: «﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير عن مواضعها

(١) انظر: ديوان زهير بن أبي سلمى ص٦٦.
(٢) انظر: أضواء البيان ٤/ ٩٦- ١٠٠.
(٣) جامع البيان ١٥/ ٢٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢١٧.

كسير السحاب، وتطير في الهواء، ثم تقع على الأرض مفتّتة كالرمل، ثم تصير كالعهن أي الصوف المندوف، ثم تطيّرها الرياح فتكون هباء منبثًا، كما دل عليه كلامه في سورة النمل، قيل: ووجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدلالة على غرابتهما وخروجهما عن المعهود، والحكمة في مور السماء، وسير الجبال الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا لخرابها وعمارة الآخرة، وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الكهف»[1].

وقال القاسمي: «﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ - ١٠] أي: تسير عن وجه الأرض فتصير هباء منثورًا»[2].

وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ يقول: ونسفت الجبال فاجتثت من أصولها، فصيّرت هباء منبثًا، لعين الناظر، كالسراب الذي يظنّ من يراه من بعد ماء، وهو في الحقيقة هباء»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

قال الطبري: «قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ يقول: وإذا الجبال سيّرها الله، فكانت سرابًا وهباءً منبثًّا»[4].

وقال القاسمي: «﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: رفعت عن وجه الأرض ونسفت، من أثر الرجفة والزلزال الذي قطّع أوصالها»[5].

خامسًا: الجبال هباء منبث:

قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥ - ٦].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ يقول تعالى ذكره: فتّتت الجبال فتًّا، فصارت كالدقيق المبسوس، وهو المبلول، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

والبسيسة عند العرب: الدقيق والسويق تلتّ وتتخذ زادًا»[6].

وقال القاسمي: «قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ أي: متفرقًا، قال قتادة: الهباء ما تذروه الريح من حطام الشجر، وقال غيره: هو ما يرى من الكوة كهيئة الغبار»[7].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، السماء، البحر، الماء

(١) فتح البيان ١٣/ ٢٢٠.
(٢) محاسن التأويل ٩/ ٥٠.
(٣) جامع البيان ٢٤/ ٢٠.
(٤) المصدر السابق ٢٤/ ١٣٣.
(٥) محاسن التأويل ٩/ ٤١٢.
(٦) جامع البيان ٢٢/ ٢٨٢.
(٧) محاسن التأويل ٩/ ١١٩.

الجدال

عناصر الموضوع

مفهوم الجدال	٨
الجدال في الاستعمال القرآني	١٠
الألفاظ ذات الصلة	١١
الجدال المحمود في القرآن الكريم	١٦
الجدال المذموم في القرآن الكريم	٣١
منافع الجدال ومضاره في القرآن	٥١

المجلد الحادي عشر

مفهوم الجدال

أولًا: المعنى اللغوي:

إنّ المتتبع لمعاني كلمة (جدل) ومشتقاتها في اللغة العربية يجدها تدور حول المعاني السبعة التالية:

١. استحكام الشيء وانتظامه؛ ومنه: جدلت البناء: أحكمته، ودرع مجدولة: المحكمة العمل.
٢. امتداد الخصومة، واللدد فيها، مع القدرة عليها.
٣. مراجعة الكلام.
٤. المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة.
٥. الصرعة والقوة والشدة، يقال: جدل الغلام يجدل جدولًا يعنى اشتدّ، ومنه إسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة.
٦. الفتل الشديد؛ يقال: جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله؛ فكأنّ المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه.
٧. الشّاكلة والحال والطّريقة التي جدل عليها الإنسان، تقول: عمل على جديلته: أي شاكلته التي جدل عليها[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف العلماء الجدال بعدة تعريفات، أهمها خمسة:

الأول: «المراء الذي يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها»[(٢)].

الثاني: «التخاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب»[(٣)].

الثالث: هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات لإلزام الخصم غالبًا، وإظهار صحة المذهب وسلامته[(٤)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٨٧-٣٨٨، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٣٢٢-٣٢٦، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٠٣، تاج العروس، الزبيدي ٢٨/ ١٩٣-١٩٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١١١.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٧٨، التوقيف، المناوي ص ٢٣٣.
(٣) التوقيف، المناوي ص ٢٣٤.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١١، التعريفات، للشريف الجرجاني، ص٧٨.

الرابع: «مقابلة الحجة بالحجة؛ فإن كان في الوقوف على الحق كان محمودًا، وإن كان في مدافعة الحق كان مذمومًا»[1].

الخامس: «إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة»[2].

وخلاصة التعريفات السابقة: أن الجدال: مقابلة المتنازعين الحجة بالحجة عند التدافع والتخاصم؛ لإلزام الخصم غالبًا، وتقرير المذهب، سواء أكان حقًا أم باطلًا.

وعند تأمل معاني الجدال لغةً واصطلاحًا يظهر الترابط بينهما في النقاط الآتية:

- الجدال استحكام الشيء وانتظامه؛ والمتجادلين يحكم كل منهما حجته، وينظّم أفكاره؛ ليقنع الخصم أو يفحمه.
- الجدال امتداد الخصومة، واللدد فيها؛ والجدال يقوم على التدافع والتخاصم بين المتجادلين، وقد يترتب عليه امتداد الخصومة، وحصول القطيعة.
- الجدال مراجعة الكلام؛ فالمتجادلان يحرص كل منهما على مراجعة كلامه وتكراره؛ ليتضح مقصوده، ويفهم مراده.
- الجدال منازعة ومفاوضة؛ وكلا المتجادلين يفاوض خصمه وينازعه الحجة؛ لعله يظفر منه بإقرار أو إفحام.
- الجدال الصرعة والقوة والشدة؛ وكذلك المتجادلين يحرص كل منهما على عرض حججه بأسلوب قوي؛ ليصرع بها حجج خصمه وأدلته.
- الجدال الفتل الشديد؛ وكذلك المتجادلين يسعى كل منهما لفتل الآخر عن رأيه.
- الشّاكلة والحال والطّريقة؛ والجدال طبيعة تسري في الإنسان، وطريقة يسعى من خلالها لتحقيق مراده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤].

(١) تفسير غريب ما في الصحيحين، الأزدي ص ٥٣.
(٢) الكافية في الجدل، الجويني، ص٢١.

الجدال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (جدل) في القرآن الكريم(٢٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النساء: ١٠٩]
الفعل المضارع	٢٠	﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل: ١١١]
فعل الأمر	١	﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[النحل: ١٢٥]
المصدر	٤	﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾[البقرة: ١٩٧]

وجاءت لفظة الجدل في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الخصومة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [غافر: ٥]، أي: خاصموا بالباطل.

الثاني: المراء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: ولا مراء في الحج.

الثالث: الدعاء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، أي: ادعهم بالتي هي أحسن.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١٦٥.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ١٣٨، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١٥٨-١٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ المحاجة:

المحاجة لغةً:

الحَجّ: الغلبة بالحُجَّة، يقال: حَجَّه يَحُجُّه حَجًّا، إذا غلبه على حجّته، ومنه الحُجّة بالضّمّ: الدّليل والبرهان، وقيل: ما دفع به الخصم، وإنما سمّيت حجّةً لأنّها تحجّ، أي تقصد؛ لأنّ القصد لها وإليها، وبها يقصد الحقّ المطلوب، وجمع الحجّة حججٌ وحجاجٌ[(١)].

المحّاجة اصطلاحًا:

قدرة الفرد على توظيف ما يمتلكه من الأدلة والبراهين العقلانية الموضوعية في قضية خلافية؛ لإثبات دعواه، وإيضاح فكرته، مع تفنيد حجج مخالفيه، والوصول بهم إلى الاقتناع بهذه الفكرة، والإيمان بها، دون إلزامهم باتباعها، والسير عليها[(٢)].

الصلة بين الجدال والمحاجّة:

يمكن التفريق بين الجدل والمحاجّة من خلال النقاط التالية:

يهدف الجدال غالبًا إلى إفحام الخصم، بينما تهدف المحاجّة إلى الوصول إلى الحق والصواب.

يغلب على الجدال الأسلوب الانفعالي، والتعصب للرأي، بينما يغلب على المحاجّة الأسلوب المنطقي الهادئ، وتتبع الصواب.

المحاجّة أعم من الجدال؛ فالجدال يقوم على تقرير المذهب، سواء أكان حقًا أم باطلًا، بينما المحاجّة تقوم على تقرير المذهب، وتحقيق الصواب.

الجدال غالبًا يترك أثرًا سلبيًا على العلاقة بين المتجادلين؛ لأنّه يقوم على تسجيل النقاط السلبية على المخالفين، بخلاف المحاجّة التي تعتمد على الإيجابية والتعاون؛ لاكتشاف الحقيقة[(٣)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٩-٣٠، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٤٥٩-٤٦٤.

(٢) انظر: المحاجة طرق قياسها وأساليب تنميتها، طريف شوقي ص ٣، الجدل في القرآن الكريم، يوسف العساكر ص ٣٠.

(٣) انظر: المحاجة طرق قياسها وأساليب تنميتها، طريف شوقي، ص٣، الحوار في القرآن الكريم، محمد حسين فضل الله ص ٣٢.

٢ المناظرة:

المناظرة لغةً:

المناظرة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (نظر)، ومن معانيها: تأمل الشيء بالعين المجردة، وتقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، والتّأمّل والفحص، وقد يراد بالنظر المعرفة الحاصلة بعد الفحص، والطلب؛ يقال: انظر لي فلانًا أي: اطلبه، والمقابلة؛ والعرب تقول داري تنظر إلى دار فلان، ودورنا تناظر أي: تقابل، والإمهال، والترقب والتوقع، واللّمحة السّريعة[١].

المناظرة اصطلاحًا:

المحاورة بين طرفين متضادين في الرأي، والقائمة على الأدلة المنطقية والبراهين والإحصائيات الدقيقة، يقصد كل منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر بأدب رفيع، مع الرغبة في إظهار الحق، والراجح على المرجوح، وتحقيق الفائدة المبنية على المناصحة والحلم[٢].

الصلة بين الجدال والمناظرة:

يمكن التفريق بين الجدل والمناظرة من خلال النقاط التالية:

يقوم الجدل على المخاصمة والشحناء، بينما المناظرة تقوم على التعاون والمناصحة.

يهدف المجادل إلى إظهار النفس ورفض الغير، بينما المناظرة تهدف إلى إظهار الحق، وإفادة المناظر.

أدلة المجادل مبنية على الأهواء غالبًا، بينما الأدلة في المناظرة مبنية على التحديد والدقة.

إنّ الجدال لا يخلو من التجني على الأشخاص والتعدي على المحارم، بينما المناظرة ميزانها الأدب الرفيع والحكمة.

٣ المماراة:

المماراة لغةً:

المماراة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (مري)، ويعني: المسح على الشيء؛ ومنه مراه مريًا، ومرى الفرس مريًا: إذا جعل يمسح الأرض بيده أو رجله، ويأتي بمعنى الاستدرار؛

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٤٤، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢١٥، تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ٢٤٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٣٢.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٠، آداب البحث والمناظرة، محمد الأمين الشنقيطي ص ٤.

ومنه: الريح تمري السحاب وتمتريه تستخرجه وتستدرّه، ومنه: الصلابة في الشيء، والشك، والجحود؛ يقال: مراه حقّه أي جحده، الجدل؛ ومنه: ماريت الرجل أماريه مراءً إذا جادلته[1].

المماراة اصطلاحًا:

الطعن في كلام المخالف وإن كان ظاهر الحق، على سبيل الملاحاة والتدافع والمغالبة؛ لبيان عجزه وضعفه، ولإظهار مزيّة النفس ومكانتها، والتحقير من شأن المخالف، دون الالتفات إلى الحق والصواب[2].

الصلة بين الجدال والمماراة:

إنّ المتأمل لمصطلحي الجدل والمماراة يجد بينهما فروقًا دقيقة، منها:

المراء لا يكون إلّا اعتراضًا، بخلاف الجدال الذي يكون ابتداءً واعتراضًا.

الجدال يكون محمودًا ومذمومًا، بخلاف المراء فلا يكون إلّا في الباطل؛ فهو مخاصمة في الحق بعد ظهوره.

يغلب على المراء إظهار حظ النفس مع تحقير الغير في المكانة والمعرفة، بينما نجد ذلك بحالة أقل في الجدال[3].

٤ المنازعة:

المنازعة لغةً:

المنازعة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (نزع)، وتأتي بمعنى الجذب؛ يقال: نزع القوس إذا جذبها، ومنه: نزع الإنسان إلى أهله، ومنه: تنازع القوم اختصموا، وبينهم نزاعةٌ أي خصومةٌ في حقّ، ومنه: قوة العزيمة في الرأي والهمة؛ يقال للرجل الجيّد الرأي: إنّه لجيّد المنزعة، ومنه القلع؛ يقال: نزعت الشيء من مكانه نزعًا إذا اقتلعته[4].

المنازعة اصطلاحًا:

المخاصمة والمخالفة القائمة على التنازع والتجاذب لنفي ما عند الآخر ومحوه، سواء

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣١٤، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٧٥-٢٧٨، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٥٢٢-٥٢٨.

(٢) انظر: الفائق في غريب الحديث والأثر، الزمخشري، ٢/ ٢٣٢، إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١١٥، التعريفات، الجرجاني، ص٢٢١.

(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٧٠، الفروق اللغوية، العسكري، ص١٥٩.

(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٣٢، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٤٩-٣٥١.

أكان حقًا أم باطلًا، والموصلة في الغالب إلى الفشل والانتكاس[1].

الصلة بين الجدال والمنازعة:

إنّ المتأمل لمصطلحي الجدال والمنازعة يجد بينهما فروقًا دقيقة، منها:

إنّ غاية الجدال إفحام الخصم وإلزامه، بينما الغاية في المنازعة نفي الآخر وتحقيره وإظهار عجزه.

إنّ الجدال في بعض المواقف يقود إلى الرأي الصحيح، بينما المنازعة طريقها واحد هو الفشل والانتكاس.

الجدال يقوم على الأدلة والبراهين، بينما المنازعة تقوم على المخالفة ابتداءً؛ بدليل أو بغير دليل.

٥ المحاورة:

المحاورة لغة:

المحاورة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (حور)، ومن معانيه: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والنقصان بعد الزيادة، ودوران الشيء، وتدويره، واللون؛ فالحور: شدّة بياض العين في شدّة سوادها، والحواريّون القصّارون[2]، ومن معانيه: التجاوب، والاستنطاق؛ يقال: استحاره أي: استنطقه[3].

المحاورة اصطلاحًا:

مراجعة الكلام بين طرفين في مسألة اختلفت فيها نظرتهما؛ بقصد تصحيح الكلام، وإظهار الحجة، وإثبات الحق، في جو يغلب عليه الهدوء والإيجابية؛ لتبادل الأفكار، والتنوع في الآراء، مع الحرص على تقرير الحق والصواب[4].

الصلة بين الجدال والمحاورة:

إنّ المتأمل لمصطلحي الجدال والمحاورة يجد بينهما فروقًا دقيقة، منها:

كلمة المحاورة تتسع لكل أساليب التخاطب، سواء في حال التوافق أو الاختلاف، بينما

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٦/ ١١٣.

(٢) القصّارون: الذين يغسلون الثياب، فيبيضونها، وينقونها من النجاسات والقاذورات.
انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ٥٠٣.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٩٢، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢١٧-٢٢١.

(٤) انظر: فنون الحوار والإقناع، محمد ديماس، ص١١، معالم في منهج الدعوة، صالح بن حميد، ص٢١٢.

كلمة الجدال تختزن في داخلها معنى الخلاف والشجار[1].

المحاورة يسودها الهدوء والطمأنينة والتعاون، بينما الجدال يحمل في عمقه معاني التحدي والصراع غالبًا.

المحاورة وسيلة حضارية للتواصل وتبادل الأفكار والآراء، بينما الجدال وسيلة لإفحام الخصم وتقرير المذهب غالبًا.

٦ المخاصمة:

المخاصمة لغةً:

المخاصمة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (خصم)، ويأتي بمعنى الجدل والمنازعة؛ يقال: خاصمه خصامًا وخصومة، أي: جادله ونازعه، وبمعنى الشّق؛ يقال للخصمين: خصمان؛ لأخذ كلّ واحد منهما في شقٍ من الحجاج والدّعوى، والطرف والجانب والزاوية، تلقين الحجة؛ يقال: أخصم صاحبه إذا لقّنه حجّته على خصمه[2].

المخاصمة اصطلاحًا:

اللجاج في الكلام من أجل المعارضة والمعاندة ابتداءً؛ يستوفي به المخاصم مراده من خصمه، في جو من التشاحن والتباغض ورفض الآخر[3].

الصلة بين الجدال والمخاصمة:

إنّ المتأمل لمصطلحي الجدال والمخاصمة يجد بينهما فروقًا دقيقة، منها:

الجدال يكون ابتداءً واعتراضًا، بينما المخاصمة لا تكون إلّا اعتراضًا.

الجدال يهدف إلى إفحام الخصم وتقرير المذهب، بينما المخاصمة تهدف إلى تحقيق المصلحة المادية أو المعنوية.

الحجة والدليل هو سبيل الحسم في الجدال، بينما المخاصمة تحتاج إلى طرف ثالث للفصل فيها.

الجدال يسوده جو من التعصب للرأي غالبًا، بينما المخاصمة يسودها جو من التباغض والشقاق.

---

(١) الحوار في القرآن الكريم، محمد حسين فضل الله، ص٣٢.

(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ١٥٤-١٥٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٥٠، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٨٠-١٨١.

(٣) انظر: فن الحوار، فيصل الحاشدي، ص٢٠.

الجدال المحمود في القرآن الكريم

إنّ المتأمل لآيات القرآن الكريم المتعلقة بموضوع الجدال، يجد أنّها تدور حول نوعين من الجدال:

- الجدال المحمود.
- الجدال المذموم.

وسنتناول في هذا المبحث النوع الأول وهو الجدال المحمود في القرآن الكريم.

والمراد بالجدال المحمود: الجدل الذي يقصد به إظهار الحق وتأييده بالأدلة والبراهين، والدعوة إليه بالحسنى، واستكشاف الأحوال، والعلم بالأمور المجهولة، وتعليم الآخرين العلم، أو تبيين الباطل ودحضه والتحذير منه[1].

وله صور عدة، يمكن تقسيمها إلى الأنواع الآتية:

أولًا: الجدال لبيان الحق:

لقد شرع الإسلام الجدال سبيلًا لبيان الحق، وإقامة الأدلة والبراهين عليه؛ بالعلم والمنطق والبيان، وبيان ضعف حجج المخالفين وتناقض مناهجهم، وإزالة الشبهات التي يثيرها أهل الباطل في مواجهتهم لأهل الحق، وإقامة الحجة على المخالفين من أهل الزيغ والضلال.

قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨].

ومن أبرز صور الجدال لبيان الحق صورتان؛ وهما جدال الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، والجدال لأهل الكتاب.

الصورة الأولى: جدال الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم:

لقد قدّم الأنبياء نماذج رائعة في الجدال الإيجابي؛ لبيان الحق، ودعوة الناس إليه، ودحض ما عليه أهل الباطل والإلحاد، سالكين أفضل السبل في تحقيق ذلك.

وتميز جدال الأنبياء عليهم السلام، بعدة ميزات، منها:

١. يقصد الأنبياء عليهم السلام من جدالهم تحقيق أمرين: دعوة الناس إلى الحق، وتقريره في نفوسهم، وردّ شبهاتهم، وتنقية النفوس منها.

لذلك فهو يحتاج إلى أسلوب راقٍ من أساليب القول والمحاجة، وحجة قوية، وكلمةٍ معبّرة[2].

وقد ظهر هذا المعنى جليًّا في المجادلة القوية بين إبراهيم عليه السلام والنمرود.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ

(١) انظر: أنواع الجدل وأهمية التمسك بالسنة، موقع إسلام ويب، مركز الفتوى، رقم الفتوى/ ١١٣٤٦٤.

(٢) انظر: مقال المحاجّة، عويض العطوي، في موقعه الشخصي.

﴿فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨].

إنّ النمرود لما حاجّ نبي الله إبراهيم عليه السلام في الله عز وجل، جاءه عليه السلام بحجة قوية وهي قدرة الله عز وجل على إحياء الأجسام وإماتتها ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، فقابل النمرود هذه الحجة بقدرته على ذلك من خلال القتل والعفو عن القتل ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، وهنا ينتقل نبي الله إبراهيم عليه السلام معرضًا عن هذا الاعتراض الفاسد، إلى حجة لا يصلح فيها تمويه النمرود كما فعل في الحجة الأولى، ولا يقع فيها الالتباس، ويظهر فيها عجز النمرود عن نقضها ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾، ولكنّ أهل الضلال والطغيان لا يستجيبون لمثل هذه الأدلة، ويمتنعون عن سبل الهداية والرشاد؛ ظلمًا لأنفسهم، وتكبرًا عن الحق[1].

٢. القوة في قول الحق، والجرأة في نقض الباطل، بغض النظر عن طبيعة المخالفين ومكانتهم.

حيث نجد نبي الله إبراهيم عليه السلام لما ذكر له قومه سبب عبادتهم للأصنام؛ أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها؛ ظانّين أنّه عليه السلام يقدّس الآباء وإن كانوا على ضلالة، فنراه عليه السلام جمعهم وآباءهم في التخطئة بلا هوادة؛ ليعلموا أنّ فعل الآباء مهما بلغوا من المكانة والتقديس لا قيمة له إذا تعارض مع حقيقة الألوهية، وتفرد الله عز وجل بالعبادة الخالصة[2]، «وأنّ الباطل لا يصير حقًّا بكثرة المتمسكين به»[3].

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٥٤﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٤].

وأهل الباطل في جدالهم لا يملكون حجة حقيقية لما يعتقدون به، فغاية ما يحتجون به في كثير من مواقفهم لمعارضة أهل الحق، إظهار أهل الحق في صورة العاقّين لآبائهم، المفرطين بثوابت الأجداد، فغاية حجتهم التقليد الأعمى للآباء والأجداد.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾

(١) انظر: حاشية القونوي على أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ٤٠٤-٤٠٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٩٥.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٤٠٨.

[الزخرف: ٢٣].

وقد عاب الله عز وجل عليهم ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

٣. إنّ جدال الأنبياء يحمل في طياته معاني المحبة والمودة والسماحة، يقابل الإساءة بالإحسان، ويرد الطعن واللعان بأجمل الكلمات وأرق العبارات، يهدف إلى الإقناع بالنظر والتدبر، ويبتعد عن الإخضاع والإلزام بالقهر والسلطان[(١)].

يظهر هذا المعنى جليًّا في دعوة نبي الله نوح عليه السلام لقومه؛ حيث قابلوه بالاتهام والتشويه، فقابلهم بالتودد والتلطف.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: ٢٥-٢٨].

إنّ نبي الله نوحًا عليه السلام يواجه قومه رسالة التوحيد، منذرًا المخالفين بالعذاب الأليم، ومبشرًا المستجيبين بالجنة، مظهرًا لهم خوفه عليهم من العذاب الأليم يوم القيامة، لكنّه يجابه بالرفض المطلق من قومه؛ متعللين بكونه عليه السلام بشرًا، وأنّ أتباعه من الضعفاء والفقراء والرعاع، بل إنّ قوم نوح عليه السلام تمادوا في طغيانهم فوصفوا نبي الله نوحًا عليه السلام وأتباعه بالكذب[(٢)]، ومع كل ذلك بقيت الرحمة هي الخلق البارز في تعامل نبي الله نوح عليه السلام مع قومه، الرحمة التي لا يعرفها إلّا من استقام على منهج الله عز وجل، قد أخلص قلبه لله عز وجل، وصفت نفسه، وصدق عزمه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٤. الاعتقاد بأنّ ما يدعون إليه هو الحق الذي يجب على الناس اتباعه؛ فهو وحي الله عز وجل إليهم؛ ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، خصّهم الله عز وجل بمميزات استحقوا بها الرسالة، وإن لم يستطع أصحاب البصائر العمياء من البشر إدراكها[(٣)].

إنّ نبي الله نوحًا عليه السلام لما تكالب عليه قومه، وعابوا عليه أنّه من البشر، انطلق

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٧٣.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٦/ ١١٢٩-١١٣٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٨٧٣.

بكل ثقة مستيقنًا بنفسه، مبيّنًا لهم أنّ الله عز وجل منحه الحجة الواضحة البيّنة، وخصّه بالنبوة، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: ٢٨].

كما حكى الله عز وجل عن الأنبياء وأقوامهم هذا الموقف المتكرر، قال تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١٠-١١].

إنّ الاتفاق في البشرية لا يعني بالضرورة المساواة في كل شيء؛ فقد أجمع العقلاء على وجود التفاوت الكبير بين أفراد البشر في قدراتهم العقلية والفكرية والأخلاقية والإنتاجية؛ حتى أنّا نجد من يأتي بالإصلاح والخير لأمته وأهله ما يفوق أفعال مئات الألوف من السابقين واللاحقين[1]، فإذا كان هذا التفاوت بين عموم البشر، فكيف وإن كان الإنسان مؤيدًا من الله عز وجل بالوحي والرسالة؟.

٥. الثقة بالله عز وجل، واليقين بنصره وتأييده؛ لأنّ الله عز وجل معهم، يحفظهم ويعصمهم من كل سوء، حتى ولو احتال الناس جميعًا من أجل مناهضتهم وإلحاق الضرر بهم[2].

قال الله عز وجل حاكيًا على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾ [هود: ٥٤-٥٥].

إنّ نبي الله هودًا عليه السلام لما دعى قومه إلى التوحيد جابهه قومه بالإنكار والجحود؛ حيث ترقّوا في حججهم من السيء إلى الأسوء، فردّ عليهم حججهم الباطلة؛ معلنًا براءته مما اقترفوه من الشرك، مشهدًا الله عز وجل على ذلك؛ ثقةً منه بقوة حجته وبرهانه، مشهدًا إيّاهم على رفضه لمنهجهم وشركهم غير مبال بهم، وبما يزعمونه من قدرة شركائهم على إيقاع الضرر به، ومتحديًا لهم أن يجمعوا كيدهم وشركاءهم؛ ليوقعوا به الأذى والضرر إن استطاعوا بلا إمهال ولا تأخير، وهذا دليل واضح على عدم خوفه منهم أو من آلهتهم المزعومة؛ فقد وكّل أمر حفظه إلى الله عز وجل، فهو الحافظ لأوليائه، القاهر لأعدائه[3].

قال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٥٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٦١.

(٣) انظر: تفسير المراغي ١٢/ ٤٩-٥٠.

صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٦].

٦. إنّ الأنبياء في جدالهم يقصدون قضية واحدة، ألا وهي قضية دعوة الناس إلى توحيد الله عز وجل، وإفراده بالعبادة، لا يلتفتون لغيرها من القضايا، ولا ينصرفون عنها إلى مسائل جانبية يحاول المخالفين استدراجهم إليها؛ للتأثير على القضية الأولى موضوع الجدال[1].

إنّ من أهم الآداب التي يجب على المجادل استعمالها للوصول إلى مراده وبغيته؛ تحديد السؤال والجواب، وعدم الخروج من مسألة حتى يستوفي الكلام فيها، وألّا يسمح للمخالف أن يدخله في معارك جانبية[2].

فهذا نبي الله نوح عليه السلام لم يستطع قومه صرفه عن القضية التي يدعو إليها، أو يؤثّروا في قوة طرحه لها.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٢].

٧. الشجاعة والحزم في طرح الأدلة والبراهين، وعدم إعطاء المخالف الوقت الكافي للاستفادة من قدرات مؤيديه، ومباغتة المخالف بالحجة تلو الأخرى بكل صرامة وحسم.

يستفاد هذا المعنى من مناظرة نبي الله موسى عليه السلام مع فرعون.

قال تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣-٣٣].

إنّ نبي الله موسى عليه السلام لما جابه فرعون بالحقيقة الصادمة المستحقرة لشأنه، وهي أنّ رب العالمين هو رب هذا الكون الهائل العظيم، وأنّك يا فرعون لا قيمة لك؛ لأنّك تدعي الربوبية على قوم مخدوعين، فهنا يريد فرعون صرف أنظار أتباعه عن هذه الحقيقة بأن يشاركوه التعجب من مقالة نبي

(١) انظر: آداب المناظرة، عمرو سليم، ص١٥-١٦، في موقع الألوكة.

(٢) انظر: كتاب الجدل على طريقة الفقهاء، ابن عقيل الحنبلي، ص٢.

الله موسى عليه السلام، فيقول: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، لكنّ نبي الله موسى عليه السلام لم يمهلهم حتى يتفاعلوا مع فرعون، وأخذ يؤكد لهم وحدانية الله عز وجل، فيقول: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهكذا[1].

٨. إنّ الأنبياء عليهم السلام في جدالهم لا يرجون شيئًا من متاع الحياة الدنيا، أو تحقيق مكاسب دنيوية، بل هم يبتغون الأجر من الله عز وجل وحده، وهو أن يدخلهم الجنة يوم القيامة.

قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢].

وقال هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود: ٥١].

وقال صالح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الشعراء: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠-٢١].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢٤١-٢٤٣.

الصورة الثانية: الجدال لأهل الكتاب:

إنّ المدافعة مع أهل الكتاب بدأت منذ اللحظة الأولى للإسلام، حيث كانت البداية بمظاهرة أهل الكتاب مشركي مكة على المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

واستمرت عبر الأماكن والأزمان حتى يومنا الحاضر[2].

إنّ باب المجادلة مع أهل الكتاب وغيرهم من المشركين مفتوحٌ إلى قيام الساعة؛ لدعوتهم إلى الإسلام، وبيان أحكامه لهم، وإقامة الحجة عليهم، على خلاف من قال إنّ آيات المجادلة والمحاجّة للمخالفين في الدّين منسوخة بآيات الجهاد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فإنّ من الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف؛ لاعتقاده أنّ الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة، وهذا غلط؛ فإنّ النسخ إنّما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضًا للحكم المنسوخ؛ كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر

(٢) انظر: رؤيةٌ شرعيةٌ في الجدال والحوار مع أهل الكتاب، الصمداني، ص٤.

باستقبال بيت المقدس بالشام... فأمّا مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به فلا منافاة بينهما، وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ، ومعلومٌ أن كلًّا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر، وأنّ استعمالهما جميعًا أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق»[(١)].

وقد ثبت في السنّة ما يؤيد ذلك، ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم)[(٢)].

وتشمل المجادلة لأهل الكتاب جميع أصنافهم ومراتبهم على اختلاف توجهاتهم وأحوالهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة، والهدنة، والأمان، ومن لا يجوز قتاله بالسيف، وقد تكون في ابتداء الدعوة؛ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجاهد الكفار بالقرآن الكريم، وقد تكون لبيان الحق، وشفاء القلوب من الشّبه مع من يطلب الاستهداء والبيان»[(٣)].

إنّ المتتبع للآيات القرآنية المتعلقة بمجادلة أهل الكتاب يجد فيها تنوعًا في أساليب المجادلة، ويمكن إجمال هذه الأساليب في النقاط الآتية:

١. المجادلة بالحسنى.

لقد بيّن القرآن الكريم فضيلة المجادلة بالأسلوب الحسن، وبالحكمة والموعظة الحسنة للمسالمين من أهل الكتاب؛ لأنّ ذلك أدعى إلى تحقيق الهدف المنشود، وإيجاد القناعة لديهم، والوصول بهم إلى الإيمان بالله عز وجل[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

تشير الآية السابقة إلى مشروعية مجادلة الذين يبحثون عن المعرفة والاستبصار بالدّين من أهل الكتاب، بأسلوب لين كريم، وبحسن الإرشاد إلى طريق الحق، والرفق في التعليم[(٥)].

«ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب؛ أنّ أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به، فهم متأهلون لقبول الحجة غير مظنون بهم المكابرة، ولأنّ آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة،

(١) الجواب الصحيح، ابن تيمية ١/ ٢١٨-٢١٩.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ٢٧٢، رقم ١٢٢٤٦، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو، ٢/ ٣١٨، رقم ٢٥٠٦.
وصححه الألباني صحيح أبي داود (الأم) ٧/ ٢٦٥، رقم ٢٢٦٢.
(٣) النبوات، ابن تيمية، ص٦٢١.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ١١.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ٤٥، أيسر التفاسير، أسعد حومد، ص٩٨٥.

فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ حذرًا من تنفيرهم»[1].

٢. المجادلة بالسيف والإغلاظ.

إنّ من أراد الهداية من أهل الكتاب أمرنا أن نعامله بالحسنى، أمّا من ظلم وعاند، وقصد بمجادلته الإساءة إلى الإسلام، والسعي في إيذاء المسلمين، وظهر تصلبه، وانقطع الأمل من إقناعهم بالحجة والبرهان، فقد أمر الإسلام أن نجادلهم بالسيف، ونعاملهم بالغلظة[2].

قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾ [التوبة: ٧٣].

إنّ حال اليهود والنصارى اليوم أقرب إلى هذه الحالة؛ فهم يحاربون الإسلام سياسيًا وفكريًا وعسكريًا في كل مكان، ويسعون بكل طاقاتهم وإمكاناتهم لتشويه الإسلام والملتزمين به، من خلال وصفهم بالتطرف تارة، وبالأصولية تارة ثانية، وبالإرهاب تارة أخرى، فكان الواجب على المسلمين اليوم مجادلتهم بما يتناسب مع حالهم بالشدة والغلظة، على خلاف ما ينادي به اليوم مجموعة من أبناء الأمة من التقارب معهم، والعمل في القضـــايا المشتركة والبعد عن نقاط الخلاف؛ فالدعوة الإسلامية «دعوةٌ وبيانٌ للحق، وكشف للباطل، وبيان لضرره في الدنيا والآخرة»[3].

٣. المباهلة.

إنّ هذه المرتبة درجة بين المرتبتين السابقتين؛ فلم يبلغ أهل الكتاب درجة التعامل بالحسنى، ولا هم بلغوا درجة المجادلة بالسيف، والتعامل بالغلظة؛ فكانت هذه المرتبة، للتعامل مع المكابرين الذين يصرّون على حججهم الباطلة، ومدافعة الحق.

قال تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ [آل عمران: ٦١].

«وهذه المباهلة لعلها من طرق التناصف عند النصارى فدعاهم إليها النبي صلى الله عليه وسلم لإقامة الحجة عليهم»[4].

إنّ المؤمنين عندهم من اليقين الصادق والإيمان العميق ما يجعلهم يقبلون أيّ سبيلٍ في مواجهة أهل الإنكار والجحود، بينما الكافر المكابر الذي لا يملك يقينًا لن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٦، أيسر التفاسير، أسعد حومد، ص٩٨٥.
(٣) الحوار بين الأديان حقيقته وأنواعه، عبدالرحيم السلمي، ص٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٦٥.

يقبل بالمباهلة أبدًا، وسيبحث عن مبررات لنكوصه وتراجعه؛ لذلك فإنّ الآية السابقة قد لقنت النبي صلى الله عليه وسلم، وأمته من بعده الجواب الحاسم الذي يخرس ألسنة المكابرين في كل زمان، ويتحداهم أن يقبلوا المباهلة إن كانوا صادقين[(١)].

وهذه درجة متقدمة في حوار أهل الكتاب، ولها فائدة عظيمة من جهتين:

الأولى: إظهار التحدي، والثقة التامة بأنّ الداعي إلى المباهلة على الحق.

الثانية: إرهاب المعاند، وحمله على الجد والحزم، بالتعرض للعنة الله عز وجل.. فربما نزع واستغفر واستعتب[(٢)].

٤. مبادرة أهل الكتاب بالدعوة.

إنّ هذا الأسلوب لا يحمل معاني الجدال والمغالبة والتحدي، بقدر ما يحمل معاني الدعوة والمبادأة للمخالفين في المنهج والدّين؛ يعرض عليهم الحق الذي عنده، ويبيّن لهم معالم دعوته الصادقة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

إنّ هذا المنهج يقوم على الاجتماع على الأصول العقدية المجمع عليها عند أصحاب الرسالات؛ من توحيد الله عز وجل، وإفراده بالعبودية والإخلاص، ورفض الشبهات التي تناقضها؛ حيث كانت جميع الرسالات متفقة على ذلك[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

«إنّ أهل الإسلام لا يستقيم أمرهم، ولا يعبّرون بصدق عن دينهم، إلّا أن يكونوا أصحاب مبادرة للقيام بأمر الله عز وجل، وغاية واضحة في الدعوة إلى الله عز وجل، وخطة بيّنة بالالتزام بمنهج الله عز وجل، كما دلّت عليه الآية العمدة، وإلّا تقاذفتهم ألاعيب الذين كفروا من أهل الكتاب، ومبادراتهم العبثية الموسومة بالتقارب والحوار ونحوها»[(٤)].

٥. هدم باطل أهل الكتاب ونقضه.

إنّ منهج المؤمنين الحق يقوم على هدم ما عند الناس من الباطل والخلل، وعدم التسليم لهم بدعواهم إلّا بالدليل والبرهان.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٣/ ١٥٢٠، التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ١٢٩.

(٢) دعوة التقريب بين الأديان، أحمد القاضي، ص١٥٧٦.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ٢٦٨.

(٤) دعوة التقريب بين الأديان، أحمد القاضي، ص١٥٧٠.

﴿١١١﴾ [البقرة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥].

إنّ أهل الباطل يقيمون الأدلة الواهنة على مبادئهم ومعتقداتهم، ويتمسكون بها؛ من أجل مشاغبة أهل الإيمان، والتشويش عليهم؛ لذلك وجب على المؤمنين عدم قبول أيّ دعوى نفيًا أو إثباتًا دون دليل أو برهان صحيح يدعمها.

يقول الإمام الطبري: «وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهر دعاء القائلين: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ إلى إحضار حجة على دعواهم ما ادعوا من ذلك، فإنّه بمعنى تكذيب من الله عز وجل لهم في دعواهم وقيلهم، لأنّهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبدًا، وقد أبان قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢].

عن أنّ الذي ذكرنا من الكلام بمعنى التكذيب لليهود والنصارى في دعواهم ما ذكر الله عز وجل عنهم»[1].

ثانيًا: الجدال عن النفس:

إنّ من طبيعة الإنسان أن يحاول بكل جهده وطاقته، دفع الشر والسوء عن نفسه؛ فنراه يتعلق بأيّ أمر يعتقد أنّه يدفع عنه الضرر والأذى، وأحوج ما يكون إلى هذه المدافعة والمجادلة يوم القيامة؛ لما فيه من الأهوال والأحوال لذلك نجده يجادل عن نفسه، ويدافع عنها؛ طمعًا في رحمة الله عز وجل ومغفرته؛ لأنّها علمت سعة رحمة الله عز وجل وعظيم مغفرته، إذ تتجلى رحمة الله عز وجل ومغفرته في هذا اليوم؛ لتغشى عباده الموحدين، فهم أكثر ما يكونون طلبًا لهما واحتياجًا إليهما[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل: ١١٠-١١١].

فالإنسان يوم القيامة لا يعنيه شيء سوى نفسه؛ فيسعى في خلاصها من الأهوال العظيمة في ذلك اليوم العصيب، لا يلتفت لأحد، شعاره: نفسي نفسي.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

إنّ اشتداد الأهوال يوم القيامة يشغل كل امرئ بنفسه، يدافع عنها؛ لعلها تنجو

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥١٠.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٣٨٣.

من العقاب، لكنّ الأمر أشد، إنّما هو الجزاء، تجازى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون[1].

لذلك نجد أنّ المجادلين عن أنفسهم يوم القيامة سلكوا سبلًا متعددة في الدفاع عن أنفسهم، منها:

١. الحلف الكاذب بالله عز وجل على براءتهم من الشرك والمشركين.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ١٨].

إنّ الله عز وجل لما يبعث الناس يوم القيامة مجتمعين، يعاتبهم على ما صدر منهم من معصية وضلال ونفاق، فيحلف المنافقون منهم والمشركون له سبحانه وتعالى على إسلامهم وإيمانهم كما كانوا يحلفون للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في الدنيا؛ ظانّين أنّهم سيحققون نفعًا لأنفسهم، ودفعًا للضرر الحاصل لهم من حلفهم الكاذب، كما حققوا بعض مكاسبهم في الدنيا، ولكنّهم لم يعلموا أنّ الله عز وجل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[2].

٢. إظهار إرادة الانتقام ممن كان سببًا في ضلالهم ودخولهم النار.

حيث عطلوا عقولهم في الدنيا عن النظر والتأمل، وراحوا يقلدون أئمتهم ورؤساءهم من الجن والإنس، فاليوم وبعد فوات الأوان حصل بينهم التباغض والمعاداة[3].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: ٢٩].

فتوسلوا لله عز وجل بعزمهم على الانتقام ممن كانوا رأسًا في ضلالهم؛ لعلهم يظفرون بتخفيف العذاب عن أنفسهم، وإذلال قادة الضلال، وأئمة الكفر، وزيادة التنكيل بهم.

٣. محاولة الكذب على الله عز وجل؛ بنفيهم الوقوع في الشرك.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤].

إنّ الله عز وجل يحشر المشركين مع آلهتهم التي عبدوها من دون الله عز وجل في الدنيا، فيسألهم عنها، فيجيبون بالإنكار والجحود ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وهم بهذا الفعل يدافعون عن أنفسهم، ويحاولون الإفلات من عذاب يوم القيامة، مع اعتقادهم خلاف ما يقولون، وعلمهم

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٩٧.
(٢) انظر: الفواتح الإلهية، نعمة الله النخجواني ٢/ ٣٩٧.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٥٧٠.

بالحقيقة الكاملة؛ وهي أنّهم قد كذّبوا بالله عز وجل في الدنيا، ويريدون أن يعيدوا الكرة يوم القيامة، لكنّ الله عز وجل عالم بخفايا القلوب والنفوس[1].

٤. إظهار الخضوع والتذلل لله عز وجل متمنين من الله عز وجل أن يكرمهم بفرصة أخرى؛ ليؤمنوا ويتبعوا منهج الإيمان والتوحيد.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]

إنّ المشركين عند رؤيتهم لهيب النار، يتمنون العودة إلى الحياة الدنيا زاعمين أنّهم يريدون الهداية والاستجابة لأمر الله عز وجل، لكنّ الحقيقة هي الخوف من لهيب النار بعدما ظهر ما كانوا يخفونه من الذنوب والمعاصي في الحياة الدنيا، وتأكدوا من صدق ما أنكروه في الدنيا، ولو ردّهم الله عز وجل إلى الدنيا لعادوا إلى التكذيب بآيات الله عز وجل، ولحاربوا أولياءه؛ لأنّ التكذيب والجحود والعناد والافتراء طبعٌ متجذرٌ فيهم[2].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤].

ثالثًا: الجدال في الدعوة إلى الله تعالى:

إنّ الدعوة الى الله عز وجل وظيفة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ومن تبعهم بإحسان، سلكوا في سبيلها كل الوسائل والأساليب المشروعة؛ لإيصال دعوة التوحيد للناس في كل بقاع الأرض، وبما أنّ الجدال ظاهرة بشرية فطرية ملازمة للإنسان؛ لنقل الأفكار والآراء، وبناء المواقف والاتجاهات، كان لزامًا على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وأتباعهم سلوك هذا الطريق نصرةً للحق، ونشرًا للدين الحنيف والذّب عنه[3].

إنّ سلوك طريق الجدال في الدعوة مقيد بضوابط وأحكام أشارت إليها الآية الكريمة.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

وهناك ضوابط للمجادلة بالتي هي أحسن، وهي:

١. إخلاص النية لله عز وجل.

فالداعية إلى الله عز وجل لا يبتغي من

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٦/ ٣٥٦١.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ٦٢.
(٣) انظر: منهجية الحوار الجدلي في القرآن الكريم والسنة النبوية، أحمد الطعان، ص٢.

وراء الجدال المفروض عليه إلّا مرضاة الله عز وجل، والوصول إلى الحق المبين، بعيدًا عن المباهاة والرياء[1]، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

٢. الاحتجاج على المخالف بالأدلة التي يعتقدها؛ فإنّ ذلك أقرب لفهمه، وأدعى إلى حصول المراد من المجادلة[2].

يظهر هذا المعنى في نقاش النبي صلى الله عليه وسلم مع الشاب الذي جاء يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: إنّ فتًى شابًّا أتى النّبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه ائذن لي بالزّنا، فأقبل القوم عليه فزجروه قالوا: مه مه، فقال: (ادنه فدنا منه قريبًا، قال: فجلس قال: (أتحبّه لأمّك؟)قال: لا واللّه جعلني اللّه فداءك، قال: ولا النّاس يحبّونه لأمّهاتهم)،... الحديث[3].

٣. أن تكون الأدلة والبراهين واضحة، تعطي مدلولًا محددًا؛ بحيث لا يترك الداعية إلى الله عز وجل سبيلًا للمخالف يتفلت من خلاله، أو حجة يتمسك بها، أو شبهة يستأنس بها على باطله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٤. أن تكون المجادلة في إطار الأدب والخلق، وألّا تؤدي إلى الخصام والملاسنة؛ وتبتعد عن تحقيق المقصود.

فالمجادلة بالحسنى هدفها هداية الخلق، وقصد الحق، وليس إفحامهم والغلبة عليهم[4].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

٥. أن تكون المجادلة مبنية على الرفق

(١) انظر: آداب المناظرة، عمرو سليم، ص١٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٥٢.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٥٤٥، رقم ٢٢٢١١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٧١٢، رقم ٣٧٠.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٥٢.

واللين وحسن الإقناع وسعة الصدر.

فإنّ ذلك أدعى إلى تهدئة نفوس المخالفين، والتقليل من تعصبهم وعنادهم[1]، وتكون مدعاة لتفلتهم من الحق، وانصرافهم عن مجلس الدعوة[2].

فقد أمر الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام أن يخاطبا فرعون رمز الكبر والجحود بلين الجانب مع الرفق وغاية التلطف[3] فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: ٤٤].

٦. أن تكون المجادلة مبنية على العلم والمعرفة.

فلا يصح من الداعية الدخول والمدافعة عن أمر أو حكم وهو غير عالم به، محيطٌ بجميع أبعاده؛ لئلا يتيح للمخالفين الفرصة في الطعن في أفكاره ومعتقداته؛ فتصبح المفسدة المترتبة على هذا الجدال تفوق بكثير المصلحة المقصودة.

قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

٧. إشعار المخالف أنّ المقصود من مجادلته هو الوصول إلى الحق والصواب، بعيدًا عن المراء، أو المساس بشخص المخالف أو مكانته[4].

فقد ذمّ الله عز وجل المكذبين بحقيقة عيسى عليه السلام؛ حيث رفضوا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأخذوا يجادلون فيه، ويشككون في الحق بعد ظهوره[5].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ [مريم: ٣٤].

٨. إنصاف المخالف، وإنزاله منزلته، والثناء عليه عند الصواب، ونصحه إذا أساء.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾ [الشعراء: ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

٩. الإشفاق على المخالفين، والرحمة بهم، والتودد إليهم، وإظهار الحرص على استنقاذهم من باطلهم، وحمايتهم من أنفسهم[6].

يظهر هذا المعني في جدال مؤمن آل فرعون لقومه.

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٦٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٣/ ٨٢٨٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦١٣.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٦٢.
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٩٠٧٩.
(٦) انظر: آداب المناظرة، لعمرو سليم، ص٣١.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾ [غافر: ٣٠-٣٢].

رابعًا: الجدال في الخصومة:

إنّ من طبيعة الإنسان المجادلة عن حقه إذا وقع في الخصومة والنزاع؛ طلبًا لحقه من وجهة نظره وفهمه، ودفعًا لأيّ سوء يقع عليه.

ونتناول في هذا المقام موقفين للمجادلة في الخصومة والاختلاف، وهما:

الموقف الأول: خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها تجادل النبي صلى الله عليه وسلم في أمر زوجها.

لقد جادلت خولة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم في أمر زوجها الذي حرّمها على نفسه بعد أن طالت صحبتها معه، كبر سنّها، ثمّ يقول لها (أنت عليّ كظهر أمي)، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لها: قد حرمت عليه، وهي ما تزال تراجع النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: ١] والآيات التي بعدها[1].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد للّه الّذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم تكلّمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل اللّه عز وجل على النّبيّ صلى الله عليه وسلم: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: ١][2].

الموقف الثاني: جدال ابني آدم عليه السلام في أمر قبول القربان.

لقد قصّ علينا القرآن الكريم خصومة ابني آدم عليه السلام، حتى وصلت بأحدهما إلى قتل أخيه.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢١٩.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٠/ ٢٢٨، رقم ٢٤١٩٥.
وصححه الألباني في إرواء الغليل ٧/ ١٧٥.

إنّ الخصومة وقعت بين ابني آدم عليه السلام، أحدهما قد ملأ الإيمان قلبه؛ فاستقام على طاعة الله عز وجل، ممتثلًا أمره ومجتنبًا نهيه، والآخر استحوذ الشيطان على قلبه، وزيّن له معصية ربه؛ فلم يراعي لله عز وجل حرمة، ولم يحفظ لأخيه قرابة، حيث قربا قربانًا إلى الله عز وجل ابتغاء رضوانه ومغفرته ورحمته، ودليلًا على صحة المعتقد وسلامة المنهج، لكنّ النتيجة كانت القبول من أحدهما وعدم القبول من الآخر؛ فتحركت الغيرة في قلبه، فدبّت الخصومة بينهما، ووصلت بأحدهما إلى حد العدوان والانتقام، بحيث تمتد يده على أخيه ليقتله، لكننا نجد في المقابل خلق المؤمن الحق الحريص على سلامة أخيه، فيجيبه بأدب وهدوء، وتوجيه صادق إلى تقوى الله عز وجل والالتزام بأمره ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾، ويحذره من مواصلة السير في هذا الطريق؛ لأنّه يجلب له الهلاك والعذاب ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، لكنّ الخصومة حجبت الحق عن الأخ العاصي فقتل أخاه، وأسال دمه على الأرض[1].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ١٠٧٣-١٠٧٦.

الجدال المذموم في القرآن الكريم

إنّ الله عز وجل قد أباح للحاجة والضرورة الجدال المحمود الذي يهدف إلى الوصول إلى الصواب والحق، في جو من الإيجابية والتعاون، أو تمييز الحق من الباطل، ومدافعة أهل الباطل بطريقة مؤدبة وراقية، أمّا إن تحوّل الجدال إلى اللدد والخصومة، والشحناء وسوء الأدب، وأدّى إلى الفرقة والشقاق، والهجر والقطيعة، أو قصد إلى محاربة الفضيلة وإشاعة الرذيلة، والترويج للأفكار المنحرفة الضالة[2]، فهو حرام شرعًا، ذمّه القرآن الكريم في العديد من الآيات، وحاربه وأمر بتركه وعدم الخوض فيه، وسنتناول في هذا المبحث الجدال المذموم في القرآن الكريم، مبينين مفهومه، وأهم صوره الواردة في القرآن الكريم.

والجدال المذموم: هو الجدل الذي يقصد به مدافعة الحق، ومعارضة أمر الله عز وجل وأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وإظهار الباطل وتأييده، أو يفضي إلى الباطل، ويسعى للترويج للمذاهب الكاسدة والعقائد الباطلة، وإفحام الخصم والتعالي

(٢) انظر: أنواع الجدل المذموم، أبو حزم فيصل بن المبارك مقال، موقع الشبكة الفقهية الملتقى الفقهي.

عليه، وإظهار مزية النفس[1].

وله صور عدة، يمكن تقسيمها إلى الأنواع الآتية:

أولًا: الجدال في الإيمان:

لقد جادل أهل الكفر والضلال في الإيمان والتوحيد؛ فنجدهم ينكرون وجوب التعبد لله عز وجل، أو يعبدون آلهة من دون الله عز وجل بلا سلطان ولا دليل، ويطلبون منها الظفر والنصر، أو يتخذونها واسطة للتقرب إلى الله عز وجل.

ونتناول في هذا المقام صورًا من الجدال في الإيمان، وهي كما يأتي:

الصورة الأولى: الجدال في الله عز وجل.

يظهر أناس في كل زمان ومكان لا يعترفون بوجود إله خالق رازق مدبّر لهذا الكون، أو ينكرون وحدانيته سبحانه وتعالى ويعبدون معه آلهةً أخرى، أو يجادلون في أمور غيبية أخبر بها الله عز وجل أنبياءه عليهم السلام؛ ينكرون بعضها ويأوّلون بعضها الآخر، أو يرفضون أحكامه وتشريعاته؛ كل ذلك جدال في الله عز وجل[2].

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يتبيّن له أسباب جدال أعداء الإسلام في الله عز وجل، والتي توضح لنا مدى سخافة عقول هؤلاء الناس وقصور فهمهم وإدراكهم، ويمكن إجمالها في الأسباب الآتية:

١. **الجهل بالدليل والبرهان، وقصور النظر والبصيرة، وفقدان السند من الوحي الصحيح.**

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [الحج: ٨].

٢. **متابعة أقوال أئمة الكفر والفساد.**

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ [الحج: ٣].

إنّ المتأمل للآيتين السابقتين يظهر له حقيقة مهمة وهي:

أنّ الآية الأولى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾، متعلقة بالرؤساء والزعماء الداعين إلى الضلال والفساد، الحاملين للواء الصد عن سبيل الله عز وجل، المتبوعين بالكفر والضلال؛ بدليل قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾ [الحج: ٩].

(١) انظر: أنواع الجدل وأهمية التمسك بالسنة ونبذ التعصب للرجال، موقع إسلام ويب، مركز الفتوى، رقم الفتوى ١١٣٤٦٤، أنواع الجدل المذموم، أبو حزم فيصل بن المبارك، موقع الشبكة الفقهية الملتقى الفقهي.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٦/ ٩٦٩٤، التفسير الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢٧٥.

وأنّ الآية الثانية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ متعلقة بالأتباع الجهلة الذين يخاصمون بغير علم اتباعًا لأقوال زعمائهم من أهل الفساد والجحود؛ سواء أكانوا من شياطين الإنس أو الجن؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣][1].

وبدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٢١﴾ [لقمان: ٢٠-٢١].

إنّ الناظر في حال الأمة الإسلامية اليوم ليجد هذين الصنفين الأتباع والمتبوعين وبكل سهولة، فنجد الأتباع الذين يصفقون لكل ناعق، دون نظر أو فكر، أو تحقيق مصلحة أو دفع مفسدة، يوادّون ويبغضون بأمر زعمائهم، سواء وافق أحكام الشرع أم خالفها، حيث جعلوهم في مقام الشرع، وكأنّ حالهم كما تصوره الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

٣. الملك والسلطان.

إنّ الشعور بعظمة الملك والسلطان تضفي على صاحبها حالة من الانبهار بالنفس وتعظيم الذات، والتي تقود صاحبها إلى منازعة الله عز وجل في سلطانه وحكمه، فيدّعون صفات ليست لهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٤. اتباع الهوى.

إنّ من أهم الأسباب المؤدية بصاحبها إلى المجادلة في الله عز وجل اتباع الهوى؛ والناس في ذلك صنفان:

من يتبع هواه على علم، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣].

ومنهم من يتبع هواه بغير علم، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩﴾ [الروم: ٢٩].

وتتعدد المظاهر التي ذكرها القرآن الكريم لجدال أهل الكفر والإلحاد في الله عز وجل:

١. وصف الله عز وجل بما لا يليق من

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٨٠.

صفات النقص.

لقد تجرأ أهل الكفر على الله عز وجل فوصفوه بأوصاف النقص، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، ذكر القرآن الكريم بعضًا من هذه الأوصاف، ومنها:

- البخل وعدم الإحسان.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

- الفقر والحاجة.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

- الافتراء على الله عز وجل بأنّ له صاحبةً وولدًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم: ٨٨-٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣].

- الافتراء بأنّ عيسى عليه السلام، وعزيرًا عليه السلام ابنا الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

- الافتراء بأنّ الملائكة بنات الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠].

- الافتراء بأنّ عيسى عليه السلام هو الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

٢. الكذب على الله عز وجل.

وقد تعددت مقالات الكذب في أحوال مختلفة، منها:

- تبرير كفرهم بأنّ الله عز وجل قد أعطاهم عهدًا ألّا يؤمنوا لرسول ما لم يأتيهم بقربان تأكله النار.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران: ١٨٣].

- الادعاء أنّهم أبناء الله عز وجل وأحباؤه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن

﴿يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨].

- الافتراء بأنّ اليهود والنصارى هم أهل الجنة فقط.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١].

الصورة الثانية: الجدال في الأصنام والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله عز وجل.

لقد اتخذ أهل الكفر والضلال أصنامًا أو آلهة من صنع أفكارهم وعقولهم الفاسدة، يتقربون إليها، ويعبدونها، ويقدمون لها القرابين؛ رجاء حصول النفع، ودفع الضرر، وتحقيق الحماية والأمن، سواء كانت هذه الآلهة إنسًا أو جنًّا أو حجرًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١].

إنّ كل من يخالف أمر الله عز وجل، ويعبد من دونه آلهة أخرى، فإنّ عذاب الله عز وجل واقعٌ به، لا مفر ولا نجاة له منه، وأنّ انتقامه سبحانه وتعالى بهم لا يمكن دفعه والوقوف في سبيله؛ لأنّه واجب من الله سبحانه وتعالى لهم؛ بسبب كفرهم وعنادهم، ومجادلتهم في أوثان سمّوها آلهة، أو أطلقوا عليها أسماء ليس لها مسميات في الحقيقة، لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا، وليس عندهم دليل يؤيد زعمهم في ألوهيتها وقدرتها على النفع والضر، وهذا دليل على انعدام مداركهم وسخف عقولهم، ولأجل ذلك فإنّ عاقبتهم ستكون وخيمة[1].

والمتأمل في أسباب مجادلة الكفار في اتخاذهم آلهة من دون الله عز وجل يرجعها للأمور التالية:

١. ابتغاء النصر منها.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤-٧٥].

٢. رجاء حصول الشفاعة لهم عند الله عز وجل بعبادتهم تلك الأصنام.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

٣. استبعادهم وحدة الآلهة، وأن يكون الرسول بشرًا.

قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٥/٣٠٧.

﴿الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٤-٥].

٤. متابعة الآباء والأجداد.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣].

ثانيًا: الجدال في الحق:

إنّ الإيمان الحقيقي بالله عز وجل يدفع المؤمن إلى التصديق بالحق الذي جاء عن الله عز وجل، ويستجيب له، يمتثله بكل رضى وطواعية، لا يسأل عن علته، ولا يبحث في تفاصيله؛ لأنّه صادر عن الله عز وجل[١].

ولا ينبغي للمؤمن الّا الإسراع في مرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يجعل من أهواء نفسه وشهواتها حائلًا بينه وبين الالتزام بالحق والانقياد له، وعدم المجادلة فيه، أو التلكؤ في السير بناءً على دلالته وتوجيهاته[٢]، حتى يحفظ للأمة كيانها ومكانتها؛ فإنّ «الذي يفت في عضد المسلمين هو من يجادل في الحق بعدما تبيّن، ويصر على عدم الانقياد له، ويثير الجدال بشبهات سقيمة»[٣].

ونتناول في هذا المقام ثلاثة قضايا وقع فيها الجدال في الحق؛ سواء برفضه وجحوده، أو إظهار بعض مظاهر عدم القبول به؛ خوفًا من العواقب المترتبة عليه، أو المماطلة والتسويف في إنفاذه والالتزام به، وبيانها على النحو الآتي:

القضية الأولى: الجدال في آيات الله عز وجل.

إنّ صاحب كل فطرة سليمة يؤمن إيمانًا راسخًا بآيات الله عز وجل الدالة على قدرته ووحدانيته سبحانه وتعالى، مسلّم بها؛ لأنّ فطرة الوجود متعلقة بهذه الحقائق، متصلة بها، ولا يجادل في هذه الآيات بالطعن والتكذيب إلّا الجاحدون لاستحقاقه سبحانه وتعالى العبادة وحده، الشاذّون عن الفطرة السليمة، المعرضون عن الحق الظاهر الواضح، المنكرون للحجج والبراهين الساطعة[٤].

إنّ المتدبّر للآيات المتعلقة بمجادلة أهل الباطل في آيات الله عز وجل، يظهر له الأسباب المؤدية بهم إلى الإنكار والجحود، ويمكن تلخيصها في الأسباب التالية:

١. الكفر بالله عز وجل، وجحود حججه

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٣٨٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٦٥.
(٣) بدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب، محمد إسماعيل المقدم، ص٥٩.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٦٩، أيسر التفاسير، أسعد حومد، ص١١٥٨.

وبراهينه.

قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾ [غافر: ٤].

ولقد بيّن القرآن الكريم أنّ عاقبة هؤلاء الجاحدين الهلاك في الدنيا، والخسران المبين في الآخرة، فلا ينخدع النبي صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده بأحوال أهل الكفر والجحود، وما يحققونه في الدنيا من تجارة وكسب، وصحة وسلامة؛ فإنّه نعيم زائل ولو بعد حين؛ يمتعون به قليلًا، ويعذبون به طويلًا[1].

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

٢. الكبر والتعالي على الحق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر: ٥٦].

إنّ الكبر من أعظم الآفات والرذائل التي تمنع صاحبها من اتباع الحق؛ حيث يعتقد المتكبرون أنّ اتباعهم للحق والانقياد إليه، ينقص من مكانتهم، ويدني من رفعتهم، ويضعف من جاههم وسلطانهم، لكنّ الحقيقة أنّ الله عز وجل مقابل كبرهم وتعاليهم سيذلهم ويخزيهم، وأنّ ما يسعون لتحقيقه من المكانة والرفعة لن يبلغوه بالكبر والتكذيب[2].

٣. الجبروت والعتو وظلم الخلق بالتسلط والقهر.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر: ٣٥].

٤. التكذيب بالقرآن الكريم، وبرسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

إنّ التكذيب بالحق، وإنكار البرهان الواضح؛ يؤدي بالناس إلى الانسياق وراء أوهامهم وأباطيلهم، التي تدفعهم إلى إنكار الآيات البيّنة الدالة على وحدانية الله عز وجل وقدرته، دون علم أو حجة أو دليل؛ لانطماس بصائرهم، واستحواذ الشيطان عليهم[3].

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠﴾ [غافر: ٦٩-٧٠].

وقبل الانتقال إلى القضية التالية لابد من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٦٢، تيسير التفسير، إبراهيم القطان ٣/ ١٨١.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٤٤٩-٦٤٥٠.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٣١١.

التأكيد على الأمور التالية:

الأول: إنّ الجدال في آيات الله عز وجل لبيانها، ودعوة الناس للإيمان بها أمر مشروع.

يقول الزمخشري: «أما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحلّ مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله عز وجل»[1].

الثاني: إنّ جدال أهل الكفر والزيغ والجحود في آيات الله عز وجل أمرٌ متوقع لا عجب فيه ولا غرابة؛ لأنّهم أتوا بأعظم من ذلك، وهو الشرك بالله عز وجل[2].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾ [غافر: ٦٩-٧٠].

الثالث: إنّ المجادلين في آيات الله عز وجل مهما بلغوا من القوة والقهر والتسلط فإنّهم لن يسلموا من عقاب الله عز وجل، فإنّهم إذا صاروا إلى ربهم يوم القيامة بعد خروجهم من قبورهم، فليس لهم من ملجأ من عذاب الله عز وجل[3].

قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا ۚ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٣٥﴾ [الشورى: ٣٥].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٥١﴾ [الحج: ٥١].

القضية الثانية: مجادلة الصحابة رضوان الله عليهم في شأن الخروج للقتال يوم بدر.

لما ندب النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إلى عير أبي سفيان رضي الله عنه وذلك قبل إسلامه، ونجا أبو سفيان رضي الله عنه بالعير، ولزم القتال، ولم يكن مع المسلمين ما يستعدون به للقتال، أخذوا يجادلون النبي عز وجل في أمر القتال، وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا أهبتنا من السلاح والعتاد[4].

قال تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال: ٦].

وقد ضرب الله عز وجل لهم هذا المثل من الواقع الذي بين أيديهم، فقد تنازع الصحابة رضوان الله عليهم الغنائم بعد انتهاء المعركة، فأراد الله عز وجل أن يذكّرهم بحالهم قبل المعركة، وما أرادوه وجادلوا النبي صلى الله عليه وسلم لتحقيقه، وما أراده الله عز وجل لهم من

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٥٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٨٢.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٩٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٦٩.

النصر والظفر[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: ٧-٨].

فالظاهر من الآيات أنّ المؤمنين جادلوا في أمرين:

١. الخروج للمعركة وقتال المشركين.
٢. المجادلة في قسمة الغنائم بعد انتهاء المعركة، وخاصة ممن قاتل من الشباب.

لكنّ الواجب على المؤمنين امتثال أمر الله عز وجل، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم في المنشط والمكره، في العسر وفي اليسر؛ فإنّ فيه سعادة الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦].

كما بيّن لنا القرآن الكريم أنّ المؤمن يجب عليه أن يكل أموره إلى الله عز وجل، وألّا يسعى إلى جلب المنفعة بجهده؛ لأنّه لا يدري أين يكمن الخير، والأمر كله بيد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

القضية الثالثة: تلكؤ بني إسرائيل في تنفيذ أمر ذبح البقرة.

إنّ بني إسرائيل اختلفوا في أمر قتيل منهم، حتى وصلوا إلى الحرب والتقاتل، فتوجهوا إلى نبي الله موسى عليه السلام؛ ليفصل بينهم، فأمرهم أن يذبحوا بقرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝٦٧﴾ [البقرة: ٦٧].

قصة الآية:

عن عبيدة السلماني قال: «كان في بني إسرائيل رجل عقيم أو عاقر، قال: فقتله وليه، ثم احتمله فألقاه في سبط غير سبطه، قال: فوقع بينهم فيه الشر حتى أخذوا السلاح، قال: فقال أولو النهى: أتقتتلون وفيكم رسول الله؟ قال: فأتوا نبي الله، فقال: اذبحوا بقرة، فقالوا: أتتخذنا هزوا، قال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝٦٧ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، قال: فضرب، فأخبرهم بقاتله،

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٧٩-١٤٨٠.

قال: ولم تؤخذ البقرة إلّا بوزنها ذهبًا، قال: ولو أنّهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم، فلم يورث قاتل بعد ذلك»[1].

إنّ العبرة من أمر الله عز وجل بذبح البقرة؛ لأنّها من جنس العجل الذي عبدوه؛ تهوينًا لشأن العجل الذي عظموه وعبدوه، فمثل هذه الحيوانات لا تصلح للعبادة، وإنّما للعمل والذّبح[2].

إنّ المتأمل في هذه القصة ليرى حجم مماطلة بني إسرائيل في تنفيذ أمر الله عز وجل، وجدالهم لنبي الله موسى عليه السلام، ويظهر ذلك من وجوه:

١. سفههم وظنهم بنبيهم السوء عند سماعهم أمر ذبح البقرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧].

وكان الواجب عليهم مقابلة الأمر بالانقياد والامتثال، ثمّ انتظار النتائج المترتبة على تنفيذ الأمر[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ توبيخ للمخاطبين من بني إسرائيل؛ لأنّ أوائلهم نقضوا العهد والميثاق الذي أخذه الله عز وجل عليهم، بالطاعة للأنبياء الذين يبعثهم الله عز وجل، فيذكرهم بماضيهم المليء بالنقض والإخلاف[4].

٢. عدم الاستجابة والتنفيذ بعد إرشاد موسى عليه السلام لهم.

وبيان أنّ هذا الأمر ليس للعب أو الاستهزاء، قال تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

بل ذهبوا للسؤال عن وصف هذه البقرة؛ زيادة في التشديد على أنفسهم، وجعل الأمر أكثر صعوبة ومشقة[5].

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: ٦٨].

٣. الاستمرار في حال المجادلة، وعدم الامتثال لأمر الله عز وجل، والبحث عن مماطلة جديدة وعدم الاكتفاء بالوصف المبيّن.

فأخذوا في تغيير صيغة السؤال، وهو السؤال عن اللون بعد معرفة العمر، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة: ٦٩].

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ١٨٣-١٨٤.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٩٤.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٦٤.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٦٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ١٨٢.
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٣٩٤-٣٩٥.

٤. إصرار بني إسرائيل على المجادلة، والتباطؤ في الامتثال.

فلم يكتفوا بالوصفين السابقين، فراحوا يستوضحون الصفات؛ لأنّ البقر كثير وقد تشابه عليهم.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة: ٧٠-٧١].

٥. التنفيذ بتثاقل وفتور.

وذلك بعد استقصائهم في السؤال الذي كاد ألّا ينتهي، وتطويلهم المفرط في الاستكشاف والتعمق[١].

قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٨٠.

ثالثًا: الجدال في التشريع:

إنّ المشركين وأعداء الدّين لا يتركون طريقًا لمعارضة التشريع الإسلامي إلّا سلكوه؛ معاندةً لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ومجادلة بغير دليل ولا برهان، سوى اتباع آرائهم الفاسدة وأفكارهم الضالة، وشهواتهم الباطلة، مقدمين عقولهم على شرع الله عز وجل وأحكامه[٢].

والمجادلة في التشريع على صورتين:

الصورة الأولى: العمل على مخالفة أحكام التشريع والطعن عليها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: ١٢١].

إنّ الآية السابقة أشارت إلى مجادلة المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم في حكم أكل الميتة، وإيرادهم الحجج الباطلة المؤيدة لهم، مستفيدين من وسوسة أوليائهم من مردة الإنس والجن، وتحريضهم لهم على الكفر والعصيان؛ ليدفعوا المؤمنين إلى تحليل ما حرم الله عز وجل وتحريم ما أحلّه سبحانه وتعالى[٣].

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ١٦٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٧١.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١٣/ ٨٢٨٦، تفسير المنتخب، لجنة من علماء الأزهر، ص٢٢٧.

وقد حذرنا الله عز وجل من التجاوب معهم أو طاعتهم؛ لأنّها تفضي بنا إلى الكفر بعد الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١].

وقد تباينت أقوال المفسرين في المحرّض على المجادلة والمزيّن لها على ثلاثة أقوال:

الأول: مردة الإنس من مجوس فارس الموالين لقريش في حربهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: إبليس وجنوده؛ إمّا بالإلهام والوسوسة، أو على ألسنة الكهان.

الثالث: اليهود[(١)]؛ فعن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: «خاصمت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: أتأكل مما قتلنا، ولا تأكل مما قتل الله عز وجل؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾»[(٢)].

والراجح في المسألة ما ذهب إليه الإمام الطبري رحمه الله تعالى وهو جواز الجمع بين القول الأول والثاني؛ فيكون المحرض على المجادلة شياطين الإنس أو شياطين الجن أو كلاهما معًا، بل هو الأغلب في التأويل[(٣)].

فقد أخبر الله عز وجل عنهما بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

أمّا القول الثالث وهو أنّ المقصود اليهود، فمنقوض من ثلاثة وجوه:

- أنّ اليهود لا يقولون بإباحة أكل الميتة حتى يجادلوا في حلّ أكلها.
- أنّ الآية مكية، ولم يتم التطرق إلى أهل الكتاب إلّا في القرآن المدني.
- أنّ الحديث بهذه الطريق حديث معلول لا يقوى على الاحتجاج[(٤)].

الصورة الثانية: افتراء التشريعات على الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٠٠-٤٠١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٣٩.

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة، ١٠/ ٢٥٦، رقم ٢٦٩.
قال المحقق عن الحديث: «رجاله موثوقون لكنّه معلول، فيه عمران بن عيينة... صدوق له أوهام، وعطاء بن السائب: صدوق اختلط، وعمران بن عيينة لم يذكره الأئمة فيمن روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط».

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٨٢-٨٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٢٨.

﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾ [الأنعام: ١٣٧-١٤٠].

إنّ الآيات السابقة أشارت إلى تشريعات جاهلية قد ضيقّت على الناس حياتهم في مجالات ثلاثة:

١. التضييق على الناس في أولادهم، وحملهم على قتلهم خشية العار أو الفقر.
٢. التضييق على الناس في التصرف ببعض أموالهم؛ وجعله في مصارف دون أخرى.
٣. التضييق على أنفسهم في تقسيم المطعومات بين الرجال والنساء[(١)].

إنّ المتأمل في الصورتين السابقتين يستطيع أن يحصر المحرضين على مخالفة الشريعة، والساعين لتشويهها في قلوب الناس، في ثلاثة أصناف: شياطين الإنس والجن، وأئمة الكفر والفساد.

قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١].

ورجال الدّين من الرهبان والأحبار ومن سلك طريقهم من أدعياء العلم من المسلمين.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

رابعًا: الجدال بالباطل:

يسعى أهل الباطل على اختلاف ألوانهم ومعتقداتهم وأفكارهم في كل زمان ومكان، إلى مدافعة الحق وردّه وتعطيله؛ فنجدهم يتحزبون ضد أهل الحق ويتوحدون لحربهم، مستخدمين كل الحيل والأساليب الخبيثة[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾ [الكهف: ٥٦].

إنّ مهمة الرسل عليهم السلام البشارة لأهل الإيمان بالجنة والغفران، والنذارة لأهل الكفر بالجحيم والنيران، لكنّ أهل

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٠٥-١١٠.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٤٢، التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ٢٩١.

الباطل يسعون لصرفهم عن هذه المهمة؛ بأن يجادلوهم بالباطل؛ ليبطلوا الحقّ الذي جاءوا به، ويزيلوه[1].

والمتأمل للآية يرى استخدم القرآن الكريم فعل المضارعة ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾ للدلالة على تجذّر طبع المجادلة في أهل الكفر والضلال، وتكرار وقوعها منهم، لا يبتغون الاقتناع أو الحق، أو الاسترشاد والهداية، بل يبغون السخرية والاستهزاء بالحق وأهله[2]، ولن يحققوا غايتهم الخبيثة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشورى: ١٦].

وإنّ المتأمل لآيات القرآن الكريم يستنبط أسباب الجدال بالباطل، والتي منها:

١. الإعراض عن الحق، وعدم التدبر فيه.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقد توعّد الله عز وجل المعرضين بالمعيشة الضنك.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: ١٢٤].

٢. الاستهزاء بالحق.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التوبة: ٦٥].

٣. عدم التفكر في عواقب أفعالهم وأقوالهم المخالفة لشرع الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

لكنّ الله عز وجل يحصي كل شيء عليهم.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: ٦].

٤. استحواذ الشيطان عليهم استحواذًا تامًّا.

قال تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾ [المجادلة: ١٩].

ويمكن تلخيص مظاهر الجدال بالباطل في المثالين الآتيين:

الأول: الجدال في عيسى عليه السلام.

إنّ أعداء الإسلام لا يزالون يتربصون بأهل الحق الدوائر؛ فنجدهم يحرصون على تصيد أيّ موقف أو كلمة؛ ليتخذوا منها سبيلًا للطعن في الإسلام وأحكامه وشرائعه، وإظهار اختلافه وتناقضه.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٥٣، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٥-٢٢٧٦، أيسر التفاسير، أسعد حومد، ص٧١٥.

فنجد مشركي مكة لما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]. عارضوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: إن كان المعبود وعابده في النار، فإنّ عيسى عليه السلام، وعزيرًا عليه السلام، والملائكة سيكونون في النار مثالًا لأصنامهم[(١)].

قال تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٨].

ففي الحديث عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه قال: «لمّا نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ شقّ على قريش، فقالوا: أيشتم آلهتنا؟ فجاء ابن الزّبعرى فقال: ما لكم؟ قالوا يشتم آلهتنا، قال: فما قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، قال: ادعوه لي، فلمّا دعي النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: يا محمّد، هذا شيءٌ لآلهتنا خاصّةً، أو لكلّ من عبد من دون اللّه عز وجل؟ قال: (لا، بل لكلّ من عبد من دون اللّه عز وجل)، فقال ابن الزّبعرى: خصمت وربّ هذه البنيّة (يعني الكعبة) ألست تزعم أنّ الملائكة عبادٌ صالحون وأنّ عيسى عليه السلام عبدٌ صالحٌ وأنّ عزيرًا عليه السلام عبدٌ صالحٌ؟ قال: (بلى)، قال: فهذه بنو مليحٍ يعبدون الملائكة، وهذه النّصارى يعبدون عيسى عليه السلام، وهذه اليهود يعبدون عزيرًا عليه السلام، قال: فصاح أهل مكّة، فأنزل اللّه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الملائكة وعيسى وعزيرٌ عليهم السلام ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]»[(٢)].

فالحديث السابق يشير إلى منهج أهل الكفر والضلال والفساد القائم على المشاغبة والتشكيك؛ لعلهم يحققوا شيئًا مما يبتغون، لكنّ الأمر أبعد مما يتصورون؛ لأنّ الله عز وجل كاشف زيفهم، ومظهر خبثهم وفسادهم.

الثاني: الجدال في متشابه القرآن الكريم لإثارة الفتنة، والتشكيك في القرآن الكريم.

إنّ أهل الزيغ والضلال والجدال بالباطل يتعلقون بالآيات المتشابه في القرآن الكريم، ويعكفون على الخوض فيها؛ لتشكيك المؤمنين في كتابهم، ومعتقداتهم، وإثارة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٩٦-٣١٩٧.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار، رقم ٨٩٦، ٣/ ١٦.
قال المحقق: «إسناده حسن».
وانظر: أسباب النزول، الواحدي، ص٣٠٥.

الفتنة بين المسلمين[1]، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

وقد ذمّ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الطائفة من الناس، ففي الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ...﴾ الآية، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله عز وجل، فاحذروهم)[2].

ويهدف أهل الزيغ والضلال من الجدال بالباطل بتتبع المتشابه من القرآن الكريم إلى تحقيق أمرين:

١. فتنة المؤمنين في دينهم، وتشكيكهم في عقيدتهم، وإثارة الريب في قلوبهم.

٢. تأويل آيات القرآن الكريم تأويلًا باطلًا، يتفق مع أهوائهم وشهواتهم وغايتهم الخبيثة[3].

خامسًا: الجدال عن الخائنين:

لقد نهى الإسلام عن المدافعة عن المنافقين ومرتكبي المعاصي المصرين عليها؛ سواء بدفع ما ثبت بحقه من الخيانة، أو بدفع ما يترتب على أفعالهم من العقوبات الشرعية[4].

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء: ١٠٧].

لقد وجّهت الآيات المؤمنين ألّا يقفوا من الخائنين وأصحاب التهم والجرائم موقف الدفاع؛ القائم على المجادلة عنهم والتماس المعاذير لهم؛ ابتغاء نفي العقوبة، أو التخفيف منها؛ لأنّ ذلك اعتداء على حق الله عز وجل، وتعطيلًا لحدوده[5].

«فمن الشرف للإسلام أن يعاقب أي إنسان ارتكب خطأ؛ لأنّه مادام قد انتسب للإسلام فعليه أن يصون هذا الانتساب»[6].

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٣٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن الكريم، تفسير سورة آل عمران، باب (منه آياتٌ محكماتٌ) رقم ٤٥٤٧، ٦/ ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن الكريم والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن الكريم رقم ٢٦٦٥، ٣/ ١٠٥٠.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٣٠.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٠٠.
(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣: ٨٩١.
(٦) تفسير الشعراوي، ٥/ ٢٦٠٧.

﴿بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥].

ولذلك حرّم الإسلام الدفاع عمّن علم شره وفساده، وظهر فسقه ونفاقه[1].

وهنا تحذير في زماننا لمن امتهن المحاماة أن يتّقيَ الله عز وجل في اختيار قضاياه، وألّا يدافع عن شخص ظهر إجرامه وفساده، وأن يبحث عن المظلومين؛ ليرفع الظلم عنهم، ويرد إليهم حقوقهم.

وليعلم أنّه إن نجحت المدافعة عن أهل النفاق والفساد في الدنيا؛ من تبرأتهم ودفع السوء عنهم، فإنّ ذلك لن يغيّر شيئًا من حقيقتهم الخبيثة، أو يخفف عنهم شيئًا من عذاب يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء: ١٠٩].

وفي هذا المقام نقدم نصيحة لكل من يتولى مهنة القضاء أو المحاماة أن يحرص على دوام الاستغفار؛ خشية أن يكون قد برأ مجرمًا، أو جرّم بريئًا، لتوجيهه لنبيه صلى الله عليه وسلم والأمة من بعده إلى هذا الفعل.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٦]

ونود التأكيد في هذه القضية على أنّ نهي القرآن الكريم عن المجادلة عن الخائنين لا يعني الوقوف ضدهم، وحرمانهم من حقوقهم، وتتبع أخطائهم؛ لإنزال العقوبات المختلفة بهم، فيجب على المسلم أن يكون عدلًا في مواقفه؛ بغض النظر عن حقيقة الأشخاص، سواء أكانوا من جماعته وحزبه، أو غير ذلك، بل لابد من الوقوف بجانب الحق، وتعرية الباطل وأهله، فضلًا عن الدفاع أو السكوت عنهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

وإنّ المتأمل للآية القرآنية يستنبط أنّ الخيانة طبع متجذر فيهم، نتج عنها حالان قبيحان يمنعان من الدفاع عن أهل النفاق والفساد، وهما:

الأول: الحياء من الناس، مع الحرص الشديد على التستر من الناس عند الوقوع في المنكرات، وعدم الحياء من الله عز وجل، وإغفال مراقبة الله عز وجل، مع أنّ الله عز وجل هو الأولى أن يستحى منه.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٧٧.

قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨].

الثاني: إضمار الشر والتدبير لمخالفة شرع الله عز وجل قولًا وفعلًا، ثمّ العمل على إلصاق التهمة بغيرهم من المسلمين[١].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

سادسًا: الجدال عمّن استحق العذاب:

إنّ الإنسان بطبعه يسعى لتحقيق المصلحة ودفع المفسدة عمّن تربطه بهم قرابة، أو مودة؛ لذلك فهو يسلك كل السبل ليتحصل على مراده؛ سواء كانت هذه المجادلة بقصد الإصلاح أو الإفساد، وسيتناول المطلب موقفين يشيران إلى ذلك؛ وهما كالتالي:

الموقف الأول: نبي الله إبراهيم عليه السلام يجادل في قوم لوط.

لقد أثبت القرآن الكريم أنّ نبي الله إبراهيم عليه السلام لما جاءته الملائكة تبشره بإسحاق عليه السلام، وتعلمه بأمر إهلاك قوم نبي الله لوط عليه السلام، أخذ يجادلهم في أمر نزول العقاب بهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: ٧٤].

فهنا نبي الله إبراهيم عليه السلام يجادل ليدفع العقاب عن قوم لوط عليه السلام.

إنّ الجدال في أمر الله عز وجل بقصد ردّه وعدم الالتزام به من أعظم الذنوب والمعاصي؛ لأنها اعتداء على حكم الله عز وجل، وجرأة عليه، لكنّ مجادلة نبي الله إبراهيم عليه السلام لا تندرج تحت هذا المفهوم؛ إذ القصد منها سعي نبي الله إبراهيم عليه السلام إلى تأخير العقوبة عن قوم لوط وليس رفضًا لأمر الله عز وجل، لذلك نجد أنّ الله عز وجل قد امتدحه بعد مجادلته[٢] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥].

فإنّ نبي الله إبراهيم عليه السلام حليمٌ لا يستعجل العقوبة، صبورٌ على الأذى، أوّاه[٣] رقيق القلب لا يحتمل ألم الناس؛ لذلك طلب من الله عز وجل تأجيل العذاب المقرر على قوم لوط عليه السلام؛ لعلهم يؤمنون قبل أن يحل بهم العذاب العظيم الأليم؛ بسبب جهلهم وعنادهم[٤].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٣٠٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٧٧.

(٣) الأوّاه: كثير التأوّه، وهو من قولهم أوه، وهو ناتج عن شدة الخشية من الله عز وجل، أو عن كثرة عناية الشخص بأحوال الناس وهمومهم، والتألم لآلامهم.
انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٢٣، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٧/ ٢٤٣.

(٤) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٥٧٠.

الموقف الثاني: جدال نبي الله نوح عليه السلام في شأن ابنه.

لقد توجّه نبي الله نوح عليه السلام إلى الله عز وجل طالبًا منه أن يغفر لولده في الآخرة، بعدما يأس من نجاته في الدنيا، توجّهٌ اقتضاه داعي شفقة الأبوة على الولد، تلك الأبوة المتقدة التي لا تنطفئ مهما صدر عن الأبناء من عقوق ومخالفة؛ لعله ينفع ابنه في الآخرة، ويدفع عنه العذاب الأليم[1].

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

نادى نبي الله نوح عليه السلام ربّه سبحانه وتعالى: ربّ قد وعدتني بنجاتي وأهلي من الغرق، وإنّ ابني من أهلي، ووعدك حقّ لا خلف له، وأنت أحكم الحاكمين، فاحكم لي بوفاء الوعد ونجاة ابني وأهلي، لكنّ ابن نوح عليه السلام ليس من أهله؛ لأنّه على دين يخالف عقيدة التوحيد، فهو ليس ممن وعد الله عز وجل بنجاتهم ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ لذلك نهى الله عز وجل نبيه نوح عليه السلام أن يسأله عن أسباب أفعاله التي غابت عنه وعن غيره من البشر ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وفي نهاية المحاورة يتوجّه نبي الله نوح عليه السلام إلى الله عز وجل بالإنابة والتوبة في أن يسأل فيما لا يدركه علمه، واستأثر الله عز وجل بعلمه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وطلب من الله عز وجل المغفرة والرحمة والإنقاذ من غضبه وإلّا كان من الخاسرين[2] ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

إنّ هذا الموقف يرسخ حقيقة قرآنية تميّز طبيعة هذا الدّين، مفادها أنّ روابط الدّين أقوى وأثبت من روابط الدم والنسب، أو روابط الأرض والوطن، أو روابط اللون واللغة؛ لأنّ هذه الروابط في لحظة تنتهي بانتهاء المصالح المشتركة والمكاسب الدنيوية، فالقرآن الكريم يوجّه الأمة نحو التربية على هذا الأصل الكبير، والمعلم البارز في حياة الأمة، ألا وهو الرابط الذي يمثّل وحدة العقيدة والمنهج[3].

ونظير ذلك قوله تعالى في مخاطبة نبيه إبراهيم عليه السلام لما طلب لذريته الإمامة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٨٣، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٦/ ١١٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان ١٥/ ٣٣٩-٣٥٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٦.

من بعده ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

سابعًا: الجدال في الحج:

إنّ زيارة بيت الله الحرام، والتقرب بعبادة الحج لله عز وجل، تقتضي من الإنسان ألّا يقدم على أمر يدنس قصده، ويبطل عمله[1].

قال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فمنع الإسلام الجدال في الحج؛ فأمر الحجيج بالابتعاد عن كل فعل أو قول يخالف آداب الإسلام، ويؤدي إلى التنازع والتخاصم بين المسلمين؛ لأنّ الجميع قد قصد مكة من أجل الطاعة والأجر، فالواجب عليهم التعاون على البر والتقوى، واجتناب الإثم والعدوان[2].

ولما كان القصد من الحج هو إظهار وحدة المسلمين؛ وحدة الكلمة والمنهج والغاية، وإظهار قوة الأخوة في الدّين، وصفاء الترابط بين الحجيج، أمر الله عز وجل باجتناب كل ما يخدش هذه الوحدة، ويعكر صفو هذا التآلف، وعلى رأس هذه المنهيات الجدال والمنازعة.

بعد استعراض هذا المبحث يمكن الخروج بجملة من الاستنباطات من أهمها:

١. الجدال المذموم أغلبه متعلق بأهل الكفر والضلال، وقد يقع من المسلمين.

٢. يسعى أهل الكفر والضلال لمحاربة الإسلام بشتى الوسائل والأساليب دون توقف أو فتور، لكنّها بلا فائدة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

٣. الخير كل الخير في الاستجابة لأمر الله عز وجل، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

٤. «الإنسان وبخاصة الكافر كثير الجدال والمجادلة؛ لطمس معالم الحق، والإبقاء على ما ارتضاه لنفسه من اتباع الأهواء، وتقليد الأسلاف والآباء، واحتضان الكفر، والاحتفاظ بالزعامة

(١) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٨٦.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٤٢٨.

الدنيوية والمكاسب المادية»[1].

٥. إنّ الطريق الوحيد لاستخلاص حقوقنا من اليهود هو الجهاد في سبيل الله عز وجل؛ لأنّ اليهود من طبعهم الخيانة والغدر والمماطلة والتسويف، فلا يحترمون عهدًا ولا ميثاقًا مع المسلمين؛ لاعتقادهم أنّ الله عز وجل قد أباح لهم أموال المسلمين ودماءهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٢٨٤.

منافع الجدال ومضاره في القرآن

خلق الله عز وجل الإنسان وجعل الجدل من طبيعته، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وهذا نابع من طبيعته الاجتماعية؛ القائمة على مخالطة الناس على اختلاف توجهاتهم وأفكارهم وميولهم المختلفة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨].

فكان من لوازم الاختلاف المعارضة والمجادلة، استعملها المؤمنون لنصرة الحق ودفع الباطل وأهله، واتخذها أهل الضلال والفساد سبيلًا للحرب على الإسلام وتشويهه والتشكيك فيه[2].

وسنتناول في هذا المبحث منافع الجدال ومضاره في القرآن الكريم، بناءً على هدف المتعاملين به.

أولًا: منافع الجدال المحمود في القرآن الكريم:

«إنّ الجدل والمناظرة ضرب من ضروب بيان الحق وتأييده، وقمع الباطل وتزهيقه، وقد استخدمه القرآن الكريم كثيرًا، وعلى أساليب شتى، في حالات متنوعة؛ من تنبيه لغافل، أو إرشاد لمسترشد، أو إفحام لمعاند

(٢) انظر: أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنّة، حمد العثمان، ص٥.

متلدد»[1].

والمتأمل لآيات القرآن الكريم يستنبط منها جملة من منافع الجدال، نلخصها في النقاط الآتية:

١. وسيلة ناجعة في مواجهة أهل الكفر والضلال.

إنّ أهل الفساد والضلال يسعون لمعارضة أهل الإيمان ودفع الحق بكل وسيلة وفي كل باب، فكان الواجب على المؤمنين التصدي لفسادهم، ورد شبهاتهم وطعونهم، وإتيانهم بالحق الصادق الذي يزهق باطلهم، على أقوى برهان، وأحسن بيان[2]، وفقًا لمنهج القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣].

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى هذا المعنى فقال: «فالصحابة كانوا يعلمون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيما جاء به بيان الحجة على بطلان كفر كل كافر، وبيان ذلك بقياس صحيح أحق وأحسن بيانًا من مقاييس أولئك الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

أخبر سبحانه أنّ الكفار لا يأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلّا جاءه الله عز وجل بالحق، وجاءه من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيرًا وكشفًا وإيضاحًا للحق من قياسهم»[3].

٢. إقامة الحجة على الناس.

لقد اقتضت حكمة الله عز وجل وتدبيره ألّا يعذّب قومًا إلّا بعد أن يبيّن لهم الحق من الضلال، قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

ومن مهمّة الرسل عليهم السلام إيضاح أوامر الله عز وجل ونواهيه للناس؛ ومن أهم وسائل الأنبياء عليهم السلام في إقامة الحجة على الناس الجدال، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٦].

حتى لا يبقى لمعتذر عذر؛ فالجزاء لا يقع إلاّ على من بلغته الدعوة على الوجه الصحيح، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ

(١) منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، عثمان علي حسن ١/ ٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٨٢، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٩٤.

(٣) نقض المنطق، ابن تيمية، ص٨٩.

﴿ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

وحتى لا يدعي أهل الكفر والإجرام أنّهم ما خالفوا أمر الله عز وجل إلّا لجهلهم[(١)]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤].

٣. يكسب المؤمن قوة الحجة وسلطة العلم في مواجهة أهل الباطل.

عدّ الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله سلطة علم الحجّة على الناس في مقام السلطة القاهرة بل أعظم، مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس: ٦٨].

فيقول: «والمقصود أنّ الله سبحانه سمى علم الحجة سلطانًا؛ لأنّها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد؛ ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد؛ فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنّما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة فإنّه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار في علمه فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلّا فالحجة ناصرة نفسها، ظاهرة على الباطل، قاهرة له»[(٢)].

٤. تحقيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنّ من أهم مقتضيات الإيمان، وواجبات المؤمن الحق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

بل إنّ تحقيق صفة الخيرية للأمة، وبناء أركانها على الخير والفضيلة، منوط بإقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين الناس؛ لأنهما السياج الحامي للدّين[(٣)]، وميزان النقاء والصفاء للمجتمع من الرذيلة والفساد.

إنّ تحقيق فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مقرونة بالدعوة إلى الله عز

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٥٩، أيسر التفاسير، أسعد حومد، ص٢٥٦.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٦٠.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٢١٤.

وجل القائمة على الحكمة والجدال بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٥. علو مكانة من أحاط بالحجة والدليل؛ لنصرة الإسلام وأهله.

«قد أثنى الله عز وجل في كتابه العزيز على إبراهيم عليه السلام؛ لأخذه بمجامع الحجة، ولقطعه للكافرين الضالين، بل وأضاف الله عز وجل الحجة التي آتاها إبراهيم عليه السلام لنفسه؛ تعظيمًا لشأنها، وحثًّا على تحصيلها»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

«لقد أعطى الله عز وجل إبراهيم عليه السلام الحجة على قومه، أي كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع؛ لأنّ إقامة الحجة على الغير انتصار، والانتصار رفع لدرجة موضوعك، ورفع أيضًا لموضوع عملك»[(٢)].

إنّ ما يحوزه الإنسان من علم نظري فضيلة ومنقبة، وأن يؤتى الحكمة العلمية والعملية درجة أكبر، وأن يرزق فصل الخطاب وقوة المعارضة والحكم بالحق في محاجة أهل الباطل درجة أكبر وأعظم؛ وهذا التفاوت بفضل الله عز وجل؛ فكل شيء بيده، والأمر مرده إليه[(٣)].

٦. التعاون على إظهار الحق، والوصول إلى الصواب.

يحرص أطراف الجدال على بيان أنّ غايتهم من الجدال إظهار الحق، والتزام الصواب، مؤكدين زعمهم بالأدلة والبراهين؛ فإن خلصت النيات في هذا المقام، وصدق الزعم؛ تعاون الجميع للوصول إليه، وإقامة الأدلة عليه، لا يضرهم على لسان أيهم ظهر، ملتزمين بتوجيهات القرآن الكريم للمؤمنين بالتعاون والسماحة في دعوة الناس لعبادة الله عز وجل وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

٧. تثبيت أهل الإيمان والإسلام.

يقصد أهل الإيمان من جدالهم بيان الحق لأهل الضلال، والسعي إلى استجابتهم، فإذا لم تتحقق الاستجابة، تحقق من الجدال تثبيت قلوب المؤمنين واطمئنانهم على

(١) أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنّة، حمد العثمان، ص٤.
(٢) تفسير الشعراوي ١٣/ ٨٢٨٦.
(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٨٥.

صحة منهجهم، وصدق توجههم؛ من خلال ما يقدّمه أهل الإيمان في المناظرة والجدال من الحجج والبراهين الدالة على علو منهج الإسلام وصدقه، وضعف حجج أهل الباطل ووهنها[1].

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

إنّ أعداء الإسلام يبذلون كل الجهود، ويسلكون كافة الطرق، ويتبعون جميع الوسائل؛ للصد عن سبيل الله عز وجل، وردّ المؤمنين عن دينهم.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولذلك فإنّ من واجب علماء المسلمين اليوم تثبيت عامة المسلمين، الذين يسعى الكفار لصرفهم عن منهج الإسلام وعقيدته؛ من خلال دحض حجج أعداء الإسلام، والغلبة عليهم في ميدان الجدال والمناظرة[2].

إنّ الزيادة في الإيمان زيادة في كمّ الإيمان وليس في كيفيته؛ لأنّ حقيقة الإيمان تقوم على التصديق والجزم، وذلك لا يقبل الزيادة ولا النقصان[3]، وهذا نظير موقف نبي الله إبراهيم عليه السلام لما سأل الله عز وجل أن يريه كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٨. رد شبهات أعداء الإسلام، وإزهاق باطلهم.

يسعى أعداء الإسلام لإثارة الشكوك حول حقائق الإسلام ومبادئه؛ من خلال الطعن في القرآن الكريم وأحكامه وأخلاقه وطريقة إنزاله؛ بهدف صد المسلمين عن دينهم، وقد ذكر القرآن الكريم جملة من شبههم وردّ عليها بأفصح عبارة، وأبلغ بيان، ومن شبههم اعتراضهم على نزول القرآن الكريم مفرقًا[4].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

وليعلم أهل الشبهات والضلالات «أنّ الحق إذا جحد وعورض بالشبهات، أقام الله عز وجل له مما يحق به الحق، ويبطل

(١) انظر: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، عثمان علي حسن ١/ ٤١.
(٢) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، خالد القاسم، ص١١٦-١١٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣١٦.
(٤) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، خالد القاسم، ص١١٥.

به الباطل من الآيات البينات؛ بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة»[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦].

وفي مقام ردّ شبهات الخصوم المعادين للإسلام وأهله، ينبغي لمن يتولى الرّد عليهم، ويتصدى لبيان زيف باطلهم وكذب ادعائهم، أن يكون من الراسخين في العلم، أهل الحجة والبيان، وروّاد التعامل مع أهل الشبهات والشهوات؛ حتى لا يتمكن أهل الزيغ والضلال منهم، وتتقرر شبههم في قلوب عامة المسلمين مع ضعف حجة من يتصدى لهم من غير أهل الاختصاص[2].

٩. دعوة الناس لاتباع الحق والتزامه.

إنّ الهدف الرئيس والأسمى والأجل من مشروعية المجادلة هو دعوة الناس للإسلام، والالتزام به، وتطبيق أحكامه، والعمل على بيانه للناس، وتيسير فهمه عليهم، وإزالة اللبس والغموض الحاصل عند الناس في فهم آياته.

وقد عدّ الإمام الفخر الرازي رحمه الله أنّ اعتبار الجدال المحمود يكون في تقريره الحق، ودعوة الناس إلى الإسلام، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، والدفاع عن الدّين وأهله[3].

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤-٥].

ثانيًا: مضار الجدال المذموم في القرآن الكريم:

إنّ المتأمل في آيات القرآن الكريم يستطيع الخروج بجملة من مضار الجدال ومساوئه، نلخصها في النقاط التالية:

١. الحرمان من العلم والفهم.

إنّ أهل الجدال بالباطل يحرمون من نعمة الفهم الصحيح للعلم؛ حيث جعل الله عز وجل ثقلًا يمنعهم من سماع الحق والانقياد إليه، والانتفاع بآياته وفقهها؛ لأنّهم ذكّروا بها فأعرضوا عنها، فكان الجزاء من

(١) الجواب الصحيح، ابن تيمية ١/ ٨٥-٨٦.
(٢) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، خالد القاسم، ص١١٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٤٣.

جنس العمل[1].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧].

وقد وردت هذه الآية بعد الآية التي ذكرت جدال أهل الكفر رسلهم؛ لردّ الحق، وتقرير الباطل.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٦].

وفي ذلك إشارة أنّ سبب الحرمان من العلم، وجعل الأكنة على القلوب، هو جدالهم رسلهم بالباطل.

وهنا قد تعرض عند البعض شبهة تقول: إذا كانت هذه الفئة قد منعوا السمع والبصر والفقه؛ لأنّ الله عز وجل جعل على قلوبهم أكنة، وعلى سمعهم وقرًا، وعلى أبصارهم غشاوة، فما وجه تعذيبهم مع حدوث الصرفة لهم؟ الجواب: أنّ الله عز وجل بيّن في غير موضع من القرآن الكريم، أنّ حصول تلك الموانع كالختم والطبع والغشاوة والأكنة، كانت جزاءً متناسبًا لمبادرتهم بالكفر، وتكذيب الرسل عليهم السلام بإرادتهم، فكان الجزاء من جنس العمل؛ فمقابل كفرهم وعنادهم كان جزاؤهم الطبع والختم والغشاوة ونحوها[2].

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥].

٢. عدم الاستفادة من النصح.

إنّ أصحاب المناهج الفاسدة لا يقصدون من جدالهم الوصول إلى الحق، وإنّما يحرصون على المشاغبة والمعارضة؛ رفضًا للحق، وإصرارًا منهم على الجحود والعناد؛ فإنّ نتيجة ذلك عدم حصول الفائدة لهم بالنّصح والإرشاد، بل الزيادة في الرفض والإنكار، والابتعاد عن منهج أهل الحق والإيمان.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٢-٣٤].

وهذا نابع من عدم فهمهم لطبيعة الدعوة

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٤٤.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٣١١.

إلى الله عز وجل، ومهمة دعاة الحق والخير؛ لذلك نجدهم يطلبون من الدعاة إلى الله عز وجل أشياء تدل على قصور إدراكهم، وضحالة أفكارهم، متغافلين أنّ مهمة هؤلاء الدعاة هو هداية الناس إلى طريق الحق، وإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، فقد حكى القرآن الكريم لنا مشهد مطالبة قوم نبي الله نوح عليه السلام منه طرد المؤمنين؛ ليستجيبوا لدعوته.

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾ [هود: ٢٩-٣٠].

٣. العمل على ردّ الحق، وتزييف الحقائق.

يسعى أهل الزيغ والضلال، والجحود والإنكار من وراء جدالهم إلى ردّ الحق، وتزييف الحقائق؛ لإعلاء كلمة الباطل وأهله، وتحقيق المصالح الدنيوية الفانية.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾ [الكهف: ٥٦].

طرق ردّ الحق، وإضلال الخلق:

١. إخفاء أدلة الحق، ومظاهر الحقيقة، عن الناس الذين لم تصلهم دعوة الحق والخير، والعمل على منع الناس من الوصول إليها؛ ليستمر الباطل، ويسود أهل الفساد[1].

قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [الأنعام: ٢٥-٢٦].

وقد أشار القرآن الكريم إلى الطريقين السابقين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة: ٤٢].

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ٣٨﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٨].

٢. تشويش الدلائل، وتشويه الأدلة والبراهين الصادقة، التي أوصلها دعاة

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٠-٤١، ٢١/ ١٢٠.

الحق للناس؛ بسبب إلقاء الشبهات الصارفة للناس من اتباع الحق، أو السخرية من أهل الحق، والاستهزاء بهم.

ومنهج التشويش منهج قديم استخدمه مشركو مكة ضد النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

٣. تزيين الباطل.

حيث يسعى أهل الزيغ والفساد إلى عرض فسادهم بصورة جميلة؛ ليقبل به الدهماء من الناس، ويصفق له أهل الغوغاء؛ استخفافًا بعقولهم، واستعبادًا لأبدانهم، فقد قصّ علينا القرآن الكريم مشهد عرض فرعون باطله على قومه، وتزيينه لباطله.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤].

ونظيره الحديث الصحيح عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (إنّكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم ألحن بحجّته من بعض، فمن قضيت له بحقّ أخيه شيئًا بقوله فإنّما أقطع له قطعةً من النّار فلا يأخذها)[1].

٤. رد الأدلة الصحيحة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الروم: ٥٨].

٤. خداع أهل الحق، واستمالة قلوبهم؛ لإسقاطهم في شراك أهل الزيغ والفساد.

يتخذ أهل الضلال والفساد من المجادلة سبيلًا للوصول إلى قلوب بعض المسلمين؛ لاستمالتهم إلى منهجهم الفاسد، واستعمالهم كأداة للطعن في الإسلام وأهله، مستخدمين في ذلك شعارات عامة، يتغنى بها الدّاعون من بني جلدة المسلمين إلى التقارب مع المخالفين في الدّين من النصارى واليهود؛ وهذه الشعارات من قبيل: سماحة الإسلام، لا إكراه في الدّين، العدل والإنصاف، إلى غير ذلك من الشعارات التي يعتنى بظاهرها، دون إدراك جوهرها ومضمونها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب من أقام البيّنة بعد اليمين، رقم ٢٦٨٠، ٣/ ١٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة رقم ١٧١٣، ٢/ ٧١١.

إنّ القرآن الكريم حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من التجاوب مع أهل الباطل، ومع اقتراحاتهم للتقارب، فقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

كما بيّن القرآن الكريم حرص أهل الكفر على التقارب المفضي إلى التنازل عن مبادئ الإسلام، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: ٩].

كما أشار القرآن الكريم إلى مكر أهل الكفر والضلال من سعيهم وراء المجادلة الناعمة؛ وكشف عن هدفهم الخبيث من الوصول إلى إخراج المسلمين من الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].

إنّ الآية السابقة تظهر مكر وخديعة أهل الكفر؛ فرسموا لهم تلك الحيلة الرخيصة؛ ليسقطوا أهل الحق في باب خلط الحق بالباطل؛ وذلك أنّ المؤمنين من العرب كانوا أميين، وكانوا يعلمون أنّ أهل الكتاب على علم بمناهج السماء، فاستغل أهل الكفر والضلال هذه المعطيات لخداع المؤمنين[1].

«إنّ سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية،...وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة، وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلّا لله عز وجل، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وللجماعة المسلمة»[2].

يهدف أهل الكفر من أهل الكتاب من مجادلة الذين آمنوا، إلى تنصير المسلمين، وطمس حضارتهم، واستعمارهم؛ بما يضمن لهم استغلال ثروات المسلمين، وقيادتهم بما يحقق مصالح الكفار،

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٣/ ١٥٣٨.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٠٩-٩١٠.

وإضعاف شوكة المسلمين[1].

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

٥. الإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين؛ بإظهار مزية النفس في العلم والفضل، وذم نقص المخالفين.

يهدف بعض المجادلين إلى إبراز مكانته العلمية، وقدرته على الإحاطة بقضية الجدال من جميع جوانبها، دون الالتفات إلى الحق، أو السعي لتقريره؛ فسعيه متوجه نحو إظهار مزية النفس، والعمل لا تحقير الآخرين.

ولقد حذرنا القرآن الكريم من ذلك، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

إنّ المتأمل في آيات القرآن الكريم ليجد مشاهد عدة على إعجاب المجادلين من أهل الكفر والضلال بأنفسهم، التي تدفعهم إلى رفض الحق، والتمسك بالباطل، ومن هذه المشاهد:

الأول: فرعون يتعالى بنفسه عند جداله لنبي الله موسى عليه السلام؛ حيث اتجه فرعون إلى تصغير شأن نبي الله موسى عليه السلام بأحوال ليست مؤثرة، مظهرًا في الوقت نفسه مكانته[2].

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢].

الثاني: تبرير أهل مكة رفضهم الاستجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنّه يتيم، وليست له المكانة التي تؤهله لهذه المكانة، فقالوا تصغيرًا لشأن النبي صلى الله عليه وسلم، واستعظامًا أن يكرمه الله عز وجل بالوحي والرسالة، هلّا نزل القرآن على رجل عظيم من قريش[3].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٠-٣٢].

الثالث: مشهد المجادلة بالسيف والسنان؛ فنجد أنّ صناديد قريش بعد إفلات عير أبي سفيان رضي الله عنه -وذلك قبل إسلامه- رفضوا العودة إلى مكة والاحتفال بنجاة أموالهم، بل أرادوا أكثر من ذلك؛ أرادوا الخروج بمظاهرة لنصرة الضلال

(١) انظر: الحوار مع أهل الكتاب، خالد القاسم، ص١٣٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٣١.

(٣) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ص٧٢٦.

والانحلال، والمفاخرة والتكبر؛ ليثبتوا للناس جميعًا أنّهم أهل السيادة والمكانة، وأنّ غيرهم أهل الذلة والمهانة[1].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٧-٤٨].

الرابع: مشهد المجادلة بالمال والاستعلاء به؛ فيتوجه جملة من أهل الفساد والضلال إلى القول بصحة أفكارهم ومبادئهم؛ لأجل ما جمعوه من المال، وأنّ ما حازوه من الفضل دليل على أنّهم الأفضل عند الله عز وجل[2].

فهذا صاحب الجنتين يزعم أنّه ملك خير الدنيا، وسيملك أفضل منه في الآخرة: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦].

كما قصّ علينا القرآن الكريم مشهد قارون وجداله مع قومه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

كما أشارت الآيات القرآنية إلى أنّ هذا المنهج مترسخ في عقول أهل الفساد وقلوبهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥].

ثالثًا: الصفات الشخصية الذاتية للمجادل بالباطل:

إنّ المتدبر لآيات القرآن الكريم ليستخلص صفات أهل الجدال بالباطل، ويمكن حصرها في النقاط التالية:

١. قسوة القلب.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٧٣٠-٤٧٣١.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ٢٩٧.

تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ [الأنعام: ٤٣].

٢. عمى القلب والبصيرة.

قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨].

٣. الترف في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣].

٤. الكبر.

قال تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل: ٢٢-٢٣].

موضوعات ذات صلة:

الإعراض، الإنصاف، الحوار، الدعوة، النصيحة

الجزاء

عناصر الموضوع

مفهوم الجزاء	٦٦
الجزاء في الاستعمال القرآني	٦٨
الألفاظ ذات الصلة	٦٩
أنواع الجزاء	٧١
قواعد في الجزاء	٩٩

مفهوم الجزاء

أولًا: المعنى اللغوي:

«الجيم والزّاء والياء: قيام الشّيء مقام غيره، ومكافأته إيّاه»[1]، وفلانٌ ذو غناءٍ وجزاء -ممدود-، وتجازيت ديني: تقاضيته[2].

والجزاء يأتي بمعنى القضاء أيضًا ، وجزيته بما صنع جزاء وجازيته، بمعنىً، ويقال: جازيته فجزيته، أي: غلبته[3]، وجزى الشّيء يجزي: كفى؛ ومنه جزى عنه هذا الأمر: أي: قضى.

وفي حديث صلاة الحائض: (فأمرهنّ أن يجزين)[4] أي: يقضين.

وفي حديثٍ آخرٍ: (تجزي عنك ولا تجزي عن أحدٍ بعدك)[5].

وتقول: إن وضعت صدقتك في آل فلانٍ جزت عنك، فهي جازيةٌ عنك.

والجوازي: جمع جازية أو جازٍ أو جزاءٍ، وبكلٍّ فسّر قول الحطيئة: من يفعل الخير لا يعدم جوازيه.

ويقال: جزتك عنّي الجوازي: أي جزتك جوازي أفعالك المحمودة[6].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّف مصطلح الجزاء خلق كثيرون، ومما ينبغي ذكره في هذا المقام هو ما ينسجم مع طبيعة الدراسة القرآنية، ومن هذه التعريفات:

ذكر الإمامان الأصفهاني والمناوي أن الجزاء اصطلاحًا هو: «كل ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ»[7].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٥٥- ٤٥٦.
(٢) العين، الفراهيدي ٦/ ١٦٤.
(٣) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٠٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصّوم على الحائض دون الصّلاة، رقم ٣٣٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العيدين، باب الأكل يوم النّحر، رقم ٩٥٥.
(٦) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٥٨، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٤٣- ١٤٤، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٠٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٢٧٠، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٣٥١- ٣٥٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٢١- ١٢٢.
(٧) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١٩٥، التوقيف، المناوي، ص ١٢٥.

وعرّفه الشيخ محمد عبد الله دراز بأنه: «رد فعل القانون على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون»[1].

وبالنظر إلى التعريفين السابقين يتضح أن التعريف الأول أكثر دقةً؛ إذ إنه جامع لكل جوانب المصطلح من جهة، وهو مانع لغيره من الألفاظ ذات الصلة، كما أن تعريف الشيخ محمد عبد الله دراز يظهر فيه التأثر من التعريف القانوني له في الدنيا، وكما هو معلوم فإن التعريف القرآني يركز على الجانبين الدنيوي والأخروي، مع تقديم الآخرة على الدنيا.

وكلا المعنيين اللغوي والاصطلاحي لا يخرجان عن أن معنى الجزاء مقابلة الخير بالخير والشر بالشر.

(١) دستور الأخلاق في القرآن ص٢٤٥.

الجزاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (جزي) في القرآن(١١٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

والصيغ التى وردت هى:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢]
الفعل المضارع	٧٠	﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ [القمر: ٣٥]
المصدر	٤٢	﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]
اسم الفاعل	١	﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَٰلِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]

وجاء الجزاء في القرآن على ثلاثة وجوه[٢]:

أحدها: ثواب الخير أو الشر: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٤١]، يعني: يثيبه على ما سعى؛ إن خيرًا فيكافئه بالخير، وإن شرًّا فيعاقبه بالشر.

الثاني: القضاء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]، يعني: لا تقضي.

الثالث: البدل والعوض: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، يعني: بدله.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١٦٨ - ١٧٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٨٩-٣٩١.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٨٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الثواب:

الثواب لغةً:

الثواب اسم للمصدر؛ لأنّ مصدر الثلاثي ثوبًا وثوبانًا، ومصدر الرباعي إثابة، وفعل الثواب ثلاثي أجوف معتل العين، ولفظ الثواب في اللغة جاء على عدة معانٍ، أبرزها: العود والرجوع، والاجتماع، والجزاء[١].

الثّواب اصطلاحًا:

الجزاء كيف ما كان من الخير والشّر، إلّا أن استعماله في الخير أكثر[٢].

الصلة بين الثواب والجزاء:

الجزاء أعم وأشمل من الثواب؛ حيث إن الجزاء على المكافأة مقابل عمل الخير أو الشر، كلٌّ حسب عمله، أما الثواب فهو مكافأة مقابل الطاعة والعبادة فقط.

٢ العقاب:

العقاب لغة:

العقاب مأخوذ من (عقب): العين والقاف والباء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره. والأصل الآخر يدل على ارتفاع وشدة وصعوبة[٣].

العقاب اصطلاحًا:

العقاب: هو جزاء الشّرّ، والنكال أخص منه[٤]، أو هو ما يلحق الإنسان بعد الذّنب من المحنة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا[٥].

الصلة بين العقاب والجزاء:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للعقاب تبيّن أن الجزاء أعم وأشمل منه؛ إذ إن العقاب يعني إصلاح الخطأ بمحاسبة، والجزاء يضاف إليه مكافأة عمل الخير بالثواب.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٩٣، النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١/ ٢٢٧، مختار الصحاح، الرازي ص٩٠، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٤٣. القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٦٤، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٨٧ تاج العروس، الزبيدي ٢/ ١٠٣.
(٢) الكليات، الكفوي ص٣٢٨.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٧٧.
(٤) الكليات، الكفوي ص٦٥٤.
(٥) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ٢/ ١١٩٢.

٣ الحساب:

الحساب لغةً:

مأخوذ من قولهم: حسبك كذا، أي: كفاك، فسمي الحساب في المعاملات حسابًا لأنه يعلم به ما فيه كفاية وليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان، والحسبان: الظن[(١)].

الحساب اصطلاحًا:

هو المؤاخذة والمجازاة، والحساب: ما يحاسب عليه فيجازى بحسبه، ولا يخرج المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي له[(٢)].

الصلة بين الحساب والجزاء:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للحساب تبيّن أن الجزاء أعمّ وأشمل منه؛ إذ إنّ الحساب يعني إيقاع العذاب على الخاطئ مع كفاية المحاسب في القدرة على حماية المظلوم.

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢ / ٨٧، الصحاح، الجوهري ١ / ١١٠، تاج العروس، الزبيدي ٢ / ٢٦٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١ / ١٧١.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢ / ٤٦٠، التوقيف، المناوي ص ١٣٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣ / ١٣٠، الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٨ / ١٣١.

أنواع الجزاء

تحدث القرآن الكريم عن أنواع الجزاء وهذا ما سنبينه فيما يأتي:

أولًا: الجزاء الحسن وأهله في الدنيا:

تعددت صور الجزاء الحسن وأهله في الدنيا، ومن هذه الصور:

١. جزاء الشاكرين.

والشّكر مطلقًا: الثّناء على المحسن بذكر إحسانه، فالعبد يشكر الله، أي: يثنى عليه بذكر إحسانه الّذي هو النّعمة.

والله تعالى يشكر العبد، أي: يثني عليه بقبول إحسانه الّذي هو الطّاعة.

وهذا المفهوم ينقسم إلى:

الشّكر اللّغويّ: وهو الوصف بالجميل على جهة التّعظيم والتبجيل باللّسان والجنان والأركان.

وإلى الشّكر العرفيّ: وهو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السّمع والبصر والكلام وغيرها إلى ما خلق له وأعطاه لأجله، كصرف النّظر إلى مصنوعاته، والسمع إلى تلقي إنذاراته، والذهن إلى فهم معانيها[١].

وللإنسان حالان لا يخرج عنهما، ولا ثالث لها ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وجاء وصف اثنين من أولي العزم بهذا الشرف العظيم، وهما:

١. نوح عليه السلام ، قال عز وجل عنه: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

٢. إبراهيم عليه السلام إذ قال تعالى عنه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

ومن فضل الله على المؤمنين أنه لا يقدّر عليهم خيرًا ولا مصيبة إلا كان خيرًا لهم.

إن أصابتهم سراء فشكروا؛ جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا؛ جازاهم جزاء الصابرين[٢].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أي: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي عليكم لأزيدنّكم منها ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النّعم وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إيّاهم على كفرها[٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر:

(١) الكليات، الكفوي ص٥٣٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٧٩.

٣٣-٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٥].

قال محمد بن إسحاق: «أي: فمن كان منكم يريد الدنيا ليس له رغبة في الآخرة نؤته منها ما قسم له فيها من رزق، ولا حظ له في الآخرة ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ منكم ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ما وعده، مع ما يجري عليه من رزقه في دنياه، وذلك جزاء الشاكرين أي: المتقين»[(١)].

٢. جزاء المتقين.

التّقوى: هو على ما قاله عليّ رضي الله عنه: «ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطّاعة، وهي الّتي يحصل بها الوقاية من النّار، والفوز بدار القرار»[(٢)].

وغاية التقوى البراءة من كل شيء سوى الله، ومبدؤه اتقاء الشّرك، وأوسطه اتقاء الحرام، والتّقوى منتهى الطّاعات، والرهبة من مبادئ التّقوى، وقد تسمى التّقوى خوفًا وخشية، ويسمى الخوف تقوى[(٣)].

لذلك جاء جزاؤهم مفخمًا بكل أنواع التعظيم والإكرام، ومن هذه الجزاءات:

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

أي: قل لهم -مبينًا لسفاهة رأيهم واختيارهم الضار على النافع-: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي وصفت لكم من العذاب ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي زادها تقوى الله، فمن قام بالتقوى فالله قد وعده إياها ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على تقواهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ موئلًا يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائمًا أبدًا.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: يطلبون وتتعلق بهم أمانيهم ومشيئتهم، من المطاعم والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنات والحدائق المرجحنة[(٤)]، والفواكه

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ١٠٩.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٢٦٨ غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ١٣٨.
(٣) الكليات، الكفوي ص٢٩٩.
(٤) رجحن: ارجحن الشيء: مال، ونخل مراجيح ومواقير: ثقال الأحمال ومن المجاز: هذه

التي تسر ناظريها وآكليها، من حسنها وتنوعها وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وبساتينها، حيث شاءوا يصرفونها ويفجرونها أنهارًا من ماء غير آسن، وأنهارًا من لبن لم يتغير طعمه، وأنهارًا من خمر لذة للشاربين، وأنهارًا من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومساكن مزخرفة، وأصوات شجية تأخذ من حسنها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم وسماع كلامه، والحظوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه وزيادته على ممر الأوقات، وتعاقب الآنات، ﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ يسأله إياها، عباده المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأي الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي العاملين، عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة؛ أولى بالفضل والعقل والفخر يا أولي الألباب؟[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٦].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن السّعداء وما أعدّ لهم تعالى من الكرامة والنّعيم المقيم، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. قال ابن عبّاسٍ والضّحّاك: متنزّهًا.

وقال مجاهدٌ، وقتادة: فازوا، فنجوا من النّار.

والأظهر ها هنا قول ابن عبّاسٍ؛ لأنّه قال بعده: ﴿حَدَائِقَ﴾ وهي البساتين من النّخيل وغيرها ﴿وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي: وحورًا كواعب.

قال ابن عبّاسٍ ومجاهدٌ وغير واحدٍ: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي: نواهد، يعنون أن ثديّهن نواهد لم يتدلّين؛ لأنّهنّ أبكارٌ عرب أترابٌ، أي: في سنٍّ واحدةٍ»[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن عباده المتّقين الّذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرّمات إنّهم يوم القيامة يكونون في جنّاتٍ وعيونٍ، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظلّ اليحموم، وهو الدّخان

رحى مرجحنّة للسحابة المستديرة الثقيلة، ويقال: فلان في دنيا مرجحنّة أي: واسعة كثيرة.
انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢١٢١، تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٢٠٢.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٠٨.

الأسود المنتن.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: من سائر أنواع الثّمار مهما طلبوا وجدوا، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم، ثمّ قال تعالى مخبرًا خبرًا مستأنفًا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل»[1].

٣. جزاء المحسنين.

الإحسان: هو فعل ما ينفع غيره بحيث يصير الغير حسنًا به، كإطعام الجائع، أو يصير الفاعل به حسنًا بنفسه[2].

والإحسان مطلوبٌ في كلّ شيءٍ بهدي دين الفطرة، الدّاعي لحسنتي الدّنيا والآخرة، وجزاء الإحسان في كلّ شيءٍ بحسبه، قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

كما أنّ الإساءة محرّمةٌ في كلّ شيءٍ وجزاؤها من جنسها، قال عز وجل: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١][3].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم[4].

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤].

هو تعبير جامع يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب، ويقرر أن هذا ﴿لَهُم﴾ عند ربهم، فهو حقهم الذي لا يخيب ولا يضيع[5].

وخص المولى الأنبياء بكثير من النعم بسبب إحسانهم.

فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

قال محمد رشيد رضا: «قال تعالى بعد ذكر هؤلاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: بالجمع بين نعم الدّنيا ورياستها بالحقّ، وهداية الدّين وإرشاد الخلق، وهذا كما قال الله تعالى في أحدهم -يوسف-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

فهو جزاءٌ خاصٌّ بعضه معجّلٌ في الدّنيا، أي: ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدّنيا

(١) المصدر السابق ٨/ ٣٠١.
(٢) الكليات، الكفوي ص٥٣، ٦٦٧.
(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤١١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣١.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٥١.

قبل الآخرة، ومنهم من يرجئ جزاءه إلى الآخرة»[1].

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: استكمل عقله، وتمّ خلقه ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ يعني: النّبوّة، إنّه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: إنّه كان محسنًا في عمله، عاملًا بطاعة ربّه تعالى»[2].

وقال تعالى مثل ذلك عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

وقال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٠-١٢١].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النّبوّة والنّجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده في حقّهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النّساء، واستعمالهم في أخسّ الأشياء، ثمّ بعد هذا كلّه نصرهم عليهم، وأقرّ أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمّعوه طول حياتهم، ثمّ أنزل اللّه على موسى الكتاب العظيم الواضح الجليّ المستبين وهو التّوراة»[3].

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٥-٨٠].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩-١١٠].

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٥].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: هكذا نصرف عمّن أطاعنا المكاره والشّدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق:

(١) المنار ٧/ ٤٨٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٧٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٦.

٢-٣]»[1].

وأثنى الله على إلياس كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠-١٣١][2].

وقال تعالى عن جزاء كلّ من أحسن العمل: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤٣-٤٤][3].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

أي: من أحسن عمله في الدّنيا أحسن اللّه إليه في الدّنيا والآخرة.

ثمّ أخبر بأنّ دار الآخرة خيرٌ، أي: من الحياة الدّنيا، والجزاء فيها أتمّ من الجزاء في الدّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

ثمّ وصفوا الدّار الآخرة فقالوا: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠][4].

وقال السعدي: «﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ في عبادة الله تعالى ، وأحسنوا إلى عباد الله فلهم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ رزق واسع، وعيشه هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[5].

قال الشعراوي: «نفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألاّ يترك الدنيا وأسبابها، فربما أخذها منك الكافر، وتغلّب عليك بها، أو يفتنك في دينك بسببها، فمن يعبد الله أولى بسرّه في الوجود، وأسرار الله في الوجود هي للمؤمنين، ولا ينبغي لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا للكافرين.

اجتهد أنت أيها المؤمن في أسباب الدنيا حتى تأمن الفتنة من الكافرين في دنياك، ولا يخفي ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا، مما أعطاهم الفرصة ليسيطروا على سياساتنا

(١) المصدر السابق ٧/ ٣٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٠٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٠١.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٥٦٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٤٣٩.

ومقدراتنا.

لذلك يقول سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾[النحل: ٣٠].

أي: يأخذون حسناتهم، وتكون لهم اليد العليا بما اجتهدوا، وبما عملوا في دنياهم، وبذلك ينفع الإنسان نفسه وينفع غيره، وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هي العليا، وكان ثوابك وخيرك موصولًا بخير الآخرة؛ لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)[(١)]. ومن هذه الآية أيضًا يتضح لنا جانب آخر هو ثمرة من ثمرات الإحسان في الدنيا وهي الأمن»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدّنيا حسنةٌ في دنياهم وأخراهم»[(٣)].

٤. جزاء المتصدقين.

الصّدقة: هي الإحسان إلى النّاس المحاويج الضّعفاء، الّذين لا كسب لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعةً للّه، وإحسانًا إلى خلقه، وقد ثبت في الصّحيحين: (سبعةٌ يظلّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه -فذكر منهم-: ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[(٤)].

وفي الصّحيحين عن أبي هريرة قال: (ضرب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جبّتان من حديدٍ أو جنّتان من حديدٍ، قد اضطرّت أيديهما إلى ثديّهما وتراقيهما، فجعل المتصدّق كلّما تصدّق بصدقةٍ انبسطت عنه، حتّى تغشى أنامله، وتعفو أثره، وجعل البخيل كلّما همّ بصدقةٍ قلصت، وأخذت كلّ حلقةٍ مكانها)، قال أبو هريرة: (فأنا رأيت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول بإصبعه هكذا في جيبه، فلو رأيته

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزّرع والغرس إذا أكل منه، رقم ٢٣٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزّرع، رقم ١٥٥٣.

(٢) تفسير الشعراوي ١٣/ ٧٨٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٨٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصّلاة وفضل المساجد، رقم ٦٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب فضل إخفاء الصّدقة، رقم ١٠٣١.

يوسّعها ولا يتّسع)[1].

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فجود الرّجل يحبّبه إلى أضداده، وبخله يبغّضه إلى أولاده، كما قيل[2]:

ويظهر عيب المرء في النّاس بخله
وتستره عنهم جميعًا سخاؤه
تغطّ بأثواب السّخاء فإنّني
أرى كلّ عيبٍ والسّخاء غطاؤه[3]

ومدح الله تعالى المنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات، من ليلٍ أو نهارٍ، والأحوال، من سرٍّ وجهارٍ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

والنّفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا، كما ثبت في الصّحيحين أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقّاصٍ حين عاده مريضًا عام الفتح، وفي روايةٍ عام حجّة الوداع: (وإنّك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه اللّه إلّا ازددت بها درجةً ورفعةً، حتّى ما تجعل في في امرأتك)[4].

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم عند الله؛ وسمي أجرًا لأنه يشبه عقد الإجارة التي يعوّض فيه العامل على عمله؛ وهذا الأجر قد بين فيما سبق من السورة بأن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فيما مضى؛ فهم لا يحزنون على ما سبق؛ ولا يخافون من المستقبل؛ لأنهم يرجون ثواب الله عز وجل ؛ ولا يحزنون على ما مضى لأنهم أنفقوه عن طيب نفس.

ومن الفوائد في هذه الآية:

١. الثناء على الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سواء كان ليلًا، أو نهارًا، أو سرًّا، أو جهارًا.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب جيب القميص من عند الصدر وغيره، ٧/ ١٤٣، رقم ٥٧٩٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل، ٢/ ٧٠٨، رقم ١٠٢١.

(٢) البيتان لصالح بن عبد القدوس.
انظر: روضة العقلاء، أبو حاتم البستي ص ٢٢٧، أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٨٤، ولم نجدهما في ديوانه.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤١٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧٠٧.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، بابٌ ما جاء إنّ الأعمال بالنّيّة والحسبة، رقم ٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصيّة، باب الوصيّة بالثّلث، رقم ١٦٢٨.

٢. كثرة ثوابهم؛ لأنه سبحانه وتعالى أضاف أجرهم إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والثواب عند العظيم يكون عظيمًا.

٣. أن الإنفاق يكون سببًا لشرح الصدر، وطرد الهم والغم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا أمر مجرب مشاهد؛ أن الإنسان إذا أنفق يبتغي وجه الله انشرح صدره، وسرت نفسه، واطمأن قلبه؛ وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» أن ذلك من أسباب انشراح الصدر[(١)].

٤. كرم الله عز وجل حيث جعل هذا الثواب الذي سببه منه وإليه أجرًا لفاعله؛ كالأجير إذا استأجرته فإن أجره ثابت لازم.

٥. كمال الأمن لمن أنفق في سبيل الله؛ وذلك لانتفاء الخوف والحزن عنهم[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ١٩-٢٤].

فمن أسباب النجاة من صفات الذم العمل بما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: في أموالهم نصيبٌ مقرّرٌ لذوي الحاجات. فالصّلاة والزّكاة والصدقة علاجٌ لما في جبلّة الإنسان من الهلع والجبن الحاجم له عن الإقدام في الدّفاع عن الحقّ وإعلاء كلمة الله، ومن الشّحّ الصّادّ له عن الإنفاق في سبيل الله؛ ولذلك كان المنافقون أجبن النّاس وأبخلهم[(٣)].

ثانيًا: الجزاء السيئ وأهله في الدنيا:

تعددت صور الجزاء السيئ وأهله في الدنيا، ومن هذه الصور:

١. جزاء المجرمين.

أخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعد ما جاءتهم البينات على أيدي الرسل، وتبين الحق فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا، فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم[(٤)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ

(١) حيث قال: «فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيرًا عجيبًا في شرح الصدر».
انظر: زاد المعاد ٢/ ٢٢.

(٢) تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة ، ابن عثيمين، ٣/ ٣٧٢- ٣٧٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٦، ٢٢٧ المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٦٨ تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٨٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٩.

﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

قال سيد قطب رحمه الله: «لقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد والظلم -وهو الشرك- إلى الهلاك، وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية، في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط، وتلك القرون جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها، فلم يعودوا مهيئين للإيمان، فلقوا جزاء المجرمين ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وإذ يعرض عليهم نهاية المجرمين الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا، فحق عليهم العذاب، يذكرهم أنهم مستخلفون في مكان هؤلاء الغابرين، وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]»[(١)].

وقال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرّب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم ممّا من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن اللّه لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢].

أي: كالشّيء البالي؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلّهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقيةٌ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذّب رسلنا، وخالف أمرنا[(٢)].

٢. جزاء الظالمين.

جزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سعارات الظلم من الظالمين؛ لأن الحق لو تركها للآخرة لاستشرى الظلم، والذي لا يؤمن بالآخرة يصبح محترفًا للظلم[(٣)].

قال تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

أي: إنّي أريد بما ذكرت من اتّقاء مقابلة الجناية بمثلها أن ترجع أنت إن فعلتها متلبّسًا ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: إثم قتلك إيّاي، وإثمك الخاصّ بك، الّذي كان من شؤمه عدم قبول قربانك، وهذا التّفسير مأثورٌ عن ابن عبّاس رضي الله عنه، وفي وجهٍ آخر وهو أنّه مبنيٌّ على كون القاتل يحمل في الآخرة إثم من

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٦٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٦.

(٣) تفسير الشعراوي ٥/ ٣٠٧٦.

قتله إن كان له آثامٌ؛ لأنّ الذّنوب والآثام الّتي فيها حقوقٌ للعباد، لا يغفر الله تعالى منها شيئًا حتّى يأخذ لكلّ ذي حقٍّ حقّه، وإنّما القصاص في الآخرة بالحسنات والسّيّئات، فيعطى المظلوم من حسنات الظّالم ما يساوي حقّه إن كان له حسناتٌ توازي ذلك، أو يحمل الظّالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازي ذلك إن كان له آثامٌ أو أوزارٌ، وما نقص من هذا أو ذاك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنّة أو النّار، وفي ذكر المتكلّم إثمه وإثم أخيه تواضعٌ وهضمٌ لنفسه بإضافة الإثم إليها على الوجه الثّاني، وتذكيرٌ للمخاطب بأنّه ليس له حسناتٌ توازي هذا الظّلم الّذي عزم عليه.

ولذلك رتّب عليه قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: تكون بما حملت من الإثمين من أهل النّار في الآخرة؛ لأنّك تكون ظالمًا، والنّار جزاء كلّ ظالمٍ، فتكون من أهلها حتمًا، ترقّى في صرفه عن عزمه من التّبرّؤ إليه من سبب حرمانه من قبول قربانه ببيان سبب التّقبّل عند الله تعالى وهو التّقوى، إلى تنزيه نفسه من جزائه على جنايته بمثلها، إلى تذكيره بما يجب من خوف الله تعالى ربّ العالمين الّذي لا يرضيه ممّن وهبهم العقل والاختيار إلّا أن يتحرّوا إقامة سننه في تربية العالم وإبلاغ كلّ حيٍّ يقبل الكمال إلى كماله، إلى تذكيره بأنّ المعتدي يحمل إثم نفسه، وإثم من اعتدى عليه بعدل الله تعالى في القصاص والجزاء إلى تذكيره بعذاب النّار وكونها مثوًى للظّالمين الفجّار[1].

وقال تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي: فكانت عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له، وتصيّرهما إلى نار جهنّم خالدين فيها ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: جزاء كلّ ظالم»[2].

وقال السعدي: «﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلى عنهم، واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٧٦.

بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدم على طاعته عاصٍ على بصيرة لا عذر له»[1].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]، أي: هذه هي شريعتنا نحكمها في السارق، والسارق من الظالمين[2].

٣. جزاء المفترين.

كل مفترٍ على الله، كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيبًا من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا[3].

وتكرر في القرآن الكريم أنه لا أظلم ممن يفتري الكذب على الله عز وجل، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

وهذه الآيات وغيرها مما هي في معناها، وهو: أي ظلم أشنع من الافتراء على الله والتكذيب بآياته؟![4].

والجواب: لا أظلم في أبواب الافتراء ومعانيها ممن افترى على الله الكذب.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

هذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقّى من الله، ومأمور به منه سبحانه، ولو قالوا: إن هذه الأمور من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة، لكنه افتراء شديد؛ لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله، وهم قد انحلوا عن الدين وقالوا على بعض من سلوكهم إنه من الدين؛ ولذلك يجازيهم الله بما افتروا الجزاء الشّديد الأليم بسبب هذا الافتراء القبيح من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلةٌ لكلِّ من افترى بدعةً، فإنّ ذلّ البدعة ومخالفة الرّسالة متّصلةٌ من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصريّ: إنّ ذلّ البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٥٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠١٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٤.
(٤) معاني القرآن، النحاس ٣/ ٣٠.
(٥) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١١٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٥، تفسير الشعراوي ٧/ ٣٩٦٢.

وهكذا روى أيّوب السّختياني عن أبي قلابة الجرمي أنّه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ قال: هي واللّه لكلّ مفترٍ إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كلّ صاحب بدعةٍ ذليلٌ»[1].

أي أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم، فكل مفترٍ يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لا بد أن يناله هذا الجزاء؛ لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث في تاريخهم؛ وحين يسرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك سبحانه أن يعتبر السامع للقصة في نفسه، واعتبار السامع للقصة في نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيهًا وتحذيرًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ أي: احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما نالهم، وهو سبحانه ينبه كلًّا لينتفع من هذه العبرة وهذه اللقطة؛ فإنّ التاريخ مسرود لأخذ العبرة والعظة ليتعظ بها السامع[2].

وما تقدم أمثلة لمواطن من كتاب الله مما جاء فيها الجزاء السيئ في الدنيا وأهله وهناك غيرها، ومنها: جزاء البغاة[3]، وجزاء المكذبين بآيات الله[4]، وجزاء الكافرين[5].

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٧، ٤٧٨.
(٢) تفسير الشعراوي ٧/ ٤٣٦٨.
(٣) انظر: سورة الأنعام ١٤٦.
(٤) انظر: سورة البقرة ٨٥.
(٥) انظر: سورة البقرة ١٩١، وسورة التوبة ٢٦، وسورة القمر ١٤، وسورة سبأ ١٧.

ثالثًا: الحدود والكفارات والقصاص:

لو أننا تناولنا بالدراسة النظام العقابي في التشريع الإسلامي فلا مناص من أن نميز فيه مرتبتين مختلفتين: فهناك الجزاءات التي حددها الشرع بدقة وصرامة، وهي التي تسمى بـ(الحدود) وهناك جزاءات أخرى تسمى (التعزيرات) وهي متروكة لتقدير القاضي.

فالمرتبة الأولى تتكفل بمجازاة عدد قليل من الجرائم، هي الحرابة والسرقة وشرب الخمر والزنا والقذف، أما الجرائم الأخرى فتتبع المرتبة الثانية.

صحيح أن لأصحاب الحق ألا يلاحقوا المجرم أمام القضاء، سواء بأن يعفوا عن عمله العدواني عفوًا تامًّا، أو بأن يصطلحوا متراضين معه، وحينئذٍ لا يكون للجزاء الشرعي مجال.

ولكن متى صارت الجريمة عامة، أعني متى اتصلت بعلم السلطة المختصة، فإن أصحاب الحق يكونون بذلك قد تنازلوا عن حقهم، وبذلك يصبح الجزاء في هذه الحالة ألبتة من شأن الصالح العام، ويجب أن يطبق بلا هوادة أو رأفة.

إن الصرامة في هذا الصدد لا تجعل مجالًا أمام أي تنازل أو حل وسط، ولا شك أننا نعرف قصة السرقة التي ارتكبتها امرأة تنتمي إلى طبقة الأشراف العربية، والتي

أعلن النبي صلى الله عليه وسلم بمناسبتها، وفي كلمات بلغت غاية القوة مبدأ مساواة الجميع أمام الشرع، فحين تشفع لديه في هذا لموضوع واحد من خيرة أصحابه، قام وخطب في الناس هذه الخطبة القصيرة: (أيها الناس، إنما أضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)[1].

وهذه حالة أخرى تزيدنا علمًا: ذلك أن صفوان بن أمية حين أجاب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم التي أمر به المسلمين المضطهدين خارج المدينة أن يجيئوا ليستقروا في هذه العاصمة الإسلامية، وقيل له: إنه إن لم يهاجر هلك، غادر مكة، مسقط رأسه، وجاء ليستقر بجوار قائده الروحي، وما كاد يصل حتى رغب في أن يستريح في المسجد هنيهة، فنام في المسجد، وتوسد رداءه، فجاء سارق فأخذ رداءه، فأخذ صفوان السارق فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقطع يده، فقال له صفوان: إني لم أرد هذا يا رسول الله، هو عليه صدقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فهلا قبل أن تأتيني به)[2].

وهكذا نجد أن العفو عن هذا النوع من الأخطاء غير صحيح إلا إذا كان في المجال الخاص، فمتى علمت السلطة العامة بالجريمة يصبح تطبيق الجزاء (الحد) أمرًا جازمًا لا رجعة فيه، وقد ورد بذلك نص آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم هو قوله: (تعافوا الحدود بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب)[3].

فالسرقة -إذن- تحتم في الشريعة الإسلامية قطع يد السارق، بنص القرآن: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

والحرابة عقوبتها إما الموت وإما تقطيع الأيدي والأرجل وإما النفي: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السّارق الشّريف وغيره، والنّهي عن الشفاعة في الحدود، رقم ١٦٨٨.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، باب ترك الشّفاعة للسّارق إذا بلغ السّلطان، ٢/ ٨٣٤، وأحمد في المسند، ٢٤/ ١٥، رقم ١٥٣٠٣.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ٣٤٥، رقم ٢٣١٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السّلطان، رقم ٤٣٧٦، والنسائي في سننه، كتاب قطع السّارق، باب ما يكون حرزًا وما لا يكون، ٨/ ٧٠.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٦٨، رقم ٢٩٥٤.

﴿فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

والعقوبة المنصوص عليها في القرآن للزاني هي مائة جلدة: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور: ٢].

ولكن يجب أن نضيف إلى هذه العقوبة تبعًا للأحاديث: «تغريب عام».

وعلى أية حال فإن عقوبة الموت يجب أن تستبعد من هذا المجال إذا ما التزمنا حرفية النص القرآني الذي ذكرناه آنفًا، والذي لا يفرق بين المحصن وغير المحصن، أي: بين البكر والمتزوج، ولكن المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته قد أثبت هذا الفرق، وبمقتضاه يستحق الأشخاص المحصنون الذين تثبت عليهم جريمة الزنا عقوبة الموت كأشنع ما يكون.

ولنذكر أن تعبير القرآن -مع ذلك- يبدو أنه يفتح الباب لهذا الإجراء على أنه غاية التطور التشريعي في هذا الموضوع، والواقع أن الجزاء المنصوص في القرآن بالنسبة إلى النسوة الزانيات كان في البداية الحبس: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٥].

وبدلًا من أن يفرض هذه السبيل جاء النص النبوي اللاحق وهو قوله صلى الله عليه وسلم مبينًا لها: (خذوا عني، فقد جعل الله لهن سبيلًا: الثيب بالثيب، والبكر بالبكر، الثيب جلد مائة، ثم رجم بالحجارة، والبكر جلد مائة، ثم نفي سنة)[1].

وأخيرًا: نجد أن القاذف يستحق تقريبًا نفس العقوبة ما دام قد افترى على الآخرين كذبًا، واستحل لحمهم، فله ثمانون جلدة بدلًا من مائة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ [النور: ٤][2].

وقال تعالى عن عقوبة القتل الخطأ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗا وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٩٢].

هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمدًا، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه وأنه منافٍ للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر أو من فاسق قد نقص إيمانه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حدّ الزّنا، رقم ١٦٩٠.
(٢) دستور الأخلاق في القرآن، محمد بن عبد الله دراز ص٢٦٢- ٢٦٥.

نقصًا عظيمًا، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟ وهذا يصدقه قوله صلى الله عليه وسلم: (لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)[1]، فعلم أن القتل من الكفر العملي وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله؛ ولما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظًا عامًّا لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا مجترئ على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلًا شنيعًا وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصده؛ أمر تعالى بالكفارة والدية، فقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ سواء كان القاتل ذكرًا أو أنثى، حرًّا أو عبدًا، صغيرًا أو كبيرًا، عاقلًا أو مجنونًا، مسلمًا أو كافرًا، كما يفيده لفظ (من) الدال على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ(من) في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله (من) وسواء كان المقتول ذكرًا أو أنثى، صغيرًا أو كبيرًا، كما يفيده التنكير في سياق الشرط، فإن على القاتل ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير، فتأمل ذلك فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ جبرًا لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك، الميت، فالدية داخلة فيما ترك وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء، رقم ١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعضٍ، رقم ٦٥.

﴿عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقربًا إلى الله، ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة، بخلاف الظهار، ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية ولو كان خطأ لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك، ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء؛ لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفاسد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذرًا من تحميلهم، ويخف عنهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضًا بتأجيلها عليهم

ثلاث سنين، ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل[1].

وأما عقوبة القتل العمد: فذكر تعالى وعيده وعيدًا ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وتنزعج منه أولو العقول، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ولم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار، فعياذًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين.

والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق شمس الدين ابن القيم رحمه الله في «المدارج»[2] فإنه قال -بعد ما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال-: «وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة ولا يلزم من وجود مقتضي الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضٍ لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتبارًا بمقتضي العقاب ومانعه، وإعمالًا لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقًا وأمرًا، وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدًّا يدافعه ويقاومه،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٢.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٩٦.

ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض، والعبد يكون فيه مقتضٍ للصحة ومقتض للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ولا يدخل النار وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج منها، ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه، ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه من أمر المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده رأي عين، ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله».

وقال تعالى عن عقوبة الصيد في الحرم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

أي: ومن قتل شيئًا من الصّيد وهو محرمٌ قاصدٌ لقتله، فجزاؤه أو فعليه جزاءٌ من الأنعام مماثلٌ لما قتله في هيئته وصورته إن وجد، وإلّا ففي قيمته[(١)].

وادعى بعض أهل العلم الإجماع على أنّ الحدود كفّاراتٌ لمن أقيمت عليه[(٢)]، وقال القاضي عياضٌ: «ذهب أكثر العلماء أنّ الحدود كفّاراتٌ»[(٣)]، وتوقف بعض العلماء في كون الحدود كفارات ولم يقضوا في ذلك بشيء[(٤)].

ومن الآيات الصريحة في أن يوقع على الجاني مثل ما جنى -النّفس بالنّفس والجرح بالجرح- (القصاص):

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٨٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٤.
(٢) سبل السلام، الصنعاني ٢/ ٤٢٦.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٦٦.
(٤) مرعاة المفاتيح، المباركفوري ١/ ٧٩.

شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بأنه فرض عليهم ﴿ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة، التي قتل عليها المقتول إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه؛ إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين، ثم بيّن تفصيل ذلك[1].

فالعدل في القصاص -أيّها المؤمنون- حرّكم بحرّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيّروا حكم اللّه فيهم[2].

وليس الهدف من القصاص الانتقام ولا إرواء الأحقاد، إنما هو أجلّ من ذلك وأعلى إنه للحياة، وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة، ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة، ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمنًا لحياة من يقتل جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد، كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل، شفائها من الحقد والرغبة في الثأر، الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عامًا، كما في حرب البسوس المعروفة عندهم، وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلًا بعد جيل، ولا تكف عن المسيل.

وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم، فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي، يشترك مع القتيل في سمة الحياة، فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها، وكان في هذا الكف حياة، حياة مطلقة، لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة.

ثم -وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة- استجاشة شعور التدبر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٩.

لحكمة الله، ولتقواه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فهذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء، الاعتداء بالقتل ابتداء، والاعتداء في الثأر أخيرًا[1].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم -وهو قتل القاتل- حكمةٌ عظيمةٌ لكم، وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنّه إذا علم القاتل أنّه يقتل انكفّ عن صنيعه، فكان في ذلك حياة النّفوس، وفي الكتب المتقدّمة: القتل أنفى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز[2].

قال أبو العالية: «جعل اللّه القصاص حياةً، فكم من رجلٍ يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل».

وكذا روي عن مجاهدٍ، وسعيد بن جبيرٍ، وأبي مالكٍ، والحسن، وقتادة، والرّبيع بن أنسٍ، ومقاتل بن حيّان.

﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولي العقول والأفهام والنّهى، لعلّكم تنزجرون فتتركون محارم اللّه ومآثمه، والتّقوى: اسمٌ جامعٌ لفعل الطّاعات، وترك المنكرات»[3].

وقال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ذكر تعالى هذه القاعدة حجّةً لوجوب مقاصّة المشركين على انتهاك الشّهر الحرام بمقابلتهم بالمثل؛ ليكون شهرٌ بشهرٍ جزاءً وفاقًا.

وفي جملة: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ من الإيجاز ما ترى حسنه وإبداعه.

ثمّ صرّح بالأمر بالاعتداء على المعتدي مع مراعاة المماثلة -وإن كان يفهم ممّا قبله- لمكان كراهتهم للقتال في الحرم والشّهر الحرام فقال تفريعًا على القاعدة وتأييدًا للحكم: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وإنّما يتحقّق هذا فيما تتأتى فيه المماثلة، وسمّى الجزاء اعتداءً للمشاكلة، وقد استدلّ الإمام الشّافعيّ بالآية على وجوب قتل القاتل بمثل ما قتل به بأن يذبح إذا ذبح، ويخنق إذا خنق، ويغرق إذا أغرق، وهكذا، وقال مثل ذلك في الغصب والإتلاف، والقصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيفٍ ولا ظلمٍ، وأزيد على هذا ما هو أولى بالمقام، وهو المماثلة في قتال الأعداء كقتل المجرمين بلا ضعفٍ ولا تقصيرٍ، فالمقاتل بالمدافع والقذائف النّاريّة أو الغازية السّامّة يجب أن يقاتل بها، وإلّا فاتت الحكمة لشرعيّة القتال وهي منع الظّلم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٦٥.
(٢) انظر: البرهان، الزركشي ٣/ ٢٢٢، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٣/ ١٨٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩٢.

والعدوان، والفتنة والاضطهاد، وتقرير الحرّيّة والأمان، والعدل والإحسان، وهذه الشّروط والآداب لا توجد إلّا في الإسلام؛ ولذلك قال تعالى بعد شرح القصاص والمماثلة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تعتدوا على أحدٍ، ولا تبغوا ولا تظلموا في القصاص بأن تزيدوا في الإيذاء، وأكّد الأمر بالتّقوى بما بيّن من مزيّتها وفائدتها فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالمعونة والتّأييد، فإنّ المتّقي هو صاحب الحقّ وبقاؤه هو الأصلح، والعاقبة له في كلّ ما ينازعه به الباطل؛ لأنّ من أصول التّقوى اتّقاء جميع أسباب الفشل والخذلان[1].

وقال الشعراوي: «قوله الحق: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ يقتضي منا أن نسأل: كيف يكون ذلك؟ وما هو الشيء الحرام؟

إن الشيء الحرام هو ما يحظر هتكه، والشيء الحلال هو المطلق والمأذون فيه، فهل يعني ذلك أن الذي يقوم بعمل حرام نقتص منه بعمل مماثل؟ هل إذا زنى رجل بامرأة نقول له: نقتص منك بالزنا فيك؟ لا.

إن القصاص في الحرمات لا يكون إلا في المأذون به؛ وكذلك إذا سرق مني إنسان مالًا وليس لدي بينة، لكني مقتنع بأنه هو الذي سرق هل أقتص منه بأن أسرق منه؟ لا، إن القصاص إنما يكون في الأمر المعروف الواضح، أما الأمر المختفي فلا يمكن أن نقتص منه بمثل ما فعل، لكن هب أن أحد الأقارب ممّن تجب نفقتهم عليك وامتنعت أنت عن النفقة على هذا الإنسان، وهذا أمر محرم عليك، وما دام الأمر علنيًّا فله أن يأخذ من مالك فيأكل، وتكون المسألة قصاصًا»[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٨].

قال الرازي: «اعلم أنّه تعالى أمر برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية ورتّب ذلك على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ يعني إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه، فإنّ استيفاء الزّيادة ظلمٌ والظّلم ممنوعٌ منه في عدل اللّه ورحمته، وفي قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ دليلٌ على أنّ الأولى له أن لا يفعل، كما أنّك إذا قلت للمريض: إن كنت تأكل الفاكهة فكل التّفّاح، كان معناه أنّ

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١٧١.

(٢) تفسير الشعراوي ٢/ ٨٢٩.

الأولى بك أن لا تأكله، فذكر تعالى بطريق الرّمز والتّعريض على أنّ الأولى تركه.

والمرتبة الثّانية: الانتقال من التّعريض إلى التّصريح وهو قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ وهذا تصريحٌ بأنّ الأولى ترك ذلك الانتقام؛ لأنّ الرّحمة أفضل من القسوة، والإنفاع أفضل من الإيلام.

المرتبة الثّالثة: وهو ورود الأمر بالجزم بالتّرك وهو قوله: ﴿وَاصْبِرْ﴾ لأنّه في المرتبة الثّانية ذكر أنّ التّرك خيرٌ وأولى، وفي هذه المرتبة الثّالثة صرّح بالأمر بالصّبر؛ ولمّا كان الصّبر في هذا المقام شاقًّا شديدًا ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه ومعونته، وهذا هو السّبب الكلّيّ الأصليّ المفيد في حصول الصّبر، وفي حصول جميع أنواع الطّاعات؛ ولمّا ذكر هذا السّبب الكلّيّ الأصليّ ذكر بعده ما هو السّبب الجزئيّ القريب، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وذلك لأنّ إقدام الإنسان على الانتقام، وعلى إنزال الضّرر بالغير لا يكون إلّا عند هيجان الغضب.

المرتبة الرّابعة: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ وهذا يجري مجرى التّهديد؛ لأنّ في المرتبة الأولى رغّب في ترك الانتقام على سبيل الرّمز، وفي المرتبة الثّانية عدل عن الرّمز إلى التّصريح وهو قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ وفي المرتبة الثّالثة أمرنا بالصّبر على سبيل الجزم، وفي هذه المرتبة الرّابعة كأنّه ذكر الوعيد في فعل الانتقام فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ عن استيفاء الزّيادة: ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في ترك أصل الانتقام، فإن أردت أن أكون معك فكن من المتّقين ومن المحسنين، ومن وقف على هذا التّرتيب عرف أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يجب أن يكون على سبيل الرّفق واللّطف مرتبةً فمرتبةً، ولمّا قال اللّه لرسوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ذكر هذه المراتب الأربعة تنبيهًا على أنّ الدّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يجب أن تكون واقعةً على هذا الوجه، وعند الوقوف على هذه اللّطائف يعلم العاقل أنّ هذا الكتاب الكريم بحرٌ لا ساحل له»[1].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

هذه الآية أصلٌ كبيرٌ في علم الفقه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٨٩.
وانظر: السراج المنير، الشربيني ٢/ ٢٧٢.

فإنّ مقتضاها أن تقابل كلّ جنايةٍ بمثلها؛ وذلك لأنّ الإهدار يوجب فتح باب الشّرّ والعدوان؛ لأنّ في طبع كلّ أحدٍ الظّلم والبغي والعدوان، فإذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأمّا الزّيادة على قدر الذّنب فهو ظلمٌ والشّرع منزّهٌ عنه، فلم يبق إلّا أن يقابل بالمثل، ثمّ تأكّد هذا النّصّ بنصوصٍ أخر، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠].

وقوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

والقصاص عبارةٌ عن المساواة والمماثلة، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فهذه النّصوص بأسرها تقتضي مقابلة الشيء بمثله، ثم ها هنا دقيقةٌ: وهي أنّه إذا لم يمكن استيفاء الحقّ إلّا باستيفاء الزّيادة فها هنا وقع التّعارض بين إلحاق زيادة الضّرر بالجاني، وبين منع المجنيّ عليه من استيفاء حقّه، فأيّهما أولى؟ فها هنا محلّ اجتهاد المجتهدين، ويختلف ذلك باختلاف الصّور، وتفرّع على هذا الأصل بعض المسائل تنبيهًا على الباقي[1].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وكقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّٰرَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥].

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أي: لا يضيع ذلك عند اللّه، كما صحّ في الحديث: (وما زاد اللّه عبدًا بعفوٍ إلّا عزًّا)[2].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسّيّئة.

وقال بعضهم: لمّا كانت الأقسام ثلاثةً: ظالمٌ لنفسه ومقتصدٌ وسابقٌ بالخيرات ذكر الأقسام الثّلاثة في هذه الآية، فذكر المقتصد وهو الّذي يفيض بقدر حقّه لقوله:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٠٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب استحباب العفو والتّواضع، رقم ٢٥٨٨.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ثمّ ذكر السّابق بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثمّ ذكر الظّالم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظّلم»[1].

رابعًا: أهل الجزاء الحسن في الآخرة وصور منه:

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

أخبر تعالى بأنّ دار الآخرة خيرٌ، أي: من الحياة الدّنيا، والجزاء فيها أتمّ من الجزاء في الدّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ [القصص: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤][2].

وكرّر جلّ وعلا هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥][3].

وذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنّ من أحسن عمله في هذه الدّار الّتي هي الدّنيا كان له عند اللّه الجزاء الحسن في الآخرة.

وأوضح تعالى هذا المعنى في آياتٍ كثيرةٍ:

كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

والحسنى: الجنّة، والزّيادة: النّظر إلى وجه اللّه الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [القصص: ٨٤].

أي: مجازاةٌ حسنةٌ بالجنّة ونعيمها[4].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢١١.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٥٦٨.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٠.
(٤) المصدر السابق.

﴿ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]. أي: جزاء اللّه لعباده المؤمنين الصّالحين في الدّار الآخرة خيرٌ ممّا ترون.

كما في الحديث الصّحيح: (يقول اللّه تعالى: أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧])[(١)].

وقوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ قال السّدّيّ: «وما يلقّى الجنّة إلّا الصّابرون»[(٢)].

ومن صور الجزاء الحسن في الآخرة:

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٤-٧٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: يا محمّد هذا الّذي وصفناه من حال أولئك الأشقياء الّذين يحشرون على وجوههم إلى جهنّم، فتتلقّاهم بوجهٍ عبوسٍ وبغيظٍ وزفيرٍ، ويلقون في أماكنها الضّيّقة مقرّنين، لا يستطيعون حراكًا، ولا انتصارًا ولا فكاكًا ممّا هم فيه: أهذا خيرٌ أم جنّة الخلد الّتي وعدها اللّه المتّقين من عباده الّتي أعدّها لهم، وجعلها لهم جزاءً على ما أطاعوه في الدّنيا، وجعل مآلهم إليها.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: من الملاذّ من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر، وغير ذلك، ممّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب أحدٍ، وهم في ذلك خالدون أبدًا دائمًا سرمدًا بلا انقطاع ولا زوال، ولا انقضاءٍ، لا يبغون عنها حولًا، وهذا من وعد اللّه الّذي تفضّل به عليهم، وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي: لا بدّ أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جريرٍ، عن بعض علماء العربيّة أنّ معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي: وعدًا واجبًا»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنّة وأنّها مخلوقةٌ، رقم ٣٢٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٢٨٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٥.

(٣) المصدر السابق ٦/ ٩٨.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الرعد: ١٨].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن مآل السّعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أطاعوا اللّه ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدّقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهو الجزاء الحسن، كما قال تعالى مخبرًا عن ذي القرنين أنّه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»[1].

خامسًا: أهل الجزاء السيئ في الآخرة وصور منه:

لا تنتظر أن يوفّ أهل الجزاء السيئ جزاء عملهم السّيّئ كلّه في هذه الدّار، كما أنّ أجرك على عملك لا توفّاه في هذه الحياة، فحسبك ما أصبت من الجزاء الحسن، وحسبهم ما أصيبوا، وما يصابون به من الجزاء السّيّئ في الدّنيا.

واعلم أنّه لا يوفّى أحدٌ جزاءه في هذه الدّار لأنّ توفية الأجور إنّما تكون في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[آل عمران: ١٨٥][2].

ومن صور الجزاء السيئ في الآخرة:

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

شرع تعالى في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وثبت في صحيح مسلم أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (أمّا أهل النّار الّذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون)[3]. قال الله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٤٩.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٢٢١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، يدخل الله أهل الجنة الجنة يدخل من يشاء برحمته، رقم ١٨٥.

٧٧].

فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحةً لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥].

وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

ثمّ قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: هذا جزاء كلّ من كفر بربّه وكذّب بالحقّ[(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧].

أي: بشرّ أعمالهم وسيّئ أفعالهم، وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون؛ لكونهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالعقوبة، إنما هو على عمل الشرك ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩][(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

الاستفهام هنا إنكاريٌّ، أي: وإذا كانت آيات الله مشتملةً على ما ذكر من البيّنة الكاملة والهداية الشّاملة والرّحمة الخاصّة والعامّة؛ فلا أحد أظلم ممّن كذّب بها وأعرض عنها، ولم يكتف بصدوفه عنها وحرمان نفسه منها، بل صدف النّاس، أي صرفهم وردّهم أيضًا[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٥٢.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٧٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٨.
(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٨٢.

قواعد في الجزاء

أولًا: الجزاء من جنس العمل:

قال ابن القيم: «قد فطر اللّه سبحانه عباده على أنّ حكم النّظير حكم نظيره، وحكم الشّيء حكم مثله، وعلى إنكار التّفريق بين المتماثلين، وعلى إنكار الجمع بين المختلفين، والعقل والميزان الّذي أنزله اللّه سبحانه شرعًا وقدرًا يأبى ذلك؛ ولذلك كان الجزاء مماثلًا للعمل من جنسه في الخير والشّرّ...، فهذا شرع اللّه وقدره ووحيه وثوابه وعقابه كلّه قائمٌ بهذا الأصل، وهو إلحاق النّظير بالنّظير، واعتبار المثل بالمثل؛ ولهذا يذكر الشّارع العلل والأوصاف المؤثّرة والمعاني المعتبرة في الأحكام القدريّة والشّرعيّة والجزائيّة»[1].

ومن الآيات التي تحقق فيها معنى الجزاء من جنس العمل:

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

قال ابن القيم: «حتم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة والإحسان إليها بأنه غفور رحيم، يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه، والجزاء من جنس العمل، فكما رجع العبد إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فإن الطلاق لما كان لفظًا يسمع، ومعنى يقصد عقبه باسم «السميع» لما نطق به «العليم» بمضمونه»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨-١١٠].

قال ابن القيم: «هذا عطف على قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: نحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقال كثير من المفسرين: المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة، قال ابن عباس: في رواية عطاء عنه: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي، قال: وهذا كقوله:

(١) إعلام الموقعين، ١/ ١٥٠.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص١٤٩.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال آخرون: المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم، وهذا معنى حسن، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعًا من التعليل، كقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن القيم: «فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته القريبة من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفًا وطمعًا، فقرب مطلوبكم منكم -وهو الرحمة- بحسب أدائكم لمطلوبه منكم، وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه وتعليله ودلالة بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدًا ببعد وقربًا بقرب، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه، والإحسان ها هنا هو

(١) المصدر السابق ص٢٤٢.

فعل المأمور به، سواء كان إحسانًا إلى الناس أو إلى نفسه»[1].

وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة: ١٠].

قال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم: «﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرضٌ في الدّين، وليس مرضًا في الأجساد، وهم المنافقون، والمرض: الشّكّ الّذي دخلهم في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجسًا، وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

قال: شرًّا إلى شرّهم، وضلالةً إلى ضلالتهم».

قال ابن كثير: «وهذا الّذي قاله عبد الرّحمن رحمه الله حسنٌ، وهو الجزاء من جنس العمل؛ وكذلك قاله الأوّلون، وهو نظير قوله تعالى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]»[2].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

قال ابن كثير: «أي: فلمّا أبى الفاعلون المنكر قبول النّصيحة ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فنصّ على نجاة النّاهين، وهلاك الظّالمين، وسكت عن السّاكتين؛ لأنّ الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقّون مدحًا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذمّوا»[3].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

قال ابن كثير: «أي: فلا يعلم أحدٌ عظمة ما أخفى اللّه لهم في الجنّات من النّعيم المقيم، واللّذّات الّتي لم يطّلع على مثلها أحدٌ، لمّا أخفوا أعمالهم أخفى اللّه لهم من الثّواب، جزاءً وفاقًا؛ فإنّ الجزاء من جنس العمل»[4].

ومن الآيات الصريحة في هذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩][5].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦][6].

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٢٦٦.
وانظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤١٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ١٧٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٩٤.
وانظر: محاسن التأويل القاسمي ٥/ ٢١٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٦٥.
(٥) انظر: المصدر السابق ٤/ ١٨٨.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٢٤، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٦٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١٦.

﴿نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١][(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤][(٢)].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧][(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠][(٤)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢][(٥)].

ثانيًا: الجزاء بمقدار العمل:

العدل في الجزاء غاية من غايات الخلق والإعادة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤][(٦)].

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

فيه وجوب العدل في الجزاء، وعدم الاعتداء فيه.

قال ابن أبي نجيح والحسن: «لو قال أخزاه الله فيقول له أخزاه الله»[(٧)].

وبين تعالى أن الجزاء بمقدار العمل فقال: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

أي: مرهون.

قال الزمخشري: «كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه، فإن عمل صالحًا فكها وخلصها وإلا أوبقها»[(٨)].

وقال تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤].

أي: هذا الّذي أتحفناهم به مجازاةً لهم على ما أحسنوا من العمل[(٩)]. فكما حسنت منهم الأعمال أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم[(١٠)].

وقال تعالى عن نعيم أهل الجنة: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩].

وقد دلّ كتاب الله في جملته وتفصيله على أنّ مدار النّجاة والفلاح على الإيمان والعمل الصّالح ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

---

(١) انظر المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٩٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٠.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر المنار، محمد رشيد رضا ١/ ١٢٦.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٦٤.
(٧) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي ص٢٣٠.
(٨) الكشاف ٤/ ٤١١.
وانظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٩٤.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٢٤.
(١٠) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣٣.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠][1].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ كلٌّ يقول: نفسي نفسي، لا يهمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤][2].

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ لا ينقص من حسناتها ولا يزاد في سيئاتها ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيرًا فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه[3].

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنّه لا يظلم مثقال ذرّةٍ من خيرٍ ولا من شرٍّ، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسّيّئة واحدةً؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم[4] عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربّه عز وجل أنّه قال: (يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا، فلا تظالموا) -إلى أن قال-: (يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثمّ أوفّيكم إيّاها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه)[5].

ولا تعارض بين أن الجزاء بمقدار العمل (العدل في الجزاء) وبين مضاعفة الجزاء:

فالأصل في العدل أن يكون الجزاء السّيّئ على قدر الإساءة وتأثيرها في تدسية نفوس المسيئين، والجزاء الحسن على قدر الإحسان وتأثيره في أرواح المحسنين، ولكنّه تعالى برحمته وفضله يضاعف جزاء الحسنة عشرة أضعافٍ، ويزيد من يشاء ولا يضاعف السّيّئة، والآيات المفصّلة في هذا المعنى كثيرةٌ، وبها يفسّر المجمل[6].

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣١١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥٠.
(٣) المصدر السابق ص٦٩٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٣٦.
(٦) المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١١٧.

فقوله الحق سبحانه: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[هود: ٢٠].

لا يتناقض مع قوله الحق: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤].

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد، بل لهم وزران: وزر الضلال في ذواتهم، ووزر الإضلال لغيرهم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

بزيادة تفضل؛ لأنه لو كان على مقدار العمل فقط لكان بحسابه[(٢)].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنّ لمن أحسن العمل في الدّنيا بالإيمان والعمل الصّالح أبدله الحسنى في الدّار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، وزيادةٌ على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم اللّه في الجنان من القصور والحور والرّضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرّة أعينٍ، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنّه زيادةٌ أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقّونها بعملهم، بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزّيادة بالنّظر إلى وجه اللّه الكريم عن أبي بكرٍ الصّدّيق، وحذيفة بن اليمان، وعبد اللّه بن عبّاسٍ، قال البغويّ: وأبو موسى، وعبادة بن الصّامت، وسعيد بن المسيّب، وعبد الرّحمن بن أبي ليلى، وعبد الرّحمن بن سابطٍ، ومجاهدٌ، وعكرمة، وعامر بن سعدٍ، وعطاءٌ، والضّحّاك، والحسن، وقتادة، والسّدّيّ، ومحمّد بن إسحاق، وغيرهم من السّلف والخلف، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرةٌ عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

قال ابن كثير: «﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي: ليست هذه دليلًا على محبّتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم، وفي الحديث أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[(٤)].

(١) تفسير الشعراوي ١٠/ ٦٤٠٩.
(٢) تفسير ابن فورك ٢/ ٣٦٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم ٢٥٦٤.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: إنّما يقرّبكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصّالح ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنّة العالية آمنون من كلّ بأسٍ وخوفٍ وأذًى، ومن كلّ شرٍّ يحذر منه»[1].

ثالثًا: كل نفس تجازى عن نفسها:

عدل الله يقتضي أن يحاسب الإنسان بعمله، وأن يسأل عن نفسه، فلا يرمي أحد ذنبه على أحد، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

وحول هذه القضية تحدّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون في القرآن عن مأخذ، فوقفوا عند هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

وقالوا: كيف نوفّق بينها وبين قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

ونقول: التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيّن لو فهموا الفرق بين الوزر في الآية الأولى، والوزر في الآيتين الأخيرتين.

ففي الأولى وزر ذاتيٌّ خاص بالإنسان نفسه، حيث ضلّ هو في نفسه، فيجب أن يتحمّل وزر ضلاله، أما في الآية الثانية فقد أضلّ غيره، فتحمّل وزره الخاص به، وتحمّل وزر من أضلّهم.

ويوضّح لنا هذه القضية الحديث النبوي الشريف: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[2].

مع الإطماع في الفضل والنعمة والتحذير من اليوم الذي يأتي وصفه: ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨].

فالتبعة فردية والحساب شخصي، وكل نفس مسؤولة عن نفسها، ولا تغني نفس عن نفس شيئًا.

وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم، مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٢٢.

(٢) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٤١٧.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب الحثّ على الصّدقة ولو بشقّ تمرةٍ، رقم ١٠١٧.

من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله، وهو أقوم المبادئ التي تشعر الإنسان بكرامته، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره، وكلاهما عامل من عوامل التربية فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التي يكرمه بها الإسلام[1].

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: واحذروا يومًا عظيمًا أمامكم سيقع فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلّا بتقوى الله في جميع الأحوال، ومراقبته في جميع الأعمال، فهو يومٌ لا تقضي فيه نفسٌ -مهما يكن قدرها عظيمًا- عن نفسٍ مهما يكن ذنبها صغيرًا شيئًا ما، كحمل وزرها أو تكفير ذنبها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وصف اليوم بهذا الوصف ولم يقل: يوم القيامة مثلًا؛ للإشعار بأنّ التّصرّف في ذلك اليوم والأمر كلّه للّه، فليس فيه ما اعتاد النّاس في هذه الدّنيا من دفاع بعضهم عن بعضٍ، وعبّر عن هذا المعنى في أوّل سورةٍ بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

ثمّ وصفه هنا بوصفٍ آخر يناسب الأوّل فقال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨][2].

فلمّا ذكّرهم اللّه تعالى بنعمه أولًا عطف على ذلك التّحذير من حلول نقمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا يغني أحدٌ عن أحدٍ كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

وقال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

وقال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

فهذه أبلغ المقامات: أنّ كلًّا من الوالد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٧٠.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٥٣.

وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئًا[1].

وهؤلاء الذين يصدّون عن سبيل الله لن يجدوا وليًّا ولا نصيرًا في الآخرة، وإن وجدوه في الدنيا لأن كل إنسان في الآخرة سيكون مشغولًا بنفسه.

إذن: فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يعجزون الله في الأرض، ولا يجدون الولي أو النصير في الآخرة[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال محمد رشيد رضا: «فسّروا فيه البيع بالافتداء وجعلوا فيه الخلّة والشّفاعة على ظاهرهما، أي أنفقوا فإنّ الإنفاق في سبيل الخير والبرّ -وهي سبيل الله- هو الّذي ينجيكم في ذلك اليوم الّذي لا ينجي الأشحّة الباخلين فيه من عذاب الله تعالى فداءٌ فيفتدوا منه أنفسهم، ولا خلّةٌ يحمل فيها خليلٌ شيئًا من أوزار خليله، أو يهبه شيئًا من حسناته، ولا شفاعةٌ يؤثر بها الشّفيع في إرادة الله تعالى، فيحوّلها عن مجازاة الكافر بالنّعمة الباخل بالصّدقة المستحقّ للمقت والعقوبة بتدنيس نفسه وتدسيتها في الدّنيا، وهذا هو الوجه الّذي اختاره الأستاذ الإمام، فالآية بمعنى قوله تعالى في هذه السّورة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

فقوله: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ بمعنى نفي الخلّة هنا، والعدل: هو الفداء بالعوض، وهو بمعنى البيع المنفيّ هنا، ومثلها آية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]»[3].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

قال ابن كثير: «المراد من هذا أنّه يخبر تعالى أنّه لا ينفع أحدًا بيعٌ ولا فديةٌ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحدٍ ولا شفاعة أحدٍ إذا لقي اللّه كافرًا، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]»[4].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٥٦، ٨/ ٢٢٥، تفسير الشعراوي ١٠/ ٦٤٠٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٠٤.
(٣) تفسير المنار ٣/ ١٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٠.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

أي: لا تحمل نفسٌ عن نفسٍ شيئًا، بل كلٌّ مطالبٌ بأمر نفسه[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

أمر تعالى الناس بتقواه التي هي امتثال أوامره، وترك زواجره، ويستلفتهم لخشية يوم القيامة اليوم الشديد الذي فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه فـ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

فلفت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل مما يقوي العبد ويسهّل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الذي هو الشيطان الذي ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن لله على عباده حقًّا، وقد وعدهم موعدًا يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه؟!

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليها[(٢)].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منذرًا للنّاس يوم المعاد، وآمرًا لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبّل منه.

ثمّ عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا تلهينّكم بالطّمأنينة فيها عن الدّار الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني: الشّيطان»[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الثواب، الجنة، الحساب، العمل، الكسب، النار

(١) المصدر السابق ٧/ ٨٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٥١.

الجن

عناصر الموضوع

مفهوم الجن	١١٠
الجن في الاستعمال القرآني	١١٢
الألفاظ ذات الصلة	١١٣
خلق الجان وقدراتهم وأصنافهم	١١٥
الإيمان بالجن	١٢٨
إيمان الجن	١٣٤

مفهوم الجن

أولًا: المعنى اللغوي:

الجنّ بالكسر: اسم جنس جمعي، واحده جنّيّ، وهو مأخوذ من الاجتنان، وهو التستر والاستخفاء. وقد سمّوا بذلك لاجتنانهم من الناس فلا يرون، والجمع جنان، وهم الجنة.

ومنه المجن بالكسر: وهو الترس؛ لأن المقاتل يستتر به من الرامي والطاعن وغير ذلك. وكل شيء وقيت به نفسك واستترت به، فهو جنّة. ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (والصيام جنّة)[1]. أي: وقاية؛ لأنه يقي صاحبه من المعاصي.

وعلى هذا فهم ضد الإنس؛ لأن الإنس سمي بذلك؛ لظهوره، وإدراك البصر إياه، فيقال: آنست الشيء: إذا أبصرته.

ويقال: لا جنّ بهذا الأمر: أي: لا خفاء به، ولا ستر.

قال الجوهري: الجنّ: خلاف الإنس، والواحد جنّيٌّ. يقال: سمّيت بذلك لأنّها تتّقى ولا ترى. وجنّ الرجل جنونًا، وأجّنّه الله، فهو مجنونٌ[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّف مصطلح الجنّ خلق كثيرون، ومما ينبغي ذكره في هذا المقام هو ما ينسجم مع طبيعة الدراسة القرآنية، ومن هذه التعريفات:

ما ذكره البيضاوي بأنه: «أجسام عاقلة خفية، تغلب عليهم النارية أو الهوائية»[3].

وعرّفه الكفوي بأنه: «حيوانات هوائية تتشكل بأشكال مختلفة»[4].

وبالنظر إلى هذين التعريفين وغيرهما يمكن القول: إن مصطلح الجن هو: نوع من الأرواح العاقلة المريدة، المكلّفة على نحو ما عليه الإنسان، مجرّدون عن المادة، مستترون عن الحواس، لا يرون على طبيعتهم، ولا بصورتهم الحقيقية، ولهم قدرة على التشكل، يأكلون، ويشربون، ويتناكحون، ولهم ذرية، محاسبون على أعمالهم في الآخرة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شتم، ٣/ ٢٦، رقم ١٩٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، ٢/ ٨٠٧، رقم ١١٥١.

(٢) مختار الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٩٣.
وانظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٢١٣، الكليات، الكفوي ٢/ ١٦٩.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٣٩٧.

(٤) الكليات، ص٥٤٠ بتصرف.

وهذا التعريف يعطي الصفات البارزة لهذا العالم الذي نجهل الكثير عن طبيعة حياته؛ لأنه غائب عن حواسنا، ومن ثمّ فإن الجن خلقٌ يغاير طبيعة البشر من حيث الشكل، وأصل المادة التي خلقوا منها؛ إذ إنهم مخلوقون من النار، بعكس الإنسان الذي خلق من الطين، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

وكذلك فإن هذا المخلوق له حياته الخاصة من حيث الطعام والشراب، يختلف فيها عن الإنسان، وغير ذلك مما يختص به من الصفات[1].

والمعنى الاصطلاحي مأخوذ من المعنى اللغوي إلا أن فيه زيادة تفصيل.

(١) انظر: عالم الجن، عبد الكريم عبيدات ص٨.

الجن في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ج ن ن) في القرآن (٢٠١) مرة، والذي يخص موضوع (الجن) منها (٣٤) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم الجنس	٢٢	﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]
الجمع	٥	﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]
اسم الفاعل	٧	﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥]

وجاء الجن في الاستعمال القرآني بمعنى الأرواح المستترة عن الحواس[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٧٩-١٨٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٠٣-٢٠٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشيطان:

الشيطان لغةً:

اختلف في اشتقاقه، قيل: إن النون في لفظ الشيطان أصلية، وهو من شطن، الشين والطاء والنون أصل مطرد صحيح يدل على البعد[١]، وسمي الشيطان بذلك؛ لبعده عن أمر ربه.

وذهب آخرون من أهل اللّغة: إلى النون في لفظ الشيطان زائدة، واشتقاقه من شاط يشيط وتشيّط، وشاط الشيء شيطًا وشياطة وشيطوطة: احترق[٢]، وهذا المعنى كذلك يتناسب مع الشيطان، فالشيطان يحترق ويهلك إذا سمع صوت الحق.

الشيطان اصطلاحًا:

هو الشديد البعد عن محل الخير من إنس، أو جن، أو دابّة[٣].

الصلة بين الشيطان والجن:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للشيطان تبين أن الجن أعم وأشمل منه باعتبار جنسه؛ فالشيطان هو ما تمرّد وبعد عن أيّ محل للخير منه ومن غيره، وإن كانت الأذهان تصرف من الوهلة الأولى إلى الجن إذا ذكرت الشياطين.

٢ الغاسق:

الغاسق لغةً:

الأسود من الحيّات، وهو إبليس[٤].

الغاسق اصطلاحًا:

هو رأس الشياطين إبليس، أو هو صنف من أصناف الجن، وهو الأسود من الحيّات.

الصلة بين الغاسق والجن:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للغاسق تبين أن الجن أعم وأشمل من الغاسق؛ إذ إنه يدل على رأس الشياطين الذين هم جزء من الجن أصلًا، وفي المعنى الآخر فإنه يدل على نوع من الأنواع وهو الأسود من الحيّات.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١٨٤، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢٣٧.
(٢) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد، ٢/ ٨٦٧، تهذيب اللغة، الأزهري، ١١/ ٢١٤.
(٣) انظر: التوقيف، المناوي، ص٢١٠.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٤/ ٣٥٧.

٣ الملائكة:

الملائكة لغةً:

«الملك: واحد الملائكة، قال ابن فارس: «الهمزة واللام والكاف أصل واحد، وهو تحمّل الرسالة»[١]، ومنه الألوكة والمألكة والألوك[٢].

الملائكة اصطلاحًا:

هي أجسام نورانية خلقت من النور، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتزوجون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

الصلة بين الملائكة والجن:

الملائكة معصومون عن الزلل، والجن كالإنس من حيث الشهوة وأصنافهم؛ ومن ثمّ فإن الملائكة -وإن كانت مثل الجن من حيث الخفاء-، إلا أنهم أرقى المخلوقات، من حيث فضلهم وطاعتهم.

٤ الإنس:

الإنس لغةً:

مادة (أ ن س) تدور في اللّغة حول معنيين رئيسين هما: الظّهور والنّسيان[٣].

الإنس اصطلاحًا:

هم كل حيوان ناطق يرى شكله، ولا يستطيع أن يرى الجن ولا الملائكة.

وقال الجرجانيّ: الإنسان هو الحيوان النّاطق[٤]. فالحي والحيوان لوجود الرّوح فيه، والنّطق بكلامٍ مرتّبٍ لا بدّ له من آلة العقل، وهو من البدن وله تعلق بالروح.

الصلة بين الإنس والجن:

الإنس يراهم الجن، والجن لا يراه الإنس، وكلاهما عالم مختلف، في طبعه وشهواته، وطريقة أكله وشربه.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٣٢.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٧/ ٤٨.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٤٧.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص ٣٨.

خلق الجان وقدراتهم وأصنافهم

تحدث القرآن الكريم عن خلق الجن، وقدراتهم التي وهبهم الله إياها، وعن أصنافهم، وهذا ما سنبيّنه فيما يأتي:

أولًا: خلق الجان وصفاتهم:

فلقد أخبرنا القرآن الكريم والسنة النبوية بذكر المادة التي خلق منها الجن، فقد ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]؛ فعطف جملة: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ﴾ فيه إدماج وتمهيد إلى بيان نشأة العداوة بين آدم وجند إبليس، وأكّدت جملة: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ﴾ بصيغة الاشتغال، التي هي تقوية للفعل بتقدير نظير المحذوف، ولما فيها من الاهتمام بالإجمال، ثم التفصيل لمثل الغرض الذي أكّدت به جملة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾.. إلخ.

وفائدة قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ تعليم أن خلق الجان أسبق؛ لأنه مخلوق من عنصر الحرارة أسبق من الرطوبة و﴿ٱلسَّمُومِ﴾ بفتح السين: الريح الحارة. فالجن مخلوق من النارية والهوائية؛ ليحصل الاعتدال في الحرارة؛ فيقبل الحياة الخاصة اللائقة بخلقة الجن، فكما كوّن الله الحمأة الصلصال المسنون لخلق الإنسان، كوّن ريحًا حارة، وجعل منها الجن، فهو مكوّن من حرارة زائدة على مقدار حرارة الإنسان، ومن تهوية قوية، والحكمة كلها في إتقان المزج والتركيب[1].

هذا وقد ورد أيضًا ذكر المادة التي خلق منها الجان في مقابل الحديث عن خلق الإنسان من الطين، في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن إباء إبليس عن السجود لآدم عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢][2].

ثانيًا: قدرات الجن:

قد أخبر القرآن الكريم بأن الله عز وجل منح الجنّ قدرات خاصة، لم يمنحها للإنس جميعًا.

ويمكن تقسيم قدرات الجن إلى:

١. قدرات خاصة قد منحها الله عز وجل لهم.

ومن هذه القدرات سرعة التنقل الفائق، والقوة العظيمة التي تدل على عظمة الخالق سبحانه، كما جاء في قصة سليمان عليه

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٣٥.
(٢) انظر: عالم الجن، عبد الكريم عبيدات ص١٣.

السلام، عندما أراد أن يثبت لملكة سبأ عظم ما أعطاه الله عز وجل من نعم عظيمة، وآلاء جليلة، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠].

قال سليمان عليه السلام مخاطبًا من سخّرهم الله له من الجن والإنس: أيكم يأتيني بسرير ملكها العظيم قبل أن يأتوني منقادين طائعين؟

قال مارد قويٌّ شديد من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك هذا، وإني لقويٌّ على حمله، أمين على ما فيه، آتي به كما هو لا أنقص منه شيئًا ولا أبدله.

قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك بهذا العرش قبل ارتداد أجفانك إذا تحرّكت للنظر في شيء، فأذن له سليمان فدعا الله، فأتى بالعرش[1].

ومن تلك القدرات أن الجن يستطيعون التحليق في الفضاء الخارجي.

وكانوا يستمعون إلى السماء، وينقلون أخبارها إلى الكهنة بعد إضافة كثير من الأكاذيب إليها، فلما بعث الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم حرست السماء بالشهب والملائكة، يقول الله عز وجل على لسان أحد الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨-٩].

وأنّا -معشر الجن- طلبنا بلوغ السماء؛ لاستماع كلام أهلها، فوجدناها ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي يرمى بها من يقترب منها.

وأنّا كنا قبل ذلك نتخذ من السماء مواضع؛ لنستمع إلى أخبارها، فمن يحاول الآن استراق السمع، يجد له شهابًا بالمرصاد يحرقه ويهلكه.

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النّبيّ صلى الله عليه وسلم أنّها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنّ الملائكة تنزل في العنان -وهو السّحاب- فتذكر الأمر قضي في السّماء، فتسترق الشّياطين السّمع فتسمعه، فتوحيه إلى الكهّان، فيكذبون معها مائة كذبةٍ من عند أنفسهم)[2].

ومن تلك القدرات أن الجن قد سخّرهم

(١) انظر: الإيمان بالجن بين الحقيقة والتهويل، علي الشحود ص٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ٤/ ١١١، رقم ٣٢١٠.

الله تعالى لسليمان عليه السلام يغوصون في البحر، ويستخرجون له من خيراته، ويبنون له القصور الشامخات، وقد جعلهم الله عز وجل من جنود سليمان عليه السلام ، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير في مسيرة لهم، فهم على كثرتهم لم يكونوا مهملين، بل كان على كل جنس من يردّ أولهم على آخرهم؛ كي يقفوا جميعًا منتظمين[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ﴾ [سبأ: ١٢-١٣].

وسخّرنا لسليمان الريح تجري من أول النهار إلى انتصافه مسيرة شهر، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر بالسير المعتاد، وأسلنا له النحاس كما يسيل الماء، يعمل به ما يشاء، وسخّرنا له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يعدل منهم عن أمرنا الذي أمرناه به من طاعة سليمان نذقه من عذاب النار المستعرة.

يعمل الجن لسليمان ما يشاء من مساجد للعبادة، وصور من نحاس وزجاج، وقصاع كبيرة كالأحواض التي يجتمع فيها الماء، وقدور ثابتات لا تتحرك من أماكنها لعظمهن[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

وسخّرنا لسليمان من الشياطين شياطين يستخدمهم فيما يعجز عنه غيرهم، فكانوا يغوصون في البحر يستخرجون له اللآلئ والجواهر، وكانوا يعملون كذلك في صناعة ما يريده منهم، لا يقدرون على الامتناع مما يريده منهم، حفظهم الله له بقوته وعزه سبحانه وتعالى .

٢. قدرات على التشكيل.

وقد اختلف، هل الجن يتشكّلون بالصور المختلفة؟

فذهب قوم إلى أنه ليس للجن قدرة على تغيير خلقهم، وهو مروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبه قال القاضي أبو يعلى.

وروي عن عمر أنه قال: إن أحدًا لا يستطيع أن يتغير عن صورته التي خلقه الله تعالى عليها، ولكن لهم سحرة كسحرتكم، فإذا رأيتم ذلك فأذّنوا[(٣)].

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٣٧٨.

(٢) المصدر السابق ص٤٢٩.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ١٠/ ٣٩٧، رقم ٣٠٣٦١.
وصحح إسناده ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٤٤.

هذا ومن خصائص الجن، أنهم يرون الإنس ولا يراهم الإنس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال القاضي أبو يعلى: لا قدرة للشياطين على تغيير خلقهم والانتقال في الصور، وإنما يجوز أن يعلّمهم الله تعالى كلمات وضروبًا من الأفعال، إذا فعله وتكلم به، نقله الله تعالى من صورة إلى صورة.

والقول الثاني: وهو قول الجمهور، وهو الصحيح أن للجن قدرة على التشكيل، وتغيير خلقتهم.

قال ابن تيمية: «والجن يتصوّرون في صور الإنس والبهائم، فيتصوّرون في صور الحيات والعقارب وغيرها، وفي صور الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، وفي صور الطير، وفي صور بني آدم»[(١)].

ولا يمنع خلقهم من النار تشكّلهم في الصور المختلفة، وقد حكى ابن حجر الهيتمي عن الباقلاني أنه قال: «لسنا ننكر -مع كون أصلهم النار- أن الله تعالى يكثّف أجسامهم ويغلّظها، ويخلق لهم أغراضًا تزيد على ما في النار؛ فيخرجون عن كونهم نارًا، ويخلق لهم صورًا وأشكالًا مختلفة»[(٢)].

قال بدر الدين الشبلي: «للجن القدرة على التطور والتشكل في صور الإنس والبهائم، فيتصوّرون في صور الحيات والعقارب، وفي صور الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، وفي صور الطير، وفي صور بني آدم، كما أتى الشيطان قريشًا في صورة سراقة بن مالك بن جعشم؛ لما أرادوا الخروج إلى بدر»[(٣)].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وكما روي أنه تصوّر في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في أمر الرسول صلى الله عليه وسلم هل يقتلونه، أو يحبسونه، أو يخرجونه؟[(٤)]، وورد عن أبي سعيد الخدري يرفعه (أن بالمدينة نفرًا من الجن قد أسلموا، فمن رأى شيئًا من هذه العوامر، فليؤذنه ثلاثًا، فإن بدا له بعد فليقتله، فإنه شيطان)[(٥)].

(١) انظر: إيضاح الدلالة في عموم الرسالة، ابن تيمية ص ٣٢.
(٢) انظر: الفتاوى الحديثية، ابن حجر الهيتمي ص ٦٥.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٦١٢.
(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ٤٨٠ -٤٨١.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب قتل الحيات وغيرها، ٤/ ١٧٥٧، رقم ٢٢٣٦.

الأدلة على تشكّل الجن ورؤيتهم:

أما من القرآن فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

عن ابن عباس قال: «جاء إبليس يوم بدر في جند من الشيطان، معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب، فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه -وكانت يده في يد رجل من المشركين- انتزع إبليس يده، فولى مدبرًا هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة: تزعم أنك جار لنا؟ قال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وذلك حين رأى الملائكة»[(١)].

وقد ورد من السنة ما يدل على ذلك:

١. عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن عفريتًا من الجن جعل يفتك عليّ البارحة؛ ليقطع عليّ الصلاة، وأن الله أمكنني منه فذعته[(٢)]، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد؛ حتى تنظرون إليه أجمعون -أوكلكم- ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، فردّه الله خاسئًا)[(٣)].

٢. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (وكّلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إني محتاج، وعلي عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخلّيت عنه، فأصبحت فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أبا هريرة ما

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٧ وابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٧١٥.

(٢) ذعته: خنقته، والذعت: أشد الخنق، وروي بالدال المهملة، أي: دفعته بعنف.
انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٣/ ٢٠١، فتح الباري، ابن رجب ٦/ ٣٩٦، فتح الباري، ابن حجر ٣/ ٨١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الأسير، أو الغريم، يربط في المسجد، ١/ ٩٩، رقم ٤٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، والتعوذ منه وجواز العمل القليل في الصلاة، ١/ ٣٨٤، رقم ٥٤١.

فعل أسيرك البارحة؟) قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالًا فرحمته، فخلّيت سبيله، فقال: (أما إنه قد كذبك، وسيعود) فعرفت أنه سيعود؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنه سيعود)، فرصدته؛ فجاء يحثو من الطعام؛ فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: دعني فإني محتاج، وعلي عيال، لا أعود، فرحمته، فخلّيت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟) قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالًا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: (أما إنه قد كذبك وسيعود)، فرصدته الثالثة؛ فجاء يحثو من الطعام؛ فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات، أنك تزعم لا تعود، ثم تعود قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخلّيت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما فعل أسيرك البارحة؟) قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخلّيت سبيله، قال: (ما هي؟) قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح -وكانوا أحرص شيء على الخير-، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟) قال: لا، قال: (ذاك شيطان)[1].

وقد يظهر الشيطان لبعض الناس في صورة بعض الأموات، وأكبر ما يقع ذلك من المشركين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد وقع هذا كثيرًا، حتى إنه يتصور لمن يعظّم شخصًا في صورته، فإذا استغاث به فيظن ذلك الشخص أنه شيخه الميت».

ويقول أيضًا: «وكذلك يأتي كثيرًا من الناس في مواضع ويقول إنه الخضر، وإنما كان جنيًّا من الجن»[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا، فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، ٣/ ١٠١، رقم ٢٣١١.
(٢) انظر: النبوات، ابن تيمية ص ٢٩٠.

ثالثًا: تكليف الجن:

قد وردت آيات كثيرة في القرآن تدل على تكليف الجن، منها:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧].

فالآية صريحة في أن الله قد خلق الجن والإنس للعبادة، وعلى هذا وردت أقوال العلماء:

قال ابن عباس: «﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقرّوا بعبادتي طوعًا أوكرهًا»، وهذا اختيار ابن جرير الطبري[(١)].

وورد عن علي بن أبي طالب، وابن جريج، والربيع بن أنس أن معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا لآمرهم بالعبادة، وهو اختيار الزجاج[(٢)].

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أي: ولقد خلقنا للنار -التي يعذّب الله فيها من يستحق العذاب في الآخرة- كثيرًا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يعقلون بها، فلا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته، ولهم آذان لا يسمعون بها آيات كتاب الله فيتفكروا فيها، هؤلاء كالبهائم التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تفهم ما تبصره، ولا تعقل بقلوبها الخير والشر؛ فتميز بينهما، بل هم أضل منها؛ لأن البهائم تبصر منافعها ومضارها، وتتبع راعيها، وهم بخلاف ذلك، أولئك هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته[(٣)].

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

فقد أخبر القرآن الكريم أن الله قد صرف الجن إلى الرسول عليه الصلاة والسلام؛ من أجل استماع القرآن منه.

قال ابن القيم: «وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، الآية تدل على تكليف الجن من وجوه كثيرة:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٧/ ٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٥٥، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٩٢.
(٣) انظر: التفسير الميسر ص١٧٤.

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى صرفهم إلى رسوله؛ يستمعون القرآن؛ ليؤمنوا به، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه.

الثاني: أنهم ولّوا إلى قومهم منذرين، والإنذار: هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

الثالث: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن، وعقلوه، وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى، وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدّق له، وأنه هادٍ إلى صراط مستقيم، وهذا يدل على تمكينهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العقل والقدرة.

الرابع: إنهم قالوا لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١].

وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر[1].

❁ قوله تعالى في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١- ١٥].

وقد جاءت هذه الآيات إخبارًا للرسول عليه الصلاة والسلام باستماع نفر من الجن إليه وهو يقرأ القرآن بأصحابه، وذلك بعد أن منع الجن من استراق أخبار السماء، فعرفوا أن هذا المنع ما حصل إلا لشيء قد حدث في الأرض، فجابوا الأرض، فكان النفر الذين أخذوا نحو تهامة في بلاد الحجاز قد مروا على الرسول عليه السلام وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم منذرين،

(١) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٤٢١.

فأنزل الله تعالى إلى نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١][1] الآية، ولم يكن يعلم باستماعهم إليه على الراجح من الروايات في ذلك، وظاهر القرآن يدل عليه.

وقد دلت هذه الآيات على إيمانهم بالقرآن، وأخذهم عهدًا على أنفسهم أن لا يشركوا بالله، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢]

وقوله عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾[الجن: ١٣].

ففي إيمانهم بالقرآن، ووصفهم له بأنه يهدي إلى الرشد، وعدم إشراكهم بالله دلالة على أنهم مكلفون، وكذلك مسارعتهم لاستماعه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

أي: لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه ويقرأ القرآن اجتمع الجن عليه متلبدين متراكمين؛ حرصًا على ما جاء به من الهدى[2].

فقد كانوا فرحين حريصين متأملين عند سماعهم للقرآن، وفي هذا دلالة على كمال عقولهم، وهو يقتضي التكليف، وقد وردت آيات كثيرة تخاطب العقل كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

وفي هذا دلالة على توجه الخطاب للعاقل، وقد تقدم أن الجن مخلوقات عاقلة مريدة مختارة، عندها القدرة على التمييز بين الحق والباطل.

❁ قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[الأنعام: ١٣٠].

ففي تلك الآية ما يتضمن بالتصريح بإرسال رسل إليهم، وفي الآية خطاب للجن والإنس يوم القيامة، وهذا الخطاب فيه تقرير من الله في أنه قد بعث رسلًا إلى الجن والإنس حيث يسألهم وهو أعلم: هل بلغتهم الرسل رسالاته؟[3].

وبذلك يزول العذر، وتنقطع الحجة لأي واحد من الجن والإنس؛ إذ بعث الله رسلًا يوضّحون الطريق، ويأمرون بعبادة الله، وينهون عن معصيته، ولا شك أن أمر الرسل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر، ١/ ١٥٤، رقم ٧٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، ١/ ٣٣١، رقم ٤٤٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦١٩.

ونهيهم للجن والإنس هو محض التكليف.

قال ابن القيم: «وهذه الآية تدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن دعوة أولئك الرسل كانت مقصورة على بعض الإنس والجن، أما رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام فهي عامة لجميع الجن والإنس»[1].

وغير ذلك من الآيات التي تدل على تكليف الجن.

هل في الجن أنبياء ورسل؟

ومما يتبع مسألة تكليف الجن هي مسألة هل بعث إلى الجن رسل منهم، أم أن الرسل المبعوثين إليهم من الإنس فقط؟

اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين، وسبب الخلاف بين أهل العلم في تلك المسألة هو راجع إلى اختلافهم في فهم بعض نصوص القرآن.

القول الأول: أن رسل الجن هم من البشر، ولم يبعث إلى الجن رسول منهم، وهو رأي الجمهور من العلماء[2].

واستدل الجمهور بقوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: «ولما كانت الجن ممن يخاطب ويعقل قال: ﴿مِّنكُمۡ﴾ وإن كانت الرسل من الإنس، وغلب الإنس في الخطاب، كما يغلب المذكر على المؤنث، وفي التنزيل: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

أي من أحدهما، وإنما يخرج من الملح دون العذاب، فكذلك الرسل من الإنس دون الجن، فمعنى: ﴿مِّنكُمۡ﴾ أي: من أحدكم، وكان هذا جائزًا؛ لأن ذكرها سبق. وقيل: إنما صير الرسل في مخرج اللفظ من الجميع؛ لأن الثقلين قد ضمتهما عرصة القيامة، والحساب عليهم دون الخلق، فلما صاروا في تلك العرصة في حساب واحد، في شأن الثواب والعقاب؛ خوطبوا يومئذٍ بمخاطبة واحدة، كأنهم جماعة واحدة؛ لأن بدء خلقهم للعبودية، والثواب والعقاب على العبودية، ولأن الجن أصلهم من مارج من نار، وأصلنا من تراب، وخلقهم غير خلقنا، فمنهم مؤمن وكافر، وعدونا إبليس عدو لهم، يعادي مؤمنهم، ويوالي كافرهم، وفيهم أهواء: شيعة، وقدرية، ومرجئة»[3].

واستدل أيضًا الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم

(١) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم ص٤٢١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٩٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨٦.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]

«فهذا يدل على أنه لم يرسل جنيًّا ولا امرأة ولا بدويًّا، وأما تسميته تعالى الجن رجالًا في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

فلم يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فهم رجال من الجن، ولا يستلزم دخولهم في الرجال عند الإطلاق، كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فهذه الآيات قد أخبرت أن الله قد جعل النبوة في الرجال من البشر، ولو كان في الجن رسل وأنبياء، لأخبر القرآن بذلك، والآيات السالفة إخبار من الله عن إبراهيم عليه السلام أن الله قد جعل النبوة في ذريته من بعده.

«فلم يبعث الله نبيًّا بعد إبراهيم إلا من صلبه»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

فقد أخبر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن الرسل الذين بعثهم قبله كانوا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، والمقصود بذلك أنهم بشر، وليس في الآية ما يدل على بعث الرسل من خلاف الإنس.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

«وأجمعوا على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء فقط»[3].

فليس في الجن رسل، ولكن منهم نذر عن الرسل[4].

القول الثاني: أنه قد بعث إلى الجن رسل منهم، وهو رأي مقاتل والضحاك، وابن حزم الأندلسي[5].

استدل هذا الفريق على ما ذهب إليه بقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ

(١) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم ١/ ٤١٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٤٠.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٩٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٦/ ٣١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨٦.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨٦، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٢٨.

﴿يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

قال الشوكاني: «وظاهره أن الله بعث في الدنيا إلى الجن رسلًا منهم، كما بعث إلى الإنس رسلًا منهم»[(١)].

وقال ابن حجر الهيتمي: «وظاهر القرآن يشهد للضحاك، والأكثرون في خلافه»[(٢)].

ووجه استدلال الضحاك بهذه الآية: أن الله خاطب الجن والإنس بأنه قد بعث إليهم رسلًا منهما؛ بدليل قوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ وهو يقتضي بعث الرسل إلى الجن منهم، وبعث الرسل إلى الإنس منهم كذلك.

ويتبين مما تقدم من أدلة الفريقين أن قول الجمهور هو القول الراجح إن شاء الله تعالى؛ وذلك للأدلة التي اعتمدوا عليها[(٣)].

رابعًا: أصناف الجن:

إن الجن أصحاب ملل ونحل متباينة، وفيهم المؤمن والكافر، والعادل والظالم، فمنهم الكامل في الاستقامة وعمل الخير، ومنهم من هو دون ذلك، ومنهم البله المغفلون، ومنهم الكفرة، وهم الكثرة الكاثرة.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

يقول ابن القيم تعليقًا على هذه الآية التي تبين أحوال الجن وأصنافهم، وأنهم كأحوال الإنس في الإيمان والكفر، والصلاح والفساد: «وقد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار، وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم، فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار، فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار، وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فهؤلاء الناجون منهم، ثم ذكر الظالمين وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم، ولما كان الإنس أكمل من الجن، وأتم عقولًا، ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أخر، ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون، فليس في الجن صنف من هؤلاء بل حيلتهم الصلاح»[(٤)].

ويقول القرطبي في تفسير تلك الآية السابقة: «هذا من قول الجن، أي قال بعضهم لبعض لما دعوا إلى الإيمان بمحمد صلى

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٦٣.
(٢) انظر: الفتاوى الحديثية ص ٦٦.
(٣) انظر: عالم الجن، عبد الكريم عبيدات ص ٢٠٩.
(٤) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم ١/ ٤١٦.

الله عليه وسلم: وأنّا كنا قبل استماع القرآن منا الصالحون، ومنا الكافرون، وقيل: ومنا دون ذلك، أي ومن دون الصالحين في الصلاح»[1].

وقوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]، أي: فرقًا شتى، قاله السدي.

وقال الضحاك: أديانًا مختلفة.

وقال قتادة: أهواء متباينة.

والمعنى: لم يكن كل الجن كفارًا، بل كانوا مختلفين، منهم كفار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء، وقال مجاهد: يعنون: مسلمين وكافرين، وقال الحسن والسدي: في الجن أمثالكم، فمنهم قدرية، ومرجئة، ورافضة، وخوارج، وشيعة، وسنة، وقال سعيد بن جبير: ألوانًا شتى. وقال ابن كيسان: شيعًا وفرقًا، ومعنى الكلام: أصنافًا مختلفة، ومذاهب متفرقة، وقال سعيد بن المسيب: كنا مسلمين، ويهودًا، ونصارى، ومجوسًا[2].

وذهب بعض أهل العلم كالقرطبي إلى أن هذه المذاهب المختلفة في الجن إنما هي بعد مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام واستماعهم للقرآن منه.

يقول القرطبي: «وقال قوم: أي: وإنا بعد استماع القرآن مختلفون، منا المؤمنون، ومنا الكافرون، والأول أحسن، يقصد أنهم كانوا مؤمنين وكافرين قبل استماعهم للقرآن، بعد مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه كان في الجن من آمن بموسى وعيسى، وقد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة، وكان هذا مبالغة منهم في دعاء من دعوهم إلى الإيمان.

وقال السبكي: لا شك أنهم مكلّفون في الأمم الماضية كهذه الملة، إما بسماعهم من الرسول، أو من صادقٍ عنه، وكونه إنسيًّا، أو جنيًّا لا قاطع به»[3].

والشاهد لكلام القرطبي أنهم قد عبروا عن حالتهم السابقة قبل استماع القرآن بلفظ الماضي.

ولكن قد أخبر القرآن عن أحوالهم أيضًا بقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ توحي أيضًا أنه ليس كل الجن على الاستقامة والصلاح.

قال ابن القيم: «فالمسلمون: الذين آمنوا بالله ورسوله منهم، والقاسطون: الجائرون

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٥.

(٢) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم ١/ ٤١٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٥.

العادلون عن الحق، قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله أندادًا، يقال: أقسط الرجل: إذا عدل فهو مقسطٌ، ومنه: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقسط: إذا جار؛ فهو قاسط، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]»[1].

الإيمان بالجن

تحدث القرآن الكريم على أن الإيمان بالجن من صور الإيمان بالغيب؛ لأنهم يروننا ولا نراهم، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الإيمان بالجن من الإيمان بالغيب:

١. الإيمان بالجن.

أفاض القرآن الكريم والسنة النبوية في الحديث عن الجن وأحوالهم في مواضع كثيرة، فقد ورد ذكرهم في القرآن في مواضع متعددة، تقرب من أربعين موضعًا، عدا الآيات التي تحدثت عن الشيطان،-وهي كثيرة-، وانفردت سورة كاملة للحديث عن أحوال النفر الذين استمعوا للقرآن من الرسول عليه الصلاة والسلام وهو بمكة، هي سورة الجن، إذ ورد في مطلعها إخبار الله لنبيه باستماع هذا النفر للقرآن.

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

وقال في معرض الحديث عن نعيم الجنة: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].

(١) انظر: عالم الجن، عبد الكريم عبيدات ص ٦٧.

وتحدى الله الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

واستنكر القرآن المزاعم التي تقول بأن الجن يعلمون الغيب، فقال في معرض الحديث عن موت سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وغير ذلك من الآيات التي تحدثت عن أحوال هذا المخلوق.

ومعلوم أن القرآن الكريم قد ثبتت صحته؛ لأنه منقول إلينا بالتواتر، فعلى هذا الأساس لا مجال لإنكار هذا النوع من المخلوقات -متى كان الخبر صادقًا-، وإنكارهم يكون تكذيبًا لخبر الله عنهم دون حجة أو برهان، وذلك لا يكون إلا من سمات الجاهلين أو الكافرين، ووجودهم بشكل قاطع لا يحتمل التأويل بأي شكل من الأشكال[(١)].

قال ابن حزم رحمه الله: «وأن الجن حق، وهم خلق من خلق الله عز وجل، فيهم الكافر والمؤمن، يروننا ولا نراهم، يأكلون، وينسلون، ويموتون.

قال الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

وقال تعالى حاكيًا عنهم أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥][(٢)].

٢. المنكرون لوجود الجن.

انقسم الناس قديمًا وحديثًا في أمر الجن إلى مذاهب شتى، فما بين مثبت لوجودهم، أو منكر، أو مؤوّل لهم بشتى التأويلات الفاسدة، أو مغالٍ في قدرتهم وسلطانهم في الأرض، إلى غير ذلك من المذاهب والتصريفات المختلفة في شأن هذا المخلوق.

ويمكن إجمال هذه المذاهب في ما يلي:

(١) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة الميداني ٢/ ٢٣.

(٢) انظر: المحلى، ابن حزم ١/ ٣٣.

أولًا: المثبتون لوجود الجن:

١. أهل السنة والجماعة.

الذي عليه أهل السنة والجماعة من المسلمين هو إثبات وجود مخلوقات غائبة عن حواسنا، تسمى الجن، وأنها لا تظهر إلا إذا تشكّلت في صور غير صورها في بعض الأحوال ولبعض الناس، وأنها مخلوقات عاقلة مكلفة بالتكاليف الشرعية على نحو ما عليه البشر، وأنهم يأكلون، ويشربون، ويتناكحون، ولهم ذرية، قال ابن حزم: «لكن لما أخبرت الرسل الذين شهد الله عز وجل بصدقهم بما أبدى على أيديهم من المعجزات المحيلة للطبائع بنص الله عز وجل، وعلى وجود الجن في العالم؛ وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم، وقد جاء النص بذلك وبأنهم أمة عاقلة مميزة، متعبدة، موعودة متوعدة، متناسلة، يموتون، وأجمع المسلمون كلهم على ذلك»[(١)].

ويقول ابن تيمية: «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمدًا صلى الله عليه وسلم إليهم، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، وكما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك، كما يوجد في طوائف المسلمين الغالطون والمعتزلة من ينكر ذلك، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك؛ وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالاضطرار، ومعلوم بالاضطرار أنهم أحياء عقلاء، فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره، كما يزعمه بعض الملاحدة»[(٢)].

وقد تقدم كثير من الأدلة التي يستند إليها أهل السنة والجماعة في إثبات وجود الجن، سواء كانت هذه الأدلة مأخوذة من القرآن أو السنة، بالإضافة إلى دلالة الإجماع على ذلك.

٢. جمهور الكفار.

كعامة أهل الكتاب، والمجوس، وجمهور الكنعانيين، واليونانيين، والرومان، والهنود القدماء، وعامة مشركي العرب: الإقرار بوجود الجن، مع انحراف في تصورهم عن هذا المخلوق.

هذه الطوائف المختلفة أقرت بوجود الجن، ولكن إقرارهم هذا صاحبه تصورات فاسدة ومنحرفة، فمنهم من اعتبر أن الجن شركاء لله في الخلق والتدبير، ومنهم من اعتبر أن للجن سلطانًا في الأرض، وأنهم يعلمون الغيب، ومنهم من أثبت أخوة بين

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥/ ١٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١٩/ ٩.

الله وإبليس، -تعالى الله عن ذلك-، إلى غير ذلك من التصورات المنحرفة[1].

ثانيًا: المنكرون لوجود الجن:

مذهب أكثر الفلاسفة والأطباء، وجماعة من القدرية والمعتزلة والجهمية، وكافة الزنادقة قديمًا وحديثًا: إنكار الجن، بالإضافة إلى نفر قد أولوا النصوص الدالة على وجود الجن تأويلًا يدل على إنكارهم.

قال القرطبي: «وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن، وقالوا: إنهم بسائط، ولا يصح طعامهم، اجتراء على الله وافتراء، والقرآن والسنة ترد عليهم»[2].

وقال ابن تيمية: «وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، وكما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك كما يوجد في طوائف المسلمين الغالطون والمعتزلة من ينكر ذلك، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك»[3].

١. المتأخرون من القدرية.

ينكر متأخرو القدرية وجود الجن، مع اعتراف متقدميهم بذلك، قال أبو بكر الباقلاني: وكثير من القدرية يثبتون وجود الجن قديمًا، وينفون وجودهم الآن، ومنهم من يزعم أنهم لا يرون؛ لرقة أجسامهم، ونفوذ الشعاع فيها، ومنهم من قال: إنما لا يرون لأنهم لا ألوان لهم.

والمعتزلة قدرية، فهم ينكرون وجود الجن.

يقول الجويني: «وقد أنكرهم معظم المعتزلة، ودل إنكارهم إياهم على قلة مبالاتهم، وركاكة ديانتهم، فليس في إثباتهم مستحيل عقلي، وقد نصت نصوص الكتاب والسنة على إثباتهم، وحقّ على اللبيب المعتصم بحبل الدين أن يثبت ما قضى العقل بجوازه، ونص الشرع على ثبوته»[4].

وقال ابن حجر الهيتمي: «وإنكار المعتزلة لوجودهم فيه مخالفة للكتاب والسنة والإجماع، بل ألزموا به كفرًا؛ لأن فيه تكذيب النصوص القطعية بوجودهم»[5].

٢. الزنادقة.

وأما الزنادقة قديمًا وحديثًا كالدهرية والملحدين من الشيوعيين وغيرهم، فإنهم ينكرون الغيبيات بشكل عام، ويعتبرون أن الكون وجد هكذا صدفة؛ وعلى هذا

(١) انظر: عالم الجن، عبد الكريم عبيدات ص ٩٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦.

(٣) انظر: إيضاح الدلالة في عموم الرسالة، ابن تيمية ٤.

(٤) انظر: الإرشاد إلى قواطع الأدلة، الجويني ٣٢٣.

(٥) انظر: الفتاوى الحديثية، ابن حجر الهيتمي ص ١٢٣.

فهم يحاربون الأديان، ويعتبرونها أفيون الشعوب، وذلك كما تفعل الشيوعية في الوقت الحاضر.

وليس لهؤلاء حجة في إنكار الغيبيات -والجن من بينهم- إلا عدم الإيمان بما لا يقع عليه الحس، ولا يعرف بالتجربة والمشاهدة، وهي حجة ساقطة من أساسها، لا تقوى على الوقوف أمام الأدلة الكثيرة الناطقة بوجودهم.

ثانيًا: موقف الإنسان من الجن:

يجب على الإنسان المسلم بأن يؤمن بأن الجن مخلوق من مخلوقات الله تعالى مأمور بطاعة الله، ومنهي عن معصية الله تعالى ، وأن الجن فيهم المسلم والكافر.

والكفار من الجن يوسوسون للإنسان، ويزيّنون له المعاصي، ويشكّكون المسلم في الله عز وجل.

قال تعالى حاكيًا عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٢]

ويجب على المسلم أن يعلم أنه ليس للجن الكافر -الشيطان- من القدرة التي يستطيع بها أن يجبر الإنسان على ترك الطاعات وفعل المعاصي، ومن ثمّ يتصور أنه لا ذنب على الإنسان إذا قصّر في طاعة الله، أو فعل معصية من المعاصي، وهذا التصور إنما سببه الجهل بالقرآن الذي بيّن حقيقة الشيطان، وأنه ليس له سلطان بقهر الإنسان على فعل المعصية، أو يثبّطه عن القيام بالطاعة؛ لأنه في هذا التصور يكون مشاركًا لله في القدرة على قهر العباد وجبرهم على ما يشاء، وهذا هو عين الشرك في الربوبية، ولو كان للشيطان مثل هذه السلطة، لكان في ذلك مناقضة لتكليف الله للبشر، وفي ذلك مناقضة صريحة لما في القرآن الكريم؛ لأن التكليف مبني على قدرة الإنسان في اختيار الخير أو الشر، وإذا انتفى الاختيار عند الإنسان -بسبب إجبار الشيطان له على فعل المعاصي وترك الواجبات-، لكان في ذلك بطلان التكليف من قبل الله للإنسان، وهذا الكلام لا يقول به إلا كافر أو جاهل؛ لأن الرسل بعثهم الله على مدار التاريخ إنما جاء لاختبار هذه الإرادة عند الإنسان، فإما أن يستجيب هذا الإنسان لداعي الله، وإما أن يستجيب لداعي الشيطان الذي يوسوس للإنسان، ويزيّن له المعاصي، وعلى أساس هذه الاستجابة أو عدمها يكون جزاء الإنسان بالجنة أو النار.

يقول الله عز وجل في هذا الشأن حاكيًا عن الشيطان: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ

﴿الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فهذا هو الشيطان في الآخرة يعلن في صغار وانكسار تخليه عن أتباعه الذين أطاعوه فيما زيّن لهم من المعاصي، ويوضّح لهم أنه لم يكن له سلطان يجبر هؤلاء على ما كان سببًا في دخولهم جهنم، قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ الآية: «ما كان ليتسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: إلا مجرد دعائي لكم إلى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان..، وقيل: المراد بالسلطان هنا: القهر، أي: ما كان لي عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتي، وقيل: هذا الاستثناء هو من باب: تحية بينهم ضرب»

والمسلم يعلم أن الجنّ لا تقدر على شيء إلا بإرادة الله، كما أنها لا تعلم من غيب الله شيئًا.

قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

وقال تعالى عن وفاة النبي سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

فعلى المسلم أن يكون دائم الصلة بالله عز وجل ، فمن كان في كنف الله عز وجل حماه الله من شياطين الإنس والجن، فهو نعم المولى ونعم النصير.

والمسلم يؤمن بأن الله سبحانه يحفظه من مسّ الجن وإيذائه -مما لم يقدره الله- بالتزام الطاعات.

قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

فللإنسان ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار ﴿مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائمًا، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء.

أما الذين يبتعدون عن طريق الله، فمن السهل على الجن أن يؤذوهم بالصرع والجنون.

ويجب على المسلم أن يعلم أنه في

معركة مستمرةٍ مع الشياطين وأعوانهم من شياطين الإنس والجن، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

والمسلم يعلم أن إبليس تكبّر على أمر الله عز وجل عندما أمره بالسجود لآدم؛ تكريمًا له، وقال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ فغضب الله عليه، وأنزله من السماء، وأخرجه من رحمته: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

إيمان الجن

تحدث القرآن عن استجابة فريق منهم لدعوات الرسل، وهذا ما سنوضّحه فيما يأتي:

أولًا: موقف الجن من الرسالات:

في إخبار القرآن عن النفر من الجن الذين استمعوا للرسول بمكة ما يدل على أنهم كانوا عالمين بموسى عليه السلام ورسالته.

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

والنص يوحي أن هذا النفر كان من قوم عنده صلاح واستقامة، ومطالبة الجن بالإيمان غالبًا ما ينشأ عنه استجابة لذلك الرسول من قبل بعضهم، أو رفضًا لدعوته من قبل البعض الآخر، وفي النهاية يدل على أنهم فرق شتى.

فعند النظر في تلك الآية الكريمة نجد أن الجن قد وصفوا القرآن بأوصاف.

الأول: كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مصدّقًا لكتب الأنبياء، والمعنى أن كتب جميع الأنبياء كانت مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوّة والمعاد والأمر بتطهير الأخلاق، فكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعاني.

الثاني: قوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ

﴿طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالوصف الأول يفيد أن هذا الكتاب يماثل سائر الكتب الإلهية في الدعوة إلى هذه المطالب العالية الشريفة، وهذا مما يدل على أن الجن كان عندهم إيمان مسبق بالرسل السابقة، بل حتى قيل: إنهم كانوا على اليهودية.

والوصف الثاني يفيد أن هذه المطالب التي اشتمل القرآن عليها مطالب حق وصدق في أنفسها، يعلم كل أحد بصريح عقله كونها كذلك، سواء وردت الكتب الإلهية قبل ذلك بها أو لم ترد.

ووصف الكتاب بأنه ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ دون: أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن التوراة آخر كتاب من كتب الشرائع نزل قبل القرآن، وأما ما جاء بعده؛ فكتب مكمّلة للتوراة، ومبيّنة لها مثل زبور داود، وإنجيل عيسى، فكأنه لم ينزل شيء جديد بعد التوراة، فلما أنزل القرآن؛ جاء بهدي مستقل غير مقصود منه بيان التوراة، ولكنه مصدّق للتوراة، وهادٍ إلى أزيد مما هدت إليه التوراة[1].

ثم إنهم لما استمعوا القرآن حتى فرغ من تلاوته ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ انصرفوا إليهم ﴿مُّنذِرِينَ﴾ مخوّفين داعين بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم؛ لأنهم لا يدعون غيرهم إلى سماع القرآن، والتصديق به، إلا وقد آمنوا.

وعند ذلك ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لكتب الأنبياء، وذلك أن كتب سائر الأنبياء كانت مشتملةً على الدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى النبوة والمعاد، وتطهير الأخلاق، وكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعاني، وهو معنى قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

ثانيًا: إرسال الرسل إلى الجن:

ومما يوضّح أيضًا موقف الجن من الرسالات السابقة هي الآيات التي تتضمن التصريح بإرسال رسل إليهم.

مثل قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ففي هذه الآية خطاب للجن والإنس يوم القيامة، وهذا الخطاب فيه تقرير من الله أنه قد بعث رسلًا إلى الجن والإنس حيث يسألهم وهو أعلم: هل بلّغتهم الرسل رسالاته؟[2]، وبذلك يزول العذر، وتنقطع الحجة لأي واحد من الجن والإنس؛ إذ بعث الله رسلًا يوضّحون الطريق، ويأمرون بعبادة الله، وينهون عن معصيته، ولا شك أن

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٥٠-٥١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦١٩.

أمر الرسل ونهيهم للجن والإنس هو محض التكليف، قال ابن القيم: «وهذه الآية تدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن دعوة أولئك الرسل كانت مقصورة على بعض الإنس والجن، أما رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام فهي عامة لجميع الجن والإنس»[1].

ثالثًا: موقف الجن من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم:

لقد بيّن لنا القرآن موقف الجن من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٧].

فالجن كما يصفون أنفسهم هنا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾، ومنهم الضالون المضلون، ومنهم السّذّج الأبرياء الذين ينخدعون: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٣ - ٤].

وهم قابلون للهداية من الضلال، مستعدون لإدراك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهمًا وتأثرًا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

وأنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٣-١٥].

وأنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم، بل يرهقونهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

رابعًا: موقف الجن من القرآن:

لقد بيّن لنا القرآن موقف الجن من سماعهم للقرآن، وأنهم لم يتوانوا، ولم يتقاعسوا في تبليغ القرآن، الذي سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، وعملوا على الدعوة إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا

(١) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٤٢٢.

أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

واذكر -أيها الرسول- حين بعثنا إليك طائفة من الجن، فلما حضروا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ، قال بعضهم لبعض: أنصتوا؛ لنستمع القرآن، فلما فرغ الرسول من تلاوة القرآن، وقد وعوه، وأثّر فيهم، رجعوا إلى قومهم منذرين، ومحذّرين لهم بأس الله -إن لم يؤمنوا به-، فقالوا لقومهم لما رجعوا إليهم: سمعنا كلامًا مثيرًا للعجب في فصاحته وبلاغته، ومواعظه وبركاته، والإيحاء: إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء، كالإلهام وإنزال الملك، ويكون ذلك في سرعة[1].

قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى، مصدّقًا لما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله، يهدي إلى الحق والصواب، وإلى طريق صحيح مستقيم.

يا قومنا أجيبوا رسول الله محمدًا إلى ما يدعوكم إليه، وصدّقوه، واعملوا بما جاءكم به، يغفر الله لكم من ذنوبكم، وينقذكم من عذاب مؤلم موجع.

ومن لا يجب رسول الله إلى ما دعا إليه؛ فليس بمعجز الله في الأرض، إذا أراد عقوبته، وليس له من دون الله أنصار يمنعونه من عذابه، أولئك في ذهاب واضح عن الحق[2].

خامسًا: إقرار الجن بالنعم:

وذلك في سورة الرحمن في قوله تعالى بعد الحديث عن نعمه على عباده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

حيث ورد هذا الخطاب في واحد وثلاثين موضعًا من سورة الرحمن، وفيه خطاب للجن والإنس معًا، وفي هذه المواضع امتنان من الله على عباده بهذه النعم التي لا يجحدها إلا كافر.

وأخرج الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودًا منكم، كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد)[3].

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ١٦١.

(٢) انظر: التفسير الميسر ص٥٠٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الرحمن، ٥/ ٣٩٩،

قال ابن القيم: «وقد دلت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلّف الإنس، ولهذا يقول في إثر كل آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ فدلّ ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معًا؛ ولهذا قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن قراءة تبليغ، وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردًّا منهم؛ فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا نكذّب بشيء من آلائك ربنا، فلك الحمد»[1].

موضوعات ذات صلة:

سليمان عليه السلام، الشيطان، الناس

رقم ٣٢٩١.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٥/ ١٨٣، رقم ٢١٥٠.

(١) انظر: طريق الهجرتين ص ٤٢٢.

الجنة

عناصر الموضوع

مفهوم الجنة	١٤٠
الجنّة في الاستعمال القرآني	١٤٢
الألفاظ ذات الصلة	١٤٣
الجنة دار الله أعدها لعباده	١٤٤
آدم عليه السلام والجنة	١٤٦
أسماء الجنة ودرجاتها	١٤٩
صفة الجنة ونعيمها	١٥٩
صفة أهل الجنة وأخلاقهم	١٨٢
رؤية الله تعالى	١٨٤
الأسباب الموجبة لدخول الجنة	١٨٦
من حرّم عليه الجنة	١٩٦

مفهوم الجنة

أولًا: المعنى اللغوي:

الجنة في اللغة: من (جن) الجيم والنون أصل واحد، وهو الستر والتستر، جنّة مفرد وجمعها جنّات وجنان: وهي ما يصير إليه المسلمون في الآخرة، وهو ثواب مستور عنهم اليوم، والجنة البستان؛ لأن الشجر بورقه يستر، والعرب تسمّي النخيل جنّةً، وتأتي من الاجتنان وهو الستر، لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها، وسميت بالجنة وهي المرة الواحدة من مصدر جنّه جنًّا إذا ستره، فكأنها سترة واحدة؛ لشدة التفافها وإظلالها، والجنة: الحديقة ذات الشجر والنخل، وفيها تخصيص، ويقال للنخل وغيرها، ويقال: لا تكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنة[(١)].

وعرفها الراغب الأصفهاني بأنها: «كلّ بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض»[(٢)].

وسميت البساتين والحدائق التي نراها في الأرض بالجنة لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥].

وعلى هذا فإن لفظ الجنة إذا جاء في القرآن الكريم مرتبطًا بالأرض أو مخصصًا بنخل أو فاكهة فيقصد به الحدائق والبساتين، وإن لم يوجد ما يخصصه فإنما يعني دار النعيم في الآخرة.

ويتضح من المعنى اللغوي للجنة أنها المكان الواسع كثير الأشجار والنخيل ملتف الأغصان ويستر من بداخله، وهو المسمى بالبستان، وسميت الجنة جنةً لاستتار من دخل فيها عمن لم يدخل فيها.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الجنة في الاصطلاح: «الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين»[(٣)].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠٩٤، مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٤٢١، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ١٠٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١١٨٧.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ١/ ٢٠٤.

(٣) حادي الأرواح، ابن القيم ١/ ٩٤.

وقيل: هي دار الثواب، يدخلها المؤمنون ويخلدون فيها أبدًا ليس فيها حر ولا برد ولا مرض ولا حاجة ولا موت، أعلاها وأفضلها الفردوس، وفوقها عرش الرحمن، ومنها تنفجر أنهار الجنة، فجنة المأوى، فجنة الخلد، فجنة النعيم، فجنة عدن، فدار السلام، فدار الجلال، وأبوابها الكبار ثمانية: باب الشهادتين، وباب الصلاة، وباب الصيام، وباب الزكاة، وباب الحج، وباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وباب الصلة، وباب الجهاد في سبيل الله، ومن داخلها عشرة أبواب صغار، وهي سبع جنان متجاورة أوسطها وأفضلها الفردوس.

ويتضح مما تقدم أن الجنة دار النعيم والثواب ادخره الله تعالى لعباده المؤمنين وأهل طاعته وهو مستور عنهم، جزاء لهم على إيمانهم الصادق وعملهم الصالح، وسميت بأسماء متعددة في القرآن، منها: جنة المأوى، وجنة عدن، ودار الخلد، والفردوس، ولها أبواب ثمانية.

الجنّة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (جنن) في القرآن(٢٠١) مرة، منها (١٤٧) مرة للجنّة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٧٠	﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥]
المثنى	٨	﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾[الكهف: ٣٣]
الجمع	٦٩	﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[التوبة: ٧٢]

وجاءت لفظة الجنّة في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: البستان في الدنيا: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]، أي: أصحاب البستان.

الثاني: دار الثواب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١٧٩- ١٨٢.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١٥٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ النار:

النار لغة:

«النّون والواو والرّاء، أصلٌ صحيحٌ يدلّ على إضاءةٍ واضطرابٍ وقلّة ثباتٍ، ومنه النّور والنّار، سمّيا بذلك من طريقة الإضاءة؛ ولأنّ ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة»[١].

النار اصطلاحًا:

«الدار التي أعدها الله للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذّب به أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين، وهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم الذي لا خزي فوقه، ولا خسران أعظم منه»[٢].

وقيل: «هي دار العذاب والإهانة، أعدّها الله لأعدائه الكافرين الذين كفروا به وعصوا رسله»[٣].

الصلة بين النار والجنة:

الجنة دار النعيم المقيم، والنار دار العذاب الأليم.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٦٨.
(٢) الجنة والنار، عمر الأشقر ص١١.
(٣) رسالة في أسس العقيدة، محمد السعوي ص٧٤.

الجنة دار الله أعدها لعباده

لا شك أن القرآن الكريم تحدث عن الجنة وأوصافها وأهلها وأسمائها وأبوابها ودرجاتها وعددها وقصورها وأنهارها وغرفها وخيامها ومساكنها وأشجارها وثمارها وعيونها، وكل ما يتعلق بها، فلا تكاد تخلو سورة من بيان للجنة وذلك لأن كل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه فهي دار الخلود والبقاء، وأن الله تعالى قد أعدها ووعد بها عباده المؤمنين، وبشر بها من أطاعه فيما أمر، وانتهى عما نهى عنه وزجر، وقد دل على ثبوتها الكتاب والسنة.

ففي الكتاب وردت آيات كثيرة بشأنها تتحدث عنها تصريحًا أو تلميحًا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧].

ومن السنة ما جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧])[1].

ودلالة الحديث واضحة في بيان ما أعده الله تعالى لعباده الصالحين من النعيم الدائم في الجنة، مما تقصر عقول البشر عن إدراكه أو الإحاطة به.

وهؤلاء العباد الذين يدخلون الجنة هم كل موحد، كما صح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله)، ٩/ ١٤٤ ، رقم ٧٤٩٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ٤/ ٢١٧٤، رقم ٢٨٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)، ٤/ ١٦٥، رقم ٣٤٣٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٩/ ٩٢، رقم ٧٢٨٠.

وذكرت الآيات القرآنية فضلًا عن وجود الجنة بقاءها وأبديتها ودوام نعيمها وخلود أهلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

ودلالة هذه الآيات واضحة بأن المتقين في الجنة خالدون، لا يذوقون فيها الموت، ولا يخرجون منها أبدًا.

وفي السنة ما صح عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم)[(١)].

وما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (من يدخل الجنة ينعم لا ييأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه)[(٢)].

وما صح من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا) فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣])[(٣)].

ثم أننا نجد كثيرًا من الآيات حثت الناس على المسابقة إلى تلك الجنة ونعيمها والفوز بها؛ وذلك بالإيمان والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

والتحقيق أن الجنة لا تنال بالعمل الصالح، وإنما السبب الحقيقي لدخولها هو رحمة الله تعالى؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (لن يدخل أحدًا عمله الجنة) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت: إما

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ٨/ ١١٣، رقم ٦٥٤٨.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، ٤/ ١٢٨١، رقم ٢٨٣٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، رقم ٢٨٣٧، ٤/ ٢١٨٢.

محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب)[1].

ويتضح مما تقدم أن الجنة دار الله تعالى أعدها لعباده المؤمنين، وجعل فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال أحد من النعيم الدائم غير المنقطع، والخلود لأهلها وعدم فنائها، وأن العمل الصالح لا يكفي لدخول الجنة؛ لأن دخولها برحمة الله عز وجل، وكذلك النار وأهلها، لا يدركهم الموت ولا يلحقهم الفناء.

آدم عليه السلام والجنة

تحدث القرآن الكريم عن الجنة في آيات كثيرة، وكل ما يتعلق بها من صفات وأسماء ودرجات وغير ذلك، وذكر الجنة بصيغ مختلفة، وخصها عن الجنات التي على الأرض وأن تشابهت الأسماء، إلا أن الجنات التي تكلم عنها القرآن الكريم تختلف عن جنات الأرض المتعارف عليها من حدائق وبساتين.

وفي هذا المبحث سنلقي الضوء على ماهية الجنة التي كان فيها آدم وزوجه عليهما السلام من خلال قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٣١].

قال ابن كثير: «يقول الله تعالى إخبارًا عما أكرم به آدم عليه السلام: بعد أن أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء رغدًا، أي: هنيئًا واسعًا طيبًا»[2].

واختلف في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾، هل هو أمر تكليف أو إباحة؟

قال قتادة رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: «إن الله تعالى ابتلى آدم بإسكان الجنة كما ابتلى الملائكة بالسجود؛ وذلك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، ٧/ ١٢١، رقم ٥٦٧٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٣٣.

لأنه كلفه بأن يكون في الجنة يأكل منها حيث شاء ونهاه عن شجرة واحدة أن يأكل منها، فما زالت به البلايا حتى وقع فيما نهي عنه، فبدت سوأته عند ذلك، وأهبط من الجنة وأسكن موضعًا يحصل فيه ما يكون مشتهى له، مع أن منعه من تناوله من أشد التكاليف»[1].

وقيل: «إن ذلك إباحة؛ لأن الاستقرار في المواضع الطيبة النزهة التي يتمتع فيها يدخل تحت التعبد، كما أن أكل الطيبات لا يدخل تحت التعبد ولا يكون قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠]أمرًا وتكليفًا بل إباحة، والأصح أن ذلك الإسكان مشتمل على ما هو إباحة، وعلى ما هو تكليف، أما الإباحة فهو أنه عليه الصلاة والسلام كان مأذونًا في الانتفاع بجميع نعم الجنة، وأما التكليف فهو أن المنهي عنه كان حاضرًا وهو كان ممنوعًا عن تناوله، قال بعضهم: لو قال رجل لغيره: أسكنتك داري، لا تصير الدار ملكًا له، فههنا لم يقل الله تعالى: وهبت منك الجنة، بل قال: أسكنتك الجنة، وإنما لم يقل ذلك لأنه خلقه لخلافة الأرض، فكان إسكان الجنة كالتقدمة على ذلك[2].

واختلف أيضًا في الجنة التي أسكنها آدم، هل كانت في الأرض أو في السماء؟ وهل هي جنة الخلد أو جنة أعدت لهما؟

القول الأول: قال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الأصفهاني: هذه الجنة كانت في الأرض، وحملا الإهباط على الانتقال من بقعة إلى بقعة، كما في قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١].

واحتجا عليه بوجوه[3]:

أحدها: أن هذه الجنة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد، ولو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

ولما صح قوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وثانيها: أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وثالثها: أن إبليس لما امتنع عن السجود لعن فما كان يقدر مع غضب الله على أن يصل إلى جنة الخلد.

ورابعها: أن الجنة التي هي دار الثواب لا يفنى نعيمها لقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

ولقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٤٥١.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: المصدر السابق، ٣/ ٤٥٢.

﴿الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إلى أن قال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي: غير مقطوع، فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم عليه السلام لما فنيت، لكنها تفنى لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

ولما خرج منها آدم عليه السلام، لكنه خرج منها وانقطعت تلك الراحات.

وخامسها: أنه لا يجوز في حكمته تعالى أن يبتدئ الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف؛ لأنه تعالى لا يعطي جزاء العاملين من ليس بعامل، ولأنه لا يهمل عباده بل لا بد من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد.

وسادسها: لا نزاع في أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام في الأرض، ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء، ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء لكان ذلك أولى بالذكر؛ لأن نقله من الأرض إلى السماء من أعظم النعم، فدل ذلك على أنه لم يحصل، وذلك يوجب أن المراد من الجنة التي قال الله تعالى له: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ جنة أخرى غير جنة الخلد[1].

وذهب من لم يجعلها جنة الخلد إلى أن من دخل جنة الخلد لا يخرج منها، وهذا لا يمتنع، إلا أن السمع ورد أن من دخلها مثابًا لا يخرج منها، وأما من دخلها ابتداء كآدم فغير مستحيل، ولا ورد سمع بأنه لا يخرج منها[2].

القول الثاني: وهو قول الجبائي: أن تلك الجنة كانت في السماء السابعة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨].

ثم إن الإهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى، والإهباط الثاني كان من السماء إلى الأرض[3].

القول الثالث: أن هذه الجنة هي دار الثواب، والدليل عليه: أن الألف واللام في لفظ الجنة لا يفيدان العموم؛ لأن سكنى جميع الجنان محال، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق، والجنة التي هي المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب، فوجب صرف اللفظ إليها[4].

والقول الرابع: أن الكل ممكن والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة؛ فوجب التوقف وترك القطع، والله أعلم[5].

وقيل: أن جنة المأوى هي الجنة التي آوى إليها آدم عليه السلام إلى أن أخرج منها وهي في السماء السابعة[6].

وعلى أية حال؛ فمهما تعددت الأقوال في بيان موضع تلك الجنة وتعيينها يبقى

(١) المصدر السابق.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ١٢٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٤٥٢.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٩٦.

الأمر ظنيًّا لا قطعيًّا ولا ينبغي الجزم بكونها في الأرض أو في السماء؛ لأن الله تعالى لم يذكر مكانها فلا يوجد دليل قطعي على ذلك، ثم لا يترتب على معرفتها أو تحديدها حكم ؛ لذلك نؤمن بأنها جنة كان فيها آدم وحواء عليهما السلام، وإن فيها رغد العيش.

أسماء الجنة ودرجاتها

وردت في القرآن الكريم أسماء كثيرة للجنة اقترنت بعدة صفات، ولها درجات يتفاوت بها أهل الجنة على قدر إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وذلك من رحمة الله تعالى وتوفيقه لعباده المؤمنين، وفضله من إنعامه وتفضله، لذا سنبين في هذا المبحث بعض أسماء الجنة ومعانيها ودرجاتها من خلال ما يأتي:

أولًا: أسماء الجنة:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم الجنة بعدة أسماء، منها:

١ . دار السلام.

وهي دار الله التي أعدّها لأوليائه في الآخرة، جزاءً لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذات الله، وهي جنته، والسلام: اسم من اسماء الله تعالى، وسميت الجنة بهذا الاسم لأن أنواع السلامة حاصلة فيها بأسرها[(١)].

ووصف الله تعالى الجنة بأنها دار السلام في موضعين هما:

الأول: قال تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ وهي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٢/ ١١٤، مفاتيح الغيب، الرازي، ١٣/ ١٤٦.

الجنة، أي يوم القيامة. وإنما وصف الله الجنة هاهنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي: والسلام - وهو الله - وليهم، أي: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة، بمنه وكرمه[1].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

ودار السلام في الآية الكريمة: «هي الجنة، أضافها إلى اسمه تعظيمًا لها، أو السلام والسلامة: لأن أهلها سالمون من كل مكروه، وقيل: لفشوّ السلام بينهم، وتسليم الملائكة عليهم ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾»[2].

ولا تعارض بين اسم الله تعالى السلام والجنة التي سميت بدار السلام؛ لقول قتادة رحمه الله تعالى: «الله هو السلام، والدار الجنة»[3].

ويتضح مما تقدم أن الله تعالى قد بشّر عباده المؤمنين بدار السلام وهي الجنة والدعوة على وجه العموم، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، وفي هذه الدار لا يوجد إلا الأمن والأمان، والسلامة من كل مكروه، من الآفات والبلايا والهموم، ومشاق الحياة الدنيا، لذلك وعد الله تعالى بها عباده المؤمنين والصالحين.

٢. جنة الخلد.

وهي الجنة التي لا ينقطع نعيمها، التي وعدها الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها[4].

قال تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الفرقان: ١٥].

أي: «قل لهؤلاء المكذبين تهكمًا بهم وتحسيرًا لهم على مافاتهم: أهذه النار التي وصفت لكم خير أم جنة الخلد التي يدوم نعيمها ولا يبيد، وقد وعدها من اتقاه فى الدنيا بطاعته فيما به أمره ونهاه، ثم حقق أمرها تأكيدًا للبشارة بقوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ أي: كانت هذه الجنة لهم جزاء أعمالهم فى الدنيا بطاعته، وثوابًا لهم على تقواه، ومرجعًا لهم ينتقلون إليه فى الآخرة»[5].

والآية الكريمة تبين وعد الله تعالى

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٣٣٨.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ١٧.
(٣) تفسير عبد الرزاق، ٢/ ١٧٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٩٨، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٤/ ٤٩١.
(٥) تفسير المراغي، ١٨/ ١٥٨.

ويشارته لعباده المؤمنين بجنة الخلد التي لهم فيها ما يشتهون، وهم فيها خالدون أبدًا بلا انقطاع ولا زوال.

٣. دار المقامة.

هي دار الإقامة وهي الجنة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥].

أي: دار الإقامة، لما ذكر الله تعالى سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات؛ بين سرورهم ببقائهم فيها، وأعلمهم بدوامها، حيث قالوا: الذي أحلنا دار المقامة أي: الإقامة، وفي قوله: دار المقامة إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور، ومنها إلى منزلة العرصة التي فيها الجمع ومنها التفريق، والجنة دار المقامة، وكذلك النار لأهلها، وقولهم من فضله أي: بحكم وعده، لا بإيجاب من عنده[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، أي: لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، والنصب واللغوب: كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد ينفي هذا وهذا عنهم: أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة[(٢)].

ويتضح مما تقدم أن دار المقامة هي الجنة التي وعدها الله تعالى لعباده المؤمنين، ولم تذكر هذه التسمية للجنة في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في الآية المتقدمة.

٤. جنات عدن.

العدن: «الإقامة، يقال: عدن بالمكان، إذا أقام به»[(٣)]، وقيل: العدن: الاستقرار[(٤)].

قال البيضاوي رحمه الله: «والعدن: الإقامة، أي: جنات يقيمون فيها، وقيل: هو بطنان الجنة»[(٥)].

وذكر الله تعالى جنات عدن في أحد عشر موضعًا في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [النحل: ٣١].

حيث يخبر الله تعالى في هذه الآيات وغيرها: أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده، الذين أورثوا الكتاب المنزل من

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٢٤١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٥٢.

(٣) التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم، ١/ ١٨٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ١٣١.

(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ١٨٦.

رب العالمين يوم القيامة ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على ربهم، عز وجل[1].

وذكر ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾، لاستحضار الحالة البهيجة، وذلك زيادة الإكرام بأن جعل أصولهم وفروعهم وأزواجهم المتأهلين لدخول الجنة لصلاحهم؛ في الدرجة التي هم فيها، فمن كانت مرتبته دون مراتبهم لحق بهم، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحقوا هم به، فلهم الفضل في الحالين[2].

ويذكر الإمام الماوردي رحمه الله في تفسيره خمسة آراء مختلفة للعلماء في جنات عدن:

الأول: أنها جنات خلود وإقامة، ومنه سمي المعدن لإقامة جوهره فيه، وهذا مروي عن ابن عباس[3].

الثاني: أن جنات عدن هي جنات كروم وأعناب بالسريانية، وهذا مروي عن ابن عباس أيضًا[4].

الثالث: أن عدن اسم لبطنان الجنة، أي: وسطها، قاله عبد الله بن مسعود.

الرابع: أن عدن اسم قصر في الجنة، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص والحسن.

الخامس: أن جنة عدن في السماء العليا لا يدخلها إلا نبيّ أو صديق أو شهيد أو إمام عدل. وجنة المأوى في السماء الدنيا تأوي إليها أرواح المؤمنين، رواه معاذ بن جبل مرفوعًا.

وعلى الرغم من تعدد الأقوال في جنات عدن إلا أنها لا دليل عليها من الأدلة النقلية والعقلية، وأن جنات عدن اسم يدل على الجنة ذكر في القرآن الكريم وهي دار الإقامة والخلود أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين، ولا يوجد دليل قطعي يؤكد أن جنات عدن هي قصر أو نهر في الجنة، وأما القول بأنها لفظ سرياني فهذا يخالف قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥].

٥. دار الحيوان.

هي الجنة دار الحياة؛ أي لا موت فيها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أي: ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها، فكأنها في ذاتها حياة، والحيوان: مصدر حي، وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واوًا، وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحياة، ولذلك اختير عليها ها هنا، وبه سمي ما فيه حياة: حيوانًا[5].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٥١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ١٣١.
(٣) النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٣٨١.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤٦٣، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ١٩٩.

قال الراغب الأصفهاني: «وقد نبه بقوله تعالى: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أن الحيوان الحقيقي السرمدي الذي لا يفنى، لا ما يبقى مدة ثم يفنى، وقال بعض أهل اللغة: الحيوان والحياة واحد، وقيل: الحيوان: ما فيه الحياة، والموتان ما ليس فيه الحياة، والحيا: المطر، لأنه يحيي الأرض بعد موتها، وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]»[(١)]، وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: «لآثروا ما يبقى على ما يفنى»[(٢)].

ويتضح مما تقدم أن دار الحيوان هي دار الجنة التي لا تفنى ولا تزول، ولا يقع فيها موت لأحد. ولم تذكر تسمية دار الحيوان إلا في هذه الآية المتقدمة.

٦. جنة المأوى.

هي نوع من الجنان، وأضيفت الجنان إلى المأوى لأنها المأوى والمسكن الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة.

وقيل: المأوى علم لمكان مخصوص من الجنان كعدن، وقيل: جنة المأوى لما روي عن ابن عباس، أنها تأوي إليها أرواح الشهداء، وروي أنها عن يمين العرش ولا يخفى ما في جعله علمًا من البعد وأيًّا ما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذكر من تجافيهم عن مضاجعهم التي هي مأواهم في الدنيا[(٣)].

وورد ذكر هذه الجنة في القرآن الكريم في موضعين: في قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [السجدة: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٥].

ووصف الجنة في آية أخرى بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤١].

والمأوى: اسم مكان[(٤)] تدل على الاستقرار في مكان، سواء كان في الجنة أو غيرها.

قال الإمام السيوطي: «هي اسم لجميع الجنان، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [السجدة: ١٩].

والجنة اسم الجنس، فمرة يقال جنة، ومرة يقال جنات، فكذلك جنات عدن، وجنة عدن»[(٥)].

٧. الفردوس.

وردت كلمة الفردوس مرتين في القرآن

(١) المفردات ١/ ٢٦٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٩٤.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ١٠، روح المعاني، الألوسي، ١١/ ١٣١.
(٤) روح المعاني، الألوسي، ١١/ ١٣١.
(٥) معترك الأقران، السيوطي، ٣/ ٣٥١.

الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١١].

يخبر تعالى في الآيتين الكريمتين عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوهم فيما جاؤوا به بأن لهم جنات الفردوس، أما أصل كلمة الفردوس فقد اختلف في لفظه على أربعة أقاويل:

الأول: أنه عربي، وقد ذكرته العرب في شعرها، قاله ثعلب[١].

الثاني: أنه بالرومية، قاله مجاهد[٢].

الثالث: أنه بالنبطية، فرداسًا، قاله السدي[٣].

الرابع: بالسريانية، قاله أبو صالح[٤].

وقيل في أصل كلمة الفردوس: أنه رومي أعرب، وهو البستان، والعرب تعرفه وتسمي الموضع الذي فيه كرم (فردوسًا)، قال الزجاج: وقيل الفردوس الأودية التي تنبت ضروبًا من النبت، وقيل: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية[٥].

ويرجح بعض الباحثين أن تكون كلمة الفردوس معربة عن الرومية، أي اليونانية، وعزا سبب ذلك إلى انتشارها على لسان أهل الشام أكثر من غيرهم[٦]، وللعلماء آراء في معنى كلمة الفردوس، منها:

أحدها: أن الفردوس وسط الجنة وأطيب موضع فيها، قاله قتادة[٧].

الثاني: أنه أعلى الجنة وأحسنها، رواه سمرة بن جندب مرفوعًا[٨].

الثالث: أنه البستان بالرومية، قاله مجاهد[٩].

الرابع: أنه البستان الذي جمع محاسن كل بستان، قاله الزجاج[١٠].

الخامس: أنه البستان الذي فيه الأعناب، وليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، قاله كعب[١١].

---

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٣٤٨.
(٢) انظر: المصدر السابق، زاد المسير في علم التفسير، ٣/ ١١٣.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٣٤٨.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: المعرب، الجواليقي، ص٢٨٨.
(٦) انظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، عودة خليل أبو عودة، ص٤٠٥.
(٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٣٤٨، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ٥٠٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١/ ٦٨.
(٨) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٣٤٨.
(٩) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ١٣١، النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٣٤٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١/ ٦٨.
(١٠) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٣٤٨.
(١١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ١٣١، زاد المسير في علم التفسير، ٣/ ١١٣، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ٥٠٢.

والصواب من القول في ذلك ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: (فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة[1]).

ويتضح مما تقدم أن للجنة أسماء متعددة ذكرها القرآن الكريم لتنوع صفاتها، وكلها تدل على النعيم، لذا يرى ابن القيم رحمه الله أن هذه الأسماء متعددة باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة من هذا الوجه وتختلف باعتبار الصفات فهي متباينة من هذا الوجه[2].

ثانيًا: درجات الجنة:

لا شك أن الجنة التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين لها درجات متفاوتة بحسب الإيمان والأعمال الصالحة، لذلك بيّن الله تعالى هذه الدرجات التي يرتقي فيها المؤمن ليصل إلى تلك المراتب الرفيعة في الجنة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥﴾ [طه: ٧٥].

ولا تنال تلك الدرجات العلى إلا بالإيمان والعمل الصالح الموصلين إلى الجنة.

والدرجات: مفرده الدرجة نحو المنزلة، يقال للمنزلة: درجة إذا اعتبرت بالصعود دون الامتداد على البسيطة، كدرجة السطح والسلم، ويعبر بها عن المنزلة الرفيعة: قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

تنبيهًا لرفعة منزلة الرجال عليهن في العقل والسياسة، ونحو ذلك من المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

وقال: ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤].

وقال: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

أي: هم ذوو درجات عند الله، ودرجات النجوم تشبيهًا بما تقدم[3].

وتحدث القرآن الكريم عن هذه الدرجات في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٦٣﴾ [آل عمران: ١٦٣].

أي: «ليس من اتبع رضوان الله كمن باء بسخط منه، قيل: هم درجات متفاوتة، أي هم مختلفو المنازل عند الله، فلمن ابتغى رضوانه الكرامة والثواب العظيم، ولمن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء)، ٩/ ١٢٥، رقم ٧٤٢٣.

(٢) انظر: حادي الأرواح، ١/ ٩٤.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١١.

باء بسخط منه المهانة والعذاب الأليم، ومعنى ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾، أي: ذوو درجات، أو على درجات، أو في درجات، أو لهم درجات، وأهل النار أيضًا ذوو درجات، فالمؤمن والكافر لا يستويان في الدرجة، ثم المؤمنون يختلفون أيضًا، فبعضهم أرفع درجة من بعض، وكذلك الكفار»[1].

وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

قال الإمام الرازي رحمه الله: «إن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس، فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم، فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإذا كان الإنسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى»[2].

ودلالة الآيتين الكريمتين واضحة في بيان تفاوت وتفاضل الخلق في الدرجات من حيث الأجر والثواب بحسب أعمال الناس، لذلك بين الله تعالى أن أهل الدرجات العلى من المتقين الذين يخافون الله تعالى في نعيم أرقى من الذين دونهم فأعد الله تعالى لهم جنتين.

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٦٢].

وإن أعلى درجات الجنة هي الفردوس الأعلى، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

وتؤكد السنة النبوية أيضًا أن للجنة درجات، وأن أهل الجنة متفاضلون في الجنة بحسب منازلهم، وذلك بما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه قال: فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)[3].

وفي الحديث دلالة على أن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض، وهذا لا يعني حصر درجات الجنة بمائة درجة، إذ المراد منه الإخبار بأن هذه الدرجات المائة هي للمجاهدين في سبيل الله تعالى، لا الإخبار بحصر درجات الجنة، ويؤيد ذلك أن منزلة النبي صلى الله عليه وسلم فوق هذا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٦٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣١٩.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، ٤/ ١٦، رقم ٢٧٩٠.

كله، فهو في درجة ليس فوقها درجة، أمّا هذه الدرجات المائة فنالها آحاد أمته بالجهاد.

وصح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)[1].

قال القاضي عياض: «يحتمل أنه على ظاهره، وأن الدرجة هنا المنازل التي بعضها أرفع من بعض في الظاهر، وكذلك منازل الجنة كما جاء في أهل الغرف: «يتراءون كالكوكب الدري»، ويحتمل أن المراد الرفعة بالمعنى من كثرة النعم وعظيم الإحسان مما لا يخطر على قلب بشر، ولا بصفة واصف، وأن أنواع ما أنعم الله به عليه من البر والكرامة يتفاضل تفاضلًا كثيرًا، وينسي بعضه بعضًا، ومثل تفاضله في البعد بما بين السماء والأرض، والأول أظهر»[2].

ومعنى ذلك أن الجنة مائة درجة جعلها الله تعالى لعباده المؤمنين على قدر أعمالهم في حياتهم الدنيا، وأن أهل الجنة تتفاوت منازلهم بحسب درجاتهم في الفضل حتى إنّ أهل الدرجات العلى ليراهم من هو أسفل منهم كالنجوم.

وبما أن للجنة درجات متفاوتة يختلف بعضها عن بعض فإن أعلى منزلة فيها الوسيلة، ليس فوقها درجة، لا ينالها غير النبي محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال الزمخشري: «أي: ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم درجات كثيرة، والظاهر أنه أراد محمدًا صلى الله عليه وسلم، لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر، وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس»[3].

ولا أحد أفضل ولا أكرم عند الله تعالى من صفوة الخلق، صاحب الحوض المورود والمقام المحمود، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو في الدرجة العالية الرفيعة في جنات النعيم، أعلى درجة في الجنة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ٤/ ١١٩، رقم ٣٢٥٦.

(٢) انظر: إكمال المعلم، القاضي عياض، ٦/ ٣٠٤.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٢٩٧.

ليس فوقها درجة، اختص بها صلى الله عليه وسلم دون غيره من أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام.

فقد ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)[1].

وسمّيت درجة النبي صلى الله عليه وسلم الوسيلة؛ لأنها أقرب الدرجات إلى العرش، وأصل الوسيلة القرب، من وسل إليه إذا تقرب إليه، ومعناها الوصلة، ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها وأعظمها نورًا ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق عبودية لربه وأشدهم له خشية كانت منزلته أقرب المنازل لعرشه[2].

لذا نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم حث أمته وأمرها أن يسألوا الله تعالى له الوسيلة لينالوا بهذا الدعاء شفاعته صلى الله عليه وسلم في الآخرة.

وكما أن درجة الوسيلة أعلى درجة في الجنة لا تكون إلا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فهناك أيضًا أدنى أهل الجنة منزلة، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة، قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف، وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم، فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا، فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك، ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت رب، قال: رب، فأعلاهم منزلة، قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧])[3].

فهذه درجات الجنة ومنازلها العالية متفاوته بعضها فوق بعض، أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين من أهل الجنة على قدر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل له الوسيلة، ١/ ٢٨٨، رقم ٣٨٤.

(٢) انظر: فيض القدير، المناوي، ٤/ ١٠٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/ ١٧٦، رقم ١٨٩.

إيمانهم وأعمالهم وتوفيق الله تعالى لهم، وأعلى تلك الدرجات الفردوس، ولا تنال تلك الدرجات العلى إلا بالطاعة والإيمان والعمل الصالح، والتنافس والتسابق في الخيرات.

صفة الجنة ونعيمها

تحدث القرآن كثيرًا عن الجنة وصفاتها وما فيها من النعيم المقيم الذي أعده الله تعالى لعباده المؤمنين، وسوف نستعرض في هذا المبحث بعض ما جاء فيها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: أبواب الجنة:

ذكر القرآن الكريم في آياته أن للجنة أبوابًا يدخل منها المؤمنون إلى جنات الخلد.

وفي معنى الباب يقول الراغب الاصفهاني: «الباب يقال لمدخل الشيء، وأصل ذلك: مداخل الأمكنة، كباب المدينة والدار والبيت، وجمعه: أبواب، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

ومنه يقال في العلم: باب كذا، وهذا العلم باب إلى علم كذا، أي: به يتوصل إليه، وقد يقال: أبواب الجنة وأبواب جهنم للأشياء التي بها يتوصل إليهما»[(١)].

أما أبواب الجنة قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ

(١) المفردات ص١٥٠.

﴿٧٣﴾ [الزمر: ٧٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾، أي: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضًا»[١].

وتصف هذه الآية الكريمة المشهد العظيم للمؤمنين الوافدين إلى جنات الخلد التي أعدها الله تعالى لهم، حيث تتلقاهم الملائكة وتحييهم وتهنيهم بسلامة وصولهم ودخولهم الجنة والخلود فيها، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ ﴿٥٠﴾ [ص: ٥٠].

أي: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب[٢]، وإنما قال: «مفتحة» ولم يقل مفتوحة، لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس، كما قال الحسن البصري: تكلم: انفتحي، فتنفح. انغلقي، فتنغلق. وقيل: تفتح لهم الملائكة الأبواب[٣].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوءهم في الجنة حيث شاؤوا، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم، ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت، وأيضًا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا»[٤].

وجاء في الحديث الصحيح عن سهل بن سعد رضي الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون)[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله، نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها، قال: (نعم وأرجو أن

(١) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١١٩.
(٢) المصدر السابق ٧/ ٧٧.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٢١٩.
(٤) حادي الأرواح، ابن القيم ١/ ٥٤.
(٥) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة أبواب الجنة، ٤/ ١١٩، رقم ٣٢٥٧.

تكون منهم)[1].

وهذه الأدلة تثبت أن للجنة أبوابًا كثيرة ذكرت في القرآن الكريم بشكل عام دون تفصيل أو مسميات، إلا أن السنة النبوية المطهرة بينت شأن تلك الأبواب وعددها وسمّت بعض أبوابها وذكرت سعتها.

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي رحمه الله: «وقد أبهم الباري سبحانه أبواب الجنة في الطاعات ليلتزم الراجي لدخولها جميعها»[2].

وأما عدد أبواب الجنة فقد ورد في الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء)[3].

وأما سعة أبواب الجنة، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى)[4].

قال الإمام النووي رحمه الله: المصراعان جانبا الباب، وهجر مدينة عظيمة هي قاعدة بلاد البحرين، وأما بصرى وهي مدينة معروفة، بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل وهي مدينة حوران، وبينها وبين مكة شهر[5].

ولعلو شأن الجنة وأبوابها فأن أول من يقرع بابها سيدنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولا تفتح أبواب الجنة لأحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث ورد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك)[6].

ويتبين مما مضى أن الجنة ذات أبواب واسعة عظيمة تليق بسعتها، وتدل على علو شأنها ومنزلتها وقدرها، يدخل منها المؤمنون الجنة، وأن أول من يقرع تلك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، ٣/ ٢٥، رقم ١٨٩٧.
(٢) قانون التأويل، أبو بكر بن العربي، ١/ ٥٤٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، ١/ ٥٧، رقم ٢٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/ ١٨٤، رقم ١٩٤.
(٥) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، ٣/ ٦٩.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعا»، ١/ ١٨٨، رقم ١٩٧.

الأبواب هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

ثانيًا: الأنهار:

بشّر الله تعالى عباده المؤمنين بأنه أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٦].

وسياق هذه الآيات يدل على أن تلك الأنهار جارية وموجودة في الجنة، أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين، وتكرر ذكرها في آيات كثيرة، وكلها مقترنة بحرف «من» ما عدا آية واحدة في قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ويشير ابن القيم رحمه الله لدلالة هذا التكرار بأمور: «أحدها: وجود الأنهار فيها حقيقية، والثاني: أنهار جارية لا واقفة، والثالث: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا، وقد ظن بعض المفسرين أن معنى ذلك جريانها بأمرهم وتصريفهم لها كيف شاؤوا، كأن الذي حملهم على ذلك أنه لما سمعوا أن أنهارها تجري في غير أخدود فهي جارية على وجه الأرض؛ حملوا قوله تجري من تحتها الأنهار على أنها تجري بأمرهم؛ إذ لا يكون فوق المكان تحته، وهؤلاء أتوا من ضعف الفهم، فإن أنهار الجنة وإن جرت في غير أخدود فهي تحت القصور والمنازل والغرف وتحت الأشجار، وهو سبحانه لم يقل من تحت أرضها»[1].

«وقد أخبر سبحانه عن جريان الأنهار تحت الناس في الدنيا فقال ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦].

فهذا على ما هو المعهود والمتعارف وكذلك ما حكاه من قول فرعون ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]»[2].

ومن نعم الجنة كثرة الأنهار الجارية فيها، وهي أنهار متنوّعة تحدثت بعض الآيات الكريمة عن أصنافها وأوصافها، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

أي: صفة الجنة العجيبة العظيمة الشأن

(١) حادي الارواح، ١/ ١٧٨.
(٢) المصدر السابق.

التي وعد المتقون الشرك والمعاصي، ﴿فِيهَا أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ غير متغير الطعم واللون والرائحة، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا بالحموضة وغيرها، إذ فيها ما تشتهيه الأنفس، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذة، ليس فيها كراهة طعم وريح، ولا غائلة سكر، وإنما هي تلذذ محض، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه شمع أو غيره[(١)].

قيل: بدأ من هذه الأنهار بالماء لأنه لا يستغنى عنه قط، ثم باللبن لأنه يجري مجرى المطعوم والمشروب في كثير من الأوقات، ثم بالخمر؛ لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوقت النفس إلى ما يلتذ به، ثم بالعسل لأنه فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر فى الرتبة[(٢)].

وجاء هذا التنويع في الشراب ليلبي رغبات البشر، ويستثير فيهم شوقهم إلى الجنة، فالمشهد في الآية كله أشربة وهي أنهار أيضا لتوحي بالكثرة والوفرة، والديمومة وعدم الانقطاع، وإن كانت هذه الأشربة معروفة لدى الناس في الدنيا، إلا أن طعمها مختلف، ونوعها أجود[(٣)].

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٥/ ٣٦٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام الراغب، ص٣٦٥.

وذكرت الأحاديث الشريفة أن في الجنة أربعة أنهار، كما ورد عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رفعت إلى السدرة، فإذا أربعة أنهار: نهران ظاهران، ونهران باطنان، فأما الظاهران: النيل والفرات، وأما الباطنان: فنهران في الجنة... الحديث)[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيحان وجيحان، والفرات والنيل كل من أنهار الجنة)[(٥)].

قال الإمام ملا علي القاري رحمه الله: «إنما جعل الأنهار الأربعة من أنهار الجنة، لما فيها من العذوبة والهضم، ولتضمنها البركة الإلهية، وتشرفها بورود الأنبياء إليها وشربهم منها»[(٦)].

ولا يمكن القول بأن أنهار الجنة تنحصر في هذه الأربعة التي ذكرت في الأحاديث السابقة؛ وذلك لأن تلك الأحاديث ذكرت أسماء بعض أنهار الجنة، ولم تذكر أنواعها بالتحديد التي قال تعالى عنها: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب شرب اللبن، ٧/ ١٠٩، رقم ٥٦١٠.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة، ٤/ ٢١٨٣، رقم ٢٨٣٩.
(٦) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري، ٩/ ٣٥٨٦.

﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

فالماء واللبن والخمر والعسل كلها أنهار من كل الأصناف التي ذكرت.

قال الزركشي: «فأعاد ذكر الأنهار مع كل صنف، وكان يكفي أن يقال فيها: أنهار من ماء، ومن لبن، ومن خمر، ومن عسل، لكن لما كانت الأنهار من الماء حقيقة وفيما عدا الماء مجازًا للتشبيه، فلو اقتصر على ذكرها مع الماء وعطف الباقي عليه لجمع بين الحقيقة والمجاز، فإن قلت: فهلا أفرد ذكر الماء وجمع الباقي صيغة واحدة؟ قيل: لو فعل ذلك لجمع بين محامل من المجاز مختلفة في صيغة واحدة، وهو قريب في المنع من الذي قبله»[(١)].

وعلى ذلك يتبين أن في الجنة أنهارًا كثيرة، جعلها الله تعالى نعيمًا لعباده المؤمنين وأوليائه الصالحين، وهي متنوعة الأشكال والألوان والمذاق بين ماء عذب، ولبن سائغ، وخمر شهي، وعسل صافٍ، ومختلفة الأسماء والعدد كما مرّ في الآيات والأحاديث المتقدمة، ومن الأنهار التي ذكرت في القرآن الكريم ما يأتي:

١. أنهار من ماء.

قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥].

أي: أنهار من ماء غير متغير الريح، يقال منه: قد أسن ماء هذه البئر: إذا تغيرت ريح مائها فأنتنت، فهو يأسن أسنا، وأما إذا أجن الماء وتغير، فإنه يقال له: أسن فهو يأسن، ويأسن أسونا، وماء أسن، وهذه المياه ليست كالتي في الدنيا؛ لأن المياه في الدنيا تتغير بأحد وجهين: إما النجاسة وآفة تصيبها، أو لطول الزمان والمكث، فيخبر أن ليس في الجنة شيء يغير مياهها[(٢)].

ولم ترد كلمة (تجري) للأنهار في هذه الآية، لأن الماء الآسن لا يكون إلا بركود الماء، فلم يتطلب السياق ذكر كلمة (تجري)، أما في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، لم يكن هناك من داع لتحديد ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ لأنه جاء وصف الأنهار بالجريان، الأمر الذي لا يؤدي إلى أن تأسن الماء[(٣)].

وتؤكد الآية الكريمة حقيقة علمية: «قبل أن يكشف العلم بوسائله وأدواته عالم الميكروبات أي الجراثيم التي توجد في الماء الراكد، الذي يصير مستودعًا لملايين البكتيريا والطفيليات الضارة التي تصيب الإنسان والحيوان بالأمراض،

(١) البرهان، الزركشي، ٣/ ٣٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ١٦٧، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٩/ ٢٧٢.

(٣) انظر: لمسات بيانية، فاضل السامرائي ص٦٢٦.

فأنه لما اخترع الإنسان المناظير المكبرة رأى بواسطتها كيف أن الماء الراكد يموج بملايين الكائنات الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة، وتتكاثر بسرعة هائلة؛ فتفسد الماء وتجعله متغير الرائحة والطعم، وسببًا في الأمراض والأوبئة التي ما كان أحد يعرف مصدرها قبل اكتشافها بواسطة المجهر (الميكروسكوب) أي: مكبر الصور إلى درجة كبيرة»[1].

٢. أنهار من اللبن.

اللبن جمعه: ألبان، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ﴾ [محمد: ١٥].

أي: «لم يحمض ولم يصر قارصًا ولا حازرًا كألبان الدنيا، وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم»[2].

قال الطبري: «لم يتغير طعمه لأنه لم يحلب من حيوان فيتغير طعمه بالخروج من الضروع، ولكنه خلقه الله ابتداء في الأنهار، فهو بهيئته لم يتغير عما خلقه عليه»[3].

٣. أنهار من خمر.

قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

أي: «وفيها أنهار من خمر لذيذة لهم، إذ لم تدنسها الأرجل، ولم ترنّقها (تكدرها) الأيدى كخمر الدنيا، وليس فيها كراهة طعم وريح، ولا غائلة سكر وخمار كخمور الدنيا، فلا يتكرّهها الشاربون»[4].

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: «في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، وقد ذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال»[5].

وهذا من فضل الله تعالى على عباده المتقين أن جعلهم يتلذذون بالخمر الذي حرموا منه في الحياة الدنيا؛ جزاء لهم على طاعتهم وانقيادهم لأمر الله تعالى، فخمر الدنيا كريهة الرائحة تسلب عقل من شربها، خلاف خمر الجنة التي وصفت باللذة الكاملة.

٤. أنهار من عسل.

قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

أي: «وفيها أنهار من عسل قد صفّى من القذى وما يكون فى عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضالات النحل وغيرها»[6].

٥. الكوثر.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١].

واختلف أهل التأويل في معنى الكوثر

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل ص١١٧.
(٢) تفسير المراغي، ٢٦/ ٥٨.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ١٦٧.
(٤) تفسير المراغي، ٢٦/ ٥٨.
(٥) النكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٤٥٢.
(٦) المصدر السابق.

على أقوال، منها:

القول الأول: أنه نهر في الجنة، وهو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف[1]، واستدلوا على ذلك بما ورد عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر، حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر، الذي أعطاك ربك، فإذا طينه - أو طيبه - مسك أذفر)[2].

وعن ابن عباس، قال: «الكوثر: نهر في الجنة حافتاه من ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل»[3]، وقال أيضًا: نهر أعطاه الله محمدًا صلى الله عليه وسلم في الجنة[4].

القول الثاني: أنه حوض، والأخبار فيه مشهورة، ووجه التوفيق بين هذا القول والقول الأول أن يقال: لعل النهر ينصب في الحوض، أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض، فيكون ذلك الحوض كالمنبع[5].

قال عطاء: «حوض في الجنة أعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم»[6].

القول الثالث: عني بالكوثر الخير الكثير، وهو قول ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة[7].

قال الراغب الاصفهاني: «قيل: هو نهر في الجنة يتشعب عنه الأنهار، وقيل: بل هو الخير العظيم الذي أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم، وقد يقال للرجل السخي: كوثر، ويقال: تكوثر الشيء: كثر كثرة متناهية»[8].

والأقوال كثيرة ومتعددة في تأويل معنى الكوثر، وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: هو اسم النهر الذي أعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة، لتتابع الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك.

قال الحافظ ابن حجر: «ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم فلا معدل عنه»[9].

ويتضح مما تقدم أن من نعم الجنة التي لا تنقطع ولا تفنى أن جعل الله تعالى فيها أنهارًا جارية من الماء واللبن والخمر والعسل، والكوثر الذي أعطاه الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ترده أمته يوم القيامة، ثبت بالآيات والأحاديث

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٢/ ٣١٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب في الحوض، ٨/ ١٢٠، رقم ٦٥٨١.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٤٥.
(٤) المصدر السابق، ٢٤/ ٦٤٦.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٢/ ٣١٣.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ٦٤٨.
(٧) انظر: المصدر السابق.
(٨) المفردات ص٧٠٣.
(٩) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٨/ ٧٣٢.

المتقدمة.

ثالثًا: العيون:

لم يكتف القرآن بذكر الأنهار الجارية في الجنة، بل تحدث عن العيون المتفجرة والمتنوعة في أرجائها، أعطاها الله تعالى لعباده المتقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر: ٤٥].

وذكرت عيون الجنة في آيات كثيرة، حيث بينت أسماء بعضها وميزتها، وهذا من فضل الله تعالى الذي أعده لعباده المتقين بحسب مراتبهم في الجنة، ومن تلك العيون ما يأتي:

١. تسنيم.

أخبر الله تعالى عن العين التي يشرب منها المقربون في الجنة فقال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٧- ٢٨].

قال الإمام الرازي: «تسنيم: علم لعين بعينها في الجنة، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه، إما لأنها أرفع شراب في الجنة، وإما لأنها تأتيهم من فوق، على ما روي أنها تجري في الهواء مسنمة فتنصب في أوانيهم، وإما لأنها لأجل كثرة ملئها وسرعته تعلو على كل شيء تمر به وهو تسنيمه، أو لأنه عند الجري يرى فيه ارتفاع وانخفاض، فهو التسنيم أيضًا، وذلك لأن أصل هذه الكلمة للعلو والارتفاع»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾، أي: يشربها المقربون صرفًا، وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وقتادة، وغيرهم[(٢)].

٢. سلسبيل.

ذكر الله تعالى أن في الجنة عينًا تسمى السلسبيل.

قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٨].

واختلف أهل التأويل في معنى ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ على ستة أقوال:

أحدها: أنه اسم لها، قاله عكرمة.

الثاني: معناه سل سبيلًا إليها، قاله علي رضي الله عنه.

الثالث: يعني سلسلة السبيل، قاله مجاهد.

الرابع: سلسلة يصرفونها حيث شاءوا، قاله قتادة.

الخامس: أنها تنسلّ في حلوقهم انسلالًا، قاله ابن عباس.

السادس: أنها الحديدة الجري، قاله مجاهد أيضًا[(٣)].

قيل: عني بقوله سلسبيلا سلسة منقادًا ماؤها، وهو قول قتادة.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١/ ٩٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٣٥٣.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٦/ ١٧١.

وقال آخرون: عني بذلك أنها شديدة الجرية، قاله مجاهد.

وقال بعضهم: إن سلسبيل صفة للعين بالتسلسل، وقيل: إنما أراد عينًا تسمى سلسبيلا، أي: تسمى من طيبها السلسبيل، أي: توصف للناس[1].

قال الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن قوله: ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ صفة للعين، وصفت بالسلاسة في الحلق، وفي حال الجري، وانقيادها لأهل الجنة يصرفونها حيث شاءوا، كما قال مجاهد وقتادة؛ وإنما عني بقوله ﴿تُسَمَّىٰ﴾: أي توصف»[2].

٣. الكافور.

قال تعالى واصفًا عين الكافور: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٥-٦].

أي: «إن الذين بروا بطاعتهم ربهم فأدّوا فرائضه واجتنبوا معاصيه يشربون من خمر كان مزاج ما فيها من الشراب كالكافور طيب رائحة وبردًا وبياضًا، وهذا المزاج من عين يشرب منها عباد الله المتقون وهم في غرف الجنات، يسوقونها إليهم سوقًا سهلًا إلى حيث يريدون، وينتفعون بها كما يشاءون، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يحبون وصوله إليه»[3].

وقوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾، أي: «يفجرون تلك العين التي يشربون بها كيف شاءوا وحيث شاءوا من منازلهم وقصورهم تفجيرًا، ويعني بالتفجير: الإسالة والإجراء»[4].

وهذه من النعم التي أعدها الله تعالى لعباده المتقين، فتلك العيون التي يفجرها الله تعالى لهم زيادة في المتعة والتلذذ وهم في الجنات يتصرفون فيها كيف شاؤوا، وحيث أرادوا من دورهم ومنازلهم ومجالسهم، بحسب مراتبهم في الجنة؛ جزاء بما كانوا يعملون.

رابعًا: القصور:

إن من نعيم الجنة الذي وعد الله عز وجل به عباده من المؤمنين والمؤمنات أن جعل لهم قصورًا في الجنة.

قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾ [الفرقان: ١٠].

ويخبر القرآن الكريم في آيات أخرى أن الجنّة ليست مجرد أشجار وثمار تجري من تحتها الأنهار الجارية وتتفجر منها العيون، بل فيها قصور ومساكن وبيوت وخيام يسكن داخلها المؤمنون في حياتهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ١٠٧.
(٢) المصدر السابق ٢٤/ ١٠٩.
(٣) تفسير المراغي، ٢٩/ ١٦٤.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ٩٤.

الخالدة في الجنّة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وقد سمى الله تعالى في آيات أخرى هذه المساكن بالغرفات، قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر: ٢٠].

والغرف في الجنة هي القصور الشاهقة، طباق فوق طباق، مبنيات محكمات مزخرفات عاليات[(١)].

ووصف الإمام القرطبي تلك القصور بقوله: «قصور من الزبرجد والدر والياقوت يفوح طيبها من مسيرة خمسمائة عام»[(٢)].

وذكرت السنة النبوية المطهرة بأن الله تعالى أعد قصورًا في الجنة لعباده المؤمنين، حيث وصف لنا النبي صلى الله عليه وسلم بعض القصور التي شاهدها في الجنة وذلك، كما ورد عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دخلت الجنة، فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لرجل من قريش، فما منعني أن أدخله يا ابن الخطاب، إلا ما أعلم من غيرتك)، قال: وعليك أغار يا رسول الله[(٣)].

ومن كمال النعم أن أهل الجنة يعرفون مساكنهم وقصورهم التي أعدت لهم في الجنة كما قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٦].

أي: «عرّفها وبيّنها لهم، حتى إن الرجل ليأتي منزله منها إذا دخلها كما كان يأتي منزله في الدنيا، لا يشكل عليه ذلك»[(٤)].

ويؤكد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا)[(٥)].

خامسًا: الأثاث:

ذكر القرآن الكريم في بعض آياته أثاث أهل الجنة، ومنه ما يأتي:

١. السرر.

وصف الله تعالى سرر أهل الجنة فقال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٩١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٢٠٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب القصر في المنام، ٩/ ٣٩، رقم ٧٠٢٤.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ١٦٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم الجمعة، ٨/ ١١١، رقم ٦٥٣٥.

وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [الواقعة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [الغاشية: ١٣].

وهذه السرر قد صفّ بعضها إلى بعض، وقوبل بعضها ببعض، مرمولة بالذهب، مشبكة بالدر والياقوت، عالية في الهواء وذلك لأجل أن يرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه ربه في الجنة من النعيم والملك[1].

والسرر قد تكون في الدنيا مصفوفة، ولكن لا تكون موضونة؛ أي: منسوجة؛ والوضن: لا يكون بين السرر في الآخرة انفصال ولا فروج، كما يكون في الدنيا، لكن موصولة بعضها ببعض[2].

٢. الفرش.

قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة: ٣٤].

فوصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق وهذا يدل على أمرين، أحدهما: أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها، لأن بطائنها للأرض، وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة، والثاني: يدل على أنها فرش عالية، لها سمك وحشو بين البطانة والظهارة.

٣. النمارق.

قال تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ [الغاشية: ١٥].

والنمارق: «جمع نمرقة، وهي: الوسادة التي يتكىء عليها الجالس والمضطجع، ومصفوفة: أي جعل بعضها قريبًا من بعض صفًّا، أي أينما أراد الجالس أن يجلس وجدها»[3].

قال ابن عباس: النمارق: الوسائد، وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، والثوري، وغيرهم[4].

فمعنى الآية: ووسائد مصفوف بعضها إلى جوانب بعض، فإن شاءوا جلسوا عليها، وإن أرادوا استندوا إليها، وإن أحبوا أن يجلسوا على بعضها ويستندوا إلى بعض فعلوا[5].

٤. الأرائك.

قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

ومعنى الاتكاء: جلسة الراحة والترف، قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٩٩، النكت والعيون، الثعلبي، ٩/ ١٢٧، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١/ ١٤٣.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٩/ ٤٩٠.
(٣) التحرير والتنوير، ٣٠/ ٣٠٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٣٨٦.
(٥) تفسير المراغي، ٣٠/ ١٣٥.

الجلوس[1].

الأرائك: جمع أريكة، وهي سرير في حجلة، أما للسرير وحده فلا يسمى أريكة، والحجلة: قبة من ثياب تكون في البيت تجلس فيها المرأة أو تنام فيها، ولذلك يقال للنساء: ربات الحجال، فإذا وضع فيها سرير للاتكاء أو الاضطجاع فهي أريكة، ويجلس فيها الرجل وينام مع المرأة، وذلك من شعار أهل الترف[2].

وقوله: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: نعمت الجنة ثوابًا على أعمالهم، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: حسنت منزلًا ومقيلًا ومقامًا[3].

٥. الأكواب.

وصف الله تعالى أكواب أهل الجنة، فقال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾﴾ [الإنسان: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [الغاشية: ١٤].

ثم أخبر أن تلك الأكواب قوارير من فضة، قيل: هي من فضة، ولها صفاء القوارير، يرى ما فيها من الشراب من خارجها؛ لصفائها[4].

أي: يطوف عليهم خدم الجنة بأواني الطعام، وهي من فضة خالصة، وبأكواب الشراب، وهي أيضًا من فضة، وقد جعلت هذه الأكواب جامعة بياض الفضة، وصفاء الزجاج وشفافيته.

وعني بقوله: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾: أنها موضوعة على حافة العين الجارية، كلما أرادوا الشرب وجدوها ملأى من الشراب[5].

٦. الزرابي.

قال تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: ١٦].

والزرابي: جمع زربٍ، وهو ضرب من الثياب محبّر منسوب إلى موضع، وعلى طريق التشبيه والاستعارة قال: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[6].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، قال ابن عباس: الزرابي: البسط، وكذا قال الضحاك، وغير واحد، ومعنى مبثوثة، أي: هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها»[7].

وعلى هذا فإن الزرابي نوع من أثاث الجنة، وهي: البسط التي يجلس عليها، والتي

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٥٦، التحرير والتنوير، ١٥/ ٣١٤.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ٤٦١، التحرير والتنوير، ١٥/ ٣١٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٥٦.
(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٣٦٦.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ٣٨٧.
(٦) انظر: المفردات، ص٣٧٩.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٣٨٦.

تكون مبثوثة، أي: مفرقة في المجالس.

٧. العبقري.

قال تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦].

قال الراغب الأصفهاني: عبقرٌ قيل: هو موضعٌ للجنّ ينسب إليه كلّ نادر من إنسان، وحيوان، وثوب، وقوله تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، وهو ضرب من الفرش فيما قيل، جعله الله مثلًا لفرش الجنّة[١].

قال ابن عاشور: «وعبقري وصف لما كان فائقًا في صنفه، عزيز الوجود، وهو نسبة إلى عبقر: اسم بلاد الجن في معتقد العرب فنسبوا إليه كل ما تجاوز العادة في الإتقان والحسن، حتى كأنه ليس من الأصناف المعروفة في أرض البشر، فشاع ذلك فصار العبقري وصفًا للفائق في صنفه»[٢].

وقيل إن العبقري: هي الزرابي الحسان، أي: البسط، وهو قول ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي وسعيد بن جبير رحمهم الله تعالى[٣].

ويتضح مما مضى أن في الجنة التي وعد الله تعالى بها عباده المؤمنين أثاثًا لا يشبه أثاث الحياة الدنيا، فأثاث أهل الجنة متعدد الأنواع والأشكال، من سرر وأرائك وفرش وعبقري ونمارق وزرابي وغيرها.

سادسًا: أشجار الجنة وثمارها.

لا شك أن الجنة التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين قد خلق الله تعالى فيها الأشجار والثمار متنوعة الأشكال والأحجام دائمة العطاء، ولا تشبه أشجار الدنيا وثمارها وأن تشابهت في الأسماء، وقد ذكر الله تعالى في آياته الكريمة أنواعًا من أشجار وثمار الجنة، منها ما يأتي:

١. النخل.

ذكر النخل في القرآن الكريم في عشرين موضعًا[٤] منها قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨].

ووصف الله تعالى نخل الجنة بقوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: ١١].

والأكمام: جمع كم -بكسر الكاف- وهو وعاء ثمر النخلة، ويقال له: الكفرى، فليست الأكمام مما ينتفع به، فتعين أن ذكرها مع النخل للتحسين، ووصف النخل بذات الأكمام وصف للتحسين فهو اعتبار بأطوار ثمر النخل، وامتنان بجماله وحسنه كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٦] فامتن

(١) انظر: المفردات، ص٥٤٤.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٧/ ٢٧٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٨٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٥٠٩.
(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد ص٧٨٥.

بمنافعها وبحسن منظرها[1].

قال الحسن البصري: ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾: «أي ذات الليف، فإن النخلة قد تكمم بالليف، وكمامها ليفها الذي في أعناقها»[2].

وأفردها بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية، وكثرة فوائدها، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة، وينتفع بجميع أجزائها، فيتخذ من خوصها السلال والزنابيل، ومن ليفها الحبال، ومن جريدها سقف البيوت، ويؤكل جمّارها، ومن ثم ذكرها باسمها، وذكر الفاكهة دون أشجارها[3].

٢. الرمان.

ورد ذكر الرمان في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع[4] منها قوله تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ووصف الله تعالى الرمان بأنه من أشجار الجنة، قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨].

قال القرطبي: «قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة، لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره، وهذا ظاهر الكلام، وقال الجمهور: هما من الفاكهة، وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة، كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]»[5].

وقيل: إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا، لأن النخل عامة قوتهم، والرمان كالثمرات، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها، فإنما ذكر الفاكهة، ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن، فأخرجهما في الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها. وقيل: أفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه[6].

حكي عن ابن عباس أنه قال: الرمان ليس من الفاكهة، وكذلك الرطب؛ لأنهما أفردا بالذكر عن الفاكهة، وذكر الفراء هذا أيضًا[7].

وقال الإمام الرازي: ذكر الرمان والرطب لأنهما متقابلان، فأحدهما حلو والآخر غير حلو، وكذلك أحدهما حار والآخر بارد

(١) انظر: التحرير والتنوير، ٢٧/ ٢٤٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٥٦.
(٣) انظر: تفسير المراغي، ٢٧/ ١٠٨.
(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد ص٣٩٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٨٥.
(٦) المصدر السابق، ١٧/ ١٨٦.
(٧) انظر: تفسير السمعاني، ٥/ ٣٣٧.

وأحدهما فاكهة وغذاء، والآخر فاكهة، وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة، وأحدهما أشجاره في غاية الطول والآخر أشجاره بالضد وأحدهما ما يؤكل منه بارز ومالا يؤكل كامن، والآخر بالعكس، فهما كالضدين والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى ما بينهما[1].

وعلى أية حال فأن الرمان سواء أكان شجرا أم فاكهة -باعتبار عطف الخاص على العام- فهو من نعم الله تعالى على عباده المؤمنين في الجنة.

٣. السدر.

ومن نعيم الجنة أشجار السدر التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقعة: ٢٨].

وقوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾: السدر شجر النبق لا شوك فيه، من خضد الشوك إذا قطعه، أو مثني أغصانه من كثرة حمله، من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب»[2].

وفي مخضود ثلاثة أقاويل:

«أحدها: أنه اللين الذي لا شوك فيه، قاله عكرمة، وقال غيره لا عجم لنبقه، يقال خضدت الشجرة إذا حذفت شوكها.

الثاني: أنه الموقر حملًا، قاله مجاهد.

الثالث: المدلاة الأغصان، وخص السدر بالذكر لأن ثمره أشهى الثمر إلى النفوس طعمًا وألذه ريحًا»[3].

قال الراغب الاصفهاني: «السّدر: شجر قليل الغناء عند الأكل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦].

وقد يخضد ويستظلّ به، فجعل ذلك مثلًا لظلّ الجنة ونعيمها في قوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقعة: ٢٨]؛ لكثرة غنائه في الاستظلال»[4].

ووصف الله تعالى أن ظلال تلك الأشجار ممتد دائم بقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠].

أي: دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس[5].

وإما ثمار الجنة فلا تشبه ثمار الحياة الدنيا إلا بالاسماء.

يقول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

كلما رزقوا منها: أي أطعموا من الجنة من ثمرة رزقًا طعامًا قالوا هذا الذي رزقنا من

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٩/ ٣٨٠.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ١٧٩، مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٤٢٢.
(٣) النكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٤٥٣.
(٤) المفردات، ص٤٠٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٢٠٩.

قبل، أي: أطعمنا من الجنة من قبل، قيل: إذا أتي بطعام وثمار في أول النهار فأكلوا منها، ثم إذا أتي بها في آخر النهار، قالوا هذا الذي رزقنا من قبل، يعني الذي أطعمنا في أول النهار، لأن لونه يشبه لون ذلك، فإذا أكلوا منه وجدوا لها طعمًا غير طعم الأول، وقيل: معناه كلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل أي في الدنيا، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمها غير ذلك[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء يعني: أسماء الثمار[2].

ومن كمال المتعة واللذه أن هذه الثمار دانية مذللة لا مشقة في التقاطها، بل هي في متناول أيدي أهل الجنة، كما وصفها الله تعالى بقوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

أي: «قريب منهم، لأنهم لا يتعبون بصعود نخلها وشجرها، لاجتناء ثمرها، ولكنهم يجتنونها من قعود بغير عناء»[3].

ويتبين مما مضى أن الله تعالى خلق في الجنة أشجارًا كثيرة، منها: النخل والعنب والرمان والسدر والطلح والثمار، وغير ذلك ما لا يحصى، متنوعة ودانية الثمار ما تكمل به متعة أهل الجنة؛ ليتنعموا بها وهي باقية العطاء معهم بدوام نعيم الجنة الذي لا يفنى.

سابعًا: الطعام والشراب:

إن أهل الجنة يأكلون ويشربون لقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الطور: ١٩].

أي: «يقال لهؤلاء المتقين في الجنات: كلوا أيها القوم مما آتاكم ربكم، واشربوا من شرابها هنيئًا، لا تخافون مما تأكلون وتشربون فيها أذى ولا غائلة بما كنتم تعملون في الدنيا لله من الأعمال»[4]، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

وقوله تعالى: «هنيئًا إشارة إلى خلوهما عما يكون فيها من المفاسد في الدنيا، منها أن الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام، ومنها أنه يخاف النفاد فلا يسخو بالأكل، والكل منتف في الجنة، فلا مرض ولا انقطاع، فإن كل أحد عنده ما يفضل عنه، ولا إثم ولا تعب في تحصيله، فإن الإنسان في الدنيا ربما يترك لذة الأكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب أو المنة، أو ما فيه من قضاء الحاجة واستقذار

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ٣٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٢٣/ ٦٢.
(٤) المصدر السابق ٢٢/ ٤٦٦.

ما فيه، فلا يتهنأ، وكل ذلك في الجنة منتف»[1]، وترك ذكر المأكول والمشروب دلالة على تنوعهما وكثرتهما[2].

ووصف الله تعالى أكل الجنة فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥].

أي ما يؤكل فيها دائم لأهلها، لا ينقطع عنهم، ولا يزول ولا يبيد، ولكنه ثابتٌ إلى غير نهاية[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

أي: لهم ما يشتهون من المطاعم، قدر وقت البكرة ووقت العشي من نهار الدنيا، إذ لا ليل في الجنة ولا نهار[4].

ومن طعام أهل الجنة: الفاكهة واللحم كما قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الطور: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة: ٢٠- ٢١].

أي: «واختار من المأكول أرفع الأنواع وهو الفاكهة واللحم فإنهما طعام المتنعمين، وجمع أوصافًا حسنة في قوله ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ لأنه لو ذكر نوعًا فربما يكون ذلك النوع غير مشتهى عند بعض الناس، فقال: كل أحد يعطى ما يشتهي، فإن قيل: الاشتهاء كالجوع وفيه نوع ألم، نقول: ليس كذلك، بل الاشتهاء به اللذة، والله تعالى لا يتركه في الاشتهاء بدون المشتهى حتى يتألم، بل المشتهى حاصل مع الشهوة، والإنسان في الدنيا لا يتألم إلا بأحد أمرين، إما باشتهاء صادق وعجزه عن الوصول إلى المشتهى، وإما بحصول أنواع الأطعمة والأشربة عنده وسقوط شهوته وكلاهما منتف في الآخرة»[5].

وإن تقديم الفاكهة على اللحم للإشارة إلى أنهم ليسوا بحالة تقتضي تقديم اللحم كما في الجائع؛ فإن حاجته إلى اللحم أشد من حاجته إلى الفاكهة، بل هم بحالة تقتضي تقديم الفاكهة واختيارها، كما في الشبعان فإنه إلى الفاكهة أميل منه إلى اللحم، وجوز أن يكون ذلك لأن عادة أهل الدنيا -لا سيما أهل الشرب منهم- تقديم الفاكهة في الأكل وهو طبًّا مستحسن؛ لأنها ألطف وأسرع انحدارًا وأقل احتياجًا إلى المكث في المعدة للهضم، وقد ذكروا أن أحد أسباب الهيضة إدخال اللطيف من الطعام على الكثيف منه ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للأكل واللحم يدفعها غالبا[6].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٨/ ٢٠٦.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ١٢٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٦/ ٤٦٩.
(٤) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٥٦٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٨/ ٢١٠.
(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٤/ ١٣٧.

وجاء في الحديث الشريف عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون) قالوا: فما بال الطعام؟ قال: (جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما تلهمون النفس)[1].

ووصف شراب أهل الجنة بقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧﴾ [المطففين: ٢٥-٢٧].

أي: يسقى هؤلاء الأبرار من خمر صرف لا غشّ فيها، لم تمسسه الأيدي[2]، ومزاجه من تسنيم (عين في الجنة) يشرب منها المقربون.

قال ابن عباس: «أشرف شراب أهل الجنة هو تسنيم، لأنه يشربه المقربون صرفًا، ويمزج لأصحاب اليمين»[3].

ويتضح مما تقدم: أن في الجنة التي وعد الله تعالى بها عباده المؤمنين أشهى الطعام والشراب، ولا يكون طعامهم من جوع ولا شرابهم من عطش، بل من كمال نعيمهم ومتعتهم ولذتهم التي أعدها الله تعالى لهم جزاء بما كانوا يعملون.

ثامنًا: اللباس والحلي:

ذكر الله تعالى في آياته أن الجنة لا عري فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨﴾ [طه: ١١٨].

وإن اللباس والحلي والزينة فيها من الحرير والذهب واللؤلؤ.

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

أي: لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات عدن تجري من دونهم ومن بين أيديهم الأنهار، ويلبسون فيها من الحلي أساور من ذهب، والسندس وهي ما رقّ من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منه وثخن، وقيل: إن الإستبرق هو الحرير[4].

ووصف الله تعالى لباس أهل الجنة بقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

أي: وجميع ما يلبسونه من فرشهم ولباسهم وستورهم حرير، وهو أعلى مما

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في صفات الجنة وأهلها ٤/ ٢١٨٠، رقم ٢٨٣٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ٢٩٥، تفسير القرآن، السمعاني، ٦/ ١٨٣.
(٣) انظر: المختارة الضياء المقدسي، ١٠/ ٣٠٠، حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني، ١/ ٣٤٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ١٨.

في الدنيا بكثير[1]، وإن كان محظورًا عليهم في الدنيا، فأباحه الله لهم في الدار الآخرة لما صح عن عمر بن الخطاب رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)[2].

ولباس أهل الجنة لا يبلى كما يبلى لباس أهل الحياة الدنيا لقوله صلى الله عليه وسلم: (من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه)[3].

ووصف بعض ثياب أهل الجنة بأنها خضراء اللون، كما قال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١].

لأن الخضرة أحسن الألوان والنفس تنبسط بها أكثر من غيرها، وقيل: أنها تزيد في ضوء البصر، وقيل: ثلاثة مذهبة للحزن: الماء، والخضرة، والوجه الحسن[4].

قال القرطبي: «وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر، لأن البياض يبدد النظر ويؤلم، والسواد يذم، والخضرة بين البياض والسواد، وذلك يجمع الشعاع»[5].

ويمكن القول إن ذكر الخضرة إنما جاء ترغيبًا للعباد في الجنة؛ وذلك أن هذا اللون من أحب الألوان إلى النفس وأكثرها راحة وبهجة للناظر.

ولباسهم غير منحصر فيما ذكر إذ لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من اللباس الذي لا يحيط به وصف، ويحلون فيها بأنواع الذهب والفضة واللؤلؤ فقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٣].

كما ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (تبلغ الحلية من المؤمن، حيث يبلغ الوضوء)[6].

ويتضح مما مضى: أن أهل الجنة ينعمون باللباس الفاخر من الحرير والسندس والإستبرق الذي لا يبلى ولا يتمزق، ولا يقتصر اللباس على ذلك بل لهم فيها ما يشتهون من الثياب ويحلون فيها بالذهب والفضة واللؤلؤ، ما لا تبلى ولا تفنى.

تاسعًا: نساء أهل الجنة:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/ ٢٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب لبس الحرير وافتراشه للرجال، وقدر ما يجوز منه، ٧/ ١٥٠، رقم ٥٨٣٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، ٤/ ٢١٨١، رقم ٢٨٣٦.
(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٨/ ٢٥٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٣٩٧.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، ١/ ٢١٩، رقم ٢٥٠.

تحدث القرآن الكريم في بعض آياته عن نساء أهل الجنة كما يأتي:

١. الحور العين.

وهن زوجات المؤمنين في الجنة غير زوجاتهم في الدنيا لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الدخان: ٥٤].

أي: أكرمناهم بأن زوجناهم حورًا عينًا، والحور: جمع حوراء، وهي الشديدة بياض مقلة العين في شدة سواد الحدقة، والعين: جمع عيناء، وهي العظيمة العين في حسن وسعة[١].

ووصفت الحور العين في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: ٤٨-٤٩].

أي: غاضات الأعين عن غير أزواجهن، وقصرن طرفهن على أزواجهن، وقنعن بهم، ولا يبغين بهم بدلًا، وإنهن أحسن بياضًا من بيض النعام، والعرب تشبه النساء ببيض النعام. يقال: لا يكون لون البياض في شيء أحسن من بيض النعام. وقال قتادة: البيض التي لم تلوثه الأيدي. ويقال: البيض أراد به القشر الداخل من البيض المكنون قد خبأ، وكن من البرد والحر[٢].

وشبههن في موضع آخر بالياقوت والمرجان: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٦-٥٨].

وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن: ٧٢].

أي: «وهؤلاء الخيّرات الحسان واسعات العيون مع صفاء البياض حول السواد، محبوسات فى الحجال، فلسن بطوّافات فى الطرقات، والعرب يمدحون النساء الملازمات للبيوت للدلالة على شدة الصيانة»[٣].

ونساء الجنة مطهّرات من كل شيء، فلا بول ولا غائط ولا حيض ولا نفاس ولا ولادة، وكلما جاءها زوجها وجدها بكرًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧].

ويصف لنا النبي صلى الله عليه وسلم نساء الجنة بقوله صلى الله عليه وسلم: (لو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها)[٤].

وهذا قليل من كثير في صفات الحور

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/٤٦٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/١٥٢.
(٢) تفسير السمرقندي، ٣/١٤١.
(٣) تفسير المراغي، ٢٧/١٢٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين، وصفتهن يحار فيها الطرف، شديدة سواد العين، شديدة بياض العين، ٤/١٧، رقم ٢٧٩٦.

العين لأنها كثيرة ومتنوعة، حيث خلقهن الله تعالى وأنشأنهن إنشاءً وجعلهن أبكارًا وجمالهن كاللؤلؤ المكنون المخفي المصان، قاصرات الطرف لا يتجاوز عن أزواجهن، مطهرات من كل أذى وحيض ونفاس، وبول وغائط، وبصاق ومخاط، ولو أطلت واحدة منهن على الدنيا لأضاءت ما بينهما.

٢. زوجات المؤمنين في الدنيا.

أخبر الله تعالى أن زوجة المؤمن في الدنيا زوجته في الآخرة إذا كانت مؤمنة وصالحة.

قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

أي: «يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتنانًا من الله وإحسانًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١][1].

وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزخرف: ٧٠].

أي: يكرمون إكرامًا على سبيل المبالغة، والحبرة: المبالغة في الإكرام فيما وصف بالجميل[2].

ونساء الجنة لسن كنساء الدنيا، فإنهن مطهرات من الحيض والنفاس والبصاق والمخاط والبول والغائط، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

أي: «ولهم في الجنات أزواج تطهرن غاية التطهر، فليس فيهنّ ما يعبن عليه من خبث جسدي مما عليه النساء في الدنيا كالحيض والنفاس، أو نفسيي كالكيد والمكر وسائر مساوى الأخلاق»[3].

وتلك نساء أهل الجنة خلقهن الله تعالى لعباده المؤمنين، منهن من كانت زوجاتهم في الحياة الدنيا، ومنهن الحور العين، وكلهن من النعيم الذي يتنعم به أهل الجنة في الآخرة.

عاشرًا: خدم أهل الجنة.

ذكر الله تعالى أن في الجنة خدما ولدانًا أو غلمانًا خلقهم الله تعالى لخدمة أهل الجنة، يطوفون عليهم بآنية الشراب، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧-١٨].

أي: «يطوف عليهم بالأكواب غلمان

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٥١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ٦٤٢.

(٣) تفسير المراغي، ١/ ٦٩.

باقون لا يموتون ولا يهرمون، على سن واحد كأنهم ولدوا في وقت واحد»[1].

وهم في غاية الجمال كأنهم اللؤلؤ المكنون كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤].

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: ١٩].

قال الإمام الرازي رحمه الله: شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور، ولو كان صفًّا لشبهوا باللؤلؤ المنظوم، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين، أو أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء، أو أن هذا من التشبيه العجيب؛ لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقًا يكون أحسن في المنظر؛ لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفًا للمجتمع منه[2].

الحادي عشر: سوق أهل الجنة.

جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة لسوقًا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحثوا في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا)[3].

والمراد بالسوق: «مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق، ومعنى يأتونها كل جمعة: أي في مقدار كل جمعة أي: أسبوع، وليس هناك حقيقة أسبوع لفقد الشمس والليل والنهار، وقال القاضي: وخص ريح الجنة بالشمال؛ لأنها ريح المطر عند العرب، كانت تهب من جهة الشام، وبها يأتي سحاب المطر، وكانوا يرجون السحابة الشامية، وجاءت في الأحاديث تسمية هذه الريح المثيرة، أي المحركة؛ لأنها تثير في وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة وغيره من نعيمها»[4].

وهذا يعني أن في الجنة سوقًا يلتقي فيه المؤمنون مع بعضهم البعض ويتحدث بعضهم لبعض؛ ويتذاكرون ما كان في الدار

(١) الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٢٦٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٧٥٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم والجمال، ٤/ ٢١٧٨، رقم ٢٨٣٣.
(٤) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ١٧١.

الدنيا، ويتجدد هذا اللقاء كل جمعة، وهذا من نعيم الجنة الذي أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين.

ومن جملة أحاديثهم ما جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

صفة أهل الجنة وأخلاقهم

لم يتحدث القرآن الكريم عن صفة أهل الجنة في أعمارهم وأشكالهم وطولهم، وتكفلت السنة النبوية بذكر ذلك من خلال الأحاديث الصحيحة الواردة في صفة أهل الجنة، منها: ما ورد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب دُرِّيّ في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يتفلون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أول زمرة تلج الجنة، صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون، ولا يتغوطون فيها، آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم من الألوة، ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن، لا اختلاف

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم، ٤/ ٢١٧٩، رقم ٢٨٣٤.

بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًّا)[1].

وأما عن أعمارهم فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل أهل الجنَّةِ الجَنَّةَ جُرْدًا مردًا مكحلين، أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة)[2].

وجُرْد: جمع أجرد وهو الذي لا شعر على جسده، مُرْد: جمع أمرد وهو غلام لا شعر على ذقنه، وقد يراد به الحسن بناء على الغالب،كُحْل: أي مكحول، وهو عين في أجفانها سواد خلقة[3].

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أهل الجنة جرد مرد كحل، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم)[4].

وأما أخلاق أهل الجنة فتتمثل في محبة بعضهم بعضًا كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧].

أي: «وأذهبنا من صدور هؤلاء الذين وصف صفتهم، وأخبر أنهم أصحاب الجنة، ما فيها من حقد وغلّ وعداوة كان من بعضهم في الدنيا على بعض، فجعلهم في الجنة إذا أدخلهموها على سرر متقابلين، لا يحسد بعضهم بعضًا على شيء خصّ الله به بعضهم وفضّله من كرامته عليه»[5].

والمتأمل في الأدلة الماضية يرى أن أهل الجنة يدخلون الجنة على صور مختلفة، فمنهم من يكون على صورة القمر ليلة البدر، ومنهم من يكون على أشد كوكب دري إضاءة في السماء، وفي هذا دليل على تفاوت درجاتهم على قدر أعمالهم في الحياة الدنيا، وأزواجهم الحور العين، وقلوبهم مجتمعة على قلب واحد، منزوع منها الحقد والعداوة، وصورهم على صورة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًّا، ٤/ ٢١٨٠، رقم ٢٨٣٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٣٥٣، رقم ٢٢٠٢٤، والترمذي في سننه، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في سن أهل الجنة، ٤/ ٦٨٢، رقم ٢٥٤٥.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب وبعض أصحاب قتادة رووا هذا عن قتادة، مرسلًا ولم يسندوه».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٤١، رقم ٨٠٧٢

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري، ٩/ ٣٥٩٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة ثياب أهل الجنة، ٤/ ٦٧٩، رقم ٢٥٣٩.
قال الترمذي: «هذا حديث غريب».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٥، رقم ٢٥٢٥.

(٥) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٣٧.

آدم عليه السلام ستون ذراعًا في السماء، أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة، وهم جرد مرد كحل، لا تبلى ثيابهم، ولا يموتون.

رؤية الله تعالى

أخبر الله تعالى في آياته الكريمة برؤية أهل الجنة له في الآخرة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

أي: فوجوه المؤمنين المخلصين حين تقوم القيامة مضيئة مشرقة، تشاهد عليها نضرة النعيم، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أي: تنظر إلى ربها عيانًا بلا حجاب[1].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

أي: للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا من خلقه، فأطاعوه فيما أمر ونهى، أو أن للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى أي: التي تزيد في الحسن على إحسانهم، وهي مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر، وجاء هذا المعنى في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

أي: ولهم زيادة على هذه الحسنى فوق ما يستحقون على أعمالهم بعد مضاعفتها[2].

وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن أبي بكر الصديق، وحذيفة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٧٩، تفسير المراغي، ٢٨/ ١٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٦٢، تفسير المراغي، ١١/ ٩٥.

بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وأبو موسى وعبادة بن الصامت، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف[(١)].

لذلك قال ابن القيم رحمه الله: «فلما نقلت رؤية الله سبحانه وتعالى بالأبصار في الآخرة عنهم ولم ينقل عنهم في ذلك اختلاف كما نقل عنهم فيها اختلاف في الدنيا؛ علمنا أنهم كانوا على القول برؤية الله بالأبصار في الآخرة متفقين ومجتمعين»[(٢)].

وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][(٣)].

ودلالة الآيات المتقدمة أن الرؤية خاصة بالمؤمنين دون غيرهم من الكفار والمنافقين لذلك قال تعالى في شأن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

وثبت جواز رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث، منها ما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: (هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟)، قالوا: لا يا رسول الله، قال: (فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟) قالوا: لا، قال: (فإنكم ترونه كذلك..)[(٤)].

وفي الحديث: دلالة على رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عرصات القيامة، وفي روضات الجنان الفاخرة.

ويتضح مما تقدم: أن أفضل ما يعطاه أهل الجنة يوم القيامة رؤية الله تعالى وهو أعلى نعيم أهل الجنة، وأنها الزيادة التي وعد الله تبارك وتعالى بها المؤمنين من أهل الجنة وبشرهم بها، وهي واقعة لهم دون الكافرين كما ثبت بالكتاب والسنة.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٢٦٢.
(٢) حادي الأرواح، ١/ ٣٣٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، ١/ ١٦٣، رقم ١٨١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل السجود، ١/ ١٦٠، رقم ٨٠٦.

الأسباب الموجبة لدخول الجنة

إن دخول الجنة فوز عظيم لا يمكن أن ينال بالأعمال الصالحة فقط، وإنما ينال برحمة الله تعالى على عباده المؤمنين وفضله، لا من حيث الواجب لأنه لا واجب على الله تعالى، ويؤكد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من أحد يدخله عمله الجنة) فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني ربي برحمة)[1].

ولا يتعارض هذا مع الأخذ بالأسباب لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٤].

لذلك لا بد لدخول الجنة من أعمال صالحة.

وتتفاوت درجات الجنة بحسب الأعمال، ويتنافس العباد في ذلك على قدر سعيهم وهمتهم للوصول إلى جنات الخلد، وتحدث القرآن الكريم عن ذلك في آيات كثيرة، وهذا ما سوف نوضحه من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الإيمان والعمل الصالح:

إن دوام الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة، والله قدر لعبده المؤمن وجوب الجنة بما ييسره له من ذلك وبشره بها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨٢].

أي: «وأما الذين صدقوا الله ورسله، وآمنوا باليوم الآخر، وعملوا صالح الأعمال فأدّوا الواجبات، وانتهوا عن المعاصي فأولئك جديرون بدخول الجنة جزاء وفاقًا على إخباتهم لربهم وإنابتهم إليه وإخلاصهم له في السرّ والعلن، وفي هذا دليل على أن دخول الجنة منوط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح معًا»[2].

كما روي (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسفيان بن عبد الله الثقفي، وقد قال له يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: قل آمنت بالله، ثم استقم)[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، ٤/ ٢١٦٩، رقم ٢٨١٦.

(٢) تفسير المراغي، ١/ ١٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، ١/ ٦٥، رقم ٣٨.

أي: إن الذين صدقوا الله ورسوله، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وذلك العمل بطاعة الله والانتهاء إلى أمره، ﴿يَهْدِيهِمْ﴾، يرشدهم ربهم بإيمانهم به إلى الجنة[1].

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾، فيه وجوه منها: الأول: أنه تعالى يهديهم إلى الجنة ثوابًا لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

والثاني: إنّ المؤمنين يكون لهم نور يمشي بهم إلى الجنة، والثالث: أنه وصفهم بالهداية على طريق المدح لهم[2].

قال الإمام الرازي: فإن قيل: كيف يقال: إن العبد يحكم بكونه من أهل الجنة بمجرد الإيمان، والله سبحانه وتعالى شرط لذلك العمل الصالح بظاهر قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [النساء: ١٢٢].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ١٢٤].

وإلا لما كان للتقييد فائدة؟ قلنا: إن المراد بالعمل الصالح الإخلاص في الايمان، وقيل الثبات عليه إلى الموت، وكلاهما شرط في كون الإيمان سببًا لدخول الجنة[3].

ويتضح مما تقدم: أن الإيمان والعمل الصالح من أسباب دخول الجنة، فبعض الآيات الكريمة تربط بين الإيمان والعمل الصالح وبين دخول الجنة، فكانت لهم جنات النعيم.

ثانيًا: طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم:

إن من موجبات دخول الجنة طاعة الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

«وطاعة الله: هي ما شرعه من الدين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وطاعة الرسول: هي اتباع ما جاء به من الدين عن ربه، فطاعته هي بعينها طاعة الله، كما قال في هذه السورة: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء: ٨٠].

فهو إنما يأمرنا بما يوحيه إليه الله بما فيه منافع لنا في الدنيا والآخرة، وإنما ذكرها مع طاعة الله للإشارة إلى أن الإنسان لا يستغني

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٢٧.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٤٢٤، مفاتيح الغيب، الرازي، ١٧/ ٢١٣.
(٣) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، زين الدين الرازي، ص٨٦.

بعقله وعلمه عن الوحي، وأنه لا بد له من هداية الدين؛ إذ لم يكن العقل وحده في عصر من العصور كافيًا لهداية أمة ولا مرقيًا لها بدون معونة الدين، فاتباع الرسل والعمل بهديهم هو أساس كل مدنية، والارتقاء المعنوي هو الذي يبعث على الارتقاء المادي، فالآداب والفضائل التي هي أسس المدنيات تستند كلها إلى الدين، ولا يكفي فيها بناؤها على العلم والعقل»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

أي: «من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقًا للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم، ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾»[2].

وعلى ذلك يترتب على طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم دخول الجنة والخلود فيها، كما يترتب على معصية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم دخول النار والعذاب المهين، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء: ١٤].

ثالثًا: التقوى:

إن التقوى سبب من أسباب دخول الجنة وشرط لحصول الرحمة من الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٥﴾ [يس: ٤٥].

فالمتقين هم أحق الناس بالجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤﴾ [القلم: ٣٤].

أي: «إن للمتقين في الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص، لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا»[3].

وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم: ٦٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا

(١) تفسير المراغي، ٤/ ٢٠٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٥٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٢٤٦.

﴿خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١-١١][1].

وتصف الآيات الكريمة كيف يدخل المتقين إلى الجنة وفدًا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ [مريم: ٨٥].

«أي اليوم الذي يجتمع فيه من اتقى الله في الدنيا بطاعته إلى جنته وفدًا أي جماعات، قال ابن عباس رضي الله عنه: ركبانًا، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: على الإبل، وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: ما يحشرون-والله- على أرجلهم، ولكن على نوقٍ، رحالها من الذهب، ونجائب، سروجها يواقيت، إن هموا بها سارت، وإن هموا بها طارت»[2].

ويقرب الله تعالى إليهم الجنة إكرامًا لهم كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾ [ق: ٣١].

أي: وأدنيت الجنة وقرّبت للذين اتقوا ربهم، فخافوا عقوبته بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ثم قال عز وجل: غير بعيد أي ينظرون إليها قبل دخولها، ويقال غير بعيد، يعني: دخولهم غير بعيد[3].

ثم يصف الله تعالى في آياته الكريمة ما أعده لعباده المتقين من نعيم وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النبأ: ٣١-٣٦].

وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ويشير النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزلة التقوى وأن محلها القلوب بقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا) ويشير إلى صدره ثلاث مرات[4].

ومما تقدم يتبين أن التقوى سبب من أسباب دخول الجنة وشرط لحصول الرحمة، ولا يمكن أن يكون المؤمن تقيًّا إلا إذا اتبع أوامر الله تعالى واجتنب كل نواهيه، عندها ينال رحمة الله تعالى الموجبة لدخول الجنة.

رابعًا: الاستقامة على دين الله:

إن من استقام على دين الله فإن الملائكة

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٢٤٨.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ٣/ ١٩٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٣٦٣، تفسير السمرقندي، ٣/ ٣٣٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، ٤/ ١٩٨٦، رقم ٢٥٦٤.

تنزل عليه وتبشره بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، اعترافًا بربوبيته وإقرارًا بوحدانيته، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ في العمل وثمّ لتراخيه عن الإقرار في الرتبة من حيث أنه مبدأ الاستقامة، أو لأنها عسر قلما تتبع الإقرار، وما روي عن الخلفاء الراشدين في معنى الاستقامة من الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض فجزئياتها، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ فيما يعن لهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن، أو عند الموت، أو الخروج من القبر، ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ ما تقدمون عليه. ولا تحزنوا على ما خلفتم، ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان الرسل[1].

وعلى ذلك فالاستقامة على دين الله تعالى تعني: الالتزام بطاعته والائتمار بأوامره والبعد عن معصيته، وهي سبب من أسباب دخول الجنة والنجاة من عذاب الله تعالى وغضبه في الآخرة، فمن استقام على دين الله تعالى نجى وفاز بالجنة، وللاستقامة أسباب منها: الصبر، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك.

خامسًا: الإحسان في العبادة:

إن الإحسان هو مراقبة الله تعالى في العبادة، وأن يعبد المرء الله تعالى كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه، وعظم الله تعالى ثواب أهل الإحسان، فقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

والإحسان من أفضل مراتب العبودية وكمالها لذلك قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

أي: «ما جزاء من أحسن في الدنيا بطاعة الله تعالى إلا الإحسان إليه في الآخرة بالجنة ونعيمها»[2].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ٧١.

(٢) الوجيز، الواحدي، ص١٠٥٦.

وفسره النبي صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل لما قال له: (فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1].

قال القاضي عياض: «وقوله: (ما الإحسان)، وفسره في الحديث بما معناه الإخلاص ومراقبة الله في السر والإعلان، وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه، ومتشعبة منه»[2].

وإن من موجبات دخول الجنة أن يكون المؤمن محسنًا لذلك وصف الله تعالى المحسنين بقوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٦-١٩].

«أي إنهم كانوا في دار الدنيا يفعلون صالح الأعمال، خشية من ربهم وطلبًا لرضاه، ومن ثم نالوا هذا الفوز العظيم، والمكرمة التي فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون»[3].

ثم فصل ما أحسنوا فيه فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، أي كانوا ينامون القليل من الليل ويتهجدون في معظمه، قال ابن عباس: ما تأتي عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا؛ إلا يصلون فيها شيئًا إما من أولها أو من وسطها، وقال الحسن البصري: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، وربما نشطوا فجدّوا إلى السحر. وعن أنس قال: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء، ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، أي فهم يحيون الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم، ولما ذكر أنهم يقيمون الصلاة ثنى بوصفهم بأداء الزكاة والبر بالفقراء فقال: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، أي وجعلوا في أموالهم جزءًا معينًا ميزوه وعزلوه للطالب المحتاج، والمتعفف الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يسأل الناس، ولا يفطنون إليه ليتصدقوا عليه[4].

سادسًا: الجهاد في سبيل الله تعالى:

جعل الله تعالى الجنة ثمنًا لمن جاهد في سبيله بنفسه وأمواله جزاءً له على إيمانه وإخلاصه في طاعة الله ورسوله؛ لذلك قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام، رقم ٨، ١/ ٣٦.
(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ١/ ٢٠٥.
(٣) تفسير المراغي، ٢٦/ ١٧٩.
(٤) المصدر السابق.

أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم»[1].

وفي الآية: ترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان حال المتخلفين عنه، ولا ترى ترغيبًا في الجهاد أحسن ولا أبلغ مما في هذه الآية لأنه أبرز في صورة عقد، عاقده رب العزة جل جلاله، وثمنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل كونهم قاتلين أيضًا لإعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه سبحانه، وجعله مسجلًا في الكتب السماوية، وناهيك به من صك، وجعل وعده حقًّا ولا أحد أوفى من واعده، فنسيئته أقوى من نقد غيره، وأشار إلى ما فيه من الرحب والفوز العظيم، وهو استعارة تمثيلة، صور جهاد المؤمنين وبذل أموالهم وأنفسهم فيه وإثابة الله تعالى لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء، وأتى بقوله سبحانه: يقاتلون إلخ بيانا لمكان التسليم وهو المعركة، وإليه الإشارة بقوله صلّى الله عليه وسلم: (الجنة تحت ظلال السيوف)[2].

قال الجصاص: «أطلق الشرى فيه على طريق المجاز؛ لأن المشتري في الحقيقة هو الذي يشترى مالا يملك، والله تعالى مالك أنفسنا وأموالنا ولكنه كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فسماه شرى كما سمى الصدقة قرضًا لضمان الثواب فيهما به، فأجرى لفظه مجرى ما لا يملكه العامل فيه استدعاء إليه وترغيبًا فيه»[3].

وتصور الآية الكريمة كل أطراف البيع والشراء، والبائع والمشتري، والثمن، فالبائع هو المؤمن، والمشتري هو الله، والثمن الجنة، ومن رحمة الله أن جعل الله الإنسان مالكًا لنفسه وماله، يتصرف فيهما بحرية واختيار وإرادة، ليقبض الثمن وهو الجنة، وإن كان الله هو المالك الحقيقي للأنفس والأموال، ولكن القرآن الكريم يصوّر الإنسان مالكًا وبائعًا وقابضًا للثمن، لتكون الصورة ملائمة للواقع المنظور في

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢١٨.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٦/ ٢٧.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص، ٢/ ٢٦٨.

الحياة، بدلًا من تصوير الغيب المستور[1].

ويتبين مما مضى أن الجهاد في سبيل الله تعالى سبب من أسباب دخول الجنة، وأن من جاهد في سبيل الله تعالى فجزاؤه الجنة التي وعده الله تعالى بها؛ لأنه باع نفسه وماله ليقاتل في سبيل الله تعالى.

سابعًا: الصبر على الابتلاء:

إن طلب الجنة ودخولها لا يتم ولا يكمل إلا بالصبر على الابتلاء واحتمال الشدائد في التكليف وإقامة الحق؛ لذلك قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

أي: أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتبتلوا بما ابتلوا واختبروا به من البأساء وهو شدة الحاجة والفاقة، والضراء وهي العلل والأوصاب، ولم تزلزلوا زلزالهم أي ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهدٌ، حتى يستبطئ القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى الله ناصرنا؟ ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريبٌ، وأنه معليهم على عدوّهم، ومظهرهم عليه، فنجّز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نار حرب الذين كفروا[2].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾: «يعني الصابرين عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من جرح وألم ومكروه»[3].

وتحث هذه الآيات الكريمة المؤمنين على الصبر عند الابتلاء، وتدعوهم إلى الثبات والتحمل بذكر قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والسابقين، وما يلقّى الأعمال الصالحة وجزاءها إلا أهل الصبر، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥].

وبشر الله تعالى الصابرين بمضاعفة الأجر بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].

وزاد على ذلك بأجر لا حد له بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وورد الصبر في السنة أيضًا في أحاديث

(١) انظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ١/ ١١٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٨٨.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٤٦.

متعددة، منها: ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ولن تعطوا عطاء خيرًا وأوسع من الصبر)[1].

وبشر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يصبر على فقد عينيه بالجنة بقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة)[2].

فالصبر عند الابتلاء سبب من أسباب دخول الجنة، فلا يمكن دخول الجنة إلا بالصبر على المكاره وعند الشدائد والمصائب، وحبس النفس عن الذنوب والمعاصي، والصبر على طاعة الله تعالى فكل ذلك يؤدي إلى الجنة.

ثامنًا: الإخبات:

ذكر الله تعالى في آياته الكريم صفة من صفات أهل الجنة وهي الإخبات فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود: ٢٣].

أي إن الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا في الدنيا الأعمال الصالحة، فأتوا بالطاعات وتركوا المنكرات، وخشعت نفوسهم واطمأنت إلى ربهم أولئك هم قطّان[3] الجنة الذين لا يخرجون منها ولا يموتون، بل هم ما كثون فيها أبدًا[4].

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيه خمسة تأويلات: أحدها: يعني خافوا ربهم، وهو قول ابن عباس، الثاني: يعني اطمأنوا، قاله مجاهد، الثالث: أنابوا، وهو قول قتادة، الرابع: خشعوا وتواضعوا لربهم، رواه معمر، الخامس: أخلصوا إلى ربهم، قاله مقاتل[5].

وقال الراغب الاصفهاني: الخبت: المطمئن من الأرض، وأخبت الرّجل: قصد الخبت، أو نزله، نحو: أسهل وأنجد، ثمّ استعمل الإخبات استعمال اللّين والتّواضع، قال الله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

أي: المتواضعين، نحو: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله تعالى، ٨/ ٩٩، رقم ٦٤٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب فضل من ذهب بصره، ٧/ ١١٦، رقم ٥٦٥٣.

(٣) قطن بالمكان يقطن: أي أقام به وتوطنه، فهو قاطن، والجمع قطان.
انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢١٨٢.

(٤) تفسير المراغي، ١٢/ ٢٣.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٢٨٩، ٢٩٠، النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٤٦٥.

وقوله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]، أي: تلين وتخشع[(١)].

وعلى ذلك فمعنى الإخبات هو الاطمئنان والتواضع والخشوع والخضوع لله عز وجل في طاعته وعبادته والانقطاع إليه.

وقد بشر الله تعالى المخبتين من عباده ووصفهم بقوله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحج: ٣٤- ٣٥].

أي وبشر أيها الرسول الخاضعين لله بالطاعة، المذعنين له بالعبودية، المنيبين إليه بالتوبة، بما أعدّ لهم من جزيل ثوابه، وجليل عطائه، ثم بين سبحانه علاماتهم فقال:

١. ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي إنهم إذا ذكر الله عرتهم رهبة من خشيته، وخوف من عقابه.

٢. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾، من النوائب والمحن فى طاعة الله.

٣. ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي والمؤدين حقه تعالى فيما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة فى الأوقات التي حددها لهم.

٤. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي وينفقون بعض ما آتاهم الله من طيب الرزق فى وجوه البر وعلى أهليهم وأقاربهم وعلى الخلق كافة، ومن ذلك إهداء الهدايا التي يغالون فى أثمانها[(٢)].

وكل هذا من آثار الإخبات على نفوس المؤمنين حيث وجلت قلوبهم لذكر الله تعالى، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه، كما مضى في الآية الكريمة.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٧٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٢١.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ١٧/ ١١٣.

من حرم عليه الجنة

لقد ذكر القرآن الكريم الذين يدخلون الجنة وصفاتهم، وكذلك ذكر أن هناك أصنافًا حرمت من الجنة وهم كثير، وجاءت النصوص بشأنهم من الكتاب والسنة، منها ما يأتي:

١. إبليس.

وهو اسم أعجمي، وقيل عربي واشتقاقه من الإبلاس؛ لأن الله تعالى أبلسه من رحمته، وآيسه من مغفرته[(١)]، وهو أول من حرم من الجنة وطرد منها ولا يمكن له أبدًا دخولها، وسبب حرمانه منها، عصيانه لأمر الله تعالى حين أمره بالسجود لآدم فأبى واستكبر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

أي: «امتنع عما أمر به، استكبارًا من أن يتخذه وصلة في عبادة ربه، أو يعظمه ويتلقاه بالتحية، أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه»[(٢)].

فأمر الله تعالى إبليس بأن يهبط من الجنة إلى الأرض في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣].

لعصيانه أمر ربه، وخروجه عن طاعته، فما ينبغي له أن يتكبر فيها ثم أمره تعالى بالخروج من الجنة ذليلًا حقيرًا كما قال تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨].

٢. الكافرون.

وهم الذين حرموا من الجنة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٨- ١٦٩].

أي: «الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا به وبما جاءهم به من عند الله لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، يعني: لن تدفع أمواله التي جمعها في الدنيا، وأولاده الذين ربّاهم فيها، شيئًا من عقوبة الله يوم القيامة إن أخرها لهم إلى يوم القيامة، ولا في الدنيا إن عجّلها لهم فيها»[(٣)].

وهذا وعيدٌ من الله تعالى للأمم الأخرى

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٦/ ١٠٣.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٧١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٧/ ١٣٣.

الفاسقة من أهل الكتاب، الذين أخبر عنهم بأنهم فاسقون، وأنهم قد باؤوا بغضب منه، ولمن كان من نظرائهم من أهل الكفر بالله ورسوله وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله.

٣. المبتغون غير الإسلام دينًا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

أي: ومن يطلب دينًا غير دين الإسلام ليدين به، فلن يقبل الله منه وهو في الآخرة من الخاسرين، أي: من الباخسين أنفسهم حظوظها من رحمة الله عز وجل، بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها، وترك منزله في الجنة، واختار منزله في النار[(١)].

٤. المنافقون.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨].

«أي وعد الله هؤلاء جميعًا نار جهنم يصلونها ماكثين فيها أبدًا، وقدم المنافقين في الوعيد على الكفار للإيذان بأنهم وإن أظهروا الإيمان وعملوا أعمال الإسلام شر من الكفار، ولا سيما المتدينين منهم بأديان محرّفة أو منسوخة كأهل الكتاب»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء: ١٣٨].

وبعد ما وعدهم الله تعالى بنار جهنم وبشرهم بالعذاب الأليم بين الله تعالى مكانهم من تلك النار فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

أي: «في الطّبق الأسفل من أطباق جهنم»[(٣)].

قال الزمخشري: «الدرك الأسفل: الطبق الذي في قعر جهنم، والنار سبع دركات، سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض، فإن قلت: لم كان المنافق أشد عذابا من الكافر؟ قلت: لأنه مثله في الكفر، وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجاتهم»[(٤)].

٥. أكلة أموال اليتامى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

قال الإمام الرازي: «إنه تعالى أكد الوعيد في أكل مال اليتيم ظلمًا، وقد كثر الوعيد في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٧٠، تفسير السمرقندي، ١/ ٢٢٨، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ٢٦.

(٢) تفسير المراغي، ١٠/ ١٥٧.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٩/ ٣٣٧.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٥٨١.

هذه الآيات مرة بعد أخرى على من يفعل ذلك، كقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: ٢].

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ [النساء: ٩].

ثم ذكر بعدها هذه الآية مفردة في وعيد من يأكل أموالهم، وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى؛ لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله، لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى»[(١)].

٦. المتكبرون.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦﴾ [الأعراف: ٣٦].

أي: «إن الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على أحد من رسلنا واستكبروا عن اتباع من جاء بها حسدًا له على الرياسة وتفضيلًا لأنفسهم عليه، أو لقومهم على قومه فأولئك أصحاب النار يخلدون فيها أبدًا»[(٢)].

وإنما ذكر الاستكبار؛ لأن كل مكذب وكل كافر مستكبر، إنما كذب وكفر تكبرًا، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات: ٣٥].

أي: استكبروا عن الإقرار بالوحدانية أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[(٣)].

والاستكبار في الآية الكريمة عن قبول الآيات ورفضها كبرًا وعنادًا لمن جاء بها كما حدث من رؤساء قريش حين استكبروا أن يكون النبي محمد صلى الله عليه وسلم إمامًا لهم، إذ رأوا أنفسهم أحق بالرياسة منه، لأنهم أكثر منه مالًا وأعز نفرًا.

وجاء في الحديث الصحيح عن حارثة بن وهب الخزاعي، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار: كل عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ مستكبر)، وفي رواية لمسلم: (كل جواظ زنيم متكبر)[(٤)].

قال الإمام النووي: أما العتل: فهو الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل الجافي الفظ الغليظ، وأما الجوّاظ: فهو الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته، وقيل: القصير البطين، وقيل:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ٥٠٦.
(٢) تفسير المراغي، ٨/ ١٤٦.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني، ٢/ ١٧٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكبر، ٨/ ٢٠، رقم ٦٠٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٩٠، رقم ٢٨٥٣.

الفاخر، وأما الزنيم فهو الدعي في النسب الملصق بالقوم وليس منهم، شبه بزنمة الشاة، وأما المتكبر والمستكبر فهو صاحب الكبر وهو بطر الحق وغمط الناس[1].

والمتأمل في القرآن الكريم والسنة والنبوية يجد كثيرًا من أصناف الناس من حرم الجنة، وما ذكرناه ما هو إلا بعضًا منها، والنصوص كثيرة في صفات أهل النار، وقد ذكر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أشخاصًا بأعيانهم في النار، منهم على وجه الإيجاز: قارون وفرعون وهامان، وامرأة نوح وامرأة لوط عليهما الصلاة والسلام، وأبو لهب وامرأته، وغيرهم.

موضوعات ذات صلة:

الثواب، الجزاء، الحساب، النار، اليوم الآخر

(١) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٨٨.

الجهاد

عناصر الموضوع

مفهوم الجهاد	٢٠٢
الجهاد في الاستعمال القرآني	٢٠٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٠٤
أنواع الجهاد	٢٠٦
صور الجهاد	٢١٢
فضل الجهاد	٢١٦
مقاصد الجهاد	٢١٩
صفات المجاهدين	٢٢٩
الشهادة في سبيل الله	٢٣٥
معوقات الجهاد في سبيل الله	٢٤١
شبهات حول الجهاد في سبيل الله	٢٤٤

مفهوم الجهاد

أولًا: المعنى اللغوي:

الجهاد من جهد يجاهد مجاهدةً وجهادًا، وهو من الجهد -بفتح الجيم وضمها- أي الطّاقة والمشقّة[1]، و«قال ابن الأثير: هو بالفتح، المشقة، وقيل: المبالغة والغاية، وبالضم الوسع والطاقة، وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة»[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]وجاهد في سبيل الله مجاهدة وجهادًا، والاجتهاد والتجاهد بذل الوسع والمجهود[3].

والحاصل: أن أصل لفظ الجهاد هو بذل ما في الوسع والطاقة في تحقيق شيء معين.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يدور تعريف الجهاد عند أغلب العلماء حول قتال الكفار، فقد عرفه العلماء بقولهم: هو بذل الجهد من المسلمين في قتال الكفار المعاندين المحاربين، والمرتدين، والبغاة ونحوهم؛ لإعلاء كلمة الله تعالى. وهو ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس[4].

فالجهاد بمعنى عام، يشمل الدّين كله؛ حيث تتسع مساحته فتشمل الحياة كلها بسائر مجالاتها ونواحيها، قال ابن تيمية: «الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان»[5]، وله كذلك معنى خاص ذكره الكفوي حيث قال: «الجهاد هو الدعاء إلى الدين الحق، والقتال مع من لا يقبله»[6]، فالجهاد يحول دون فساد الأوضاع ووصول الأشرار والفاسدين إلى السلطة والحكم.وعليه، فالمعنى الاصطلاحي خص ببذل الجهد في قتال الكفار ودعوتهم؛ لإعلاء كلمة الله، بينما المعنى اللغوي أعم.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٢٧٥.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٨٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٣٣.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ٦٣، تاج العروس، الزبيدي، ٧/ ٥٣٤.
(٤) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص١٠١، التوقيف، المناوي، ص١٣٣، الجهاد في سبيل الله، القحطاني، ص ٥.
(٥) الفتاوى الكبرى، ٥/ ١٨٢.
(٦) الكليات، ص٣٥٤.

الجهاد في الاستعمال القرآني

وردت مادة (جهد) في القرآن (٤١) مرة، والمتعلق منها بالجهاد (٣٥) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٥	﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]
الفعل المضارع	٥	﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]
فعل الأمر	٧	﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١]
المصدر	٤	﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾ [الممتحنة: ١]
اسم الفاعل	٤	﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]

وجاء الجهاد في القرآن على ثلاثة وجوه[(٢)]:

الأول: الجهاد بالسلاح: ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]، يعني: الذين يقاتلون في سبيل الله بالسلاح.

الثاني: الجهاد بالقول: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]، يعني: بالقرآن.

الثالث: الجهاد في العمل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت: ٦]، يعني: من يعمل الخير فإنما يعمله لنفسه، وله نفع ذلك.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٨٢-١٨٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٤٠٦-٤٠٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٥٩، نزهة الأعين النظائر، ابن الجوزي، ص٢٣١-٢٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ القتال:

القتال لغة:

من قاتل فلان فلانًا، وقاتله مقاتلة وقتالًا، وهو بمعنى المحاربة والمقاتلة، ولا يكون إلا بين اثنين[١].

القتال اصطلاحًا:

القتال صيغة مبالغة من القتل، والمقاتلة هي القتال ولا يكون إلا بين اثنين[٢].

الصلة بين الجهاد والقتال:

الجهاد أوسع من القتال، فالقتال نوع من أنواع الجهاد، والقتال يكون بين اثنين.

٢ الغزو:

الغزو لغة:

القصد، والغزو: السير إلى قتال العدو، يقال: غزا يغزو غزوًا فهو غاز، وجمعه غزاة وغز[٣].

الغزو اصطلاحًا:

عرفه الأصفهاني بقوله: «الغزو: الخروج إلى محاربة العدو»[٤].

الصلة بين الجهاد والغزو:

الغزو: إنما يكون في بلاد العدو، والجهاد: مطلق، فكل غاز مجاهد، دون العكس، وقيل: إن الغزو ما كان الغرض الأصلي فيه الغنيمة، وتحصيل المال - وإن استلزم ذلك الحرب والمقاتلة، والجهاد: ما كان الغرض فيه المحاربة لقهر العدو - وإن استلزم ذلك تحصيل الغنائم والفوائد[٥].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٩/ ٦٢.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٥٤٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٥/ ١٢٣.
(٤) المفردات، ص٣٦٠.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٣٨٥.

٣ النفير:

النفير لغة:

ينفر نفرًا ونفورًا، ويوم النفر والنفير والنفور: يوم نفور الناس من منى، يقال: نفر إلى الحرب، إذا خرج لها، ومضى لقتال العدو، ومنه أيضًا (الاستنفار): وهو حث القوم على النفر إلى الحرب، أو أن ينفروا منها، والنفير: القوم النافرون لحرب أو غيرها[١].

النفير اصطلاحًا:

قال الأصفهاني: «والاستنفار حث القوم على النفر إلى الحرب»[٢].

الصلة بين الجهاد والنفير:

النفر نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله، وهو الخروج لقتال الأعداء اعلاءً لكلمة الله عز وجل.

٣ الحرب:

الحرب لغة:

نقيض السلم، ورجل محرب أي شجاع، وفلان حرب فلان أي يحاربه، وحرّبته تحريبًا أي حرّشته على إنسان فأولع به وبعداوته[٣].

الحرب اصطلاحًا:

قال المناوي: «دفع بشدة عن اتساع المدافع بما يطلب منه الخروج فلا يسمح به ويدافع عنه بأشد مستطاع»[٤].

الصلة بين الجهاد والحرب:

الجهاد أوسع من الحرب، فالحرب استخدام القوة وفيه شدة، وهذا ليس بالضرورة في الجهاد، والجهاد إنما يكون في سبيل الله، أما الحرب فتطلق على حرب الكفار واستحلالهم بلاد المسلمين.

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد، ٢/ ٧٨٨.
(٢) المفردات، ص٥٠١.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي، ٣/ ٢١٣.
(٤) التوقيف، ص١٣٧.

أنواع الجهاد

فرض الله عز وجل الجهاد على المسلمين، وأمرهم بالجهاد في سبيله، ووعد المجاهدين أجرًا عظيمًا، سواء من جاهد عدوًّا داخليًّا، ومن جاهد عدوًّا خارجيًّا، فالجهاد أنواع مختلفة، ولقد قام العلماء بتقسيم الجهاد إلى عدة أقسام، وهي:

أولًا: جهاد النفس:

إن من أعظم الجهاد جهاد النفس، وهو الأصل والأساس؛ لأن العبد إن لم يجاهد نفسه أولًا ويبدأ بها ويلزمها بفعل ما أمرت به وترك ما نهيت عنه فلا يمكن له جهاد عدوه الخارجي وترك العدو الداخلي.

والنفس البشرية عرضة للإغواء ووساوس الشيطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

فجهادها هو الجهاد الأكبر، قال ابن عجيبة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

«الجهاد على قسمين: جهاد أصغر وهو جهاد السيف، وجهاد أكبر وهو جهاد النفس، فيجاهدها أولًا في القيام بجميع المأمورات، وترك جميع المنهيات، ثم يجاهدها ثانيًا في ترك العوائد والشهوات، ومجانبة الرخص والتأويلات، ثم يجاهدها ثالثًا في ترك التدبير والاختيار، والسكون تحت مجاري الأقدار، حتى لا تختار إلا ما اختار الحق تعالى لها، ولا تشتهي إلا ما يقضي الله عليها، فإن النفس جاهلة بالعواقب، فعسى أن تكره شيئًا وهو خير لها، وعسى أن تحب شيئًا وهو شر لها»[(١)].

فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع: (ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه النّاس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم النّاس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذّنوب)[(٢)].

واعتبر جهاد النفس جهادًا أكبر من جهاد العدو؛ «لأنك في ساحة القتال تجاهد عدوًّا ظاهرًا، يتضح لك عدده وأساليبه، أمّا إن كان عدوك من نفسك ومن داخلك، فإنه يعزّ عليك جهاده، فأنت تحب أن تحقق لنفسك شهواتها، وأن تطاوعها في أهوائها ونزواتها، وهي في هذا كله تلح عليك وتتسرّب من خلالك، فعليك أن تقف في جهاد النفس

(١) البحر المديد، ص٢٤٣.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٩/ ٣٨١، رقم ٢٣٩٥٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٩٠.

موقفًا تقارن فيه بين شهوات النفس العاجلة وما تورثك إياه من حسرة آجلة باقية، وما تضيعه عليك من ثواب ربك في جنة فيها من النعيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[(١)].

قال ابن القيم: «جهاد النفس مقدم على جهاد العدو في الخارج، وأصل له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولًا لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج»[(٢)].

وقال ابن الجوزي: «اعلم أنه إنما كان جهاد النفس أكبر من جهاد الأعداء؛ لأن النفس محبوبة وما تدعو إليه محبوب؛ لأنها لا تدعو إلا إلى ما تشتهي، وموافقة المحبوب في المكروه محبوبة، فكيف إذا دعا إلى محبوب، فإذ عكست الحال وخولف المحبوب فيما يدعو إليه من المحبوب اشتد الجهاد وصعب الأمر، بخلاف جهاد الكفار فإن الطباع تحمل على خصومة الأعداء»[(٣)].

وجاء تفسير العلماء للجهاد في القرآن الكريم بأنه جهاد النفس في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

فالجهاد هنا يحتمل أن يكون المقصود به جهاد الكفار، أو جهاد النفس والهوى[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

«والّذين جاهدوا فينا يعني: جهاد النفس من الصبر على إذاية الكفار واحتمال الخروج عن الأوطان وغير ذلك، وقيل: يعني القتال، وهو ضعيف؛ لأن القتال لم يكن مأمورًا به حين نزول الآية»[(٥)].

فأفضل الجهاد عندما نجاهد أنفسنا، كما جاء عن عبد الله بن عمرو عندما سئل: أيّ المؤمنين أفضل إسلامًا؟ قال: (من أسلم المسلمون من لسانه ويده)، قال: فأيّ المؤمنين أفضل إيمانًا؟ قال: (أحسنهم خلقًا)، قال: فأيّ المهاجرين أفضل؟ قال: (من هجر ما نهى الله عنه)، قال: فأيّ الجهاد أفضل؟ قال: (من جاهد نفسه في ذات الله)، قال: أنت قلته يا عبدالله بن عمرو، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: بل رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٦)].

(١) تفسير الشعراوي، ١٨/ ١١٢٨٤.
(٢) زاد المعاد ٣/ ٦.
(٣) ذم الهوى، ص٤٠.
(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٢/ ١٢٢، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٨٠.
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٢/ ١٢٩.
(٦) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير،

وجهاد النفس أربعة مراتب[1]:

١. جهادها على تعلّم أمور الدين والهدى الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، فيجب أن نحمل أنفسنا على معرفة الحق والهدى، وفهم الكتاب والسنة، ومعنى الجهاد أن تبذل كل الوسع والطاقة في معرفة الحق؛ حتى لا تبوء بالخسران يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤].

٢. جهادها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها، والنفس البشرية تميل إلى الراحة، فبدون مجاهدتها لا يمكن الفوز بأعلى الدرجات في الجنة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. قيل في معنى الآية: أي اصبروا على دينكم، وصابروا مع الأعداء، ورابطوا بالمحافظة على الصلوات، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟) قالوا بلى يا رسول الله. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط[2])[3].

٣. جهادها على الدعوة إليه ببصيرة، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

٤. جهادها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، وأن يتحمل ذلك كله لله، فجهاد النفس يحتاج إلى صبر على المكاره، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فمن علم، وعمل، وصبر، فذاك يدعى عظيمًا في ملكوت السموات.

ثانيًا: جهاد الشيطان:

إن من أشد أعداء الإنسان الشيطان، بل

١٣/ ٥٦٩، رقم ١٤٥١٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٣/ ٤٧٨.

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الميسرة، حسين العوايشة، ٧/ ٢٤، الجهاد في سبيل الله، سعيد القحطاني، ص٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، ١/ ٢١٩، رقم ٢٥١.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٥٦٠، تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٣٩١.

هو أخبث الأعداء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾، يلقي على الإنسان وساوسه، ويدفعه إلى ارتكاب المعاصي، والبعد عن الطاعات، قال ابن القيم رحمه الله تعالى بعد حديثه عن جهاد العدو الداخلي (النفس)، والعدو الخارجي (الكفار والمنافقين): «فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما، وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما، ويخذله ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته، ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس»[١].

وجهاده يكون على مرتبتين[٢]:

- على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.
- جهاده على دفع ما يلقي إليه من الشهوات والإرادات الفاسدة، وينبغي أن ترد الشبهات باليقين، وينبغي أن ترد الشهوات بالصبر، لذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

يقول ابن حجر العسقلاني: «جهاد الشيطان بدفع ما يلقي إليه من الشبهة والشك ثم تحسين ما نهي عنه من المحرمات، ثم ما يفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشبهات وتمام ذلك من المجاهدة أن يكون متيقظًا لنفسه في جميع أحواله؛ فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات»[٣].

فالشيطان لا يدعو حزبه إلا لما فيه هلاكهم وخسارتهم، وقد بين لنا المولى عز وجل طرق محاربته بشتى الطرق والوسائل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وأن يستعين بالله عز وجل، ويستعيذ بالله من شر الشيطان، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [النحل: ٩٨-٩٩].

(١) زاد المعاد، ٣/ ٦.
(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، سعيد القحطاني، ص٩.
(٣) فتح الباري، ١١/ ٣٣٨.

فإيمان العبد بربه حصن حصين من مكائد الشيطان، فإذا ضعف هذا السلاح كان تحت تأثير الشيطان ووساوسه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

ولقد كتب ابن القيم رحمه الله تعالى كتابًا كبيرًا نافعًا سماه «إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان» بين فيه ما يجب على الإنسان فعله للبعد عن مكائد الشيطان.

ثالثًا: جهاد المنافقين:

أمر الله عز وجل نبيه بجهاد المنافقين، بل أمره بالغلظة في محاربتهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم: ٩].

«ولما كان المنافق يظهر الإسلام ويبطن الشرك ويظهر الخير ويبطن الشر، فلا يمكن جهاده بالقتال كما يجاهد الكافر؛ وذلك لأنه بظاهره يستحق أن يعامل معاملة المسلمين لكن له علامات يعرف بها»[(١)].

ولا شك أن ضرر هؤلاء أعظم من ضرر الكفار المعلنين بكفرهم، كما قال الله تعالى في أمثالهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]؛ ولأجل ذلك جاء الشرع بجهادهم، والحث على الغلظة عليهم.

وجهاد المنافقين يكون بمناقشتهم وإقامة الحجة عليهم، وكشفهم، وبيان باطلهم والتحذير منهم، وإقامة الحدود عليهم[(٢)]، وعن مجاهد: جهاد المنافقين بالوعيد، وقيل: بإفشاء أسرارهم[(٣)].

فالنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بجهاد المنافقين، وذلك من خلال عطف المنافقين على الكفار في المفعول به للفعل جاهد، ويحمل الفعل على المجاز، فالجهاد بإقامة الحجة والتعريض للمنافق بنفاقه، فإن ذلك يطلق عليه الجهاد مجازًا، كما في قوله صلى الله عليه وسلم للذي سأله الجهاد فقال له: (أحيٌّ والداك؟)، قال: نعم، قال: (ففيهما فجاهد)[(٤)].

فجهاد المنافقين لإلقاء الرعب في قلوب المنافقين؛ ليشعروا بأن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالمرصاد لهم، فلو بدت من أحدهم بادرة يعلم منها نفاقه عومل معاملة الكافر في الجهاد بالقتل والأسر فيحذروا ويكفوا عن الكيد للمسلمين خشية الافتضاح، فتكون هذه الآية من قبيل قوله

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٢٠١.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٣٣٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٢٠١.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٧١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الجهاد بإذن الأبوين، ٣/ ١٠٩٤، رقم ٢٨٤٢.

تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١][1].

رابعًا: جهاد الكافرين:

فرض الله عز وجل الجهاد على عباده؛ لتكون كلمة الله هي العليا، بإخراج من شاء الله من الظلمات إلى النور، وذلك بالدخول في الإسلام، أو بفرض سيادة الإسلام ونشر عدالته والتعريف بحقيقته، والجهاد إذا أطلق فيراد به جهاد الكفار والمشركين، وجهاد الكفار أربع مراتب كما بين ذلك ابن القيم رحمه الله: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد[2].

قال عليه السلام: (من مات ولم يغز ولم يحدّث نفسه بغزوٍ مات على شعبةٍ من النّفاق)[3]،

وقد أناط الله قتالهم بوصف الشرك ووصف الكفر، كما قال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وجهاد الكفار باليد مرّ في مراحل متنوعة بحسب الحال الذي كانت عليه أمة الإسلام.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه (يا أيها المدثر قم فأنذر) فنبأه بقوله (اقرأ)، وأرسله بـ(يا أيها المدثر)، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ٣٧٢.
(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم، ٣/ ١٠.
(٣) أخرجه البيهقي في سننه، ٩/ ٧٢، رقم ١٧٩٤١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٣/ ٤٧٨.

حتى يكون الدين كله له، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة»[1].

فهذا النوع من الجهاد له فضل عظيم كما بينه لنا المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم عندما قال: (رباط يومٍ في سبيل اللّه خيرٌ من الدّنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنّة خيرٌ من الدّنيا وما عليها، والرّوحة يروحها العبد في سبيل اللّه، أو الغدوة خيرٌ من الدّنيا وما عليها)[2].

صور الجهاد

إن قدرة الإنسان متفاوتة على الجهاد في سبيل الله؛ لذا كان له وسائل وصور متعددة، تختلف باختلاف قدرة الإنسان وظروفه، فمنهم من يجاهد بماله، ومنهم من يجاهد بنفسه، ومنهم لا يملك مالًا ولا يستطيع الخروج للجهاد في سبيل الله؛ لذلك تعددت صوره ووسائله.

أولًا: الجهاد بالمال:

الجهاد بالمال من أهم صور الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

أي: «فأنفقوها في مجاهدتهم على دين الله الذي شرعه لكم، حتى ينقادوا لكم فيدخلوا فيه طوعًا أو كرهًا، أو يعطوكم الجزية عن يدٍ صغارًا، إن كانوا أهل كتابٍ، أو تقتلوهم»[3].

وتقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في كثير من الآيات فيه دلالة على عظم الجهاد بالمال، فقد لا يستطيع الإنسان أن يشارك بنفسه في الجهاد في سبيل الله؛ بسبب ظروف مختلفة تمنعه من أن يجاهد، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى

(١) زاد المعاد، ٣/ ١٤٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، ٣/ ١٠٥٩، رقم ٢٧٣٥.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٢٧٠.

﴿الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

فليس على الأعمى حرج في التخلّف عن الغزو، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض الذي لا يقدر على الحرب حرج؛ لأن الجهاد منوط بالاستطاعة ونفي الحرج، فمن عجز فله أن ينيب عنه نفرًا بنفقة من عنده فيكون مجاهدًا بماله لما تعذر عليه بنفسه، وقد ذهب إلى هذا القول كثير من العلماء[١].

والجهاد بالمال يشمل المساهمة بالمال في جميع أنواع الجهاد، سواء كان ضد الكافرين أو المنافقين، أو النفس أو الشيطان.

ثانيًا: الجهاد بالنفس:

من أعظم الجهاد من باع نفسه رخيصة في سبيل الله عز وجل؛ لإعلاء كلمة التوحيد.

قال عز وجل: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

فبذل النفس في سبيل الله يستدعي الثواب العظيم من الله عز وجل ألا وهو الجنة، «قال بعضهم: ما أكرم الله، فإن أنفسنا هو خلقها، وأموالنا هو رزقها، ثم وهبها لنا، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقة رابحة»[٢].

وقد قدم الجهاد بالنفس في هذه الآية على الجهاد بالمال بعكس الآيات الأخرى؛ وذلك لأن الآية كانت بمعرض الحديث عن المنافقين وتقاعسهم عن الجهاد بأنفسهم في غزوة تبوك[٣].

وقوله: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ «بيانٌ لكون القتال في سبيل الله بذلًا للنفس وأن المقاتل في سبيله باذلٌ لها وإن كانت سالمةً غانمة؛ فإن الإسناد في الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة، بل بطريق وصف الكلّ بحال البعض، فإنه يتحقق القتال من الكل سواءٌ وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم، بل يتحقق ذلك وإن لم يصدر منهم أحدهما أيضًا»[٤].

فهي تجارة رابحة مع الله عز وجل، والثمن عظيم، إنها جنة عرضها السموات والأرض، أعدت لمن ضحى بنفسه في سبيل إعلاء كلمة الله.

قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٦/ ٥٦، البحر المديد، ابن عجيبة، ٥/ ٣٩٤.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ٣٤٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٦/ ١٥٠.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ١٠٥.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف: ١٠-١١].

وجاء في فضل الجهاد بالنفس العديد من الأحاديث منها: أن أعرابيًّا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: (رجل جاهد بنفسه وماله ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره)[(١)].

فالجهاد من فضائل الأعمال، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما العمل في أيام أفضل منها في هذه؟) قالوا: ولا الجهاد؟ قال: (ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء)[(٢)].

ثالثًا: الجهاد باللسان:

قد يكون الجهاد بكلمة يأمر فيها الإنسان بمعروف، أو ينهى عن منكر، كما في جهاد المنافقين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم: ٩].

وجهاد المنافقين باللسان بزجرهم ووعيدهم[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].

فهذه الآية نزلت بمكة ولم يكن القتال مشروعًا، فالمقصود من الآية أي جادلهم بالقرآن واتل عليهم ما فيه من القوارع، والنواذر والزواجر والأوامر والنواهي، والحجج والبراهين[(٤)]، يقول السعدي: «لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل إلا بذلته ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت، فابذل جهدك واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم»[(٥)].

والجهاد باللسان هو ما كان في بداية الدعوة الإسلامية؛ إذ كان المسلمون قلة ضعفاء وأعداؤهم كثر أقوياء، فأمرهم الله بالاكتفاء بالجهاد باللسان والدعوة، وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن القتال، فهدى الله بذلك من هدى من المسلمين، كالصديق رضي الله عنه، وعمر الفاروق رضي الله عنه، وعثمان رضي الله عنه، وعلي رضي الله عنه، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب العزلة راحة من خلاط السوء، ٥/ ٢٣٨١، رقم ١٦٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العيد، باب فضل العمل في أيام التشريق، ٢/ ٢٠، رقم ٩٦٩.

(٣) انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص٤٧٨.

(٤) انظر: فتح البيان، القنوجي، ٩/ ٣٢٢، محاسن التأويل، القاسمي، ٧/ ٤٣٢.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص٥٨٤.

بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله، وجم غفير من الصحابة رضي الله عن الجميع وأرضاهم.

ومن الجهاد باللسان الجهر بالحق، قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (أفضل الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطانٍ جائرٍ)[1].

وقال عبد الله بن مسعودٍ: «النّاس ثلاثةٌ فما سواهم فلا خير فيه: رجلٌ رأى فئةً تقاتل في سبيل الله فجاهد بنفسه وماله، ورجلٌ جاهد بلسانه، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ورجلٌ عرف الحقّ بقلبه»[2].

وقد يكون الجهاد باللسان في الدعوة، بدعوة الناس إلى التمسك بالدين القويم، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، فهي دعوة فقط ليس فيها قتال، بل توجيه وإرشاد وإيضاح للحق والخلق الكريم، وتحذير من خلافه بالكلام الطيب واللطف والجدال بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

إلى غير ذلك من الآيات التي فيها الأمر بالصفح والإعراض عنهم، والجدال بالتي هي أحسن، إلى غير ذلك، وليس فيها الأمر بقتالهم.

ويكون الجهاد باللسان بالرد على أهل البدع والضلالات، قال الإمام ابن تيمية: «فالراد على أهل البدع مجاهد، حتى كان يحي ابن يحي يقول: الذب عن السنة أفضل من الجهاد»[3].

ومن صور الجهاد باللسان الجهاد بالقلم، وربما كان أبلغ من الجهاد باللسان وأعم فائدة.

وقد يكون الجهاد باللسان في الدعوة في ندوة أو محاضرة، وقد يكون بهجاء الكفار فعن عائشة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (اهجوا قريشًا، فإنّه أشدّ عليها من رشقٍ بالنّبل)[4].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٢/ ١٣٢٩، رقم ٤٠١١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤٨، رقم ١١٠٠.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، ٩/ ١٨١، رقم ٨٨٩٦.

(٣) مقدمات في علم مقالات الفرق، ١/ ١٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت، ٧/ ١٦٤، رقم ٦٤٧٨.

فضل الجهاد

الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة أعده الله عز وجل لأوليائه الصادقين المخلصين.

قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وهو ذروة سنام الإسلام كما جاء عن معاذ بن جبل، قال: قال صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟)، قلت: بلى يا رسول الله، قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)[1].

ولقد جاءت العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة تبين فضل ومكانة الجهاد في سبيل الله، وفضل المجاهدين في سبيله، وسأتحدث عن فضل الجهاد في سبيل الله في النقاط الآتية:

١. الجهاد في سبيل الله تعالى مفتاح الخير، وباب الفوز والفلاح.

قال الحق جلّ وعلا: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة: ٨٨].

والخيرات: الثواب من الحسنات، وقيل: حور حسان في الجنة، وقيل: أن الخيرات لا يعلم معناها إلا الله[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ٢٠].

ولهم البشارة من الله عز وجل.

قال عز من قائل: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١].

وهذه أعظم البشارات؛ لأن الرحمة والرضوان من الله عز وجل على العبد نهاية مقصوده، ونعيم دائم غير منقطع[3].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لغدوةٌ في سبيل الله، أو روحة، خيرٌ من الدنيا وما فيها)[4].

٢. الجهاد في سبيل الله سبيل الهداية إلى الخير.

قال الخالق تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب التفسير، ١٠/ ٢١٤، رقم ١١٣٣٠.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٢/ ١٣٨.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٨٠، تفسير القرآن، السمعاني، ٢/ ٣٣٦، مفاتيح الغيب، الرازي، ١٦/ ١١٩.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٤٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسرايا، باب الغدوة والروحة في سبيل الله، ٣/ ١٠٢، رقم ٢٦٣٩.

جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

«وعن ابن عباس: جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا، وعن الجنيد: جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، أو جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا»[(١)].

٣. الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة مع الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف: ١٠-١١].

فقد جاء أن الصحابة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال، فنزلت السورة ومن ضمنها هذه الآيات[(٢)].

وقد أوجب الله عز وجل من هذه التجارة للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم الجنة جزاء لهم.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه؛ فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم الله فأغلى ثمنهم»[(٣)].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمانٌ بي، وتصديقٌ برسلي، فهو عليّ ضامنٌ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلًا ما نال من أجرٍ أو غنيمة)[(٤)].

٤. الجهاد في سبيل الله عز وجل مقدم على جميع المصالح الدنيوية.

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ

(١) مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٦٨٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١١٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢١٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ٣/ ١٤٩٥، رقم ١٨٧٦.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي ذلك دليل على عظم هذه العبادة التي يقوم بها المجاهد في سبيله.

٥. الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال، وأصحابه لهم أعلى الدرجات.

فالقاعدون عن الجهاد من المؤمنين الصالحين مهما اجتهدوا في أعمال البر والطاعة في غير ميدان الجهاد فلن يلحقوا بركب المجاهدين.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥].

أي «لا يعتدل المتخلّفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الإيمان بالله وبرسوله، المؤثرون الدعة والخفض والقعود في منازلهم على مقاساة حزونة الأسفار والسير في الأرض، ومشقة ملاقاة أعداء الله بجهادهم في ذات الله، وقتالهم في طاعة الله»[(١)].

فالعبادات من صلاة وصيام من أفضل الأعمال، لكن الجهاد يعدل ذلك وزيادة، وفيه من المكابدة والصبر بحيث لا يستطيع أحد القيام بمثله.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: (لا أجده)، قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر)، قال: ومن يستطيع ذلك، قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد لَيَسْتنُّ في طوله فيكتب له حسنات[(٢)].

«قال ابن عياض: اشتمل حديث الباب على تعظيم أمر الجهاد، لأن الصيام وغيره مما ذكر من فضائل الأعمال قد عدلها كلها الجهاد حتى صارت جميع حالات المجاهد وتصرفاته المباحة معادلة لأجر المواظب على الصلاة وغيرها، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (لا تستطيع ذلك) وفيه: أن الفضائل لا تدرك بالقياس، وإنما هي إحسان من الله تعالى لمن شاء، واستدل به على أن الجهاد أفضل الأعمال»[(٣)].

«وقال ابن دقيق العيد: القياس يقتضي أن الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل ؛ لأن الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره

(١) جامع البيان، الطبري، ٩/ ٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، ٣/ ١٠٢٦، رقم ٢٦٣٣.

(٣) لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، محمد آل هادي، ص١٥٠.

وإخماد الكفر ودحضه، ففضله بحسب فضل ذلك»[1].

والمجاهد في سبيل الله أفضل الناس بنصّ كلام الحبيب؛ قيل: يا رسول الله، أيّ الناس أفضل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مؤمنٌ يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله)، قالوا: ثم من؟ قال: (مؤمنٌ في شعب من الشّعاب يتّقي الله، ويدع الناس من شرّه)[2].

والله عز وجل يرفع المجاهد في الجنة مائة درجة، قال عليه السلام: (من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها)، فقالوا يا رسول الله أفلا نبشر الناس؟ قال: (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه - فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)[3].

(١) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ٣/ ٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ٣/ ١٠٢٦، رقم ٢٦٣٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، ٣/ ١٠٢٨، رقم ٢٦٣٧.

مقاصد الجهاد

شرع الله عز وجل الجهاد في سبيل الله لحكم ومقاصد سامية، وتنوعت هذه المقاصد بما فيها الخير والصلاح لهذه الأمة، وبين ذلك في كتابه العزيز، فما هي هذه الأهداف التي شرع الجهاد من أجلها:

أولًا: إقامة حكم الله عز وجل في الأرض:

لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة للبشرية، ولا رفعة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، وبتطبيق أحكامه.

والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى له صورة واحدة وطريق واحد لا سواه، وهو العودة بالحياة كلها إلى منهج الله عز وجل الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم، وهو تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها، والتحاكم إليه وحده في شؤونها، وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله عز وجل[4].

قال تعالى في محكم التنزيل:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥.

[الأنفال: ٣٩].

فكان لا بد من ضرورة الجهاد لقيام الدعوة واستمرارها، وهو وسيلة من وسائلها، وإقامة حكم الله عز وجل في الأرض هدف من أهداف الجهاد ومقصد أساسي لا يمكن أن نتغاضى عنه، وبتطبيق شرع الله عز وجل تحيا القلوب وتطمئن النفوس، ويأمن الإنسان على أهله وماله، حيث قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء: ١٠٥].

إن الأخطار التي تهدد الدولة المسلمة كثيرة جدًا، منها ما قد يأتي من داخل الدولة، وهذا يتكفل نشر العلم الإسلامي والدعوة إلى الرجوع لحكم الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود بالتصدي له، وأما ما قد يجيء من خارج حدود الدولة الإسلامية، فإن منه ما يكف شره بالبيان، ومنه ما لا سبيل إلى قطع دابره إلا بالسيف والسنان، حيث إن الأمة الإسلامية لا تريد القتال أساسًا لأجل القتال، ولا لأجل الحرب، فلسنا أعداء لأحد من الناس من حيث الابتداء، ولكن لنا من بين الناس أعداء، الذين هم أعداء الله عز وجل، والذين يوقدون نار الحرب، ويسعون للفساد في الأرض، ويفتنون الناس عن الإيمان، ويصدون عن سبيل الله عز وجل، ولكي يحقق الحكم الإسلامي مقصده في إقامة الدين وتطبيق شرع الله عز وجل في الأرض بلا معوقات، فلابد أن يكون مستعدًا لما قد يكون في الطريق من عقبات ترد الدعوة، أو تصد الدعاة عن القيام بواجب نشر الحق.

قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: ٧٨].

ولهذا كان على دولة الإسلام أن تتهيأ لما تواجه به هذه الظروف، وتعد الأمة للجهاد في سبيل الله عز وجل دائمًا ضد كل متصدر للوقوف في طريق كتائب الحق المتحركة نحو رضا الله سبحانه وتعالى، وإذا كان الجهاد وسيلة من وسائل إقامة الدين في الأرض[1].

فإن «إقامة حكم الله في الأرض والتمكين لدينه، غاية من غايات الجهاد في سبيل الله، والذي يجب أن يسعى لتحقيق هذه الغاية هم المسلمون الذين آمنوا بها

(١) انظر: تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، علي الصّلابي، ص ٥٨٢- ٥٨٥.

وذاقوا حلاوتها، وعلموا أن من حق البشر عليهم أن يسعوا لإسعادهم بها، ولو كان الناس يقبلون دعوة المسلمين إلى تحكيم هذا الكتاب عليهم أن يكتفوا بالدعوة إلى ذلك لأنه يحقق الهدف، ولكن أكثر الناس لا يكفيهم أن يرفضوا تحكيم كتاب الله، بل إنهم يقفون محاربين من أراد تحكيمهم بكل ما أوتوا من قوة، وهذا يحتم على أولياء الله أن يجاهدوا أعداءه الذين يحاربونهم من أجله»[1].

إنّ أعداء الإسلام حاربوا هذا الدين بكل وسيلة أتيحت لهم، وعلى رأس هذه الوسائل القوة العسكرية التي احتلوا بها بعض بلدان المسلمين، وهددوا بها بعضها الآخر، متذرعين بحقوق الإنسان التي تحوي موادها حرية الاعتقاد الشاملة للخروج من الدين الإسلامي، وهو الهدف الأساسي عند اليهود والصليبيين والوثنيين، ولم نر هجومًا لهم سواء في الماضي أو الحاضر أو ما سيفعلونه في المستقبل، على أي دين وجد في الأرض مثل هجومهم على دين الإسلام، فهو هدفهم الرئيس من حملاتهم الظالمة.

وبيّن الله سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلذلك أسمى أنواع الجهاد هو إعلاء كلمة الله عز وجل وإقامة حكمه في الأرض، فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: جاء رجلٌ إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: الرّجل يقاتل للمغنم، والرّجل يقاتل للذّكر، والرّجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل اللّه؟ قال: (من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه)[2].

ثانيًا: انتصار الحق على الباطل:

إنّ مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، يكون بعد انتصارهما في عالم الفكر والعقيدة، وانتصار الإيمان في القلوب على الرغب والرهب، والتهديد والوعيد، والتاريخ القديم والحديث مليء بالأحداث الدالة على أن العاقبة لأصحاب

(١) الجهاد في سبيل الله، عبد الله القادري ٢/ ١٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ٤/ ٢٠، رقم ٢٨١٠.

الحق، وأن الدائرة عائدة على الواقفين إلى جانب الباطل، فنحن نرى كيف ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود، ودائمًا ما يكون النصر الأخير مرتبطًا بالنصر الأول، فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن، وإنّ للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية، فأما إذا ظل الإيمان مظهرًا لم يتجسم في القلب، والحق شعارًا لا ينبع من الضمير، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان، فواجب على المجاهدين أن يحققوا الإيمان في النفس وفي القلب؛ لتصبح أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان، وبذلك ينتصر الحق على الباطل[1].

إنّ الحرب سجال بين الحقّ والباطل، ولئن ربح الباطل جولة وإن حقق انتصارات هنا وهناك، فإنها انتصارات آنية واهية، وليست بانتصارات حقيقية واقعية، فإن الحقّ هو المنتصر في النهاية وهو الرابح في جميع الجولات القادمة مهما تفشى كبر وعلا[2]، حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

يقول ابن عاشور «وإن المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم، وهي من النواميس التي جبل عليها النظام البشري»[3].

وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤].

لقد أراد الله عز وجل - وله الفضل والمنة- أن تكون ملحمة لا غنيمة وأن تكون موقعة بين الحق والباطل، ليحق الحق ويثبته، ويبطل الباطل ويزهقه، وأراد أن يقطع دابر الكافرين، وتذل كبرياؤهم، وتخضد شوكتهم، وتعلو راية الإسلام وكلمة الله عز وجل، ويمكّن الله سبحانه وتعالى للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله عز وجل، وتنطلق به لتقرير ألوهيته في الأرض، وتحطيم طاغوت الطواغيت، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف -تعالى عنه علوًّا كبيرًا- وبالجهد والجهاد، وبتكاليف الجهاد ومعاناتها في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٣٤٤.

(٢) انظر: القرآن منهاج حياة، غازي صبحي، ص ١٨٢.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٢/ ١٩٢.

عالم الواقع وفي ميدان القتال[1].

إنَّ المتتبع لآيات القرآن الكريم لا يعجزه أن يقف على حقيقة مفادها: أن الصراع بين الحق والباطل هو سنة أقام الله عز وجل عليها هذه الحياة، وأن الحياة لا يمكن أن يسودها الخير المطلق، بحيث تخلو من الشر، وبالمقابل لا يمكن أن تعاني من الشر المطلق بحيث لا يكون فيها قائم بالحق، والعاقبة للحق دائمًا، فالباطل وإن علا على الحق في بعض الأوقات والأحوال، فإن الله عز وجل يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله، كما قيل: للحق دولة وللباطل صولة[2].

والتاريخ خير شاهد الآن على كيفية المقاومة والجهاد في سبيل الله عز وجل في فلسطين وفي غزة بالتحديد، فقد نصر الله عز وجل تلك المقاومة رغم القوة العسكرية الهائلة التي كان يتمتع بها أعداؤه، وحققت هذه المقاومة انتصارات لا يمكن أن تخضع للتحليل العلمي، وتستعصي عليه، بيد أن الله سبحانه وتعالى جعل النصر حليفها، وذلك لكونها صاحبة حق تدافع عنه، ولكون أعدائها أصحاب باطل ينافحون فيه، ولاشك بأن التاريخ غني بالأمثلة والعبر التي تؤكد على أن المعركة بين الحق والباطل قائمة ومستمرة، وأن الله سبحانه وتعالى يختار للمدافع عن هذا الحق من كان أهلًا للدفاع عنه، وأنه سبحانه وتعالى يجعل العاقبة للحق ولنصرة دعوة الخير في نهاية المطاف، والويل والخذلان والخزي لدعاة السوء والباطل.

قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

هذه الآية الكريمة تدل على أن المؤمنين ما داموا مستمسكين بدينهم، متبعين لأمره ونهيه، قائمين بعمل ما يستدعيه الدفاع عن الدين من أخذ الأهبة وإعداد العدّة لن يغلبهم الكافرون، ولن يكون لهم عليهم سلطان، وما غلب المسلمون على أمرهم إلا بتركهم هدى كتابهم، وتركهم أوامر دينهم وراءهم[3].

ثالثًا: دفع عدوان الكافرين:

إنّ من أسمى أهداف الجهاد في سبيل الله عز وجل دفع عدوان الكافرين والظالمين وهذا الجهاد لدفع العدوان يتمثل بعدة أشكال منها:

١. «رد اعتداء الكفار في ديار

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٤٨١.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٢٣، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ١٤، روح البيان، إسماعيل حقي، ٤/ ٣٦٠.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٥/ ١٨٥.

المسلمين»[1].

قال سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۚ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٢].

فقد نص الفقهاء وعلماء الدين على أنه إذا اعتدى الكفار على المسلمين في قعر دارهم، تعين عليهم الجهاد وذلك للدفاع عن الديار؛ لأن العدو الكافر إذا احتل دارًا للمسلمين سام فيها العذاب، ونفذ فيها أحكامه الكافرة، وأجبروا أهلها على الخضوع له، فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام[2].

قال بعض علماء الحنفية: «وحاصله أن كل موضع خيف هجوم العدو منه فرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدروا فرض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو»[3].

قال ابن قدامة: «ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع... الثاني، إذا نزل الكفار ببلد، تعين على أهله قتالهم ودفعهم»[4].

٢. أن يعتدي الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة في أرض الكفار.

لا سيما إذا لم تستطع هذه الفئة أن تنتقل إلى بلاد تأمن فيها على دينها، فإن الواجب على الدولة الإسلامية أن تعد العدة لمجاهدة الكفار الذين اعتدوا على تلك الطائفة حتى يخلصوها من الظلم والاعتداء الواقع عليها[5].

قال تعالى: ﴿۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ [النساء: ٧٤-٧٥].

قال القرطبي رحمه الله: «حض على الجهاد، وهو يتضمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب، ويفتنونهم عن الدين، فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته وإظهار دينه

(١) المغول التتار بين الانتشار والانكسار، علي الصلابي، ص ٢١٧.
(٢) انظر: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي الصلابي ص ٣٦٠.
(٣) حاشية ابن عابدين رد المحتار، ٤/ ١٢٤.
(٤) المغني، ٩/ ١٩٧.
(٥) انظر: الجهاد في سبيل الله، عبد الله القادري، ٢/ ١٦٢، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي الصلابي ص ٣٦٠.

واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس، وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال، وذلك أوجب لكونها دون النفوس إذ هي أهون منها»[1].

لقد جاهد الإسلام ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها وتقع عليهم من الكفار، وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وقرر ذلك المبدأ العظيم فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها، وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها، فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم، وإذا كان المؤمن مأذونًا في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله، فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه[2].

٣. أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه، حتى وإن كانوا كفارًا.

إنّ الله سبحانه وتعالى حرم على نفسه الظلم وحرمه على عباده، حيث قال في الحديث القدسي عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنّه قال: **(يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا، فلا تظالموا)**[3].

والعدل في الأرض واجب لكل الناس، وإذا لم يدفع المسلمون الظلم عن المظلومين أثموا؛ لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ونشر العدل والقضاء على الظلم، ولا فلاح لهم إلا بذلك، قال عزّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨][4]، ولا فلاح لهم إلا بذلك وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما كانوا خير أمة أخرجت للناس إلا بذلك كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ومن العدل كف الظلم عن المظلوم الكافر الذي يبغضه المسلم لكفره[5].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٧٩.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٢٩٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٥٥.
(٤) انظر: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي الصلابي ص ٣٦٠- ٣٦١.
(٥) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، علي الصلابي ص ٥٩١.

قال السرخسي«وإن كان طلب الذمة على أن يترك يحكم في أهل مملكته بما شاء من قتل أو صلب أو غيره مما لا يصلح في دار الإسلام لم يجب إلى ذلك؛ لأن التقرير على الظلم مع إمكان المنع منه حرام»[1].

٤. الوقوف ضد الدعاة إلى الله عز وجل ومنعهم من تبليغ دعوته سبحانه وتعالى.

إنّ المسلمين مفروض عليهم من قبل المولى عز وجل أن يبلغوا رسالات الله سبحانه وتعالى للناس كافة.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وأعداء الله عز وجل يصدون أولياءه وعباده عن تبليغ دعوته ولا يتركون لهم سبيلًا إلى الناس، كما لا يأذنون للدعاة أن يسمعوا الدعوة إلى الله عز وجل للناس، ويضعون العراقيل والعوائق والحواجز بين الدعوة ودعاتها وبين الناس، ولذلك أوجب الله عز وجل على عباده المؤمنين قتال كل من يصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى[2].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد: ١-٤].

الإسلام جاهد لتقرير حرية الدعوة- بعد تقرير حرية العقيدة- فقد جاء الإسلام بأكمل تصور وبأرقى نظام للوجود لتطوير الحياة، جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها ويبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولا إكراه في الدين، ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة كما جاء من عند الله عز وجل للناس كافة، وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا ذلك، ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضًا، فالجاهد في سبيل عز وجل يحطم هذه النظم الطاغية

(١) المبسوط، ١٠/ ٨٥.
(٢) انظر: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي الصلابي ص ٣٦١.

ويقيم مكانها نظامًا عادلًا يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعاة، وما يزال هذا الهدف قائمًا، وما يزال الجهاد مفروضًا على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين![1]

رابعًا: نصر المظلومين:

أمر الله عز وجل بالجهاد للتمكين لأهل دينه ورد اعتداء المعتدين ونصرة المستضعفين، ويتطلب الواجب السابق بالدفاع عن الإسلام والمسلمين، ورد العدوان عنهم الذي يستهدف أوطان المسلمين وينتهك حرماتهم، وتحرير الإنسان من الظلم والاضطهاد، وذلك يكون بضرورة التعاون البنّاء بين جميع بلاد الإسلام، كما كان عليه حال الأمة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وما تلاه من عهود موحدة، وذلك في مختلف المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إذ إن روابط الإخاء والوحدة في عقيدة الإيمان يتمخض عنها الحب والمساواة والتعاون على الخير في السراء والضراء، ونصرة المظلوم فردًا أو جماعة من المؤمنين، وإغاثة المستضعفين المسلمين، أو حماية الأقليات في بلاد أخرى من انتقاص الحقوق، وإقامة العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض، وذلك عند القدرة والإمكان.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥][2].

قال الشعراوي رحمه الله: «إن القتال يكون في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين، وفي ذلك استثارة للهمم الإنسانية حتى يقف المقاتل في سبيل رفع العذاب عن المستضعفين، بل إننا نقاتل ولو من باب الإنسانية لأجل الناس المستضعفين في سبيل تخليصهم من العذاب؛ لأنهم ما داموا صابرين على الإيمان مع هذا العذاب، فهذا دليل على قوة الإيمان، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب»[3].

من أهم أسس الجهاد في سبيل الله عز وجل، أن يستخدم المسلمون القوة التي أمرهم الله سبحانه وتعالى بإعدادها للجهاد في سبيله.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٢٩٤.

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي، ٨/ ٦٤٠٧.

(٣) تفسير الشعراوي، ٤/ ٢٤١٧.

﴿٦٠﴾ [الأنفال: ٦٠].

وتكون هذه العدة في سبيل نصرة المستضعفين من المؤمنين[(١)].

وخصّ الله عز وجل المستضعفين بالذكر مع أن القتال في سبيل الله عز وجل يشملهم، لمزيد العناية بشأنهم، وللتحريض على القتال بحكم الشرف والمروءة، بعد التحريض عليه بحكم الدين والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، لأن مروءة الإنسان الكريم تحمله على نصرة الضعيف، ومنع الاعتداء عليه، وفي النص على هؤلاء المستضعفين وخصوصًا النساء والولدان، أقوى تحريض على الجهاد، وأعظم وسيلة لإثارة الحماس والنخوة من أجل القتال، لأنهم إذا تركوا هؤلاء المستضعفين أذلاء في أيدي المشركين، فإنهم سيعيرون بهم، وهذا ما يأباه كل شريف كريم[(٢)].

يقول الزحيلي: «اقتضت حكمة الله ورحمته وعدله وفضله أن ينصر الضعفاء والمستضعفين، وينتقم من الأقوياء المتغطرسين والأشداء الظالمين، وميزان العدل لا يتغير، والفضل الإلهي لا يختلف بين جيل وجيل»[(٣)].

واجب المسلمين اليوم أن يهبوا لنصرة إخوانهم المستضعفين، فهذا أمر لا يحل لهم تركه، فإن نصرة المستضعفين أمر واجب على إخوانهم، ولا عذر لهم في ترك الجهاد وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والأذى، فالله عز وجل جعل لكل شيء قدرًا، وأبى المستكبرون إلا إهانة المستضعفين علوًّا في الأرض واستكبارًا[(٤)].

والذين يتقاعسون عن نصرة المستضعفين من المسلمين في كل مكان، هل يظنوا أن يحميهم الله عز وجل من بطش أعدائهم وهم الذين تركوا دينه وخانوا أمتهم من أجل عرض الحياة الدنيا الفانية؟، وهل سينصرهم الله سبحانه وتعالى بعد ذلك؟!.

وجدير بالذكر أن الصلح مع إسرائيل والاعتراف باستيلائها على فلسطين يتضمن إنكارا لأحكام شرعية واجبة ومعلومة من الدين بالضرورة، فهو يتضمن إنكار وجوب نصرة المسلمين في فلسطين وهو واجب عيني معلوم من الدين بالضرورة، والمستضعفين اليوم يتمثلون بالأسرى خلف القضبان، فواجب على الناس أن يفدوا الأسارى بجميع أموالهم، ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حثنا على نصرته[(٥)].

(١) انظر: الاتجاهات الحديثة في تخطيط المناهج الدراسية، محمود أحمد شوق ص ٣١٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٢١٩.
(٣) التفسير الوسيط، ١/ ٧١٦.
(٤) انظر: لباب التأويل، ١/ ٣٩٨-٣٩٩.
(٥) انظر: مفهوم الولاء والبراء في القرآن والسنة، علي الشحود، ص ٣٨٦.

فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (فكّوا العاني، يعني: الأسير، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض)[1].

[انظر: القتال: نتائج القتال وعواقبه]

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، ٤/ ٦٨، رقم ٣٠٤٦.

صفات المجاهدين

فضل الله سبحانه وتعالى المجاهدين في سبيله على القاعدين.

قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

ولكن ليس كل من حمل السلاح وحارب العدو نال بركة الجهاد، وحصل على آثاره الطيّبة، فكثيرون هم الذين قاتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن عندما وافته المنيّة انقلبوا على أعقابهم خاسرين.

قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢١].

إنّ هذا العمل الجهادي وتقدمه وتطوره يعتمد بشكل أساسي على كفاءة القائمين عليه وهم المجاهدون، يجب أن تتوافر بعض الصفات كحد أدنى في المجاهد المرابط في سبيل الله عز وجل، وبعض هذه الصفات ذاتية تولد وتنشأ مع الإنسان، وبعضها مكتسب بالعمل المتواصل والجد واكتساب الخبرة، وسأكتفي بذكر بعض منها فيما تدل على ما سواها من الصفات، وهي:

أولًا: التقوى.

من يخش الله سبحانه وتعالى ويتّقه حق تقاته يجتنب ما حرّمه ونهى عنه، ويؤدّ ما فرضه وأوجبه، هذا هو الإنسان المتّقي

الذي يخاف الله عز وجل ويحرص على عدم معصيته ومخالفة أمره، فتكون بذلك أعماله مورد قبول الحق ورضاه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢].

فالتقوى تعدّ شرطًا أساسيًّا لأن الله عز وجل لا يطاع من حيث يعصى، وإذا لم يحافظ المجاهد في سبيل الله عز وجل على حدود الله يخشى أن يسلب منه فضل الجهاد والتوفيق إليه، «وقال بعض الحكماء: العاقل من يخاف على حسناته»[1]، فالله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

لأن المجاهد إذا لم يكن مراعيًا لحدود الله عز وجل وملتزمًا بشريعته فسيكون عرضةً لفتن النفس الأمّارة بالسوء والأهواء المضلّة، ما سينعكس سلبًا على عمله وجهاده حتمًا، وأن الطاعة لا تقبل إلّا من مؤمن متقٍ يخاف الله في كل حركاته وسكناته[2].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

فساحات الجهاد يجب أن تكون طاهرة وخالية من المعاصي وآثارها الهدّامة التي تحول دون نشوء جبهة قوية، وذلك لأنه يجوز أن يكون الهوى موافقًا للحق، وإن كان نادرًا[3].

ثانيًا: الإخلاص.

الإخلاص من الصفات المهمة التي ينبغي للمجاهد التحلي بها؛ لأنها منشأ كل هداية وتوفيق، فالله سبحانه وتعالى أمر الناس بالعبادة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وجعلها شرطًا أساسيًّا للارتباط به وتحقق العبودية والوصول إلى مقامها الشامخ، ولكنه لم يأمر بأي عبادة، بل أمر عز وجل بالعبادة الخالصة له التي لا يشاركه فيها أحدٌ أبدًا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

فالمخلص هو الذي لا يطلب من وراء أي عملٍ يقوم به سوى الله سبحانه وتعالى، والمجاهد في سبيل الله عند أدائه لواجباته وتكاليفه الشرعيّة هو في حالة عبادة، وإذا لم تكن النوايا خالصةً ولم يكن الدافع الأساسي من وراء الجهاد رضا الله فلن تكون أعماله مقبولة، وبالتالي لن ينال الأجر والثواب الذي يستحقّه، فعن أبي أمامة الباهليّ، قال: جاء رجلٌ إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس

(١) تفسير السمرقندي، ١/ ٣٨٤.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٢٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ٤/ ١٤٦.

الأجر والذّكر، ماله؟ فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (لا شيء له) فأعادها ثلاث مرّاتٍ، يقول له رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (لا شيء له) ثمّ قال: (إنّ اللّه لا يقبل من العمل إلّا ما كان له خالصًا، وابتغي به وجهه)[(١)].

وقال ابن القيّم رحمه الله تعالى: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا ينقله ولا ينفعه»[(٢)].

ثالثًا: طاعة القائد والتقييد بالأوامر.

الطاعة هي أساس التنظيم الجهادي وهي أساس نجاح المجاهد المرابط، وذلك لاختلاف وخطورة المهام الموكلة له، وهي من الواجبات الشرعية التي أكد عليها الإسلام بشدة، لأن حفظ النظام وديمومته ونجاح الأعمال شرطها الأساسي طاعة القائد فيما يرشدهم إليه.

وبينّ الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه العزيز: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

أما التمرّد على القيادة الشرعية وعدم طاعتها فيدلّ في الواقع على عبادة النفس والتعصب للذات وهو ينافي مبدأ التسليم للحق والطاعة له، فإنّ التنازع والاختلاف في الرأي يسبب الفشل، وهو الجبن والفشل في الحرب[(٣)].

رابعًا: الصبر.

الصبر من صفات المجاهد الأساسية ومن دونه لن يتمكّن من مواجهة الصعاب وتحمّل المشاكل التي تنتظره، لذا أمر الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين قائلًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

بالصبر على المكاره يدرك المجاهد مرضاة الله عز وجل، وبالصلاة يصل لحاجاته عنده، فإنه مع الصابرين على القيام بأداء فرائضه وترك معاصيه، وينصرهم ويرعاهم ويكلؤهم، حتى يظفروا بما طلبوا وأمّلوا قبله[(٤)].

يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيرًا، فلا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، وعلى جهاد المشاقين لله سبحانه وتعالى، والكيد بشتى صنوفه، وبطء النصر، وانتفاش الباطل، وقلة الناصر، وطول الطريق الشائك، والتواء النفوس، وضلال القلوب، وثقلة العناد والإعراض، ويقرن الصلاة إلى الصبر فهي المعين الذي لا

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، ٦/ ٢٥، رقم ٣١٤٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٧٩، رقم ١٨٥٦.
(٢) نضرة النعيم، مجموعة باحثين، ٢/ ١٣٩.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٥٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ٢١٣.

ينضب، والزاد الذي لا ينفد، وتجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع، ثم يضيف إلى الصبر، الرضى والطمأنينة، والثقة، واليقين[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

وتاريخ العظماء يؤكد أن أحد أهم عوامل انتصارهم هو صبرهم واستقامتهم، أما الفاقدون لهذه الصفة فسرعان ما ينهارون وينهزمون، ويكفي للدلالة على مدى أهمية الصبر بالنسبة للمجاهد ما ذكره القرآن الكريم حين أمر الله سبحانه وتعالى النبي صلى الله عليه وسلم بالقتال وتحريض المؤمنين عليه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال: ٦٥].

والسبب الرئيس الذي يقف وراء انتصار المسلمين القلة في مثل هذه المعارك هو صبرهم وتجلدهم أمام عدو يفوقهم عددًا وعدّة، وتمتّعهم بروحية الثّبات والاستقامة التي هي ثمرة شجرة الإيمان.

خامسًا: السرية والكتمان.

من الأمور التي ينبغي أن ترافق أي عمل عسكري أو أمني ناجح السرية التامة، فالسرية في تهيئة الأمور تعطي العمل الجهادي الفرصة لتسديد الضربات المفاجئة والصادمة للعدو، ولضمان سرية العمل ودقة المعلومات وخطورة النتائج المترتبة من تسرب المعلومات، ومن ضمنها عدم وصول المعلومات للعدو أو أي إيحاء عن وجود أي مخطط ولو بشكل إجمالي كي لا يتحرز فيفشل المخطط.

كما أن المجاهد قد يطلع على كثير من أسرار الناس وتسريب بعض المعلومات قد يؤدي بهم إلى ضرر كبير فيجب عليه عدم التحدث بها حتى لأقرب الأقربين إليه، فقد يبوح البعض بأسرار العمل لأهلهم، أو عيالهم، أو لبعض الأصدقاء ممن يعتبرونهم أمناء على معلومات العمل لحسن ظاهرهم.

وهذا خطأ كبير قد لا يمكن تداركه، وقد يتسبب بإزهاق الأرواح البريئة، حيث إنّ الإسلام حذّر من إذاعة الأسرار العسكرية، كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها.

قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٤١-١٤٢.

﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾ [الأحزاب: ٦٠].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣][1].

سادسًا: الإيثار والشجاعة.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى الإيثار صفة من صفات الأبرار التي ذكرها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حيث قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فوجب على المجاهد إيثار الغير على نفسه، حيث إن العمل الجهادي يمتاز بالخطورة والمخاطرة بالمال والنفس، كما يمتاز العمل بروح الجماعة المضحية لبعضها البعض في حالة وقوع أحدهم في الخطر، وشد بعضهم البعض في حالة حدوث مشكلة أو أزمة.

سابعًا: التمتع بالأخلاق العالية.

الأخلاق العالية والكريمة صفة رحمة يتصف بها الإنسان المحب لأهله والمسلمين، وهي صفة يتصف بها المجاهد المرابط لشعوره العميق بالدور الذي يؤديه ولإخلاصه في الواجب عليه، وهي أيضًا صفة تساعده على كسب ثقة المجتمع و اكتساب عدد كبير من الأصدقاء ومحبة الناس، كما أن التهذيب صفة أساسية للمجاهد وذلك حتى يتمكن من عكس الصورة الحسنة له، وإبراز الوجه المشرق لعمله في الحفاظ على عمله والذي يقوم بحمايتهم بجهاده، فالمجاهد يجب عليه أن يتحلى بأسمى الصفات وأرفعها، وخير قدوة له خير البرية صلى الله عليه وسلم.

ثامنًا: التوكل على الله عز وجل.

يجب أن يكون التوكل أقوى أسلحة المجاهد في سبيل الله عز وجل، لأنه يؤمن بأن الحول والقوة بيد الله سبحانه وتعالى، وأنه المؤثر الحقيقي والوحيد في هذا العالم، وأن الأمور كلّها في الحقيقة ترجع إليه، وليس على الإنسان الصادق في إيمانه سوى أن يعبد الله عز وجل فيما أمره وأن يتوكّل عليه، فلا يعتمد على نفسه إطلاقًا ولا يكون همّه نتائج أعماله، بل جلّ اهتمامه يكون منصبًّا على طاعة ربه وأداء تكليفه بصدق وإخلاص، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

وهذا لا يعني ترك العمل والإعداد، وتهيئة السلاح والمعدّات، وزيادة القوة العسكرية وتطوير الكفاءات، والحرص

(١) انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب ص ٥٢.

على التنظيم وغيرها من الأمور، بل كل هذه الأمور ضرورية وأساسية ويجب الاهتمام بها وتوفيرها بحسب القدرة والوسع، ووجوب إعداد القوة وهي في كل زمان بحسبه، إن كانت في الماضي الرمح والسيف ورباط الخيل، فهي اليوم النفاثة المقاتلة والصاروخ، والدبابة والغواصة، وإلى غير ذلك من آلات لمحاربة ودفع العدو[1]، كما يقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

تاسعًا: ذكر الله: عز وجل.

لقد أمر الله عز وجل المجاهدين أن يذكروه عند لقائهم العدو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

وليس المراد بالذكر هنا الذكر اللفظي فحسب، بل المقصود منه أيضًا الذكر القلبي، بمعنى حضور الله سبحانه وتعالى في قلوبنا، بحيث لا نغفل عن علمه وقدرته غير المحدودة ورحمته الواسعة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ويقبل عليه فارغ البال، واثقًا بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال[2]، ومثل هذا التوجه إلى الله يقوّي من عزيمة المجاهد في ميدان القتال، ويشعره على الدوام بأنّ هناك سندًا قويًّا يدعمه في ساحة المواجهة، لا تستطيع أية قدرة في الوجود أن تتغلب عليه، فذكر الله عز وجل يبعث على الاطمئنان والقوّة والقدرة والثبات في نفس المجاهد، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٣٢٥.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٦٢، مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٦٤٩.

الشهادة في سبيل الله

الشهادة من أعظم الجهاد، لأنه لا شيء أعزّ على الإنسان من الحياة، إلا من بلغ به إيمانه إلى تعظيم الله تعالى وحده وحبه، وبغض أعدائه، فعندئذ تأبى نفسه أن ترى عدو الله على وجه الأرض منعمًا بالحياة، متقلبًا في نعمة الله جل جلاله، ثم هو في ذلك كله يكفر به ويجحده ويشرك به، ولهذا تدعوه الحمية الدينية على أن يجاهده، فإما أن يرده إلى الحق، أو أن يدفع الجزية عن يد وهو صاغر -إن كان من أهل الكتاب- أو يقتله أو يقتل، فيكتب عند الله من الشهداء، ينال الفضل من الله، وسنتناول في هذا المبحث بإذن الله تعالى فضل الشهادة في سبيل الله، وشروطها.

أولًا: فضل الشهادة في سبيل الله:

الشهادة في سبيل الله شرف عظيم، ومقام رفيع، لا يناله إلا المصطفون الأخيار، ولا يهبها الله إلا لمن يستحقّها؛ فهي اختيار من العليّ الأعلى للصفوة من البشر؛ ليعيشوا مع الملأ الأعلى.

قال عز وجل: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

أي: يكرمكم بالشهادة[1].

قال السهيلي: «وفيه فضل عظيم للشهداء، وتنبيه على حب الله إياهم حيث قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولا يقال: اتخذت، ولا اتخذ إلا في مصطفى محبوب.

قال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

فالاتخاذ إنما هو اقتناء واجتباء...»[2].

فهي اصطفاء من البشر ليكونوا في صحبة الأنبياء.

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

والشهيد الذي غادر هذه الدنيا ليس بميتٍ، ولا يحسب في عداد الأموات، بل هو حيٌّ يعيش حياةً برزخيّة يعلمها الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢١٨.

(٢) الروض الأنف، ٦/ ٤٢.

مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

فهذه الآيات تبين المنازل العظيمة والدرجات الرفيعة التي ينالها الشهيد، فهم أحياء يتنعمون ويتلذذون بألوان النعم التي أعدها لهم ربهم في جواره[١].

قال الشعراوي: «الله سبحانه يريد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حي، ومن ضروريات الحياة أنه يُرزق أي ينتفع باستبقاء الحياة، وعلينا أن نفهم أن العندية عندك غير العندية عند الله، فالشهيد حي عند ربه ويرزق عند ربه رزقًا يناسب الحياة التي أرادها له ربه»[٢].

فالشهيد له مكانة عظيمة، قال القرطبي: «سمي شهيدًا لأنه مشهود له بالجنة وقيل: سمي شهيدًا لأن أرواحهم احتضرت دار السلام، لأنهم أحياء عند ربهم، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة، فالشهيد بمعنى الشاهد، أي: الحاضر للجنة»[٣].

وقد بين لنا هذه المكانة العظيمة المصطفي عليه السلام حيث قال: (ما من أحدٍ يدخل الجنّة يحبّ أن يرجع إلى الدّنيا، وأنّ له ما على الأرض من شيءٍ، غير الشّهيد، فإنّه يتمنّى أن يرجع، فيقتل عشر مرّاتٍ، لما يرى من الكرامة)[٤].

ولو لم يكن للقتل والشّهادة في سبيل الله من الأجر الكبير لما تمنّى محمد صلى الله عليه وسلم أن يقتل في سبيل الله ثلاث مرّات، كما جاء عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (انتدب اللّه لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلّا إيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي، أن أرجعه بما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ، أو أدخله الجنّة، ولولا أن أشقّ على أمّتي ما قعدت خلف سريّةٍ، ولوددت أنّي أقتل في سبيل اللّه ثمّ أحيا، ثمّ أقتل، ثمّ أحيا، ثمّ أقتل)[٥].

وإليكم هذه الفضائل التي يحوزها الشهيد؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (للشهيد عند الله ستّ خصال: يغفر له في أوّل دفعة، ويرى مقعده من الجنّة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويزوّج اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه)[٦].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٦٠.
(٢) تفسير الشعراوي، ٣/ ١٨٧٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٢١٨.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا، ٣/ ١٠٣٧، رقم ٢٦٦٢، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ما يعدل الجهاد، ٦/ ٣٥، رقم ٤٩٠٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، ١/ ١٦، رقم ٣٦.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، باب في ثواب

ومن فضائل الشهادة في سبيل الله أن الشهيد لا يحس بألم، فقد جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يجد الشّهيد من مسّ القتل إلّا كما يجد أحدكم من مسّ القرصة)[1].

وإذا قتل الشهيد لم ينقطع عمله الصالح، بل يزيد ويتضاعف؛ فعند الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (كلّ ميتٍ يختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله؛ فإنّه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر)[2].

ثانيًا: شروط الشهادة في سبيل الله:

إن للشهادة في سبيل الله شروطًا، لا بد من توافرها حتى يقبل صاحبها في مقام الشهداء، عند الله عز وجل، وهي:

١. الإسلام.

فلا بد أن يكون الشهيد مسلمًا، فلا تقبل الشهادة من الكافر والمشرك، ولا ينتفع بشيء من جهاده؛ لأن الشرك يحبط العمل ويبطله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣].

وعن عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جئت لأتبعك، وأصيب معك، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تؤمن بالله ورسوله؟) قال: لا، قال: (فارجع، فلن أستعين بمشرك)، قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أول مرة، قال: (فارجع، فلن أستعين بمشرك)، قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة: (تؤمن بالله ورسوله؟) قال: نعم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فانطلق)[3].

الشهيد، ٣/ ٢٣٩، رقم ١٦٦٣.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٢٠، رقم ٥١٨٢.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل الرباط، ٤/ ١٩٠، رقم ١٦٦٨.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠١٢، رقم ٥٨١٣.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، باب فضل من مات مرابطًا، ٤/ ١٦٥، رقم ١٦٢١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣٧، رقم ٤٥٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة بالغزو بالكافر، ٣/ ١٤٤٩، رقم ١٨١٧.

٢. الإخلاص.

فهو أساس قبول العمل، فلا بد أن تكون الشهادة في سبيل الله؛ خالصة لوجهه الكريم، ابتغاء مرضاته، والفوز بالأجر العظيم، لا يراد منها سمعة ولا رياءً، فالإخلاص شرط لكل عملٍ تعبدي، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء رجلٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذّكر ما له؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا شيء له)، فأعادها ثلاث مرّاتٍ، يقول له رسول الله: (لا شيء له)، ثم قال: (إنّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه)[(١)].

وعن أبي موسى الأشعري، قال: قال أعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، ويقاتل ليرى مكانه، من في سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[(٢)].

٣. الثبات والصبر وعدم الفرار.

فمن يقتل وهو مدبر فار من الزحف، حتى لو قتل في ساحات المعركة، فهو ليس بشهيد، بل له وعيد شديد؛ لأنه قد مات على كبيرة من كبائر الذنوب، وقد وضحت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة هذا الشرط ونهت عن ضده من التولي يوم الزحف والفرار من المعركة، كما جعلت درجة الشهادة لمن تحلى بهذه الصفة.

قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

«والثبات إنما يكون بقوة القلب وشدة اليقين، ولا يكون ذلك إلا لنفاذ البصيرة، والتحقق بالله، وشهود الحادثات كلها منه، فعند ذلك يستسلم لله، ويرضى بحكمه، ويتوقع منه حسن الإعانة، ولهذا أحالهم على الذكر فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾»[(٣)].

وأمر سبحانه وتعالى بالصبر والمصابرة في وجه الأعداء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال ابن عاشور: «فأمرهم بالصبر الذي هو جماع الفضائل وخصال الكمال، ثم بالمصابرة وهي الصبر في وجه الصابر،

(١) أخرجه النسائي في سننه، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، ٥/ ٢٥، رقم ٣١٤٠.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٧٩، رقم ١٨٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره٣/ ١١٣٧، رقم ٢٩٥٨.

(٣) لطائف الإشارات، القشيري، ١/ ٦٢٨.

وهذا أشد الصبر ثباتًا في النفس وأقربه إلى التزلزل، ذلك أن الصبر في وجه صابر آخر شديد على نفس الصابر؛ لما يلاقيه من مقاومة قرن له في الصبر قد يساويه أو يفوقه، ثم إن هذا المصابر إن لم يثبت على صبره حتى يمل قرنه فإنه لا يجتني من صبره شيئًا، لأن نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبرًا»[(١)].

وقد توعد الله عز وجل الفارين من القتال بالغضب والعذاب الشديد، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٦].

واستثنى من كونه فرارًا حالتين:

الأولى: التحرف: وهو من باب مكايدة العدو، أي الفر للكر، يوهمه أنه منهزم ليتبعه العدو فيكر عليه ويتمكن منه، ونحو ذلك من مكائد الحرب فإن الحرب خدعة.

الثانية: التحيز: وهو الانضمام لقتال فئة أهم ممن يقاتلهم[(٢)].

فالفرار من المعركة اعتبره النبي صلى الله عليه وسلم من الكبائر، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (اجتنبوا السبع الموبقات)، قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[(٣)].

فالإقبال وعدم الإدبار عند لقاء العدو شرط لقبول الشهادة، فعن أبي قتادة، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قام فيهم فذكر لهم أنّ الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجلٌ، فقال: (يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله، تكفّر عنّي خطاياي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، إن قتلت في سبيل الله، وأنت صابرٌ محتسبٌ، مقبلٌ غير مدبرٍ)، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كيف قلت؟) قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفّر عنّي خطاياي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، وأنت صابرٌ محتسبٌ، مقبلٌ غير مدبرٍ، إلّا الدّين، فإنّ جبريل عليه السّلام قال لي ذلك)[(٤)].

قال النووي: «هذه الفضيلة العظيمة للمجاهد، وهي تكفر خطاياه كلها إلا حقوق الآدميين، وإنما يكون تكفيرها بهذه الشروط المذكورة وهو أن يقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، وفيه: أن الأعمال لا تنفع إلا بالنية

(١) التحرير والتنوير، ٤/ ٢٠٨.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٥/ ٢٢٦، فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٣٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رمي المحصنات، ٦/ ٢٥١٥، رقم ٦٤٦٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، ٣/ ١٥٠١، رقم ١٨٨٥.

والإخلاص لله تعالى»[1].

٤. أن يكون قتاله واستشهاده على السّنّة.

فلا بد أن تتحقق فيه صفة المتابعة، فيغلّب الانقياد والمتابعة للشريعة، على حب التشفي والانتقام والإجرام في القتل، فيراعي الحدود الشرعية، أما من يغلّب الهوى وحب التشفي والانتقام على الحكم الشرعي، فيضع السيف حيث ينبغي شرعًا أن يرفعه، ويرفعه حيثما ينبغي شرعًا أن يضعه فمن كان هذا منهجه في القتال ثم قتل عليه، يفقد صفة وحكم الشهيد في سبيل الله، وما أعد الله تعالى للشهيد من مقام عظيم.

ومن أمثال هؤلاء: الغلاة الذين يقتلون إخوانهم المسلمين بحجة مخالفتهم المنهج، فيقتلون من صان الشرع حرماتهم، كما جاء وصفهم في الحديث: (يقتلون أهل الإسلام، ويتركون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد)[2].

فهم يستحلون دم إخوانهم المسلمين الذين عظم الله عز وجل دماءهم، قال صلى الله عليه وسلم: (لزوال الدّنيا أهون عند اللّه من قتل رجلٍ مسلمٍ)[3].

ومن الاستشهاد على السنّة: أن لا يستشرف مواطن الهلكة والقتل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وكالذي يستعجل في الاستشهاد دون أن يعود بالنفع على المسلمين، فمن يفعل ذلك فهو ليس بشهيد.

٥. أن يكون الغرض الذي يستشهد من أجله مشروعًا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

فقد أذن الله تعالى لعباده أن يجاهدوا، لإعلاء كلمة الله عز وجل، ورفع راية الحق، ودفاعًا عن الدين والمال والعرض، فمن قتل دفاعًا عن هذه الأشياء فهو شهيد[4]، قال صلى الله عليه وسلم: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)[5].

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم، ١٣/ ٢٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (تعرج الملائكة والروح إليه)، ٦/ ٢٧٠٢، حديث ٦٩٩٥.
(٣) أخرجه النسائي في سننه، باب تعظيم الدم، ٧/ ٨٢، حديث ٣٩٨٧، قال الألباني: حسن صحيح.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ١٤٢.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، ٤/ ٣٠، حديث

معوقات الجهاد في سبيل الله

الجهاد شرف عظيم ومنزلة رفيعة، يتنافس لنيلها المتنافسون، ويحرص للفوز بها المؤمنون، لكن قد لا يستطيع الإنسان أن يشارك في الجهاد؛ لأسباب وظروف مختلفة تعوق دون نيل هذا الشرف، ومن هذه المعوقات ما يكون ماديًّا، ومنها ما يكون معنويًّا.

أولًا: المعوقات المادية أو الحسية:

ومن هذه المعوقات ما يتعلق بذات الشخص نفسه، ومنها ما تخرج عن ذاته.

أما الأول: عدم المشاركة في القتال بسبب عجز صحي، وهذه المعوقات أعاقت أصحابها عن المشاركة في الجهاد، ورفع الله عنهم الحرج في الخروج للجهاد بسبب عجزهم.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: ١٧].

فهم ثلاثة أصناف، الأعمى الذي لا يستطيع الوصول للعدو والانتقال أثناء المعركة، والأعرج الذي لا يستطيع الكر والفر، والمريض الذي يمنعه مرضه، إذ به يضعف جسمه[1].

فقد قال الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فكل من عجز عن القتال؛ لضعف في بدنه رفع الله عز وجل عنه الحرج.

قال جل جلاله: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من غزوة تبوك فقال: (إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم)، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة، حبسهم العذر)[2].

وقد قسم الإمام الرازي أصحاب الأعذار فقال: «القسم الأول: الصحيح في بدنه، الضعيف مثل الشيوخ، ومن خلق في أصل الفطرة ضعيفًا نحيفًا، وهؤلاء هم المرادون بالضعفاء،...وأما المرضى: فيدخل فيهم أصحاب العمى، والعرج، والزمانة، وكل من كان موصوفًا بمرض يمنعه من التمكن من المحاربة، والقسم الثالث: الذين لا يجدون الأهبة والزاد والراحلة، وهم الذين

١٤٢١، قال الألباني: صحيح.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٨/ ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر، ٤/ ١٦١٠، حديث٤١٦١.

لا يجدون ما ينفقون، لأن حضوره في الغزو إنما ينفع إذا قدر على الإنفاق على نفسه، إما من مال نفسه، أو من مال إنسان آخر يعينه عليه، فإن لم تحصل هذه القدرة، صار كلًّا ووبالًا على المجاهدين، ويمنعهم من الاشتغال بالمقصود، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الأقسام الثلاثة قال: لا حرج على هؤلاء»[1].

ومن المعوقات ما تخرج عن ذات الشخص فتتعلق بغيره، منها: الفقر وعدم القدرة على النفقة في الغزو.

قال جل جلاله: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١-٩٢].

قال الشوكاني: «ثم ذكر العذر الراجع إلى المال لا إلى البدن فقال: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي: ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد، فنفى سبحانه عن هؤلاء الحرج وأبان أن الجهاد مع هذه الأعذار ساقط عنهم، غير واجب عليهم»[2].

«فإن قيل: في قوله ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أليس هؤلاء داخلون تحت قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ فما الفائدة في إعادته؟ قلنا: الذين لا يجدون ما ينفقون، هم الفقراء الذين ليس معهم دون النفقة، وهؤلاء المذكورون في الآية الأخيرة هم الذين ملكوا قدر النفقة، إلا أنهم لم يجدوا المركوب»[3].

ومن المعوقات المادية: ضعف الإمكانات والعدة والعتاد للقتال ومواجهة الأعداء، العتاد من الأمور التي قد تعوق دون المشاركة في الجهاد، وتؤثر على المسلمين في جهادهم، وقد أمر الله عز وجل بإعداد القوة لمواجهة أعداء الله.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أوجب على رسوله أن يشرد من صدر منه نقض العهد، وأن ينبذ العهد إلى من خاف منه النقض، أمره في هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفار، قيل: إنه لما اتفق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قصة بدر أن قصدوا

(١) مفاتيح الغيب، ١٦/ ١٢١.

(٢) فتح القدير، ٢/ ٤٤٦.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٦/ ١٢٢.

الكفار بلا آلة ولا عدة؛ أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله، وأن يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة»[1].

والمقصود بالقوة التي أمر الله عز وجل بإعدادها كل ما يتقوى به في مواجهة الأعداء، وقيل: جميع أنواع الأسلحة، وقيل: هي الرمي كما فسرها النبي صلى الله عليه وسلم[2].

ثانيًا: المعوقات المعنوية:

إن الحرب النفسية من أهم ما يؤثر على نفسية المجاهد، فإذا ما تزعزعت هذه الروح كان من السهل التفوق عليها، لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بالروح المعنوية لأصحابه، حتى يكونوا جاهزين للمشاركة في أي غزوة للدفاع عن دينهم، وكان مما يؤثر على المجاهد معنويًّا وجود فئة من المثبطين المتخاذلين الذين قال الله عنهم:

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

[الأحزاب: ١٨].

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والقائلين لإخوانهم وأصحابهم وعشرائهم وخلطائهم هلم إلينا أي: إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، وهم مع ذلك لا يشاركون في الحرب إلا قليلًا، وهم مع ذلك بخلاء بالمودة، والشفقة عليكم[3].

وقد نزلت هذه الآية في ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحمًا لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا هذا الرجل فإنه هالك[4].

هذا هو حال المنافقين، فهم جبناء لا يشاركون في الحرب، ومع ذلك يثبطون همم المسلمين ويحبطوهم، ويخذلوهم.

(١) المصدر السابق ١٥/ ٤٩٩.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٩٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٩٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٣٠.

شبهات حول الجهاد في سبيل الله

كثرت شبهات الحاقدين على الإسلام، ومنها أن الإسلام دين قتل وسفك للدماء وإرهاب واستحلال لدماء ولأموال الكافرين، وأنه إنما انتشر بحد السيف، وسوف أتناول بعض هذه الشبهات مع الرد عليها بإذن الله تعالى.

أولًا: الشبهة الأولى:

قال الكفار: إن النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان في مكة كان ضعيفًا لا عدة عنده ولا عتاد؛ لذلك كان يأمر بالعفو والصفح، ولكن عند خروجه منها وقيامه بدولته انقلب واصبح دمويًّا، وللرد على هذه الشبهة نقول: إن الإسلام يدعو إلى الرحمة على يد نبيه صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وكانت أول آية للإذن بالقتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج: ٣٩].

قال البغوي في تفسيره: «وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة، فكانوا يمنعون، فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة، بأنهم ظلموا، أي: بسبب ما ظلموا، واعتدوا عليهم بالإيذاء، وإن الله على نصرهم لقدير»[1].

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والمؤمنين بالقتال لم يكن إلا ردًّا على ظلم أو عدوان.

ثانيًا: الشبهة الثانية:

وهي مكونة من نظريتين، الأولى: أن الإسلام إنما انتشر بالقهر والسيف، وسفك الدماء، وأن المسلمين كانوا متوحشين يبطشون بالناس ويكرهونهم على الدخول فيه، والثانية: تهتف بعكس ذلك تمامًا، أي أنه دين سلام ومحبّة، لا يشرع الجهاد فيه إلا لرد العدوان المداهم، ولا يحارب أهله إلا إذا أرغموا على القتال، والهدف في النهاية قتل روح الجهاد في نفوس المسلمين.

نقول: إن الإسلام لم ينتشر بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، ومثال على ذلك انتشاره في الهند والصين، فالمسلمون فيها لم يكونوا غير عابري سبيل فيها، فالإسلام دين خضوع وانقياد عن رضا.

يقول عز وجل: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

«يقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام في عهده صلى الله عليه وسلم وفي عصور الفتوحات من بعده: قد

(١) مختصر معالم التنزيل، البغوي، عبد الله الزيد، ١/ ٦٢٢.

أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام إذن بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفس فيها، ولم يكن الإسلام أقل انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونًا في الوقت الحاضر»[1].

قال الشعراوي في رده على من قال إن الإسلام قد انتشر بالسيف: «إن الله قد بدأ الإسلام بضعف حتى يسقط هذا الاتهام، لقد كان المسلمون الأوائل ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فيتجه بعضهم إلى الحبشة، ويهاجرون بحثًا عن الحماية، فلو كان الإسلام قد انتشر بالسيف فلنا أن نسأل: من الذي حمل أول سيف ليكره أول مؤمن؟ إن المؤمنين رضوا الإسلام دينًا وهم في غاية الضعف ومنتهاه. إن الإسلام قد بدأ واستمر وما زال يحيا بقوة الإيمان، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء في أمة أمية، ومن قبيلة لها شوكتها، وشاء الحق ألا ينصر الله دينه بإسلام أقوياء قريش أولًا، بل آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم الضعفاء وخاض رحلة الدعوة الإيمانية مدة ثلاثة عشر عامًا، دعوة للإيمان بالله، ثم هاجر رسول الله إلى المدينة، إلى أن صار كل المسلمين وحدة إيمانية قوية، وارتفع السيف لا ليفرض العقيدة، ولكن ليحمي حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة ولو أن الإسلام انتشر بالسيف فكيف نفسر وجود أبناء لديانات أخرى في البلاد المسلمة؟ لقد أتاح الإسلام فرصة اختيار العقيدة لكل إنسان»[2].

فالإسلام دين الرحمة جاء هداية للبشر وإسعادهم، والدليل على ذلك ما سنه الإسلام دستورًا أخلاقيًا للقتال قبل أربعة عشر قرنًا من معرفة البشرية لمواثيق أخلاقيات القتال، فقال عليه السلام: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما

(١) موسوعة الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، على الشحوذ، ٦/ ٣٧٠.

(٢) تفسير الشعراوي، ٣/ ١٤٩٧.

على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...)[1].

ثالثًا: الشبهة الثالثة:

زعمهم أن الجهاد والغزو كان بهدف الحصول على الغنائم، فقسوة الحياة المادية والاقتصادية دفعتهم إلى غزو بلاد غير المسلمين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعيش هو وأصحابه على السلب والنهب، يقول مرجليوث: «عاش محمد صلى الله عليه وسلم هذه السنين الست ما بعد الهجرة إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب»[2].

إن سلوك النبي صلى الله عليه وسلم، وأخلاقه وظروف حياته ترد على هذه الشبهة، فالمعروف من حياة النبي أنه كان يعيش على الكفاف، وأنه كان يمر الشهر والشهران ولا يوقد في بيته نار، وأنه تعرض في بداية دعوته لأكبر جائزة ومنال من قريش فرفضها، حيث عرضت عليه المال والنساء والجاه، فقال قولته المشهورة صلى الله عليه وسلم: يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته[3].

فمن يرفض هذا العرض المغري ويركن إلى الزهد، ويحث أصحابه على خشونة العيش، لا يكون هذا الخلق إلا من رجل يعيش من أجل رسالة عظيمة، والتاريخ يشهد لهذا النبي عليه الصلاة والسلام بما كان عليه في حياته إلى أن توفّاه الله تعالى، من صدق في الحديث، واستقامة في السلوك وأمانة في التعامل، وإخلاص في العمل، وغير ذلك من الخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة، التي تتنافى مع ما ذهب إليه أمثال هؤلاء[4].

والغنائم ثمرة مشروعة من ثمرات الجهاد، وتمثل مظهرًا من مظاهر نصرة الإسلام فتكون الثمرة مرغوبة بهذا الاعتبار، بدون أن تتعلق بها النفس تعلقًا يشغلها عن الدافع الحقيقي من وراء الجهاد، ويشهد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، ٣/ ١٣٥٧، رقم ١٧٣١.

(٢) الاستشراق وموقفه من السنة النبوية، فالح الصغير، ١/ ٤٧.

(٣) انظر: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الخضري، ١/ ٣٧.

(٤) انظر: مصادر السيرة النبوية، ضيف الله الزهراني، ١/ ٢٥.

لذلك: قول وفد المسلمين لرستم قبيل القادسية: «والله، لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم»[1].

فالدافع نحو الجهاد هو نشر الدعوة الإسلامية وتطبيق النظام الإسلامي، والأغراض المشروعة التي يمكن أن تستفاد من الجهاد كثيرة، منها: تحقيق منافع اقتصادية، فينبغي التفريق بين الدافع للجهاد وبين المصالح المستفادة من الجهاد.

موضوعات ذات صلة:

الإصلاح، التغيير، التمكين، الحرب، الدعوة، القتال

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ٣/ ٥٢٨.

حجاب المرأة

عناصر الموضوع

مفهوم الحجاب	٢٥٠
الألفاظ ذات الصلة	٢٥١
القرآن وستر المرأة	٢٥٦
المرأة والزينة	٢٦٧
ضوابط التعامل بين الجنسين	٢٨٣
الأساليب الوقائية لحفظ الأعراض	٢٨٩
فوائد الحجاب	٢٩٥

مفهوم الحجاب

أولًا: المعنى اللغوي:

قول ابن فارس: «الحاء والجيم والباء أصل واحد، وهو المنع. يقال: حجبته عن كذا، أي منعته»[1]. فالحجب والحجاب: المنع من الوصول، يقال: حجبه أي: منعه حجبًا وحجابًا، ومنه قيل للستر الذي يحول بين شيئين: حجاب؛ لأنه يمنع الرؤية بينهما، وسمي حجاب المرأة حجابًا لأنه يمنع المشاهدة، وقيل للبواب: حاجب؛ لأنه يمنع من الدخول عليه إلا بإذنه خشية الأذى يصيبه، وكل شيء منع شيئًا فقد حجبه كما تحجب الإخوة الأمّ عن فريضتها، فإنهم يحجبون الأم عن الثلث إلى السّدس.

والحاجبان من الرأس لكونهما كالحاجبين للعينين في الذبّ عنهما، واحتجب الملك عن الناس، وتحجّب: إذا اكتنّ من وراء حجاب[2].

وهكذا يبدو لنا أن مادة الحجاب في لغة العرب تدور بين الستر والمنع.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وردت عدة تعريفات شرعية للحجاب، يدور أغلبها حول جانب معين منه، غير جامع لكل أركانه ومقوماته، ومما يساعد على وضع تعريف جامع للحجاب هو معرفة الغرض منه، فإن الحجاب أحد التدابير الوقائية التي شرعت من أجل منع وقوع الفتنة بين الرجال والنساء من جهة الشهوة.

إذن «فالحجاب لفظ ينتظم جملة من الأحكام الشرعية الاجتماعية المتعلقة بوضع المرأة في المجتمع الإسلامي، من حيث علاقتها بمن لا يحل لها أن تظهر زينتها أمامهم»[3].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي، فكلاهما يدوران حول الستر المانع من النظر.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٤٣.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٤٣، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٩٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٧٢، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٢٣٩.

(٣) عودة الحجاب، محمد إسماعيل المقدم ٣/ ٧٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخمار:

الخمار لغة:

الخمار من الخمر، وأصله الستر، يقال: خمر الشيء يخمره خمرًا، وأخمره أي ستره، وكل مغطى مخمر، يقال: خمّرت الإناء أي غطّيته، وكل ما يستر شيئًا فهو خماره[(١)].

الخمار اصطلاحًا:

ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها، تستر به الرأس والصدغين أو العنق[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

الصلة بين الحجاب والخمار:

بالتأمل في مفهوم الحجاب والخمار، يتبين أن الحجاب أعم من الخمار، فالحجاب قد يكون بالثياب وغيرها، والخمار لا يكون إلا بلباس.

٢ الجلباب:

الجلباب لغة:

الجلباب في لغة العرب: يطلق على الثوب المشتمل على الجسد كله، وعلى الخمار، وعلى ما يلبس فوق الثياب كالملحفة والملاءة تشتمل بها المرأة[(٣)].

الجلباب اصطلاحًا:

كساء كثيف تشتمل به المرأة من رأسها إلى قدميها، ساتر لجميع بدنها وما عليه من ثياب وزينة.

ويقال له: الملاءة، والملحفة، والرداء، والدثار، والكساء.

وصفة لبسها: أن تضعها فوق رأسها ضاربة بها على خمارها وعلى جميع بدنها وزينتها، حتى تستر قدميها[(٤)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢١٥، مختار الصحاح، الرازي ص٩٧.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٩٨، الكليات، الكفوي ص٤١٤، التوقيف، المناوي ص١٦٠.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٧٣.
(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٧٣٨، جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٨٠.

[الأحزاب: ٥٩].

الصلة بين الحجاب والجلباب:

الحجاب أعم من الجلباب، فالحجاب يكون بالجلباب وغيره.

٣ النقاب:

النقاب لغة:

قال ابن فارس: «النون والقاف والباء أصل صحيح يدل على فتح في شيء»[(١)].

وسمي النقاب نقابًا لوجود نقبين في مواجهة العينين لمعرفة الطريق.

النقاب اصطلاحًا:

القناع الذي تضعه المرأة على مارن أنفها بحيث يظهر عينيها ومحاجرهما[(٢)]، وهو ما يسمى باللفام، فإن كان لا يظهر منه إلا عيناها فقط سمي برقعًا[(٣)].

الصلة بين الحجاب والنقاب:

النقاب أخص من الحجاب، فالنقاب يغطي جزءًا من البدن، وهو الوجه، والحجاب يغطي البدن كله، والحجاب قد يكون بالنقاب وغيره. فمهوم الحجاب أشمل وأعم من مفهوم النقاب.

٤ الغطاء:

الغطاء لغة:

تدور مادة (غطى) حول الغشاء والستر. قال ابن فارس: «الغين والطاء والحرف المعتل يدل على الغشاء والستر. يقال: غطيت الشيء وغطيته. والغطاء: ما تغطى به. وغطا الليل يغطو، إذا غشى بظلامه»[(٤)].

الغطاء اصطلاحًا:

ما غطّت به المرأة جسدها وزينتها[(٥)].

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٤٦٥.
(٢) محجر العين: هو ما دار بالعين من العظم الذي هو أسفل الجفن، وهو يظهر من نقاب المرأة، فكل ما بدا من النقاب محجر.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٩٥.
(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي ص٢٣٧، فتح الباري، ابن حجر ٤/ ٥٣.
(٤) مقاييس اللغة ٤/ ٤٢٩.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٣٠، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ١٧٥.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٧٦، التوقيف، المناوي ص٢٥٢.

الصلة بين الحجاب والغطاء:

يلاحظ أن الحجاب أعم من الغطاء من ناحيتين:

الغطاء يكون باللباس، والحجاب باللباس وغيره.

الغطاء لا يكون إلا ملاصقًا، والحجاب قد يكون ملاصقًا بالثياب، وقد يكون غير ذلك[1].

٥ الستر:

الستر لغة:

قال ابن فارس: «السين والتاء والراء كلمة تدل على الغطاء. تقول: سترت الشيء سترا. والسترة: ما استترت به، كائنًا ما كان. وكذلك الستار»[2].

الستر اصطلاحًا:

ما تستر به المرأة نفسها.

الصلة بين الحجاب والستر:

يشترك الحجاب والستر في ما يستر المرأة ويحجبها كائنًا ما كان، ويفترقان في أمور ذكرها أبو هلال العسكري فقال: «تقول: حجبني فلان عن كذا، ولا تقول: سترني عنه، وتقول: احتجبت بشيء كما تقول: تستّرت به. فالحجاب هو المانع والممنوع به، والستر هو المستور به، ويجوز أن يقال: حجاب الشيء ما قصد ستره، ألا ترى أنك لا تقول لمن منع غيره من الدخول إلى الرئيس داره من غير قصد المنع له: أنه حجبه، وإنما يقال: حجبه إذا قصد منعه...، وفرق آخر: أن الستر لا يمنع من الدخول على المستور، والحجاب يمنع»[3].

٦ التبرج:

التبرج لغة:

مصدر قولهم: تبرّجت المرأة تتبرّج، وهو مأخوذ من مادّة (ب ر ج) الّتي تدلّ على معنيين: الأوّل: البروز والظّهور، والثّاني: الوزر والملجأ فمن الأوّل: البرج وهو سعة العين في شدّة سواد وشدّة بياض بياضها، ومن ذلك التّبرّج، وهو إظهار محاسنها، ومن الأصل الثّاني: البرج وهو واحد بروج السّماء، وأصل البروج: الحصون والقصور، وذكر الرّاغب: أنّ التّبرّج

(١) انظر: شمس العلوم، الحميري ٨/ ٤٩٦٩، الفروق اللغوية، العسكري ص٢٧٢.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ١٣٢.
وانظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٤٢، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٤٣.
(٣) الفروق اللغوية ص١٧٦ بتصرف.

مأخوذ من الثّوب المبرّج أي الّذي صوّر عليه البروج، يقال: ثوب مبرّج: صوّرت عليه بروج فاعتبر حسنه، فقيل: تبرّجت المرأة أي تشبّهت به في إظهار المحاسن، وقيل: اشتقاق ذلك من البرج وهو القصر، ومن ثمّ يكون معنى تبرّجت ظهرت من برجها أي قصرها، وقال المبرّد: إنّ التّبرّج مأخوذ من السّعة، يقال في أسنانه برج إذا كانت متفرّقة[1].

التبرج اصطلاحًا:

كل زينة أو تجمّل تقصد المرأة بإظهاره أن تحلو في أعين الأجانب، حتى القناع الذي تستتر به المرأة إن انتخب من الألوان البارقة، والشكل الجذّاب لكي تلذّ به أعين الناظرين، فهو من مظاهر تبرج الجاهلية أيضًا[2].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

الصلة بين الحجاب والتبرج:

التبرج مضاد للحجاب، فهما نقيضان لا يجتمعان، فالحجاب مقصود به الستر، والتبرج ضده.

٧ السفور:

السفور لغة:

السفور: مأخوذ من السّفر، وهو كشف الغطاء، قال ابن فارس: «السين والفاء والراء أصل واحد يدل على الانكشاف والجلاء»[3] ويختص بالأعيان، فيقال: امرأة سافر، وامرأة سافرة، إذا كشفت الغطاء والخمار عن وجهها، ولهذا قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨].

أي: مشرقة[4]، فخص سبحانه الإسفار بالوجوه دون بقية البدن.

السفور اصطلاحًا:

السفور في الاصطلاح هو: كشف المرأة وجهها[5].

وهناك فرق بين التبرج والسفور: أن «التبرج يكون بإبداء الوجه أو غيره من البدن أو من الزينة المكتسبة، فالسفور أخص من التبرج، وأن المرأة إذا كشفت عن وجهها فهي سافرة

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٩٩، مقاييس اللغة ١/ ٢٣٨، المفردات ، الراغب الأصفهاني ص٣٨، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٤٣.
(٢) الحجاب، المودودي ص١٣٢.
(٣) مقاييس اللغة ٣/ ٨٢.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٨٢، مختار الصحاح، الرازي ص١٤٨.
(٥) معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي ص٢٤٥،

متبرجة، وإذا كشفت عما سوى الوجه من بدنها أو الزينة المكتسبة فهي متبرجة حاسرة»[1].

والبعض من أهل العلم يرى أنهما متقاربان، فقد خرج السفور اليوم عن معناه في أصل اللغة، وتحول إلى التبرج الفاحش والاختلاط المزري بالأجانب[2].

الصلة بين الحجاب والسفور:

السفور ضد الحجاب، فهما نقيضان لا يجتمعان.

(١) حراسة الفضيلة، بكر أبو زيد ص٥٠.
(٢) عودة الحجاب، محمد إسماعيل المقدم ٣/ ٧٧.

القرآن وستر المرأة

لقد رفع الإسلام مكانة المرأة، وأكرمها بما لم يكرمها به دين سواه، ومن إكرام الإسلام للمرأة أن أمرها بما يصونها، ويحفظ كرامتها، ويحميها من الألسنة البذيئة، والأعين الغادرة، والأيدي الباطشة.

ومن صور تكريم الإسلام للمرأة أنه ربّاها على الستر، بأن فرض عليها ضوابط في ملبسها وزينتها وعلاقتها بالرجال، وهذه الضوابط التي فرضها عليها لم تكن إلا لسد ذريعة الفساد، وتجفيف منابع الافتتان بها.

ويدور ستر القرآن للمرأة حول أصلين:

الأصل الأول: أمر المرأة بالقرار في بيتها:

الأصل لزوم المرأة بيتها، فهو عزيمة شرعية في حقها، وخروجها من البيت رخصة لا تكون إلا لضرورة أو حاجة.

قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

حيث أمر سبحانه أمهات المؤمنين -وجميع المسلمات والمؤمنات داخلات في ذلك- بالقرار في البيوت؛ لما في ذلك من صيانتهن وإبعادهن عن وسائل الفساد؛ لأن الخروج لغير حاجة قد يفضي إلى شرور عدة، كالتبرج والخلوة بالأجنبي، ثم أمرهن بالأعمال الصالحة التي تنهاهن عن الفحشاء والمنكر، وذلك بإقامتهن الصلاة وإيتائهن الزكاة وطاعتهن لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ثم وجههن إلى ما يعود عليهن بالنفع في الدنيا والآخرة، وذلك بأن يكنّ على اتصال دائم بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية المطهرة، اللذين فيهما ما يجلو صدأ القلوب ويطهّرها من الأرجاس والأنجاس ويرشد إلى الحق والصواب.

وقد سمى الله مكث المرأة في بيتها قرارًا، وهذا المعنى من أسمى المعاني الرفيعة، ففيه استقرار لنفسها وراحة لقلبها وانشراح لصدرها، وخروجها عن هذا القرار يفضي إلى اضطراب نفسها، وقلق قلبها، وضيق صدرها، وتعريضها لما لا تحمد عقباه.

والأمر بالقرار في البيوت ليس خاصًّا بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرهن من النساء؛ لأنه إذا كانت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أمرن بالقرار في البيوت مع تقواهن وطهارتهن، فما بال غيرهن من النساء؟! إنهن أولى من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بأن يؤمرن بالقرار في البيوت.

قال الإمام القرطبي: «وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد

دخل غيرهن فيه بالمعنى. هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة»[1].

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أن الأصل للنساء هو القرار في البيوت، لأجل هذا ليس على النساء حضور المسجد، لا لصلاة الجماعة أو الجمعة.

وقرّر النبي صلى الله عليه وسلم أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد مع الجماعة، وليس ذلك إلا حرصًا من الشريعة الغراء على إبقاء النساء في البيوت، فعن أم حميد الساعدية أنها جاءت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: (يا رسول الله! إني أحب الصلاة معك. فقال: (قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي)[2].

وأمر المرأة بلزوم البيت ليس فيه تعطيل لنصف المجتمع -كما يدعي العلمانيون وغيرهم- فهل تعتبر المرأة عاطلة إذا قرّت في البيت وتفرّغت لتربية الجيل الجديد، الذي يرجى بإصلاحه صلاح الأمم، وبإفساده يتحقق فساد الأمم؟

ولا يخفى أن خروج المرأة من بيتها لغير ضرورة أو حاجة له آثار سيئة على الأسرة والمجتمع.

لكن من الأمور الواجب التنبيه عليها ظهور سماحة الإسلام في إباحته الخروج للمرأة عند الضرورة، كطلب العلم من السنوات الأولى حتى تسنّم أعلى الشهادات العلمية، طالما احتشمت المرأة وأخذت بأسباب التصون، كما أباح الإسلام للمرأة العمل في كل ما يتناسب مع طبيعتها وتكوينها، خاصة إذا احتاجت إلى العمل، أو احتاج إليها العمل النوعي الذي يتفق مع كيانها ومكانتها.

ومن النصوص التي تدل على جواز خروج المرأة عند وجود الحاجة، ما جاء عن عائشة رضي الله عنها، قالت: خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي، وإنه ليتعشى وفي

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ١٧٩.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ٣٧، رقم ٢٧٠٩٠، وابن خزيمة في صحيحه، ٢/ ٨١٥، رقم ١٦٨٩.
وحسنه محقق المسند.

يده عرق[1]، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: (إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن)[2].

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)[3].

الأصل الثاني: آداب يجب على المرأة مراعاتها عند خروجها من بيتها:

حينما قرر الإسلام أن الأصل قرار المرأة في بيتها، فقد سمح لها بالخروج في بعض الأحوال، ولما كان الشيطان يستغل خروج المرأة لنشر الفاحشة والفساد، كما أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم: (إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها[4] الشيطان، وأقرب ما تكون من وجه ربها وهي في قعر بيتها)[5].

ومن أجل ذلك فقد شرع الإسلام ضوابط لخروج المرأة؛ حتى لا يتمكن الشيطان من استغلال خروجها لنشر الفاحشة.

ومن هذه الضوابط:

١. الالتزام بالحجاب الشرعي.

حيث يجب شرعًا على جميع نساء المؤمنين التزام الحجاب الشرعي، الساتر لجميع الزينة المكتسبة من ثياب وحلي وغيرها من كل رجل أجنبي.

فعلى المرأة المسلمة ألا تخرج إلا متحجبة بالحجاب الكامل من فوق الرأس، وتغطي القدمين، ويعرف أهمية تغطية القدمين من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

قال أبو السعود: «وفي النّهي عن إبداء صوت الحليّ بعد النّهي عن إبداء عينها من المبالغة في الزّجر عن إبداء موضعها مالا

(١) عرق: هو العظم الذي عليه بقية لحم.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٢١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (لا تدخلوا بيوت النّبيّ إلّا أن يؤذن لكم)، ٦/ ١٢٠، رقم ٤٧٩٥، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان، ٤/ ١٧٠٩، رقم ٢١٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم؟، ٢/ ٦، رقم ٩٠٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، وأنها لا تخرج مطيبة، ١/ ٣٢٧، رقم ٤٤٢.

(٤) الاستشراف: رفع البصر للنظر إلى شيء. والمعنى: أن المرأة إذا خرجت أمعن الشيطان في الإغواء بها.
انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري ٢/ ٢٠٨.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب أبواب الرضاع، باب ١٨، ٢/ ٤٦٧، رقم ١١٧٣.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ١/ ٣٠٣، رقم ٢٧٣.

يخفى»[1].

ويتضح هذا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة). فقالت أم سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهن! قال: (يرخينه شبرًا)، فقالت: إذن تنكشف أقدامهن، قال: (فيرخينه ذراعًا، ولا يزدن عليه)[2].

فيظهر من قول أم سلمة رضي الله عنها أن وجوب ستر القدمين كان أمرًا شائعًا معروفًا بين المسلمين.

وقد اتفق العلماء على أنه يجب على المرأة ستر وجهها وكفيها عند وجود الفتنة، ورقة الدين، وفساد الزمان، واختلفوا إذا أمنت الفتنة على قولين:

القول الأول: أكثر أهل العلم على وجوب تغطية الوجه والكفين.

ومن أدلتهم:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

هذه الآية عرفت باسم آية الحجاب؛ لأنها أول آية نزلت بشأن فرض الحجاب على أمهات المؤمنين ونساء المؤمنين، وكان نزولها في شهر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة[3].

وسبب نزولها ما ثبت من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قلت: (يا رسول الله! يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب)[4].

ولما نزلت حجب النبي صلى الله عليه وسلم نساءه عن الرجال الأجانب عنهن، وحجب المسلمون نساءهم عن الرجال الأجانب عنهن، بستر أبدانهن من الرأس إلى القدمين، وستر ما عليها من الزينة المكتسبة، فالحجاب فرض عام على كل مؤمنة مؤبد

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٧١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.كتاب اللباس، باب من جر إزاره من غير خيلاء، ٧/ ١٤١، رقم ٥٧٨٤، ومسلم في صحيحه،كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء، ٣/ ١٦٥٢، رقم ٢٠٨٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٥١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب اللباس، باب (لا تدخلوا بيوت النّبيّ إلّا أن يؤذن لكم)، ٦/ ١١٨، رقم ٤٧٩٠.

إلى يوم القيامة، وقد تنوعت دلالة هذه الآيات على هذا الحكم من الوجوه الآتية:

الوجه الأول: لما نزلت هذه الآية حجب النبي صلى الله عليه وسلم نساءه، وحجب الصحابة نساءهم، بستر وجوههن وسائر البدن والزينة المكتسبة، واستمر ذلك في عمل نساء المؤمنين، هذا إجماع عملي دال على عموم حكم الآية لجميع نساء المؤمنين، ولهذا قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: «﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ يقول: وإذا سألتم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج متاعًا، فاسألوهن من وراء حجاب، يقول: من وراء ستر بينكم وبينهن»[1].

الوجه الثاني: في قول الله تعالى في آية الحجاب: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ علة لفرض الحجاب في قوله سبحانه: ﴿فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ بمسلك الإيماء والتنبيه، وحكم العلة عام لمعلولها هنا؛ لأن طهارة قلوب الرجال والنساء وسلامتها من الريبة مطلوبة من جميع المسلمين، فصار فرض الحجاب على نساء المؤمنين من باب الأولى من فرضه على أمهات المؤمنين، وهن الطاهرات المبرآت من كل عيب ونقيصة رضي الله عنهن.

فاتضح أن فرض الحجاب حكم عام على جميع النساء لا خاصًّا بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن عموم علة الحكم دليل على عموم الحكم فيه، وهل يقول مسلم: إن هذه العلة: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ غير مرادة من أحد من المؤمنين؟ فيالها من علة جامعة لم تغادر صغيرة ولا كبيرة من مقاصد فرض الحجاب إلا شملتها[2].

الوجه الثالث: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إلا إذا قام دليل على التخصيص، وكثير من آيات القرآن ذوات أسباب في نزولها، وقصر أحكامها في دائرة أسبابها بلا دليل تعطيل للتشريع، فما هو حظ المؤمنين منها؟

الوجه الرابع: زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أمهات لجميع المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

ونكاحهن محرم على التأبيد كنكاح الأمهات ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وإذا كانت زوجات النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، فلا معنى لقصر الحجاب عليهن دون بقية نساء المؤمنين؛ ولهذا كان حكم فرض الحجاب عامًّا لكل مؤمنة،

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٦٦.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٥٨٤.

مؤبدًا إلى يوم القيامة، وهو الذي فهمه الصحابة رضي الله عنهم، كما تقدم من حجبهم نساءهم رضي الله عنهن.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

قال السيوطي: «هذه آية الحجاب في حق سائر النساء، ففيها وجوب ستر الرأس والوجه عليهن»[(١)].

وقد خصّ الله سبحانه في هذه الآية بالذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبناته؛ لشرفهن ولأنهن آكد في حقه من غيرهن لقربهن منه، ثم عمم سبحانه الحكم على نساء المؤمنين، وهذه الآية صريحة كآية الحجاب الأولى، على أنه يجب على جميع نساء المؤمنين أن يغطين ويسترن وجوههن وجميع البدن والزينة المكتسبة، عن الرجال الأجانب عنهن، وذلك الستر بالتحجب بالجلباب الذي يغطي ويستر وجوههن وجميع أبدانهن وزينتهن، وفي هذا تمييز لهن عن اللائي يكشفن من نساء الجاهلية؛ حتى لا يتعرضن للأذى ولا يطمع فيهن طامع.

والأدلة من هذه الآية على أن المراد بها ستر الوجه وتغطيته من وجوه، هي:

الوجه الأول: معنى الجلباب في الآية هو معناه في لسان العرب، وهو: اللباس الواسع الذي يغطي جميع البدن، وهو بمعنى: الملاءة والعباءة، فتلبسه المرأة فوق ثيابها من أعلى رأسها مدنية ومرخية له على وجهها وسائر جسدها، وما على جسدها من زينة مكتسبة، ممتدًا إلى ستر قدميها[(٢)].

فثبت بهذا حجب الوجه بالجلباب كسائر البدن لغةً وشرعًا.

الوجه الثاني: أن شمول الجلباب لستر الوجه هو أول معنى مراد؛ لأن الذي كان يبدو من بعض النساء في الجاهلية هو: الوجه، فأمر الله نساء النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بستره وتغطيته، بإدناء الجلباب عليه؛ لأن الإدناء عدّي بحرف على، وهو دال على تضمن معنى الإرخاء، والإرخاء لا يكون إلا من أعلى، فهو هنا من فوق الرءوس على الوجوه والأبدان.

الوجه الثالث: أن ستر الجلباب للوجه وجميع البدن وما عليه من الثياب المكتسبة - الزينة المكتسبة - هو الذي فهمه نساء الصحابة رضي الله عنهم، وذلك فيما ورد عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾

(١) عون المعبود، العظيم آبادي ١١/ ١٠٦.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٧٣، شمس العلوم، الحميري ٢/ ١١٣٩.

خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: رحم الله تعالى نساء الأنصار، لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ الآية شققن مروطهن[2]، فاعتجرن بها، فصلّين خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما على رءوسهن الغربان[3].

والاعتجار: هو الاختمار، فمعنى: فاعتجرن بها، واختمرن بها: أي غطين وجوههن[4].

الوجه الرابع: هذا التعليل ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ راجع إلى الإدناء، المفهوم من قوله: ﴿يُدۡنِينَ﴾ وهو حكم بالأولى على وجوب ستر الوجه؛ لأن ستره علامة على معرفة العفيفات فلا يؤذين، فهذه الآية نص على ستر الوجه وتغطيته، ولأن من تستر وجهها لا يطمع فيها طامع بالكشف عن باقي بدنها وعورتها المغلظة، فصار في كشف الحجاب عن الوجه تعريض لها بالأذى من السفهاء، فدل هذا على التعليل على فرض الحجاب على نساء المؤمنين لجميع البدن والزينة بالجلباب، وذلك حتى يعرفن بالعفة، وأنهن مستورات محجبات بعيدات عن أهل الخنا، وحتى لا يفتتن ولا يفتن غيرهن فلا يؤذين.

ومعلوم أن المرأة إذا كانت غاية في الستر، لم يقدم عليها من في قلبه مرض، وكفّت عنها الأعين الخائنة، بخلاف المتبرجة المنتشرة الباذلة لوجهها، فإنها مطموع فيها.

القول الثاني: ذهب عدد من أهل العلم إلى جواز كشف المرأة وجهها وكفيها[5].

ومن أدلتهم:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾[النور: ٣١].

واستدلوا به من وجهين:

الوجه الأول: ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ بالوجه والكفين[6].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: (يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ)، ٦/ ١٩٧، رقم ٤١٠١.
وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود، رقم ٤١٠١.

(٢) المرط: هو الكساء، ويكون من صوف وغيره. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٣١٩.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٦٦٠ لابن مردويه.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٨٥.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٢٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٥١١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٤.

فابن عباس رضي الله عنهما إنما يشير بتفسيره للآية إلى هذه العادة التي كانت معروفة عند نساء العرب عند نزولها، وأقروا عليها[1].

الوجه الثاني: حصل الإجماع على وجوب ستر العورة على كل مصلٍّ في صلاته، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في صلاتها، وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها، فإذ كان ذلك من جميعهم إجماعًا، كان معلومًا بذلك أن لها أن تبدي من بدنها ما لم يكن عورة، كما ذلك للرجال ؛ لأن ما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره، وإذا كان لها إظهار ذلك كان معلومًا أنه مما استثناه الله -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾

الدليل الثاني: عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها: (يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا)، وأشار إلى وجهه وكفيه[2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٥١٧، جلباب المرأة المسلمة، الألباني ص٥١.

(٢) انظر: جلباب المرأة المسلمة، الألباني ص٥٣.

الترجيح:

يرى الباحث وجوب تغطية الوجه والكفين في زمان الفتنة، وليست هناك فتنة أعظم من فتن هذا الزمان.

٢. لا تخرج متبرجة.

ومن حرص الإسلام على ستر المرأة أنه نهى عن التبرج، وحذّر منه تحذيرًا شديدًا، والذي ينظر في قصة آدم عليه السلام وإبليس يلحظ أن الحياء من التعري وانكشاف السوءة شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته، إذ يقول الله سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

إن قصة آدم وحواء مع إبليس تكشف لنا مدى حرص عدو الله على كشف السوءات، وهتك الأستار، وإشاعة الفاحشة، وأن هذا هدف مقصود له.

ومن ثمّ حذرنا الله عز وجل عن هذه الفتنة خاصة، فقال جل وعلا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

ومن هنا فإن إبليس هو رائد الدعوة إلى كشف العورات، وهو مؤسس الدعوة إلى

التبرج بدرجاته المتفاوتة، بل هو الزعيم الأول لشياطين الإنس والجن الداعين إلى تحرير المرأة عن قيد الستر والصيانة والعفاف.

فعلى المرأة إذا خرجت من بيتها لحاجة أن تلتزم حجابها الشرعي، وأن تبتعد عن التبرج، فلا تخلع الحجاب، ولا تبدي زينتها للأجانب، ولا تظهر محاسنها.

وقد دلّ الكتاب والسنة والإجماع على تحريم تبرج المرأة، وهو إظهارها شيئًا من بدنها أو زينتها المكتسبة التي حرّم الله عليها إبداءها أمام الرجال الأجانب عنها.

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فقد أمر الله سبحانه في هذه الآية نساء النبي الكريم أمهات المؤمنين، وهن من خير النساء وأطهرهن بلزومهن البيوت، ونهاهن عن تبرج الجاهلية، وهو إظهار الزينة والمحاسن، كالرأس والوجه والعنق والصدر والذراع والساق، ونحو ذلك من الزينة؛ لما في ذلك من الفساد العظيم والفتنة الكبيرة، وتحريك قلوب الرجال إلى تعاطي أسباب الزنا، وإذا كان الله سبحانه يحذر أمهات المؤمنين من هذه الأشياء المنكرة مع صلاحهن وإيمانهن وطهارتهن فغيرهن أولى، وأولى بالتحذير والإنكار والخوف عليهن من أسباب الفتنة.

والتبرج كبيرة من الكبائر، وسبب من أسباب دخول النار، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)[1].

ومن معاني قوله صلى الله عليه وسلم: (كاسيات عاريات) ما ذكره النووي: «تكشف شيئًا من بدنها إظهارًا لجمالها، فهن كاسيات عاريات»[2].

٣. عدم الخضوع بالقول.

إذا خرجت المرأة من بيتها واضطرت إلى معاملة الرجال، فيجب عليها ألا ترقّق الكلام، بل عليها التكلم بوقار واحتشام، يقول الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فقد نهى سبحانه في هذه الآية نساء النبي الكريم أمهات المؤمنين، وهن من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه،كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، ٣/ ١٦٨٠، رقم ٢١٢٨.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٩١.

خير النساء وأطهرهن عن الخضوع بالقول للرجال، وهو تليين القول وترقيقه، لئلا يطمع فيهن من في قلبه مرض شهوة الزنا، ويظن أنهن يوافقنه على ذلك.

والخطاب في هذه الآية إن كان لنساء النبي صلى الله عليه وسلم لكنه شامل لجميع النساء.

قال الجصاص: «وفيه الدلالة على أن ذلك حكم سائر النساء في نهيهن عن إلانة القول للرجال على وجه يوجب الطمع فيهن، ويستدل به على رغبتهن فيهم»[(١)].

وقال ابن كثير: «﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك: ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال؛ ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: دغل، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن زيد: قولًا حسنًا جميلًا معروفًا في الخير.

ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها»[(٢)].

فقد نهيت المرأة عن مخاطبة الأجانب بكلام فيه ترخيم كما تخاطب زوجها، وأمرت أن تتحرى الصوت الجاد العاري عن أسباب الفتنة، وقد سد الإسلام على المرأة كل سبيل للتسيب في هذا الباب، حينما جعل أمهات المؤمنين محلًّا للقدوة، فلم يبق هناك عذر لمعتذر.

٤. عدم الخروج متعطرة.

من الأمور التي تحرّك الشهوات شم الرجال طيب النساء، فستر الإسلام المرأة في هذا الباب بأن نهاها عن الخروج متعطرة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيما امرأة استعطرت، فمرت على قوم ليجدوا من ريحها، فهي زانية)[(٣)].

يقول صاحب بذل المجهود: «سماها النبي صلى الله عليه وسلم زانية مجازًا؛ لأنها رغّبت الرجال في نفسها، فأقل ما يكون هذا سببًا لرؤيتها، وهي زنا العين»[(٤)].

وعن موسى بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن امرأة مرت به تعصف ريحها، فقال: يا أمة الجبار، المسجد تريدين؟ قالت: نعم، قال: وله تطيبت؟ قالت: نعم، قال: فارجعي فاغتسلي، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من امرأة تخرج إلى المسجد

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٣٥٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٤٠٩.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٤١٤، رقم ١٩٧١١ ، والنسائي في سننه،كتاب الزينة، باب ما يكره للنساء من الطيب، ٨/ ١٥٣، رقم ٥١٢٦، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٣٩٦، رقم ٣٤٩٧.
قال الحاكم: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي.
(٤) بذل المجهود، السهارنفوري ١٧/ ٦٠.

تعصف ريحها فيقبل الله منها صلاة حتى ترجع إلى بيتها فتغتسل»[1].

وسبب المنع منه واضح وهو ما فيه من تحريك داعية الشهوة. قال ابن دقيق العيد: «وفي حرمة التطيب علي مريدة الخروج إلى المسجد لما فيه من تحريك داعية شهوة الرجال»[2].

وإذا كانت المرأة تمنع من الذهاب إلى المسجد إذا استعطرت، فهل يسمح لها بأن تذهب إلى الأسواق مستعطرة، تحرّك الشهوات وتفتن الرجال؟!

٥. عدم إظهار زينتها بالصوت.

من الآداب التي قررتها الشريعة الغراء، وأمرت المرأة بالتزامها، أن لا تظهر زينتها بالصوت، سواء كان صوت الحلي أو غيره.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[النور: ٣١].

يقول سيد قطب: «وإنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها. فإن الخيال ليكون أحيانًا أقوى في إثارة الشهوات من العيان. وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها، أو حليّها، أكثر مما تثيرها رؤية جسد المرأة ذاته، كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر في خيالهم، أكثر مما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهم- وهي حالات معروفة عند علماء الأمراض النفسية اليوم- وسماع وسوسة الحلي أو شمام شذى العطر من بعيد، قد يثير حواس رجال كثيرين، ويهيج أعصابهم، ويفتنهم فتنة جارفة لا يملكون لها ردًّا.

والقرآن يأخذ الطريق على هذا كله؛ لأن منزّله هو الذي خلق، وهو الذي يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير»[3].

وقال الجصاص: «وفيه دلالة على أن المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام، بحيث يسمع ذلك الأجانب؛ إذ كان صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها؛ ولذلك كره أصحابنا أذان النساء لأنه يحتاج فيه إلى رفع الصوت»[4].

ومن حرص الشريعة على ستر المرأة أنه ليس لها أن ترفع صوتها بحيث يسمعه الرجال الأجانب، فجعلت لها التصفيق دون التسبيح إذا انتابها شيء في الصلاة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء)[5].

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، ٢/ ٨١٢، رقم ١٦٨١، والبيهقي في السنن الكبرى، ٣/ ٣٤٨، رقم ٥٩٧٣.
(٢) فيض القدير، المناوي ٣/ ١٣٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥١٤.
(٤) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ١٧٧.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العمل في الصلاة، باب التصفيق للنساء، ٢/ ٦٣، رقم ١٢٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب

وليس للمرأة أن ترفع صوتها بالتلبية في الحج والعمرة؛ حتى لا تظهر زينتها بالصوت، قال ابن قدامة: «قال ابن عبد البر: أجمع العلماء على أن السنة في المرأة أن لا ترفع صوتها، وإنما عليها أن تسمع نفسها. وإنما كره لها رفع الصوت مخافة الفتنة بها، ولهذا لا يسن لها أذان ولا إقامة، والمسنون لها في التنبيه في الصلاة التصفيق دون التسبيح»[1].

فلم تهمل الشريعة المطهرة أي أمر يتحقق به ستر المرأة، ويحفظ كرامتها، ويصون عفتها، ويقطع دابر الشر والفساد عن المجتمع الإسلامي.

المرأة والزينة

عني الإسلام بزينة المرأة عناية عظيمة، فوضع لها القواعد والضوابط التي تجعل الزينة تلبي فطرة المرأة، وتناسب أنوثتها من جهة، وتحفظها في مسارها الصحيح بلا إفراط ولا تفريط من جهة أخرى.

وفيما يلي نتناول في هذا المبحث بعض المسائل المتعلقة بزينة المرأة.

أولًا: شروط لباس المرأة:

لقد حدد الإسلام الشروط والضوابط التي يجب على المرأة المسلمة أن تتقيد بها في موضوع اللباس، وهذه الشروط هي:

١. أن يستوعب اللباس جميع البدن.

وذلك ليكون ساترًا للعورة، وللزينة التي نهيت المرأة عن إبدائها، فإن القصد الأول من اللباس هو الستر ثم الزينة، ولباس المرأة لابد أن يكون ساترًا لوجهها وكفيها وقدميها وسائر جسمها، إذا كانت خارج الصلاة وبحضرتها أجانب.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[النور: ٣١].

والنهي عن إبداء الزينة نهي عن إبداء مواضعها من باب أولى، ولولا اللباس لظهرت مواضع الزينة من الصدر، والذراع،

الصلاة، باب تسبيح الرجل وتصفيق المرأة إذا نابهما شيء في الصلاة، ١/ ٣١٨، رقم ٤٢٢.

(١) المغني ٣/ ٣٠٥.
وانظر: الاستذكار، ابن عبد البر ٤/ ٥٧.

والقدم ونحوها، وعلى هذا فلابد أن تلبس المرأة ما يستر كل جسدها، إذ قد يظهر شيء منه، لا سيما عند ركوبها للسيارة ونزولها منها، أو دخولها أماكن تضطر فيها على صعود سلالم، فتظهر زينتها وتحصل الفتنة بها.

٢. ألا يكون اللباس ضيقًا يصف جسمها.

وذلك أن الغرض من اللباس ستر العورة، ومواضع الزينة، وهذا إنما يكون بالثوب الواسع، أما الثوب الضيق فإنه -وإن كان يستر لون البشرة- يصف جسم المرأة أو بعضه، فالواجب على المرأة أن تهتم بستر بدنها وتقاطيع جسمها، والتساهل في ذلك من أعظم أسباب الفساد ودواعي الفتنة.

يقول أسامة بن زيد رضي الله عنه: **كساني رسول الله صلى الله عليه وسلم قبطيةً[١] كثيفة مما أهدى له دحية الكلبي، فكسوتها امرأتي، فقال: مالك لم تلبس القبطيّة؟ قلت: كسوتها امرأتي. فقال: (مرها فلتجعل تحتها غلالةً[٢] فإني أخاف أن تصف حجم عظامها)[٣].**

فالرسول صلى الله عليه وسلم يأمر أسامة أن يطلب من امرأته أن تضع تحت هذا الثوب الثخين غلالة، ليمنع وصف بدنها وحجم عظامها؛ فهذه القبطية - وإن كانت ثخينة - قد تصف الجسم، ولاسيما إذا كان اللباس الثخين من طبيعته الليونة والانثناء؛ فهذه القبطية ثخينة، ومع ذلك خاف صلى الله عليه وسلم من أن تصف حجم عظامها.

فلابد أن تعلم المرأة أن اللباس الضيق الذي يصف مفاتن الجسم لا يجوز شرعًا، وهو داخل في لباس أهل النار، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)**[٤].

وقد فسر العلماء - ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية[٥]- الكاسيات العاريات بأن من معانيها أن تلبس الثوب الضيق الذي يبدي تقاطيع جسمها.

(١) القبطية: هي ثياب من كتّانٍ رقيقٍ كانت تعمل بمصر، نسبة إلى القبط على غير قياس فرقًا بينها وبين الإنسان.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٨٨.

(٢) غلالة: شعار يلبس تحت الثوب للبدن خاصّة.
انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٠/ ١٢٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ١٢٠، رقم ٢١٧٨٦، والبيهقي في معرفة السنن والآثار، ٣/ ١٤٦، رقم ٤٠٦٥
وحسنه الألباني في الثمر المستطاب، ١/ ٣١٨.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢٢/ ١٤٦.

وقد انتشر عند النساء ظاهرة اللباس الذي يكون أسفله ضيقًا لا تكاد المرأة تمشي فيه، ومما يزيد الأمر فتنة وضع فتحات جانبيه تظهر ساقيها وجزءًا من فخذها. والله المستعان!!

وليس للمرأة أن تلبس البنطلون وتظهر به أمام الأجانب؛ لأنه من الثياب الضيقة التي تحدد أجزاء البدن التي تحيط بها، فهو داخل في معنى الحديث.

٣. ألا يكون اللباس زينة في نفسه.

وأعني بذلك الثياب الظاهرة، فالمرأة منهية عن الثياب إذا كانت تلفت أنظار الرجال إليها؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

فإذا نهيت عن إبداء الزينة فكيف تلبس ما هو زينة؟ ولأن ذلك داخل في التبرج. ولا ريب أن خروج المرأة بملابسها الجميلة من أكبر أسباب الفتنة وعوامل الفساد، والله يقول: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وعلى هذا فمتى اختارت المرأة ثيابها من الألوان الجذابة لكي تلذّ بها أعين الناظرين من الرجال فهذا من مظاهر التبرج الجاهلي!

يقول المودودي رحمه الله: «إن كلمة التبرج إذا استعملت للمرأة كان لها ثلاثة معانٍ:

- أن تبدي للأجانب جمال وجهها ومفاتن جسدها.
- أن تبدي لهم محاسن ملابسها وحليها.
- أن تبدي لهم نفسها بمشيتها وتمايلها وترفلها وتبخترها.

وهذا عين ما شرح به هذه الكلمة أكابر علماء اللغة والتفسير» ثم ذكر بعضًا من أقوالهم[1].

فعلى المرأة المسلمة أن تحذر ثياب الزينة الظاهرة، ولو كانت في منزلها عند زوجها إذا حضر بعض أقارب الزوج كأخيه وعمه وابن أخيه ونحوهم، وهذا يختلف عن اللباس لزوجها، فلها أن تلبس ما شاءت عنده مهما بلغ من الزينة، ما لم يصل إلى حد الإسراف، كما أنه لا مانع من لباس الزينة إذا سترته بالعباءة لحضور مناسبة من المناسبات إذا لم يرها الرجال الأجانب.

٤. ألا يكون شفافًا يصف ما تحته.

لأن القصد من اللباس الستر، وذلك لا يحصل إلا بالصفيق؛ لأن الشفاف يزيد المرأة زينة وجمالًا، وليس اللباس الذي يشف عن الجسم ويفضح العورات بلباس في نظر الإسلام، فلباس المرأة لابد أن يكون صفيقًا؛ لئلا تفتن غيرها بمحاسن جسمها.

وقد ورد الوعيد الشديد فيمن تلبس لباسًا خفيفًا لا يستر ما أمر الله بستره، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (صنفان من

(١) تفسير آيات الحجاب، المودودي ص١٣.

أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)[1].

قال ابن عبد البر: «أراد صلى الله عليه وسلم النساء اللواتي يلبسن من الثياب الشيء الخفيف الذي يصف ولا يستر، فهن كاسيات بالاسم، عاريات في الحقيقة»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد فسّر قوله: «كاسيات عاريات» بأن تكتسي ما لا يسترها، فهي كاسية، وهي في الحقيقة عارية! مثل أن تكتسي الثوب الرقيق الذي يصف بشرتها، أو الثوب الضيق الذي يبدي تقاطيع خلقها مثل عجيزتها وساعدها ونحو ذلك، وإنما كسوة المرأة ما يسترها، فلا يبدي جسمها، ولا حجم أعضائها؛ لكونه كثيفًا واسعًا»[3].

وعن أم علقمة بن أبي علقمة قالت: رأيت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر دخلت على عائشة وعليها خمار رقيق يشف عن جبينها، فشقته عائشة عليها وقالت: «أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور؟! ثم دعت بخمار فكستها»[4].

٥. أن لا يكون مبخّرًا مطيّبًا.

وذلك لأحاديث كثيرة تنهى النساء عن التطيب إذا خرجن من بيوتهن، منها:

ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيما امرأة استعطرت، فمرت على قوم ليجدوا من ريحها، فهي زانية)[5].

وعن موسى بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن امرأة مرت به تعصف ريحها، فقال: يا أمة الجبار، المسجد تريدين؟ قالت: نعم، قال: وله تطيبت؟ قالت: نعم، قال: فارجعي فاغتسلي، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من امرأة تخرج إلى المسجد تعصف ريحها فيقبل الله منها صلاة حتى ترجع إلى بيتها فتغتسل)[6].

قال الألباني: «ووجه الاستدلال بهذه الأحاديث على ما ذكرنا العموم الذي فيها، فإن الاستعطار والتطيب كما يستعمل في

(١) سبق تخريجه.
(٢) التمهيد ١٣/ ٢٠٤.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ١٤٦.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٤٩- ٥٠، ومالك في الموطأ ٣/ ١٠٣ بنحوه، ومداره على أم علقمة مرجانة، ذكرها ابن حبان في الثقات ١/ ٢٣٦، وقال الذهبي: «لا تعرف»، قال الألباني: فمثلها لا يحتج بها، وإنما يستشهد بروايتها. انظر: جلباب المرأة المسلمة، الألباني ص٥٧.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) سبق تخريجه.

البدن، يستعمل في الثوب أيضا»[1].

وسبب المنع منه واضح، وهو ما فيه من تحريك داعية الشهوة. قال ابن دقيق العيد: «وفي حرمة التطيب علي مريدة الخروج إلى المسجد لما فيه من تحريك داعية شهوة الرجال»[2].

فإذا كان ذلك حرامًا على مريدة المسجد، فما يكون الحكم على مريدة السوق والأزقة والشوارع؟ لا شك أنه أشد حرمة، وأكبر إثمًا.

وقد ذكر الهيتمي في الزواجر أن خروج المرأة من بيتها متعطرة متزينة من الكبائر، ولو أذن لها زوجها[3]

٦. ألا يشبه لباس الرجال.

فإن لثوب الرجل صفات، أهمها: أن يكون لا يجاوز الكعبين أو إلى أنصاف الساقين. وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار)[4].

ولكن الأمر انعكس في هذا العصر، فصار ثوب كثير من النساء فوق الكعبين، ويعضهن إلى أنصاف الساقين، وصار ثوب الرجال أسفل من الكعبين، ولا شك أن قصر ثوب المرأة يؤدي إلى ظهور عورتها من القدم والساق ونحوهما، وظهور زينتها إذا قامت، أو انحنت، أو جلست، والله يقول: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[النور: ٣١].

فإذا نهيت عن إظهار زينة الرّجل فهي منهية عن إظهار الرّجل نفسها من باب أولى.

ولباس المرأة أسفل من الكعبين لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة). فقالت أم سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهن! قال: (يرخينه شبرًا)، فقالت: إذن تنكشف أقدامهن، قال: (فيرخينه ذراعًا، ولا يزدن عليه)[5]

فهذا فيه دليل على وجوب ستر قدم المرأة، وأنه أمر معلوم عند نساء الصحابة، وأن الرجلين والساقين مما يخفى ولا يجوز إظهاره، فلابد من ستره، ولا يكون ذلك إلا بأن ترخي المرأة ثوبها شبرًا أو ذراعًا، فتعمل المرأة المسلمة بهذا الحديث، وتفصّل ثيابها على ما يقتضيه الدليل الشرعي، ويكون لها قدوة في نساء خير الأمة وأفضل القرون.

وهناك أحاديث كثيرة تنهى المرأة أن

(١) جلباب المرأة المسلمة ص٦٥.
(٢) فيض القدير، المناوي ٣/ ١٣٧.
(٣) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ٢/ ٣٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب اللباس، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار، ٧/ ١٤١، رقم ٥٧٨٧.
(٥) سبق تخريجه.

تتشبه بالرجل، وتنهى الرجل أن يتشبه بالمرأة -في اللباس وغيره- ولا شك أن تشبه أحد الجنسين بالآخر انحراف عن الفطرة، ودليل على عقلية فاسدة، وهو داء عضال انتقل إلينا نتيجة الاحتكاك بالغرب، ومحاكاته وتقليده، حتى أصبح الرجل كالمرأة! والمرأة كالرجل، في الزي واللباس والمشية والكلام ونحو ذلك! وهذا أمر مستقبح يأباه الشرع، وتنفر منه العقول السليمة؛ لذا زجر عنه الإسلام.

فمن هذه الأحاديث: وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل)[1].

٧. ألا يشبه لباس الكافرات.

وذلك بأن تفصل المرأة المسلمة لباسها تفصيلًا يتنافى مع حكم الشرع وقواعده في موضوع اللباس مما ظهر في هذا العصر وانتشر باسم «الموديلات» التي تتغير كل يوم من سيء إلى أسوأ! وكيف ترضى امرأة شرفها الله بالإسلام ورفع قدرها أن تكون تابعة لمن يملي عليها صفة لباسها، بل صفة تجملها عمومًا ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر؛ لأنه لباس فصّل لغيرها، وهل يلبس الإنسان ما فصّل له أو ما فصّل لغيره؟!

إن كثيرًا من صفات لباس المرأة اليوم، لا يتفق مع تعاليم الإسلام، ولم يكن معروفًا عند المسلمات حتى سنوات قريبة، لكننا الآن نرى كل يوم صفة للخياطة والتفصيل؟! فمن أين جاءت؟ وما مدى تحقق شروط اللباس فيها؟ وما دور المرأة المسلمة في ذلك؟ أهو التعقل ومعرفة حكم الإسلام؟ أم هو إجادة التقليد وحب التبعية والإعجاب بما عليه الآخرون من خير أو شر؟!

والقصد أن المرأة منهية - كالرجل - عن التشبه بالكفار، ومنه التشبه بهم في اللباس، وقد ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تشبه بقوم فهو منهم)[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]»[3].

والضابط في موضوع التشبه بالكفار هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٦١ ، رقم ٨٣٠٩، وأبو داود في سننه،كتاب اللباس، باب في لباس النساء، ٦/ ١٩٥، رقم ٤٠٩٨. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٠٧، رقم ٥٠٩٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه،كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، ٦/ ١٤٤، رقم ٤٠٣١. وجوّد ابن حجر إسناده في فتح الباري ١٠/ ٢٢٢.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ص٨٣.

من أن كل فعل مأخوذ عن الكفار مما هو من خصائصهم فهو تشبه.

أما ما انتشر بين المسلمين مما لا يتميز به الكفار ففي كونه تشبهًا نظر، لكن قد ينهى عنه لئلا يكون ذريعة إلى التشبه. وإذا عارض هذا الفعل نصًّا من نصوص الشريعة أو أصلًا أو ترتب عليه مفسدة فإنه ينهى عنه لذلك.

والشريعة إذا نهت عن التشبه بالكفار دخل في النهي ما عليه الكفار قديمًا وحديثًا، وبهذا نعلم أن ما عليه الكفار في هذا الزمان من الأخلاق والعادات التي تختص بهم مما لم يكن معروفًا من قبل فنحن منهيون عنه[1].

٨. ألا يكون لباس شهرة.

فلا يجوز لامرأة مسلمة أن تختار من ألوان الثياب ما ترضي به رغبة الدعاية ولا يتعلق بضرورة اللباس، أو حسنه وجماله في حدود المباح، وإنما لأجل أن يرفع الرجال إليها أبصارهم، وتفتن تلك النظرات الجائعة! وقد ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسة الله ثوب مذلة يوم القيامة، ثم ألهب فيه نارًا)[2].

قال ابن الأثير: «ثوب الشهرة: هو الذي إذا لبسه الإنسان افتضح به واشتهر بين الناس»[3].

وقد ظهر في هذا العصر على النساء أنواع من لباس الشهرة ترفع له الأبصار، وهو علامة على نقص الإيمان، وضعف الوازع الديني، والإفلاس في عالم القيم، وهو شاهد على قصور النظر، وقلة الإدراك، كما أنه دليل على ضعف القوامة، وفقد التربية الإسلامية الأصيلة من أب أو زوج أو غيرها. فإلى الله المشتكى!

ثانيًا: زينة المرأة:

أباح الإسلام للمرأة من الزينة ما يلبي نداء الأنوثة التي فطرها الله عليها، غير أنه لم يترك لها الباب مفتوحًا على مصراعيه، تبدي ما شاءت من الزينة، تلفت أنظار الرجال إليها، وتحرك مشاعرهم، بل ضبط زينة المرأة وهذّبها، وبيّن لها ما يباح إبداؤه وما لا يباح.

ومن الآيات الجامعة في هذا الموضوع آية سورة النور، وهي قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه،كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، ٦/ ١٤٣، رقم ٤٠٢٩، وابن ماجه في سننه، كتاب اللباس، باب من لبس شهرة من الثياب، ٢/ ١١٩٢، رقم ٣٦٠٦. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١١٣، رقم ٦٥٢٦.

(٣) جامع الأصول، ١٠/ ٦٥٨.

مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فقد دلت الآية على أن الزينة زينتان: زينة ظاهرة تبدى للجميع، وزينة باطنة لا يباح إبداؤها إلا لمن ذكر في الآية، وهذه بعض المسائل المتعلقة بزينة المرأة.

١. حكم الزينة في الحجاب.

المراد بزينة الحجاب: الزينة فيما تتحجب به المرأة من لباس، كبعض خمر النساء المزركشة أو المطرزة، وكبعض أنواع الملاءات المزينة بنقوش ذهبية أو فضية، وما شابه ذلك.

وهذا النوع من الزينة يحرم على المرأة إبداؤه؛ وذلك لما يلي:

١. قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ فالمفهوم من الآية أنه لا يباح للمرأة أن تتعمد إظهار الزينة، ويعفى عما لا يمكن إخفاؤه، ولم يتعمد إظهاره، واختيار هذه الألبسة المزينة متعمد فيه إظهار الزينة.

٢. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. قال الطبري: «التبرج هو إظهار الزينة، وإبراز المرأة محاسنها للرجال»[(١)]. فتبين من تعريف التبرج المنهي عنه في الآية، أن زينة الحجاب داخلة تحته؛ وذلك لأن فيه إظهارًا للزينة التي يمكن إخفاؤها.

٣. أن المقصود من الأمر بالحجاب إنما هو ستر زينة المرأة، فلا يسوغ عقلًا أن يكون الحجاب في نفسه زينة، وهذا بيّن لا يخفى على ذي العقل السليم.

٤. أن الزينة في الحجاب مما يلفت النظر إليها، ومما يدعو إلى الافتتان بها، وهي منهية عن ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾. قال الألوسي: «ثم اعلم أن عندي مما يلحق بالزينة المنهي عن إبدائها ما يلبسه أكثر مترفات النساء في زماننا فوق ثيابهن ويتسترن به إذا خرجن من بيوتهن، وهو غطاء منسوج من حرير ذي عدة ألوان، وفيه من النقوش الذهبية أو الفضية ما يبهر العيون، وأرى أن تمكين أزواجهن ونحوهم لهن من الخروج بذلك

(١) جامع البيان، ٢٢/ ٤.

ومشيهن به بين الأجانب من قلة الغيرة، وقد عمت البلوى بذلك»[1].

٢. الزينة الظاهرة للمرأة وحكمها.

وهذه الزينة وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وقد اختلف العلماء في المراد بهذه الزينة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن الزينة الظاهرة للمرأة ما لا يمكن إخفاؤه، كالثياب الظاهرة، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه وغيره، حيث قال: «الزينة زينتان: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة: الثياب»[2].

ومن أدلتهم: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فالله سبحانه أرشد في الآية إلى كيفية سؤال أمهات المؤمنين عند الحاجة، وذلك بأن يكون من وراء حجاب؛ لئلا ينظر إليهن، والآية وإن كانت في معرض الكلام عن أمهات المؤمنين، إلا أنها عامة لجميع النساء، وإذا ثبت وجوب الحجاب عامة، صح أن الزينة الظاهرة ما لا يمكن إخفاؤه[3].

القول الثاني: الزينة الظاهرة للمرأة الوجه والكفان، وهو قول مروي عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما فقد جاء عنهما أنهما قالا في تفسير الزينة الظاهرة: إنها الوجه والكفان[4].

ومن أدلتهم: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فالله تعالى أمر النساء بالضرب بالخمار على الجيوب، وهذا نص على ستر العورة والعنق والصدر، وفيه نص على إباحة كشف الوجه، وهو قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فنص على أن الرجلين والساقين مما يخفى، ولا يحل إبداؤه[5].

القول الثالث: الزينة الظاهرة للمرأة: الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع. وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[6].

(١) روح المعاني ١٨/ ١٤٦.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/ ١١٧.
(٣) انظر: أحكام الزينة، عبير المديفر ٢/ ٨١٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٥٣.
(٥) انظر: المحلى، ابن حزم ٣/ ٢١٦-٢١٧.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

ومن أدلتهم: أن الذراعين مما يبدو عادة من المرأة، خصوصًا في الخبز وغسل الثياب، وغيرهما[1]، وإذا كانا كذلك فهما من الزينة الظاهرة.

القول الراجح:

القول الأول القائل بأن الزينة الظاهرة للمرأة هي ما لا يمكن إخفاؤه، وهي الثياب الظاهرة، هو الأرجح -والله أعلم-؛ لأن الزينة الظاهرة ما تتزين به المرأة خارجًا عن بدنها، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شيء من بدنها كظاهر الثياب، فإنها زينة مكتسبة خارجة عن بدن المرأة، وهي ظاهرة بحكم الاضطرار.

وعلى ذلك فهذه الزينة الظاهرة هي التي يباح للمرأة إبداؤها للأجانب.

وهو قول أكثر العلماء، قال ابن عطية: «ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابد منه، أو إصلاح شأن، ونحو ذلك؛ فما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه»[2].

وقال شيخ الإسلام بن تيمية في تفسير سورة النور: «فما ظهر من الزينة هو الثياب الظاهرة، فهذا لا جناح عليها في إبدائه - إذا لم يكن هناك محذور آخر - فإن هذه لابد من إبدائها، وهذا قول ابن مسعود وغيره وهو المشهور عن أحمد..»[3].

وقال ابن كثير: «أي لا يظهرن شيئًا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال ابن مسعود: كالرداء والثياب، يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه؛ لأن هذا لا يمكن إخفاؤه»[4].

٣. الزينة الباطنة للمرأة، وحكمها.

تعددت أمثلة أهل العلم في بيان معنى الزينة الباطنة للمرأة:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: الطوق والقرطان[5]. وقال أيضًا: الزينة زينتان: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة: الثياب، وأما الباطنة: فالكحل والسوار والخاتم[6]. وقال أيضًا: القرط، والدملج[7]، والخلخال، والقلادة[8].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

١٢/ ٢٢٨.

(١) انظر: المبسوط، السرخسي ١٠/ ١٥٣.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٧٨.

(٣) تفسير سورة النور، ص٩٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٤٧.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/ ١٢٠.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/ ١١٧.

(٧) الدملج: المعضد من الحلي.
انظر: النهاية، ابن الأثير ٢/ ١٣٤.

(٨) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ١٧٩.

القرطان، والقلائد، والشنوف[1]، والأسورة[2].

وقال الزهري: لا تبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له، إلا الأسورة، والأخمرة، والأقرطة من غير حسر[3].

وقال الطبري: «ما خفي، وذلك كالخلخال، والسوارين، والقرطين، والقلائد»[4].

وعند النظر في هذه الأمثلة المذكورة، يمكن أن يقال في معنى الزينة الباطنة: أنها الزينة التي يتضمن إبداؤها رؤية شيء من البدن، كموضع القلادة من العنق، وموضع الخلخال من الساق، ونحو ذلك.

وهذه الزينة لا يحل للمرأة أن تبديها للأجانب عنها، ويجوز أن تبديها لمحارمها ومن استثناهم الله في آية سورة النور على تفصيل في ذلك. وهو ما يأتي في المطلب الآتي.

٤. حكم إبداء زينة المرأة بصوت الخلخال ونحوه.

يحرم على المرأة إبداء الزينة بصوت الخلخال، وذلك كأن يكون خلخالها صامتًا فتضرب برجلها ليسمع صوته، وبهذا القول قال أكثر أهل العلم[5].

ومما يدل على تحريم ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فقد نهيت المرأة في الآية عن الضرب بالرجل لإسماع صوت الخلخال، والنهي هنا يقتضي التحريم.

ولأن إسماع صوت الزينة كإبدائها وأشد؛ لأن سماع صوت الزينة أشد تحريكًا للشهوة من إبدائها[6].

ويلحق بضرب الأرجل، كل ما كان مستورًا من زينة المرأة، فأظهرت صوته كالأساور، والأقراط التي لها صوت، ولبس الأحذية المزودة بنعال خشبية ومعدنية تدق الأرض وتظهر صوت الخطو، وغيرها.

قال ابن كثير: «وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورًا، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[7].

ثالثًا: محارم المرأة:

قد بيّن الله تعالى في آية سورة النور الذين يجوز للمرأة أن تبدي لهم هذه

(١) الشنوف: جمع شنف، وهو من حلي الأذن. انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ١٨٣.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/ ١٢٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥٤.
(٤) جامع البيان، ١٨/ ١١٧.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٣٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٥٧.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٣٧.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٥٧.

الزينة فقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

فهؤلاء ثلاثة:

١. الزوج.
٢. المحارم وهم سبعة.
٣. غير المحارم وهم أربعة.

فأما الزوج: فهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ والزوج مقدم على سائر ذوي المحارم؛ لأن المرأة لها أن تتزين لزوجها، ولزوجها أن يرى جميع بدنها.

قال عكرمة: «فأما الزوج فإنما ذلك كله -أي الزينة- من أجله، فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره»[(١)].

وقال القرطبي: «فالزوج والسيد يرى الزينة من المرأة، وأكثر من الزينة، أو كل محل من بدنها حلال له لذة ونظرًا. ولهذا المعنى بدأ بالبعولة؛ لأن إطلاعهم يقع على أعظم من هذا.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٦]»[(٢)].

وأما المحارم: وذكر الله تعالى منهم سبعة وهم:

١. الآباء: وكذا الأجداد، وهم آباء الآباء وآباء الأمهات وإن علوا.
٢. آباء الأزواج وآباؤهم: وإن علوا.
٣. الأبناء: والمراد أبناء المرأة من بطنها وأبناؤهم وإن نزلوا.
٤. أبناء البعولة: والمراد أبناء زوجها من امرأة أخرى. ويدخل في الأبناء أولاد الأبناء وأولاد البنات وإن نزلوا.
٥. الإخوة: والمراد إخوة المرأة، سواء كانوا أشقاء أو لأب أو لأم.
٦. أبناء الإخوة: سواء كان آباؤهم إخوانهم من الأب أو الأم أو أشقاء، لأنهم في حكم الأخوة.
٧. أبناء الأخوات: سواء منهن من كانت أختًا لهن من الأب أو الأم أو منهما.

فهؤلاء يجوز للمرأة أن تبدي لهم زينتها وما تلقيه من ثيابها في بيتها غالبًا - كالخمار - وما يظهر من جسدها في شؤون منزلها - كالغسيل والعجن والكنس - من الذراع والساق؛ وذلك لكثرة مخالطتهم، حيث يكثر دخولهم عليهن، والنظر إليهن بسبب القرابة، ولأنه قلما تتسرب إلى نفوسهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٥٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٢٣١.

الفتنة؛ لأن النفوس السليمة جبلت في الميل الجنسي على النفرة من القريبات.

وقد ذكرهم الله في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

ومحارم الرضاع كمحارم النسب؛ فإن الرضاع إذا ثبت اقتضى تحرم النكاح، وإباحة النظر والخلوة، والمحرمية في السفر، يدخل في ذلك المرتضع وفروعه، وهم أبناؤه وبناته وإن نزلوا لقوله صلى الله عليه وسلم: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)[(١)].

إلا أن المحارم ليسوا سواء، فالأب والأبناء ليسوا كغيرهم في إظهار الزينة بين أيديهم، لاسيما إن كان المحارم في سن الشباب، أو ليس لهم كثير اختلاط بالمرأة، كالمحارم من الرضاع، فإن السلامة لا يعدلها شيء.

قال القرطبي: «لما ذكر الله تعالى الأزواج وبدأ بهم، ثنى بذوي المحارم، وسوّى بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر. فلا مرية أن كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها»[(٢)].

وأما غير المحارم وهم أربعة:

١. ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾.

وأكثر العلماء على أن الإضافة هنا للاختصاص - أي المختصات بهن بالصحبة والخدمة - وإضافة النساء إليهن تدل على اختصاص ذلك بالمؤمنات، بخلاف الكافرات، فإنهن لا يتحرجن عن وصفهن للرجال، فيحتجبن عنهن مثل احتجابهن عن الرجال الأجانب؛ فلا يجوز للمرأة أن تكشف شعرها ووجهها أمام امرأة غير مسلمة، وهذا قول جماعة من السلف منهم ابن عباس ومجاهد وابن جريج.

وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالآية العموم: مسلمات أو غير مسلمات من الحرائر، وعلى هذا لا يجوز للمرأة أن تكشف شعرها ووجهها أمام غير مسلمة؛ لأن المرأة مع ذلك لا فرق فيه بين امرأة مسلمة وغير مسلمة، وهذا إذا أمنت الفتنة، لكن قد يرد على هذا القول أن الله تعالى قال: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ بالإضافة، ولم يقل: (أو النساء) وهذه الإضافة تشعر بشيء.

ولهذا يرى فريق ثالث أن المراد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، والرضاع المستفيض، والموت القديم، ٥/ ٢٥٣، رقم ٢٦٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل، ١٠/ ٢٧٥، رقم ١٤٤٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٢٣٢.

بنسائهن النساء المختصات بهن بالصحبة والخدمة والتعارف، سواء كن مسلمات أو غير مسلمات[1]، والغرض من الإضافة إخراج الأجنبيات اللاتي لا يعرف شيء عن أخلاقهن وأدبهن. فليست العبرة بالاختلاف الديني، بل بالاختلاف الخلقي[2]. وهذا أوسط الأقوال في نظري والله أعلم.

لكن مما يجب التنبيه له أننا في زمان يجب على المرأة أن تتصون في زيها ولباسها مع بنات أترابها في زمن كل شيء من حولنا يصوّرنا، الهواتف والكاميرات، وغيرها، وقد تختلف المرأة مع المرأة ولديها فيديو في حفل زفاف مثلًا فتظهره للرجال، وأصبح الفيديو في جزء الثانية يطير إلى العالم كله بضغطة، حيث التحميل على الشبكة العنكبوتية.

٢. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

ظاهر الآية العموم، فيشمل العبيد والجواري، فللمرأة المسلمة أن تكشف وجهها لخادمها المملوك، وقال بعض العلماء: أن المراد الجواري دون العبيد[3].

٣. ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾.

وهم كل من يتبع أهل البيت كالخادم، ويشعر بالمسكنة والفقر والتبعية، ولا حاجة له في النساء لكبر سنه، أو ذبول جسمه، أو ضعف عقله، أو لأي عرض آخر يمنع من الرغبة في المرأة.

وأصل الإربة والإرب والمأربة: الحاجة، والجمع مآرب[4].

وعلى هذا فالشرط الأساس ألا يكون هذا التابع له شهوة في النساء، فإن كان له شهوة وميل، حرم إبداء الزينة له؛ لأن علة الحكم ومداره على خوف الفتنة بالمرأة والتعلق بها؛ فإن أمنت لكونه لا شهوة له جاز إبداء الزينة، وإلا فلا.

ومن هنا نعلم أن استخدام الشباب الأقوياء في البيوت والفنادق: من خادم وسائق وحارس، ودخولهم على النساء ورؤية زينتهن بحجة أنهم من أهل هذه الآية، نقول: هذا جناية على النص القرآني، وفهم سقيم ومنكر عظيم، يجب على فاعله التوبة إلى الله تعالى، وإبعاد دواعي الفتنة وأسباب الفساد عن بيته لئلا يكون ديوثًا!

٤. ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وهو ما لم يجد في نفسه شعورًا بالشهوة. ومعنى ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ أي لم يطلعوا من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٣٣، تفسير سورة النور، المودودي ص١٦٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٣٤.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: المصدر السابق.

الظهور بمعنى الاطلاع. والمراد بالآية أن الأطفال الذين لا يعرفون الشهوة ولا يثير جسم المرأة وحركاتها عندهم شعورًا بالرغبة، فلا حرج من إبداء الزينة أمامهم، ولا يتحدد ذلك بسن معينة؛ فإن الأطفال يختلفون - وإن كان بعض العلماء يرى أنه إلى اثنتي عشرة سنة على الأكثر وبعضهم إلى عشر - ولكن الفيصل في ذلك أن يكون الطفل صغيرًا لا يفهم شيئًا عن عورات النساء، ولا يجد ميلًا إلى المرأة عند رؤيتها[1].

أما المراهق ومن كان قريبًا منه فليس له هذا الحكم، بل حكمه حكم الرجال، ومن النساء من تتساهل بالمراهق فلا تحتجب منه إذا كان أجنبيًّا، ولاسيما إذا كان معها في منزل واحد، كإخوان زوجها، وهذا لا ينبغي، وسببه الجهل أو التساهل.

فهؤلاء المذكورون في الآية يجوز للمرأة أن تبدي زينتها الباطنة لهم.

رابعًا: القواعد من النساء:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

والقواعد جمع قاعد بدون تاء - كحائض وحامل - وهي المرأة الكبيرة التي قعدت عن الحيض والولد، وليس لها رغبة في الزواج[2].

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ الآية [النور: ٣١].

فنسخ واستثنى من ذلك ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية[3].

والمراد بالنسخ هنا التخصيص؛ لقوله: «واستثنى من ذلك» أي لأن الله تعالى استثنى حكم القواعد من النساء من عموم النساء، والمستثنى منه في الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

والمراد بذلك الخمار الذي تستر به المرأة شعر رأسها إلى نحرها فلا جناح على القواعد أن يضعن ثيابهن الظاهرة التي تلبس عادة للتستر من غير المحارم؛ إذا لم تقصد من وضع ثيابها الظاهرة إظهار زينتها للرجال، وأن يستعففن عن وضع الثياب فيلبسن خمرهن وجلابيبهن خير لهن من وضعها[4].

وشرطت الآية في حق المرأة الكبيرة ألا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٣، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٤.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٠٨، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٦١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٩٠.

(٤) انظر: المصدر السابق.

تكون ممن يرجون نكاحًا، وما ذلك - والله أعلم - إلا لأن رجاءها النكاح يدعوها إلى التجمل والتبرج طمعًا في الأزواج، فإن كانت بهذه الصفة فهي منهية عن وضع ثيابها.

فإن كانت المرأة من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحًا، فإنه يباح لها أن تضع ثيابها الظاهرة التي لا يؤدي خلعها إلى كشف العورة، وهذا قول أكثر المفسرين في المراد بالثياب المذكورة في الآية وأنه الجلباب، وبه قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما[1].

وعلى ذلك فلا مانع شرعًا أن تكشف وجهها ويديها؛ لأمن المحذور منها وعليها بانصراف الأنفس عنها، وعدم رغبة الرجال فيها.

ولما كان قد يفهم من قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ ارتفاع الجناح عن كل شيء من هذا القبيل، فجاءت الجملة التالية وهي قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ لدفع هذا الفهم، فبيّنت أن التي قصدت إظهار الزينة والتبرج بوضع ثيابها ليس لها أن تضع ثيابها عن وجهها ويديها وغير ذلك، كأن تضرب الأرض ليعلم ما تخفي من زينتها، وأنها آثمة بهذا الصنيع؛ لأن مجرد الزينة على المرأة فتنة، ولو مع تسترها ولو كانت لا تشتهى، فلكل ساقطة لاقطة، فإذا كان في يديها خضاب أو في معصمها أساور أو في رجليها خلاخل ونحو ذلك، لم يجز لها أن تضع خمارها أو غطاء وجهها أو عباءتها، ونحو ذلك مما يؤدي إلى ظهور الزينة[2].

وبيّنت الآية أن المرأة الكبيرة خير لها أن تحرص على العفاف وعدم وضع الثياب، وحسبها أن تختار ما اختاره الله لها، وهو لن يكون إلا خيرًا.

قال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي وأن يطلبن العفة بترك وضع ثيابهن خير لهن من وضع الثياب؛ لبعده عن التهمة والفتنة، فعلى المرأة المسلمة الكبيرة أن تختار ذلك.

وهكذا كان ديدن نساء السلف، فعن عاصم الأحول قال: كنا ندخل على حفصة بنت سيرين وقد جعلت الجلباب هكذا وتنقبت به، فنقول لها: رحمك الله، قال الله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ هو الجلباب. قال: فتقول لنا: أي شيء بعد ذلك؟ فنقول: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ فتقول: هو إثبات الحجاب[3].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ

(١) انظر: المصدر السابق ٦/ ٩١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١٧.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٩٣.

﴿عَلِيمٌ﴾ فالجملة مسوقة «مساق التذييل؛ للتحذير من التوسع في الرخصة، أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعًا، فوصف «السميع» تذكير بأنه يسمع ما تحدثهن به أنفسهن من المقاصد، ووصف «العليم» تذكير بأنه يعلم أحوال وضعهن الثياب وتبرجهن ونحوها»[1].

ضوابط التعامل بين الجنسين

إذا دعت الحاجة أو الضرورة للتعامل بين الرجال والنساء الأجانب، فإن هناك ضوابط وضعها الشرع الحكيم، ويجب على كل من الرجال والنساء امتثالها، وهذه الضوابط تتمثل في الآتي:

١. غض البصر.

فالشريعة الإسلامية تحرص على عدم ظهور زينة النساء أمام الأجانب؛ تفاديًا لما يترتب على ظهورها من إثارة الشهوات، فشرعت للنساء التستر والتحجب، وأمرت الرجال والنساء بغض البصر.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

فالله سبحانه يعلم مدى تأثير النظرة المحرمة في القلب، وما تحدثه من تحويل النفس إلى بركان، وما تحركه من الاندفاع نحو المرأة، والواقع يصدّق ذلك.

قال القرطبي: «البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٩٩.

أجله»[1].

وقال ابن تيمية: «فالنظر داعية إلى فساد القلب...، فلهذا أمر الله بحفظ الفروج، كما أمر بغض الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك»[2].

وقد قرن الله عز وجل الأمر بغض البصر بالأمر بحفظ الفرج؛ لأن غض البصر هو السبيل لحفظ الفرج.

وقد بيّن رب العالمين العلة من الأمر بغض البصر وحفظ الفرج فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي «أطهر وأطيب، وأنمى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم، الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئًا لله، عوّضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره عن المحرم، أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته، مع داعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظًا، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما، أوقعاه في بلايا ومحن»[3].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٢٣.
(٢) تفسير سورة النور، ابن تيمية ص١٢٣ بتصرف.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٦.

فالشريعة الإسلامية أمرت بغض الأبصار؛ لكي يظل الجو الإسلامي الطاهر سائدًا في المجتمع.

٢. التزام المرأة بالحجاب الشرعي، وعدم التبرج، وعدم إبداء زينتها للأجانب، وعدم الخضوع بالقول.

فعلى المرأة إذا اضطرت للتعامل مع الأجانب أن تلتزم هذه الأوامر الإلهية؛ حفاظًا عليها، وصيانة لعفتها وكرامتها، وحسم كل أسباب الفساد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[الأحزاب: ٥٣].

أي: وإذا طلبتم- أيها المؤمنون- من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا يتمتع به، سواء أكان هذا الشيء حسيًّا كالطعام، أم معنويًّا كمعرفة بعض الأحكام الشرعية، إذا سألتموهن شيئًا من ذلك فليكن سؤالكم لهن من وراء حجاب ساتر بينكم وبينهن؛ لأن سؤالكم إياهن بهذه الطريقة، أطهر لقلوبكم وقلوبهن، وأبعد عن الوقوع في الهواجس الشيطانية التي قد تتولد عن مشاهدتكم لهن، ومشاهدتهن لكم[4].

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية عامة لكل النساء، بما فيهن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ

(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ٢٣٨.

﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]

يقول السعدي: «﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فتلنّ في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرك يحركه؛ لأن قلبه غير صحيح، فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب؛ لصحة قلبه، وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يدعوه إلى الحرام، يجيب دعوته.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ، ولا جاف كما أنه ليس بليّنٍ خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ ولم يقل: «فلا تلنّ بالقول» وذلك لأن المنهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع، هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلامًا لينًا، ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه»[1].

٣. عدم المصافحة بين الرجال والنساء الأجانب.

حرّم الإسلام مصافحة الرجال للنساء الأجانب؛ لما فيه من إثارة الشهوات.

وإذا كان الإسلام يطارد الحرام أنى وجد، ويترصد المنكر حيثما كان ليقضي عليه، فلمس المرأة باليد يحرّك كوامن النفس، ويفتح أبواب الفساد، ويسهّل مهمة الشيطان، من أجل ذلك توعد الله من يفعل ذلك بصارم عقابه، وشديد عذابه.

فعن معقل بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له)[2].

وإذا كان هذا في مجرد المس إذا كان بغير شهوة، فما بالك بما فوقه؟!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٣.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٢٠/ ٢١١، رقم ٤٨٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٠٤٥.

والقلب يهوي ويتمنى، ويصدّق ذلك الفرج ويكذّبه)[1].

٤. عدم الخلوة بالمرأة الأجنبية.

وحقيقة الخلوة أن ينفرد رجل بامرأة في غيبة عن أعين الناس.

إن الخلوة بالأجنبية من أعظم الذرائع، وأقرب الطرق إلى اقتراف الفاحشة الكبرى.

وقد صرح القرطبي بأن الخلوة بغير محرم من الكبائر[2].

وقد ذكر بعض السلف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[الممتحنة: ١٢].

أي: لا تخلو المرأة بالرجال. ذكره البغوي عن مجاهد، وسعيد بن المسيب، والكلبي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[3].

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخلوة بالأجنبية، وشدّد في ذلك، والأحاديث في ذلك كثيرة، منها:

حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يقول: (لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم)[4].

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم علة تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية حيث قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم منها، فإن ثالثهما الشيطان)[5].

يقول الشوكاني: «وعلة التحريم ما في الحديث من كون الشيطان ثالثهما، وحضوره يوقعهم في المعصية»[6].

وقد تكون القرابة إلى المرأة أو زوجها سبيلًا إلى سهولة الدخول عليها أو الخلوة بها، كابن العم وابن الخال مثلًا، ولذلك حذّرنا النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك؛ لأنه من مداخل الشيطان، ومسارب الفساد.

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والدخول على النساء)، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أفرأيت الحمو؟ قال: (الحمو الموت)[7].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب قدّر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، ٤/ ٢٠٤٧، رقم ٢٦٥٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٧٤.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٠١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب الحج، باب حج النساء، ٤/ ٨٦، رقم ٣٠٠٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، ٢/ ٩٧٨، رقم ١٣٤١.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٣/ ١٩، رقم ١٤٦٥١، والترمذي في سننه، أبواب الرضاع، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، ٢/ ٤٦٥، رقم ١١٧١.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٦/ ٢١٥، رقم ١٨١٣.
(٦) نيل الأوطار، الشوكاني ٦/ ١٢٦.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، ٩/ ٢٤٢، رقم ٥٢٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بأجنبية

والحمو هو قريب الزوج الذي لا يحل للمرأة[1]. فبيّن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يفسد الحياة الزوجية كما يفسد الموت البدن.

٥. عدم الاختلاط.

والمقصود بالاختلاط: هو اجتماع الرجال بالنساء غير المحارم في مكان واحد يمكنهم فيه الاتصال فيما بينهم بالنظر، أو الإشارة، أو الكلام، أو البدن من غير حائل أو مانع يدفع الريبة والفساد[2].

فمن الآداب التي تجب على المرأة مراعاتها عدم الاختلاط بالرجال درءًا لانتشار الفساد والفحشاء.

وقد حذر القرآن الكريم من هذا الاختلاط كما في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وبيّن سبحانه الحكمة من ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

«فلا يقل أحد غير ما قال الله. لا يقل أحد: إن الاختلاط، وإزالة الحجب، والترخص في الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب، وأعف للضمائر، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك، إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين. لا يقل أحد شيئًا من هذا والله يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يقول هذا عن نساء النبي الطاهرات، أمهات المؤمنين، وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن لا تتطاول إليهن وإليهم الأعناق! وحين يقول الله قولًا ويقول خلق من خلقه قولًا، فالقول لله- سبحانه- وكل قول آخر هراء، لا يردده إلا من يجرؤ على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الباقي الذي خلق هؤلاء العبيد! والواقع العملي الملموس يهتف بصدق الله، وكذب المدعين غير ما يقول الله. والتجارب المعروضة اليوم في العالم مصدقة لما نقول. وهي في البلاد التي بلغ الاختلاط الحر فيها أقصاه أظهر في هذا وأقطع من كل دليل»[3].

يقول ابن القيم: «ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال: أصل كل بلية

والدخول عليها، ٤/ ١٧١١، رقم ٢١٧٢.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ١٧٦.

(٢) عودة الحجاب، محمد إسماعيل المقدم ٣/ ٥٧.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٨.

وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام، والطواعين المتصلة»[(١)].

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم نهى الرجال عن منع النساء من الذهاب إلى المساجد، فقد أوجب على النساء - من ناحية أخرى- عدم الاختلاط بالرجال، وأمرهن بأن يمشين في جزء مخصوص من الطريق، فعن أبي أسيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول- وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق: (استأخرن، فليس لكن أن تحققن[(٢)] الطريق، عليكن بحافات الطريق)، فكانت المرأة تلصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به[(٣)].

كما قرّرت الشريعة أن خير صفوف النساء في الصلاة أبعدها عن صفوف الرجال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها)[(٤)].

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يهتم بألا تختلط النساء بالرجال عند العودة إلى بيوتهن بعد الصلاة، فعن أم سلمة رضي الله عنها (أن النساء في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كن إذا سلّمن قمن، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صلى من الرجال ما شاء الله، فإذا قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قام الرجال)[(٥)].

قال ابن قدامة: «إذا كان مع الإمام رجال ونساء فالمستحب أن يثبت هو والرجال بقدر ما يرى أنهن قد انصرفن، ويقمن هن عقيب تسليمه...؛ لأن الإخلال بذلك من أحدهما يفضي إلى اختلاط الرجال بالنساء»[(٦)].

وهذا كله في حالة العبادة والصلاة التي يكون فيها المسلم أو المسلمة أبعد ما يكون عن وسوسة الشيطان وإغوائه، فماذا يقال عن الاختلاط في كراسي الدراسة، الاختلاط في مكان العمل، في المستشفيات، في الطائرات، في أسواق البيع والشراء؟!

(١) الطرق الحكمية، ابن القيم ص٣٧٩.
(٢) تحقق الطريق: تمشين في وسطه.
انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٥/ ١٦٩.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب مشي النساء مع الرجال في الطريق، ٤/ ٣٦٩، رقم ٥٢٧٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٢١، رقم ٩٢٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، ١/ ٣٢٦، رقم ٤٤٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس، ١/ ١٧٢، رقم ٨٦٦.
(٦) المغني، ١/ ٤٠١-٤٠٢ بتصرف.

وبهذا يتبين لنا حرص الشريعة الغراء على التفريق والمباعدة بين المرأة والرجل الأجنبي عنها، حتى لا يقع ما لا يحمد عقباه، لكن هناك من يحاول تحطيم هذه الموانع والفواصل بين المرأة والرجل بدعوى التقدم والحضارة، أو تأثرًا بالغرب ودعاة الإباحية، ونجح القوم في غياب الوعي الديني أن يخترقوا هذه الحواجز، ويزيلوا هذه الموانع، ويتسوّروا السياج، فكان الاختلاط والذي يبدأ في رياض الأطفال مرورًا بالمدارس والكليات وانتهاء بالاختلاط في العمل. فضلًا عن الاختلاط في وسائل المواصلات وشتى مناحي الحياة.

فأصبح الاختلاط ظاهرة اجتماعية مألوفة، وأن الدعوة إلى عدم الاختلاط يعدّ تخلفًا ورجعية!!

الأساليب الوقائية لحفظ الأعراض

لقد جاءت هذه الشريعة بحفظ الضرورات التي لا تستقيم الدنيا ولا الآخرة إلا بحفظها، وهي: الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال، وعلى هذا الترتيب رتّبها العلماء من حيث الأهمية، فمدار أحكام الدين وخلاصة هذه الشريعة حماية هذه الضرورات الخمس.

وجعلت الشريعة لكل واحدة من هذه الضرورات الخمس أحكامًا لحمايتها، وتوفيرها، وإيجادها، وتنميتها؛ وفي المقابل، جاءت بأحكام لمنع العدوان عليها، وإنقاصها، والعبث بها.

والعِرْض يعرّفه العلماء بأنه موضع المدح والذم للإنسان، بمعنى أن عرضك هو ما يسرّك لو ذكرت بخير فيما يتعلق به، ويسوؤك لو ذكرت بشرٍّ فيما يتعلق به.

وقد وضع الإسلام أساليب وقائية لحفظ الأعراض؛ لمنع وقوع الفواحش، ومن هذه الأساليب:

١ . ترسيخ الإيمان في القلوب.

تحرص الشريعة الغراء على ترسيخ الإيمان في قلوب المؤمنين، وأن عليهم الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه، وتزرع في قلوبهم مراقبة الله.

فالشريعة الإسلامية تربي نفوس

المؤمنين مع إرشادهم إلى الأساليب الوقائية، بحيث يكون لكل منهم وازع في نفسه وضميره، فيحول بينه وبين الانغماس في الشهوات وارتكاب المحرمات.

فترسيخ الإيمان في القلوب صمام الأمان لصيانة الأعراض، وعدم انتهاكها.

ولذلك نلحظ في أغلب الآيات التي تناولت الأساليب الوقائية أنها اشتملت على أسلوب الإقناع بتعليل الأحكام، وهذا التعليل إما بأمر ديني كمحبة الله وخوفه ورجائه ومراقبته وعلمه، وإما بأمر دنيوي من السعة في الرزق وحصول الخير وغير ذلك.

ففي الأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج نجد نهاية الآية ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وفي الأمر بالاستئذان نجد ختام الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٧ - ٢٨].

وفي الأمر بالحجاب نجد التعليل بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وهكذا في بقية الآيات التي تحدثت أو أشارت إلى الأساليب الوقائية لحفظ وصيانة الأعراض.

٢. الأمر بغض البصر وحفظ الفروج.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

فقدّم سبحانه غض البصر على حفظ الفرج ؛ لأن النظر بريد الزنا، وغض البصر من أجلّ الأدوية لعلاج القلب[1].

وقد غايرت الآيتان بين الأبصار والفروج، فالأولى فعلها «يغضوا»، والثانية فعلها «يحفظوا»، والإغضاء صرف المرء بصره عن التحديق وتثبيت النظر، فهو أغلبي وليس تامًّا، بخلاف الحفظ، ثم جيء بـ«من» التي للتبعيض مع الغض دون الحفظ.

يقول ابن القيم عن غض البصر: «ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد، ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة، لم يأمر سبحانه بغضه مطلقًا، بل أمر بالغض منه، وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال، لا

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٧١.

يباح إلا بحقه؛ فلذلك عمّ الأمر بحفظه»[1].

٣. تحريم الزنا والوسائل المفضية إليه.

أجمعت الشرائع السماوية على تحريم الزنا، واعتبرته من أكبر الآثام، وأعظم الجرائم التي تدنس النفس البشرية، وتحول بينها وبين سعادتها وكمالها، ووضعت له أقصى عقوبة في باب العقوبات وأشنعها، وهي الرجم بالحجارة حتى الموت، وتوعدت فاعليها بالعقوبات العاجلة، والعذاب الأليم في الآخرة، واتفقت المذاهب الأخلاقية على تحريم الزنا واستقبحته، وحكمت عليه بالشناعة القبيحة، وجعلته في عداد الجرائم الكبرى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]

فلم ينه سبحانه عن الفعل فقط، بل نهى عن قربانه؛ ليحرّم جميع وسائله ودواعيه المفضية إليه، من مصافحة المرأة الأجنبية ومسّها، والخلوة بها، والاختلاط معها، وخضوع المرأة بالقول، وإظهار صوت زينتها، وخروجها متبرجة متعطرة، بدون حجاب شرعي، وغير ذلك مما سبق بيانه قبل ذلك.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى التعفف عن الزنا، والتصون منه من صفات المؤمنين المفلحين.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٧].

وقد شدد الله عز وجل عقوبة الزاني الأثيم المادية والمعنوية، فالعقوبة المادية: العذاب الأليم بالجلد أو الرجم، والمعنوية: أن لا نرأف به، ولا نشفق عليه حتى يبرأ من جريرته، ويتوب منها.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وقد زادت السنة على الحكم بجلد الزاني البكر والزانية البكر مائه جلدة أن يغربا عامًا، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: البكر بالبكر، جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب، جلد مائة والرجم)**[2].

٤. حرمة الظن السيء بالمؤمن.

(١) روضة المحبين، ابن القيم ص٩٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب باب حد الزنا، ٣/ ١٣١٦، رقم ١٦٩٠.

وأوجب على المؤمن إذا سمع عن أخيه سوءًا أن يظن به البراءة من الإثم، والطهارة من السوء، كما هو طاهر وبريء.

قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٢ - ١٣].

والقصد من وراء هذا عدم السماح للفاحشة أن تظهر، ولو على ألسنة المتكلمين، أو في أذهان السامعين تركيزًا للطهارة وتثبيتًا لها في جو البلاد والعباد، وفي هذا من معنى محاربة الفاحشة بالوقاية مالا يخفى على عاقل.

٥. حرمة قذف المؤمن والمؤمنة بالفاحشة.

حرّم الإسلام قذف العفيفين والعفيفات، ووضع لذلك عقوبة زاجرة، وهي الجلد ثمانين جلدة، مع إسقاط عدالته حتى يتوب توبة نصوحًا، مالم يحضر أربعة شهود على صحة ما قاله.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

إلى جانب هذا يستحق القاذف اللعنة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

يقول سيد قطب في بيان حكمة حد القذف: «أن اطراد سماع التهم يوحي إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوث، وأن الفعلة فيها شائعة، فيقدم عليها من كان يتحرج منها، وتهون في حسه بشاعتها بكثرة ترددها، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها!»[(١)].

٦. حرمة إشاعة الفاحشة في البلاد والعباد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

قال ابن تيمية في تفسيرها: «وهذا ذم لمن يحب ذلك. وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح. وهو ذم لمن يتكلم بها أو يخبر بها. محبة لوقوعها في المؤمنين، إما حسدًا أو بغضًا، أو محبة للفاحشة. فكل من أحب فعلها، ذكرها. وكره العلماء الغزل من الشعر الذي يرغّب فيها»[(٢)].

فنبّه إلى أن مجرد حب الفاحشة عمل على إيجادها وانتشارها، وأن الفاحشة البغيضة

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٩١.
(٢) تفسير سورة النور، ابن تيمية ص٦٥.

يجب أن تطرد من القلوب والنفوس، قبل أن تطرد من العضلات والحركات.

٧. تشريع الاستئذان.

من حرمة البيوت في الإسلام أنه لا يجوز دخولها إلا بعد الإذن.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢٧ - ٢٨].

يقول الجصاص: «روي عن ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم وقتادة قالوا: الاستئناس: الاستئذان. فيكون معناه: حتى تستأنسوا بالإذن، وإنما سمّي الاستئذان استئناسًا لأنهم إذا استأذنوا أو سلّموا أنس أهل البيت بذلك، ولو دخلوا عليهم بغير إذن لاستوحشوا»[(١)].

ويقول أبو السعود: «إثر ما فصل عن الزّنا وعن رمي العفائف عنه شرع في تفصيل الزّواجر عمّا عسى يؤدّي إلى أحدهما، من مخالطة الرجال والنساء ودخولهم عليهنّ في أوقات الخلوات»[(٢)].

ويجب الاستئذان ولو كان الباب مفتوحًا، فيجب الاستئذان على من يريد دخول البيت سواء كان الباب مغلقًا أو مفتوحًا؛ لأن الشرع قد أغلقه بالتحريم للدخول، حتى يفتحه الإذن من ربه[(٣)].

والاستئذان واجب على كل بالغ يريد الدخول، سواء كانت في البيت أمه أو أخته أو ابنته، إلا الزوج فليس عليه أن يستأذن للدخول وليس في البيت إلا زوجته.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور: ٥٩].

ووضحّت السنة الهدف من الاستئذان، وهو خشية أن تقع عين آثمة على عورة غافلة، فتلد تلك النظرة الخاطفه فاحشة فاضحة، لا قبل بتحملها.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما جعل الاستئذان من أجل البصر)[(٤)].

وهذه طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الاستئذان:

فعن عبد الله بن بسر رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ١٦٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٦٨.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٢٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له، ١٢/ ٢٥٣، رقم ٦٢٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب الأدب، باب تحريم النظر في بيت غيره، ٣/ ١٦٩٨، رقم ٢١٥٦.

إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، فيقول: (السلام عليكم.. السلام عليكم) ذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور)[1].

فهذه الآداب تبرز لنا مدى عناية الإسلام بحرمة البيوت، وكيف أعطاها التشريع الإلهي من القداسة ما يجعلها في مأمن من الشكوك والريب، وفي حصانة من جراثيم الفساد، وعوامل الانهيار.

٨. تحريم سفر المرأة بدون محرم.

فإن المرأة مظنة الشهوة والطمع، وهي لا تكاد تقي- نفسها، لضعفها ونقصها، ولا يغار عليها مثل محارمها، الذين يرون أن النيل منها نيل من شرفهم وعرضهم، وسفرها بدون محرم يعرضها إلى الخلوة بالرجال ومحادثتهم، وقد يطمع فيها من في قلبه مرض، وربما سهل خداع المرأة، وربما يعتريها مرض، وإذا سلمت من كل هذا فلن تسلم من القيل والقال إذا سافرت بدون محرم يصونها ويرعاها.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب، يقول: (لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم)، فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا؟ قال: (انطلق فحج مع امرأتك)[2].

قال النووي: «المرأة مظنة الطمع فيها، ومظنة الشهوة ولو كبيرة، وقد قالوا: «لكل ساقطة لاقطة»، ويجتمع في الأسفار من سفهاء الناس وسقطتهم من لا يترفع عن الفاحشة بالعجوز وغيرها لغلبة شهوته، وقلة دينه ومروءته وحيائه»[3].

ومما ينبغي التنبيه له أن سفر المرأة في صحبة آمنة من النساء مسموح به شرعًا، خاصة أن قوالب السفر تغيّرت عن الماضي وسيلة وأغراضًا، وأمنًا وسيطرة على الطريق والمطارات والمواني وخلاف ذلك، وخاصة إذا كانت كبيرة مسنة.

ومما يدل على ذلك ما ورد عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: أذن عمر رضي الله عنه، لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم في آخر حجة حجّها، فبعث معهن عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف[4].

ووجه الدلالة أن الصاحبين الجليلين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما لم يكونا محرمين لأمهات

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان، ٧/ ٤٨٤، رقم ٥١٨٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٤٩، رقم ٤٦٣٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم ٤/ ٥٠٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب الحج، باب حج النساء، ٣/ ١٩، رقم ١٨٦٠.

المؤمنين، وقد سافر الصحابيان الجليلان بهنّ من غير نكير من باقي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا فلا مانع من سفر المرأة مع نسوة ثقات أو وجود الأمن.

قال ابن حجر: «ومن الأدلة على جواز سفر المرأة مع النسوة الثقات إذا أمن الطريق أول أحاديث الباب[1] لاتفاق عمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ونساء النبي صلى الله عليه و سلم على ذلك، وعدم نكير غيرهم من الصحابة عليهن في ذلك»[2].

وقال ابن تيمية: «وتحج كل امرأة آمنة مع عدم محرم، قال أبو العباس: وهذا متوجه في سفر كل طاعة»[3].

فتبًا لهؤلاء المستغربين، وسحقًا سحقًا لعبيد المدنية الزائفة الذين أطلقوا لبناتهم ونسائهم العنان يسافرن دون محرم، ويخلون بالرجال الأجانب، مدّعين أن الظروف تغيرت، وأن ما اكتسبته المرأة من التعليم، وما أخذته من الحرية يجعلها موضع ثقة أبيها وزوجها، فما هذا إلا فكر خبيث دلف إلينا ليفسد حياتنا، وما هي إلا حجج واهية ينطق بها الشيطان على ألسنة هؤلاء الذين انعدمت عندهم غيرة الرجولة والشهامة فضلًا عن كرامة المسلم ونخوته[4].

(١) يقصد الحديث السابق.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ٤/ ٧٦.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٥/ ٣٨١-٣٨٢.
(٤) عودة الحجاب، محمد إسماعيل المقدم ٣/ ٥٤.
(٥) انظر: عودة الحجاب، محمد إسماعيل المقدم ٣/ ٩٧، نضرة النعيم، مجموعة باحثين ٤/ ١٥٢٨.

فوائد الحجاب

الحجاب له فوائد وثمرات لا تحصى، تعود على الأفراد -نساء ورجالًا- وعلى المجتمعات، وهذه الفوائد يمكن بيانها كالآتي[5]:

١. الحجاب طاعة لله عز وجل وطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

أوجب الله طاعته وطاعة رسول صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]

وقد أمر الله سبحانه النساء بالحجاب فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[النور: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[الأحزاب: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن

﴿جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٩].

والله سبحانه وتعالى لم يخاطب بالحجاب إلا المؤمنات، فقد قال سبحانه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

وقال عز وجل: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢. الحجاب عفة.

فقد جعل الله تعالى التزام الحجاب عنوان العفة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾[الأحزاب: ٥٩].

لتسترهن بأنهن عفائف مصونات ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ فلا يتعرض لهن الفساق بالأذى، وفي قوله سبحانه ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ إشارة إلى أن معرفة محاسن المرأة إيذاء لها ولذويها بالفتنة والشر.

والله عز وجل فرض الحجاب على المرأة محافظة على عفة الرجال أيضًا الذين قد تقع أبصارهم عليها؛ لأن بلاء الرجال بما تقع عليه أبصارهم من مغريات النساء وفتنتهن هو المشكلة التي أحوجت المجتمع إلى حلّ، فكان في شرع الله ما تكفّل به على أفضل وجه.

٣. الحجاب طهارة.

بيّن الله سبحانه الحكمة من تشريع الحجاب، وأجملها في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٣].

فوصف الحجاب بأنه طهارة لقلوب المؤمنين والمؤمنات؛ لأن العين إذا لم تر لم يشته القلب، ومن هنا كان القلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة حينئذ أظهر؛ لأن الحجاب يقطع أطماع مرضى القلوب: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

٤. الحجاب ستر.

عن يعلى بن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى حيي ستير، يحب الحياء والستر)[(١)].

قال سبحانه ممتنًّا على عباده: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قال عبد الرحمن بن أسلم: يتقى الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى[(٢)].

(١) أخرجه وأحمد في مسنده، ٤/ ٢٤٤، رقم ١٧٩٧٠، وأبو داود، كتاب الحمام، باب النهي عن التعري، ٦/ ١٣٠، رقم ٤٠١٢، والنسائي في سننه، كتاب الغسل، باب الاستتار عند الاغتسال، ١/ ٢٠٠، رقم ٤٠٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٦١، رقم ١٧٥٦.

(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٧٦.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: (أيما امرأة نزعت ثيابها في غير بيتها خرق الله عز وجل عنها ستره)[1]؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

٥. الحجاب تقوى.

قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾[الأعراف: ٢٦].

ويستفاد من الآية أن هناك تلازمًا بين ستر ما أوجب الله ستره، وبين التقوى، كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان، فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح التكشف والحياء منه.

وقد قال عبد الرحمن بن أسلم: يتقى الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى[2].

٦. الحجاب إيمان.

فالله سبحانه وتعالى لم يخاطب بالحجاب إلا المؤمنات فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾[النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٩].

ولما دخل نسوة من بني تميم على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عليهن ثياب رقاق قالت: «إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كنتين غير مؤمنات فتمتعن به»[3].

٧. الحجاب حياء.

الحياء من أبرز الصفات التي تنأى بالمرء عن الرذائل، وتحجزه عن السقوط إلى سفساف الأخلاق، وحمأة الذنوب، كما أن الحياء من أقوى البواعث على الفضائل وارتياد معالي الأمور.

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحياء لا يأتي إلا بخير)[4].

«والحياء نوعان: أولهما: نفسي، وهو الذي خلقه الله تعالى في جميع النفوس، كحياء كل شخص من كشف عورته والوقاع

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٤/ ١٩٤، رقم ٢٦٥٧٠، وأبو يعلى في مسنده، ١٢/ ٤٦٠، رقم ٧٠٣١، والطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ٣١٤، رقم ٧١٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٢٦، رقم ٢٧٠٨.

(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٧٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحياء، ٨/ ٢٩، رقم ٦١١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، ١/ ٦٤، رقم ٣٧.

بين الناس، والآخر: إيماني، وهو خصلة تمنع المؤمن من ارتكاب المعاصي خوفا من الله تعالى، وهذا القسم من الحياء فضيلة يكتسبها المؤمن، ويتحلى بها، وهي أم كل الفضائل الأخرى.

فلذلك وجب على المسلمين أن يعودوا بناتهم على الحياء، والتخلق بهذا الخلق الذي اختاره الله تعالى لدينه القويم؛ لأن عدم الحياء علامة لزوال الإيمان، ولا يخفى ما يتولد عن ذلك من العواقب الوخيمة»[1]

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الحياء والإيمان قرنا جميعًا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر)[2].

إن التجرد من خلق الحياء مدرجة الهلاك، والسقوط من درك إلى درك إلى أن يصبح الإنسان صفيق الوجه، وينزع منه خلق الإسلام، فيجترئ على المخالفات، ولا يبالي بالمحرمات، وهناك تلازم بين ستر ما أوجب الله ستره، وبين التقوى، كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان، فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح التكشف والحياء منه.

إن مسارعة آدم وحواء إلى ستر عوراتهما بأوراق الشجر دليل على أن الحياء عنصر أصيل مركوز في فطرة الإنسان، فعليه أن يهتم به، ويحافظ عليه، ويصونه من أن يثلم، ففي صيانته، وسلامته سلامة للفطرة عن أن تمسخ أو تحرّف.

ففي محافظة المرأة على حجابها دليل على حيائها، وفي تركها لحجابها علامة على قلة حيائها.

٨. الحجاب يناسب الغيرة.

إن الحجاب يتناسب مع الغيرة التي جبل عليها الإنسان السوي، والغيرة غريزة تستمد قوتها من الروح، والتحرر عن القيود غريزة تستمد قوتها من الشهوة، فهذه تغري بالسفور، وتلك تبعث على الاحتجاب.

وقد نزلت آية الحجاب بسبب غيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فعن أنس رضي الله عنه قال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله! يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب[3].

(١) عودة الحجاب، محمد إسماعيل المقدم ٣/ ١١٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ١/ ٢٢، وقال: «هذا حديث صحيح على شرطهما» ولم يتعقبه الذهبي.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٠٩، رقم ٣٢٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن

فالغيرة على الحريم رمز الإسلام، ومن فقدها من أبناء البلاد الإسلامية، فإنما فقدها بعد اندماجه في أمم لا يغارون على نسائهم، ولا يرون أي بأس في مخاصرة زوجاتهم لرجال آخرين، في مرأى منهم ومشهد.

إن الحجاب يتناسب مع الغيرة المحمودة، وإن التبرج والاختلاط والخلوة المحرمة، وسائر أسباب الافتتان بالمرأة إنما تنتج عن عدم الغيرة وضعف الحمية.

ولو أن المرأة التزمت درجة الحجاب المثلي وقرّت في بيتها، ولو أنها إذا احتاجت للخروج فخرجت، حجبت كل بدنها عن الأجانب، لما كان لهذه الفتن مكان في حياتنا.

٩. الحجاب فيه حفظ للمجتمعات من انتشار الجرائم والفواحش.

فالله سبحانه ما أمر بالحجاب إلا حفظًا وصيانة للمرأة والرجل كأفراد يتكون منهم المجتمع بأسره، وقطعًا لدابر الفتنة الناتجة عن التبرج والانحلال، ومن يتأمل نصوص الشرع، وعبر التاريخ يتيقن مفاسد التبرج وأضراره على الدين والدنيا، لا سيما إذا انضم إليه الاختلاط المستهتر.

فمن هذه العواقب الوخيمة: تسابق المتبرجات في مجال الزينة المحرمة لأجل لفت الأنظار إليهن، مما يجعل المرأة كالسلعة المهينة الحقيرة المعروضة لكل من شاء أن ينظر إليها.

ومنها: الإعراض عن الزواج، وشيوع الفواحش، وسيطرة الشهوات.

ومنها: انعدام الغيرة، واضمحلال الحياء.

ومنها: كثرة الجرائم.

ومنها: فساد أخلاق الرجال خاصة الشباب والمراهقين، ودفعهم إلى الفواحش المحرمة بأنواعها.

ومنها: تحطيم الروابط الأسرية، وانعدام الثقة بين أفرادها، وتفشي الطلاق.

ومنها: المتاجرة بالمرأة، كوسيلة دعاية، أو ترفيه في مجالات التجارة وغيرها.

ومنها: الإساءة إلى المرأة نفسها، والإعلان عن سوء نيتها، وخبث طويتها، مما يعرضها لأذية الأشرار والسفهاء.

ومحافظة المرأة على حجابها فيه قطع لدابر كل هذه الجرائم والرذائل الأخلاقية؛ فالشريعة المحكمة ترمي من وراء تشريع الحجاب إلى منع الفتنة، ابتداء من مجرد الاستحسان والتلذذ بالنظر الذي هو زنا العين، وانتهاء بالفاحشة الكبرى وهي الزنا.

موضوعات ذات صلة:

البيوت، بيوت النبوة، النساء

لكم)، ٨/ ٣٨٧، رقم ٤٧٩٠.

الحج

عناصر الموضوع

مفهوم الحجّ	٣٠٢
الحج في الاستعمال القرآني	٣٠٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٠٤
الحج قبل البعثة	٣٠٥
الحج من أركان الإسلام	٣١٩
أركان الحج المذكورة في القرآن	٣٣٢
محظورات الحج وكفاراتها	٣٣٧
آداب الحج	٣٥٠
حكمة تشريع الحج وثمراته	٣٥٨

مفهوم الحجّ

أولًا: المعنى اللغوي:

الحجّ مصدر من الفعل: حجّ، بمعنى قصد، ويطلق الحجّ ويراد به القصد، قال ابن منظور: «الحجّ القصد، حجّ إلينا فلان، أي: قدم، وحجّه يحجّه حجًّا: قصده، وحججت فلانًا واعتمدته أي: قصدته، ورجلٌ محجوجٌ أي: مقصود»[1]. تقول: حججت البيت أحجّه حجًّا، فأنا حاجٌّ، وأحججت فلانًا إذا بعثته ليحجّ[2].

والحجّ بفتح الحاء وكسرها، لغتان مشهورتان، ونقل الطبري: أنّ الكسر لغة أهل نجد، والفتح لغة أهل العالية، قال: «ولم نر أحدًا من أهل العربية ادّعى فرقًا بينهما في معنى ولا غيره، غير ما ذكرنا من اختلاف اللغتين، إلا ما قاله حسين الجعفي: إنّ الحج بالفتح اسمٌ، والحج بالكسر عملٌ»[3].

فأصل الحج في اللغة: القصد مطلقًا -إلى كل شيء-، فكلّ قصدٍ حجٌّ، وقال جماعة: إنّه القصد لمعظّم[4]. وقال الخليل: «كثرة القصد إلى معظّم»[5].

والفرق بين الحجّ ومجرد القصد: أنّ الحجّ: هو القصد على استقامة، ومن ثمّ سمي قصد البيت حجًّا؛ لأنّ من يقصد زيارة البيت لا يعدل عنه إلى غيره[6].

ثانيًا: الحج في اصطلاحًا

نقل القرآن الكريم لفظ الحجّ من معناه اللغوي العام إلى معنى اصطلاحي خاص؛ ليكون اسمًا وعنوانًا للعبادة الإسلامية المعروفة، وذلك كما خصّت الصلاة وغيرها من المعنى اللغوي العام إلى معنى اصطلاحي خاص.

ويعرّف الحج في الاصطلاح بأنّه: قصدٌ لبيت الله عز وجل بصفة مخصوصة، في وقت مخصوص، بشرائط مخصوصة؛ تقرّبًا إلى الله عز وجل[7].

(١) لسان العرب، ٢/ ٧٧٨.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٣٠٣.
(٣) جامع البيان ٦/ ٤٦.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٤٥٩.
(٥) المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي ص١٩٦.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ١٢٦.
(٧) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٨٢، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٧٦.

الحج في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حجّ) في القرآن الكريم (٣٣) مرة، أما ما يتعلق منها بلفظ (الحج) فقد بلغ(١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾[البقرة: ١٥٨]
اسم فاعل	١	﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [التوبة: ١٩]
مصدر	٩	﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٦]
الاسم	١	﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]

وجاء الحجّ في الاستعمال القرآني بمعناه الشرعي، وهو قصد البيت لأداء النسك[٢]، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أي: قصد البيت لأداء النسك.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص١٩٣- ١٩٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ العمرة:

العمرة لغة:

العمرة بالضّم: هي الزّيارة التي فيها عمارة الودّ[١].

العمرة اصطلاحًا:

«زيارة البيت الحرام بشروط مخصوصة مذكورة في الفقه»[٢].

الصلة بين الحجّ والعمرة:

الحجّ والعمرة عبادتان يشتركان في أنّ كلًا منهما قصدٌ لبيت الله الحرام، بشروط مخصوصة، إلا أنّه يوجد فرق بين العبادتين، من ذلك: أنّ العمرة يمكن للإنسان أن يؤديها في السّنة كلها، أمّا الحج فله وقت واحد في السنة، لا يجوز أن يؤدى في غيره، ولا يجوز أن يحرم به إلا في أشهر الحج: شوّال وذي القعدة وعشر من ذي الحجة، وكذلك: فإنّ أركان العمرة تقتصر على الإحرام والطواف والسعي، ثم الحلق أو التقصير، أمّا الحج ففيه زيادة على ذلك كالوقوف بعرفة[٣].

٢ الطّواف:

الطّواف لغة:

مشتق من الفعل طاف، وأصله طوف بمعنى دار حول الشيء، وطاف بالبيت: دار حوله[٤].

الطّواف اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي، فالطواف بالبيت يعني: المشي والدوران حوله[٥].

الصلة بين الطّواف والحج:

الطّواف بالبيت الحرام (طواف الزيارة) ركن من أركان الحجّ، كالوقوف بعرفة[٦]، لا يصح الحجّ بدونه، وقد يؤدى الطّواف كعبادة مستقلّة عن عبادة الحجّ.

---

(١) تاج العروس، الزبيدي ١٣/ ١٣٠.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٢٩٧.
(٣) انظر: معاني القرآن، الزجاج ١/ ٢٦٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٧٢٢.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١١.
(٦) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٧/ ٤٩.

الحج قبل البعثة

الحج إلى الكعبة هو فرض إلهي قديم، يمارس منذ أن قام إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ببناء الكعبة، أول بيت وضع للناس، وفي القرآن آيات تدل على أن الحج كان مفروضًا قبل الإسلام، وتشير إلى مناسكه ومنافعه، فالناس كانوا يأتون من كل فجٍّ عميق، مشاة وركبانًا، رجالًا ونساء؛ ليطوفوا بالبيت العتيق، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وهذه الآية تؤيد ما ذكرته الروايات من أن موسم الحج لم يكن قاصرًا على أهل مكة أو الحجاز، بل كان من الحجاج من يأتي من اليمن والشام والعراق وغيرها، منهم من كان يأتي للحج، ومنهم من كان يأتي للدعوة لدينه، ومنهم من كان يأتي للاتجار، ومنهم من كان يأتي للمفاخرة، والخطابة، وإنشاد الشعر.

حتى كان الحج لدى العرب قبل ظهور الإسلام مناسبة دينية، وثقافية، واجتماعية، واقتصادية، يلتقون فيها للعبادة، والمتاجرة، والتعارف.

وقد ظل المشركون يؤمّون المسجد الحرام، ويقومون بمناسك الحج إلى ما بعد فتح مكة، حتى حرّم الإسلام على المشركين بدءًا من العام التاسع الهجري أن يقربوا المسجد الحرام.

وعلى هذا فقد عرف العرب الحج قبل الإسلام، فكان الحج معلومًا عندهم، مشروعًا لديهم، فخوطبوا بما علموا، وألزموا ما عرفوا، فكان سائر العرب يحجون قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا على شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام في الحج، إلا أنهم غيّروا وحرّفوا فيه كثيرًا.

وقد حج النبي صلى الله عليه وسلم معهم قبل فرض الحج، فوقف بعرفة، ولم يغيّر من شرع إبراهيم ما غيّروا، حيث كانت قريش تقف بالمزدلفة، ويقولون: نحن أهل الحرم، فلا نخرج منه، ونحن الحمس، وكما أحدثوا من الطواف حول البيت عرايا، إلى أن جاء الإسلام، وفرض الحج، فتغيّر مفهوم الحج، وما كان عليه العرب قبل الإسلام، حيث نزل القرآن وألغى هذه العادات الجاهلية.

قالت عائشة رضي الله عنها: (كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قول الله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾

[البقرة: ١٩٩])[1].

ويشهد لهذا الكلام قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران: ٩٧].

حيث نلحظ أن الخطاب في هذه الآية الكريمة جاء للناس كافة، أما باقي أركان الإسلام فقد توجه الخطاب فيها إلى المؤمنين، مثل قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وهذا دليل على عالمية الحج، وإلا فما معنى أن يتوجه الخطاب للناس عند الحديث عن الحج دون سائر الأركان؟ كما في قوله السابق في آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧].

إلا أن يكون دلالةً على أن الحج كان معروفًا في الأمم السابقة.

ففي قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ يشير إلى أن فريضة الحج هي استحقاق رباني، ولنتأمل هذا التعبير: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى﴾ فهو إذن استحقاق، وهو دين على الناس، كل الناس، كيف لا والمسجد الحرام هو أول بيت وضع لعبادة الله؟! كيف لا ومكة هي أم القرى؟! من هنا كان الخطاب للناس كل الناس.

وهنا يبرز سؤال وهو: هل يطلب الحج من كل الناس بمن فيهم غير المؤمنين؟ والجواب: نعم، فكما خوطب الإنسان أن يعبد ربه وحده، وفق ما بيّنه الله تعالى في رسالاته، خوطب أيضًا بأن يقصد البيت الحرام الذي فيه عبد الآباء الأوائل ربهم، والذي منه انطلقوا ليكونوا خلفاء الأرض، ومن أراد أن يستجيب إلى هذا الأذان، فعليه أن يقبل شروط أداء هذا الاستحقاق، وهو الإيمان والإسلام.

ومما يدل على عالمية الحج أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

فنلحظ في قوله: ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ و﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ وقوله في الآية السابقة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ و ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وبالرجوع إلى الآية التي في سورة الحج، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ وهي آخر آية ذكر فيها لفظ الحج في القرآن الكريم، نجد أن أذان إبراهيم عليه السلام بالحج كان أذانًا عالميًّا، بدلالة ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ﴾ و ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب(ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)، ٦/ ٢٧، رقم ٤٥٢٠.

﴿عَمِيقٍ﴾.

فهي إذن العودة إلى حيث بدأ الإنسان، بل إن الحاج يتمثّل الحالة التي كانت أولًا من البساطة في المظهر واللباس.

إذن يمكن القول أن الحج إلى البيت العتيق كان في شريعة الأنبياء والرسل، فقد صحت آثار تشير إلى هذا المعنى، منها ما ورد في صحيح مسلم أن يونس وموسى عليهما السلام قد حجّا، فعن ابن عبّاس: (أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم مرّ بوادي الأزرق فقال: (أيّ وادٍ هذا؟) فقالوا: هذا وادي الأزرق. قال: (كأنّي أنظر إلى موسى عليه السلام هابطًا من الثّنيّة، وله جؤارٌ إلى اللّه بالتّلبية) ثمّ أتى على ثنيّة هرشى فقال: (أيّ ثنيّةٍ هذه؟) قالوا ثنيّة هرشى. قال: (كأنّي أنظر إلى يونس بن متّى عليه السلام على ناقةٍ حمراء جعدةٍ، عليه جبّةٌ من صوفٍ، خطام ناقته خلبةٌ وهو يلبّي)[1].

ومما يدل على أن الحج كان معروفًا ما جاء في سورة القصص من قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ [القصص: ٢٧].

فالمقصود هنا ثمانية أعوام، على اعتبار أن في كل عام حجة إلى بيت الله الحرام، وهذا أيضًا يدل على أنهم كانوا يحجون.

إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون الحج عندهم كما في شريعة محمد تمامًا، في كيفيته، وأوقاته، وصفاته؛ لأننا قد وجدنا المغايرة في الصوم واضحة، فهكذا في غيرها، فالشرعة عامة للجميع، والمنهاج خاص.

يقول ابن عاشور: «والحج من أشهر العبادات عند العرب، وهو مما ورثوه عن شريعة إبراهيم عليه السلام ، كما حكى الله ذلك بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] الآية، حتى قيل: إن العرب هم أقدم أمة عرفت عندها عادة الحج، وهم يعتقدون أن زيارة الكعبة سعي لله تعالى ، قال النابغة يصف الحجيج، ورواحلهم:

عليهن شعث عامدون لربهم
فهن كأطراف الحني خواشع

وكانوا يتجردون عند الإحرام من مخيط الثياب، ولا يمسّون الطيب، ولا يقربون النساء، ولا يصطادون، وكان الحج طوافًا بالبيت، وسعيًا بين الصفا والمروة، ووقوفًا بعرفة، ونحرًا بمنى، وربما كان بعض العرب لا يأكل مدة الحج أقطًا ولا سمنًا، أي: لأنه أكل المترفهين، ولا يستظل بسقف، ومنهم من يحج متجردًا من الثياب، ومنهم من لا يستظل من الشمس، ومنهم من يحج صامتًا، لا يتكلم، ولا يشربون الخمر في أشهر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب مررت ليلة أسري بي على موسى بن عمران، عليه السلام، رقم ٢٤١.

الحج، ولهم في الحج مناسك وأحكام»[1].

إبراهيم عليه السلام والنداء بالحج:

أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام بعد أن رفع قواعد البيت أن يؤذن في الناس للحج، فقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يهفو إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

فقوله: ﴿وَأَذِّن﴾ الأذان في اللغة: الإعلام، أي: ناد فيهم ليحجوا[2].

وقد ذكر المفسرون: أنه لما أمره ربه أن يؤذّن في الناس بالحج، قال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجّوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك[3].

وقال ابن عباس: «فأول من أجابه أهل اليمن، فهم أكثر الناس حجًّا»، وقال مجاهد: «من أجاب مرة حج مرة، ومن أجاب مرتين أو أكثر فيحج مرتين أو أكثر، بذلك المقدار»[4].

واختلف في المراد بالخطاب في قوله: ﴿وَأَذِّن﴾ فقيل: إن الخطاب لإبراهيم، كما هو ظاهر من السياق، وهو قول الجمهور[5].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ﴾ أي: إن تؤذن في الناس بالحج يأتوك، وإنما قال: ﴿يَأْتُوكَ﴾ لأن المدعو يتوجه نحو الداعي، وإن كان إتيانهم في الحقيقة للحج؛ لأن نداء إبراهيم للحج: أي: يأتوك ملبين دعوتك، حاجين بيت الله الحرام، كما ناديتهم لذلك.

وقيل: إن في تعليق فعل ﴿يَأْتُوكَ﴾ بضمير خطاب إبراهيم دلالة على أنه كان يحضر موسم الحج كل عام، يبلّغ للناس التوحيد، وقواعد الحنيفية[6].

وفي هذه الآية دليل على وجوب الحج، وعلى قول الجمهور فوجوب الحج بها

(١) التحرير والتنوير ١/ ٥٤٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٤٣.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٩٩.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١١٢، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٤٠٩.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٣٧٩.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٤٣.

على هذه الأمة مبني على أن شرع من قبلنا شرع لنا...، مع أنه دلت آيات أخر على أن الإيجاب المذكور على لسان إبراهيم وقع مثله أيضًا على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾[آل عمران: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨][(١)].

وقوله: ﴿رِجَالًا﴾ أي: مشاة، جمع راجل[(٢)]. أي: يأتيك من لهم رواحل، ومن يمشون على أرجلهم، ولكون هذه الحال أغرب قدّم قوله: ﴿رِجَالًا﴾ ثم ذكر بعده ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ تكملة لتعميم الأحوال؛ إذ إتيان الناس لا يعدو أحد هذين[(٣)].

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيًا لمن قدر عليه أفضل من الحج راكبًا؛ لأنه قدّمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم، وقوة هممهم...، وعن ابن عباس قال: ما آسى على شيء إلا أني وددت أني كنت حججت ماشيًا؛ لأن الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾. والذي عليه الأكثرون: أن الحج راكبًا أفضل؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه حج راكبًا مع كمال قوته صلى الله عليه وسلم»[(٤)].

وقوله: ﴿يَأْتِينَ﴾ وإنما أسند الإتيان إلى الرواحل دون الناس فلم يقل: (يأتون) لأن الرواحل هي سبب إتيان الناس من بعد لمن لا يستطيع السفر على رجليه، ويجوز أن تجعل جملة ﴿يَأْتِينَ﴾ حالًا ثانية من ضمير الجمع في ﴿يَأْتُوكَ﴾ لأن الحال الأولى تضمنت معنى التنويع والتصنيف، فصار المعنى: يأتوك جماعات، فلما تأول ذلك بمعنى الجماعات جرى عليهم الفعل بضمير التأنيث. هذا الوجه أظهر؛ لأنه يتضمن زيادة التعجيب من تيسير الحج حتى على المشاة، وقد تشاهد في طريق الحج جماعات بين مكة والمدينة يمشون رجالًا بأولادهم وأزواجهم، وكذلك يقطعون المسافات بين مكة وبلادهم[(٥)].

وقوله: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ وقرأ ابن مسعود: (معيق) يقال: بئر بعيدة العمق والمعق[(٦)]. أي: بعيد، ومنه قول الشاعر[(٧)]:

(١) انظر: أضواء البيان ٤/ ٣٠٠.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٨٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٤٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤١٤.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٤٤.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٨٥.
(٧) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١١٢.

تلعب لديهن بالحريق

مدى نياط بارح عميق

والفج: الشق بين جبلين تسير فيه الركاب، فغلب الفج على الطريق؛ لأن أكثر الطرق المؤدية إلى مكة تسلك بين الجبال، والعميق: البعيد إلى أسفل؛ لأن العمق البعد في القعر، فأطلق على البعيد مطلقًا بطريقة المجاز المرسل، أو هو استعارة بتشبيه مكة بمكان مرتفع، والناس مصعدون إليه، وقد يطلق على السفر من موطن المسافر إلى مكان آخر إصعاد، كما يطلق على الرجوع انحدار وهبوط، فإسناد الإتيان إلى الرواحل تشريف لها بأن جعلها مشاركة للحجيج في الإتيان إلى البيت[1].

أهم شعائر الحج في شريعة إبراهيم عليه السلام:

سبق الإشارة إلى أنه يرجع تاريخ الحج إلى عهد نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، فهو أول من بنى البيت على التحقيق، وأول من طاف به مع ولده إسماعيل عليهما السلام، وهما اللذان سألا ربهما سبحانه وتعالى أن يريهما أعمال الحج ومناسكه، فقال تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨].

ومن ثمّ نعلم أن الله تعالى قد تعبّد ذرية إسماعيل بهذه المناسك، وأنها بقيت في العرب إلى عهد الإسلام الحنيف، غير أن العرب لما نسوا التوحيد، وداخلهم الشرك تبع ذلك تحريف وتغيير في أعمال هذه العبادة.

إذن يمكن القول أن الكثير من أعمال الحج كان على عهد إبراهيم عليه السلام، ولكن المشركين ابتدعوا بعض الأمور التي لم تكن مشروعة، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالفهم في ذلك، وبيّن المشروع من أعمال الحج.

ولنعد إلى الآية الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

لنتبين منها بعض هذه المناسك في عهد إبراهيم، وأحكامها.

فقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أصل النسك بضمتين غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة غالبًا، والبعد عن العادة[2].

واختلفوا في تسميته منسكًا على وجهين:

أحدهما: لأنه معتاد، ويتردد الناس إليه في الحج والعمرة، من قولهم: إن لفلان منسكًا، إذا كان له موضع معتاد لخير أو شر،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٤٤.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٩.

فسميت بذلك مناسك الحج لاعتيادها.

والثاني: أن النسك عبادة الله تعالى؛ ولذلك سمّي الزاهد ناسكًا لعبادة ربه، فسميت هذه مناسك لأنها عبادات[1].

واختلف في المراد بالمناسك هنا -التي طلب إبراهيم ربه أن يريه إياها- فبعضهم حمل المناسك على شعائر الحج، وأعماله كالطواف والسعي والوقوف، وبعضهم حمله على المواقف والمواضع التي يقام فيها شرائع الحج، مثل: منى وعرفات والمزدلفة ونحوها، وبعضهم حمله على المجموع[2]. ولعله هو الصواب.

ومعنى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ هذا دعاء وسؤال لإرشادهم لكيفية الحج الذي أمرا به من قبل أمرًا مجملًا[3]. والمعنى: أي: علمناها على وجه الرؤية والمشاهدة؛ ليكون أبلغ، ويحتمل أن يكون المراد بالمناسك: أعمال الحج كلها، كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك، وهو الدين كله، والعبادات كلها، كما يدل عليه عموم اللفظ؛ لأن النسك: التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليبًا عرفيًّا، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح[4].

قال ابن كثير في قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: «وعن مجاهد قال: قال إبراهيم: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فأتاه جبرائيل، فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد، وأتم البنيان، ثم أخذ بيده، فأخرجه، فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منًى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبّر وارمه، فكبّر ورماه، ثم انطلق إبليس، فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم، قال له: كبّر وارمه، فكبّر ورماه، فذهب إبليس، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئًا، فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات، قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها: ثلاث مرار، قال: نعم»[5].

قيل: فسميت بسبب ذلك: عرفات.

وفي طلب إبراهيم من الله أن يعلّمه مناسك الحج ظهور لشرف عمل الحج، حيث كان متلقّى عن الله بلا واسطة[6].

وفي الآية: أن الأصل في العبادات

(١) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٩٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ١٠٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤١٣.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٣.
(٦) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١/ ١٨٣.

أنها توقيفية، يعني: الإنسان لا يتعبد لله بشيء إلا بما شرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾. وفيها: تحريم التعبد لله بما لم يشرعه؛ لأنهما دعوا الله عز وجل أن يريهما مناسكهما، فلولا أن العبادة تتوقف على ذلك لتعبدا بدون هذا السؤال[1].

وعن قتادة قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فأراهما الله مناسكهما: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار، حتى أكمل الله الدين -أو دينه-[2]. وقد جاء الإشارة إلى بعض مناسك الحج في زمن إبراهيم كالطواف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وسيأتي الكلام على الطواف لاحقًا -إن شاء الله-.

الحج ومشركو العرب:

كان المشركون يحجون، ويعتمرون، وقد اتفق العرب جميعًا على احترام البيت، وتعظيمه، وكان من دخله يصبح آمنًا مما يخيفه، إلا أنهم ابتدعوا في الحج بعض الأمور التي لم تكن مشروعة، ومنها:

- أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة.

وقد جاء أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة.

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين يتعرّون عند طوافهم ببيته الحرام، ويبدون عوراتهم هنالك من مشركي العرب، والمحرّمين منهم أكل ما لم يحرّمه الله عليهم من حلال رزقه؛ تبرّرًا عند نفسه لربه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ من الكساء واللباس عند كل مسجد»[3].

وقال الشنقيطي في تفسير هذه الآية: «فإذا علمت ذلك: فاعلم أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني ثوبًا تجعله على فرجها»[4].

ويؤيد هذا ماء جاء في البخاري عن عروة: «.... كان الناس يطوفون في الجاهلية عراة إلا الحمس، والحمس قريش، وما ولدت، وكانت الحمس يحتسبون على الناس يعطي الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطي المرأة المرأة الثياب تطوف

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين ٣/ ٥٢.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٣/ ٧٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٨٩.
(٤) أضواء البيان ٤/ ٤٠١.

فيها، فمن لم يعطه الحمس طاف بالبيت عريانًا...»[1]. وفي مسلم: عن ابن عباس قال: «كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تطوافًا تجعله على فرجها، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله
فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]»[2].

وقد روي: أن الحمس كانوا يقولون: نحن أهل الحرم فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا، فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوبًا، ولا يجد ما يستأجر به كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عريانًا، وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه، فلم يمسه أحد، وكان ذلك الثوب يسمى: (اللقى) بفتح اللام، قال شاعرهم[3]:

كفى حزنًا كري عليه كأنه
لقى بين أيدي الطائفين حرام

وفي الكشاف عن طاووس: «كان أحدهم يطوف عريانًا، ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت منه؛ لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقيل: تفاؤلًا ليتعرّوا من الذنوب كما تعرّوا من الثياب»[4].

وقد أبطله النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ أمر أبا بكر رضي الله عنه عام حجته سنة تسع أن ينادي في الموسم: (أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان)[5].

كانت قريش لا تقف مع الناس في عرفات ترفعًا عليهم.

كانت قريش لا تقف مع الناس ترفعًا، بل تقف بالمزدلفة، فأمرهم الله جل جلاله بالوقوف مع الناس، فقال لهم: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ [البقرة: ١٩٩]، يا معشر قريش ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ بأن تقضوا معهم، وتفيضوا من حيث أفاضوا، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ في تغييركم مناسك إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام[6].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «﴿ثُمَّ﴾ هاهنا لعطف خبر على خبر،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ، باب الوقوف بعرفة، ٢/ ١٦٣، رقم ١٦٦٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب في الوقوف، رقم ١٢١٩.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التّفسير، باب في قوله تعالى: (خذوا زينتكم عند كل مسجد)، ٤/ ٢٣٢٠، رقم ٣٠٢٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٩٣.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٢٤.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان، ٢/ ١٥٣، رقم ١٦٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يحج بالبيت مشرك، رقم ١٣٤٧.
(٦) البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ١٦١.

وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشًا، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقطّان بيته»[1].

وقال الألوسي: «قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

أي: من عرفة لا من المزدلفة، والخطاب عام، والمقصود إبطال ما كان عليه الحمس من الوقوف بجمع، ومعناها: ثم أفيضوا أيها الحجاج من مكان أفاض جنس الناس منه قديمًا وحديثًا، وهو عرفة لا من مزدلفة»[2].

❁ كانت إذا فرغت من الحج وقفت عند البيت، فذكرت مفاخر آبائها.

حيث كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم بين مسجد منى وبين الجبل بعد فراغهم من الحج يذكرون فضائل آبائهم، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم، ويحمل الحمالات (ويحمل الديات) ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[3].

فقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي: فإذا فرغتم من عباداتكم، وأديتم أعمال حجكم، فتوفروا على ذكر الله وطاعته كما كنتم تتوفرون على ذكر مفاخر آبائكم، بل عليكم أن تجعلوا ذكركم لله تعالى أشد وأكثر من ذكركم لمآثر آبائكم؛ لأن ذكر مفاخر الآباء إن كان كذبًا أدى إلى الخزي في الدنيا، والعقوبة في الآخرة، وإن كان صدقًا فإنه في الغالب يؤدي إلى العجب، وكثرة الغرور، أما ذكر الله بإخلاص وخشوع فثوابه عظيم، وأجره كبير، وفضلًا عن ذلك فإن المرء إذا كان لا ينسى أباه، فالأولى أن لا ينسى من ربّاه، وهو الله رب العالمين، فالمقصود من الآية الكريمة الحث على ذكر الله تعالى، والنهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب[4].

❁ وكانت العرب في الجاهلية تحج

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٥٥.
(٢) روح المعاني ٢/ ٨٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٥٧.
(٤) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٣٤٤.

بالعدد، وتبدل الشهور (النسيء).

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله، وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم، وتأخيره إلى صفر، فيحلّون الشهر الحرام، ويحرّمون الشهر الحلال؛ ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة، كما قال شاعرهم -وهو عمير بن قيس المعروف- بجذل الطعان:

لقد علمت معد أنّ قومي
كرام النّاس أنّ لهم كراما
ألسنا الناسئين على معد
شهور الحل نجعلها حراما
فأيّ النّاس لم تدرك بوتر
وأيّ النّاس لم نعلك لجاما»[1].

فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ النسيء عند العرب: تأخير يجعلونه لشهر حرام، فيصيّرونه حلالًا، ويحرّمون شهرًا آخر من الأشهر الحلال عوضًا عنه في عامه[2].

قال الخازن: «ومعنى النسيء المذكور في الآية: هو تأخير شهر حرام إلى شهر آخر، وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم، وتعظيمها، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية، وربما وقعت حروب في بعض الأشهر الحرم، فكانوا يكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال، فنسؤوا، يعني: أخّروا تحريم شهر إلى شهر آخر، فكانوا يؤخّرون تحريم المحرم إلى صفر، فيستحلون المحرم، ويحرّمون صفر، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخّروه إلى ربيع الأول، فكانوا يصنعون هكذا يؤخّرون شهرًا بعد شهر، حتى استدار التحريم على السنة كلها، وكانوا يحجون في كل شهر عامين، فحجوا في الحجة عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذا باقي شهور السنة»[3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٨٤٨.
(٣) لباب التأويل، ٣/ ٢٦٦.

وقوله: ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾: قال ابن عاشور: «ووجه كونه كفرًا أنهم يعلمون أن الله شرع لهم الحج، ووقّته بشهر من الشهور القمرية المعدودة، المسماة بأسماء تميزها عن الاختلاط، فلما وضعوا النسيء قد علموا أنهم يجعلون بعض الشهور في غير موقعه، ويسمونه بغير اسمه، ويصادفون إيقاع الحج في غير الشهر المعين له، أعني شهر ذي الحجة؛ ولذلك سموه النسيء اسمًا مشتقًا من مادة النساء، وهو التأخير، فهم قد اعترفوا بأنه تأخير شيء عن وقته، وهم في ذلك مستخفّون بشرع الله تعالى، ومخالفون لما وقّت لهم عن تعمد، مثبتين الحل لشهر حرام، والحرمة لشهر غير حرام؛ وذلك جرأة على دين الله، واستخفاف به؛ فلذلك يشبه جعلهم لله شركاء، فكما جعلوا لله شركاء في الإلهية، جعلوا من أنفسهم شركاء لله في التشريع، يخالفونه فيما شرعه، فهو بهذا الاعتبار كالكفر»[1].

وقوله تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بالنسيء، يزدادون ضلالًا فوق ضلالهم، وقوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ يعني: النسيء، وهو الشهر الذي أخّروه، أي: أخروا حرمته إلى الشهر الذي بعده؛ ليتمكنوا من القتال في الشهر الحرام، فعامًا يحلّون، وعامًا يحرّمون، حتى يوافقوا عدة الأشهر الحرم، بلا زيادة ولا نقصان، ظنًّا منهم أنهم ما عصوا مستترين بهذه الفتيا الإبليسية، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ والمزين للباطل قطعًا هو الشيطان[2].

وبهذا النسيء والتأخير: أوقعوا الحج في شهر آخر سوى الأشهر الحرم؛ فلهذا السبب عاب الله عليهم، وجعله سببًا لزيادة كفرهم، وإنما كان ذلك سببًا لزيادة الكفر؛ لأن الله تعالى أمرهم بإيقاع الحج في الأشهر الحرم[3].

❁ تلبيتهم التي تتضمن الإشراك.

جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ويلكم قد قد) فيقولون: إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت)[4].

فكره النبي صلى الله عليه وسلم مخالطة المشركين في الحج، وسماع تلبيتهم التي تتضمن الإشراك، أي: قولهم في التلبية: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. وطوافهم عراة، وكان بينه وبين المشركين عهد لم يزل عاملًا لم

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ١٩١.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٦٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢١.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحجّ، باب التلبية وصفتها، ٢/ ٨٤٣، رقم ١١٨٥.

ينقض، والمعنى أن مقام الرسالة يربأ عن أن يسمع منكرًا من الكفر ولا يغيره بيده؛ لأن ذلك أقوى الإيمان، فأمسك عن الحج تلك السنة، وأمر أبا بكر الصديق على أن يحج بالمسلمين، وأمره أن يخبر المشركين بأن لا يحج بعد عامه ذلك مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وأكثر الأقوال على أن براءة نزلت قبل خروج أبي بكر من المدينة، فكان ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم صادرًا عن وحي؛ لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧].

إلى قوله: ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

.. الآية[(١)].

❁ **تحرج العرب في الطواف بين الصفا والمروة.**

ورد أنهم في الجاهلية كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة؛ تعظيمًا لمناة. قال ابن عاشور: «... وضع -عبد المطلب- إسافًا على الصفا، ونائلة على المروة، وجعل المشركون بعد ذلك أصنامًا صغيرة، وتماثيل بين الجبلين في طريق المسعى، فتوهم العرب الذين جاءوا من بعد ذلك أن السعي بين الصفا والمروة طواف بالصنمين، وكانت الأوس والخزرج وغسان يعبدون مناة، وهو صنم بالمشلل، قرب قديد، فكانوا لا يسعون بين الصفا والمروة، تحرجًا من أن يطوفوا بغير صنمهم، ففي البخاري فيما علقه عن معمر إلى عائشة قالت: كان رجال من الأنصار ممن كان يهل لمناة قالوا: يا نبي الله، كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة[(٢)]، فلما فتحت مكة، وأزيلت الأصنام، وأبيح الطواف بالبيت، وحج المسلمون مع أبي بكر، وسعت قريش بين الصفا والمروة تحرج الأنصار من السعي بين الصفا والمرة، وسأل جمع منهم النبي صلى الله عليه وسلم: هل علينا من حرج أن نطوف بين الصفا والمروة؟ فأنزل الله هذه الآية»[(٣)].

وفي سبب نزولها: أن رجالًا من الأنصار ممن كان يهل لمناة في الجاهلية ومناة صنم كان بين مكة والمدينة، قالوا: يا رسول الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما؟ فنزلت هذه الآية[(٤)].

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٠/ ٩٨.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب (ومناة الثالثة الأخرى)، ٦/ ١٤١، رقم ٤٨٦١.

(٣) التحرير والتنوير ٢/ ٦٠.

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١٦٤.

الصلة بين الحج في شريعة الإسلام وشريعة إبراهيم عليه السلام:

الحج نداء قديم جديد، قديم لأن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام أول من أعلنه، وصدع بأمر الله، حين قال له: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وجديد لأن خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ندب إليه، وقاد قوافله، ووضع مناسكه، وبين ما رصد الله له من جوائز، وربط به من منافع، وكان آخر عهده بالجماهير الحاشدة، وهي تصيح إليه في حجة الوداع، يزودهم بآخر وصاياه، وأحفلها بالخير والبر.

وقد سبق بيان أن الحج كان مفروضًا قبل الإسلام، أي من عهد إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ، وأقره الإسلام في الجملة، ونزل في إيجابه وتأكيد فرضيته قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ثم إن هذه الآية المصرحة بفرضية الحج وليس لدينا غيرها هي إحدى آيات سورة آل عمران التي نزلت عقب غزوة أحد مباشرة، ومن المعروف أن غزوة أحد وقعت في السنة الرابعة من الهجرة، وعلى هذا يمكن القول بأن الحج فرض قبل سنة تسع، ولم ينفذ إلا فيها لما كان من عجز المسلمين عن ذلك؛ لأن مكة كانت في تلك الفترة من الزمن خاضعة لسلطان قريش، فلم يسمح للمسلمين بأداء هذه العبادة العظيمة، وقد أرادوا العمرة فعلًا، فصدوهم عن المسجد الحرام، كما أخبر تعالى بقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥].

فعجز المسلمين أسقط عنهم هذه الفريضة، كما أن العجز مسقط لفريضة الحج عن كل مسلم، ولما فتح الله سبحانه وتعالى على رسوله مكة سنة ثمانٍ من الهجرة لم يتوان الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمر الناس بأداء فريضة الحج، وأمر أبا بكر أن يحج بالناس، فحج بهم في السنة التاسعة المباشرة لعام الفتح تمامًا.

الحج من أركان الإسلام

أولًا: فرض الحج وتوقيته:

اختلف أهل العلم في السنة التي فرض فيها الحج، وقد ذكر القرطبي في وقت فرضية الحج ثلاثة أقوال:

فقيل: سنة خمس.

وقيل: سنة سبع.

وقيل: سنة تسع.

ولم يعز الأقوال إلى أصحابها، سوى أنه ذكر عن ابن هشام عن أبي عبيد الواقدي أنه فرض عام الخندق، بعد انصراف الأحزاب، وكان انصرافهم آخر سنة خمس[(١)].

قال ابن عاشور: «وأظهر من هذه الأقوال قول رابع تمالأ عليه الفقهاء، وهو أن دليل وجوب الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد استدل الشافعي بها على أن وجوبه على التراخي، فيكون وجوبه على المسلمين قد تقرر سنة ثلاث، وأصبح المسلمون منذ يومئذٍ محصرين عن أداء هذه الفريضة، إلى أن فتح الله مكة، ووقعت حجة سنة تسع»[(٢)].

إلا أن ما رجحه الشنقيطي في أضواء البيان هو أن الحج إنما فرض عام تسع، كما أوضحه ابن القيم.

يقول الشنقيطي: «لأن آية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ هي الآية التي فرض بها الحج، وهي من صدر سورة آل عمران، وقد نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران، وصالحهم النبي صلى الله عليه وسلم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع. قال رحمه الله: «وعلى كون الحج إنما فرض عام تسع غير واحد من العلماء، وهو الصواب -إن شاء الله تعالى- وبه تعلم أنه لا حجة في تأخير النبي صلى الله عليه وسلم الحج عام فتح مكة؛ لأنه انصرف من مكة والحج قريب، ولم يحج؛ لأنه لم يفرض»[(٣)].

وكما اختلف العلماء في وقت فرض الحج، اختلفوا كذلك في الآية التي فرض فيها الحج.

والمتجه أن تكون هي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فهذه الآية هي التي فرض بها الحج على المسلمين. قال ابن عاشور: «وقد استدل بها علماؤنا على فرضية الحج، فما كان يقع من حج النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل نزولها، فإنما كان تقربًا إلى الله، واستصحابًا للحنفية، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم حج مرتين بمكة قبل الهجرة،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٤٤.
(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٢٢.
(٣) أضواء البيان ٤/ ٣٤١.

ووقف مع الناس، فأما أيجاب الحج في الشريعة الإسلامية فلا دليل على وقوعه إلا هذه الآية، وقد تمالأ علماء الإسلام على الاستدلال بها على وجوب الحج، فلا يعدّ ما وقع من الحج قبل نزولها وبعد البعثة إلا تحنثًا وتقربًا، وقد صح أنها نزلت سنة ثلاث من الهجرة، عقب غزوة أحد، فيكون الحج فرض يومئذٍ»[1].

«ونلحظ أن في هذه الآية من صيغ الوجوب صيغتين: لام الاستحقاق، وحرف (على) الدال على تقرر حق في ذمة المجرور بها. وقد تعسر أو تعذر قيام المسلمين بأداء الحج عقب نزولها؛ لأن المشركين كانوا لا يسمحون لهم بذلك، فلعل حكمة إيجاب الحج يومئذٍ أن يكون المسلمون على استعداد لأداء الحج مهما تمكنوا من ذلك، ولتقوم الحجة على المشركين بأنهم يمنعون هذه العبادة، ويصدون عن المسجد الحرام، ويمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه»[2].

ولهذا نجد أنه لما فتح الله مكة وجاءت الوفود مسلمين، وغلب الإسلام على بلاد العرب، تمكّن الدين، وخدمته القوة، فأصبح مرهوبًا بأسه منع المشركون من الحج، فحج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام عشرة، وليس معه غير المسلمين، فكان ذلك أجلى مظاهر كمال الدين.

وفي قوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

بدل من ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لتقييد حال الوجوب.

وللعلماء في تفسير السبيل أقوال اختلفت ألفاظها، واتحدت أغراضها، فلا ينبغي بقاء الخلاف بينهم لأجلها مثبتًا في كتب التفسير وغيرها، فسبيل القريب من البيت الحرام سهل جدًّا، وسبيل البعيد الراحلة والزاد؛ ولذلك قال مالك: السبيل القدرة، والناس على قدر طاقتهم، وسيرهم، وجلدهم. واختلف فيمن لا زاد له، ويستطيع الاحتراف في طريقه: فقال مالك: إذا كان ذلك لا يزري فليسافر، ويكتسب في طريقه، وقال بمثله ابن الزبير والشعبي وعكرمة[3].

ثانيًا: أشهر الحج وميقات أدائه:

الحج له ميقات زماني: وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال في اللباب: «أجمع المفسّرون على أن شوالًا وذا القعدة من أشهر الحج، واختلفوا في ذي الحجة. فقيل: إنها بكليتها من أشهر الحج، وقيل: بل العشر الأول من ذي الحجة فقط هي من أشهر الحج،

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٢١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٣.

وقيل: التسعة الأول مع ليلة النحر من أشهر الحج»[1].

ومن قال بالقول الأول حجته: أن الأشهر جمعٌ، وأقلّه ثلاثةٌ، وأيضًا فإن أيام النحر يفعل فيها بعض ما يتصل بالحج: من رمي الجمار، والذبح والحلق، وطواف الزيارة، والبيتوتة، يعني ليالي منى، وإذا حاضت المرأة، فقد تؤخّر الطواف الذي لابد منه إلى انقضاء أيامٍ بعد العشرة، ومذهب عروة تأخير طواف الزيارة إلى آخر الشهر.

وأجيب على حجتهم هذه: أن لفظ الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد؛ بدليل قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

وأيضًا فإنه نزّل بعض الشهر منزلة كلّه، فإن العرب تسمّي الوقت تامًّا بقليله وكثيره، يقال: زرتك سنة كذا، وأتيتك يوم الخميس، وإنما زاره، وأتاه في بعضه، وأيضًا فإن الجمع ضمّ شيءٍ إلى شيءٍ، فإذا جاز أن يسمى الاثنان جماعةً جاز أن يسمى الاثنان وبعض الثالث جماعةً، وأما رمي الجمار فإنما يفعله الإنسان وقد حلّ بالحلق والطواف والنحر، فكأنه ليس من أعمال الحج، والحائض إذا طافت بعده فكأنه في حكم القضاء لا في حكم الأداء. والأشهر: جمع، وأقلّه ثلاثة، وقد حملناه على شهرين وبعض الثالث، وذلك شوال، وذو القعدة، وبعض ذي الحجة»[2].

وإذا علم أن أشهر الحج هي شوال وذو القعدة وبعض ذي الحجة أو كلها، فلا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج، فمن أحرم بالحج قبل أشهر الحج لم يجزه ذلك عن حجه، ويكون ذلك عمرة، كمن دخل في صلاة قبل وقتها، فتكون نافلة، والدليل على هذا قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ فخصّ هذه الأشهر بفرض الحج فيها، فلو كان الإحرام بالحج في غير هذه الأشهر منعقدًا جائزًا لما كان لهذا التخصيص فائدة، مثل الصلوات علّقها بمواقيت لم يجز تقديمها عليها[3].

وقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ أي: في أشهر؛ لقوله بعده: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾. و(الحج) مبتدأ، و(أشهر) خبره، والمبتدأ والخبر لابد أن يصدقا على ذاتٍ واحدٍ، و(الحج) فعل من الأفعال، و(أشهر) زمانٌ، فهما غيران، فلابد من تأويل، وهو القول أن في الكلام حذفًا تقديره: أشهر الحج أشهر، أي: لا حج إلا في هذه الأشهر، ولا يجوز في غيرها، كما كان يفعله أهل الجاهلية في غيرها، كقوله: البرد شهران، أي: وقت البرد شهران، أو: وقت الحج أشهر، أو: وقت

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٤٢٤.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ١/ ٣٨٢.

عمل الحج أشهر، والغرض إنما هو أن يكون الخبر عن الابتداء هو الابتداء نفسه، والحج ليس بالأشهر، فاحتيج إلى هذه التقديرات، ومن قدّر الكلام: الحج في أشهر، فيلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر، ولم يقرأ بنصبها أحد[1].

وقوله: ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي: عند المخاطبين مشهورات، بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بيّن تعالى أوقات الصلوات الخمس، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم. قال ابن عاشور: «ووصف الأشهر بمعلومات حوالة على ما هو معلوم للعرب من قبل، فهي من الموروثة عندهم عن شريعة إبراهيم، وهي من مبدأ شوال إلى نهاية أيام المحرم، وبعضها بعض الأشهر الحرم؛ لأنهم حرّموا قبل يوم الحج شهرًا وأيامًا، وحرّموا بعده بقية ذي الحجة والحرام كله؛ لتكون الأشهر الحرم مدة كافية لرجوع الحجيج إلى آفاقهم، وأما رجب فإنما حرّمته مضر؛ لأنه شهر العمرة»[2].

والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالبًا. قال الزجاج: معناه أشهر الحج أشهر معلومات، وهو شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة، قال ابن عباس: جعلهن الله للحج وسائر الشهور للعمرة، فلا يصلح لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، وأما العمرة فإنه يحرم بها في كل شهر، فآخر هذه الأشهر يوم عرفة، وقد جاء في بعض الأخبار في تفسير أشهر الحج: وعشر من ذي الحجة، وفي بعضها: تسع من ذي الحجة، فمن قال: تسع فإنما عبّر به عن الأيام؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الحج عرفة)[3] فمن وقف بعرفة في يوم عرفة من ليل أو نهار فقد تم حجه، ومن قال: عشرة عبّر به عن الليالي، فمن لم يدركه إلى طلوع الفجر من يوم النحر فقد فاته الحج، والشهور إنما يؤرخ بالليالي[4].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢١٩، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٤٢٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٢٣١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣١/ ٦٤، رقم ١٨٧٧٤، والترمذي في سننه، أبواب الحج، باب فيمن أدرك الإمام بجمع، ٣/ ٢٢٨، رقم ٨٨٩، والنسائي في سننه، كتاب مناسك الحج، باب فرض الوقوف بعرفة، ٥/ ٢٥٦، رقم ٣٠١٦، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر، ٢/ ١٠٠٣، رقم ٣٠١٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣١٧٢.

(٤) الكشف والبيان، الثعلبي ١/ ٣٨٢.

ثالثًا: الأهلة مواقيت الحج:

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «قال العوفي عن ابن عباس: سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ يعلمون بها حلّ دينهم، وعدّة نسائهم، ووقت حجّهم»[(١)].

وفي البخاري عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[(٢)].

والمعنى: يسألك أصحابك -أيها النبي-: عن الأهلة وتغيّر أحوالها، قل لهم: جعل الله الأهلة علامات يعرف بها الناس أوقات عباداتهم المحددة بوقت، مثل الصيام، والحج، ومعاملاتهم، وليس الخير ما تعودتم عليه في الجاهلية، وأول الإسلام من دخول البيوت من ظهورها حين تحرمون بالحج، أو العمرة، ظانين أن ذلك قربة إلى الله، ولكن الخير هو فعل من اتقى الله، واجتنب المعاصي، وادخلوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم بالحج أو العمرة، واخشوا الله تعالى في كل أموركم، لتفوزوا بكل ما تحبون من خيري الدنيا والآخرة.

وفي قوله: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يدخل فيه مواقيت الصلوات والصيام والزكاة والعقود وغيرها، وإنما خص الحج بالذكر لكثرة ما يترتب عليه من الأوقات العامة والخاصة، وكذلك هي مواقيت للعدد والديون والإجارات وغيرها، قال تعالى لما ذكر العدة: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾[الطلاق: ١].

وقوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢].

وذلك لمعرفة كمال قدرة الله في إفاقتهم، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم، فمتى ترتب على ضبط الحساب وإحصاء المدة مصلحة في الدين والدنيا كان مما حث وأرشد إليه

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٢٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب قوله: (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها)، ٦/ ٢٦، رقم ٤٥١٢.

القرآن[1].

قال ابن عاشور: «وذكر فوائد خلق الأهلة في هذا المقام للإيماء إلى أن الله جعل للحج وقتًا من الأشهر، لا يقبل التبديل ؛ وذلك تمهيدًا لإبطال ما كان في الجاهلية من النسيء في أشهر الحج في بعض السنين»[2]. ونلحظ هنا أنهم سألوا عن الأهلة فأجابهم الحق تبارك وتعالى بغير ما ينتظرون؛ إشارة إلى أن السؤال عن سر الاختلاف ليس فيه منفعة شرعية، وإنما ينبغي الاهتمام بما فيه منفعة دينية.

ومما سبق كله نجد أن سياق النص وسبب نزوله يشير إلى أن ذكر الحج هنا قد جاء في معرض إبطال الشرك، وتصحيح الفهم الجاهلي، فكأنه يقول: إن الأهلة مواقيت للناس والحج، وما يفعلونه في الحج من التمنع من دخول البيوت من تحت السقوف إنما هو محض افتراء على الله عز وجل ، ولا علاقة له بالبر أبدًا.

رابعًا: أماكن ومشاعر للحج ورد ذكرها في القرآن:

ورد ذكر أماكن ومشاعر للحج في القرآن، منها: الصفا والمروة، وعرفات، والمشعر الحرام.

أما ذكر الصفا والمروة، وكونهما من شعائر الله، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ومعنى الآية: إن الصفا والمروة من معالم دين الله الظاهرة التي تعبّد الله عباده بالسعي بينهما، فمن قصد الكعبة حاجًّا أو معتمرًا، فلا إثم عليه ولا حرج في أن يسعى بينهما، بل يجب عليه ذلك، ومن فعل الطاعات طواعية من نفسه مخلصًا بها لله تعالى ، فإن الله تعالى شاكر يثيب على القليل بالكثير، عليم بأعمال عباده فلا يضيعها، ولا يبخس أحدًا مثقال ذرة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ الصفا: جمع الصّفاة، وهي الصخرة الصلبة الملساء، قال امرؤ القيس:

لها كفل كصفا المسيل
أبرز عنها جحاف مضر

والمروة: من الحجارة ما لان وصغر، قال أبو ذؤيب الهذلي:

حتى كأني للحوادث مروة
بصفا المشرق كل يوم تقرع

أي: صخرة رخوة صغيرة، وإنما عنى الله تعالى بهما الجبلين المعروفين بمكة، دون سائر الصفا والمروة؛ فلذلك أدخل فيهما الألف واللام[3]. فالألف واللام فيهما

(١) انظر: القواعد الحسان، السعدي ص١٣٨.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ١٩٤.
(٣) الكشف والبيان، الثعلبي ١/ ٢٧٩.

للتعريف لا للجنس، ومع توسعة المسجد الحرام صارا متصلين به.

واختلف في اشتقاق الصفا، فقيل: من قولهم: صفا يصفو: إذا خلص. وحكي عن جعفر بن محمد قال: نزل آدم على الصفا وحواء على المروة فسمّي الصفا باسم آدم المصطفى، وسميت المروة باسم المرأة، وقيل: إن اسم الصفا ذكّر بإساف، وهو صنم كان عليه مذكر الاسم، وأنّثت المروة بنائلة، وهو صنم كان عليه مؤنث الاسم[1].

وقوله: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الشعائر: جمع شعيرة، من الإشعار بمعنى الإعلام، ومنه قولك: شعرت بكذا، أي: علمت به، وقد كانت الشعائر كلها معروفة لديهم، وهي أمكنة وأزمنة وذوات؛ فالصفا والمروة والمشعر الحرام من الأمكنة، والشهر الحرام من الشعائر الزمانية، والهدي والقلائد من الشعائر الذوات.

وكون الصفا والمروة من شعائر الله أي: أعلام دينه ومتعبداته، تعبدنا الله بالسعي بينهما في الحج والعمرة.

وشعائر الحج: معالمه الظاهرة للحواس، التي جعلها الله أعلامًا لطاعته، ومواضع نسكه وعباداته، كالمطاف والمسعى والموقف والمرمى والمنحر.

وتطلق الشعائر أيضًا على العبادات التي تعبدنا الله بها في هذه المواضع؛ لكونها علامات على الخضوع والطاعة والتسليم لله تعالى[2]. فكل ما كان معلمًا لقربان يتقرب به إلى الله عز وجل من دعاء، وصلاة، ومن ذبيحة، وأداء فرض وغير ذلك فهو شعيرة.

والصفا والمروة داخلة في الشعائر التي أمرنا بتعظيمها، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وأن تعظيمها المنصوص في هذه الآية: يدل على عدم التهاون بالسعي بين الصفا والمروة. وإنما جعلها كذلك لأنها من آثار هاجر وإسماعيل وما جرى عليهما من البلوى، ويستدل بذلك على أن من صبر على البلوى، لابد وأن يصل إلى أعظم الدرجات[3].

وسيأتي تفصيل الكلام على هذا الركن -السعي بين الصفا والمروة- في أركان الحج التي ذكرت في القرآن.

ومن مناسك الحج التي ذكرت في القرآن، عرفات والمشعر الحرام:

فقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ١١١.

(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٢٤٨.

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٢١٦.

وسبب نزولها: أن قريشًا كانوا يقفون يوم عرفة بالمزدلفة، ويقولون: نحن قطّان بيت الله، ولا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم؛ لأن عرفات خارج عن الحرم، وعامة الناس يقفون بعرفات، فأمر الله النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يفيضوا من حيث أفاض الناس، وهو عرفات، لا من المزدلفة كفعل قريش، وهذا هو مذهب جماهير العلماء، وحكى ابن جرير عليه الإجماع. حيث قال: «والذي نراه صوابًا من تأويل هذه الآية: أنه عنى بهذه الآية قريشًا، ومن كان متحمسًا معها من سائر العرب؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله»[(١)].

وفي قوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم﴾ أي: دفعتم، والتعبير بـ﴿أَفَضۡتُم﴾ يصوّر لك هذا المشهد، كأن الناس أودية تندفع؛ وأصل الإفاضة: الدفع بقوة، من فاض الماء إذا نبع بقوة، ثم استعمل في مطلق الاندفاع على سبيل المبالغة[(٢)]. والعرب كانوا يسمون الخروج من عرفة الدفع، ويسمون الخروج من مزدلفة إفاضة، وكلا الإطلاقين مجاز؛ لأن الدفع هو إبعاد الجسم بقوة، ومن بلاغة القرآن إطلاق الإفاضة على الخروجين لما في (أفاض) من قرب المشابهة من حيث معنى الكثرة دون الشدة؛ ولأن في تجنب (دفعتم) تجنبًا لتوهم السامعين أن السير مشتمل على دفع بعض الناس بعضًا؛ لأنهم كانوا يجعلون في دفعهم ضوضاء وجلبة وسرعة سير، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك في حجة الوداع، وقال: (يا أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البر ليس في الإيضاع)[(٣)][(٤)].

وقوله: ﴿مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ (من) ابتدائية، والتصريح باسم (عرفات) في هذه الآية للرد على قريش؛ إذ كانوا في الجاهلية يقفون في (جمع) وهو المزدلفة؛ لأنهم حمس، فيرون أن الوقوف لا يكون خارج الحرم، ولما كانت مزدلفة من الحرم كانوا يقفون بها، ولا يرضون بالوقوف بعرفة؛ لأن عرفة من الحل...؛ ولهذا لم يذكر الله تعالى المزدلفة في الإفاضة الثانية باسمها، وقال: ﴿مِّنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ لأن المزدلفة هو المكان الذي يفيض منه الناس بعد إفاضة عرفات؛ فذلك حوالة على ما يعلمونه[(٥)].

وعرفات: فيه الصرف وعدمه كأذرعات، وسمي عرفات لقول إبراهيم الخليل عليه

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ١٩٠.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ١٦١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ، باب أمر النّبيّ صلى الله عليه وسلم بالسّكينة عند الإفاضة وإشارته إليهم بالسّوط، رقم ١٥٨٧.
(٤) التحرير والتنوير ٢/ ٢٣٨.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٢٣٩.

السلام لجبريل حين علّمه المناسك: قد عرفت، أو لمعرفة آدم حواء فيها[1]. أو لأن جبريل عرّف فيه الأنبياء مناسكهم، أو أنه سمّي بذلك لعلو الناس فيه، والعرب تسمي ما علا (عرفة) و(عرفات) ومنه سمّي عرف الديك لعلوه[2]. لأنه مرتفع؛ وكل شيء مرتفع يسمى بهذا الاسم. ومنه: أهل الأعراف، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ [الأعراف: ٤٨].

وقيل في اشتقاق عرفة: أنه من الاعتراف؛ لأن الحجاج إذا وقفوا في عرفة اعترفوا للحق بالربوبية والجلال والصمدية والاستغناء، ولأنفسهم بالفقر والذلة والمسكنة والحاجة، ويقال: إن آدم وحواء عليهما السلام لما وقفا بعرفات قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا، فقال الله سبحانه وتعالى: الآن عرفتما أنفسكما.

وقيل: إنه من العرف وهو الرائحة الطيبة، قال تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ [محمد: ٦].

أي: طيّبها لهم، ومعنى ذلك أن المذنبين لما تابوا في عرفات، فقد تخلصوا عن نجاسات الذنوب، ويكتسبون به عند الله تعالى رائحة طيبة[3]. وقيل: لأن الناس يتعارفون بينهم؛ إذ إنه مكان واحد يجتمعون فيه في النهار، فيعرف بعضهم بعضًا. وقيل: لأنه أعرف الأماكن التي حوله[4].

وتسمى عرفات المشعر الحلال، والمشعر الأقصى، وإلال -على وزن هلال-، ويقال للجبل في وسطها: جبل الرحمة، قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وبالمشعر الأقصى إذا قصدوا له
إلال إلى تلك الشّراج القوابل[5].

وبقي ليوم عرفة خمسة أسماء أخرى فأحدها: يوم الحج الأكبر.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾[التوبة: ٣].

وثانيها: الشفع، وثالثها: الوتر، ورابعها: الشاهد، وخامسها: المشهود في قوله: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ [البروج: ٣][6].

وذكر (عرفات) باسمه تنويهًا به، ويدل على أن الوقوف به ركن، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (الحج عرفة)[7]، فلم يذكر من المناسك باسمه غير عرفة، والصفا والمروة، وفي ذلك دلالة على أنهما من الأركان، خلافًا لأبي حنيفة في الصفا والمروة[8]. كما سيأتي.

وقوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ١٦١.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٤٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ١٩٠.
(٤) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٣/ ٣٣٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٥٢.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ١٩١.
(٧) سبق تخريجه قريبًا.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٥٩.

﴿ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ يقول الحق جل جلاله: فإذا وقفتم بعرفة، وأفضتم منها، فانزلوا المزدلفة وبيتوا بها، فإذا صليتم الصبح بغلس فقفوا عند (المشعر الحرام) وهو جبل في آخر المزدلفة، واذكروا الله عنده بالتهليل والتكبير والتلبية إلى الإسفار، هكذا فعل الرسول عليه الصلاة والسلام.

واختلف في الذّكر المأمور به عند المشعر الحرام ما هو؟ فقال بعضهم: هو الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء، والصلاة تسمّى ذكرًا؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤].

وأيضًا فإنه أمر بالذكر هناك، والأمر للوجوب، ولا ذكر هناك يجب إلا هذا. وعن سفيان بن عيينة قوله: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهي الصلاتين جميعًا[١].

وقال الجمهور: هو ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتهليل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان الناس إذا أدركوا هذه الليلة لا ينامون»[٢]. قال ابن عثيمين: «وقوله: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: باللسان والقلب والجوارح، فيشمل كل ما فعل عند المشعر من عبادة، ومن ذلك صلاة المغرب والعشاء والفجر»[٣].

و(المشعر) هو المعلم، وسمي بذلك لأن الدعاء عنده، والمقام فيه من معالم الحج، فهو (مفعل) اسم مكان، وهو المكان الذي تؤدى فيه شعيرة من شعائر الله عز وجل، وهو اسم مشتق من الشعور، أي: العلم، أو من الشعار، أي: العلامة؛ لأنه أقيمت فيه علامة كالمنار من عهد الجاهلية، ولعلهم فعلوا ذلك لأنهم يدفعون من عرفات آخر المساء، فيدركهم غُبْس ما بعد الغروب، وهم جماعات كثيرة، فخشوا أن يضلوا الطريق، فيضيق عليهم الوقت[٤].

وحدّ المشعر: ما بين منى ومزدلفة، من حد مفضي مأزمي عرفة إلى محسر، وليس مأزما عرفة من المشعر. قال في المحرر: «و(المشعر الحرام) هو جمعٌ كله، فهي كلها مشعر إلى بطن محسر، كما أن عرفة كلها موقف إلا بطن عرنة، بفتح الراء وضمها، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عرفة كلها موقف إلا بطن عرنة، والمزدلفة كلها مشعر، وارتفعوا عن بطن محسر)[٥] وذكر هذا عبد الله بن الزبير في خطبته، وفي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٥٤.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٤٤٥.
(٣) تفسير القرآن الكريم، ٣/ ٣٣٩.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٥٩.
(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب الموقف بعرفات، ٢/ ١٠٠٢، رقم ٣٠١٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٨٣٤.

المزدلفة قرن قزح الذي كانت قريش تقف عليه، وذكر الله تعالى عند المشعر الحرام ندبٌ عند أهل العلم»[1].

ووصف المشعر بـ(الحرام) أي: ذي الحرمة؛ لأنه داخل حدود الحرم، وقال العلماء: إن هذا الوصف وصف قيدي؛ ليخرج المشعر الحلال، وهو عرفة، وقالوا: إن المشعر مشعران: حلال وهو عرفة، وحرام وهو مزدلفة. فعرفة مشعر حلال؛ لأنها من الحل؛ ولهذا يجوز للمحرم أن يقطع الأشجار بعرفة. وفيها: دلالة على أن مزدلفة في الحرم، كما قيده بالحرام، وأن عرفة في الحل، كما هو مفهوم التقييد بـ(مزدلفة).

والمشعر الحرام: مزدلفة، سميت مزدلفة؛ لأنها ازدلفت من منى، أي: اقتربت؛ لأنهم يبيتون بها قاصدين التصبيح في منى، ويقال للمزدلفة أيضًا (جمع) لأن جميع الحجيج يجتمعون في الوقوف بها الحمس وغيرهم من عهد الجاهلية، قال أبو ذؤيب:

فبات بجمع ثم راح إلى منى
فأصبح رادًا يبتغي المزح بالسحل[2].

أو: لأنه يجمع فيها بين صلاة العشاء والمغرب، وقيل: إن آدم عليه السلام اجتمع فيها مع حواء، وازدلف إليها، أي: دنا منها. قال الرازي: «وفي تسمية المزدلفة أقوال: أحدها: أنهم يقربون فيها من منى، والازدلاف: القرب، والثاني: أن الناس يجتمعون فيها، والاجتماع: الازدلاف، والثالث: أنهم يزدلفون إلى الله تعالى ، أي: يتقربون بالوقوف»[3]. قال ابن عاشور: «ومن قال: إن تسميتها جمعًا لأنها يجمع فيها بين المغرب والعشاء فقد غفل عن كونه اسمًا من عهد ما قبل الإسلام، وتسمى المزدلفة أيضًا (قزح) بقاف مضمومة، وزاي مفتوحة ممنوعًا من الصرف، باسم قرن جبل بين جبال من طرف مزدلفة، ويقال له: الميقدة؛ لأن العرب في الجاهلية كانوا يوقدون عليه النيران، وهو موقف قريش في الجاهلية، وموقف الإمام في المزدلفة على قزح»[4].

واختلف في المبيت في مزدلفة هل هو ركن أم واجب؟

قال ابن كثير: «وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به؟ كما ذهب إليه طائفة من السلف، وبعض أصحاب الشافعي، منهم: القفال، وابن خزيمة؛ لحديث عروة بن مضرس، أو واجب، كما هو أحد قولي الشافعي يجبر

(١) المحرر الوجيز، ابن عاشور ١/ ٢٢٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٤٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ١٩٣.
(٤) التحرير والتنوير ٢/ ٢٤٠.

بدم؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء، كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء»[1].

وقال الشيخ ابن عثيمين: «ومزدلفة مشعر من المشاعر، فيكون فيه ردٌّ على من قال: إن الوقوف بها سنة، والقول الثاني: أنه ركن لا يصح الحج إلا به كالوقوف بعرفة، والقول الثالث: أنه واجب يصح الحج بدونه، ولكن يجبر بدم، وأنا أتوقف بين كونها ركنًا، وواجبًا، أما أنها سنة فهو ضعيف، لا يصح»[2].

خامسًا: أنواع النسك:

حج بيت الله الحرام يكون بأنساك ثلاثة:

فالأول: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج، ويأتي بمناسكها، ثم يحرم بالحج من جوف مكة، ويأتي بأعماله.

ويقابله القران: وهو أن يحرم بهما معًا، ويأتي بمناسك الحج، فيدخل فيها مناسك العمرة (أي: يحج ويعتمر في إحرام واحد).

والإفراد: بأن يأتي بالحج وحده بدون أن يكون معه عمرة (أو أن يحرم بالحج وبعد الفراغ منه بالعمرة).

فالحاصل أن المحرمين أربعة: مفرد بالحج، ومفرد بالعمرة، والمتمتع، والقارن، فأما المفرد بالحج: أن يحج ويعتمر، والمفرد بالعمرة: أن يعتمر ولا يحج، وأما المتمتع: أن يعتمر في أشهر الحج، ويمكث بمكة حتى يحج بعدما فرغ من عمرته، وأما القارن: فهو الذي يحرم بالحج والعمرة جميعًا، فمن كان مفردًا بالحج أو بالعمرة، فلا يجب عليه الهدي، ومن كان متمتعًا، أو قارنًا فعليه الهدي.

وهذه الأنساك الثلاثة مشروعة، وقد حكى جماعات من أهل العلم الإجماع على صحتها جميعًا، قال الخطابي: «لم تختلف الأمة في أن الإفراد والقران والتمتع بالعمرة إلى الحج كلها جائزة»[3].

وقال القرطبي: «لا خلاف بين العلماء في أن التمتع جائز، وأن الإفراد جائز، وأن القران جائز؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي كلًّا، ولم ينكره في حجته على أحد من أصحابه، بل أجازه لهم ورضيه منهم»[4]. وكذا نقل الإجماع على ذلك البغوي[5] وابن قدامة[6].

وقد ورد النص في القرآن على نسك التمتع، في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[البقرة: ١٩٦].

فقوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ أي: فمن انتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة قبل

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٥٤.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٤/ ٣٤١.
(٣) انظر: عون المعبود، المباركفوري ٥/ ١٣٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٣٨٧.
(٥) معالم التنزيل، ١/ ١٦٦.
(٦) المغني ٣/ ١٢٢.

الانتفاع بتقربه بالحج في أشهره، وقيل: من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج، فما استيسر من الهدى أي: فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع، وهو دم جبران، يذبحه إذا أحرم بالحج، ولا يأكل منه عند الشافعي[(١)].

قال أبو حيان: «وفسّر التمتع هنا بإسقاط أحد السفرين؛ لأن حق العمرة أن تفرد بسفر غير سفر الحج، وقيل: لتمتعه بكل ما لا يجوز فعله من وقت حلّه من العمرة إلى وقت إنشاء الحج»[(٢)].

وقد أشار القرآن كذلك إلى نسكي (القران والإفراد):

فالإفراد دل على مشروعيته عموم قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٦].

فإنه يشمل بعمومه نسك الإفراد، قال الرازي: «قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ يقتضي الإفراد؛ بدليل أنه تعالى قال: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ والقارن يلزمه هديان عند الحصر، وأيضًا أنه تعالى أوجب على الخلق عند الأداء فدية واحدة، والقارن يلزمه فديتان عند الحصر...، فثبت أن الإفراد أقرب إلى التمام، فكان الإفراد إن لم يكن واجبًا عليكم بحكم هذه الآية، فلا أقل من كونه أفضل»[(٣)]. وقال ابن نجيم في البحر الرائق: «دليل الإفراد قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[(٤)].

وأيضًا فالآية اقتضت عطف العمرة على الحج، والعطف يستدعي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، والمغايرة لا تحصل إلا عند الإفراد، فأما عند القران فالموجود شيء واحد، وهو حج وعمرة، وذلك مانع من صحة العطف[(٥)].

ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

حيث ذكر الله أن من حجاج بيت الله من يكون متمتعًا، واسم التمتع هنا يشمل القران، مما يدل على أن من الحجاج من ليس متمتعًا، ولم يبق من الأنساك إلا الإفراد، فيدل ذلك على جواز حج الفرد وصحته.

ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[البقرة: ١٩٧].

حيث ذكر الله تعالى أن بعض المسلمين يفرض الحج في أشهره، ومما يدخل في ذلك دخولًا أوليًّا حج الإفراد؛ إذ لم يذكر تعالى في الآية عمرة مع الحج، مما يدل على جواز عقد إحرام الحج وحده.

ودليل القران: قال في البحر الرائق: «أما

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٠٦.
(٢) البحر المحيط ٢/ ٢٤٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ١٥٨.
(٤) البحر الرائق ٢/ ٣٨٤
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ١٥٨.

الأول: فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

دليل الإفراد، قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٦].

دليل القران، قوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٦].

دليل التمتع»[١].

واختلف الناس في الأفضل من هذه الثلاثة الأنساك: فقيل: الإفراد أفضل...، وقيل: القران أفضل، وقيل: التمتع أفضل، وقيل: التمتع والقران أفضل من الإفراد، وقيل: أن الأنواع الثلاثة سواء في الفضيلة، لا أفضلية لبعضها على بعض[٢].

(١) البحر الرائق، ابن نجيم ٧/ ٦٠.
(٢) انظر: المجموع، النووي ٧/ ١٥٢.

أركان الحج المذكورة في القرآن

أعمال الحج هي: أركان وواجبات وسنن، فالركن: ما لا يحصل التحلّل إلا بالإتيان به، والواجب: هو الذي إذا تركه يجبر بالدم، والسّنن: ما لا يجب بتركها شيءٌ.

قال النيسابوري في تفسيره: «وأركان الحج -عند الثلاثة- خمسة: الإحرام، والوقوف بعرفة، وطواف الزيارة، والسعي بين الصفا والمروة، وحلق الرأس أو التقصير، وخالف أبو حنيفة وأصحابه في السعي، فقالوا: هو واجب، يجزي عنه الدم»[٣].

وأركان الحج كلها قد ذكرت في القرآن الكريم، إما نصًّا، أو إشارة.

أولًا: الإحرام:

أشار الله تعالى إلى هذا الركن في قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومعنى فرض: نوى وعزم، فنية الحج هي العزم عليه، وهو الإحرام، ويشترط في النية عند بعضهم مقارنتها لقول من أقوال الحج، وهو التلبية، أو عمل من أعماله، كسوق الهدي، وعند البعض: يدخل الحج بنية ولو لم يصاحب قولًا أو عملًا. قال

(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٤٦٥.

ابن عاشور: «وهو أرجح؛ لأن النية في العبادات لم يشترط فيها مقارنتها لجزء من أعمال العبادة، ولا خلاف أن السنة مقارنة الإهلال للاغتسال والتلبية واستواء الراحلة براكبها»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي: أوجب بإحرامه حجًّا، وفيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج، والمضي فيه، قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفرض هاهنا الإيجاب والإلزام»[2].

وقال الرازي: «وفرض الحج لا يمكن أن يكون عبارة عن التلبية أو سوق الهدي فإنه لا إشعار البتة في التلبية بكونه محرمًا، لا بحقيقة ولا بمجاز، فلم يبق إلا أن يكون فرض الحج عبارة عن النية، وفرض الحج موجب لانعقاد الحج»[3].

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره.

قال ابن عاشور: «قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريبًا، فإن قوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيده»[4].

ثانيًا: الطواف:

ومن أركان الحج التي ذكرت في القرآن طواف الإفاضة، وقد نص الله عز وجل على الأمر به في كتابه، في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

فقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ المراد: الطواف الركن، وهو طواف الإفاضة والزيارة، هكذا قال جمع كبير من المفسرين، حتى قال الطبري أنه لا خلاف بين المفسرين في ذلك، حيث قال: «وعني بالطواف الذي أمر جل ثناؤه حاج بيته العتيق به في هذه الآية، طواف الإفاضة، الذي يطاف به بعد التعريف، إما يوم النحر، وإما بعده، لا خلاف بين أهل التأويل في ذلك»[5].

وقال الشنقيطي: «وبهذا تعلم أن الله تعالى أوجب طواف الركن، بقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وقد بيّنه صلى الله عليه وسلم بفعله»[6].

وقال: «وحجة يوم النحر أعظم أركانها طواف الإفاضة، فبدونه لا تسمى حجة؛ لأنه ركنها الأكبر المنصوص على الأمر به في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٢٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٤٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ١٧٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩١.
(٥) جامع البيان، ١٨/ ٦١٦.
(٦) أضواء البيان ٤/ ٣٩٧.

﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾»[1].

وقوله: ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ الباء للإلصاق. فيجب الطواف بجميع البيت، فمن سلك الحجر، أو على شاذروان الكعبة، وهي من البيت فلم يطف جميع البيت فلا يجوز[2].

ففي قوله: ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ دليل «لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم...، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه»[3].

ثالثًا: الوقوف بعرفة:

الوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم، وقد ورد الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾[البقرة: ١٩٨].

قال السعدي: «وفي قوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفًا أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف، وذكر الإفاضة من (عرفات) يقتضي سبق الوقوف به؛ لأنه لا إفاضة إلا بعد الحلول بها»[4].

وقال في اللباب: «وروي عن علقمة والنّخعي أنهما قالا: الوقوف بالمزدلفة ركنٌ بمنزلة الوقوف بعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ فإذا قلنا: بأن الوقوف بعرفة ركن، وليس ذكره صريحًا في الكتاب، وإنما وجب بإشارة الآية الكريمة أو بالسنة»[5].

وقال الشيخ ابن عثيمين: «لو قال قائل: إن قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ ليس أمرًا بالوقوف بها، فالجواب: أنه لم يكن أمرًا بها؛ لأنها قضية مسلمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾[6].

رابعًا: السعي بين الصفا والمروة:

سبق الكلام عن الصفا والمروة، وأنهما

(١) المصدر السابق ٤/ ٣٧٧.
(٢) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ١/ ١٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤١٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٢.
(٥) اللباب في علوم الكتاب ٢/ ٤٤٥.
(٦) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٣/ ٣٤١.

من شعائر الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

وفي هذه الآية مشروعية الطواف بين الصفا والمروة، ويؤخذ ذلك من كونه من شعائر الله، والظاهر أن السعي بينهما ركن من أركان الحج، لا يتم الحج إلا به، وقال بعضهم: إنه واجب من واجبات الحج، يجبر بدم، ويصح الحج بدونه، وقال آخرون: إنه سنة وليس بواجب، والقول بأنه سنة ضعيف جدًّا؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أنه أمر مهم؛ لأن الشعيرة ليست هي السنة فقط، الشعيرة هي طاعة عظيمة لها شأن كبير في الدين، بقي أن يكون مترددًا بين الركن والواجب، والأظهر أنه ركن؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اسعوا، فإن الله كتب عليكم السعي)[(١)(٢)]. فالأقرب: أنه ركن، وليس بواجب.

وفي قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ هذا تفريع على كونهما من شعائر الله، وأن السعي بينهما في الحج والعمرة من المناسك، وهو خبر يقتضي الأمر بما عهد من الطواف بهما.

وليس المقصد منه إباحة الطواف لمن شاء؛ لأن ذلك بعد الأمر لا يستقيم، وإنما المقصد منه رفع ما وقع في نفوس قوم من العرب من أن الطواف بينهما فيه حرج، وإعلامهم أن ما وقع في نفوسهم غير صواب[(٣)].

وقال القاضي أبو محمد عبد الحق: وأيضًا فإن ما في مصحف ابن مسعود يرجع إلى معنى أن يطوف، وتكون (لا) زائدة صلة في الكلام؛ كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وكقول الشاعر:

ما كان يرضى رسول اللّه فعلهم
والطّيبان أبو بكرٍ ولا عمر[(٤)].

ولهذا أكّدت الجملة الكريمة بـ(أن) لأن بعض المسلمين كانوا مترددين في كون السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله، وكانوا يظنون أن السعي بينهما من أحوال الجاهلية، كما سبق بيانه.

وفي قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ الجناح الإثم، وأصله من جنح إذا مال عن القصد، يقال: جنح الليل إذا مال بظلمته، وجنحت السفينة: إذا مالت إلى الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ٣٦٣، رقم ٢٧٣٦٧.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم ١٠٨٨.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٣/ ١٤٩.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٧٥.
(٤) المصدر السابق.

﴿لَمَّا﴾ [الأنفال: ٦١].

ومنه: جناح الطائر[(١)].

وقوله: ﴿أَن يَطَّوَّفَ﴾ أي: يدور، واختلفوا في وجه الآية، وتأويلها، وسبب تنزيلها.

وقد جاء في سبب نزول الآية: أن الأنصار كانوا يحجون لمناة، وكانت مناة خزفًا وحديدًا، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا، فأنزلت[(٢)].

خامسًا: حلق الرأس أو التقصير:

ومن واجبات الحج الحلق أو التقصير، وقد أشار الله تعالى إليه في قوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وفي قوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وفي قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

فدلت الآيات السابقة على أن من النسك في الحج حلق الرأس. قال القرطبي: «لا خلاف أن حلق الرأس في الحج نسك مندوب إليه»[(٣)].

وفي قوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ دلالة أن الحلق نسك، وأنه أفضل من التقصير؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله المحلّقين) قالوا: يا رسول الله: والمقصّرين؟ قال: (رحم الله المحلّقين) قالوا: والمقصّرين؟ فقال: (والمقصّرين)[(٤)] في الرابعة أو الثالثة...، فدل دعاؤه للمحلّقين بالرحمة مرارًا: على أن الحلق نسك؛ لأنه لو لم يكن قربة لله تعالى لما استحق فاعله دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بالرحمة، ودل تأخير الدعاء للمقصّرين إلى الثالثة أو الرابعة: أن التقصير مفضول، وأن الحلق أفضل منه، والتقصير مع كونه مفضولًا: يجزئ بدلالة الكتاب والسنة والإجماع؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقد روى الشيخان وغيرهما التقصير عن جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم-.

وقد أجمع جميع علماء الأمة على أن التقصير مجزئ.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قضاء التفث يدخل فيه بلا نزاع إزالة الشعر بالحلق. قال الجوهري في صحاحه: «التفث في المناسك: ما كان من نحو قص الأظفار، والشارب وحلق الرأس، والعانة، ورمي الجمار، ونحر البدن، وأشباه ذلك»[(٥)].

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ١/ ٢٨١.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٦٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٣٨٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، ٢/ ١٧٤، رقم ١٠٧٢٧.
(٥) الصحاح ١/ ٦٤.

محظورات الحج وكفاراتها

محظورات الحج هي: ما يحرم على المحرم بسبب إحرامه، وهي: حلق الشعر، وتقليم الأظافر -قياسًا على حلق الشعر بجامع الترفه-، ولبس المخيط، والمقصود به ما يفصل على الجسد، مما صنع على قدر العضو، وتغطية الرأس، والطيب، وقتل الصيد، وعقد النكاح، والمباشرة لشهوة، فيما دون الفرج، والجماع.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن بعض محظورات الحج، ومنها:

١. الرفث والفسوق والجدال.

قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[البقرة: ١٩٧].

فقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: لا ترفثوا، ولا تفسقوا، ولا تجادلوا في الحج، وإيراد الإنشاء بصيغة الخبر أبلغ من إيراده بصيغة الإنشاء، كما هو مقرر في المعاني[(١)].

فنلحظ أنه سبحانه بعد أن قال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ قال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فيكون ذلك تمهيدًا له، وتهوينًا لمدة ترك الرفث والفسوق والجدال لصعوبة ترك ذلك على الناس؛ ولذلك قللت بجمع القلة.

(١) أضواء البيان ٥/ ٢٠.

قوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ وقرأ عبدالله: (رفوث) وهو مصدر بمعنى: الرفث[(٢)]. واختلف في المراد بـ(الرفث) فقيل: الرفث: اللغو من الكلام، والفحش منه، قاله أبو عبيدة، واحتج بقول العجاج:

ورب أسراب حجيج كظّم
عن اللغا ورفث التّكلم

والمراد به هنا الكناية عن قربان النساء، والكناية بهذا اللفظ دون غيره لقصد جمع المعنيين الصريح والكناية، وكانوا في الجاهلية يتوقون ذلك.

قال النابغة:

حياك ربي فإنا لا يحل لنا
لهو النساء وإن الدين قد عزما

يريد من الدين: الحج، وقد فسروا قوله: لهو النساء بالغزل[(٣)].

وقال قوم: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من أهله، وقيل: هو التعرض بمعانقة ومواعدة أو مداعبة أو غمز[(٤)]. فيكون الرفث في الأصل: الإفحاش في القول، وبالفرج الجماع، وباليد الغمز للجماع، هذا أصل اللغة. وملخص هذه الأقوال في معنى الرفث: أنها دائرة بين شيء يفسد الحج وهو الجماع، أو شيء لا يليق لمن كان ملتبسًا بالحج لحرمة الحج. فدلت

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٤٢٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢/ ٢٣٤.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٥٣.

الآية على النهي عن الرفث في هذه الوجوه كلها، ومن أجله حرّم العلماء ما دون الجماع في الإحرام، وأوجبوا في القبلة الدم، ومثله قوله: (وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث)[(١)(٢)].

وأما مغازلة النساء والحديث في شأن الجماع (المباح) فذريعة ينبغي سدها؛ لأنه يصرف القلب عن الانقطاع إلى ذكر الله في الحج.

حكم الرفث في الحج:

قال الشنقيطي: «لا خلاف بين أهل العلم: أن المحرم إذا جامع امرأته قبل الوقوف بعرفات: أن حجه يفسد بذلك، ولا خلاف بينهم أنه لا يفسد الحج من محظورات الإحرام إلا الجماع خاصة، وإذا فسد حجه بجماعه قبل الوقوف بعرفات: فعليه إتمام حجه هذا الذي أفسده، وعليه قضاء الحج، وعليه الهدي...، وإن كان جماعه بعد رمي جمرة العقبة، وقبل طواف الإفاضة: فحجه صحيح عند الجميع...، وتلزمه فدية»[(٣)].

قال أبو حيان: «وأجمع العلماء على أن الجماع يفسد الحج، وأن مقدماته توجب الدم»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «فإن حصل نسيان، فقال مالك: هو مفسد، ويعيد حجه إذا لم يمض وقوف عرفة، وإلا قضاه في القابل نظرًا إلى أن حصول الالتذاذ قد نافى تجرد الحج والزهد المطلوب فيه، بقطع النظر عن تعمد أو نسيان، وقال الشافعي في أحد قوليه وداود الظاهري: لا يفسد الحج، وعليه هدي»[(٥)].

وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ الفسوق هو الخروج عن الطاعة، واختلف المفسرون في المراد فيه، فكثير من المحققين حملوه على كل المعاصي، قالوا: لأن اللفظ صالح للكل، ومتناول له، والنهي عن الشيء يوجب الانتهاء عن جميع أنواعه، فحمل اللفظ على بعض أنواع الفسوق تحكم من غير دليل، وهذا متأكد بقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠].

وبقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[الحجرات: ٧].

وذهب بعضهم إلى أن المراد منه بعض الأنواع، ثم ذكروا وجوهًا مختلفة، وهي من باب التفسير بالمثال، واختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد.

فقيل: أراد به هنا النهي عن الذبح للأصنام؛ لأنه يتعلق بإبطال ما كانوا عليه في الجاهلية، ومنه: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصّوم، باب هل يقول إنّي صائمٌ إذا شتم، رقم ١٨٠٥.
(٢) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ١/ ٨٧.
(٣) أضواء البيان ٥/ ٢٩.
(٤) البحر المحيط ٢/ ٢٦٠.
(٥) التحرير والتنوير ٢/ ٢٣٤.

[الأنعام: ١٤٥].

وفسر أيضًا بفعل ما نهي عنه في الإحرام من قتل صيد، وحلق شعر وغيره.

غير أن الظاهر شمول الفسوق لسائر الفسق، والمعاصي كلها لا يختص منها شيء دون شيء، ويدخل فيه ما سبق وغيره، كالتنابز بالألقاب.

قال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١].

والسباب، كما قال: (سباب المسلم فسوق)[(١)(٢)].

قال ابن كثير: «والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصي معهم الصواب، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهيًّا عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم آكد»[(٣)].

وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ الجدال: مصدر جادله إذا خاصمه خصامًا شديدًا، والجدل: هو المماراة والمنازعة والمخاصمة، وحرّمت هذه لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة، والمقصود من الحج الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبرورًا، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنها يتغلظ المنع عنها في الحج[(٤)].

واختلف في المراد بالجدال هنا: فقيل: السباب والمغاضبة، والمقصود هنا: الجدال المنهي عنه، وهو الذي يخاف معه الخروج إلى السباب والتكذيب والتجهيل[(٥)].

واتفق العلماء على أن مدارسة العلم والمناظرة فيه ليست من الجدال المنهي عنه، واتفقوا على أن المجادلة في إنكار المنكر، وإقامة حدود الدين ليست من المنهي عنه، فالمنهي عنه هو ما يجر إلى المغاضبة والمشاتمة، وينافي حرمة الحج[(٦)].

قال الشيخ ابن عثيمين: «والجدال إن كان لإثبات الحق، أو لإبطال الباطل، فإنه واجب، وعلى هذا فيكون مستثنى من هذا العموم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]»[(٧)].

وخص الفسوق والجدال بالذكر في الحج تعظيمًا لحرمة الحج، ولأن التلبس بالمعاصي في مثل هذه الحال من التشهير لفعل هذه العبادة أفحش وأعظم منه في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، رقم ٤٩.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٥٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٤٥.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩١.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٤٣١.
(٦) التحرير والتنوير ١/ ٥٥٧.
(٧) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٤/ ٣٣٦.

غيرها، ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم في حق الصائم: (فلا يرفث ولا يجهل، فإن جهل عليه فليقل: إني صائم؟)[1]... ومعلوم خطر ذلك في غير ذلك اليوم، ولكنه خصه بالذكر تعظيمًا لحرمته.

٢. الصيد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾[المائدة: ٩٥].

ونظيره: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾[المائدة: ٩٦].

ونظيره: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾[المائدة: ١].

ونظيره: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾[المائدة: ٢].

والمعنى الإجمالي للآية الكريمة: يأيها الذين آمنوا بالله إيمانًا حقًّا لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون، ومن قتل منكم الصيد وهو بهذه الصفة فعلية جزاء من النعم مماثل الصيد المقتول، ومقارب له في الخلقة والمنظر، أو في القيمة، وهذا الجزاء المماثل للصيد المقتول يحكم به رجلان منكم، تتوافر فيهما العدالة والخبرة، حتى يكون حكمهما أقرب إلى الحق والصواب، ويكون هذا الجزاء الواجب على قاتل الصيد: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ أي: يصل إلى الحرم، فيذبح فيه، ويتصدق به على مساكينه، أو يكون على قاتل الصيد: ﴿كَفَّٰرَةٞ﴾ هي ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ بأن يطعمهم من غالب قوت البلد، ما يساوي قيمة هذا الجزاء المماثل للصيد المقتول، بحيث يعطي لكل مسكين نصف صاغ من بر، أو صاعًا من غيره، أو يكون عليه ما يعادل هذا الطعام صيامًا، بأن يصوم عن طعام كل مسكين يومًا، وما قل عن طعام المسكين يصوم عنه يومًا كاملًا[2].

وفي قوله: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ﴾ يتناول القتل عن طريق المباشرة أو التسبب، كما يتناول أي عمل يؤدي إلى صيد الحيوان، وإنما كان النهي في الآية منصبًّا على القتل؛ لأنه هو المقصود الأعظم من وراء مباشرة عملية الصيد؛ إذ الصائد يريد قتل المصيد؛ لكي يأكله في الغالب[3]. قال السعدي: «والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل، أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم، أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصّوم، باب فضل الصّوم، رقم ١٨٩٤.

(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ١٣٧٦.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٣٧٤.

كان حلالًا له قبل الإحرام»[1].

وقال في اللباب: «واتفق المسلمون على تحريم الصيد على المحرم...، أما إذا صيد للمحرم بغير إعانته وإشارته حل له؛ لأن أبا قتادة اصطاد حمارًا وحشيًّا وهو حلال في أصحاب محرمين، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: (فيكم أحد أمر أن يحمل عليها أو أشار إليها؟) قالوا: لا، قال: (فكلوا ما بقي من لحمها)[2] وفي رواية: (هل بقي معكم منه شيء؟) قالوا: نعم، فناولته العضد فأكلها[3]. قال: وهذا يدل على تخصيص القرآن بخبر الواحد»[4].

وفي قوله: ﴿ٱلصَّيۡدَ﴾: قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «هذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونهي عن تعاطيه فيه، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ولو ما تولد منه ومن غيره»[5].

وقال ابن عاشور: «والصيد عام في كل ما شأنه أن يصاد ويقتل، من الدواب والطير لأكله، أو الانتفاع ببعضه، ويلحق بالصيد الوحوش كلها، قال ابن الفرس: والوحوش تسمى صيدًا وإن لم تصد بعد، كما يقال: بئس الرمية الأرنب، وإن لم ترم بعد، وخص من عمومه ما هو مضر، وهي السباع المؤذية، وذوات السموم، والفأر وسباع الطير، ودليل التخصيص السنة»[6].

وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌ﴾ حرم: جمع حرام، بمعنى محرم، والمحرم أصله: المتلبس بالإحرام بحج أو عمرة، ويطلق المحرم على الكائن في الحرم، قال الراعي:

قتلوا ابن عفان الخليفة محرمًا

أي: كائنًا في حرم المدينة، فأما الإحرام بالحج والعمرة فهو معلوم، وأما الحصول في الحرم فهو الحلول في مكان الحرم من مكة أو المدينة، وزاد الشافعي: الطائف في حرمة صيده، لا في وجوب الجزاء على صائده، فأما حرم مكة فيحرم صيده بالاتفاق، وفي صيده الجزاء، وأما حرم المدينة فيحرم صيده، ولا جزاء فيه، ومثله الطائف عند الشافعي[7].

والمعنيان مرادان بالآية، فلا يجوز قتل الصيد للمحرم، ولا في الحرم، فقد نزلت هذه الآية في أبي اليسر حين شدّ على حمار وحش فقتله، وهو محرم[8] ثم صار

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب جزاء الصّيد، باب لا يشير المحرم إلى الصّيد لكي يصطاده الحلال، رقم ١٨٢٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة، باب من استوهب من أصحابه شيئًا، رقم ٢٥٧٠.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦/ ٢٤٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩١.
(٦) التحرير والتنوير ٧/ ٤٣.
(٧) المصدر السابق.
(٨) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٦٦، لباب

هذا الحكم عامًّا، فلا يجوز قتل الصيد ولا التعرض له ما دام محرمًا، ولا في الحرم. قال الماوردي: «اسم المحرم يتناول الأمرين معًا على وجه الحقيقة دون المجاز، من أحرم بحج أو عمرة، أو دخل الحرم، وحكم قتل الصيد فيهما على السواء بظاهر الآية»[(١)].

والحكمة من تحريم الصيد في الحرم أن الله تعالى عظّم شأن الكعبة من عهد إبراهيم عليه السلام ، وأمره بأن يتخذ لها حرمًا كما كان الملوك يتخذون الحمى، فكانت بيت الله وحماه، وهو حرم البيت محترمًا بأقصى ما يعدّ حرمة وتعظيمًا؛ فلذلك شرع الله حرمًا للبيت واسعًا، وجعل الله البيت أمنًا للناس، ووسّع ذلك الأمن حتى شمل الحيوان العائش في حرمه، بحيث لا يرى الناس للبيت إلا أمنًا للعائذ به وبحرمه، قال النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها
ركبان مكة بين الغيل فالسند[(٢)].

والتحريم لصيد حيوان البر ولم يحرّم صيد البحر؛ إذ ليس في شيء من مساحة الحرم بحر ولا نهر، ثم حرّم الصيد على المحرم بحج أو عمرة؛ لأن الصيد إثارة لبعض الموجودات الآمنة، وقد كان الإحرام يمنع المحرمين القتال، ومنعوا التقاتل في الأشهر الحرم؛ لأنها زمن الحج والعمرة، فألحق مثل الحيوان في الحرمة بقتل الإنسان، أو لأن الغالب أن المحرم لا ينوي الإحرام إلا عند الوصول إلى الحرم، فالغالب أنه لا يصيد إلا حيوان الحرم[(٣)].

ويؤخذ من قوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ ونظيره: ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ بيان أن مدة التحريم مدة كونهم حرمًا، أي: محرمين، أو مارين بحرم مكة، وهذا إيماء لتقليل مدة التحريم استئناسًا للمكلفين بتخفيف، وإيماء إلى نعمة اقتصار تحريمه على تلك المدة، ولو شاء الله لحرّمه أبدًا. وفي الموطأ: «أن عائشة قالت لعروة بن الزبير: يا ابن أختي إنما هي عشر ليال -أي مدة الإحرام- فإن تخلج في نفسك شيء فدعه، تعني: أكل لحم الصيد»[(٤)].

وأيضًا من الحكم في تحريم الصيد على المحرم: الاختبار والابتلاء، وليعلم الله من يخافه بالغيب، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

يقول الشيخ العثيمين: «وفي صدر هذه الأمة حرّم الله على المحرمين الصيد: ﴿لَا

التأويل، الخازن، ٢/ ٧٨.
(١) النكت والعيون ١/ ٣٧٩.
(٢) التحرير والتنوير ٧/ ٤٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه مالك في الموطأ، رواية يحيى الليثي، رقم ٧٨٧.

﴿تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ فبعث الله الصيد عليهم وهم محرمون، تناله أيديهم ورماحهم، يعني: أن الذي يمشي على الأرض يمسكونه باليد، مثل: الأرنب والغزال يمسكه الواحد باليد، والطائر الذي كان لا ينال إلا بالسهم لأنه بعيد، صار يطير وكأنه على الأرض، الرمح يدركه فتنة، فهنا يسّر الله لهم أسباب المعصية، لكن الصحابة -رضي الله عنهم-، وهم خير الناس لم يأخذ أحد منهم صيدة واحدة، بينما بنو إسرائيل تحيلوا وخادعوا الله، أما سلف هذه الأمة -وفقنا الله لموافقتهم في الدنيا في أعمالهم، وفي الآخرة في مساكنهم- فإنهم لم يأخذوا»[1].

وتعليق حكم الجزاء على وقوع القتل يدل على أن الجزاء لا يجب إلا إذا قتل الصيد، فأما لو جرحه، أو قطع منه عضوًا ولم يقتله، فليس فيه جزاء، ويدل على أن الحكم سواء أكل القاتل الصيد أو لم يأكله؛ لأن مناط الحكم هو القتل[2].

وقوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ يحتمل أمرين: أحدهما: متعمدًا لقتله، ناسيًا لإحرامه، والثاني: متعمدًا لقتله، ذاكرًا لإحرامه[3].

و﴿مُتَعَمِّدًا﴾ قيد أخرج المخطئ، أي: في صيده، ولم تبين له الآية حكمًا، لكنها تدل على أن حكمه لا يكون أشد من المتعمد، فيحتمل أن يكون فيه جزاء آخر أخف، ويحتمل أن يكون لا جزاء عليه، وقد بيّنته السنة، قال الزهري: نزل القرآن بالعمد، وجرت السنة في الناسي والمخطئ أنهما يكفّران، ولعله أراد بالسنة العمل من عهد النبوة والخلفاء، ومضى عليه عمل الصحابة، وليس في ذلك أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم.

إلا أن جمهور فقهاء الأمصار قالوا: إن العمد والخطأ في ذلك سواء[4]. واختلف الجمهور القائلون بأن المتعمد والمخطئ في ذلك سواء في حكمة ذكر المتعمد في الآية، قال البيضاوي: «والأكثر على أن ذكره ليس لتقييد وجوب الجزاء، فإن إتلاف العامد والمخطئ واحد في إيجاب الضمان، بل لقوله: ﴿وَمَن عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ ولأن الآية نزلت فيمن تعمد»[5]. وقد جمع صاحب التفسير الوسيط الكلام في هذه المسألة أحسن جمع، حيث قال: «وذكر سبحانه المتعمد ولم يذكر المخطئ ولا الناسي، والمتعمد هنا هو القاصد للشيء مع العلم بالإحرام، والمخطئ هو الذي يقصد شيئًا فيصيب صيدًا، والناسي هو الذي يتعمد الصيد، ولا يذكر إحرامه، واختلف العلماء في ذلك على خمسة أقوال:

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ١٢/ ١٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٤.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٧٩.
(٤) التحرير والتنوير ٧/ ٤٤.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٣٦٥.

الأول: ما أسنده الدارقطني عن ابن عباس قال: إنما التكفير في العمد، وإنما غلظوا في الخطأ؛ لئلا يعودوا.

الثاني: أن قوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ خرج على الغالب، فألحق به النادر كأصول الشريعة.

الثالث: أنه لا شيء على المخطئ والناسي.

الرابع: أنه يحكم عليه في العمد والخطأ والنسيان.

الخامس: أن يقتله متعمدًا لقتله ناسيًا لإحرامه؛ لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَن عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ قال: ولو كان ذاكرًا لإحرامه لوجبت عليه العقوبة من أول مرة، قال: فدل على أنه أراد متعمدًا لقتله، ناسيًا لإحرامه.

قال: ويبدو لنا أن القول الرابع الذي قال به الأئمة، أقرب إلى الصواب؛ لأن تخصيص العمد بالذكر في الآية؛ لأجل أن يرتب عليه الانتقام عند العود؛ لأن العمد هو الذي يترتب عليه ذلك دون الخطأ؛ ولأن جزاء الخطأ معروف من الأدلة التي قررت التسوية في ضمان المتلفات؛ إذ من المعروف أن من قتل صيد إنسان عمدًا أو خطأ في غير الحرم فعليه جزاؤه، فهذا حكم عام في جميع المتلفات، وما دام الأمر كذلك كان الجزاء ثابتًا على المحرم متى قتل الصيد سواء أكان قتله له عمدًا أم خطأ»[1].

والراجح -والله أعلم-: أن قيد: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ قيد معتبر، وإلا لما ذكره الله.

قال ابن عاشور: «وقصد القتل تبع لتذكر الصائد أنه في حال إحرام، وهذا مورد الآية، فلو نسي أنه محرم فهو غير متعمد، ولو لم يقصد قتله فأصابه فهو غير متعمد، ولا وجه ولا دليل لمن تأول التعمد في الآية بأنه تعمد القتل مع نسيان أنه محرم»[2].

وقال أبو حيان في البحر: «الظاهر تقييد القتل بالعمد، فمن لم يتعمد فقتل خطأ بأن كان ناسيًا لإحرامه، أو رماه ظانًّا أنه ليس بصيد فإذا هو صيد، أو عدل سهمه الذي رماه لغير صيد فأصاب صيدًا، فلا جزاء عليه»[3].

قوله: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: فالمجزي به المقتول مثل ما قتله الصائد[4].

والجزاء: العوض عن عمل، فسمى الله ذلك جزاء؛ لأنه تأديب وعقوبة، إلا أنه شرع على صفة الكفارات مثل كفارة القتل وكفارة الظهار، وليس القصد منه الغرم؛ إذ ليس الصيد بمنتفع به أحد من الناس حتى يغرم قاتله ليجبر ما أفاته عليه، وإنما الصيد ملك الله تعالى أباحه في الحل، ولم يبحه للناس في حال الإحرام، فمن تعدى عليه في تلك الحالة فقد فرض الله على المتعدي جزاء،

(١) الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ١٣٧٦.

(٢) التحرير والتنوير ٧/ ٤٤.

(٣) البحر المحيط ٥/ ١٤.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٦.

وجعله جزاء ينتفع به ضعاف عبيده.

وقد دلنا على أن مقصد التشريع في ذلك هو العقوبة قوله عقبه: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ وإنما سمي جزاء ولم يسمّ بكفارة لأنه روعي فيه المماثلة، فهو مقدّر بمثل العمل، فسمي جزاء، والجزاء مأخوذ فيه المماثلة والموافقة، قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦][1].

واختلفوا في هذه المماثلة أهي بالخلقة أم بالقيمة؟ والذي عليه جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم أن المماثلة في الخلقة معتبرة -في الصورة والخلقة والصغر والعظم-؛ لأن ظاهر الآية يدل على ذلك، وما لا مثل له فالقيمة[2].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ النعم لفظ يقع على الإبل والبقر والغنم إذا اجتمعت هذه الأصناف، فإن انفرد كل صنف لم يقل: نعم إلا للإبل وحدها[3].

وقد أخبر أن الجزاء مثل ما قتل الصائد، وذلك المثل من النعم، وذلك أن الصيد إما من الدواب، وإما من الطير، وأكثر صيد العرب من الدواب، وهي الحمر الوحشية، وبقر الوحش والأروى والظباء، ومن ذوات الجناح النعام والإوز، وأما الطير الذي يطير في الجو فنادر صيده؛ لأنه لا يصاد إلا بالمعراض، وقلما أصابه المعراض سوى الحمام الذي بمكة وما يقرب منها، فمماثلة الدواب للأنعام هينة، وأما مماثلة الطير للأنعام فهي مقاربة، وليست مماثلة؛ فالنعامة تقارب البقرة أو البدنة، والإوز يقارب السخلة وهكذا[4].

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: يحكم بالجزاء أي بتعيينه، والمقصد من ذلك أنه لا يبلغ كل أحد معرفة صفة المماثلة بين الصيد والنعم، فوكل الله أمر ذلك إلى الحكمين، وعلى الصائد أن يبحث عمن تحققت فيه صفة العدالة والمعرفة، فيرفع الأمر إليهما، ويتعين عليهما أن يجيباه إلى ما سأل منهما، وهما يعينان المثل ويخيرانه بين أن يعطي المثل أو الطعام أو الصيام، ويقدران له ما هو قدر الطعام إن اختاره[5].

قال ابن جزي: «وهذه الآية تقتضي أن التحكيم شرط في إخراج الجزاء، ولا خلاف في ذلك، فإن أخرج أحد الجزاء قبل الحكم عليه فعليه إعادته بالحكم، إلا حمام مكة، فإنه لا يحتاج إلى حكمين، قاله مالك، ويجب عند مالك التحكيم فيما حكمت فيه الصحابة، وفيما لم يحكموا فيه؛ لعموم الآية، وقال الشافعي: يكتفى في ذلك بما حكمت به الصحابة»[6].

(١) انظر: المصدر السابق ٧/ ٤٤.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٣٤.
(٣) الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٤٨٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٥.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٣٣٠.

ووصف ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ أي: من المسلمين للتحذير من متابعة ما كان لأهل الجاهلية من عمل في صيد الحرم، فلعلهم يدعون معرفة خاصة بالجزاء[1].

والمعنى: يعني: يحكم بالجزاء في قتل الصيد رجلان صالحان عدلان، من أهل ملتكم ودينكم، وينبغي أن يكونا فقيهين، فينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به.

قال ميمون بن مهران: «جاء أعرابي إلى أبي بكر الصديق، فقال: إني أصبت من الصيد كذا وكذا، فسأل أبو بكر أبي بن كعب، فقال الأعرابي: إني أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك! فقال أبو بكر: وما أنكرت من ذلك؟ قال الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورت صاحبي، فإذا اتفقنا على شيء أمرناك به»[2].

وقوله: ﴿هَدْيًا﴾ حال من جزاء، أو منصوب على المصدرية، أي: يهديه هديًا، والهدي: اسم لما يذبح في الحج لإهدائه إلى فقراء مكة. قال ابن جزى: «ويقتضي ظاهره أن ما يخرج من النعم جزاء عن الصيد يجب أن يكون مما يجوز أن يهدى، وهو الجذع من الضأن، والثني مما سواه»، وقال الشافعي: «يخرج المثل في اللحم، ولا يشترط السن»[3].

قال ابن عاشور: «والهدي ما يذبح أو ينحر في منحر مكة، والمنحر: منى والمروة؛ ولما سماه الله تعالى: ﴿هَدْيًا﴾ فله سائر أحكام الهدي المعروفة»[4].

وقوله: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾: قال ابن عاشور: «ومعنى: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أنه يذبح أو ينحر في حرم الكعبة، وليس المراد أنه ينحر أو يذبح حول الكعبة»[5]. وإنما أريد الكعبة كل الحرم؛ لأن الذبح لا يقع في الكعبة وعندها ملاقيًا لها، إنما يقع في الحرم، وهو المراد بالبلوغ، فيذبح الهدي بمكة، ويتصدق به على مساكين الحرم، هذا مذهب الشافعي، وقال أبو حنيفة: له أن يتصدق به حيث شاء، إذا وصل الهدي إلى الكعبة[6].

وقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ يعدّد الله تعالى هنا ما يجب في قتل المحرم للصيد، فذكر أولًا الجزاء من النعم، ثم الطعام، ثم الصيام، ومذهب الجمهور: أنها على التخيير، وهو الذي يقتضيه العطف بـ(أو) وقيل: إنها على الترتيب. قال ابن عاشور: «و(أو) في قوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ وقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ تقتضي تخيير قاتل الصيد في أحد الثلاثة المذكورة،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٦.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٣٥.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٣٣٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٦.
(٥) التحرير والتنوير ٧/ ٤٦.
(٦) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٣٥.

وكذلك كل أمر وقع بـ(أو) في القرآن فهو من الواجب المخير، والقول بالتخيير هو قول الجمهور، ثم قيل: الخيار للمحكوم عليه لا للحكمين، وهو قول الجمهور من القائلين بالتخيير، وقيل: الخيار للحكمين، وقال به الثوري وابن أبي ليلى والحسن.

ومن العلماء من قال: إنه لا ينتقل من الجزاء إلى كفارة الطعام إلا عند العجز عن الجزاء، ولا ينتقل عن الكفارة إلى الصوم إلا عند العجز عن الإطعام، فهي عندهم على الترتيب، ونسب لابن عباس»[(١)].

فعلى قول الجمهور: فالمحرم إذا قتل صيدًا كان مخيرًا: إن شاء جزاه بمثله من النعم، وإن شاء قوّم المثل دراهم، ثم الدراهم طعامًا، ثم يتصدق به، وإن شاء صام عن كل مدّ يومًا[(٢)]. قال في الوسيط: «ولا شك أن التخيير هنا ليس على حقيقته، إنما هو ترتيب مراتب على حسب القدرة على كل رتبة، فالأصل بلا ريب شراء هدي وذبحه في الحرام، فإن تعذر ذلك كان الطعام، فإن تعذر كان الصيام[(٣)]. قال: وعندي أن الترتيب حسب القدرة أوضح»[(٤)].

قوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ العدل -بالفتح- ما عادل الشيء من غير جنسه، وأما بالكسر فما عادله من جنسه، وقيل: هما سيان، ومعناهما: المثل مطلقًا[(٥)]. وتحتمل الإشارة بذلك أن تكون إلى الطعام وهو أحسن؛ لأنه أقرب، أو إلى الصيد، واختلف في تعديل الصيام بالطعام، فقيل: يكون مكان كل مدٍّ يومًا، وقيل: مكان كل مدّين يوم، وقيل: مكان كل صاع يومًا، ولا يحب الجزاء ولا الإطعام ولا الصيام إلا بقتل الصيد، لا بأخذه دون قتل؛ لقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾ وفي كل وجه يشترط حكم الحكمين، وإنما لم يذكر الله في الصيام والطعام استغناء بذكره في الجزاء[(٦)].

قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: جزاء ما صنع، فهو تعليل لإيجاب الجزاء السابق على المحرم القاتل للصيد عن تعمد. والذوق هنا مستعار؛ لأن حقيقته بحاسة اللسان، والوبال: سوء العاقبة، وهو هنا ما لزمه من التكفير[(٧)].

٣. الأخذ من الشعر.

فيحرم حلق الرأس على المحرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وهو خطاب لجميع الأمة من غير فرق

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٧.
(٢) الوجيز، الواحدي ص٣٣٥.
(٣) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ١٣٧٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٣٣١.
(٧) المصدر السابق.

بين محصر وغير محصر، وإليه ذهب جمع من أهل العلم، وذهبت طائفة إلى أنه خطاب للمحصرين خاصة: أي: لا تحلوا من الإحرام حتى تعلموا أن الهدي الذي بعثتموه إلى الحرم قد بلغ محله.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: مكانه الذي يجب أن يذبح فيه، واختلفوا في تعيينه:

فقيل: هو موضع الحصر؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث أحصر في عام الحديبية، وأجيب عن نحره صلى الله عليه وسلم في الحديبية بأن طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة هو من الحرم، وردّ بأن المكان الذي وقع فيه النحر ليس هو من الحرم.

وقيل: هو الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣].

وأجيب عن ذلك بأن المخاطب به هو الآمن الذي يمكنه الوصول إلى البيت[1].

قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾... الآية، معناه: ولا تحلقوا رءوسكم في حال الإحرام إلا أن تضطروا إلى حلقه لمرض أو أذى. والمراد بالمرض هنا: ما يصدق عليه مسمى المرض لغة، والمراد بالأذى من الرأس: ما فيه من قمل أو جراح ونحو ذلك، ومعنى الآية: إن من كان مريضًا، أو به أذى من رأسه، فحلق، فعليه فدية[2].

ومما يؤخذ من الآية: أن النهي عام لكل الرأس ولبعضه؛ إذ لو حلق بعضه وقع في الإثم؛ لأن النهي يتناول جميع أجزاء المنهي عنه؛ فإذا قيل: «لا تأكل هذه الخبزة» وأكلت منها فإنك لم تمتثل[3].

ومما يؤخذ من الآية: أن المحرّم ما يسمى حلقًا، فأما أخذ شعرة أو شعرتين أو ثلاث شعرات من رأسه فلا يقال: إنه حلق، وهذه المسألة مما تنازع فيها أهل العلم، فقال بعضهم: إذا أخذ شعرة واحدة من رأسه فقد حلق؛ فعليه فدية إطعام مسكين، وإن أخذ شعرتين فإطعام مسكينين، وإذا أخذ ثلاث شعرات فدم، أو إطعام ستة مساكين: لكل مسكين نصف صاع، أو صيام ثلاثة أيام.

وقال بعض العلماء: إن الحكم يتعلق بربع الرأس، فإن حلق دون الربع فلا شيء عليه، وهذا لا شك أنه تحكّمٌ لا دليل عليه؛ فلا يكون صحيحًا، بل هو ضعيف.

وقال آخرون: تتعلق الفدية بما يماط به الأذى، ومعنى يماط: يزال، أي بما يحصل به إزالة الأذى، وهذا لا يكون إلا بجزء كبير من الرأس.

قالوا: لأن الله تعالى قال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾ فدل هذا

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٤/ ٣٢٧.

على أن المحرّم الذي تتعلق به الفدية هو ما يماط به الأذى، وهذا مذهب مالك، وهو صحيح من حيث أن الفدية لا تجب إلا بما يماط به الأذى فقط، لكنه غير صحيح من كون التحريم يتعلق بما يماط به الأذى فقط، فالتحريم يتعلق بما يسمّى حلقًا، والفدية تتعلق بما يماط به الأذى[1].

قال الشيخ ابن عثيمين: «فإن قال قائل: ما هو دليلكم على هذا التقسيم، فالعلماء لم يقولوا هذا الكلام؟

فالجواب: أن نقول: دليلنا على هذا التقسيم الآية الكريمة، وفعل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ هذا عام لكل حلق، فكل ما يسمى حلقًا فإنه منهي عنه لهذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾ فأوجب الفدية فيما إذا حلق حلقًا يزول به الأذى؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ بِهِ أَذًى﴾ فلو قدّرنا محرمًا رأسه تؤذيه الهوام، فحلق منه شيئًا يسيرًا لا يزول به الأذى فلا فدية عليه؛ لأن الله تعالى إنما أوجب الفدية بحلق ما يزول به الأذى.

ويدل لذلك فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد احتجم وهو محرم في يافوخه في أعلى رأسه، ومعلوم أن الحجامة تحتاج إلى حلق الشعر الذي يكون في موضع الحجامة، ولم ينقل أن الرسول صلى الله عليه وسلم افتدى، فدل ذلك على أن ما تتعلق به الفدية هو ما يماط به الأذى، دون الشيء اليسير»[2].

ومما يؤخذ من الآية: التيسير على العباد؛ وذلك بوقوع الفدية على التخيير.

ومنها: أن محل الإطعام والنسك في مكان فعل المحظور؛ لأن الفورية تقتضي ذلك، أما الصيام فالظاهر ما قاله العلماء رحمهم الله من كونه يصح في كل مكان، لكن الفورية فيه أفضل.

ومنها: أن كفّارات المعاصي فدًى للإنسان من العقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

ومنها: أن محظورات الإحرام لا تفسده؛ لأن الله لم يوجب في حلق الرأس مع أنه من محظورات الإحرام إلا الفدية، ومقتضى ذلك أن النسك صحيح.

وهذا مما يخالف الحجّ والعمرة فيه غيرهما من العبادات؛ فإن المحظورات في العبادات تبطلها. وألحق العلماء بفدية حلق الرأس فدية جميع محظورات الإحرام، ما عدا شيئين، وهما: الجماع في الحج قبل التحلل الأول، وجزاء الصيد.

فالجماع في الحج قبل التحلل الأول يجب فيه بدنة، وجزاء الصيد يجب فيه مثله،

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

أو إطعام مساكين، أو عدل ذلك صيامًا، وما عدا ذلك من المحظورات ففديتها كفدية حلق الرأس عند الفقهاء، أو كثير منهم[1].

آداب الحج

آداب الحج تنقسم إلى قسمين:

- آداب واجبة.
- آداب مستحبة.

فأما الآداب الواجبة: فهي أن يقوم الإنسان بواجبات الحج وأركانه، وأن يتجنب محظورات الإحرام الخاصة، والمحظورات العامة، الممنوعة في الإحرام وفي غير الإحرام؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقد سبق بيان الآداب الواجبة في الحج.

وأما الآداب المستحبة في سفر الحج: فأن يقوم الإنسان بكل ما ينبغي له أن يقوم به، من الكرم بالنفس والمال والجاه، وخدمة إخوانه، وتحمّل أذاهم، والكف عن مساوئهم، والإحسان إليهم، سواء كان ذلك بعد تلبّسه بالإحرام، أو قبل تلبّسه بالإحرام؛ لأن هذه آداب عالية فاضلة تطلب من كل مؤمن في كل زمان ومكان، وكذلك الآداب المستحبة في نفس فعل العبادة، كأن يأتي الإنسان بالحج على الوجه الأكمل، فيحرص على تكميله بفعل مستحباته القولية والفعلية.

لأنه لا ينال فضل الحج ولا تنال منفعته

(١) المصدر السابق.

الروحية والقلبية إلا من خلال التمسك بهذه الآداب، فهي الخلال الكفيلة بجعل الحج حجًّا بالقلب إلى الله، قبل أن يكون حجًّا بالجسد إلى البيت والأماكن المقدسة.

والآيات التي تناولت الحج، وما يتعلق به تشتمل على كثير من الآداب التي دلت عليها الآيات أحيانًا بمنطوقها، وأحيانًا أخرى بمفهومها، وأحيانًا أخرى بالإشارة والإيماء.

والمتأمل في سورة البقرة وسورة الحج يجد أنهما قد سبحتا سبحًا طويلًا في حديثهما عن البيت الحرام، وعن آداب الحج، ومناسكه، وأحكامه، ومن هذه الآداب التي ذكرت في هاتين السورتين:

١. إخلاص النية لله في الحج والعمرة.

والآية التي تشير إلى هذا هي قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

فإن الآية تحث على أن يكون الحج والعمرة تامّين لله، وهذا يعني أنه لابد من أن يكون القصد بالحج وجه الله تعالى ، وأن تكون الغاية رضاه، وأن لا يقصد بذلك مراءاة الناس، أو الكسب الدنيوي، أو أي غرض غير طلب مرضاة الله ورجاء عفوه، ولا شك أن هذا الأدب من الأهمية بمكان، يدل على ذلك كونه أول أمر تعرضت له الآيات بعد طلب الإتيان بالحج والعمرة تامّين، ويدل على تلك الأهمية أيضًا صيغة الطلب التي وردت في آل عمران بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

فلقد وردت هنا صيغة الطلب والإلزام مغايرة لما عهد من صيغ الطلب المعروفة الواردة في غير الحج، وفي مجيء الطلب بهذه الصيغة عدة إشارات، منها: تقديم القصد من الحج على الإلزام به، فقبل أن يوجبه بيّن أنه لابد من كونه لله، فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وهذا يشير إلى أن القصد من الحج مقدم على الفعل له، وأنه لابد من تقديم النية على الامتثال.

٢. الحرص على الإتيان بالحج والعمرة تامّين.

وهذا ما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فهنا نلحظ أنه سبحانه وتعالى لم يأمر عباده بفعل الحج والعمرة ولا بالقيام بهما فحسب، وإنما ورد الأمر بفعلهما تامّتين، وهذا يشير إلى أن من آداب الحج أن يسعى الحاج جاهدًا إلى أن يأتي بأفعال الحج والعمرة على الوجه الكامل، لا أن يأتي بالأفعال ناقصة، وكون الإتمام بحد ذاته مطلوبًا، والنص على إتمام الحج يشعر بأهميته، ويشير إلى مشقته التي قد تدفع البعض للإتيان به ناقصًا، أو على أي وجه كان، فكان لابد من التأكيد على فعله تامًّا.

٣. ترك الرفث والفسوق والجدال.

وقد سبق الكلام على قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومما يلفت النظر في هذه الآية مجيء النهي فيها عن الرفث والفسوق والجدال بأسلوب عجيب، حيث لم تأت العبارة بصيغة النهي، فلم يقل الله: فلا يرفث ولا يفسق ولا يجادل، وإنما قال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾، فجاء النهي عن هذه الخصال الثلاثة بالنفي باللام النافية للجنس، وهذا أبلغ أشكال النهي، وأقواها، فهو ليس نهيًا فحسب، إنما هو بيان بأن هذه الخصال الثلاثة مما ينبغي أن لا تكون موجودة أصلًا، بل ينبغي أن تنعدم، وأن لا تقوم لها قائمة، وهذا أمر معلوم، فحين يأتي النهي بصيغة النفي يكون أبلغ في النهي عنه، فإذا كان النفي بلام الجنس كان أشد وأقوى؛ لأنه نهي يطالب فيه بأن لا يكون لهذه الأمور وجود.

والنهي عن هذه الأمور يقتضي الأمر بأضدادها، فالنهي عن الرفث هو أمر بحفظ اللسان، والنهي عن الفسوق هو أمر بحفظ الأفعال، والنهي عن الجدال هو أمر بحفظ العقل أو القلب، فاللسان ينبغي أن ينشغل بذكر الله، وأن يحفظ عما يشغله عن مبدعه وخالقه.

٤. الإكثار من فعل الخير في الحج.

وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فقد جاء الحث على فعل الخير وسط الحديث عن آداب الحج؛ إشارة إلى أن هذا الأمر من آداب الحج، فالحاج ينبغي أن ينشغل بفعل الخير؛ لأنه الفعل الذي يتناسب مع ما هو فيه من أماكن مقدسة وساعات تجلٍّ إلهي؛ ولأن فعل الخير مفتاح لتلك التجليات والمعاني العظيمة حتى تنفذ إلى قلبه.

ونلحظ أن الحث على فعل الخير في الحج جاء بأسلوب الشرط، وذلك أبلغ في الحث؛ لأن الشرط يفيد الإلهاب والتهييج بما فيه من ربط الجزاء بالشرط، ولقد ربط الشرط هنا بجزاء عظيم، فلقد ربطه بعلم الله، وكون الله يعلم أن الإنسان يفعل الخير أمر مسلم فيه؛ ولذا فالمراد هنا أنه لا يمكن أن يعلم الله عبده يفعل الخير إلا وسيكافئه عليه أوفى المكافأة، ونلحظ أيضًا أن الشرط جاء بـ(ما) التي تفيد العموم؛ ليشير بذلك إلى أن المطلوب كل أعمال الخير، أو عموم أفعال الخير، أو كل ما يصدق عليه أنه عمل صالح.

٥. إعداد الحاج الزاد من مال يكفيه في حجه.

يقول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ولعل بعضنا يتساءل ما علاقة إعداد الزاد الكافي بآداب الحج؟ وهل يجني الحاج بذلك نفعًا أخرويًّا أو روحيًّا؟ نقول: أجل، فإن إعداد الزاد الكافي أمر ذو صلة بالنفع الروحي والقلبي؛ وذلك لأن الحاج حين يجد ما يكفيه من زاد في حجه لا ينشغل قلبه عن الله في البحث عن الزاد، أو القوت أو المال، فالمحتاج قد تشغله حاجته عن الله، وعن الخشوع وعن الإقبال على الله، أو قد تدفعه إلى سؤال الناس، وهذا مما يشوّش عليه صفاءه ونقاء قلبه، كيف لا والإسلام نهى عن سؤال الناس، فسؤال الناس أمر لا يرضاه الله ولا رسوله، وهو من ثمّ يبعد السائل عن أن يكون في رحمة الله، فكيف ينال رحمة الله وتجلياته من تلبّس فيما لا يرضاه؟!

٦. التقوى والتوبة قبل الحج.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قضية مهمة، وهي أن التقوى صفة ينبغي على الحاج أن يلجها قبل مغادرته؛ وذلك لأن الله جعلها خير زاد، فهو يشير هنا إلى أن التقوى هي الصفة التي ينبغي على الحاج أن يتزود منها قبل خروجه إلى الحج، وإنما استنبطنا تلك الإشارة من كون الآية هنا جعلت التقوى زادًا، وجعلته خير زاد، والزاد في العادة يعدّ قبل الخروج لا بعده، إذن فالحاج مطالب قبل خروجه إلى الحج أن يتسلح بالتقوى، فيترك ما نهى الله عنه، ويمتثل ما أمر الله به، حتى يصل إلى تلك الأماكن طاهر القلب نقيًّا، فالتسلح بالتقوى يجعل القلب متهيئًا لعطايا الله وهباته في تلك الأماكن المقدسة، ولا شك أن الأمر بالتقوى قبل الحج يستلزم توبة العبد عما كان عليه؛ حتى تتحقق فيه صفة التقوى.

٧. انشغال الحاج بالذكر والاستغفار.

نجد أن الله تعالى أمر الحاج بالانشغال في الذكر في عدة مواطن، ففي سورة الحج يبين أن الغاية من إقبال الناس على الحج من كل فج عميق أمران، هما: شهود المنافع، وذكر الله في أيام معلومات.

يقول سبحانه: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وفي سورة البقرة حين الحديث عن آداب الحج تكرر طلب ذكر الله من الحاج في عدة مواطن، فعند الإفاضة من عرفات إلى المشعر الحرام يأمرهم بالذكر، فيقول: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ونلحظ أنه سبحانه يلهب مشاعر المؤمنين بالإقبال على الذكر عند المشعر الحرام بصيغة الأمر، وبتذكيرهم أنه من قبيل شكرهم لله على هدايته لهم؛ حثًّا لهم على الإقبال على ذكر الله تعالى.

ثم يأمرهم بالاستغفار عند الإفاضة، فيقول: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وكذلك يأمرهم بالذكر عند انقضاء المناسك، فيقول: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ونلحظ هنا أنه أمرهم بذكر الله ذكرًا أشد من ذكر آبائهم الذي كانوا يفعلونه عند انقضاء النسك، وهذا يعني أن الحاج مطالب بالإكثار من الذكر عند انقضاء المناسك، وإنما استنبطنا أنه مطالب بكثرة الذكر؛ لأنه جرت عادة الناس بعد الفراغ من النسك أن تتحرك أشواقهم إلى أهليهم وآبائهم؛ لقرب العودة وعدم وجود ما يشغلهم من النسك، وعندئذ يكثر ذكراهم لأهلهم، فالله يأمرهم أن يكون ذكرهم لله أكثر من ذكر الآباء والأهل الذي هو كثير في تلك الآونة، والغرض من طلب الذكر بعد انقضاء المناسك هو أن يحافظ العبد على نورانية الحج، وأن لا يضيعها بأحاديث تذهب ببهاء حجته.

ثم نجده أيضًا يأمر بالذكر في أيام منى، فيقول: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

ونلحظ أنه قد تكرر طلب الذكر في آيات الحج، وهذا يعني التأكيد على طلب الذكر من الحاج، ويشير بنفس الوقت إلى أهمية الذكر في الحج؛ لأن التكرار وسيلة من وسائل التوكيد، ويشير بنفس الآونة إلى الاهتمام بالأمر المكرر.

٨. التواضع في الحج.

فالحاج مأمور بالتواضع في الحج في أخلاقه وفي لباسه وفي مأكله وفي مشربه، وذلك حتى يكون محط نظر الله ورحمته؛ لأن الله يمقت الكبر وأهله، فالكبر يخرج الحاج من دائرة رحمة الله، ونجد الإشارة إلى طلب التواضع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

فالحاج مأمور بأن يكون كسائر إخوانه من الحجيج؛ حتى لا يكسر قلب الفقير منهم، فكسر قلب الفقير أمر خطير يبعد

فاعله عن أن يكون في نظر الله، ومن هنا فالحاج مأمور بعدم التكبر أو التفاخر سواء في المركب أم في الملبس أم في المقام، فعن أنس رضي الله عنه قال: حج رسول الله على رحل رث، وقطيفة تساوي أربعة دراهم، أو لا تساوي، ثم قال: (اللهم حجًّا لا رياء فيه ولا سمعة)[1].

وقد يقال: لا دليل في الآية على التواضع، إنما هي تتعلق بأقوام كانوا لا يفيضون من حيث أفاض الناس كما هو معروف في سبب نزول هذه الآية، والجواب: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٩. إكثار الحاج من الدعاء وأن يطلب لدنياه وآخرته معًا.

وإنما كان من أدب الحج إكثاره من الدعاء لأن تلك الأماكن مظنة لإجابة الدعاء فيها، فلله تجليات في الأمكنة وفي الأزمنة وفي الأشخاص، ولقد حثنا القرآن على الإكثار من الدعاء في تلك الأماكن.

وبيّن أن الناس على صنفين:

- صنف يطلب لنفسه أمور الدنيا فقط.
- وصنف يطلب الدنيا والآخرة.

أما الصنف الأول فيعطى الدنيا وليس له نصيب من الآخرة، وأما الصنف الثاني فيطلب الدنيا والآخرة، فيعطى خيري الدنيا والآخرة، ولا شك أن ذكر هذين الصنفين فيه إشارة أن العاقل هو من يطلب الاثنين معًا؛ لأن طالب الأولى يعطاها فقط دون الأخرى، أما طالب الاثنتين فيعطاهما معًا، فالصنف الأول محروم من الأخرى.

أما الصنف الثاني فيغنم الأولى والأخرى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

فقد بيّنت الآية أن بعض الناس يطلب الدنيا فيعطاها، لكن لا خلاق له ولا نصيب في الآخرة، وأن بعضهم يطلب في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويستجير بالله من عذاب النار، وهؤلاء هم الذين يعطون نصيبهم من كل أمر سألوه، والحق أن بيان هذه الآية للصنفين، وبيان ما يلقاه كل صنف وما يحصده من دعوته، هو عبارة عن وضع نماذج للناس؛ تشويقًا لهم إلى اختيار ما هو الأعظم ترتيبًا في الجزاء، وهم الصنف الثاني، فالآية تحث على انتهاج سلوكهم

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المناسك: ، باب الحج على الراحلة، ٢/ ٩٦٥، رقم ٢٨٩٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٦١٧.

من خلال ما ذكره من ثمرات دعواتهم، ومن خلال الإشارة إليهم بإشارة البعد إيذانًا بعلو مرتبتهم، وحثًّا للسامعين على سلوك طريقهم، ومن خلال ما بيّنه من نيلهم نصيبًا من كل أمر كسبوه، فهنا إذن نيل للنصيب وكسب، يقابله في الفئة الأولى نفي للخلاق والنصيب، وفي هذا حث للناس على سلوك منهج الفئة الثانية؛ لأن العاقل دائمًا يفضّل ما له فيه مغنم، لا ما فيه نقص ومغرم.

١٠. الأكل من الهدي.

أمر الله تعالى بالأكل من الهدي، فقال: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧].

والأمر هنا مجمل، يحتمل الوجوب، ويحتمل الإباحة، ويحتمل الندب، وقرينة عدم الوجوب ظاهرة؛ لأن المكلّف لا يفرض عليه ما الداعي إلى فعله من طبعه، وإنما أراد الله إبطال ما كان عند أهل الجاهلية من تحريم أكل المهدي من لحوم هديه، فبقي النظر في أنه مباح بحت، أو هو مندوب[(١)].

فمذهب الجمهور أن الأكل مستحب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يؤخذ من كل جزور بضعة، فطبخت، وأكل لحمها، وحسي من مرقها[(٢)].

قال الشنقيطي: «فجمهور أهل العلم على أن الأمر بالأكل في الآيتين: للاستحباب والندب، لا للوجوب، والقرينة الصارفة عن الوجوب في صيغة الأمر هي ما زعموا من أن المشركين كانوا لا يأكلون هداياهم، فرخّص للمسلمين في ذلك»[(٣)].

وقال ابن كثير في تفسيره: «استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي، وهو قول غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب»[(٤)].

وقال القرطبي: «﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر معناه الندب عند الجمهور، ويستحب للرجل أن يأكل من هديه وأضحيته، وأن يتصدق بالأكثر، مع تجويزهم الصدقة بالكل، وأكل الكل، وشذت طائفة، فأوجبت الأكل والإطعام، بظاهر الآية، ولقوله عليه السلام: (فكلوا وادّخروا وتصدّقوا)»[(٥)(٦)].

قال إلكيا: «قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا﴾ يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٦٤.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٣٧١٤.

(٣) أضواء البيان، ٥/ ١٩٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٤١٦.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأضاحيّ، باب بيان ما كان النهي عن أكل لحوم الأضاحي، ٣/ ١٥٦١، رقم ١٩٧١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٤٤.

ولا التصدق بجميعه»[1].

واستدل بعضهم لعدم وجوب الأكل بقوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦].

قالوا: فجعلها لنا، وما هو للإنسان فهو مخير بين تركه وأكله، ولا يخفي ما في هذا الاستدلال.

إلا أن الشنقيطي رجّح وجوب الأكل، حيث قال: «أقوى القولين دليلًا: وجوب الأكل والإطعام من الهدايا والضحايا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ في موضعين، ومما يؤيد أن الأمر في الآية يدل على وجوب الأكل وتأكيده: أن النبي صلى الله عليه وسلم نحر مائة من الإبل، فأمر بقطعة لحم من كل واحدة منها، فأكل منها وشرب من مرقها، وهو دليل واضح على أنه أراد ألا تبقى واحدة من تلك الإبل الكثيرة إلا وقد أكل منها أو شرب من مرقها، وهذا يدل على أن الأمر في قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ ليس لمجرد الاستحباب والتخيير؛ إذ لو كان كذلك لاكتفى بالأكل من بعضها، وشرب مرقه دون بعض، وكذلك الإطعام، فالأظهر فيه الوجوب»[2].

والأظهر أنه: لا تحديد للقدر الذي يأكله، والقدر الذي يتصدق به، فيأكل ما شاء، ويتصدق بما شاء.

قال الرازي: «ثم قال العلماء: من أهدى أو ضحّى فحسن أن يأكل النصف، ويتصدق بالنصف؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ ومنهم من قال: يأكل الثلث، ويدّخر الثلث، ويتصدق بالثلث، ومذهب الشافعي: أن الأكل مستحب، والإطعام واجب، فإن أطعم جميعها أجزأه، وإن أكل جميعها لم يجزه، هذا فيما كان تطوعًا، فأما الواجبات كالنذور، والكفارات والجبرانات لنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الإساءة ودماء القلم والحلق، فلا يؤكل منها»[3].

١١. إطعام الفقراء من الهدي.

أمر الله تعالى بالإطعام من الهدي، فقال: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ ونظيره: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾[الحج: ٣٦].

فقوله: ﴿وَأَطْعِمُوا۟﴾ هذا الأمر قيل: هو للندب كالأول، وقيل: هو للوجوب.

قال القرطبي: «واختلف في الأكل والإطعام، فقيل: واجبان، وقيل: مستحبان، وقيل: بالفرق بين الأكل والإطعام، فالأكل مستحب، والإطعام واجب، وهو قول الشافعي»[4].

وقال الرازي في قوله: «﴿وَأَطْعِمُوا۟﴾:

(١) أحكام القرآن، إلكيا الهراسي ٤/ ١٠.
(٢) أضواء البيان ٥/ ١٩٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١١٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٤٩.

فلا شبهة في أنه أمر إيجاب، والبائس: الذي أصابه بؤس أي شدة، والفقير: الذي أضعفه الإعسار، وهو مأخوذ من فقار الظهر»[1].

حكمة تشريع الحج وثمراته

الحج طاعة مطلقة، وانقياد تام لله تعالى، ومع أنه كذلك فليس معنى ذلك: أن العقل ليس له مدخل في شعائره ومناسكه، يتذوقها ويقف على الحكم المستفادة منها، فكثير من الناس يظن أن أفعال الحج ومناسكه كلها مبهمة وغامضة، والصواب: كما أن الله -جل شأنه- اختبر الناس بما يعقلون فسمعوا وأطاعوا، اختبرهم كذلك بما لا يعقلون حتى يتبين له كيف يسمعون وكيف يطيعون، وهكذا في شعيرة الحج ففيها حكم معقولة، وفيها حكم غير معقولة، فمثلًا من مناسك الحج الطواف بالبيت، وله حكم عديدة، توضح معقوليته، والحكمة منه، ومنها:

أن هذا البيت هو أول بيت وضع للناس، وزاده الله تشريفًا، فمن حق أول بيت أقيم ليكون قلعة التوحيد، ومثابة للموحدين، وملتقى للمؤمنين المخلصين، من حقه أن تكون له مكانة خاصة؛ ولهذا يجيئه الرواد من كل أفق، والحجاج من كل فج، يطيرون إليه كما تطير الحمائم إلى أوكارها، في أفئدتهم حنين، وفي قلوبهم مشاعر ملتاعة، وقس على ذلك باقي المناسك.

فالحج إذن عبادة رقيقة محبوبة، ظاهرة الحكمة، أساسها الوقوف بعرفة، والطواف

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١١٥.

حول البيت، وبعض شعائر أخرى يمكن استيعابها بيسر، دون قلق أو حرج، وعند التأمل في أصل المنسك، وما يتركه في القلب من مشاعر، وما يستودعه العقل من دلالات، يقف المرء على الحكم المتعددة، التي تستفاد من كل منسك.

ومن حكم الحج الظاهرة (المنافع المتنوعة) التي يحصل عليها المسلم في الحج، كما قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

ومما ينبغي التنبه إليه أن المنافع المذكورة في الآية ليست محصورة في المنافع الدنيوية، وكيف تحصر فيها وقد وردت مجموعة منكرة؟! فجمعها يفيد تعددها، وتنكيرها يفيد عمومها، فبناء على الجمع تكون المنافع متعددة، وبناء على التنكير تكون المنافع عامة، فجمع (منافع) وتنكيرها دلا على أنها منافع متعددة وعامة، وهذا يعني أنها أكثر من أن تكون منافع دنيوية، فهي أيضًا منافع إيمانية روحية؛ لأن الحج أعمال تقرّب العبد من ربه، وهذا غذاء الروح، وهي أيضًا منافع أخروية؛ لأن الحج امتثال لأمر الله فيما تعبدنا به، وهي أيضًا منافع نفسية؛ لأن الحج ترويض للنفس على أعمال تشق عليها، وهي أيضًا منافع جسدية؛ لأن الحج رياضة للبدن، ودربة له على النشاط والحركة.

وفيما يلي سيتم الكلام -باختصار- على هذه الحكم والمنافع للحج.

أولًا: الثمرات الدنيوية:

١. المنافع التجارية.

سبق الإشارة إلى أن الله تعالى وعد عباده المستجيبين لندائه شهود منافع مطلقة -مادية ومعنوية-، لا حصر لها، ولا حدّ، فقال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

ومعنى الآية: لينالوا بوصولهم لبيت الله في الأنساك منافع متنوعة دينية، ومنافع دنيوية، كالتكسب وحصول الأرباح، وهذا أمر مشاهد يعرفه كل أحد، فجميع العلوم والعبادات الدينية التي تفعل في تلك البقاع الفاضلة، وما جعل الله لها من التضعيف داخل في هذه المنافع، وجميع المنافع الدنيوية التي لا تعدّ ولا تحصى داخلة في ذلك، فصدق الله وعده، وأنجز ما قاله، وكان ذلك آية وبرهانًا على توحيده، وصدق رسله[1].

ونظيره: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فقوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا﴾ أي: يأتوك

(١) تيسير اللطيف المنان، السعدي ص١٩١.

ليحضروا. واللام في قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ هي لام التعليل: وهي متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن﴾ أي: إن تؤذن فيهم يأتوك مشاة وركبانًا؛ لأجل أن يشهدوا: أي: يحضروا منافع لهم، والمراد بحضورهم المنافع: حصولها لهم[1].

قال ابن عادل: «ويجوز في هذه اللام وجهان:

أحدهما: أن تتعلق بـ(أذّن) أي: أذّن ليشهدوا.

والثاني: أنها متعلقة بـ(يأتوك) وهو الأظهر»[2].

وقوله: ﴿مَنَافِعَ﴾ جمع منفعة، واختلف في تلك المنافع، فبعضهم حملها على منافع الدنيا، وهي أن يتجروا في أيام الحج، وبعضهم حملها على منافع الآخرة، وهي العفو والمغفرة، وبعضهم حملها على الأمرين جميعًا، وهو كما قال الرازي أولى[3].

قال الشنقيطي: «ولم يبين هنا هذه المنافع ما هي؟ وقد جاء بيان بعضها في بعض الآيات القرآنية، وأن منها ما هو دنيوي، وما هو أخروي، أما الدنيوي فكأرباح التجارة -بيع وشراء وعرض سلع وأنواع صناعات-، فإذا خرج الحاج بمال تجارة معه، فإنه يحصل له الربح غالبًا، وذلك نفع دنيوي»[4].

ومن المنافع كذلك ما يحصل من الأجر بالكراء في الحج.

قال ابن عثيمين: «من فوائد الآية: جواز الاتجار أثناء الحج بالبيع والشراء والتأجير، كالذي يؤجر سيارته التي يحج عليها في الحج؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]»[5].

وهذه المنافع تشمل المنافع الدينيّة: كمغفرة ذنوبهم، واستجابة دعائهم، والفوز برضا ربهم، وتعلم دينهم من علمائهم.

ومن أهم المنافع أيضًا ما وعدهم الله على لسان إبراهيم عليه السلام من الثواب، فكنى بشهود المنافع عن نيلها...، وأعظم ذلك اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد؛ ليتلقى بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانهم.

وتنكير (منافع) للتعظيم، والمراد منه الكثرة، وهي المصالح الدينية والدنيوية؛ لأن في مجمع الحج فوائد جمة للناس: لأفرادهم من الثواب، والمغفرة لكل حاج، ولمجتمعهم؛ لأن في الاجتماع صلاحًا في الدنيا بالتعارف والتعامل.

قال الطبري بعد أن ذكر عدة أقوال في المراد بالمنافع: «وأولى الأقوال بالصواب

(١) أضواء البيان ٥/ ١١٠.
(٢) اللباب في علوم الكتاب ١١/ ٤١١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١١٤.
(٤) أضواء البيان ٥/ ١١١.
(٥) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٤/ ٣٤٠.

قول من قال: عنى بذلك: ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أن الله عمّ لهم منافع جميع ما يشهد له الموسم، ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيئًا من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت»[1].

ومن المنافع الدنيوية أيضًا ما يصيبونه من لحوم البدن في ذلك اليوم، كقوله في البدن: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٣٣]. على أحد التفسيرين.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ في الموضعين، وكل ذلك نفع دنيوي.

قال ابن عاشور: «وخص من المنافع أن يذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وذلك هو النحر والذبح للهدايا، وهو مجمل في الواجبة والمتطوع بها، وقد بيّنته شريعة إبراهيم من قبل بما لم يبلغ إلينا، وبيّنه الإسلام بما فيه شفاء»[2].

وقوله في الآية الثانية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ قال ابن عطية: «الجناح أعم من الإثم؛ لأنه فيما يقتضي العقاب، وفيما يقتضي العقاب والزجر. وقال ابن عرفة: والنفي بـ(ليس) لما يتوهم وقوعه، والإثم كان متوهمًا وقوعه في سفر الحج للتجارة، بخلاف النفي بـ(لا) حسبما ذكره المنطقيون في السالبة والمعدومة، مثل: الحائط لا يبصر، وزيد ليس يبصر، أو غير بصير»[3].

وقيل في سبب نزول هذه الآية: أنهم كانوا يتوهمون أن سفر الحاج إذا خالطته نية التجارة ينقص من ثوابه، أو يوقع في الإثم، فنزلت الآية[4].

وقد كان أهل الجاهلية إذا خرجوا من سوق ذي المجاز إلى مكة حرم عندهم البيع والشراء، قال النابغة:

كادت تساقطني رحلي وميثرتي
بذي المجاز ولم تحسس به نغما
من صوت حرمية قالت وقد ظعنوا
هل في مخفيكم من يشتري أدما
قلت لها وهي تسعى تحت لبتها
لا تحطمنك إن البيع قد زرما

أي: انقطع البيع، وحرم.

وعن ابن عباس: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فتأثموا أن

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦١٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٦.
(٣) أحكام القرآن، إلكيا الهراسي ١/ ٨٨.
(٤) تفسير ابن عرفة ١/ ٢٥٣.

يتجروا في المواسم، فنزلت: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم في موسم الحج) أي: قرأها ابن عباس بزيادة: (في مواسم الحج)»[1].

ونفي الجناح في التجارة في الحج يدل على أن شبهة قامت عندهم في تحريم التجارة من وجوه:

أحدها: أنه تبارك وتعالى منع الجدال في الحج، والتجارة كثيرة الإفضاء إلى المنازعة في قلة القيمة وكثرتها؛ فوجب أن تكون التجارة محرمة.

ثانيها: أن التجارة كانت محرمة في وقت الحج في الجاهلية، وذلك شيء حسن؛ لأن المشتغل بالحج مشتغل بخدمة الله تعالى، فوجب ألا يشوب هذا العمل بالأطماع الدنيوية.

وثالثها: أن المسلمين علموا أن كثيرًا من المباحات صارت محرمة عليهم في الحج: كاللبس والاصطياد والطيب والمباشرة، فغلب على ظنهم أن الحج لما صار سببًا لحرمة اللبس مع الحاجة إليه، فأولى منه تحريم التجارة؛ لقلة الاحتياج إليها.

ورابعها: عند الاشتغال بالصلاة يحرم الاشتغال بالتجارة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة: ٩].

فلهذا السبب بيّن الله تعالى هاهنا أن التجارة جائزة غير محرمة[2].

قال في اللباب: «وكان العرب يسمون التاجر في الحج الداج، ويقولون: هؤلاء الداج، وليسوا بالحاج، ومعنى الداج: المكتسب الملتقط، وهو مشتق من الدجاجة، وبلغوا في الاحتراز عن الأعمال إلى أن امتنعوا من إغاثة الملهوف والضعيف وإطعام الجائع، فأزال الله هذا الوهم، وبيّن أنه لا جناح في التجارة، ولما كان ما قبل هذه الآية في أحكام الحج، وما بعدها في الحج، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ [البقرة: ١٩٨].

دل ذلك على أن هذا الحكم واقع في زمان الحج؛ فلهذا السبب استغني عن ذكره»[3].

وحمل أكثر المفسرين هذه الآية على التجارة في أيام الحج[4].

قال في اللباب: «واتفقوا على أن التجارة إن أوقعت نقصًا في الطاعة لم تكن مباحة، وإن لم توقع نقصًا في الطاعة كانت مباحة، وتركها أولى؛ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٣٧.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٤٣٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٤٣٧.

والإخلاص هو ألا يكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة، والحاصل أن الإذن في هذه التجارة جارٍ مجرى الرّخص»[1].

وقوله: ﴿أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا﴾ الفضل هنا هو المال، وابتغاء الفضل التجارة لأجل الربح، والابتغاء من فضل الله: كناية عن العمل والطلب لتحصيل الرزق، والرزق: فضل من الله.

فالآية الكريمة صريحة في إباحة طلب الرزق لمن هو في حاجة إلى ذلك في موسم الحج، بشرط ألا يشغله عن أداء فرائض الله. قال ابن عاشور: «فهي جملة معترضة بين المتعاطفين بمناسبة النهي عن أعمال في الحج تنافي المقصد منه، فنقل الكلام إلى إباحة ما كانوا يتحرجون منه في الحج، وهو التجارة ببيان أنها لا تنافي المقصد الشرعي، إبطالًا لما كان عليه المشركون؛ إذ كانوا يرون التجارة للمحرم بالحج حرامًا»[2].

وقال الشنقيطي: «لم يبين هنا ما هذا الفضل الذي لا جناح في ابتغائه أثناء الحج، وأشار في آيات أخر إلى أنه ربح التجارة، كقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

الضرب في الأرض عبارة عن السفر للتجارة، فمعنى الآية: يسافرون يطلبون ربح التجارة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، أي: بالبيع والتجارة، بدليل قوله قبله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

أي: فإذا انقضت صلاة الجمعة فاطلبوا الربح الذي كان محرمًا عليكم عند النداء لها، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب أن غلبة إرادة المعنى المعين في القرآن تدل على أنه المراد؛ لأن الحمل على الغالب أولى، ولا خلاف بين العلماء في أن المراد بالفضل المذكور في الآية ربح التجارة»[3].

وقال في البحر: «وقد انعقد الإجماع على جواز التجارة والاكتساب بالكل، والاتجار إذا أتى بالحج على وجهه»[4].

قال ابن عجيبة: «وهاهنا قاعدةٌ ذكرها الغزالي في الإحياء، وحاصلها: أن العمل إذا تمحّض لغير الله فهو سبب المقت والعقاب، وإذا تمحض لله خالصًا فهو سبب القرب والثواب، وإذا امتزج بشوب من الرياء، أو حظوظ النفس فينظر إلى الغالب، وقوة الباعث، فإن كان باعث الحظ أغلب سقط، وكان إلى العقوبة أقرب، لكن عقوبته أخف ممن تجرد لغير الله، وإن كان باعث التقرب أغلب حط منه بقدر ما فيه من

(١) اللباب في علوم الكتاب ٢/ ٤٣٨.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٢٣٧.
(٣) أضواء البيان ١/ ٨٩.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٦٣.

باعث الحظ، وإن تساويا تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه.

ثم قال: ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجًّا، ومعه تجارة صحّ حجه، وأثيب عليه، ثم قال: والصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرّك الأصلي، وكان غرض التجارة كالتابع، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب، ثم طرّد هذا الاعتبار في الجهاد باعتبار الغنيمة، يعني: ينظر لغالب الباعث وخلوص القصد، وكذلك الصوم للحمية والثواب، ينظر لغالب الباعث.

قلت: وتطّرد هذه القاعدة في المعاملات كلها، وجميع الحركات والسكنات والحرف وسائر الأسباب، فالخالص من الحظوظ مقبول، والمتمحض للحظوظ مردود، والمشوب ينظر للغالب كما تقدم»[1].

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دليل على أن المراد التجارة بالمال الحلال، أما الحرام فلا[2].

ومن فوائد هذا القيد: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أنه ينبغي للإنسان في حال بيعه وشرائه أن يكون مترقبًا لفضل الله، لا معتمدًا على قوته وكسبه، ومنها: ظهور منّة الله على عباده، بما أباح لهم من المكاسب، وأن ذلك من مقتضى ربوبيته سبحانه وتعالى.

المنافع السياسة في الحج:

الحج بالنسبة للأمة الإسلامية مؤتمر سنوي، وظاهرة عالمية، ليس لها نظير، تنصهر في رحابه مختلف الأعراق واللغات والبلدان والطبقات، في وحدة إيمانية، ولحمة أخوية، ومناسك مشتركة، تدهش الناظرين، وتدل على حكمة أحكم الحاكمين.

وقد أشار صاحب (الظلال) إلى بعض منافع الحج السياسية، حيث قال: «والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن، منذ أبيهم إبراهيم الخليل: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

ويجدون محورهم الذي يشدّهم جميعًا إليه: هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعًا، ويلتقون عليها جميعًا...، ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها، راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان، ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حينًا، قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين، الملايين التي لا يقف لها أحد، لو فاءت إلى رايتها الواحدة، التي لا تتعدد، راية العقيدة والتوحيد.

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور، وتنسيق الخطط، وتوحيد القوى، وتبادل المنافع،

(١) البحر المديد ١/ ٢٢٩.
(٢) تفسير ابن عرفة ١/ ٢٥٣.

والسلع، والمعارف، والتجارب، وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة كل عام، في ظل الله، بالقرب من بيت الله، وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة، والذكريات الغائبة والحاضرة، في أنسب مكان، وأنسب جو، وأنسب زمان، فذلك إذ يقول الله سبحانه: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧].

كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته»[(١)].

ففي موسم الحج تلتقي مكة بالوفود المقبلة من كل فج عميق، تلتقي بأفراد الإنسانية الموحدة المهتدية المحبة لله وللمسجد الأول أبي المساجد في القارات كلها، تتصافح الوجوه، وتتعارف النفوس على تلبية النداء الصادر بحج البيت، النداء الذي صدر من قديم، وزاده الإسلام قوة ووحدة.

ويمكن الوقوف في السيرة النبوية على موقفين يستشّف منهما استفادة الرسول صلى الله عليه وسلم من موسم الحج في جوانب سياسية وإعلامية:

الأول: قبل الهجرة، وهو عرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه على العرب في مواسمهم، ليس للدعوة إلى الله ونشر الإسلام فحسب، بل طلبًا للحماية والنصرة، وهو معنى سياسي خالص، وقد تكلل هذا الجهاد السياسي بالنجاح، وقطف الرسول صلى الله عليه وسلم ثمرته بعقد بيعتي العقبة الأولى والثانية، والبيعة -كما هو معروف- عمل سياسي محض، وخاصة البيعة الثانية التي تضمنت اشتراط النصرة والحماية، روى الحاكم في المستدرك عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم، ومجنة وعكاظ ومنازلهم من منى، يسألهم: (من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلّغ رسالة ربي، فله الجنة؟)[(٢)].

أما الموقف الآخر: فهو بعد الهجرة، وقيام الدولة الإسلامية، إذ أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم في موسم الحج، مبادئ الإسلام وتعاليمه، من خلال خطبة يوم عرفة، وخطبة يوم الحج الأكبر، إضافة إلى قرارات سياسية مهمة تمس علاقات الدولة الإسلامية بغيرها، ولا تزال هذه الخطبة منبرًا دينيًّا ذا طابع سياسي حتى أيامنا هذه.

ففي صحيح البخاري أن أبا هريرة قال: (بعثني أبو بكر في تلك الحجة -أي التي كان أمير الحج فيها أبو بكر، وذلك في السنة

(١) في ظلال القرآن ٥/ ١٩٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٢/ ٣٤٦، رقم ١٤٤٥٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ١٣٣، رقم ٦٣.

التاسعة للهجرة- في مؤذنين -يوم النحر- نؤذّن بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا، فأمره أن يؤذّن بـ(براءة) فأذّن معنا علي في أهل منى يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان)[1].

وزاد الترمذي: (ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته، ومن لا مدة له فأربعة أشهر)[2].

وفي حجة الوداع في يوم الحج الأكبر، وقد اجتمع حوله مئة ألف من الناس، قام فيهم خطيبًا، وألقى خطبة جامعة، تضمنت أول إعلان عام لحقوق الإنسان عرفته البشرية، أعلن فيه المساواة والعدل، وحرمة الدماء والأموال، وحقوق النساء، ووضع دماء الجاهلية، وأموالها الربوية.

ففي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه في حديث طويل، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه)[3].

فهذان مثالان أو موقفان يظهران منافع الحج السياسية، والسياسة في الإسلام لا تنفصل عن الدين بل هي جزء أصيل منه؛ وذلك لأن الإسلام دين ودولة في آن واحد.

ومن فوائد الحج التي تتجلى فيها المنافع السياسية: كونه مؤتمر اجتماع وتعارف، وتنسيق وتعاون بين المسلمين، ولاسيما مع جعل ذلك واقعًا عمليًّا منظّمًا في عدد من صوره، في مثل المؤتمرات الإسلامية المصاحبة للحج التي تجمع قيادات المسلمين في العالم الإسلامي، وفي مواطن الأقليات الإسلامية، ويتدارسون فيها جملة من قضايا العالم الإسلامي، تحت رعاية الجهات الرسمية والمؤسسات الشرعية العامة.

وتتجلى السياسة أيضًا في مخاطبة الكافة ممن يحضرون الحج، وممن لا يحضرونه بما ينقل لهم عن طريق الأشخاص، ليعلموه ويبلّغوا من وراءهم (فرب مبلّغ أوعى من سامع)[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان، ٢/ ١٥٣، رقم ١٦٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحج، باب ما جاء في كراهية الطواف عريانًا، ٣/ ٢١٣، رقم ٨٧١.
وصححه الألباني في الإرواء، رقم ١١٠١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: ربّ مبلّغ أوعى من سامع، رقم ٦٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ،

أو بما يستجدّ من وسائل كما في عصرنا الحاضر، من النقل المباشر وغير المباشر للحج، وما يعلن فيه من بيان للقضايا التي تهم الأمة كلها، وهو ما يتضح في خطبة عرفة، تلك الخطبة التي كانت السياسة من أهم موضوعاتها في خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلك الخطبة التي شملت الحديث عن جملٍ من السياسة الداخلية والخارجية، وبيانٍ للحقوق والواجبات للفرد في الإسلام.

وتتجلى ناحية سياسية أخرى وذلك في: تحديد حرمة المكان، وبيان عمقه الاستراتيجي الذي يشرع لمن يدين بالدين أن تطأ قدمه المدينة المحرمة المقدسة، فيأتي الحاج المسلم مبتهجًا مسرورًا، يأوي إلى البيت الحرام، بشعور الانتماء العظيم للأمة، كما لو كان البيت بيته، بينما تتمنع قداستها وحرمتها عن قبول من لا يدين بدين أهلها، ولا ينتمي لولائها الديني زمانًا ومكانًا وأمةً أن يطأها بقدمه، ولمّا يؤمن بقدسيتها وحرمتها واجبًا من واجبات إسلامه، لا وسيلة لتحقيق أغراضه، ومن هنا تتجلى خطورة أهمية بقاء هذه الولاية في أيادي سنيّة أمينة، كما تتجلى خطورة أي دعوة تسعى إلى تدويل الحرمين مهما كانت حججها.

ومن فوائد الحج السياسية اليوم: إثبات صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، فكم من زائر للبيت الحرام قد شوّهت عنده صورة بلاد الإسلام، ومنطلق العقيدة والشريعة قبل وصوله، فلما دخل بلاد الحرمين، وزار البيت الحرام رأى عدم تعارض الشريعة مع الأخذ بالوسائل العصرية، والتفوق في الأمور الدنيوية، وتوظيف الدنيا للدين، وقد رأينا وسمعنا شهادات كثيرة وتعبيرات عن المشاعر تغيّرت فيها النظرة التي أوجدها التشويه الإعلامي للإسلام وأهله، حتى ظن بعض الناس من أبناء المسلمين البعيدين أن الدين لا يتوافق مع العلم.

فيجب على المسلمين أن يستغلوا هذا المؤتمر العالمي غير المسبوق ولا الملحوق في معالجة ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم، فلا يجوز أن تترك هذه الحشود الهائلة يوم الحج الأكبر دون توجيه جامع، تلقى به خصومها، صحيح أنهم في محاريب ذكر، وساحات تسبيح وتحميد، وأوقات تبتّل إلى الله ونشدان لرضاه، لكن من قال: إن كسر العدو ليس عبادة؟ والسهر على هزيمتهم ليس تهجدًا؟ إن صيحة (الله أكبر) تفتتح بها الصلاة لينأى بها المؤمنون عن مشاغل الدنيا، ويفتتح بها الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، ولتجف دموع البائسين وآلام المستضعفين، ومن هنا نفهم قول الله

باب الخطبة أيام منى، ٢/ ١٧٦، رقم ١٧٤١.

سبحانه للمحتشدين في عرفات، ولمن وراءهم من جماهير المؤمنين في كل مكان: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٤-١٥][1].

وبهذه الإطلالة يتبين أن منافع الحج السياسية باب واسع من أبواب حكمه، يمكن العمل لتحقيق أكبر قدر منها بتوظيف هذه الشعيرة توظيفًا شرعيًّا، يتفق مع أهداف الحج، ويحقق منافعه، من خلال ضبط إداري وسياسي وتراتيب دعوية راقية، تعمل من أجل وحدة الأمة على منهاج النبوة، فيعود منها المسلم وقد ارتوى من معين العبادة، وتشبّع بروح الوحدة، وآب مستشعرًا وظيفته الدعوية في كل فج أتى منه.

المنافع العلمية الدعوية في الحج:

الحج مؤتمر يمكن استغلاله لتبادل المعارف، والتجارب، والعلوم المختلفة، عن طريق إقامة الندوات، والمحاضرات، والمشاورات والمؤتمرات الإسلامية المصاحبة للحج، التي تجمع علماء المسلمين في العالم الإسلامي، وفي مواطن الأقليات الإسلامية.

ويمكن مخاطبة الكافة، ممن يحضرون الحج، وممن لا يحضرونه، بما ينقل لهم عن طريق الأشخاص، ليعلموه، ويبلّغوا من وراءهم، أو بما يستجد من وسائل، كما في عصرنا الحاضر، من النقل المباشر، وغير المباشر للحج، وما يعلن فيه من بيان للقضايا التي تهم الأمة كلها، وما يبثّ في الحج من خطب ودروس وندوات.

المنافع التربوية في الحج:

ومن منافع الحج أنه يعوّدنا على بعض السلوكيات التربوية، والأخلاق والعادات الحسنة، ومنها:

- التعود على النظام والانضباط: فللحجّ مواقيت مكانيّة وزمانية يجب التقيّد بها، وعدم الإخلال بها، أو التّساهل فيها، وله أركانٌ وواجبات يجب الإتيان بها كما هي، من غير زيادة أو نقصان، وله محظورات يحرم اقترافها.
- إنجاز الأعمال أولًا بأول، وعدم تأخيرها: يتّضح ذلك من خلال قيام الحجّاج بإنجاز الأعمال أولًا بأول، وعدم تأخيرها؛ عملًا بقاعدة: «لا تؤخّر عمل اليوم إلى الغد» ففي كلّ يومٍ من أيام الحجّ يعملون أعمالًا تختلف عن اليوم الذي قبله، ولا يؤخّرون عمل يومٍ ليوم آخر، بل هم في حركةٍ مستمرّة، وعملٍ دءوب، فينجزون أعمالًا كثيرة في أيام قليلة.

(١) انظر: علل وأدوية، الغزالي ص١٥٨.

- فقه التعامل مع الخلاف والمخالف: فعندما نتأمّل في مناسك الحجّ نجد أنّ لها أشكالًا مختلفة، فمن الحجّاج من يحجّ مفردًا، ومنهم من يحجّ قارنًا، ومنهم من يحج متمتّعًا، وذلك أفضل، ونجد أنّ الحجاج يختلفون في أعمال يوم النّحر، فمنهم من يحلق، وذاك أفضل، ومنهم من يقصّر، ومنهم من يقدّم الهدي على الرّمي، ومنهم يفعل العكس، ولا حرج عليهم في ذلك، ويختلفون في مغادرة مكّة والخروج منها، فمنهم المتعجّل، ومنهم المتأخر: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. ومع اختلافهم في ذلك نجد أنهم إخوة متحابّون في الله، ولم يحصل بينهم شجارٌ ولا خصام، ولا تدابر، ولا تقاطع، كما أنه لم يحصل قبل ذلك بين الصحابة رضوان الله عليهم.
- والحج أيضًا ثقة في الله وتوكل عليه: فالتوكل شعور نفيس غريب، وهو أغلى من أن يخامر أي قلب، إنه ما يستطيعه إلا امرؤ وثيق العلاقة بالله، حساس بالاستناد إليه والاستمداد منه، وعندما ينقطع عون البشر، وتتلاشى الأسباب المرجوة، وتغزو الوحشة أقطار النفس، فلا يردها إلا هذا الأمل الباقي في جنب الله، عندئذ ينهض التوكل يرد الوساوس، وتسكن الهواجس[(١)].

وإن أبرز شيء في الحج نأخذ منه هذا الدرس هي قصة هاجر زوج إبراهيم وأم إسماعيل حيث قالت لزوجها: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فقالت: إذن لا يضيعنا[(٢)].

والحج يجمع بين العقل والعاطفة: وهذه ليس صفة خاصة بالحج فقط، إنما يستمدها الحج من المنهج الشامل للإسلام ذاته، الذي يجمع بين الجسم والروح في نظام الإنسان، وبين السماء والأرض في نظام الكون، وبين الدنيا والآخرة في نظام الدين، ويسلك بها جميعًا طريقًا واحدًا، ويصبغها صبغة واحدة: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

فكما أن الإسلام منهج عقلاني عاطفي، فهو نظام مثالي واقعي ونظري تطبيقي سواء بسواء.

إن مناسك الحج تنمية لعواطف المسلمين نحو ربهم ودينهم، وماضيهم وحاضرهم، ويكفي أنها تجمعهم من أطراف الأرض شعثًا غبرًا، لا تفريق بين ملك وسوقة، ولا بين جنس وجنس، ليقفوا في ساحة عرفة في تظاهرة هائلةٍ، الهتاف فيها لله وحده، والرجاء في ذاته، والتكبير

(١) فن الذكر والدعاء، الغزالي ص١٠٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، ٤/ ١٤٢، رقم ٣٣٦٤.

لاسمه، والضراعة بين يديه، فقر العبودية ظاهر، وغنى الربوبية باهر، ومن قبل الشروق إلى ما بعد الغروب، لا ذكر إلا لله، ولا طلب إلا منه سبحانه[1].

والمقصود من هذه الرحلة أمور عقلية وعاطفية معًا، فإن الإنسان لا يعيش بالفكر النظري وحده، ولكن مشاعره وعواطفه شديدة السيطرة عليه، والإسلام يجتهد في تحويل الإيمان من صورة عقلية تسكن الرأس إلى معانٍ عاطفية، تغمر القلب، وتتشبث بالفؤاد، وينفعل الإنسان بها، ويحيا طول عمره وفقها.

وإذا كان القرآن قد بيّن العلة من فريضة الحج، فقال: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٧].

وقد جاءت كلمة (منافع) منكرة لتفيد العموم والشمول، سواء كانت منافع مادية أو معنوية، فإن الجانب الروحي في الحج ظاهر كل الظهور في شعائر كثيرة من شعائره؛ ولهذا فإن إثراء الجانب الروحي هدف ظاهر من أعمال الحج وأقواله حتى تعود وفود الرحمن جياشة العواطف بحب الله وخشيته، متواصية على تنفيذ وصاياه وإعظام حقوقه.

فالحج ليس رحلة ميتة، إن ناسًا يذهبون إلى الحج الآن ثم يعودون مكتفين بأن حملوا لقبًا، هل درست قضاياهم؟ لا، هل عادوا من موسم الحج بتحالف على محاربة الفساد الداخلي والغزو الخارجي؟ لا، إن الحج ليس عبادة فردية، لا في ديننا ولا في تاريخنا، فيجب أن نعلم ديننا، وكفانا جهلًا حتى لا نستيقظ على الويل والثبور، وعظائم الأمور[2].

ثانيًا: الثمرات الأخروية للحج:

١. ذكر الله وشكره.

ذكر الله تعالى مقصد مؤكد في كل مناسك الحج؛ وذلك أن أي منسك في المناسك لا يخلو من ذكر، ولم لا والحج كله تلبية لأمر الله، وترك لكل شيء فرارًا إلى الله تعالى ؟!

حتى جعل الله الذكر من علل الحج، فقال: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

وإذا تأملنا بعض آيات القرآن التي تتحدث عن الحج أدركنا هذه الحقيقة، وعلمنا أن ذكر الله هو أساس شعائر الحج.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ

(١) انظر: مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي ص٨٥.

(٢) انظر: الخطب، الغزالي ٣/ ١٢٨.

عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ١٩٨-٢٠٢].

ومن الملاحظ أن التعبير عن مناسك الحج في الآيات السابقة أخذ كلمة (الذكر) دائمًا، حتى رمي الجمرات أسماه القرآن ذكرًا: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۙ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وهي أيام التشريق، ورمي جمرة العقبة في العيد، فكأن المقصود من الموضوع هو الذكر الجهير لله تعالى، وما رمي الجمرات إلا رمز.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [الحج: ٣٤-٣٦].

والحق أن الحج كله هو هذا الهدير الموصول بذكر الله من أمواج بشرية متصلة، لا شغل لها إلا الجؤار بالتلبية والهتاف بالتسبيح.

وهناك العديد من أعمال الآخرة في الحج غير الذكر، ومنها: التفقه في الدين، والاهتمام بشؤون المسلمين عمومًا، والتعاون على البر والتقوى، والدعوة إلى الله سبحانه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والاستكثار من الصلاة، والطواف، والصلاة والسلام على نبيه صلى الله عليه وسلم.

٢. الفوز بما وعد الله به الحجاج من تكفير السيئات والفوز بالجنة.

من المنافع الأخروية للحج الحصول على الأجر والثواب والرضوان من الله عز وجل، وتكفير الذنوب والمعاصي، فيرجع الحاج من حجه كيوم ولدته أمه.

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق،

رجع كيوم ولدته أمه)[1].

قال في المنتقى: «يريد -والله أعلم- أنه لا ذنب له؛ لأن ما أتى به من العمل قد كفّر سائر ذنوبه، فصار كيوم ولدته أمه، لا ذنب له»[2]. وقال السندي: «وعلى هذا فهذا الحديث من أدلة أن الحج يغفر به الكبائر أيضًا ، بل هذا الحديث يفيد مغفرة ما تقدم من الذنوب وما تأخر»[3]. وقال القرطبي: «وهذا يتضمن غفران الصغائر والكبائر والتبعات»[4]. وهذا الأجر العظيم للحج بسبب أنه من أفضل الأعمال عند الله، فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أفضل؟ قال: (إيمان بالله ورسوله). قيل: ثم ماذا؟ قال: (جهاد في سبيل الله). قيل: ثم ماذا؟ قال: (حج مبرور)[5] والمبرور: المقبول، وهو الذي لا خلل فيه.

والمبرور أيضًا الذي لا يخالطه شيء من المأثم، وهو من البر، وهو اسم جامع للخير[6].

قال الحسن البصري: «هو أن يرجع زاهدًا في الدنيا، راغبًا في العقبى»[7].

ويرى بعض العلماء: أن بر الحج إنما هو: إيفاء أركانه وواجباته، أي: الإتيان به على الوجه الأكمل. ويرى البعض أن الحج المبرور ما قام فيه الحاج بإطعام الطعام، وإفشاء السلام، ولين الكلام مع رفقائه، وهو راجع إلى الوجه الأول أيضًا ؛ لأن من تمام الحج الرفق بالمسلمين، وكما جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله: (وتعين الرجل على دابته تحمله عليها، أو ترفع له متاعه عليها صدقة)[8].

وهكذا في الحج، ولما كان هذا الجمع من كل قطر على اختلاف العادات والبيئات، فتختلف طبائع المجتمعات عن بعضها، جاءت آداب الحج في كتاب الله لتقضي على كل تلك الفوارق، وتمنع كل أسباب النزاع؛ ليظل الحجيج متآلفين متآخين، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ، باب قول الله: (ولا فسوق ولا جدال في الحج)، ٣/ ١١، رقم ١٨٢٠.
(٢) المنتقى شرح الموطأ، الباجي ٣/ ١٥.
(٣) حاشية السندي على النسائي ٥/ ١١٢.
(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٥/ ١٨٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ٢/ ١٣٣، رقم ١٥١٩.
(٦) عمدة القاري، العيني ١٤/ ٢٠٠.
(٧) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ١١/ ٤٨٠.
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، ٢/ ٦٩٩، رقم ١٠٠٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

لأن هذه الثلاثة تؤدي إلى الفرقة، وإلى النزاع والشقاق، وهم إنما جاءوا ليشهدوا منافع لهم، ولا يتم شهود المنافع مع وجود النزاع والخصومات، ومع وجود الرفث.

وبعضهم قال: هناك ميزان للحج المبرور، وهو أن ننظر إلى الحاج حينما خرج من بلده وجاء إلى الأراضي المقدسة، وأدى المناسك... الخ، ثم عاد إلى بلده كيف صارت حالته؟! نزن الحالة الأولى مع الحالة الثانية، هل هو أحسن حالًا في سلوكه، ومنهجه، وأمانته، ومعاملاته، ومحافظته على العبادات، وفي وفائه للحقوق أهو خير مما ذهب، أو هو كما ذهب رجع؟ فإذا كان خيرًا مما ذهب فيكون قد استفاد من رحلة الحج؛ لأن رحلة الحج فيها تهذيب للنفس.

يقول الشيخ ابن عثيمين: «فالحج المبرور هو الذي اجتمعت فيه أمور:

الأمر الأول: أن يكون خالصًا لله، بأن لا يحمل الإنسان على الحج إلا ابتغاء رضوان الله، والتقرب إليه سبحانه وتعالى ، لا يريد رياءً ولا سمعة، ولا أن يقول الناس: فلان حج، وإنما يريد وجه الله.

الثاني: أن يكون الحج على صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم ، يعني: أن يتبع الإنسان فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ما استطاع.

الثالث: أن يكون من مال مباح ليس حرامًا، بأن لا يكون ربا، ولا من غش، ولا من ميسر، ولا غير ذلك من أنواع المفاسد المحرمة، بل يكون من مال حلال.

الرابع: أن يجتنب فيه الرفث والفسوق والجدال؛ لقول الله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]»[(١)].

وقوله: (ليس له جزاء إلا الجنة) أعظم بهذا الجزاء! يخرج المسلم في رحلة أيامًا وأسابيع أو أشهرًا فيعود بهذا الجزاء، وهو الجنة، ومعنى ذلك: أنه يستحق عند الله -عطاءً منه- أن يدخله الجنة، إذن: عليه أن يحافظ على تلك النعمة وعلى هذا العطاء، وأن لا يحرم نفسه منه، أي: بما يضاد موجباتها. قال في فيض القدير: «وقوله: (ليس له جزاء إلا الجنة) أي: إلا الحكم له بدخول الجنة، فلا يقتصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه، بل لابد أن يدخلها، أي: مع السابقين، أو بغير عذاب، وإلا فكل مؤمن يدخلها وإن لم يحج»[(٢)].

ويالها من جائزة! غفران الذنوب جميعها، فيرجع المسلم بعد أداء حجه على الوجه الذي يحبه الله ورسوله وما عليه خطيئة، ويرجع إلى داره بعدما هاجر وجاهد وتبرأ من المشركين، وعطف على الفقير

(١) شرح رياض الصالحين ٣/ ١٤٧٣.
(٢) فيض القدير، المناوي ٣/ ٥٣٨.

والمسكين، وحاله من البعد عن الذنوب والآثام كحاله يوم ولدته أمه، صفحة بيضاء نقية، لم تكدّرها أو تشبها شائبة.

٣. تزكية النفوس وتطهيرها بالإحسان إلى الفقراء.

حضّت الشريعة المسلم على تزكية نفسه، وتطهيرها، وتحريرها من شحّ النفس وبخلها، فأمرت بإعطاء الفقراء والمساكين حقهم من الزكوات، وحثّت على الإنفاق عليهم والإحسان إليهم، ووعدت على ذلك الأجر الجزيل، وفي الحج يحتاج الناس إلى الزاد الذي به قيام النفوس، وفي هذا الموقف يأمر الله الحجاج أن يخرجوا من أموالهم وأزوادهم ما يطعمون به الفقير من النّسك الذي ذبحوه تقربًا إلى الله تعالى، فقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

فيفعل الحاج من ذلك ما يفعل طعمةً للفقراء والمساكين، وتقوى لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم أمر النفقة في الحج، فقال صلى الله عليه وسلم: (النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف)[1].

وهذا الدرس لم يفهمه من يبخل على قريبه، أو جاره الفقير من المسلمين، فيمنع عنهم ما ينفعهم أخذه، ولا يضره عطاؤه، ولم يفهمه أيضًا من يقدّم في نسكه العجفاء أو العرجاء أو ذات العيب، فإنما ذلك شيء يقرّبه الإنسان لربه، والإنسان عندما يقرّب لحبيب أو يهدي لصديق فإنه يختار من الأشياء الجيد النفيس. والله أعلم.

موضوعات ذات صلة:

الزكاة، الصلاة، الصيام، العبادة، مكة

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/١٠٦، ٢٣٠٠٠.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١/ ٨٦٤، رقم ٥٩٩٣.

الحدود

عناصر الموضوع

مفهوم الحد	٣٧٦
الحدود في الاستعمال القرآني	٣٧٨
الألفاظ ذات الصلة	٣٧٩
حق تشريع الحدود لله سبحانه وتعالى	٣٨٠
أحكام شرعية وصفت بحدود الله تعالى	٣٨٥
أسباب الاعتداء على حدود الله	٣٩٥
الفرق بين قربان الحدود وتعديها	٤٠٤
جزاء تعدي حدود الله تعالى وعقوبته	٤٠٧

مفهوم الحد

أولًا: المعنى اللغوي:

الحدّ لغة: الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر[١]، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر، وفصل ما بين كل شيئين: حد بينهما[٢].

ويرد أيضًا بمعنى طرف الشيء، قال ابن فارس: «الحاء والدال أصلان: الأول المنع، والثاني طرف الشيء.

فالحد: الحاجز بين الشيئين. وفلان محدود، إذا كان ممنوعًا. و إنه لمحارف محدود، كأنه قد منع الرزق. ويقال للبواب حداد، لمنعه الناس من الدخول...»[٣].

ومنه سمي حد الزنا والخمر ونحوها حدًّا: لأنّه يـمنع صاحبه من المعاودة[٤]، ويمنع غيره من أن يسلك مسلكه[٥].

وأما الأصل الثاني: فهو طرف الشيء: يقال: حد السيف والسكين: حرفه[٦]. ومنتهى كل شيء: حده؛ ومنه: أحد حدود الأرضين وحدود الحرم[٧].

فالحد إذن: طرف الشيء، والحاجز بين الشيئين.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

حدود الله: «الأشياء التي بين تحريمها وتحليلها، وأمر أن لا يتعدى شيء منها فيتجاوز إلى غير ما أمر فيها أو نهى عنه منها، ومنع من مخالفتها»[٨].

فهي بهذا المعنى دالة على جميع الأحكام الشرعية التي تضمنتها الشريعة الإسلامية من واجبات ومندوبات ومباحات ومكروهات ومحرمات، وسواء أوقع النص عليها صراحة في الكتاب والسنة أم استنبطت من دليل آخر يرجع إليهما كالإجماع أو القياس أو غيرهما.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٢١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤٣٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٤٠.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤.
(٤) الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٦٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٢١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤٣٧.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤.
(٧) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٤٠.
(٨) المصدر السابق.

وقد «شبهت بالحدود التي هي الفواصل المجعولة بين أملاك الناس، لأن الأحكام الشرعية، تفصل بين الحلال والحرام، والحق والباطل، وتفصل بين ما كان عليه الناس قبل الإسلام، وما هم عليه بعده»[(١)].

وتسمية العقوبات الشرعية المقدرة حدودًا اصطلاح الفقهاء، ولم ترد في القرآن الكريم بهذا اللفظ.

ورغم أن لفظ الحدود يفيد معنى ما ينتهى إليه ويمنع تجاوزه، فإنها قد صنفت إلى أنواع أربعة، منها ما يمنع تجاوزه ومنها ما لا يمنع.

قال الراغب: «وجميع حدود الله على أربعة أوجه:

- إمّا شيء لا يجوز أن يتعدّى بالزيادة عليه ولا القصور عنه، كأعداد ركعات صلاة الفرض.
- وإمّا شيء تجوز الزيادة عليه ولا يجوز النقصان عنه.
- وإمّا شيء يجوز النقصان عنه ولا تجوز الزيادة عليه.
- وإمّا شيء يجوز كلاهما»[(٢)].

فقد جعل الحدود أربعة أنواع، ومثل للنوع الأول بعدد ركعات الصلاة، ولكنه لم يمثل للباقي. وهو بهذا المعنى قد جعل «حدود الله» مرادفة بصورة كاملة للأحكام الشرعية. أما ابن منظور فقد اقتصر على ما استفيد من الدلالة القرآنية فجعلها نوعين: ما لا يقرب، وما لا يتعدى، قال: «فمنها ما لا يقرب كالفواحش المحرمة، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

ومنها ما لا يتعدى كالمواريث المعينة وتزوج الأربع، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]»[(٣)].

ومدار الخلاف في ذلك على إطلاق الحدود بمعنى الأحكام الشرعية، وهي دلالة اصطلاحية، وبين إطلاقها بدلالة خاصة استفيدت من القرآن الكريم.

والمعنى الاصطلاحي مشتق من المعنى اللغوي، الذي هو طرف الشيء والحاجز بين شيئين، فالشارع الحكيم أمر أن لا يُتعدَّى شيءٌ من هذه الحدود، ومنع من مخالفتها.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤١٣.
(٢) المفردات، ص٢٢٢.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٤٠.

الحدود في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حدد) في القرآن (٢٥) مرة، يخصّ موضوع البحث منها(١٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الجمع	١٤	﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]

وجاءت الحدود في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص٤٢٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٢١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحمى:

الحمى لغة:

المنع والدفع[١].

الحمى اصطلاحًا:

مكان مخصب يحظره الملك لرعي مواشيه ويتوعد من يرعى فيه بغير إذنه بالعقوبة الشديدة[٢].

وأصله: «المحمي، أطلق المصدر على اسم المفعول، وفي اختصاص التمثيل في الحديث بـ(الراعي يرعى حول الحمى) نكتة، وهي: أن ملوك العرب كانوا يحمون لمراعي مواشيهم أماكن مختصة يتوعدون من يرعى فيها بغير إذنهم بالعقوبة الشديدة، فمثل لهم النبي صلى الله عليه وسلم بما هو مشهور عندهم، فالخائف من العقوبة المراقب لرضا الملك يبعد عن ذلك الحمى خشية أن تقع مواشيه في شيء منه، فبعده أسلم له ولو اشتد حذره، وغير الخائف المراقب يقرب منه ويرعى من جوانبه، فلا يأمن أن تنفرد الفاذة فتقع فيه بغير اختياره، أو يمحل المكان الذي هو فيه ويقع الخصب في الحمى، فلا يملك نفسه أن يقع فيه، فالله سبحانه وتعالى هو الملك حقًّا وحماه: محارمه»[٣].

الصلة بين الحمى والحدود:

ولا ريب أن لهذه «الحمى» حدودًا فاصلة بينها وبين غيرها، فمن هنا أشبه لفظ «الحمى» في الحديث لفظ الحدود في الآيات المتقدمة، وكما تضمن قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧] الإشارة إلى ما نهى الله عنه، تضمن قوله صلى الله عليه وسلم: (كالراعي يرعى حول الحمى) الإشارة إلى المنهيات، وقد وقع تفسيرها بذلك تفسيرًا صريحًا في الحديث، في قوله عليه الصلاة والسلام: (ألا وإن حمى الله محارمه).

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٩٨.
(٢) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ١/ ١٤٤.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٢٨.

حق تشريع الحدود لله سبحانه وتعالى

تقدم أن حدود الله نوعان:

١. حدود حدها للناس في مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم وغيرها...

٢. وعقوبات جعلت لمن ركب ما نهى عنه كحد السارق والزاني والقاذف[(١)].

والحدود بالمعنى الثاني عقوبات مقدرة على جرائم محددة لم يجعل الله سبحانه وتعالى لأحد فيها اجتهادًا أو تقديرًا، لا حاكم ولا قاض ولا عالم ولا مفتٍ، وهي قسيمة للتعازير التي يوكل تقديرها إلى القاضي[(٢)].

فلئن كان من غير الممكن التصرف فيها بالتقدير، فالتصرف فيها بالإيجاب والإنشاء غير ممكن من باب أولى، فهو حق خالص لله وحده لا ينازعه فيه إلا معتد مدع ما ليس له، متجرئ على الله محاد له، مبارز له بالمعاصي.

وحدود الله بالمعنى الثاني جامعة لكل ما شرع، وادعاء أحد من الناس ملكه لحق تشريعها منازعة لله عز وجل في شرعه وأمره، وقد عد القرآن الكريم ذلك بابًا من أبواب الشرك، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١].

وقد أفادت «أم» في الآية الإضراب والاستفهام فـ «هي بتقدير بل وألف الاستفهام»[(٣)].

«ومعنى الاستفهام الذي تقضيه «أم» التي للإضراب هو هنا للتقريع والتهكم، فالتقريع راجع إلى أنهم شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، والتهكم راجع إلى من شرعوا لهم الشرك، فسئلوا عمن شرع لهم دين الشرك: أهم شركاء آخرون اعتقدوهم شركاء لله في الإلهية وفي شرع الأديان كما شرع الله للناس الأديان؟ وهذا تهكم بهم؛ لأن هذا النوع من الشركاء لم يدعه أهل الشرك من العرب. وهذا المعنى هو الذي يساعد تنكير شركاء ووصفه بجملة ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾. ويجوز أن يكون المسؤول عن الذي شرع لهم هو الأصنام التي يعبدونها، وهو الذي درج عليه المفسرون، فيكون لهم في موضع الحال من شركاء»[(٤)].

ومبنى ذلك على تحديد معنى الشركاء في الآية: أهم شركاء للمشركين في ما هم عليه من الضلال والغواية؟ أم هم شركاء لله -على حد زعم المشركين لا على الحقيقة-؟ قال ابن عطية: «والشركاء في

(١) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٤٠.
(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٧/ ٥٢٧٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٧٦.

هذه الآية: يحتمل أن يكون المراد بهم الشياطين والمغوين من أسلافهم، ويكون الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ للكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم، أي شرع الشركاء لهم ما لم يأذن به الله، فالاشتراك هاهنا هو في الكفر والغواية، وليس بشركة الإشراك بالله، ويحتمل أن يكون المراد بـ «الشركاء»: الأصنام والأوثان على معنى: أم لهم أصنام جعلوها شركاء لله في ألوهيته، ويكون الضمير: في: ﴿شَرَعُوا﴾ لهؤلاء المعاصرين من الكفار ولآبائهم. والضمير في: ﴿لَهُمْ﴾ للأصنام الشركاء، أي شرع هؤلاء الكفار لأصنامهم وأوثانهم ما لم يأذن به الله»[1].

فيكون المعنى على القول الثاني: أن هؤلاء المشركين اتخذوا أوثانًا وشرعوا لها من العبادة والدعاء وتقريب القرابين ونحوها شيئًا لم يأذن به الله ولم ينزل به سلطانًا، وإنما ابتدعوه من عند أنفسهم.

وأما على القول الأول: فإن طائفة ممن يشارك هؤلاء المشركين في صفة الضلال والغواية من أسلافهم أو غيرهم قد ابتدع لهم شرعًا لم يأذن به الله، فنهجوه واتبعوه، فكان ذلك منهم اتخاذًا لهم آلهة من دون الله، فكان الاستفهام بـمعنى «ألهم آلهةٌ ﴿شَرَعُوا﴾ أي ابتدعوا لهم دينًا لم يأذن به الله؟!»[2].

وفيه على كلا الرأيين «فضح فظاعة شركهم بعروه عن الانتساب إلى الله، أي إن لم يكن مشروعًا من الإله الحق فهو مشروع من الآلهة الباطلة وهي الشركاء. وظاهر أن تلك الآلهة لا تصلح لتشريع دين؛ لأنها لا تعقل ولا تتكلم، فتعين أن دين الشرك دين لا مستند له. وقريب من هذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]..»[3].

وأيًا يكن المعنى، فإن الآية قد أنكرت على المشركين إما تشريعهم ما لم يأذن به الله، أو اتباعهم لشرع شرعه غير الله ولم يأذن به سبحانه.

ومعنى ﴿شَرَعُوا﴾: «أثبتوا ونهجوا ورسموا. و ﴿الدِّينِ﴾ هنا العوائد والأحكام والسيرة، ويدخل في ذلك أيضًا المعتقدات، لأنهم في جميع ذلك وضعوا أوضاعًا، فأما في المعتقدات فقولهم إن الأصنام آلهة، وقولهم إنهم يعبدون الأصنام زلفى وغير ذلك، وأما في الأحكام فكالبحيرة والوصيلة والحامي، وغير ذلك من السوائب ونحوها، والإذن في هذه الآية الأمر. و ﴿كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾: هي ما سبق من قضاء الله تعالى

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٣.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٦٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٧٦.

بأنه يؤخر عقابهم إلى الآخرة، والقضاء بينهم: هو عذابهم في الدنيا ومجازاتهم»[1].

وعليه فقد تضمنت الآية تشنيعا على من شرع من عنده شيئًا لم يأذن به الله، سواء أتعلق بالعقائد أم بالأحكام، وفي القرآن الكريم من ذلك مما شنع به على المشركين أمثلة كثيرة بلغ المشركون فيها من السفه مبلغًا يذر الحليم حيرانًا، حتى قتلوا أولادهم وحرموا على أنفسهم طيبات أحلت لهم:

فمن ذلك ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠].

فشنعت عليهم ما ابتدعوا من باطل أفضى بهم إلى قتل أولادهم كما دل على ذلك قوله سبحانه في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وإلى أن حرموا على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم، أي: «قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم»[2].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام»[3] مشيرًا إلى نحو قوله عزو وجل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]

قال ابن عباس: «وذلك أن أعداء الله كانوا إذا احترثوا حرثًا، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منها جزءًا وللوثن جزءًا، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه. فإن سقط منه شيء فيما سمّي لله ردّوه إلى ما جعلوا للوثن. وإن سبقهم الماء إلى الذي جعلوه للوثن، فسقى شيئًا جعلوه لله، جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوا لله، فاختلط بالذي جعلوا للوثن، قالوا: «هذا فقير»! ولم يردوه إلى ما جعلوا لله.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب جهل العرب، ٤/ ١٨٤، رقم ٣٥٢٤.

وإن سبقهم الماء الذي جعلوا لله فسقى ما سمّي للوثن، تركوه للوثن. وكانوا يحرّمون من أنعامهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرّمونه لله. فقال الله في ذلك: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الآية»[1].

وكما يفعلون ذلك في الحرث يفعلونه في الأنعام، قال قتادة: «عمد ناس من أهل الضلالة فجزّؤوا من حروثهم ومواشيهم جزءًا لله وجزءًا لشركائهم. وكانوا إذا خالط شيء مما جزّؤوا لله فيما جزءوا لشركائهم خلّوه. فإذا خالط شيء مما جزؤوا لشركائهم فيما جزؤوا لله ردّوه على شركائهم. وكانوا إذا أصابتهم السّنة استعانوا بما جزؤوا لله، وأقرّوا ما جزؤوا لشركائهم، قال الله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾»[2].

وروي عنه أيضًا أنهم «كانوا يجزئون من أموالهم شيئًا، فيقولون: «هذا لله، وهذا للأصنام»، التي يعبدون. فإذا ذهب بعيرٌ مما جعلوا لشركائهم، فخالط ما جعلوا لله ردّوه. وإن ذهب مما جعلوه لله فخالط شيئًا مما جعلوه لشركائهم تركوه. وإن أصابتهم سنة، أكلوا ما جعلوا لله، وتركوا ما جعلوا لشركائهم، فقال الله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾»[3].

ومن ذلك أيضًا ما نص عليه قوله جل وعلا: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨].

ومعنى «﴿حِجْرٌ﴾ حرام، فعل بمعنى المفعول كالذبح والطعن، ويستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث، والواحد والجمع؛ لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات»[4].

ونصت الآية على أنهم «حرموا أنعامًا وحرثًا وجعلوها لأصنامهم وقالوا: ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ وهم خدام الأصنام. ثم بين أن هذا تحكم لم يرد به شرع، ولهذا قال: «بزعمهم». ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يريد ما يسيبونه لآلهتهم على ما تقدم من النصيب، وقال مجاهد: المراد البحيرة والوصيلة والحام. ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ يعني ما ذبحوه لآلهتهم. قال أبو وائل: لا يحجون عليها. ﴿افْتِرَاءً﴾ أي للافتراء«على الله»، لأنهم كانوا يقولون: الله أمرنا بهذا»[5].

وقال سبحانه أيضًا: ﴿وَقَالُوا مَا فِي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٣٢.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٤١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٩٤.

﴿بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

فأخبر سبحانه «عن هؤلاء الكفرة أنهم قالوا في أنعام بأعيانها: «ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا دون إناثنا»، واللبن ما في بطونها، وكذلك أجنتها. ولم يخصص الله بالخبر عنهم أنهم قالوا: بعض ذلك حرام عليهن دون بعض.

وإذ كان ذلك كذلك، فالواجب أن يقال إنهم قالوا: ما في بطون تلك الأنعام من لبن وجنين حلٌّ لذكورهم خالصة دون إناثهم، وإنهم كانوا يؤثرون بذلك رجالهم، إلا أن يكون الذي في بطونها من الأجنة ميتًا، فيشترك حينئذ في أكله الرجال والنساء»[1].

وإجمالًا فقد جعل القرآن الكريم تشريع ما لم يأذن به الله في مرتبة مقارنة للشرك فأخبر سبحانه عن المشركين أنهم يأتون الفواحش ويزعمون أن الله أمرهم بها: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

ثم قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

أي «﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ﴾ أي المحسن إليّ بجعل ديني أحسن الأديان ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي كل فرد منها، وهي ما زاد قبحه؛ ولما كانت الفاحشة ما يتزايد قبحه فكان ربما ظن أن الإسرار بها غير مراد بالنهي قال: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بين الناس ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، ولما كان هذا خاصًّا بما عظمت شناعته قال: ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي مطلق الذنب الذي يوجب الجزاء، فإن الإثم الذنب والجزاء؛ ولما كان البغي زائد القبح مخصوصًا بأنه من أسرع الذنوب عقوبة، خصه بالذكر فقال: ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ وهو الاستعلاء على الغير ظلمًا، ولكنه لما كان قد يطلق على مطلق الطلب، حقق معناه العرفي الشرعي فقال: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾... ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي الذي اختص بصفات الكمال ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ فإنه لا يوجد ما يسميه أحد شريكًا إلا وهو مما لم ينزل به الله سلطانًا بل ولا حجة به في الواقع ولا برهان... ﴿وَأَن﴾ أي وحرم أن ﴿تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي الذي لا أعظم منه ولا كفوء له ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ما ليس لكم به علم بخصوصه ولا هو مستند إلى علم أعم من أن يكون من الأصول أو لا»[2].

وعد القرآن الكريم الجرأة على التشريع

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٤٨.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٣٩٠.

بغير وحي من الله أو علم كذبًا وافتراء على الله، قال جل وعلا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦-١١٧].

أي: «ولا تقولوا الكذب للذي تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة، من غير استناد ذلك الوصف إلى الوحي»[(١)].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس: ٥٩-٦٠].

أي: «أي شيء ظنهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أيحسبون أن لا يجازوا عليه... وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة»[(٢)].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٦٠٦.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١١٧.

أحكام شرعية وصفت بحدود الله تعالى

وردت (حدود الله) على معنيين:

أحدهما: المنهيات.

والثاني: حد ما ينهى عن تجاوزه من المباحات.

مثال الأول: ما روى الطبراني عن طاوس قال: سمعت أبا الدرداء، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وسكت عن كثير عن غير نسيان فلا تكلفوها، رحمة من الله فاقبلوها)[(٣)].

فالحدود في الحديث قسيمة للفرائض، ولذلك فلا يمكن أن تكون إلا المحرمات.

ومثال الثاني ما روى الدارقطني والبيهقي عن أبي ثعلبة الخشني، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم حرمات فلا تنتهكوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها)[(٤)].

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٧/ ٢٦٥، ٧٤٦١.
قال الحافظ ابن عساكر: هذا حديث غريب ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة.
انظر: معجم ابن عساكر ٢/ ٩٦٥.
(٤) أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب الرضاع، ٥/ ٣٢٥، رقم ٤٣٩٦، والبيهقي في السنن

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله أعطى كل ذي حق حقه، وإن الله فرض فرائض وسن سننًا، وحد حدودًا، وأحل حلالًا، وحرم حرامًا، وشرع الإسلام، وجعله سهلًا سمحًا واسعًا، ولم يجعله ضيقًا)[1].

فالحدود في الحديثين دالة على قسم آخر غير الفرائض والمنهيات وهي حدود المباحات، بل إنها في الثاني ذكرت مع المباح المطلق مما يجعل لها دلالة خاصة على نوع من المباحات.

هذا وقد وردت حدود الله في القرآن الكريم دالة على بعض الأحكام الخاصة:

فأغلبها متعلق بأحكام العلاقة الزوجية وإصلاح ما طرأ من الخلل عليها وانتهائها، ويتضمن هذا أحكام الطلاق الرجعي والبائن بينونة صغرى أو كبرى، وأحكام العدد، وأحكام الظهار.

وبعضها متعلق بالحقوق الواجبة في تركة الميت، من الديون والوصايا، ومن يرث ومن لا يرث، وأنصبة كل وارث.

وبعضها متعلق بأحكام العبادات الواجبة كالصلاة وصيام رمضان، أو المندوبة كصيام التطوع والاعتكاف، وما تعلق بها من مفطرات ومفسدات ونواقض.

أولًا: ما تعلق بأحكام العلاقة الزوجية وإصلاح ما طرأ من الخلل عليها وانتهائها:

شرع الله الزواج ليكون سكنًا للنفوس، وجعل كلًّا من الزوجين لباسًا للآخر يستره، وألقى بينهما المودة والرحمة. واستمرار السكن والمودة والرحمة مشروط بالمعاشرة بالمعروف وحفظ كل من الزوجين حقوق الآخر. غير أن الخلاف والنزاع قد يستطير ويستشري حتى تنقطع مقاصد العلاقة الزوجية، ومن أجلى تلك الصور «الإيلاء»: وهو أن يحلف الزوج ألا يقرب امرأته، فيمنعها حقًّا من حقوقها، وينقض مقصدًا أساسيًّا في العلاقة الزوجية. فإن آلى الزوج فحلف ألا يقرب امرأته، فقد حد القرآن الكريم له حدًّا: أربعة أشهر يتربصها ثم يوقف بعدها؛ فإما أن يعود إلى الوفاء بحقها ويكفر عن يمينه، أو يطلقها ويسرحها، فيغني الله كلا منهما من سعته: قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

الكبرى، ١٠/ ٢١، رقم ١٩٧٢٥.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١/ ٢٣٠، رقم ١٥٩٧.

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده، ٤/ ٣٤٣، رقم ٢٤٥٨.
قال الهيثمي: وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش، وهو متروك الحديث.
انظر: مجمع الزوائد ١/ ١٧٢.

«فإذا انقضت الأربعة الأشهر: وقف المولي عند مالك والشافعي، فإما فاء، وإلّا طلّق، فإن أبى الطلاق: طلق عليه الحاكم، وقال أبو حنيفة: إذا انقضت الأربعة الأشهر: وقع الطلاق دون توقيف، ولفظ الآية يحتمل القولين»[1].

وإذا طلق الرجل زوجته، ولم يجاوز المرة الثالثة، كان هذا الطلاق رجعيًّا. ومن طلق زوجته طلاقًا رجعيًّا لم تنته العلاقة الزوجية بمجرد تلفظه بالطلاق، ولكنه يمنح فرصة لمراجعتها. فتعتد المرأة في بيته، ولها السكنى والنفقة، ويراجعها زوجها متى شاء من غير أن يحتاج إلى عقد جديد.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ [الطلاق: ١].

فقد فرضت الآية على من أراد أن يطلق زوجته أن يتحرى زمانًا معينًا فمعنى: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: «إذا أردتم تطليقهن ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: أي لزمان عدتهن وهو الطهر؛ لأنها تعتد بذلك الطهر من عدتها وتحصل في العدة عقيب الطلاق، فلا يطول عليها زمان العدة، وكان ابن عباس وابن عمر يقرآن: (فطلقوهن في قبل عدتهن) وهذا في المدخول بها؛ لأن غير المدخول بها لا عدة عليها»[2].

فليس للأزواج أن يطلقوا متى شاءوا، بل قيل لهم «التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله. بل ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب تلك الحيضة، التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلقها في طهر وطئ فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين ولا يتضح بأي عدة تعتد، وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض وليست حاملًا فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، وحقها في النفقة ونحوها. فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه للزوج وللمرأة، إن

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١٢٢.

(٢) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٠٥.

كانت مكلفة، وإلا فلوليها»[1].

وقد نهت الآية الأزواج عن إخراجهن من البيوت في العدة، كما نهتهن أيضًا عن الخروج إلى انقضائها: «﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾: أي ليس للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدة، ولا يجوز لها الخروج أيضًا لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أثمت ولا تنقطع العدة. والرجعية والمبتوتة في هذا سواء. وهذا لصيانة ماء الرجل. وهذا معنى إضافة البيوت إليهن، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فهو إضافة إسكان وليس إضافة تمليك. وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ يقتضي أن يكون حقًّا على الأزواج. ويقتضي قوله: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أنه حق على الزوجات»[2].

والأصل في عدد النساء «ثلاثة قروء» ولا يحل للمطلقة فيها أن تكتم ما يدعو زوجها لمراجعتها كالحمل، ولزوجها الحق في مراجعتها من غير أن يستأذن وليها أو يعطيها مهرًا أو يعقد عقدًا جديدًا، على أن يكون قاصدًا للإصلاح لا للإضرار، وأن يوفيها ما أوجب الله لها من حق مثل ما عليها أن توفيه ما أوجب الله عليها من حق، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٢٨].

غير أن آية سورة الطلاق قد أمرت بالإشهاد على الرجعة، قال جل وعلا: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].

وظاهر قوله سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يدل على وجوب الإشهاد، قال ابن العربي: «وهذا ظاهر في الوجوب بمطلق الأمر عند الفقهاء، وبه قال أحمد بن حنبل في أحد قوليه، والشافعي. وقال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، والشافعي في القول الآخر: إن الرجعة لا تفتقر إلى القبول، فلم تفتقر إلى الإشهاد، كسائر الحقوق، وخصوصًا حل الظهار بالكفارة»[3]، بمعنى أن الأمر مصروف عندهما بهذه القرينة من الوجوب إلى الاستحباب.

وقد تضمنت الآية أمرًا آخر: وهو

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٥٤.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٢٨٢.

الإمساك بمعروف أو المفارقة بمعروف، والإمساك بالمعروف: «هو حسن العشرة في الإنفاق وغير ذلك، و المفارقة بالمعروف: هو أداء المهر والتمتيع، ودفع جميع الحقوق، والوفاء بالشروط وغير ذلك»[1].

والطلاق رجعي ما لم تنقض العدة أو يجاوز المرتين: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فقوله سبحانه: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾: «بيان لعدد الطلاق الذي يجوز إيقاعه، وهو طلاق السنة ﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾: ارتجاع... ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾: حسن المعاشرة وتوفية الحقوق ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾: هو تركها حتى تنقضي العدّة فتبين منه ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ المتعة، وقيل: التسريح هنا الطلقة الثالثة بعد الاثنتين»[2].

وفي الآية نهي عن أخذ الزوج شيئًا أعطاه لامرأته إلا ما أعطته عن طيب نفس، إلا أن تخالعه لرغبتها هي في فراقه من غير إضرار منه بها، «وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ أي: لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [النساء: ١٩].

فأما إن وهبته المرأة شيئًا عن طيب نفس منها، فقد قال تعالى: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ [النساء: ٤].

وأما إذا تشاقق الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل، وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها، ولا عليه في قبول ذلك منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾»[3].

قال ابن جزي: «ثم إنّ المخالعة على أربعة أحوال، الأوّل: أن تكون من غير ضرر من الزوج ولا من الزوجة: فأجازه مالك وغيره لقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ﴾ الآية، ومنعها قوم لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، والثاني: أن يكون الضرر منهما جميعًا فمنعه مالك في المشهور لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾، وأجازه الشافعي لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٢٤.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١٢٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦١٣.

﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾. والثالث: أن يكون الضرر من الزوجة خاصة، فأجازه الجمهور لظاهر هذه الآية، والرابع: أن يكون الضرر من الزوج خاصة: فمنعه الجمهور لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ [النساء:٢٠] الآية، وأجازه أبو حنيفة مطلقا»[١].

وللزوج أن يراجع زوجته بعد الطلاق بغير عقد قبل انقضاء العدة، ويعقد بعد انقضائها أو إن خالعته، ما لم يجاوز حد المرتين، فإن طلق في الثالثة حرمت عليه حتى تتزوج زوجًا غيره، زواجًا صحيح الأركان، لا يقصد منه التحليل، ويطأها فيه، ثم يطلقها أو يتوفى عنها الزوج الثاني وتنقضي عدتها، فإن اجتمعت هذه الأركان حل له أن يتزوجها بعقد جديد إن ظنا أنهما يقيمان حدود الله.

قال تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢٣٠].

فقوله تعالى: «﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: الطلقة الثالثة، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: نكاحًا صحيحًا ويطؤها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحًا، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق.

ويشترط أن يكون نكاح الثاني، نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول، فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد، لأنه ليس بزوج، فإذا تزوجها الثاني راغبًا ووطئها، ثم فارقها وانقضت عدتها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي: يجددا عقدًا جديدًا بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي.

ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بأن يقوم كل منهما، بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عشرتهما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة، أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحًا، لأن جميع الأمور، إن لم يقم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها»[٢].

هذه صورة إجمالية لما سماه القرآن الكريم «حدود الله» من أحكام الطلاق والخلع والعدد وما ارتبط بها، والظهار شبيه بالإيلاء والطلاق، وقد سمى القرآن الكريم الأحكام المتعلقة به أيضًا «حدود الله».

والظهار: تحريم الرجل امرأته على نفسه

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١٢٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٣.

كتحريم الله عليه بعض النساء كأمه وأخته وبنته ونحوها، وصورته أن يقول لها: أنت عليَّ كظهر أمي[1].

وكان الظهار في الجاهلية طلاقًا، فعن أبي قلابة، قال: «كان الظهار طلاقًا في الجاهلية، الذي إذا تكلم به أحدهم لم يرجع في امرأته أبدًا، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه ما أنزل»[2].

فنقض الإسلام حكم الجاهلية، وعدَّ هذا القول منكرًا وزورًا: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾ [المجادلة: ٢].

«فردّ اللّه بهذه الآية على فعلهم، وأخبر بالحقيقة من أنّ الأمّ هي الوالدة، وأمّا الزوجة فلا يكون حكمها حكم الأمّ»[3].

ولم يجعل الظهار طلاقًا، ولكنه ألزم فاعله بأن يكفر عن قوله بتحرير رقبة، فإن لم يجد صام شهرين متتابعين، فإن لم يجد أطعم ستين مسكينًا، ويكفر قبل أن يقرب زوجته.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤﴾ [المجادلة: ٣-٤].

«وجعل اللّه سبحانه القول بالظهار منكرًا وزورًا، فهو محرّمٌ، لكنّه إذا وقع لزم، هكذا قال فيه أهل العلم، لكنّ تحريمه تحريم المكروهات جدًّا، وقد رجّى اللّه تعالى بعده بأنّه عفوٌّ غفور مع الكفّارة»[4].

وقد وصفت جميع هذه الأحكام: الطلاق، والخلع، والعدد، والظهار، وأحكام الإيلاء، وما ارتبط بها، بأنها حدود الله.

ثانيًا: ما تعلق بالحقوق الواجبة في تركة الميت:

فصلت سورة النساء الحقوق الواجبة في تركة الميت في ثلاث آيات: إحداها: آخر آية في السورة، وثنتان أخريان متتابعاتان، وهما قوله سبحانه:

١. ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٢٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٣٩٨.
(٤) المصدر السابق.

﴿حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: ١١].

والمعنى: «يوصيكم الله ويأمركم في شأن أولادكم: إذا مات أحد منكم وترك أولادًا: ذكورًا وإناثًا، فميراثه كله لهم: للذكر مثل نصيب الأنثيين، إذا لم يكن هناك وارث غيرهم. فإن ترك بنات فقط: فللبنتين فأكثر ثلثا ما ترك، وإن كانت ابنة واحدة، فلها النصف. ولوالدي الميت: لكل واحد منهما السدس إن كان له ولد، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو أكثر. فإن لم يكن له ولد وورثه والداه فلأمه الثلث، ولأبيه الباقي. فإن كان للميت إخوة اثنان فأكثر، ذكورًا كانوا أو إناثًا، فلأمه السدس، وللأب الباقي ولا شيء للإخوة. وهذا التقسيم للتركة إنما يكون بعد إخراج وصية الميت في حدود الثلث، أو إخراج ما عليه من دين. آباؤكم وأبناؤكم الذين فرض لهم الإرث لا تعرفون أيهم أقرب لكم نفعًا في دنياكم وأخراكم، فلا تفضلوا واحدًا منهم على الآخر. هذا الذي أوصيتكم به مفروض عليكم من الله. إن الله كان عليمًا بخلقه، حكيمًا فيما شرعه لهم»[1].

٢. ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ١٢].

فنصت الآية على أن «لكم -أيها الرجال- نصف ما ترك أزواجكم بعد وفاتهن إن لم يكن لهن ولد ذكرًا كان أو أنثى، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن، ترثونه من بعد إنفاذ وصيتهن الجائزة، أو ما يكون عليهن من دين لمستحقيه. ولأزواجكم -أيها الرجال- الربع مما تركتم، إن لم يكن لكم ابن أو ابنة منهن أو من غيرهن، فإن كان لكم ابن أو ابنة فلهن الثمن مما تركتم، يقسم الربع أو الثمن بينهن، فإن كانت زوجة واحدة كان هذا ميراثًا لها، من بعد إنفاذ ما كنتم أوصيتم به من الوصايا الجائزة، أو قضاء ما يكون عليكم من دين»[2].

«ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه، ولد الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٧٨.

(٢) المصدر السابق ص٧٩.

إجماعًا»[1].

«وإن مات رجل أو امرأة وليس له أو لها ولد ولا والد، وله أو لها أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس. فإن كان الإخوة أو الأخوات لأم أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث، يقسم بينهم بالسوية لا فرق بين الذكر والأنثى، وهذا الذي فرضه الله للإخوة والأخوات لأم يأخذونه ميراثًا لهم من بعد إنفاذ وصيته إن كان قد أوصى بشيء، أو قضاء ديون الميت، لا ضرر فيه على الورثة. بهذا أوصاكم ربكم وصية نافعة لكم. والله عليم بما يصلح خلقه، حليم لا يعاجلهم بالعقوبة»[2].

فتضمنت الآيات الأمر بقضاء الدين قبل قسمة التركة وإبراء ذمة صاحب المال، والأمر بتنفيذ أحكام الوصية إجمالًا وبينت السنة مقدارها ولمن تجب، وبيان أنصبة أصحاب الفروض والتعصيب من الأقارب «الأبناء والبنات والأب والأم»، وأنصبة أصحاب الفروض بالمصاهرة «الزوج والزوجة»، ونصاب الإخوة لأم في حال الكلالة، والنهي عن الإضرار في الوصية.

ثم وصفت الآية هذه الأحكام بأنها حدود الله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ ووعدت ملتزمها بالفوز العظيم: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وتوعدت متعديها بالعذاب المهين: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤].

ثالثًا: ما تعلق بأحكام العبادات:

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧].

أي: «يباح لكم في ليالي الصيام وقاع زوجاتكم، فهنّ ستر لكم عن الحرام، علم الله أنكم كنتم تخونون أنفسكم بالجماع ليلة الصيام، فتاب الله عليكم وعفا وصفح عنكم، والآن أباح الله لكم بأن تباشروا نساءكم، واطلبوا ما أباحه الله لكم من الاستمتاع لإنجاب الذرّية. ويباح لكم الأكل والشرب أثناء الليل كله، حتى يطلع

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٨.
(٢) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٧٩.

الفجر الصادق، ثم أتموا الصيام إلى غروب الشمس. ولا تجوز مباشرة النساء أثناء الإقامة في المساجد للعبادة بالاعتكاف. وتلك الأحكام المذكورة للصيام والاعتكاف هي حدود الله، أي: محظوراته وممنوعاته، فلا تقربوها بالمخالفة، وبمثل هذا التوضيح يبين الله أحكام دينه للناس ليتّقوا ربّهم، ويبتعدوا عن المحرمات»[1].

فتضمنت الآية مباحات تحدها منهيات، وهي:

- الأكل والشرب والجماع ليلة الصيام، إلى حد طلوع الفجر الصادق وإلى غروب الشمس.
- إباحة مباشرة الأهل في ليالي الصيام، ما لم يدخل الصائم في عبادة الاعتكاف، فحينئذ يستوي المنع في الليل والنهار.

وقد سمت الآيات هذه الأحكام «حدود الله» ونهت عن قربانها.

هذا وقد ذهب الفيروزآبادي إلى أن في جميع هذه الأحكام نهايات ينتهى إليها؛ فلذلك سميت حدودًا، قال: «والحدود جاءت في القرآن على سبعة أوجه:

الأول: حد الاعتكاف لإخلاص العبادة ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

الثاني: حد الخلع لبيان الفدية ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

الثالث: حد الطلاق لبيان الرجعة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

الرابع: حد العدة لمنع الضرار وبيان المدة.

الخامس: حد الميراث لبيان القسمة ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ [النساء: ١٤].

السادس: حد الظهار لبيان الكفارة ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة: ٤].

السابع: حد الطلاق لبيان مدة العدة ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: ١]»[2].

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٩١.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤٣٨.

أسباب الاعتداء على حدود الله

قد أشارت نصوص القرآن الكريم إلى الأسباب التي تؤدي إلى تعدي حدود الله، ويمكن إجمالها في ثلاثة أسباب: الكفر والنفاق، والجهل، والظلم.

أولًا: الكفر والنفاق:

وقعت الإشارة إلى ارتباط الكفر والنفاق بتعدي حدود الله في قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة: ٩٧]

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: الأعراب أشدّ جحودًا لتوحيد الله، وأشدّ نفاقًا، من أهل الحضر في القرى والأمصار. وإنما وصفهم جل ثناؤه بذلك، لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوبًا، وأقلّ علمًا بحقوق الله.

وقوله: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾، يقول: وأخلق أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله»[(١)].

فأما الكفر فأصله التغطية، ومنه قيل: «كفر السحاب السماء، وكفر المتاع في الوعاء، وكفر الليل بظلامه. وليل كافر. ولبس كافر الدروع، وهو ثوب يلبس فوقها. وكفرت الريح الرسم، والفلاح الحب، ومنه قيل للزراع الكفار»[(٢)].

«والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانيّة، أو النّبوّة، أو الشريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال: كفر لمن أخلّ بالشّريعة، وترك ما لزمه من شكر الله عليه»[(٣)].

والمعنى الأول هو المراد في الآية، وجاز أن تدل على المعنى الثاني بالإشارة.

وأما النفاق فهو نوع من أنواع الكفر: لأن المنافق أبطن الكفر، فكان حكمه عند الله حكم الكافر ولذلك يفضح يوم القيامة ويجعل في الدرك الأسفل من النار، وإن كان يعامل في الحياة الدنيا معاملة المسلم، وتجري عليه أحكام المسلمين.

وقد نص القرآن الكريم على أن الإنسان إذا كفر لم يكن له من نفسه نازع يحثه على الطاعة، أو وازع يحجزه عن الفواحش والمنكرات.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [المزمل: ١٧-١٨].

وفي الآية تقريع لمن كفر وبيان لأنه لا يحجزه عن مجاوزة حدود الله شيء، بمعنى: «فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء. وقرأ أبو

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٢٩.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٣٦١.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧١٥.

السمال قعنب فكيف تتقون -بكسر النون على الإضافة-»[1]، وهي قراءة أوضح في الدلالة على المعنى، وأقل شأنها أن تكون قراءة تفسيرية.

وللكفر بيوم القيامة خصوصًا تأثير خاص في الجرأة على حدود الله، لأن الذي لا يرجو ثوابًا ولا يخاف حسابًا ولا عقابًا، لن يرده عن هواه شيء، وقد علل القرآن الكريم ضلال المشركين في آيات كثيرة بكفرهم بالآخرة.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ [المدثر: ٤٩-٥٣].

وهو تعجيب من غرابة حالهم بحيث يجدر أن يستفهم عنها المستفهمون[2]: «أي ما الذي حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن المشتمل على التذكرة الكبرى، والموعظة العظمى؟ أو فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك في مكة معرضون عما تدعوهم إليه، وتذكّرهم به؟ كأنهم في نفورهم عن الحق وإعراضهم عنه من حمر الوحش إذا فرت من رماة يرمونها، أو من أسد يريد افتراسها.

فالقسورة: إما جماعة الرماة الذين يتصيدونها، أو الأسد، وهو رأي جمهور اللغويين، سمي بذلك لأنه يقهر السباع، قال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون، إذا رأوا محمدًا صلّى الله عليه وسلّم، هربوا منه، كما يهرب الحمار من الأسد. وهذا التشبيه في غاية التقبيح والتهجين لحالهم، وإعلامهم بأنهم قوم بله.

والآية دليل على أن إعراضهم عن الحق والإيمان بغير سبب ظاهر مقنع، ولا استعداد للتفاهم والاقتناع، ففي تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة، ونداء عليهم بالبلادة والغباوة، وعدم التأثر من مواعظ القرآن، بل صار ما هو سبب لاطمئنان القلوب موجبًا لنفرتهم»[3].

وزادت الآية في بيان عنادهم وإعراضهم بإضراب انتقالي فقالت: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ وقد تضمنت «حالة أخرى من أحوال عنادهم، إذ قال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية وغيرهما من كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: لا نؤمن لك حتى يأتي إلى كل رجل منا كتاب فيه من الله إلى فلان بن فلان، وهذا من أفانين تكذيبهم بالقرآن أنه منزل من الله»[4].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٢٩.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ٢٤٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٣١.

والمعنى: «بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتابًا كما أنزل على النبي. قاله مجاهد وغيره، كقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل»[(١)].

فلما صورت الآيات عنادهم وإعراضهم، أعقبته ببيان الدافع الحقيقي وراء هذا العناد والإعراض: وهو أنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا يخافون حسابًا على ما عملوا: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

و«﴿كَلَّا﴾ إبطال لظاهر كلامهم ومرادهم منه، وردع عن ذلك، أي لا يكون لهم ذلك.

ثم أضرب على كلامهم بإبطال آخر بحرف الإضراب فقال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: أي ليس ما قالوه إلا تنصلًا، فلو أنزل عليهم كتاب ما آمنوا وهم ﴿لَا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، أي لا يؤمنون بها، فكني عن عدم الإيمان بالآخرة بعدم الخوف منها، لأنهم لو آمنوا بها لخافوها، إذ الشأن أن يخاف عذابها إذ كانت إحالتهم الحياة الآخرة أصلًا لتكذيبهم بالقرآن»[(٢)].

فلما لم يؤمنوا بالآخرة، لم يخافوا أهوالها ففسدت أعمالهم، قال ابن كثير: «أي: إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها، وتكذيبهم بوقوعها»[(٣)].

وقد دلت الآية على أن التكذيب بالآخرة سبب لعدم الخوف من أهوالها، الذي ينتج عنه عدم الارتداع عن محارم الله وعدم الوقوف عند حدوده.

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٨-١١].

والمعنى: «وأما من بخل بماله، ولم يبذل منه شيئًا في سبيل الله وطريق الخير، واستغنى عن الله ورحمته بزعمه، واكتفى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، وزهد في الأجر والثواب وفضل الله، وكذّب بالجزاء الأخروي، فسنأخذ بيده ونسهله للحال الصعبة التي لا تنتج إلا شرًّا، حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها، حتى يصل إلى النار، ولا يفيده شيئًا ماله الذي بخل به، إذا وقع في جهنم... وقوله: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ معناه سقط في جهنم، أي من حافاتها»[(٤)].

وهو ما بخل واستغنى إلا لأنه كذب بالحسنى، كما أن من أعطى واتقى ما فعل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٧٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٣١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٧٤.
(٤) التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٨٨٨.

ذلك إلا لأنه صدق بالحسنى، فدل ذلك على أن من كذب بالآخرة تجرأ على حدود الله؛ لأنه لا يدفعه رجاء ثواب لطاعة، ولا يرده خوف عقاب عن معصية.

ومن كان لا يؤمن الآخرة تعلق بالحياة الدنيا كما دل على ذلك قوله جل وعلا: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝٢١﴾[القيامة: ٢٠-٢١].

ومعنى الآية: «أنتم قوم قد غلبتكم الدنيا بشهواتها، فأنتم تحبونها حبًّا تتركون معه الآخرة والنظر في أمرها»[(١)].

وقوله جل وعلا أيضًا: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ [الإنسان: ٢٧].

بمعنى «﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: المكذبين لك أيها الرسول بعد ما بينت لهم الآيات، ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك، لم يفد فيهم ذلك شيئًا، بل لا يزالون يؤثرون، ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ ويطمئنون إليها، ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون العمل ويهملون ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ أي: أمامهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[القمر: ٨].

فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها»[(٢)].

وقيل في يوم القيامة ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي: شديدًا ومعنى أنهم يذرونه: يتركونه فلا يؤمنون به، ولا يعملون له[(٣)].

ومن كان حاله كذلك -أي لم يؤمن بالآخرة-، كان همه الحياة الدنيا وحدها، وقصر رجاؤه عن غيرها، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

«أي: أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره. وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه. ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه. وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له)[(٤)].

وفي الدعاء المأثور: (اللهم لا تجعل

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٠٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٠٣.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٨١.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٠/ ٤٨٠، رقم ٢٤٤١٩.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١/ ٤٤٢، رقم ٣٠١٢.

الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا)»[1][2].

وفي الإعراض عنه عدم اهتمام بأمره، وعدم اغترار بحاله، وزهد في مشابهته وحرص على مخالفته.

فلما لم يؤمن هؤلاء بالآخرة تعلقوا بالدنيا ولم يرجوا غيرها، وانقطع علمهم عندها «فهم إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم، ثم صغرهم وازدرى بهم، أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة»[3].

ثانيًا: الجهل:

وأما السبب الثاني من أسباب التعدي على حدود الله ومجاوزتها فهو الجهل، وقد أشار إليه أيضًا قوله تعالى ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة: ٩٧].

وعدم العلم ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ سبب جلي للتعدي، لأن الذي لا يعرف الحد لا يمكن أن ينتهي إليه، بل لا يعلم أصلًا إن كان جاوزه أو لم يجاوزه.

وقد قيل إن مرد ذلك «لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوبًا، وأقلّ علمًا بحقوق الله»[4]، وقيل: «السبب في كون الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا بعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ»[5].

لكننا بعد تأمل دقيق، نلحظ أن الجهل المذكور في الآية مرتبط بالكفر والنفاق، فهو جهل من كفر فزهد في الحق وأعرض عنه ولم يرد أن يتعلمه، لا أنه وقع له الجهل بحدود الله ابتداء من غير قصد، فجهل حدود الله، ولو علمها لوقف عندها.

ويؤيد ذلك أن هذا الجهل مرتبط بطائفة واحدة من الأعراب، لا بجميعهم، لأن منهم طائفة مدحهم القرآن الكريم بعد ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة: ٩٩].

غير أن الآية -وإن دلت على جهل من أعرض عن الحق وزهد في تعلمه-، فقد أشارت إلى أن الجهل بحدود الله سبب للتعدي عليها ومجاوزتها، حتى ولو لم يقع

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٢٨، رقم ٣٥٠٢.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٢، رقم ١٢٦٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٥٩.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٠٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٢٩.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٩٨.

من العبد بسبب الكفر والنفاق والإعراض.

على أن نصوص القرآن الكريم قد دلت على أن الإعراض عن تعلم الحق المفضي إلى الجهل به سبب للهلاك والعذاب.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ٥٧-٥٩].

فـ«لا ظلم أعظم من كفر من ترد عليه الآيات والبينات فيعرض عنها، وينسى ما قدمت يداه، أي: مع إعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ما قدمت يداه من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة، والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم»[1].

والإعراض عن التأمل في الدلائل والبينات والتشاغل والتغافل مفض إلى الجهل وعدم العلم، وقيل: «﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي ترك كفره ومعاصيه فلم يتب منها، فالنسيان هنا بمعنى الترك»[2]، وهو ناتج عن التشاغل والتغافل والإعراض المفضي إلى الجهل أيضًا.

وهذا الإعراض فرع عن قسوة القلب وما ران عليه من الكفر والمعاصي، كما نصت على ذلك الآية: «﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بسبب كفرهم، أي نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم»[3].

وكذلك قيل في معنى «الضالين» في قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧]: «هم الذين لم يعرفوا الحق، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح»[4].

هذا والجهل جهلان:

- جهل يتسبب فيه صاحبه بإعراضه وتغافله وتشاغله عن طلب معرفة الحق زهدًا فيه وبغضًا له واتباعًا لهواه -كما تقدم-، ومثل هذا ليس لصاحبه فيه عذر، بل هو متوعد بأشد العذاب يوم القيامة، وهو فوق ذلك مذمة ونقيصة ينبز بها في الحياة الدنيا تحقيرًا وتصغيرًا ولا كرامة.
- وجهل يقع من العبد بغير قصد، ومتى تبين له الحق اتبعه، ومثل هذا حري أن يعذر صاحبه، وقد روى ابن ماجه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٧٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٥٧.

في سننه عن أبي ذر الغفاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه)[1].

وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه)[2].

لكن قد يقال: إن من أمكنه العلم وقدر على تطلبه بسؤال العالم ونحوه ففرط فيه ثم وقع في المحارم بطلت حجته ولم يكن له عذر، والأسلم له أن يجتنب ما رابه ويأخذ بالورع، حتى يجتنب الوقوع في الحمى، كما أوصى بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه)[3]. وفي سنن الترمذي عن أبي الحوراء السعدي، قال: قلت للحسن بن علي: ما حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة)[4].

ثالثًا: الظلم:

والسبب الثالث من أسباب مجاوزة حدود الله هو «الظلم» كما أشار إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾ [البقرة: ٢٢٩-٢٣٠].

وقوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ١/ ٦٥٩، رقم ٢٠٤٣.
قال البوصيري: هذا إسناد ضعيف؛ لاتفاقهم على ضعف أبي بكر الهذلي، وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الأئمة الستة.
انظر: مصباح الزجاجة ٢/ ١٢٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ١/ ٦٥٩، رقم ٢٠٤٥.
قال البوصيري: هذا إسناد صحيح إن سلم من الانقطاع، والظاهر أنه منقطع.
انظر: مصباح الزجاجة ٢/ ١٢٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه وعرضه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٦٦٨، رقم ٢٥١٨.
قال الترمذي: هذا حديث صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٣٧، رقم ٣٣٧٨.

﴿ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ [الطلاق: ١].

وأصل الظلم: الجور ومجاوزة الحد[1].

وقد وقع بمعنى الشرك في قوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

كما فسره بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فنزلت ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[2].

والظلم أيضًا: وضع الشيء في غير موضعه[3].

وورد الظلم في القرآن الكريم بمعنيين:

أحدهما: ظلم الإنسان نفسه كما ورد صريحًا في قوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١].

أي: «ضرّها بمخالفة أمر الله عزّ وجلّ»[4].

والثاني: ظلم الإنسان غيره بمجاوزته لحدوده وتعديه على حقوقه، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فأما ظلم العبد غيره فقد يكون باعتدائه عليه بأخذ ماله، أو سفك دمه، أو النيل من عرضه، أو عدم توفيته إياه حقًّا من حقوقه، وقد وقع النص على تحريمه وتعظيم إثمه في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا)[5].

و«معنى قوله: (حرمت الظلم على نفسي) أي تقدّست عنه وتعاليت، والظّلم مستحيل منه سبحانه وتعالى جدّه؛ لأنه إنّما يكون إذا تعدّيت الحدود وتجوّزت المراسم، والباري جلّت قدرته ليس فوقه أحد يحدّ له حدًّا أو يرسم له رسمًا حتى يكون متجاوزًا لذلك ظالمًا، ولا فوقه من يستحق أن يطيعه حتّى

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٧٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله)، ٤/ ١٦٣، رقم ٣٤٢٨.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٧٣.
(٤) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٧٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.

يحلّل له الحلال ويحرّم عليه الحرام، ولكن تحريم الشّيء يقتضي المنع منه والكفّ عنه فسمّى الباري سبحانه تقدّسه عن الظلم بهذا اللّفظ فقال (حرّمت على نفسي)[1].

وقد نص قوله سبحانه (وجعلته بينكم محرمًا) وقوله: (فلا تظالموا) على تحريم ظلم العباد بعضهم بعضًا، وقوله: (فلا تظالموا): هو بفتح التاء أي لا تتظالموا، والمراد: لا يظلم بعضكم بعضًا، وهذا توكيد لقوله تعالى: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا) وزيادة تغليظ«في تحريمه»[2].

وأما ظلم العبد نفسه «ففيه وجوه، أحدها: ظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله، وثانيها: ظلم نفسه بأن فوت عليها منافع الدنيا والدين، فمثال منافع الدنيا: أنه إذا اشتهر فيما بين الناس بهذه المعاملة القبيحة «الطلاق» لا يرغب في التزوج به ولا معاملته أحد، وأما مثال منافع الدين: فالثواب الحاصل على حسن العشرة مع الأهل والثواب الحاصل على الانقياد لأحكام الله تعالى وتكاليفه»[3].

وظلم العبد غيره ظلم منه لنفسه أيضًا فبينهما عموم وخصوص، ويشهد لذلك أن آية الطلاق لما حدت للأزواج حدودًا أردفت ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾» فجعل ظلمهم نساءهم ظلمًا لأنفسهم؛ لأنه يؤدي إلى اختلال المعاشرة واضطراب حال البيت، وفوات المصالح بشغب الأذهان في المخاصمات. وظلم نفسه أيضًا بتعريضها لعقاب الله في الآخرة»[4].

هذا والظلم والجهل أصل كل ضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

«فالحي العالم الناصح لنفسه لا يؤثر محبة ما يضره ويشقى به ويتألم به، ولا يقع ذلك إلا من فساد تصوره ومعرفته، أو من فساد قصده وإرادته، فالأول: جهل، والثاني: ظلم، والإنسان خلق في الأصل ظلومًا جهولًا... فأصل كل خير: هو العلم والعدل، وأصل كل شر: هو الجهل والظلم.

وقد جعل الله سبحانه للعدل المأمور به حدًّا، فمن تجاوزه كان ظالمًا معتديًا، وله من الذم والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه، الذي خرج به عن العدل»[5].

(١) المعلم بفوائد مسلم، المازري ٣/ ٢٩٠.
(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٦/ ١٣٢.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٥٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٢٣.
(٥) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٣٦.

الفرق بين قربان الحدود وتعديها

إذا وردت «حدود الله» في الاستعمال القرآني بمعنى المنهيات وحدها، أردفتها الآية بالنهي عن قربانها، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

والقرب في اللغة: «نقيض البعد. قرب الشيء، بالضم، يقرب قربًا وقربانًا أي: دنا، فهو قريب، الواحد والاثنان والجميع في ذلك سواء»[(١)].

فإذا ورد في سياق النهي دل على المبالغة فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥].

«ومعنى ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ ههنا: لا تأكلا، ودليل ذلك قوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي لا تقرباها في الأكل»[(٢)].

وقد استعمل القرآن الكريم هذه الصيغة في الأمر باجتناب المنهيات على وجه العموم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١].

كما استعملها في الأمر باجتناب بعض الفواحش المخصوصة، كما قال سبحانه في تحريم الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]

«والزنا: وطء المرأة بدون عقد شرعي يجيز للرجل وطأها. والفاحشة: ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال. يقال فحش الشيء، فحشًا، كقبح قبحًا- وزنًا ومعنى-، ويقال أفحش الرجل، إذا أتى الفحش بضم الفاء وسكون الحاء-، وهو القبيح من القول أو الفعل. وأكثر ما تكون الفاحشة إطلاقًا على الزنا.

وتعليق النهي بقربانها، للمبالغة في الزجر عنها، لأن قربانها قد يؤدى إلى الوقوع فيها، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[(٣)].

وفوق تضمن النهي عن «القربان» للمبالغة في الزجر، فإنه تضمن أيضًا النهي عن المقدمات التي تؤدي إلى الوقوع في هذه الفاحشة، بمعنى: «ولا تقربوا الزنى

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٦٢.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١١٤.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٣٣٩.

ودواعيه؛ كي لا تقعوا فيه، إنه كان فعلًا بالغ القبح، وبئس الطريق طريقه»[1].

وهذا الأسلوب القرآني تضمن إعجازًا تربويًّا في تأديب المؤمنين وتزكية نفوسهم، وهو يعلمهم -لا مجرد ترك الفواحش-، بل وأن يجعلوا بينهم وبينها مسافات فاصلة تعصمهم من الخطأ والزلل، «وهذا لون حكيم من ألوان إصلاح النفوس، لأنه إذا حصل النهي عن القرب من الشيء، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى.

فكأنه سبحانه يقول: كونوا أيها المسلمون بعيدين عن كل المقدمات التي تفضي إلى فاحشة الزنا، كمخالطة النساء، والخلوة بهن، والنظر إليهن... فإن ذلك يفتح الطريق إلى الوقوع فيها»[2].

ومن الطريف أن السنة النبوية قد سمت المقدمات باسم النتيجة ترهيبًا منها وتنفيرًا، وهو من أبلغ الأساليب التربوية، ومن ذلك ما روى مسلم عن ابن عباس، قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)[3].

فمعلوم أن ما سمي في الحديث «زنا» كزنا العينين واللسان ليس له حكم الزنا الكامل، ولا حد فيه، وقد سماها ابن عباس رضي الله عنهما لممًا: أي صغائر، ولكن تسمية هذه الأمور زنا من باب تسمية المقدمة بالنتيجة، وهو يتضمن تعظيم الصغير حتى لا يتهاون المؤمن به.

وقد ورد النهي عن قربان مال اليتيم أيضًا، ولكنه علق باستثناء يتضمن شرطًا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

والنهي عن قربان مال اليتيم يعني النهي عن إنفاقه والتصرف فيه، «ولما اقتضى هذا تحريم التصرف في مال اليتيم، ولو بالخزن والحفظ، وذلك يعرض ماله للتلف، استثني منه قوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: أي إلا بالحالة التي هي أحسن»[4].

وقد دل الاستثناء على جواز التصرف

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٢٨٥.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٣٣٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كتب على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، ٤/ ٢٠٤٦، رقم ٢٦٥٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٣.

بشرط أن لا يكون إلا بالتي هي أحسن، وحدت الآية لذلك غاية وهي: أن «يبلغ صاحبه أشده أي: فيسلم إليه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦] الآية»[(١)].

والحاصل أن القرآن الكريم نهى عن قربان فواحش مخصوصة مبالغة في التحذير منها، وتعليمًا للمؤمن أن يجتهد في التحرز منها: جاء في التفسير الوسيط: «قال بعض العلماء: وكثيرًا ما يتعلق النهي في القرآن بالقربان من الشيء، وضابطه بالاستقراء: أن كل منهي عنه من شأنه أن تميل النفوس إليه، وتدفع إليه الأهواء، جاء النهي فيه عن القربان، ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل في النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾.

أما المحرمات التي لم يؤلف ميل النفوس إليها، ولا اقتضاء الشهوات لها، فإن الغالب فيها، أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

فهذه وإن كانت فواحش، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية، يميل إليها الإنسان بشهوته، بل هي في نظر العقل على المقابل من ذلك، يجد الإنسان في نفسه مرارة ارتكابها، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها، أو في حكم الكاره»[(٢)].

وأما إذا ورد النهي عن تعدي الحدود نحو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فهو:

- إما أن يتعلق بتجاوز حدود السعة في المباح، كتعدي حد المرتين في الطلاق مما يحرم المرأة على الزوج ويغلق دونه باب الرجعة، إلا أن تتزوج زوجًا آخر زواجًا صحيحًا لا يقصد منه التحليل، ويطأها فيه، ثم يطلقها أو يتوفى عنها وتنقضي عدتها، أو كمضارة الزوجة لتختلع، وكان هو الراغب في فراقها، ولو لم يضارها ما كان له أن يأخذ مما آتاها من مهر شيئًا، وقد أباح الشرع له ذلك إن كانت هي الراغبة في فراقه من غير مضارة.
- وإما أن يتعلق بحق محدد من حقوق العباد، كحقوق الدائنين والورثة والموصى لهم في التركة، نحو المنصوص عليه في آيات الميراث من سورة النساء، والذي أعقبه قوله

(١) المصدر السابق.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٣٤٠.

سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣-١٤].

وعليه فتعدي حدود الله إما أن يكون اعتداء على حقوق الناس، وإما أن يكون مجاوزة لحدود السعة في المباح، وفي كل منها ظلم من العبد لنفسه.

جزاء تعدي حدود الله تعالى وعقوبته

عقوبة تعدي حدود الله تعالى:

في سياق سورة الطلاق التي عدت من خالف الصفة المشروعة في الطلاق ظالمًا لنفسه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ [الطلاق: ١].

ورد قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقد دلت الآية بمفهومها على أن من جاوز حدود الله تعرض للعقوبة، كما أن من وقف عندها سلم منها، قال الحسين بن الفضل: «ومن يتق الله في أداء الفرائض، يجعل له مخرجًا من العقوبة»[1].

وقد تأول كثير من المفسرين هذه الآية بالنظر إلى سياقها، فقالوا: إن من تعدى حدود الله في الطلاق فجاوز الصفة الشرعية ضيق الشرع عليه، وحرم مراجعة زوجته.

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَمَن

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/١٥٩.

﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾.

قال علي بن أبي طالب وكثير من المتأولين: نفي من معنى الطلاق، أي ومن لا يتعدى في الطلاق السنة إلى طلاق الثلاث وغير ذلك يجعل الله له مخرجًا إن ندم بالرجعة المباحة، ويرزقه ما يطعم أهله ويوسع عليه، ومن لا يتق الله فربما طلق وبت وندم، فلم يكن له مخرج، وزال عليه رزق زوجته»[1]. وقال في البحر المديد: «يقول الحق جلّ جلاله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بأن طلّق للسنّة، ولم يضار بالمعتدّة، ولم يخرجها من مسكنها، واحتاط في الإشهاد، وغير ذلك، ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ مما عسى يقع في شأن الأزواج من الغموم والمضائق، ويفرّج عنه ما يعتريه من الكروب»[2].

وروى ابن جرير بسنده عن مجاهد، قال: كنت عند ابن عباس، فجاءه رجل فقال: إنه طلق امرأته ثلاثًا، فسكت حتى ظننا أنه رادّها عليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب الحموقة، ثم يقول: يا ابن عباس يا ابن عباس، وإن الله عزّ وجلّ قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجًا، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وفي رواية أخرى: «أن رجلًا سأل ابن عباس فقال: إنه طلق امرأته مئة، فقال: عصيت ربك، وبانت منك امرأتك، ولم تتق الله فيجعل لك مخرجًا، وقرأ هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾»[3].

وعن عكرمة قال: «من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجًا»[4].

وروى ابن جرير أيضًا عن جويبر، عن الضحاك في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، قال: «يعني بالمخرج واليسر إذا طلق واحدة ثم سكت عنها، فإن شاء راجعها بشهادة رجلين عدلين، فذلك اليسر الذي قال الله، وإن مضت عدتها ولم يراجعها، كان خاطبًا من الخطاب، وهذا الذي أمر الله به، وهكذا طلاق السنة فأما من طلق عند كلّ حيضة فقد أخطأ السنة، وعصى الربّ، وأخذ بالعسر»[5].

فهذه النصوص تدل على أن من تعدى حدود الله عوقب بالتشديد والتضييق عليه، وهذه العقوبة ذات بعد تشريعي، وهي تشبه ما أخبر به القرآن الكريم من معاقبة بني إسرائيل بسبب عدوانهم واقترافهم الحرام،

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٢٤.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٧/ ٦٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٣٣.
(٤) المصدر السابق ٢٣/ ٤٤٦.
(٥) المصدر السابق.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

«قال مقاتل: حرّم الله على أهل التوراة الربا، وأن يأكلوا أموال الناس ظلمًا، ففعلوا، وصدوا عن دين الله، وعن الإيمان بمحمد عليه السلام، فحرّم الله عليهم ما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] عقوبة لهم.

قال أبو سليمان: وظلمهم: نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله، وما ذكر في الآيات قبلها. وقال مجاهد: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: صدّهم أنفسهم وغيرهم عن الحق. قال ابن عباس: صدهم عن سبيل الله، يعني الإسلام، وأكلهم أموال الناس بالباطل، أي: بالكذب على دين الله، وأخذ الرّشى على حكم الله، وتبديل الكتب التي أنزلها الله ليستديموا المأكل»[1].

وذهبت طائفة إلى أن ما وعد به المتقي من أن يجعل له مخرج، هو المخرج من البلاء والشدائد: «قال أبو العالية: مخرجًا من كل شدة. وقال الربيع ابن خيثم: يجعل له مخرجًا من كل شي ضاق على الناس، وعن ابن عباس أيضًا ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة»[2].

وبهذا المعنى تكون عقوبة المتعدي لحدود الله ذات بعد قدري؛ فهو الذي لا يجعل له من الشدائد مخرج لأنه لم يتق الله. ويشهد لذلك ما في سنن ابن ماجه عن ثوبان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[3].

«وقيل: المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه، قاله علي بن صالح. وقال الكلبي: ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة. يجعل له مخرجًا من النار إلى الجنة. وقال الحسن: مخرجًا مما نهى الله عنه»[4].

ورجح ابن جزي أن الآية تعم هذه الأقوال جميعها فقال: «وقيل: إنها على العموم، أي: من يتق الله في أقواله وأفعاله يجعل له مخرجًا من كرب الدنيا والآخرة، وقد روي هذا أيضًا عن ابن عباس، وهذا أرجح لخمسة أوجه:

أحدها: حمل اللفظ على عمومه فيدخل في ذلك الطلاق وغيره.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٩٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٥٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ٢/ ١٣٣٤، رقم ٤٠٢٢.
قال البوصيري: هذا إسناد حسن.
انظر: مصباح الزجاجة ٤/ ١٨٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٥٩.

الثاني: أنه روي أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أسر ولده وضيق عليه رزقه، فشكى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمره بالتقوى، فلم يلبث إلا يسيرًا، وانطلق ولده ووسع الله رزقه.

والثالث: أنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال: مخرجًا من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة.

والرابع: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ الآية: فما زال يقرؤها ويعيدها. الخامس: قوله: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾، فإن هذا لا يناسب الطلاق وإنما يناسب التقوى على العموم»[1].

وبناء على هذا القول فإن الطلاق وما يتفرع عنه من ضيق مثل للشدائد التي يخرج منها العبد بتقواه، ومثل للعقوبات التي لا يسلم منها من لم يتق الله.

قال السعدي: «وكما أن من اتقى الله جعل له فرجًا ومخرجًا، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والآصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعتها، واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها»[2].

ولئن تضمنت النصوص السابقة التصريح بالعقوبة الفردية، فقد جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الإشارة إلى بعد جماعي في العقوبة، وهو ما روى البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا)[3].

فقد دل الحديث على أن شيوع تعدي حدود الله في الناس من غير أن يكون منهم من ينهى عن ذلك، يؤدي إلى معاقبتهم جميعًا بعقوبة تعمهم، وأن الخلاص من هذه العقوبة لا يكون بمجرد الوقوف عند حدود الله، بل بالأخذ على أيدي المتعدين لها أيضًا فهو شرط النجاة، كما نص على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٣٨٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ٣/ ١٣٩، رقم ٢٤٩٣.

(فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا).

قال ابن حجر: «(نجوا ونجوا): أي كل من الآخذين والمأخوذين، وهكذا إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا»[1].

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠﴾ [الطلاق: ٨-١٠].

هذا عن العقوبات الدنيوية، وما أعد الله عز وجل لمن يتعدى حدوده في الآخرة أشد وأعظم: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾ [النساء: ١٤].

فنصت الآية على أن من تعدى حدود الله متوعد بنار جهنم والخلود فيها، وظاهره الزجر والترهيب عن مواقعة جميع المعاصي والآثام.

قال القرطبي: «والعصيان إن أريد به الكفر فالخلود على بابه، وإن أريد به الكبائر وتجاوز أوامر الله تعالى فالخلود مستعار لمدة ما، كما تقول: خلد الله ملكه»[2].

ودلل الرازي على تخصيص هذا العموم بقوله: «هذا العموم مخصوص بالكافر، ويدل عليه وجهان:

الأول: أنا إذا قلنا لكم: ما الدليل على أن كلمة (من) في معرض الشرط تفيد العموم؟

قلتم: الدليل عليه أنه يصح الاستثناء منه، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل فيه.

فنقول: إن صح هذا الدليل فهو يدل على أن قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مختص بالكافر؛ لأن جميع المعاصي يصح استثناؤها من هذا اللفظ فيقال: ومن يعص الله ورسوله إلا في الكفر، وإلا في الفسق، وحكم الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل، فهذا يقتضي أن قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ في جميع أنواع المعاصي والقبائح، وذلك لا يتحقق إلا في حق الكافر»[3].

ثانيًا: ثواب الحافظين لحدود الله تعالى:

كما أن مجاوزة حدود الله سبب للضيق والحرج، وسبب لنزول البلاء والعقاب في الحياة الدنيا، وسبب للعذاب في الآخرة، فإن لزوم حدود الله والوقوف عندها وعدم تعديها سبب لرفع الضيق ونزول الفرج

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٢٩٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٨٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٢٧.

وتيسير الأمر، وقد وعدت سورة الطلاق التقي بوعود ثلاثة:

١. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

«أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله»[(١)].

٢. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

«أي ييسر الله عليه في أمره، ويوفقه للعمل الصالح. وقال عطاء: يسهل الله عليه أمر الدنيا والآخرة»[(٢)].

٣. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥].

«ومن يتق الله بطاعته، ويعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يكفر عنه سيئاته من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة، ويعظم له في الآخرة أجرًا، قاله ابن عباس»[(٣)].

وقيل: «أي: يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير»[(٤)].

فقد وعد من يحفظ حدود الله بوعود ثلاثة: اثنين في الدنيا، وهما: المخرج من الضيق، وتيسير الأمور.

وثالث في الآخرة: وهو تكفير السيئات وتعظيم الأجر.

«قال عمر بن عثمان الصدفي: ومن يتق الله فيقف عند حدوده ويجتنب معاصيه يخرجه من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة، ومن النار إلى الجنة. ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ من حيث لا يرجو. وقال ابن عيينة: هو البركة في الرزق. وقال أبو سعيد الخدري: ومن يبرأ من حوله وقوته بالرجوع إلى الله يجعل له مخرجًا مما كلفه بالمعونة له»[(٥)].

وأعظم هذه الوعود تكفير الذنوب وإعظام الأجر، «وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ يقول: ومن يخف الله فيتقه باجتناب معاصيه، وأداء فرائضه، يمح الله عنه ذنوبه وسيئات أعماله ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ يقول: ويجزل له الثواب على عمله ذلك وتقواه، ومن إعظامه له الأجر عليه أن يدخله جنته، فيخلده فيها»[(٦)].

وقد وقع هذا الوعد صريحًا في قوله سبحانه في آية النساء: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٣﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٤٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٦٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٥٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٦٠.
(٦) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٥٦.

[النساء: ١٣].

«فقوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾، يعني: بساتين تجري من تحت غروسها وأشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، يقول: باقين فيها أبدًا لا يموتون فيها ولا يفنون، ولا يخرجون منها ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، يقول: وإدخال الله إياهم الجنان التي وصفها على ما وصف من ذلك ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، يعني: الفلح العظيم»[1].

موضوعات ذات صلة:

الذنب، الفواحش، القتل، الكفارات

(١) المصدر السابق ٨/ ٧٠.

الحذر

عناصر الموضوع

مفهوم الحذر	٤١٦
الحذر في الاستعمال القرآني	٤١٧
الألفاظ ذات الصلة	٤١٨
أنواع الحذر	٤٢٠
مجالات المحذور منه في القرآن	٤٢٤
نماذج قرآنية من الحذرين	٤٤٨
ثمرات الحذر المحمود	٤٥٥

مفهوم الحذر

أولًا: المعنى اللغوي:

(حذر) الحاء والذال والراء أصل واحد، هو من التحرز والتيقظ، يقال: حذر يحذر حذرًا، ورجل حذرٌ وحذورٌ: أي: متيقظٌ متحرزٌ، وحذار بمعنى: احذر، قال ابن فارس: «حذار من رماحنا حذار... وحذرون» أي: خائفون»[(١)].

قال ابن منظور: الحذر والحذر: الخيفة، ورجل حذرٌ وحذرٌ: متيقظ شديد الحذر والفزع ومتحرز، وحاذرٌ: متأهب معدٌّ، كأنه يحذر أن يفاجأ، والجمع: حذرون وحذارى، والتحذير: التخويف[(٢)].

ومن خلال ما سبق تبين أن الحذر يتمركز معناه اللغوي حول التحرز والتيقظ والاستعداد والتأهب.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الكفوي: «اجتناب الشيء خوفًا منه»[(٣)].

وجاء في تفسير المنار أنه: الاحتراز والاستعداد؛ لاتقاء شر العدو، وذلك بمعرفة حاله ومبلغ استعداده وقوته، ومعرفة وسائل مقاومته، وأن يعمل بتلك الوسائل[(٤)].

وقد يأتي بمعنى: «الاحتراس من الضرر»[(٥)].

وخلاصة القول: إن المعنى اللغوي والاصطلاحي يتمثلان في التيقظ والتأهب، وأخذ الحيطة والاحتراس من الضرر.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٧٦.
(٣) الكليات، الكفوي ص٤٠٩.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٢٠٤.
(٥) مرقاة المفاتيح، الملا على القاري ٨/ ٣١٦٢.

الحذر في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ح ذ ر) في القرآن(٢١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٨	﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤﴾ [التوبة: ٦٤]
الفعل الأمر	٦	﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١]
مصدر سماعي	٥	﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]
اسم الفاعل	١	﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ [الشعراء: ٥٦]
اسم المفعول	١	﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧]

وجاء الحذر في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الخوف: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] **يعني:** يخوّفكم عقابه.

الثاني: الامتناع: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١] **يعني: فامتنعوا.**

الثالث: الكتمان: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤] **يعني: ما تكتمون.**

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٩٦.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٩١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخوف:

الخوف لغةً:

الخاء والواو والفاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على الذّعر والفزع[١].

الخوف اصطلاحًا:

قال الرّاغب: «الخوف: توقّع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضادّه الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدّنيويّة والأخرويّة»[٢].

ويقول الجرجانيّ: «الخوف توقّع حلول مكروه أو فوات محبوب»[٣]. وقيل: اضطراب القلب وحركته من تذكّر المخوف، وقيل: فزع القلب من مكروه يناله أو من محبوب يفوته[٤].

الصلة بين الحذر والخوف:

أن الخوف توقع الضرر المشكوك في وقوعه، ومن يتيقن الضرر؛ لم يكن خائفًا له، وكذلك الرجاء لا يكون إلا مع الشك، ومن تيقن النفع؛ لم يكن راجيًا له، والحذر: توقي الضرر، وسواء كان مظنونًا أو متيقنًا، والحذر يدفع الضرر، والخوف لا يدفعه، ولهذا يقال: خذ حذرك، ولا يقال خذ خوفك[٥].

٢ الاحتراز:

الاحتراز لغة:

الحرز: الموضع الحصين، واحترزت من كذا وتحرّزت: توقيته، واحترز[٦]، أي: تحفظ[٧].

الاحتراز اصطلاحًا:

التحفظ[٨].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٣٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٣.
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص ١٠١.
(٤) دليل الفالحين، البكري، ٤/ ٢٨٣.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٤٠.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ٨٧٣، مختار الصحاح، الرازي، ص ٧٠.
(٧) مجمل اللغة، ابن فارس ص ٢٢٥.
(٨) التوقيف، المناوي، ص ٤٠.

الصلة بين الحذر والاحتراز:

أن الاحتراز هو التحفظ من الشيء الموجود، والحذر هو التحفظ مما لم يكن، إذا علم أنه يكون، أو ظن ذلك[١].

٣ الأمن:

الأمن لغة:

ضد الخوف، والفعل منه: أمن يأمن أمنًا[٢].

الأمن اصطلاحًا:

عدم توقع مكروه في الزمان الآتي[٣]، وأصله: طمأنينة النفس وزوال الخوف[٤].

الصلة بين الحذر والأمن:

الحذر: توقي الضرر، سواء كان مظنونًا أو متيقنًا، وفيه التحفظ مما لم يكن، إذا علم أنه يكون، أو ظن ذلك، وأما الأمن فهو حالة من الاستقرار وطمأنينة النفس، وعدم توقع مكروه في الزمن الآتي.

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٤٠.
(٢) العين، الفراهيدي ٨/ ٣٨٨.
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص ٣٧.
(٤) التوقيف، المناوي، ص ٦٣.

أنواع الحذر

أولًا: الحذر المحمود:

الحذر المحمود هو الذي يرضاه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهو ما كان معتدلًا بين الإفراط والتفريط؛ لأنه الحذر الذي ترجى ثماره، ويسعد صاحبه في آخرته.

ومن الحذر المحمود:

١. الحذر من الله وعقابه.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

أي: اعلموا أيها الناس أن الله تعالى يعلم ما يجول في نفوسكم من خير أو شر، وما تهجس به خطرات قلوبكم من مقاصد واتجاهات؛ فاحذروا أن تقصدوا ما هو شر، أو تفعلوا ما هو منكر، واعلموا أنه تعالى غفور لمن تاب وعمل صالحًا، حليم لا يعاجل الناس بالعقوبة، ولا يؤاخذهم إلا بما كسبوا.

فالجملة الكريمة تحذير وتبشير، وترغيب وترهيب؛ لكي لا يتجاسر الناس على ارتكاب ما نهى الله عنه، ولا ييأسوا من رحمته متى تابوا وأنابوا[(١)]. أي: يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

أي: يحذركم نقمته، أي: مخالفته وسطوته في عذابه لمن والى أعداءه، وعادى أولياءه[(٣)].

٢. المؤمن الحذر من عذابه ونقمته ممدوحا.

فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

٣. الحذر من العدو.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

قال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين. وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب، التي بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم، من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم، ومخارجهم، ومكرهم، والنفير في سبيل

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٥٤٠.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٣٣٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣١.

الله»[1].

وقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على حذر من أعدائهم، فهذا موسى عليه السلام لما قتل قبطيًّا؛ أصبح خائفًا حذرًا من جنود فرعون، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

أي: فخرج موسى من مدينة فرعون خائفًا على نفسه يتلفّت، ويترقب متابعة أحد له[2].

وهذا لوط عليه السلام استجاب لأمر الله، لما أمره الله بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

فكان الأمر للوط أن يسير بقومه في الليل قبل الصبح، وأن يكون هو في مؤخرتهم يتفقدهم، ولا يدع أحدًا منهم يتخلف، أو يتلكأ، أو يتلفت إلى الديار على عادة المهاجرين الذين يتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم؛ فيتلفتون إليها ويتلكأون[3].

وفعله النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في حياتهم كثيرًا، فقد اختبأ النبي صلى الله عليه وسلم في غار ثور أثناء هجرته هو وصاحبه أبو بكر[4]، وأخذ بكل وسائل الحيطة والحذر؛ من أجل أن تنجح الهجرة سرًّا، مع كونه صلى الله عليه وسلم مستشعرًا لمعية الله تعالى، إلا أنه كان حذرًا من إدراك المشركين.

وكان صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها[5].

والتورية: أن يذكر لفظًا يحتمل معنيين، أحدهما أقرب من الآخر؛ فيسأل عنه وعن طريقه؛ فيفهم السامع بسبب ذلك أنه يقصد المحل القريب، والمتكلم صادق، لكن لخلل وقع من فهم السامع خاصة؛ وذلك لئلا يتفطن العدو فيستعد للدفع والحرب[6].

وفي ذلك تعليم لأمته وحثهم على الأخذ بوسائل الحذر الممكنة.

وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن المتيقظ الحذر فقال: (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين)[7].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٦.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٧٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٤٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، ٥/ ٥٨، رقم ٣٩٠٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورى بغيرها، ومن أحب الخروج يوم الخميس، ٤/ ٤٨، رقم ٢٩٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، ٤/ ٢١٢٨، رقم ٢٧٦٩.
(٦) فيض القدير، المناوي ٥/ ٩٧.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ٨/ ٣١، رقم ٦١٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب

ومعنى الحديث: أن المؤمن الممدوح هو الكيِّس الحازم الذي لا يؤتى من ناحية الغفلة مرة بعد أخرى وهو لا يشعر، وليكن متيقظًا حذرًا؛ حتى لا يقع في مكروه، وهو لا يشعر[1].

والخلاصة: أن الحذر المحمود أمر يحبه الله ويرضاه، ويصب في مصلحة العبد الدينية والدنيوية؛ ولذلك أمر الله به وحض عليه.

ثانيًا: الحذر المذموم:

الحذر أمر محمود، لكن إذا خرج عن هدفه المشروع كان مذمومًا، وهذا النوع من الحذر لا يجوز؛ وذلك لأنه مدعاة لترك العمل.

فالحذر من قوة العدو، وانهزام المسلم من ساحة المعركة؛ خوفًا على نفسه من القتل، وحذرًا من جبروت الأعداء حذر مذموم؛ لأنه جبن وضعف وهوان؛ ولذلك ذم الله تعالى الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم حذرًا من الموت، ويقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن لا يغني حذر عن قدر، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

والمعنى: قد علمت أيها الرسول الكريم، أو أيها الإنسان العاقل- حال أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم التي ألفوها واستوطنوها، وهم ألوف مؤلفة، وكثرة كاثرة، وما كان خروجهم إلا فرارًا وخوفًا من الموت الذي سيلاقيهم- إن عاجلًا أو آجلًا-.

ومن لم يعلم حالهم فها نحن أولاء نعلمه بها، ونحيطه بما جرى لهم عن طريق هذا الكتاب، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والمقصود من هذه الآية الكريمة: حض الناس جميعًا على الاعتبار والاتعاظ، وزجرهم عن الفرار من الموت هلعًا وجبنًا، وتحريضهم على القتال في سبيل الله، فقد قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وإفهامهم أن الفرار من الموت لن يؤدى إلا إلى الوقوع فيه[2].

وهذه القصة عبرة وعظة يراد مغزاها، ولا تراد أحداثها وأماكنها وأزمانها، وتحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئًا على عبرة القصة ومغزاها، إنما يراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة، وأسبابهما الظاهرة، وحقيقتهما المضمرة، ورد الأمر

الزهد والرقائق، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ٤/ ٢٢٩٥، رقم ٢٩٩٨.

(١) شرح السنة، البغوي، ١٣/ ٨٨.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٥٥٥.

فيهما إلى القدرة المدبرة. والاطمئنان إلى قدر الله فيهما، والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع؛ فالمقدر كائن، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف.

يراد أن يقال: إن الحذر من الموت لا يجدي، وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلًا، ولا يردان قضاء، وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة، وإنه متفضل في الحالتين: حين يهب، وحين يسترد، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة، وخلف الاسترداد، وإن مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك، وإن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء[1].

وقد كان المنافقون يحرصون كل الحرص على إخفاء مخططاتهم وأقوالهم الشنيعة، ويحذرون أن يسمع بها أحد غيرهم، فذم الله هذا الحذر المذموم فقال: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

أي: يخاف المنافقون ويتحرزون أن تنزل على المؤمنين سورة تكشف أحوالهم، وتفضح أسرارهم، وتبين نفاقهم، وتخبرهم بحقيقة وضعهم، فيفتضح أمرهم، وتنكشف أسرارهم[2].

قال السدي: «قال بعض المنافقين: والله وددت لو أني قدمت؛ فجلدت مائة جلدة، ولا ينزل فينا شيء بفضحنا؛ فنزلت الآية»[3].

قال القرطبي: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ نزلت في شأن المنافقين تخبرهم بمخازيهم ومساوئهم ومثالبهم، ولهذا سميت بالفاضحة والمثيرة والمبعثرة، وقال الحسن: كانوا يسمون هذه السورة الحفّارة؛ لأنها حفرت ما في قلوب المنافقين؛ فأظهرتها[4].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٢٦٤.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢٨٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ١٩٥.
(٤) المصدر السابق ٨/ ١٩٦.

مجالات المحذور منه في القرآن

إن الكلام عن مجالات المحذور منه في القرآن الكريم يتطلب بيان الحذر من الله تعالى ونقمته، وعذابه، والحذر من مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، والحذر من فتنة الإعراض والصد عن الصراط المستقيم، والحذر من الموت، والحذر من كيد الشيطان والكافرين والمنافقين، والحذر من طاعة الأزواج والأولاد فيما يغضب الله سبحانه ، وتفصيل هذه الأمور فيما يأتي:

أولًا: الحذر من الله تعالى:

حذر الله عباده المؤمنين من عذابه ونقمته في مواضع من كتابه العزيز، وهدد المخالفين المتواطئين على مصلحة الأمة ومصيرها.

فقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٨-٣٠].

ومعنى ذلك: لا تتخذوا، أيها المؤمنون، الكفار ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلّونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾، يعني بذلك: فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلا أن تكونوا في سلطانهم؛ فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل[1].

قال ابن عباس: كان الحجاج بن عمرو وكهمس بن أبي الحقيق وقيس بن زيد -وهؤلاء كانوا من اليهود يباطنون[2] نفرًا من الأنصار؛ ليفتنوهم عن دينهم- فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا لزومهم ومباطنتهم؛ لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الكلبي: نزلت في المنافقين: عبد الله بن أبي وأصحابه، كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٣١٣.
(٢) أي: يألفونهم ويوالونهم.

عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم.

وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري، وكان بدريًّا نقيبًا، وكان له حلفاء من اليهود، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب، قال عبادة: يا نبي الله إن معي خمسمائة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية[1].

وأتبع النهي بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾، يقول سيد قطب: «فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه في صورة عجيبة من التعبير حقًّا»[2].

وبعد التحذير المفهوم من السياق يورد تحذيرًا صريحًا، وذلك بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وهذا تهديد عظيم لمن تعرض لسخطه بموالاة أعدائه؛ لأن شدة العقاب بحسب قوة المعاقب وقدرته[3].

وهذا التحذير فيه ما فيه من التهديد والتخويف من موالاة الكافرين؛ لأن التحذير من ذات الله، يقتضي الخوف ووقوع الرهبة في النفس من الذات العلية[4].

وما يزال التحذير مستمرًّا متجددًا مع السياق القرآني حتى يصل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال[5].

و«قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إتمامًا للتحذير، وذلك لأنه لما بين أنه تعالى عالم بكل المعلومات كان عالمًا بما في قلبه، وكان عالمًا بمقادير استحقاقه من الثواب والعقاب، ثم بين أنه قادر على جميع المقدورات، فكان لا محالة قادرًا على إيصال حق كل أحد إليه، فيكون في هذا تمام الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب»[6].

ثم يتابع السياق الحملة على القلب البشري، فيكرر تحذير الله للناس من نفسه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ويذكرهم برحمته في هذا التحذير، والفرصة متاحة

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص ١٠٢.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٣٨٦.
(٣) تفسير المراغي ٣/ ١٣٨.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٧٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣١.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٩٥.

قبل فوات الأوان ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ ومن رأفته هذا التحذير وهذا التذكير، وهو دليل على إرادة الخير والرحمة للعباد[1].

والحكمة من تكرار قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ مرتين في ثلاث آيات، ذكرها ابن حيان في البحر المحيط، فقال: «كرر التحذير للتوكيد والتحريض على الخوف من الله بحيث يكونون ممتثلي أمره ونهيه، ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ لما ذكر صفة التخويف وكررها، كان ذلك مزعجًا للقلوب، ومنبها على إيقاع المحذور مع ما قرن بذلك من اطلاعه على خفايا الأعمال وإحضاره لها يوم الحساب، وهذا هو الاتصاف بالعلم والقدرة اللذين يجب أن يحذر لأجلهما، فذكر صفة الرحمة ليطمع في إحسانه، وليبسط الرجاء في أفضاله، فيكون ذلك من باب ما إذا ذكر ما يدل على شدة الأمر، ذكر ما يدل على سعة الرحمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٦٥]»[2].

والتحذير في قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

رحمة من الله سبحانه ؛ لئلا يغتروا به، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته. قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد: حذرهم من نفسه؛ لئلا يغتروا به[3].

وفي هذه التحذير دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصداقتهم، والميل إليهم والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين[4].

ومن الآيات الدالة على الحذر من الله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَٰعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فبعد أن بين الله سبحانه وتعالى جملة من الأحكام المتعلقة بقضايا الأسرة، حذر من مخالفتها ومخالفة أمره، وهذا رصد لما في النفوس من وساوس وخواطر، ونيات منعقدة على الخير أو الشر، ومبيتة للإخلاص أو الخداع، فالله سبحانه وتعالى مطلع على كل شيء، مجاز على كل شيء؛ فليحذره أولئك الذين يدبرون السوء،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٣٨٦.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ١٠٢.
(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٧٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٢٧.

وينوون الغدر[1].

قال الطبري: «واعلموا، أيها الناس، أن الله يعلم ما في أنفسكم من هواهن ونكاحهن وغير ذلك من أموركم، فاحذروه. يقول: فاحذروا الله واتقوه في أنفسكم أن تأتوا شيئًا مما نهاكم عنه، من عزم عقدة نكاحهن، أو مواعدتهن السر في عددهن، وغير ذلك مما نهاكم عنه في شأنهن في حال ما هن معتدات، وفي غير ذلك»[2].

وقد جاء هذا التحذير عقب ذكر الأحكام السابقة على سنن القرآن من القرن بين الأحكام بالمواعظ؛ ترغيبًا وترهيبًا، وتشجيعًا على التزام أوامر الله وترك نواهيه[3].

قال الألوسي: «﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما لا يجوز أو من ذوات الصدور التي من جملتها ذلك ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ ولا تعزموا عليه أو- احذروه- بالاجتناب عن العزم ابتداء أو إقلاعًا عنه بعد تحققه»[4].

وهذا الربط بين التشريع وخشية الله، المطلع على السرائر؛ نظرًا للمشاعر المكنونة والعلاقات الحساسة العالقة بالقلوب، الغائرة في الضمائر، فالقضية بين رجل وامرأة، وخشية الله والتحذير مما يجول ويحيك في الصدور هي الضمانة الأخيرة لتنفيذ التشريع.

فإذا هز الضمير البشري هزة الخوف والحذر؛ فصحا وارتعش رعشة التقوى عاد؛ ليملأ بالطمأنينة والثقة بعفو الله وحلمه ومغفرته[5].

وبعد أن أمر الله تعالى بالحذر قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: ولولا مغفرته وحلمه؛ لعنتّم غاية العنت؛ فإنه سبحانه مطلع عليكم، يعلم ما في قلوبكم، ويعلم ما تعملون، فإن وقعتم في شيء فما نهاكم عنه؛ فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار. فإنه هو الغفور الحليم[6].

وفي هذا التحذير قرن الأحكام بالموعظة ترغيبًا وترهيبًا؛ لتأكيد المحافظة عليها[7]، وهذا نهاية التحذير من الوقوع فيما نهى عنه؛ لأن الله توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيّسهم من رحمته، ولم يقنطهم من عائدته[8]. وفي الآية دليل على وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن واتقاء الأسباب المفضية بالعبد إلى فعل

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ١/ ٢٨٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٥/ ١١٧.
(٣) تفسير المراغي، ٢/ ١٩٥.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١/ ٥٤٥.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٥٦.
(٦) التفسير القيم، ابن القيم ص ١٥٠.
(٧) التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٣٧٩.
(٨) المصدر السابق ٢/ ٣٨٢.

محرم.

ثانيًا: الحذر من مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم:

أمر الله سبحانه أن يبجّل نبيه صلى الله عليه وسلم ويعظّم، فلا يدعى باسمه بأن يقال: يا محمد، ولكن يقال: يا نبي الله، يا رسول الله، ولا يقاس دعاؤه كدعاء بعضنا بعضًا في جواز الإعراض والتساهل في الإجابة، والانصراف من مجلسه بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته صلى الله عليه وسلم واجبة، والرجوع عن مجلسه بغير إذن محرم، ثم حذر سبحانه وتوعد المخالفين لتلك الأوامر والآداب.

فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال: هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - ويعني بالحديث الخطبة - فيلوذون ببعض الصحابة حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة بعدما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب بطلت جمعته[(١)].

وذكر البغوي أنها نزلت في ظروف حفر الخندق ووقعة الأحزاب، حيث كان المنافقون ينسحبون تسللًا وخفية من المعسكر، ولا ينفذون أوامر النبي صلى الله عليه وسلم[(٢)].

وهذا الحكم يعم كل من خالف أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، وليست خاصة بالمنافقين فقط[(٣)].

يقول الألوسي في معنى هذه الآية: «أي: لا تقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام إياكم على دعاء بعضكم بعضًا في حال من الأحوال، وأمر من الأمور، التي من جملتها المساهلة فيه، والرجوع عن مجلسه عليه الصلاة والسلام بغير استئذان؛ فإن ذلك من المحرمات، وإلى نحو هذا ذهب أبو مسلم واختاره المبرد والقفال. وقيل: المعنى لا تحسبوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض؛ فتعرضوا لسخطه ودعائه عليكم عليه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٨/ ٢٦٥٦، رقم ١٤٩٣٤.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٤٣٣.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٣١٦.

الصلاة والسلام بمخالفة أمره والرجوع عن مجلسه بغير استئذان ونحو ذلك، وهو مأخوذ مما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وروي عن الشعبي، وتعقبه ابن عطية بأن لفظ الآية يدفع هذا المعنى، وكأنه أراد أن الظاهر عليه على بعض. وقيل: إنه يأباه بينكم وهو في حيز المنع، وقيل: المعنى: لا تجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل كدعاء صغيركم كبيركم وفقيركم وغنيكم، يسأله حاجته فربما أجابه وربما رده، فإن دعاءه صلى الله عليه وسلم مستجاب لا مرد له عند الله عز وجل، فتعرضوا لدعائه لكم بامتثال أمره، واستئذانه عند الانصراف عنه إذا كنتم معه على أمر جامع، وتحققوا قبول استغفاره لكم، ولا تتعرضوا لدعائه عليكم بضد ذلك»[1].

يقول المراغي: «فليتق الله من يفعلون ذلك منكم، فينصرفون عن رسول الله بغير إذنه، أن تصيبهم محنة وبلاء في الدنيا، أو يصيبهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة، بأن يطبع الله على قلوبهم؛ فيتمادوا في العصيان ومخالفة أمر الرسول، فيدخلهم النار وبئس القرار.

والآية تعم كل من خالف أمر الله، وأمر رسوله، وجمد على التقليد من بعد ما تبين له الهدى، وظهر له الصواب من الخطأ»[2].

«فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه، وهي لفتة ضرورية، فلا بد للمربي من وقار، ولا بد للقائد من هيبة، وفرق بين أن يكون هو متواضعًا هينًا لينًا، وأن ينسوا هم أنه مربيهم؛ فيدعوه دعاء بعضهم لبعض.. يجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير»[3].

«وهذه الآية تحكم الصلة التي بين المؤمنين وبين النبي صلوات الله وسلامه عليه بعد أن جاءت الآية السابقة؛ لتحكم الصلة بين أفراد المجتمع الإسلامي، وأنها صلة وثيقة العرى، ملاكها السمع والطاعة لرسول الله من كل مؤمن ومؤمنة»[4].

وفي هذه الآية تأديب للمؤمنين إزاء مجالس الرسول ودعائه، وتنويه بالذين يتصرفون في ذلك بما يليق بمركزه ومقامه، فلا يتركون مجالسه إلّا لعذر وبعد الاستئذان منه وإذنه. فهم المؤمنون حقًّا بالله ورسوله. وتنديد بالذين يتصرفون في ذلك تصرفًا غير لائق فيتسللون من مجالسه. وإنذار دنيوي

(١) روح المعاني، الألوسي ٩/ ٤١٤.

(٢) تفسير المراغي ١٨/ ١٤١-١٤٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٣٥.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٣٣٤.

وأخروي لهم[1].

وبهذه الآية احتج الفقهاء على أن الأمر على الوجوب، ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فتحرم مخالفته، فيجب امتثال أمره[2].

عن قتادة، في قوله: «﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

قال: أمرهم الله أن يفخموه ويشرفوه صلى الله عليه وسلم»[3].

وهذه الآيات تدل على أن من رد شيئًا من أوامر الله والرسول؛ فهو خارج عن الإسلام، سواء رده من جهة الشرك، أو من جهة التمرد، وذلك يوجب صحة ما ذهبت إليه الصحابة رضي الله عنهم من الحكم بارتداد مانعي الزكاة، وقتلهم، وسبي ذراريهم[4].

ثالثًا: الحذر من العذاب:

من صفات المؤمن التقي: الحذر من عذاب الله وغضبه؛ فالله تعالى يعلم كل شيء، ولا تخفى عليه خافية، وقد أخبرنا ربنا سبحانه أن عذابه هو الذي يجب أن يحذر، فلا يبلغه أي عذاب، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه، ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه عند ضرّ ينزل بكم، فانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم، أو تحويله عنكم إلى غيركم، فتدعوهم آلهة؛ فإنهم لا يقدرون على ذلك، ولا يملكونه، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم. وقيل: إن الذين أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذا القول، كانوا يعبدون الملائكة وعزيرًا والمسيح، وبعضهم كانوا يعبدون نفرًا من الجنّ.

وهؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أربابًا ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: يبتغي المدعوّون أربابًا إلى ربهم القربة والزّلفة؛ لأنهم أهل إيمان به، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أيهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته

(١) التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، ٨/ ٤٥٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٣٢٢.
(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة، ٢/ ٦٦٤، رقم ٧٢٠.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٦/ ٤٥٦.

أقرب عنده زلفة ﴿وَيَرْجُونَ﴾ بأفعالهم تلك ﴿رَحْمَتَهُ﴾ ويخافون أمره ﴿عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿كَانَ مَحْذُورًا﴾ متقى[1].

وكان سبب نزول هاتين الآيتين ما أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال: «كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧][2].

وعلى الرغم من هذه الرواية؛ فقد اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية على أقوال:

أحدها: أنها نزلت في نفر من الجن كان يعبدهم قوم من الإنس؛ فأسلم الجن ابتغاء الوسيلة عند ربهم، وبقي الإنس على كفرهم؛ قاله عبد الله بن مسعود.

الثاني: أنهم الملائكة، كانت تعبدهم قبائل من العرب، وهذا مروي عن ابن مسعود أيضًا .

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٧١.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (قل ادعوا الذين زعمتهم من دونه)، ٦/ ٨٥، رقم ٤٧١٤.

الثالث: هم وعيسى وأمّه، قاله ابن عباس ومجاهد. وهم المعنيّون بقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾[3].

وفي الجملة: هذه الآيات في عبادة غير الله عز وجل[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ تذييل قصد به التعليل لما قبله وهو خوف العذاب[5]، الذي ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله[6].

قال أبو السعود: «حقيقًا بأن يحذره كلّ أحدٍ، حتى الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو تعليلٌ لقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ وتخصيصه بالتعليل؛ لما أن المقام مقام التحذير من العذاب، وأن بينهم وبين العذاب بونًا بعيدًا»[7].

وتقديم الرجاء على الخوف؛ لما أن متعلقه أسبق من متعلقه، ففي الحديث القدسي: (سبقت رحمتي غضبي)[8]، وفي اتحاد أسلوبي الجملتين إيماء إلى تساوي رجاء أولئك الطالبين للوسيلة إليه تعالى

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٥٠.
(٤) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٣٦١.
(٥) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٣٧٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٨٩.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٧٩.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (في لوح محفوظ)، ٩/ ١٦٠، رقم ٧٥٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، ٤/ ٢١٠٨، رقم ٢٧٥١.

بالطاعة والعبادة وخوفهم، وقد ذكر العلماء أنه ينبغي للمؤمن ذلك ما لم يحضره الموت فإذا حضره الموت ينبغي أن يغلّب رجاءه على خوفه[1].

وفي الآيات بيان حقيقة عقلية، وهي: أن دعاء الأولياء والاستغاثة بهم، والتوسل إليهم بالذبح والنذر أمر باطل ومضحك في نفس الوقت؛ إذ الأولياء كانوا قبل موتهم يطلبون الوسيلة إلى ربهم بأنواع الطاعات والقربات، ومن كان يعبد لا يعبد. ومن كان يتقرب لا يتقرّب إليه، ومن كان يتوسّل لا يتوسل إليه، بل يعبد الذي كان يعبد، ويتوسل إلى الذي كان يتوسل إليه، ويتقرب إلى الذي كان يتقرب إليه، وهو الله سبحانه وتعالى[2].

ومن الآيات الدالة على الحذر من العذاب: ما وصف الله به عبده المؤمن بأنه حذر من عذاب الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٨ - ٩].

هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تباينها، وعلم علمًا يقينًا تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه، كمن هو قانت أي: مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن[3].

يقول سيد قطب: الآية الأولى عرضت الصورة النكدة من الإنسان، مقابل صورة أخرى، صورة القلب الخائف الوجل، الذي يذكر الله، ولا ينساه في سراء ولا ضراء، والذي يعيش حياته على الأرض في حذر من الآخرة، وفي تطلع إلى رحمة ربه وفضله، وفي اتصال ينشأ عنه العلم الصحيح المدرك لحقائق الوجود.

هذه صورة مشرقة مرهفة؛ فالقنوت والطاعة والتوجه وهو ساجد وقائم، وهذه الحساسية المرهفة وهو يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه، وهذا الصفاء وهذه الشفافية التي تفتح البصيرة، وتمنح القلب

(١) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٩٥.
(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢٠٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢٠.

نعمة الرؤية والالتقاط والتلقي، هذه كلها ترسم صورة مشرقة مضيئة من البشر تقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التي رسمتها الآية السابقة، فلا جرم يعقد هذه الموازنة[1].

رابعًا: الحذر من الفتن:

أعظم فتنة قد تصيب العبد: فتنة الإعراض والصد عن الصراط المستقيم، ولقد حذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم من هذه الفتنة، فقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وذكر الواحدي في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس قال: إن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد عليه الصلاة والسلام ؛ لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن اتبعناك؛ اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قوم خصومة ونحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[2].

«والمعنى: وأنزلنا إليك الكتاب -يا محمد- فيه حكم الله، وأنزلنا إليك فيه أن أحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، واحذرهم أن يضلوك أو يصدوك عن بعض ما أنزلناه إليك -ولو كان أقل قليل- ؛ بأن يصوروا لك الباطل في صورة الحق، أو بأن يحاولوا حملك على الحكم الذي يناسب شهواتهم، وقد كرر سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم وجوب التزامه في أحكامه بما أنزل الله؛ لتأكيد هذا الأمر في مقام يستدعى التأكيد؛ لأن اليهود كانوا لا يكفون عن محاولتهم فتنته صلى الله عليه وسلم وإغرائه بالميل إلى الأحكام التي تتفق مع أهوائهم، ولأنه قد جاء في الآية السابقة ما قد يوهم بأن لكل قوم شريعة خاصة بهم ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وأن حكم القرآن ليس له صفة العموم فأراد سبحانه أن ينفى هذا الوهم نفيًا واضحًا وأن يؤكد أن شريعة القرآن هي الشريعة العامة الخالدة، التي يجب أن يتحاكم إليها الناس في كل زمان ومكان؛ لأنها نسخت ما سبقها من شرائع»[3].

وإنما حذره وهو رسول مأمون؛ لقطع

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣٠٤٢.

(٢) أسباب النزول ص ١٩٨.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ١٨٥.

أطماع القوم[1].

وقد جاء هذا التحذير مسبوقًا بأمرين، سبق بمقدمةٍ له وهذه المقدمة جاءت بأسلوبين:

أحدهما أمر، وهو ﴿ٱحۡكُم﴾، والآخر نهي وهو ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾. وهذا فيه تأكيد لأهمية المحذّر منه.

قال سيد قطب: فالتحذير هنا أشد وأدق، وهو تصوير للأمر على حقيقته، فهي فتنة يجب أن تحذر، والأمر في هذا المجال لا يعدو أن يكون حكمًا بما أنزل الله كاملًا، أو أن يكون اتباعًا للهوى وفتنة يحذر الله منها... فإن تولوا فلا عليك منهم، ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم الله وشريعته، ولا تجعل إعراضهم يفت في عضدك أو يحولك عن موقفك؛ فإنهم إنما يتولون ويعرضون؛ لأن الله يريد أن يخزيهم على بعض ذنوبهم، فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض، لا أنت ولا شريعة الله ودينه، ولا الصف المسلم المستمسك بدينه، ثم إنها طبيعة البشر ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ فهم يخرجون وينحرفون؛ لأنهم هكذا، ولا حيلة لك في هذا الأمر، ولا ذنب للشريعة، ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق[2].

وفي الآية دليل على جواز النسيان على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قال: ﴿أَن يَفۡتِنُوكَ﴾ وإنما يكون ذلك عن نسيان لا عن تعمد[3].

وفي هذه الآية تحذير شديد من اتباع أهواء الناس خشية الإضلال عن الحق، ووجوب الحكم في كل القضايا بما أنزل الله، ولا يجوز الاحتكام إلى أية شريعة، أو قانون غير الوحي الإلهي، المتمثل في الكتاب والسنة.

فليحذر المسلم من الانزلاق إلى متابعة الهوى، وترك الحق بحجة تكثير السواد، أو بحجة قبول الدعوة وانتشارها؛ فإنّ دعوة الله ليست بحاجة إلى تكثير سواد أتباعها من طريق الخيانة، وإرضائهم بالباطل وبما يسخط الله تعالى .

خامسًا: الحذر من الموت:

حذر الله سبحانه وخوف من الموت كثيرًا؛ لكي يبتعد الإنسان عن المعاصي، ويقترب من الطاعات، إلا أن لفظ الحذر من الموت لم يرد في القرآن الكريم بصورته الصريحة إلا في موضعين في القرآن الكريم:

١ . حذر الموت من شدة الصواعق.

ذكر الله تعالى حال المنافقين ومن أي شيء يحذرون، فقال تعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٥٢.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٩٠٤.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٦/ ٢٢١.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

فمثّل الله تعالى بهذا المثل المائي؛ لبيان مدى الاضطراب والحيرة الذي يعيشه المنافقون، بسبب اختلاف المواقف، والخوف والحذر من تعرضهم للموت والهلاك؛ بانكشاف أمرهم وافتضاح حالهم.

المعنى: مثلهم كصاحب صيب من السماء، وهو المطر الذي يصوب، أي: ينزل بكثرة، ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر، ﴿وَرَعۡدٞ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب، ﴿وَبَرۡقٞ﴾ وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾ أي: وقفوا.

فهكذا حال المنافقين، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده؛ جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعده ووعيده، فيروعهم وعيده وتزعجهم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت، فهذا تمكن له السلامة. وأما المنافقون فأنى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم، قدرة وعلمًا فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم، والبكم، والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي: الحسيّة، ففيه تحذير لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية؛ ليحذروا، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئًا فعله من غير ممانع ولا معارض[1].

وقال البقاعي في معنى الآية: أو مثلهم في سماع القرآن الذي فيه المتشابه والوعيد والوعد كأصحاب صيب، أي: مطر عظيم نازل من السماء، ومثّل القرآن بهذا؛ لمواترة نزوله وعلوه وإحيائه القلوب كما أن الصيّب يحيي الأرض، ثم أخبر عن حاله بقوله: فيه ظلمات؛ لكثافة السحاب واسوداده، ورعد، أي: صوت مرعب يرعد عند سماعه، وبرق، أي: نور مبهت، والظلمات مثل ما لم يفهموه، والرعد ما ينادي عليهم بالفضيحة والتهديد، والبرق ما يلوح لهم معناه، ويداخلهم رأي في استحسانه، ولما تم المثل القرآني استأنف الخبر عن حال الممثّل لهم، فقال: يجعلون أصابعهم، أي: بعضها، ولو قدروا لحشو الكل؛ لشدة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤.

خوفهم من الصواعق؛ لأن هولها يكاد أن يصم، ثم علل ذلك بقوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ والحال أنه لا يغنيهم من قدره حذر[1].

فالحركة التي تغمر المشهد كله: من الصيب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة، التي تقف عندما يخيم الظلام ترسم حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون، بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين، وبين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة، وبين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام، فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ويجسم صورة شعورية، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس[2].

٢. حذر الموت لا يمنع قدر الله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوباء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة؛ فرارًا من الموت، فلم ينجهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون؛ فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم[3].

قال ابن عاشور: وقد اختلف في المراد من هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم، والأظهر أنهم قوم خرجوا خائفين من أعدائهم فتركوا ديارهم جبنًا، وقرينة ذلك عندي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ فإنه الجملة حال، وهي محل التعجب، وإنما تكون كثرة العدد محلًا للتعجب، إذا كان المقصود الخوف من العدو، فإن شأن القوم الكثيرين ألا يتركوا ديارهم خوفًا وهلعًا، والعرب تقول للجيش إذا بلغ الألوف: لا يغلب من قلة، فقيل: هم من بني إسرائيل خالفوا على نبي لهم في دعوته إياهم للجهاد، ففارقوا وطنهم؛ فرارًا من الجهاد، وهذا الأظهر، فتكون القصة تمثيلًا لحال أهل الجبن في القتال بحال الذين خرجوا من ديارهم بجامع الجبن[4].

فهذا هو الخوف والحذر الذي يولده الجبن في أنفس الجبناء، فيخيل إليهم أن الفرار من القتال هو الواقي من الموت، وما هو إلا وسيلة تدني إليه، فهو يمكن العدو من الرقاب، ويحفزه إلى الفتك بهم، استهانة

(١) نظم الدرر، البقاعي ١/ ١٢٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٤٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥١.
(٤) التحرير والتنوير، ٢/ ٤٧٧.

بأمرهم[1].

وفي هذه الآية دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصًا الأسباب التي تترك بها أوامر الله. وفيها: آية عظيمة بإحياء الموتى عيانًا في هذه الدار[2].

سادسًا: الحذر من العدو:

خاطب الله المؤمنين، وأمرهم بجهاد الكفار والخروج في سبيل الله وحماية الشرع، وأمرهم أن لا يقتحموا على عدوهم على جهالة؛ حتى يتحسسوا ما عندهم ويعلموا كيف يردون عليهم، فذلك أثبت لهم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّۖ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٧١-٧٣].

قال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب، التي بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم، من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم، ومخارجهم، ومكرهم، والنفير في سبيل الله.

ولهذا قال: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أي: متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش، ويقيم غيرهم ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية، والراحة للمسلمين في دينهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾.

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ﴾ أي: أيها المؤمنون ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفًا وخورًا وجبنًا، هذا الصحيح.

وقيل معناه: ليبطئن غيره، أي: يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون، ولكن الأول أولى لوجهين:

أحدهما: قوله ﴿مِنكُمۡ﴾ والخطاب للمؤمنين.

والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾.

فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة، و أيضًا فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين:

- صادقون في إيمانهم أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد.
- وضعفاء دخلوا في الإسلام فصار

(١) تفسير المراغي ٢/ ٢٠٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٧.

معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد»[1].

وفي هذه الآية أمر من الله سبحانه للناس بالجهاد سرايا متفرقة أو مجتمعين على الأمير، فإن خرجت السرايا فلا تخرج إلا بإذن الإمام؛ ليكون متحسسًا إليهم وعضدًا من ورائهم، وربما احتاجوا إلى درئه[2].

وقوله: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ تفريع عن أخذ الحذر؛ لأنهم إذا أخذوا حذرهم تخيروا أساليب القتال بحسب حال العدو[3].

ومعنى الأمر بالحذر: ألا يخرج المجاهدون المؤمنون فرادى للسرايا أو المهام الجهادية، بل يخرجون سرايا وفصائل، أو يخرجون جميعًا في جيش متكامل؛ لأن الأرض حولهم ملغمة، والعداوات حولهم شتى، والكمين قد يكون كامنًا بينهم من المنافقين واليهود وغيرهم، فأخذ الحذر ليس من العدو الخارجي فحسب، ولكن أيضًا من المعوقين المبطئين المخذلين، الذين سقطت همتهم وغلب عليهم حب المنفعة القريبة، والتلوّن من حال إلى حال، حسب اختلاف الأحوال، فقد كانوا يبطئون أنفسهم وغيرهم، وتصورهم للربح والخسارة هو التصور الذي يليق بالمنافقين الضعاف[4].

والمتأمل لهذه الآيات يجد أنها قد حددت قواعد القتال، وأوجبت أن تكون الحرب لغرض شريف، وأول هذه القواعد: التزام الحذر، ومراقبة تحركات العدو، والإعداد اللازم لملاقاته في أي وقت، فقد يباغتنا العدو في أي لحظة، ويستغل بعض الظروف والأزمات، وعندها يكون الاستعداد السابق مفوتًا لأغراضه الدنيئة، وملحقًا به الهزيمة المنكرة[5].

وأمر الله سبحانه بأخذ الحذر من غدر العدو في ميدان القتال، فقال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

وهذه الآية الكريمة تدل دلالة صريحة قاطعة على وجوب أخذ الحذر، بل وتبين للمسلمين كيفية الحذر مما يدل على

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٦.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٥٨١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١١٧.
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٧٠٥.
(٥) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٣٤٤.

أهميته، فالأمر بأخذ الأسلحة، والأمر بأن يكون بعض المسلمين وراء المصلين يحمونهم من العدو، وتقسيم المسلمين إلى طائفتين، طائفة تصلي، وطائفة تحرس، والأمر بأخذ الحذر، وبيان أن الكفار يرغبون أن يترك المسلمون الحذر وأخذ أسبابه حتى يستأصلوا المسلمين مرة واحدة، كل ذلك دليل على وجوب الحيطة والتحرز، وأخذ الحذر من المكروه المتوقع.

وقد روى الواحدي سبب نزول هذه الآية بسنده عن ابن عباس قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقي المشركين بعسفان، فلما صلى رسول الله عليه الصلاة والسلام الظهر، فرأوه يركع ويسجد هو وأصحابه، قال بعضهم لبعض: كان هذا فرصة لكم، لو أغرتم عليهم، ما علموا بكم حتى تواقعوهم، فقال قائل منهم: فإن لهم صلاة أخرى، هي أحب إليهم من أهليهم وأموالهم، فاستعدوا حتى تغيروا عليهم فيها، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ وأعلم ما ائتمر به المشركون، وذكر صلاة الخوف[1].

يقول ابن جزي الكلبي: شرعت صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع، حيث أخبر الله نبيه عمّا جرى من عزم الكفار على الإيقاع بالمسلمين إذا اشتغلوا بصلاتهم، ونزل جبريل بصلاة الخوف حذرًا من الكفار. واختلف في صلاة الخوف على عشرة أقوال؛ لاختلاف الأحاديث فيها، ولسنا مضطرين إلى ذكرها؛ لأن تفسيرها لا يتوقف على ذلك، حيث يقسم الإمام المسلمين على طائفتين، فيصلي بالأولى نصف الصلاة، وتقف الأخرى تحرس، ثم يصلي بالثانية نصف الصلاة، وتقف الأولى تحرس، واختلف هل تتم كل طائفة صلاتها وهو مذهب الجمهور، أم لا ؟ وعلى القول بالإتمام: اختلف هل يتمونها في إثر صلاتهم مع الإمام أو بعد ذلك[2].

وجمع الله تعالى في هذه الآية بين الأمر بالحذر وتهديد الكافرين بالعذاب المهين؛ لأن الأمر بالحذر من العدو يوهم توقع غلبته واعتزازه، فنفى عنهم ذلك الإيهام بالإخبار أن الله يهين الكافرين ويخذلهم وينصر المؤمنين عليهم؛ لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لذلك، وإنما هو تعبد من الله[3].

ولما رخص الله للمؤمنين بوضع السلاح حال المطر وحال المرض أمرهم مرة أخرى بالتيقظ والتحفظ والمبالغة في الحذر، لئلا يجترئ العدو عليهم احتيالًا في الميل

(١) أسباب النزول ص ١٨٠.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٧٩.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٦٠.

عليهم واستغنامًا منهم لوضع المسلمين أسلحتهم[1].

ويعدّ هذا النص من جملة التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة، وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة في ساحة المعركة؛ لأن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة، فلا بد من تنظيم هذا السلاح بما يتناسب مع طبيعة المعركة، وهذه التعبئة الروحية، وهذا الحذر الذي يوصى به المؤمنون تجاه عدوهم الذي يتربص بهم لحظة غفلة عن أسلحتهم وأمتعتهم ليميلوا عليهم ميلة واحدة، ومع ذلك فهم يواجهون قومًا كتب الله عليهم الهوان والعذاب الأليم، وهذا التقابل بين التحذير والتطمين هو طابع منهج التربية الإلهية للصف المسلم في مواجهة عدوه الماكر اللئيم، بل لعل هذا الاحتياط، وهذه اليقظة، وهذا الحذر يكون إرادة ووسيلة لتحقيق العذاب الأليم الذي أعده الله للكافرين[2].

والحكمة العامة في الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى في الصلاة، أن الكفار يودون من صميم قلوبهم أن تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم، ولو بانشغالكم في الصلاة؛ فينقضون عليكم، ويميلون عليكم ميلة واحدة بالقتل والنهب، ولكن الله يريد لكم النصر والغلبة، فيأمركم بالاستعداد والحذر[3].

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم؛ لتقوى قلوبهم، وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر، فيتوكلوا على الله سبحانه وتعالى[4].

وفي هذه الآية أدلّ دليل على تعاطي الأسباب، واتخاذ كل ما ينجي ذوي الألباب، ويوصل إلى السلامة ويبلغ دار الكرامة.

مع التنبيه على أن الأخذ بالحذر وأسباب الحيطة واليقظة والتحرز لا يعني عدم الثقة بالله، ولا ينافي التوكل عليه؛ لأن الحذر من الأسباب، ومباشرة الأسباب لا تنافي التوكل، ولكن لا يجوز أبدًا الاطمئنان والركون إليها والتعلق بها؛ لأن الأسباب والمسببات بيد الله وحده، فهو الذي يهيئ السبب، وهو الذي يوفق إليه ويدل عليه، ويجعله مفضيًا إلى نتيجته، ولو شاء لسلبه ما به صار سببًا، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، بل إن المسلم يباشر الأسباب؛ لأن الله أمر بها ودعا إليها، ولكن يبقى القلب

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٠٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٧٤٨.
(٣) التفسير الواضح، الحجازي ١/ ٤٢٢.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٩٤.

معتمدًا على الله وحده، متلفتًا إليه متعلقًا به كأن صاحبه لم يباشر أي سبب أصلًا، وهذه كانت حالة سيد المتوكلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد باشر الأسباب في هجرته إلى المدينة ودخل مع صاحبه أبي بكر إلى الغار أخذًا بالحيطة والحذر، ولكن اعتماده لم يكن على ما باشره من أسباب، وإنما كان اعتماده على الله وحده، ولهذا لما شعر أبو بكر بالقلق على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهر عليه الحزن، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال له صلى الله عليه وسلم: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[1]، فكان نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتماده على معية الله لهما بالنصر والحفظ والتأييد لا على ما باشره من الأسباب.

سابعًا: الحذر من الشيطان:

بين الله عز وجل عداوة الشيطان وحذر منه فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

فهو أول عدو في طريق المؤمنين إلى دار السلام، عداوته قديمة قدم الحياة، منذ بدء الخليقة.

ونهانا ربنا عن اتباع خطوات الشيطان، وهي طرقه التي يدعو إليها من الفواحش والشهوات المحرمة، وترك الواجبات، وفعل المحرمات، وأخبرنا أن الشيطان لنا عدو، وأمرنا أن نتخذه عدوًّا وأنه يدعو أتباعه؛ ليكونوا من أهل النار فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

ومن أعظم مداخل الشيطان على العباد: إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، وصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٠-٩٢].

إنها دعوة للمؤمنين للحذر من الشيطان وكيده والتمسك بطاعة الله ورسوله، «والحذر من هذا الرجس، الذي بين يدى الشيطان يدعوهم إليه، ويغريهم به، وليس للمؤمنين بعد هذا البلاغ بلاغ، فإن تولّوا،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ٤/ ١٨٥٤، رقم ٢٣٨١.

ولم يستجيبوا لأمر الله؛ فلهم ما اختاروا، وليس لأحد سلطان عليهم إلا وازع ضمائرهم»[1].

وقد ذكر الواحدي في سبب نزول هذه الآية حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال: أتيت على نفر من الأنصار والمهاجرين، فقالوا: تعال نطعمك ونسقك خمرًا، وذلك قبل أن تحرم الخمر، قال: فأتيتهم في حشّ -والحش: البستان- فإذا رأس جزور مشوي عندهم، وزقّ من خمر، قال: فأكلت وشربت معهم، قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، قال: فأخذ رجل أحد لحيي الرأس فضربني به،فجرح بأنفي، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته فأنزل الله عز وجل فيّ -يعني نفسه- شأن الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠][2].

وأخرج النسائي عن عمر رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال عمر: «اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»، فنزلت الآية التي في البقرة، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال عمر: «اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء: ٤٣].

فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة نادى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء: ٤٣].

فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: «اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا»، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

قال عمر رضي الله عنه: «انتهينا انتهينا»[3].

ثم أكد الله تعالى التحريم وشدد في الوعيد فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

تأكيد للتحريم، وتشديد في الوعيد، وامتثال الأمر، وكفّ عن المنهي عنه، فإن خالفتم فما على الرسول إلا البلاغ في تحريم ما أمر بتحريمه، وعلى المرسل أن

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ٤/ ٢١- ٢٢.

(٢) أسباب النزول ص ٢٠٧.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ٤/ ١٨٧٧، رقم ١٧٤٨.

(٣) أخرجه النسائي، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر قال الله تبارك وتعالى: (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكما العداوة والبغضاء في الخمر والميسر)، ٨/ ٢٨٦، رقم ٥٥٤٠.

يعاقب أو يثيب بحسب ما يعصى أو يطاع[1].

وهذا الأمر أعم الأوامر؛ فإنه يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن[2].

وأمر سبحانه بطاعته وبطاعة رسوله، مع أن طاعة رسوله طاعة له سبحانه ؛ لتأكيد الدعوة إلى هذه الطاعة، ولتكريم الرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعلت طاعته مجاورة لطاعة الله تعالى[3].

وعطفت جملة: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ على جملة: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، وهي كالتذييل؛ لأن طاعة الله ورسوله تعم ترك الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وتعم غير ذلك من وجوه الامتثال والاجتناب، وكرر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ اهتمامًا بالأمر بالطاعة، وعطف ﴿وَاحْذَرُوا﴾ على ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي: وكونوا على حذر. وحذف مفعول ﴿وَاحْذَرُوا﴾؛ لينزل الفعل منزلة اللازم؛ لأن القصد التلبس بالحذر في أمور الدين، أي: الحذر من الوقوع فيما يأباه الله ورسوله، وذلك أبلغ من أن يقال: واحذروهما؛ لأن الفعل اللازم يقرب معناه من معنى أفعال السجايا، ولذلك يجيء اسم الفاعل منه على زنة (فعل) كفرح ونهم[4].

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ لفظة استفهام، ومعناه الأمر، أي: انتهوا، وهذا من أبلغ ما ينهى به؛ لأنه تعالى ذم الخمر والميسر وأظهر قبحهما للمخاطب، كأنه قيل: قد تدلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم منتهون مع هذه الأمور، أم أنتم على ما كنتم عليه كأنكم لم توعظوا ولم تنزجروا؟[5].

فليحذر المسلم من كيد الشيطان ومكره، وليعلم أنه يجب عليه طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فور وصول الأمر، وليكن لسان المؤمن عند سماعه النهي: انتهينا انتهيا.

ثامنًا: الحذر من المنافقين:

لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام، صار أناس يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر؛ ليبقى جاههم، وتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، وكانوا يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٧/ ٤٦
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٣.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٧٩.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/ ٣٠.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٧٦.

﴿مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

أي: إذا نظرت إليهم تروقك هيئاتهم ومناظرهم لما فيها من النضارة والرونق، وجمال الصورة، واعتدال الخلقة، وإن تكلموا حسن السماع لكلامهم، وظن أن قولهم حق وصدق؛ لفصاحتهم وحلاوة منطقهم، كأنهم أخشاب جوفاء منخورة مستندة إلى الحيطان، فهم مجرد كتل بشرية، لا تفهم ولا تعلم، وكانت لهم أجسام ومنظر تعجبك لحسنها وجمالها، وكان عبد الله بن أبيّ جسيمًا صبيحًا فصيحًا.

ومع ذلك كله فهم في غاية الضعف والخور والجبن، يحسبون كل صيحة يسمعونها أنها واقعة عليهم، نازلة بهم لإحساسهم بالهزيمة من الداخل، فهم الأعداء الألداء، فاحذر مؤامرتهم، ولا تطلعهم على شيء من أسرارك، لأنهم عيون لأعدائك من الكفار، لعنهم الله وطردهم من رحمته وأهلكهم، كيف يصرفون عن الحق والهدى إلى الكفر والضلال[1].

﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ على الحقيقة، لأن العدو البارز المتميز، أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين[2]. ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي: احذر أن تأمنهم على سرك؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار[3].

قال سيد قطب: «يصف الله المنافقين في الآية بأنهم أجسام تعجب الناظرين إليها، لكنهم حين يتكلمون وينطقون تدرك أنهم فارغون من كل معنى وحس وإدراك، فهم أشكال متحركة لكن قلوبهم خاوية من الإيمان والثقة بأنفسهم، وهم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد ظهر وبان، وسترهم قد انكشف، يتوجسون من كل حركة، ومن كل صوت، يحسبونه يطلبهم وقد عرف حقيقتهم، وهم بهذا يمثلون العدو الأول في المجتمع المسلم، عداوتهم نابعة من كفرهم الذي يخفونه في صدورهم مع تظاهرهم بالإيمان المزعوم ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ عدوٌ كامن يتربص الدوائر بالمؤمنين، وينتظر لحظة يشفي فيها غليله من المؤمنين، وهو بذلك أشد خطرًا من العدو الخارجي المعروف، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بقتلهم، بل أخذهم بخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] وجهان:

أحدهما: فاحذر أن تثق بقولهم أو تميل

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ٢١٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٤.
(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٣٠٣.
(٤) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٥٧٤.

إلى كلامهم.

الثاني: فاحذر ممايلتهم لأعدائك وتخذيلهم لأصحابك[1].

وفي هذا الآية «ما يشعر بحصر العداوة في المنافقين مع وجودها في المشركين واليهود، ولكن إظهار المشركين شركهم، وإعلان اليهود كفرهم مدعاة للحذر طبعًا.

أما هؤلاء فادعاؤهم الإيمان وحلفهم عليه، قد يوحي بالركون إليهم -ولو رغبة في تأليفهم-، فكانوا أولى بالتحذير منهم لشدة عداوتهم ولقوة مداخلتهم مع المسلمين، مما يمكنهم من الاطلاع على جميع شؤونهم»[2].

ووصفهم الله تعالى في هذه الآية بالعداوة؛ لأن التحذير منهم يقتضي وصفهم بالعداوة لا بالجبن[3].

وفي هذه الآيات تحذير من الاغترار بالمظاهر كحسن الهندام وفصاحة اللسان، فالحكم على الناس لا يكون بالأشكال والهيئات والمناظر، وإنما يكون بالحقائق المدركة، والأفعال الواقعة، والأقوال الصادقة، وقد كان المنافقون حسان الهيئة، فصيحي اللسان، ولكنهم أشباح بلا أرواح، وصور بلا معان.

فهم أعداء المؤمنين، الكاملون في العداوة لله ورسوله، فينبغي الحذر من أقوالهم، والحرص من تآمرهم.

تاسعًا: الحذر من طاعة الأزواج والأولاد فيما يغضب الله:

حب المسلم لأهله وولده قد يقعد به عن الجهاد في سبيل الله، ويحبب إليه الامتناع عن البذل حيث يحب الله منه البذل، وقد يمنعونه فعلًا عن الجهاد وعن العمل؛ ليوفر لهم الراحة والطمأنينة في زعمهم، وقد يستجيب لهم فيكون فعلهم هذا فعل الأعداء، والعدو يستحق الحذر والإفلات من مكيدته.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤-١٥].

فحذّر الله تعالى من فتنة الأزواج والأموال والأولاد، الذين يكونون سببًا في التقصير بالطاعة، والتورّط أحيانًا في المعصية، وناسب ذلك أن يأمر الله بالتقوى والإنفاق في سبيل الله؛ لأن ذلك هو رأس مال الإنسان، وسبيل إسعاده في الدنيا والآخرة، فلكل مرض علاج، وعلاج الانحراف المبادرة إلى الاستقامة، والتزام

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٢٦.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ١٩٢.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٠٦.

جادة الامتثال والطاعة[1].

عن ابن عباس قال: كان الرجل يسلم، فإذا أراد أن يهاجر منعه أهله وولده وقالوا: ننشدك الله أن تذهب فتدع أهلك وعشيرتك، وتصير إلى المدينة بلا أهل ولا مال، فمنهم من يرق لهم، ويقيم ولا يهاجر، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾.

قال عكرمة وابن عباس: وهؤلاء الذين منعهم أهلهم عن الهجرة لما هاجروا، ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوا أهليهم الذين منعوهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[2].

وأخرج الطبري عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلها بمكة، إلا هؤلاء الآيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ نزلت في عوف بن مالك الأشجعيّ، كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورقّقوه، فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرقّ ويقيم، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾[3].

ووجه عدواتهم كما يقول ابن العربي المالكي: «إن العدو لم يكن عدوًّا لذاته، وإنما كان عدوًّا بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو؛ كان عدوًّا، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد والطاعة»[4].

وهذا التنبيه والتحذير من الأزواج والأولاد يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية، فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة ملهاة عن ذكر الله، وقد يكونون دافعًا للتقصير في تبعات الإيمان، فيبخل ويجبن؛ ليوفر لهم الأمن والقرار، أو المتاع والمال، فيكونون بهذا عدوًّا له؛ لأنهم صدوه عن الخير، وهذا هو دافع التحذير من الله تعالى للمؤمنين؛ لإثارة اليقظة في قلوبهم، والحذر من تسلل هذه المشاعر، ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد.

وقد يراد بالفتنة الاختبار، فهذا يحتاج إلى تنبه وحذر ويقظة للنجاح في الابتلاء والامتحان، وقد يراد بها أنها توقعكم في المخالفة والمعصية، فلا بد من الحذر أيضًا حتى لا تجرفكم الفتنة وتبعدكم عن الله تعالى[5].

وفي قوله تعالى: ﴿عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ ثلاثة

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٦٧٥.
(٢) أسباب النزول ص ٤٣٤.
وأخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التغابن ٥/ ٤١٩، رقم ٣٣١٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٢٤.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٢٦٤.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٥٨٩.

أقوال:

أحدها: بمنعهم من الهجرة، وهو قول ابن عباس.

والثاني: بكونهم سببًا للمعاصي، وهو قول مجاهد.

والثالث: بنهيهم عن الإسلام، وهو قول قتادة[1].

قال السعدي: «هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاغترار بالأزواج والأولاد؛ فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذه وصفه، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد؛ فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي، ورغبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية، ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك، من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم؛ نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره»[2].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٩٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٨.

نماذج قرآنية من الحذرين

أولًا: حذر المؤمنين:

غاية الدعوة إلى الله التبشير بهذا الدين، وتبليغ أحكامه، وتخويف الناس عن ارتكاب ما نهى الله عنه، بطريقة وأسلوب يورث الحذر منه سبحانه وتعالى ويحقق الخشية المطلوبة؛ فأمر الله المؤمنين بالتفقه في الدين؛ ليتم الإنذار من خلاله، ويتحقق الحذر من بطش الله وعذابه فقال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال ابن عباس في رواية الكلبي: لما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين؛ لتخلفهم عن الجهاد، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن غزوة يغزوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سرية أبدًا، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسرايا إلى العدو نفر المسلمون جميعًا، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده بالمدينة، فأنزل الله تعالى هذه الآية[(١)].

قال النحاس: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ لفظ خبر، ومعناه أمر[(٢)].

والمعنى: لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا كلهم إلى الجهاد، بل يجب أن يصيروا طائفتين، طائفة تبقى في خدمة الرسول، وطائفة أخرى تنفر للجهاد؛ وذلك لأن الإسلام في ذلك الوقت كان محتاجًا إلى الجهاد، و أيضًا كانت التكاليف والشرائع تنزل، وكان بالمسلمين حاجة إلى من يكون مقيمًا بحضرة الرسول عليه الصلاة والسلام يتعلم تلك الشرائع والتكاليف، ويبلغها للغائبين، وبهذا الطريق يتم أمر الدين، وعلى هذا القول ففيه احتمالان:

أحدهما: أن تكون الطائفة المقيمة هم الذين يتفقهون في الدين لملازمتهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومشاهدتهم التنزيل؛ فكلما نزل تكليف وشرع؛ عرفوه وحفظوه، فإذا رجعت الطائفة النافرة من الغزو؛ أنذرتهم المقيمة ما تعلموه من التكاليف والشرائع، وعلى هذا فلا بد من إضمار، والتقدير: فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة، وأقامت طائفة؛ لتفقه المسلمين في الدين، ولينذروا قومهم، يعني النافرين إلى الغزو إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون معاصي الله تعالى .

والاحتمال الثاني: أن التفقه صفة للطائفة النافرة... والمعنى: فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة؛ حتى تصير هذه الطائفة النافرة فقهاء في الدين، أي: أنهم إذا شاهدوا ظهور

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص ٢٦٣.
(٢) إعراب القرآن، النحاس ٢/ ١٣٧.

المسلمين على المشركين، وأن العدد القليل منهم يغلبون العالم من المشركين؛ فيتبصروا ويعلموا أن ذلك بسبب أن الله تعالى خصهم إلى قومهم من الكفار أنذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر، والفتح، والظفر، لعلهم يحذرون؛ فيتركوا الكفر والنفاق[1].

قال الإمام الطبري: «إن أولى الأقوال بالصواب من قال: ليتفقه الطائفة النافرة بما تعاين من نصر الله أهل دينه وأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به؛ فيفقه بذلك من معاينته حقيقة علم أمر الإسلام وظهوره على الأديان من لم يكن فقهه، ولينذروا قومهم فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا وعاينوا... لعل قومهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك يحذرون، فيؤمنون بالله ورسوله، حذرًا أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروا خبرهم»[2].

قال سيد قطب: «إن هذا الدين منهج حركي، لا يفقهه إلا من يتحرك به، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه؛ بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به. أما الذين يقعدون؛ فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا؛ لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا، ولا فقهوا فقههم، ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون، وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه.

ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة، هم الذين يتفرغون للتفقه في الدين! ولكن هذا وهم، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين.. إن الحركة هي قوام هذا الدين، ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به، ويجاهدون لتقريره في واقع الناس، وتغليبه على الجاهلية، بالحركة العملية[3].

وللجمع بين القولين: لا بأس أن تنذر كل فئة الأخرى، فالذين تعلموا دين الله ولم يخرجوا للجهاد تعلم الفئة التي خرجت، وفي المقابل الذين خرجوا للجهاد تعلم الذين لم يخرجوا، حتى يتم الإنذار الكامل، ويتحقق الحذر من عذاب الله تعالى.

وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ الترجي لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب فعله: فيترك، أو فيما يجب تركه: فيفعل[4].

ولعل السبب في حذف مفعول يحذون؛ «للتعميم، أي: يحذرون ما يحذر، وهو فعل

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٢٣٩.
(٢) جامع البيان، ١٤/ ٥٧٣.
(٣) في ظلال القرآن، ٣/ ١٧٣٤.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٧٤.

المحرمات وترك الواجبات. واقتصر على الحذر دون العمل؛ للإنذار؛ لأن مقتضى الإنذار التحذير، وقد علمت أنه يفيد الأمرين»[(١)].

وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه في الدين، وإنذار من لم يتفقه، فجمع بين المقصدين الصالحين، والمطلبين الصحيحين، وهما تعلم العلم، وتعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين، فهو طالب لغرض دنيوي، لا لغرض ديني[(٢)].

وفي هذه الآية دليل بأنه يجب قبول قول العلماء، فقد أوجب سبحانه الحذر بإنذارهم، وألزم المنذرين قبول قولهم، فجاز لهذا المعنى إطلاق اسم أولي الأمر عليهم[(٣)].

وفي الآية دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم الاستقامة والإقامة، لا الترفع على الناس بالتصدر والترؤس[(٤)].

وفي الآية دليل على أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به جماعة سقط عن الباقين، إلا عند النفير العام حتى يصير فرضًا على الأعيان[(٥)].

وفي هذه الآية أيضًا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف؛ لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق، وتعددت المشارب؛ فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور[(٦)].

ثانيًا: حذر المنافقين واليهود:

إحساس المنافقين بنفاقهم جعلهم يحذرون من نزول آيات قرآنية تتلى في حقهم، وتكشف أمرهم، وتهتك سترهم، وتعلن للملأ حقيقة أمرهم، وقد وقع ما كانوا يتخوفون منه، فنزل قول الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ «في شأن المنافقين تخبرهم بمخازيهم ومساوئهم ومثالبهم، ولهذا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٦٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٧٤.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦/ ٥٢٢.
(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٥٣٥.
(٥) التفسير المظهري ٤/ ٣٢٥.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٥.

سميت بالفاضحة والمثيرة والمبعثرة، وقال الحسن: كانوا يسمون هذه السورة الحفّارة؛ لأنها حفرت ما في قلوب المنافقين فأظهرتها»[1].

وكان المنافقون إذا عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكروا شيئًا من أمره وأمر المسلمين، قالوا: لعلّ الله لا يفشي سرّنا، فقال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهم: استهزئوا، متهددًا لهم ومتوعدًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[2].

قال السدي: قال بعض المنافقين: والله لوددت أني قدمت؛ فجلدت مائة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا، فأنزل الله هذه الآية. وقال مجاهد: كانوا يقولون القول بينهم ثم يقولون: عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا[3].

وهذا أسلوب إعلامي قديم يستخدمه أعداء الإسلام بقصد قلب الحقائق أو تزييف الوعي، فقد كانوا يحرصون كل الحرص على إخفاء مخططاتهم واجتماعاتهم بل وحتى بعض عباراتهم.

والحقيقة أن المنافقين يعرفون حقيقة أمرهم، فهم غير مؤمنين بالله والرسول، وهم شاكون مرتابون في الوحي، قلقون مضطربون، والشك والقلق يدعوهم على الحذر والخوف؛ لذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: يخاف المنافقون، ويتحرزون أن تنزل على المؤمنين سورة تكشف أحوالهم، وتفضح أسرارهم، وتبين نفاقهم، كهذه التي سميت الكاشفة والفاضحة والمنبئة، التي تنبىء المؤمنين بما في قلوب المنافقين، وتخبرهم بحقيقة وضعهم، فيفتضح أمرهم، وتنكشف أسرارهم[4].

والخلاصة أن هذه الآية كشفت عن مدى ما كان يعيش عليه المنافقون من الحذر والخوف.

وقد حذر المنافقين واليهود من الحكم بما أنزل الله.

شارك المنافقون اليهود في البعد من اللجوء إلى الأحكام بما أنزل الله، وكان همهم تخفيف العقوبة عن أنفسهم وليس إنزال القصاص على أنفسهم، قال تعالى في شأنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ١٢٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٣١.
(٣) أسباب النزول ص ٢٥٠.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢٨٩.

﴿قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وكان سبب نزول هذه الآيات ما أخرجه الإمام مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (مُرَّ على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي محممًا مجلودًا، فدعاهم صلى الله عليه وسلم، فقال: (هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟)، قالوا: نعم، فدعا رجلًا من علمائهم، فقال: (أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم) قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف؛ تركناه، وإذا أخذنا الضعيف؛ أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم، والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه)، فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ يقول: ائتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا)[1].

والمعنى: أي: لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين في إظهار الكفر، والانحياز إلى جانب الأعداء، كلما سنحت لهم الفرصة؛ فإني ناصرك عليهم، وكافيك شرهم، وليس المراد النهي عن الحزن ذاته؛ لأنه أمر طبعي جبلّي، لا اختيار للإنسان فيه، ولا تكليف به، وإنما المراد النهي عن لوازمه من مقدمات ونتائج من تعظيم شأن الحزن، وتعاطي أسبابه[2].

وقد تآمر اليهود مع المنافقين على أن يأخذوا من النبي صلى الله عليه وسلم عقابًا مخففًا عن حكم الله تعالى، ولكن الله تعالى كشف كيدهم بقوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾.

أي: إن أجبتم بمثل ما تهوون؛ فاقبلوه، وإن لم تجابوه؛ فاحذروا قبوله. وإنما قالوا: فاحذروا؛ لأنه يفتح عليهم الطعن في أحكامهم التي مضوا عليها وفي حكامهم الحاكمين بها[3].

وفي ترتيب الأمر بالحذر على مجرد عدم إيتاء المحرف، إشارة إلى تخوفهم الشديد من ميل أتباعهم إلى حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم يحذرونهم بشدة من الاستماع إلى ما يقوله لهم، مما يخالف ما تواضعوا عليه من أباطيل[4].

وهكذا بلغ منهم العبث، وبلغ منهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، ٣/ ١٣٢٧، رقم ١٧٠٠.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٦/ ١٩٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٠.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ١٥٧.

الاستهتار، وبلغ منهم الالتواء أيضًا في التعامل مع الله والتعامل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المبلغ.. وهي صورة تمثل أهل كل كتاب حين يطول عليهم الأمد، فتقسو قلوبهم وتبرد فيها حرارة العقيدة، وتنطفئ شعلتها، ويصبح التفصي من هذه العقيدة وشرائعها وتكاليفها هو الهدف الذي يبحث له عن الوسائل ويبحث له عن الفتاوى؛ لعلها تجد مخرجًا وحيلة، أليس الشأن كذلك اليوم بين الذين يقولون: إنهم مسلمون ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾؟!

أليسوا يتلمسون الفتوى؛ للاحتيال على الدين، لا لتنفيذ الدين؟!

أليسوا يتمسحون بالدين أحيانًا؛ لكي يقر لهم أهواءهم ويوقع بالموافقة عليها؟! فأما إن قال الدين كلمة الحق وحكم الحق فلا حاجة بهم إليه.. ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾! إنه الحال نفسه. ولعله لهذا كان الله سبحانه يقص قصة بني إسرائيل بهذا الإسهاب وهذا التفصيل؛ لتحذر منها أجيال المسلمين ويتنبه الواعون منها لمزالق الطريق[1].

ثالثًا: حذر فرعون وهامان وجنودهما:

كان فرعون وهامان قد أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل، فكانوا من ذلك على وجل منهم؛ ولذلك كان فرعون يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، فأرى الله فرعون وهامان وجنودهما، من بني إسرائيل على يد موسى بن عمران نبيه، ما كانوا يحذرونه منهم من هلاكهم وخراب منازلهم ودورهم[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ٤-٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري، بل نفذ حكمه، وجرى قلمه في القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده، وقتلت بسببه ألوفًا من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه، وحتفك، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه؛ لتعلم أن رب السموات العلا هو

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٨٩٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٨.

القادر الغالب العظيم، العزيز القوي الشديد المحال، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»[1].

وهذه قصة تعرض قوة الحكم، قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر، وفي مواجهتها موسى طفلًا رضيعًا لا حول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية، وقد علا فرعون في الأرض، واتخذ أهلها شيعًا، واستضعف بني إسرائيل، يذبّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وهو على حذر منهم، وهو قابض على أعناقهم، ولكن قوة فرعون وجبروته، وحذره ويقظته لا تغني عنه شيئًا، بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير، المجرد من كل قوة وحيلة، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة، ترعاه عين العناية، وتدفع عنه السوء، وتعمي عنه العيون، وتتحدى به فرعون وجنده تحديًا سافرًا، فتدفع به إلى جحره، ويقتحم به عليه قلب امرأته، وهو مكتوف اليدين إزاءه، مكفوف الأذى عنه، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه[2].

ولما ظهر أمر موسى عليه السلام، وانتشرت دعوته؛ زاد خوف فرعون وحذره من خروج بني إسرائيل مع موسى، وعدم سيطرته عليهم، ولما أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسير ليلًا باتجاه البحر مع قومه، ففعل موسى، وخرج ببني إسرائيل، فلما أصبح فرعون وقومه، وعلم بما صنع بنو إسرائيل؛ غاظه ذلك، وأرسل في مدائن مصر من يجمعوا الجند لملاحقة بني إسرائيل، أعلن التعبئة الكاملة من أجل تدمير هذه القوة المتنامية وإرجاعهم عبيدًا له، وتعذيبهم أشد العذاب، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٥٦].

واستخدم فرعون أسلوب التعبئة المعنوية لتحريض قومه على الخروج معه، فوصف بني إسرائيل بثلاث صفات:

١. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ إن بني إسرائيل لطائفة قليلة؛ فيسهل متابعتهم وأسرهم أو قتلهم أو إعادتهم إلى العبودية.

٢. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: إنهم في كل آونة يغيظوننا ويضايقوننا، بالفتنة والشغب، وقد ذهبوا بأموالنا، وخرجوا عن عبوديتنا، وخالفوا ديننا.

٣. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: وإن جميعنا قوم آخذون حذرنا وأهبتنا ومستعدون بالسلاح، وإني أريد إبادتهم واستئصالهم[3].

قال سيد قطب: «نبأ الله موسى بأن فرعون سيتبعهم بجنده، وأمره أن يقود قومه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢١.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٦٧٤.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي، ١٩/ ١٥٨.

إلى ساحل البحر، وعلم فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة، فأمر بما يسمى (التعبئة العامة)، وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له الجند؛ ليدرك موسى وقومه، ويفسد عليهم تدبيرهم، وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير، وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند... زاعمين أنهم حاذرون، أي: مستيقظون لمكائدهم، ومحتاطون لأمرهم، ممسكون بزمام الأمور، إنها حيرة الباطل المتجبر دائمًا في مواجهة أصحاب العقيدة المؤمنين»[(١)].

«وكلام فرعون هذا- الذي حكاه القرآن عنه- يوحي بهلعه وخوفه مما فعله موسى عليه السلام؛ إلا أنه أراد أن يستر هذا الهلع والجزع بالتهوين من شأنه، ومن شأن الذين خرجوا معه وبتحريض قومه على اللحاق بهم وتأديبهم، وبالظهور بمظهر المستعد هو وقومه؛ لمجابهة الأخطار والتمرد بكل قوة وحزم»[(٢)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٥٩٨.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١٠/ ٢٥٠.

ثمرات الحذر المحمود

أولًا: النجاة من الفتن:

لقد أطلع الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على الكثير من الفتن التي ستواجه هذه الأمة؛ ولهذا أطال الرسول بالحديث عن الفتن والتحذير منها، وبيان المخرج منها، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن عمرو بن أخطب رضي الله عنه قال (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر. وصعد المنبر؛ فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر؛ فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى. ثم صعد المنبر؛ فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا)[(٣)].

ولا سبيل للتخلص من الفتن إلا بالحذر من مخالفة أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أي: عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سبيله هو ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي صلى الله عليه وسلم فيما يكون إلى قيام الساعة، ٤/ ٢٢١٧، رقم ٢٨٩٢.

وأعماله، فما وافق ذلك؛ قبل، وما خالفه؛ فهو مردود على قائله وفاعله، كائنًا ما كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد)[(١)(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

إنها القاعدة التي يرجع إليها الأمر كله: طاعة الله وطاعة الرسول الذي لا تبقى معه إلا الطاعة المطلقة لله وللرسول، والحذر من المخالفة ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقد بلّغ وبيّن، فتحددت التبعة على المخالفين[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة.

وعندما يعرف الإنسان أهمية أمر النبي صلى الله عليه وسلم يحذر من التعرض للفتنة، ويتقي أسباب الوقوع فيها، قال صلى الله عليه وسلم: (من تشرّف لها تستشرفه)[(٤)]. أي: من تطلع إليها وتعرض لها؛ أصابته ووقع فيها، ومن كان حذرًا منها؛ نجا من الوقوع فيها ولم تصبه.

ثانيًا: فعل الطاعات والابتعاد عن المنهيات:

الحذر من الله تعالى يحرك دواعي الخوف الكامنة في أعماق النفوس، ويجعل من نفس العبد رقيبًا على نفسه؛ فيمنعها من ارتكاب المحرمات، ويلتزم بأوامر الله تعالى ونهيه؛ فيكون ممن مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾[النجم: ٣٢].

فيلتزم بالواجبات وتقربه إلى الله بالنوافل، مما يجعله قريبًا من الله تعالى وينال محبته، قال تعالى في الحديث القدسي: (من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، ٣/ ١٣٤٣، رقم ١٧١٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٨٩-٩٠.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٩٧٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ٩/ ٥١، رقم ٧٠٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر، ٤/ ٢٢١١، رقم ٢٨٨٦.

المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)[1].

فيعيش في سعادة ولذة لا تضاهيها لذة وهو يناجي ربه، قال تعالى في وصف عباده الحذرين الخائفين: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

والمعنى: أن هؤلاء المؤمنين الصادقين، تتنحى وترتفع أجسامهم، عن أماكن نومهم، وراحتهم، حالة كونهم يدعون ربهم بإخلاص وإنابة؛ خوفًا من سخطه عليهم، وطمعًا في رضاه عنهم[2].

وقال تعالى مخبرًا عن حال المؤمن الحذر من عذاب الله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

أي: أذلك الكافر أحسن حالًا ومآلًا، أم المؤمن بالله، الذي هو مطيع خاشع يصلي الله في ساعات الليل، وخشوعه مستمر حال سجوده وحال قيامه، يخاف الآخرة، ويرجو رحمة ربه، فيجمع بين الخوف والرجاء، وتلك هي العبادة الكاملة، التي يفوز بها صاحبها؟![3].

فإذا علم الإنسان أن الأنفاس تعد عليه، وأن الحفظة الكاتبين يراقبون أعماله، وأنه حيثما حلّ متابع، وأن طريق الهروب من الله مسدود، ولا حيلة له إلا الاستسلام والانقياد والإقبال على طاعة الله، والاستفادة من المهلة الممنوحة له، بادر إلى فعل الطاعات واجتناب المنهيات.

ثالثًا: الاستعداد لمواجهة العدو:

من أهم ثمار الحذر، وأوسعها تأثيرًا على المسلمين: الاستعداد لملاقاة الأعداء، وإعداد العدة من أجل ملاقاتهم، وكلما زادت التجهيزات، وأعداد الجنود؛ قلت خسائر المسلمين.

والحذر في المعركة يكون عن طريق اختيار الموقع المناسب للجيش، وإرسال العيون؛ لمتابعة أخبار العدو والتقصي عن أحوالهم، ويكون أيضًا عن طريق رفع الروح المعنوية لجنود المسلمين، وتشجيع الصناعات العسكرية التي تساعد على النصر، والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١].

قال ابن كثير رحمه الله: «يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ١٥١.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٣/ ٢٥٨.

وتكثير العدد بالنفير في سبيله»[1].

وقال القرطبي: «أمر أهل الطاعة بالقيام بإحياء دينه، وإعلاء دعوته، وأمرهم ألا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا إلى ما عندهم، ويعلموا كيف يردون عليهم، فذلك أثبت لهم»[2].

ومن الآيات الدالة على أهمية الاستعداد ووجوبه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

قال الشوكاني: «قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] زيادة التوصية للطائفة الأخرى بأخذ الحذر مع أخذ السلاح»[3].

قال الألوسي: «﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟﴾ أي: الطائفة الأخرى ﴿حِذْرَهُمْ﴾ أي: احترازهم، وشبهه بما يتحصن به من الآلات ولذا أثبت له الأخذ تخييلًا وإلا فهو أمر معنوي لا يتصف بالأخذ»[4].

وحكمة الأمر بالحذر للطائفة الثانية: أن العدوّ قلّما يتنبه أول الصلاة؛ لبدء المسلمين فيها، إذ هو إذا رآهم صفًّا؛ ظن أنهم قد اصطفوا للقتال، واستعدوا للحرب والنزال، فإذا رآهم سجدوا علم أنهم في صلاة، فيخشى أن يميل على الطائفة الأخرى عند قيامها في الصلاة كما يتربص ذلك بهم عند كل غفلة.

وقد بين الله تعالى علة الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى في الصلاة بقوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: تمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله وبما أنزل عليكم لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم، التي بها بلاغكم في سفركم؛ بأن تشغلكم صلاتكم عنها؛ فيميلون حينئذ عليكم، ويحملون حملة واحدة، وأنتم مشغولون بالصلاة، واضعون السلاح، تاركون حماية المتاع والزاد؛ فيصيبون منكم غرّة؛ فيقتلون من استطاعوا قتله، وينتهبون ما استطاعوا نهبه؛ فلا تغفلوا عنهم[5].

وليس في الآية دليل على أن الحذر يتعارض مع القدر؛ لأن الأمر بالحذر داخل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٥٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٧٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٨٧.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٣١.
(٥) تفسير المراغي ٥/ ١٤١.

في القدر؛ فالأمر به؛ لندفع عنا شر الأعداء، لا لندفع ما قدره الله، إذ القدر: هو جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب بإذن الله على قدر المسببات التي أرادها الله، والحذر من جملة الأسباب، فهو عمل بمتقضى القدر لا بما يضاده.

رابعًا: تحقيق المغفرة والرحمة والفوز بالجنة:

من ثمار الحذر المحمود تحقيق المغفرة والرحمة، وذلك أن الأخذ بالأسباب والحذر من العواقب يحقق مغفرة الله ورحمته بالعباد، والله سبحانه وتعالى واسع المغفرة.

وبسبب الحذر تحصل المغفرة والرحمة، قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

قال الألوسي: «﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما لا يجوز، أو من ذوات الصدور التي من جملتها ذلك ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ ولا تعزموا عليه أو -احذروه- بالاجتناب عن العزم ابتداء، أو إقلاعًا عنه بعد تحققه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لمن يقلع عن عزمه أو ذنبه خشية منه ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فلا يتوهم من تأخيرها أن ما نهي عنه لا يستتبع المؤاخذة، وإعادة العامل اعتناء بشأن الحكم، ولا يخفى ما في الجملة مما يدل على سعة رحمته تبارك اسمه»[1].

فهو سبحانه لا يعجل بالعقوبة على من خالف أمره ونهيه[2].

قال ابن عطية: هذا تحذير من الوقوع فيما نهى عنه، وتوقيف على غفره وحلمه في هذه الأحكام التي بيّن ووسّع فيها من إباحة التعريض ونحوه[3].

ومما يدل على تحقيق المغفرة والرحمة لمن اتقى وحذر من عذاب الله قوله سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

(١) روح المعاني، الألوسي ١/ ٥٤٥.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٣١٩.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣١٨.

﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٢٨-٣١].

وفي هذه الآيات يحذر الله الناس عقابه الصارم إن خالفوا، ويبين أنه رءوف بالعباد إن أطاعوا والتزموا الأوامر واجتنبوا النواهي.

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترن بالرأفة منه سبحانه بعباده لطفًا بهم[(١)].

فليحذر الإنسان يوم القيامة الرهيب، ففيه يجد كل إنسان ما قدمه من عمل خير أو شر، قليل أو كثير، فإن كان العمل خيرًا؛ سرّ صاحبه، وإن كان شرًّا؛ ودّ صاحبه أن يكون بينه وبين عمله بعد ما بين المشرقين.

فالحذر من الله تعالى وخوفه طريق إلى الجنة، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)[(٢)].

وهذا مثل ضربه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لسالك الآخرة؛ فإن الشيطان على طريقه، والنفس وأمانيه الكاذبة أعوانه، فإن تيقظ في مسيره، وأخلص النية في عمله؛ أمن من الشيطان وجنده[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الأمن، التقوى، الجهاد، الحرب، القتال، النصر

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٨١.
(٢) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٦٣٣، رقم ٢٤٥٠.
(٣) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٨/ ٣٣٥١.

الحرام

عناصر الموضوع

مفهوم الحرام	٤٦٢
الحرام في الاستعمال القرآني	٤٦٣
الألفاظ ذات الصلة	٤٦٤
التحريم حق لله تعالى	٤٦٦
أنواع التحريم	٤٦٩
ميادين الحرام	٤٧٣
المحرومون من الجنّة	٤٨٥
طريقة القرآن في التحريم	٤٨٧
مقاصد التحريم	٤٩٣
عقوبة ارتكاب المحرمات	٤٩٥
العقوبة في الآخرة	٤٩٨

مفهوم الحرام

أولًا: المعنى اللغوي:

الحرام من حرم، فالحاء والراء والميم أصل واحد، وجمع الحرام حرم، والحرام ضد الحلال، والحرام هو المنع والتشديد[1]. ويقال: الحرام والحرم -بكسر الحاء وسكون الراء-، ويجمع على حرم -بضم الحاء والراء، وحرمة الرجل: التي لا تحل لغيره، ولفلان حرمة ببني فلان أي: تحرم، وحريم الرجل: ما يجب عليه حفظه ومنعه، وأحرم الرجل إحرامًا من إحرام الحج فهو حرام وهم حرم، ولبس المحرم وهو لباس الإحرام، وقوم حرم وحرام أي محرمون، ورجل حرمي: منسوب إلى الحرم، والحرمة: المهابة، وللمسلم على المسلم حرمة ومهابة[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الحرام: واحد من الأحكام التكليفية الخمسة وهي: الواجب والمندوب والحرام والمكروه والمباح، وقد عرفه العلماء بما يأتي:

١ - الحرام: «الممنوع منه إما بتسخير إلهي أو بشري، وإما بمنع من جهة العقل أو البشرية، أو من جهة من يرتسم أمره»[3].

٢ - والحرام: «ما يذم شرعًا فاعله»[4].

٣ - والحرام: ما يثاب على تركه ويعاقب على فعله.

وترجح الباحثة التعريف الثالث لمعنى الحرام اصطلاحًا، فهو الأشمل والأدق أما الباقي فهو وصف للحرام أكثر من كونه تعريفًا له.

ومن خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للفظ (الحرام) يتضح لنا بجلاء العلاقة الوثيقة بين المعنيين، إذ إن (الحرام) اصطلاحًا يعني: ما هو ممنوع، سواء بأمر من الله عز وجل أو من البشر، والحرام لغة: مطلق المنع.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥.

(٢) انظر: أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ١٨٤، مختار الصحاح، الرازي ص ٧١، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٣١، تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٤٥٢، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ١/ ٤٨١.

(٣) التوقيف، المناوي ص ١٣٧.

(٤) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص٦٣.

الحرام في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حرم) في القرآن(٨٢) مرة[١]:

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٤	﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾[البقرة: ١٧٣]
الفعل المضارع	٥	﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[الأعراف: ١٥٧]
الاسم	٩	﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[المائدة: ١]
مصدر	٢٦	﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[البقرة: ١٤٤]
اسم المفعول	١٨	﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الواقعة: ٦٧]

وجاء الحرام في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: المنع: ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢].

الثاني: التحريم: ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٨٧].

الثالث: الشرف: ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وهناك وجه رابع ذكر في كلمة (الحرمات) وهو: أنها جمع لكلمة (الحرم)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾[البقرة: ١٩٤].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١٩٦-١٩٨.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١٩٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ السحت:

السحت لغة:

هو الحرام، وأسحت الرجل: وقع فيه، والسحت: جهد العذاب، وسحتناهم أي: بلغنا مجهودهم في المشقة عليهم[(١)].

السحت اصطلاحًا:

كل حرام قبيح الذكر يلزم منه العار كثمن الكلب والخنزير فهو سحت، وقيل: السحت مبالغة في صفة الحرام وهو الحرام الظاهر[(٢)].

الصلة بين الحرام والسحت:

من الواضح أن الحرام والسحت من المترادفات في المعنى.

٢ المحظور:

المحظور لغةً:

بفتح فسكون فضم، المحرم خلاف المباح، ومنه قوله: عز وجل ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠][(٣)].

المحظور اصطلاحًا:

«المحظور في الشريعة: هو ما أعلم المكلف أو دل على قبحه، ولهذا لا يقال إن أفعال البهائم محظورة وإن وصفت بالقبح»[(٤)].

الصلة بين الحرام والمحظور:

الحرام يكون مؤبدًا، والمحظور قد يكون إلى غاية[(٥)].

---

(١) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٣٨٦، العين، الفراهيدي ٣/ ١٣٢
(٢) الكليات، الكفوي ص٤٩٤
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي ص٤١٢.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٢٩.
(٥) انظر: المصدر السابق.

٣ الحلال:

الحلال لغةً:

حللت العقدة أحلها حلًا: فتحتها، والحل بالكسر: الحلال، والحل والحلال والحليل: نقيض الحرام، وحل الشيء يحل حلًا وأحله الله سبحانه وتعالى، واستحللته: اتخذته حلالًا، ومنه حللت اليمين تحليلًا وتحلة، ورجل حل من الاحرام، أي حلال، ويقال: أنت حل، وأنت حرم، وهذا لك حل، أي: حلال[١].

الحلال اصطلاحًا:

ما أطلق الشرع فعله، وكل شيء لا يعاقب عليه باستعماله[٢].

الصلة بين الحرام والحلال:

الحرام والحلال من المتناقضات على الإطلاق.

(١) انظر: الصحاح، الفارابي ٤/ ١٦٧٢، المخصص، ابن سيده ٤/ ٦٨.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٩٢.

التحريم حق لله تعالى

حدد الإسلام السلطة التي تملك التحليل والتحريم فانتزعها من أيدي الخلق، أيًا كانت درجتهم في دين الله أو دنيا الناس، وجعلها من حق الرب تعالى وحده، فلا أحبار أو رهبان، ولا ملوك أو سلاطين، يملكون أن يحرموا شيئًا تحريمًا مؤبدًا على عباد الله.

حذر كتاب الله من الحكم على الأشياء بالتحليل والتحريم من دون سند شرعي، وعدّ المغامرين بذلك من عند أنفسهم متطاولين على الشرع ومفترين على الله، فالتشريع المطلق -تحريمًا وتحليلًا وتشريعًا- إنما هو حق خالص لله تعالى[1].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

فيحرم على المسلم التحليل والتحريم من دون استناد للشرع؛ لما فيه من الافتراء على الله تعالى.

فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وطاعة أولى الأمر من الولاة والرؤساء والعلماء وغيرهم، هي طاعة مرتبطة بطاعة الله وطاعة رسوله وهو أصل التشريع، فالعلماء لا يحلون ولا يحرمون من تلقاء أنفسهم، ولكنهم يبينون الأحكام حسب ما يستنبطون من نصوص الوحي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣][2].

ولذلك أمر الله تعالى عباده بسؤالهم فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وأولوا الأمر كما قال ابن عباس وجابر -رضي الله عنهم-: هم الفقهاء والعلماء الذين يعلّمون الناس معالم دينهم[3].

إن قضية التشريع بجملتها مرتبطة بقضية الألوهية، والحق الذي ترتكن إليه الألوهية في الاختصاص بتنظيم حياة البشر، هو أن الله هو خالق هؤلاء البشر ورازقهم، فهو وحده صاحب الحق في أن يحل لهم ما يشاء من رزقه وأن يحرم عليهم ما يشاء، وهو منطق يعترف به البشر أنفسهم، فصاحب الملك هو صاحب الحق في التصرف فيه، والواجب على المسلم الوقوف عند حدود الله عز وجل.

وإذا بين له الحكم الشرعي في أمر أو

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، الناصري ٣/ ٣٦٥.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٢/ ٨٣٧.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٥٠.

مسألة أن يقول: سمعنا وأطعنا، فهذه صفات المؤمنين، وإذا كان اليهود والنصارى وأهل الجاهلية قد حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه الله تعالى عليهم، فلا بد للمسلم من أن يعتقد أن التحليل والتحريم حق الله وحده، وأنه ليس لأحد من البشر مهما كانت منزلته أو علت درجته أن يحل حرامًا أو يحرم حلالًا، فالتحليل والتحريم حق لله وحده[1].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وطاعة الحكام أو العلماء في تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى، أو تحريم ما أحل الله، عبادة لهم من دون الله، ونحن نرى في عصرنا هذا علماء السلطان الذين تجرؤوا على الله وأحلوا لملوكهم ما حرم الله وحرموا ما أحل الله ابتغاء الدنيا وملذاتها، وقد نعى القرآن على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين وضعوا سلطة التحليل والتحريم في أيدي أحبارهم ورهبانهم، كما ذكر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم حين قال لما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

قال: إنهم لم يعبدوهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم)[2].

وهذا هو الذي تجرأ عليه الكثيرون من المسلمين الذين هم ليسوا أهلا للاجتهاد والقياس، فيقولون: هذا حرام وهذا حلال، بما تصف ألسنتهم الكذب والتهجم على شرع بما لم يأذن به الله، ومن فعل ذلك منهم فقد تجاوز حده واعتدى على حق الربوبية في التشريع للخلق، ومن رضي بعملهم هذا واتبعه فقد جعلهم شركاء لله واعتبر اتباعه هذا شركًا[3].

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال ابن وهب: قال لي مالك: «لم يكن من فتيا المسلمين أن يقولوا: هذا حرام وهذا حلال، ولكن يقولون: إنا نكره هذا، ولم أكن لأصنع هذا، فكان الناس يطيعون ذلك، ويرضون به»[4].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٧٠.

(٢) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى، باب ترك الحكم بتقليد أمثاله من أهل العلم حتى يعلم مثل علمهم، ٢١٠، ٢٦١.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ١٧٨.

(٤) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٦٦.

عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه، فلا تتكلفوه)[1].

ومن خلال هذه الآيات البينات، يصبح هناك معرفة يقينية أن الله وحده هو صاحب الحق في أن يحل ويحرم، في كتابه أو على لسان رسوله، وأن مهمتهم لا تعدوا بيان حكم الله فيما أحل وما حرم.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وليست مهمة العلماء التشريع الديني للناس فيما يجوز لهم وما لا يجوز، وكانوا مع علمهم واجتهادهم يهربون من الفتيا، ويحيل بعضهم على بعض، خشية أن يقعوا في تحليل حرام أو تحريم حلال دون قصد منهم.

روى الإمام الشافعي عن القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة قال: «أدركت مشايخنا من أهل العلم يكرهون الفتيا، أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام إلا ما كان في كتاب الله عز وجل بينًا بلا تفسير»[2].

وعن الربيع ابن خيثم أنه قال: «إياكم أن يقول الرجل: إن الله أحل هذا أو رضيه، فيقول الله له: لم أحل هذا ولم أرضه! أو يقول: إن الله حرم هذا، فيقول الله: كذبت، لم أحرمه ولم أنه عنه»[3].

وقال الشيخ المراغي رحمه الله عن هذا: أنه ليس لأحد غير الله عز وجل أن يحرم شيئًا على العباد، لأن التحريم حق لله الخالق للعباد، فمن ادعاه لنفسه فقد جعل نفسه شريكًا له سبحانه وتعالى، والتحريم الذي لا يكون إلا لله هو تحريم التشريع، أما المنع من بعض الثمار لسبب غير التحريم فلا شرك فيه، فإذا منع الطبيب بعض المرضى من أكل الثمر أو الخبز لأنه يضره يكون منعًا شرعيًّا أو تحريمًا لا على معنى أن الطبيب هو الذي شرع ذلك، بل الله هو الذي حرم كل ضارّ، والطبيب هو الذي عرّف المريض ضرره. وكذلك منع السلطان من صيد بعض الطيور لمصلحة عامة، كالحاجة إلى كثرته لحفظ بعض الزرع، لأنه يأكل الحشرات المهلكة مثلًا لا يكون تحريمًا[4].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء، ٤/ ٢٢٠، رقم ١٧٢٦.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٠٩، رقم ٣١٩٤.

(٢) الأم، الشافعي ٧/ ٣٧١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٥١.

أنواع التحريم

ورد في القرآن الكريم نوعان من التحريم، تحريم شرعي: وهو كل منع يتعلق بالشرع، ويكون تحريمًا شرعيًّا، مثال ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وتحريم قدري: وهو المنع الذي يتعلق بفعل الله، ويكون تحريمًا قدريًا، وهو ما ذكره الله في كتابه العزيز في قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾[القصص: ١٢].

أولًا: التحريم الشرعي:

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٢٣].

جاءت هذه الآية بتحريم نكاح خمسة عشر صنفًا من النساء. وهن: سبع من النسب، وسبع من جهة الرضاعة والمصاهرة، وواحدة ما دامت زوجة، وهي المحصنة، وبهذا اللفظ- التحريم- حرمت امرأة الأب والجد على الابن وابن الابن ولو لم يدخل بها الأب، ثم ذكر محرمات النسب وهن الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ، وبنات الأخت، فهؤلاء سبع محرمات من النسب، ثم ذكر المحرمات بالرضاع، وهذا التحريم من الواضح أنه تحريم شرعي[(١)].

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾[المائدة: ٣].

ومن التحريم الشرعي كذلك ما حرمه الله جل جلاله من الميتة، وهي: ما فارقته الروح من غير تذكيه مما له نفس سائلة، والمنخنقة، وهي: التي تنخنق فتموت، قال قتادة رحمة الله: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها[(٢)].

قال الزجاج رحمه الله: «وبأي وجه اختنقت فهي حرام»[(٣)].

والموقوذة: المضروبة حتى تموت ولم تذكّ.

والمتردية: هي التي تقع من جبل أو من

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٤٥٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٩٥.
(٣) الوسيط، الواحدي ٢/ ١٥١.

موضع مشرف فتموت.

والنطيحة: التي تنطحها شاة أو كبش فتموت.

وما أكل منه السبع: قال قتادة رحمة الله: «كان أهل الجاهلية إذا جرح السبع شيئًا فقتله وأكل منه أكلوا ما بقي، فحرمه الله»[(١)].

ثانيًا: التحريم القدري:

والمقصود بالتحريم هنا: منع النفس عن ذلك مع اعتقاده بكونه حلالًا، لا أن يكون قصد به تحريم عينه، وقد يمتنع المرء عن تناول الحلال؛ لغرض له في ذلك.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

والمقصود في هذا التحريم هو المجاز عن المنع، فإن من حرم عليه شيء فقد منعه، ولا يصح إرادة التحريم الشرعي؛ لأن الصبي ليس من أهل التكليف، ولا دليل على الخصوصية، فلم يرد به تحريم عينه، وإنما أريد به امتناعه من الارتضاع إلا من ثدي أمه[(٢)].

ويقول السمعاني رحمه الله: إن المقصود منعناه من قبول الرضاع، وليس المراد من التحريم هو التحريم الشرعي؛ وإنما المراد من التحريم هو المنع[(٣)].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «لا يؤتى بمرضع فيقبلها، وهذا تحريم منع لا تحريم شرع»[(٤)].

والرسول صلى الله عليه وسلم كان قد ندب إلى حسن العشرة مع أزواجه، وإلى الشفقة عليهن، والرحمة بهن، فبلغ في حسن العشرة والصحبة معهن مبلغًا امتنع عن الانتفاع بما أحل اللّه له، وأباح له التلذذ به؛ يبتغي به حسن عشرتهن، ويطلب به مرضاتهن[(٥)].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلًا، فتواصيت أنا وحفصة: أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: (لا، بل شربت عسلًا عند زينب بنت جحش، ولن

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٢٦١.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٧٦، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥٤٩٧ و روح المعاني، الألوسي ١٠/ ٢٦٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٢٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٥٧.
(٥) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٧٦.

أعود له) فنزلت الآية[1].

وفي الآية الكريمة عتاب مؤثر، وفيه دليل على أنه لا يجوز للمؤمن أن يحرم على نفسه ما أحله الله له من متاع الدنيا الذي حلله الله لنا جل جلاله.

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حرم العسل بمعنى التحريم الشرعي، إنما كان قد قرر منع وحرمان نفسه منه، فجاء هذا العتاب يوحي بأن ما جعله الله حلالًا فلا يجوز حرمان النفس منه عمدًا وقصدًا إرضاء لأحد[2].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

لما دعا موسى عليه السلام على بني اسرائيل حين نكلوا عن الجهاد، حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدرًا مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسيرون دائمًا لا يهتدون للخروج منه[3].

والمعنى أن تلك البلد محرمة على بني اسرائيل أبدًا لم يرد به تحريم تعبد، وإنما أراد تحريم منع[4].

ومن التحريم القدري: قوله: عز وجل ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الأعراف: ٥٠].

وقال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآية: «ينادي الرجل الرجل فيقول: إني قد احترقت، فأفض علي من الماء، قال: «فيقال: أجبه، فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الأعراف: ٥٠]»[5].

يقول سبحانه وتعالى مخبرًا عن أصحاب النار وأصحاب الجنة: أنهم ينادون أن أفيضوا علينا من الماء، وذلك لشدة عطشهم، أو من الطعام، وذلك لشدة جوعهم، فيقال لهم: إن الله منعها بسبب كفرهم فلا ينالوهما بحال من الأحوال[6].

والتحريم هنا تحريم كوني قدري، أي: منعهما من الكافرين؛ لأن التحريم يطلق في القرآن وفي لغة العرب على التحريم الشرعي، وعلى التحريم بمعنى المنع. وليس المراد هنا أنهما شرعًا محرمات؛ لأنها ليست دار تكليف، ولكنه تحريم قدري، وأن الله منع منهما الكافرين منعًا باتًّا بقدره وقضائه[7].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب قوله: (لم تحرم ما أحل الله لك)، ٧/ ٤٤، رقم ٥٢٦٧.
(٢) انظر: ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦١٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٩.
(٤) انظر: مختصر معالم التنزيل، عبدالله الزيد ص ٢٢٧.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد، باب كلام ابن عباس رضي الله عنه، ٧/ ١٣٥، رقم ٣٤٧٧٣.
(٦) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ١٧٨.
(٧) انظر: تفسير ابن عرفة ٢/ ٢٢٧، العذب

ومن التحريم بمعنى المنع كونًا وقدرًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[الأنبياء: ٩٥].

والمعنى: «وممنوع على كل قرية قضينا أزلًا بإهلاك أهلها لشدة طغيانهم وفسادهم، وممنوع تخلفهم عن الرجوع إلينا للحساب والجزاء، فلا بد من رجوعهم إلينا مقهورين بقدرتنا، مسخرين ببعثنا إياهم وإعادة الحياة إلى أجسادهم؛ ليلقوا عقابهم الأخروي، بعد ما ذاقوا عذابهم الدنيوي»[(١)].

ويقول النسفي رحمه الله: إن المقصود: ممتنع على أهل القرى الظالمة والتي حكم الله جل جلاله بإهلاكهم؛ رجوعهم من الكفر إلى الاسلام[(٢)].

وعن ابن عباس قال: «وجب عليهم أنهم لا يرجعون، لا يرجع منهم راجع ولا يتوب منهم تائب»[(٣)].

إذن بات من الواضح أن هناك فرقًا بين التحريم الشرعي والتحريم القدري، فالخمر مثلًا أنزل الله فيها قرآنًا بتحريمها.

فهي محرمة شرعًا فضلًا عن مضارها الجسيمة التي لا يغفل عنها عاقل، وقد يحرم الشيء الحلال على بعض الناس، بمعنى المنع خوفًا من الضرر المحتمل على المرء، كما يمنع الطبيب المريض من أكل بعض المأكولات التي أحلها الله سبحانه وتعالى خوفًا على صحته.

النمير، الشنقيطي ٣/ ٣٠٥.

(١) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٦/ ١١٥٥.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٢٠.

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى، ٤/ ١٦٦، رقم ١٦٤١.

ميادين الحرام

إنّ الله عز وجل يحكم ما يريد، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله.

وعند التأمل في المحرمات نجد أن لها مجالات وميادين، ومنها:

أولًا: الكبائر:

عن أنس رضي الله عنه، قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكبائر، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور)[1].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس)[2].

١. الشرك بالله.

وهو: جعل شريك لله تعالى في ربوبيته وإلهيته، والغالب الإشراك في الألوهية؛ بأن يدعو مع الله غيره، أو يصرف له شيئًا من أنواع العبادة، كالذبح والنذر، والخوف والرجاء والمحبة[3]، والشرك أعظم الذنوب؛ وذلك لأمور:

١. أنه تشبيه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فمن أشرك مع الله أحدًا فقد شبهه به، وهذا أعظم الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

٢. أن الله أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

٣. أن الله أخبر أنه حرّم الجنة على المشرك، وأنه خالد مخلد في نار جهنم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

٤. أنّ الشرك تنقص وعيب نزه الله جل جلاله نفسه عنهما، فمن أشرك بالله فقد أثبت لله ما نزه نفسه عنه، وهذا غاية المحادّة لله عز وجل[4].

٢. عقوق الوالدين.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، ٣/ ١٧٢، رقم ٢٦٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس، ٨/ ١٣٧، رقم ٦٦٧٥.

(٣) انظر: عقيدة التوحيد، صالح الفوزان ص٧٤.

(٤) انظر: كتاب التوحيد، صالح الفوزان ص١٣.

هذه الآية جامعة ومشتملة على جميع الحالات التي يكون عليها الآباء في القوة والضعف التي يجب على الأبناء مراعاة الوالدين فيها.

وإن حق الوالدين مقرون بحق الله في مثل قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

فجعل الله جل جلاله الإحسان للوالدين تاليًا لعبادته عز وجل لوجوه، منها:

- أنهما سبب وجود الولد، فلا إنعام بعد إنعام الله سبحانه وتعالى أعظم من إنعام الوالدين، وإن إنعامهما يشبه إنعام الله عز وجل من حيث إنهما لا يطلبان بذلك ثوابًا، وإنه جل جلاله لا يمل من إنعامه على العبد وكذلك الوالدين[(١)]. قال تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]. وقال تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]. لذا كان عقوقهما وسبهما من أكبر الكبائر، عن عبد الله بن عمرو، - رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه) قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: (يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه)[(٢)].
- إن بر الوالدين من محاسن الشريعة الإسلامية؛ ذلك أنه اعتراف بالجميل، وحفظ للفضل، وعنوان على كمال الشريعة، وإحاطتها بكافة الحقوق.

٣. قتل النفس.

إن الإسلام العظيم دين السلام والحياة، وقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله، فالله واهب الحياة، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه، فلا تقتل إلا بالحق، وهذا الحق الذي يبيح قتل النفس محدود بيّن لا غموض فيه، وليس متروكًا للرأي، ولا متأثرًا بالهوى[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣].

فلا يجوز قتل النفس إلا في ثلاث حالات وهي: القصاص ممن قتل نفسًا، وقتل الزاني المحصن، والمرتد عن الإسلام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحلّ دم امرئٍ مسلمٍ، يشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول

(١) انظر: موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق، ياسر عبد الرحمن ٢/ ٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، ٨/ ٣، رقم ٥٩٧٣.

(٣) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٢/ ١٥٦٨.

الله، إلا بإحدى ثلاثٍ: النّفس بالنّفس، والثّيّب الزّاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة)[1]، وجريمة القتل كبيرة عند الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٣٢].

ويقول القرطبي رحمه الله: «ومعنى ذلك أن من قتل نفسًا واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعًا، ومن ترك قتل نفس واحدة وصان حرمتها واستحياها خوفًا من الله فهو كمن أحيا الناس جميعًا»[2].

وذلك من أجل الترهيب والردع من قتل نفس واحدة، بتصويره بصورة قتل جميع الناس، والترغيب والتحضيض في إحيائها، بتصويره بصورة إحياء جميع الناس[3].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٩٣].

وقد بين الحق سبحانه وتعالى عددًا من الأمور التي يلاقيها القاتل مريدًا إتلاف نفسه:

- فمصيره جهنم وبئس القرار باقيًا فيها
- وغضب الله عليه بقتله إياه متعمدًا
- وأبعده من رحمته وأخزاه.
- وأعد له عذابًا مما لا يعلم قدر مبلغه سواه تعالى ذكره[4].

٤. شهادة الزور.

من صفات عباد الرحمن التي امتدحوا بها أنهم لا يؤدون شهادة الزور، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، ليحصلوا على ما ليس لهم[5].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[الفرقان: ٧٢].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء: ٣٦].

عن قتادة قال لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله جل جلاله سائلك عن ذلك كله.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج: ٣٠]، قال ابن الحنفية: شهادة الزور[6].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، ٣/ ١٣٠٢، رقم ١٦٧٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٤٦.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٥٧.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٥٤٥.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٤٦-٤٤٧.

٥. اليمين الغموس.

اليمين الغموس ليس بالأمر الهيّن، فإنها إنما سميت غموسًا؛ لأنها تغمس الحالف في النار.

كيف لا يكون كذلك وهو يتقدم بلا اكتراث ولا مبالاة، إلى أحد الأسماء الحسنى فيحلف بها، مؤكدًا قوله عند السامع بهذا الحلف، ولا يفكر أن الحلف بالله كذبًا استخفافٌ باسم الله واستهانة به.

وهو شبيه بحال المنافقين، الذين قال الله عنه: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

كفى بالحلف الكاذب شؤمًا ولؤمًا أنه فعل المنافقين، وأن فاعله من المؤمنين إنما يفعل فعلا يشابه فيه أهل النفاق، أخبث الكفار، الذين أخبر الله عنهم أنهم رجس وأنهم في الدرك الأسفل من النار[(١)]، وانطبق على كثير من أهل هذا العصر الذين لا يبالون باليمين الكاذب ولا بمن يتشبهون، وهناك العديد من الآيات التي وصف المنافقين بالإكثار من الحلف الكاذب أو اليمين الغموس.

أمّا إن كان الحالف غير متعمد للكذب فيقول عز وجل: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

أي لا يؤاخذكم بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف، كقول أحدكم: (بلى والله، ولا والله) لا يقصد به اليمين، ولكنكم محاسبون بما قصدتم إليه وعقدتم[(٢)].

ثانيًا: ما حرّم في النكاح:

الحديث هنا عما حرمه الله على الرجال، ومنع زواجهم به من النساء، وهذا التحريم يكون إما بسبب النسب، وإما بسبب المصاهرة، وإما بسبب الرضاع الذي يترتب عليه ما يترتب على النسب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ﴾ [النساء: ٢٢].

حرم الله سبحانه وتعالى زوجات الآباء تكرمة لهم، وإعظامًا واحترامًا أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها[(٣)].

عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار قال: (لما توفي أبو قيس -يعني

(١) انظر: موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان ٥/ ٢٦١.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ١٢٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٤٥.

ابن الأسلت-وكان من صالحي الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته، فقالت: إنما أعدك ولدًا وأنت من صالحي قومك، ولكن آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمره، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أبا قيس توفي، فقال: (خيرًا)، ثم قالت: إن ابنه قيسًا خطبني وهو من صالحي قومه، وإنما كنت أعده ولدًا، فما ترى؟ فقال لها: (ارجعي إلى بيتك)، قال: فنزلت هذه الآية)[1].

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٢٣].

بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ما يحل وما يحرم من النساء، فحرم سبعًا من النسب، وستًا من الرضاع والصهر، وألحقت السنة المتواترة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، ووقع عليه الإجماع.

فالسبع المحرمات من النسب: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

والمحرمات بالمصاهرة والرضاع: الأمهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء، والربائب[2]، وحلائل الأبناء، والجمع بين الأختين، ومنكوحات الآباء والجمع بين المرأة وعمتها[3].

ويحرم على الرجل أن يتزوج بأمه، وبأم زوجته، وبزوجة أبيه، وابنته، وبأخته، وبعمته، وبخالته، وببنت أخيه، وببنت أخته، وبزوجة ابنه، وتحرم عليه المرأة المتزوجة بغيره، ويحرم عليه الجمع بين الأختين ومثله الجمع بين المرأة وعمتها و خالتها، قال عليه السلام: (لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها)[4].

كما يحرم عليه من الرضاع مثل ما حرم عليه من النسب، قال صلى الله عليه وسلم: (وإنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٩٠٩.

(٢) الربائب: بنات الزوجات من غير أزواجهن الذين معهن.
انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٦٨.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥١١.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح، ٢/ ١٠٢٨، رقم ١٤٠٨.

النسب)[1].

ولا شك أن لله حكمًا كبرى في تحريم زواج الرجال من النساء اللاتي تتناولهن هذه الآيات الكريمة ومن ذلك:

أن الزواج بمن يجب توقيرهن واحترامهن كالأم والعمة والخالة، أو من تجب رعايتهن والعطف عليهن، كالبنت والأخت، وبنات الأخ والأخت، قد يؤدي إلى معاملتهن معاملة غير مرضية، عندما تطرأ بعض الهزات والخلافات على الحياة الزوجية، وينشأ عن ذلك شقاق في العائلة لا يمحى طول العمر.

والشعور الغريب الذي يشعر به الأب إذا عرف أن ابنه قد يخلفه في زوجته، أو الابن إذا عرف أن أباه قد سبقه إليها.

كيف يكون شعور الأم إذا زاحمتها بنتها في زوجها، وشعور البنت إذا زاحمتها أمها، وشعور الأخت إذا زاحمتها أختها، فأية أمومة وأية أخوة تبقى وقتئذ بينهن وهن يتصارعن على امتلاك قلب واحد، ويتزاحمن على الاستقلال بفراش واحد[2].

ومن المحرمات كذلك النساء المتزوجات، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

ويطلق الإحصان على المرأة ذات الزوج والحرة، والعفيفة، والمرأة المسلمة، وهو والمراد من الإحصان هنا، فلا يحل لأحد نكاحهن قبل مفارقة أزواجهن[3].

وعن ابن عباس في هذه الآية أن المحصنات هن ذوات الأزواج[4].

ومن الزيجات المحرمة: زواج المسلمة من المشرك.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢١].

أمر المولى عز وجل ألا نزوج المسلمة من المشرك، وأجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه، لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام.[5]

فالعبد المؤمن خير من المشرك، وعلل جل جلاله النهي عن مواصلتهم، وترغيب في مواصلة المؤمنين؛ لأن المشركين يدعون إلى الكفر المؤدي إلى النار فلا يليق موالاتهم ومصاهرتهم[6].

ثالثًا: المحرم من الأطعمة والأشربة:

إن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، ٢/ ١٠٧١، رقم ١٤٤٧.
(٢) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، الناصري ١/ ٣٢٧.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٦١.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٢٣.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٧٢.
(٦) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣٩.

يغمرهم بفضله، وينعم عليهم بمننه، ولا يحب لهم إلا الطيب من الطعام، وينأى بهم عن الأطعمة المحرمة؛ لأنها من دنس الشيطان ووسوسته، إن الشيطان لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، وإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، يقول جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ١٦٨].

وقد حرم الشارع بعض المطعومات وبعض المشروبات، وحلل الكثير الكثير الذي لا يعد ولا يحصى، ومنها:

فأما الأشربة: فقد حرم منها الخمر.

فقد بَيَّنَ الحق جل جلاله أنه خبيث مستقذر، من عمل الشيطان، من تزينيه، وأمرنا باجتنابه[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠].

ولأن الخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب على المرء، وعند استيلائهما تحصل المنازعات، وتلك المنازعات ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش، وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩١].

وأما المأكولات: فقال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾[المائدة: ٣].

الأطعمة المحرمة في الإسلام كما في هذه الآية عشر، وهي:

١. الميتة، هو كل ما فارقته الحياة من دواب البر وطيره بغير تذكية، مما أحل الله أكله.
٢. والدم المسفوح المهرق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ﴾[البقرة: ١٧٣].
٣. ولحم الخنزير.
٤. وما ذكر عليه غير اسم الله.
٥. المنخنقة، التي تختنق فتموت.
٦. الموقوذة، التي تضرب بالخشب حتى توقذ بها فتموت.
٧. المتردية، هي التي تردى من الجبل، أو في البئر، فتموت.
٨. النطيحة، الشاة التي تنطحها أخرى فتموت من النطاح بغير تذكية.
٩. ما أكل السبع، ما أكل منه السبع غير

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٨١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.

المعلم من الصوائد.

١٠. ما ذبح على النصب[١].

وكذلك من الأطعمة المحرمة كل طعام خبيث ضار، وإن لم يفصل القرآن الكريم في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف: ١٥٧].

ولكن وردت في السنة المطهرة ما يبين ذلك:

- كل ما له ناب من السباع يفترس به كالأسد، والنمر، والفهد، والذئب، والكلب إلخ... عن أبي ثعلبة رضي الله عنه (أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل كلّ ذي نابٍ من السّباع)[٢].
- جميع الحيوانات السامة كالحيات، والأفاعي، والعقارب، ونحو ذلك.
- جميع الحيوانات المستخبثة كالفأرة، والقنفذ، والجرذان، ونحوها، عن عائشة - رضي الله عنها - عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (خمسٌ فواسق، يقتلن في الحرم: الفأرة، والعقرب، والحديّا، والغراب، والكلب العقور)[٣].
- الحمر الأهلية، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهليّة، ورخّص في الخيل)[٤].
- كل ما له مخلب من الطير يصيد به كالصقر، والعقاب، والبازي، والنسر، والشاهين، فعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه عنه قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلّ ذي نابٍ من السّباع، وعن كلّ ذي مخلبٍ من الطّير)[٥].
- الفواسق التي أمر الشرع بقتلها، وهي من الطيور الغراب والحدأة، فعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خمسٌ من الدّوابّ، كلّهنّ فاسقٌ، يقتلن في الحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور)[٦].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٩٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب أكل كل ذي ناب من السباع، ٧/ ٩٦، رقم ٥٥٣٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، ٢/ ٨٥٧، رقم ١١٩٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/ ١٣٦، رقم ٤٢١٩.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، ٣/ ١٥٣٤، رقم ١٩٣٤.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب جزاء

- كل ما نهى الشرع عن قتله بعينه كالهدهد والصّرد ونحوهما، فعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: (إنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل أربعٍ من الدّواب: النّملة، والنّحلة، والهدهد، والصّرد)[1].
- جميع أصناف الحشرات يحرم أكلها؛ لأنها مستخبثة كالخنافس، والجعلان، والصراصير، والبراغيث، والقمل، والذباب، والديدان، والبعوض ونحوها[2]. فكل هذه الحشرات مستخبثة مستقذرة، تعافها النفوس، وينفر منها الطبع، فيحرم أكلها لخبثها وضررها وقذارتها.

رابعًا: المحرم من المعاملات:

إن الأصل في المعاملات، وأنواع التجارات والمكاسب، الحل والإباحة، فلا يمنع منها إلا ما حرمه الله ورسوله.

فهذا أصل عظيم، يستند إليه في المعاملات، وبهذا يعلم سماحة الشريعة وسعتها، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وتطورها حسب مقتضيات البشر، ومصالح الناس.

ولا تخرج المعاملة عن هذا الأصل العظيم، من الإباحة و التحريم، إلا لما يقترن بها من محذور، يرجع إلى ظلم أحد الطرفين[3].

والمعاملات المحرمة ترجع إلى ضوابط محددة، وما حرمت إلا لمفاسدها وظلمها، فإن الشارع الحكيم الرحيم، جاء بكل ما فيه صلاح، وحذر عن كل ما فيه فساد، وهذه الضوابط هي:

الأول: الربا بأنواعه الثلاثة:

- ربا الفضل.
- ربا النسيئة.
- ربا القرض.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]

الثاني: الجهالة والغرر.

الثالث: الخداع والتغرير[4].

فكل معاملة اشتملت على واحد من هذه الثلاثة فالشرع قد حرمها، وما عدا ذلك فهو حلال؛ لأن الأصل في المعاملات الحل والإباحة.

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾

الصيد، باب ما يقتل المحرم من الدواب، ٣/ ١٣، رقم ١٨٢٩.

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الصيد، باب ما ينهى عن قتله، ٤/ ٣٧٧، رقم ٣٢٢٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٧٠، رقم ٦٩٦٨.

(٢) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، التويجري ٤/ ٣١٧.

(٣) انظر: تيسير العلام، عبد الله البسام ٢/ ٤٤٩.

(٤) انظر: مختصر الفقه الإسلامي، التويجري ص٧٢٥.

[البقرة: ٢٧٥].

إن الربا من كبائر الذنوب لما فيه من الضرر العظيم:

- فهو يسبب العداوة بين الناس.
- ويؤدي إلى تضخّم المال على حساب سلب مال الفقير.
- وفيه ظلم للمحتاج، وتسلّط الغني على الفقير، وإغلاق باب الصدقة والإحسان، وقتل مشاعر الشفقة في الإنسان، حيث ينطبع قلب المرابي بالأثرة، والبخل، وضيق الصدر، وقساوة القلب، والعبودية للمال[١].

ولأن الربا من أعظم الذنوب، فقد أعلن الله عز وجل الحرب على آكل الربا وموكله من بين سائر الذنوب[٢].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

والمعاملة بالربا تمحق صاحبها، وتمحق ماله، وإن تمتع به قليلًا، فمآله إلى المحق والقل، كما أن المتصدق يفتح الله له من أبواب الرزق مالا يفتحه على غيره، وبين عز وجل أن الربا وإن كان زيادة في الحال، إلا أنه نقصان في الحقيقة، وأن الصدقة وإن كانت نقصانًا في الصورة، إلا أنها زيادة في المعنى[٣].

قال تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ومن المعاملات المحرّمة:

- بيع المسكر المائع والكلب غير الصيود والخنزير، وكذا الميتة النجسة.
- بيع المال المغصوب.
- بيع ما لا مالية له: كالسباع إذا لم تكن لها منفعة محلّلة معتدّ بها.
- بيع ما تنحصر منفعته المتعارفة في الحرام: كآلات القمار واللهو المحرم.
- المعاملة الربوية.
- المعاملة المشتملة على الغش[٤].

وفي عصرنا المادي هذا يعيش عبيد المال الذين يقدمون على المعاملات المحرمة والمكاسب الخبيثة بدافع حب المادة؛ كالذين يتعاملون بالربا مع البنوك وغيرها، والذين يأخذون المال عن طريق الرشوة والقمار، وعن طريق الغش في المعاملات والفجور في المخاصمات، وهم يعلمون أن هذه مكاسب محرمة لا بركة فيها؛ لأنه محارب من رب الأرباب، لكن حبهم للمال أعمى أبصارهم، وجعلهم

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٨٠.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٢٢٥.
(٤) انظر: مختصر الفقه الإسلامي، التويجري ص٧٢٥.

عبيدًا لها؛ فصاروا يطلبونها من أي طريق متناسين قول الرسول صلى الله عليه وسلم (إن الله أبى علي أن يدخل الجنة لحمًا نبت من سحت، فالنار أولى به)[1].

خامسًا: المحرم من الأزمنة والأمكنة:

إذا نظرنا إلى التشريع في الإسلام تجاه الزمان والمكان: فالله سبحانه وتعالى فاضل بين الأزمنة كما فاضل بين الأمكنة وكما فاضل بين الخلائق كلها.

١. المحرم من الأزمنة.

وعن ما حرمه الله عز وجل من الأزمنة يقول جل جلاله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[التوبة: ٣٦].

تلك الأربعة الحرم حرم الله سبحانه وتعالى الاعتداء فيها، بل وجعل النسيئة زيادة في الكفر، وكان العرب حينما يمر عليهم ثلاثة أشهر: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم يستطيلون تحريم ثلاثة أشهر لا يقاتلون فيها ولا يسلبون ولا ينهبون[2].

عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان)[3].

وأما الحكمة الإلهية الجليلة في تحريم تلك الأشهر الحرم: أن العرب كانوا يعيشون نظامًا قبليًا، وكانوا يحجون إلى البيت وهم على شركهم، وإذا أراد أن يحج فالقبائل أمامه تعترضه، فالله جعل أشهر الحج ضمن الأشهر الحرم التي يحرم الاعتداء فيها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾[المائدة: ٢].

فكانوا يحترمون الهدي إذا سيق إلى البيت، والقلائد، وآمين البيت الحرام، فإذا عرفوا أنهم عمّار أو حجاج كفوا عنهم فجعل الله الحج متزامنًا مع الأشهر الحرم ليأمن الحاج من أقصى الجزيرة إلى البيت ذهابًا وإيابًا[4].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الأطعمة ٤/ ١٤١، رقم ٧١٤٤.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله)، ٦/ ٦٦، رقم ٤٦٦٢.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٨٠.

فحرم الله عز وجل القتال في الأشهر الحرم، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾[البقرة: ٢١٧].

خص الله جل جلاله الأربعة الأشهر بالذكر، ونهى عن الظلم فيها تشريفًا لها، وإن كان منهيًّا عنه في كل الزمان[١].

وقد فضل الله شهر رمضان عن باقي الأشهر، وفضل يوم الجمعة ويومي الاثنين والخميس، ومن الأوقات المفضلة أيضًا العيدان الفطر والأضحى.

٢. من الأمكنة المحرمة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله حرم مكة، فلم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها، إلا لمعرف)[٢].

وللبيت الحرام، أي الكعبة المشرفة مكانة عظيمة عند الله تعالى في شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام، وفي شريعة الإسلام، لاعتبارات معنوية سامية، ولكونها مقرًّا لتوحيد الله جل جلاله من قبل جميع الناس، كما عظّم الله الشهر الحرام كالمحرّم ورجب، وكل ما يهدى لأهل الكعبة من أنعام أو مواش، وعظّم الله ذوات القلائد من الهدي، وهي الأنعام التي كانوا يضعون القلادة على أعناقها إذا ساقوها هديًا مقدّمًا لذبحه وتوزيعه على فقراء الحرم[٣].

قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

وكذلك المدينة المنورة من الأماكن المقدسة والمحرمة، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث، من أحدث حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[٤].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (المدينة حرم ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا، ولا عدلًا، وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم)[٥].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢٠٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب جزاء الصيد، باب لا ينفر صيد الحرم، ٣/ ١٤، رقم ١٨٣٣.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٥٠٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب جزاء الصيد، باب حرم المدينة، ٣/ ٢٠، رقم ١٨٦٧.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب

المحرومون من الجنّة

لقد أعد الله سبحانه وتعالى جنات عدن للمؤمنين من عباده، وحرمها على البعض الذين أمعنوا في عصيانه والكفر به جل جلاله.

أولًا: المشرك.

حرم الله جل جلاله الجنة على من مات مشركًا بمنعه الجنة وخلوده في النار، وأنه لا يغفر له ولا يجد ناصرًا، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليأخذن الرجل بيد أبيه يوم القيامة فليقطعنه النار يريد أن يدخله الجنة، فينادى: إن الجنة لا يدخلها مشرك، ألا إن الله قد حرم الجنة على كل مشرك، فيقول: رب أبي، رب أبي، رب أبي، قال: فيحول في صورة قبيحة وريح منتنة فيتركه)[1].

ويخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم يستطعمونهم ويستسقونهم ولكنهم لا يجابون إلى ذلك؛ لأن الله حرم طعام الجنة وشرابها على الكافرين[2]، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

ثانيًا: المنتحر.

وقد حرم الله جل جلاله قتل المرء لنفسه لأي سبب كان لأن الموت والحياة لله وحده ولا يجب أن يشاركه فيه أحد، عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جرحٌ فجزع، فأخذ سكّينًا فحزّ بها يده، فما رقأ الدّم حتّى مات، قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه حرّمت عليه الجنّة)[3].

ثالثًا: الإمام الغاشّ لرعيّته.

عن معقل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من والٍ يلي

فضل المدينة، ٢/ ٩٩٥، رقم ١٣٧٠.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، ذكر الخبر الدال على أن الإسلام ضد الشرك ١/ ٤٨٧، رقم ٢٥٢، وأبو يعلى الموصلي في مسنده، مسند أبي سعيد الخدري، ٢/ ٥٣٣، رقم ١٤٠٦.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان، ١/ ٣١٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤/ ١٧١، رقم ٣٤٦٣.

رعيّةً من المسلمين فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حرّم الله عليه الجنّة)[1].

رابعًا: من أخذ مال المسلم بغير حقّ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

ينهى المولى عز وجل عن أكل البعض مال البعض بالوجه الذي لم يبحه اللّه ولم يشرعه، وألا يلقوا أمرها إلى الحكام بالتحاكم بشهادة الزور، أو باليمين الكاذبة، أو بالصلح، مع العلم بأن المقضى له ظالم[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء: ١٠].

فالذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا وبغير حق إنما يأكلون في بطونهم حرامًا، والحرام يوجب النار[3].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من اقتطع حقّ امرئٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النّار وحرّم عليه الجنّة، فقال له رجلٌ: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: وإن قضيبًا من أراكٍ)[4].

خامسًا: قاطع الرحم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته)[5].

سادسًا: من ادعى إلى غير أبيه.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب: ٥].

هذه الآية ناسخة لما كان في ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب فأمر سبحانه وتعالى بردّ نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة؛ لأن هذا هو العدل والقسط والبر، وليس على المؤمنين ذنبٌ أو إثم فيمن نسبتموهم إلى غير آبائهم خطًا، ولكنّ الإثم فيما تقصدتم وتعمدتم نسبته إلى غير أبيه[6].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، ٩/ ٦٤، رقم ٧١٥١.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٣٣.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي١/ ٢٨٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار ١/ ١٢٢، رقم ١٣٧.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، ٨/ ٦، رقم ٥٩٨٨.
(٦) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٩.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنّة عليه حرامٌ)[1].

سابعًا: من قتل المعاهد.

الذي تعاهد عليه الناس والعقود التي يتعاملون بها هم ملزمون بها ومسؤولون عنها، فأمر الله عز وجل بالوفاء بالعهد؛ لكون الوفاء سببًا لعامة الصلاح والغدر سببًا لعامة الفساد، وعظم الله أمرهما[2].

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[الإسراء: ٣٤].

والمعاهد بينه وبين المسلمين عهود وعقود علينا الالتزام بها، عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قتل معاهدًا في غير كنهه حرّم الله عليه الجنّة)[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، ٥/ ١٥٦، رقم ٤٣٢٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٧٤.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، أول كتاب الجهاد، باب في الوفاء للمعاهد وحرمة ذمته، ٤/ ٣٨٩، رقم ٢٧٦٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٠٢، رقم ٦٤٥٦.

طريقة القرآن في التحريم

حرم الله عز وجل بعض الأمور على عباده إما لحكمة أدركوها وعرفوها، وإما لحكم لا يعلمها إلا الله جل جلاله، وفي كلتا الحالتين جاء التحريم في ثلاث طرق: إما أن يكون التحريم بشكل قطعي ونهائي دون جدل، وإما أن يكون بالتدريج مراعاة لأحوال العباد، وإما أن يكون تحريمًا مؤقتًا ينتهي وقت ما شاء الله سبحانه وتعالى.

أولًا: التحريم الفوري:

هناك من المحرمات ما كان تحريمها مباشرًا وبشكل فوري و قطعي، من دون حاجة للتدرج فيه؛ لخطورتها على الفرد والمجتمع.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ١١٥].

امتن الله سبحانه وتعالى على عباده برزقه اياهم، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، وبين أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية، سواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة، أو قد عدا عليها السبع، أو ما ذبح على النصب.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ

﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣][(١)].

ومن المحرمات بطريقة كلية لخطورتها الزنا لما له أثر هدام على المجتمع المسلم، فجريمة الزنا يترتب عليها اختلاط الأنساب، وضياع الأموال.

قال تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

فالزاني لخسّته وقبحه، لا يطأ سفاحًا إلا زانية تماثله في فحشه وخبثه، أو امرأة مشركة لا ترى فيه ما يشينها، فكلتاهما تطاوعه لفقد الوازع الديني والخلقي لديهما، أما العفيفة المؤمنة فلا سبيل له إلى الفسق بها، لحصانتها بعفتها ودينها المتين، والزانية لخستها وفحشها لا يطؤها سفاحًا إلا زانٍ يماثلها في فحشها، أو مشرك يحاكيها في خبثها، وحرم ذلك على المؤمنين بشكل قاطع، لأنه لا يليق بإيمانهم التلوث بمثله، ولو كان لدى الزناة إيمان لبعدوا عنه[(٢)].

قال صلى الله عليه وسلم: (لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن)[(٣)].

ومن المحرمات: قتل النفس.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣].

لا تقتلوا نفسًا قد حرّم الله جل جلاله قتلها إلا بحقها، وحقها هو أن تكفر بعد إسلام، أو تزني بعد إحصان، أو قودًا بنفس أما غير ذلك فهو حرام، وقد بين الله عز وجل له العذاب الشديد[(٤)].

ومن المحرمات: الربا.

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وغير ذلك من النصوص المحرمة للربا، وقد نقل الأئمة الإجماع على تحريم الربا إذا تقرر هذا التحريم القطعي للربا، فيجب أن يعلم أنه يحرم على المسلم أن يكون طرفًا في أي عملية ربوية، ويحرم عليه أن يسهم في العملية الربوية بأي شكل بسبب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب إثم الزناة، ٨/ ١٦٤، رقم ٦٨١٠.

(٤) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤١٩٢.

أضرارها البالغة الخطورة[1].

وهذه الآية جامعة لما حرمه الله عز وجل والبعد عن هذه المحرمات بشكل صريح، ويتضمن الالتزام بالسلوك الحلال.

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام: ١٥١].

ويبدأ بالنهي عن أكبر المحرمات وهي الشرك: كالرياء، وعدم صدق النية في العمل.

ثم رضا الوالدين وتحريم عقوقهما من الأمور التي طلبها الشارع، وحث عليها، بعد الأمر بالتوحيد والإخلاص لله وحده.

بعد أن قرر الله سبحانه وتعالى حق الوالدين على الولد، عقبه بالنهى عن قتل الأبناء بسبب الفقر.

ونهى عن الاقتراب من المحرمات كلها على وجه العموم، فضلًا عن الوقوع فيها ما يفعل منها علانية، وما يفعل منها سرًّا.

ثم نهى عن قتل النفس التي عصمها الله من القتل: بالإسلام، أو بالعهد - لأى سبب من الأسباب - إلا بالحق وقد سبق الحديث عن حقها[2].

ثانيًا: التحريم التدريجي:

جاء الإسلام والعرب كانوا في إباحة واسعة يكرهون كل ما يقيد حريتهم أو يحد من شهواتهم، وقد تمكنت من نفوسهم عادات كثيرة لا يستطيعون التحول عنها دفعة، فاقتضت الحكمة الإلهية ألا يفاجئوا بالأحكام جملة فتثقل بها كواهلهم وتنفر منها نفوسهم؛ ولذلك وردت الأحكام التكليفية شيئًا فشيئًا؛ ليكون السابق من الأحكام معدًا للنفوس ومهيئًا لها لقبول اللاحق، وبذلك تكون أوقع في النفس وأقرب للانقياد.

من ذلك: تحريم الخمر، فإنها كانت متمكنة من نفوس العرب تمكنًا اقتضت معه الحكمة الإلهية أن يتدرج القرآن في تشريع أحكامها، فلم يصرح لهم بتحريمها من أول الأمر، بل قال في جواب عنها وعن الميسر عندما سئل عنها: إن فيها منافع ولكن ضررها أكبر[3].

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة: ٢١٩].

وبعد أن أشار القرآن الكريم إلى أنه ينبغي

(١) انظر: المجموع شرح المهذب، النووي ٩/ ٣٩١.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٢٩.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٤٨.

تركها لغلبة إثمها نهى الناس عن الصلاة في حالة السكر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[النساء: ٤٣].

ثم صرح سبحانه وتعالى بالنهي عنها نهيًا عامًا مؤكدًا فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩٠ - ٩١].

والمتأمل في الآيات الكريمة التي نزلت في تحريم الخمر يرى أنه أشارت في إيجاز إلى المفاسد الرئيسية للخمر.

فآية النساء التي منعت من اقتراب الصلاة في حالة السكر بينت علة المنع، وهي: ألا يعلم المصلي ما يقول، وفي هذا إشارة إلى أن الخمر تخرج الإنسان عن وعيه، وتفقده إدراكه، وفي ذلك امتهان للعقل الذي كرم الله سبحانه وتعالى به الإنسان وفضله على سائر المخلوقات، فالخمر مفسدة للفرد في عقله وآدميته.

وبينت آية المائدة التي جاء فيها التحريم النهائي للخمر، سبب هذا التحريم وهو أن الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان توقع العداوة والبغضاء بين المسلمين وتصرفهم عن ذكر الله وعن الصلاة، فشربها مفسدة خلقية واجتماعية ودينية[(١)].

جاء التشريع الإسلامي متدرجًا في مخاطبة الأمة بشأن الخمر والميسر، فمهد أولًا ببيان اشتمالهما على الإثم الكبير، وأنه غالب على النفع الموجود فيهما، فكشف لهم الحال على حقيقتها ولم يحتم عليهم في طلب الترك، ففهم قوم طلب الكف فكفوا وغلب آخرون جانب الرخصة فترخصوا، بقي الأمر محتملًا عند آخرين فطلبوا زيادة البيان، ثم فطموا عن شرب الخمر وقتًا طويلًا من ساعات الليل والنهار، ثم جاء التحريم القطعي الذي لا مساغ للتأويل فيه[(٢)].

نزل التحريم القطعي؛ لأنهم بهذا التدريج يتكيفون؛ لأنهم أشربت قلوبهم حب الخمر، فالعرب يحبون الخمر، ويشربونها ويزاولونها بكثرة، فمن رحمة الله عز وجل أن نزل تحريمها تدريجيًا فجاء في آخر الأمر قوله جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠].

الاجتناب هو الابتعاد، والمقصود أبعدوه واجعلوه في ناحية، وقد أمر عز وجل

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١١٥٥.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٥٦.

باجتناب هذه الأمور المحرمة، واقترنت بصيغة الأمر، فكان ذلك على جهة التحريم القطعي[1].

عن أنس رضي الله عنه، (كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديًا ينادي: (ألا إن الخمر قد حرمت)، قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج، فأهرقها، فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة، فقال بعض القوم: قد قتل قوم وهي في بطونهم، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾[المائدة: ٩٣]. الآية)[2].

ثالثًا: التحريم المؤقت:

أما التحريم المؤقت، فإنه يمنع من التزوج بالمرأة، ما دامت على حالة خاصة، فإن تغيرت تلك الحال زال التحريم، صارت حلالًا، ومن المحرم على المسلم حرمة مؤقتة:

١. الجمع بين الأختين لقوله سبحانه وتعالى ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٢٣]. بالإضافة إلى أن الجمع بينهما يولد الشقاق بين الأقارب، ويعكر صفو الأخوة والمودة، ويمزق ما بين الأرحام من صلات[3].

٢. الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، وقد سبق الحديث عن ذلك.

٣. زوجة الغير، وذلك رعاية لحق الزوج، لقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، أي: وحرمت عليكم المحصنات من النساء، وهن ذوات الأزواج[4].

فهذه تحرم خطبتها إلا أن تكون تلميحًا فقط.

قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

ومن التحريم المؤقت: خطاب الله عز وجل للمؤمنين الذين يرغبون في مناجاة الرسول والتحدث إليه في شؤونهم الخاصة أن يتقربوا إلى الله قبل لقاء الرسول، بتقديم الصدقات إلى الفقراء المسلمين، ثم يأتوا

(١) انظر: روائع البيان، الصابوني ١/ ٥٦٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب صب الخمر في الطريق، ٣/ ١٣٢، رقم ٢٤٦٤.
(٣) انظر: تفسير المراغي، ٤/ ٢٢٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٥١.

إليه وقد ازدادوا طهرًا وصفاء، أما الذين لا يملكون ما يتصدقون به على الفقراء، لكونهم من نفس الفقراء، فلا حرج عليهم في لقائه ومناجاته دون تقديم أية صدقة.

وإلى هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢][(١)].

عن مقاتل: أن الأغنياء كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيكثرون مناجاته، ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره صلى الله عليه وسلم طول جلوسهم ومناجاتهم، فنزلت[(٢)].

قال الألوسي تعليقًا على نزول هذه الآية:

- وفي هذا الأمر تعظيم للرسول صلى الله عليه وسلم وإكبار شأن مناجاته.
- التخفيف عن النبي صلّى الله عليه وسلّم بالتقليل من المناجاة ودفع للتكاثر عليه من غير حاجة مهمة.
- نفع بالصدقات والتهوين عليهم.
- تمييز بين المخلص والمنافق، ومحب الآخرة ومحب الدنيا؛ فإنّ المال محكّ الدواعي[(٣)].

وقال زيد بن أسلم: لما نزلت هذه الآية انتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقوموا بين يدي نجواهم صدقة، وشق ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا عن النجوى، لضعف كثير منهم عن الصدقة، فخفف الله عنهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

فنسخت فرضية الزكاة هذه تخفيفًا على الناس حيث إنهم تثاقلوا منها[(٤)].

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٧/ ٣٤٧.
(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي ٤٧٦.
(٣) انظر: روح المعاني ١٤/ ٢٢٥.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٣٠٣.

مقاصد التحريم

القرآن الكريم والسنة الشريفة أتيا للتعريف بمصالح الدارين جلبًا لها، والتعريف بمفاسدهما دفعًا لها، وهذه المصالح لها ثلاثة أقسام: الضروريات، والحاجيات، والتحسينيّات.

- الضروريات خمس: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العرض، وحفظ المال، وحفظ العقل.
- الحاجيات تدور على التوسعة، والتيسير، ورفع الحرج، والرفق في هذه المقاصد.
- التحسينيّات ترجع إلى العمل بمكارم الأخلاق وما يحسن في مجاري العادات في هذه المقاصد الخمس[(١)].

وقد ذكر وبين من هذه المقاصد العامة: حفظ النظام، وجلب المصالح، ودرء المفاسد، وإقامة المساواة بين الناس، وجعل الشريعة مهابة مطاعة نافذة، وجعل الأمة قوية مرهوبة الجانب مطمئنة البال.[(٢)]

ويقرر علال الفاسي أن «المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع»[(٣)].

إن من مقاصد الشريعة الإسلامية جلب النفع ودفع الضرر، فمن جلب المنافع إباحة جميع ما في الأرض، وتسخير كل القوى لخدمة الإنسان قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

والقاعدة في ذلك عند فقهاء الإسلام أن الأصل في الأشياء الإباحة حتى يأتي الحظر أما دفع المضار فإن الإسلام قد شرع من الأحكام ما يهدف به إلى الحماية والمحافظة على ما يعرف بالضروريات لكل مجتمع من المجتمعات، وهذه الضروريات جاءت جميع الشرائع السماوية بحمايتها والمحافظة عليها، لأنه لا حياة للناس بدونها ولا استقرار ولا أمن ولا طمأنينة إلا بصونها عن عبث العابثين[(٤)].

لذا كان من أسباب التحريم كما جاء في القرآن الكريم:

١. المحرم رجس قذر ونجس.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ

(١) انظر: الموافقات، الشاطبي ص ٥.
(٢) انظر: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني ص٦.
(٣) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ص٣.
(٤) انظر: الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، أبو الحارث الغزي ١٩١.

﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠].

إنما حرم لحم الخنزير لكونه نجسًا فهذا يقتضي أن النجاسة علة لتحريم الأكل فوجب أن يكون كل نجس يحرم أكله[(١)].

٢. أنه فسقٌ وخروجٌ عن طاعة الله.

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[الأنعام: ١٤٥].

٣. أنه ذبح لغير الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[النحل: ١١٥].

ومن الحكمة كذلك من تحريم بعض الأطعمة والأشربة:

- الحفاظ على العقل الذي به تتم عبادة الله وعمارة الأرض، بتحريم كل ما يعطل العقل كالخمر والمخدرات، فالعقل نعمة من نعم الله الجليلة فهو الذي يميز به المرء بين الهدى والضلال، والخير والشر، والطيب والخبيث. والعقل هو مناط التكليف وبه فضل الله الإنسان على بقية أنواع الحيوان؛ لذا حرصت الشريعة الإسلامية على تحريم كل ما يضر بالعقل، فحرمت الخمر وكل مسكر.
- الحفاظ على النفس بتحريم كل ما يحدث الضرر بها أو يشكل خطرًا على حياة الإنسان.
- حفظ المال بعدم إضاعته فيما لا نفع فيه، خاصة إذا أثبت ضرره على صحة الإنسان، وأصبح محرمًا شرعًا كالتدخين والمخدرات مثلًا[(٢)].
- الوقاية من الأمراض الناتجة عن الأطعمة المحرمة، كالدم المسفوح الذي يعد أنسب مكان لانتشار الجراثيم ونموها.
- المحافظة على الأنساب فقد حرم الإسلام الزنا ووضع له العقوبة الرادعة جلدًا أو رجمًا. قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾[النور: ٢]. وجاءت السنة برجم الزاني المحصن.
- المحافظة على الأعراض فحرم الإسلام القذف وشرع لذلك عقوبة رادعة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[النور: ٤].
- المحافظة على الأموال نهى الإسلام

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٦٨.

(٢) انظر: المسكرات والمخدرات، أحمد الأزرق ص٣٠.

عن أكل أموال الناس بالباطل وشرع لذلك حد السرقة، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

عقوبة ارتكاب المحرمات

الأوامر الشرعية أنزلها الله عز وجل إلى عباده لصالحهم العام والخاص فإذا تطابقت الأعمال البشرية مع الأوامر الإلهية سعد الإنسان في الدنيا والآخرة، وإذا خالفت أعمال العباد أوامر الله الشرعية شقي الإنسان في الدنيا والآخرة، والله يحب أن يطاع وتمتثل أوامره ونواهيه في جميع الأحوال من جميع العباد.

فما بين الحق جل جلاله الحرام والحرام إلا لحكمة بالغة سواء أعرفها المرء وأدركها أم لا، والعبد ليس له عمل إلا طاعة سيده ومولاه، الذي أفاض عليه من نعمه بما لا يحصى، ووعده إن أطاعه بالدار الحسنى، وإن عصاه بنار تلظى، فلا سعادة ولا فلاح ولا نجاة في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان والأعمال الصالحة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٤ - ٧٦].

أولًا: العقوبة في الدنيا:

والناس في الدنيا نوعان:

- مسلم لله جل جلاله منفذ لأوامره يتحرى الحلال ويبتعد عن الحرام

طامعًا في رضاه وجنته.

- كافر به وبأوامره، ضاربًا بعرض الحائط ما شرع الله به من حلال وحرام.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠].

وثواب الله عز وجل على الطاعات، وجزاؤه على السيئات، حاصل لكل عبد، وذلك في الدنيا والآخرة.

وأما عقوبة الله العاجلة في الدنيا على المعاصي هي:

- الوحشة من الله والإعراض عنه والاشتغال بما يبعده عنه ومحبة ما يسخطه وما يبغضه من الأقوال والأعمال وعدم الرضا بقضائه وضيق المعيشة والضلالة ونسيان ذكره والنكد الشاق من العيش، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤][1].

- بعد الملائكة عنه واقتران الشياطين به، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

- عقاب دنيوي أليم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

والمقصود من محاربتهم الله ورسوله، قطعهم الطريق على الناس، وإفسادهم في الأرض، وترويع الآمنين، وجعل عملهم هذا حربًا لله ورسوله؛ إنما هو لتمردهم على ما شرعه الله سبحانه وتعالى، من وجوب الكف عن إيذاء الناس وإخافتهم، وتوفير أسباب الأمن والسلام لهم فلا يسلبونهم أموالهم أو أعراضهم، أو يقتلونهم، قال ابن جزي: هو بيان للحرابة، وهي درجات فأدناها: إخافة الطريق، ثم أخذ الأموال، ثم قتل النفس[2].

فجزاؤهم أن يقتلوا أو يصلبوا، يقتل ثم يصلب، إرهابًا لغيره، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فيقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإن عاد قطعت يده اليسرى ورجله اليمنى، وقطع اليد من الرسغ، والرجل من المفصل كالسرقة، أو ينفوا من

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٦٨.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٣٥.

بلد إلى بلد، ويسجنوا فيه حتى تظهر توبتهم، ولهم خزي في الدنيا وذل وفضيحة[1].

- اللعنة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] إن الذين يقذفون العفائف الغافلات بالفواحش عذبوا في الدنيا بالحد، والحد الذي قرره الشارع الحكيم يتمثل في قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤]. حيث بينت الآية الكريمة حد القاذف بجلده ثمانين جلدة وعدم قبول شهادتهم[2].

- الحرب والهلاك، وفي هذه الآية الحديث عن الربا ومستحله، وما يجده من عقاب دنيوي لقاء هذه الجريمة، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. حيث خوفهم إن لم يتركوه بإهلاك من الله تعالى ورسوله[3].

- الجلد مئة جلدة، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]. مائة جلدة هذا حد الزاني الحر البالغ البكر، وكذلك الزانية البالغة البكر الحرة وثبت بالسنة تغريب عام والرجم بالحجارة حتى الموت للمحصن[4].

- قطع يد السارق، ويقول تعالى حاكمًا وآمرًا بقطع يد السارق والسارقة في الدنيا: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٧٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٨٩.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٨٤.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٥٩.

العقوبة في الآخرة

أمّا عقوبة الله الآجلة على المعاصي وما اقترف من المحرمات في الآخرة فأنواع:

أحدها: العذاب الجسدي في نار جهنم بألوان العذاب من الإحراق بالنار، وأكل الزقوم، وشرب الماء الحميم، وضرب المقامع، وقيد السلاسل وغير ذلك من ألوان العذاب.

الثاني: العذاب الروحاني بالطرد والإهانة، واللعن والإعراض عنه.

الثالث: غضب الله عليه، ومنعه من رؤيته، وهما أشد أنواع العذاب كما قال سبحانه وتعالى، عن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥ - ١٦][1].

فمن العقوبات الأخروية التي قررها الله عز وجل جزاء من قتل مؤمنًا عامدًا قتله، مريدًا إتلاف نفسه فقد حدد الله له جزاء عظيمًا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

- له عذاب جهنم خالدًا فيها.
- غضب الله عليه بقتله إياه متعمدًا.
- أبعده من رحمته وأخزاه[2].

وبالإضافة إلى الجزاء الدنيوي لمن يقطع الطريق على الناس ويرهبونهم حدد الله سبحانه وتعالى لهم عقاب أخروي حيث قال جل جلاله: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

لهم في الآخرة عذاب عظيم لعظم ذنوبهم وظاهره أن العقوبة في الدنيا لا تكون كفارة للمحاربين بخلاف سائر الحدود من سرقة وزنا.

وكذلك من يرمي المحصنات فله جزاءين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وفي يوم الآخرة بالنار، كما ولهم عذاب عظيم[3].

موضوعات ذات صلة:

الحلال، الذنب، الزنا، السؤال، الشرب، الطعام، الفواحش

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ١/ ٤٢٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٥٧.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٨٩.

الحرب

عناصر الموضوع

مفهوم الحرب	٨
الحرب في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
إسناد الحرب لله تعالى ولرسوله	١٣
المحاربون لله ولرسوله	٢٢
الإعداد للحرب	٢٨
في ميدان الحرب	٣٧
بعد انتهاء الحرب	٤٣
مقاصد الحرب كما بينها القرآن	٤٧
أخلاق المؤمنين المحاربين وغيرهم	٥١
من مبادئ الحرب في سورة العاديات	٥٦

مفهوم الحرب

أولًا: المعنى اللغوي:

الحرب: نقيض السلم، ورجل محرب، أي: شجاع، وفلانٌ حَرْبُ فلان، أي: يحاربه، وحرّبته تحريبًا، أي: حرّشته على إنسان فأولع به وبعداوته[1].

وقيل: يراد به القتال والترامي بالسّهام، ثم المطاعنة بالرماح، ثم المجالدة بالسيوف، ثم المعانقة، والمصارعة إذا تزاحموا[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الحرب: صراع بين مجموعتين، تسعى إحداهما لتدمر الأخرى، أو التغلب عليها[3].

وقد يقصد من الحرب تحقيق مكاسب سياسية أو اقتصادية أو أيدلوجية أو لأغراضٍ توسعيّة، وهي عادة آخر الأوراق بيد السياسة.

فالمعنى الاصطلاحي متفق مع المعنى اللغوي، فكلاهما يدلان على نقيض السلم.

(١) انظر:العين، الفراهيدي ٣/ ٢١٣.
(٢) انظر: تاج العروس، الزّبيدي، ٢/ ٢٤٩.
(٣) الموسوعة العربية العالمية، ٩/ ١٦٢.

الحرب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حرب) في القرآن (٦) مرات[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧]
الفعل المضارع	١	﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة:٣٣]
المصدر	٤	﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة:٦٤]

وجاءت الحرب في القرآن على وجهين[(٢)]:

الأول: القتال، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ [الأنفال:٥٧]، أي: في القتال.

الثاني: المخالفة للشرع والإفساد في الأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة:٣٣]، يعني: إنما جزاء الذين يخالفون أحكام الله ورسوله، ويسعون في الأرض فسادًا وإفسادًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١٩٦.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١٦٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤٤٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ القتال:

القتال لغةً:

من قاتل فلان فلانًا، وقاتله مقاتلة وقتالًا، وهو بمعنى المحاربة والمقاتلة، ولا يكون إلا بين اثنين[١].

القتال اصطلاحًا:

القتال صيغة مبالغة من القتل، والمقاتلة هي القتال ولا يكون إلا بين اثنين[٢].

الصلة بين القتال و الحرب:

والقتال بهذا التعريف يكون صورة من صور الحرب، فالحرب أعم وأشمل وتتعدد صورها، بينما القتال ليس له إلا صورة واحدة، وكلاهما يكون مع الغير.

٢ الغزو:

الغزو لغة:

القصد، والغزو: السير إلى قتال العدو، يقال: غزا يغزو غزوًا فهو غاز، وجمعه غزاة وغز[٣].

الغزو اصطلاحًا:

عرفه الأصفهاني بقوله: «الغزو الخروج إلى محاربة العدو»[٤].

الصلة بين الغزو والحرب: الحرب والغزو بينهما عموم وخصوص، فالحرب أعم وأشمل من الغزو، إذ الغزو فيه من التحرك و المسير لملاقاة العدو في عقر داره، وهو صورة من صور الحرب، بينما الحرب تشمل الغزو وغيره من أنواع الحروب، وكلاهما يكون مع الغير.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٩/ ٦٢.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٥٤٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٥/ ١٢٣.
(٤) المفردات، ص٣٦٠.

٣ الجهاد:

الجهاد لغة:

الجهاد: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب، أو اللّسان، أو ما أطاق من شيءٍ، والاجتهاد والتّجاهد: بذل الوسع والمجهود[١].

الجهاد اصطلاحًا:

الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو[٢]، وزاد بعضهم وغلب استعماله شرعًا في الدعوة إلى الدين الحق[٣].

الصلة بين الحرب والجهاد:

الحرب والجهاد بينهما عموم وخصوص، فالجهاد أعم من الحرب، فكل مجاهد ناصرًا للدين، ورافعًا لكلمة الله، فهو محارب لأعداء الله ودينه، وليس كل محارب مجاهدًا، فقد يريد بحربه مطالب دنيوية.

والحرب صراع وخصومة بين طرفين، بينما الجهاد قد يكون مجاهدة الإنسان لنفسه، لتهذيبها، وإلزامها أمر الله.

وفي الحرب يحاول كل طرف أن يحقق غايته في خصمه، بينما الجهاد: استفراغ الجهد لمصلحة الدين، ويكون فيه تمني الصلاح للطرف الآخر، وليس بالضرورة قهره.

٤ السلم:

السلم لغةً:

السّلم والسّلم والسّلم، وقد قرئ على ثلاثة أوجه، والسّلم: ضد الحرب[٤].

السين واللام والميم معظم بابه من الصّحّة والعافية، والسّلام: المسالمة[٥].

السلم اصطلاحًا:

الذي يهمنا في هذه الدراسة ما هو ضد الحرب، وهو حالة نفسية تسود أفراد المجتمع نتيجة وحدة الأهداف والغايات والتصورات، تجعلهم يشعرون بالأمان والسكينة في كل

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ١٣٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٠٨.
(٣) انظر: التوقيف، المناوي ص ١٣٣.
(٤) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٨٥٨.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٦٨.

نواحي الحياة.

الصلة بين الحرب والسلم:

الحرب نتيجة للخلاف، والسلم نتيجة للود والوئام، فهما حالتان متضادتان، لا تجتمعان، ولا ترتفعان، فإذا ساد أحدهما رفع الآخر.

إسناد الحرب لله تعالى ولرسوله

أذن الله لرسوله وللمؤمنين بالحرب على المشركين وأعوانهم، وتكفّل الله بالنصر لرسوله وللمؤمنين، وبيّنت الآيات أنّ الكافرين كلما أوقدوا نارًا تكفّل الله لرسوله وللمؤمنين بإطفائها، وذلك حكمة من الله، ستتعرف على ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: حكمة إسناد الحرب لله تعالى ولرسوله:

إن من أشد وأقسى أنواع الحروب الحاسمة، ما كان بين قوتين غير متكافئتين، فإعلان الحرب من الله على العصاة، وإعلان المجاهرين بالفساد في الأرض الحرب على الله، تمثلان نوعًا من حرب غير متكافئة، تجعل من أعداء الله عبرة عبر الزمان، لذا سنجعل الحديث في مسألتين:

المسألة الأولى: إعلان الحرب من الله تبارك وتعالى على العصاة.

قال عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٩].

تنشأ الحرب بين البشر من قديم الزمان، وكلما كان أحد أطراف الحرب ذا سطوة وقوة ومنعة، ويمتلك من الآلات والوسائل والجند ما لا يملكه الآخر، وكان لديه من العلم والخبرة والقدرة على التعمية على الخصم، والمكر به، وأخذه على حين غرة، كانت نتائج هذه الحرب محسومة لصالحه، وهذا لا يتنازع فيه خصمان.

والله عز وجل قد وصف نفسه في كتابه العزيز بكل صفات القوة والمنعة، والإحاطة بأسرار هذا الكون، وخضوع كل ما فيه لأمره، وإرادته، وتدبيره، لذلك فإن الله إذا أعلن حربًا على أحد، أذله وقهره، ويمكن بيان بعض هذه الصفات التي وصف الله بها نفسه، لبيان قهره وبطشه بكل من يخالف عن أمره من خلال القرآن الكريم، وهي كما يأتي:

- **القوي المتين.**

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٨].

فهذا «بيان لعظمته عز وجل، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس»[1].

- **العزيز الجبار.**

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٣].

- **ذو البطش الشديد.**

(١) محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٤٧.

قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج:١٢].

أي: «مضاعف عنفه؛ فإن البطش أخذ بعنف»[(١)].

❁ لا تحصى جنوده عددًا ولا عدة.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح:٧].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر:٣١].

أي: وما يعلم جنود ربك جموع خلقه على ما هم عليه إلا هو، ولا سبيل لأحد من خلقه حصر الممكنات، والاطلاع على حقائقها وصفاتها، وما يوجب اختصاص كل منها بما يخصه من كم وكيف واعتبار ونسبة إلا هو سبحانه[(٢)].

❁ أخذه أليم شديد.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢].

❁ يباغت عدوه بالعقاب.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

«والمقصود من الآية أن الله خوفهم بنزول العذاب وهم في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل، وحال الضحى بالنهار؛ لأنه الوقت الذي يغلب على الإنسان التشاغل فيه بأمور الدنيا»[(٣)].

❁ لا يخشى المحاسبة، فهو لا يعبأ بخصمه ولا يحسب له حسابًا.

قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣].

❁ لا يعجزه شيء في ملكه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر:٤٤].

❁ محيط بكل شيء علمًا وخبرة.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ٣٠١.
(٢) انظر: المصدر السابق، ٥/ ٢٦٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢/ ٢٣١.

﴿١٢﴾ [الطلاق:١٢].

- يتحكم في إرادة خصمه وقوته.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤].

فكلما أوقدوا نارًا، أي: أهاجوا شرًّا، وأجمعوا أمرهم على حرب النبي صلى الله عليه وسلم، أو أحد غيره بغير حق لمخالفتهم أمر الله، (أطفأها الله) وقهرهم، ووهن أمرهم، فذكر النار مستعار، فالله يرد كيدهم ويتحكم في قدرهم كيف يشاء[1].

إن طرفًا محاربًا يمتلك هذا القدر من القوة والمنعة والقهر لخصمه، لا قبل لأحد بحربه، فردًا كان أو جماعة أو دولة عظيمة مدى الزمان.

قال تعالى مخبرًا عن سطوته بالظلمة العتاة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام:٦].

هذا بعض ما أخبر به الله عز وجل من قوته وتنوع جنده، وما خفي أجل وأعظم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

فقوة الله لا تقارن بقوة المخلوقات، ولا طاقة لعقل الإنسان أن يتخيلها.

والله عز وجل ولي أنبيائه ورسله، وناصرهم ومؤيدهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

فكل من يحيد عن أمر الله، أو أمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنما يعرض نفسه لحرب أعلنها الله عز وجل باسمه واسم رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو حتمًا منهزم مقهور.

ففي إسناد الحرب لله تبارك وتعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

من الحكم العظيمة، والتهديد والوعيد، والزجر والردع، ما يجعل كل عاقل يفكر مرات عديدة في جملة من الأمور يمكن بيانها في النقاط التالية:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٢٤٠.

١. قبح جريمة الربا.

فقد ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن جرائم عديدة، يرتكبها العصاة من الناس، فما توعد أحدًا منهم كما توعد آكل الربا، المقيم المصر عليه، فهي تدمر المجتمعات البشرية، وتغرس الحقد والجشع في نفوس الناس، وتمنع التراحم بينهم، وتؤسس لهيمنة الأغنياء وأصحاب رؤوس المال على عموم الناس والبسطاء، وتجعل منهم عبيدًا لهم، وتؤسس لحالة من التنازع والصراع التي تفضي لإشعال الحروب والدمار بين المجتمعات البشرية والدول، لا لأجل إحقاق العدل وبسط الأمن والسلم بين الناس، وإنما لأجل دوام حالة الاستعباد والذل التي يرغب أصحاب المال في فرضها على الضعفاء والمقهورين؛ لذا فقد أعلنها الله حربًا على المصرين على جريمة الربا دون غيرها من الجرائم، لأنها تؤسس لكل الجرائم بعدها[1].

٢. هزيمة المعاندين.

إن إعلان الحرب من الله على العصاة من المرابين وغيرهم، فيه دلالة على هزيمتهم المؤكدة، وأن وبطشه واقع بهم، وأن عاقبتهم إلى زوال، وذلك جليٌّ من عظيم قوته، وشدة بطشه بالمعاندين، وضعفهم الشديد أمام وجبروته.

٣. وجوب محاربة المقيمين على المعاصي وإقامة الحدود عليهم.

قال عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فيه من الدلالة على وجوب مقاتلة الرسول صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر للمرابين المصرين على عدم الانتهاء من هذه المعاملة المالية الخبيثة، فالحرب من الله بالنار يوم القيامة، وزلزلة نفوسهم، والحرب من الرسول وولاة الأمر بالسيف في الدنيا، حيث نزل سياق الآية في بني عمرو بن عمير من ثقيف وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، وكانوا قد أمنوا، ودخلوا فيه، فطلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فرفضوا ذلك، فرفع عتاب بن أسيد-نائب مكة - الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه آيات الربا إلى قوله عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقالوا: نتوب إلى الله، ونذر ما بقي من الربا فتركوه كله.

فمن كان مقيمًا على الربا، لا ينزع عنه، كان حقًّا على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه.

وقال قتادة: أو عدهم الله بالقتل كما يسمعون وجعلهم بهرجًا ، أي: دماؤهم

(١) انظر: المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، غالب عواجي، ٢/ ١٣١٠.

مهدورة[1].

رابعًا: تنكير الحرب في سياق الآية:

إن جعل الحرب نكرة بهذا الأسلوب القرآني العظيم يلقي بظلال الرهبة والعظمة في قلوب السامعين، إنها حرب لا طاقة لكم بها، ولا معرفة لكم بكنهها، فهي حرب لن تكون بالسيف وحسب، بل تتعداها خارج نطاق ما تتوقعون، حرب على الأعصاب والقلوب، وحرب على بركة السعة في الأرزاق، تذهب متعة اليسر في الحياة والرخاء، وحرب على السعادة والطمأنينة تجعل المرابي يعيش حالة من البؤس والاضطراب، حرب من الله تقذف في قلوب أعدائه الرعب، ألا ترى قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَىٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥].

إنها حالة تلقي بظلال الكآبة والشدة وفقد الطمأنينة والراحة لدى المرابين[2]، فإن قالوا: هلا قيل بحرب اللّه ورسوله؟ فالرد القاطع بأن هذا أبلغ، لأن المعنى: فأذنوا بنوع من الحرب عظيم عند اللّه ورسوله[3].

المسألة الثانية: إعلان الحرب من العصاة على الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡىٌ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة:٣٣].

ففي ظلال هذه الآية الكريمة، وفي ضوء ما تم بيانه في المسألة الأولى من قوة الله عز وجل، فإن المتأمل في أحوال العصاة والمخالفين لأمر الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم يخرج ببعض من الدلالات، يمكن بيانها في النقاط التالية:

١. جهل المحاربين لله ورسوله بعظمة الخالق.

جاءت آيات القرآن الكريم لتصف العتاة من الكفار والعصاة بالجهل وعدم العلم تارة، والسفاهة ونفي التعقل تارة أخرى.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة:١٣].

وصفهم بالسفاهة وعدم العلم.

وقال أيضًا: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٧١٦.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٣٢٦.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٣٢٢.

وصفهم بالجهل فيما يتعلق بصفة العزة لله ولرسوله والمؤمنين، فكيف يستشعرون هذه العزة وهم لا يتذوقونها، وهم منقطعون عن مصدرها الأصيل[(١)].

٢. وجوب معاقبة من حارب الله ورسوله.

أمر الله بمحاربة المفسدين في الأرض من المسلمين، والغلظ عليهم، وأخذهم بما يستحقون من العقوبة الرادعة التي تجعلهم عبرة لمن خلفهم، ففي قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، أمر بملاحقة قطاع المسلمين؛ لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها، أما من دخل صف المسلمين، ثم خرج لإشاعة الفساد ومحاربة أولياء الله، فلا بد من أخذه بما يستحق، وتوبته لا تسقط حدًّا[(٢)].

وقد جعل الله محاربة هذا الصنف من المفسدين من أعظم ما يتقرب به إلى الله.

قال تعالى معقبًا على هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥﴾ [المائدة:٣٥].

أي: «وجاهدوا في سبيله بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة، لعلّكم تفلحون بالوصول إلى الله سبحانه وتعالى والفوز بكرامته»[(٣)].

٣. الخزي والذل في الدنيا لمن حارب الله ورسوله.

وكما توعد المولى عز وجل المحاربين لله ورسوله بالعقوبة والقصاص في الدنيا توعدهم أيضًا بالذلة والصغار، والفضح على رؤوس الأشهاد.

قال تعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: «شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة»[(٤)].

٤. الوعيد بعذاب الآخرة.

لم يتوقف وعيد الله تعالى للمحاربين لله ورسوله في الدنيا، رغم قسوة العذاب وخزيه، بل توعدهم بالعذاب المؤلم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣].

وذلك نكاية فيهم ولبيان عظم جرمهم في حق الله عز وجل وحق رسوله وأوليائه.

فكل من حارب الله ورسوله، وتمرد على شرعه، وأفسد في الأرض، وقطع الطريق، وقتل أنبياء الله وأولياءه، كان مع من غضب الله عليهم فحاربهم، وأمر رسله

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٥٨٠.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٢٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٠١.

وأولياءه بمحاربتهم.

ثانيًا: حكمة إسناد إطفاء نار الحرب لله تعالى:

الناس في أصل نار الحرب على قولين:

- فريق يرى بأنها نار للحرب على الحقيقة، فقد كان العرب والمسلمون في قديم الزمان يتخذون العيون يكمنون في المغارات ليلًا، يرصدون الجيوش، فإذا مر جيش يريد ديار المسلمين أوقد العين نارًا، يراها غيره من مكان بعيد، فيشعل نارًا، وهكذا حتى يصل الأمر إلى المسلمين، فيعدوا للقائهم، ولا يؤخذوا غفلة، وقيل بل كانوا إذا اجتمعوا للحرب، ودخل الليل أشعلوا نيرانًا مخافة البيات والنوم، وهذا هو أصل النار[1].
- وفريق -وهم الجمهور- يرى أن إيقاد نار الحرب استعارة لما يؤجج قلوب المفسدين من الغيظ والحقد على المؤمنين، ومنه قولهم: الآن حمي الوطيس للجد في الحرب، وفلان مسعر حرب، فكلما تداعوا لقتال المسلمين والمكر بهم، صرف الله قلوبهم وشتتهم، وباعد بين كلمتهم، وألقى الرعب والوهن في قلوبهم، فلا تقوم لهم قائمة[2].

والذي تميل إليه النفس هو رأي الجمهور لأنه أعم، وله أثره في هزيمة المحاربين وفت عضدهم، وبيان حقد قلوبهم على المؤمنين، مع كون أصل اصطلاح نار الحرب أقرب لأصحاب الرأي الأول، لأن فيه بيان أصل المصطلح.

وسياق قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤].

يبين بجلاء أن الذين يشعلون الحروب بين الأمم، هم في قبضة الله، إن شاء أبقى نارهم، وسلطها على رقاب من يشاء من الظالمين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام:١٢٩].

وإن شاء أخمدها، ورد كيدهم إلى رقابهم، فهو المتصرف في كل شيء، فالله سبحانه وتعالى وحده المتصرف في شؤون الكون، وجعل أفعال خلقه سترًا لقدره، فعن عمران قال: قيل: يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: فقال صلى الله

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٤/ ٣١٧.

(٢) انظر: المصدر السابق.

عليه وسلم: (نعم)، قال: قيل: ففيم يعمل العاملون؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (كل ميسر لما خلق له)[1]، فلا يكون في الكون إلا ما يشاء، وفق إرادته وحكمته، فمن الناس من خلقوا دعاة هداية للناس، ومنهم من خلق ليكون مصدر فتن وإشعالٍ للحروب، والكل في قبضة الله.

وفي إسناد إطفاء نار حرب الكفار لله عز وجل من الحكم ما يمكن ذكر بعضه في النقاط التالية:

١. تولي الله عز وجل بذاته محاربة المفسدين.

سياق الآية الكريمة يبين أن الله تعالى هو من يتولى بنفسه محاربة المفسدين، وإفشال مخططهم في محاربة المؤمنين، ولا يكل ذلك لأحد من خلقه، وهذا يلقي بظلال الرهبة لكل صاحب بصيرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠].

وقال: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:٥٠-٥٢].

٢. قوة الله تعالى وهيمنته على قلوب خلقه.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ بيان لقدرته سبحانه تعالى وهيمنته على قلوب خلقه، مؤمنهم وكافرهم، أما المؤمنون فيرد عنهم وساوس الشيطان ويحفظهم من كيده ومكره.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر:٤٢].

وأما الكفار فيطفئ نار حربهم، وحقد قلوبهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، فتكون هزيمتهم من داخل قلوبهم، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر:٢].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله، ٤/ ٢٠٤١، رقم ٢٦٤٩.

٣. خذلان الله تعالى للمفسدين في الأرض.

إن الله تعالى لا يرضى تسلط المفسدين على أوليائه المؤمنين، فيتولى بنفسه الدفاع عنهم، فيرد كيد عدوهم فيبوء بالخيبة.

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥].

فبعد أن يطفئ نارهم ويتشتت أمرهم، وتظهر خفايا قلوبهم لا تراهم إلا أذلاء مستضعفين منحسرين.

٤. نصر الله تعالى لأوليائه.

تكفل الله عز وجل بنصر أوليائه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧].

ومع ذلك فقد تكون للمفسدين كرة على المؤمنين، عقوبة للمؤمنين لتقصير في طاعة، أو تركهم الأخذ بأسباب القوة، فيسلط الله عليهم عدوهم ليعودوا لدينهم، فإن عادوا رد كيد عدوهم وإطفاء ناره.

قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

وخلاصة القول: أن الله تعالى يتصدى لأعدائه بذاته القدسية، فيبطل كيدهم، ويطفي نيران باطلهم، ويشتت كلمتهم، فلا يكادون يجمعون على أمر إلا ويجعل الله فيه مفسدة تعود عليهم، فتكون لظى نارهم سببًا في حرق قلوبهم.

ومن لطائف القول في هذا الشأن أن يهود كانت تتوعد أهل المدينة من الأوس والخزرج قبل أن يلتقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فيقولون: إن نبيًّا سيبعث، وقد أطل زمانه، سنتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفرًا من أهل المدينة في الموسم، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، وصدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام[1].

فكان توعد اليهود لأهل المدينة يشعل في قلوبهم نار الخوف من مستقبل لا يبشر بخير، فجعل الله من هذا التهديد سببًا لسرعة قبول أهل المدينة لدعوته صلى الله عليه وسلم قبل أن تسبقهم يهود إليه، فآمنوا به، فأطفأ الله نار الخوف من قلوب أهل المدينة، ورد كيد اليهود إلى نحرهم.

(١) انظر: دلائل النبوة، أبو نعيم الأصبهاني ١/ ٢٩٨.

المحاربون لله ولرسوله

الكافرون والملحدون والمنافقون ومن عاونهم أعلنوا الحرب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، والله أعلن الحرب عليهم، وأعدّ لهم عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: المحاربون لله تعالى ولرسوله:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة:٣٣].

يفهم سياق قوله تعالى: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الآية الكريمة على المعنى المجازي، فالله عز وجل لا يحارب كما يحارب الناس بعضهم بعضًا، لذا فإنه يطلق لفظ المحاربين لله ورسوله على صنفين من الناس، يمكن بيانهما كما يأتي:

الأول: الذين يخرجون من ديارهم مجاهرين بحمل السلاح لقطع الطريق والإفساد في الأرض، أو الخروج على السلطان المسلم، الذي يحتكم إلى شريعة الله[1].

فهؤلاء محاربون لله ورسوله، لمّا كان فعلهم هذا مخالفًا لما جاءت به شريعة الله، فسموا محاربين تشبيهًا لهم بالمحاربين من الناس[2].

الثاني: الذين يحاربون رسل الله وأولياءه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾ [الأحزاب:٥٧].

أي: يؤذون أولياء الله عز وجل، وقد يصح إطلاق لفظ المحاربة لله ولرسوله على من عظمت جريرتهم، وجاهروا بالمعصية، وإن كانوا من أهل الملة[3].

ومما تقدم يمكن القول بأن المحاربين لله ورسوله هم:

- من حملوا السلاح لقطع الطريق، وترويع الآمنين من الناس.
- الخارجون على الإمام المسلم الذي يحكّم شرع الله في رعيته بحمل السلاح داخل البلد وخارجه.
- الحاملون السلاح للصد عن دين الله، والحيلولة دون ممارسة الناس لشعائرهم الدينية والقيام بواجب الدعوة إلى الله.
- من يجاهرون بالمعاصي والذنوب، ويدعون لغير منهج الإسلام الذي هو دين الله في الأرض، وكل من يعتدون

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٨٧٩.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص، ١/ ٥٤.

(٣) انظر: المصدر السابق.

على شرع الله بتغييره وتحريفه[1].

ثانيًا: المعاونون للمحاربين لله تعالى ولرسوله:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة:١٠٧].

إن أعداء الله ورسوله يحركون سواد الناس من سفهاء وبسطاء ويغرونهم بالمال ورغد العيش، ليسيروا على نهجهم، ويكونوا تحت أمرهم وطوع إرادتهم، فهؤلاء جميعًا قادة وجند، محاربون لله ورسوله، وهم عند الله ظلمة خاطئون.

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص:٨].

ففرعون من تزعم محاربة الله ونبيه موسى عليه السلام، وهامان قائده، والجند هم الحاشية والرعية الذين كانوا أداة ظلمه وبطشه، جميعهم في ميزان الله خاطئون.

قال الطبري في تفسيره: «إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا بربهم آثمين»[2].

ومعاونة الظالمين والمحاربين لا تتوقف عند تنفيذ أمرهم، بل تتعداه إلى صور كثيرة، نذكر منها ما يأتي:

١. التخابر لصالح المحاربين وإبداء المودة لهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة:١].

ففي سياق الآية الكريمة ينهى الله المؤمنين عن التخابر مع الأعداء، المحاربين لله ورسوله، بل ما هو أقل من ذلك وهو إظهار المودة وهي درجة من درجات المحب ورتبه.

وقد بين سبحانه وتعالى أن من يسرّ من المؤمنين إلى المشركين بالمودّة فقد ضلّ، أي: فقد جار عن قصد السبيل التي جعلها الله طريقًا إلى الجنة وسببًا لبلوغها[3].

٢. التمهيد للمحاربين وتهيئة المناخ لهم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٥/ ٣٠٣٩.
(٢) جامع البيان، ١٩/ ٥٢٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢٣/ ٣١١.

﴿لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾ [التوبة:١٠٧].

فقد قام نفر من المنافقين ببناء مسجدٍ لاستقبال أبي عامر الكافر، الذي كفر بالله، وكذَّب نبيه، ولحق بالروم يحزّب الأحزاب لقتاله، وكتب إلى أهل مسجد الضّرار يطلب منهم تتمة بناء المسجد، وإعداد ما استطاعوا من السلاح لمحاربته صلى الله عليه وسلم، فأمر الله تعالى نبيه بهدم مسجدهم، ووصفهم بالمحاربين، والكاذبين في دعوى إرادتهم الحسنى[1]، وهذا بيان واضح، ودليل دامغ على أن كل من يمهد للمحاربين لله هو محارب تجب محاربته، والتصدي له حتى يكف أذاه.

٣. موالاة المحاربين.

قال تعالى في بيان منع موالاة أعداء الأمة من اليهود والنصارى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة:٥١-٥٢].

فمن يوالي المحاربين لله ورسوله كان في صفهم، فهو منهم، قال الزمخشري: لا تتخذوهم أولياء فتنصرونهم أو تستنصرونهم، ثم علل النهي بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: إنما يوالي بعضهم بعضًا لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر[2]، وهذا أمر من اللّه في وجوب مجانبة المحاربين للأمة والمتربصين بها.

٤. الدعاية للفكر الهدام والانحلال الخلقي.

لم تعد الحرب في هذا الزمان مقتصرة على المعارك العسكرية، فقد غدت الحرب الإعلامية والنفسية، ونشر الانحلال الخلقي والتشكيك في دين الله من أهم وسائل الكفار في محاربة الأمة وعقيدتها؛ لذا فإن الذين يسهمون في بث الرذيلة، ومحاربة الفضيلة لا يقل خطرهم عن خطر العسكريين المحاربين للأمة.

وقد حذر الله تعالى من خطر هؤلاء وتوعدهم بالعذاب فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩﴾ [النور:١٩].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من دعا إلى هدًى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالةٍ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)[3].

(١) المصدر السابق ١٤/ ٤٦٩.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٤٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة، ٤/ ٢٠٦٠، رقم ٢٦٧٤.

ثالثًا: جزاء المحاربين لله تعالى ورسوله عليه السلام ومعاونيهم:

إن الله يغضب لدينه أن تنتهك محارمه، ويغضب لأوليائه أن يعتدى عليهم، والمحاربون ظلمة ومعتدون، ينتهكون كل الحرمات، ويؤذون ويقتلون من يأمر بالقسط من الناس، والله تعالى يتولى أولياءه، ويرد عنهم كيد عدوهم، وقد عاقب المحاربين لدينه في الدنيا والآخرة، ويمكن بيان ذلك فيما يلي:

١. العقوبة والعذاب في الدنيا.

إن من نصر الله لأوليائه ودفاعه عنهم أن كتب على عدوهم الهزيمة والعذاب في الحياة الدنيا، وليكون هؤلاء المحاربين لله ودينه عبرة لمن بعدهم.

قال تعالى في حق فرعون: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٢].

وجعل عذابهم بثلاث وسائل يمكن بيانها كما يأتي:

الوسيلة الأولى: إهلاكهم بالسنن الكونية.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

وسنن الله ماضية وباقية في أعدائه المحاربين لأوليائه وشرعه، لا تتبدل ولا تتغير.

قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:٦٢].

الوسيلة الثانية: أخذهم بأيدي المؤمنين

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمحاربة الكفار والمنافقين ومنازلتهم، والغلظة عليهم، وجعل قتالهم من أعظم العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، وجاء السياق القرآني في قتال المحاربين لله على النحو الآتي:

- الأمر بقتال المحاربين لله.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة:٥].

وبين السمرقندي في تفسيره أن هذه الآية نسخت سبعين آية في القرآن من الصلح، والعهد، والكف، والصبر على الأذى الذي لحق بالمؤمنين من الكفار المعتدين، وأمرت المؤمنين بملاحقتهم وأسرهم،

والتشديد عليهم، ورصدهم بكل طريق[1].

وأمر الله المؤمنين بقتالهم لإلحاق الهزيمة بهم والخزي في الدنيا.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة:١٤].

* أمر بقتال كافة المحاربين الذين يتربصون بالأمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة:٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجهد، فقاتل أعداء الله، وحمل الصحابة اللواء من بعده، حتى غدى دين الله عزيزًا، وحق في هذه الأمة قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران:١١٠].

* التكفل بهزيمة المحاربين.

تكفل الله بهزيمة الكفار، وإزهاق أرواحهم وأموالهم، وجعلها حسرة عليهم، قال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران:١٢].

فمجمل الآيات الكريمة يبين أن الهزيمة والحسرة واقعة بمن يحاربون الله ورسوله، رغم كثرة أموالهم وعددهم وعدتهم.

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

* إقامة الحد على المحاربين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٣٩.

﴿ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة:٣٣].

فهذ عقوبة رادعة لكل من يعلن الحرب على الله ورسوله، بالقتل والنفي والقطع حدًّا على جرائمهم، واعتدائهم على الحرمات، وترويع الآمنين.

٢. العقوبة يوم القيامة.

وكما توعد الله تعالى أعداءه بالأخذ في الدنيا، توعدهم بعذاب في الآخرة، وآيات القرآن الكريم كثيرة في هذا السياق نجمل بعضها فيما يأتي:

- العذاب العظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة:٣٣].

- العذاب الأليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران:٢١].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور:١٩].

- العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾ [المجادلة:٥].

- الخلد في النار.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة:٦٣].

- المصير السيّء.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥].

- الحسرة والندم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

الإعداد للحرب

أمرنا الله سبحانه وتعالى بالإعداد والتجهيز بكل ما نستطيع من قوة مادية ومعنوية لنرهب به عدو الله، ونكون أشداء على الكافرين والمنافقين، وحثنا على الشورى فيما بيننا، والتوكل على الله، وما النصر إلا من عند الله، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: إعداد القوة المعنوية والمادية:

إن النفس البشرية والفطرة السليمة التي فطر الله عليها هذه النفس لتميل إلى السلم والموادعة، وتعاف من القتال والحروب، وتستشعر ثقلها ومشاقّها، والقرآن الكريم يفصح عن خفايا هذه النفس، وما تحويه من خير وشر، لا ينكر عليها هذا الشعور والإحساس، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦].

فنجد أن القرآن الكريم بدأ في إعداد هذه النفس البشرية للقتال، وقد كان ذلك بالخطوات الآتية:

١. الإعداد النفسي للمقاتلين.

وفيه مسألتان:

المسالة الأولى: الترغيب في الجهاد:

- **الجهاد أفضل الأعمال التي يبتغى بها وجه الله.**

جاءت النصوص القرآنية تحث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله، وقد قال الصحابة: لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فأخبروا بذلك[1] في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف:٤].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة:٣٥].

ففي الآيات بيان أن الجهاد هو أفضل سبيل لنيل مرضات الله والفوز بكراماته[2].

- **أمر الله نبيه بتحريض المؤمنين على القتال.**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

(١) انظر: الوجيز، الواحدي، ١٠٩٢.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٢.

﴿يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال:٦٥].

أي: بالغ في حثهم على القتال حتى لا يكونوا من الهالكين بعدوان الكافرين عليهم، وظلمهم لهم إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين[(١)]، ففي ذلك مصلحة للأمة يجب أن تحرص عليها.

❁ فضل الله المجاهدين على القاعدين.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء:٩٥].

فالآية فيها ما لا يخفى من بيان فضل المجاهدين.

❁ الجهاد سبيل النصر والتمكين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف:١٠-١٣].

❁ الجهاد ينهي الشرك والحروب.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة:١٩٣].

أي: حتى لا يكون شرك ويكون الدين خالصًا لله، فإن انتهوا عن شركهم فلا تعتدوا على المنتهين، فلا يحسن أن يظلم من تاب وأناب[(٢)].

والأمة اليوم تعيش حالةً من المذلة بسبب تركها للجهاد، فحلت بنا النكبات، ولن يدفع عنا ذلك إلا الجهاد.

❁ الجهاد سبيل الخلد والفوز بالجنان.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

روى الإمام مسلم بسنده عن مسروق، قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: (أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ، لها قناديل معلّقةٌ بالعرش، تسرح من الجنّة حيث شاءت، ثمّ تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربّهم اطّلاعةً)، فقال: (هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أيّ شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرّاتٍ، فلمّا رأوا أنّهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا ربّ، نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتّى نقتل في

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا، ١٠/ ٦٦.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١٢٨.

سبيلك مرّةً أخرى، فلمّا رأى أن ليس لهم حاجةٌ تركوا)[1].

❁ الجهاد بالنفس والمال ثمن الجنان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

فالآية ترغب المؤمنين في الجهاد، ببيان فضله، بعد بيان حال المتخلفين عنه، فعبر السياق عن قبول ما بذل المؤمنون من نفس ومال في سبيله عز وجل[2].

المسألة الثانية: الترهيب من القعود عن الجهاد:

❁ الترهيب من القعود وعدم النفير.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة:٣٨-٣٩].

أي: إن قعدتم عن إنفاذ أوامر الله، وعلى رأسها نصرة الله ورسوله، فسيهلككم بالعذاب، ويأت بعدكم بقوم آخرين، ليسوا من أصلابكم، وفي ذلك تأكيد الوعيد، والتشديد في التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية، المستلزمة للاستئصال للدلالة على شدة السّخط[3].

❁ التحذير من الغفلة عن السلاح.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:١٠٢].

ففي قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ يتمنى الكفار لحظة، تغفلون بها عن أسلحتكم ومتاعكم، فيحملون عليكم حملة واحدة،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، ٣/ ١٥٠٢، رقم ١٨٨٧.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ١٠٥.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٦٥.

وأنتم منشغلون بصلاتكم عن السلاح والمتاع، فيقتلونكم ويستبيحون عسكركم، فيحذر جل ذكره من الانشغال بالصلاة حال حضورها عن أخذ الحذر والحيطة وترك السلاح والغفلة عنه[1].

وأعداء الأمة اليوم يحرصون على تجريد المسلمين من كل قوة، بعد أن غفلنا عن سلاحنا، وهم قد مالوا علينا، ومزقوا البلاد، واستباحوا المقدسات، وهتكوا الأعراض، وكل ذلك بسبب القعود واجب الجهاد والغفلة عن السلاح.

❁ **التحذير من الوهن والضعف الاستكانة.**

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران:١٤٦].

«أي: فما فتروا، ولم ينكسر جندهم لأجل ما أصابهم من قتل نبيهم أو بعضهم، وما ضعفوا عن جهاد عدوهم، ولا عن دينهم، وما استكانوا، أي: خضعوا لعدوهم»[2].

وكأنه سبحانه يقول للمؤمنين: هذا هو حال من قبلكم، فلا تكونوا أقل منهم، بوهنكم وضعفكم واستكانتكم.

القعود عن القتال انقياد للشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾ [آل عمران:١٥٥].

«قيل المعنى: إن الذين تولوا المشركين يوم أحد ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ استدعى زللهم بإلقاء الوسوسة في قلوبهم ﴿بِبَعۡضِ﴾ أي: بشؤم بعض ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ من الذنوب التي منها مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم»[3].

٢. الاعداد المادي للقتال.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إعداد الجنود جسديًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ [البقرة:٢٤٧].

إن لقوة أجسام العسكرين، قادة وجندًا، أهمية كبيرة، لما يترتب عليه من القدرة على القيام بمهامهم الميدانية، وكسر لشوكة العدو، بين السمرقندي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ﴾ ذلك، فقال: آتى الله طالوت فضيلة في العلم والجسم، حيث كان رجلًا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٩/ ١٦٢.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ص٤١٧.
(٣) فتح البيان، القنّوجي، ٢/ ٣٦٠.

جسيمًا، عالمًا في فنون الحرب والقتال[1]، وهذا هو ما جعله الله سببًا في أحقيته بقيادة الجند.

المسألة الثانية: إعداد خطط الجيش للمعركة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران:١٢١].

إن إعداد الخطط يتأثر باختلاف الوسائل القتالية، واختلاف البيئة الجغرافية، وغير ذلك، ولكنه في جميع أحواله يتطلب الإعداد، ففي بدر نزل النبي صلى الله عليه وسلم منزلًا رأى الحباب بن المنذر خيرًا منه، فأخذ صلى الله عليه وسلم بقوله[2].

وفي الخندق، أخذ صلى الله عليه وسلم برأي سلمان الفارسي في حفر الخندق كخطة دفاعية عن المدينة[3].

وفي أحد خرج صلى الله عليه وسلم حتى وأصبح بالشعب من أحد، فمشى على رجليه، وجعل يصف أصحابه للقتال، كأنما يقوم بهم القدح، إن رأى صدرًا خارجًا أخره، ونزول جانب الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وأمّر عبد الله بن جبير على الرماة، وقال: ادفعوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من ورائنا، وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: اثبتوا في هذا المقام، فإذا عاينوكم ولوكم الأدبار، فلا تطلبوا المدبرين، ولا تخرجوا من هذا المقام[4].

المسألة الثالثة: إعداد آلة القتال.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال:٦٠].

الإعداد التهيئة، ويدخل في ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ كل ما يدخل تحت قدرة الناس من عدة، والقوة: كمال صلاحية الأعضاء لعملها، وتطلق القوة مجازًا على شدة تأثير شيء ذي أثر، وتطلق أيضًا على سبب شدة التأثير، فقوة الجيش شدة وقعه على العدو، وقوته أيضًا سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا، فهو مجاز مرسل بواسطتين، فاتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوة في جيوش العصور الماضية، واتخاذ الدبابات والمدافع والطيارات والصواريخ من القوة في جيوش عصرنا[5].

وعليه فإن الأمة مطالبة اليوم بتسخير مقدراتها لامتلاك القوة المادية، التي

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ١/ ١٦٢.
(٢) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري، ص١٩١.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٢٧٧.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٨/ ٣٤٦.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠/ ٥٥.

تؤهلها لمواجهة المخاطر المحيطة بها من كل جانب، وصد العدوان عن أبنائها، ومقدساتها، وعقيدتها، عملًا بما جاء بالكتاب، وأخذًا بالأسباب.

ثانيًا: الشورى:

جاءت شريعة الله عز وجل لترسي أفضل القيم البشرية في تآلف الأرواح ورص الصفوف، واستنهاض الطاقات البشرية الكامنة في النفوس، فكانت الشورى من جملة قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، التي أرست دعائمها[1].

وقد أخذ بها صلى الله عليه وسلم في كثير من شئون الأمة الاجتهادية، إذ لا مشورة فيما نزل به الوحي، فكان يستشير أصحابه في كثير من القضايا التي تمس حياتهم، مما يجعل الأمة تفتخر بميراثها من نبيها صلى الله عليه وسلم، وقد كان صلى الله عليه وسلم أكثر ما يستشيرهم في أمور القتال، لما له من أثر كبير في مجريات حياة الأمة، ولما يحتاج إليه من حشد الطاقات، ورص الصفوف، وتطييب للنفوس[2].

وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم باستشارة أصحابه فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

وفي هذا تشريف لهذه الأمة، وبيان لفضلها عند ربها؛ فإن الملك العظيم لا يستشير إلا الخاصة من ملئه[3].

وتعتبر الشورى جزءًا من الإعداد، وحسن الإدارة، والتدبير قبل الدخول في الحروب والغزوات، ويمكن الاستدلال بما يأتي:

١. مشورة موسى لقومه في دخول الأرض المقدسة.

قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۖ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٥٣٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٥٠.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ٤٠٩.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة:٢١-٢٦].

فموسى عليه السلام يحاور قومه ويجادلهم للزوم أمر الله، ودخول الأرض المقدسة، وهو ما يترتب عليه قتال وجهاد، ولكن البون كبير بين جواب قوم موسى عليه السلام لنبيهم، وجواب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

٢. مشورة نبي من بني إسرائيل لقومه قبل لقاء العدو.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة:٢٤٦].

فسياق الآية يتحدث عن محاورة جيل من أجيال بني إسرائيل وتشاورهم مع أحد أنبيائهم حول القتال في سبيل الله ولقاء العدو لاسترداد أرضهم وأموالهم.

٣. مشورة ملكة سبأ لقومها في أمر سليمان عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل:٢٩-٣٣].

فالأمر كبير، إنها رسالة إعلان حرب من نبي الله سليمان، على مملكة سبأ، يطلب بها الطاعة والإذعان والاستسلام، فجمعت أهل مشورتها لحسم الأمر.

والجهاد والقتال يحتاجان إلى خبرات كثيرة في فنون القتال والمواجهة مع العدو، ويحتاج إلى حشد عظيم، وذلك لا يتم إلا بالتشاور وإعمال الذهن، وسياق قوله عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ جاء تعقيبًا على أحداث غزوة أحد، وجاء السياق ليؤكد هذا المبدأ الأصيل رغم ما لحق بالمسلمين من جراحات.

ويرى بعض أهل التفسير أن المشورة لا تكون إلا بما يختص الحروب، وأن الألف واللام في قوله: ﴿الْأَمْرِ﴾ ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد[1]، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الشورى جزء من التخطيط للقتال.

وكان سادات العرب إذا لم يستشاروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه لئلا يثقل

(١) انظر: اللباب، ابن عادل، ٦/ ٢٠.

عليهم استبداده بالرأي دونهم[1]، فالمشورة ركن مهم لتوحيد الصف وجمع الكلمة، وطبائع النفس البشرية واحدة على مدى الزمان.

ثالثًا: العزم والتوكل على الله تعالى:

قال تعالى محذرًا المؤمنين من الخلاف والتنازع: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

والتنازع هو افتراق الآراء، وما يترتب عليه من الخور والجبن، والهزيمة وذهاب الدولة، واستيلاء العدو[2].

فالحرب تحتاج إلى قيادة حازمة، وإن أخطر ما يمكن أن يواجهه القائد التردد وعدم العزم في اتخاذ القرار قبل الخوض في المعركة وخلالها.

فبعد أن أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالإعداد النفسي للمؤمنين، واستشارتهم بشأن القتال، كان لابد من توجيهه صلى الله عليه وسلم والقادة من بعده للعزم في الأمر، ثم التوكل على الله عز وجل، وهذا هو هديه صلى الله عليه وسلم في سائر أمره، «قال قتادة: أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله، لا على مشاورتهم، والعزم هو الأمر المروّى المنقّح، وليس ركوب الرأي دون روية عزمًا»[3]، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

١. عزمه في معركة بدر.

ذكر المباركفوري في رحيقه أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع من معه قبيل معركة بدر وعقد مجلسًا عسكريًّا استشاريًّا، فتحدث أبو بكر وعمر والمقداد بن عمر، وأشاروا عليه بالمضي، فلا زال يقول: أشيروا علي، حتى تحدث حامل لواء الانصار سعد بن معاذ، فقال: والله، لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، فتكلم كلامًا حسنًا جاء في ختامه «فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوًّا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله»[4]، فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدأ بإعداد الصفوف، ووضع خطة اللقاء.

وقد ذكر الثعلبي نحوًا منه في تفسير قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال:٦][5].

٢. عزمه في معركة أحد.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٣٢.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٥/ ٣٣٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٥٢.
(٤) الرحيق المختوم، ص ١٨٩.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٤/ ٣٣١.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خروج قريش لقتاله في أحد استشار صلى الله عليه وسلم أصحابه، وكان الرأي بين قتالهم خارج المدينة أو التحصن بها، فمال إلى حربهم في المدينة، فبادرت جماعة كبيرة من شبان الصحابة ممن فاتهم يوم بدر، فأشاروا عليه بالخروج، وألحوا عليه في ذلك حتى بدا أن هذا هو الرأي السائد في المدينة، فنهض صلى الله عليه وسلم، ودخل بيته، ولبس لأمته، وخرج عليهم، فقالوا: يا رسول الله إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل، فقال صلى الله عليه وسلم: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)[1].

وهنا العبرة والدرس النبوي البليغ، فإن للشورى وقتها، فإذا جاء وقت العزم والمضي والتوكل على الله، ولم يعد هناك مجال للتردد، وإعادة الشورى والتأرجح بين الآراء، إنما تمضي الأمور لغاياتها، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء[2].

٣. التحذير من ترك العزم.

تمنَّى المؤمنون نزول سورة تحض على القتال في سبيل الله، فلما نزلت وتثاقل من تثاقل، وفتر من فتر وقعد عن العزم، وبخ الله المتثاقلين، فقال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد:٢١].

وهذا تبكيت للمتثاقلين لفتورهم عند الجهاد بعد الأمر به، وما يتسبب عن ذلك الفتور من عظيم الفساد، فتخرب البلاد ويتشتت العباد، والتبكيت والتهديد في أسلوب الغيبة تنبيهًا على تناهي غضب الله وبلوغه الغاية[3].

(١) علقه البخاري في صحيحه، ٩/ ١١٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٤٦٠.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٨/ ٢٣٩.

في ميدان الحرب

إنّ ميادين الحرب كثيرة، والقرآن الكريم بيّن أمورًا للمسلمين في ميدان الحرب حتى يبقى الجيش والمسلمون متماسكين ولا يؤخذون على غرّة، فتكون مصيبة على المسلمين، ومن هذه الأمور التي بيّنها الله سبحانه وتعالى ووضّحها رسولنا الكريم ما سنتعرف عليه في النقاط الآتية:

أولًا: الصلاة مع الحذر:

لقد وجّه القرآن الكريم الأمة أفرادًا وجماعة لكل ما يصلح شأنها، ويرعى مصالحها، ويحفظ هيبتها، ويجعل منها أمة ربانية، لا يشغلها شاغل عن ذكر الله تعالى، فلا المال ولا الولد، ولا العلاقات الزوجية والأسرية، ولا القتال ولا النزال يشغل الأمة عن ذكر الله تعالى.

قال تعالى مخاطبًا نبيه والقادة من بعده:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:١٠٢].

أي: إذا كنت حال الخوف في أصحابك -سواء كان ذلك في السفر أو في الحضر- فابتدأت الصلاة المفروضة فلتقم طائفة منهم معك في الصلاة، ولتقم الطائفة الأخرى وجه العدو، يطوفون في كل موضع يمكن أن يأتي منه العدو ليهاجم المصلين، فهم بحاجة للحماية لدخولهم في الصلاة، وليحمل السلاح المصلي كما يحمله من هو خارج الصلاة، أخذًا بالأسباب والحيطة والحذر[1].

وسبب الأمر بصلاة الخوف ما رواه مسلم بسنده عن جابر، قال: (غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قومًا من جهينة، فقاتلونا قتالًا شديدًا، فلما صلينا الظهر قال المشركون: لو ملنا عليهم ميلة لاقتطعناهم، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فذكر ذلك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وقالوا: إنه ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولاد، فلما حضرت العصر قال: صفنا صفين، والمشركون بيننا وبين القبلة)[2].

إن الله عز وجل وهو يربي الأمة بتوجيهاته من خلال القرآن الكريم، ويلزمها

(١) انظر: المصدر السابق، ٥/ ٣٨٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافر، باب صلاة الخوف، ١/ ٥٧٥، رقم ٨٤٠.

بأحكامه، لا يغفل عن توجيهها للحفاظ على أمنها وسلامتها في اللحظات الحاسمة من حياتها.

ولما كانت الصلاة هي الزاد الروحي للمؤمنين، التي يستمدون من خلالها الصلة بربهم، وكان صلى الله عليه وسلم يحرص على أدائها جماعة - حتى وقت التحام الصفوف- كان لا بد من وضع الخطة الملائمة لأداء هذه الفريضة وقت القتال، على الوجه الذي يضمن سلامة الصف، وتفويت الفرصة على العدو المتربص غفلة المؤمنين عن متاعهم وسلاحهم، فأمر نبيه والقادة من بعده بأداء صلاتهم جماعة، على الوجه الذي وصفه القرآن الكريم، مع الحث على أعلى درجات الحيطة والحذر.

ثانيًا: الثبات مع ذكر الله تعالى:

وفي سياق التوجيهات العسكرية للمحاربين، بين السياق القرآني العدة الحقيقة التي تعينهم على ذلك.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٥-٤٦].

والآيات الكريمة تبين أربع مسائل تقود إلى النصر على العدو، يمكن بيانها كما يأتي:

١. الثبات وعدم الفرار.

في قوله تعالى: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ أمر لعباده المؤمنين بالثبات عند لقاء العدو، وعدم الخشية، وألا يتسلل الضعف إلى نفوسهم، وهذا توضيح من الله عز وجل للمؤمنين بسنن الحروب ولقاء الأعداء في الميادين، بأن الثبات «هو بدء الطريق إلى النصر، فأثبت الفريقين أغلبهما»[1].

وقد حذر الله من الفرار والتولي أمام العدو فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

وقد عد النبي صلى الله عليه وسلم التولي يوم الزحف من الكبائر، إلا أن يكون ضمن خطة تتضمن الكر والفر أو الانحياز إلى دعم فئة أو جبهة من جبهات القتال الأخرى.

فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات) قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم وأكل الربا،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٥٢٨.

والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[1].

٢. ذكر الله تعالى.

وفي قوله عز وجل: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ بيان أن ذكر الله تعالى واستشعار معيته يهون على الجند عظمة الموقف، ويربط على قلوبهم، ويثبت أقدامهم، فتتحقق لهم الغلبة على العدو، والأمر بالإكثار من ذكر الله عند القتال، هو عصمة المستنجد، ووزر المستعين، «قال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف»[2].

وقد يكون أريد ذكر الله بالقلوب والألسن، كما قال ابن عباس: أمر الله أولياءه بذكره في أشد أحوالهم، تنبيهًا على أن الإنسان لا يجوز أن يخلي قلبه ولسانه عن ذكر الله، أو أريد به الدعاء بالنصر والظفر؛ لأن ذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى[3].

وكلا الأمرين مطلوب من المجاهد، فالذكر باللسان من تسبيح وتعظيم لله، وكذلك الدعاء، والتبتل وطلب النصر، هو خير ما يشغل المقاتل به نفسه في هذه اللحظات الحاسمة، فقد تكون هي اللحظات الأخيرة من عمره، فتصعد روحه إلى الله، وهو ذاكر لله، عملًا بقوله صلى الله عليه وسلم: (من كان آخر كلامه لا إله إلّا اللّه دخل الجنّة)[4].

فالذكر والدعاء ركن أصيل يجب أن نربي عليه جيوش الأمة قبل الدخول في الحروب، وقبل أن نخوض بهم الميادين، ليكونا أنيسين للمقاتلين في الشدة، وعند التحام الصفوف.

٣. الطاعة وعدم التنازع.

ومن المسائل المهمة التي يجب أن يتخلق بها الجند والمقاتلون، الطاعة للقيادة وعدم التنازع، فقد عقب الله تعالى على أمره بالثبات عند اللقاء وذكره بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾، فالطاعة من أهم لوازم النصر، والظفر بالعدو عند لقاء الصفوف، كما بين المراغي في تفسيره حيث قال: «وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح في القتال وفى غيره، وأطيعوا رسوله كذلك، فهو المبيّن لكلام ربه، والمنفّذ له بالقول والعمل والحكم، وهو القائد الأعظم في القتال، فطاعته هي جماع النظام، والنظام ركن من أركان الظفر، وهو المشارك لكم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٩٢، رقم ١٤٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٥٣٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ١٥/ ٤٨٩.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب في التلقين، ٣/ ١٩٠، رقم ٣١١٦.

في الرأي والتدبير والاستشارة في الأمور، ولا يكن منكم تنازع واختلاف، فإن ذلك مدعاة للفشل والخيبة وذهاب القوة، فيتغلب عليكم العدو»[1].

٤. الصبر.

وهو ما سيتم الاستفاضة فيما سيأتي في النقطة الخامسة بإذنه تعالى.

ثالثًا: إنزال العذاب بالأعداء بما يلقي الرعب في قلوب الآخرين:

أمر الله عباده المؤمنين بالقيام بواجب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأثنى على الفئة التي تقوم بهذا الجهد.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وأمر الأمة بقتال من يصد الدعاة، ويمنعهم من القيام بدورهم الذي أمروا به.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

وهذا هدي الفاتحين الأولين في هذه الأمة، فكانوا يخيرون الأمم بين الإسلام، أو الجزية، أو القتال كعلاج أخير، لرفع الظلم عن الناس، ومنع التأثير عليهم في دينهم الذي يدينون، وعقيدتهم التي يعتقدون.

فأبى الطغاة إلا الصد عن دين الله، وإخضاع الناس لسلطانهم، فكان لزامًا على الأمة اقتلاع جذورهم، ليكونوا عبرة لكل من يصد عن هذا الدين، ويقف في وجه الدعاة إليه، وقد جاء السياق القرآني ليبين هذا المعنى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٧].

والتشريد بمعنى التفريق مع الاضطراب، قال عطاء: أثخن فيهم القتل حتى يخافك غيرهم، وقيل: نكل بهم تنكيلًا يشرد غيرهم من ناقضي العهد، لعلهم يتعظون[2]، وقيل: يا محمد -والكلام لولاة الأمر من بعده- إن صادفت هؤلاء الكفرة فافعل بهم ما بدا لك من فعل، يكون رادعًا لهم، ليكون تخويفًا لمن يأتي بعدهم، أو يفعل مثلهم، قال ابن عباس: المعنى نكل بهم من خلفهم، وسمع بهم[3].

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٥/ ٤٩٧.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٥٢٤.

رابعًا: ضرب رقاب الأعداء حتى الإضعاف:

إن ميدان النزال والقتال هو أحد ميادين الدعوة إلى الله، فهو ليس ميدانها الأول ولن يكون الأخير، وإنما يأتي ضمن سلسلة ميادين هذه الدعوة المباركة.

والمقاتل في سبيل الله هو داعية إلى الله قبل أن يكون مقاتلًا وحاملًا للسلاح، فالدعوة إلى الله تعالى رحمة وهداية للناس، وليست قتلًا ولا سفكًا للدماء.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فإن أبى جند إبليس إلا التمرد على أمر الله وسلطانه، والصد عن الدعوة واعتراض سبيل الدعاة، فإن لكل داء دواءً، ودواء المعاندين والمستكبرين المحاربين أن تثخن فيهم الجراح.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد:١-٤].

بينت الآيات أن الناس فريقان، أحدهما: يمثل الشيطان وحزبه، والآخر يمثل الفئة المؤمنة، توجب على المؤمنين قتالهم، وقد جيء (بضرب) منصوبًا على المصدر، أي: اضربوا ضرب الرقاب، وذلك يفيد المبالغة في قصد رقابهم لا غير، وهذا يفيد قتلهم، والتخلص من أرجاسهم، وفي استهداف رقابهم حكمة عظيمة، فقتال المؤمنين للكفار يكون المؤمن فيه دافعًا وليس مدافعًا، كما يفعل مع رد الصائل، وقاطع الطريق، الذي لا يراد من حربه قتله، بل تخويفه ورده[1].

ويستمر السياق القرآني في تحريضه للمؤمنين، ليواصلوا المعركة مع المشركين، حتى يوقعوا فيهم القتل، وينهكوا قواهم، ويكسروا شوكتهم، ويجهزوا على مقاتلتهم بين قتيل وأسير، حتى لا يبقى في الميدان إلا مسلم أو مسالم[2].

فميدان الدعوة إلى الله باللسان ميدان بليغ، قوامه دعوة الناس بالكلمة الطيبة، ومقابلة الحجة بالحجة، وانتقاء أطيب الحديث، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ

(١) انظر: مفاتح الغيب، الرازي، ٢٨/ ٣٨.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ١٢٠.

﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل:١٢٥].

وميدان النزال والقتال يجب ألا يقل بلاغة في الإثخان، والتنكيل بالعدو، وقتله، وتشريده، عن بلاغة كلام الدعاة من الوعاظ والمرشدين.

خامسًا: الصبر:

وحتى يتحقق للأمة مرادها من القتال، وهو التنكيل بالكفار قتلًا وتشريدًا، ليستقر الرعب في قلوبهم ويسلّموا لأمر الله تعالى، ويدخلوا في دين الرحمة والهداية، فإن هذه الحالة تستدعي من المؤمنين جهدًا كبيرًا، وبذلًا وعطاءً، وتضحية وفداءً، لايصمد معه إلا من قدّر للأمر قدره، وأعد لهذا الجهاد عدته، وخير عدة يتزود بها المقاتلون بعد تقوى الله تعالى، هو الصبر والمصابرة، وقد جاء القرآن بآياته الكريمة يحث المسلمين على الصبر والمصابرة عند لقاء العدو، ويبين لهم عاقبة هذا الصبر، حتى يبلوا البلاء الحسن، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

لما توعد فرعون بني إسرائيل بقتل الرجال واستحياء النساء، والتصليب في جذوع النخل، رأى موسى عليه السلام أن حربًا ضروسًا يقودها فرعون واقعة لا محالة على قومه، وأن القوم قد جزعوا وخافوا، فأمرهم عليه السلام بالاستعانة بالله والصبر، وأخبرهم بوعد الله له بهلاك القبط، وتوريثهم أرضهم[1].

ونلاحظ هنا أن موسى عليه السلام يأمر قومه، ويحثهم على الاستعانة بالله، والصبر قبل لقاء العدو، لما لذلك من أثر في سكون النفس وهدوئها عند اللقاء، وما يترتب على ذلك من النصر والتمكين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة:٢٥٠].

إن أفضل ما يستجلب معونة الله للعبد، هو صبر العبد لله؛ لذا كان الصبر لله تعالى عند اللقاء، وتحمل تبعات الحرب ومشاقها، من كر وفر، وإراقة دماء، وفقد أحبة، وقطع للأعضاء، وتطاير للرؤوس، وما يلحق بالمجاهدين من مشقة، طمعًا لنيل رضى الله، هي الجالبة لمعونة الله، التي يترتب عليها النصر والظفر بالعدو، ولما علمت الفئة المؤمنة القليلة، أن معية الله لا تثبت أمامها كثرة الأعداء، ولا تخذلها

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٥/ ١٤٤.

قلة المؤمنين، قالوا جميعًا عند المبارزة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: صب علينا الصبر صبًّا، كما يصب الماء على الثوب فيبلله، فاستجاب الله تعالى لدعائهم، وذلك لقيامهم بالعمل الذي يستوجب معية الله عز وجل ويجلب النصر، وهو الصبر والثبات[1].

وقد جاءت آيات كثيرة في حض المؤمنين على الصبر والثبات عند اللقاء وجميعها تحمل نفس المعاني، قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٥].

أي: إن تصبروا عند اللقاء وتتزودوا بتقوى الله عز وجل، يكن الله معكم ويمدكم بالعون والملائكة الذين يقاتلون معكم العدو، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٥-٤٦].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٠٨.

بعد انتهاء الحرب

وكما يوجه السياق القرآني الأمة ويحرضها على قتال الكفار والقعود لهم كل مرصد، فإنه لا يغفل معالجة القضايا التي تنتج عن هذه الحروب، فكثيرة هي تبعات الحروب والقضايا الناتجة عنها، وقد عني القرآن بمعالجة هذه القضايا، وسيتناول هذا المبحث بعض هذه القضايا.

أولًا: معاملة أسرى الحرب:

إن من أهم القضايا التي يعالجها القرآن الكريم الناتجة عن الحروب قضية الأسرى.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال:٦٧].

نزلت هذه الآية الكريمة بعد غزوة بدر الكبرى، وتناول السياق فيها قضية الأسرى، وما أعقبها من جدل حول التعامل معهم، والأحكام المتعلقة بالأسرى، من ضرب رقابهم أو المن والفداء.

فهذه هي المرة الأولى في حياة الأمة التي تواجه بها عدوها، وكان القصد والهدف منها كما بين الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ

﴿كُلَّ بَنَانٍ ١٢﴾ [الأنفال:١٢].

فقد كان قتل المشركين وضرب الرؤوس والأعناق هو الغاية من المعركة، لإذلالهم، وكسر شوكتهم، وإضعافهم فلا تقوم لهم على الأرض قائمة.

فلما انشغل المسلمون بجمع الأسرى والغنائم ظنًّا منهم أن قتل سبعين من المشركين يكفي لتكون المبالغة في القتل قد تحققت، فلامهم الله تعالى على ذلك فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فهذا العدد ليس كافيًا لإذلال المشركين، وإرغامهم[1]، ولم يكن حكم من الله قد سبق في الأسرى، فاستشار صلى الله عليه وسلم أصحابه، وأخذ برأي الفداء، فلامه ربه، وبين له الأصوب في هذه المسألة، وهو المبالغة في قتل المشركين وقهرهم وكسر شوكتهم[2].

وإن من يتتبع الآيات الكريمة، التي تناول السياق فيها مسألة الأسرى ليخلص إلى ما يأتي:

أولًا: لام الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بسبب انشغال أصحابه بأسر المشركين في المعركة الأولى، التي تواجه فيها المشركون، وبين أن الأولى في هذه المعركة هو إثخان جراحهم، وكسر شوكتهم، وإلحاق الهزيمة النفسية بهم، فلا يقووا على قتالكم، قال البيضاوي في تفسيره: أي حتى يكثر القتل، ويبالغ فيه، حتى يذل الكفر، ويقل حزبه، ويعز الإسلام، ويستولي أهله، وأمر بالإثخان، ومنع الفداء حين كانت الشوكة للمشركين، وخير بينه وبين المن لما تحولت الحال، وصارت الغلبة للمؤمنين[3].

ثانيًا: لم ينه القرآن الكريم الأمة عن أسر المشركين، وشد الوثاق عليهم، بدليل قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، بل شرع لهم ذلك، ولكن شريطة أن يكون بعد المبالغة في ضرب رقابهم، وإثخان القتل والجراح فيهم، حتى تنكسر راية الكفر، ويهزم جنده، ولا يبقى لهم شوكة في الأرض، أما الاشتغال بجمع الأسرى قبل أن تتحقق هذه الغاية، فهذا ما عابه الله عليهم[4].

ثالثًا: قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ٤﴾ [محمد:٤].

ففي الآية أمر من الله لنبيه صلى الله

(١) انظر: مفاتح الغيب، الرازي، ١٥/ ٥٠٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٥٨-٦٠.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، ٣/ ٦٧.
(٤) انظر: مفاتح الغيب، الرازي، ١٥/ ٥٠٩.

عليه وسلم باستهداف رقابهم بالسيوف عند القتال والمنازلة، فذلك أنكى في القتل وأبلغ، فإن تحقق ذلك، وأغرقتموهم في دمائهم، وأنهكتم قوتهم، وظننتم أنه لن تقوم لهم قائمة، فشدوا الوثاق أسرًا وتقييدًا لمن بقي منهم، حتى لا يكروا عليكم، ويقتلوكم، فإذا ما انتهت المعركة، وحسمتم الأمر لصالحكم، فإما أن تمنوا عليهم بفكهم، أو تفادوهم وتخلوا سبيلهم[1].

رابعًا: إن القرآن الكريم يتعامل مع النفس البشرية معاملة المشفق الحاني، لا معاملة الشامت المتربص، فلما فرض النبي صلى الله عليه وسلم الفداء على الأسرى وجد بعضهم في نفسه، حتى قال العباس رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم: «يا محمد تركتني أتكفف قريشًا ما بقيت!»[2]، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال:٧٠].

فلمّا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسارى، وشق عليهم أخذ أموالهم، ذكر اللّه تعالى هذه الآية استمالة لهم وتطييبًا لنفوسهم[3].

خامسًا: أمر الله بالرفق بالأسير ولو كان على غير ديننا، ومن غير ملتنا ومحاربًا لنا، فأوجب معاملتهم المعاملة الحسنة، وتوفير الطعام والكساء الذي يحفظ عليه حياة كريمة، فلعل مثل هذه المعاملة أن تكون رسولًا إلى قلبه، يرى من خلالها الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين، فيكون ذلك حافزًا له للإيمان، واللحاق بركب المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ [الإنسان:٨].

أي: يطعمون الطعام على شدة حاجتهم إليه وقلته، وقيل: لأجل حب الله وذكر منهم الأسرى، أمر الله المسلمين بالأسرى خيرًا، وإن أسراهم يومئذ أهل الشرك، فعلى هذا الوجه يجوز إطعام الأسرى، وإن كانوا على غير ديننا، وأنه يرجى ثوابه، ولا يجوز أن يعطوا من الصدقة الواجبة كالزكاة والكفارة، وقيل: الأسير المملوك، وقيل: الأسير المرأة، وقيل: غريمك أسيرك، فأحسن إلى أسيرك[4].

والأرجح -والله أعلم- أن المقصود هنا أسير الحرب؛ فالإحسان للملوك والمرأة جاء في سياق آخر في القرآن الكريم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ١٥٤.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٧.
(٣) انظر: اللباب، ابن عادل، ٩/ ٥٧٤.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٣٧٨.

ثانيًا: الغنائم وتقسيمها:

ومن القضايا التي عالجها القرآن الكريم بعد انتهاء الحرب قضية الغنائم وتقسيمها.

قال تعالى: ﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال:٤١].

وقد تناول السياق القرآني هذه المسألة مراعيًا ضعف الأمة وفقرها، وحاجتها إلى القوة المادية والعتاد الذي يقوّي به شوكة المسلمين ويعزز قدراتهم القتالية بين سائر الأمم، ويمكن بيان معالجة القرآن الكريم لمسألة الغنائم فيما يأتي:

أولًا: رد الله حكم الغنائم والفيء له عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال:١].

وهذه هي طبيعة القرآن الكريم ومنهجه في معالجة القضايا التي تطرأ في حياة الأمة، أن يرد الأمر لله ولرسوله ليحكم فيه، وقد نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن اختلف الصحابة في غنائم بدر، وقد أطال المفسرون القول في تعيين سبب نزول هذه الآيات وملخصها: أن نفوس أهل بدر تنافرت، ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة والاختصاص، فنزلت، فردت أمر الغنائم فيها إلى الله ورسوله، لتنهي هذا التنازع، فرضي المسلمون، وسلموا، وأصلح الله ذات بينهم[1].

ثانيًا: حرم الله عز وجل الغنائم على الأمم السابقة، وأحلها لهذه الأمة لما رأى ضعفها وحاجتها للمال والعتاد.

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال:٦٩].

وقال صلى الله عليه وسلم: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهورًا ومسجدًا، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة)[2].

ثالثًا: ميز السياق القرآني بين ما غنم من الكفار بحرب، وبين ما أخذ بدون حرب ولا نزال.

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٥/ ٢٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢١.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر:٦-٧].

فما أعطى الله لرسوله دون حرب، فهو عطاء خالص من الله لرسوله، يجعله كيف يشاء[1].

أما ما أخذ عنوة بقتال فهو غنيمة خمسها لله والرسول، وما بقي فللمقاتلين.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾ [الأنفال:٤١].

مقاصد الحرب كما بينها القرآن

تتنوع أسباب الحروب ومقاصدها من أمة لأخرى، تبعًا لعقائد الأمة ونظرتها للحياة، فالإنسان المؤمن لا يعمل عملًا أو يبذل جهدًا إلا ويبتغي به مرضاة الله تعالى، ولما كانت الحرب والمشاركة فيها من أعظم ما يبذل الإنسان في هذه الحياة، كان لا بد أن تكون أهدافها ومقاصدها رضى الله عز وجل.

وإن الناظر في آيات الحرب والقتال والجهاد في القرآن الكريم، يلمس دون عناء مقاصد وغايات الحرب والجهاد في الإسلام، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: مقاصد عقدية:

إن الدافع الأهم للجهاد في سبيل الله عز وجل إنما هو لأجل صيانة عقيدة التوحيد في نفوس الناس، وإصلاح ما فسد منها.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩٣﴾ [البقرة:١٩٣].

أي: قاتلوا من يعتدون عليكم وعلى دينكم حتى لا يكون شركٌ بالله، وحتى لا يعبد دونه أحدٌ، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من أصنام وأوثان مادية، أو

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٤٥٧.

أفكار شركية معنوية[1].

إن سيادة أي عقيدة في الأرض غير عقيدة التوحيد هي فتنة في الأرض وإفساد لأهلها، والعقيدة الإسلامية هي التي لا يقبل الله تعالى من الناس غيرها، ويجب أن تسود، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥] ومع ذلك لا يكره الناس على اعتناقها إكراهًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة:٢٥٦].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس:٩٩].

فلا يصح قهرهم وحملهم لدين الإسلام بعد أن بانت الأدلة والآيات الواضحة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يبلّغه عن ربه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر[2].

ثانيًا: مقاصد شرعية:

ويراد بالمقصد الشرعي للحرب: قتال الخارجين عن شرع الله، وإلزامهم بما أنزل الله من شرائع وأحكام، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:٢٩] أي: قاتلوا أهل الكتاب رغم إيمانهم بالله؛ لأنهم رفضوا طاعة الله في الشرائع والأحكام، وبرفضهم هذا كأنما رفضوا الدين مطلقًا[3].

وكذلك أمر الله بقتال من أصر على التعامل بالربا، رغم إيمانه بالله، وحذره بحرب من الله ورسوله، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٩] أما حرب الله فهي النار يوم القيامة، وأما حرب رسوله فالسيف في الدنيا[4]، قال قتادة: «أوعد الله أهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجًا أينما ثقفوا»[5].

فحرب المؤمنين الخارجين عن شرع الله واجب بالكتاب والسنة، وما حرب الردة منا ببعيد.

ثالثًا: مقاصد اجتماعية:

والمراد بالمقصد الاجتماعي للحرب: رفع الظلم عن المظلومين، والمستضعفين،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ٥٧٠.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ١٤٩.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٣٥٠.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/ ٢٨٥.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٣٧٤.

والمضطهدين في العالم، والمقهورين، والأسرى الذين يعذبون، ويحرمون من ممارسة حريتهم ظلمًا وعدوانًا، وهذا يظهر البعد الإنساني السامي لهذا الدين، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء:٧٥].

قال الضحاك: وذلك أن كفار قريش أسروا سبعة نفر من المسلمين، وكانوا يعذبونهم، فأمر الله تعالى بقتال الكفار ليستنقذوا الأسرى من أيديهم[(١)]، «والآية تتناول المؤمنين والأسرى، وحواضر الشرك إلى يوم القيامة»[(٢)]، حاضرة الشّيء: القريب منه، والمجاور له[(٣)]، وحواضر الشرك أي المدن القريبة من بلاد المشركين، كان لزامًا علينا نصرتهم، والجهاد قربة لله من أجل رفع الظلم عنهم.

فالإسلام يأمر برفع المعاناة عن المظلومين، وتحرير العنصر البشري من ذل العبودية للبشر إلى عز العبودية والانقياد لله، ولا يدخر جهدًا لتحقيق هذه الغاية النبيلة، ولو كلف ذلك بذل المال والأنفس والدماء، إذا ما حال الطغاة والظالمون دون تحقيق هذا الهدف.

رابعًا: مقاصد سياسية:

ويراد بالمقصد السياسي للحرب: حماية الناس من القهر والاضطهاد، والإخراج من الديار، باعتباره ظلم وجرائم سياسية، لا يقبل بها الله، ولا أصحاب القوانين الوضعية في هذا الزمان، وكذلك محاربة من نقضوا العهود.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ففي قوله عز وجل: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا﴾ يقول ابن عطية: «وأي شيء يجعلنا ألا نقاتل وقد وترنا وأخرجنا من ديارنا»[(٤)].

وفي ذلك دلالة على أن القتال لاستعادة الديار التي أخرج منها الإنسان المؤمن ظلمًا وعدوانًا دون وجه حق هو قتال في سبيل الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ١/ ٣١٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٧٩.
(٣) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ١/ ٥١٣.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٣٣١.

﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

[الحج:٣٩-٤٠].

وقد تناول سياق هذه الآية أيضًا بيان أحقية المظلومين ممن أخرجوا من ديارهم بلا ذنب اقترفوه إلا أنهم يقولون ربنا الله، وهي أحق ما يقال، فهذا إذنٌ من الله تعالى بضرورة وجود قوة تحرس أهل العقيدة، وتدافع عنهم للحفاظ على الواقع الديني، والسمة الدينية على الأرض، وأماكن العبادة فيها[1].

فذكر اسم الله وحده في أماكن العبادة لا يشفع لها عند الظلمة أن تصان، فلا يعتدى على حرماتها، لذلك توجب أن تكون للعقيدة وأماكن العبادة من يدافعون عنها في وجه الطغاة المعتدين، لذلك شرع الله الجهاد لهذه الغاية.

وأما نقض العهود والمواثيق فيقول تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة:١٢].

فإذا جنح المسالمون المعاهدون لكم إلى الغدر، ونكثوا ما قدّموه من ضمان الوفاء بالعهد، فقاتلوا من يشعلون نيران الفتن، وينقضون العهود، وهم سادة الكفار وقادته[2].

خامسًا: مقاصد أمنية:

ويراد بالمقصد الأمني للقتال: إظهار قوة الأمة وإعداد العدة المتاحة الممكنة على الدوام، لتجعل الكفار يحسبون للقائها كل حساب.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

أمر الله المؤمنين في أول السورة بقتال المشركين كافة حيث وجدوا، ولكنه خص هنا لقريبين منهم، فلا يمكننا قتالهم جميعًا في آن واحد، ولما كان الأفضل قتال طائفة، فكان قتال الأقرب أولى من قتال الأبعد، لأن الاشتغال بقتال الأبعد مع ترك الأقرب، لا يؤمن معه هجوم الأقرب على ذراري المسلمين ونسائهم وبلادهم إذا خلت من المجاهدين، فأصل العلاقة مع العدو القريب أن يرى منا القوة والعنف على كل تحرش من طرفهم، أو محاولة اعتداء، ﴿وَلْيَجِدُوا

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٤٢٥.

(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٢/ ١١.

﴿فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ فلا يجب أن يجدوا فينا لينًا في قول أو معاملة[1].

وهذه النظرة للعدو القريب ذات مغزىً أمني، لما فيها من إضعافهم، وما يترتب عليه حفظ للديار، وتأمين للذراري والأموال.

وفي ذات السياق فإن الأمة مطالبة بإعداد ما تقوى عليه من عدة وعتاد، وبذل واستفراغ طاقتها لتصل إلى مستوىً من القوة يجعل لها الرهبة والهيبة في نفوس أعداء الله، وتبقى حامية للدين وبيضة المسلمين.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال:٦٠].

فهدف الإعداد تقوية الأمة، لتكون قادرة على ردع المعتدين وصدهم، وحتى يرى الكفار قوة المسلمين، وعتادهم، وقوة حصونهم، ودقة تصويبهم، فيسكن الرعب في قلوب الكفار، فلا يزالون يهابون المواجهة، فيفيؤوا الى السلم.

أخلاق المؤمنين المحاربين وغيرهم

إن أخلاق الأمم تنطلق من معتقداتها التي نشأت عليها، والقرآن الكريم يربي الأمة على أفضل الأخلاق وأكرمها، فوجه الأمة للأخذ بمكارم الأخلاق في كل شأن من شؤون حياتها.

ولما كانت الحرب سلوكًا اجتماعيًّا اضطراريًّا لا ينفك عن واقع الحياة، جعل القرآن له قيمًا وأخلاقًا، توجب على المقاتل التزامها، لبيان طبيعة هذا الدين، وسمو أهدافه ومقاصده، حتى وقت الحروب.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء:٩٤].

فقد وضعت هذه الآية الكريمة القاعدة العامة لأخلاق المقاتل في الإسلام، التي تقوم على عدم قتل المسالمين وغير الحربيين، قال الطبري في تفسيره: إذا سرتم مسيرًا لله في جهاد أعدائكم، فتأنّوا في قتل من أشكل عليكم أمره، ولم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تقدموا على قتل أحد إلا من علمتموه يقينًا حربًا عليكم،

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص، ٤/ ٣٧٤.

ولا تقولوا لمن استسلم لكم، فلم يقاتلكم مظهرًا لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم لست مؤمنًا، فتقتلوه ابتغاء طلب متاع الحياة الدنيا، فإن عند الله من رزقه وفضائل نعمه ما هو خير لكم[1].

ولما كانت مقاصد الحرب في القرآن الكريم سامية، لزم أن تكون أخلاق المحاربين لتحقيقها سامية، وقد جاءت آيات القرآن بجملة من الأخلاق والآداب التي يتوجب على المحارب المسلم أن يتحلى بها في الحرب وميدان القتال، والمتأمل في هديه صلى الله عليه وسلم، الذي هو الترجمة الحقيقية للقرآن الكريم، وهدي الخلفاء الراشدين من بعده، يرى سمات وأخلاق المحارب المؤمن، والتي يمكن بيانها فيما يأتي:

١. عدم التعرض للمسالمين.

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾[النساء:٩٠].

جاء قوله عز وجل: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي: فإن اعتزلوكم عند القتال، ويقال يوم فتح مكة فلم يقاتلوكم مع قومهم، وطلبوا منكم المسالمة والمصالحة فما جعل الله لكم عليهم حجة في قتالهم، فأمر الله رسوله بالكف عن هؤلاء[2].

وذكر الزمخشري: أن الكف عن القتال سبب لاستحقاقهم ترك التعرض لهم، وترك الإيقاع بهم[3].

وبعموم اللفظ، فإن المقاتل إن تراجع من الميدان وأبدى رغبة في المصالحة فلا يجب قتاله.

٢. العدل والتسامح.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل:١٢٦].

لما انتهت معركة أحد ونظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى عمه حمزة، فرأى ما فعل المشركون به قال: (لئن أظفرني الله عليهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك)، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[4]، وإن لهذا الدين أدبيات وقيمًا وأخلاقًا، يجب المحافظة عليها بعيدًا الانفعال العاطفي، فالدفع عن الدعوة، والأخذ بالمثل يجب أن يكون في حدود القسط والعدل، وعدم الإسراف في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٧١.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٣/ ٣٥٧.

(٣) انظر: الكشاف، ١/ ٥٤٧.

(٤) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، ٦/ ٥٢.

العقوبة والزيادة في الرد، حتى يحفظ لهذه الدعوة كرامتها وعزتها، فلا تهون في نفوس الناس[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة:٢].

وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢﴾ [الشورى:٤٠-٤٢].

فأجاز عز وجل للمسلم أخذ الحق، ومعاملة الكفار في الميدان، كما يعاملوا المسلمين، ومع ذلك رغب في الصبر والتسامح.

٣. تجنب الغلول والغدر والمُثْلَة.

نهى النبي صلى الله عليه وسلم المحاربين في سبيل الله عن الغدر وهو: أخذ القوم والإغارة عليهم دون سبق إنذار، وتخييرهم بين الإسلام، أو الجزية أو القتال[2]، والغلول وهو: إخفاء ما يغنمه الجيش من عتاد ومال من العدو، حتى لا تجري عليه القسمة[3]، والمثلة في القتلى، فقال صلى الله عليه وسلم: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا)[4].

وفي الحديث فوائد مجمع عليها وهي تحريم الغدر، وتحريم الغلول، وتحريم قتل الصبيان، إذا لم يقاتلوا، وكراهة المثلة[5].

تأتي وصية النبي صلى الله عليه وسلم للقادة والجند عند عقد الألوية، لتظهر حرص القيادة على جدية التقيد بالتعاليم والأوامر العسكرية، وأنها ليست مجرد شعارات وقرارات نظرية وهمية، وإنما هي خلق وسلوك يجب أن يتحلى به الجند.

٤. عدم التعرض للشجر والزرع.

قال تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٠٢.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ١٢/ ٣٨.

(٣) انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي، ص ٥٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ٣/ ١٣٥٦، رقم ١٧٣١.

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ١٢/ ٣٨.

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر:٥].

لما نزل صلى الله عليه وسلم على حصون بني النضير لقتالهم، أمر بقطع نخيلهم وإحراقها، إما لإضعافهم بها، وإما ليتسع المكان بقطعها. فشق ذلك على بني النضير، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح، أمن الصلاح قطع النخيل وحرق الشجر؟ وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض؟ فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، ووجد المؤمنون في أنفسهم حتى اختلفوا، فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا، وقال بعضهم: اقطعوا لنغيظهم بذلك، فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع، وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله[1].

مما سبق يتبين أن الأصل في الحرب عدم التعرض للمزارع والأشجار والمواشي التي يملكها الناس والمدنيون، ولكن إذا اشترك المدنيون في محاربة جيوش المسلمين، وتمترسوا في حصونهم ومزارعهم، جاز للجيش وقيادته أن تجتهد في التعرض لهذه المزارع والأشجار بما يفسح للجيش حرية الحركة، وإغاظة الكفار، ليكون ذلك سببًا في فت عضدهم، وكل ذلك بإذن الله وقدره[2].

٥. الرحمة بالصغير والمرأة.

إن من أبرز أخلاق الجيش المسلم في حربه للعدو تجنب النيل أو المس بالذراري والنساء، فقد روي عن رياح بن الرّبيع رضي الله عنه أنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة، وعلى مقدمة الناس خالد بن الوليد، فإذا امرأة مقتولة على الطريق، فجعلوا يتعجبون من خلقها، قد أصابتها المقدمة، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف عليها فقال: (هاه ! ما كانت هذه تقاتل) ثمّ قال: (أدرك خالدًا فلا تقتلوا ذرّيّةً ولا عسيفًا)[3].

إن تعجب النبي من قتل المرأة، وتصريحه صلى الله عليه وسلم بأنها ما كانت لتقاتل، فيه تأكيد بعدم التعرض للنساء في الحرب، مظنة عدم القتال، ويستفاد من كلامه صلى الله عليه وسلم أيضًا، عدم التعرض للذراري: وهم الفتية دون البلوغ، وكذلك الشأن في العبيد.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٦.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ١٩٩.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٥/ ٣٧١، رقم ١٥٩٩٢، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، ٣/ ٥٣، رقم ٢٦٦٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان، ٢/ ٩٤٨، رقم ٢٨٤٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٣١٤، رقم ٧٠١.

٦. الحرص على عدم إراقة الدماء.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على حقن الدماء، فيقبل إسلام الشخص مهما كانت عدوانيته، فقد (روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثًا من المسلمين إلى قومٍ من المشركين، وإنّهم التقوا فكان رجلٌ من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجلٍ من المسلمين قصد له فقتله، وإنّ رجلًا من المسلمين قصد غفلته، قال: وكنّا نحدّث أنّه أسامة بن زيدٍ، فلمّا رفع عليه السّيف قال: لا إله إلا الله فقتله، فجاء البشير إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره، حتّى أخبره خبر الرّجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: (لم قتلته) قال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين، وقتل فلانًا وفلانًا، وسمّى له نفرًا، وإنّي حملت عليه، فلمّا رأى السّيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أقتلته) قال: نعم، قال: (فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة) قال: يا رسول الله، استغفر لي، قال: (وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟) قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: (كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة)[1].

فالحديث يبين حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم المحارب المسلم كيف يعطي الخصم أي بارقة أمل تمكنه من النجاة بنفسه، وتحييدها من القتال.

فالقتل في ذاته ليس هدفًا للمقاتل، بل عزة الإسلام هي هدفه الأسمى.

وهذا الحديث يصلح أن يكون وثيقة دولية، يبنى عليها من يضعون قوانين الحروب وسياساتها، ليلزموا من خلالها الجيوش والدول المتحاربة عدم المبالغة في إراقة الدماء، واقتناص الفرصة الأولى لحقن الدماء، والكف عن المبالغة في القتل.

٧. عدم إكراه أحد على الإسلام.

ومن عظمة أخلاق المحارب التي نتعلمها من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه لم يكره أحدًا على الإسلام قط، وقد كان ذلك واضحًا مع غورث بن الحارث، عندما أمسك بسيف النبي وهو نائم بظل شجرة، وأراد قتله صلى الله عليه وسلم، فقام على رأسه بالسيف وقال: (من يمنعك مني؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (الله)، فسقط السيف من يده، فأخذه صلى الله عليه وسلم فقال: (من يمنعك منّي؟) فقال الرجل: كن خير آخذ، فقال صلى الله عليه وسلم: (أتشهد أن لا إله إلاّ اللّه؟)، فقال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلّى سبيله، فعاد الرجل إلى قومه فقال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا اله إلا الله، ١/ ٩٧، رقم ١٦٠.

جئتكم من عند خير الناس)[1].

إن هذا الموقف للنبي صلى الله عليه وسلم يبين طبيعة هذه الدعوة المباركة التي جاءت لإسعاد البشرية وإصلاحها، ودعت الناس للدخول في رحابها عن قناعة وحب ويقين، لا عن إرغام وتعسف كما يدعي خصومها، وما كانت الدعوة الإسلامية يومًا لترغم الناس عن اعتناقها عنوة، ولو كان الأمر كذلك ما حققت هذا القبول في نفوس المنصفين من غير العرب على مدى التاريخ البشري منذ فجر الدعوة.

إن دعوة يوصف حماة حياضها، والمقاتلون لنصرتها بهذه الصفات، لهي جديرة أن يكتب لها القبول في نفوس المنصفين من الناس، فيصبحوا أخلص جنودها بعد أن كانوا ألد أعدائها، وأعتى خصومتها، فلما تزود جندها بمكارم الأخلاق قبل أن يحملوا السلاح، كان ثمرة جهادهم أن فتح الله لهم صدور العباد قبل أن تفتح لهم الأرض والبلاد، فأقاموا العدل، وساد الود والوئام بين المسلمين وأهل البلاد المفتوحة.

من مبادئ الحرب في سورة العاديات

للحرب مبادئ وأصول، يضعها القادة العسكريون، لإنجاز مهامهم على الوجه الأفضل، وكلما كانت هذه المبادئ صادرة عن جهة عليمة وذات خبرة ودراية، كانت نتائج الحرب المرجوة أفضل وأسرع، وقد تناول القرآن الكريم جملة من هذه المبادئ والأصول في آيات كثيرة، نتناول بعض ما تناوله سياق الآيات الخمس الأولى من سورة العاديات، كنموذج للاستراتيجية.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ [العاديات: ١-٥].

أقسم سبحانه بخيل الغزاة تعدو فتضبح ضبحًا، وهو صوت أنفاسها عند العدو، ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ أي: التي توري النار، وهو إخراج النار، يقال: قدح الزند فأورى، ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ أي: يغير أهلها على العدوّ صباحًا، ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي: فهيجن بذلك الوقت غبارًا أو صياحًا، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي: فتوسطن بذلك الوقت أو بالعدوّ، أو بالنقع، أي: ملتبسات به من جموع الأعداء، وروي أنه بعث صلى الله عليه وسلم خيلًا فمضت أشهر لم يأته منهم خبر فنزلت[2].

(١) انظر: دلائل النبوة، البيهقي، ٣/ ٣٧٥.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ٣٣١.

المتأمل في هذه الآيات الخمس يجد نفسه في أجواء حربية عسكرية، ووسط معركة حامية الوطيس، وفق خطة محكمة مدروسة ومرسومة، شاملة لعناصر ومبادئ حربية، ويمكن بيان هذه المبادئ فيما يأتي:

أولًا: مبدأ المفاجأة والمباغتة:

ويقصد بالمفاجأة، مهاجمة العدو بغتة وفجأة، وهو في عقر داره، أو في موضع تجمعه، وتتوقف المباغتة على تقدير القائد وحنكته في تقديره موقف عدوه، فاختيار ساعة الهجوم، والظهور للعدو في وقت لا يتوقعه، دون مقدمات، وفي حركة سريعة، لا يقوى على رصدها، أو اكتشافها في وقت مبكر[1].

وهذا عنصر أصيل في الحروب والمواجهات العسكرية الخاطفة، وتقوم على حسن تقدير واختيار الوقت، وسرعة التنفيذ من شأنها أن تشل قدرة الخصم على المواجهة، وتحقق أعلى نسبة من الأهداف، ومبدأ المفاجأة والمباغتة له ثلاثة أركان وهي:

- الأسلوب المستخدم.
- الزمان.
- المكان.

وإذا أردنا أن نسقط العناصر الثلاثة للمفاجأة والمباغتة على هذه السورة نلاحظ الآتي:

- قوله عز وجل: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أي: صوت نفسها مكتوم فلا ينتبه العدوّ، فهي مفاجأة في الأسلوب.
- قوله عز وجل: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ أي: وقت الصباح، وهو وقت المفاجأة لأخذ العدو على غير أهبة[2]، وهذا عنصر مفاجأة في الزمان، فلا يتوقع الخصم ضربة في صفه مع الصباح الباكر.
- قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ مفاجأة مكانية، فلا يتوقع الخصم أن تنقل المعركة إلى وسطه وصميم قلبه.

ثانيًا: الأمن:

ولما كانت المباغتة من أهم وسائل كسب الحرب، كان من أهم أسباب نجاحها التكتم والتستر[3]، والتكتم والتستر إجراء أمني محض.

وقد تناولت الآية الأولى من السورة هذا المبدأ حيث إن الخيول عندما تغير وتسرع يكون صهيلها مفزع، وقد يكون سببًا في كشف الخطة الهجومية للجيش، لذلك كانت الجيوش عند إغارتها يجعلون شيئًا

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ١٠/ ١١٥.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٥٢٨.

(٣) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ١٠/ ٨٠.

على أفواه الخيل حتى تحول بينها وبين الصهيل فيكون صوت نفسها قوي[1].

ثالثًا: الإنزال خلف صفوف العدو:

ويقصد بالإنزال خلف صفوف العدو: دخول بعض الوحدات الخاصة بالجيش، ووصولها إلى ما وراء الصفوف الأمامية للعدو حتى توجه له ضربة من الخلف، وتحدث فيه نكاية، وتقطع تواصل مقدمة الجند مع المؤخرة، وتصبح القوة المتقدمة من العدو في معزل بقية الجند، وهذا يبدو واضحًا من قوله عز وجل: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾، «قيل: صرن بعدوهنّ وسط جمع العدو»[2]، أي اخترقن الصفوف فأصبحت مقدمة العدو مكشوفة الظهر في خطر.

رابعًا: التعمية والتمويه:

ويقصد بالتعمية ستر الوحدة العاملة عن عين العدو، ويعتبر هذا المبدأ من المبادئ الضرورية لإنجاح المهام الخاصة لهذه الوحدات، ووسائل التمويه كانت معروفة قديمًا، فقد كان قادة السفن يأمرون بصنع أشرعة زرقاء لسفنهم لكي تصبح مثل لون الماء أو السماء، كما يأمرون بعدم إشعال النار بالمركب؛ مما يمكنهم بالتالي من الاستفادة من عنصر المباغتة، وقد بدا ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾، «والمعنى أن الخيل أثرن الغبار لشدة العدو في الموضع الذي أغرن فيه»[3]، هذا الغبار من شأنه أن يغمي أعين العدو عن رؤية الجيوش المغيرة.

وفي عصرنا الحديث هنالك من وسائل التغطية الصناعية كقنابل الدخان، واستغلال حالة الضباب الكثيف لتنفيذ بعض المهام الخاصة، التي تقوم بها الوحدات الخاصة ضد العدو.

إن حالة إثارة الغبار، وأصوات السيوف وضبح الخيول وسرعة حركتها، وهي تضرب الأرض ضربًا بحوافرها وما ينتج عنه من قدح الشرر، يلقي في نفس جنود العدو من الفزع والهلع ما يجعل الواحد منهم لا يفكر إلا أن ينجو بنفسه، فيحدث حالة من الفرار وتفريق الجمع.

خامسًا: المواجهة من نقطة الصفر:

اعتادت الجيوش المعاصرة في هذا الزمان بفضل التقدم في مجال التصنيع والتقنيات العسكرية على المواجهة عن بعد، فقاذفات الصواريخ العابرة للقارات والطائرات الحربية بكافة أشكالها، بطيار ودون طيار، مما يجعل الحروب تحسم في أيام بهزيمة دول وانكسار إرادتها، قبل أن تجتاح جيوش العدو أراضيها.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ١٥٤.

(٢) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٦٤٠.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٢/ ٢٦٠.

وتبقى المواجهة من نقطة الصفر والتحام الجيوش، هي الفيصل في تحقيق الهزيمة أو النصر، فكم من دول ذات إمكانيات كبيرة، فرت وهزمت إرادتها عند التحام الصفوف، وما حرب الأمريكان في فيتنام، والحرب الأخيرة على قطاع غزة منا ببعيد، فدولة اليهود تفر من ميدان المواجهة وهي تجر ذيول الخيبة والهزيمة أمام أبطال المقاومة عندما واجهتهم بعتاد بسيط، في تلاحم بطولي من نقطة الصفر، نقطة التحام الصفوف.

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾، «أي: فتوسطن ودخلن في وسط جمع من الأعداء، ففرقنه وشتتنه»[1]، وذلك بالضرورة يعني أن تتلاحم الصفوف وتلتقي السيوف وجهًا لوجه.

فهذه السورة القصيرة في عدد آياتها العظيمة في معانيها، ترسم لنا نموذجًا لمعركة خاطفة تتنوع فيها عناصر المعركة، من مباغتة، واختراق لصف العدو، وتعمية، وتنوع في المفاجآت والتحام صفوف، تظهر لنا عناية القرآن واهتمامه بتربية الصف المؤمن على أعلى درجات التدريب والخطط العسكرية، تمامًا كما يربيهم على التقوى والورع والبكاء في أجواف الليل.

موضوعات ذات صلة:

الجهاد، الحذر، السلم، القتال

(١) محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٥٢٩.

الحرية

عناصر الموضوع

مفهوم الحرية	٦٢
الحرية في الاستعمال القرآني	٦٣
الألفاظ ذات الصلة	٦٤
الحرية بين الإقرار والإنكار	٦٥
مجالات الحرية	٨٩
الأحكام الشرعية والحرية	١٠٥

مفهوم الحرية

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (ح ر ر) على معنين رئيسين:

الأول: ما خالف العبودية، وبرئ من العيب والنقص.

الثاني: خلاف البرد[١].

فالحُرّ: خلاف العبد[٢].

يقال: حرّ الرجل يحرّ من الحرية[٣].

ويقال: حَرَّره، أي: أعتقه، والمحرِّر الذي جعل من العبد حرًّا، فأعتقه[٤].

فالحرية: الخلوص من الشوائب، والقدرة على التصرف بملء الإرادة والاختيار[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّفها الجرجاني بأنها: «الخروج عن رق الكائنات، وقطع جميع العلائق والأغيار»[٦].

وعرّفها بعضهم بأنها: «حالة يكون عليها الكائن الحيّ الذي لا يخضع لقهر أو قيد أو غلبة ويتصرّف طبقًا لإرادته وطبيعته»[٧].

ويرى ابن تيمية أن الحرية محلها القلب، فيقول: «الحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب» ثم يعلل ذلك بقوله: «إن أسر القلب أعظم من أسر البدن؛ فإن من استعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا، بل يمكنه الاحتيال والخلاص، أما إذا كان القلب وهو ملك الجسم رقيقًا مستعبدًا متيّمًا بغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض»[٨].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٨٨.
(٢) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٩٦.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٨٨.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ص١١٨.
(٥) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١/ ١٦٥، التعريفات، الجرجاني، ص٨٦.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص٤٣.
(٧) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٤٧٠.
(٨) العبودية، ابن تيمية ص٦١.

الحرية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حرر) في القرآن (٧) مرات[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٥	﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]
الصفة المشبهة	١	﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ [البقرة:١٧٨]
اسم المفعول	١	﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران:٣٥]

وجاءت الحرية في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الخلوص من الشوائب، والقدرة على التصرف بملء الإرادة والاختيار[(٢)]، والتحرير: جعل الشيء حرًّا خالصًا[(٣)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١٩٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٤٢٧.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١/ ١٦٥، التعريفات، الجرجاني، ص٨٦.
(٣) انظر: التوقيف، المناوي، ص٩٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ العبودية:

العبودية لغة:

مادة (ع ب د) تدلّ لغةً على اللّين والذل، وسمّي المملوك عبدًا؛ لأن فيه معنى الذل والخضوع والطاعة لغيره، وكلمة (العبد) تطلق على الإنسان حرًّا كان أو رقيقًا على معنى أنه مربوبٌ لباريه، وذليلٌ لمولاه جل وعلا [١].

والعبوديّة أصلها الذّلّة[٢].

العبودية اصطلاحًا:

لا يختلف معنى العبودية اصطلاحًا عن معناه اللغوي، فهي إظهار للتذلل والخضوع[٣].

الصلة بين الحرية والعبودية:

العبودية خلاف الحرية[٤].

والحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، فما استرق القلب واستعبده، فالقلب عبده[٥].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٧٩، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤١٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ١٦١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٤٢.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٨٠.
(٥) انظر: العبودية، ابن تيمية ص٨٨.

الحرية بين الإقرار والإنكار

أولًا: الحرية المقيدة وحدودها:

إننا إذا رجعنا إلى أصل الخلق والمنشأ تبين لنا أن هناك إرادة عليا قادرة خلّاقة أوجدت هذا الإنسان بالشكل والتكوين الذي هو عليه، ومن هنا يتأكد لنا أن إرادة الخلق لم تكن للإنسان وإنما لخالق الإنسان؛ ولهذا فإن الحرية معدومة في هذا الجانب، بمعنى أن الإنسان لم يستشره ربه عن رغبته في أن يوجد في هذه الحياة الدنيا، ولا بالشكل والصورة التي وجد عليها، ولا في اليوم الذي سيولد فيه، أو اليوم الذي سيموت، أو أن يكون سعيدًا أو شقيًّا، ذكيًّا أم غبيًّا، أبيض أم أسود، مرزوقًا أو مقترًا عليه؛ لذلك لا يكون مسئولًا عنها فهي خارجة عن مجال حريته.

وإنما الذي هو ضمن حدود حريته هو ما يمكنه أن يفضّله أو يدركه تحقيقًا لمقصوده؛ لأن العقل البشري هو الذي يعرف حدود الحرية التي أطلقت له؛ ولأن فاقد العقل غير مسئول مطلقًا، وإن تصرفاته لا يبنى عليها حكم إرادي.

وإن ما يوجبه العقل للإنسان من تحرك أو تصرف أو قول، أو إمساك عن ذلك هو ضمن حدود الحرية المعطاة للإنسان، فالمسئولية تترتب على حرية التصرف المنبثقة عن عقل الإنسان، والإرادة تتبع العقل، ولا تكون لمن لا عقل له.

والذات الإلهية أرادت أن نكون فكُنَّا كما أرادت، فهي التي أوجدتنا، وهي أعلم بنا منا نحن بأنفسنا، فأطلقت لنا الحرية فيما يعود علينا بالنفع، وأثابتنا على فعله، ومنعتنا ما يعود علينا بالضرر، وسمّته حدود الله، وحذّرت من تعديها، وعاقبت على تجاوزها، غير أن هذا التقيد لا يشل من انطلاقة الإنسان فيما ينفعه[1].

وإنما هو لمصلحته، وإنه لم يأت منع لجانب إلا وكانت المضرة متحققة فيه، إذن الحرية في الإسلام لا تتصور إلا مقيدة؛ لأن الحرية ليست انطلاقًا من القيود؛ بل هي معنى لا يتصور في الوجود إلا مقيدًا، فالحر -كما سبق تعريفه-: هو الشخص الذي تتجلى فيه معاني الإنسانية العالية، الذي يضبط نفسه، ويحترم حقوق الآخرين، ولا يعاملهم إلا بالحسنى، وبما يجب أن يعاملوه به، بل يسمو عليهم بالتسامح، ولا يكون عبدًا لهواه، ولا أسيرًا لشهواته، بل يكون سيد نفسه، مالكًا لزمامها.

فالحرية الحقة لا يمكن أن نتصورها انطلاقًا من كل قيد أو ضابط؛ لأن الانطلاق في جانب تقييد له في جانب آخر[2].

(١) الإنسان وحريته في الإسلام، محمود بابللي ص١٠٣-١٠٥.

(٢) في المجتمع الإسلامي، د. محمد أبو زهرة

ومن هنا كانت حدود الحرية وضوابطها ثابتة لا تقبل التغيير والتعديل من حيث الأصل؛ لأنها قائمة على أساس الشريعة الإسلامية، وهي متصفة بالبقاء والثبات؛ لأن الواضع لها هو الله تعالى، وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، في الماضي والحاضر والمستقبل[1].

والحرية معنى اجتماعي لا يتصوّر وجوده إلا في مجتمع متكافل يأخذ فيه الآحاد ويعطون، وإذا كانت كذلك فلابد من أن تكون في حدود رسمها المجتمع الفاضل من غير إرهاق نفسي، وفي التشريع الإسلامي هي حدود الله التي وضعها ورسمها لعباده، وحذّرهم من تجاوزها، وهو سبحانه أرحم وأرفق بهم من أنفسهم، ومن أي تشريع وضعي.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

وإن الذين يفهمون الحرية أنها انطلاق من كل قيد ولو أضرت بغيرهم هم عبيد لأهوائهم؛ لأنهم لا يرعون حق المجتمع، ولا حق أنفسهم، فلابد أن تأطرهم على الحق أطرًا؛ لأنه من كان عبدًا لنفسه وشهواته أولى به العصا، ولابد من ملاحظة أن القيود الضابطة للحرية هي في أصلها قيود نفسية، وليست قيودًا خارجية ابتداءً، وهي تتكون من حقيقتين:

الأولى: السيطرة على النفس، والخضوع لحكم العقل لا لحكم الهوى.

وثانيهما: الإحساس الدقيق بحق الناس عليه، وإلا كانت الأنانية المفرطة الجامحة.

ومن الإحساس بحق الآخرين ينبعث نور الحياء، والحياء لا يؤدي إلا إلى خير، كما تنبعث منه روح المساواة التي تفرض أن للناس حقوقًا كما لهذا الأناني من حقوق، وأنه ليس لأحد فضل على غيره إلا بعمل الخير، وكف الأذى.

والناس ليسوا سواء في مراعاة حرية الآخرين، فمنهم من يراعي هذه الحقوق، ومنهم من لا يراعيها، أو بعبارة أدق من الناس من هم أحرار بصدق تصرفاتهم، ومنهم من هم عبيد أهوائهم، وهم يحسبون أنهم الأحرار؛ لذلك كان لابد من تقييد حرية بعض الناس بقيود خارجية عن النفس بحكم الأنظمة التي يضعها ولي أمر المسلمين.

وأن التعبير الصادق في معناه أن نقول:

إن هذه حماية للحرية وليست قيودًا لها، وإنما هي قيود للذين انطلقوا غير مراعين لها حقًّا، أي: إن المصلحة في تقييد حرية أمثالهم حفظًا لحريات غيرهم.

ص١٧.

(١) انظر: حرية الرأي في الإسلام، محمد الخطيب ص٤٥.

ومن هنا نستطيع أن نقول أيضًا: إن القيود لا تكون للحرية إلا إذا ضعف المعنى النفسي، وتجاوز بعضهم على حقوق الآخرين.

وإن وضع الأنظمة والأوامر من خالق البشر، ومجاراة المجتمعات الإنسانية لذلك، ووضعهم ما يضبط تصرفات مواطنيهم، هو من المصلحة التي اقتضتها سلامة التعايش بين الناس، وما اضطر الناس إلى تولية أمير عليهم إلا لمراعاة هذه المعاني في ضبط الأمور، وحجز المتجاوزين لحدودهم عن ذلك، ولو تركوا وهواهم لما استقام أمر الناس، ولما تعايشوا[1].

ثانيًا: ضوابط الحرية:

لا شك أن الحدود التي تقف عندها الحرية الإنسانية تبنى عادة على المرجعية التي تقوم عليها، والهدف والغاية التي تصبو إليها، وحين كانت المرجعية التي يقوم عليها مفهوم الحرية في الإسلام هو الوحي المنزل، وكانت الغاية التي تصبو إليها هو تحقيق الأهداف التي أرادها الله من الإنسان، وأهمها تحقيق العبودية لله عز وجل؛ فإن حدود الحرية في الإسلام انسجمت مع هذا النمط الهيكلي...، وارتسمت صورتها مع ما يتوافق معه.

ومجمل تلك الحدود يرجع إلى الضابط الآتي: «هو أن حرية الإنسان تظل مطلقة ما لم تؤدّ إلى الإضرار بدين المسلم وعبوديته لربه، أو إلى عرقلة كمال خضوعه له، وما لم تؤد إلى الإضرار بحياة الإنسان، وإفساد علاقته بالكون، أو بغيره من البشر، ومتى أدت إلى شيء من ذلك فإنه يجب أن تتوقف الحرية، ولا يجوز لها أن تقفز تلك السياج»، إذن فحدود الحرية مركبة من بعدين أساسين، هما:

١. البعد الديني: وهو في العلاقة مع الله تعالى، بحيث لا يكون فيها ضررٌ بتدين الناس، وعلاقتهم بربهم.
٢. البعد الدنيوي: وهو في العلاقة مع الخلق، بحيث لا يكون فيها ضررٌ بحياة الإنسان في الدنيا، وعلاقته بالكون وغيره من البشر[2].

ومن هنا وضع القرآن الكريم ضوابط للحرية، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة ضوابط:

- ضوابط عقدية (حدود عقدية).
- ضوابط شرعية (حدود شرعية).
- ضوابط اجتماعية (حدود اجتماعية).

أولًا: الضوابط العقدية:

وهي التي تتمثل في احترام المسلم لعقيدته هو، وتشمل كذلك احترامه لعقيدة أهل الكتاب، ومن ثمّ تشمل احترام الكتابي

(١) المصدر السابق ص١٣٦-١٣٧.

(٢) فضاءات الحرية، سلطان العميري ص٨٧.

لعقيدة المسلم.

١. احترام المسلم لعقيدته.

ومعلوم أن الإسلام قد أوجب على متبعيه احترامه، فقد جعل لهم الحرية قبل الدخول فيه، ولكن إذا اتبعوه فلا يصح لهم الخروج منه، ومن هنا حرّم الإسلام الردة عنه، واعتناق دين آخر غيره، وهذا ما لا يرضاه الحق سبحانه .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٠-١٠٢].

في هذه الآية يتعجب الحق سبحانه، وينكر على من يرتد عن الإسلام إلى الكفر مع قوة أسباب الإيمان، وقطع الكفر.

قال تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ والتي تدفع الشبه والوساوس، وفيكم الرسول، وهو متمكن من قول الحق فيكم.

وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧].

قال الرازي: «لما بيّن تعالى أن غرضهم من تلك المقاتلة هو أن يرتد المسلمون عن دينهم ذكر بعده وعيدًا شديدًا على الردة، فقال: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧]»[(١)].

فالردة محرمة شرعًا، بل جعل سبحانه عليها عقوبة وهي الخلود في النار.

وتحريم الردة ليس من الحجر على حرية الرأي أو حرية العقيدة؛ لأن الحرية الرئيسة تعطى لغير المسلم قبل اعتناقه للإسلام وهو مخيّر حينها إن شاء دخل فيه، وإن شاء أبى، أما بعد الدخول في الإسلام وأصبح عضوًا في المجتمع المسلم فلا يجوز له أن يخرج من الإسلام بحال من الأحوال.

وخلاصة القول: أن الإسلام أعطى الحرية للمسلمين ولغير المسلمين، واعترف بها كحق إنساني يجب أن يتصف به الإنسان، ولكن لا يعني هذا في عرف الإسلام أن يلغي هذا من حدود الله، أو أن يعدّل بعض قوانين الإسلام إلا أن يجد له استنادًا من النصوص[(٢)].

٢. احترام الكتابي لعقيدة الإسلام.

وقد أعطى الإسلام أهل الديانات السماوية الحرية في عدم الدخول في

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٦.
(٢) الإسلام وحقوق الإنسان، محمد خضر ص٤٣.

الإسلام بشرط أن يحترموا العقيدة الإسلامية، ولا يتعمدوا إهانة شعائر الإسلام، وأما عن كيفية احترام هذا الدين الإسلامي فكما يلي:

١. يلزمهم أن يتقيدوا بأحكام الشريعة الإسلامية في الدماء والأموال والأعراض، أي: في النواحي المدنية والجنائية ونحوها شأنهم في ذلك شأن المسلمين.

٢. عليهم أن يحترموا مشاعر المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم، فلا يجوز لهم سب الإسلام ولا رسوله ولا كتابه، وليس لهم أن يروّجوا العقائد والأفكار التي تتنافى مع الإسلام.

٣. عليهم احترام الشريعة الإسلامية وعدم معارضتها، فعليهم في كل ما يراه الإسلام منكرًا أو حرامًا في حق اتباعه وهو مباح في دينهم إذا فعلوه ألا يعلنوا ذلك، ولا يتحدّوا به جمهور المسلمين.

وقد شرع القرآن هذه التشريعات مراعاة لمصلحة الجميع؛ لئلا تثور الفتن والاضطرابات بينهم وبين عوام المسلمين؛ ولئلا يكون في ذلك ترويج لعقائدهم، وتحريف لعقائد المسلمين، وإغراء السفهاء المسلمين على ترك دينهم، واتباع دين النصارى أو اليهود وثم يحكم عليهم بالقتل ردة، فتكون المفسدة أعم[١].

٣. احترام المسلم أهل الكتاب.

لقد سمح الإسلام لأهل الكتاب أن يعيشوا في المجتمع الإسلامي بشرط أن يعطوا الجزية.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية [التوبة: ٢٩].

فأهل الكتاب في حقيقتهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، وبسبب هذه الأوصاف أوجب الإسلام محاربتهم؛ حتى يذعنوا للإسلام بالدخول فيه، أو دفع الجزية؛ وذلك لإزالة العوائق المادية من جهة؛ ولتحرير الناس من الدينونة بغير دين الحق، على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار، ويقصد بذلك كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق، وعندها يتم التحرير بضمان كل فرد أن يختار الدين الحق على اقتناع فإذا لم يقتنع بقي على عقيدته، وأعطى الجزية[٢].

ورغم ذلك فقد منحهم الإسلام الكثير من الحقوق، منها:

- أن يترك أهل الذمة أحرارًا في معابدهم

(١) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي ص٤١-٤٢.

(٢) حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية، عبدالله ناصح علوان ص٥٢.

وأحوالهم الشخصية، وأباح لهم التمسك بعقائدهم.

- أباح لهم التمتع بما هو حلال عندهم، حتى ولو كان ذلك حرامًا عند المسلمين، كالخمر والخنزير وغيرها.
- أباح لهم حق التعلم وتعليم أبناءهم مبادئهم، فلهم إقامة المدارس الخاصة بهم، ولا يوجد ما يمنعهم من حرية الرأي والاجتماع بشرط عدم إساءة استعمال الحق، كأن يبشّروا بدينهم مثلًا... الخ[1].

ثانيًا: الضوابط الشرعية:

وتتمثل الحدود الشرعية في العقوبات التي شرعها الحق سبحانه -لمصلحة الجماعة- على عصيان أمر الشارع، والمقصود منها إصلاح حال البشر وحمايتهم من المفاسد، وإنقاذهم من الجهل[2].

والمقصود من العقوبة أمران: إصلاح المجتمع، وحمايته، ففيها إجراء وقائي وعلاجي في آن واحد.

لقد ضبطت الحرية بالعقوبة؛ لأن الله تعالى منع الناس من بعض الأعمال؛ لأنها تعود بالضرر على الإنسان والإنسانية، ولما كان الإنسان يحب العجلة ولا يفكر في عواقب أمره كان من الممكن أن يفعل هذه الأفعال رغم خطورتها، ورحمة من الله بعباده جعل هذه العقوبات زواجر للناس.

والعقوبات إما أن تكون حدًّا من حدود الله -وعلى الحاكم تنفيذها- كحد الزنا، ويتمثّل في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾[النور: ٢].

وهذا في حق غير المحصن، وأما المحصن فعقوبته الرجم، كما جاء في الحديث (أن رجلًا ممن أسلم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاعترف بالزنا، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم اعترف فأعرض عنه، حتى شهد أربع مرات، فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فرجم)[3].

وكحد القذف، ويتمثّل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤].

لأن القاذف يؤلم المقذوف إيلامًا نفسيًّا، والجلد يؤلمه إيلامًا حسيًّا، فهذا الإيلام يساوي ذاك، ويضاف على إيلامه الحسي عقوبة أخرى معنوية في المجتمع، وهي عدم

(١) الإسلام نظام إنساني، مصطفى صادق الرافعي ص٢٠٢.

(٢) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنة بالقانون الوضعي، عبدالقادر عودة ص٦٠٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب لا يرجم المجنون والمجنونة، ٨/ ١٦٥، رقم ٦٨١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى ٣/ ١٣١٨، رقم ١٦٩١.

قبول شهادته؛ لأن القاذف يحقر المقذوف، فاستحل بذلك أن يحقره المجتمع؛ وذلك بعدم قبول شهادته[1].

وكحد السرقة، ويتمثّل في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨].

وفائدتها هي أن السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر في أن يزيد كسبه بكسب غيره، فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال، ويريد أن ينميه عن طريق الحرام، وهو لا يكتفي بثمرة عمله، فيطمع في ثمرة غيره، فإذا قطعت يده أدى ذلك إلى نقص كسبه الذي لا يستحقه[2].

وإما أن تكون العقوبات غير الحدود كالتعزيرات، وتشمل القصاص، ويتمثّل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

والدافع للقتل هو حب التغلب والاستعلاء والتنازع على البقاء، فإذا علم أنه سيقتل فلن يقدم على قتل أخيه، وبهذه العقوبة يتوفر الأمن والاستقرار في المجتمع، ومن ثمّ يتمتع المجتمع بجميع مقومات الحياة؛ لنشر العدالة والسعادة بين الناس.

وأما عقوبة التعزير فقد ثبتت بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

فقد استدل العلماء بهذه الآية على أن التعزير غير محدد؛ إذ لم يحدّد كم مدة الهجران، ولا كم عدد الضرب، بل راجع إلى المصلحة، فمتى ما تحققت امتنع الضرب أو الهجر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤][3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨].

فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بمقاطعتهم حتى تاب الله عليهم، ولم تكن المقاطعة عقوبة محددة، ولما كانت التعازير أقل، وضررها أهون، جعلت تحت تصرف القاضي الذي يجب أن يراعي المصلحة العامة للمجتمع.

(١) الحماية الجنائية للغرض في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، عبد العزيز محسن ص٤٠٦.

(٢) بحوث في جريمة السرقة وعقوبتها في الفقه الإسلامي، علي عبد العال ص ١٩-٢٢.

(٣) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف العالم ص٣٠٨.

وكذلك الكفارات، وتتمثّل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[البقرة: ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥].

وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى وجوب الكفارات على المخالفين والمتجاوزين لحدود الله.

ثالثًا: ضوابط اجتماعية:

والضوابط الاجتماعية تتمثل في العادات والأعراف.

والعادة هي: «كل عمل خيرًا كان أو شرًّا يصير عادة تميل النفس إليه، وإجابة هذا الميل بإصدار العمل مع تكرار ذلك»[(١)].

وأما العرف فهو: «ما استقرت عليه النفوس بشهادة العقول، وتلقته الطبائع بالقبول»[(٢)].

والعرف وسيلة مهمة وجوهرية وأساسية في الضبط الاجتماعي، وهو يحكم في وجود القانون، وفي عدم وجوده، وتظهر أهميته في رعاية القيم الروحية والاجتماعية[(٣)].

وتكمن أهمية العرف في أن الفرد لا يستطيع مخالفة المبادئ المعرفية الموجودة في المجتمع، ولو فعل لتعرض للجزاء الاجتماعي؛ لهذا كان للعرف دورٌ أساس في ضبط الحرية، ولما جاء الإسلام وأقر العادات الحسنة، وخلص المجتمع الجاهلي من العادات السيئة أمرهم بالتزام الحسن، فقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أي: خذ من أخلاق الناس وأعمالهم كل ما هو حسن[(٤)].

وقال صلى الله عليه وسلم: (ما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن)[(٥)].

والقاعدة الفقهية المشهورة تقول: «العادة محكمة»[(٦)].

وقد اعتبرت العادة العرف مرجعًا في الكثير من المسائل الفقهية، وليس هذا محل تفصيلها، فتراجع في مظانها[(٧)].

إذن فللضوابط الاجتماعية دور في ضبط الحرية، فمثلًا مخالفة الآداب الاجتماعية العامة يعتبر مرفوضًا، فالإنسان الذي يخرج من بيته إلى الأماكن العامة لابسًا ما يستر عورته فقط يرفضه المجتمع، ويعتبره شاذًّا، رغم أنه لم يفعل حرامًا.

(١) الأخلاق والعرف، هنية القماطي ص١٣.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٥٤.
(٣) القيم والعادات الاجتماعية، فوزية دياب ص١٨٩.

(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٣٢٦.
(٥) أخرجه، أحمد في مسنده ٦/ ٨٤، رقم ٣٦٠٠.
قال الألباني في السلسلة الضعيفة ٢/ ١٤: لا أصل له.
(٦) الأشباه والنظائر، السيوطي ص١١٩.
(٧) المصدر السابق ص١٢٠.

ثانيًا: الحرية في الاختيار والالتزام:

هذا النوع من الحريات هو الذي انفرد به الإنسان عن سائر المخلوقات، أخذًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وتجمع أقوال المفسرين على أن المقصود من الأمانة هنا أنها: (التكليف)، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها: وهو أنه إن قام بها أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفقه الله، والله المستعان[(١)].

وهذا التكليف للإنسان فيه الخيار وليس الإلزام، أي فيه حرية الاختيار؛ لأن باقي الحيوانات مفطورة على ما أعدها الله له، فلا تستطيع الخروج عن ذلك خلافًا للإنسان الذي له إرادة مستقلة يستطيع بموجبها أن يختار ما يريد.

إنها الإرادة، والإدراك والمحاولة، وحمل المسئولية هي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله، وهي مناط التكريم الذي أعلنه الحق سبحانه في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفي أمره للملائكة بالسجود لآدم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله، ولينهض بالأمانة التي اختارها، والتي عرضت على السماوات والأرض والجبال ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢][(٢)].

ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فمن هذه الآيات نجد أن السماوات والأرض وهما أكبر أجرام الكون أطاعتا أمر الله دون تردد، ولم تتمردا على أمره؛ لأنهما لم تقبلا بالخيار: أي: تحمل الأمانة، أما الإنسان فإنه على خلاف ذلك، فقد كان له الحق في الخيار؛ وذلك على مسئوليته الشخصية فمن البشر من آمن بحريته دون إكراه أو إلزام، ومنهم من كفر بحريته واختياره.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٢٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٩٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٤١٨.

﴿وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

فهذه الآية تجمع في مضمونها أنواع المخلوقات جميعها بما في ذلك الناس؛ لأن النص ورد بصيغة الجمع، أي: كل من في السموات ومن في الأرض دون استثناء، ومنها مخلوقات الله المشاهدة للإنسان مثل: الشمس والقمر والنجوم...

فهذه المخلوقات باستثناء الإنسان تسجد لله دون تردد؛ لأنها مفطورة على الطاعة، وليس لها خيار في غير ذلك.

أما الناس فكثير منهم أطاع الله سبحانه بالسجود والامتثال لأمره بحريته واختياره، وكثير منهم اتبعوا طريق الشيطان فامتنعوا عن السجود دون إكراههم على ذلك، وهو القادر سبحانه؛ لأنه لو أكرههم لما كان لهم حق الاختيار، ولما كانت لهم حرية قبول تحمّل المسئولية أو التكاليف التزامًا واجتنابًا[(١)].

وهنا ينشأ سؤال مهم وهو: هل الحرية فطرة أم مكتسبة؟

يقول ابن تيمية: «الحرية فطرة في النفس البشرية، ولدت مع خلافة الإنسان في الأرض، وتحمّله للأمانة دون السماوات والأرض والجبال.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهي من الصفات التي اختص بها الإنسان كالعقل والعلم والتفكير التصوري»[(٢)].

فهي نعمة عظمى على الإنسان، لكن في الناس من يسيئون استخدامها، ربما عن عمد، وربما عن جهل، كأولئك الذين يريدون الحياة فوضى باسم الحرية، أو يعمدون إلى نشر الرذيلة، وإشاعة الفاحشة في المجتمع باسم الحرية الشخصية... الخ، ومثل هؤلاء إن لم يأخذ المجتمع على أيديهم أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: «أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بعذاب»[(٣)].

ويعضد هذا التفسير ما رواه أبو بكر رضي

(١) الإنسان وحريته في الإسلام، محمود بابللي ص١٠٨.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٤٨٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٦.

الله عنه حيث قال: «إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب)»[١].

ويقول الدكتور راشد الغنوشي: «إن الحرية في التصور الإسلامي أمانة، أي: مسئولية، ووعي بالحق والتزام به، وإخلاص في طلبه، وتضحية من أجله، تبلغ حد الاستشهاد، نعم إن الحرية بالمعنى التكويني هي إباحة واختيار أو هي فطرة، فقد اختصنا الله بخلقة تملك القدرة على فعل الخير والشر، والسير في أكثر من اتجاه...، وكانت تلك مسئولية، أما بالمعنى الأخلاقي أو التشريعي فهي: (تكيف) حسب عبارة الأصوليين، الحرية: أن نمارس مسئوليتنا ممارسة إيجابية، أن نفعل الواجب طوعًا...، بإتيان الأمر، واجتناب النهي، فنستحق درجة الخلفاء، وأولياء الله الصالحين»[٢].

ويرى بعض المحدثين: «أنها مكتسبة، وتعلّل لذلك بأن الشخص الذي يولد في أسرة تتمتع بتربية أفرادها على الحرية والاختيار ينشأ حرًّا مختارًا له شخصيته واختياره، ويظهر أثر ذلك في تصرفاته كلها وآرائه؛ وأما الشخص الذي ينشأ في أسرة ترزح تحت نيران الاستعباد والقهر ينشأ خائفًا جبانًا يعتمد على توجيه الآخرين له»[٣] ولكن يردّ على هذا الرأي بأن عدم ظهور الشخصية كان بسبب ما تراكم عليها من أنواع الظلم والاستعباد، أما إذا تخلص من هذا الاستعباد فسوف ينتج عن ذلك نوع من الاستقلال؛ لذا فحرية الإنسان فطرية، ولكن قسر الإنسان لأخيه هو الذي يكبت هذه الحرية فيؤدي إلى عدم ظهورها.

ويرى الدكتور راشد الحارثي: «أن الحرية لها جانبان: جانب فطري تؤيده مظاهر الحرية، أو في الفطرة، ولها جانب مكتسب وذلك بإبراز هذه الفطرة وتنميتها»[٤].

قلت: والحرية فطرة وهذا هو الأصل، ولكن يمكن انحراف الإنسان عن أصله

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٢، رقم ٤٣٣٨، والترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، ٤/ ٣٧، رقم ٢١٦٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٣٩٨، رقم ١٩٧٣.

(٢) الحريات العامة في الدولة الإسلامية، راشد الغنوشي ص٣٨.

(٣) وصاحب هذا الرأي هو الدكتور محمد عزيز الحبابي. انظر: من الحريات إلى التحرر، له ص١٩١.

(٤) الحرية في القرآن الكريم دراسة موضوعية، راشد الحارثي ص٢٦.

وفطرته، إما بعوامل مكتسبة من البيئة، كأن يكون الشخص قد نشأ في بيئة مضطهدة مستعبدة وتريض عليها، فرغمًا عنه يخضع لبيئته، راضيًا بواقعه؛ حفاظًا على حياته، وهذه الصورة ينطبق عليها قوله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[1] الحديث.

وإما بعوامل ذاتية فكرية كأن ينحرف فكر الشخص ولا يهتدي للصواب رغم وضوحه، كما هو حال الكفار مع الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم رغم معرفتهم اليقينية له بأنه الصادق الأمين، وصدق الله إذ يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

ثالثًا: الحرية المطلقة والفوضى:

ليس من شك أن الحرية المطلقة تقود إلى فوضى مطلقة، ومن ثمّ لابد من وجود ضوابط صارمة لممارسة الحرية بالطريقة الصحيحة، ولعل من الواضح أن المجتمعات المتخلفة لا تحسن في الغالب ممارسة الحرية بالطريقة الصحيحة، فيخطئ من يجعل الحرية مركبًا يستبيح بها كل شيء دون ضوابط، كما يخطئ من يجعل مقاييسه الشخصية معيارًا يتصرف من خلاله كما يشاء، وإن أخطر ما في الحرية أن يمارسها من لا يعرف حدودها، ولا يحسن استعمالها.

والجدير بالذكر أنه لا يوجد خلاف على أن الاستقرار في الأمة الإسلامية، بل وفي أي أمة يحتاج إلى أمن وأمان، وأن هذا الأمر لا يتحقق إلا في غياب الفوضى بكل مظاهرها؛ ولكي يتحقق ذلك لابد أن يبدأ الأمر بتصحيح السلوك الفردي والجماعي، والإحساس بقدر المسئولية المنوطة بالأعناق؛ لأن الإنسان لبنة في كيان المجتمع، وخير له ولمجتمعه أن يكون لبنة صالحة؛ كي لا يتأثر به الآخرون عن فساده وإفساده؛ لذلك يكون ضرره بنفسه ضررًا بفرد من أفراد المجتمع، كما أن ضرره بالآخرين يوجب مساءلته، فإذا قصّر المجتمع في واجبه تجاه من يريد الضرر به، أو بأحد من أفراده يتحمل هو مسئولية ذلك، وتقع عليه نتائج ما قصّر فيه، وإن تدارك السيئ إلى الأصلح خير من إهماله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ٤/ ٢٠٤٧، رقم ٢٦٥٨.

فالمسئولية أمر مجمع على وجوبه، وقد أقرتها الشريعة الإسلامية، بل وسائر المجتمعات البشرية على اختلاف عقائدها وسلوكها، تجمع على إقرارها[1].

والمسئولية تكون فردية فيما يتعلق بفرض العين، إذا قصّر به من وجب عليه، ولا يتأثر غيره بتقصيره فيه، وتكون هناك مسئولية جماعية تدخل في مفهوم الفرض الكفائي الذي إذا قام به البعض سقط إثمه عن الآخرين، كما أن درء المفاسد وجلب المصالح هو مسئولية كل فرد كما هو مسئولية الجميع، والمساءلة في ذلك لا شك أنها تكون من الأعلى للأدنى، وليس فوق الإنسان إلا خالقه جل وعلا.

قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الحجر: ٩٢-٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٣].

وكل إنسان مسئول بمفرده عما صدر منه، ولا يؤاخذ بجريرة غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور: ٢١].

والأمة تسأل عما صدر عنها، ولا تسأل عما صدر من غيرها؛ لقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ١٣٤].

والمسئولية هي مناط التكليف.

وقال صلى الله عليه وسلم: (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مسئول عن رعيته، ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته)[2].

إذا تقرر ذلك فبدهي أن المسئولية والحرية -من حيث الظاهر- متناقضتان؛ لأن الإنسان لا يكون حرًّا فيما إذا كان مسئولًا، فالحرية كما يتصورها بعض الناس هي الانطلاق من كل مسئولية، أي إن له أن يفعل ما يشاء، وألا يسأل عما يفعل، وهذا أمر لا وجود له في طبائع البشر؛ لأن التصرف الذي يصدر عن الإنسان ويتعدى

(١) الإنسان وحريته في الإسلام، محمود بابللي ص٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ٢/ ٥، رقم٨٩٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٩، رقم ١٨٢٩.

غيره؛ لابد وأن يكون صاحبه مسئولًا عنه؛ لأن هذا التصرف قد يكون ضارًا، فهل يقبل أي إنسان أن يصاب بالضرر ولا يكون فاعل ذلك مسئولًا؟!

إن المسئولية منوطة بالشخص ومكانته الاجتماعية، وليس هناك أصدق من قول الرسول صلى الله عليه وسلم حينما عمّم المسئولية بقوله: (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته) والحرية لا يمكن أن تكون مطلقة دون قيود؛ لأنها تكون حينئذٍ فوضى وليست حرية، وإنما هي حيوانية انفلاتية.

ومن تقييد الحرية تحميل المسئولية للإنسان عما يصدر عنه، وهنا نجد أن الحرية والمسئولية غير متناقضتين، وإنما هما متعاونتان في تحقيق السلام والوئام، وحسن التعايش بين الأفراد، ولو لم يكن الإنسان مسئولًا لم يكن حرًّا[1].

ولهذا وجدنا الأمم جميعها تضع الشرائع والأنظمة لضبط تصرفات أفرادها، وتفرض عليهم الالتزام بها، وعدم الخروج عنها تحت طائلة العقوبة، كما أن العقوبات لم تفرض على مرتكبيها إلا لخروجهم عن الالتزام بهذه النظم، فهي كما يقال: عقوبات رادعة وزاجرة.

يقول الماوردي: «إن الحدود زواجر وضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب ما حظر، وترك ما أمر؛ لما في الطبع من مغالبة الشهوات الملهية عن وعيد الآخرة بعاجل اللذة، فجعل الحق سبحانه من زواجر الحدود ما يردع به ذا الجهالة حذرًا من ألم العقوبة...»[2].

وإن أبرز عقوبة على ترك الحرية للإنسان في أن يفعل بنفسه ما يريد هي العقوبة على الانتحار، وهذه العقوبة لا تعرفها المجتمعات غير المسلمة، ولكنها عقوبة رادعة وزاجرة لمن يقذف بنفسه إلى الهلاك.

وقد قال تعالى محذّرًا من ذلك: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من قتل نفسه بحديدةٍ فحديدته في يده يتوجّأ بها في بطنه في نار جهنّم خالدًا فيها أبدًا، ومن شرب سمًّا فقتل نفسه فهو يتحسّاه في نار جهنّم خالدًا مخلّدًا فيها أبدًا، ومن تردّى من جبلٍ فقتل نفسه فهو يتردّى في نار جهنّم خالدًا مخلّدًا فيها أبدًا)[3] الحديث.

فإذا قيل: إن الإنسان حر في أن يفعل بنفسه ما يشاء، نقول له: إنك لم تخلق نفسك

(١) الإنسان وحريته في الإسلام، محمود بابللي ص١٢٧.

(٢) الأحكام السلطانية ص٢٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث، ٧/ ١٣٩، رقم ٥٧٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، ١/ ١٠٣، رقم ١٠٩.

ولا تملك إزهاقها، فإذا تصرفت بما يضر هذه النفس المكرّمة فلابد من تحمّل العقوبة على ذلك؛ ردعًا لمن تسوّل له نفسه أن يفعل بنفسه مثل هذا، وإذا أخذنا مسئولية الوالد في تربية أولاده، تأكد لنا أن مصلحة هؤلاء الأولاد أن يلتزموا بأوامر والدهم، كما أن مصلحة المجتمع تتحقق في مؤاخذة الوالد عن تسيب أولاده؛ لأن عاقبة تصرفاتهم الضارة تعود على المجتمع، ولو أننا قلنا: إن إلزام الوالد لأولاده بما يراه في مصلحتهم ليس تقييدًا لحرياتهم لكنّا كمن يهرف بما لا يعرف، ولأضحكنا منا أصحاب العقول الذين يجمعون على أن في تربية الأولاد ما يكون فيه أخذًا على أيديهم بما يصلح شئونهم ويقيّدهم من بعض الحريات؛ لأن الأولاد كالعود النابت في مهب الرياح إن لم تضع له ما يسنده تقاذفته الريح وأهلكته[1].

وكذلك مسئولية ولي الأمر توجب عليه أن يأخذ رعاياه بما يعود عليهم بالنفع المشترك، ومن هنا كانت المسئولية هي صون الحرية من أن تهدد في غير موضعها، أو أن تهان في إساءة فهمها، أو إساءة استعمالها، كما أن فطرة الإنسان اقتضته أن يكون مسئولًا عما تحمّله أو تعهد به أمام خالقه، وإن حريته في التفلت من هذه المسئولية توقعه فيما لا يحمد عقباه؛ لهذا تكون حريته في تكريم هذه الحرية، وعدم تجاوز حريات الآخرين.

وعلى هذا تكون المسئولية مقيّدة للحرية في علاقات الناس بعضهم مع بعض، ما دام الناس يعيشون في ظل نظام يحاسبهم على سيئ أعمالهم[2].

رابعًا: شبهات وردود حول الحرية:

يزعم البعض أن إقامة الحدود فيها تضييق على الأقليات من المواطنين، وإكراه لهم أن يأخذوا بخلاف ما تقرره أديانهم ومذاهبهم، وفي هذا سلب للحرية واعتداء على قداستها، وللجواب على هذه الشبه إجمالًا نقول[3]:

- إنّ الحدود التي تقام عليهم هي سبب ارتكاب أفعال محرّمة في دينهم أصلًا، فلم تبح شريعة من الشرائع الزنا أو السرقة أو القتل أو القذف ونحوها؛ ولهذا فإقامة العقوبة عليهم ليس على شيء مباح في دينهم.
- إنّ على المواطن مهما كانت ديانته أن يشترك في نهضة أمته، واستتباب الأمن، وتثبيت دعائم النظام، وطهارة الأخلاق، ولا يتأتى ذلك إلا بإقامة

(١) الإنسان وحريته في الإسلام، محمود بابللي ص١٢٩.

(٢) المصدر السابق ص١٣٠.

(٣) الآثار التربوية لإقامة الحدود، علي آل علوي ص٣٣.

الحدود.

- إنّ الأقليات تحتاج إلى المحافظة على مقوماتها، ولا يكون ذلك إلا بإقامة الحدود، ولو خيّرت الأقليات بين إقامة الحدود وعدمها لاختارت إقامتها؛ لأنّها لا ترضى لمالها أن يسرق، ولا لعرضها أن يخدش، ولا لكرامتها أن تمسّ بما يؤذيها.
- إنّ من الظلم أن نقيم الحدّ على البعض دون البعض الآخر لمجرد الاختلاف في الدين، فكيف نضمن للأقلية حياة آمنة مطمئنة دون أن يطبّق عليهم ما يطبّق على غيرهم؛ ولأننا لو فعلنا ذلك لأطلقنا لهم العنان لارتكاب الجرائم دون أي مساءلة، وفي نفس الوقت كيف نضمن الأمن لأنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وهذا لا يستقيم.
- إنّ من حق الدولة أن تدافع عن نظامها بالوسائل الكفيلة بالردع والزجر، ولها أن تنزل العقوبة الملائمة على كل يد تمتد بالإساءة إلى نظامها، لا فرق في ذلك بين الأقلية والأكثرية.

أما عن التفصيل فنقول:

الشبهة الأولى:

إنّ العقوبات الشرعية من جلد وقذف ورجم تعتبر إهدار للآدمية المحرمة، وإيذاء غير مقبول في عصرنا الحاضر، كما أنّ العقوبات تعتبر تدخلًا في الجريمة الشخصية والسلوك الخاص للإنسان، فعقوبة الزاني إذا زنا برضا المجني عليه من مصادرة الحرية، وكذا شرب الخمر.

ويردّ على هذا بالآتي[1]:

١. إنّ العقوبات ليس فيها هدر للآدمية ولا إهانة لها، فإنّ الإنسان متى اقترف جرمًا معينًا فقد أهان نفسه، واستحق العقاب الذي يمنعه من معاودة جرمه، كما يجعله عبرة لغيره بحيث يحمله ذلك على التفكير بالعقوبة كلما حدّثته نفسه بذلك.

٢. قد ثبت أنّ العقوبات البدنية مؤثرة بصاحبها، وزاجرة لغيره، أمّا غيرها من العقوبات كالحبس فقد ثبت عدم جدواها، إذ يدخل المجرم بجريمة ويخرج وقد تعلّم جرائم عدّة.

٣. أمّا دعوى أنّ هذه العقوبات تدخّلٌ في الحرية الشخصية فغير مسلم بها؛ وذلك:

- إنّ حقيقة الحرية لا تعني إطلاق العنان للإنسان في فعل ما يشاء بلا قيد ولا حدود، فتلك هي الفوضى بعينها، وتلك هي إهدار لحرية الآخرين، وعدوان على حقوق الله، وحقوق

(١) انظر: أثر تطبيق الحدود، الغزالي عيد ص١٧٨.

المجتمع.

- إنّ الآثار التي تتركها جريمتا الزنا وشرب الخمر على الفرد والمجتمع ينتفي معها أن يكون الزنا وشرب الخمر من باب الحرية الشخصية. فالزنا اعتداء على الأسرة، وهدم لكيانها، وتشكيك بالأنساب، وتضييع للأطفال، وإشاعة للريبة في النساء والزوجات، وعزوف عن الزواج، وانتشار للأمراض إلى غير ذلك من المفاسد والأضرار[1]، فمن حق المجتمع أن يحمي نفسه من هذه الأضرار. ووقوع الزنا برضا الزانيين لا يجعل الزنا مشروعًا، ولا يزيل أضراره.
- إنّ ادعاء الحرية الشخصية في شرب الخمر فيه كثير من المغالطة؛ لأن الإنسان ليس حرًّا في إيذاء نفسه؛ لأنه ليس ملكًا خاصًّا لنفسه، وإنما هو مملوك لخالقه، فلا يسوغ له أن يعبث بعقل ملك لله، وشارب الخمر يعيش في المجتمع ويستفيد من وجوده فيه أمنًا ورفاهية وسعادة، فعليه إذن أن يلتزم بالنظام العام، وإنما ينفع الجماعة إذا كان سليمًا عقله، صحيحًا جسده، مستقيمًا في تصرفاته، فكل إيذاء يتعرض له الفرد سواء كان بإرادته أم بغير إرادته يعود بالضرر على المجتمع الذي يعيش فيه. وشارب الخمر هو قدوة سيئة أمام غيره، وفيهم كثير من الضعفاء سوف يقتدون به ويقلّدونه بغير وعي في بعض الأحيان. وأسوأ ما يكون الأثر على أسرة السّكير، ولو علم أيّ جريمة يرتكبها في حق أولاده لجلد نفسه بنفسه قبل أن يجلده الآخرون. ولا ننسى المشاحنة والبغضاء التي تقوم بين الشاربين حين يفقد كلٌّ وعيه، وينسى إنسانيته، فتنفلت الشرور، وتهون الجريمة، وتعطّل الإرادة الضابطة، والوعي الوازن للأمور.

٤. إن ترك الإنسان يعبث ويضر نفسه وغيره بحجة رعاية حريته الشخصية هو منطلق الأطفال الصغار الذين يصرخون ويولولون إذا منعوا من اقتحام النار أو تناولوا المؤذيات، أو عوقبوا على ذلك؛ لئلا يعودوا إلى أفعالهم.

الشبهة الثانية:

عارض بعض شرّاح القوانين الوضعية عقوبة الجلد؛ وذلك لسببين:

١. النفور من الألم البدني.
٢. إنقاص الاحترام الواجب نحو شخص الإنسان.

ويردّ على هذه الشبهة بالآتي[2]:

(١) انظر: أضرار الزنا ص١٣٦.

(٢) انظر: التشريع الجنائي، عودة عبدالقادر ١/ ٦٣٧.

١. إنّ عقوبة الجلد تمتاز بأنها موجهة إلى حساسية الجاني المادية، وأن الخوف من ألم الجلد هو أول ما يخافه المجرمون، فيجب الاستفادة من ذلك في إرهابهم.

٢. إن القول بأن الجلد سبب لإنقاص الاحترام الإنساني، فهو فكرة لا محل لها في العقاب، ولا يصح أن يحتجّ بها لمن لا يوفر الاحترام لنفسه.

٣. إن الشريعة الإسلامية عندما وضعت عقوبة الجلد لبعض الجرائم لم تضعها اعتباطًا، وإنما وضعتها على أساس من طبيعة الإنسان، وفهم لنفسيته وعقليته، فمثلًا: حينما قرّرت الشريعة عقوبة الجلد للزنا دفعت العوامل النفسية التي تدعو للزنا بعوامل نفسية مضادّة تصرف عن الزنا، فإذا تغلّبت العوامل الداعية على العوامل الصارفة وارتكب الزاني جريمته مرة؛ كان فيما يصيبه من ألم العقوبة وعذابها ما ينسيه اللذة، ويحمله على عدم التفكير فيها.

٤. إنّ عقوبة الجلد ما تزال مطبّقة في انجلترا، ويلجأ إليها في الولايات المتحدة كوسيلة لتأديب المسجونين، وقد اقترح إدخالها في فرنسا للمعاقبة على أعمال التعدي الشديد التي تقع على الأشخاص؛ وذلك لأنّ العادات قد تطورت تطورًا مخيفًا، وصارت طبقات العامة تلجأ إلى القوة والعنف لحسم المنازعات، وأنّ الإجرام قد تغيّر مظهره، فأصبح أعظم شدّة وأكثر حدّة من ذي قبل، ولا وسيلة لتوطيد الأمن إلا بإعادة العقوبات البدنية.

وهكذا نرى أنّ الشريعة الإسلامية قد سبقت القوانين الوضعية في تقرير عقوبة الجلد.

الشبهة الثالثة:

الاعتراضات على الحرية الدينية في الإسلام:

يعترض عادة على الحرية الدينية في الإسلام باعتراضين شهيرين، وهما: الجهاد في سبيل الله، والعقوبة على الردة، وعادة ما يشترك في توجيههما صنفان، وهما: المعارضون لكل الأديان من الملاحدة وغيرهم، وبعض أتباع الأديان الأخرى، وخاصة اليهودية والنصرانية.

وسوف نقف مع كل اعتراض وقفة سريعة موجزة، نكشف من خلالها عن حقيقة الجهاد في سبيل الله، وعن أهدافه وغاياته، وعن حقيقة عقوبة المرتد، وعن أهدافها ومصالحها، ونجيب في كل ذلك عن سؤال منافاتها للحرية بصورة واضحة وجلية.

الاعتراض الأول: مشروعية الجهاد في

سبيل الله:

الجهاد في الإسلام معنى واسع جدًّا، فهو يشمل الجهاد باليد، والجهاد باللسان والبيان، والدعوة إلى الحق، وإنكار المنكر، والجهاد بالمال بإنفاقه في سبيل الله، وجهاد النفس على التزام طاعة الله تعالى .

ولكن كون جهاد العدو وقتاله باليد في سبيل الله أمرًا مشروعًا ومأمورًا به فهو من القضايا البدهية في الإسلام، وهو من أوضح الأمور وأجلاها.

وفهم حقيقة الجهاد، وحسن التعامل مع أحكامه ومع النصوص الشرعية التي جاءت في شأنه مبني بشكل أساس على معرفة المراحل التي مر بها تشريعه وإقراره في الإسلام؛ لأنه بإدراك هذه المراحل يدرك الباحث أهداف الجهاد وغايته، ويدرك أيضًا دلالات النصوص المتعلقة به، ويدرك أيضًا التطورات التي مر بها، ومن ثمّ يحسن الاستدلال بكل نص في المحل الذي يناسبه.

ومن أكبر الإشكالات الاستدلالية عند المعاصرين المنكرين لجهاد الطلب هو أنهم أغفلوا تلك المراحل، ولم يراعوا التدرج التشريعي فيه.

وقد أكد عدد كبير من العلماء في التفسير والفقه على أن المراحل التي مر بها تشريع الجهاد في الإسلام هي أربع مراحل أساسية[1]، وهي:

المرحلة الأولى: مرحلة المنع من الجهاد، وهي المرحلة المكية، وقد قال الجصاص: «لم تختلف الأمة أن القتال كان محظورًا قبل الهجرة»[2].

ويدل على هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا ل ه أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، فقالوا: يا رسول الله إنا كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فقال: إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا)[3].

المرحلة الثانية: مرحلة الإذن بالجهاد من غير أمر به؛ وذلك أنه حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أذن الله للمؤمنين بقتال من قاتلهم من الكفار، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

(١) انظر: أحكام القرآن، الشافعي ٢/ ٩-١٢، أحكام القرآن الجصاص ١/ ٣١٩-٣٢١، أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٤٢٧.

(٢) أحكام القرآن ١/ ٣١٩.
وانظر مزيدًا من نقل الإجماع: موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، مسائل الإجماع في أبواب الجهاد، صالح الحربي ص٢٧.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، ٦/ ٢، رقم ٣٠٨٦.
وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي ٦/ ٢، رقم ٣٠٨٦.

«لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم! إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن، فنزلت: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فقال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون قتال، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فهي أول آية نزلت في القتال»[1].

المرحلة الثالثة: مرحلة الأمر بقتال من قاتل المسلمين، والكف عن غيرهم، وقد جاء في هذه المرحلة نصوص كثيرة، وهي أطول المراحل في العهد المدني، ومما جاء فيها قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[النساء: ٩٠].

المرحلة الرابعة: مرحلة الأمر بجهاد الكفار، ونشر الدعوة الإسلامية، وفرض حكم الشريعة، وكان تشريع هذه المرحلة في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاء فيها نصوص كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩].

وغيرها وسبق الحديث هذه المراحل.

الشبهة الرابعة:

العقوبة على الردة:

تعدّ عقوبة الردة في الإسلام -مع قضية الجهاد- من أكثر الموضوعات الاعتراضية التي يلوّح بها المخالفون للإسلام والساعون إلى نقده، فتراهم في كل حين وفي كل مناسبة يظهرونها على أنها تمثّل نقصًا وخللًا في بنية الإسلام وأحكامه، وأنها مؤشر ودليل على محاربة الإسلام للحرية الدينية في نظرهم.

والمراد بالردة: الخروج من الإسلام، وترك التدين به، سواء كان بالقول أو الفعل أو الاعتقاد.

والإسلام يحرّم هذا الخروج، ويعدّه جريمة من أكبر الجرائم وأفظعها، ويرتّب عليها عقوبة قاسية، هي عقوبة القتل والإعدام بعد الإصرار على ترك التدين به.

وفي بداية الحديث عن عقوبة الردة في

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٣٥٨، رقم ١٨٦٥، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب من سورة الحج، ٥/ ١٧٧، رقم ٣١٧١، والنسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، ٦/ ٢، رقم ٣٠٨٥.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ٧/ ١٠٣، رقم ٤٦٩٠.

الإسلام لابد من التأكيد على أن البحث فيها يكون على ثلاثة مستويات:

أما المستوى الأول: فهو العلة الموجبة للعقوبة، وهي -كما سيأتي الكشف عنه- الخروج من الإسلام، والكفر به، فمجرد أن يخرج الشخص من دائرة الإسلام، ويترك التدين به، فقد قامت به العلة التي توجب إلحاق العقوبة به.

وأما المستوى الثاني: فهو شروط إنزال العقوبة بالشخص المرتد، وفي هذا المستوى يشدّد الإسلام كثيرًا، ويحتاط غاية الاحتياط في إنزال عقوبة الارتداد بالمعيّن، وقد دلت النصوص الشرعية على أنه لا يجوز إنزال العقوبة بالمرتد مباشرة، وإنما لابد من توفر شروط ثلاثة أساسية، هي:

الشرط الأول: أن يظهر الارتداد من الشخص، ويعلنه للآخرين، وأن يثبت ذلك لدى القاضي الشرعي، أما إذا لم يظهره للآخرين، ولم يقم بإعلانه لهم، ولم يثبت لدى القاضي أنه ارتد عن الدين، فإنه لا يجوز إقامة الحد عليه، ويعامل معاملة المسلمين في الظاهر، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع المنافقين، فإنهم كانوا يقولون الكفر ويفعلونه، وسمع منهم بعض الصحابة كفرهم، ولكنهم لم يكونوا يظهرونه في المجتمع، وينكرونه أمام النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يقم عليهم الحد، وحين أبلغ بعض الصحابة كفرهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام لم يأخذهم بمجرد ذلك؛ وإنما تحقق من الأمر، فأنكروا ما نسب إليهم.

ولا يجوز أيضًا التجسس على الأشخاص لمعرفة إذا وقعوا في الردة أو لا ما داموا لم يظهروها، ولا يباح القيام بحملات تفتيشية عنهم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك مع المنافقين، مع علمه بوجودهم، وقد روي أن ابن مسعود رضي الله عنه قيل له: هذا فلان يعني الوليد بن عقبة، تقطر لحيته خمرًا -يقصد المتكلم المبالغة في وصف كثرة شربه للخمر- فلو بحثنا عن ذلك الآن وجدناه كذلك، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به»[1].

ثم إن الحكم بثبوت الارتداد في حق شخص ما ليس متروكًا لكل أحد، وإنما هو راجع للعلماء والخبراء، وهو حكم قضائي لابد فيه من التأكد من كل الإثباتات الموجبة لثبوت وصف الارتداد في الشخص.

الشرط الثاني: أن يتم التحقق من انتفاء كل الإكراهات والضغوطات والأعراض

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب النهي عن التجسس، ٤/ ٢٧٢، رقم ٤٨٩٠. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٤/ ٢٧٣.

النفسية والعقلية التي تؤثر على قرارات الشخص السوية، فلا يصح إقامة حد الردة على الشخص؛ حتى يتم التحقق من توفر جميع الشروط، وانتفاء جميع الموانع التي توصل إلى اليقين في ثبوت الكفر والردة في حقه.

الشرط الثالث: أن يراجع الشخص المعلن لردته ويناقش في موقفه الذي اتخذه؛ وذلك عن طريق ما يعرف عند الفقهاء بـ(الاستتابة) والمراد بها: أن يقوم المختصون بمراجعة من وقعت منه الردة، ومناقشته ومحاورته بالطريقة الصحيحة.

والصحيح أن الاستتابة واجبة، وأنه لا يجوز قتل المرتد قبل استتابته، وهو قول جمهور العلماء[1]، وقد أجمع الصحابة على الأخذ بها[2].

الاعتراضات العقلية على عقوبة الردة في نظر المنكرين لها:

أخذ بعض المنكرين لحد الردة يورد اعتراضات عدة، أهمها:

أن العقوبة على الردة، والمنع من إبداء الآراء مهما كانت مخالفتها لنصوص الشريعة ولقطعياتها سيؤدي ذلك إلى ظهور النفاق والمراوغة خوفًا من العقوبة، والنفاق أمر مذموم وقبيح في الدين، بل هو أقبح من الكفر، ومن ثمّ فإن الأوفق للدين -في نظرهم- هو ألا يتعرض لأحد في رأيه، سواء تبنى الإسلام أو دينًا آخر، وسواء وافق قطعيات الدين أو خالفها؛ حتى لا يقع النفاق في المجتمع؛ فوجود الكفر الظاهر أخف من وجود النفاق.

وهذا النوع من الاستدلال لقي انتشارًا كبيرًا، وأمسينا نسمع به في كثير من الحوارات واللقاءات، ولكننا عند التأمل في مضمونه نجده مشتملًا على أخطاء منهجية واستدلالية عدة، تجعله لا يصلح دليلًا لبناء ما بني عليه من رؤى ومواقف[3]، وبيان ذلك بالأمور الآتية:

الأمر الأول: أن وجود النفاق في مجتمع ما ليس دليلًا على فساد ذلك المجتمع، ولا على فساد أخلاقه ولا نظامه، فلا يشك مسلم في أن أكمل المجتمعات وأعلاها أخلاقًا، وأكثرها التزامًا بتعاليم الإسلام هو المجتمع النبوي، ومع هذا فقد وجد فيه النفاق والمنافقون، وهذا لا يعني أن الإسلام يقصد ويرحّب بوجود ذلك، أو أنه يحثّ عليه، وإنما هو نتيجة طبيعية لقوة نظام الإسلام، ولشدة تمسك المجتمع بشعائر الدين.

وقد تتالت تأكيدات العلماء على أن سبب وجود النفاق في المجتمع النبوي

(١) انظر: المغني، ابن قدامة ١٢/ ٢٦٦.
(٢) انظر: محاكم التفتيش، داغي تستاس ص٤٩، محاكم التفتيش، رمسيس عوض ص٩٥.
(٣) فضاءات الحرية ـ العميري ص٤٠٢.

في المدينة راجع إلى خشية المنافقين من العقوبة، سواء كان من النبي صلى الله عليه وسلم، أو من المجتمع الذي تربى على يديه عليه الصلاة والسلام، وفي بيان هذا يقول ابن جرير الطبري عن المنافقين: «وطابقهم سرًّا على معاداة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وبغيهم الغوائل، قومٌ من أراهط الأنصار الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه، وكانوا قد عسوا في شركهم وجاهليتهم...، وظاهروهم على ذلك في خفاءٍ غير جهار، حذار القتل على أنفسهم، والسّباء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وركونًا إلى اليهود لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام، فكانوا إذا لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان به من أصحابه قالوا لهم -حذارًا على أنفسهم-: إنا مؤمنون بالله وبرسوله وبالبعث، وأعطوهم بألسنتهم كلمة الحقّ، ليدرأوا عن أنفسهم حكم الله فيمن اعتقد ما هم عليه مقيمون من الشرك، لو أظهروا بألسنتهم ما هم معتقدوه من شركهم»[1].

وينقل ابن تيمية عن الإمام أحمد وغيره تفسيرهم لكون النفاق لم يظهر في مكة، فقال: «قال أحمد وغيره: لم يكن من المهاجرين منافق، وإنما كان النفاق في قبائل الأنصار؛ فإن مكة كانت للكفار مستولين عليها، فلا يؤمن ويهاجر إلا من هو مؤمن، ليس هناك داعٍ يدعو إلى النفاق، والمدينة آمن بها أهل الشوكة، فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار، فمن لم يظهر الإيمان آذوه، فاحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان مع أن قلوبهم لم تؤمن»[2].

فوجود النفاق إذن نتيجة طبيعية لظهور أحكام الإسلام، وقوة تمسك المجتمع به، ولتأكيد الإلزام بتعاليمه وشرائعه.

وقد حاول بعض المعاصرين أن يفسّر وجود النفاق في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه لم يكن نتيجة الخوف من العقوبة الشرعية، وإنما نتيجة الخوف من المجتمع.

ولكن هذا التفسير لا ينفعه؛ لأن ذلك المجتمع هو أشرف وأكمل وأنبل مجتمع عرف في تاريخ البشرية، وكان يعيش فيه الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام، فوجود النفاق فيه خشية العقوبة مع إقرار النبي صلى الله عليه وسلم له دليل على أنه ليس نقصًا في حد ذاته.

الأمر الثاني: أن الإسلام في تشريعه للحدود والتعزيرات لم يراع رضا كل الناس بتلك الأفعال التي تترتب عليها العقوبة، وإنما جعل الحدود متعلقة بمجرد

(١) تفسير ابن جرير الطبري ١/ ١٥٠.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٠١.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٧٦.

الفعل، فقال سبحانه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[المائدة: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[النور: ٢].

وترتب على هذه العقوبة أن عددًا من الراغبين في السرقة والزنى يتخفى بأفعاله الشنيعة، وينافق المجتمع في حاله، فهل هذا يعني أن تلك التشريعات باطلة؛ لأنها أدت إلى حصول النفاق من بعض أفراد المجتمع؟!

الأمر الثالث: أنه لا يخلو نظام في العالم من مبدأ الإلزام، ولا من المعاقبة على المخالفة له، ومن المعلوم أنه ليس كل أفراد المجتمع سيكون راضيًا بما تضمنه النظام؛ ومع ذلك فبعضهم يلتزم به ولا يظهر في العلن مخالفته له، فهل يصح لنا أن نأخذ من هذا فساد فكرة النظام؛ لأنها أدّت إلى حدوث النفاق في المجتمع؟!

ومن يقول: يجب ألا نلزم الناس بشيء من أحكام الشريعة إلا من خلال القانون، ولا نعاقب أحدًا على مخالفته لتعاليم الدين إلا من خلاله هو في الحقيقة يدعو أيضًا إلى النفاق؛ لأن فكرة القانون قائمة على الإلزام، وكثير من أفراد المجتمع لم يرض بفكرة التصويت ولا الانتخاب ولا بالعملية الديمقراطية، فكيف يلزم بها؟! أليس في هذا دعوة إلى النفاق؟!

الأمر الرابع: أن العادة في المجتمعات المتمسكة بتعاليم دينها بشكل جيد أن تكون أعداد المخالفين لأحكام الشريعة فيها قليلة جدًّا، ويمثّلون دائمًا نسبة ضئيلة، وتزداد النسبة قلة في حالة الارتداد والخروج من الدين، فمنع هؤلاء ومعاقبتهم -وهم العدد الأقل- لأجل مصلحة العدد الأكبر والأكثر هو الأولى بالتقديم من جهة العقل ومن جهة الشرع، فحتى لو نافق أولئك العدد القليل من أجل خوفهم من العقوبة، فوقوعهم في النفاق أقل ضررًا في إعلانهم الكفر والردة والفساد في المجتمع المسلم المتمسك بتعاليم دينه.

ثم إن عدم الوقوف ضد الكفر الظاهر سيؤدي إلى انتشار الكفر في المجتمع، والتباس الرؤية على من كان ضعيف التصور من المسلمين، وأما تشريع المنع من انتشاره فإنه وإن كان يؤدي إلى وجود المنافقين، فإن أعدادهم ستكون قليلة، ووجود نفاق قليل أخف بكثير من انتشار الفكر الظاهر في المجتمع المسلم.

ولعل من المستغرب من خلال طرح البعض لهذا الاعتراض أنه يصوّر لك بأن هناك أعدادًا كبيرة في المجتمع المسلم تريد الردة والخروج من الدين، ولكنها امتنعت خوفًا من العقوبة، وأن هذا تسبّب في

إحداث النفاق بصورة كبيرة! ولكن الحقيقة أن هذا مجرد تهويل لهذا الاعتراض؛ فإن من يرغب في الخروج من الدين عدد قليل جدًّا، وكلما ازداد المجتمع تمسكًا بالدين وظهرت معالمه قلّت نسبة تلك الفئة؛ فلماذا التهويل إذن؟![1].

(١) فضاءات الحرية، العميري ص٤٠٥.

مجالات الحرية

أولًا: مجال العقيدة:

لقد دعا الرسل جميعًا أقوامهم إلى عبادة الله دون إجبار، فسيدنا نوح عليه السلام أول أولي العزم من الرسل الذي لبث في قومه يدعوهم إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عامًا.

قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

استهزأ به قومه وعيّروه بأنه لم يتبعه إلا من هم ينظرون إليهم بازدراء وسخرية، وكذّبوا به؛ لأنه بشر مثلهم.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[هود: ٢٧].

خاطبهم عليه السلام بخطاب الداعية الذي يريد الخير.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي، والبينة: البرهان والشاهد بصحة دعواه، «وقيل: الرحمة والنبوة، وقيل:

الهداية، وقيل: النبوة والحكمة»[1].

ولا مانع من أن تكون كل هذه المعاني من البينة، فقد كان نبيًّا وجاءهم بالبرهان على ذلك، وبما يشهد له صحة دعواه، وبالرحمة التي ينالونها لو اتبعوه، وبالحكمة، ولكن هذا البرهان وهذه الرحمة.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ بضم العين وتشديد الميم على قراءة حمزة والكسائي وخلف وحفص، وبفتح العين وتخفيف الميم على قراءة الباقين، وهما بمعنى واحد «لأن العرب تقول: عمّى على الأمر بالتشديد، وعَمِيَ بالتخفيف بمعنى واحد»[2]، والتشديد يفيد المبالغة في الأمر، فإذا كانت الحجة واضحة ولكنكم لم تهتدوا ماذا نفعل بكم بعد ذلك؟ أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟ أي: أنكرهكم على قبولها، ونجبركم على الاهتداء بها «وهذا الاستفهام للإنكار، أي: لا نفعل ذلك؛ لأنه لا إكراه في الدين»[3].

وقد روى الطبري عن قتادة «أنه قال: أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكنه لم يستطع ذلك، ولم يملكه»[4].

فهذا الأمر من الأمور التي تتفق فيه الشرائع الدينية الإلهية، فلم يستطع الأنبياء السابقون إكراه أقوامهم لا بسبب قلة العدد أو العدة؛ إذ إن الله قادر على أن يمدهم بالملائكة حتى لا يبقوا على الأرض أحدًا غير مؤمن بهم...، ولكن دعاهم وألان لهم القول، وعاش سنوات عديدة يدعوهم، ولعل نوحًا هو أكثر من عانى؛ إذ دعا قومه ألف سنة إلا خمسين، وهم يزدادون عنادًا وكفرًا وتكذيبًا، فعاقبهم الله سبحانه وتعالى بعد ذلك بالعذاب في الدنيا، ولهم عذاب عظيم في الآخرة، وليس هذا إكراهًا في الدين؛ إذ إنه لو كان إكراهًا لعذّبهم منذ الوهلة الأولى، ولم يستمر نبيهم يدعوهم هذه الفترة الطويلة.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٧].

ففي هذه الآيات من لطف العبارة في النصح ما يكون نبراسًا للداعية؛ إذ إنه عليه السلام خاطب أباه بالأبوة الدالة على

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٤٢.
(٢) انظر: إعراب القراءات السبع وعللها، ابن خالويه ١/ ٣٧٩.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ١١.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٩.

توقيره، ثم أخرج الكلام مخرج السؤال، ولم يقل له: إنك جاهل، بل قال: إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك، ونسب الخوف إلى نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه؛ وهذا هو خطاب الأنبياء لأممهم في القرآن، إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه[1].

فهذه نماذج من دعوات الأنبياء السابقين عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم لا يريدون تنفير أقوامهم، ولا يخاطبونهم بالشدة والإكراه.

ولقد خلق الله الإنسان وجعل له القدرة على فعل الخير والشر، وجعل له عقلًا يميّز به بين الخير والشر، وحثّه على اختيار الخير، وحذّره من اختيار الشر.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف: ٢٩].

فهذه الآية تعطي الخيار للإنسان أن يختار الطريق الذي يميل إليه قلبه، وتترجم هذا الميل جوارحه، يعمل العمل الصالح الذي يسعد به، أو عمل السوء الذي يشقى به في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

وهذه السور كلها مكية، فهي تخاطب كفار قريش المعاندين المستكبرين، وتخاطب من يأتي بعدهم، ويسير على مناهجهم من المشركين، ولا يدل هذا على استحسان القرآن لما يختارونه، سواء أكان حقًّا أم باطلًا، ولكن فيه تحذير لمصيرهم إذا اختاروا السوء، فلا أحد يجبرهم على شيء، وفي هذه الآيات دليل على ذلك، فهي «تنفي مطلق الإكراه، وتكرّس تكريسًا أبديًّا للحرية التي قام عليها الإسلام»[2].

وقد عبّرت هذه الآية بهذا التخيير بعد ما بيّنت أن الحق هو «ما يكون من جهة الله، لا ما يقتضيه الهوى»[3]، أو هو القرآن[4].

وهو أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يرد على قومه، ويخاطبهم بهذا الأسلوب «أيها الناس الحق من ربكم، ليس إلي من ذلك شيء، ولست بطارد لهواكم من كان للحق متبعًا، وبالله وما أنزل علي مؤمنًا، فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا، فإنكم إن كفرتم فقد أعد لكم ربكم على كفركم نارًا أحاط بكم سرادقها، وإن أمنتم به، وعملتم بطاعته، فإن لكم ما وصف الله

(١) بدائع التفسير، ابن القيم ٣/ ١٤٢.

(٢) الحرية عند العرب، إبراهيم حداد ص٦٦.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٩٤.
(٤) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٤٥.

لأهل طاعته»[1].

حقًّا إنه تخيير وحرية، لا جبر ولا إكراه، حدد مصير المؤمن، ومصير الكافر، ثم وضع كل ذلك تحت مشيئة الإنسان، والتي لابد أن تتعلق مشيئته بمشيئة الله، فهو ليس له مشيئة منفصلة، وقد اقتضت مشيئة الله هذه الحرية بهذا الشرط والجزاء، من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ومع هذا فقد قدّم الإيمان؛ حثًّا للناس على اختياره، وأما في التحذير وبيان مصير الطرفين فقد قدّم مصير الكافر حتى يصاب بالخوف والقشعريرة، ويقر طالبًا بيان الطريق الثاني ومصيره، فلا يدعه عقله إلا اتباعه، والاستقامة على الحق الذي هو من عند الله؛ كي لا تحيط بهم سرادق النار، ولا يشوي وجوههم المهل.

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٨-١٩].

فالعاجلة هي الحياة الدنيا، بدليل قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ والذي يريدها سوف ينالها بلا شك، ولكن بالقدر الذي يريده الله سبحانه وتعالى، ولمن يريد سبحانه وتعالى منهم أن يعطيه، أو من يريد التعجيل له. ثم في الآخرة يندم على هذا الاختيار السيئ؛ إذ يلقى في جهنم مذمومًا مدحورًا، وأما الذي يريد الآخرة، ويعمل لتحقيق هذه الرغبة مع توفر الإيمان، فإن الله لا يضيع عمله.

وقد أيدت هذه المنهجية الكثير من الآيات، ومنها الآية الأربعون من سورة فصلت: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[فصلت: ٤٠].

يقال: بأنها نزلت في أبي جهل المشرك الطاغية كبير كفار قريش، وعمار بن ياسر الصحابي المستضعف في الجاهلية، أعزه الله بالإسلام «فعمار خير؛ لأنه يأتي آمنًا يوم القيامة، وأبو جهل شر؛ لأنه يلقى في النار»[2].

وهناك آيات تبيّن نعم الله سبحانه وتعالى على عباده، وما رزقهم به من الخير، سواء أكان خيرًا معنويًّا، وهو الرشد والهداية والدين الحنيف، أو خيرًا ماديًّا كتسخير الليل والنهار الذي جعلهما الله سبحانه وتعالى خلفة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

«يخلف هذا إذا ذهب هذا جاء هذا، أي: خلفه، أو يخالف أحدهما صاحبه»[3].

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٩٦.

(٢) لباب النقول، السيوطي ص٩٨.

(٣) غريب القرآن، السجستاني ص١٩١.

كل هذا خلقه الله سبحانه وتعالى للإنسان؛ لكي يتفكر فيه للوصول إلى معرفة الخالق سبحانه، والإيمان به.

«ومن هذه الآيات آيات تذكّر الناس بما أعدّ لهم يوم القيامة، وبهول الحشر والنشر، وأنه إذا ماتوا فلن يتركوا سدى، بل هناك جنة ونار، نعيم وجحيم، رضوان وسخط، وتذكّرهم كذلك بمصائر الأقوام التي سبقتهم، وما آلوا إليه، ثم تطلق لهم حرية العمل بعد أن توسع آفاقهم بالمعرفة، وتنير ضمائرهم الشخصية الكامنة في الاختيار المناسب، وتحقيق مشيئتهم ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[المدثر: ٥٥].

أي: هذا القرآن قد بلغ في العظمة إلى هذا الحد العظيم، فأي حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار سواء قبلوه أو لم يقبلوه، فلا تلتفت إليهم، ولا تشغل قلبك»[(١)].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾[الإنسان: ٣٩، والمزمل: ١٩].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[النبأ: ٣٩].

أي: مرجعًا.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «فمن شاء الله به خيرًا هداه حتى يتخذ إلى ربه مآبًا»[(٢)].

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾[التكوير: ٢٨].

التقدير: إن هو إلا ذكر لمن شاء منكم أن يستقيم، وفائدته إن الذين شاءوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم، ثم بيّن أن مشيئة الاستقامة متوقفة على مشيئة الله، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين[(٣)].

كل هذا واضح وضوحًا لا يشك فيه أحد يريد الحق، أن مشيئة الإنسان أطلق لها العنان في الاختيار، ثم هي التي تتحمل مسئولية هذا الاختيار بلا جبر ولا إكراه، بل هي حرية تامة، وهذا من عظيم رحمة الله، فعلى الإنسان أن يطلب الحق والنجاة؛ كي يوفّقه الله سبحانه وتعالى على الاختيار السليم، ويترك العناد، وطلب الشهوات؛ لئلا يخذله الله، إن الله على كل شيء قدير.

ولا إكراه في الدين، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٥٦].

فعموم الإكراه بشتى أنواعه منهي عنه في الإسلام «فالنفي في ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾ بمعنى: النهي»[(٤)].

واختلف في سبب نزول هذه الآية، فروى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٥٥.
(٢) المصدر السابق ٣١/ ٢٦.
(٣) المصدر السابق ٣١/ ٧١.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ص٣٢٤.

كانت المرأة تكون مقلاة[1]، فتجعل نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[2].

وقيل: «إنها نزلت في رجل من الأنصار يكنى أبا الحصين، وكان له ابنان، فقدم تجّار الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الرجوع من المدينة أتاهم ابنا أبي الحصين فدعوهما إلى النصرانية، فتنصّرا، وخرجا إلى الشام قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قدما المدينة في نفر من الأنصار يحملون الطعام، فأتاهما أبوهما فلزمهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا أن يسلما، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟! فأنزل الله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ فخلى سبيلهما»[3].

وأيًّا كان سبب النزول فالآية تفيد فائدة لا مرية فيها أن الدين الإسلامي لا يعتمد على الإكراه والجبر، وخصصنا الدين الإسلامي بذلك «لأن اللام في الدين للعهد، وهو الإسلام، أو أن اللام بدل من الإضافة، والمراد دين الله، كما قال بعض المفسرين»[4].

والإكراه هو الحمل على فعل مكروه «والعاقل لا يحتاج للإكراه على الدين، بل يختار تلقائيًّا الدين الحق»[5].

ورغم هذا فنرى الآيات الكريمة تخاطب أصحاب العقول، وتثير حفيظتهم لكي ينتبهوا إلى هذا الخطاب الإلهي وهذه الشريعة السمحاء، فيتبعون النبي الكريم.

وهناك سبب آخر يجعل القرآن يقر حرية الاعتقاد، ويجعله يأمر أتباعه بعدم إكراه الغير ألا وهو «أن الدين سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها سلسلة أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه ولا الإجبار»[6].

وكذلك فقد علّلت نهاية الآية هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ فقد ظهر الهدى والرشد، وظهر الضلال والكفر، والرشد هو «إصابة وجه الأمر ومحجة

(١) أي: لا يعيش لها ولد.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٩٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب الأسير يكره على الإسلام، ٣/ ٥٨، رقم ٢٦٨٢، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، قوله تعالى: (لا إكراه في الدين)، ١٠/ ٣٦، رقم ١٠٩٨٣.
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٣/ ٥٩.

(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٨٥-٨٧.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٦.

(٥) إعراب القرآن الكريم، محيي الدين الدرويش ١/ ٣٨٨.

(٦) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ٧/ ٣٤٣٢.

الطريق، والهدى إصابة الثاني، فهو أخص من الرشد»[1].

ولكن القرآن عبر بالأعم وهو الرشد؛ ليشمل الهدى وغيره، وهذا هو أسلوب القرآن الحكيم، وبلاغته العالية: ومن ثمّ دعت الآية المسلمين بالاستمساك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها «أي: لا انقطاع»[2]، ويكون الاستمساك بالعروة الوثقى هو الاستقامة على طريق الحق القويم.

وهو ما طبّقه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده، وهي «تمثّل قاعدة كبرى من قواعد الإسلام، وركنًا عظيمًا من أركان سياسته، فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه، ولا يسمح لأحد أن يكره أحدًا من أهله على الخروج منه»[3].

وقد اختلف المفسرون في حكم هذه الآية هل هو منسوخ أم باقٍ؟ أم مخصوص بأهل الكتاب؟ أم ناسخ لغيره؟ يجدر بنا أن نعرض هذه الآراء بشكل مختصر مع تأييد ما يرجّحه الدليل، ويطمئن إليه القلب:

قيل: إن هذه الآية نسخها أمر الحرب، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقيل: نزلت بسبب أهل الكتاب في أن لا يكرهوا بعد أن يؤدّوا الجزية، أما مشركو العرب فلا يقبل منهم جزية، وليس في أمرهم إلا القتل أو الإسلام، وهو الذي رجحه النحاس[4]، والطبري[5].

وقيل: معنى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ «أي: لا تقولوا فيه لمن دخل بعد حرب أنه دخل مكرهًا؛ لأنه إذا رضي بعد الحرب وصح إسلامه فليس بمكره»[6].

وقال الرازي: «إن أمر الدين لم يبن على الإجبار والقسر، وإنما بني على التمكين والاختيار»[7].

ويقول ابن عاشور: «وعلى هذا تكون الآية ناسخة لما تقدم من آيات القتال، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

على أن الآيات النازلة قبلها أو بعدها أنواع ثلاثة:

أحدها: آيات أمرت بقتال الدفاع، كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقوله: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ٣٥.
(٢) عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ص٤٢٧.
(٣) المنار، محمد رشيد ٣/ ٣٩.
(٤) الناسخ والمنسوخ، النحاس ص٢٥٨.
(٥) المصدر السابق ص٢٥٩.
(٦) معاني القرآن وإعرابها، الزجاج ص٣٢٨.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٧.

وهذا قتال ليس للإكراه على الإسلام، بل هو لدفع غائلة المشركين.

النوع الثاني: آيات أمرت بقتال المشركين والكفار، ولم تغيّ بغاية، فيجوز أن يكون إطلاقها مقيدًا بغاية آية: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾[التوبة: ٢٩].

فلا تعارضه آيتنا هذه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

النوع الثالث: ما غُيِّيَ بغاية، كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فيتعين أن يكون منسوخًا بهذه الآية وآية: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ كما نسخ حديث: (أمرت أن أقاتل الناس)[١] هذا ما يظهر لنا في معنى الآية، والله أعلم»[٢].

والقول الثاني هو الذي يؤيده فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد أخذ الجزية من اليهود، وألزم المشركين الإسلام أو القتال، وليس إلزام المشركين الإسلام أو القتال بسبب الإكراه؛ لأننا بيّنا أن من ضوابط الحرية عدم التعارض مع الفطرة، والشرك معارض للفطرة بدون أدنى شك، وكذلك لم يقبل منهم إلا الإسلام بسبب معاندتهم وحربهم للإسلام والمسلمين، ومحاولتهم تدمير دولة المسلمين، فدمّر الله دولتهم، وأزال ملكهم، وكذلك من أسباب قتال المشركين هو شرط توفر المستوى الحضاري للإنسان الذي يميز بين الإسلام والشرك، وهو غير متوفر في مشركي العرب، وأما القول بأن هذه الآية منسوخة فهو لا يؤيده فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك لا يمكننا أن نبطل حكم آية بمجرد أننا لم نستطع تأويلها، فإن الآية التي يمكن حملها على غير النسخ فهو أجدر بها؛ إذ إبقاء الآية على حكمها أفضل من تعطيلها، وكذلك عدم الإكراه هو قاعدة كبيرة تحلى بها الإسلام، وهذه الآية من أوضح الآيات التي تدل على هذه القاعدة.

أما القول الثالث فهو ينبني على تكلف وتفسير بعيد لا يؤيده سبب نزول هذه الآية، وإن كنا لا نقول بخصوص السبب مع عموم اللفظ[٣].

وأما القول الرابع فهو قول فلسفي في حقيقته، صحيح لا شك فيه، ولكن هذه الآية عملية وليست مجرد اعتقاد، وأما القول الخامس: فهو الذي ذهب إليه ابن عاشور،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)، ١/ ١٤، رقم ٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ١/ ٥٣، رقم ٢٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٦.

(٣) هي قاعدة أصولية قالها الكثير من علماء الأصول، وبعضهم رأى عكس ذلك، وقال: العبرة بخصوص السبب وإن كان اللفظ عامًّا. انظر: الموافقات، الشاطبي ٣/ ٢٥٠.

ويردّ عليه بأن سبب الآية يذكر بأنها نزلت بعد غزوة بني النضير، كما تقدم، وقوله هذا يدل على أنها تأخر نزولها حتى فتحت شبه الجزيرة العربية، ودخل العرب في الإسلام، ثم جاءت هذه القاعدة، وهذا لا دليل له.

وذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

«أي: أنه لن يؤمن بك، ويقر برسالتك إلا من شاء الله، وإنك لن تستطيع أن تكره أحدًا على اتباعك، ولو حاولت بكل سبيل»[(١)]؛ لأن حكمة الله سبحانه وتعالى اقتضت خلق هذا الكائن البشري مستعدًّا للخير والشر، ومنحته القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذلك «فالإيمان إذن متروك للاختبار، لا يكره الرسول صلى الله عليه وسلم أحدًا»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

هذه الآية تحاور المشركين الذين يدّعون بأنهم مجبورون على الكفر والشرك، ويقولون: إن الله لا يريد إيماننا وإلا لآمنا، فهم ادعوا القسر والإكراه، ولكن الله تعالى يرد شبهتهم هذه، ويقول لهم: إنه لا جبر ولا إكراه، والدليل على ذلك «أن الله عاقب المشركين السابقين لسوء فعلهم، ولو أن أعمالهم السيئة كانت بمشيئة الله لما عاقبهم عليها، وأن الاعتذار بالمشيئة نوع من الكذب على الله، ثم بعد ذلك طالب الله المشركين بدليل على زعمهم: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ولو شاء الله أن يجبر الناس لأجبرهم على الهدى، ولن يجبرهم على الكفر؛ لأن الله لا يحب الكفر لعباده، ولكن الناس لهم الحرية في سلوك طريق معين»[(٣)].

وقد أرسل الله سبحانه الرسل، وأيدهم بالدليل والحجة، وحذّر وأنذر، وبشّر المؤمنين، كل ذلك لكي يختار الناس الخير والإيمان، ولو شاء أن يجبرهم على الهدى لما عجز عن ذلك، ولكن حكمة الله اقتضت أن يعطي الناس الحرية في الاختيار.

الفرع الثاني: المفارقة القرآنية في الدين:

قد أمر الله رسوله بأن يدعو الناس إلى عبادة الله، وهذه الآيات القرآنية الكثيرة التي تحث على ذلك، والمبيّنة لهم الهدى والضلال، والمبشرة المهتدين بالثواب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٢٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٨٢١.
(٣) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة ص١٥٨.

الجزيل في الدنيا والآخرة، والمنذرة الضالين المضلين بالويل والثبور، والعذاب الأليم يوم القيامة، وبعد ذلك أتت آيات المفارقة، فهذا هو الحق فإن اتبعتموه رشدتم، وإن توليتم فلي ديني، ولكم دين، أنا بريء منكم، وأنتم بريئون مني.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

هذه السورة مكية[١]، «نزلت في أفراد متعنتين من كفار قريش، أرادوا مساومة النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالوا له: يا محمد اتبع ديننا، ونتبع دينك، نعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة، فإن كان الذي جئت به خيرًا مما بأيدينا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرًا ما في يدك قد شركت في أمرنا، وأخذت بحظك، فقال: (معاذ الله أن أشرك به غيره) فأنزل الله هذه السورة، فغدا رسول الله إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا عند ذلك[٢].

ولا يهمنا من هؤلاء النفر؟ هل الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف؟[٣] أو معهم كذلك أبي بن خلف، وأبو جهل، وابنا الحجاج الذين قتلوا في بدر إلا أن ما يهمنا في هذه السورة هذه المفاصلة في العقيدة، وشدة التمسك بالحق، فهو ليس تجارة دنيوية تتأثر بقضية العرض والطلب إذا دفعوا أكثر فيوافق وإلا فلا، وليس الدين يؤخذ بالهوى، يطاع عامًا، ويرفض عامًا، بل من أراد الدين فليأخذه كاملًا في كل وقت، وإن رفض فإن الله غني عن العالمين «وهذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل الذي يستحيل معه اللقاء؛ لأن الاختلاف في جوهر الاعتقاد، وأصل التصور، وحقيقة المنهج، فالتوحيد منهج، والشرك منهج آخر، وهذه المفاصلة ضرورية للداعية، وضرورية للمدعوين»[٤].

ونظرًا لأهمية هذه السورة فقد ذكر بعض العلماء «أنها تعدل ثلث القرآن، وقيل: ربعه»[٥]، وكذلك تعددت أوصاف هذه السورة، فوصفت بأنها سورة المنابذة،

(١) روي عن قتادة أنها مدنية، ولكن سبب النزول يؤيد ما ذكرنا، بأنها مكية.
انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٥٥٨.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٣٧٨.

(٣) ذكر القرطبي أنه الأسود بن عبد المطلب، والظاهر أنه خطأ، فالمشهور أن الذي عاند الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسود بن المطلب، ولا يوجد الأسود بن عبد المطلب، وهذا الذي ذكره الطبري.
انظر: جامع البيان ١٥/ ٤٣٠.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٣٩٩٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٥٦.

ووصفت بسورة الإخلاص[1] وإذا نظرنا إلى تركيبة هذه السورة اللغوية نجد أنها تعبّر تعبيرًا لا يجعل مطلق الشك لأحد بمدى حزم القرآن في أن يفاصل المشركين، فقد كرر نفي أن يعبد ما يعبدون مرتين، ونفى أن يعبدوا ما يعبد مرتين، ثم ختم السورة بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون: ٦].

إمعانًا في هذا المعنى، وقطعًا لكل من تسوّل له نفسه أن يساوم الرسول صلى الله عليه وسلم، أو أحد الدعاة في عقيدته؛ لذا ذكر في سبب النزول بعد أن أورد السبب «فأيسوا عند ذلك»[2] وقد تعددت آراء المفسرين في فوائد هذا التكرار، ولا بأس أن نذكر هذه الآراء مختصرة:

قال الطبري: «لا أعبد ما تعبدون من الآلهة والأوثان الآن، ولا أنتم عابدون ما أعبد الآن، ولا أنا عابد فيما استقبل ما عبدتم فيما مضى، ولا أنتم عابدون فيما تستقبلون أبدًا ما أعبد أنا الآن وفيما أستقبل»[3].

وقال أبو حيان ناقلًا عن الزمخشري ومؤيدًا ذلك: «أن الأول للمستقبل، والثانية للماضي»، ثم علق أبو حيان بقوله: «وهذا أبلغ؛ لأن (لا) في الغالب تنفي المستقبل على سبيل المقابلة، والثانية نفيًا للحال؛ لأن اسم الفاعل العامل الحقيقة فيه دلالته على الحال»[4] وهذا أبلغ لقطع أطماع الكافرين أن تنفي في المستقبل، ثم في الوقت الحاضر.

وقيل: «للتأكيد، وفائدة التوكيد قطع أطماع الكافرين»[5].

وقيل: «لمقابلة قولهم إذ قالوا: تعبد آلهتنا، ونعبد إلهك...، فنفى كلا القولين»[6].

وعلى العموم فإن الآيات نفي قاطع بقبول ترك الدين الحق، واتباع الأوثان، وتعليم للدعاة؛ لئلا يرضوا بالمساومة في دين الله، وإن كان الأبلغ ما قاله أبو حيان، ونقله عن الزمخشري: بأن الأول للمستقبل، والثاني للماضي والحاضر؛ لأنه تؤيده الأدلة اللغوية؛ وللمبالغة في قطع أطماع الكافرين.

ولقد ختم هذه السورة بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون: ٦].

ولهذه فوائد عظيمة تؤيد المفاصلة، منها كما ذكره المفسرون:

- معنى التهديد: ومعناه: إن رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا.
- معنى الآية يقول: «إني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني، ولم تتبعوني فاتركوني،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٤٨ بتصرف.
(٢) أسباب النزول، الواحدي ص٣٧٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٣٠/ ٤٣٠.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٥٦٠.
(٥) المصدر السابق.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٥٦.

ولا تدعوني إلى الشرك»[1].

❁ لكم دينكم فكونوا عليه إن كان الهلاك خيرًا لكم، ولي ديني لأني لا أرفضه[2].

وهناك آراء أخرى تدور حول هذا المعنى.

ثانيًا: مجال الرأي:

تقرر فيما قبل أن الحرية في المفهوم الشرعي هي: التصرف عن محض إرادة واختيار، دون إكراه، وهذا يشمل القول والفعل.

وقد تعرضت كثير من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية لهذا النوع من النشاط الإنساني، أعني: (التعبير) أو (القول والكلام)، وجاء التوجيه القرآني الكريم بالتزام القول الحسن، وترك ما عداه مما لا فائدة منه، أو مما فيه مضرة في الدين، أو في العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم.

وقد حدّد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ضوابط الكلام وآدابه تحديدًا دقيقًا وواضحًا، نجمل شيئًا منه فيما يلي:

الأول: حسن اختيار الألفاظ.

ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

الثاني: مراعاة مضمون الكلام.

ومنه قوله سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي: مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف»[3].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي المسلمين أفضل؟ قال: (من سلم المسلمون من لسانه ويده)[4].

وفي الحديث الآخر: (من كان يؤمن بالله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٤٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٥٢١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أي الإسلام أفضل، ١/ ١١، رقم ١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، ١/ ٦٦، رقم ٤٢.

واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)[1].

الثالث: حسن اختيار التوقيت والتثبت من المعلومة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها، ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، وقد قال مسلم في مقدمة صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع)[2].

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (نهى عن قيل وقال)[3]، أي: الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبيّن.

وفي سنن أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بئس مطية الرجل زعموا)[4].

وفي الصحيح[5]: (من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين)»[6].

وقد حرّم الله ورسوله الكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور والسب والشتم والقذف في أدلة ظاهرة معلومة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

ويستفاد من هذه الأدلة وأمثالها أن ممارسة الإنسان للتعبير ليست مطلقة، وإنما هي مقيدة بضوابط ومعايير، كما اتضح في العرض السابق، بل إن مما توحي به تلك النصوص في دلالاتها أن الأصل هو القيد، كما في صدر الآية من قوله سبحانه: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

وكما في الحديث السابق: (فليقل خيرًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، ٨/ ١٠٠، رقم ٦٤٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ١/ ٦٨، رقم ٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١/ ٣١، رقم ٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال، ٨/ ١٠٠، رقم٦٤٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، ٣/ ١٣٤١، رقم ٥٩٣.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في قول الرجل زعموا، ٤/ ٢٩٤، رقم ٤٩٧٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٤٧، رقم ٢٨٤٦.

(٥) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، ١/ ٨، بلفظ: (من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين).

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٩.

أو ليصمت) ففي حال القول فهو مطالب بقول الخير، فإن لم يكن ذلك فهو مطالب حينئذٍ بالتزام الصمت والسكوت، وهو في كل حال خاضع لرقابة الله عز وجل له: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

ومن خلال ما سبق نخلص إلى القول: بأن حرية الكلام في الإسلام مقيدة وليست مطلقة، وقد يكون القيد فعلًا، أو تركًا، خاصة في حال ما إذا كان الأمر متعلقًا بحماية الدين والدفاع عنه، أو كان متعلقًا بمصلحة الأمة ومقوماتها العلمية والعملية، أو بالمجتمع في عقيدته وأخلاقه ومثله ومصالحه، أو كان متعلقًا بالغير وحقوقهم، ما دام الإنسان قادرًا مستطيعًا.

وما أحوج الإعلامي المسلم لتفهّم مثل هذه المعاني، وهو يتعامل مع المادة الإعلامية التي يقدّمها لجمهوره، وما أحوجه إليها وهو يوازن بين ما ينبغي أن يقال، ومتى يقال، وكيف يقال، وبين ما ينبغي أن يترك، ومتى يترك، وكيفية ذلك؛ حتى لا يضيع الحق العام، وتنتهك حرمات الله والناس بحجة المحافظة على الحقوق الشخصية، ولا يتعدى على حقوق الأفراد بدافع الأنانية والذاتية.

والناظر في واقع المسلمين اليوم يجد خللًا مدمّرًا في النظر إلى حجم حرية التعبير، والتعامل معها، ويجد تعسفًا في فهمها وتجنيًا باسمها على الثوابت والمسلمات، كما يجد خللًا أكبر في حجم وطبيعة القدر المتاح في الدفاع عن الحرية وأهله بحجة المحافظة على الحريات، ولا مخرج من ذلك إلا بالفهم الحقيقي لدين الله عز وجل، والعمل بمقتضى ذلك الفهم عن إيمان ورضا[(١)].

ثالثًا: مجال السلوك:

اختلف الباحثون في تصوير مفهوم الحرية الشخصية؛ وذلك نظرًا لتنوع المجالات التي يتعلق بها هذا النوع من الحرية، واختلاف الاختصاصات التي تهتم بها.

يقول عبد الوهاب خلاف في بيان مفهومها: «أن يكون الشخص قادرًا على التصرف في شئون نفسه، وفي كل ما يتعلق بذاته، آمنًا من الاعتداء عليه في نفس أو عرض أو مال أو مأوى، أو أي حق من حقوقه، على ألا يكون تصرفه عدوانًا على غيره»[(٢)].

والحريات الشخصية من أهم أنواع الحريات التي اهتمت بها المواثيق الدولية عن حقوق الإنسان، وكذلك الشريعة الإسلامية، وهي أساس الحريات ولبّها

(١) الحرية في القرآن الكريم، راشد الحارثي ص١٤٥.
(٢) السياسة الشرعية ص٤٠.

وقاعدتها التي ترتكز عليها، ويتوفر هذه الحرية للإنسان يتوفر لديه الإحساس بآدميته، والشعور بكرامته، وبدونها تفقد الحياة حيويتها ومضمونها الإنساني الكريم.

وقد قيّدت الشريعة الإسلامية الحرية الشخصية، ولم تجعلها مطلقة.

ففي حرية المأكل والمشرب منعت الشريعة من أصناف كثيرة؛ وذلك تحقيقًا لمصلحة الدين؛ كالنهي عن شرب الخمر، وإما تحقيقًا لمصلحة الجسد في صحته أو في طبعه، كالنهي عن أكل النجاسات والمستقذرات، وذوات السموم، وذوات الأنياب والمخالب[1].

وكذلك الحال في كل الأبواب والمجالات التي أتاحت فيها الشريعة الحرية الشخصية للإنسان، فإنها لم تجعل ذلك مطلقًا، وإنما قامت بتشريع تقييدات تساعد على استمتاع الإنسان بتلك المباحات على الوجه الأكمل، دون الإضرار بالآخرين.

والشريعة حين شرعت تلك القيود على الحرية لم يكن القصد منها التضييق على الإنسان، ولا إنزال المشقة به، ولا مجرد التحكم في حياته من غير مبرر، وإنما قصدت بها تحقيق المصلحة له ولغيره، وإزالة المفاسد أو تقليلها.

ومن يتأمل في كل التقييدات التي قامت بها الشريعة في مجال الحرية الشخصية يجد القاسم المشترك بينها هو الحرص على عدم وقوع الضرر الديني بالفرد والمجتمع، فإن من حكمة الشارع كما يقول ابن القيم: «رفع الضرر عن المكلفين ما أمكن، فإن لم يكن رفعه إلا بضرر أعظم منه أبقاه على حاله، وإن أمكن رفعه بالتزام ضرر دونه رفعه به»[2].

وهناك شواهد كثيرة في النصوص تدل على أن حرية التصرف تنتهي عند إلحاق الضرر بالآخرين.

فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الجلوس في الطرقات، وقال لأصحابه: **(إياكم والجلوس على الطرقات) فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: (فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها) قالوا: وما حق الطريق؟! قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر)**[3].

ونهى صلى الله عليه وسلم عن إلقاء الأذى في الطريق، فقال: **(اتقوا اللعانين)**

(١) انظر: أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية، عبد الله الطريقي ص١١٣-١١٦.

(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم ٢/ ١٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها، ٣/ ١٣٢، رقم ٢٤٦٥، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه، ٣/ ١٦٧٥، رقم ٢١٢١.

قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: (الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم)[1].

وأمر صلى الله عليه وسلم باجتناب كل ما يمكن أن يلحق الضرر بالآخرين، فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا مرَّ أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبل، فليمسك على نصالها بكفه أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء) أو قال: (ليقبض على نصالها)[2].

وهذا معنى عام، يشمل كل أذى، حسيًّا كان أو معنويًّا.

وفي مجال التملك والاتجار نهت الشريعة عن كل ما يؤدي إلى التضييق على الناس فيها، أو يحدث الخلل والاضطراب في الأسواق، ومن ذلك: نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الاحتكار، حيث قال: (لا يحتكر إلا خاطئ)[3].

وامتنع النبي صلى الله عليه وسلم عن التسعير حين طلب منه، وقال: (إن الله هو المسعِّر)[4]، ونهى صلى الله عليه وسلم عن تلقي الركبان، وعن أن يبيع حاضر لباد.

ومن حكم هذه التشريعات: إغلاق الأبواب والمنافذ في وجه أي أسلوب يؤدي إلى إلحاق الضرر بالناس في بيعهم وشرائهم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطرق والظلال، ١/ ٢٢٦، رقم ٢٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب أمر من مر بسلاح في مسجد أو سوق، ٤/ ٢٠١٩، رقم ٢٦١٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، ٣/ ١٢٢٨، رقم ١٦٠٥.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب أبواب الإجارة، باب في التسعير، ٣/ ٢٧٢، رقم ٣٤٥١، والترمذي في سننه، أبواب البيوع، باب ما جاء في التسعير، ٢/ ٥٩٦، رقم ١٣١٤، وابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب من كره أن يسعر، ٢/ ٧٤١، رقم ٢٢٠٠. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، ٢/ ٨٧٥، رقم ٢٨٩٤.

الأحكام الشرعية والحرية

هناك بعض الأحكام الشرعية يظن بعض الناس أنها تخالف مبدأ الحرية، وأن فيها اعتداء على حريات الناس.

وفي النقاط الآتية نتحدث عن أهم تلك الأحكام، ونبين المقاصد الشرعية منها.

أولًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلته بالحرية:

مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدأ عظيم في الدين.

كل فرد في المجتمع الإسلامي سواء أكان فردًا عاديًّا أم متقلدًا لمركز في السلطة، تقع على عاتقه مسئولية الالتزام بالتكاليف الشرعية أولًا، وحمل غيره بما أوتي من صلاحية على تنفيذ هذه التكاليف، فليس لأحد في الدولة أن ينفّذ ما عليه من حقوق وواجبات، ثم لا يهمه أمر الآخرين بعد ذلك، بل هو مسئول عن حمل غيره على مراعاة الحقوق والواجبات، وصيانتها من العبث والانتقاص.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[التوبة: ٧١].

وقال عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

«والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان)»[(١)(٢)].

وهذا المبدأ -الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- مبدأ عظيم جدًّا يؤدي إلى حماية الحقوق والحريات بشكل كبير، ويسهم في خضوع الدولة أفرادًا وسلطة للأحكام الشرعية، ويجعل كل فرد في المجتمع قوّامًا على تنفيذ القانون الإسلامي، ورعاية الحقوق والحريات، وقد نشأ لتطبيق هذا المبدأ ما سمي بنظام الحسبة في الإسلام[(٣)].

يقول الإمام الغزالي في ربع العادات من كتابه إحياء علوم الدين: «فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله...، فشت الضلالة،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١/ ٦٩، رقم ٤٩.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني ١/ ٣٠٦.
(٣) النظام السياسي الإسلامي، منير البياتي ص٣٣٩.

وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد...، فمن سعى في تلافي هذه الفترة، وسد هذه الثلمة، إمّا متكفلًا بعملها، أو متقلدًا لتنفيذها، مجددًا لهذه السنة الداثرة، ناهضًا بأعبائها، ومتشمرًا في إحيائها، كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدًا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها»[(١)].

ويقول الإمام الماوردي: «والحسبة من قواعد الأمور الدينية، وقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم؛ لعموم صلاحها، وجزيل ثوابها»[(٢)].

والحسبة عند الفقهاء: أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله[(٣)].

وهي إحدى الولايات العامة في الدولة الإسلامية، تولاها أئمة الصدر الأول، حيث كانوا يباشرونها بأنفسهم؛ لعموم صلاحها، وجزيل ثوابها، ثم لما توسع المجتمع أقاموا مؤسسة الحسبة، فتولاها أشخاص أكفاء، خبيرون بأحوال الناس، يمشون في الشوارع والأسواق، ويقتحمون أبواب المحالات العامة، ودواوين الحكومة، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، سواء تعلق الأمر بقيمة من قيم الإسلام منيعة، أو بمصلحة من مصالح الناس معطّلة، لا يتجسسون على الناس، مكتفين بالمنكرات الظاهرة أيًّا كان فاعلها[(٤)].

وقد أطلق الفقهاء على من يعيِّنه ولي الأمر للقيام بهذه الولاية اسم المحتسب، وأما من يقوم بها من دون تعيين من ولي الأمر فقد أطلقوا عليه اسم المتطوع، ثم راحوا يفرّقون بين المحتسب والمتطوع[(٥)].

وفي العصر الحديث توزعت مهام الحسبة على الجهات الحكومية المختلفة، فملاحظة الأسواق العامة والطرقات، وحماية المواطنين من الاعتداء على أنفسهم وأموالهم تقوم به الشرطة، ومراقبة النظافة والموازين تقوم به البلديات، ومراقبة الصيدلة والصحة والأغذية تقوم به وزارة الصحة، ومراقبة الأسعار والتلاعب بها ومنع الاحتكار تقوم به وزارة التموين أو الاقتصاد، وهكذا[(٦)].

ومما تقدم يتبين لنا أن ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واسع جدًّا، يشمل جميع تصرفات الإنسان، سواء ما يتعلق منها بحقوق الله، أو ما يتعلق بحقوق

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٣٠٦.
(٢) الأحكام السلطانية، الماوردي ص٣٢٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الحريات العامة في الدولة الإسلامية، راشد الغنوشي ص٣٠٣.
(٥) انظر: الأحكام السلطانية، الماوردي ص٢٩٩-٣٠٠.
(٦) المجتمع المتكامل في الإسلام، عبد العزيز الخياط ص١٧٦.

الآدميين، وقد أشار العلماء السابقون إلى هذه السعة، فهذا الإمام الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية يقول: «وإذا استقر ما وصفناه في موضوع الحسبة، ووضع الفرق بينهما وبين القضاء والمظالم، فهي تشتمل على فصلين: أحدهما: الأمر بالمعروف، والثاني: نهي عن المنكر، فأما الأمر بالمعروف فينقسم ثلاثة أقسام: أحدهما: ما يتعلق بحقوق الله تعالى، والثاني: ما يتعلق بحقوق الآدميين، والثالث: ما يكون مشتركًا بينهما»[(١)].

وفي موضع آخر يقول: «وأما النهي عن المنكر فينقسم ثلاثة أقسام: أحدها: ما كان من حقوق الله تعالى، والثاني: ما كان من حقوق الآدميين، والثالث: ما كان مشتركًا بين الحقين»[(٢)].

ثم راح الماوردي يذكر أمثلة على كل قسم من هذه الأقسام بما هو واقع في زمانه ومكانه.

وهذا الإمام أبو حامد يعقد في كتابه (الإحياء) بابًا خاصًّا للحديث عن أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وبابًا خاصًّا للحديث عن منكرات العادات المألوفة في زمانه، فذكر منكرات المساجد، والأسواق والشوارع، ومنكرات الضيافة، والمنكرات العامة[(٣)].

وهكذا نلاحظ أن العلماء السابقين بحديثهم عن منكرات زمانهم قد استوعبوا المكانة البارزة التي يحتلها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة الإسلامية، وأدركوا أن هذا المبدأ غير منحصر فقط في إطار المسلكيات الفردية للناس العاديين، وإنما هو عملية تصحيحية وردعية لكل ذي سلطة تحدّثه نفسه بظلم الناس، أو بهضم حقوقهم، كما أدركوا أهمية مسئولية الفرد والجماعة في هذا الميدان.

وهنا تكمن القيمة الحقيقية لهذا المبدأ باعتباره وسيلة شعبية لمقاومة كل الأفعال والتصرفات التي تتنافى مع القيم والتعاليم الإسلامية في كل زمان ومكان، وللدفاع عن كل الحقوق والحريات التي أقرها الإسلام، ليس فقط في جانبها السياسي، وإنما في كل جوانبها التي تمس كرامة الإنسان، فرغيف الخبز المعيب، والسلعة التموينية الفاسدة، والدواء المغشوش، والفحش في الأسعار، وإهدار مصالح الناس في ظل البيروقراطية الفاسدة، والمعاناة الشديدة لحصول الإنسان على مطالبه الضرورية، كلها أمور تجرح كرامة الإنسان، وتحطّ من قدره، بنفس القدر الذي يجرحها إنكار الحق في

(١) الأحكام السلطانية، الماوردي ص٣٠٣-٣٠٨.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٣٤٢.

(٣) انظر: المجتمع المتكامل في الإسلام، عبدالعزيز الخياط ص١٦٦-١٧١.

إبداء الرأي، أو الانتخاب أو الترشيح، أو في القبض والاحتجاز بدون تهمة، أو في المحاكمة غير العادلة، وكلها أمور يكون التصدي لها داخلًا في نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويظهر لنا من خلال ما تقدم أن الجهات التي تتولى مسئولية القيام به هي: الدولة، والجماعة، والأفراد[(١)].

فالدولة تقع عليها مسئولية إصلاح المجتمع، وحراسة الحقوق بكل أنواعها، ومدافعة الباطل في مختلف صوره وأشكاله، لما تمتلكه من قوة مادية ومعنوية تمكنها من ذلك، وصدق سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث قال: «يزع الناس السلطان أكثر مما يزعهم القرآن»[(٢)].

وقد تقررت مسئولية الدولة بعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وبقوله صلى الله عليه وسلم: (ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرّم الله عليه الجنة)[(٣)].

وجماعة المسلمين تقع على عاتقها مسئولية إعانة الدولة على القيام بواجباتها في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به، وذلك من خلال قيامها بمهام النصيحة لأفراد المسلمين وعامتهم، ومراقبة انحرافهم عن تطبيق أحكام الشرع، وزجرهم عن ذلك، وقيامها بالعمل على تثقيف أفراد المسلمين، ونشر الأفكار الإسلامية بينهم، والتي تعالج شئون الأمة الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وأما الأفراد فكل منهم تقع عليه مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب استطاعته، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان)[(٤)].

وإذا قامت هذه الجهات الثلاث بأمانة المسئولية الملقاة على عاتقها سارت الأمة في طريق الرقي، مصانة من عوامل الهدم والانحطاط الذي هو نتيجة حتمية للانحراف عن شرع الله ودينه الحق.

ثانيًا: العقوبات بالحدود والقصاص والتعزيرات وصلتها بالحرية:

لتشريع العقوبات في الشريعة الإسلامية

(١) جامع الأصول، ابن الأثير ٤/ ٨٤، رقم ٢٠٧١.
(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ٣/ ٩٨٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، ٩/ ٦٤، رقم ٧١٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، ١/ ١٢٥، رقم ١٤٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١/ ٦٩، رقم ٤٩.

عدة مقاصد، منها[1]:

- حماية مصلحة الجماعة، وإشاعة الأمن والطمأنينة بين أفراد المجتمع؛ حتى يأمن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.
- إثبات وجود الدولة، وتقوية شوكتها حتى يهاب كل فرد من أفرادها حدود الله فلا يتعداها.
- محاربة الدوافع إلى الجريمة بإثارة عوامل نفسية تصارع الدواعي إلى الجريمة فتصرعها. فإذا فكر الإنسان في قتل غيره ذكر أنه سيعاقب على فعله بالقتل، فكان ذلك ما يصرفه غالبًا عن الجريمة.

ومن الأمثلة على العقوبات الشرعية التي قصد بها منع وقوع الجريمة: عقوبة الردة عن الإسلام، ومن مقاصدها[2]:

- شرعت عقوبة الردة كإجراء وقائي؛ كيلا يتخذ الدين مهزلة وألعوبة يدخل فيه الإنسان متى شاء، ويخرج منه متى شاء، استخفافًا بالله ورسوله، وبالمجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه.
- الردة خروج عن الإسلام الذي هو النظام الاجتماعي للمجتمع الإسلامي، فالتساهل في هذه الجريمة يؤدي إلى القلق والاضطراب للمجتمع سواء في تفكيره أو في سلوكه.
- شدّد الإسلام في عقوبة الردة استئصالًا للمجرم من المجتمع، وحماية للنظام الاجتماعي من ناحية، ومنعًا للجريمة وزجرًا عنها من ناحية أخرى.
- إن عقوبة القتل أقدر العقوبات على صرف الناس عن الجريمة، ومهما كانت العوامل الدافعة إلى الجريمة فإن عقوبة القتل تولّد غالبًا في نفس الإنسان من العوامل الصارفة عن الجريمة ما يكبت العوامل الدافعة إليها، ويمنع من ارتكاب الجريمة في أغلب الأحوال.

ومن العقوبات الشرعية ما قصد منها حفظ العقل وصيانته، ومن ذلك عقوبة شرب الخمر.

قال ابن القيم: «إن الله تعالى حرّم الخمر لما فيها من المفاسد الكثيرة المترتبة على زوال العقل»[3].

فالإسلام في تحريمه للخمر يستهدف إيجاد شخصية قوية في جسمها ونفسها وعقلها، وما من شك أن الخمر تضعف الشخصية، وتذهب بمقوماتها؛ حيث تذهب العقول، وإذا ذهب عقل الإنسان تحوّل إلى حيوان شرير، وصدر عنه الشر والفساد، فالقتل والعدوان والفحش وإفشاء الأسرار

(١) انظر: التشريع الجنائي، عودة ص٦٥٦.
(٢) انظر: التشريع الجنائي، عودة ١/ ٦٦٢.
(٣) أعلام الموقعين ٣/ ١٣٩.

وخيانة الأوطان من آثاره[1].

ومن العقوبات التي نصت عليها الشريعة الإسلامية: التغريب[2]، ومن مقاصدها:

- إيلام المغرّب ببعده عن أعز الناس لديه، وحرمانه من مجالستهم، وإبعاده عن وطنه الذي ترعرع فيه، وهذا يؤدي إلى وحشته، وإحساسه بألم الفراق.
- زجره عن معاودة الجريمة لما حلّ به من العقوبة الرادعة.
- بقاؤه في بلد الخطيئة يعرضه للقدح فيه، والتشهير به، وهذا قد يعرّضه لأزمات نفسية مما يفقده توازنه، وينفّره من المجتمع، فكان تغريبه محافظة عليه، وإعادة توازنه، فيعود بعد التغريب إنسانًا صالحًا.
- إن في تغريب الزاني حماية للآخرين من أن يتأثروا به لو قام بينهم، فإبعاده تطهير للمجتمع، وقتل للرذيلة، وإحياء للفضيلة، فلا يجد أصحاب النفوس المريضة، والنزعات الشريرة ما يشجّعهم، ويدفع بهم إلى الانحراف والانسياق وراء الشهوات.
- إن في التغريب قطعًا للألسنة، وصونًا للأعراض، ودرءًا للشر، وإحقاقًا للحق.
- إن كثرة التحدث عن الجرائم، والتساهل في تطبيق حدود الله تعالى يكون سببًا قويًّا في جرّ الشباب إلى المعاصي، وبذا تفشو الرذائل، ويفسد المجتمع، وبتطبيق حدود الله يعيش المجتمع هانئًا آمنًا.

وهكذا نرى أن التغريب وإن كان عقوبة إلا أنه شرع لمصلحة الجاني أولًا، ولصالح المجتمع ثانيًا، وفي عصرنا الحاضر نرى أن كثيرًا من الزناة يهجرون موطن الجريمة مختارين؛ ليناوا بأنفسهم عن الذلة والمهانة التي تصيبهم في هذا المكان[3].

ومن العقوبات التي قصد منها زجر الناس عن الاعتداء على أموال الآخرين: عقوبة السرقة.

ولعقوبة السرقة مقاصد، منها:

- المحافظة على أموال الناس من الضياع، ومنعًا لأصحاب الأطماع من أخذ مال الغير بغير الحق، وزجرًا لكل معتدٍ أثيم تسوّل له نفسه أن يمدّ يده إلى ما ليس من حقه[4]. ولعل الحكمة من تقليل النصاب الذي تقطع به يد السارق في مقابل غلاء ديتها هي زجر الناس عن العدوان، وتقليل الجناية على

(١) حكمة تحريم الخمر في الإسلام ص٤٥.
(٢) انظر: عقوبة الزنا ص١١٥.
(٣) التشريع الجنائي، عودة ص٦٤٠.
(٤) انظر: عقوبة السارق ص١٠٨، أثر تطبيق الشريعة الإسلامية ص١٠٧.

الأموال[1]. يقول ابن عبدالسلام: «من أمثلة الأفعال المشتملة على المصالح والمفاسد مع رجحان مصالحها على مفاسدها قطع يد السارق، فإنه إفساد لها، ولكنه زاجر حافظ لجميع الأموال، فقدّمت مصلحة حفظ الأموال على مفسدة قطع يد السارق»[2].

- استتباب الأمن، وعدم ترويع الآمنين، فإن معاقبة السارق بالقطع ليس لأخذه المال فحسب، وإنما لترويعه الآمنين، ونشر الرعب بينهم، فحادثة سرقة واحدة تؤدّي إلى إفزاع سكان جميع الحي؛ إذ يترقب كل منهم أنه الهدف القادم للذين ارتكبوا تلك الحادثة، فيعيش الناس في اضطراب وقلق، وتحمّل ذلك ليس أمرًا سهلًا[3]، كما أن الذي يقوم بهذا الفعل الخطير لا يبالي في سبيل الوصول إلى غرضه بارتكاب أي جريمة يتوقف عليها الحصول على ما يريد، فهو ينقضّ على الدار، ويكسر القفل، ولا يتأخر عن قتل من يقف في سبيله والتمثيل به، فهو مهدّد للناس في حياتهم وأموالهم وأعراضهم، فإذا لم يضرب على يده من أولي الأمر، وإذا لم تشدّد عليه العقوبة كان شرّه عظيمًا، وخطره شديدًا، وكثيرة هي الحوادث التي قتل فيها السارقون أناسًا في سبيل الوصول إلى سرقة المال، واعتدوا على أعراض كثيرة[4].
- الحث على العمل الذي لا تصلح أحوال المجتمع بدونه، فمما لا شك فيه أن ذوي الجد والاجتهاد في العمل إذا ما نظروا إلى أموالهم التي حصلوا عليها بكسبهم الحلال محفوظة ومصانة من عبث العابثين، وطمع الطامعين، ولا تمتد إليها يد ذوي البطالة، والأغراض الدنيئة، وأنّهم وحدهم هم المنتفعون بها، واصلوا كفاحهم وكدّهم وجدّهم، وضاعفوا من إنتاجهم، ودأبوا على استثمارها وإنمائها. أما لو كانت يد الغير مطلقة في أموالهم دون مؤاخذة وعقاب؛ فإن ذلك يؤدي إلى وهن المجتمع لتقاعس أفراده، وانتشار بذور العداوة والبغضاء بينهم.
- استغلال ذكاء وقدرات السارقين في تنمية المجتمع، فإن الذكاء والحذق

(١) منهج الإسلام في مكافحة الجريمة، علي النمر ٢/ ٦٢٢.
(٢) قواعد الأحكام ص١١٦.
(٣) انظر: منهج الإسلام في مكافحة الجريمة، النمر ٢/ ٦٢٥، أحكام السرقة في الشريعة والقانون، أحمد الكبيسي ص٢١١.
(٤) انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ٥/ ٦٦٩، فقه السنة، سيد سابق ٢/ ٢٣٦.

الذي يستخدمه اللصوص في اقتناص فرائسهم، وانتهاب متطلباتهم، واختطاف أموال الغير خفية، إذا ما طبّقت العقوبة، وأقيمت على مرتكبي هذه الجرائم تحوّل هذا الذكاء والحذق إلى وسيلتي خير وسبيل صلاح وهداية، فاستخدما في تحصيل المال من موارد صافية، ومكاسب طيبة، واستغلّت في التجارة المربحة، وفي إنشاء المصانع والمزارع[1].

إن السارق حينما يفكر بالسرقة إنما يفكر في أن يزيد كسبه بكسب غيره، فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال، ويريد أن ينميه من طريق الحرام، وهو لا يكتفي بثمرة عمله، فيطمع في ثمرة عمل غيره، وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق، أو ليرتاح من عناء الكدّ والعمل، أو ليأمن على مستقبله، فالدافع الذي يدفع إلى السرقة يرجع إلى هذه الاعتبارات، وهو زيادة الكسب، أو زيادة الثراء، وقد حاربت الشريعة هذا الدافع في نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع؛ لأن قطع اليد أو الرجل يؤدّي إلى نقص.

وقد شرعت الشريعة الإسلامية القصاص في حق القاتل، حفاظًا على حياة الناس.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[البقرة: ١٧٩].

وفائدة القصاص لا تعود إلى أهل القتيل فقط، ولكنّها تعود إلى الجماعة كلها؛ ولذلك صدّر سبحانه وتعالى النص بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ﴾ فالقصاص فائدة عائدة عليكم، وليس انتقامًا تعود فائدته إلى المجني عليه وحده، بل إنّ فائدته تعمّ ولا تخصّ.

وحياة الجماعة ليست في حياة أفراد متنافرين متناحرين، يهدر القوي حق الضعيف، وتحلّ فيها الثارات محل القانون الرادع للعصاة، القاطع الحاسم للشر، إنما حياة الجماعة في الترابط بالمودة الواصلة، والرحمة العادلة، ولا يكون ذلك إلا بالقصاص الذي يسوّي بين الجريمة والعقوبة، وتكون فيه العقوبة من جنس الجريمة، ومماثلة لها تمام التماثل[2].

ويقول سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

«وقتل نفس واحدة بلا مبرر ولا موجب من قصاص أو دفع فساد عام كجريمة قتل الناس جميعًا، وحماية نفس واحدة في أي

(١) الجنايات وعقوباتها، محمد بلتاجي ص٢٥٠.

(٢) العقوبة، أبو زهرة ص٣٠٠.

صورة من الصور -ومنها القصاص- كأنها استحياء للناس جميعًا؛ ذلك أن الاعتداء على نفس واحدة هو اعتداء على حق الحياة الذي يصون للناس جميعًا حياتهم، فالاستهتار بهذا الحق اعتداء على كل من يدلي به ويتحصن، والمحافظة عليه محافظة على الحق الذي يصون للناس جميعًا حياتهم، فالاستهتار بهذا الحق اعتداء على كل من يدلي به ويتحصن، والمحافظة عليه محافظة على الحق الذي تصان به دماء الناس وأرواحهم»[1].

وقد شرعت الشريعة الإسلامية عقوبات تعزيرية، المقصد الأساس منها لا يخرج عن المقاصد العامة للعقوبة؛ من الردع والزجر، والإصلاح والتهذيب.

والمعاصي التي تستوجب التعزير منها ما يعتبر ارتكابًا لمحرّم، ومنها ما يكون تركًا لواجب، والمقصد من التعزير في المحرّمات هو الامتناع عن ارتكابها، وفي الواجب الكفّ عن تركه، بأن يعاقب التارك حتى يؤدي ما يجب عليه، فيجوز أن يعزّر مرة بعد مرة حتى يفعل ما يجب عليه، بالنسبة لغير الجاني فإنّه بتعزير الجاني يمتنع عن ارتكاب المحرّم، أو عن ترك الواجب عليه لعلمه أنّ العقاب في الحالتين ينتظره[2].

والشريعة الإسلامية وقد شرع فيها التعزير للزجر والإصلاح إنما قصدت بذلك إيجاد مجتمع صالح تسود فيه المحبة، وترفع عنه البغضاء، وأسباب الكراهة، ويعرف فيه كل مواطن ما له وما عليه، ويعرف فيه طريق الشر واضحًا فيجتنب، وطريق الخير واضحًا فيتبع، فلا يكون فيه مجال للجريمة، وهذا الغرض البعيد من أهم الأغراض التي يتوق إليها اليوم المصلحون والعلماء، وهو واضح في أقوال كثير من الفقهاء، فهم يقولون: إن التعزير محتاج إليه لدفع الفساد، وإخلاء العالم منه، وإزالة المنكر[3].

فعقوبة التعزير في الواقع أساس قوي لاستقرار النظام، ودليل واضح على صلاحية تطبيق أحكام الشرع في مختلف البيئات والأزمنة، والشريعة وإن تركت تحديد العقوبة في الجرائم التعزيرية إلى ولي الأمر فإنها قيّدته في ذلك بما يقتضيه حال الجماعة وتنظيمها، والدفاع عن مصالحها في حدود القواعد العامة للشريعة، ومع هذا فالمقصود بعدم التحديد تمكين ولي الأمر من أن يضع من العقوبات ما يتناسب مع حاجة العصر والبيئة، وأن يكون له حق العفو عن المجرم دون مساس بحق المعتدي عليه، كما أن سلطة القاضي واسعة عند التطبيق، فإنه يصح أن يقضي بأقصى العقوبة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٥٢.
(٢) انظر: التعزير في الشريعة الإسلامية ص٢٩٤، أثر تطبيق الشريعة ص١٦٠.
(٣) التعزير في الشريعة الإسلامية ص٢٩٨.

أو أدناها حسب الظروف المختلفة أو المشدّدة، ومن حق القاضي أن يعزّر المجرم على جرمه سواء تنازل صاحب الحق أم لم يتنازل، وسلطة القاضي من توقيع العقوبات لا يتوقف على دعوى يتقدم بها المجني عليه أو وليه، وإنما يكتفي أن يشعر القاضي بالجريمة عن طريق الدعوى العامة، وليس للمجني عليه أو وليه أن يمنع حكم التعزير أو يوقف تنفيذه؛ لأن الحق ليس خالصًا له، وإنما فيه حق الجماعة، والقاضي إنما يعزره نيابة عن المسلمين عامة[1].

موضوعات ذات صلة:

السياسة، العبادة، العنصرية

(١) انظر: الأحكام السلطانية ص٢٩٥، المدخل للفقه الإسلامي ص٧٤٨.

الحزن

عناصر الموضوع

مفهوم الحزن	١١٦
الحزن في الاستعمال القرآني	١١٨
الألفاظ ذات الصلة	١١٩
الحزن طبيعة إنسانية	١٢٢
أسباب الحزن	١٢٤
الحزن المنهي عنه	١٣٨
نفي الحزن عن المتقين يوم البعث	١٤٩
نفي الحزن عن أهل الجنة	١٥٢
علاج الحزن	١٥٥

مفهوم الحزن

أولًا: المعنى اللغوي:

الحاء والزّاء والنّون أصلٌ واحدٌ، وهو خشونة الشّيء وشدّةٌ فيه[١].

وللعرب في الحزن لغتان، إذا فتحوا ثقلوا، وإذا ضَمُّوا خفّفوا، يقال: أصابه حَزَنٌ شديدٌ، وحُزْنٌ شديد[٢].

والحَزَن والحُزْن: ضدّ الفرح وخلاف السّرور، والحزن يأتي بمعنى: الهمّ. والحزونة: الخشونة، والحزن: ما غلظ من الأرض[٣].

قال الرّاغب: «الحُزْن والحَزَن: خشونة في الأرض، وخشونة في النفس؛ لما يحصل فيه من الغمّ، ويضادّه الفرح، ولاعتبار الخشونة بالغم، قيل: خشّنت بصدره: إذا حزّنته، يقال: حَزِن يَحْزَن، وحَزَنْتُه وأَحْزَنْتُه[٤].

والحَزُون: الشاة السَّيِّئة الخُلُق. ورجلٌ حَزَنٌ، أي: غير سهل الخُلُق. وتَحَزَّن عليه: توجّع. ويقال: أحزنه: جعله حزينًا، وحَزَنَهُ: جعل فيه حُزْنًا. وهو يقرأ بالتّحزين: يرقّق صوته[٥].

ومن خلال ما سبق تبين أن الحزن يتمركز معناه اللغوي حول الهم والغم والخشونة والغلظة أو الشدة في الشيء، وهو ضد الفرح والسرور.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال السمعاني: «الحزن: ألم القلب بفراق المحبوب»[٦].

وقال الجرجاني: «الحزن: عبارة عمّا يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي»[٧].

وقال المناويّ: الحَزَن بالفتح: ما غلظ وخشن من الأرض. وبالضم: الغمُّ الحاصل لوقوع

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٥٤.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري، ٤/ ٢١١.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ٧٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١١٨٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٣١.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٤، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١١٨٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٤/ ٤١٦.
(٦) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٢.
(٧) التعريفات، الجرجاني ص ٨٦.

مكروه أو فوات محبوب في الماضي، ويضاده الفرح»[1].

وعرفه محمد رشيد رضا بقوله: «الحزن ألمٌ يلمّ بالنّفس عند فقد محبوبٍ أو امتناع مرغوبٍ، أو حدوث مكروهٍ»[2].

والمتدبر في المعنيين يجد اتصالًا بينهما، حيث إن المعنى الاصطلاحي يعني: الغم أو ألم القلب الحاصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب، أو امتناع مرغوب. وهذا مرتبط بمعنى الحزن في اللغة التي هي بمعنى الهم والغم من جهة، ومن جهة أخرى أن الخشونة والغلظة أو الشدة تحصل في النفس من الغمّ والهم. فالهم والغم سبب لخشونة النفس وغلظتها.

(١) التوقيف، المناوي، ص ١٣٩.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٣١٠.

الحزن في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ح ز ن) في القرآن (٤٢) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٣٧	﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]
المصدر	٢	﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ [يوسف:٨٤]
اسم	٣	﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤]

وجاء الحزن في الاستعمال القرآني بمعناه في اللغة وهو: خشونة في النفس لما يحصل فيه من الغمّ، ويضادّه الفرح[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٩٩-٢٠٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٣١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكآبة:

الكآبة لغة:

أصل مادة (ك ء ب) تدلّ على انكسارٍ وسوء حالٍ. من ذلك الكآبة. يقال: كَأَبَةٌ وكَآبَةٌ[١].

الكآبة اصطلاحًا:

«هي سوء الحال والانكسار من الحزن»[٢].

الصلة بين الحزن والكآبة:

«الكآبة أثر الحزن البادي على الوجه، ومن ثم يقال: عليه كآبة، ولا يقال علاه حزن أو كرب؛ لأن الحزن لا يرى ولكن دلالته على الوجه وتلك الدلالات تسمى كآبة، والشاهد قول النابغة:

إذا حلَّ بالأرض البرية أصبحت ... كئيبةَ وجه غَبُّها غير طائل

فجعل الكآبة في الوجه»[٣].

٢ الغم:

الغم لغة:

الغَمُّ والغُمَّة: الكرب. والغَمّ: ستر الشيء، ومنه: الغمام لكونه يستر ضوء الشمس. والغُمَّى مثله، ومنه: غُمَّ الهلال، ويوم غَمّ، وليلة غُمّة وغُمّى، وغمّه الأمر، أي: كَرَبَه. يقال: غَمٌّ وغُمّةٌ. أي: كَرْب وكُرْبة[٤].

الغم اصطلاحًا:

هو الكرب أو الحزن يحصل للقلب بسبب ما[٥].

الصلة بين الحزن والغم:

الغم: معنى ينقبض القلب معه، ويكون لوقوع ضرر، أو توقعه، وقد سمي الحزن الّذي

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٢.
(٢) الكليات، الكفوي ص ٧٧٣.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٤٣.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦١٣- ٦١٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٤١.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٦٣.

تطول مدّته حتّى يذيب البدن هَمًّا، واشتقاقه من قولك: انهَمَّ الشّحم إذا ذاب، وهَمَّهَ: أذابه[1].

٣ الأسف:

الأسف لغة:

أشدّ الحزن. وقد أسف على ما فاته وتأسّف، أي: تلهف. وأسف عليه أَسَفًا، أي: غَضِب. وآسَفَه: أَغْضَبه. والأَسِيفُ: السريع الحزن ، وقد يكون الأسيف: الغضبان مع الحزن[2].

الأسف اصطلاحًا:

هو الحزن والغضب معًا، وقد يقال لكل منهما منفردًا، فمتى كان على من دونه أو من فوقه انتشر فصار غضبًا، أو من قوته انتشر فصار حَزَنًا وجَزَعًا[3].

الصلة بين الحزن والأسف:

الحَزَن: هو الأسف على ما فات، والأسف: أشد الحزن[4].

٤ الحسرة:

الحسرة لغة:

أصل مادة (ح س ر) تدل على كشف الشّيء. والحَسْرَة: التّلهّف على الشّيء الفائت. ويقال: حَسِرْت عليه حَسَرًا وحَسْرَةً، وذلك انكشاف أمره في جزعه وقلّة صبره[5].

الحسرة اصطلاحًا:

هي الغم على ما فات والندم عليه، كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه[6].

وقيل: هي بلوغ النهاية في التلهف حتى يبقى القلب حسيرًا لا موضع فيه لزيادة التلهف، كالبصر الحسير لا قوة فيه للنظر[7].

الصلة بين الحزن والحسرة:

الحسرة غم يتجدّد لفوت فائدة[8]، والحسرة شدّة التّلهّف والحزن على شيء فات[9].

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص ٥٦٠.
(٢) الصحاح، الجوهري ٤/ ١٣٣٠.
(٣) التوقيف، المناوي ص ٥٠
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص ١١١، ٥٦٠.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٦١، مختار الصحاح، الرازي ص ٧٢.
(٦) التوقيف، المناوي ص ١٤٠.
(٧) التعريفات، الجرجاني ص ٨٧.
(٨) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٦٧.
(٩) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٤٩٣.

قال الجرجاني: «كل ما في القرآن من حسرة فهي الندامة، إلّا ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٦]، فإن معناه الحزن»[١].

٥ الهم:

الهم لغة:

ما هممت به في نفسك. تقول: أهمّني هذا الأمر. والهمّ: الحزن. والهمّة: ما هممت به من أمرٍ لتفعله. يقال: إنّه لعظيم الهمّة، وإنّه لصغير الهمّة. ويقال: أهمّني الشّيء، أي: أحزنني. وهمّني، أذابني. والمهمّات من الأمور: الشّدائد[٢].

الهم اصطلاحًا:

الهم الحزن الذي يذيب الإنسان. يقال: هممت الشحم فانهمّ، والهمّ: ما هممت به في نفسك، وهو الأصل[٣].

الصلة بين الحزن والهم:

الهم يغلظ النّفس، والحزن يقبضها، والحزن يفيد غلظ الهم[٤].

قال ابن القيم: «المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم»[٥].

٦ الفرح:

الفرح لغة:

يقال فرح يفرح فرحًا، فهو فرحٌ على خلاف الحزن[٦].

الفرح اصطلاحًا:

«انشراح الصّدر بلذّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللّذات البدنيّة الدّنيوية»[٧].

الصلة بين الحزن والفرح:

الحزن ضد الفرح، فهو يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب، أما الفرح فيحصل بنيل القلب مشتهاه.

(١) الكليات، الكفوي ص ٣٥٩.
(٢) العين، الفراهيدي ٣/ ٣٥٧.
(٣) المفردات، الراغب الأصبهاني ص ٨٤٥.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص ٩٦٠، الفروق اللغوية، العسكري ص ١٨٤.
(٥) الفوائد، ابن القيم ص ٢٦.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٩٩.
(٧) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٢٨.

الحزن طبيعة إنسانية

روى البيهقي عن ابن عبّاسٍ في قوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣].

قال: «ليس أحدٌ إلّا وهو يفرح ويحزن، ولكن إذا أصابته مصيبة جعلها صبرًا، فإن أصابه خيرٌ جعله شكرًا»(١).

فالحزن يعد أمرًا فطريًّا طبيعيًّا، يستجيب له الإنسان بشكل لا شعوري، فيحزن على ما فاته، أو أصابه من مصائب الدنيا؛ التي لا تخلو حياة الإنسان منها؛ كفقد الأحبة، أو جفوتهم، أو غير ذلك من المكروهات التي تصيب الإنسان.

فهذا نبي الله يعقوب عليه السلام يحزن على فقد ولده يوسف عليه السلام حزنًا شديدًا كاد يهلك من شدته.

يقول الله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف:٨٤-٨٦].

يقول السعدي: «أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى.

فقال له أولاده متعجبين من حاله: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك. ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: فانيًا لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدًا.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ أي: ما أبث من الكلام ﴿وَحُزْنِي﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم»(٢).

وهذه مريم بنت عمران عندما جاءها المخاض وهي وحيدة فريدة، رثت لحالها وحزنت على نفسها، وهذه نتيجة طبيعة تحصل للإنسان عندما يلاقي المتاعب

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٣٩٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٤.

والمصاعب، وتتوالى عليه الأحداث الأليمة، فإنه يحزن ويتألم، ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم:٢٣].

فإذا المنادي يناديها يسكن من روعها ويطمئنها ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:٢٤-٢٦].

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد انتابه ما ينتاب البشر من الحزن نتيجة ما كان يلاقيه من صدود قومه وإعراضهم عن دعوته، بل وتطاولهم عليه بأقوالهم وأفعالهم الشنيعة، فكان ينزل القرآن يسليه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦].

والمقصود من الخطاب تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وإدخال الطمأنينة على قلبه، حتى لا يتأثر بما يراه من كفر الكافرين، ونفاق المنافقين، وفسق الفاسقين[(١)].

وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣].

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٣٤٦.

وقد فقد عليه الصلاة والسلام الأحبة من الأقرباء والأصحاب فحزن لذلك وبكى لفقدهم، وقد قال عندما مات ولده إبراهيم: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)[(٢)].

يقول ابن عثيمين: «الحزن على الفائت من طبيعة الإنسان، ولا يؤاخذ الإنسان به، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حين مات ابنه إبراهيم: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون)، ولكن إن اقترن بالحزن شيء من المحرم؛ كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور صار من هذه الناحية حرامًا؛ لأنه اقترن بفعل محرم.

أما مجرد الحزن الذي لا يصحبه شيء فقد حصل من النبي صلى الله عليه وسلم ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (لا نقول إلا ما يرضي الرب) فلا نقول: يا ويلاه، واثبوراه»[(٣)].

ومن خلال ما سبق يتبين أن الحزن طبيعة إنسانية فطر الله الخلق عليها، وتحصل

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنا بك لمحزونون)، ٢/ ٨٣، رقم ١٣٠٣.

(٣) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ١٧/ ٤١٩.

للإنسان بغير اختياره فنجده يتأثر ويتألم قلبه على ما يحدث له. وهذه الجبلة مخلوقة كغيرها من الطبائع التي طبع عليها البشر، كالخوف، والغضب، والفرح والسرور.

أسباب الحزن

ذكر القرآن الكريم جملة من الأسباب التي تسبب الحزن، وفي النقاط الآتية سنتناول الآيات الدالة على ذلك مع ذكر أقوال المفسرين حول هذه الآيات:

أولًا: الإعراض عن الإيمان:

تقدم النهي عن الحزن على المعرضين، وقد تناولنا الآيات التي كانت تنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن بسبب إعراض الكافرين عن دعوته صلى الله عليه وسلم وكفرهم بما جاء به، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يصاب بالحزن عندما كان يجد الإعراض عن الإيمان من قومه، والكفر برسالته، وعدم الاستجابة له، والدخول في دينه، فكان القرآن يتنزل ليسليه عما يلقاه من أذى قومه، وينهاه عن الحزن.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦].

وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ

﴿هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة:٤١].

وقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ [لقمان:٢٣].

فإعراض الكافرين عن الإيمان كان يسبب للنبي صلى الله عليه وسلم الحزن والحسرة، إما على هؤلاء؛ لأنهم لم يهتدوا؛ أو لأنهم كانوا يؤذونه صلى الله عليه وسلم فيحزن لما يلاقيه.

يقول ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾: «أي: لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا، أي: فيجزيهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية»[1].

وقال الطنطاوي: «﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، عمَّا أصابه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم.

أي: ومن استمر -أيها الرسول- على كفره بعد أن بلغته رسالتنا ودعوتنا، فلا يحزنك بعد ذلك بقاؤه على كفره وضلاله، فأنت عليك البلاغ، ونحن علينا الحساب، وإنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء»[2].

كما أن من أعرض عن الإيمان والهدى الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يعيش في ضنك وتعاسة، وقلق وحيرة، وكل من أعرض عن الله وعن وحيه وهديه فإنه يتخبط في الظلمات، ويحرم السعادة واللذة الحقيقية.

كما أن الله سبحانه وتعالى قد وعد من اتبعوا هداه بأنهم لا خوف عليه ولا هم يحزنون، فقال: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:٣٨].

وقال في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

فمن أعرض عن ذكر الله حرم من الجزاء الذي هو الأمن والطمأنينة وراحة البال، وحرم من الوعد الإلهي، وكانت معيشته ضنكًا.

يقول ابن كثير: «﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣١١.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ١٢٧.

﴿ذِكْرِي﴾ أي: خالف أمري وما أنزلته على رسولي أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: ضنكًا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة»[1].

وقد وعد الله سبحانه الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنهم لا خوف عليه ولا هم يحزنون، فمن لم يؤمن فإنه سيحرم حتمًا من ذلك.

ومن خلال ما سبق يتبن لنا أن من أسباب الحزن الإعراض عن الإيمان وعن الهدى الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: التكذيب:

وكذلك تقدم معنا في مبحث النهي عن الحزن، النهي عن الحزن على المعرضين، وبينا هناك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصيبه الحزن جراء تكذيب قومه له ووصفه بالكذب، واتهامه بأن ما جاء به ليس من عند الله، وإنما هو اختلاق من قبله، وكان القرآن يتنزل يرد عليهم ويسلي النبي صلى الله عليه وسلم وينهاه عن الحزن.

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٢٨٣.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣].

وقال: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس:٧٦].

أي: لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، واتهامهم بأنك كاذب أو شاعرٌ أو ساحر، وهذه تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام[2].

قال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ قرئ بفتح الياء وضمها، ﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ أي: يقولون فيك، من أنك كاذب أو ساحر أو شاعر أو مجنون»[3].

وقال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا محمد قول هؤلاء المشركين بالله من قومك لك: إنك شاعر، وما جئتنا به شعر، ولا تكذيبهم بآيات الله وجحودهم نبوتك»[4].

وقال ابن كثير: «﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله»[5].

فتكذيب الصادق واتهامه بالكذب يسبب له الحزن، ويدخل على قلبه الغم.

كما أن الشخص المكذّب للحق والهدى

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢١.
(٣) محاسن التأويل، ٤/ ٣٤٥.
(٤) جامع البيان، ٢٠/ ٥٥٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٥٢٨.

الذي جاء عن الله سبحانه وتعالى يعد كافرًا، فأول أنواع الكفر كفر التكذيب يقول الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت:٦٨].

وقد بين لنا القرآن حياة الكافر وكيف يعيش في هذه الدنيا.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥].

فالحزن والقلق والحيرة والاضطراب والحياة النكدة والعيشة الضنك كلها لمن لم يأمن بالله وما جاء عن الله وكذب برسوله ولم يصدقه.

أما في الآخرة فجزاءه جهنم وبئس المصير.

وقد قصَّ الله سبحانه وتعالى لنا في كتابه قصة فرعون وكيف أنه كذب بآيات الله وأعرض عنها، وما كان جزاءه، ويخصنا في هذا الحزن الذي عاقبه الله به نتيجة كفره بالله سبحانه وتعالى وتكذيبه لموسى عليه السلام، فقد جعل الله موسى -الذي التقطه آل فرعون وهو طفل رضيع وتربى في بيت فرعون- عدوًّا وحَزَنًا لفرعون وجنوده، وأن ما كان يحذره فرعون من نهاية ملكه وهلاكه قد حصل، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص:٨].

قرأ حمزة والكسائي: (وحُزْنًا) بضم الحاء، وقرأ الباقون ﴿وَحَزَنًا﴾ بفتحتين[(١)]. وهما لغتان، مثل السَّقَم والسُّقْم، والعَرَب والعُرْب[(٢)].

ومعنى الآية: أخذوه اعتناء به وصيانة له عن الضّياع[(٣)].

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدوًّا لهم وحزنًا يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قيّض الله أن يكون زعيمهم، يتربى تحت أيديهم، وعلى نظرهم، وبكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل، تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة[(٤)].

يقول الإمام الطبري: «وقوله: ﴿عَدُوًّا

(١) الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي ٥/ ٤١٢.
(٢) البسيط، الواحدي ١٧/ ٣٣٦.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٢.

﴿وَحَزَنًا﴾ يقول:يكون لهم عدوًا في دينهم، وحزنًا على ما ينالهم منه من المكروه»[1].

وقال البغوي: «﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وهذه اللام تسمى لام العاقبة ولام الصيرورة، لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوًّا وحزنًا ولكن صار عاقبة أمرهم إلى ذلك»[2].

فنتيجة تكذيبهم وصدهم عن دين الله ومحاربة موسى كانت عاقبتهم الحزن والهلاك، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي: إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا بربهم آثمين، فلذلك كان لهم موسى عدوًّا وحزنًا[3].

قال الألوسي عند قوله تعالى: ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾: «كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربي عدوهم على أيديهم»[4].

ففرعون لما كذب وعارض الحق الذي أتاه، جعل الله موسى عليه السلام عدوًّا له، وإن كان قد تربى وترعرع في بيته.

ثالثًا: فوات الخير:

الحزن على فوات الخير من علامات حياة القلب، ودليل على قوة الإيمان، وهذا النوع من الحزن مشروع، وكلما كان القلب أشد حياة كان شعوره بألم فوات الطاعة أقوى وأعظم، وكلما ضعف الإيمان في القلب قل شعوره بالألم.

وقد ذكر لنا الله نموذجًا من أصحاب القلوب التي عمرها الإيمان وحرصت على الخير، ولكنها لم تستطع أن تشارك مع الآخرين في تحصيله، فحزنت على فوات ذلك الخير.

قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩٢].

والمعنى: لا حرج على الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل فيخرجوا معك، فلم تجد ما تحملهم عليه، وهؤلاء وإن دخلوا في عموم الذين لا يجدون ما ينفقون للجهاد لفقدهم الرواحل، قد خصوا بالذكر اعتناء بشأنهم وجعلهم كأنهم قسم مستقل.

﴿تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: انصرفوا من مجلسك وهم يبكون بكاء شديدًا يصحبه حزن عميق، فكانت أعينهم تمتلئ دمعًا يتدفق من جوانبها حزنًا وأسفًا على أنهم لا يجدون ما ينفقون ولا ما يركبون في خروجهم معك للجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته[5].

(١) جامع البيان، ١٩/ ٥٢٣.
(٢) معالم التنزيل، ٦/ ١٩٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٢٤.
(٤) روح المعاني، ١٠/ ٢٥٧.
(٥) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ١٨٣.

روى الطبري بسنده عن ابن عباس قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ﴾... إلى قوله: ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والله ما أجد ما أحملكم عليه)! فتولوا ولهم بكاءٌ، وعزيزٌ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقةً ولا محملًا. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله، أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾... إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾[1].

يقول سيد قطب: «وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه. وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تختلف الروايات في تعيين أسمائهم، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة»[2].

وفي تعبير النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المؤمنين الصادقين: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، ما فيه من تطييب قلوب هؤلاء السائلين؛ فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول لهم: إن ما تطلبونه أنا أسأل عنه، وأفتش عليه فلا أجده، ولو وجدته لقدمته إليكم[3].

يقول محمد الطنطاوي: «وقوله: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ بيان للآثار التي ترتبت على عدم وجود ما يحملهم من رواحل: لكي يخرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تبوك.

أي: أن هؤلاء المؤمنين الفقراء، عند ما اعتذرت لهم بقولك: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ انصرفوا من مجلسك، وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن؛ لأنهم لا يجدون المال الذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرواحل التي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك.

فالجملة الكريمة تعطي صورة صادقة مؤثرة للرغبة الصادقة في الجهاد، وللألم الشديد للحرمان من نعمة أدائه. وبمثل هذه الروح ارتفعت راية الإسلام، وعزت كلمته، وانتشرت دعوته»[4].

فالصحابة رضي الله عنهم لشدة حرصهم على الأعمال الصالحة وقوة رغبتهم في الخير كانوا يحزنون على ما يتعذر عليهم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٤٢١.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٨٥.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٨٠.
(٤) المصدر السابق.

فعله من الخير مما يقدر عليه غيرهم، فكان الفقراء يحزنون على فوات الصدقة بالأموال التي يقدر عليها الأغنياء، ويحزنون على التخلف عن الخروج في الجهاد لعدم القدرة على آلته[(١)].

وهذا الحزن منهم رضي الله عنهم دال على عظم إيمانهم ولهذا مدحوا على ذلك، يقول ابن القيم: «فلم يمدحوا على نفس الحزن، وإنما مدحوا على ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم، حيث تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعجزهم عن النفقة، ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به»[(٢)].

رابعًا: فوات النصر والغنيمة:

المقاتل إنما يقاتل لأجل أن ينتصر على خصومه، ويحصل على فائدة مأمولة من وراء هذا النصر، والمسلم عندما يقاتل يبتغي بقتاله وجه ربه ورفع راية دينه، فإذا فاته النصر، وحلت به الهزيمة، فإنه يحزن، ولكن الذي ينبغي فعله إذا حلت الهزيمة وأصابه الحزن ألا يتمادى في الحزن حتى لا يوهن من عزمه ويفت في عضده.

والحزن بسبب فوات النصر والغنيمة أمر طبيعي؛ لأن النفوس مجبولة على الحرص على العز والكرامة وتصاب بالحزن إذا فاتتها المحبوبات، وحلت بها المكروهات، وقد حصل للصحابة الكرام غم وحزن في غزوة أحد، وهذه الآية الكريمة تصور لنا ذلك.

قال تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٣].

والمعنى: اذكروا -يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم- ما كان من أمركم حين أخذتم تصعدون الجبل هاربين من أعدائكم، ولا تلتفتون إلى أحد لما اعتراكم من الدهشة والخوف والرعب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت في الميدان يناديكم من خلفكم قائلًا: إليّ عباد الله، وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون، فكان جزاؤكم أن أنزل الله بكم ألمًا وضيقًا وغمًّا؛ لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من نصر وغنيمة، ولا ما حلّ بكم من خوف وهزيمة. والله خبير بجميع أعمالكم، لا يخفى عليه منها شيء[(٣)].

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٥٦.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٠١.
(٣) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ١/ ٦٩.

قال السعدي: «﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ أي: جازاكم على فعلكم ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي: غمًّا يتبع غمًّا، غمٌّ بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغمٌّ بانهزامكم، وغمٌّ أنساكم كل غمٍّ، وهو سماعكم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد قتل.

ولكن الله -بلطفه وحسن نظره لعباده- جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيرًا لهم، فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والظفر، ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ يعني: أنه قدّر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم، وتمرنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات»[1].

والنهي عن الحزن في الآية الظاهر أن حقيقته غير مرادة هنا كما ذكر الألوسي، بل المراد التسلية والتشجيع، وإن أريدت الحقيقة فلعل ذلك بالنسبة إلى ما يترتب على الوهن والحزن من الآثار الاختيارية[2].

وفي الآية لطيفة عجيبة كانت منة من الله سبحانه وتعالى على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أصابهم ما أصابهم من الغم، فإنهم لما أصابهم الغم على فوات النصر والغنيمة جاءهم غم أعظم من ذلك أنساهم غمهم الأول، هذا الغم هو إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فهذه المصيبة أنستهم كلّ شيء.

قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾، فالغمّ الأوّل: بسبب الهزيمة وذهاب النّصر والمغنم، ثم جاءهم غمّ آخر أشدّ، وهو خوف أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قد قتل، وسماعهم أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قد قتل، فجاء هذا الغمّ لينسيهم كلّ شيء، لينسيهم الحزن على فوات النّصر، والحزن على فوات المغنم، ثمّ لما علموا أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم حيّ وسليم ومعافى، زال عنهم الألم كلّه، ألم الهزيمة، وألم الجراح التّي أصابتهم، وألم فوات الغنيمة[3].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٣.

(٢) انظر: روح المعاني، ٢/ ٢٨١.

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٣٩٥.

والحكمة من فعل ذلك كله بهم ليتمرنوا على الشدائد، ويتعودوا احتمال المكاره، فإنها تصقل الأمم والأفراد، ولئلا يحزنوا على ما فاتهم من المنافع والمغانم، ولا على ما أصابهم من المضارّ من عدوكم، كالجراح والقتل[1].

خامسًا: النجوى السيئة:

النَّجوى: السِّرُّ بين الاثنين، وتكون أيضًا بمعنى المسارّة[2]. وقيل: النَّجوى: ما يكون من خلوة اثنين أو أكثر يسرّون شيئًا ويتناجون به، والسّرار ما كان بين اثنين[3].

والنجوى قد تكون في الخير، وقد تكون في الشر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة:٩].

يقول أبو بكر الجزائري: «هذه الآية والتي بعدها نزلت في تربية المؤمنين روحيًّا وتهذيبهم أخلاقيًّا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: صدقوا الله ورسوله إذا تناجيتم لأمر استدعى ذلك منكم ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ فتكون حالكم كحال اليهود والمنافقين ولكن ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: بما هو خير في نفسه لا إثم فيه، وبطاعة الله ورسوله إذ هما التقوى، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ يوم القيامة لمحاسبتكم ومجازاتكم فاتقوه بطاعته وطاعة رسوله»[4].

ثم قال الله سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة:١٠].

والمعنى: إنما النجوى وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا من الشيطان ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ليسوءهم ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ ومن أحس من ذلك شيئًا فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله[5].

وقد جاء في السنة النبوية النهي عن أن يتناجى اثنان دون الثالث؛ لأن ذلك يحزنه، ففي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث)[6].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ١٢٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٢.
(٣) المصدر السابق ١٧/ ٢٩٠.
(٤) أيسر التفاسير، ٥/ ٢٩٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٧٥.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث، ٨/ ٦٤، رقم ٦٢٨٨.

وعند مسلم: (إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه)[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه)[2].

فبينت هذه النصوص النهي عن النجوى إذا كانوا ثلاثة فيتناجى منهما اثنان دون الثالث، وتعليل ذلك بقوله: (من أجل أن يحزنه) أي: يقع في نفسه ما يحزن لأجله، وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلًا ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان وأحاديث النفس. وحصل ذلك كله من بقائه وحده[3].

أما إذا كان الثالث مع غيره أو اختلطوا بالناس فإن النهي لا يشملهم، كما هو في حديث عبد الله بن مسعود، وقد فعل ابن عمر ذلك، فعن عبد الله بن دينار، قال: كنت أنا وعبد الله بن عمر عند دار خالد بن عقبة التي بالسوق، فجاء رجل يريد أن يناجيه، وليس مع عبد الله بن عمر أحد غيري وغير الرجل الذي يريد أن يناجيه، فدعا عبد الله بن عمر رجلًا حتى كنا أربعة، فقال لي وللرجل الذي دعا: استأخرا، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يتناجى اثنان دون واحد)[4].

فإذا كان معه غيره أمن من ألقيات الشيطان وأحاديث النفس.

يقول القرطبي: «وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلًا، لوجود ذلك المعنى في حقه، بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى. وإنما خص الثلاثة بالذكر، لأنه أول عدد يتأتى ذلك المعنى فيه. وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور. وسواء أكان التناجي في مندوب أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به»[5].

وقد ذكر الثعلبي عن ابن عباس أن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة:٨-١١]، نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، ٤/ ١٧١٨، رقم ٢١٨٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، ٤/ ١٧١٨، رقم ٢١٨٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٥.
(٤) أخرجه مالك في الموطأ، ٢/ ١٦٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٥.

ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلّا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم. فلمّا طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم ألّا يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله سبحانه هذه الآية[1].

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، «الحصر المستفاد من ﴿إِنَّمَا﴾ قصر موصوف على صفة ومن ابتدائية، أي: قصر النجوى على الكون من الشيطان، أي: جائية؛ لأن الأغراض التي يتناجون فيها من أكبر ما يوسوس الشيطان لأهل الضلالة بأن يفعلوه ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما يتطرقهم من خواطر الشر بالنجوى. وهذه العلة ليست قيدًا في الحصر فإن للشيطان عللًا أخرى مثل إلقاء المتناجين في الضلالة، والاستعانة بهم على إلقاء الفتنة، وغير ذلك من الأغراض الشيطانية.

وقد خصت هذه العلة بالذكر؛ لأن المقصود تسلية المؤمنين وتصبرهم على أذى المنافقين ولذلك عقب بقوله: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾ ليطمئن المؤمنون بحفظ الله إياهم من ضر الشيطان. وهذا نحو من قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]»[2].

سادسًا: ترك الأهل والولد:

من أسباب الحزن ترك الأهل والولد والابتعاد عنهم، إما لسفر أو سجن، أو غيرهما، فالقلب عادة عندما يفارق صاحبه أهله وأحبابه يشعر بالحزن ويصاب بالألم، وكم ذرفت من عيون، وسالت من دموع حال الفراق ووقت الوداع، يقول الشاعر[3]:

ضعفت عن التسليم يوم فراقها
فودّعتها بالطّرف والعين تدمع
وأمسكت عن ردّ السلام فمن رأى
محبًّا بطرف العين قبلي يودّع
رأيت سيوف البين عند فراقها
بأيدي جنود الشوق بالموت تدفع
عليك سلام الله مني مضاعفًا
إلى أن تغيب الشمس من حيث تطلع

وقد جاء في القرآن الكريم أن ترك الولد مما يسبب الحزن، وذلك في قصة يعقوب عليه الصلاة والسلام وقصة أم موسى عليه السلام.

فيعقوب عليه السلام كان يحب ولده يوسف عليه السلام حبًّا شديدًا، ولا يريد أن يفارقه ساعة لخوفه عليه أن يصيبه أذى،

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٢٥٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٤.

(٣) مصارع العشاق، السراج البغدادي ١/ ١٦٠.

كما أن فراقه يصيبه بالحزن، وعندما طلب أخوة يوسف من أبيهم أن يترك معهم أخاهم يوسف ليذهب للعب والرعي، قال لهم: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف:١٣].

والمعنى: يشق علي مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه[(١)].

يقول القشيري: «يحزنني أن تذهبوا به لأني لا أصبر عن رؤيته، ولا أطيق على فرقته... هذا إذا كان الحال سلامته.. فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب»[(٢)].

وقال الرازي: «اعلم أنهم لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر إليهم بشيئين: أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه»؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة. والثاني: خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به»[(٣)].

أما أم موسى عليها السلام فإنها لما وضعت موسى خافت عليه من فرعون وجنوده أن يقتلوه، لأنهم كانوا في ذلك الوقت يقتلون كل مولود ذكر من بني إسرائيل، فأوحى الله إليها أن تضعه في تابوت ثم تلقيه في اليم، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص:٧].

والمعنى: وأوحينا إلى أم موسى: أعلمناها أن ترضع ولدها الرضعات الأولى التي لا بد منها ثم تضعه في تابوت ثم تلقيه في اليم. أي: في البحر، وهو نهر النيل، ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ أي: لا تخافي أن يهلك ولا تحزني على فراقه، إنا رادوه إليك[(٤)].

لا شك أن الخوف كان يسيطر على جميع أركانها وجوانحها والحزن يملأ قلبها، كيف تترك ولدها في ذلك الصندوق مرميًّا به في البحر، حقًّا إنه موقف عصيب. فإذا كانت الأم تحزن لفراق ولدها؛ لأنه ذاهب إلى عمل سينقضي بعد فترة من الزمن، أو أنه مسافر وسيرجع بعد أيام، فكيف بقلب أم موسى على فقد ولدها والمخاطر تحدق به من كل مكان، ولكن كانت عناية الله ورعايته تحوطان موسى عليه السلام، فحفظه الله سبحانه وتعالى ورده إلى أمه سالمًا معافى ولا قلق ولا خوف عليه بعد ذلك.

قال الله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه:٤٠].

وقال: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢٠.
(٢) لطائف الإشارات، ٢/ ١٧٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٢٦.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٤.

﴿تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص:١٣].

والمعنى: فرددناك إلى أمك بعد ما صرت في أيدي آل فرعون، كيما تقرّ عينها بسلامتك ونجاتك من القتل والغرق في اليم، وكيلا تحزن عليك من الخوف من فرعون عليك أن يقتلك[(١)].

وقيل: «أي: فرددناه إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون، لتقرّ عينها بابنها إذ رجع إليها سليمًا، ولا تحزن على فراقه إياها»[(٢)].

قال ابن عاشور: «وهذه منة عليه -أي: موسى- لإكمال نمائه، وعلى أمه بنجاته، فلم تفارق ابنها إلا ساعات قلائل، أكرمها الله بسبب ابنها.

وعطف نفي الحزن على قرة العين لتوزيع المنة؛ لأن قرة عينها برجوعه إليها.

وانتفاء حزنها بتحقق سلامته من الهلاك ومن الغرق وبوصوله إلى أحسن مأوى.

وتقديم قرة العين على انتفاء الحزن مع أنها أخص -فيغني ذكرها عن ذكر انتفاء الحزن- روعي فيه مناسبة تعقيب فرجعناك إلى أمك بما فيه من الحكمة»[(٣)].

وقال الشنقيطي: «وقوله تعالى في آية القصص: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وعد الله المذكور هو قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾»[(٤)].

فترك الولد والأهل من أسباب الحزن، ويشتد ويغلظ عندما لا يعلم ما سيؤول إليه أمرهما بعد الترك.

سابعًا: فقد الأحبة:

فطر الله سبحانه وتعالى الإنسان على حب أقاربه وأصحابه وإخوانه، وعندما يصاب في واحد منهم فإنه يحزن، وهذا أمر طبيعي، فالوالدان يحزنان على فقد ولدهما، والعكس، والزوج على زوجته، والعكس، وكل محبوب للقلب إذا فارقه يحزن لفراقه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن نبيه يعقوب عليه السلام عندما فقد ولده المحبوب يوسف عليه السلام أنه حزن حزنًا شديدًا حتى ابيضت عيناه من شدة الحزن، وكثرة البكاء.

يقول الله سبحانه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤].

والمعنى: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٠٥.
(٢) تفسير المراغي ٢٠/ ٤١.
(٣) التحرير والتنوير، ١٦/ ٢١٩.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١١.

عيناه من ذلك. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى[1].

يقول الإمام البغوي: «وذلك أن يعقوب عليه السلام لما بلغه خبر بنيامين تتام حزنه وبلغ جهده، وتهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ يا حزناه، ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ والأسف أشد الحزن، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ عمي بصره. قال مقاتل: لم يبصر بهما ست سنين، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه. وقال قتادة: يردد حزنه في جوفه ولم يقل إلا خيرًا. قال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عامًا، لا تجف عينا يعقوب، وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب»[2].

وفي بكاء يعقوب وحزنه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف؛ فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم[3]. فعندما مات ولده إبراهيم حزن رسول صلى الله عليه وسلم ودمعت عيناه الشريفتان، وقال: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)[4]. وفي رواية: (تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون)[5].

ولكن الحزن عند نزول المصيبة يجب ألا يتجاوز المشروع، ويتعدى الممنوع، فلا يسخط صاحبه بقول أو فعل، ولا يعترض على أقدار الله النازلة بلسان؛ ولا يصيح وينيح، ولا يلطم الخد ولا يشق الثوب، بل يصبر ويحتسب، ويسترجع.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٤.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٦٧.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٧٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنا بك لمحزونون)، ٢/ ٨٣، رقم ١٣٠٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، ٤/ ١٨٠٧، رقم ٢٣١٥.

الحزن المنهي عنه

«لم يأت الحزن في القرآن إلا منهيًّا عنه، أو منفيًّا. فالمنهي عنه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران:١٣٩].

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر:٨٨، النحل: ١٢٧، النمل:٧٠] في غير موضع، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

والمنفي كقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]»[(١)].

أولًا: الحزن على المعرضين:

نهى الله سبحانه نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام في غير ما موضع من القرآن الكريم عن الحزن على إعراض المشركين عن دعوته وعدم استجابتهم لرسالته ورفضهم الدخول في دينه، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجتهد ويبذل كل ما يستطيع لتبليغ ما أرسله الله به، ويحرص كل الحرص على أن يدخل الناس في هذا الدين حتى ينجوا من النار، ويخلصوا أنفسهم من الشرك والعبودية لغير الله، ولكن كان المشركون يقابلونه بالإعراض والاحتقار ورفض ما يدعوهم إليه، فكان يصيبه الحزن لما يجد من هؤلاء، بل كانوا مع إعراضهم يتعرضون لإيذائه بأفعالهم وأقوالهم، فكان القرآن يتنزل على نبيه يسليه ويزيل ما في قبله من هم وحزن نتيجة ما كان يفعله قومه به، وهذه هي الآيات التي كانت تنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن على إعراض المعرضين.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦].

والمعنى: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصًا على الخلق، مجتهدًا في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، فقال الله تعالى له: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم عليه ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضرون ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الأخرى[(٢)].

قال ابن كثير: «يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: ولا يحزنك ذلك...»[(٣)].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٠٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ١٧٣.

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة:٤١].

والمعنى: «لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفر؛ وذلك بسبب احتيالهم في استخراج وجوه الكيد والمكر في حق المسلمين، وفي مبالغتهم في موالاة المشركين؛ فإني ناصرك عليهم وكافيك شرهم»[1].

يقول القاسمي: «﴿لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: لا تهتم ولا تبال بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومضرة أهله»[2].

قال الخازن: «﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ يعني: المنافقين؛ لأنهم أظهروا الإيمان بالقول وكتموا الكفر وهذه صفة المنافقين ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: وطائفة من اليهود»[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان:٢٣].

لما ذكر الله المسلم في قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان:٢٢].

ذكر الكافر المعرض عن الهدى الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن النبي كان يهتم ويحزن لهذا الإعراض والجحود من قبل الكافرين فقال الله له: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾.

قال الرازي: «أي: لا تحزن إذا كفر كافر فإن من يكذّب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن، بل قد يؤنّب المكذّب على الزيادة في التكذيب إذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل، وأما إذا كان لا يرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب، فقال: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾، فإن المرجع إلي فأنبئهم بما عملوا فيخجلون»[4].

وقال السعدي: «﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾؛ لأنك أديت ما عليك، من الدعوة

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٥٨.
(٢) محاسن التأويل، ٢/ ٤٦٢.
(٣) لباب التأويل، ٢/ ٤٣.
(٤) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١٢٦.

والبلاغ، فإذا لم يهتد، فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه؛ لأنه لو كان فيه خير، لهداه الله، ولا تحزن أيضًا على كونهم تجرأوا عليك بالعداوة، ونابذوك المحاربة، واستمروا على غيهم وكفرهم، ولا تتحرق عليهم، بسبب أنهم ما بودروا بالعذاب»[1].

وقال المراغي: «لا تحزن على كفرهم بالله وبما جئت به، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن قدر الله نافذ فيهم»[2].

أما البقاعي فقد ربط الآية بالتي قبلها وفصل القول في جمل الآية فقال: «ولما ذكر المسلم ذكر الكافر فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: ستر ما أداه إليه عقله من أن الله لا شريك له، وأنه لا قدرة لأحد سواه، ولم يسلم وجهه إليه، فتكبر على الدعاة وأبى أن ينقاد لهم، اتباعًا لما قاده إليه الهوى، بأن جعل لنفسه اختيارًا وعملًا فعل القوي القادر، فقد ألقى نفسه في كل هلكة لكونه لم يتمسك شيء ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ أي: يهمك ويوجعك، وأفرد الضمير باعتبار لفظ من لإرادة التنصيص على كل فرد فقال: ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ كائنًا من كان فإنه لم يفتك شيء فيه خير ولا معجز لنا ليحزنك، ولا تبعة عليك بسببه، وفي التعبير هنا بالماضي وفي الأول بالمضارع بشارة بدخول كثير في هذا الدين، وأنهم لا يرتدون بعد إسلامهم، وترغيب في الإسلام لكل من كان خارجًا عنه، فالآية من الاحتباك: ذِكْر الحزن ثانيًا دليلٌ على حذف ضده أولًا، وذِكْر الاستمساك أولًا دليلٌ على حذف ضده ثانيًا»[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل:١٢٧].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ «لكونهم لم يؤمنوا فيخلصوا أنفسهم من النار، ويقوى بهم جانب الإسلام، وكأن هذا هو الصفح المأمور به، وهو الإعراض عنهم أصلًا ورأسًا إلا في أمر البلاغ»[4].

وقال أيضًا: «﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في شدة كفرهم فتبالغ في الحرص الباخع للنفس»[5].

وقال البغوي: «﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ في إعراضهم عنك»[6].

وقال الشوكاني: «نهاه عن الحزن فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الكافرين في إعراضهم عنك، أو لا تحزن على قتلى أحدٍ، فإنّهم قد أفضوا إلى رحمة اللّه»[7].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٥٠.
(٢) تفسير المراغي، ٢١/ ٩١.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ١٩٠.
(٤) المصدر السابق ١١/ ٨٨.
(٥) المصدر السابق ١١/ ٢٨٤.
(٦) معالم التنزيل، ٥/ ٥٤.
(٧) فتح القدير، ٣/ ٢٤٣.

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [النمل:٦٩-٧٠].

في هذه الآية يقول تعالى مسليًا لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات[(١)].

قال النسفي: «﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأجل أنهم لم يتبعوك ولو يسلموا فيسلموا»[(٢)].

وقال البيضاوي: «﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على تكذيبهم وإعراضهم»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر:٨٨].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذ لم يؤمنوا، ليقوى بمكانهم الإسلام، وينتعش بهم المؤمنون، وقد كان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن به كل من بعث إليه، ويتمنى لمزيد شفقته عدم إصرار الكفار على كفرهم[(٤)].

فهذه الآيات نجد فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصيبه الهم والحزن بسبب إعراض قومه عن الإيمان به، وعدم تصديقه فيما جاء به عن الله سبحانه، فكان القرآن يتنزل عليه وينهاه عن الحزن على إعراض الكافرين والمنافقين.

كما أنه عليه الصلاة والسلام مع إعراض الكافرين عن دعوته وعدم استجابتهم لرسالته لم يكتفوا بهذا، بل كانوا يتعرضون له بالأذية القولية والفعلية من شتم وسب وسخرية واحتقار واتهام بالكذب والإفك والسحر، وأن هذا القرآن إنما هو من عنده أو من عند غيره من البشر، وليس من عند الله سبحانه، فكان يحزن عليه الصلاة والسلام لما كان يسمعه من أذية هؤلاء المشركين المكذبين، فكان الله ينهاه عن الحزن، وكان ينزّل عليه القرآن تسلية له وتقوية لقلبه، وتثبيتًا له على الحق.

قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣].

قال الرازي: «اعلم أن طوائف الكفار كانوا فرقًا كثيرين، فمنهم من ينكر نبوته؛ لأنه كان ينكر رسالة البشر، ويقول: يجب أن يكون رسول الله من جنس الملائكة، وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة شبهة هؤلاء وأجاب عنها. ومنهم من يقول: إن محمدًا يخبرنا بالحشر والنشر بعد الموت وذلك محال. وكانوا يستدلون بامتناع الحشر والنشر على الطعن في رسالته. وقد ذكر الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٨.
(٢) مدارك التنزيل، ٢/ ٦١٩.
(٣) أنوار التنزيل، ٤/ ١٦٦.
(٤) تفسير المراغي، ١٤/ ٤٦.

تعالى ذلك وأجاب عنه بالوجوه الكثيرة...، ومنهم من كان يشافهه بالسفاهة وذكر ما لا ينبغي من القول، وهو الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية.

واختلفوا في أن ذلك المحزن ما هو؟ فقيل كانوا يقولون: إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون وهو قول الحسن. وقيل: إنهم كانوا يصرحون بأنهم لا يؤمنون به ولا يقبلون دينه وشريعته. وقيل: كانوا ينسبونه إلى الكذب والافتعال»[1].

وقال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ قرئ بفتح الياء وضمها، ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: يقولون فيك، من أنك كاذب أو ساحر أو شاعر أو مجنون»[2].

وقال أبو السعود: «استئناف مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذي يعتريه، مما حكى عن الكفرة من الإصرار على التكذيب، والمبالغة فيه، ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله عز وجل وأن ما يفعلونه في حقه فهو راجعٌ إليه تعالى في الحقيقة وأنه ينتقم منهم لا محالة أشدّ انتقام»[3].

روى الطبري عن السدي في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ قال: لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة، إن محمدًا ابن أختكم، فأنتم أحقّ من كفّ عنه، فإنه إن كان نبيًّا لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذبًا كنتم أحق من كف عن ابن أخته! قفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم فإن غلب محمدٌ صلى الله عليه وسلم رجعتم سالمين، وإن غلب محمدٌ فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئًا، فيومئذ سمّي «الأخنس»، وكان اسمه «أبيّ» فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا! فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمّد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، «فآيات الله»، محمدٌ صلى الله عليه وسلم»[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس:٦٥].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لا يحزنك، يا محمد، قول هؤلاء المشركين

(١) مفاتيح الغيب، ١٢/ ٥١٧.
(٢) محاسن التأويل، ٤/ ٣٤٥.
(٣) إرشاد العقل السليم، ٣/ ١٢٦.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١١/ ٣٣٣.

في ربهم ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام»[1].

وقال الألوسي: «والذي عليه الجمهور أنه استئناف سيق تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهة الأعداء من الأذية الناشئة مقالاتهم الرديئة الوحشية وتبشيرًا له عليه الصلاة والسلام بالنصر والعز»[2].

وقال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس:٧٦].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا محمد قول هؤلاء المشركين بالله من قومك لك: إنك شاعر، وما جئتنا به شعر، ولا تكذيبهم بآيات الله وجحودهم نبوتك»[3].

والخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى كان ينهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن الحزن لإعراض قومه عنه وكفرهم به وأذيتهم له، والآيات السابقة نرى فيها أن الله سبحانه وتعالى كان ينهى عن الحزن على المعرضين.

ثانيًا: الحزن عند الهزيمة:

الهزيمة وقعها على النفس عظيم، وعند حصولها تذهب العقول، وتزيغ الأبصار، وبعد وقوعها يحدث الحزن والغم، فهي مؤلمة جدًّا، كيف لا وفيها قد يفقد الأحبة، وتكسر الشوكة، وتسلب الكرامة، ويذل العزيز، ويهان الكريم، وتأخذ الأموال، وتستحل الأوطان والحرمات، وقد يكون فيها الهلكة، ولذا لا يتقبلها إلا أصحاب القلوب القوية المؤمنة بأقدار الله سبحانه وتعالى.

ولهذا فالقرآن الكريم قد أدب المؤمنين عندما وقعت بهم الهزيمة في غزوة أحد وعلمهم كيف يتعاملون مع مثل هذه البلوى. فبعدما وقعت الهزيمة حزن الصحابة على ما أصابهم، كيف والبلوى كانت مؤلمة فقد فقدوا سبعين رجلًا من خيارهم فيهم عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة، وأصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجراحات بالغة، فكسرت رباعيته، وشج وجهه الشريف، وكذلك أصابهم رضي الله عنهم جراحات كثيرة أثخنت في أجسادهم، فتحصل من ذلك غم وحزن.

يقول سيد قطب: «لقد أصاب المسلمين القرح في هذه الغزوة، وأصابهم القتل والهزيمة. أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير. قتل منهم سبعون صحابيًّا، وكسرت رباعية الرسول صلى الله عليه وسلم وشج وجهه، وأرهقه المشركون،

(١) جامع البيان، ١٥/ ١٤٢.
(٢) روح المعاني، ٦/ ١٤٤.
(٣) جامع البيان، ٢٠/ ٥٥٣.

وأثخن أصحابه بالجراح.. وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر، حتى لقال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم: «أنّى هذا؟» وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟!»[1].

ولكن مع ما أصابهم فقد نهاهم الله سبحانه وتعالى عن الحزن.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

وقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٣].

أي: ولا تحزنوا على من قتل منكم في ذلك اليوم، ويصح أن يكون هذا النهي إنشاء بمعنى الخبر، أي: إن ما أصابكم من القرح في أحد ليس مما ينبغي أن يكون موهنًا لأمركم ومضعفًا لكم في عملكم ولا موجبًا لحزنكم وانكسار قلوبكم، فإنه لم يكن نصرًا تامًّا للمشركين عليكم، وإنما هو تربية لكم على ما وقع منكم من مخالفة قائدكم صلى الله عليه وسلم في تدبيره الحربي المحكم، وفشلكم وتنازعكم في الأمر، وذلك خروج عن سنة الله في أسباب الظفر، وبهذه التربية تكونون أحقاء بألا تعودوا إلى مثل تلك الذنوب، فتكون التربية خيرًا لكم من عدمها، بل يجب أن تزيدكم المصائب قوة وثباتًا بما تربيكم على اتباع سنن الله في الحزم والبصيرة، وإحكام العزيمة، واستيفاء الأسباب في القتال وغيره، وأن تعلموا أن الذين قتلوا منكم شهداء، وذلك ما كنتم تتمنونه كما سيأتي، فتذكره مما يذهب بالحزن من نفس المؤمن[2].

قال الإمام الطبري: «وهذا من الله تعالى ذكره تعزيةٌ لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد. قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، يا أصحاب محمد، يعني: ولا تضعفوا بالذي نالكم من عدوكم بأحد، من القتل والقروح، عن جهاد عدوكم وحربهم»[3].

وقال: «وأما قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾، فإن تأويله على ما قد بيّنت، من أنه: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾، فلم تدركوه مما كنتم ترجون إدراكه من عدوكم بالظفر عليهم والظهور، وحيازة غنائمهم ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾،

(١) في ظلال القرآن، ١/ ٤٧٨.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١١٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٣٤.

في أنفسكم، من جرح من جرح وقتل من قتل من إخوانكم»[1].

وقال: «﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ من الهزيمة»[2].

وقال السعدي: «يقول تعالى مشجعًا لعباده المؤمنين، ومقويًا لعزائمهم ومنهضًا لهممهم: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾»[3].

ثالثًا: الحزن حال الكرب:

من الحزن الذي جاء منهيًّا عنه في القرآن الكريم الحزن حال الكرب، وقد وقع الكرب لنبي الله لوط عليه الصلاة والسلام ومريم-عليها السلام-وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ونهوا جميعًا عن الحزن في تلك الأحوال، وهذا تفصيل تلك الأحوال:

١. لوط عليه الصلاة والسلام.

لما أرسل الله ملائكته لإهلاك قوم لوط جاءوا لوطًا عليه الصلاة والسلام في صورة فتيان حسان، فأصابه عليه الصلاة والسلام الهم ونزل به الكرب خوفًا على ضيوفه من أذى قومه، وكان لا يعرف أنهم ملائكة، وما لبث غير يسير حتى جاء قومه يريدون من لوط أن يترك لهم ضيوفه ليفعلوا بهم ما يريدون، فأخذ يدافع قومه ويجادلهم علّهم يرجعون، ولكن دون جدوى، ومن شدة الكرب الذي نزل به والخوف على ضيوفه قال لقومه: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود:٨٠].

فقالت له الملائكة: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ [هود:٨١].

في هذا الحال وفي هذه الكربة ينهى نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام عن الحزن، لأن أولئك الأشرار لن يصلوا إلى ضيوفه، وأن العذاب نازل بقومه.

يقول الله سبحانه: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾ [العنكبوت:٣٣].

(١) المصدر السابق ٧/ ٣١٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٤٩.

قال ابن كثير: «لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف... ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي: اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة قالوا: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾»[1].

وقال سيد قطب -بعد أن ذكر مشهدين للآيات السابقة لهذه الآية-: «وينتقل إلى مشهد ثالث. مشهد لوط وقد جاء إليه الملائكة في هيئة فتية صباح ملاح وهو يعلم شنشنة قومه، وما ينتظر ضيوفه هؤلاء منهم من سوء لا يملك له دفعًا. فضاق صدره وساءه حضورهم إليه، في هذا الظرف العصيب: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾.. ويختصر هنا هجوم القوم على الضيوف، ومحاورة لوط لهم، وهم في سعار الشذوذ المريض.. ويمضي إلى النهاية الأخيرة. إذ يكشف له الرسل عن حقيقتهم، ويخبرونه بمهمتهم، وهو في هذا الكرب وذلك الضيق: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾»[2].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٥٠.
(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٧٣٤.

٢. مريم عليها السلام عند مخاضها.

لما حملت مريم عليها السلام بعيسى عليه السلام خافت من الفضيحة فابتعدت عن الناس[3] إلى مكان بعيد، «فلما قرب ولادها، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسيًا منسيًّا فلا تذكر»[4].

وما تتمنى هذه الأمنية إلا أن الكرب قد بلغ بها مبلغه، واشتد عليها حتى قالت هذا القول، وفي هذا الحال العصيب والكرب الشديد تنهى عن الحزن، وتبشر بأن الله أكرمها بنهر تشرب منه.

قال الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [مريم:٢٤].

قال السعدي: «فحينئذ سكّن الملك روعها وثبّت جأشها وناداها من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي، فـ ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ أي: نهرًا تشربين منه»[5].

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٢.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

٣. أبو بكر عندما كان في الغار مع النبي صلى الله عليه وسلم.

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه رفيقًا للنبي صلى الله عليه وسلم في الغار يوم الهجرة، وجاء المشركون يبحثون عن النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه حتى وصلوا إلى باب الغار فأخذ الكرب أبا بكر وبلغ به مبلغًا عظيمًا، خوفًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين، فإذا بالتوجيه النبوي لرفيق الدرب بأن لا يحزن، لأن الله معهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الإمام الطبري: «﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾، إذ يقول رسول الله لصاحبه أبي بكر، ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، وذلك أنه خاف من الطّلب أن يعلموا بمكانهما، فجزع من ذلك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، لأن الله معنا والله ناصرنا، فلن يعلم المشركون بنا ولن يصلوا إلينا»[(١)].

وقال العز بن عبد السلام: «ولما ألمّ الحزن قلب أبي بكر رضي الله تعالى عنه بما تخيله من وهن الدين بعد الرسول صلى الله عليه وسلم قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: لا تحزن إن الله معنا بالنصر عليهم»[(٢)].

رابعًا: الحزن عند الموت:

لا شك أن الموت مصيبة عظيمة يصاب بها الإنسان وله كرب شديدة وأهوال عظيمة حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم عند موته كان يدخل يده في ركوة[(٣)] فيها ماء ويمسح بها جبينه ويقول: (لا إله إلّا اللّه، إنّ للموت سكراتٍ)[(٤)].

في هذه الكربة العظيمة هناك صنف من الناس تتنزل عليهم الملائكة وتقول لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾، تنهاهم عن الحزن في ذلك الكرب من باب البشرى لهم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٥٨.
(٢) تفسير القرآن، العز بن عبد السلام ٢/ ٢٢.
(٣) بفتح الراء، وسكون الكاف: إناء صغير من جلد، يشرب منه الماء.
انظر: شرح أبي داود، العيني ١/ ١٤٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، ٦/ ١٣، رقم ٤٤٤٩.

﴿الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

قال الشوكاني: «﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أن هي المخفّفة أو المفسرة أو الناصبة، ولا على الوجهين الأوّلين ناهيةٌ، وعلى الثّالث نافيةٌ، والمعنى: لا تخافوا ممّا تقدمون عليه من أمور الآخرة، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدّنيا من أهلٍ وولدٍ ومالٍ. قال مجاهدٌ: لا تخافوا الموت ولا تحزنوا على أولادكم، فإنّ اللّه خليفتكم عليهم. وقال عطاءٌ: لا تخافوا ردّ ثوابكم فإنّه مقبولٌ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنّي أغفرها لكم»[1].

خامسًا: الحزن على الفائت:

لما وقعت غزوة أحد كان في بداية الأمر النصر والظفر للمسلمين على المشركين، حتى أن منهم من بدأ بجمع الغنائم، ولكن لما خالف الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلوا من فوق الجبل التفّ عليهم المشركون وتحولت المعركة من نصر إلى هزيمة وفات المسلمون ما كانوا قد أحرزوه من نصر وغنيمة، فأصابهم الغم والحزن، فأنزل الله سبحانه بعد هذه المعركة آيات تنهاهم على الحزن على ما فاتهم.

قال تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٣].

قال الألوسي: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر»[2].

وقال البغوي: «من الفتح والغنيمة»[3].

وقال ابن كثير: «أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم»[4].

وفي سورة الحديد نهانا الله سبحانه عن الحزن على ما يفوتنا من الدنيا.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

قال الإمام الطبري: «يعني تعالى ذكره: ما أصابكم أيها الناس من مصيبة في أموالكم ولا في أنفسكم، إلا في كتاب قد كتب ذلك فيه، من قبل أن نخلق نفوسكم ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ يقول: لكيلا تحزنوا، ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا، فلم تدركوه منها، ﴿وَلَا

(١) فتح القدير، ٤/ ٥٩٠.

(٢) روح المعاني، ٢/ ٣٠٥.

(٣) معالم التنزيل، ٢/ ١٢٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ١٢٧.

﴿تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ منها»[1].

وقال المراغي: «أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تحزنوا على فائت، ولا تفرحوا بآت»[2].

هذه هي الآيات التي فيها النهي عن الحزن، وهي متنوعة كما مرت معنا فمنها ما ينهى عن الحزن على إعراض المعرضين، ومنها ما ينهى عن الحزن عند الهزيمة، ومنها ما ينهى عن الحزن عند الكرب، ومنها ما ينهى عن الحزن على الفائت.

(١) جامع البيان، ٢٣/ ١٩٧.
(٢) تفسير المراغي، ٢٧/ ١٨١.

نفي الحزن عن المتقين يوم البعث

في ذلك اليوم العصيب، يوم الفزع الأكبر، يوم الأهوال العظيمة والشدائد الجسام، يؤمِّن الله سبحانه وتعالى صنفًا من عباده، وهم المتقون، يطمئنهم بأنهم لا خوف عليه ولاهم يحزنون، هؤلاء العباد يتكرم عليه الرحمن ويجعلهم في أمن وأمان.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠٣].

أي: من كتبت له السعادة والنجاة من النار فأولئك يكونون مبعدين عنها لا يسمعون صوت لهيبها، ولا يخافون من أهوالها وآلامها، بل يكونون في نعيم دائم وتستقبلهم الملائكة مهنئين لهم قائلين: هذا يومكم الذي كنتم توعدون في الدنيا[3].

(٣) انظر: تفسير المراغي ١٧/ ٧٣.

قال الشوكاني: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قرأ أبو جعفر وابن محيصن ﴿لَا يُحْزِنُهُمُ﴾ بضم الياء وكسر الزاي، وقرأ الباقون ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ﴾ بفتح الياء وضم الزاي. قال اليزيدي: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم، والفزع الأكبر: أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب[1].

وقال ابن كثير: «﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قيل: المراد بذلك الموت، رواه عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة عن عطاء، وقيل: المراد بالفزع الأكبر النفخة في الصور، قاله العوفي عن ابن عباس، وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني، واختاره ابن جرير في تفسيره، وقيل: حين يؤمر بالعبد إلى النار، قاله الحسن البصري، وقيل: حين تطبق النار على أهلها، قاله سعيد بن جبير وابن جريج، وقيل: حين يذبح الموت بين الجنة والنار، قاله أبو بكر الهذلي فيما رواه ابن أبي حاتم عنه»[2].

وقال القرطبي: «والفزع الأكبر أهوال يوم القيامة والبعث، عن ابن عباس»[3].

فتحصل في تفسير الفزع الأكبر الأقوال الآتية:

- الموت.
- النفخة في الصور.
- حين يؤمر بالعبد إلى النار.
- حين تطبق النار على أهلها.
- حين يذبح الموت بين الجنة والنار.
- أهوال يوم القيامة والبعث.

ولا تنافي بين تلك الأقوال، فإن الله يؤمن عبده المؤمن من كل ذلك.

يقول الألوسي: «﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ بيان لنجاتهم من الإفزاع بالكلية بعد نجاتهم من النار؛ لأنهم إذا لم يحزنهم أكبر الإفزاع لم يحزنهم ما عداه بالضرورة كذا قيل»[4].

ومن الآيات الدالة على نفي الحزن عن عباد الله المتقين يوم البعث قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف:٦٧-٦٨].

والمعنى: يا عباد الله المؤمنين الذين تحققتم في العبودية لرب العالمين، لا خوفٌ عليكم في هذا اليوم العصيب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا[5].

وفي الكلام حذف، أي: إلا المتقين، فإنه يقال لهم: يا عبادي لا خوف عليكم[6].

يقول الإمام الطبري: «وفي هذا الكلام محذوف استغنى بدلالة ما ذكر عليه. ومعنى

(١) فتح القدير، ٣/ ٥٠٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٣٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٣٤٦.
(٤) روح المعاني، ٩/ ٩٣.
(٥) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ١٥٣.
(٦) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٦٩٦.

الكلام: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فإنهم يقال لهم: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم من عقابي، فإني قد أمنتكم منه برضاي عنكم، ولا أنتم تحزنون على فراق الدنيا؛ فإن الذي قدمتم عليه خير لكم مما فارقتموه منها»[(١)].

أما متى يقال لهم ذلك، فقد ذكر الإمام الطبري بسنده إلى المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: سمعت أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فزع، فينادي مناد: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف:٦٩] قال: فييأس الناس منها غير المسلمين[(٢)].

يقول الشوكاني: «يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة فيذهب عند ذلك خوفهم، ويرتفع حزنهم»[(٣)].

أما معنى قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ «أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب»[(٤)].

ففي ذلك اليوم الشديد الأهوال نفى الله عن عباده المتقين الحزن والخوف من تلك الأهوال، فعناية الله تحفهم وأمنه يحفظهم، جعلنا الله من عباده المتقين.

(١) جامع البيان، ٢١/ ٦٣٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) فتح القدير، ٤/ ٦٤٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٩.

نفي الحزن عن أهل الجنة

الجنة هي دار النعيم، ودار الكرامة، ومن يدخلها يكون منعمًا أبد الآبدين، لا همٌّ فيها ولا بأسٌ ولا حزنٌ، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (من يدخل الجنة ينعم لا ييأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه)[1]، وزاد أحمد: (في الجنّة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٥-٥٨].

ومن كان هذا حاله فعلى ماذا يحزن؟! إذن فمن النعيم الذي امتن الله به على عباده في دار كرامته أنه جعلهم في فرح وسرور، وليس في خوف وحزن.

وأهل الجنة يدركون هذا الفضل -وهو ذهاب الحزن عنهم- ولذا فهم يحمدونه سبحانه ويشكرونه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤].

قال ابن عاشور: «والمراد: أنهم لما أعطوا ما أعطوه زال عنهم ما كانوا فيه قبل من هول الموقف ومن خشية العقاب بالنسبة للسابقين والمقتصدين ومما كانوا فيه من عقاب بالنسبة لظالمي أنفسهم»[3].

وقال أبو بكر الجزائري: «أي كل الحزن فلا حزن يصيبهم إذ لا موت في الجنة ولا فراق ولا خوف ولا همّ ولا كرب فمن أين يأتي الحزن»[4].

كما أن الله سبحانه وتعالى قد نفى الحزن عن أهل الجنة، وقد جاء ذلك في غير ما موضع من القرآن الكريم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف:٤٩].

قال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: لا خوف عليكم من العذاب النازل بالكفار، ولا تحزنون كحزن الكفار على فوات النعيم، وهذا إما من قول أصحاب الأعراف، يتآمرون بينهم بدخول الجنة بعد تبكيت أهل النار، فيقول بعضهم لبعض: ادخلوا الجنة، وإما من كلام أهل الأعراف للمؤمنين، أي: يقولون لهم: ادخلوا الجنة، أو من تتمة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، ٤/ ٢١٨١، رقم ٢٨٣٦.
(٢) مسند أحمد، ١٥/ ٢٢٩، رقم ٩٣٩١.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٣١٦.
(٤) أيسر التفاسير، ٤/ ٣٥٦.

مخاطبة أهل الأعراف للرجال، كأنه قيل لهم: انظروا إلى هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته، كيف نالوها، حيث قيل من قبله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وعلى كلّ فالجملة مبنية على قول محذوف إيجازًا، للعلم به»[1].

ورجح صاحب تفسير المنار أن هذا القول ليس من قول أصحاب الأعراف، فقال: «﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ أي: قيل لهم من قبل الرحمن عز وجل: «﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ مما يكون في مستقبل أمركم، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ من جراء شيء ينغص عليكم حاضركم، وحذف القول للعلم به من قرائن الكلام كثير في التنزيل وفي كلام العرب الخلص، ولكنه قل في كلام المولدين، حتى لا تراه إلا في كلام بعض بلغاء المنشئين، وقيل: إن أهل الأعراف هم الذين يقولون لهؤلاء ادخلوا الجنة إلخ. وهو بعيد بل لا يصح مطلقًا على القول بأنهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم؛ إذ لا يليق بحالهم أن يخاطبوا من هم فوقهم بهذا الأمر لا قبل دخول الجنة ولا بعده. وهو وإن كان يليق من الملائكة أو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالمتبادر الأول، وهو الحكاية بتقدير القول»[2].

فمن يدخل الجنة يقال له: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، سواء الداخلون هم الضعفاء والمساكين الذين سخر منهم رؤساء أهل النار، أم غيرهم، فالحزن منفي عنهم.

قال الشنقيطي: «واختلف في قائل هذا القول، فظاهر القرآن أنه من بقية كلام أصحاب الأعراف، يوبخون رؤساء أهل النار، ويقولون لهم: أهؤلاء الضعفاء المساكين الذين كنتم تسخرون منهم في الدنيا، وتستهزئون بهم، وتضحكون منهم، وتقولون: الله أعظم من أن يعبأ بهؤلاء، والله لا يدخلهم جنة، ولا يدخلهم نعيمًا أبدًا ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضعفاء المساكين الذين كنتم تستهزئون بهم في الدنيا وتسخرون منهم وتقسمون -تحلفون بالله- ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٖ﴾ ماذا قال لهم الله؟ قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، وعلى هذا فيكون أصحاب الأعراف قد وبّخوا رؤساء الكفر والقادة بأنهم لم يغن عنهم تكبرهم في الدنيا وجمعهم، وأن الضعفاء المساكين الذين كانوا يسخرون منهم أحلّهم الله دار كرامته، ونفى عنهم الخوف والحزن أبدًا.

وقال بعض العلماء: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ هي من كلام الله يوبخ بها الكفار، أو من كلام بعض

(١) محاسن التأويل، ٥/ ٦٣.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٨٩.

الملائكة أمره بذلك، وأن قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ راجعة إلى أصحاب الأعراف، أن أصحاب الأعراف بعد أن وبّخوا أهل النار وهم بين الجنة والنار يطمعون أنه بعد ذلك يرحمهم الله فيتفضل عليهم، ويقول لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ وهذا الوجه الأخير ذكره جماعة كثيرة من المفسرين، والأول أظهر، وإن كان القائل بهذا الأخير كثيرًا جدًّا من علماء التفسير»[1].

فتحصل من أقوال المفسرين أن من دخل الجنة يقال له: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، فالحزن منفي عن عباد الله الذين يدخلهم سبحانه دار كرامته ويسكن في جنته.

ومن الآيات الدالة على نفي الحزن عن أصحاب الجنة ما ذكره سبحانه وتعالى عن الشهداء فقال: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠﴾ [آل عمران: ١٧٠].

قال الإمام الطبري: «يعني بذلك تعالى ذكره: ويفرحون بمن لم يلحق بهم من إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء في الدنيا على مناهجهم من جهاد أعداء الله مع رسوله، لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فلحقوا بهم صاروا من كرامة الله إلى مثل الذي صاروا هم إليه، فهم لذلك مستبشرون بهم، فرحون أنهم إذا صاروا كذلك ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، يعني بذلك: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، لأنهم قد أمنوا عقاب الله، وأيقنوا برضاه عنهم، فقد أمنوا الخوف الذي كانوا يخافونه من ذلك في الدنيا، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما خلّفوا وراءهم من أسباب الدنيا ونكد عيشها، للخفض الذي صاروا إليه والدعة والزّلفة»[2].

فهؤلاء الشهداء يستبشرون بمن لم يلحق بهم من إخوانهم بأن لهم من الكرامة والزلفى في الجنة وأنهم لا خوف عليهم ولاهم يحزنون وذلك لما رأوه من كرامة حصلت لهم.

قال المراغي: «﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: هم يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم أحياء، وهي أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية، لا يكدرها خوف من وقوع مكروه من أهوالها، ولا حزن من فوات محبوب من نعيمها»[3].

وقال صاحب تفسير المنار: «وقوله: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بدل اشتمال من الذين لم يلحقوا بهم،

(١) العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٣٠١- ٣٠٢.

(٢) جامع البيان، ٧/ ٣٩٥.

(٣) تفسير المراغي، ٤/ ١٣٢-١٣٣.

أي: يستبشرون بهم من حيث إنه لا خوف عليهم، فالخوف والحزن على هذا منفيان عن الذين لم يلحقوا بهم. أو الباء للسببية والمعنى بسبب أنه لا خوف عليهم إلخ. وحينئذ يحتمل أن يكونا منفيين عنهم أنفسهم، أي: إن الفرح والاستبشار يكونان شاملين لهم بحالهم وبحال من خلفهم من إخوانهم بسبب انتفاء الخوف والحزن عنهم وهم حيث هم. كما يحتمل أن يكون المراد نفيهما عن الذين لم يلحقوا بهم أيضًا، والمختار عندي أن المراد بنفي الخوف والحزن نفيهما عن الذين لم يلحقوا بهم ممن قاتل معهم ولم يقتل، وأن الآية الآتية مفسرة لذلك. والخوف: تألم من مكروه يتوقع، والحزن: تألم من مكروه وقع، وقد قيل إن المراد بالخوف والحزن: ما يكون في الدنيا، وقيل: بل المراد ما يكون في الآخرة. ويجوز أن يكون المعنى أنه لا خوف عليهم في الدنيا من استئصال المشركين لهم أو ظفرهم بهم ثانية، ولا هم يحزنون في المستقبل البعيد عندما يقدمون على ربهم في الآخرة»[1].

فتحصل من أقوال المفسرين أن الحزن منفي عن الشهداء ومن سيلحق بهم عندما يقدمون على ربهم سبحانه وتعالى، ويدخلهم جنته ودار كرامته.

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٩٣.

علاج الحزن

في القرآن الكريم والسنة النبوية العلاج الكافي والبلسم الشافي لحالات الحزن، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده؛ إذ أنه سبحانه وتعالى جعل القرآن الكريم شفاءً ورحمة للمؤمنين، وما عليهم سوى العودة إلى كتاب ربهم، وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ليفوزوا بالسعادة والطمأنينة والراحة في الدارين، ومن هذه العلاجات الربانية التي ذكرت في القرآن الكريم ما سيكون بيانه في النقاط الآتية:

أولًا: الإيمان والعمل الصالح:

أنجع الأدوية، وأفضل العلاجات، وأشفى العقاقير للهم والحزن؛ الإيمان والإكثار من الأعمال الصالحة، حيث إن المؤمن بربه يرضى بالقضاء والقدر، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، ويعلم أن في هذا الابتلاء والامتحان خيرًا كثيرًا وأجرًا كبيرًا، وأن المصائب والنكبات التي تنزل به يخفف الله بها عليه من الخطايا والسيئات، ويستحضر قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم، من نصبٍ ولا وصبٍ، ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذًى ولا غمٍّ، حتّى الشّوكة يشاكها، إلّا كفّر اللّه بها من خطاياه)[2].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب

ثم إن المؤمن المحتسب واثق بوعد الله سبحانه وتعالى له بقوله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

فالحياة الطيبة يزول معها الهم والحزن.

ولعل السبب في ذلك أن المؤمنين بالله سبحانه وتعالى الإيمان الحقيقي الذي من ثمرته وتمامه العمل الصالح معهم أصول وأسس يتلقون فيها جميع ما يرد عليهم من المحبات والمسرات بقبول وشكر لله عليها، كما يتلقون المكاره والهم والغم والحزن بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، والصبر الجميل لما لا بد من وقوعه.

كما أن الإيمان باليوم الآخر وتصوره عند المؤمن يجعله يعلم أن الدنيا لا تساوي شيئًا؛ فهي قصيرة جدًّا، ومتاعها زائل وكل ما عليها سيفنى. . فعندما يفقد عزيزًا يعرف أنه سيلتقي به في الآخرة - إن شاء الله-، وما عند الله خير وأبقى، وأنه إذا صبر وجد الأجر العظيم في ذلك اليوم، فهذا الإيمان يهون المصيبة ويخفف الحزن، ويجعل المؤمن مقبلًا على الله راجيًا ثوابه، محتسبًا كل ما أصابه.

وعند الرجوع إلى كتاب الله سبحانه وتعالى نجد أن هذا العلاج قد ذكر في أكثر من آية وهذه هي النصوص الدالة على ذلك:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:٣٨].

أي: انزلوا من الجنة إلى الأرض لتعيشوا فيها[1]، وهذا الأمر لبيان أن طور النعيم والراحة قد انتهى وجاء طور العمل، وفيه طريقان: هدى وإيمان، وكفر وخسران[2]، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ الخطاب لآدم وزوجه وإبليس، والمراد ذريته، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي: فمن استمسكوا بالشرائع التي أتى بها الرسل، وراعوا ما يحكم العقل بصحته بعد النظر في الأدلة التي في الآفاق والأنفس[3].

وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، جواب شرط فمن اتبع هداي، ومعناه: اتباع الهدى يفضي بالعبد إلى أن لا يخاف ولا يحزن لا في الدنيا ولا في الآخرة[4].

فالمهتدون بهدى الله لا يخافون مما هو آت، ولا يحزنون على ما فات، فإن من سلك سبيل الهدى سهل عليه كل ما أصابه

المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ٧/ ١١٤، رقم ٥٦٤١.

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٤٧.
(٢) انظر: تفسير المراغي، ١/ ٩٧.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٤٧.

أو فقده، لأنه موقن بأن الصبر والتسليم مما يرضي ربه، ويوجب مثوبته، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاته، وأحسن عزاء عما فقده، فمثله مثل التاجر الذي يكدّ ويسعى وتنسيه لذة الربح آلام التعب[1].

قال السعدي: «﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي: أيّ وقت وزمان جاءكم مني -يا معشر الثقلين- هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه:١٢٣].

فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء؛ نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته»[2].

ومن الآيات الدالة على أن الإيمان والعمل الصالح علاج للحزن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة:٦٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة:٦٩].

والمعنى، أي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم هم الذين يستحقون الوصف بالإيمان المطلق، حيث آمنوا بجميع الكتب، والرسل. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: الذين انتسبوا إلى دين اليهود. وهي شريعة موسى، ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ أي: الذين انتسبوا إلى دين عيسى. ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾: اختلف فيهم على عدة أقوال؛ فمن العلماء من يقول: إن الصابئين فرقة من النصارى؛ ومنهم من يقول: إنهم فرقة من اليهود؛ ومنهم من يقول: إنهم فرقة من المجوس؛ ومنهم من

(١) انظر: تفسير المراغي، ١/ ٩٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠.

يقول: إنهم أمة مستقلة تدين بدين خاص بها؛ ومنهم من يقول: إنهم من لا دين لهم: من كانوا على الفطرة؛ ولا يتدينون بدين. فإذا أرسل إليهم الرسل فآمنوا بالله واليوم الآخر ثبت لهم انتفاء الخوف، والحزن، كغيرهم من الطوائف الذين ذكروا معهم[1].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ هذا بدل ممن قبله عائد إلى الذين هادوا، والنصارى، والصابئين. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: ثوابهم؛ وسمى الله تعالى «الثواب» أجرًا؛ لأنه سبحانه وتعالى التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أضاف ربوبيته إليهم على سبيل الخصوص تشريفًا، وتكريمًا، وإظهارًا للعناية بهم؛ فهذه كفالة من الله عز وجل، وضمان، والتزام بهذا الأجر؛ فهو أجر غير ضائع.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من كل مما يخاف في المستقبل: من عذاب القبر، وعذاب النار، وغير ذلك.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: على ما مضى من الدنيا؛ لأنهم انتقلوا إلى خير منها[2].

يقول ابن كثير: «نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه»[3].

وقال القشيري: «اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول، فمن صدّق الحق سبحانه في آياته، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته، فتباين الشرع واختلاف وقوع الاسم غير قادح في استحقاق الرضوان، لذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ ثم قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، أي: إذا اتفقوا في المعارف فالكلّ لهم حسن المآب، وجزيل الثواب. والمؤمن من كان في أمان الحق سبحانه، ومن كان في أمانه سبحانه وتعالى فبالأحرى ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[4].

فثمرة الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح، هو حصول الأجر، وانتفاء الخوف مما يستقبل، والحزن على ما مضى[5].

ومن الآيات الدالة على أن الإيمان علاج للحزن قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة:١١٢].

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ١/ ٢٢١-٢٢٢.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ١٨٢.
(٤) لطائف الإشارات، ١/ ٩٦.
(٥) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ١/ ٢٢٣.

والمعنى، أي: بلى إنه يدخلها من لم يكن هودًا ولا نصارى، إذ رحمة الله لا تختصّ بشعب دون شعب، بل كل من عمل لها وأخلص في عمله، فهو من أهلها.

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أي: كل من انقاد لله وأخلص في عمله، فله الجزاء على ذلك عند ربه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

والآية ترشد إلى أن الإيمان الخالص لا يكفي وحده للنجاة، بل لا بد أن يقرن بإحسان العمل، وقد جرت سنة القرآن إذا ذكر الإيمان أردفه عمل الصالحات كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤].

ثم قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: إن الذين أسلموا وجوههم لله وأحسنوا العمل لا تساور نفوسهم مخاوف ولا أحزان، كما تختلج صدور الذين أشرب قلوبهم حبّ الوثنية، وأعرضوا عن الهداية، إذ من طبيعة المؤمن أنه إذا أصابه مكروه بحث عن سببه واجتهد في تلافيه، فإن لم يمكنه دفعه فوّض أمره إلى ربه، ولم يضطرب ولم تهن له عزيمة، علمًا منه بأنه قد ركن إلى القوة القادرة على دفع كل مكروه، وتوكل على من بيده دفع كل محظور.

أما عابدو الأوثان والأصنام فهم في خوف مما يستقبلهم، وحزن مما ينزل بهم، فإذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم داخلهم الهلع ولم يستطيعوا صبرًا على البأساء، وهم يستخذون للدجّالين والمشعوذين، ويعتقدون بسلطة غيبية لكل من يعمل عملًا لا يهتدون إلى معرفة سببه[1].

وخص الوجه، لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه[2].

ويفهم من الآية، أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول[3].

ومن الآيات التي دلت على أن الإيمان والعمل الصالح علاج للأحزان قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:٢٧٧].

فالآية ذكرت أن الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وهاتان من الأعمال الصالحة، فإنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ومعنى الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به؛ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: عملوا الأعمال

(١) انظر: تفسير المراغي، ١/ ١٩٥.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٣٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣.

الصالحات؛ وهي المبنية على الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أتوا بها قويمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها؛ وعطفها على العمل الصالح من باب عطف الخاص على العام؛ لأن إقامة الصلاة من الأعمال الصالحة، ونص عليها لأهميتها.

﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي: أعطوا الزكاة مستحقها؛ والزكاة: هي النصيب الذي أوجبه الله عز وجل في الأموال الزكوية.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم ثوابهم عند الله.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبل من أمرهم.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فيما مضى من أمرهم[1].

وهذه الآية لها مناسبة بالآيات التي قبلها والتي تحدثت عن الربا ونهت عنه.

يقول أبو حيان الأندلسي: «مناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة، وذلك أنه لما ذكر حال آكل الربا، وحال من عاد بعد مجيء الموعظة، وأنه كافر أثيم، ذكر ضد هؤلاء ليبين فرق ما بين الحالين»[2].

ونجد أن الإمام الطبري عندما فسرها ربطها بما قبلها فقال: «هذا خبر من الله عز وجل بأن الذين آمنوا، يعني الذين صدقوا بالله وبرسوله، وبما جاء به من عند ربهم، من تحريم الربا وأكله، وغير ذلك من سائر شرائع دينه.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي أمرهم الله عز وجل بها، والتي ندبهم إليها.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة بحدودها، وأدّوها بسننها.

﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة عليهم في أموالهم، بعد الذي سلف منهم من أكل الرّبا، قبل مجيء الموعظة فيه من عند ربهم.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ يعني: ثواب ذلك من أعمالهم وإيمانهم وصدقتهم.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يوم حاجتهم إليه في معادهم.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يومئذ من عقابه على ما كان سلف منهم في جاهليتهم وكفرهم قبل مجيئهم موعظة من ربهم، من أكل ما كانوا أكلوا من الربا، بما كان من إنابتهم، وتوبتهم إلى الله عز وجل من ذلك عند مجيئهم الموعظة من ربهم، وتصديقهم بوعد الله ووعيده.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على تركهم ما كانوا تركوا في الدنيا من أكل الربا والعمل به، إذا عاينوا جزيل ثواب الله تبارك وتعالى، وهم على تركهم ما تركوا من ذلك في الدنيا

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ٣٨٠.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧١١.

ابتغاء رضوانه في الآخرة، فوصلوا إلى ما وعدوا على تركه»[1].

فهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ليس عليهم خوف من مستقبل أمرهم؛ ولا حزن فيما مضى من أمرهم؛ لأنهم فعلوا ما به الأمن التام، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢][2].

كذلك ذكر الله سبحانه وتعالى أنه من آمن وأصلح فإنه لا خوف عليه ولا حزن، وهذا يدل على أن هاتين الصفتين علاج للحزن، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام:٤٨].

أي: وما نرسل رسلنا إلا ببشارة أهل الطاعة لنا بالجنة والفوز المبين يوم القيامة، جزاءً منّا لهم على طاعتنا، وبإنذار من عصانا وخالف أمرنا، عقوبتنا إياه على معصيتنا يوم القيامة، جزاءً منا على معصيتنا، لنعذر إليه فيهلك إن هلك عن بينة.

﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾، أي: فمن صدّق من أرسلنا إليه من رسلنا إنذارهم إياه، وقبل منهم ما جاؤوه به من عند الله، وعمل صالحًا في الدنيا ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، عند قدومهم على ربهم، من عقابه وعذابه الذي أعدّه الله لأعدائه وأهل معاصيه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، عند ذلك على ما خلّفوا وراءهم في الدنيا[3].

قال أبو زهرة عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: «أي: فمن أذعن للحق، وآمن بما جئت به، وجعل هواه تبعًا لما تدعو إليه فله الجزاء الأوفى، ودعم الإذعان الحق بالعمل الصالح، فالإيمان من غير عمل أجوف أجرد لا ينتج بذاته، ومن آمن وعمل صالحًا فإنه لا يحزن على ما فاته في الماضي، بل يطمئن بذكر الله، ولا يخاف من المستقبل لأنه يرجو ما عند الله تعالى»[4].

وقال وهبة الزحيلي: «فمن آمن وأصلح عمله بامتثال الطاعات، واتّباع الرّسل، فلا خوف عليهم من مخاطر المستقبل، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ولا على شيء يصادفهم يوم لقاء الله. وهذا وعد ثابت محقق»[5].

وفي الآية لطيفة ذكرها الشنقيطي، حول إلى ماذا ينصرف الإيمان والإصلاح، فقال: «وقوله هنا: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾

(١) جامع البيان، ٦/ ٢١.
(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ٣٨٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٦٩.
(٤) زهرة التفاسير، ٥/ ٢٥٠٧.
(٥) التفسير الوسيط، ١/ ٥٥٢.

انصرف الإيمان إلى ركنه الأكبر، وهو الاعتقاد القلبيّ، وصار الإصلاح بعده يراد به الأعمال، كما قال تعالى هنا: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ آمن قلبه وأذعن واعتقد ما يجب اعتقاده إثباتًا ونفيًا، وأصلح-مع ذلك الإيمان القلبيّ عمله-بجوارحه ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ آمن قلبه، وأصلح عمل جوارحه، بأن امتثل الأوامر، واجتنب النواهي، هذا القسم من الناس هم المبشّرون الذين فيهم: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ وقال الله فيهم: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني يوم القيامة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وثمرة هذا الإيمان ندركه في إيمان زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، بما قدره الله لهن، فهن رضي الله عنهن مسلّمات لأمر الله راضيات به، ونعرف ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب:٥١].

والمعنى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي: تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك، وتضاجع من تشاء، ولا يجب عليك قسم بينهن، بل الأمر في ذلك إليك، على أنه كان يقسم بينهن.

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ﴾ أي: ومن دعوت إلى فراشك، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق، فلا ضيق عليك في ذلك.

ثم بين السبب في الإيواء والإرجاء، وأنه كان ذلك في مصلحتهن، فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، وأنت مع هذا تقسم لهن اختيارًا منك لا وجوبًا عليك، فرحن بذلك، واستبشرن به، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن، وتسويتك بينهن، وإنصافك لهن، وعدلك بينهن.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه، ومن الرضا بما دبر له في حقهن من تفويض الأمر إليه صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا حث على تحسين ما في القلوب، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله له من ذلك، وفوضه إلى مشيئته، وبعث على تواطؤ قلوبهن، والتصافي بينهن، والتوافق على رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي: وكان

(١) العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٢٨٣.

الله عليمًا بالسرائر، حليمًا فلا يعاجل أهل الذنوب بالعقوبة، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب، وينيب من ذنوبه من ينيب[1].

يقول الألوسي: «﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: تفويض الأمر إلى مشيئتك أقرب إلى قرة عيونهن وسرورهن ورضاهن جميعًا؛ لأنه حكم كلهن فيه سواء، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلًا منك، وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله تعالى فتطمئن به نفوسهن»[2].

ويقول طنطاوي: «والمعنى، ذلك الذي شرعناه لك من تفويض الأمر إليك في شأن أزواجك، أقرب إلى رضا نفوسهن لما تصنعه معهن، وأقرب إلى عدم حزنهن وإلى قبولهن لما تفعله معهن؛ لأنهن يعلمن أن ما تفعله معهن إنما هو بوحي من الله تعالى وليس باجتهاد منك، ومتى علمن ذلك طابت نفوسهن سواء سويت بينهن في القسم والبيتوتة والمجامعة، أم لم تسو...

وكان عليه الصلاة والسلام مع هذا يشدد على نفسه في رعاية التسوية بينهن، تطييبًا لقلوبهن، ويقول: (اللهم هذه قدرتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)[3]»[4].

فإيمانهن بالله ورسوله وحبهن لله ورسوله جعلهن يرضين بهذه القسمة، ولولا ذلك لدخل في أنفسهن حزن، ولكنهن -رضي الله عنهن جميعًا- تقبلن هذا بالرضا والتسليم. وبهذا ندرك أهمية الإيمان ومكانته في القلوب.

ومن خلال الآيات السابقة وتأويل المفسرين لها يتبين لنا أن علاج الحزن هو الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، والإيمان بالقضاء والقدر، والأعمال الصالحة من صلاة وزكاة وسائر أعمال الطاعة، وإصلاح القلب والعمل، وتقوى الله في السر والعلن، وترك ما حرم الله من الشرك والكبائر والصغائر.

ثانيًا: التقوى:

«التقوى: هي ترك ما تهوى لما تخشى»[5] بهذا عرفها الإمام أحمد.

وقال طلق بن حبيب: «التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب

(١) تفسير المراغي، ٢٢/ ٢٤.
(٢) روح المعاني، ١١/ ٢٣٩.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، ٣/ ٤٣٨، رقم ١١٤٠، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، ١/ ٦٣٣، رقم ١٩٧١.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير، رقم ٤٥٩٣.
(٤) التفسير الوسيط، ١١/ ٢٣٣.
(٥) الآداب الشرعية، ابن مفلح ٢/ ٢٤٢.

الله، وأن تترك معصية الله، على نورٍ من الله، تخاف عقاب الله»[1].

وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه[2].

وحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالناهي وخوفًا من وعيده[3].

والتقوى من علاجات الحزن وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾ [الأعراف:٣٥].

أي: يا بني آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم من البشر يتلون عليكم آياتي التي أنزلها عليكم لبيان ما آمركم به من صالح الأعمال وترك ما أنهاكم عنه من الشرك والرذائل وقبيح الأعمال، فمن اتقى منكم ما نهيته عنه، وأصلح نفسه بفعل ما أوجبته عليه؛ فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة، ولا هم يحزنون حين الجزاء على ما فاتهم[4].

قال ابن كثير: «﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات»[5].

وقال السعدي: «لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم أحكامه، ثم ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم فقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ما حرم الله، من الشرك والكبائر والصغائر، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدي»[6].

وذكر الله سبحانه وتعالى أيضًا أن المتقين هم الفائزون، الذين لا خوف عليه ولاهم يحزنون.

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١﴾ [الزمر:٦١].

أي: بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر بل هم آمنون من كل فزع مزحزحون عن كل شر مؤملون كل خير[7].

يقول السعدي: «ولما ذكر حالة المتكبرين، ذكر حالة المتقين، فقال: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ أي:

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٧/ ١٦٣.
(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب١/ ٣٩٨.
(٣) الرسالة التبوكية، ابن القيم ص ١٣.
(٤) انظر: تفسير المراغي، ٨/ ١٤٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٦٨.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٨٧.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٠٠.

بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند كل هول وشدة. ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ﴾ أي: العذاب الذي يسوؤهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤]»[1].

فالله سبحانه ينجي من جهنم وعذابها، الذين اتقوه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه في الدنيا[2].

يقول المراغي: «﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: وينجّي الله من عذاب جهنم الذين اتقوا الشرك والمعاصي وينيلهم ما يبتغون، ويعطيهم فوق ما كانوا يؤملون.

﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يمسهم أذى جهنم ولا يحزنون على ما فاتهم من مآرب الدنيا، إذ هم قد صاروا إلى ما هو خير منه، نعيم مقيم، في جنات تجري من تحتها الأنهار، ورضوان من الله أكبر.

وخلاصة ذلك: أنهم أمنوا من كل فزع، وبعدوا من كل شر، وفازوا بكل خير»[3].

كما أنّ الله تعالى ذكر أن المتّقي يجعل له من كل همّ فرجًا، ومن كلّ ضيقٍ مخرجًا، ومن كلّ بلاءٍ عافية، ومن كل عسر يسرًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

قال الرّبيع بن خثيم: «يجعل له مخرجًا من كلّ ما ضاق على النّاس»[4]. وكذلك يكفر الله سيئاته ويعظم أجره، ويضاعف حسناته؛ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥].

قال ابن كثير: «أي: يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثّواب على العمل اليسير»[5].

ومن كان هذا ثوابه وهذه الفضائل والمكرمات جزاؤه فكيف يحزن، ولم يحزن؟! جعلنا الله من المتقين.

ومما يتبين لنا أن التقوى علاج للحزن ما ذكره ابن القيم عندما ذكر مراتب التقوى فقال: «التّقوى ثلاث مراتب إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرّمات،

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٢٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣١٩.
(٣) تفسير المراغي، ٢٤/ ٢٧.
(٤) روائع التفسير، ابن رجب الحنبلي ١/ ٥٧٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ١٧٤.

الثّانية: حميتها عن المكروهات، الثّالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني. فالأولى: تعطي العبد حياته، والثّانية: تفيده صحّته وقوته، والثّالثة: تكسبه سروره وفرحه وبهجته»[1].

وبعد الذي سبق ندرك أن التقوى وإصلاح القلب والعمل من علاجات الحزن، وهذه هي العلاجات الربانية الشافية، مع ما تقدم من الإيمان والعمل الصالح.

ثالثًا: الاستقامة:

الاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم، من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك[2].

وعرفها القشيري فقال: «الاستقامة هي الثبات على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلال بشيء من أقسامها»[3].

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «أصل الاستقامة استقامة القلب على التّوحيد»[4].

والاستقامة ذكرها الله سبحانه وتعالى في موطنين على أنها سبب في عدم الخوف والحزن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف:١٣].

أي: وحدوا الله تعالى وآمنوا به، ثم استقاموا فلم يحيدوا عن التوحيد، والتزموا طاعته سبحانه وتعالى، إلى أن توفوا على ذلك[5].

أي: إن الذين جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة في الدين التي هي منتهى العمل، وثمّ للتراخي الرتبي فالعمل متراخي الرتبة عن التوحيد، وقد نصوا على أنه لا يعتد به بدونه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات محبوب[6].

وقد فسر الصحابة رضي الله عنهم الاستقامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، بالتوحيد، وأداء الفرائض، والاستجابة للأمر والنهي، وإخلاص العمل لله تعالى:

سئل صدّيق الأمّة وأعظمها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استقامة أبو بكر

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٣١.
(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/ ٥١٠.
(٣) لطائف الإشارات، ٣/ ٣٢٧.
(٤) جامع العلوم والحكم، ١/ ٥١١.
(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ٩.
(٦) روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٧٣.

الصّدّيق رضي الله عنه عن الاستقامة فقال: «ألّا تشرك بالله شيئا»، يقول ابن القيم معلقًا على هذا: «يريد الاستقامة على محض التّوحيد»[1].

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنّهي، ولا تروغ روغان الثّعالب»، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «استقاموا: أخلصوا العمل لله». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس -رضي الله عنهما-: «استقاموا: أدوا الفرائض». وقال أيضًا ابن عباس: «أخلصوا له الدّين والعمل. وقال فيها: استقاموا على طاعة اللّه»[2].

وهذه الاستقامة لا تكون في حال دون حال بل يكون حال صاحبها دائمًا عليها حتى يلقى ربه، وهذا هو الذي يفهم من الآية، يقول القشيري: «﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: ثم حرف يقتضي التراخي، فهو لا يدل على أنهم في الحال لا يكونون مستقيمين، ولكن معناه استقاموا في الحال، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانهم إلى وقت خروجهم من الدنيا، وهو آخر أحوال كونهم مكلّفين»[3].

ويقول الألوسي: «أي داوموا على الاستقامة دوامًا متراخيًا ممتد الأمد وتلك الاستقامة هي المعتبرة لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات»[4]. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة»[5].

وقد رتب الله على الاستقامة ثمارًا عظيمة يجد صاحبها ذلك في حياته وعند مماته وبعد مماته؛ ومنها:

- تتنزل عليه الملائكة عند الموت تبشره بالجنة.
- لا خوف عليه من فزع يوم القيامة وأهواله.
- لا يحزن على ما فاته ولا ما خلفه بعد مماته.
- يعيش مطمئنًّا هادئ البال؛ لأنه قائم بما أمره الله به.

وهذا ما دلت عليه الآيتان السابقتان.

يقول الإمام الطبري: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الذي لا إله غيره ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ على تصديقهم بذلك فلم يخلطوه بشرك، ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم»[6].

ويقول القشيري: «من كان له أصل الاستقامة أمن من الخلود في النار، ومن له

(١) مدارج السالكين، ٢/ ١٠٤.
(٢) ذكر هذه النقول ابن القيم، انظر: مدارج السالكين ٢/ ١٠٤.
(٣) لطائف الإشارات، ٣/ ٣٢٧.
(٤) روح المعاني، ٢/ ٣٣.
(٥) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٠٦.
(٦) جامع البيان، ٢٢/ ١١١.

كمال الاستقامة أمن من الوعيد من غير أن يلحقه سوء بحال»[1].

فالإيمان والاستقامة سببان في الاطمئنان النفسي، والراحة القلبية، وهما علاجٌ شافٍ للهم والحزن، ولذا نجد أن الله سبحانه وتعالى قرنهما معا في الآيتين السابقتين، وختم كلا الآيتين بأنهم لا خوف عليه ولا هم يحزنون.

رابعًا: الإحسان:

(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[2]، هكذا عرفه النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد جاءت كلمة الإحسان في القرآن الكريم كلمة جامعة بحيث شملت الحياة كلها، كعلائق الإنسان بخالقه جل وعلا، وعلائقه بالمخلوقات قاطبة، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: «أجمع آية في القرآن لخير أو لشر»[3].

والإحسان في العلاقة بين العبد وربه وبينه وبين خلقه من أسباب ذهاب الحزن، والله سبحانه وتعالى قد وعد من أحسن أنه لا خوف عليه ولا حزن، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة:١١٢].

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية التي قبل هذه أن اليهود والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان منهم، ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾، فرد الله عليه بقوله: ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة:١١١-١١٢].

فاليهود والنصارى حكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أماني غير مقبولة، إلا بحجة وبرهان، وهكذا كل من ادعى دعوى، لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا، فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان، علم كذبهم بتلك الدعوى[4].

(١) لطائف الإشارات، ٣/ ٣٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إن الله عنده علم الساعة)، ٦/ ١١٥، رقم ٤٧٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام، ١/ ٣٦، رقم ٨.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٨٠.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢.

وقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

المعنى: بلى إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنّة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره. وإنما عبر عن النفس بالوجه؛ لأنه أشرف الأعضاء، ومجمع المشاعر، وموضع السجود، ومظهر آثار الخضوع. أو المعنى: من أخلص توجهه وقصده، بحيث لا يلوي عزيمته إلى شيء غيره ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله، موافق لهديه صلى الله عليه وسلم، وإلا لم يقبل، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ)[1]. ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ وهو عبارة عن دخول الجنة، وتصويره بصورة الأجر للإيذان بقوة ارتباطه بالعمل.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات مطلوب[2].

فرحمة الله ليست خاصة بشعب دون شعب، وإنما هي مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، وهو ما بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[3].

قال الطنطاوي: «وقوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ المراد به اتجه إليه، وأذعن لأمره، وأخلص له العبادة، وأصل معناه الاستسلام والخضوع. وخص الله تعالى الوجه دون سائر الجوارح بذلك، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة، فإذا خضع الوجه الذي هو أكرم أعضاء الجسد فغيره من أجزاء الجسد أكثر خضوعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ من الإحسان، وهو أداء العمل على وجه حسن أي: مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشريف. والمعنى: ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله، وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن، فإنه يدخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[4].

وعند قراءة الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر الله التوحيد والإيمان الخالص ولم يحمل عليه الوعد بالأجر عند الله تعالى واستحقاق الكرامة في دار المقامة إلا بعد أن قيده بإحسان العمل، فقال: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، ٣/ ١٣٤٣، رقم ١٧١٨.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٣٧٦.
(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٥١.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٢٥٠.

﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾، وتلك سنة القرآن تقرن الإيمان بعمل الصالحات، كقوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٣-١٢٤].

فنفى أماني المسلمين كما نفى أماني أهل الكتاب، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطًا بالإيمان والعمل الصالح معًا[(١)].

يقول سيد قطب: «هنا يقرر قاعدة من قواعد التصور الإسلامي في ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد. إنما هو الإسلام والإحسان، لا الاسم والعنوان ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[(٢)].

ثم قال: «و﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. . فأخلص ذاته كلها لله، ووجّه مشاعره كلها إليه، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر للخطيئة.. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾. هنا تبرز سمة الإسلام الأولى: إسلام الوجه-والوجه رمز على الكل-ولفظ أسلم يعني الاستسلام والتسليم. الاستسلام المعنوي والتسليم العملي. ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. . فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك، بين العقيدة والعمل، بين الإيمان القلبي والإحسان العملي.. بذلك تستحيل العقيدة منهجًا للحياة كلها وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. الأجر المضمون لا يضيع عند ربهم.. والأمن الموفور لا يساوره خوف، والسرور الفائض لا يمسه حزن.. وتلك هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعًا. فلا محسوبية عند الله سبحانه ولا محاباة»[(٣)].

والآية ذكرت جزاء من أسلم وجهه لله وهو محسن بأن أجره على الله ولا خوف عليه ولا حزن، ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه[(٤)].

وقد أفادت الآية الكريمة ما يأتي:

- إثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٥١.
(٢) في ظلال القرآن، ١/ ١٠٣.
(٣) المصدر السابق، ١/ ١٠٤.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦٧.

- بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة، إلا إذا أسلموا وجوههم لله، وأحسنوا له العمل فيكون ذلك ترغيبًا لهم في الإسلام، وبيانًا لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة، لكي يقلعوا عما هم عليه، ويعدلوا عن طريقتهم المعوجة.
- بيان أن العمل المقبول عند الله تعالى يجب أن يتوفر فيه أمران:

أولهما: أن يكون خالصًا لله وحده.

ثانيهما: أن يكون مطابقًا للشريعة التي ارتضاها الله تعالى وهي شريعة الإسلام[1].

- المحسن أشرح الناس صدرًا وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا[2].

ونخلص من هذا أن الإحسان جزاؤه عظيم، والمتصف به موعود بالأجر الكثير، وأنه لا خوف عليه ولا حزن، وهذا هو الذي يسعى إليه الناس ويرجونه.

خامسًا: ولاية الله عز وجل:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وولاية الله موافقته بأن تحب ما يحب وتبغض ما يبغض وتكره ما يكره وتسخط ما يسخط وتوالي من يوالي وتعادي من يعادي»[3].

ومن كان وليًّا لله سبحانه وتعالى فلا شك ولا ريب أن المعية الإلهية تحوطه وتحفظه وتسدده، ويعيش عيشة مطمئنة، لا خوف فيها ولا حزن، ولا هم ولا غم، ولا نكد ولا كدر.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس:٦٢].

أي: إن أولياء الله الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده والتوكل عليه ولا يتخذون له أندادًا يحبونهم كحبه، ولا يتخذون من دونه وليًّا ولا شفيعًا يقربهم إليه زلفى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة مما يخاف منه الكفار والفساق والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من لحوق مكروه أو ذهاب محبوب، ولا يعتريهم ذلك فيها، لأن مقصدهم نيل رضوان الله المستتبع للكرامة والزلفى، ولا ريب في حصول ذلك ولا خوف من فواته بموجب الوعد الإلهي[4].

يقول السعدي: «يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا،

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٢٥٠.
(٢) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٢/ ١٤٢٨.
(٣) الاستقامة، ٢/ ١٢٨.
(٤) انظر: تفسير المراغي، ١١/ ١٢٩.

لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى»[1].

وقال الإمام الشوكاني: «والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين؛ كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته، وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٣].

أي: يؤمنون بما يجب الإيمان به ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه»[2].

وقال الدكتور إبراهيم هلال: «وهذا المعنى الذي يدور بين الحب والقرب هو الذي أراده القرآن الكريم من كلمة ولي ومشتقاتها في كل موضع أتى بها فيه سواء في جانب أولياء الله أو في جانب أولياء أعداء الله وأعداء الشيطان»[3].

ثم إن من شرط ولاية الله سبحانه وتعالى هو أن يؤمن الإنسان بالله وبرسوله وأن يتبع الرسول في الظاهر والباطن، وكل من يدعي محبة الله وولايته بدون متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كاذب.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وذكرت الآية جزاء هؤلاء فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قال أبو السعود: «﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدارين من لحوق مكروهٍ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات مطلوب، أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك، لا أنه يعتريهم، لكنهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنه لا يعتريهم خوفٌ وحزنٌ أصلًا، بل يستمرون على النشاط والسرور، كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظامًا لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارًا للجد والسعي في إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواصّ والمقرّبين، والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما، كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعًا لما مر مرارًا من أن النفي إن دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام، وإنما يعتريهم ذلك؛ لأن مقصدهم ليس إلا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزّلفى، وذلك مما لا ريب في حصوله ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة إليه تعالى، وأما ما عدا ذلك من الأمور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهي بمعزل من الانتظام في سلك مقصدهم وجودًا وعدمًا حتى يخافوا من حصول ضارّها أو

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٦٨.
(٢) فتح القدير، ٢/ ٥١٩.
(٣) ولاية الله، إبراهيم هلال ص ٧١.

يحزنوا بفوات نافعها»[1].

ولعلنا ندرك كذلك مكانة الولاية وعظيم نفعها عندما نقرأ حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته:كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)[2].

فولي الله إذا حزبه أمر أو نزل به كرب أو ألمت به حاجة فهو دائمًا ملتجئ إلى الله يسأله ويستعيذه ويطلب منه ما يريد، يقول ابن دقيق العيد: «قوله: (ولئن استعاذني لأعيذنه) يدل على أن العبد إذا صار من أهل حب الله تعالى لم يمتنع أن يسأل ربه حوائجه ويستعيذ به ممن يخافه والله تعالى قادر على أن يعطيه قبل أن يسأله وأن يعيذه قبل أن يستعيذه ولكنه سبحانه متقرب إلى عباده بإعطاء السائلين وإعاذة المستعيذين»[3].

(١) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٥٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢.
(٣) شرح الأربعين النووية، ابن دقيق العيد ص ١٢٨.

سادسًا: الشكوى إلى الله:

الحياة لا تخلو من مصائب ومحن، وقد تزيد على الإنسان فلا يجد بدًّا من شكواها؛ ليخفف عن نفسه، وينفس من كربه، وفي سير الأنبياء والصالحين دروس للمصابين، فقد شكوا ما أصابهم إلى ربهم، فعاد عاقبة ذلك سكون القلب وتفريج الكرب.

والشكوى إلى الله عبادة، وهي من أسباب ذهاب الأحزان، وقد ذكر الله عن نبيه يعقوب عليه السلام عندما بلغ به الحزن مبلغًا أنه شكا ذلك إلى ربه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف:٨٦].

أي: قال لهم يعقوب عليه السلام :لست أشكو غميّ وحزني إليكم، وإنما أشكو ذلك إلى الله، فهو الذي تنفع الشكوى إليه، ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون أنتم، فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب[4].

والبث: أشد الحزن، سمي بذلك؛ لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يثبته، أي: يظهره[5]، فإذا شكاه إلى من يفرجه ويكشفه خفف عنه ذلك ونفس عنه ما يجد، فيعقوب

(٤) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٥٩.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٦٨.

عليه السلام عندما زاد حزنه شكا إلى ربه ما يجد من هم وحزن وهو يؤمل أن الله سيكشف كربه ويزيل همه.

قال أبو زهرة: «﴿إِنَّمَا﴾ من أدوات الحصر، أي: أنه لا يشكو همومه العارضة، وأحزانه الدفينة إليكم، بل يشكوها إلى اللّه وحده.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هذه الجملة تحوي في نفسه كل الرجاء الذي يرجوه والأمل الذي يأمله، وفيه دلالة على أنه يعلم أن اللّه كاشف كربه، مزيل همه، وهو من علم اللّه تعالى، لا من علم أحد، يعلمه بالإلهام أولًا، وبرجائه في اللّه ثانيًا، وبرؤيا يوسف الصادقة ثالثًا، ففيها أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ساجدين، وتأويل الرؤيا أن يكون في ظل يوسف، وهو في عز مكين، وإن ذلك واقع لا محالة»[1].

سابعًا: الإنفاق في الخير:

رتب الله سبحانه وتعالى على الإنفاق أجورًا عظيمة، وفضائل كثيرة، يجنيها المنفق في الدنيا والآخرة، بل إن الله سبحانه وتعالى وعد المنفق بالخلف في ماله، ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ:٣٩].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في موطنين من سورة البقرة، أن الذين ينفقون أموالهم في الخير فإن جزاءهم أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وذكر في موطن ثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتو الزكاة، والزكاة هي إنفاق ولكن هذا الإنفاق واجب، فجزاؤهم أنهم لا خوف عليه ولا هم يحزنون.

فهذه المواطن الثلاثة تبين لنا أن الحزن منفي عن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سرًّا وعلانية.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة:٢٦٢].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة:٢٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:٢٧٧].

فقوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: إن الذين يبذلون أموالهم

(١) زهرة التفاسير، ٧/ ٣٨٥٢.

يبتغون بذلك مرضاة ربهم، ولا يتبعون ذلك بمنهم على من أحسنوا إليهم ولا بإيذائهم، لهم عند ربهم ثواب لا يقدر قدره، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس وتفزعهم الأهوال، ولا هم يحزنون حين يحزن الباخلون الممسكون عن الإنفاق في سبيل الله، إذ هم أهل السكينة والاطمئنان والسرور الدائم[1].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: الذين ينفقون أموالهم في كل وقت وكل حال، لا يحصرون الصدقة في الأيام الفاضلة أو رؤوس الأعوام ولا يمتنعون عن الصدقة في العلانية إذا اقتضت الحال العلانية، وإنما يجعلون لكل وقت حكمة ولكل حال حكمها؛ إذ الأوقات والأحوال لا تقصد لذاتها، وقوله: فلهم أجرهم عند ربهم يشعر أن هذا الأجر عظيم، وفي إضافتهم إلى الرب ما فيها من التكريم[2].

يقول المراغي: «المعنى: إن الذين ينفقون أموالهم في جميع الأزمنة وفي سائر الأحوال، ولا يحجمون عن البذل إذا لاح لهم وجه الحاجة إلى ذلك، لهم ثوابهم عند ربهم في خزائن فضله، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين يخاف الباخلون من تبعة بخلهم بالمال وحبسه حين الحاجة إلى بذله في سبيل الله، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من صالح العمل الذي يرجون به ثواب الله.

ذاك أن نفوسهم قد سمت وبلغت حدًّا من الكمال لم يبق لسلطان المال معه موضع في قلوبهم، وأصبحت مرضاته الشغل الشاغل لهم، فلا يستريح لهم بال إلا إذا سدوا خلّة محتاج أو آسوا جراح مكلوم، أو أشبعوا بطن جائع، أو جهزوا جيشًا يسدّون به ثغرة فتحها عدو، وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا الذين يبتغون فضلًا من ربهم ورضوانًا.

وإنما قدم الليل على النهار، والسرّ على العلانية للإيماء إلى تفضيل صدقة السرّ على صدقة العلانية، وجمع بين السرّ والعلانية للإيماء إلى أن لكل منهما موضعًا تقتضيه المصلحة قد يفضل فيه سواه، إذ الأوقات والأحوال لا تقصد لذاتها»[3].

فالآيتان تبين لنا أن الله تبارك وتعالى مدح الذين ينفقون في سبيله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منًّا على ما أعطوه، ولا أذىً مع من أحسنوا إليه، ومدح الذين ينفقون في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل ونهار، والأحوال من

(١) انظر: تفسير المراغي، ٣/ ٣١.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ٧٨.
(٣) تفسير المراغي، ٣/ ٥٢.

سر وجهر[1].

وقد بين الله تعالى في ثلاث جمل حسن عاقبتهم، وعظيم ثوابهم، وهذه الجمل تبين جزاءهم الذي وعدهم الله به وهو ثلاثة أنواع:

أولها: الثواب يوم القيامة، وفي الدنيا، وذلك بالبركة، وبفضل التعاون الذي توجده الصدقة والإنفاق في سبيل الله؛ ثم بالنعيم المقيم يوم القيامة. وقد سمى سبحانه وتعالى ذلك أجرًا، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وسماه في مواضع أخرى جزاء، مع أنه المعطي والمانع، والرازق والباسط، وذلك تفضل منه وكرم، ولتتعلم من الله عدم المنّ في العطاء.

والثاني من الجزاء: الأمن من الخوف؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ والصدقة تؤمن من الخوف في الدنيا وفي الآخرة، فهي أمن من عذاب الله يوم القيامة؛ إذ إنها تكفر السيئات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[هود:١١٤].

وكما قال صلى الله عليه وسلم: (الصدقة تطفئ الخطيئة)[2].

أما الأمن من الخوف في الدنيا، فلأن الإنفاق في مواضع الإنفاق وقاية للمجتمع من غوائل الفقر، وعوامل التخريب، فلا يحصن مال الغني إلا الإنفاق في كل ما يعود على الفقير والمجتمع بالنفع، وإن الأمن من الخوف بالإنفاق واضح كل الوضوح في الإنفاق لإمداد القوات المجاهدة في الدفاع عن الأمة، كما هو واضح في سد حاجات الفقير، وتهيئة فرص الحياة الرفيعة والعمل له.

والثالث من أنواع الجزاء: نفي الحزن، والبعد عن أسبابه. والحزن هم نفسي؛ ولذا عبر عنه بالفعل الذي يصور النفس والشخص فقال سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهم النفس يدفع بالاعتماد على الله، وطلب رضاه، واطمئنان الضمير، وبرد اليقين، وذلك كله يتحقق في الدنيا بالصدقة، وزوال الحزن في الآخرة بها أعظم وأكبر[3].

وقال طنطاوي: «﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يصيبهم ما يؤدي بهم إلى الحزن والهم والغم، لأنهم دائمًا في اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان»[4].

فتحصل مما سبق أن من علاجات الحزن الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته، فمن فعل ذلك وقاه الله الحزن، ودفعه عنه.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب السفر، باب ما ذكر في فضل الصلاة، ٢/ ٥١٣، رقم ٦١٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥١٣٦.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ١٠٣٩ - ١٠٤٠.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٦٣٠.

وبعد هذه النصوص القرآنية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى نرى أن علاج الحزن في كتاب ربنا متوفر، وهو يسير على من يسره الله عليه، فكتاب ربنا ما ترك خيرًا إلا ودلنا عليه ولا شرًّا إلا وحذرنا منه.

موضوعات ذات صلة:

البكاء، السعادة، الغم، الفرح، اليأس

الحساب

عناصر الموضوع

مفهوم الحساب	١٨٠
الحساب في الاستعمال القرآني	١٨١
الألفاظ ذات الصلة	١٨٣
الحساب في حق الله سبحانه وتعالى	١٨٤
أنواع الحساب	١٩٢
أوصاف الحساب	١٩٦
المحاسب عليه	٢٠٠
الإيمان بيوم الحساب وأثره	٢٠٦

مفهوم الحساب

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «(حسب) الحاء والسين والباء أصول أربعة:

فالأول: العد، تقول: حسبت الشيء أحسبه حسبًا وحسبانًا، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرحمن:٥].

والأصل الثاني: الكفاية، تقول شيء حساب، أي: كافٍ.

والأصل الثالث: الحسبان، وهي جمع حسبانة، وهي الوسادة الصغيرة، وقد حسبت الرجل أحسبه، إذا أجلسته عليها ووسدته إياها.

والأصل الرابع: الأحسب الذي ابيضت جلدته من داء ففسدت شعرته، كأنه أبرص»[(١)].

والحساب في اللغة مأخوذ من قولهم: حسبك كذا، أي: كفاك، فسمي الحساب في المعاملات حسابًا؛ لأنه يعلم به ما فيه كفاية، وليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان، والحسبان الظن[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المراد بالحساب هنا: المؤاخذة والمجازاة، فالحساب: ما يحاسب عليه فيجازى بحسبه[(٣)].

والمعنى الاصطلاحي مرتبط بمعنى الحساب في اللغة، فالجزاء على الفعل بما يناسب شدته من شديد العقاب، تشبيهًا لتقدير الجزاء بإجراء الحساب بين المتعاملين، وهو الحساب في الدنيا[(٤)].

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٥٩.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٨٧، الصحاح، الجوهري ١/ ١١٠، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٢٦٨.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤٦٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨ / ٣٣٤.

الحساب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حسب) في القرآن (١٠٩) مرات، يخص موضوع الحساب منها (٤٧) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق:٨]
الفعل المضارع	٢	﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]
المصدر	٤٢	﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص:٣٩]
اسم الفاعل	٢	﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ [الكهف:٤٠]

وجاء الحساب في الاستعمال القرآني على عدة أوجه[(٢)]:

الأول: العدد: مثل قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[الإسراء:١٢]، يعني: عدد الأيام والشهور.

الثاني: الكثير: مثل قوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ:٣٦]، يعني: كثيرًا، بواحد عشرًا.

الثالث: المحاسبة، والعرض: مثل قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق:٨]، وهو: العرض للحساب.

الرابع: التقتير: مثل قوله تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠]، يعني: بلا فوت ولا تقتير.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ١٨٦- ١٨٧، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١٧٠-١٧١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٢٥٠-٢٥١، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ١٨٩- ١٩٠.

الخامس: الجزاء: مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء:١١٣]، **أي: ما جزاؤهم.**

السادس: العذاب: مثل قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ [الكهف:٤٠]، **أي: عذابًا من السماء.**

الألفاظ ذات الصلة

١ الجزاء:

الجزاء لغة:

المكافأة على الشيء[(١)].

الجزاء اصطلاحًا:

هو الغناء والكفاية والمكافأة بالشيء وما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان:٣٣][(٢)].

الصلة بين الحساب والجزاء:

أن كلًّا منهما يقال في المجازاة على الخير والشر.

٢ الثواب:

الثواب لغةً:

الثواب اسم للمصدر؛ ومصدر الثلاثي ثوبًا وثوبانًا، ومصدر الرباعي إثابة، وفعل الثواب ثلاثي أجوف معتل العين، ولفظ الثواب في اللغة جاء على عدة معانٍ أبرزها: العود والرجوع، والاجتماع، والجزاء[(٣)].

الثواب اصطلاحًا:

هو الجزاء كيف ما كان من الخير والشر، إلا أن استعماله في الخير أكثر[(٤)].

الصلة بين الحساب والثواب:

أن كلًّا منهما يقال في المجازاة على الخير والشر، إلا أن استعمال الثواب في الخير أكثر.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٤٣، الكليات، الكفوي ص ٣٥٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٣٥١.

(٢) انظر: المفردات، الراغب ص ١٩٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٨٠.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٩٣، مختار الصحاح، الرازي ص٩٠، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٤٣.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٨٠.

الحساب في حق الله سبحانه وتعالى

يظهر الحساب في حق الله تعالى من خلال الفقرات الآتية:

أولًا: اسم الله الحسيب:

يوصف الله عزّ وجلّ بأنه الحسيب.

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

وقال جلّ وعلا: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب:٣٩].

بينت الآيات أن الله تعالى هو الحسيب الكافي الذي يخلق ما يكفي العباد في مصالحهم ومهماتهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال:٦٤].

أي: كافيك وكافي أتباعك، فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به في متابعة الرسول ظاهرًا وباطنًا، وقيامه بعبودية الله تعالى، والحسيب بمعنى الرقيب المحاسب لعباده المتولي جزاءهم بالعدل، وبالفضل.

وقيل: المحاسب بإخباره المكلفين بما فعلوا من خير وشر، والحسيب أيضًا: هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير، وشر، ويحاسبهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر[1].

وفي الآيات وعيد لولي اليتيم وإعلام له أنه تعالى يعلم باطنه كما يعلم ظاهره لئلا ينوي أو يعمل في ماله ما لا يحل، ويقوم بالأمانة التامة في ذلك إلى أن يصل إليه ماله، وهذا المقصود حاصل، سواء فسرنا الحسيب بالمحاسب أو بالكافي[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء:٨٦].

المقصود منه الوعيد، فإن الرجل في الجهاد كان يلقاه الرجل في دار الحرب أو ما يقاربها فيسلم عليه، فقد لا يلتفت إلى سلامه عليه ويقتله، وربما ظهر أنه كان مسلمًا، فمنع الله المؤمنين عنه وأمرهم أن كل من يسلم عليهم ويكرمهم بنوع من الإكرام يقابلونه بمثل ذلك الإكرام أو أزيد، فإنه إن كان كافرًا لا يضر المسلم أن قابل إكرام ذلك الكافر بنوع من الإكرام، أما إن كان مسلمًا وقتله ففيه أعظم المضار والمفاسد، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء:٨٦].

أي: هو محاسبكم على أعمالكم وكافٍ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٩١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ١٤٠٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٦٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٠١.

في إيصال جزاء أعمالكم إليكم فكونوا على حذر من مخالفة هذا التكليف، وهذا يدل على شدة العناية بحفظ الدماء والمنع من إهدارها[1].

قال محمد رشيد رضا: «قال الأستاذ الإمام: المعنى أنه رقيب عليكم في مراعاة هذه الصلة بينكم بالتحية، وفيه تأكيد لأمر هذه الصلة بين الناس، وأقول: إن فيها أيضًا إشعارًا بحظر ترك إجابة من يسلم علينا ويحيينا وأنه تعالى يحاسبنا على ذلك»[2].

ثانيًا: شمول الحساب للسر والعلن:

ذكر القرآن الكريم شمول الحساب للسر والعلن.

قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة:٢٨٤].

يخبر تعالى في هذه الآية أن له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران:٢٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [طه:٧].

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة، رضي الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم، وإبداء ما في النفس: إظهاره، وهو إعلانه بالقول، فيما سبيله القول، وبالعمل فيما يترتب عليه عمل وإخفاؤه بخلاف ذلك، وعطف أو تخفوه للترقي في الحساب عليه، فقد جاء على مقتضى الظاهر في عطف الأقوى على الأضعف، وفي الغرض المسوق له الكلام في سياق الإثبات، وما في النفي يعم الخير والشر، وقد أجمل الله تعالى هنا الأحوال المغفورة وغير المغفورة: ليكون المؤمنون بين الخوف والرجاء، فلا يقصروا في اتباع الخيرات النفيسة والعملية، إلا أنه أثبت غفرانًا وتعذيبًا بوجه الإجمال على كل مما نبديه وما نخفيه، وهذه الآية منسوخة بالنص، وذلك ما جاء من حديث ابن عمر رضي الله عنه: «أنها قد نسخت: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]»[3].

(١) انظر: المصدر السابق ١٠/ ١٦١.
(٢) المنار، محمد رشيد ٥/ ٢٥٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله)، ٦/ ٣٣،

وجاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة:٢٨٤].

قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجلّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] (قال: نعم).

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] (قال: نعم).

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦](قال: نعم).

﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦] (قال: نعم)[1].

ويرى بعض العلماء أن الآية محكمة والجمع بينها وبين قوله صلى الله عليه وسلم: (من هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لأمتي عما حدثتها به أنفسها)[3].

أن ما يخطر في النفس إن كان مجرد خاطر وتردد من غير عزم فلا خلاف في عدم

رقم ٤٥٤٥.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه)، ١/ ١١٥، رقم ١٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، ٨/ ١٠٣، رقم ٦٤٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، ١/ ١١٨، رقم ١٣١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، ٨/ ١٣٥، رقم ٦٦٦٤.

المؤاخذة به، إذ لا طاقة للمكلف بصرفه عنه، وهو مورد حديث التجاوز للأمة عما حدثت به أنفسها، وإن كان قد جاش في النفس عزم، فإما أن يكون من الخواطر التي تترتب عليها أفعال بدنية أو لا، فإن كان من الخواطر التي لا تترتب عليها أفعال: مثل الإيمان، والكفر، والحسد، فلا خلاف في المؤاخذة به؛ لأن مما يدخل في طوق المكلف أن يصرفه عن نفسه، وإن كان من الخواطر التي تترتب عليها آثار في الخارج، فإن حصلت الآثار فقد خرج من أحوال الخواطر إلى الأفعال كمن يعزم على السرقة فيسرق، وإن عزم عليه ورجع عن فعله اختيارًا لغير مانع منعه، فلا خلاف في عدم المؤاخذة به وهو مورد حديث (من هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة)[1].

وإن رجع لمانع قهره على الرجوع ففي المؤاخذة به قولان، أي إن قوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، محمول على معنى يجازيكم وأنه مجمل تبينه موارد الثواب والعقاب في أدلة شرعية كثيرة، وإن من سمى ذلك نسخًا من السلف فإنما جرى على تسمية سبقت ضبط المصطلحات الأصولية فأطلق النسخ على معنى البيان وذلك كثير في عبارات المتقدمين وهذه الأحاديث، وما دلت عليه دلائل قواعد الشريعة، هي البيان لمن يشاء في قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[2].

ثالثًا: الله أسرع الحاسبين:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أسرع الحاسبين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام:٦٢].

وقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر:١٧].

بينت الآيات أن الله تعالى يحاسب عباده يوم القيامة ويسألهم عن أعمالهم، وهل يحاسب العباد إلا الذي خلقهم وتعبدهم وأحصى أعمالهم وحفظها عليهم حتى يسألهم عنها، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وهو العلي القدير، وسرعة حسابه أنه يحاسب العباد كلهم في أسرع زمن وأقصره، لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره، ولا يشغله شأن عن شأن.

وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، يعني: ثم رد العباد بالموت إلى الله في الآخرة، وإنما قال سبحانه: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، لأنهم كانوا في الدنيا تحت أيدي

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٦٠، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٢٣١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧٢٨.

موال بالباطل، والله مولاهم وسيدهم ومالكهم بالحق، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾، يعني لا حكم إلا له، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، يعني أنه تعالى أسرع من حسب؛ لأنه لا يحتاج إلى فكر وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض، واختلفوا في كيفية هذا الحساب، فقيل: إنه تعالى يحاسب الخلق بنفسه دفعة واحدةً لا يشغله كلامٌ عن كلام.

وقيل: بل يأمر اللّه الملائكة أن يحاسب كلّ واحدٍ منهم واحدًا من العباد؛ لأنه تعالى لو حاسب الكفّار بنفسه لتكلّم معهم، وذلك باطلٌ؛ لقوله تعالى في صفة الكفّارِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة:١٧٤].

وقد سمى الله تعالى اليوم الآخر الساعة، فقال سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان:١١].

أي: القيامة والحشر والنشر، والساعة جزء من أجزاء الزمان ويعبر بها عن القيامة تشبيهًا بذلك لسرعة حسابه، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥][(١)].

وإنما وصف جل ثناؤه نفسه بسرعة الحساب، لأنه جل ذكره يحصي ما يحصى من أعمال عباده بغير عقد أصابع، ولا فكرٍ ولا روية، فعل العجزة الضّعفة من الخلق، ولكنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما، ثم هو مجازٍ عباده على كل ذلك، فلذلك امتدح نفسه جل ذكره بسرعة الحساب، وأخبر خلقه أنه ليس لهم بمثل، فيحتاج في حسابه إلى عقد كف أو وعي صدر، ولذكر السرعة هنا وقعه في القلب البشري، فهو ليس متروكًا ولو إلى مهلة في الحساب! وتصور المسلم للأمر على هذا النحو الذي توحي به أصول عقيدته في الحياة والموت والبعث والحساب، كفيل بأن ينزع كل تردد في إفراد الله سبحانه بالحكم- في هذه الأرض- في أمر العباد، وفي هذه الآيات إظهار قدرة الله تعالى بسرعة الحساب ليدلّ على كمال قدرته ووجوب الحذر منه[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢].

جملة تذييل ولذلك ابتدئ بأداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر، وقدم المجرور في قوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾، للاختصاص، أي له لا لغيره، وهذا يتضمن وعدًا ووعيدًا؛ لأنه لما أتى بحرف المهلة في الجمل المتقدمة وكان المخاطبون فريقين: فريق صالح وفريق كافر، وذكر أنهم إليه

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ٨/ ١٩٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٠٧، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٥٧، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ٢٠٥٢.

يرجعون كان المقام مقام طماعية ومخالفة، فالصالحون لا يحبون المهلة والكافرون بعكس حالهم، فعجلت المسرة للصالحين والمساءة للمشركين بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[1].

رابعًا: الله هو المحاسب لعباده:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى هو الذي يحاسب عباده.

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب:٣٩].

بينت الآيات أن الله تعالى هو وحده الذي يحاسب الخلائق يوم القيامة وأنه سبحانه شهيدٌ على كل ما يفعله الإنسان وكفى به شهيدًا، وأنه لا شاهد أفضل من الله، وكفى بالله محاسبًا وشهيدًا ورقيبًا على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال، هل هي كاملة موفرة، أو منقوصة مبخوسة مدخلة مروج حسابها مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:٦].

أي: شهيدًا.

وقيل: إن المعنى: أنه لا شاهد أفضل من الله تعالى فيما بينكم وبينهم.

وقيل: إن المعنى: وكفى به تعالى محاسبًا لكم، فلا تخالفوا ما أمرتم به ولا تجاوزوا ما حدّ لكم.

ولا يخفى موقع المحاسب هنا؛ لأن الوصي يحاسب على ما في يده، وفي فاعل كفى وجهان:

أحدهما: أنه الاسم الجليل، والباء زائدة دخلت لتدل على معنى الأمر، فالتقدير اكتفوا بالله تعالى.

والثاني: أن الفاعل مضمر والتقدير كفى الاكتفاء بالله تعالى، فبالله على هذا في موضع نصب على أنه مفعول به، وحسيبًا حال.

وقيل: تمييز، وكفى متعدية إلى مفعول واحد، والتقدير وكفاكم الله حسيبًا، وإلى مفعولين، والتقدير: ومثل اليتيم في النهي غيره، فكل ذي ولاية أو أمانة على مال يجب أن يعلم أن الله تعالى رقيب وشهيد ومطلع عليه.

ومن بليغ إيجاز القرآن في بيانه أنه يذكر الشيء ليدل به على تأثيره، أو الذي هو أحرى بالحكم منه، أو لكون امتثال

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٧٩.

الحكم الشرعي فيه داعيًا إلى امتثاله في غيره بالمساواة، فليعلم هذا عند كل ذي ولاية وليتقي الله تعالى في ولايته وأمانته، ولهذا ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم)[1].

وفي الآية وعيد لولي اليتيم وإعلام له أنه تعالى يعلم باطنه كما يعلم ظاهره لئلا ينوي أو يعمل في ماله ما لا يحل، ويقوم بالأمانة التامة في ذلك إلى أن يصل إليه ماله، وهذا المقصود حاصل سواء فسرنا الحسيب بالمحاسب أو بالكافي[2].

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾ [الأحزاب:٣٩].

بينت الآية أن الأنبياء يبلغون رسالات الله تعالى إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها، ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾، أي: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾، أي: الله حسيب الأنبياء ومعينهم وناصرهم لا غيره، هذا هو الوجه في سياق تفسير هذه الآيات، فلا تسلك في معنى الآية مسلكًا يفضي بك إلى توهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حصلت منه خشية الناس وأن الله عرض به في قوله: ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾، تصريحًا بعد أن عرض به تلميحًا في قوله تعالى: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ [الأحزاب:٣٧].

بل النبي عليه الصلاة والسلام لم يكترث بهم وأقدم على تزوج زينب، فكل ذلك قبل نزول هذه الآيات التي ما نزلت إلا بعد تزوج زينب كما هو صريح قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧]، ولم يتأخر إلى نزول هذه الآية[3].

قال الألوسي: عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب:٣٩] «أي: كافيًا للمخاوف، أو محاسبًا على الكبائر والصغائر من أفعال القلب والجوارح فلا ينبغي أن يخشى غيره، والإظهار في مقام الإضمار لما في هذا الاسم الجليل ما ليس في الضمير، واستدل بالآية على عدم جواز التقية على الأنبياء عليهم السّلام مطلقًا، وخص ذلك بعض الشيعة في تبليغ الرسالة وجعلوا ما وقع منه صلى الله عليه وسلم في هذه القصة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَتَخۡشَى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ٣/ ١٤٥٧، رقم ١٨٢٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٤٣.

﴿النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

بناء على أن الخشية فيه بمعنى الخوف لا على أن المراد الاستحياء من قول الناس تزوج زوجة ابنه كما قاله ابن فورك من التقية الجائزة حيث لم تكن في تبليغ الرسالة، ولا فرق عندهم بين خوف المقالة القبيحة وإساءة الظن وبين خوف المضار في أن كلًّا يبيح التقية فيما لا يتعلق بالتبليغ، ولهم في التقية كلام طويل وهي لأغراضهم ظل ظليل، والمتتبع لكتب الفرق يعرف أن قد وقع فيها إفراط وتفريط وصواب وتخليط وإن أهل السنّة والجماعة قد سلكوا فيها الطريق الوسط وهو الطريق الأسلم الأمين سالكه من الخطأ والغلط، أما الإفراط فللشيعة حيث جوزوا بل أوجبوا على ما حكي عنهم إظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع، وأما التفريط فللخوارج والزيدية حيث لا يجوزون في مقابلة الدين مراعاة العرض وحفظ النفس والمال أصلًا، وللخوارج تشديدات عجيبة في هذا الباب، ومذهب أهل السنّة أن التقية وهي محافظة النفس أو العرض أو المال من نحو الأعداء بإظهار محظور ديني مشروعة في الجملة.

وقسموا العدو إلى قسمين:

الأول: من كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين كالمسلم والكافر ويلحق به من كانت عداوته لاختلاف المذهب اختلافًا يجر إلى تكفير أصحاب أحد المذهبين أصحاب المذهب الآخر كأهل السنّة والشيعة.

والثاني: من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية كالمال والمرأة.

وعلى هذا تكون التقية أيضًا قسمين:

أما الأول: فالتقية ممن كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين حقيقة أو حكمًا، وقد ذكروا في ذلك أن من يدعي الإيمان إذا وقع في محل لا يمكن أن يظهر دينه وما هو عليه لتعرض المخالفين وجب عليه أن يهاجر إلى محل يقدر فيه على الإظهار، ولا يجوز له أن يسكن هنالك ويكتم دينه بعذر الاستضعاف، فأرض الله تعالى واسعة.

نعم إن كان له عذر غير ذلك؛ كالعمى والحبس وتخويف المخالف له بقتله أو قتل ولده أو أبيه أو أمه على أي وجه كان القتل تخويفًا يظن معه وقوع ما خُوِّف به، جاز له السكنى والموافقة بقدر الضرورة، ووجب عليه السعي في الحيلة للخروج، وإن لم يكن التخويف كذلك؛ كالتخويف بفوات المنفعة، أو بلحوق المشقة التي يمكنه تحملها؛ كالحبس مع القوت والضرب القليل غير المهلك، لا يجوز له الموافقة وإن ترتب على ذلك موته كان شهيدًا.

وأما الثاني: فالتقية ممن كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية، وقد اختلف

العلماء في وجوب الهجرة وعدمه فيه، فقال بعضهم: تجب الهجرة لوجوب حفظ المال والعرض، وقال جمع: لا تجب إذ الهجرة عن ذلك المقام مصلحة من المصالح الدنيوية ولا يعود بتركها نقصان في الدين إذ العدو المؤمن كيفما كان لا يتعرض لعدوه الضعيف المؤمن مثله بالسوء من حيث هو مؤمن»[1].

(١) روح المعاني ١١/ ٢٠٧.

أنواع الحساب

ذكر القرآن الكريم أنواع الحساب في الدنيا والآخرة ونوضح ذلك في المطلبين الآتيين:

أولًا: الحساب في الدنيا:

أخبر القرآن الكريم عن الحساب في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق:٨-٩].

بينت الآية أن كثيرًا من أهل القرى خالفوا أمر ربهم، فكذبوا الرسل الذين أرسلوا إليهم ولجُّوا في طغيانهم يعمهون، فحاسبهم الله تعالى حسابًا عسيرًا، ﴿وَكَأَيِّن﴾: بمعنى «كم» الخبرية التي تفيد التكثير، أي: وكم من القرى التي عتت عن أمر ربها ورسله، فحاسبها الله حسابًا شديدًا، وعذبها عذابًا نكرًا؟ والمقصود من إفادة التكثير هنا تحقيق أن العذاب الذي نال أهل تلك القرى شيء ملازم لجزائهم على عتوهم عن أمر ربهم ورسله، فلا يتوهم متوهم أن ذلك مصادفة في بعض القرى وأنها غير مطردة في جميعهم، والمراد بالقرية: أهلها، وإنما أوثر لفظ القرية هنا دون الأمة ونحوها؛ لأن في اجتلاب هذا اللفظ تعريضًا بالمشركين

من أهل مكة ومشايعة لهم بالنذارة، وفيه تذكير للمسلمين بوعد الله بنصرهم ومحق عدوهم، والعتو ويقال العتي: تجاوز الحد في الاستكبار والعناد، ثم بين أن هذا جزاء ما كسبت أيديهم، فقال سبحانه: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق:٩].

أي: فجنت ثمار ما غرست أيديها ولا يجنى من الشر إلا الشر، فكان عاقبة أمرها الخسران والنكال الذي لا يقدر قدره، ثم أكد هذا الوعيد بقوله جلّ وعلا: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق:١٠].

أي: هيأ الله لهم العذاب المرتقب، لتماديهم في طغيانهم وإعراضهم عن اتباع الرسل فيما جاءوا به من عند ربهم، وقد جاء تفصيل هذا العذاب في قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقوله جلّ جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود:١٠٢].

ثم قال بعد ما قص من خبر هؤلاء: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الطلاق:١٠].

أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الطلاق:١٠].

أي: صدقوا بالله ورسله، ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق:١٠].

يعني: القرآن، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩][1].

وقد ثبت من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود:١٠٢][2].

ثانيًا: الحساب في الآخرة:

أخبر القرآن الكريم عن الحساب في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق:٨-٩].

يخبر القرآن الكريم أن كثيرًا من أهل القرى خالفوا أمر ربهم، فكذبوا الرسل الذين أرسلوا إليهم ولّجوا في طغيانهم يعمهون،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٥٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ)، ٦/ ٧٤، رقم ٤٦٨٦.

فحاسبناهم حسابًا عسيرًا، فاستقصينا عليهم ذنوبهم، وناقشناهم على النقير والقطمير، وعذبناهم عذابًا نكرًا في الآخرة، وعبر بالماضي عن المستقبل دلالة على التحقق كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف:٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف:٤٤].

ونحو ذلك، لأنّ المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة، وما هو كائن فكأن قد، ثم بين أن هذا جزاء ما كسبت أيديهم فقال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق:٩].

أي: فجنت ثمار ما غرست أيديها، فكان عاقبة أمرها الخسران والنكال الذي لا يقدر قدره، ثم أكد هذا الوعيد بقوله سبحانه: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق:١٠].

أي: هيأ الله لهم العذاب المرتقب، لتماديهم في طغيانهم وإعراضهم عن اتباع الرسل فيما جاءوا به من عند ربهم[1].

ووصف الله تعالى الحساب في الآخرة.

قال جلّ وعلا: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص:٤٨-٥٨].

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٤٩].

وهو: المرجع والمنقلب، ثم فسره بقوله سبحانه: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [ص:٥٠].

أي: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب، والألف واللام هنا بمعنى الإضافة كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها» أي: إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها، وقوله جلّ وعلا: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ [ص:٥١] في الجنات على الفرش، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [ص:٥١]

أي: مهما طلبوا وجدوا وحضر كما أرادوا، ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي: من أي أنواعه شاءوا أتتهم به الخدام، كما قال تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة:١٨].

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص:٥٢]

أي: عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَتْرَابٌ﴾، أي: متساويات في السن والعمر، ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٦٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٢٧، تفسير المراغي ٢٨/ ١٤٩.

﴿الْحِسَابِ﴾ [ص:٥٣] أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة التي وعدها لعباده المتقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٥٤]، كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦].

وقوله سبحانه: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨].

وقوله جلّ جلاله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت:٨] أي: غير مقطوع.

وقوله جلّ في علاه: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد:٣٥].

والآيات في هذا كثيرة جدًّا.

ولما ذكر تعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ [ص:٥٥].

وهم: الخارجون عن طاعة الله المخالفون لرسل الله، ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص:٥٥] أي: لسوء منقلب ومرجع.

ثم فسره بقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [ص:٥٦] أي: يحترقون فيها ويقاسون حرّها، ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص:٥٧].

أما الحميم فهو: الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق فهو: ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم.

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:٥٨] أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها، وقيل: الغساق: السيال، ويشمل ما يسيل من أجساد أهل النار من الصديد[1].

وقد بينت الآيات أن الله عز وجل يحاسب عباده يوم القيامة ويسألهم عن أعمالهم.

قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة:١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١].

وقال جلّ وعلا: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف:٦].

وقال جلّ جلاله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء:١١٣].

ووصف الله تعالى الحساب في الآخرة بأنه يسير على المؤمنين عسير على الكافرين وسوف نوضح ذلك في المبحث التالي.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٧٧.

أوصاف الحساب

تظهر أوصاف الحساب من خلال ما يلي:

أولًا: الحساب السريع:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى سريع الحساب.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾ [البقرة:٢٠٢].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [الأنعام:٦٢].

وقال جلّ وعلا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ [غافر:١٧].

بينت الآيات أن الملك والحكم يوم القيامة لله وحده وأنّ كل نفس تجزى ما كسبت وأن الله تعالى لا يظلم؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يبطئ، وأن الله سريع الحساب؛ لأن الله لا يشغله حساب عن حساب، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين، وإنما وصف جل ثناؤه نفسه بسرعة الحساب، لأنه جل ذكره يحصي ما يحصى من أعمال عباده بغير عقد أصابع، ولا فكرٍ ولا روية، فعل العجزة الضّعفة من الخلق، ولكنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما، ثم هو مجازٍ عباده على كل ذلك، فلذلك امتدح نفسه جل ذكره بسرعة الحساب، وأخبر خلقه أنه ليس لهم بمثل، فيحتاج في حسابه إلى عقد كف أو وعي صدر، ولذكر السرعة هنا وقعه في القلب البشري، فهو ليس متروكًا ولو إلى مهلة في الحساب! وتصور المسلم للأمر على هذا النحو الذي توحي به أصول عقيدته في الحياة والموت والبعث والحساب، كفيل بأن ينزع كل تردد في إفراد الله سبحانه بالحكم- في هذه الأرض- في أمر العباد، وفي هذه الآيات إظهار قدرة الله تعالى بسرعة الحساب ليدلّ على كمال قدرته ووجوب الحذر منه[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢].

جملة تذييل ولذلك ابتدئ بأداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر، وقدم المجرور في قوله له الحكم للاختصاص، أي له لا لغيره، وهذا يتضمن وعدًا ووعيدًا لأنه لما أتى بحرف المهلة في الجمل المتقدمة وكان المخاطبون فريقين: فريق صالح وفريق كافر، وذكر أنهم إليه يرجعون كان المقام مقام طماعية ومخالفة فالصالحون لا يحبون المهلة والكافرون

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٠٧، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ٢٠٥٢.

بعكس حالهم، فعجلت المسرة للصالحين والمساءة للمشركين بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢][1].

قال الشعراوي: «وعندما نقرأ: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:٢٠٢].

فلنفهم أن السرعة هي أن يقل الزمن عن الحدث، فبدلًا من أن يأخذ الحدث منك ساعة، وقد تنهيه في نصف ساعة، وكل حدث له زمن، والحدث حين يكون له زمن وتريد أن تقلل زمن الحدث فلابد أن تسرع فيه حتى تنجزه في أقل وقت، وتقليل الزمن يقتضي سرعة الحركة في الفعل، وذلك في الأفعال العلاجية التي تحتاج معالجة، وعملًا من الإنسان، لكن سبحانه يفعل بـ «كن» ولا يحتاج عمله إلى علاج، وبالتالي لا يحتاج إلى زمن، إذن فهو سريع الحساب؛ لأنه لا يحتاج إلى زمن، ولأنه لا يشغله شأن عن شأن، وهذا هو الفرق بين قدرة الواحد سبحانه وقدرة الحادث؛ لأن الحادث عندما يؤدي عملًا، فهذا العمل يشغله عن غيره من الأعمال، فلا يستطيع أن يؤدي عمليتين في وقت واحد، لكن الواحد الأحد لا يشغله فعل عن فعل، وبالتالي يفعل ما يريد وقتما يريد ولكل من يريد»[2].

ثانيًا: الحساب اليسير:

يخبر القرآن الكريم أن من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق:٧-١٢].

بينت الآية أن الله تعالى سوف يحاسب أصحاب اليمين حسابًا يسيرًا، والحساب اليسير هو أن تعرض عليه أعماله، فيعرف بالطاعة، والمعصية ثم يثاب على الطاعة، ويتجاوز له عن المعصية، فهذا هو الحساب اليسير؛ لأنه لا شدة فيه على صاحبه، ولا مناقشة، ولا يقال له: لم فعلت هذا ولا يطالب بالعذر فيه، ولا الحجة عليه فإنه متى طولب بذلك لم يجد عذرًا، ولا حجة فيفتضح، وعن ابن أبي مليكة أن عائشة رضي الله عنها كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من حوسب عذب)، قالت عائشة: فقلت، أو ليس يقول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق:٨]، قالت: فقال: (إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عذب)[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٧٩.
(٢) تفسير الشعراوي ٢/ ٨٦٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سمع شيئًا فلم يفهمه فراجع فيه حتى

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾، يعني: في الجنة من الحور العين والآدميات، ﴿مَسۡرُورٗا﴾، أي: بما أوتي من الخير والكرامة، وقوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾، تمثيل لحال المحاسب حسابًا يسيرًا في المسرة والفوز والنجاة بعد العمل الصالح في الدنيا، بحال المسافر لتجارة حين يرجع إلى أهله سالمًا رابحًا لما في الهيئة المشبه بها من وفرة المسرة بالفوز والربح والسلامة ولقاء الأهل وكلهم في مسرة، فذلك وجه الشبه بين الهيأتين وهو السرور المألوف للمخاطبين فالكلام استعارة تمثيلية، وليس المراد رجوعه إلى منزله في الجنة؛ لأنه لم يكن فيه من قبل حتى يقال لمصيره إليه انقلاب، ولأنه قد لا يكون له أهل، وهو أيضًا كناية عن طول الراحة؛ لأن المسافر إذا رجع إلى أهله فارق المتاعب [(١)].

ثالثًا: الحساب العسير:

بعد أن ذكر الله تعالى أن المؤمن يحاسب يوم القيامة حسابًا يسيرًا أعقبه بذكر أن الكافر يحاسب حسابًا عسيرًا.

فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ۝١٥﴾ [الانشقاق:١٠-١٥].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ۝٢٦﴾ [الفرقان:٢٥-٢٦].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المدثر:٨-١٠].

وقال جلّ جلاله: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾ [القمر:٨].

بينت الآيات أن الحساب يوم القيامة عسير على الكافرين لا يسر فيه ولا فيما بعده، على خلاف ما جرت به العادة من أن كل عسر بعده يسر، وعسره عليهم أنهم يناقشون الحساب، ويعطون كتبهم بشمائلهم وتسوّد وجوههم، وتتكلم جوارحهم، فيفتضحون على رؤوس الأشهاد، ويقطع رجاؤهم في جميع الوجوه، ووصف الله تعالى الحساب العسير بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠﴾ [الانشقاق:١٠]، يعني: الكافر، يخرج يده اليسرى من وراء ظهره، يعطى كتابه بها.

﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١﴾ [الانشقاق:١١]، يعني: بالويل والثبور على نفسه.

﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق:١٢]، يعني: يدخل في الآخرة نارًا وقودًا.

يعرفه، ١/ ٣٢، رقم ١٠٣.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤٠٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٥٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٢٣.

قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة (ويصلى سعيرًا)، بنصب الياء، وجزم الصاد مع التخفيف، والباقون ويصلى بضم الياء ونصب الصاد مع التشديد، فمن قرأ (يصلى)، بالتخفيف، فمعناه: أنه يقاسي حر السعير وعذابه، يقال: صليت النار، إذا قاسيت عذابها وحرها، ومن قرأ بالتشديد، فمعناه أنه يكثر عذابه في النار، حتى يقاسي حرها[1].

وقال الزمخشري: «إن ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠]، كان يكفي عنها ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر:٩]، إلا أنه ليبين لهم أن عسره لا يرجى تيسيره، كعسر الدنيا، وأن فيه زيادة وعيد للكافرين، ونوع بشارة للمؤمنين لسهولته عليهم، ولعل المعنيين مستقلان، وأن قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر:٩].

هذا كلام مستقل وصف لهذا اليوم، وبيان للجميع شدة هوله»[2].

وجاء وصف الحساب العسير في آيات أخر كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج:١-٢].

أمر جل وعلا في أول هذه السورة الكريمة الناس بتقواه جل وعلا بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وبين لهم أن زلزلة الساعة شيء عظيم، تذهل بسببه المراضع عن أولادها، وتضع بسببه الحوامل أحمالها، من شدة الهول والفزع، وأن الناس يرون فيه كأنهم سكارى من شدة الخوف، وما هم بسكارى من شرب الخمر، ولكن عذابه شديد، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾ [عبس:٣٤-٣٥].

ووصف الله تعالى عسر هذا اليوم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ [الإنسان:٢٧].

وقال تعالى منبهًا عن حال وأهوال هذا اليوم: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ [المزمل:١٧].

فلا تجد صفات أعظم من هذه الصفات في ذلك اليوم؛ حيث يتحول الطفل إلى شيخ كبير السن شعره أبيض من شدة المخاوف، وتذهل فيه المرضعة عمَّا أرضعت؛ لأنه يوم يرجف فيه القلب رجفًا شديدًا، ومن شدة الارتجاف يصعد هذا القلب حتى يسد الحنجرة، يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، تتقلب فيه القلوب؛ لأن القلوب ترى أشياء لم تكن تراها في الدنيا، وتتيقن منها، والأبصار تشاهد أشياء لم تكن تشاهدها في الدنيا، إنما كانت توصف لها وصفًا، وهذه قلوب

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥١٥، تفسير المراغي ٢٩/ ١٢٧.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٤٧.

الملاحدة وأهل الشك، وكذلك الأبصار تشاهد أشياء ما كانت تراها في الدنيا، بل كانت تسمع عنها، فانقلب القلب إلى إدراك أشياء ما كان يدركها من قبل، وانقلب البصر إلى رؤية أشياء لم يكن يراها من قبل[1].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٤٧.

المحاسب عليه

يظهر ما يحاسب عليه العبد وما لا يحاسب عليه من خلال ما يأتي:

أولًا: ما يحاسب عليه العبد:

ذكر القرآن الكريم أن مما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الكفر.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون:١١٧].

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢٣-٢٦].

بينت الآيات أن الله تعالى يحاسب العباد يوم القيامة على أعمالهم، وأنهم يحاسبون بكل صغيرة وكبيرة، وقليل وكثير.

قال تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢٦]، يعني: أي: نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها، إن خيرا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

وقال جلّ جلاله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام:١٦٠].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ

﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

ولما كان أعظم ما دعا الله إليه توحيده وكان أصل ضلال المشركين إشراكهم أعقب وصف الله بالعلو العظيم والقدرة الواسعة ببيان أن الحساب الواقع بعد البعث ينال الذين دعوا مع الله آلهة دعوى لا عذر لهم فيها؛ لأنها عرية عن البرهان، أي: الدليل، لأنهم لم يثبتوا لله الملك الكامل إذ أشركوا معه آلهة، ولم يثبتوا ما يقتضي له عظيم التصرف إذ أشركوا معه تصرف آلهة، فقوله تعالى: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، حال من يدع مع الله إلهًا آخر، وهي حال لازمة؛ لأن دعوى الإله مع الله لا تكون إلا عرية عن البرهان، ونظير هذا الحال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

والقصر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾، قصر حقيقي، وفيه إثبات الحساب وأنه لله وحده مبالغة في تخطئتهم وتهديدهم، ويجوز أن يكون القصر إضافيًّا تطمينًا للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله لا يؤاخذه باستمرارهم على الكفر، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى:٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء:٣].

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، وهو نفي الفلاح عن الكافرين ضد المؤمنين[(١)].

قال سيد عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

«بهذا يتحدد دور الرسول في هذه الدعوة، ودور كل داعية إليها بعده، إنما أنت مذكر وحسابهم بعد ذلك على الله، ولا مفر لهم من العودة إليه، ولا محيد لهم من حسابه وجزائه، غير أنه ينبغي أن يفهم أن من التذكير إزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس وليتم التذكير، فهذه وظيفة الجهاد كما تفهم من القرآن ومن سيرة الرسول سواء، بلا تقصير فيها ولا اعتداء»[(٢)].

ثانيًا: ما لا يحاسب عليه العبد:

ذكر القرآن الكريم أن العبد إنما يحاسب على عمله وأنه لا يحاسب على عمل غيره.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٨٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٣٦.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٠.

[الأنعام:٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام:٦٩].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون:١١٧].

بينت الآيات أن حساب العباد عند الله تعالى، وأنه يحاسبهم بأعمالهم، وأنه لا حساب بأحسابهم وأموالهم، ولا يحاسب العبد على غناه وفقره، ولا يحاسب على عمل غيره، وليس لأحد محاسبتهم، وأخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، أنه ليس عليه شيء ما من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، لا على دعائهم ولا على غيره من أعمالهم الدينية، كما أنه ليس عليهم شيء ما من أمر حسابك على أعمالك حتى يمكن أن يترتب على هذا أو ذاك طردك إياهم بإساءتهم في عملهم أو محاسبتك على عملك، فإن الطرد جزاء، وإنما يكون على عمل سيئ يستوجبه، ولا يثبت إلا بحساب، والمؤمنون ليسوا عبيدًا للرسل ولا أعمالهم الدينية لهم، بل هي لله تعالى يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل، وحسابهم عليه تعالى لا عليهم، وإنما الرسل هداة معلمون، لا أرباب ولا مسيطرون، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية:٢١-٢٢].

وإذا لم يكن للرسل حق السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم الدينية فليس للناس عليهم هذا الحق بالأولى، وذكروا في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، قولين:

أحدهما: أن الكفار طعنوا في إيمان أولئك الفقراء، وقالوا: يا محمد إنهم إنما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك؛ لأنهم يجدون بهذا السبب مأكولًا وملبوسًا عندك، وإلا فهم فارغون عن دينك، فقال الله تعالى: إن كان الأمر كما يقولون، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر، وإن كان لهم باطن غير مرضي عند الله، فحسابهم عليه لازم لهم، لا يتعدى إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعدى إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

القول الثاني: ما عليك من حساب رزقهم من شيء فتملهم وتطردهم، ولا حساب رزقك عليهم، وإنما الرازق لهم ولك هو الله تعالى، فدعهم يكونوا عندك ولا تطردهم، وقوله سبحانه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، جواب النفي ومعناه، ما عليك من حسابهم من شيء فتطردهم، بمعنى أنه لم يكن عليك حسابهم حتى أنك لأجل ذلك الحساب تطردهم، وقوله جلّ في علاه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا تطرد هؤلاء الذين

يدعون ربهم بالغداة والعشي فتكون بطردك إياهم في زمرة الظالمين معدودًا من جنسهم؛ لأن الطرد لا يكون حقًّا إلا على الإساءة في الأعمال التي يعملونها لمن له حق حسابهم وجزائهم عليها، ولست أنت بصاحب هذا الحق حتى تجري فيه على صراط العدل، فإن عملهم هو عبادة الله وحده، فحسابهم وجزاؤهم عليه، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء:١١٣].

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فيه قولان:

الأول: فتكون من الظالمين لنفسك بهذا الطرد.

الثاني: أن تكون من الظالمين لهم لأنهم لما استوجبوا مزيد التقريب والترحيب كان طردهم ظلمًا لهم، والله أعلم[(١)].

قال الزمخشري: «فإن قلت: أما كفى قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٥٢] حتى ضم إليه: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؟

قلت: قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة، وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنيّ في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعًا، كأنه قيل: لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه، وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم، حتى يهمك إيمانهم ويحرّكك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين، ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، جواب النفي ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، جواب النهي، ويجوز أن يكون عطفًا على ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾، على وجه التسبيب؛ لأن كونه ظالمًا مسبب عن طردهم»[(٢)].

وذكر طنطاوي تخريجًا آخر لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، «بأن المعنى: ما عليك شيء من حساب رزقهم إن كانوا فقراء، وما من حسابك في الفقر والغنى عليهم من شيء، أي: أنت مبشر ومنذر ومبلغ للناس جميعًا، سواء منهم الفقير والغنيّ، فكيف تطرد فقيرًا لفقره، وتقرب غنيًّا لغناه؟ إنك إن فعلت ذلك كنت من الظالمين، ومعاذ الله أن يكون ذلك منك»[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥٤٢، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٠٦.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٨.

(٣) التفسير الوسيط ٥/ ٨٠.

[الأنعام:٥٢].

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بإنذار غير المتقين ليتقوا ثم أمر بعد ذلك بتقريب المتقين ونهى عن طردهم، ثم أثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم، أي: عبادته ويواظبون عليها، والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام، أو معناه: يصلون صلاة الصبح والعصر أو الصلوات الخمس بالغدوة والعشي، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، فالوجه يعبر به عن ذات الشيء، وحقيقته نزلت في الفقراء بلال وصهيب وعمار وأضرابهم حين قال رؤساء المشركين لو طردت هؤلاء السقاط لجالسناك.

وعن سعد رضي الله عنه، قال: (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢])[(١)][(٢)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ٤/ ١٨٧٨، رقم ٢٤١٣.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٠٦.

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢]: «فإن حسابهم على أنفسهم، وحسابك على نفسك، وكونهم فقراء مقدر عليهم في الرزق هذا حسابهم عند الله، لا شأن لك به، كذلك غناك وفقرك هو حسابك عند الله لا شأن لهم به، ولا دخل لهذه القيم في قضية الإيمان والمنزلة فيه، فإن أنت طردتهم من مجلسك بحساب الفقر والغنى كنت لا تزن بميزان الله، ولا تقوّم بقيمه. فكنت من الظالمين، وحاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون من الظالمين! وبقي فقراء الجيوب أغنياء القلوب في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقي ضعاف الجاه الأقوياء بالله في مكانهم الذي يؤهلهم له إيمانهم والذي يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه، واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذي قرره الله»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام:٦٩].

إشارة إلى أن ما يقع من المشركين في تلك المجالس الهازئة الهازلة من منكر، لا يمسّ المتقين بسوء، ولا يحمّلهم شيئًا

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٠.

من أوزار هؤلاء القوم، ولا يحاسبون على خوضهم فيها ولا على غيره من أعمالهم التي يحاسبهم الله تعالى عليها إذا هم تجنبوهم وأعرضوا عنهم كما أمروا، ولكن تجنّب هذه المجالس هو حماية للمؤمنين من أن تصيبهم عدوى هذه الأحاديث، وإن من الخير لهم، والسلامة لدينهم، أن يتّقوا هذه المجالس، ويحذروها، وهكذا في كل شر، من قول أو عمل، إنه واقع بأهله أولًا وقبل كل شيء، وما يصيب غيرهم منه، لا يخفف من آثاره السيئة الواقعة بهم، بل إنه ليضاعف من إثمهم، ويضيف إلى جرمهم جرمًا، وما يجب على المؤمنين في تلك الحال هو أن يعزلوا أنفسهم عن تلك المآثم، وأن يتقوا الخطر الذي قد يصيبهم من مداناتها، وقيل: إن ذلك يقتضي إباحة جلوس المؤمنين مع الكافرين، لأنهم شق عليهم النهي عن ذلك إذ كانوا لا بد لهم من مخالطتهم في طلب المعاش، وفي الطواف بالبيت وغير ذلك، ثم نسخت بآية النساء، وهي: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

وقيل: إنها لا تقتضي إباحة القعود، ﴿وَلَكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فيه وجهان:

أحدهما: أن المعنى: ليس على المؤمنين حساب الكفار، ولكن عليهم تذكير لهم، ووعظ، وإعراب ذكرى على هذا نصب على المصدر وتقديره يذكرونهم ذكرى، أو رفع على المبتدأ تقديره عليهم ذكرى، والضمير في لعلهم عائد على الكفار، أي: يذكرونهم رجاء أن يتقوا، أو عائد على المؤمنين، أي: يذكرونهم ليكون تذكيرهم ووعظهم تقوى الله.

الوجه الثاني: أن المعنى: ليس نهي المؤمنين عن القعود مع الكافرين بسبب أن عليهم من حسابهم شيئًا، وإنما هو ذكرى للمؤمنين.

وإعراب ذكرى على هذا خبر ابتداء مضمر تقديره: ولكن نهيهم ذكرى، أو مفعول من أجله تقديره: إنما نهوا ذكرى، والضمير في (لعلهم) على هذا للمؤمنين لا غير[1].

(١) انظر: التسهيل، ابن جزي ١/ ٢٦٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٧٨، تفسير المراغي ٧/ ١٦٠.

الإيمان بيوم الحساب وأثره

يظهر الإيمان بيوم الحساب، وأثره الطيب على الفرد والمجتمع من خلال ما يأتي:

أولًا: الإيمان بيوم الحساب:

الإيمان بيوم الحساب والجزاء ركن من أركان الإيمان، يحاسب العبد على عمله، ويجازى عليه، وقد دل على ذلك الكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

وقال سبحانه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦٠﴾ [الأنعام:١٦٠].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء:٤٧].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (إن الله يدني المؤمن منه يوم القيامة حتى يضع كنفه عليه، فيستره من الناس، فيقول: أتعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: أتعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم يا رب، حتى إذا قرره بذنوبه وظن في نفسه أنه قد استوجب، قال: قد سترتها عليك من الناس، وإني أغفرها لك اليوم، ويعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨])[1].

وقد أجمع المسلمون على إثبات الحساب والجزاء على الأعمال، وهو مقتضى الحكمة فإن الله تعالى أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وفرض على العباد قبول ما جاءوا به، والعمل بما يجب العمل به منه، وأوجب قتال المعارضين له وأحل دماءهم، وذرياتهم، ونساءهم، وأموالهم، فلو لم يكن حساب، ولا جزاء لكان هذا من العبث الذي ينزه الرب الحكيم عنه.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله[2]: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف:٦-٧].

فما يتكبر متكبر وهو يؤمن بيوم الحساب، وهو يتصور موقفه يومئذ حاسرًا خاشعًا خاضعًا ذليلًا، مجردًا من كل قوة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: (ألا لعنة الله على الظالمين)، ٣/ ١٢٨، رقم ٢٤٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ٤/ ٢١٢٠، رقم ٢٧٦٨.

(٢) انظر: شرح الطحاوية، ابن أبي العز ص ٤٠١، شرح ثلاثة الأصول، ابن عثيمين ص ١٠٠.

﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٧].

ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، قال لفرعون وملئه: إني استجرت أيها القوم بربي وربكم، من كلّ متكبر عليه، تكبر عن توحيده، والإقرار بألوهيته وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء.

وإنما خص موسى صلوات الله وسلامه عليه، الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب، لأن من لم يؤمن بيوم الحساب مصدقًا، لم يكن للثواب على الإحسان راجيًا، ولا للعقاب على الإساءة، وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفًا، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة، وما ذكره جل وعلا في آية المؤمن هذه، من عياذ موسى بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب كفرعون وعتاة قومه، ذكر نحوه في سورة الدخان في قوله تعالى عن موسى مخاطبًا فرعون وقومه: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ [الدخان:٢٠][1].

قال الزمخشري: «لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله: قال لقومه إنّي عذت بالله الذي هو ربي وربكم، وقوله: ﴿وَرَبِّكُم﴾، فيه بعث لهم على أن يقتدوا به، فيعوذوا بالله عياذه، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه، وقال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾، لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض، فيكون أبلغ، وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه، وعلى فرط ظلمه وعسفه، وقال: ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾، لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها: وعذت ولذت: أخوان، وقرئ: عتّ، بالإدغام»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٧].

هذا القول كان في مجلس فرعون، وليس مع موسى أحد من قومه إلا أخوه هارون، فالخطاب ليس لقومه، وإنما لفرعون وقومه، والمعنى: إني أعددت العدة لدفع بطش فرعون العوذ بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وفي مقدمة هؤلاء المتكبرين فرعون، ومعنى ذلك: أن موسى علم أنه سيجد مناوئين متكبرين يكرهون

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٧٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٣.

(٢) الكشاف ٤/ ١٦١.

ما أرسله الله به إليهم، فدعا ربه وعلم أن الله ضمن له الحفظ وكفاه ضير كل معاند، وذلك ما حكي في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٥-٤٦].

فأخبر موسى قومه بأن ربه حافظ له ليثقوا بالله، وتأكيد الخبر بحرف (إن) متوجه إلى لازم الخبر وهو أن الله ضمن له السلامة وأكد ذلك لتنزيل بعض قومه أو جلهم منزلة من يتردد في ذلك لما رأى من إشفاقهم عليه، والعوذ: الالتجاء إلى المحل الذي يستعصم به العائذ فيدفع عنه من يروم ضره، يقال: عاذ بالجبل، وعاذ بالجيش، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨].

وعبر عن الجلالة بصفة الرب مضافًا إلى ضمير المتكلم؛ لأن في صفة الرب إيماء إلى توجيه العوذ به؛ لأن العبد يعوذ بمولاه، وزيادة وصفه برب المخاطبين للإيماء إلى أن عليهم أن لا يجزعوا من مناوأة فرعون لهم، وأن عليهم أن يعوذوا بالله من كل ما يفظعهم، وجعلت صفة لا يؤمن بيوم الحساب مغنية عن صفة الكفر أو الإشراك؛ لأنها تتضمن الإشراك وزيادة، لأنه إذا اجتمع في المرء التجبر والتكذيب بالجزاء قلت مبالاته بعواقب أعماله فكملت فيه أسباب القسوة والجرأة على الناس[1].

قال سيد قطب: «قالها، واطمأن، وسلّم أمره إلى المستعلي على كل متكبر، القاهر لكل متجبر، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين، وأشار إلى وحدانية الله ربه وربهم لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد، كما أشار إلى عدم الإيمان بيوم الحساب، فما يتكبر متكبر وهو يؤمن بيوم الحساب، وهو يتصور موقفه يومئذ حاسرًا خاشعًا خاضعًا ذليلًا، مجردًا من كل قوة، ما له من حميم ولا شفيع يطاع»[2].

ثانيًا: أثر الإيمان بيوم الحساب:

من آثار الإيمان بيوم الحساب ما يأتي:

١. أن الإيمان بيوم الحساب ينمي الضمير الداخلي الذي يراقب الإنسان مراقبة يقظة قبل صدور أي عمل نفسي أو سلوكي، ويحاسبه محاسبة دقيقة بعد صدور أي عمل منه، فالمؤمن بالله وبيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب يدفعه إيمانه إلى مراقبة الله في جميع أعماله مراقبة دقيقة تجعله دائم الحذر من الوقوع فيما يغضب الله جل جلاله، فيستوجب عقابه، وتحمله دومًا على اتباع مرضاة الله سبحانه عله ينال ثوابه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٢٦.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٧٨.

[النساء:٦]، أي: كافيًا للمخاوف، أو محاسبًا على الكبار والصغائر من أفعال القلب والجوارح، فلا ينبغي أن يخشى غيره، والإظهار في مقام الإضمار لما في هذا الاسم الجليل ما ليس في الضمير[(١)].

٢. أن الإيمان بيوم الحساب ظاهرة في سلامة كتاب المؤمن من السيئات، وسبب سعادته.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة:١٩]، أي: فأما من أعطى كتابه بيمينه فيقول: تعالوا اقرءوا كتابي فرحًا به، لأنه لما أوتيه باليمين علم أنه من الناجين الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهره لغيره حتى يفرحوا بما نال.

ثم ذكر العلة في حسن حاله فقال سبحانه: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة:٢٠]، أي: إني فرح مسرور؛ لأني علمت أن ربي سيحاسبني حسابًا يسيرًا، وقد حاسبني كذلك، فالله عند ظن عبده به.

ثم بيّن عاقبة أمره فقال جلّ وعلا: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة:٢١]، أي: فهو يعيش عيشة مرضية خالية مما يكدر مع دوامها وما فيها من إجلال وتعظيم.

ثم فصل ذلك فقال عز من قائل: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة:٢٢-٢٣]، أي: فهو يعيش في بستان عال رفيع ذي ثمار دانية القطوف، يأخذها المرء كما يريد، إن أحب أن يأخذها بيده انقادت له، وهو قائم وجالس أو مضطجع، وإن أحب أن تدنو إلى فيه دنت له.

ثم يقول لهم تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة:٢٤]، أي: ويقول لهم ربهم جل ثناؤه: كلوا يا معشر من رضيت عنه فأدخلته جنتي من ثمارها وطيب ما فيها من الأطعمة، واشربوا من أشربتها، أكلًا وشربًا هنيئًا لا تتأذون بما تأكلون وما تشربون جزاء من الله، وثوابًا على ما قدمتم في دنياكم لآخرتكم من العمل بطاعتي[(٢)].

٣. أن الإيمان باليوم الآخر هو المنطلق لكل خير والمانع لكل شر، والإيمان بالبعث هو منطلق جميع الأعمال الصالحة؛ لأنه يؤمن أن هناك يومًا آخر يجازى فيه الإنسان المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

وقال سبحانه: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٧.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٩/ ٥٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٣٢.

﴿قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ [الإنسان:٧-١١][1].

٤. والإيمان باليوم الآخر من ثماره أنه يغرس في النفوس الوفاء بالعهد والميثاق، وصلة الأرحام والجيران والفقراء، ومحبة الخير، والحرص على إسداء المعروف وينفرها من اقتراف الشرور وارتكاب الآثام، فالحلم والأناة، والتضحية، والصبر على الشدائد، والسمو بالنفس عن الدناءات، كل ذلك يتجلى به المؤمن؛ لأنه ينتظر جزاءه عند الله، لا عند المجتمع ولا عند الناس، ويوم الجزاء آت لا ريب فيه، في موعده الذي قدره الله له، لا يتزحزح، لذلك فإن أخلاق المؤمن ثابتة لا يزعزعها شيء من أعراض الحياة الزائلة.

قال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢﴾ [الرعد:١٩-٢٢].

فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا[2].

٥. كما أن الإيمان بهذا اليوم يحمل على الثبات عند لقاء الأعداد والصبر على الشدائد؛ كما قال تعالى في قصة طالوت وجنوده حينما لقوا عدوهم الذي يفوقهم في الكثير بعد ما جاوزوا نهر الامتحان ولم ينجح منهم إلا القليل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩][3].

موضوعات ذات صلة:

الثواب، الجزاء، الجنة، النار، اليوم الآخر

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٧١.
(٢) انظر: بيان المعاني، عبد القادر العاني ٦/ ٤٥، التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٣٦١.
(٣) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، صالح الفوزان ص ٢٥٤.

الحسد

عناصر الموضوع

مفهوم الحسد	٢١٢
الحسد في الاستعمال القرآني	٢١٤
الألفاظ ذات الصلة	٢١٥
مجالات الحسد	٢١٧
أسباب الحسد	٢٢٠
نماذج من الحاسدين في القرآن الكريم	٢٢٤
آثار الحسد	٢٣٣
سبل الوقاية من الحسد	٢٣٧
علاج الحسد	٢٤٢

مفهوم الحسد

أولًا: المعنى اللغوي:

إن الباحث في معاجم اللغة العربية يجد أن معنى الحسد يحمل مفهوم: كراهية الحاسد وجود النعمة عند غيره وتمني زوالها من المحسود، وأصل الحسد مستفاد من: الحسدل وهو: القراد، ومن القشر لأن الحسد يقشر القلب كما تقشر القراد الجلد فتمص دمه؛ ولذلك يقال: حسد الشجر إذا قشر لحاها، ومعلوم أن الشجرة إذا قشر عنها لحاؤها يبست، قال أبو تمام[1]:

يعيش المرء ما استحيا بخيرٍ ... ويبقى العود ما بقي اللّحاءُ

والحسد مصدر فعله الماضي: حسد بفتح السين، ومضارعه: يحسد - يحسد، بكسر السين وضمها، ويأتي المصدر على حسود، وحسّده: إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته أوتسلب منه، ويقال: تحاسد القوم، وقومٌ حسّدٌ وحسدةٌ، ورجل حاسد من قوم حسّد، وهو من طبعه الحسد ذكرًا كان أو أنثى.

وقد يأتي الحسد بمعنى العقوبة كما هو عند العرب من قولهم: «حسدني الله إذا كنت أحسدك» أي: عاقبني الله على حسدي إياك، وأما الحسد على الشجاعة ونحو ذلك فهو: الغبطة وفيه معنى التعجب، وليس فيه تمني زوال ذلك عن المحسود، فإن تمناه فهو الحسد، وهو المنهي عنه شرعًا[2].

مما سبق نستخلص أن تعريف الحسد في اللغة: تمني زوال نعمة مّا من يد صاحبها، على أن تتحول إلى الحاسد وتنتقل إليه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

إن معنى الحسد في الاصطلاح لايبعد عن معناه في اللغة، فقد قال الفيروزآبادي: «تمني زوال نعمة المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها، أو تمني عدم حصول النعمة للغير»[3].

(١) ديوان أبي تمام، ٢/ ٣١١.
(٢) انظر: مقاييس اللغة/ ابن فارس ٢/ ٦١، الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٤٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٤٨-١٤٩.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٤٣٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٢٧٧.

وقال الكفوي: «اختلاف القلب على الناس؛ لكثرة الأموال والأملاك»[١].

وقال صاحب التحرير والتنوير: «إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير، مع تمني زوالها عنه؛ لأجل غيرة على اختصاص الغير بتلك الحالة، أو على مشاركته الحاسد»[٢].

وقال النووي: «الحسد: تمني زوال النعمة عن صاحبها، سواء كانت نعمة دين أو دنيا»[٣].

وقال الشوكاني: «الحسد: تمني زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود، (إذا حسد) إذا أظهر ما في نفسه من الحسد، وعمل بمقتضاه، وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود»[٤].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «والتحقيق أن الحسد هو: البغض والكراهة؛ لما يراه من حسن حال المحسود»[٥].

وبذلك لا يخرج المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي، فمن رأى شيئًا ربما استحسنه، ومن استحسن ربما تمنى لنفسه، ومن تمنى ربما حسد، لكن المعنى الاصطلاحي زاد في بعض المحترزات والتقييدات منها: أن مبعث الحسد هو شدة الأسى على الخير لدى المرء، ودافعه الكراهية المؤدي إلى تمني زوال النعمة عن المنعم عليه، وأن تكون هذه النعمة له دون المنعم عليه[٦].

والحاسد تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه، ولا يكاد يكون كذلك إلا ولو تمكن من ذلك بالحيل لفعل؛ فلذلك أمر الله بالتعوذ منه[٧].

(١) الكليات، الكفوي ص٤٠٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٠/ ٦٢٩.
(٣) رياض الصالحين، النووي ص ٤٦٦.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٩٤.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٠/ ١١١.
(٦) العين والحسد وعلاجها، ملفي الشهري، ص ١٤.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٩٥.

الحسد في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حسد) في القرآن (٥) مرات [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق:٥]
الفعل المضارع	٢	﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء:٥٤]
المصدر	١	﴿لَّوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩]
اسم الفاعل	١	﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق:٥]

وجاء الحسد في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: تمنّي زوال نعمة المحسود [(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٠١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الحاء ص٤٣٣.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٢/ ٤٦٥، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤١١، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ١٤٨-١٤٩، القاموس المحيط، الفيروآبادي، ص٢٧٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ المنافسة:

المنافسة لغة:

مأخوذة من الفعل «نافس» يقال: نافس في الشّيء منافسةً، إذا رغب فيه على وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه، أي: رغبوا[١]، أو مشتقة من النّفاسة، يقال: شيءٌ نفيسٌ، أي: ذو نفاسةٍ وخطر يتنافس به، والتّنافس: أن يبرز كلّ واحدٍ من المتبارزين قوّة نفسه[٢].

المنافسة اصطلاحًا:

تعني: «مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل واللحوق بهم، من غير إدخال ضرر على غيره» ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦][٣].

الصلة بين المنافسة والحسد:

«قد تسمى المنافسة حسدًا والحسد منافسة، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني، وهذا يدل على أن المنافسة قد تجر إلى الحسد إن لم ينتبه المنافس ويتق الله؛ إذ إن المنافسة في المباحات تنقص من الفضائل، وتناقض الزهد، والرضا، والتوكل»[٤].

٢ الإيثار:

الإيثار لغة:

تقديم الشيء.

قال ابن فارس رحمة الله تعالى: «الهمزة والثاء والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي»[٥]، والمعنى الأول هو الذي يعنينا هنا.

الإيثار اصطلاحًا:

تفضيل المرء غيره على نفسه.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «الإيثار: تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية؛ رغبة

(١) مختار الصحاح، لرازي ص٣١٦.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٦١.
(٣) المفردات، الأصفهاني، ص ٨١٨.
(٤) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٣/ ١٨٩.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٣.

في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة»[١].

وأضاف الجرجاني رحمه الله تعالى معنىً لطيفًا فقال: «الإيثار: أن يقدم غيره على نفسه في النفع له والدفع عنه، وهو النهاية في الأخوة»[٢].

الصلة بين الإيثار والحسد:

المؤثر متصف بخلق أهل الجود والكرم، والحاسد متصف بخلق أهل البخل؛ لتمنيه منع النعمة عن الغير.

٣ الغبطة:

الغبطة لغة:

أن يتمنى المرء مثل ما للمغبوط من النعمة من غير أن يتمنى زوالها عنه[٣].

الغبطة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الحسد والغبطة:

قال ابن منظور: «الغبط: أن يرى المغبوط في حال حسنة، فيتمنى لنفسه مثل تلك الحال الحسنة، من غير أن يتمنى زوالها عنه، وإذا سأل الله مثلها فقد انتهى إلى ما أمره به ورضيه له، وأما الحسد فهو أن يشتهي أن يكون له ما للمحسود، وأن يزول عنه ما هو فيه»[٤].

وقال الرازي: «إذا أنعم الله على أخيك بنعمة، فإن أردت زوالها؛ فهذا هو الحسد، وإن اشتهيت لنفسك مثلها؛ فهذا هو الغبطة»[٥].

وقد تسمى الغبطة حسدًا، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)[٦]. وقد فسّر النووي الحسد في الحديث فقال: «هو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها»[٧].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٦.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ٤٠.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٥٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٤٣.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٥٩.
(٥) مفاتيح الغيب ٣/ ٦٤٦.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم، ١/ ٢٥، رقم ٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب، باب فضل من يقوم بالقرآن، ١/ ٥٥٨، رقم ٨١٥.
(٧) المنهاج شرح صحيح مسلم ٦/ ٩٧.

مجالات الحسد

تعددت مجالات الحسد التي تحدث عنها القرآن، وهي كما يأتي:

أولًا: الحسد في الدين:

كما أن الحسد يكون في متاع الحياة الدنيا، فإنه قد يكون في الدين من النبوة، والرسالة، والصلاح، والتوفيق، وهذا ظاهر في حسد المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم، على مقام الرسالة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣١-٣٢].

وقال أيضًا: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾[ص: ٨].

فقد نظر المشركون إلى النبي صلى الله عليه وسلم نظر حسد على هذه المنزلة التي حباه الله تعالى بها من اختياره رسولًا ونبيًّا قائلين: لماذا أنزل الله هذا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم؟ ولم ينزله على رجل عظيم من القريتين، مكة أو الطائف؟[1].

فهل هم الذين يقسمون رحمة ربك بين خلقه، فيجعلون كرامته لمن شاءوا وفضله لمن أرادوا، أم الله هو الذي يقسم ذلك فيعطيه لمن يحب؟ وهذا تبكيت من الله تعالى لهؤلاء القوم الذين اعترضوا على قسمة الله وفضله حسدًا وبغيًا من عند أنفسهم. كما أن في ذلك نفيًا للشبهة المتعلقة بالنبوات، وهي قولهم: إن محمدًا لما كان مساويًا لغيره في الذات، والصفات والخلقة الظاهرة، والأخلاق الباطنة، فكيف يعقل أن يختص بهذه الدرجة العالية، والمنزلة الشريفة؛ إذ أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان، وذلك باطل[2].

ومراد قولهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ إنكار كونه ذكرًا منزلًا من عند الله تعالى، وهذا دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد، وقصر النظر على الحطام الدنيوي[3].

ثانيًا: الحسد في نعم الدنيا:

يقع الحسد في أمور الحياة الدنيا سواء أكانت مالًا، أم جاهًا، أم منصبًا، أم جمالًا، أم غير ذلك من الجوانب، ويكثر هذا بين الأقران في العلم وغيره من الصناعات والتجارات، ولا يختص به العامة، بل يتعداهم إلى أهل العلم الشرعي، الذين يبتغون به عرض الدنيا، ثم إن بعض أهل

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٥/ ٩٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ١٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير،، ٧/ ٤٧.

(٣) روح المعاني، الألوسي، ٢٣/ ١٦٨، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٦/ ٣٧٩.

الدين والتقوى قد يقع فيه، ذلك أنه من جملة الذنوب التي لا يسلم منها إلا المعصومون، وهم الأنبياء.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[النساء: ٣٢].

«ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضّل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة. فلا تتمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضّلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنى والكمال تمنيًا مجردًا؛ لأن هذا هو الحسد بعينه، تمني نعمة الله على غيرك أن تكون لك ويسلب إياها. ولأنه يقتضي السخط على قدر الله، والإخلاد إلى الكسل، والأماني الباطلة التي لا يقترن بها عمل ولا كسب. وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يتكل على نفسه ولا على غير ربه»[(١)].

«والنص عام في النهي عن تمني ما فضّل الله بعض المؤمنين على بعض.. من أي أنواع التفضيل، في الوظيفة والمكانة، وفي الاستعدادات والمواهب، وفي المال والمتاع.. وفي كل ما تتفاوت فيه الأنصبة في هذه الحياة..

والتوجه بالطلب إلى الله، وسؤاله من فضله مباشرة بدلًا من إضاعة النفس حسرات في التطلع إلى التفاوت وبدلًا من المشاعر المصاحبة لهذا التطلع من حسد وحقد ومن حنق كذلك ونقمة، أو من شعور بالضياع والحرمان، والتهاوي والتهافت أمام هذا الشعور.. وما قد ينشأ عن هذا كله من سوء ظن بالله وسوء ظن بعدالة التوزيع.. حيث تكون القاصمة، التي تذهب بطمأنينة النفس، وتورث القلق والنكد، وتستهلك الطاقة في وجدانات خبيثة، وفي اتجاهات كذلك خبيثة. بينما التوجه مباشرة إلى فضل الله، هو ابتداء التوجه إلى مصدر الإنعام والعطاء، الذي لا ينقص ما عنده بما أعطى، ولا يضيق بالسائلين المتزاحمين على الأبواب! وهو بعد ذلك موئل الطمأنينة والرجاء ومبعث الإيجابية في تلمس الأسباب، بدل بذل الجهد في التحرق والغيظ أو التهاوي والانحلال! النص عام في هذا التوجيه العام»[(٢)].

يقول الإمام الغزالي: «يكثر الحسد بين المتحاسدين من الناس الذين يجمعهم زخرف الدنيا والغرور بها، وتجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض، نفر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٧٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٦٤٢.

طبعه عنه، وأبغضه، وثبت الحقد في قلبه، فعند ذلك يريد أن يستحقره، ويتكبر عليه، ويكافئه على مخالفته لغرضه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه.

وتترادف جملة من الأسباب؛ إذ لا رابطة في بلدتين متنائيتين، فلا يكون محاسدة بينهما، أما إذا تجاورا في مسكن أو سوق، أو مدرسة، أو مسجد وتواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما، فيثور من التناقض والتنافر والتباغض ما يؤدي إلى الحسد؛ لذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، والشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم، وحسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب؛ لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص، فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين؛ لذلك يكثر الحسد بينهما، نعم فمن اشتد حرصه على الجاه، وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه، فإنه يحسد كل من هو في العالم ومنشأ ذلك كله حب الدنيا؛ فإن الدنيا تضيق على المتزاحمين»[1].

والحسد قد يقع بين المتحاسدين، ولو كانا متباعدين إذا علم أحدهما حال الآخر وذكر أمامه، أو وصف حاله أمامه، وقد يقع الحسد على غرض بين متباعدين أو متقاربين، ولو لم يكن الغرض من اختصاص الاثنين، بل من اختصاص أحدهما، لكن في الغالب لا يقع إلا بين متقاربين أو متنافسين أو متماثلين.

(١) إحياء علوم الدين، ٣/ ١٩٤.

أسباب الحسد

للحسد أسباب متعددة يتعلق بعضها بالحاسد، وبعضها يتعلق بالمحسود، وفيما يأتي بيان بعضها:

أولًا: الأسباب المتعلقة بالحاسد:

١. العدواة والبغضاء.

وهو أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه، أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه، أحب أن يتشفى منه الزمان... فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقى أن لا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه[(١)].

فهي مفضية للحسد، ومنها تكون الأحقاد، وذلك مذكور في القرآن الكريم، فهؤلاء أهل مكة يحكي القرآن عنهم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

فمسيس الحسنة يسؤهم، ونزول البلاء بالمسلمين يسعدهم ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. التعزز والتكبر.

وهو أن يثقل عليه أن يترفّع عليه غيره، وهكذا كان حسد أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قالوا: كيف يتقدم علينا غلام يتيم، وكيف نطأطئ رؤوسنا؟ فقالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

أي: كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان عظيمًا، وقال يصف قول قريش: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

إن الله تعالى بيّن في هذه الآية أن كل واحد مبتلى بصاحبه، فأولئك الكفار الرؤساء الأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين في الإسلام، مسارعين إلى قبوله، فقالوا: لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء المساكين، وأن نعترف لهم بالتبعية فكان ذلك يشق عليهم[(٢)].

وهذا الحسد هو الذي دعاهم إلى الطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد فقراء الصحابة ليجلسوا معه فكان

(١) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١٩٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٢٣٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٣٣، روح المعاني، الألوسي، ٧/ ١٦٢.

الرد الإلهي: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢-٥٣].

٣. خبث النفس وشحّها بالخير لعباد الله تعالى.

«فإنك تجد من لا يتشغل برياسة ولا تكبر ولا طلب مال، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وفوات مقاصدهم، وتنغص عيشهم فرح به، فهو أبدًا يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس، ورذالة في الطبع»[(١)].

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٤. عدم رضى الحاسد، وكذا النظر إلى النعم عند غيره.

وهذا مخالف لقول المصطفى وأمره بألا ينظر أحدنا إلى من زاد عليه في نعمة من مال أو غيره، ولكن لينظر إلى من هو أقل منه ليعلم نعمة الله عليه، وإذا اشتاقت أو امتدت عينه إلى ما عند غيره من نعم فلربما جرّه ذلك إلى الاعتراض على قضاء الله عز وجل الذي فضّل بعض الناس على بعض في الرزق.

يقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١].

فلا حرج على فضل الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ثم إن ذلك يمثّل اعتراضًا على الله عز وجل فلابد لنا من رضا بما قسم الله لنا، ولا تزال نار الحقد تؤججها هذه الرغبة الجامحة في إزالة النعمة من عند الله حتى تصل بصاحبها إلى أن يحسد المنعم عليه، فيقتل نفسه وربما غيره بحسده، وهل يعلم الحاسد المعترض على قضاء الله أن الحسد لا يجتمع مع الإيمان في قلب مؤمن، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان، والحسد)[(٢)].

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٣/ ١٩٤.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، ٦/ ١٢، رقم ٣١٠٩، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٨٢، رقم ٢٣٩٤. وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ولم يتعقبه الذهبي.

٥. بسط الدنيا وتنافسها.

إذا فتحت الدنيا وبسطت على الناس، جعلتهم يتصارعون تصارع الثيران على ما فيها، مستخدمين في ذلك كل ما أوتوا من قوة ومن وسائل، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

ثانيًا: الأسباب المتعلقة بالمحسود:

إن من أسباب الحسد أمورًا تتعلق بالمحسود سواء أكانت جمالًا، أم مالًا، أم جاهًا، أم سلطة أم غيرها، وفيما يأتي بيان بعض هذه الأسباب:

١. الحسن والجمال.

وفي القرآن نماذج لذلك، منها:

- خبر يوسف عليه الصلاة والسلام مع النسوة.

يعد الحسن والجمال من الأمور التي يحسد عليها صاحبها، وهذا ظاهر في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام الذي أوتي شطر الحسن كما بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج: (ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، إذا هو قد أعطي شطر الحسن)[1].

وقد قص الله سبحانه علينا خبر النسوة مع يوسف عليه السلام فقال: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣٠-٣١].

إن خبر حب يوسف عليه الصلاة والسلام وتغلغله في قلب امرأة العزيز حتى وصل شغاف قلبها وأحاط به إحاطة السوار بالمعصم، قد انتشر في المدينة[2].

فما كان من النسوة إلا أن دبّرن مكيدة ليفزن برؤية هذا الغلام الذي أخذ بلبّ امرأة العزيز وقلبها.

فهؤلاء النسوة فعلن ما فعلن من كيد ومكر وكشف الأسرار غيرة وحسدًا منهن لامرأة العزيز؛ لاستئثارها به دونهن لما سمعن من حسنه وجماله، وكل واحدة منهن تتمنى أن تفوز به ظنًّا منهن أنه صيد سهل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٢، ١/ ١٤٥-١٤٦، جزء من حديث طويل.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٢/ ٢٥٨.

كباقي البشر.

- خبر يعقوب عليه الصلاة والسلام مع بنيه في دخولهم مصر.

«اعلم أن أبناء يعقوب لما عزموا على الخروج إلى مصر، وكانوا موصوفين بالكمال، والجمال، وأبناء رجل واحد قال لهم: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ [يوسف: ٦٧].

وفيه إثبات أن العين حق»[(١)].

وهكذا يتبين أن الحسن والجمال، والبنية القوية قد تكون من الأسباب التي هي مطية للحاسد والعائن؛ كي يبث سمومه، ويقضي حاجته ومآربه من الحسد والإصابة بالعين.

٢. الحسد على المال.

مثال ذلك قصة قارون في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص: ٧٩].

إن الناس لما رأوه -قارون- على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ من هذه الأمور والأموال، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار، وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا[(٢)].

وقد جاء التحذير الرباني من هذا الفعل: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

إن الناظر في هذه الآية يلحظ مدى اهتمام القرآن بقطع الطريق على النفس ولجمها قبل أن تتوغل في مستنقع الحسد الذي يبدأ بمد العين إلى ما في أيدي الناس، بل تبين أن النظرة الصحيحة عند رؤية النعيم الذي يتمتع به الآخرون تكون بتذكر ما عند الله من النعيم المقيم.

٣. الحسد على الصلاح.

إن من الأمور التي تكون في الإنسان ويحسد عليها، صلاحه وتقواه، يدل على ذلك قصة يوسف، قال تعالى حكاية عن يعقوب لولده يوسف عليهما الصلاة والسلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥].

فقد قال يعقوب لابنه يوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ هذه ﴿عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ فيحسدوك، ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ يقول: فيبغوك الغوائل، ويناصبوك العداوة، ويطيعوا فيك الشيطان، ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/ ١٧٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣٤٢، روح المعاني، الألوسي، ١٣/ ١٥، التفسير المنير، الزحيلي، ١٣/ ٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ١١٥، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٧.

﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ إن الشيطان لآدم وبنيه عدو، وقد أبان لهم عن عداوته وأظهرها، يقول: فاحذر الشيطان أن يغري إخوتك بك، بالحسد منهم لك إن أنت قصصت عليهم رؤياك[1].

«وقد علم يعقوب عليه السلام أن إخوة يوسف عليه السلام العشرة كانوا يغارون منه؛ لفرط فضله عليهم خلقًا وخلقًا، وعلم أنهم يعبّرون الرؤيا إجمالًا وتفصيلًا، وعلم أن تلك الرؤيا تؤذن برفعة ينالها يوسف عليه السلام على إخوته الذين هم أحد عشر، فخشي إن قصها يوسف عليه السلام عليهم أن تشتد بهم الغيرة إلى حد الحسد، وأن يعبّروها على وجهها فينشأ فيهم شر الحاسد إذا حسد، فيكيدوا له كيدًا ليسلموا من تفوقه عليهم وفضله فيهم»[2].

يتضح مما تقدم أن إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام، حسدوه على صلاحه وتقواه، وأضمروا له العداوة، والكيد؛ حسدًا منهم له على تقدمه عليهم، وكذا حال الحساد، يفعل الحسد فعله في نفوسهم سواء أكان الحسد للصلاح والتقوى أم لغيرهما.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٢/ ١٥٢، التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ٢٠٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢١٣.

نماذج من الحاسدين في القرآن الكريم

أولًا: حسد إبليس لآدم:

من سنن الله الثابتة: الصراع بين الحق والباطل من اللحظة الأولى التي خلق الله سبحانه وتعالى فيها آدم عليه السلام، وأمر الملائكة بالسجود له، وكان ممن شملهم الأمر إبليس -عليه لعنة الله-، فاستجاب الملائكة للأمر الرباني، ورفض إبليس ذلك، ومنذ تلك اللحظة اشتعلت نار الحسد في قلب إبليس، وقد ظهر هذا الحسد من خلال عدة صور بيّنها الله سبحانه وتعالى وهي كالآتي:

الصورة الأولى: رفض إبليس الاستجابة لأمر الله تعالى بالسجود لآدم، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤].

فقد أمر الله تعالى الملائكة وإبليس معهم بالسجود لآدم؛ إكرامًا له وتعظيمًا؛ وعبودية الله تعالى، فامتثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود، إلا إبليس امتنع عن السجود؛ واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، إباءً واستكبارًا نتيجة الكفر الذي هو منطو عليه[3].

إن الآية الكريمة السابقة تحمل في طياتها معاني وإرشادات كثيرة.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٢.

إذ أنها تبيّن مدى امتثال الملائكة أمر الله تعالى، وتطبيقهم الفوري، حيث عقب الأمر بالسجود بالفاء ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، أما إبليس اللعين فأبى السجود، وأصر على ذلك مستكبرًا، رافضًا أمر الله تعالى[1].

الصورة الثانية: التفاخر بالخلقة على آدم، بأنه ناري الخلقة وآدم طيني، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فقد حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة، قائلًا: أنا ناري، وهذا طيني، فكان بدء الذنوب الكبر[2]، والذي دفعه إلى التكبر عن أوامر الله تعالى، والتعالي عليها، والادعاء أن النار لها الأفضلية على الطين؛ هو الحسد، وفي هذا مراوغة في الإجابة، وادعاء للخيرية بغير دليل، وهي إطاعة للعقل وإهمال للأمر، وترك للدليل وذهاب إلى القياس؛ بادعاء أن النار أفضل من الطين، فخسر وخاب[3].

الصورة الثالثة: طلب إنظاره إلى يوم القيامة، وأخذ العهد على نفسه بإغواء بني آدم، ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٧]

وفي هذه الآيات الكريمة يظهر أثر الحسد المهلك؛ إذ قاده للتمادي والإصرار على معصية الله تعالى، بل والتوعد بالعمل على إغواء عباد الله.

وهكذا يلحظ أثر الحسد السيء، وكيف قاد إبليس للاستكبار على أمر الله تعالى، وعدم الاستجابة له، ثم إلى الغرور والتفاخر بالنفس، ثم إلى التمادي في المعصية والتوعد أمام الجبار سبحانه بالعمل على إغواء عباده.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

أي: من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك، وذلك بسبب إظهاره الاستكبار فكانت النتيجة أن ألبس الصغار[4]، وقوله: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].

أي: «خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام، بل مذمومًا مبعدًا عن الله وعن رحمته، وعن كل خير»[5].

إن المطالع للآيات التي جاء فيه ذكر قصة إبليس مع آدم عليه الصلاة والسلام يجد أن رد إبليس فيها على أمر الله، كان بالرفض والتكبر، والامتناع من السجود لآدم عليه

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ١/ ٢٤٥.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ١/ ٧٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ٣٢.
(٤) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٧١.

السلام، فحذّر سبحانه وتعالى بني آدم من اتباعه في خطابه لأبيهم آدم، وبيّن لهم أن عداوته قائمة دائمة إلى يوم الدين.

ولكن ما سبب تلك العداوة؟ والجواب: «أن إبليس كان حسودًا، فلما رأى آثار نعم الله تعالى في حق آدم عليه السلام حسده، فصار عدوًّا له»[1].

فـ «المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر؛ لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، بسبب الحسد والكبر، فذكر الله تعالى هذه القصة هاهنا ليصير سماعها زاجرًا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين»[2].

ثانيًا: حسد ابن آدم عليه السلام قابيل لأخيه هابيل:

إن الله سبحانه وتعالى، وهو يقص علينا القصص في كتابه، يوضح لنا أن تغلغل آفة الحسد في النفس يجعل الإنسان يقدم على ارتكاب جريمة القتل، حتى في حق أقرب الناس إليه (أخيه)، وهذا واضح في قصة ابني آدم عليه السلام.

يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

إن في إخبار الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة، في ظل ما يلقاه من تكذيب وإعراض من قومه، ومن أهل الكتاب، الذين كفروا به حسدًا من عند أنفسهم، من التسلية الشيء الكثير، وكأنه يقول له: لا تتعب من حسد هؤلاء ومكرهم، فقد حسد الأخ أخاه حتى أوصله حسده إلى قتله، فلا تحزن بما فعل هؤلاء واصبر حتى يأتي أمر الله.

فقد قرّب كل واحد منهما قربانًا إلى الله تعالى، فتقبّل الله تعالى قربان أحدهما دون الآخر، فتحرّك الحسد في قلبه، ودفعه إلى التحرك والعمل، فقال لأخيه ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، فهو بهذا يتمثّل أمر الحسد في تنفيذ القتل ليتخلص منه، ويضمن عدم تقدّمه وتفوّقه عليه، وهذا دأب الحاسد، وديدنه، فهو لا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٢/ ١٢٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٦/ ٤٥٣.

يرتاح، ولا يهدأ له بال، ولا يبرد الحسد في عروقه؛ حتى ينفذ مقصده ومآربه[1].

وهنا يردّ عليه التقي الورع الواثق بالله تعالى، الذي تقبّل الله تعالى قربانه، منبّهًا له، ومبيّنًا أن تقوى الله تعالى، والإخلاص له من أهم أسباب القبول عند الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، وإن كنت مصرًّا على قتلي، فلن أفعل فعلك، فخوفي من الله تعالى، ربي وربك يمنعني فعل ذلك، والإقدام عليه، فهذه جريمة لا أجرؤ على الإقدام عليها، ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، وبعد هذا التذكير، والتحذير والتخويف له، لعله يرجع عن رأيه، وما يريد فعله، أردف ذلك أن غرضي من هذا، إن لم ترجع عن فعلك، أن تحمل إثمي وإثمك، وتبوء بهما، وهذا يجعلك من أصحاب النار، وهذا مصير الظالمين[2].

ومع كل ما تقدم من الوعظ والإرشاد، والتخويف والتحذير، لم يتعظ ولم يرجع عما يخطط له، وبقيت نار الحسد مشتعلة في صدره، تحثه على الإقدام لارتكاب جريمته، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، مع كل ما تقدم من التذكير بالله تعالى، والتخويف، والتحذير من سوء العاقبة والمصير، لم يرتدع، فجاء التعبير بفاء التعقيب، ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ وشبّه الفعل بأمر عصي على الانقياد فطوّعه حتى سهل وروض، أو بشيء صلب شديد الصلابة، يصعب كسره، وتنفيذه، فألانته نفسه، وسهّلته، وزيّنته له، وذلك نتج عن الحرب القائمة في نفسه بين عنصري الخير والشر، فانتصر عنصر الشر في نفسه، ودفعه الحسد الذي يغلي في صدره إلى ارتكاب جريمته، فناله الخسران بسبب فعلته[3].

إن الآيات الكريمة السابقة قد تضمّنت بيانًا لأخلاق صاحب الحسد، وسوء طويته وشنيع فعله؛ إذ أن حسده قد يحمله «على إهلاك نفسه بقتل أقرب الناس إليه قرابة، وأمسّه به رحمًا، وأولاهم بالحنو عليه، ودفع الأذية عنه»[4].

ثالثًا: حسد إخوة يوسف عليه السلام:

لقد قصَّ الله تعالى علينا هذا الخبر في سورة وصفها بأنها أحسن القصص؛ لما تضمنته من الدروس والعبر المهمة، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ٢٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٧٥، تفسير المراغي، المراغي، ٦/ ٩٧.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٤/ ١٩١، تفسير المراغي، المراغي، ٦/ ٩٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ٢٠٨، زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٢٠٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١٣٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١٣٥.

﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال الشوكاني: «واختلف في وجه كون ما في هذه السّورة هو أحسن القصص؟ فقيل: لأنّ ما في هذه السّورة من القصص يتضمّن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها، وقيل: لما فيها من حسن المحاورة، وما كان من يوسف من الصبر على أذى إخوته وعفوه عنهم، وقيل: لأنّ فيها ذكر الأنبياء والصّالحين والملائكة والشّياطين والجنّ والإنس والأنعام والطّير وسير الملوك والمماليك والتجّار والعلماء والجهّال والرجال والنّساء وحيلهنّ ومكرهنّ، وقيل: لأنّ فيها ذكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما، وقيل: إنّ (أحسن) هنا بمعنى (أعجب)، وقيل: إنّ كلّ من ذكر فيها كان مآله السّعادة»[1].

«ووجه أحسنيتها اشتمالها على: حاسد ومحسود، مالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وخصب وجدب، وذنب وعفو، وفراق ووصال، وسقم وصحة، وحل وارتحال، وذل وعز، وقد أفادت أنه لا دافع لقضاء الله تعالى، ولا مانع من قدره، وأنه سبحانه إذا قضى لإنسان بخير ومكرمة، فلو أن أهل العالم اجتمعوا على دفع ذلك لم يقدروا، وأن الحسد سبب الخذلان والنقصان، وأن الصبر مفتاح الفرج، وأن التدبير من العقل، وبه يصلح أمر المعاش، إلى غير ذلك مما يعجز عن بيانه بنان التحرير»[2]. لقد كان يوسف وأخوه أصغر أبناء يعقوب عليه السلام، وكان يحبهما حبًّا كثيرًا، فكان هذا الأمر دافعًا لاشتعال نار الحسد في قلوب الإخوة[3].

وذات ليلة رأى يوسف عليه السلام رؤيا قصّها على أبيه، فكانت رؤيا تبشّر بمستقبل زاهر لهذا الغلام الصغير؛ إذ أنها بشرى بأنه سيحمل لواء النبوة كما حملها آباؤه من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فكانت هذه الرؤيا عنوانًا آخر من عناوين شدة محبة يعقوب عليه السلام له، قال تعالى مسطرًا ذلك في كتابه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وهنا يقف الأب موقف الرجل الحكيم الحريص على أبنائه، الخبير بطبائع البشر، حاثًّا إياه على عدم قص هذه الرؤيا على الإخوة الذين كانوا في الأصل يحسدونه على قربه من قلب أبيهم ومحبته له؛ إذ بسماعهم لهذه الرؤيا سيزداد حسدهم أكثر، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ

(١) فتح القدير، ٣/ ٦-٧.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ١٧٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/ ٩٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣١٩.

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥][(١)].

وتعليل أمره بعدم قص الرؤيا قوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: فيحسدوك ويبغوك الغوائل، ويناصبوك العداوة، ويطيعوا فيك الشيطان، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ الشيطان عدو لآدم وبنيه، قد أبان لهم عن عداوته وأظهرها، فاحذر الشيطان أن يغري إخوتك بك فيحسدوك، إن أنت قصصت عليهم رؤياك[(٢)]، وقد وقع ما حذّر منه عليه السلام، فوقع الحسد في قلوب الإخوة، واتخذ صورًا متنوعة قصها القرآن الكريم.

الصورة الأولى: وصفهم لأبيهم بأنه في ضلال مبين بمحبته ليوسف عليه السلام، ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

فقد كان هذا القول حسدًا منهم ليوسف وأخيه لما رأوا من ميل يعقوب إليه وكثرة شفقته عليه، (ووصف أبيهم بالضلال المبين) يعني لفي خطأ بيّن في إيثاره حب يوسف علينا مع صغره لا نفع فيه، ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه، من أمر دنياه، وإصلاح أمر مواشيه، وليس المراد من ذكر هذا الضلال: الضلال عن الدين؛ إذ لو أرداوا ذلك لكفروا به، ولكن أرادوا به الخطأ في أمر الدنيا، وما يصلحها[(٣)].

الصورة الثانية: التفكير بقتل يوسف والتخلص منه، ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩].

يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم؛ ليخلوا لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدامه قومًا صالحين[(٤)].

فقد قادهم الحسد إلى التفكير في قتل يوسف والتخلص منه؛ ليحوزوا على قلب أبيهم ومحبته الكاملة لهم، التي لا يشاركهم فيها أحد، وهذه آية من عبر الأخلاق السيئة، وهي: التخلص من مزاحمة الفاضل بفضله لمن هو دونه فيه، أو مساويه، بإعدام صاحب الفضل، وهي أكبر جريمة؛ لاشتمالها على الحسد، والإضرار بالغير، وانتهاك ما أمر الله بحفظه[(٥)].

الصورة الثالثة: إصرارهم على ارتكاب الخطأ مع معرفتهم التامة بذلك، وتعليل ذلك بأنهم سيتوبون بعد ذلك إلى الله،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٨، زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ١٣٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٢/ ١٥٢.
(٣) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل، ٣/ ٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣١٩.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٢/ ٢٢٣.

﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩].

الصورة الرابعة: التخلص منه بإلقائه في غيابة الجبّ، ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف: ١٥].

إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة، وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيمًا، فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فانطلقوا به إلى الجبّ يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر، حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ليموت[(١)].

الصورة الخامسة: الكذب على أبيهم والادعاء على الذئب بأنه قد أكل يوسف وهم عنه غافلون، ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٦-١٨].

لقد فعلوا فعلتهم النكراء، فجاءوا أباهم مساءً باكين كي لا يظهر عليهم أثر التآمر، مظهرين أسفهم وندمهم على تقصيرهم في الحفاظ عليه، وتتابعت الحجج أنهم كانوا يتسابقون ويلعبون، وتركوا يوسف عند المتاع، فأكله الذئب، ودليلهم في ذلك الدم الكذب على قميصه، ولكنها حجة تحمل في طياتها إدانتهم[(٢)].

رابعًا: حسد أهل الكتاب للنبي صلى الله عليه وسلم:

أولًا: حسد اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم.

إن الله سبحانه وتعالى قد بيّن لأهل الكتاب على لسان أنبيائهم عليهم السلام، أنه سيكون نبي في آخر الزمان، واضح الصفات، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

معروف الاسم، يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/ ٩٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/ ١٠٠، روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ١٩٩.

فتمنى اليهود أن يكون هذا النبي منهم، متوعّدين العرب به، مستنصرين به عليهم، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله الآية، فهم قد رجعوا بغضب من الله جديد؛ لكفرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله أنزل عليه الكتاب من فضله، وكانوا لجهلهم يدعون أنهم أحق، وباءوا بغضب على غضب سابق؛ لكفرهم بالأنبياء قديمًا ولهم عذاب مهين[1].

وظهر حسد اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم في صور، منها:

الصورة الأولى: القتل، كما قال سبحانه: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فإنهم حاولوا قتل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لولا عصمة الله سبحانه وتعالى له، إذ أنهم سحروه وسمّموا له الشاة[2].

الصورة الثانية: كتمان الحق، وادعاؤهم أنه ليس بالنبي المرسل، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

يخبر تعالى أنه قد تقرر عندهم -أي: علماء اليهود- وعرفوا أن محمدًا رسول الله وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وصلت إلى حد لا يشكّون فيه ولا يمترون، ولكن فريقًا منهم -وهم أكثرهم- الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها[3].

الصورة الثالثة: العناد وكراهية تنزل الخير على محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

أي: بئس الشيء الذي باعوا به أنفسهم

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي، ١/ ٥٣.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١/ ٣١٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٨.

وبذلوها -الكفر بما أنزل الله-، وهو الكتاب المصدق لما معهم، أي أنهم اختاروا الكفر على الإيمان، وبذلوا أنفسهم فيه... أي: أنهم كفروا لمحض العناد الذي هو نتيجة الحسد، وكراهة أن ينزل الله الوحي من فضله على من يختار من عباده، ولا بغي أقبح من بغي من يريد الحجر على الله، فلا يرضى أن يجعل الوحي في آل إسماعيل، كما جعله من قبل في آل إسحاق[1].

الصورة الرابعة: كراهية تنزل الخير على المؤمنين، ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

والسبب في ذلك أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم، فيحسدونكم، وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي، ثم بيّن سبحانه أن ذلك الحسد لا يؤثر في زوال ذلك، فإنه سبحانه وتعالى يختص برحمته وإحسانه من يشاء[2].

والمراد من الخير في الآية: إما الوحي، أو القرآن، أو النصرة، أو ما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المزايا، أو عام في أنواع الخير كلها؛ لأن المذكورين لا يودون تنزيل جميع ذلك على المؤمنين، عداوةً وحسدًا وخوفًا من فوات الدراسة وزوال الرياسة... ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تذييل لما سبق[3].

الصورة الخامسة: تمنيهم ردة المؤمنين عن دينهم، وعودتهم إلى دائرة الكفر ليكونوا سواء، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

إن التعبير بجملة: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة؛ إما للحسد، أي: حسدًا كائنًا من أصل نفوسهم، فكأنه ذاتي لها، وفيه إشارة إلى أنه بلغ مبلغًا متناهيًا، وهذا يؤكد أمر التنوين إذا جعل للتكثير أو التعظيم، وإما الوداد المفهوم من ﴿وَدَّ﴾، أي: ودادًا كائنًا ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾، وتشهّيهم لا من قبل التدبر والميل إلى الحق[4].

فهم يتمنون أن يرتد أهل الإيمان عن دينهم، ويتخلوا عن شريعة ربهم ليكونوا سواء في الباطل، إذ أنهم يشعرون؛ بل ويوقنون أن إيمان المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم يكمن فيه الخير والصلاح،

(١) تفسير المراغي، ١/ ١٦٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٢٢٥.
(٣) روح المعاني، الألوسي، ١/ ٣٥٠.
(٤) روح المعاني، الألوسي، ١/ ٣٤٧.

وبالتالي فنار الحسد لا تهدأ إلا إن ارتد هؤلاء عن دينهم، فخسروا هذا الخير المتمثل في الإسلام والقرآن.

وقال ابن عجيبة: «يتمنون ذلك من عند أنفسهم وتشهّيهم، أي: حسدًا حاصلًا من تلقاء أنفسهم، لم يستندوا فيه إلى شبهة ولا دليل»[1].

آثار الحسد

إن للحسد آثارًا سيئة بغيضة مذمومة، يلمس شرها عامة الناس والتعرّف على هذه الآثار أمر مهم إعمالًا لمبدأ تهذيب النفس لتتجنبه وتبتعد عن مسبباته، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. تكبّر الحاسد على أوامر الله سبحانه وتعالى، وسخط الله عليه.

والحاسد بفعله هذا يكون مشاركًا لإبليس -اللعين- عندما تكبر على أوامر الله عز وجل رافضًا السجود لآدم عليه الصلاة والسلام حسدًا منه لأبينا آدم على النعمة، والمكانة التي حباها الله تعالى بها، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟

من جند إبليس»[1].

٢. ادعاء الخيرية.

فقد ادعى إبليس الخيرية والأفضلية على آدم عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي: منعني من السجود فضلي عليه»[2]. وقال الطبري: «يريد إبليس من جوابه: أنه أشد وأقوى وأفضل من آدم لفضل النار التي خلق منها، على الطين الذي خلق منه آدم»[3].

٣. التسخط على قضاء الله لتفاوت الإنعام على الناس.

إن الحسد يجعل الفرد عدوًّا لنعم الله تعالى التي أنعم بها على عباده، فلسان حاله يقول: لم أنعمت هذه النعم على فلان وليس علي؟ ويكون متسخّطًا على قضاء الله سبحانه، والله تعالى يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٣].

فالمعنى: لا يسأله الخلق عن قضائه في خلقه، وهو يسأل الخلق عن عملهم؛ لأنهم عبيد[4].

ومن هنا، فقد جعل سبحانه وتعالى الناس متفاوتين؛ لتستمر الحياة ويحصل التكامل بين البشر، وتتم سنة الابتلاء ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

٤. النميمة.

وهي نقل الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر[5]، أو من فرد إلى فرد، وقيل: النميمة: الوشاية، وأصل النميمة الهمس والحركة الخفيفة[6].

فظهور هذه الآفة السيئة يؤدي إلى الإضرار بالمجتمع، واضطرابه، واهتزاز أركانه، وفساده؛ لأن الحاسد والعائن إن لم يستطع التأثير بنظره وقلبه، فإنه يسلك هذا السلوك؛ ليقضي مأربه ومبتغاه، بحسده وإيقاع الفساد بين الناس، وقد نهى الشارع الحكيم عن هذه الخصلة الذميمة، وهذا الخلق الدنيء، وحذّر من عاقبة النمّام الوخيمة، ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١١].

«أي: يمشي بالنميمة بين الناس؛ ليفسد بينهم»[7]، وقوله: ﴿مَّشَّاءٍ﴾ أي:

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ١٥٣.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٨/ ١٣١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١/ ٢٤٦.
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٥/ ١٢٠.
(٦) المفردات، الأصفهاني، ص ٨٢٥.
(٧) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٨/ ٩٥،

كثير المشي، ﴿بِنَمِيمٍ﴾ «أي: بنقل ما قاله الإنسان في آخر وأذاعه سرًّا، لا يريد صاحبه إظهاره على وجه الإفساد للبين، مبالغ في ذلك بغاية جهده»[1].

وفي الحديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة نمام)[2].

وفي رواية: (لا يدخل الجنة قتات)[3].

٥. القتـــل.

والحسد -هذه الصفة الذميمة المكروهة عند الناس- عندما تغلي في قلب الإنسان ونفسه، ولا يظهر أثرها العملي في المحسود، فإنها تجعل صاحبها يحرّك أعضاءه إلى جانب فكره؛ حتى يصل به الأمر إلى محاولة القتل، وهذا الأمر الجلي واضح في قصة ابني آدم عليه الصلاة والسلام حيث دفعه الحسد إلى ارتكاب جريمته في قتله أخيه.

قال تعالى في بيان هذه الحادثة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠].

قال ابن عاشور: «وإنما حمله على قتل أخيه حسده على مزية القبول، والحسد أول جريمة ظهرت على الأرض»[4].

٦. انتشار الحقد والضغينة.

الحسد يزرع في القلب الضيق والكراهية، ويعمي البصيرة أن تنشرح لنعم غيرها من الناس، فتتقوى بسبب ذلك عوامل الحقد، وقطع التواصل، وتقل سلامة الصدر، ويدخل الحاسد في دائرة ذوي القلوب المريضة الحاقدة البغيضة.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

قال القرطبي: «الأضغان: ما يضمر من المكروه، واختلف في معناه، قال ابن عباس:

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٢٠٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٠٩.

(١) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ١٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، ١/ ١٠١، رقم ١٠٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب مايكره من النميمة، ٧/ ١١٤، رقم ٦٠٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، ١/ ١٠١، رقم ١٠٥.
والقتات: هو النمام، وقيل: النمام الذي يكون مع القوم يتحدثون فينم عليهم، والقتات الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون ثم ينم.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ١١.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ١٧٠.

حسدهم، والمعنى أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام»[1].

إن سلامة القلب ونقاءه تزهّد الشخص في الدنيا، بل تزيل الحسد من نفسه، كما وصف تعالى به أهل الجنة من صفاء للقلوب ونزع للغل من صدورهم، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال الزحيلي: «ومن نعم الله تعالى على أهل الجنة صفاء نفوسهم وسلامة صدورهم، لا يكدرهم كدر، ولا يؤلمهم ألم، ولا يحزنهم فزع، ولا يحدث بينهم شر؛ لأن الله نزع ما في صدورهم من حسد وحقد وعداوة وغل ونحوها من أمراض النفس في الدنيا»[2].

آثاره على المجتمع:

وكما أن الحسد له آثار على الفرد، فكذلك له آثار على المجتمع، فالفرد هو نواة المجتمع، وقد بيّن العلامة ابن جبرين رحمه الله آثار الحسد على المجتمع، فقال رحمه الله: «لقد أمر الله تعالى بالاستعاذة من شر الحاسد في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

وهذا دليل على أن له شرًّا وفيه ضررًا، ولا يتحصن منه إلا بالاستعاذة بالله تعالى؛ حيث إن الحسد من أعظم الأمراض الفتاكة بالمجتمع؛ فهو يجبر صاحبه على أصعب الأمور، ويبعده عن التقوى، فيضيق صدر الحسود، ويتفطّر قلبه إذا رأى نعمة الله على أخيه المسلم، ولقد كثر الحسد بين الأقران، والإخوان، والجيران، وكان من آثار ذلك التقاطع والتهاجر، والبغضاء والعداوة، فأصبح كل من الأخوين أو المتجاورين يتتبع العثرات، ويفشي أسرار أخيه، ويحرص على الإضرار به، والوشاية به عند من يضره أو يكيد له، ولا شك أن ذلك من أعظم المفاسد في المجتمعات الإسلامية، فإن الواجب على المسلمين أن يتحابوا، ويتقاربوا، ويتعاونوا على الخير والبر والتقوى، وأن يكونوا يدًا واحدة على أعدائهم من الكفار والمنافقين، فمتى أوقع الشيطان بينهم العداوة والبغضاء، وتمكنت من قلوبهم الأحقاد والضغائن، حصل التفرق والتقاطع، وصار كل فرد يلتمس من أخيه عثرة، أو زلة فيفشيها، ويعيبه بها، ويكتم ما فيه من الخير، ويسيء إلى سمعته»[3].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٢١٤.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٨/ ٢٠٩.
(٣) رسالة في الحسد، ابن جبرين ص ١٠.

سبل الوقاية من الحسد

١. تنفير الحاسد من الحسد.

إن الحسد خصلة ذميمة مكروهة لدى الناس الأتقياء الأنقياء، والله عز وجل أمرنا بالاستعاذة من الحاسد وشره ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد نهى عن الحسد وحذر منه، فقال: (لا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا)[(١)].

قال ابن حجر في شرح الحديث: «إن النهي عن التحاسد ليس مقصورًا على وقوعه بين اثنين فصاعدًا، بل الحسد مذموم، ومنهي عنه، ولو وقع من جانب واحد؛ لأنه إذا ذم مع وقوعه مع المكافأة فهو مذموم مع الإفراد بطريق الأولى»[(٢)].

٢. مباركة ما يعجبه إذا رآه.

إن مباركة الحاسد تكون بترديد ما يقرّر عظمة الله على لسانه مع استشعار ذلك بقلبه بجعله رطبًا بذكره سبحانه، وهذا من أولويات الأمور، والأسباب التي تمنع الحسد وتقضي عليه؛ لأن تفويض الأمر إلى الله تعالى من أعظم معاني عمق الإيمان.

يقول تعالى في الحث على التبريك: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩].

قال الطبري: «أي هلا إذا دخلت بستانك فأعجبك ما رأيت منه قلت: ما شاء الله كان، لا قوة على ما نحاول من طاعته إلا به سبحانه»[(٣)].

٣. حث الحاسد على إفشاء السلام.

إن لإفشاء السلام ميزة طيبة في حياة الفرد من صفاء القلب وسكون النفس، ونقائها؛ لما يشكله من محاولة دائمة لتوثيق علاقات المودة والقربى بين أفراد الجماعة المسلمة.

«وإفشاء السلام والرد على التحية بأحسن منها من خير الوسائل لإنشاء هذه العلاقات وتوثيقها»[(٤)]، ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

٤. قراءة المحسود آيات من القرآن الكريم.

إن الله عز وجل لما أنزل القرآن الكريم جعله رحمة للناس وشفاء لقلوبهم وأبدانهم، وقد جاء في بعض آياته ما يتخذ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ٧/ ١١٦، رقم ٦٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتناجس، ٤/ ١٩٨٥، رقم ٢٥٦٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ١١/ ٢٧٤.

(٣) جامع البيان ١٥/ ٢٤٥.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٧٢٦.

كأوراد معالجات للأدواء وخاصة الحسد منها، مثل:

❁ قراءة آية الكرسي.

وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥].

قال القرطبي: «هذه آية الكرسي سيدة آي القرآن وأعظم آية..، نزلت ليلًا، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم زيدًا فكتبها»[(١)].

وقال ابن الجوزي عن تفسير هذه الآية: «روى مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب[(٢)] أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله أعظم؟) قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾؛ قال فضرب على صدري: وقال: (ليهنك العلم يا أبا المنذر)»[(٣)].

❁ قراءة آخر آيتين من سورة البقرة.

وهما قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦].

جاء في الحديث الصحيح عن أبي مسعود الأنصاري البدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)[(٤)]، وهما من قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إلى آخر السورة، قيل معناه: «كفتاه بركة وتعوذًا من الشياطين والمضار»[(٥)].

قال ابن حجر: «معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (كفتاه): كفتاه كل سوء، وقيل: كفتاه شر الشيطان، وقيل: دفعتا عنه شر الجن والإنس»[(٦)]، وقال ابن بطال: «إذا كان من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه،

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٢٥٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وقراءة آية الكرسي، ١/ ٥٥٦، رقم ٨١٠.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٢٥٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، ٦/ ١٢٦، رقم ٥٠٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، ١/ ٥٥٥، رقم ٨٠٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٤٣.
(٦) فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ٦٧.

ومن قرأ آية الكرسي كان عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح، فما ظنك بمن قرأها كلها من كفاية الله له، وحرزه، وحمايته من الشيطان وغيره، وعظيم ما يدخر له من ثوابها»[1].

❁ قراءة سورة الإخلاص والمعوذتين.

يقول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

«من المعلوم أن الحاسد هو الذي تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه، ولا يكاد يكون كذلك؛ إلا ولو تمكن من ذلك بالحيل لفعل، فلذلك أمر الله بالتعوذ منه، وقد دخل في هذه السورة كل شر يتوقى ويتحرّز منه دينًا ودنيا؛ فلذلك لما نزلت فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولها؛ لكونها مع ما يليها جامعة في التعوذ لكل أمر»[2].

وقال الطبري: «أي نستعيذ بالله من شر الحاسد الذي يحسد»[3].

وقال ابن عاشور: «والغرض منها تعليم النبي صلى الله عليه وسلم كلمات للتعوذ بالله من شر ما يتقى شره من المخلوقات الشريرة، والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، فعلّم الله نبيه هذه المعوذة ليتعوذ بها، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بهذه السورة وأختها[4]، ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما، فكان التعوذ بهما من سنة المسلمين»[5]، عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط؟ (قل أعوذ برب الفلق)، و(قل أعوذ برب الناس)[6]، قال النووي: «في هذا الباب؛ أي باب فضل قراءة المعوذتين: فيه بيان عظم فضل هاتين السورتين»[7].

«وقد دل فعل النبي صلى الله عليه وسلم في رقية نفسه عند شكواه، وعند نومه متعوذًا بهما على عظيم البركة في الرقي بهما، والتعوذ بالله من كل ما يخشى في النوم»[8].

٥. الاستعاذة بالله من الشيطان وأتباعه.

إن الاستعاذة بالله -أي: اللجوء بحماه- سلاح قوي شديد الفعالية وخاصة في جانب الشيطان، فإنك عندما تستعيذ بالله منه فإنه يخنس ويضعف أو تنعدم وسوسته لابن آدم فلا يرتكب المحظور، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ

(١) شرح صحيح البخاري، ١٠/ ٢٤٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٦/ ١٩٦.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٣٠/ ٣٥٤.
(٤) أي: سورة الناس.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٠/ ٦٢٥.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، ١/ ٥٥٨، رقم ٨١٤.
(٧) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، ٦/ ٩٦.
(٨) المصدر السابق.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

«ونزغ الشيطان: وساوسه، ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: يصيبنك، ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحل، ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ أي: اطلب النجاة من ذلك بالله، فأمره تعالى أن يدفع الوسوسة بالالتجاء إليه، والاستعاذة به»[(١)].

«وتأمل حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ «السميع العليم» و«حم» السجدة، وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون، ويرون بالأبصار بلفظ «السميع البصير في حم المؤمن» فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

لأن أفعال هؤلاء معاينة ترى بالبصر، وأما نزغ الشيطان، فوساوس، وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر، ويدرك بالرؤية»[(٢)].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٣٠٤، روح المعاني، الألوسي، ٩/ ١٤٧.
(٢) تفسير المعوذتين، ابن تيمية، ص ١٢٩.

٦. المحافظة على الأذكار والاستغفار.

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من عبد يقول في صباح كل يوم، ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات، فيضره شيء)[(٣)].

ويقول أيضًا: (من نزل منزلًا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)[(٤)]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (أعوذ بكلمات الله التامات)، قيل معناه: «الكاملات لا يدخل فيها نقص ولا عيب، وقيل: النافعة الشافية، وقيل: المراد بالكلمات هنا القرآن»[(٥)]، فالإتيان بالأذكار السابقة تحصيل لحفظ الله تعالى من السوء

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى، ٢/ ١٢٧٣، رقم ٣٨٦٩.
وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ٢/ ٣٣٢، رقم ٣١٢٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، ٤/ ٢٠٨٠، رقم ٢٧٠٨.
(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، ١٧/ ٣١.

والمكروه، ومن كيد الشيطان ووسوسته، ومن كيد الحساد وعيونهم وأضرارهم.

٧. المحافظة على صلاة الفجر.

إن لصلاة الفجر وقعًا خاصًّا في نفس المسلم وقلبه؛ فهي تذكّر ظلمة القبر ورهبته، إلا أن قلب الإنسان ونفسه سرعان ما تهدأ وتطمئن، عند تذكر قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

فهي صلاة تشهدها الملائكة، وتحضرها، وتشهد لمن صلاها، وهذا من الأمور التي تعطي المسلم شيئًا من الطمأنينة بجانب الخوف والرجاء والرهبة.

قال الرازي: «قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾؛ أجمعوا على أن المراد منه صلاة الصبح»[(١)].

فمن يصلي الفجر في جماعة فهو في حماية الله تعالى وكنفه، ورعايته، وحفظه، يدافع عنه ويمنع التعرض له بأي سوء سواء أكان من حسد أم غيره.

٨. الصبر.

إن الصبر على المصاب وعدم التفكير فيه يجعل العبد يرضى عن الله بلا ضجر أو تسخط، وهو من الأمور المعالجة للنفس والبدن من جميع الآفات بما فيها الحسد؛ لأن من صبر مع فهمه عمق الاحتساب عند الله، وتلذذه بحب الطاعات؛ فقد عالج نفسه، وأتى لها بما يحقق لها السعادة والاطمئنان بأن الله تعالى بيده الخير، وهو قادر على رد كل أذى أو كيد أو شر، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

«وقصة سيدنا يعقوب عليه السلام خير شاهد في الصبر على البلاء؛ حيث مكث فترة طويلة، ورجاؤه لا يتغير بعودة يوسف، فلما ضم إلى فقد يوسف، فقد بنيامين لم يتغير أمله، وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

وبعد انتظاره وجلده جمعه الله تعالى بولديه، ولمّ شمل الأهل بعد الفراق الذي سببه الحسد الواقع من قبل أولاده لأخيهم يوسف، وكان إكرام الله ليوسف عليه السلام لصبره، واحتسابه أن رفعه على إخوته، وأعطاه حكم مصر بعد أن لقي ما لقي من التعب والعنت»[(٢)].

(١) مفاتيح الغيب، ٢١/ ٢٧.

(٢) تفسير المراغي، ١٣/ ٤٤.

علاج الحسد

١. الإخلاص لله تعالى.

إن إخلاص المسلم لله تعالى من القربات والطاعات التي يتحصل بها الحفظ والحماية من الله لعباده المخلصين ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤].

قال الرازي: «قوله ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾؛ فيه قراءتان، تارة اسم الفاعل، وأخرى اسم المفعول، فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيًا بالطاعات، والقربات مع صفة الإخلاص، ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين، فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، فكان هذا إقرار من إبليس بأنه ما أغواه، وما أضله عن طريقة الهدى»[(١)].

٢. الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره.

«فالله سبحانه قدّر الأشياء، أي: علم مقاديرها، وأحوالها، وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجد على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى، وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب، ومحاولة ونسبة، وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى، وبقدرته، وتوفيقه، وإلهامه»[(٢)].

«فمذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى قدّر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى، وفي أمكنة معلومة، وهي تقع على حسب ما قدّره الله سبحانه وتعالى»[(٣)].

٣. تقوى الله والتوكل عليه.

إن تقوى الله عز وجل وحفظه والتوكل عليه، والالتجاء بكنفه وتفويض الأمر إليه تمثّل أمرًا عظيمًا في حياة الأمة، وبناء النفوس على أساس الرضا والمحبة والسلامة، وبالتالي الإعانة في الاستشفاء من الآفات والأمراض بعمومها، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق: ٣].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ومن يتق الله في كل أموره ويفوّضها إليه، فهو حسبه وكافيه، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ والمعنى أن الله بالغ أمره على كل حال، سواء توكل العبد على ربه أو لم يتوكل

(١) مفاتيح الغيب، ١٨/ ١١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٢٩.

(٣) شرح الأربعين النووية ص ٢١.

عليه غير أن المتوكل عليه يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجرًا.

قال ابن مسعود: «إن أكبر آية في القرآن تفويضًا، هي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾»[1]، «أي من فوّض إليه أمره كفاه ما أهمّه»[2].

فكل من الحاسد والمحسود إذا أرادا أن يتخلصا من الآفات والمسببات، من الحسد وآثاره، فقد وجب عليهما أن يجعلا من تقوى الله والتوكل عليه سلاحًا مانعًا؛ ليتحقق لهما الخير والسعادة والعيش براحة ودون مكدرات.

٤. الدعاء.

إن الدعاء سلاح قوي وله أثر فعّال، ويكون بالاتصال المباشر مع الله عز وجل من غير وساطة بين العبد وربه، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦].

عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠])، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس شيء أكرم على الله سبحانه من الدعاء)[3].

٥. الصدقة والإحسان.

إن للإحسان أثرًا عظيمًا في حياة المسلم، وسلوكه؛ إذ يحمله على التنازل عن المسيء، وهذه الدرجة عالية ليست إلا للمحسنين، ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤].

وفي الآية التي قبلها جاء الأمر من العلي الجليل بالمسارعة إلى المغفرة وطلبها منه سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣].

فجاء الترغيب في الجنة، والعمل من أجلها، وأنها أعدّت للمتقين، الذين وصفهم الله تعالى بأنهم يبذلون ويتصدقون في الرخاء والشدة مما أعطاهم الله سبحانه، ويكبحون جماح غيظهم، وغضبهم، وأذاهم عمن أساء بل يصل الأمر إلى العفو وفوق ذلك الإحسان إلى المسيء أيضًا، فهذه صفات عظيمة من اتصف بها وتربع في

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٨/ ١٣٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٤٥.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، ٢/ ١٢٥٨، رقم ٣٨٢٩.
وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ٢/ ٢٣٤، رقم ٣٠٨٧.

رحابها جعله الله سبحانه من أهل الجنان[1].

فالمحسن من الناس يستولي على قلوب المحسن إليهم، فيجعلهم يلهجون بالدعاء له ويدافعون عنه فلا يصل إليه حاقد ولا ينظر إليه حاسد، وإن كان من الجانب الآخر (المحسود) فإن عفوه عمن ظلمه وأساء إليه من أسباب علاجه وتحقق الرضا له.

٦. التوبة.

قد يغفل الإنسان أحيانًا، وخاصة عندما يتعلق قلبه بالدنيا وأمورها، فيكون التنبيه والتحذير من الله عز وجل للإنسان ليرعوي ويعود إليه سبحانه، فمنهم من يعتبر ومنهم من يتمادى -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[الشورى: ٣٠].

«فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ﴾، أي مصيبة كانت من مصائب الدنيا، كالمرض وسائر النكبات، ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، أي: سبب معاصيكم التي اكتسبتموها، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، أي: من الذنوب فلا يعاقب عليها بمصيبة عاجلة، وجوز كون المراد بالكثير من الناس، والظاهر الأول، وهو الذي تشهد له الأخبار»[2].

قال سيد قطب رحمه الله: «في الآية يتجلى عدل الله، وتتجلى رحمته بهذا الإنسان الضعيف، فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه، ولكن الله لا يؤاخذه بكل ما يقترف؛ وهو يعلم ضعفه وما ركّب في فطرته من دوافع تغلبه في أكثر الأحيان، فيعفو عن كثير»[3].

٧. الاغتسال للمعين إذا عرف العائن.

إن الحسد شر مستطير، وآفة مقيتة مبغوضة، تعافها النفوس الطائعة لله تعالى، السائرة على صراطه المستقيم وتكرهها، فإن من اتصف بهذه الصفة، إن حدثته نفسه بذلك استعاذ بالله من شرها وعصاها؛ ومع ذلك فقد يقع الحسد أو تصادف العين ما يعجبها فتؤثر فيه، وهذا كله بأمر الله تعالى، فإذا عرف الحاسد، أو العائن، فقد جاء الأمر من النبي صلى الله عليه وسلم بأن يغتسل العائن للمعين بقوله صلى الله عليه وسلم: (العين حق... وإذا استغسلتم فاغسلوا)[4].

وفي حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه حدّثه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف، وكان رجلًا أبيض، حسن

(١) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٩١.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٢٥/ ٤٠.
(٣) في ظلال القرآن، ٥/ ٣١٥٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، ٤/ ١٧١٩، رقم ٢١٨٨.

الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب، وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، فلبط سهل، أي: صرع، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل له: يا رسول الله، هل لك في سهل، والله ما يرفع رأسه، وما يفيق، قال: (هل تتهمون فيه أحدًا؟) قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عامرًا، فتغيظ عليه، وقال: (علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برّكت، ثم قال له: اغتسل له)، فغسل وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره[1] في قدح، ثم صب ذلك الماء عليه، يصبّه رجل على رأسه، وظهره من خلفه، ثم يكفئ القدح وراءه، ففعل به ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس)[2].

وطريقة الغسل هي: «يؤتى بقدح من ماء، ولا يوضع القدح بالأرض، فيأخذ منه العائن غرفة فيتمضمض بها، ثم يمجها في القدح، ثم يأخذ منها ما يغسل به وجهه، ثم يأخذ بشماله ما يغسل به كفه اليمنى، ثم بيمينه ما يغسل به كفه اليسرى، وبشماله ما يغسل به مرفقه الأيمن، ثم بيمينه ما يغسل به مرفقه الأيسر، ولا يغسل ما بين المرفقين والكفين، ثم قدمه اليمنى، ثم اليسرى، ثم ركبته اليمنى ثم اليسرى على الصفة، والرتبة المتقدمة، وكل ذلك في القدح، ثم داخلة إزاره، وهو الطرف الذي يلي حقوه الأيمن، وقد ذكر بعضهم: أن داخلة الإزار يكنى به عن الفرج، وجمهور العلماء على ما قلناه، فإذا استكمل هذا صبه من خلفه على رأسه...، وهذا المعنى لا يمكن تعليله، ومعرفة وجهه»[3].

موضوعات ذات صلة:

الشر، الشيطان، الظلم

(١) داخلة الإزار: طرف الإزار الذي يلي جسد المؤتزر.
انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، ٢/ ١٠٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٥/ ٣٥٥، رقم ١٥٩٨٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب العين، ٢/ ١١٦٠، رقم ٣٥٠٩، ٢/ ١١٦٠.
وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ٢/ ٢٦٥، رقم ٢٨٢٨.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، ٥/ ٥٦٧، رقم ٢١٢٨.

الحشرات

عناصر الموضوع

مفهوم الحشرات	٢٤٨
الحشرات في الاستعمال القرآني	٢٤٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٥٠
الحكمة الإلهية في خلق الحشرات	٢٥٢
الحشرات المذكورة في القرآن	٢٥٨
الحشرات في المثل القرآني	٢٧٣
لمسات إعجازية في خلق الحشرات	٢٧٨

مفهوم الحشرات

أولًا: المعنى اللغوي:

هي هوام الأرض وصغار دوابها، وقيل: الصيد كله حشرة، ما تعاظم منه وتصاغر؛ والحشرة أيضًا: كل ما أكل من بقل الأرض[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، فهي صغار دواب الأرض وهوامها[(٢)].

والحشرات عند علماء الحيوان: كل كائن من شعبة المفصليات، له ثلاثة أزواج من الأرجل، ويقطع في تحوله ثلاثة أطوار، بيضة الحشرة، حورية الحشرة (صرصور)، خادرة الحشرة فراشة، والجمع حشرات[(٣)].

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٧٣، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٩١، تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٢١.

(٢) انظر: التوقيف ص ١٤١.

(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٧٥.

الحشرات في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ الحشرات في الاستعمال القرآني، ولكن جذر الكلمة وهي مادة (حشر) موجودة في القرآن، والتي تعني: الجمع مع السّوق والانبعاث، وبذلك سميت حشرات الأرض لكثرتها وانسياقها وانبعاثها[1].

وقد ذكر القرآن بعض الحشرات، وهي:

- البعوضة: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].
- الجراد: في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ [الأعراف:١٣٣].
- القمّل: في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ [الأعراف:١٣٣].
- النحل: في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨].
- الذباب: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].
- النمل: في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل:١٨].
- العنكبوت: في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١].
- دابة الأرض: في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:١٤].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٦٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحيوان:

الحيوان لغة:

اسم يقع على كل شيء حي، ووصف الله عز وجل الدار الآخرة بأنها الحيوان، والمعنى أن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حيًّا فيها[١].

الحيوان اصطلاحًا:

كل ذي روح من المخلوقات غير العاقلة[٢].

الصلة بين الحشرات والحيوان:

أن الحشرات من أنواع الحيوانات.

٢ الكائنات الحية:

الكائنات الحية:

هي مجموعة المتعضيات الحية التي تشكل الكتلة الحية على سطح الأرض، وتقسم عادة لعدة ممالك حسب التصنيف المعتمد أهمها: الحيوانات والنباتات والفطريات والأوليات والجراثيم.

والكائن الحي: هو أي خلية أو مجموعة خلايا متمايزة أو غير متمايزة تتصف بقيامها بالوظائف الحيوية التي تجعلنا نصفها بالحياة مثل التنفس والهضم والحركة.

الصلة بين الحشرات والكائنات الحية:

أن الحشرات من أنواع الكائنات الحية.

٣ الدابة:

الدابة لغة:

كل ما دب على وجه الأرض، وقد غلب على ما يركب من الحيوان، وفي العرف يطلق على الخيل والحمار والبغل[٣].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢١٤.
(٢) انظر: معجم لغة الفقهاء، قلعجي قنيبي ص ١٩٠.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٦٩-٣٧٠، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٣٩٢.

الدابة اصطلاحًا:

الحي الذي من شأنه الدبيب، وقيل: كل حيوان في الأرض، وإخراج البعض الطير من الدواب رد بالسماع، ولا يخرج المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي له[1].

الصلة بين الحشرات والدابة:

أن الحشرات من الأنواع التي تدب على الأرض.

(١) انظر: التوقيف، المناوي ص ١٦٣.

الحكمة الإلهية في خلق الحشرات

خلق الله تعالى الحشرات لحكمة، ولها منافع ومضار، وفي خلقتها الإبداع الرباني، وسنبين ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: حكمة خلق الحشرات:

إن عالم الحشرات فيه من العجائب والحكم الإلهية ما يستحق الوقوف والتأمل طويلًا، وذلك أنه عالم مستقل بل هو عوالم تحار فيها العقول والأفكار، فيه تنوع في الخلق؛ فمنه ما يطير ومنه ما يمشي على رجلين وعلى أربع وعلى أكثر، ومنه ما يرى بالعين المجردة ومنه ما لا يرى، وهناك اختلاف في الأشكال والألوان، وفي الأصوات، وفي طريقة الحياة وتناول الطعام، وفي الأسماع والأبصار وآلات البطش، وأشياء يعجز العلم عن تسطيرها. وعن عوالم الحشرات والحيوانات والطيور، يتحدث القرآن الكريم، فيقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨].

﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم، ويقول تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦].

يعني: تساوت المخلوقات، وتماثلت المصنوعات في الحاجة إلى المنشئ: في حال الإبداع ثم في حال البقاء، وكذلك جميع الصفات النفسية والنعوت الذاتية توقفت عن الإيجاد والاختيار، فما من شيء من عين وأثر، ورسم وطلل إلا وهو على وحدانيته شاهد، وعلى كون أنه مخلوق دليل ظاهر.

يقول تعالى عن إخراج العسل الذي فيه شفاء للناس من النحل، تلك الحشرة الضعيفة: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

وعن فطانة النملة، حكى الله تعالى قولها وقد رأت سليمان عليه السلام وجنوده: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٨-١٩].

وعن القمل والجراد أخبر تعالى أنها آية من آياته يعذب بها من يشاء، وقد سماها الله تعالى في كتابه العزيز آيات مفصلات، فقال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٣].

فقد عذب الله تعالى قوم فرعون بحشرة صغيرة لم يكونوا يتوقعون ذلك ولم يخطر لهم على بال.

وعن الذباب وما فيها من الإعجاز الدال على عظمة الله وقدرته الباهرة في هذه الحشرة الصغيرة التي تحدى الله تعالى بها العالم، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج:٧٣].

وفي خلق الحشرات كثير من الحكم، فقد جعل الله لها غرائز يعرف بها بعضها إشارة بعض، وهدى الذكر منها لإتيان الأنثى، وفي ذلك دليل على نفاذ قدرة المركب ذلك فيها، وفيها من الحكم الدالة على عظم قدرته ولطف علمه وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف، وهو لما لها وما عليها مهيمن على أحوالها لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا مخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان[1].

ثانيًا: منافع الحشرات ومضارها:

فأما منافع الحشرات:

فمن الحشرات النافعة التي ذكرها القرآن الكريم: النحل.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

بينت الآية أن العسل فيه شفاء للناس؛ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقلّ معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك، وتنكيره إمّا لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل، وعن أبي سعيد رضي الله عنه: (أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: (اسقه عسلًا) ثم أتى

(١) انظر: لطائف الإشارات القشيري ١/ ٤٧٠، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢١، البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٥٠٠، منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام للدكتور حمود بن أحمد الرحيلي ١/ ٣٧٩.

الثانية، فقال: (اسقه عسلًا) ثم أتاه الثالثة فقال: (اسقه عسلًا) ثم أتاه فقال: قد فعلت؟ فقال: (صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلًا) فسقاه فبرأ[(١)(٢)].

قال المراغي: «وقد أثبت الطب الحديث ما للعسل من فوائد، أدع الكلام فيها ليتولى شرحها النطاسي الكبير المرحوم عبد العزيز إسماعيل باشا قال في كتابه: الإسلام والطب الحديث: ما أصدق الآية الكريمة! ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩].

إن التركيب الكيماوي للعسل كما يلي:

من «٢٥- ٤٠ دكستروز (جلوكوز)»، من «٣٠- ٤٥ ليفيلوز»، من «١٥- ٢٥ ماء».

والجلوكوز الموجود فيه بنسبة أكثر من أي غذاء آخر، وهو سلاح الطبيب في أغلب الأمراض، واستعماله في ازدياد مستمر بتقدم الطب، فيعطى بالفم وبالحقن الشرجية وتحت الجلد وفى الوريد، ويعطى بصفته مقويًا ومغذيًا، وضد التسمم الناشئ من مواد خارجية كالزرنيخ والزئبق والذهب والكلوفرم والمورفين إلخ، وضد التسمم الناشئ من أمراض أعضاء الجسم مثل: التسمم البولي والناشئ من أمراض الكبد، والاضطرابات المعدية والمعوية، وضد التسمم في الحميات، مثل: التيفويد والالتهاب الرئوي والسحائي المخي والحصبة، وفى حالات ضعف القلب، وحالات الذبحة الصدرية، وبصفة خاصة في الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة وفي احتقان المخ وفى الأورام المخية إلخ، وقد يقال: وما أهمية هذه الآية مع أن كل أنواع الغذاء لها فوائد، وقد ذكر العسل؛ لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق المصادفة.

فالحقيقة هي أن أنواع الغذاء الأخرى لا تستعمل كعلاج إلا فيما نذر من الأمراض ناشئة عن نقصها فى الغذاء فقط، وهذه الفواكه التي تشبه العسل في الطعم فإن السكر الذي فيها هو سكر القصب أو أنواع أخرى، وليس فيها إلا نسبة ضئيلة من (الجلوكوز) الذي هو أهم عناصر العسل.

وإذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين حتى في حالة التسمم الناشئ عن مرض البول السكري علمنا مقدار فوائده، وأن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة، ولكنه تنزيل ممن خلق الإنسان والنحل، وعلم كلا منهما علاقته بالآخر»[(٣)].

وأما أضرار الحشرات:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، ٧/ ١٢٣، رقم ٥٦٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب التداوي بسقي العسل، ٤/ ١٧٣٦، رقم ٢٢١٧.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦١٩، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٢٢.

(٣) تفسير المراغي ١٤/ ١٠٦.

فمن الحشرات الضارة التي ذكرها القرآن الكريم: الجراد والقمل.

قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

بني إسرائيل مع موسى. ففي الفصل الثامن من سفر الخروج: إن موسى أنذر فرعون أن الذباب سيدخل بيوته وبيوت عبيده وسائر قومه فيفسدها، ولا يدخل بيوت بني إسرائيل المقيمين في أرض جاسان، وأن ذلك وقع

﴿وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٦].

فالمشركون نظروا إلى حجم هذه الحشرة فرأوها شيئًا تافهًا، فكيف يجعله الله مثلًا؟ ولم يلتفت المشركون إلى الإبداع الإلهي وعظمة الصانع وقدرته وبديع خلقه سبحانه، ولو نظروا إلى ذلك لوجدوا أن هذه البعوضة مع ضعفها وصغرها ودقة حجمها خلق من خلق الله، فيها من العجائب والأسرار ما يدعو للتأمل والنظر، وليست شيئًا تافهًا.

فإن هذه البعوضة بحجمها المتناهي في الصغر تحمل معها كل أجهزة الحياة، من عيون ترى، وأجنحة تطير، وأجهزة جنسية لحفظ النوع، وجهاز هضمي للطعام وإخراج الفضلات، وإن البعوضة تمتلك حوالي (١٠٠) عين، وهذه العيون كلها موجودة في الرأس على شكل يشبه قرص العسل، تقوم عين البعوض باستلام الإشارات وترسلها إلى الرأس.

وللحشرات عيون تختلف في تركيبها عن عين الإنسان أو القرد أو البقرة أو السلحفاة أو السمكة، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف إلا أن الحشرات ترى بها الأشياء التي تنظر إليها، فالذبابة المنزلية مثلًا بحاجة إلى عين ترى بها الغذاء، وتدرك أيّ حركة يقصد بها الاعتداء على حياتها؛ ولذا فقد زودها الخالق كما هي الحال في معظم الحشرات بزوج من العيون المركبة؛ إذ إنّ كلّ عين من هذه العيون مكونة من مئات الوحدات المتشابهة المتراصة بعضها بجوار بعض، كلّ وحدة من هذه الوحدات المتشابهة المتراصة بعضها بجوار بعض.

وإن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان، ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب، وحين تنمو الحشرات وتكبر، لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها، ومن ثم لم توجد قط حشرة أطول من بضع بوصات، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلًا.

وبفضل جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها لم يكن في الإمكان وجود حشرة ضخمة، وهذا الحد من نمو الحشرات قد كبح جماحها كلها، ومنعها من السيطرة على العالم، ولولا وجود هذا الضابط الطبيعي لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض، وتصور إنسانًا فطريًّا يلاقي دبورًا يضاهي الأسد في ضخامته، أو عنكبوتًا في مثل هذا الحجم!

ولم يذكر إلا القليل عن التنظيمات الأخرى المدهشة في فيزيولوجيا الحيوانات، والتي بدونها ما كان أي حيوان- بل كذلك أي نبات- يمكن أن يبقى في الوجود.

فهذا التنوع والتمايز في عالم الحشرات

المليء بالعبر والأسرار، لم يكن عبثًا أو مصادفة عمياء، ولم يكن من صنع وثن أو صنم، كما لم يبق مجال لأحد أن يدع أو يظن بأن لله شريكًا في ملكه[1].

قال الغزالي: «ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره، فانظر إلى النحل وعجائبها، وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياءً، وجعل الآخر شفاءً، ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار، وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصًا وهو أميرها، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة.

ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس، فلا تبني بيتًا مستديرًا ولا مربعًا ولا مخمسًا بل مسدسًا؛ لخاصِّية في الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة، وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة؛ فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس، وهذه خاصية هذه الشكل.

فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفًا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه»[2].

(١) انظر: المنار، محمد رشيد ١٢/ ١٣، تفسير الشعراوي ١٨/ ١١١٧٧.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٣١٩.

الحشرات المذكورة في القرآن

إن القرآن الكريم قد اهتم بأمر الحشرات وسمى بعض سوره بأسماء حشرات منها، مثل: سورة النمل، وسورة النحل، وسورة العنكبوت، ومن الحشرات التي ذكرها القرآن الكريم ما يأتي:

أولًا: النمل:

النمل: اسم جنس لحشرات صغيرة، ذات ست أرجل، تسكن في شقوق من الأرض.

وهي أصناف متفاوتة في الحجم، والواحد منه نملةٌ، وسميت النملة نملة لتنملها، وهو كثرة حركتها وقلة قرارها.

وقيل: إن النمل أكثر جنسه حِسًّا؛ لأنه إذا التقط الحبّة من الحنطة والشعير للادخار قطعها اثنين لئلا تُنْبِت، وإن كانت كزبرة قطعها أربع قطع[1].

ومن عجائب مخلوقات الله تعالى والتي ذكرها القرآن الكريم النمل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [النمل:١٨].

لما ذكر القرآن الكريم ملك سليمان عليه السلام وجنوده من الجن والإنس والطير أراد الله تعالى أن يطلع سليمان عليه السلام على مملكة من خلقه، وهي مملكة النمل، فقد ذكرت الآية أن سليمان عليه السلام حين مرّ على وادي النمل تنبهت نملة للخطر الذي سوف يصيب جماعتها، فتكلمت النملة مخاطبة جماعتها: ادخلوا مساكنكم، حتى لا يقتلكم سليمان وجنوده.

وكانت هذه النملة فزعةً فزعًا شديدًا، وحريصةً أشد الحرص على سلامة جماعتها، وعبرت عن ذلك بقولها: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾.

والحطم: حقيقته الكسر لشيء صلب، واستعير هنا للرفس بجامع الإهلاك.

و﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ (لا) ناهية، والجملة مستأنفة تكريرًا للتحذير ودلالة على الفزع؛ لأن المحذر من شيء مفزع يأتي بجمل متعددة للتحذير من فرط المخافة، والنهي عن حطم سليمان إياهن كناية عن نهيهن عن التسبب فيه وإهمال الحذر منه، والنون توكيد للنهي.

ولم يكن سليمان عليه السلام مستبدًا ولا غليظًا ولا ظالمًا، وإنما كان نبيًّا وملكًا عادلًا، ينظر إلى مخلوقات الله، ويقدر لها رأيها، ويسمع قولها، وقد أدركت النملة ذلك فقالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بجريمتهم، لكثرة غلبتهم ومراعاتهم نظام المشي، وذلك أن الجند إذا سيرهم قائدهم على جهة كان مشيهم بانتظام نحوها حتى إذا

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٤١.

كان أمامهم شيء يدوسونه ولم يحيدوا عنه، ولهذا تقدمت النملة بالعذر لسليمان عليه السّلام ووصفته وجنوده بالعدل والرحمة والتباعد عن الجور، إذ علمت بإلهام الله إياها أنه نبي لا يجور ولا يتيه ولا يظلم، فسمع سليمان عليه السلام حديث النملة، ولم يغضب، ولم يعاتب، ولم يغير أمرها لإخوانها، وإنما استحسن صنيعها، وتوجه بالشكر لله الذي علمه منطق النمل[(١)].

قال أهل التفسير: في كلام هذه النملة أنواع من البلاغة: نادت، ونبّهت، وسمت، وأمرت، ونصت، وحذرت، وخصت، وعمت، وأشارت، وأعذرت.

ووجهه: نادت: «يا»، نبهت: «ها»، سمت: «النمل»، أمرت: «ادخلوا»، نصت: «مساكنكم»، حذرت: «لا يحطمنكم»، خصت: «سليمان»، عمت: «وجنوده»، أشارت: «وهم»، أعذرت: «لا يشعرون»[(٢)].

وفي هذه الآية: نجد أن النمل مملكة من مخلوقات الله العجيبة، وأنها تتخاطب بلغة خاصة فيما بينها، وفيها أن النملة حريصة على سلامة مجتمعها وحرصها على أمنه، وفي هذا العبرة لكل إنسان أن يحرص على سلامة المجتمع الذي يعيش فيه، ويعمل بكل الوسائل الممكنة لصالح الأمن والاستقرار، وفيها دعوة للملوك والرؤساء والمسؤولين للاهتمام بشؤون المملكة، وعدم الغفلة عنها حتى في شؤون الحيوان والطير والحشرات؛ ليسود العدل وينتشر الأمن والأمان في المجتمعات.

ثانيًا: الذباب:

الذباب: اسم يطلق على كثير من الحشرات المجنحة، منها: الذبابة المنزلية، وذبابة الخيل، وذبابة الفاكهة، وذبابة اللحم، والجمع أذبّة، وذُبّان[(٣)].

وضرب الله تعالى مثلًا في بيان عجز معبودات المشركين وتفاهتها بالذباب، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج:٧٣].

لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة آلهة الكفار التي يعبدونها من دون الله تعالى بلا حجة لهم في ذلك ولا علم، ذكر في هذه الآية ما يدل على إبطال قولهم، فبدأت الآية بأداة النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾، والتي تدعو إلى الانتباه، وأكد ذلك بقوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾، أي: تدبروه حق تدبره؛ لأن نفس

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٠٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٤١.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٥٦، اللباب في علوم، ابن عادل ١٥/ ١٣٣.

(٣) انظر: موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي ص ١٩٥.

السماع لا ينفع، وإنما ينفع التدبر، ثم بَيَّن الله تعالى أن هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله الواحد الأحد هي أحقر وأذل وأهون من أن تعبد وتتخذ إلهًا.

وبَيَّن الله تعالى وجه حقارتها وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج:٧٣].

فقوله تعالى: ﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾، جاءت بنفي المستقبل فلم يقل مثلًا: لم يخلقوا، فالنفي هنا للتأبيد، فهم ما استطاعوا في الماضي، ولن يستطيعوا أيضًا فيما بعد حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكّنوا من ذلك في مستقبل الأيام، ونفي الفعل هكذا على وجه التأبيد؛ لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه، إنما حين تتحدّى به تفعل لتردّ على هذا التحدّي، فأوضح لهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبل التحدي، ولن يستطيعوا بعد التحدي، فكأنه سبحانه قال: إن هذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودًا، وقوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج:٧٣].

نصب على الحال كأنه قال: يستحيل أن يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم، ثم بين تعالى أنهم أحقر من ذلك وأذل وأهون فليس عجزهم فقط عن خلق ذبابة، فقال تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ [الحج:٧٣].

كأنه سبحانه قال: أترك أمر الخلق والإيجاد وأتكلم فيما هو أسهل منه، فإن الذباب إن سلب منها شيئًا، فهي لا تقدر على استنقاذ ذلك الشيء من الذباب، ثم سوى الله تعالى بين الآلهة وبين من يعبدها في الحقارة والذل والضعف، فقال تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

وفيه قولان:

أحدهما: المراد منه الصنم والذباب، فالصنم كالطالب من حيث إنه لو طلب أن يخلقه ويستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب.

والثاني: أن الطالب من عبد الصنم، والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها.

وهذا أقرب؛ لأن كون الصنم طالبًا ليس حقيقة، بل هو على سبيل التقدير، أما هاهنا فعلى سبيل التحقيق، لكن المجاز فيه حاصل؛ لأن الوثن لا يصح أن يكون ضعيفًا؛ لأن الضعف لا يجوز إلا على من يصح أن يقوى.

وهاهنا وجه ثالث: وهو أن يكون معنى قوله: (ضعف) لا من حيث القوة، ولكن لظهور قبح هذا المذهب، كما يقال للمرء عند المناظرة: ما أضعف هذا المذهب، وما أضعف هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج:٧٤].

أي: ما عظموه حق تعظيمه، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة له في المعبودية، وهو قوي لا يتعذر عليه فعل شيء وعزيز لا يقدر أحد على مغالبته، فأي حاجة إلى القول بالشريك[1].

وفي هذه الآية: يخبر الله تعالى أن العبادة إنما تكون للواحد الأحد الخالق المصور وليست للمخلوق، الذي يعجز عن خلق ذبابة، وإن أخذ منه الذباب شيئًا لم يقدر أن ينتصر منه، وخص الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهانته وضعفه واستقذاره وكثرته، وسمّي ذبابًا؛ لأنه يذبّ احتقارًا واستقذارًا، والذباب أنواع كثيرة، منه الذباب المعروف، ومنه ذباب الفاكهة، ومنه الزنابير وغيرها، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يكونون آلهة معبودين وأربابًا مطاعين؟!

وهذا من أقوى الحجج وأوضح البراهين والأدلة القاطعة التي تثبت بطلان الوثنية، وتقيم الدليل على الوحدانية، فإن الأوثان ومن يتبعونها ولو تضافرت كل القوى معها لا يمكن أن يخلقوا ذبابًا، وفيها إبطال كل أنواع الشرك من الأصنام والقبور والأولياء وغير ذلك من أنواع الشرك[2].

ثالثًا: النحل:

النحل: اسم جنس جمعي، واحده نحلة، وهو ذباب له جرم بقدر ضعفي جرم الذباب المتعارف، وأربعة أجنحة، ولون بطنه أسمر إلى الحمرة، وفي خرطومه شوكة دقيقة كالشوكة التي في ثمرة التين البربري (المسمى بالهندي) مختفية تحت خرطومه يلسع بها ما يخافه من الحيوان، فتسم الموضع سمًّا غير قوي، ولكن الذبابة إذا انفصلت شوكتها تموت، وهو ثلاثة أصناف: ذكر وأنثى وخنثى، فالذكور هي التي تحرس بيوتها، ولذلك تكون محومة بالطيران والدوي أمام البيت، وهي تلقح الإناث لقاحًا به تلد الإناث إناثًا، والإناث هي المسماة اليعاسيب، وهي أضخم جرمًا من الذكور، ولا تكون التي تلد في البيوت إلا أنثى واحدة، وهي قد تلد بدون لقاح ذكر، ولكنها في هذه الحالة لا تلد إلا ذكورًا، فليس في أفراخها فائدة لإنتاج الوالدات، وأما الخنثى فهي التي تفرز العسل، وهي العواسل، وهي أصغر جرمًا من الذكور، وهي معظم سكان بيت النحل[3].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٥١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٩٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٠٤.

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أوحى إلى النحل، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

لما بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن من آياته العظيمة الدالة على قدرته وعظمته ووحدانيته إخراج الألبان من النعم، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، بين في هذه الآية أن من آياته الباهرة والدلائل القاطعة الدالة على قدرته وحكمته وخلقه هي إخراج العسل من النحل، فعطف عبرة على عبرة ومنة على منة، وغير أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى، إذ أودع في خلقة الحشرة الضعيفة هذه الصنعة العظيمة وجعل فيها هذه المنفعة، كما أودع في الأنعام ألبانها وأودع في ثمرات النخيل والأعناب شرابًا، وكان ما في بطون النحل وسطًا بين ما في بطون الأنعام وما في قلب الثمار، فإن النحل يمتص ما في الثمرات والأنوار من المواد السكرية العسلية ثم يخرجه عسلًا كما يخرج اللبن من خلاصة المرعى، وفيه عبرة أخرى وهي أن أودع الله في ذبابة النحل إدراكًا لصنع محكم مضبوط منتج شرابًا نافعًا لا يحتاج إلى حلب الحالب، وافتتحت الآية بفعل أوحى، وذلك لما في أوحى من الإيماء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيرًا عجيبًا وعملًا متقنًا وهندسة في الجبلة، فكان ذلك الإلهام في ذاته دليلًا على عظيم حكمة الله تعالى؛ فضلًا على ما بعده من دلالة على قدرة الله تعالى ومنة منه.

والوحي: الكلام الخفي والإشارة الدالة على معنى كلامي، ومنه سمي ما يلقيه الملك إلى الرسول وحيًا لأنه خفي عن أسماع الناس، وأطلق الوحي هنا على التكوين الخفي الذي أودعه الله في طبيعة النحل، بحيث تنساق إلى عمل منظم مرتب بعضه على بعض لا يختلف فيه آحادها تشبيهًا للإلهام بكلام خفي يتضمن ذلك الترتيب الشبيه بعمل المتعلم بتعليم المعلم، أو المؤتمر بإرشاد الآمر، الذي تلقاه سرًّا، فإطلاق الوحي استعارة تمثيلية.

ثم فسر سبحانه ما أوحى به إليها بقوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

أي: اجعلي لك بيوتًا تأوين إليها في أحسن البقاع في الجبال، أو في الشجر أو فيما يعرش الناس ويبنون من البيوت والسقف والكروم ونحوها.

وأشير إلى أنها تتخذ البيوت في أحسن

البقاع وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة، واتخاذ البيوت هو أول مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل، فإنها تبني بيوتًا بنظام دقيق، ثم تقسم أجزاءها أقسامًا متساوية بأشكال مسدسة الأضلاع بحيث لا يتخلل بينها فراغ تنساب منه الحشرات، لأن خصائص الأشكال المسدسة إذا ضم بعضها إلى بعض أن تتصل فتصير كقطعة واحدة، وما عداها من الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم تتصل وحصلت بينها فرج، ثم تغشي على سطوح المسدسات بمادة الشمع، وهو مادة دهنية متميعة أقرب إلى الجمود، تتكون في كيس دقيق جدًّا تحت حلقة بطن النحلة العاملة فترفعه النحلة بأرجلها إلى فمها وتمضغه وتضع بعضه لصق بعض لبناء المسدس المسمى بالشهد لتمنع تسرب العسل منها، ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتفي في الاعتبار بها بالتنبيه عليها والتذكير بها، وقوله سبحانه: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

أي: ما يجعلونه عروشًا، جمع عرش، وهو مجلس مرتفع على الأرض في الحائط أو الحقل يتخذ من أعواد ويسقف أعلاه بورق ونحوه ليكون له ظل فيجلس فيه صاحبه مشرفًا على ما حوله، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل:٦٩].

ثم كلي أيتها النحل من كل ثمرة تشتهيها، حلوة أو مزّة أو بين ذلك، وقوله جلّ وعلا: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل:٦٩].

فاسلكي الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها، وتدخلي فيها لطلب الثمار، ولا تعسر عليك وإن توعّرت، ولا تضلّي عن العودة منها وإن بعدت، وعطفت جملة فاسلكي بفاء التفريع للإشارة إلى أن الله أودع في طبع النحل عند الرعي التنقل من زهرة إلى زهرة ومن روضة إلى روضة، وإذا لم تجد زهرة أبعدت الانتجاع ثم إذا شبعت قصدت المبادرة بالطيران عقب الشبع لترجع إلى بيوتها فتقذف من بطونها العسل الذي يفضل عن قوتها، فذلك السلوك مفرع على طبيعة أكلها.

ثم أخبر الله تعالى الناس بفوائدها؛ لأن النعمة لأجلهم، فقال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ [النحل:٦٩].

أي: يخرج من بطونها عسل مختلف الألوان، فتارة يكون أبيض وأخرى أصفر، وحينًا أحمر بحسب اختلاف المرعى.

وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدد الخروج وتكرره، وعبر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومئ إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به وهو محل المنة، وليرتب عليه جملة فيه شفاء للناس،

وسمي شرابًا؛ لأنه مائع يشرب شربًا ولا يمضغ.

وقوله جلّ جلاله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]؛ لأنه نافع لكثير من الأمراض، وكثيرًا ما يدخل في تركيب العقاقير والأدوية، وتنكيره إمّا لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل.

وقوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٩].

أي: إن في إخراج الله من بطون النحل الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس؛ لدلالة واضحة على أن من سخر النحل، وهداها لأكل الثمرات التي تأكلها، واتخاذها البيوت في الجبال والشجر والعروش، وأخرج من بطونها ما أخرج مما فيه شفاء للناس، هو الواحد القهار الذي ليس كمثله شيء، وأنه لا ينبغي أن يكون له شريك، ولا تصح الألوهة إلا له[(١)].

وفي هذه الآية: تجد قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوي والسفلي، فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الإنسان وقال: إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب، لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه.

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٩٩، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦١٨.

رابعًا: الفراش:

الفراش: فرخ الجراد حين يخرج من بيضه من الأرض يركب بعضه بعضًا، وقد يطلق الفراش على ما يطير من الحشرات ويتساقط على النار ليلًا، وسمي فراشًا لتفرشه وانتشاره[(٢)].

شبه القرآن الكريم الناس في وقت البعث بالفراش المبثوث؛ لأنهم إذا بعثوا يموج بعضهم في بعض، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة:٤].

بينت الآية شدة الأهوال يوم القيامة، وأن الناس من هول ذلك اليوم يكونون منتشرين حيارى هائمين على وجوههم لا يدرون ماذا يفعلون، ولا ماذا يراد بهم كالفراش الذي يتجه إلى غير جهة واحدة، بل تذهب كل فراشة إلى جهة غير ما تذهب إليها الأخرى، وشبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار، وجاء تشبيههم في آية أخرى بالجراد المنتشر في كثرتهم وتتابعهم، فقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧].

فأول حالهم كالفراش لا وجه له، يتحير في كل وجه، ثم يكونون كالجراد، لأن لها وجهًا تقصده، ويقال: شبههم بالفراش؛

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥١٢.

لأنهم يلقون أنفسهم في النار كما يلقي الفراش نفسه في النار، في كثرتهم وذلتهم وانتشارهم، فقال: كالفراش، لأنهم يكونون في ذلك اليوم أذل من الفراش؛ لأن الفراش لا يعذب وهؤلاء يعذبون، ونظيره قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وفي أمثالهم: أضعف من فراشة وأذل وأجهل، أما وجه التشبيه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، يدل هذا على أنهم إذا بعثوا فزعوا، واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة، والمبثوث المفرق، يقال: بثه إذا فرقه، وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة، قال الفراء: كغوغاء «الجراد يركب بعضه بعضًا»، وبالجملة فالله سبحانه وتعالى شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر، وبالفراش المبثوث؛ لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ:١٨].

وقوله في قصة يأجوج ومأجوج: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف:٩٩][1].

وجاء من حديث جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي)[2].

قال الغزالي: «ولعلك تظنّ أنّ ذلك لنقصانها وجهلها، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها، بل صورة الآدمي في الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار؛ إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم الناقع القاتل، فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكًا مؤبدًا، فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش؛ فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة؛ ولذلك كان ينادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: «إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش»[3]، فهذه لمحة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٧٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٥٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، ٤/ ١٧٩٠، رقم ٢٢٨٥.

(٣) سبق تخريجه.

والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته، فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى»[1].

قال فاضل السامرائي: «إنه لما ذكر القارعة في أول السورة، والقارعة من القرع، وهو الضرب بالعصا، ناسب ذلك ذكر النفش؛ لأن من طرائق نفش الصوف أن يقرع بالمقرعة، كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تهشّم بالمقراع (وهو من القرع) وهو فأسٌ عظيم تحطّم به الحجارة، فناسب ذلك ذكر النفش أيضًا، فلفظ القارعة أنسب شيء لهذا التعبير، كما ناسب ذكر القارعة ذكر (الفراش المبثوث) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة:٤].

أيضًا؛ لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر، ولم يحسن ذكر (الفراش) وحده كما لم يحسن ذكر (العهن) وحده»[2].

خامسًا: البعوض:

البعوضة: واحدة البعوض وهي حشرة صغيرة طائرة ذات خرطوم دقيق تحوم على الإنسان لتمتص بخرطومها من دمه غذاءً لها[3].

لما ضرب الله تعالى المثل بالعنكبوت في سورة العنكبوت، وبالذباب في سورة الحج، قالت اليهود: ما هذه الأمثال التي لا تليق بالله عز وجل؟![4]، فأنزل الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾ [البقرة:٢٦].

إن الآيات السابقة اشتملت على تحدي البلغاء بأن يأتوا بسورة مثل القرآن، فلما عجزوا عن معارضة النظم سلكوا في المعارضة طريقة الطعن في المعاني فلبسوا على الناس بأن في القرآن من سخيف المعنى ما ينزه عنه كلام الله؛ ليصلوا بذلك إلى إبطال أن يكون القرآن من عند الله بإلقاء الشك في نفوس المؤمنين، وبذر الخصيب في تنفير المشركين والمنافقين.

فَبَيَّنَ الله تعالى في هذه الآية أنه ﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾، أي: لا يمتنع من ضرب المثل وبيان الحق بذكر البعوضة وبما فوقها، ويقال: لا يمنعه الحياء أن يضرب المثل

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٣١٨.
(٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي ص ١٩٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٥٧.
(٤) انظر: العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر ١/ ٢٤٥.

ويبيّن ويصف للحق شبهًا ﴿مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ يعني: بالكبر كالذباب والعنكبوت.

وقال بعضهم: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: بما دونها في الصغر، أي: يضرب المثل بالبعوضة وبما دونها، ففوق في مثله يستعمل في معنى التغلب والزيادة في صفة، سواء كانت من المحامد أو من المذام.

يقال: فلان خسيس وفوق الخسيس وفلان شجاع وفوق الشجاع، وتقول: أعطي فلان فوق حقه، أي: زائدًا على حقه، وهو في هذه الآية صالح للمعنيين، أي: ما هو أشد من البعوضة في الحقارة وما هو أكبر حجمًا.

ثم ذكر تعالى أن الناس في ذلك فريقان: فالذين آمنوا يعلمون أنه الحق من ربهم، ذلك أن إيمانهم بالله يجعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه بما يليق بجلاله وبما يعرفون من حكمته، وقد وهبهم الإيمان نورًا في قلوبهم، وحساسية في أرواحهم، وتفتحًا في مداركهم، واتصالًا بالحكمة الإلهية في كل أمر وفي كل قول يجيئهم من عند الله، ﴿مَثَلًا﴾[البقرة:٢٦].

وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته، المقطوع الصلة بسنة الله وتدبيره، ثم هو سؤال من لا يرجو الله، فيجعلونه شبهة على الإنكار والريب، ثم أخبر تعالى عن حكمته وعدله في ضرب تلك الأمثال وهي إضلال من شاء وهداية من شاء، وأنه إنما يضل به الفاسقين، فكانت أعمالهم هذه القبيحة التي ارتكبوها سببًا لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى، فكيف يمتنع من ضرب المثل بالبعوضة، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يخلقوا بعوضة لا يقدرون عليه.

ويقال: إنما ذكر المثل بالبعوضة؛ لأن خلقة البعوضة أعجب؛ لأن خلقتها خلقة الفيل، ويقال: لأن البعوضة ما دامت جائعة عاشت فإذا شبعت ماتت، فكذلك الآدمي إذا استغنى، فإنه يطغى، فضرب الله المثل للآدمي، والبعوضة واحدة البعوض وهي: حشرة صغيرة طائرة ذات خرطوم دقيق تحوم على الإنسان لتمتص بخرطومها من دمه غذاء لها[1].

وفي هذه الآية: دحض شبهة الذين أنكروا ذكر الله تعالى لهذه المخلوقات الحقيرة وأنه تعالى لا يليق به ذلك، وأن القرآن ليس من كلام الله، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لا تصدر عن الله، وأن الله لا يذكر هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه! وكان هذا طرفًا من حملة التشكيك والبلبلة التي يقوم بها المنافقون واليهود في المدينة،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٠١، تفسير السمرقندي ١/ ٣٦.

كما كان يقوم بها المشركون في مكة[1].

قال محمد رشيد: «وأما وجه تقديم الإضلال على الهداية، فلأن سببه ومنشأه من الكفر متقدم في الوجود، وإنما جاءت الآيات المبينة بالأمثال لإخراجهم مما كانوا فيه من ظلمات الباطل إلى نور الحق، فزادت الفاسقين رجسًا على رجسهم؛ لأن نور الفطرة قد انطفأ من أنفسهم بتماديهم في نقض العهد، وقطع الوصل والإفساد في الأرض، كما في الآية التالية لهذه، وقد علم بما ذكر أن في الآية لفًّا ونشرًا غير مرتب فإن الضلال ذكر أولًا، وهو للفريق الثاني، والهدى ذكر آخرًا، وهو للفريق الأول»[2].

سادسًا: العنكبوت:

العنكبوت: صنف من الحشرات ذات بطون وأرجل وهي ثلاثة أصناف، منها صنف يسمى ليث العناكب وهو الذي يفترس الذباب، وكلها تتخذ لأنفسها نسيجًا تنسجه من لعابها يكون خيوطًا مشدودة بين طرفين من الشجر أو الجدران، وتتخذ في وسط تلك الخيوط جانبًا أغلظ وأكثر اتصال خيوط تحتجب فيه وتفرخ فيه، وسمي بيتًا لشبهه بالخيمة في أنه منسوج ومشدود من أطرافه فهو كبيت الشعر[3].

شبه القرآن الكريم معبودات المشركين، وأولياءهم ببيت العنكبوت، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت:٤١].

لما بينت الآيات السابقة الأشباه والأمثال من الأمم التي اتخذت الأصنام من دون الله فما أغنت عنهم أصنامهم لما جاءهم عذاب الله، ثم بين الله تعالى في هذه الآية أن من اتخذ معبودًا من دون الله ويعتقد أنها تنصره في الدنيا وتشفع له في الآخرة، وهي أضعف من أن تدفع عن نفسها، مثله كمثل العنكبوت، وقد اتخذت لها بيتًا لا يريحها إذا هي أوت، ولا يجيرها من حر أو برد إذا هي ثوت، فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغناء عمن اتخذوها وقت الحاجة إليها وتزول بأقل تحريك، وأقصى ما ينتفعون به منها نفع ضعيف وهو السكنى فيها وتوهم أن تدفع عنهم كما ينتفع المشركون بأوهامهم في أصنامهم، وجملة: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١]، معترضة مبينة وجه الشبه، وهذه الجملة تجري مجرى المثل، فيضرب لقلة جدوى شيء، فاقتضى ذلك أن الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات

(١) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٥٠.
(٢) تفسير المنار ١/ ٢٠٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٥٢.

وأبعدها عن الخير والرشد وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات كما تتفاوت بيوت العنكبوت في غلظها بحسب تفاوت الدويبات التي تنسجها في القوة والضعف، ثم زاد الإنكار توكيدًا فذكر أن ما يدعونه ليس بشيء، فكيف يتسنى للعاقل أن يترك القادر الحكيم، ويشتغل بعبادة من ليس بشيء؟ ثم أردف هذا ببيان فائدة ضرب الأمثال للناس، وأنه لا يدرك مغزاها إلا ذوو الألباب، الذين يفهمون خبيء الكلام وظاهره، وسره وعلانيته[1].

قال ابن القيم: «فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتًا، وهو أوهن البيوت وأضعفها؛ وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨١-٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس:٧٤-٧٥].

وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود:١٠١].

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليًّا يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده»[2].

وقال الألوسي: «وفي الآية إشارة إلى أن من اعتمد على غير الله عزّ وجلّ في أسباب الدنيا والآخرة فهو منقطع عن مراده غير واصل إليه، قال ابن عطاء: من اعتمد شيئًا سوى الله تعالى كان هلاكه في نفس ما اعتمد عليه، ومن اتخذ سواه عزّ وجلّ ظهيرًا قطع عن نفسه سبيل العصمة ورد إلى حوله وقوته»[3].

سابعًا: دابة الأرض (الأرضة):

ودابة الأرض: الأرضة، وهي الدويبة التي يقال لها السرفة والأرض فعلها، فأضيفت إليه، يقال: أرضت الخشبة أرضًا، إذا أكلتها الأرضة، وهي السوس؛

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/٣١٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/٢٥٢.

(٢) إعلام الموقعين ١/١١٩.

(٣) روح المعاني ١١/١٦.

أي: سوس الخشب، من رتبة الحشرات، وعددها كثير جدًّا؛ لأنه يدخل تحتها أكثر من خمسين ألف نوع، وحياة الإنسان لا تكفي لدراستها جيدًا بمفردها، وهي إحدى الرتب المهمة بسبب تنوع أشكالها ولطافة ألوانها، خصوصًا الخصال والقوى الإلهامية الخاصة بكل نوع، وتقسيمها إلى أقسام ثانوية مؤسسة خصوصًا على صفات متخذة من جهازها الفمي وأجنحتها وأربطتها وقرونها وانقلاباتها؛ منها الحشرات ذات الأجنحة الشبكية، والنمل الأبيض ينسب لهذا القسم، ومنها الحشرات ذات المنقار وذات المنقاب؛ أي: الآلة التي تنقب بها هذه الحشرات النباتات لإحداث العفص، ومنها الحشرات ذات الأجنحة القشرية، وأبدان هذه الحشرات لها ستة أرجل، وتقرض أوراق الأشجار والأزهار والجذور والأزرار والحبوب وتحدث إتلافًا، ومنها ما يقرض الجوخ والأقمشة التي من الصوف والفراء، ومنها دودة القز، ومنها الحشرات الجناحية النصف، وهذه الحشرات دودة الصبغ ودودة البلوط والبق وحشرة الملك وسوس الخشب المسمى بالدابة وسوس القمح وجنس القمل والحشرات الماصة كالبرغوث ونحوه، ومنها ما سبق الكلام عليه؛ مثل: النمل والدراريح والنحل وغير ذلك[1].

ذكر القرآن الكريم دابة الأرض في سورة سبأ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ:١٤].

لما بين الله تعالى في الآيات السابقة عظمة ملك سليمان عليه السلام وتسخير الريح والرواح له، بين في هذه الآية أنه لم ينج من الموت، وأنه قضى عليه الموت، تنبيهًا للخلق على أن الموت لا بد منه، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه، يقول المفسرون: «إن سليمان عليه السلام كان في محرابه، فأدركه الموت، وهو متكئ على عصاه، واستمر على ذلك، كما قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد - مدة طويلة نحوًا من سنة، حتى جاءت الأرضة، وأكلت طرف العصا (المنساة)، فاختل توازنه، فسقط على الأرض، وتبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك[2].

ذكرت الآية دابة الأرض لإثبات حقيقة أنه لا يعلم الغيب إلا الله.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٧٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٦٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠١.

ثامنًا: الجراد والقمل:

الجراد: هو الحشرة الطائرة من فصيلة الصرصر والخنافس له أجنحة ستة ذات ألوان صفر وحمر تنتشر عند طيرانه، يكون جنودًا كثيرة يسمى الجند منها رجلًا، سمي به لجرده ما على الأرض[(١)].

القمل: قيل: هو الدبى وهو الصغار من الجراد ولا يسمى جرادًا إلا بعد نبات أجنحته، وقيل: هو القردان جمع القراد المعروف، وقيل: صغار الذر، وقيل: هي الجعلان، وقيل: هي البراغيث، وقيل: هي السوس، وهي الدابة التي تكون في الحنطة وغيرها[(٢)].

من الآيات التي أيد الله تعالى بها موسى عليه السلام: الجراد والقمل.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٣].

لما بينت الآيات السابقة تمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل، بينت هذه الآية أن الله تعالى أرسل عليهم صنوفًا من العذاب، منها الطوفان: وهو ما طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل فهو اسم جنس من الطواف.

وقيل: إنه في الأصل مصدر، وهو اسم لكل شيء حادث يحيط بالجهات ويعم؛ كالماء الكثير والقتل الذريع والموت الجارف.

وقد اشتهر في طوفان الماء، وقيل: الموت، وقيل: هو الطاعون.

ثم أرسل عليهم الجراد، وهو جند من جنود الله تعالى يسلطه على من يشاء من عباده، فأكل زرعهم وثمارهم وثيابهم وسقوف دورهم، ولم يدخل دور بني إسرائيل، فضجوا إلى موسى وفزعوا لشدة ما حل بهم وأعطوه العهود والمواثيق بأنه إذا كشف عنهم هذا الضر يؤمنون به ويرسلون معه بني إسرائيل، فدعا ربه فكشفه بعد أن دام سبعة أيام، وقبل أن يقضي على البقية الباقية من مواشيهم.

فلما كشف عنهم، قالوا: بقي لدينا ما يكفينا، ما نحن بتاركي ديننا من أجلك، ونكثوا عهودهم، فدعا عليهم فأرسل الله عذابًا سابعًا ذكره بقوله: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾.

فملأ طعامهم وشرابهم وآلمهم بقرحة وأكل منهم شعور رؤسهم وأهدابهم وحواجبهم، ولم يصب بني إسرائيل شيء منه، فاشتد عليهم البلاء أكثر من ذي قبل، فعجوا إلى موسى واستغاثوا به ووثقوا إليه العهود وعظموا له الأيمان بأنه إذا كشف عنهم هذه المرة يؤمنون ولا يعودون إلى

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٦٩.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٥/ ٣٤.

الكفر ويرسلون معه بني إسرائيل، وذلك بعد أن دام عليهم سبعة أيام أيضًا، فرق لهم موسى ورحمهم ودعا ربه، فكشف عنهم، فلم يبق منه واحدة، فقالوا: ما كنا نوقن أنه ساحر مثل اليوم! كيف ذهب ما كنا نراه بكلمة واحدة، ونكثوا عهدهم، ونقضوا أيمانهم.

فدعا عليهم، فأرسل عذابًا ثامنًا بينه بقوله: ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾.

وهكذا توالت الآيات حتى بلغت تسعًا، وكلما كشف عنهم عادوا إلى سابق عهدهم من الكفر والضلال.

وسمى الله تعالى هذا العذاب الذي أرسله على بني إسرائيل آيات؛ لأنها دلائل على صدق موسى.

وهي دلائل على غضب الله عليهم؛ لتظافرها عليهم حين صمموا على الكفر والعناد.

و﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ وصف لـ﴿ءَايَٰتٍ﴾، فيكون مرادًا منه معنى الفصل المجازي وهو إزالة اللبس؛ لأن ذلك هو الأنسب بالآيات والدلائل.

أي: هي آيات لا شبهة في كونها كذلك لمن نظر نظر اعتبار.

وقيل: المراد أنها مفصول بعضها عن بعض في الزمان، أي: لم تحدث كلها في وقت واحد، بل حدث بعضها بعد بعض، وعلى هذا فصيغة التفعيل للدلالة على تراخي المدة بين الواحدة والأخرى، ويجيء على هذا أن العذاب كان أشد وأطول زمنًا، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف:٤٨].

قيل: كان بين الآية منها والأخرى مدة شهر أو مدة ثمانية أيام، وكانت تدوم الواحدة منها مدة ثمانية أيام وأكثر، وعلى هذا الوجه فالأنسب أن يجعل ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ حالًا ثانية من الطوفان والجراد، وأن لا يجعل صفة لـ﴿ءَايَٰتٍ﴾، ثم أخبر الله تعالى أن هذه الآيات لم تنفع فيهم وأنها لم تزدهم إلا كبرًا وعتوًّا وبعدًا عن الحق، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، للتفريع والترتيب، أي: فتفرع على إرسال الطوفان وما بعده استكبارهم، كما تفرع على أخذهم بالسنين غرورهم بأن ذلك من شؤم موسى ومن معه.

فعلم أن من طبع تفكيرهم فساد الوضع، وهو انتزاع المدلولات من أضداد أدلتها، وذلك دليل على انغماسهم في الضلالة والخذلان، وبعدهم عن السعادة والتوفيق، فلا يزالون مورطين في وحل الشقاوة.

فالاستكبار: شدة التكبر كما دلت عليه السين والتاء، أي: عد أنفسهم كبراء، أي تعاظمهم عن التصديق بموسى وإبطال دينهم إذ أعرضوا عن التصديق بتلك الآيات

المفصلات، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٣].

معطوفة على جملة فاستكبروا، فالمعنى: فاستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات وأجرموا، وإنما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم، وتمكنه منهم، ورسوخه فيهم من قبل حدوث الاستكبار، وفي ذلك تنبيه على أن وصف الإجرام الراسخ فيهم هو علة للاستكبار الصادر منهم، فـ(كان) دالة على استمرار الخبر وهو وصف الإجرام، وهذه الآيات التي أرسلها الله تعالى على فرعون وقومه كانت متعلقة بالزرع وآفاته، وهم أهل زرع وضرع من أقدم العصور[1].

الحشرات في المثل القرآني

من الأمثال القرآنية التي ذكرت فيها الحشرات ما يأتي:

أولًا: الذباب:

ضرب الله تعالى مثلًا في بيان عجز معبودات المشركين وتفاهتها بالذباب الحقير، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:٧٣].

ضرب الله تعالى المثل في أحقر المخلوقات وأضعفها وأهونها وذلك يناسب من يعبد غير الله في حقارته وسفاهة عقله وذله ومهانته حين رضيت نفسه أن يعبد مخلوقًا مثله، ولم تكن حقارة الذباب مانعة من ضرب المثل، فالحقير يشبه بمثله، وفي هذا المثل الدليل القاطع الذي يثبت بطلان الوثنية، ويقيم الدليل على الوحدانية، فإن الأوثان ومن يتبعونها ولو تضافرت كل القوى معها لا يمكن أن يخلقوا ذبابًا، وهذا المثل وإن لم يأت على طريق التشبيه في الظاهر، فهو متضمن له في المعنى، يقول صاحب الكشاف: «قد سميت الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستحسان

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٥/ ٣٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٦٩.

والاستغراب مثلًا، تشبيهًا لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم»[1].

وفي هذا المثل بيان عجز الأصنام ومن يعبدونها العجز المطلق وقدرته تعالى على كل شيء، ثم يقول تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

أي: أن ما طلبته منكم هو ضعيف جدًّا، وتحتقرونه بأعينكم، ومع ذلك فإنكم لا تستطيعون مقابلة هذا التحدي مع ضعفه[2].

والحكمة من ضرب هذا المثل هي: أن الحجة بضرب الأمثال أقرب إلى الأفهام، وبيان ضعف كل ما يعبد من دون الله، وإقامة الحجة على ذلك.

قال ابن القيم: «وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك، وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصعد إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات، فأعطوها صورًا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات لآلهة الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه»[3].

وقال ابن القيم أيضًا: «فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه فمن لم يستمعه فقد عصى أمره كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأصح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها، وأسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وساعد بعضهم بعضًا وعاونه بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد، ثم بين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم، فأي إله أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وخيره، فهل قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها، فأقام سبحانه حجة التوحيد وبين إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب ألفاظ وأحسنها لم يستكرهها غموض ولم يشنها تطويل ولم يعبها تقصير ولم تزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز مالا يتوهم متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشرف البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ»[4].

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧١.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١/ ٧١.
(٣) إعلام الموقعين ١/ ١٣٩.
(٤) الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٦.

ثانيًا: البعوض:

ومن الأمثال التي ذكرها الله تعالى في القرآن قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٦].

بَيَّنَ الله تعالى في هذه الآية أنّ ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار، واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبًا بها المثل، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من قبل أنّ التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهم من المشاهد.

فإن كان المتمثل له عظيمًا كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيرًا كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذًا إلا أمرًا تستدعيه حال المتمثل له وتستجرّه إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية، ألا ترى إلى الحق لما كان واضحًا جليًّا أبلج، كيف تمثل له بالضياء والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته، كيف تمثل له بالظلمة؟[1].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١١١.

قال ابن القيم: عند تفسير قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]، قال: «وهذا جواب اعتراض اعترض به الكفار على القرآن، وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة، فلو كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كلام الله لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة، فأجابهم الله تعالى بأن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦].

فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه وإبطال الباطل وإدحاضه كان من أحسن الأشياء والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض، فكأن معترضًا اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك.

فأخبر تعالى عما له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء وهداية من شاء، ثم كأن سائلًا سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك، فأخبر تعالى عن حكمته وعدله وأنه إنما يضل به الفاسقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٧].

فكانت أعمالهم هذه القبيحة التي

ارتكبوها سببًا لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى»[1].

والحكمة في هذه الآية: دحض شبهة الذين أنكروا ذكر الله تعالى لهذه المخلوقات الحقيرة وأنه تعالى لا يليق به ذلك، وأن القرآن ليس من كلام الله، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لا تصدر عن الله، وأن الله لا يذكر هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه! وكان هذا طرفًا من حملة التشكيك والبلبلة التي يقوم بها المنافقون واليهود في المدينة، كما كان يقوم بها المشركون في مكة[2].

ومن الحكمة في ضرب المثل بالبعوضة: أنه خلق من مخلوقاته، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يخلقوا بعوضة لا يقدرون عليه، ويقال: إنما ذكر المثل بالبعوضة؛ لأن خلقة البعوضة أعجب؛ لأن خلقتها خلقة الفيل، ويقال: لأن البعوضة ما دامت جائعة عاشت فإذا شبعت ماتت، فكذلك الآدمي إذا استغنى، فإنه يطغى، فضرب الله المثل للآدمي[3].

قال سيد قطب: «إن هذه الآيات تشي بأن المنافقين- وربما كان اليهود والمشركون- قد وجدوا في هذه المناسبة منفذًا للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن، فجاءت هذه الآيات دفعًا لهذا الدس، وبيانًا لحكمة الله في ضرب الأمثال، وتحذيرًا لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها، وتطمينًا للمؤمنين أن ستزيدهم إيمانًا، فالله رب الصغير والكبير، وخالق البعوضة والفيل، والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل، إنها معجزة الحياة، معجزة السر المغلق الذي لا يعلمه إلا الله، على أن العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير، وليس في ضرب الأمثال ما يعاب وما من شأنه الاستحياء من ذكره»[4].

ثالثًا: العنكبوت:

ومن الأمثال التي ضربها الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله تعالى يعبدونها، ويرجون نفعها العنكبوت اتخذت بيتًا لا يغني عنها في حر ولا برد، ولا مطر ولا أذى.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت:٤١].

(١) بدائع الفوائد ٤/ ١٣٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٠١، تفسير السمرقندي ١/ ٣٦.
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٥٠.

هذا المثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئًا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها[1].

والحكمة من هذا المثل هي: قطع الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعًا ليعلم من تأمل هذا المثل وعرفه أن من اتخذ من دون الله وليًّا أو شفيعًا فهو كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، والغرض تشبيه ما اتخذوه متكلًا ومعتمدًا في دينهم وتولوه من دون الله، بما هو مثل عند الناس في الوهن والضعف والذلة والمهانة، حتى تكون الصورة واضحة والحجة قوية، فلا تدع مجالًا للشك بعد ذلك[2].

قال ابن القيم: «وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعًا، قطعًا يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله وليًّا أو شفيعًا، فهو كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عباده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا، متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك.

وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاةً وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن»[3].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٧٩.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٥٤.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٣٥١.

رابعًا: الفراش:

شَبَّه القرآن الكريم الناس في وقت البعث بالفراش المبثوث؛ لأنهم إذا بعثوا يموج بعضهم في بعض، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة:٤].

شَبَّهَ الله تعالى في هذه الآية الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر، وبالفراش المبثوث؛ لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ [النبأ:١٨].

وقوله في قصة يأجوج ومأجوج: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف:٩٩].

والفراش: فرخ الجراد حين يخرج من بيضه من الأرض يركب بعضه بعضًا، وقد يطلق الفراش على ما يطير من الحشرات ويتساقط على النار، ليلًا، وسمي فراشًا لتفرشه وانتشاره[1].

والحكمة من هذا المثل: التنبيه على شدة أهوال يوم القيامة، وتبيين حال الناس في ذلك وضعفهم بما يشبه ضعف الفراشة وحالها.

لمسات إعجازية في خلق الحشرات

من اللمسات الإعجازية في خلق الحشرات ما يأتي:

أولًا: النمل:

ذكر القرآن الكريم أن النمل له لغة يتخاطب بها، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨﴾ [النمل:١٨].

صرحت الآية الكريمة على أن النمل له لغة يتخاطب ويتحدث بها، وهذا ما أثبتته الأبحاث الحديثة بوسائلها العلمية الدقيقة عن حياة النمل الاجتماعية القائمة على التفاهم فيما بينها، وأن مجتمع النمل له كما لسائر الكائنات الحية لغة وأنها تتجاذب بها أطراف الحديث بكلام خاص أو بإشارات مسموعة أو غير ذلك مما علمه الله لنبيه سليمان عليه السلام، ويتفاهم النمل بعضه مع بعض في كل ما يتصل بشئونها المختلفة، والنمل كما شوهد في مختلف بيئاته يقوم بمشروعات جماعية، مثل: مد الطرق وإقامة الجسور وبناء مستعمراته، ولا يمكن أن يتم التعاون على إنجاز هذه الأعمال إلا بالتفاهم بلغة متداولة بينها، وكل الذين درسوا حياة النمل وشاهدوا ما عليه حياة النمل من النظام الدقيق في بناء مساكنها وما عليه أفرادها من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٧٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٥٥.

الذكاء والدهاء وسعة الحيلة وحب العمل والدأب الذى لا يعرف الكلل، ثم إن النمل يتلاقى في مجتمعات للتعارف وتبادل المنافع، كما أنه هو الوحيد من بين سائر الحشرات الذي يهتم بدفن موتاه وغير ذلك مما يدل على حياة منتظمة حية نشطة لها كيان ودستور يحكمها في كل سلوكها[(١)].

والنمل من أذكى الحشرات وهي ترى بموجات ضوئية يراها الإنسان، ولغة النمل كيمياوية، لها وظيفتان: التواصل والإنذار، فلو سحقت نملة فإن رائحة تصدر عنها تستغيث بها النملات، أو تحذرها من الاقتراب من المجزرة، ولا تستطيع نملة دخول مسكنها إلا إذا بينت كلمة السر، وللنمل جهاز هضم مدهش فيه فم ومريء ومعدة وأمعاء وجهاز مص وضخ، فسبحان من زود هذا المخلوق الصغير بكل وسائل الحياة[(٢)].

ثانيًا: العنكبوت:

ذكر القرآن الكريم البناء لبيت العنكبوت بصيغة المؤنث اتخذت، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت:٤١].

إن الاعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة يتجلى بأجلى معانيه في لفظة: ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾، بصيغة الفعل المؤنث، وهي إشارة علمية في غاية الروعة والدقة للدلالة على أن ما يقوم ببناء بيوت العناكب هي الأنثى منه، وأن الذكر من العناكب لا شأن له بذلك، وهذه حقيقة ما كان أحد مطلقًا يفطن إليها وقت نزول القرآن، ولكن لما اشتغل علماء الأحياء حديثًا بدراسة الحشرات ووضعوا في دراستها علمًا قائمًا بذاته تبينت لهم حقائق مذهلة عن حياة الحشرات التي تبلغ مئات الآلاف في أنواعها، وأن كل نوع منها يتميز بأشكاله وأحجامه وألوانه وطبائعه وغرائزه المميزة لكل نوع منها عما سواه، وقد دلت الدراسة المستفيضة للحشرات أن بعضها له حياة اجتماعية ذات نظم ومبادئ وقوانين تلتزم بها في إعداد مساكنها والحصول على أقواتها والدفاع عن نفسها والتعاون فيما بينها بصورة تدهش العقول؛ وذلك بإلهام من خالقها الذي يجعلها تبدو وكأنها أمم لها كيان ونظام وعمران[(٣)].

ومن الدراسات لحياة العناكب لاحظ

(١) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل ص ١٠٦.

(٢) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج ص ٤٩٦.

(٣) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل ص ١٢٨، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج ص ٥٠١.

العلماء: أن لها قدرات في العمليات الإنشائية حين تشيد بيوتها وتنسج غزلها، وكشف العلماء عن ثلاثة أزواج من المغازل توجد في مؤخرة بطن العنكبوت، تأتيها المادة الخام عن طريق سبع غدد في الأقل، وأحيانًا يصل عدد هذه الغدد في بعض أنواع العناكب إلى (٦٠٠)، وخيوط العنكبوت حريرية جدًّا، وسمك شعرة واحدة من رأس الإنسان يزيد عن سمك خيط نسيج العنكبوت بحوالي (٤٠٠) مرة، ولقد اكتشف عالم ألماني أن كل خيط من خيوط العنكبوت مؤلف من (٤٠٠٠) خيط، وكل خيط يخرج من ثقب خاص بجسم العنكبوت، وإن شعرة واحدة من شعر الإنسان لهي أغلظ من (٤) مليار خيط من خيوط العنكبوت.

إن كلمة ﴿أَوْهَنَ﴾ في الآية هي خاصة ببيت العنكبوت وليس بخيطه، إذًا فهذا البيت غير مأمون.

ثم يضيف في هذه الآية: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، ذلك أن هذه الآية لم تكن معلومة في ذلك العصر، إلا أن العلم الحديث استطاع أن يكتشف أن هذا الوهن يعود سببه إلى الأنثى التي تقتل الذكر وتأكل أولادها والأولاد يأكل بعضهم بعضًا، ومما يزيد من الإعجاز هذه الصورة المتشابهة مع الذين يتخذون من دون الله أولياء يبتغون عندهم العزة والمنفعة فينقلب أولياؤهم أعداء لهم ويتبرؤون منهم.

وأما الآية: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣].

فيبين الله تعالى أن إدراك هذا المثل يحتاج إلى علم في عالم الحيوان، وهذه الأسرار في هذا العالم لم تظهر إلا مؤخرًا[(١)].

ثالثًا: الذباب:

وضرب الله تعالى مثلًا في بيان عجز معبودات المشركين وتفاهتها بالذباب الحقير، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:٧٣].

خاطب الله تعالى في هذه الآية الكفار أن أصنامهم التي يعبدونها من دون الله لن تستطيع أبدًا خلق شيء مهما يكن تافهًا حقيرًا كالذباب وإن تضافروا جميعًا على خلقه، بل إن هذا المخلوق التافه لو سلب من الأصنام شيئًا من القرابين التي تقدم

(١) انظر: الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني، سمير عبد الحليم ص ١٢٣، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج ص ٥٠١.

إليها فإنها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تمنعه عنه أو تسترده منه، وما أضعف الذي يهزم أمام الذباب عن استرداد ما سلبه منه، وما أضعف نفس الذباب، كلاهما شديد الضعف، بل الأصنام أشد ضعفًا، فكيف يليق بإنسان عاقل أن يعبدها ويلتمس النفع منها؟

وإن القرآن الكريم في هذه الآية تحدى الناس جميعًا تحديًا ماديًّا أن يخلقوا ذبابة وهي حشرة ضئيلة فلم يقدروا، واستمر هذا التحدي قائمًا إلى عصرنا هذا، أي: بعد أكثر من ألف سنة من نزول القرآن وبعد أن تقدم العلم تقدمًا هائلًا وبلغت التكنولوجيا ذروتها في التطور والاختراع، فهل تستطيع دولة من الدول بعد ما بلغت ما بلغت من التفوق أن يقف الناس أمام هذا التحدي المادي ويصنع ذبابة واحدة؟

ثم يسألهم هل لو يسلبهم الذباب حياتهم بمرض فتاك ينقل جراثيمه إليهم هل يمكنهم استرداد حياتهم؟

إن القرآن الكريم هو كلام الله المعجز حقًّا قديمًا وحديثًا، وكتابه الذى لا ريب فيه، ولقد اكتشف العلم الحديث أن للذباب غددًا لعابية طويلة وبمجرد أن يأخذ الذباب شيئًا من الطعام فإنه يفرز عليه كمية كبيرة من اللعاب تحوله فورًا إلى مادة أخرى؛ لذلك فالإنسان لا يستطيع أن يسترد من الذباب ما أخذ منه ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج:٧٣].

إن هذه الدقة في التفاصيل لم تكتشف إلا حديثًا، إن الذبابة الواحدة تنقل أكثر من (٣٠) نوعًا من الجراثيم، وتحمل معها حوالي (٥) ملايين جرثومة، كما أن الذبابة الواحدة تبيض أكثر من (١٠٠) بيضة في اليوم دفعة واحدة، وتبيض مثلها كل (١٠) أيام، فلو قدر للذباب أن تعيش عدة أعوام بدلًا من أسابيع لانتشر الذباب في الأرض وأفنى الحياة عليها[1].

رابعًا: البعوض:

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٦].

قال الشعراوي: «نظر المشركون في هذه الحشرة على قلة حجمها، والإعجاز العلمي اليوم يسير نحو هذه الدقة، والله سبحانه وتعالى يقول للكفار في هذه الآية:

(١) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل ص ١٢٨، الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني، سمير عبد الحليم ص ١٢٣.

أنتم التفتم إلى صغر حجم البعوضة بالنسبة لحجم الإنسان فاحتقرتموها، ولكنكم لم تلتفتوا إلى دقة الخلق، فإن هذه البعوضة بحجمها المتناهي في الصغر تحمل معها كل أجهزة الحياة، من عيون ترى، وأجنحة تطير، وأجهزة جنسية لحفظ النوع، وجهاز هضمي للطعام وإخراج الفضلات، وكل مقومات الحياة، لم يلتفتوا إلى دقة الصنع وعظمة الخالق الذي وضع كل سبل الحياة في هذه المساحة.

ولو أنكم التفتم إلى هذا لعرفتم الحكمة من المثل، ولأدركتم أن هذه البعوضة الصغيرة التي تستهينون بها في مثل حي وضعه الله تعالى أمامكم على دقة الخلق وقدرة الخالق، في أن يجمع كل تلك الأجهزة اللازمة لحياة هذا الكائن الحي في هذا الحجم الصغير، ولكنها سطحية التفكير، وعدم القدرة على التمييز في عقول الكافرين، ثم يقول تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦].

أي: أن الله لا يضرب مثلًا بالبعوضة فقط المتناهية في الصغر في الحجم، بل إنه سبحانه وتعالى لم تقف قدرته عن خلق البعوضة في هذا الحجم الصغير، بل هناك ما هو أصغر من ذلك بكثير خلقه الله، ولذلك فليس هناك نهاية قدرة بل القدرة ممتدة إلى ما هو أصغر وأصغر، وقد تقدم بنا العلم فاستطعنا أن نرى أشياء لم نكن نراها لدقة حجمها، ووجدنا أن هذه الأشياء كلما صغر حجمها زادت قوتها وقدرتها، فالجراثيم -مثلًا- على دقة حجمها تستطيع أن تقتل أقوى الكائنات الحية، وتهلكه دون أن يستطيع النجاة منها»[1].

ثم يقول: «إذن الدقة في الخلق هي إعجاز من الله سبحانه وتعالى، لا بد أن ننتبه له، وكلما زادت الدقة زادت معرفتنا لقدرة الخالق الذي استطاع أن يخلق في هذا الحيز الصغير الذي لا يرى بالعين المجردة! استطاع أن يخلق فيه حياة تتكاثر، واستطاع أن يخلق فيه قوة تستطيع أن تفني ما هو أكبر منها بملايين المرات، وما هو أقدر منها ظاهريًا، ولو أن الكفار كان لديهم شيء من العلم، أو حتى من الفهم لتنبهوا لهذه الحقيقة، ولعرفوا أن الله سبحانه وتعالى حين يضرب هذا المثل ببعوضة فما فوقها، فإنه يلفتنا إلى القدرة الإلهية في دقة الخلق، ويلفتنا إلى أن ما قد لا نراه بأعيننا قد يكون أشد قوة وأخطر مما نرى.

فالكفار عاجزون أمام هذه البعوضة الصغيرة التي يحتقرونها، فهي تستطيع أن تأخذ جزءًا من دمائهم دون أن يستطيعوا أن يردوها، أو يعيدوها مرة أخرى إلى أجسادهم، وهي تستطيع أن تنقل إليهم

(١) معجزة القرآن ٦/ ١٠٠.

الأمراض التي قد تقتلهم، ولا يستطيعون منها النجاة، ولذلك فإن ضرب المثل بالبعوضة فيه حكمة بالغة»[1].

خامسًا: النحل:

إن مملكة النحل عالم واسع فيه الكثير من العبر الدالة على بديع صنع الله وعظيم قدرته، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

إن مملكة النحل قائمة على أعلى مستويات التعاون والتكافل والتنظيم والعمل الدؤوب، وهو مجتمع موحد، ونظامه نظام ملكي عادل، واكتشف العلم الحديث أن النحل يملك وسيلة للتخاطب، وهي الرقص كوسيلة لإرشاد زملائه إلى مكان الزهور، وتقدر المسافة بدقة، وأن أفراد خلية النحل تعيش معيشة جماعية قريبة إلى معيشة الإنسان، حيث تخصصت كل جماعة في عمل معين، فمنها الشغالات والمحاربات والآباء والأمهات، ويتراوح عدد أفراد الخلية التي تضمها الخلية من (٣٠٠٠٠) إلى (٦٠٠٠٠) نحلة، وينقسم النحل إلى (٣) أقسام، (الملكة): وهي تضع البيض، ثم (ذكور النحل) الذين يعيشون عيشة رفاهية، ولا عمل لهم سوى تلقيح الملكة حتى ينتج جيل جديد من النحل، والنوع الثالث: هن (الشغالات)، وهن إناث مثل الملكة لكن غير مخصبات.

وتقوم الشغالات ببناء العش الذي يوضع فيه البيض ويربي فيه صغار النحل ويخزن فيه العسل، كما تقوم الشغالات بجمع الرحيق من الأزهار وتحويله إلى عسل، كما أنها تستطيع أن تحول العسل إلى شمع بواسطة غدد خاصة، وعندما تصبح كمية الشمع كافية يبنيها النحل مبتدئًا من السقف متجهًا إلى أسفل، أي: عكس ما يعمله الإنسان، ثم يتم تفريغه على هيئة سداسية متجاورة.

وقد ثبت أن الخلايا السداسية هي أكبر متانة وأكثر اقتصاد؛ إذ لا تترك بينها فجوات كما هي الحال في الخلايا الدائرية مثلًا، وتقطع الشغالة حوالي (٧) كم حتى تجد الأزهار المناسبة، ولكنها ما تلبث أن تعود إلى خليتها بواسطة الشم في خط مستقيم حاملة معها الرحيق، والرحيق عبارة عن سائل تفرزه الأزهار ويحتوي على الجلوكوز، فعندما تحط النحلة على الزهرة وتمتص الرحيق، يصعد الرحيق على طول اللسان ومنها إلى كيس العسل، ويتكرر ذلك إلى أن يمتلئ كيس العسل.

(١) المصدر السابق ٦/ ١٠١.

وأثناء رحلة العودة يتحول الرحيق إلى عسل بواسطة غدد خاصة في جسم النحلة الشغالة، وعندما تصل النحلة إلى الخلية تفرغ العسل في إحدى العيون الفارغة في الخلية، وقد تنتج الخلية الواحدة حوالي (١٨) كغ من العسل في الموسم الواحد.

إن ملكة النحل تبيض أيام الموسم حوالي (٢٠٠٠) بيضة في اليوم، لكن عندما تفقد منصبها كملكة فإن العاملات يجدن ملكة جديدة، وبذلك تختار العاملات بيضة واحدة من مئات، ثم تولي هذه البيضة عناية خاصة، وعندما تفقس البيضة تولي العاملات اليرقة عناية شديدة فتطعمها كميات من الغذاء الملكي حتى تكبر وتصبح ملكة.

لاحظ بعض العلماء وجود أزهار تنفتح ثم تنغلق في أوقات محددة من اليوم، وإذا بالنحل يصل إلى أماكن تلك الأزهار في الوقت الذي تنفتح فيه.

إن نحل الخلية يختص كل يوم بنوع معين من الزهر، لذلك عندما تأتي نحلة إلى غير خليتها سرعان ما ينكشف أمرها ويدرك جميع نحل الخلية أنها غريبة، ويعود فضل هذا الكشف إلى رائحة نوع الزهرة المقررة في ذلك اليوم، وكأن الزهرة التي تختارها الخلية كل صباح تصبح كلمة سر خاصة بالخلية[١].

موضوعات ذات صلة:

الحيوان، الخلق، الطير، النبات

(١) الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني، يوسف الحاج ص ١١٩.

الحضارة

عناصر الموضوع

مفهوم الحضارة	٢٨٦
الحضارة في الاستعمال القرآني	٢٨٨
الألفاظ ذات الصلة	٢٨٩
أهمية الحضارة للإنسان	٢٩٠
محاور الحضارة في ضوء القرآن	٢٩٠
أسس البناء الحضاري في ضوء القرآن	٣٠٥
تأملات حضارية في القصص القرآني	٣٢٤

مفهوم الحضارة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (حضر) تدل على إيراد الشّيء، وورود ومشاهدته. وقد يجيء ما يبعد عن هذا وإن كان الأصل واحدًا[١].

والحَضَر: خلاف البدو، والحَضَارة والحِضَارَة: سكون الحَضَر، كالبَداوة والبِداوة[٢].

والحاضرة: خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف؛ سميت بذلك لأنّ أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[٣].

وفي المعجم الوسيط: الحضارة الإقامة في الحضر، والحضارة ضد البداوة وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هناك تعريفات كثيرة، نذكر منها ما يلي:

عرفها الأستاذ محمد محمد حسين بأنها: كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه: عقلًا وخلقًا ومادة وروحًا ودينًا ودنيا[٥]، وهذا التعريف تعريف شامل لجوانب الحضارة المادية والروحية وأهدافها الدينية والدنيوية.

وعرفها أبو الأعلى المودودي بأنها: تصور سليم للحياة الدنيا وغايتها في نظام اجتماعي، يقود الإنسان إلى الرقي والإخاء والأمان، ويقول: «هي نظام متكامل يشمل كل ما للإنسان من أفكار وآراء وأخلاق وأعمال في حياته الفردية أو الأسرية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية»[٦].

والحضارة ليست مجرد تصورات أو مفاهيم ومبادئ وقيم ولكنها أيضًا تطبيق لهذه التصورات والقيم والمبادئ فهي تجمع بين النظرية والتطبيق والتخطيط والتنفيذ بين التصورات وبين الواقع.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٧٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٤١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٩٠٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٨٦.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٨١.
(٥) الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين ص ٤.
(٦) الحضارة الإسلامية، المودودي ص ٥.

والحضارة: عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، وعمارة الأرض تحتاج إلى قلوب طاهرة وأياد متوضئة ونفوس عامرة وعقولٍ زاخرة وهمم عالية.

ولا سبيل إلى إصلاح النفوس وعمارة القلوب وتوحيد العقول إلا بالمنهج الرباني الذي شرعه لنا رب العالمين.

وعرف مالك بن نبي الحضارة بأنها: «جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات اللازمة لتقدمه»[(١)].

ويعرفها في كتاب آخر بأنها هي: «البحث الفكري والبحث الروحي»[(٢)].

والتعريف الأول لمالك بن نبي لم يحدد مصدر هذه العوامل ولا نوعيتها، ولم يحدد نوع هذا التقدم المطلوب، وتعريفه الثاني تعريف غير مطابق للمفهوم الشامل للحضارة فالحضارة كما أسلفنا القول ليست مجرد بحوث ونظريات ولكنها إلى جانب ذلك تطبيق وتنفيذ عملي.

وعرفها الشيخ سعيد حوى رحمه الله: بأنها «اجتماع الثقافة مع المدنية ضمن شروط معينة وظروف معينة»[(٣)]، فالحضارة شاملة للجانب الثقافي وللجانب المدني، أقول: والثقافة في ذاتها لا تشمل جميع الجوانب الروحية في الإنسان، بل تعد جانبًا منها.

ويعرفها د توفيق السبع: بأنها: «الحصيلة الشّاملة للمدنيّة والثّقافة وهي مجموع الحياة في صورتيها المادّيّة والمعنويّة»[(٤)].

ونلاحظ مما سبق: أن بعض العلماء عرف الحضارة تعريفًا عامًّا، والآخرين عرفوها من منظور إسلامي والذي يهمنا في هذا البحث هو تعريف الحضارة الإسلامية؛ لأنها هي موضع بحثنا، وتعريفها: «سعي الإنسان المتواصل إلى تحقيق غايته في هذا الوجود»، هذه الغاية التي تدور حول القيام بواجبات العبودية لله تعالى وعمارة هذا الكون في ضوء التشريعات الإلهية...

فالمعنى الاصطلاحي للحضارة لا يخرج عن معناه اللغوي الذي هو خلاف البداوة، ويتطور مفهومه في العصر الحديث؛ ليشمل مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي، وهي أمور اقتضتها ظروف الحياة المعاصرة.

(١) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي ص ٥٠.
(٢) شروط النهضة، مالك بن نبي ص ٣٣.
(٣) منطلقات إسلامية لحضارة عالمية، سعيد حوى ص ٢.
(٤) قيم حضاريّة، توفيق السبع ص٤١.

الحضارة في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ (الحضارة) في الاستعمال القرآني، ولكن جذر الكلمة وهي مادة (حضر) موجود في القرآن، والذي يعني: الحضور والشهود لمكان أو إنسان أو غيره[1].

وصلة هذا المعنى بالحضارة أن الحضارة شاهدة على المنجزات والثمرات الناتجة عن العمل ، والحضور للعقل وللوعي الإنساني وللإبداع واضح فيها.

وأما (الحَضَر) أو (الحَضَارة) فإنها لم ترد في القرآن الكريم، بل وردت كلمة (القرية) مفردة ومجموعة، وكلمة (المدينة)، وأصل المدينة: قرية صغيرة امتد عمرانها حتى صارت مدينة.

وقد جاء لفظ (القرية) في مواضع كثيرة، في سياق الاعتبار والاتعاظ بمصير القرى الهالكة.

وقد ذكر القرآن الكريم كثيرًا من مظاهر الحضارة والرقي، وعوامل ازدهار الحضارات ونهوضها، ونقل لنا صورًا ومشاهد من تلك الحضارات، وكيف مكَّن الله تعالى لأمم بائدة، كما ذكر آفات الحضارات وعوامل سقوطها، وقدم منهجًا راشدًا، وميزانًا دقيقًا لتقييم أي حضارة كانت.

قال سبحانه وتعالى عن سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ:١٥].

وقال عز وجل عن عاد: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣٠].

وتحدث عن ذي القرنين فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف:٨٤].

إلى غير ذلك مما اشتمل عليه القصص القرآني، من وصف حال الأمم السابقة، وما مَنَّ الله عليهم به من نعم.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٤١.

الألفاظ ذات الصلة

١ القرية:

القرية لغة:

الْقَرْيَةُ: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس[١]، وإنما سميت قرية لاجتماع الناس فيها[٢].

القرية اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناها في اللغة، وتطلق على المدينة أيضًا[٣].

الصلة بين القرية والحضارة:

تدل القرية على اجتماع الناس واستقرارهم في أبنية ومنازل، والاجتماع والاستقرار هما أساس الحضارة، فلا تتحقق الحضارة بدونهما.

٢ المدنية:

المدنية لغة:

مدن بالمكان: أقام به. ومنه سمّيت المدينة، وهي فعيلةٌ، وتجمع على مدائن بالهمز، وتجمع أيضًا على مدنٍ ومدنٍ. (ومدن) مدنًا: إذا (أتاها)[٤].

المدنية اصطلاحًا:

التطور المادي والتقني والفني وكل ما يتصل برفاه الإنسان وراحته ورقيه من خلال استعماره للطبيعة[٥].

الصلة بين المدنية والحضارة:

تتحقق المدنية بالرقي المادي فقط، أما الحضارة فتحتاج إلى الرقي المعنوي أيضًا.

كما تقاس درجة المدنية بموضوعات محددة ومحسوسة، أما الحضارة فيتعذر قياسها بسهولة لاشتمالها على قضايا معنوية[٦].

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦٩.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧٨.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٣٢.
(٤) تاج العروس، الزبيدي ٣٦/ ١٥٧.
(٥) انظر: الثقافة والحضارة الإسلامية، إبراهيم علي محمد ص١٥.
(٦) انظر: المصدر السابق ص١٦.

أهمية الحضارة للإنسان

للحضارة أهميتها البالغة للإنسان، فالإنسان كما قيل مدني بطبعه، يميل إلى العيش في المجتمعات، فإذا تهيّأت له الأجواء الحضارية، وعاش حياة طيبة آمنة، بذل ما في وسعه للمشاركة في دورة التقدم والنهوض.

والحضارة الإنسانية الرائدة تحقق للإنسان إنسانيته، وتيسر له القيام بدوره المنشود، كما تيسر له غايته الكبرى وهي عبادة الله تعالى، وتعينه على تحقيق حاجياته وتلبية رغباته، وبلوغ طموحاته المشروعة.

فإصلاح الدنيا مما يعين على إصلاح الدين، وسهولة العيش ويسر الحياة، مما يفرغ القلب لعبادة الله وذكره.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح:٧-٨].

فإن فراغ القلب من الأشغال والهموم أدعى لحضوره وصفائه، وإقباله على مناجاة ربه.

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطاً فارغ البال وأخلص لربك النية والرغبة»[1].

محاور الحضارة في ضوء القرآن

لا بدّ لكلّ بناء من محاور أساسية لا يقوم إلا بها، أولها: البنّاء الذي يبني ويشيد، وثانيها: المنهج الذي يسير عليه أو التصميم الذي ينفّذه، وثالثها: الأرض التي يبني عليها، ورابعها: موادّ البناء الأساسية والمساعدة. والحضارة بناء، له محاوره الرئيسة ودعائمه الأساسية: الإنسان، والكون، والمنهج. الإنسان وهو اللبنة الأساسية والدعامة الرئيسية في البناء الحضاري والمحور الرئيسي لها بما حباه الله من كرامة وما وهبه من ملكات، وما سخّر له من نعمٍ، وما أودعه فيه من طاقات، والكون الذي سخره الله للإنسان بما فيه من كنوزٍ وذخائر وثروات وطاقات، والمنهج الذي يسلكه الإنسان ليبني حضارته ويحميها. والحضارة هي ثمرة التّفاعل بين هذه العناصر الثلاث: الإنسان، والكون، والحياة، وعمر أي بناء يتوقف على متانة أسسه ورسوخ دعائمه، وتماسك لبناته وتناسق أجزائه، فلا تنافر ولا شذوذ. ومن ثم فلزامًا على الإنسان الذي يسعى للنهوض أن يعرف إنسانيته ودوره وعلاقته بالكون والحياة.

أولًا: الإنسان:

من سمات المنهج القرآني في الحديث عن الإنسان: استيعاب حياته وتاريخه: منذ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٤٢.

بداية الخليقة حتى نهاية العالم، فلقد جمع لنا القرآن تاريخ الإنسانية منذ آدم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ثم مصير الإنسان ومستقرّه الأخروي، استيعاب الإنسان: روحًا وجسدًا، عقلًا وقلبًا، فكرًا وعاطفة، استيعاب الإنسان: عقيدةً وشريعةً وسلوكًا. استيعاب الإنسان: على اختلاف مشاربه وأفكاره وتصوراته ومعتقداته وأوطانه وأجناسه، استيعاب الإنسان: من جهة مصالحه ومنافعه وهداياته، من جهة طبائعه ونزعاته ودوافعه، فالذي خلق الإنسان هو العليم به.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ١ - ٥].

لقد صار الإنسان بشرًا سويًّا يفكر ويجادل، يقدّر ويناضل، يبني ويهدم، يعمر ويخرّب، يسبر الأغوار، ويمتطي صهوة البحار، ويغوص في الأعماق، ويحلّق في الأجواء، ويسبح في الفضاء، ويشقّ الجبال، ويقدّ الصخر، ويفلّ الحديد، فهلّا تذكر ماذا كان قبل أن يكون؟ هل استشعر قدره حين كان نطفةً من ماء مهين، ثم انتقل بقدرة الله وتقديره من طورٍ إلى طورٍ حتى استوت خلقته واكتملت صورته؟

لقد نقض القرآن نظرتين زائفتين للإنسان: النظرة الأولى: نظرة الاستعلاء التي تصل به إلى حدّ الغرور والإعجاب وازدراء ما حوله من مخلوقاتٍ متكئًا على ما منحه الله من مواهب وما أولاه من نعم. فبيّن له أصله ومادّته لا لازدرائه أو تحقيره ولكن ليعرف قدره وطبيعته، ويبرأ من داء الكبر.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ

مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧-٩].

وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٣٩].

وهذه الآيات تبرز عناية الرحمن بهذا المخلوق ورعايته له.

النظرة الثانية: نظرة المذلّة والهوان والضّعف التي تصل إلى حدّ احتقار الذّات والخنوع لكلّ كائن، والشّعور بالذّنب والخطيئة، ولقد بين القرآن كرامة الإنسان ومكانته وتميزه عن سائر المخلوقات.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

الوعي الإنساني: خلق الله آدم عليه السلام ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته بعد أن علّمه الأسماء كلها ودعاه لدخول الجنة وحذره من أن يقرب شجرة معينة، ثم أغواه الشيطان فأكل منها هو وزوجه حواء، ثم بدت آثار المعصية فتابا إلى الله تعالى، وكان هبوطهما إلى الأرض، كلّ هذا يدل على أن الإنسان الأول خلق سويًّا مكتملًا، وبدأ أول لحظات وجوده مكرَّمًا محفوفًا برعاية الله، عاقلًا واعيًا مكلَّفًا، ودرج في سلّم العلم والمعرفة، هذه هي النظرة القرآنية للإنسان. أما النظريات الفلسفية المجرّدة من نور الوحي، المبنية على تصورات وتخمينات بشرية فترى الإنسان خلق مهينًا حقيرًا وانتقل من طور إلى طور حتى ارتقى إلى درجة القرود ثم إلى صورته البشرية، واعتمد على نفسه فتخبّط كثيرًا حتى اكتسب المعارف عن طريق المصادفة، وعن طريق الملاحظة والتجربة، وهكذا تحقّر هذه الفلسفات والتصورات الضالة من شأن الإنسان وتتجاهل الوحي والرسالات التي جاءت تعرف بنشأة الإنسان وغاية وجوده وكرامته، واتباعه للهداية الربانية وتوحيده لخالقه حتى انتكست بعض الأجيال ومالت إلى الشرك بوساوس الشيطان وتزيينه.

من شواهد عناية القرآن بالإنسان: ومن

شواهد عناية القرآن بالإنسان ورود اسمه في القرآن في ثمانيةٍ وخمسين موضعًا، حيث جاءت كلمة (الإنسان)، وفي ستة مواضع كلمة (الإنس)، وفي سبعة مواضع كلمة (بني آدم)، في حين جاءت كلمة (الناس) في مائة واثنين وثمانين موضعًا وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على عناية القرآن بهذا الكائن.

وحديث القرآن عن الإنسان حديثٌ وافٍ، يشمل جميع مراحل حياته، ويبين له منهجه في الحياة، وعلاقته مع الكون.

مقاصد القرآن في أولى رسائله: تجلّت مقاصد كلام ربّ البرية، مع أول ما نزل على رسول الإنسانية وهو يتعبد في الغار.

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق: ١ - ٥].

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾: أوّل رسالةٍ قرآنيةٍ يتودد الله فيها لعباده، ويعرّفهم بنفسه، فهو ربّنا ومليكنا، خالقنا ورازقنا، ومدبّر أمورنا، ومصرّف أحوالنا، على وجه العناية والحفظ.

أوّل رسالةٍ قرآنيةٍ تؤذن بأنه دعوةٌ عالميةٌ، تحمل مشاعل النور، وتفتّح روافد الخير، وتفجّر ينابيع الرحمة للإنسانية.

أوّل رسالةٍ قرآنيةٍ تضع اللبنات الأولى في صرح بناء حضارةٍ إنسانيةٍ رائدةٍ راشدة.

أوّل رسالةٍ قرآنيةٍ تضع لنا منهجًا لتلقي العلوم وتأصيلها، وتطبيقها.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أوّل توجيهٍ إلهيٍّ، أول تكليفٍ ربانيٍّ يحمل دعوةً عامةً إلى القراءة، وحثًّا على العلم؛ فالقراءة وسيلة الوعي والمعرفة، والعلم طريق المجد، ونبراس الرقيّ والحضارة.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ فلتكن القراءة بالله ولله، فمنه تعالى العون والتوفيق، هو غايتنا ورجاؤنا، وسيّدنا ومليكنا؛ فينبغي أن نطلب العلم لله، ونجرّد العمل له وحده، ونبرأ من كلّ حولٍ وطولٍ، إلى حوله وقوته، ونطلب المزيد من العلم منه وحده، فهو معلّمنا وملهمنا.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ والخالق عز وجل قد هيّأنا للقراءة بما أودعه فينا من العقل والفهم والاستيعاب.

ولأنه تعالى هو خالقنا فهو وحده الذي يأمرنا وينهانا، وينظّم دنيانا.

ولأنه تعالى هو خالقنا ومعلّمنا؛ فقد أنزل كتابه يضبط لنا أصول العلوم وقواعدها.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾: تفصيلٌ بعد إجمالٍ، بيانًا لأصل هذا الإنسان ونشأته، وإشارةً لمادة خلقه، وطورٍ من أطوارها العجيبة، فمعرفة الإنسان بأصله وأطواره مما يضيء له طريقه وينير بصيرته، وإذا كانت علوم البيئة مبنيةً على علاقة الإنسان

ووعيه بالكون والكائنات؛ فإن معرفته بذاته هي الركيزة والمنطلق لهذه المعرفة.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾: التوجيه الأول والثاني في رسالة الإسلام (اقرأ) وما ذاك إلا لأهمية القراءة ودورها الحيوي في حياة هذا الكائن، وللمرة الأولى يعرفنا الله بصفةٍ من صفاته، صفة الكرم، فالله تعالى أكرم من كلّ كريمٍ، ومن العجيب أن يستهلّ بها آخر كتبه، بعد فترةٍ من الرّسل واندراسٍ للكتب، وفي هذا ما فيه من التودّد إلى الإنسان والإقبال عليه، والعناية به، وتقديم البشرى له، وحفزه على العلم والعمل؛ فإنّ الذي يثيبه ويجازيه هو أكرم الأكرمين، فليسارع إلى العلم النافع، وليتنافس في ميادينه؛ لخدمة الإنسانية وراحتها ورفاهيتها، فإنّ الأجر والثواب من أكرم الأكرمين، في الدنيا قد تفوته الجوائز وتحجب عنه المحفّزات، ويحرم من التقدير، أو يعيش مغمورًا، ويموت منسيًّا، ولكن هذا لا يضيره؛ لأنه يرتقب الأجر من أكرم الأكرمين، ممن لا يضيع عنده عمل العاملين، ولا يضيع أجر المحسنين ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾.

﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ فالعلم منه تعالى وله تعالى، هو تعالى الذي علّم الإنسانية وأرشدها إلى وسائل التعلّم وأدواته، ونزول هذه الآية على النبي الأميّ لتطرق مسامع الأميين وتلفت أنظارهم إلى العلم ووسائله والقراءة وأدواتها، ولقد كان لذلك أثرٌ بالغٌ على أمّة الإجابة، والتي ارتقت إلى صدارة الأمم وتسلّمت دفّة قيادة موكب الإنسانية، وحملت لواء العلم ومشاعل النور، وشيّدت أرقى حضارةٍ عرفتها الإنسانية في مسيرتها.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ فالوحي هو المصدر الأول للتعلّم والتلقّي، والأنبياء إلى جانب دعوتهم لإصلاح الدين جاءوا بصلاح الدنيا، ونقلوا للإنسانية كثيرًا من العلوم والمعارف عن طريق الوحي، حتى تميّز الإنسان بالعلم والفهم، والتلقي والتلقين، والتحصيل والاستيعاب، والتجربة والملاحظة، والاستقراء والاستنباط، والتطوير والابتكار، من منطلق الوحي الإلهي.

تلك هي نظرة القرآن للإنسان، وبيانه لمعالم طريقه، وتوضيحه لعلاقته بخالقه جل وعلا، وفي الرسالة الأولى دعوةٌ للإنسانية أن تقرأ وترتقي سلّم العلم وتستضيء بأنواره، أن تقرأ مستعينةً بربها فهو الخالق الرازق المدبر المعلّم، وأن تجعل من العلم هاديًا ودليلًا لتحقيق عبوديتها لخالقها جل وعلا ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، فهو تعالى الذي امتنّ على الإنسانية بنعمة الوجود.

ثم يتكرر الأمر بالقراءة فهي مفتاح العلوم وطريق المعرفة وسبيل الهداية ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ كما تكرر ذكر الربّ جل وعلا

مرتين: مرةً في معرض الامتنان على الإنسان بنعمة الوجود، ومرةً في بيان نعمةٍ من أجل النعم، وهي نعمة العلم، غذاء الأرواح، وقوت القلوب، وروح الأمم والشّعوب.

ومن هذه الآيات نخلص إلى ما يلي:

عناية القرآن بالإنسان، فالإنسان هو محور هذا الكتاب العظيم.

أول ما نزل من القرآن دار حول بيان نعمة الله على الإنسان.

أول أمر للإنسان أن يقرأ ويتعلم فالقراءة طريقه للعلم، والعلم سبيل الهداية والرقي.

تكرر الأمر بالقراءة؛ لأهميتها ومزيتها فهي مفتاح العلوم وباب المعارف.

التعبير بصفة الربوبية لبيان عناية الخالق بالإنسان فهو تعالى الذي خلقه ورزقه وعلمه.

كرّم الله الإنسان بالعلم، فينبغي أن يحسن الانتفاع به فهو سبيل النجاة وطريق الفلاح في الدارين.

ثانيًا: الكون:

من دلائل تكريم الله تعالى للإنسان ومن تمام إنعامه عليه: أن جعل الكون كلَّه مسخَّرًا لمنفعته؛ السماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار، والماء واليابس، والبحار والأنهار، والنبات والحيوان والجماد، كلّها مسخّرةٌ لمصلحة الإنسان، تكريمًا له وتفضّلًا عليه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

وفي سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

وفي سورة الجاثية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢ - ١٣].

فالإنسان مع ضعفه وضآلة حجمه: سخّرت له هذه المخلوقات، وتلك العوالم مع عظمها وقوتها وامتدادها إلا أن الله عز وجل طوّعها له وهيّأها لخدمته وانتفاعه رحمةً منه ولطفًا.

لقد سلك بنا القرآن مسلكًا لطيفًا، فأرانا من هذا الكون مشاهد متعددة متنوعة، أوقفنا على عظمة خلقها وتكوينها وعلى نظامها ودقتها وانتقل بنا منها إلى خالقها ومنظمها ومدبّرها وآيات القرآن الكريم تجلّي لنا هذا الكون المشهود، وتبرز روائعه وتصف بدائعه، وتحكي اتساقه وتكشف حقائقه

وتبرهن على عظمة خالقه، وعن شمول وعمق تلك النظرة القرآنية يقول د. المبارك رحمه الله: «إن هذه النظرة إلى الكون كما جاء بها القرآن تحتوي على نظرة الماديين إلى الكون، من حيث استخراج السنن والقوانين وارتباط الحوادث بعضها ببعض بروابط مطردة دائمة، ولكنها تزيد عليها، فالماديون يقفون هنا عند هذه المرحلة، والمؤمن بالله يتجاوزها إلى الإيمان بقوة أوجدتها من العدم وبعثت الحياة في أحيائها وقدرت لها نظمها ورسمت لها طريقها ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

أما المادي فلا يفكر في البداية ولا في النهاية، بل يبحث فيما بينهما ويشاركه المؤمن على طريقة القرآن في الإيمان بالله وفي نظرته فيما بينهما، ولكنه يتجاوز هذه النظرة ويصعد من الكون إلى خالقه، إن الماديّ ضيق الأفق محدوده، والمؤمن واسع الأفق، لا يقف عند حدوده، والمادي ينظر للكون نظرة جافة جامدة، والمؤمن ينظر إليه من خلال نظرته إلى عظمة الله ورحمته وفضله، فيتصل بالكون والطبيعة اتصالًا ربّانيًا يشعر خلاله بنبضة الحياة وخفقة الروح ويستشعر العظمة والرحمة في نظراته، إنه أوسع عقلًا وأيقظ قلبًا وأرهف ضميرًا وحِسًّا»[1].

هناك حقائق كبرى يدركها الإنسان حين يتخلّص من قيود العقليّة الماديّة الضّيّقة ويفتح قلبه وبصيرته لهذا الكون العريض فيتدبّره بنظرةٍ واسعة الأفق، وإيمان بكلّ القوى المذخورة فيه وسيجد حينئذٍ ظواهر عجيبة في حياة الإنسان، لا يمكن تفسيرها إلّا على فرض وجود الرّوح.

إن في الكون حقائق كبرى، لا يمكن للإنسان أن يدركها ومباهج لن يذوق حلاوتها ولن يتنسم عبيرها ما لم يتخلّص من القيود المادية التي أثقلته ويتجرّد من تلك النظرة الضيّقة إلى أن يفتح قلبه وبصيرته لهذا الكون الرحيب فيتأمله بعين بصيرته، ويستكشفه بنور إيمانه حينئذٍ ستنكشف له أسرار وتنجلي أمام ناظريه دقائق ولطائف.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

(١) نحو إنسانية سعيدة، محمد المبارك ص ٣٤.

إن تقدّم الإنسان وتحضّره مرتبطٌ بنظرته للكون وعلاقته به وعمق معرفته واعتدال سلوكه في هذا الكون، وبقدر معرفته بنواميس هذا الكون وسننه ودقائقه بقدر تقدّمه وتمكّنه وتحقيقه لواجبات الخلافة، لكنّ معرفة الإنسان بالكون لا تتناسب مع طموحاته وآماله، وهناك حجبٌ كثيفة وحواجز تحول دون انطلاق الإنسانية في عالم المعرفة منها بعده عن المنهج الرباني، وتشبّث كثير من البشر بالأساطير والأوهام التي ترسّبت في عقولهم، وانصرافهم عن العلم والمعرفة بإشباع الشهوات وتحقيق المكاسب المادية، «وقد صرح العالم إينشتاين أن كلّ ما جمعه من معلومات عن هذا الكون لم يقدّم له عنه إلا لغزًا مقفلًا يستعصي على الحل»[1].

رسالة الإنسان في هذا الكون: خُلِق الإنسان لأسمى غاية وأسنى مقصد وهو إخلاص العبادة لله رب العالمين الذي خلقه ورزقه وأكرمه وفضله على كثير من المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فمهمة الإنسان وغايته ومحور وجوده هو عبادة الله وحده، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (كنت ردف النّبيّ صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرّحل. فقال: (يا معاذ بن جبلٍ) قلت: لبيك رسول اللّه وسعديك ثمّ سار ساعةً، ثمّ قال: (يا معاذ بن جبلٍ) قلت: لبّيك رسول اللّه وسعديك. ثمّ سار ساعةً، ثمّ قال: (يا معاذ!) قلت: لبّيك رسول اللّه وسعديك، قال: (هل تدري ما حقّ الله على العباد؟) قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنّ حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا) ثمّ سار ساعةً، ثمّ قال: (يا معاذ بن جبلٍ!) قلت: لبّيك رسول اللّه وسعديك، قال: (هل تدري ما حقّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟) قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (أن لا يعذّبهم)[2].

فمهمّة الإنسان: عبادة الله عز وجل، والقيام بحقّ الخلافة في الأرض، بتعميرها وإصلاحها وإقامة موازين العدل وأركان الرحمة في أرجائها، والمحافظة على مواردها وحسن استغلالها، ورعاية البيئة وحمايتها، وهذه المسئولية يتحمّلها كلّ إنسانٍ مكلفٍ.

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، محمد البوطي ص ١٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك رقم ٥٩١٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، ١/ ٥٨، رقم ٣٠.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ومن مقتضيات مهمة الاستخلاف في الأرض: المحافظة على ثرواتها وكنوزها، وخيراتها، والسعي إلى إصلاحها والنهوض بها وبأهلها، وفق منهج الله تعالى، فهو تعالى خالق هذا الكون ومدبِّره. والاستخلاف يعني: أن الإنسان وصيٌّ على هذا الكون لا مالكًا له، إنه مستخلفٌ على إدارته واستثماره وإعماره أمينٌ عليه.

والإنسان موكّلٌ بعمارة الأرض مخوّلٌ بريادتها، فضلًا عن كونه جزءًا من هذه البيئة التي أمر بحمايتها ورعايتها؛ فهو مخلوقٌ من الأرض، قد اشتمل تركيبه على جميع عناصرها، فهو جزءٌ منها وصلاحه مقترنٌ بصلاحها وحاضره ومستقبله مرتهنٌ بحاضرها ومستقبلها، وحين يعي ذلك يسعى إلى التدابير الواقية من المفاسد الناتجة عن الإضرار بها.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٣ - ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

«استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكّنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها»[1].

إن للإنسان دوره المنشود في هذا الكون فهو قوةٌ إيجابيةٌ، خلقه الله تعالى ليعمّر ويطوّر، وليصلح وينمّي، والله سبحانه في عونه بتسخير كثيرٍ من المخلوقات له ومنحه كنوز هذه الأرض وخيراتها، وهو معانٌ من الله كذلك بما وهبه من القوى والاستعدادات الذاتية.

ورسالة الإنسان في الكون رسالة إصلاح وبهذا أنزل الله الكتب وأرسل الرسل.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٤.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٧ - ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

ولقد دعا الإسلام إلى معرفة قيمة ما حولنا من مخلوقاتٍ والبحث عن دورها وطبيعتها، فكم تعلّم الإنسان من الكائنات من حوله، وكم هداه الله بسببها إلى مخترعاتٍ أفادت الإنسانية، وكم كانت ولا تزال سببًا في هدايته إلى خفايا غابت عنه فلم يصل إليها علمه المحدود.

تأمل في قصة هابيل وأخيه قابيل: كيف كان الغراب معلّمًا للإنسانية - أول دروسٍ في حماية البيئة - كيف تدفن موتاها في أولّ حالة وفاةٍ إنسانية ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

من هنا كانت المخلوقات الأخرى مصدرًا من مصادر المعرفة الإنسانية فضلًا عن أهميتها البيئية، لذلك فإنه من الأخطاء التي نبّه الإسلام عليها محذّرًا من الوقوع فيها أن يحتقر الإنسان بجهلٍ منه بعض المخلوقات، أو يتطاول عليها بلسانه فيسبّها لأذًى أصابه منها، ويغفل عما تحمله من خيرٍ.

ثالثًا: الغاية:

الغاية من الحضارة الإنسانية الرائدة التي يسعى إليها الإسلام تنسجم مع الغاية من وجود الإنسان في هذا الكون، وهي غاية يسعى الإنسان لتحقيقها كفرد، وفي إطار المجتمع الذي يعيش فيه.

ولقد استخلف الله تعالى آدم وذريّته في الأرض، وأعلم بذلك ملائكته الكرام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فمهمّة الإنسان: عبادة الله عز وجل، والقيام بحقّ الخلافة في الأرض، بتعميرها وإصلاحها وإقامة موازين العدل وأركان الرحمة في أرجائها، والمحافظة على مواردها وحسن استغلالها، ورعاية البيئة وحمايتها. وهذه المسئولية يتحمّلها كلّ إنسانٍ مكلفٍ، ومن مقتضيات مهمة

الاستخلاف في الأرض: المحافظة على ثرواتها وكنوزها، وخيراتها، والسعي إلى إصلاحها والنهوض بها وبأهلها، وفق منهج الله تعالى، فهو تعالى خالق هذا الكون ومدبّره.

ورسالة الإنسان هي رسالة الإصلاح والتعمير، ولقد سخّر الله للإنسان كل ما يعينه ويذلل له الصعاب كي يقوم بواجبه ويؤدي رسالته.

ورضا الله عز وجل غاية وجود الإنسان لن يتحقق إلا باتباع منهجه وابتغاء وجهه الكريم في كل عمل يقوم به الإنسان، وهذا يدعوه إلى اختيار الأعمال الصالحة النافعة، وجودة العمل وإتقانه، ومراقبة خالقه جل وعلا، وسعيه إلى إرضائه بإخلاص النية وإتقان العمل.

تلك الغاية الكبرى هي التي توحّد بين المؤمنين وتجمع كلمتهم وتؤلف قلوبهم، بينما لو ترك للإنسان تحديد غايته لوجدنا أنفسنا أمام غايات متباينة وأهواء متفرقة ومصالح متناقضة، تؤدّي إلى التنافر والصّدام بين أفراد المجتمع مما يشيع الفوضى ويعطل الجهود ويبدد الطاقات ويعدد الوجهات، ولا يمكن لغاية ما أن تفرض على المجتمع فرضًا، ويؤطّر الناس عليها أطرًا؛ فإنه إن خنع لذلك فترة من الوقت فسرعان ما ينتفض على قاهريه ويثور على مغتصبي إرادته، كما حدث في الشيوعية التي فرضت أهدافها وأفكارها الخبيثة بالحديد والنيران، وإزهاق الأرواح، وحرب الأديان حتى تهاوت عروشها وخرّت سقوفها على رؤوس سدنتها وحماتها وقادتها، وكفرت بها الشعوب، وهذا هو الفرق بين الغاية في الإسلام والغاية في غيره من الملل والنحل والنظم، الغاية في الإسلام واضحةٌ محددةٌ، غايةٌ صادقةٌ عادلةٌ، غايةٌ تلبي نداء الفطرة الإنسانية وتحقق المصالح العليا للإنسانية، كما أنها تلبي المطالب الفردية العادلة، وتجمع شتات القلوب، وتوثّق عراها، تلك الغاية الأسمى هي التي تحمل المؤمن على الصدق والتجرّد والتفاني والتسامي على أعراض الدنيا. إن توحيد المنهج ينبثق عن توحيد الغاية، وتوحيد الغاية يترتب عليه توحيد الرؤى والتوجّهات والسلوك، ونبل الغاية يفضي إلى نبل الوسائل المحققة لتلك الغاية.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

فلا يراد وجه الله تعالى إلا بصالح الأعمال ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ومحامد الخصال، وبهذا ترقى المجتمعات وتنهض الأمم وتتحد كلمتها حين تسمو غايتها.

ويرشدنا القرآن إلى أن كل الغايات ذاهبة أدراج الرياح، لكنّ غاية واحدة هي الباقية وهي النافعة، حين نقصد وجه الله تعالى.

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

إن الصلة وثيقةٌ بين الغاية والمنهج والثمرة؛ فالغاية: وجه الله، والمنهج: التسليم القلبي والإحسان العملي، والثمرة: الأجر العظيم الذي ينتظره من ربه فضلًا عن الأمن والسعادة التي يحظى بها في الدارين.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

إن المؤمن يجعل من ابتغائه لمرضاة ربه حافزًا ودافعًا للتسابق إلى الخيرات والتنافس في ميادين البر، مع ضبط عمله وسلوكه بهذه الغاية المنشودة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ [آل عمران: ١٦٢].

إن وحدة الغاية تورث انسجامًا تامًّا وتجاوبًا بين طموح الإنسان ورغباته وأفكاره وأحواله، بين عقله وقلبه، بين ضميره ووجدانه، ووحدة الغاية تنتج تجاوبًا وانسجامًا وألفة بين أفراد المجتمع.

ومن أكبر مزايا تلك الغاية أنها إذا تحققت، تحقق بالتبع كل ما للإنسان في هذه الحياة الدنيا من الآمال والأماني، من الناحية الفردية، أو الاجتماعية دون أن يجعلها الإنسان غايات مقصودة لذاتها، والقرآن الكريم في كثير من آياته قد عدد الآمال والأماني، والنعم والمقاصد التي تتحقق بنفسها إذا نال الإنسان مرضاة ربه، إن أكبر ما يتمناه الإنسان ويرغب فيه في حياته الدنيوية هو الأمن والسلام، والسكينة والطمأنينة القلبية.

يقول تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ١١٢].

ولا شك أن وضوح الغاية سبب في وضوح الطريق ودفعةٌ لسلوكه وصولًا لتلك الغاية.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

إن تلك الغاية الأسمى للحضارة الإنسانية في الإسلام تجعل للحضارة سماتها التي تتميز بها عن غيرها من الحضارات، وإن اشتركت معها في مظاهر كثيرة، لكنها تتميز حين يتعلق الأمر بالعقيدة الإسلامية، والشريعة الربانية، والغاية الكبرى للحضارة، فالإسلام أباح الفنون الجميلة، وحثّ عليها لا لذاتها كما في غالب النظم الأخرى، ولكن لكونها رسالة سامية ترقى بمشاعر الإنسان وتهذب سلوكه مع ما فيها من مسرّة للناظرين، وبهجة للقلوب، ومتعة حلال طيبة، بينما غالبية النظم الأخرى تجعل الفن للفن والأدب للأدب كما يردّدون، ويروّجون، ومن ثمّ فلا رباط للفنون والآداب ولا ضوابط لها، حتى لو انحرفت عن مسارها الإنساني الراقي إلى مسار بهيميٍّ، فانحدرت وتردّت إلى العري والمجون والتبذل والخلاعة، تثير الغرائز، وتؤجّج الشهوات، وتلهب العواطف، وتعصف بالقيم، وتنحدر بالأخلاق، وتفسد الذوق، وتهبط بالروح كما هو الحال في الحضارة الغربية، وكما يروج وكلاؤها ودعاتها المنبهرون بها في بلاد العالم الإسلامي.

رابعًا: المنهج:

إذا اتضحت لنا الغاية من وجود الإنسان، فقد اتضحت لنا ملامح المنهج الرباني الذي يقيم تلك الغاية ويحققها في الواقع،

هذا المنهج لا بد وأن يكون قدسيًّا علويًّا حتى يذعن له الإنسان ويقبل عليه، وأن يكون واقعيًّا حقيقيًّا حتى يكون صالحًا للتطبيق في دنيا الناس، لا يجافي الفطرة ولا يصادم العقل، ولا ينازع الوجدان، بل يكون جديرًا للرقي والتقدّم، والسعادة والرفاهية للإنسانية.

لا بدّ لأيّ بناء من مخطّطٍ يقام على أساسه، فالبساتين المورقة، والحدائق المونقة، والبنايات الشّاهقة، والقصور المتألّقة إنّما شيّدت على أسسٍ متينة وأساليب رصينة، والحضارة الإسلاميّة العالميّة تقوم على منهج قويم يرسم خطاها وينير دروبها ويضيء معالمها، ولا بدّ لهذا المنهج أن يتميّز بمزايا عديدة منها الشمول، والثّبات، والصّلاحية لكلّ زمانٍ ومكانٍ، والتّوازن، والوفاء بحاجات البشر، والعمق، والواقعيّة، والقداسة، ولا يمكن للعقول البشريّة مع ما اتّسمت به من القدرة على التّفكير والإبداع، والملاحظة والاستنباط، والتّجديد والابتكار أن تتفتّق عن مثل هذا المنهج الذي تسلم له العقول، وتطمئن به القلوب، وترضى به النّفوس، ويلاءم الفطرة، ويناسب طبيعة الإنسان، ويراعي طاقاته وملكاته، ويحقق المصلحة للجميع.

فالعقول قاصرة لها حدودها، التي لا تتعدّاها، كما أنّها متباينة تباين الثّقافات والبيئات والمشارب والأهواء، متباينة في اجتهاداتها، وتصوّراتها ونظراتها للمصالح وتقييمها للأمور، ومن ثمّ فما تتفتق عنه العقول من مناهج لا يمكن أن تبلغ حدّ الكمال والشمول، ولا يمكن إلا أن تكون متباينةً، لا تجتمع عليها الإنسانية.

ومن ثمّ فلا سبيل للبشريّة كي تنهض وترقى إلى ذرى العلا وقمم المجد إلّا بمنهج ربّانيٍّ.

والقرآن الكريم لا يحتوي على المنهج فحسب بل يربي عليه ويرسّخه في الوجدان ويغرسه في النّفوس التي تزكو لتنشط وتجدّ في حمل هذا المنهج، ويحبّبه إلى القلوب التي تتهيأ وترتقي للتمثّل بهذا المنهج، فالقرآن ليس دستورًا يحكم النّاس وينظّم حياتهم وعلاقاتهم بل زادٌ روحيٌّ، وغذاءٌ ربّانيٌّ، وقبسٌ نورانيٌّ، ودواءٌ ناجحٌ لكلّ الأدواء تزكو به النّفوس، وتطمئن القلوب، وتسمو الأرواح، وتنشرح الصّدور، وتجلو الأفهام، وتتوقّد القرائح، يقدح زناد الفكر، ويوقظ الهمم، ويثير العقول، ويرقّق المشاعر، ويليّن القلوب.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فمن نعم الله على العباد أن أرسل فيهم رسولًا يبيّن لهم المنهج ويؤصّله، ويقيّمه، وينافح عنه، ويدعو إليه ويتمثّله، ويقيمه مسلكًا وأسلوبًا في الحياة، ويفنّد ما يثار حوله من غبار الشّبهات.

فهذا المنهج يثمر التّزكية والتّعليم، التّزكية للنّفوس والأرواح: الطّهر، والنّقاء، والسّموّ، والارتقاء. والتّعليم للعقول: تنويرها، وتبصيرها، وشحذ طاقاتها، وصقل مواهبها، وتحريرها من قيود الجهل وأغلال التّقليد الأعمى وأسر الأساطير والأوهام، وإطلاق سراحها من حبس الشّهوات والأهواء؛ لتنطلق في ميادين العلوم والمعارف وتقدّم للإنسانيّة خلاصة فكرها، ومبلغ علمها، وعصارة بحثها.

أمّة أمّيّة لا تقرأ ولا تكتب، ولا تحفظ علمًا ولا معرفةً، يأتيهم النّبيّ الأمّي المرسل من عند الله عز وجل بكتابٍ فيه عزّهم ومجدهم، وفيه نجاتهم وعصمتهم، وفيه تهذيب سلوكهم وتقويم اعوجاجهم والارتقاء بهم، بعد أن كانوا في ظلامٍ دامسٍ وتخبّطٍ حائرٍ وجاهليّةٍ جهلاء، وكانت حياتهم قاحلةً مجدبةً كتلك البيئات المقفرة الموحشة التي يكابدون العيش فيها، الغنيّ يأكل عرق الفقير، والقويّ يسطو على الضّعيف، فجاء القرآن ليحيي موات القلوب، ويصلح فسادها، ويجلّي صدأها، ويوقد سراجها، جاء بمنهجٍ وطريقٍ وركائز لبناء أسمى الحضارات وأنقاها، تلك الحضارة الإسلامية الرائدة التي لم تقم على أنقاض حضارةٍ أخرى، ولم تكن وريثةً أو ربيبة لحضارةٍ أخرى، بل قامت على رمال الصّحراء الشّاسعة وأوقدت شعلتها من بين رمادها، وأشرقت شمسها بعد ظلام ليلٍ طويلٍ حالكٍ، لتنثر ضياءها في ربوع الكون، حيث تبدأ البشريّة عهدًا جديدًا في ظلال الإسلام، الذي تولّى قيادة موكب الإنسانيّة قرونًا عديدة.

أسس البناء الحضاري في ضوء القرآن

لا بد لكل بناء من أسس ولا بد لكل أساس من عماد، والحضارة الإسلامية بناء مشيد على أسسٍ محكمة متينة، وأعمدة حصينة وسياج قويّ، فالإيمان والعمل الصالح، وتقوى الله تعالى والسعي لرضوانه، واغتنام الأوقات وتوظيف المال، مع التوكل على الله تعالى والأخذ بالأسباب من أهم عناصر هذا البناء الحضاري، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تقرّر هذه الأصول، ويكفي أن نتأمل في سورة العصر كيف جمعت هذه الأصول: الوقت، والإنسان، والغاية، والإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وما يقتضيه ذلك من واجبات، حتى قال الإمام الشافعي رحمه الله: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم»[1].

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

ولقد بصّرتنا هذه السورة بأساس الحضارة ونبراسها: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والصبر، سعيًا في إصلاح النفس وإصلاح الغير، وطلبًا لإكمال النفس وتكميل الغير.

وفي هذا الفصل نتحدث عن عناصر هذا البناء في ضوء آيات القرآن مع إبراز دورها في قيام الحضارة ونهوضها وحمايتها.

أولًا: الإيمان و العمل الصالح:

الإيمان غراس الحضارة ونبتتها وأصولها، الإيمان شجرة طيبة باسقة، مزهرة مونقة، مثمرة مغدقة، الإيمان روح الحضارة وركيزة الانطلاق إلى التقدم والرّقي، الإيمان إكسير الحياة، وزاد الإنسان، وشعلة الكون، ونفحة الوجود.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والإيمان هو التصديق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند ربه، وهو شامل للإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، حلوه ومرّه إيمانًا صادقًا واعتقادًا صحيحًا ويقينًا ثابتًا وعملًا صالحًا.

والإيمان هو الزاد والمنطلق، وهو مقياس أي تقدّم ونبراس التحضّر، وهو حصن الأمم وملاذها في السراء والضراء، ليست العبرة بكثرة المخترعات، ولا بوفرة الإنتاج، ولا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٧١.

بالتقدم التقني، فهذه كلها مظاهر مادية لا تكفل للحضارة بقاءها وازدهارها، بل العبرة بالزاد الإيماني الذي يقيم الحضارة، ويحفظها، ويوجهها ويرشّدها، ويعدّ روّادها وصفوتها.

والإيمان نبراس مبين يضيء لصاحبه شتى دروب الحياة.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا، أي: في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله»[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فبالإيمان حياة القلوب، ونور البصائر، وجلاء الأفهام، وبه تسمو الأرواح وتتآلف، وتتفتق الأذهان وتتوقد القرائح، وتنشط الجوارح، وتعلو الهمم وتنهض الأمم، فكلما ضعفت إرادة العبد، ووهنت قواه وكلّ جهده في السعي إلى المعالي، أمدّه هذا الإيمان الصادق بالزاد الروحيّ وأذكى في فؤاده روح المثابرة وأشعل في قلبه وقود الانطلاق، وكلما أحاطت به المخاوف كان هذا الإيمان ملاذًا آمنا، وحصنًا حصينًا، يفيء إليه المؤمن، فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه، والإيمان سرّ التفوق وإكسير النجاح، بالإيمان يرقى وينهض، فهو زاد القلوب، وضياء العقول، ونور البصائر، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية واصفًا أهل الإيمان: «ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في القرون والأجيال»[(٢)].

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها
تُنال إلّا على جسرٍ من التعب[(٣)]

وهو السبيل إلى الحياة الآمنة المطمئنة، الراضية المرضية، الطيبة الكريمة، قال تعالى في سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين»[(٤)].

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٠.

(٢) نقض المنطق، ابن تيمية ص ٨.

(٣) انظر: رياض الأنس في بيان أصول تزكية النفس، إبراهيم العلي ص ٦٢.

(٤) الجواب الكافي ص٨٤.

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، فالإيمان مصدر الأمن والأمان، والسكينة والأنس والطمأنينة، وراحة البال وسلام الروح.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: أفضل الخليقة؛ لأنهم بمعرفتهم الحق واتباعهم له، قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التي شرفهم الله بها، وبالعمل الصالح وتحصيل الفضائل نالوا معالي الرّتب، وتزيّنوا بالفضيلة وتمسّكوا بالقيم التي جعلها الله قوام الوجود الإنسانيّ، فضربوا أروع أمثلة للإنسانية.

فالإيمان هو منهج الحياة وعمل الصالحات؛ تشمل كل خير وبرٍّ وإحسان، وفق شريعة الله في الأرض، فمن كانوا كذلك فهم خير البرية.

ولا قيمة للحياة ولا وزن لها إن لم يحكمها الإيمان، فإذا ارتقت الأمم وتقدمت ماديًّا وتخلَّفت إيمانيًّا فإنها إلى الفناء تصير مهما طال بقاؤها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وعمل الصالحات يكون بالامتثال لكل ما أمر الله به ودعا إليه، واجتناب كل ما نهى الله عنه وحذر منه.

ولقد ورد ذكر العمل الصالح في القرآن الكريم ما يقرب من (٥٥) مرة، وقد جاء دائمًا مقترنًا بالإيمان، وهذا يدل على ارتباطهما الوثيق وتلازمهما المستمر، فلا إيمان بدون عمل صالح يعبر عنه ويبرهن عليه، ولا قيمة للعمل الصالح بدون إيمان يقوم عليه ويركن إليه، فالإيمان بدون عمل كالشجر بلا ظل ولا ثمر.

والعمل الصالح بدون إيمان كالجسد بلا روح، فلا إيمان بدون عمل ولا عمل بدون إيمان.

وميادين العمل الصالح واسعة ومنتشرة فتشمل كلّ عمل صالح مثمر يلتمس منه صاحبه رضا الله تعالى.

والإيمان والعمل الصالح هما السبيل إلى إصلاح النفس وكمالها وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥].

والإيمان والعمل الصالح هما السبيل إلى النصر والتمكين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ

لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور:٥٥].

وقال عز وجل في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

فالعمل الصالح مع الإيمان الخالص: هما أساسا السعادة والفلاح، والرقي والتقدّم، والنهوض والتحضر. وميادين العمل الصالح واسعة ومتنوعة، وتشمل كل عمل مفيد مثمر يلتمس منه الإنسان ويتحرّى فيه رضا الله تعالى.

والحياة الطيبة التي ينشدها الناس لا سبيل لها إلا بالإيمان والعمل الصالح.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فرسالة المؤمن هي رسالة الإصلاح والرعاية ورسالة الخير والعطاء؛ ذلك أن المؤمن كالنخلة لا يسقط ورقها، ولا ينقطع نفعها، فكل ما فيها نافعٌ مفيدٌ، فضلًا عن ثمرها الطيّب؛ وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ من الشّجر شجرةً لا يسقط ورقها، وإنّها مثل المسلم، فحدّثوني ما هي؟) فوقع النّاس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنّها النّخلة، فاستحييت، ثمّ قالوا: حدّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: فقال: (هي النّخلة)، قال: فذكرت ذلك لعمر، قال: لأن تكون قلت هي النّخلة، أحبّ إليّ من كذا وكذا)[1].

فالمؤمن وحده هو الذي يعرف مهمتّه في الوجود، ويسعى إلى تحقيقها والقيام بها، يؤمن بأن وجوده لغاية سامية هي عبادة الله تعالى، ويستعين بإيمانه ويقينه على العمل الصالح الذي ينهض بمجتمعه وأمته وجميع بني جنسه.

فالإيمان هو الأساس الذي يقوم عليه صرح الصلاح والرّشد والتقوى في نظر القرآن، إن المؤمن تنمو وتتزكى أعماله في نظر القرآن، كما يخضر وينضر ويورق ويثمر ما يغرسه البستاني من أشجاره في أخصب أرض وأجود هواء.

والعمل الصالح هو الغراس الطيبة للحضارة الإسلامية، والثمرة المباركة للإيمان، هو جزء لا ينفك عنه وثمرة تتفتق منه، وكثيرًا ما يقترن العمل الصالح

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحياء في العلم الحديث، رقم ١٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار، باب مثل المؤمن مثل النخلة رقم ٢٨١١.

بالإيمان في القرآن؛ لبيان أنهما صنوان متلازمان، فالإيمان هو الشجرة، والعمل هو الثمرة، الإيمان غراس والعمل الصالح جنى وحصاد، والعمل الصالح كل عمل يعود بالخير على الفرد والمجتمع سواء كان في محراب العبادة أو في ميادين السعي والطلب، ويأتي الصلاح دائمًا صفة ملازمة للعمل، وتابعًا لا ينفك عنه؛ لأن العمل ليس على إطلاقه، وإنما هو مقترن بالصلاح، وميزان الصلاح هو الكتاب والسنة، وثمراته العاجلة والآجلة لا تحصى.

إن العامل لا يرجو الأجر الدنيوي وحده على ما قدم، بل تتوق نفسه إلى ما عند الله تعالى الذي لا يضيع عنده عمل عامل، فالمؤمن يغرس ويصنع ويبني ويرفع ويتقن العمل؛ طمعًا في الجزاء الأوفى، يراقب الله تعالى في عمله، مما يدفعه إلى الدقة والإتقان والتفنن والإحسان فينهض المجتمع وترقى الصناعات وتتقدم المجتمعات.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠] فنصرة الأنبياء والصدق معهم وإيثارهم على النفس وتحمّل المشاقّ، وتجشّم الصّعاب في سبيل الله؛ نصرةً لدينه وذودًا عن حياضه، ونشرًا لدعوته، وقهرًا لأعدائه ونيلًا منهم كل هذا يعدّ من أجلّ الأعمال الصالحات التي تسطّر في الصحائف ويجازى عليها العبد أحسن جزاء.

فمقاومة الأعداء بالبطون الخاوية والأكباد الظمأى والأبدان المتعبة والأقدام الراسخة المغبرة من أفضل الأعمال الصالحة؛ لما فيها من مقاومة الشرّ ومحاصرة الفساد واقتلاع جذوره، وغرس الصالحات هي رأس العمل الصالح وعماده وذروة سنامه. وإنّ هذا البعث الذي أقام العرب من أنقاض الجاهليّة، وأشعل نبراس حضارتهم ووحّد صفوفهم ورايتهم وسما بنفوسهم إلى علياء الفضيلة وحلّق بأرواحهم في آفاق الأمجاد وأذكى فيهم روح التّنافس وعلوّ الهمّة ما هو إلا الإيمان الذي أحيا الله به قلوبًا، وشرح به صدورًا، وأنار درويًا إلى التّقدّم والرّقيّ.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ

قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ثانيًا: العلم النافع:

جاء القرآن بالعلم الذي يحيي موات القلوب، ويصلح فسادها، ويجلّيها ويوقد سراجها، جاء بمنهجٍ وطريقٍ وركائز لبناء أسمى الحضارات وأنقاها، لم تقم تلك الحضارة على أنقاض حضارةٍ أخرى، ولم تكن وريثةً أو ربيبة لحضارةٍ أخرى، بل قامت على رمال الصّحراء الشّاسعة، وأوقدت شعلتها وأشرقت شمسها بعد ظلام ليلٍ طويلٍ حالكٍ؛ لتنثر ضياءها في ربوع الكون، ولتبدأ البشريّة عهدًا جديدًا في ظلال الإسلام، الذي تولّى قيادة موكب الإنسانيّة قرونًا عديدة، جاء بالرّوح التي تسري في الأمة، فإذا هي حيّةٌ نابضة بعد أن كانت راقدةً خامدة، فالإيمان هو القداح الذي أذكي شعلتها.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

بينما كانت الجزيرة العربية غارقةً في جاهليةٍ جهلاء، راقدة في سباتٍ عميق، عاطلةً عن لآلئ المعالي جاء الإسلام، وسرت روح الإيمان في جسدٍ هامدٍ سرعان ما دبّت فيه الحياة، وبسقت شجرة الحضارة التي تنبت جذورها في تلك الصّحراء المقفرة، وامتدّت أغصانها في كلّ النّواحي.

إن الحاجة إلى العلم ضروريّةٌ للإنسان، فهو أساس النهضة والتقدم، وعماد الحضارة، وقوام الحياة، وقد قام الإسلام على أساس متين من العلم، وحسبنا أن أول آيات نزلت من الوحي الإلهي إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشارت إلى فضل العلم، حيث أمر بالقراءة، وهي مفتاح العلم، ونوّهت بـ (القلم)، وهو رمز العلم وأداته التي يدوّن بها.

قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

فلا يعرف دين -مثل الإسلام- ولا كتاب -مثل القرآن- أشاد بالعلم، وحثّ عليه، ورغب في طلبه، ونوه بأهله ومكانتهم، وأعلى من قدرهم، وبيّن فضل العلم وأثره في الدنيا والآخرة، وحض على التعلّم والتعليم.

العلم نورٌ وضياءٌ، وهدايةٌ وعصمةٌ، وفضلٌ من الله ونعمةٌ، ومنحةٌ ورحمةٌ، به

تنكشف الظلمات، وتنقشع غيوم الفتن، وينجلي غبار الشّبهات، وهو نبراس الحضارة وأساسها، وروحها وملهمها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

قال القرطبي رحمه الله: «وفي الآية دليلٌ على شرف العلم، وإنافة محلّه وتقدّم حملته وأهله، وأنّ نعمة العلم من أجلّ النّعم وأجزل القسم، وأنّ من أوتيه فقد أوتي فضلًا على كثير من عباد اللّه المؤمنين»(١).

وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

«أي: في الثّواب في الآخرة، وفي الكرامة في الدّنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمنٍ والعالم على من ليس بعالمٍ. .. ويرفع العلماء منهم خاصة درجاتٍ بما جمعوا من العلم والعمل»(٢).

فالرفعة في الدنيا بسموّ المراتب وتبوّء المناصب، وتقلّد الأمور، وتصدّر المجالس، وفي الآخرة بعلوّ المراتب في الجنان.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال السعدي رحمه الله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ «كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجاتٍ، خصوصًا العالم العامل المعلّم، فإنه يجعله الله إمامًا للناس، بحسب حاله ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشى بعلمه في ظلمة ديجوره»(٣).

ومن البراهين القاطعة والحجج الساطعة على فضل العلم وأدواته ووسائله: افتتاح الله عز وجل كتابه الكريم بصدر سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [١ - ٥].

فكما أنعم الله سبحانه وتعالى على الإنسانية بنعمة الحياة كذلك أنعم عليهم بنعمة العلم الذي يخرج الناس به من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة.

ومن شرف العلم وفضله: أن الله سبحانه وتعالى حثنا على الاستزادة منه وأمر بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وبيّن القرآن أن العالم وغير العالم لا يستويان.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٤٨.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٣١٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٦٣.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

فالعلم نورٌ وحياةٌ، وغرسٌ وبناءٌ، وسموٌّ وانطلاقٌ، وتقدّمٌ وابتكارٌ، وتحضّرٌ وازدهارٌ، أما الجهل فهدمٌ ودمارٌ، وحيرةٌ وانحدارٌ، وغبشٌ وظلامٌ، وخرافاتٌ وأوهامٌ، وتخبّطٌ وضلالٌ، فأظهرت لنا الآية الكريمة المفارقة العظيمة بين حال العالم، وحال الجاهل، بين بيئة العلم وبين بيئة باض فيها الجهل وأفرخ.

قال الرازي: «هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهّال، لا يعرفه إلا أولو الألباب، قيل لبعض العلماء: إنكم تقولون العلم أفضل من المال، ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء؟ فأجاب العالم بأن هذا أيضًا يدل على فضيلة العلم؛ لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه، والجهّال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه»[1].

وقال ابن القيم: «لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يثمر اليقين الذي هو أعظم حياة القلب، وبه طمأنينته وقوته ونشاطه، وسائر لوازم الحياة»[2].

وبالعلم تسمو الهمم وترقى الأخلاق والقيم، وتضبط المعايير، وتعتدل الموازين، وتتضح الرؤى قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

فدعا أهل العلم إلى تسامي الهمم، والتنافس في ميدان الخير والفضيلة، والتسابق إلى عمل الآخرة وثوابها، لا إلى أعراض الدنيا الفانية وملذاتها المنقضية.

والعلم الذي تنهض به أمتنا هو كل علم نافع، سواء كان من علوم الشريعة أم من علوم الطبيعة، أقصد كل العلوم التي يحتاجها الناس في حياتهم؛ كالطبّ والهندسة والزراعة والكيمياء وعلم الأحياء وعلم الفيزياء وعلم الإحصاء وسائر العلوم التي تعدّ من المقومات الأساسية للنهضة الحضارية، العلوم التي توجّه الإنسان وتأخذ بيده وتيسّر له القيام بمهمته في الوجود.

ولقد تحدث العلماء عن فروض الكفاية التي إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين، وإذا لم يقم بها أحد أثم كلّ قادر على القيام بها، ومن هذه الفروض تعلّم العلوم التي تستغني بها الأمة عن أعدائها، وتدافع بها عن كيانها، والله سبحانه وتعالى يقول في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢١٩.
(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ص ١٥٢.

﴿مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٦٠].

فكل قوة يستطيع المسلمون إعدادها ثم يقصّرون فإنهم آثمون، والعلوم الحديثة بكل جوانبها واجبة على الأمة؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكل ما يحتاج إليه المسلمون من العلوم ليحقق لهم التفوق على غيرهم ولتكون لهم القوة على عدوهم، فهو فرض كفائي عليهم، تأثم الأمة إذا فرّطت فيه.

ثالثًا: التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب:

من أهم الأسباب إلى التقدم والنهوض والحضارة والرقي: التوكل على الله تعالى، فبيده مقاليد كل شيء، وهو المدبر لهذا الكون المصرّف له، وبيده مفاتيح الرحمات والبركات والعطايا، مع الأخذ بالأسباب الموصلة للتقدم والنهوض، فالله تعالى جعل الأخذ بالأسباب وتأثيرها سنةً في هذا الكون لابد من أخذها بعين الاعتبار ومراعاتها من أجل إصلاح الكون وعمارته، فالتوكل على الله تعالى من عوامل النجاح ومفاتح التيسير والقبول.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

ومن أحبه الله أيّده وسدّده.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، فاعبده حق العبادة، وتوكل عليه حقّ التوكّل، وما ربك بغافل عن أعمال العباد، بل مطّلعٌ عليها ومحصيها؛ ليجازيهم بها.

والتوكل من أسباب النصر والتمكين.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل: ٤١-٤٢].

فالتضحية والبذل والعطاء مع لزوم الصبر والتوكل من أسباب السعادة والهناء والاستقرار في الدنيا مع حسن المكانة والمنزلة.

والسبب في اللغة كل شيء يتوصل به إلى غيره[(١)].

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣ - ٩٣].

فذو القرنين هيأ الله له الأسباب ومكّن له

(١) لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٤٣.

فارتقى بالأسباب وطوّر من ملكاته وإمكاناته، حتى ملك ما بين المشرق والمغرب، ونشر العدالة والرحمة بينهما بإيمانه وتوكله ومراعاته لسنَّة الأخذ بالأسباب، واجتهاده ومهارته في الأخذ بالأسباب وإتباع بعضها بعضًا، قال الزمخشري: السبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة[(١)].

فقانون السببية، أي: ربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها، هذا القانون عام شامل لكل ما في العالم، ولكل ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة. وقد زعم البعض أن من تمام التوكل ترك الأسباب حتى التي جرت عادة الناس بها كحمل الزاد في السفر مثلًا حتى قيل: إن من تمام التوكل أن لا يحمل المتوكل الزاد في سفره للحج، بل وفي غيره من الأسفار، فيدخل إلى الصحراء بلا زاد ولا ماء.

قال ابن تيمية رحمه الله في ردّه على هذا القول: «وهذا القول وأمثاله من قلّة العلم بسنّة الله في خلقه وأمره، فإن الله تعالى خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسبابًا ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة، فمن ظنّ أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه، وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسبابًا لها فهو غالط»[(٢)].

وقال ابن القيم: «والله أمر بالقيام بالأسباب، فمن رفض ما أمره الله أن يقوم به فقد ضادّ الله في أمره، وكيف يحلّ لمسلم أن يرفض الأسباب كلّها؟»[(٣)].

رابعًا: التقوى والاتباع:

تقوى الله تعالى من أهم أسس البناء الحضاري، وحصونه المنيعة، فتقوى الله زادٌ وسراجٌ وعصمةٌ ومنهاج، وتقوى الله تعالى دافعٌ لعمل الصالحات واجتناب المحرمات وإتقان الأعمال ومراقبة الله تعالى في جميع الأحوال، والمبادرة إلى البرّ، والحرص على الخير، والأتقياء هم الصادقون الناصحون، الأوفياء الصالحون، العاملون المتقنون، العابدون المحسنون، الرحماء المتسامحون.

وقد عرّف التقوى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في تفسيره لقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢].

فقال: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر[(٤)].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله:

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٤٣.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٥٢٩.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٤٧٨.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٩/ ٩٢، رقم ٨٥٠٢، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٢٩٤، والطبري في تفسيره ٧/ ٦٥.

وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات، ومعنى ذكره فلا ينسى: ذكر العبد بقلبه أوامر الله في حركاته، وسكناته، وكلماته فيمتثلها، وذكره نواهيه في ذلك كله فيجتنبها[1].

ومن صفات المتقين وأحوالهم كما بيّن القرآن: الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والإنفاق في وجوه البرّ الخير والإيمان بالقرآن وبما قبله واليقين بوعد الآخرة، والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وفي القتال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[البقرة: ١ - ٥].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

والمتأمل في هذه الصفات يجدها تجمع بين صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، استقامة في الدين والحياة، كما يلمس التلازم بين هذه الصفات فلا تنفكّ عن صاحبها ولا تتحقق ثمارها إلا بمجموعها، وأن الإيمان والعبادة تبدو ثمارها ويظهر آثارها في معاملة الناس، وأن العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق منظومةٌ واحدةٌ وعقدٌ واحدٌ لا تنفرط حبّاته، وأن للتقوى ثمراتها التي تعود على النفس والمجتمع، وأنها السبيل إلى تزكية النفوس وطهارة القلوب وارتقاء الأخلاق وسموّ الأرواح وبناء المجتمعات.

ومن ثمرات التقوى:

- الفلاح في الدارين، والفلاح: التوفيق لتحقيق الغايات وتيسير الوصول إليها: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩، وآل عمران ١٣٠، ٢٠٠]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].
- العصمة من الزيغ والانحراف، والنجاة من مكائد الأعداء: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾[آل عمران: ١٢٠].
- الأمن والسعادة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ

(١) جامع العلوم والحكم، ص٤٠١.

﴿وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

- حصول البركات من السماء والأرض: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].
- الزيادة في العلم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].
- التوفيق والسداد وصلاح الأعمال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].
- البصيرة وقوة الإدراك والتمييز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].
- حسن العاقبة: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

- معية الله تعالى في الدارين: ومعية الله تعالى سبيل للتوفيق والعصمة والسداد وتسهيل الصعاب والنصر والتمكين: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ولا شك أن اجتماع هذه الثمرات واجتناءها يعود بالمصلحة على المجتمع المسلم، ويدفعه إلى النهوض والتقدم والارتقاء الحضاري.

والاتّباع: من أهم أسس البناء الحضاري والانطلاق نحو التقدم والنهوض، فالقرآن كتاب النهوض والارتقاء وشريعة الإسلام ومنهاجه دستور الحضارة، وقد أمرنا الله تعالى باتّباع كتابه ففيه الخير والبركة، والهداية والرشاد.

وحين يأتلف الناس على اتّباع منهج واحد ففي ذلك الخير العميم للإنسانية.

وقد جعل الله تعالى شرعة ومنهاجًا وهدى للإنسانية تتبعه وتنتهجه وتسير عليه، هذا الهدى فيه الخير والفلاح والرضا والنجاح، وفيه الأمن والعافية وفيه السعد والهناء.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا

﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[الأنعام: ١٥٣].

ولما أمر الله باتّباعه أمر باتباع نبيه صلى الله عليه وسلم الذي بلغ عن ربه بلاغًا قوليًّا وتطبيقيًّا، فبين تعالى أن من مقتضيات محبته اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

والذين يتبعون ما أنزل الله هم الذين ينتفعون بالنذر، فلهم البشرى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢].

وأمر الله تعالى باتّباع صراطه المستقيم، ففيه وحدة الصف ولمّ الشمل والحفاظ على الطاقات والأوقات من التخبط والحيرة والاختلاف والتفرق وتبديد الجهود، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وبين تعالى أن للهداية طريقًا واحدًا طريقًا واضحًا هو طريق الاتباع اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

والاتّباع لابد وأن يكون مصحوبًا بإتقانٍ ومراقبة لله تعالى، وتحرٍّ للصواب.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولقد كان سلفنا الصالح -رحمهم الله- متجاوبين مع القرآن الكريم؛ امتثالًا لأوامره واجتنابًا لنواهيه، وتصديقًا ويقينًا بوعده ووعيده، واعتبارًا وانتفاعًا بمواعظه وأمثاله، قد أشربت قلوبهم حبّه، حتى جرى في أرواحهم وعقولهم مجرى الدّم في العروق، وانعكست آدابه وأخلاقه على

سلوكهم وحياتهم كلها، فكانوا صورًا حية لهداية القرآن.

خامسًا: توظيف المال:

المال وسيلةٌ من الوسائل الضرورية، فهو قوام الحياة وروحها التي تسري في كيان المجتمعات والأمم، وهو نعمةٌ من نعم الله تعالى على العباد، بيد أنّه مع ذلك فتنةٌ وابتلاءٌ لمن ناله، بل فتنةٌ كذلك لمن حرم منه، ولنا في هذا الفصل وقفةٌ مع نظرة القرآن للمال، نتدبّر ما تيسّر من الآيات البينات التي تحدثت في هذا الشأن:

١ . المال نعمة من الله.

نعم الله تعالى لا تعدّ ولا تحصى، فمنها الظاهر ومنها الباطن: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ومنها العاجل والآجل، ومنها النعم العامة والنعم التي يختصّ الله بها من يشاء، ومن هذه النعم نعمة المال، قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾، وقال تعالى في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾، وتمام هذه النعمة أن يصير المال الصالح في يد العبد الصالح الذي اكتسبه من حلّه وينفقه في حقه، من هذا المنطلق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص رضي الله عنه: (يا عمرو نعم المال الصّالح مع الرّجل الصّالح)[1].

٢ . المال خيرٌ.

وجاء التعبير عن المال في القرآن بكلمة (خيرًا) كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

فالمال خير؛ لأنه يقضي الحاجات، ويغني عن السؤال، والمال خيرٌ إذا جاء من حلّه وأنفق في حقّه.

قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فنظرة الإسلام للمال نظرةٌ إيجابيةٌ واقعيةٌ متوازنة.

٣. المال مال الله.

المال هبةٌ ومنحةٌ من الله، فهو من الله

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٢٩/ ٢٢٩، رقم ١٧٠٩٦.
وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص١٢٦.

تعالى، وعلى العبد أن يضع نصب عينيه دائمًا أن المال مال الله تعالى، فلا يضنّ به على محتاج، بل يحسن كما أحسن الله إليه، ويوسّع كما وسّع الله عليه.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

٤. الإنسان مستخلف في ماله.

وليدرك الإنسان أنه مستخلفٌ في هذا المال، وأنه لو دام لغيره لما وصل إليه، فليتق الله فيه، ولينفقه في حقه.

قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

قال الإمام الشوكاني: «فإن المال مال الله، والعباد خلفاء الله في أمواله، فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه، وقيل: جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن ترثونه وسينتقل إلى غيركم ممن يرثكم؛ فلا تبخلوا به، كذا قال الحسن وغيره، وفيه الترغيب إلى الإنفاق في سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم ويصير إلى غيرهم»[(١)].

٥. المال قوام الحياة:

جبلت النفوس على حبّ المال، فالمال بالنسبة للحياة كالدم الذي يضخّه القلب فيسري في سائر الأعضاء، فالمال قوام الحياة ونبضها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

قال البغوي: «هو ملاك الأمر وما يقوم به الأمر، وأراد هاهنا قوام عيشكم الذي تعيشون به، قال الضحاك: به يقام الحج والجهاد وأعمال البّر، وبه فكاك الرقاب من النار»[(٢)].

وقال الزمخشري: «﴿جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أي: تقومون بها وتنتعشون، ولو ضيعتموها لضعتم...»[(٣)].

٦. المال وسيلةٌ وليس غاية.

المال في الإسلام وسيلةٌ لا غاية، وسيلة إلى تحقيق بعض الحاجات وتحصيل المنافع التي لا غنى للإنسان عنها، لكن إذا صار المال غاية للإنسان فإنه ينقلب آفةً؛ إذ يحمله على الجشع والطمع، وارتكاب المحرمات وانتهاك المحظورات، والشحّ والأنانية، والتقتير والحرمان حتى يصير عبدًا للمال وخادمًا له وخازنًا عليه، ويضنّ بحق الفقراء والمساكين بل يحرم أعزّ الناس عليه

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٣٣.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٦٤.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٧٧.

من حقهم في الإنفاق، ولقد نهى الإسلام عن ذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: ٣٤].

٧. المنهج القويم في كسب المال.

دعا الإسلام إلى كسب المال الحلال الطيّب، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ونهى القرآن عن الكسب الحرام بشتى صوره ووسائله قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩].

فتأمل كيف قرن بين أكل المال بوجه الحرام، وبين قتل النفس؛ لتشنيع أكل الحرام والمبالغة في تأثيمه، فهو قرينٌ لسفك الدماء وسلب الأرواح، وكم أفضى إلى ذلك، فحرَّم القرآن الكسب الحرام، وحرّم الوسائل المفضية إليه من كذب واحتيال وغشٍّ وتدليس وغبن واستغلال، وغير ذلك من الوسائل المحرمة للكسب. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال، ويخاصم إلى الحكّام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكلٌ الحرام[1].

٨. المنهج القويم في إنفاق المال.

قال تعالى في أوصاف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

أي: ليسوا مبذرين في إنفاقهم ولا بخلاء على أهليهم، بل معتدلون في الإنفاق، وخير الأمور أوسطها، وقد سأل عبد الملك بن مروان ابن أخيه عمر بن عبد العزيز ما نفقتك؟ فقال: الحسنة بين السيئتين، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾.

قال ابن كثير رحمه الله ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ الآية «أي: ليسوا مبذّرين في إنفاقهم، فيصرفوا فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصّروا في حقهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٨٠.

فلا يكفوهم بل عدلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها»[1].

سادسًا: اغتنام الوقت:

للوقت ذكره في القرآن وأهميته، فلقد بيّن القرآن الكريم قيمة الوقت، وأنه أمانة ومسئولية، وأنه نعمة جليلة، وعبرة عظيمة، وأن من شأن المؤمن أن يعمّر أوقاته بكل عمل صالح يعود نفعه عليه وعلى من حوله، وأن المحافظة على الوقت وحسن استثماره من أسباب التقدّم والنهوض، ومن مظاهر التحضّر والرقي، وهو من شأن العلماء والمصلحين والمجددين والقادة والحكام.

والعقلاء وحدهم هم الذين يدركون هذه النعمة ويجدّون في القيام بحق شكر المنعم عز وجل، الذي رحم بنا وأنعم علينا بنعمة الليل ونعمة النهار، فلا تستقيم الحياة بدون هاتين النعمتين، فلا غنى بالليل عن النهار، كما أنه لا غنى بالنهار عن الليل.

قال تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

من هنا تتجلى لنا تلك النعمة الإلهية التي غفل عن شكرها الغافلون، وتنافس في تبديدها وإهدارها البطّالون المبطلون، وفرّط فيها المغبونون.

عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من النّاس الصّحّة والفراغ)[2].

فعلى المؤمن العاقل أن يجدّ في شكر المنعم على نعمة الوقت، وأن يوظّفه في كل مفيد نافع. ولسوف يسأل الكفار وهم يقلّبون في النار عن الأعمار التي أفنوها.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

من هول النيران يجأرون ويستغيثون فيها ألمًا وحسرة، سائلين ربهم أن يخرجهم منها؛ ليستدركوا ما فاتهم، ويصلحوا ما أفسدوه في حياتهم الأولى، وأنّى لهم ذلك وقد أمهلهم الله تعالى وأمدّ لهم في العمر، فما استكانوا لربهم ولا رجعوا إليه، بل كذّبوا بالنذر وأعرضوا عنها!! فيقال لهم: ذوقوا

(١) المصدر السابق ٣/ ٤٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم ٦٠٤٩.

العذاب الذي كنتم تستعجلونه؛ استبعادًا وتحدّيًا، فلا ناصر لكم لظلمكم.

الوقت عظة واعتبار: ويتجلّى ذلك في تعاقب الجديدين وتقلّبهما، أعني: الليل والنهار، وفي ذلك من الاتعاظ والاعتبار ما يدل على أهمية الوقت. قال تعالى في سورة النور: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾ [النور: ٤٤].

قال ابن القيم في كتابه الجواب الكافي: «أعلى الفكر وأجلّها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع...، وذكر منها: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهمّ كله عليه، فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلّها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدًا»[1].

ويحرص سلفنا الصالح على أوقاتهم علا قدرهم وسما شأنهم، وخلد ذكرهم، أما في زماننا هذا فإن من أبرز أسباب تخلف كثيرٍ من المسلمين تفننهم وتفانيهم وتهافتهم وتنافسهم على تدمير وإهدار أوقاتهم؛ في المقاهي والملاهي والمطاعم والطرقات، وأمام التلفاز والتسجيلات الصوتية والمرئية، وغرف المحادثات والمنتديات التي إثمها أكبر من نفعها، وربما خلت من كلّ فضيلةٍ وأجدبت من كلّ منفعة، وأقفرت من كلّ خيرٍ، وفي غير ذلك من المجالات التي لا فائدة منها ولا ثمرة من ورائها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

سابعًا: رعاية الحقوق وأداء الواجبات:

من أسباب التقدم والنهوض معرفة الحقوق والواجبات، وأداء الحقوق والقيام بالواجبات، ولقد ميّز القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة بين الحقّ والواجب، وقدّم الواجب على الحقّ حتى يشتغل به المرء أولًا ففيه صلاحه وفلاحه وسعادته في الدارين، ولو أدى كلّ واحد ما عليه من واجبات لاستوفى أصحاب الحقوق حقوقهم، فإن أداء واجبٍ يعني الوفاء بحقٍّ.

قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وفي تقديم العبادة -وهي حق الله على العباد- على طلب العون -وهو مطلب العباد من ربهم- بيان لوجوب تقديم الواجبات على المطالب.

وقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ونهى الله تعالى عن بخس الحقوق أو الانتقاص منها، فقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم

(١) الجواب الكافي ص ٢٠٨.

﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣].

فإن التطفيف في الكيل والميزان كالتطفيف في الحقوق والواجبات، بعض الناس يقصّر في واجباته ويفرّط فيها بينما يصرّ على استيفاء حقوقه والزيادة عليها، وهذا من التطفيف في الحقوق والواجبات.

والحقوق في الإسلام منحة ربانية، ليست من وضع بشر ولا تفضلًا من أحد، والناس في المجتمع المسلم ليسوا في حاجة للكفاح والثورات من أجل البحث عن حقوقهم، بل إنها حقوق دعت إليها الشريعة وقررتها، حقوق تتناسب مع الفطرة، حقوق متوازنة تحقق العدالة والخير للجميع؛ الحاكم والمحكوم الغني والفقير، المرأة والرجل الصغير والكبير، حقوق ثابتة وشاملة تتواكب مع شتى العصور وتتناسب مع كل الأجيال، وهي ليست حكرًا على طبقة معينة أو على طائفة معينة منهن، فهي للجميع على السواء، مهما اختلفت الألوان وتناءت الأوطان وتباينت الظروف والبيئات، بل إن لغير المسلم حقوقه الشرعية التي يجب على المجتمع المسلم الذي يعيش في كنفه الوفاء بها، وهي واقعية تراعي طبيعة الإنسان وطاقاته واحتياجاته ودوره في هذا الوجود، فضلًا عن مراعاة طبيعة من يجب عليه الوفاء بتلك الحقوق، حقوق معلومة: معرفة تلك الحقوق مطلب ضروري ومقصد شرعي فيجب على الجميع معرفة ما له وما عليه، خذ على سبيل المثال حق الفقير على الغني قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

ولقد حرص سلفنا الصالح على معرفة ما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق، فعن حكيم بن معاوية القشيريّ عن أبيه رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله ما حقّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: (أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت أو اكتسبت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبّح، ولا تهجر إلاّ في البيت)[1].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب في حق المرأة على زوجها، ١/ ٦٥١، رقم ٢١٤٢.
وحسنه النووي في رياض الصالحين، ص ٣٤، رقم ٢٧٧.

تأملات حضارية في القصص القرآني

أولًا: صور ومشاهد لحضارات رائدة:

نظرة القرآن للحضارات البائدة على أنها تاريخ الإنسانية وتراثها نلمس فيها الإيجابيات والسلبيات، ونستخلص فيها عوامل البناء ومعاول الهدم، أما حضارتنا الإسلامية الرائدة في عصور ازدهارها وزمان نهوضها ورقيّها فلا ينبغي أن نقنع بالوقوف عند آثارها ونكتفي ببكاء أطلالها والتفاخر بأمجاد أسلافنا، بل نجعلها صهوة انطلاقنا ونستلهم منها العزم، والله تعالى بعد أن تحدث عن أسلاف بني إسرائيل وأصولهم الطيّبة؛ إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

وفي هذا درسٌ لبني إسرائيل حين كانوا يتفاخرون بأسلافهم مع انحرافهم عن مسارهم ونكوبهم عن هديهم.

١ . من قصة ذي القرنين.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٨٣ - ٩٨].

رجل صالح مكّن الله له، وهيأ له الأسباب فأخذ بها، واجتهد في استثمارها وتطويرها، فطوّف في الأرض، وجال في أقطارها، قائدًا ظافرًا، وحكمًا عادلًا، وسلطانًا قويًّا، وعبدًا شكورًا، فملأ الدنيا عدلًا ونورًا.

طاف موسى عليه السلام طلبًا للعلم النافع، وطاف الخضر بأمر الله تعالى حاملًا راية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده؛ لينشر العدالة في

ربوع الكون، ويبلّغ دعوة الحق، ويصحح المفاهيم، ويقيم الموازين القسط، ويرسّخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة، ويحمل رسالة إصلاح، ويمثّل هيئة إنقاذ عالمي للإنسانية الحائرة.

جاءت القصة جوابًا عن سؤالهم عن شأن هذا الرجل الصالح الذي مكّن الله تعالى له في الأرض، وأعطاه العلم والحكمة، وألبسه ثياب العزّ وتاج الوقار والهيبة.

أما اسمه فقد اختلف المفسرون فيه على أقوال كثيرة؛ منهم من قال: هو الإسكندر المقدوني، ومنهم من زعم أنه: قورش الفارسي أو دارا الفارسي أو أفريقس أو ملك من ملوك اليمن أو ابن فرعون مصر، والمتأمل في هذه الأقوال وما استندت إليه يجدها لا أصل لها في الكتاب أو السنة، كما أنها مبنية على الظن والاحتمال، فضلًا عن أن ذا القرنين كان مؤمنًا موحدًا.

والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملك مؤمن على علم وصلاح مكّن الله له، فسعى جاهدًا ومتجرِّدًا؛ لنشر الحق والعدل، ويعنينا أن نتدبر قصته، ونستخلص منها الدروس والعبر في الدعوة والإصلاح والقيادة والإدارة والسياسة والقضاء.

ثم إن السؤال ليس عن شخص ذي القرنين، وإنما عن حياته وجهاده وصلاحه وأمجاده.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: مكّن الله له في الأرض ووهبه أسباب النصر والتمكين وأصول السياسة وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المنح والمواهب على أتمّ وجهٍ، بل جعلها ركيزةً ومنطلقًا إلى ريادة الكون بالعلم والإيمان، والعدل والإحسان.

مكّن له صاحب العظمة والسلطان تمكينًا عظيمًا في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد ملكه وبسط سلطانه وكبت أعدائه وتحقيق مراده.

والسبب: هو الوسيلة التي يتوصّل بها إلى المطلوب.

قال ابن عباس: «﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾: علمًا يتسبب به إلى ما يريد»، وقيل: «هو العلم بالطّرق والمسالك»[1]. ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: سلك وسار طريقًا يوصله إلى المقصود، وأخذ بكلّ ما أمكنه تحصيله من علومٍ، وتتبع السبل والوسائل التي تعينه على تحقيق أهدافه وطموحاته في الدعوة والإصلاح ونشر العدالة والرحمة في شتى الأرجاء، فلم يكن ما قام به ذو القرنين من خوارق العادات، بل كان تمكينه من منطلق الأخذ بالأسباب، وفق نواميس الكون، حيث هداه الله للأسباب ووفقه إليها.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ١٨٥.

معالم حضارية من قصة ذي القرنين:

- **الأخذ بالأسباب المعينة على النهوض والرقيّ.** ومن تلك الأسباب: الإيمان الخالص، والعلم النافع، والعمل الصالح، مع الإخلاص والتجرد والتوكل واليقين وعلو الهمة، ويحضرني في هذا المقام قول إقبال:

لو يمسّ التوحيد فكرًا نقيًّا
وضميرًا حيًّا وقلبًا أبيًّا
لأحال الخمول والضعف إيمانًا
وعزمًا يغزو نجوم الثّريّا

- **قيام الحضارات لا يتأتى بين عشية وضحاها.** بل يأتي بعد جهدٍ جهيدٍ وصبرٍ جميلٍ وإعدادٍ جيّدٍ وتخطيطٍ محكمٍ.
- **الحضارة الإسلامية تبعث في النفس روح النهوض والأمل وتنمي ملكة الابتكار.**
- **ضرورة التخطيط الواعي المقترن بالتنفيذ المحكم لإصلاح البلاد والنهوض بها.**
- **لابد أن نكون أمة متحضرة متقدمة حتى يسمع العالم لنا.** فهذا ذو القرنين يستمع العالم له، ويشيد بعدله ويحتمي بسلطانه.
- **نشر روح الحضارة والرقي في كافة بقاع الأرض؛ ليعم الخير الجميع.**
- **في قصة ذي القرنين نموذجٌ رائعٌ ومثالٌ واقعيٌّ للقائد الراشد والحاكم العادل، والفاتح المؤيد، الذي يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛** فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ فلا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطّر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للكسب المادي، واستغلال الأفراد وابتزاز الشعوب، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحلّ به، ويساعد المتخلفين المستضعفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التغيير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق.
- **الحاكم العادل يعطي الشعب أكثر مما يطمح إليه،** طلب القوم سدًّا فبنى لهم ذو القرنين ردمًا؛ وهو بناء أعظم من السد وشارك فيه بنفسه.
- **الحاكم المسلم لابد وأن يكون مؤهلًا بمعارفه الواسعة، وثقافاته المتشعبة، وفقهه بأمور الدين والحياة.**
- **خطاب الحاكم وكلماته لابد أن يعنى فيه بالترغيب والترهيب، ويذكّر دائمًا بأمور الآخرة؛** لما في ذلك من بالغ الأثر في إصلاح القلوب وتهذيب

النفوس وحفز الهمم لثواب الآخرة.

- حرص الحاكم القائد على نشر أصول الحضارة والمدنية في دائرة ملكه وخارجها.
- ضرورة إعداد الجيوش وتجهيزها بأحدث التقنيات مع إعداد الجنود والقادة، فلا سبيل إلى إزاحة الأنظمة المستبدة وحماية المستضعفين، وتمهيد طريق الدعوة، وتأمين المدعوّين، ونشر العدالة والرحمة إلا بالجهاد.
- دفع الشرّ بأيسر ما يندفع به، ذلك أن ذا القرنين مع حزمه وقوته رأى أن بناء السد كافٍ في دفع أذى يأجوج ومأجوج.
- شكر المنعم وإجلاله والتواضع لعظمته والإقرار بفضله، ففي هذا ما يحفظ النعمة ويزيدها، وفي كفران النعم زوالها وانهيار الحضارات، قال السعدي: فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام -لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم- قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].
- أهل التجبّر والتكبر والعلو في الأرض، تزيدهم النعم أشرًا وبطرًا[1]، مما ينذر بزوال الحضارات.
- التأكيد على أهمية طلب العلم والتزود بالمعرفة، والسؤال عما يجهله الإنسان أو السؤال للتثبت من الإجابة، والسؤال هو المفتاح الثاني بعد القراءة؛ لطلب المعارف والعلوم واكتشاف المجهول.
- السياحة في الأرض ولقاء الأقوام يؤدي إلى تلاقح الأفكار والخبرات واستفادة بعضهم من بعض.
- السعي إلى غوث الملهوف، ونصرة المظلوم دون تردّدٍ ولا تقاعس من القيم الحضارية.
- أهمية الصناعات الثقيلة، وأثرها في حالة السلم والحرب.
- العلم والمعرفة والخبرات ملكٌ للإنسانية، ليس لأحد أن يحتكرها.
- استخدام ذي القرنين الهندسة العسكريّة، والهندسة الكيميائيّة، بإضافة النّحاس إلى الحديد.
- التّعاون والعمل الجماعي يساعد في

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٦.

إنجاز المهمّات الكبرى.

٢. من قصة سليمان وملكة سبأ.

قال تعالى في سورة النمل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا
عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ
دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا
مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾
وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ
فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ
نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا
يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾
فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى
عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا
لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ
﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ
لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن
سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ
وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾
وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ
ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ
ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ
إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن
سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا
تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟
أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ
﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ
إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا
دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ
وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ
فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ
قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم
بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ
﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ
قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ
ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ
إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن
فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ
نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا
يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ
هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا
كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَت مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾
قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ
عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ١٥-٤٤].

وقال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢-١٣].

وقال جل وعلا في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٠-٤٠].

حين نتأمل قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ نجد أنفسنا أمام حضارتين؛ حضارة اليمن الممثلة في مملكة سبأ، تلك الحضارة التي بلغت ذروة التقدم الماديّ، بينما تردّت إلى قاع الانحطاط الفكري والخواء الروحي، تمثل ذلك في عبادة الشمس من دون الله، وما صاحب ذلك من خرافات وأوهام ووساوس شيطانية.

بينما نجد أنفسنا أمام حضارة وارفة الظّلال يانعة الثمار باسقة البنيان مشيدة الأركان، حضارة إنسانية رائدة، وصفحة بيضاء ناصعة في تاريخ بني إسرائيل، مملكة مؤمنة يقود زمامها نبي ملك، جمع بين نور النبوة وبهاء الملك وجلال الحكمة، ملك لمملكة واسعة الأطراف مترامية الأبعاد، ومع ذلك فهي مملكةٌ فتيةٌ قويةٌ، حصينةٌ متينةٌ بالعلم والإيمان، والنور والبرهان، والعدل والإحسان، والعمل والجهاد والعدد والعتاد، ملكٌ علت همّته وتسامت روحه ومضت عزيمته، نبيٌّ أضاءت بصيرته وصفت نيته؛ نبي الله سليمان ابن نبي الله داود عليهما السلام، جمع الله لهما بين خيري الدنيا والآخرة، كما جمع الإنس والجن والطير تحت إمرته ورهن إشارته، وفي هذه المملكة الراشدة وفي أجواء هذه الحضارة الزاهرة، وفي هذه التربة الصالحة النقية نبتت المواهب ونبهت العقول وتسامت الهمم، حين أحس كل فرد في المملكة بقيمته واستشعر أهميته وأدرك دوره المنوط به، حتى النملة في الوادي والهدهد في عالمه كان لهما دور عظيم سجله القرآن

في آيات تتلى وتقتبس منها العبر.

في هذه الحضارة المزدهرة كان للعلم مكانة سامية، وللعلماء منزلة رفيعة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

والهدهد يدلّ على سليمان بما حصّله من علم: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

حضارةٌ إنسانيةٌ رائدةٌ رحيمةٌ عادلةٌ حتى مع الطير والحشرات، فهذه النملة تحذّرها قومها من أقدام جند سليمان، وهي تلتمس العذر لهم بأنهم لن يقعوا في ذلك بقصدٍ، وهكذا تتجلى لنا مظاهر الرحمة في هذه الحضارة الرائدة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

والحاكم القائد لن يعاقب الهدهد وهو جنديٌّ من جنوده على غيابه إلا بعد أن يسمع لعذره وينصت له، وهذا من كمال سياسته وعدله في مملكته ورفقه بالطير، وفي تفقّد أحوال الجيش دليلٌ على يقظة القائد ونباهته وإحاطته برعيّته وبجنوده: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢٠-٢١].

وفي قوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: دليلٌ على كياسته وفراسته وحسن ظنّه برعيّته.

وفي وصف الهدهد لحضارة سبأ وملكتهم دليلٌ على وعيه الحضاري وبلاغة تعبيره، حيث قال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، ولم يقل: إني وجدت ملكة عليهم، ولكنه قال: إني وجدت امرأة تملكهم، وكأنه يتعجب ويدهش من قوم سبأ الذين رضوا بامرأة ملكة عليهم، وسلموا زمامهم لامرأة قد تنقاد للعواطف وتنساق وراء الأهواء، فالمرأة فطرت على تقديم العاطفة على العقل، وجبلت على أن تنقاد لا أن تقود وعلى أن تُحكم لا أن تَحكم.

أما عن الأسباب المادية والمظاهر الحضارية التي لمسها الهدهد وقد أوجز في وصفها بأبلغ عبارة فقال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ

﴿عَظِيمٌ﴾، فهي وإن كانت امرأة -وهذا أمرٌ يخالف الفطرة النقية والعرف الصحيح- إلا أنهم منقادون لها راضون بحكمها، وقد منحت من المواهب والعطاءات والرفاهية والازدهار ما انعكس على عرشها من الأبهة والصولجان والعظمة والسّلطان والحزم والعزم، والجنود المجندة والرعية المطيعة والكنوز الزاخرة.

ومن لطائف التفسير ما ذكره الزمخشري مقارنًا بين قول الهدهد عن ملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وبين قول سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

وكأني به يقارن لنا بين الحضارتين، يقول الزمخشري: «فإن قلت: كيف قال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع قول سليمان: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كأنه سوّي بينهما؟ قلت: بينهما فرق بيّن؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ما هو معجزة من الله، وهو تعليم منطق الطير، فرجع أوّلًا إلى ما أوتي من النبوّة والحكمة وأسباب الدين، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا، وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد»[1].

أما بالنسبة للجانب الروحي في تلك الحضارة، فقد أخذ جانبًا كبيرًا من حديث الهدهد، وفي هذا ما يدل أهمية هذا الجانب: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٤-٢٦].

نعى عليهم الهدهد ما هم فيه من ضلال، حيث عبدوا الشمس من دون الله، وهي مخلوقة مسخرة بأمر الله، وهناك ملايين النجوم التي تكبرها آلاف المرات، فضلًا عن ملايين المجرات التي تحتوي على شموس أكبر من شمسنا، فالشمس حلقة من الفضاء أو كحبّة رمل في صحراء، فما بالنا بالكرسي وكيف بعرش الرحمن في عظمته؟ فلم يخف على الهدهد جانب الضعف في حضارة قوم سبأ، ولم ينبهر بتلك المظاهر المادية، ولم يركن إلى الإطناب في وصفها والإعجاب بها، بل أنكر عليهم معتقداتهم الفاسدة وتصوراتهم الضالة.

ويطير الهدهد مرة ثانية إلى مملكة سبأ، لكنه في هذه المرة مبعوث من قبل نبي الله سليمان برسالة لبلقيس بطريقة عجيبة فريدة في عالم الاتصالات والمواصلات، حيث هيأ الله لسليمان ملكًا عجيبًا وتمكينًا فريدًا،

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٥.

وكان قد دعا ربه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٥-٣٩].

فكان من مظاهر هذه الحضارة العجيبة سهولة الاتصال بوسائل تفوق أحدث ما توصل إليه البشر الآن في عالم الاتصالات، وكان من مظاهر هذا الملك الطيران الآمن المريح اللين السريع الموجّه حيث شاء وبأي عدد شاء، بوسيلة غير مسبوقة.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

فبين تعالى سرعتها الفائقة، كما بين ليونتها وأمانها، وسهولة توجيهها.

وكان من مظاهر هذا الملك العجيب الغوّاصون من الشياطين الذين يغوصون في أعماق البحار فيستخرجون كنوزها ونوادرها.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

والبنّاءون المهرة من الشياطين الذين يصلون إلى القمم السامقة ويحملون الأثقال.

قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧].

يصنعون وينشئون له ما يشاء من أبنية مرتفعة؛ للعبادة والسكنى، وتماثيل ينحتونها، وقصاع كالحياض التي يجبى فيها الماء، وآنية الطبخ ثابتة على قوائمها لعظمها؛ لتأكل منها الآلاف المؤلفة من الحشود والوفود والجنود.

قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ومن عوامل ازدهار هذه الحضارة وفرة الخامات اللازمة للبناء وغيره، فقد أسال الله تعالى القطر لسليمان؛ لتفيض بالنحاس المذاب الذي يستخدم في أغراض السّلم والحرب، كما سخر الله تعالى له الجنّ يعملون بين يديه فيراهم ويشرف على عملهم ويوزع عليهم المهام، فسخر له الشياطين في بناء وتشييد المساكن والمحاريب، وصناعة القصاع الكبيرة والتماثيل، وفي الغوص؛ لاستخراج كنوز البحار، ومن تمرّد منهم عن أمرنا له بطاعة سليمان نذقه من عذاب النار

المحرقة.

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

وتظهر حضارة ملكة سبأ في حوارها مع قومها وأخذها بمشورتهم والاعتداد برأيهم وبقوتهم، وتسليمهم لها بما يدل على قوة مملكتها، كما يظهر ذلك في الهدية العجيبة التي أرسلتها لسليمان وجمعت فيها النوادر والغرائب والتّحف واللطف؛ إغراء له إن كان من أولئك الملوك الذين تغريهم الهدايا وترضي غرورهم وتكسر حدة غضبهم: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٢-٣٥].

وعندما وصل موكب الهديّة -التي احتالت بها المرأة؛ لتستميل فؤاد سليمان عليه السلام وتخطب وداده- غضب سليمان غضبة شديدةً، كيف تظنّ أن هديتها ستثنيه عن دعوته، فقال -كما أخبر القرآن-: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦-٣٧].

هنالك ظهر للمرأة أنها أمام ملك رسول لا طاقة لها به، وقرر سليمان أن يأتي بعرشها قبل أن تأتي خاضعة له مستسلمة: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

آيةٌ من آيات الله العجيبة انتقل بها العرش في لمح البصر، لم تحمله طائرات الشحن ولا النفاثات، بل جاء بخلاف العادة كرامة لهذا الذي عنده علم من الكتاب ومعجزة لنبي الله سليمان، فكرامات الأولياء امتداد لمعجزات الأنبياء، وهكذا فإننا أمام حضارة فريدة لا مثيل لها في هذا الوجود، جمعت بين الأخذ بالأسباب وبين خوارق العادات التي تقع في الأوقات المناسبة بالأمور العجيبة.

وحين رأت المرأة عرشها بعد أن نكّروه لها حتى يخفى أمره عليها وسألوها: أهكذا عرشك؟ فكان الأمر محيّرًا والسؤال مدهشًا، وأعجب من ذلك إجابتها التي تعرب عن

سرعة بديهتا وبلاغتها حيث قالت: كأنه هو.

بعد ذلك دعيت المرأة إلى دخول الصّرح وهو أبرز ما أنتجته الحضارة السليمانية، وأبدعته أنامل المهرة من الإنس والجن، دليل ما وصلت إليه هذه الحضارة من أسباب العمران ومظاهر الحضارة، حتى ظنت المرأة وقد دعيت لدخول هذا القصر المنيف والبناء الزجاجي الشامخ أنها تخوض في لجّةٍ -وهو الماء الكثير-، فكشفت عن ساقيها حتى لا تبتل ثيابها، وهنا كشف لها سليمان أنه صرح مبني بناء محكمًا من زجاج، وتحته الماء الجاري، فلم تتمالك المرأة نفسها بعد أن رأت هذه الآيات العجيبة المتوالية والمظاهر الحضارية المبهرة أن تابت لربها وأعلنت إسلامها لله رب العالمين، متبعة لسليمان عليه السلام.

معالم حضارية من القصة:

- واجب الأمة أن تكون متحضّرةً متقدّمةً، فإن هذا مما يصرف الأفئدة إلى هذا الدين الذي أمر بالتقدم والرّقي.
- الأخذ بالأسباب المعينة والمؤدية إلى الترقّي والنهوض.
- العدل والحرية مما يقوي الانتماء ويجدد الولاء ويفتق المواهب ويفجّر الطاقات.
- الحاكم المسلم يقرب إليه المتميّزين والمخلصين.
- العناية بالأبنية والمنشآت، مع مراعاة عنصر الجمال والإتقان من مظاهر الرقي والتقدّم.
- وجوب تفقد الراعي للرعية والقائد للجند، والنظر في شئونهم والتعرف على أحوالهم.
- الحزم في القيادة والحكم، وتحقيق الانضباط والنظام والإحكام والحزم مع المخلّفين والمقصرين، مع التماس الإعذار إن كان لها ما يسوغها.
- المتهم بريء حتى تثبت إدانته، والغائب معذور حتى يحضر فيدلي بسبب تأخيره.
- الولاء للحاكم العادل ومحبته، والنصح له من سمات المجتمع المتحضر.
- المسارعة إلى نشر الحق والعدل وصرف الهمة إلى ذلك من القيم الحضارية.
- العناية بالرسائل شكلًا ومضمونًا وأسلوبًا يدل على مكانة صاحبها وجلالة قدره.
- تعفف الحاكم المسلم وتساميه عن أعراض الدنيا وزخارفها الباطلة من أسباب الرقي والازدهار.

ثانيًا: صور ومشاهد لحضارات بائدة:

١. قوم عاد.

تحدّث القرآن الكريم عن قوم عاد وعن حضارتهم التي صارت مضربًا للأمثال في ازدهارها وتطاول بنيانها وقوتها المادية، وكانت مساكنهم في الأحقاف في جنوبي الجزيرة العربيّة.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩].

فلقد متّعهم الله بقوة وعافية في الأبدان، وبسطة في الأجسام فاقوا بها من سبقهم ومن بعدهم، فكانت قوتهم أمرًا عجيبًا خارقًا، وكانت موضع اهتمامهم وتنافسهم، لذا قال لهم هود عليه السلام مرغّبًا إياهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

ويا قوم استغفروا ربكم من الذنوب والخطايا ثم توبوا إليه توبة خالصة، وفق منهجه تعالى الذي شرعه، يرسل السماء عليكم بالمطر الغزير المتتابع، ويزدكم عزّة ومنعة إلى عزتكم ومنعتكم، وقوة روحية إيمانية إلى جانب قوتكم المادية، ولا تعرضوا وتدبروا عن دعوة الله مؤثرين البقاء على الإجرام والبطش.

ولقد مكّنتهم هذه القوة البدنية من البناء والعمران، بل وحملتهم على التطاول على خلق الله، وعلى أن يتيهوا في الأرض كبرًا وتحدّيًا وازدراءً لمن دونهم، ونسوا عاقبة من سبقهم من المكذبين، وأصيبوا بداء الكبر وامتلأت نفوسهم بالغرور الزائف، وظنوا أنهم ملكوا الدنيا وأن مقاليد الأمور طوع يمينهم ورهن إشارتهم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

وأنكر عليهم هودٌ عليه السلام هذا الغرور والعجب الذي أصابهم فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٤].

والريع: كل مكان مشرف من الأرض مرتفع، أو طريق أو واد.

والمصانع: جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصورًا وحصونًا مشيدة، وجائز أن يكون مآخذ للماء[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق

(١) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٣٧٥.

الدارّة، والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والثمار»[1].

والريع: المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، يبنون هناك بنيانًا محكمًا هائلًا باهرًا، ولهذا قال: أتبنون بكل مكان مرتفع معلمًا؛ عبثًا لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة والتطاول في البنيان، ولهذا أنكر عليه نبيّهم عليه السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قال مجاهد: والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد، وقال قتادة: هي مآخذ الماء، ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: لكي تقيموا فيها أبدًا، وذلك ليس بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: «فهذا هو بعض ما يشغلهم في دنياهم. . الافتنان في بناء مجالس اللهو والسّمر، والإبداع في تصويرها ونقشها، وجلب كلّ غريب نفيس إليها. . حتى لتبدو كأنها آية في الحسن والجمال. . ومن شأن الآيات أن تثير العقل، وتغذّي الوجدان، وتعلو بالنفس عن مدارج الأرض إلى معارج السماء! ولكن تلك الآيات، التي يبدعها القوم، هي آيات لاهية عابثة، تعلو بحيوانية الإنسان على آدميته، وتنتصر لجسده على روحه! والمصانع: الأمكنة الجيدة الصنع. . وهذا وجه آخر من الوجوه التي يصرف القوم فيها جهدهم، وهو أنهم يجوّدون في صناعة منازلهم وأمتعتهم، وأدوات ركوبهم. . حتى لكأنهم خالدون في هذه الدنيا، لا يموتون أبدًا. فليتهم إذ أجادوا الصنعة وأحسنوا العمل فيما هو لدنياهم أن يجيدوا بعض الإجادة، ويحسنوا بعض الإحسان، لما بعد هذه الحياة الفانية»[2].

ذكّر «هود عليه السلام قومه بما يسّره اللّه لهم من أسباب الثروة و الرفاه، و بما كانوا ينشئونه بسبيل ذلك من سدود ومنشآت»[3].

ووجه العبث في بنائها أنهم يغالون في الارتفاع بها مفاخرة، فهم يعيثون، ولا يكتفون بقدر الحاجة، وكل ما يزيد عن قدر الحاجة يكون عبثًا، وكل ما يدفع إلى البطر فهو عبث، أيًّا كان نوعه.

وذكر الزمخشري: أن العبث فيها أنه لا حاجة إلى هذه العلامات؛ لأن تهديهم إلى الطرق، وكان لهم بها علم[4].

ومن هنا يتبيّن لنا كيف مكّن الله تعالى لعادٍ ما لم يمكّن لكثير من العباد حتى قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، ٣/ ٤١٣.

(٣) التفسير الحديث، دروزة ٣/ ٢٥٥.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٣١.

﴿كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وفي سورة الفجر إشارةٌ لمعلم آخر من معالم حضارة قوم عاد: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨].

«وسواءٌ عماد بيوتهم وقصورهم، فهو كنايةٌ عن طول أجسامهم، ووفرة أموالهم، وتوافر القوّة عندهم»[1]، مدائن مشيدة وقصور ودور منيفة، ليس لها مثيلٌ فيما مضى، في شموخها وارتفاعها، مع طول الأجساد وقوتها.

ومع هذه النعمة العظيمة والآلاء الجسيمة صحةٌ في الأبدان وقوة في البنيان، فلقد كذبوا وكفروا بآيات الله، وسلكوا طريق التجبّر فأساءوا استغلال قوتهم، واستكبروا، مع ما كانوا عليه من جحود وكفران وتمرّد وعصيانٍ.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

وقال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝٢٥ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٥ - ٢٦].

حلّ بهم الدمار والخراب، فأهلكهم الله بريح عاتية، هدّمت بنيانهم واقتلعتهم من بيوتهم، وجعلتهم كجذوع النخل المنقعرة الخاوية.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٠].

فانظر كيف كان عاقبة تكذيبهم وجحودهم؛ حيث أرسل الله تعالى عليهم ريحًا عاتية باردة في يوم عصيبٍ رهيبٍ في يوم نحس مستمر عليهم، انتقلوا فيه من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة، فهو نحس متواصل، فكانت الريح تنزع الناس مع تشبثهم ولجوئهم لديارهم الحصينة فتقذف بهم رأسًا على عقب، قال مجاهد: يلقى الرّجل على رأسه، فتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك من بدنه. وقيل: كانوا يصطفون آخذي بعضهم بأيدي بعض، ويدخلون

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٥٩.

في الشعاب، ويحفرون الحفر فيندسون فيها، فتنزعهم وتدقّ رقابهم[1]، والأعجاز: الأصول بلا فروع قد انقلعت من مغارسها. وقيل: كانت الريح تقطع رؤوسهم، فتبقي أجسادًا بلا رءوس، تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيّبه عن الأبصار، ثم تنكّسه على أمّ رأسه، فيسقط على الأرض جثةً بلا رأسٍ، فأشبهت أعجاز النخل التي انقلعت من مغارسها[2].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١ - ٢٥].

فلمّا رأوا العذاب، عارضًا، أي: معترضًا في السماء، أو في عرض السماء، مستقبل أوديتهم وقد أجدبت فرحوا به وتهللوا ظانّين أنه جاء بالمطر الذي طال انتظاره، وقالوا: هذا السحاب الذي أقبل، سوف يمطرنا، ولكن هيهات وقد حلّ العذاب وحق عليهم القول، بل هو العذاب الذي استعجلتموه، ريحٌ عقيم فيها عذابٌ أليمٌ، وفي هذا التعبير تهكّمٌ بهم وتبكيتٌ لهم، فهذه الريح تحمل لهم مفاجأة ليست في الحسبان، تحمل لهم العذاب من حيث يرتجون الرحمة تهبّ عليهم بالدمار من حيث يرتقبون القطر المدرار.

قال ابن عبّاس: «أوّل ما رأوا العارض قاموا فمدّوا أيديهم، فأوّل ما عرفوا أنّه عذاب رأوا ما كان خارجًا من ديارهم من الرّجال والمواشي تطير بهم الرّيح ما بين السّماء والأرض، مثل: الرِّيش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الرّيح الأبواب وصرعتهم، وأمر اللّه الرّيح فأهالت عليهم الرّمال، فكانوا تحت الرّمال سبع ليالٍ وثمانية أيّام حسومًا، ولهم أنين، ثمّ أمر اللّه الرّيح فكشف عنهم الرّمال واحتملتهم فرمتهم في البحر، فهي الّتي قال اللّه تعالى فيها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: كلّ شيء مرّت عليه من رجال عاد وأموالها»[3].

تهلك كلّ شيءٍ مرّت به من الناس والدوابّ والأموال، بتقديرٍ وتدبيرٍ من الله عز وجل، فهي مأمورةٌ، فهلكوا جميعًا ولم تبق منهم باقية، إلا تلك البيوت الخربة والأطلال البالية التي لا تزال شاهدةً عليهم، وتلك سنة الله تعالى وحكمه فيمن كذّب برسله وأعرض عن آياته ونذره واستخفّ بوعيده.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٧٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٧٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٥٩.

٢. ثمود.

قامت حضارة ثمود في شمال الجزيرة العربية، حيث مكّن الله لهم في الأرض وهيأ لهم سبل العيش، فكانوا ينحتون البيوت الفارهة في الجبال، ويبنون القصور في السهول والوديان من الأحجار التي يقدّونها من الجبال.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

ذكّرهم بنعم الله عليهم؛ إذ خلقهم من أديم الأرض، فأنبتهم منها كما ينبت الزرع وينمو ويترعرع ويزهر ويثمر، وهيّأ لهم سبل العيش عليها وسخّر لهم ما يحتاجون إليه في عمارتها من المنافع، ومكّنهم في الأرض ينحتون جبالها، ويستغلون سهولها، ويزرعون وديانها، وينعمون بخيراتها، ويستخرجون كنوزها، يبنون ويعمّرون، ويغرسون ويحصدون.

وقال تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦- ١٤٩].

أتطمعون أن تقرّوا على ما أنتم عليه من معصيةٍ، وتنعمون بالأمن والرفاهية وليونة العيش؟!

ومعنى فارهين: منعّمين مترفين، وقيل: أقوياء ناشطين حاذقين معتدّين بأنفسكم، وقرئ: فرهين، قيل: بمعنى أشرين.

قال ابن عاشور: «و﴿فَارِهِينَ﴾ صيغة مبالغة، مشتق من الفراهة وهي الحذق والكياسة، أي: عارفين حذقين بنحت البيوت من الجبال بحيث تصير بالنحت كأنها مبنية»[(١)].

فنهاهم عن انهماكهم في نحت الحجارة من الجبال بمهارة وبراعة، لكي يبنوا بها بيوتًا وقصورًا بقصد الأشر والبطر -لا بقصد الإصلاح والشكر للّه-، فمحل النهي إنما هو قصد الأشر والبطر في البناء وفي النحت[(٢)].

ومن الفوائد العجيبة مقارنة أبي حيان بين حضارتي عاد وثمود، يقول رحمه الله: «وظاهر هذه الآيات أن الغالب على قوم (هود) اللذات الخيالية من طلب الاستعلاء والبقاء والتفرّد والتجبّر، وعلى قوم (صالح) اللذات الحسّية من المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة»[(٣)].

(١) التحرير والتنوير، ١٩/ ١٨٢.
(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ١٠/ ٢٧٠.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٤.

وقال تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: ٩].

شقّوا الصخور ونحتوها وبنوا منها البيوت والمدائن، بواد القرى فيما يعرف بمدائن صالح، وبيوتهم موجودةٌ إلى الآن.

وفي مقابل هذه الحضارة المزدهرة والرفاهية والتنعّم الذي تقلبت فيه ثمود إلا أن هذه الحضارة كانت مهددةً بآفات كثيرة، منها ما كانوا عليه من إفساد، وكراهية للنصيحة، وتكذيب وإعراض وشك وارتياب في دعوة نبي الله صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

فلما تمادوا في الضلال وعتوا وتمرّدوا وعقروا الناقة حقّ عليهم العذاب، وحلّ بهم العقاب وأصابهم الدمار والخراب، فكانوا عبرةً لكلّ معتبر.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٦-٦٨].

فلما انقضت المهلة نجى الله عز وجل بلطفه ورحمته نبيّه صالحًا ومن آمن به من خزي هذا اليوم العصيب، إنّ ربك هو القويّ في أخذه، تخور كلّ القوى أمام قوته، العزيز الذي لا يغالب؛ يعزّ أولياءه وينصرهم ويذل أعداءه ويخزيهم ويقهرهم، فلا يمتنع عليه شيء، وأخذت الصيحة المدوّية الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم بكفرهم وتمرّدهم فأصبحوا في ديارهم راكعين على ركبهم، قد خارت قواهم وانهدّ بنيانهم وتمرّغت أنوفهم وخضعت رقابهم، كأن لم يقيموا فيها بنعمة وعافية، بل صاروا أثرًا بعد عين، وطمست معالم تلك المدائن التي كانت عامرة، ومحيت رسومها وعفت مرابعها، فلم يبق منها إلا الأطلال الموحشة والديار المقفرة؛ عبرة ناطقة، ومدائن خربة، تحكي جبروتهم وتروي قصة كفرهم وأشرهم، ألا إن ثمود كفروا ربهم، جحدوا نعمه، وكذبوا رسله، عموا عن آياته المبصرة، وانتهكوا حرمتها، ألا بعدًا لهم وسحقًا، في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠ - ٥٢].

جازاهم الله على مكرهم بمكر فعجّل

بهم وأهلكهم، وهنا تصف الآيات ما آلت إليه تلك الحضارة وهذا العمران من هدمٍ وخراب، ووحشة بعد بناء وعمران وأنسٍ، بسبب ظلمهم.

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَٰحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٢١-٣١].

لم تعتبر ثمود من قوم عاد، كما لم تعتبر عادٌ من قوم نوح، بل كذبوا جميعًا مع كثرة النّذر وتجلّي العبر، وقلبوا الحقائق؛ فزعموا أن اتباعهم له سلوكٌ لطريق الضلال والعذاب، وقد كذبوا في زعمهم، فكان اعتراضهم على أنه بشرٌ وعلى كونه واحدًا، وعلى أنه منهم، فاعتبروا اتّباعه ضربًا من الضلال والخسران! فأيّ ضلالٍ أشدّ مما هم عليه! إنه الكبر والاغترار والعجب والحسد وغير ذلك من أمراض النفوس، مع غفلتهم وجهلهم بسنن الله وأقداره وحكمه وشئونه في خلقه.

ثم عادوا إلى إلصاق التّهم بصالح عليه السلام فاتهموه بالكذب، ورموه بحبّ الظهور والشهرة والاستعلاء والسيطرة عليهم، وهم في الحقيقة كاذبون متكبّرون، حسدوا نبيّهم على هذه المنزلة، فكان لا بدّ من كشف خباياهم وفضح نواياهم، وحتى لا تبقى لهم حجةٌ أرسل الله لهم آيةً واضحةً جليةً وهي الناقة؛ فتنةً لهم وحجةً عليهم وتلبيةً لإلحاحهم وابتلاء لهم وامتحانًا، وجعل الله للناقة ولهم قدرًا ونوبة، فالناقة تحضره يومًا، وهم يحضرونه يومًا، فإذا كان يوم نوبتهم حلبوها فانتفع الجميع بلبنها، لكنهم سرعان ما أظهروا الغدر فعزموا على عقر الناقة، وحرّضوا على ذلك أشقاهم، وأعانوه على هذه الجريمة المنكرة، فتناول بجرأةٍ الناقة بالعقر فعقرها. هنالك قرعت آذانهم صيحةٌ شديدةٌ، جعلتهم كحطام الشجر وعيدانه اليابسة، أو كهشيم الحظيرة إذا يبس وداسته الغنم[1].

٣. الحضارة الفرعونية.

بلغت الحضارة الفرعونية أوج نهضتها وذروة سنامها، في عهد فرعون الذي دانت له البلاد، وكثرت الخيرات، مع استغلاله لبني إسرائيل في المهن والأعمال الشّاقّة، واستحياء النساء للخدمة، وجاء في القرآن الكريم وصفٌ لهذا الملك الواسع وهذا الثراء البالغ.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٤٢، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٨٠.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٣].

وهذه الآيات الكريمة تنبئ عن وصف هذا الملك العريض، ملك مصر بأنهارها وبساتينها، والنيل وفروعه الممتدة تسقي القرى والمدائن وتمر بالحقول والبساتين، حضارة ومدنية قامت على ضفاف النيل ومدائن واسعة، ولم ترد كلمة المدائن إلا في ثلاثة مواضع، وكلها في نطاق ملك فرعون: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣].

فدلَّ هذا على ما كانت عليه الحضارة الفرعونية من مدنية ورقيٍّ ماديٍّ، وحركةٍ وأنشطةٍ اقتصاديةٍ وسياسية وإدارةٍ محكمة وتبعيّةٍ لبلاط فرعون.

كذلك جاء وصف حضارة الفراعنة في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾[الفجر: ١٠].

قال الشنقيطي: «وأمّا فرعون ذو الأوتاد، فقيل: هي أوتاد الخيام، كان يتدها لمن يعذّبهم.

وقيل: هي كنايةٌ عن الجنود يثبّت بها ملكه. وقيل: هي أكماتٌ وأسوارٌ مرتفعاتٌ، يلعب له في مرابعها. قال ابن جريرٍ ما نصّه: حدّثنا بشرٌ، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيدٌ، عن قتادة: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ ذكر لنا أنّها كانت مطالٌ، وملاعب يلعب له تحتها من أوتادٍ وجبالٍ.

والّذي يظهر - واللّه تعالى أعلم -: أنّ هذا القول هو الصّحيح، وأنّها مرتفعةٌ، وأنّها هي المعروفة الآن بالأهرام بمصر، ويرجّح ذلك عدّة أمورٍ؛ منها: أنّها تشبه الأوتاد في منظرها طرفه إلى أعلى، إذ القمّة شبه الوتد، مدبّبةٌ بالنّسبة لضخامتها، فهي بشكلٍ مثلّثٍ، قاعدته إلى أسفل وطرفه إلى أعلى. ومنها: ذكره مع ثمود الّذين جابوا الصّخر بالواد، بجامع مظاهر القوّة، فأولئك نحتوا الصّخر بيوتًا فارهين، وهؤلاء قطعوا الصّخر الكبير من موطنٍ لا جبال حوله، ممّا يدلّ أنّها نقلت من مكانٍ بعيدٍ. والحال أنّها قطعٌ كبارٌ صخراتٌ عظامٌ ففي اقتطاعها وفي نقلها إلى محلّ بنائها، وفي نفس البناء كلّ ذلك ممّا يدلّ على القوّة والجبروت، وتسخير العباد في ذلك. ومنها: أنّ حملها على الأهرام القائمة بالذّات والمشاهدة في كلّ زمانٍ ولكلّ جيلٍ»[1].

وعندما تمضي بنا الآيات؛ لتتحدث عن مخلّفات فرعون وحاشيته بعد أن أغرقوا في

(١) أضواء البيان ٨/ ٥٢٥.

اليم نجد ما يثير العجب.

قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

لقد كان للنشاط الزراعي مكانته في الحضارة الفرعونية، إلى جانب البنايات التي يشير إليها قوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ والكنوز النفيسة، والرفاهية التي كانوا فيها، فسلب الله منهم الملك والنّعم وأهلكهم مع فرعون، وانهارت تلك الحضارة العريقة بعد أن انحرفت عن مسارها وأفسدتها العلل، وعجّلت بها الآفات من الظلم والفساد والقهر والاستعباد والكفر بآيات الله واضطهاد موسى عليه السلام ومن آمن به.

ولقد سبق أن أنذرهم الله بنذر كثيرة لم تغيّر من حالهم، بل ازدادوا قسوة وتمرّدًا.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٦].

قال ابن جرير رحمه الله: «لقد اختبرنا قوم فرعون وأتباعه على ما هم عليه من الضلالة بالجدوب سنة بعد سنة، والقحوط وذهاب ثمارهم وغلاتهم إلا القليل، عظة لهم وتذكيرًا لهم؛ لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة»[1].

«لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء؛ ليرجعوا إلى أنفسهم؛ وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم، لعلهم تحت وطأة الشدّة يتضرعون إلى الله، ويتذللون له، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة، فيرفع الله عنهم البلاء ويفتح لهم أبواب الرحمة. ولكنهم لم يفعلوا ما كان حريًّا أن يفعلوا. لم يلجأوا إلى الله، ولم يرجعوا عن عنادهم، ولم تردّ إليهم الشدة وعيهم، ولم تفتح

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٥.

بصيرتهم، ولم تليّن قلوبهم.

والقلب الذي لا تردّه الشدة إلى الله قلب تحجر، فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة والشدة؛ ابتلاء من الله للعبد، فمن كان حيًّا أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردته إلى ربه؛ وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه»[1].

وبلغ بفرعون العتوّ والتجبّر أن طلب من وزيره هامان أن يبني له صرحًا لعله يبلغ الأسباب.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٨ - ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧].

قال ابن عاشور: «أمر فرعون هامان وزيره أن يبني له صرحًا يبلغ به عنان السماء؛ ليرى الإله الذي زعمه موسى، حتى إذا لم يجده رجع إلى قومه فأثبت لهم عدم إله في السماء إثبات معاينة، أراد أن يظهر لقومه في مظهر المتطلب للحق المستقصي للعوالم، حتى إذا أخبر قومه بعد ذلك بأن نتيجة بحثه أسفرت عن كذب موسى ازدادوا ثقة ببطلان قول موسى عليه السلام، وفي هذا الضّغث من الجدل السّفسطائي مبلغ من الدلالة على سوء انتظام تفكيره وتفكير ملئه، أو مبلغ تحيله وضعف آراء قومه»[2].

موضوعات ذات صلة:

الاجتماع، الاقتصاد، الأمة، التمكين، الخلافة، السياسة، العنصرية، الوحدة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٣٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/ ٥٨.

الحفظ

عناصر الموضوع

مفهوم الحفظ	٣٤٦
الحفظ في الاستعمال القرآني	٣٤٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٩
حفظ الله عز وجل	٣٥٢
حفظ الملائكة	٣٧١
حفظ الرسل عليهم السلام	٣٨٠
مجالات الحفظ في حقّ العباد	٣٨٦
ثواب الحافظين، وعاقبة المضيّعين	٤٠٤

مفهوم الحفظ

أولًا: المعنى اللغوي:

الحاء والفاء والظاء أصل واحد يدلّ على مراعاة الشيء[1]، فالحفظ لغةً[2]: نقيض النسيان، وهو التعاهد وقلّة الغفلة. وحفظ الشيء حفظًا: استظهره، وحرسه، وراقبه، ورعاه. ورجلٌ حافظٌ، وقومٌ حفّاظٌ، وهم الّذين رزقوا حفظ ما سمعوا، وقلّما ينسون شيئًا يعونه.

والحفيظ: الموكّل بالشيء يحفظه، يقال: فلان حفيظنا عليكم وحافظنا. والاحتفاظ: خصوص الحفظ، تقول: احتفظت به لنفسي. والتحفّظ: قلة الغفلة، والتيقّظ؛ حذرًا من السّقطة في الكلام والأمور. وتحفّظت الكتاب، أي: استظهرته شيئًا بعد شيء. وحفّظته الكتاب: حملته على حفظه. واستحفظته كذا، أي: سألته أن يحفظه. ويقال: استحفظت فلانًا مالًا إذا سألته أن يحفظه عليّ، واستحفظته سرًّا، أي: ائتمنته عليه. وقال الله في أهل الكتاب: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، أي: استودعوه وائتمنوا عليه.

والمحافظة: المواظبة على الأمور، كالصلاة ونحوها. وحافظ على الأمر وثابر: بمعنًى. وحافظت على الرجل محافظةً وحفاظًا إذا حفظته في غيبته، ووفيت بعهده، وراعيت ودّه. والمحافظة: الـمراقبة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى الحفظ في الاصطلاح عن معناه في اللغة، فالحفظ: منعٌ للشيء بتفقّده ورعايته. ويقال تارةً لهيئة النفس التي بها يثبت ما يؤدي إليه الفهم، ومنه: ضبط الصّور الـمدركة. وتارة يقال لضبط في النفس يؤدّي إلى تأكّد المعقول واستحكامه في العقل، ويضادّه النسيان. وتارةً يقال لاستعمال تلك القوة في الرعاية الحسيّة، ثمّ يستعمل في كلّ تفقّدٍ ورعايةٍ. وعليه يمكن أن يعرّف الحفظ بأنه: منع الشيء وتفقّده ورعايته؛ علمًا وهيئةً ووقتًا، والقيام بجميع ما يحصل به أصله، ويتمّ به عمله، وينتهي إليه كماله[3].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ٢/ ٨٧.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ١٩٨-١٩٩، جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٥٥٢، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٤٥٨-٤٦٠.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٦٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤٨٠، التوقيف، المناوي ص ٢٩٨.

الحفظ في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حفظ) في القرآن (٤٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء:٣٤]
الفعل المضارع	٧	﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:٦٥]
فعل الأمر	٢	﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩]
المصدر	٣	﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات:٧]
اسم الفاعل	١٥	﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ [الطارق:٤]
الجمع	١	﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١]
الصفة المشبهة	١١	﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ [هود:٥٧]
اسم المفعول	٢	﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج:٢٢]

وجاء الحفظ في الاستعمال القرآني على ستة أوجه[٢]:

الأول: العلم: ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، أي: بما علموا ووعوا.

الثاني: الصيانة والعفة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، أي: صائنات لأنفسهن.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٨٣.

الثالث: الحفظ بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، **يعني به: الرعاية.**

الرابع: الشفقة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف: ١٢]، **يعني: مشفقين.**

الخامس: الضمان: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]، **أي: ضامنون لرده إليك.**

السادس: الشهادة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠- ١١]، **أي: رقباء وشهداء.**

الألفاظ ذات الصلة

١ الذكر:

الذكر لغة:

الذّكر هو حفظ الشيء وتذكره عن ظهر قلبٍ[١]. والذكر يقال ويراد به هيئةٌ للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة.

الذكر اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الذّكر والحفظ:

الذكر كالحفظ، إلا أنّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارًا باستحضاره. كما يقال لاستحضار الشيء بالقلب أو بالقول؛ ولذا قيل: الذّكر ذكران: ذكرٌ بالقلب، وذكر باللسان، وكلّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيانٍ، وذكر لا عن نسيان، بل عن إدامة الحفظ[٢].

٢ الجمع:

الجمع لغة:

هو ضمّ الشيء بتقريب بعضه من بعض.

الجمع اصطلاحًا:

جاء (الجمع) بمعنى: إثبات القرآن في الصدر وحفظه عن ظهر قلب، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧].

أي: إنّ علينا جمع القرآن في صدرك يا محمد؛ حتى نثبته فيه، وعلينا قرآنه حتى تقرأه بعد أن جمعناه في صدرك[٣]. فالمراد: إنّ علينا جمع الوحي وأن تقرأه، وتبيّنه للناس بلسانك، أي: نتكفّل لك بأن يكون جمعه وقرآنه بلسانك، أي: عن ظهر قلبٍ، لا بكتابة تقرؤها؛ فيكون محفوظًا في الصدور بيّنًا لكل سامعٍ، لا يتوقّف على مراجعةٍ، ولا على إحضار مصحفٍ من قربٍ أو بعدٍ[٤].

(١) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٥١٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٣٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٩.
(٣) انظر: تفسير مقاتل ٤/ ٥١٢، جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٠٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٥٠.

وعن قتادة قال: قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، يقول: حفظه وتأليفه[١].

وقيل: ﴿جَمْعَهُۥ﴾ يعني: حفظه في قلبك، ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ يعني: يقرأ عليك جبريل حتى تحفظه[٢].

الصلة بين الجمع والحفظ:

أنّ الجمع يقال: باعتبار الضّم بين الأجزاء، والحفظ يقال: لإبقاء تلك الأجزاء على تأليفها، ففيه إشعارٌ بالتعاهد لا يستفاد من الجمع.

٣ الوعي:

الوعي لغة:

وعى الشيء والحديث، يعيه وعيًا وأوعاه: حفظه وفهمه وقبله؛ فهو واعٍ. والوعيّ الحافظ الكـيّس الفقيه[٣]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]؛ يعني: أذنٌ حافظةٌ عقلت عن الله ما سمعت[٤]. والوعيّ: الفهم المنوّر القلب، يسمع القول فيتلّقاه بفهمٍ وتدبّرٍ[٥].

الوعي اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الوعي والحفظ:

الحفظ على إطلاقه يشمل الوعي وهو حفظ القلب، والإيعاء وهو حفظ الشيء في وعاء؛ لما في الإيعاء من معنى الحياطة والجمع اللازمين للحفظ. فحفظ العلم وعيٌ، وحفظ غيره إيعاءٌ.

٤ الرعاية:

الرّعاية لغةً:

الحفظ[٦]؛ يقال: رعاه يرعاه رعـيًا ورعاية: حفظه. وكلّ من ولي أمر قوم فهو رعاية.

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٠١.
(٢) انظر: معاني القرآن، الفرّاء ٣/ ٢١١، تفسير السمرقندي ٣/ ٤٢٧.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٣٥٢، وعمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٤/ ٣٢٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٢١.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٣٦، المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢١٠.
(٦) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٦٢-١٦٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٨١-١٨٣.

الرعاية اصطلاحًا:

وقد استرعاه إياهم: استحفظه، واسترعيته الشيء فرعاه: حفظه. وفي المثل: من استرعى الذئب ظلم؛ لأنّ من ائتمن خائنًا فقد وضع الأمانة في غير موضعها.

الصلة بين الرعاية والحفظ:

أنّ الرّعاية سببٌ للحفظ[1].

٥ النسيان:

النسيان لغة:

ترك الإنسان ضبط ما استودع؛ إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصدٍ؛ حتى ينحذف عن القلب ذكره[2]. فالنّسيان ضدّ الذّكر والحفظ، والنسيان: التّرك والتضييع والتفريط[3].

النسيان اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النسيان والحفظ:

النسيان مشعر بالتفريط والتضييع والإهمال التي هي نقيض الحفظ والرعاية.

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٠٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٣٤.
(٣) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٥٤-٤٥٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٥٧٩-٥٨٠.

حفظ الله عز وجل

أولًا: الحفظ صفة لله تعالى:

الحفيظ والحافظ اسمان من أسماء الله تعالى، والحفيظ: الموثوق به بترك التضييع[1]، والحفيظ الذي يضع المحفوظ حيث لا يناله أحدٌ غير حافظه[2].

وقال الخطّابي: «الحفيظ هو الحافظ؛ فعيلٌ بمعنى فاعل؛ كالقدير والعليم. يحفظ السماوات والأرض وما فيهما؛ لتبقى مدة بقائها؛ فلا تزول ولا تدثر؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ [الصافات: ٧]؛ أي: حفظناها حفظًا. والله أعلم. وهو الذي يحفظ عبده من المهالك والمعاطب، ويقيه مصارع السوء؛ كقوله سبحانه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]؛ أي: بأمره. ويحفظ على الخلق أعمالهم، ويحصي عليهم أقوالهم، ويعلم نيّاتهم وما تكنّ صدورهم، ولا تغيب عنه غائبة، ولا تخفى عليه خافية. ويحفظ أولياءه فيعصمهم عن مواقعة الذنوب، ويحرسهم عن مكايدة الشيطان؛ ليسلموا من شرّه وفتنته»[3].

وتختلف معاني اسم الله الحفيظ، ومرجعها إلى رعاية الشيء والعناية به، ويكثر أن يستعمل كنايةً عن مراقبة أحوال المرقوب وأعماله.

وقال الطيبي: «الحفظ صون الشيء عن الزوال والاختلال، إما في الذّهن، وبإزائه النسيان، وإما في الخارج، وبإزائه التضييع. والحفيظ يصحّ إطلاقه على الله تعالى بكل واحد من الاعتبارين؛ فإنّ الأشياء كلها محفوظةٌ في علمه تعالى، لا يمكن زوالها عنه بسهو أو نسيان. وهو تعالى يحفظ الموجودات عن الزوال والاختلال ما شاء، ويصون المتضادات والمتعاديات بعضها عن بعض، فيحفظها في المركبات محمية عن إفناء بعضها بعضًا، فلا يطفئ الماء النار، ولا تحلل النار الماء. ويحفظ على العباد أعمالهم، ويحصي عليهم أفعالهم، وأقوالهم»[4].

وما جاء مصرّحًا فيه باسم الله (الحفيظ) ثلاث آياتٍ؛ قوله تعالى على لسان هودٍ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [هود: ٥٧]؛ أي: رقيبٌ؛ فلا تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مجازاتكم، ومن كان رقيبًا على الأشياء كلها حافظًا لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من

(١) المنهاج في شعب الإيمان، الحليمي ١/ ٢٠٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٠٣.
(٣) شأن الدعاء ص ٦٧-٦٨.
(٤) الكاشف عن حقائق السنن ٦/ ١٧٩٢.

المضارّ، لم يضرّ مثله مثلكم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١].

أي: وربّك على أعمال هؤلاء الكفرة حفيظٌ؛ لا يعزب عنه علم شيءٍ، وهو مجازٍ جميعهم يوم القيامة؛ بما كسبوا في الدنيا من خير وشر[2].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦]؛ يعني: الله حفيظ عليه يحصي عليهم أفعالهم، ويحفظ أعمالهم؛ ليجازيهم بها يوم القيامة جزاءهم، ولست أنت يا محمّد؛ بالوكيل عليهم بحفظ أعمالهم، وإنما أنت منذرٌ؛ فبلّغهم ما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب[3].

وباختلاف معاني الاسم تختلف تعديته بنفسه أو بحرف جر يناسب المعنى، وقد عدّي في القرآن في الآيات المذكورات بحرف (على) كما يعدّى الرقيب والوكيل والمحيط؛ لأنّه بمعناها[4].

وأمّا الحافظ؛ فمعناه الصائن عبده عن أسباب الهلكة في أمور دينه ودنياه[5].

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢١٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٧٢.
(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٤٦٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٢.
(٥) المنهاج في شعب الإيمان، الحليمي ١/ ٢٠٤.

قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

أي: حفظ الله خيرٌ من حفظكم، وقرئ: (حفظًا)[6]، والقراءتان بمعنًى، وذلك أنّ من وصف الله بأنه خيرهم حفظًا فقد وصفه بأنه خيرهم حافظًا، ومن وصفه بأنه خيرهم حافظًا فقد وصفه بأنه خيرهم حفظًا[7].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وسيأتي الكلام عليها مفصّلًا.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]؛ يحتمل أن يكون المعنى: وكنّا لأعمالهم وأعدادهم حافظين، لا يؤودنا حفظ ذلك كلّه[8]، أو كنّا للشياطين حافظين أن يخرجوا من أمر سليمان أو يفسدوا ما عملوا[9]، فعلى هذا يعود الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ إلى الشياطين، وهو الأشبه بسياق الآية.

ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا على

(٦) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر وحفص حافظًا بألفٍ بعد الحاء وكسر الفاء، وقرأ الباقون حفظًا بكسر الحاء وإسكان الفاء من غير ألف.
النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٢٢.
(٧) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٣٢.
(٨) المصدر السابق ١٦/ ٣٣٣.
(٩) انظر: معاني القرآن، الفرّاء ٢/ ٢٠٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠١.

داود وسليمان وأوليائهما، فيكون المقصود: كنّا حافظين أن ينالهم أحدٌ من الشياطين بسوء، بل كلٌّ في قبضة سليمان وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدّنوّ إليه، وهو محكّم فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨][(١)].

ويلاحظ أنّ اسمي الله (الحفيظ) و(الحافظ) لم يقترنا بغيرهما من الأسماء الحسنى في القرآن الكريم، فهما من الأسماء التي لم ترد إلا مفردة، ولعلّ حكمة ذلك -والله أعلم- أنّ اسم الحفيظ والحافظ دالّان بالتضمّن على كثيرٍ من الأسماء الحسنى؛ فصفة الحفظ تدلّ على من له حفظٌ، وتتضمّن الحياة والعلم والقدرة وسائر مشروطاتها؛ فإنّ من جهل الشيء أو عجز عن الشيء لا يستطيع أن يحفظه من أن يوجد فيه ما لا يريده وما لا يرضاه[(٢)].

والحفظ يكون من أوصاف الذات ومن أوصاف الفعل؛ ففي صفات الذات يرجع إلى العليم؛ لأنّه يحفظ بعلمه جميع المعلومات فلا يغيب عنه شيء منها، كما يقال: فلانٌ يحفظ القرآن؛ أي: هو حاضرٌ في قلبه، وفي مقابلة هذا الحفظ النسيان، وعلى هذا خرج قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

كما يرجع إلى الهيمنة والإحاطة والرقابة، وضدّه العزوب والغفلة والغياب، ودلّ عليه قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

وإذا كان الحفظ من صفات الفعل فيرجع إلى حفظه للوجود وكلاءته ورعايته، وضد هذا الحفظ الإهمال والتفريط[(٣)].

ثانيًا: نماذج من محفوظات الله عز وجل المذكورة في القرآن الكريم:

إنّ حفظ الله عز وجل شاملٌ جميع خلقه؛ فهو سبحانه وتعالى القيّم بحفظ كل شيء وتدبيره ورزقه، وتصريفه فيما شاء وأحبّ، من تغيير وتبديل وزيادة ونقص، يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١].

حافظٌ لأمور خلقه على ما قدّر ودبّر[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٥٩.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٠٣، البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٦٣.
(٣) انظر: الأسنى في شرح الأسماء الحسنى، القرطبي ١/ ٣٠٨-٣٠٩.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٣٧.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ أي: لا يثقله ولا يشقّ عليه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما؛ بل ذلك سهلٌ عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء[(١)].

وإذا كان الكرسي يسع السماوات والأرض على عظمتهما وعظمة من فيهما، والكرسيّ ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هناك ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تكلّ الأبصار وتحير الأفكار، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها الذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصبٍ؟[(٢)].

١. اللوح المحفوظ.

إنّ الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوفٌ به أزلًا، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق؛ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائنٌ إلى الأبد)[(٣)]، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفّت الأقلام وطويت الصحف، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

فأحصى ما هو كائن قبل أن يكون، فخلقهم على ذلك العلم السابق فيهم. وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وأجرى القدر على علم ما كتبه في اللوح المحفوظ. وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكًا، فيؤمر بأربع كلمات فيقال له: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقيًّا أو سعيدًا[(٤)].

وفي كتابة المقادير الأزلية جاء قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[القلم: ١]. وقوله عز وجل: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]؛ فأقسم في الآية الأولى بالقلم الذي سطر المقادير في الأزل، ودلّت الآية الثانية

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١١٠.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب ١٧، رقم ٢١٥٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٣٣.
(٤) انظر: الإبانة الكبرى، ابن بطة ٣/ ٣٦٧.

على أنّ الملائكة الموكلين بحفظ أعمال العباد اليوميّ وكتابتها كانوا يستنسخون من الكتاب السابق الذي كتبه القلم في أمّ الكتاب أزلًا، فيكون عمل الرجل اليوميّ مطابقًا لما يستنسخ من اللوح المحفوظ، فسّره بذلك حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[1].

وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ أي: ما تركنا شيئًا إلا قد كتبناه في أمّ الكتاب[2]، فصانه الله عن التضييع والتفريط. ووصفه بأنّه كتابٌ مبينٌ، كما في قوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ثمّ عبّر القرآن عن اللوح المحفوظ بأكثر من عبارةٍ؛ فهو الإمام المبين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

فهو الإمام المبين، سمّي كذلك؛ لأنه يبين عن حقيقة جميع ما أثبت فيه، فالمعنى: وكلّ شيء كان أو هو كائنٌ أحصيناه، فأثبتناه في أم الكتاب[3].

وهو الكتاب الحفيظ؛ قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٢-٤]؛ أي: يقولون: أإذا متنا وبلينا، وتقطّعت الأوصال منّا، وصرنا ترابًا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ذلك رجعٌ بعيد الوقوع، فيعتقدون استحالته وعدم إمكانه. قال الله تعالى رادًّا عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرّقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي: حافظ لذلك كله، وسمّاه الله تعالى حفيظًا؛ لأنه لا يدرس ما كتب فيه، ولا يتغير ولا يتبدّل[4]. ويحتمل أن تكون ﴿حَفِيظٌ﴾ مفعول بمعنى محفوظٌ؛ أي: محفوظٌ من الشياطين ومن أن يدرس أو يتغيّر، وهو اللوح المحفوظ[5]. ولا تدافع بين المعنين؛ إذ يلزم لصحّة كونه حافظًا أن يكون محفوظًا حفظه الله عز وجل. والله أعلم.

وهو أمّ الكتاب، كما في قوله: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٣٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٩/ ٤١٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٥.
(٥) تفسير مقاتل ٤/ ١١٠.

﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]؛ أي: إنّ نسخة هذا القرآن في أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ[١]. وهو الكتاب المكنون، كما جاء به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩]؛ أي: مصون عند الله في اللوح المحفوظ، وهو كقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦].

قال ابن بطة: «ولقد جاءت الآثار عن الأئمة الراشدين وفقهاء المسلمين الذين جعلهم الله هداة للمسترشدين، وأنسًا لقلوب العقلاء من المؤمنين، مما أمروا به من إعظام القرآن وإكرامه، مما فيه دلالة على أن ما يقرأه الناس ويتلونه بألسنتهم هو القرآن الذي تكلّم الله به، واستودعه اللوح المحفوظ، والرّقّ المنشور، حيث يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١].

ويقول: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ٢-٣]»[٢].

٢. حفظ الله عز وجل للقرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أي: حافظون له من التبديل والتغيير في كلّ وقتٍ، فلا يزاد فيه باطلٌ، أو ينقص منه ما هو منه[٣].

وقد حفظ الله عز وجل القرآن في اللوح المحفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. واللوح المحفوظ هو الذي فيه جميع الأشياء.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨].

أي: هو في كتاب مصون عند الله لا يمسه شيءٌ من أذىً ولا غبار ولا غيره[٤].

كما حفظه الله من التبديل والتحريف في تنزيله؛ بأن نزّل به الروح الأمين جبريل عليه السلام، وحباه الله عز وجل بصفاتٍ تجعله مؤهّلًا لتبليغه على الوجه الذي أراده الحقّ سبحانه، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥-٦].

وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ

(١) انظر: تفسير مقاتل ٣/ ٧٨٩، جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٤٦-٥٤٧.
(٢) الإبانة الكبرى ٥/ ٣٢١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٨.
(٤) انظر: المصدر السابق ٢٢/ ٣٦٢.

﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣].

فذكر من أوصاف جبريل عليه السلام أنّه شديد القوى، وذو قوة، ذو مرّة، والقوى جمع قوّة، والمراد استطاعة تنفيذ ما يأمر الله به من الأعمال العظيمة العقلية والجسمانية[١].

وقال ابن عباس: «﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ يعني: ذو منظر حسن».

وتطلق على قوة الذات، وتطلق على متانة العقل وأصالته، وهو المراد هنا؛ لأنه قد تقدّم قبله وصفه بشديد القوى[٢].

وقال الزمخشري: «ذو حصافة في عقله ورأيه، ومتانة في دينه»[٣].

ووصفه بأنه مكينٌ عند الربّ، مطاعٌ في السماوات أمينٌ. وهذه الصفات تتضمّن تزكية سند القرآن، وأنّه سماع محمد صلى الله عليه وسلم من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فحسبك بهذا السند علوًّا وجلالة تزكية الله عز وجل له[٤].

وفي هذا ضمانٌ لحفظ القرآن الكريم عن طريق حفظ واسطته الملكيّة.

وحفظ الله عز وجل القرآن من الشياطين أن يتقوّلوا مثله، أو يزيدوا فيه وينقصوا ويبدلوا، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١١].

وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨].

قال ابن زيد: «هو كتابٌ لا يمسّه إلا المطهرون؛ زعموا أنّ الشياطين تنزّلت به على محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فأخبرهم الله عز وجل أنها لا تقدر على ذلك، ولا تستطيعه، وما ينبغي لهم أن ينزلوا بهذا، وهو محجوب عنهم»[٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

والباطل هو إبليس؛ لا يستطيع أن يزيد فيه باطلًا أو ينتقص منه حقًّا[٦].

ثم حفظه الله بأن تكفّل بجمعه في صدر النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينساه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧].

وقال جلّ ذكره: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧].

وحفظه الله عز وجل بأن هيّأ أسباب حفظه، وجعله ميسّرًا للحفظ والفهم، فقال:

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٩٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الكشاف، الزمخشريّ ٥/ ٦٣٦.
(٤) انظر: التبيان في أيمان القرآن، ابن القيم ص ١٩٢-١٩٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٦٣.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٩، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٧١٠.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

فكثر حفّاظه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبعده، حتى وصلنا بالتواتر، فلو غيّر أحدٌ نقطة أو حركة، أو بدل لفظةً لقال له الصبيان قبل العلماء: كذبت أو أخطأت؛ بل صوابه كذا وكذا.

ومن لوازم حفظ القرآن الكريم روايةً أن ييسّر سبيل تعاهده؛ إذ ليس الحافظ على الحقيقة من استظهر في وقتٍ ثمّ نسي عن قريبٍ ما استظهره، فهذا لا يقال له: حافظٌ.

وليس حفظ القرآن الكريم مقصورًا على تكفّل الله بحفظ روايته، بل لقد تكفّل سبحانه وتعالى بحفظ رعايته، فلا تزال طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الحقّ ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وهذا مرويٌّ من أكثر من وجهٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم، أو لها قوم سيعملون بها»(١).

وقال الحسن: «حفظه بإبقاء شريعته إلى يوم القيامة». وقيل: يحفظه في قلوب من أراد بهم خيرًا(٢).

وهذا مستلزمٌ بالضرورة لحفظ درايته؛ إذ لا يعمل بالقرآن على مراد الله إلا بفهم مراد الله عز وجل. ومن ظهور الطائفة المنصورة على الحقّ إقامتهم للشّرع ظاهرًا وباطنًا، وفي القلب منه تدبّر القرآن، ولا سبيل له إلا بفهم معاني القرآن، فلزم أنّ معاني القرآن محفوظة كحفظ مبانيه.

وقد خصّ القرآن بهذه الخصيصة بخلاف غيره من الكتب المتقدمة، فإنه تعالى لم يتكفّل بحفظها بل استحفظها الأنبياء إياها فحفظوها وحفظها من اتّبعهم بإحسان من الربّانيين والأحبار: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ثم خلف من بعدهم خلف ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فحرّفوا وبدلوا وكتموا ونسوا حظًّا مما ذكّروا به، قال تعالى في اليهود: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

وقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ١/ ٢٧٨ رقم ٨٤.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٣٥.

﴿ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال في النصارى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال في أهل الكتاب عمومًا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وعن أبي الحسن بن المنتاب، قال: «كنت عند إسماعيل (ابن حمّاد الأزديّ) يومًا فسئل: لـم جاز التبديل على أهل التّوراة ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال: قال الله في أهل التّوراة: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فوكل الحفظ إليهم، وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فتعهّد الله بحفظه فلم يجز التّبديل على أهل القرآن». قال: «فذكرت ذلك للمحاملي، فقال: ما سمعت كلامًا أحسن من هذا»[(١)].

٣. حفظ السماوات والأرض.

حفظ الله عز وجل السماوات والأرض أن تزولا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فلا يقدر على حفظهما وإمساكهما عن الزوال والاضطراب إلا هو سبحانه. ونظرة إلى السماوات والأرض وإلى هذه الأجرام التي لا تحصى منتثرةً في ذلك الفضاء الذي لا تعلم له حدود. وكلّها قائمة في مواضعها، تدور في أفلاكها محافظةً على مداراتها، لا تختلّ، ولا تخرج عنها، ولا تبطئ أو تسرع في دورتها، ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وكلها لا تقوم على عمدٍ، ولا تشدّ بأمراسٍ، ولا تستند على شيءٍ من هنا أو من هناك. إنّ نظرةً إلى تلك الخلائق الهائلة العجيبة جديرةٌ بأن تفتح البصيرة على قدرة الله التي تمسك هذه الخلائق، وتحفظها أن تزول. ولئن زالت السماوات والأرض عن مواضعها، واختلّت وتناثرت بددًا؛ فما أحدٌ بقادرٍ على أن يمسكها بعد ذلك أبدًا. وذلك هو الموعد الذي ضربه القرآن لنهاية هذا العالم؛ حين يختلّ نظام الأفلاك، فتضطرب وتتحطم وتتناثر، ويذهب كل شيء في الفضاء لا يمسك أحدٌ زمامه[(٢)].

وذلك ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ

(١) ترتيب المدارك، القاضي عياض ٤/ ٢٨٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٤٨-٢٩٤٩.

﴿وَالسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]؛ أي: إنّ من آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره، فلم تتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنّه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض يخرجون[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١-٣٢].

فلمّا كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها؛ لئلا تميد بالعباد وتضطرب، فلا يتمكنوا من الاستقرار والسكون فيها ولا عمارتها، فأرساها بالجبال، فحصل من المصالح والمنافع ما به قوام حياتهم. ولما كانت الجبال المتّصل بعضها ببعضٍ قد تمتدّ سلاسلها، فلو بقيت بحالها جبالًا شامخاتٍ، وقللًا باذخاتٍ؛ لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان. فمن حكمة الله ورحمته أن جعل بين تلك الجبال طرقًا سهلةً لعلهم يهتدون فيصلون إلى حاجاتهم، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على المنان[(٢)].

وجعل الله السماء سقفًا محفوظًا، بألا تسقط على الأرض، كما تقدّم. وحفظها من التشقّق والانفطار؛ فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]؛ أي: وما لها من صدوع وفتوق وشقوق[(٣)].

وقال عزّ من قائل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]؛ أي: هل ترى من صدوعٍ وشقوقٍ وخللٍ؟[(٤)]

وحفظ الله عز وجل السماء من الشياطين؛ فقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٧-١٨].

وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٥٢٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٠٨.

(٤) المصدر السابق ٢٣/ ١٢٠.

﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠].

والمراد بحفظ السماء من الشياطين منعهم من الاطّلاع على ما أراد الله عدم الاطّلاع عليه من أمر التكوين ونحوه، مما لو ألقته الشياطين في علم أوليائهم لكان ذلك فسادًا في الأرض، وفتنة للناس في الحقّ[(١)].

وهذا الحفظ متحقّق بترصّد الملائكة الموكّلة بحراسة السماء منهم؛ فترميهم بالشهب، في قول مؤمني الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجنّ: ٨-٩].

٤. حفظ الله عز وجل للعباد جميعًا (الحفظ العامّ).

حفظ الله عز وجل لخلقه وكلاءتهم نوعان:

النوع الأول: حفظٌ عامٌّ لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيتها ويحفظ بنيتها، ويهديها إلى مصالحها بهدايته العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فهداهم إلى ما فيه بقاؤهم ونماؤهم، بما ركّبه فيهم من فطرةٍ يسمّيها العلماء غريزة البقاء، ويسّر لهم سبل اتّقاء المكروهات والمضارّ ودفعها، بما حباهم به من أسلحةٍ ومهاراتٍ طبعيّة. وهذا يشترك فيه عموم الخلائق؛ الحيوان والبشر، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر. ووكّل بالآدميّ ملائكة يحفظونه ويكلؤونه بأمر الله[(٢)].

والنوع الثاني: حفظه الخاصّ لأوليائه سوى ما تقدّم، وأعلاه حفظهم عمّا يضرّ إيمانهم وصيانة عقودهم في التوحيد عن اكتفائهم بالتقليد، وتحقيق العرفان في أسرارهم بجميل التأييد، وليس كل الحفظ أن يحفظ عبدًا بين البلاء عن البلاء، وإنما الحفظ أن يحفظ قلبًا على خلوص المعرفة من الأهواء؛ حتى لا يزلّ عن الطريقة المثلى، ولا يحيد إلى البدع والهوى. وقيل: من حفظ لله جوارحه حفظ الله عليه قلبه، ومن حفظ لله حقّه حفظ الله عليه حظه[(٣)].

قال ابن تيمية: علّق الله سبحانه الوعد والوعيد والثواب والعقاب والحمد والذمّ بالإيمان به وتوحيده وطاعته، فمن كان أكمل في ذلك كان أحقّ بتولّي الله له بخير الدنيا والآخرة، وحفظه وكلاءته. ثم جميع عباده مسلمهم وكافرهم هو الذي يرزقهم، وهو الذي يدفع عنهم المكاره، وهو الذي يقصدونه في النوائب. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٣١.

(٢) انظر: الحق الواضح المبين، السعدي ص ٥٩-٦١.

(٣) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي ٦/ ١٧٩٣.

﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢]؛ أي: بدلًا عن الرحمن. هذا أصحّ القولين. فلا يكلؤ الخلق بالليل والنهار؛ فيحفظهم ويدفع عنهم المكاره إلا الله.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠-٢١][1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

فهذا -وأمثاله في الكتاب المسطور كثيرٌ- من كلاءته للخلق عامّةً.

وفي الكتاب المنظور آياتٌ معجزاتٌ شاهداتٌ على كلاءة الله عز وجل خلقه، وقد نظر علماء الفلك والكونيّات وطبقات الأرض والطبّ وغيرها من العلوم، فرأوا من ذلك ما لا يحصيه كتابٌ، حتّى لقد ألّف أحد علماء الكونيات البريطانيين كتابًا بعنوان (ستّة أرقام فقط)، ذكر فيه ستّة ثوابت عددية مسئولة عن صفات الكون التي تناسب نشأة حياة المخلوقات واستمرارها، بحيث إنّ تغيّرًا طفيفًا فيها بالزيادة أو النقصان يستحيل معه وجود الحياة واستمرارها. وقد أضاف العلماء -كلٌّ في تخصّصه- عشرات الأرقام والثوابت الدقيقة، ومئات الشواهد البيّنة التي تدلّ من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ؛ على بديع صنع الله، وجميل حفظه للخلق جميعًا، وللبشر خاصّةً.

ومن دلائل حفظ الله لمخلوقاته أن جعل الأرض مهادًا وكفاتًا، وجعل فيها رواسي شامخاتٍ، وأجرى فيها الأنهار والبحار، وأحاطها بغلاف من طبقاتٍ يحميها من الأشعة الضارة والنيازك والمذنّبات وغيرها من التكوينات الفضائية التي لو وصل بعضها إلى الأرض لما تهيّأ لسكّانها عيشٌ، ولا استقرّ بهم قرارٌ.

وحفظ الجنين في بطن أمّه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٧/ ٤٤١ بتصرّفٍ واختصار.

فهيّأ له هذا القرار المكين، وأمدّه بغذائه، وعزله عن الروائح الكريهة، وعدّل وضعه بما ييسّر خروجه إذا حان القدر المعلوم، ثمّ أخرجه من بطن أمّه لا يعلم، فجعل له من العقل والإدراك والحواسّ ما هو سببٌ -بقدرة الله وتدبيره- لبقائه ومعاشه؛ هذا مع غناه عز وجل عنهم، وافتقارهم وحاجتهم إليه.

وكما حفظ الله الناس في أمور معاشهم ممّا فيه صيانة أبدانهم وأركانهم، فقد حفظهم في أمر معادهم، مما فيه فوزهم بالجنان، ونجاتهم من النيران، ذلك أنّه خلق العباد حنفاء كلّهم على الفطرة، وهداهم السبيل، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحلّ الله لهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانًا، فبعث الله إليهم الرّسل مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. وفي هذا ما إن أخذوه بحقّه كان صيانةً لهم عن النار. وهذا من عظيم كلاءته ورحمته.

٥. حفظ الله عز وجل لأوليائه (الحفظ الخاصّ).

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب)[(١)].

والوليّ فعيلٌ بمعنى مفعول، وهو من يتولى الله تعالى أمره فلا يكله إلى نفسه لحظة، فهؤلاء لسان حالهم ومقالهم: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

أو هو فعيلٌ بمعنى فاعل؛ مبالغةً، وهو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته. وكلا الوصفين شرطٌ في ولاية الوليّ، فيجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستبقاء؛ ليدوم حفظ الله تعالى له، وتولي أموره في السراء والضراء[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثمّ يقول: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)[(٣)].

فأثبت أنّ للصّالحين حفظًا خاصًّا؛ وإلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم ٦٥٠٢.
(٢) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي ٥/ ١٧٢٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ١٣، رقم ٦٣٢٠.

كان تقييده بهم لغوًا. ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]؛ أي: حافظاتٌ لأنفسهنّ عند غيبة أزواجهنّ عنهنّ في فروجهنّ وأموالهم، وللواجب عليهنّ من حقّ الله في ذلك وغيره ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي: بحفظ الله إياهنّ إذ صيّرهنّ كذلك[1]. وقد صرن كذلك لصلاحهنّ.

ومن حفظ الله لأوليائه أن يحول بينهم وبين المعصية؛ قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ قال ابن عبّاس والضحّاك بن مزاحم: «يحول بين المؤمن وبين معصيته»[2].

ومن أنواع حفظ الله لعبده في دينه أنّ العبد قد يسعى في سبب من أسباب الدنيا إما الولايات أو التجارات ونحوها؛ فيحول الله عز وجل بينه وبين ما أراد لما يعلم له من الخيرة في ذلك وهو لا يشعر مع كراهته لذلك. وأعجب من هذا أنّ العبد قد يطلب بابًا من أبواب الطاعات ولا يكون له فيه خير فيحول الله بينه وبينه وهو لا يشعر[3].

وأولى الأولياء بالحفظ والنصرة هم الأنبياء؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦]، أي: أليس الله بكافٍ عبده محمدًا صلى الله عليه وسلم وسائر أنبيائه من قبله ما خوّفتهم أممهم من أن تنالهم آلهتهم بسوء؟[4].

حفظ الله عز وجل نوحًا عليه السلام:

فهو سبحانه قد حفظ نوحًا عليه السلام، ولم يزل يحوطه بكلاءته ورعايته؛ إذ كذّبه قومه، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[القمر: ١٠].

فأوحى إليه ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[المؤمنون: ٢٧]؛ أي: بمرأى منّا وبحفظنا[5]، ثمّ لما قضي الأمر، وفاض الموج كالجبال أنجاه ومن معه من المؤمنين في الفلك ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

محفوظةً بكلّ من فيها؛ لتبقى آيةً للعالمين.

حفظ الله عز وجل خليله إبراهيم عليه السلام:

ويحفظ الله عز وجل خليله إبراهيم -وهو الفتى الفذّ- عن الضلال بمعتقد قومه، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

فيقلّب لهم وجوه الحجج، ويصرّف لهم البراهين على وحدانية الله عز وجل، فيخوّفونه، ولكنّه -وقد ربط الله على قلبه بالإيمان- يجابههم؛ ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٩٢-٦٩٤.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١١/ ١٠٩-١١٠.
(٣) نور الاقتباس، ابن رجب ص ٦٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٠٩.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٧٣.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وهو -في كلّ مرّة- يقيم عليهم الحجّة، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ثمّ يحفظ الله إبراهيم في زوجه سارة حين أرادها أحد الملوك الجبابرة على نفسها[1]، ويحفظه في زوجه هاجر وولده إسماعيل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٧].

فيحفظه الله عز وجل في زوجه وابنه إسماعيل، ويفجّر لهما بئر زمزم، ويبشّر الملك هاجر: «لا تخافوا الضّيعة؛ فإنّ ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإنّ الله لا يضيع أهله»[2].

حفظ الله عز وجل يوسف عليه السلام:

حفظ الله عز وجل يوسف عليه السلام إذ أجمع إخوته أن يجعلوه في غيابات الجبّ، وهم الذين ما أقنعوا أباه بإرساله معهم إلا بعد أن أكّدوا له أنّهم حافظوه: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢].

فقيّض الله له بعض السيّارة، فالتقطوه، وباعوه إلى أحد رجال الدّولة في مصر، وكان من أمر امرأة العزيز أن راودته عن نفسه، فحفظه الله عز وجل وصرف عنه السوء والفحشاء: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فمن أخلص لله خلّصه من السوء والفحشاء وعصمه منهما من حيث لا يشعر، وحال بينه وبين أسبابهما[3].

ولـمّا سووم على فعل الفاحشة أو السجن ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣-٣٤].

(١) كما صحّ بذلك الحديث عند البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربيّ وهبته وعتقه، رقم ٢٢١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٩، رقم ٣٣٦٤.

(٣) انظر: نور الاقتباس، ابن رجب ص ٥٨.

وهو حفظٌ وإن بدا في ظاهره لبعض الناس بلاءً، فإنّ البلاء بسجنٍ يسلمه إلى الجنّة خيرٌ من دعةٍ ورغدٍ في المعصية ينزع عنه به منشور الولاية، ويتردّى به في النار.

ثمّ يمكّن الله له في الأرض، ويؤتيه من الملك ويعلّمه من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمّها على آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.

حفظ الله عز وجل الكليم موسى عليه السلام:

وحفظ الله عز وجل موسى بأنواع الحفظ والكلاءة؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٣٧-٤١].

فحمله في اليمّ، وربّاه في بيت عدوّه، وردّه إلى أمّه، وساق إليه من أقصى المدينة من يحذّره ترصّد أعدائه به، فألجأه إلى مدين، وقيّض له عبدًا صالحًا يحفيه ويزوّجه ابنته. ثمّ بعثه الله رسولًا إلى فرعون وقومه، فقال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٣-٣٥].

ثمّ تتجلّى عظمة الحفظ والكلاءة حين سرى بالمؤمنين فارًّا من بطش فرعون وجنوده، فأتبعوهم؛ حتّى كان الغرق أمامهم وحصد الأسنّة والسيوف خلفهم، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٨].

حفظ الله عز وجل عيسى عليه السلام:

وحفظ عيسى عليه السلام حين قام في قومه مذكّرًا بنعم الله عز وجل عليهم، وبما جاءهم به من الآيات البيّنات والمعجزات الواضحات، فمكروا به، ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ

بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٧].

فرفعه الله عز وجل إلى السماء، ثمّ ينزل قبل القيامة؛ ليقتل الدّجّال، ويقيم الملّة والعدل، وليعصم الله به المؤمنين من الفتن. ولم يعهد حفظٌ لبشرٍ بالتشبيه على أعدائه، ورفعه إلى السماء، كما كان لعيسى عليه السلام . والله أعلم.

حفظ الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم:

تواردت آيات القرآن على تأكيد حفظ الله للنبي صلى الله عليه وسلم وعصمته من الكفّار، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ أي: بلّغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيّدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك[(١)]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبّة، فقال لهم: (يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله)[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل منزلًا نظروا أعظم شجرة يرونها، فجعلوها للنبي صلى الله عليه وسلم، فينزل تحتها، وينزل أصحابه بعد ذلك في ظلّ الشجر، فبينما هو نازل تحت شجرة -وقد علّق السيف عليها- إذ جاء أعرابيٌّ، فأخذ السيف من الشجرة، ثم دنا من النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم، فأيقظه، فقال: يا محمّد؛ من يمنعك مني الليلة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (الله). فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧][(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥١-١٥٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة المائدة، رقم ٣٠٤٦.
وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٤٨٩.

(٣) أخرجه ابن حبّان في صحيحه، كما في موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ١/ ٤٣٠، رقم ١٧٣٩.
وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٤٨٩.

﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، والوقائع في هذا الباب متواترة تربو على الحصر في هذا المقام. قال الحافظ ابن كثير: «ومن عصمة الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسّادها ومعانديها ومترفيها؛ مع شدة العداوة والبغضة، ونصب المحاربة له ليلًا ونهارًا، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته. فصانه في ابتداء الرسالة بعمّه أبي طالب، إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش، وخلق الله في قلبه محبّةً طبيعيةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفّارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرًا، ثم قيّض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم، وهي المدينة، فلما صار إليها حموه من الأحمر والأسود، فكلما همّ أحدٌ من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله وردّ كيده عليه، ولما كاده اليهود بالسحر حماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوّذتين؛ دواءً لذلك الداء، ولما سمّ اليهود ذراع تلك الشاة بخيبر، أعلمه الله به وحماه منه؛ ولهذا أشباه كثيرة جدًّا يطول ذكرها»[(١)].

فإن قيل: فأين ضمان العصمة وقد شجّ جبينه، وكسرت رباعيته، وبولغ في أذاه؟ فالجواب: أنّ الله عز وجل عصمه من القتل والأسر وتلف الجملة، فأمّا عوارض الأذى والمرض، فلا تمنع عصمة الجملة[(٢)].

حفظ الله عز وجل أصحاب الكهف:

ومن حفظ الله لأوليائه حفظه لأصحاب الكهف. والمتفكّر في حالهم يجدهم قد جمعوا في الظاهر كلّ أسباب الضّعف، فهم فتيةٌ ولو كانوا أكبر من ذلك فربّما صحّ لهم من التجارب ما يمدّهم بالخبرة والحكنة لمواجهة ما هم فيه. ولعلّهم لو كانوا أكبر من ذلك لكان بعضهم قد ارتقى في المناصب إلى ما يحصل لهم به منعةٌ، ولكنّهم دون ذلك سنًّا. وهم مع ذلك قلّةٌ أصحّ ما قيل في عددهم وأكثره أنهم كانوا سبعة، ولو كانوا أكثر من ذلك لكانت لهم شوكةٌ يدفعون بها عن أنفسهم. ولكنّ الله عز وجل قد ربط على قلوبهم بصدق اليقين وحلاوة الإيمان، وصانهم في كهفهم؛ ليكونوا لمن خلفهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٥٤.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٦٩، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٠١.

آيةً على حفظ الله عز وجل أولياءه بعجيب التقدير ومحكم التدبير.

حفظ الله عز وجل مؤمن آل فرعون رضي الله عنه:

هو رجلٌ بالتعبير القرآنيّ، ومؤمنٌ بالوصف الربّانيّ، وإذا كان خير الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ؛ فإنّ هذا الرجل أمّةٌ في الصدع بالحقّ في وجه أمّةٍ لا ترعى في مؤمنٍ إلًّا ولا ذمّة. لم يزل يتلطّف مع قومه في النصح بما يدلّ على حكمته وسعة أفقه وبصره بمذاهب القول والإقناع، وما أعدل قوله وأجدله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

ولم يزل يحذّرهم مغبّة كفرهم وعنادهم وتعاميهم عن الحقّ الواضح المبين، ولم يزل يخوّفهم مصائر قوم نوحٍ وعاد وثمود وغيرهم ممّا كانوا يعلمون ومما لا يعلمون، ثمّ يخوّفهم هول اليوم الأكبر؛ يوم التنادي، يوم التصايح والتناوح، وانقطاع الحجّة بالمبطلين، فيولّون مدبرين؛ ولكن إلى أين؟ وليس ثمّ من الله عاصمٌ. ويذهب في مكاشفتهم بعيدًا؛ يوقّفهم على حقيقة الدنيا، وأنّ الآخرة هي دار القرار والنعيم المقيم، وأنّ ما هم عليه من الشّرك دعوةٌ إلى النار. ويبدو أنّهم ضجروا بما يدعوهم إليه، وخافوا أن يتأثّر به أحدٌ؛ فيكتب لهذا الصوت المعارض الذيوع والانتشار، فأخذوا يمكرون به؛ ليئدوا دعوته في مهدها. ويستشعر هو بفطنة المؤمن وبصيرته ما يبيّتون، فيختم الجدال معهم بقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

وكما وقاه الله عز وجل وحفظ عليه قلبه أن يتأثّر بشركهم، ويشايعهم على ضلالهم فقد حفظه ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

حفظ الله عز وجل كنز العبد الصالح لولديه:

انطلق موسى والخضر في رحلتهما ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف ٧٧-٨٧].

فكان تعليل الخضر: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

[الكهف: ٨٢].

قال ابن عبّاس وغيره: «حفظا بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاحٌ»[(١)].

فلو أنّ الجدار ترك على حاله لانقضّ، ولو كان انقضّ لنهبته القرية التي لا يرعى أهلها قرى ضيفين، ولا يقومون به. وما كان في طوق غلامين يتيمين أن يحفظا كنزهما من أمثال هؤلاء. فلمّا كان أبوهما صالحًا قيّض الله عز وجل لهما من أوليائه من يقيم الجدار حتّى يكبرا فيستخرجا كنزهما وقد اكتسبا من القوّة ما يحميه من النّهبة، ومن العقل ما يربيه ولا يضيّعه.

حفظ الملائكة

كلّف الله عز وجل ملائكته بأعمالٍ متنوعةٍ؛ منها ما يتعلّق ببني آدم؛ من لحظة نفخ الرّوح فيه في رحم أمّه، إلى ما بعد استقراره في مثواه في دار القرار، فهم الذين يقومون عليه عند خلقه، ويتوفّونه إذا جاء أجله، ويتنزّلون على الأنبياء والمرسلين بالوحي، ويقومون بحفظه وكلاءته بأمر الله وتدبيره، ويحصون على بني آدم أعمالهم... وغير ذلك[(٢)].

وقد وصف الله عز وجل الملائكة بأنهم حفظةٌ، فقال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[الأنعام: ٦١].

ووصفهم بأنهم حافظون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾[الانفطار: ١٠].

وفي قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]؛ على بعض معانيها.

ولحفظ الملائكة بني آدم معنيان؛ الأول: حفظ الكتابة؛ فهم يحفظون أعمال بني آدم؛ بكتابتها في كتابٍ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً، وهم لا يفرّطون في ذلك شيئًا، وهم يحفظون رزقه وأجله. والمعنى الثاني: أنهم يكلؤون بني آدم ويحرسونه بأمر الله وتقديره. ومما يلتحق بحفظ الكلاءة حفظهم للسماء وحراستهم لها من الشياطين، وحفظهم

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٦٦.

(٢) انظر: عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص٤١-٨٢.

بعض بقاع الأرض. وفيما يأتي تفصيل القول في ذلك.

أولًا: حفظ الكتابة والإحصاء:

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

والحفظة والحافظون ملائكةٌ يحفظون على بني آدم أعمالهم ويحصونها؛ فلا يفرّطون في حفظ ذلك وضبطه وإحصائه، ولا يضيّعون[(١)]. وعن قتادة قال: «حفظةٌ يا ابن آدم يحفظون عليك رزقك وعملك وأجلك»[(٢)]. وهو كقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤].

وقد اختار أكثر المفسّرين تفسير حفظ الملائكة في هذه الآيات بحفظ الكتابة والضبط والإحصاء، وهو الأقرب إلى سياقاتها دون حفظ الكلاءة والتعهد والرّعاية، ويضاف إلى قرينة السياق قرينة تعدية الحفظ إلى المعمول بحرف الجرّ (على)؛ لتضمّنه معنى المراقبة. والحفيظ من معانيه الرقيب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِم﴾ [الشورى: ٦].

وهذا الاستعمال هو غير استعمال الحفظ المعدّى بنفسه إلى المفعول؛ فإنّه بمعنى الحراسة؛ نحو قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

فالحفظ بهذا الإطلاق يجمع معنى الرعاية والقيام على ما يوكل إلى الحفيظ[(٣)].

وجمع سبحانه الملائكة الحفظة والحافظين باعتبار أنّ المخاطب جملة النّاس، وقد وكّل الله عز وجل بكلّ عبدٍ ملكين يكتبان عمله، ويترصّدانه؛ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٨]؛ أي: عنده رقيبٌ حافظٌ يرقب أعماله ويحفظها، عتيدٌ؛ أي: حاضرٌ معه أين ما كان[(٤)]. فالملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك، والمتلقّيان هما الملكان اللذان يكتبان عمل الإنسان، يترصّدانه عن اليمين وعن الشمال، فما يلفظ ابن آدم من قول، ولا يتكلّم بكلمة، إلا وهما يراقبانه ويكتبان عليه ما لفظه، فما يتركان من كلمة ولا حركة[(٥)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٨٩.
(٢) أخرجه الطبري في تفسير ٩/ ٢٨٩، وابن أبي حاتم في تفسيره ٤/ ١٣٠٦.
(٣) انظر: البحر المحيط ٤/ ١٥١، والتحرير والتنوير ٧/ ٢٧٨، ٣٠/ ١٧٩-١٨٠.
(٤) لوامع الأنوار البهية ١/ ٤٥٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧

وقد يقال: إنّ الله تعالى غنيٌّ بعلمه عن كتابة الملائكة؛ فما الحكمة منها؟ والجواب -والله أعلم-: إنّ في الكتابة لطفًا للعباد؛ لأنهم إذا علموا أنّ الله رقيب عليهم، والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكّلون بهم، يحفظون عليهم أعمالهم، ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة كان أزجر لهم عن القبيح، وأبعد عن السوء[1].

وعلى كلٍّ؛ فإنّ اللّه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويجب علينا الإيمان بكل ما ورد به الشرع، سواء عقلناه أم لم نعقله.

وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيمٌ لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور، ولولا ذلك لما وكّل بضبط الملائكة الكرام الحفظة الكتبة ما يحاسب عليه، ويجازي به. وفيه إنذار وتهويل وتشويرٌ للعصاة ولطف للمؤمنين[2].

ثانيًا: حفظ الكلاءة والحراسة:

لله عز وجل ملائكةٌ يحفظون بأمره بني آدم مما يترصّدهم من المضارّ والآفات إلا ما قدّر عليهم قدرًا نافذًا؛ فلا رادّ له من الله. يقول تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

وقد اختلف أهل التفسير في المراد بالمعقّبات، فقيل: هم الملائكة، وقيل: هم الحرس من البشر، وعلى كلّ قول منهما تتأتى وجوهٌ مختلفة.

فقالت طائفة: إنّ المعقّبات هي الملائكة؛ قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعطاء وابن جريج وغيرهم[3]. وقيل: لهم ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾؛ لأنهم يتعاقبون مرّة بعد مرّة، وذلك أنّ ملائكة الليل إذا صعدت أعقبتها ملائكة النهار، فإذا انقضى النهار صعدت ملائكة النهار فأعقبتها ملائكة الليل[4]. ومن عمل عملاً ثم عاد إليه فقد عقّب، والتعقيب أن يأتي بشيءٍ بعد آخر، والمعقبات من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض، فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى[5]. ويدلّ على هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم؛ وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون،

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٥٦.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٣١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٥٦-٤٥٩، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٣٠.
(٤) انظر: معاني القرآن، الفرّاء ٢/ ٦٠، جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٥٦.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ١٨٦، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٤٢.

وأتيناهم وهم يصلّون)[1].

ثمّ يختلف القول في تفسير الآية عند من قال: إنّ المعقّبات هم الملائكة؛ فإذا كان الضمير من ﴿لَهُۥ﴾ يعود على اسم الله عز وجل يكون المعنى: لله ملائكة تتعاقّب في العباد يحفظونهم، وإذا كان الضمير يعود على العبد المستخفي بالليل والسارب بالنهار المذكور قبلًا؛ تكون اللام للاختصاص؛ أي: إنّ للعبد ملائكةً يحفظونه؛ لتكليف الله لهم بذلك. ثم اختلفوا في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، فقال بعضهم: يحفظونه بأمر الله وبإذنه، أو عن أمر الله، يعني: حفظهم هذا عن أمر الله لا من عند أنفسهم، وهو راجعٌ للأوّل. فيكون المعنى: إنّ لله ملائكة أمرهم بحفظ عباده مما يترصّدهم من المضارّ والآفات، فهو توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوامّ والأشياء المضرّة؛ لطفًا منه بهم، فإذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه، قاله عليٌّ وابن عباس رضي الله عنهم، وجاء رجل من مرادٍ إلى عليٍّ رضي الله عنه فقال: «احترس فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك. فقال: إنّ مع كل رجل ملكين يحفظانه ما لم يقدّر، فإذا جاء القدر خلّيا بينه وبين قدر الله، وإن الأجل حصنٌ حصينة»[2].

وقيل: المعقّبات هي من أمر الله، وهي الملائكة؛ أي: له معقباتٌ من أمر الله يحفظونه؛ ففي الكلام تقديم وتأخيرٌ، وحاصل هذا القول كسابقيه، ولا تعارض[3].

وقيل: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ على بابها؛ أي: يحفظونه من ما أمر به الله؛ أي: يحفظونه من ملائكة العذاب؛ حتى لا تحلّ به عقوبة؛ لأنّ الله لا يغيّر ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصرّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النقمة، وزالت عنهم الحفظة المعقّبات[4].

وملائكة العذاب من أمر الله، وخصّهم بأن قال: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّهم غير معاينين، قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء: ٨٥]؛ أي: ليس مما تشاهدونه أنتم[5].

وقيل: يحفظونه من الجن، وأمر الله الجنّ. قال كعب: «لولا أنّ الله وكّل بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجنّ»[6].

ويحتمل أنّ هؤلاء الملائكة الحرس مما يخصّ كل إنسان؛ كالحفظة الكاتبين،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم ٥٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم ٦٣٢، عند أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٤٦٦.

(٣) معاني القرآن، الفرّاء ٢/ ٦٠.

(٤) تفسير مقاتل ٢/ ٣٦٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٨-٢٩.

(٦) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٦٥-٤٦٦.

ويحتمل أن يكون من جملة الملائكة لجملة الناس[(١)].

والقول الثاني: أنّ المعقبّات هم الحرس من البشر الذين يكونون بين يدي السلاطين والأمراء يحتمون بهم من أمر الله، ولن يغنوا عنهم من الله شيئًا إذا جاء أمر الله، ونفذ قدره، فإنّ الله إذا أراد بقوم سوءًا فلا مردّ له وما لهم من دونه من والٍ، فالمذكور ملك من ملوك الدنيا له حرسٌ من دونه حرسٌ، ومواكب من بين يديه ومن خلفه، وهو مرويٌّ عن ابن عباس وعكرمة[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣١].

وهو خطابٌ من الملائكة للعبد المسلم، وذهب جمهور العلماء إلى أنّ قول الملائكة هذا إنّما يكون عند الاحتضار، قال ابن كثير: «تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنّا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسدّدكم ونوفّقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمّنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم»[(٣)]. قال السدّيّ، في معناه: «نحن الحفظة الذين كنّا معكم في الدنيا، ونحن أولياؤكم في الآخرة»[(٤)].

قال ابن القيم: «فالملك يتولّى من يناسبه بالنصح له والإرشاد، والتثبيت، والتعليم، وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إذا زلّ، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضّه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله، وترغيبه فيما عند الله. فهو أنيسه في الوحدة، ووليّه ومعلّمه ومثبّته، ومسكّن جأشه، ومرغّبه في الخير، ومحذّره من الشرّ، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهرًا يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه»[(٥)].

فهذا حفظٌ خاصٌّ وولايةٌ معقودةٌ من الملائكة للمسلم، لا يشاركه فيها من بني آدم إلا من كان مسلمًا. فهي تختلف عن الكلاءة العامّة من الملائكة لبني آدم.

ومن حفظ الملائكة لبني آدم حراستهم

(١) انظر: إكمال المعلم، القاضي عياض ٢/ ٥٩٨، الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي ٣/ ٨٩٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٦٥، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٩-٢٢٣٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٧٧.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٢٨.

(٥) روضة المحبين ص ٣٦٧-٣٦٨.

للسماء من استراق الشياطين، هو مذكورٌ على لسان مؤمني الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجنّ: ٨].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أنّ السماء ملئت حرسًا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يدرى من الصادق. وهذا من لطف الله بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز»[(١)].

ومن حفظ الملائكة حراستها لمكة والمدينة من الدجّال؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس من بلد إلا سيطؤه الدّجّال إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافّين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق)[(٢)]. وهذا من الحفظ الخاصّ للمسلمين المعتصمين -يومئذ- بمكّة والمدينة، والله أعلم.

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يا طوبى للشام، يا طوبى للشام، قالوا: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام)[(٣)]. أي: حفظًا لها عن الشرور، واستجلابًا لكل خير، تجلب إليه الخيرات وتدفع عنه الهلكات[(٤)].

ومن حفظ الملائكة للمسلمين قتالهم مع المؤمنين وتثبيتهم عند ملاقاة العدوّ؛ ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

ومن حفظ الملائكة للمؤمنين دعاؤهم لهم؛ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وفي دعاء الملائكة للمؤمنين بالرحمة حفظٌ لهم، ودعاء الملائكة مرجوّ الإجابة بإذن الله، فكان دعاء الملائكة للمؤمنين أحد أسباب الحفظ في الدّنيا والآخرة.

حفظ الملائكة: هدايات ودلالات:

(١) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم ١٨٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب حديث الجسّاسة، رقم ٢٩٤٣.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٥/ ٤٨٣، رقم ٢١٦٠٦، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، ٥/ ٧٣٤، رقم ٣٩٥٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٢٨، رقم ٣٩١٨.

(٤) التنوير شرح الجامع الصغير ٧/ ١٤٤.

من الواجب على المسلم أن يتأمّل في حفظ الملائكة لبني آدم وكلاءتهم لهم، وكتابتهم عليهم أعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، فإنّ تأمّله يثمر له أطايب الثمر، ويعود عليه بأماثل العبر، فمن ذلك:

الهداية الأولى:

يجب على المسلم أن يستحيي من هؤلاء الحافظين الكرام، وأن يكرمهم ويجلّهم أن يروا منه ما يستحيي أن يراه عليه من هو مثله. والملائكة تتأذى مما يتأذّى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذّى ممن يفجر ويعصي بين يديه -وإن كان قد يعمل مثل عمله- فما الظنّ بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟![1].

الهداية الثانية:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

فأجرى سبحانه وتعالى على الملائكة الموكّلين بإحصاء أعمال بني آدم أربعة أوصاف؛ هي: الحفظ والكرم والكتابة والعلم بما يعلمه الناس. وابتدئ منها بوصف الحفظ؛ لأنّه الغرض الذي سيق لأجله الكلام الذي هو إثبات الجزاء على جميع الأعمال، ثم ذكرت بعده ثلاث صفات بها كمال الحفظ والإحصاء، وفيها تنويهٌ بشأن الملائكة الحافظين. ثمّ وصفهم بالكرم، وهو النفاسة في النوع؛ فالكرم صفتهم النفيسة الجامعة للكمال في المعاملة وما يصدر عنهم من الأعمال. وأمّا صفة الكتابة فمرادٌ بها: ضبط ما وكّلوا على حفظه ضبطًا لا يعتريه نسيانٌ ولا إجحاف ولا زيادة. وأما صفة العلم بما يفعله الناس فهو: الإحاطة بما يصدر عن الناس من أعمال، وما يخطر ببالهم من تفكير مما يراد به عمل خير أو شرٌّ، وهو الهمّ. وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يعمّ كل شيء يفعله الناس، وطريق علم الملائكة بأعمال الناس مما فطر الله عليه الملائكة الموكّلين بذلك.

ويستهدى بذلك في أنّ هذه الصفات الأربع هي عماد الصفات المشروطة في كلّ من يقوم بعمل للأمّة من الولاة وغيرهم، فإنهم حافظون لمصالح ما استحفظوا عليه، فيجب أن يكونوا أمناء حافظين، طاهري النّفس والفطرة، ضابطين لما يجري على أيديهم؛ بأن يكون ما يصدرونه مكتوبًا مضبوطًا لا يستطاع تغييره، فيمكن لكلّ من يقوم بذلك العمل بعد القائم به، أو في مغيبه أن يعرف ماذا أجرى فيه من الأعمال. وهذا أصلٌ عظيمٌ في وضع الملفات للنوازل والتراتيب، ومنه نشأت دواوين القضاة، ودفاتر الشهود، والخطاب على الرسوم، وإخراج نسخ الأحكام والأحباس وعقود النكاح.

(١) انظر: الداء والدواء، ابن القيم ص ٢٥٦.

كذلك؛ يجب أن يكونوا على علمٍ كافٍ بما يتعلق بالأحوال التي توكل إليهم أماناتها؛ بحيث لا يستطيع أحد من المخالطين أن يموّه عليهم شيئًا، أو أن يلبس عليهم في حقيقتها. فيجب أن ينتفي عنهم الغلط والخطأ في تمييز الأمور بأقصى ما يمكن. ويختلف العلم المطلوب باختلاف الأعمال؛ فيقدّم في كل ولاية من هو أعلم بما تقتضيه ولايته من الأعمال، وما تتوقف عليه من المواهب والدراية، فليس ما يشترط في القاضي يشترط في أمير الجيش مثلًا، وبمقدار التفاوت في الخصال التي تقتضيها إحدى الولايات يكون ترجيح من تسند إليه الولاية على غيره؛ حرصًا على حفظ مصالح الأمة، فيقدّم في كل ولاية من هو أقوى كفاءة لإتقان أعمالها وأشد اضطلاعًا بممارستها[1].

كذلك؛ يستهدى به في أهمية الكتابة للمعاملات المالية والتجارية كالديون والشراكات والإجارات والوكالات، ونحو ذلك. وقد جاءت أطول آيةٍ في القرآن الكريم في بيان ذلك والحثّ عليه وتفصيل بعض الأحكام المتعلّقة به، وفيها تعليل لأهمية الكتابة بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

الهداية الثالثة: لوازم الإيمان بحفظ الملائكة:

حفظ الملائكة فيه إثبات للبعث؛ فهو كالدليل على إثباته؛ لأنّ إقامة الحافظ تستلزم شيئًا يحفظه، وهو الأعمال خيرها وشرّها، وذلك يستلزم إرادة المحاسبة عليها، والجزاء بما تقتضيه جزاءً مؤخرًا بعد الحياة الدنيا؛ لئلّا تذهب أعمال العاملين سدًى، وذلك يستلزم أنّ الجزاء مؤخّرٌ إلى ما بعد هذه الحياة؛ إذ المشاهد تخلّف الجزاء في هذه الحياة بكثرة، فلو أهمل الجزاء لكان إهماله منافيًا لحكمة الإله الحكيم مبدع هذا الكون، قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وهذا الجزاء المؤخّر يستلزم إعادة الحياة للذوات الصادرة منها الأعمال[2].

الهداية الرابعة: من أسباب تحصيل الحفظ الخاصّ للملائكة:

الإيمان والاستقامة سبب تحصيل ولاية الملائكة للعبد المسلم؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٧٩-١٨١.

(٢) المصدر السابق ٣٠/ ٢٦٠.

وكلّ ما يقرّب العبد من ربّه فهو من أسباب تولّي الملائكة له، ويأتي على رأس ذلك ما يفعله المرء من خير متعدٍّ نفعه إلى الغير، فلما كان المرء في حاجة النّاس وتعليمهم من العلم ما يثبّتهم ويحفظهم في أمر دنياهم وأخراهم؛ كان الملائكة في تثبيته وحفظه والدّعاء له، والجزاء من جنس العمل. عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلّون على معلّم الناس الخير)[1].

وكلّ ما هو من الطهارة الحسيّة والمعنوية فإنّه مما يحصّل به حفظ الملائكة، فمن الطهارة الحسيّة أن يكون الإنسان طيّب البدن طاهرًا، حسن الرّيح والملبس.

ومن الطهارة المعنوية طهارة القلب من أمراضه، وأكل الحلال، وحفظ اللسان عن الفحش، ومقابلة السيئة بالحسنة طمعًا في صفح الله وعفوه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه ويبتسم، فلما أكثر ردّ عليه بعض قوله، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام فلحقه أبو بكر، فقال: يا رسول الله، كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددتّ عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: (إنه كان معك ملكٌ يردّ عنك، فلما رددتّ عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان)[2].

ومن ذلك: الإكثار من ذكر الله، وقراءة آية الكرسيّ قبل النّوم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذكر الحديث؛ فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسيّ؛ لن يزال عليك من الله حافظٌ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (صدقك وهو كذوب؛ ذاك شيطانٌ)[3].

ولعلّ في تدبّرها توقيفًا على حكمة تخصيص آية الكرسيّ بتلك الفضيلة، ففيها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾[البقرة: ٢٥٥]؛ أي: حفظ السماوات والأرض وما

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم ٢٦٨٥.
قال الترمذي: «حسن صحيح غريب». وحسّنه الألباني في تعليقه على المشكاة، رقم ٢١٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٥/ ٣٩٠، رقم ٩٦٢٤، وجوّد الألبانيّ إسناده في السلسلة الصحيحة، ٥/ ٢٧١، رقم ٢٢٣١.

(٣) أخرجه البخاري هكذا مختصرًا، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم ٣٢٧٥.

فيهما، فهل يعجزه حفظ مخلوقٍ له من مخلوق؟! فمن قرأها متدبّرًا كان جديرًا بتلك الكلاءة بأمر الله. والله المستعان.

حفظ الرسل عليهم السلام

بيّن القرآن الكريم أن وظيفة الرسل هي تبليغ دعوة الله بلاغًا مبينًا، فقاموا عليهم السلام بذلك خير القيام، وأعفاهم سبحانه من مسئولية هداية التوفيق للحق؛ لأنه حق اختص به سبحانه، وأعفاهم أيضًا من مسئولية حفظ أعمال العباد ومجازاتهم عليها، وسوف نبيّن ذلك فيما يأتي:

أولًا: حفظ الرسل للرسالة وتبليغها:

اصطفى الله عز وجل رسلًا من النّاس، فكلّفهم بأداء الرسالة إلى من أرسلهم الله إليهم من البشر، وفي سبيل ذلك حباهم بمقوّمات البلاغ، ولا شكّ أنّ الأنبياء والرسل يمثّلون الكمال البشريّ في أرقى صوره؛ ذلك أنّ الله اختارهم واصطفاهم لنفسه، فهم أطهر البشر قلوبًا، وأزكاهم أخلاقًا، وأجودهم قريحةً، وأحدّهم ذهنًا، وأوفرهم عقلًا، وأقواهم قلبًا، والله أعلم حيث يجعل رسالته. فجمعوا إلى كمال الخلق تمام الخلق، وكانوا أوسط الناس نسبًا في أقوامهم[1].

ومما حبا الله به أنبياءه أن عصمهم بحفظه إيّاهم بما خصّهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية، ثم بالنّصرة

(١) انظر: الرسل والرسالات، الأشقر ص ٧٤-٨٣.

وبتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم، وبالتوفيق إلى البلاغ[1].

وعصمهم في اعتقادهم أن يشركوا بالله ولو طرفة عين: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وعصمهم من مقارفة الكبائر والصغائر عمدًا، وعلى ذلك إجماع الأمّة، والأكثرون على عدم وقوع الذنوب منهم سهوًا.

وقد أجمع من يعتدّ بإجماعه من العلماء على أنّه لا يجوز على الرسل الكذب في التبليغ، أو تحريفه، أو التقصير فيه، أو الخيانة فيه، أو كتمانه لا عمدًا ولا سهوًا، وإلا لم يبق الاعتماد على شيء من الشرائع، ولما تميّز الغلط والسهو من غيره، ولاختلط الحقّ بالباطل. ومن قال بجواز السهو والنسيان في التبليغ فمراده عدم منع ذلك عقلًا، ولكنّه يرى عصمتهم عن ذلك بورود الشرع وإجماع الأمة[2].

وقال تعالى آمرًا محمّدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧].

ومحمّدٌ صلى الله عليه وسلم ومن قبله من المرسلين في هذا الأمر سواءٌ. ولـمّا ذكر الله من سمّى من الأنبياء، قال جلّ ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٨٩-٩٠].

فلم يأمره صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم إلا إذا كانوا قد بلّغوا الرسالة وحفظوا الأمانة.

وأمره بالاقتداء بهم يضيء لنا طريقًا مهمًّا لفهم مستويات حفظ الرّسالة؛ ذلك أنّ الله عز وجل أنزل من الرّسالات نسخةً مسطورةً، وأقام من الأنبياء أسوةً منظورةً تترجم عن مراد الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤].

والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ، فلا عبرة بتبليغ الألفاظ ما لم يكن مراد الله عز وجل منها واضحًا بيّنًا، ثمّ إنّ الأسوة لا تكتمل إلا بالترجمة العمليّة السلوكيّة، وهو ما أمر الله به نبيّه صلى الله عليه وسلم ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، وقد وفّى به النبي صلى الله عليه وسلم، فوصفه ربّه عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وأمر المسلمين بالتأسّي به فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

(١) انظر: المفردات، الرغب الأصفهاني ص٤٣٨.

(٢) إعلام المسلمين بعصمة النبيين، إسحاق المكي ص ١٩.

[الأحزاب: ٢١].

وأكّدت أمّ المؤمنين عائشة بقولها حين سئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: (كان خلقه القرآن)[1]. ولا شكّ أن الرّسل جميعًا قد بلّغوا وبيّنوا البيان العلميّ والعمليّ.

قال تعالى في عموم الرسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

فما حقّت الضلالة على المكذّبين إلا بعد أن أقام الرسل عليهم الحجّة؛ لأنّ الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ أي: حتى نبعث رسولًا فيبلّغ بالبلاغ المبين. فلمّا أخبر سبحانه أنّهم قد حقّت عليهم الضلالة، ووصفهم بالمكذّبين؛ علم أن هؤلاء الرّسل قد بلّغوا رسالاتهم على التمام والكمال.

وهاهو هودٌ عليه السلام يحذّر قومه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧].

وصالح عليه السلام بعد أن كذّبه قومه، فحلّ بهم العذاب، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وشعيبٌ عليه السلام بعد أن أخذت الرجفة الكفّار من قومه، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وقد صحّت الأحاديث بأنّ الرّسل قد بلّغوا ما أرسلوا به؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يجيء النبيّ يوم القيامة ومعه الرجل، والنبيّ ومعه الرجلان، والنبيّ ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك؛ فيقال له: هل بلّغت قومك؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيدعى محمد صلى الله عليه وسلم وأمّته، فيقال لهم: هل بلّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: جاءنا نبيّنا فأخبرنا أنّ الرسل قد بلّغوا فصدّقناه. فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣])[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، رقم ٧٤٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٨/ ١١٢، رقم ١١٥٥٨، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا)، رقم ١٠٩٤٠.

وعنه أيضًا رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يجيء نوحٌ وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلّغت؟ فيقول: نعم أي ربّ. فيقول لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبيٍّ. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم وأمته. فنشهد أنه قد بلّغ)[1].

فهذه البيّنات شواهد صدقٍ وعدلٍ على حفظ الرّسل لأماناتهم ووفائهم بها على الوجه الأكمل، نشهد أنّهم قد بلّغوا، ونصحوا، وأقاموا الحجّة.

ثانيًا: نفي حفظ الرسل لأعمال قومهم ومجازاتهم عليها:

لاشكّ أنّ الدّعاة إلى الله -وفي مقدّمتهم الأنبياء- يتعرّضون في دعوتهم إلى جملةٍ من الأمور التي قد تصرفهم بصورة أو بأخرى عن بعض دعوتهم. وإن لم يربط الله على قلب الداعية فقد يقع فريسة الهمّ خوف التقصير، وهو في حدّ ذاته من أخطر الضغوط النفسية التي يتعرض لها الداعية، فإذا أضيف إليها خوفه وحسرته على قومه؛ لإعراضهم وانصرافهم عن الهداية، وخوفه من أذاهم بالقول والفعل وصدّهم عن دعوته، فإنّ كلّ ذلك قد يثبّط الدّاعية، فيحتاج إلى تذكيره بأنّ حدود المسئولية المكلّف بها لا تتجاوز البلاغ المبين، وأنّ عليه هداية الدلالة والإرشاد، وأمّا التوفيق فذاك محض فضل الله يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء. ولا يكون الرسول رقيبًا على قومه أو حسيبًا عليهم أو مجازيًا لهم على أعمالهم، فذاك إلى الله عز وجل هو الرقيب الحسيب سبحانه.

والمتفكّر في القرآن الكريم يجد هذا المعنى من أكثر المعاني تكرارًا فيه؛ كقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[الأنعام: ١٠٤]؛ أي: وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم، وإنما أنا رسول أبلّغكم ما أرسلت به إليكم، والله الحفيظ عليكم، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم[2]. وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٦-١٠٧]؛ أي: إنما بعثناك إليهم رسولًا مبلّغًا، ولم نبعثك حافظًا عليهم ما هم عاملوه، ومحصيًا ذلك عليهم، فإن ذلك إلينا دونك، ولست عليهم بوكيلٍ ولا بقيّم تقوم بأرزاقهم وأقواتهم، ولا بحفظهم فيما

وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٤٤٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: (إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ٤/ ١٣٤، رقم ٣٣٣٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٧٠-٤٧١.

لم يجعل إليك حفظه من أمرهم[1]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[الشورى: ٦]؛ أي: إنّ الله حفيظٌ عليهم يحصي عليهم أفعالهم، ويحفظ أعمالهم؛ ليجازيهم بها يوم القيامة جزاءهم، ولست أنت يا محمّد بالوكيل عليهم بحفظ أعمالهم، وإنما أنت منذر، فبلّغهم ما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب[2]، وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[الشورى: ٤٨].

وقوله على لسان شعيب: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦].

فهو تأكيد على أنّ ذلك الأمر عامٌّ مطّردٌ لجميع الرّسل؛ كقوله: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[النحل: ٣٥].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[النور: ٥٤].

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[التغابن: ١٢].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[الغاشية: ٢١-٢٦].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في المعنى نفسه. وكلّها تنفي عن النبيّ أن يكون حفيظًا على قومه أو وكيلًا عليهم أو محاسبًا لهم، وفيها تأكيدٌ على أنّ البلاغ المبين لا يشمل الرقابة على المدعوّ، ولا حسابه، وأنّ المبلّغ مأجورٌ على البلاغ، وليس أجره مرهونًا باستجابة أحدٍ، وإلا فإنّ بعض الأنبياء يأتي يوم القيامة وليس معه أحدٌ، وهو -مع ذلك- قد بلّغ فوفّى.

فإذا علم الرسل والدّعاة هذا الأمر فقد تحقّق لهم الاستقرار والأمن النفسيّ الذي يصقل عزائمهم ويشحذ هممهم، فإذا أصابه حزنٌ على المعرضين يجد تسلية الله عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[الشعراء: ٣-٤].

فإن كان المعرض حبيبًا إلى النّفس وهو ممن يحرص الداعية على هدايته تسلّى

(١) انظر: المصدر السابق ٩/ ٤٧٩-٤٨٠.
(٢) المصدر السابق ٢٠/ ٤٦٨.

بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وإذا حدّثته نفسه بأن يقدّم بعض التنازلات أو أن يكتم بعض رسالته ارعوى بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

ولما كانت الدّعوة إلى الله على بصيرةٍ هي مضمار إثبات التبعيّة للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ فإنّ الدّعاة أكثر الناس حاجةً إلى تدبّر هذه الآيات والتفكّر فيها؛ فلعلّ حكمة تكرارها -والله أعلم- حتى لا يمرّ يومٌ على الدّعاة أهل القرآن؛ من غير أن يذكّرهم بها لأهميتها.

وأمّا الذين ينصّبون أنفسهم رقباء على النّاس، كأنّهم اطّلعوا على القلوب فعلموا ما فيها، فحكموا -بغير بيّنةٍ- على هذا بالضلال وعلى هذا بالفسوق = فقد حدّثنا القرآن عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: ٣٣]؛ أي: وما بعث هؤلاء الكفار القائلون للمؤمنين: إن هؤلاء لضالون، حافظين عليهم أعمالهم، يقول: إنما كلّفوا الإيمان بالله، والعمل بطاعته، ولم يجعلوا رقباء على غيرهم، يحفظون عليهم أعمالهم ويتفقّدونها[1]. فتلك رذيلةٌ لا يليق بعاقل أن يتورّط فيها؛ فضلًا عن مسلمٍ داعيةٍ.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٢٧.

مجالات الحفظ في حق العباد

ذكر القرآن الكريم مجالات الحفظ في حق العباد، وهذا ما سنبينه فيما يأتي:

أولًا: حفظ حدود الله على الإجمال:

إنّ الحفظ المنوط بالعباد هو حفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه، ويكون ذلك بالوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ولا يتعدّى ما أمر به إلى ما نهي عنه، فدخل في ذلك فعل الواجبات جميعها، وترك المحرّمات كلّها، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله[1]. يقول الله تعالى في سياق بيان صفات المؤمنين المجاهدين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

فقوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ معناه: المؤدّون فرائض الله، المنتهون إلى أمره ونهيه، الذين لا يضيّعون شيئًا ألزمهم الله عز وجل العمل به، ولا يرتكبون شيئًا نهاهم عن ارتكابه[2].

وقال ابن عباس: «يعني: القائمين على طاعة الله. وهو شرطٌ اشترطه على أهل الجهاد؛ إذا وفّوا الله بشرطه وفّى لهم شرطهم»[3].

فحدود الله تشمل جميع التكاليف الشرعيّة من أوامر ونواهٍ، وعباداتٍ ومعاملاتٍ.

ثانيًا: حفظ القرآن والعلم:

العلم وضبط الشريعة -وإن كان فرض كفاية- فإنه يتعيّن له طائفةٌ من الناس وهم من جاد حفظهم، ورقّ فهمهم، وحسنت سيرتهم، وطابت سريرتهم، فهؤلاء هم الذين يتعين عليهم الاشتغال بالعلم؛ فإن عديم الحفظ أو قليله أو سيئ الفهم لا يصلح لضبط الشريعة، وكذلك من ساءت سيرته لا يحصل به الوثوق للعامة، فلا تحصل به مصلحة التقليد فتضيع أحوال الناس، وإذا كانت هذه الطائفة متعينة بهذه الصفات تعيّنت بصفاتها وصار طلب العلم عليها فرض عين[4].

والقرآن رأس العلم، من لم يأخذ بحظّه منه فليس معدودًا في العلماء. ولا يبرّز طالب العلم الشرعيّ، ولا يتأهّل في أيّ فرعٍ من فروعه إلا بقدر أخذه من علم

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص ٤٣٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٦.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ١٧.
(٤) أنوار البروق في أنواء الفروق، القرافي ١/ ١٤٦.

القرآن؛ إذ هو الأصل المقدّم على غيره. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩].

قال ابن كثير: «القرآن آيات بينةٌ واضحة في الدلالة على الحق، أمرًا ونهيًا وخبرًا، يحفظه العلماء، يسّره الله عز وجل عليهم حفظًا وتلاوةً وتفسيرًا»[(١)]. وقال البيضاوي: «بل هو القرآن آياتٌ بيّناتٌ في صدور الّذين أوتوا العلم يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه»[(٢)]. وفيه إشارةٌ إلى صفة من صفات الذين أوتوا العلم، وهي أنّ القرآن محفوظٌ في صدورهم بيّن الدلالة ظاهر الحجّة، ولم تكن هذه صفته فقد انخرم في حقّه أحد أهمّ شروط الإمامة في العلم. والله أعلم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن؛ فإنّ فيه علم الأوّلين والآخرين»[(٣)].

وقد كان علماء السّلف يوصون طلّاب العلم أن يبدؤوا بالقرآن الكريم، يتعلّمون حروفه ومعانيه، فإذا رأوا أنّهم قد حصّلوا من ذلك قدرًا كافيًا نقلوهم إلى التخصّص، قال ابن عبد البر: «طلب العلم درجات ومناقل ورتب، لا ينبغي تعدّيها، ومن تعدّاها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدّى سبيلهم عامدًا ضلّ، ومن تعداه مجتهدًا زلّ. فأوّل العلم حفظ كتاب الله عز وجل وتفهّمه، وكلّ ما يعين على فهمه فواجبٌ طلبه معه. ولا أقول: إنّ حفظه كلّه فرضٌ، ولكني أقول: إنّ ذلك شرط لازمٌ على من أحبّ أن يكون عالـمًا فقيهًا ناصبًا نفسه للعلم»[(٤)].

غير أنّ الاستظهار والجمع أولى ما يستعان به على الفهم والتدبّر، والمكثر من التلاوة حريٌّ بجني القرآن وقطافه؛ علمًا وعملًا، فهمًا وتطبيقًا؛ ولذا تتوارد النصوص على التأكيد على فضيلة التلاوة واقترانها بالأركان العملية؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، يخبر الله تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلًا ونهارًا، سرًّا وعلانية، يرجون ثوابًا عند الله لابدّ من حصوله[(٥)]. قال قتادة: «كان مطرّف إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القرّاء»[(٦)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٨٦.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٩٧.
(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، ١/ ٢٧٦، رقم ٧٩.
(٤) جامع بيان العلم وفضله ٢ / ١١٢٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٤٥.
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣٦٦.

وتلاوة كتاب الله تعني شيئًا آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت، تعني: تلاوته عن تدبّرٍ، ينتهي إلى إدراك وتأثّر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك، ومن ثمّ يتبعها بإقامة الصلاة، وبالإنفاق سرًّا وعلانية من رزق الله[1]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

فقوله: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتبعونه حقّ اتّباعه، وإجماع الحجة من أهل التأويل على أنّ ذلك تأويله[2]. وهو قول ابن مسعود وابن عبّاس والحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وغيرهم[3].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

والذين يعملون بما في كتاب الله، وأقاموا الصلاة بحدودها، ولم يضيّعوا أوقاتها، فإنّ الله لا يضيع أجر عملهم الصالح[4]. والتعبير بقوله: ﴿ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾، وما فيه من إشعارٍ بتعدّي صلاحهم في أنفسهم إلى إصلاحهم غيرهم؛ يصيّرنا إلى القول بأنّ تمسيكهم بالكتاب لم يقتصر على إمساكهم هم؛ بل مسّكوا به غيرهم نصحًا وأمرًا وتعليمًا وتفهيمًا، والله تعالى أعلم.

إنّ استقراء الآيات التي صرّحت بمقاصد إنزال القرآن الكريم لا يدع مدخلًا لـمـراءٍ، ولا تهوّكًا لهويٍّ: أنّ الـمراد بحفظ القرآن هو حفظ مبانيه ومعانيه والعمل بما فيه، وهاك طرفًا منها: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وحفظ العلم من حفظ القرآن، والعلماء الحقيقون باسمهم موصوفون بالعبودية ومعروفون بالخشية؛ ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، قال ابن مسعود: «ليس العلم بكثرة الرواية، ولكنّ العلم الخشية»[5]. وقال: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار جهلًا»[6]. وقال مسروق: «بحسب الرجل من العلم أن يخشى الله»[7]. وعن يحيى بن أبي كثير قال: «العالم من خشي الله»[8]. وقال الحسن:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٤٣.
(٢) حكى هذا الإجماع الطبري في تفسيره ٢/ ٤٩٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٨٧-٤٩٣، تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢١٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٤١.
(٥) أخرجه أحمد في الزهد، رقم ٨٧٢.
(٦) أخرجه أحمد في الزهد، رقم ٨٦٩.
(٧) أخرجه أحمد في الزهد، رقم ٢٠٧٤.
(٨) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١٢/ ٢٧٩.

«العلم علمان: علمٌ على اللسان، فذاك حجّة الله على ابن آدم، وعلمٌ في القلب، فذاك العلم النافع»[1].

فالعلم ما أورث الخشية والتقوى، وكلّما ازداد المرء علمًا يجب أن يرى ذلك في عمله وتقواه؛ هذا هو الحفظ الحقّ، فإذا قام المرء بالعلم أورثه الله علم ما لم يعلم، ورزقه فهم ما يجمع؛ فالعمل بالعلم وتقوى الله والخشية تورث العلم والحفظ، يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

نزع منها كثيرٌ من أهل العلم أنّ تقوى الله تفتح قلوبهم للمعرفة وتهيّئ أرواحهم للتعليم؛ ليقوموا بحق هذا الإنعام بالطاعة والرضى والإذعان[2]. وقال عمر بن عبد العزيز: «إنما قصّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا»[3]. فالقيام بحقّ العلم بالعمل به وتعليمه يثبّته، والعلم يزكو على الإنفاق.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

واختلف القرّاء فقرأ المكيّان والمدنيان والبصريان (يعلمون) بفتح الياء وسكون العين وفتح اللام مخفّفة، من العلم أي: بعلمكم الكتاب. وقرأ ابن عامر والكوفيّون ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بضمّ التاء وفتح العين وكسر اللام مشدّدة[4]: أي: بتعليمكم الناس الكتاب، ودراستكم إيّاه، فوصفهم بالتعليم متضمّنٌ وصفهم بالعلم؛ إذ لا يعلّمون إلا بعد علمهم بما يعلّمون، فلا موصوف بأنه يعلّم إلا وهو موصوفٌ بأنه عالم، وأما الموصوف بأنه عالم فغير موصوف بأنه معلّمٌ غيره، فهو أبلغ في مدح القوم بوصفهم بأنهم كانوا يعلمون الناس الكتاب[5].

قال ابن عاشور: «و﴿تَدْرُسُونَ﴾ معناه تقرؤون؛ أي: قراءة بإعادة وتكرير؛ لأنّ مادة (درس) في كلام العرب تحوم حول معاني التأثّر من تكرّر عملٍ يعمل في أمثاله، فمنه قوله: درست الرّيح رسم الدار: إذا عفته وأبلته، فهو دارسٌ، يقال: منزل دارس، والطريق الدارس العافي الذي لا يتبيّن، وثوب دارسٌ خلقٌ، وقالوا: درس الكتاب إذا قرأه بتمهّل لحفظه، أو للتدبّر، وفي الحديث: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا

(١) أخرجه الدارمي في سننه، ١/ ٣٧٣-٣٧٤، رقم ٣٧٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٣٧.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٢٦.
(٤) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ١٨١.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٣١.

نزلت عليهم السكينة)[1]. فعطف التدارس على القراءة، فعلم أنّ الدراسة أخصّ من القراءة. ومادة (درس) تستلزم التمكن من المفعول؛ فلذلك صار درس الكتاب مجازًا في فهمه وإتقانه؛ ولذلك عطف في هذه الآية ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ على ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾»[2].

ثالثًا: حفظ الصلاة:

إنّ من أعظم ما يجب حفظه من الشرائع الصلاة. وقد أمر الله عز وجل بالمحافظة عليها، فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وامتدح المؤمنين بالمحافظة عليها: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

وتوعّد الله عز وجل مضيّعها؛ فقال:

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

والغيّ وادٍ في جهنم، وقيل: غيًّا: هلاكًا، وقيل: يلقون غيًّا، أي: يلقون جزاء غيّهم[3].

والصلاة معظّمٌ قدرها، وظاهرٌ خطرها، ومعلومٌ منزلتها؛ فهي عمود الدين، المفروضة من فوق سبع سماواتٍ، وهي آخر ما يرفع من الشرائع، وأوّل ما يحاسب عليه المرء من الأعمال، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله. وإقامة الصلاة من أكثر ما المسلم به مأمورٌ في الوحيين بعد تحقيق التوحيد. ولا تتحقّق إقامة الصلاة إلا بالمحافظة على ثمانية أمورٍ، إذا أتمّها العبد على وجهها، وأدّاها على مقصودها، فقد حفظ الصلاة على تمامها، وإن قصّر في أحدها أو فرّط، فقد فرّط في أصلها أو في كمالها، بحسب ما هو فيه مقصّرٌ، وبقدر ما نزل عن التمام. وإليك البيان باختصار:

الأمر الأول: إخلاص النية في الصلاة لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الذكر والدّعاء والتوبة والاستغفار، باب الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذّكر، رقم ٢٦٩٩.

(٢) التحرير والتنوير ٣/ ٢٩٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٧١-٥٧٤.

[البقرة: ٢٣٨].

وقوله في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

وقوله في وصف المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وعن حنظلة الكاتب؛ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من حافظ على الصلوات الخمس: على وضوئها، ومواقيتها، وركوعها، وسجودها، يراها حقًّا لله عليه، حرّم على النار)[1]. فقوله صلى الله عليه وسلم: (يراها حقًّا لله عليه) إشارةٌ إلى إخلاص النيّة فيها لله. والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرةٌ.

الأمر الثاني: المحافظة على إحسان الوضوء لها، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خمسٌ من جاء بهنّ مع إيمانٍ دخل الجنّة: من حافظ على الصلوات الخمس: على وضوئهنّ وركوعهنّ وسجودهنّ ومواقيتهنّ، وصام رمضان، وحجّ البيت إن استطاع إليه سبيلًا، وأعطى الزكاة طيّبة بها نفسه وأدّى الأمانة) قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداء الأمانة؟ قال: الغسل من الجنابة[2]. وعن ثوبان رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أنّ خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)[3].

الأمر الثالث: المحافظة على وقتها؛ يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

ويقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥]، قال جماعة من أهل العلم: أي: يؤخّرونها عن وقتها، فلا يصلّونها إلا بعد خروج وقتها[4]. وقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

أي: واظبوا على الصلوات المكتوبات

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٢٧٨، رقم ١٨٣٤٥.
وجوّد الألباني إسناده، في صحيح الترغيب، رقم ٣٨١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب المحافظة على الصلوات، رقم ٤٣٠.
وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب، رقم ٧٣٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٦٠، رقم ٢٢٣٧٨.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١١٥.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٥٩- ٦٦١.

في أوقاتهنّ، وتعاهدوهنّ والزموهنّ، وحافظوا على الصلاة الوسطى منهنّ[1].

وإنّ أخصّ ما فسّر به المحافظة على الصلاة هو المحافظة على وقتها. عن مسروق قال: «المحافظة عليها: المحافظة على وقتها، وعدم السهو عنها»[2]. وعن ابن مسعود رضي الله عنهم قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أي العمل أحبّ إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها) الحديث[3].

وعن أبي قتادة بن ربعيّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله عز وجل: إني فرضت على أمّتك خمس صلوات، وعهدتّ عندي عهدًا: أنّه من جاء يحافظ عليهن لوقتهنّ أدخلته الجنّة، ومن لم يحافظ عليهنّ فلا عهد له عندي)[4].

الأمر الرابع: المحافظة على مكانها وجماعتها؛ ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

والأحاديث في فضل الصلاة في جماعةٍ في المسجد مشهورة؛ فمن الترغيب قوله صلى الله عليه وسلم: (من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له نزله في الجنة كلّما غدا أو راح)[5]، ومن الترهيب قوله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطبٍ فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذّن لها، ثم آمر رجلًا فيؤمّ الناس، ثمّ أخالف إلى رجال فأحرّق عليهم بيوتهم)[6].

الأمر الخامس: المحافظة على خشوعها وصفتها، يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

ويقول: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وفسّر القنوت في هذه الآية بالخشوع

(١) المصدر السابق ٤/ ٣٤٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم ٥٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم ٨٥.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب المحافظة على الصلوات، رقم ٤٢٩.
وحسّنه الألباني في السلسة الصحيحة، رقم ٤٠٣٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الأذان، باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح، رقم ٦٦٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، رقم ٦٦٩.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الأذان، باب وجوب صلاة الجماعة، رقم ٦٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلّف عنها، رقم ٦٥١.

في الصلاة؛ أي: وقوموا لله في صلاتكم خاشعين، خافضي الأجنحة، غير عابثين، ولا لاعبين[1]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (وصلّوا كما رأيتموني أصلّي)[2]. وعن عبادة قال: أشهد أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (خمس صلوات افترضهن الله عز وجل، من أحسن وضوءهنّ، وصلّاهنّ لوقتهنّ، وأتمّ ركوعهنّ وخشوعهنّ، كان له على الله عهدٌ أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهدٌ؛ إن شاء غفر له، وإن شاء عذّبه)[3]. والخشوع في الصلاة يقتضي المحافظة على هيئتها من الركوع والسجود... وغير ذلك، والصلاة على الصفة التي صحّت بها الأحاديث والآثار يعين على تحقيق الخشوع.

الأمر السادس: المحافظة على نوافلها؛ كقيام الليل؛ لقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وليس هذا خاصًّا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فنحن مأمورون بالتأسّي به واتّباعه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠].

وفي الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)[4]. وهذا كناية عن حفظ الله عز وجل لعبده.

وعن أم حبيبة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها حرّمه الله على النار)[5]. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وإنما غرضنا الإشارة.

الأمر السابع: الأمر بإقامة الصلاة، وخصوصًا من هم في مسئولية المرء، يقول تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه: ١٣٢].

---

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٨١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، عن مالك ابن الحويرث رضي الله عنه، كتاب الأذان، باب أذان المسافرين إذا كانوا جماعة، رقم ٦٣١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ح ٢٢٧٠٤، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب المحافظة على الصلوات، ١/ ١١٥، رقم ٤٢٥.
وصحّحه الألباني في المشكاة، رقم ٥٧٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم ٦٥٠٢.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الأربع قبل الظهر وبعدها، رقم ١٢٦٩، والترمذي في سننه، كتاب مواقيت الصلاة، باب ما جاء في الركعتين بعد الظهر، رقم ٤٢٨.
وصحّحه الألباني في المشكاة، رقم ١١٦٧.

وأثنى الله على إسماعيل أنّه كان آمرًا بالصلاة: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

الأمر الثامن: المواظبة على كلّ ما مضى، والمداومة عليه، وبذا يكون العبد من المصلّين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

وإدامتها ألا يتركها أبدًا، عن أبي سلمة، عن عائشة، قالت: (كان أحبّ الصلاة إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم ما داوم عليها وإن قلّت، وكان النّبيّ صلى الله عليه وسلم إذا صلّى صلاةً داوم عليها)، وقال أبو سلمة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣][(١)].

وقد فسّر عقبة ابن عامر الدوام بقوله: «هم الذين إذا صلّوا لم يلتفتوا خلفهم، ولا عن أيمانهم، ولا عن شمائلهم»[(٢)]، وبنحوه عن عمران بن حصين[(٣)].

وقيل: إدامتها هو إقامتها في أوقاتها[(٤)].

ولا تعارض بين ذلك كلّه على ما ذهبنا إليه من أنّ المحافظة على الصلاة تتضمّن المحافظة على كلّ ما سبق الإشارة إليه، فإنّ فاعل بعضه في كلّ الوقت، أو فاعله كلّه في بعض الوقت لا يقال له محافظٌ.

قال المروزي: «ولم نجد الله عز وجل مدح أحدًا من المؤمنين بمواظبته على شيء من الأعمال مدح من واظب على الصلوات في أوقاتها، ألا تراه كيف ذكرها مبتدأةً من بين سائر الأعمال.

قال الله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

ثم لم يرئ أحدًا من هذين الخلقين المذمومين من جميع الناس قبل المصلين فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢-٢٣].

ثم أعاد ذكرهم في آخر الآيات بذكر آخر فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٤-٣٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ٢٩]؛ في كلّ ذلك يبدأ بمدح الصلاة قبل سائر الأعمال، تبعها ما تبعها من سائر الطاعات، فكرّر الثناء عليهم، ومدحهم بالمحافظة عليها؛ ليدوموا عليها، كل ذلك تأكيدًا لها، وتعظيمًا لشأنها»[(٥)].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٤٥٤٠، واللفظ والزيادة له، والبخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم شعبان، رقم ١٩٧٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان، رقم ٧٨٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٦٨.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٢/ ٤٢، رقم ٤٥٨٠.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٤٨.
(٥) تعظيم قدر الصلاة ١/ ١٣٦.

وإنّها لكبيرةٌ إلا على ما يسّر الله عليه ذلك؛ ولذا يقترن الأمر بالصلاة بالأمر بالصبر؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

والصبر يحفظ على المرء الاستدامة على الطاعة، ويحمله على احتمال مشاقّها وتبعاتها.

رابعًا: حفظ الفرج:

يتبوّأ حفظ الفرج مكانًا بين ما أمر به المكلّفون في القرآن الكريم، ولا تتجلّى أهميّته بتكراره الملموس فحسب؛ وإنّما بالتنوّع والتقصّي الـمعبّد سبيل تحقيق حفظ الفرج، فأمر بحفظ مقدّماته تأثيرًا وتأثّرًا، فأمر سبحانه بحفظ العورات وسترها؛ لأنّ المرء مجبول على التأثّر بما يراه من عوراتٍ. ولما كانت الحواسّ: البصر والسمع والشمّ واللمس، هي مداخل هذا التأثّر ومعابره، أمر العبد بحفظها. فوضع لحفظ الفرج حاجزان: ستر العورات، وحفظ الحواسّ الـمفضية إليها، والـمطلعة عليها. ولو اقتصر على أحدهما ثمّ تحرّاه المكلّفون لتمّ الأمر، ولكن لخطورته لم يكتف بواحدٍ؛ بل فرض الاستئذان، ومنعت الخلوة، وشرع الحجاب. وحياطةً لهذا كلّه عظّم أمر العفاف والحياء، وزكاة القلب، وطهارة الخواطر، ثمّ هيّأ بالزواج مصرفًا شرعيًّا؛ لترشيد الشهوة، ووضعها موضعًا طيّبًا لا دنس فيه ولا رذيلة.

ثمّ لم يقتصر الأمر على خطاب الـمكلّفين، ومعلومٌ أنّ الـمكلّفات يدخلن فيه ضمنًا؛ بل اختصّهنّ بخطابٍ مستقلٍّ؛ لأنّ الطّرفين فاعلان في تحقيق المقصد، ولو حقّقه طرفٌ دون الآخر لانتقض على المجموع. ثمّ يتأكّد الأمر على فئامٍ من الـمكلّفين قد يظنّ أنّ التحفّظ في حقّهم لا ضرورة له؛ لغياب الباعث على الخرق؛ كشأن القواعد من النّساء، أو لسموّ المنزلة وجلالتها في قلوب المسلمين؛ كشأن أمّهات المؤمنين. ثمّ يتعدّى الخطاب إلى بعض غير الـمكلّفين؛ كالأطفال المدركين المميّزين. وعلى كلّ ذلك دلّت الأدلّة الـمستفيضة من الوحيين. ولسنا بصدد تقصّيها، ولكن لنأخذ منها ما يحصل به المقصود بإذن الله.

يقول تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

والآية الكريمة جاءت بعد تفصيل بعض آداب الاستئذان وقواعده، ثمّ يأمر الله عز

وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرشد المؤمنين إلى غضّ البصر عن العورات والمحارم. وقد بلّغ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكان يعلّم أصحابه وربّما خصّهم فرادى بالأمر، فيقول لعليّ رضي الله عنه: (يا عليّ؛ لا تتبع النظرة النظرة؛ فإنّ لك الأولى، وليست لك الآخرة)[1].

وأمر جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن يصرف بصره بعد نظرة الفجاءة[2].

ونهى عن وصف المرأة أمام الرجل، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا تباشر المرأة المرأة لتنعتها لزوجها كأنّه ينظر إليها)[3].

ثمّ يأمرهم بحفظ فروجهم، وحفظ الفرج يكون بحفظه عن الحرام؛ كالزّنى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[المؤمنون: ٥-٦].

فمن التمس لفرجه منكحًا سوى زوجته وملك يمينه؛ فهم العادون حدود الله، المجاوزون ما أحلّ الله لهم إلى ما حرّم عليهم[4].

وفي تكرار ثلاث آيات متتابعاتٍ بألفاظها في سورتين ما يستقدح التأمّل المليّ، ويشحذ النّظر الحفيّ، وهو -على كلٍّ- أحد أبلغ أساليب التنبيه والتأكيد.

كما يكون حفظ الفرج بستره أن يراه غير زوجٍ؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (احفظ عورتك إلا على زوجتك أو ما ملكت يمينك)[5].

ثمّ يتكرّر الأمر للمؤمنات مع كونهنّ داخلاتٍ في عموم الأمر للمؤمنين؛ على عادة الخطاب القرآنيّ، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

فلمّا أمرهنّ بغضّ البصر وحفظ الفرج أمرهنّ بكفّ ما يمكن أن يحدث به التأثير على الرجال؛ كاتّخاذ الزينة إلا ما لا يمكن إخفاؤه، والتبرّج، والسفور ﴿وَلَا يُبْدِينَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٩٧٤، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في يؤمر به من غضّ البصر، رقم ٢١٤٩، والترمذي في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في نظرة المفاجأة، رقم ٢٧٧٧، عن بريدة الأسلميّ رضي الله عنه.
وحسّنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ١٩٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، عن جرير رضي الله عنه، كتاب اللباس والزينة، باب نظر الفجاءة، رقم ٢١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب النكاح، باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، رقم٥٢٤٠، ٥٢٤١.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٢.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٣/ ٢٣٥، رقم ٢٠٠٣٤، وأبو داود في سننه، كتاب الحمّام، باب ما جاء في التعرّي، رقم ٤٠١٧.
وحسّنه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم ٣١١٧.

﴿زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

وكان النساء في الجاهلية يمشين في الطريق وفي أرجلهنّ الخلاخيل فيضربن بأرجلهنّ الأرض، فيعلم الرجال طنين الخلاخيل، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾. وتنهى كذلك إذا كان شيءٌ من زينتها مستورًا أن تتحرّك بحركةٍ لتظهر ما هو خفيٌّ[(١)].

ومما يبعث كوامن الاشتهاء ويحرّكها أن يجد الرجال ريح طيب المرأة، فنهيت النساء عن ذلك، وغلّظ فيه القول، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أيّما امرأة استعطرت فمرّت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية)[(٢)].

لقد أوضح النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ أكثر ما يدخل الناس النار الفم والفرج[(٣)]، فحدّ لهم حدًّا واضحًا: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنّة)[(٤)].

وبشّر الله تعالى المؤمنين ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] بأنّ لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا.

ومدح العفيفات بقوله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

أي: حافظات لأنفسهنّ عند غيبة أزواجهن عنهنّ في فروجهنّ وأموالهم[(٥)].

خامسًا: حفظ الأمانات:

الأمانة في اللغة: تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان[(٦)].

وكلّ ما استودع المرء حفظه حياطةً وأداءً فهو أمانة، فمنه أمانات الناس وودائعهم، ومنه الفرائض والطاعات الشرعية.

والشرع كلّه أمانةٌ، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وحسبك بقول أنس رضي الله عنه: ما خطبنا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩.
(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الزينة، باب ما يكره للنساء من الطّيب، رقم ٥١٢٦.
وحسّنه الألباني في المشكاة، رقم ١٠٦٥.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه، رقم ٧٩٠٧، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم ٢٠٠٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم ٤٢٤٦.
وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٧٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم ٦٤٧٤.
(٥) جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٩٢.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٣٣

له)[1].

وعن عبد الله بن عمرو أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (أربعٌ إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفّة طعمة)[2].

وعن جابر رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة)[3].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرّها)[4].

يعني: إنّ من أعظم خيانة الأمانة؛ على حذف المضاف.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: «الأمانة: الفرائض التي افترضها الله عز وجل على عباده»[5].

وقال أبو العالية: «الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه»[6].

وقال الضحّاك: «الأمانة الدّين»[7].

وقال أبيّ بن كعب رضي الله عنه: «من الأمانة أنّ المرأة اؤتمنت على فرجها»[8].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «من تضييع الأمانة النظر في الحجرات والدور»[9].

فبعضهم فسّرها بالعموم والإجمال، وبعضهم فسّرها ببعض المهمّات، ولا تعارض.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨].

وهذا يعمّ جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلوات والزكوات، والكفّارات والنذور والصيام... وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطّلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع... وغير

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ٣٧٦، رقم ١٢٣٨٣.
وحسنه الألباني في المشكاة، رقم ٣٥.

(٢) أخرجه أحمد مسنده، ١١/ ٢٣٣، رقم ٦٦٥٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٧٣٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في نقل الحديث، رقم ٤٨٦٨، والترمذي في سننه، كتاب البرّ والصلة، باب ما جاء أنّ المجالس أمانة، رقم ١٩٥٩.
وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٠٨٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سرّ المرأة، رقم ١٤٣٧.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ١٩٧.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣١٥٩.

(٧) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١٢/ ١٦٠.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره، ١٩/ ٢٠٠.

(٩) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٤٩٠٦.

ذلك، مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير ضمانٍ على ذلك، فأمر الله عز وجل بأدائها[1]. وامتدح الله عز وجل المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

فإذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك[2]، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[3].

ومن الأمانة بمعنى: الوديعة ما تحمّله إخوة يوسف إذ عاهدوا أباهم على ردّه، وهم قد أضمروا به السّوء؛ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١١-١٢]؛ أي: نحوطه ونكلؤه. ولم يكن منهم وفاءٌ، وكان من شأنهم ما كان.

ثمّ لـمّا أدال الله عز وجل عليهم، ودخلوا على يوسف -وهم لم يعرفوه- يطلبون الميرة لأهليهم، فطلب منهم أن يرجعوا إليه ومعهم أخوهم، ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٣-٦٤].

وإنّما لم يأتمنهم يعقوب عليه؛ لأنّ لهم سابقةً مع يوسف لم يوفوا فيها. ولـمّا كان تفريطهم وتضييعهم في المرّة الأولى بتخطيطٍ منهم وإصرارٍ، فقد شاء الله عز وجل أن يعجزوا عن صيانة الأمانة للمرّة الثانية؛ إذ كان ليوسف إرادةٌ في استبقاء أخيه لأمرٍ أراده الله. فلمّا تمّ له ذلك ذهبوا يترجّون يوسف في افتداء أخيهم بأحدهم، فأبى، وهنا لم يجدوا مخرجًا إلا الاعتراف بعجزهم وتقصيرهم: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨٠-٨١].

لما يئسوا من تخليص أخيهم وهم قد التزموا لأبيهم بردّه إليه، وعاهدوه على ذلك، انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم، فيذكّرهم كبيرهم بالميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم، ويذكّرهم بتفريطهم في يوسف؛ فإنّ

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٣٨.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٤٦٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ١٠٧.

الثانية غير الأولى، ولو كانت أوّل سقطةٍ لأمّلوا في صفح أبيهم ورضائه. ثمّ يقترح عليهم كبيرهم الحلّ الذي قد يبرئ ساحتهم عند أبيهم بأن يخبروه أنّ ابنه سرق، وما قلنا: إنّه سرق إلا بظاهر علمنا بأنّ ذلك كذلك؛ لأنّ صواع الملك أصيب في وعائه دون أوعية غيره، وما كنا للغيب حافظين، وما كنا نرى أنّ ابنك يسرق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما تعهّدنا بأن نحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه السبيل، وهذا ليس منه[1].

ولا نزال مع قصّة يوسف؛ لنرى تحمّل يوسف الأمانة، وهو المشهود له من صاحبي السجن: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

والمشهود له من النسوة: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

والمشهود له من امرأة العزيز وهي خصمه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

فلم يكن من المستغرب أن يقول له الملك حين رآه: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]؛ أي: إنك يا يوسف لدينا مكينٌ أمينٌ؛ أي: متمكّنٌ مما أردتّ، وعرض لك من حاجةٍ؛ لرفعة مكانك ومنزلتك لدينا، أمين على ما اؤتمنت عليه من شيء[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٨٨-٢٨٩.
(٢) المصدر السابق ١٣/ ٢١٦.

سادسًا: حفظ الأيمان:

الأيمان: جمع يمين، وأصلها العضو، واستعملت في الحلف مجازًا؛ لأنّهم كانوا يتماسحون بأيمانهم فيتحالفون[3].

وقد أمر الله عز وجل بحفظ الأيمان بقوله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وفي بيان المراد بحفظ الأيمان عدة أقوال للمفسّرين والأصوليين وغيرهم، ليس بينها -في الجملة- تعارضٌ ولا تدافعٌ، ولذا سنوردها على أنّها صورٌ لحفظ الأيمان، من فرّط في واحدةٍ منها فقد فرّط في قدرٍ من حفظ الأيمان المأمور به في الآية الكريمة. وترتيب هذه الصّور من لحظة العزم على عقد اليمين؛ لا بترتيب أخطرها أثرًا، ولا أرجحها معنًى.

الأولى: حفظ اليمين بالإقلال منها، والضنّ بها، وعدم بذلها لكلّ أمرٍ[4]، وقد ذهب جماعةٌ إلى أنّه المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]؛ أي: لا تستكثروا من الأيمان؛ فإنّ من كثر يمينه فقد جعل اسم الله عرضةً للهتك، وقد ذمّ الله عز وجل كثرة الحلف في قوله

(٣) أساس البلاغة، الزمخشري ٢/ ٣٩١.
(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ١/ ٣٣٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٣.

تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]؛ ذلك أنّ من حلف بالله في كلّ قليل وكثير، انطلق لسانه بذلك، فلم يبق لليمين في قلبه وقعٌ، فلا يؤمن إقدامه على الأيمان الكاذبة. وكلما كان الإنسان أكثر تعظيمًا لله كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله أجلّ وأعلى عنده من أن يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية[(١)].

الثانية: فإن كان حالفًا فليحفظ يمينه أن يحلف بغير الله، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **(من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)**[(٢)].

وعن عمر رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ألا إنّ الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)**[(٣)]. والأحاديث في الباب كثيرةٌ.

الثالثة: حفظ اليمين أن يحلف على إثم، أو قطيعة رحم، أو أن يحلف فيما لا يملك؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢٢]؛ نزلت في شأن أبي بكر ومِسْطَح رضي الله عنهما وكان ابن خالة أبي بكر رضي الله عنه وفي نفقته، وهو رجل من أهل بدر من المهاجرين الأوّلين رضي الله عنهم، فلما ذكر في عائشة ما ذكر في حادث الإفك، ونزلت براءتها من السماء، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه، وكان مسكينًا لا شيء له، فنزلت هذه الآية[(٤)].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **(لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم، ولا في معصية الله، ولا في قطيعة رحم)**[(٥)].

الرابعة: حفظ اليمين بعدم تعمّد الأيمان الكاذبة، فقوله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾

---

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٢٧، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٦٨، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٨٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٠/ ٢٤٩، رقم ٦٠٧٢، وأبو داود في سننه، كتاب الأيمان والنّذور، باب اليمين بغير الله، ٣/ ٢٢٣، رقم ٣٢٥١، والترمذيّ في سننه، كتاب الأيمان والنّذور، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، ٤/ ١١٠، رقم ١٥٣٥.
وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٠٤٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، ٣/ ١٢٦٧، رقم ١٦٤٦.

(٤) أخرج قصة الإفك البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم ٤١٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، رقم ٢٧٧٠.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأيمان والنّذور، باب اليمين في قطيعة الرّحم، رقم ٣٣٢١، والنسائي في سننه، كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين في ما لا يملك، رقم ٣٧٩٢.

يحتمل أن يكون المراد منه: لا تتعمّدوا الأيمان الكاذبة، وهو قول سعيد بن جبير[1]، وبه قال مقاتل[2].

وإنّ متعمّد اليمين الكاذبة بغير ضرورة تصيّره إليها، قد اجترح كبيرةً من الكبائر؛ وهي اليمين الغموس.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤].

حذّر الله تعالى عباده من اتخاذ الأيمان خديعةً ومكرًا؛ لئلا تزلّ قدمٌ بعد ثبوتها؛ مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزلّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصدّ عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوقٌ بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام[3].

وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: (الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس)[4].

واليمن الغموس هو أن يحلف الرجل على الماضي متعمّدًا الكذب؛ بأن يقول: والله فعلت كذا، أو: والله ما فعلت كذا، وهو يعلم أنّه كاذب ما فعله، أو أنه فعله. وأعظمها أن يحلف الرجل كاذبًا؛ ليذهب بمال أحد أو حقّه. وسمّي غموسًا؛ لأنه يدخل صاحبه في النار، أو في الإثم[5]. وفاعل ذلك مفرّطٌ -ولا شكّ- في حفظ الأيمان.

الخامسة: حفظ اليمين من الحنث فيها[6]. فمن حلف فليجتهد أن يوفّي كما حلف.

السادسة: ومن حفظ الأيمان ألّا يجعلها تحول بينه وبين البرّ والتقوى والإصلاح بين الناس، فيحلف على عدم فعل البرّ، ويتذرّع إلى القطيعة والركود عن السعي في الإصلاح؛ بأنّه أقسم على ألا يصل وألا يصلح، وهو أحد وجهي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]؛ معناه: ولا تجعلوه علّة لأيمانكم؛ وذلك إذا سئل أحدكم الشيء من الخير والإصلاح بين الناس.

قال: عليّ يمينٌ بالله إلا أفعل ذلك، أو: قد حلفت بالله أن لا أفعله. فيعتلّ في تركه

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٩٥.
(٢) تفسير مقاتل ١/ ٥٠٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٠.
(٤) أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، كتاب الأيمان، باب اليمين الغموس، رقم ٦٦٧٥.
(٥) انظر: إكمال المعلم، القاضي عياض ١/ ٤٣٤، الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي ٢/ ٥٠٥.
(٦) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٦١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٣.

فعل الخير، والإصلاح بين الناس بالحلف بالله[1].

وهو كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: (من حلف على يمينٍ فرأى غيرها خيرًا منها، فليأت الذي هو خيرٌ وليترك يمينه)[2].

فمن فعل ترك إتيان الذي هو خيرٌ متذرّعًا بيمينه فقد أعرض وضيّع وفرّط بقدر ما ترك من الخير؛ لأنّه وضعها في غير موضعها الذي شرعه الله عز وجل من أجلها، وترك الامتثال لله ورسوله، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (والله لأن يلجّ أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه)[3].

يريد به أنّ الرجل إذا حلف على شيءٍ وأصرّ عليه لجاجًا مع أهله، كان ذلك أدخل في الوزر وأفضى إلى الإثم من أن يحنث في يمينه ويكفّر عنها؛ لأنّه جعل الله بذلك عرضة الامتناع عن البرّ والمواساة مع الأهل وأصرّ على اللجاج[4].

والفرق بين هذه الصورة وبين الصورة الثالثة: أنّ هذه الصورة فيمن عقد اليمين ثمّ رأى غيرها خيرًا منها، أمّا الصورة الثالثة: ففي من عقد اليمين ابتداءً مع كونه يعلم أنّ غيرها خيرٌ منها وأبرّ، أو يعلم أنّه فيما ينويه ويحلف عليه آثمٌ أو تاركٌ للأولى.

وهذه الصورة مخصوصةٌ من عموم وجوب عدم الحنث في الأيمان، فلا تعارض.

السابعة: من صور حفظ الأيمان أن يحفظ المرء كيف حلف بها، وعلام حلف تحديدًا، فلا ينسى ذلك تهاونًا بها[5]. وأمّا الذي غلب على النسيان فهو معذورٌ بنسيانه.

الثامنة: حفظ الأيمان من أن يحنث فيها ثم يضيّع كفّارتها، بل عليه أن يبادر لأداء الكفّارة إذا حنث[6].

فهذه الصّور كلّها داخلةٌ في حفظ الأيمان، من وعاها وراعاها فقد أدّى ما عليه. والله المستعان.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها، رقم ١٦٥١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنّذور، باب قوله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم)، رقم ٦٦٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب النهي عن الإصرار على اليمين فيما يتأذى به أهل الحالف مما ليس بحرام، رقم ١٦٥٥.
(٤) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي ٨/ ٢٤٤٠.
(٥) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٧٤.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٦٥٥.

ثواب الحافظين، وعاقبة المضيعين

أولًا: ثواب الحافظين في الدنيا والآخرة:

رأينا أنّ الحفظ عقدٌ فريدٌ ينتظم درّ الطاعات، فهو رعايةٌ ووفاءٌ وتقوى، وهو جهادٌ في تزكية النّفس، وترقيتها في مراقي الكمال. وإذًا فكلّ ثمرةٍ مخصوصةٍ لطاعةٍ مخصوصةٍ فهو ثمرةٌ للحفظ في الدنيا والآخرة. وما وعد حافظٌ بأفضل من قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وبقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وأمثال ذلك من الآيات، وبقول النبي صلى الله عليه وسلم: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك)[(١)]، ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكفى به حاديًا للحفظة.

ومن حفظ حدود الله، وراعى حقوقه، حفظه الله، فإنّ الجزاء من جنس العمل[(٢)].

ومن حفظ الله للحافظ المراعي أن يحفظه في مصالح دنياه؛ فيحفظه في عقله، ومن سنن الله عز وجل في خلقه أن يجد المعمّر وهنًا في قوّته، وضعفًا في قدراته العقلية، فطبعيٌّ أن ينكر من نفسه وينكر منه بعض ما كان يمدح به من رجاحة العقل، وحدّة الذاكرة، وجودة التفكير. ونحو ذلك.

يقول تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۗ﴾ [النحل: ٧٠].

إلا أنّ العلماء العاملين وقرّاء القرآن الحافظين لا يجري عليهم هذا القانون بمثل ما يجري على غيرهم؛ قال ابن عباس: «من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥-٦].

قال: إلا الذين قرؤوا القرآن»[(٣)].

وعن عكرمة قال: «من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر»[(٤)].

وعن الشّعبيّ قال: «من قرأ القرآن لم يخرف»[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن عبّاس، ٥/ ١٩، رقم ٢٨٠٣، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٩، ٤/ ٦٦٧، رقم ٢٥١٦.
قال الترمذي: «حسن صحيح». وصحّحه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣١٧، رقم ٧٩٥٧.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٤٣٦.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة والتين، رقم ٤٠١٠.
قال الحاكم: «صحيح الإسناد». وصححه الألباني في صحيح الترغيب، رقم ١٤٣٥.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف، ١٠/ ٤٦٨، رقم ٣٠٥٧٨.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في العمر والشيب

وعن طاوس قال: «إن العالم لا يخرف»[1].

وعن عبد الملك بن عمير قال: «كان يقال: إنّ أبقى الناس عقولًا قرأة القرآن»[2].

وعن محمد بن كعب قال: «من قرأ القرآن متّع بعقله وإن بلغ مائتي سنة»[3].

قال الشنقيطي: «وقال بعض العلماء: إنّ العلماء العاملين لا ينالهم هذا الخرف، وضياع العلم والعقل من شدة الكبر. ويستروح لهذا المعنى من بعض التفسيرات في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥-٦]»[4].

ومن ذلك حفظ الله أبدان الحافظين؛ ومن حفظ الله في صباه وقوته، حفظه الله في حال كبره وضعف قوته، ومتّعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله.

قال القاضي ابن بكران الشاميّ: «قلت للقاضي أبي الطيب الطبريّ شيخنا وقد عمّر: لقد متّعت بجوارحك أيها الشيخ! قال: ولم؟ وما عصيت الله بواحدة منها قطّ. أو كما قال»[5].

وقد توفّي أبو الطيّب الطبريّ عن مائة وستين، لم يختلّ عقله، ولم يتغيّر فهمه، يفتي مع الفقهاء، ويستدرك عليهم الخطأ، ويقضي، ويشهد، ويحضر المواكب إلى أن مات[6].

ومن ثمرات الحفظ أن يحفظ المرء في ولده وفي ذرّيته، بل يحفظ بصلاحه بعد موته في ذريته، في قصة صاحب الكنز؛ إذ حفظ لولديه كنزهما بصلاحه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[الكهف: ٨٢].

وقال ابن المسيّب: «إنّي لأصلّي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي». وقال محمد بن المنكدر: «إنّ الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعترته وعشيرته وأهل دويراتٍ حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم»[7].

ومن ثمرات الحفظ في الدنيا أن يحفظ الله على الحافظ ماله ويوسّع رزقه وينفّس كربه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وأهمّ ثمرات الحفظ أن يحفظ الله عز وجل على المرء دينه، ويعصمه من الزلل والتردّي في هوى المعاصي ونتنها

ص٧٥.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف، ١٤/ ٥٤، رقم ٣٦٨٤٥.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ١٠/ ٤٦٨، رقم ٣٠٥٧٦.

(٣) انظر: صفة الصفوة، ابن الجوزي ٢/ ١٣٣.

(٤) أضواء البيان ٢/ ٤١٠.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ١٧/ ٦٧٠.

(٦) المصدر السابق ١٧/ ٦٧٠.

(٧) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٩٦.

وحماتها؛ وذلك أنّ التقوى تفتح للعبد نور البصيرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾[الأنفال: ٢٤].

قال ابن عبّاس والضحّاك بن مزاحم في معناه: «يحول بين المؤمن وبين معصيته»[(١)].

وفي قصة حادث الإفك تقول عائشة رضي الله عنها: (وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: يا زينب، ما علمت، ما رأيت؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا. قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع)[(٢)]. كيف لا وقد وصفتها السيدة عائشة، قالت: (ولم أر امرأةً قطّ خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدّق به، وتقرّب به إلى الله تعالى)[(٣)].

ومن ذلك أنّ الله عز وجل يحفظ المرأة الصالحة بما حفظت حدود الله، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

وأمّا جزاء الحافظين في الآخرة فقد وعدهم ربّهم: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣١-٣٥].

والأوّاب الحفيظ هو الحفيظ لكلّ ما قرّبه إلى ربه من الفرائض والطاعات والذنوب التي سلفت منه بالتوبة والاستغفار[(٤)].

والحفظ ملكةٌ تورث التحفّظ والتيقّظ والإدمان على محاسبة النّفس وحفظ أخطائها عليها ومجازاتها بها حرمانًا من ملذّاتها، ومنعها من الاسترسال في نيل شهواتها، ولذا نقل عن ابن عبّاس: «أنّ الحفيظ هو الذي حفظ ذنوبه حتّى رجع عنها وتاب منها»[(٥)]. وإنّما خفّ الحساب على أمثال هؤلاء، فكانوا جديرين بالمغفرة، حقيقين بمنازل الأبرار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون: ١٠-١١].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ١٠٩-١١٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم ٤١٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، رقم ٢٧٧٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضل عائشة رضي الله عنها، رقم ٢٤٤٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٥٢.
(٥) المصدر السابق.

و﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكۡرَمُونَ﴾[المعارج: ٣٥].

وفوق ذلك: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وهو النّظر إلى وجه الله الكريم.

ثانيًا: مغبّات التضييع في الدنيا والآخرة:

لو لم يكن من مغبّات التضييع إلا أنّ صاحبه محرومٌ مما حظي به الحافظون، لكفاه ذلك غبنًا، فمن ضيّع الله ضيّعه الله، فضاع بين خلقه؛ حتى يدخل عليه الضرر والأذى ممّن كان يرجو نفعه من أهله وغيرهم، كما قال الفضيل بن عياض: «إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق خادمي ودابّتي»[(١)].

ومن التضييع أن يكلهم الله إلى أنفسهم وإلى شياطينهم؛ فيزيّنوا لهم سوء عملهم فيروه حسنًا، وهم مع ذلك محجوبون عن الانتفاع بالذكرى، والاتّعاظ بالموعظة؛ لإعراضهم عن ذلك كلّه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾ [الكهف: ٥٧].

قال الشنقيطي: «وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أنّ الإعراض عن التذكرة بآيات الله من أعظم الظلم، قد زاد عليه في مواضع أخر بيان أشياء من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة من الإعراض عن التذكرة؛ فمن نتائجه السيئة: ما ذكره هنا من أنّ صاحبه من أعظم الناس ظلمًا، ومن نتائجه السيئة: جعل الأكنّة على القلوب حتى لا تفقه الحقّ، وعدم الاهتداء أبدًا. ومنها: انتقام الله عز وجل من المعرض عن التذكرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

ومنها: الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، كما قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

ومنها: المعيشة الضنك والعمى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

ومنها: سلكه العذاب الصعد، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾[الجنّ: ١٧].

ومنها: تقييض القرناء من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾[الزخرف: ٣٦].

.. إلى غير ذلك من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص ٤٣٩.

عن التذكير بآيات الله جل وعلا»[1].

فالمضيّعون مضيّعون في أمر معاشهم ودنياهم، وفي أبدانهم وقواهم، وفي أولادهم وأهليهم، مضيّعون في الدّنيا ضيّقةٌ أرزاقهم ممحوقة بركتها، ومعذّبون في قبورهم، ومنسيّون في النار؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

والضنك من المنازل والأماكن والمعايش: الشديد، يقال: هذا منزل ضنك: إذا كان ضيقًا، وعيش ضنك: شقيٌّ. قال بعض أهل التفسير: جعل ذلك لهم في الآخرة في جهنم؛ وذلك أنهم جعل طعامهم فيها الضريع والزقوم. وقال آخرون: بل عنى بذلك أنّ له معيشة في الدنيا حرامًا، ووصف الله عز وجل معيشتهم بالضنك؛ لأنّ الحرام وإن اتسع فهو ضنك. وقال فريقٌ ثالث: بل عنى بذلك أن ذلك لهم في البرزخ، وهو عذاب القبر[2].

ولـمّا أتبع الله عز وجل ذلك بقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ علم أنّ المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة؛ لأنّ ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ معنى مفهومٌ، فلا تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، لزم أن يكون كلّ من أعرض عن ذكر الله من الكفار في معيشة ضنك، ونحن نجد كثيرًا منهم أوسع معيشة من كثيرٍ من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القانتين له المؤمنين، ففي ذلك دليلٌ على أنّ ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صحّ الوجه الثالث، وهو أنّ المعيشة الضنك في البرزخ[3].

ويجوز أن يكون المراد في الدّنيا؛ لأنّ الكافر -وإن بدا في الظاهر أنّه في رغد وعيشٍ طيّب- يتقلّب في أحوالٍ من القلق والضّيق النفسيّ؛ فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيّقٌ حرجٌ لضلاله، وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه -ما لم يخلص إلى اليقين والهدى- في قلق وحيرة وشكٍّ، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة[4].

ويشهد بذلك المتخصّصون بالطبّ النفسيّ المعاصر في إحصاءاتهم وأبحاثهم ومقالاتهم.

وعندما يواقع الهالك من أمره ما هو

(١) أضواء البيان ٤/ ١٨٢-١٨٣، باختصار.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٩٢-١٩٨.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٦/ ١٩٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٢٣.

مذكورٌ يبادر بالتساؤل: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥-١٢٦].

يقول: كنت في الدّنيا ذا بصرٍ أبصر به الأشياء. فيقول له ربّه: فعلت ذلك بك فحشرتك أعمى، أتتك آياتي -وهي الحجج والأدلّة والبيان الذي جاءت به الكتب وبلّغت الرّسل- فتركتها وأعرضت عنها، ولم تؤمن بها، ولم تعمل[1].

ومن عواقب التضييع والنسيان ومغبّاته ما ذكره الله عز وجل من عذاب البغتة في الدنيا بما يقطع دابرهم ويستأصل شأفتهم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

ومن عواقبه أنّ الله عز وجل ينسيهم أنفسهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

وفوق ذلك هم موصوفون بالفسق وبئس الاسم الفسوق. ومن عواقبه ترك الله لهم في النار وإعراضه عنهم: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

ومن عواقبه ما يلاقونه من العذاب الشديد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

نسأل الله السلامة.

موضوعات ذات صلة:

القرآن، القراءة، الكتابة، الوحي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٠٢.

الحق

عناصر الموضوع

مفهوم الحق	٤١٢
الحق في الاستعمال القرآني	٤١٣
الألفاظ ذات الصلة	٤١٤
الحق سنة الله تعالى في خلقه وتدبيره	٤١٦
الحق في مجال العقيدة وأصولها	٤١٨
الحق في الإخبار عن قصص السابقين	٤٢٧
الحق في المعاملات	٤٣٠
الحق في المثل القرآني	٤٣٤
موقف الناس من الحق	٤٣٧
انتصار الحق وظهوره	٤٤٠

مفهوم الحق

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الحاء والقاف، أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته»[(١)].

وقال علماء اللغة: الحق خلاف الباطل، وجمعه حقوق وحقان، ومعنى: حقّ الأمر، يحقّ حقًّا وحقوقًا، أي: ثبت ووجب، وأحققت الشيء، أي: أوجبته، وتحقق عنده الخبر، أي: صلح، وكلامٌ محقق، أي: رصين[(٢)].

والحاقة: القيامة، وسميت بذلك؛ لأن فيها حواق الأمر، وحاقّه، أي: خاصمه، وادعى كل واحد منهما الحق[(٣)].

نخلص مما سبق أن الحق في اللغة يطلق على الثابت والواجب من كل الأمور، الذي هو خلاف الباطل، والذي يجب التمسك به وعدم تركه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تعددت تعريفات العلماء للمعنى الاصطلاحي للحق؛ نظرًا لتنوع اهتماماتهم، وأقربها لموضوعنا هو أنه: «الحكم المطابق للواقع، ويطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك»[(٤)].

فالحق أمر ثابت، لا جدال فيه، ولا تغيير، ولا ترك له.

(١) مقاييس اللغة ٢/ ١٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٩.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٤/ ١٤٦٠.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص٣٩.

الحق في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ح ق ق) في القرآن (٢٧٨) مرة، يخص موضوع البحث منها (٢٤٧) مرة[(١)].
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٢٤٧	﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١]

وأطلق الحق في القرآن على سبعة أوجه[(٢)]:

الأول: الله تعالى: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] يعني: الله تعالى.

الثاني: القرآن: ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخرف: ٢٩] يعني: القرآن.

الثالث: الإسلام: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١] يعني: الإسلام.

الرابع: العدل: ومنه قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] يعني: بالعدل.

الخامس: التوحيد: ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧] يعني: بالتوحيد.

السادس: الصدق: ومنه قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] يعني: الصدق.

السابع: الحق الذي يضاد الباطل: ومنه قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٠٨-٢١٢.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٨٨-١٩٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصدق:

الصدق لغة:

نقيض الكذب، صدق، يصدق، صدقًا، وصدقًا، وتصادقًا، قيل: صدقه الحديث: أنبأه بالصدق، ويقال: صدقت القوم، أي: قلت لهم صدقًا وتصادقًا في الحديث وفي المودة[١].

الصدق اصطلاحًا:

مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلّم[٢].

وقال الراغب: الصّدق مطابقة القول الضّمير والمخبر عنه معًا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقًا تامًّا[٣].

الصلة بين الحق والصدق:

الحق أعم من الصدق؛ لأنه وقوع الشيء في موقعه الذي هو أولى به، والصدق: الإخبار عن الشيء على ما هو به، والحق يكون إخبارًا وغير إخبار[٤].

٢ الحقيقة:

الحقيقة لغة:

الثبات، والاستقرار، والقطع، واليقين، ومخالفة المجاز[٥]. وهي اللفظ المستعمل فيما وضع له من أصل اللغة[٦].

الحقيقة اصطلاحًا:

هو كل لفظ يبقى على موضوعه، وقيل: ما اصطلح الناس على التخاطب به[٧].

الصلة بين الحقيقة والحق:

الحقيقة ما وضع من القول موضعه في أصل اللغة، حسنًا كان أو قبيحًا، والحق: ما وضع موضعه من الحكمة، فلا يكون إلا حسنًا، وإنما شملهما اسم التحقيق؛ لاشتراكهما في وضع

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٩٣.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥١١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٧٧.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٩٣.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٩.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٢٥.
(٧) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٩٥.

الشيء منهما موضعه من اللغة والحكمة[١]، ولم يرد لفظ الحقيقة في القرآن الكريم.

٣ العدل:

العدل لغة:

ضد الجور، وهو ما قام في النفوس أنه مستقيم، من عدل يعدل فهو عادل. يقال: عدل عليه في القضية فهو عادل، وبسط الوالي عدله[٢].

العدل اصطلاحًا:

هو تحرّي المساواة والمماثلة بين الخصمين بألّا يرجّح أحدهما على الآخر بشيءٍ قطّ، بل يجعلهما سواءً[٣].

الصلة بين العدل والحق:

العدل: هو العدول بالفعل إلى الحق دون جور أو ظلم، أما الحق فهو النتيجة من العدول بالفعل إلى الحق، وهو ما وجب وتحقق عنده الفعل[٤].

٤ الباطل:

الباطل لغة:

هو خلاف الحق وضده[٥].

الباطل اصطلاحًا:

هو: ما لا ثبات له، ولا خير فيه، سواء أكان اعتقادًا أم فعلًا أم كلامًا أم غيره[٦].

الصلة بين الحق والباطل:

الحق ضد الباطل.

---

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٣.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠٣٠.
(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ١٤٢.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣١.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ٤/ ١٦٣٥، مختار الصحاح، الرازي ص ٣٦.
(٦) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٤٢.

الحق سنة الله تعالى في خلقه وتدبيره

خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون، ووضع له نواميس، وأوجد له سننًا تدل على حكمته وعلمه سبحانه وتعالى.

قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وهذه السنن الإلهية هي من تقديره سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وعندما نتعرف سنن الله في خلقه وتدبيره تطمئن نفوسنا؛ لأننا نعلم أن لله سبحانه وتعالى سننًا يسيّر الخلق بناءً عليها بلا فوضى ولا اضطراب، وسنن الله سبحانه وتعالى كثيرة، لابد للمسلم أن يتفطن لها، وهذه السنن لا تبدل ولا تغير فيها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

أولًا: الحق سنّة الله سبحانه وتعالى في خلقه:

من هذه السنن سنة الحق، وعلى هذا خلق الله سبحانه وتعالى الخلق، وأوجد أهل الحق، الذين يذودون عن حياضه، وهم الرسل وأتباعهم، نموذج الحق والخير على وجه الأرض، الذين يبتغون الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويخافون ربهم من فوقهم، ويفعلون ما يؤمرون، وبالمقابل فهناك الشيطان وأتباعه، أهل الباطل الذين لا يبغون إلا نشر الفتنة، واغتصاب الحقوق، والتعدي على الآخرين، فهم نموذج الفساد والإفساد على وجه الأرض.

وقد حصل التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل منذ بدء الخليقة؛ لأن وجود أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده وإزالته، أو إضعافه، ومنعه من أن يكون له تأثير.

قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

قال الطبري في تفسير الآية: «يعني تعالى ذكره بذلك، ولولا أن الله يدفع ببعض الناس -وهم أهل الطاعة له والإيمان به- بعضًا، -وهم أهل المعصية لله والشرك به- كما دفع عن المتخلفين عن طالوت يوم جالوت من أهل الكفر بالله والمعصية له، وقد أعطاهم ما سألوا ربهم ابتداءً: من بعثة ملك عليهم؛ ليجاهدوا معه في سبيله، بمن جاهد معه من أهل الإيمان بالله واليقين والصبر،

جالوت وجنوده ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني: لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم»[1].

ثانيًا: الحق سنّة الله في تدبيره:

بيّن القرآن الكريم أن الحق غالب، وأن الباطل مهما علا فهو مدحور مهزوم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[الشورى: ٢٤].

معنى الآية: أن من شأن الله سبحانه وتعالى أن يزيل الباطل ويفضحه؛ بإيجاد أسباب زواله، وأن يوضح الحق؛ بإيجاد أسباب ظهوره، حتى يكون ظهوره فاضحًا لبطلان الباطل، فلو كان القرآن مفترى على الله لفضح الله بطلانه، وأظهر الحق، فالمراد بالباطل جنس الباطل، وبالحق جنس الحق[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء: ١٨].

قال القاسمي في معنى الآية: «﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾، أي: يمحقه بالكلية، كما فعلنا بأهل القرى المحكية، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾، أي: هالك بالكلية»[3].

وهذه قصة موسى عليه السلام مع فرعون دليل على أن الحق منتصر في النهاية.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٨].

والمعنى: أن الحق ثبت، وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخييل، وذهب تأثيره؛ إذ تبين لمن شهده وحضره أن موسى رسول من عند الله يدعو إلى الحق، وأن ما عملوه ما هو إلا إفك السحر وكذبه ومخايله[4].

ومن الأمثلة على نصرة الله سبحانه وتعالى للحق ما أنزل من الملائكة يوم بدر، قال عز وجل: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

قال المراغي: «أي: وعد الله بما وعد، وأراد إحدى الطائفتين ذات الشوكة، ليحق الحق (وهو الإسلام) ويثبته، ويبطل الباطل (وهو الشرك) ويزيله، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أولو الاعتداء والطغيان، ولا يكون ذلك بالاستيلاء على العير، بل بقتل أئمة الكفر من قريش، الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم»[5].

وفي ختام هذا المبحث نقول بأن سنة

(١) جامع البيان ٥/ ٣٧٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٨٧.
(٣) محاسن التأويل ٧/ ١٨١.
(٤) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٣٢.
(٥) انظر: المصدر السابق ٩/ ١٧١.

الله في نصر أهل الحق لا تتحقق إلا إذا هيأ المسلمون في أنفسهم ومجتمعاتهم عوامل النصر، التي أرشد القرآن الكريم إليها، وأمر الله بها، وأبعدوا عن أنفسهم ومجتمعاتهم عوامل الفشل، ومعوقات النصر.

الحق في مجال العقيدة وأصولها

صفة الحق صفة جليلة، وهي صفة كمال وبهاء وعظمة لله عز وجل، صفة ذاتية ثابتة بالكتاب والسنة، وإجماع أهل السنة، ومعنى هذه الصفة أنه هو الحق في وجوده، وفي كونه سبحانه وتعالى، وهو الحق في وعده، وهو الحق في لقائه، وهو الحق في عقابه سبحانه وتعالى. ومن الآيات القرآنية الدالة على ثبات هذه الصفة لله عز وجل، قوله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].

نبه سبحانه وتعالى بهذه الآية على أن كل ما سوى الله سبحانه وتعالى -وإن كان موجودًا حقًّا- فإنه لا حقيقة له من نفسه؛ لأنه مسخر مصرف، والحق الحقيقي هو الموجود الثابت الذي لا يتغير ولا يزول هو الله سبحانه وتعالى[1].

أولًا: الله سبحانه وتعالى هو الحق:

إن الله سبحانه وتعالى هو الحق، وهذه الصفة ثابتة لله سبحانه وتعالى، ومن الآيات الدالة على ثبوت صفة الحق لله سبحانه وتعالى قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٤.

قال الرازي في تفسيرها: «ما معنى قوله ذلك بأن الله هو الحق؟ وأي تعلق له بما تقدم؟ الجواب فيه وجهان: أحدهما: المراد أن ذلك الوصف الذي تقدم ذكره من القدرة على هذه الأمور، إنما حصل لأجل أن الله هو الحق، أي: هو الموجود الواجب لذاته، الذي يمتنع عليه التغير والزوال، فلا جرم أتى بالوعد والوعيد. ثانيهما: أن ما يفعل من عبادته هو الحق، وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل»[1]. وكلا المعنيين تحتمله الآية.

ومن الأدلة على ثبوت صفة الحق لله عز وجل قوله سبحانه وتعالى: ﴿...وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

قال الشوكاني: «أي: ويعلمون عند معاينتهم لذلك، ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز، أن الله هو الحق الثابت في ذاته وصفاته وأفعاله، المبين المظهر للأشياء كما هي في نفسها، وإنما سمي سبحانه وتعالى الحق؛ لأن عبادته هي الحق دون عبادة غيره، وقيل: سمي بالحق، أي: الموجود؛ لأن نقيضه الباطل، وهو المعدوم»[2].

يتبين مما سبق أن الله سبحانه وتعالى حقٌّ ثابت في ذاته وصفاته وأفعاله، لا يزول ولا يتغير.

كما أكدت السنة الشريفة على هذه الصفة وثبوتها لله عز وجل، فقد ورد في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في قيام الليل: (...وأنت الحق، وقولك الحق...)[3]، ووجه الدلالة في ذلك أن اسم الله سبحانه وتعالى الحق، ويتضمن صفة الحق، والعبد الذي يعتقد بهذه الصفة اعتقادًا جازمًا يصدق بوجود الله سبحانه وتعالى، فهو يتعبد لربه سبحانه وتعالى، ويصدق بوعد الله عز وجل ولقائه، ويحمله ذلك على أن يصدق بأنه سيقف أمام الله عز وجل، ويحاسبه على كل كبيرة وصغيرة. وهذا التصديق بأن الله سبحانه وتعالى حق، يحمله على المسارعة في الخيرات؛ فلا يتكلم إلا بالحق، ولا يفعل إلا الحق، ولا يناصر إلا الحق، ولا يحيد عن الحق، ولا يحمله الغضب أن يحيد عن الحق، ولا يميله الحب أو العاطفة عن الحق[4].

ولقد اقترن اسم الله عز وجل (المَلِك) باسمه (الحقّ) في موضعين من القرآن الكريم، وهما قوله عز وجل: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ

(١) مفاتيح الغيب ٢٣/ ٢٤٦.
(٢) فتح القدير ٤/ ٢١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله سبحانه وتعالى: وجوه يومئذ ناضرة، رقم ٧٤٤٢، ٩/ ١٣٢.
(٤) انظر: صفات الله وآثارها في إيمان العبد، محمد حسن عبد الغفار ٩/ ٢.

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾[طه: ١١٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[المؤمنون: ١١٦].

قال أبو السعود: «الملك الحق الذي يحقّ له الملك على الإطلاق إيجادًا وإعدامًا، بدءًا وإعادةً، إحياءً وإماتةً، عقابًا وإثابةً، وكلّ ما سواه مملوكٌ له، مقهورٌ تحت ملكوته»[(١)].

وقال ابن عاشور: «تفرع على ما تقدم بيانه من دلائل الوحدانية، والقدرة، والحكمة، ظهور أن الله هو الملك الذي ليس في اتصافه بالملك شائبة من معنى الملك، فملكه الملك الكامل في حقيقته، الشامل في نفاذه، والتعريف في الملك للجنس. والحق: ما قابل الباطل، ومفهوم الصفة يقتضي أن ملك غيره باطل، أي: فيه شائبة الباطل، لا من جهة الجور والظلم؛ لأنه قد يوجد ملك لا جور فيه ولا ظلم، كملك الأنبياء والخلفاء الراشدين، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلفاء والأمراء، بل من جهة أنه ملك غير مستكمل حقيقة المالكية، فإن كل من ينسب إلى الملك عدا الله سبحانه وتعالى، هو مالك من جهة، ومملوك من جهة لما فيه من نقص واحتياج، فهو مملوك لما يتطلبه من تسديد نقصه بقدر الحاجة، ومن استعانة بالغير لجبر احتياجه، فذلك ملك باطل؛ لأنه ادعاء ملك غير تام»[(٢)].

يتبيّن مما سبق أن الله سبحانه وتعالى يبيّن في الآيات الكريمة أن ملكه يختلف عن ملك غيره، فملكه سبحانه وتعالى حق ثابت له مستكمل لحقيقة الملك، فهو صاحب الملك؛ لأنه الخالق الذي هو في غنى عن غيره، بخلاف ملك غيره فهو ملكٌ مخلوق ناقص، يحتاج إلى غيره دائمًا ليقوّم له عوجه، فملكه ملكٌ غير تام.

نخلص مما سبق أن الله سبحانه وتعالى هو الحق في ذاته، وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، ووجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفًا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفًا، فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[الحج: ٦٢][(٣)].

(١) إرشاد العقل السليم ٦/ ١٥٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ١٣٥.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٤٩.

ثانيًا: الملائكة:

إن عالم الملائكة من عوالم الغيب التي يجب الإيمان بها، بصفته ركنًا من أركان الإيمان، والإيمان بهم يتضمن التصديق بوجودهم، وإنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن، مأمورون مكلفون، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه. والأدلة على وجود الملائكة كثيرة جدًّا، ففي القرآن الكريم آيات عديدة تناولت الحديث عنهم، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

أي: تنزيلًا متلبسًا بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن نأتيكم بهم عيانًا تشاهدونهم، ويشهدون لكم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار، ومثله قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥][1].

ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤].

قال ابن عاشور: «تنزل الملائكة يكون للخير، ويكون للشر لعقاب مكذبي الرسل. قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر:٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

وجمع بين إنزالهم للخير والشر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] الآية. فأخبر هنا أن تنزل الملائكة ليلة القدر لتنفيذ أمر الخير للمسلمين الذين صاموا وقاموا ليلة القدر فهذه بشارة»[2].

ومن الأدلة القرآنية على وجود الملائكة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

يقول الطبري: «وصدّق المؤمنون أيضًا مع نبيهم بالله وملائكته وكتبه ورسله»[3].

وفي السنة النبوية أيضًا أحاديث متعددة تثبت وجود هذا العالم الكريم، ومن أشهر الأدلة حديث جبريل عليه السلام الذي فيه: (فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت)[4].

---

(١) انظر: السراج المنير، الخطيب الشربيني ٢/ ١٩٤.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٦٥.

(٣) جامع البيان ٦/ ١٢٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان ١/ ٢٩، رقم ٨.

فوجود الملائكة عليهم السلام مثلما هو حق ثابت بالكتاب والسنة، فهو ثابت بالإجماع، يقول ابن حزم: «واتفقوا أن الملائكة حق، وأن جبريل وميكائيل ملكان، رسولان لله عز وجل، مقربان عظيمان عند الله سبحانه وتعالى، وأن الملائكة كلهم مؤمنون»[(١)].

ولا يجوز إنكار وجودهم، ومن أنكر وجودهم فهو كافر بنص القرآن الكريم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد أجمع المسلمون على كفر من أنكر وجود الملائكة؛ لأن إنكار وجودهم فيه إنكار للرسالة والقرآن[(٢)].

يتبيّن مما سبق أن الملائكة حق؛ لأنهم الوسائط بين الله سبحانه وتعالى وأنبيائه، والمبلغون لكتبه، فالإيمان بهم يوجب إجلالهم وإكرامهم فهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ثالثًا: الكتب المنزلة:

إن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسله عليهم السلام كتبًا، لهداية الناس إلى طريق العبادة التي ارتضاها لهم، فمنها ما سماها لنا في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية الشريفة، ومنها ما لم يسمه لنا، بل ذكرت مجملة، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ومن هذه الكتب السماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم، والتوراة والإنجيل، والصحف، والزبور، وهي حق من عند الله سبحانه وتعالى.

قال عز وجل: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣-٤].

قال الماوردي: «﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ فيه وجهان: أحدهما: بالعدل مما استحقه عليك من أثقال النبوة. والثاني: بالعدل فيما اختصك به من شرف الرسالة، وإن قيل: بأنه الصدق، ففيه وجهان: أحدهما: بالصدق فيما تضمنه من أخبار القرون الخالية والأمم السالفة، والثاني: بالصدق فيما تضمنه من الوعد بالثواب على طاعته، والوعيد بالعقاب على معصيته»[(٣)].

ومن الآيات الدالة على أن القرآن الكريم حق، قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ

(١) مراتب الإجماع ص١٧٤.
(٢) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ٣/ ٢٩٩.
(٣) النكت والعيون ١/ ٣٦٧.

﴿ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

قال الرازي في تفسير الآية: «الجواب فيه وجهان:

الأول: المراد: أنزلنا الكتاب إليك ملتبسًا بالحق والصدق والصواب، على معنى: كل ما أودعناه فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد، وأنواع التكاليف، فهو حق وصدق يجب العمل به، والمصير إليه.

الثاني: أن يكون المراد: إنا أنزلنا إليك الكتاب بناءً على دليل حق دل على أن الكتاب نازلٌ من عند الله، وذلك الدليل هو أن الفصحاء عجزوا عن معارضته، ولو لم يكن معجزًا لما عجزوا عن معارضته»[1].

ورغم أن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتب السماوية، وبيَّن أن دين الأنبياء والمرسلين واحد، وأن لكل منهم شرعة ومنهاجًا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

لكن اليهود والنصارى كفروا بتبديلهم ما في كتبهم السماوية، فشرعوا لأنفسهم شرائع ابتدعوها من عند أنفسهم، بغير إذن من الله سبحانه وتعالى، وخالفوا بهذا الشرع الذي بعث الله به أنبياءه ورسله، فأحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، وكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو موجود عندهم في التوراة والإنجيل، وقالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وقالوا: يد الله مغلولة، فبأفعالهم هذه وغيرها الكثير قد كفروا، وانتسبوا إلى موسى وعيسى عليهما السلام زورًا وبهتانًا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

إذًا فالكتاب الحق الذي يجب اتباعه هو القرآن الكريم الذي لم ينله التحريف والتبديل، تكفل الله بحفظه، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فهو حق من كل الوجوه، مشتمل على دلائل التوحيد، وصفات الله عز وجل، وعلى تعظيم الملائكة، وتقرير نبوة الأنبياء، وإثبات الحشر والنشر والقيامة، وكل ذلك مما لا يقبل الزوال، ومشتمل على شريعة باقية لا يتطرق إليها النسخ والنقض والتحريف.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢][2].

رابعًا: الرسل والرسالة:

إن الله سبحانه وتعالى شاء أن يكون

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٤١٩.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٥٢٠.

خليفة الله في أرضه من البشر، واقتضت حكمته أن يكون رسوله إليهم من جنسهم، وكتب على نفسه أن يرسل كل رسول بلسان قومه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

ولقد أظهر القرآن الكريم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، ورسالته خاتم الرسالات.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

ولقد نسخ الله سبحانه وتعالى برسالة محمد صلى الله عليه وسلم جميع الشرائع التي كانت قبل الإسلام، وارتضى للناس دينه الخاتم شريعة وعقيدة، فقال عز وجل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

فكانت رسالته حق، مصدقة للرسالات السابقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

وهذه الآية الكريمة ردت على اتهام المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر ومجنون، بأنه ليس بشاعر ولا مجنون، بل جاءهم بالحق من ربهم، وصدّق المرسلين الذين أُرسلوا من قبله، إذ دعا إلى توحيد الله، كما كان ذلك دعوة كل رسول من رسل الله. وفي وصف الرسول الكريم بأنه مصدق للمرسلين، إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم الشاهد الأمين الذي يشهد لهم على الزمن بصدق ما جاءوا به، فهو المجدد لدعوتهم، المصحح لما دخل عليها من شبهات وضلالات من أهلها، وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وكذلك فإن القرآن الذي تلقاه وحيًا من ربه مصدقٌ للتوراة والإنجيل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وهكذا كل رسول مصدق للرسل الذين سبقوه، وما معه من كتاب مصدق لما نزل عليهم من كتب، وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وإذا كان الرسول الكريم هو خاتم الرسل، وكتابه جامعة الكتب، فهو بهذا مصدق لإخوانه الرسل من قبله، وكتابه مصدق لما نزل عليهم من كتب[1].

وقد أكد القرآن أيضًا على أن الله سبحانه وتعالى لن يهدي قومًا من أصحاب الكتب السابقة جحدوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أقروا أنها حق من عند الله سبحانه وتعالى.

قال عز وجل: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ [آل عمران: ٨٦].

ومعنى ذلك أن الله يستبعد أن يرشد للصواب ويوفق للإيمان قومًا جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم وتصديقهم إياه، وإقرارهم بما جاء به من عند ربه، وأقروا أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خلقه حقًّا[2].

ولا بد من التنويه هنا إلى أن كلمة الرسول مثلما تطلق على من اصطفاه الله سبحانه وتعالى من الناس لتبليغ رسالته، فكذلك أطلقها القرآن الكريم على ملائكته، فقال سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

يقول السمرقندي: «يعني مرسل الملائكة بالرسالة، جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، والكرام الكاتبين عليهم السلام»[3].

يتضح مما سبق أن الرسل حق والرسالة حق من عند الله سبحانه وتعالى، وكل رسالة لاحقة مكملة للرسالة السابقة، وكانت رسالته صلى الله عليه وسلم خاتم الرسالات، فقد أرسله الله سبحانه وتعالى للناس كافة، وأخذ الله سبحانه وتعالى العهد على جميع أنبيائه ورسله أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وينصروه إذا بعث فيهم وهم أحياء.

قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

خامسًا: اليوم الآخر وما فيه:

اليوم الآخر هو يوم القيامة، الذي يبعث الناس فيه للجزاء والحساب؛ وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده، حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم، ويتضمن الإيمان باليوم الآخر ثلاثة أمور، وهي:

الإيمان بالبعث، وهو إحياء الموتى،

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ٩٧٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٧٦.

(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٩٨.

حيث ينفخ في الصور، فيقوم الناس من قبورهم أحياء؛ ليحاسبهم الله على أعمالهم.

الإيمان بالجزاء والحساب، فيحاسب الله العبد على عمله حينما ينصب الله الميزان.

الإيمان بالجنة والنار، وأنهما المآل الأبدي للخلق.

ويلحق بالإيمان باليوم الآخر الإيمان بأشراط الساعة، وما في القيامة من أهوال، والإيمان بما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذاب القبر ونعيمه[(١)].

وقد أثبت القرآن الكريم أن كل هذه الأمور حق، فأثبت أن الموت حق، قال عز وجل: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

قال البغوي: «﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: غمرته وشدته التي تغشى الإنسان، وتغلب على عقله، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بحقيقة الموت، وقيل: بالحق من أمر الآخرة؛ حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعيان، وقيل: بما يؤول إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة»[(٢)].

ويتبين لنا أن المعاني الثلاثة تحتملها الآية الكريمة.

كما أثبت القرآن الكريم أن البعث حق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ٤٢].

قال الماوردي: «فيه وجهان: أحدهما: يعني: بقول الحق. الثاني: بالبعث الذي هو حق»[(٣)].

وواضح أن كلا المعنيين يتناسب مع سياق الآية الكريمة.

وأكد القرآن الكريم -كذلك- على أن الجزاء والحساب والميزان حق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨].

قال الثعالبي: «والوزن الحق ثابت وظاهر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، قال جمهور الأمة: إن الله عز وجل أراد أن يبين لعباده أن الحساب والنظر يوم القيامة هو في غاية التحرير ونهاية العدل، بأمر قد عرفوه في الدنيا، وعهدته أفهامهم»[(٤)].

كما أكد القرآن على أن الله سبحانه وتعالى يقضي بين الخلائق بالحق الذي هو العدل، ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٧٥].

ومعنى الآية: أن الله قضى بين النبيين الذين جيء بهم، والشهداء، وأممها بالعدل، فأسكن أهل الإيمان بالله وبما جاءت به رسله الجنة، وأهل الكفر به وبما جاءت به

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، محمد الحمد ص٦٨.
(٢) معالم التنزيل ٤/ ٢٧٣.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٨.
(٤) الجواهر الحسان ٣/ ٩.

رسله النار[1].

وفي نهاية الأمر نؤكد على أن الأحداث التي تجري يوم القيامة تؤكد على أن المالك الحقيقي لهذا الكون هو الله سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

والمراد من الآية أن يوم القيامة إذا بدت أهوالها، وظهرت للمبعوثين أحوالها، علموا وتحققوا ذلك اليوم أن الملك للرحمن، ولم يتخصص ملكه بذلك اليوم، وإنما علمهم ويقينهم حصل لهم ذلك اليوم[2].

ويتضح من خلال ما سبق أن أركان الإيمان بدءًا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كلها حق اليقين، وهذا ما أكده القرآن الكريم، ولا جدال ولا ريب في ذلك.

الحق في الإخبار عن قصص السابقين

القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الذي لم ينله التحريف ولا التبديل كغيره من الكتب السماوية، فقد ذكر أنباء من سبق من الأمم والجماعات والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة، كما يذكر شاهد العيان مع طول الزمن الذي يضرب في أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى، بما لا يدع مجالًا لإعمال الفكر، ودقة الفراسة.

ولم يعاصر محمد صلى الله عليه وسلم ذلك النبي الأمي تلك الأمم، وهذه الأحداث في قرونها المختلفة، حتى يشهد وقائعها، وينقل أنباءها، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها، ويروي أخبارها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٤- ٤٥].

بل هي أخبار الغيب جاءت لتثبت صدق الوحي وصدق النبوة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٤٤.
(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٦٣٣.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فهذه الآيات وغيرها وردت في كتاب الله سبحانه وتعالى لتثبت أن ما ذكره القرآن الكريم من أخبار الأمم السابقة حق لا خيال فيه[(١)]، وبالتالي فإن القرآن حق، وأن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق لا شك في ذلك ولا ريب.

أولًا: الحق في الإخبار عن الأمم السابقة:

ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

يقول الطبري: «نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية الذين آووا إلى الكهف بالحق، يعني: بالصدق واليقين الذي لا شك فيه ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ يقول: إن الفتية الذين آووا إلى الكهف الذين سألك عن نبئهم الملأ من مشركي قومك، فتية آمنوا بربهم، ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ يقول: وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيمانًا وبصيرة بدينهم، حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من رغد العيش ولينه، إلى خشونة المكث في كهف الجبل»[(٢)].

ومن الأمثلة أيضًا: ما ورد في شأن ابني آدم عليه السلام، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٧].

يقول ابن كثير: «يقول الله سبحانه وتعالى مبينًا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه -في قول الجمهور- وهما: هابيل وقابيل، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله، بغيًا عليه وحسدًا له فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أي: واقصص على هؤلاء البغاة الحسدة، إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم، وهما:

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص٤٣.

(٢) جامع البيان ١٧/ ٦١٥.

هابيل وقابيل، فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه، ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣].

وكان من خبرهما، فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، أن الله سبحانه وتعالى قد شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل ذميمة، وأخت قابيل مضيئة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانًا، فمن يتقبل منه فهي له، فقربا فتقبل من هابيل، ولم يتقبل من قابيل، فكان من أمرهما ما قضى الله في كتابه»[1].

ثانيًا: الحق في الإخبار عن الأنبياء السابقين:

أكد القرآن الكريم أن الأنبياء السابقين حق من عند الله سبحانه وتعالى، ومن الأمثلة التي تؤكد أن القصص القرآني حق لا جدال فيه، حديثه عن عيسى عليه السلام، قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره هذا الذي بينت لكم صفته، وأخبرتكم خبره من أمر الغلام الذي حملته مريم هو عيسى بن مريم، وهذه الصفة صفته، وهذا الخبر خبره، وهو ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: أن هذا الخبر الذي قصصته عليكم قول الحق، والكلام الذي تلوته عليكم قول الله وخبره، لا خبر غيره الذي يقع فيه الوهم والشك، والزيادة والنقصان، على ما كان يقول الله تعالى ذكره فقولوا في عيسى أيها الناس: هذا القول الذي أخبركم الله به عنه، لا ما قالته اليهود الذين زعموا أنه لغير رشدةٍ، وأنه كان ساحرًا كذابًا، ولا ما قالته النصارى: من أنه كان لله ولدًا، وإن الله لم يتخذ ولدًا، ولا ينبغي ذلك له»[2].

يتضح مما سبق أن الأخبار التي نقلها القرآن الكريم عن الأمم السابقة ليس فيها مجال للتحريف أو التبديل والتغيير، بل هي أخبار صادقة حقة؛ لأنها من عند الله سبحانه وتعالى.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٨٢.

(٢) جامع البيان ١٥/ ٥٣٤.

الحق في المعاملات

اقترن لفظ الحق بالآيات التي تتناول الحديث عن المعاملات الإسلامية، التي أكدت على وجوب إخراج هذا الحق، سواء كان هذا الحق في المال أو في الحكم والقضاء بين الناس، فلا يكون إلا من منطلق كتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

أولًا: الحق في الأحكام الشرعية:

يرى العلماء أن الحكم الشرعي هو: «خطاب الله سبحانه وتعالى المتعلق بأفعال المكلفين طلبًا، أو تخييرًا، أو وضعًا»[(١)].

وتنقسم الأحكام الشرعية إلى قسمين: تكليفية، ووضعية. فالتكليفية خمسة: الإيجاب، والتحريم، والندب، والكراهة، والإباحة. أما الوضعية فهي: السبب، والشرط، والمانع، والصحيح، والفاسد[(٢)].

وقد اقترن لفظ الحق في القرآن الكريم بالعديد من الأحكام الشرعية، ومن هذه الأحكام ما يأتي:

الواجب: هو ما طلب الشارع فعله من المكلف طلبًا حتمًا، بأن اقترن طلبه بما يدل على تحتيم فعله، كما إذا كانت صيغة الطلب نفسها تدل على التحتيم، أو دل على تحتيم فعله ترتيب العقوبة على تركه، أو أية قرينة شرعية أخرى[(٣)].

ومن الأمثلة التي تؤكد اقتران الحق بالواجب، قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٢].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الروم: ٣٨].

التحريم: المحرم هو ما طلب الشارع الكفّ عنه طلبًا حتمًا، بأن تكون صيغة طلب الكف نفسها دالة على أنه حتم[(٤)].

ومن الأمثلة التي تؤكد اقتران الحق بالمحرم ما ورد عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

يتبيّن مما سبق أن لفظ الحق اقترن ببعض الأحكام الشرعية كالإيجاب والتحريم، وهذا يؤكد على مدى ثبات الأحكام

(١) علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف ص١٠١.
(٢) انظر: المعتصر من شرح مختصر الأصول، محمود المنياوي ص١٥.
(٣) علم أصول الفقه، عبدالوهاب خلاف ١٠٥.
(٤) المصدر السابق ص١١٣.

الشرعية، وأنها حق من عند الله سبحانه وتعالى.

ثانيًا: الحق في الأموال:

اقترن لفظ الحق بالآيات التي تتناول الحديث عن مصارف المال من زكاة وصدقات، وأكدت الآيات على وجوب إخراج هذا الحق، وتوزيعه على مستحقيه، ومن الآيات التي تحدثت عن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

يقول أبو الطيب القنوجي: «أي: يجعلون في أموالهم، ويوجبون على أنفسهم حقًّا للسائل والمحروم؛ تقرّبًا إلى الله عز وجل بمقتضى الكرم، يصلون بها الأرحام والفقراء والمساكين، وقال محمد بن سيرين وقتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة، والأول أولى، فتحمل على صدقة النفل، وصلة الرحم، وقري الضيف؛ لأن السورة مكية، والزكاة لم تفرض إلا بالمدينة»[(١)].

ومن أمثلة ذلك قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

قال ابن كثير: «أي في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات»[(٢)].

وقد حث القرآن الكريم على وجوب إعطاء أصحاب الحقوق من الصدقات حقوقهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

توصي الآية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤتوا حقهم، وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب، وكان الرجل موسرًا أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة، والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب، وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم، كأبناء العم، فحقهم صلتهم بالمودة والزيارة، وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء، والمعاضدة ونحو ذلك، ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني: وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، وهذا دليل على أن المراد بما يؤتي ذوي القرابة من الحق، هو تعهدهم بالمال[(٣)].

كما قرن القرآن الكريم لفظ الحق بالوصية لمن لا يرث، وذلك عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

قال الطبري: «﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فرض عليكم أيها المؤمنون ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ﴾ إذا

(١) فتح البيان ١٣/ ١٩٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢٤١.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٦١.

حضر أحدكم الموت ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير: المال، ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الذين لا يرثونه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما أذن الله فيه، وأجازه في الوصية مما لم يجاوز الثلث، ولم يتعمد الموصي ظلم ورثته ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ يعني بذلك: فرض عليكم هذا وأوجبه، وجعله حقًّا واجبًا على من اتقى الله فأطاعه أن يعمل به»[1].

كما بينت الآيات القرآنية أن زكاة الزروع حق يجب إخراجه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

أي: وآتوا الحق المعلوم فيما ذكر من الزرع وغيره، لمستحقيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين، زمن حصاده جملة، ويدخل في الحصاد جني العنب، وصرم النخل[2].

يتضح مما سبق أن القرآن الكريم اهتم بوجوب إخراج الزكاة بكافة أنواعها للمستحقين لها واعتبرها حقًّا يجب إيفاؤه.

ثالثًا: الحق في الحكم والقضاء بين الناس:

لا بد وأن يكون الحكم والقضاء بين الناس مقرونًا بالحق، الذي يتمثل بتنفيذ حكم الله سبحانه وتعالى، ولا يكون القضاء بالحق إلا من منطلق كتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠].

يقول الزمخشري: «يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلا بالحق والعدل؛ لاستغنائه عن الظلم»[3].

وقد حث القرآن الكريم على وجوب أن يكون القضاء والحكم بين الناس بالحق، ومن الأمثلة على ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

جاء هذا القول من رب العالمين لرسوله الكريم، دستورًا في القضاء بين الناس، والفصل في المنازعات التي تحدث بينهم، وهذا أمر يلتزم به ولي الأمر، القائم على القضاء بين المتخاصمين، فعليه أن يخلي نفسه من كل ما يندس إليها من مشاعر البغضة والعداوة للمذنب، الذي ينتظر جزاء ذنبه، وأنه إذا كان لولي الأمر أن ينكر المنكر، وأن يأخذ أهله بالقصاص، فإنه ليس له أن يكون خصمًا للمجرم المذنب وهو قاضيه والحاكم عليه؛ إذ لا يتفق أن يكون الإنسان خصمًا وحكمًا في وقت معًا[4].

(١) جامع البيان ٣/ ٣٨٤.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٥٢.
(٣) الكشاف ٤/ ١٥٩.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٨٨٩.

ومن الآيات التي أكدت على وجوب اقتران الحكم بين الناس بالحق قوله عز وجل: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

يعني: بالعدل والإنصاف[(١)]. ومن الأدلة أيضًا قوله عز وجل: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: ٢٢].

أي احكم بما يطابق أمر الله، ولا تبعد عن الحق أو تجاوزه، ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾، أي: بحيث لا تميل عن الحق أصلًا[(٢)].

ونخلص مما سبق إلى وجوب الحكم والقضاء بما شرع الله سبحانه وتعالى، وعدم الميل عن الحق والصواب لأي سبب من الأسباب؛ لأن في ذلك وقوعًا في الخطأ الذي يؤدي إلى عدم إعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم.

رابعًا: ما أوجبه الله للناس من حق:

حافظ القرآن الكريم على حقوق العباد، فأوجب الله سبحانه وتعالى لهم حقوقًا كثيرة، أهمها حق الحياة، فالحياة منحة ربانية للإنسان وهي الحق الأول له، وبه تبدأ سائر الحقوق، وعند انتهائه تنعدم الحقوق، ويعتبر حق الحياة مكفولًا في الشريعة الإسلامية لكل إنسان، ويجب على سائر الأفراد أولًا، والمجتمع ثانيًا، حماية هذا الحق من كل اعتداء، قال سبحانه وتعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: ٣٢].

فالاعتداء على حياة فرد من أفراد الأمة الإسلامية اعتداء على الأمة كلها؛ لذا وجب القصاص على الجاني ليكون عبرة للآخرين، ولحماية المجتمع المسلم من العدوان والطغيان بغير حق.

وقد اقترن لفظ الحق في وجوب عدم الاعتداء على الآخرين بالقتل ظلمًا وعدوانًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قال الطبري: «يعني بالنفس التي حرم الله قتلها، نفس مؤمن أو معاهد، وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، يعني بما أباح قتلها به: من أن تقتل نفسًا فتُقتَل قَودًا بها، أو تزني وهي محصنة فتُرجم، أو ترتدُّ عن دينها الحق فتُقتَل، فذلك الحق الذي أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التي حرم على المؤمنين قتلها به»[(٣)].

ومن الآيات الدالة على اقتران لفظ الحق بوجوب عدم الاعتداء على النفس بغير حق قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٧٧.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢٤٧.
(٣) جامع البيان ١٢/ ٢٢١.

﴿جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣].

والمعنى: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها، وهي نفس الإنسان إلا بسبب الحق، فحرم قتلها إلا بالحق، وحقها ألا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قودًا بنفس[(١)].

ومن الآيات الدالة على اقتران لفظ الحق بعدم الاعتداء على النفس المؤمنة، قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨].

يقول سيد قطب: «والتحرج من قتل النفس إلا بالحق، مفترق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المطمئنة، التي تحترم فيها الحياة الإنسانية، ويقام لها وزن، وحياة الغابات والكهوف التي لا يأمن فيها على نفسه أحد، ولا يطمئن إلى عمل أو بناء»[(٢)].

يتبين لنا أن لفظ الحق اقترن بالآيات الدالة على وجوب الحفاظ على حياة المسلمين وعدم الاعتداء عليها بغير وجه حق، وهذا يدلل على مدى اهتمام القرآن الكريم بحياة هذا الإنسان؛ ليحيا سعيدًا في ظل ما كفل له الله سبحانه وتعالى من حقوق.

الحق في المثل القرآني

أثبت القرآن الكريم أن الأمثال القرآنية حق من عند الله سبحانه وتعالى، فقال عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

بيَّن سبحانه وتعالى أن الأمثال من حجته البالغة على عباده، وأنه لم يعذب أمة بتكذيبها إلا بعد أن بيَّن لها الأمثال.

قال عز وجل: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٥].

وبيَّن سبحانه وتعالى أن الأمثال المضروبة في القرآن من أسباب الهداية، وأنه سبحانه وتعالى يهدي بها كثيرًا ممن تدبرها وانتفع بها، ويضل كثيرًا ممن أعرض عنها، فهي حق من عند الله سبحانه وتعالى.

وقد أثبت القرآن الكريم أن الأمثال القرآنية تتسم بأنها حق من عند الله سبحانه وتعالى، فقال عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٤٥٩.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٩.

وفي تفسير الآية قال الزمخشري: «إلا أتيناك بالجواب الحق الذي لا محيد عنه، وبما هو أحسن معنى ومؤدى من سؤالهم، ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام، وضع موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام: كيت وكيت، كما قيل: معناه كذا وكذا، أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة، يقولون: هلا كانت هذه صفتك وحالك، نحو: أن يقرن بك ملكٌ ينذر معك، أو يلقى إليك كنز، أو تكون لك جنة، أو ينزل عليك القرآن جملة، إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن يعطاه، وما هو أحسن تكشيفًا لما بعثت عليه ودلالة على صحته.

يعني: أن تنزيله مفرقًا، وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق، كلما نزل شيء منها أدخل في الإعجاز، وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة، ويقال لهم: جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحة مع بعد ما بين طرفيه، قيل لهم: إن حاملكم على هذه التساؤلات، أنكم تضلون سبيله، وتحتقرون مكانه، ومنزلته، ولو نظرتم بعين الإنصاف، وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم، لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه، وسبيلكم أضل من سبيله»[1].

وورد في التفسير الوسيط عند تفسير الآية: «المراد بالمثل: أقوالهم التي يلتمسون بها معارضة القرآن، والقدح في نبوته صلى الله عليه وسلم، ومن جملة هذه الأقوال ما حكى عنهم من اقتراحات خارجة عن حد المعقول، جارية لغرابتها مجرى الأمثال كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

والمعنى: لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل هذا البطلان ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، أي: بالجواب الثابت الذي لا محيد عنه، في مقابلة ما يصدر عنهم؛ محوًا لأباطيلهم، وقضاءً على أكاذيبهم التي أرادوا بها الطعن في رسالتك، وحسمًا لمادة القيل والقال التي دارت على ألسنتهم»[2].

واقترن لفظ الحق بالأمثال القرآنية مصرحة كانت أو كامنة؛ ومن الأمثال المصرحة التي اقترن بها لفظ الحق قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٩.

(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٧/ ١٥١٢.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

قال القرطبي: «ضرب مثلًا للحق والباطل، فشبه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء فإنه يضمحل، ويعلق بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل»[(١)].

ومن الأمثال القرآنية التي اقترنت بلفظ الحق مَثَل لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

قال الشوكاني: «يعني أن الكفار جعلوا لله مثلًا بعبادتهم غيره، فكأنه قال: جعلوا لي شبهًا في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه، وقال القتبي: إن المعنى: يا أيها الناس مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابًا، وإن سلبها شيئًا لم تستطع أن تستنقذه منه. قال النحاس: المعنى: ضرب الله عز وجل لما يعبدونه من دونه مثلًا، قال: وهذا من أحسن ما قيل فيه، أي: بيّن الله لكم شبهًا ولمعبودكم، وأصل المثل جملة من الكلام متلقاة بالرضا والقبول، مسيرة في الناس، مستغربة عندهم، وجعلوا مضربها مثلًا لموردها، ثم قد يستعيرونها للقصة، أو الحالة أو الصفة المستغربة؛ لكونها مماثلة لها في الغرابة، كهذه القصة المذكورة في هذه الآية، والمراد بما يدعونه من دون الله: الأصنام التي كانت حول الكعبة وغيرها، وقيل: المراد بهم: السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله؛ لكونهم أهل الحل والعقد فيهم، وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله، والأول أوفق بالمقام، وأظهر في التمثيل، ثم بيَّن سبحانه وتعالى كمال عجزهم، وضعف قدرتهم فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، أي: إذا أخذ منهم الذباب شيئًا من الأشياء لا يقدرون على تخليصه منه؛ لكمال عجزهم وفرط ضعفهم. والاستنقاذ والإنقاذ: التخليص، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف، وعن استنقاذ ما أخذه عليهم، فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرمًا، وأشد منه قوة، أعجز وأضعف، ثم عجب سبحانه وتعالى من ضعف الأصنام والذباب، فقال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾، فالصنم كالطالب، من حيث أنه يطلب خلق الذباب، أو يطلب استنقاذ

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣١٣.

ما سلبه منه، والمطلوب: الذباب، وقيل: الطالب: عابد الصنم، والمطلوب: الصنم، وقيل: الطالب: الذباب، والمطلوب: الآلهة، ثم بيَّن سبحانه وتعالى أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة إلى هذه الغاية في العجز، ما عرفوا الله حق قدره، فقال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أي: ما عظموه حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له، مع كون حالها هذه الحال»[1].

أما الأمثال الكامنة التي اقترن لفظ الحق بها، قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١].

ومعناه: الآن تبيّن الحق ووضح، أي: انقطع عن الباطل بظهوره وبيانه[2].

يتبين مما سبق أن القرآن الكريم أورد العديد من الأمثال القرآنية التي اقترنت بلفظ الحق، وفي ذلك دلالة واضحة على أن الأمثال القرآنية أدت الغرض الذي جاءت من أجله، بصورة رائعة موجزة، لها وقعها في النفس الإنسانية، بطريقة تؤكد على أن هذا القرآن العظيم هو كلام الله سبحانه وتعالى المعجز بآياته، الذي لا يستطيعه بشر.

موقف الناس من الحق

انقسم الناس منذ بدء الخليقة إلى قسمين:

قسم اتبع الحق الذي أراده الله سبحانه وتعالى، وتمسك به، وجاهد في سبيله، وابتلي لأجل ذلك في ماله وبدنه وأهله، وما حاد عن هذا الطريق، وهؤلاء هم الأنبياء والرسل عليهم السلام ومن تبعهم ورضي بالمنهج الذي جاءوا به من عند الله سبحانه وتعالى.

وقسم آخر أبى إلا أن يكون مع الساقطين المتخاذلين المعادين لله ولرسله ولدينه وللمؤمنين، وهؤلاء هم أتباع الشيطان من الكفرة والمنافقين، وغيرهم، الذين يقفون في طريق الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى، فيحاربونهم بشتى السبل والوسائل التي يستطيعونها؛ لأنهم يعلمون أن في ارتقاء دعوة الحق هلاكًا وخذلانًا لهم.

ولنا في سيرة الأنبياء والمرسلين وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أكبر دليل على ذلك، وكذلك ما يكيده أتباع الشيطان من المشركين واليهود والنصارى ومن والاهم من المنافقين لأصحاب الحق في هذا الزمان في شتى بقاع الأرض، دون رادع يردعهم؛ وما كان ذلك إلا لأن هذه الطائفة المؤمنة تمسكت بدعوة الحق ورفضت

(١) فتح القدير ٣/ ٤٦٩.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٧.

الخنوع والاستسلام للشر وأهله، وقد أثبت القرآن الكريم في ست آيات من ست سور مكية ومدنية أن الحق هو المنهج الذي يرتضيه الله سبحانه وتعالى لعباده، وفي ذلك دلالة على أن الحق واحد لا يتعدد ولا يتبدل، قال عز وجل: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: اعلم يا محمد أن الحق ما أعلمك ربك وأتاك من عنده، لا ما تقول لك اليهود والنصارى، وهذا خبر من الله تعالى ذكره خبر لنبيه عليه السلام عن أن القبلة التي وجهه نحوها هي القبلة الحق التي كان عليها إبراهيم خليل الرحمن، ومن بعده من أنبياء الله عز وجل، يقول تعالى ذكره له: فاعمل بالحق الذي أتاك من ربك يا محمد، ولا تكونن من الممترين»[(١)].

وأكد القرآن الكريم في سورة العصر أن كل إنسان صرف نفسه في أعمال الدنيا دون الآخرة لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت، أما الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح فإنهم في ربح وفوز؛ لأنهم عملوا للآخرة، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، ووصى بعضهم بعضًا بالحق الذي يحق القيام به، وهو الإيمان بالله، والتوحيد والقيام بما شرعه الله، واجتناب ما نهى عنه[(٢)].

كما أكد القرآن الكريم أن الكفار لا يستجيبون للحق، بل يحاربونه بكل ما أوتوا من قوة، وهذا ما بينه القرآن في حق فرعون وقومه، الذين اعتبروا دعوة موسى عليه السلام سحرًا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٦- ٧٧].

والمعنى: لما جاءهم موسى بالحجج والبينات الدالة على الربوبية والألوهية، قالوا من فرط عتوهم وعنادهم: إنّ هذا لسحر واضح لمن رآه وعاينه، فقال لهم موسى عليه السلام على وجه الإنكار والتوبيخ: أتقولون للحق الواضح الظاهر -وهو أبعد الأشياء عن السحر الذي هو باطل- حين جاءكم دون أن تتروّوا وتتدبروا فيه: إنه سحر، وما ترونه بأعينكم من آيات الله، وترجف له قلوبكم من عظمته، لا يمكن أن يكون سحرًا من جنس ما تعرفونه وتصنعونه بأيديكم[(٣)].

وأكد القرآن أيضًا أن كفار قريش هم كمن سبقهم من الكفار، مكذبون بالحق، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ

(١) جامع البيان ٣/ ١٩٠.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٠١.

(٣) انظر: تفسير المراغي ١١/ ١٤١.

﴿ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦].

قال النسفي: «﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾: بالقرآن، أو بالعذاب، ﴿قَوْمُكَ﴾: قريش، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: بالصدق»[1].

وبيَّن سبحانه وتعالى أن المنافقين يحاربون الله ورسوله في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾[التوبة: ٦٧].

قال سيد قطب رحمه الله: «المنافقون والمنافقات من طينة واحدة وطبيعة واحدة، فالمنافقون في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية ولؤم السريرة، والغمز والدس والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة، تلك سماتهم الأصيلة، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس، وهم حين يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دسًّا وهمسًا، وغمزًا ولمزًا؛ لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون. إنهم ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فلا يحسبون إلا حساب الناس، وحساب المصلحة، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس، ويذلون لهم، ويدارونهم، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله، فلا وزن لهم ولا اعتبار، وإنهم لكذلك في الدنيا بين الناس، وإنهم لكذلك في الآخرة عند الله»[2].

وقد أمر سبحانه وتعالى بقتال كل من يقف في وجه الحق وأهله، إذا تحققت شروط القتال، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قَٰتِلُوا۟﴾ أيها المؤمنون، القوم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، يقول: ولا يصدقون بجنة ولا نار، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، يقول: ولا يطيعون الله طاعة الحق، يعني: أنهم لا يطيعون طاعة أهل الإسلام، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهم اليهود والنصارى»[3].

يتبين مما سبق أن أهل الحق هم أتباع الأنبياء والرسل الذين يجب عليهم أن يقوموا

(١) مدارك التنزيل ١/ ٥١٢.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٣.

(٣) جامع البيان ١٤/ ١٩٨.

بواجبهم، فيجاهدوا أهل الكفر والنفاق والصد عن دين الله سبحانه وتعالى، وهذا ما أمر الله سبحانه وتعالى به، وبدون ذلك يتفشى الكفر وينتشر، ويضيق على الحق وأهله. قال عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

انتصار الحق وظهوره

إن الحق لا بد وأن يكون ظاهرًا؛ لأنه الأقوى دائمًا، كيف لا وأصحابه مؤيدون من الخالق جل جلاله! ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حين هاجر من مكة إلى المدينة، ولحقه المشركون حتى وصلوا إلى باب الغار الذي يختبئ به هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه، فقال له أبو بكر: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال صلى الله عليه وسلم: (يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[1].

ومما يؤكد انتصار الحق ما ذكره القرآن عن موسى عليه السلام حين لحقه فرعون وجنوده، قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١- ٦٢].

وجاءه النصر من عند الله سبحانه وتعالى، فشق له البحر، وأنقذه من فرعون وجنوده.

أولًا: سنة الله قيام أمة من الناس بالحق:

أكدت الآيات القرآنية على أن وظيفة الرسل وأتباعهم هي الدعوة إلى الحق والقيام به على مر الزمان إلى قيام الساعة،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر، رقم ٢٣٨١، ٤/ ١٨٥٤.

ومن الآيات التي أكدت ذلك، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: من بني إسرائيل، ﴿أُمَّةٌ﴾، يقول: جماعة، ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يستقيمون عليه ويعملون، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، أي: وبالحق يعطون ويأخذون، وينصفون من أنفسهم فلا يجورون»[(١)].

ومن الآيات الدالة أيضًا على قيام أتباع النبي صلى الله عليه وسلم بالحق، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

قال المراغي: «أي: وبعض ممن خلقنا جماعة كبيرة مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة، يهدون بالحق، ويدلون الناس على الاستقامة، وبالحق يحكمون في الحكومات التي تجري بينهم، ولا يجورون، فسبيلهم واحدة؛ لأن الحق واحد لا يتعدد، وهؤلاء هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام، أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال: ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «هذه أمتي، بالحق يحكمون ويقضون، ويأخذون ويعطون»، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فيها قال: بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأها: «وهذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها، ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾»[(٢)]. وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب، قال: «لتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة، يقول الله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ فهذه هي التي تنجو من هذه الأمة»[(٣)].

يتبين مما سبق أن الله سبحانه وتعالى أوجد أمة من الناس على مر الزمان مهمتها القيام بالحق، والدفاع عنه، وهذه الفئة هي الأنبياء والرسل وأتباعهم.

الأسباب التي تعين على القيام بالحق:

إن القيام بالحق مكرمة من الله سبحانه وتعالى، يكرم بها الذين ارتضى لخدمة دينه، فهيأ جوارحهم للطاعة، ومنعهم من المعصية، وهيأهم لأن يكونوا عباده القادرين على القيام بالحق الذي ارتضاه.

ومن الأسباب التي تعين على القيام بالحق ما يأتي:

١. الاستقامة على الدين القويم والصراط المستقيم، فالمؤمن لا بد وأن يستقيم

(١) جامع البيان ١٣/ ١٧٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٨٦.

(٣) تفسير المراغي ٩/ ١٢٢.

على دين الله سبحانه وتعالى، وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال عز وجل: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

٢. اللجوء إلى الباري عز وجل، والافتقار إليه، فهو سبحانه وتعالى العاصم من كل الفتن، والعبد ليس له غنى عن ربه عز وجل مهما بلغت مكانته وعلت منزلته، قال جل جلاله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

٣. بعد الإنسان عن محارم الله سبحانه وتعالى، وخوفه وخشيته من الله عز وجل، وعدم الانجرار وراء شهواته وأهوائه؛ حتى يستطيع القيام بالحق المكلف به.

٤. ملازمة أهل الحق؛ لأنهم يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٥. أن يعلم أن الموت حق، فلا يجبن ولا يخاف، ويكون ذلك دافعًا له على القيام بالحق، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

٦. الثبات وعدم التراجع عن الحق، وهذا ما حصل مع سحرة فرعون عندما عرفوا الحق ورأوا نوره الساطع، لم يهتموا بوعيد فرعون، ولم يلقوا لتهديده بالًا لما قال لهم: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]، فكان ردهم عليه منبعث من قوة يقينهم وصلابة إيمانهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

٧. أن يكون على معرفة بسيرة الأنبياء والصالحين من عباد الله، الذين بذلوا الغالي والرخيص في سبيل نصرة الحق والقيام به، وأخذ العبرة والعظة منها، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

ثانيًا: سنة الله نصر الحق وأهله:

إن سنة الله سبحانه وتعالى في هذا الكون أن يكون النصر لأهل الحق في نهاية الصراع، فبعد أن يتراوح المؤمنون في هذا

الصراع بين النصر والهزيمة، ويطول البلاء على المؤمنين، ويشتد الكرب، يتمخّض عن هذا كله انتصار واضح وساحق للحق وأهله على الباطل بكل أشكاله وألوانه، فينصر الله سبحانه وتعالى الضعفاء من المؤمنين، ويمكن لهم في الأرض، ويعلي كلمته، ويرفع رايته، ويهزم أعداءه، ويجعل الدائرة عليهم.

وقد بينت كثير من الآيات القرآنية هذه الحقيقة، قال عز وجل: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

قال المراغي: «أي: وقل للمشركين مهددًا لهم: إنه قد جاءكم الحق الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان، والعلم النافع، واضمحل باطلهم وهلك؛ إذ لا ثبات له مع الحق، كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء: ١٨]»[1].

ومن الأدلة التي ذكرها القرآن والتي تبين أن الحق منتصر في النهاية، قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨- ٤٩].

قال سيد قطب رحمه الله: «وهذا الذي جئتكم به هو الحق، الحق القوي الذي يقذف به الله، فمن ذا يقف للحق الذي يقذف به الله؟! إنه تعبير مصور مجسم متحرك، وكأنما الحق قذيفة تصدع، وتخرق، وتنفذ، ولا يقف لها أحد في طريق، يقذف بها الله ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، فهو يقذف بها عن علم، ويوجهها على علم، ولا يخفى عليه هدف، ولا تغيب عنه غاية، ولا يقف للحق الذي يقذف به معترض، ولا سدّ يعوق، فالطريق أمامه مكشوف ليس فيه مستور، ويتلوه الإيقاع الرابع في مثل عنفه: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، جاء هذا الحق في صورة من صوره، في الرسالة، وفي قرآنها، وفي منهجها المستقيم. قل: جاء الحق، أعلن هذا الإعلان، وقرر هذا الحدث، واصدع بهذا النبأ: جاء الحق، جاء بقوته، جاء بدفعته، جاء باستعلائه وسيطرته، ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ فقد انتهى أمره وما عادت له حياة، وما عاد له مجال، وقد تقرر مصيره وعرف أنه إلى زوال. إنه الإيقاع المزلزل الذي يشعر من يسمعه أن القضاء المبرم قد مضى، وأنه لم يعد هناك مجال لشيء آخر يقال، وإنه لكذلك، فمنذ جاء القرآن استقر منهج الحق واتضح، ولم يعد الباطل إلا مماحكة ومماحلة أمام الحق الواضح الحاسم الجازم، ومهما يقع من غلبة مادية للباطل في بعض الأحوال والظروف، إلا أنها ليست غلبة على الحق،

(١) تفسير المراغي ١٥/ ٨٥.

إنما هي غلبة على المنتمين إلى الحق، غلبة الناس لا المبادئ، وهذه موقوتة ثم تزول، أما الحق فواضح بيّن صريح»[1].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى انتصار الحق على الباطل من محض إرادته سبحانه وتعالى، ولا راد لحكمه وقضائه، كما في قوله عز وجل: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧- ٨].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢].

وقوله أيضًا: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

وهذا كله موقوت بأمر الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

جميع الآيات السابقة تقرر بوضوح إرادة الله سبحانه وتعالى في انتصار الحق على الباطل، وأن الحق أصيل وغالب، وأن الباطل ضعيف طارئ لا أصل له ولا أساس، وأن الله سبحانه وتعالى مع أهل الحق ينصرهم، ويؤيدهم، ويعينهم، ولا ينسى عباده ولا يتخلى عنهم، بل يقف إلى جانبهم، فيحق الحق ويبطل الباطل ويمحوه حتى لا يعود له أثر ولا وجود.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨- ٩].

موضوعات ذات صلة:

الباطل، الجهاد، الحقوق، الدعوة

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١٦.

الحقوق

عناصر الموضوع

مفهوم الحقوق	٤٤٦
الحقوق في الاستعمال القرآني	٤٤٨
الألفاظ ذات الصلة	٤٤٩
أنواع الحقوق	٤٥٢
حقوق العباد	٤٥٤
أداء الحقوق	٤٩٢

مفهوم الحقوق

أولًا: المعنى اللغوي:

جاء في كتب اللغة في مادة (حقق) أنّ الحقّ نقيض الباطل وجمعه «حقوقٌ» و«حقاقٌ» وليس له بناء أدنى عدد، وهو مصدر قولهم:حقّ الشيء، أي: وجب، ويطلق في اللغة على عدة معانٍ، منها: الأمر الواجب، والموجود الثابت، وحقّ الشيء يحق بالكسر، أي: وجب، وأحققت الشيء، أي: أوجبته، وحقّ عليه القول وأحققته أنا، أي: ثبت.

وحقّ الأمر يحقّه حقًّا وأحقّه، كان منه على يقين تقول: حققت الأمر وأحققته إذا كنت على يقين منه، ويقال: ما لي فيك حقٌّ ولا حقاقٌ، أي: خصومة[(١)].

وعرّف المناوي الحق في اللغة بأنه «الثابت الذي لا يسوغ إنكاره»[(٢)].

وقال الراغب الأصفهاني: «إن أصل الحق: المطابقة والموافقة»[(٣)].

وبهذا يمكن القول: إن المعنى اللغوي للحق يتضمن معاني: الوجوب، والإلزام، والثبات، والإحكام، والصحة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

اختلفت عبارات العلماء وتعريفاتهم لمفهوم «الحقوق» في الاصطلاح، وأورد من ذلك عدة تعريفات مبتدأ بأقربها لموضوع البحث:

أولًا: أنّ الحق هو المطلب الذي يجب لأحد على غيره[(٤)].

ثانيًا: أنّ الحق مصلحة ثابتة للشخص على سبيل الاختصاص والاستئثار يقررها الشارع الحكيم[(٥)].

ثالثًا: أنّ الحق هو مجموعة القواعد والنصوص التشريعية التي تنظم على سبيل الإلزام علائق الناس من حيث الأشخاص والأموال[(٦)].

---

(١) الصحاح، الجوهري ٤/ ١٤٦٠، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٩.
(٢) التوقيف، المناوي ص ٢٨٧.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٢٥.
(٤) المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا ٣/ ١٠.
(٥) انظر: المدخل للفقه الإسلامي، أحمد عيسوي ص٣٣٨، الإسلام وحقوق الإنسان، القطب محمد ص٣٨.
(٦) انظر: المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا ٣/ ٩-١٠.

رابعًا: أنّ الحق هو الحكم المطابق للواقع، وهو يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك[1].

وذكر بعض الباحثين أنه يمكن من خلال التعريفات السابقة استنباط أبرز ما يتضمنه مفهوم «الحقوق» اصطلاحًا ملخصة على هذا النحو:

١. النصوص الشرعية من الكتاب والسنة.
٢. القواعد والمبادئ التي تضمنتها هذه النصوص.
٣. تنظيم علاقات الناس.
٤. الوجوب والإلزام في تطبيق تلك القواعد[2].

ويمكن استنادًا إلى كل ما سبق تعريف الحق بأنه: أمور واجبة على المرء نحو غيره ألزمه بها الشرع أو ألزم بها نفسه.

فالمعنى الاصطلاحي تفصيل للمعنى اللغوي ولا يخرج عنه.

(١) التعريفات، الجرجاني ص ١٢٠.
(٢) المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم، يحيى زمزمي ص ٢٠.

الحقوق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حق) في القرآن (١٠) مرات[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
فعل الماضي	٢	﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ [المائدة:١٠٧]
اسم	٨	﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]

ولم يرد لفظ (الحقوق) في القرآن مجموعًا، وورد مفردًا بمعناه اللغوي، وهو: وجب[(٢)]، ولم يخرج في استعماله القرآني عن معناه اللغوي.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٦٠٤-٦٠٥.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الواجبات:

الواجبات لغة:

أصل الوجوب في اللغة السقوط يقال: وجبت الشمس إذا سقطت، ووجب الحائط إذا سقط، وسمعت وجبةً يعني سقطة، والوجوب أيضًا بمعنى الإلزام، وجب الشيء يجب وجوبًا، أي: لزم وأوجبه هو وأوجبه الله واستوجبه، أي: استحقّه، ويقال: وجب الشيء يجب وجوبًا إذا ثبت ولزم[١].

الواجبات اصطلاحًا:

والواجب في عرف الفقهاء ما ثبت وجوبه بدليل شرعي فيه شبهة العدم كخبر الواحد، وهو ما يثاب بفعله ويستحق بتركه عقوبة لولا العذر[٢].

الصلة بين الواجبات والحقوق:

الحقوق أمور واجبة على المرء نحو غيره ألزمه بها الشرع أو ألزم بها نفسه، والواجبات أعم منها؛ إذ إنها تشمل الحقوق نحو النفس ونحو الغير.

٢ المظالم:

المظالم لغة:

الظّلم هو وضع الشيء في غير موضعه، يقال: ظلمه يظلمه ظلمًا وظلمًا ومظلمةً، فالظّلم مصدرٌ حقيقيٌّ، والظّلم الاسم يقوم مقام المصدر، وتظلّم منه، أي: شكا من ظلمه، وتظلّم الرجل أحال الظّلم على نفسه، ويقال: تظلّم فلانٌ إلى الحاكم من فلانٍ فظلّمه تظليمًا، أي: أنصفه من ظالمه وأعانه عليه[٣].

المظالم اصطلاحًا:

والظّلامة، والظّليمة، والمظلمة بفتح اللام هي ما تطلبه عند الظالم وهو اسم ما يؤخذ من المرء بدون حق، تقول عند فلان ظلامتي[٤].

وعرّف المناوي المظلمة بأنها الخصلة التي يقع فيها الظلم وليست مصدرًا، بل هي

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٩٣.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٣٢٢.
(٣) لسان العرب، ابن منظور١٢/ ٢٧٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٧٣، مختار الصحاح، الرازي ص٤٠٧.

بمعنى الشيء المظلوم به[1].

الصلة بين المظالم والحقوق:

يمكن الربط بين الحق والمظالم بأن رفع المظالم عن الناس هو صورة من صور الحق، أو معلم من معالمه، وأن المظالم هي سلب لحقوق الناس وإهدار لها.

٣ حقوق الإنسان:

شاع في العصر الحاضر اصطلاح حقوق الإنسان، وأصبح يستخدم على نطاق واسع في المحافل العلمية والقانونية، والمنظمات الدولية والإقليمية، وأنشأت لأجله منظمات وهيئات، وعقدت بشأنه الندوات والمؤتمرات، وسعت الدول الغربية إلى تطبيقه على حسب أهوائها، فإذا كان الأمر يخصهم ويخص ذويهم، فإنهم ينادون بتطبيقه في كل وقت وحين، وإن كان الأمر لا يعنيهم ولا يعني أتباعهم، فإنهم أكثر الناس انتهاكًا لحقوق الإنسان وإهدارًا لها.

الحقوق لغة:

تتضمن معاني: الوجوب، والإلزام، والثبات، والإحكام، والصحة.

حقوق الإنسان اصطلاحًا:

هذه بعض التعريفات الخاصة بهذا المصطلح:

أولًا: أنّ حقوق الإنسان المراد بها: حماية مصلحة الشخص سواء أكان حقًّا عامًّا كتحقيق الأمن، وقمع الجريمة، ورد العدوان، والتمتع بالمرافق العامة، أم خاصًّا كحق الزوجة في النفقة وحق الأم في الحضانة لطفلها، وحق الأب في الولاية على أولاده ونحوه..[2].

ثانيًا: أنّ المقصود بها حرمات الله -سبحانه وتعالى- فهو الذي تفضل بها على الإنسان؛ ولأنّ حمايتها والذود عنها قربى لله تعالى؛ فلا يجوز لصاحبها أن يفرط فيها[3].

ثالثًا: أنّ المراد بحقوق الإنسان: تلك المبادئ والقوانين العامة التي اتفقت عليها القوانين الدولية فيما يتعلق باحترام الإنسان في مجال عقيدته، وحريته، وثقافته، وفي مجال حقوق المرأة والطفل، والقضايا السياسية، وحرية التفكير... وهي حقوق كفلتها الشريعة الإسلامية

(١) التوقيف، المناوي ص ٦٦٤.
(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٤/ ١٤.
(٣) حقوق الانسان أمام القضاء، البشري الشوربجي، مجلة كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، عدد ٣، سنة ١٩٨١م، ص٢٨٣.

وجميع الأديان والقوانين الدولية[1].

رابعًا: أنّ حقوق الإنسان تتمثل في المعايير الأساسية التي تفضل بها الله سبحانه وتعالى على العباد، وبما يكفل للناس كافة أن يعيشوا بكرامة كبشر[2].

وبالنظر إلى كل هذه التعريفات نجد أنها لا تخرج عن الإطار الشرعي الذي كفله الإسلام للإنسان أيًا كان جنسه أو لونه أو عقيدته أو موطنه، فالله تعالى قد أمر بحفظ حقوق الإنسان في جميع مراحل حياته، وبعد مماته.

(١) محمد النجيمي في جريدة الرياض بتاريخ ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٣م.
(٢) حقوق الإنسان الثقافية بين الشريعة الإسلامية والمواثيق الدولية، داود درويش حلش ص٧.

أنواع الحقوق

تنقسم الحقوق إلى قسمين: حقوق الله عز وجل، وحقوق العباد، وهناك قسم ثالث يجتمع فيه الحقان، وهذه الحقوق على مراتب ودرجات، وبيان ذلك على النحو الآتي:

أولًا: حقوق الله تعالى:

حق الله عز وجل عرفه التفتازاني: بأنه ما يتعلق به النفع العام للعالم من غير اختصاصٍ بأحدٍ، فينسب إلى الله تعالى، لعظم خطره، وشمول نفعه[(١)].

وأشار ابن القيم إلى التفرقة بين حق الله تعالى وحق العبد بأن حق الله عز وجل هو ما لا مدخل للصلح فيه؛ كالحدود والزكوات والكفارات وغيرها[(٢)].

ويمكن تعريف حق الله تعالى بأنه ما أوجبه الله عز وجل لنفسه؛ كعبادته، وشكره، وطاعة أمره، وغير ذلك.

وأبرز حقوق الله تعالى على العباد حق العبادة وعدم الشرك به، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى حقوق الله تعالى التي من أجلها خلق الخلق ومكنهم في الأرض واستعمرهم فيها، ويسر لهم سبل العيش فيها، مما يقتضي معه من العباد أن يقوموا بتلك الحقوق لله تعالى.

وفي حديث معاذ بن جبلٍ قال: (كنت ردف النّبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلاّ مؤخرة الرّحل فقال: (يا معاذ بن جبلٍ). قلت: لبّيك رسول اللّه وسعديك، ثمّ سار ساعةً ثمّ قال: (يا معاذ بن جبلٍ). قلت: لبّيك رسول اللّه وسعديك. ثمّ سار ساعة ثمّ قال: (يا معاذ بن جبلٍ). قلت: لبّيك رسول اللّه وسعديك. قال: (هل تدري ما حقّ اللّه على العباد). قال: قلت: اللّه ورسوله أعلم. قال: (فإنّ حقّ اللّه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا). ثمّ سار ساعةً، ثمّ قال: (يا معاذ بن جبلٍ). قلت: لبّيك رسول اللّه وسعديك. قال: (هل تدري ما حقّ العباد على اللّه إذا فعلوا ذلك). قال: قلت: اللّه ورسوله أعلم. قال: (أن لا يعذّبهم)[(٣)].

(١) التلويح على التوضيح، التفتازاني ٢/ ٣٠٠.
(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٨٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي اللّه بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنّة وحرم على النّار، رقم ١٥٢.

وكل العبادات التي أمرنا الله تعالى بها على اختلاف درجاتها ومراتبها من صلاة وزكاة وصيام وحج وذكر واستغفار وقراءة قرآن وغير ذلك إنما هي حقوق لله تعالى علينا.

ثانيًا: حقوق العباد:

حق العبد: هو ما يتعلق به مصلحة خاصة له، كحرمة ماله. قال ابن القيم: «وأما حقوق العباد، فهي التي تقبل الصلح والإسقاط والمعاوضة عليها»[(١)].

وحقوق العباد في الشريعة تنقسم باعتبار ما يضاف إليه الحق، أما حق الإنسان فهو أكثر من أن يخص، وهو ينقسم إلى عام وخاص، فالعام ما ترتب عليه مصلحة عامة للمجتمع من غير اختصاص بأحد في مثل: التعليم -المساواة- القضاء. والخاص ما تعلقت به مصلحة خاصة بالفرد؛ كحقه في إدارة عمله، وحق الزوج على زوجته.

وثمت أمور يجتمع فيها حقان حق لله عز وجل، وحق للعبد، وفي بعضها يكون حق الله تعالى هو الغالب، وفي بعضها الآخر يغلب حق العبد.

فمن النوع الأول: الذي فيه الحقان وحق الله تعالى هو الغالب:

حد القذف عند أكثر العلماء، فإنه من حيث إنه يقع نفعه عامًّا بإخلاء العالم عن الفساد حق الله تعالى؛ إذ لم يختص بهذا إنسان دون إنسان، ومن حيث إنّ فيه صيانة العرض ودفع العار عن المقذوف حق العبد؛ إذ هو الذي ينتفع به على الخصوص ثم في هذا حق الله تعالى أيضًا؛ لأنّ في النفس حقين حق الاستعباد لله وحق الانتفاع للعبد فكان الغالب حق الله تعالى، فليس للمقذوف إسقاط الحد؛ لأن حق الله لا يسقط باسقاط العبد وإن كان غير متمحض له كما يشهد به دلالة الإجماع على عدم سقوط العدة بإسقاط الزوج إياها لما فيها من حق الله عز وجل[(٢)].

قلت: وبناء على كون حق الله تعالى هو الغالب فإنه لم يفوض استيفاء الحد إلى المقذوف ليقيمه؛ لأنّ حقوقه تعالى لا يستوفيها إلا الإمام، لاستنابة الله تعالى إياه في استيفائها دون غيره، كذلك فإن حد القذف لتهمة القاذف المقذوف بالزنا، وحد الزنا حق لله تعالى اتفاقًا، فلم يكن استيفاؤه للمقذوف.

ومن النوع الثاني الذي اجتمع فيه الحقان وحق العبد هو الغالب:

القصاص اتفاقًا، فإن لله تعالى في نفس العبد حق الاستعباد، وللعبد حق الاستمتاع؛

(١) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٨٥.

(٢) انظر: تيسير التحرير، أمير باد شاه ٢/ ٢٥٩، التقرير والتحبير، ابن أمير الحاج ٢/ ١٤٨.

ففي شرعية القصاص إيفاء للحقين وإخلاء للعالم عن الفساد إلا أن وجوبه بطريقة المماثلة المنبئة عن معنى الجبر؛ وفيه معنى المقابلة بالمحل فكان حق العبد راجحًا؛ ولهذا فرض استيفاؤه للوارث وجرى فيه الاعتياض بالمال والعفو[1].

(١) انظر: شرح التلويح على التوضيح، التفتازاني ٢/ ٣١٥، التقرير والتحبير، ابن أمير الحاج ٢/ ١٤٨.

حقوق العباد

أولًا: حقوق الأنبياء والرسل:

الأنبياء والرسل هم صفوة خلق الله تعالى، أرسلهم لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، هم المبلغون عن رب العباد جل وعلا مراده من العباد، أودع الله تعالى فيهم خصائص وصفات كمال ليست في غيرهم، ليكونوا أقدر على تحمل عبء النبوة والرسالة، تحملوا الإيذاء والجحود من أقوامهم، فازدادوا بذلك رفعة عند الله.

ولذلك كان من حقهم على الناس الطاعة والامتثال، والاقتداء بهم والاهتداء، وهذا طرف مما ورد في القرآن الكريم من حقوق الأنبياء عامة، ومن حقوق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، وأتناول ذلك في فرعين على هذا النحو:

الفرع الأول: من حقوق الأنبياء والرسل على جهة العموم:

١. حق الإيمان بالأنبياء والرسل.

الإيمان بالأنبياء والرسل واجب، نصت عليه آيات كثيرة في كتاب الله تعالى، ورتب الله تعالى على الإيمان بالرسل خيرًا كبيرًا ونفعًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، وتنوعت هذه النصوص فجاءت في معرض الكلام عن نبي الله عيسى عليه السلام، وفي

معرض الكلام عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي غيرها من المواضع العامة والخاصة، ومن هذه النصوص ما يلي:

١ - قوله تعالى ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ [آل عمران:١٧٩].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: «وإن تؤمنوا»، وإن تصدّقوا من اجتبيته من رسلي بعلمي وأطلعته على المنافقين منكم «وتتقوا» ربكم بطاعته فيما أمركم به نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم وفيما نهاكم عنه=«فلكم أجر عظيم»، يقول: فلكم بذلك من إيمانكم واتقائكم ربكم، ثوابٌ عظيم»[(١)].

٢- قوله تعالى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[البقرة:٢٨٥].

ومن لطائف الآية ما ذكره الرازي مُبيِّنًا مراتب الإيمان بالرسل في أربعة أمور:

المرتبة الأولى: أن يعلم كونهم معصومين من الذنوب. المرتبة الثانية: أن يعلم أن النبي أفضل ممن ليس بنبي.

المرتبة الثالثة: تفضيلهم على الملائكة، على تفصيل واسع في هذه المسألة وخلاف لا محل لذكره هنا.

المرتبة الرابعة: أن يعلم أن بعضهم أفضل من البعض على تفصيل في المسألة[(٢)].

٢. حق التقدير والتعظيم والنصرة للأنبياء والرسل.

جعل الله تعالى تقدير الأنبياء والمرسلين وتعظيمهم ونصرتهم حق لهم واجب على أتباعهم، فقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة:١٢].

قال أبو جعفر النحاس: «قال أبو عبيد: عزرتموهم عظمتموهم، وقال يونس: أثنيتم عليها، وأحسن من هذين القولين قول ابن أبي نجيح عن مجاهد أن معنى عزرتموهم: نصرتموهم، والتعظيم داخل في النصرة، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩] وأصل التعزير في اللغة: المنع، ومنه عزرت فلانًا، أي: أنزلت به ما يمتنع من أجله من المعاودة»[(٣)].

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٢٨.

(٢) مفاتيح الغيب، ٧/ ١٠٥ بتصرف.

(٣) معاني القرآن، النحاس ٢/ ٢٧٩-٢٨٠.

٣. حق الطاعة لجميع الأنبياء والرسل.

وذلك وارد في أكثر حوارات الأنبياء مع أقوامهم، حيث كلف الله تعالى أتباع الأنبياء بطاعتهم، وحث كل نبي أمته على ذلك كما في حوار سيدنا نوح عليه السلام مع قومه في قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٠٨].

وكذا في قوله تعالى في سورة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح:٣].

وما فعله نبي الله نوح عليه السلام من أمره قومه بالطاعة، فعله غيره من الأنبياء مثل:سيدنا هود، وسيدنا صالح، ولوط، وشعيب، وهارون، وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين، على نحو ما هو مبسوط في مواضع عدة من سور القرآن الكريم، لاسيما سورة الشعراء.

والناظر في الآيات الكريمة التي أمر فيها الأنبياء أقوامهم بطاعتهم يلحظ فيها أمرين:

أولهما: تأكيد الأنبياء والمرسلين عليهم السلام على قومهم بضرورة الطاعة، مع إعادة التأكيد مرة أخرى من بعضهم؛ كنبي الله نوح وهود وصالح وعيسى عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة أتم التسليم.

وثانيهما: التذكير بنعم الله تعالى عليهم؛ كنعم الأمن، وسعة الرزق، والبسط في العمر والمال، والربط بين الطاعة وبين الفلاح والخير.

الفرع الثاني: من حقوق النبي محمد صلى الله عليه وسلم على جهة الخصوص:

١. حق الطاعة من حقوق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا مبسوط في آيات عدة من القرآن، حيث ورد مقرونًا في أكثر المواضع بطاعة الله تعالى ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

وفي الأمر بطاعة الرسول ومدلوله هنا يقول الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ربكم فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، وأطيعوا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم، فإن في طاعتكم إياه لربكم طاعة، وذلك أنكم تطيعونه لأمر الله إياكم بطاعته»(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤].

والآية تؤكد على ضرورة طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم مع التنبيه على أن الطاعة سبب الهداية.

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٩٥ بتصرف.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد:٣٣].

وقد ذكر الماوردي فيها وجهين: أحدهما: أطيعوا الله بتوحيده، وأطيعوا الرسول بتصديقه، والثاني: أطيعوا الله في حرمة الرسول، وأطيعوا الرسول في تعظيم الله[١].

ومواضع أخرى في المائدة:٩٢، والأنفال:١، و٤٦، والنور:٥٦، والمجادلة:١١، والتغابن١٢، و١٦).

٢. حق الصلاة والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

أمر الله تعالى المسلمين بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، وجعل ذلك فرض عين على كل مسلم، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦].

قال الجصاص: «قد تضمن الأمر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وظاهره يقتضي الوجوب، وهو فرض عندنا، فمتى فعلها الإنسان مرة واحدة في صلاة أو غير صلاة فقد أدى فرضه، وهو مثل كلمة التوحيد والتصديق بالنبي صلى الله عليه وسلم، متى فعله الإنسان مرة واحدة في عمره فقد أدى فرضه»[٢].

وفي معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، قاله أبو العالية.

الثاني: أن صلاة الله تعالى عليه المغفرة له، وصلاة الملائكة الاستغفار له، قاله سعيد بن جبير.

الثالث: أن صلاة الله تعالى عليه رحمته، وصلاة الملائكة الدعاء له، قاله الحسن، ومعنى قول عطاء بن أبي رباح.

الرابع: أن صلاتهم عليه أن يباركوا عليه، قاله ابن عباس[٣].

وحكى الماوردي عن ثعلب أن معنى قولنا: «اللهم صل على محمد»، أي: زد محمدًا بركة ورحمة، ويجري فيه التأويلات المذكورة، وأن قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: سلموا لأمره بالطاعة له تسليمًا.

الثاني: وسلموا عليه بالدعاء له تسليمًا، أي: سلامًا[٤].

٣. حق الاتباع والاقتداء من حقوق النبي محمد صلى الله عليه وسلم[٥].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٤٣.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٢١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي

أمر الله تعالى المؤمنين باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء به في غير موضوع من كتابه العزيز، فمن ذلك قوله جل شأنه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف:١٥٨].

قال ابن عادل الدمشقي: «وهذا الأمر يدلّ على وجوب متابعة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في كلّ ما يأتي به قولًا كان أو فعلًا أو تركًا إلا ما خصه الدّليل»[(١)].

وقوله جل ثناؤه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

والأسوة هنا بمعنى القدوة، وأكثر المفسرين على أن الآية وإن كانت واردة في سبب خاص، وهو التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم في الصبر ونحوه مما ابتلي به يوم أحد، فإنها تشير إلى ضرورة الاقتداء به في كل فعل وقول على جهة العموم[(٢)].

٤. حق توقير النبي صلى الله عليه وسلم واحترامه وعدم إيذائه أو إيذاء آل بيته.

من حقوق النبي صلى الله عليه وسلم علينا التي وردت في القرآن الكريم وجوب تقديره وتكريمه واحترامه، وعدم التعرض له صلى الله عليه وسلم بإيذاء؛ بالقول أو بالفعل، سواء كان الإيذاء لشخصه الكريم أو لآل بيته الطيبين الأطهار؛ رجالًا كانوا أو نساء.

وقد جاء هذا الحق في آية كريمة شاملة في سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٥٣].

وقد ورد في سبب نزولها ما أخرجه الشيخان أنّ أنس بن مالكٍ قال: (أنا أعلم النّاس بهذه الآية آية الحجاب، لمّا أهديت زينب إلى رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - كانت معه في البيت، صنع طعامًا، ودعا القوم، فقعدوا يتحدّثون، فجعل النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- يخرج، ثمّ يرجع،

عياض ٢/ ٩.

(١) اللباب في علوم الكتاب ٩/ ٣٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٣٥، الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ٢٢٣، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل ١٥/ ٥٢٦.

وهم قعودٌ يتحدّثون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ﴾ فضرب الحجاب، وقام القوم)[1].

٥. حب النبي صلى الله عليه وسلم من حقوقه علينا.

حب النبي صلى الله عليه وسلم واجب علينا، وهومن حقوقه المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤].

قال القاضي عياض: «فكفى بهذا حضًّا وتنبيهًا ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها صلى الله عليه وسلم، إذ قرع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله»[2].

٦. حرمة التقدم على النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الصوت عليه.

من حقوق النبي صلى الله عليه وسلم التي وردت في القرآن حرمة رفع الصوت أمامه عليه السلام؛ وذلك امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾[الأحزاب:١-٥].

والنهي عن التقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد في معناه أقوال:

الأول: أن ناسًا كانوا يقولون: لو أنزل فيّ كذا، لو أنزل فيّ كذا، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

الثاني: أنهم نهوا أن يتكلموا بين يدي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم)، رقم ٤٧٩٢، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب، رقم ٣٥٧٨.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض٢/ ١٨ بتصرف يسير.

كلامه، قاله ابن عباس.

الثالث: معناه ألا يقتاتوا على الله ورسوله، حتى يقضي الله على لسان رسوله، قاله مجاهد.

الرابع: أنها نزلت في قوم ضحوا قبل أن يصلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرهم أن يعيدوا الذبح، قاله الحسن.

الخامس: لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر به الله تعالى ورسوله، قاله الزجاج[1].

والنهي عن رفع الصوت في الآية قيل: المراد به رفع الصوت أو الجهر به أمام النبي عليه الصلاة والسلام، وقيل: رفع الصوت عند منبره يوم الجمعة، وقيل:المراد داعوه بإسمه فقط[2].

وأيًا كان المقصود بالتقدم على النبي صلى الله عليه وسلم أو رفع الصوت عليه، فإن هذا يتنافى مع مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يتفق مع مكارم الأخلاق، ونحن مأمورن بتعظيم شأن النبي وتقديره حق قدره.

وفي سبب نزول مقدمة سورة الحجرات روايات عدة كلها في الصحيح.

الأولى: ما رواه ابن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا - أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النّبيّ صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميمٍ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابسٍ أخي بني مجاشعٍ، وأشار الآخر برجلٍ آخر -قال نافعٌ لا أحفظ اسمه- فقال أبو بكرٍ لعمر: ما أردت إلاّ خلافي، قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل اللّه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ الآية. قال ابن الزّبير: فما كان عمر يسمع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتّى يستفهمه. ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني: أبا بكرٍ[3].

الثاني: أخرجه مسلم عن أنس بن مالكٍ أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت بن قيسٍ في بيته وقال: أنا من أهل النّار. واحتبس عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فسأل النّبيّ صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذٍ فقال: (يا أبا عمرٍو ما شأن ثابتٍ أشتكى). قال سعدٌ: إنّه لجاري وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعدٌ فذكر له قول رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال ثابتٌ: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أنّي من أرفعكم صوتًا على رسول اللّه صلى

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٢٦.

(٢) انظر: تفسير مقاتل ٣/ ٢٥٨، جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٦٩، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٢٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة الحجرات، باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي)، رقم ٤٨٤٥.

الله عليه وسلم، فأنا من أهل النّار. فذكر ذلك سعدٌ للنّبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (بل هو من أهل الجنّة)[1].

وذكر الواحدي أن قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ نزلت في خلاف سيدنا أبي بكر وعمر، والنهي عن رفع الصوت نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر وكان جهوري الصوت وكان إذا كلم إنسانًا جهر بصوته فربما كان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

ثانيًا: حقوق الوالدين:

من أعظم الحقوق على الإنسان بعد حق الله عز وجل حقوق الوالدين، حيث إن فضلهما كبير، ومنزلتهما عظيمة، ولهذا استحقا أن يقرن الله عز وجل شكرهما بشكر الله تعالى، وتعددت آيات القرآن الكريم التي توصي بالوالدين، وكذا نصوص السنة النبوية لا سيما بالأم. وأورد من ذلك ما يلي:

١. حق الإحسان إلى الوالدين مقترن بعبادة الله تعالى.

وهذا ما وردت به آيات عديدة، منها قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[البقرة:٨٣].

ويلحظ في الآية أن الوصية بالوالدين أمر معروف في كل الشرائع السماوية، وليس في الشريعة الإسلامية فقط.

ومنها: قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الأنعام:١٥١].

ومنها: قوله جل شأنه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣].

ويتدبر تلك الآيات الكريمة نجد أن الوصية بالإحسان للوالدين جاءت عقب الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، مما يدل على عظم منزلة الوالدين وفضلهما عند الله تعالى.

قال الجصاص: «يدل على تأكيد حق الوالدين ووجوب الإحسان إليهما كافرين كانا أو مؤمنين؛ لأنه قرنه إلى الأمر بعبادته تعالى»[3].

وقال في موضع آخر: «فقرن تعالى ذكره

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم ٣٢٩.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص ٢٨٦.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٧.

إلزام بر الوالدين بعبادته وتوحيده وأمر به كما أمر بهما كما قرن شكرهما بشكره في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وكفى بذلك دلالة على تعظيم حقهما ووجوب برهما والإحسان إليهما»[1].

وفي طائفة آخرى من الآيات جاء النص بالإخبار في صورة أمر كما في قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[العنكبوت:٨].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[الأحقاف:١٥].

وهنا جاء الأمر بالإحسان مقرونًا ببيان فضل الأم وما لاقته من عنت ومشقة في الحمل والولادة والرضاع.

وفسّر الإحسان بأنه تأدية حقوقهما ومجانبة عقوقهما والمحافظة على برهما[2].

ونكر لفظ الإحسان وجاء منونًا لمعان ذكرها بعض المفسرين، منها ما ذكره الألوسي من أن التنوين للتفخيم[3].

قال ابن العربي: «بر الوالدين ركن من أركان الدين في المفروضات، وبرهما يكون في الأقوال والأعمال؛ فأما في الأقوال فكما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[الإسراء:٢٣]. فإن لها حق الرحم المطلقة، وحق القرابة الخاصة؛ إذ أنت جزء منه، وهو أصلك الذي أوجدك، وهو القائم بك حال ضعفك وعجزك عن نفسك»[4].

هذا والإحسان إلى الوالدين فيه جوانب مادية؛ كالإنفاق عليهما من ماله، وجوانب معنوية؛ كالبر والطاعة وحسن معاملتهما، على تفصيل مبسوط في كتب الفقه وكتب السنة وغير ذلك.

٢. طاعة الوالدين فيما لا يخالف شرع الله.

أمر الله تعالى الأبناء بطاعة الوالدين، مع اشتراط أن لا تكون تلك الطاعة مخالفة لشرع الله تعالى، أو متضمنة الأمر بالشرك ونحوه كما نصت عليه الآيات في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[العنكبوت:٨].

وروى مسلم عن مصعب بن سعدٍ عن أبيه أنّه نزلت فيه آياتٌ من القرآن، قال: حلفت أمّ سعدٍ أن لا تكلّمه أبدًا حتّى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب. قالت: زعمت أنّ اللّه وصّاك بوالديك وأنا أمّك وأنا آمرك

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٥.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ١٨٥.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ١٧.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٣٥٨.

بهذا. قال: مكثت ثلاثًا حتّى غشي عليها من الجهد فقام ابنٌ لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعدٍ، فأنزل اللّه عزّ وجلّ في القرآن هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي﴾ وفيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾... الحديث[1].

وكما في قوله جل شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:١٤-١٥].

ومن أروع الأمثلة في الطاعة طاعة نبي الله إسماعيل عليه السلام لأبيه الخليل إبراهيم عليه السلام في قصة الذبح.

قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات:١٠٢].

٣. عدم إيذائهما أو التأفف منهما.

قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء:٢٣].

وهنا عبرت الآية بلفظ (أف) ونهي الإنسان عن قولها لوالديه أو لأحدهما، ومن معاني هذه الكلمة والمقصود منها لدى المفسرين ما قاله قتادة أنها «الكلام الرديء، كأن تقول: اللهم أرحني منهما، أو تغلظ عليهما في القول عند كبرهما، ومعالجتك إياهما وعند إماطة القذر عنهما»، وروي نحوه عن مجاهد[2].

وقيل: المقصود بها أنه استقذار الشيء وتغير الرائحة.

وقيل: إنها كلمة تدل على التبرم والضجر، خرجت مخرج الأصوات المحكية، والعرب أف وتف، فالأف وسخ الأظفار، والتّف ما رفعته من الأرض بيدك من شيء حقير، وحكى الجصاص أن هذا دلالة على تحريم ما فوق هذه الكلمة من نحو الضرب والشتم[3].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص، رقم ٦٣٩١.

(٢) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٢٥٤، جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤١٥.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٨٣، أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٨٩.

﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف:١٦-١٨].

٤. إلانة القول لهما وخفض الجناح.

قال الله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

أمر الله تعالى الأبناء بإلانة القول للوالدين وحسن اختيار الكلام معهما، وخفض الجناح بمعنى التذلل لهما وعدم الترفع عليهما أو التكبر، فاستعار للذل جناحًا، وأضافه إليه؛ مبالغة؛ فإنّ الطير إذا تذلل أرخى جناحه إلى الأرض، كذلك الولد، ينبغي أن يخضع لأبويه، ويلين جانبه، ويتذلل لهما غاية جهده، وقيل المراد: حسن التدبير لأمورهما وكفالتهما ورعايتهما[(١)].

٥. الدعاء لهما في حياتهما وبعد وفاتهما.

من حقوق الوالدين على الأبناء الدعاء لهما، سواء كانا حيين أو ميتين[(٢)]، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤].

وهذا الدعاء للمؤمنين فقط، كما قال الجصاص: «فيه الأمر بالدعاء لهما بالرحمة والمغفرة إذا كانا مسلمين؛ لأنه قال في موضع آخر: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ فعلمنا أن مراده بالدعاء للوالدين خاص في المؤمنين»[(٣)].

ثالثًا: حقوق الأقارب:

الأقارب أنواع، منهم الأصول، كالآباء والأجداد، ومنهم الفروع كالأبناء وأبناء الأبناء والبنات، ومنهم الحواشي كالإخوة والأخوات، وهناك ذوو الأرحام، وكل هؤلاء قرابة المرء، لهم عليه حقوق، بعضها فرض، وبعضها مستحب، وقد ورد ذكر ذوي القربى في مواضع عدة من كتاب الله تعالى مبينًا فيها حقوقهم والوصية بهم ماديًّا ومعنويًّا، ومن هذه الحقوق ما يلي:

١. الإنفاق عليهم.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:١٧٧].

قال الماوردي: «يريد قرابة الرجل من طرفيه من قبل أبويه، فإن كان ذلك محمولًا على الزكاة، روعي فيهم شرطان: أحدهما: الفقر، والثاني: سقوط النفقة، وإن كان ذلك

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٢٥، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٥-٢٦، البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ١٢٠.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٠، تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٧.

(٣) أحكام القرآن، ٥/ ٢٠.

محمولًا على التطوع لم يعتبر واحد منهما، وجاز مع الغنى والفقر، ووجوب النفقة وسقوطها؛ لأن فيهم مع الغنى صلة رحم مبرور»[1].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

٢. الإحسان إليهم والمراد به صلتهم، والبر بهم[2].

وقد ورد الأمر بالإحسان لذوي القربى في آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

ومن لطائف الآية ما ذكره الرازي «اعلم أن الوالدين من الأقارب أيضًا، إلا أن قرابة الولاد لما كانت مخصوصة بكونها أقرب القرابات وكانت مخصوصة بخواص لا تحصل في غيرها، لا جرم ميزها الله تعالى في الذكر عن سائر الأنواع، فذكر في هذه الآية قرابة الولاد، ثم أتبعها بقرابة الرحم»[3].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣].

٣. إيفاؤهم حقهم.

أمر القرآن الكريم بإيفاء ذوي القربى حقوقهم من البر والصلة والعون والنصرة، وذلك في غير موضع، منها قول الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقوله جل وعلا: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وفي هذا المعنى روي عن قتادة في قوله تعالى ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ قال: «إذا كان لك ذو قرابة فلم تصله بمالك ولم تمش إليه برجلك فقد قطعته»[4].

٤. جعل نصيب لهم عند حضور القسمة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

عن عكرمة: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ قال: كان ابن عباس يقول: «إذا

(١) النكت والعيون، ١/ ٢٢٦.
(٢) تفسير مقاتل ١/ ٢٢٩.
(٣) مفاتيح الغيب، ١٠/ ٧٥.
(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣/ ١٠٣.

ولي شيئًا من ذلك، يرضخ لأقرباء الميت. وإن لم يفعل، اعتذر إليهم وقال لهم قولا معروفًا»[1].

وذكر الماوردي في هذه الآية ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها ثابتة الحكم. قال سعيد بن جبير: هما وليان، أحدهما يرث وهو الذي أمر أن يرزقهم، أي: يعطيهم، والآخر لا يرث وهو الذي أمر أن يقول لهم قولًا معروفًا، وبإثبات حكمها قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبي، والحسن، والزهري.

وروي عن عبيدة أنه ولي وصية فأمر بشاة فذبحت، وصنع طعامًا لأجل هذه الآية وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي.

والقول الثاني: أنها منسوخة بآية المواريث، وهذا قول قتادة، وسعيد بن المسيب، وأبي مالك، والفقهاء.

والثالث: أن المراد بها وصية الميت التي وصّى بها أن تفرق فيمن ذكر وفيمن حضر، وهو قول عائشة.

فيكون ثبوت حكمها على غير الوجه الأول[2].

فبان من هذه النصوص القرآنية مدى ما يتمتع به أولو القربى من حقوق كفلها لهم القرآن الكريم.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٧/ ١٦.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٦٥.

رابعًا: حقوق الجار:

أوصى القرآن الكريم بالجار على اختلاف أنواعه في آية كريمة اشتملت على الوصية بأصناف عدة وهي قول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

والمراد بالجار ذي القربى هو الجار الذي يمت لك بصلة قرابة، والجار الجنب، هو جارك من قوم آخرين؛ هكذا روي عن ابن عباس ومقاتل وقتادة ومجاهد[3]، وهناك نوع آخر من الجيران وهو غير المسلم.

ولهذا فإن الجار الذي بينك وبينه قرابة له ثلاثة حقوق (حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام)، والجار الذي ليس بقريب له حقان (حق الجوار وحق الإسلام)، والجار غير المسلم له حق واحد وهو الجوار[4].

وقد قال القرطبي بعد أن أورد تقسيم الجيران: «وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلمًا كان أو كافرًا، وهو الصحيح. والإحسان قد يكون بمعنى

(٣) انظر: تفسير القرآن، عبد الرزاق الصنعاني ١/ ١٥٩، جامع البيان، الطبري ٨/ ٣٣٥.
(٤) تفسير السمرقندي، ١/ ٣٢٧.

المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه»[1].

ومن أبرز حقوق الجار:

١. محبة الجار والتودد إليه.

فقد أخرج مسلم عن أنس بن مالكٍ عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال (لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه - أو قال لجاره - ما يحبّ لنفسه)[2].

٢. عدم إيذائه بقول أو فعل.

فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنّة من لا يأمن جاره بوائقه)[3].

ومن لطائف التفسير ما ذهب إليه أبي بن كعب بتفسير الفاحشة في قول الله تعالى بالبذاء على الجيران والإحماء أو على الزوج؛ بحيث أن بقاء أمثالهن في جوار أهل البيت يفضي إلى تكرر الخصام فيكون إخراجها من ارتكاب أخف الضررين[4].

٣. عدم كشف ستره أو التجسس عليه.

وذلك إعمالًا للنص الوارد في النهي عن التجسس مطلقًا ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢].

قلت: وإذا كان التجسس محرم على جهة العموم، في حق الجار وغير الجار، فلا شك أن حرمته في حق الجار أشد؛ نظرًا لقرب ما بين الجيران في السكن.

وهناك حقوق أخرى للجار وردت في السنة النبوية، بعضها حقوق مادية وبعضها معنوية، لا يناسب ذكرها في هذا البحث التفسيري.

خامسًا: حقوق الصحبة:

قال الفيروزآبادي: «الصاحب هو الملازم، إنسانًا كان أو غيره، ولا فرق بين أن يكون مصاحبته بالبدن - وهو الأكثر - أو بالعناية والهمة. ولا يقال فى العرف إلا لمن كثرت ملازمته[5].

والصحبة من الأمور الهامة في حياة الناس، حيث لا يستطيع كثير من الناس العيش بمفردهم بل لابد لهم من أصحاب أو أصدقاء يأنسون لهم، ويستشيرونهم، ويتعاونون معهم على في السراء والضراء، والمعهود من قديم الزمان وجود الأصحاب والأصدقاء.

وللصحبة ضوابطها في الإسلام، وللأصحاب حقوقهم في القرآن والسنة، ولقد اهتم القرآن الكريم بحقوق الصحبة

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ١٨٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدّليل على أنّ من خصال الإيمان أن يحبّ لأخيه المسلم ما يحبّ لنفسه من الخير، رقم ١٧٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب تحريم إيذاء الجار، رقم ١٨١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٧٠.
(٥) بصائر ذوي التمييز، ٣/ ٣٨٧ بتصرف.

ونصت الآيات الكريمة على بيان فضلها في مواطن، فمن ذلك ما يلي:

١. نصرة الصاحب لصاحبه ومعاونته إياه.

وهذا يتجلى في موقف سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة الهجرة، حيث أثنى الله تعالى على صحبة أبي بكر الصديق للنبي صلى الله عليه وسلم في رحلة الهجرة، وما أبلاه رضي الله عنه في هذه الرحلة، بل وما أبلاه نحو الإسلام ونحو الدعوة عبر حياته.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠].

ويتجلى من هذه الآية الكريمة طرف من العبر واللطائف بيانها على النحو الآتي:

- أنّ سيدنا أبا بكر رضي الله عنه كان يخاف على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ذهاب التوحيد والإسلام، ولم يكن يخاف على نفسه[١].
- أنّ الآية تضمنت عتابًا لجميع الناس عدا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما قال الشعبي: «عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعًا في هذه الآية غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه»[٢].

قلت: وما ذلك إلا لبلاء أبي بكر رضي الله عنه وجهوده في خدمة دين الله تعالى، ولذلك استحق هذا الثناء، وما لحقه من ثناء من النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث عدة مبسوطة في كتب المناقب من كتب السنة المطهرة.

وقد ورد لفظ الصاحب في القرآن الكريم في عدة مواضع وتجلى في هذه المواضع بعض حقوق الصحبة منها:

٢. الإحسان إلى الصاحب.

وذلك كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

وفسر الصاحب بالجنب هنا بتفسيرات عدة منها: أن المراد به الرفيق الصالح، وهو مروي عن علي وابن مسعود وغيرهم[٣].

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٦٠، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٤٩.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٤٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٨/ ٣٤١.

ومنها: أنه الرفيق في السفر، حيث روي هذا عن مجاهد وابن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم[(١)].

ومنها: أن المراد بها زوجة الرجل، حيث روي هذا أيضًا عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما[(٢)].

ومنها: أنه الذي يلزمك ويصحبك رجاء نفعك، وهو قول ابن زيد[(٣)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير الأصحاب عند الله خيره لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره)[(٤)].

٣. دعوة الصاحب إلى الهدى والرشاد.

وذلك كما فعل سيدنا يوسف عليه السلام من دعوته رفقاء السجن إلى دين الله عز وجل، كما في الآية ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠].

وهنا يلحظ أن نبي الله يوسف عليه السلام كرر النداء عليهم مرتين بـ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ حتى تجتمع أنفسهما لسماع الجواب، ونسبهما إلى السجن باعتبار أنهما من سكانه حينئذٍ[(٥)].

٤. اجتماع الأصحاب على الخير والطاعة وبذل النفس في سبيل الله.

وهذا نراه واضحًا في أروع مثال ضربه فريق من الأصحاب (أهل الكهف) من البذل والتحمل في سبيل الله، والاتفاق على نصرة دينه، والصدع بالحق أمام الظالم، فنالوا من الأذى ما نالوا، وفروا بدينهم، فكرمهم الله تعالى بمعجزة باهرة وآية عظيمة.

قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف:٩-١٠].

ثم تلا ذلك بضعة عشر آية تذكر قصتهم العجيبة، فانظر كيف اجتمعت صحبتهم على الطاعة واشتروا دينهم بدنياهم فكرّمهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، ولله درها من صحبة، اجتمعت فيها القلوب على

(١) انظر: تفسير القرآن، عبد الرزاق الصنعاني ١/ ٩٥، جامع البيان، الطبري ٨/ ٣٤١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٣٤٢.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٨٥.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب حق الجوار، رقم ١٩٤٤.
قال الترمذي: حديث صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٢٠، رقم ٣٢٧٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٠٤، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٥٦.

هدف واحد بالرغم من اختلافهم طبقاتهم ودرجاتهم، كما هو معلوم في القصة من وجود الغني والفقير فيهم، والراعي وأحد مستشاري الملك.

٥. تقديم النصيحة للصاحب إذا كان على غير رشد.

وهذا ما نراه واضحًا في قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف:٣٧-٣٩].

قلت: ليس في الآيات ما يدل على نوع هذه الصحبة، فقد ذهب المفسرون إلى أقوال في ذلك: منها أنهما شريكان، ومنها أنهما كانا أخوين ورثا مالا عن أبيهما[(١)].

سادسًا: حقوق العلماء:

العلماء ورثة الأنبياء، وهم أهل الفضل والمنة على كثير من الناس، وهم منارات في الأرض يهتدي بها الناس، يفقهون الناس في دينهم، ويشرحون لهم ما أشكل عليهم، ويبينون لهم الحلال والحرام.

روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من سلك طريقًا يبتغي به علمًا سلك الله له طريقًا إلى الجنّة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضًى لطالب العلم بما يصنع، وإنّ العالم ليستغفر له من في السّماوات ومن في الأرض حتّى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الانبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنّما ورّثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظٍّ وافرٍ)[(٢)].

وقد اهتم القرآن الكريم بهم في غير موضع، وأمر بإيفائهم حقهم من التقدير والاحترام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

قال الجصاص: «فيه الإبانة عن فضيلة العلم وأن به يتوصل إلى خشية الله وتقواه؛ لأن من عرف توحيد الله وعدله بدلائله أوصله ذلك إلى خشية الله وتقواه؛ إذ كان من لا يعرف الله ولا يعرف عدله وما قصد له بخلقه لا يخشى عقابه ولا يتقي»[(٣)].

وقال جل شأنه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٦٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم ٣٦٤٣، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقة على العبادة، رقم ٢٦٨٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٧٩، رقم ٦٢٩٧.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٤٦-٢٤٧.

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩].

وأورد هنا طرفًا من حقوق العلماء علينا:

١. تقديرهم واحترامهم وموالاتهم.

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي بعد آية ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]: «يجب على كل مسلمٍ بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن؛ خصوصًا الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدي بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، فإنّهم خلفاء الرسول في أمته، والمحيون لما مات من سنته، فبهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا»[(١)].

٢. عدم غيبتهم وإيذائهم.

حرم القرآن الكريم الغيبة، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

وإذا كانت الغيبة محرمة على جهة العموم فقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ غيبة العلماء أشدّ وآثم من غيبة غيرهم، لما يترتّب على ذلك من المفاسد العظيمة في غيبتهم، ولهذا نصّ بعض العلماء على أنّ الغيبة إذا كانت في أهل العلم وحملة القرآن الكريم فهي كبيرةٌ، وإلا فصغيرةٌ[(٢)].

٣. طاعتهم فيما يأمرون به.

من حقوق العلماء علينا حق الطاعة لهم فيما يأمروننا به من تعاليم وإرشادات، وقد ورد في القرآن الكريم الأمر بطاعة أولي الأمر، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

وقد فسر بعض السلف كجابر بن عبد الله والحسن ومجاهد وعطاء رضي الله عنهم جميعًا أولي الأمر بأنهم العلماء[(٣)].

فقد أخرج ابن أبي شيبة بسنده عن جابر بن عبد الله: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال: أولو الفقه أولو الخير[(٤)].

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال: هم العلماء[(٥)].

سابعًا: حقوق الضعفاء:

الضعفاء أصناف شتى من الناس بعضهم ضعفه حسي؛ كالمرضى وذوي الإعاقات،

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٣٢٧.

(٢) السراج المنير، الشربيني ٤/ ٨٨ بتصرف.

(٣) انظر: تفسير القرآن، عبد الرزاق الصنعاني ١/ ١٦٦، جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٠١.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ١٢/ ٢١٢، رقم ٣٣٢٠٠.

(٥) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ١/ ١٦٦.

وبعضهم ضعفه معنوي؛ كاليتيم وابن السبيل، والعبيد والخدم، وبعضهم ضعفه بأصل الخلقة التي خلقه الله عليها كالمرأة، وقد اهتم الإسلام ممثلًا في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بحقوق هؤلاء على اختلاف أنواعهم، فحذرت النصوص القرآنية والنبوية من التعدي عليهم، أو الإساءة لهم بالقول أو بالفعل، أو أكل حقوقهم، كما أمرت بالإحسان إليهم، وهو ما أتناوله على النحو التالي:

الفرع الاول:حقوق النساء:

كرّم القرآن الكريم النساء أيما تكريم، وحسبهن أن سميت باسمهن سورة في كتاب الله تعالى اشتملت على طائفة من الأحكام والتشريعات الخاصة بالنساء، وبنحوهن من الضعفاء؛ كاليتامى والمساكين.

وحقوق النساء أكثر من أن تذكر في هذه السطور القليلة، فهي مبسوطة في كتب السنة وأبواب الفقه المختلفة.

وجعل سبحانه وتعالى بين الرجل والمرأة حقوقًا متبادلة، أجملها في آية وفصلها في آيات أخرى، فقال جل شأنه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

قال الجصاص: «أخبر الله تعالى في هذه الآية أن لكل واحد من الزوجين على صاحبه حقًّا، وإن الزوج مختص بحق له عليها ليس لها عليه مثله بقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ولم يبين في هذه الآية ما لكل واحد منهما على صاحبه من الحق مفسرًا، وقد بينه في غيرها وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم»[1].

وأشير هنا إلى طرف من حقوق النساء في القرآن الكريم بإيجاز على هذا النحو:

١. إحسان العشرة الزوجية.

وذلك يتجلى في نصوص قرآنية حثت على إباحة تعدد الزوجات مع شرط العدل بينهن، ونصوص أخرى حثت على التعامل مع نشوز النساء بحلول شرعية تناسب كل النساء، ونصوص ثالثة حثت على إدخال التحكيم أو الصلح في نزاع المرأة مع زوجها، ونصوص رابعة تنهى عن الحيف على المرأة وتأمر بالاعتدال في حالة التعدد.

فمن النوع الأول: قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء:٣].

ومنه أيضًا قوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ

(١) أحكام القرآن، ٢/ ٦٨.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩].

فنصت الآية على سبيل الوجوب بإحسان عشرة النساء مع الإشارة إلى أن الله تعالى قد يكون قدر الخير في تلك المرأة التي يبغضها زوجها.

والمعاشرة بالمعروف المقصود بها المصاحبة لهن بالإحسان كما ذكره مقاتل[(١)].

وقال الشافعي رحمه الله في معناها في موضع: «وجماع المعروف إتيان ذلك بما يحسن لك ثوابه وكف المكروه»، وفي موضع آخر: «وجماع المعروف بين الزوجين: كف المكروه وإعفاء صاحب الحق من المؤنة في طلبه، لا بإظهار الكراهية في تأديته فأيهما مطل بتأخيره فمطل الغني ظلم»[(٢)].

وذكر الزمخشري أن المراد بالمعاشرة بالمعروف النصفة في المبيت والنفقة والإجمال في القول[(٣)].

ويفسر المعروف كذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: (لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً إن كره منها خلقًا رضي منها آخر). أو قال: (غيره)[(٤)].

ومنه كذلك ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٢٩].

ومن النوع الثاني من النصوص الآمرة بحسن العشرة: قوله جل شأنه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤].

ومن النوع الثالث: قول الله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾ [النساء: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء:١٢٨].

ومن إحسان عشرة النساء عدم إمساكهن كرهًا، فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ

(١) انظر: تفسير مقاتل ١/ ٣٦٤.
(٢) أحكام القرآن، الشافعي١/ ١٣٣، والموضع الثاني رواية ثانية عند المزني.
(٣) الكشاف ١/ ٥٢٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ٣٧٢١.

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

٢. إيفاء النساء صداقهن.

جعل الله الصداق حقًّا من حقوق النساء، فأمر الأزواج بإيفائه لهن، وضرب مثالًا لعظمه ومقداره بالقنطار، ونهى عن أخذ شيء منه إلا عن طيب نفس من الزوجة، ونهى عن استرداده.

فقال جل شأنه: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢٠-٢١].

والآيتان تدلان على عظم قدر الصداق، وفيها دليل على جواز المغالاة في المهور؛ لأنّ الله تعالى لا يمثل إلا بمباح وقد روي أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب على المنبر فقال: «ألا لا تغالوا في صداقات النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية» فقامت إليه امرأة فقالت: يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا أنت؟ أليس الله سبحانه يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ فقال عمر: «امرأة أصابت وأمير أخطأ»[(١)].

والآية تدل كذلك عدم جواز أخذ شيء منه بعد الزواج، فالصداق حق كامل للمرأة بالدخول، أو المسيس أو الخلوة الشرعية، وحق متنصف إذا طلقت قبل الدخول على ما هو معروف في أبواب النكاح.

وقال جل شأنه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٢٤].

فأبانت الآية أن المهر حق للمرأة، فإن

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم١٠٤٢٠ ٦/ ١٨٠.

شاء تنازلت عنه أو عن شيء منه فلا حرج عليه ولا على الزوج في ذلك.

٣. حق النساء في الميراث.

أعطى الإسلام للمرأة حقها في الميراث زوجة كانت أو بنتًا أو أمًّا أو جدةً، أو أختًا أو بنت ابن..الخ، وجعل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل، وفي بعض الحالات تتساوى معه أو تزيد عليه.

قال تعالى في شأن توريث النساء على جهة العموم: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النساء:٧].

وأخرج البخاري عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: «كان المال للولد، وكانت الوصيّة للوالدين، فنسخ اللّه من ذلك ما أحبّ، فجعل للذّكر مثل حظّ الأنثيين، وجعل للأبوين لكلّ واحدٍ منهما السّدس والثّلث، وجعل للمرأة الثّمن والرّبع، وللزّوج الشّطر والرّبع»[(١)].

وأورد الطبري عن قتادة في قول الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢]، كان أهل الجاهلية لا يورّثون المرأة شيئًا ولا الصبيّ شيئًا، وإنما يجعلون الميراث لمن يحترف وينفع ويدفع، فلما نجز للمرأة نصيبها وللصبيّ نصيبه، وجعل للذكر مثل حظّ الأنثيين، قال النساء: «لو كان جعل أنصباءنا في الميراث كأنصباء الرجال»! وقال الرجال: «إنا لنرجو أن نفضّل على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فضلنا عليهن في الميراث»! فأنزل الله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢]، يقول: المرأة تجزى بحسنتها عشر أمثالها، كما يجزى الرجل، قال الله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء:٣٢][(٢)].

وورد في سورة النساء آيات تنص على حق توريث المرأة بجميع حالاتها الأم والجدة، والبنت وبنت الابن، والاخت، والزوجة.... على ما هو معروف في آيات سورة النساء.

٤. عدم عضل المرأة في النكاح.

نهى القرآن الكريم الأولياء عن عضل النساء في الزواج، سواء كانت المرأة ابنة الولي أو أخته أو يتيمة في حجره، فقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ولكم نصف ما ترك أزواجكم)، رقم ٤٥٧٨.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/ ٢٦٥-٢٦٦.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٢].

قال الإمام الشافعي: «حتم لازم لأولياء الأيامى، والحرائر البوالغ إذا أردن النكاح، ودعوا إلى رضى من الأزواج. أن يزوجوهن؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ فإن شبّه على أحد بأن مبتدأ الآية على ذكر الأزواج؛ ففي الآية دلالة على أنه إنما نهى عن العضل الأولياء؛ لأن الزوج إذا طلق، فبلغت المرأة الأجل فهو أبعد الناس منها، فكيف يعضلها من لا سبيل ولا شرك له في أن يعضلها في بعضها؟!»[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء:١٩].

وسبب نزول ذلك كما ذكره الماوردي: «أن أهل المدينة في الجاهلية كانوا إذا مات أحدهم عن زوجة، كان ابنه وقريبه أولى بها من غيره ومنها بنفسها، فإن شاء نكحها كأبيه بالصداق الأول، وإن شاء زوجها وملك صداقها، وإن شاء عضلها عن النكاح حتى تموت فيرثها أو تفتدي منه نفسها بصداقها، إلى أن توفّي أبو قيس بن الأسلت عن زوجته كبيشة بنت معن بن عاصم فأراد ابنه أن يتزوجها فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا نبي الله لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت فأنكح، فنزلت هذه الآية»[2].

٥. تشريع كفارة الظهار من حقوق النساء.

شرع الله تعالى كفارة الظهار حلًّا لإشكالية وقعت لامرأة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان في ذلك رحمة بكثير من الأسر التي توشك أن تنهار بسبب الظهار، بل إن الله تعالى قد أنزل سورة كاملًا تحمل اسم «المجادلة» والتي صدرت آياتها بقصة السيدة خولة ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة:١-٤].

روي عن عبد اللّه بن سلامٍ عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة قالت: (ظاهر منّي

(١) أحكام القرآن، الشافعي ١/ ١٣١.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٦٦.

زوجي أوس بن الصّامت فجئت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أشكو إليه، ورسول اللّه صلى الله عليه وسلم يجادلني فيه، ويقول: (اتّقي اللّه فإنّه ابن عمّك)، فما برحت حتّى نزل القرآن ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى الفرض، فقال: (يعتق رقبةً)، قالت: لا يجد، قال: (فيصوم شهرين متتابعين)، قالت: يا رسول اللّه، إنّه شيخٌ كبيرٌ ما به من صيامٍ، قال: (فليطعم ستّين مسكينًا)، قالت: ما عنده من شيءٍ يتصدّق به، قالت: فأتي ساعتئذٍ بعرقٍ من تمرٍ، قلت: يا رسول اللّه، فإنّي أعينه بعرقٍ آخر، قال: (قد أحسنت اذهبي فأطعمي بها عنه ستّين مسكينًا وارجعي إلى ابن عمّك)[1].

٦. النهي عن معاشرة المرأة في حال العذر الشرعي:

من حقوق المرأة كذلك أن القرآن الكريم نهى الأزواج عن معاشرة زوجاتهم خلال الحيض ونحوه؛ كالنفاس، واصفًا ذلك بأنه أذى، وهذا وإن كان أمرًا شرعيًّا يتعلق بالطهارة، وحفظ الصحة، ونحوهما؛ فهو حق للمرأة كذلك، حيث لا يحل لزوجها إجبارها على المعاشرة وهي على هذه الحالة، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة:٢٢٢].

وقد حكى الرازي - عند تفسير هذه الآية- اتفاق المسلمين على حرمة الجماع في زمن الحيض، واتفاقهم على حل الاستمتاع بالمرأة بما فوق السرة ودون الركبة، واستنبط من الآية فائدة جليلة جديدة وهي أن يكون قوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ نهيًا عن المباشرة في موضع الدم، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ يكون نهيًا عن الالتذاذ بما يقرب من ذلك الموضع[2].

الفرع الثاني: حقوق اليتامى:

اليتيم هو من فقد أباه دون البلوغ ويمكن أن يطلق أيضًا على من بلغ استصحابًا للأصل[3].

وقد ورد ذكر اليتامى في القرآن الكريم في اثنين وعشرين موضعًا، بعضها بالإفراد وأكثرها بالجمع، وموضع في الكهف بالتثنية.

وقد أوصى القرآن الكريم باليتامى خيرًا في غير موضع، وحث على إيفائهم حقوقهم وعدم أكل أموالهم، وذكر نعمته جل وعلا على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي نشأ يتيمًا فآواه الله عز وجل.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب في الظهار، رقم ٢٢١٦.
وصححه ابن الملقن في البدر المنير ٨/ ١٤٨.

(٢) مفاتيح الغيب، ٦/ ٤١٣.

(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم، ٢/ ١٢١٣.

وأبرز حقوق اليتامى التي ورد الأمر بها في القرآن الكريم ما يلي:

١. الإحسان إليهم.

وذلك في آيات عدة منها:

قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣].

وقوله جل شأنه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

٢. عدم أكل مال اليتامى ظلمًا.

كما في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [النساء:٣].

وحذر القرآن الكريم من أكل أموال اليتامى مصورًا إياه في أبشع صورة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠].

وأكل مال اليتامى ظلمًا معدود من أكبر الكبائر ومن السبع الموبقات بنص حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السّبع الموبقات). قالوا: يا رسول اللّه، وما هنّ؟ قال: (الشّرك باللّه، والسّحر، وقتل النّفس الّتي حرّم اللّه إلاّ بالحقّ، وأكل الرّبا، وأكل مال اليتيم، والتّولّي يوم الزّحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[1].

٣. عدم الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

وذلك جاء في موضعين من مواضع الوصايا الواردة في سورتي الأنعام والإسراء، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢] [الإسراء:٣٠].

٤. النصح لليتيم.

من حقوق اليتيم النصح له، وذلك بالنظر فيما يصلح شأنه ماديًّا ومعنويًّا، وحسن التصرف في ذلك، مصداقًا، لقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول اللّه تعالى: (إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنّما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا)، رقم ٢٧٦٦.

لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢٢٠].

وذكر البخاري أن ابن سيرين كان أحبّ الأشياء إليه في مال اليتيم أن يجتمع إليه نصحاؤه وأولياؤه فينظروا الّذي هو خيرٌ له. وكان طاوسٌ إذا سئل عن شيءٍ من أمر اليتامى قرأ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾. وقال عطاءٌ في يتامى الصّغير والكبير: ينفق الوليّ على كلّ إنسانٍ بقدره من حصّته[1]..

٥. التصدق على اليتيم.

ومن حقوقه أيضًا: التصدق عليه كما في قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾[البقرة:١٧٧].

وكما في حديث أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ هذا المال خضرةٌ حلوةٌ، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السّبيل)، أو كما قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (وإنّه من يأخذه بغير حقّه كالّذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيدًا عليه يوم القيامة)[2].

٦. الإحسان إلى يتامى النساء.

أمر القرآن الكريم بالإحسان إلى اليتيمات من النساء خاصة؛ نظرًا لما كان عليه العرب من هضم حقوقهن، وإهدارها،والتزوج منهن كرهًا حتى يستولي عليها وعلى مالها، فقال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:١٢٧].

وسبب نزولها كما في الصحيحين: ما رواه عروة بن الزّبير أنّه سأل عائشة عن قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾. فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها، تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليّها أن يتزوّجها، بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهنّ، إلاّ أن يقسطوا لهنّ، ويبلغوا لهنّ أعلى سنّتهنّ في الصّداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النّساء

(١) علق هذه الآثار البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ)، ٤/ ١٠.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري رقم ١٤٦٥في كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى.

سواهنّ. قال عروة قالت عائشة وإنّ النّاس استفتوا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل اللّه ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ قالت عائشة وقول اللّه تعالى في آية أخرى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال، قالت: فنهوا أن ينكحوا عن من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النّساء، إلاّ بالقسط، من أجل رغبتهم عنهنّ إذا كنّ قليلات المال والجمال[1].

الفرع الثالث: حقوق العبيد ونحوهم:

العبيد والإماء صنف من الناس ابتلوا بالرق لظروف ألمت بهم، وقد اهتم الإسلام بأمرهم، وحث على الإحسان إليهم، ووردت في أكثر الكفارات صنف من خصال الكفارة عن عتق الرقاب، وقد كان الرق منتشرًا قبل الإسلام، فلما أنعم الله تعالى على البشرية بالرسالة المحمدية، سعت الشريعة إلى تضييق نطاق الرق بتجفيف منابعه، وذلك من خلال الحث على الإعتاق:

فجاء الأمر بالعتق في كفارات (اليمين، والظهار، والقتل الخطأ، والجماع في رمضان)، وهذا أبرز حق من حقوق العبيد وهو: السعي في إعتاقهم، والنصوص القرآنية وافرة في هذا الشأن:

قال الله تعالى في شأن كفارة القتل الخطأ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:٩٢].

وقال جل شأنه في كفارة اليمين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة:٨٩].

وقال عز من قائل في كفارة الظهار: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[المجادلة:٣].

وقال سبحانه وتعالى مرغبًا في الإعتاق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى)، رقم ٤٥٤٧، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)، رقم ٣٠٢٧.

على جهة العموم: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد:١١-١٣].

ومن حقوق العبيد التي وردت في القرآن الكريم مكاتبتهم إن أرادوا التحرر من ربقة العبودية.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣].

ومن حقوق الإماء عدم إكراههم على الفاحشة، تطبيقًا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

وسبب الآية كما أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ جاريةً لعبد اللّه بن أبيٍّ ابن سلول يقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة، فكان يكرههما على الزّنى، فشكتا ذلك إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل اللّه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

ومن حقوق العبيد التصدق عليهم، وذلك من خصال البر، كما في قول الله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧].

ومن حقوق العبيد والإماء ويلحق بهم الخدم عدم التقصير في نفقتهم، وتعليمهم أمور الشرع وحثهم على الطاعات.

وعدم تكليفهم بما لا يطاق، فإن كلفوا بعمل شاق، فينبغي مساعدتهم، وهذا الحق وإن لم ينص عليه صراحة في كتاب الله تعالى إلا أنه مستفاد من نصوص قرآنية عامة، مثل قول الله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

وقد نصت السنة النبوية على هذا الحق كما في الصحيح عن المعرور بن سويدٍ قال: رأيت أبا ذرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه وعليه حلّةٌ وعلى غلامه حلّةٌ فسألناه عن ذلك فقال: (إنّي سابيت رجلًا فشكاني إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال لي النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (أعيّرته بأمّه؟). ثمّ قال: (إنّ إخوانكم خولكم جعلهم اللّه تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل، وليلبسه ممّا يلبس، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلّفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم)[2].

وللعبيد حقوق أخرى مبسوطة في مواضعها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) رقم ٣٠٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب قول النبي في العبيد: (إخوانكم خولكم)، رقم ٢٥٤٥.

من كتب الفقه.

الفرع الرابع: حقوق المرضى وذوي الإعاقات:

المرض ضعف في القوى يترتب عليه خلل في الأفعال، أو هو خروج البدن عن الاعتدال الخاص[1].

والأمراض من البلايا التي يبتلى بها البشر وغيرهم، وقد جعل الله تعالى المرض مشتملًا على فوائد وحكم متعددة، وللمرضى حقوق كفلتها لهم الشريعة الإسلامية مراعاة لأحوالهم وظروفهم، وأبرز حقوق المرضى والضعفاء التي وردت في القرآن الكريم هي التخفيف عن المرضى في العبادات وما يتعلق بها:

حيث خفف الله تعالى عن المرضى في العبادات، ورخص لهم ويسر عليهم أمورهم في الطهارة، والصلاة، والصوم، والحج، والجهاد، والاستئذان، والأكل من بيوت الأقارب، ونحوها مما ورد في القرآن الكريم:

ففي معرض الرخص في العبادات نجد في الطهارة قول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[المائدة:٦].

وفي الصلاة قال الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[النساء:١٠٢-١٠٣].

وفي الآيتين اعتبار لعذر المرض في صلاة الخوف، وفي الصلاة من قعود أو على جنب عند العجز عن القيام.

وقال جل شأنه في معرض الأمر بالتخفيف في القراءة في الصلاة: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[المزمل:٣٠].

وفي الصيام قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ

(١) التوقيف، المناوي ص٦٤٩.

فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[البقرة:١٨٢-١٨٣].

وفي الحج قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[البقرة:١٩٦].

وفي رفع الحرج عن المريض في الجهاد والإذن له بالتخلف، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:٩١].

وقال جلَّ شأنه أيضًا: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفتح:١٧].

وفي الأكل من بيوت الأقارب نجد قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[النور:٦١].

وفي المقصود بهذه الآية خمسة أقاويل:

أحدها: أن الأنصار كانوا يتحرجون أن يؤاكلوا هؤلاء إذا دعوا إلى الطعام فيقولون: الأعمى لا يبصر أطيب الطعام، والأعرج لا يستطيع الزحام عند الطعام، والمريض يضعف عن مشاركة الصحيح في الطعام، وكانوا يقولون: طعامهم مفرد ويرون أنه أفضل من أن يكونوا شركاء، فأنزل الله هذه الآية فيهم ورفع الحرج عنهم في مؤاكلتهم، قاله ابن عباس، والضحاك، والكلبي.

الثاني: أنه ليس على هؤلاء من أهل الزمانة حرج أن يأكلوا من بيوت من سمى الله بعد هذا من أهاليهم، قاله مجاهد.

الثالث: أنه كان المذكورون من أهل الزمانة يخلفون الأنصار في منازلهم إذا خرجوا بجهاد وكانوا يتحرجون أن يأكلوا منها فرخص الله لهم في الأكل من بيوت من استخلفوهم فيها، قاله الزهري.

الرابع: أنها نزلت في إسقاط الجهاد عمن ذكروا من أهل الزمانة.

الخامس: ليس على من ذكر من أهل الزمانة حرج إذا دعي إلى وليمة أن يأخذ معه

قائده[1].

هذا وللمريض حقوق كفلتها السنة النبوية؛ كالزيارة، والدعاء له بالشفاء ونحوها مما ورد في مواضعه، مما لا يتسع المقام لذكره لعدم صلته المباشرة بآيات قرآنية.

الفرع الخامس: حقوق أبناء السبيل:

ابن السبيل صنف من الأصناف التي ورد ذكرها في آية مصارف الزكاة، وقد اختلف في المقصود به وأشهر ما في ذلك قولان:

أولًا: أنه المسافر الغريب أو عابر الطريق، الذي انقطعت به النفقة، وسمي بذلك كأن الطريق ولدته[2].

ثانيًا: أن المراد به الضيف، أو المسافر الذي يمر بحي من الأحياء، حيث يجب إكرامه[3].

ولابن السبيل جملة من الحقوق ورد ذكرها في القرآن الكريم بيانها على هذا النحو:

١. الأخذ من الزكاة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

٢. الإنفاق عليه.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:١٧٧].

وقال تعالى في آية النفقة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

٣. الإحسان إليه.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

٤. استحقاقه من الغنيمة.

قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١].

٥. إيفاؤه حقه.

قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١٢٣.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٢١٩.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٤٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٧٧.

وكما في قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

٨. استحقاقه من الفيء.

قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر:٧].

الفرع السادس: حقوق الأطفال:

اهتم الإسلام بالطفولة الكريمة وجعلها أساس المجتمع السوي، وأعطاها اهتمامًا بالغًا، فحض على الزواج وعلى حسن اختيار كل من الزوجين للآخر لما في ذلك من أثر في حسن العشرة والنشأة الكريمة للأطفال، وورد في القرآن الكريم طائفة من حقوق الأطفال على هذا النحو:

١. حق الرضاعة.

من أبرز حقوق الطفل بعد ولادته حق الرضاعة التي تقوم بها الأم أو أي امرأة أخرى بالأجر مع التزام والد الطفل بهذا الأجر، مع ملاحظة أن الرضاع ليس بواجب على الأم، ولا تجبر عليه، إلا إذا لم يوجد غيرها، مما يترتب على ترك الرضاع إضرار بالطفل، وقد نص القرآن الكريم على ذلك في غير موضع منها:

قال الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [البقرة:٢٣٣].

قال الطبري: «وليس ذلك بإيجاب من الله تعالى ذكره عليهن رضاعهم، إذا كان المولود له ولد، حيًّا موسرًا؛ لأن الله تعالى ذكره قال في سورة النساء القصرى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

فأخبر تعالى ذكره: أن الوالدة والمولود له إن تعاسرا في الأجرة التي ترضع بها المرأة ولدها، أن أخرى سواها ترضعه، فلم يوجب عليها فرضًا رضاع ولدها. فكان معلومًا بذلك أن قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ دلالة على مبلغ غاية الرضاع التي متى اختلف الوالدان في رضاع المولود بعده، جعل حدًّا يفصل به بينهما، لا دلالة على أن فرضًا على الوالدات رضاع أولادهن»[(١)].

وجاء في نفس الآية: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٣].

٢. حق التربية والتقويم.

تربية الأولاد وتقويمهم من الحقوق التي كفلها الإسلام لهم، وحض عليها الوالدين، وذلك وارد كثيرًا في السنة النبوية بتوسع، وأصول التربية وارد بعضها في كتاب الله

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٣١.

تعالى، وأبرزها في موطنين:

الموطن الأول: في وصف سيدنا إسماعيل عليه السلام حيث كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وهذا جانب من جوانب التربية.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم:٥٤-٥٥].

الموطن الثاني: في تعليم الأطفال الاستئذان.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ [النور:٥٨].

والمراد بهم الأطفال الأحرار دون البلوغ[1]، على تفصيل في الآية وخلاف هل المقصود بها الذكور والإناث أم الذكور فقط، وليس هذا موضع لبسط الخلاف في المسألة.

قال الجصاص: «وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ يدل على أن من لم يبلغ وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع وينهى عن ارتكاب القبائح وإن لم يكن من أهل التكليف على جهة التعليم؛ كما أمرهم الله تعالى بالاستئذان في هذه الأوقات»[2].

وفي نفس السورة: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:٥٩].

هذا وحقوق الأطفال على جهة الإجمال كثيرة مبسوطة في كتب السنة النبوية مما لا مجال لذكره.

وقد نص القرار رقم: ١١٣ (٧/ ١٢)[١] بشأن موضوع حقوق الأطفال والمسنين، والصادر عن مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي في دورته الثانية عشرة بالرياض في المملكة العربية السعودية، من ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢١هـ - ١ رجب ١٤٢١هـ الموافق ٢٣ - ٢٨ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠م. على عدة توصيات تتعلق بحقوق الأطفال مستمدة من القرآن والسنة تصل في مجملها إلى عشرة بنود[3].

ثامنًا: حقوق الفقراء والمساكين:

الفقراء والمساكين صنفان من أصناف الزكاة الواردة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ

(١) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٢٤٥، جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢١٢.

(٢) أحكام القرآن، ٥/ ١٩٥.

(٣) انظر: قرارات المجمع ١/ ١٩٥، ومجلة مجمع الفقه الإسلامي، عدد ١٢، ص١٩٨٦.

عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

وللعلماء كلام طويل في تعريف كل منهما والتفرقة بينهما أشير إليه بإيجاز:

- أنّ الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه[١].
- أنّ الفقير الذي لا يسأل الناس، كما قال الله تعالى في صفة الفقراء: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، والمسكين هو الذي يسأل الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] وقد جاء يسأل[٢].
- أنّ الفقير الذي يسأل ويظهر افتقاره وحاجته إلى الناس، استدلالًا بقوله عز وجل: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾، والمسكين هو الذي به زمانة لا يسأل ولا يعطى له، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٦] أي: لاصقًا بالتراب من الجوع والعرى[٣].
- أنّ الفقير هو الذي له بلغة لا تكفيه لعيش عامه، والمسكين هو من ليس لديه شيء بالكلية[٤].
- أن الفقير هو الذي يقدر على ما يقع موقعًا من كفايته إلا إنه لا يكفيه[٥].
- أن الفقير هو الذي لا يجد شيئًا ألبته، أي: قطعًا، أو يجد شيئًا يسيرًا من الكفاية دون نصفها من كسب أو غيره مما لا يقع موقعًا من كفايته، والمسكين الذي يجد معظم الكفاية أو نصفها، من كسب أو غيره[٦].

الفرق بين الفقير والمسكين:

للعلماء في التفرقة بين الفقير والمسكين أو التشابه بينهما أقوال أوجزها في ثلاثة:

القول الأول: أن الفقير أحسن حالًا من المسكين، قال ابن السكيت: سألت أعرابيًا أفقير أنت؟ فقال: لا والله، بل مسكينٌ.

القول الثاني: أنّ المسكين أحسن حالًا من الفقير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف:٧٩]. وكانت تساوي جملة، وقال في حقّ الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾[البقرة:٢٧٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٦٩.
(٢) وهو رواية أبي يوسف عن أبي حنيفة، كما في المبسوط للسرخسي٣/ ١٤.
(٣) وهو رواية الحسن بن زياد عن أبي حنيفة، كما في المبسوط٣/ ١٤.
(٤) وهو مشهور عن ابن عرفة المالكي، كما في شرح خليل للخرشي٢/ ٢١٢.
(٥) تعريف الفقير هكذا مروي عن الشافعي وبعض أصحابه، كما في المجموع ٦/ ١٩٠، وتعريف المسكين مروي عن بعض الشافعية كما في المجموع، للنووي ٦/ ١٩٥.
(٦) كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٢٧٢.

القول الثالث: أنهما صنف واحد، وهو الذي لا شيء له، فجعلهما سواء[1].

هذا وقد حثت نصوص القرآن الكريم على وجوب إيتاء حق المساكين في غير موضع كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء:٢٦].

وقوله جل شأنه: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم: ٣٨].

وأبرز ما يمكن ملاحظته من حقوق الفقراء والمساكين في القرآن الكريم ما يلي:

١. دفع الزكاة إليهم.

وذلك بنص الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

هذا وقد لاحظ بعض العلماء أن الفقير والمسكين يأخذون منها أخذًا مستقرًّا، لا يجب عليهم رد ما أخذوه بأي حال حتى لو استغنوا[2].

٢. مراعاة شعورهم في دفع الصدقات بأفضلية إخفاء الصدقة.

كما في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

وللعلماء كلام طويل في المقارنة بين الإخفاء والإظهار في هذا الصدد، لا مجال لذكره[3].

٣. المبادرة بإعطائهم قبل السؤال، لا سيما المتعففون منهم الذين لا يسألون الناس إلحافًا.

كما في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ۚ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢٧٣].

٤. الحث على تزوج الفقراء مع وعد الله تعالى لهم بالغنى بسبب الزواج.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور:٣٢].

٥. جعل نصيب للفقراء والمساكين في

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٦٠، ١٣/ ٢١١، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٨٣.

(٢) كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٢٨٥.

(٣) انظر: معاني القرآن، النحاس ١/ ٣٠١، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٢٦، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٧٢.

الغنيمة.

كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [الأنفال:٤١].

٦. جعل نصيب لهم عند حضور القسمة.

كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

٧. جعل نصيب لهم من النفقة.

كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

٨. الإحسان إليهم.

كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣].

٩. التصدق عليهم بالطعام والشراب.

كما في قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وقوله جل شأنه في سورة البلد: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٦].

والمراد به: مسكينًا ذا لصوق بالأرض لحاجته وشدة فقره، يقال: ترب فلان: إذا افتقر والتصق بالتراب، ويقال أيضًا ترب بمعنى افتقر، وأترب، أي: استغنى، كأنّ الهمزة للسّلب[1].

١. جعل نصيب للمساكين من الكفارات المالية.

كما في قوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩].

وقوله تعالى في جزاء الصيد: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة:٩٥].

وقوله تعالى في كفارة الظهار: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ٤].

تاسعًا: حقوق غير المسلمين:

كفل الإسلام لغير المسلمين جملة من الحقوق التي يتمتعون بها في ظل الإسلام، بغض النظر عن تقسيماتهم المختلفة، وينقسم غير المسلمين من حيث عداوتهم ومسالمتهم إلى صنفين: مسالمين ومحاربين، والمسالمون هم: الذميون، والمعاهدون، والمستأمنون، وهذا طرف مما ورد في القرآن الكريم من حقوقهم.

١. البر والقسط مع المسالمين من غير المسلمين.

وهم الذين لم يتعرضوا للمسلمين بضرر أو سوء، ولم يحاربوهم فهؤلاء لم ينه الله

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب ٤/ ٣٨٩، البحر المديد ٨/ ٤٧٢.

تعالى عن برّهم والإقساط إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة:٧-٨].

فهؤلاء لهم حقّ البرّ والقسط؛ وفي معنى القسط إليهم ثلاثة أوجه ذكرها الماوردي:

أحدها: يعني وتعدلوا فيهم، قاله ابن حبان. فلا تغلوا في مقاربتهم، ولا تسرفوا في مباعدتهم.

الثاني: معناه أن تعطوهم قسطًا من أموالكم، حكاه ابن عيسى.

الثالث: أنه الإنفاق على من وجبت نفقته منهم، ولا يكون اختلاف الدين مانعًا من استحقاقها[1].

وهذه الآية ذهب بعض مفسري السلف إلى أنها منسوخة بآيات القتال، ولكن ذهب شيخ المفسرين الطبري إلى أن المعنى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرّوهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله عزّ وجلّ عمّ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ؛ لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرّم ولا منهيّ عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح»[2].

٢. دعوة غير المسلمين إلى دين الإسلام.

من حقوق غير المسلمين علينا أن ندعوهم إلى الدخول في دين الله تعالى، حرصًا على نشر دينه، وحرصًا على مصلحتهم وسلامتهم من العذاب يوم القيامة، والعديد من نصوص القرآن الكريم تأمر بذلك، ومن هذا القبيل قول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥].

والمراد بسبيل الله هنا هو دينه وطاعته سبحانه وتعالى[3].

٣. عدم مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت:٤٦].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥٢٠.

(٢) جامع البيان، ٢٣/ ٣٢٣.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٩٧.

وهذه الآية ذهب البعض كقتادة ومعمر إلى أنها منسوخة بآية السيف، وذهب آخرون كابن زيد إلى أنها ليست منسوخة[1]. وفي المقصود بالتي هي أحسن أربعة أقوال:

أحدها: أن الّتي هي أحسن قول: (لا إله إلا الله)، قاله ابن عباس. والثاني: الكف عنهم عند بذل الجزية منهم وقتالهم إن أبوا، قاله مجاهد.والثالث: أنهم إن قالوا شرًّا فقولوا لهم خيرًا، رواه ابن أبي نجيح. والرابع: وهو أن يحتج لشريعة الإسلام ولا يذم ما تقدمها من الشرائع.

وفي المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أقوال:

أحدها: أنهم أهل الحرب، قاله مجاهد.

والثاني: من منع الجزية منهم، رواه خصيف.

والثالث: ظلموا بالإقامة على كفرهم بعد قيام الحجة عليهم، قاله ابن زيد. والرابع: ظلموا في جدالهم فأغلظوا لهم، قاله ابن عيسى[2].

٤. الوفاء بالعهود لهم.

الأصل في العهد أو الالتزام أنه يجب الوفاء به امتثالًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [الأنعام:١].

وجرى خلاف كبير في المقصود بالعقود في الآية على خمسة أقوال[3].

منها أن المراد بها العقود التي يتعاقدها الناس بينهم، ويعقدها المرء على نفسه وأشهرها خمسة: عقدة الأيمان، وعقدة النكاح، وعقدة العهد، وعقدة البيع، وعقدة الحلف. وهذا مروي عن عبد الرحمن بن زيد[4].

وفيما يتعلق بالعهد مع غير المسلمين يقول المولى عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤].

والآية تنص على على وجوب الوفاء بالعهد مع غير المسلمين الذين التزموا به إلى تمام وقته، فلا يجوز نقضه من جانب المسلمين إلا إذا غدر المشركون وخانوا[5].

(١) انظر:جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٧، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٨٦.
(٢) انظر:النكت والعيون، ٤/ ٢٨٦.
(٣) انظر: تفسير مقاتل ١/ ٢٧٦، جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٤٩- ٤٥١، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٥-٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٥٣.
(٥) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣٩.

أداء الحقوق

لما كانت الحقوق على اختلاف أنواعها ودرجاتها ذات أهمية كبيرة في الدنيا والآخرة، فقد أمر الله تعالى الناس بأدائها، ورتب على ذلك الثواب الكبير والفضل العظيم، وحذّر من تضييعها أو إهدارها والتعدي عليها، ورتب على ذلك العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة.

ونصوص القرآن الكريم وافرة في هذا الصدد، منها ما هو صريح أمرًا ونهيًا، ومنها ما استنبطه المفسرون والفقهاء من الآيات المتعددة التي تدل على استيفاء الحقوق، وما يسقط منها بالتوبة وما لا يسقط، وما تكفره الحسنات وما لا تكفره، وأتناول ذلك على النحو الآتي:

أولًا: ثواب المؤدين للحقوق:

١. الحقوق بجميع أقسامها أمانة اختص الإنسان بحملها.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

فسرت الأمانة في الآية الكريمة بتفسيرات عدة، ففسرها البعض بأنها طاعة الله عز وجل وفرائضه وشرائعه، روي هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، والحسن وأبي العالية، ومقاتل، وقتادة، وسعيد بن جبير وغيرهم[(١)].

وذهب بعضهم إلى أن الأمانة هي غسل الجنابة، وذهب أبو الدرداء وغيره إلى أن الأمانة هي حفظ الفرج للرجال والنساء[(٢)]، وذهب السدي إلى أن المقصود بها ائتمان قابيل على أخيه[(٣)].

وذهب ابن مسعود إلى أن الأمانة هنا المقصود بها أمانات الناس من الودائع ونحوها[(٤)]، وأورد فيها حديث «القتل في سبيل اللّه يكفّر الذّنوب كلّها غير الأمانة، يؤتى بالشّهيد في سبيل اللّه فيقال: أدّ أمانتك، فيقول: من أين أؤدّيها فقد ذهبت الدّنيا؟ قال: فيقال: اذهبوا به إلى الهاوية، حتّى إذا انتهي به إلى قرار الهاوية، مثّلت له أمانته كهيئتها يوم ذهبت فيحملها فيضعها على عاتقه، فيتصعد في النّار حتّى إذا رأى أنّه قد خرج منها فهوت، وهوى في إثرها أبد الآبدين، ثمّ قرأ عبد اللّه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾»[(٥)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٦ - ٣٣٨، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٢٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٩، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٢٨.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٢٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٤٠.
(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الوديعة باب ما جاء فى الترغيب فى أداء الأمانات، رقم١٣٠٦٧.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب،

٢. الحقوق أمانة واجبة الأداء.

جميع الحقوق التي شرعها الله تعالى أمانة في أعناقنا يجب علينا أداؤها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨].

قال الطبري تعقيبًا على قول ابن جريج إنّ هذه الآية نزلت في عثمان بن طلحة، «إنه جائز أن تكون نزلت فيه، وأريد به كل مؤتمن على أمانة، فدخل فيه ولاة أمور المسلمين، وكلّ مؤتمن على أمانة في دين أو دنيا. ولذلك قال من قال: عني به قضاء الدين، وردّ حقوق الناس»[١].

٣. إيفاء حقوق الناس عاقبته الفلاح.

أمر الله تعالى بإيتاء حقوق الغير لا سيما إن كان له درجة خاصة، أو ظروف خاصة؛ كالأقارب والمساكين وأبناء السبيل.

قال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم:٣٨].

والمعنى هنا يجوز أن يكون مراده الصدقات الواجبة في آية مصارف الزكاة، وجائز أن يكون الحق الذي يلزمه إعطاؤه عند الضرورة إليه[٢].

وقيل: «المقصود إيتاء ذي القربى حقه من صلة المال وحسن المعاشرة ولين القول، قال الحسن «حقه» المواساة في اليسر وقول ميسور في العسر»[٣].

٤. إيفاء الحقوق من أهم وصايا الأنبياء إلى قومهم.

أرسل الله تعالى أنبياءه ورسله لهداية الناس وإرشادهم وتحذيرهم من عاقبة مخالفة الله تعالى، وأكل حقوق الناس، ولهذا جاءت آيات القرآن لتبرز وصايا الأنبياء لقومهم في هذا الشأن.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك: وصية سيدنا شعيب عليه السلام لقومه ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٥].

أي: لا تنقصوا الناس حقوقهم، كما روي عن صالح بن حي، وقتادة[٤].

٥. الوصايا القرآنية الإجمالية داخلة جميعها في الحقوق.

وردت وصايا قرآنية على سبيل الإجمال في سورتي الأنعام والإسراء بلغت عشر وصايا في الأولى، واثنتا عشرة وصية في الثانية، واشتملت هذه الوصايا على طائفة كبيرة من الحقوق، سواء كانت حقوقًا لله

رقم ١٧٦٣.
(١) جامع البيان، ٨/ ٤٩٣.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢١.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٩٢.
(٤) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ١٢٨، جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٤٣-٤٤٦.

تعالى أم للعباد.

فوصية سورة الأنعام في قول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣].

ووصية سورة الإسرء في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء:٢٣-٣٩].

قلت: وهذه الحقوق السابق ذكرها في الأنعام والإسراء ورد ذكر أكثرها بالتفصيل في المبحث السابق.

٦. استيفاء الحقوق في الدنيا.

شرع الله عز وجل الولاية العظمى، وما يستتبعها من الولايات الأخرى، لإقامة العدل في الأرض، وأنزل الأحكام الشرعية لتكون دستورًا يحفظ للناس حقوقها، فكانت مشروعية القصاص والحدود والتعازير على نحو ما هو معروف في الشريعة الإسلامية، ولذلك نجد ضوابط الشريعة الإسلامية الحاكمة لاستيفاء الحقوق.

وبالنظر إلى الحقوق من حيث استيفاؤها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما لا بد فيه من الرفع إلى القضاء، باتفاق الفقهاء؛ كتحصيل العقوبات وما يخاف من استيفائه الفتنة، وذلك لخطرها وكذلك ما كان من الحقوق مختلفًا في أصل ثبوته.

الثاني: ما لا يحتاج إلى القضاء باتفاق الفقهاء، لتحصيل الأعيان المستحقة، وتحصيل نفقة الزوجة والأولاد.

الثالث: ما اختلف في جواز تحصيله من غير قضاء، كاستيفاء الديون[1].

ثانيًا: عاقبة المفرطين في الحقوق:

حذرت الشريعة الإسلامية من التعدي على الحقوق، سواء كانت من حقوق الله تعالى أو من حقوق العباد، وورد في نصوص

(١) الموسوعة الجنائية الإسلامية ١/ ٣٧١.

الكتاب العزيز آيات تحذر من ذلك، وأورد في هذا المطلب جوانب من التحذير في تعدي الحدود والتفريط في الحقوق، وما يتعلق بها على النحو التالي:

١. التعدي على الحقوق يعتبر كفر أو فجور.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [عبس:٤٠-٤٢].

حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد: أن الموصوفين بهذا (كفرة) في حقوق الله تعالى، (فجرة) في حقوق العباد، وأنهم لما جمعوا الفجور إلى الكفر جمع إلى سواد وجوههم الغبرة[١].

٢. حقوق العباد لا تكفرها الصدقة.

يخطئ من يظن أن الصدقة وفعل الخيرات تكفر كل الذنوب، أو تعفي المرء من كل التبعات، فهي لا تعفيه من تبعات حقوق الناس؛ لأن حقوق الناس تقوم على المشاحَّة.

قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٧١].

ذكر الإمام الماوردي أن كلمة (من) هنا للتبعيض؛ لأن حقوق العباد لا تكفرها الصدقة[٢].

٣. حقوق العباد لا تسقط بالتوبة.

التوبة لها شروط معروفة عند العلماء، سواء تعلقت بحقوق الله تعالى أو بحقوق العباد، وأهم شرط فيما يتعلق بالتوبة من حقوق العباد هو التحلل من تبعاتهم ومظالمهم، وهذا معروف بلا خلاف في عامة الحقوق، وفيه خلاف يسير فيما إذا كانت حقوق الناس استولي عليها بالحرابة ونحوها.

أما عن الأول فهذا مستفاد من نصوص قرآنية كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:٦].

حيث استنبط منها بعض المفسرين أن حقوق الناس لا تسقط بالتوبة[٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:١١٤].

قال الألوسي: «ولا يمكن على ذلك التقدير حملها على الظاهر لما أن السيئة حينئذ تشمل حقوق العباد والإجماع على أن الحسنات لا تذهبها وإنما تذهبها التوبة بشروطها المعتبرة المعلومة»[٤].

وأما عن الثاني وهو عدم سقوط حقوق

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢١٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ١٣٤.

(٤) روح المعاني ٤/ ١٧٠.

الناس عن المحارب، فقد قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤].

استفيد من الآية أن المحارب إذا تاب منهم قبل القدرة عليهم وهو قبل أن يظفر به الإمام تسقط عنه كل عقوبة وجبت حقًا لله، ولا يسقط ما كان من حقوق العباد فإن كان قد قتل في قطع الطريق يسقط عنه بالتوبة قبل القدرة عليه تحتم القتل، ويبقى عليه القصاص لولي القتيل فإن شاء عفا عنه وإن شاء استوفاه، وإن كان قد أخذ المال يسقط عنه القطع وإن كان قد جمع بينهما يسقط عنه تحتم القتل والصلب، ويجب ضمان المال وهو قول الشافعي رضي الله عنه[١].

٤. حقوق العباد لا تسقط بالتقادم.

المعروف في الشريعة الإسلامية أن الحقوق يطرأ عليها العفو والتقادم ونحوهما، فما مدى أثر العفو والتقادم على سقوط الحقوق من عدمه؟.

يمكن القول بأن التقادم يسري على حقوق العباد، وعلى حقوق الله تعالى، فأما حقوق العباد فإنها لا تسقط بالتقادم بل تسمع الدعوى فيها متى ما تقدم صاحب الحق بالمطالبة بحقه، وأما الحقوق الخالصة لله تعالى كالحدود، فإن أقر بها الشخص بطوعه واختياره فلا أثر للتقادم فيها، وإن كانت أثيرت بناء على شهادة الشهود فهذا محل خلاف بين الفقهاء[٢].

٥. حقوق العباد لا يصح الرجوع فيها بعد الإقرار بها طوعًا.

لا يجوز للمرء أن يرجع في حق أقر به من حقوق العباد، وإن رجع فلا يقبل رجوعه، فقد نصت المادة (١٥٨٨) من مجلة الأحكام العدلية على ما يلي: (لا يصح الرجوع عن الإقرار في حقوق العباد، فعليه لو قال أحد: إنني مدين لفلان بكذا درهمًا فيلزم بإقراره، ولا يعتبر قوله بعد ذلك: إنني رجعت عن إقراري)[٣].

وهذا آخر ما يسره الله تعالى في هذا البحث، أسأل الله جل وعلا أن يرزقه رضى وقبولًا، وأن ينفع به من قرأه ووقف عليه، وأن يعفو عن زلاتي ويقيل عثراتي، إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأمومة، الألوهية، البنوة، الحق، الرحم

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠.

(٢) الموسوعة الجنائية الإسلامية ١/ ٢٨٣.

(٣) مجلة الأحكام العدلية ١/ ٣١١.

الحكم

عناصر الموضوع

مفهوم الحكم	٨
الحكم في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
أنواع الحكم	١٢
الحكم لله في الدنيا والآخرة	١٥
موانع الحكم بالعدل	٢٣
موقف الناس من الحكم بالعدل	٢٨
أثر تحكيم الشريعة على المجتمع	٣٠

مفهوم الحكم

أولًا: المعنى اللغوي:

مشتق من حكم يحكم حكمًا، حكم مفرد وجمعها أحكام، والحكم هو المنع، يقال: حكمت الرجل أي: منعته، وسمي الحاكم بهذا الاسم؛ لأنه يمنع الظالم من الظلم، والحكم هو القضاء والفصل بين المتخاصمين بالعدل، وسميت الحكمة بهذا الاسم؛ لأنها تبنى على العلم الذي يمنع من الوقوع في الجهل[(١)].

ثانيًا: الحكم اصطلاحًا:

قال أحمد المراغي: «الحكم هو العلم بالخير والعمل به»[(٢)].

قال القشيري: «هو إحكام الفعل على وجه الأمر»[(٣)].

قال الجرجاني: «إسناد أمر إلى آخر إيجابًا أو سلبًا»[(٤)].

وقيل: «هو القضاء بالشيء بأنّه كذا أو ليس بكذا، سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه»[(٥)].

وبالنظر في التعريفات السابقة يمكن تعريف الحكم بأنه: هو العلم بالخبر والعمل به على وجه الإلزام والأمر.

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي؛ إذ كل منهما ينبني عن العلم والإلزام.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٥٦٤، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٦٩، مختار الصحاح، الرازي، ص٧٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٥٣٩.

(٢) تفسير المراغي ١٩/ ٧٣.

(٣) تفسير لطائف الاشارات ٢/ ٤٢٢.

(٤) التعريفات، ص٩٢.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٢٦.

الحكم في الاستعمال القرآني

ورد ذكر (الحكم) في القرآن الكريم (٨٦) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر:٤٨]
الفعل المضارع	٣٩	﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة:١]
فعل الأمر	٧	﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء:١١٢]
المصدر	٣٠	﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة:٤٣]
اسم التفضيل	٢	﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين:٨]
اسم الفاعل	٥	﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس:١٠٩]
الاسم	٤	﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٣٥]

وجاء (الحكم) في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: القضاء[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢١٢- ٢١٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٤٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ القضاء:

القضاء لغةً:

من قضى يقضي قضاءً، وهو الحكم والأمر، يقال: قضى بين الخصمين أي: حكم بينهما، وأمر بالحق لصاحبه[١].

القضاء اصطلاحًا:

«هو تبيين الحكم الشرعي، والإلزام به، وفصل الخصومات»[٢].

الفرق بين الحكم والقضاء:

القضاء يقتضي فصل الأمر على التمام، أما الحكم فيقتضي المنع من الخصومة[٣].

٢ الفصل:

الفصل لغة:

الفصل أي: القطع، يقال: قطعه فانقطع أي: فصل بين أجزائه، والفصل مفرد وجمعها فصول، والفاصل هو الحاجز بين الشيئين، والفصل في القضاء هو التفريق بين الحق والباطل[٤].

الفصل اصطلاحًا:

هو التمييز بين المحق والمبطل بعلامة يعرف بواسطتها كل واحد منهما[٥].

الصلة بين الحكم و الفصل:

الحكم يقتضي المنع من الخصومة، أما الفصل فيقتضي التمييز بين أجزاء الشيء الواحد للتفريق بينهما.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٢٥٥.
(٢) مختصر الفقه الإسلامي، التويجري ص١٠٠١.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ١/ ١٩٠.
(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٣٢٩، مختار الصحاح، الرازي ص٢٤٠.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٢٤، تفسير الشعراوي، ٢/ ١٠٥٢.

٣ الشهادة:

الشهادة لغةً:

الشهادة من شهد يشهد شهادة، وهي الإخبار، والشهادة مصدر، وهي مفرد وجمعها شهادات، والشاهد هو معطي الخبر[١].

الشهادة اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «هي إخبار عن عيان بلفظ الشهادة في مجلس القاضي بحق للغير على آخر»[٢].

الصلة بين الحكم و الشهادة:

الحكم هو إلزام المتخاصمين بالحق لمنع استمرار الخصومة بينهما، أما الشهادة فهي إفادة الحاكم بالأخبار التي تظهر له الحق، ومن ثمّ فإن الشهادة هي البينة التي يستند إليها الحاكم لمنع الخصومات.

٤ الحيف:

الحيف لغةً:

من حاف يحيف حيفًا، وهو الميل والجور[٣].

الحيف اصطلاحًا:

هو الميل عن الحقّ في الحكم[٤].

الصلة بين الحكم والحيف:

الحكم الأصل فيه العدل وإعطاء الحق إلى صاحبه، أما الحيف فيه ظلم وجور.

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٥١٤، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٢٤١.
(٢) التعريفات، ص١٢٩.
(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ٤٥٠.
(٤) انظر: متخير الألفاظ، ابن فارس ص١٨٤.

أنواع الحكم

إن الحكم في دين الله نوعان رئيسان، وهي الحكم الشرعي والحكم القدري، وهما كما يأتي:

أولًا: الحكم الشرعي:

١. تعريف الحكم الشرعي.

«هو ما دل عليه خطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين من طلب فعل، أو ترك، أو تخيير، أو وضع»[(١)].

٢. أنواع الحكم الشرعي.

الحكم الشرعي نوعان: تكليفي، ووضعي.

١. الحكم التكليفي: «هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الطلب أو التخيير»[(٢)].

٢. الحكم الوضعي: «هو خطاب الله المتعلق بجعل الشيء سببًا للشيء، أو شرطًا له، أو مانعًا منه، أو صحيحًا، أو فاسدًا»[(٣)].

٣. أقسام الحكم التكليفي.

❁ الإيجاب:

الإيجاب لغة: الإلزام[(٤)].

الإيجاب اصطلاحًا: هو خطاب الله تعالى المتعلق بطلب الفعل على سبيل اللزوم والحتمية؛ بحيث يثاب الفاعل ويعاقب التارك[(٥)].

مثاله: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

ويفهم من هذا النص القرآني أنّ مقيم الصلاة مثاب، وتاركها آثم، وكذلك الأمر بالنسبة لكلٍّ من الزكاة، والركوع في الصلاة، لاسيما أنّ كلًّا من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة من أركان الإسلام.

❁ الندب:

الندب لغة: الحث والدعاء[(٦)].

الندب اصطلاحًا: هو خطاب الله تعالى المتعلق بطلب الفعل على سبيل الاستحباب، لا على سبيل الحتمية[(٧)].

مثاله: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ

(١) موسوعة الفقه الإسلامي، محمد التويجري ٢/ ٢٦٥.
(٢) الموجز في أصول الفقه، عبد الجليل القرفشاوي وآخرون، ص٢٠.
(٣) المصدر السابق، ص٢٣.
(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنيبي، ص٩٨.
(٥) انظر: قواطع الأدلة في الأصول، أبو المظفر التميمي ١/ ٦٤.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٥٤.
(٧) انظر: بيان المختصر، أبو القاسم الأصفهاني ٢/ ٦٨.

﴿شَيْئًا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فأمر الله تعالى هنا للندب، فإن كتب الدين فهذا حسن، وإن لم يكتب فلا إثم[١].

❁ الإباحة:

الإباحة لغة: الإطلاق والتحليل[٢].

الإباحة اصطلاحًا: هو الخطاب الذي خيّر الشارع فيه المكلف بين الفعل والترك، دون ترتّب ثواب أو عقاب[٣].

مثاله: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢].

والأمر بالصيد هنا يفيد الإباحة بعد التحريم؛ لزوال السبب الذي حرّم الصيد من أجله، وهو الإحرام[٤].

❁ التحريم:

التحريم لغة: المنع[٥].

التحريم اصطلاحًا: هو خطاب الله تعالى المتعلق بطلب الترك على سبيل اللزوم والحتمية، بحيث يثاب التارك، ويعاقب الفاعل[٦].

مثاله: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فهذه الآية تفيد حرمة التعدي على مال اليتيم بأي صورة من صور التعدي[٧].

❁ الكراهة:

الكراهة لغة: القبح والبغض[٨].

الكراهة اصطلاحًا: هو خطاب الله تعالى المتعلق بطلب الترك على سبيل التنفير، لا على سبيل الحتمية[٩].

مثاله: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس)[١٠].

وفي رواية أخرى: عن أبي قتادة صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: دخلت المسجد ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالسٌ بين ظهراني النّاس، قال: فجلست، فقال رسول الله صلّى الله عليه

(١) انظر: الوسيط، الواحدي ١/ ٤٠١.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص٧٥.
(٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف، الكويت ٢/ ٣٧٦.
(٤) انظر: نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، محمد صديق خان ص٢٢٨.
(٥) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٤٨١.
(٦) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف، الكويت ١٧/ ٣١٩.
(٧) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص٢٢٧.
(٨) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٣/ ١٩٢٤.
(٩) انظر: الموجز في أصول الفقه، عبد الجليل القرفشاوي وآخرون ص٢٠.
(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس، ١/ ٩٦، رقم ٤٤٤.

وسلّم: (ما منعك أن تركع ركعتين قبل أن تجلس؟) قال: فقلت: يا رسول الله رأيتك جالسًا والنّاس جلوسٌ، قال: (فإذا دخل أحدكم المسجد، فلا يجلس حتّى يركع ركعتين)[1].

٤. أقسام الحكم الوضعي.

١. السببية.

السببية لغة: العلاقة التي تكون بين السبب والمسبب[2].

السببية اصطلاحًا: هو ما جعله الشارع علامة على مسبّبه، بحيث يلزم من وجود السبب وجود المسبب، ومن عدم وجود السبب عدم وجود المسبب[3].

مثاله: جعل الدلوك سببًا لإيجاب الصلاة، قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

٢. الشرطية.

الشرطية لغة: من الشرط، وهي إلزام الشيء والتزامه[4].

الشرطية اصطلاحًا: هي ما اعتبره الشرع شرطًا بحيث يتوقف وجود الحكم على وجود الشرط، ويلزم من عدم وجود الشرط عدم وجود الحكم[5].

مثاله: جعل الطهارة شرطًا لصحة الصلاة.

٣. المانعية.

المانعية لغة: من منع يمنع منعًا، والمنع هو تحجير الشيء، وهو ضد الإعطاء[6].

المانعية اصطلاحًا: هي ما اعتبره الشرع وصف يلزم من وجوده عدم وجود متعلقه، ولا يلزم من عدم وجوده وجود متعلقه أو عدمه[7].

مثاله: جعل النفاس مانعًا من صحة الصلاة والصيام.

٤. كون الشيء صحيحًا أو فاسدًا.

وذلك من وجهة نظر الشرع، فالصلاة مثلًا إذا أقيمت بكامل أركانها وشروطها فهي صحيحة، وإذا لم تستو أركانها وشروطها فهي فاسدة[8].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحية المسجد بركعتين، ١/ ٤٩٥، رقم ٧١٤.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٠٢٢.
(٣) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، ص١١٧.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٩/ ٤٠٤.
(٥) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، ص١١٨.
(٦) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٢٠٣، مختار الصحاح، الرازي، ص٢٩٩.
(٧) انظر: أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، عياض السلمي، ص٥٨.
(٨) انظر: الموجز في أصول الفقه، عبد الجليل القرفشاوي وآخرون، ص٢٣.

ثانيًا: الحكم القدري:

القدر لغةً: بفتح الدال وسكونها هو القضاء والحكم والمبلغ[1].

القدر اصطلاحًا: هو علم الله السابق بالأشياء قبل وقوعها وكتابته لها في اللوح المحفوظ، ثم خلقه لها[2].

أحكام القدر كلها خاضعة لما أوجده وقدّره وكوّنه الله تعالى، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن ثمّ فلا يصدر شيء من العباد إلا بقدر الله تعالى.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

فأبو لهب وزوجه وإن لم يلتزما شريعة الله تعالى، فهما خاضعان لحكم القدر فيهما، والذي يتضمن بقاءهما على الكفر والشرك حتى يموتا، ومن ثمّ يكون مصيرهما النار[3].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٦٢.
(٢) انظر: شرح مسائل الجاهلية، محمد بن عبد الوهاب، صالح الفوزان، ص١٥٣.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٥٠٣.

الحكم لله في الدنيا والآخرة

إن حكم الله حق ثابت في الدنيا، كما هو حق ثابت في الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

ونظرًا لأهمية هذا الأمر كان من الضروري بيانه كما يأتي:

أولًا: حكم الله تعالى في الدنيا:

نوّر الله تعالى الدنيا بأحكامه التي هدى بها عباده إلى الحق المبين[4].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وتسمى أحكام الله تعالى التي سنّها للعباد في الدنيا (الشريعة الإسلامية)، وتتميز الشريعة الإسلامية بعدة ميزات جعلت منها أحسن الشرائع على الإطلاق، ومن هذه الميزات:

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٠٠.

١. الربانية:

وتعني أن أحكام الشريعة الإسلامية التي تنظم شئون العباد في الدنيا صادرة عن الله تعالى، ويترتب على هذه الميزة أمران، هما:

الأول: خلوها من النقص والجور والهوى.

الثاني: أنها ذات قداسة في النفوس، ولا أدل على ذلك من فعل المسلمين حينما نزلت آية التحريم للخمر، فامتلأت شوارع المدينة بالخمر[(١)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

٢. الشمول:

حيث شملت أحكام الدين كافة مناحي الحياة المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك[(٢)].

٣. الواقعية:

وتتجلى في كون أحكام الشريعة تتعامل مع واقع المكلفين عند التشريع، ومثال ذلك: إباحة تناول المحرمات عند الضرورة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٧٣].

٤. الوسطية:

ويراد بها الاعتدال في التشريع، ومثال ذلك: أن الله تعالى أباح لعباده الإنفاق شريطة عدم البخل والتبذير[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

٥. الثبات:

وتشتمل الشريعة الإسلامية على صنفين من الأحكام هما: أحكام تفصيلية لا تقبل التغيير والتبديل كأحكام العبادات، وأحكام عامة كالشورى والعدل، وهذه مع ثباتها إلا أن آلية تطبيقها تختلف باختلاف العصور[(٤)].

٦. التوازن:

ويقصد به أن أحكام الشريعة الإسلامية وازنت بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، فأباحت الشريعة الإسلامية للفرد حرية التملك حرصًا على مصلحته، وحرّمت عليه إيذاء الآخرين بما يملك حرصًا على مصلحة الجماعة، كما وازنت بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح، فشرّعت تناول الطيبات مراعاة لمتطلبات الجسد، وشرّعت

(١) انظر: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة ٢/ ٣٥٤.

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ١/ ٣٣.

(٣) انظر: علم المقاصد الشرعية، نور الدين الخادمي، ص٨.

(٤) انظر: روضة الناظر، ابن قدامة المقدسي ١/ ٦١٥.

الصوم مراعاة لمتطلبات الروح[1].

٧. العموم:

ويعني بذلك أن أحكام الشريعة الإسلامية جاءت للناس كافة رحمة للعالمين[2].

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

٨. الجزاء الدنيوي والأخروي:

وقد انفرد التشريع الإسلامي بالجزاء الأخروي الذي يعزز دور الوازع الديني في نفوس العباد، فيستشعرون مراقبة الله تعالى لهم، وهذا أدعى لاستجابتهم لأحكام الشريعة الإلهية[3].

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠].

كما أن الشريعة الإسلامية قد وضعت العقوبات المناسبة في الدنيا لمن ارتكب الجرائم، سواءً أكانت هذه العقوبات حدودًا أو قصاصًا أو تعزيرًا[4].

(١) انظر: التشريع الإسلامي صالح للتطبيق في كل زمان ومكان، محمد فهمي، ص١١٠.
(٢) انظر: رسالة لطيفة جامعة، أصول الفقه المهمة، السعدي ص٦١.
(٣) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ١/ ٣٧.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٦٥.

ثانيًا: تحريم التحاكم إلى غير شرع الله:

رعاية من الله تعالى لمصالح عباده في الدنيا حرّم عليهم التحاكم إلى غير شرعه، وتفصيل هذا التحريم كما يأتي:

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

إذا اعتقد من يحكم بغير ما أنزل الله تعالى أن أحكامه الوضعية أفضل من أحكام الشريعة الإسلامية، أو حكم بغير ما أنزل الله تعالى جحودًا فهو كافر[5].

قال تعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وذلك لمن ترك الحكم بشريعة الله تعالى اتباعًا للهوى دون جحود لما أنزل الله تعالى من الأحكام[6].

(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٤٩.
(٦) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتردي ٣/ ٥٣٢.

قال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وذلك لمن حكم بغير ما أنزل الله تعالى وهو عالم بحرمة ذلك دون جحود لأحكام الشريعة[١].

ثالثًا: حكم الله تعالى في الآخرة:

سمّى الله تعالى اليوم الآخر بعدة أسماء، ولكل اسم من تلك الأسماء مدلوله الخاص، ومن هذه الأسماء: يوم الدين، ويوم الحساب، ودلالة هذين الاسمين هي أن الله تعالى سيجمع الخلق يوم القيامة لمحاسبتهم فيكافئ المحسن ويعاقب المسيء.

وقد جاءت آيات الكتاب العزيز على ذكر محاسبة الله تعالى لعباده في الآخرة، ومن تلك الآيات:

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وذلك يعني أن العمل مهما كان قليلًا فله اعتبار عند الله تعالى ويحاسب عليه[٢].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

ودلالة ذلك أن الله تعالى سيحكم على المحسن بالنعيم وعلى الفاجر بالجحيم[٣].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وذلك يعني: أن الله تعالى عالم بكافة أعمال عباده، لا يخفى عليه منها شيء، ومن ثمّ فهو سبحانه سريع في محاسبتهم[٤].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧].

ودلالة ذلك أنه لا مجال لمراجعة الله تعالى في أحكامه النهائية التي سيصدرها في الآخرة[٥].

إن الحكم بين الناس في الدنيا هو ما بين حكم بشريعة الله تعالى، وحكم بالجاهلية التي لا يرضاها الله، والآيات في كلا النوعين ظاهرة في كتاب الله تعالى، وهي ما

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٩٠.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتردي ٦/ ٥٤٣.
(٣) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ١٢/ ٨١٥٩.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٣٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٩٩.

بين أمر ونهي، وبيان ذلك فيما يلي:

رابعًا: الحكم بالشريعة:

خلق الله تعالى الإنسان وأسند إليه مهمة الخلافة في الأرض التي تقتضي الحكم بشرع الله، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وقد أعان الله تعالى عباده على أداء هذه المهمة العظيمة من خلال عوامل أهمها:

١. العقل:

وبه يكون التعلم والفهم، وتمييز الحق من الباطل، والغث من السمين، ولعل الهدف من ابتداء الوحي بالأمر بالقراءة هو توجيه العباد إلى توظيف قدراتهم العقلية للتعلم الذي يكون معه التمكين في الأرض، وتحكيم الشريعة الإلهية.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والأمانة هنا تعني: المحافظة على شعائر الدين وتشريعاته[(١)]، والمحافظة على الأمور من مهام العقل كما هو معلوم، يؤيد ذلك ما ذهب إليه غير واحدٍ من المفسّرين بأنّ معنى الأمانة في هذه الآية هو العقل[(٢)].

٢. القوة:

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالسعي لامتلاك القوة قدر المستطاع؛ لإعلاء كلمة الله بتحكيم شرعه في أرضه التي بسط المؤمنون سيطرتهم عليها.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٣. المنهاج:

ويتمثل في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأما الحكمة من وجوب تحكيم الشريعة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٦.

(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٢٤٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٢٧.

الإسلامية فتكمن في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

يعني: لا حكم أحسن من حكم الله إن كنتم موقنين أنّ لكم إلهًا عدلًا في أحكامه[(١)].

وبذلك تكون الحكمة من وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية هي أنّها شريعة الخالق جلّ وعلا للمخلوق، ومن هو الذي يعلم ما يصلح للمخلوق أكثر من خالقه؟! وبما أنّ الخالق هو الله تعالى، فهل من يصدر أحكامًا خيرًا من التي أصدرها للخلق؟!

وقد وضع الحق جل وعلا للحكم بما أنزل ضوابط، أهمها:

١. الواجب على العباد أن يوظّفوا هذه العوامل للحكم بما أنزل الله تعالى، والتقصير في ذلك يعد استنكافًا عن أداء الأمانة التي أسندها الله تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

٢. حذّر الله تعالى الحكام من العدول عن الحق واتباع الهوى، فقال سبحانه: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

والمعنى: وأن الله تعالى نهى محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يتّبع أهواء اليهود وحذّره من أن يتّبع بعض آرائهم فيترك بعض ما أنزل عليه، ولا يعمل به، ويعمل بما اقترحوه عليه، وأعلمه أن اليهود إن أعرضوا عن قبول حكمه وهو الحكم الحق العادل فإنما يريد الله تعالى أن ينزل بهم عقوبة؛ نتيجة ما اقترفوا من الذنوب، وما ارتكبوا من الخطايا، ومن ثمّ ندّد بأعدائه حيث أخبر أن أكثرهم فاسقون، أي: عصاة خارجون عن طاعة الله تعالى ورسله[(٢)].

٣. اقتضى العدل الإلهي أن تسري أحكام الشريعة الإسلامية على الناس كافة، فالحاكم والمحكوم أمام أحكام الشرع سواء، وكذا الشريف والوضيع، فلا أحد يعلو فوق الحكم الإلهي في النظام الإسلامي، وقد أرسى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم لذلك بقوله (إنّما أهلك الّذين قبلكم، أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشّريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدّ، وايم اللّه لو

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣٩٧.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١/ ٦٣٩.

أنّ فاطمة بنت محمّدٍ سرقت لقطعت يدها)[1].

وقد ربط الله تعالى بين تحقق الإيمان في نفس العبد وبين التسليم لأمر الله تعالى وحكمه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

والمعنى: ليس الأمر كما يزعم الناس بأنهم يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدّون عن حكمك يا محمد، فلا يصح إيمانهم حتى يجعلوك حكمًا بينهم فيما اختلط بينهم من أمورهم، فالتبس عليهم حكمه واختلفوا بسببه، ثم لا تحرج أنفسهم مما قضيت، ويسلّموا أمرهم إليك أتم التسليم[2].

خامسًا: الحكم الجاهلي:

على الرغم من أنه لا أحد من العقلاء والمنصفين ينكر تفوق أحكام الشريعة الإسلامية على ما عداها من الأحكام الوضعية الأخرى، إلا أن فساد قلوب الكثيرين من أتباع الهوى يرغبون في تحكيم شريعة غير الله لضمان عدم المساس بأشخاصهم مهما عاثوا في الأرض فسادًا وخرابًا.

لذا نجد أن الله تعالى أنكر على مريدي الحكم بغير ما أنزل الله بقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠].

والمراد: أيبغي هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك يا محمد، فلم يرضوا بحكمك، إذ حكمت فيهم بالقسط حكم عبدة الأوثان من أهل الشرك، وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذي حكمت به فيهم، وأنه الحق الذي لا يجوز خلافه، ثم وبّخ الله تعالى هؤلاء الذين أبوا قبول حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم من اليهود، ومستجهلًا فعلهم ذلك منهم بالاستفهام الإنكاري: ومن هذا الذي هو أحسن حكمًا، أيها اليهود، من الله تعالى عند من كان يوقن بوحدانية الله، ويقرّ بربوبيته؟[3].

ومن الأمثلة على الأحكام الجاهلية التي تجاهلت مصالح العباد مراعاة لمصالح الطغاة والمفسدين في الأرض:

- وأد البنات.

قال تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

والمعنى: إذا وهب الله تعالى أحدًا من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٧٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥١٨.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٣٩٤.

أهل الجاهلية بنتًا فإنه يستخفي من قومه لسوء ما بشّر به، ومن أجل ما يلحقهم من العار فإما يمسك ما بشّر به على هون وذل أم يئده، حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف[1].

❁ تقسيم الأنعام قسمة جائرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

والمعنى: أنهم كانوا يجعلون ما في بطون بعض الأنعام من الحمل لذكورهم، ويحرمون منه إناثهم، إلا إذا نزل الحمل ميتًا فعندئذ يشترك فيه الذكور والإناث! ثم توعدهم الله تعالى لنسبتهم هذه الشريعة المضحكة إليه جل وعلا[2].

❁ تأخير الشهر الحرام.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

والمعنى: إن تأخير حرمة شهرٍ حرّمه الله إلى شهرٍ آخر لم يحرّمه زيادة في الكفر حيث إنه إحلال ما حرّم الله وتحرّيم ما أحلّ الله، والله تعالى بذلك التأخير يضل الذين كفروا حيث إنهم إذا قاتلوا في أحد الأشهر الحرم أحلّوه وحرّموا مكانه شهرًا آخر، وإذا لم يقاتلوا في الشهر المحرم حرّموه؛ ليوافقوا عدّة ما حرم الله من الأشهر، وهو أنّهم لم يحلّوا شهرًا من الحرم إلاّ حرّموا مكانه شهرًا من الحلال، ولم يحرّموا شهرًا من الحلال إلاّ أحلّوا مكانه شهرًا من الحرم ليكون الحرم في العدد أربعة، كما حرّم الله فتكون موافقة للعدد، وقد زيّن لهم الشّيطان ذلك العمل الفاسد، والله سبحانه لا يرشد الكافر لما سبق له في الأزل أنه من أهل الجحيم[3].

هذه طائفة من أحكام الجاهلية التي لا تدع مجالًا لعاقل إلا أن يفر منها فراره مما يفزعه؛ وذلك لما اشتملت عليه من ترهات وخرافات تجعل من الحياة كابوسًا لا يطاق.

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢١٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢١٤.
(٣) انظر: الوجيز، الواحدي، ص٤٦٣.

موانع الحكم بالعدل

إن للحكم بالعدل موانع ومعوقات وصوارف، تحاول الحيلولة من كون حكم الله واقعًا في حياة البشرية، وبيان هذه الموانع فيما يأتي:

أولًا: الكفر والنفاق:

١. الكفر:

الكفر لغةً: من كفر يكفر كفرًا فهو كافر، والكفر هو الستر والجحود، وضده الإيمان[(١)].

الكفر شرعًا: يعني إنكار الخالق جل وعلا وجحود شريعته[(٢)].

علاقة الكفر بالحكم العادل:

يشكّل الكفر بالله تعالى حجر عثرة أمام تحكيم الشريعة الإسلامية العادلة، ويرجع ذلك إلى عدم تسليم الكافر بالحاكمية لله تعالى وحده، وجحوده للشريعة الإسلامية.

وقد عد القرآن الكريم عدم تحكيم الشريعة الإسلامية جحودًا لها كفرًا أكبر، يخرج صاحبه بموجبه من الملة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

والمعنى: أن الذي يحكم بغير حكم الله مستهينًا به جاحدًا له، وقد بلغ به الاستنكار لشريعة الله درجة التهكم عليه يعدّ كافرًا خارجًا من ملة الإسلام؛ لأن ذلك جحود وإنكار أو استهزاء بآيات الله مع العلم أنها من عند الله تعالى، واستنكار مؤداها، ومن جحد أحكام القرآن فقد كفر كفرًا أكبر[(٣)].

كما عدّ القرآن الكريم عدم تحكيم الشريعة الإسلامية من غير جحود لها ظلمًا أو فسقًا.

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

والمعنى: أن الذين لا يجدون في أحكام الشريعة الإسلامية التي لا تأمر إلا

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٣.

(٢) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، التويجري ٤/ ٤٦١.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢٢٠٤.

بالعدل والحق ما يتفق مع ظلمهم، ويدعم بغيهم، فيحكمون بغير شريعة الله تعالى فهم ظالمون، وأما الذين لا تقع أيديهم في شريعة الله على أي سند يبيح لهم الفجور والفسوق، والاستهتار والعقوق والشذوذ فهم فاسقون[1].

يقول الشيخ محمد الناصري عن الأصناف الثلاثة سابقة الذكر: «فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم خصوم شريعة الله، وعليهم ألقى كتاب الله أضواءه الكشافة حتى تسفل كلمتهم في الأرض، ولا تعلو فيها إلا كلمة الله»[2].

٢. النفاق:

النفاق لغةً: النفق سرب في الأرض، مشتق إلى موضع آخر، والنفقة والنافقاء، جحر الضبّ واليربوع، ونفق (بالفتح) وأنفق: خرج. ونفق: أخفى، ومنه اشتقاق المنافق في الدين[3].

والنفاق نوعان:

الأول: سلوكي، وهو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم: (أربعٌ من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهنّ كانت فيه خصلةٌ من النّفاق حتّى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[4].

الثاني: عقائدي، وهو الموضّح في تعريف النفاق شرعًا.

النفاق شرعًا: إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ومخالفة القول الفعل، والسر العلن، والظاهر الباطن[5].

علاقة النفاق بالحكم العدل:

تعدّ ظاهرة النفاق من أكبر ما يعيق الحكم بالشريعة العادلة؛ وذلك أن المنافق يظهر ولاءه للعدل ورغبته فيه، وفي باطنه يخفي حقده على العدل وأهله، فالعدل لا يحقق له طمعه في الحصول على ما لا يحق له، يؤيد ذلك:

قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور:٤٧-٥٠].

والمعنى: يَقُولُ المنافقون بألسنتهم: آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِه وَأَطَعْنا حكمهما من غير اعتقاد منهم بذلك، ثُمَّ تُعرِضُ جماعةٌ مِنْهُمْ

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد مكي الناصري ٢/ ٦١.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٦١.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٥٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق١/ ١٦، رقم ٣٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٧٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٢

عن طاعة الله ورسوله بالتزام حكمهما مِنْ بَعْدِ ذلِكَ الادعاء بالألسنة، ويطلبون حكم غيرهما، وهؤلاء ليسوا بِالْمُؤْمِنِينَ، وإذا علموا مسبقًا أن الْحَقُّ لهم يُذْعِنوا وينقادوا لحكم الله ورسوله، ومشكلة هؤلاء أن في قُلُوبِهِمْ مَرَضَ الكفر والنفاق والريبة من حكم الله تعالى ورسوله، وبالتالي فقد ظلموا أنفسهم لإعراضهم عن حكم الله تعالى ورسوله، سواءً أكان الحكم لهم أو عليهم[1].

وقال تعالى حكاية عن المنافقين أيضًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠].

والمعنى: يخاطب الله تعالى نبيه محمدًا، موجهًا الأمر إليه للنظر في حال الذين يزعمون أنهم صدّقوا بما أُنزل إليك من القرآن، وإلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قبلك من الكتب، ويريدون أن يتحاكموا في خصوماتهم إلى الطواغيت التي يعظمونها، ويرضون بحكمها من دون حكم الله ورسوله، على الرغم من أنهم أمروا أن يكفروا بها، ويؤمنوا بالله وحده، ويريد الشيطان أن يصدَّ هؤلاء المتحاكمين إلى طواغيتهم عن سبيل الحق والرشاد الذي يكون في الرضا بحكم الله تعالى ورسوله[2].

ونظرًا لعظم إجرام الكافرين والمنافقين في تركهم للحكم بما أنزل الله تعالى فقد جعل الله تعالى من جهنم مرتعًا ومقامًا لهم.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ﴾ [النساء:١٤٠].

وحرصًا من الله تعالى على فلاح المؤمنين في الدنيا، ونجاتهم من عذاب الله في الآخرة حذرهم من الركون إلى الظالمين المفسدين في الأرض بتحكيمهم غير شريعة الله تعالى، والأخذ بآرائهم ونصائحهم؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود:١١٣- ١١٤].

والمعنى: ولا تميلوا، أيها الناس، إلى قول الذين كفروا بالله، فتأخذوا منهم وتوافقوا أعمالهم؛ فلا تنصرون في الدنيا ويتسلط عليكم عدوّكم، وتكون النار مثواكم

(١) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٨/ ٢٧٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٠٧.

في الآخرة بفعلكم هذا وحينها لا يكون لكم من دون الله من مؤيد يؤيدكم، أو وليّ يلي أمركم[1].

ثانيًا: اتباع الهوى:

عبد الناس عبر التاريخ كثيرًا من الطواغيت، وفي كل مرة كانوا يعبدون فيها طاغوتًا جديدًا، كانت أهواؤهم تبتكر لهم إلهًا آخر ليعبدوه من دون الله تعالى، ولعل من أبرز ما يدعو الناس إلى اتباع الأهواء على الرغم من علمهم بأنها تقودهم إلى الفساد والهلاك هو الرغبة في التحرر من التكاليف التي تترتب على الإيمان بالله تعالى، وإرضاء الشهوات، وتقديم العاجل على الآجل.

ومراعاة لمصالح العباد حذّر الحق جل وعلا من اتباع الهوى، والوقوع في حبائله، نجد ذلك واضحًا جليًّا في:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الجاثية: ٢٣].

والمعنى: أنه مطواع لهوى النفس يتّبعها في كل ما تدعوه إليه، فهو يعبدها من دون الله تعالى، فضلّ بذلك على علم منه، واختار الضلال وفعله، فهو لا يقبل وعظًا، ولا يعتقد حقًّا، ولا يبصر سبيلًا، فمن ذا الذي بعد ذلك يذكّره بالحق وينفعه به[2].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص: ٥٠].

والمعنى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ عن طريق الهدى والرّشاد، ﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ﴾ هوى نفسه بغير حجةٍ من اللّه، والله ﴿ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ قومًا يتبعون أهواءهم دون أن يكون عندهم برهان ودليل[3].

الصلة بين اتباع الهوى والحكم بالعدل في القرآن:

وقد بيّن القرآن الكريم الصلة بين اتباع الهوى، والحكم بالعدل من خلال العديد من الآيات، والتي منها:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾[النساء: ١٣٥].

والمعنى: يا أيها المؤمنون كونوا على جاهزية تامة للقيام بما أمر الله تعالى به من الإقساط عند الشهادة حتى وإن كانت على

(١) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٥٠٠.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٣٠٣.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ١٧٧.

أنفسكم، أو على الوالدين أو الأقارب، فقولوا الحق، ولا تميلوا لغنيٍّ لغناه على فقير، ولا لفقير لفقره على غنيّ، فتظلموا بذلك، فإن الله الذي سوّى بين الغنيّ والفقير عند القضاء هو الأولى في الحكم بينهما، وهو أعلم بما فيه مصلحة كلّ واحد منهما منكم، فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما وعليهما، وإياكم أن تتبعوا أهواء أنفسكم في الميل في شهادتكم إذا قمتم بها فتقولوا غير الحق، ولكن قوموا فيها بالقسط، وأدّوا الشهادة كما أمركم الله بأدائها، بالعدل لمن شهدتم له وعليه[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

والمعنى: ولقد أنزلنآ إليك يا محمد القرآن موافقًا لأصول ما جاء في الكتب السماوية قبله، ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ عليها ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ بما شرع الله فيه من الأحكام دون الأخذ بما في التوراة والإنجيل، فقد جعل الله تعالى لكل أمة من الأمم شريعة خاصة بها، ولو شاء الله تعالى لجمعكم على منهج واحد، وشريعة واحدة، ولكنه لم يفعل ذلك؛ لاختبار مدى استجابة الناس لأمر الله تعالى الذي يقتضي اتباع الناسخ، وترك المنسوخ[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

والمعنى: يخاطب الله تعالى نبيه داود قائلًا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ لمن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ بحكم الله تعالى العادل، ولا تتبع هوى نفسك في قضائك فتضلّ عن سبيل الله تعالى وشرعه، وإنّ الله تعالى سيعذّب ﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعالى وحكمه، بسبب تناسيهم يوم الحساب والعرض على الله عز وجل[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٠٢.

(٢) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٣/ ١٧٧١، تفسير القرآن العزيز، العز بن عبدالسلام ١/ ٣٩٠.

(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ١٥٢.

موقف الناس من الحكم بالعدل

إن الناس أمام الحكم بالعدل صنفان، صنف يسعى لتطبيق حكم الله، وعلى ذلك فإنه يسمع ويطيع، وينقاد ويستسلم، وينشرح صدره، وصنف يتولى ويعرض ويصد عند تحكيم شريعة الله تعالى، وبيان هذين الصنفين فيما يأتي:

أولًا: موقف المؤمنين:

مما لا شك فيه أن موقف المؤمنين سيكون إيجابيًّا من أي قضية ربانية، وبالأخص إذا كانت تشتمل على الأوامر والنواهي التي تشكّل بمجموعها المنهاج الذي ينبغي للمؤمن أن يسير عليه في الدنيا؛ لينال رضا الرحمن في الآخرة، ومن المظاهر الإيجابية التي يجب أن يكون عليها المؤمنون في التعامل مع الأحكام الإلهية ما يأتي:

١. السمع والطاعة.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والمعنى: لقد آمن وصدّق الرسول صلى الله عليه وسلم بما أوحى إليه من ربه من القرآن، وما فيه من تشريعات، وغير ذلك من سائر ما فيه من المعاني التي حواها، وقد تابعه المؤمنون في ذلك الإيمان اعتقادًا في قلوبهم، وإقرارًا بألسنتهم[(١)].

٢. التسليم والانقياد.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والمعنى: أنه لا يجوز للمؤمنين بحال من الأحوال إذا صدر الأمر الإلهي بالفعل، أو الترك، أن يختاروا ما يشاؤون على وفق رغباتهم؛ فإن من يخالف شرع الله تعالى وحكمه قد حاد عن الصراط السوي وابتعد[(٢)].

٣. انشراح الصدر.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

والمعنى: إنه لا يصح إيمان العبد حتى يقبل بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يعرض لهم من الأمور، ثم لا يجد في قلوبهم ضيقًا من حكم الله ورسوله، ويسلّم لحكم الله ورسوله[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٢٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٧٧.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣١٥.

ثانيًا: موقف الكافرين:

معلوم أن الكافر جاحد لما أنزل الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي، ومن ثمّ فهو منكر لأحكام الشريعة الإسلامية التي جاءت ضمن الوحي الإلهي، ومن مظاهر هذا التنكّر ما يأتي:

١. التولي عن حكم الله.

يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

والمعنى: أنزلنا إليك القرآن وفيه حكم الله تعالى الحق، فاحكم بما جاء من الأحكام، واحذر أن يصرفك الفاسدون عن بعض هذه الأحكام ولو كان أقلّ قليلٍ، بتصوير الباطل بصورة الحق، فإن رفضوا الحكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيره، فاعلم أن الله تعالى يريد أن يحملهم جريرة ذنوبهم المتمثلّة في تولّيهم عن حكم الله عزّ وجلّ، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ متمرّدون في الكفر، متشبّثون به، خارجون عن طاعة الله تعالى الآمر العدل[1].

٢. الإعراض.

يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

والمعنى: انظر يا محمد وتعجّب من حال هؤلاء الذين ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ﴾ التوراة وفيه البشارة بك، ومع ذلك يعرضون عن القرآن وما فيه من الأحكام الواضحة البينة الموافقة لما جاء مكتوبًا عندهم في التوراة؛ إرضاءً لأهوائهم وأباطيلهم[2].

٣. الصّدود.

يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

المعنى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا﴾ أوحي إليك من المنافقين الذين يريدون تحكيم الطواغيت من كهنة اليهود وسحرتهم فيما يعرض لهم من القضايا التي تحتاج للحكم فيها، مع أنهم ﴿أُمِرُوا﴾ بتكذيب تلك الطواغيت، ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ عن الهدى

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٧.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ١/ ٢١٩.

وعن الحق ﴿ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾، وفي المقابل إذا دعي هؤلاء المنافقون إلى حكم الله تعالى الوارد في كتابه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تراهم يعرضون إعراضًا[1].

فإن قيل: ما الفرق بين الإعراض، والصدود، والتولي؟ فالجواب: أنّ الإعراض هو أخذ جانب بعيد عن المعرض عنه[2]، أمّا الصدود فهو من الصدّ وهو الصّرف، ومن ثمّ يكون معنى صدّ عن الشيء أي: صرف عنه، وقد يكون الصّرف بالإقناع أو بالإكراه، أمّا التولي فهو عدم الانتفاع[3].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣١٣.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٠٢.
(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٢٦١، الكليات، الكفوي ص٣٠٩.

أثر تحكيم الشريعة على المجتمع

أحكام الشريعة إلهية المصدر، فالذي خلق يعلم مخلوقه وما يحتاجه، فمما لا ريب فيه أن لتحكيم الشريعة الإسلامية أثرًا بالغًا في رفعة الأمة، وتقدّمها وازدهارها، ويرجع هذا الفضل العظيم للشريعة الإسلامية على الأمة المنقادة لها إلى عدة عوامل، منها:

١. أحكام الشريعة الإسلامية تفضّ النزاعات بين المتخاصمين على أساس العدل.
٢. أحكام الشريعة الإسلامية تنصف المظلوم، وتعيد له حقوقه المنزوعة.
٣. أحكام الشريعة الإسلامية تردع الظالم مهما كان منصبه، وتنزل بحقه العقوبة المناسبة.
٤. أحكام الشريعة الإسلامية تعتمد ميزان التقوى كأساس للتفاضل بين الناس في المجتمع.

هذه العوامل جعلت لهذه الشريعة الغراء أطيب الأثر على المجتمع المسلم، ويتمثل هذا الأثر فيما يأتي:

- انتشار العدل في المجتمع.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فهذه الآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يكونوا على أتم الجاهزية لتطبيق كل ما يأمرهم به، والابتعاد عن كل ما ينهاهم عنه، وألّا تدفعهم كراهيتهم لقوم على ظلمهم، أو ظلم غيرهم، ثم تبين أن التزام العدل في الأقوال والأفعال هو الأقرب إلى تحقيق التقوى في النفوس، وبعد ذلك تحذّر الآية من مخالفة التعليمات الواردة فيها من خلال التأكيد على مراقبة الله تعالى لسلوك عباده[1].

- **سيادة الأمن داخل المجتمع.**

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

تحث هذه الآية الكريمة المؤمنين على الجهاد في سبيل الله تعالى نصرة للمستضعفين في الأرض، ورفعًا للظلم والجور عنهم، وتوفيرًا للأمن لهم، فهم أحوج ما يكونون لذلك، لاسيما وأن الظّلمة يستأسدون في حملاتهم الشرسة ضد الضعفاء من النساء والشيوخ والأطفال، الذين لا حول ولا قوة لهم إلا بالله العظيم[2].

- **تعزيز الوحدة بين أفراد المجتمع.**

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

يأمر الله تعالى عباده بالالتفاف ليكونوا جماعة واحدة حول شريعة الله تعالى التي بفضلها منّ الله تعالى على عباده بالألفة والمحبة، بعد الفرقة والعداوة، فصاروا إخوانًا يرحم بعضهم بعضًا، ويؤازر بعضهم بعضًا، بعد أن كادت عداوتهم تتسبب في هلاكهم، ثم بيّن سبحانه أن الغاية من البيان السابق هي هداية المجتمع، والحفاظ على وحدته[3].

- **ترسيخ مبدأ المساواة في المجتمع.**

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

والمعنى: يبيّن الله تعالى لعباده في هذه الآية الكريمة أن ميزان التفاضل بينهم هو

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠.

(٢) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ص١٠٤، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٩٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٣١.

التقوى فقط، وليس شيئًا سوى التقوى، كما يؤكد سبحانه على علمه بأحوال عباده، وقدرته على التمييز بينهم بحسب مراقبتهم له سبحانه، وخشيتهم منه[1].

❁ إيجاد مجتمع متكافل.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٣-٢٧٤].

والمعنى: يحث الله تعالى المؤمنين في هاتين الآيتين على تحقيق التكافل الاجتماعي من خلال مدّ يد العون لإخوانهم المحتاجين غير القادرين على كسب ما يسدّ حاجتهم، والذين تمنعهم العفة عن طلب المساعدة من الآخرين، ويأتي هذا الحث من خلال سبيلين، الأول: التشجيع على تقديم يد العون للمحتاجين سواءً أكانت المعونة قليلة أم كثيرة، الثاني: التشجيع على المداومة على الإنفاق لضمان استمرارية انتفاع المحتاجين بما يقدّم لهم من نفقات[2].

❁ إيجاد مجتمع متعلم.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

يبرز الحق جل وعلا في هذه الآية علو شأن العالمين العابدين من العلماء، وطلبة العلم الذين هم دائمو التذكر لعظمة الخالق من خلال التفكر في إبداع الخلق؛ فيكون ذلك دافعًا لهم للزوم طاعة الله تعالى[3].

❁ إيجاد مجتمع طاهر.

ويقصد بالطهارة ما يأتي:

١. الطهارة النفسية.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٢٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي ٣/ ٧١.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٤٥.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

والمعنى: في هاتين الآيتين الكريمتين يأمر الله تعالى عباده المؤمنين رجالًا ونساءً بما يحفظ المجتمع المسلم عفيفًا طاهرًا، من غضٍّ للبصر عن النظر إلى ما حرم الله تعالى، وحفظٍ للفرج عن قضاء الشهوة في ما حرّم، ثم يخص النساء بالأمر بإخفاء ما يثير الفتنة من الزينة، وبارتداء الحجاب الذي يسترها ويصونها، وألّا يظهرن ما عندهن من الزينة إلّا لأزواجهن، أو آبائهن، أو آباء أزواجهن، أو أبنائهن، أو أبناء أزواجهن، أو إخوانهن، أو أبناء إخوانهن، أو أبناء أخواتهن، أو النساء المؤمنات، أو ما ملكن من العبيد، أو البله من الرجال الذين لا حاجة لهم في النساء، أو الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم من الذين لا علم لهم بعورات النساء.

ثم نهاهن عمّا كان سائدًا في الجاهلية من ضرب النساء عند سيرهن بأرجلهن ليسمع صوت ما يخفين من الزينة كالخلاخيل وغيرها، ثم يعمم الله تعالى الأمر للمؤمنين والمؤمنات بالتوبة إلى الله تعالى من كل ما قد يكون بدر منهم من المخالفات خصوصًا ما يتعلق بخدش الحياء والعفة[1].

٢. الطهارة البدنية.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

والمعنى: يأمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة العباد بما يحفظهم طاهرين أصحّاء، من المحافظة على النظافة الشخصية، وعدم الإسراف في تناول الأطعمة والأشربة، ثم علل الحق جل وعلا هذه الأوامر بأنه يبغض المتجاوزين لحدود الاعتدال في سائر الأمور[2].

❁ إيجاد مجتمع قوي عزيز مسالم.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦٠-٦١].

والمعنى: يأمر الله تعالى عباده المؤمنين في هاتين الآيتين أن يكونوا على أتم الاستعداد والجاهزية لحماية أنفسهم ممّا

(١) انظر: المصدر السابق ٦/ ١٧٠، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٣٥٣.

(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ١٥٤.

يهددهم من الأخطار القادمة من ناحية أعداء الإسلام والمسلمين في كل مكان وزمان، ودلّهم على الوسيلة التي يحقّقون من خلالها الأمن لأنفسهم، وهي امتلاك القوة بكافة أنواعها ووسائلها، وحثّ على الإنفاق في سبيله لتيسير ذلك، ثم وضّح الموقف الذي ينبغي على المؤمنين أن يتخذوه في حالة طلب أعدائهم للسّلام معهم، وهو الموافقة شريطة أن تكون مبادئ السلم محقّقةً العزة للمؤمنين، متفقةً مع أحكام الشريعة الإسلامية[1].

موضوعات ذات صلة:

الحرية، الخلافة، السياسة، الشورى، العدل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٢٤-٣٢٥.

الحكمة

عناصر الموضوع

مفهوم الحكمة	٣٦
الحكمة في الاستعمال القرآني	٣٨
الألفاظ ذات الصلة	٤٠
الحكمة نعمة إلهية	٤٢
الحكمة من صفات الله تعالى	٤٦
وصف القرآن الكريم بالحكمة	٥٣
وصف الرسل والصالحين بالحكمة	٥٦
مجالات الحكمة	٦٩
آثار الحكمة	٧٤

مفهوم الحكمة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس:«الحاء والكاف والميم أصل واحد، ومعناه المنع، وأول ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة؛ لأنها تمنعها، ويقال: حكمت السّفيه وأحكمته، إذا أخذت على يديه[(١)].

قال جريرٌ[(٢)]:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إنّي أخاف عليكم أن أغضبا

والحكمة هذا قياسها؛ لأنها تمنع من الجهل، والمحكّم: المجرب المنسوب إلى الحكمة[(٣)].

والحكيم، هو ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم، وعرّف الحكم في اللغة بأنه الحكمة من العلم، وصاحب الحكمة هو المتقن للأمور.

ولو تدبرنا معاني الحكمة في اللغة على نحو ما سبق لوجدنا أن مدارها على شيئين: أولهما: المنع، لأنها تحكم صاحبها أو المتصف بها من الوقوع فيما يذم عليه أو يلحقه الندم، وثانيهما: الفطنة في تدبير الأمور وحسن إدارتها، من حيث تقديم الأهم على المهم، وتقديم الفاضل على المفضول[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

للحكمة في الاصطلاح تعريفات عدة نختار منها ما يأتي:

أنّ الحكمة هي: «معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان، وهذا التعريف للإمام مجاهد والإمام مالك، وقد قال عنه ابن القيم: «إنه أحسن ما قيل في الحكمة»[(٥)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٩١.
(٢) بيت جرير في: ديوان المعاني، العسكري ١/ ٨٩، خزانة الأدب، البغدادي ٩/ ٢٣٦.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٤٣.
(٤) انظر: الحكمة، ناصر العمر ص٩.
(٥) التفسير القيم، ابن القيم ص٢٢٦.

أنها«ضرب من العلم يمنع من ركوب الباطل»[١].

أنها «خروج نفس الإنسان إلى كمالها الممكن»[٢].

ومن التعريفات المعاصرة للحكمة:

أ- أنها «العلوم النافعة والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال»[٣].

ب- أنها:«القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، والبصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال»[٤].

ج- أنها«وضع الشيء في موضعه»[٥].

د- أنها:«فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي»[٦].

التعريف المختار:

الذي يمكن للباحث اختياره استخلاصًا من التعريفات السابقة أنّ الحكمة «ملكةٌ فطريةٌ أو مكتسبةٌ يمكن بها وضع الأمور في مواضعها أقوالا وأفعالا وأحكامًا وفق روية ودراية».

فالصلة بين المعنى الاصطلاحي واللغوي وثيقة جدًّا؛ إذا كلاهما يدلان على تدبير الأمور وحسن إدارتها والمنع من ركوب الباطل.

(١) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي١/ ٢٦٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣١٢.
(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، قلعجي والقنيبي ص ١٨٤، مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله، ناصر الحميد ص ٢٩.
(٦) الحكمة، ناصر العمر ص١٩.

الحكمة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أحكم) في القرآن الكريم (١٢٣) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود:١]
الفعل المضارع	١	﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [الحج:٥٢]
المصدر	٢٠	﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [البقرة:٢٦٩]
الصفة المشبهة	٩٧	﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل:٦]
اسم التفضيل	٢	﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾ [التين:٨]
اسم المفعول	٢	﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عمران:٧]

وجاءت الحكمة في القرآن على خمسة وجوه[٢]:

أحدها: وضع الأشياء مواضعها، ومنه قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [التغابن:١٨]، يعني: الموصوف بالحكمة، لا يدع معاملة الناس بما تقضيه الحكمة من وضع الأشياء مواضعها، ونوط الأمور بما يناسب حقائقها.

والثاني: الموعظة، ومنه قوله تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾ [القمر:٥]، يعني: موعظة قد بلغت الغاية، ووصلت إلى النهاية.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢١٣-٢١٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الحاء ص ٤٧٤-٤٥٠.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٧٤، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٦١-٢٦٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ٢٩١.

والثالث: السنة، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢]، يعني: القرآن والسنة.

والرابع: العلم والفهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان:١٢]، يعني: العلم والفهم.

والخامس: النبوة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:٥٤]، يعني: النبوة.

الألفاظ ذات الصلة

١ العلم:

العلم لغةً:

نقيض الجهل، والمعرفة، واليقين، والعلّامة: النسّابة، وهو من العلم[١]، ويقال: «علمت الشيء أعلمه علمًا: عرفته»[٢].

العلم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني: «العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، ونقل عن الحكماء فقال: هو حصول صورة الشّيء في العقل»[٣].

وأنكر ابن العربي تعريف العلم لوضوحه وقال: «العلم أبين من أن يبين»[٤]، وأنكر على من تصدى لتعريف العلم.

الصلة بين العلم والحكمة:

يمكن إبرازها في الآتي:

١. أن العلم يشبه الحكمة من حيث كون كلًّا منهما يفيد المرء ويفيد غيره، ويورث صاحبه قبولًا ومكانة ورفعة بين الناس.

٢. أن الحكمة ضرورية لطلب العلم وتعليمه، فمن التزم بالحكمة أحسن التعلم إن كان تلميذًا، والتعليم إن كان معلمًا.

٢ القضاء:

الفقه لغةً:

«العلم بالشيء، والفهم له، والفطنة. وغلب على علم الدين؛ لشرفه»[٥].

الفقه اصطلاحًا:

هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلّق به الحكم، وهو علمٌ مستنبطٌ بالرأي

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٣٠٨٣، تهذيب اللغة، الأزهري، ٢/ ٤١٨.
(٢) الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٩٠.
(٣) التعريفات، ص ١٩١.
(٤) فتح الباري، ابن حجر، ١/ ١٤١.
(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٢٥٠.

والاجتهاد، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمّل[1].

الصلة بين الفقه والحكمة:

أن الفقه طريق إلى الحكمة، فكل من تفقه في دينه، ووقف على شيء من أسرار الأحكام الشرعية، وأعمل ذهنه في استنباطها كان حكيمًا في تصرفاته، متزنًا في أفعاله وأقواله.

٣ القضاء:

الفطنة لغةً:

الفطنة بالكسر وسكون الطاء المهملة لغة: هي الفهم، وفي الصحاح هي كالفهم، وهذه قد تكون جبليّة وقد تكون مكتسبة، كما أنّ عدم الفطنة قد يكون جبليًا وقد يكون عارضًا[2].

الفطنة اصطلاحًا:

تعرف في الاصطلاح بأنها «جودة تهيئ النفس لتصوّر ما يرد عليها من الغير»[3].

وتعرف كذلك بأنها«الفطنة: سرعة ما يقصد إشكاله»[4].

الصلة بين الفطنة والحكمة:

أن الحكمة تنبني على الفطنة، إلا أن الفطنة فيها جانب معنوي به تدرك بواطن الأمور ومراميها، مما يؤدي إلى الحكمة في التصرفات، ولهذا فإن الحكيم لابد أن يكون فطنًا.

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص١٦٨.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٥/ ٥١٠.
(٣) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ٢/ ١٢٧٩.
(٤) مقاليد العلوم، السيوطي ص٢٠٠.

الحكمة نعمة إلهية

أولًا: الحكمة نعمة:

الحكمة نعمة من نعم الله تعالى التي ينعم بها على من يشاء من عباده، يصدق ذلك قول الله تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال الشيخ المراغي في تفسير قوله تعالى:«﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ أي: إنه تعالى يعطى الحكمة والعلم النافع المصرّف للإرادة لمن يشاء من عباده، فيميز به الحقائق من الأوهام، ويسهل عليه التفرقة بين الوسواس والإلهام وآلة الحكمة العقل المستقل بالحكم في إدراك الأشياء بأدلتها، وفهم الأمور على حقيقتها -ومن أوتى ذلك عرف الفرق بين وعد الرّحمن ووعد الشيطان، وعضّ على الأول بالنواجذ وطرح الثاني وراءه ظهريًّا، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: ومن يوفقه الله لهذا النوع النافع من العلم، ويرشده إلى هداية العقل، ووجهه الوجهة الصحيحة- فقد هدى إلى خيرى الدنيا والآخرة، فهو يسخر القوى التي خلقها الله له من سمع وبصر وشعور ووجدان في النافع من الأشياء، ويعدّها لتنفيذ ما يرغب فيه، ثم بعدئذ يفوض الأمر إلى بارئه الذي فطره وسوّاه، ومنه مبدؤه وإليه منتهاه، وبهذا لا يستسلم لوساوس الشيطان، ولا يقض مضجعه ما يجده من مكدرات الحياة وآلامها»[(١)].

وقد فسرت الحكمة في هذا الموضع بتفسيرات عدة أشهرها ما يأتي:

١. أن الحكمة هي الإصابة في القول والفعل، روي هذا عن مجاهد[(٢)].
٢. أن الحكمة هي العقل في الدين، روي هذا عن عبد الرحمن بن زيد[(٣)].
٣. أن الحكمة هي الفهم، وهو مروي عن إبراهيم النخعي[(٤)].
٤. أن الحكمة هي النبوة، وهو مروي عن ابن عباس والسدي[(٥)].
٥. أن الحكمة هي علم القرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله، وهذا مروي عن قتادة[(٦)].
٦. أن الحكمة هي الخشية، وهو مروي

(١) انظر: تفسير المراغي ٣٤١-٤٢ بتصرف.
(٢) جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧٨، تفسير ابن أبي حاتم٢/ ٥٣٢.
(٤) انظر: المصادر السابقة.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧٩، تفسير السمرقندي ١/ ١٧٩.
(٦) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٢٥٢.

عن الربيع بن خيثم[1].

٧. أن الحكمة هي المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له، حكاه ابن وهب عن مالك[2].

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك قوله: «وإنه ليقع في قلبي، أن الحكمة هو الفقه في دين الله؛ وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلًا في أمر الدنيا، إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفًا في أمر دنياه، عالمًا بأمر دينه، بصيرًا به، يؤتيه الله إياه، ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله»[3].

ولا مانع من إطلاق الحكمة على كل المعاني السابقة، يقول الإمام الطبري بعد أن ذكر هذه المعاني: «إنها مأخوذة من «الحكم» وفصل القضاء، وأنها الإصابة بما دل على صحته، فأغنى ذلك عن تكريره في هذا الموضع، وإذا كان ذلك كذلك معناه، كان جميع الأقوال التي قالها القائلون الذين ذكرنا قولهم في ذلك داخلًا فيما قلنا من ذلك، لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم بها وعلم ومعرفة.

وإذا كان ذلك كذلك، كان المصيب عن فهم منه بمواضع الصواب في أموره مفهمًا خاشيًا لله فقيهًا عالمًا، وكانت النبوة من أقسامه، لأن الأنبياء مسددون مفهمون، وموفقون لإصابة الصواب في بعض الأمور، «والنبوة» بعض معاني الحكمة، فتأويل الكلام: يؤتي الله إصابة الصواب في القول والفعل من يشاء، ومن يؤته الله ذلك فقد آتاه خيرًا كثيرًا[4].

ولما كانت الحكمة نعمة كان إيتاؤها من رضا الله تعالى على المرء، حبًّا لها، ورفعة لمنزلته، وجزاء له على طاعته وامتثاله لأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وقد ينعم الله تعالى على المرء في شبابه بالطاعة وييسر له سبلها ليؤهله بعد ذلك لتلقي الحكمة.

روي عن الحسن البصري قوله: «من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله»[5].

ثانيًا: تعلّم الحكمة:

الحكمة هبة وعطية من الله يهبها من يشاء من عباده الصالحين، أما كونها هبة وعطية فهي نعمة من نعم الله تعالى التي ينعم بها على أحد من خلقه، وهذه درجة سامية من درجات الحكمة، ولكن يمكن في الوقت ذاته اكتساب الحكمة أو تعلمها.

وأما كونها فطرية فقد تقدم ذكر الآية الصريحة في أن الحكمة نعمة يؤتيها الله

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٤٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧٨.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٥٣٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧٩.
(٥) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم، ٦/ ٢٤٠، رقم ٢٥٧٩.

تعالى لمن يشاء.

وورد في السنة كذلك ما يمكن الاستئناس به على فطريتها، وذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم لأشجّ عبد قيس (إنّ فيك لخلقين يحبّهما الله: الحلم والأناة)[1]، فقال: يا رسول الله، أنا تخلّقتهما، أو جبلني الله عليهما؟ قال: (بل الله جبلك عليهما). قال: الحمد للّه الّذي جبلني على خلقين يحبّهما الله ورسوله[2].

ووجه الاستئناس بالحديث هنا أن الحلم والأناة وإن كان خلقين مستقلين إلا أن منبعهما الحكمة، فالحكيم تدفعه حكمته إلى الحلم والأناة.

وأما عن كونها مكتسبة فذلك بأن ييسر الله تعالى للمرء مخالطة الحكماء ومجالسة العلماء والإطلاع على التجارب والخبرات واكتساب الصفات والخلال التي تؤهله ليكون في مصاف الحكماء ويتعاطي أسباب الإخلاص، والتفكر والاعتبار بالحوادث، والصمت إذا خاض الإنسان فيها، كلها من الأسباب المعينة على الاقتباس من نور الحكمة وكل ذلك بتوفيق الله وإعانته.

وروي عن الإمام مالك؛ أنّه بلغه أنّ لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال: «يا بنيّ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإنّ الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السّماء»[3].

وقد استنبط الشيخ محمد الطاهر بن عاشور كون الحكمة مكتسبة من الحوار الذي دار بين سيدنا سليمان عليه السلام وملئه حول إمكانية إحضار عرش ملكة سبأ، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «وهذه المناظرة بين العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى أنه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتى بالقوة، وأنّ الحكمة مكتسبة لقوله: عنده علم من الكتاب، وأن قوة العناصر طبيعة فيها، وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضًا. فذكر

(١) إلى هنا أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، رقم ١٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، في مسند الوازع بن زارع العبدي، ٣٩/ ٤٩٠، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، ٣/ ٣٠٤، رقم١٦٨٤، والخرائطي في مكارم الأخلاق، باب فضل الحلم والرفق والأناة ١/ ٣٣٢، رقم٢٩.

(٣) تنوير الحوالك، السيوطي ٣/ ١٦١.

في هذه القصة مثلًا لتغلب العلم على القوة، ولما كان هذان الرجلان مسخرين لسليمان كان ما اختصا به من المعرفة مزية لهما ترجع إلى فضل سليمان وكرامته أن سخر الله له مثل هذه القوى»[1].

وأيًا كان الأمر من كون الحكمة فطرية أو مكتسبة، فإن كليهما يستلزم من المرء العمل بها وتعليمها، وإلا دخل في عداد واحد من اثنين، الأول: العالم الذي لا يعمل بعلمه، والثاني: العالم الذي يكتم علمه، وكلاهما مذموم.

أما الأول فمذموم بقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢].

وأما الثاني فمذموم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما (يجاء بالرّجل يوم القيامة فيلقى في النّار، فتندلق أقتابه في النّار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النّار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه)[2].

وروي أن سليمان بن عبد الملك سأل أبا حازم (أحد الزهاد بالمدينة) فقال: يا أبا حازم من أعقل النّاس ؟ قال: من تعلم الحكمة وعلمها النّاس، قال: فمن أحمق النّاس؟ قال: من دخل في هوى رجل ظالم[3].

ويمكن بيان أوجه الفرق بين الحكمة الفطرية والحكمة المكتسبة، أو الحكمة التي يؤتيها الله والحكمة التي يتعلمها المرء على هذا النحو:

أنّ الحكمة التي يؤتيها الله تعالى إنما يؤتيها لمن أحب من خلقه، فهي نور لا يؤتيه لعاصٍ، أما تعلم الحكمة فقد ينالها الطائع والعاصي، فتكون للطائع نعمة، وعلى العاصي قد تكون استدراجًا ونقمة.

أعظم من الحكمة التى يتعلمها وأكثر إفادة من المكتسبة وفي كل خير، وذلك لأن علم البشر قاصر، قال الله تعالى ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٧٦].

أنّ الحكمة المؤتاة من الله تعالى هي علم لدني، كما في حالة الخضر عليه السلام، ولقمان عليه السلام، أما الحكمة التي يتعلمها المرء فتأتي من طرق عدة، وبدرجات متفاوتة، فقد يتعلمها المرء من الإنسان، وقد يتعلمها من الحيوان.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٧١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٦٧.
(٣) المنهج المسلوك في سياسة الملوك، الشيزري ص٧١٧، مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة ص١٣٥.

الحكمة من صفات الله تعالى

وصف الله تعالى نفسه بالحكمة، وسمى نفسه الحكيم في آيات عديدة بلغت أكثر مائة موضع، من كتاب الله عز وجل، فالحكيم من أسماءالله الحسنى، وأكثر ما ورد من اسم «الحكيم» في القرآن الكريم ورد مقترنًا بغيره من الأسماء؛ كالعزيز والعليم والخبير والتواب ونحو ذلك.

قال ابن منظور: «الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين، وهو الحكيم، له الحكم سبحانه وتعالى. قال اللّيث: الحكم الله تعالى. وقال الأزهريّ من صفات الله: الحَكَم والحَكِيم والحَاكِم، ومعاني هذه الأسماء متقاربة، وعلينا الإيمان بأنّها من أسمائه. وقال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى (الحكم) و(الحكيم) وهما بمعنى الحاكم، وهو القاضي فهو فعيل بمعنى فاعل، أو هو الّذي يحكم الأشياء ويتقنها فهو فعيل بمعنى مفعل، وقيل: الحكيم: ذو الحكمة وهي عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»[1].

ولهذه التسمية ولهذا الاقتران معان دار حولها العلماء، أتناول ما تيسر منها على هذا النحو:

أولًا: معنى الحكمة في حق الله تعالى:

الحكمة في حق الله تعالى تعني صفة عظيمة من صفاته جل وعلا، واسمًا من أسمائه الحسنى، تتعلق بالعلم والإحاطة بخلقه، وتدبير شؤونهم، وتشريعاته الصالحة لكل زمان ومكان، ورحمته التي وسعتهم بتقدير وتدبير محكمين.

ولذلك فإن اسم الله تعالى «الحكيم» تتعدد معانيه وتتسع حسب المواضع الكريمة التي ورد فيها في كتاب الله تعالى، وكلها تصف المولى جل وعلا بالحكمة التي سبق ذكر معانيها.

فالحكيم جل وعلا له في خلقه شئون، وله في تدبير أمورهم إرادة لا يعتريها العبث، ولا يدخلها الخلل، قال تعالى مبينًا جوانب حكمته في الخلق: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

فالحكيم جل وعلا جعل الناس متفاوتين في المعايش والأوصاف، كما قال ابن القيم: «الله سبحانه يحب أن يشكر، ولذا فاوت بين عباده في صفاتهم الظاهرة والباطنة في خلقهم وأخلاقهم وأديانهم وأرزاقهم ومعايشهم وآجالهم، فإذا رأى المعافى المبتلى والغنيّ الفقير والمؤمن الكافر عظم شكره لله، وعرف قدر نعمته عليه، وما فضّله به على غيره، فازداد شكرًا وخضوعًا واعترافًا بالنعمة، فالضد يظهر حسنه الضد،

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٤٠.

ويضدها تتبين الأشياء»[1].

والحكيم سبحانه وتعالى فاضل بين الناس، فوفّق قومًا للدين، ووكل قومًا لأنفسهم فاختاروا الكفر، ولا يعجز الله هدايتهم، ولو شاء لهدى الناس أجمعين، لكنه حكيم، جعل الكفر والإيمان، وسلط الشيطان على بني الإنسان حكمة منه[2].

قال ابن القيم: «في خلق إبليس من الحكم والمصالح والخيرات التي ترتبت على وجوده ما لا يعلمه إلا الله، فالله سبحانه لم يخلقه عبثًا، ولا قصد بخلقه إضرار عباده وهلاكهم، فكم لله في خلقه من حكمة باهرة، وحجة قاهرة، وآية ظاهرة، ونعمة سابغة؛ وهو وإن كان للأديان والإيمان كالسموم للأبدان ففي إيجاد السموم من المصالح والحكم ما هو خير من تفويتها»[3].

وللعلماء كلام طيب في معنى الحكمة في حق الله تعالى إما على جهة الإطلاق أو مستفادًا من الآيات القرآنية الورادة في الحكمة، وأورد هنا طرفًا من كلامهم وتفسيراتهم على هذا النحو:

قال الغزاليّ: «الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، والله عزّ وجلّ هو الحكيم الحقّ، لأنّه يعلم أجلّ الأشياء بأجلّ العلوم، إذ أجلّ العلوم هو العلم الأزليّ الدّائم الّذي لا يتصوّر زواله، المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرّق إليه خفاء ولا شبهة ولا يتّصف بذلك إلّا علم الله سبحانه وتعالى»[4].

وقال الشيخ ناصر السعدي ما ملخصه: «الحكيم: الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم، والاطّلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، واسع الحمد، تام القدرة، غزير الرحمة، فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجّه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان:

النوع الأول: الحكمة في خلقه؛ فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملًا على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتّبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللّائق به، بل أعطى كلّ جزء من أجزاء المخلوقات وكلّ عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللًا، ولا نقصًا.

(١) شفاء العليل، ابن القيم ص٢٢١.
(٢) انظر: تأملات في اسم الله تعالى الحكيم، منصور الصقعوب، خطبة بموقع ملتقى الخطباء ص٥ بتصرف.
(٣) شفاء العليل، ابن القيم ص١٤٨.
(٤) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الغزالي ص١٢٠.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فأي حكمة أجلّ من هذا؟ وأيّ فضل وكرم أعظم من هذا، فإنّ معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له وحمده، وشكره والثّناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجلّ الفضائل لمن يمنّ الله عليه بها»[1].

وإذا نظرنا إلى اسم الله تعالى الحكيم، لوجدناه لم يأت في القرآن الكريم مفردًا قط، وإنما مقرونًا باسم آخر على نحو ما سيتضح لاحقًا.

وللعلماء كلام طيب في تفسير اسم الحكيم جل وعلا، منه قول ابن القيم: «اسم الحكيم له سبحانه من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه»[2].

وقول العسكري: «وتسمية الله بأنه حكيم على وجهين:

أحدهما: يستحقه لذاته، وهو أنه عالم.

والآخر: يستحقه لفعله، وهو أن أفعاله محكمة.

وفعيل بمعنى مفعل معروف في اللغة، يقال: سمع بمعنى سميع، قال عمرو بن معدي كرب: أمن ريحانة الداعي السميع»[3].

ثانيًا: حكمة اقتران صفة الحكمة بصفات الله الأخرى:

وردت الحكمة مقترنة بصفات أخرى لله عز وجل، حيث جاء اسم الحكيم مع أسماء أخرى في عشرات الآيات المكية والمدنية على اختلاف مقاصد هذه الآيات، ولا يتسع المقام لسردها بالتفصيل، ولكن اكتفي بالإشارة إلى ذكر ذلك إجمالًا، ثم استلهام بعض المعاني من مواطن بعينها.

العزيز الحكيم:

جاء اسم الله تعالى (الحكيم) مقرونًا باسمه (العزيز) جل وعلا في (٤٤) موضعًا في القرآن الكريم[4].

وكل آية ورد فيها الاسمان الكريمان، لها مدلولها ومعانيها المناسبة للمقام، المبسوطة في مواضعها من كتب التفسير.

فعلى سبيل المثال في قول الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦].

يقول الطبري: «أخبر جل ثناؤه خلقه

(١) انظر: الثمر المجتنى مختصر شرح أسماء الله الحسنى، ناصر السعدي ص٢٨-٣١.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص٣١.
(٣) الوجوه والنظائر، العسكري ص١٨٠.
(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد عبد الباقي ص٢١٤-٢١٥، موسوعة نضرة النعيم ٥/ ١٦٨٠.

بصفته، وعيدًا منه لمن عبد غيره، أو أشرك في عبادته أحدًا سواه، فقال: «هو العزيز» الذي لا ينصر من أراد الانتقام منه أحدٌ، ولا ينجيه منه وألٌ ولا لجأ، وذلك لعزته التي يذلّ لها كل مخلوق، ويخضع لها كل موجود، ثم أعلمهم أنه «الحكيم في تدبيره وإعذاره إلى خلقه، ومتابعة حججه عليهم، ليهلك من هلك منهم عن بيّنة، ويحيا من حيّ عن بينة»[(١)].

وفي قوله جل شأنه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

يقول الطبري في معناها: «العزيز في انتقامه من أهل الكفر بأيدي أوليائه من أهل طاعته، الحكيم في تدبيره لكم أيها المؤمنون على أعدائكم من أهل الكفر، وغير ذلك من أموره»[(٢)].

العليم الحكيم:

جاء اسم الله تعالى (الحكيم) مقترنًا باسمه (العليم) جل وعلا، في (٣٣) موضعًا في القرآن الكريم[(٣)].

وجميع المواضع التي وردت فيه العلم مقترنًا بالحكمة لكل موضع منها معناه المناسب للآيات الواردة فيه.

والناظر في المواضع يجد أن (٣١) موضعًا منها سبق العلم الحكمة، وموضعين فقط سبقت الحكمة العلم:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وذكر الطبري في تفسيرها أنه سبحانه وتعالى الحكيم: في تدبير خلقه، وتسخيرهم لما يشاء، العليم بمصالحهم[(٤)].

وذكر ابن كثير أن المعنى: حكيم في أقواله وأفعاله[(٥)].

ولهذا فإن العبد إذا علم أن الحكيم سبحانه وتعالى هو المدبر للأمور المتقن لها والموجد لها على غاية الإحكام والإتقان والكمال، والواضع للأشياء في مواضعها، والعالم بخواصها ومنافعها الخبير بحقائقها ومآلاتها.. فإذا عرف العبد ذلك وتيقن هذا المعنى وأن كل ما يجري في هذا الكون هو لحكمة بالغة أرادها الله تبارك وتعالى -علم هذه الحكمة من علمها وجهلها من جهلها- كان لهذه المعرفة الأثر البالغ في حياته وتصرفاته ونظرته للكون والحياة وعاش مطمئن القلب قرير العين مفوضًا الأمر كله إلى الله تعالى متقنًا لعمله محسنًا لعبادته،

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٦٨-١٦٩.
(٢) المصدر السابق ٧/ ١٩١-١٩٢.
(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد عبد الباقي ص٢١٤-٢١٥، موسوعة نضرة النعيم ٥/ ١٦٨٠.
(٤) انظر: جامع البيان، ٢١/ ٦٥٣.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٣٩٣.

ومتيقنًا أن كل ما يجري في الكون والحياة هو من تقدير الحكيم العليم اللطيف الخبير الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه[1].

والثاني: في قوله جل شأنه: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠].

والمعنى: أنه تعالى حكيم في تدبيره خلقه، عليم بمصالحهم، وبما كان وبما كائن، وقيل: عليمٌ بما تستحقّون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله[2].

ومن لطائف الآية ما ذكره الرازي قائلًا: «إن قيل: لم قال هاهنا الحكيم العليم، وقال في هود: (حميد مجيد)؟ نقول: لما بينا أن الحكاية هناك أبسط، فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم: أتعجبين من أمر الله، ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله، وذكروهم بنعمته بقولهم: حميد، فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة، وقولهم: مجيد، إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه، وهاهنا لما لم يقولوا: أتعجبين، إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه، وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين، فالحميد يتعلق بالفعل، والمجيد يتعلق بالقول، وكذلك الحكيم هو الذي فعله، كما ينبغي لعلمه قاصدًا لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقًا للمقصود اتفاقًا، كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم، فإنه لا يقال له: حكيم، وأما إذا فعل فعلًا قاصدًا لقتلها بحيث يسلم عن نهشها، يقال له: حكيم»[3].

❁ **الحكيم الخبير:**

جاء اسم الله تعالى (الحكيم) مقترنًا باسمه (الخبير) في أربعة مواضع من كتاب الله عز وجل.

ولو تتبعنا آثار اسمي الحكيم والخبير لوجدنا أن الله سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزله، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته.

فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل

(١) انظر: معنى اسم: الحكيم وأثره على المسلم، فتوى رقم ١٧١٨١٩، موقع إسلام ويب، منشور بتاريخ الخميس ٢٤ صفر ١٤٣٣ / ١٩-١-٢٠١٢ م.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٠٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٣.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٧٨.

مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به.

فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها، وأن يضعها عند غير أهلها.

فلو قدر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب[1].

ولو تتبعنا بعضًا من مواضع اقتران اسم الحكيم باسم الخبير لوجدنا فيها معان كثيرة على هذا النحو:

أولها: قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨].

وقد فسرها الطبري هنا بقوله: «يعني تعالى ذكره بقوله: (وهو)، نفسه، يقول: والله الظاهر فوق عباده، ويعني بقوله: (القاهر)، المذلّل المستعبد خلقه، العالي عليهم، وإنما قال: (فوق عباده)؛ لأنه وصف نفسه تعالى ذكره بقهره إياهم. ومن صفة كلّ قاهر شيئًا أن يكون مستعليًا عليه.

فمعنى الكلام إذًا: والله الغالب عباده، المذلّلهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه وهو الحكيم، يقول: والله الحكيم في علّوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره الخبير، بمصالح الأشياء ومضارّها، الذي لا يخفي عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمه دخل»[2].

وقال الإمام البقاعي في هذه الآية: «﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ أي الذي يعمل مراده كله، ويمنع غيره مراده إن شاء، وصوّر قهره وحقّقه لتمكن الغلبة بقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وكل ما سواه عبد؛ ولما كان في القهر ما يكون مذمومًا، نفاه بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ أي: وحده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا يوصل أثر القهر بإيقاع المكروه إلا لمستحق، وأتم المعنى بقوله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: بما يستحق كل شيء، فتمت الأدلة على عظيم سلطانه وأنه لا فاعل غيره»[3].

وثانيها: في السورة نفسها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:٧٣].

وثالثها: في أول سورة سبأ في قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٩٠.

(٢) جامع البيان، الطبري١١/ ٢٨٨.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٣٩-٤٠.

﴿الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

ورابعها: في قوله جل شأنه: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

والمعنى هنا: أنه سبحانه وتعالى حكيم بتدبير الأشياء وتقديرها، خبير بما تؤول إليه عواقبها[١].

وفسرها قتادة وأبو العالية بأنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره خبير بخلقه[٢].

أما بقية الأسماء فنجد أن اقتران اسم الحكيم بها مرة واحدة وذلك كأسماء:

❁ التواب:

جاء مقترنًا باسم (الحكيم) في قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].

وهنا جاءت الآية جواب «لولا متروك»، والمعنى -والله أعلم-: ولولا فضل الله عليكم لنال الكاذب لما ذكرنا عذابٌ عظيم[٣].

وقيل المعنى: «ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عوّاد على خلقه بلطفه وطوله، حكيم في تدبيره إياهم، وسياسته لهم، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم وترك فضيحتكم بها عاجلا رحمة منه بكم، وتفضلا عليكم»[٤].

❁ الحميد:

جاء مقترنًا باسم (الحكيم) في قول الله تعالى في وصف القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١ -٤٢].

وقد فسر بعض العلماء (الحكيم) هنا بأنه الذي لا يلحقه الخطأ في تدبيره أو في حكمه، و(الحميد) بأنه الذي لا يلحقه الذم في فعله[٥].

❁ العلي:

جاء مقترنًا باسم (الحكيم) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [الشورى: ٥١].

وهذه الآية الكريمة واردة في بيان أقسام الوحي إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام، وقد ختمها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾.

والمعنى كما ذكره الرازي: أنه تعالى ﴿عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٢٨.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٦.
(٣) معاني القرآن، وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٦٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١١٥.
(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٨٨.

﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على موجب الحكمة[1].

❁ الواسع:

جاء مقترنًا باسم (الحكيم) في قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

وهذه الآية وردت في مسألة التفرقة بين الزوجين حين تتعذر الحياة بينهما على النحو الصحيح، فإذا كان الله تعالى قد علق الغنى على النكاح في موضع، فقد علقه في هذا الموضع على الفرقة.

ويؤيد هذا ما روي عن الحسن بن علي أنه كان طلق زوجته، فقيل: له في ذلك، فقال: إني رأيت الله تعالى علق على الأمرين غنى، فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠][2].

والواسع: عام في الغنى، والقدرة، والعلم، وعقبه بالحكم، منبهًا أن السعة ما لم يكن معها الحكمة، والعلم، كان إلى الفساد أقرب منها إلى الصلاح[3].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦١٤.
(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٨٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.

وصف القرآن الكريم بالحكمة

القرآن الكريم له أسماء عدة وأوصاف مختلفة بعضها ذكر في القرآن نفسه، وبعضها ورد في السنة النبوية، ومن ذلك وصفه بالحكمة في أكثر من موضع.

قال الرازي في معرض ذكره لأسماء القرآن الكريم: «ثامنها: الحكم، والحكمة، والحكيم، والمحكم.

أما الحكم فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧].

وأما الحكمة فقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر:٥].

وقوله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وأما الحكيم فقوله: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١ - ٥]، وأما المحكم فقوله: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]»[4].

وبيان معاني هذه المواضع على هذا النحو:

أولًا: وصف القرآن بالحكمة في معرض القسم به في مطلع سورة يس: قال تعالى: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، ٢/ ٢٦١.

﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس: ١ - ٥].

والحكيم هنا فسر بتفسيرات عدة أشهرها ما يلي:

١. ما ذكره الطبري أنه «المحكم بما فيه من أحكامه، وبيّنات حججه»[(١)].

٢. ما ذكره الزجاج بأن «آياته أحكمت وبيّن فيها الأمر والنهي والأمثال وأقاصيص الأمم السالفة»[(٢)].

٣. ما ذكره الرازي في موضع بأنه -أي: القرآن- ذو حكمة بمعنى أنه ناطق بها كأنه حي يتكلم[(٣)].

٤. ما ذكره الرازي في موضع آخر بأنه بمعنى «الحاكم»[(٤)].

ومما سبق ذكره نجد ما يشبه اتفاق المفسرين على أن الحكيم هنا بمعنى المحكم[(٥)].

ثانيًا: في قول الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

والمراد ذلك الذي نقصّه عليك في شأن عيسى، من الدلائل الواضحة على صحة رسالتك، وصحة القرآن الحكيم الذي يفصل بين الحق والباطل، فلا شك فيه ولا امتراء.

وأكثر المفسرين قالوا بأن الذكر الحكيم هنا هو القرآن الكريم، حيث روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنه والضحاك ومحمد بن جعفر بن الزبير، كما رواه عنهم الطبري[(٦)].

فابن عباس رضي الله عنهما فسره بأنه «الكامل في حكمته».

ومحمد بن جعفر فسره بقوله: «القاطع الفاصل الحقّ، الذي لم يخلطه الباطل من الخبر عن عيسى وعما اختلفوا فيه من أمره، فلا تقبلنّ خبرًا غيره»[(٧)].

ثالثًا: تسمية القرآن بالحكمة في قوله جل شأنه: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

حيث فسرها غير واحد في هذا الموضع بالقرآن الكريم[(٨)].

وجاء في السنة النبوية أحاديث تصف القرآن الكريم بالحكمة، أو مفسرة لوصفه بذلك منها ما يأتي:

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري٢٠/ ٤٩٠.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٧٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٥١، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٩٥.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣١٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٩٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٧٧، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٣٨، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٩/ ٦٠٠٠.
(٦) جامع البيان، الطبري٦/ ٤٦٧.
(٧) المصدر السابق.
(٨) انظر: تفسير مقاتل ٤/ ١٧٧، جامع البيان، الطبري٢٢/ ٧٥٢، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٣١٦.

ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (القرآن حكمة، فمن تعلم القرآن في شبيبته خلط بلحمه ودمه، ألا وإن النار لا تمس قلبًا وعى القرآن، ولا جسدًا اجتنب محارمه وأحل حلاله وآمن بمحكمه ووقف عند متشابهه ولم يبتدع فيه)[1].

وخلاصة ما يمكن استنباطه من وصف القرآن الكريم بالحكمة فيما مر ذكره من مواضع ما يأتي:

١. أنه وصف بذلك لكونه مستقرا فيه الحكمة وهي حقائق المعارف وما يتفرع عليها من الشرائع والعبر والمواعظ.

٢. أن الحكمة من الصفات السامية التي يتحلى بها المؤمن، وأن الرجوع إلى كتاب الله تعالى في كل أمور الإنسان هو عين الحكمة ومنبع الصواب إذ فيه الحل لكل ما يشكل عبر العصور والأزمان.

٣. أن كل ما أتى به الحكماء ويأتون، وما نطق به البلغاء ينطقون، مرده إلى كتاب الله تعالى سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوا، وحسبك من آيات الله تعالى آيات جمعت فأوعت، وبلاغة للفصحاء أعيت.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الصغرى رقم ٩٨٩ كتاب فضائل القرآن، باب التّرغيب في تعلّم القرآن وتعليمه وتلاوته، وفي شعب الإيمان رقم٢٦٩٦ فصل في تنوير موضع القرآن.

وصف الرسل والصالحين بالحكمة

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنّ الحكمة نعمة يؤتيها من يشاء من عباده، نبيًّا كان أو غير نبي، مع ما أودعه في الرسل والأنبياء خاصة من صفات فطرية مادية ومعنوية فاقوا بها غيرهم، وذلك تأهيلًا لمهتمهم السامية، ورفعًا لمكانتهم، وقد تقدم الكلام على نعمة إيتاء الحكمة، وما ورد في تفسير الحكمة في الآية.

ومن خلال تتبع آيات القرآن الكريم يجد المرء وصفًا من الله تعالى لبعض أنبيائه ورسله بالحكمة، وكذا بعض الصالحين من عباده من غير الأنبياء، وهو ما أتناوله في هذا المبحث على النحو الآتي:

أولًا: الأنبياء والرسل عليهم السلام والحكمة:

أنعم الله سبحانه وتعالى على جميع أنبيائه ورسله بنعمة الحكمة بكل جوانبها في التعلم والتعليم والممارسة والتطبيق، في الأقوال والأفعال، وهذه سمة جميع الأنبياء والرسل حتى يستطيعوا أن يقوموا بمهمتهم التي أوكلها الله تعالى لهم على أكمل وجه، وحتى تثمر دعوتهم.

والقرآن الكريم يورد مواطن إيتاء الأنبياء الحكمة على وجوه شتى، بعضها منصوص عليه بلفظ الحكمة، وبعضها بلفظ الحكم أو الفهم، أورد منها هنا أقوال من فسّرها بالفهم والعلم ونحوه من معاني الحكمة.

١. حكمة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

امتن الله تعالى على نبيه أبي الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السلام بنعمة الحكمة، حيث دعا بذلك سيدنا إبراهيم، فقال كما جاء في القرآن ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

فقد فسرت الحكمة هنا بالعلم والفهم، كما هو مروي عن مقاتل وغيره، أو: البيان على الشيء على ما توجبه الحكمة[(١)]، وهناك من فسرها بالنبوة[(٢)].

وفي موطن آخر تشير آية كريمة إلى النعم التي أنعم الله تعالى بها على آل إبراهيم عليه السلام ومنها الحكمة، وذلك قوله ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤].

وقد فسر البعض الحكمة هنا بأنها المعرفة بالدين والفقه فيه[(٣)].

وهذه الآية تشمل من آل إبراهيم سيدنا موسى وداود وسليمان عليهم وعلى نبينا

(١) انظر: تفسير مقاتل ٣/ ٢٦٩، الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ١٧٠.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٨٧، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٢١.

الصلاة والسلام[1].

ومن لطائف الآية كما ذكر بعض المفسرين: «أن هذا إلزام لليهود بما يعترفون به ولا ينكرونه وهو مسلّم عندهم، أي: ليس ما آتينا محمدًا وأصحابه من فضلنا بأبدع حتى تحسدهم اليهود على ذلك، فهم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم وهم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم وأبناء أعمامه، وفيه حسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيّين على توهم عدم استحقاق الحسود ما أوتيه من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابرًا عن كابر، وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لإظهار كمال العناية بالأمر»[2].

٢. حكمة كليم الله موسى عليه السلام.

أنعم الله على كليمه موسى عليه السلام بالنجاة من بطش فرعون وكيده، وعاش ما قدر الله تعالى له في مدين ثم عاد إلى مصر رسولًا إلى فرعون وملئه، فدار بينهما الحوار المذكور في سورة الشعراء، الذي ذكر فيه نبي الله موسى نعم الله تعالى عليها، ومن بينها الحكمة التي رزق إياها وهو في مقتبل عمره، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

قال محمد بن إسحاق: «آتاه الله حكمًا وعلمًا، أي: فقهًا في دينه ودين آبائه وعلمًا بما في دينه من شرائعه وحدوده»[3].

وفي قول الله تعالى ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

نجد أن الله تعالى قد ذكر الحكمة مع الرسالة مما يدل على أنهما متغايران، وأن الحكمة هنا ليس مقصودًا بها الرسالة، بل المقصود بها العلم والفهم، كما ذكره مقاتل بن سليمان وتبعه بعض المفسرين[4].

٣. حكمة نبي الله داود عليه السلام.

نبي الله داود عليه السلام أحد أنبياء بني إسرائيل جمع الله تعالى له الملك والنبوة في بيته له ولابنه سليمان عليه السلام، وقد كان داود جنديًّا في جيش طالوت، فامتن الله تعالى بقتل جالوت ورزقه الله تعالى بعد ذلك الملك والحكمة، فسار بها في الناس معلمًا وحاكمًا ومرشدًا.

وجاء النص الصريح على نعمة إيتاء سيدنا داود الحكمة في موضعين، والحكم الذي فسر بمعنى الحكم في موضع ثالث

(١) انظر: السراج المنير، للشربيني ١/ ٣١٠، فتح البيان، القنوجي ٣/ ١٥٠.
(٢) فتح البيان، القنوجي ٣/ ١٤٩-١٥٠.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٥٢.
(٤) انظر: تفسير مقاتل ٣/ ٢٦٠، تفسير السمرقندي ٢/ ٥٥٢، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٣٧.

من كتاب الله تعالى:

أولًا: في قصة طالوت وجالوت في قول الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

ثانيًا: في قول الله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

والقصة مبسوطة في حكمة سيدنا سليمان عليه السلام.

ثالثًا: قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:٢٠].

والحكمة المذكورة في آية ص فسرها ابن عباس رضي الله عنهما والقاضي شريح بأنها الفهم[١].

وفسرها السدي ومجاهد بأنها النبوة، وفسرها أبو العالية بأنها العلم بكتاب الله، وفسرها قتادة بأنها السنة[٢].

وأما فصل الخطاب ففسرت بتفسيرات عدة منها: أنها الشهود والبينات، وفسرت بعلم القضاء، وهذا ما روي عن القاضي شريح وعامر الشعبي وقتادة[٣].

ومنها أنها قوله في الخطبة (أما بعد)، حيث روي أن أول من قالها سيدنا داود عليه السلام.

قال ابن الخطيب: «فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرًا على التعبير على كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال، بحيث لا يخلط شيئًا بشي وبحيث يفصل كلّ مقام عن ما يخالفه، هذا معنى عامّ يتناول فصل الخصومات ويتناول الدعوة إلى الدين الحق ويتناول جميع الأقسام»[٤].

٤. حكمة نبي الله سليمان عليه السلام.

وصف القرآن نبي الله سليمان عليه السلام بما يدل على الحكمة معنويًا لا لفظيًا في هذه المواضع منها:

- واقعة الحكم في الغنم التي نفشت في الحرث:

قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٧٢، تفسير السمرقندي ٢/ ٦٠٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٦٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري٢١/ ١٧٣، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٣٩٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٧٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٢٥.

﴿فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

وهذه الآية واقعة في سياق قصة الغنم التي نفشت في الحرث، وكان داود عليه السلام ملكًا نبيًّا يحكم بين الناس فوقعت هذه النازلة، وكان سليمان عليه السلام كبيرًا يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر، فتخاصم إليه رجل له زرع، دخلت حرثه غنم رجل فأفسدت عليه، فرأى داود دفعها إلى صاحب الحرث، فخرجا على سليمان، فشكى صاحب الغنم فجاء سليمان فقال: يا نبي الله، إني أرى ما هو أرفق بالجميع، أن يأخذ صاحب الغنم الحرث يقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان، ويأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمرافقها من لبن وصوف ونسل، فإذا عاد الحرث إلى حاله، صرف كل مال صاحبه إليه، فرجعت الغنم إلى ربها والحرث إلى ربه، فقال داود: وفقت يا بني، وقضى بينهما بذلك[1].

والقصة تدل على أن الحكم كان بالاجتهاد لا بالوحي، وأنهما عليهما السلام حكما فيها معًا، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحيًا لما وقع اختلاف في الحكم، وقد أصاب سيدنا سليمان عليه السلام في حكمه، واستحق الثناء على ذلك، وأثني على أبيه داود عليه السلام كذلك، وذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

ويفيد قوله جل شأنه: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع، لا أنه أنزل عليه فيها وحيًا جديدًا ناسخًا؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أليق بالأول من الثاني، كما ترى[2].

وقدم سليمان في الذكر على داود لتوفر علمه، وتأخر ذكر داود لتشريفه بذكر كتابه، وإبرازه في جملة مستقلة له بالذكر ولكتابه، فما فاته من التقديم اللفظي حصل به التضعيف من التشريف المعنوي[3].

وهذه الآية استفاد منها بعض المفسرين أنّ تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم دليل على أنه لم يفهّم داود ذلك، ويدل على ذلك وجوه:

أولها: أن إشراكه عزّ وجلّ إياهما جميعًا في الحكم والعلم وغيره؛ حيث قال: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾، وقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ذكر ما كانا مشتركين فيه، وخص سليمان بالتفهيم؛ فدل التخصيص بالشيء أحدهما والإشراك في الآخر على أنه كان مخصوصًا به دون الآخر.

والثاني: أن هذه الأنباء إنما ذكرت لنا

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣٠٦.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٧٠.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٤١٣.

لنستفيد بها علمًا لم يكن، فلو لم يكن سليمان مخصوصًا بالفهم دون داود، لكان لا يفيدنا سوى الحكم والعلم، وكنا نعلم أنهما قد أوتيا حكمًا وعلمًا، وكانا يحكمان بالعلم، فإذا كان كذلك، فدل التخصيص بالتفهيم لأحدهما على أن الآخر لم يكن مفهما ذلك، والله أعلم.

والثالث: فيه دلالة: أن المجتهد إذا حكم وأصاب الحكم أنه إنما أصاب بتفهيم الله إياه وبتوفيقه؛ حيث أخبر أنه قد آتاهما جميعًا العلم، ثم خص سليمان بالتفهيم، والتفهيم هو فعل الله؛ حيث أضاف ذلك إلى نفسه[1].

❁ واقعة التثبت في قبول الأخبار:

وذلك في قوله تعالى ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧].

والآية فيها دليل على أن الإمام يجب عليه قبول عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان عليه السلام لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه، وإنما صار صدق الهدهد عذرًا؛ لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد، وقد قبل عمر رضي الله عنه عذر النعمان بن عدي ولم يعاقبه، ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة[2].

واقعة إرسال الكتاب إلى ملكة سبأ، وذلك في قول الله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨].

ففي الآية أمر للهدهد بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريبًا حتى ترى مراجعتهم. وقال ابن زيد: أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه؛ أي: ألقه وارجع. ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨][3].

❁ واقعة الإتيان بعرش ملكة سبأ وتغيير معالمه، واستعراض عظمة الملك أمامها لاختبارها:

وذلك في قول الله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١].

وقوله بعد ذلك بآيتين: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

وهذا دليل على إرادة نبي الله سليمان عليه السلام إبراز نعمة الله تعالى عليه، وإتيانه من القدرة والملك ما يأتي به بعرشها

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٣٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٦.

(٣) المصدر السابق ١٣/ ١٢٧.

في لمح البصر، ثم تنكيره لها بهذه الصورة لينظر هل تقبل دعوة الهدى أم تعاند؟، ولقد كانت الأولى حيث هداها الله تعالى للإيمان.

٥. حكمة نبي الله يوسف عليه السلام.

ذكر الله تعالى نعمته على نبيه يوسف عليه السلام وهي إيتاء العلم والحكمة وهو في مقتبل عمره، فقال جل شأنه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢].

فقد فسر الحكم هنا بالحكمة، قال الزجاج: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ أي جعلناه حكيمًا عالمًا، وليس كل عالم حكيمًا، الحكيم العالم المستعمل علمه، الممتنع من استعمال ما يجهّل فيه»[(١)].

وفسر مجاهد وغيره حكمة سيدنا يوسف عليه السلام بأنها العلم والفهم أو العقل والعلم، وذلك قبل أن ينعم الله تعالى عليه بالنبوة[(٢)].

وفسرها عبد الرحمن بن زيد بأنها تأويل الكلام، العلم والحلم، على ما هو معروف من السورة من أن يوسف عليه السلام كان أعبر الناس[(٣)].

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٩٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٢٠٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري١٣/ ١٦، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٠٣.

ويمكن إبراز بعض جوانب حكمة سيدنا يوسف عليه السلام في العناصر الآتية:

- حكمته عليه السلام في امتناعه عن المعصية وعدم استجابته لامرأة العزيز، خوفًا من الله تعالى، وحفظًا لنعمة التربية التي رباها إياه عزيز مصر.

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: ٢٣].

وهذا من تمام عصمته، وكمال حكمته عليه السلام، فقد ترك المعصية خوفًا من الله تعالى، ثم صيانة للمعروف الذي أسداه إليه العزيز.

- حكمته عليه السلام في اختيار بلية السجن على بلية الاستجابة لكيد النساء، لما في الاستجابة لهن من الوقوع في الفحشاء ومعصية الله تعالى.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: ٣٣].

وهذا من صعب الابتلاء الذي وقع فيه سيدنا يوسف عليه السلام، كما يفيده كلام الماوردي: «الاختبار مقرون بالاختيار، ولو تمنّي العافية بدل ما كان يدعى إليه لعلّه كان يعافى، ولكنه لما قال: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا

﴿يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ طولب بصدق ما قال، ويقال: إن يوسف عليه السلام نطق من عين التوحيد حيث قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فقد علم أن نجاته في أن يصرف سبحانه البلاء عنه لا بتكلّفه ولا بتجنبه»[1].

❁ حكمته عليه السلام في دعوة رفقائه في السجن إلى الله تعالى برفق ولين، واختيار الوقت المناسب لدعوتهم حين عرضوا عليه الرؤيا، وذلك في الآيات (٣٧-٤٠).

ومن ذلك ما جاء في قول الله تعالى ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

وهنا مواعظ وعبر في دعوة سيدنا يوسف عليه السلام استفاد منها الدعاة من بعده، فالداعية الحكيم هو من ينتهز الفرصة السانحة لنشر دعوته، ويتفهم حال المدعوين ومدى تأهلهم لاستقبال دعوته، ويحتج عليهم بالبراهين الساطعة، وهذا باب واسع معروف في منهج الدعوة إلى الله تعالى.

❁ حكمته عليه السلام في عدم استعجال الخروج من السجن حين جاءه رسول الملك حتى يستبين وجه الحق وتظهر براءته.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: ٥٠].

ولقد كان عدم استعجال سيدنا يوسف عليه السلام من العجائب، ولكنه عاد عليه بالخير العاجل، وهذا عكس ما حصل في طلب الإمارة، فإن كثيرًا من المفسرين ذكر أنه لما لم يتعجل في الخروج من السجن، آتاه العفو سريعًا، ولما طلب الإمارة -مع كونه أهلًا لها، فإنها تأخرت فترة، وكله بقدر الله تعالى الذي يدبر كل أمر، وقيل: إن سبب التأخير أنه لم يقل: إن شاء الله[2].

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رحم اللّه أخي يوسف، لو لبثتُ في السّجن، ثمّ جاءني الدّاعي لأسرعت)[3].

قال ابن عادل الدمشقي نقلًا عن ابن الخطيب: «وهذا من العجائب؛ لأنه لما تأبّى

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ١٨٣.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٢٣٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢١١.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد رقم ٤١٩، ص٦٨. قال السيوطي في الفتح الكبير ٢/ ١٢٥: إنه من مراسيل الحسن.
وحَسَّنَ العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤٢٧ بعض طرقه، ونقل عن المناوي تحسين بعض طرقه كذلك.

عن الخروج من السّجن، سهّل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه، ولما سارع في ذكر هذا الالتماس، أخّر الله ذلك المطلوب عنه، وهذا يدلّ على أنّ ترك التّصرف والتفويض إلى الله تعالى أولى»[1].

❁ حكمته عليه السلام في تأويل رؤيا الملك، وتدبير أمور مصر في سني المجاعة على غرار تأويله.

قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٦-٤٩].

❁ حكمته عليه السلام في طلب الإمارة حيث لم يكن بمصر حينئذ من هو أهل لها.

قال تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥].

وفي هذا دليل على جواز أن يخطب الإنسان عملًا يكون له أهلًا وهو بحقوقه وشروطه قائم[2].

ولا يخالف هذا ما ورد في حديث عبد الرحمن بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (يا عبد الرّحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنّك إن أوتيتها عن مسألةٍ وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألةٍ أعنت عليها، وإذا حلفت على يمينٍ، فرأيت غيرها خيرًا منها، فكفّر عن يمينك وأت الّذي هو خيرٌ)[3].

لأن سؤال سيدنا يوسف للإمارة أجاب عنه العلماء بأجوبة ذكرها الإمام القرطبي:

منها: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره.

ومنها: أنه لم يقل: إني حسيب كريم، ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال على الرغم من توفر الحسب والنسب والجمال فيه.

ومنها: أنه إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ١٣٦.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٥٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب منه، رقم ٦٦٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب: ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها، أن يأتي الّذي هو خيرٌ، ويكفّر عن يمينه، رقم ١٦٥٢.

أَتْقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

ومنها: أنه رأى ذلك فرضًا متعينًا عليه، لأنه لم يكن هنالك غيره[١].

والولاية لا تذم إذا كان المتولي لها يقوم بما يقدر عليه من إقامة الشرع، وإيصال الحقوق إلى أهلها، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أهلًا، وأعظم كفاءة من غيره، وإنما المذموم إذا لم يكن فيه كفاءة، أو كان موجودًا من هو أمثل منه أو مثله، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، بل أراد الترؤس والمأكلة المالية[٢].

ومن لطائف الآية ما يأتي:

أ. ما ذكره ابن عطية أن يوسف عليه السلام -بحكمته -قد فهم من الملك أنه عزم على تصريفه والاستعانة بنظره في الملك، فألقى يده في الفصل الذي تمكنه فيه المعدلة ويترتب له الإحسان إلى من يجب ووضع الحق على أهله وعند أهله[٣].

ب. ما ذكره البيضاوي أن فيها دليل على جواز طلب التولية وإظهار أنه مستعد لها والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به[٤].

ج. أن وصف سيدنا يوسف نفسه بأنه (حفيظ عليم) فيه معان عدة ذكرها المفسرون؛ منها: أنه حفيظ بتقدير أمور الخزائن أو البلاد، عليمٌ بساعة الجوع حين يقع، ومنها: أنه يقصد حفيظ لما وليتني عليم بجميع ألسن الغرباء الّذين يأتونك، ومنها: أن المعنى حافظ لما استودعتني، عالم بما وليتني، ومنها أنه حافظ للأنساب عالم بالألسن، أي: اللغات[٥].

د. أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من الصفات الكاملة، من العلم وغيره، إذا كان في ذلك مصلحة وسلم من الكذب، ولم يقصد به الرياء، لقول يوسف عليه السلام هذا[٦].

❁ حكمته عليه السلام في حواره مع إخوته وهو يذكرهم بما فعلوه معه تلميحًا لا تصريحًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢١٦-٢١٧.
(٢) تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٢٨٢.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٥٥.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٦٨
(٥) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٣٤٠، جامع البيان، الطبري١٦/ ١٤٩.
(٦) تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٢٨٢.

٨٩-٩٠].

- حكمته عليه السلام في تدبير حيلة استبقاء أخيه معه، وهي الواردة في قصة الصاع وإخفائه في الطعام، وما تلى ذلك من أحداث، وذلك في الآيات (من ٧٠-٨٠).

٦. حكمة نبي الله لوط عليه السلام.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

حيث فسر البعض الحكم هنا بالحكمة والعلم بالله تعالى[(١)].

٧. حكمة نبي الله عيسى عليه السلام.

وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٤٨].

وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:١١٠].

والحكمة هنا فسرت بأنها «تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق؛ لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ومجموعهما هو المسمى بالحكمة»[(٢)].

(١) التفسير المظهري، محمد ثناء الله ٦/ ٢١٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٦.

٨. حكمة نبي الله يحيى عليه السلام.

وذلك في قول الله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

فقد فسر مقاتل ومعمر بن راشد وأبو العالية وغيرهم الحكمة هنا بأنها العلم والفهم، حيث أعطي الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال، حتى روي أنه أوتي الحكمة وهو ابن ثلاث سنين، وكان لا يلعب مع الصبيان، ويقول: ما للعب خلقنا[(٣)].

٩. حكمة عشرة من الأنبياء ورد ذكرهم إجمالًا.

وهذا ما جاء في آية (وتلك حجتنا) وما تلاها في سورة الأنعام حيث ذكر الله تعالى عشرة من الأنبياء هم: نوح وإسحاق ويعقوب وأيوب وهارون وزكريا وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ

(٣) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٦٢٢، جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٥٥، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ١٤٠٠.

﴿وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام:٨٣- ٨٩].

حيث ذكر من تفسيرات الحكم هنا أنها «العلم والفقه والفهم»[(١)].

١٠. حكمة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا جاء منصوصًا عليه في دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام، واستجابة الله تعالى لهذه الدعوة وامتنانه على الناس بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فكانت الاستجابة من الله تعالى لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام بأن أرسل نبيه محمد صلى الله عليه وسلم خاتمًا للإنبياء والمرسلين، وآتاه ما لم يؤت أحد من الأنبياء قبله، وبين فضل نبوته على الناس، فقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤][(٢)].

قال ابن وهب: قلت لمالك: ما الحكمة؟ قال: المعرفة بالدين، والفقه في الدين، والاتباع له[(٣)].

وقال ابن زيد: الحكمة: الدين الذي لا يعرفونه إلا به صلى الله عليه وسلم، يعلمهم إياها، والحكمة: العقل في الدين، والحكمة: شيء يجعله الله في القلب، ينور له به[(٤)].

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤/ ١٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٩٩.

(٢) انظر: معجم الأعلام والموضوعات في القرآن، عبدالصبور مرزوق ٢/ ٥٥٣-٥٥٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري٣/ ٨٧.

(٤) انظر: المصدر السابق.

ثانيًا: الصالحون والحكمة:

أنعم الله تعالى على بعض عباده الصالحين بالحكمة، ويعد لقمان عليه السلام أشهر حكيم عبر تاريخ البشرية، حيث نص القرآن الكريم صراحة على إتيان الله تعالى الحكمة له كنعمة من النعم التي يؤتيها الله تعالى من يشاء من عباده، فقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢].

والحكمة الواردة في الآية جاء في تفسيرها عن مجاهد وقتادة وغيرهما أنها «الفقه والعقل والإصابة في القول في غير نبوّة»[١].

ولا مجال للحديث هنا عن صفة لقمان عليه السلام ونسبه والزمن الذي عاش فيه، فالذي يعنينا هنا حكمته التي صرح بها القرآن الكريم والتي تعددت جوانبها على حد قول بعض المفسرين: «وحكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال، وقد عني بها أهل التربية وأهل الخير، وذكر القرآن منها ما في هذه السورة، وذكر منها مالك في «الموطأ» بلاغين في كتاب «الجامع» وذكر حكمة له في كتاب «جامع العتبية» وذكر منها أحمد بن حنبل في «مسنده» ولا نعرف كتابًا جمع حكمة لقمان»[٢].

وقد وردت آثار كثيرة عن حكمة لقمان وصفتها وكيف استعملها، وطائفة منها أقوالًا وأفعالًا، ما لا يتسع المقام هنا لذكره تفصيلًا، ويكفي إيراد بعضه.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه ذكر لقمان الحكيم فقال: «ما أوتي ما أوتي عن أهل، ولا مال، ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلًا صمصامة[٣] سكيتًا، طويل التفكير عميق النظر، لم ينم نهارًا قط ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك، كان لا يعيد منطقًا نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكماء لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي»[٤].

وهل حكمة لقمان فطرية أم مكتسبة؟

الذي نص عليه القرآن الكريم أن حكمة لقمان عليه السلام هي نعمة أنعم الله تعالى عليه بها، ولكن هذا لا يمنع أن من تمام نعمة الله تعالى عليه أن يوفقه لاكتساب شيء من

(١) انظر: المصدر السابق ٢٠/ ١٣٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٠.

(٣) الصمصامة: اسم للسيف القاطع، وللرجل القوي.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٩٨ رقم١٧٥٣٧، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٥١٢-٥١٣.

الحكمة من خلال التجارب والأحوال، والتمسك بالطاعات والبعد عن المعاصي، ويكون هذا من إيتاء الحكمة بإيتاء أسباب نيلها.

يؤيد هذا ما روي أن لقمان عليه السلام قيل له: «بم نلت هذه الحكم، وقد كنت راعيًا؟ فقال: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني»[(١)].

وروي أيضًا عنه قوله: «إنّي تعلّمت الحكمة من الحمقى، والأدب ممّن ليس له أدبٌ فإنّي كلّما رأيت منهم فعلًا مخالفًا لطبعي وقبيحًا في منظري تعوّدت المخالفة»[(٢)].

وحكي عنه أنّه قال: إنّي تعلّمت الحكمة من العميان، فإنّهم لا يضعون أقدامهم قبل الفحص، فإنّ وجدوا فيه تمكينًا يضعون ويمشون، وإلّا فيتركون ويطلبون جهةً أخرى فيها تمكينٌ؛ فلذا لا أفعل شيئًا بلا تأمّل ما فيه، وفي عاقبته[(٣)].

ثالثًا: معالم الحكمة عند الأنبياء والصالحين:

من خلال ما تقدم ذكره في المبحث السابق يمكن هنا إجمال معالم الحكمة عند الأنبياء الصالحين على النحو الآتي:

١ . من معالم الحكمة عند الأنبياء:

١. مخاطبة الأنبياء أممهم على قدر عقولهم، ومراعاة مقتضى أحوالهم على اختلاف أقدارهم وأعمارهم.

٢. الترفق واللين في مخاطبة الولاة المعاندين ومحاورتهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ومن أمثلة ذلك حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمروذ، وحوار موسى عليه السلام مع فرعون في سورة الشعراء وغيرها من السور.

٣. اللين في مخاطبة الأهل والأقارب كالوالدين والأبناء، والحرص على استجابتهم للدعوة إنقاذًا لهم من النار، ومن أمثلة ذلك حوار سيدنا نوح مع ابنه في سورة هود وحوار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه في سورة مريم.

٤. استعمال الحجج القوية، والبراهين الظاهرة في دعوة الأنبياء لقومهم، لإقامة الحجة عليهم وإقناعهم باتباع الأنبياء، وذلك واضح في حوارات جميع الأنبياء والتي ورد طرف منها في

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد ص ٤٩، والطبري في تفسيره ٢١/ ٦٧، وابن أبي شيبة في مصنفه رقم٧٣٤٢٥/ ٧٤، باب كلام لقمان عليه السلام.

(٢) انظر: بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية، الخادمي ٢/ ٢٩٤.

(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ٦٥.

سور الأعراف وهود والشعراء.

٥. تباين أساليب الأنبياء والمرسلين في دعوة أتباعهم، واختيار كل نبي ما يناسب قومه من الطرق، وإن كان الجميع يتفقون على جعل الحكمة أساسًا واضحًا، من أسس الدعوة، وطريقًا من طرقها.

٢. معالم الحكمة عند الصالحين:

١. استعمال الحكماء الصالحين الحكمة فيما وضعت له من إرشاد الناس وتعليمهم بالقول والفعل، وذلك من باب شكر المنعم جل وعلا.

٢. سير الحكماء الصالحين في الناس بالحسنى، بحيث لا يرتكبوا قبيحًا من الأفعال، ولا يصدر عنهم خبيثًا من الأقوال تؤثر عنهم.

٣. حرص الحكماء من الدعاة المخلصين على مخاطبة الناس على قدر عقولهم، ومراعاة أحوالهم، وضبط ذلك الخطاب بضابط الحكمة، ويفعله بما يناسب ظروف وأحوال المخاطبين، وسير السلف الصالح في هذا الشأن كثيرة ناصعة البياض.

مجالات الحكمة

الحكمة مطلوبة في كل شيء قولًا وعملًا، وأي مجال تدخله الحكمة يكون صالحًا، ويكتب له النجاح والفلاح، وهذه أبرز مجالات الحاجة إلى الحكمة:

أولًا: الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى:

الدعوة إلى الله تعالى من المهام السامية، حيث إنها في المقام الأول وظيفة الإنبياء والرسل، ثم وظيفة فئة من أتباعهم وهم العلماء والمصلحون، وإمامهم في هذا سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه قول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥].

وقد فسرت الحكمة هنا بأنها كتاب الله تعالى، والموعظة الحسنة، هي العبر التي هي حجة عليهم مما ذكرهم به من الآيات في كتابه، وفسرت الحكمة أيضًا بأنها النبوة، والموعظة بأنها القرآن[(١)].

وفسر الرازي (الحكمة) بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضح

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٢٢٣، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤١١٥.

للحق المزيل للشبهة و«الموعظة الحسنة»، وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها[1].

ويمكن القول بأن الحكمة في الدعوة تكون بوضع الدعوة في موضعها، ومخاطبة كل واحد بما يناسب حاله ويليق به، إذ إن هذا أقرب لحصول المقصود منه، ولا شك أن الحكمة في الدعوة لها أهمية كبيرة، وذلك لأن «الحكمة إذا اقترنت بالدعوة فإنها تقوي الأمل واليقين، وترتفع بالمدعوين إلى مستوى الشعور بالمسئولية والتكليف، وإذا ما تأكد فيها هذا الشعور فسوف تتغير طباعهم وتعتدل مسالكهم ويصح توجيههم، فحق على الداعي إلى الله أن يعمل على إيقاظ هذا الشعور بالتي هي أحسن»[2].

أساليب الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى:

من أبرز مقومات الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى ما يلي:

١. معرفة طبائع الناس، وطبقات المدعوين.

وذلك لأن الناس ليسوا جميعًا على شاكلة واحدة، بل هم مختلفون في الميول والأهواء، والعقل والذكاء، والشدة واللين، وبناء عليه فإنه من مقومات الحكمة أن يعي الداعية ذلك جيدًا حتى تثمر دعوته وتؤتي أكلها[3].

ويؤيد ذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه «ما أنت بمحدّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلّا كان لبعضهم فتنةً»[4].

وقول علي رضي الله عنه «حدّثوا النّاس، بما يعرفون أتحبّون أن يكذّب اللّه ورسوله»[5].

ودلالتهما واضحة على ضرورة مراعاة حال المدعو، حتى لا تؤدي الدعوة إلى فتنة أو نسبة الكذب لله تعالى أو لرسوله صلى الله عليه وسلم.

٢. النظر في الظروف الزمانية والمكانية.

من حكمة الداعية تخير الأوقات وانتهاز المناسبات، بحيث تقع دعوته في الموقع الصحيح، وهذا معلم كبير ومؤثر من معالم الحكمة وتلمسها، فلا يلقي المرء موعظته إلا في مكان مناسب، وفي وقت يحسن الإلقاء فيه، أما إذا كان المكان والزمان غير مناسبين، أو كان الناس عنه منصرفين، وعن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٦٤٤.
(٢) انظر: مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله، صالح الحميد ص٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٢٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، في المقدمة ١/ ١١.
(٥) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب العلم، باب من خصّ بالعلم قومًا دون قومٍ، كراهية أن لا يفهموا.

حديثه غير راغبين فلا يتلكم[1].

ويؤيد هذا حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال:(كان النّبيّ صلى الله عليه وسلم (يتخوّلنا بالموعظة في الأيّام، كراهة السّآمة علينا)[2].

وفي رواية للبخاري: عن أبي وائلٍ، قال: كان عبد اللّه يذكّر النّاس في كلّ خميسٍ، فقال له رجلٌ: يا أبا عبد الرّحمن لوددت أنّك ذكّرتنا كلّ يوم؟ قال: أما إنّه يمنعني من ذلك أنّي أكره أنْ أملّكم، وإنّي أتخوّلكم بالموعظة، كما كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يتخوّلنا بها، مخافة السّآمة علينا»[3].

٣. التلطف في الدعوة بالقول الحسن والأسلوب اللين.

القول الحسن إذا أحكم صاحب الدعوة قوله وسدد لفظه، وألان جانبه للناس فقد أوتي من الحكمة بابًا عظيمًا، يقول الله عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

ويقول طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة وأنا رجل في حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ؟ فقال: لا تفعل. يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

يقول عطاء: فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي[4].

وإذا كان المدعو ذا قرابة أو ولاية أو سلطة أو سطوة على الداعية، فينبغي أن يترفق الداعية به، والأمثلة في هذا القرآن منها دعوة سيدنا إبراهيم لأبيه والتي وردت مبسوطة في قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٥].

والآيات واضحة الدلالة على مدى حكمة سيدنا إبراهيم عليه السلام واستعماله التلطف والتودد مع أبيه في الحوار على الرغم من عناد الأب وكفره، ومع ذلك فقد حفظ خليل الرحمن لأبيه مودة الأبوة ومكانتها، ولم يأل جهدًا في دعوته، بل والاستغفار له.

(١) انظر: مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله، الحميد ص٣١، أدب الموعظة، محمد بن إبراهيم الحمد ص٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يتخوّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا رقم٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الاقتصاد في الموعظة رقم٢٨٢١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب: من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة، رقم٧٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٢/ ١٦.

ومنها دعوة موسى وهارون عليه السلام لعدو الله فرعون، حيث أمرهما القول بالقول اللين في قول الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

والقصد من القول اللين ومعناه أمور عدة، منها: أن لا يبقى له حجة، ولا يقبل له معذرة، ومنها: أن ذلك لرعاية حقّ تربية فرعون لموسى فالوالد أولى بالرّفق[(١)].

ومن أحكام الآية الكريمة -كما ذكره الإمام القرطبي- أنها «دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة، وضمنت له العصمة، ألا تراه قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه:٤٤].

وقال: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

فكيف بنا فنحن أولى بذلك. وحينئذ يحصل الآمر أو الناهي على مرغوبة، ويظفر بمطلوبه، وهذا واضح»[(٢)].

ثانيًا: الحكمة في التعليم:

التعليم من المواطن التي تتطلب قدرًا كبيرًا من الحكمة، وذلك لأنه مهمة تنتقل بالمرء من مرحلة الجهل إلى مرحلة العلم، وكلا المرحلتين يختلف عن الآخر، فيتطلب لكل حالة حكمتها، والتعليم لا يستغني عنه المجتمع بكل فئاته، ولهذا يستلزم الأمر أن يكون المعلّم على قدر كبير من الحكمة التي تعينه على اداء مهمته.

ولو رجعنا إلى كتاب الله تعالى لوجدنا أمثلة كثيرة تبرهن على الحكمة في التعليم والتعلم، ومن ذلك قصة موسى والخضر.

وهذه القصة تفيض عبرًا وعظات فيما يتعلق بشأن التعليم وغيره.

والقصة اشتملت كما هو معروف على الآيات (٦٠-٨٢) من سورة الكهف.

ومن ملامح الحكمة في القصة ما يأتي:

- أنّ الخضر كان يبني أحكامه على الحقائق والأسرار، حيث ذكر مبررات فعله بعد فراغه منها جميعًا[(٣)].
- أنه استعمل الحكمة في كل أموره، حيث «أسند الإرادة في قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ إلى نفسه لأنه المباشر للتعييب، وثانيًا في قوله: ﴿فَأَرَدۡنَآ﴾ إلى الله وإلى نفسه، لأنّ التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله تعالى بدله، وثالثًا في قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ إلى الله وحده لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين، أو لأن الأول في نفسه شرّ والثالث خير والثاني ممتزج، أو لأنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه، ولما ذكر القتل

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢٣٤، نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٢٩٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٩٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٠٢.

عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهًا على أنه من العظماء في علوم الحكمة، فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى لأنّ التكفل بصلاح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا لله تعالى»[1].

- أنّ الحكيم المحقق هو الذي يبني أمره على الحقائق لا على الظاهر، فإذا رأيت ما يكرهه طبعك وينفر عنه عقلك فاعلم أن تحته أسرارًا خفية وحكمًا بالغة، وأن حكمته ورحمته اقتضت ذلك[2].

ومن ملامح الحكمة في التعليم كذلك ما يأتي:

- أن لا يشق المعلم أو الفقيه على الناس في الأحكام ويخفف على نفسه، فقد قال رويم: «من حكم الحكيم أن يوسع على إخوانه في الأحكام ويضيق على نفسه فيها؛ فإن التوسعة عليهم اتباع العلم والتضييق على نفسه من حكم الورع»[3].
- مخاطبة الناس على قدر عقولهم، «فالواجب على الحكيم والعالم النحرير أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما قال وما فعل، فقد كان عليه الصلاة والسلام يخاطب الناس على قدر عقولهم، ومواقفه في ذلك لا تحصى.

ويؤيد ذلك ما تقدم ذكره من قول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلّا كان لبعضهم فتنةً»[4].

وقيل لبعض الحكماء: «ما بالك لا تطلع أحدًا على حكمة يطلبها منك، فقال: اقتداءً بالباري جلّ وعلا حيث قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]»[5].

ثالثًا: الحكمة في التعامل مع الخلق:

يتطلب التعامل مع الناس قدرًا من الحكمة تناسب كل إنسان، وتناسب كل موقف من المواقف، ومن أبرز ملامح الحكمة في التعامل مع الناس حسن الخلق معهم.

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

وفي معنى الحسن هنا أقوال طيبة للمفسرين، منها: قول الحسن أن المراد به: لين القول، من الأدب الحسن الجميل والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه،

(١) السراج المنير، الشربيني ٢/ ٣٩٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٠٢.
(٣) الرسالة القشيرية، ١/ ٨٥.
(٤) سبق تخريجه قريبًا.
(٥) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهاني ص١٨٠.

ومنها: قول أبي العالية: إنه المعروف، ومنها: قول الماوردي: إن المعنى: خالقوا الناس بخلق حسن[(١)].

ولا مانع من إرادة كل تلك المعاني، وذلك لأن الحسن يشملها جميعًا، والناس يرضيها حسن التعامل، ويتأتى بمعاملة الناس ما لا يتأتى غيرها.

وفي حديث أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتّق اللّه حيثما كنت، وأتبع السّيّئة الحسنة تمحها، وخالق النّاس بخلقٍ حسنٍ)[(٢)].

قال الأحوذي في معنى (وخالق النّاس بخلقٍ حسنٍ): «أي: تكلف معاشرتهم بالمجاملة في المعاملة، وغيرها من نحو طلاقة وجه، وخفض جانب، وتلطف وإيناس، وبذل ندى، وتحمل أذى، فإن فاعل ذلك يرجى له في الدنيا الفلاح، وفي الآخرة الفوز بالنجاة والنجاح»[(٣)].

آثار الحكمة

الحكمة سمة من سمات الأنبياء والصالحين والعلماء العاملين، وهي نعمة من الله تعالى يؤتيها من يشاء، وتحقق للمرء فوائد وتعود عليه بآثار طيبة أبرزها ما يأتي:

١ . تحصيل الخير الكثير.

أخبر الله تعالى في كتابه العزيز أن من رزق الحكمة فقد رزق خيرًا كثيرًا، فقال جل شأنه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[البقرة: ٢٦٩].

والخير الكثير مفسر لدى العلماء تبعًا لتفسيرهم للحكمة، فمن رأى أنها القرآن فسّر الخير الكثير بما يترتب على حفظ القرآن وفهمه من علوم ومعارف، وكذا من فسرها بالنبوة أو فسرها بالسنة على نحو ما تقدم ذكره في معاني الحكمة، ومهما أوتي المرء من الحكمة ومن العلوم والمعارف فهو وإن كان كثيرًا في مقاييس البشر لكنه قليل إذا نظرنا إلى علم الله تعالى.

وقد روي في هذا الشأن عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «قالت اليهود: يا محمد تزعم أنا قد أوتينا الحكمة، وفي كتابك: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ثمّ يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩٦، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٥٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث أبي ذر الغفاري، ٣٥/ ٢٨٤، رقم ٢١٣٥٤، والترمذي في كتاب البر، باب معاشرة الناس، رقم ١٩٨٧.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٦/ ١٠٤.

﴿قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فكيف يكون هذا؟ فأنزل الله تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] حِكَمَه وعجائبه»[١].

وإذا جرينا على تفسير الحكمة بأنها القرآن على نحو ما تقدم في معانيها، فيكون «من أوتي القرآن أوتي خيرًا كثيرًا، أوتي صحة في جسم وطهارة في نفس، وكمالًا في عقل، وسعة في مال، وعزة في تواضع، وشدة في رحمة، ورسوخًا في علم، وصدقًا في قول»[٢].

ومن الخير المتحصل من الحكمة أنها سبب من أسباب السعادة، فالسعادة تكمن في المقام الأول في قوى النفس، أي: في اتصافها بالفضائل والمكرمات.

يقول ابن مسكويه فيما يحكيه عن حكماء الإغريق واليونان: «لما قسّموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها في أول الكتاب، (وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة)، وأجمعوا على أن هذه الفضائل هي كافية في السعادة ولا يحتاج معها إلى غيرها من فضائل البدن ولا ما هو خارج البدن، فإن الإنسان إذا حصل تلك الفضائل لم يضره في سعادته أن يكون سقيما ناقص الأعضاء مبتلي بجميع أمراض البدن، اللهم إلا أن يلحق النفس منها مضرة في خاص أفعالها مثل فساد العقل ورداءة الذهن وما أشبهها. وأما الفقر والخمول وسقوط الحال وسائر الأشياء الخارجة عنها فليست عندهم بقادحة في السعادة ألبتة»[٣].

٢. إصابة الحق.

من آثار الحكمة توفيق الله تعالى صاحبها إلى إصابة الحق في أقواله وأفعاله، وذلك لأن حكمته ترشده إلى حسن الفعال، وصحيح الأقوال، ولهذا كان ما يصدر عن الحكماء من أفعال وأقوال تراثًا تتناقله الأجيال، وعبرا تتردد عبر الأزمنة.

ويستفاد أثر الحكمة في إصابة الحق قولا وعملا من قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فإنه تعالى «لما ذكر أحوال المنفقين للأموال فيما سبق من الآيات، وأن الله

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٢٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٠٢، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٢٢.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبد العزيز الشاذلي ص١٩١.

(٣) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه ص٩٢، وهذا هو المنهج الذي أخذ به حجة الإسلام الغزالي في حديثه عن أمهات الفضائل حيث جعلها أربعة الحكمة والشجاعة والعدل والعفة.
انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٥٥، ٤/ ٤٢٥، إلا أنه في الموضع الثاني نسبها للإمام الشافعي رحمه الله.

أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيرًا من خلقه، والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات»[(١)].

وقال أحد المعاصرين مبينًا ثمرة الحكمة في إصابة الحق في القول والعمل: «الحكمة كما قال الجمهور: العلم والفقه والقرآن، فهي لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، وذلك يرشد إلى تمييز الحقائق من الأوهام، والتفرقة بين الوسواس والإلهام، وآلة الحكمة: العقل، فمن عرف ما في القرآن من أحكام وأسرار، وأدرك بسلامة عقله ما في الإنفاق من فوائد تعود على الأمة بالخير وعلى المنفق بالثواب الجزيل، لم يتأثر بوساوس الشيطان، ولم يتردد في البذل والإنفاق في سبيل الله»[(٢)].

ومن فوائد الحكمة كذلك أنّها تدلّ على المعرفة بالله عزّ وجلّ مع نفاذ البصيرة وتهذيب النّفس وتحقيق الحقّ للعمل بمقتضاه والبعد عمّا سواه[(٣)].

٣. صيانة العقل من الشطط والسفه.

الحكمة سمة عالية، وهدية غالية تصان بها العقول، وتحفظ بها النفوس من السفه والشطط، والطيش والهوى -أعني عقول ونفوس المتصفين بها- ولهذا اشتملت الحكمة كما ذكره بعض العلماء على: الذكاء والذكر والتعقل وسرعة الفهم وقوته وصفاء الذهن وسهولة التعلم، وبهذه الأشياء يكون حسن الاستعداد للحكمة[(٤)].

والناظر في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن العقل يجد أنها تعلي من شأن العقل كثيرًا، وتبين مكانته، وتحث على التفكير في كل شيء التفكير في خلق الله تعالى، والتفكير في عواقب الأمور قبل الإقدام على شيء منها.

والحكيم يستعمل حكمته في كل شيء، فيصون عقله من سوء التفكير، وعليه يصون نفسه من سوء الصنيع، فلا تعتري تصرفاته سفاهة ولا يطرأ عليها شطط أو خلل.

٤. الذكر الحسن.

من آثار الحكمة حسن الذكر بين الناس في حياة الإنسان وبعد مماته، ولذلك فإن صاحب الحكمة يلبس صاحبها تاج الكرامة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥٧.
(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٣/ ٦٤.
(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم، ٥/ ١٧٠٥.
(٤) انظر: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه ص ٢٧.

في الدّنيا والآخرة، وينفع الله تعالى بها طلّاب العلم ومريدي الخير.

وليس أدل على ذلك من سيدنا لقمان عليه السلام الذي ذكره الله تعالى في كتاب الله العزيز في آيات تتلى ويتعبد بها، في سورة تحمل اسمه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢].

فحكمته عليه السلام جعلت منه رجلًا ذا منزلة كبيرة بين الناس حيث بلغ الفضل عليهم بالوعظ والتعليم والهدي والإرشاد، كما أشار إليه الرازي في تفسيره: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرًا في نفسه وحين جعلناه واعظًا لغيره، وهذا لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملًا في نفسه ومكملًا لغيره.

فقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ [لقمان: ١٣].

إشارة إلى التكميل، وفي هذا لطيفة وهي أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب، فإن إرشاد الولد أمر معتاد، وأما تحمل المشقة في تعليم الأباعد فلا، ثم إنه في الوعظ بدأ بالأهم، وهو المنع من الإشراك[1].

ومن آثارها في الشأن كذلك أن صاحبها يكون كالغيث حيثما حلّ نفع، وأينما وضع أفاد، فيتعلّم منه الكبير والصّغير، ويكون مصدر خير بإذن الله[2].

والحكمة ترفع الإنسان درجات وتشرّفه، وتزيد من مكانته بين النّاس، فقد روي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ الحكمة تزيد الشّريف شرفًا، وترفع العبد المملوك حتّى تجلسه مجالس الملوك)[3].

وقد روي عن عبيد اللّه بن عمر بن عبد الوهّاب بن محمّدٍ المكّيّ قال: «قال لقمان لابنه: يا بنيّ، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإنّ اللّه تبارك وتعالى ليحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السّماء»[4].

فكون الإنسان ممدوح الخلال، مأثور المحامد، يعتمد على مدى استقامته على

(١) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١١٩.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم، الحكمة ٥/ ١٧٠٥.

(٣) أخرجه الماوردي في أدب الدنيا والدين ص٤١، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٧٣، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٨٤ رقم٧١.
وقد ضعفه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/ ٢٣، وحكى أنه من قول أنس والحسن وليس مرفوعًا.

(٤) أخرجه أحمد في الزهد، رقم٥٥٢، ص٨٩، وابن المبارك في الزهد والرقائق رقم١٣٨٧، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله/ رقم ٦٧٤.

دين الله تعالى ظاهرًا وباطنًا، وقيامه بالواجبات الدينية والدنيوية، والتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، وهذا من الحكمة التي لا ينبغي أن يغفل عنها المرء، قال ابن القيم: «فإن أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب»[1].

٥. التوفيق في الإصلاح بين الناس.

من آثار الحكمة توفيق الله تعالى صاحبها في الإصلاح بين الناس، ولهذا نجد القرآن الكريم يشير في قضية الصلح بين الزوجين إلى ضرورة توفر النية الحسنة في الصلح سواء كانت النية من طرفي النزاع أو من الحكم القاشم بالصلح.

قال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥].

وأكثر المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ يعني: الحكمين، حيث روي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم[2]، ولا يتحقق الصلح على إيديهما إلا إذا اتصفا بالحكمة، وذلك لأنهما يتدخلان بين شخصين بينهما من الخصوصية والخفاء والستر ما ليس بين غيرهما، لما للحياة الزوجية من خصوصيتها المعروفة.

وحكمتهما تظهر في تقديري في الأمور التالية:

- إخلاص النية في الصلح، بحيث يحققه الله تعالى على أيديهما، وعدم التأثر بالهوى أو الميل لطرف على حساب الطرف الآخر.
- رأب الصدع والشقاق بين الزوجين على وجه السرعة وعدم التراخي فيه، لأن التراخي يزيد الأمر تعقيدًا.
- الحرص على كتمان ما يبوح به الزوجان من أسرار وخفايا في العلاقات الزوجية، وذلك لأن حفظ السر أمانة، والأمانة من الإيمان.

٦. الثواب العظيم في الآخرة.

والحكمة تدعو صاحبها للعمل على وفق الشّرع، فيصيب في القول والفعل والتّفكير، ويسير على هدى وبصيرة، فالحكمة تدفع المرء إلى التحلي بالفضائل واجتناب الرذائل، وتدعوه إلى القول العدل، والحكم بالعدل، وهذا كله من طرق نيل الثواب في الآخرة.

ويمكن استنباط نيل صاحب الحكمة

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣٦٨.
(٢) انظر: تفسير مقاتل ١/ ٣٧١، تفسير عبدالرزاق الصنعاني ١/ ٤٥٥، جامع البيان، الطبري ٨/ ٣٣٢.

الثواب في الآخرة من عموم قول الله تعالى﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال السعدي في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: «لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام»[1].

قال أبو القاسم الجنيد بن محمد، وقد سئل: بم تأمر الحكمة؟ قال: (تأمر الحكمة بكلّ ما يحمد في الباقي أثره، ويطيب عند جملة النّاس خبره، ويؤمن في العواقب ضرره)[2].

٧. تأليف القلوب.

من الآثار الطيبة للحكمة أنها تورث صاحبها ألفة بين الناس وقبولًا، فصاحب الحكمة محبوب من الناس، مقبول قوله، محمود فعله، يقبل عليه الناس لينهلون من حكمته أو يسترشدوا برأيه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى نعمة الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين جميعًا، أو على الأوس والخزرج خاصة، حيث جمعهم وألف بين قلوبهم، وأزال ما كان بينهم من ضغينة الجاهلية وعدائها، وذلك بتوفيق الله عز وجل، ثم بحكمة النبي محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

فقال جل شأنه ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢ -٦٣].

ويستنبط من الآيتين الكريمتين أن الحكمة سبب من أسباب تأليف القلوب واجتماعها حيث ختمت الآية بوصف الله تعالى بالحكمة، وحكمة الرسول صلى الله عليه وسلم من نعم الله تعالى التي أنعم بها عليه.

ومن لطائف الآية ما يشير إليه النيسابوري من كون الائتلاف والمحبة سببه حسن الدعوة وحسن الأسلوب، حيث يقول ما ملخصه: «المحبة لا تحصل إلا عند تصور

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥٧.
(٢) موسوعة الأخلاق، موقع الدرر السنية.

حصول خير من المحبوب. ثم إن كان سبب انعقاد المحبة أمرًا سريع التغير كالمال أو الجاه أو اللذة الجسمانية كانت تلك المحبة بصدد الزوال والاضمحلال، وإن كان سبب انعقاد المودة كمالًا حقيقيًّا روحانيًّا دائمًا، لم يتصور لها تغير وزوال.

ثم إن العرب كانوا قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم مقبلين على المفاخرة والتسابق في المال والجاه والتعصب والتفرق، فلا جرم كانوا متحابين تارة ومتباغضين أخرى، فلما جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى عبادة الله تعالى والإعراض عن الدنيا والإقبال على تحصيل السعادة الأبدية الروحانية توحد مطلبهم صاروا إخوانًا متراحمين متحابين في الله ولله»[1].

ومن علامات ائتلاف القلوب على الحكيم: أن تجده محبوبًا بين الناس مقبولًا، وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب هذا الحب، فقد أشار ابن مسكويه إلى ضرورة حب الحكماء وإكرامهم لما لهم من أثر طيب في تربية النفوس وتهذيب الطباع[2].

٨. الغبطة لصاحب الحكمة.

من ثمرة إيتاء الحكمة أن تجد صاحبها مغبوطًا من الناس، نظرًا لما تحصل عليه من هذه النعمة القيمة التي يزن بها أموره وتصرفاته، ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعودٍ قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (لا حسد إلّا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللّه مالًا فسلّط على هلكته في الحقّ، ورجلٌ آتاه اللّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها)[3].

وتسمية ذلك في الحديث (حسدًا) ليس على سبيل الذم، لأن الحسد نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود هو أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره، وقد يجوز أن يسمى هذا منافسة، ويؤيده قول الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦][4].

والمذموم هو أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم، وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا، وهذا النوع الذي ذمه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤].

وإنما كان مذمومًا؛ لأن فيه تسفيه الحق

(١) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٤١٤.
(٢) انظر: تهذيب الأخلاق، ابن مسكويه ص١٦١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم٨١٦.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٢/ ٧١.

سبحانه، وأنه أنعم على من لا يستحق [1].

وفي معناها يقول قتادة: حسدوا هذا الحيّ من العرب على ما آتاهم الله من فضله، بعث الله منهم نبيًّا، فحسدوهم على ذلك[2].

موضوعات ذات صلة:

الباطل، الحق، الدعوة، اللهو

(١) المصدر السابق ٢/ ٧١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٧٨.

الحمد

عناصر الموضوع

مفهوم الحمد	٨٤
الحمد في الاستعمال القرآني	٨٦
الألفاظ ذات الصلة	٨٧
حمد الله تعالى لنفسه	٨٩
موجبات الحمد	٩٧
مقامات الحمد	١٠٨
الحامدون	١٢٠

مفهوم الحمد

أولًا: المعنى اللغوي:

يقول ابن فارس: «الحاء والميم والدال، كلمة واحدة وأصل واحد، يدل على خلاف الذم، يقال: حمدت فلانًا أحمده، ورجل محمود ومحمد: إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة»[(١)].

ويقال: حمدت الرجل أحمده حمدًا: إذا رأيت منه فعلًا محمودًا، وأحمدت الأرض أحمدها إحمادًا: إذا رضيت سكناها أو مرعاها[(٢)].

ومن أسماء الله سبحانه وتعالى (الحميد)، أي: المحمود على كل حال، فعيل بمعنى مفعول[(٣)]، ولهذا سمي نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم[(٤)].

ويقول العرب: حماداك أن تفعل كذا، أي: غايتك وفعلك المحمود منك غير المذموم، ويقال: أحمدت فلانًا: إذا وجدته محمودًا. قال الفرزدق:

فلم تجر إلا جئت في الخير سابقًا ... ولا عدت إلا أنت في العود أحمد[(٥)]

ويستخلص مما سبق أن الحمد: الوصف بالكمال في الخصال الحسنة بحسب الموصوف، مع سلامتها من عارض الذم والعيب والنقص.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر الجرجاني عدة تعريفات لـ (الحمد) باعتبارات مختلفة، وهي:

الحمد: هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها.

الحمد القولي: هو حمد اللسان وثناؤه على الحق بما أثنى به على نفسه على لسان أنبيائه.

الحمد الفعلي: هو الإتيان بالأعمال البدنية ابتغاء لوجه الله تعالى.

الحمد الحالي: هو الذي يكون بحسب الروح والقلب، كالاتصاف بالكمالات العلمية والعملية، والتخلق بالأخلاق الإلهية.

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ١٠٠.
(٢) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٥٠٥.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٤٣٦.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٦٧.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٥٨.

الحمد اللغوي: هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل باللسان وحده.

الحمد العرفي: فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا، أعم من أن يكون فعل اللسان أو الأركان[1].

ويجمع بين هذه التعريفات ما عرفه به ابن القيم بقوله: «إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه»[2].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن معناه اللغوي؛ إذ كلاهما يدلان على إخبار عن محاسن المحمود.

(١) التعريفات ص٩٣.
(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٩٣.

الحمد في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حمد) في القرآن الكريم (٦٨) مرة[(١)].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران:١٨٨]
المصدر	٤٣	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]
اسم الفاعل	١	﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ [التوبة:١١٢]
اسم المفعول	٥	﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء:٧٩]
الصفة المشبهة	١٧	﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧﴾ [البقرة:٢٦٧]
أفعل التفضيل	١	﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]

وجاء الحمد في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: الثناء بالفضيلة[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الحاء، ص٤٥٣-٤٥٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٠٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤٩٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشكر:

الشكر لغة:

هو عرفان الإحسان ونشره[١]. وقال الرازي: الشكر الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف[٢].

الشكر اصطلاحًا:

هو عرفان الإحسان، والاعتراف بالنعمة، وأداء ما يترتب عليه، والقيام بحق مسديها[٣].

قال ابن قيم الجوزية: «الشكر: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا وعلى قلبه شهودًا ومحبة وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»[٤].

الصلة بين الحمد والشكر:

أولًا: مما تقدم يتبين أن الحمد لا يكون إلا باللسان، وأما الشكر فإنه يكون باللسان وغيره، ودليله قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

فالحمد من جهة ما يكون به أخص من الشكر.

ثانيًا: سبق البيان أن الحمد يكون على جميع أسماء الله وصفاته وأفعاله، وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على النعم[٥].

فالحمد من جهة ما يكون عليه أعم من الشكر، فهما بينهما عموم وخصوص، كما قرره المحققون من أهل العلم[٦].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٠.
(٢) مختار الصحاح ص ٣٤٤.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٢٩٢، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٧٣٢، الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٠٢، المخصص، ابن سيده ٣/ ٤٢٤.
(٤) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٤.
(٥) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص٢٠.
(٦) انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ١/ ٣٥، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي ١/ ١٠٨، الكشاف، الزمخشري ١/ ٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٢٨.

٢ المدح:

المدح لغة:

هو وصف المحاسن بكلام جميل، يقابله الهجاء[١].

المدح اصطلاحًا:

هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصدًا[٢].

الصلة بين الحمد والمدح:

المدح يستعمل فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يصدر منه أو يجبل عليه ويكون فيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان على جمال هيئته، كما يمدح بحسن خلقه وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني ولا يكون في الأول[٣]، وهذا باعتبار المخلوق بينما هو باعتبار الخالق فهو يكون في الصفات الذاتية والفعلية، وذلك أن صفات الله الذاتية والفعلية متعدية بالإنعام على من عبده.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠٨، العين، الفراهيدي ٣/ ١٨٨.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١١٦.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٦.

حمد الله تعالى لنفسه

لقد حمد الله سبحانه وتعالى نفسه في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، على أمور متنوعة، منها:

أولًا: حمد الله لنفسه على ربوبيته العامة والخاصة:

أول ما حمد الله نفسه عليه في مفتتح كتابه العزيز: ربوبيته العامة.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

ثم نثر ذلك على بعض مظاهرها في ثنايا كتابه في سور متعددة، والأمر الذي قام الدليل على إثباته في فضل سور القرآن، هو أن أعظم سورة فيه هي الفاتحة، حيث جاء الحديث عن أبي سعيد بن المعلّى، قال: (كنت أصلّي في المسجد، فدعاني رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت: يا رسول اللّه، إنّي كنت أصلّي، فقال: (ألم يقل اللّه: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤])، ثمّ قال لي: (لأعلّمنّك سورةً هي أعظم السّور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد). ثمّ أخذ بيدي، فلمّا أراد أن يخرج، قلت له: ألم تقل: لأعلّمنّك سورةً هي أعظم سورةٍ في القرآن، قال: (﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي السّبع المثاني، والقرآن العظيم الّذي أوتيته)[(١)].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: الله، والرب، والرحمن.

وبنيت السورة على الإلهية والربوبيّة والرحمة»[(٢)].

وهي أيضًا بمثابة الديباجة للقرآن، حيث حوت على وجازتها وجزالتها، عامة ما جاء في القرآن من معاني في آيات سبع، فكانت كل آية منها جامعة لما في بابها من المعاني، وأول هذه الآيات هي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢][(٣)].

لذلك يمكن القول بأنها أجمع آية للمحامد كلها، فالله سبحانه وتعالى قد أثبت فيها الحمد لنفسه حالة كونه موصوفًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، ٦/ ١٧، رقم ٤٤٧٤.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص١١.

(٣) وردت هذه الجملة في مواضع أخر من كتاب الله تعالى؛ فوردت في سور: الأنعام: ٤٥، يونس: ١٠، الصافات: ١٨٢، الزمر: ٧٥، غافر: ٦٥، وقد جاءت في معرض التعقيب على مظهر من مظاهر الربوبية كما سيأتي بيانه لاحقًا.

بربوبيته لكل مربوب، وهم العالمون وكل ما سوى الله عالم، والرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبّر، والمربّي، والقيم، والمنعم؛ والمتمم، ولا يطلق مفردًا إلا على الله عز و جل، وإذا أطلق على غيره أضيف، فقيل: رب كذا. ورب كل شيء: مالكه ومستحقه[1].

فهو باعتبار اجتماع هذه المعاني كلها فيه، وبالنظر إلى آثارها في مخلوقاته يسلّم المتأمل، ويقر المتفكر بأنه حاز أعظم وأجل مراتب الحمد سبحانه وتعالى.

وتوحيد الربوبية عرّفه أهل العلم بأنه: «إفراد الله بأفعاله؛ من خلق، ورزق، وإحياء، وإماتة، وإعطاء، ومنع، وضر، ونفع...، إلخ»[2]، والأفعال بآثارها لا تنفك عن انصباغها بصفات فاعلها، والحاصل بعد ذلك أن الحمد على الربوبية، هو حمد عليها مطابقة، وعلى صفات صاحبها تضمنًا والتزامًا، وبهذا كانت هذه الآية هي أجمع آية لإثبات الحمد لله سبحانه وتعالى، خاصة أنها مبتدأ الكلام وافتتاحه، ولم تأت تعقيبًا على فعل بذاته، أو وصف بعينه، أو أمر مخصوص، فكان المراد منها الإطلاق على جميع الأفعال، وكامل الأوصاف، مما يوجب لله حق الألوهية، فبحمد الله جل جلاله في هذه الآية ثبتت حقوق الله جميعًا، ألا وهي: توحيده ربًّا، أي: في أفعاله، وتوحيده في أسمائه وصفاته، وتوحيده في ألوهيته.

الحمد على بعض مظاهر الربوبية العامة:

لاشك أن الله سبحانه وتعالى يحمد على كل فعل منه، وجميع أفعاله وصفاته فيها تربية لخلقه، إلا أن هناك آيات ذكر الله تعالى فيها بعض معالم ربوبيته، المستوجبة لحمده بما ذكر فيها أفعال كانت آثارها مستوعبة لجميع مخلوقاته، أو لجميع المكلفين على وجه التحديد، فمنها خلقه للسماوات والأرض، وجعله الظلمات والنور، وإنزال المطر، وإحياء الأرض به، وانفراده بالملك لخلقه، وأنه هو الذي بدأ الخلق ونوع وأبدع، وفرق وجمع، وجعل ملائكة رسلًا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ويرحم خلقه فينزل عليهم ما يخرج به قوتهم، بعد حصول قنوطهم، وهو رب السماوات ومن فيها، ورب الأرض ومن عليها، ورب العالمين أجمعين، وقد جاءت هذه المظاهر على وجه التخصيص في الآيات الواردة في كتاب الله عز و جل، كما

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٢٥٦، الزاهر، أبو بكر الأنباري ١/ ٤٦٧، الصحاح، الجوهري ١/ ١٣٠، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٨٢، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٠٠، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٥٩.

(٢) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر بن محمد عطا صوفي ص٦٣.

سيبين في هذا المطلب إن شاء الله تعالى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

يحمد الله نفسه في هذه الآية على أنه خلق السموات والأرض، خصهما بالذكر؛ لأنهما أعظم مخلوقاته فيما يراه العباد وفيهما العبر والمنافع للعباد، وجعل الظلمات والنور، والجعل بمعنى الخلق، وقال الواقدي: «كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان، إلا في هذه الآية فإنه يريد بهما الليل والنهار»، وقال غيره: «ويدخل في ذلك الإيمان والكفر، وظلمة القلب والوجه ونور القلب والوجه»[(١)].

وفي الآية الآتية إلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على وجوب التسليم بتوحيد الألوهية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

فأنت لو سألتهم من خلق السماوات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وحده، ولاعترفوا بعجز غيره عن القيام بشيء من ذلك، فقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء؛ حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم[(٢)].

ذكر الله سبحانه وتعالى عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض -وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي- أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك الكونية والشرعية والجزائية، وهو واسع الغنى، وأن أعمال الناس الصالحة لا تنفع الله شيئًا فهو غني عنهم، وعن أعمالهم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٥ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٥- ٢٦].

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميدًا من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٠٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣٥.

العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه[1].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

أثنى جل جلاله على نفسه بهذا الحمد العظيم، مقترنًا بكون مبدأ الخلق منه جل جلاله، وأنه جعل الملائكة رسلًا على هيئات متعددة، وذلك يدل على أن خلقه للسماوات والأرض، وما ذكر معه يدل على استحقاقه للحمد لذاته لعظمته وجلاله وكمال قدرته، لما في خلق السماوات والأرض من النعم على بني آدم، فهو بخلقهما مستحق للحمد لذاته، ولإنعامه على الخلق بهما، وكون خلقهما جامعًا بين استحقاق الحمدين المذكورين[2].

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه ينزل المطر على عباده بعد انتظاره مدة طويلة أورثتهم يأسًا من نزول المطر، حتى استحق التعبير عنه بالغيث بإزالته علامات اليأس والبؤس والشقاء عن وجوههم، لينشر بذلك المطر رحمته بما نتج عنه من الخيرات والبركات والأرزاق التي انتظروها بفارغ الصبر، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

فهو سبحانه وتعالى الذي يتولى عباده بالإحسان والفضل والإنعام؛ وهذا لأن الله حميد في أفعاله وتصرفاته[3]، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦].

يخص الله سبحانه وتعالى نفسه بالحمد على أياديه على خلقه، فإياه فاحمدوا، وله فاعبدوا، فكل ما بكم من نعمة فهو مصدرها، وليس لأحد سواه في أدنى أثر أو فضل، فهو مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع، ومالك جميع ما فيهنّ[4].

الحمد على ربوبيته الخاصة وبعض مظاهرها:

إن الله سبحانه وتعالى الذي ربى جميع مخلوقاته بربوبيته العامة؛ لتستقيم الحياة الكونية على هذا النحو البديع، وكذلك كان شأنه مع الحياة الشرعية التي جعل لها ما تستقيم به، من إنزال الكتب المنظمة لحياتهم على وجه محكم، لا عوج فيها ولا ظلم؛ بحيث تنظم علاقاتهم مع كل من يتصلون به، وأرسل إليهم الرسل؛ ليقتدوا بهم، وليهتدوا بهديهم، ورعى من استجاب له رعاية خاصة يصلحون بها بحسب

(١) انظر: المصدر السابق ص٦٥٠.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٧٦.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي ١٣/ ٣٦.
(٤) انظر: تفسير المراغي، ٢٥/ ١٦٧.

منازلهم، وأكرم أهل طاعته، وأهلك من عصاه، في الدنيا والآخرة، وقد جاءت هذه المظاهر مقرونة بالحمد في القرآن الكريم، بعد تتبع البحث لها على النحو الآتي:

١. حمد الله لنفسه على إنزال الكتب.

يحمد الله سبحانه وتعالى نفسه في آيات عدة من كتابه على نعمة هي من أجل النعم على عباده، بأن أنزل لهم الكتب التي تتحقق لهم بها المنافع في الدنيا والآخرة، وذلك أنّ ما وهبهم إياه بمقتضى ربوبيته العامة لا يكون نعمة إلا إذا عمل فيه بمقتضى ربوبيته الخاصة، فجاءت هذه الكتب متضمنة لإصلاح الحياة، من غير اعوجاج، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١] وعلى طريق واضح بيّن قويم، ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

ولا يعلم حقيقة هذه الهداية إلا من أقبلوا على هذه الكتب وقرءوها، وتدبروا معانيها، وطبقوها واقعًا عمليًّا في حياتهم، فعاشوا بها الحياة الهانئة، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

بخلاف الذين أعرضوا عنها فإنهم لم يرفعوا بعلومهم الدنيوية رأسًا، وإن دالت لهم الدولة ساعة من الزمن، فهم على الباطل، والباطل لا يثبت بل هو مدموغ، وعاقبته إلى زوال، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وأما هذه الكتب فما فيها من الباطل شيء، بل كل ما فيها حق وصدق وعدل ورحمة وحكمة من حكمة الحميد في أقواله وأفعاله وتشريعاته[(١)].

٢. حمد الله لنفسه على إرسال الرسل.

يختم الله سبحانه وتعالى سورة الصافات بتسبيح نفسه وحمدها، بقوله عز وجل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

وهي من السور التي تخصصت في بيان أحوال الرسل مع أممهم ما بين الإجمال والتفصيل القليل، وبيان ما أعقبهم الله على قيامهم بحقه وحق رسالته من توفيقهم، وإهلاك أعدائهم، وتمكينهم في الأرض، وحسن الثناء في الآخرين، وجزائه لهم بما جعله للمحسنين، وقد جعل السلام على المرسلين في خاتمة السورة واقعًا بين تسبيحه وحمده؛ إشارة إلى أن من

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٠٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٢٠، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٩٥، أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢٣٦.

مقتضيات تنزهه عن النقص وحمده بصفات الكمال؛ إرسال الرسل هداية للناس، وإقامة للحجة[1]، وقد حبا الله سبحانه وتعالى الرسل بصفات الكمال البشري الحميدة، الأمر الذي يؤهلهم لأن يكونوا قدوة للعالمين، وهو لم يرسلهم لحاجة به للخلق، بل هو غني عنهم، ولكنه غني حميد، فمع غناه عنهم لم يحرمهم من إرسال الرسل الذين يهدونهم إلى الحق، وهم على أحسن خلق، ولهم أحسن سيرة، وقد حمد نفسه على ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦][2].

٣. حمد الله لنفسه على فضله في إهلاك الكافرين.

يبين الله سبحانه وتعالى أنه أرسل رسلًا للأمم السابقة، فكذبوهم؛ فابتلاهم الله بالشدة والفقر والأمراض والعلل؛ لعلهم يلجئون إلى الله بالدعاء، ويؤمنون برسل الله ويصدقونهم، فما فعلوا!. ثم نهج معهم نهجًا آخر بأن بدّلهم مكان الفقر والشدة السعة في الرزق، ومكان المرض والأسقام الصحة والعافية؛ لعلهم يشكرون الله على نعمه، فما فعلوا!. فأمهلهم الله تبارك وتعالى مدة ثم قطع دابرهم وأهلكهم، يقول جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

وفي النصر والتأييد من الله لرسله بأن يقطع حجة الكافرين ويهلكهم من الربوبية الخاصة لأنبيائه وأوليائه ما حمد الله نفسه عليه، وهو للحمد أهل[3].

ثانيًا: حمد الله لنفسه لإثبات الكمال له وحده:

١. حمد الله لذاته على كمال حياته، وتفرده بالألوهية.

الحياة الكاملة هي الحياة التي لا يعتريها نقص بنوم، أو مرض، أو موت، أو سآمة، أو أي عارض من عوارض النقص في حياة المخلوقين، وقد انفرد الله عز و جل به عن

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٥٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٩٨، التفسير المنير، الزحيلي ٢٣/ ١٥٨.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٥٠٥، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٢٠٦، التفسير الواضح، الحجازي ٣/ ٦٥٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٦٤، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٢٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٣٤، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٦١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٥٦.

سائر الموجودات، يقول جل جلاله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

يثبت الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الحياة الكاملة الدائمة لنفسه، وأن كل من عداه لهم أعمار محدودة، وأزمان معدودة، وآجال مكتوبة، تنتهي بها حياتهم، وأنه هو المتفرد بالألوهية حقًا، وأن نسبتها لغيره زعم باطل، وذلك بما له من الحمد على كماله الذي لم يبلغه سواه، لا في ذاته ولا في صفاته[(١)].

٢. حمد الله لذاته بتنزهه عن المثيل والشريك.

يضرب الله سبحانه وتعالى الآية التالية مثلًا لنفسه ولمن عبد من دونه برجلين: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

أحدهما حر مالك لأمر نفسه ولماله يتصرف فيه كيف يشاء، ويأمر وينهى كيفما أراد، والآخر عبد مملوك هو وماله لسيده، ليس له من الأمر والنهي شيء، فالحر جعله الله مثلًا لنفسه -وله المثل الأعلى- والعبد مثلًا لمن عبد من دونه، فأيهما أكمل[(٢)]، والفرق بينهما في الكمال هو دون الفرق بين الله ومخلوقاته بكثير، فالفرق بين الحر والعبد هو باعتبارات مقيدة من بعض الوجوه، ولكن الفرق بين الله ومخلوقاته مطلق، فالله له الكمال من كل وجه، والمخلوق ناقص من كل وجه.

مثل آخر ضربه الله لعبادة الله وحده، وعبادة الشرك به، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فالله وحده أمره واحد، ونهيه واحد، وكله حكمة ورحمة، بخلاف الشركاء الذين لكل واحد منهم وجهة ورأي مختص به، وبذلك يكون لكل واحد فيهم أمر يختلف عن الآخر، ونهي لايتفق فيه مع غيره، ولهم أهواء ومصالح يتناحرون عليها، ولايعبئون لذلك بمصلحة من عبدوهم، وشأنهم على النقيض من أمر الله سبحانه وتعالى ونهيه[(٣)].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٦٧، محاسن التأويل القاسمي، ٨/ ٣١٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٩٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤١، التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١٥٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٢، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٢٣٤، درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٨/ ٥٢٨، الأمثال في القرآن، ابن القيم ص٢١.

(٣) انظر: جامع المسائل، ابن تيمية ٦/ ١٧٧، الأمثال في القرآن، ابن القيم ص٥٤، الأمثال القرآنية، الجربوع ١/ ٩٥.

فالله غني عن ذلك؛ لذا فأوامره ونواهيه كلها في مصلحة العبد، ونفعها مردود عليه، يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: (ياعبادي إنّكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)[1]، فمن كان هذا حاله فهو الكامل المستحق لأن يفرد في العبادة، وغيره على عكس ذلك.

ثالثًا: حمد الله لنفسه حمدًا ملء خلقه:

١. حمد الله لنفسه حمدًا يستغرق الزمان.

يحمد الله سبحانه وتعالى نفسه في هذه الآية، يقول فيها: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

حمدًا استغرق الزمان؛ وذلك لأنه هو الإله المتفرد بالألوهية على مدار الزمان، وأن الإفضال والإنعام فيه منه وحده لا شريك له، وأنه جعل الأولى مزرعة للآخرة، وهو الذي له الحكم في الآخرة لئلا يضيع عمل عامل في الدنيا فلا يحصل له الأجر في الآخرة، أويفلت طاغٍ أو ظالم في الدنيا فلا ينال جزاءه، وأن من أنكر ألوهيته في الدنيا فسيقر له بها في الآخرة[2].

٢. حمد الله لنفسه حمدًا يستوعب المكان.

أثبت الله تعالى الحمد المطلق لنفسه في السماوات والأرض؛ لأن كل ما فيهما دال على كماله وجلاله واقتداره واتقانه دلالة ظاهرة، خضع كل ما في السماوات والأرض لأن يسبحوا له، طوعًا أو كرهًا.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن:١].

فاستحق بذلك أن يشهد لنفسه بالحمد صدقًا وعدلًا، وأن يعترف له بذلك كل شيء فيهما[3].

٣. حمد الله نفسه حمدًا يشمل الزمان والمكان معًا.

يعلن الله جل جلاله أن الحمد ثابت لذاته، ومن موجبات ذلك ملكيته التامة لكل ما في السماوات والأرض، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الظلم، ٨/ ١٦، رقم ٦٦٦٤.

(٢) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥٥٦٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٣، تفسير المراغي، ٢٠/ ٨٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٦٧، التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ص ٣٩٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٨٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٦، التفسير الواضح، الحجازي ٣/ ٦٨٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣٦٠.

وهو حمد ملء المكان، وممتد إلى انتهاء الزمان، لا منازع ولا شريك، فحمده كامل شامل قد ملأ المكان وأحاط بالزمان[1].

٤. حمد الله لنفسه حمدًا مقرونًا بالتسبيح ملء المكان على مدار الأزمان.

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بتسبيحه في الأوقات الأربعة، ذكرها في آية من سورة الروم بقوله جل وعلا: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٧-١٨].

وهذه هي الأوقات الممتدة على مدار النهار والليل[2]، وهذا على سبيل الإنشاء والطلب، وجعل جملة الحمد الخبرية متوسطة بين الأوقات المأمور بالتسبيح فيها؛ ليبين أنه ثابت ملء السماوات والأرض وفي كل وقت[3]؛ لما له من كمال الصفات وجميل الأفعال في كل زمان ومكان، فله الحمد حمدًا كثيرًا، وسبحانه وتعالى بكرة وأصيلًا.

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩٤، نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ٤٢٩.

(٢) ولهذه الآيات التي ورد الحمد فيها معتبرًا للزمان والمكان نظائر سنوردها في مواضع أخر.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٥٤، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٦٦.

موجبات الحمد

أولًا: التمجيد والثناء:

حمد الله سبحانه وتعالى ذاته في آيات كثيرة، وكان لذلك الحمد موجبات عدة، منها:

١. حمد الله والثناء عليه بمقتضى أسمائه الحسنى، وتنزهه عن الولد والشريك والولي.

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده في خواتيم سورة الإسراء أن يدعوه بأي اسم من أسمائه؛ لأنها الحسنى البالغة في الحسن غايته في ألفاظها ومعانيها، وهي معانٍ ذات دلالات متعددة، منها:

- دلالة مطابقة: وهي أن الله يتصف بصفة جاء بها هذا المعنى، ودلالة تضمن: وهي أن اتصافه بهذا المعنى الحسن يتضمن الكمال.
- دلالة التزام: وهي أن كمال الله في هذه الصفة يستلزم اتصافه بصفات الكمال التي لا تتحقق هذه الصفة إلا بها[4].
- دلالة اقتضاء: وهي أن اتصاف الله بهذه الصفات التي جاءت بها المعاني المأخوذة من أسمائه الحسنى يقتضي الإقرار بأن الله سبحانه وتعالى مستحق

(٤) انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، ابن عثيمين ص١١.

للحمد بها[1].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء:١١٠-١١١].

فالقارئ لهاتين الآيتين يجد أن الله سبحانه وتعالى عقّب بحمد نفسه مع زيادة بيان لموجبات أخرى للحمد، وهي أنه لم يتخذ الولد؛ فالذي يتخذ الولد سيأتي عليه يوم ويكون مربوبًا لولده الذي سيقوم على رعايته والقيام على شئونه؛ لأن هذه هي سنة الأسرة، وأنه تنزه عن الشريك الذي يكون مماثلًا ومنازعًا لشريكه، وله سلطان يضاهي سلطانه، قد يحول بينه وبين أمر قضاه فلا يستطيع أن يمضيه، وأنه لا يحتاج إلى حليف يستنصر به من هزيمة قد تلحق به الذل، تعالى وتقدس ربنا عن كل عيب ونقص، وله الحمد المطلق والثناء كما أثنى على نفسه فليس أحد يستطع الثناء عليه بما هو أهله إلا هو[2].

وهذا من دلائل كبريائه جل جلاله، «وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون:

- بتكبيره في ذاته، باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته، وأنه غني عن كل موجود.
- بتكبيره في صفاته، باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال، منزه عن صفات النقص.
- بتكبيره في أفعاله، فتعتقد أنه لا يجري شيء في ملكه إلا وفق حكمته وإرادته.
- بتكبيره في أحكامه، بأن تعتقد أنه ملك مطاع، له الأمر والنهى، والرفع والخفض، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه، يعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء.
- تكبيره في أسمائه، فلايذكر إلا بأسمائه الحسنى، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة»[3].

٢. حمد الله والثناء عليه بمقتضى تفرده بالملك الأبدي للموجودات.

يحمد الله نفسه في آية من كتابه على أن ما في السماوات والأرض كلهم له ملك وعبيد، يتصرف فيهم بحمده، حمدًا دائمًا مستمرًا لا ينقطع إلى يوم القيامة؛ لأنه في الآخرة، يظهر من حمده، والثناءعليه، ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله سبحانه وتعالى بين الخلائق كلهم، ورأى الناس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٨٠، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٥٢٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٤٥، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٥٠، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣١٧.
(٣) تفسير المراغي، ١٥/ ١١١.

والخلق كلهم، ماحكم به، وكمال عدله وقسطه، وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم[1]، يقول تعالى: ﴿...وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

أما ظهور حمده لأهل الجنة فذلك لما يظهر لأهل الجنة من عظمة ربهم، وجلاله، وجماله، وسعة كماله حين يرونه، ما يوجب له كمال الحمد، والثناء عليه[2]، يقول الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

وأورد ابن جرير في تفسيره ما معناه: «أن الحمد التام الكامل كله للمعبود الذي هو مالك جميع ما في السماوات السبع وما في الأرضين السبع دون كل شيء سواه، لا مالك لشيء من ذلك غيره، فالمعنى: الذي هو مالك ذلك جميعه، وله الحمد التام الكامل في الآخرة كالذي هو له ذلك في الدنيا العاجلة؛ لأن كل من في السماوات والأرض في الدنيا هو الذي خلقهم وأوجدهم من العدم، وهو المتصرف فيهم، والمالك لهم ملكًا تامًّا خالصا دون ما سواه في عاجل الدنيا وآجل الآخرة، وهو الحكيم في تدبير خلقه، الخبير بهم وبما يصلحهم، وبما عملوا، وماهم عاملون، محيط بجميع ذلك»[3].

٣. تمجيد الله بمقتضى غناه عن عباده.

يخاطب الله سبحانه وتعالى الناس جميعًا معلمًا إياهم ومعلنًا لهم بأنه خلقهم وهو غني عنهم، وذلك بأنهم فقراء محتاجون لمن يدبر أمورهم من كل وجه، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وليس أحد إلا الله عز و جل يقوم بهذا الأمر، فهم الفقراء بكل أنواع الفقر، وهو الغني بكل أنواع الغنى، محمود في غناه؛ ولولا ذلك لما تنعموا في هذه الحياة، ولما قامت للكافرين منهم قائمة كالذين خاطبهم موسى عليه السلام بهذا الخطاب.

يقول مولانا جل في علاه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وبيّن لهم أنه غني عن إيمانهم به وعبادتهم له، وإذا رأوا أنهم لا يحتاجون

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣١.

(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ١١/ ١٦١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣٥، التفسير الوسيط، الطنطاوي ١١/ ٢٦٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٤٦.

إلى الله بكونهم يرزقون، ويأكلون ويتمتعون بشتى أنواع الملذات، فما ذلك إلا لأنه حميد في غناه، يرزق ويعطي ويمد ويزيد، حتى وإن كفر به من خلقه من كفر، وكان رده على نبيه إبراهيم عليه السلام حين سأله أن يرزق من آمن من عباده ممن سكن البلد الحرام أنه سيرزق أيضًا من كفر منهم أيضًا.

وهذا ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وهذا من كمال حمده أنه مع قدرته على حرمانهم بسبب امتناعهم عن أداء ما أوجبه عليهم، لم يمنعهم ما أوجبه لهم على نفسه على سبيل الوعد، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ١١١] سبحانه جل جلاله.

ثانيًا: الإنعام:

إن نعم الله سبحانه وتعالى أمر لا يطيق إحصاءه إلا الله جل جلاله، وقد توقفنا مع الآية التي جمع الله سبحانه وتعالى لحمده فيها كل ما يقتضيه الحمد، وهي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وذلك أن تربية الله سبحانه وتعالى للعالمين جميعًا تشمل تربيته لهم بكل نعمة يحتاجون ليتم لهم التكيف والانسجام مع المحيط الذي يحيون فيه، سواء أكانت النعمة مادية أم معنوية، وبيان ذلك ما جاء في جواب موسى لفرعون حين سأله عن ربه، فقال عليه السلام كما جاء ذكره في القرآن: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

فقد أعطى كل شيء خلقه صورته وهيئته التي هي أليق به وأنسب له، وهداه للكيفية التي تناسب البيئة التي وجد فيها، وهذا من أعظم مظاهر الإنعام على كل المخلوقات؛ لذلك أخبر الله سبحانه وتعالى عن حالهم وانشغالهم بحمده عليه بقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

إن هناك من الإنعام ما اختص الله به الناس دون غيرهم، ومنه ما فضل الله به بعض الناس على بعض؛ ولذلك نجد أنه يحمد نفسه عند ذكره لهذه النعم، أو أن من أكرمهم بها يحمدونه عليها على ما ستأتي الإشارة إليه، وسنجتهد في ترتيب الآيات بحسب فضل النعم المضمنة فيها من خلال نماذج نذكرها تقتضي حمد المنعم سبحانه وتعالى، وذلك فيما يأتي:

١. نعمة إنزال الكتب ذات الصراط المستقيم الذي لا عوج له.

يختم الله عز و جل الآية الأولى من سورة إبراهيم باسمه الحميد، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ ليكون فاصلة مناسبة لما ورد في الآية من ذكره لنعمة إنزال الكتب؛ التي يخرج الله بها الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور التوحيد والرشاد، ليسيروا على صراط مستقيم، ينتهي بهم إلى رضا ربهم العزيز الحميد في إنعامه وإكرامه وجزائه.

وفي أول آية من سورة الكهف تقرير لما جاء في آية سورة إبراهيم، ولكن بصورة أخرى، ببيان استغراق المحامد كلها على إنزال الكتاب بدون عوج أو تعارض أو اختلاف، لا إبهام فيه ولا اضطراب، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١].

وذلك أن الاهتداء بهدي هذا الكتاب تستقيم عليه الحياة، بل والأرض والسماء وما فيهما، وبدون ذلك يكون الفساد، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فإن الحق الذي يجب عليهم أن يتبعوه، لا أن يتبع هو أهواءهم؛ هو ما كان فيه ذكرهم، ألا وهو القرآن، وإلا فإن السماوات والأرض وما فيهما سيكون فيه من الفساد بحسب إعراضهم عن الحق الذي في هذا الكتاب؛ لذلك فإن الساعة لا تقوم، ولا يأذن الله بخراب الدنيا حتى لا يبقى فيها من يؤمن بالله.

جاء في الصحيح عن عبد الرّحمن بن شماسة المهريّ، قال: «كنت عند مسلمة بن مخلّدٍ، وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لاتقوم السّاعة إلّا على شرار الخلق، هم شرٌّ من أهل الجاهليّة، لا يدعون الله بشيءٍ إلّا ردّه عليهم، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامرٍ، فقال له مسلمة: يا عقبة، اسمع ما يقول عبد الله، فقال عقبة: هوأعلم، وأمّا أنا فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (لا تزال عصابةٌ من أمّتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوّهم، لايضرّهم من خالفهم، حتّى تأتيهم السّاعة وهم على ذلك)، فقال عبد الله: أجل، (ثمّ يبعث الله ريحًا كريح المسك مسّها مسّ الحرير، فلاتترك نفسًا في قلبه مثقال حبّةٍ من الإيمان إلّا قبضته، ثمّ يبقى شرار النّاس عليهم تقوم السّاعة)[١].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من

فالحمد لله الذي أنزل كتابًا لا عوج له تستقيم به الحياة في الدنيا والآخرة.

يبين الله سبحانه وتعالى موقف من أنعم الله عليهم بنعمة العلم، أن الذي يجدونه ويقرون به أن ما أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم هو الحق، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

وهو الهدى إلى الصراط المستقيم، الذي فيه أقوم الطرق إلى حياة كريمة صحيحة مطمئنة، وأنه يعطي كل ذي حق حقه، فلا ظلم ولا هضم، ولا كذب ولا وهم.

قال عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

صدقًا في أخباره الماضية والمستقبلة، وعدلًا في أحكامه الدينية والدنيوية.

٢. نعمة العلم وتفضيل الله به الأنبياء على غيرهم من الناس.

يخبرنا الله في آية من كتابه عما آتاه الله نبيّين كريمين من أنبيائه وهما داود وسليمان عليهما السلام حيث أنعم الله عليهما بالعلم الذي جعل الله الحظ الأوفر منه للأنبياء.

يقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥].

وقد جعل الله العلم أنفس ما يتركونه من بعدهم، وهو الميراث الذي يستفاد من بعدهم، لا تركة لهم ينتفع بها سواه، قال صلى الله عليه وسلم: (من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنّة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنّ العالم ليستغفر له من في السّموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإنّ فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارًا، ولا درهمًا ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ)[1].

وقد علما أن هذا الذي أنعم الله به عليهما من العلم هو أفضل ما ينعم به على إنسان؛ لذلك فقد حمدا الله على أن فضّلهما بهذا العلم على كثير من عباده المؤمنين الذين ليسوا بأنبياء.

٣. نعمة هداية التوفيق ومن ثم إلى الجنة.

بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة، ويتنعموا فيها بسلامة الصدر من العلل التي كان يتنغص بها عموم المؤمنين بحكم طبيعتهم

خالفهم، ٣/ ١٥٢٤، رقم ١٩٢٤.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ٣/ ٣١٧، رقم ٣٦٤١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٠٧٩، رقم ٦٢٩٢.

البشرية في الدنيا، وهو نعيم لا يعرف لذته إلا من بلغ من الخيرية مبلغًا، بحيث يترفع عن أن يتأذى بما يتأذى به سائر الناس من أنواع الأذى، إلا ما كان لأجل انتهاك حرمات الله، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهو مقام سامٍ رفيع، قد بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما انتقم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لنفسه إلّا أن تنتهك حرمة اللّه، فينتقم للّه بها)[١]، وخواص المؤمنين ممن سار على هديه متمسكًا بسنته على وجه الكمال، وهذا للصحابة منه النصيب الأوفر، بحيث لا يذكر بينهم إلا الهنات من خلافه، فإنه ربما وجد منهم الاختلاف على حكم شرعي قد اجتهدوا فيه؛ فربما وقع القتال بينهم في تطبيق حكم شرعي اجتهد كل فريق منهم عن دليل وهدى، وقصد للحق، لا اتباع للهوى، فلم يحملهم هذا على تكفير بعضهم بعضًا، فقد حفظوا لأنفسهم أعراضهم من أن ينتهكوها، وأموالهم من أن يستحلوها، مما يدل على أن الأمر لم يكن على خلاف دنيوي، ولا انتصار للنفس، وعلى هذا الطريق سار جمع من الأئمة الأعلام، كالإمام أحمد الذي ثبت في الفتنة؛ إلا أنه كان يدعو لولاة أمر المسلمين الذين وقع له الأذى على أيديهم، وصفح عنهم وعفا[٢]، وما وجد في نفسه شيئًا إلا على من علم أنه لم يصدع بالحق عالمًا به، وكذا كان ابن تيمية رحمه الله مع خصومه، حين تمكن منهم، وقد كانوا لايألون جهدًا في التحريض عليه والتأليب عليه عند السلطان، ولما قدر عليهم عفا عنهم وصفح، وهذا بشهادتهم أنفسهم[٣]، وكان يقول: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إنّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[٤].

وما كان ذاك منه إلا لسلامة صدره رحمه الله، وما نسبة الفرق بين هذه السلامة لما في الجنة، إلا كالفرق بين ثمر الدنيا وثمر الجنة، وما بلغوا تلك المنزلة التي حمدوا الله عليها إلا بهداية الرحمن التي أكرمهم بها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٩، رقم ٣٥٦٠.

(٢) انظر: التعريف بكتاب محنة الإمام أحمد بن حنبل، محمد نغش ص٣٨٤.

(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١٤/ ٦١.

(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص٤٨.

٤. نعمة إقامة آياته الدالة عليه.

الحمد لله في الأولى والآخرة ومن جميع الخلق، خصوصًا أهل الاختصاص والصفوة من عباده، الذين كان رسول الله واحدًا منهم؛ على ما اختصهم به من رفعة الدرجات، وكمال القرب منه، وكثرة خيراته عليهم، سيريكم آياته أيها الناس عمومًا والمنكرين خصوصًا، فتعرفونها معرفة تدلكم على الحق والباطل، فلابد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة[1]، وما الله بغافل عما تعملون.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣].

وهذا تفضل من الله عز و جل، وإنعام على الخلق؛ ليتيسر لهم الهدى، وتقوم الحجة على المعاندين، ولتطمئن بالحق نفوس المؤمنين، كما جاء عن إبراهيم حين سأل الله أن يريه ما تطمئن به نفسه.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فاستجاب الله جل جلاله له وأراه ما طلب منه رؤيته.

٥. نعمة نصر المرسلين والمؤمنين وإهلاك الكافرين.

يأمر الله نبيه نوحًا عليه السلام أن يشكر الله بالثناء عليه تعظيمًا وإجلالًا وفرحًا بفضله ورحمته؛ أن نجّاه من بطش قومه الذين استحبوا العمى على الهدى، ومن المعاناة التي كان يلاقيها هو ومن معه من المؤمنين استهزاءً وسخرية وإيذاءً في الدين والبدن[2].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وفي هذا من الإنعام ما لا يستشعره ولا يعرف قدره على الحقيقة إلا من جرب إيذاء أعداء الله لعباده الموحدين، أو شاهد أو سمع -وكان له قدرة على تصور صحيح- بالغ الأذى والألم الذي يجده المؤمنون جراء ذلك.

لطالما وجد المسلمون في أنفسهم من العجب من حال الكفار في تنعمهم على الرغم من كفرهم بالله، وإمعانهم في إيذاء أعداء الله، وقد كانت هذه الفتنة مما يترتب عليه انتكاس ضعاف النفوس، ما يوهن من عزم المؤمنين الذين لولا فضل الله عليهم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١١.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي ١٠/ ٢٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥١.

لاتبعوا الشيطان، ومما يترتب عليه أيضًا التشكيك في طريق الإيمان، ثم ما أن يلبثوا أن يأتيهم الفرج من الله سبحانه وتعالى بإهلاك الظالمين؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فهو أمر يوجب إثبات الحمد لله الذي لا يقضي أمرًا إلا لحكمة، ومن حكمته إمهال الظالمين، وتقليب أحوالهم ما بين ضراء وسراء لعلهم يعودون؛ وإن سبق في علمه عدم رجوعهم؛ فيفعل هذا لأجل إقامة الحجة عليهم، فالحمد لله على ما قضاه وقدره من تقليب الأمور، وتثبيت قلوب الموحدين[(١)].

بعد أن أتم الله على نبيه النعماء بنصره وفتح مكة له، وأقر عينه بدخول الناس في دين الله عز و جل، وبين له أن مهمته أنجزت على أحسن حال، أمره الله سبحانه وتعالى أن يتوجه إليه حامدًا مستغفرًا؛ ليبلغ به هذا العمل الذي أراد الله أن يختم لنبيه به، فأنزل الله سورة النصر.

يقول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:١-٣].

يقول العلامة الشنقيطي رحمه الله: «وهنا قرن التسبيح بحمد الله، وفيه ارتباط لطيف بأول السورة وموضوعها، إذ هي في الدلالة على كمال مهمة الرسالة بمجيء نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدينه، ومجيء الفتح العام على المسلمين لبلاد الله بالفعل أو بالوعد الصادق كما تقدم، وهي نعمة تستوجب الشكر ويستحق موليها الحمد، فكان التسبيح مقترنا بالحمد في مقابل ذلك وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ ليشعر أنه سبحانه المولي للنعم»[(٢)].

وقد كان دخول الناس في دين الله قرة عين للنبي صلى الله عليه وسلم، فكم كان يحزنه إعراضهم، أما وقد أقر الله عينه بنصره على أعدائه، وانتشار الدين، فقد أوجب الله عليه أن يقوم بواجب حمده على هذه النعمة، وقد كان فيها إعلام النبي بإنجاز مهمته وأداء رسالته، فهو أيضًا إنعام آخر من الله يستوجب حمده عليه، وفيها إيذان بدنو أجل النبي صلى الله عليه وسلم وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، وهو أمر يستدعي من النبي صلى الله عليه وسلم الإقبال على ما يحبه ربه سبحانه وتعالى من الأعمال، فأرشده تبارك وتعالى إلى الإقبال على التسبيح والحمد، ثناءً على الله، والاستغفار من

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ٢٠٢٤، فتح البيان، القنوجي ٤/ ١٤٣.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٤٠.

القصور الذي يتلبس بالعمل بطاعة الله أداءً لشكر الله على نعمه.

٦. نعمة إنزال الغيث من السماء.

بين الله سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه ما يقر به الكفار الذين جحدوا حق التوحيد في الألوهية لله عز و جل، من أنه وحده هو الذي ينزل المطر من السماء، فيحيي لهم الأرض بعد موتها، فتصبح بعد أن كانت جدباء عديمة النفع مليئة بالخيرات التي يكون بها معاشهم، وهم مع ذلك لايعقلون أن تمام نفعهم لا يكون إلا بتوحيدهم لله ربهم[(١)].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن رزق الله لعباده، فيكون الحمد فيها متعلقه إنعام الله عليهم بنزول الغيث، الذي يأتيهم بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، وقد قرر كثير من المفسرين أن مقام الحمد هنا هو الحمد على قيام الحجة على الكافرين[(٢)].

وهو أمر يحتمله النص، لكن السياق الذي جاء فيه الحمد أقرب لأن يوجّه ذلك لما لله على الناس من إنعام بإحياء الأرض بالمطر الذي ينزله الله عليهم من السماء، وهم لو بذلوا كل ما بوسعهم وتوسلوا لآلهتهم لكي تأتيهم بشيء من هذا لعجزوا عن القيام به؛ فله الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا، فهو الذي ينزل المطر الغزير الذي أيسوا من نزوله ليغيث الله به البلاد والعباد، من بعد قنوطهم منه وانقطاعه عنهم مدة، فظنوا أنه لا يأتيهم.

يقول المولى جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

وكانوا قد عملوا لذلك الجدب أعمالًا؛ فينزل الله الغيث وينشر به رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعًا عظيمًا، ويستبشرون بذلك ويفرحون؛ وذلك أن الله هو الولي الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالحهم دينًا ودنيا، فهو المحمود في ولايته وتدبيره[(٣)].

٧. نعمة الذرية الصالحة.

جاء الخبر عن إبراهيم عليه السلام وحمده ربّه لما أكرمه به من الذرية بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا، وذلك بعد أن انقطعت أسبابها، فقد كبرت زوجته سارة حتى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٩، تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ٤/ ١٩٢.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي٣/ ٥٦٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود٧/ ٤٦.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود٨/ ٣٢، تيسير الكريم الرحمن السعدي ص٧٥٩.

بلغت سنّ اليأس، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقد كان طمعه انقطع بعد بلوغه من العمر مبلغًا ربما لا يولد لمثله فيه، فتأتيه البشرى به؛ وفي ذلك من الفرح والسرور أكثر مما في مجيء الولد المرتقب المتوقع مجيئه، وفيه من النعمة برعاية الولد لهما في حال ظنهما أن لا يكون لهما من يقوم على خدمتهما، وفيها أن هذين الولدين نبيان سيقومان بعده على دعوته التي جاء بها، وضحى من أجلها، الملة الحنيفية التي تنسب إليه، وفيها حصر النبوة في ذريته، ليصبح أبا الأنبياء[(١)].

والحمد مطلقًا، لا يكون إلا لله عز وجل، ودليله قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقد اقترن الحمد بأل الاستغراقية التي تفيد استغراق جميع المحامد وجعلها لله جل جلاله وحده[(٢)]. والحمد مقيدًا، يجوز في حق غيره كما سبق بيانه في المعنى اللغوي، ودليله قول الله عز وجل: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

فقد أنكر عليهم حبهم أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ولم ينكر عليهم حب الحمد مطلقًا، يقول السعدي رحمه الله: «ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسّنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]»[(٣)].

وهو مما يجوز لغير الله سبحانه وتعالى، لكن بحسبه، فحمد الله يستلزم محبته وإجلاله وتعظيمه، وكذلك حمد الرسول يستلزم محبته وتوقيره وتعزيزه وإجلاله، وكذلك حمد الوالدين والعلماء وملوك العدل، وأما حمد الرب عبده فإنه يستلزم إعزازه لعبده، وإكرامه إياه، والتنويه بذكره، وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه[(٤)].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٢٠، تفسير المراغي، ١٣/ ١٦١، تفسير الشعراوي، ١٢/ ٧٥٨٢، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٥٧٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ١٣٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص١٦١.
(٤) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٩٤.

مقامات الحمد

إذا تأملنا المواطن التي ورد فيها الحمد، ظهر أنه ورد في سبعة مقامات، على ما سيأتي بيانه:

أولًا: الألوهية والتوحيد:

إن الألوهية والتوحيد يتطلبان الحمد على عدة أحوال، وقد جاءت مقامات الحمد فيه على النحو الآتي:

١ . الحمد في مقام التفرد بالألوهية.

الواجب أن يكون صاحب الحق في التأله وصرف العبودية واحد، فهذا ما يستقيم عليه الوجود، وبه ينتفي الاضطراب، يقول المولى عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ولو أن الناس عملوا بمقتضى هذا المعنى، لما كانوا على هذه الحال التي يعيشونها، بل ولما بدا مثل هذا الفساد الذي ملأ السماوات والأرض، وما هو إلا ببعض ما كسبت أيديهم.

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ويقول أيضًا: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فلو اتبع الحق أهواءهم في زعمهم أن الآلهة متعددة لكان ذلك سببًا في فساد السماوات والأرض[(١)]؛ حيث استنكروا الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى كما قال عنهم جل جلاله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

فكان المقام الأول الذي يكون فيه الحمد هو كون الإله واحدًا، ألا وهو الله جل جلاله.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

يحمد الله سبحانه وتعالى نفسه في هذه الآية على أنه هو الإله المتفرد بألوهيته بدلالة ما تقدم من تدبيره لخلقه، وانفراده بذلك، فلو كان غيره معه شريك في ذلك، لكان الحاصل أن لا يكون التدبير على ما ذكره، فلو أراد إهلاك قوم، ربما خالفه شريكه، ولو أراد نصر آخرين ربما خالفه، ولو صح وجود غيره لما صح تفرده بالكمال، ولصار في الوجود معبودان يتنازعان طاعة العباد، ولشق عليهم هذا الأمر مشقة بالغة[(٢)].

(١) انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ٣/ ٤٨٣، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٩٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٦٧.

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى لذلك مثلًا ليظهر للمتأمل ما فيه من حرج: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

المثل المضروب هو لرجل مملوك لشركاء ذوي أخلاق سيئة، يتنازعون طاعته، ليسوا على وفاق، ورجل مملوك لرجل واحد، ليس له شريك لتحدث بينهما المشاكسة وما يؤدي إلى سوء الأخلاق، فهو واحد متفرد محمود في ذاته وأوصافه وأفعاله، فلا يمكن لعاقل أن يقول: إن حال العبد في الصورة الأولى كحال الثاني، لذلك فالذي يختار الموضع الأول للعبد ليكون على حاله، لا يمكن أن يدرج في عداد العلماء[(١)].

وفي الصورة الثانية يأتي بالحمد على ألوهيته التي تفرد بها ما يدعو العاقل للاستسلام لها، وهذا في قوله جل جلاله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]؛ لأنه يتصف بكمال الحياة المستلزم لكمال الصفات، ويأمر عباده أن يخلصوا له في عبادته، وجاء بعبادة هي من أحب العبادات إليه، ألا وهي الدعاء، حيث جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ الدّعاء هو العبادة)[(٢)].

وهي سلاح العبد الذي إذا ما تسلح به كفي في كل ما يصلحه، وذلك بعد بيان فضله على الموجودات عامة والإنسان خاصة في الآيات السابقة لهذه الآية؛ مما يدعو السامع ليطمئن لإفراده لله بالعبادة[(٣)].

٢. الحمد في مقام الربوبية المطلقة.

تقدم الحديث عن ربوبية الله المطلقة، وهو أمر إذا ما تأمله القارئ في كتاب الله عز و جل يعلم أنه مقام عظيم من مقامات الحمد، وذلك بالتفكر في إحكام الله لهذ الخلق العظيم، في خلقه وتدبيره وحفظه، يستحق استغراق المحامد كلها لهذا الرب العظيم؛ لذا افتتح كتابه بهذه الآية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

فله الحمد التام، وإن عميت بصائر وطمست أبصار، فذهبت تسوي بين من كانت ربوبيته على هذه الحال، وبين سواه من خلقه، قال سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

سبحانه وتعالى، وله الحمد والجلالة،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٨٣، تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ٤/ ٤٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص٣٢٧. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص٢٦٥.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٧/ ١٠٤.

على عظمته وقدرته وكماله.

٣. الحمد في مقام تفرده بالقدرة الكاملة.

بأسلوب ضرب المثل مرة أخرى ينبه الله عباده على المعادلة الصحيحة بالقياس الصحيح لاختيار المعبود، ولكن بالمقارنة بين قدرتين، الأولى صاحبها عاجز ضعيف لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، وهو عالة على غيره، والثاني قادر نافع لنفسه، ويجري نفعه على غيره، فالفرق بينهما عظيم، وقد تساويا في الأصل والذات والهيئة والصورة، فكيف إذا افترقا في ذلك، بل الفرق بينهما من وجوه لا حصر لها[1].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

وبعد المثل يقرر النتيجة الصحيحة للمعادلة بأن له الحمد، وأن غيره لا يستحق أن يذكر، ومن قبل غير هذا فهو من جنس من حرموا العلم النافع.

٤. الحمد في مقام تفرده بالأسماء الحسنى، وانتفاء الولد والشريك والولي.

تقدم الحديث عن هذه الأسباب لإثبات الحمد له جل جلاله؛ فإن له الأسماء الحسنى التي لا يصح منها للمخلوق إلا ألفاظها، وليس إلا في بعضها، أما من جهة المعاني، فلا مماثلة ولا تشابه ولا تناظر، وهو الغني عن الولد اختيارًا لا اضطرارًا، كما لا يرقى إلى مشاركته في شيء أحد، ولا يستنصر بأحد من ذلة، وإن أمر عباده بنصره، فهذا على سبيل التكليف والابتلاء مع غناه عنهم، وهو الذي له التكبير المطلق وجوبًا على عباده، لما جاء من تأكيد ذلك بالمصدر، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١٠-١١١].

٥. الحمد في مقام تنزهه عما نسب إليه من صفات النقص.

ختم الله سبحانه وتعالى سورة الصافات وهي من السور التي استعرضت أحوال الأنبياء مع أممهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص٦١٣، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣٤.

﴿الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢]؛ ليرد سبحانه وتعالى بذلك على العقائد التي حملتها تلك الأمم، وجاءت الرسل لمحوها من وصف الله بما تنزه عز و جل عن الاتصاف به من صفات النقص، فنزه نفسه عمّا حوته عقائدهم، وأثنى على الرسل لما جاءوا به من العقائد الصحيحة في الله سبحانه وتعالى، وأثبت الحمد مطلقًا له جلّ جلاله[1].

ثانيًا: إرسال الرسل وإنزال الكتب:

١. الحمد في مقام فضل الله بإرسال الرسل.

لم يخلق الله سبحانه وتعالى الخلق عبثًا ولم يتركهم سدى، بل خلقهم لمهمة عبادته، وأرسل لهم من يبصرهم بطريق الهدى، ليخرجوهم من ظلمات الجهل، وينقذوهم من دياجير ظلم النفس، فقد خلقوا جهالًا، والظلم قرين الجهل، كما جاء وصف الإنسان في القرآن: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

فكان إرسال الرسل من أعظم ما يدل على عظمة الله وفضله وعدله؛ لذا كان أرسال الرسل مقامًا من المقامات التي يستحق الله الحمد عليها، قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

فالحمد لله، ومن معالم حمده في هذه الآية الرسل الذين أرسلهم سالمين من صفات النقص البشري، مبرئين من كل عيب[2]؛ ليرشدوا الناس إلى توحيد خالقهم، وبيان بطلان الشرك، وليكونوا لهم قدوة يتأسون بهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة:٦].

وإنه لما لهذا الأمر من قدر عظيم في أفعال الله عز و جل، جعله مكتنفًا بالتسبيح والتحميد، مقدمًا له بالتسبيح، معقبًا عليه بالتحميد[3]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

٢. الحمد في مقام إنزال الكتب.

مهمة الرسل كما سبق هي التعليم، لكنها مهمة مؤقتة بوقت محدد وتنتهي، والناس بعد الرسل يحتاجون لما يرجعون إليه عند الحاجة لتبين الحق، فما الذي يلجئون إليه، هل تركهم الله حيارى؟! جلّ الله أن يكون

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢٣٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٠٩.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٨٤، التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ٣/ ٢٩٤.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢١، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٣٦١.

منه مثل هذا؛ فإنه قد أنزل على رسله كتبًا ليحفظ الله لهم بها دينهم، وهم على ذلك ما حافظوا على هذه الكتب ولم يحرفوها أو يضيعوها، وهذا كان في الأمم السابقة، أما هذه الأمة فقد امتن الله عليها بأن تكفّل الله لها بحفظ كتابها من مثل هذا، لكن بقي لهم أن يحفظوه من الهجر والإعراض، والتصرف في المعاني على حسب الأهواء، فقد أنزل لهم كتابًا لا عوج له، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١].

وتكفّل لهم بالسلامة ما التزموا فيه الاستقامة، فقال جل جلاله: ﴿...فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وحذرهم من فساد أحوالهم، إذا هم لم يتبعوه أفعالهم، في دنياهم وأخراهم، فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

وأي ضنك بعد الضنك الناتج عن ورطة الإعراض عن الهدى وتنكب طريقه، والتخبط والحيرة والسعي في غير سبيله الموصل إلى المصالح، فلك الحمد ربنا على ما أنزلته؛ لتستقيم به معايشنا وحياتنا[1].

ثالثًا: الخلق والتدبير:

١. الحمد في مقام الخلق.

أمرٌ أقر به المشركون، ألا وهو خلق الله لهذا الوجود.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

ولم يتمكن الجاحدون من إقامة الحجة على إنكاره؛ بل إن أنفسهم مستيقنة به.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

فهو لقوة ثبوته، وشدة وضوحه أمر يدل على مقام الحمد لله تبارك وتعالى[2].

٢. الحمد في مقام التدبير.

إن من رحمة الله عز و جل أن تكفّل لعباده بما لا يطيقونه من الأعمال التي لا تقوم الحياة إلا بها، ومن بعض هذه الأعمال، إنزال الماء من السماء[3].

وهي أيضًا من القضايا التي يسلّم بها الكافرون، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٣٧٦، نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٣٦٢.

(٢) انظر: تفسير، المراغي ١٩/ ١٢٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٢.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٨.

﴿لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وهذا من كمال تدبيره لأمور عباده، مقام يتفرد بالحمد من كان له.

ومن تدبيره بعد أن فطر السماوات والأرض، أن خلق ملائكة مسخرة لطاعته بما كلّفهم به من الأوامر الشرعية التي يكون بها إصلاح العباد، والأمور الكونية التي يكون بها صلاح الكون على هيئات متباينة، كل بحسب ما أنيط به من مهام[(١)].

فالحمد له الملك العلّام، كما قال في هذا المقام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وإن تدبيره جل جلاله لا ينحصر في هذا الفعل، فهو المدبر للعالمين أجمعين كما يقول: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦].

ومن تدبيره ما قد يخفى على كثير من خلقه، حيث يعتقدون أنهم هم القائمون به، فمنه ما يكون من التدبير المضاف إلى العباد، من قيامهم بالتصرفات، وهذا التدبير في حقيقته تدبير من الله[(٢)]، يقول سبحانه وتعالى في بيان جواب موسى عليه السلام الذي ألهمه إياه عند سؤال فرعون له عن ربه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٠].

فالحمد لله أولًا وآخرًا، خالقًا ومدبرًا.

رابعًا: الرزق والإنعام:

١. الحمد في مقام الرزق.

إن حمد الله في مقام الرزق يأتي في سياق الحديث عن الرزق الذي تكفل الله سبحانه وتعالى به لخلقه جميعًا المكلف منهم والمسخر، المؤمن منهم والكافر، والناظر في ما يظهر من كيفية قيام الله سبحانه وتعالى بهذا الأمر لتصيبه الدهشة والحيرة، غير أن من آمن بالله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته تزول دهشته؛ لما يعلم من عظمة خالقه وكرمه وإحسانه لعباده، وإن أساءوا إليه، لكنه جل جلاله قد أمر عباده بأداء ما أوجب عليهم، فمنهم القائم بها على وجه التسخير، وهذا لا ثواب له ولا عقاب؛ لأنه لا خيار له، وهناك من كان الأمر متعلقًا باختياره، وهؤلاء لا يكون الرزق الذي رزقهم الله إنعامًا عليهم من كل وجه، فإنما هو إنعام من جهة كونه سببًا في طول عمرهم؛ لعلهم يستكثرون من الخير، وهؤلاء هم المؤمنون القائمون بشكر الله

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣١٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٥٣.

(٢) انظر: روح المعاني الألوسي ١٣/ ١٦٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٠٤.

على نعمه بطاعته فيما أمرهم به من القيام من الإنفاق والإحسان.

يقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧].

أو لعلهم يتوبون إلى الله إن كانوا من أهل العصيان، وهو إنعام عليهم من جهة أنه سبب في استمرار جنسهم، لكن لا تكون النعمة تامة به إلا أن يكون عونًا على طاعة الله، والقيام بحق شكرها[(١)].

فقد يرزق الإنسان بالولد فيكون سببًا في هلاكه[(٢)]، وبالمال فيكون سببًا في عطبه[(٣)]، وبالزوجة فتكون سببًا في فساده[(٤)]، وبالصحة فتكون سببًا في طغيانه[(٥)]، وكذا في سائر ألوان الرزق[(٦)]، إن لم يحسن تسخيرها لخدمته وإعانته على طاعة الله، وقد تقدم من ألوان الحمد ومقاماته ما يعدّ من باب رزق الله، في الحمد على ربوبية الله العامة في رزقه لجميع المرزوقين، وربوبيته الخاصة في رزقه لخواص عباده الذين آمنوا به.

٢. الحمد في مقام الإنعام.

إنعام الله على عباده مقام لا يطيق العباد القيام بحق شكره إلا أن يستجيبوا لله فيما كلفهم به، وهو شكر يسير بالنسبة لما تغمدهم الله به من مظاهر الإنعام، فنعم الله لا تحصى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨].

فهي أعمال يطيقها من غير حرج ولا مشقة، وأقوال يقولها من غير كلفة ولا مؤنة، وإن عجز عن شيء أعاضه بما هو أهون منه سبحانه وتعالى من رب عظيم الإنعام على عباده، ولكن أكثرهم لا يعلمون، والأمر لا يمكن استعراض مظاهره، لكن التأمل في بعضها يكفي، وقد سبق الوقوف معه بشيء من التفصيل الموجز.

خامسًا: النصر والتأييد:

منذ خلق الإنسان وعدوه يتربص به، ويكيد له، ويقسم على إهلاكه، وهو عدو إن خلّي بينه وبين الإنسان، فإنه على ما توعد به لقادر، فهو يرى الإنسان هو وقبيله من

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، سعيد بن على بن وهف القحطاني ص١٩.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٠٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٣٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦١٦، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٣١.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٨، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣٦٨.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٩٣..
(٦) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٣٨٠.

حيث لا يراهم، لكن الله سبحانه وتعالى أخسأه، وخنّسه، وقهره، وأبلسه من مراده، وهذا العدو قد كثر أتباعه وجنوده وخيلهم ورجلهم، لكنهم أمام من كان الله معه قليل، وقد أخبرنا عن نوح أنه تحدى قومه ولم يكن له سلاح إلا التوكل على الله.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

فالله سبحانه وتعالى هو الولي الحميد، الذي لا يتخلى عن أوليائه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:٨-١٠].

فقد توعدهم سبحانه وتعالى بجهنم وعذاب حريقها، وهو الذي لايعلم جنوده إلا هو، فجعل النصر حليفهم، والتأييد رديفهم، لو قاموا بما أرشدهم إليه.

١. الحمد في مقام التأييد.

ما جاء رسول إلى أمة من الأمم إلا كذبوه، ولكن الله سبحانه وتعالى أقام حجتهم على أقوامهم، فأيدهم بالمعجزات، فأفحم مناوئيهم، وأبهت معاديهم، وألجم معانديهم، وأعجز مخالفيهم، فله الحمد على صدقه وعده في تأييد أوليائه، وإن من أظهر الأمثلة على ذلك رسول الله إبراهيم عليه السلام، فكم من موقف قطع الله حجة أعدائه، حين كسر آلهة قومه، وحين مناظرة النمرود الذي أخبر الله عنها في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وغيرها من المواقف التي أيد الله فيها إبراهيم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣][(١)].

ومثل هذا كثير قد أيد الله عز و جل به رسله عليه السلام فكانت عاقبة المعاندين للحق قوله عز وجل: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥][(٢)]، وإن من تأييد الله لرسله بإقامة

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٦٠، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٩، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي ١/ ١٥٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٠٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٦٣، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٨٦.

الحجة على مخالفيهم قطع لدابر القوم الذين ظلموا، فالحمد لله على كمال نصره لأوليائه بكل ألوان النصر والتأييد.

٢. الحمد في مقام النصر.

عجز أعداء الله وأعداء أوليائه عن تكذيبهم، وهذا مثال لأمة من هذه الأمم أمة فرعون.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

ولم يكتفوا بمجرد التكذيب، بل طغوا وبغوا سعيًا في ردهم عن دينهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٣-٢٦].

فشنوا حروبهم، بشتى صنوفها، النفسية، والإعلامية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية، ولم يتركوا ميدانًا إلا ورفعوا فيه لواء حربهم على أهل الحق، ومن نصر الله فإن الله عز و جل ناصره[(١)].

يقول وهو أصدق القائلين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢].

وهذه سنة لله ماضية، لكن ربما لم يأت النصر على ما يريده أولياء الله من العجلة، فيتأخر؛ وما ذاك إلا لأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما لا يعلمون، وإن في صبرهم على تأخره من الأجر الذي لو علموه لفرحوا بالابتلاء أكثر من فرحهم بالعافية[(٢)].

ولكن حكمة الله تقتضي أن يحجب عنهم ليسعوا في رفع البلاء، وإعمار الأرض الذي كلفهم الله به من القيام بألوان الطاعات ما بين صبر على الضراء، وشكر على السراء، ثم يأتيهم النصر في وقت لو تقدم عليه لما قرت أعين المؤمنين بما تقر به حين يأتي في وقته الذي وقّته الله له[(٣)].

وكذلك ما كان من نصر نبينا صلى الله

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٣٩، تفسير المراغي، ٢٤/ ٦٠، روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٣١٥، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٢٧٨، التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١٠٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٧٢، التفسير القيم، ابن القيم ص١٤٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٣٩، تفسير المراغي، ٢٤/ ٦٠، روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٣١٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٦.

عليه وسلم، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣].

فالحمد كل الحمد، لله الذي يأتي بنصره في أنسب أوقاته، وأحسن هيئاته.

سادسًا: الهداية:

الهداية التي من الله على ضربين: هداية الدلالة والإرشاد، وهي هداية لجميع المخلوقات، فمنها ما يكون بالتسخير[(١)]، وهي شاملة لكل الأحياء والجمادات، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

ومنها ما يكون بالتخيير، وهي خاصة بالمكلفين من خلقه، وذلك بهداية الدلالة والإرشاد، وهداية أخرى غيرها هي هداية التوفيق والسداد، وكل منهما لها مقامها الذي يحمد الله عليه.

١. الحمد في مقام هداية الدلالة والإرشاد.

والهداية التي وردت في مقام الحمد هي الهداية التي يستوي فيها جميع من بلغتهم الرسالات، ونزلت عليهم الآيات البينات، بالهدايات الواضحات، ليخرجهم مولاهم من درك الظلمات، ووحل الضلالات، إلى طرق السعادة والكمالات، فله بذلك الفضل والمنة، لكن العباد منهم من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يزكّ بها نفسًا، وهذا أمر يذم عليه من أعرض عن رحمة ربه، ورفض أن يكون من أهل حزبه.

إنها الهداية التي تمثلت بإرسال رسله، وإنزال كتبه، وبإقامة الآيات في الأنفس والآفاق على تقرير ما فطرهم عليه، ودعاهم إليه، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣].

لكن هذه لهداية وحدها وإن كانت كافية في بيان الحق، إلا أنها ليست التي تحصل بها النجاة والفوز والفلاح، يقول سبحانه وتعالى في بيان شأن أمة من الأمم التي هداها الله بهذه الهداية: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

فالحمد لله على بيان الحق[(٢)]، بأوضح الآيات، وأظهر المعجزات، إلا أن هناك مقامًا آخر للحمد على الهداية التي كانت سبب الخيرات.

٢. الحمد في مقام هداية التوفيق

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٣٦، ٣١٧.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٢٣٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٣٠٧، تفسير المراغي، ٢٤/ ١١٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٨.

والسداد.

وهي التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فهي الهداية إلى سعادة الدارين، فالقائلون أهل الجنة بعد دخولها في الدار الآخرة، وأما عن حالهم في الدنيا فهم الذين ظفروا بالحياة الطيبة كما وعد الله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

فالحياة الخالية من الشقاء والضلال هي الحياة الطيبة؛ وما بلغوها إلا لأنهم وفقوا للقيام بأسبابها من الإيمان والأعمال الصالحات.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

وقد حازها من هذه الأمة الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

إنها هداية التوفيق والسداد من الله عز وجل، إنه فضل الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وهو أعظم فضل على العبد ليقوم بحمد الله عليه، مع غيره من الإفضال[(١)].

سابعًا: الإثابة والجزاء:

ما أعظمها من غاية ينالها من حبسوا أنفسهم عن ملذات الدنيا وشهواتها، وصبروا على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله، لينجز الله لهم وعده الذي آمنوا به، وعملوا من أجله.

يقول الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

فقد فتح الله عليهم، وهداهم إلى خير القول في الآخرة، كما هدوا إلى مثله في الدنيا[(٢)].

فله الحمد على ما أنجزه لهم من الوعد الذي قد جاءتهم به الرسل، ويخبرنا الله عن حالهم بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٣٩، الوجيز، الواحدي ص٧٣١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٦٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٠٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٢٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦٧، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٤٨٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٢٣، التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤/ ٧٢.

﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣].

نعيم دائم، وثواب طمعوا بتحصيله، ففاق الذي وجدوه ما توقعوه[١]، فصار مفتتح كلامهم بالتسبيح الذي ألهموه، أحشاؤه سلام عليهم وفيهم وبينهم، وأعلاه وأرقاه حمدهم لربهم جل في علاه[٢].

وهذا الخبر عنهم جاء في قول الله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

وقد بين حالهم النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه جابرٌ، قال: سمعت النّبيّ صلى الله عليه وسلم، يقول: (إنّ أهل الجنّة يأكلون فيها ويشربون، ولايتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون، قالوا: فما بال الطّعام؟ قال: جشاءٌ ورشحٌ كرشح المسك، يلهمون التّسبيح والتّحميد، كما تلهمون النّفس)[٣].

فمقام التسبيح والتحميد مقام يقتضي الطهارة، وهم في تلك الحال في أطهر مكان وهو الجنة، وعلى أطهر حال، فلا نجس ولا قذر، فلا أجمل ولا أبهى مما هم عليه، فيتأهلون لتلك الرتبة، ويلهمون ما يحبه ربهم منهم ليزدادوا من فضله[٤]، ويتنعموا برضوانه، والحمد لله رب العالمين في هذا المقام حمدًا حتى يرضى، على ثوابه الذي به أهل الجنة أرضى.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٨٥، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ٢/ ٣٦٨، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٣٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًا، ٤/ ٢١٨٠، رقم ٢٨٣٥.

(٤) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٣٩٣، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٥٢٤، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، مجموعة علماء ص٢١١.

الحامدون

أولًا: الله الحامد الأعظم:

القرآن الكريم مليء بحمد الله عز وجل لنفسه، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقوله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام:١].

وغير ذلك من الآيات التي سبق ذكرها.

ثانيًا: الملائكة عليه السلام:

الملائكة الكرام أكثر المخلوقات تسبيحًا وتحميدًا لله عز وجل.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

ويقول جل جلاله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وإن تسبيحهم لله وتحميدهم له بالنسبة لهم، كالطعام والشراب والنفس بالنسبة للإنسان، بل إنهم قد ألهموا القيام به[1]، كأنما هو عمل غريزي لا كلفة فيه، ولا يتودّع لسواه، يلتزم ولا يصدر عنه، ولا يترك لعداه، فهو نعيمهم وكمال لذتهم أن يقوموا بعبادة المولي به.

ثالثًا: الأنبياء عليهم السلام:

شواهد القرآن على حمد الأنبياء لربهم كثيرة، وقد جاءوا موصوفين بالحمد بصور مختلفة، فهم أهل الطاعة والاستجابة لأوامر الله سبحانه وتعالى.

فجاءت صفتهم على أنهم مأمورون به.

وقد وردت هذه الصفة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:٣].

وجاءت لنبي الله نوح عليه السلام في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨].

وجاءت بصيغة الإخبار عن نبيّين كريمين قال الله فيهما: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥].

وكذلك لنبي الله موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وهذه أمثلة لما جاء من حمد الأنبياء

(١) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي ٢/ ٣٤٠.

والرسل لربهم، وإن كانت حالهم دوام الحمد، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا رأى ما يحبّ قال: (الحمد للّه الّذي بنعمته تتمّ الصّالحات)، وإذا رأى ما يكره قال:(الحمد للّه على كلّ حالٍ)[1].

رابعًا: المؤمنون:

ومن جملة الحامدين: المؤمنون.

وقد ساروا على طريق الأنبياء، حتى استحقوا المدح والثناء بذلك، فقد أثنى الله عليهم في كتابه بقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقد جاء في الثناء عليهم بيان أن من أبرز عباداتهم الحمد، حيث ذكرها أولًا، فالحمد صفة لازمة لهم، كما كانت للأنبياء عليه السلام أو غالبة على حالهم[2]، بحسب ما تقتضيه مقاماتهم، بينما العبادات الأخرى لها أوقات وأحوال خاصة، تؤدى فيها، أما الحمد فهم يحمدون الله قيامًا وركوعًا وسجودًا، ومجاهدين، وهم تاركون لما حرم الله، حافظون لحدوده، وهم قيام وهم نيام، وفي كل حال.

وعندما يدخل المؤمنون الجنة، يحمدون ربهم، مستشعرين عظيم إنعامه عليهم، حين يجدون ما وعدهم به.

يقول الله عنهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

فهم في هذه الحال قد بلغوا مأمنهم الذي يرجونه، وتحقق لهم النعيم الذي كانوا يسألونه[3].

خامسًا: سائر المخلوقات:

السماوات السبع وما حوين، والأرضون السبع وما طوين، بل كل مخلوق يسبح بحمد الله عز وجل[4].

يقول جل جلاله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذا التسبيح وهذا الحمد على الحقيقة، ولكن الإنسان بما أوتي من أدوات للإدراك

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، فضل الحامدين ٢/ ١٢٥٠، رقم ٣٨٠٣. وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٥٣٠، رقم ٢٦٥.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٢٦، تفسير المراغي، ١١/ ٣٣.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ٢٤/ ٣٩.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٣٥، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ٢٩٦.

عاجز عن فقه هذا التسبيح[1]، فالله يقول: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ولم يقل: لا تسمعون أو ترون.

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، التسبيح، الذكر، الذنب، الشكر، المدح

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٥٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥٩.

الحوار

عناصر الموضوع

مفهوم الحوار	١٢٤
الألفاظ ذات الصلة	١٢٦
مقاصد الحوار	١٢٩
أنواع الحوار في القرآن	١٤٠
قواعد الحوار	١٦٤

مفهوم الحوار

أولًا: المعنى اللغوي:

(الحاء والواو والراء) ثلاثة أصول: أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دورًا، وتعود أصل كلمة الحوار إلى (الحور) وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، يقال: (حار بعدما كار)[1]، والحور النقصان بعد الزيادة؛ لأنه رجوع من حال إلى حال، والتحاور: التجاوب، نقول: كلمته فما حار إلي جوابًا، أي: ما رد جوابًا[2]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤].

أي: «لن يرجع»[3]، وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة[4].

«تحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم»[5].

ويقصد بالمحاورة «المجاوبة ومراجعة النطق والكلام في المخاطبة»[6].

إذن فالحوار لغة تعني المراجعة في الكلام بين اثنين فأكثر، فمعناه في اللغة واسع يشمل كل مناقشة بين اثنين أو أكثر في أي موضوع.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الحوار هو: «نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب»[7].

الحوار هو: «محادثة بين شخصين أو فريقين، حول موضوع محدد، لكل منهما وجهة نظر خاصة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة، أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر، بعيدًا عن الخصومة أو التعصب، بطريق يعتمد على العلم والعقل، مع استعداد كلا الطرفين

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٨٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٩٧.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥١٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢١٨.
(٥) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٤٨٧.
(٦) تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٣١٧.
(٧) الحوار، آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحي بن محمد زمزمي ص ٣٢.

لقبول الحقيقة ولو ظهرت على يد الطرف الآخر»[1].

ويلاحظ من التعاريف الثلاثة السابقة اتفاقهم على أن الحوار حديث متبادل بين طرفين أو أكثر، ويعجبني التعريف الثالث للدكتور بسام عجك، فهو تعريف جامع مانع مكتمل الأركان.

العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

هناك علاقة قوية بين معنى الحوار في اللغة والاصطلاح، فالحوار هو نشاط عقلي ولفظي يقدم المتحاورون الأدلة والحجج والبراهين التي تبرر وجهات نظرهم بحرية تامة من أجل الوصول إلى حل لمشكلة أو توضيح لقضية ما، وهذا ما يتفق عليه المعنيون.

ولم يرد لفظ (الحوار) في القرآن الكريم، وإن ورد أصل مادته (حور).

(١) الحوار الإسلامي المسيحي، بسام عجك، ص ٢٠

الألفاظ ذات الصلة

١ الجدل:

الجدل لغةً:

اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وجادله أي: خاصمه مجادلة وجدالًا، والجدل: مقابلة الحجة بالحجة؛ والمجادلة: المناظرة والمخاصمة، والجدال: الخصومة؛ سمي بذلك لشدته[(١)].

الجدل اصطلاحًا:

الجدل: «هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره والنظر قد يتم به وحده»[(٢)].

وقيل: مقابلة المتنازعين الحجة بالحجة على سبيل التدافع والتخاصم؛ بالعبارة أو ما يقوم مقامها؛ لإلزام الخصم غالبًا، وتقرير المذهب، سواء أكان حقًّا أم باطلًا.

الصلة بين الحوار والجدل:

كل من الحوار والجدال عبارة عن تبادل للحديث بين أطراف معينة، ولكن القصد مختلف فالجدال كما بين الإمام أبو زهرة الغرض منه بقوله: «والجدل يكون الغرض منه إلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال»[(٣)]، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[العنكبوت: ٤٦]

قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾[النساء: ١٠٩].

٢ المناظرة:

المناظرة لغةً:

المناظرة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (نظر)، ومن معانيها تأمل الشيء بالعين المجردة، وتقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، والتأمّل والفحص، وقد يراد بالنظر المعرفة الحاصلة بعد الفحص، والطلب؛ يقال: انظر لي فلانًا، أي: اطلبه، والمقابلة؛ والعرب تقول:

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٠٥، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ١٧٩.
(٢) الكليات، الكفوي ص ٣٥٣.
(٣) تاريخ الجدل، ص ٥.

داري تنظر إلى دار فلان، ودورنا تناظر، أي: تقابل، والإمهال والترقب والتوقع واللّمحة السّريعة[1].

المناظرة اصطلاحًا:

المحاورة بين طرفين متضادين في الرأي، والقائمة على الأدلة المنطقية والبراهين والإحصائيات الدقيقة، يقصد كل منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر بأدب رفيع، مع الرغبة في إظهار الحق، والراجح على المرجوح، وتحقيق الفائدة المبنية على المناصحة والحلم[2].

الصلة بين الحوار والمناظرة:

وهكذا يتبين أن المناظرة ما هي إلا محاورة من أجل الوصول إلى الصواب.

٣ المحاجة:

المحاجة لغةً:

الحجّ: الغلبة بالحجّة، يقال: حجّه يحجّه حجًّا، إذا غلبه على حجّته، ومنه الحجّة بالضّمّ: الدّليل والبرهان، وقيل: ما دفع به الخصم، وإنما سمّيت حجّةً لأنّها تحجّ، أي: تقصد؛ لأنّ القصد لها وإليها، وبها يقصد الحقّ المطلوب، وجمع الحجّة حججٌ وحجاجٌ[3].

المحّاجة اصطلاحًا:

قدرة الفرد على توظيف ما يمتلكه من الأدلة والبراهين العقلانية الموضوعية في قضية خلافية؛ لإثبات دعواه، وأيضًا ح فكرته، مع تفنيد حجج مخالفيه، والوصول بهم إلى الاقتناع بهذه الفكرة، والإيمان بها، دون إلزامهم باتباعها، والسير عليها[4].

الصلة بين الحوار والمحاجة:

هناك فرق بين الحوار والمحاجة حيث إن الحوار هو تبادل حديث بقصد الوصول لحل

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٤٤، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢١٥، تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ٢٤٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٣٢.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٥٠، آداب البحث والمناظرة، محمد الأمين الشنقيطي ص٤، حلية طالب العلم، بكر أبو زيد ص٦٨، منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، عثمان علي حسن ١/ ٣٠.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٩-٣٠، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٤٥٩-٤٦٤.

(٤) انظر: المحاجة طرق قياسها وأساليب تنميتها، طريف شوقي محمد ص٣، الجدل في القرآن الكريم، خصائصه ودلالته دراسة لغوية دلالية، يوسف عمر العساكر ص٣٠.

مشكلة ما، أما المحاجة ففيها يثبت كل طرف صحة دعواه، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾[البقرة: ٢٥٨]

قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾[الأنعام: ٨٠].

٤ المخاصمة:

المخاصمة لغةً:

المخاصمة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (خصم)، ويأتي بمعنى الجدل والمنازعة؛ يقال: خاصمه خصامًا وخصومة، أي: جادله ونازعه، وبمعنى الشّقّ؛ يقال للخصمين: خصمان؛ لأخذ كلّ واحد منهما في شقٍ من الحجاج والدّعوى، والطرف والجانب والزاوية، تلقين الحجة؛ يقال: أخصم صاحبه إذا لقّنه حجّته على خصمه[(١)].

المخاصمة اصطلاحًا:

اللجاج في الكلام من أجل المعارضة والمعاندة ابتداءً؛ يستوفي به المخاصم مراده من خصمه، في جو من التشاحن والتباغض ورفض الآخر[(٢)].

الصلة بين الحوار والتخاصم:

هناك فرق واضح بين المعنيين حيث إن الأول المقصود منه إيجاد حل لمشكلة ما بالتوافق، أما الثاني فهو يؤدي للتنازع دون إيجاد حلول ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢].

قال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾[الحج: ١٩].

(١) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري ٧/ ١٥٤-١٥٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٥٠، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٨٠-١٨١.

(٢) انظر: فن الحوار، فيصل الحاشدي ص٢٠.

مقاصد الحوار

القرآن الكريم تناول كثيرًا من الأدلة والبراهين التي حاور بها وحاج بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة، وأبطل كل شبهة فاسدة، فللحوار في القرآن الكريم مقاصد عدة، منها: إقامة الحجة على البشر و الهداية إلى الحق وحل الخلافات، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: إقامة الحجة:

إنّ من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم من أجل إقامة الحجّة على العباد، والدّلالة على وحدانيّته سبحانه وتعالى، وعلى صدق ما جاؤوا به من رسالات، وبلّغوا به دين الله في الأرض، هو الحوار فالغاية من الحوار إقامة الحجة ودفع الشبهة والفاسد من القول والرأي، والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق.

من أجل ذلك ورد السياق القرآني الجليل مصدرًا بصيغة الأمر (قل) المشعرة بأن الداعية ينبغي أن يتخذ من القول المبين والحجة البالغة منهاجًا وغاية، ونجد فعل الأمر: (قل) وردت (٣٣٢) مرة في القرآن الكريم، [١] من تأملها وتدبرها وقف على منهاج متكامل في صيغ البيان وطرائق الأداء ومسالك إقامة الحجة في إحقاق الحق ودحض الباطل [٢].

- في تقرير التوحيد يقول عز وجل: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].
- وأيضًا في الرد على المشركين قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٧].
- وأيضًا في الرد على منكري النبوة قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٧١.

(٢) انظر: وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار، عبدالرب آل نواب، ص ٣٤.

﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٤٦-٥٠].

نلاحظ من الآيات السابقة كيف أقام القرآن الكريم الحجة على الناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم، وأظهرت قدرة الله عز وجل وعظيم شأنه جل جلاله.

وإذا نظرنا في المحاورات التي أثبتها الله في كتابه العزيز، فسنلاحظ صنفين منها:

صنف يبتدئ فيه المتحاورون بالتخاصم من أول الأمر، كل يريد إثبات دعواه فيما ذهب إليه، وهذا الصنف نستطيع تسميته «مناظرة أو جدل».

ومثال ذلك: عندما حاور سيدنا إبراهيم عليه السلام النمرود في المناظرة التي أثبتها الله عز وجل في آياته الكريمة.

ومن الواضح من خلال هذه الآية، أن النمرود بدأ مخاصمًا لإبراهيم عليه السلام من أول الأمر، وهذه مناظرة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فهذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكرًا لوجود الله أصلًا إنما كان منكرًا لوحدانيته في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده، وهذا شأن الكثير من الناس في الجاهلية يعترفون بوجود الله، ولكنهم يجعلون له اندادًا ينسبون إليها الأعمال، وسبب هذه المحاجة لأنه أعطاه جل جلاله الملك فبطر وتكبر ولم يشكره سبحانه على هذه النعمة، بل استعملها في غير ما خلقت له فنسب لنفسه الإحياء والإماتة بطريقة سخيفة غير منطقية[1].

وكان رد سيدنا إبراهيم عليه السلام على ذلك الملك في مقام التدليل على وحدانية الله أنه عز وجل هو المستحق للعبادة، ربي وحده هو الذي ينشئ الحياة ويوجدها، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها، ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك، فالتحدي قائم، والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم، أو الجدال والمراء، وكان التسليم أولى والإيمان أجدر، ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر، فيبهت ويبلس ويتحير، ولا يهديه الله إلى

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٩٧ التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٥٩٣.

الحق؛ لأنه لم يتلمس الهداية، ولم يرغب في الحق ولم يلتزم القصد والعدل[1].

صنف ثان يبتدئ فيه الطرفان لا على أنهما خصمان يختلفان في الاعتقاد والمذهب، بل هما شريكان فيه، وهذا ما نستطيع تسميته بالحوار.

حوار آخر في القرآن لإبراهيم عليه السلام أيضًا وهو يحاور قومه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

فسيدنا إبراهيم عليه السلام يحاكي قومه في اعتقادهم، ولا يعلن مخالفته لهم، ولم يسفه أحلامهم، فذلك أدعى إلى إنصاتهم لقوله، وتفهمهم لحجته، ثم لم يلبث أن كرّ على قولهم ينقضه، ولكن من طرف خفي ينبئ عن سداد في الرأي ونفاذ للبصيرة[2].

ولم يكن إبراهيم عليه السلام يعتقد هذه العبادة، ولكنه نصّب نفسه في أول الأمر شريكًا لقومه فيها، استدراجًا لهم واستهواء لقلوبهم، حتى إذا أحس منهم الإصغاء راح ينقض هذه العبادة شيئًا فشيئًا، وقومه لا يبدون التخاصم معه، حتى إذا أعلن انصرافه عن آلهتهم وبراءته من عبادتهم، عندها حاجوه في ذلك الذي فاجأهم به حيث لا يتوقعونه، وفي هذه المرحلة بدأت المناظرة.

فيلاحظ هنا أنه بدأ معهم شريكًا في الاعتقاد، وهو يحاورهم ويحاورونه في جو من الهدوء حتى إذا أعلن مخالفته لهم انقلب الحوار إلى مناظرة بينه وبينهم كل يريد إثبات رأيه[3].

فلما ستره الليل بظلامه، أبصر كوكبًا ظاهرًا في السماء فقال عليه السلام مستعظمًا شأن هذا الكوكب: هذا ربي، مجاراة لقومه وتأليفًا لقلوبهم، حتى بلغوا بقلوبهم إلى التأمل في موضع الحجة، فلما غاب هذا الكوكب وأفل قال: لا أحب اتخاذ الآفلين أربابًا، لأن الرب الحقيقي، الجدير بالربوبية، يستحيل عليه التغير والانتقال من حال إلى حال؛ لأن ذلك من شأن الحوادث فلم ينتفعوا بهذا الاستدلال[4].

فانتقل إلى الاستدلال التالي حين أبصر

(١) انظر: منهج القرآن الكريم في إقامة الدليل والحجة، مجاهد محمود ص١٠٢.

(٢) انظر: قصص القرآن، جاد المولى، ص١٣٢.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٣/ ١٢٧٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٦.

إبراهيم القمر قال مستعظمًا شأنه: إنه ربه، مجاراةً لقومه أيضًا، فلما أفل وغاب قال إبراهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: ٧٧]، قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك، مع أنه عرّض في كلامه بأن له ربًّا يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك؛ لأنهم قائلون بعدة أرباب، وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربًّا غير الكواكب.

ثم عرَّض بقومه أنهم ضالون وهيأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون.

وإنما تريث إلى أفول القمر فاستدل به على انتفاء إلهيته، ولم ينفها عنه بمجرد رؤيته بازغًا، مع أن أفوله محقق بحسب المعتاد؛ لأنه أراد أن يقيم الاستدلال على أساس المشاهدة على ما هو المعروف في العقول؛ لأن المشاهدة أقوى.

فلما طلعت الشمس قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾، فعلل ربوبية الشمس بكونها أكبر من الكوكب والقمر، وهي أكثر إضاءة، فأولى باستحقاق الإلهية[1].

فلما غابت الشمس أعلن براءته مما كانوا يعبدون من دون الله، وأعلن الإيمان الذي استقر في قلبه حقًّا ويقينًا و بين عليه السلام بالحجة الدامغة على أن لا اله إلا الله عز وجل، والذي يستحق العبادة الذي أنشأ السموات والأرض وما فيهما مائلًا عن الاعتقادات الباطلة، إلى عقيدة التوحيد المؤيدة بالدلائل[2].

وعن هذا يقول الزمخشري رحمه الله تعالى: «فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أن شيئًا منها لا يصح أن يكون إلهًا، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثًا أحدثها، وصانعًا صنعها، ومدبرًا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها، هذا ربّي، قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأنّ ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة أنه لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال»[3].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن القرآن الكريم قد أقام الحجة على المشركين بالله بالحوار بطريق الاستدلال العقلي للوصول إلى الحقيقة الكامنة بأن لا إله يستحق العبادة سوى الله جل جلاله.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٢١-٣٢٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٨٠، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٣٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٠.

ثانيًا: الهداية إلى الحق:

كشف الشبهات والرد على الأباطيل، لإظهار الحق وإزهاق الباطل هو واحد من مقاصد الحوار في القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ومن أمثلة هذه الحوارات الهادية للحق في القرآن الكريم:

١. حوار الرجل المؤمن مع صاحبه الكافر.

والحوار في الآيات التالية ينحو نحوًا إيجابيًّا لإحقاق الحق وإبطال الباطل، والآيات تقرر أن الطرفين المتحاورين ليسا عدوّين ابتداءً.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٧ - ٤١].

وفي هذه الرؤية العاقلة، والحوار البناء نرى بصيصًا من نور في قلب وفكر يعرف طريق الحق، فينصح ويبذل الخير لغيره حتى يهتدي، يصور هذا كله في صورة رجلين:

أحدهما: له جنتان مثمرتان، وقد حوتا ألوان الثمار، وزخرتا بكل ألوان الجمال البادي في المياه الجارية، والزروع، والنخيل، والأعناب، مما كان دافعًا بصاحبها إلى الغرور، والتباهي على الآخر بكثرة ما لديه، وأنه لن يفنى أبدًا، وأن حظه في الآخرة، إن كانت هناك آخرة، سيكون أوفر ثراء، وأكثر رزقًا، ظلم نفسه بهذا التفكير الأخرق، وبكفره، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا، ونسيانه للآخرة، وبذلك عرضها للعقاب يوم القيامة[(١)].

والثاني: المؤمن الواعظ لأخيه الناصح له بالحوار الهادئ الزاجر عما هو فيه الآخر من الكفر الراضي عن الله عز وجل والذي ادخر ما عنده للآخرة التي هي خير وأبقى[(٢)].

هذه صورة مؤلمة لمن يخدع بالمظاهر البراقة التي قد تخدع، وتغري بما لا تحمل في طياتها من القيم الرفيعة التي يعتز بها الإنسان، يخدع بمتاع زائل، وجاه عريض، وسلطان مزيف، ولذائذ رخيصة، وينسى تلك القيم التي تعلي من شأن الإنسان، وإن كان فقيرًا مجردًا من المال والسلطان، من جهاد النفس، والزهد في الحياة، والعلم، والعمل، والبذل في سبيل الدعوة فالحق

(١) السراج المنير، الشربيني ٢/ ٣٧٥.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٢.

بين وإن كان الباطل الخبيث أوفر حظًّا من الطيب[1].

وصيغة (يحاوره) و(تحاوركما) تقتضي المشاركة من الطرفين في هذا النقاش والحوار وأن كلًّا منهما يسمع للآخر دون مصادرة للرأي أو قصدٍ لمجرد الإفحام، والملاحظ أن الطرف المؤمن في هذا الحوار على درجة من الوعي الديني والثبات والعلم، فكان الهدف من هذا الحوار أن يرجع الكافر الضال عما هو فيه من الغي والظلم لنفسه ويعود للحق الذي لا مراء فيه، وأخيرًا اتضحت هذه الحقائق أمام عينيه وتكشفت الحقائق، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ويقول ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢].

٢. حوار موسى عليه السلام وفرعون.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩-٥٢].

أمر الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام بالتوجه إلى فرعون وإخباره أنهما رسولان من ربه، وأن يطلبا منه رفع العذاب عن بني إسرائيل، ويخبراه أن السلام على من اتبع الهدى، والعذاب على من كذب وتولى فتوجها إليه وأبلغاه، فبدأ يناقشهما فيما جاءاه به.

وأول ما بدأ به مناقشته أن قال: إذا كنتما رسولي ربكما الذي أرسلكما فأخبراني من ربكما الذي تدعوني إلى الإيمان به يا موسى.

فكان جواب موسى عليه السلام لفرعون: ربّنا يعرف بصفاته، ولا يدرك بذاته، فهو الذي أعطى كل شيءٍ ما خلقه عليه من المادة والصورة والوظيفة، وأعطاه ما يحقق به ما خلق له، وهداه إلى تحقيقه[2].

فلما وضح الحق في جانب موسى عليه السلام وظهر جليًّا للعيان، خاف فرعون أن يتأثر الناس بما قاله موسى عليه السلام، فيكفوا عن القول بألوهيته، والاندماج في عبوديته، فلهذا وجه إليه سؤالًا يريد أن يحرجه به، ويظهر ضعفه أمام سامعيه، فقال له: إن كنت رسولًا يا موسى فأخبرني: ما حال أهل القرون الماضية، وماذا جرى عليهم من الحوادث مفصلة؟ فقال موسى عليه السلام ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

فعلم أحوال القرون الماضية يختص به

(١) انظر: عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، الطهطاوي ص ٢٦٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٦٢.

ربّي الذي أرسلني وما أنا إلا عبد له تعالى، فلا علم لي إلا بما أخبرني من شئون الرسالة، وقد بلغ من علم الله أنه سبحانه وتعالى لا يضل ولا يغيب عنه شيء في الوجود، فلا يفوته علم شيءٍ منه ابتداءً، ولا ينسى معلومًا دخل دائرة علمه، فقد أحصى وأحاط بكل شيءٍ علمًا أزلًا وأبدًا[1].

هذا هو ديدن الكفار والظالمين على مر الزمان، جدال عقيم من أجل إضلال الناس، وغطوا أعينهم عن الحق وأبوا إلا المشي في طريق الضلال وكذبوا الرسل بما جاؤوا به من عند الله، فقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

يجادلون في آيات الله جل جلاله الواضحة البيان، المؤيدة بالبرهان، ويكفرون بالحق مع وضوحه، فهمت كل أمة برسولهم ليقتلوه، وخاصموا رسولهم بالباطل ليبطلوا بجدالهم إياه وخصومتهم له الحق الذي جاءهم به من عند الله، من الدخول في طاعته، والإقرار بتوحيده، والبراءة من عبادة ما سواه.

فما كان عقابهم إلا أن أخذ الله عز وجل الذين هموا برسولهم ليأخذوه بالعذاب، فأهلكهم وجعلهم للخلق عبرة، ولمن بعدهم عظة[2].

ونظير ذلك من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق، وإقامة البرهان على صحته، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين، بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة، قوله عز وجل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

فهنا أيضًا يجادل الذين كفروا رسلهم بالجدال الباطل، ليزيلوا به الحق الذي جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه، والله سبحانه وتعالى متم نوره ولو كره الكافرون، فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الاضمحلال والزوال[3].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «ويستفاد من الآية أن كل إنسان يجادل من أجل أن يدحض الحق فإن له نصيبًا من هذه الآية، يعني: أن فيه نصيبًا من الكفر والعياذ بالله؛ لأن الكافرين هم الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق»[4].

(١) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٦/ ١٠٣٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٥٣.

(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ٣١٠.

(٤) تفسير القرآن الكريم، سورة الكهف، ابن

ثالثًا: حل الخلافات:

الحوار الهادئ مفتاح للقلوب وطريق إلى النفوس الطيبة وسبيل مضمون لحل الخلافات.

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالحوار المشتمل على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع، وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها والتي تساعد في حل المشكلات، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، أي: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما أمر الله عز وجل بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقًّا وغرضه صحيحًا، وكان خصمه مبطلًا وغرضه فاسدًا، والغرض الرئيس من ذلك الجدال الحسن هو السير قدمًا نحو الأفضل[1].

فمن ثمرات الحوار تضييق هوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر، وإيجاد حل وسط يرضي الأطراف في زمن كثر فيه التباغض والتناحر.

ومن ضمن المشكلات التي تحل بالحوار من أجل تقارب وجهات النظر ومحاولة إيجاد حلول مرضية المشاكل الزوجة، ولنا في القرآن الكريم أسوة حسنة في الحوار الجاد من أجل إنقاذ بيت الزوجية.

فعن عروة، قال: قالت عائشة رضي الله عنها: (تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع له ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت عائشة: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، قال: وزوجها أوس بن الصامت[2].

نلاحظ هنا:

- «أن المرأة المسلمة وقفت أمام رسول

عثيمين ص ١٠٠.

(١) انظر: نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، القنّوجي، ص ٣٦٣

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب الظهار، ١/ ٦٦٦، رقم ٢٠٦٣، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة المجادلة ٢/ ٥٢٣، رقم ٣٧٩١. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ١٧٥، رقم ٢٠٨٧.

الله صلى الله عليه وسلم تجادله وتحاوره وتبادله الحجة بالحجة، حتى إن القرآن يستدل في شأنها، ويستجيب الحق لندائها، وتكون قضيتها صدر سورة من كتاب الله خالدة ما بقيت السماوات والأرض»[1].

- بيان لما جبلت عليه المرأة المسلمة من شريف الخلال، ونبيل الخصال، وكريم الأخلاق، فهي في هذه القصة: مؤمنة تقية قوية الإيمان، عظيمة التقوى لله، تمنع نفسها زوجها حتى تعلم حكم الله ورسوله، وتلجأ إلى الله وحده في حرارة ورجاء أمل؛ تسأله أن ينزل تفريج كربها وحل لمشكلتها على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم[2].
- وهي فقيهة ذكية الفؤاد تقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل، وتراها وفيّة لزوجها، أمينة على صحبته، حفيظة على حقوق عشرته، وتراها مربية فاضلة تقدر حياة الأسرة قدرها وتحافظ على كيانها، وتعلم أن الأسرة المبتورة لا خير فيها[3].
- هذه الصورة للجدال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تدلّ على حضور الله سبحانه وتعالى مع الناس، وما يصيبهم من مشكلات، وتدلّ على رعايته وتوجيهه لكل حدث في الأرض، صغير أو كبير، وأن تشعر جماعة من الناس أن الله هكذا معها، حاضر شؤونها، جليلها وصغيرها، معنيّ بمشكلاتها اليومية، مستجيب لأزماتها العادية، فالحوار من أمثل الطرق التي تؤدي إلى حل لهذه المشاكل بين الناس[4].

ثم يقرر أصل القضية، وحقيقة الوضع فيها والحل الجذري لمثل هذه المشاكل، فالحوار البناء الهادف هو الذي تنتج عنه الحلول، فكان الحل من رب السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٣-٤].

فهو علاج للقضية من أساسها إن هذا الظهار قائم على غير أصل، فالزوجة ليست أما حتى تكون محرمة كالأم، فالأم هي

(١) نظرات في كتاب الله، الساعاتي، ص٤٨٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٧.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٠٥.
(٤) انظر: نظرات في كتاب الله، الساعاتي، ص٤٨٦.

التي ولدت، ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أما بكلمة تقال، إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع[1].

ونلاحظ أن الخلافات بين الناس قد لا تحل نهائيًّا ولا تحسم القضية فيها، لكن الحوار على الأقل قد يزيل بعض ما في الصدور، حتى تجمع بين المختلفين على الأقل ليخف شيء من الشحناء إذن قد تكون غاية الحوار ليست بالضرورة أن تصل إلى ما تريد في هذه المرحلة، إنما تكون الغاية إيجاد حل وسط يرضي الأطراف، فأحيانًا يكون مقصود المحاور التعرف على وجهات نظر الأطراف الأخرى.

أما وقوع الخلاف بين الناس فقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أن الخلاف موجود، كما أن الله جعل الناس مختلفين في صورهم ومختلفين في أشكالهم؛ قال جل جلاله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

نبه سبحانه وتعالى على خلق السماوات والأرض واختلاف اللغات والألوان واختلاف ضروب بني آدم وأنواعهم[2].

هذا الاختلاف الخلقي يترتب عليه اختلاف في الرؤى، واختلاف في التصورات، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في مقام آخر: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨ - ١١٩]، فالخلاف موجود، ولا يمكن أن تنفك الدنيا عن الخلاف، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الناس جماعة واحدة في دينها وتقواها واتزان عقولها، بحيث لا يقع من أحد منهم كفر ولا إفساد، لو أراد الله عز وجل ذلك لوقع، ولكنه لم ولا يزال الناس مختلفين، بعضهم على الحق، وبعضهم على الباطل، بعضهم يستعمل عقله، ويسترشد مما رسمه له الرسل فيهتدى، وبعضهم لا ينتفع بذلك، بل يتبع هواه فيضل ويغوى[3].

ومن أروع نماذج الحوار الهادف لحل المشكلات في السنة المطهرة حوار عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يربي أصحابه على الحوار حتى في أحلك الظروف وفي المواقف التي تستدعي أناة وترويًّا، ومثاله ما كان يوم الحديبية لما كتب الصلح ورأى بعض المسلمين فيها إجحافًا، وقع حوار بين بعضهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم،

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٨٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٣٣.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٠٥.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألست نبي الله حقًّا.

قال: (بلى).

قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل.

قال: (بلى).

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟

قال: (إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري).

قلت: أَوَ ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟

قال: (بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام).

قال: قلت: لا.

قال: (فإنك آتيه ومطوف به).

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًّا؟

قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟

قال: أيها الرجل إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه [1]، فوالله إنه على الحق.

قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوف به)[2].

(١) بغرزه: «أي: أمسكه وأتبع قوله وفعله، كمن يمسك بركاب راكب ويسير بسيره»، مجمع بحار الأنوار ٤/ ٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ٣/ ١٩٦، رقم ٢٧٣١.

أنواع الحوار في القرآن

لقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الحوار، كأحد أهم الأساليب لإيصال دعوة التوحيد لكافة المكلفين، فكان منها الحوار العقدي، والذي يهدف لترسيخ العقيدة الصحيحة، والحوار الدعوي، والحوار العتابي، والحوار الإصلاحي، والحوار العلمي، وفيما يأتي تفصيل ذلك.

أولًا: الحوار العقدي:

إرساء العقيدة الصحيحة هو الأساس المتين الذي يقوم عليه صرح الإسلام العظيم؛ لذا فقد اهتم القرآن الكريم في إرساء تلك القواعد والمفاهيم من خلال أساليب كثيرة، والتي كان أبرزها أسلوب الحوار العقدي، والذي كان فيه الأنبياء وأقوامهم هم طرفي الحوار، وفيما يأتي بعضًا من تلك النماذج.

١. حوار نوح عليه السلام مع قومه.

أخبرنا الله عز وجل أنه بعث نوحًا رسولًا إلى قومه، حيث قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف:٥٩].

ونرى بأن حواره صيغ بصياغة واضحة بألفاظ دقيقة ومحددة الدلالات؛ لأن الكلمات الفضفاضة والتعابير المطاطة تلقى بالناس في متاهات لا صلة لها بالواقع.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود:٢٧ - ٢٩].

فلما دعا سيدنا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله كان ردّهم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧]، قال الطبري: قال الكبراء من قوم نوح وأشرافهم الذين كفروا بالله وجحدوا نبوة نبيهم نوح عليه السلام: ما نراك يا نوح إلا بشرًا مثلنا، يعنون بذلك أنه آدمي مثلهم في الخلق والصّورة والجنس، كأنهم كانوا منكرين أن يكون الله يرسل من البشر رسولًا إلى خلقه[1].

بعد أن سمعهم سيدنا نوح عليه السلام وتأمل في أدلتهم وما اشتملت عليه من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٩٥.

شبهات، رد عليهم بأسلوب رقيق وجذاب بأدلة تفنّد مزاعمهم: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [هود:٢٨ - ٢٩][1].

قال المراغي: بعد أن ذكر مقالتهم وطعنهم في نوح عليه السلام بتلك الشبه السالفة، قفى على ذلك بدحض نوح لها، ورد شبهات أخرى قد تكون صدرت منهم ولم يحكها، لعلها من الرد عليها، وربما لم يقولوها وإن كان كلامهم يستلزمها، وهذا من خواصّ أسلوب الكتاب الكريم، وسرّ من أسرار بلاغته[2].

فلقد ردّ نوح على كل شبهة على حده، وحاول أن يرجعهم إلى الموضوع الرئيسي وهو عبادة الله.

٢. حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه.

حاور إبراهيم عليه السلام أبيه وقومه وعلى رأسهم الطاغية النمرود حوارات متعددة، وذلك لإرساء قواعد العقيدة الصحيحة، وكانت حواراته كلها مفعمة بأدب الحوار، وتبيين ذلك فيما يلي:

أولًا: في كلامه الموجّه إلى رب العالمين والذي يظهر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء:٧٩ - ٨٠]، أسند المرض إلى نفسه تأدبًا في كلامه الموجّه إلى الله، وأسند الشفاء إلى الله، وإلا فالممرض والشافي هو الله تعالى بإجماع أهل الدين[3].

ثانيًا: في حواره مع أبيه آزر حينما قال له: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم:٤٦]، تهديد من الأب بالرجم والهجر الطويل، فما كان من نوح إلا أن قال: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ [مريم:٤٧]، إنه أدب الحوار، وردّ نية الإساءة بالإحسان، قال الرازي: «واعلم أن إبراهيم عليه السلام رتب هذا الكلام في غاية الحسن؛ لأنه نبه أولًا على ما يدل على المنع من عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في النظر والاستدلال وترك التقليد، ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغي، ثم إنه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن مقرونًا باللطف والرفق،

(١) انظر: دراسة عن أسلوب الحوار في القرآن الكريم، إسحاق رحماني على موقع النور للدراسات الحضارية والفكرية.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١٢/ ٢٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٥٣.

فإن قوله في مقدمة كل كلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب، وختم الكلام بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه»[1].

ثالثًا: حتى في حواره مع الملائكة مع جهله بحقيقتهم في بداية الأمر فقد ظنهم ضيوفًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:٦٩].

يبيّن أدب المعاملة وكرم الضيافة حتى مع الأغراب فقد قالوا له سلامًا، فرد عليهم بقوله: سلامٌ، أي: عليكم، قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيّوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام[2].

رابعًا: في حواره مع أبنائه عندما وصّاهم بالتمسك بالدين في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

ويظهر ما في لهجته مع أبنائه من تحبب وتقرب يدلان على أدب رفيع في الحوار مع الآخرين، متلازمًا مع غرز عقيدة الإسلام الصحيحة؛ والتي تمثلت بالتمسك بالإسلام الذي هو الشق العقدي من رسالة الأنبياء جميعًا، وقضية الموت عليه؛ فقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: إيجاز بليغ، وذلك أنّ المقصود من أمرهم بالإسلام الدوام عليه، فأتى بلفظ موجزٍ يقتضي المقصود، ويتضمّن وعظًا وتذكيرًا بالموت، وذلك أن المرء يتحقّق أنه يموت، ولا يدري متى، فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلاّ وهو عليه، فقد توجّه من وقت الأمر دائبًا لازمًا.

خامسًا: في حواره مع الكفار والنمرود الذي ادّعى الألوهية وهو واحد منهم؛ ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وفي هذا الحوار أيضًا تناول قضية الربوبية والتي تمثلت في قضية الإحياء والإماتة، وقضية التحكم بالشمس التي جزء من الكون الفسيح؛ قال السمعاني: «كانت تلك المحاجة في الربوبية من نظر الملك وطغيانه»[3].

وبعد هذا، فليس غريبًا أن يقول الله سبحانه وتعالى في سيدنا إبراهيم عليه

(١) انظر: مفاتيح الغيب٢١/ ٥٤٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٣٣٢.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٦١.

السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، وقد امتزج إرساء قواعد العقيدة بالأدب الحواري الجم.

٣. حوار شعيب عليه السلام مع قومه.

أرسل الله تعالى نبيه شعيبًا عليه السلام إلى أصحاب الأيكة، وهم مدين؛ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[الأعراف:٨٥].

وقد اشتملت قصته مع قومه على أفضل الأساليب في الحوار مع الطرف الآخر، لتبليغ دعوة الله، حيث اشتمل حواره على الجانبين: جانب العقيدة، وجانب الحياة، وقد برع وأبدع في حواره حيث لون في الخطاب، ورغب ورهب، وفيما يلي بيان ذلك:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٥ - ٨٩].

عند تحليل حوار شعيب مع قومه نقف على براعة الحوار وقوة الأسلوب لتحقيق الأهداف، ويظهر ذلك فيما يأتي [(١)]:

١. بدأ شعيب عليه السلام دعوة قومه بالتوحيد، وهي الدعوة التي جاء بها جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام؛ لأن الخصم إذا آمن بالله وحده، واستسلم له، فإنه يمتثل لكل ما أمر الله به ونهى عنه، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وفي العنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦]؛ فوحدانية الله هي القاعدة التي يعلم أن منها تنبثق

(١) انظر: دراسة بعنوان: حوار شعيب عليه السلام مع قومه في القرآن الكريم، محمد أحمد الكردي، على موقع حيران انفوا.

كل مناهج الحياة، وكل أوضاعها، كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل، ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه العقيدة. ولقد جرت سنة الأنبياء أن يبدأوا بدعوة أقوامهم إلى التوحيد، ثم علاج المشكلات القائمة عندهم[(١)].

٢. استعمال الألفاظ المحببة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٣. استعمال الفصاحة والبيان والبلاغة: فشعيب عليه السلام هو خطيب الأنبياء، وحواره مع قومه كان حوارًا فصيحًا بليغًا، بعيدًا عن الغموض والتشدق، والمقصود أن يتكلم المحاور عندما يحاور الآخرين، بكلام واضح مفهوم، ليس فيه غموض ولا لبس.

٤. تلوين الخطاب في الحوار: للنهي عن المخالفات الخطيرة التي يفعلها قومه بأكثر من أسلوب، فبعد أن نهى شعيب عليه السلام قومه عن الشرك، ودعاهم للتوحيد، وجههم إلى الالتزام بطاعة الله، حذرهم من معاصي خطيرة تهدد وجودهم ومصيرهم، ومن أبرز ذلك: لا شك أن أعظم مخالفة كان يفعلها قوم شعيب بعد الشرك، هي: التطفيف في الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم.

٥. ضبط النفس: فقد اتهموه بالسحر والكذب، فلم ينفعل، ولم يغضب، بل تحلى بسعة الصدر، وهكذا الداعية المسلم المحاور، ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧][(٢)].

٦. الإقناع بالأدلة والبراهين والحجج الدامغة: فقد ردّ شعيب عليه السلام على قومه بالأدلة المقنعة، فبهتهم، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، هذا تلطف معهم في العبارة ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة. يقول لهم: أرأيتم إن كنت على أمر بيّن من الله تعالى، وأنه أرسلني إليكم، ورزقني النبوة والرسالة، وعمي عليكم معرفتها، فأي حيلة لي فيكم[(٣)]، وهكذا يبين المحاور أنه يمتلك الحجة والدليل، وأن رأيه

(١) انظر تفسير المراغي ٨/ ٢١٠.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠١.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٣٤.

ليس مبنيًّا على الهوى والمزاج.

٧. الثبات عند الخلاف على العقيدة: «لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة، إنها عقيدة الوحدانية التي لا يملك أي محاور التنازل عنها، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت وإلا لتنازل كلية عن الحق الذي يمثله؛ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩١ - ٩٢].

٨. طلب النصرة من الله: فشعيب عليه السلام استفتح على قومه، واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، إنه يعرف مصدر القوة، وملجأ الأمان، ويعلم أن ربه هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان، ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه، والتي ليس منها مفر، إلا بفتح من ربه ونصر[(١)].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب٣/ ١٣٢٢.

ثانيًا: الحوار العلمي:

هذا النوع من الحوار الذي يكون موضوعه التعليم والتلقين ظهر واضحًا جليًّا في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، والتي حملت في ثناياها دروسًا كثيرة في التواضع وأدب المتعلم واحترام العلماء.

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٥ - ٧٠].

هذه رحلة موسى بن عمران نبي بني إسرائيل مع فتاه يوشع عليهما السلام للقاء العبد الصالح، وهو الخضر عليه السلام، لتعليمه التواضع في العلم، وأنه وإن كان نبيًّا مرسلًا، فقد يكون بعض العباد أعلم منه، وفي هذا من الفقه: رحلة العالم لطلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء، وإن بعدت أقطارهم، كما كان دأب السلف الصالح[(٢)].

وقد اشتمل ذلك الحوار على مجموعة

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٢٩٦.

كبيرة من آداب المتعلم والتي منها:

١. لقد جعل موسى عليه السلام نفسه تبعًا للعبد الصالح رغم كونه هو النبي وقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، وفي هذا دليل على التواضع للعالم، وفي هذه القصة دليل على الحث على الرحلة في طلب العلم، وعلى حسن التلطف والاستنزال والأدب في طلب العلم، بقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، وفيه المسافرة مع العالم لاقتباس فوائده[1].

٢. أنه استأذن في إثبات هذه التبعية، فقال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تابعًا لك؛ ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، وهذه مبالغة عظيمة في التواضع.

٣. أنه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾، وهذا إقرار منه على نفسه بعدم المعرفة، وعلى أستاذه بالعلم.

٤. أنه قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، وصيغة ما للتبعيض، فطلب منه تعليم بعض ما علّمه الله، وهذا أيضًا يشعر بالتواضع، كأنه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساويًا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءًا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءًا من أجزاء ماله.

٥. إنّ قول موسى: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم.

٦. إن قوله: ﴿رُشْدًا﴾ فيه طلب للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية.

٧. إن قوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ معناه: أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامل الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك عليّ عند هذا التعليم شبيهًا بإنعام الله عليك في هذا التعليم[2].

٨. وفي قول العبد الصالح لموسى عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]، احترام للعقل الذي يؤمن بالأمور الظاهرة، وقد ينكر الأمور الغائبة؛ قال الطبري: «وكيف تصبر يا موسى على ما ترى مني من الأفعال التي لا علم لك بوجوه صوابها، وتقيم معي عليها، وأنت إنما تحكم على صواب المصيب وخطأ المخطئ بالظاهر الذي عندك، وبمبلغ علمك، وأفعالي تقع بغير دليل ظاهر لرأي عينك على صوابها، لأنها تبتدئ لأسباب تحدث آجلة غير عاجلة، لا علم لك بالحادث عنها، لأنها غيب، ولا تحيط بعلم الغيب خبرًا»[3].

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير، ابن حيان ٧/ ٢٠٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٨٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٧١.

٩. ويظهر في توجيهات العبد الصالح لموسى عليه السلام أدب المتعلم حيث علمه تلك القاعدة الأدبية: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ أي: إذا رأيت مني شيئًا خفي عليك وجه صحته، فأنكرت في نفسك فلا تفاتحني بالسؤال حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من أدب المتعلم مع العالم المتبوع[(١)]، وقال أبو السعود: وفي قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ التزام موسى عليه السلام للصبر والطاعة، وهذا من أدب المتعلم من العالم والتابع مع المتبوع[(٢)].

١٠. وقد ظهر الحرص على التعلم مقرونًا بالاستعانة بالله، وذلك في قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، فقد طلب موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده، أن يستطيع معه صبرًا بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقًا بمشيئة الله، علمًا منه بشدّة الأمر وصعوبته، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق[(٣)].

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير، ابن حيان ٧/ ٢٠٦.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٣٥.

ثالثًا: الحوار الدعوي:

الحوار الدعوي من الأساليب الناجعة لتبليغ دعوة الله واقناع الآخرين، وإبراز الصورة واضحة جلية، وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسوب كثيرًا، ومثاله: قصة صاحب الجنتين حيث تضرب مثلًا للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس، صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبر التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه.

وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلًا على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٣٤.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

لِنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

[الكهف:٣٢ - ٤٢].

تخبرنا آيات القصة عن وجود رجلين في الماضي، كان بينهما صلة وصحبة، أحدهما مؤمن، والآخر كافر، وقد أبهمت الآيات اسميّ الرجلين، كما أبهمت تحديد زمانهما ومكانهما وقومهما، فلا نعرف من هما، ولا أين عاشا، ولا في أيّ زمان وجدا، وقد ابتلى الله الرجل المؤمن بضيق ذات اليد، وقلة الرزق والمال والمتاع، لكنه أنعم عليه بأعظم نعمة، وهي نعمة الإيمان واليقين والرضا بقدر الله وابتغاء ما عند الله، وهي نعمٌ تفوق المال والمتاع الزائل، أما صاحبه الكافر فقد ابتلاه الله بأن بسط له الرزق، ووسّع عليه في الدنيا، وآتاه الكثير من المال والمتاع، ليبلوه هل يشكر أم يكفر؟ وهل يطغى أم يتواضع؟ وقد دار بينهما حوار دعوي مفعم باللفتات الدعوية التربوية والتي نذكر منها ما يأتي:

١. في قوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

- قال الرازي: اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيًّا والغني فقيرًا، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين، وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية[(١)].
- وقال السعدي: الافتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزله فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها، ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم، بجهله وظلمه[(٢)].

٢. وفي قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

[الكهف: ٣٥ - ٣٦]:

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٦٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٧.

- اطمئنان الرجل إلى الدنيا ورضاه بها وإعجابه بجنتيه حتى نسي أن الدنيا لا تبقى لأحد.
- القياس الفاسد وإنكار البعث؛ حيث ظن أن الله لما أنعم عليه في الدنيا فلابد أن ينعم عليه في الآخرة، ولا تلازم بين هذا وذاك، بل إن الكفار ينعّمون في الدنيا وتعجّل لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ولكنهم في الآخرة يعذّبون.
- تمرده وعناده ؛ لقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ قاله على وجه التهكم والاستهزاء!.
- الغالب أن الله يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسّعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة من نصيب[1].

٣. وفي قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٧ - ٣٨].

- إن عزة الإيمان في النفس المؤمنة تنتفض، فلا تبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب. وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله، وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين.
- نصح صاحبه المؤمن له وتذكيره بنعم الله عليه، وكيف خلقه ونقله من طور إلى طور، ويسر له الأسباب، فكيف يليق بك أن تكفر بالله ؟!.
- أن منكر البعث كافر، وفي قول المؤمن ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ دليل على أن صاحب الجنتين قد أشرك.
- أن في تذكر الإنسان مبدأ أمره وخلقه موعظة عظيمة وذكرى[2].

٤. وفي قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩].

- أن نعمة الله على الإنسان بالإيمان والإسلام ولو مع قلة المال والولد هي النعمة الحقيقية، وما عداها معرض للزوال والعقوبة.
- ينبغي للإنسان إذا أعجبه شيء أن يقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ حتى يفوض الأمر إلى الله لا إلى حوله وقوته.
- من اعترف بفضل الله عليه، فإنه يبارك

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٣٩، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٧.

الله له فيما أعطاه، وأما من أشر وبطر، فلا يبارك الله له فيما آتاه ولا ينتفع به.

- أن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون[1].

٥. وفي قوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]:

- الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير.
- الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إن فضّل نفسه بسبب ماله على المؤمنين وفخر عليهم.
- أن دعاء المؤمن على جنتيّ الكافر كان غضبًا لله ؛ لكونها غرته وأطغته، لعله ينيب ويراجع رشده ويبصر في أمره.
- لا حرج على الإنسان أن يدعو على ظالمه بمثل ما ظلمه.
- في قوله: ﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، خص السماء لأن ما جاء من الأرض قد يدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه ويتعذر. ابن عثيمين
- قوله: ﴿خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾، أي: أفضل منها، وهي جنة الآخرة، وجنة الدنيا هي الفرح بفضل الله والالتذاذ بطاعته، والاغتباط بالأعمال الصالحة، والأنس بذكر الله وشكره، فهذا خير من متاع الدنيا متاع الغرور[2].

٦. وفي قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢]:

- استجابة الله لدعاء من دعاه.
- كان مآل الجنتين الانقطاع والاضمحلال، وكأنه لم يتمتع بها.
- الندم بعد فوات الأوان لا ينفع، إنما ينتفع من سمع القصة واعتبر بها.
- أن ما افتخر به لم يدفع عنه من العذاب شيئًا.
- أن سبب عقوبته لأنه أشرك بالله، ونسب نعمة الله إلى غيره، وفضل الله إلى نفسه وقوته وحيلته، وتناسى عطاء الله له[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦٢، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٣٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٢، التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٢٥٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٤٧٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٢، التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٢٥٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦٢، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٣٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٤٧٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٢، التفسير المنير،

رابعًا: الحوار العتابي:

الحوار العتابي نوع من أنواع الحوارات المختلفة، يتعاتب الفرقاء فيما اختلفوا فيه، وقد يتعاتب الرؤساء والمرؤوسين فيه يوم يكونون سواء أمام رب العالمين، كما ويتعاتب أهل النار وهم في النار وكلٌّ منهم يلقي المسؤولية على الآخر، ويكون نقاشهم عقيمًا لا فائدة ترجى منه، وفيما يأتي بعض النماذج لذلك الحوار:

١. حوار ابني آدم عليه السلام.

يقدم هذا الحوار نموذجًا لطبيعة الشر والعدوان ونموذجًا كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له. كما تقدم نموذجًا لطبيعة الخير والسماحة ونموذجًا كذلك من الطيبة والوداعة. وتقفهما وجهًا لوجه، كل منهما يتصرف وفق طبيعته، وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشر، والعدوان الصارخ الذي يثير الضمير ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل، تكف النموذج الشرير المعتدي عن الاعتداء وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام عن الجريمة فإذا ارتكبها- على الرغم من ذلك- وجد الجزاء العادل، المكافئ للفعلة المنكرة، كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه، فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش، وأن تصان، وأن تأمن في ظل شريعة عادلة رادعة[1].

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٢٧ - ٣٢].

ولقد ظهر في الحوار بعض اللطائف واللفتات والتي نذكر منها ما يأتي:

- العبرة في قصة ابني آدم عليه السلام أن الحسد كان سبب أول جريمة قتل في البشر، وأنه هو أس المفاسد

الزحيلي ١٥/ ٢٥٦.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٧٤.

والمعايب والرذائل في المجتمع، فالأمة المتحاسدة متمزقة متعادية متباغضة، لا تجتمع على خير، ولا تلتقي على فضيلة، ولا تتعاون على بر وصلاح وتقدم، مما يؤدي إلى الضعف والذل والهوان وعبودية أفرادها لمن سواهم[1].

- إن ابني آدم هذين في موقف لا يثور فيه خاطر الاعتداء في نفس طيبة، فهما في موقف طاعة بين يدي الله[2].
- إنّ اللّه تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متقٍ[3].
- لم يسم الله سبحانه وتعالى المتقبل منه والذي لم يتقبل منه إذ لا جدوى لذلك في موقع العبرة، وإنما حمله على قتل أخيه حسده على مزية القبول، والحسد أول جريمة ظهرت في الأرض[4].
- وقوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي﴾ إلخ موعظة لأخيه ليذكره خطر هذا الجرم الذي أقدم عليه، وفيه إشعار بأنه يستطيع دفاعه ولكنه منعه منه خوف الله تعالى[5].
- ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا﴾ دليل على الاستفادة من تجارب الآخرين.
- قال ابن القيم: تأمل الحكمة في إرسال الله تعالى لابن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه وغربته هو من رحمة الله وغربته من أبيه وأهله واستيحاشه منهم واستيحاشهم منه. والغراب أحد الفواسق الخمسة، وفعل ابن آدم وهو القتل من أعظم الفسق فناسب ما بعث إليه هذا الفعل، والله أعلم بمراد كتابه[6].
- ودلت آية: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ على تشريع القصاص في حق القاتل على بني إسرائيل. وقوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ ليس إشارة إلى قصة قابيل وهابيل، بل هو إشارة إلى ما ذكر في هذه القصة من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل الحرام وهو القتل العمد العدوان[7].

٢. الحوار بين الأتباع والمتبوعين.

هذا الحوار من الحوارات العقيمة بالنسبة لجدواها للمتحاورين، حيث لا تجلب لهم نفعًا، فهم يتعاتبون بعد انقضاء وقت العمل، ويتمنوا لو تكون لهم كرة ليتبرأوا منهم، وتكون عاقبة أمرهم خسرًا، ويريهم الله أعمالهم حسرات.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٦/ ١٥٧.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٧٥.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٢٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٧٠.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٣٩.
(٧) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٦/ ١٥٩.

مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٥ - ١٦٧].

لقد تضمنت الآيات السابقة مجموعة من الفوائد والدروس والعبر والتي نذكر منها:

١. يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادًا، أي: أمثالًا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ندّ له، ولا شريك معه[1]. وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم، ليقربوهم إليه، وفي قوله: ﴿يَتَّخِذُ﴾ دليل على أنه ليس لله ند، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادًا له، تسمية مجردة، ولفظًا فارغًا من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الرعد: ٣٣][2].

٢. من أسباب الحب: اعتقاد المحب أن في المحبوب قدرة فوق قدرته، ونفوذًا يعلو نفوذه، مع ثقته بأنه يهتم لأمره، ويعطف عليه بحيث يمكنه اللجأ إليه عند الحاجة فيستعين به على ما لا سبيل له إليه بدونه، فهذا الاعتقاد يحدث انجذابًا من المعتقد يصحبه شعور خفي بأن له قوةً عاليةً مستمدةً ممن يحب، ويعظم هذا النوع من الحب بمقدار ما يعتقد في المحبوب من الصفات والمزايا التي بها كان مصدر المنافع وركن اللاجئ، وكل ما للمخلوق من ذلك فهو داخل في دائرة الأسباب والمسببات والأعمال الكسبية[3].

٣. وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ حبًّا مطلقًا من كل موازنة، ومن كل قيد، أشد حبًّا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه، والتعبير هنا بالحب تعبير جميل، فوق أنه تعبير صادق، فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هي صلة الحب، صلة الوشيجة القلبية، والتجاذب الروحي، صلة المودة والقربى، صلة الوجدان المشدود

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٥٥-٥٦.

بعاطفة الحب المشرق الودود[1].

٤. موقف المشركين يوم القيامة عندما يرون جزاء أعمالهم وجزاء إتباعهم لرؤسائهم على معصية الله تعالى، حينما يرون العذاب هو التخلي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. قال ابن كثير: «لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره، وغلبته، وسلطانه»[2]، ثم يبدأ المتبوعون بالتخلي عن أتباعهم[3].

٥. إن أعظم جريمة عند الله هي: الشرك به قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أيّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال: (أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك)[4][5].

٦. تحذير العلماء من أن يتخذوا السلاطين أندادًا من دون الله، و«هم علماء الدنيا فإنهم يحلون لمرضاتهم ويحرمون، ويخالفون النصوص الصريحة بضروب سخيفة من التأويل لموافقة أهوائهم، فإن لم يفتوهم بخلاف النص التماسًا لخيرهم، أو هربًا من سخطهم كتموا حكم الله من أجل ذلك، فترى أحدهم إذا سئل: أهذا حق أم باطل وحلال أم حرام ؟ يغض من صوته بالجواب، ولا يجهر بالقول مداراةً للعوام، إذا كان الجواب على غير ما هم عليه، ولا سيما إذا كان هؤلاء العامة من الأغنياء وأصحاب السلطة[6].

٧. «يتبرأ العابدون أيضًا من معبوديهم، ويتمنون الرجوع إلى الدنيا حتى يعملوا صالحًا ويتبرأوا من الآلهة المزعومة، بل إنهم يطلبون من الله مضاعفة العذاب لهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢١٦-٢١٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٩٤.
(٤) أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ٦/ ١٨، رقم ٤٤٧٧.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٤٣٢.
(٦) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٦٣.

﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب:٦٦ -٦٧]، وهم في هذا التمني كاذبون، بل ولو رودوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون»[١].

٨. دلت الآيات على أن الاتباع في غير طريق الله شرك يعقب ندامة يوم القيامة فلينظر الإنسان مت يتبع؟ وعلى ماذا؟ وبماذا؟ وإلا فإنه سيكون من النادمين فإذا قال الله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] لمن تابعوا رجال دينهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فكيف بمن يتبع من لا يعترف بحلال وحرام أصلًا؟![٢]

٩. لا عذر لأحد في التقليد المحض ولا الاتباع المحض، فالاتباع لا بد أن يكون مبنيًّا على بصيرة وعلم، وليس على هوى ومعصية، ولا يعذر الإنسان في اتباع مثل هذا الاتباع[٣].

١٠. قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ دليل على خلود الكفار فيها، وأنهم لا يخرجون منها، وهذا قول جماعة أهل السنة لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠][٤]، وهذا الخلود والاشتراك في العذاب إنما يعم الأتباع والمتبوعين.

٣. التحاور بين أهل النار.

كما في الجنة نعيمٌ مادي ونعيمٌ معنوي، هناك في النار أيضًا عذاب مادي وآخر نفسي معنوي، والذي يتمثل في التشفّي والانتقام من بعضهم البعض، ولقد ظهر واضحًا جليًّا في محاورة أهل النار لبعضهم وتعاتبهم الذي أفضى لطلب المزيد من العذاب، وفيما يلي توضيح ذلك:

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف:٣٧-٣٩].

أخبر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٤٣٣.
(٢) انظر: الأساس في التفسير، سعيد حوى ٢/ ١٤١.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٦٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٠٧.

أنه لا أحد أخطأ فعلًا، وأجهل قولًا، وأبعد ذهابًا عن الحق والصواب ممن اختلق على الله زورًا من القول، فقال إذا فعل فاحشة: إن الله أمرني بها، أو كذب بأدلته، وأعلامه الدّالة على وحدانيته، ونبوّة أنبيائه، فجحد حقيقتها ودافع صحتها، فهذا سينال العقاب من الله تعالى، وسيصل إليه حظهم مما كتب الله له في اللوح المحفوظ، وسيأخذوا حظوظهم التي قدرها الله تعالى لهم في الدنيا، إلى أن يتوفاهم فينالوا مصيرهم في الآخرة[1].

ولقد تضمنت هذا الآيات العديد من الدروس والعبر واللفتات والهدايات، نقتطف منها ما يأتي:

١. ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾[الأعراف: ٣٨]، أي: يقول الله لكفار العرب، وهم المفترون الكذب والمكذبون بالآيات وذلك يوم القيامة «وعبر بالماضي لتحقّق وقوعه، وقوله ذلك على لسان الملائكة»[2]: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ على مذهبكم ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ﴾، يعني: النار ﴿أُمَّةٌ﴾: جماعة، ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يعني: «لعنت الأمة التي دخلت قبلها النار»[3]، «إذ هي قد ضلّت باتّباعها وتقليدها في الكفر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[العنكبوت: ٢٥]. وهكذا يلعن أصناف الكفار بعضهم بعضًا، ويتبرّأ بعضهم من بعض»[4]، قال مقاتل: «يعني: لعنوا أهل ملتهم»[5]، فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود، وكذلك النصارى النصارى والمجوس المجوس ويلعن الأتباع القادة يقولون: لعنكم الله أنتم غررتمونا[6].

٢. ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾، أي: تداركوا بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار، ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ منزلة، وهي: الأتباع والسفلة ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ منزلة، وهي القادة والرؤوس، ومعنى ﴿لِأُولَاهُمْ﴾: لأجل أولاهم؛ لأن خطابهم مع الله لا معهم، ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾: مضاعفًا، ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾[7]، «للقادة ضعف؛ لغوايتهم وإغوائهم؛

(١) انظر: جامع البيان ١٢/ ٤٠٨.
(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٩٧.
(٣) تفسير السمرقندي ١/ ٥٣٠.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٥٦٤.
(٥) تفسير السمرقندي ١/ ٥٣٠.
(٦) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٣٢.
(٧) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٩٨.

لضلالهم وإضلالهم، وللأتباع ضعف؛ لكفرهم؛ ولاقتدائهم؛ ولتقويتهم أمر القادة، فلولا الأتباع ما كان للقادة سلطان، أو للمستقدمين ضعف بضلالهم وإضلالهم، وللمتأخرين ضعف بضلالهم ومتابعتهم»[1].

٣. ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾، أي: الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: قد اشتركنا جميعًا في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأي فضل لكم علينا، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء، وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]، فهذه الآيات ونحوها، دلت على أن: سائر أنواع المكذبين بآيات اللّه مخلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة[2].

٤. شر الظلم ما كان كذبًا على الله تعالى، وتكذيبا بشرائعه[3].

٥. بينت هذه الآيات أن هؤلاء الناس اجتمعوا في الدنيا على الباطل، ثم يوم القيامة تتفكك الروابط، وتنقلب المحبة إلى عداوة وبغضاء، قال سيد قطب: «كانت هذه الأمم، والجماعات، والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها، ويملي متبوعها لتابعها، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها، وكيف يكون التنابز فيها، كلما دخلت أمة لعنت أختها، فما أبأسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه، ويتنكر فيها الولي لمولاه»[4]، وهذا كما أخبر الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، «السّادة والأتباع في الكفر سواء، يدخلون النّار، ويضاعف لهم العذاب، إما بالإضلال وهو فعل السّادة، أو بالتّقليد وإهمال العقل، وهو فعل الأتباع، والتّعذيب ليس تشفّيًا وانتقامًا، وإنما هو بسبب اقتراف السّيئات

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٤/ ١٩٠٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٨.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ١٧٣.

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ٥١٥.

واعتقاد الكفر»[1].

٦. بينت الآيات أن من أعظم أسباب الانحراف لدى الناس هو: التقليد الأعمى لبعضهم في مسائل الاعتقاد، وقد ذم الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم في الباطل[2]، «واقتدائهم بهم في الكفر والمعصية، وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم[3]، وهذا في الباطل صحيح، أما التقليد في الحق فأصل من أصول الدين[4]. ولعل القرطبي أراد بالتقليد الذي يعتبر أصلًا من أصول الدين هو التقليد: في فرعيات مسائل الدين. قال الشيخ أبو بكر الجزائري: يحرم التقليد في العقائد مطلقًا[5]، وإنما لا بدّ من غرس العقيدة بالحجة والبرهان[6]، أما في الفروع فهو أهون، والتقليد هو قبول الحكم بلا دليل ولا حجة[7]، وقال ابن عطية: أجمعت الأمة على إبطال التقليد في العقائد[8].

٧. كل دعاة التقليد الأعمى من هؤلاء المضلين الذين يضاعف لهم العذاب، وأن أئمة الهدى من علماء السلف ليسوا منهم ؛ لأنهم كانوا يستنبطون الأحكام من الكتاب والسنة ؛ ليفتحوا للناس أبواب الفهم والفقه فيهما، مع نهيهم عن تقليدهم، وأمرهم بعرض كلامهم على الكتاب والسنة، وأخذ ما وافقهما ورد ما عداه، ومنهم الأئمة الأربعة الذين تنتمي إليهم طوائف السنة، وأئمة العترة الذين تنتمي إليهم الشيعة[9].

خامسًا: الحوار العقيم:

الغاية من الحوار هي الوصول إلى ما يريح النفس من اقتناعٍ وتسليم، ولكن هناك حوارات عديدة وردت في القرآن الكريم، لم تكن هذه الغاية هدفها؛ فجاءت عقيمة الفائدة للمتحاورين، وذلك زيادة في تعذيبهم عذابًا نفسيًا بجانب العذاب الجسدي، ومن أمثل هذا النوع: الحوار الذي دار بين المستكبرين والأتباع وخزنة النار، وحوار الضعفاء والمستكبرين بين يدي الله، وحوار الشيطان وأتباعه في النار، وحوار الكافر وقرينه الشيطان بين يدي الله،

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٥٦٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١١.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٦/ ٧٥.
(٤) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢١١.
(٥) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٤٥.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٤٨٨.
(٧) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٤٥.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٢.
(٩) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٦٩.

وفيما يأتي تفصيل ذلك.

١. حوار المستكبرين والأتباع وخزنة النار.

يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضًا واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:٤٧ - ٥٠].

يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، فيقول الضّعفاء: أنتم أغويتمونا، وأضللتمونا، وزينتم لنا الشرك والشر، فهل تستطيعوا أن تخففوا عنا من عذاب الله ولو قليلًا؟؛ فيرد عليهم القادة المستكبرون: إن الله جعل لكل منا قسطًا من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم[(١)].

قال الفخر الرازي: «واعلم أن أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء، وإيلام قلوبهم؛ لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الأتباع في أنواع الضلالات، فعند هذا يقول الرؤساء: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾، يعني: أن كلنا واقعون في هذا العذاب، فلو قدرت على إزالة العذاب عنك لدفعته عن نفسي، ثم يقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، يعني: يوصل إلى كل أحد مقدار حقه من النعيم أو من العذاب»[(٢)].

ولما يئسوا من السادة اتّجهوا إلى خزنة جهنم يطلبون منهم الدعاء:

أهل النار: ادعوا اللّه ربّكم لعله أن يخفف عنا مقدار يوم من العذاب.

خزنة النار: أو ما جاءتكم الرسل في الدنيا بالحجج والأدلة الواضحة على توحيد اللّه، والتحذير من سوء العاقبة ؟

أهل النار: بلى، قد جاءتنا الرسل، فكذبناهم، ولم نؤمن بهم ولا بما جاؤوا به من الحجج.

خزنة النار: إذا كان الأمر كما ذكرتم، فادعوا أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لمن كفر باللّه وكذّب رسله، ولا فائدة من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٥.

دعائكم[1].

ويظهر من خلال هذا الحوار بعض الدروس والعبر واللفتات، نذكر منها:

- «هذه كانت خصومة بين الأتباع مع المتبوعين، ولم تنته إلى طائل إلا زيادة الحسرة والغم والهم»[2].
- التنديد بالكبر والاستكبار؛ إذ الكبر عائق عن الطاعة والاستقامة.
- «لا يستجاب دعاء الكافر في الدنيا والآخرة إلا ماشاء الله، ولا تقبل المعذرة يوم القيامة، ولا يستجاب الدعاء لمن في النار»[3].

٢. الحوار بين الضعفاء والمستكبرين.

قال الله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١].

بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الله تعالى يجمع الخلائق كلها، برها وفاجرها، في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدا، ويبدأ الجدال بين الأتباع وسادتهم، حيث يقول الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة، الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

أي: فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾، ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه[4].

قال سيد قطب رحمه الله : «والضعفاء هم الضعفاء، هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله، حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين والطغاة، ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله.

والضعف ليس عذرًا، بل هو الجريمة، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله، وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعًا

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٢/ ٤٥٩.
(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٤٠.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٥٤١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٨.

عن نصيبه في الحرية التي هي ميزته ومناط تكريمه أو أن ينزل كارهًا، والقوة المادية كائنة ما كانت لا تملك أن تستعبد إنسانًا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه، أما الضمير، أما الروح، أما العقل: فلا يملك أحد حبسها، ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال»[1].

٣. الحوار بين الشيطان وأتباعه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:٢٢].

لما ذكر المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس: أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الإنس[2]، وموضوع المناظرتين واحد، وهو: تبرؤ المتبوع من التابع، ولكن الشيطان كان أصدق في هذه المحاورة من الإنسان؛ لأنه أعلن أن الله وعد الناس وعد الحق، وهو البعث والجزاء على الأعمال، فوفى لهم بما وعدهم، وأما هو فوعد الناس بخلاف ذلك، وأنه لا بعث ولا جزاء، فأخلف الوعد[3].

ففي الآية: يخبر الله تعالى عن موقف إبليس يوم القيامة، فبعد أن يقضى الأمر ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ويستقرّ كل فريق منهم قرارهم[4]، ينادي إبليس في جماعته الذين أغواهم: إن الله وعدكم، أيها الأتباع، النار، ووعدتكم النّصرة، فأخلفتكم وعدي، ووفى الله لكم بوعده، وما كان لي عليكم، فيما وعدتكم من النصرة، من حجة تثبت لي عليكم بصدق قولي: ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾، وهذا من الاستثناء المنقطع عن الأول، بمعنى: ولكن دعوتكم فاستجبتم لي، استجبتم إلى طاعتي، ومعصية الله، فلا تلوموني على إجابتكم إياي، ولكن لوموا أنفسكم، فلا أنا مغيثكم من عذاب الله، ولا أنتم مغيثي؛ لأني جحدت أن أكون شريكًا لله فيما أشركتموني فيه من عبادتكم في الدنيا، فالعذاب لكل من كفر بالله[5].

قال ابن عاشور: «وقد جيء في هذه الآية بوصف حال الفرق يوم القيامة، ومجادلة

(١) في ظلال القرآن ٥/ ١٥٠.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٨٧.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٢٥٨.
(٤) وزمن الخطبة يكون بعد فصل القضاء وقبل دخول النار، والله أعلم.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٦٠-٥٦١.

أهل الضلالة مع قادتهم، ومجادلة الجميع للشيطان، وكون المؤمنين في شغل عن ذلك بنزل الكرامة، والغرض من ذلك تنبيه الناس إلى تدارك شأنهم قبل الفوات، فالمقصود: التحذير مما يفضي إلى سوء المصير»[1].

٤. حوار الكافر وقرينه (الشيطان) بين يدي الرحمن.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٢٧ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق:٢٧ - ٢٩].

يخبر الله تعالى أن الكافر يقول يوم القيامة عن قرينه، وهو الشيطان الذي وكل به: يا رب، هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، فيقول القرين: ما أضللته، بل كان هو في نفسه ضالًّا قابلًا للباطل معاندًا للحق، فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ أي: عندي، ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ أي: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين[2] على أن من كفر بالله وأشرك به وعصى رسله فإن له نار جهنم خالدًا فيها أبدًا)[3].

ثم يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيله للمشركين وقرنائهم من الجنّ يوم القيامة، إذ تبرأ بعضهم من بعض: ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا، وهو قوله: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨]، ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها)[4].

أهم الفوائد والدروس والعبر المستفادة من هذه الحوارات:

١. بيان أن التقليد والتبعية لا تكون عذرًا لصاحبها عند الله تعالى[5].

٢. العتاب والنزاع والخصام قائم بين أهل النار، فهذه محاورة بين القادة والأتباع تدل على عجز السادة عن تحقيق أي شيء لأتباعهم الذين اتبعوهم في الدنيا، فهم لا يستطيعون تخليص أنفسهم من عذاب اللّه، ولا تحقيق أي نفع لذواتهم، فبالأولى لا يتمكنون من نفع غيرهم، والكل لا يجدون مهربًا ولا ملجأ من عذاب اللّه، وعقابه على الكفر والعصيان، وذلك سواء صبروا على العذاب، أو جزعوا وضجروا.

٣. إقرار السادة بالضلال، فدعوا أتباعهم إلى الضلال، ولو هدوا وأرشدوا لأرشدوا غيرهم، وهذا كذب منهم، كما قال تعالى حكاية عن المنافقين:

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢١٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٠٣.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ١٤٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٥٩.
(٥) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٥٤.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨][١].

٤. بيان أن الشيطان هو المعبود من دون الله تعالى، إذ هو الذي دعا إلى عبادة غير الله وزينها للناس[٢].

٥. استنبط الرازي من هذه الآيات «أن الشيطان الأصلي هو النفس، وذلك؛ لأن الشيطان بين أنه ما أتى إلا بالوسوسة، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة، والغضب، والوهم والخيال، لم يكن لوسوسته تأثير البتة، فدل هذا على أن الشيطان الأصلي هو النفس»[٣].

٦. كانت مواعيد الشيطان باطلة، ووعد اللّه هو الحق، واتبع الناس قول الشيطان بلا حجة ولا برهان، وتبرأ الشيطان منهم، ومن عملهم، فليس لهم لوم عليه، إنما عليهم اللوم، وأيأسهم بأنه لا نصر عنده، ولا عون، ولا إغاثة، بل هو محتاج إلى من ينصره، وكفر بشركهم له في الدنيا، وهذا تنبيه لهم مما سيلقونه من العذاب[٤].

٧. لم يكن للطغاة أن يتسلطوا على الضعفاء إلا لما أهدر الضعفاء حرياتهم في العقيدة، والتفكير، وفي كل شيء، وأسلموها للطغاة، واشتروا بعقولهم أهواءهم فصاروا عبيدًا للشيطان، قال سيد قطب: إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير، فهي دائمًا قادرة على الوقوف لهم لو أرادت، فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان، إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء، وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة[٥].

٨. كل من الشيطان والفاجر الكافر يلقي التبعة في كفره على الآخر، ويتبرأ الشيطان من الكافر، ويكذبه يوم القيامة، وينسب الطغيان والكفر له، لا لنفسه، والحق أن كلا الفريقين في النار، وقد أعذر من أنذر، واللّه تعالى أرسل الرسل، وأنزل الكتب لهداية الإنس والجن، فاختار كل منهما ما يحلو له[٦].

٩. أخبر تعالى ذكره هذا الخبر، عن قول قرين الكافر له يوم القيامة إعلامًا منه عباده: تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة[٧].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٢٥٨.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٥٤.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٨٨.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٢٥٩.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ١٥١.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ٦٣٨.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٥٨.

١٠. نفي الظلم عن الله تعالى، وهو كذلك فلا يظلم الله أحدًا من خلقه[١].

قواعد الحوار

إن قواعد الحوار والاختلاف وضوابطه هي العاصم للمتحاورين من الغلو وشتم الآخرين إن كان الحق هو الرائد والمطلوب، أما إذا كان الخلاف انتصارًا لأهواء سياسية وتعصبًا أعمى، فهذا أمر لا ينفع معه قواعد ولا ضوابط، إذ إن الهوى ليس له ضوابط ولا موازين، ولذلك حذرنا الله تعالى من اتباع الهوى فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، لذا فلابد من تسليط الضوء على بعض تلك القواعد القرآنية والتي منها:

أولًا: الحوار بالتي هي أحسن:

إن من أهم ما يتوجه إليه المحاور في حواره، التزام الحسنى في القول والمجادلة، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[الإسراء:٥٣].

وقال عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]؛ فعلى المحاور اللبيب طالب الحق، أن ينأى بنفسه عن أسلوب الطعن والتجريح والهزء والسخرية، وألوان الاحتقار والإثارة والاستفزاز، حتى لو تعرض للاحتقار والازدراء؛ قال الطبري:

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ١٤٨.

وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى[1].

ومن لطائف التوجيهات الإلهية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الباب، الانصراف عن التعنيف في الردّ على أهل الباطل، حيث قال الله لنبيه: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨ -٦٩]، وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ:٢٤]، مع أن بطلانهم ظاهر، وحجتهم داحضة.

ويلحق بهذا الأصل: تجنب أسلوب التحدي والتعسف في الحديث، ويعتمد إيقاع الخصم في الإحراج، ولو كانت الحجة بينه والدليل دامغًا، فإن كسب القلوب مقدم على كسب المواقف، وقد تفحم الخصم ولكنك لا تقنعه، وقد تسكته بحجة ولكنك لا تكسب تسليمه وإذعانه، وأسلوب التحدي يمنع التسليم، ولو وجدت القناعة العقلية. والحرص على القلوب واستلال السخائم أهم وأولى عند المنصف العاقل من استكثار الأعداء واستكفاء الإناء. وإنك لتعلم أن إغلاظ القول، ورفع الصوت، وانتفاخ الأوداج، لا يولّد إلا غيظًا وحقدًا وحنقًا، ومن أجل هذا فليحرص المحاور؛ ألا يرفع صوته أكثر من الحاجة فهذا رعونة وإيذاء للنفس وللغير، ورفع الصوت لا يقوّي حجة ولا يجلب دليلًا ولا يقيم برهانًا؛ بل إن صاحب الصوت العالي لم يعل صوته -في الغالب- إلا لضعف حجته وقلة بضاعته، فيستر عجزه بالصراخ ويواري ضعفه بالعويل، وهدوء الصوت عنوان العقل والاتزان، والفكر المنظم والنقد الموضوعي[2].

ثانيًا: الإنصات الجيد وحسن الاستماع:

الإنصات الجيد هو بداية الحوار الفعّال الناجح مع الآخرين، والغريب أن الذين يتقنون هذه المهارة قلائل جدًّا، لذلك كان من الضروري أن نتعلم هذه المهارة؛ لأنها ستفتح لنا مجالًا أكبر للتواصل مع من حولنا والتحاور بصورة أفضل وستفتح لنا المجال في بناء علاقات مميزة مع الآخرين.

والإنصات: هو السكوت للاستماع[3]، وهناك فرق بين السماع والاستماع: فالسماع قد يكون بغير قصد ولا انتباه، أما الاستماع فهو بقصد وانتباه وتركيز كما جاء

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢١.

(٢) انظر: الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، أحمد بن عبد الرحمن الصويان، ص١٨٧.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٦٨.

في معجم الفروق اللغوية: إن الاستماع هو استفادة المسموع بالإصغاء إليه ليفهم، ولهذا لا يقال: إن الله يستمع، وأما السماع فيكون اسمًا للمسموع يقال لما سمعته من الحديث: هو سماعي، ويقال للغناء: سماع، ويكون بمعنى السمع، تقول: سمعت سماعًا، كما تقول: سمعت سمعًا[1].

ويظهر ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجنّ:١]، يقول البقاعي: ﴿اسْتَمَعَ﴾ أي: بغاية الإصغاء والإقبال والتقبل والإلف استماعًا هو الاستماع في الحقيقة[2].

أهمية الاستماع والإنصات في الحوار:

إن عملية الاستماع هي المقدمة الطبيعية لغالب العمليات الفكرية والعقلية الموجهة للسلوك البشري التنموي التحاوري، والسماع هو مفتاح الفهم والتأثر والإقناع والتشبع بالأفكار؛ لذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصّلت:٢٦]، فما داموا لا يسمعون له فلن يتأثروا به، كما أنهم لمّا انقشع عنهم الغمام تمنوا لو أنهم كانوا قد أحسنوا السماع، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، إننا نستمع أحيانًا بدون وعي، فإذا اجتمع مع الاستماع وعيٌ يكون الإصغاء، وهو سماع الأذن بوعي وتفهّم، والإصغاء الفعال هو الاستماع والإنصات المركّز لمجموعة من المعلومات حول موضوع ما لغرض التفهّم الكامل لذلك الموضوع. وهو مهارة مهمة إذ إنه يبني نوعًا من الثقة والمودة المتبادلة ويعزز التفاهم والتواصل، ومعظم المشاكل التي تحدث في العلاقات بين الناس يكون عدم الإلمام بهذه المهارة سببًا رئيسًا فيها[3].

ومن أهم فنون التواصل مع الآخرين عند دعوتهم أو الحوار معهم: أن تستمع إليهم لكي تعطيهم فرصة للتكلم والتعبير عن آرائهم ووجهة نظرهم، «والواجب على العاقل أن ينصف أذنيه من فيه، ويعلم أنّه إنّما جعلت له أذنان وفم واحدٌ ليسمع أكثر ممّا يقول؛ لأنّه إذا قال ربّما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو على ردّ ما لم يقل أقدر منه على ردّ ما قال، والكلمة إذا تكلّم بها ملكته، وإن لم يتكلّم بها ملكها»[4].

وقد ترتب في سورة الأحقاف على حسن الاستماع والإنصات دعوة أمة الجن بأسرها كما يصور ذلك المشهد سيد قطب رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٤٩.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢٠/ ٤٦٢.
(٣) انظر: الإدارة المدرسية والإشراف التربوي، قسم أصول التربية، ص١٢٣.
(٤) انظر: الانتصار للصحابة الأخيار، عبدالمحسن البدري، ص١٤٢.

﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف:٢٩]، حيث قال: وتلقي هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع. وهذه تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن. فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية. فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به. وهي حالة من امتلأ حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعًا إلى الحركة به والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام[(١)].

قال المراغي: فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض: أنصتوا مستمعين، فلما فرغ من تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه[(٢)].

والإنصات الجيد يؤثر في النفس أبلغ الأثر، ويزيد القدرة على الاستيعاب، فقد جاء في تفسير هذه الآية: قال بعضهم لبعض: أنصتوا؛ لنستمع القرآن، فلما فرغ الرسول من تلاوة القرآن، وقد وعوه وأثّر فيهم، رجعوا إلى قومهم منذرين ومحذرين لهم بأس الله، إن لم يؤمنوا به[(٣)].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٢٧٣.
(٢) انظر: تفسير المراغي،٢٦/ ٣٦.
(٣) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري ص٦٠.

وحسن الاستماع من الآداب الإسلامية والأخلاق الرفيعة؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه من يناقشه استمع إليه وأنصت لكلامه حتى يفرغ من حديثه ثم أجابه.

وخير مثال على ذلك من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم إنصاته الجيد لعتبة بن ربيعة في القصة المشهورة، حيث قال عتبة: (.... إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه- أو كما قال له- حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه: قال: أو قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: بسم الله الرحمن

الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾ [فصّلت:١-٥].

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم)[1].

وهكذا نلاحظ أنه لما جاء عتبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحاوره في دينه ويبين له على ما ترتب على دعوته إلى دين الإسلام من أمور يظنها مفاسد من التفريق بين الوالد والولد، وجعل ذلك تسفيهًا لدين الآباء والأجداد، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أو قد فرغت يا أبا الوليد؟) قال: نعم، فالنبي صلى الله عليه وسلم استمع له وأنصت له حتى أكمل كلامه كله، فلما قضى كلامه قرأ عليه من سورة فصلت فكان ذلك سببًا في تغيير شيء من موقفه[2].

فمن هذا الموقف العظيم ندرك كم لأهمية الإنصات الجيد وحسنه من أثر إيجابي على الآخرين؛ فقد أثر على صنديد من صناديد قريشٍ أبلغ التأثير.

ثالثًا: إبراز الحقائق:

إن من القواعد والمبادئ الأساسية للحوار والتي جاءت بها شريعة الإسلام لقطع الخلاف: إبراز الدليل الناصع، والبرهان الساطع[3]، والتي تتمثل في أمرين: إبراز الحقائق المثبتة، وصحة النقل، وعليها وضع العلماء قاعدتهم المشهورة: (إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدّعيًا فالدليل)[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٣.

(٢) انظر: أدب الحوار، سعد بن ناصر الشثري، ص٣٦.

(٣) انظر: أدب الحوار في الإسلام،، محمد سيد طنطاوي ٢٥.

(٤) انظر: مناظرات ابن تيمية لأهل الملل والنحل، عبد العزيز آل عبد اللطيف، ص ٦٧.

وقد وردت الإشارة إلى مضمون هذه القاعدة في كثير من الآيات القرآنية التي تطالب الطرف الآخر بتقديم البراهين والحجج المنطقية، منها قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٤]، وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤].

ففي هذه النصوص يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يطالب المشركين بتقديم براهينهم وأدلتهم على ما يقدمون من دعاوى إن كانوا على يقين من الأمور التي يعتقدونها: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١].

وهكذا نجد أن المحاورة في القرآن الكريم تعتمد على العقل والمنطق، ولا تتأثر بأي عامل أو مؤثر خارجي كالنبوة والرسالة والوحي، ولاشك أن الحوار الذي يعتمد على الحجة الواضحة والدليل المنطقي القوي سيؤدي في النهاية إلى الحرية في التفكير، والتخلص من التعصب والانحياز، فنحن نرى أن إبراهيم عليه السلام في حواره مع الله عز وجل يتقدم للمحاورة وكأنه متجردٌ من النبوة، بل من الإيمان: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

فإبراهيم في هذه المحاورة يريد التحاور ضمن قواعد العقل والمنطق، ويرفض وجود أي مؤثر في المحاورة غير العقل[1].

ولقد ظهرت تلك القاعدة أيضًا واضحة جلية في حوار إبراهيم عليه السلام مع الملك الكافر الظالم الذي كان يعيش في عصره.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

أراد إبراهيم عليه السلام: أن الله هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد الكافر: أنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء، وعلى أن يقتل فيكون ذلك إماتة، فكان هذا جوابًا أحمق، لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم، لأنه أراد غير ما أراد الكافر، فلو قال له: ربه الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهل تقدر على

(١) انظر: الحوار في الإسلام، عبد الله الموجان، ص٣٧.

ذلك؟ لبهت الذي كفر بادئ بدء وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيسًا لخناقه، وإرسالًا لعنان المناظرة فقال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة. قوله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ بهت الرجل وبهت وبهت: إذا انقطع وسكت متحيرًا[1].

رابعًا: الإنصاف:

إن العدل والإنصاف مع الخصم مبدأ مهم صعب جليل، وإن المفترض في المسلم أن يكون عادلًا منصفًا، حيث منهج دين الإسلام هو الأمر بالعدل والنهي عن الظلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠]، والعدل والإنصاف مطلوبان في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام:١٥٢]، كما هما مطلوبان في الحكم: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[النساء:٥٨]، ولو اتبع المسلمون هدي دينهم في هذا الأمر لما وقع كثير من المسلمين فيما وقعوا فيه من الظلم والاختلاف والنزاع والشقاق، ومن تمام الانصاف قبول الحق من الخصم والتفريق بين الفكرة وصاحبها، وأن يبدي المحاور إعجابه بالأفكار الصحيحة والأدلة الجيدة، والمعلومات الجديدة التي يوردها خصمه، وهذا الإنصاف له أثره الإيجابي لقبول الحق، ويضفي على المحاور روح الموضوعية[2].

وإنما كان الإنصاف والعدل صعبًا لما اتصف به الإنسان من الجهل والظلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

فأكثر الناس مجبول على عدم الانصاف إلا من رحم الله، ولذلك قال الإمام الشعبي رحمه الله: «والله لو أصبت تسعًا وتسعين مرة، وأخطأت مرة لأعدوا عليّ تلك الواحدة»[3].

وقد ذكر العلماء ضوابط في العدل والإنصاف: فمن ذلك قول عبد الله بن المبارك رحمه الله: «إذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تذكر المساوئ، وإذا غلبت المساوئ على المحاسن لم تذكر المحاسن»[4].

وذكر عن حاتم الأصم أنه قال: «معي

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٨.

(٢) انظر: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى زمزمي، ص١٤١.

(٣) أعلام النبلاء، الذهبي، ٤/ ٣٠٨.

(٤) المصدر السابق ٨/ ٣٩٨.

ثلاث خصال أظهر بها على خصمي، قالوا: وما هي؟ قال: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل علي، فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فقال: سبحان الله ما كان أعقله من رجل»[1].

ولا شك أن الآيات والأحاديث، والأمثلة والنماذج والسير كثيرة جدًّا في تقرير هذا المبدأ وتأصيله، وهناك نصوص عامة تأمر بالعدل والإنصاف في الحوار وغيره.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة:٨].

قال الزمخشري: «وفيه تنبيه عظيم على أن وجود العدل مع الكفار الذين هم أعداء اللّه إذا كان بهذه الصفة من القوة، فما الظنّ بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه»[2].

فالآيات تفرض العدل في جميع الأحوال، كما تحذر الظلم وتحرم الجور في جميع الأوقات، وقد مضت سنة الله العادلة في خلقه بأن جزاء ترك العدل وعدم إقامة القسط في الدنيا، هو ذل الأمة وهوانها، واعتداء غيرها من الأمم على استقلالها، ولجزاء الآخرة أذل وأخزى وأشد وأبقى[3].

وكما يروى عن شيخ الإسلام قوله: إن الله ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة، ويذل الأمة الظالمة وإن كانت مسلمة[4].

ومن نماذج الإنصاف في القرآن ما جاء في وصف أهل الكتاب وذكر بعض مثالبهم كما في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١١٢].

ثم أنصف الله عز وجل المتقين منهم بقوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣].

ومثلها إنصافهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٥].

قال سيد قطب: «وهذا غاية الإنصاف

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ٦٧.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦١٣.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٢٧.
(٤) انظر: الاستقامة ٢/ ٢٤٧.

والعدل للقلة الخيرة منهم، التي وعدها بالوعد الصادق لهم: أنهم لن يبخسوا حقًّا، ولم يفكروا أجرًا مع الإشارة إلى أن الله سبحانه علم أنهم من المتقين»[1].

خامسًا: الرفق واللين:

إن إظهار الحق وإيصاله للآخرين وإقناعهم به ودحض شبهاتهم وأباطيلهم يحتاج إلى معرفة طبيعة النفس البشرية، وما يصلح لها وما يسوؤها، ومن أهم سمات النفوس أنها تميل إلى اللين والملاطفة والتعامل بالحسنى، وتنفر من الشدة والإذلال والإفحام، إذ إن لها كبرياء، فمن أكرمها فأنه يستطيع أن يقودها وأن يسيّرها كيفما شاء، ومن خدش كبرياءها، فلن يظفر منها بطاعة ولا تصديق ولا انقياد، ولا يلومنّ بعد ذلك إلا نفسه! لذا فمن أراد أن يمسح الشبهات من عقول الناس، أو أراد أن يدحضها، فعليه أن يلج إلى ذلك بالحسنى، وأن يتجّنب العنف والشدة والتحدي[2].

ولا شك أن القلوب تميل إلى من يلين ويرفق بها، وتنفر الطبائع البشرية من الفظ الغليظ، حتى لو كان خير الناس! كما قال الله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والمحاور الناجح في أمسّ الحاجة إلى التفاف الناس حوله، وتحّليه بالرفق واللين يساعد في تحقيق ذلك. إلى جانب ذلك، فقد ينشأ عند كثير من الناس نفور تجاه المحاور بسبب دعوته، وذلك إذا خالف رغبات كثير منهم أو عارض شهواتهم، لكنّ اتصافه بالرفق يساهم في إزالة أو تقليل هذا النفور[3].

إنّ الرفق سمة واضحة في دعوة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، فما من نبي بعث إلا ودعا قومه وحاورهم بالتي هي أحسن، فها هو نبي الله شعيب عليه السلام يحاور قومه بكل رفق قائلًا: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

فهذا تلطف منه في العبارة ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة، يقول لهم: أرأيتم أيها المكذبون إن كنت على بينة من ربي ورزقني النبوة والرسالة، وعمّي عليكم معرفتها، فأي حيلة لي فيكم؟ ولست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه[4]، فهو يتلطف معهم

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٩٩.
(٢) انظر: منهجية التعامل مع الشبهات، الحمادي ٢/ ١٤.
(٣) انظر: الحوار في القرآن الكريم، معن محمود ص ١٢٤.
(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص٤٤٦.

ليشعرهم أنه على بينة من ربه، وأنه على ثقة مما يقول لهم، وأنه يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة، وسيتأثر مثلهم بنتائجها، لأنه ذو مال وعلاقات تجارية، فهو لا يبغي كسبًا شخصيًّا من وراء دعوته لهم، فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله لينفرد بالكسب وحده! إنما هي دعوة الإصلاح للناس أجمعين بكل حكمة وروية ولين[1].

ولقد أمر الله نبييه موسى وهارون عليهم السلام أن يحاورا فرعون، ذلك الطاغية الذي ادعى الربوبية فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النّازعات:٢٤]، ثم ادعو الألوهية فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]، ورغم ذلك أمرهم الله بالرفق واللين معه فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

قال ابن كثير: «هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين[2].

قال الزمخشري: «اذهبا على رجائكما وطمعكما، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوقه، ويحتشد بأقصى وسعه»[3].

إن الحوار أو الجدال الذي يدور بين الناس، إذا كان يقوم على التواضع ولين الجانب، وعلى الأسلوب المهّذب الخالي من كل ما لا يليق، كانت نتائجه طيبة وآثاره حميدة، لأنه يوصل إلى الحقيقة المرجوة، وإلى الاتفاق ولو على معظم المسائل التي دار من أجلها الحوار. أما الحوار أو الجدال الذي يكون مبعثه الغرور والتعالى والتباهي بالأقوال، فمن المستبعد أن يأتي بنتيجة توصل إلى الحقيقة أو إلى اتفاق على ما ينفع، وإنما المتوقع من هذا الحوار الذي سداه الغرور، أن تتولد عنه الآثام والشرور وهكذا نتيقن أن الرفق يزين الحوار ويقوده إلى نتائج طيبة وثمار ناضجة، أسوتنا في ذلك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام[4].

موضوعات ذات صلة:

الإنصاف، التربية، الجدال، الدعوة، النصيحة

(١) انظر: ديماس، فنون الحوار والإقناع ص٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٩٤.
(٣) الكشاف ٣/ ٦٥.
(٤) انظر: أدب الحوار في الإسلام، طنطاوي ٣٠.

الحياة

عناصر الموضوع

مفهوم الحياة	١٧٦
الحياة في الاستعمال القرآني	١٧٨
الألفاظ ذات الصلة	١٧٩
حقيقة الحياة وأهميتها	١٨١
نظرة الناس للحياة	١٨٥
الحياة الدنيا في القرآن	١٨٨
الحياة البرزخية	١٩٧
الحياة الآخرة في القرآن	٢٠٢
المقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة	٢١٤

مفهوم الحياة

أولًا: المعنى اللغوي:

الناظر في معاجم العربية يجد أن مادة (حيّ) تدور حول أصلين، كما أشار ابن فارس: «الحاء والياء والحرف المعتلّ أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الّذي (هو) ضدّ الوقاحة. فأمّا الأوّل فالحياة والحيوان، وهو ضدّ الموت والموتان. ويسمّى المطر حيًّا لأنّ به حياة الأرض. والأصل الآخر: قولهم استحييت منه استحياءً»[(١)].

والحياء: «تغيير وانكسار يعتري الإنسان من خوف وما يعاب به»[(٢)].

«وأما الاستحياء بمعنى الاستبقاء: فحقيقته طلب الحياة وإرادة أن يكون فرد آخر حيًّا في مقابل من يريد الموت والهلاك، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة:٤٩].

وقد ذكر في مقابل الذبح والقتل: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:١٢٧]، ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة:٤٩]»[(٣)].

وبين الأصلين علاقة؛ «فالحياء من قوة الحس ولطفه وقوة الحياة»[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«الحياة: في الأصل: الروح وهي الموجبة لتحرك من قامت به، ذكره العكبري.

وقال الحرالي: الحياة تكامل في ذات ما أدناه حياة النبات بالنمو والاهتزاز مع انغراسه إلى حياة ما يدب بحركته وحسه إلى غاية حياة الإنسان في تصرفه وتصريفه إلى ما وراء ذلك من التكامل في علومه وأخلاقه. وقال في موضع آخر: الحياة كل خروج عن الجمادية من حيث إن معنى الحياة بالحقيقة تكامل الناقص»[(٥)].

وقال الشريف الجرجاني: «الحياة هي صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر»[(٦)].

وقال الراغب: «الحياة تستعمل على أوجه:

الأوّل: للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حيٌّ، قال عزّ وجلّ:

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٢.
(٢) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص١٠٩.
(٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المصطفوي ٢/ ٣٩٥-٣٩٦.
(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ٥.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٤٩.
(٦) التعريفات، ص ٨٣.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ [ق:١١]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

الثاني: للقوّة الحسّاسة، وبه سمّي الحيوان حيوانًا، قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝٢٦﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [فصلت:٣٩].

فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ **إشارة إلى القوّة النّامية، وقوله:** ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ **إشارة إلى القوّة الحسّاسة.**

الثالث: للقوّة العاملة العاقلة، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقول الشاعر:

وقد أسمعت لو ناديت حيًّا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

والرابع: الحياة الأخرويّة الأبديّة، وذلك يتوصّل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، **وقوله:** ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]، **يعني بها: الحياة الأخرويّة الدّائمة.**

والخامس: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل فيه تعالى: هو حيّ، فمعناه: لا يصحّ عليه الموت، وليس ذلك إلّا لله عزّ وجلّ»[1].

فالمعنى الاصطلاحي متوافق مع المعنى اللغوي على الأصل الأول الذي يدل على خلاف الموت.

(١) المفرادات، الراغب الأصفهاني ص ١٣٨-١٣٩.

الحياة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حيي) الدالة على الحياة في القرآن الكريم (١٧٥) مرة[(١)].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٧	﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]
الفعل المضارع	٤٦	﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]
فعل الأمر	١	﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر:٢٥]
المصدر	٧٩	﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة:٨٦]
اسم الفاعل	٢	﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم:٥٠]
الاسم	٣٠	﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]

وجاءت (الحياة) في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه[(٢)]:

الأول: الخلق الأول ونفخ الروح، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]، يعني: كنتم نطفًا فخلقكم وجعل فيكم الأرواح.

الثاني: الإيمان والهدى، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، يعني: فهديناه للإيمان.

الثالث: الإبقاء على قيد الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، يعني: ومن أبقاها فكأنما أبقى الناس جميعًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٢٣- ٢٢٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص٢٢٠- ٢٢٢، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص١٨٦- ١٨٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٢٥٣، ٢٥٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ النماء:

النماء لغة:

يقول ابن فارس: «(نمى) النّون والميم والحرف المعتلّ أصلٌ واحدٌ يدلّ على ارتفاعٍ وزيادةٍ[(١)].

النماء اصطلاحًا:

لا يخرج عن المعنى اللغوي، فهو الزيادة سواء أكانت حقيقية أم تقديرية.

الصلة بين الحياة والنماء:

«أن الحياة هي ما تصير به الجملة كالشيء الواحد في جواز تعلق الصّفات بها، فأما قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر:٩] فمعناه: أنا جعلنا حالها كحال الحيّ في الانتفاع بها، والصّفة لله بأنّه حيّ مأخوذه من الحياة على التّقدير، والنماء يزيد الشّيء حالًا بعد حال من نفسه، لا بإضافة إليه فالنبات ينمي ويزيد وليس بحي، والله تعالى حيّ ولا ينام ولا يقال لمن أصاب ميراثا أو أعطي عطيّة: إنه قد نمى ماله، وإنّما يقال: نمى ماله إذا زاد في نفسه، والنماء في الماشية حقيقة؛ لأنّها تزيد بتوالدها قليلًا قليلًا، وفي الورق[(٢)] والذّهب مجاز، ويقال للأشجار والنبات: نوام؛ لأنّها تزيد في كل يوم إلى أن تنتهي إلى حد التّمام»[(٣)].

٢ العيش:

العيش لغة:

يقول ابن فارس: «(عيش) العين والياء والشّين أصلٌ صحيحٌ يدلّ على حياةٍ وبقاءٍ، قال الخليل: العيش لغة: الحياة. والمعيشة: الّذي يعيش بها الإنسان: من مطعمٍ ومشربٍ وما تكون به الحياة.

العيش اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

---

(١) مقاييس اللغة ابن فارس٥/ ٤٧٩.
(٢) الوَرِق -بكسر الراء-: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ١٠٢٦.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٢.

الصلة بين الحياة والعيش:

قال الراغب: «العيش: أخصّ من الحياة، لأنّ الحياة تقال في الحيوان، وفي الباري تعالى، وفي الملك، ويشتقّ منه المعيشة لما يتعيّش منه»[(١)].

والحياة صفة ذاتية بها يستمر الوجود، وأما العيش فهو كيفية حادثة عارضة بعد الحياة[(٢)].

وقيل: بينهما عموم وخصوص، فالعيش هو الحياة المختصة بالأجسام، ويشتق منه المعيشة، وهو كل ما يتعيش منه ويقيم الأود، ويلبي رغبات الجسم، من مأكل ومشرب ومسكن ومنكح وغير ذلك[(٣)].

٣ الروح:

الروح لغة:

أصل مادة (روح) تدلّ على سعةٍ وفسحةٍ واطّرادٍ، وأصل ذلك كلّه الرّيح. والرّوح: روح الإنسان، وهي مشتقّةٌ من الرّيح[(٤)].

الروح اصطلاحًا:

قال القرطبي: «والروح: جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم»[(٥)].

وقال عنها المراغي: «إنها جسم نوراني، علويّ، خفيف، حي، متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسرى فيها سريان الماء في الورد، والنار في الفحم»[(٦)].

وقال البغوي في تفسيره: «والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان»[(٧)].

الصلة بين الحياة والروح:

أن لكل كائن حي حياة تناسبه، ولا يلزم من ذلك أن يكون فيه الروح الخاصة بالحيوان الحي المتحرك بالإرادة، فالشجر والنباتات عامة ليس فيها روح، مع أن فيها حياة، وهذا أمر معلوم بالاضطرار.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥٣.
(٢) التحقيق في كلمات القرآن، المصطفوي ٨/ ٣٣٨.
(٣) مفهوم الحياة في القرآن والحديث، د. محمد الأحمدي ص ١٠٧.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ص٤٥٤.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٤.
(٦) تفسير المراغي ٤/ ١٧٦.
(٧) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٨٠.

حقيقة الحياة وأهميتها

«إن الحياة في مفهومها الإسلامي ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد وعمر الأمة من الناس، كما أنها ليست هي الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا.

إن الحياة في مفهومها الإسلامي تمتد في الزمان، فتشمل هذه الفترة المشهودة-فترة الحياة الدنيا- وفترة الحياة الآخرة، وتمتد في المكان، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر، دارًا أخرى: جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، ونارًا تسع الكفرة من جميع القرون.

وتمتد الحياة في حقيقتها، فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الآخرة... في الجنة والنار سواء، وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليس من مذاقاته هذه الحياة الدنيا»[1].

أولًا: حقيقة الحياة الدنيا:

١. دار استخلاف.

تكمن قيمة وأهمية الحياة الدنيا في ميزان القرآن أنها الدار التي استخلف الله عز وجل فيها عباده من أجل حمل أمانة الاستخلاف والقيام بمقتضيات العبودية وحق الربوبية.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

«وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله -بإذن الله- في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه. وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية»[2].

هذه المهمة جعلت الإنسان موضع التكليف والمسئولية، والمكلف مأمور، تجب عليه الطاعة وهو مسئول عن عمله، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب:٧٢].

(١) الحياة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون ١/ ٢٣٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٥٦.

ويرتبط الاستخلاف في الحياة الدنيا بعمارة الأرض وفق المنهج الرباني من أجل إقامة العدل وتحقيق الإصلاح، والبعد عن الظلم والطغيان، وكل ما من شأنه أن يكون وسيلة للإفساد والتخريب في هذه الأرض.

وهذا الإصلاح يرتبط بالإيمان الصادق والطاعة الدائمة والعبادة الخاشعة، والعلم النافع المثمر.

ولقد امتن الله تعالى على بني آدم بهذه النعمة الكبرى والتي تظهر تكريمه سبحانه لهم، وإحسانه إليهم فقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥].

«أي: إن ربكم الذي هو رب كل شيء هو الذي جعلكم خلائف هذه الأرض بعد أمم قد سبقت، وفي سيرها عبر وعظات لمن ادكر وتدبر، وكذلك هو قد رفع بعضكم فوق بعض درجات في الغنى والفقر، والقوة والضعف، والعلم والجهل، ليختبركم فيما أعطاكم، أي: ليعاملكم معاملة المختبر لكم في ذلك، ويبني الجزاء على العمل، إذ قد جرت سنته في أن سعادة الناس أفرادًا وجماعات في الدنيا والآخرة أو شقاءهم فيهما تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم»[(١)].

وعلى هذا فإن الإنسان خليفة في الأرض«أيًّا كان مكانه في المجتمع، غنيًّا أو فقيرًا، عالمًا أو جاهلًا، قويًّا أو ضعيفًا، ومن واجبه أن يعمل بمقتضى هذه الخلافة، ويجمع إلى يديه أسبابها ومقوّماتها، وإنه لمن ظلم الإنسان لنفسه، ومن استصغاره لوجوده، أن يسفّ وينحدر عن هذا المستوي الكريم الذي رفعه اللّه إليه، فيتحول إلى كائن حيوانيّ ذليل، يقاد فينقاد، ويستذل فيذلّ، حتى لينعزل عن العالم الإنساني، ويصبح على غير الخلق السويّ الذي خلقه اللّه عليه»[(٢)].

٢. دار ابتلاء.

اقتضت سنة الله في الحياة الدنيا أن تكون دار ابتلاء واختبار، يتقلب فيه العباد بين السراء والضراء، والشدة والرخاء، واليسر والعسر، «ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل أو يخيب له أمل. أو يموت له حبيب أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال، أو.. أو.. إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة...»[(٣)].

قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

(١) تفسير المراغي، ٣/ ٢٥٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٣٥٩.

(٣) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي ص ١٧٨.

[الملك:٢].

وهكذا «ليست المسألة مصادفة بلا تدبير، وليست كذلك جزافًا بلا غاية، إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض، واستحقاقهم للجزاء على العمل»[(١)].

أما مادة الابتلاء فهي زينة هذه الأرض كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف:٧-٨].

إن «جميع ما على وجه الأرض، من مآكل لذيذة، ومشارب، ومساكن طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختبارا»[(٢)].

وقد عرضت آيات القرآن الكريم أهم شهوات الدنيا المادية وهي في ذاتها تمثل صورة من صور الزينة.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤﴾ [آل عمران:١٤].

«هذه زينة الحياة الدنيا، وهذه متعها، وهي مصدر الخير، ومصدر الشر فيها، وبها تكون الرفعة، وبها يكون السقوط، وبها تكون العزة، وبها تكون الذلة؛ والإرادة الإنسانية هي التي تجعلها في أحد الطريقين، فإن كانت الإرادة قوية حازمة جعلت من هذه الأمور مصدر خير وطريقًا إلى الجنة، وإن تحكّم الهوى وغلب الشيطان، وضعف الوجدان الديني، كانت هذه الأمور مصدر شر وطريقًا إلى النار؛ فهي طريق الجنة عند الأبرار، وطريق النار عند الأشرار، وكل امرئ وما تهوى نفسه»[(٣)].

والابتلاء في هذه الزينة والشهوات تارة يكون بالسراء وتارة بالضراء، بالمنع والعطاء، كما قال الله عز وجل ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

وفي هذه الآية: إشارة إلى أن الابتلاء بما يمثله من امتحان لتقلب البشر بين السراء والضراء، والخير والشر ضروري لإظهار قوة الإيمان في النفس أو ضعفه فيها، حيث تقاوم النفس -في لحظات الضراء- مشاعر الجزع والهلع لتتذوق حلاوة الصبر والرضا والتسليم، كما تتمرس على الحمد والشكر في لحظات السراء بما يعصمها من البطر

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٣٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٧.
(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢/ ١١٣١.

والعجب والغرور.

ثانيًا: أهمية الحياة الدنيا:

إن الحياة الدنيا حينما تقاس بمقاييسها الدنيوية، وتوزن بموازينها تبدو في العين والحس أمرًا عظيمًا هائلًا، وشيئًا جميلًا رائعًا، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود، وتوزن بميزان الآخرة، تبدو شيئًا زهيدًا تافهًا؛ فهي لعب وضياع ولهو وتفاخر، وغرور خادع، وأمل كاذب، وظل زائل.

فما هذه الحياة إلا مرور عابر واستراحة مسافر، ولكنها مع كل ذلك يمكن أن يجعل منها الإنسان مجالًا لسروره، وميدانًا لحبوره، وفرصة لخلوده، ومقرًّا لرفعته، ومحطة لغناه، وسوقًا لمناه، وفوزًا بمبتغاه.

يقول الإمام ابن القيم: «فالدنيا فى الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات، والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الاطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الايمان، ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة فى الجنة، إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحًا وفضلًا لأولياء الله فيها من قرة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته والتوكل عليه والإنابة إليه والأنس به والفرح بقربه والتذلل له ولذة مناجاته والإقبال عليه والاشتغال به عن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذى ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده»[1].

مما سبق يتضح أنه لا انفصال في التصور القرآني للحياة بين الدنيا والآخرة، فالطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا عبر بوابة الإيمان ومدارج التقوى.

فهما طريقان يكمل بعضهما البعض، طريق يجتمع فيه العمل مع العبادة في اتحادٍ وتعاضد، فكلاهما يحقق غاية وجود الإنسان على هذه الأرض وهو تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل. فكل أعمال المؤمن في هذه الحياة تتحول -إن صحت النية- إلى عبادة يجني ثمارها في الدنيا قبل الآخرة، حيث يتنعم في ظلالها بالحياة الطيبة التي وعده ربه عز وجل بها في كتابه مع ما ينتظره في الآخرة من النعيم والتكريم الذي لا يخطر على البال.

(١) عدة الصابرين، ابن القيم ص٣٣١-٣٣٢.

نظرة الناس للحياة

تختلف نظرة الناس للحياة وفقًا لاختلاف عقائدهم وأفكارهم وتصوراتهم التي تنبع من المنهج الذي يستقون منه معرفتهم، فالمؤمنون الذين يجعلون القرآن الكريم منهج حياتهم يعلمون أنها دار زائلة فانية يتزودون فيها بما ينفعهم للفوز والنجاة في الآخرة؛ لذا يترفعون عن الشهوات والملذات إلا بالقدر الذي يحقق لهم الحياة ويعينهم على أداء وظيفة العبودية.

أما غير المؤمنين وقد اتبعوا مناهج أرضية مختلفة وأعرضوا عن منهج القرآن فقد أضحت الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم ومنتهى آمالهم، فكل سعيهم وجهدهم وتحركاتهم وعلاقاتهم من أجل نيل متاعها الزائل والافتخار بزخارفها الخادعة.

أولًا: نظرة المؤمنين:

ينظر المؤمنون إلى الحياة الدنيا فيرونها على حقيقتها كما وصفها كتاب ربهم: دار ابتلاء ومحن، دائمة التقلب وسريعة الزوال ولا تدوم على حال، مزينة بالشهوات، تغر الناظرين بزخارفها ومفاتنها، فيتخذونها وسيلة لا غاية، لا يتركونها بالكلية كما يفعل الرهبان أو يهجرون طيباتها أو يفرون من فتنتها بالعزلة والصمت، ولا يتكالبون على شهواتها وملذاتها بدون ضابط أو رادع. فهم يمارسون فيها وظيفة العبودية ويتقربون إلى ربهم بالأعمال الصالحات على أساس من الإيمان والتقوى، واضعين نصب أعينهم أن هذه الحياة مزرعة الآخرة، فما زرعه الإنسان في هذه الحياة سيحصد ثماره في الحياة الآخرة، تلك الحياة الحقيقية التي تهفو لها القلوب وتتطلع لها الأبصار حيث النعيم المقيم والسعادة الدائمة.

وهذه النظرة المتوازنة للحياة الدنيا يستقيها المؤمن من قول ربه عز وجل: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص:٧٧]

«لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض، ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها، والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها، فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.. وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة

الفطرية البسيطة»[1].

كما يدرك المؤمنون قيمة هذه الحياة الدنيا من التشبيه النبوي الرائع لها (عن جابر بن عبد اللّه، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم مرّ بالسّوق، داخلًا من بعض العالية، والنّاس كنفته[2]، فمرّ بجدي أسكّ[3] ميّتٍ. فتناوله فأخذ بأذنه. ثمّ قال: (أيّكم يحبّ أنّ هذا له بدرهم)، قالوا: ما نحبّ أنّه لنا بشيءٍ. وما نصنع به؟ قال: (أتحبّون أنّه لكم)، قالوا: واللّه! لو كان حيًّا، كان عيبًا فيه، لأنّه أسكّ، فكيف وهو ميّتٌ؟ فقال:(فواللّه! للدّنيا أهون على اللّه، من هذا عليكم)[4].

وهكذا.. عندما تكون الحياة الدنيا في حس المؤمن دار ممر إلى الحياة الحقيقية في الآخرة، عندها لاينخدع بزينتها وزخارفها، بل يجعلها وسيلة لعمارة هذه الأرض وفق المنهج الرباني، ويصبح شاغله الشاغل فيها هو استعمال ما وهبه الله فيها من نعم وقدرات فيما يقربه من مولاه، وفيما ينفعه في الآخرة، فكل ما يغرسه من أعمال صالحة في الدنيا يجد ثمراته في الآخرة، الحياة الحقيقية اللائقة بهذا المخلوق المكرم.

ثانيًا: نظرة الكافرين:

أما نظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا فهي نظرة المخدوع بزينتها، العاشق لشهواتها، الغارق في أهوائها، فهم لا يمدون أبصارهم إلى أبعد من مواقع أقدامهم، يرونها الفرصة الوحيدة لإشباع ملذاتهم وشهواتهم.. أما الآخرة فلا تخطر على بالهم ولا تشغل همهم، فعشق الدنيا أعمى أبصارهم وطبع على قلوبهم، تمامًا كما وصفهم الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٧].

«أي: مبلغ علمهم لا يتعدى مابه معاشهم في الحياة الدنيا، بصيرين بسبل رخائهم المادي في الدنيا، عمين عن طريق سعادتهم في الدنيا والآخرة، فهي حياة الحواس واللذة. والحضارة المتنكرة للدين وخالق الكون، الفاقدة لكل إشارة إلى معنى وجود الإنسان ووظيفته وغايته ومصيره بعد الموت، فلا تجد في سلم قيمها إلا مصطلحات من قبيل: اختراع، واقتصاد، وتنمية، وتمويل، ومواد أولية، وسوق، واستهلاك، ودخل فردي، ومستوى معيشة،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٧١١.
(٢) وفي بعض النسخ: كنفتيه، معنى الأول جانبه، والثاني جانبيه.
انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ٢٩٤.
(٣) أي: صغير الأذنين.
انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ٩/ ٢٩٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، أول كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٧٢، رقم ٢٩٥٧.

إلى آخر القاموس»[1].

وهذه النظرة المنحرفة للحياة الدنيا -والتي تصدر عن عقيدة فاسدة- تدفعهم لاتباع الباطل والدفاع عنه، وسلوك سبيل الضلال، وإيثار الفساد على الإصلاح، والطغيان على العدل والإنصاف..

فعندما يتصور الإنسان أن هذه الحياة الدنيا هي نهاية المطاف وأنه لا حياة خالدة بعدها، عندها يندفع كالوحش المفترس نحو شهوات الدنيا وزينتها يغترف منها بلا ضابط أو رادع، ويتقاتل من أجل متاعها ويتصارع في سبيل الاستئثار بملذاتها، حتى أنه يرتكب في سبيل تحصيل لذاتها ومشتهياتها أبشع الجرائم وأخس الأفعال، ولم لا يفعل ذلك، وهي في حسه الفرصة الوحيدة المتاحة لإرواء شهواته وإشباع نهمه، وعندها تختفي كل معاني الإنسانية وتغيب القيم العليا والعواطف النبيلة لتتحول الأرض إلى غابة يفترس فيها القوي الضعيف، ويبغى الغني على الفقير، وهذا الأمر ظاهر للعيان -خاصة- في العالم الغربي الذي لا يؤمن إلا بهذه الحياة الدنيوية.

لذا توعد الله عزوجل أولئك الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس:٧-٨].

مما سبق يتضح لنا الفرق بين نظرة المؤمنين ونظرة الكافرين إلى الحياة الدنيا، فشتان شتان بين نظرة تقود صاحبها إلى الحياة الطيبة والسكينة النفسية في الحياة الدنيا، والنعيم الخالد في الآخرة، وبين نظرة تلقي صاحبها في أتون الهم والشقاء، والقلق والحيرة والاضطراب في الحياة الدنيا، والعذاب والخسران والهوان في الآخرة..

شتان شتان بين مصير المؤمنين ومصير غير المؤمنين في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى واصفًا أحوال المؤمنين: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل:٩٧].

وقال سبحانه واصفًا أحوال غير المؤمنين: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه:١٢٤].

فما أبعد الشقة بين الفريقين!

(١) مفهوم الحياة في القرآن والحديث، د. محمد الأحمدي ص ٢٥٧.

الحياة الدنيا في القرآن

أولًا: وصف الحياة الدنيا:

عرضت الآيات القرآنية صفات الحياة الدنيا بما يجلي حقيقتها، ويكشف عن قيمتها في ميزان الله عز وجل حتى لا ينخدع الناس بها أو يغفلون بسببها عن الحياة الحقيقية في الآخرة.

وفيما يلي نعرض بعض أوصاف الحياة الدنيا كما جاءت في القرآن:

١. متاع.

وردت لفظة متاع مضافة إلى (الحياة) في كتاب الله (٧) مرات: آل عمران ١٤، التوبة ٣٨، يونس ٢٣، القصص ٦٠، ٦١، الشورى ٣٦، الزخرف ٣٥.

ووردت مرة مضافة إلى (الدنيا) في النساء ٧٧.

ووردت مضافة إلى (الغرور) في موضعين: آل عمران ١٨٥، الحديد ٢٠.

ونستنتج من ذلك أن لفظ (المتاع) لم يضف إلا للدنيا وغرورها، ولم يوصف نعيم الآخرة بأنه متاع؛ لأنه نعيم كامل باق لا يفنى ولا يزول.

قال ابن منظور في اللسان: «قال الأزهري: فأما المتاع في الأصل فكل شيء ينتفع به ويتبلّغ به ويتزود، والفناء يأتي عليه في الدنيا»[(١)].

وفي الاصطلاح العام هو كل ما أوتي الإنسان في الحياة الدنيا من نساء وبنين ومساكن وأموال، كما قال الله عز وجل ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤]

وقد جعل هذا المتاع فتنة وإمتحانًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

ونقطة الابتلاء في حياة الإنسان هي هذا المتاع الذي وهبه ربه، هل يتناول منه القدر الذي أباحه الله وأحله، أم ينتهب ما حرم الله ولا يلتزم بطاعته؟

كما بينت الآيات أن هذا المتاع قليل وزائل لزوال الحياة الدنيا نفسها وانقضائها، قال عز وجل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص:٦٠].

كما أنه متاع يخدع الغافلين ويغر المغرورين، قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤١٢٧.

﴿الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥]

«وما الحياة الدنيا التي نعيشها ونستمتع بها باللذات الجسدية من طعام وشراب والمعنوية من جاه ومنصب وسمو إلا كالمتاع المشترى بخداع وتغرير، ثم يتبين فساده ورداءته؛ لأن صاحبها دائمًا مغرور مخدوع بها، أو لأنها حقيرة متروكة فانية زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وفي الحديث: (والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع)[(١)]»[(٢)].

وتهوين شأن الدنيا على هذا النحو لمن آثرها على الآخرة، قال سعيد بن جبير: «إنما هذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ»[(٣)].

فهل ينخدع العاقل بهذا المتاع ويضحي من أجله بنعيم خالد وسعادة سرمدية ؟، ألا إنها الحماقة التي لا يرتكبها إنسان يسمع ويرى!

٢. لعب ولهو.

ورد اللعب واللهو صفة للدنيا في أربعة مواضع: الأنعام ٣٢، العنكبوت ٦٤، محمد ٣٦، الحديد ٢٠.

و«اللعب واللهو هما الاشتغال بما لايعني العاقل من لهو وطرب، سواء كان ذلك محرمًا أم غير محرم، بيان ذلك: أن هناك أمورًا ثبت تحريمها بالشرع، كالزنا واغتصاب الأموال، والاشتغال ببعض الآلات التي تشغل الإنسان عن القيام بواجبه، وهناك أمور أخرى لم يرد نص في تحريمها، وذلك كالألعاب التي ليس فيها نفع، كما هو شأن كثير من الألعاب المنتشرة في عصرنا، فهذا كله يصدق عليه أنه لهو ولعب، لأنه لا نفع فيه، أما إذا كانت هذه الألعاب تحقق غرضًا ومصلحة كأعمال الفروسية والرماية، فإن هذا مما أباحه الشرع ولا حرج فيه»[(٤)].

فاللهو واللعب بينهما عموم وخصوص؛ وذكر العسكري بينهما فرقًا، فقال: «لا لهو إلا لعب، وقد يكون لعب ليس بلهو ؛ لأن اللعب يكون للتأديب وغيره، ولا يقال لذلك: لهو، وإنما اللهو لعب لا يعقب... نفعًا، وسمي لهوًا؛ لأنه يشغل عما يعني، من قولهم: ألهاني الشيء، أي: شغلني، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ [التكاثر:١]»[(٥)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم ٢٨٥٨.
(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٩٤.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٧٠.
(٤) خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل عباس ص٩٧.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٤.

ومن أمثلة اللهو ما يفعله الذين ينفقون أعمارهم وطاقاتهم في العبث بلعبة النرد، أو بألعاب الورق ذات الأرقام والصور، ونحو ذلك من وسائل لهو وعبث.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

فما أشد بؤس المرء الذي تخلو حياته من الجد والعمل، وتقتصر على اللهو واللعب، فلا غرس عملًا صالحًا ولا حصّل خلقًا فاضلًا، والاستغراق في ممارسة اللهو واللعب يؤدي إلى الإنزلاق في مستنقع الغفلة، فينطلق المرء نحو زينة الحياة الدنيا في سعار محموم لا يتوقف ولا ينتهي، فينسى الآخرة، ويتشاغل عنها حتى إذا جاء وقت الحصاد في الآخرة لم يحصد إلا الخيبة والندم، ولم يجن سوى الهوان والخسران، فالجزاء من جنس العمل!

٣. زينة.

وصفت الحياة الدنيا بالزينة في القرآن الكريم في موضع واحد، في قول الله عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

ووردت مضافة للحياة الدنيا مرتين في سورة الكهف ٢٨-٤٦، وثلاث مرات مضافة للضمير العائد على الحياة الدنيا في سور: هود ١٥، والقصص ٦٠، والأحزاب ٢٨.

«الزينة هي في الأصل اسم جامع لكل ما يتزين به، والتزيين هو تحسين المظهر وتجميله حتى تميل إليه الحواس، وترتاح إليه النفوس، ولا يشترط فيما هو حسن المظهر أن يكون في حقيقته جوهرًا نافعًا، وذا قيمة حقيقية باقية، بل ربما يكون ضارًّا وجالبًا لشر وعذاب.

وقد أبان الله عز وجل أنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلوا الناس أيهم أحسن عملًا، فقال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف:٧]»[1].

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن

«فكلّ ما عليها من قصور وأنهار، ومدائن وديار، وزروع وثمار، وبحيرات وغابات، وكنوز وثروات، وضيعاتٍ وروضات، ومراكب فارهة، وأسواقٍ عامرة، ومراتب عالية، كلّ ذلك من أعراض زينتها الفانية؛ امتحانٌ لأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وفي هذا: بيانٌ لحقيقة الدنيا وزينتها، ودعوةٌ إلى الاجتهاد في هذه الدار، فهي دار عملٍ وسعيٍ، ووعيدٌ لمن ركن إليها وافتتن بسرابها، وركن إلى متاعها بأن عمرها قصير وإلى الفناء تصير»[1].

وقد سمى الله تعالى المال والبنين زينة من زينة الحياة الدنيا، قال الله عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

«وفي الآية دليل على أن المال والبنين زينة وليسا قيمة، فلا يجوز وزن الناس بهما، قيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات، وسبيل النجاة من فتنة الأموال والأولاد إنزالهما سلوكًا وعملًا في منزلهما الذي وضعهما الله فيه، فهما زينة لا قيمة، والإسلام لم يحرم الزينة ما دامت في حدود ما أحل الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف:٣٢]»[2].

٤. تفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد.

وصفت الحياة الدنيا ب(التفاخر والتكاثر) في القرآن الكريم في موضع واحد، في قول الله عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

قال ابن فارس: «الفاء والخاء والرّاء أصلٌ صحيحٌ، وهو يدلّ على عظمٍ وقدمٍ. من ذلك الفخر»[3].

«قرأ الجمهور بتنوين «تفاخر» والظرف صفة له، وقرأ السّلميّ بالإضافة، أي: يفتخر به بعضكم على بعضٍ، وقيل: يتفاخرون بالخلقة والقوّة، وقيل: بالأنساب والأحساب كما كانت عليه العرب»[4].

التكاثر:

حبنكة ٢ / ٥٤٢.

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلم ٤ / ٢٩٦.

(٢) العواصم من الفتن في سورة الكهف، الشيخ عبد الحميد طهماز ص ٧٨.

(٣) مقاييس اللغة ابن فارس، ٤/ ٤٨٠.

(٤) فتح القدير، الشوكاني ص ١٤٦٠.

قال ابن فارس: «الكاف والثاء والراء أصلٌ صحيح، يدل خلاف القلّة، من ذلك الشّيء الكثير، وقد كثر»[1]. «والمكاثرة والتكاثر: التباري في كثرة المال والعز، ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر، فصارت تستعمل في الحرص على تحميل الكثير، من غير مراعاة مغالبة الغير ممن حصل عليه»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ «إشارة إلى ما يجرى بين الناس من تنافس في الاستكثار من متاع الحياة الدنيا، وزينتها من أموال وأولاد، لا لسدّ الحاجة، وإنما لإشباع رغبة التعالي والتفاخر، تلك الرغبة التي كلما ألقى إليها ما تشتهيه، اشتد جوعها، وازداد نهمها، فلا تشبع أبدًا، إن من شأن التعالي والتفاخر أن يجور على حياة الإنسان نفسه، كما أن من شأن هذا أن يحمله على الجور على حقوق الناس، ابتغاء الوصول إلى الغاية التي يبلغ فيها حدّ التعالي الذي يملؤه فخرًا وتيهًا»[3].

٥. عرض.

ورد لفظ (عرض) مضافة إلى (الحياة الدنيا) في سورتي النساء ٩٤، والنور ٣٣، كما ورت مضافة إلى (الدنيا) في سورة الأنفال ٦٧، ووردت دون إضافة في الأعراف ١٦٩.

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء:٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٣].

«العرض: ما لا يكون له ثباتٌ، ومنه استعار المتكلّمون العرض لما لا ثبات له إلّا بالجوهر كاللّون والطّعم، وقيل: الدّنيا عرضٌ حاضرٌ، تنبيهًا أن لا ثبات لها»[4].

وفي تسمية متاع الدنيا عرضًا ما يدل على كونه سريع الفناء، قريب الانقضاء، فهو عارض زائل غير باق.

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (ليس الغنى عن كثرة

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٦٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٠٣.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٧٧٥- ٧٧٦.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٣١.

العرض، ولكنّ الغنى غنى النّفس)[1].

«قال ابن بطال: معنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال، لأن كثيرًا ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي، فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى بما أوتي، وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب، فكأنه غني. وقال القرطبي: معنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس، وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت، وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل»[2].

٦. زهرة.

وردت بصيغة (زهرة الحياة الدنيا) مرة واحدة في سورة طه، قال الله عز وجل ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

وزهرة الحياة الدنيا أي:حسنها ونضارتها، وفي ذلك إشارة إلى أن الحياة الدنيا قصيرة وسريعة الزوال، كالزهرة تذبل بمرور الوقت.

ثانيًا: ضرب الأمثال للحياة الدنيا:

مثلت الحياة الدنيا في القرآن الكريم بثلاثة أمثال في سور يونس، الكهف، الحديد. وقد ذهب أكثر المتحدثين عن هذه الأمثال -من مفسرين وغيرهم- إلى أن الحياة، أو متعها كانت قد شبهت - لسرعة زوالها، وفنائها -بماءٍ أنبت نباتًا، أو بنباتٍ كسا الأرض بهجة ونضارة، ثم ما لبث أن ذبل وجف وتهشم، وتبدد هباءً منثورًا، فعادت الأرض وكأنها لم تكن قد اكتست به في يوم من الأيام.

وسنقف بإيجاز مع كل مثل من هذه الأمثال:

المثل الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، رقم ٦٤٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، رقم ١٠٥١.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣٢٨-٣٢٩.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤].

يقول الإمام الطبري في شرح المثل الأول في سورة يونس: «إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفاخرون به من زينتها وأموالها، مع ما قد وكّل بذلك من التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت، كمثل ماءٍ أنزلناه من السماء، يقول: كمطر أرسلناه من السماء إلى الأرض ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: فنبت بذلك المطر أنواعٌ من النبات، مختلطٌ بعضها ببعض، فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظهرها»[1].

وللإمام ابن القيم كلام لطيف في شرح هذا المثل فيقول: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة (إما بالموت وهذا ظاهر، وإما بمرض ينزل بالمرء فلا يستفيد بها أو بآفة تجتاحها وتزيلها أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض الذي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر، فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرا منهما، فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء»[2].

والمتأمل في المثل السابق يجد أنه يمثل طرقات قوية تهز القلب البشري الغافل الذي تخدعة زينة الحياة ونضارتها، فيتوهم فيها الخلود الخادع، ويغره الأمل الكاذب حتى ينسى في غمرة انشغاله بشهواتها الحياة الحقيقية التي وعد الله عز وجل بها عباده الصالحين ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس:٢٥].

«فيالبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس في لحظة، وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هي حصيد كأن لم تغن بالأمس، ودار السلام التي يدعو إليها الله، ويهدي من يشاء إلى الصراط المؤدي لها، حينما تنفتح بصيرته، ويتطلع إلى دار السلام»[3].

المثل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف:٤٥].

يقول الشيخ المراغي رحمه الله:

(١) جامع البيان، الطبري ١١ / ٧١-٧٢.

(٢) إعلام الموقعين ٢ / ٢٧٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٧٥.

«شبّهت الدنيا في نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات اخضرّ والتف وأزهر، ثم صار هشيمًا متفتتًا تنثره الرياح ذات اليمين وذات الشمال ومن ثم لا يغترّنّ أهلها بها، ولا يفخرنّ ذو الأموال الكثيرة بأمواله، ولا يستكبرنّ بها على غيره، فإنما هي ظل زائل، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: وكان اللّه ذو الكمال والجلال قادرًا على كل شيء إنشاء وإفناء وإعادة، فهو يوجد الأشياء ثم ينمّيها ثم يفنيها، وما حال الدنيا إلا هذه الحال، فهي تظهر أولًا ناضرة زاهرة ثم تتزايد قليلا قليلا، ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء، فلا ينبغي للعاقل أن يبتهج بما يحوزه منها أو يفخر به أو يصعّر خده استكبارًا»[1].

فما أضل الإنسان الذي تخدعه مظاهر الحركة والنمو والبهجة والنضارة والزهو والشباب.. وتثير في نفسه مشاعر الفرح والغرور والخيلاء، فينشغل بالزينة عن القيمة، وينخدع بظواهر الأمور، فيركن إليها، ويقصر اهتمامه عليها، ولا يستثمر من زينتها شيئًا لمستقبله الآخروي.

المثل الثالث: قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠]

يقول ابن كثير رحمه الله: «ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو: المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، وقوله: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًا بعد ما كان خضرًا نضرًا، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا، أي: يصير يبسًا متحطمًا، هكذا الحياة الدنيا تكون أولًا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزًا شوهاء، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضًّا طريًّا لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وينفد (يفقد) بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٤]»[2].

(١) تفسير المراغي، ٥/ ٤٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٢٤.

وهكذا فالمتدبر في هذه الأمثال الثلاثة يجد أن القرآن الكريم لم ينتقص من الحياة ذاتها، وإنما انتقص من انشغال الإنسان فيها بما لا يعود عليه بآجل الثواب، واغفاله مالا ينبغي أن يغفل عنه، فهذه الأمثال تدفع المرء للنظر إلى الحياة الدنيا من موقع الفكر والتأمل لا من موقع الانبهار والالتذاذ.

«إن الآيات ليست في صدد التزهيد في الدنيا وطيباتها والكسب والمال والولد. وكل ما في الأمر أن فيها تنبيهًا على عدم ميل المرء إلى الدنيا وجعل أعراضها أكبر همّه وقصارى آماله. وعلى عدم الاستغراق فيها استغراقًا ينسيه واجباته نحو الله ونحو الناس. ويجعله يغفل عن الآخرة وحسابها وهي دار الخلود في حين أن أمد الحياة الدنيا قصير جدًّا بالنسبة لكل إنسان يعيش فيها. والأسلوب بهذا البيان علاج روحاني شاف يفيد الإنسان في جميع ظروفه وبخاصة حينما تطغى المادة على الروح وتغطي أغراض الدنيا الغرارة مثل الإنسانية العليا وتقسي القلوب وتنزع منها خشية الله تعالى»[1].

«فالناس -كل الناس- ليسوا في حاجة أبدا إلى من يدعوهم إلى الإقبال على الدنيا، وإلى أخذ حظوظهم منها، إذ هم مقبلون بطبعهم عليها، مدعوون بحكم غريزتهم إلى الاندفاع في هذا الإقبال إلى مالا نهاية له.

وإنما الناس -كل الناس- محتاجون إلى من يمسك زمامهم ويروّض غرائزهم، في تعاملهم مع الدنيا، وفي تنافسهم المهلك على ما فيها من مال ومتاع، فكل معرض يعرض فيه القرآن الكريم، الحياة الدنيا، مستخفًّا بها، مهونًا من شأنها، إنما هو دواء ملطف لهذا السّعار الذي يدفع الناس دفعًا في غير وعي، إلى أن يلقوا بأنفسهم إلى مواطن التهلكة، دون أن يأخذوا حذرهم مما يلقاهم على هذا الطريق المحفوف بالمخاطر»[2].

(١) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ٩/ ٣٢٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤ / ٧٧٧.

الحياة البرزخية

قال الله عز وجل: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «ومن أمامهم حاجز يحجز بينهم وبين الرجوع، يعني: إلى يوم يبعثون من قبورهم، وذلك يوم القيامة، والبرزخ والحاجز والمهلة متقاربات في المعنى»(١).

وقال الراغب: «البرزخ: الحاجز والحدّ بين الشيئين، والبرزخ في القيامة: الحائل بين الإنسان وبين بلوغ المنازل الرفيعة في الآخرة، وذلك إشارة إلى العقبة المذكورة في قوله عزّ وجل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد:١١].

قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

وتلك العقبة موانع من أحوال لا يصل إليها إلا الصالحون. وقيل: البرزخ ما بين الموت إلى القيامة»(٢).

«إن مقتضى العدل، وانطلاقًا من الشرع الحنيف، لا بد أن يكون هناك موقف يقفه الإنسان، ليحاسب على عمله، ويجازى على فعله، بعد انتهاء حياته الدنيا، وانتقاله إلى حياة أخرى التي هي بداية الحياة الأبدية، ألا إنها حياة البرزخ، لينعم أو ليعذب، حتى تتحقق العدالة الإلهية، ويوّفى الجميع وتطمئن قلوبهم، أن لهذا الكون إلهًا عادلًا، لا يظلم مثقال ذرة، والعقول السليمة، والفطرة المستقيمة ترى أن حياة الإنسان بعد موته لحسابه ومجازاته، ومنها حياة البرزخ، من أهم ضرورات الحياة الطبيعية، الحياة المستقرة الآمنة، التي تتمتع بالأمن والأمان، إذ لابد أن يكون هناك وقفة مع هذا الإنسان بعد الحياة الدنيا، لكي يجازى كل إنسان على عمله وفعله، وما كسبت يداه، وينعم المحسن، ويعذب المذنب»(٣).

أولًا: نعيم البرزخ:

ورد في القرآن الكريم آيات دالة على نعيم البرزخ، وكذلك تظاهرت الأحاديث النبوية على إثبات ذلك.

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧].

روى الإمام البخاري بسنده، عن البراء بن عازب، رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٤٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٣.
(٣) حياة البرزخ في ضوء الكتاب والسنة، شادي فوزي محمد بشكار ص٩٧-٩٨.

﴿الْآخِرَةِ﴾)[1].

وفي الحديث الذي رواه البراء بن عازب رضي الله عنه عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يؤكد نعيم البرزخ، حيث ذكر فيه قبض نفس المؤمن بسهولة ويسر، ثم توضع روحه في كفن من أكفان الجنة ويصعد بها إلى السماء حتي يصل إلى السماء الدنيا، فيشيعة الملائكة المقربون، ثم تعاد روحه مرة أخرى إلى جسده ويبدأ الحساب والسؤال في القبر، كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام فقال: (فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي)[2].

ومن النعيم الذي حدث عنه الرسول عليه الصلاة والسلام، ما يصيب الشهداء في حياة البرزخ، فقد صح عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما ، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: (لمّا أصيب إخوانكم بأحدٍ، جعل اللّه أرواحهم في أجواف طيرٍ خضرٍ، ترد أنهار الجنّة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ معلّقةٍ في ظلّ العرش، فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنّا أنّا في الجنّة نرزق، لئلّا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا في الحرب، فقال اللّه عزّ وجلّ: أنا أبلّغهم عنكم، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩])[3].

ومن صور النعيم في البرزخ أن أرواح المؤمنين تتلاقى وتتذاكر في البرزخ.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، رقم ٤٦٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم ١٣٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، رقم ١٨٨٧.

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

«وفي هذه الآية دلالة على تلاقي أرواح الشهداء من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم عند ربهم يرزقون، وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون.

الثاني: أنهم إنما استبشروا بإخوانهم لقدومهم ولقائهم لهم.

الثالث: أن لفظ ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفيد في اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضًا مثل (يتباشرون)»[1].

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء:٦٩-٧٠].

يقول الإمام ابن القيم في التعقيب على هذه الآية: «وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي الدار البرزخ وفي دار الجزاء والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاث»[2].

ثانيًا: عذاب البرزخ:

وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب البرزخ حق، وأن الكافرين في الحياة البرزخية يعذبون حتى يبعثهم الله إليه يوم القيامة، ومن تلك النصوص:

(١) الروح، ابن القيم ص ٢٦.
(٢) المصدر السابق ص٢٤.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤]

قال الطبري بعد ذكر أقوال المفسرين في هذه الآية: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هو عذاب القبر، وذكر حديث بسنده، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أتدرون فيم أنزلت هذه الآية ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ أتدرون ما المعيشة الضّنك؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (عذاب الكافر في قبره، والّذي نفسي بيده أنّه ليسلّط عليه تسعةٌ وتسعون تنّينًا، أتدرون ما التّنين؟ تسعةٌ وتسعون حيّة، لكلّ حيّة سبعة رءوس، ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة)»[4].

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ١٤٦.
(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده، رقم ٦٦٤٤، وابن حبان في صحيحه ٣١٢٢.

وإن الله تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٢٧] فكان معلومًا بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ معنى مفهوم، لأن ذلك إن لم يكن تقدّمه عذاب لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشدّ منه، بطل معنى قوله ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾، فإذ كان ذلك كذلك، فلا تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، إذ كان لا وجه لأن تكون في الآخرة لما قد بيّنا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كلّ من أعرض عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيرًا منهم أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القائلين له المؤمنين في ذلك، ما يدلّ على أن ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صحّ الوجه الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور:٤٧].

قال قتادة: «كان ابن عباس يقول: إنكم لتجدون عذاب القبر في كتاب الله ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة:١٠١].

قال قتادة: «قال الله تعالى ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ «قال: عذابًا في الدنيا وعذابًا في القبر»[3].

وفي السنة النبوية نصوص كثيرة تثبت عذاب البرزخ، نأخذ منها هذين الحديثين:

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: (إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة، وإن كان من أهل النّار فمن أهل النّار)[4].

وروى البخاري ومسلم أيضًا عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: (إنّ العبد إذا وضع في قبره، وتولّى عنه أصحابه، إنّه ليسمع قرع نعالهم،

(١) جامع البيان، الطبري ١٦ / ١٩٨-٢٠٠.

وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٥٥٢.

(٢) المصدر السابق ٢١ / ٦٠٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١١ / ٦٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، رقم ١٣٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم ٢٨٦٦.

أتاه الملكان، فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرّجل، محمد؟ فأمّا المؤمن فيقول: أشهد أنّه عبد اللّه ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النّار، قد أبدلك اللّه به مقعدًا من الجنّة. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: (فيراهما جميعًا). قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، ثم رجع إلى حديث أنس: وأمّا الكافر أو المنافق، فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول النّاس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثمّ يضرب بمطرقةٍ من حديدٍ ضربةً بين أذنيه، فيصيح صيحةً يسمعها من يليه إلّا الثّقلين)[1].

إن إيمان المسلم بحياة البرزخ يدفعه إلى تزكية نفسه وتهذيبها، وتقويم المعوج من سلوكه، كما يحجزه عن الوقوع فيما حرمه الله بما يغرسه في قلبه من الخوف والخشية، فيحرص على ضبط أقواله وأفعاله، وعلاقاته ومعاملاته بما يتوافق مع الشرع الحنيف، لأنه يعلم أن الحياة البرزخية صورة مصغرة لما سيكون عليه الجزاء في الحياة الآخرة، فإما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، كما أن المسلم يوقن أن حياة البرزخ هي من النتائج الأولى للامتحان والاختبار في الحياة الدنيا، وليس هناك فرصة للعودة مرة أخرى لتصحيح الأخطاء أو تعديل المسار، وهذا ما يجعله في يقظة وحذر دائمين، يحاسب نفسه كلما شردت عن الصراط المستقيم أو جرفتها الشهوات إلى لجج الغفلة.

وهذا الإيمان بالحياة البرزخية هو السبب الرئيس في نشر الخير وتفشي العدل وسيادة الأمن والأمان على مستوى الأفراد والجماعات والأمم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم ١٣٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم ٢٨٧٠.

الحياة الآخرة في القرآن

جاء وصف القرآن الكريم للحياة الآخرة ليبين للناس حقيقتها، فلا تغيب عن أذهانهم صورتها وهم يعيشون في هذه الحياة الدنيا، ينشغلون بمعاشها وزخارفها، فتكون حافزًا لهم على النهوض للطاعات والعبادات، ومجاهدة النفس على إقامة الأوامر واجتناب المحظورات من أجل الفوز والنجاة في الآخرة.

أولًا: وصف الحياة الآخرة:

وصفت الحياة الآخرة بعدة أوصاف منها:

١. الحيوان.

الحيوان: مصدر حي، وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واوًا، كما قالوا: حيوة، في اسم رجل، وبه سمى ما فيه حياة: حيوانًا. وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، والحياة: حركة، كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة[1].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها»[2].

وأشار الإمام بن القيم إلى أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ يحتمل معنيين:

«أحدهما: أن حياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها، أي: لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار، فيكون الحيوان مصدرا على هذا.

الثاني: أن يكون المعنى: أنها الدار التي تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا، فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ بدلًا من «لهي الحياة»، إشارة إلى أن الحياة الآخرة هي الحياة، بل هي أصل الحياة، وما سواها من حيوات، ظل لها، أو فرع منها.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أن الغفلة المطبقة على العقول تمنعها من إيثار الباقي على الفاني، وتدفعها لاختيار الضلالة على الهدى، فما أضل الإنسان حين يترك عقله إلى جهله، وبصيرته

(١) انظر: الكشاف ٤ / ٥٦٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٤٠.

(٣) حادي الأرواح، ابن القيم ١/ ٢٠٠-٢٠١.

إلى عماه، وفطرته النقية إلى شهواته الشائبة، فيضحي بالحياة الحقيقية من أجل سراب خادع!

مما سبق يتضح أن الدار الآخرة هي الحياة الدائمة التي لا موت فيها.. «الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودًا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المآكل، والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

فأين هذه الحياة الآخروية من حياتنا الدنيا المملوءة بالمنغّصات والمكدرات، لذاتها ممزوجة بالمتاعب والآلام، يعيش المرء في خوف وهمّ من فقدان متاعها في أي لحظة، فيا قرة أعين المؤمنين بالحياة الحقيقية في الآخرة التي تعوضهم عن كل نصب وشقاء أصابهم في الحياة الدنيا.

٢. دار القرار.

قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾ [غافر:٣٩].

قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾: «الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم»[2].

«وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ استقرّت الجنّة بأهلها واستقرت النّار بأهلها»[3].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن الجنة والنار مستقرتان، فقال في وصف الجنة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ [الفرقان:٧٥-٧٦].

كما قال عز وجل في وصف النار: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۚ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

«وأي قرار هذا الذي يقر أو يستقر أو يستمر في جهنم، لو كان يدخل فيها يومًا أو يومين، أو شهرًا أو شهرين، أو سنة أو سنتين، أو مائة سنة أو مائتين، أو ألفًا أو ألفين، لا.. خالدين فيها أبدًا والعياذ بالله. الإنسان يعيش في الدنيا مستمتعًا باللذائذ والشهوات، ومن كل ما لذ وطاب من الحلال والحرام، فإذا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ١٤٥.

(٣) الدر المنثور، السيوطي ٥ / ٦٥٨.

جيء به يوم القيامة، وغمس في جهنم غمسة واحدة، ثم يسأل: «هل أصابك نعيم قط؟» هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، ما أصابني نعيم قط[1]. وغمسة واحدة تنسيه كل نعيم الدنيا، فما بالكم بمن يقر في جهنم ويقاسي حر نارها، وقبحت المستقر»[2].

٣. دار الخلد.

قال الراغب: «الخلود: هو تبرّي الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها»[3].

وقال صاحب لسان العرب: «الخلد: دوام البقاء في دارٍ لا يخرج منها، خلد يخلد خلدًا وخلودًا: بقي وأقام. ودار الخلد: الآخرة لبقاء أهلها فيها»[4].

ولقد وصف الله عز وجل الحياة الآخرة بالخلود، فقال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الفرقان:١٥].

وقال تعالى في حق أهل النار: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [فصلت:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس:٥٢].

أي: لهم الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة، فشدة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآنات واللحظات.

روى الشيخان عن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح[5]، فينادي منادٍ يا أهل الجنّة فيشرئبّون[6] وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلّهم قد رآه. ثمّ ينادي: يا أهل النّار، فيشرئبّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلّهم قد رآه. فيذبح. ثمّ يقول: يا أهل الجنّة، خلودٌ فلا موت، يا أهل النّار، خلودٌ فلا موت، ثمّ قرأ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم:٣٩][7].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة، رقم ٢٨٠٧، عن أنس بن مالك.
(٢) تفسير سورة إبراهيم، يوسف القرضاوي ص ١٨٣.
(٣) المفردات، الراغب الإصفهاني ص ١٥٤.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢ / ١٢٢٥.
(٥) الكبش الأملح: هو الذي فيه بياض وسواد، وبياضه أكثر.
انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٧ / ١٨٥.
(٦) فيشرئبون: بالهمز، أي يرفعون رؤوسهم إلى المنادي.
انظر: المصدر السابق.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، رقم ٤٧٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة،

٤. دار الجزاء.

من صفات الحياة الآخرة التي لابد أن نؤمن بها أنها دار الجزاء، وهذا الجزاء هو الجزاء الحقيقي، لأنه جاء من الملك الحق الذي لا يملك أحد معه في الحياة الآخرة حكمًا كملكهم في الدنيا.

قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤].

والدين الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ [النور:٢٥].

وقال: ﴿وَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٣]، أي: مجزيون محاسبون[١].

قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝١٧﴾ [غافر:١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [الجاثية:٢٢].

٥. دار الحق.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩﴾ [النبأ:٣٩].

«إنه اليوم الحق الذي يتقرر فيه الحق من حساب وجزاء وجنة ونار، يتقرر فيه ما وعد الله به وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، إنه اليوم الحق الذي يتلاشى مع وقوعه كل تعلق بباطل، ولايقول الناس جميعًا إلا الحق ولا يرون إلا الحق، إنه الحق الذي لا لبس فيه ولا شك»[٢].

فيا له من يوم عظيم لا موضع فيه لباطل ولا ادعاء، تبلى فيه السرائر وتنكشف الضمائر.

ثانيًا: وصف نعيم الآخرة:

وصف القرآن الكريم نعيم الآخرة بعدة صفات، منها:

١. دائم.

وصفت الآيات القرآنية نعيم الآخرة بأنه نعيم باق دائم على عكس نعيم الدنيا الزائل الفان.

قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النحل:٩٦].

«أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدّر متناه، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول»[٣].

وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم ٢٨٤٩.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٢٥.

(٢) كلمة الحق في القرآن الكريم موردها ودلالتها، محمد الراوي ١/ ٣٩٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٦٠٠.

يقول الإمام الرازي في شرح هذه الآية: «الحس شاهد بأن خيرات الدنيا منقطعة، والعقل دل على أن خيرات الآخرة باقية، والباقي خير من المنقطع، والدليل عليه أن هذا المنقطع إما أن يقال: إنه كان خيرًا عاليًا شريفًا أو كان خيرًا دنيًّا خسيسًا، فإن قلنا: إنه كان خيرًا عاليًا شريفًا فالعلم بأنه سينقطع يجعله منغصًّا حال حصوله، وأما حال حصول ذلك الانقطاع فإنها تعظم الحسرة والحزن، وكون تلك النعمة العالية الشريفة كذلك ينغص فيها ويقلل مرتبتها وتفتر الرغبة فيها، وأما إن قلنا: إن تلك النعمة المنقطعة كانت من الخيرات الخسيسة فهمنا من الظاهر أن ذلك الخير الدائم وجب أن يكون أفضل من ذلك الخير المنقطع، فثبت بهذا أن قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ برهان قاطع على أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص:٥٤].

أي: أنّ النعم في الآخرة خالدة ولا تنفد ولا تزول كما في الحياة الدنيا، وأنّها تزداد دائمًا من خزائن الله المملوءة وغير المحدودة، ولا يظهر عليها أي نقص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع؛ كما قال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، وقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق:٢٥][2].

كما وصف الله عز وجل أشجار الجنة بأنها دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت، وفصل دون فصل، بل هي دائمة الإثمار والظلال.

قال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد:٣٥].

فيا له من فضل عظيم من الرب الكريم، الرءوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني على عباده المؤمنين أن جعل لهم هذا النعيم الدائم المستقر في جميع الأوقات، متزايدًا في جميع الآنات.

٢. خير.

وصف الله عز وجل الدار الآخرة بأنها خير للمتقين في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل:٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠ / ١١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨ / ٢٢٨.

﴿تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف:١٠٩].

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف:١٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين في الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويترفعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يتلفتون، مطمئنين واثقين، ملأ قلوبهم اليقين»[1].

وقد وصف الفخر الرازي وجوهًا عدة لوصف نعيم الآخرة بكونه خيرًا، فقال: «الأول: أن خيرات الدنيا ليست إلا قضاء الشهوتين، وهو في نهاية الخساسة، بدليل أن الحيوانات الخسيسة تشارك الإنسان فيه، بل ربما كان أمر تلك الحيوانات فيها أكمل من أمر الإنسان.

الثاني: أن هذين النوعين تشاركا في الفضل والمنقبة، إلا أن الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد القيامة معلوم قطعًا، وأما الوصول إلى الخبرات الموعودة في غد الدنيا فغير معلوم بل ولا مظنون، فكم من سلطان قاهر في بكرة اليوم صار تحت التراب في آخر ذلك اليوم، وكم من أمير كبير أصبح في الملك والإمارة، ثم أمسى أسيرًا حقيرًا، وهذا التفاوت أيضا يوجب المباينة بين النوعين.

الثالث: هب أنه وجد الإنسان بعد هذا اليوم يومًا آخر في الدنيا، إلا أنه لا يدري هل يمكنه الانتفاع بما جمعه من الأموال والطيبات واللذات أم لا؟ أما كل ما جمعه من موجبات السعادات، فإنه يعلم قطعًا أنه ينتفع به في الدار الآخرة.

الرابع: هب أنه ينتفع بها إلا أن انتفاعه بخيرات الدنيا لا يكون خاليًا عن شوائب المكروهات، وممازجة المحرمات المخوفات.

الخامس: هب أنه ينتفع بتلك الأموال والطيبات في الغد، إلا أن تلك المنافع منقرضة ذاهبة باطلة، وكلما كانت تلك المنافع أقوى وألذ وأكمل وأفضل كانت الأحزان الحاصلة عند انقراضها وانقضائها أقوى وأكمل.

فثبت بما ذكرنا أن سعادات الدنيا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣ / ١٣٨٧.

وخيراتها موصوفة بهذه العيوب العظيمة، والنقصانات الكاملة وسعادات الآخرة مبرأة عنها، فوجب القطع بأن الآخرة أكمل وأفضل وأبقى وأتقى وأحرى وأولى»[1].

٣. أكبر.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل:٤١].

وقال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:٢١].

«والمعنى: أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس، فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم، فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإذا كان الانسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى.

أو أن المراد أن الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا، والمعنى أن المؤمنين يدخلون الجنة، والكافرين يدخلون النار، فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢٤]»[2].

«وفي هذا ترغيب للخلق في تحصيل الفضل في درجات الآخرة؛ فإنهم إنما يتهالكون في الدنيا على أن يفضل بعضهم بعضًا في شيء منها، وهي الدار الفانية. فلم لا يتسابقون فيما ينالون به الفضل في الدار الباقية؟! مع أن من عمل لنيل الفضل في الآخرة -وما عملها إلاّ الخير والمعروف- حاز الفضل والسعادة فيهما على أفضل وجه، وأكمل حال، فللآخرة ونيل درجاتها فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون»[3].

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

وتأمل في قوله سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ثم اسأل نفسك: أي نعيم يفوق هذا النعيم؟! إن كل نعيم الآخرة ليتضاءل أمام رضوان الله عز وجل، وماذا يحتاج المؤمن بعد أن تغمره نسمات الرضا الإلهي.. فيا فوز المؤمنين بهذا المقام الكريم، ويا سعادتهم برضوان من الله يغمر أرواحهم، وتستشعره نفوسهم بلا انقطاع،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢ / ٢١١-٢١٢، باختصار.

(٢) المصدر السابق ٢٠ / ١٨٣.

(٣) تفسير ابن باديس ص ٦٠.

ويا حسرة غير المؤمنين وهم يتجرعون مرارة سخط ربهم عليهم ويقاسون أشد أنواع الحرمان والخسران.

روى الإمام مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقول لأهل الجنّة: يا أهل الجنّة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)[1].

٤. مقام أمين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١﴾ [الدخان:٥١].

«أي: في الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب»[2].

«والمقام: موضع الإقامة، والأمين: الآمن من كل سوء ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد، وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ [الدخان:٥٥].

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها، فلا يخافون ذلك، وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتا»[3].

«والأمن أكبر شروط حسن المكان؛ لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف فإذا كان آمنًا في منزله كان مطمئن البال شاعرًا بالنعيم الذي يناله»[4].

فيا لقرة أعين المؤمنين بهذا المقام الأمين، ويا لسعادتهم وهم يغادرون جميع المخاوف والمكاره إلى غير رجعة.

ثالثًا: وصف عذاب الآخرة:

إن المتدبر للقرآن الكريم يجد في آيات كثيرة وصف الله عز وجل لعذاب الحياة الآخرة بأوصاف كثيرة متنوعة، وذلك كعادة المنهج القرآني في الجمع بين الترهيب والترغيب، فهذا «المنهج يتعامل مع الناس

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، فلا يسخط عليهم أبدًا، رقم ٢٨٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ٢٦١.

(٣) حادي الأرواح، ابن القيم ١ / ٢٠٣.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥ / ٣١٧.

جميعًا، مع الطبيعة البشرية. والله يعلم من هذه الطبيعة حاجتها إلى هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم، وحاجتها كذلك إلى معرفة جزاء الكافرين المكذبين! إن هذا وذلك يرضي هذه الطبيعة، يطمئنها على مصيرها وجزائها، ويشفي غيظها من أفاعيل الشريرين!»[1].

ومن هذه الأوصاف مايأتي:

١. أشق وأشد.

قال الله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد:٣٤].

قال ابن كثير: « ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المدّخر لهم مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتلاعنين: (إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة)[2]، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدًا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفًا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:٢٥-٢٦]»[3].

وقد بين الرازي في تفسيره وجه زيادة عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا فقال: «﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لأنه أزيد إن شئت بسبب القوة والشدة، وإن شئت بسبب كثرة الأنواع، وإن شئت بسبب أنه لا يختلط بها شيء من موجبات الراحة، وإن شئت بسبب الدوام وعدم الانقطاع»[4].

ومن هذه الآيات التي وصفت عذاب الآخرة بأنه أشق وأشد قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥].

وقوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة:٨١].

٢. غرام.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٨٥٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللعان، رقم ١٤٩٣، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٤٦٤.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩ / ٥٩.

﴿غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان:٦٥].

«أي: لازمًا دائمًا غير مفارق، ومنه سمي الغريم لملازمته. ويقال: فلان مغرم بكذا، أي: لازم له مولع به، وقال الحسن: قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم. وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال ابن زيد: الغرام الشر. وقال أبو عبيدة: الهلاك. والمعنى واحد.

وقال محمد بن كعب: طالبهم الله تعالى بثمن النعيم في الدنيا فلم يأتوا به، فأغرمهم ثمنها بإدخالهم النار»[1].

«والعذاب الغرام: هو العذاب المؤبّد أبدًا! لا ينقطع ولا يزول ما دامت السماوات والأرض! فكيف إذا كان ذلك التأبيد الرهيب في قعر جهنم وجوف جحيمها؟ عذاب ولا كأي عذاب والعياذ بالله! أوليس هذا مما لا يطيق الخيال تصوره؟

ولا يستطيع القلب تحسسه لما يحمله من هول عظيم؟ ولذلك قالوا: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان:٦٦].

أي: بئس المنزل هي! وبئس القرار! وبئس المصير! فبأي عين يستحلي النوم والسبات أصحاب مثل هذه المشاهدات؟!»[2].

فما أقسى ذلك العذاب الذي يلازم صاحبه، فلا يفارقه ولا يتحول عنه، يفقد معه أي أمل في النجاة أو الخلاص ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة:٣٧].

٣. العذاب المهين.

قال الله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة:٩٠].

«لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠].

أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا في جهنم، يقال له: بولس، فيعلوهم نار الأنيار، يسقون من

(١) المصدر السابق ١٥ / ٤٧٣.
(٢) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ١/ ٢٤٤.

طينة الخبال: عصارة أهل النار)[1]»[2].

والآيات التي وصفت العذاب بأنه مهين كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ [لقمان:٦].

«مهين: أي مذل مخز. وهذا الإذلال والاحتقار له يكون في مقابل استهزائه بعناصر سبيل الله، واحتقاره لها في الحياة الدنيا، إذ كانت تشغله عنها الملهيات التي كان يجد فيها متعات تعلقت نفسه بها، فصار يحتقر من أجلها عناصر سبيل الله الموصل إلى السعادة الأبدية في جنات التعيم، إذ هو غير مؤمن بالآخرة»[3].

٤. العذاب الأخزى.

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

«الخزى: الانكسار من الوقوع فى بليّة وشهرة. وقد خزى كرضى خزيًا -بالكسر- وخزىً، واخزوى: بمعناه. وأخزاه الله: فضحه. والخزية والخزية بالفتح والكسر: البلية. وقيل الخزى: انكسار يلحق الإنسان إمّا من نفسه وإمّا من غيره. فالّذي يلحقه من نفسه هو الحياء المفرط ومصدره الخزاية، ورجل خزيان وامرأة خزيا. والّذي يلحقه من غيره يقال: هو ضرب من الاستخفاف ومصدره الخزى ورجل خز. وأخزى من الخزاية والخزى جميعًا»[4].

«ونلاحظ عناية الآية بلفظ (الخزي)

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٦٠، رقم ٦٦٧٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٥٥، رقم ٢٤٩٢، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب الرقائق، ١٠/ ٣٩٨، رقم ١١٨٢٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٣٥، رقم ٨٠٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٣٢٨.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر، عبدالرحمن حبنكة ١١/ ٦٩٣.

(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٣٥-٥٣٦.

و(الأخزى)؛ لأن هذا هو المراد إبرازه لقدع تلك الأنوف المستكبرة والمتغطرسة، وكان يمكن أن تقول الآية: ولعذاب الآخرة أشد، وقد جاء ذلك كثيرًا في الكتاب ولكل كلمة مقام»[1].

ولما علم أولو الألباب أن عذاب النار هو الخزي الأكبر والهوان الأعظم توجهوا إلى ربهم في ضراعة وخشوع داعين إياه سبحانه أن ينجيهم من هذا الموقف المخزي والمصير المظلم، لأن قلوبهم قد عمرتها الخشية والإجلال والتعظيم لله عز وجل عبر ممارسة التفكر في الأنفس والآفاق، فأصبحت النجاة من خزي النار هو القضية التي تشغل بالهم، والهم الذي يسيطر على تفكيرهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٢].

٥. العذاب الأليم.

قال ابن فارس: «(ألم) الهمزة واللّام والميم أصلٌ واحدٌ، وهو الوجع. قال الخليل: الألم: الوجع، يقال: وجعٌ أليمٌ، والفعل من الألم ألم، وهو ألمٌ، والمجاوز أليمٌ، فهو على هذا القياس فعيلٌ بمعنى مفعلٍ. وكذلك وجيعٌ بمعنى موجعٍ. قال ابن الأعرابيّ عذابٌ أليمٌ، أي: مؤلمٌ ورجلٌ أليمٌ ومؤلمٌ، أي: موجعٌ»[2].

وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب الآخرة هو العذاب الأليم، منها:

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل:١٢-١٣].

٦. العذاب العظيم.

وردت نصوص كثيرة تدل على أن عذاب الآخرة هو العذاب العظيم، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ

(١) آل حميم، غافر وفصلت، دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى ص٣٧٢.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٢٦-١٢٧.

فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ [آل عمران:١٧٦].

٧. سوء العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر:٤٧].

المقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة

«متاع الدنيا واقع مشهود، ونعيم الجنة غيب موعود، والناس يتأثرون بما يرون ويشاهدون، ويثقل على قلوبهم ترك ما بين أيديهم إلى شيء ينالونه في الزمن الآتي، فكيف إذا كان الموعود ينال بعد الموت؟ من أجل ذلك قارن الحق تبارك وتعالى بين متاع الدنيا ونعيم الجنة، وبين أن نعيم الجنة خير من الدنيا وأفضل، وأطال في ذم الدنيا وبيان فضل الآخرة، وما ذلك إلا ليجتهد العباد في طلب الآخرة ونيل نعيمها»[1].

أولًا: المقابلة بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة:

تنوعت النصوص القرآنية التي تقارن بين متاع الدنيا الزائل وبين نعيم الآخرة الدائم، نقف مع بعضها بالشرح والتحليل:

قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ

(١) العقيدة في ضوء الكتاب والسنة، الجنة والنار، د. عمر الأشقر ص ٢١٥.

﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

هذه الآيات تتحدث عن أفضلية النعيم الأخروي على المتاع الدنيوي.

«وهذا المتاع الأخروي الذي تذكره الآية هنا، ويؤمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبشر به المتقين، هو نعيم حسي في عمومه، ولكن هنالك فارقًا أساسيًّا بينه وبين متاع الدنيا، إنه متاع لا يناله إلا الذين اتقوا. الذين كان خوف الله وذكره في قلوبهم. وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعًا. شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات، وأن تنساق فيها كالبهيمة. فالذين اتقوا ربهم حين يتطلعون إلى هذا المتاع الحسي الذي يبشرون به يتطلعون إليه في شفافية مبرأة من غلظة الحس! وفي حساسية مبرأة من بهيمية الشهوة! ويرتفعون بالتطلع إليه -وهم في هذه الأرض- قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى قرب الله.

وفي هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا، وفيه زيادة. فإذا كان متاعهم في الدنيا حرثًا معطيًا مخصبًا، ففي الآخرة جنات كاملة تجري من تحتها الأنهار. وهي فوق هذا خالدة وهم خالدون فيها، لا كالحرث المحدود الميقات!

وإذا كان متاعهم في الدنيا نساء وبنين، ففي الآخرة أزواج مطهرة. وفي طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض في الحياة!

فأما الخيل المسومة والأنعام. وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. فقد كانت في الدنيا وسائل لتحقيق متاع. فأما في نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات!

ثم هنالك ما هو أكبر من كل متاع، هنالك ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما، ويرجح، رضوان بكل ما في لفظه من نداوة، وبكل ما في ظله من حنان»[1].

وقوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران:١٥].

«والسؤال هنا سؤال إغراء وتحريض على طلب الجواب ومعرفة حقيقة الخبر!

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡ﴾ ألا ترغبون في معرفة ما هو أحسن مما أنتم فيه من متع وملذات؟ وما أنتم غارقون فيه من شهوات؟ ألا ترغبون في نعم لا تفنى أبدًا ولا تزول! إنها قطعًا خير مما أنتم فيه من الاستمتاع الفاني القريب! هذا الاستمتاع الشهواني الكاذب، الذي لا يتعدى أيام

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٣٧٥.

العمر البشري القصير! لكنه خبر يهم فقط المؤمنين المتقين، الذين لم يغتروا بشهوات الحياة الدنيا، ولم يفتنوا بها، فإذا كان الله قد ابتلاهم بشيء منها فقد أدوا حق الله فيها، وأنفقوها في وجوهها المشروعة، فكانوا بها لربهم عابدين، حامدين شاكرين!»[1].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨].

وجملة معنى النص الكريم لا يصح أن يخدع أحد بما عليه أولئك الكفار من قوة وسطوة وتصريف في شئون البلاد، ورخاء ورفاهية وثراء فإن هذا إلى أمد قصير، وهو متاع قليل، ولذا قال سبحانه: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، فما قيمة هذا المتاع -مهما تقلبوا في هذه الحياة الدنيا بشتى صنوف المتع والشهوات- إذا كانت نهاية المطاف ودار القرار هي جهنم؟!

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

«الاستدراك هنا ب «لكن» للمقابلة بين المتقين الأبرار والمشركين الفجار بالنسبة للمآل، فالكفار مآلهم جهنم ومتاعهم دنيوي قليل، والمتقون لربهم المدركون لمعنى الربوبية الشاكرون لنعمته مآلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وليست مدتها قليلة، بل لهم فيها الخلود، فالنعيم كثير والزمن طويل، بينما الآخرون نعيمهم ضئيل قصير، وعذابهم دائمٌ كثير»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص:٦٠-٦١].

«فهذه صفحة من وعده الله وعدًا حسنًا فوجده في الآخرة حقًا وهو لا بد لاقيه. وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد، ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضارًا للحساب. والتعبير يوحي بالإكراه ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد!»[3].

فشتان شتان بين مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له، بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم، وبين من يعيش في الحياة الدنيا يغترف من الشهوات والملذات فهو يأخذ

(١) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ٣ / ٦٨٩.

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٣/ ١٥٥٨-١٥٥٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٧٠٥.

فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياه عن آخرته، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

وهكذا.. فالعاقل يوازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيمًا عظيمًا باقيًا فأنى له العقل والرأي؟

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

في هذه الآية مقابلة بين ما في الحياة الدنيا من متع وشهوات ورغبات لا ثبات لها ولا استقرار، وبين ما في الآخرة من العذاب الشديد، أو المغفرة والرضوان، فليختر العاقل لنفسه ما يشاء.

«وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، هو تعقيب على تلك الأوصاف التي وصفت بها الدنيا، من أنها لعب ولهو، وذلك بعرض ما يقابلها، وهو الآخرة، التي لا لعب فيها ولا لهو، بل كل أمرها جدّ في جدّ.. ففيها عذاب شديد، وفيها مغفرة من الله ورضوان، وقدّم العذاب على المغفرة، لأن الآية في مواجهة الذين خدعوا بالحياة الدنيا وأذهبوا طيباتهم فيها، ولهذا جاءت فاصلة الآية مؤكدة لما بدئت به: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾»[1].

«فكيف يسوغ لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يضيع حياته فيما لا بقاء له ولا جدوى فيه، في الوقت الذي يدرك فيه أنه متوجه إلى حياة الجزاء، من ثواب وعقاب؟ ولهذا اختتم المثل بذكر الآخرة وما فيها، فقال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾، إذا لولا كون الآخرة حياة جزاء، لما كانت الدنيا حياة استعداد لها، فالتذكير بحياة الجزاء يصرف المؤمنين عما لا يعقب خيرا، ويدفع بهم إلى طاعة الله المجازي المثيب، والتقرب إليه بما أراد أن يتقرب به إليه»[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨].

في هذه الآيات عاتب الله عز وجل الذين رضوا بلذات الدنيا الناقصة الزائلة بدلًا من

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤ / ٧٧٨.
(٢) الأمثال في القرآن، محمد جابر فياض ص٣٠٦.

نعيم الحياة الآخرة الكامل الباقي، «أفليست الدنيا -من أولها إلى آخرها- لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جدًّا من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي رأيٍ رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عدّ من أولي الألباب»[1].

والآيات التي تقارن بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

مما سبق يتضح أن كل ما يناله الإنسان في هذه الحياة الدنيا من مال أو جاه أو سلطان هو متاع، أي زاد لا يلبث أن ينفد، أو ثوب لا بد أن يبلى، فكل ما فى الحياة الدنيا إلى نفاد، وزوال، وإن كثر وعظم، وما عند اللّه من الثواب والنعيم خير من زهرة الدنيا، لأنه باق سرمديّ، وما فيها زائل فان.

ثانيًا: المقابلة في قصد العباد لكل منهما:

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:١٨-٢١].

في هذه الآيات مقابلة بين من قصر نظره على الدنيا، وعمل لها، وجعلها غايته، ومرمى همته، ومطرح نظره، ولم يكن له همٌّ سواها، ولم يلتفت إلى الآخرة، وبين من أراد الآخرة فاختار طريق الإيمان والعمل الصالح، والاستقامة على الصراط

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥٣.

المستقيم.

يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال هذه الآيات: «إن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق. فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها، ويستمتعون فيها كالأنعام، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات. ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم.

والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه لها على الإيمان. والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية. ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك إنسان نفسه، فلا يكون عبدا لهذا المتاع.

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذمومًا مدحورًا، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكورًا يتلقى التكريم في الملأ الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء. إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام. فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله، الذي خلقه فسواه، وأودع روحه ذلك السر الذي ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه»[1].

ونظير هذه الآيات من سورة الإسراء قول الله عز وجل في سورة الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠].

فيا لبعد الشقة بين من يريد الهدى والإيمان، ويعمل للآخرة، ويغرس فى مغارس الإحسان، فيزيد له اللّه سبحانه وتعالى فيما غرس، ويبارك عليه، ويضاعف له الجزاء أضعافًا مضاعفة، وبين من أعرض عن الآخرة، وعمل للدنيا، وغرس فى مغارسها، فأخذ ثمر ما غرس فى دنياه، واستوفى نصيبه منه، حتى إذا جاء إلى الآخرة، جاءها ولا نصيب له فى خيرها.

فما أشقى الذين يصرفون رغبتهم وسعيهم وعملهم في متع الحياة وشهواتها، غير ملتفتين إلى ما وراء هذه الدنيا، ولا منتظرين حسابًا ولا جزاء، فإذا كان يوم القيامة، وبعثوا من القبور، وسيقوا إلى الحساب والجزاء، فهنالك يرون سوء

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢١٨-٢٢١٩.

مصيرهم، وأنهم قد جاءوا إلى هذا اليوم مفلسين، لأنهم لم يعملوا له عملًا قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

موضوعات ذات صلة:

السعادة، اللعب، اللهو، الموت، اليوم الآخر

الحيوان

عناصر الموضوع

مفهوم الحيوان	٢٢٢
الحيوان في الاستعمال القرآني	٢٢٤
الألفاظ ذات الصلة	٢٢٥
الحكمة الإلهية في خلق الحيوان	٢٢٨
أنواع الحيوانات	٢٣٩
الحيوانات المحرّم أكلها	٢٥٦
الحيوان في المثل القرآني	٢٦٢
لمسات إعجازية في خلق الحيوانات	٢٦٧

مفهوم الحيوان

أولًا: المعنى اللغوي:

الحيوان من الفعل: (حيّ)، الحاء والياء، والحرف المعتل أصلان: الأوّل: الحياة والحيوان، وهو ضدّ الموت والموتان، وهذا يعني أن الحياة خلاف الموت، ويسمّى المطر حيًّا؛ لأن به حياة الأرض، ويقال: ناقةٌ محي ومحييةٌ، يعني: لا يكاد يموت لها ولد، وتقول: أتيت الأرض فأحييتها، إذا وجدتها حيّة النّبات غضّة، والثاني: الاستحياء الذي هو ضدّ الوقاحة، يقولون: استحييت منه استحياءً، وحييت منه أحيا، إذا استحييت، وحياء النّاقة، أي: فرجها[1].

والمحيا مفعل من الحياة، تقول: محياي، والحيّ واحد أحياء، وأحياه الله فحيي، وقيل في الجمع: حيوا مخففًا، واستحياه، واستحيا منه بمعنى من الحياء، ويقال: استحيت بياء واحدة، وأصله استحييت، فأعلوا الياء الأولى، وألقوا حركتها على الحاء فقالوا: استحيت، لما كثر في كلامهم، والحياء ممدود الاستحياء[2].

وحيّ يحيا، ويحيّ فهو حيٌّ، وللجميع حيّوا بتشديد الياء، وقيل: حيوا بتخفيفها، والحيّ من كل شيء نقيض الميت، والجمع أحياء، والحيّ كل متكلم ناطق، والحيّ من النبات ما كان طريًّا يهتزّ[3].

وقيل: إن حيي يندب بها، ويدعى بها، يقال: حيّ على الفداء، حيّ على الخير، وقد تأتي بمعنى الحث والدعاء، ومنه قول المؤذن: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، معناه: عجّل إلى الصلاة، وإلى الفلاح، وتقول العرب: حيّ هلا بفلان، وحيّ هلا بفلان، وحيّ هلا بفلان، أي: أعجل[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

بالنظر إلى التعريفات اللغوية السابقة يتبين أنه لا بد من التعريف الاصطلاحي لكل من الحياة، والحيوان، والحياء.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٢٢.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٩٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٢٤.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٥/ ٢٨٢.

وقد عرّف الجرجاني الحياة فقال: «هي صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر»[1]، وقال أيضًا: الحياة الدنيا: «هي ما يشغل العبد عن الآخرة»[2].

وعرّف الحيوان بقوله: «هو الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة»[3].

وقيل: إن الحيوان: «كلّ ذي روح ناطقًا كان أو غير ناطق، مأخوذ من الحياة يستوي فيه الواحد والجمع؛ لأنه مصدر في الأصل»[4].

وخلاصة القول: إن الحيوان: هو الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة، وهذا ينطبق على كل ذي روح سواء كان ناطقًا أو غير ناطق.

(١) التعريفات، ص٨٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ص٨٤.
(٤) المصباح المنير، الفيومي، ص٨٦.

الحيوان في الاستعمال القرآني

لم يرد لفظ (الحيوان) في القرآن بمعنى الحيوانات، وورد لفظ (الحيوان) في القرآن مرة واحدة بمعنى الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها[1].

وقد ورد جذر الكلمة (حيي) في القرآن بمعنى الحياة التي هي نقيض الموت[2].

وقد تحدث القرآن عن موضوع الحيوانات عند ذكره لبعض أنواع منها، ألا وهي:

الإبل والبقر: في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٤].

الضأن والمعز: في قوله تعالى: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣].

الفيل: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل:١].

الحمر والقسورة: في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ [المدثر:٥٠-٥١].

الأنعام: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام:١٣٩].

الخيل والبغال والحمير: في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل:٨].

الكلب: في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف:١٧٦].

الذئب: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ۝١٤﴾ [يوسف:١٤].

الوحوش: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير:٥].

وقد سميت بعض سور القرآن بأسماء الحيوانات مثل: سورة البقرة، وسورة الأنعام.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٠.
(٢) انظر: لسان العرب ١٤/ ٢١٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الطير:

الطير لغةً:

من مادة: (طير)، والطّيران حركة ذي الجناح في الهواء بجناحه، ويقال: طار الطائر يطير طيرًا وطيرانًا وطيرورة، ويقال: وأطاره وطيّره وطار به، وأطاره غيره وطيّره وطايره بمعنى، والطّير معروف اسم لجماعة ما يطير؛ مؤنث، والواحد طائر والأنثى طائرةٌ[١]، ويقال: تطيّر فلان، واطّيّر، أصله التفاؤل بالطير، ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به، ويتشاءم[٢].

الطير اصطلاحًا:

قال الراغب: «الطائر هو كل ذي جناح يسبح في الهواء»[٣]، وهذا من باب التغليب وإلا يدخل في الطير الحيوان الذي له جناح ولا يطير كالدجاج، وورد لفظ الطير في القرآن الكريم عشرون مرة، منها خمسة عشر مرة بلفظة الطير، وأربع مرات بلفظة طير، ومرة واحدة بلفظة طائر، وذكر السلوى ثلاث مرات، والغراب مرتين، والهدهد مرة واحدة.

الصلة بين الطير والحيوان:

الحيوان: كلّ ذي روح ناطقًا كان، أو غير ناطق، مأخوذ من الحياة، والطير له روح، فيكون الطير صنفًا من أصناف الحيوان.

٢ الحشرات:

الحشرات لغةً:

جمع حشرة، والحشرة بفتحتين واحدة الحشرات، وهي صغار دوّاب الأرض، وحشر الناس: جمعهم، ومنه يوم الحشر، والمحشر بكسر الشين موضع الحشر، والحاشر اسم من أسماء النبي عليه الصلاة والسلام[٤].

الحشرات اصطلاحًا:

الحشرة عند علماء الحيوان هي كل كائن يقطع في خلقه ثلاثة أطوار؛ يكون بيضة فدودة ففراشة، وهي الهامة من هوام الأرض؛ كالخنافس، والعقارب، وتطلق أيضًا على الدابة

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٢٣٧.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣١٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٨٢.

الصغيرة من دواب الأرض، كالفئران والضباب[1].

الصلة بين الحشرات والحيوان:

الحشرات كائنات حية لها روح، وهي من الحيوانات، حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام: (نهى عن قتل كل ذي روح)[2]، وقد عدّ المراغي الحشرات من الحيوانات في قوله: «والصيد الذي نهت عنه الآية هو كل حيوان وحشي يؤكل لحمه، فلا جزاء في قتل الأهلي، ولا ما لا يؤكل لحمه من السباع، والحشرات، ومنها: الفواسق الخمس التي ورد الإذن بقتلها: وهي: الغراب، والعقرب، والحدأة، والفأرة، والكلب العقور»[3].

٣ الكائنات الحية الدقيقة:

الكائنات الحية الدقيقة اصطلاحًا:

عرّفها العلماء بأنها الأحياء التي لا ترى بالعين المجردة؛ لأنها صغيرة جدًّا إذ يبلغ حجمها أقل من الميكرون[4].

لقد ورد ذكر الكائنات الحية الدقيقة في القرآن الكريم في عدة مواضع، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝﴾[الحاقة:٣٨-٣٩].

والمعنى: أن الله سبحانه أقسم بالذي نشاهده، والذي لا نشاهده، أي: أنه تعالى أقسم بالأشياء كلها، ما يبصر منها، وما لا يبصر، فيدخل في ذلك جميع المخلوقات[5].

وفي ذلك إشارة إلى أن في الوجود أشياء لا تدركها الأبصار، وقد أثبت العلم الحديث بوساطة الآلات التي تكبّر الأشياء أضعافًا مضاعفة (الميكروسكوبيات) أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات، كالجراثيم (الميكروبات) ولم تكن تخطر على البال في عصر التنزيل، وقد ظهرت للناس الآن فهي من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أن القرآن الكريم من كلام العليم الخبير، وله السبق في كل علم من العلوم التي يصل إليها الإنسان[6].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٩٧.
(٢) أخرج الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٧٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٧٠، رقم ٦٩٧٣.
(٣) تفسير المراغي، ٧/ ٣٢.
(٤) ندوة الويبو عن الملكية الفكرية للصحفيين، حسام الدين الصغير، ص١٢.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٤٠.
(٦) انظر: تفسير المراغي، ١١/ ١٢٨.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[يونس: ٦١].

فالآية السابقة فيها دلالة إلى سبق القرآن إلى الإشارة إلى أصغر الموجودات في الكون مما لا يدرك بالعين المجردة، وإنما بالمكبّرات، كأجزاء الذرة، والكائنات الحية الدقيقة كالجراثيم، والبكتيريا، وغير ذلك[(١)].

وهذا يدل على أن الآلات الحديثة كشفت دقائق في الكون ما كنا نعرفها قبل ذلك، فسبحان الذي يعلم ما في البر والبحر، وما في الأرض والسماء[(٢)].

يلاحظ من الآيتين السابقتين وجود كائنات حية دقيقة لا يعلم عددها إلا الله عز وجل، والعلم الحديث يكتشف من هذه الكائنات يومًا بعد يوم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[الشورى: ٢٩].

العلاقة بين الحيوان والكائنات الحية الدقيقة:

الحيوانات الحية الدقيقة من أنواع الحيوانات التي فيها روح، ولا ترى بالعين المجردة.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١١/ ٢٠٩.
(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ١١/ ٦٢.

الحكمة الإلهية في خلق الحيوان

لقد امتنّ ربنا سبحانه وتعالى على الإنسان فخلق جميع المخلوقات حتى يتفكر فيها، وتدله على خالقها الذي أبدع صنعها، وذكر الله عز وجل في القرآن الكريم من مخلوقاته بعض الحيوانات التي فيها العبرة والعظة لمن تأملها، والله تعالى خلق الحيوان لحكمة، وبيانها في النقاط الآتية:

أولًا: حكمة خلق الحيوان:

إنّ المتأمل في آيات كثيرة من القرآن الكريم، يجد أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الحيوان لحكم عظيمة، ومنها:

أولًا: دلالتها على قدرة الله تعالى، وعظمته، ووحدانيته، وسلطانه العظيم، فقد نشر ربنا سبحانه في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع؛ فمنها: ما يأكلون من لحمها، ويشربون من درها، ومنها: ما يركبونها، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم، وحراستهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ألا يدل ذلك على عظيم قدرة الله عز وجل؟[1].

قال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾[البقرة: ١٦٤].

ثانيًا: أن الحيوانات لم تخلق عبثًا، وأنها تسبح الله سبحانه وتعالى كباقي المخلوقات.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومعنى الآية: أن كل شيء ينزه الله سبحانه تنزيهًا مقترنًا بحمده، فيقول: سبحان اللّه وبحمده، ومعنى: (لا تفقهون)، أي: لا تفهمون تسبيحهم؛ لأنه ليس بلغتكم[2].

وإذا كانت الأشياء التي لا تعقل تسبح الله تعالى، فكيف يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن ذلك؟

ثالثًا: لقد امتنّ اللّه تعالى على عباده بما خلق لهم من الحيوانات، وخاصة الأنعام ذات المصالح، والمنافع المختلفة.

قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥].

وهذه الأنعام هي: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، وجاء تفصيلها في قوله عز وجل: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٨.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٥/ ٨٢.

﴿ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾[الأنعام: ١٤٤].

والله سبحانه سخر للإنسان هذه الأنعام، وجعلها له مصدر رزق، وخير كبير، وأداة لجلب المصالح والمنافع، وجعل فيها الموعظة، والعبرة، والرأفة، والرحمة بعباده، وتوضيح ذلك كالآتي:

١. الموعظة والعبرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾[المؤمنون: ٢١].

فالأنعام عبرة؛ لأنها مما يستدل بخلقها، وأفعالها على عظيم قدرة الله تعالى[1].

٢. الأكل، والشرب، قال تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[المؤمنون: ٢١]. فالآية تدل على أن الإنسان ينتفع من الأنعام بمنافع كثيرة، ومنها شرب الحليب الصافي، وكذلك الأكل من لحومها.

٣. الانتفاع بأصوافها، وأشعارها، وأوبارها، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[النحل: ٨٠]. فدلالة الآية أن الإنسان ينتفع من أصواف، وأشعار، وأوبار الأنعام؛ فيصنع منها الملابس، والأثاث، والفراش، والبيوت الخفيفة التي تستخدم في الترحال.

٤. الركوب عليها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[يس: ٧١-٧٢].

وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف:١٢-١٣].

فذكرت الآيات السابقة أن الإنسان يستخدم الأنعام للركوب، وأن ذلك يكون سببًا في تذكر نعمة الله تعالى على عباده، ويجعلهم يسبحون الله جل وعلا. والظاهر من الآيات السابقة أن الإبل هي التي تستخدم للركوب من الأنعام، والإنسان يركب أيضًا على الخيل، والبغال، والحمير، قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[النحل: ٨].

٥. ومنها ما يتخذ للجهاد، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال: ٦٠].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٥٩٥.

٦. ومنها ما يحمل عليها الإنسان ما يشاء من الأثقال إلى البلدان، والأقطار البعيدة، وفي ذلك الرأفة، والرحمة، قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ٨].

٧. ومنها ما يتخذ للجمال والزينة، والثروة، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] أي: في وقت راحتها، وسكونها، ووقت حركتها، وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم، وأموالكم، وتعجبون بذلك[(١)].

قال الزحيلي: «ولكم في هذه الأنعام جمال، أي: زينة حين الرواح، وهو وقت رجوعها عشاء من المراعي، ووقت السّروح، وهو وقت الغدوة، والذهاب من مراحها إلى مسارحها، أو المرعى، وخص الله تعالى هذين الوقتين بالذكر لاهتمام الرعاة بهما حين الذهاب، والإياب، وفي ذلك مفاخرة بالقطيع، وقدم الرّواح على السّروح؛ لأن الفائدة فيه أتم، لمجيئها شبعانة، فتدر الحليب، وتملأ النفس سرورًا، والعين متعة؛ فهي عنصر للغذاء، وأداة إنتاج في الاقتصاد»[(٢)].

وجمال الأنعام، والدواب من جمال الخلقة، والتركيب، والصورة[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[آل عمران: ١٤].

فالأنعام مال أهل البادية، ومنها تكون ثروتهم، ومعايشهم، ومرافقهم، وبها تفاخرهم، وتكاثرهم، ومنهم من يتخذها زينة، وقد امتنّ اللّه بها على عباده[(٤)].

وتظل الأنعام ثروة اقتصادية في كل زمان ومكان، ونعمة كبرى، والله سبحانه وتعالى قيض هذه الأنعام، وسخرها للإنسان، وجعلها لهم مصدر رزق، وخير كبير، وأداة منافع، وجلب مصالح، وفيها الرأفة والرحمة بعباده، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[يس:

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٨٥.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٩٠.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: تفسير المراغي، ٣/ ١١٢.

٧١-٧٢][1].

وخلاصة القول: إن ربنا عز وجل خلق الأنعام، وجعل فيها عبرًا، ونعمًا من وجوه شتى، ففيها دلائل على قدرة الخالق بخلق الألبان من مصادر هي أبعد ما تكون منها، ونعمًا لنا في مرافقها وأعيانها، فننتفع بألبانها، وأصوافها، ولحومها، ونجعلها مطايا لنا في أسفارنا إلى نحو أولئك من شتى المنافع؛ فمن صنوف الحيوان مصرفة في مصالح الإنسان، فمنها ما هو للدر، والنسل، والغذاء فقط، ومنها ما هو للركوب، والحمولة فقط، ومنها ما هو للجمال، والزينة، ومنها ما يجمع ذلك كله كالإبل، وجعل أجوافها خزائن لما هو شراب، وغذاء، ودواء، وشفاء ففيها عبرة للناظرين، وآيات للمتوسمين، وفي الطير، واختلاف أنواعها، وأشكالها، وألوانها، ومقاديرها، ومنافعها، وأصواتها، صافات، وقابضات، وغاديات ورائحات، ومقيمات، وظاعنات أعظم عبرة، وأبين دلالة على حكمة الخلاق العليم سبحانه وتعالى[2].

وهذا يعني أن الله سبحانه جعل في خلق الحيوانات من المنافع التي امتن بها على البشر، قال عز وجل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾ [لقمان: ١٠].

أي: أن الله سبحانه جعل من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحوم أوانسها، ووحوشها، والانتفاع بألبانها، وأصوافها، وجلودها، وقرونها، وأسنانها، والحمل عليها، والتجمل بها في مرابطها، وغدوّها، ورواحها[3].

والمنافع والمصالح التي تم ذكرها، وغيرها فيها من الحكم العظيمة، والعبر التي تدل على وحدانية الله تعالى، وأنه هو الخالق والرازق والمدبر، ولا معبود سواه، وله صفات الكمال، والجلال.

ثانيًا: الإبداع الإلهي في خلق الحيوان:

إن الناظر في مخلوقات الله، وكيفية خلقها يوصله ذلك إلى الإبداع الإلهي في الخلق، والله سبحانه خلق المخلوقات، وهدى كل مخلوق لما خلق له؛ فجعل جسم كل مخلوق يتلاءم مع طبيعته لينتفع بذلك في تحقيق مصالحه، حتى إن لكل حيوان خلقة تناسبه؛ فإن كان في البحر جعل الله سبحانه خلقته تناسب العيش في الماء.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥﴾ [النور: ٤٥].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٩١.
(٢) انظر: الصواعق المرسلة، ابن القيم، ٤/ ١٥٦٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ١٤٦.

فكل حيوان له من الهيئة التي تتلاءم مع البيئة التي يعيش فيها، وهذا كله يدل على بديع صنع الله في خلقه.

ولو تأملنا الإبل مثلًا كيف خلقت؟ نجد أنها خلق عجيب، وتركيبها غريب، وهي في غاية الشدة، والقوة، ومع ذلك فإنها تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف[1].

قال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

«قال المفسرون: لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين تعجب الكفار من ذلك فكذبوا وأنكروا فذكرهم الله صنعته، وقدرته، وأنه قادر على كل شيء كما خلق الحيوانات والسماء والأرض، ثم ذكر الإبل أولًا؛ لأنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خلقه قد ذلّله للصغير يقوده، وينيخه، وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الحمل، وهو بارك فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره، فأراهم عظيمًا من خلقه مسخرًا لصغير من خلقه يدلهم بذلك على توحيد الله، وعظيم قدرته»[2].

والله سبحانه وتعالى أعطى الإبل من الخصائص حتى تكون سفائن البر، قال الزمخشري رحمه الله: «وحين أراد أن تكون سفائن البر، صبرها على احتمال العطش حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعدًا، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم»[3].

وظهور الإبل مسنمة حتى تكون مهيأة للركوب عليها، وحمل الأثقال عليها، قال ابن القيم رحمه الله عنها: «ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضل القوة، وعظم ما تحمله، والقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل: إن عقد القباء إنما أخذ من ظهور الابل، وتأمل كيف لما طوّل قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعي من قيام فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه، وليكون أيضًا طوّل عنقه موازنًا للحمل على ظهره إذا استقل به، كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل: إن القبان إنما عمل من خلقة الجمل من طول عنقه، وثقل ما يحمله، ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل كأنه يوازنه موازنة»[4].

ولا يقتصر بديع صنع الله تعالى في الحيوان على الإبل، وإنما هو في سائر الحيوانات، فسبحان الله ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

أي: أن الله عز وجل خلق جميع

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٧٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٢٥٠.
(٣) الكشاف، ٤/ ٢٤٧.
(٤) مفتاح دار السعادة ص٢٤٦.

المخلوقات، ومنها الحيوانات، وأحسن خلقها، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم، وصغره، وتوسطه، وجميع صفاته، وهدى كل حيوان إلى ما خلقه له، فكل حيوان يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به على ذلك[1].

قال القرطبي رحمه الله: «لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول»، ونقل أقوالًا للعلماء حول هذا المعنى، فقال: «قال ابن العربي: وهذه خواص العلوم عندنا، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهنود الإسفرايني: ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم، وحدوث المخلوقات، ووحدانية الإله، ولكننا لا نفهم عنها، ولا تفهم عنا، أما أنا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية»[2].

وقال ابن عطية رحمه الله: «والنمل حيوان فطن قويّ شمام جدًّا يدخر القرى، ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع؛ لأنها تنبت إذا قسمت شقين، ويأكل في عامه نصف ما جمع، ويستبقي سائره عدّة»[3].

وهذا يدل على شدة إدراك النمل، وأنه يأكل ما يكفيه من الطعام الذي يجمعه، ويدّخر الباقي، وهذا من بديع خلق الله تعالى، وعلى الإنسان أن يتعلم من النمل هذا النظام، والترتيب.

ومما يدل على فطنة النمل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

حيث إن الله تعالى ذكر مخاطبة النملة لأخواتها من النمل كمخاطبة الإنسان للإنسان.

قال ابن عطية رحمه الله: «وهذه النملة قالت هذا المعنى الذي لا يصلح له إلا هذه العبارة قولًا فهمه عنها النمل، فسمعها سليمان على بعده، وجاءت المخاطبة كمن يعقل؛ لأنها أمرتهم بما يؤمر به من يعقل[4].

وقال ابن القيم رحمه الله عن فطنتها: «ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نشر من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها، فلا ترى قرية نمل في بطن واد، ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه، ويكفي في فطنتها ما نص الله عز وجل في كتابه من قولها لجماعة النمل، وقد رأت سليمان عليه

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص٤٣٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ١٢٨.
(٣) المحرر الوجيز، ٤/ ٢٥٣.
(٤) انظر: المصدر السابق.

الصلاة والسلام، وجنوده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة -النداء، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والنص، والتحذير، والتخصيص، والتفهيم، والتعميم، والاعتذار، فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الانواع العشرة، ولذلك أعجب سلميان قولها، وتبسم ضاحكًا منه، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها، ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة)[1]»[2].

وهذه الفطنة أودعها الله تعالى في سائر الحيوانات حتى تقوم على مصالحها، قال ابن القيم رحمه الله: «ومن عجيب الفطنة في الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام، ولم يجد صيدًا تماوت، ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتًا فيقع عليه ليأكل منه، فيثب عليه الثعلب فيأخذه، ومن عجيب الفطنة في هذه الذبابة الكبيرة التي تسمى أسد الذباب فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريبًا منه يسكن مليًّا حتى كأنه موات لا حراك فيه، فإذا رأى الذباب قد اطمأن، وغفل عنه دب دبيبًا رفيقًا حتى يكون منه بحيث يناله، ثم يثب عليه فيأخذه، ومن عجيب حيل العنكبوت أنه ينسج تلك الشبكة شركًا للصيد، ثم يكمن في جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه، وامتص دمه»[3].

من خلال الحديث عن بعض الحيوانات، وما في ذلك من الدلالة على الإبداع الإلهي في خلقها حتى تهتدي لما خلقت له، وتقوم على مصالحها، والله تعالى أعطى كل حيوان الصفة، والهيئة التي تمكنه من ذلك، وهذا يدعو أصحاب العقول للتفكر، والاعتبار.

ثالثًا: الحث على التفكر في خلق الحيوان:

ذكرت في المطلب السابق أمثلة على بديع خلق الله تعالى في الحيوانات، وهي مخلوقات فيها التذكر، والتفكير، والعبرة، وهذه أوصاف لأولي الألباب، قال تعالى:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم ٣٣١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، ٤/١٧٥٩، رقم ٢٢٤١.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص٢٥٢.

(٣) المصدر السابق، ص٢٥٣.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

والمعنى كما قال الزحيلي: «إن اللّه تعالى وصف أولي الألباب بأنهم يجمعون بين التذكر والتفكير، يذكرون اللّه في مختلف أحوالهم من قيام، وقعود، واضطجاع، لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم، وضمائرهم، وألسنتهم، ويتفكرون، ويفهمون ما في السموات، والأرض من أسرار، ومنافع، وحكم دالة على عظمة الخالق، وقدرته، وعلمه، ورحمته، والتفكر يكون في مصنوعات الخالق لا في الخالق، لاستحالة الوصول إلى حقيقة ذاته وصفاته...، ويقول المتفكرون الذاكرون: ربنا ما خلقت هذا الخلق عبثًا ولا أوجدته باطلًا زائلًا، فأنت منزه عن الباطل، والعبث، وكل خلقك حق مشتمل على فائدة، وحكمة، وقدرة، أي: أن المؤمن المتفكر بعد أن تدبر، ونظر، ودقق، وتفكر يتوجه إلى اللّه تعالى متضرعًا معلنًا قناعته بحكمة اللّه العليا في خلق المخلوقات، ربنا فاجعل لنا وقاية، وحاجزًا من عذاب النار، وأجرنا من عذابها، ووفقنا للعمل الصالح»[1].

والتفكر في الخلق يدل على الخالق تبارك وتعالى، ومن الآيات التي فيها التفكر، والتدبر والاعتبار خلق الحيوانات حيث إن الله عز وجل أحيا الأرض بإنزال المطر، وخلق فيها من كل حيوان.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

قال ابن عطية رحمه الله: «ودابّة تجمع الحيوان كله»[2].

وهذه الآيات تدل على وحدانية الله تعالى وقدرته، ومما يدل على ذلك أن الله عز وجل ذكر هذه الآيات بعد قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ ليدل على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه، وذكر رحمته، ورأفته بخلقه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد نزلت علي الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمَا بِمَا﴾ [البقرة:

(١) التفسير المنير ٤/ ٢٠٧.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٢٣.

١٦٤][(١)(٢)].

ومما يدل على معنى ما سبق قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ [الجاثية: ٤-٥].

أي: أكثر الله من كل الأنواع لا يختص ذلك بنوع دون آخر، ويحسن هنا الإشارة إلى أن العلماء ذكروا أرقامًا عالية جدًّا من الحيوانات وخاصة الحشرات[(٣)].

قال ابن كثير رحمة الله في تفسير الآية السابقة: «أي: على اختلاف أشكالها، وألوانها، ومنافعها، وصغرها، وكبرها، وهو يعلم ذلك كله، ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]»[(٤)].

ولتوضيح التفكر في خلق الحيوان يحسن أن نذكر بعض الأمثلة:

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

قال ابن القيم: «لو تأملنا العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام، وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم، فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة فينقلب بعضه دمًا بإذن الله، وما يسرى في عروقها، وأعضائها، وشحومها، ولحومها فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء فبه كل عضو، أو عصب، وغضروف، وشعر، وظفر، وحافر إلى طبيعته، ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له، إذ به قوام الحيوان، ثم ينصب ثقله إلى الكرش فيصير زبلًا، ثم ينقلب باقية لبنًا صافيًا سائغًا للشاربين، فيخرج من بين الفرث والدم حتى إذا أنهكت الشاة، أو غيرها حلبًا خرج الدم مشوبًا بحمرة، فصفى الله سبحانه الألطف من الثفل بالطبخ الأول فانفصل إلى الكبد، وصار دمًا، وكان مخلوطًا بالأخلاط الأربعة، فأذهب الله عز وجل كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له من المرارة، والطحال، والكلية، وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد، فينصب من تلك العروق إلى الضرع فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم، وطبعه، وطعمه إلى صورة اللبن، وطبعه، وطعمه فاستخرج من الفرث

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٢/ ٣٨٦، رقم ٦٢٠.
وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١/ ١٤٧، رقم ٦٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٢٠١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٣٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٥.

والدم، من الذي دبر هذا التدبير؟ وقدر هذا التقدير؟ وأتقن هذا الصنع؟ ولطف هذا اللطف؟ إنه اللطيف الخبير[1].

الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٦٨- ٦٩].

إنها آية فيها العبرة، وفيها التفكر لمن تأملها فهي من دلائل القدرة الإلهية في خلق النحل، وما فيها من مظاهر النعم على الناس، وأنها تدلهم على التوحيد.

ومعنى يتفكّرون: يتأملون في صنعه تعالى، فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة، والأفعال العجيبة حق التدبر، علم قطعًا أنه لا بد من وجود قادر حكيم يلهمها ذلك، ويحملها عليه[2].

والله سبحانه وتعالى أودع الغريزة في الحيوان، فأوحى إلى النحل أن تتخذ بيوتًا تأوي إليها، أي: أوكارًا، ومن الشّجر بيوتًا. وممّا يعرشون، أي: مما يبنيه الناس لها من الأماكن، أي: يصنعونه من الخلايا من طين، أو خشب، أو غيرهما[3].

قال القرطبي رحمه الله: «قال ابن العربي: ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل، وجاءت بينهما فرج، إلا الشكل المسدس؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة»[4].

وفي اتخاذ النحل البيوت امتثال لأمر ربها، قال ابن القيم رحمه الله: «وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولًا، فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت، وأكلت من الثمار ثم آوت إلى بيوتها؛ لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولًا، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعز عليها شيء ترعى ثم تعود، ومن عجيب شأنها أن لها أميرًا يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعه وله، عليها تكليف وأمر ونهي، وهي رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها، كما يدبر الملك أمر رعيته، حتى إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت، فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى، ولا تتقدم عليها في العبور، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم، ولا تصادم، ولا تراكم

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، ص٢٦٠.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ١٦٨.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٣٤.

كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره الى معبر ضيق لا يجوزه إلا واحد واحد، ومن تدبر أحوالها وسياساتها، وهدايتها، واجتماع شملها، وانتظام أمرها، وتدبير ملكها، وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها، ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الاحكام، والإتقان، فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله أجهله بنفسه، وبحاله، وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلًا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة، ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد، ولا يتأمران على جمع واحد، بل إذا اجتمع منها جندان، وأميران قتلوا أحد الأميرين، وقطعوه، واتفقوا على الأمير الواحد»[1].

الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[الزخرف: ١٢- ١٣].

والمعنى: أن الله سبحانه خالق وسيلة الركوب من الفلك، والأنعام، أي: أن الله الذي خلق الفلك، الأنعام، وألهم الإنسان، وعلمه أن يتخذ وسيلة الركوب في البحر، وهي السفن، وأوجد واسطة الركوب في البر من الأنعام، وهي الإبل، إذ المعهود أنه لا يركب من الأنعام إلا هي، والله هو الذي ذلّلها لنا، وسخّرها، ويسّرها لركوب ظهورها، وكذا لأكل لحومها، وشرب ألبانها، والانتفاع بأوبارها، ومن الأنعام لم تخلق للركوب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بينما رجل راكب بقرة، إذ قالت له: لم أخلق لهذا، إنما خلقت للحرث، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: آمنت بذلك أنا، وأبو بكر، وعمر)[2][3].

ومن العجيب أن الله سبحانه وتعالى أعطى بهيمة الأنعام الأسماع، والأبصار ليتم تناولها لمصالحها، ويكمل انتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء، أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها، ثم سلبها العقول، إذ إن هناك تباينًا بين عقولها وعقل الإنسان؛ ليتمكن الإنسان من تسخيرها إياها فيقودها، ويصرفها حيث شاء، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته، واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأعطيت من التمييز، والإدراك ما تتم به مصلحتها، ثم تأمل كيف قادها، وذللها على كبر أجسامها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ

(١) مفتاح دار السعادة، ص٢٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ٣/ ٢٠٣، رقم ٢٩٠٦.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٥/ ١٢٤.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٧١-٧٢].

فالبعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلًا منقادًا، والله سبحانه وتعالى ذلّله، وسخره، وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه، ومعاده، فأعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله من الغذاء، والشراب، والدواء، واللباس، والأمتعة، والآلات، والأواني، والركوب، والحرث، والمنافع الكثيرة، والجمال[1].

وفيما ذكر من الأمثلة للتفكر في خلق الحيوانات الكفاية، فالذي يتفكر في خلقها يدله تفكيره على خالقها جل وعلا.

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ص٢٤٣.

أنواع الحيوانات

جاء ذكر الحيوانات في القرآن الكريم بمسميات عديدة، والناظر في هذه الحيوانات يجد أن منها المأكولة، ومنها المركوبة، ومنها المفترسة، وسنوضح إن شاء الله تعالى أنواع الحيوانات في النقاط الآتية:

أولًا: الحيوانات المأكولة:

ورد ذكر الحيوانات مأكولة اللحم على سبيل الإجمال تحت مسمى أنعام اثنين وثلاثين مرة، وبلفظة النعم مرة واحدة، والأنعام تشمل: (الإبل، والبقر، والغنم، والماعز)، وما شابهها من الحيوانات اللبونة، وأما على سبيل التفصيل فورد ذكر الإبل مرتين، وبلفظة بعير مرتين أيضًا، وبلفظة ناقة أربع مرات، والناقة ثلاث مرات، وجاء ذكر البقر تسع مرات، منها لفظة البقر ثلاث مرات، ولفظة بقرة أربع مرات، وبقرات مرتين، وجاءت لفظة عجل عشر مرات، وأما الغنم فورد ذكرها ثلاث مرات بلفظة غنم، الغنم، غنمي، وبلفظة المعز مرة واحدة، وسأذكر ورودها في القرآن الكريم مع توضيح معناها في سياق الآيات.

١. الإبل.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ

﴿ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[الأنعام: ١٤٤].

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٢-١٤٣].

والمعنى: أن الأنعام التي هي حمولة وفرش ثمانية أصناف، فإنّ الحمولة: إما إبل، وإما بقر، والفرش: إما ضأن، وإما معز، وكلّ قسم من هذه الأربعة: إما ذكر، وإما أنثى، وقد أنشأ اللّه من الضّأن زوجين اثنين: الكبش، والنّعجة، ومن المعز زوجين اثنين: التّيس والعنزة، ومن الإبل اثنين: الجمل، والنّاقة، ومن البقر اثنين: الثّور والبقرة، والله عز وجل قال للرسول صلى الله عليه وسلم: قل لمشركي العرب إنكارًا لصنعهم بتقسيم الأنعام إلى بحيرة، وسائبة، ووصيلة، وحام، وغير ذلك مما ابتدعوا فيها: أحرم اللّه الذّكرين من الكبش، والتّيس؟ أم حرّم الأنثيين من النّعجة، والعنز؟ أم حرّم ما حملت إناث النّوعين؟ يعني: هل يشتمل الرّحم إلا على ذكر، أو أنثى، فلم تحرمون بعضًا وتحلّون بعضًا؟ أخبروني عن يقين، كيف حرّم اللّه عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة، والسّائبة، والوصيلة، والحام ونحو ذلك؟ أخبروني ببيّنة تدلّ على هذا التّحريم من كتاب اللّه، أو خبر نبي من الأنبياء إن كنتم صادقين في ادّعاء التّحريم[1].

قال الزحيلي: «والحقيقة أنه لا منطق في تقسيم العرب في الجاهلية قبل الإسلام لأنواع الأنعام، فمنها الحرام، ومنها الحلال، فإن كان المحرّم منها الذّكر، وجب أن يكون كلّ ذكورها حرامًا، وإن كان المحرّم منها الأنثى، وجب أن يكون كلّ إناثها حرامًا، وإن كان المحرّم منها ما حملته الأجنّة في بطون الإناث، وهي تشتمل على الذّكر والأنثى، وجب تحريم الأولاد كلّها، واللّه تعالى ما حرّم عليهم شيئًا من هذه الأنواع، وإنهم لكاذبون في دعوى التّحريم، ولا أحد في الدّنيا أظلم ممن يفتري الكذب على اللّه، فيدّعي أنه حرّم شيئًا ولم يحرّمه، ونسب إليه تحريم ما لم يحرم، من أجل إضلال النّاس، وهو عمرو بن لحيّ بن قمعة الذي بحر البحائر، وسيّب السّوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، وغيّر دين الأنبياء، إن اللّه لا يهدي إلى الحقّ والخير القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم، فشرعوا ما لم يشرع

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٨/ ٧١.

الله تعالى»[1].

ولما كانت الإبل أنفس الأموال عند العرب، وكانوا يركبونها في الصحراء، ويحملون أمتعتهم عليها قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[الغاشية: ١٧].

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى أمر العرب أن يتفكروا في خلقها بما يتناسب مع طبيعة استخدامها.

قال الشوكاني رحمه الله: «الآية مسوقة لتقرير أمر البعث، والاستدلال عليه، والمعنى: أينكرون أمر البعث، ويستبعدون وقوعه، أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب مواشيهم، وأكبر ما يشاهدونه من المخلوقات كيف خلقت على ما هي عليه من الخلق البديع من عظم جثتها ومزيد قوتها، وبديع أوصافها قال أبو عمرو بن العلاء: إنما خص الإبل لأنها من ذوات الأربع، تبرك فتحمل عليها الحمولة، وغيرهما من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم: قال الزجاج: نبههم على عظيم من خلقه»[2].

وقد سبق بيان معنى هذه الآية فليراجع، ولا داعي للتكرار.

والبعير من الإبل ذكر مرتين في القرآن الكريم بلفظة (بعير)، أما الموضع الأول ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[يوسف: ٦٥].

والمعنى: لما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم قالوا: يا أبانا، ماذا نريد؟ قال قتادة: ما نبغي وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفي لنا الكيل، وإذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطي كل رجل حمل بعير[3].

وأما الموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾[يوسف: ٧٢].

أي: قالوا: ولمن جاء بالصواع من جهة نفسه حمل بعير، والبعير الجمل، وفي لغة بعض العرب أنه الحمار، والمراد بالحمل ها هنا: ما يحمله البعير من الطعام، ثم قال المنادي: وأنا كفيل بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية، ولعل القائل: نفقد صواع الملك هو المنادي وحده؛ لأنه القائل بالحقيقة[4].

(١) المصدر السابق ٨/ ٧٢.
(٢) فتح القدير، ٥/ ٥١١.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٥٧٦.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٤٧٥.

وأما الناقة فذكرت في القرآن الكريم سبع مرات؛ بلفظة ناقة أربع مرات في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[هود: ٦٤].

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[الشعراء: ١٥٥].

وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣].

وبلفظة الناقة ثلاث مرات، في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

وكلها جاءت حينما طلب قوم صالح عليه السلام منه المعجزة على صحة دعوته لهم، أتاهم بمعجزة الناقة، وقيل: إن قومه خرجوا في عيد لهم، فسألوه أن يأتيهم بآية، وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة، فدعا صالح ربه، فخرجت الناقة كما سألوا، وقال لهم: هذه آية على صدقي: ناقة الله التي تتميز عن سائر الإبل بأكلها وشربها وغزارة لبنها، فاتركوها تأكل ما شاءت في أرض الله من المراعي، دون أن تتحملوا عبء مؤنتها، ولا تمسوها بسوء أيًا كان نوعه، فيأخذكم عذاب عاجل لا يتأخر عن إصابتكم إلا يسيرًا، وذلك ثلاثة أيام، ثم يقع عليكم، فلم يسمعوا نصحه، وكذبوه، وعقروها، فقال لهم: استمتعوا بالعيش في داركم، أي: بلدكم، وتسمى البلاد الديار، مدة ثلاثة أيام، ذلك وعد مؤكد غير مكذوب فيه.

ثم وقع ما أوعدهم به، فلما حان وقت أمر الله تعالى بالعذاب، والإهلاك، وحل العقاب، ووقعت الواقعة، ونزلت الصاعقة، نجينا صالحًا، والمؤمنين معه، برحمة منا، ونجيناهم من عذاب شديد، ومن ذل ومهانة، وأما الذين كفروا أخذتهم صيحة العذاب، وهي الصاعقة ذات الصوت الشديد المهلك، التي تزلزل القلوب، وتصعق عند سماعها النفوس، فصعقوا بها جميعًا، وأصبحوا جثثًا هامدة ملقاة على الأرض، وكأنهم لسرعة هلاكهم لم يوجدوا في الدنيا، ولم يقيموا في ديارهم، بسبب

كفرهم وجحودهم بآيات ربهم، ألا إنهم كفروا بربهم، فاستحقوا عقابه الشديد، ألا بعدًا لهم عن رحمة الله، وسحقًا لثمود، وهلاكًا لهم ولأمثالهم[1].

٢. البقر.

وجاء ذكر البقر تسع مرات، منها لفظة البقر ثلاث مرات: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠].

هذا سؤال من قوم موسى لطلب زيادة إيضاح وإظهار؛ لأنه لم يحصل لهم تمام البيان، ثم ذكروا السبب في إعادة السؤال، فقالوا: إن وجوه البقر تتشابه، أي: يشبه بعضها بعضًا[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ...﴾ [الأنعام: ١٤٤].

قال السعدي رحمه الله: «وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده، وجعلها كلها حلالًا طيبًا، فصلها بأنها: ثمانية أزواج ذكر وأنثى، اثنين من الضأن، واثنين من المعز كذلك، فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها، فقل لهؤلاء المتكلفين، الذين يحرمون منها شيئًا دون شيء، أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور، ملزمًا لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولًا سائغًا في العقل، إلا واحدًا من هذه الأمور الثلاثة، وهم لا يقولون بشيء منها، إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم، حرام على الإناث دون الذكور، أو محرمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من الأقوال، التي يعلم علمًا لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب، والعقول المختلة المنحرفة، والآراء الفاسدة، وأن الله، ما أنزل -بما قالوه- من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان، ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك، فلما بين بطلان قولهم وفساده، قال لهم قولًا لا حيلة لهم في الخروج من تبعته، إلا في اتباع شرع الله»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

قال المراغي رحمه الله: «ومن البقر والغنم دون غيرهما مما أحل لهم من حيوان البر والبحر حرمنا عليهم شحومهما الزائدة التي تنتزع بسهولة لعدم اختلاطها بلحم ولا

(١) انظر التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ١٠١.
(٢) انظر: تفسير المراغي، ١/ ١٤٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٤٩.

عظم، ولم نحرم عليهم ما حملت الظهور، أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم، والسبب في تخصيص البقر والغنم بهذا الحكم أن القرابين عندهم لا تكون إلا منهما»[1].

وذكرت لفظة بقرة أربع مرات، وكلها في سورة البقرة، ثلاثة مواضع منها جاءت متتالية في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ * ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[البقرة: ٦٧- ٦٩].

وموضع منها في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

والمواضع الأربعة وردت في قصة ذبح البقرة التي جاءت بعد ذكر بعض جرائم اليهود، من نقض الميثاق، والاعتداء في السبت، والتمرد في تطبيق التوراة، فهي استمرار في تعداد مساوئهم، وهي مخالفتهم الأنبياء، ومعاندة الرسل عليهم السّلام، والتلكؤ في امتثال أوامر اللّه تعالى[2].

والمعنى: واذكروا وقت قول موسى لقومه الذين هم أسلافكم: إن اللّه يأمركم أن تذبحوا بقرة -أي: بقرة كانت- فلم يسرعوا إلى الامتثال، ولكن شدّدوا فشدد اللّه عليهم، وقالوا: أتهزأ بنا يا موسى؟ قال: معاذ اللّه أن أكون من الذين يهزئون في موضع الجد.

فلما رأوه جادًّا قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما سنها؟ فقال لهم: إنها بقرة ليست صغيرة ولا كبيرة، بل وسط بين هذا وذاك، فافعلوا ما تؤمرون به، ولا تشددوا فيشدد اللّه عليكم.

ولكنهم قالوا: ادع لنا ما لونها؟ فأخبرهم أنها صفراء شديدة الصفرة تجلب السرور لمن يشاهدها.

فلم يكتفوا بذلك، بل طالبوا بأوصاف تميزها أكثر، ولكنهم أحسوا بأنهم تشددوا وجاوزوا الحد المعقول، فقالوا معتذرين: إن البقر كثير متشابه علينا، وهذه الأوصاف السابقة تنطبق على كثير، وإنا إن شاء اللّه لمهتدون إلى المطلوب.

فأجابهم اللّه أن البقرة المطلوبة لم يسبق لها عمل في حرث الأرض ولا سقيها، سليمة من العيوب ليس فيها لون مخالف، قالوا: الآن جئت بالبيان الواضح فطلبوها فلم يجدوها إلا عند يتيم صغير بارّ بأمه، فساوموه، فاشتط حتى اشتروها بملء جلدها

(١) تفسير المراغي، ١/ ١٦٥٥.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ١٨٨.

ذهبًا، وما كان امتثالهم قريب الحصول.

واذكروا إذ قتلتم -والخطاب لليهود المعاصرين؛ لأنهم أبناء السابقين، ومعتزون بنسبهم وراضون عن فعلهم- واذكروا وقت قتل آبائكم نفسًا حرم اللّه قتلها، ثم تخاصموا، وتجادلوا، وأنكروا على اللّه فعلهم، كما ينكرون اليوم ما عندهم من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم، واللّه مظهر ما تكتمونه[1].

وأما لفظة بقرات بالجمع وردت مرتين في قصة يوسف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وفي قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

والمعنى أن الملك قال ليوسف الصديق: أفتنا في هذه الرؤيا، لعلي أرجع إلى أهل مصر فيعلمون تأويل الرؤيا، وقيل: لعلهم يعلمون منزلتك في العلم، فقال يوسف: أمّا البقرات السمان والسنبلات الخضر: فسبع سنين مخاصيب، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات: فالسنون المجدبة[2].

ولفظة عجل ذكرت في القرآن الكريم عشر مرات، منها ستة مواضع بلفظة (العجل) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

وفي قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٢-٩٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

ومعنى الآيات السابقة: أن اليهود كفروا بالنعم التي أنعم اللّه بها عليهم، والتي كانت

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ١/ ٤٦.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٤٦٦.

في أرض الميعاد، وكفروا أيضًا بالآيات الواضحات، والدلائل القاطعات التي جاء بها موسى، والتي تدل على أنه رسول اللّه، وأنه لا إله إلا اللّه، والآيات البينات: هي التي حدثت قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة، وهي تسع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[الإسراء: ١٠١].

وهي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفرق البحر، والسّنون.

ولم تزدهم تلك الآيات إلا توغلًا في الشرك والوثنية، ولم يشكروا نعم اللّه عليهم، وقابلوها باتخاذ العجل إلهًا يعبدونه من دون اللّه، والعجل: هو الذي صنعه لهم السامري من حليّهم، وجعلوه إلهًا وعبدوه. وهذا دليل على قسوة قلوبهم، وفساد عقولهم، فلا أمل في هدايتهم، وهو ظلم، ووضع للشيء في غير موضعه اللائق به، وأي ظلم أعظم من الإشراك باللّه؟

واذكر يا محمد وقت أن أخذ عليهم الميثاق بأن يعملوا بما في التوراة ويأخذوا بما فيها بقوة، فخالفوا الميثاق وأعرضوا عنه، حتى رفع الطور عليهم إرهابًا لهم، فقبلوه، ثم خالفوه وكأنهم قالوا: سمعنا وعصينا، ثم أوغلوا في المخالفة، ووقعوا في الشرك، واتخذوا العجل إلهًا، وخالط حبه قلوبهم، وتمكن الحب الشديد لعبادة العجل في نفوسهم، بسبب ما كانوا عليه من الوثنية في مصر، قل يا محمد لليهود الحاضرين، بعد أن علموا أحوال رؤسائهم السالفين: إن كان إيمانكم بالتوراة يدعوكم إلى هذا، فبئس هذا الإيمان الذي يوجه إلى هذه الأعمال التي تفعلونها، مثل عبادة العجل، وقتل الأنبياء، ونقض الميثاق[(١)].

إنّ الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل إلهًا ومعبودًا بعد غيبة رسولهم موسى عليه السّلام، وبقوا على تأليهه، واستمروا على عبادته كالسامري وأتباعه، سيصيبهم عذاب شديد من ربهم، وأن اللّه تعالى لن يقبل توبتهم حتى يقتتلوا، ويقتل بعضهم بعضًا: وسينالهم أيضًا ذلة وصغار في الحياة الدنيا، بخروجهم من ديارهم وتشردهم، وهوانهم على الناس واحتقارهم لهم، وتهالكهم على حب الدنيا، فهم الماديون المنبوذون المكروهون في كل أمة[(٢)].

ومنها: موضعان بلفظة (عجلًا) في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[الأعراف: ١٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [طه: ٨٨].

والمعنى: أن بني إسرائيل بعد خروج

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٢٢٧.
(٢) انظر: المصدر السابق، ٩/ ١٠٦.

موسى إلى جبل الطور لمناجاة ربه على حسب الموعد الذي وعده الله به اتخذوا من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم عجلًا، أي: تمثالًا بصورة العجل وصوته، ثم عبدوه، وكان بقاء حلي القبط في أيدي بني إسرائيل بعد أن أغرق الله القبط، وأهلك قوم فرعون.

وقد جمع السامري تلك الحلي، وكان رجلًا مطاعًا فيهم، وصاغ لهم عجلًا، واتخذوه إلهًا لهم، ثم عبدوه، وإنما نسب إليهم جميعًا؛ لأنه عمل برأي جمهورهم، ولم ينكر عليه أحد، فصاروا مجمعين عليه، مريدين لاتخاذه، راضين به، وكانوا قد سألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه، كما لغيرهم من المصريين والشعوب التي مروا بها في فلسطين آلهة[1].

ومنها: موضعان بلفظة (بعجل)، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[هود: ٦٩].

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦].

ذكر تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أن إبراهيم عليه السلام لما سلم على رسل الملائكة، وكان يظنهم ضيوفًا من الآدميين، أسرع إليهم بالإتيان بالقرى، وهو لحم عجل حنيذ، أي: منضج بالنار، وأنهم لما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة، فقالوا: لا تخف وأخبروه بخبرهم، وبينت أنه راغ إلى أهله، أي: مال إليهم، فجاء بذلك العجل، وبين أنه سمين، وأنه قربه إليهم، وعرض عليهم الأكل برفق فقال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وأنه أوجس منهم خيفة[2].

ويؤخذ من قصة إبراهيم مع ضيفه هؤلاء أشياء من آداب الضيافة[3]:

- تعجيل القرى.
- كون القرى من أحسن ما عنده؛ لأنهم ذكروا أن الذي عنده البقر وأطيبه لحمًا الفتي السمين المنضج.
- تقريب الطعام إلى الضيف.
- ملاطفته بالكلام بغاية الرفق.

٣. الغنم والمعز.

أما الغنم فورد ذكرها في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

والثاني: قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[طه: ١٨].

(١) انظر: المصدر السابق، ٩/ ٩٥.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٢٦.

(٣) انظر: المصدر السابق.

والمعنى: لما سئل موسى عما في يمينه قال: إنها عصاي أعتمد عليها إذا أعييت، أو وقفت على رأس القطيع، وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي، ولي فيها حاجات أخر مثل: أنه كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته، وعرض الزندين على شعبيتها، وألقى عليها الكساء، واستظل به، وإذا قصر الرشاء[1] وصله بها، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها، وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال أن يذكر حقيقتها ما يرى من منافعها حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة، مثل: أن تشتعل شعبتاه بالليل كالشمع، وتصيران دلوًا عند الاستقاء، وتطول بطول البئر، وتحارب عنه إذا ظهر عدو، وينبع الماء بركزها، وينضب بنزعها، وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فركزها على أن ذلك آيات باهرة، ومعجزات قاهرة أحدثها الله تصديقًا له في دعواه، وليست من خواصها، فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلًا ومجملًا على معنى أنها من جنس العصي تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذي فهمه[2].

والثالث: قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٨].

أي: واذكر هذين النبيين الكريمين داود وسليمان مثنيًا مبجلًا إذ آتاهما الله العلم الواسع، والحكم بين العباد، فإذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفشت فيه غنم القوم الآخرين، أي: رعت ليلًا فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه، فقضى فيه داود عليه السلام، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظرًا إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرها، وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله، ترادا ورجع كل منهما بما له، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام[3].

وجاء ذكر نعجة ثلاث مرات، ونعاج مرة واحدة، وكلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾[ص: ٢٣-٢٤].

في الواقع تتلخص الحادثة: أن داوود

(١) الرشاء: الحبل.
انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١٢٧.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ٤٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٥٠.

كان ملكًا له سلطان، وله أتباع وخدم، وله مصالح مادية مع الناس، وهذا كله يوجد له أعداء، واتفق أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن ينالوا من نبي اللّه داوود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه للعبادة، وانتهزوا الفرصة، وتسوروا عليه المحراب، فلما دخلوا عليه ووجدوا عنده ما يمنعهم من ذلك، اختلقوا كذبًا وزورًا سببًا لدخولهم فقالوا: نحن خصمان بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق، ولا تجر، واهدنا إلى سواء السبيل، ويجوز أن يكونا متخاصمين حقيقة، ولما دخلوا على داوود بلا إذن، وتوجس منهم خيفة، وظن بهم الظنون، وهم بذلك أن يصيبهم بسوء كانت هذه الواقعة فتنة، وابتلاء لداود، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الانتقام، وتاب عما دار بخلده من ظن، وخر راكعًا، فتاب اللّه عليه وغفر له، وأما قصتهما كما أخبر فهي: إن هذا أخي في الدين، والصحبة له تسع وتسعون نعجة -هي الواحدة من الغنم أو بقر الوحش- ولي نعجة واحدة، فقال صاحب الغنم الكثيرة: أعطني نعجتك أكفلها لك، وأضمها لغنمي، وغلبه في المخاصمة، والمجادلة، فقال داوود متسرعًا قبل أن يسمع جواب الخصم الثاني: إنه ظلمك بضم نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيرًا من الشركاء ليبغي بعضهم على بعض حبًّا في الدنيا، وشحًّا في النفوس، وأما الذين آمنوا، وعملوا الصالحات فلا يبغى بعضهم على بعض، وقليل ما هم، وظن داود أنه فتن بهذه الحادثة فاستغفر ربه مما ألم به وتاب، وخر راكعًا وصلى للّه قائمًا وساجدًا وأناب، فغفر له ربه ذنبه، وإن لداوود عند ربه لقربى، ومنزلة كريمة، وحسن مآب، أليس وصف داوود بعد القصة بأن له زلفى، وحسن مآب يدل على أنه عبد صالح أواب يستحيل عليه الإلمام بمعصية تغضب اللّه، كما هو مقرر في عقيدة أهل السنة والجماعة أن الأنبياء معصومون من الخطأ[1].

وأما المعز فقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

والمتأمل في الأنعام التي سبق ذكرها من الإبل، والبقر، والغنم، والمعز يجد أن الله عزّ وجلّ خلقها لمنافع العباد، فسبحان الله الذي سخرها للإنسان، يأكل من لحومها، ويفترش من أوبارها، ويلبس من أصوافها، ويشرب من ألبانها، ومع أن هذه الأنعام نسلها قليل إلا أن الله سبحانه جعل فيها البركة، فهي مع قلتها، وكثرة من يأكلها من

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ٢٣/٥٢.

البشر، والسباع إلا أنها أكثر الحيوانات كثرة، ونماءً، ومنافع، وبركة، ويكون من أنواعها القطيع، وهذا مما يدل على قدرة الله تعالى.

ثانيًا: الحيوانات المركوبة:

إنّ من نعم الله على الإنسان تسخير الحيوانات، وذكرت منها في المطلب السابق الحيوانات المأكولة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وفي هذا المطلب سأعرض إلى الحيوانات المركوبة، وهي:

١. الخيل.

ورد ذكر لفظة (الخيل) في القرآن الكريم خمسة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

في هذه الآية أمر اللّه المؤمنين بالاستعداد للحرب التي لا بد منها لدفع العدوان، وحفظ الأنفس، والحق، والفضيلة، ويكون ذلك بأمرين:

الأول: إعداد المستطاع من القوة، ويختلف هذا باختلاف الزمان، والمكان، فالواجب على المسلمين في هذا العصر ربط الخيل، وصنع المعدات الحربية البرية والبحرية، ويجب عليهم تعلم الفنون، وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر، وغيرها.

والأمر الثاني: مرابطة الفرسان في ثغور البلاد وحدودها، إذ هي مداخل الأعداء، ومواضع مهاجمتهم للبلاد.

والحكمة في هذا أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو على غرّة، وقوام ذلك الفرسان لسرعة حركتهم، وقدرتهم على القتال، وإيصال الأخبار من الثغور إلى العواصم، وسائر الأرجاء، ومن أجل هذا عظم الشارع أمر الخيل، وأمر بإكرامها، ولا يزال للفرسان نصيب كبير في الحرب في هذا العصر الذي ارتقت فيه الفنون العسكرية في الدول الحربية[1].

الثاني: في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومعنى الخيل المسومة: فالخيل جمع لا واحد له من لفظه، كالقوم، والنساء والرهط، وسميت الأفراس خيلًا لخيلائها في مشيها، وسميت حركة الإنسان على سبيل الجولان اختيالًا، وسمي الخيال

(١) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ٢٤.

خيالًا، والتخيل تخيلًا، لجولان هذه القوة في استحضار تلك الصورة، واختلفوا في معنى: (المسوّمة) على ثلاثة أقوال، الأول: أنها الراعية، والقول الثاني: المسومة: المعلمة، والقول الثالث: وهو قول مجاهد وعكرمة: إنها الخيل المطهمة الحسان، قال القفال: المطهمة: المرأة الجميلة[1].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٨].

قال ابن كثر في تفسير هذه الآية: «هذا صنف آخر ممّا خلق تبارك وتعالى لعباده يمتنّ به عليهم، وهو، الخيل، والبغال، والحمير الّتي جعلها للرّكوب، والزّينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها»[2].

والمتأمل في الآية السابقة يجد أن سبحانه وتعالى ذكر الخيل قبل البغال والحمير؛ لأن المنافع فيها أكثر.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦].

وهذه الآية وردت فيما ردّه اللّه تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، وصيّره إليه من أموال يهود بني النضير، فهو للرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يحصل فيه قتال، ولا حرب، ولا تجشم مشقة، ولم يركبوا لتحصيله خيلًا، ولا إبلًا، وإنما كانت من المدينة على ميلين، وافتتحت ديارهم صلحًا، وأخذت أموالهم بعد جلائهم عنها، ولذا لم تقسم بين الغانمين، وإنما جعل اللّه أموال بني النضير لرسوله صلى الله عليه وسلم خاصة لهذا السبب، يصرفه على مصالحه كيف يشاء[3].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

قيل: إن معنى الخيل في هذه الآية ليس على الحقيقة، وإنما على سبيل المجاز، والمعنى: اسع سعيك، وابلغ جهدك.

وقيل: على الحقيقة، وأن له خيلًا ورجلًا من الجن، وقيل: المراد فرسان الناس، ورجالتهم المتصرفون في الباطل، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم[4].

٢. البغال.

وهي من الحيوانات المركوبة، وذكرت لفظة البغال مرة واحدة في القرآن الكريم في الآية السابقة من سورة النحل، وسبق الكلام

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٧/ ٢١٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٦٧١.
(٣) انظر التفسير المنير، الزحيلي، ٢٨/ ٨٠.
(٤) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي، ٢/ ٢٦٩.

عن تفسيرها.

٣. الحمير.

جاء ذكر لفظة الحمار في القرآن الكريم خمسة مواضع: ثلاثة منها بلفظ الجمع.

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٨].

والثاني: في قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[لقمان: ١٩].

والآية فيها دلالة على أن صوت الحمار من أبشع الأصوات، وأفظعها، فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته[(١)].

والثالث: في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾[المدثر: ٥٠].

وهذه الآية وصفت الكفار المعرضين بأنه كالحمر المستنفرة.

ووردت اثنان منها بلفظ المفرد.

الأول: في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[الجمعة: ٥].

في الآية السابقة جعل الله تعالى مثل علماء اليهود الذين لم يحملوا التوراة، ولم يقوموا بما حملوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأنهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم، فالحمار لا يستفيد من تلك الكتب التي فوق ظهره، وليس له حظ منها إلا حملها فقط[(٢)].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾[البقرة: ٢٥٩].

والمعنى: أن الله سبحانه أمر العزير أن ينظر إلى حماره كيف تفرقت عظامه، ونخرت، وكان له حمار قد ربطه، ويجوز أن يكون المعنى: أن ينظر إليه سالمًا في مكانه كما ربطته، وذلك من أعظم الآيات أن يعيشه مائة عام من غير علف، ولا ماء[(٣)].

٤. الفيل.

جاء ذكر الفيل في القرآن الكريم في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾[الفيل: ١].

قال ابن كثير في معنى هذه الآية: «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٩٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٤١.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٣٩٠.

وكانوا قومًا نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص، والتوطئة لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

ومما سبق يتبين أن الله سبحانه وتعالى ذلل الحيوانات المركوبة للإنسان لينتفع بها، يركب علها ويقوم على مصالحه، وهذه نعم من نعمه تستحق الشكر منه عز وجل.

ثالثًا: السباع:

كان الحديث في المطلب السابق عن الحيوانات المركوبة، وذكرت في القرآن الكريم بعض السباع من الحيوانات، وهي:

١. السبع.

وردت هذه اللفظة في موضع واحد من القرآن الكريم عند ذكر الحيوانات المحرم أكلها.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾[المائدة: ٣].

والسبع: اسم يقع على ما له ناب، ويعدو على الإنسان، والدواب، ويفترسها، مثل الأسد وما دونه[2].

وقيل: إن لفظة قسورة تعني الأسد[3] في قوله تعالى: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[المدثر: ٥١].

٢. الذئب.

ذكر الذئب في القرآن في قصة يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[يوسف: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[يوسف: ١٧].

والمعنى: أنه تعالى يقول مخبرًا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: إنه يشق عليّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع؛ وذلك لفرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة، والكمال في الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم أبوهم: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم، ورعيتكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه،

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٦٣٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٦.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٦/ ٢٣٠.

وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذًا لهالكون عاجزون[1].

وقالوا معتذرين عما زعموا: إنا ذهبنا نتسابق ونترامى بالنبال، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأمتعتنا، حارسًا لها، فأكله الذئب، وهذا الذي كان قد جزع منه أبوهم، وحذر عليه، ونحن نعلم أنك لا تصدقنا- والحالة هذه- لو كنا صادقين موثوقين عندك، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؟! وأنت معذور في هذا لغرابة ما وقع، وعجيب ما حدث[2].

٣. الكلب.

جاءت لفظة الكلب في القرآن الكريم في موضعين:

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٦].

قال الرازي رحمه الله: «واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم، والدين فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مشبهًا بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث»[3].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

جاء ذكر الكلب في هذه الآية مع عدة أصحاب الكهف، قال السعدي رحمه الله: «يخبر الله تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافًا صادرًا عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال: منهم من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم، ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم. وهذان القولان ذكر الله بعدهما أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانهما، ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا -والله أعلم- الصواب؛ لأن الله أبطل الأولين، ولم يبطله، فدل على صحته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية ولا دنيوية»[4].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٥٦١-٥٦٢.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ٢٢٢.
(٣) مفاتيح الغيب ١٥/ ٦٠.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٣٧.

وهذه السباع أعطاها الله سبحانه من القدرة على افتراس الفريسة وتتمكن من أكلها حتى تستطيع الاستمرار في الحياة، فسبحان الله ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠].

رابعًا: حيوانات أخرى:

وهناك حيوانات أخرى ورد ذكرها في القرآن الكريم، ومنها: الخنزير، والقردة.

ومن المواضع التي جاء ذكر الخنزير فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

والمعنى: أن الله سبحانه حرّم أكل الميتة، والانتفاع بها، وهي التي ماتت على غير ذكاة، وحرّم أيضًا الدم، ولحم الخنزير إنما خص لحمه مع أن سائر أجزائه أيضًا في حكمه؛ لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان، وسائر أجزائه بمنزلة التابع له[(١)].

ومن المواضع التي ذكرت فيها القردة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

والمعنى: أن اليهود تجاوزوا الحد، وصادوا السمك في يوم السبت مع أن ذلك محرم، فجعلهم الله تعالى كالقردة في الخسة والحقارة.

قال الزحيلي في تفسير الآية: «لقد علمتم شأن آبائكم الذين تجاوزوا الحد بصيد السمك يوم السبت، وكان محرمًا فيه لقصره على العبادة، فإن موسى عليه السّلام حظر عليهم العمل في هذا اليوم، وفرض عليهم فيه طاعة ربهم، وأباح لهم العمل في بقية أيام الأسبوع، وكان جزاؤهم أنهم أصبحوا في مرتبة الحيوان، يعيشون من دون عقل ووعي وتفكير، ويتخبطون في أهوائهم، كالقردة في نزواتها، والخنازير في شهواتها، يأتون المنكرات علانية، بعيدين عن الفضائل الإنسانية، حتى احتقرهم الناس، ولم يروهم أهلًا للمعاشرة والمعاملة، فمعنى صيرورتهم قردة خاسئين: تصييرهم مبعدين عن الخير أذلاء صاغرين»[(٢)].

وجاءت لفظة القردة مقترنة بالخنازير في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[المائدة: ٦٠].

فالقردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار مائدة عيسى عليه السلام[(٣)].

وخلاصة القول: إن الناظر في الحيوانات يجد أن منها ما يستخدم للزينة، ومنها ما

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٩١.

(٢) التفسير المنير، ١/ ١٨١.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٦٩٢.

يستخدم للثروة، ومنها للركوب ومنها للأكل، حتى إن منها السباع، وغير ذلك، وهذا يدل الإنسان على كمال قدرة الله تعالى.

الحيوانات المحرّم أكلها

لقد ورد في القرآن الكريم ذكر بعض الحيوانات المحرّمة، وفي هذا المبحث إن شاء الله تعالى سنتتبع الآيات التي ذكرت فيها، مع بيان حكمة تحريمها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٥- ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

الملاحظ أن الآيات السابقة ذكرت أنواعًا من الحيوانات المحرّم أكلها، وهي:

١. الميتة.

ويراد بها عرفًا ما مات حتف أنفه، ويراد بها في عرف الشرع: ما مات، ولم يذكه الإنسان لأجل أكله[١].

والحكمة في التحريم: احتباس الدم فيها، وتوقع التضرر بها، لفساد لحمها، وتلوثه بالأمراض غالبًا.

فهي محرمة لاستقذار الطباع السليمة لها ولما فيها من ضرر، وتكون سببًا في إزهاق الروح[٢].

٢. الدم.

والمراد به: الدم المسفوح ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾[الأنعام: ١٤٥].

أي: المائع الذي يسفح، ويراق من الحيوان، وإن جمد بعد ذلك، بخلاف المتجمد طبيعة كالطحال والكبد وما يتخلل اللحم عادة فإنه لا يسمى مسفوحًا[٣].

وحكمة تحريم الدم؛ لأنه ضارّ، وتأباه النفوس الطيبة، فهو حرام لقذارته وضرره[٤].

والدم كثير الضرر؛ لأنه عسر الهضم جدّ العسر، ويحمل كثيرًا من الموادّ العفنة التي تنحلّ من الجسم، وهي فضلات لفظتها الطبيعة كما تلفظ البراز ونحوه، واستعاضت عنها بموادّ جديدة من الدم، وقد يكون فيه جراثيم بعض الأمراض المعدية، وهي تكون فيه أكثر مما تكون في اللحم، ومن أجل هذا اتفق الأطباء على وجوب غلي اللبن قبل شربه، لقتل ما عسى أن يكون قد علق به من جراثيم الأمراض المعدية[٥].

٣. الخنزير.

وهو حيوان قذر لا يأكل غالبًا إلا من القاذورات والنجاسات[٦]، وأكل لحمه حرام.

وحكمة التحريم: لأنه ضارّ، ولأن النفوس الطيبة تأباه؛ ولأن فيه ضررًا لحملة جراثيم شديدة الفتك؛ ولأن فيه كثيرًا من الطباع الخبيثة، وولوع بالنواحي الجنسية، ولا يغار على أنثاه، وكسول بطبعه، والمتغذي يتأثر بتلك الطبائع، وتنتقل إليه بيوض الدودة الوحيدة الحلزونية التي قد تكون في خلايا عضلات جسمه، ولو تربى

(١) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٤٧.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٧٨.
(٣) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٤٧.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٧٩.
(٥) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٤٧، ٤٨.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٧٩.

في أنظف الحظائر[1].

٤. ما أهلّ لغير اللّه به.

قال المراغي: «والمراد به: ما ذبح على ذكر غير اللّه تعالى من المخلوقات التي يعظمها الناس تعظيمًا دينيًّا، ويتقربون إليها بالذبائح، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون أصواتهم بقولهم: باسم اللات، أو باسم العزّى، ويدخل في ذلك ما ذكر عند ذبحه اسم نبي أو وليّ، كما يفعل بعض أهل الكتاب، وجهلة المسلمين الذين اتبعوا من قبلهم، وساروا على نهجهم باعًا فباعًا وذراعًا فذراعًا»[2].

وحكمة التحريم: حرّم الشرع أكل ما ذبح على ذكر غير اللّه تعالى؛ لمساسه بالعقيدة، وتعظيم غير اللّه، ومشاركة المشركين، والكفار في عبادة غير اللّه، والتقرب لآلهتهم بالذبائح[3].

٥. المنخنقة.

وهي التي تختنق، إما في وثاقها، وإما بإدخال رأسها في الموضع الذي لا تقدر على التخلص منه، فتختنق حتى تموت[4].

والحكمة من تحريمها: لأنها نوع من أنواع الميتة، وحكمها حكم الميتة، وضررها ضرر الميتة؛ لأنها لا تذبح، والتذكية الشرعية شرط لحلّ المذبوح[5].

٦. الموقوذة.

وهي التي ضربت إلى أن ماتت، يقال: وقذها، وأوقذها: إذا ضربها إلى أن ماتت، ويدخل في الموقوذة ما رمي بالبندق فمات[6].

وحكمة التحريم: لأنها ماتت بلا ذكاة شرعية، وكانوا يأكلونها في الجاهلية، والوقذ يحرم في الإسلام؛ لأنه تعذيب للحيوان شديد، وليست معه ذكاة، ومن هنا حرمت[7]؛ لأن حكمها حكم الميتة.

٧. المتردّية.

هي ما سقطت من مكان عال كجبال، أو هوت في بئر بسبب ذلك هي كالميتة[8]، ويدخل فيه ما إذا أصابه سهم، وهو في الجبل فسقط على الأرض فإنه يحرم أكله؛ لأنه لا يعلم أنه مات بالتردي، أو بالسهم[9].

والحكمة من تحريمها: لأنها من الميتة، وماتت، وما سال منها الدم[10]، ولا يحل أكلها بدون تذكية؛ ولأن الإنسان لم يكن له

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) تفسير المراغي، ٦/ ٤٨.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٤٣٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٤٠٨.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٤٣٠.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٥.
(٧) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٤٩.
(٨) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ٦/ ٢٧.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٥.
(١٠) انظر: المصدر السابق.

عمل في إماتتها، ولا قصد به إلى أكلها[١].

٨. النطيحة.

وهي التي تنطحها بهيمة أخرى فتموت من النّطاح من غير أن يكون للإنسان عمل في أماتتها[٢].

وسبب تحريمها: أنها من الميتة، وموتها بدون تذكية.

٩. ما أكل السبع.

السبع: اسم يقع على ما له ناب، ويعدو على الإنسان، والدواب، ويفترسها مثل: الأسد وما دونه[٣]، ويدخل في ذلك الذئب، والنمر، والفهد[٤]، والكلب.

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن كل ذي مخلب من الطير[٥].

وأكل السباع من الفريسة ليس بشرط للتحريم، إذ يكفي فرسه إياه وقتله في تحريمه[٦].

الحكمة من تحريم السباع: كان العرب في الجاهلية يأكلون بعض فرائس السباع، ولكنه مما تأنفه أكثر الطباع، وأكثر الناس يعدّ أكله ذلة ومهانة، وإن كانوا لا يخشون منه ضررًا[٧].

قال المراغي رحمه الله: «ولا يحرم عليكم ما ذكيتموه بفعلكم مما يقبل التذكية، ويكفي في صحة إدراك ذكاة ما ذكر أن يكون فيه رمق من الحياة بأن يطرف بعينه، أو يضرب بذنبه»[٨].

١٠. ما ذبح على النصب.

وهى حجارة كانت حول الكعبة عددها ثلاثمائة وستون حجرًا[٩]، وفيها وجهان: أحدهما: وما ذبح على اعتقاد تعظيم النصب، والثاني: وما ذبح للنصب[١٠].

والحكمة من التحريم: كان أهل الجاهلية يذبحون عليها، ويعدون ذلك قربة، ومن هذا يعلم أن ما ذبح على النصب هو من جنس ما أهلّ به لغير اللّه من حيث إنه يذبح بقصد العبادة لغير اللّه تعالى، وخص بالذكر لإزالة وهم من يتوهم أنه قد يحل لقصد تعظيم البيت الحرام إذا لم يذكر اسم غير اللّه عليه، وهو من خرافات الجاهلية التي جاء الإسلام بمحوها[١١].

(١) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٥٠.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٦.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ٢٧.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأطعمة، باب النهي عن أكل السباع، رقم ٣٨٠٥.
(٦) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٥٠.
(٧) انظر: المصدر السابق.
(٨) انظر: المصدر السابق.
(٩) انظر: المصدر السابق.
(١٠) النصب: هي الأوثان.
انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٧.
(١١) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ٥٠-٥١.

١١. القرد والكلب والفيل.

قال القرطبي في تفسيره: «قال أبو عمر يعني: ابن عبد البر: أجمع المسلمون على أنه لا يجوز أكل القرد لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكله، ولا يجوز بيعه لأنه لا منفعة فيه...، وقال: والكلب والفيل، وذو الناب كله عندي مثل القرد»[١].

ويضاف إلى هذه المحرمات ما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكل لحوم البغال، ولحوم الحمير الإنسية، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، فعن جابر رضي الله عنه. قال: (حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم -يعني يوم خيبر- الحمر، ولحوم البغال، وكل ذي ناب من السباع، وذي مخلب من الطير)[٢].

قال القرطبي رحمه الله: «وقد قيل: إن الحمار لا يؤكل؛ لأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوّط؛ فسمي رجسًا، قال محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل لوط إلا الخنزير والحمار»[٣].

وأما بالنسبة للحمر الأهلية، ولحوم الخيل فقد روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل)[٤].

قال الصنعاني: «قالت الشافعية: ويحرم ما ندب قتله كحية، وعقرب، وغراب أبقع، وحدأة وفأرة، وكل سبع ضار، واستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم: (خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والغراب الأبقع والفارة والكلب العقور والحديا)[٥].

وقالوا: ولأن هذه مستخبثات شرعًا وطبعًا، وفي دلالة الأمر بقتلها على تحريم أكلها نظر»[٦].

ومن الحيوانات ما ليس له دم أصلًا: كالجراد، والذباب، والنمل، والنحل، والدود، والخنفساء، والصرصار، والعقرب، وذوات السموم، ونحوها، لا يحل أكلها إلا الجراد خاصة؛ لأنها من الخبائث غير المستطابة، لاستبعاد الطباع السليمة إياها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٩١.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصيد، باب ما جاء في كراهية كل ذي ناب وكل ذي مخلب، رقم ١٤٧٨.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٧٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، باب في أكل لحوم الخيل، ٣/ ١٥٤١، رقم ١٩٤١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتل في الحرم، ٤/ ١٢٩، رقم ٣٣١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، رقم ١١٩٨.
(٦) سبل السلام ٤/ ١٠٢.

واشترط المالكية تذكية الجراد، أما الجراد الميت فهو حرام عندهم[1].

وخلاصة القول: إن الله تعالى خلق الحيوانات، وبيّن للإنسان الحلال منها والحرام، ويجب على العبد امتثال أمر ربه عز وجل في تحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرّم الله، ولا يفعل فعلة المشركين الذين ابتدعوا تحريم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام بآرائهم الفاسدة، وتحريم الحيوانات ورد في كتاب الله تعالى، وفي السنة المطهرة.

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: ١٤٥].

يتبين من الآية السابقة أن الله سبحانه أمر اللّه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر المشركين أنه لا يجد فيما أوحاه اللّه إليه محرّمًا، وإنّما حرّم أربعة أشياء هي: الميتة، والدّم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهلّ لغير اللّه به، وغير ذلك من المحرمات التي ورد ذكرها في الكتاب والسنة لما فيها من الضّرر المادي؛ لأن لحومها خبيثة، أو المعنوي الذي يمسّ العقيدة، وعبادة اللّه.

ويجوز للمسلم عند الضرورة أن يأكل الميتة إذا غلب على ظنه الهلاك، جاء ذلك في مواضع عدة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: ١٤٥].

قال الزحيلي: «أي: فمن دعته الضرورة، وألجأته، واحتاج من غير بغي، ولا عدوان إلى تناول شيء من هذه المحرّمات، لمجاعة غلب على ظنه الهلاك فيها، غير باغ على مضطر آخر، بأن ينفرد بتناوله، فيهلك الآخر، ولا عاد أي متجاوز ما يسد الرمق، والجوع، أي: قدر الضرورة، مما يدل على تحريم الشبع، وهو مذهب الأكثرين، فإن اللّه غفور ستار لذنبه أو هفوته، لا يؤاخذه على ذلك، رحيم به أن يعاقبه على مثل ذلك. وفي هذا تيسير، وتوسعة على هذه الأمة التي يريد اللّه بها اليسر، ولا يريد بها العسر»[2].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٨١.

(٢) المصدر السابق ١٤/ ٢٥٦.

الحيوان في المثل القرآني

إنّ من حكمة الله تعالى، ورحمته، وفضله أن أورد الأمثال في القرآن الكريم؛ وذلك لتقريب البعيد، وتوضيح المجمل، وفيها: إقناع الناس، وتحذيرهم، وتخويفهم.

قال ابن القيم رحمه الله: «ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منها أمور: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر»[1].

والله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال بما يريد حتى إنه ضرب المثل بالبعوضة، وهي من أصغر الحيوانات، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا جواب اعتراض اعترض به الكفار على القرآن: وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب، والعنكبوت، ونحوها من الحيوانات الخسيسة، فلو كان ما جاء به محمد كلام الله لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة، فأجابهم الله تعالى بأن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه، وإبطال الباطل وإدحاضه كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض فكأن معترضًا اعترض على هذا الجواب، أو طلب حكمة ذلك، فأخبر تعالى عما له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء، وهداية من شاء، ثم كأن سائلًا سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك فأخبر تعالى عن حكمته، وعدله، وأنه إنما يضل به الفاسقين»[2].

قال الزحيلي في معنى الآية السابقة: «إن اللّه سبحانه وتعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، ونحوها بما هو دونها، أو أكبر منها، ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها، فلا غرابة ولا حرج ولا عيب في الإتيان بالأمثال والأشباه سواء أكانت صغيرة أم كبيرة؛ لأن العظمة فيها جميعها شيء واحد، وهو الخلق والإبداع؛ ولأن

(١) بدائع الفوائد، ٢/ ٣٠١.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٤٣٧.

المثل جعل لكشف المعنى وتوضيحه بما هو معروف مشاهد، وما الأمثال إلا إبراز للمعاني المقصودة في قالب الأشياء المحسوسة لتأنس بها النفوس، وتنكشف أمامها الغوامض، وتزول الأوهام عن معارضة العقل، والله الحكيم يفعل ما يحقق المصلحة بضرب المثل في العظائم، والمحقرات حسب الأحوال، والمناسبات، فإن كان الأمر عظيمًا كالحق، والإسلام ضرب مثله بالنور، والضياء، وإن كان الأمر مهينًا حقيرًا كالأصنام ضرب مثله في عدم النفع، وانعدام الفائدة بما يشبهه من الذباب، والبعوض، والعنكبوت»[1].

فأما المؤمنون الذين يصدقون بأن الله خالق كل شيء، يقولون: إن كلام الله حق، ولا يقول غير الحق، وإنه سبحانه ضرب المثل لمصلحة وحكمة، وأما الكافرون الذين يستهزئون بالأمثال فيقولون متعجبين: ماذا أراد الله بمثل هذه الأشياء الحقيرة؟ فهم في حيرة من أمرهم، وخسران مبين في نهايتهم، ولو آمنوا لعرفوا الحق ووجه الحكمة في ذلك.

قال تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١][2].

ومما سبق يتضح أن الحيوانات ذكرت في المثل القرآني، وسأذكر إضافة للمثل الذي سبق ذكره في هذا المبحث مثلين آخرين على سبيل المثال لا الحصر:

المثل الأول: في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى قال للرسول صلى الله عليه وسلم: اقرأ على اليهود خبر الذي علمناه آياتنا، ولكنه لم يعمل بها، وتركها وراءه، وتجرد منها إلى الأبد، فلحقه الشيطان، وأدركه، وصار قرينًا له، وتمكن من الوسوسة له، فأصغى إليه، فصار من الظالمين الكافرين، لميله إلى الدنيا، واتباع الهوى والشيطان[3].

قال ابن القيم: «شبه سبحانه من آتاه كتابه، وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق

(١) التفسير المنير، ١/ ١١٠-١١١.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ١١١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ٩/ ١٦٣.

بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا وأخبثها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم، ويتروح حرصًا وشرهًا، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت له بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا، والجيف المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والقذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا يتناول معه منه شيء إلا هر عليه وقهره لحرصه وبخله وشره، ومن عجيب أمره، وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة، وثياب دنية، وحال زرية نبحه، وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته.

وإذا رأى ذا هيئة حسنة، وثياب جميلة، ورئاسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه، وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في لهثه سر بديع، وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال ازعاجه، وتركه.

واللهف، واللهث شقيقان، وأخوان في اللفظ والمعنى»[1].

وقال ابن القيم أيضًا: «قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده ينقطع، ومراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث، وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عليها، وهذا يلهث من قلة صبره على الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان صبر عن الجوع، وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا يلهث قائمًا، وقاعدًا، وماشيًا، وواقفًا ذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه شدة حرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث، فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

قال مجاهد: وذلك مثال الذي أوتى الكتاب ولم يعمل به، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن تحمل عليه الكلمة لم يحملها وإن تركته لم يهتد إلى الخير»[2].

(١) الأمثال في القرآن الكريم، ص٢١٥-٢١٦.
(٢) المصدر السابق، ص٢١٦- ٢١٧.

قال البغوي رحمه الله: «وهذا الكافر إن زجرته لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، فالحالتان عنده سواء، كحالتي الكلب: إن طرد كان لاهثًا، وإن ترك وربض كان لاهثًا. قال القتيبي: كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء، أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال، وفي حال الراحة، وفي حال العطش، فضربه الله تعالى مثلًا لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث»[1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

وهذا المثل عام في جميع من يكذب بآيات الله، قال تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٧].

وينطبق هذا على كفار مكة حيث إنهم كانوا يتمنون هاديًا يهديهم، ويدعوهم إلى عبادة الله، فلما جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يشكّون في صدقه كذّبوه، فلم يهتدوا سواء دعاهم، أو تركهم.

قال الزحيلي: «ذلك المثل الغريب هو مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله، واستكبروا عنها، ولم تنفعهم الموعظة، وهم اليهود بعد ما قرأوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، وبشروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستنصرون، أو يستفتحون به، وجاء القرآن المعجز كاشفًا هذه الحقيقة التي أنكرها اليهود بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم»[2].

إن الذي يركن إلى الدنيا، ويميل إليها، ويرغب فيها، ويهتم بلذاتها، ويتبع هواه، ولم يجعل همّه الآخرة، ولم يهتد بآيات الله، ولم يشكر نعمة الله عليه باستعمالها في مرضاته يكون مثل الكلب، ويتصف بصفاته، وهي: الذلة، والحقارة، والدناءة، والخسة، وإن من أذل، وأخس أحوال الكلب دوام اللهث سواء طرد أو لم يطرد.

وهذا حال من تجرد من معرفة الله تعالى، حيث إن الله سبحانه وتعالى شبهه بأقبح صفة من صفات الكلب.

إنه مثل عجيب، وغريب، فيه العبرة، والموعظة لمن سمع، وتدبر، وفهم، وعقل، وفكّر، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

المثل الثاني: في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٧٣، ١٧٤.

(٢) التفسير المنير، ٩/ ١٦٣.

[الجمعة: ٥].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أعطوا التوراة، وحملوها للعمل بها، فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملًا حسيًّا، ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظًا، ولم يفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه، وحرفوه، وبدلوه، فهم أسوأ حالًا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]»[(١)].

وقال السعدي رحمه الله: «ذكر الله تعالى أن الذين حملهم التوراة من اليهود وكذا النصارى، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بما فيها، وأنهم لم يحملوها، ولم يقوموا بما حمّلوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران، وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم»[(٢)].

وهذا دليل على أن اليهود والنصارى فقدوا الإدراك الصحيح، والوعي السليم، وعطلوا طاقات الحواس، والمواهب الإلهية التي لو فكروا بموجبها لآمنوا بدعوة الأنبياء، وخاصة النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، وانقادوا إلى رسالة الحق والتوحيد، ولكنهم لم يستفيدوا من ذلك بشيء فكانوا مثل الحمير كما وصفهم الله عز وجل، وهذا عام في كل من حمل كتابًا من الكتب السماوية، ولم يعمل به، وحتى الذي تعلم القرآن، ولم يعمل به فهو كذلك.

قال ابن القيم رحمه الله: «فقاس من حمّله سبحانه كتابه ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره،

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٤١٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٠١.

فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته»[1].

يتضح من الأمثال السابقة أن الله سبحانه ذكر فيها بعض الحيوانات وإن كانت خسيسة وحقيرة، فإنه عز وجل هو الذي خلقها، ويضرب المثل بها وبغيرها؛ لأنه أعلم بها، وأن الكفار لم يستطيعوا خلق بعوضة ولا أصغر منها، فكيف يعترضون على الله تعالى في ضرب الأمثال بها؟

لمسات إعجازية في خلق الحيوانات

إنّ الناظر، والمتفكر في خلق السموات، والأرض يجد حوله مخلوقات عظيمة من الحيوانات، تدب على وجه الأرض، أو تسبح في قعر البحر، أو تحلق في جو السماء، وأن هذه الحيوانات أمم، وأشكال، وأجناس، وخلق منها الذكر والأنثى.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

والمتأمل في الحيوانات يجد أنها موجودة، وأعدادها كثيرة لا يحصيها إلا الذي خلقها سبحانه، والله تعالى رازقها، ويعلم مستقرها،ومستودعها.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وتنتشر هذه الدواب في ملكه سبحانه وتعالى، وتسير بأمره، وتأكل، وتشرب من نعمه التي لا تحصى، وتسبح بحمده، وتطيعه، وتعبده حتى تستوفي رزقها، وتستكمل آجالها، والله جعل الإعجاز في خلقها، وتصرفاتها، وطريقة حياتها، ونموها، وتكاثرها، وأعدادها التي تحفظ وجودها بحيث إنه لا تطغى على الأجناس الأخرى، فسبحان الخلاق العليم الذي

(١) إعلام الموقعين، ١/ ١٣٤.

يمسك بزمامها، ويزيد وينقص فيها بقدرته وحكمته، ويعطي كل منها من القوى، والخصائص، والوظائف ما يحفظ التوازن بينها.

والكلام عن الإعجاز في خلق الحيوانات طويل، وسأكتفي بذكر ثلاث آيات إضافة لما سبق:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[النور: ٤٥].

قال السعدي رحمه الله: «ينبه الله سبحانه عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض، من ماء، أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء: ٣٠].

فالحيوانات التي تتوالد مادتها ماء النطفة، حين يلقح الذكر الأنثى، والحيوانات التي تتولد من الأرض لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء يتولد من غير ماء أبدًا، فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة»[1].

والملاحظ أن الحيوانات مادتها واحدة، ولكن كل مخلوق يختلف عن غيره من وجوه كثيرة، فاختلافها مع أن الأصل واحد يدل على مشيئة الله وقدرته، وهذا من مظاهر الإعجاز؛ لأن الناظر إليها يجد أن منها من يمشي على بطنه كالحية، والثعبان، ونحو ذلك، ومنها من يمشي على رجلين كالآدميين، وكثير من الطيور، ومنها من يمشي على أربع كبهيمة الأنعام، ونحوها.

والله سبحانه وتعالى جعل لكل حيوان من الخصائص التي يختلف بها عن غيره، وهدى كل مخلوق لما خلق له، وأعطاه القدرة على ذلك، فمن الحيوانات يعيش في البحر، ومنها يعيش في البر، ومنها يمشي على الأرض، ومنها يطير في الهواء، فسبحان الله الخالق ﴿ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٧٩.

الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئًا مما عليهم من طيب، ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك، وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، والغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإجابة الدعوات، فأعطوها صورًا، وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الآلهة الحق، وأذلها، وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك، وتعاونوا عليه»[1].

وقال ابن القيم أيضًا: «وأدل من ذلك على عجزهم، وانتفاء إلاهيتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئًا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك، ولم يقدروا عليه، ثم سوى بين العابد، والمعبود في الضعف، والعجز، بقوله: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب: العابد، والمطلوب: المعبود فهو عاجز متعلق بعاجز، وقيل: هو تسوية بين السالب، والمسلوب، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز، وعلى هذا فقيل: الطالب، الإله الباطل، والمطلوب الذباب يطلب منه ما استلبه منه، وقيل: الطالب: الذباب، والمطلوب: الإله، فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع فضعف العابد والمعبود والمستلب والمستلب، فمن جعل هذا إلهًا مع القوي العزيز فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه»[2].

ولو تأملنا في الآية الكريمة نجد أن القرآن الكريم استخدم تعبير: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾، وفي ذلك لمسة معجزة؛ لأن الذباب يختلس ما يأخذه من أشربة، وأطعمة من الناس اختلاسًا، وينتزعها منهم انتزاعًا على القهر لعجزهم عن مقاومته في أغلب الأحوال[3].

وهذا يدل على استمرار القرآن الكريم في تحديه للإنس، وأنهم عاجزون عن

(١) إعلام الموقعين، ١/ ١٤٦-١٤٧.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٤٧.

(٣) انظر: الحيوان في القرآن الكريم، زغلول النجار، ص١٥٦.

خلق الذباب، وليس ذلك فحسب، بل إنهم عاجزون عن استنفاذ ما يسلبه الذباب منهم من طعام، أو شراب، أو غير ذلك، وهذه لمسة إعجازية جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

فالذباب عندما يحط على شيء، فإن كان سائلًا سلب قطرة منه، وأوصلها فورًا إلى جهازه الهضمي فيمتصها، ويحولها إلى جهازه الدوري، ومنه إلى مختلف خلاياه، وإن كانت مادة صلبة صب عليها من لعابه ومن المواد الهاضمة فيفككها، ويذيبها فورًا، فتصل مهضومة إلى جهازه الهضمي، ومنه إلى جهازه الدوري، ثم إلى جميع خلايا الجسم، وعليه فلا سبيل أبدًا إلى استرجاع شيء من ذلك[1].

وهناك لمسة إعجازية أخرى في قوله تعالى: ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ لأنه من الثابت أن البشرية كلها عاجزة عن خلق خلية واحدة على الرغم من وجود التقدم العلمي، والتقني المذهل، وغير المسبوق في تاريخ البشرية كلها، ولكنها ضعيفة، وعاجزة عن خلق ذبابة واحدة، وليس ذلك فحسب، بل إنها عاجزة عن استرجاع شيء مما يسلبه الذباب.

وهذ كله يدل على كمال قدرة الله عز وجل في الخلق، فكيف يليق بالمشركين والكافرين عبادة غيره؟ فإذا كان البشر عاجزين وإن كانوا مجتمعين عن استرجاع ما يسلبه الذباب، فعجزهم عن خلق الذباب من باب أولى، وكيف لو طلب منهم أن يخلقوا ما هو أكبر من هذه الحشرة؟ وعليهم أن يستخدموا عقولهم، ويعبدوا الله وحده.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «إن سنة البلغاء جرت بوجوب التماثل بين المثل، وما مثّل له، فالعظيم يمثّل له بالعظيم، والحقير يمثل له بالحقير، ألا ترى إلى الإنجيل، وقد مثّل غلّ الصدر بالنّخالة، ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير.

وجاء في عباراتهم: (أجمع من ذرة، وأجرأ من الذباب، وأضعف من بعوضة)، وما الأمثال إلا إبراز للمعاني المقصودة في قالب الأشياء المحسوسة لتأنس بها النفس، وتستنزل الوهم عن معارضة العقل، والحكيم علام الغيوب يعلم حكمة هذا، فلا يترك ضرب المثل بالبعوضة، وما دونها حين تدعو المصلحة إلى ذلك، والناس إزاء هذا فريقان: مؤمنون يقولون: إن اللّه خالق الأشياء حقيرها وعظيمها، فالكل لديه

(١) انظر: المصدر السابق، ص١٦١.

سواء، وكافرون يستهزئون بالأمثال احتقارًا لها، فحقت عليهم كلمة ربهم فأصبحوا من الخاسرين»[1].

قال صاحب كتاب القرآن وإعجازه العلمي: «مثل هؤلاء الذين اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها، ويعتمدون عليها، ويرجون نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتًا واهنًا من نسجها لا يغنى عنها في حر، ولا قر، ولا مطر، ولا أذى»[2].

ولفظة (العنكبوت) اسم للواحدة المؤنثة المفردة، والجمع (العناكب)، وهذا من الإعجاز حيث إن ذلك يشير إلى الحياة الفردية لهذه الدويبة فيما عدا لحظات التزاوج، وأوقات فقس البيض، وأما تسمية (النحل)، و(النمل) جاء بالجمع ليدل على الحياة الجماعية لتلك الحشرات[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لمسة إعجازية أخرى، فبيت العنكبوت من الناحية المادية أضعف البيوت على الإطلاق؛ لأنه يتكون من خيوط حريرية دقيقة جدًّا، تتشابك مع بعضها تاركة مسافات كبيرة بينها في أغلب الأحيان؛ ولذلك فإنها لا تقي الحر، ولا البرد، ولا تقي من المطر، ولا من الرياح العاصفة، ولا تدفع عنها أخطار المهاجمين، على الرغم من الإعجاز في بنائها.

وبينت الآية أيضًا أن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية أوهن بيت على الإطلاق؛ لأنه بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت؛ لأن الأنثى في بعض أنواع العنكبوت تقتل ذكرها، وتفترسه بمجرد عملية الإخصاب؛ لأنها أكبر حجمًا، وأكثر شراسة منه، وفي بعض الحالات تقوم بأكل صغارها دون أدنى رحمة، وفي بعض أنواع العنكبوت تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها الذي تحتضنه في كيس من الحرير عادة[4].

وقد لاحظ العلماء عند دراسة حياة العناكب أن بيت العنكبوت له شكل هندسي خاص دقيق الصنع، ومقام في مكان مختار له في الزوايا، أو بين غصون الاشجار، وأن كل خيط من خيوط البيت مكون من أربعة خيوط دقيقة، ويخرج كل خيط من الخيوط الأربعة من قناة خاصة في جسم العنكبوت، ولا يقتصر بيت العنكبوت على أنه مأوى يسكن فيه، بل إنه مصيدة تقع في بعض حبائلها اللزجة الحشرات الطائرة مثل الذباب، وغيره لتكون فريسة يتغذى

(١) تفسير المراغي، ١/ ٧١.
(٢) كتاب القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم، ١/ ١٥٧.
(٣) انظر: الحيوان في القرآن الكريم، زغلول النجار، ص١٤٠.
(٤) انظر: المصدر السابق ص١٤٢- ١٤٣.

عليها، فسبحان الله الذى خلق كل شيء، وقدر كيانه تقديرًا، وألهمه حياته تنظيمًا، وتدبيرًا[1].

ولا يحيط بما في العنكبوت، وعالم الحيوانات، والمخلوقات كلها من أسرار إلا الله عز وجل الذي لم يخلقها عبثًا، بل له حكمة بالغة في المشاهد منها، وغير المشاهد، والنافع منها، والضار، فسبحان الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

والملاحظ أن الإعجاز في هذه الحيوانات الصغيرة والحقيرة مذهل وعجيب، فكيف لو كان الكلام عن الإعجاز في الحيوانات الكبيرة، والمتأمل في مخلوقات الله تعالى يجد أن في كل مخلوق له آيات تدل على أنه الواحد.

موضوعات ذات صلة:

الإنسان، الحشرات، الخلق، الطير، النبات

(١) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم، ١/ ١٥٧- ١٥٨.

الخبيث

عناصر الموضوع

مفهوم الخبيث	٢٧٤
الخبيث في الاستعمال القرآني	٢٧٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٧٦
الموصوف بالخبث في القرآن	٢٧٨
بين الطيب والخبيث	٢٨٨
الاغترار بكثرة الخبيث	٢٩٥
تحريم الخبائث	٢٩٨
التناسب بين الخبيثين	٣٠٢
الخبيث في المثل القرآني	٣٠٥
مصير الخبيث وأهله	٣٠٨

مفهوم الخبيث

أولًا: المعنى اللغوي:

خبث الشيء خباثة وخبثًا فهو خبيث، وهم خبثاء وخباث، والخبيث: نعت كل شيء فاسد، وخبيث الطعم، وخبيث اللون وبه خبث، وخباثة وأخبث فهو مخبث إذا صار ذا خبث وشر.

والخبيث: ضد الطيب من الرزق والولد والناس، وقد خبث الشيء خباثة، وخبث الرجل خبثًا، فهو خبيث، وأخبثه غيره، أي: علّمه الخبث وأفسده، وأخبث أي: اتخذ أصحابًا خبثاء، فهو خبيث مخبث ومخبثان، والكفر مخبثة لنفس المنعم، والأخبثان البول والغائط، وشيء خبيث، أي: نجس، والمخبث: الذي يعلم الناس الخبث، ويطلق الخبيث على الحرام كالزنا، وعلى الرديء المستكره طعمه أو ريحه كالثوم والبصل، وعلى الحرام وعلى الكافر، ومنه الخبائث، وهي التي كانت العرب تستخبثها مثل: الحية والعقرب[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الخبيث: هو ما يكره بسبب رداءته وخسته سواء أكان محسوسًا أم معقولًا، وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والتفكير، والكذب في المقال، والقبح في الأفعال والتصرفات[(٢)].

العلاقة بين المعنى اللغوي والمعني الاصطلاحي:

من خلال التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي للفظ (الخبيث) يتضح لنا بجلاء العلاقة الوثيقة بين المعنيين، حيث إن الخبيث اصطلاحًا تعني المكروه لرداءته وفساده، والخبيث لغة تعني الفاسد والرديء والمحرم والمكروه.

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٢٤٨، تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ١٤٦، الصحاح، الجوهري ١/ ٢٨١، مجمل اللغة، ابن فارس ٣١٠، أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ١٥٢.

الخبيث في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خبث) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(١٦) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨]
الصفة المشبهة	١٣	﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧]
الجمع	٢	﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]

وجاء الخبيث في الاستعمال القرآني بمعنى: ما يكره رداءة وخساسة، محسوسًا كان أو معقولًا، وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبيح في الفعال[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٠٧-٢٠٨.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٧٠-٢٧١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٢٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الرديء:

الرديء لغة:

الرديء: الدون من الأشياء، والخابث: الرديء من كل شيء، والرديء الفاسد والمنكر والمكروه والوضيع الخسيس، والجمع أردئاء [(١)].

الرديء اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للرديء عن معناه اللغوي.

الصلة بين الرديء والخبيث:

الرديء والخبيث من المترادفات في المعنى، فالرديء هو الخبيث والفاسد.

١ الطيب:

الطيب لغة:

الطيب: الأفضل من كل شيء، والطيب: كل ما تستلذه الحواس أو النفس والطيب الحلال، وكل ما خلا من الأذى والخبث، وهو ضد الخبيث[(٢)].

الطيب اصطلاحًا:

الطيب: لفظ ويراد منه ثلاثة معان: الطاهر، والحلال، والمستلذ. [(٣)].

الصلة بين الخبيث والطيب:

الطيب والخبيث ضدان؛ فالطيب طاهر حلال، والخبيث نجس حرام.

١ الفاسد:

الفاسد لغة:

فسد يفسد فسادًا وفسودًا، نقيض صلح، فهو فاسد [(٤)].

---

(١) انظر: المخصص، ابن سيده ٤/ ٤٥، مختار الصحاح، الرازي، ص١٢١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٣٣٧.

(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢٩، تاج العروس، الزبيدي٣/ ٢٨٤، معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي، ص ٢٩٤، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ص٢٣٦.

(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص٥٨٦.

(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥٠٣.

الفاسد اصطلاحًا :

«هو خلاف الصحيح، وهو مالا يترتب أثره عليه»[1].

الصلة بين الفاسد والخبيث:

الخبيث أعم، فكل خبيث فاسد، وليس كل فاسد خبيث.

١ النجس:

النجس لغة:

النجس: الشيء القذر حتى من الناس، وكل شيء قذرته فهو نجس[2] .

النجس اصطلاحًا:

قال المتولي: «النجاسة في اصطلاح الفقهاء: كل عين حرم تناولها على الإطلاق، مع إمكان التناول لا لحرمتها»[3].

الصلة بين الخبيث والنجس:

الخبيث والنجس من المترادفات أيضًا.

١ الحرام:

الحرام لغةً:

الحرام من حرم، فالحاء والراء والميم أصل واحد، وجمع الحرام حرم، والحرام ضد الحلال، والحرام هو المنع والتشديد[4].

الحرام اصطلاحًا:

هو ما طلب الشارع من المكلف تركه على وجه الإلزام، بحيث يعاقب فاعله ويثاب تاركه[5].

الصلة بين الحرام والخبيث:

إن بين الخبيث والحرام علاقة وثيقة حيث إن الخبيث محرم لخبثه وفساده، فكل خبيث محرم.

---

(١) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ص ٢٨٥.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٦/ ٥٥.
(٣) المنثور في القواعد الفقهية، الزركشي ٣/ ٢٤٨.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥.
(٥) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، ص١١٣.

الموصوف بالخبث في القرآن

إنّ الله عز وجل خلق الطيب والخبيث وأمرنا بالطيب ونهانا عن كل خبيث؛ لأن من خلقنا أدرى بنا من أنفسنا، والخبث يكون في الأموال فهناك الحرام والحلال، وهناك الخبيث من الأعمال، والخبيث من الناس الذين يصدون عن الله بكل السبل، وهناك أيضًا الخبيث من المطعم والمشرب.

أولًا: الخبث في الأموال:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

عن البراء بن عازب قال: «نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧][1].

إن الكسب ينقسم إلى نوعين: كسب طيب وآخر خبيث، والله عز وجل يأمرنا بالإنفاق من حلالات ما كسبنا من التجارة والصناعة، فإن من شأن المال أن يجعل المرء عبدًا له إن لم يحسن إدارته وأن يعرف الإنسان مقصود المال، وأنه لماذا خلق؟، فلا يحفظ إلا قدر الحاجة، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه ويجتنب الحرام المحض، ويجتنب الجهات الجالبة للمال المكروهة القادحة في المروءة، كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة، وكالسؤال الذي فيه الذلة، وهتك المروءة[2].

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس، بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى)[3].

فعلى المؤمن أن يتحرى كسبه الطيب،

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص٨٨.
(٢) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٤/ ٣٢٨٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، ٤/ ٥، رقم ٢٧٥٠.

فعن أبي هريرة قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن حلال أم من حرام)[1].

والآية الكريمة تحثنا على ألا نقصد الخبيث الرديء من أموالنا لننفق منه، فالله أغنى عنه منا، فلا نجعل لله ما نكره، وأن يكون الإنفاق بأفضل الموجود، فلا يكون بالدون والرديء الذي تعافه النفوس، والله غني عن الخبيث الذي يخرجه ضعيف الإيمان واليقين، حميد يحمد الطيب الذي يخرجه الإنسان، ويجزي به عليه جزاء الراضي الشاكر، وهو الذي أعطاه إياه[2].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيه -وهو خبيثه- فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»[3].

وقيل: المقصود من الآية: عدم العدول عن المال الحلال، وقصد الحرام، فتجعل النفقة منه[4].

والمنفقون على قسمين:

الأول: هناك من ينفق ماله رياء لا يبتغي منه وجه الله عز وجل، فهذا لا يثمر خيرًا، وحظ صاحبه منه التعب في كسبه، والحسرة على ضياعه، والعذاب على إنفاقه في غير وجهه.

الثاني: من أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله لا يرجو سواه، فهذا يثمر خيرًا، وحظ صاحبه منه الأجر في كسبه، ومضاعفة أجره وماله، وتطهير نفسه وماله، والفوز بالجنة.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

هذه الآية عنى بها جل جلاله أوصياء اليتامى أن يعطوهم ما لهم إذا بلغوا الحلم وأنس منهم الرشد وعدم أخذ الجيد من أموالهم وإعطائهم مكانه الرديء[5].

يقول الطبري رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: ولا تستبدلوا الحرام عليكم من أموالهم بأموالكم[6].

قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: «كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الرديء»[7].

وقد عبر سبحانه وتعالى عن الحلال والحرام بالخبيث والطيب في هذه الآية للتنفير من أكل أموال اليتامى والترغيب فيما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من لم يبال من حيث كسب المال، ٣/ ٥٥، رقم ٢٠٥٩.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣١٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبو طالب ٢/ ١٢١٥.
(٦) انظر: جامع البيان ٧/ ٥٢٥.
(٧) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٦٢.

رزقهم الله من الكسب الحلال بالاكتفاء به وعدم التشوف إلى مال اليتيم فإنه ظلم وسحت[1].

واستبدال بالخبيث الطيب ليس فقط في الأموال، فهناك الكثير من الناس من أبدل أطيب الكلام وهو القرآن الكريم، بالخبيث من الأغاني وما تحتويه من كلمات هابطة تخدش الحياء، واستبدلوا قراءة كتاب الله جل جلاله وأكبوا على الجرائد والمجلات والكتب الخليعات، التي تعمل على دمار المجتمع المسلم.

ثانيًا: الخبث في الأعمال:

ليس من الحكمة والعدل التسوية بين الجيد والرديء من الأشياء والأعمال، فلا يتساوى الضار والنافع ولا الفاسد والصالح، ولا الحرام والحلال، ولا الظالم والعادل، فلكل منها حكم يليق به عند الله جل جلاله الذي يضع كل شيء في موضعه بحسب علمه[2]، كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية: ٢١]،

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة: ١٠٠].

عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل حرم عليكم عبادة الأوثان وشرب الخمر والطعن في الأنساب، ألا إن الخمر لعن شاربها وعاصرها وساقيها وبائعها وآكل ثمنها)، فقام إليه أعرابي فقال: يا رسول الله إني كنت رجلًا كانت هذه تجارتي، فاعتقبت من بيع الخمر مالًا، فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل عند الله جناح بعوضة، إن الله لا يقبل إلا الطيب)، فأنزل الله تعالى تصديقًا لقوله صلى الله عليه وسلم ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾)[المائدة: ١٠٠][3].

إنّ مما ترتضيه الفطرة السليمة وتدركه العقول المستقيمة، أن الخير والشر لا يستويان، وأن الخبيث والطيب لا يتساويان، ومن غير المعقول أن تكون الأعمال الطيبة مساوية للأعمال الخبيثة ومعاملة أهل

(١) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٤٢٢.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٧/ ٣٨.
(٣) أسباب النزول، الواحدي، ص ٢١٠.

الخبيث كمعاملة أهل الطيب، فهذه قوانين عادلة في تسيير هذا الكون، فإنه لا بد من عقاب المسيء، وثواب المحسن، فلا مساواة بين الخير والشر، والله يعاقب على الشر، ويثيب على الخير، ولازم هذه النتيجة أن يحذر الناس فيرجوا ثواب الله عز وجل ويخافوا عقابه[(١)].

والشجر مثله مثل الناس، ينقسم إلى صنفين: إلى طيب وإلى خبيث، وقد ضرب الله مثلًا للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وضرب الله مثلًا للكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

إن شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علمًا واعتقادًا، وفرعها من الكلام الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق الحسنة، والأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، هي ما ينتفع به المؤمن، وينفع غيره به في الدنيا والآخرة، وأما شجرة الكفر فهي شجرة خبيثة المأكل والمطعم، كشجرة الحنظل ونحوها، لا عروق تمسكها، ولا ثمرة طيبة تؤكل منها ولا رائحة زكية تشم منها، وكذلك كلمة الكفر والمعاصي ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث، وعمل خبيث، يضر صاحبه ولا ينفعه، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح[(٢)].

ويقول الألوسي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «وجه تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله بهذه الشجرة المنعوتة بما ذكر أن أصل تلك الكلمة ومنشأها وهو الإيمان ثابت في قلوب المؤمنين وما يتفرع منها وينبني عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يصعد إلى السماء، وما يترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه هو الثمرة التي تؤتيها كل حين، ويقال نحو هذا على تقدير أن تكون الكلمة بمعنى آخر فتأمل»[(٣)].

إن الكلمة الطيبة والعمل الطيب والدعوة إلى الله عز وجل كالشجرة الطيبة ثابتة ومثمرة ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل مهما اشتدت وتكالبت، ومهما رأينا واقعًا مريرًا من الظلم والطغيان والتآمر الخبيث على الدعوة الإسلامية التي هي

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/ ٢٣٦٨.

(٢) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٢/ ١٣١٦.

(٣) روح المعاني ٧/ ٢٠٢.

أطيب دعوة للحق والخير ونعيم الدنيا والآخرة، وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان، فهي تظل كالشجرة العالية الثابتة تبقى متعالية، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل.

وإن الدعوة الخبيثة وأعمالها من دعوات التحرر من الدين وقيوده -كما يدعون- كالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى وتتشابك ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى، ولكنها في الحقيقة هشة، وتظل جذورها في التربة قريبة تقتلع من أبسط هبة ريح، فلا يبقى لها أثر[1].

ثالثًا: الخبث في الناس:

لقد خلق الله عز وجل عباده على الفطرة السليمة التي ارتضاها لهم، ولكن فطرة البشر شابها ما شابها من عوالق الكفر الشر والخبث، فكان هناك المؤمن والكافر الطيب والخبيث وما جعلت الجنة والنار إلا لتفرق بينهما فهم ليسوا سواء، فيميز الله الكافر والخبيث المستحق للعقاب، ويفرقه ويعزله عن المؤمن الطيّب المستحق للثواب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[الأنفال: ٣٦ - ٣٧].

ففي هذه الآية يقول الطبري رحمه الله: إن الله عز وجل يحشر الذين كفروا بربهم، وينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله، إلى جهنم، ليفرق بينهم وهم أهل «الخبث» وبين المؤمنين بالله وبرسوله، وهم «الطيبون»، فميز الله سبحانه وتعالى بينهم بأن أسكن الطيبين من المؤمنين جناته، وأنزل أهل الكفر ناره[2].

إذن فالناس هنا في الإنفاق على نوعين:

- هناك من ينفق أموالًا طائلة في الصد عن سبيل الله ولإغراق العالم الإسلامي في اللهو والغناء والفسق والفجور.
- وهناك من ينفق أمواله في الحق والجهاد وفي الحركة للقضاء على الباطل وأهله.

فبهذا الاحتكاك المرير، تنكشف الطباع، ويتميز الحق من الباطل، كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل[3].

وفي سياق هذه الآية يجدد كتاب الله مرة أخرى بيان الحكمة الإلهية في ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم بالنكبات والتضحيات، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٨.

(٢) انظر: جامع البيان ١٣/ ٥٣٤.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٠٧.

ففي مثل هذه الوقائع والمواقف الصعبة ترفع الحجب وتهتك الأستار عن الخبيث من الناس.

قال مجاهد: «ميز بينهم يوم أحد»، وقال قتادة: «ميز بينهم بالهجرة والجهاد»[(١)].

واختلف المفسرون؛ من المخاطب بالآية على أقوال: قيل: الخطاب للمؤمنين والمنافقين، وقيل: الخطاب للمشركين والمراد بالمؤمنين، وقيل: الخطاب للمؤمنين، والخطاب عند جمهور المفسرين للكفار والمنافقين، أي: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق حتى يميز الخبيث من الطيب، قاله ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

لقد من الله جل جلاله على سيدنا لوط عليه السلام بأن آتاه الله سبحانه وتعالى الحكمة في فصل القضاء بين الخصوم، وكذلك علمًا بأمر دينه، وما يجب عليه لله من فرائضه.

وكان الله عز وجل قد بعثه لقرية اسمها سدوم، وكان أهلها خبثاء يعملون الخبائث، فنجاه الله من عذابه الذي أحلّه بأهل القرية التي كانت تعمل الخبائث من إتيان الذكران في أدبارهم، وخذفهم الناس، وتضارطهم في أنديتهم، مع أشياء أخر كانوا يعملونها من المنكر، فعاقبهم الله عز وجل بالعذاب الشديد في الدنيا قبل الآخرة، وأكرم الله عز وجل لوطًا عليه السلام في الدنيا بإنقاذه من أهل السوء وأعمالهم، وفي الآخرة بالجنة[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

يشير جل جلاله إلى مبدأ هام من مبادئ الحياة الاجتماعية، وهو أن النفوس الخبيثة لا تلتئم إلا مع النفوس الخبيثة من مثلها، والنفوس الطيبة لا تمتزج إلا بالنفوس الطيبة من مثلها، فالله عز وجل جعل الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء.

وهذه الآية نزلت في حادثة الإفك حين اتهموا السيدة عائشة رضي الله عنها بالفحش، والمعنى ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طيب من

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي ٢/ ٣٨٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٨٨، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٦٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٧٢.

البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له، لا شرعًا ولا قدرًا، فكل طيب له ما يوافقه وكل خبيث له ما يوافقه[1].

ومن منطلق هذه الآية فقد اشترط الفقهاء التكافؤ بين الأزواج، والمقصود أن يكون الزوجان متقاربين في كل شيء تقريبًا، والكفاءة تكون أيضًا في الطيبة أو الخبث، فلا يأتي واحد بامرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كي لا تتعبه، ولا يأتي واحد برجل خبيث ويزوجه بامرأة طيبة كي لا يتعبها؛ لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تريحه وتقدره، وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنهما يتوافقان في الطباع والسلوك، وفي هذا توازن، والخبيث إن لم يخجل من الفضيحة، فالخبيثة لا تخجل منها أيضًا، أما الطيب والطيبة فكلاهما يخشى على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته[2].

رابعًا: الخبث في الأماكن:

وكما أن الخبث في الناس والأموال والأعمال فهناك أيضًا خبث في الأماكن.

قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

والمقصود في هذه الآية الأرض الطيبة والتربة السهلة السمحة الكريمة، التربة التي يخرج نباتها إذا أصابها المطر بإذن الله سبحانه وتعالى فتخرج نباتًا حسنًا غزير النفع، والبلد الذي خبث أرضه فهي سبخة لا تنتفع بالمطر لا يخرج نباته إلا عسرًا بمشقة وكلفة[3].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول: هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمره طيب، ثم ضرب مثل للكافر كالبلدة السبخة المالحة التي خرجت منها البركة، فالكافر خبيث وعمله خبيث»[4].

ويقول العز بن عبدالسلام رحمه الله في تفسيره: قال بعض أرباب القلوب: الذي خبث من القلوب لا يخرج إلا نكدًا بالكفر والمعاصي، والجمهور على أنه من بلاد الأرض الطيب التربة والرخيص السعر، أو الكثير من العلماء، أو العادل سلطانه، وضرب الله سبحانه وتعالى الأرض الخبيثة مثلًا للكافر، الذي خبث في تربته، أو بغلاء أسعاره، أو بجور سلطانه، أو قلة علمائه فلا ينتفع به، لشدة تعسره فلا خير فيه[5].

ومن الأماكن الخبيثة والتي تحب الشياطين المكث فيها:

- البيوت الخربة التي لا يذكر الله عز

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٦٨٣.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢١٣.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: تفسير القرآن ١/ ٤٨٧.

وجل فيها، ولا تتلى فيها آياته، ولا تقام فيها الصلوات، ويعصى الله فيها جهارًا نهارًا، فيكون أصحابها كالأموات، وقد أوصانا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم قائلًا: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)[1]. والمؤمن إذا رجع لبيته وذكر اسم الله وسلم على أهله، حضرت الملائكة وتنحى الشيطان، وأما المفرط إذا دخل بيته ولم يذكر الله وغنى وطرب، فقد آوى إلى بيته الخبث كله من الشياطين، وأصبح هذا المكان خبيثًا، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم، ولا عشاء، وإذا دخل، فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء)[2]. وكل مكان يجتمع فيه شياطين الإنس والجن للفسوق والفجور من الملاهي الليلية وأماكن الرقص وشرب الخمر ولعب الميسر هي أماكن خبيثة.

- أماكن قضاء الحاجة، ولما كانت الشياطين خبيثة فإنها تألف مثل هذه الأماكن الخبيثة، قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ [النور: ٢٦]. ولذلك تحضر الشياطين الأماكن التي يقضي فيها الإنسان حاجته، وتريد إتباع الأذية والضرر به.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال: (اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث)[3].

وفائدة هذه الاستعاذة: الالتجاء إلى الله عز وجل من الخبث والخبائث؛ لأن مثل هذه الأماكن خبيثة، والخبيث مأوى الخبثاء فهو مأوى للشياطين، فإذا أراد الشخص دخول الخلاء قال: (أعوذ بالله من الخبث والخبائث) حتى لا يصيبه الخبث وهو الشر، ولا الخبائث وهي النفوس الشريرة[4].

خامسًا: الخبث في المطعومات والمشروبات:

لقد أحل القرآن الكريم أصنافًا من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، ١/ ٥٣٩، رقم ٧٨٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الاشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، ٣/ ١٥٩٨، رقم ٢٠١٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب ما يقول عند الخلاء، ١/ ٤٠، رقم ١٤٢.

(٤) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع، ابن عثيمين ١/ ١٠٥.

الأطعمة والأشربة ووصفها بالطيبة، كما حرم أصنافًا أخرى ووصفها بالخبث، وقد أثبت العلم الحديث أن كل الأطعمة والأشربة التي أحلها القرآن الكريم، واعتبرها رزقًا طيبًا، مفيدة للإنسان جسدًا وروحًا، وأن الأطعمة التي حرمها مضرة للإنسان جسدًا وروحًا كذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٧٢ - ١٧٣].

فالله جل جلاله أمرنا بأكل الحلال الطيب الذي تستطيبه النفس من حلال الرزق الذي أحله الله لنا، وشكره والثناء عليه على النعم التي أنعم بها علينا منقادين لأمره سامعين مطيعين، فلا نحرم ما أحل الله ولا نحلل ما حرم عز وجل، وقد كان الناس في الجاهلية يحرمون بعض المطاعم طاعة منهم للشيطان، واتباعًا لأهل الكفر بالله من الآباء والأسلاف.(١)

ثم بين لهم سبحانه وتعالى ما حرم عليهم، وفصله لهم، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾[المائدة: ٣].

أحلّ الله الطّيبات النافعة غير المحرّمات العشر المستخبثات وهي:

الميتة: وهي ما مات من الحيوان حتف أنفه، من غير ذبح ولا اصطياد، ما عدا ميتة السمك والجراد

الدّم: وهو الدّم المسفوح السائل، لا الجامد كالكبد والطحال.

لحم الخنزير وشحمه وجلده وعظمه: وتحريمه لأنه حيوان قذر لا يأكل إلا القاذورات والفضلات العفنة.

ما ذبح وذكر عليه اسم غير الله عز وجل.

المنخنقة: وهي التي تموت خنقًا، وهو حبس النّفس في الحلقوم، فهي نوع من الميتة.

الموقوذة: وهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد كالعصا أو الحجر أو الحصاة حتى تموت بلا ذكاة شرعية.

المتردّية: هي ما سقطت من مكان عال كجبل أو سطح، أو الهاوية في بئر.

النّطيحة: وهي التي نطحتها بهيمة أخرى، فماتت، وهي حرام كالميتة.

ما أكل السّبع: وهي التي افترسها حيوان كالذئب والنّمر والسّبع، فتموت، فلا تؤكل لأنها ميتة، وتأنفها الطّباع.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري٣/ ٣١٧.

ما ذبح على النّصب: أي الحجارة التي كانت حول الكعبة لا يؤكل؛ لأنه مما ذكر اسم غير الله عليه[1].

فهذه الأطعمة خبيثة محرمة لا يجوز للمؤمن أكلها إلا إذا كان مضطرًّا لذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ١١٤- ١١٥].

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

من رحمات الله عز وجل بعباده الرحمة التي وعد في إحلال الطيبات التي حرمت عليهم بشؤم ظلمهم، ويحرم عليهم الخبائث كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة، ويخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي هي من قبيل ما كتب عليهم حينئذ[2].

فثبت أن الله جل جلاله أحل ما هو طيب في نفسه قبل الحل، فكساه بإحلاله طيبًا آخر، فصار منشأ طيبه من الوجهين معًا فعند تأمل هذا الموضع حق التأمل نجد أسرار الشريعة، ونرى محاسنها وكمالها وبهجتها وجلالها[3].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠].

الخمر هو المتّخذ من ماء العنب النّيء، وتشمل كل شراب مسكر خامر العقل وغطّاه، ووصف الله عز وجل هذا النوع من المشروبات بالرجس، ويقال للنتن والعذرة والأقذار: رجس، يحمله الشيطان ويزينه للعباد؛ لتضليلهم وجرهم إلى ما حرم سبحانه وتعالى، فأمرنا باجتنابه وإبعاده وجعله في منأى عنا، واقترنت صيغة الأمر مع نصوص الأحاديث وإجماع الأمة، فحصل الاجتناب في جهة التحريم، فبهذا حرمت الخمر، وقد مرّ تحريم الخمر للتّرويض وبالتدريج في مراحل أربع، ولا خلاف بين علماء المسلمين أن هذه الآية نزلت بتحريم الخمر بشكل قاطع[4].

وهذه الآية جمعت أسباب تحريم الخمر وكذلك الميسر والأزلام وهي:

- وصفت بكونها رجسًا، أي: قذرًا، حسًّا ومعنى، عقلًا وشرعًا.
- أنها من عمل الشيطان وذلك غاية القبح.
- أمر الله سبحانه وتعالى باجتنابها،

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٠.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٧٩.
(٣) انظر: التفسير القيم، ابن القيم، ص ٢٨٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٨٧.

والأمر بالاجتناب أشدّ تنفيرًا من مجرد النّهي عنها أو القول بأنها حرام، فهو يفيد الحرمة وزيادة وهو التنفير.

- جعل الله جل جلاله اجتنابها سببًا للفرح والفوز والنجاة في الآخرة[1].

بين الطيب والخبيث

اقتضت حكمة الله جل جلاله البالغة أن لا يجعل أمر هذا الدّين إلا في أيدي صفوته من عباده، وأمر هذا الدّين هو أخذه بحقه، ولوكره الكافرون.

وحتّى يكون هذا كان لا بدّ من سنة ربانية لا تتخلّف، وهي سنّة التمييز والتمايز، فالله سبحانه وتعالى هو العليم بعباده وما في قلوبهم، هو الخبير بمن خلق، ولكن تحقّق سنة التمايز التي لا تظهر للناس إلا في حال الابتلاء والمحن، فيظهر وقتها المعدن الحقيقي للأشياء من حولنا.

أولًا: تمييز الخبيث من الطيب:

لا بد أن يعقد الله سببًا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه، يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

يقول الطبري رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: إن الله ما كان ليدع المؤمنين على ما هم من التباس المؤمن منهم بالمنافق، فلا يعرف هذا المنافق المستتر بالكفر من المؤمن المخلص الصادق الإيمان إلا بالمحن والاختبار، كما ميز بينهم يوم أحد عند لقاء العدو عند خروجهم إليهم يوم أحد،

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٤٩٦.

فبالمحن والابتلاء ظهر المؤمنون بإيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله وظهر المنافقون بمخالفتهم ونكوثهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله[(١)].

إنّ هناك الطيب من الأفعال وخبيثها، ومن البشر كذلك قد يكون ظاهرًا وقد يكون مستترًا، وليس من سنة الله في أرضه أن تكون ظاهر الأعمال في كلّ الأحوال محل تعمية على الناس، فلا يستطيعون معها التفريق بين مؤمن ومنافق وبين طائعٍ وعاصٍ[(٢)].

فالله يمحص ويبتلي عباده لتكون راية الحق خفاقة بأيدي طاهرة نقية ولا يصل إلى ذلك المبتغى إلا من نقّاهم الله سبحانه من الخبث وتوطّدت نفوسهم على الطيّب فقط، وصدّق ذلك كلّه أفعالهم ومواقفهم في عسرهم ويسرهم، في راحتهم كما في أزماتهم، في صغائر أمورهم وعظائمها.

ومعنى التمييز هو التفريق بين المتشابهات في بعض المظاهر ولكنها مختلفة في الحقيقة، فقد يكون الحق متلبسًا بالباطل والعكس صحيح، فيأتي الابتلاء والتمحيص مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ [آل عمران:١٦٦ - ١٦٧].

ففي هذ الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، ومواساة لهم فيما أصابهم، فالمؤمن يرضى ويسلم بما قضاه الله وقدره.

فهذا البلاء من القتل والجرح والهزيمة ما كان إلا ليظهر المؤمن الصادق من غيره بثبوتهم في القتال والصد في سبيل الله، وليميز الله الخبيث من الطيب فأظهر الحق سبحانه الغير الصادقين في الإيمان، وذلك بإظهارهم الشماتة، فقد كشفهم الله في هذه الموقعة، وميز الصف الإسلامي منهم وقرر حقيقة موقفهم يومذاك، فقال الحق سبحانه: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧][(٣)].

فأصبح من الواضح أن من لوازم التمايز في الجماعة الابتلاء، فإن التمايز هنا تحقيق لسنة الخالق استخراجًا للخبيث من بين الطيّب لينبذه لتعود الصحّة والعافية للجماعة على وجه أفضل وأسلم مما كانت عليه.

وهنا وقف المسلمون موقفا عظيمًا تشيب من هوله الولدان، وتتحطّم فيه الرجولة الزائفة وينكشف عوارها، كان موقفًا لا يصمد فيه إلا من أخلص لله وباع نفسه فيه لله.

(١) انظر: جامع البيان ٧/ ٤٢٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٦٥.

يصف الله سبحانه وتعالى ذاك الموقف العظيم في كتابه العظيم فيقول: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[الأحزاب: ١٠ - ١٢].

لقد اختبر المؤمنون بالحصر والقتال ليتبين المخلصون من المنافقين وبين الله موقف المنافقين وتربصهم الدوائر بالمسلمين، وانتحالهم الأعذار، واختلاق المبررات للتراجع والفرار، في انتظار النتيجة التي يتوقعون أن تكون على المسلمين لا لهم، فابتلي المؤمنون بهذه الفتنة العظيمة بالخوف والقلق، والجوع، ليتبين إيمانهم، ويزيد إيقانهم، وهنالك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون، هذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر[(١)].

فهو امتحان عظيم، وابتلاء عزّ نظيره، غير أنه سنّة من ربّ العباد ليصفّي من خلاله أهل دينه من كلّ خبثٍ وخبيث، وليحصل التمييز عند المسلمين وعند الناس بين عباد الله الذين استقاموا على أمره، وبين من كان ثبوتهم على أمر الله مجرّد زعم وادّعاء لم يجاوز حلاقيمهم فيفضحهم الله عز وجل في كتابه العزيز بقولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[الأحزاب: ١٢].

وموقفهم هذا فيه ما فيه من الخبث الكامن في نفوسهم، وتخذيل المسلمين في هذا الموقف الحرج العصيب، غير أن حالهم هذا لم يكن له أثر في قلوبٍ آمنت بربها، فقال عنهم ربّ العالمين على لسانهم: ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[الأحزاب:٢٢][(٢)].

لقد كثرت الفتن، وذلك لكثرة مدعي الإيمان المنطوين تحت لواء الإسلام، وهم كغثاء السيل في الكثرة ولكنهم قلة في نصرة دينه وإعلاء كلمته والجهاد في مرضاته، فيأبى الله إلا أن يظهر الحقائق ويبتلي السرائر ويميز الخبيث من الطيب.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت: ٢- ٣].

قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: المراد: قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم بسبب إسلامهم، كسلمة بن هشام وعياش بن أبي

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٦٠.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٣٩.

ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بني مخزوم وغيرهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين[1].

قال مجاهد رحمه الله وغيره: نزلت هذه الآية مسلية ومعلمة لهم أن هذه هي سيرة الله في عباده اختبارًا وتمحيصًا للمؤمنين[2].

فسنّة الله في أي دعوة صادقة خالصة أن يتعرض أصحابها للمحن والابتلاءات لكي تنقى من خبثها ولا يبقى فيها إلا الطيب، إن هذا شأن السالكين إلى الله في كل زمان ومكان فلابد في هذا الطريق أن يصقله الابتلاء وأن تظهر معدنه المحنة.

وعن هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «إن ذهاب الباطل ناجيًا في معركة من المعارك وبقاءه منتفشًا فترة من الزمان، ليس معناه أن الله تاركه، أو أنه من القوة بحيث لا يغلب، أو بحيث يضر الحق ضررًا باقيًا قاضيًا، وإن ذهاب الحق مبتلى في معركة من المعارك، وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان، ليس معناه أن الله مجافيه أو ناسيه! أو أنه متروك للباطل يقتله ويرديه، كلا إنما هي حكمة وتدبير هنا وهناك يملي للباطل ليمضي إلى نهاية الطريق وليرتكب أبشع الآثام، وليحمل أثقل الأوزار، ولينال أشد العذاب باستحقاق! ويبتلى الحق، ليميز الخبيث من الطيب، ويعظم الأجر لمن يمضي مع الابتلاء ويثبت، فهو الكسب للحق والخسار للباطل، مضاعفًا هذا وذاك! هنا وهناك!»[3].

ثانيًا: الخلط بين الخبيث والطيب:

إن الطيب والخبيث وإن كانا في بعض الأوقات غير معروفين وغير ظاهرين، ولكن في الكثير من الأوقات يكون أحدهما معروفًا يمكن التمييز بينهما، فالحرام بيّن والحلال بيّن، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه)[4].

في الحديث دلالة على أن الأشياء من حيث الحكم ثلاثة أقسام:

١. حلال خالص لا شبهة فيه، كالملابس والمطاعم والمراكب المباحة.
٢. حرام خالص لا شبهة فيه، كشرب الخمر والربا والزنا وأكل مال اليتيم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٢٣.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٨٦.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥٢٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢.

ونحوها مما نص الشرع على تحريمه.

٣. مشتبه بين الحلال والحرام، كالمعاملات والمطاعم التي يترد الناس في حكمها ويختلط الأمر عليهم.

وقد نهانا الله عن استبدال وخلط أموال اليتامى، فقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

فقد كانوا في الجاهلية لعدم الدين لا يتحرجون عن أموال اليتامى، فيأخذون أموال اليتامى ويبدلونها بأموالهم، ويقولون: اسم باسم ورأس برأس، مثل أن يكون لليتيم مائة شاة جياد فيبدلونها بمائة شاة هزلى لهم، ويقولون: مائة بمائة؛ فنهاهم الله عنها[(١)].

فالآية الكريمة تحذر من جمع وضم وخلط أموال اليتامى مع أموال الوصي عليهم، وعدم استبدال الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالهم الخاص فيأكلوها جميعًا فهذا ذنبٌ عظيم، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية؛ لأنه ضعيف، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله[(٢)].

قال سعيد بن جبير: «لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبذروا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

لقد كان الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع طبقات:

الأولى: المؤمنون من الأنصار والمهاجرين الذين أخلصوا لله عز وجل.

الثانية: الكفار الذين أبوا إلا الكفر والعناد.

الثالثة: المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر والحقد على المسلمين.

الرابعة: وآخرون خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامي ولم يصهروا في بوتقة الإسلام تمامًا.

وتقرر الآية الكريمة كيفية التعامل في المجتمع المسلم، وتوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلص من المسلمين إلى طريقة التعامل مع كل منهم[(٤)].

وتبين الآيات أن الأشقياء نوعان: كفار ومنافقون.

فذكر الكفار بقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩].

وذكر المنافقين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٠٣.
(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٢٣٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٠٧.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب٣/ ١٥٦٨.

﴿لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

أما المخلط فليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب، ولكنه بين الجنة والنار، واقف بين الوعد والوعيد، كل منهما يدعوه إلى موجبه، لأنه أتى بسببه، فعسى الله أن يتوب عليهم[(١)].

وقال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآية: هي في الأعراب، وهي عامة في الأمة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة، فهي آية ترج على هذا[(٢)].

فقد يخلط المرء بين الحرام والحلال وبين الصاح والطالح وبين الخبيث والطيب، ولكن ما يلبث الحق أن ينير بصيرة المؤمن ويوجهه إلى الصواب إلى ما يرضي الله سبحانه وتعالى.

ثالثًا: نفي المساواة بين الخبيث والطيب:

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

هذه الآية حكم عام في نفي المساواة عند الله عز وجل بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وبين جيّدها، قصد به الترغيب في جيد كل منها والتحذير عن الرديء منها[(٣)].

فهذه الآية خطاب الله عز وجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، آمرًا له أن ينبه الناس إلى أن الخبيث والطيب لا يستويان عند الله في شيء، فالخير والشر لا يستويان، فلا يمكن أن يكون معاملة أهل الخبيث كمعاملة أهل الطيب، فهذا ما لا ترتضيه الفطرة السليمة وتدركه العقول المستقيمة، ويلفت نظر الإنسان أيًّا كان وحيثما كان، ومجرد الاستلذاذ بالخبيث والإعجاب به لا يقف في وجه هذه الحقيقة الناصعة.

فقد يكون الخبيث جذابًا وبراقًا ومثيرًا، ولكنه في جوهره خبيث، وفي أثره خبيث، ولن يقف الخبيث مع الطيب على قدم المساواة بأي وجه من الوجوه.

وقد يكون الطيب قليلًا غير براق أو مثيرًا وأقل وزنًا وحظًّا في الدنيا من الخبيث، فالطيب أوزن منه في الآخرة.

وإن كان مآل الطيب إلى الجنة، فإن مآل الخبيث إلى النار.

وإذا كان منفق المال الخبيث يعتبر إنفاقه هباء منثورًا، فمنفق المال الطيب يظل إنفاقه ثابتًا، هذا إلى ما يترتب على تناول كل من الطيب والخبيث، وعلى ممارسة كل من

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٢/ ١٢٢٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٧٧.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٨٣.

الطيبات والخبائث، من الآثار النفسية والأخلاقية، الفردية والاجتماعية، مما يجعل سلوك الطيبين رحمة لهم وللناس، وسلوك الخبيثين نقمة عليهم قبل أن يكون على بقية الناس، فإن الله طيّبٌ لا يقبل إلا طيبًا[1].

ولذا عقب عز وجل بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وذلك بجعل أنفسنا وقاية من عقاب الله، فهو خطاب لأصحاب العقول السليمة، بفعل الطيب من الأعمال وترك خبيثها؛ للفوز برضوان الله، والنجاة من غضبه وعقابه.

فمن حكمة الله سبحانه وتعالى أن خلق المتضادات في هذه الحياة ليتم الابتلاء والامتحان للعباد، وهذا يشمل الخبيث من الأشخاص، والخبيث من الأعمال، والخبيث من الأقوال، والخبيث من الأموال، والخبيث من المآكل والمشارب، فلا يستوي الخبيث والطيب من هذه الأشياء ولا من غيرها على الإطلاق.

فلا يستوي الخبيث والطيب من الأشخاص، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

ثم بين الله عز وجل مصير كل من المؤمن والفاسق، قال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٩- ٢٠].

وليس من يعمل الصالحات كمن يمشي فسادًا في الأرض، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. و قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥- ٣٦].

كما لا يستوي أصحاب الجنة وأصحاب النار، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

لا يستوي الخبيث والطيب من الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤].

كذلك لا يستوي الخبيث والطيب من الأقوال، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/٢٣٦٨.

﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٦].

ولا يستوي الخبيث والطيب من الأطعمة والأشربة، فقد أحل الله الطيبات وحرّم الخبائث، قال الله تعالى في وصف رسوله عليه السلام: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[الأعراف: ٥٧].

ولا يمكن أن يستوي الإنسان الذي يعمل بالمبادئ الأخلاقية والذي لا يعمل بها، ولا يستوي الذي يعمل الخير والذي يعمل الشر، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[الانفطار: ١٣ - ١٤].

إن الإنسان الذي يعمل بمقتضى القيم الأخلاقية لا تزيد قيمته ودرجته وجزاؤه عند الله فحسب، بل تزيد قيمته الإنسانية بين الناس فيكون له الشرف والمكانة الأدبية في المجتمع، فيجد القبول والاهتمام به والمودة والتقدير من الناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم: ٩٦].

الاغترار بكثرة الخبيث

لا يعني كثرة الشيء أنه هو الجيد دومًا وهو المطلوب، فقد ذم القرآن الكريم الكثرة في كثير من آياته وامتدح القلة، وهذه بعض الأمثلة على ذم الكثير وعدم اعتباره:

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾[الصافات: ٧١].

وقال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[الإسراء: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[البقرة: ٢٤٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٤٠].

كما امتدح الله عز وجل القلة في كثير من الأشياء:

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[ص: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة: ٢٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[النساء: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة: ١٠٠].

يقول الشيخ ابن سعدي رحمه الله: «ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا تدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير الحق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا وأجرًا»[1].

وإذا كانت كثرة الخبيث تغر وتعجب ففي الطيب متاع بلا معقبات من ندم أو تلف، وبلا عراقيل من ألم أو مرض، وما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيب مثلها، بل أحسن منها على اعتدال وأمن من العاقبة في الدنيا والاخرة.

ولو أثار أنفسنا وأعجبنا واسترعى أنظارنا كون الخبيث كثيرًا، إن الشر مهما يكثر لا يمكن أن يستحسن شرعًا أو ترضى به الأخلاق، ولا يمكن أن ينقلب بالكثرة مساويًا للخير بل إنه كلما كثر، وجبت مقاومته، بشدة وبمقدار كثرته، تكون شدة المقاومة، وذلك فرق ما بين شريعة الله سبحانه وتعالى وقوانين العباد، فإن قوانين العباد، تستمد قوتها من الكثرة، وعرف الناس، ولو كان فاسدًا، أما شريعة الله، فهي للخير المحض، وإذا كثر الشر لا تتبعه، بل تقاومه، ولا ترضى به، لأنها جاءت لنشر الخير، والعقل حين يتخلص من الهوى بمخالطة التقوى له ورقاقة القلب له، يختار الطيب على الخبيث فينتهي الأمر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة ولا يمكن أن ترضى، وإلا ما كانت رسالات الرسل، ولا جهاد الأنبياء والصديقين والشهداء الصالحين، ولذلك

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٧٠.

أمر سبحانه بمقاومة الشر مهما كثر[1].

كثيرًا ما يستدل أغلب الناس ممن قل فقهه على الحق بكثرة أهله، ويظنون أن الصواب يعرف بكثرة الجمهور والأتباع لرجل ما، وقد قيل: «الرجال يعرفون بالحق لا الحق يعرف بالرجال».

يقول ابن عاشور رحمه الله عن هذه الآية: فكان الخبيث المقصود في الآية شيئًا تلبّس بالكثرة، فراق في أعين الناظرين لكثرته، ففتح أعينهم للتأمّل فيه ليعلموا خبثه ولا تعجبهم كثرته.

والمخاطب بهذه الآية غير معيّن بل كلّ من يصلح للخطاب، وليس المقصود بهذه الآية أنّ كلّ خبيث يكون كثيرًا، ولا أن يكون أكثر من الطيّب من جنسه، فإنّ طيّب التمر والبرّ والثمار أكثر من خبيثها، وإنّما المراد أن لا تعجبكم من الخبيث كثرته إذا كان كثيرًا فتصرفكم عن التأمّل من خبثه وتحدوكم إلى متابعته لكثرته، ولكن انظروا إلى الأشياء بصفاتها ومعانيها لا بأشكالها ومبانيها، أو كثرة الخبيث في ذلك الوقت بوفرة أهل الملل الضالّة[2].

فالخبيث والطيب لا يتساويان في ميزان العدل الإلهي في الدنيا وفي الآخرة، فقليل حلال طيب خير من كثير حرام ضار، لهذا لا يجوز الاغترار بالخبيث ولو كثر وعم، وفي هذا تثبيت للمؤمنين على ما ابتلوا به من كثرة الخبائث وانتشارها وسطوة أهله وتجبرهم.

فمهما يكثر الخبيث وينتشر صيته فيبقى خبيثًا غير مستساغ لدى النفوس الطيبة الطاهرة، ولا تقبله الفطرة السليمة، وليس كل ما يلمع ذهبًا.

ودائما أصحاب العقول السليمة هم المخاطبون بالتوجيهات الربانية فالعقل السليم والفطرة النقية لا تتعارض مع النصوص الإلهية ، وقد قال عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة: ١٠٠].

فمن الواجب على كل ذي لب يميز الخبيث من الطيب، ويقضي بأن الطيب خير من الخبيث، وأن من الواجب على الإنسان أن يجتهد في إسعاد حياته، ويختار الخير على الشر أن يتقي الله ربه بسلوك سبيله، ولا يغتر بانكباب الكثيرين من الناس على خبائث الأعمال ومهلكات الأخلاق والأحوال، ولا يصرفه الأهواء عن اتباع الحق بتولية أو تهويل لعله يفلح بركوب السعادة الإنسانية حتى ولو كان غريبًا وسط هذه الفتن.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(طوبى للغرباء، طوبى للغرباء، طوبى للغرباء)، فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟**

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٨٣.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٧/ ٦٣.

قال: (ناس صالحون في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم)[1].

تحريم الخبائث

من فضل الله علينا ومنته أنه أحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث، لحكم عظيمة وجليلة تتضح معالمها على مر الزمان، لتثبت أن هذا القرآن من عند عليم خبير.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٢].

فالله عز وجل يمتن على عباده بما مكنهم في الأرض من حياة واستقرار، إذ جعلها مسخرة لهم، ووضعها تحت تصرفهم، وآتاهم فيها من أسباب الكسب ووسائل العيش ما يطيب معه القرار، وأحل الطيبات من المأكل والمشرب والملبس والزينة، وأنكر تحريم ذلك وجعل سبحانه وتعالى كل ذلك مباحًا، ودعا عباده إلى استعمالها والتمتع بها، فالله جل جلاله هو وحده المختص بالتحليل والتحريم، وقد أحلها ولم يحرمها[2].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، ١١/ ٦٤٤، رقم ٧٠٧٢، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الزهد، ما ذكر عن نبينا صلى الله عليه وسلم في الزهد، ٧/ ٨٣، رقم ٣٤٣٦٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٢٨، رقم ٣٩٢١.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٠١.

﴿ٱللَّهُ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٧٢-١٧٣].

ويأمر الله عز وجل بالأكل من طيبات ما خلق لنا وشكره على تلك النعم التي لا تعد ولا تحصى، ويفصل بعد ذلك الحق سبحانه وتعالى ما حرم على عباده وهي:

- الميتة: وهي كل ما لم تدرك ذكاته مما يذبح واستثنى الشرع من الميتة السمك والجراد.
- الدم: أراد به الدم الجاري يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، واستثني من الدم الكبد والطحال فأحلها[(١)].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحلت لنا ميتتان ودمان، الميتتان: الحوت والجراد، والدمان، أحسبه قال: الكبد والطحال)[(٢)].

- لحم الخنزير وشحمه وعظمه.

قال الشّافعي رحمه الله تعالى:

فيحلّ الله عز وجل ما حرّم من الميتة والدم ولحم الخنزير، وكلّ ما حرم مما يغير العقل من الخمر للمضطر الذي لا يجد ما يسد رمقه من طعام أو شراب، ويبلغ منه الجوع والعطش ما يخاف منه الموت أو المرض، وذلك بقدر ما ينقذ به نفسه، وليس له أن يأكل ويشرب حتى الشبع والتلذذ بذلك.[(٣)]

وفي آية أخرى يبين الله عز وجل المزيد من الخبائث المحرمة على العبد.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٣].

فزادت هذه الآية عن سابقتها عدة محرمات سبق الحديث عنها وهي:

- المنخنقة.
- الموقوذة.
- المتردية.
- ما أكل منه الحيوان.
- الذبح على النصب.
- الاستقسام بالأزلام.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٨٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنه عنهما، ١٠/ ١٥، رقم ٥٧٢٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، ٢/ ١١٠٢، رقم ٣٣١٤.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٨/ ١٦٤، رقم ٢٥٢٦.

(٣) تفسير الإمام الشافعي ١/ ٢٤٨.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو بمكة عام الفتح: (إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فقيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس، فقال: لا، هو حرام، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه)[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف: ١٥٧].

لقد دلت هذه الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، فإن الطيبات هي المحللات، فقد وصفها بالطيب، لأنها لفظة تتضمن مدحًا وتشريفًا، وعلى هذا تكون الخبائث هي المحرمات.

وعلى هذا حلل الإمام مالك المتقذرات: كالحيات والعقارب والخنافس ونحوها.

ومذهب الشافعي رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم، إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها، لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل المحرمات بالشرع وفي المتقذرات، فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هذا المجرى يراها مختصة فيما حلله الشرع، ويرى الخبائث لفظًا عامًّا في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات[2].

وهذا هو الراجح عندي والذي تأنس له الفطرة السليمة والنفس الطيبة حيث إن الطيبات ما تقبل به النفس، أما الحشرات والزواحف مما لا تستسيغه الطباع البشرية.

فإن ما استخبثه الناس من الحيوانات لا لعلة ولا لعدم اعتياد بل لمجرد استخباث فهو حرام، وإن استخبثه البعض دون البعض كان الاعتبار بالأكثر كحشرات الأرض وكثير من الحيوانات التي ترك الناس أكلها ولم ينهض على تحريمها دليل يخصها، فإن تركها لا يكون في الغالب إلا لكونها مستخبثة فتندرج تحت قوله سبحانه: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾.

فقد أباح الله لعباده الطيبات، وحرم عليهم الخبائث والمضرات، ولقد كرم الله بني آدم بكرامات كثيرة، أهمها العقل؛ لكن نجد الكثير من الناس من يجني على هذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب بيع الميتة والأصنام، ٣/ ٨٤، رقم ٢٢٣٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٠٠.

العقل بشرب الخمور والمسكرات[1].

ولنا هنا حديث عن محرم آخر وهو الخمر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، إن الله سبحانه وتعالى قد وصف الخمر بأنه رجس فعلم أن النجاسة علة لتحريم الأكل وكل نجس فإنه يحرم أكله، هذا بعد إجماع الأمة على تحريم الخبائث والنجاسات[2].

وإنما حرم علينا سبحانه وتعالى هذه الخبائث:

- لطفًا بنا، وتنزيهًا لنا عن كل خبيث لا تستطيبه النفس الكريمة.
- وفي تحريم هذه الأشياء حماية للمسلمين مما فيها من الميكروبات والجراثيم والمواد الضارة، التي لم يهتد الأطباء لمعرفتها إلا في عهد متأخر جدًّا.
- وحرمت الميتة بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرة، ولرداءتها في نفسها، ولأن الأغلب، أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر.
- وقد يكون التحريم لعلة اعتقادية، لها علاقة وثيقة بالشرك والوثنية مثل ما يذبح للأصنام.
- والخمور حرمت بسبب ما تفعله في العقول من دمار، فتجل المرء كالبهيمة بل أضل سبيلًا، كما لها أضرارها على الصحة وهي كثيرة، وما فيها من ضياع للعرض والمال.

ويقاس على ذلك العديد من الأطعمة والأشربة التي حرمها العلماء بالإجماع قياسًا عما ذكره الله جل جلاله من تحريم المخدرات والدخان وبعض الأدوية المذهبة للعقل واعتبارها من الخبائث.

فإن الخبيث غير مستطاب، فصارت هذه الآية الكريمة نصًّا فيما يحل ويحرم من الأطعمة، فحري بنا نحن المسلمين أن نتحرى المال الطيب الحلال، والرزق السليم النافع، ونحذر أشد الحذر من الأموال الخبيثة والمكاسب المحرمة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن الحلال أم من حرام)[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس! إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا،

(١) انظر: الدراري المضية، الشوكاني ٢/ ٣١٨.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ١٨١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾، ٣/ ٥٩، رقم ٢٠٨٣.

وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟)[١].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، ٢/ ٧٠٣، رقم ١٠١٥.

التناسب بين الخبيثين

إن الله عز وجل خلق كل شيء بقدر وبتناسق يأخذ الألباب، فجعل لكل شيء ما يناسبه فجعل الطيب لما يناسبه، وجعل للخبيث ما يناسبه، قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦]، جاء في معنى هذه الآية أقوال:

الأول: إن الخبيثات من الكلم للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلم، والطيبات من الكلم للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيّبات من الكلم.

الثاني: إن معناه الخبيثات من السيّئات للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من السيّئات، والطيّبات من الحسنات للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من الحسنات.

الثالث: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء[٢].

وبما أن سياق السورة هو سياق الحديث عن الزواني والمحصنات، وعن المؤمنين والمؤمنات، وعن الأجواء التي تتحرك

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٢.

في دائرة العلاقات الزوجية التي يتحكم فيها الانسجام الأخلاقي بين الزوجين، ما يجعل من مسألة التوافق الروحي والإيماني عنصرًا حيويًّا في المسألة، نستطيع القول بأن المراد بالكلمتين هو المعنى الثالث المراد من الطيبين والخبيثين، ويؤكد ذلك طبيعة المقابلة بين الكلمتين[1].

ولكن قد يشكل فهم الآية على البعض، فهل هو على تقرير الواقع بحيث يكون المعنى أن واقع العلاقات الزوجية أو ما يشبهها، هو الانسجام بين الزوجين في الخبث والطيبة؟

ولكن هذا غير واقعي، لأن كثيرًا من الطيبين والطيبات ابتلوا بزيجات خبيثة، كما أن كثيرًا من الخبيثات ارتبطن بعلاقة زوجية مع رجال طيبين.

أو هو تشريع للعلاقة الزوجية، حيث إنه لا بد للخبيثات من أن يتزوجن من الخبيثين، فلو تزوجن غيرهم، لكانت العلاقة غير شرعية، كما لن تكون هناك شرعية لزواج الطيب من الخبيثة أو الطيبة من الخبيث؟

الحقيقة أنه لا هذا ولا ذاك، فالمسألة جارية مجرى التناسب القائم على الاتفاق في العقيدة الطيّبة، والأخلاق والسلوك الطيبين، ما يجعل الطيبين مناسبين للّاتي يملكن المواصفات نفسها، وهو ما يجعل الانجذاب الروحي الذي يؤدي إلى العلاقة الشرعية الزوجية أمرًا طبيعيًّا، كما أن المواصفات المضادة تخلق التناسب بين الذين يتمتعون بهذه الصفات السلبيّة، وتجعل العلاقة طبيعية بينهم باعتبار أن كل شكلٍ لشكله ألف.

ومقصود الآية: إن زوجتم فزوّجوا الخبيث للخبيثة، والطيب للطيبة؛ ليتحقق التكافؤ بين الزوجين ويحدث بينهما الوفاق، حتى إن عيّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أن تردّ عليه، لا بدّ من وجود التكافؤ حتى في القباحة، وإلا فكيف تفعل الطيبة مع الخبيث، أو الخبيث مع الطيبة ؟[2].

أراد الله عز وجل أن يوجهنا إلى أن نزوج فتياتنا الطيبات رجالًا طيبين، ويوجهنا أيضًا إلى أن نزوج شبابنا الطيبين فتيات طيبات، لكي يكون تناسبًا صحيحًا وسليمًا، فهذا توجيه أخلاقي اجتماعي، لهم في توجيهها هذا التوجيه الرائع، أي: ينبغي يا عبادي أن يكون الطيبون للطيبات والخبيثون للخبيثات.

وليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من فاحشة الزنا، فلها خاصية في تعبيد القلب لغير الله، فإنهما من أعظم الخبائث، وكلما ازداد القلب خبثًا ازداد من الله بعدًا،

(١) انظر: النكت في القرآن الكريم، المجاشعي، ص ٣٥٧.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٨/ ١٠٩٧١.

قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النور: ٣].

أي: إن الفاسق الفاجر الذي من شأنه الزنا والفسق لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة أو في مشركة مثلها، والفاسقة المستهترة لا يرغب في نكاحها الصالحون من الرجال، بل ينفرون منها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة، ولقد قالوا في أمثالهم: إن الطيور على أشكالها تقع[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[(٢)].

ولا شك أن هذا حكم الأعم الأغلب كما يقال: لا يفعل الخير إلا الرجل التقي، وقد يفعل الخير من ليس بتقي، فكذا هذا، فإن الزاني قد ينكح المؤمنة العفيفة، والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف.

قال الألوسي رحمه الله «تقبيح لأمر الزاني أشد تقبيح، ببيان أنه بعد أن رضي بالزنا لا يليق أن ينكح العفيفة المؤمنة، والزانية بعد أن رضيت بالزنا لا يليق أن ينكحها إلا من هو مثلها وهو الزاني، أو من أشد حالًا منها وهو المشرك، فأما المسلم العفيف فأسد غيرته يأبى ورود جفرتها»[(٣)].

إن نكاح المؤمن المتّسم بالصلاح الزانية، ورغبته فيها واندماجه في سلك الفسقة المشهورين بالزنا محرم عليه، لما فيه من التشبه بالفسّاق ومن حضور مواضع الفسق والفجور التي قد تسبب له سوء القالة واغتياب الناس له، وكم في مجالسة الفساق من التعرض لاقتراف الآثام، فما بالك بمزاوجة الزواني والفجار[(٤)].

وقال الشيخ الشعراوي رحمه الله: «فهذا سبب طهر الأنسال أن يحرّم الله سبحانه وتعالى الزنا، فيأتي الخليفة طاهر النسل والعنصر، محضونًا بأب وأم، مضمومًا بدفء العائلة، لا يتحملون عليه نسمة الهواء؛ لأنه جاء من وعاء طيب طاهر نظيف»[(٥)].

إذن فهناك تناسب طبيعي قدره الله عز وجل في هذه الحياة كي تسير وفق منظومة صحيحة لا اعوجاج فيها، غير أن البعض يأبي إلا الخروج عن المألوف والطعن في طبيعة سير الأمور فيتسببون بالفساد والخراب وانتشار الرذيلة في المجتمع المسلم.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣١٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، ٤/ ١٣٤، رقم ٣٣٣٦.
(٣) روح المعاني ١٨/ ٨٤.
(٤) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ٧١.
(٥) تفسير الشعراوي ١٦/ ١٠٢٠٣.

الخبيث في المثل القرآني

إن اللّه سبحانه وتعالى يضرب الأمثال لعباده في العديد من آياته في كتابه العزيز، وأمر بالاستماع إليها ودعا عباده إلى تعقلها، والتفكير فيها، والاعتبار منها.

وضرب الله عز وجل المثل للخبيث فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

هذان مثلان ضربهما الله تعالى للكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة، مثل الأولى بشجرة طيبة، ومثل الثانية بشجرة خبيثة، فلما ذكر مثل أعمال الكفار، وأخبر أنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، وشرح أحوال الأمة الطيبة، وأحوال الفرقة الخبيثة، ذكر مثلًا يبين الحال في حكم هذين القسمين، ويصور سنته الجارية في الطيب والخبيث في هذه الحياة[1].

ويضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليصوّر للناس سنته الجارية في الطيب والخبيث في هذه الحياة بالشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة.

فالكلمة الطيبة هي كلمة الحق، وهي أساس الوجود، ولا تستطيع قوى البغي والطغيان أن تقضي عليها، أو هي كلمة التوحيد، فهي كالشجرة الطيبة، ثابتة، مثمرة، متعالية، فبذورها تنبت في تلك التربة الخصبة، وكذلك الكلمة الطيبة تثبت في النفوس الطيبة، كالنخلة، وشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك.

وأما الكلمة الخبيثة، فهي على النقيض من ذلك، هي كلمة الشرك والباطل التي تعمل على إفساد الحياة، وفي نشر بذور الشر في كل مكان، وفي كل نفس، وهي كالشجرة الخبيثة التي قد تتشابك أغصانها، وتتعالى فروعها، ولكنها لا تثمر إلا ثمرًا مرًّا، ولا تعطي فائدة، كشجرة الحنظل، ونحوها، وفي نفس الوقت لا تتحمل أية هزة، فلا قرار لها ولا بقاء[2].

ووصف الشجرة الخبيثة، التي شبه بها الكلمة الخبيثة في صفتها بثلاث صفات:

الأولى: أنها خبيثة، وذلك يحتمل أن يكون بحسب الرائحة، وأن يكون بحسب الطعم، وأن يكون بحسب الصورة والمنظر، واشتمالها على المضار الكثيرة.

وأصل (الخبث) في كلام العرب كما

(١) انظر: تفسير المراغي ١٣/ ١٤٧.

(٢) انظر: عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، علي الطهطاوي، ص ٢١٢.

ذكرت سابقًا: المكروه، فإن كان في الكلام فهو الشتم، وإن كان من الملل فهو الكفر، وإن كان من الطعام فهو الحرام، وإن كان من الشراب فهو الضار، ومنه قيل لما يرمى من منفي الحديد: الخبث[1].

الثانية: كونها (اجتثّت من فوق الأرض)، أي: استؤصلت. وهذه الصفة في مقابلة (أصلها ثابتٌ) في صفة الشجرة الطيبة، وحقيقة (الاجتثاث) أخذ الجثة كلها من فوق الأرض، لكون عروقها قريبة من الفوق؛ فكأنها فوق، وهذا يعني: أنه ليس لها أصل، ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة[2].

الثالثة: كونها (ما لها من قرارٍ)، فنفى أن يكون لها مكان تستقر فيه، وأن يكون لها استقرار.

قال الزمخشري رحمه الله: «شبّه بها القول، الذي لم يعضّد بحجة فهو داحض غير ثابت، والذي لا يبقى؛ إنما يضمحل عن قريب لبطلانه؛ من قولهم: الباطل لجلج»[3].

وعن قتادة رضي الله عنه أنه قيل لبعض العلماء: (ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا، ولا في السماء مصعدًا، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة)[4].

هذا هو مثل الكلمة الطيبة، ومثل الكلمة الخبيثة. وليس هذا وذاك مجرد مثل يضرب، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع؛ وإنما هو الواقع في الحياة، ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان، والخير الأصيل لا يموت ولا يذوي، مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق، والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به، فقلما يوجد الشر خالصًا، وعندما يستهلك ما يلابسه من الخير، فلا تبقى فيه منه بقية، فإنه يتهالك، ويتهشم مهما تضخم واستطال[5].

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن فضله وعدله في الفريقين: أصحاب الكلمة الطيبة، وأصحاب الكلمة الخبيثة.

فبين سبحانه وتعالى فبين أنه في ظل الشجرة الثابتة مثلًا للكلمة الطيبة، يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخر، والقول الثابت: بكلمات القرآن، وبالعمل الصالح، وبكلمات الإيمان، يكون العون من الله، والثبات للذين آمنوا.

وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار، ولا ثبات يضل الظالمين عن القول الثابت (يضلّ

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٢٤٩، تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ١٤٦.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ١١١.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٥٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٨٧.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٨.

اللّه الظّالمين)، فيضل هؤلاء بعدله بسبب ظلمهم وشركهم، واتباع الهوى، وتمكن الخرافات والأباطيل من نفوسهم القلقلة المضطربة، وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أوّل شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل ويفعل الله ما يشاء بإرادته المطلقة[1].

وذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[إبراهيم: ٢٧].

أي: يثبّت الذين صدقوا برسالة الأنبياء والمرسلين، يثبتهم على دينهم ويقينهم بسبب اعترافهم الثابت بتوحيد اللّه وطمأنينتهم به، فلم تهزه الشكوك ولم يزلزله الإيذاء أو التشكيك؛ فيظلّون على ما هم عليه من اليقين الثابت في الحياة الدنيا، لا تزحزحهم عنه الشدائد والفتن، وإن كانت كموج البحر أو كقطع الليل المظلم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله طرفة عين؛ فإن لم يثبته، وإلا زلت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما[2].

وبين سبحانه وتعالى سبب ضربه للأمثال بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[إبراهيم: ٢٥].

وذلك لأنها أمثال مصداقها واقع في الأرض، ولكن الناس كثيرًا ما ينسونه في زحمة الحياة؛ ففي ضربها لهم زيادة إفهام، وتذكير، وتصوير للمعاني[3].

من خلال ما رأينا في المثل من مقابلة وموازنة بين حالتين يلمسهما القارئ لكتاب الله عز وجل، فينحاز إلى ما هو جدير به أن ينحاز إليه من عمل صالح يتقرب به إلى الله جل جلاله، وابتعاد عن الطالح من الأمر.

ويفهم من هذا التصوير أن المؤمن مثل الشجرة، لا يزال يعطى من ثماره في كل وقت، صيفا وشتاء، ليلًا ونهارًا، وكذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل آناء الليل وأطراف النهار، وفي كل وقت وحين، والكلمة الخبيثة تمثل كفر الكافر، لا أصل له، ولا نبات، ولا فرع، ولا يصعد له عمل، ولا يتقبل منه شيء.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٥٤.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٤٩٢.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٩٨.

مصير الخبيث وأهله

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يوجد في هذه الحياة الطّيّب والخبيث؛ للاختبار والامتحان والتمايز، وليلقى كل منهما جزاءه المناسب فهم لا يستويان أبدًا.

قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

تتواصل صورة الخبيث في السياق القرآني، لترسم خاتمة له في جهنم وبئس المصير، فالخبيث هنا مجسّم في صورة أكوام من الأقذار الكريهة، تجمّع بعضها فوق بعض، ثم تقذف في النار، بدون اكتراث أو اهتمام، فهذه الصورة للخبيث أوقع في الحس والنفس من أي تعبير آخر، وهي تهدف إلى التنفير من الخبيث، من خلال هذه النهاية المرسومة له، وشتّان بين صورة الخبيث الكريهة التي تنتهي في النار، وبين صورة الطيب المحبوبة، التي تنتهي إلى الجنة[1].

يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: إن الخبيث يجتمع بعضهم إلى بعضه، يضم الخبيث إلى الخبيث ويتراكم عليه، حتى يكادوا يكونون عليه لبدًا، وهذا تعبير يتناسب مع تكاثف شيء كله خبيث، أي: يجعل الله سبحانه وتعالى الخبيث الحاضر فوق الخبيث الغابر، فوق ما سبقه، فنظمه جميعًا بعضه لبعضه، وفي هذا إشارة إلى أن في جهنم مكانًا للجميع، وإن كان مزدحمًا متراكمًا، وإشارة إلى تلاحق الحاضرين مع من يقلدونهم، وإشارة إلى تميزهم على الطيبين، أو تميز الطيبين عنهم، وإن هذا كله ينبئ عن الخسارة المطلقة التي لا كسب فيها؛ ولذلك جعلهم الحق عز وجل هم الأخسرين، فجعل أصحابه في جهنم إلى يوم القيامة، وبئس المصير لمن خسر نفسه وماله[2].

فإن الله سبحانه وتعالى يفرق بين الطيب والخبيث في كل الأمور، ثم يكون الجزاء في الآخرة بأن يفترقا، فلا يجتمعان أبدًا؛ فلكلٍّ داره وقراره، فالطّيّب وأهله لهم الجزاء الطيب في جنان الرحمن، والخبث وأهله لهم العذاب الأليم، والمصير الخبيث.

فكل عمل له نتائجه المترتبة عليه:

- فإن الطّيّب لا يليق به إلا الطيب، ولا يفعل إلا الطيب، ولا يقول إلا الطيب، ولا يأكل إلا الطيب؛ لذلك استحق مجاورة الطيبين في جنات الخلد.
- والشقي الخبيث لا يفعل إلا الخبيث، ولا يقول إلا الخبيث، ولا يخالط إلا

(١) انظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبدالسلام الراغب، ص ١٣٨.

(٢) انظر: زهرة التفاسير ٦/ ٣١٢٥.

الخبيثين، وترى الخبث يتفجر من قلبه ولسانه وجوارحه؛ ولذلك استحق مجاورة الخبيثين في جهنم مأوى لهم.

ولكن إن كثر الخبث وأهله من الزناة والفجرة والفاسقين المجاهرين للمعاصي أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام وإن كان هناك صالحون[1].

فعن زينب بنت جحش، رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل عليها فزعًا يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه)، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم، إذا كثر الخبث)[2].

إن الله كتب النصر والغلب لعباده المتقين والخذلان والحسرة لمن يعاديهم ويقاتلهم من الكفار للصدّ عن سبيل الله، ليميز الكفر من الإيمان، والحق والعدل من الجور والطغيان.

وهذا التمييز بين الأمرين في سنن الاجتماع هو بقاء أمثل الأمرين وأصلحهما، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، وسنن الله في الدنيا والآخرة واحدة، فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة.[3]

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب، فقال عز وجل في حق اللوطية: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقالت اللوطية: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النمل: ٥٦]، فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الخبيثون الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له.

فكان الجزاء موافقًا لأعمالهم الخبيثة، فأنزل الله عز وجل عذابه عليهم، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٣ - ٧٥].

«قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مسومة مرقوم على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها»[4].

(١) العمدة من الفوائد والآثار الصحاح في مشيخة شهدة، شهدة الإبري، ص ٤١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج ٤/ ١٣٨، رقم ٣٣٤٦.

(٣) تفسير المراغي ٩/ ٢٠٦.

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٨٢.

لقد حرم الله الجنة على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين ولا يدخلها إلا طيب، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

فإنما استحقوا سلام الملائكة ودخول الجنة بطيبهم، والزناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه وتعالى جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميز الخبيث من الطيب، وجعل الخبيث بعضه على بعض ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم، فلا يدخل النار طيب، ولا يدخل الجنة خبيث[1].

موضوعات ذات صلة:

الأكل ، الخمر، الزنا، الشرب، الطعام، الطيبات، الفواحش، المال

(١) انظر: روضة المحبين، ابن القيم، ص ٣٦١.

الخسران

عناصر الموضوع

مفهوم الخسران	٣١٢
الخسران في الاستعمال القرآني	٣١٣
الألفاظ ذات الصلة	٣١٤
أسباب الخسران	٣١٥
نماذج من الخاسرين في القرآن	٣٣٨
وسائل النجاة من الخسران	٣٤١
عقوبة الخاسرين	٣٤٩

مفهوم الخسران

أولًا: المعنى اللغوي:

هي صيغة مبالغة من لفظة خسر: «الخاء والسين والراء أصل واحد، يدل على النقص، فمن ذلك الخسر والخسران، كالكفر والكفران، والفرق والفرقان، ويقال: خسرت الميزان وأخسرته، إذا نقصته»[(١)].

والخسر والخسران انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّفه الشنقيطي قائلًا: «والخسران في اصطلاح الشرع: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه جل وعلا ؛ لأن الإنسان إذا غبن في حظوظه من ربه جل وعلا فقد خسر الخسران المبين»[(٣)].

ومن خلال المعنى اللغوي السابق، ومعاني الآيات التي وردت فيها لفظة الخسران يمكن أن يقال في التعريف الاصطلاحي لكلمة الخسران: «هو ضلال السعي وفقدان الأموال والأهل في الدنيا والآخرة، والوقوع في الهلاك والضلال»، أو «هو فقدان الأعمال والأموال والأهل والأجر والثواب في الدنيا والآخرة، بسبب ضلال السعي والانحراف عن دين الله».

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٨٢.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٣١٢.
(٣) انظر: العذب النمير، ٣/ ٨٥.

الخسران في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (خ س ر) في القرآن الكريم (٦٥) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٥	﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:١١٩]
الفعل المضارع	٣	﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الجاثية:٢٧]
المصدر	٩	﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر:٢]
اسم فاعل	٣٤	﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر:١٥]
اسم تفضيل	٤	﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ [النمل:٥]

وجاء الخسران في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: النقص، ومنه قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:٣] أي: ينقصون.

الثاني: الغبن، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر:١٥] أي: الغبن المبين.

الثالث: العجز، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف:١٤] أي: إذًا لعجزة.

الرابع: الضلال، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:١١٩] أي: ضل ضلالًا مبينًا.

الخامس: العقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]. أي: في العقوبة.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٠٢-٢٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الضلال:

الضلال لغة:

مصدر (ضلّ)، والذي يعني الضياع والذهاب والغياب، وكل من زاغ عن المطلوب والقصد يسمى (ضالًّا)، و(يضلّ ويضلّ) لغتان عند العرب[١].

الضلال اصطلاحًا:

«كل عدول عن النهج عمدًا أو سهوًا قليلًا كان أو كثيرًا»[٢].

الصلة بين الضلال والخسران:

العدول عن الطّريق المستقيم يبعد المرء عن الوصول لمقصده أكثر فأكثر، وبالتالي لا يحقق المرء غايته أبدًا، وهذا من الخسران.

٢ الفلاح:

الفلاح لغة:

«الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على شق، والآخر يدل على فوز وبقاء، فلح فلاحًا: ظفر بما يريد»[٣].

الفلاح اصطلاحًا:

اسمٌ جامع للظّفر بالمطلوب، والنّجاة من المرهوب[٤].

الصلة بين الفلاح والخسران:

العلاقة بينهما التضاد؛ إذ الضلال العدول عن الطريق المستقيم، والابتعاد عن الوصول للمقصود والغاية، وأما الفلاح فهو الظفر بالمطلوب.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٩٠، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٦٣.

(٢) الكليات، الكفوي ص ٥٦٧.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤ / ٤٥٠.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٨٢.

أسباب الخسران

معلوم أن أسباب الخسران عديدة، وأحببنا أن نبرزها ونوضحها من أجل أخذ الحيطة والحذر من الوقوع فيها؛ وذلك لأجل النجاة يوم القيامة من عذاب الله، والفوز برضوانه والجنة، ولم لا نكون مثل حذيفة بن اليمان الذي كان يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشر، مخافة أن يصيبه؟ فقد روى أبو إدريس الخولاني أنّه سمع حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم)[1].

وسوف نورد هذه الأسباب في النقاط الآتية:

أولًا: الكفر بالله تعالى:

حياة الإنسان قائمة في الحياة الدنيا على الإيمان بالله بكل ما أمرنا به، ونهانا عنه، ومن يحقق الإيمان فقد نجا وفاز يوم القيامة بالجنة ورضوان الله، وأما من يكفر بالله، ويجحد بالإيمان فقد باء بغضب من الله، وضل ضلالًا بعيدًا، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت:٥٢].

فأي خسران بعد خسران الإيمان؟! إنه أعظم مصيبة على الناس في هذا الوجود؛ فالكفر والإشراك بالله يعدّ من أعظم الكبائر التي حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم منها، فعن أنس رضي الله عنه قال: (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعظم الكبائر فقال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور)[2].

ويعدّ ذلك أيضًا من السبع الموبقات التي تلقي صاحبها في نار جهنم، وبهذا باء بالخسارة في الآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم ٢٦٥٣.

عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله!، وما هن؟ قال: الشرك بالله..)[1].

ولكن من يكفر بالله وينكر وجوده ولقاءه يوم القيامة فقد خسر خسرانًا مبينًا؛ لأنه كفر بأهم ركن، ألا وهو الإيمان بالله وبلقائه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام:٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [السجدة:١٠]؛ وبهذا خسروا الدنيا والآخرة؛ لأنهم لم يعملوا ليوم البعث وكفروا به، وقصروا أمرهم على الحياة الدنيا، فضيّعوا أنفسهم وحظهم من الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥].

وبهذا فقد بطلت وخابت كل الأعمال التي يقوم بها الكافر، حيث لا تنفع صاحبها يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور:٣٩].

وسوف يتناول البحث الآيات التي تبيّن الخسران الذي يناله هؤلاء الكافرون بربهم، وذلك فيما يأتي.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة:١٢١].

وأشار الطبري إلى اختلاف أهل التأويل في الذين عناهم الله جل ثناؤه بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فقال بعضهم: هم المؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، ذكر ذلك عن قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قال: هؤلاء أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بكتاب الله وصدّقوا به.

وقال آخرون: بل عنى الله بذلك علماء بني إسرائيل الذين آمنوا بالله، وصدّقوا رسله، فأقرّوا بحكم التوراة، فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به، والتصديق بما جاء به من عند الله، ذكر ابن زيد في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قال: من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم من يهود فأولئك هم الخاسرون.

ورجّح الطبري هذا القول، مستدلًّا بأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل منهم كتاب الله، وتأويلهم إياه على غير تأويله، وادّعائهم على الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ٢٦٢.

الأباطيل، ولم يجر لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الآية التي قبلها ذكر، فيكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ موجهًا إلى الإخبار عنهم، وليس لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها، وبالتالي فالذي هو أولى بمعنى الآية أن يكون موجهًا إلى أنه خبر عمن قصّ الله جل ثناؤه في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل[1].

وأما قوله: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: يتبعونه حق اتباعه، وقال آخرون: يقرءونه حق قراءته.

والمعنى: الذين آتيناهم الكتاب يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبما جئتهم به من الحق من عندي، يتبعون كتابي الذي أنزلته على رسولي موسى صلوات الله عليه فيؤمنون به، ويقرون بما فيه من نعتك وصفتك، وأنك رسولي، فرض عليهم طاعتي في الإيمان بك، والتصديق بما جئتهم به من عندي، ويعملون بما أحللت لهم، ويجتنبون ما حرمت عليهم، ولا يحرفونه عن مواضعه، ولا يبدّلونه، ولا يغيّرونه عما أنزلته عليهم بتأويل ولا غيره، وقيل: مراعاة اللفظ عن التحريف، والتدبر في معناه، والعمل بمقتضاه[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ٦٦٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ٦٦٤، أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٣٩٣.

وأما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: هؤلاء الذين أخبر عنهم يتلون ما آتاهم من الكتاب حق تلاوته، فيصدّقون به، ويذعنون لما أمر به ونهى عنه، ويعملون بموجبه، وهؤلاء من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾ [آل عمران:١١٣-١١٥].

وقال أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

هذا التفسير على أساس أن الكتاب، هو كتاب أهل الكتاب الذي آمنوا به ولم يحرّفوه عن مواضعه، ولم يكتبوه بأيديهم، ويلووا به ألسنتهم، ويقولوا هو من عند الله، وما هو من عند الله.

ولكن من المفسرين من قالوا: إنه القرآن الكريم، وإطلاق اسم الكتاب عليه من غير ذكر أنه القرآن؛ للدلالة على كماله وأنه لا يماثله من الكتب كتاب، ولو كان سماويًا؛

لأنه الكتاب الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[1].

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة:١٢١] أي: ومن يكفر بهذا ويجحد بما أنزل إليك، وينكر البشارة فيك، وذلك بتحريف كتبهم لتوافق أهواءهم، ويجحد بآياته وإنكار أحكامه، وما فيه من فرائض الله، أولئك هم الذين خسروا علمهم وعملهم، فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله، واستبدلوا بها سخط الله وغضبه.

وقيل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الضالون الهالكون الذين خسروا سعادة الدنيا، ونعيم الآخرة؛ ذلك لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والكفر بالإيمان، وقيل: بتجارتهم التي كانوا يعملونها بأخذ الرشا على التحريف، وحكم سبحانه عليهم بالخسران مؤكدًا بضمير الفصل «هم»، وبالجملة الاسمية[2].

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: المغبونون في صفقتهم؛ حيث اشتروا الكفر بالإيمان، والآية من قبيل المجادلة بالتي هي أحسن، حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل، والكفر والخسران إليهم، بل بالإبهام[3].

وهناك الكثير من الآيات والأحاديث الدالة على خسران هؤلاء الكافرين في الدنيا والآخرة، والمحذرة من الكفر بالله سبحانه وتعالى.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ٤٥﴾ [يونس:٤٥].

وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [غافر:٨٥].

وقوله أيضًا: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٥٢﴾ [العنكبوت:٥٢].

قال سيد قطب: «الخاسرون على الإطلاق، الخاسرون لكل شيء، الخاسرون للدنيا والآخرة، الخاسرون لأنفسهم وللهدى، والاستقامة، والطمأنينة، والحق والنور.

إن الإيمان بالله كسب، كسب في ذاته، والأجر عليه بعد ذلك فضل من الله، إنه

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١/ ٦٦٥، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١/ ٣٨٩.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١/ ٥٨٧، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ١/ ٣٩٠، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ١/ ٢٢٤.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ١٥، المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري، ٤/ ١٨٨.

طمأنينة في القلب، واستقامة على الطريق، وثبات على الأحداث، وثقة بالسند، واطمئنان للحمى، ويقين بالعاقبة، وإن هذا في ذاته لهو الكسب؛ وهو الذي يخسره الكافرون»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان)، وفي آخر الحديث (كل الناس يغدوا، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)[2].

ثانيًا: التكذيب:

إن التكذيب والجحود سواء أكان بالله أم بآياته أم برسله أم بالبعث من أقبح أنواع التكذيب، وهو سبب رئيس للخسران في الدنيا والآخرة، ونبين خطورة هذا السبب فيما يأتي:

١. التكذيب بالله تعالى.

إن التكذيب بالله تعالى وعدم طاعته فيما أمر لهو أكبر خسران يناله الإنسان في حياته.

أما أولئك الذين حسبوا أنهم خلقوا لغير طاعة ولا عبادة، فينكر الله عليهم ذلك بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

وإن ترك العبادة والطاعة لله يوقع الإنسان في خسران لا يحمد عقباه في العاجل والآجل.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: ٨-٩].

يخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن كثير من أهل القرى الذين خالفوا أمر ربهم، يعني: أبت وعصت عن أمر ربها، وقيل: العتو المعصية، وقيل: العتو مجاوزة الحد في المعصية، وقيل: أعرضت عنه على وجه العتو والفساد، وقيل: تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، فكذّبوهم ولجوا في طغيانهم يعمهون.

فحاسبها الله حسابًا عسيرًا، أي: جازاها الله بعملها، ويقال: حاسبناها في الآخرة حسابًا شديدًا، وقيل: بالاستقصاء والمناقشة، وعذّبها عذابًا نكرًا، وعبّر بالماضي عن المستقبل: دلالة على التحقيق[3].

ثم بيّن الله سبحانه وتعالى أن هذا جزاء ما كسبت أيديهم، فقال: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ أي: فجنت ثمار ما غرست أيديها، ولا يجنى من الشر إلا الشر، كما جاء في أمثالهم: «إنك لا تجني

(١) في ظلال القرآن، ٢١/ ٢٧٤٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٥٣٤.
(٣) انظر: تفسير المراغي، ٢٨/ ١٤٩، الأساس في التفسير، سعيد حوى، ١٠/ ٥٩٨٣.

من الشوك العنب»[1]، «فكان عاقبة أمرها الخسران والنكال الذي لا يقدر قدره»[2].

وقيل: «المراد: حساب الآخرة وعذابها، وما يذوقون فيها من الوبال، ويلقون من الخسر»[3].

٢. التكذيب بآيات الله.

إذا أردنا التعرف على المقصود بآيات الله، ترى هل يقصد بها كلام الله الموحى به إلى رسله ليبلغوا عنه شرعه ودينه عليهم الصلاة والسلام فقط؟

لا شك أن هناك معنى آخر للآيات، فإن آيات الله قد تشمل العلامات، والأدلة، والبراهين التي أبرزها الله لعباده من أجل هدايتهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

ولكن هناك من ختم الله على قلوبهم فجحدوا بهذه الآيات، وكفروا بها، بل أنكروها وكذبوا من أتى بها أو أبرزها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام:٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام:٢٥].

فكانت عاقبتهم الضياع والهلاك، بخسران أنفسهم وأهليهم، وخسران كل شيء من رحمة الله، ومغفرته، والفوز بجنته يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران:٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران:١٩].

وسنتناول الآيات التي تبرز الخسران الذي سوف ينالونه من وراء كفرهم بآيات الله، وذلك فيما يأتي.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس:٩٥].

الخطاب في هذه الآية موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، لكن المراد به غيره؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم على يقين مما جاء به أنه الحق، فبعد أن اشتد الموقف وتأزم في مكة بعد حادثة الإسراء، وبعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وأبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، واشتداد الأذى على الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، وبعد تعثر الدعوة في مكة بسبب عناد قريش.

فبعد هذا كله يوجّه الله سبحانه خطابه

(١) المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، ١/ ٤١٦.
(٢) تفسير المراغي، ٢٨/ ١٤٩.
(٣) الأساس في التفسير، سعيد حوى، ١٠/ ٥٩٨٣.

إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يكون من الشاكّين في صحة الإسلام، وأنه الدين الحق الذي يأبى الله إلا أن يظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس:٩٤].

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ نفسًا وعملًا، وهذا كله من باب التهييج والتثبيت، وقطع أطماع المشركين عنه، وقيل: «المراد ممن عنده شك وارتياب، وقد كان الناس في أول عصر النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاث فرق: مصدّقين، ومنكرين، ومتوقفين، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب»[1].

ومن الآيات الدالة على خسارة الكافرين المكذّبين بآيات الله، قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر:٦٣].

٣. التكذيب برسل الله.

إن التصديق برسل الله والإيمان بهم جميعًا هو ركن من أركان الإيمان، والتكذيب بهم ينفي الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس:٣٠].

وقال أيضًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

فكل من وقع في الاستهزاء برسل الله وكذبهم في رسالتهم، لا شك أنه سيخسر خسرانًا مبينًا بدخول جهنم، وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف:١٠٦].

وقد ذكر الله ذلك الخسران لهؤلاء المستهزئين بشكل واضح وصريح في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام:١٠-١٢].

يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أهل الكفر الذين كثيرًا ما

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١١/ ١٨٢٠، أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٠٨، صفوة البيان لمعاني القرآن، لحسنين مخلوف، ص ٢٨٣، المقتطف من عيون التفاسير، للمنصوري، ٢/ ٤٩٨.

سخروا من قبل بالرسل السابقين، وهذا من باب التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، لما كان فيه من بلاء وابتلاء، فقد ابتلي من المشركين بالإنكار والمعاندة، وطلب الآيات المعجزات، ولا يقصدون بذلك إلا المهاترة، وقد سبق إنكارهم كلّ دليل يساق إليهم، فابتلى الله النبي صلى الله عليه وسلم باستهزائهم والسخرية منه، وقد أكد الله سبحانه وتعالى الاستهزاء بالرسل بـ(قد) وبـ(اللام) في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

وبسبب هذا الاستهزاء نزل ما نزل من عذاب بأمر الله، وبأيدي المؤمنين حيث أحاط بهم الأثر المؤلم بسبب سخريتهم [(١)].

«ثم يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهؤلاء المستهزئين: سافروا في الأرض، وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات، وكيف كانت عاقبتهم بعد ما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة، وجناتهم مغبرة، وأراضيهم مكفهرة، فإن كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لاحقون، وبعد هلاكهم هالكون» [(٢)].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

جعل الله الكفر في هذه الآية نتيجة للخسران، فالخسران بدايته، والكفر نهايته، أو هما متلازمان، فالخسران سابق ولاحق؛ لأنه يترتب على الكفر خسران متضافر.

والخسران الذي يسبق الكفر، هو خسران الفطرة، فلا يكفر بالدليل القاطع إلا بخسران فطرته، وخسران الإدراك السليم، وخسروا عقولهم إذ سيطرت الأوهام عليهم، وخسروا نفوسهم فصارت معوجة، وخسروا قلوبهم فصارت مظلمة، وإذا كانت كل مداركهم قد سدّت فهم لا يؤمنون؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلب مخلص، وعقل مدرك، وإذعان للحق إذا بدت معالمه، وظهرت أماراته.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عبر بالمضارع للإشارة إلى أنهم لا يكون الإيمان شأنًا من شئونهم على الدوام؛ ذلك لأن من امتلأت نفسه بالأوهام، وصارت عشًّا لها، وضلت عقولهم لا يمكن أن تذعن لشيء، بل هي دائمًا مضطربة حائرة تنتقل من ضلال إلى ضلال [(٣)].

٤. التكذيب بالبعث.

يؤمن المسلم بأن لهذه الحياة الدنيا ساعة أخيرة تنتهي فيها، ويومًا آخرًا ليس بعده من يوم، ثم تأتي الحياة الثانية في الدار الآخرة،

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٦/ ٣٥١٨، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٤٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١١٨.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٥٠.

فيبعث الله سبحانه الخلائق بعثًا، ويحشرهم إليه جميعًا ليحاسبهم، فيجزي الأبرار بالنعيم المقيم في الجنة، ويجزي الفجّار بالعذاب المهين في النار[1].

ولكن هناك من ينكر البعث، ويكفر به، معتقدًا أن الحياة الدنيا هي الحياة الباقية، ولا حياة أخرى بعدها.

قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن:٧].

إنهم أخطأوا فيما اعتقدوه؛ لأن الأدلة والبراهين تثبت بأن هناك حياة أخرى، يحاسب الإنسان فيها على أعماله في الحياة الدنيا، وأنها هي الحياة الباقية الدائمة بعد الحياة الزائلة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة:١-٨].

ومن أصر على كفره وجحوده بالبعث فقد خسر خسرانًا مبينًا.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۝٣١﴾ [الأنعام:٣١].

تصور لنا هذه الآية مشهدًا من مشاهد يوم القيامة للكافرين الذين يكذبون باليوم الآخر، وينكرونه، ألا وهو يوم الحساب والجزاء، وبهذا خسروا كل ما ربحه المؤمنون من فوز وثواب لتفريطهم في طاعة الله وعمل الخير؛ فكانوا كالحيوان الذي يعيش ليأكل وليس له غاية أسمى وأعظم من ذلك، فيفقد كل المعنويات العالية، ولأنه يرتع في الشهوات الموبقة؛ ولأنه يكون في تناحر مستمر، إذ لا يخشى الله ولا يرهب عقابه، وأخيرًا يخسر رضوان الله وجنته، ويتلقى العذاب الذي يقع عليه يوم تقوم الساعة[2].

«وقد وصفوا بالخسران؛ لأنهم باعوا الإيمان بالكفر، فعظم خسرانهم في ذلك البيع»[3].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: حتى فوجئ الكافرون بالساعة، أي: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، والتي لا يعلم أحد مجيئها غيره سبحانه وتعالى.

فإن قيل: الساعة تجئ من غير علم بوقتها للجميع، فكيف تكون بغتة للذين كذبوا بلقاء الله دون غيرهم.

(١) انظر: منهاج المسلم، الجزائري، ص ٣٩.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٨٠، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٧/ ٩٦.

(٣) الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٦٣.

الجواب على ذلك: إن الذين آمنوا بلقاء الله تعالى يتوقعونها، وإن لم يعلموا بوقتها، أما الذين كذّبوا فهم يكفرون بها فيفاجئون بها، وإن الذين آمنوا يرجون لقاء ربهم، ويرجون رحمته، وأما الذين كفروا بلقاء الله تعالى فلا رجاء عندهم.

وقد عبّر عن قيام الساعة واليوم الآخر بلقاء الله تعالى، تشريفًا لذلك اليوم، وفيه ترغيب في الإيمان باللقاء، وترهيب من تكذيبه، وسميت القيامة ساعة؛ لأنها تحمل أشد الأهوال؛ ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة، حياة فانية وأخرى باقية، حياة عمل، وحياة جزاء[1].

وقيل: «لأنها تفاجئ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا هو تعالى»[2].

﴿قَالُوا يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ يعني: منكري البعث، وهم كفار قريش، ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد، فقالوا: يا ندامتنا ويا حسرتنا على ما قصرنا في الحياة الدنيا؛ إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينجينا، أو على ما فرطنا في شأنها، ومراعاة حقها، والاستعداد لها، بالإيمان بها، واكتساب الأعمال الصالحة، وعلى ما فاتنا من تهذيب الأخلاق المهيئة للسباق، ولا خسران أعظم من هذا»[3].

ثالثًا: فعل المحرمات:

حذّرنا الله سبحانه وتعالى من ارتكاب المحرمات وفعلها، وذلك كالزنا وشرب الخمر واللواط والقتل والربا؛ لأنها سبب في خسران الإنسان لدنياه وآخرته، وفي نيل غضب الله وسخطه، فلابد من إبرازها وتوضيحها لأخذ الحيطة والحذر من الوقوع فيها؛ وذلك لأجل النجاة يوم القيامة من عذاب الله، والفوز برضوانه والجنة.

وسوف نورد -إن شاء الله- بعضًا من هذه المحرمات بصورة مختصرة وبيان الخسران المترتب على فعلها وارتكابها.

١ . قتل النفس.

إن الإسلام حفظ للنفس الإنسانية حرمتها، إذ أعلى من شأن الإنسان لمجرد آدميته، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠].

وعلى قدر ما أعلى الإسلام من قدر الإنسان، فإنه اشتد في النكير على من يعتدي على حياته بغير حق، فجعل الله قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعًا؛

(١) انظر: المصدر السابق، ٢/ ٢٦٤، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٨١.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ٢٢٨٥.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢/ ٦٢٥، محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ٢٢٨٦.

لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٣٢].

ولم يأت القرآن بوعيد أشد من الوعيد الذي أنذر به قاتل النفس المؤمنة، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء:٩٣].

ولقد جاءت السنة النبوية بأحاديث عديدة، ترفع من شأن النفس البشرية، وفيها من الكشف عن فظاعة العدوان على الدماء البريئة ما يريع المشاعر، ويقرع القلوب قرعًا، حتى اعتبرت أن الدنيا كلها أهون عند الله من قتل نفس إنسانية، تقتل بغيًا بغير حق، عن عبدالله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم بغير حق)[1].

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام:١٤٠].

فهذه الآية تبين لنا الخسارة التي ينالها الإنسان في الدنيا والآخرة لكونه ارتكب جريمة شنعاء، ألا وهي قتل الأولاد بغير ذنب، وهي نفس حرم الله قتلها بغير حق.

يقول محمد رضا: «هذه الآية حكمت على مشركي العرب حكمًا حقًّا وعدلًا، وهو أنهم خسروا بقتل أولادهم وبوأد البنات، خسرانًا يستلزم خسران كلّ ما كان يرجى من فوائدهم من العزة والنصرة، والبر والصلة والفخر والزينة، والسرور والغبطة، كما يستلزم خسران الوالد القاتل لعاطفة الأبوة ورأفتها، وما يتبع ذلك من القسوة والغلظة والشراسة، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق التي يضيق بها العيش في الدنيا، ويترتب عليها العقاب في الآخرة، ولذلك علّل هذا الجرم بسفه النفس، وهو اضطرابها وحماقتها، وبالجهل أي عدم العلم بما ينفع ويضر، وما يحسن ويقبح.

ثم بعد هذا بيّن أنهم حرّموا ما رزقهم الله من الطيبات، وهذا سفه وجهل أيضًا... ثم بيّن نتيجة الأمرين؛ بأنهم قد ضلوا فيهما وما كانوا مهتدين إلى شيء من الحق والصواب من طريق العقل ولا من طريق الشرع، ولا

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، رقم ١٣٩٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٠٧٧.

من منافع الدنيا، ولا من سعادة الآخرة»[1].

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة في الآية أعلاه قال: «نزلت فيمن كان يئد البنات من مضرٍ وربيعة، كان الرجل يشترط على امرأته أنك تئدين جارية (أي: بنتًا)، وتستحيين (أي: تبقين) أخرى، فإذا كانت الجارية التي توأد غدا من عند أهله أو راح وقال: أنت عليّ كأمي (أي: محرمة) إن رجعت إليك ولم تئديها، فترسل إلى نسوتها فيحفرن لها حفرة فيتداولنها بينهن، فإذا بصرن به مقبلًا دسسنها في حفرتها، وسوّين عليها التراب (أي: وهي حية)، وهذا هو الوأد»[2].

وقيل: هؤلاء الذين صنعوا هذه الأفاعيل قد خسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فخسروا أنفسهم وأولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وخسروا عقولهم، وأزواجهم، وخسروا الكرامة التي جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره، وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد؛ حين أسلموها لحاكمية العبيد، أما في الآخرة، فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم[3].

ومعلوم عن المؤمن أنه يسمع ويطيع أوامر الله جميعًا بدون جدال ولا تهاون؛ لأنه أحرص ما يكون على مضاعفة حسناته وتكثيرها؛ لأنها السبيل إلى دخول الجنة والنجاة من النار، أما غيره فهو متهاون في الاستجابة لأوامر الله، وبالتالي تخف موازين حسناته، وذلك مدعاة إلى أن يخسر آخرته، ويبوء بسخط الله وعذابه، وذلك هو الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء:٨٠].

وقد بيّن الله في كتابه العزيز الخسران المبين لمن لا يستجيب لأوامره في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٧].

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: والفساد في الأرض ألوان شتى، تنبع كلها من الفسوق عن كلمة الله، ونقض عهد الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل.

ورأس الفساد في الأرض هو الابتعاد عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها، وإن الهدم والشر والفساد حصيلة الفسوق عن طريق الله، ومن ثم يستحق أهله أن يضلهم الله بما يهدي به عباده

(١) تفسير المنار ٨/ ١٣٠-١٣١ بتصرف.
(٢) انظر: الدرر المنثور، السيوطي ٣/ ٣٦٦.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٨/ ١٢٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٤٣.

المؤمنين[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: أي: الهالكون، بحرمان الله إياهم من رحمته لكفرهم ومعصيتهم إياه وارتكاب ما نهى عنه[2].

ذكر الرازي في كتابه: «أن معنى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: في تجارتهم حيث باعوا الشريف الباقي بالخسيس الفاني، وقيل: هم الخاسرون في إنكار ما قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوحيد والبعث»[3].

٢. الإلتهاء بالأموال والأولاد عن ذكر الله.

وأما بالنسبة للأولاد، فالله يمنح الإنسان أولادًا ليكونوا له زينة في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف:٤٦].

قال ابن تيمية: «وما كان ملهيًا وشاغلًا عما أمر الله تعالى به من ذكره والصلاة له فهو منهي عنه، وإن لم يكن جنسه محرمًا: كالبيع، والعمل في التجارة، وغير ذلك»[4].

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب، ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفًا أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية، وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله، وذكر الأموال والأولاد في الآية؛ لأنها أرغب الأشياء، وإن ألهته عن ذكر الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: خسروا آخرتهم وفضلوا دنياهم عليها، فضلوا الدنيا، وهي العاجلة الفانية على الآخرة، وهي الآجلة الباقية، خسروا كل شيء، مهما يملك من أموال ومن أولاد[5].

وقال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١﴾ [نوح:٢١].

إذًا لا فائدة من كثرة الأموال والأولاد؛ لأنها لن تغني الإنسان من الله شيئًا ومن عذابه وخسرانه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾ [المجادلة:١٧].

الأصل في المؤمن أنه وقّاف عند حدود الله، فلا يحلّ إلا ما أحلّ الله، ولا يحرّم إلا ما حرّم الله، لكن إن تنكب الطريق، وسار

(١) انظر: جامع البيان، ١/ ٢٢٢، في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٥٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ٢٢٢.
(٣) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ١٨.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٢/ ٢٣٥.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٨/ ٣٥٨٠، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٢٨/ ٢٣٨.

في درب معوج، فوقع في محارم الله، وتنكر لما شرع الله افتراءً على الله، فهؤلاء قد باءوا بسخط من الله؛ لأنهم ضلّوا الطريق إلى الله، فيخسروا أعمالهم في الدنيا والآخرة خسارة تقودهم إلى جهنم وبئس المصير.

٣. الصد عن سبيل الله.

وهذه مشكلة واقعية قديمًا وحديثًا، وإن أعداء هذا الدين، يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين، ويترصدون المسلمين في كل مكان؛ ليصدوهم ويفتنوهم عن دين الله، فبدأ هذا الصراع منذ بدء الخليقة، ومع كل الأنبياء، واستمر عبر العصور والأجيال حتى يومنا هذا، فهذه إذن طبيعة الدعوات وطريق النبوات[١].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هود:١٩-٢٢].

يوضح الله سبحانه وتعالى في هذه الآية جناية هؤلاء الذين استوجبوا بها النار فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الدين الإسلامي، ويبغون أن تصير سبيل الله عوجاء، كما يهوون ويشتهون، فهم يريدون من الإسلام أن يبيح لهم المحرمات من الربا، والزنا، والسفور، ويريدون من الإسلام أن يأذن لهم في عبادة القبور، والأشجار، والأحجار إلى غير ذلك، ويضاف إلى هذا ذنب أعظم وهو كفرهم بالدار الآخرة، منكرين للبعث والنشور، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال[٢].

ثم بعد ذلك يبيّن الله حال هؤلاء المشركين في الآخرة؛ بأنهم استقروا في دار الشقاء، فخسروا كل شيء حتى أنفسهم بدخولها نار جهنم -والعياذ بالله- وخسروا سعادة الدنيا والآخرة، باشتراء الضلالة بالهدى، وياله من خسران مبين! وشقاء واضح!، وضاع وغاب عنهم ما كانوا يزعمون أن لهم شركاء، وأنهم يشفعون لهم وينصرونهم.

ثم يؤكد الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أنهم الأكثر خسرانًا من غيرهم؛ لأنهم أضافوا إلى جريمة كفرهم،

(١) انظر: الصد عن سبيل الله في ضوء القرآن الكريم، عبد السلام اللوح، وزكريا الزميلي، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، ص ٣٣.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٣٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٢/ ٣٤.

جريمة تكفير غيرهم ممن كانوا يدعونهم إلى الضلال، ويصدونهم عن الإسلام سبيل الهدى والنجاة من النار، وبهذا كانوا أخسرين، أي: شديدي الخسارة؛ لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما اقترفته الأمم الضالة، ولأنهم شقوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

وبهذا اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة[1].

٤. طاعة الشيطان.

وإن اتباع الشيطان وطاعته من أشد الأمور عداوة لله؛ ذلك أن الشيطان هو عدو الله في الأرض الذي رفض أمر الله بالسجود لآدم يوم خلقه الله، فطرده الله من رحمته ولعنه إلى يوم الدين، وقد أخذ الشيطان على عاتقه، وأقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم إلا المخلصين منهم.

قال تعالى وصفًا لما حدث: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٧٣-٨٣].

إذن هي عداوة قديمة ومتأصلة، وقد نهى الله عن اتباعه والسير على منهجه الكفري الضال، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩].

وقد بيّن الله لنا سبب هذا النهي، لكونه يأمر بالفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور:٢١].

ومع هذا التحذير والنذير إلا أن بعض الناس لا يطيب له إلا أن يتبع كل شيطان مريد، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج:٣-٤].

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٣٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٢/ ٣٨، المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري، ٢/ ٥١٨.

فكل من يقع في هذا النهي الإلهي، ويتبع خطوات الشيطان فإنه خاسر لا محالة؛ لأنه عصى الله بذلك، وأطاع عدوه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:١١٩].

يعني: من يواليه ويتبع وسوسته، ويطعه، ويترك أمر الله، وقيل: بإيثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به، ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته، فقد خسر خسرانًا مبينًا ظاهرًا في معاشه ومعاده، إذ يكون أسير الأوهام، والخرافات يتخبط في عمله على غير هدى، فيفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل، وسائر القوى والمواهب، وقيل: بدّل مكانه من الجنة بمكان من النار[1].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة:١٩].

فكذلك يصنع الشيطان بمن استحوذ عليه، فعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من ثلاثة في قرية، ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنه يأكل الذئب من الغنم القاصية)[2].

٥. طاعة الكافرين.

حذّر الله من طاعة المؤمن للكافرين وموالاتهم؛ لأنها تجعله في معصية لله، وقد نهى عن ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران:٢٨].

فإن والى المؤمن الكافر ظنًّا أنه يبتغي عنده العزة فهو واهم؛ لأن العزة لله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٩].

وقد نهى الله عن موالاة الكافرين وطاعتهم؛ لأنهم يصدون المؤمنين عن دين الله، ويخرجونهم من ديارهم، ويظاهرون على إخراجهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة:٩].

حقًّا إنه من يوالي الكافرين، فإنه قد ضل عن سواء السبيل، وسيخسر عمله في الدنيا

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٥/ ٤٣٠.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الإمامة، باب التشديد في ترك الجماعة، رقم ٨٤٧. وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ١٠٦٧.

والآخرة، وذلك هو الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [آل عمران:١٤٩].

يحذّر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية المؤمنين أن يطيعوا الذين كفروا، يعني: مشركي العرب، أبا سفيان وأصحابه، وقيل: اليهود والنصارى، وقال علي رضي الله عنه: يعني: المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دين آبائكم[1].

«فالطاعة: تطلق على امتثال أمر الآمر، وعلى الدخول تحت حكم الغالب، فيقال: طاعت قبيلة كذا، وطوّع الجيش بلاد كذا»[2].

فالكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان، ولا يكونان في قلب رجل واحد، ولذلك الآية الكريمة تحذر المؤمنين تحذيرًا عامًّا بألاّ يطيعوا الكافرين، ولا يستنصروا بهم، ولا يجعلوا لهم ولاية عليهم؛ لأن ولايتهم غير ولاية الله، وولاية الله هي الولاية الحق، وهم موضع غضب الله تعالى دائمًا، والذي يتولاهم ويستنصر بهم، فإنه يتولى قومًا غضب الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾ [الممتحنة:١٣].

والمعنى في هذا، هو التحذير من مسايرة الكافرين بأي نوع من أنواع المسايرة؛ إذ كل مسايرة طاعة، ولا يليق بالمؤمن أن يطيع كافرًا؛ لأنه يجب أن يكون في حذر دائم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نتيجة طاعة الكافرين في أي عصر من العصور إن كان هناك احتمال لذلك، فذكر في جواب الشرط نتيجتين، كلتاهما مترتبة على الأخرى، أولاهما: أشار إليها بقوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾، والثانية المترتبة عليها: أشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

فالنتيجة الأولى: ردهم على أعقابهم، فمعناها: أن يرجعوا إلى موضع الذلة الذي كانوا فيه قبل أن يؤذن لهم بالجهاد، أو يرجعوا إلى ما كانوا عليه في غير انتظام وفي اضطراب.

والنتيجة الثانية: هي الانقلاب خاسرين، والتعبير بالانقلاب: يفيد أن طاعة الكافرين حتمًا فيها تغيير حال أصل الإيمان، فجعل أعلى ما فيهم أسفل، وأن هذا الانقلاب تلابسه لا محالة الخسارة المؤكدة التي لا احتمال فيها؛ إذ يخسر المؤمنون إيمانهم، ويخسرون من وراء ذلك الآخرة، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ١٤٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ١٢١.

﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج:١١][1]، وقوله أيضًا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة:٥٣].

٦. الكفر بالأنبياء والرسل.

إن الإيمان بالأنبياء فهو ركن من أركان الإيمان، فإن اختل هذا الركن اختل إيمان الإنسان؛ وذلك لأن الأنبياء هم رحمة الله إلى عباده؛ ليقودوهم إلى رضوان الله والجنة، والنجاة من سخطه والنار، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

هذا حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، أما غيرهم فقد يكفر ويكيد بأنبياء الله والصالحين، فيقع في الكفر والخسران.

رابعًا: ترك الواجبات:

أمرنا الله سبحانه وتعالى بالقيام بكل الواجبات المفروضة علينا من عمل الصالحات والإكثار من فعلها بكل حكمة ورزانة؛ لأنه بهذا الأمر نستطيع أن نجنّب أنفسنا الخسران المبين، والهلاك والدمار، ومن لم يستجب ينال ما يستحق وسنورد بعضًا من ذلك:

فالخسران المبين لمن يتخذ الصلاة هزوًا ولعبًا دون خشوع وتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة:٥٨].

فالويل والهلاك للذين لا يطيعون الله في أوامره ويتهاونون في تطبيق واجباته؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون:٤-٥].

فتكون نتيجته الضلال والهلاك يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

تضمنت هذه الآية تحذيرًا للمؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين بانشغالهم بالأموال عن ذكر الله والصلوات والطاعات وجميع الفرائض، وقد اختلف المفسرون فيمن نزلت، فمنهم من قال: نزلت في حق المنافقين، ومنهم من قال: نزلت في حق المؤمنين[2].

والراجح أنها نزلت في حق المؤمنين

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٣/ ١٤٤٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/ ١٨، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٩/ ٢٣٧.

تحذّرهم، وخاصة أن الآية ابتدأت بالخطاب الموجه لهم، وأيضًا الآيات السابقة كانت تتحدث عن قبائح وأعمال المنافقين، فكان حريًّا أن يتم تحذير المؤمنين من التشبه بالمنافقين.

وقد حكم الله بكفر من لا يستجيب لأمره بدفع الزكاة، وبالتالي سينال جهنم، ويكون من الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت:٧].

والصبر فضيلة من الفضائل، وخلق من الأخلاق التي عني بها القرآن الكريم، فالهلاك لمن يترك الصبر ولا يتحمل ما أصابه الله به؛ لأنه سيؤدي به إلى أن يسخط على الله، ويخرج من دائرة الإيمان، ويصل به إلى اليأس والقنوط من رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ [فصلت:٤٩].

وهذا لا يكون إلا من الضالين كما وصفهم الله في كتابه.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر:٥٦].

ويجب ألا نكون منهم لتركنا واجبًا مفروضًا علينا التمسك به، وبالتالي ننال الخسران في الدنيا والآخرة.

والتمسك بميثاق الله أيضًا من الواجبات المفروضة علينا، فمن نقض عهد الله وميثاقه تحلى بصفة من صفات المنافقين الخارجين عن حدود الله، ولابد من توضيحها؛ حتى نحذر من ارتكابها لنتجنب الخسارة في الدنيا والآخرة، فكيف سيكون حال مجتمع لا يفي فيه الناس بعهودهم فيما بينهم، فإنه ستنعدم ثقة بعضهم ببعض، فقد أمر الله سبحانه وتعالى في كثير من آياته، وكذلك نبيه صلى الله عليه وسلم بالوفاء بالعهود.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء:٣٤].

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل:٩١].

وعدّ النبي صلى الله عليه وسلم الخلف بالوعد من علامات النفاق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان)[1].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٢٧﴾ [البقرة:٢٧].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٢١١.

فسؤال يطرح نفسه، فأي عهد من عهود الله ينقضون؟ وأي أمر مما أمر الله به أن يوصل هو الذي يقطعون؟ وأي لون من الفساد في الأرض هو الذي يفسدون؟

وعهد الله المعقود مع البشر يتمثل في عهود كثيرة: إنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي، أن يعرف خالقه، وأن يتجه إليه بالعبادة، وما تزال هذه الفطرة مركوزة في الاعتقاد بالله، ولكنها تضل وتنحرف فتتخذ من دون الله أندادًا وشركاء، وعهد الاستخلاف الذي أخذه الله على آدم، وعهوده الكثيرة في الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده، وأن يحكّموا في حياتهم منهجه وشريعته، وهذه العهود كلها هي التي ينقضها الفاسدون[1].

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾: يقول الطبري: «مقصودٌ به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم، غير أن الخطاب -وإن كان لمن وصفت من الفريقين- فداخل في أحكامهم، وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ، كل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي»[2].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: أي: الهالكون، بحرمان الله إياهم من رحمته لكفرهم ومعصيتهم إياه وارتكاب ما نهى عنه[3].

وقيل: «أي: خسروا سعادتهم في الآخرة؛ حيث عرّضوا أنفسهم لعذاب جهنم المؤبد، ولا خسارة أعظم ممن خسر دنياه وأخرته، وقصر الخسران عليهم في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ لأنهم بإهمالهم للعقل، خسروا الحياة الأبدية»[4].

خامسًا: عدم مغفرة الله ورحمته للعبد:

معروفٌ أن الإنسان المؤمن الصالح بطبيعته حريصٌ على أداء الطاعات والعبادات، وفعل ما أمر الله به والابتعاد عما نهى عنه؛ لأن غايته من وراء ذلك كله الحرص على كسب رضوان الله سبحانه وتعالى والحصول على مغفرته ورحمته يوم القيامة، والفوز بجنته، وإن نسي أو أخطأ وغفل الإنسان، وهذا ليس عيبًا فيه؛ لأنه ضعيف يدخل إليه الشيطان، فيدرك خطأه، ويعرف زلته، نجده يسارع في الندم وطلب العون من ربه والمغفرة، وبالتالي إنه يثوب ويتوب، على عكس الإنسان الذي ينغمس في ملذات الدنيا وشهواتها، ويحرص كل

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٥١.
(٢) جامع البيان، ١/ ٢٤٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٢٢.
(٤) المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري، ١/ ٦٠.

الحرص على التمتع بالحياة الدنيا وزينتها، وبهذا يغفل عن أداء العبادات والطاعات، ولا يحرص على تجنب المحرمات، فتكون نتيجته أنه خسر وضاع، وذلك بفقدان أعظم شيء، ألا وهو مغفرة الله ورحمته، وفقدان الفوز بجنته ورضوانه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣].

فهذه الآية الكريمة تدل على ندم آدم وحواء على فعلتهما، فسارعا إلى التوبة والستر والغفران، على عكس مطلب إبليس طلب الإنظار ولم يطلب التوبة، وهذه خصيصة «الإنسان» التي تصله بربه، وتفتح له الأبواب إليه، الاعتراف، والندم، والاستغفار، والشعور بالضعف، والاستعانة به، وطلب رحمته، مع اليقين بأنه لا حول ولا قوة إلا بعون الله ورحمته وإلا كان من الخاسرين[1].

فهذه طبيعة الإنسان المؤمن فإنه إذا أخطأ أو غفل يسارع إلى طلب المغفرة والرحمة من الله تعالى.

ولكن هناك الكثير من الأمور يتساهل الناس في فعلها تكون سببًا في فقدانهم لمغفرة الله ورحمته، إذًا لابد من الحرص والحذر.

سادسًا: الدعوة إلى الباطل وترك الحق:

الدعوة إلى الباطل الذي هو نقيض الحق سبب في خسران الإنسان، فإن الباطل هو الطاغوت سواء أكان ذلك شيطانًا أم صنمًا، أم معتقدًا، أم معبودًا غير الله، وهو نقيض الإيمان بالله تعالى، وإن اعتقاد الباطل والعمل به يخرج الإنسان عن دينه وإيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل:٧٢].

فالنتيجة التي ينالها هؤلاء هي الخسران المبين.

سابعًا: خفة الموازين:

خفة موازين الإنسان يوم القيامة نتيجة عدم الإكثار من الطاعات، والعبادات، وكسب الحسنات، مما يؤدي إلى أن تكون سيئاتهم أكثر من حسناتهم، وبالتالي تكون خفة موازينه يوم القيامة، ونيل الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف:٩].

يقول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية: من خفت موازين أعماله الصالحة، فلم تثقل بإقراره بتوحيد الله والإيمان به، وبرسوله، فأولئك الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٨/ ١٢٧٠.

جزيل ثواب الله وكرامته؛ بسبب كونهم بحجج الله وأدلته يجحدون، فلا يقرّون بصحتها ولا يوقنون بحقيقتها[1].

ومن خفت موازينهم خسروا بسبب ظلمهم، وتضييع فطرة الإسلام التي ما من مولود إلا يولد عليها، أو فطرة الخير الذي هو أصل الجبلة، والمراد بالخسران: كونه في الهاوية من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون:١٠٣-١٠٤][2].

ثامنًا: الأمن من مكر الله:

إن المؤمن يتفطن دائمًا لمقام قدرته سبحانه وتعالى، فإذا عصى يتوقع عذاب الله تعالى بسبب عصيانه، ويتخوف ولا يأمن أن تنزل به العقوبة، ولفرط حسّه بمعصيته، وإيمانه بالله يخاف دائمًا عذابه، ولا يرجو أن يمهله الله وقد عصاه، على عكس الكافر تمامًا، فإنه يعصي، ويرى عصيانه حسنًا، وينسى قوة الله، وأنه يعاند ويحارب أمره ونهيه، ناسيًا أنه يعاند القوي القهار القادر الذي هو غالب على كل شيء، وأنه لا إرادة لمخلوق بجوار إرادته سبحانه وتعالى وعلى ذلك يأمن عذاب الله ومكره.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النحل:٤٥].

فيلاقي العذاب الشديد، وما لا يحسب عقباه.

قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل:٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقوله أيضًا: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩].

يوبّخ الله الذين يكذّبون رسله، ويجحدون مكره؛ لأنهم غفلوا عن الحق، ونسوا تدبير الله تعالى المهلك لهم جزاء بما كسبوا، وبما كذبوا بآيات الله، والفاء: في قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ﴾ جاءت عاطفة يترتب ما بعدها على ما قبلها؛ لأنهم إذا كانوا لم تجدهم النقمة ولا النعمة، ويأس الله يأتيهم في مأمنهم ليلًا وهم نائمون، وضحى وهم يعملون، ومع ذلك لا جدوى فيه، فهو لعب، أو كاللعب، فهم لا يأمنون المكر الإلهي.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٥/ ١٤٥.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٥/ ١٢٦، أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٢٦١.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي والتوبيخ، فهم لا يأمنون مكر الله، ومكر الله تعالى تدبيره المحكم الذي ينزل به العذاب السريع على من يستحقه، والأمن والطمأنينة لمن يستحقه، وهو الحكيم، وقد فسر بعض المفسرين بأنه العذاب أو البأس الشديد [(١)].

«والمكر قسمان:

١. مكر سيء: وهو الذي يكون من الأشرار، ونتيجته شر.

٢. ومكر طيب: وهو رد مكر الأشرار، ونتيجته طيبة.

ولقد قال في شأن قريش في تدبيرهم للنبي صلى الله عليه وسلم أن يبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران:٥٤] أي: أنهم كانوا يدبرون لإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ويمكرون المكر السيئ الذي لا يحيق إلا بأهله، والله تعالى يدبّر لنبيه نجاته منهم، وهجرته من أرضهم من غير إخراج، حتى يكون الفصل بينه وبينهم» [(٢)].

والكافر يعمل المعصية، ويعتقد أنه آمن، وما يغفل عن مكر الله إلا الذين هلكوا بذنوبهم؛ ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: حكم الله تعالى بخسارتهم، مؤكدًا الخسارة بالقصر، وأن الخسارة مقصورة عليهم، وخسارتهم في أنهم خسروا أنفسهم، فليسوا في حال عقلية مدركة، وخسروا أنفسهم بالاستمرار على غيهم، وخسروا بالعذاب الأليم الذي ينزل، والله سبحانه هو الذي يقي المؤمنين شر الغفلة والنسيان، وأمن عذاب الله، وجعلهم في فطنة دائمة، واعتبار بأمر الله ونهيه، وهو الهادي إلى سواء السبيل [(٣)].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٣/ ٧٥، فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٦١.

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٦/ ٢٩١٠.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٦/ ٢٩١١، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٩/ ١٠.

نماذج من الخاسرين في القرآن

من رحمة الله بعباده أنه ذكر في كتابه العزيز الكثير من الأساليب والوسائل، ومنها على سبيل المثال ضرب الأمثال، وسرد القصص، وذكر الأخبار، وذلك لحكمة يريدها الله؛ ليعتبر أولو الألباب، ويتخذوها قدوة لهم في الحياة، وإظهار مدى قدرة الله وعظمته، وإعجاز قرآنه وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [غافر:٧٨].

فإذا جاء الوقت وحان موعد العذاب، ينزله الله على الكافرين لإهلاكهم، وينجي الله رسله، والذين آمنوا معهم، ويهلك الذين افتروا وكذبوا وجحدوا آياته عز وجل وخسر في ذلك العذاب المتمسكون بالباطل على الإطلاق، فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولًا أوليًّا، لكونهم يجادلون في آيات الله سبحانه وتعالى [(١)].

وسنورد إن شاء الله نماذج من الخاسرين في القرآن في السطور الآتية:

أولًا: قابيل ابن آدم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة:٣٠].

هذه الآية تتحدث عن ابني آدم قابيل وهابيل؛ حيث إن هابيل كان أول من قتل في الأرض.

وقال الماوردي في كتابه: «إن (طوعت) فيها ثلاثة تأويلات، وهي:

أحدها: يعني: شجعت، وهو قول مجاهد.

والثاني: يعني: زينت، وهو قول قتادة.

والثالث: يعني: ساعدته» [(٢)].

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أي: زيّنت له وسهّلت عليه القتل، والإنسان إذا تصور أن قتل النفس من أكبر الكبائر صار ذلك صارفًا له عن القتل فلا يقدم عليه، فإذا سهّلت عليه نفسه هذا الفعل فعله بغير كلفة.

وقرئ ﴿فَطَاوَعَتْ﴾ على أنه فاعل بمعنى فعل، أو على أن قتل أخيه كأنه دعا نفسه إلى الإقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع.

وروي أنه جهل كيف يقتله، فجاء إبليس بطائر -أو حيوان غيره- فجعل يشدخ رأسه بين حجرين؛ ليقتدي به قابيل ففعل، وقال ابن عباس وابن مسعود: وجده نائمًا فشدخ رأسه بحجر، وكان ذلك في ثور «جبل

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٣/ ١٣٥، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ٢٤/ ١٤٧.

(٢) النكت والعيون، ٢/ ٣٠، بتصرف.

بمكة». وقيل: عند عقبة حراء، ويقال: إن قابيل كان يعرف القتل بطبعه؛ لأن الإنسان وإن لم ير القتل فإنه يعلم بطبعه أن النفس فانية ويمكن إتلافها، فأخذ حجرًا فقتله، ولما قتله ندم فقعد يبكي عند رأسه، إذ أقبل غرابان فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، ثم حفر له حفرة فدفنه، ففعل القاتل بأخيه كذلك[1].

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: ممن خسر حسناته، وقال مجاهد: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه إلى الشمس حيثما دارت، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج.

قال ابن عطيه: «فإن صح هذا فهو من خسرانه الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وإلا فالخسران يعم خسران الدنيا والآخرة»[2].

ثانيًا: قوم إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء: ٧٠].

قد روي أن الملك المعاصر لإبراهيم كان يلقب «بالنمرود» وهو ملك الآراميين بالعراق، وأنه قد أهلك هو والملأ من قومه بعذاب من عند الله، تختلف الروايات في تفصيلاته، وليس لنا عليها من دليل.

المهم أن الله قد أنجى إبراهيم من الكيد الذي أريد به، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة، والكيد هنا: أي مكر عظيم في الإضرار به، وقيل: هو الإضرار الشديد الذي يكون نتيجة الكيد والتدبير الخبيث، فأطلقوا السبب وأراد المسبب وهو الضرر، وكيدهم كان في مغالبتهم له ومجادلتهم، فكانوا هم الخاسرين في هذه المغالبة في الدنيا والآخرة، أي: أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق برهانًا قاطعًا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل، وموجبًا لارتفاع درجته، واستحقاقهم لأشد العذاب، والأخسرون جمع أخسر، والمراد: من بلغوا أقصى درجات الخسران[3].

وقيل: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي: في أعمالهم، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا، قال ابن عباس: سلّط الله عليهم أضعف خلقه البعوض، فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح، أكلت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدة في منخره فلم تزل تأكل

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣١٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٤٦١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٠.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٧/ ٢٣٨٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٦٨٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٦٩، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٩/ ٤٨٩٢.

إلى أن وصلت دماغه وكان أكرم الناس عليه الذي يضرب رأسه بمرزبة من حديد، فأقام بهذا نحوًا من أربعمائة سنة[1].

ثالثًا: قوم شعيب عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف:٩٢].

هذه الآية جملة مبنية لما حل بقوم النبي شعيب عليه السلام من النقمة:

فيخبر الله تعالى عن شدة قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف:٩٠].

فلهذا أعقبه بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١].

والمناسبة في ذلك: أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود:٨٧] فجاءت الصيحة فأسكتتهم، أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد، فأصبحوا في دارهم جاثمين[2].

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ والغنى: المنزل، والجمع المغاني، وهي المنازل التي بها أهلها، يقال: غنيت بالمكان إذا أقمت به، وغني القوم في دارهم، أي: طال مقامهم فيها، وقال ابن عباس وقتادة في معناها: كأن لم يعيشوا فيها، وقال ابن عباس: كأن لم يعمروا فيها.

ومعنى الآية: كأن لم يقيموا في دارهم أصلًا ولم ينزلوها يومًا من الدهر، فإن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب، وقيل: المعنى كأن لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين، يقال: غني الرجل إذا استغنى، وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر، والأول أولى[3].

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾: هذه الجملة متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين، وهل هناك خسران أشد من أن يخسر الإنسان نفسه، بعذاب في الدنيا والآخرة؟ وإعادة الموصول والصلة كما هي، لزيادة التقرير والإيذان بأن ما ذكر في حيز الصلة هو الذي استوجب العقوبتين[4].

فكل من عادى نبيًّا فهو خاسر في عاجل أمره وآجله؛ لأنه قد عادى الله الذي أرسل أنبياءه لخلقه.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٥٢٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٠٢.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ٣/ ٥٠٤، فتح البيان، القنوجي ٤/ ٤١٣.

(٤) انظر: في رحاب التفسير، كشك، ٩/ ٣٦٣.

وسائل النجاة من الخسران

بعد الانتهاء من بيان أسباب الخسران بالشرح والتوضيح والبيان، والإشارة إلى نماذج من الخاسرين في القرآن الكريم، كان لابد من وقفة على وسائل النجاة من الخسران التي هي بمثابة الذراع الحامي، والواقي للإنسان من الوقوع في الخسران، وهذه الوسائل هي التي تصل بالإنسان إلى الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

وسنتناول هذه الوسائل بالشرح والبيان؛ ليتضح للإنسان مدى أهميتها، ويتخذها وقايةً له من الوقوع في الخسران، ولذلك كان المثل المشهور: «درهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج»[1].

أولًا: الإيمان والعمل الصالح:

أول وسيلة من وسائل النجاة من الخسران يدور حول تحقيق الإيمان والعمل والصالح، وهذا العنوان يعتبر من أخطر العناوين شأنًا، وأعظمها قدرًا؛ لأنه أصل الأصول في النظام العام لحياة المسلم بكاملها، فالإيمان هو الذي أمرنا الله أن نلتزم به، ونحققه في حياتنا؛ لأنه السبيل إلى فلاحنا يوم القيامة، ونجاتنا من نار جهنم -والعياذ بالله- لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة)[2].

وليتجنب أيضًا المؤمن الخسارة عليه بطاعة الله ورسله، إذ الإيمان بالأنبياء ركن من أركان الإيمان، فإن اختل هذا الركن اختل إيمان الإنسان؛ وذلك لأن الأنبياء هم رحمة الله إلى عباده؛ ليقودوهم إلى رضوان الله والجنة، والنجاة من سخطه والنار.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥].

فهذا حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، والله حصر الإيمان فيمن التزم الدين كله باطنًا وظاهرًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [الأنفال:٢-٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ

(١) قالوا في المثل، موسوعة في الأمثال والحكم السائرة نثرًا وشعرًا، عيسى عطا الله، ١/ ١٥٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم ٣٠٩٢. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

﴿نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٥-١٧].

والإيمان الكامل هو الإيمان الشامل لكلٍّ من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقضاء خيره وشره، والإيمان بالغيب، والبعث، والحساب، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن وفد عبد القيس... أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: (أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس)[1].

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

فالإيمان فرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان[2].

ومن تحقق الإيمان في قلبه حقًّا فقد نال أجره كاملًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة:٦٢].

وفاز فوزًا عظيمًا، وكان من المفلحين، ونال ما وعده الله سبحانه به يوم القيامة من نيل رضوان الله ورحمته ودخول جنته، قال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح:٥].

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥].

ومن الأعمال الصالحة التي لابد أن يقوم بها الإنسان، التزام الأخلاق والسلوكيات الصالحة، والأخلاق قسمان: أخلاق كريمة، وأخلاق ذميمة.

وقد جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، رقم ٥٣.

(٢) انظر: معارج القبول، حافظ حكمي ٢/ ٥٩٧.

تزكية النفوس وتطهيرها؛ حتى تكون كريمة الأخلاق، نبيلة السجايا، فلم تدع خلقًا كريمًا إلا رغّبت فيه، كالصدق، والوفاء بالعهد، والجود، والصبر، والتقوى إلى غيرها من الأخلاق الكريمة، ولم تدع خلقًا ذميمًا إلا حذّرت منه، كالكذب والبخل والتجسس والنميمة إلى غيرها من الأخلاق الذميمة، بل إن جميع الأحكام الشرعية تدور مع الأخلاق حيث دارت، فلا ترى حكمًا شرعيًّا يعارض الأخلاق ويصادمها، وحسبك أن الله أثنى على عبده ورسوله محمد بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤].

فالنبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا، فهو الأسوة والقدوة لنا جميعًا حيث بلغ بأخلاقه الكريمة منازل عالية.

والأخلاق الكريمة تدعو إليها الفطرة السليمة، فالبشر كانوا ولا يزالون يعدّون الصدق والوفاء بالعهد والجود والشجاعة والصبر أخلاقًا فاضلة، يستحق صاحبها الثناء والتكريم، ولا يزالون يعدون الكذب والغدر والجبن أخلاقًا سيئة، ترفضها العقول السليمة وتذم صاحبها، والشريعة جاءت داعية إلى المعروف من الأخلاق، والسلوكيات الصالحة، وتنهى عن المنكر منها، فدعا الحق عباده إلى المبادرة إلى رحمته وجنته التي أعدها للمتقين من عباده، وأول صفاتهم تحليهم بالأخلاق الفاضلة، من الإنفاق في حال اليسر والعسر، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس في قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة:١٧٧].

وكذلك رغّب النبي صلى الله عليه وسلم باتباع الأخلاق الحميدة، وحذّر من كل خلق ذميم، فالخير الحقيقي في ميزان الرسول هو الخلق الحسن، فعن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطّلع عليه

الناس)[1].

والخلق سبيل الارتقاء إلى مدارج الكمال، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من خيركم أحسنكم خلقًا)[2]، و أيضًا عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وألطفهم بأهله)[3].

وأحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقربهم منه مجلسًا يوم القيامة أحسن المؤمنين خلقًا، فعن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله؟ قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون)[4].

والمؤمن هو من يلتزم بأوامر الله سبحانه وتعالى ويتحلى بالأخلاق الحميدة، ويبتعد عن نواهيه، ويتجنب الأخلاق الذميمة[5].

فإن صار على ذلك فقد فاز وأفلح يوم القيامة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بذلك في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون:١].

وقوله: ﴿۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٨٩﴾ [البقرة:١٨٩].

ومن الآيات التي بينت الفوز والفلاح والثواب الذي يناله من يلتزم بالأخلاق الفاضلة، وفي ذلك وقاية له من الخسارة في الدنيا والآخرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١١٩﴾ [المائدة:١١٩].

تبيّن هذه الآية الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين، الذين التزموا بهذا الخلق الحميد، فيقول الله تعالى يوم القيامة عقب جواب عيسى عليه السلام مشيرًا إلى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الذين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تفسير البر والإثم، رقم ٦٥١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي فاحشًا ولا متفحشًا، رقم ٦٠٢٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان، رقم ٢٦١٢.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في معاني الأخلاق، رقم ٢٠١٨.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ١٦٤٢.

(٥) انظر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة، عمر الأشقر، ص ٢٥٠.

هو في زمرتهم، ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، ومعنى نفع الصدق صاحبه في ذلك اليوم، أن ذلك اليوم هو يوم الحق، فالصادق ينتفع فيه بصدقه؛ لأن الصدق خلق حسن، فلا يكون له في الآخرة إلا الأثر الحسن.

والصادقون: الرسل الناطقون بالصدق الداعون إلى ذلك، والأمم المصدّقون لهم، المعتقدون بهم قولًا وعملًا، لهم نعيم دائم، وثواب خالد، وهو الفوز الكبير، رضي الله عنهم بالطاعة، ورضوا عنه بنيل الكرامة والرضوان، وهو فيض زائد على الجنات لا غاية وراءه، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نيل الرضوان ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: النجاة الوافرة، وحقيقة الفوز نيل المراد، وقد عظّم الفوز لعظم شأن المطلوب، الذي تعلق به الفوز، وهو الرضى الذي لا مطلب وراءه أصلًا[1].

ثانيًا: التوبة من المعاصي:

من رحمة الله تعالى بعباده، أن شرع التوبة للعاصي؛ لئلا ييأس من رحمة الله بمجرد المعصية.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

وكيلا يزداد العاصي انحرافًا وطغيانًا، فقد جعل له طريق الرجوع إلى الصواب، وهي مبدأ طريق السالكين، ومفتاح سعادة المريدين.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

وقال أيضًا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك، يا ابن آدم: إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة)[2].

قال الحسن البصري: التوبة النصوح:

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/ ١١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، رقم ٣٥٤٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٣٥٤٠.

هي الندم بالقلب، والاستغفار، والترك بالجوارح، والإضمار أن لا يعود؛

ولهذا أوجب الله تعالى التوبة على عباده، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

والتوبة تكون بالقلب واللسان والجوارح، فبالقلب يكون التضرع، والتذلل، وباللسان الاعتراف بالظلم والاستغفار، فعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من رجل يذنب ذنبًا، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله عز وجل، إلا غفر له)[(١)(٢)].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين والمؤمنات بالتوبة، وهي ترك ما من شأنه أن يغضب الله تعالى، وفعل ما وجب فعله، ومن ذلك غض البصر، وحفظ الفرج، والالتزام بالعفة، والستر، والتنزه عن الإثم صغيره وكبيره، فأعلنوا توبتكم، وارجعوا إلى الله بالطاعات، وامتثال أوامر الله عز وجل لتنالوا رضاه، وتتأهلوا للفلاح، الذي هو الفوز بالنجاة من المرهوب، والظفر بالمحبوب المرغوب -الجنة- والسعادة في الدنيا والآخرة[(٣)].

ثالثًا: التواصي بالحق:

من صفات المؤمن التقي الذي يسعى لنيل رضا الله ورضوانه والفوز بجنته، أنه يحرص كل الحرص على التزام الحق في كل حياته وأمورها، ويحرص على دعوة الآخرين للتواصي بالحق، ومن استجاب فقد انطبق عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:٣].

والله سبحانه تعالى يحق الحق بكلماته رغمًا عن المشركين الكارهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، رقم ٤٠٦، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في أن الصلاة كفارة، رقم ١٣٩٥.
وحسنه الترمذي.

(٢) انظر: الأربعين في أصول الدين، الغزالي، ص١٤٣، قطوف دانية من الكتاب والسنة، محمود القيسية، ص١٨١.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٣/ ٥٦٧، المبصر لنور القرآن، لنائلة صبري، ١٨/ ١٣١.

دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال:٧-٨].

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى:٢٤].

هذا هو حال الله، ولما لا نكون ممن يتمسك بالحق، ونحرص على نشره وتطبيقه، وأن نتقي الله في ذلك؛ لأن به الفلاح في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

رابعًا: التواصي بالصبر:

الصبر فضيلة من أمهات الفضائل، وهو من أبرز الأخلاق التي عني بها القرآن العظيم، ويعتبر من دلائل صدق الإيمان، ووسيلة ضرورية يستعان بها في هذه الدنيا، وهو الدواء الشافي لنفس المصاب حيث يخفّف حزنها وآلامها، فذلك الصبر ضروري للإنسان لما له من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فهو ضرورة لازمة له ليرقى ماديًّا ومعنويًّا، ويسعد فرديًّا واجتماعيًّا، فلا ينتصر دين، ولا تنهض أمة إلا بالصبر، والصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر.

وهو ضرورة لازمة لأهل الإيمان؛ لأنهم أشد الناس تعرضًا للأذى والابتلاء في أموالهم وأنفسهم، وفي كل عزيز لديهم، وكان أولوا العزم من الرسل أشد المرسلين ابتلاءً، فكان صبرهم محل القدوة والأسوة، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف:٣٥].

ولأهميته أمرنا الله به، في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

وأخبر الله أنه مع الصابرين في صبرهم في قوله تعالى أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

يعينهم الله على المشاق، وما يواجهونه في حياتهم، ويكافئهم على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل:٩٦].

وأنواع الصبر ثلاثة: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على المصيبة[1].

(١) انظر: الأخلاق في الإسلام، كايد فرعوس

والمؤمن الذي يستجيب لأمر الله فيتحلى بخلق الصبر، ويصبر على ما يصيبه فقد أعد الله له الجزاء العظيم، فأولًا يستحق البشرى.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:١٥٥].

وقال أيضًا: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل:١٢٦].

وكذلك يبيّن الله أنه يحب أهل الصبر في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران:١٤٦].

ويعدهم الله بمضاعفة الأجر، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:٥٤].

وبيّن الله أيضًا أن ثوابهم غير محدود، بل هو موكول لفضل الله تعالى الذي لا حدود له ولا قيود.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠].

ولهم الفوز والفلاح يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون:١١١].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠].

يحض الله تعالى المؤمنين في هذه الآية على ما يوصلهم إلى الفلاح وهو: الفوز بالسعادة والنجاح، والطريق الموصل إلى ذلك هو: لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس عما نكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم الله بالصبر على جميع ذلك، وأمرهم بالمصابرة أيضًا وهي: لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه[1].

وقيل: «﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ بمعنى واحد للتأكيد، وقال الحسن، وقتادة، والضحاك، وابن جريج: اصبروا على طاعة الله في تكاليفه، وصابروا أعداء الله في الجهاد. ورابطوا في الثغور في سبيل الله، وقيل: استعدوا للجهاد»[2]، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال:٦٠].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: «خافوه فلا تعصوه، واعملوا بما أنزل، ولا تهملوه، وارضوا بما قسم فلا تكفروه، واستعدوا ليوم الرحيل فلا تنسوه، ثم تأتي النتيجة بعد ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٢٩.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٤٨٥.

وخالد القضاة وغيرهم، ص ١٢٣.

﴿تُفْلِحُونَ﴾، أي: لتفلحوا، وتلك نتيجة أكيدة ويقينية، فمن صبر، وصابر، ورابط، واتقى الله نال السعادة في الدنيا، ودار الكرامة في الآخرة، وسعد برضوان من الله ذلك هو الفوز العظيم»[1].

(١) في رحاب التفسير، كشك، ١/ ٧٦٣.

عقوبة الخاسرين

ذكر القرآن الكريم بعضًا من العقوبات التي تلحق بالخاسرين في الدنيا والآخرة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: عقوبة الخاسرين في الدنيا:

فعقوبة الخاسرين في الدنيا، حرمانهم من أفضل نعمة أنعمها الله علينا ألا وهي نعمة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام:٢٠].

يقول الماوردي: «﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فيها تأويلان:

أحدهما: أنهم خسروا بالكفر منازلهم وأزواجهم في الجنة؛ لأنه ليس أحد من مؤمن ولا كافر إلا وله منازل وأزواج، فإن أسلموا كانت لهم، وإن كفروا كانت لمن آمن من أهلهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١١].

والثاني: معناه: غبنوها فأهلكوها بالكفر والتكذيب»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

وقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح:٢١].

(٢) النكت والعيون، ٢/ ١٠٠.

فتوضّح هذه الآيات أن سبب حرمانهم من الإيمان، انغماسهم في ملذات الدنيا وشهواتها وذلك بالانشغال في جمع الأموال وإكثارها، والانشغال بالأولاد، والسعي وراء الشهرة والمكانة، مع غيرها من الأسباب الأخرى، ألهاهم ذلك كله عن الإيمان بالله وعبادته وذكره، وبالفساد في الأرض بكل أشكاله، فكان سببًا في خسارتهم، وبإضلالهم وعدم هدايتهم، وعدم نيل مغفرة الله ورحمته، وأن يغفل عن شيء مهم، وهو أن الله عز وجل أوجدنا على سطح الأرض في هذه الحياة الدنيا لهدف وغرض، ألا وهو عبادة الله سبحانه وتعالى.

والدين إذا لم يصل بصاحبه إلى هذا الخضوع والانقياد لله تعالى كان رسومًا وتقاليد لا تجدي شيئًا، بل تزيد النفوس فسادًا، والقلوب ظلامًا، ويكون حينئذٍ مصدر الشحناء والعداوة بين الناس في الدنيا، ومصدر الخسران في الآخرة بالحرمان من النعيم المقيم، والعذاب الأليم، وبالتالي يكون جزاء من يقبل بغير الإسلام دينًا أنه في الآخرة من الخاسرين؛ لأنه أضاع ما جبلت عليه الفطرة السليمة من توحيد الله والانقياد له، كما جاء في الحديث الشريف: **(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء)**[1].

فخسر نفسه بضياع رضوان الله، وخسر النعيم المقيم، ورحمة الله، فألقي في الجحيم[2].

اللهم هب لنا الإخلاص، وأنر به بصائرنا، وامنحنا قبولك ورضاك يا أرحم الراحمين.

ومن العقوبات للخاسرين في الدنيا أيضًا حبوط الأعمال وخسارتها، فلو تساءلنا كيف يخسر الإنسان أعماله؟

كما نعلم أن العمل للآخرة ميدانه هذه الحياة الدنيا، ومدّته لكل إنسان عمره، من حين يبلغ الحلم، إلى أن يدركه الأجل، وهو لهذا جاء إليها، وأعطي الفرصة فيها، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك:٢].

فكل إنسان يجازى على حسب عمله في الحياة الدنيا، فإن عمل عملًا حسنًا نال الجزاء الحسن، وإن عمل عملًا سيئًا، نال الجزاء السيء على حسب عمله، كما يقال: إن الجزاء من جنس العمل، عن أبي بكرة أن رجلًا قال: **(يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: (من طال عمره وحسن عمله). قال: فأي الناس شر؟ قال: (من طال عمره وساء**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣٨٥.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٨٥، تفسير المراغي، ١/ ٢٠٤، زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٣/ ١٣٠٢.

عمله)[1].

والله يراقب أعمال العباد وينظر إليها، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس:٦١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[2].

إذن لابد للإنسان من الجد والاجتهاد للإكثار من القيام بالأعمال الصالحة التي يرضى الله عنها، حتى يكون مثواه الجنة.

عن عمران بن حصين قال: قال رجل: يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: (نعم). قال: فلم يعمل العاملون؟ قال: (كلٌّ يعمل لما خلق له، أو: لما ييسّر له)[3].

ولكن قد يخسر الإنسان كل أعماله فتصبح هباءً منثورًا؛ إن حاد عن الطريق المستقيم وأكثر من فعل المعاصي، وارتكاب الآثام.

قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢١-٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥].

وقال أيضًا: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة:٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة:٥٣].

في هذه الآية بيان أن أعمال المنافقين باطلة، وكما نعلم بأن البطلان كلمة مرادفة

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب أي الناس خير وأيهم شر، رقم ٢٣٣.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم ٦٥٤٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب جف القلم على علم الله، رقم ٦٥٩٦.

للخسارة، إذن حبوط وبطلان أعمالهم جعلهم يخسرون في الدنيا والآخرة.

يقول سيد قطب: «ولقد جاء الله بالفتح يومًا، وتكشفت نوايا، وحبطت أعمال، وخسرت فئات، ونحن على وعد من الله قائم بأن يجيء الفتح، كلما استمسكنا بعروة الله وحده، وكلما أخلصنا الولاء لله وحده، وكلما وعينا منهج الله، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا، وكلما تحركنا في المعركة على هدي الله وتوجيهه، فلم نتخذ لنا وليًّا إلا الله ورسوله والذين آمنوا»[1].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: المخلصون للمنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، أهؤلاء يعني: المنافقين الذين أقسموا بالله شدة أيمانهم، فإذا حلف الرجل بالله فقد حلف جهد يمينه، إن هؤلاء المنافقين مع المخلصين على دينكم في السر، فكانت النتيجة بطلان حسناتهم في الدنيا، فصاروا مغبونين بالعقوبة[2].

ثانيًا: عقوبة الخاسرين في الآخرة:

إن أخص ما يملكه الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وأقرب شيء إليه، هي نفسه التي بين جنبيه، وأهله المقربون إليه من زوجة وأبناء وأحفاد وأرحام، فإذا خسر نفسه أو أهله فقد خسر أخص شيء وأقربه إليه، وعلى ذلك فإن خسارته سواء أكانت في نفسه أم في أهله، أم في حياته أم في آخرته، فإنها هي المصيبة العظمى والطامة الكبرى، لكن كيف يمكن أن يخسر الإنسان نفسه؟ وكيف يمكن أن يخسر أهله في الأخرة؟ هذا ما ستوضحه الآيات مع تفسيرها:

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام:١٢].

تتحدث الآية الكريمة عن قدرة الله في الخلق فهو الخالق والمالك والمتصرف به، وعن قدرته على بعث الخلائق، ولكن أبى الظالمون إلا جحودًا، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق فأوضعوا في معاصيه، وتجرؤوا على الكفر به، فكانت النتيجة أنهم خسروا دنياهم وأخراهم، وحكموا على أنفسهم بالهلاك لمخالفة الفطرة الأولى وستر العقل السليم، فهم بسبب خسارتهم لأنفسهم بإهمال العقل، وإعمال الحواس، والتقيد بالتقليد لا يؤمنون، فصاروا كمن يلقي نفسه من شاهق ليموت لغرض من الأغراض الفاسدة[3].

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٩١٧.
(٢) انظر: الواضح في تفسير القرآن الكريم، ابن وهب الدينوري، ١/ ٢٠١، أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥١٩.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٥٩٥، تيسير

يقول سيد قطب: «هذه الآية ذات المد العالي والإيقاع الرهيب، تجيء في أعقاب الحديث عن التكذيب والإعراض والسخرية والاستهزاء، وما ختم به هذا الحديث، وما تخلله من التهديد المخيف، مع توجيه الأنظار والقلوب إلى الاعتبار بمصارع المكذبين المستهزئين، فيأتي بعد هذا التعرض لحقيقة الألوهية، ممثلة في الملك والفاعلية، وفي القدرة والقهر، كل ذلك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي، ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه، وتوحيد الاستسلام والعبودية.

فيأتي موقف المواجهة للبيان والتقرير، ثم المفاصلة، ومن ثم يبدأ بتوجيه الرسول لهذه المواجهة مواجهة المشركين، الذين يعرفون أن الله هو الخالق، ولكنهم أغلقوا فطرتهم وعطلوها دون رؤية هذه الحقيقة، فعدلوا به من لا يخلق، فيجعلون له شركاء مع الله في تصريف حياتهم، مواجهتهم بالسؤال عن الملكية بعد الخلق لكل ما في السموات والأرض، وبالتالي لن يخسر في هذا اليوم إلا الذين لم يؤمنوا في الدنيا، وهؤلاء لن يخسروا شيئًا ويكسبوا شيئًا، هؤلاء خسروا كل شيء، فقد خسروا أنفسهم كلها فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئًا، ولم تعد لهم نفس تؤمن! وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة، إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموحيات الإيمان ودلائله، هؤلاء لابد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم، وأجهزة الاستقبال، والاستجابة الفطرية في كيانهم معطلة مخربة، فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها»[1].

وقوله أيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١﴾ [هود:٢١].

وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢﴾ [هود:٢٢].

يقول محمد رضا في تفسيره: «كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ تفيد التحقيق والتأكيد لما بعدها، قال الفراء: هي في الأصل بمعنى: لابد ولا محالة، ثم كثرت فحوّلت إلى معنى القسم وصارت بمعنى «حقًّا»، ولهذا تجاب باللام نحو: لاجرم لأفعلن كذا، أي: حقًّا أنهم في الآخرة لأشد الناس خسرانًا»[2].

وفي الآية تأكيد وإثبات لما يناله هؤلاء الجاحدون المنكرون في الآية السابقة من العذاب الشديد، والخسران الأكيد، حيث أكد الله سبحانه وتعالى في الآية بأنهم لا محالة يوم القيامة أشد الناس خسرانًا،

الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢١٤.

(١) في ظلال القرآن، ٢/١٠٤٧- ١٠٥٣، باختصار.

(٢) تفسير المنار، ١٢/٥٧.

وأنهم بلغوا في الآخرة أقصى درجات الخسارة؛ لأنهم آثروا الحياة الفانية على الباقية، واشتروا الضلالة، ولذا جاء جمع «الأخسرون» فأفعل التفضيل يدل على أقصى درجات الخسارة، لا خسارة فوقها أو مثلها، بل هي فوق كل خسارة[1].

ومن العقوبات الآخروية أيضًا دخول نار جهنم والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون:١٠٣].

في هذه الآية يبيّن جزاء المكثرين من الأعمال السيئة، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ﴾ أي: موازين أعماله الحسنة أو أعماله التي لا وزن لها ولا اعتداد بها، وهي أعماله السيئة كذا قيل، وهو مبني على اختلافهم في وزن أعمال الكفرة.

فهؤلاء ضيعوها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، وبالتالي خسروا أنفسهم بزجّها في نار جهنم، وهم مستقرون خالدون فيها[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف:٩].

يقول محمد أبو زهرة: «وخسران نفوسهم في هذا يشير إلى معانٍ ثلاثة، وهي على النحو التالي:

أولها: أنهم هم الذين كانوا بأعمالهم في الدنيا عاملين على خسارتها، فلم تكن الخسارة لاحقة بهم من غيرهم.

ثانيها: أن العذاب خسارة للنفس أي خسارة، وأنهم هم الذين جلبوا لها هذه الخسارة الخالدة.

ثالثها: أنهم كانوا يحسبون في ضلالهم في الدنيا أنهم يكسبون بغطرستهم وكبريائهم واغترارهم بمظاهر القوة، فبيّن الله تعالى أنهم الأخسرون أعمالًا، وذلك عند ميزان الأعمال بميزان الخير والشر، لا بميزان الغرور والاستكبار»[3].

ونختم بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف:٥٣].

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، الجنة، السعادة، العذاب، الفلاح، النار

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٧/ ٣٦٩٤، المبصر لنور القرآن، نائلة صبري، ١٢/ ٢٢

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٨٣، روح المعاني، الألوسي، ١٧/ ٩٩.

(٣) زهرة التفاسير، ٥ / ٢٧٨٩.

الخشوع

عناصر الموضوع

مفهوم الخشوع	٣٥٦
الخشوع في الاستعمال القرآني	٣٥٨
الألفاظ ذات الصلة	٣٥٩
أسباب الخشوع	٣٦١
مواطن الخشوع	٣٦٩
خشوع الجوارح	٣٧٨
خشوع الكائنات	٣٨٥
صفات الخاشعين	٣٨٧
آثار الخشوع وثواب الخاشعين	٣٩٣

مفهوم الخشوع

أولًا: المعنى اللغوي:

خشع: الخاء والشين والعين أصلٌ واحدٌ، يدل على التّطامن، يقال: خشع إذا تطامن وطأطأ رأسه، ويخشع خشوعًا، والخاشع: المستكين والراكع[(١)].

وفي لسان العرب: خشع يخشع خشوعًا، واختشع وتخشّع: رمى ببصره نحو الأرض، وغضّه، وخفض صوته، وقيل: الخشوع قريب من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن. والخشوع: في البدن، والصوت، والبصر، كقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨] أي: سكنت، وكل ساكن خاضع خاشع[(٢)].

وعند الراغب الأصفهاني: الخشوع الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب[(٣)].

وابن القيم رحمه الله حينما يعرف الخشوع في اللغة يجمع بين هذه الأقوال في إيجاز فيقول مستشهدًا على كلامه بآيات القرآن الكريم: الخشوع في أصل اللغة: الانخفاض، والذّل، والسكون، قال اللّه تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨] أي: سكنت، وذلّت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات، قال اللّه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت:٣٩][(٤)].

إذن فالخشوع في اللغة يدور حول غض البصر وخفض الصوت، والضراعة والسهولة واللين، والخضوع والانخفاض والذل والسكون.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر العلماء للخشوع في الاصطلاح أكثر من تعريف، وهي متقاربة تدور حول خشوع القلب وخضوعه بين يدي الله عز وجل

قال الجرجاني: وفي اصطلاح أهل الحقيقة: الانقياد للحق، وقيل: هو الخوف الدائم في القلب[(٥)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٨٢.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٧١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٨٣.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٥٢٠
(٥) التعريفات، الجرجاني، ص١٣٢.

وقيل هو: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذّل، وقيل: الخشوع تذلّل القلوب لعلاّم الغيوب[1].

وقال ابن رجب الحنبلي: وأصل الخشوع: هو لين القلب ورقته، وسكونه، وخضوعه، وانكساره، وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح، والأعضاء؛ لأنها تابعة له، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا وإنّ في الجسد مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب)[2][3].

وقال السعدي: وأما الخشوع، فهو حضور القلب وقت تلبّسه بطاعة الله، وسكون ظاهره وباطنه.[4].

ولعل أشمل التعاريف ما ذكره ابن حجر بأنه: معنى يقوم بالنفس يظهر عنه سكون في الأطراف يلائم مقصود العبادة[5].

وقريب منه قول صاحب التفسير الوسيط إنه: خشية في القلب من الله تعالى تظهر آثارها على الجوارح فتجعلها ساكنة مستشعرة أنها واقفة بين يدي الله سبحانه. [6]

ويلاحظ أن كلا المعنين: اللغوي والاصطلاحي يدوران حول الذل والانكسار، إلا أن المعنى الاصطلاحي خص بالذل والانكسار لله.

(١) مدارج السالكين، ١/ ٥٢١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة والمزارعة، عن النعمان بن بشير، رقم ١٥٩٩.
(٣) الخشوع، ابن رجب ص١٧.
(٤) تيسير اللطيف المنان، ص ٣٦١-٣٦٢.
(٥) انظر: فتح الباري ٣/ ١٠١.
(٦) الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٠/ ١٢

الخشوع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خشع) في القرآن الكريم (١٨) مرة[١].

والصيغ التي جاءت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨]
الفعل المضارع	١	﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد:١٦]
المصدر	٢	﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩]
اسم الفاعل	١٤	﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]

وجاء الخشوع في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

أحدها: التواضع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥]، يعني: المتواضعين.

الثاني: سكون الجوارح، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:٢].

الثالث: الخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠]، يعني: خائفين.

الرابع: الذل، ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ [الغاشية:٢]، يعني: ذليلة.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٣٣.

(٢) انظر: نزهة الأعين، ابن الجوزي ص ٢٧٦- ٢٧٧، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٠٦-٢٠٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخضوع:

الخضوع لغة:

الانقياد والمطاوعة[١].

الخضوع اصطلاحًا:

إظهار الانقياد والطاعة لذي سلطان.

الصلة بين الخضوع والخشوع:

قيل: هما بمعنى واحد، وقال ابن عاشور: والخشوع مثل الخضوع، إلاّ أن الخضوع لا يسند إلاّ إلى البدن فيقال: خضع فلان، ولا يقال: خضع بصره إلا على وجه الاستعارة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ [الأحزاب:٣٢].

وأما الخشوع فيسند إلى البدن؛ كقوله تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ في آخر سورة آل عمران، ويسند إلى بعض أعضاء البدن؛ كقوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ في سورة القمر، وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ في سورة طه[٢].

وعلى هذا فالخضوع يحمل معنى الانقياد، والضعف، واللين، والتذلل، وظهور ذلك على الجوارح.

٢ التضرع:

التضرع لغة:

أصل مادة (ض ر ع) اللّين والضعف، يقال: رجلٌ ضرعٌ أي ضعيف، وغلام ضارع: ضعيف نحيف، والتضرّع: التذلّل[٣].

التضرع اصطلاحًا:

يعني: التذلّل في وقت الشدّة والخوف، وظهور أثر ذلك في الصوت.

الصلة بين التضرع والخشوع:

وربما كان التضرع هو أساس الخشوع؛ لأنه هو التذلل الذي يوجد في القلب، والخشوع

(١) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٧٣.
(٢) المصدر السابق ٢٥/ ١٢٦.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ٢٩٨.

أثر هذا التذلل الذي يظهر على الجوارح.

ويفرق الراغب بين الخشوع والتضرع فيقول: وأكثر ما يستعمل -أي: الخشوع- فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب، ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح[(١)].

فالخشوع يلتقي مع التضرع في أن كلًّا منهما يحمل معنى اللين والضعف والتذلل، كذلك يلتقيان في أن كلًّا منهما يوجد في القلب فيحدث التأثر على الجوارح.

٣ الوجل:

الوجل لغة:

«الوجل خلاف الطّمأنينة، وجل الرجل يوجل وجلًا، إذا قلق ولم يطمئن»[(٢)].

الوجل اصطلاحًا:

«الوجل استشعار الخوف عن خاطر غير ظاهر وليس له أمارة»[(٣)]، كذلك نجده في كتاب الله تعالى يستعمل في سياق أخص من الخوف، وهو حالة نفسية تعرض للنفس عند بداية شيء ما[(٤)].

الصلة بين الوجل والخشوع:

قال السعدي رحمه الله: «الخوف، والخشية، والخضوع، والإخبات، والوجل معانيها متقاربة، فالخوف يمنع العبد من محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك، وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله، وأما الخضوع، والإخبات، والوجل، فإنها تنشأ عن الخوف، والخشية، فيخضع العبد لله، ويخبت إلى ربه منيبًا إليه بقلبه، ويحدث له الوجل»[(٥)].

(١) المفردات ص ٤١١.
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣.
(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٤.
(٤) انظر: المصدر السابق، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٦٥.
(٥) تيسير اللطيف المنان ٢/ ٣٦٢.

أسباب الخشوع

الخشوع الذي هو الخوف والخضوع والتذلل، الذي يظهر على الجوارح لا يتأتى من فراغ، وإنما يكون منشؤه عدة أسباب أشار إليها القرآن الكريم خلال الحديث عن ذلك، وهذه الأسباب هي: الخوف من الله عز وجل، وسماع مواعظ القرآن وتدبرها، وذل العذاب لأهل النار يوم القيامة، وهذا يدعونا لأن نفصل الحديث عن هذه الأسباب فننظمها في النقاط الآتية:

أولًا: الخوف من الله تعالى:

أول أسباب الخشوع هو الخوف من الله عز وجل، والخوف من الله لا يتوفر إلا لمن عرف ربه عز وجل بأسمائه وصفاته، حينها يتولد في النفس استحضار عظمة الله ودوام مراقبته ومعيته، واستحضار عظمة الخالق يثمر في القلب طاعة الله وتوقيره والذل والانكسار له في كل اللحظات، ويعلم المؤمن الحياء من الله لإيقانه بوجوده ومعيته وقربه وسمعه وبصره.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

ومن يتعود مراقبة الله في كل أقواله وأفعاله يوفقه الله إلى خشيته وخشوعه والخوف منه دائمًا أبدًا، حتى يصل في عبادته إلى درجة الإحسان، الذي قال عنه رسولنا صلى الله عليه وسلم: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، كما في حديث جبريل[(١)].

وفي الصفحات السابقة نقلنا ما ذكره السعدي في العلاقة بين الخوف، والخشية، والخشوع، وقال: إن معانيها متقاربة، فالخوف يمنع العبد من محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك، وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله.

وأما الخشوع: فهو حضور القلب وقت تلبّسه بطاعة الله، وسكون ظاهره وباطنه، فهذا خشوع خاص، وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خوّاص المؤمنين، فينشأ من كمال معرفة العبد ربه، ومراقبته، فيستولي ذلك على القلب.

وقد وصف الله سبحانه من آمن من أحبار أهل الكتاب بالخشوع في موضعين من القرآن الكريم، وفي موضع ثالث يحض أهل الكتاب على الخشوع مبينًا لهم مزية ذلك، والخشوع في المواضع الثلاثة سببه الخوف من الله عز وجل

الموضع الأول الذي يحض فيه أهل الكتاب على الخشوع في سورة البقرة ورد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة لقمان، باب قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، رقم ٤٤٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم ٩-١٠.

في قول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

قال ابن عاشور: والمراد بالخاشع هنا: الذي ذلل نفسه وكسر سورتها، وعودها أن تطمئن إلى أمر الله، وتطلب حسن العواقب، وأن لا تغتر بما تزينه الشهوة الحاضرة؛ فهذا الذي كانت تلك صفته قد استعدت نفسه لقبول الخير، وكأن المراد بالخاشعين هنا: الخائفون الناظرون في العواقب، فتخف عليهم الاستعانة بالصبر والصلاة.

ثم يقول وقد وصف تعالى الخاشعين بأنهم ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ وهي صلة لها مزيد اتصال بمعنى الخشوع ففيها معنى التفسير للخاشعين، ومعنى بيان منشأ خشوعهم، فدل على أن المراد من الظن هنا الاعتقاد الجازم، وإطلاق الظن في كلام العرب على معنى اليقين كثير جدًّا، والملاقاة مفاعلة من لقي، واللقاء الحضور، والمراد هنا: الحضور بين يدي الله للحساب، أي: الذين يؤمنون بالبعث[1].

والمتأمل في هذا الكلام يدرك أن خوف هؤلاء من موقفهم بين يدي ربهم تبارك وتعالى كان سببًا في خشوعهم وتذللهم وانكسارهم له سبحانه في الدنيا؛ لأنهم آمنوا بالبعث وأيقنوا بالوقوف بين يديه عز وجل للحساب.

والموضع الثاني الذي هو من قبيل وصف القرآن لمن آمن من أحبار أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران:١٩٩]

والموضع الثالث في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩].

قال ابن عاشور: وإنما خروا خرورًا واحدًا ساجدين باكين، فذكر مرتين اهتمامًا بما صحبه من علامات الخشوع، وذكر ﴿يَبْكُونَ﴾ بصيغة المضارع لاستحضار الحالة، والبكاء بكاء فرح وبهجة، والبكاء يحصل من انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن شوق[2].

حتى من يخشعون في صلاتهم الذين كتبهم الله من المفلحين في سورة المؤمنون ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [الإسراء:١٠٩].

يفسر ابن عاشور خشوعهم هذا بالخوف

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٠.

(٢) المصدر السابق ١٥/ ٢٣٣.

فيقول: وهو خوف يوجب تعظيم المخوف منه، ولا شك أن الخشوع، أي: الخشوع لله، يقتضي التقوى فهو سبب فلاح[1].

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقد ذكر ابن كثير أقوال المفسرين الأوائل فيها ما يوضح أن الخشوع فيها سببه الخوف فيقول: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: رغبًا فيما عندنا ورهبًا مما عندنا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: مصدقين بما أنزل الله، وقال أبو العالية: خائفين، وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدًا[2].

وربما كان الخوف سببًا للخشوع الذي يدخل صاحبه فيمن يمتدحهم الله عز وجل، ويبين ثوابهم، وما أعده لهم في الآخرة من الأجر العظيم.

ففي سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥].

قال ابن كثير: الخشوع السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار، والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته[3].

هذا الذي ذكرناه سابقًا يعبر عن الخشوع في الدنيا، وهو خشوع المؤمنين الناشئ عن تعظيمهم لربهم عز وجل وخوفهم منه في الدنيا، وفرق بينه وبين الخشوع الذي هو الذل الناشئ عن الخوف من الله في الآخرة، فالأول باختيار المؤمن في الدنيا، والثاني مجبر عليه الكفار؛ لأنهم لم يختاروه في الدنيا، أو أمنوا مكر الله حينما كانوا في دنياهم، فتهاونوا في أوامره ونواهيه، ويدخل في ذلك الآيات التي تتحدث عن خشوع الكفار في الآخرة، ومنها آية سورة الشورى، التي تتحدث عن وصف الظالمين المشركين يوم القيامة ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[الشورى:٤٥].

وجدير بالذكر أن نفرق بين خوف هؤلاء في الآخرة وبين خوف المؤمنين في الدنيا، وإن كان كلاهما خوف من الله، وكلاهما

(١) المصدر السابق ١٨/ ٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٧٠.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٤١٩.

سبب للخشوع أيضًا، لكن خشوع المؤمنين في الدنيا كان باختيارهم وإرادتهم، صحيح أنه بتوفيق الله عز وجل لهم، لكن كان لهم حق الاختيار فاختاروا تعظيم الله الذي أنتج عنه خوفهم منه، فكان ذلك سببًا في خشوعهم له سبحانه في الدنيا.

وقبل أن ننتقل إلى السبب الثاني من أسباب الخشوع حري بنا أن نشير إلى كيفية تحصيل المسلم لهذا السبب وهو الخوف من الله عز وجل في الدنيا، فهذا الخوف لا يتأتى إلا إذا عظم الإنسان ربه عز وجل فيستحضر عظمة الله، ويتذكر وقوفه بين يديه للحساب، ويتذكر مروره على الصراط، وربما كان أقرب من ذلك أن يتذكر وضعه في القبر وترك المشيعين له وحيدًا لا أنيس ولا جليس، اللهم إلا عمله الذي قدمه، وتعظيم مقام الرب سبحانه لا يحصله الإنسان إلا إذا عظم أوامره ونواهيه، فيمتثل لتلك الأوامر ويسارع إلى الالتزام بها، ويمتثل للنواهي ويسارع في تجنبها، ويروض نفسه وقلبه وفكره شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الخوف من الله عز وجل في كل حركاته وسكناته، وكما يقال: العلم بالتعلم والحلم بالتحلم.

ثانيًا: سماع مواعظ القرآن وتدبرها:

من الأسباب التي تحمل المسلم على الخشوع سماع آيات القرآن بنية صادقة في قلب نقي خالص مخلص لله سبحانه وتدبر آياته للانتفاع بأحكامه وحكمه ومواعظه وعبره.

ففي وصف من آمن من أحبار أهل الكتاب في سورة الإسراء يقول الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

قال ابن كثير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله عز وجل شكرًا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلًا أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا قالوا ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: خضوعًا لله عز وجل وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: إيمانًا وتسليمًا[1].

(١) المصدر السابق ٥/ ١٢٨.

وقال ابن عاشور: والبكاء يحصل من انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن شوق، ويزيدهم القرآن خشوعًا على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم[1].

ويبين الله عز وجل ما يجب أن يكون عليه القلب من خشوع بسبب ذكر الله وسماع آيات القرآن في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

قال ابن كثير: يقول تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه[2].

ومن ذلك ما رواه ابن قدامة المقدسي رحمه الله في توبة الفضيل بن عياض قال: «كان الفضيل قاطع طريق فخرج ذات يوم يقطع الطريق، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلًا، فقال بعضهم لبعض: أعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلًا يقطع الطريق يقال له: الفضيل، قال: فسمعه الفضيل فأرعد، فقال: يا قوم أنا الفضيل جوزوا، والله لأجتهدن أن لا أعصي الله أبدًا، فرجع عما كان عليه، وروي من طريق أخرى أنه أضافهم تلك الليلة، وقال: أنتم آمنون من الفضيل، وخرج يرتاد لهم علفًا، ثم رجع فسمع قارئًا يقرأ آية ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦].

قال: بلى، والله قد آن، فكان هذا مبتدأ توبته[3].

من هنا كان الخشوع مصدرًا لهداية المسلمين الوقافين عند أوامر ربهم وحدوده.

وتدبر القرآن من أعظم أسباب الخشوع، وذلك لما تشتمل عليه الآيات من وعد ووعيد، وذكر الموت والتذكير به، وأهوال القيامة، وأحوال أهل الجنة والنار، وقصص الأنبياء والرسل وما لاقوه من قومهم من صنوف الإيذاء، وأخبار المكذبين والمتكبرين ونهايتهم،... إلى آخر كل ذلك، وهذا كله حينما يتدبره المسلم في قراءته يمتلئ قلبه بنور الإيمان وصدق التوكل فيخشع لربه، بل ويعتاد الخشوع، وهنا ندرك موضعًا آخر يبرز خشوع الجبل لو أنزل عليه القرآن، وكأن الله يأمر الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، وهذا في سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٨/ ١٩.
(٣) انظر: التوابين، ابن قدامة المقدسي ١/ ٢٠٧.

﴿الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١].

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبينًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه[1].

قال الشوكاني: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب، أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم ﴿خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ أي: متشققًا من خشية الله سبحانه حذرًا من عقابه وخوفًا من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وفيه توبيخٌ وتقريعٌ للكفّار حيث لم يخشعوا للقرآن، ولا اتّعظوا بمواعظه، ولا انزجروا بزواجره، والخاشع: الذّليل المتواضع[2].

إذن فعلى من يريد أن يصل إلى درجة الخشوع أن يتدبر آيات القرآن الكريم، وكيفية التدبرأن يقرأ الآيات بتأمل وتفكر وعناية، حتى يصلح قلبه ويأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه، وهناك وسائل للوصول إلى التدبر منها: إدراك القارئ بأنه مخاطب بالقرآن وآياته، والاهتمام بالتأني في التلاوة، والتعرف على أسباب النزول ومواضع الوقف والابتداء، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، ومعرفة المعنى الإجمالي للآيات، والاهتمام بالقراءة الشمولية لآيات القرآن وقصصه وحواراته، والاهتمام بالمناسبات والروابط بين الآيات والسور.

ثالثًا: ذل العذاب.

من الأسباب الموجبة للخشوع ذل عذاب الكفار والمنافقين، وهذا الخشوع هو الذي يقع يوم القيامة، وهو الذي يكون لونًا من ألوان عذابهم، وحينها لا يقع منهم اختيارًا، وإنما يكون إجبارًا، وهذا اللون من الخشوع يختلف عن الخشوع الذي يقع من المؤمنين في الدنيا، وقد ورد هذا في أكثر من آية من الآيات التي تتحدث عن الخشوع.

ففي سورة الشورى يقول الله عز وجل:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٧٨.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٤٦.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الشورى:٤٥].

قال ابن كثير: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعني: ذليل، أي: ينظرون إليها مسارقة خوفًا منها والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك[1].

وقال ابن عاشور في وصف الظالمين المشركين يوم القيامة: والمراد بالخشوع في هذه الآية: ما يبدو عليهم من أثر المذلة والمخافة، و«من» للتعليل، أي: خاشعين خشوعًا ناشئًا عن الذل، أي: ليس خشوعهم لتعظيم الله والاعتراف له بالعبودية؛ لأن ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا[2].

وقريب منه كلامه حينما يفسر آية القمر يقول: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح، وهو كناية؛ لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما[3].

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم:٤٣].

وفي آية سورة المعارج ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ قال الشوكاني: والخشوع: الذّلّة والخضوع، أي: لا يرفعونها لما يتوقّعونه من العذاب ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم ذلّةٌ شديدةٌ[4].

وفي أكثر من آية يفسر ابن كثير الخشوع بالذلة ففي آية ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النازعات:٨-٩].

أي: أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال.

وفي قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الغاشية:٢-٣].

أي: ذليلة، قاله قتادة، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها[5].

أما المسلم فإذا أدرك ذلك حقًّا اجتهد في دنياه وفي وقت العبادة خاصة بالتذلل لله عز وجل فينحني بظهره وجبهته لله سبحانه، يحسن التفكر في عظمة الله وكبريائه وسلطانه وملكوته، ويتذكر ذنوبه وتقصيره في حق ربه، فيتذلل بفقره ويظهر احتياجه لله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢١٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ١٢٦.
(٣) المصدر السابق ٢٧/ ١٧٧.
(٤) فتح القدير ٥/ ٣٥٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣١٢.

وحده قائلًا: (اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي)[1].

والمسلم الذي يجتهد في دنياه ليحصل هذا الخشوع ويعتاده بين يدي ربه عز وجل يجنبه الله خشوع الذل في الآخرة، وخشوعه في الآخرة يكون خشوع تكريم، واستيضاحًا لذلك نقرأ قول ابن كثير: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه عكس السجود، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون[2].

إذن نستطيع أن نقول: إن معرفة ذل العذاب الذي يلحق المنافقين والكفار والمشركين في الآخرة، وتدبر ذلك سبب يدفع المسلم إلى بذل الجهد في الخشوع والتذلل لله في الدنيا، وتعظيمه حق قدره ومقداره، والخوف الدائم له سبحانه عله يجنبه خشوع الآخرة.

والتذلل في الصلاة واستحضار القرب من الله في السجود من الأسباب التي تدفع المسلم إلى الخشوع والاستكانة والتذلل لله، وخاصة حال السجود؛ لأنه أعلى درجات الاستكانة، وأبرز حالات الخضوع لله القوي القاهر. وأشد أوقات القرب من الله عند المسلم هي أوقات السجود، ففيه يستحضر القلب معنى القرب من خالق الخلق، وحين يتتاب المسلم في صلاته وسجوده هذا الشعور يخضع ويخشع.

والسجود أقرب وقت وموضعه أقرب موضع لإجابة الدعاء، ومغفرة الذنوب ورفع الدرجات. قال تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق:١٩].

إذن فالتذلل في الصلاة واستحضار القرب من الله في السجود سبب موصل إلى خشوع العبد لربه وخالقه، وجنبًا إياه ذل عذاب الآخرة، بل هو رافع بمشيئة الله درجاته فيها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩٨.

مواطن الخشوع

ورب سائل يسأل: هل خُصَّ الخشوع الذي ورد في آيات القرآن الكريم بمواطن معينة؟

والجواب: نعم، فمن يستقرئ الآيات بروية وتدبر يدرك أن الآيات خصت الخشوع بمواطن، ورد فيها أشد تأكيدًا في مواطن ثلاثة، نتحدث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: الخشوع في الصلاة:

الخشوع في الصلاة من أهم الأسباب لحصول الفائدة المرجوة منها، وهو لب الصلاة وقلبها النابض، وبدونه ربما لا يحصل المصلي الأجر كاملًا.

والخشوع له أهمية كبرى في الصلاة، وتكمن هذه الأهمية في أنه عبادة جليلة تجعل في الصلاة روحًا تسري، وهو صفة من صفات المؤمنين التي يتوقف عليها فلاحهم، وفي ذلك ورد قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

يورد ابن كثير حينما يفسر هذه الآية قول محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم، إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم. قال محمد بن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مصلاه، فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين[(١)].

وقد عدّ الخشوع في الصّلاة هنا من صفات المؤمنين المفلحين الّذين يرثون الفردوس، وبيّن أنّ من لم يتّصف بهذا الخشوع تصعب عليه الصّلاة في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة:٤٥][(٢)].

ويفصل ابن عاشور في ذلك فيقول: وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع، وخاصة إذا كان في حال الصلاة؛ لأنّ الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها، إذ الخشوع محلّه القلب، فليس من أفعال الصلاة ولكنه يتلبس به المصلي في حالة صلاته، وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوّته؛ ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق، فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٥٩.
(٢) أضواء البيان ٥/ ٣٠٥.

الصلاة، لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له[1].

والمعنى: قد فاز وظفر بالمطلوب، أولئك المؤمنون الصادقون، الذين من صفاتهم أنهم في صلاتهم خاشعون، بحيث لا يشغلهم شيء وهم في الصلاة عن مناجاة ربهم. وعن أدائها بأسمى درجات التذلل والطاعة[2].

مظاهر الخشوع في الصلاة:

ومن مظاهر الخشوع: أن ينظر المصلي وهو قائم إلى موضع سجوده، وأن يتحلى بالسكون والطمأنينة، وأن يترك كل ما يخل بخشوعها كالعبث بالثياب أو بشيء من جسده[3].

ومن المظاهر: التذلل في الصلاة واستحضار القرب من الله في السجود؛ فالقيام والركوع والسجود في الصلاة من الأسباب التي تدفع المسلم إلى الخشوع والاستكانة والتذلل لله، وخاصة حال السجود؛ لأنه أعلى درجات الاستكانة، وأبرز حالات الخضوع لله القوي القاهر.

وأشد أوقات القرب من الله عند المسلم هي أوقات السجود، ففيه يستحضر القلب معنى القرب من خالق الخلق، وحين يتتاب المسلم في صلاته وسجوده هذا الشعور يخضع ويخشع.

والسجود أقرب وقت وأقر بموضع لإجابة الدعاء، ومغفرة الذنوب ورفع الدرجات. قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

وقال صلى الله عليه وسلم: (أقرب ما يكون العبد من ربه هو ساجد، فأكثروا الدعاء فيه)[4].

إذن فالتذلل في الصلاة واستحضار القرب من الله في السجود سبب موصل إلى خشوع العبد لربه وخالقه.

حكم الخشوع في الصلاة:

حري بنا ونحن نتحدث عن موطن الخشوع في الصلاة أن نشير ولو بإيجاز إلى حكم الخشوع في الصلاة، وآراء الفقهاء في ذلك، فنقول:

اختلف العلماء في حكم الخشوع؛ هل هو من فرائض الصلاة، أو من سننها، أو من شروط صحتها؟

فمن العلماء من قال بوجوب الخشوع في الصلاة، ومنهم من قال: بل هو من سننها.

فممن قال بوجوبه الإمام الغزالي في الإحياء، وتابعه فريق من العلماء،

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٩.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٢.
(٣) المصدر السابق ١٠/ ١٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/ ٣٥٠، رقم ٤٨٢.

ومنهم ابن تيمية حين قال في الفتاوى: دل كتاب الله عز وجل على من كبر عليهما يحبه الله أنه مذموم بذلك في الدين، مسخوط منه ذلك، والذم أو السخط لا يكون إلا لترك واجب أو فعل محرم. وإذا كان غير الخاشعين مذمومين، دل ذلك على وجوب الخشوع.

ثم يقول في موضع آخر: فثبت أن الخشوع واجب في الصلاة[1].

واعتبره القرطبي من فرائضها حين قال: اختلف الناس في الخشوع؛ هل هو من فرائض الصلاة أو مكملاتها على قولين، والصحيح الأول ومحله القلب، وهو أول عمل يرفع من الناس[2].

وحكى النووي الإجماع على أن الخشوع ليس بواجب[3].

وفي شرح أصول الفقه الشافعي: «ومن سنن الصلاة الخشوع، وترتيل القراءة وتدبرها، وتدبر الذكر، والدخول فيها بنشاط وفراغ القلب[4].

وقال في المجموع: المسألة الثالثة: يستحب الخشوع في الصلاة، والخضوع، وتدبر قراءتها، وأذكارها، وما يتعلق بها، والإعراض عن الفكر فيما لا يتعلق بها، فإن فكر في غيرها، وأكثر من الفكر، لم تبطل صلاته لكن يكره[5].

ولكن هل هذا الحكم من العلماء حكم للإجزاء أو حكم للقبول؟ الذي يظهر أن هذا الحكم منهم حكم الإجزاء وليس حكم القبول.

وجعله الرازي شرط صحة لا شرط قبول، حيث قال: إن الحضور عندنا ليس شرطًا للإجزاء، بل شرط للقبول، والمراد من الإجزاء أن لا يجب القضاء، والمراد من القبول حكم الثواب، والفقهاء إنما يبحثون عن حكم الإجزاء لا عن حكم الثواب، وغرضنا في هذا المقام هذا، أي: حكم الثواب[6].

وفي حكم صلاة من عدم الخشوع قال ابن القيم: فإن قيل: ما تقولون في صلاة من عدم الخشوع، هل يعتد بها أم لا ؟

قيل: أما الاعتداد بها في الثواب: فلا يعتد بها، إلا بما عقل فيه منها، وخشع فيه لربه، ثم ينقل قول ابن عباس: (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها)[7].

وفي المسند مرفوعًا: (إن العبد ليصلي

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي١٢/ ٣٠٣، الوسيط ١٠/ ١٢.
(٣) فتح الباري ٢/ ٢٢٦.
وفي أدلة من قالوا: إن الخشوع سنة وليس بواجب. انظر مدارج السالكين ١/ ٥٢٠-٥٢٢.
(٤) المقدمة الحضرمية ١/ ٧٤.
(٥) المجموع، النووي ٤ / ١١٤.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٣/ ٢٦٠.
(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٣١.

الصلاة، ولم يكتب له إلا نصفها، أو ثلثها، أو ربعها حتى بلغ عشرها)[1].

فقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم، فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح[2].

إذن فالخشوع في الصلاة اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبه يتحقق للمسلم الراحة والطمأنينة والتفكر والتدبر، فتسكن نفسه ويطمئن قلبه وينشرح صدره، وتتحقق الغاية المرجوة من صلاته.

والسؤال الذي يرد على فكر الكثير من المصلين والمسلمين: كيف يحصل المسلم الخشوع في الصلاة؟

الخشوع في الصلاة يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين[3].

وقال في الكشاف: وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شيء، أو يحدّث نفسه بشأن من شؤون الدنيا، وقيل: هو جمع الهمة لها، والإعراض عما سواها، ومن الخشوع أن يستعمل الآداب وذكر من ذلك توقي كف الثوب والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك وتقلب الحصى[4].

وبالجملة فمن يعظم ربه عز وجل ويستحضر عظمته، ويتذكر وقوفه بين يديه للحساب، ويتذكر كذلك مروره على الصراط، ويتفكر حاله حينما يذهب إلى القبور وضعه في القبر وترك المشيعين له وحيدًا لا أنيس ولا جليس، اللهم إلا عمله الذي قدمه، ويتفكر في هذا كله وهو مقدم على الدخول في الصلاة، فيفرغ قلبه وفكره من شواغل الدنيا، ويعتبر نفسه كأنه ميت بين يدي مغسله، حينها ينعم الله عليه بالخشوع في صلاته فينتفع بها، ويحقق مطلوبه فيها.

والخشوع محله القلب وتظهر آثاره على الجوارح، قال ابن القيم: وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره[5].

وسيأتي تفصيل تلك المسألة إن شاء الله تعالى عند الحديث عن خشوع الجوارح، وبالتحديد عند حديثنا عن خشوع القلب.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣١/ ١٧٩، رقم ١٨٨٩٤، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة، ١/ ٢١١، رقم ٦٧٦، عن عمار بن ياسر.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٣٥، رقم ١٦٢٣.

(٢) مدارج الساكين ١/ ٥٢٠-٥٢٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٥٩.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧٥.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٥٢١.

ثانيًا: الخشوع عند ذكر الله:

كذلك من المواطن التي يتأكد فيها الخشوع عند ذكر الله وقراءة القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه[(١)].

والمقصود من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إما بعض منهم ربما كانوا مقصرين عن جمهور المؤمنين يومئذٍ بمكة، فأراد الله إيقاظ قلوبهم بهذا الكلام المجمل على عادة القرآن، وإما أن يكون تحريضًا للمؤمنين على مراقبة ذلك والحذر من التقصير، والخشوع: الاستكانة والتذلل، و﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم، أو هو الصلاة، و﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ القرآن... ويجوز أن يكون الوصفان للقرآن تشريفًا له بأنه ذكر الله وتعريفًا لنفعه بأنه نزل من عند الله، وأنه الحق، ومعنى الخشوع لأجله: الخشوع المسبب على سماعه وهو الطاعة والامتثال[(٢)].

ولب الخشوع عند ذكر الله من يتيقن الرجوع إليه سبحانه.

قال الشيخ محمد عبده في هذا اليقين: ثمّ وصف الخاشعين وصفًا يناسب المقام، ويظهر وجه الاستعانة به فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٦].

أي: الّذين يتوقّعون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء وأنّهم إليه راجعون، بعد البعث لا مرجع لهم إلى غيره[(٣)].

وفي النفس الخاشعة الإيمان بلقاء الله تعالى الذي يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بجزاء مايعمل، ولذلك ذكر إيمان الخاشعين بلقاء الله تعالى، فقال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ والظن بمعنى العلم اليقيني، ولكن التعبير عن العلم بالظن يفيد مع اليقين توقع الأمر المعلوم، فمعنى ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ أنهم يتوقعون هذا اللقاء وقتًا بعد آخر.

فهم يؤمنون إيمانًا صادقًا بلقاء الله، ويترقبون ذلك اللقاء، وينتظرونه متوقعين له، فيقينهم يقين المتوقع المترقب، فيكون في قلوبهم دائمًا، ويستعدون له بعمل صالح يقدمونه رجاء أن يغفر لهم، وأن يتغمدهم برحمته، ويكفر عنهم سيئاتهم[(٤)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٩٠.
(٣) تفسير المنار، محمد عبده، ١/ ٢٥٠.
(٤) زهرة التفاسير ١/ ٢٢١.

والحديث عن الخشوع عند ذكر الله يجعلنا نستحضر آيتين أخريين لهما أثر بالغ في معالجة هذا الجانب، الآية الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال:٢].

وبالتأمل في الآية الكريمة نجد أن أول وصف من الأوصاف التي تحقق الإيمان الكامل هي وجل القلب عند ذكر الله؛ لأنه يستشعر عظمة الله وجلاله، ويتذكر وعده ووعيده، فيخاف قلبه وتضطرب روحه، والوصف الثاني هو ازدياد الإيمان عند تلاوة كتابه الكريم؛ لأنه حينئذ تزداد الأدلة لديه، وتقوى الحجة، فيزداد قوة في إيمانه، ورسوخًا في عقيدته.

قال صاحب الظلال: إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر بالله في أمر أو نهي، فيغشاه جلاله، وتنتفض فيه مخافته، ويتمثل عظمة الله ومهابته، إلى جانب تقصيره هو وذنبه، فينبعث إلى العمل والطاعة... إنها حال ينال القلب منها أمر يحتاج إلى الدعاء ليستريح منها ويقر! وهي الحال التي يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في صدد أمر أو نهي؛ فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله، عز وجل ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ فالقلب المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيمانًا، وما ينتهي به إلى الاطمئنان، إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشري بلا وساطة، كما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيمانًا[1].

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣].

والمعنى: أنه كتاب متشابه الأعجاز والأطراف، متشابه في المعنى والغرض، والصحة ودقة الحكم، وتتبع منافع الناس، وهو كتاب يشبه بعضه بعضًا وتثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، أي: تعاد وتكرر بمنتهى البلاغة وروعة التصوير ودقة التعبير.

هذا وصفه في نفسه، فإذا سمعه المؤمنون اقشعرت منهم الجلود، واضطربت منهم القلوب، ووجلت منهم النفوس، إذا سمعوا وعيد الله، ورأوا بعيون البصيرة ما أعد للمكذبين الكفار دمعت عيونهم وخشعت أصواتهم، واقشعرت جلودهم، ثم تلين قلوبهم وتسكن حينما يسمعون ذكر رحمة الله بالمؤمنين، تفرح نفوسهم، وتنشرح صدورهم إلى ذكر فضله على المؤمنين يوم لقائه[2].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٨٥.
(٢) التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٢٦٦.

وهكذا المؤمن كلما ذكر ربه عليه أن يزين ذكره بالخشوع له سبحانه يتفكر في الذكر بفكره، ويعيشه بقلبه، كل الذكر، فحينما يذكر إذا استيقظ من نومه «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» يتفكر في الحمد وفي قدرة الله عليه في الإماتة والإحياء، وإذا سبح يعيش التسبيح بفكره وقلبه، وإذا هلل يفكر في وحدانية الله وأنه المستحق للعبادة وحده، وأنه الرزاق وحده، وإذا أقدم على فعل شيء تفكر وأيقن أن الله هو النافع الضار، وهو بيده مقاليد الأمور.

فذكره سبحانه يمنح النفس خشوعًا وخضوعًا، وتسليمًا لله عز وجل.

فلا يأبه بما يدور حوله، ولا تشغله الدنيا ولا مفاتنها؛ لأنه مشغول بما هو باقٍ فلا يأبه بالفاني، وهكذا كأنه يعيش وسط الجماعة بجسده لكنه قلبًا وفكرًا مع ربه عز وجل

ثالثًا: الخشوع عند مواقف القيامة:

وثالث المواطن التي يتأكد فيها الخشوع: الخشوع في يوم القيامة، وحقيقة يحوز هذا الموطن أكبر قدر من آيات الخشوع.

فقد ورد هذا في آيات عدة، منها ما يتحدث عن خشوع الأصوات بوجه عام يوم القيامة، ومنها ما يتحدث عن خشوع الكفار بسبب ذل العذاب الذي يلحقهم يوم القيامة، وكذلك ما يتحدث عن خشوع أبصار الكفار حين خروجهم من القبور خشيةً ورعبًا مما سيلاقونه، أو خشوع تلك الأبصار جراء مذلتهم وعذابهم، وآخر هذه الآيات الآية التي تتحدث عن خشوع الوجوه بسبب فزعها يوم القيامة، ولا عجب أن يطلق على هذا كله خشوع الكفار، وبدهي أن هذا اللون سيكون فقط في يوم القيامة.

فالآية الأولى التي تتحدث عن خشوع الأصوات وردت في سورة طه وتحديدًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨].

أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم[(١)].

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: خضعت لهيبته، وقيل: ذلت، وقيل: سكتت.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الهمس: الصّوت الخفيّ. قال أكثر المفسّرين: هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر[(٢)].

والآية الثانية تتحدث عن خشوع الكفار بسبب ذل العذاب الذي يلحقهم يوم القيامة تقول: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣١٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٥٧.

﴿إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۝٤٤ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٤-٤٥].

يبرز الشوكاني الخشوع في هذا الموطن فيقول: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين المكذّبين بالبعث ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين نظروا النّار، وقيل: نظروا ما أعدّه اللّه لهم عند الموت ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: هل إلى الرّجعة إلى الدّنيا من طريق ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ساكنين متواضعين عند أن يعرضوا على النّار لما لحقهم من الذّلّ والهوان[1].

والمراد بالخشوع في هذه الآية: ما يبدو عليهم من أثر المذلة والمخافة، و﴿مِنَ﴾ للتعليل، أي: خاشعين خشوعًا ناشئًا عن الذل، أي: ليس خشوعهم لتعظيم الله والاعتراف له بالعبودية؛ لأن ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا[2].

والآية الثالثة تتحدث عن خشوع أبصار الكفار حين خروجهم من القبور خشية ورعبًا مما سيلاقونه، وهي قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر:٧].

وقد ذكر ابن عاشور حينما فسر هذه الآية أنه قد عدّ سبعة من مظاهر الأهوال التي تؤثر فيهم، وتكون سببًا في ذلهم يوم القيامة، وعد منها خشوع أبصارهم فقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح، وهو كناية لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما[3].

والآية الرابعة تتحدث أيضًا عن خشوع أبصار الكفار من أثر ذل العذاب يوم القيامة قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم:٤٣].

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة[4].

والآية الخامسة في هذا المضمار كذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾ [المعارج:٤٣-٤٤].

يؤكد ابن كثير ما ذكره في آية القلم هنا في آية المعارج فيقول: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: خاضعة ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في مقابلة ما

(١) المصدر السابق ٤/ ٦٢٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٢٦.
(٣) المصدر السابق ٢٧/ ١٧٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩٨.

استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

والآية السادسة قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ [النازعات:٨-٩].

والآية السابعة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية:١-٤].

فـ﴿خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أخبار ثلاثة عن ﴿وُجُوهٌ﴾، والمعنى: أناس خاشعون الخ، فالوجوه كناية عن أصحابها، إذ يكنى بالوجه عن الذات...وأوثرت الوجوه بالكناية عن أصحابها؛ لأن حالة الوجوه تنبىء عن حالة أصحابها، إذ الوجه عنوان عما يجده صاحبه من نعيم أو شقوة[2].

وتتلخص مواطن الخشوع كما وردت في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن، أولها: الخشوع في الصلاة الذي هو لبها، وله من الأهمية ما ذكرنا، ويحصله من اشتغل بالصلاة عما عداها، وآثرها على غيرها في الأداء وفي الاهتمام، وثانيها: الخشوع عند ذكر الله عز وجل الذي يجعل للذكر روحًا تسري وتبعث اليقين في الذاكر، وتحثه على إتقان العبادة والعمل، وتزيده ثقة في ربه عز وجل، وثالثها: الخشوع عند أهوال يوم القيامة، ومنه خشوع الأصوات الذي يعم كل الخلائق، ويظهر في سكونها وسكوتها، ومنه خشوع الوجوه والأبصار، الذي يظهر في ملامحها وانكسارها، وهو اللون الذي يخص الكفار، وكأن الله عز وجل في كتابه الكريم يحثنا بشدة على الخشوع في الصلاة، وعند ذكره سبحانه وتعالى، لأنه بذلك يحذرنا من خشوع المذلة في الآخرة، فمن يهتم بالخشوع في الصلاة وعند الذكر يجنب خشوع الذل في الآخرة.

(١) المصدر السابق ٨/ ٢٢٨.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٩٥.

خشوع الجوارح

إذا كان من معاني الخشوع في الاصطلاح: خشية في القلب من الله تعالى تظهر آثارها على الجوارح، فتجعلها ساكنة مستشعرة أنها بين يدي الله سبحانه[1].

فالخشوع مركزه القلب، أو منشؤه القلب، أما ظهور آثاره فيكون على الجوارح، فالجوارح هي التي يظهر عليها ترجمة ما في القلب، والقرآن الكريم تحدث في غير آية عن خشوع تلك الجوارح، أو الأثر الظاهري للخشوع على الجوارح، فمن الآيات ما تحدث عن خشوع القلوب، ومنها ما تحدث عن خشوع الوجوه، ومنها ما تحدث عن خشوع الأبصار، ومنها ما تحدث عن خشوع الأصوات، ونستوضح ذلك بشيء من التفصيل في النقاط الآتية:

أولًا: خشوع القلوب:

الخشوع من أهم العبادات وأصعبها؛ لأنه يحتاج لتركيز كبير، وكلمة «الخشوع» تدل على أقصى درجات التأمل مع التفكير العميق، والقلوب هي مراكز الخشوع، وهي منشؤه والسبب في حدوثه، والقلوب وإن كانت غير ظاهرة وبالتالي غير ظاهر عليها شيء، لكنها هي مركز التحكم في جميع الجوارح، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية كثير من الآيات والأحاديث الصحيحة التي تؤكد ذلك، والتي منها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: رغبًا فيما عندنا ورهبًا مما عندنا.

ثمّ وصفهم اللّه سبحانه بأنّهم كانوا يدعونه رغبًا ورهبًا، أي: يتضرّعون إليه في حال الرّخاء وحال الشّدّة، وقيل: الرّغبة: رفع بطون الأكفّ إلى السّماء، والرّهبة رفع ظهورها.[2] ومما لا شك فيه أن الرغبة والرهبة تكونان في القلب.

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدًا[3].

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:١-٢].

وابن كثير يورد في آية سورة المؤمنون أن خشوع المؤمنين في صلاتهم مكمنه

(١) الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٢.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٠٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٧٠.

خشوع قلوبهم، وينقل من كلام المفسرين من التابعين ما يدل على ذلك فيقول: وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخشوع خشوع القلب، وكذا قال إبراهيم النخعي. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح[1].

ووفي خشوع القلوب يبين الله عز وجل ما يجب أن يكون عليه القلب من خشوع في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

قال ابن كثير: يقول تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه[2].

والخشوع محله القلب وتظهر آثاره على الجوارح، كما قال ابن القيم: وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره[3].

وقال ابن رجب: وأصل الخشوع هو لين القلب ورقته، وسكونه، وخضوعه، وانكساره، وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح، والأعضاء؛ لأنها تابعة له، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ألا وإنّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب)**[4].

فإذا خشع القلب خشع السمع، والبصر، والرأس، والوجه، وسائر الأعضاء، وما ينشأ منها حتى الكلام؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه في الصلاة: **(اللّهمّ لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي، وبصري، ومخّي، وعظمي، وعصبي)**[5].

إذن فليس الخشوع بتنكيس الرأس أو الرقبة، لأنه حينما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا مطأطئًا رقبته في الصلاة قال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب[6].

وقال سفيان الثّوريّ: سألت الأعمش عن الخشوع فقال: يا ثوريّ أنت تريد أن تكون إمامًا للناس ولا تعرف الخشوع؟

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٥٩.
(٢) المصدر السابق ٨/ ١٩.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٢١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة والمزارعة، رقم ١٥٩٩.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧١.
(٦) الكبائر، الذهبي ص ٥٣.

ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطئ الرّأس، لكنّ الخشوع أن ترى الشّريف والدّنيء في الحقّ سواءً، وتخشع للّه في كلّ فرضٍ افترض عليك[1].

ومما يؤكد ذلك أن سعيد بن المسيب رضي الله عنه رأى رجلًا يعبث في صلاته بلحية، فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[2].

وهذا حذيفة رضي الله عنه يحذر من خشوع النفاق: إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع[3].

فمحل الخشوع القلب الذي هو محل نظر المولى جل وعلا وما الجوارح إلا تبع له فيهتم به، ومن هذا نعلم أن الخشوع من أهم أعمال القلوب، كالخوف والرهبة، ومن العلماء من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث[4].

والصواب أنه من أعمال القلوب، وما يظهر على الجوارح من السكون وترك العبث إنما هو من آثاره.

لذلك يقول ابن رجب رحمه الله: فأصل الخشوع: هو خشوع القلب، وهو انكساره لله، وخضوعه وسكونه عن التفاته إلى غير من هو بين يديه، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها تبعًا لخشوعه[5].

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه: (خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظامي)[6].

ومما يدل على أنه من عمل القلوب ما ورد من حديث على بن أبي طالب رضي الله عنه: «الخشوع في القلب، وأن تلين كتفك للمرء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك»[7].

أثر الخشوع في القلب:

أظهرت دراسة جديدة نشرتها مجلة جمعية القلب الأمريكية أن التأمل لفترات طويلة ومنتظمة يقي القلب من الاحتشاء أو الاضطراب. ويعمل التأمل على علاج ضغط الدم العالي وبالتالي تخفيف الإجهاد عن القلب. كما أظهرت هذه الدراسة أن للقلب عملًا مهمًّا وليس مجرد مضخة، وتؤكد الدراسات أهمية التأمل والخشوع في استقرار عمل القلب، ويقول الأطباء

(١) فتح القدير ١/ ٩٣.
(٢) أخرجه عبدالرزاق الصنعاني في مصنفه، ٢/ ٢٦٦، رقم ٣٣٠٨، وابن أبي شيبة في مصنفه، ٢/ ٨٦، رقم ٦٧٨٧.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٢١.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٦٧٨.
(٥) فتح الباري، ابن رجب ٥/ ١٧٩.
(٦) سبق تخريجه قريبًا.
(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٤٢٦، رقم٣٤٨٢.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.
ولم يتعقبه الذهبي.

اليوم إن أمراض القلب هي السبب الأول للموت في العالم، وسبب هذه الأمراض هو وجود اضطراب في نظام عمل القلب، ومن هنا ندرك أهمية الخشوع في استقرار وتنظيم أداء القلب.

إن الدراسات تثبت اليوم أن التأمل يعالج الاكتئاب والقلق والإحباط، وهي أمراض العصر التي تنتشر بكثافة اليوم. ليس هذا فحسب، بل وجدوا أن التأمل المنتظم يعطي للإنسان ثقة أكثر بالنفس ويجعله أكثر صبرًا وتحملًا لمشاكل وهموم الحياة[(١)].

ألوان أخرى للخشوع:

الخشوع الذي نحن بصدد الحديث عنه هو الخشوع القلبي والبدني، وربما كان هناك ألوانٌ أخرى من الخشوع، منها: الخشوع العقلي الجانب المعرفي.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

والعلماء هم الّذين علموه بصفاته وتوحيده وما يجوز عليه وما يجب له وما يستحيل عليه، فعظّموه وقدّروه حقّ قدره، وخشوه حقّ خشيته، ومن ازداد به علمًا ازداد منه خوفًا، ومن كان علمه به أقلّ كان آمن[(٢)].

وربما دخل في الخشوع العقلي أيضًا خشوع سحرة فرعون، الذين دخلوا في الإسلام في لحظات معدودات من اقتناع عقلهم بما رأوه من معجزة على يد نبي الله موسى عليه السلام، ومن هذا القبيل خشوع من يدخلون في الإسلام في العصر الحديث بسبب ما يشاهدونه من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

والخشوع النفسي، وهو إذعان النفس لقبول الحق، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

قال أبو حيان: وفيما شجر بينهم عامٌّ في كلّ أمرٍ وقع بينهم فيه نزاعٌ وتجاذبٌ. ومعنى ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾: يجعلوك حكمًا، وفي الكلام حذفٌ، التّقدير: فتقضي بينهم. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: ضيقًا من حكمك.

والمعنى: لا يخطر ببالهم ما يأثمون به من عدم الرّضا، وقيل: همًّا وحزنًا، ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ أي: ينقادوا ويذعنوا لقضائك، لا يعارضون فيه بشيءٍ، قاله: ابن عبّاسٍ والجمهور. وقيل: معناه: ويسلّموا ما تنازعوا فيه لحكمك[(٣)].

وأخيرًا كيف يأطر المسلم قلبه على الخشوع؟

المسلم الذي يريد أن يسير في ركاب

(١) طاقة الخشوع، عبد الدايم الكحيل، في موقع الكحيل للإعجاز العلمي.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي،٩/ ٣١.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٦٩٥.

الخاشعين عليه أن يكبح جماح نفسه وشهوات قلبه، ويكثر من الذكر والخلوة والتواضع لله، والتفكر في عظمته ومخلوقاته، ويتفكر في نفسه وضعفها واحتياجها إلى خالقها ومدبر أمرها، ويكثر من التفكر في حكم مجريات الأحداث، والتفكر في الأذكار التي يذكر ربه بها في الصباح وفي المساء، وعند الخروج من الدار، وعند الركوب وعند الطعام والشراب والنوم... إلخ، كذلك يتلو آيات القرآن بتدبر وتفكر، واستشعار عظمة قائله، ويروض نفسه على ذلك كله شيئًا فشيئًا.

ثانيًا: خشوع الوجوه:

يأتي في المرتبة التالية من خشوع القلوب خشوع الوجوه، فالوجه أشرف الأعضاء الظاهرة للإنسان، ولذلك جعل السجود من أشرف العبادات لله عز وجل وفي سورة الإسراء يمتدح الله سبحانه الصالحين من أهل الكتاب؛ لأنهم يخرون سجدًا لربهم، تعظيمًا له سبحانه، واعترافًا بنعمه عليهم، ويبكون من شدة تأثر القلب، بل ويزدادون خشوعًا بالقرآن والسجود والبكاء.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

قال ابن كثير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله عز وجل شكرًا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلًا أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا قالوا ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: خضوعًا لله عز وجل، وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: إيمانًا وتسليمًا[1].

وفرق بين خشوع هذه الوجوه وخشوع وجوه الكفار والمنافقين في الآخرة، فخشوع صالحي أهل الكتاب كان باختيارهم، ناشئًا عن تعظيمهم لربهم في الدنيا، ولذلك استحقوا أن يمدحهم الله تبارك وتعالى بسببه، أما خشوع المنافقين والكفار

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٢٨.

فسيكونون مجبرين عليه في الآخرة، وهو بسبب امتناعهم عن تعظيمهم لربهم في الدنيا، ولذلك ذمهم الله عز وجل به.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية:١-٤].

قال ابن كثير: وقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة، قاله قتادة، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها[١].

ثالثًا: خشوع الأبصار:

إذا كان أساس الخشوع في القلب، ثم تتبعه في ذلك جوارح الإنسان فإن الأبصار من الجوارح التي تتأثر تأثرًا مباشرًا بما في القلوب، وقد ورد خشوع الأبصار في القرآن في أكثر من آية، من هذه الآيات آية واحدة فقط، تتحدث عن خشوع المؤمنين في صلاتهم بوجه عام في الدنيا، أما بقية الآيات التي تتحدث عن خشوع الأبصار فحديثها عن خشوع أبصار الكفار في الآخرة، فالأولى آية سورة المؤمنون، وهي وإن كان ظاهرها مدح للخاشعين في صلاتهم بوجه عام إلا أن أبرز ما يظهر في خشوع المصلي خشوع بصره.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

يورد ابن كثير حينما يفسر هذه الآية قول محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم، إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الاية خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم. قال محمد بن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مصلاه، فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض[٢].

والمعنى: قد فاز وظفر بالمطلوب، أولئك المؤمنون الصادقون، الذين من صفاتهم أنهم في صلاتهم خاشعون، بحيث لا يشغلهم شيء وهم في الصلاة عن مناجاة ربهم.

ومن مظاهر الخشوع: أن ينظر المصلى وهو قائم إلى موضع سجوده، وأن يتحلى بالسكون والطمأنينة، وأن يترك كل ما يخل بخشوعها كالعبث بالثياب أو بشيء من جسده[٣].

وشتان بين خشوع يمتدح أهله وخشوع يذم أهله، فالأول خشوع المؤمنين في صلاتهم، وهو من الأفعال التي تجلب لهم الفلاح، والثاني خشوع الكفار عند خروجهم من قبورهم، وهذا دليل مذلة لهم، وآيته التي تتحدث عن خشوع أبصار الكفار

(١) المصدر السابق ٨/ ٣٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٥٩.

(٣) الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٢.

حين خروجهم من القبور خشيةً ورعبًا مما سيلاقونه، وهي قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر:٦-٨].

والآية الثالثة من الآيات التي تتحدث عن خشوع الأبصار قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم:٤٣].

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه[1].

والآية الرابعة في هذا المضمار كذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾ [المعارج:٤٣-٤٤].

والآية الخامسة قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾ [النازعات:٨-٩].

وبقليل من التأمل في هذه الآيات السابقة ندرك أن جميع الآيات التي وردت في خشوع الأبصار تتحدث عن خشوع أبصار الكفار من أثر ذل العذاب يوم القيامة، هذا فيما عدا الآية الأولى آية سورة المؤمنون إذا اعتبرناها ضمن الآيات التي تتحدث عن خشوع الأبصار.

وهذا يجعلنا نروض أبصارنا على الخشوع، فلا نطلق لها العنان تنظر إلى ما يحلو لها، هنا وهناك دونما رقيب أو حساب، وإنما نعودها على النظر إلى الحلال، ونستعملها في طاعة الله، وأن يكون نظرنا عبرًا.

رابعًا: خشوع الأصوات:

صحيح أن الأصوات ليست من الجوارح؛ لكنها تصدر عن جارحة من الجوارح وهي اللسان، فكأن المقصود -والله أعلم- خشوع الجارحة التي تصدر الأصوات، ولولا أن الله سبب تلك الجارحة ما كان سيصدر هذا الصوت، إذن فحينما نتحدث عن خشوع الأصوات فمقصدنا خشوع الجوارح التي تصدر الأصوات فتسكن تلك الجوارح، أو سكون الأصوات وسكوتها.

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ [طه:١٠٨].

يقول السيد طنطاوي: وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: وخفتت وسكنت الأصوات كلها هيبة وخوفًا من الرحمن عز وجل فلا تسمع -أيها المخاطب- في هذا اليوم الهائل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩٨.

الشديد إلّا همسًا، أي: إلا صوتًا خفيًّا خافتًا. يقال: همس الكلام يهمسه همسًا، إذا أخفاه، ويقال للأسد: الهموس، لخفاء وطئه[1].

وخشوع الأصوات في الآخرة يكون من المخلوقات قاطبة، فحينها لا فرق بين إنس وجن، ولا فرق بين مؤمن وكافر، سكتت وسكنت جميع الأصوات هيبة وخوفًا من الله عز وجل.

والعاقل الكيس الذي يمسك بزمام لسانه الذي تصدر عنه الأصوات في الدنيا، فلا يطلقه إلا في الخير، وما يرضي ربه تبارك وتعالى ، فمن يفعل ذلك يأطر لسانه على الخشوع في الدنيا طواعية قبل الخشوع في الآخرة قسرًا، فيعود لسانه على الخشوع وصوته على السكون، وسيكون ذلك له إن شاء الله في الميزان.

(١) الوسيط ٩/ ١٥٣.

خشوع الكائنات

الخشوع والتذلل لله تعالى ليس مقصورًا على الإنسان وأعضائه، وإنما يعم جميع مخلوقات الله عز وجل فالكل مخلوق لله، إذن فالكل عبيد له سبحانه متذلل له، لكن كل مخلوق له خشوعه الذي يليق به، والذي يتناسب معه، وربما خشع بعض المخلوقات خشوعًا لا يعلمه الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

ومن الآيات التي وردت في موضوع الخشوع: ما يخص خشوع الكائنات، فقد ورد من الآيات ما يتحدث عن خشوع الأرض، ومنها ما يتحدث عن خشوع الجبال، فحري بالبحث أن يتعرض لتلك الآيات ويفرد لكل منها إطلالة خاصة، كما أنه حري بالبحث أن ينظر في ورود هذه الكائنات في القرآن الكريم، فكان من اللائق أن يتعرض البحث للإعجاز العلمي ونحن في عصر العلم في خشوع الكائنات.

أولًا: خشوع الأرض:

عن خشوع الأرض ككائن من الكائنات ورد قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩].

﴿وَمِنْ مَآيَٰتِهِۦٓ﴾ أي: الدالة على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار[1].

ثانيًا: خشوع الجبال:

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١].

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبينًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

ثم ينقل قول العوفي عن ابن عباس في هذه الآية فيقول: أي: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع[2].

فحري بنا بني الإنسان أن نتعظ بهذه الآيات، ونتدبر القرآن ونخشع له امتثالًا لأمر الله عز وجل نعظم القرآن ونأخذ أوامره ونواهيه على سبيل الجد، حتى يؤثر فينا ويغير مجرى حياتنا إلى ماهو أفضل وأمثل.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٧٨.

صفات الخاشعين

أولًا: اليقين بلقاء الله:

اليقين له أهمية كبرى في حياة المسلم، فهو الذي يدفعه إلى الاستقامة في كل أموره، وهو الذي يهون عليه مشقات الحياة والابتلاءات التي تتوارد عليه، وهو الذي يجعله يثق بالله عز وجل، وهو الذي يعلي درجات الإيمان بالغيب، وهو الذي يجعل نفسه تتوق إلى الجنة فتسارع للعمل لها، وتحذر من النار فتتجنب ما يقرب منها.

قال ابن القيم: لا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا من قلبه وبدنه، واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وهو مع المحبة ركنان للإيمان[1].

وقال صاحب الظلال: والذي يجد راحة اليقين في قلبه يجد في الآيات مصداق يقينه، ويجد فيها طمأنينة ضميره، فالآيات لا تنشئ اليقين، إنما اليقين هو الذي يدرك دلالتها ويطمئن إلى حقيقتها، ويهيئ القلوب للتلقي الواصل الصحيح[2].

ويأتي هذا الوصف للخاشعين، وهو يقينهم بلقاء ربهم ويقينهم بالرجوع إليه واضح وصريح في القرآن الكريم.

ففي سورة البقرة يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

والمتأمل في هذا الكلام يدرك أن يقين هؤلاء بلقاء ربهم وخوفهم من الوقوف بين يدي ربهم تبارك وتعالى كان سببًا في خشوعهم وتذللهم وانكسارهم له سبحانه في الدنيا؛ لأنهم آمنوا بالبعث وأيقنوا بالرجوع إليه عز وجل للحساب.

يقول السيد طنطاوي: ثم وصف سبحانه الخاشعين وصفًا يناسب المقام، ويظهر وجه الاستعانة، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

(الظن) يرد في أكثر الكلام بمعنى الاعتقاد الراجح، وهو ما يتجاوز مرتبة الشك، وقد يقوى حتى يصل إلى مرتبة اليقين والقطع، وهو المراد هنا.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [المطففين:٤-٥] أي: ألا يعتقد أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة:٢٠] أي: علمت أني ملاقٍ

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٩٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٨١.

حسابيه، وملاقاة الخاشعين لربهم معناها الحشر إليه بعد الموت، ومجازاتهم على ما قدموا من عمل[1].

قال ابن جرير -مرجحًا أن المراد بالظن هنا العلم واليقين-: إن قال لنا قائل: وكيف أخبر الله تعالى عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظن أنه ملاقيه، والظن شك، والشاك في لقاء الله كافر؟

قيل له: إن العرب قد تسمى اليقين ظنًّا: والشك ظنًّا نظير تسميتهم الظلمة سدفة. والضياء سدفة، والمغيث صارخا، والمستغيث صارخا، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده[2].

ثانيًا: المسارعة في الخيرات:

الخاشعون الذين يخافون ربهم، ويخضعون له ويتذللون بين يديه في طاعتهم له، الذين من صفاتهم أنهم يوقنون بلقاء ربهم، وأنهم لا بد واقفون بين يديه للحساب، لذا فهم يسارعون في التقرب إلى الله بالطاعات، يرجون رحمته ويطمعون في نعيمه ويخافون عذابه، وقد تفهم المسارعة في الخيرات، وخوف العذاب.

لكن الرجاء ربما يلتبس على البعض، فأي رجاء هو؟ وهل له أصل في كتاب ربنا تبارك وتعالى؟ وما صلة ذلك بموضوعنا؟

هذا ما نتعرف عليه في السطور التالية إن شاء الله:

ورد في القرآن الكريم أكثر من آية تبين أن الخاشعين من صفاتهم أنهم يرجون نعيم الله عز وجل ويخافون عذابه، فحينما يتذللون يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، رغبًا ورهبًا.

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء ٨٩-٩٠].

وقد ذكر ابن كثير أقوال المفسرين الأوائل فيها مما يوضح أن الخشوع هنا سببه الخوف والرجاء في آن واحد فيقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: رغبًا فيما عندنا ورهبًا مما عندنا ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، أي: مصدقين بما أنزل الله،... وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدًا، وقريبًا منه مانقله عن الحسن وقتادة والضحاك: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي: متذللين لله

(١) الوسيط ١/ ١١٣.
(٢) جامع البيان ١/ ٢٦٢.

عز وجل[1].

إذن فمن يخشع لربه عز وجل في الدنيا يخشع وهو متلبس بالخوف من عذاب ربه، طامعًا في رحمته وجنته، فمن صفاته أنه في حله وترحاله على حالة من الحالتين الخوف أو الرجاء.

وينبغي للعبد المسلم أن يجمع بين الخوف من الله عز وجل والرجاء في رحمته ونعيمه، وأن يكونا عند المسلم على درجة واحدة، فلا يغلب أحدهما على الآخر، قال أبو علي الروزباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت[2].

والجمع بين الخوف والرجاء كما ذكرنا آنفًا من صفات الخاشعين، وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تجمع بينهما، أو ما يبعث على أن يكون الإنسان بين الخوف والرجاء، فقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:٥٦].

قال القرطبي: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوف وتأميل لله عز وجل حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر، يحملانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان[3].

وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

قال الشوكاني: ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة أمره بأن يذكر لهم شيئًا مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، أي: الكثير الإيلام، وعندما جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطًا بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوساطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف وبين حالتي الأنس والهيبة. وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر:٣][4].

ويبين الله لنا في هذه الآية الكريمة أنه مع مغفرته للذنوب لمن تاب ورجع إليه، فإنه شديد العقاب لمن تكبر وطغى.

قال ابن كثير: وقوله عز وجل: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه، وقوله جل وعلا:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٧٠.
(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٠٣.
(٤) فتح القدير ٣/ ١٩٢.

﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى، وهذه كقوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ يقرن هذين الوصفين كثيرًا في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرجاء والخوف[1].

وقال ابن عاشور: وتقديم: ﴿غَافِرِ﴾، على: قابل التوب، مع أنه مرتب عليه في الحصول؛ للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعد لتدارك أمره فوصف: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، تعريض بالترغيب وصفتا: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، تعريض بالترهيب، والتوب: مصدر تاب والتوب بالمثناة والثوب بالمثلثة والأوب كلها بمعنى الرجوع، أي: الرجوع إلى أمر الله وامتثاله بعد الابتعاد عنه[2].

ويضم ربنا تبارك وتعالى الخاشعين والخاشعات مع المسلمين والمؤمنين والقانتين والصابرين والمتصدقين والصائمين والحافظين فروجهم والذاكرين له كثيرًا، ويؤكد لنا أن هؤلاء جميعًا أعد لهم مسبقًا مغفرة وأجرًا عظيمًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥].

الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار، والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته، كما في الحديث (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[3].

ثالثًا: الاستعانة بالصبر والصلاة:

من صفات الخاشعين لله عز وجل استعانتهم بالصبر والصلاة بعد استعانتهم بالله، فالصبر يجعلهم يتحملون المشقات في فعل الطاعات، والمكاره في البعد عن السيئات، والصلاة تصلهم بخالقهم، فيتحركون ويسكنون مستشعرين مراقبة ربهم لهم.

وبَيَّنَ القرآن الكريم في سورة البقرة أن الاستعانة بالصبر والصلاة شاقة ثقيلة إلا على الخاشعين، فالخاشعون من أوصافهم أنهم يستعينون بالصبر والصلاة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٩٠.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٤/ ٨٠.
(٣) سبق تخريجه.

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ عائد إلى الصلاة، أي: مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين. قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: المصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: المؤمنين حقًّا. وقال أبو العالية: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الخائفين. وقال الضحاك: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته الخائفين سطوته المصدقين بوعده ووعيده[(١)].

والمراد بالخاشع هنا: الذي ذلل نفسه وكسر سورتها، وعودها أن تطمئن إلى أمر الله، وتطلب حسن العواقب، وأن لا تغتر بما تزينه الشهوة الحاضرة.

فهذا الذي كانت تلك صفته قد استعدت نفسه لقبول الخير. وكأن المراد بالخاشعين هنا: الخائفون الناظرون في العواقب فتخف عليهم الاستعانة بالصبر والصلاة مع ما في الصبر من القمع للنفس وما في الصلاة من التزام أوقات معينة وطهارة في أوقات قد يكون للعبد فيها اشتغال بما يهوى أو بما يحصّل منه مالًا أو لذة[(٢)].

والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الله، ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون. ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة، ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار. ولذلك فنخضع للذي لا يتغير[(٣)].

قال السيد طنطاوي: واستعينوا على ترك ما تحبون من شهوات الدنيا، والدخول فيما تستثقله نفوسكم من قبول الإسلام، والتقيد بتكاليفه بفضيلة الصبر التي تحجز أنفسكم من غشيان الموبقات، وبفريضة الصلاة التي تنهاكم عن الفحشاء والمنكر[(٤)].

والظاهر أن الآية وإن كانت خطابًا في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم[(٥)].

قال الشعراوي: فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ولكن بعموم السبب، فإنها موجهة للجميع، فكل مؤمن يدخل منهج الإيمان محتاج إلى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه، وليمنع نفسه عن الشهوات التي حرمها الله سبحانه وتعالى[(٦)].

ومما يؤيد عمومية الخطاب في الآية السابقة؛ خطابه للمؤمنين جميعًا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٥٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٤٨٠.
(٣) تفسير الشعراوي ١/ ٨٥.
(٤) الوسيط ١/ ١١٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٥٣.
(٦) تفسير الشعراوي ١/ ٨٤.

فمن يدقق النظر في الأمر الأول في الآية يجد أن أصل التدين والإيمان راجع إلى الصبر؛ لأن فيه مخالفة النفس هواها ومألوفها في التصديق بما هو غيب عما يشاهده ويحسه، وفيه طاعة خالق لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار؛ فإذا صار الصبر خلقًا وسجية للمسلم هانت عليه الصعاب والمشقات؛ لأنه خاضع للحق، قابل له بسعة صدر.

والأمر الثاني في الآية هو الاستعانة بالصلاة،وهذا الطلب يعلمنا فيه ربنا تبارك وتعالى كيفية الشكر له على نعمه وآلائه، يعلمنا فيه كذلك الطريق الميسرة للخضوع الحقيقي لأوامره ونواهيه.

وفي الاستعانة بالصلاة أيضًا تعويد للنفس على الصبر من أكثر من جهة: ففيها أولًا مخالفة الحال التي اعتادها المسلم، وفيها ثانيًا تجلية الأحزان وكشف الكربات؛ وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه (كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة)[1].

وفي الصلاة أكبر عون، بعد الله على الثبات في الأمر، والعزيمة في الرشد. فأمرنا الله سبحانه إذا نزلت بنا بعض النوازل أن نفزع إلى الصبر والصلاة،إذ بهما العون والثبات وتفريج الهموم والراحة القلبية والنفسية.

وإذا كان المراد بالكبيرة هنا الصعبة التي تشق على النفوس؛ وإطلاق «الكبر» على الأمر الصعب والشاق أمر معهود في كلام العرب؛ لأن المشقة من لوازم الأمر الكبير، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الخاشع هنا هو من ذلل نفسه وضبط شهوتها بضوابط الشرع الحنيف، فتصبح النفس حينئذ مطاوعة لأمر الله،راغبة في أمره وراهبة من نهيه.

إذن فالقرآن الكريم يؤكد على الدور الكبير للخشوع في المحافظة على الصلاة، لأن كثيرًا من المسلمين لا يلتزمون بالصلاة على الرغم من محاولاتهم المتكررة إلا أنهم يفشلون في المحافظة عليها لأنهم فقدوا الخشوع، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥].

وهكذا يتبين الدور الكبير للخشوع في الصلاة، ولذلك ربط القرآن بين الصلاة والخشوع، والعجيب أن القرآن في هذه الآية ربط بين الصبر والخشوع، وقد وجد العلماء بالفعل أن التأمل يزيد من قدرة

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/ ٣٣٠، رقم ٢٣٢٩٩، وأبو داود في سننه، أبواب قيام الليل، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، ٢/ ٣٥، رقم ١٣١٩. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٥٨، رقم ٤٧٠٣.

الإنسان على التحمل والصبر ومواجهة الظروف الصعبة![1].

فخلاصة المقصود: أن الاستعانة بالصبر والصلاة ليس بالأمر اليسير على نفس كل إنسان، بل هو خاص بنفس المسلم الذي يعود نفسه الخشوع والخضوع لطاعة ربه، ويعودها الصدق بوعده، والخوف من وعيده، ويجد ويجتهد للعمل بذلك.

وصفات الخاشعين كما أوردها القرآن الكريم تتلخص في يقينهم بلقاء ربهم تبارك وتعالى واجتهادهم بتذلل أنفسهم في طاعته ومرضاته خوفًا ورهبة منه، كذلك يعرفون برجائهم لما عند ربهم من نعيم في الآخرة ويدركون يقينًا أنهم إن خشعوا لربهم وتفانوا في طاعته لن يحرمهم هذا النعيم بفضله ومنه، فيتفانوا في التذلل له سبحانه عسى أن يتقبلهم ويمن عليهم، وهذا كله لديهم يترجم إلى عمل؛ فيستعينون بالله عز وجل ثم بصبرهم على التفاني في الطاعة، وتجنب المعصية، وكذلك بالصلاة التي تصلهم بخالقهم، خاشعين متذللين أيضًا في أدائها.

فمن يريد أن يكون من جملة هؤلاء فعليه أن يتحلى بصفاتهم هذه، وأن يجتهد في تشبهه بهم ويجاهد نفسه في كل أحواله.

(١) طاقة الخشوع، عبد الدايم الكحيل، في موقع الكحيل للإعجاز العلمي.

آثار الخشوع وثواب الخاشعين

الخشوع له أثر كبير في حياة المسلم إذ إنه يعوده الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلوص له من الشرك.

فالخاشع حينما يخشع لا يعبد إلا الله تعالى وحده لا شريك له، ولا يرجو سواه ولا يخاف إلا منه، ولا يخضع إلا له، لأنه يدرك من خلال خشوعه أنه لا نافع إلا هو عز وجل، ولا ضار إلا هو وحده، فلا يتعلق بولي كائنًا من كان، ليجلب له نفعًا أو يدفع عنه ضرًّا فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده.

ولو لم يكن للخشوع أثر إلا الانكسار لله والتذلل بين يدي الله، لكفى بذلك فضلًا، وذلك لأن الله عز وجل إنما خلقنا للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

وأفضل عبادة تلك التي تزين بالذل والانكسار للمعبود سبحانه ولا يتحقق ذلك إلا بالخشوع، ولم لا؟ وقد امتدح الله عز وجل الخاشعين في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥].

وجعل سبحانه وتعالى الخشوع من صفة أهل الفلاح من المؤمنين فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

وقال ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

ولما كان الخشوع صفه يمتدح الله بها عباده المؤمنين، دل على فضله ومكانته عندالله، ودل على حب الله لأهل الخشوع والخضوع؛ لأن الله سبحانه لا يمدح أحدًا بشيء إلا وهو يحبه، ويحب من يتعبده به.

وآثار الخشوع كثيرة، نسلط الضوء على أبرزها فيما يلي:

١. الخشوع يوصل إلى الفوز والفلاح.

فأهل الخشوع هم أهل الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

فالخشوع في الصلاة من أسباب فلاح أهل الإيمان، الذين هم في صلاتهم إذا قاموا فيها خاشعون، وخشوعهم فيها تذللهم لله فيها بطاعته وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به[(١)].

والسؤال: هل الخشوع هو الذي يجعل المسلم يقوم بالأعمال خير قيام، لكي يصل إلى الفوز والفلاح أم العكس إتقان العمل هو الباعث على الخشوع أم أن ذلك من الأمور المستديرة؟

ولمناقشة هذا الموضوع نستحضر آيتي المؤمنون والإسراء: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

ونستحضر كذلك ما ذكره بعض المفسرين فيهما، قال ابن عاشور: ولا شك أن الخشوع لله، يقتضي التقوى فهو سبب فلاح، وذكر مع الصلاة؛ لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوّته، ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق، فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة؛ لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وفي تناول ابن عاشور لهذه الآية ما يقربنا من الإجابة أكثر فيقول: وذكر الذقن للدلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض من

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ١٩٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ٩.

قوة الرغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالى، وإنما خروا خرورًا واحدًا ساجدين باكين، فذكر مرتين اهتمامًا بما صحبه من علامات الخشوع، والبكاء بكاء فرح وبهجة، والبكاء: يحصل من انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن شوق، ويزيدهم القرآن خشوعًا على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم[1].

ومن هنا نستطيع القول: إن المسلم وهو يتلو القرآن أو حينما يكون في صلاته، أو في دعائه، أو على أي حال من أحوال الطاعة يعتريه الخوف فيعظم ربه سبحانه وتعالى فيتملكه الانفعال فيخشع لربه عز وجل، وهذا الخشوع يدفعه إلى إتقان صلاته، أو إتقان طاعته، ثم هذا الإتقان يزيده خشوعًا، فانفعاله وتأثره الأول الذي أوصله إلى الخشوع، وهذا الخشوع اقتضى التحسين للعمل وإتقانه وتقوى الله فيه، حينها يشعر المصلي أو الطائع أنه يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يديه فيخشع له، فيكون الخشوع وإتقان العمل من الأمور المستديرة. والله أعلم.

٢. الخشوع يوصل إلى اليقين بلقاء الله.

الثاني من آثار الخشوع أنه يوصل لليقين بلقاء الله عز وجل، وهذا الأثر في حقيقته يحمل ضمنًا أكثر من أثر؛ فهو موصل للإيمان بالغيب، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالجنة والنار والثواب والعقاب، وكل مافي اليوم الآخر، وفي هذا الأثر نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات[2].

وسبق أن ذكرنا أن الظن هنا الاعتقاد الجازم، وأن إطلاق الظن في كلام العرب على معنى اليقين كثير جدًّا.

٣. الخشوع يوصل إلى مغفرة الذنوب وحصول الأجر منه.

ولو لم يكن للخشوع أثر إلا هذا الأثر، وهو أنه يوصل لمغفرة الذنوب، وحصول الأجر لكفى؛ لأن غاية ما ترجوه نفس المسلم وتطلبه هو مغفرة الذنوب، فيا له من أثر عظيم في تحصيله.

(١) المصدر السابق ١٥/ ٢٣٣-٢٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٥٣.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران:١٩٩].

وفي سورة الأحزاب يمتدح الله عز وجل فيه الخاشعين والخاشعات، ويبين ثوابهم، وما أعد لهم في الآخرة من الأجر العظيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥].

فالأجر العظيم حاصل لهم بما يقومون به من أعمال صالحات والتي من أهمها الخشوع.

وفي الصحيح عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من توضّأ نحو وضوئي هذا، ثمّ صلّى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه غفر له ما تقدّم من ذنبه)[1].

٤. الخشوع سبب لاستجابة الدعاء.

من آثار الخشوع أنه يكون سببًا لاستجابة الدعاء، وآيات سورة الأنبياء توضح ذلك فتقول: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

٥. الخشوع يعرف المسلم بربه ويجعله مستقيمًا على أمره.

الخشوع يعرف المسلم بربه إلى أقصى ما يمكن أن تتحمله قدراته العقلية، ويصل به إلى أقرب ما يمكن أن يكون عليه بشر بعد الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه؛ لأن العبد الذي ديدنه كذلك يربط تلك المعرفة بمجريات الحياة، فلا يرى العبد الخاشع إلا حكمة الله وراء أفعاله ومشيئته سبحانه، فينعكس ذلك على تعامله معه حتى يصل إلى درجة الإحسان بأن يعبد الله كأنه يراه، فيناجيه من قريب، ويستشعر قربه منه، وقيوميته عليه، فيأنس به، ويزداد شوقه إليه.

فالخشوع يكشف للعبد حقيقة أصله،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب المضمضة في الوضوء، رقم ١٦٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، رقم ٢٢٦.

ومدى ضعفه وعجزه، وجهله وحجم احتياجاته المطلوبة للاستمرار في الحياة وأنه بالله لا بنفسه، ولو تخلت عنه العناية الإلهية طرفة عين لهلك.

ومع بيان هذه الحقيقة فإنه كذلك يعرفه بطبيعة نفسه المحبة للشهوات، المائلة للفجور والطغيان، الأمارة بالسوء؛ ليشتد حذره منها، فلا ينسب لها فضلًا، بل يجاهدها، ويروضها على الصدق والإخلاص.

فإذا ما ربط العبد بين هذه المعارف وبين ما يحدث له في حياته، تأكدت لديه حقيقة نفسه، وعاش عبدًا ذليلًا منكسرًا لله متحررًا مما سواه.

فهو يجنب صاحبه العجب والكبر والغرور، ويذكره بالنماذج التي استسلمت لهذه الأمراض فأهلكتها، كإبليس وقارون وفرعون وهامان وصاحب الجنتين.

فالخاشع يدرك تقديم خشوعه لوصفات العلاج لأهل الكبر والغرور والإعجاب بالنفس.

فالدور الهام للخشوع يتمثل في تأثيره على مشاعر صاحبه، وكسره لسورة نفسه وشهواتها، مما يزيد لديها منسوب الإيمان والخضوع والتذلل، وتوجيه الفكر والقلب إلى الحياة الأبدية، والثقة بموعود الله عز وجل، فالنفس التي تصل إلى هذا الحد تتذلل لربها طمعًا فيما عنده، فتتولد لديها الطاقة التي تدفعها إلى مسارعة التقرب، وزيادة الطاعة، وكثرة الذكر والشكر.

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

من هنا تتضح لنا أهمية الخشوع في استقامة العبد على أمر الله، وتجلببه الدائم بجلباب العبودية لمولاه.

فالخشوع باعث على خشية الله والفزع إلى ذكره، وهذا أثر إيماني مهم؛ لأنه يبعث على استقامة العبد في كل أموره وتصرفاته.

قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

٦. الخشوع من أسباب دخول الجنة.

والخشوع والسكينة والتذلل بين يدي الرب تبارك وتعالى من أسباب دخول الجنة، ففي الصحيح من أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا

ظله... وذكر منهم: (ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (عينان لا تسمهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[2].

أضف إلى ذلك أن الخشوع له فوئد وثمار أخرى في الدنيا والآخرة، منها:

- أنه مظهر من مظاهر الإيمان تظهر آثاره على الجوارح.
- أنه يورث الخوف من الله عز وجل، إذ الخشية ثمرة من ثمار الخشوع.
- أنه يؤدي إلى خفض الجناح، وغض البصر.
- الخشوع في الصلاة من أسباب قبولها والفلاح فيها.

فالخشوع من أهم أعمال القلوب التي ينبغي للمسلم الاهتمام والعناية بها، لمن أراد الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

إذا كان لهذا الخشوع من فضل وثواب وأهمية، فكيف نمارس الخشوع في حياتنا اليومية؟

إنه القرآن! هو الوسيلة الرائعة لممارسة الخشوع لله تعالى، وهنا ينبغي أن نصحح الفكرة السائدة أن الخشوع يكون في الصلاة فقط أو في قراءة القرآن، والصواب أن الخشوع هو منهج يعيشه المؤمن كل لحظة كما كان أنبياء الله يفعلون، فإذا تأملنا حياة الأنبياء عليهم السلام نلاحظ أنها مليئة بالخشوع، بل كانوا في حالة خشوع دائم، وهذا ما أعانهم على التحمل والصبر على الأذى والاستهزاء وكان هذا الخشوع سببًا في استجابة دعائهم، ولذلك قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠][3].

إذن فالخشوع ينبغي أن نحرص عليه ونعتاده في كل أعمالنا وحركاتنا وتصرفاتنا، جعلنا الله من الخاشعين لربهم في الدنيا. المراقبين له في كل أحوالنا.

موضوعات ذات صلة:

التواضع، الذل، الصلاة، العبادة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم ٦٢٩ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٠٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، ٤/ ١٧٥، رقم ١٦٣٩.
قال الترمذي: حديث حسن غريب
وصححه الألباني في صحيحه الجامع، رقم ٤١١٢.

(٣) طاقة الخشوع، عبد الدايم الكحيل، في موقع الكحيل للإعجاز العلمي.

الخشية

عناصر الموضوع

مفهوم الخشية	٨
الخشية في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
أنواع الخشية	١٣
أسباب الخشية	٢١
الموصوفون بالخشية في القرآن	٢٧
آثار الخشية	٣١

مفهوم الخشية

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (خشي) على خوفٍ وذعرٍ، فالخشية الخوف. ورجلٌ خشيان. وخاشاني فلانٌ فخشيته، أي: كنت أشّد خشيةً منه[1].

«والخشية: الرجاء، وبه فسّر حديث ابن عمر: قال له ابن عباس: لقد أكثرت من الدعاء بالموت حتى خشيت أن يكون ذلك أسهل لك عند نزوله، أي: رجوت»[2].

وجاءت بمعنى علمت، في قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠﴾ [الكهف:٨٠] أي: فعلمنا[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«الخشية هي تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل»[4].

وقيل هي: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون على علم بما يخشى منه.

«وأصل الخشية خوف من تعظيم، ولذلك خص بها العلماء في آية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]»[5].

فالمعنيان: اللغوي والاصطلاحي متوافقان؛ إذ كلاهما يدوران حول الخوف إلا أن المعنى الاصطلاحي خص بالخوف من الله.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٢٨٤، تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ١٩٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٨٤، مختار الصحاح، الرازي ص٩١.

(٢) تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٢٨٣، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٣٧.

(٣) انظر: معاني القرآن، الفرّاء ٢/ ١٥٧، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥/ ٢٤١.

(٤) التعريفات، الجرجاني ١/ ٩٨.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٥٥.

الخشية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خشي) في القرآن الكريم (٤٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء:٢٥]
الفعل المضارع	٢٩	﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء:٤٩]
فعل الأمر	٥	﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣]
المصدر	٨	﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء:٣١]

وجاءت الخشية في القرآن بمعناها اللغوي وهو: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ١/ ٥٠٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٤٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخوف:

الخوف لغةً:

الخاء والواو والفاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على الذّعر والفزع[١].

الخوف اصطلاحًا:

قال الرّاغب: «الخوف: توقّع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضادّه الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدّنيويّة والأخرويّة»[٢].

ويقول الجرجانيّ: «الخوف توقّع حلول مكروه أو فوات محبوب[٣]. وقيل: اضطراب القلب وحركته من تذكّر المخوف، وقيل: فزع القلب من مكروه يناله أو من محبوب يفوته»[٤].

الصلة بين الخشية والخوف:

الخشية أشد من الخوف؛ لأنّها مأخوذة من قولهم: شجرة خاشية: أي يابسة، وهو فوات بالكلّيّة، والخوف: النّقص، ولذلك خصت الخشية بالله، والخشية تكون من عظم المَخْشِيّ وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا[٥].

٢ الوجل:

الوجل لغة:

«الوجل خلاف الطّمأنينة، وجل الرجل يوجل وجلًا، إذا قلق ولم يطمئن»[٦].

الوجل اصطلاحًا:

«الوجل استشعار الخوف عن خاطر غير ظاهر وليس له أمارة»[٧]، كذلك نجدها في كتاب الله تعالى تستعمل في سياق أخص من الخوف، وهو حالة نفسية تعرض للنفس عند

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٣٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٣.
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص ١٠١.
(٤) دليل الفالحين، البكري ٤/ ٢٨٣.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ١/ ٤٢٨.
(٦) المصدر السابق ص ٢٤٣.
(٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٤.

بداية شيء ما[١].

الصلة بين الخشية والوجل:

قال السعدي رحمه الله: «الخوف، والخشية، والخضوع، والإخبات، والوجل معانيها متقاربة، فالخوف يمنع العبد من محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك، وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله، وأما الخضوع، والإخبات، والوجل، فإنها تنشأ عن الخوف، والخشية، فيخضع العبد لله، ويخبت إلى ربه منيبًا إليه بقلبه، ويحدث له الوجل»[٢].

٣ الشفقة:

الشفقة لغةً:

أشفقت من الأمر، إذا رققت وحاذرت[٣]، وهي« صرف الهمة إلى إزالة المكروه عن الناس»[٤]. شفق: الشّفق والشّفقة: الاسم من الإشفاق. والشّفق: الخيفة[٥].

الشفقة اصطلاحًا:

الشفقة هي ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان، وهي عناية مختلطة بخوف[٦].

«الإشفاق رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها»[٧].

الصلة بين الخشية والشفقة:

«إن الشفقة ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان ومن ثم يقال للأم إنها تشفق على ولدها، أي: ترق له، وليست هي من الخشية والخوف في شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون:٥٧].

ولو كانت الخشية هي الشفقة لما حسن أن يقول ذلك، كما لا يحسن أن يقول يخشون من خشية ربهم»[٨].

---

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٦٥.
(٢) تيسير اللطيف المنان ٢/ ٣٦٢.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ص٣١٧.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٢٧.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٧٩.
(٦) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٣١.
(٧) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٤.
(٨) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٤١.

٤ الرهبة:

الرهبة لغة:

رهب: خاف رَهْبَةً ورُهْبًا. ورجلٌ رَهَبوتٌ، أي: مرهوبٌ، يقال: رَهَبُوتٌ خيرٌ من رحموتٍ. أي: لأن تُرْهَب خيرٌ من أن تُرْحَم[(١)].

الرهبة اصطلاحًا:

الرهبة: هي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي مخافة مع تحرز واضطراب، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه[(٢)].

الصلة بين الخشية والرهبة:

الرهبة خوف وانزعاج من مكروه، والخشية خوف وسكون في محل الأمل، مقرون بمعرفة[(٣)].

(١) مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٣٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٦٦، مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٠٨.
(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٠٨.

أنواع الخشية

تنقسم الخشية إلى أنواع، منها فطرية خارج التكليف يولد بها الإنسان، مثل: الخوف من الوحوش، ومن الموت، والمجهول، ومنها الخشية المحمودة التي تكون من الله، فتمنع صاحبها من الوقوع في المعاصي، أما الخشية المذمومة التي تكون من الناس، فتجعل صاحبها يقع في المحظورات، وتكون خشيته من الناس أشد من خشيته من الله، وهذا لا يفيده بشيء؛ لأن الله تعالى بيده الخير والنفع وليس البشر، مثل: الخشية من كساد التجارة، والخشية من الفقر، ومن الأعداء، ومن المخالفين، وهذه الخشية مذمومة تودي بصاحبها للتعرض لسخط الله، وعدم توفيقه له، ويكون في الدنيا والآخرة من الهالكين الخاسرين إن لم يتب.

الخشية الفطرية:

الخشية الفطرية تكون: كالخشية من الثعبان أن يلدغه، أو السقوط من مكان مرتفع، أو الخشية من شخص يحمل سكينًا، أو من الزلازل والبراكين، أو الخشية من غضب الوالد أو عقابه، فهذا شيء طبيعي سببي لا يأثم عليه الإنسان؛ لأنه خارج التكليف، فالخشية من الحيوانات الضارية المتوحشة مثل الذئب، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخشية الفطرية في نفس يعقوب عليه السلام.

ومن الآيات التي تدل على الخشية الفطرية:

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف:١٣].

ذكر ابن كثير: «وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيتكم، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون»[(١)]. وهذا أمر طبيعي خوف الوالد على أبنائه، وكذلك الحاكم على شعبه.

«ولو خافهم لما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحاري»[(٢)].

«اعتذر إليهم بأن ذهابهم به مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة؛ وأنه يخشى عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم»[(٣)]. فهو كان يخاف عليه من إخوته بعدما قص عليه الرؤيا ولكنه لم يصرح لهم.

«إن نبي اللّه يعقوب كان ينطق بفطرة الأبوة المحبة، وهو خوفه من أن يأكله الذئب، وهم عنه غافلون»[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٧٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٤٠.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٩٨.
(٤) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٨٠٨.

﴿مِّنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف:٦٧].

«فإنه خاف من العين عليهم، والعين حق، أي: أنها سبب حق في الظاهر قد تؤدي إلى الضرر، ولكن بإذن الله وإرادته»[١].

وهذا لا ينافي كونه نبيًّا، فالحسد أمر مفروغ منه ولابد من الأخذ بأسباب السلامة.

«يا أولادي لا تدخلوا مصر من باب واحد ولكن ادخلوها من أبواب متفرقة حتى لا يحسدكم حاسد أو يكيد لكم كائد فيحل بكم مكروه»[٢].

أراد أن يأخذ بالأسباب، فطلب منهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، لحاجة في نفسه الله أعلم بها، لكن بعض المفسرين أخذها على محمل الخشية من الحسد والله أعلم.

«وقال السدي: أراد الطرق لا الأبواب، يعني: من طرق متفرقة، وإنما أمرهم بذلك؛ لأنه خاف عليهم العين؛ لأنهم كانوا قد أعطوا جمالًا وقوة وامتداد قامة وكانوا أولاد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم المدينة؛ لئلا يصابوا بالعين فإن العين حق، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين»[٣].

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم:٥].

ذكر ما يخشاه، وعرض ما يطلبه، إنه يخشى من بعده، يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه، وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين، وأهله الذين يرعاهم، ومنهم مريم التي كان قيمًا عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاه، وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التراث كله، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته[٤].

رأى أن قومه كانوا مهملين لأمر الدين، فخاف أن يضيع الدين بموته، فطلب وليًّا يقوم به بعد موته[٥].

قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم:٢٣].

قالت مريم: يا ليتني مت قبل هذا الوقت، وتمنت الموت؛ لأنها خافت أن يظن بها السوء في دينها، أو لئلا يقع قوم بسببها في البهتان[٦]. وهذا أمر طبيعي خوف الإنسان على سمعته وسمعة أهله وشرفهم، وكان ما قالته وهي تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفًا من لائمتهم أو حذرًا من

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣/ ٣٥.
(٢) التفسير الواضح، محمد الحجازي ٢/ ١٩٢.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٤٠.
(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ١٦٢.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٨٠.
(٦) انظر: المصدر السابق ٣/ ٣٣٨.

وقوع الناس في المعصية بما تكلموا فيها أو جريًا على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر عليهم[(١)].

وذكر بأنها تمنت الموت؛ خشية الاتهام الظالم، وهي البريئة الطاهرة التي اصطفاها رب العالمين[(٢)].

وقالت استحياء من الناس: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، فاشتد بها الأمر هنالك، واحتضنت الجذع؛ لشدة الوجع، وولدت عيسى عليه السلام، فقالت عند ولادتها لما رأته من الآلام والتغرب وإنكار قومها وصعوبة الحال من غير ما وجه: يا ليتني مت قبل هذا. وتمنت مريم الموت من جهة الدين؛ إذ خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيغبنها ذلك، وهذا مباح[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

فلما حملت أم موسى به، عليه السلام، لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا، وأحبته حبًّا زائدًا، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، وأُلهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفث في روعها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتًا، ومهدت فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتملنه، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها[(٤)].

وها هي ذي أمه حائرة به، خائفة عليه، تخشى أن يصل نبأه إلى الجلادين، وترجف أن تتناول عنقه السكين. ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينم عليه عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة.. ها هي ذي وحدها ضعيفة

(١) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٢.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٦٢٧.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٥٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٢.

عاجزة مسكينة. هنا تتدخل يد القدرة، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة، وتلقي في روعها كيف تعمل، وتوحي إليها بالتصرف ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح، وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بردًا وسلامًا[1].

ثانيًا: الخشية الممدوحة:

إن القلوب لا تحيا إلا بقربها من الله تعالى والخشية منه، حيث إن الخشية تكون سببًا لبعد الإنسان عن المعاصي، ونجاته من النار، والفوز بالنعيم والراحة في الدنيا والآخرة، ومن أنواع الخشية الممدوحة:

١. الخشية من الله تعالى.

الخشية من الله أعلى مراتب الإيمان، حيث إن الإنسان يبلغ مرتبة الإحسان حين يعبد الله كأنه يراه، ويشعر بمراقبة الله له في كل لحظة، وكلما تمكنت الخشية من القلب كان الإنسان لله أعبد، وكان مراقبًا لله في السر والعلن، وفي الغيب والشهادة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء:٤٨-٤٩].

قال ابن رجب: «فأما خشية الله في الغيب والشهادة، فالمعني بهما: أن العبد يخشى الله سرًّا وعلانيةً، وظاهرًا وباطنًا، فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن في خشية الله في الغيب إذ غاب عن أعين الناس، وقد مدح الله من يخافه بالغيب»[2].

٢. خشية العذاب الدنيوي والأخروي.

الخشية من الله تعالى تجعل الإنسان دائم الذكر لله تعالى، مبتعدًا عن ارتكاب المعاصي و المحرمات، حريصًا على عمل الخير، مبادرًا في الأعمال الصالحة، مسرعًا في التوبة والرجوع إلى الله تعالى، خشيةً من العقاب وطلبًا للنجاة من النّار وطمعًا في الجنة، بينما الذين لا يخشون الله تعالى نجد قلوبهم متعلقة بحب الدنيا وزخارفها، لا يلقون بالًا للعبادات والأعمال الصالحة التي ترضي الله عنهم، ويعيشون وقلوبهم بعيدة عن الله، نسأل الله السلامة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد:٢١].

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، «خشية جلالٍ وهيبة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٧٩.

(٢) الجامع لتفسير ابن رجب ١/ ٧٠٢.

ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به»[1].

٣. الخشية من الوقوع في الفاحشة.

يجوز للمسلم أن يعدد بشرط العدالة، كذلك أباح الله تعالى تعدد الزوجات إذا كانت الزوجة مريضة أو عقيمًا أو إذا خشي على نفسه الوقوع في الفاحشة.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۖ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء:٢٥].

قال أبو الليث السمرقندي: «وهو رخصة نكاح الأمة ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ يعني الإثم في دينه»[2].

«﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي: لمن خاف وقوعه في الإثم الذي تؤدي إليه غلبة الشهوة، وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر يعتري الإنسان، ولا ضرر أعظم من مواقعته المآثم بارتكاب أفحش القبائح، وقيل: أريد به الحد؛ لأنه إذا هويها يخشى أن يواقعها فيحد، والأول هو اللائق بحال المؤمن دون الثاني؛ لإيهامه أن المحذور عنده الحد لا ما يوجبه»[3].

٤. الخشية من التقصير في الاسترشاد إلى الحق.

كلما تمكنت الخشية من قلب الإنسان كلما كان أشد خشية من التقصير في جنب الله، فيكون دائمًا يقظًا محاسبًا لنفسه خوفًا من العذاب والعقاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس:١١].

«﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ما غاب من عذابه وناره، قاله قتادة. وقيل: أي: يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وانفراده بنفسه. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذنبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: الجنة»[4].

٥. الخشية من محبة الذرية المضرة.

أحيانًا يكون المال والولد فتنة شديدة للإنسان، فربما يرده عن دينه أو يرتكب جريمة، أو يظلم أحدًا، أو يسرق بسبب توفير الأموال لأبنائه.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٧.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٢٦٩.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٦٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١١.

[الكهف:٨٠].

﴿فَخَشِينَآ﴾ أي: خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه. وقيل: معناه: فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه على دينه.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف:٨١]. الإبدال: رفع الشيء ووضع آخر مكانه ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي: صلاحًا وتقوى[(١)].

وقال البيضاوي: «أو يعديهما بعلته فيرتدا بإضلاله، أو بممالأته على طغيانه وكفره حبًّا له»[(٢)].

٦. الخشية من التفرق والتشرذم.

في الاتحاد قوة وفي التفرق ضعف، لذا ينبغي على المسلمين أن يكونوا متحدين على كلمة الحق (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) خشية أن يتسلل الخور إلى صفوفهم، ويصبحوا أحزابًا وشيعًا، فيطمع بهم عدوهم ويصبحوا لقمة سائغة ويستبيح بيضتهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٤].

«يعني خشيت إن فارقتهم واتبعتك أن يصيروا أحزابًا فيتقاتلون، فتقول: فرقت بني إسرائيل ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، يعني: لم تحفظ وصيتي حين قلت لك: اخلفني في قومي، أصلح وأرفق بهم»[(٣)].

ثالثًا: الخشية المذمومة:

١. الخشية من الناس.

قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠].

«أي: لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين، وأفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه»[(٤)].

وقال أبو حيان: «ونهى عن خشيتهم فيما يزخرفونه من الكلام الباطل، فإنهم لا يقدرون على نفع ولا ضر، وأمر بخشيته هو في ترك ما أمرهم به من التوجه إلى المسجد الحرام»[(٥)].

قال تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

«أي: تخفي ما سيبديه الله وتخشى الناس من إبدائه. والخشية هنا كراهية ما يرجف به المنافقون، والكراهة من ضروب

(١) انظر: لباب التأويل ٣/ ١٧٤.
(٢) أنوار التنزيل ٣/ ٢٩٠.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢١١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٤.
(٥) البحر المحيط ٢/ ٤٣.

الخشية»[1].

٢. الخشية من الأعداء.

قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة:١٣].

«في الآية إيماء إلى أن المؤمن يجب أن يكون أشجع الناس وأعلاهم همة ولا يخشى إلا الله»[2].

وقال أبو بكر الجزائري: «أتتركون قتالهم خشية منهم وخوفًا إن كان هذا ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأن ما لدى الله تعالى من العذاب ليس لدى المشركين فالله أحق أن يخشى»[3].

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣].

«إن الكافرين من المشركين وغيرهم قد يئسوا من أن يردوكم عن دينكم كما كان ذلك قبل فتح مكة ودخول ثقيف وهوازن في الإسلام، وظهوركم عليهم في كل معركة دارت بينكم وبينهم؛ إذًا فلا تخشوهم بعد الآن أن يتمكنوا من قهركم وردكم إلى الكفر واخشوني أنا بدلهم، وذلك بطاعتي وطاعة رسولي ولزوم حدودي والأخذ بسنتي في كوني حتى لا تتعرضوا لنقمتي بسلب عطائي، فإن نصرتي لأهل طاعتي وإذلالي لأهل معصيتي»[4].

٣. الخشية من الفقر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء:٣١].

«وذلك أن أهل الجاهلية، كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة أو يخافون عليهم من النهب والغارات، أو أن ينكحوهن لغير أكفاء لشدة الحاجة وذلك عار شديد عندهم، فنهاهم الله عن قتلهن، وقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، يعني: أن الأرزاق بيد الله؛ فكما أنه فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتحه على النساء»[5]. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء:١٠٠].

«قيل: لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفقر»[6].

على الإنسان أن يتوكل على الله مع الأخذ بالأسباب فهو الرزاق لا تنفد خزائنه سبحانه.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٣٤.
(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٦٨.
(٣) أيسر التفاسير ٢/ ٣٤٦.
(٤) أيسر التفاسير ١/ ٥٩١.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٢٩.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٣٣.

٤. الخشية من المخالفين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

«وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كانوا بمكة استأذنوا في قتل كفار مكة سرًّا، لما كانوا يلقون منهم من الأذى، فقال لهم النبيّ صلّى الله عليه وسلم: مهلًا كفوا أيديكم عن قتالهم وأقيموا الصلاة فإني لم أؤمر بقتالهم، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أمره الله تعالى بالقتال، فكره بعضهم فنزلت هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أتموها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأعطوها إذا وجبت عليكم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فرض عليهم القتال بالمدينة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ أي: يخشون عذاب الكفار ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: كخشيتهم من عذاب الله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي: بل أشد خشية، ويقال: معناه أو أشد خشية، يعني: أكثر خوفًا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أي: لم فرضت علينا القتال؟! ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا﴾ أي: يقولون: هلاّ أجلتنا ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وهو الموت، فبيّن الله تعالى لهم أن الدنيا فانية، فقال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي: منفعة الدنيا قليلة؛ لأنها لا تدوم»[1]. الخشية التي لا تكون من الله، أو لله، مذمومة ربما تنقص من إيمان صاحبها، وربما تؤدي إلى انضمامه لقائمة المتصفين بالنفاق والكفر والعياذ بالله.

٥. الخشية من كساد التجارة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤].

«﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ يعني: اكتسبتموها بمكة، ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ يعني: تخشون أن تبقى عليكم فلا تنفق»[2].

«وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قولان: أحدهما: أنه فتح مكة، قاله مجاهد والأكثرون، ومعنى الآية: إن كان المقام في أهاليكم، وكانت الأموال التي اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ لفراقكم بلدكم ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ

(١) تفسير السمرقندي ١ / ٣١٩.
(٢) المصدر السابق، ٢ / ٤٨.

﴿إِلَيْكُمْ﴾ من الهجرة، فأقيموا غير مثابين، حتى تفتح مكة، فيسقط فرض الهجرة. والثاني: أنه العقاب، قاله الحسن»[1].

٦. الخشية على الأولاد بعد موت العائل.

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء:٩].

«أمر للأوصياء بخشية الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم، أو للحاضرين المريض عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه يضرّ بهم بصرف المال عنهم، أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافًا مثلهم هل يجوزون حرمانهم، أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزه»[2]. و«كما كنتم تخشون على ورثتكم وذريتكم بعدكم، فكذلك فاخشوا على ورثة غيركم وذريتهم»[3].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٤٥.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي،٢/ ٦٢.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ١٤.

أسباب الخشية

للخشية أسباب عدة، تختلف باختلاف نوع الخشية، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: أسباب الخشية الممدوحة:

١. تعظيم الله تعالى.

الخشية من الله تكون مرتبطة بتعظيم الله سبحانه وتعالى، فالخاشي لله تكون خشيته نابعة من تعظيمه لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء:٢٨].

«﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا تخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا، وهو كالعلة لما قبله والتمهيد لما بعده، فإنهم لإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أن يشفع له مهابة منه، ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ عظمته ومهابته ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون، وأصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء»[4].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد:٢١].

وذكر أبو حفص الحنبلي أن معنى قوله: «﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أنّ العبد، وإن قام بكلّ

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٥٠.

ما جاء عليه من تعظيم الله، والشفقة على خلق الله إلا أنه لا بد وأن تكون الخشية من الله عزّ وجلّ والخوف منه مستويان، ثم ذكر أن الخوف: هو مخافة الهيبة والجلال والتعظيم»[1].

«﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خشية جلالٍ وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به»[2].

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]. «أي: من شأنه، وعظمته»[3].

٢. العلم.

لقد مدح الله العلماء وخصهم بخشيته، وذلك لأنهم عارفون بالله تعالى؛ بأسمائه وصفاته وقدرته.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة، قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل.

وقال مسروق: كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار جهلًا، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له.

قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم.

وقال الشعبي: العالم من خاف الله[4].

«وقال ابن عباس في تفسير الآية: كفى بالزهد علمًا. وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علمًا، وبالاعتذار جهلًا. وفي الحكم: خير علم ما كانت الخشية معه، وقال في التنوير: اعلم أن العلم حيثما تكرر في الكتاب والسنّة فإنما المراد به العلم النافع، الذي تقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، بيّن سبحانه أن الخشية تلازم العلم، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية»[5].

٣. النجاة من العذاب في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد:٢١].

«ويخشون ربهم وعيده عمومًا. ويخافون سوء الحساب خصوصًا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا»[6].

وقال سيد قطب: «فهي خشية الله ومخافة العقاب الذي يسوء في يوم لقائه الرهيب. وهم أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب»[7].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١١/ ٢٩٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٧.
(٣) فتح القدير ٥/ ٢٤٦.
(٤) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٩٩.
(٥) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٥٣٧.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٨٦.
(٧) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧٥.

وقال أبو بكر الجزائري: «أي: خافه فلم يعصه وهو لا يراه، كما لم يعصه عندما يخلو بنفسه ولا يراه غيره، فمثل هذا بشره بمغفرة منا لذنوبه، وأجر كريم على صالح عمله؛ وهو الجنة دار المتقين»[1].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ [عبس:٨-٩].

«جاءك مسرعًا يجري وراءك يناديك بأحب الأسماء إليك: يا رسول الله، والحال أنه يخشى الله تعالى ويخاف عقابه؛ فلذا هو يطلب ما يزكي به نفسه ليقيها العقاب والعذاب»[2].

٤. الرغبة في المغفرة والثواب.

الهدف الأسمى الذي يسعى إليه المسلمون، هو نيل رضا الله سبحانه وتعالى والفوز بجنته، وذلك يتأتى بإذن الله لمن شاء فهو غفار الذنوب، والمكافئ بالثواب الجزيل.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس:١١].

معنى ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: خاف عقابه وهو غائب عنه، أو خافه في سريرته ولم يغتر برحمته؛ فإنه منتقم قهار كما أنه رحيم غفار[3].

فبشر من اتبعك وانتفع بك بمغفرة واسعة وجنة عرضها السماوات والأرض، وبأجر على ذلك كريم[4].

﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ خاف عقابه قبل حلوله ومعاينة أهواله، أو في سريرته ولا يغتر برحمته؛ فإنه كما هو رحمن، منتقم قهار. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[5].

ثانيًا: أسباب الخشية المذمومة:

١. ضعف الإيمان.

ضعيف الإيمان يخلو قلبه من الخشية، فتجده لاهيًا في صلاته أو مضيعًا لها، قاسيًا في معاملته للآخرين، فالمؤمن الذي يخشى الله يكون حريصًا على كسب رضا الله، رحيم القلب، قلبه وجلًا من خشية الله، فهو يرى ذنبه كالجبل فيداوم على الذكر والاستغفار، بينما ضعيف الإيمان والمنافق دائم الطمأنينة، قاسي القلب، لا يوجل ولا يخشى الله، تكون خشيته من الناس وليس من الله، وذلك بسبب جهله وعدم معرفته بقدر الله وعظمته وجلاله سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا

(١) أيسر التفاسير ٤/ ٣٦٧.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٥١٨.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم ٧/ ١٦١، تفسير المراغي ٢٢/ ١٤٥.
(٤) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي ٣/ ١٧٦.
(٥) أنوار التنزيل ٤/ ٢٤٦.

أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

قال المراغي: الخطاب لجماعة المسلمين وفيهم المنافقون والضعفاء، أمرهم الله بحقن الدماء وكف الأيدي عن الاعتداء، وإقامة الصلاة والخشوع لله، وإيتاء الزكاة التي تمكن الإيمان في القلوب، وتشد أواصر التراحم بين الخلق، وقد كانوا من قبل ذوي إحن وأحقاد وتخاصم وتلاحم وحروب مستمرة.

فلما جاء الإسلام أحبوا أن يكتب عليهم القتال ليسيروا على ما تعودوه، ولكن حين كتب عليهم كرهه الضعفاء منهم وخافوا أن يقاتلهم الكفار وينزلوا بهم النكال والوبال، كما خافوا أن ينزل الله بهم بأسه وعقابه، بل رجحوا خوفهم من الناس على خوفهم من الله، وقالوا: ربنا لماذا كتبت علينا القتال في هذا الوقت؟

هلا أخرتنا حينًا من الدهر نموت حتف أنوفنا موتًا طبيعيًا، فبيّن الله تعالى أن طلبهم للإنظار إنما هو خشية الموت والرغبة في متاع الدنيا ولذاتها، مع أن كل ما يتمتع به في الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى متاع الآخرة؛ لأنه محدود فان، ومتاع الآخرة كثير باق ولا يناله إلا من اتقى الله وابتعد عن الأسباب التي تدنس النفس بالشرك والأخلاق الذميمة، فحاسبوا أنفسكم واعلموا أنكم ستجزون بأعمالكم، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر[1].

٢. محبة الذرية.

من الناس من يفني حياته في سبيل توفير الراحة والحياة الرغيدة لأولاده، فيجتهد في كنز الأموال ويصبح الشح والبخل صفة ملازمة له، وينسى أن يقدم لآخرته ببذل الصدقات ولو بأقل القليل، كذلك يخشى على نفسه الموت، فيتقاعس عن الجهاد في سبيل الله، وذلك نتيجة جهلهم أن أولادهم وأموالهم لا تغني عنهم من الله شيئًا، وأن الأعمار والأرزاق بيد الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة:١٧].

كان عبد الله بن أبي ابن سلول مهيأ لأن يملكوه على المدينة قبيل إسلام الأنصار، فكانوا يفخرون على المسلمين بوفرة الأموال وكثرة العشائر وذلك في السنة الأولى من الهجرة، ومن ذلك قول عبد الله بن أبي ابن سلول: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ

(١) انظر: تفسير المراغي ٥/ ٩٥.

﴿الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون:٨].

يريد بالأعز فريقه وبالأذل فريق المسلمين، فآذنهم الله بأن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم مما توعدهم الله به من المذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة»[1].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٢٣ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة:٢٣-٢٤].

نجد في الآيات تحذيرًا من العلائق التي قد تفضي إلى التقصير في القيام بواجبات الإسلام، ومن الأسباب التي تتعلق بها نفوس الناس فيحول تعلقهم بها بينهم وبين الوفاء ببعض حقوق الإسلام، فلذلك ذكر الأبناء هنا؛ لأن التعلق بهم أقوى من التعلق بالإخوان.

ثم تحذير من التهاون بواجبات الدين مع الكناية عن جعل ذلك التهاون مسببًا على تقديم محبة تلك العلائق على محبة الله، وفيه إيقاظ إلى ما يؤول إليه ذلك من مهواة في الدين.

وهذا من أبلغ التعبير، وجعل التفضيل في المحبة بين هذه الأصناف وبين محبة الله ورسوله والجهاد؛ لأن تفضيل محبة الله ورسوله والجهاد يوجب الانقطاع عن هذه الأصناف، فإيثار هذه الأشياء على محبة الله يفضي موالاة إلى الذين يستحبون الكفر، وإلى القعود عن الجهاد، ووصفهم الله تعالى حين تقاعسهم بالفاسقين[2].

٣. حب الدنيا.

إنّ حب الدنيا وتقديمها على الآخرة من أعظم البلايا التي تصيب الأمة في دينها ودنياها، والناظر إلى تاريخ الأمة يجد أنّه لا يمكن أن تستباح أراضيها وأعراضها وحرماتها إلا عندما تتخلى عن دينها، ولا تتخلى عن دينها إلا إذا رغبت في دنياها.

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيامة:٢٠-٢١].

«كلا: معناه حقًّا، أي: حقًّا تحبون العاجلة وتذرون الآخرة، أي: أنهم يحبون الدنيا ويعملون لها، ويتركون الآخرة ويعرضون عنها»[3].

قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٧﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

«قوله عز وجل: بل تؤثرون الحياة الدنيا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٥١.

(٢) انظر: المصدر السابق، ١٠/ ١٥٠.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٧٣٠.

والآخرة خير وأبقى، يعني: أن الدنيا فانية والآخرة باقية، والباقي خير من الفاني، وأنتم تؤثرون الفاني على الباقي»[1].

٤. النفاق.

قال الجرجانيّ: النّفاق: «إظهار الإيمان باللّسان وكتمان الكفر بالقلب»[2].

والنفاق كالكفر والشرك والفسق، على مراتب ومنه ما هو مخرج من الملة، وهو النفاق الاعتقادي، ومنه ما ليس مخرجًا من الملة، وهو النفاق العملي.

قال ابن رجب: ومن أعظم خصال النّفاق العمليّ، أن يعمل الإنسان عملًا ويظهر أنّه قصد به الخير، وإنّما عمله ليتوصّل به إلى غرض له سيء، فيتمّ له ذلك ويتوصّل بهذه الخديعة إلى غرضه، ويفرح بمكره وخداعه وحمد النّاس له على ما أظهره، ويتوصّل به إلى غرضه السيء الّذي أبطنه»[3].

ومن صفاتهم: مظاهرة الأعداء على المسلمين.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

قال الطبري: إن الله تعالى يطلب من نبيه أن يخبر المنافقين الذين يوالون الكفار ويناصرونهم على المسلمين بأنّ لهم عذابًا أليمًا، فهل هم يطلبون منهم العزة والمنعة، لكن العزة والمنعة لله جميعًا، فهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم، هم الأذلاء الأقلاء، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزّة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يعزّ من يشاء ويذل من يشاء[4].

ومن صفاتهم: كراهية ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من حث على الجهاد، والفرح بالقعود مع الخوالف.

قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة:٨١].

فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، وهم من المنافقين، فأذن لهم، وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم الله وثبطهم، أو الشيطان، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، سبب ذلك الشح بالأموال والأنفس، وعدم وجود باعث الإيمان وداعي الإخلاص ووجود الصارف عن ذلك، وهو ما هم فيه

(١) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤١٨.
(٢) التعريفات ص٢٤٥.
(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٤٩.
(٤) جامع البيان ٩/ ٣١٩.

من النفاق، ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطًا لهم، وكسرًا لنشاطهم: وتواصيًا بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[1].

قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة:٥٢].

«قال المفسرون: نزلت في المنافقين، ثم لهم في ذلك قولان: أحدهما: أن اليهود والنصارى كانوا يميرون المنافقين ويقرضونهم فيوادونهم، فلما نزلت: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ قال المنافقون: كيف نقطع مودة قوم إن أصابتنا سنة وسعوا علينا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وممن قال: نزلت في المنافقين، ولم يعين: مجاهد، وقتادة»[2].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٤١.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٥٨.

الموصوفون بالخشية في القرآن

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أصناف الذين يخشونه وأوصافهم، منهم: الملائكة والأنبياء والعلماء والصالحون، حتى الجمادات تخشى الله عز وجل، فكل شيء يسبح بحمد الله عز وجل، كما ذكر بعد ذلك الذين لا يخشون الله، وهم: المنافقون والمشركون والكفار.

أولًا: الملائكة:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ قال ابن عباس: يريد من الملائكة، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خشيتهم منه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون لا يأمنون مكره[3]. والمراد بالولد: الملائكة، وكذلك المراد بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، والمعنى: بل عباد أكرمهم الله واصطفاهم، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خشيتهم منه، فأضيف المصدر إلى المفعول، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون[4].

(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٣٥.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٨٨.

ثانيًا: الرسل والأنبياء:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب:٣٩].

لقد وصف الله عز وجل الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله[١]. «فقال: إنّ ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ كانوا أيضًا رسلًا مثلك، ثم ذكر حالهم بأنهم جرّبوا الخشية ووجدوها، فيخشون الله ولا يخشون أحدًا سواه»[٢]. «ونبينا صلى الله عليه وسلم من جملتهم ومن أشرفهم، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ للمخاوف، أو: محاسبًا، فينبغي ألا يخشى إلا منه تعالى»[٣].

ثالثًا: العلماء:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨].

«قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل.

وقال مسروق: كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار جهلًا، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له.

قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم»[٤].

«قيل: عظموه وقدروا قدره وخشوه حق خشيته ومن ازداد به علما ازداد به خشية»[٥].

وقال ابن عباس: العلماء بالله الذين يخافونه.

وعن ابن مسعود قال: ليس العلم من كثرة الحديث، لكن العلم من الخشية.

وعن حذيفة: بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله[٦].

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤].

«وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصًا الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم»[٧].

«قال ابن زيد: الربانيون: الولاة، والأحبار: العلماء. وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٣٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٥٥٧.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٤٣٨.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩٩.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٥٦.
(٦) انظر: فتح البيان، القنوجي ١١/ ٢٤٥.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٢.

﴿ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ هذا خطاب للربانيين والأحبار، أمرهم ألا يخشوا الناس في تنفيذ حكمه وإمضائه على ما في كتابه، وأن يخشوه في ذلك، قاله السدي وغيره»[1].

رابعًا: الصالحون:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد:٢١].

«إن أولي الألباب هم الذين يخافون ربّهم فيما يأتون، وفيما يتركون من أعمال، ويراقبون الله في السّر والعلن، يخلصون النّية والقصد لوجه الله، ويحذرون من شدّة العذاب، وسوء الحساب في الآخرة؛ لأن عاقبة ذلك وخيمة، وهي الزّج في نيران جهنم»[2]. والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾ [الأنبياء:٤٨-٤٩].

«أما أوصاف المتقين فهي واحدة قديمًا وحديثًا، ذكر تعالى منها هنا وصفين: خشية الله تعالى في السر وفي العلن، والخوف من يوم القيامة وأهوالها، وما يجري فيها من الحساب والسؤال قبل التوبة»[3].

الصفة الأولى للمتقين: يخشون الله في حال الغيب والخلوة، حيث لا يطلع عليهم أحد، ويخافون عذاب ربهم، وخشية الله في السر كخشيته في العلن من أصول الإيمان وثوابته، والصفة الثانية للمتقين: الخوف الشديد من الساعة، أي: القيامة، والإشفاق على النفس من أهوالها، وسائر ما يحدث فيها من الحساب والسؤال، والإشفاق: أشد الخشية[4].

خامسًا: الجمادات:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ [البقرة:٧٤].

القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة، كما في الحجر، وأن الحجارة تتأثر وتنفعل؛ فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء، وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقيادًا لما أراد الله تعالى به، وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالى، والتفجر التّفتح بسعة وكثرة، والخشية مجاز عن الانقياد[5].

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ١٧٣٠.
(٢) التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي ٢/ ١١٦٢.
(٣) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٧/ ٧١.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٥٨٨.
(٥) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨٨.

«وقيل: المراد به حقيقة الخشية على معنى أنه يخلق فيها الحياة والتمييز، وليس شرط خلق الحياة والتمييز في الجسم أن يكون على بنية مخصوصة عند أهل السنة»[1].

وقال الخازن: «﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله، وخشيتها عبارة عن انقيادها لأمر الله، وأنها لا تمتنع عما يريد منها، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تلين ولا تخشع. فإن قلت: الحجر جماد لا يعقل ولا يفهم فكيف يخشى؟ قلت: إن الله تعالى قادر على إفهام الحجر والجمادات فتعقل وتخشى بإلهامه لها، ومذهب أهل السنة إن الله تعالى أودع في الجمادات والحيوانات، علمًا وحكمة لا يقف عليهما غيره فلها صلاة وتسبيح وخشية يدل عليه قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١].

فيجب على المرء الإيمان به، ويكل علمه إلى الله تعالى»[2].

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١].

«من شأن القرآن وعظمته أنه لو جعل في الجبل تمييز، وأنزل عليه القرآن، لخشع، أي: لخضع وتطأطأ وتصدع، أي: تشقق من خشية الله»[3].

«ولو كان المخاطب بالقرآن جبلًا، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثرًا ناشئًا من خشية لله خشية تؤثرها فيه معاني القرآن»[4].

و«للقرآن عظمته البالغة ومواعظه المؤثرة، فلو أنزلنا هذا القرآن على جبل من الجبال، لرأيته مع كونه بالغ الصلابة، في غاية الخشوع والخضوع والانقياد لأمر الله، يكاد يتشقق من خوف الله وخشية عذابه»[5].

وقد جعل الله عز وجل القرآن مرشدًا عظيمًا وإمامًا هاديًا، يجب أن تخشع لهيبته القلوب، وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة؛ لما فيه من وعد ووعيد، وبشارة وإنذار، وحِكَم وأحكام، فلو كان للجبل عقلٌ، وفهم القرآن وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف بكم أيها البشر لا تلين قلوبكم، ولا تخشع وتتصدع من خشيته؟ وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبرتم كتابه[6].

(١) مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ١٠٢.
(٢) لباب التأويل، الخازن ١/ ٥٥.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٤٦٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٦.
(٥) التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي ٣/ ٢٦٣١.
(٦) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ٥٧.

آثار الخشية

للخشية المحمودة آثار كثيرة، منها: الانتفاع بالدعوة، البعد عن الغفلة، حيث نجد المسلم الحق يستغل كل دقيقة في طاعة الله ويحرص على عدم إضاعة وقته دون الانتفاع به، تاليًا لكتاب الله تعالى، منتفعًا بآياته مطبقًا لها، يحل حلاله ويحرم حرامه، واصلًا لرحمه، مبادرًا للجهاد، باذلًا نفسه وماله في سبيل الله، ويقوم بالدعوة إلى الحق لا يخشى في الله لومة لائم، بينما الخشية المذمومة من آثارها: موالاة الأعداء، والإمساك عن الإنفاق، والفرار من الزحف، وقتل الذرية، والحكم بغير الحق.

آثار الخشية الممدوحة:

١. الانتفاع بالدعوة.

قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه:١-٣].

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي: أنزلنا عظة لمن يخشى، وخص من يخشى بالتذكرة؛ لأنهم هم المنتفعون بها[١]. «وفيه وجهان: أحدهما: إلا إنذارًا لمن يخشى الله. والثاني: إلا زجرًا لمن يتقي الذنوب»[٢].

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى:٩-١٠].

«﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ يعني: يتعظ بالقرآن من يخشى الله تعالى ويسلم، ويقال: معناه سيتعظ ويؤمن ويعمل صالحًا من يخشى قلبه من عذاب الله تعالى»[٣]. و«يخشى الله، وقد يتذكر من يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي»[٤].

٢. خشية الله وحده في تبليغ الحق.

فهؤلاء يقولون الحق، ولا تمنعهم سطوة أحد عن تبليغ أمر الله، وكفى بالله ناصرًا ومعينًا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ [الأحزاب:٣٩].

تحول خشيتهم من الله بينهم وبين المعصية، لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم[٥]. وقد وصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله.

كما «أثنى الله على الأنبياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: فرائض الله وسننه وأوامره ونواهيه إلى من أرسلوا إليهم ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ يعني: يخافونه ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يعني: لا يخافون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٠٠.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٩٣.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٧١.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٥٤.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٧٤.

وفرض عليهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: حافظًا لأعمال خلقه ومحاسبهم»[1].

٣. المبادرة إلى الطاعات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

«يرغبون في الطاعات فيبادرونها»[2].

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ فيه معنيان:

أحدهما: أنهم يبادرون إلى فعل الطاعات، والآخر: أنهم يتعجلون ثواب الخيرات[3].

إنّ المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه، يعملون ما عملوا من أعمال البر، قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم[4].

«وهم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم»[5].

٤. التأثر بالقرآن.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

«هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله»[6].

«والمستحب من التالي للقرآن أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغير ذلك، ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه»[7].

و« هذا نعت أولياء الله نعتهم الله تعالى، قال: تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى»[8].

والمعني أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة، ثم تصبح ساكنة مطمئنة إلى ذكر رحمته[9].

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٤٩.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٧٣.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٣.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٨٠.
(٦) المصدر السابق، ٧/ ٩٥.
(٧) الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٨٩.
(٨) الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٢٢١.
(٩) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود

٥. المبادرة إلى الجهاد.

إذا وجدت أسباب القتال فلا خوف ولا خشية من العدو؛ لأن الخشية لا تكون إلا من الله وحده، ولكن ضعاف الإيمان يخشون الناس.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣].

يقول الحق جل جلاله: الذين قال لهم الناس وهم ركب عبد قيس حيث قالوا للمسلمين: إن الناس، يعني: أبا سفيان ومن معه، قد جمعوا لكم ليرجعوا ليستأصلوكم فاخشوهم، وارجعوا إلى دياركم؛ فزادهم ذلك إيمانًا ويقينًا وتثبيتًا في الدين، ولما قال لهم الركب ذلك ليخوفهم، قالوا: حسبنا الله، أي: كافينا الله وحده، فلا نخاف غيره، ونعم الوكيل، أي: نعم من يتوكل عليه العبد، وهي كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره، فانقلبوا راجعين من حمراء الأسد، متلبسين بنعمة من الله وهي العافية والسلامة، وفضل، وهي: زيادة الإيمان وشدة الإيقان، لم يمسسهم سوء من جراحة وكيد عدو، واتبعوا رضوان الله، الذي هو مناط الفوز بخير الدارين، والله ذو فضل عظيم؛ فقد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي هو موجب الرضوان[1].

«لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا، على ما بهم من الجراح، استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى حمراء الأسد، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ وهموا باستئصالكم؛ تخويفًا لهم وترهيبًا، فلم يزدهم ذلك إلا إيمانًا بالله واتكالًا عليه، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم»[2].

قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة:١٣].

حرضهم الله تعالى أبلغ تحريض، فقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أي: أيمنعكم من قتالهم أنكم تخشونهم؟ أي: تخافونهم فزعين من قتالهم. والله أحق أن تخافوه وتفزعوا من

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٤٣٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٦٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٧.

٧/ ٢٥١.

غضبه، فإن المؤمن لا يخشى إلا الله، ولا يبتغي في أموره كلها إلا رضا الله والخوف من غضبه وعذابه[1].

٦. البعد عن الفواحش.

الخشية هي التي تحول بين الإنسان وبين معصية الله، ونجد صاحبها دائم الدعاء: اللهم ارزقنا من خشيتك ما يجنبنا معصيتك.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر:١٨].

«إنما تنذر يا رسولنا ويقبل إنذارك وينتفع به من يخشون ربهم ويخافون عذابه بالغيب وأقاموا الصلاة، أما غيرهم من أهل الكفر والعناد والجحود فإنهم لا يقبلون إنذارك ولا ينتفعون به لظلمة جهلهم وكفرهم وقساوة قلوبهم، ومع هذا فأنذر ولا عليك في ذلك شيء، فإن من تزكى بالإيمان والعمل الصالح مع ترك الشرك والمعاصي فإنما يتزكى لنفسه لا لك ولا لنا، ومن أبى فعليه إباؤه، وإلينا مصير الكل وسنجزي كلًّا بما كسب من خير وشر»[2].

«إنما يهتدي بك ويسمع لك الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم الذين يؤمنون بالغيب»[3].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

أي: يخافونه وهم لا يرونه، وكذا وهم في غيبة عن الناس فيطيعونه ولا يعصونه، هؤلاء لهم مغفرة لما فرط من ذنوبهم وأجر كبير عند ربهم، أي: الجنة»[4].

إن الذين يخشون ربهم فيخافون عذابه، ويعبدونه كأنهم يرونه، مع أنهم لا يرونه بأعينهم، وهذه الصفات تدل على قوة الإيمان، وعلى طهارة القلب، وصفاء النفس[5].

٧. الفوز في الدنيا والآخرة.

الفوز برضا الله سبحانه وتعالى ومحبته، والفوز بالجنة ثمرة من ثمار الخشية.

يقول تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق:٣١-٣٥].

هذا هو الثواب الذي وعدتم به على ألسنة الرسل، لكل من خشي وخاف عقاب ربه، مخلص مقبل على طاعة الله، وهذا

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٣٢٤٦.
(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٣٤٨.
(٣) التفسير الواضح، الحجازي ٣/ ١٦٢.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣٩٨.
(٥) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٥ / ١٧.

الثواب هو الجنة للمتقين التائبين من ذنوبهم ويلقون الله بقلوب منيبة إليه، خاضعة له[1].

قال أبو السعود: إشارة إلى أنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته تعالى، ووصف القلب بالإنابة لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى، ثم يقال لهم: ادخلوها ملتبسين بسلامة من العذاب وزوال النعم، أو بسلام من جهة الله تعالى وملائكته[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨﴾ [البينة:٧-٨].

«فإن الخشية التي هي من خصائص العلماء بشؤون الله عز وجل مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية»[3].

فنجد أن رضا الله عن العبد يكون مقرونًا بهذه الخشية، التي تكون سببًا في التوفيق في الدنيا والآخرة والنصر على الأعداء، والنجاة من النار، والفوز برضا الله والجنة.

ثانيًا: آثار الخشية المذمومة:

١. موالاة الأعداء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۝٥٢﴾ [المائدة:٥١-٥٢].

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، لأنهم إذا اتخذوهم أولياء في النصر والمعونة صاروا أمثالهم، فهم إذا نصروا الكفار على المسلمين وأعانوهم فقد كفروا، ومضمون الآيات أن الله تعالى ينهى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله.

ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يواليهم. ومن ينصرهم أو يعينهم أو يستنصر بهم، فإنه في الحقيقة منهم، أي: من جملتهم، وليس من صف المؤمنين الصادقين.

وهذا تغليظ من الله وتشديد على المنافقين، الذين يتصادقون مع اليهود والنصارى المخالفين في الدين؛ لأن موالاتهم تستدعي الرضا بدينهم، وأن من يوالي هؤلاء في شؤون الدين وقضاياه ومقتضيات الدعوة ونشاطها، فينصرهم أو يستنصرهم بهم، فهو ظالم لنفسه بوضعه الولاية في غير موضعها، والله لا يهديه إلى

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٦ / ١٦٧.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ٨/ ١٣٣.
(٣) المصدر السابق، ٩/ ١٨٧.

خير أو حق بسبب موالاة الكفر.

وسبب موالاة هؤلاء المنافقين لأعداء الإسلام: أنهم يتأولون في مودتهم أنهم إلى خير أو حق بسبب موالاة الكفر، وذلك لأنهم يخشون انتصار الكافرين على المسلمين، فتكون لهم أيادٍ عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك. وهذا شأن المنافقين المستضعفين في كل زمان ومكان، يتخذون صداقات ومودات عند زعماء الكفر لتأييدهم ودعمهم أثناء الأزمات، وقد أثبت الواقع تخليهم عنهم وقت المحنة الشديدة وبيع صداقتهم بثمن بخس[1].

ويقول الخازن في معنى الآية: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: شك ونفاق يسارعون في مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم؛ لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار، فكانوا يغشونهم ويخالطونهم؛ لأجل ذلك يقول المنافقون: إنما نخالط اليهود؛ لأنا نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه، ويعنون بذلك المكروه الهزيمة في الحرب والقحط والجدب والحوادث المخوفة، فعسى الله أن يأتي بالنصر والفتح لرسوله صلى الله عليه وسلم فيصبح المنافقون على ما أسروا في أنفسهم من الكفر والنفاق، ومن مظاهرة اليهود نادمين[2].

(١) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٦/ ٢٢٦.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٣.

٢. الإمساك عن الإنفاق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء:٣١].

خطاب للموسرين، نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، حاصله: أن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله، فإن الله سبحانه هو الرازق لعباده، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء، فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع، ونهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل[3].

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء:١٠٠].

«قال الزجاج: أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحًّا وبخلًا، وهو ﴿خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾، أي: خشية أن ينفقوا فيفتقروا»[4].

٣. الفرار من الزحف.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٦٥.

(٤) انظر: المصدر السابق ٣/ ٣١٠.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

«هذا السياق اشتمل على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين؛ لأنه تعالى قال في وصفهم: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ولا يكون هذا الوصف إلا لكافر أو منافق. وحكى تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ ولم يعهد هذا عن المؤمنين، بل المحفوظ مبادرتهم للجهاد»[1].

ترى المنافقين الذين اعتل إيمانهم ولم يصل إلى مرتبة اليقين؛ كعبد الله بن أبي وغيره من المنافقين يمتون إلى اليهود بالولاء والعهود، ويسارعون في هذه السبيل التي سلكوها، وكلما سنحت لهم الفرصة لتوثيق ولائهم وتأكيده ابتدروها ليزيد تمكنًا وثباتًا. يقولون بألسنتهم: نحن نخشى أن تقع بنا مصيبة من مصائب الدهر فنحتاج إلى نصرتهم لنا، فعلينا أن نتخذ لنا أيادي عندهم في السراء، ننتفع بها إذا مستنا الضراء وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان، فكثير من وزراء بعض الدول الضعيفة يتخذ له يدًا عند دولة قوية يلجأ إليها إذا أصابته دائرة فتغلغل نفوذ هذه الدول في أحشاء هذه الدولة، وضعف استقلالها في بلادها بعملهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد[2].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ بالمدينة أي: فرض ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

واختلفوا في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، فقال قوم: نزلت في المنافقين؛ لأن قوله: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أي: لم فرضت، لا يليق بالمؤمنين، وكذلك الخشية من غير الله[3].

٤. كتمان الحق.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة:١٤٦-١٥٠].

والمعنى: أن علماء اليهود والنصارى

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٢٢٨.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦/ ١٣٧.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٣٤٥.

يعرفون أن القبلة التي صرفتك إليها هي قبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قبلك؛ كما يعرفون أبناءهم لا يشكون في ذلك. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾، أي: من علماء أهل الكتاب ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾، يعني: صفة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وقيل: أمر القبلة، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، يعني: أن كتمان الحق معصية[1].

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة:٤٠-٤٢].

«قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ الآية: أي لا تلبسوا بأمر الدنيا أمر الآخرة. وأراد لا يحل لأهل الحق كتمان الحق عن أهله خاصة، عمن يرجون هدايته إلى الله عزّ وجلّ، فأما أهله فإنهم يزدادون بصيرة به، وأما من كان من غير خاصة أهله فإن قول الحق لهم هداية وإرشاد إلى الله تعالى»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي: فاخشون، يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم، يقول: لأنهم يجدون محمدًا صلى الله عليه وسلم مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

ومعنى قوله: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

عن ابن عباس: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم.

ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس، من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار، إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروجوه عليهم[3].

٥. قتل الذرية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء:٣١].

«كان أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفاقة فوعظهم الله في ذلك وأخبرهم أن رزقهم ورزق أولادهم على الله فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي: إثمًا كبيرًا»[4].

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٠.
(٢) تفسير التستري ١/ ٣١.
(٣) مختصر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الصابوني ١/ ٥٨.
(٤) الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٢٧٨.

ولا تقتلوا أولادكم خوف الفقر، فنحن نرزقهم لا أنتم، ونرزقكم أيضًا، إن قتلهم خوف الفقر أو العار كان إثمًا وذنبًا عظيمًا، وخطأ جسيمًا. وقدم الإخبار برزق الأولاد هنا؛ لأنه خاطب الموسرين منهم وذكر العناية برزقهم، وقدم الإخبار برزق الآباء في ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

لأنه خاطب الفقراء، ونهاهم عن قتلهم من فقر، فالأرزاق للآباء والأولاد بيد الله، وقتل الأولاد خوف الفقر من سوء الظن بالله، وإن كان خوفًا على البنات، فهو سعي في تخريب العالم، والآية دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده لأنه نهى عن قتل الأولاد[1].

٦. الحكم بغير الحق.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤].

قال مجاهد: من ترك الحكم بما أنزل الله ردًّا لكتاب الله فهو كافر ظالم فاسق. وقال عكرمة: ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق. وهذا قول ابن عباس أيضًا، وقال ابن مسعود والحسن والنخعي: هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الأمة؛ فكل من ارتشى وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق، وإليه ذهب السدي؛ لأنه ظاهر الخطاب، وقيل: هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عيانًا عمدًا وحكم بغيره[2].

و«نهي للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل خشية سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد، ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه، وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس»[3].

موضوعات ذات صلة:

التقوى، الحذر، الخوف، الرجاء

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٢٩، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٥/ ٦٨.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٨، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٣.

(٣) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٤٩.

الخلق

عناصر الموضوع

مفهوم الخلق	٤٢
الخلق في الاستعمال القرآني	٤٣
الألفاظ ذات الصلة	٤٤
الله تعالى خالق كل شيء	٤٦
بداية الخلق	٦١
معالم الخلق	٦٦
مقاصد الخلق	٧٦
دلالة الخلق	٨١
التفكر في المخلوقات	٨٥

مفهوم الخلق

المعنى اللغوي والاصطلاحي:

الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، كقولهم: فلان خليق بكذا، وأخلق به، أي: ما أخلقه، أي: هو ممن يقدّر فيه ذلك، وأما الأصل الثاني فملاسة الشيء، كقولهم: صخرة خلقاء، أي ملساء. ويقال: اخلولق السحاب، أي: استوى، ومن هذا الباب أخلق الشيء وخلق، إذا بلي. وأخلقته أنا: أبليته[1].

«والخلق في كلام العرب: ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه»[2]، وعلى هذا فالخلق المقصود في هذا البحث على معنيين: أحدهما: الإنشاء على غير مثال أبدعه، والآخر: التقدير.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لم يوقف على معنى الخلق اصطلاحًا عند أيٍّ من المتقدمين، ولا حتى المتأخرين، ومن ثمّ فإنه تمّ وضع تعريف له بالاعتماد على أصله اللغوي، حيث يكون تعريفه اصطلاحًا: «كل ما أوجده الله سبحانه في العالمين، مما علمه البشر وما لم يعلموه، مع تقدير الله تعالى لكل هذه الموجودات»، وإنما ذكرت الشمولية في الإيجاد في قول الباحث: «كل ما أوجده الله سبحانه»؛ حتى يجمع التعريف ذكر كل المخلوقات، وذكرت جملة «العالمين، مما علمه البشر وما لم يعلموه»؛ لبيان أن هناك عالمين لا يعلمها البشر، والله تعالى خالقها، فهو ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[الزمر: ٦٢].

وذكرت جملة «مع تقدير الله تعالى لكل هذه الموجودات»، فهو الله تعالى الذي نقرّ بأنه خالق كل شيء، ومالكه، القادر على ما يشاء، المقدّر لجميع الأمور، المتصرف فيها، المدبّر لها، ليس له في ذلك كله شريك[3].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢١٣.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٨٥.
(٣) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين، ص٤١.

الخلق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خلق) في القرآن الكريم (٢٥٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٥٧	﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩]
الفعل المضارع	٢٧	﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٤٧]
اسم فاعل	١٢	﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]
اسم مفعول	٢	﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج:٥]
مصدر	٥٢	﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]
صيغة المبالغة	٢	﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر:٨٦]

وجاء الخلق في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: الدّين: كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. يعني: لدين الله.

الثاني: الكذب: قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]. يعني: تخرصون كذبًا.

الثالث: التصوير: قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]. يعني: وإذ تصوّر من الطين كهيئة الطير.

الرابع: الإيجاد: قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]. يعني: أوجدهما ولم يكونا شيئًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٤١- ٢٤٤.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص٩٢- ٩٣، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٠١- ٢٠٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٢٨٤-٢٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ التصوير:

التصوير لغةً:

صورة كل مخلوق: هيئة خلقته[١].

وصوّر الشيء: جعل له صورة مجسمة، أو رسمه على الورق أو الحائط ونحوهما بالقلم أو بآلة التصوير[٢].

التصوير اصطلاحًا:

التصوير في حق الله عز وجل: جعل الشيء على هيئة معينة.

وفي حق المخلوقين: محاكاة صورة الشيء وتقريبها.

الصلة بين التصوير والخلق:

الخلق إيجاد من العدم، والتصوير جعل هيئة معينة لهذا المخلوق.

٢ الذرء:

الذّرء لغة:

ذرأ الله الخلق، أي: خلقهم[٣].

الذّرء اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الذّرء والخلق:

الذرء مختص بخلق الذرية[٤].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٢٠.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥٢٨.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١١٢.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ١٥٦.

٣ الإنشاء:

الإنشاء لغةً:

الإنشاء يدلّ على ارتفاعٍ وسموٍّ[١]، يقال: أنشأ الله الخلق، أي: أحدث وأوجد من عدم[٢].

الإنشاء اصطلاحًا:

إيجاد الله تعالى لكل المخلوقات من عدم، مع ما يبيّن عظيم قدرة الله تعالى وأنه يعلي ويرفع من يشاء.

الصلة بين الإنشاء والخلق:

يشترك الإنشاء مع الخلق في أن في كل منهما إيجادًا من عدم.

٤ البعث:

البعث لغةً:

البعث: إحياء الله تعالى للموتى[٣].

البعث اصطلاحًا:

إحياء الله تعالى الأموات وإخراجهم من قبورهم وهم أحياء للحساب وللجزاء[٤].

الصلة بين البعث والخلق:

بينهما عموم وخصوص؛ فالبعث خلق خاص، يستعمل في إحياء الموتى.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤٢٨.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٩٢٠.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٥/ ١٦٩.
(٤) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص٥٦٧.

الله تعالى خالق كل شيء

أولًا: إثبات صفة الخلق لله عز وجل:

إن وجود هذا الكون الكبير، وعظمته ودقته، وجماله الباهر، وما فيه من سماوات وأرض، وشمس وقمر، ونجوم وكواكب، وليل ونهار، وجبال وتلال، وبحار وأنهار، إلى غير ذلك من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى، سواءً كانت مرئيةً لنا أو غير ذلك؛ لتدل على أن لهذا الكون المبهر خالقًا واحدًا ينزّه عن كل صفات النقص والعيب، وينزّه كذلك عن كل ما يشبه صفات المخلوقين. فهذا الخالق يتصف بكل صفات الكمال المطلق في ذاته العلية، وصفاته الجليلة، وفي أفعاله القديرة.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾[البقرة: ٢١- ٢٢].

فالله سبحانه أمر العباد بعبادته جل وعلا، وأتبع هذا الأمر بما يدل على وجوده تعالى، -وهو الخالق الصانع- من خلق الناس المخاطبين، وخلق الذين كانوا من قبلهم، وخلق السماء، وخلق الأرض، وخلق الثمرات من الماء النازل من السماء إلى الأرض[1].

ويقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ففي هذه الآية يبيّن الله سبحانه صفات ربوبيته من خلق السماوات والأرض، واستوائه سبحانه على العرش، وتغشية الليل والنهار، وجعل الشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره جل وعلا، وبعد أن ذكر تدبيره لهذا الكون، أتبعه بأن الخلق والأمر له وحده سبحانه، حيث قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾.

ومعلومٌ أن تقديم شبه الجملة من الجار والمجرور على المبتدأ يفيد الحصر والقصر، فقد أخبر الله تعالى أن الخلق والأمر له وحده، فيختصان به لا بأحدٍ غيره[2].

وقال الألوسي في تفسيره: «ففي ذلك إشارة إلى أنهما -الخلق والأمر- طبق الحكمة وفي غاية الكمال، ولا يقال ذلك في غيره تعالى، بل هو صفة خاصة به سبحانه»[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢/ ٣٢٣.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٤١.
(٣) روح المعاني، ٤/ ٣٧٨.

ثم ختم الله تعالى الآية ببيان أنه رب العالمين، الذي له صفات الكمال المطلق، والمنزّه عن جميع النقائص والعيوب.

وإثبات صفة الخلق والأمر لله تعالى وحده، يستلزم أن يكون خالقها متصفًا بالقدرة التامة، والعلم الشامل، والحكمة البالغة، والإرادة النافذة.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تنزه وتقدّس عن كل نقص وعيب، ويدخل في هذا تنزّهه تعالى عن أيّ نقص في خلقه وأمره، وهذا مصداقٌ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

والمعنى: لا ترى تفاوتًا، أي: نقصًا أو عيبًا أو عدم تناسق في خلق الله تعالى السماوات وغيرها من مخلوقاته عزّ وجلّ.

والمقصود من هذا هو التعريض بالمشركين؛ لأنهم أضاعوا النظر في الكون، والاستدلال بما فيه على وحدانية الله تعالى بما تشاهده أعينهم من نظام دقيق ومحكم.

وإضافة الخلق إلى اسم (الرحمن) يدل على «أن هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس؛ لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم؛ لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت، لكان ذلك التفاوت سببًا لاختلال النظام، فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق»[1].

وعند قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: فأفردوا أيها الناس لربكم الذي نزّل الفرقان على عبده محمد نبيه صلى الله عليه وسلم الألوهية، وأخلصوا له العبادة دون كلّ ما تعبدونه من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجنّ والإنس، فإن كلّ ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك. وقوله: ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ يقول: فسوّى كل ما خلق، وهيّأه لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت»[2].

والغاية من ذكر الله تعالى لبديع خلقه وصنعه في الكون هي بيان أحقية الله تعالى وحده بالعبادة، وإفراده سبحانه بالسمع والطاعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

قال السعدي: «أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ١٨.
(٢) جامع البيان، ١٩/ ٢٣٦.

الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبّر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء، فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفّقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون»[1].

وعبّر باسم الجلالة (الله) في بداية الآية الذي له جميع صفات الكمال التي منها القدرة الشاملة على خلق المخلوقات، فأخبر عن ذلك بما يدل عليه؛ لأن الصنعة تدل على الصانع، فهو وحده الذي أوجد المخلوقات بشكل عام من عدم، وهذا بقدرة الله تعالى على وفق ما دبّر بعلمه سبحانه، فالناس يشاهدون عظمة هذه المخلوقات، ويشهدون أنه لا يقدر عليها إلا من هو تام العلم وكامل القدرة، ألا وهو الله عزّ وجلّ[2].

وأخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾[النحل: ٢٠-٢١].

أن الأصنام التي يعبدها المشركون من دون الله تعالى لا تتصف بالخلق؛ بل هي مخلوقة وليست خالقة، فهي جمادات لا أرواح فيها، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يعبدها هؤلاء المشركون، وهم أفضل منها بالحياة![3].

فأين العقول والأبصار التي تعتبر وتتّعظ ببديع خلق الله تعالى وصنعه المتقن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤].

أي: إن هذه المخلوقات الوارد ذكرها في الآية هي لقوم «ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون بها، فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدها، وحكمة مبدعها، ووحدانية منشئها»[4].

ولما كانت صفة الخلق من أبرز صفات الله عز وجل، كان له اسمان مشتقان منها، وهما: الخالق والخلاق.

فأما الخالق:

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٧٢.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٠/ ١٧٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٩٤.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ١٤٨.

قال الزجاج: «الخالق: أصل الخلق في الكلام: التقدير، يقال: خلقت الشيء خلقًا، إذا قدّرته. فالخلق في اسم الله تعالى هو ابتداء تقدير النشء، فالله تعالى خالقها ومنشئها ومتمّمها ومدّبرها»[1].

وقال د.سعيد القحطاني في معنى الخالق: «الذي خلق جميع الموجودات وبرأها، وسوّاها بحكمته، وصوّرها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم»[2].

إذًا فالخالق هو الذي أوجد جميع الأشياء بعد أن لم تكن موجودة، وقدّر أمورها في الأزل بعد أن كانت معدومة، ويكون أيضًا بمعنى أنه هو الذي ركّب الأشياء تركيبًا، ورتّبها بقدرته ترتيبًا.

وقد ورد اسم الله تعالى (الخالق) اثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم، وهو على صيغة اسم الفاعل، وتدل مادته على معنيين رئيسين:

الأول: إيجاد الشيء من العدم، أو ابتداع مخلوق جديد ليس له سابق.

ولا شك أن هذا المعنى خاص بالله تعالى، ولا يشاركه فيه أحد، ومن هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الأنعام: ١٠٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[غافر: ٦٢].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[فاطر: ٣].

الثاني: التهيئة والتقدير والتشكيل والتجميع والتركيب والتصنيع والتكوين.

ومن هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر: قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[الصافات: ١٢٥].

والخلق على هذا المعنى يدخل فيه البشر، أي: أن الإنسان صنع الشيء من المادة التي خلق الله تعالى أصلها، فما ينسب إلى الإنسان وعقله البشري من خلق أشياء مبهرة، فهذا يعني أنه صنعها وركّبها من أشياء موجودة مخلوقة من الله تعالى، ويبقى العقل البشري من مخلوقات الله تعالى.

إذًا فالله تعالى هو الذي خلق المادة التي هي أصل الأشياء، كما خلق عقل الإنسان، وما أودع فيه من ذكاء وموهبة، استخدمها ذلك العقل في مجال التكنولوجيا وغيرها، ويبقى الله تعالى هو الخالق وحده.

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، ص٣٥، ٣٧.
(٢) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ص ١٧١.

فالإنجازات العلمية العديدة ما هي إلا مكتشفات صنعها وركّبها العقل البشري، أما أصل هذه الإنجازات فالله تعالى هو خالقها من العدم.

وإن معنى الخالق قائمٌ على المعنيين معًا.

وأما الخلاّق:

ورد ذكر هذا الاسم مرتين في القرآن الكريم، وهما: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦].

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وكلمة (الخلاّق) صيغة مبالغة على وزن (الفعّال).

قال ابن عاشور في تفسير آية سورة يس: «أي: هو يخلق خلائق كثيرة، وواسع العلم بأحوالهم ودقائق ترتيبها»[(١)].

والفرق بين الاسمين أن (الخالق): اسم فاعل، وهو الذي ينشئ الشيء من العدم بتقدير وعلم، ثم بتصنيع وخلق عن قدرة. فالخالق هو الذي قدّر بعلم، وصنع بقدرة، فخلق من عدم.

أما (الخلاّق): صيغة مبالغة من الخالق الموصوف بخلق غيره، وهو الذي يبدع في الخلق كمًّا وكيفًا بقدرته الشاملة المطلقة، ومن ثم فإن صفة الخلّاق أبلغ من صفة الخالق.

ومن المعلوم أن منهج السلف الصالح في أسماء الله تعالى الحسنى هو التسليم بها دون تكييف أو تأويل أو تعطيل أو تشبيه، فإن شرح هذين الاسمين قائم على معرفة معناه بما يتعبّد به، وبما يكون الإيمان من خلاله بما دلّت عليه هذه الصفات من المعاني العظيمة؛ فهو مختص بالذات العليّة[(٢)].

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

والمعنى: إن الله تعالى شرع في بيان أصل النوع الإنساني، وهو آدم عليه الصلاة والسلام، فقد خلقه الله تعالى، ثم جعل نسله نطفًا في أصلاب الآباء، ثم قذفت في أرحام الأمهات، فصارت في حرزٍ حصين من أول وقت الحمل إلى حين وقت الولادة، ثم تطور خلق النطفة فأصبحت علقة، وهي الدم الجامد المتعلق بجدار الرحم، ثم أصبح هذا الدم الجامد مضغة، أي: قطعة لحم صغيرة بمقدار ما يمضغ، ثم صارت هذه المضغة

(١) التحرير والتنوير، ٢٣/ ٧٩.

(٢) انظر: العقيدة الصحيحة وما يضادها، ابن باز ص٦.

عظامًا، ثم جعل الله تعالى اللحم كسوة لهذه العظام، ثم أنشأه الله تعالى وخلقه خلقًا آخر مباينًا ومختلفًا عن الخلق الأول، حيث نفخ فيه الروح، فصار كائنًا حيًّا بعد أن كان جمادًا لا روح فيه، وأصبح سميعًا بصيرًا ناطقًا، كما أودع فيه الله عزّ وجلّ من غرائب الخلق وعجائبه ما لا يعد ولا يحصى ظاهرًا وباطنًا[1].

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: تعالى شأنه في علمه الشامل، وقدرته الباهرة، وذكر اسم الجلالة (الله)؛ وذلك «لتربية المهابة، وإدخال الرّوعة، والإشعار بأنّ ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهيّة، وللإيذان بأنّ حقّ كلّ من سمع ما فصّل من آثار قدرته عزّ وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التّكلّم به إجلالًا وإعظامًا لشؤونه تعالى»[2].

وكلمة ﴿أَحْسَنُ﴾: على وزن (أفعل) التفضيل، أي: أحسن الخالقين خلقًا، بمعنى المقدّرين تقديرًا، وحذف المميز لدلالة كلمة ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ عليه[3].

وإن هذا لا يعني أن هناك خالقين غيره، وأن الله تعالى هو الأفضل فهذا كفر، ولن يكون ذلك مراد القرآن، وإنما يعني إعطاء البرهنة الكاملة على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه خلق فأحكم وأتقن.

(١) انظر: تفسير المراغي، ١٨/ ٨.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ١٢٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.

ومعنى البركة في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يرجع إلى المعاني الآتية:

١. الامتداد والزيادة، فكل ما زاد على الشيء فقد علاه.
٢. البركات والخيرات، فكلها من الله تعالى.
٣. قيل: أصله من البروك، وهو الثبات، فكأنه قال: والبقاء والدوام والبركات كلها من الله تعالى، فهو المستحق للتعظيم والثناء[4].

ثانيًا: إقرار المشركين بالخلق لله تعالى:

سبقت الإشارة إلى أن الخلق صفة من الصفات الربوبية لله تعالى، وهو يدخل تحت القسم الأول من أقسام التوحيد، وهو توحيد الربوبية، ويقصد به: «توحيد العبد ربه سبحانه بأفعاله الصادرة منه، كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وإنزال المطر، وإنبات النبات، والنفع والضرر، وتدبير جميع الأمور إلى غير ذلك من أفعال الرب سبحانه»[5].

وقد كان المشركون في عصر النبوة يعتقدون أن هذه الأمور هي من خصائص الله تعالى، ويقرّون ويعترفون أن أصنامهم

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٣/ ٢٦٥.
(٥) الصواعق المرسلة الشهابية، سليمان بن سحمان ص٣٠٤.

التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، فكيف تمتلكه لمن يعبدها، فهي لا تنزل الغيث، ولا تأتي بالرزق، ولا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا، كما أنها لا تسمع ولا تبصر، فكانوا يعترفون أن الله تعالى هو وحده المتفرد بهذه الأمور، لكنهم جعلوا لله تعالى شركاء يعبدونهم من دونه عزّ وجلّ، فيزعمون أنهم ما يعبدونها إلا لتقرّبهم إلى الله زلفى، فتشفع لهم عند الله تعالى في الرزق والنصر وسائر الأمور الدنيوية، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣].

والمعنى: إن هؤلاء المشركين لم يخلصوا العبادة لله تعالى وحده؛ بل كانت شائبةً بعبادة غيره من الأصنام والملائكة وعيسى عليه الصلاة والسلام معتقدين أنهم لا يعبدونها لشيء من الأشياء إلا لتقرّبهم إلى الله تعالى تقريبًا[(١)].

ولما كان حال المشركين في ناحية العبادة متخذين الأنداد والشركاء من دون الله تعالى، يدعونهم ويستغيثون بهم، ويطلبون منهم حاجاتهم الدنيوية، استخدم معهم القرآن الكريم أسلوب تقرير المخاطبين بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلّمون بها حتى يعترفوا بما يشركون، وهو صورة من صور المناظرات التي استخدمها القرآن في الرد على الخصوم ليلزم به أهل العناد[(٢)].

ومن الأمثلة على ذلك: الاستدلال بالخلق على وجود الخالق كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾[الطور: ٣٥-٤٣].

وكذلك الاستدلال بالمبدأ على المعاد، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[ق: ١٥].

كما دلّ القرآن الكريم في مواطن عدة من سوره على إقرار المشركين بربوبية الله تعالى مع إشراكهم به في العبادة، ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨].

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي، ١٢/ ٧٩.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص٣١٣.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، وقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

ويظهر من هذا أن جميع الخلق مفطورون على الإقرار والاعتراف بربوبية الله عزّ وجلّ، حتى المشركين أنفسهم، كما مرّ في الآيات السابقة وغيرها، ويصدّق هذا الكلام قوله تعالى على لسان أنبيائه ورسله حين قالوا لأقوامهم الذين بعثوا إليهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

حتى فرعون نفسه الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

كان مقرًّا ومعترفًا بربوبية الله تعالى في قرارة نفسه، لكنه تجاهل هذه الفطرة، وتظاهر بإنكار الله تعالى، ويدل على هذا قوله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام حين قال له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[الإسراء: ١٠٢].

وقوله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

لكن مع هذا الإقرار العام من المشركين إلا أن توحيدهم كان ناقصًا، لا ينقلهم إلى دائرة الإيمان؛ بل حكم الله تعالى عليهم بأنهم كافرون مشركون، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فقد ذكر القرطبي أن الآية نزلت في تلبية مشركي العرب، فكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك[(١)]، وورد أنهم كانوا إذا قالوا هذه التلبية، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ويلكم قد قد)[(٢)].

قال ابن كثير[(٣)]: «أي حسب حسب، وقال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣].

وهذا هو الشّرك الأعظم أن يعبد المرء مع الله إلهًا آخر، كما في الصّحيحين عن ابن مسعودٍ قلت: يا رسول اللّه، أيّ الذّنب أعظم؟ قال: (أن تجعل للّه ندًّا وهو خلقك)[(٤)]».

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٢٧٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، ٢/ ٨٤٣، رقم ١١٨٥، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٤١٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (الذي جعل لكم الأرض فراشًا)، ٦/ ١٨، رقم ٤٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، ١/ ٩٠،

فتوحيد الربوبية وحده لا يكفي إلا ويكون معه توحيد الألوهية؛ حتى ينجو صاحبه من عذاب الله تعالى، بل هو حجة على صاحبه؛ إذ كيف يؤمن بتوحيد الربوبية ويشرك بتوحيد الألوهية! فتوحيد الألوهية من لوازم توحيد الربوبية، وهذا ما نعاه الله تعالى على المشركين إذ قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف: ١٩١].

فينبغي على المرء أن يخلص العبادة لله تعالى وحده. قال ابن القيم: «فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته، ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنجي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عبّاد الأصنام كانوا مقرّين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له لم ينفعهم توحيد ربوبيته»[(١)].

ثالثًا: تنزيه الله تعالى عن التعب والنصب في الخلق:

إن القدرة والخلق صفات كمال، وقد يعتريها النقص بالنسبة للمخلوقين، فعندما يصنع الإنسان شيئًا ما، فإنه يعتريه التعب والإعياء، فيكون هذا نقصًا في الكمال.

أما بالنسبة لله عزّ وجلّ، فإنه قد خلق هذا الكون العظيم، وما فيه من مخلوقات عظيمة بما فيها الإنسان الذي يعجز عن إحصائها وعدّها، وخلقه تعالى للكون كان في مدة وجيزة جدًّا، وهي ستة أيام، ومع ذلك لم يصب الله تعالى تعب ولا نصب ولا إعياء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق: ٣٨].

فالآية دليل على عظمة الله سبحانه الذي يقول للشيء: كن فيكون، حيث إن المعنى: ما تعبنا بالخلق الأول حتى نعجز عن الإعادة في الخلق الثاني، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[ق: ١٥][(٢)].

هذا وقد دلّل الله تعالى على قدرته على الإعادة بعد الموت بأنه خلق السماوات والأرض على عظمهما وسعتهما، وإتقان خلقهما وما فيهما دون أن يكترث بذلك، ولم يصب الله تعالى بخلقها إعياء ولا نصب، فكيف يعجز عن إعادة الناس بعد الموت وهو على كل شيء قدير؟![(٣)].

فقال عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

رقم ٨٦.

(١) عدة الصابرين، ص٤٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٨/ ١٥٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٧٣.

﴿قَدِيرٌ﴾[الأحقاف: ٣٣].

قال الشوكاني: «الرّؤية هنا هي القلبيّة الّتي بمعنى العلم، والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدّرٍ، أي: ألم يتفكّروا ولم يعلموا أنّ الّذي خلق هذه الأجرام العظام من السّماوات والأرض ابتداءًا ولم يعي بخلقهنّ أي: لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه»[(١)].

وإن في الآية ردًّا على اليهود الذين زعموا أن الله سبحانه تعب من الخلق، فاستراح في اليوم السابع وهو يوم السبت.

رابعًا: يخلق ما يشاء:

تكرر قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ في القرآن الكريم في ستة مواضع.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۚ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٤٧].

فعندما بشّر الله تعالى مريم عليها السلام بعيسى عليه الصلاة والسلام، تعجّبت واستغربت هذا الأمر؛ وذلك لأنها علمت أنها لن تتزوج أبدًا؛ لأنها كانت محرّرة لله تعالى، مخلصةً له في العبادة، والولد لا يأتي إلا بالزواج، فتمت الإجابة على سؤالها بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ كما ردّ عليها في موضع آخر بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[مريم: ٢١].

والتعبير في هذه الآية عن تكوين سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام بالفعل (يخلق)؛ لأن الخلق هو إيجادٌ من عدم، ولا يكون هذا إلا لله تعالى، أما في حق المخلوق فلا يقال: خلق، بل صنع واكتشف وركّب وغير ذلك مما يحمل المعنى نفسه.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٧].

فهذه الآية فيها ذم من الله تعالى للنصارى الذين حادوا عن الطريق المستقيم، فيقسم الله تعالى أنهم كافرون، وكفرهم متمثل في تغطيتهم الحق في تركهم نفي الولد عن الله تعالى، وادعائهم أن المسيح هو الله فريةً وكذبًا عليه، فيأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء الجهلة: لو كان عيسى عليه الصلاة والسلام إلهًا كما تزعمون لاستطاع أن يردّ أمر الله تعالى إذا جاءه بإهلاكه، وإهلاك أمه التي هلكت، ولم يقدر على دفع ما نزل بها، فهذا حجة عليكم

(١) فتح القدير، ٥/ ٣٢.

في أن المسيح عليه الصلاة والسلام هو بشرٌ كسائر البشر، وأن الله تعالى هو الذي لا يردّ له أمر، ولا يغلب، ولا يقهر؛ بل هو الحي القيوم الذي يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، كما أن الله تعالى له تصريف ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، يبقي من يشاء، ويهلك من يشاء، لا يمنعه من ذلك مانع، ولا يردّه عن ذلك رادّ؛ بل ينفّذ فيهم أمره، ويمضي فيهم قضاءه، وليس المسيح كما زعموا، فمن كان عاجزًا عن دفع ضر أو سوء أراده به غيره، فكيف يكون إلهًا؟!

بل الإله المعبود بحق هو الذي ملك كل شيء، وبيده تصريف كل ما في السماوات والأرض وما بينهما[1].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[القصص: ٦٨].

والمعنى: أن الله تعالى يخلق ويختار ما يشاء، فالله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وذكر المفسرون احتمال الآية للمعاني الآتية:

الأول: أن هذا متصل بذكر الشركاء الذين يعبدونهم من دون الله تعالى واختاروهم، والمعنى: الاختيار لله تعالى وحده، وليس لهم.

الثاني: المراد من الآية: أنه ليس لأحد من الخلق أن يختار؛ بل الاختيار هو لله تعالى وحده.

الثالث: إن هذه الآية نزلت جوابًا عن اليهود حين قالوا: لو الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنّا به[2].

والآية مكية، ولم يكن اليهود وجدالهم في الفترة المكية! فالقول الثالث مستبعد!

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾[الروم: ٥٤].

يخاطب الله تعالى عباده، ويقول لهم: إن الإله الذي يستحق أن يعبد هو الله تعالى الذي ابتدأ خلقكم من ضعف، فكان الضعف أساس خلقكم، أو خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة، ثم انتقل بكم إلى حال الشباب وبلوغ الأشدّ، ثم جعل بعد القوة حال الضعف والشيخوخة.

وقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ أي: يخلق ما يشاء من ضعف وقوة وشباب وشيبة، فهو العليم بأحوالهم، والقدير على تدبيرهم، والاختلاف في هذه الأحوال دليلٌ بيّن وواضح على وجود

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٠/ ١٤٦.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢١١.

الخالق العليم القدير[1].

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[الزمر: ٤].

هذه الآية مسوقةٌ لإحقاق حق، وإبطال باطل، فقد زعم النصارى أن عيسى عليه الصلاة والسلام هو الله تعالى، كما زعم المشركون أن الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فبيّن الله تعالى استحالة اتّخاذ الولد في حقه تعالى، فلو أراد الله سبحانه أن يتخذ ولدًا لاتّخذ من جملة ما يخلق ما يشاء، ثم أكّد الله تعالى تنزّهه عن ذلك، فهو الله المتنزه عما زعموه وافتروا به عليه كذبًا وبهتانًا، وهو القهار لكل الكائنات المخلوقة، فكيف يتصوّر أن يتخذ من الأشياء الفانية ما يقوم مقامه؟![2].

الموضع السادس: قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

والمعنى: أن الملك الأعظم هو لله عزّ وجلّ وحده، فله ملك السماوات كلها على عظمها وارتفاعها وعلوّها، وله ملك الأرض جميعها على تباينها واتساعها وتكاثف طبقاتها، فهو تعالى يخلق ما يشاء، وإن كان على غير اختيار العباد، واستدل على مسألة الخلق بما يشاهد من أحوال الناس في تفضيلهم للأولاد الذكور على الإناث اللواتي كانوا يعدونهن من البلاء في الجاهلية، فبيّن الله تعالى أنه يهب لمن يشاء إناثًا فقط دون أن يكون بينهن ذكر، كما يهب لمن يشاء الذكور فقط دون أن يكون بينهم أنثى، أو لا يهب أيّ الصنفين لأحد فيجعله عقيمًا لا يولد له. وبهذه الأصناف الأربعة تمت الدلالة على أن الله تعالى هو القادر على كل شيء[3].

وبعد استعراض هذه المواضع الستة، يتبيّن أن الخلق من صفات الربوبية لله عزّ وجلّ، وهي صفة كمال، فالله سبحانه إذا أراد شيئًا كان ولا رادّ له، وما لم يشأ لم يكن ولا مكوّن له، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. ويلاحظ من ذلك أيضًا أن مفعول المشيئة محذوف في كل المواضع، ويقدر حسب السياق الذي ورد فيه.

خامسًا: يخلق ما لا يعلمون:

إن الله تعالى كما كانت له القدرة التامة على خلق ما يشاء، فكذلك له القدرة على خلق ما لا يعلمه الناس.

يقول الله تعالى في هذا: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ٣٥٤.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٢٤٢.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ٣٥٣.

﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

فبعد أن عدّد الله تعالى مجموعة من النعم التي أنعمها على عباده من خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وخلق الأنعام، وعدّد ما فيها من منافع ومصالح للناس، ففيها دفء من ناحية اتخاذ أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت، كما تنتفعون بها بالأكل، ولكم فيها جمال تتجمّلون به في وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، كما ذلّلها لكم بركوبها فتحملكم إلى البلد الذي تقصدونه، وتحمل أحمالكم الثقيلة إلى البلاد البعيدة، فسبحانه هو الذي سخّر لكم ما تحتاجونه، فله الحمد على ذلك، ثم خصّ الخيل والبغال والحمير بالذكر لاستخدامها في الركوب تارة، ولأجل الجمال والزينة تارة أخرى.

ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: «مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلًا جامعًا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون»[1].

ويقول في موضع آخر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[يس: ٣٦].

ويذكر النخجواني في تفسيرها: «﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ وقدّر الأصناف المتوالدة المتزايدة برمتها ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الشجر والنبات بأجناسهما وأنواعهما وأصنافهما، ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ذكورهم وإناثهم أنواعًا وأصنافًا وأشخاصًا، وكذا من جميع ما يعلمون من أجناس الحيوانات وأنواعها وأصنافها، وممّا لا يعلمون أيضًا من المخلوقات التي لا اطلاع لهم عليها؛ إذ ما من مخلوق إلا وقد خلق شفعًا، إذ الفردية والوترية والصمدية لواجب الوجود، والقيومية المطلقة من أخص أوصاف الربوبية والألوهية لا شركة فيها للمصنوع المربوب أصلًا»[2].

وهكذا فإن الله عزّ وجلّ يخلق ما يشاء مما نعلم ومما لا نعلم، فهناك مخلوقات عديدة لله تعالى يقصر العقل البشري عن علمها وتعدادها وحصرها، ومهما بلغ هذا العقل من التقدم والرقي إلا أنه يبقى عاجزًا عن علم جميع مخلوقات الله تعالى التي

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٣٦.
(٢) الفواتح الإلهية ٢/ ٢٠٢.

خلقها أول الخلق، والتي يخلقها إلى قيام الساعة.

سادسًا: الحكمة من اقتران الخلق بالحق:

ورد ذكر الحق مرتبطًا بخلق السماوات والأرض في اثنتي عشرة آية، وجميع السور الواردة فيها تلك الآيات مكية، كما وردت آية مكية تثبت أن خلق السماوات والأرض لم يكن باطلًا، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[ص: ٢٧].

فمعنى هذه الآية كما «قال ابن عبّاس: لا لثوابٍ ولا لعقابٍ. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني أهل مكة هم الذين ظنوا أنهما خلقا لغير شيءٍ، وأنّه لا بعث ولا حساب، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾»[(١)].

وهذا يدلل على أن خلق السماوات والأرض بالحق في مفهومها الواضح العام ناسبت العهد المكي؛ لتناسبه مع الملامح العامة له، ويمكن التمثيل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

فيكون معنى الآية: «وهو الذي خلق السماوات والأرض بقوله: (كن) المقترنة بالقدرة التي بها يقع إيجاد المخلوق بعد عدمه، فعبّر عن ذلك بالحقّ»[(٢)]، حيث إن أعظم ملامح العهد المكي في آياته القرآنية هو إثبات البعث والخلود، وبالتالي فإن خلق السماوات والأرض يثبت عمليًّا لأصحاب العقول أن الذي خلقهما حال كونها بالحق الراسخ قادرٌ على إحياء الخلق بعد مماتهم، ومن ثم مجازاتهم، وقد ورد الخلق مقترنًا بالحق في معرض الحديث عن تنزيه الله تعالى عن الشريك، ومن ثم إنكار البعث، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣].

فمعنى هذه الآية أن الله تعالى خلق السماوات والأرض، وهما إلى زوال وفناء، ولكن خلقهما بالحق؛ للدلالة على قدرته عزّ وجلّ، وأنه من حقه على عباده أن يطيعوه، ومن الحق الذي له أنه يحيي الخلق بعد الموت، فهو الخالق تنزّه عما يشركون من الأصنام، التي لا تقدر على خلق أي شيء[(٣)].

وقد وردت آيتان مكيتان تثبتان أن الله تعالى لم يخلق السماوات والأرض عن

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٦٦.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٣٠٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦٨.

لعب، ولا تعب من خلقهما، فالآية الأولى هي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[الأنبياء: ١٦].

أي: لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما «إلا حجة عليكم أيها الناس، ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أن الذي دبره وخلقه لا يشبهه شيء، وأنه لا تكون الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء غيره، ولم يخلق ذلك عبثًا ولعبًا»[(١)].

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

أي: ما مسّ الخالق وما أصابه إعياء؛ لأن الذي يستريح هو المريض المرهق، وتعالى الله عزّ وجلّ عن ذلك علوًّا كبيرًا[(٢)].

وهذه الآية دليل واضح على قدرته تعالى على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وبالتالي ليس غريبًا أن يكون البعث الذي يجازى فيه الخلق جميعًا.

وليس معنى ما ذكر في الآيات المكية من مدلولات وحكم وأحكام أن الآيات المدنية خلت من ذلك، ولكن ذلك يعني أن ما تمتاز به الآيات المكية المذكورة، وما لم تذكر هو تلك السمات العقدية التي ذكرت، وقد وردت آيةٌ مدنيةٌ تثبت أن خلق السماوات والأرض لم يكن باطلًا، ولكن السياق يدلل هذا الرّسوخ الإيماني الذي تمتع به أولو الألباب أصحاب العقول النيّرة، جعلهم يقرّون بهذه الحقيقة الإيمانية، بأن الله رب كل شيء ما خلق السماوات والأرض باطلًا، فإن ذلك سيصير بإذن الله تعالى إلى الميعاد، وربّنا سبحانه هو المنزّه عن أي نقص، ثم يدعو هؤلاء المتفكرون في خلقهما بأن ينجوا من عذاب النار، مع كامل الخضوع والتذلل والانكسار والتفويض لأمر الله تعالى[(٣)]، والآية هي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران: ١٩١].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤١٩.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٣٣٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، ١/ ٣٤١.

بداية الخلق

تتناول هذه السطور نماذج من بدايات الخلق، مثل: خلق السموات والأرض، وخلق سيدنا آدم عليه السلام، وأن الله تعالى خلق مخلوقات قبل السماوات الأرض، وقبل سيدنا آدم عليه السلام، منه ما علمه البشر، ومنه ما لم يعلموه.

أولًا: خلق السماوات والأرض:

لقد تحدثت آيات كثيرة من القرآن الكريم عن خلق السماوات والأرض مع مجموعة من المخلوقات الأخرى التي أنعم الله تعالى بها على عباده.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[الروم: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[الشورى: ٢٩].

في حين حدّدت بعض الآيات المدة الزمنية لخلق السماوات والأرض وما بينهما، فكانت في ستة أيام.

ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[السجدة: ٤].

وعن ابتداء الخلق يروي أبو هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال: (خلق الله تعالى التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل)[1].

وإن هذا لا يعني أن هناك تعارضًا بين آية خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهذا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه الصلاة والسلام، ٤/ ٢٤٩، رقم ٢٧٨٩.

الحديث الذي يبين أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في سبعة أيام؛ فتكون الإجابة من عدة جوانب، منها:

إن العدد لا مفهوم له، ومن ثمّ فإنه قد لا ينحصر الأمر عند ستة أيام.

إن الخلق الأساس قد يكون في ستة أيام، أما التفاصيل فتقتضي أوقاتًا أكثر، والله أكبر وأعز وأعلم؛ لأن الله تعالى خالق كل شيء ومقدّره، وهو الذي خلق الأسباب، وله القدرة المطلقة على تحويلها كيفما يشاء.

وعن مسألة أيّهما أسبق في الخلق: السماء أم الأرض؟ ناقش هذه المسألة موضعان من كتاب الله تعالى، وهما: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣].

فهذه الآيات تبيّن أن السماء أسبق في الخلق من الأرض، والمعنى: أن الله تعالى يذكر دليلًا واضحًا بيّنًا لمنكري البعث، ومستبعدي إعادة إحياء الله تعالى للأجسام الميتة، فيقول الله تعالى: أأنتم أيها البشر أشد خلقًا أم السماء ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر، فقد بناها الله سبحانه، ورفع جرمها وصورتها، وسوّاها بإحكام دقيق، وإتقان يذهل أولي الألباب، كما أظلم ليلها، فعمّت الظلمة أرجاء السماء، وأظلم كذلك وجه الأرض، كما أخرج في السماء النور العظيم عندما خلق فيها الشمس، فانتشر الناس في النهار ينتفعون بمصالحهم، وأمور دينهم ودنياهم، ثم بعد ذلك خلق الأرض، وأودع فيها منافعها من الماء والمرعى، وتثبيت الجبال لها، فالذي خلق السماوات العظام وما فيها، وخلق الأرض الكثيفة وما فيها، لابد أن يبعث الخلق المكلّفين بعبادته، فيجازيهم على أعمالهم[1].

أما قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩-١٢].

ففيه يذكر أن الأرض أسبق في الخلق من السماء، والظاهر أن هناك إشكالًا في المعنى يتعارض مع آيات النازعات، ولكن معنى آيات فصّلت: أن الله عزّ وجلّ أمر

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٠٩.

نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتوبيخ المشركين الذين يكفرون بالله تعالى، وهو خالق السماوات والأرض، وكما سبقت الإشارة فإن المشركين يعترفون أن الله تعالى هو الخالق، ولكنهم يشركون في العبادة معه غيره من الأصنام والأوثان.

فبيّن الله تعالى في هذه الآيات أنه خلق الأرض في يومين، ثم جعل الجبال في الأرض رواسي لتثبيتها، وبارك الله تعالى فيها بما خلق من المنافع وإنبات الشجر، وخلق البحار والأنهار والدواب، كما قدّر فيها أرزاق أهلها وما يصلح لعيشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في بلدة أخرى، فكل هذه الأمور خلقها الله تعالى في تتمة أربعة أيام أخرى.

ثم خلق الله تعالى السماء، وسوّاها، ثم أمر السماء والأرض أن تأتيا بما خلق فيهما من المنافع والمصالح للخلق.

وعلى هذا المعنى، فإن الله تعالى قال ذلك لهما بعد خلقهما، وهو قول الجمهور، فقالتا: أتينا طائعين، فانقادا وأجابا لأمر الله تعالى، فقضى السماوات وجعلهن سبعًا، وأكمل بناؤهن، ثم أوحى الله تعالى في كل سماء أمرها، وزيّن السماء الدنيا بنجوم تضيئها، وحفظها الله تعالى من الشياطين الذين يسترقون السمع[1].

والناظر في هذين الموضعين يرى أن آيات السورتين توهم في ظاهرهما الإشكال والتعارض، ولكن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما أزال هذا التعارض حين أتى إليه رجل، وقال له: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، وعدّ له أربع مسائل، كان من ضمنها مسألة أيهما أسبق: خلق السماء أم الأرض؟ وساق له الآيات التي ذكرناها، فأجابه ابن عباس قائلًا: «وخلق الأرض في يومين ثمّ خلق السّماء، ثمّ استوى إلى السّماء فسوّاهنّ في يومين آخرين، ثمّ دحا الأرض، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فجعلت الأرض وما فيها من شيءٍ في أربعة أيّامٍ، وخلقت السّماوات في يومين»[2].

وخلاصة القول: إن خلق الأرض نفسها كان في يومين، وكان متقدمًا على خلق السماء، ثم كان خلق السماء وما فيها من أنوار وأجرام في يومين آخرين، ثم كان دحو الأرض المخلوقة وخلق ما فيها من

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٣٤٢-٣٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا، كتاب التفسير، باب قوله: (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة)، ٦/ ١٢٧.

ضروريات الخلق ومنافعهم في يومين آخرين. وهكذا تكون السماوات خلقت وما فيها في يومين، وخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام، والله تعالى أعلم، وقد سبقت الإشارة إلى عظيم قدرة الله تعالى في تحويل الأسباب.

ثانيًا: خلق آدم عليه الصلاة والسلام:

بعد أن خلق الله تعالى السماوات والأرض وما فيهما، خلق آدم عليه الصلاة والسلام يوم الجمعة الذي هو خير أيام الله تعالى كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها)[1].

وكان الله تعالى قد خلقه من تراب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩].

أي: خلقه من تراب دون أب ولا أم؛ بل بكلمة ﴿كُن﴾ فكان آدم عليه الصلاة والسلام[2].

وورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب)[3].

وشرّف الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام حين خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، فقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾[ص: ٧٥].

والمعنى: ما منعك يا إبليس عن السجود لآدم الذي تولّيت خلقه بنفسي من غير واسطة أب أو أم؟[4]، فخلقه الله تعالى في صورة بديعة وشكل حسن، حيث قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾[السجدة:٧].

ثم علّمه الله تعالى جميع مسميات الأسماء، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة:٣١].

ففضّله على جميع خلقه، حتى الملائكة، فأمرها الله تعالى بالسجود له عليه الصلاة والسلام سجود تكريم، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، ٢/ ٥٨٥، رقم ٨٥٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ٢٦٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، ٤/ ٣٥٨، رقم ٤٦٥٩، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٦٢، رقم ١٧٥٩.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٣/ ٢٣١.

﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤].

وبعد ذلك خلق الله تعالى له زوجه حواء، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[النساء: ١].

فالله تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنّساء؛ فإنّ المرأة خلقت من ضلعٍ، وإنّ أعوج شيءٍ في الضّلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنّساء)[1].

ثم أمره الله تعالى هو وزوجه أن يسكنا في الجنة، ويأكلا منها ما شاءا، ولكن الله تعالى نهاهما عن أن يقربا شجرة عيّنها لهم، فإنهما إن قرباها وأكلا منها فسوف يكونان من الظالمين لأنفسهم، لكن الشيطان استزلّهما، وأوقعهما في الخطيئة، فأكلا من الشجرة التي نهيا عنها، فخرجا من الجنة التي كانا ينعمان فيها، حينئذ أمرهما الله تعالى بالهبوط من الجنة إلى الأرض، فهي موضع الاستقرار لهم، فلما شعر آدم عليه الصلاة والسلام بالذنب، علّمه الله تعالى كلمات يقولها، فيتوب الله تعالى عليه ويغفر له ذنبه[2].

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحادثة، فقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[البقرة: ٣٥-٣٧].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣١، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٧٩.

معالم الخلق

نتناول هنا بعضًا من المعالم المتعلقة بالخلق، والتي يشير إليها القرآن الكريم عند حديثه عن الخلق، ومن تلك المعالم.

أولًا: الزوجية:

إن قاعدة الزوجية تمثّل قاعدة مهمة من قواعد الخلق في هذه الأرض، وهناك العديد من الآيات القرآنية التي جاءت تدلل على هذه القاعدة، وهي في الوقت نفسه دليل على صدق النبي عليه الصلاة والسلام، وأن القرآن من لدن حكيم خبير.

فالمعرفة التي كانت موجودة في زمن النبي عليه الصلاة والسلام لا تمكّن من الكشف عن قاعدة الزوجية في الأحياء، فضلًا عن ميادين الوجود المختلفة، أما اليوم وفي ظل هذا التقدم العلمي المشهود، والاكتشافات الكونية المتسارعة في المجالات المختلفة، استطاع العلماء الكشف عن أشكال التزاوج والارتباط في كافة ميادين الحياة، ابتداءًا بالذرة وانتهاءً بالمجرة؛ مما يؤكّد صدق الوحي والنبوة.

ومن الآيات التي تقرّر هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

ففي هذه الآية حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض، وهي قاعدة الزوجية في الخلق، وهي ظاهرة في الأحياء، ولكن كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ تشمل غير الأحياء أيضًا، فالتعبير يقرّر أن الأشياء كالأحياء، مخلوقة على أساس الزوجية[(١)].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾: قيل: مصطحبين ومتلازمين، إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء كالليل والنهار، والشقوة والسعادة، والهدى والضلالة، والأرض والسماء، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإيمان ونحو هذا.

وقيل: هي إشارة إلى الأنثى والذكر من كل كائن حي، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾[النجم: ٤٥][(٢)].

ورجّح الطبري القول الأول؛ لأنه دليل على قدرته تعالى على خلق الشيء وخلافه[(٣)].

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أيها المشركون أن الخالق الذي يستوجب العبادة واحد لا شريك له، هو القادر على خلق الشيء

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٣٨٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ١٨١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٢٤، الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٣٠٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٤٣٩.

وخلافه، وابتداع زوجين من كل شيء، بخلاف ما لا يقدر على ذلك.

وهو دليل على المغايرة بين المخلوق والخالق، فهو المتفرد في ذاته وصفاته وأفعاله، حيث يدرك الناس تفرّد الخالق من خلال ما يشاهدون من ظواهر تزاوج الأشياء وتركيبها، وارتباطاتها، وتوازناتها على نحو يستحيل معه العبث، والارتجال، والمصادفة[1].

وخلق الكون يقوم على مبدأ الزوجية، وقد جاءت الآيات مدلّلة على ذلك، ومن مخلوقات الكون التي يتمثل فيها مبدأ الزوجية النباتات.

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾[الرعد: ٣].

يقول سيد قطب: «إن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى، حتى النباتات التي كان مظنونًا أن ليس لها من جنسها ذكور، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة، أو متفرقة في العود، وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تملي ظواهره»[2].

و«قيل: إنه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الأشجار خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط، فلو قال: خلق زوجين، لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص، أما لما قال: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ علمنا أن الله تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين، لا أقل ولا أزيد، والحاصل أن الناس فيهم الآن كثرة إلا أنهم لما ابتدءوا من زوجين اثنين بالشخص هما آدم وحواء، فكذلك القول في جميع الأشجار والزرع»[3].

ثانيًا: الأطوار:

يعدّ خلق الإنسان من آيات الله العظيمة، خاصة إذا علمنا أن كل طور من الأطوار التي مرّ فيها خلق الإنسان هو آيةٌ ودليلٌ على صدق الوحي والنبوة، فالقرآن الكريم أخبر عن هذه الأطوار قبل أن تتوصل إليها الاكتشافات العلمية الحديثة.

وإذا أردنا الحديث عن المراحل والأطوار لخلق الإنسان لابد لنا من تقسيمه إلى قسمين:

الأول: مراحل خلق الإنسان الأول (آدم عليه الصلاة والسلام).

والثاني: مراحل خلق نسله (خلق الإنسان في بطن أمه)، وذلك كما يأتي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٤٣٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٢٤.
(٢) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٠٤٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩/ ٧.

١. مراحل خلق الإنسان الأول (آدم عليه الصلاة والسلام).

١. الطين.

وهو ذلك المركّب من تراب وماء الذي يتكوّن منه جسد الإنسان، فبداية خلق الإنسان من التراب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩].

ومن الماء الذي يدخل في خلق كل شيء حي، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنبياء: ٣٠].

فإذا اختلط التراب مع الماء أصبح طينًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[السجدة: ٧].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[المؤمنون: ١٢].

«والمراد به جنس الإنسان وأصله من خلاصة سلّت من طين، أو أول أفراده وهو آدم عليه الصلاة والسلام، وهذا دليل كاف على قدرة الله تعالى ووحدانيته، واتصافه بكل صفات الكمال»[(١)].

وقد وصف الله تعالى هذا الطين باللازب، ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[الصافات: ١١]. أي: اللاصق، وقيل: اللازق، والفرق بينهما أن اللاصق: هو الذي قد لصق بعضه ببعض، واللازق: هو الذي يلتزق بما أصابه، وقيل: اللازب اللزج[(٢)].

ويذكر سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم أن قبضة التراب التي خلق منها آدم كانت من جميع الأرض؛ لذلك خرجت ذريّته متفرّعة متنوّعة مختلفة، منها الأسود والأبيض، والطويل والقصير، والصالح والطالح، قال عليه الصلاة والسلام: (إنّ اللّه تعالى خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسّهل والحزن والخبيث والطّيّب)[(٣)].

٢. الحمأ المسنون.

وهي المرحلة الثانية بعد الطين، فإذا ترك الطين أصبح حمأ مسنونًا، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[الحجر: ٢٦].

والحمأ: الطين الذي تغيّر واسودّ لونه من طول مجاورة الماء، ومسنون: اختلف أهل التفسير في معناه، فقيل: مصوّر من سنة الوجه، أو منصوب ليبس ويتصوّر، كأنه أفرغ الحمأ فصوّر منها تمثال إنسان أجوف،

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ١٨/١٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/٦٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة البقرة، ٥/٥٤، رقم ٢٩٥٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/٣٦٢، رقم ١٧٥٩.

أو متن من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، فإن ما يسيل بينهما يكون متنًا[1].

٣. الصلصال.

فبعد أن أصبح الطين حمأ مسنونًا يجف بعدها، ويصبح صلصالًا كالفخار، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾[الرحمن: ١٤].

فالصلصال: الطين اليابس، والفخار: الخزف الذي طبخ بالنار، والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في يبسه الخزف[2].

٤. نفخ الروح.

في المراحل الثلاث الأولى لا روح في آدم عليه السلام، فإن الله تعالى خلق آدم عليه السلام من طين وصوّره، ثم صار صلصالًا؛ أي: يبس الطين بعد تصويره، ثم نفخ الله الروح في جسد آدم عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[ص: ٧١- ٧٢].

وإضافة الروح إلى نفسه تعالى دليل على أنه جوهر شريف علوي قدسي[3].

[انظر: آدم: خلق آدم]

٢. مراحل نسل آدم عليه الصلاة والسلام (خلق الإنسان في بطن أمّه).

بيّنت لنا الآيات الكريمة المراحل والأطوار التي يمر فيها خلق الإنسان وهو في بطن أمه، فكما أن القرآن الكريم تحدّث عن مراحل خلق الإنسان الأوّل، كذلك تدرّج في الحديث عن خلق سلالة هذا الإنسان، ومن الآيات التي تشير إلى هذه المراحل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[الحج: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٢- ١٤].

فهذه الآيات وغيرها توضّح الأطوار التي يمرّ فيها خلق الإنسان، فبعد أن خلق

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٢١٠، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٥٤.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ١٦١، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٠٣.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٤١٠.

آدم عليه الصلاة والسلام وخلقت حواء من ضلعه، تبيّن الآيات مراحل خلق نسله، وأول هذه المراحل:

١. النطفة الأمشاج.

وهي اختلاط ماء الرجل -الذي يحمل ملايين الحيوانات المنوية- مع ماء المرأة فتكون النطفة.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[النحل: ٤].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان: ٢].

أمشاج: أي ماء الرجل، وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد[١]، وهي أول مرحلة من مراحل خلق الإنسان، ثم تأتي المرحلة الثانية وهي:

٢. العلقة.

وهي الدم المتجمد[٢]، وسميت بذلك لكونها تعلق في جدار الرحم، فبعد أن يلقح الحيوان المنوي البويضة في رحم المرأة في مدة أربعين يومًا، تتحوّل النطفة إلى دم متجمد، يلتصق بجدار الرحم مدة أربعين يومًا أيضًا، حتى تتحول إلى الطور الثالث وهو:

٣. المضغة.

وهي القطعة الصغيرة من اللّحم بقدر ما يمضغ، وهذا الطور يمر بمرحلتين: المضغة غير المخلّقة، والمضغة المخلّقة، فالمضغة في أول أمرها تكون غير مخلّقة، أي: غير ظاهر فيها شكل الخلقة، ثم تكون مخلّقة، والمراد: تامة الخلقة بتشكيل الوجه ثم الأطراف[٣]، ثم يأتي الطور الرابع وهو:

٤. العظام.

وفي هذا الطور تتحول قطعة اللحم إلى هيكل عظمي، ثم يأتي الطور الخامس وهو:

٥. كساء العظام باللحم.

حيث يغطّى العظم بما يستره ويشدّه ويقوّيه، وهو اللحم؛ لأن اللحم يستر العظم، فجعل كالكسوة له.

يقول سيد قطب في معرض حديثه عن هذا الطور: «وهنا يقف الإنسان مدهوشًا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرًا بعد تقدّم علم الأجنة التشريحي؛ ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكوّن أولًا في الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام، وتمام

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٨٥، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٣٧٦.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٥١٥، البحر المديد، ابن عجيبة، ٣/ ٥١٢، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٤١٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ١٩٨، التفسير المنير، الزحيلي، ١٧/ ١٥٦.

الهيكل العظمي للجنين»[1]، ثم يأتي الطور السادس وهو:

٦. الخلق الآخر.

وهو جنين الإنسان ذو الخصائص المتميزة، التي تميّزه عن غيره من المخلوقات، فيكون مستعدًّا للارتقاء والتمييز والتكليف[2]، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أما عن المدة الزمنية لكل طور من الأطوار فقد جاء تحديدها في السنة النبوية، كما في حديث ابن مسعود، وهي أربعون يومًا لكل مرحلة، حتى يكسو الله العظام لحمًا وينشأ خلق آخر، فيستمر هذا الخلق في بطن أمه بقية زمن الحمل، حتى يخرج طفلًا، قال صلّى الله عليه وسلّم: (إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يومًا نطفة، ثمّ يكون علقةً مثل ذلك، ثمّ يكون مضغةً مثل ذلك، ثمّ يبعث اللّه ملكًا فيؤمر بأربع كلماتٍ، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثمّ ينفخ فيه الرّوح، فإنّ الرّجل منكم ليعمل حتّى ما يكون بينه وبين الجنّة إلّا ذراعٌ، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النّار، ويعمل حتّى ما يكون بينه وبين النّار إلّا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة)[3].

وهكذا خلق الله تعالى الإنسان في عدة أطوار؛ حيث أنشأه بالتدرج طورًا بعد طور حتى صار في أحسن تقويم، وهو -جلّ شأنه- قادر على أن يقول له: كن فيكون، ولكنه سبحانه اختار لنفسه سنة التدرج في الإنشاء، وهذه هي سنة الله في خلقه؛ لذلك وجب علينا أن نأخذ هذا التدرج بعين الاعتبار في تربية الإنسان وتنشئته.

[انظر: الإنسان: خلق الإنسان]

ثالثًا: الأجل:

خلق الله تعالى الإنسان وكتب أجله في الدنيا، فالآجال بيد الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الزّمر: ٤٢].

أي: أن الله يقبض النفس البشرية عند انتهاء آجالها، ويمسك الأنفس التي قضى عليها بالموت الحقيقي، ولا يردها إلى الدنيا، ويرد الأنفس النائمة إلى وقت الموت الحقيقي[4].

والأجل: المدة المحدّدة والمضروبة

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٥٩.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٨.
(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٢/ ٢٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٢٦٠.

للشيء[1]، وقد أخبر الله تعالى أنه قضى لعباده أجلين، أجلًا لمدة حياة كل فرد منهم، ينتهي بموت ذلك الفرد، وأجلًا لإعادة الأموات بعد موتهم، وانقضاء عمر الدنيا.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢][2].

واختلف أهل التفسير في معنى الأجلين، فقيل: عن مجاهد وابن عباس: الأول مدة الدنيا، والثاني عمر الإنسان إلى حين موته.

وقيل: الأول قبض الأرواح في النوم، والثاني: قبض الروح عند الموت.

وقيل: الأول ما يعرف من أوقات الأهلة والبروج وما يشبه ذلك، والثاني: أجل الموت.

وقيل: الأول لمن مضى، والثاني لمن بقي ولمن يأتي[3].

والآية حمّالة لكل المعاني، والله أعلم بمراده.

وقد جاءت كلمة الأجل في العديد من الآيات القرآنية وتحمل المعاني السابقة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

أي: ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمى ليتوالدوا، وفي تفسير هذا الأجل قولان: القول الأول: وهو قول عطاء عن ابن عباس: أنه يريد أجل القيامة، والقول الثاني: أن المراد منتهى العمر، ووجه القول الأول أن معظم العذاب يوافيهم يوم القيامة، ووجه القول الثاني أن المشركين يؤاخذون بالعقوبة إذا انقضت أعمارهم وخرجوا من الدنيا[4].

وقد يأتي الأجل ويحمل معنى وقت نزول العذاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

«أي: وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله»[5].

كما أن الآجال محسومة لا يزاد فيها ولا ينقص منها، ولن يموت حي حتى يكمل ما له من عمر، وذلك لما روي عن الصادق المصدوق أنه قال: (إنّ أحدكم يجمع خلقه

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٧/ ١٣١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٤٠، فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١١٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١١/ ٢٥٦، البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٩٦.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٢٩.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٣١.

في بطن أمّه أربعين يومًا، ثمّ يكون علقةً مثل ذلك، ثمّ يكون مضغةً مثل ذلك، ثمّ يبعث اللّه ملكًا فيؤمر بأربع كلماتٍ، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيٌّ أو سعيدٌ)[1].

[انظر: الأجل: أجل الإنسان]

رابعًا: التفاضل:

شرّف الله تعالى بني آدم وكرّمهم، وفضّلهم، ورفع درجاتهم على غيرهم من سائر مخلوقاته.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولقد جعل الله تعالى الإنسان خليفته في الأرض، وكان من لوازم كون الإنسان خليفة أن يعمر الأرض في تكافل بين الناس وترابط، ولا يكون ذلك وهم في درجة واحدة.

يقول المولى تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

كأن من الخلافة أن لا نكون متماثلين متطابقين، بل أراد سبحانه أن نكون مختلفين في المواهب؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة في المواهب، لفسدت الحياة، فلابد أن تختلف مواهبنا؛ لأن مطلوبات الحياة متعددة، إذًا فلابدّ من أن تتحقق إرادة الله في قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾، أي: أنه تعالى خالف بين عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الرزق، والعقل، والقوة، والعلم، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز، فالله تعالى منزّه عن صفات النقص، وإنما لأجل الابتلاء، فيكون الجزاء أو العقاب منه سبحانه[2].

يقول الإمام الشعراوي عند تفسيره لهذه الآية: «إن كل واحد فيكم مرفوع في جهة مواهبه، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون، ولا ينشأ التكاتف تفضلًا، وإنما ينشأ لحاجة، فلابد أن تكون إدارة المصالح في الكون اضطرارًا، وهذه هي هندسة المكون الأعلى سبحانه»[3].

وقد بيّن الله تعالى الهدف والغاية من هذا التفاضل بين الخلق في العديد من الآيات.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ١٩٢، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ١٧٩، الوسيط، طنطاوي، ٥/ ٢٣١.

(٣) تفسير الشعراوي، ٧/ ٤٠٢٧.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزّخرف: ٣٢].

فالتفاوت في الرزق جعل هذا مسخّرًا لهذا، والعكس، فعلنا ذلك؛ ليستخدم بعضهم بعضًا في حوائجهم، ويعاون بعضهم بعضًا في مصالحهم، وبذلك تنتظم الحياة، وينهض العمران. ويعم الخير بين الناس، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدّر الله تعالى[(١)].

وبيّن سبحانه أن التفاضل بين البشر كما هو في الدنيا فهو في الآخرة أيضًا، قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

ففي هذه الآية إشارة إلى هذه الدرجات المتفاوتة بين الناس، فيما أمدّهم به الله سبحانه وتعالى في هذه الدنيا، إذ فيهم من وسّع الله له في الرزق، فملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وفيهم من لا يملك شيئًا من ذلك، وبين هؤلاء وأولئك درجات، هذا كلّه في الدنيا، وهم في الآخرة كذلك، درجات متفاوتة، فريق في الجنة، وفريق في السعير، وأهل الجنة درجات، وأصحاب النار دركات، وشتّان ما بين الدنيا والآخرة، وما بين النار والجنة، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فهي دار البقاء والخلود[(٢)].

خامسًا: التنوع في مادة الخلق:

خلق الله تعالى الكون في أبدع صورة، وخلق فيه المخلوقات في صورة تظهر كمال القدرة وتنفي الألوهية عن غيره، فتنوّعت مخلوقاته في مادة الخلق، أما الجن فإن أصل خلقها من نار كما تقرر ذلك الآيات.

قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

قال ابن عباس في قوله: ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ الحارة التي تقتل، وقال ابن مسعود: ﴿السَّمُومِ﴾ التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم[(٣)].

وقال أيضًا: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

والمارج: اللهب الصافي الذي لا دخان فيه، وقيل: هو المختلط بسواد النار[(٤)].

أما الملائكة فقد بيّن لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أنها مخلوقة من نور، فعن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٢٦، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣١٨٧، الوسيط، طنطاوي، ١٣/ ٧٧.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ١٩٠، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، ٨/ ٤٦٩.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ١/ ١٢٨.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٤٤٥.

عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[1].

أما باقي الأحياء على وجه الأرض فقد خلقت من ماء، فالماء هو العنصر الذي خلق الله منه كل شيء سوى الملائكة والجن مما هو حي؛ لأن الملائكة خلقوا من النور، والجانّ خلق من النار كما بيّنا.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ويدخل في قوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ جسم الإنسان، بل يمكن لنا أن نقول: وقد خلقه الله تعالى من الماء.

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

فعند الحديث عن مراحل خلق الإنسان تبيّن أن الإنسان مخلوق من تراب.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وأضيف إليه الماء فأصبح طينًا، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

وقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن خلق آدم عليه الصلاة والسلام في أكثر من موضع، تمّ تناولها فيما سبق.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، ٤/ ٢٢٩٤، رقم ٢٩٩٦.

مقاصد الخلق

إنّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق سدىً ولا عبثًا؛ وإنّما خلق سبحانه الخلق لغاية عظيمة، وحكمة جليلة، خلق سبحانه الخلق بالحقّ.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وقال سبحانه: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣].

فالخلق كلّه قد خلقه الله تعالى بالحقّ، ولا يخلو خلقٌ خلقه الله من حكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وإنّ من أجلّ تلك الحكم التّنبيه على أنّ لها خالقًا قادرًا حكيمًا[1].

إنّ الله سبحانه وتعالى حكيم في فعله وخلقه، عليم بمصالح عباده، لا يصدر عنه إلا الحقّ، فهو العليم الحكيم، وهو اللطيف الخبير، وما خلق الخلق باطلًا، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

قال السعدي رحمه الله: «يخبر تعالى أنّه ما خلق السماوات والأرض عبثًا، ولا لعبًا من غير فائدةٍ؛ بل خلقها بالحقّ وللحقّ؛ ليستدل بها العباد على أنّه الخالق العظيم، المدبّر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كلّه، والحمد كلّه، والعزة كلّها، الصادق في قيله، الصادقة رسله فيما تخبر عنه، وأنّ القادر على خلق السماوات والأرض -مع سعتهما وعظمهما- قادر على إعادة الأجساد بعد موتها؛ ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته»[2].

فهذه بعض الحكم من خلق السماوات والأرض؛ أمّا خلق الإنس والجن فقد بيّن الله سبحانه الغاية من خلقهم، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقد أنكر سبحانه على من ظنّوا أنّهم خلقوا عبثًا مهملين، لا حساب عليهم، ولا ثواب ولا عقاب فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

وقد بيّن الله تعالى في آيات كثيرة من كتابه العزيز الغاية من خلق الكون، وعرّف

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١/ ٢٧٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٥٢٠.

عباده مقاصد إيجادهم، وعلة خلقهم، وفيما يأتي بيان لمقاصد خلق الثقلين من الجن والإنس خاصة، أمّا مقاصد خلق المخلوقات الأخرى فنكتفي بما أشرنا إليه.

أولًا: العبادة:

إنّ الله تعالى ما خلق الجنّ والإنس إلا لعبادته، وقد بيّن سبحانه ذلك لعباده أعظم بيان، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فعبادة الله هي الغاية العظمى لخلق الجنّ والإنس؛ فما خلقوا إلا ليستجيبوا لربّهم، وليذعنوا له سبحانه بالطاعة والعبادة؛ وذلك من خلال طاعة رسله، والتزام أمره، واجتناب نهيه، والخضوع لشرعه تعالى[(١)].

فهذا هو المقصد الأعظم من خلق الجنّ والإنس، وهذه هي الغاية الكبرى، وما عدا ذلك من المقاصد والغايات لخلق الثقلين إنّما هو مندرج تحت هذه الغاية الكبرى، وعلى العباد -إن أرادوا الفوز برضوان الله تعالى- أن يحقّقوا تلك الغاية من خلقهم؛ فعليهم أن يعرفوا ربّهم، ويعلموا دينه وشرعه، ويطيعوا رسله، ويسلّموا لأمره، ويجتنبوا معصيته، فإن فعلوا ذلك فقد استجابوا لما أمرهم به ربّهم تعالى، وأصابوا الحكمة من خلقهم في ملكه سبحانه وتعالى.

وقد ذكر المفسرون عدّة أقوال في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فقال بعضهم: المعنى ما خلقتهم إلا ليعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقياء؛ فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق -والتي هي عبادة الله تعالى- حاصلة بفعل السعداء منهم دون الأشقياء، وقال بعضهم: معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقرّوا لي بالعبودية طوعًا أو كرهًا؛ لأنّ المؤمن يطيع باختياره، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبرًا عليه، وقال بعضهم: معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا لآمرهم بعبادتي؛ فيعبدني من وفّقته منهم لعبادتي دون غيره[(٢)].

وقد رجّح الإمام الطبري رحمه الله القول الثاني، والذي ذهب إلى أنّ المراد من الآية: أنّ الله تعالى ما خلق الجنّ والإنس إلا ليذعنوا له سبحانه بالعبوديّة طوعًا أو كرهًا[(٣)].

ورجّح القول الأخير جماعة من المفسرين، منهم الإمام الشنقيطي رحمه الله إذ قال: «التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: إلا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٥٥.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٨/ ٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٤٤٤.

لآمرهم بعبادتي، وأبتليهم، أي: أختبرهم بالتكاليف، ثمّ أجازيهم على أعمالهم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وإنّما قلنا: إنّ هذا هو التحقيق في معنى الآية؛ لأنّه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله؛ فقد صرّح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملًا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم، فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات بأنّ حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملًا، يفسّر قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وخير ما يفسّر به القرآن القرآن»[1].

وما رجّحه الشنقيطي هو الراجح -والله أعلم-؛ فالله تعالى خلق الجنّ والإنس وأراد منهم أن يعبدوه، وهذه إرادة شرعيّة، أي أنّه سبحانه أمرهم بعبادته؛ فيطيعه من وفّقوا للطاعة، ويعصيه من لم يوفّقوا لها، وليست إرادة الله تعالى في الآية إرادة كونيّة؛ إذ لو كانت كذلك للزم أن يكون العباد جميعهم عابدين لله تعالى؛ لأنّ الإرادة الكونية لا تخالف ولا تعارض.

[انظر: العبادة: مكانة العبادة]

ثانيًا: الاستخلاف:

أراد الله تعالى أن يجعل في الأرض خليفة، خلقًا من خلقه يخلف بعضهم بعضًا، قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل[2]، يقومون بتنفيذ أمر الله تعالى على أرضه، وإمضاء أحكامه[3]، واختار الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام وذريّته لتلك المهمة العظيمة، وقد أخبر سبحانه ملائكته بذلك الأمر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فالمراد بالخليفة في الآية الكريمة: إمّا آدم بتنفيذ أوامره سبحانه، وإمّا أن يكون المراد آدم عليه الصلاة والسلام وذريته، وقال بعض المفسرين: سمّى الله آدم عليه الصلاة والسلام خليفة؛ لأنّه صار خلفًا من الجنّ الذين كانوا يسكنون الأرض قبله[4].

ولا شكّ أنّ مقصد استخلاف الإنسان في الأرض تابع لمقصد العبادة لله تعالى؛ إذ إنّ الله تعالى أراد من عباده أن يعبدوه، وجعلهم خلفاء في الأرض ليقوموا عليها بالعبادة المطلوبة منهم، والعبد بعمارته لأرض الله تعالى من خلال تنفيذ شرعه سبحانه، وفعل ما أمر، واجتناب ما نهى

(١) أضواء البيان، ٧/ ٤٤٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٣٧.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٦٣.

(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١/ ٢١.

عنه وزجر، يكون بذلك قد حقّق العبودية المطلوبة منه لله تعالى؛ إذ إنّ العبادة اسم جامع لكلّ ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة.

ثالثًا: الابتلاء:

لقد ذكر الله تعالى في غير آية من كتابه العزيز أنّ المقصد والحكمة من خلق السماوات والأرض، والموت والحياة، هي ابتلاء العباد واختبارهم أيهم أحسن عملًا، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[هود: ٧].

وقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وفي مطلع سورة الملك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: يختبركم، والاختبار من الله تعالى هو إظهار ما يعلم سبحانه من خلقه[١]، فهو سبحانه بأمره ونهيه للعباد أراد أن يظهر ما قد علم منهم من طاعة وعصيان، فهو سبحانه يفعل بهم ما يفعل المبتلي[٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: كل الصفات التي تجعل العمل أحسن في ميزان الحق فهي واردة هنا، بلا تخصيص بصفة دون غيرها، ولم يقل: أكثر عملًا، بل أحسن عملًا، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز وجل، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حبط وبطل[٣].

وهذا المقصد من الخلق تابع للمقصد الأكبر، وهو العبادة؛ إذ إنّ أمر الله تعالى عباده بعبادته وطاعته والاستسلام لأمره ونهيه بمنزلة الاختبار والامتحان لهم؛ فمن استجاب لربّه فقد فاز وأفلح، ومن عصى وأدبر فقد خاب وخسر.

رابعًا: الاختلاف:

إنّ من مقاصد خلق الله تعالى للعباد أنّه سبحانه و تعالى أرادهم أن يكونوا مختلفين؛ ولو أراد سبحانه أن يجعلهم مجتمعين على أمّة واحدة لفعل؛ ولكنّه سبحانه أرادهم مختلفين.

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً

(١) تفسير السمرقندي، ٢/ ١٣٩.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٠/ ٤٤١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤١٨.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقد اقتضت حكمته أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متّبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحقّ، فيما قاله، والضلال في قول غيره، وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته أنّه خلقهم مختلفين؛ منهم المؤمن ومنهم الكافر؛ ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقّت عليهم الضلالة؛ ليتبيّن للعباد عدل الله سبحانه وحكمته، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء[1].

وعلى هذا يمكن الجمع بين الآيتين: الآية الأولى، قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والآية الأخرى، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

بأنّ الإرادة -التي أرادها الله تعالى من عباده- في الآية الأولى إرادة شرعيّة، حيث أمر الله تعالى عباده بعبادته وطاعته، والآية الأخرى تدل على الإرادة الكونيّة القدريّة[2]؛ فالله سبحانه قدّر من الأزل، وكتب عنده في اللوح المحفوظ أنّ الناس سيختلفون، وهذا ما أراده الله تعالى، أراد سبحانه أن يكون له أهل إيمان وطاعة، يجزيهم الجنّة والنعيم، وأراد أن يكون من عباده أهل كفر وضلال، يملأ بهم جهنّم، والله تعالى يفعل ما يريد، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

وهذا المقصد لخلق العباد تابع للمقصد الأكبر وهو العبادة؛ فإنّ الله تعالى خلق العباد وأراد منهم أن يعبدوه، وهو سبحانه يعلم أنّ منهم من يستجيب ويطيع، ومنهم من يأبى ويعصي، ويعلم سبحانه أنّهم سيختلفون، وسيفترقون إلى فريقين؛ فريق السعداء الذين أطاعوا ربّهم، وفريق الأشقياء الذين عصوا أمر ربّهم، وكلّ ذلك أراده الله تعالى.

[انظر: الاختلاف: الاختلاف سنة الله في الخلق]

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ١١٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٩٢.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٤٤٨.

دلالة الخلق

لا شكّ في أنّ الخلق يدلّ على وجود الخالق، ولا ريب أنّ عظم الخلق يدلّ على عظم الخالق سبحانه وتعالى، وإنّ العبد كلّما تفكّر فيما حوله من مخلوقاتٍ لله تعالى؛ من سماءٍ، وأرضٍ، وجبالٍ، وأشجارٍ، وأنهارٍ، وأصناف الدّواب والطيور، يزداد إيمانًا بعظمة الخالق سبحانه، بديع السماوات والأرض، الذي فطر هذا الكون ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ولا شكّ أنّ في هذا الخلق العظيم -الذي تعجز عن مجرد تصوّر عظمته واتساعه عقول البشر- لا شكّ أنّ فيه دلالات عظيمة، وبراهين جليلة، لا يغفل عنها إلا من أعمى الله بصره، وأصمّ أذنه، وعطّل عقله، وختم على قلبه.

ولقد مدح الله تعالى عباده الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، ويستدلون بما حولهم من خلق عظيم، وآيات باهرة على عظيم قدرة ربّهم تعالى، وعلى صدق رسله، وصدق وعده، وتحقق وعيده، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

فخلق الله تعالى فيه دلالات عظيمة، وبراهين بيّنة جليلة، أراد الله تعالى من عباده أن يقفوا عليها، ويسترشدوا بها، وفيما يلي وقفة مع أهم دلالات الخلق.

أولًا: دلالة الخلق على استحقاق الخالق للعبودية:

إنّ الفطر السليمة، والعقول البصيرة تدرك أنّ من خلق وأوجد، واعتنى بخلقه لهو جدير وحده بأن يطاع ويعبد، فكيف يعبد سواه؟! ومن يستحق العبادة إلا إياه؟! وهل يستوي من خلق بمن هو مخلوق لا يملك حتى نفسه؟! ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وهل يستوي من أبدع هذا الكون وجعل فيه تلك الآيات الباهرة، والنعم المستفيضة بمن لا يقدر على نفع نفسه، قال الله تعالى مخبرًا عن نفسه العلية، ممتنًا على عباده، هاديًا لهم ومرشدًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا

﴿تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٤-١٧].

وما أكثر الآيات في كتاب الله تعالى التي يوجّه الله تعالى فيها عباده إلى التأمل والتفكر في ملكوت السماوات والأرض؛ ليعلموا من ذلك عظمة الخالق المبدع، وليعلموا أنّه لا يجوز أن يعبد غيره، ولا ينبغي أن يدعى سواه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

ففي هذه الآيات وأمثالها في كتاب الله تعالى استدلّ الله تعالى لعباده على وجوب عبادته وحده دون سواه بأنّه سبحانه وحده هو الخالق المدبّر؛ فما دام أنّه سبحانه الخالق، وهو سبحانه الذي خلق العباد من العدم، وأنعم عليهم بالخلق والإيجاد، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فهو سبحانه المستحق وحده للعبادة[(١)].

إنّ مما تقرّه العقول وتسلّم له الألباب أنّ المخلوق ضعيف محتاج إلى خالقه، وهو مربوب لربّه الذي أوجده وربّاه، ولا يمكن له أن يستغني عنه بأي حال، وإذا كان الأمر كذلك فهل يجوز أن يعبد ذلك المخلوق الضعيف من دون خالقه؟! قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ففي هذه الآية ردّ الله تعالى على أولئك الضالين المشركين بكلمة واحدة؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَهُمۡ﴾، والضمير في هذه الكلمة إما عائد على أولئك المشركين، فيكون المعنى: أنّ هؤلاء المشركين جعلوا من لم يخلقهم شريكًا لخالقهم في العبادة وهذه غاية الجهالة؛ إذ المستحق للعبادة هو الخالق لا غيره، وإمّا أن يكون الضمير عائدًا على المعبودين من دون الله تعالى، فيكون المعنى: أن المشركين اتخذوا شركاء في العبادة، وهؤلاء الشركاء هم أصلًا مخلوقون لله تعالى، فكيف يناسب أن يعبدوا من دونه سبحانه؟![(٢)].

وقد أنكر الله -تعالى في آيات كثيرة من كتابه العزيز- على من عبدوا مخلوقات مثلهم، لا تخلق شيئًا؛ وإنّما هي مخلوقة أصلًا.

قال الله تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

قال الشنقيطي رحمه الله: «أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو المستحق لأن يعبد وحده؛ لأنه هو الخالق ولا يستحق

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٠٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٤.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ١٩٧.

من الخلق أن يعبدوه إلا من خلقهم وأبرزهم من العدم إلى الوجود»[1].

وقال سبحانه في آيات أخرى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وبيّن سبحانه حال تلك المعبودات من دونه فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠- ٢١].

وما أعظم ذلك البيان الرّبّاني الذي فيه إيقاظ للقلوب الغافلة، وتنبيه للعقول الضالة، التي ظنت -ولو لحظة واحدة- أنّه يجوز أن يعبد غير الله تعالى من مخلوقات ضعيفة فانية، ضعيفة عاجزة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٥].

إنّ هذه المخلوقات في غاية العجز والضعف، لا تملك لنفسها -فضلًا عن غيرها- نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يقدم من كان عنده عقل على عبادة من كان هذا حاله؟!

إنّ الله تعالى هو خالق كلّ شيء، ولا خالق غيره، وكل ما سواه سبحانه مخلوق له، فوجب أن يكون وحده المعبود، ووجب ألا يصرف شيء من العبادة لغيره، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ثانيًا: دلالة الخلق على قدرة الخالق على البعث:

إنّ من الدلالات العظيمة التي يدلّ عليها خلق الله تعالى الدلالة على قدرته سبحانه وتعالى على البعث، وإعادة الموتى للحياة من جديد؛ لأجل أن يحاسبوا على أعمالهم، وقد كان كفّار العرب ومن جاء بعدهم من الكفار ينكرون تلك الحقيقة العظيمة، فجاء القرآن الكريم بأعظم الأدلة وأصدقها لإثبات هذه الحقيقة العظمى.

وقد استدلّ القرآن الكريم على حقيقة البعث بعدة أدلة، من أهمها دليل الخلق، وهو دليل بديهي، يوجبه العقل، ويستلزمه المنطق، ولا يمكن أن يطرأ عليه شكٌّ أو

(١) أضواء البيان، ٢/ ٢٣٩.

ريب.

ويتلخص دليل الخلق على البعث في أنّ الله تعالى الذي خلق الخلق أوّل مرة قادر على إعادة الخلق مرة أخرى؛ فالذي أوجدهم أولًا يوجدهم ثانيًا، بل العقل يقتضي أن تكون الإعادة أهون من الإيجاد الأول.

وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تثبت حقيقة البعث بدلالة الخلق، فالذي خلق هذا الكون العظيم، وفطر السماوات والأرض، قادر سبحانه على بعث العباد بعد موتهم.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ومن استدلال القرآن الكريم على حقيقة البعث بدلالة الخلق أنّ الله تعالى دعا أولئك المتشككين في حقيقة بعثهم إلى تذكر أصل خلقتهم، كيف كانوا في الأصل ترابًا، ثمّ تناسلوا من نطفة، ثم علقة، ثمّ مضغة، إلى أن صاروا بشرًا مكتملين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥].

يدعوهم ربّهم إلى النظر إلى مبدأ خلقهم؛ ليزول ريبهم؛ ويذهب شكّهم في قضية البعث والحساب[1].

إنّ العقل يستلزم أن يكون الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثاني، وهذا ما أخبر به القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال سبحانه ردًّا على من سألوا: من يعيدنا بعد الموت والفناء؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١].

إنّ دليل الخلق أول مرّة على الخلق مرّة أخرى دليل قوي عظيم، لا يرفضه إلا من فقد عقله، ونسي أصله، فبحسب الإنسان أن يذكر نشأته الأولى؛ ليعلم أن الله تعالى قادر على البعث والإحياء؛ لذا بيّن الله تعالى أنّ من أنكروا البعث قد نسوا أصلهم، ونسوا نشأتهم الأولى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

فكان الرّدّ من الله تعالى على ذلك الجاحد بتذكيره بخلقه الأول: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

قال الشنقيطي رحمه الله: «ولأجل قوة دلالة هذا البرهان المذكور على البعث

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٩٣.

بيّن جل وعلا أنّ من أنكر البعث فهو ناسٍ للإيجاد الأول، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾[يس: ٧٨]؛ إذ لو تذكر الإيجاد الأول على الحقيقة لما أمكنه إنكار الإيجاد الثاني»[1]، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾[مريم: ٦٦-٦٧].

[انظر: البعث: منهج القرآن في تقرير مبدأ البعث]

التفكر في المخلوقات

وردت العديد من الآيات التي تدعو إلى التفكر والتأمل في خلق الله تعالى، والتي تدلل على وحدانية الله تعالى، وقدرته، ومن هذه الآيات:

أولًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤].

وقد اشتملت هذه الآية على ثماني آيات كونية عظيمة دالة على عظمة الخالق تعالى وقدرته، وفيها دعوة للتفكر والتأمل في خلق الله تعالى.

أول هذه الآيات الدالة على عظم خالقها، هي السماوات، فالسماء على ارتفاعها طبقات مفصولة ومرفوعة بغير عمد، واتساعها، وكواكبها السيارة، وبروجها، ودوران فلكها، لهي من أكبر الآيات الدالة على قدرة المولى تعالى، وثانيها الأرض في مدها، وبسطها، وكثافتها، وانخفاضها، وجبالها، وبحارها، وقفارها، ووهادها، وعمرانها، وما فيها من المنافع العظيمة من معادن عظيمة بداخلها، والتي تشهد على

(١) أضواء البيان، ٤/ ٢٦٥.

وحدانية خالقها[1].

ثم جاءت الآية الثالثة والمتمثلة في اختلاف الليل والنهار وتتابعهما دون تأخر، كما قال الله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠].

تارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾[فاطر: ١٣].

فكل ذلك دليل على الخالق المبدع[2].

قال الخازن: «والآية في الليل والنهار أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون في النهار، وطلب النوم والراحة يكون في الليل، فاختلاف الليل والنهار إنما هو لتحصيل مصالح العباد»[3].

أما الآية الرابعة فمتمثّلة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤].

أي: تسخير البحر لحمل السفن التي تنقل الناس من جانب لآخر، ونقل تجارتهم[4]، «والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء، وهي موقّرة بالأثقال والرجال، فلا ترسب، وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة، وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء، وهيجان البحر فلا ينجي منه إلّا الله تعالى»[5].

ثم الآية الخامسة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:١٦٤].

ففي هذه الآية دليل على قدرة الله تعالى، وفيها عبرة لأولي الألباب والعقول، ومدعاة للتفكر والتأمل في خلقه تبارك وتعالى، وذلك أنه قال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

فمن شأن الماء الذي يسقي الأرض أن ينبع منها، لكنه جعل الماء نازلًا عليها من ضدها وهو السماء. وفي الآية عبرة علمية، أوضحها أهل العلم، «وذلك أنّ جعل الماء نازلًا من السماء يشير إلى أن بخار الماء يصير ماء في الكرة الهوائية عند ما يلامس الطبقة الزمهريرية، وهذه الطبقة تصير زمهريرًا عند ما تقل حرارة أشعة الشمس، ولعل في بعض الأجرام العلوية وخاصة القمر أهوية باردة يحصل بها الزمهرير في ارتفاع الجو، فيكون لها أثر في تكوين البرودة في أعلى الجو، فأسند إليها بإنزال الماء مجازًا عقليًّا»[6].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٧٤، البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ١٩١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٧٤.
(٣) لباب التأويل، ١/ ١٠٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٧٤.
(٥) لباب التأويل، ١/ ١٠٠.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٨٣.

وكما جاء في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[يس: ٣٣].

ثم تأتي الآية السادسة في قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة:١٦٤].

أي: جعل فيها من جميع الحيوانات، على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك[١]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[هود: ٦].

«قال ابن عباس: يريد كل ما دب على وجه الأرض من جميع الخلق من الناس وغيرهم، والآية في ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم، ثم ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة والطبائع والأخلاق والأوصاف إلى غير ذلك، ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان»[٢]، وعبّر عنه بالبث لتصوير ذلك الخلق العجيب المتكاثر[٣].

والآية السابعة في قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة:١٦٤].

أي: هبوبها من جهات مختلفة، وهي الجهات الأربع، وتنوعها مع ذلك، فتارة تأتي للعذاب، وتارة للرحمة، مع تفريق للعلماء بينهما[٤]، وما بينها من صفات مختلفة كلها دليل على قدرة الله تعالى.

وآخر هذه الآيات متمثّلة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

«والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأدوية العظيمة يبقى معلّقًا بين السماء والأرض»[٥].

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[الغاشية: ١٧].

هذه آية أخرى تحثّ على التفكر في مخلوقات الله تعالى، وجاء الحث في هذه الآية على التفكر في إحدى مخلوقاته التي كانت معهودة عند العرب، فقال الله تعالى: أفلا ينظر أهل مكة والناس عامة نظر اعتبار وتفكر إلى الإبل، وهي الجمال، جمع بعير، ولا مفرد لها من لفظها[٦]، كيف جاء خلقها دقة في الإبداع، ودليل على كمال قدرته تبارك وتعالى.

وقد يتساءل البعض: لماذا جاء ذكر الإبل دون غيرها من الحيوانات التي كانت

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٧٤.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ١/ ١٠٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٨٤.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٧٤، البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ١٩١.
(٥) لباب التأويل، الخازن، ١/ ١٠٠.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٣٠/ ٢١٤.

موجودة عند العرب؟ نقول: إن الإبل أكثر الحيوانات ذات قيمة عند العرب، ولما لها من خصائص تميّزها عن باقي الحيوانات.

وقد جاء ذكر هذه الخصائص في قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ٥-٧].

«والأنعام: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نعم وأنعام للإبل»[(١)]، وإن شيئًا من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال في هذا المخلوق من العجائب[(٢)].

قال الإمام الرازي: «إنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة؛ لأنها إن جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير، وإن جعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت ركوبة أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وذلك لما ركّب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش، والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزئ حيوان آخر، وإن جعلت حمولة استغلّت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها، ومنها أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعًا في قلب العرب؛ ولذلك فإنهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلًا، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير؛ لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره»[(٣)].

فكيف يصح للمشركين إنكار البعث والمعاد واستبعاد وقوع ذلك، وهم يشاهدون الإبل التي هي غالب مواشيهم وأكبر المخلوقات في بيئتهم، كيف خلقها الله على هذا النحو البديع، من عظم الجثة، ومزيد القوة، وبديع الأوصاف، فهي خلق عجيب، وتركيب غريب، ومع ذلك نراها تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للولد الصغير، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها، وتصبر على الجوع والعطش، وترعى كل ما يتيسر لها من شوك وشجر وغير ذلك، مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، فتبارك الله أحسن الخالقين[(٤)].

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[يس:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١/ ١٤٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٥/ ٣٢٩، محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٤٢٦، التفسير المنير الزحيلي، ٣٠/ ٢١٤.

٧٨].

تتحدث هذه الآية والتي قبلها عن بعض أهل الكفر الذين جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم وأنكروا قدرة الله تعالى على البعث والجزاء، فكان الرد من الله تعالى عليهم، ودفع شبهتهم.

قال أهل التفسير: إن هذه الآية نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقيل: هو أبي بن خلف الجمحي، وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال: يا محمد، أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم، ويبعثك الله ويدخلك النار) فنزلت هذه الآية[(١)].

فالله تعالى يرد على منكري البعث، الذين يستبعدون عودة العظام إلى الحياة بعد أن تصبح بالية، فهذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل، ضرب مثلًا هو في غاية الغرابة، حيث أنكر قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وعلى بعثهم يوم القيامة، فقال: - دون أن يفطن إلى أصل خلقته- من يحيي العظام وهي بالية أشد البلى؟

ونسي أصل خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم المراحل التي يمر فيها خلق الإنسان، واختاروا العظم للذكر؛ لأنه أبعد عن الحياة؛ لعدم الإحساس فيه، ووصفوه بما يقوي جانب الاستبعاد من البلى والتفتت[(٢)].

لهذا لقّن الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم الجواب الذي يخرس ألسنة المنكرين للبعث، فقال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت، وأين تفرّقت وتمزّقت[(٣)].

فحريٌّ بهذا المجادل أن ينظر في خلقه قبل التنكر والاستبعاد، فلو فكر وتدبر مليًّا في ذلك لما أنكر قدرة الله تعالى على إعادة الخلق، وعلى كل إنسان أن يمعن تفكيره في خلق الله تعالى الدال على قدرته، وتفرده بالألوهية.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

في هذه الآية حثٌّ من المولى تعالى للإنسان على التفكر والتدبر في خلقه، ففيها دلالة واضحة على أن الإنسان معجز في خلقه، وفيه دليل على توحيد الله، وصدق ما جاءت به الرسل، فالله تعالى يخاطبنا قائلًا: أفلا تنظرون نظرة متأمل معتبر ناظر بعين البصيرة، فتستدلون بذلك على الخالق

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٧٥، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٠٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٦٤، التفسير الوسيط، الطنطاوي، ١٢/ ٥٦.

الرازق، المتفرد بالألوهية، فليست نفوسكم مخلوقة بالصدفة ولا بالطبيعة، وإنما خالقها الله القادر على كل شيء، وعلى البعث وإعادة الحياة، ففي النفس من بداية خلقها، وتنقلها من مرحلة إلى أخرى، وما في تراكيب أعضائها، واختلاف الألوان والألسنة والصور، من الأدلة المقنعة على قدرته تعالى ووحدانيته[1].

قال ابن عجيبة: «﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ آيات وعجائب القدرة؛ إذ ليس شيء في العالم إلا وفي الأنفس له نظير، مع ما فيه من الهيئات النابعة والمصادر البهية، والترتيبات العجيبة، خلقه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم فصلها إلى العظم والعصب والعروق، فالعظام عمود الجسد، ضمّ بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال ربطت بها، ولم تكن عظمًا واحدًا؛ لأنه إذ ذاك يكون كالخشبة، لا يقوم ولا يجلس، ولا يركع ولا يسجد لخالقه، ثم خلق تعالى المخ في العظام في غاية الرطوبة ليرطب يبس العظام، ويتقوّى به، ثم خلق سبحانه اللحم وعبأه على العظام، وسدّ به خلل الجسد، واعتدلت هيئته، ثم خلق سبحانه العروق في جميع الجسد جداول، يجري الغذاء منها إلى أركان الجسد، لكل موضع من الجسد عدد معلوم، ثم أجرى الدم في العروق سيالًا خاثرًا، ولو كان يابسًا، أو أكتف مما هو فيه، لم يجر في العروق، ثم كسى سبحانه اللحم بالجلد كالوعاء له، ولولا ذلك لكان قشرًا أحمر، وفي ذلك هلاكه، ثم كساه الشعر وقايةً وزينةً، وليّن أصوله، ولم تكن يابسة مثل رؤوس الإبر، وإلا لم يهنه عيش، وجعل الحواجب والأشفار وقاية للعين، ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقط، وجعلها سبحانه طوع يده، يتمكن من رفعها عند قصد النظر، ومن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النظر عما يضر دينًا ودنيا، وجعل شعرها صفًّا واحدًا لينظر من خلالها، ثم خلق سبحانه شفتين تنطبقان على الفم تصونان الحلق والفم من الرياح والغبار، ولما فيهما من كمال الزينة، ثم خلق الله سبحانه الأسنان ليتمكن من قطع مأكوله وطحنه، ولم تكن له في أول خلقته؛ لئلا يؤذي أمه، وجعلها ثلاثة أصناف: قسم يصلح للكسر؛ كالأنياب، وقسم يصلح للقطع؛ كالرباعية، وقسم يصلح للطحن؛ كالأضراس، إلى غير ذلك مما في الإنسان من عجائب الصنع وبدائع التركيب»[2].

ثم ختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي: تنظرون نظر من يعتبر، قال قتادة: «من تفكر في خلق

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٤٠، محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٤٠، التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٢٧/ ١٩.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٥/ ٤٧١.

نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة»[1].

موضوعات ذات صلة:

آدم، الأرض، الإنسان، البصر، التفكر، الجبال، الحكمة، الحيوان، السماء، السير

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤١٩.

الخمر

عناصر الموضوع

مفهوم الخمر	٩٤
الخمر في الاستعمال القرآني	٩٥
الألفاظ ذات الصلة	٩٦
حقيقة الخمر	٩٨
التدرج في تشريع حكم الخمر	١٠٦
مقاصد تحريم الخمر	١١٣
أحكام تتعلق بالخمر	١١٦
خمر الجنة	١٢٣
صفة مجالسها في الجنة	١٢٧
الإعجاز التشريعي في تحريم الخمر	١٣٢
أثر الخمر على الفرد والمجتمع	١٣٦

مفهوم الخمر

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (خمر) تدل على التغطية والمخالطة في ستر[(١)].

والخَمْرُ: مَا أسكر من عصير العنب أو غيره؛ لأنها خامرت العقل[(٢)].

سمِّيت الخَمْرُ خَمْرًا؛ لأنَّها تُرِكَتْ فاختمرت، واختِمارها: تغيُّر ريحِها. ويقال: سُمِّيَتْ بذلك لمخامرتها العقل[(٣)].

والتَّخْمِير: التّغطِيَةُ[(٤)].

وهذه المعاني الثلاث: التخمر والمخالطة والستر، كلها موجودة في الخمر:

١. فهي تحجب العقل وتستره.

٢. وهي تترك حتى تتخمر ويتغير طعمها وريحها.

٣. وهي تخالط العقل.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الخمر اصطلاحًا: كل شراب مسكر، من أي أصل، سواء كان من الثمار كالعنب والرطب والتين، أو الحبوب كالحنطة والشعير، أو الطلول كالعسل أو الحيوان كألبان الخيل[(٥)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢١٥.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥/ ١٨٥.
(٣) الصحاح، الجوهري ٢/ ٦٤٩.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ١٦٢.
(٥) السياسة الشرعية ص٥٠.

الخمر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خمر) في القرآن الكريم (٧) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٦	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة:٩٠]
جمع خمار	١	﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١]

ولم تخرج (الخمر) في الاستعمال القرآني عن معناها اللغوي وهو: كل شراب مسكر. والخمر سميت بذلك؛ لأنها تستر العقل[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٤٥.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٧١، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٥٣٣-٥٣٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكأس:

الكأس لغة:

الزجاجة ما دام فيها شراب، ولا تسمى الكأس كأسًا إلا وفيها الشراب، وقيل: الكأس: الشراب بعينه، وقيل: هو اسم للخمر نفسها[١].

الكأس اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الكأس اصطلاحًا عن معناه اللغوي.

الصلة بين الكأس والخمر:

الكأس هو القدح الذي يشرب به الخمر إذا كان فيه الخمر، ويطلق على الشراب بعينه.

وقد جاء في القرآن الكريم إطلاق الكأس على الخمر في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥﴾ [الصافات:٤٥] بمعنى الخمر[٢].

٢ الشراب:

الشراب لغة:

يقال: شربت الماء أشربه شربًا، والشّرب الاسم، والشّراب: ما يشرب[٣].

الشراب اصطلاحًا:

الشراب كل مائع يشرب؛ سواء كان ماءًا أو غير الماء.

الصلة بين الشراب والخمر:

أما الشراب فهو عام في كل ما يشرب، وقد جاء في القرآن الكريم إطلاقه على الخمر في قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١] أي: خمر الجنة[٤].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ١٨٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٤٠.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٦٧.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٨٠.

٣ السكر:

السّكر لغة:

أصل مادة (سكر) تدل على حيرة، من ذلك السُّكر من الشراب[١].

والسَّكْران: خلاف الصاحي، والجمع سَكْرى وَسَكارى[٢].

السّكر اصطلاحًا:

وأما السكر: فهو «حالة تعترض بين المرء وعقله. وأكثر ما يستعمل ذلك في شراب المسكر، وقد يعتري من الغضب والعشق»[٣].

الصلة بين السّكر والخمر:

كل ما يؤدي إلى السكر فهو خمر، وقد جاء في صحيح مسلم: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (كلّ مسكرٍ خمرٌ، وكلّ مسكرٍ حرامٌ).

والحديث يفيد أن كل ما أسكر يسمى خمرًا، وأن كل مسكرمحرم، سواء أطلق عليه اسم الخمر، أم أطلق عليه اسم آخر؛ لأن علة التحريم هي الإسكار، فحيثما وجد وجدت الحرمة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٨٩.
(٢) الصحاح، الجوهري ٢/ ٦٨٧.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤١٦.

حقيقة الخمر

أولًا: كل مسكر خمر:

اختلف في حقيقة الخمر «فقيل هي من عصير العنب خاصة، وهو مذهب أبي حنيفة -رحمه الله تعالى- والكوفيين، مراعاة لفقه اللغة: أو عام، أي: ما أسكر من عصير كل شيء؛ لأن المدار على السكر وغيبوة العقل، وهو الذي اختاره الجماهير»[(١)].

وقد تقدم اشتقاقها، ولكن الخلاف في كونها اسمًا لكل مسكر أو للنّيّ المتخذ من العنب والتمر، قال الفيروزآبادي: «والخمر سمّيت لكونها خامرة لمقرّ العقل، وهو عند بعض الناس اسم لكلّ مسكر، وعند بعضهم اسم للمتخذ من العنب والتمر، لما روي عنه صلّى الله عليه وسلم: (الخمر من هاتين الشّجرتين: النّخلة والعنبة)، ومنهم من جعلها اسمًا لغير المطبوخ، ثم كميّة الطّبخ التي تسقط عنه اسم الخمر مختلف فيها»[(٢)].

وينبني على هذا الخلاف اللغوي مسألة فقهية وهي حكم ما أسكر كثيره ولم يسكر قليله: فإن كان ما يسكر يسمى خمرًا لزم كون القليل منه محرمًا ولو لم يسكر لانطباق اسم الخمر عليه، وإن لم يسم خمرًا لم يحرم قليله؛ لعدم تحقق العلة التي يقاس بسببها على الخمر فيه، قال الجصاص: «وقد اختلف فيما يتناوله اسم الخمر من الأشربة: فقال الجمهور الأعظم من الفقهاء: اسم الخمر في الحقيقة يتناول النّيّ المشتد من ماء العنب، وزعم فريق من أهل المدينة ومالك والشافعي أن كل ما أسكر كثيره من الأشربة فهو خمر» ثم شرع يحتج لقول الحنفية وينتصر له[(٣)].

وقد خرج القرطبي من هذا الخلاف اللغوي باستدلال ذكي فقال: «والخمر: ماء العنب الذي غلى أو طبخ، وما خامر العقل من غيره فهو في حكمه؛ لأن إجماع العلماء أن القمار كله حرام. وإنما ذكر الميسر من بينه فجعل كله قياسًا على الميسر، والميسر إنما كان قمارًا في الجزر خاصة، فكذلك كل ما كان كالخمر فهو بمنزلتها»[(٤)].

ومفهوم قوله أن إجماع الناس على تحريم جميع أنواع القمار مع دلالة الميسر على نوع خاص منها فقط، يستلزم إجماعهم على تحريم كل المسكرات وأن حكم جميعها واحد ولو دل اسم الخمر على نوع خاص منها فقط. قال: «والجمهور من الأمة على أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فمحرم قليله وكثيره، والحد في ذلك واجب. وقال أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وابن

(١) تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٢٠٨.
(٢) المفردات، الراغب ص٢٩٩.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٢.

شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال، وإذا سكر منه أحد دون أن يتعمد الوصول إلى حد السكر فلا حد عليه، وهذا ضعيف يرده النظر والخبر»[1].

والخبر الذي ذكره القرطبي جملة أحاديث منها ما روى البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أن عائشة، قالت: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البتع، فقال: (كل شراب أسكر فهو حرام)[2].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب، لم يشربها في الآخرة)[3].

وفي صحيح البخاري أيضًا عن أنس قال: (حرمت علينا الخمر حين حرمت، وما نجد -يعني: بالمدينة- خمر الأعناب إلا قليلًا، وعامة خمرنا البسر والتمر)[4].

وعن ابن عمر قال: سمعت عمر رضي الله عنه على منبر النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أما بعد، أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة من: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل)[5].

قال ابن حجر: «هذا الحديث أورده أصحاب المسانيد والأبواب في الأحاديث المرفوعة؛ لأن له عندهم حكم الرفع؛ لأنه خبر صحابي شهد التنزيل أخبر عن سبب نزولها، وقد خطب به عمر على المنبر بحضرة كبار الصحابة وغيرهم فلم ينقل عن أحد منهم إنكاره، وأراد عمر بنزول تحريم الخمر آية المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ إلى آخرها، فأراد عمر التنبيه على أن المراد بالخمر في هذه الآية ليس خاصًّا بالمتخذ من العنب بل يتناول المتخذ من غيرها، ويوافقه حديث أنس الماضي فإنه يدل على أن الصحابة فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر، سواء كان من العنب أم من غيرها، وقد جاء هذا الذي قاله عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم صريحًا. فأخرج أصحاب السنن الأربعة[6]

(١) المصدر السابق.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب الخمر من العنب، ٧/ ١٠٥، رقم ٥٥٨٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، ٣/ ١٥٨٧، رقم ٢٠٠٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب الخمر من العنب، ٧/ ١٠٥، رقم ٥٥٨٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، ٦/ ٥٣، رقم ٤٦١٩.
(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب الخمر مما هو، ٣/ ٣٢٦، رقم ٣٦٧٧، والنسائي في سننه، كتاب الأشربة، باب ذكر الأخبار التي اعتل بها من أباح السكر،

وصححه ابن حبان من وجهين عن الشعبي أن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الخمر من العصير والزبيب والتمر والحنطة والشعير والذرة وإني أنهاكم عن كل مسكر). ولأبي داود من وجه آخر عن الشعبي عن النعمان بلفظ: (إن من العنب خمرًا وإن من التمر خمرًا وإن من العسل خمرًا وإن من البر خمرًا وإن من الشعير خمرًا)... ولأحمد من حديث أنس بسند صحيح عنه قال: (الخمر من العنب والتمر والعسل)، ولأحمد من حديث أنس بسند صحيح عنه قال: (الخمر من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير والذرة)»[1].

وللبخاري أيضًا عن أنس قال: (كنت قائمًا على الحي أسقيهم، عمومتي وأنا أصغرهم، الفضيخ، فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: أكفئها، فكفأتها) قلت لأنس: ما شرابهم؟ قال: (رطب وبسر) فقال أبو بكر بن أنس: وكانت خمرهم، فلم ينكر أنس وحدثني بعض أصحابي: أنه سمع أنس بن مالك يقول: (كانت خمرهم يومئذ)[2].

ومن وجه آخر عنه قال: (كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، فنزل تحريم الخمر، فأمر مناديًا فنادى، فقال أبو طلحة: اخرج فانظر ما هذا الصوت، قال: فخرجت فقلت: هذا مناد ينادي: (ألا إن الخمر قد حرمت)، فقال لي: اذهب فأهرقها، قال: فجرت في سكك المدينة، قال: وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ، فقال بعض القوم: قتل قوم وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾[المائدة:٩٣])[3].

قال القرطبي: «هذا الحديث في نزول الآية فيه دليل واضح على أن نبيذ التمر إذا أسكر خمر، وهو نص ولا يجوز الاعتراض عليه؛ لأن الصحابة رحمهم الله هم أهل اللسان، وقد عقلوا أن شرابهم ذلك خمر؛ إذ لم يكن لهم شراب ذلك الوقت بالمدينة غيره.

ومن الدليل الواضح على ذلك ما رواه النسائي: أخبرنا القاسم بن زكريا، أخبرنا عبيد الله عن شيبان عن الأعمش عن محارب بن دثار عن جابر عن النبي صلى اله عليه وسلم قال:(الزبيب والتمر هو الخمر). وثبت بالنقل الصحيح أن عمر بن الخطاب

٨/ ٣٢٠، رقم ٥٦٨٢.

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب نزل تحريم الخمر وهي من البسر والتمر، ٧/ ١٠٥، رقم ٥٥٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا، ٦/ ٥٤، رقم ٤٦٢٠.

رضي الله عنه -وحسبك به عالمًا باللسان والشرع- خطب على منبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا أيها الناس، ألا إنه قد نزل تحريم الخمر يوم نزل، وهي من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل). وهذا أبين ما يكون في معنى الخمر، يخطب به عمر بالمدينة على المنبر بمحضر جماعة الصحابة، وهم أهل اللسان ولم يفهموا من الخمر إلا ما ذكرناه. وإذا ثبت هذا بطل مذهب أبي حنيفة والكوفيين القائلين بأن الخمر لا تكون إلا من العنب، وما كان من غيره لا يسمى خمرًا ولا يتناوله اسم الخمر، وإنما يسمى نبيذًا»[1].

وقال ابن العربي: «والصحيح ما روى الأئمة أن أنسًا قال: (حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا قليل، وعامة خمرها البسر والتمر). خرجه البخاري، واتفق الأئمة على رواية أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم يومئذ خمر عنب؛ وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ، فكسروا دنانهم، وبادروا الامتثال لاعتقادهم أن ذلك كله خمر. وصح عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر: (إن تحريم الخمر نزل، وهي من خمسة: العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير). والخمر ما خامر العقل»[2].

قال: «وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة ذكرناها في شرح الحديث، ومسائل الخلاف فلا يلتفت إليها»[3].

وقد رويت أحاديث صريحة في تحريم قليل ما يسكر كثيره: فعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أسكر كثيره، فقليله حرام)[4].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كل مسكر حرام، وما أسكر منه الفرق فملء الكف منه حرام)[5]، وفي رواية للترمذي: (الحسوة منه حرام)[6].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٩٤.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، ٣/ ٣٢٧، رقم ٣٦٨١، والترمذي في سننه، أبواب الأشربة، باب ما جاء ما أسكر كثيره فقليله حرامٌ، ٤/ ٢٩٢، رقم ١٨٦٥.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٧٠، رقم ٥٥٣٠.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة باب النهي عن المسكر، ٣/ ٣٢٩، رقم ٣٦٨٧.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، ٤/ ٢٩٣، رقم ١٨٦٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٨/ ٤٤، رقم ٢٣٧٦.

ثانيًا: نجاسة الخمر:

نصت آية سورة المائدة على أن الخمر رجس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ﴾.

و«الرجس هو الذي يلزم اجتنابه إما لنجاسته وإما لقبح ما يفعل به عبادة أو تعظيم، لأنه يقال: رجس نجس، فيراد بالرجس: النجس ويتبع أحدهما الآخر كقولهم: حسن بسن وعطشان نطشان وما جرى مجرى ذلك»[1].

والرجس: هو «النجس، وقد روي في صحيح حديث الاستنجاء (أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بحجرين وروثة، فأخذ الحجرين وألقى الروثة، وقال: إنها ركس)[2]، أي: نجس. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الرجس النجس، الخبيث المخبث)»[3].

وأخذ من إطلاق الرجس عليها الحكم بنجاستها عند جمهور الفقهاء، قال الخازن: «الخمر وما يلحق بها نجسة العين، ويدل على نجاستها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠].

والرجس في اللغة: النجس والشيء المستقذر، وقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ فأمر باجتنابها فكانت نجسة العين»[4].

والقول بنجاستها هو الذي عليه عامة الفقهاء إجراء لظاهر الآية «ولا خلاف في ذلك بين الناس إلا ما يؤثر عن ربيعة أنه قال: إنها محرمة، وهي طاهرة، كالحرير عند مالك محرم، مع أنه طاهر. ويعضد ذلك من طريق المعنى أن تمام تحريمها وكمال الردع عنها الحكم بنجاستها حتى يتقذرها العبد، فيكف عنها، قربانًا بالنجاسة وشربًا بالتحريم، فالحكم بنجاستها يوجب التحريم»[5].

وقد ذهبت طائفة من الفقهاء إلى طهارة عينها مع كونها محرمة مستدلين على ذلك بإراقتها في طرقات المدينة كما نص على ذلك القرطبي، قال: «فهم الجمهور من تحريم الخمر، واستخباث الشرع لها، وإطلاق الرجس عليها، والأمر باجتنابها، الحكم بنجاستها. وخالفهم في ذلك ربيعة والليث بن سعد والمزني صاحب الشافعي، وبعض المتأخرين من البغداديين والقرويين فرأوا أنها طاهرة، وأن المحرم إنما هو شربها. وقد استدل سعيد بن الحداد القروي على طهارتها بسفكها في طرق المدينة،

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ١٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب لا يستنجى بروث، ١/ ٤٣، رقم ١٥٦.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ١٦٤.
(٤) لباب التأويل، الخازن ١/ ١٥٠.
(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ١٦٥.

قال: ولو كانت نجسة لما فعل ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، ولنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه كما نهى عن التخلي في الطرق»[1].

وأجاب القرطبي عن ذلك بأن الطرقات كانت واسعة وأنه كان يمكن التحرز منها، قال: «والجواب: أن الصحابة فعلت ذلك؛ لأنه لم يكن لهم سروب ولا آبار يريقونها فيها، إذ الغالب من أحوالهم أنهم لم يكن لهم كنف في بيوتهم. وقالت عائشة رضي الله عنها إنهم كانوا يتقذرون من اتخاذ الكنف في البيوت، ونقلها إلى خارج المدينة فيه كلفة ومشقة، ويلزم منه تأخير ما وجب على الفور. وأيضًا فإنه يمكن التحرز منها، فإن طرق المدينة كانت واسعة، ولم تكن الخمر من الكثرة بحيث تصير نهرًا يعم الطريق كلها، بل إنما جرت في مواضع يسيرة يمكن التحرز عنها، هذا مع ما يحصل في ذلك من فائدة شهرة إراقتها في طرق المدينة، ليشيع العمل على مقتضى تحريمها من إتلافها، وأنه لا ينتفع بها، وتتابع الناس وتوافقوا على ذلك. والله أعلم»[2].

ثالثًا: حكمة اقتران الخمر بأعمال الجاهلية:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

فقرنت الآية بين الخمر والميسر وبين الأنصاب والأزلام وجعلت جميعها رجسًا من عمل الشيطان.

وقد ذكرت الأنصاب والأزلام في مطلع السورة نفسها في قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌ﴾ [المائدة:٣].

والنصب جمع نصب: وهو «حجر كان ينصب فيعبد، ويقال: هو النصب، وهو حجر ينصب بين يدي الصنم تصب عليه دماء الذبائح للأصنام»[3].

وقيل: جمعٌ «واحده نصاب كحمار وحمر. وقيل: هو اسم مفرد والجمع أنصاب، وكانت ثلاثمائة وستين حجرًا»[4].

وهذه الأنصاب غير الأصنام؛ لأنها حجارة غير مصورة، «قال ابن جريج: النصب ليست بأصنام، الصنم يصوّر وينقش، وهذه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٨٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٥٧.

حجارة تنصب، ثلاثمائة وستون حجرًا، منهم من يقول: ثلاثمائة منها لخزاعة، فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرّحوا اللحم وجعلوه على الحجارة. فقال المسلمون: يا رسول الله، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحقّ أن نعظمه! فكأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكره ذلك، فأنزل الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحج:٣٧]»[١].

ويرى القرطبي أن النهي متوجه إلى تعظيمها لا إلى الذبح عليها، قال: «المعنى: والنية فيها تعظيم النصب لا أن الذبح عليها غير جائز»[٢].

ويرى ابن كثير أن صورة الذبح عليها نفسها تجعل الذبيحة محرمة، قال: «فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله. وينبغي أن يحمل هذا على هذا؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله»[٣].

وليس هذا موضع بسط هذه المسألة، ولكن المقصود معرفة أن هذه الأنصاب قد ارتبطت بعمل من أعمال الشرك كان في الجاهلية، ثم قرنها القرآن الكريم بالخمر والميسر.

وأما الاستقسام بالأزلام المنصوص عليه في قوله سبحانه: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ فمعناه أن «تطلبوا علم ما قسم لكم من الخير والشر بالأزلام، قال المفسرون: كان أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرًا، أو غزوًا، أو تجارةً، أو غير ذلك طلب من الأزلام، وهي قداح كانت في الكعبة عند سدنة البيت مكتوب على بعضها: أمرني ربي، وعلى بعضها: نهاني ربي، فإن خرج السهم الآمر مضى لحاجته، وإن خرج السهم الناهي لم يمض، وواحد الأزلام: زلم وزلم»[٤].

والمتأمل للآية التي استقر بعد نزولها الحكم على تحريم الخمر يلاحظ أنها لم تكتف بالأمر باجتنابها الدال على تحريمها، ولكنها عددت مفاسدها فقرنتها بأمور من الجاهلية قريبة من الشرك، ونصت على أنها من عمل الشيطان، وقررت أن في اجتنابها الفلاح، وذكرت أنها توقع العداوة والبغضاء، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وعليه ففي اقترانها بأعمال الجاهلية التي هي من مظاهر الشرك تخويف للمؤمن من الشرك ومن مظاهر الجاهلية، فتحريم الخمر والميسر هو المقصود الأساس في الآية، وذكر الأنصاب والأزلام التي تقدم النص عليها معها تأكيد لهذه الحرمة «والمقصود

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ٥٠٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٥٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٣.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٥٢.

نهيهم عن الخمر والميسر وإظهار أن هذه الأربعة متقاربة في القبح والمفسدة، فلما كان المقصود من هذه الآية النهي عن الخمر والميسر وإنما ضم الأنصاب والأزلام إلى الخمر والميسر تأكيدًا لقبح الخمر والميسر، لا جرم أفردهما في آخر الآية بالذكر»[1].

وفي ذلك زيادة تأكيد لهذه الحرمة، قال ابن عاشور: «ذكر الأنصاب والأزلام مع الخمر والميسر مقصود منه تأكيد التحريم للخمر والميسر»[2].

ويرى البقاعي أن الآية قد جمعت بين أسباب الضرر في الدين والدنيا، قال: «ونبههم على ما يريد العدو بهم من الشر بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ وهي كل ما أسكر سواء فيه قليله وكثيره، وأضاف إليها ما واخاها في الضرر دينًا ودنيا وفي كونه سببًا للخصام وكثرة اللغط المقتضي للحلف والإقسام تأكيدًا لتحريم الخمر بالتنبيه على أن الكل من أفعال الجاهلية، فلا فرق بين شاربها والذابح على النصب والمعتمد على الأزلام»[3].

كما يرى أن في ترتيبها في الآية ترق من المفسدة الأدنى إلى المفسدة الأعلى، قال: «وحكمة ترتيبها هكذا أنه لما كانت الخمر غاية في الحمل على إتلاف المال، قرن بها ما يليها في ذلك وهو القمار، ولما كان الميسر مفسدة المال، قرن به مفسدة الدين وهي الأنصاب، ولما كان تعظيم الأنصاب شركًا جليًّا إن عبدت، وخفيًّا إن ذبح عليها دون عبادة، قرن بها نوعًا من الشرك الخفي وهو الاستقسام بالأزلام: ثم أمر باجتناب الكل إشارة وعبارة على أتم وجه»[4].

وقد يلحظ وجه آخر: وهو أن واقع الناس يشهد باقتران الخمر بالميسر كما تقدم، وقد كانت الأزلام أدوات للميسر: «قال مجاهد في قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال: هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم، كانوا يتقامرون بها»[5].

وهذه الأزلام كانت موضوعة في الكعبة حيث الأصنام والأنصاب. غير أن ابن كثير استشكل قول مجاهد، ثم افترض له تأويلًا، فقال: «وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار، فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة، وفي القمار أخرى، والله أعلم. فإن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين هذه وبين القمار وهو الميسر، فقال في آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٢٩١
(٤) المصدر السابق.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٤.

بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: تعاطيه فسق وغي وضلال وجهالة وشرك»[1].

التدرج في تشريع حكم الخمر

مع أن حكم الخمر قد استقر على التحريم إلا أن الحكم لم يشرع في فترة مبكرة، ولا نزل الحكم مرة واحدة، « قال بعض المفسرين: إن الله تعالى لم يدع شيئًا من الكرامة والبر إلا أعطاه هذه الأمة، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة، ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة، فكذلك تحريم الخمر.

وهذه الآية -آية البقرة- أول ما نزل في أمر الخمر، ثم بعده: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾[النساء:٤٣]، ثم قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ثم قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾»[2].

ويسند ذلك ما روى البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا)[3].

(١) المصدر السابق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل

وإذا تأملنا جملة الآيات التي نصت على حكم الخمر أو أشارت إليه في القرآن الكريم وجدناها خمس آيات:

- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].
- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء:٤٣].
- وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩٠-٩١][1].
- وقوله عز وجل: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل:٦٧].

هذا ترتيبها في المصحف، أما ترتيبها في النزول: فإن كانت آية النحل: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ متضمنة لحكم الخمر فهي أول الآيات نزولًا، وإلا فآية البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، ثم آية النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، ثم آيتا المائدة: نزلتا معًا، أو نزلت الثانية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، ثم الأولى ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

هل آية النحل أول آية نزلت في حكم الخمر؟

روى ابن جرير بسنده «عن إبراهيم والشعبيّ وأبي رزين، قالوا: هي منسوخة في هذه الآية ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧]»[2]، وهو رأي طائفة من المفسرين منهم ابن العربي[3].

القرآن، باب تأليف القرآن ٦/ ١٨٥، رقم ٤٩٩٣.

(١) قد نص القرطبي في النص السابق على أنهما نزلتا منفصلتين، وأن الثانية منهما نزلت قبل الأولى.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٤٣.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٣٥. ونص الخازن على أنها أول آية نزلت فقال: «وجملة القول في تحريم الخمر أن الله عز وجل أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة: ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا فكان المسلمون يشربونها في أول الإسلام، وهي لهم حلال» لباب التأويل، الخازن ١/ ١٤٨،

وعلى هذا القول فهي أول آية نزلت في حكم الخمر.

وترى طائفة أخرى أن الآية غير منسوخة؛ لأن السكر في الآية غير الخمر؛ ولأن ما تضمنته الآية خبر والخبر لا يدخله النسخ.

قال ابن عطية: «والسكر أيضًا في كلام العرب ما يطعم، ورجح الطبري هذا القول، ولا مدخل للخمر فيه ولا نسخ من الآية شيء. وقال بعض الفرقة التي رأت السكر الخمر: إن هذه الآية منسوخة بتحريم الخمر، وفي هذه المقالة درك، لأن النسخ إنما يكون في حكم مستقر مشروع»[1].

وقال الخازن: «القول بالنسخ فيه نظر؛ لأن قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧] خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ، ومن زعم أنها منسوخة رأى أن هذه الآية نزلت بمكة في وقت إباحة الخمر ثم إن الله تبارك وتعالى حرمها بالمدينة فحكم على هذه الآية بأنها منسوخة»[2].

ورد ذلك ابن العربي فقال: إن الخبر إن كان عن شيء له وجود في الحقيقة أو عن الثواب ونحوه فهو الذي لا يدخله النسخ، أما الخبر عن الحكم فليس كذلك، قال: «فإن قيل: كيف يحرم ما أحل الله ههنا، وينسخ هذا الحكم، وهو خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ.

قلنا: هذا كلام من لم يتحقق الشريعة، وقد بينا حقيقته قبل، وأوضحنا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقي فذلك الذي لا يدخله نسخ، أو كان عن الفضل المعطى ثوابًا فهو أيضًا لا يدخله نسخ؛ فأما إن كان خبرًا عن حكم الشرع فالأحكام تتبدل وتنسخ جاءت بخبر أو بأمر، ولا يرجع ذلك إلى تكذيب في الخبر أو الشرع الذي كان مخبرًا عنه قد زال بغيره.

وإذا فهمتم هذا خرجتم عن الصنف الغبي الذي أخبر الله عن الكفار فيه بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل:١٠١].

يعني أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء، ويكلف ما يشاء، ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء، ويثبت ما يشاء، وعنده أم الكتاب»[3].

ولئن اختلف في كون آية النحل أول آية نزلت فإنه لم يختلف في أن آية البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة:٢١٩]، سبقت آية النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، وبعدهما آيتا المائدة، ومرد ذلك إلى الروايات الكثيرة في أسباب نزولها.

لكنه أنكر نسخها بعد كما سيأتي.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٠٥.

(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٨٥.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٣٥.

فمن ذلك ما روى أبو داود عن أبي إسحاق، عن عمرو، عن عمر بن الخطاب، قال: (لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شفاء، فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٩]، قال: فدعي عمر فقرئت عليه، قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شفاء، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]. فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقيمت الصلاة ينادي: (ألا لا يقربن الصلاة سكران)، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء، فنزلت هذه الآية ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، قال عمر: انتهينا)[1].

وروى أحمد عن أبي هريرة، قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢١٩] إلى آخر الآية، فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وكانوا يشربون الخمر. حتى إذا كان يوم من الأيام، صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه في المغرب، خلط في قراءته، فأنزل الله فيها آية أغلظ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]، وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق. ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠]، فقالوا: انتهينا ربنا، فقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله، وماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسًا، من عمل الشيطان، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ إلى آخر الآية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم)[2].

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، ٣/ ٣٢٥، رقم ٣٦٧٠.
قال علي بن المديني: هذا إسناد صالح. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٧٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٢٦٨.
قال المحقق: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف أبي معشر، وهو نجيح بن عبد الرحمن السندي، ولجهالة أبي وهب مولى أبي هريرة، فقد روى عنه اثنان: أبو معشر وهو ضعيف، وجميل بن بشر أورده ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ٥١٩ وجهله، وأبو وهب ذكره ابن سعد في الطبقات ٥٦، وقال: كان قليل الحديث.

ففي هذين الأثرين ترتيب نزول الآيات الثلاث وأن ذلك وقع إجابة عن أسئلة من الصحابة رضوان الله عليهم، ووقع في روايات أخرى أنها نزلت إثر حوادث:

فمن ذلك ما روى أبو داود عن علي بن أبي طالب: (أن رجلًا من الأنصار دعاه وعبد الرحمن بن عوف فسقاهما قبل أن تحرم الخمر، فأمهم علي في المغرب فقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فخلط فيها، فنزلت ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[النساء:٤٣])[1].

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: (وأتيت على نفر من الأنصار والمهاجرين، فقالوا: تعال نطعمك ونسقك خمرًا، وذلك قبل أن تحرم الخمر، قال: فأتيتهم في حش -والحش البستان- فإذا رأس جزور مشوي عندهم، وزق من خمر. قال: فأكلت وشربت معهم، قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم. فقلت: المهاجرون خير من الأنصار. قال: فأخذ رجل أحد لحيي الرأس فضربني به فجرح أنفي فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته فأنزل الله عز وجل في -يعني نفسه- شأن الخمر: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[المائدة:٩٠]»[2].

وقال الواحدي: «وكانت تحدث أشياء لرسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب شرب الخمر قبل تحريمها، منها قصة علي بن أبي طالب مع حمزة رضي الله عنهما»[3].

ثم ساق ما روى البخاري في صحيحه عن علي قال: (كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ، فلما أردت أن أبتني بفاطمة عليها السلام، بنت النبي صلى الله عليه وسلم، واعدت رجلًا صواغًا في بني قينقاع أن يرتحل معي، فنأتي بإذخر، فأردت أن أبيعه من الصواغين، فنستعين به في وليمة عرسي، فبينا أنا أجمع لشارفي من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، حتى جمعت ما جمعت، فإذا أنا بشارفي قد أجبت أسنمتها، وبقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عيني حين رأيت المنظر، قلت: من فعل هذا؟ قالوا فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في هذا البيت، في شرب من الأنصار، عنده قينة وأصحابه، فقالت في غنائها: ألا يا حمز

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، ٣/ ٣٢٥، رقم ٣٦٧١.
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ٢/ ٤١٦، رقم ٣٦٧١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص، ٤/ ١٨٧٧، رقم ١٧٤٨.

(٣) أسباب النزول، الواحدي ص١٠٨.

للشرف النواء.

فوثب حمزة إلى السيف، فأجب أسنمتهما وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، قال علي: فانطلقت حتى أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، وعنده زيد بن حارثة، وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الذي لقيت، فقال: (ما لك)؟ قلت: يا رسول الله، ما رأيت كاليوم، عدا حمزة على ناقتي، فأجب أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيت معه شرب، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بردائه فارتدى، ثم انطلق يمشي، واتبعته أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن عليه، فأذن له، فطفق النبي صلى الله عليه وسلم يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل، محمرة عيناه، فنظر حمزة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر إلى ركبته، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟! فعرف النبي صلى الله عليه وسلم أنه ثمل فنكص رسول الله صلى الله عليه وسلم على عقبيه القهقري فخرج وخرجنا معه)[1]. وليس في هذه الرواية تصريح بسبب النزول.

ودل عموم الروايات السابقة على أن آيتا المائدة نزلتا معًا، ونص القرطبي على أن الثانية منهما نزلت قبل الأولى فقال:«وهذه الآية -آية البقرة- أول ما نزل في أمر الخمر، ثم بعده: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، ثم قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، ثم قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠]»[2].

غير أنه لم يذكر على ذلك رواية أو يستدل عليه بدليل إلا أنه قال عند تفسيره لآية المائدة: «روي أن قبيلتين من الأنصار شربوا الخمر وانتشوا، فعبث بعضهم ببعض، فلما صحوا رأى بعضهم في وجه بعض آثار ما فعلوا، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فجعل بعضهم يقول: لو كان أخي بي رحيما ما فعل بي هذا، فحدثت بينهم الضغائن، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة:٩١] الآية»[3].

وفيها أيضًا أن حرمة الخمر لم تستقر إلا بعد نزول آية المائدة، وأنه حرم بصفة متدرجة ولم تنزل آية التحريم إلا في المدينة، وأن من الصحابة من توفي وهو يشرب الخمر لما تنسخ إباحتها.

وقد ذكر الجصاص كلامًا لا يجرى على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، ٥/ ٨٢، رقم ٤٠٠٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٢.

(٣) المصدر السابق ٦/ ٢٩٢.

ظاهره فقال: «قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]: هذه الآية قد اقتضت تحريم الخمر ولو لم يرد غيرها في تحريمها لكانت كافية مغنية وذلك لقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ والإثم كله محرم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾[الأعراف:٣٣].

فأخبر أن الإثم محرم، ولم يقتصر على إخباره بأن فيها إثمًا حتى وصفه بأنه كبير تأكيدًا لحظرها. وقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ لا دلالة فيه على إباحتها؛ لأن المراد منافع الدنيا وأن في سائر الحرمات منافع لمرتكبيها في دنياهم إلا أن تلك المنافع لا تفي بضررها من العقاب المستحق بارتكابها، فذكره لمنافعها غير دال على إباحتها لا سيما وقد أكد حظرها مع ذكر منافعها بقوله في سياق الآية: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ يعني أن ما يستحق بهما من العقاب أعظم من النفع العاجل الذي ينبغي منهما.

ومما نزل في شأن الخمر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]. وليس في هذه الآية دلالة على تحريم ما لم يسكر منها، وفيها الدلالة على تحريم ما يسكر منها؛ لأنه إذا كانت الصلاة فرضًا نحن مأمورون بفعلها في أوقاتها، فكل ما أدى إلى المنع منها فهو محظور، فإذا كانت الصلاة ممنوعة في حال السكر وكان شربها مؤديًا إلى ترك الصلاة كان محظورًا؛ لأن فعل ما يمنع من الفرض محظور.

ومما نزل في شأن الخمر مما لا مساغ للتأويل فيه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

فتضمنت هذه الآيات ذكر تحريمها من وجوه: أحدها قوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وذلك لا يصح إطلاقه إلا فيما كان محظورًا محرمًا، ثم أكده بقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ وذلك أمر يقتضي لزوم اجتنابه، ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ومعناه فانتهوا»[1].

وهذا الذي ذكره لو قصد منه أن الآيات التي نزلت أولًا أشارت إلى أن مآل الخمر التحريم، وأن الأمر سيستقر على تحريمها فصحيح، وأما لو قصد أن آية البقرة ثم آية النساء نصتا على التحريم فغير صحيح؛ لأن الصحابة رضوان الله عليهم لم يفهموا ذلك، ولم ينكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم.

قال القرطبي: «هذه الأحاديث تدل على

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٢.

أن شرب الخمر كان إذ ذاك مباحًا معمولًا به معروفًا عندهم بحيث لا ينكر ولا يغير، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أقر عليه، وهذا ما لا خلاف فيه، يدل عليه آية النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء:٤٣] على ما تقدم. وهل كان يباح لهم شرب القدر الذي يسكر؟

حديث حمزة ظاهر فيه حين بقر خواصر ناقتي علي رضي الله عنهما وجب أسنمتهما، فأخبر علي بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء إلى حمزة فصدر عن حمزة للنبي صلى الله عليه وسلم من القول الجافي المخالف لما يجب عليه من احترام النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعزيره، ما يدل على أن حمزة كان قد ذهب عقله بما يسكر، ولذلك قال الراوي: فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ثمل، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر على حمزة ولا عنفه، لا في حال سكره ولا بعد ذلك، بل رجع لما قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟! على عقبيه القهقرى وخرج عنه»[1].

مقاصد تحريم الخمر

حرم الله الخمر ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها... وفرض على من شربها عقوبة شديدة في الحياة الدنيا، وتوعده بعذاب أليم يوم القيامة.

وقد شاع على ألسنة الناس أن المقصد من تحريم الخمر هو حفظ العقل، وذلك أن الإنسان إذا شرب الخمر ذهب عقله، فحرمت حفظًا للعقل من جهة العدم بدفع ما يضر به ويؤدي إلى إذهابه وتعطيله.

غير أننا بعد قليل من التأمل نجزم بأن الخمر قد حرمت مراعاة للمقاصد الشرعية الخمسة: الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

فأما الدين: فقد أشار إلى حفظه بتحريمها قوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة:٩١]: فصد الخمر عن الصلاة فساد للدين.

قال الرازي: «أما أن شرب الخمر يمنع عن ذكر الله فظاهر؛ لأن شرب الخمور يورث الطرب واللذة الجسمانية، والنفس إذا استغرقت في اللذات الجسمانية غفلت عن ذكر الله تعالى، وأما أن الميسر مانع عن ذكر الله وعن الصلاة فكذلك؛ لأنه إن كان غالبًا صار استغراقه في لذة الغلبة مانعًا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٨٧.

من أن يخطر بباله شيء سواه، ولا شك أن هذه الحالة مما تصد عن ذكر الله وعن الصلاة»[1].

ومن فساد الدين ما ينشأ من الفرقة والعداوة بين المؤمنين بسبب الخمر والذي نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[المائدة:٩١].

وأما حفظ النفس: فمعلوم أن الخمر سبب لسفك الدماء واستسهال العدوان على الناس وإزهاق أرواحهم وإتلاف جوارحهم وأبدانهم، وواقع الناس على اختلاف زمانهم وبلدانهم يشهد أن عموم الجنايات والجرائم لا تقع إلا تحت تأثير الخمور والمسكرات، وكل ذلك من الإثم الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة:٢١٩].

وقد يكون كذلك أثرًا للعداوة والبغضاء الحاصلة من الخمر والميسر، قال الرازي: «أما الخمر فاعلم أن الظاهر فيمن يشرب الخمر أنه يشربها مع جماعة ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم، فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الألفة والمحبة إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب إلى الضد؛ لأن الخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل، وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب، وتلك المنازعة ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش، وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء، فالشيطان يسول أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد الألفة والمحبة، وبالآخرة انقلب الأمر وحصلت نهاية العداوة والبغضاء.

وأما الميسر ففيه بإزاء التوسعة على المحتاجين الإجحاف بأرباب الأموال؛ لأن من صار مغلوبًا في القمار مرة دعاه ذلك إلى اللجاج فيه عن رجاء أنه ربما صار غالبًا فيه، وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال، وإلى أن يقامر على لحيته وأهله وولده، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيرًا مسكينًا ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا غالبين له، فظهر من هذا الوجه أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم»[2].

وأما حفظ العقل: فواضح معلوم.

وأما حفظ النسل: وإن لم يبد جليًّا فإننا بعد التأمل نجد أن كثيرًا من المفاسد الاجتماعية من الزنا والطلاق والتفريط في

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٤.

(٢) المصدر السابق.

حقوق الأهل والذرية والأقارب مرده إلى الخمر وآثارها، وهو أيضًا من الإثم الكبير الذي نصت عليه الآية.

وأما حفظ المال: فإن شارب الخمر يفسد ماله في ما يضره ولا ينفعه، بل في ما فيه هلاك نفسه وبدنه فضلًا عن ذهاب ماله وعقله. ورغم أن الخمر تجلب لمن يعصرها ويبيعها ويحملها مالًا ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إلا أن الشرع أبطل هذه المصلحة لأن ما يقابلها من المفاسد أعظم منها بكثير: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة:٢١٩].

ولذلك أصبحت هذه المصلحة في حكم المعدومة، وذلك أن مصالح الدنيا ومفاسدها ليست مصالح ومفاسد خالصة، بل ما من مصلحة إلا تشوبها مفسدة: فإن كانت المصلحة غالبة روعيت وكانت المفسدة في حكم المعدومة كما في القصاص، وإن كانت المفسدة غالبة روعيت وكانت المصلحة في حكم المعدومة كما في الخمر، وإن تساوتا فدرأ المفاسد أولى من جلب المصالح كما تقرر ذلك عند علماء الأصول والمقاصد.

ويشهد لما سبق ما روى البيهقي عن عثمان بن عفان، رضي الله عنه قال: (اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادة، فدخل معها فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب الخمر، فسقته كأسًا، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه)[1].

فقد جمعت الخمر جميع المفاسد ولذلك كانت أم الخبائث: من عاقرها استسهل كل فاحشة ووقع في كل إثم.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الأشربة والحد فيها، باب ما جاء في تحريم الخمر، ٨/ ٥٠٠، رقم ١٧٣٣٩.
قال ابن كثير: رواه البيهقي وهذا إسناد صحيح. وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه ذم المسكر عن محمد بن عبد الله ابن بزيع، عن الفضيل بن سليمان النميري، عن عمر بن سعيد، عن الزهري، به مرفوعًا، والموقوف أصح، والله أعلم.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٨٩.

أحكام تتعلق بالخمر

لما جمعت الخمر المفاسد كلها، فقد حرم الإسلام شربها ووضع لشاربها عقوبة رادعة، وحرم كل وسيلة إليها.

أولًا: بيع الخمر:

للنصوص الصريحة الواردة في تحريم بيع الخمر، اتفق العلماء على تحريم بيعها وشرائها بل وما اتصل بذلك من عصرها ونقلها وسقايتها ونحوها.

قال الخازن: «أجمعت الأمة على تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وتحريم ثمنها»[1].

ومن النصوص الواردة في ذلك ما روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول عام الفتح وهو بمكة: (إن الله ورسوله حرم بيع الخمر، والميتة والخنزير والأصنام)، فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: (لا، هو حرام)، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: (قاتل الله اليهود إن الله لما حرم شحومها جملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه)[2].

فقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ورسوله حرم بيع الخمر، والميتة والخنزير والأصنام) صريح في تحريم بيع الخمر وشرائها.

وعند مسلم عن ابن عباس: (أن رجلًا أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم راوية خمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل علمت أن الله قد حرمها؟) قال: لا، فسار إنسانًا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بم ساررته؟)، فقال: أمرته ببيعها، فقال: (إن الذي حرم شربها حرم بيعها)، قال: ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها)[3].

والحديث أيضًا نص على تحريم بيعها وشرائها، ولحقت الهدية بالبيع والشراء ولولا ذلك لقبلها النبي صلى الله عليه وسلم: ففيه دليل أيضًا على تحريم إهدائها وأخذها.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقترأهن على الناس، ثم نهى عن التجارة في

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ١٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب بيع الميتة والأصنام، ٣/ ٨٤، رقم ٢٢٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير، ٣/ ١٢٠٧، ١٥٨١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر، ٣/ ١٢٠٦، رقم ١٥٧٩.

الخمر)[1].

وقد وردت النصوص بتحريم حملها وسقيها وأكل ثمنها وسوى ذلك مما اتصل بها: أخرج أبو داود عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه)[2].

ورواه ابن ماجه بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعنت الخمر على عشرة أوجه: بعينها، وعاصرها، ومعتصرها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها، وشاربها، وساقيها)[3].

وقد تضمن الحديث تحريم كل فعل ساهم في نشر الخمر وقربها ممن يشربها ولو لم يباشر فاعله شربها، حتى لعن آكل ثمنها سدًّا لكل ذريعة وحيلة تفضي إلى الانتفاع بها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر، ٣/ ١٢٠٦، رقم ١٥٨٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب العنب يعصر للخمر، ٣/ ٣٢٦، رقم ٣٦٧٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٧٠، رقم ١٨٠٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأشربة، باب لعنت الخمر على عشرة أوجه، ٢/ ١١٢١، رقم ٣٣٨٠.

ثانيًا: شرب الخمر:

وأما تحريم شرب الخمر فشيء يعلمه عموم المسلمين، وقد دلت عليه نصوص كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

ففي قوله سبحانه: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ نص على الحرمة كما فهم ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: انتهينا. «وقد اجتمعت أنواع من التأكيد «على الحكم» في الآية منها التصدير بإنما، وقران الخمر والميسر بالأصنام إذا فسرنا الأنصاب بها، وفي الحديث (مدمن الخمر كعابد وثن)[4]، والإخبار عنها بقوله: ﴿رِجۡسٞ﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

ووصفه بأنه من عمل الشيطان والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، والأمر بالاجتناب، وترجية الفلاح -وهو الفوز- باجتنابه فالخيبة في ارتكابه، وبدئ بالخمر؛ لأن سبب النزول إنما وقع بها من الفساد؛

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأشربة، باب مدمن الخمر، ٢/ ١١٢٠، رقم ٣٣٧٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٢٠، رقم ٥٨٦١.

ولأنها جماع الإثم»[1].

وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الذي حرم شربها حرم بيعها)، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه).

وورد الوعيد الشديد لمدمن الخمر:

فمن ذلك ما روى أبو داود عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كل مخمر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكرًا بخست صلاته أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال)، قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: (صديد أهل النار، ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال)[2].

وفي حديث أسماء بنت يزيد عند الإمام أحمد الخوف عليه أن يموت كافرًا، ولفظه: عن أسماء بنت يزيد، أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من شرب الخمر، لم يرض الله عنه أربعين ليلة، فإن مات، مات كافرًا، وإن تاب، تاب الله عليه، وإن عاد، كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال) قالت: قلت: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: (صديد أهل النار).[3]

وفي المستدرك عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة)، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: (نهر يخرج من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهم)[4].

ولكون هذه النصوص وغيرها صحيحة صريحة، فقد انعقد الإجماع على تحريم شرب الخمر وصار معلومًا من الدين بالضرورة، قال في البحر: «وقد أجمع المسلمون على تحريم القليل والكثير من خمر العنب التي لم تمسها نار ولا خالطها شيء، والأكثر من الأمة على أن ما أسكر كثيره فقليله حرام، والخلاف فيما لا يسكر

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، ٣/ ٣٢٧، رقم ٣٦٨٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣٥، رقم ٤٥٤٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ٥٧٨، رقم ٢٧٦٠٣.
قال المحقق: حديث صحيح لغيره دون قوله: «فإن مات مات كافرًا»، وهذا إسناد ضعيف لضعف شهر بن حوشب، وابن خثيم، وهو عبد الله بن عثمان، مختلف فيه.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الأشربة، ٤/ ١٦٣، رقم ٧٢٣٤.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

قليله ويسكر كثيره من غير خمر العنب مذكور في كتب الفقه»[1].

ثالثًا: حد الخمر:

اتفق الفقهاء على أن من شرب الخمر متعمدًا مختارًا -سكر أم لم يسكر- وجب عليه الحد.

قال ابن رشد: «فأما الموجب فاتفقوا على أنه شرب الخمر دون إكراه قليلها وكثيرها. واختلفوا في المسكرات من غيرها، فقال أهل الحجاز: حكمها حكم الخمر في تحريمها وإيجاب الحد على من شربها قليلًا كان أو كثيرًا، أسكر أو لم يسكر. وقال أهل العراق: المحرم منها هو السكر، وهو الذي يوجب الحد»[2].

وروى مالك عن السائب بن يزيد: (أن عمر بن الخطاب، خرج عليهم فقال: إني وجدت من فلان ريح شراب. فزعم أنه شراب الطلاء[3] وأنا سائل عما شرب. فإن كان يسكر جلدته فجلده عمر الحد تامًّا)[4].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٥٧.
(٢) بداية المجتهد، ابن رشد ٤/ ٢٢٧.
(٣) الطلاء: هو أن يطبخ العصير حتى يصير مثل طلاء الإبل.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٦٣.
(٤) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الأشربة، باب الحد في الخمر، ٢/ ٨٤٢.
قال ابن عبد البر: هذا الإسناد أصح ما يروى من أخبار الآحاد.
انظر: الاستذكار ٨/ ٣.

قال ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث من الفقه وجوب الحد على من شرب مسكرًا أسكر أو لم يسكر، خمرًا كان من خمر العنب أو نبيذًا، لأنه ليس في الحديث ذكر الخمر ولا أنه كان سكران، وإنما فيه من قول عمر: أن الشراب الذي شرب منه إن كان يسكر جلده الحد، وهذا يدل على أنه كان شرابًا لا يعلم أنه الخمر المحرم قليلها وكثيرها ولو كان ذلك ما سأل عنه.

وقد أجمعوا على أن قليل الخمر من العنب فيه من الحد مثل ما في كثيرها ولا يراعى السكر فيها وإنما اختلفوا في ما سواها من الأنبذة المسكرة»[5].

ومع الحد يحكم بفسق الشارب أيضًا، قال في بداية المجتهد: «وأما الواجب فهو الحد والتفسيق إلا أن تكون التوبة، والتفسيق في شارب الخمر باتفاق وإن لم يبلغ حد السكر، وفيمن بلغ حد السكر فيما سوى الخمر. واختلف الذين رأوا تحريم قليل الأنبذة في وجوب الحد، وأكثر هؤلاء على وجوبه»[6].

ومبنى هذه المسألة على تعيين الخمر ما هي؟ هل هي ما كان من العنب خاصة ويقاس عليها بعلة الإسكار كل مسكر، فلا يكون للقليل غير المسكر حكم الكثير،

(٥) الاستذكار، ابن عبد البر ٨/ ٣.
(٦) بداية المجتهد، ابن رشد ٤/ ٢٢٧.

أم هي حقيقة في كل مسكر، فيكون حينئذ للقليل حكم الكثير كما تقدم.

وقد ثبت حد الخمر بالسنة، وكان الخلفاء الراشدون الأربعة يفعلونه بحضور الصحابة وجمهور الناس فلم ينكر عليهم أحد، بل تشاوروا حتى في تغليظه حين استهتر الناس به، وكان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدر من خلافة عمر أربعين جلدة فجعلوها بعد مشاورة ثمانين قياسًا على حد القذف: روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم (ضرب في الخمر بالجريد والنعال، وجلد أبو بكر أربعين)[1].

وعن السائب بن يزيد، قال: (كنا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإمرة أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا، حتى كان آخر إمرة عمر، فجلد أربعين، حتى إذا عتوا وفسقوا جلد ثمانين)[2].

ففي هذين الخبرين أن الحد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر أربعين، وشاور عمر الصحابة رضوان الله عليهم فأشاروا عليه بأن يزيدها، كما روى مسلم عن أنس بن مالك: (أن نبي الله صلى الله عليه وسلم جلد في الخمر بالجريد، والنعال)، ثم جلد أبو بكر أربعين، فلما كان عمر، ودنا الناس من الريف والقرى، قال: (ما ترون في جلد الخمر؟) فقال عبد الرحمن بن عوف: أرى أن تجعلها كأخف الحدود، قال: (فجلد عمر ثمانين)»[3].

وهذا الذي فعله عمر أمضاه علي بحضرة عثمان وابنه الحسن وابن أخيه عبد الله بن جعفر رضي الله عنهم ثم قال: (جلد النبي صلى الله عليه وسلم أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكل سنة، وهذا أحب إلي)[4].

ولذلك قال الجمهور بأن الحد في الخمر ثمانون جلدة، قال ابن رشد: «اختلفوا في مقدار الحد الواجب، فقال الجمهور: الحد في ذلك ثمانون، وقال الشافعي، وأبو ثور، وداود: الحد في ذلك أربعون.

فعمدة الجمهور تشاور عمر والصحابة لما كثر في زمانه شرب الخمر، وإشارة علي عليه بأن يجعل الحد ثمانين قياسًا على حد الفرية؛ فإنه كما قيل عنه رضي الله عنه: «إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب ما جاء في ضرب شارب الخمر، ٨/ ١٥٧، رقم ح٦٧٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال، ٨/ ١٥٨، رقم ٦٧٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الخمر، ٣/ ١٣٣١، رقم ١٧٠٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الخمر، ٣/ ١٣٣١، رقم ١٧٠٧.

افترى».

وعمدة الفريق الثاني أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحد في ذلك حدًّا، وإنما كان يضرب فيها بين يديه بالنعال ضربًا غير محدود[(١)].

وأن أبا بكر رضي الله عنه شاور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم «كم بلغ ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لشراب الخمر؟ فقدروه بأربعين»[(٢)].

وروي عن أبي سعيد الخدري (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب في الخمر بنعلين أربعين)، فجعل عمر مكان كل نعل سوطًا[(٣)].

وروي من طريق آخر عن أبي سعيد الخدري ما هو أثبت من هذا، وهو (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب في الخمر أربعين)[(٤)].

وروي هذا عن علي عن النبي عليه الصلاة والسلام من طريق أثبت[(٥)]، وبه قال

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب الحدود والديات، ٤/ ١٩٧، رقم ٣٣٢٥، عن عبد الرحمن بن أزهر: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بشارب خمر وهو بحنين فحثى في وجهه التراب، ثم أمر أصحابه فضربوه بنعالهم وبما كان في أيديهم، فقال لهم: «ارفعوه» فرفعوه، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلك السنة. ثم جلد أبو بكر في الخمر أربعين، ثم جلد عمر أربعين صدرًا من إمارته، ثم جلد ثمانين في آخر ولايته، ثم جلد عثمان الحدين جميعًا ثمانين وأربعين، ثم أثبت معاوية الجلد ثمانين».

(٢) أخرجه الدارقطني أيضًا في سننه، كتاب الحدود والديات، ٤/ ١٩٥، رقم ٣٣٢٠، عن عبد الرحمن بن أزهر، قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وهو يتخلل الناس يسأل عن منزل خالد بن الوليد، فأتي بسكران، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن عنده، فضربوه بما في أيديهم، قال: «وحثى رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب». قال: ثم أتي أبو بكر بسكران، قال: فتوخى الذي كان من ضربهم يومئذ فضرب أربعين سنن».
وقال أيضا: «قال الزهري: ثم أخبرني حميد بن عبد الرحمن، عن ابن وبرة الكلبي، قال: أرسلني خالد بن الوليد إلى عمر، فأتيته ومعه عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وعلي، وطلحة، والزبير، وهم معه متكئون في المسجد، فقلت: إن خالد بن الوليد أرسلني إليك وهو يقرأ عليك السلام، ويقول: إن الناس قد انهمكوا في الخمر، وتحاقوا العقوبة فيه، فقال عمر: هم هؤلاء عندك فسلهم، فقال علي: «نراه إذا سكر هذي، وإن هذي افترى، وعلى المفتري ثمانين»، فقال عمر: أبلغ صاحبك ما قال، قال: فجلد خالد ثمانين جلدة، وجلد عمر ثمانين، قال: وكان عمر إذا أتي بالرجل الضعيف الذي كانت به الذلة ضربه أربعين، قال: وجلد عثمان أيضًا ثمانين وأربعين». كتاب الحدود والديات، ٤/ ١٩٦، رقم ٣٣٢١.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الحدود، باب في حد الخمر كم هو وكم يضرب شاربه، ٥/ ٥٠٤، رقم ٢٨٤١٣.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الحدود، باب في حد الخمر كم هو وكم يضرب شاربه، ٥/ ٥٠٣، رقم ٢٨٤١١.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الخمر، ٣/ ١٣٣١، رقم ١٧٠٧.

الشافعي»[1].

ويرى القرطبي أنه لا زيادة على الثمانين لاتفاق الصحابة رضوان الله عليهم عليها، إلا أن يقع الاستهتار بحدود الله فيجوز عند ذلك التشديد والزيادة في العقوبة، قال:«نص الله تعالى على عدد الجلد في الزنى والقذف، وثبت التوقيف في الخمر على ثمانين من فعل عمر في جميع الصحابة... فلا يجوز أن يتعدى الحد في ذلك كله. قال ابن العربي[2]: وهذا ما لم يتتابع الناس في الشر، ولا احلولت لهم المعاصي، حتى يتخذوها ضراوة، ويعطف الناس عليهم بالهوادة، فلا يتناهوا عن منكر فعلوه؛ فحينئذ تتعين الشدة، ويزيد الحد؛ لأجل زيادة الذنب.

وقد أتي عمر بسكران في رمضان، فضربه مائة: ثمانين حد الخمر، وعشرين لهتك حرمة الشهر؛ فهكذا يجب أن تتركب العقوبات على تغليظ الجنايات، وهتك الحرمات.

وقد لعب رجل بصبي، فضربه الوالي ثلاثمائة سوط، فلم يغير ذلك مالك حين بلغه، فكيف لو رأى زماننا هذا بهتك الحرمات والاستهتار بالمعاصي، والتظاهر بالمناكر، وبيع الحدود، واستيفاء العبيد لها في منصب القضاة؛ لمات كمدًا، ولم يجالس أحدًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قلت: ولهذا المعنى -والله أعلم- زيد في حد الخمر حتى انتهى إلى ثمانين»[3].

(١) بداية المجتهد، ابن رشد ٤/ ٢٢٧.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٣٣٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٦٥.

خمر الجنة

نص القرآن الكريم على أن في الجنة أنهارًا جارية من ماء ولبن وخمر وعسل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥].

«أي: مثل الجنة التي أعدها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعتها وصفتها الجميلة. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغير، لا بوخم ولا بريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحًا، وألذها شربًا. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بحموضة ولا غيرها، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: يلتذ به شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ من شمعه، وسائر أوساخه. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم. ثم قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يزول بها عنهم المرهوب، فأي هؤلاء خير أم من هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها، ﴿وَسُقُوا۟﴾ فيها ﴿مَآءً حَمِيمًا﴾ أي: حارًّا جدًّا، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين، والعاملين والعملين»[1].

وكون خمر الجنة جارية في أنهار يدل على كثرتها ووفرتها، واطمئنان المنعّم بها إلى عدم زوالها وانقطاعها، كما قيل في الفاكهة: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣].

وقد وصفت هذه الخمر مع كثرتها ووفرتها بأنها «لذة للشاربين»، وتكرر هذا الوصف مع أوصاف أخرى في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات:٤٥-٤٧].

ومعنى «لذّةٍ»: لذيذة، يقال: شراب لذاذ: إذا كان طيبًا. أو ذات لذّة[2]. ومن تمام لذتها أنها تمزج بالكافور وتختم بالمسك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان:٥-٦]:

«أي: تمزج الخمر بالكافور وقيل: المعنى أنه كافور في طيب رائحته كما تمدح طعامًا فتقول: هذا مسك»[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٦.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٤٠.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٤٣٧.

﴿ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين:٢٢-٢٨].

و«الرحيق: الخمر الصافية، والمختوم فسره الله بأن ختامه مسك»[(١)].

وقوله سبحانه ﴿مَّخْتُومٍ﴾: «يحتمل أن يختم على كؤوسه التي يشرب بها تهممًا وتنظيفًا، والأظهر أنه مختوم شرابه بالرائحة المسكية حسبما فسر قوله تعالى: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، واختلف المتأولون في قوله: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ فقال علقمة وابن مسعود معناه: خلطه ومزاجه، وقال ابن عباس والحسن وابن جبير معناه: خاتمته أن يجد الرائحة عند خاتمته الشرب رائحة المسك، وقال أبو علي: المراد لذاذة المقطع وذكاء الرائحة مع طيب الطعم، وكذلك قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿زَنجَبِيلًا﴾ أي: يحذي اللسان، وقد قال ابن مقبل:

مما يفتق في الحانوت ناطقها
بالفلفل الجوز والرمان مختوم

قال مجاهد معناه: طينه الذي يختم به مسك بدل الطين الذي في الدنيا، وهذا إنما يكون في الكؤوس؛ لأن خمر الآخرة ليست في دنان إنما هي في أنهار»[(٢)].

وفي بعض التفسيرات أن ﴿كَافُورًا﴾ اسم عين تمزج بها الكأس من الخمر لمن سمتهم الآية «﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾: وصفهم بالعبودية، وفيه معنى التشريف والاختصاص، كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يفجرونها حيث شاؤوا من منازلهم تفجيرًا سهلًا لا يصعب عليهم، وفي الأثر أن في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة عينًا تفجر إلى قصور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين»[(٣)]، روي أن «معهم قضبان ذهب يفجرون بها تتبع قضبانهم»[(٤)].

وعلى كونها تجري في أنهار، فإن «عباد الله» المنسوبين إليه تشريفًا يفجرونها حيث شاؤوا تفجيرًا، ويطاف عليهم بها في آنية كما نصت على ذلك الآية السابقة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾: أي «يدار عليهم وهم في مجالسهم. والكأس (بهمزة بعد الكاف): إناء الخمر، مؤنث، وهي إناء بلا عروة ولا أنبوب واسعة الفم، أي: محل الصب منها، تكون من فضة ومن ذهب ومن خزف ومن زجاج، وتسمى قدحًا وهو مذكر. وجمع كأس: كاسات وكؤوس وأكؤس. وكانت

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٦٢.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٥٣.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٤٣٧.
(٤) الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٣٦٩.

خاصة بسقي الخمر حتى كانت الكأس من أسماء الخمر تسمية باسم المحل، وقد قيل: لا يسمى ذلك الإناء كأسًا إلا إذا كانت فيه الخمر وإلا فهو قدح.

والمعني بها في الآية الخمر؛ لأنه أفرد الكأس مع أن المطوف عليهم كثيرون، ولأنها وصفت بأنها من معين»[1].

وهي مع الطواف عليهم بها جارية في الأنهار، ظاهرة تراها العيون[2]، فلذلك قيل فيها: كأس «﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من شراب معين أو نهر معين: أي ظاهر للعيون، أو خارج من العيون: وهو صفة للماء، من عان الماء: إذا نبع. وصف به خمر الجنة؛ لأنها تجري كالماء، أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يطلب من أنواع الأشربة لكمال اللذة»[3].

وقد أبهم الطائف عليهم في الآية، ووقع بيانه في سورة الواقعة في قوله سبحانه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة:١٧-٢١].

و«الولدان المخلدون»: هم الذين لا يتغيّرون، وهم على سنٍّ واحد، وقيل: هم المقرطون أو المسورون[4].

وقوله عز وجل أيضًا: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان:١٩]: «شبههم باللؤلؤ في الحسن والبياض، وبالمنثور منه في كثرتهم وانتشارهم في القصور»[5].

فمع لذة ما يطاف عليهم به، فإن شربه لا يعقبه صداع ولا وجع: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾، والطائفون عليهم حسان الصور: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، والمطوف عليهم به جميل المنظر: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، تشتهيه النفس وتلذه العين: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة:٢٠-٢١].

وهذه الخمر على لذتها، ليس فيها مساوئ خمر الدنيا من الإسكار والصداع ووجع البطن وما يعقبه من قيء ونحوها، قال ابن كثير: «فنزه الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن -وهو الغول- وذهابها بالعقل جملة، فقال تعالى هاهنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١١٢.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٨.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٠.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٢٠.
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٤٣٩.

في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله عز وجل: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك.

وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني: لا تؤثر فيهم غولًا -وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد- كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه؛ لكثرة مائيتها. وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروي هكذا عن ابن عباس. وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. وعنه، وعن السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زالت الكأس تغتالنا
وتذهب بالأول الأول

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: إنه وجع البطن.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، والسدي، وغيرهم.

وقد قال بعض أهل التفسير إن في قول الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١].

تعريضًا بنجاسة خمر الدنيا؛ «لأن خمر الجنة طاهرةٌ، وليست بنجسةٍ كخمر الدنيا»[1]، وقد جعل فيه الشنقيطي شاهدًا لقول جمهور الفقهاء بأن الخمر نجسة العين فقال: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾ [المائدة:٩٠] الآية.

يفهم من هذه الآية الكريمة أن الخمر نجسة العين؛ لأن الله تعالى قال إنها: رجس، والرجس في كلام العرب كل مستقذر تعافه النفس. وقيل: إن أصله من الركس، وهو العذرة والنتن.

قال بعض العلماء: ويدل لهذا مفهوم المخالفة في قوله تعالى في شراب أهل الجنة: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾؛ لأن وصفه لشراب أهل الجنة بأنه طهور يفهم منه أن خمر الدنيا ليست كذلك، ومما يؤيد هذا أن كل الأوصاف التي مدح بها تعالى خمر الآخرة منفية عن خمر الدنيا، كقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، وكقوله: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾، بخلاف خمر الدنيا ففيها غول يغتال العقول وأهلها يصدعون، أي: يصيبهم الصداع الذي هو وجع الرأس بسببها»[2].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٨٠.
(٢) أضواء البيان، لشنقيطي ١/ ٤٢٦.

و«المعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولا هم يسكرون أيضا»[1].

صفة مجالسها في الجنة

جرت عادة الناس في الحياة الدنيا أنهم يعدون للخمر مجالس، يطوف عليهم فيها الخدم، ويتخيرون فيها المكان، ويدعون إليها الأصحاب والأقران، وقد يتجملون لها ويلبسون أحسن الثياب، ويجتمعون لها في مجالس لهو وسمر.

وقد نص القرآن الكريم على أن لأهل الجنة فيها مجالس خير من هذه المجالس، في جنة مفتحة الأبواب، قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص:٤٩-٥٢].

«وتفتيح الأبواب كناية عن التمكين من الانتفاع بنعيمها؛ لأن تفتيح الأبواب يستلزم الإذن بالدخول وهو يستلزم التخلية بين الداخل وبين الانتفاع بما وراء الأبواب»[2].

ونصت الآية على أنهم يجلسون فيها مجلس المطمئن المرتاح المنعم والذي دلت عليه هيئة الاتكاء: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾، وهم مع ذلك سالمون من كل ما ينغص عليهم مهما كان قليلًا مما يؤذي أبدانهم أو أسماعهم كخشونة في اللباس أو الأفرشة، أو برد أو حر، أو لغو أو إثم، قال تعالى:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٣٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٨٢.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان:١٢-١٤].

وقال سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦] أي: لا يسمعون باطلًا ولا كذبًا[1].

والحرير: الرقيق الناعم من الثياب -كما هو معلوم-، والأرائك: «السرر، أو ما يتكأ عليه من سرير أو فراش ونحوه. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: لا يرون فيها شمسًا شديدة الحرارة بحيث تؤذيهم أو تضرهم، ولا يرون فيها كذلك ﴿زَمْهَرِيرًا﴾ أي: بردًا مفرطًا، يقال: زمهر اليوم، إذا اشتد برده.

والمقصود من الآية الكريمة أنهم لا يرون في الجنة إلا جوًّا معتدلًا، لا هو بالحار ولا هو بالبارد.

وقوله سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ معطوف على قوله قبل ذلك: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾. و﴿ظِلَٰلُهَا﴾ فاعل ﴿وَدَانِيَةً﴾ والضمير في ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ يعود إلى الجنة.

أي: أن الأبرار جالسون في الجنة جلسة الناعم البال، المنشرح الصدر. وظلال أشجار الجنة قريبة منهم، ومحيطة بهم، زيادة في إكرامهم»[2].

وهم على سرر منسوجة من الذهب والجوهر، أو مصفوفة، متقابلون لا ينظر بعضهم في قفا بعض[3]: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة:١٥-١٦].

«وسرر: جمع سرير وهو ككرسي واسع يمكن الاضطجاع عليه، وكان الجلوس على السرير من شعار الملوك وأضرابهم، وذلك جلوس أهل النعيم؛ لأن الجالس على السرير لا يجد مللًا؛ لأنه يغير جلسته كيف تتيسر له.

و﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾: كل واحد قبالة الآخر. وهذا أتم للأنس؛ لأن فيه أنس الاجتماع وأنس نظر بعضهم إلى بعض فإن رؤية الحبيب والصديق تؤنس النفس.

والظاهر: أن معنى كونهم متقابلين تقابل أفراد كل جماعة مع أصحابهم، وأنهم جماعات على حسب تراتيبهم في طبقات الجنة، وأن أهل كل طبقة يقسمون جماعات على حسب قرابتهم في الجنة كما قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس:٥٦].

وكثرة كل جماعة لا تنافي تقابلهم على السرر والأرائك وتحادثهم؛ لأن شؤون

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٠٦.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٢٢١.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٣٥.

ذلك العالم غير جارية على المتعارف في الدنيا»[1].

تعلو النضارة وجوههم، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان:١١].

«أي: آمنهم مما خافوا منه، ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾ أي: في وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾ أي: في قلوبهم. قاله الحسن البصري، وقتادة، وأبو العالية، والربيع بن أنس. وهذه كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس:٣٨-٣٩]. وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه»[2].

وقال سبحانه أيضًا: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين:٢٤]: «يعني أنك إذا رأيتهم تعرف أنهم من أهل النعمة لما ترى على وجوههم من النّور والحسن والبياض، قيل: النضرة في الوجه والسرور في القلب»[3].

وتزينت أبدانهم ومعاصمهم بالحرير والحلي: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان:٢١]: «أي: قد جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران، اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج والإستبرق: ما رق منه. ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم»[4].

وهم في غمرة ذلك يطلبون ما شاؤوا من فاكهة وشراب، مع ما يقابلون به من الإكرام والحفاوة، كما قال عز وجل: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص:٤٩-٥٢].

وقال أيضًا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الصافات:٤١-٤٤].

«والرزق: الطعام، قال تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران:٣٧].

وقال: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ [يوسف:٣٧].

والمعلوم: الذي لا يتخلف عن ميعاده ولا ينتظره أهله.

و﴿فَوَٰكِهُ﴾ عطف بيان من رزق. والمعنى: أن طعامهم كله من الأطعمة التي يتفكه بها لا مما يؤكل لأجل الشبع. والفواكه: الثمار والبقول اللذيذة.

و﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عطف على ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾، أي: يعاملون بالحفاوة والبهجة، فإنه وسط في أثناء وصف ما أعد لهم من النعيم الجسماني أن لهم نعيم الكرامة وهو

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١١١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٨٩.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤٠٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٠٢.

أهم؛ لأن به انتعاش النفس مع ما في ذلك من خلوص النعمة ممن يكدرها؛ ذلك لأن الإحسان قد يكون غير مقترن بمدح وتعظيم ولا بأذى وهو الغالب، وقد يكون مقترنًا بأذى وذلك يكدر من صفوه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

فإذا كان الإحسان مع عبارات الكرامة وحسن التلقي فذلك الثواب»[(١)].

وقربت ثمار الجنة منهم لتنالها أيديهم في سهولة ويسر: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾ [الإنسان:١٤].

ويطوف عليهم الولدان المخلدون في أجمل صورة وأحسن منظر: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩﴾ [الإنسان:١٩].

قال ابن عطية: «و ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ قال جمهور الناس: معناه باقون من الخلود، وجعلهم ولدانًا؛ لأنهم في هيئة الولدان في السن لا يتغيرون عن تلك الحال، وقال أبو عبيدة وغيره مخلّدون معناه مقرطون، والخلدات حلي يعلق في الآذان... وشبههم بـ «اللؤلؤ المنثور» في بياضهم وانتشارهم في المساكن يجيئون ويذهبون وفي جمالهم، ومنه سميت المرأة درة وجوهرة»[(٢)].

وفي أيديهم الصحاف والأكواب والأباريق والقوارير مقدرة تقديرًا، قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١﴾ [الواقعة:١٧-٢١].

أكواب جمع كوب، وهي الآنية التي لا عرى لها ولا خراطيم، والأباريق التي لها عرى وخراطيم واحدها إبريق، سمي بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه.

وقال جل وعلا: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزخرف:٧١].

«والصحاف: جمع صحفة، وهي: إناء مستدير واسع الفم ينتهي أسفله بما يقارب التكوير. والصحفة: إناء لوضع الطعام أو الفاكهة، مثل: صحاف الفغفوري الصيني تسع شبع خمسة، وهي دون القصعة التي تسع شبع عشرة. وقد ورد أن عمر بن الخطاب اتخذ صحافًا على عدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فلا يؤتى إليه بفاكهة أو طرفة إلا أرسل إليهن منها في تلك الصحاف»[(٣)].

وقال جل وعلا: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١١١.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤١٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٥٤.

﴿١٦﴾ [الإنسان:١٥-١٦].

فهي أكواب «مادتها من فضة، وهي على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير»[(١)].

وفي التقدير: «قولان: أحدهما: قدّروها في أنفسهم، فجاءت على ما قدّروا، قاله الحسن. وقال الزجاج: جعل الإناء على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه على تقديرهم. والثاني: قدّروها على مقدارٍ لا يزيد ولا ينقص، قاله مجاهد. وقال غيره: قدروا الكأس على قدر ريّهم، لا يزيد عن ريّهم فيثقل الكفّ، ولا ينقص منه فيطلب الزيادة، وهذا ألذّ الشراب. فعلى هذا القول يكون الضمير في «قدّروا» للسقاة والخدم، وعلى الأول للشاربين»[(٢)].

فمن أبصرهم رآهم في نعمة وملك عظيم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان:٢٠].

«كرر ذكر الرؤية مبالغة، و﴿ثَمَّ﴾ ظرف والعامل فيه رأيت أو معناه، وقال الفراء التقدير: ﴿رَأَيْتَ﴾ ما ثمّ وحذفت ما، وقرأ حميد الأعرج «ثم» بضم الثاء، و«النعيم»: ما هم فيه من حسن عيش، و«الملك الكبير»: قال سفيان: هو استئذان الملائكة وتسليمهم عليهم وتعظيمهم لهم، فهم في ذلك كالملوك، وقال أكثر المفسرين: «الملك الكبير» اتساع مواضعهم، فروي عن عبد الله بن عمر أنه قال: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف غلام كلهم مختلف شغله من شغل أصحابه، وأدنى أهل الجنة منزلة من ينظر من ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه»[(٣)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٠١.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٧٩.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤١٣.

الإعجاز التشريعي في تحريم الخمر

شرب الخمر بلاء ابتلي به البشر قديمًا وحديثًا، وشاع بينهم شيوع النار في الهشيم. ولم يكن العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم ليشذوا عن هذه القاعدة، بل إن الأحاديث التي رويت في إراقتهم لقرب الخمر في طرقات المدينة بعد نزول تحريمها تشهد أنهم كانوا يشربون منها الشيء الكثير، وما وقع لهم من حوادث قبل نزول التحريم يدل على أنه كان لها مكان كبير في مجالسهم واجتماعاتهم ونواديهم. قال في التحرير والتنوير: «وشيوع شرب الخمر في الجاهلية معلوم لمن علم أدبهم وتاريخهم فقد كانت الخمر قوام أود حياتهم، وقصارى لذاتهم ومسرة زمانهم وملهى أوقاتهم، قال طرفة:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربـــة
كميت متى ما تعل بالماء تزبـــد

وعن أنس بن مالك: (حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر). فلا جرم أن جاء الإسلام في تحريمها بطريقة التدريج فأقر حقبة إباحة شربها. واتفق أهل الأثر على أن تحريم الخمر وقع في المدينة بعد غزوة الأحزاب بأيام، أي: في آخر سنة أربع أو سنة خمس على الخلاف في عام غزوة الأحزاب»[1].

ولقد استطاع التشريع القرآني أن يستأصل هذا المرض الخبيث فيهم بخطة حكيمة، وتدرج متأن رشيد سبق بيانه، و «في تحريم الخمر بهذا الترتيب حكمة بليغة، وذلك أن القوم ألفوا شرب الخمر، وأصبحت جزءًا من حياتهم، فلو حرّمت عليهم دفعة واحدة؛ لشق ذلك على نفوسهم وربما لم يستجيبوا لذلك النهي، كما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (أول ما نزل من القرآن سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول ما نزل: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمرة أبدًا).

وذلك من الخطة الحكيمة التي انتهجها الإسلام في معالجة الأمراض الاجتماعية، فقد سلك بالناس طريق (التدريج في تشريع الأحكام) فبدأ بالتنفير منه بطريق غير مباشر كما في الآية الأولى، ثم بالتنفير المباشر عن طريق المقارنة بين شيئين: شيء فيه نفع ضئيل، وشيء فيه ضرر وخطر جسيم، كما في الآية الثانية، ثم بالتحريم الجزئي في أوقات الصلاة كما في الآية الثالثة، ثم بالتحريم الكلي في جميع الأوقات كما في

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٣٨.

الآية الرابعة، فللّه ما أدق هذا التشريع»[1].

وتبدو هذه ميزة انفردت بها الشريعة الخاتمة من دون سائر الشرائع الأرضية، ويرى ابن عاشور أنها انفردت بها أيضًا عن سائر الشرائع السماوية السابقة، قال: «وشرب الخمر عمل متأصل في البشر قديمًا لم تحرمه شريعة من الشرائع لا القدر المسكر بله ما دونه، وأما ما يذكره علماء الإسلام إن الإسكار حرام في الشرائع كلها فكلام لا شاهد لهم عليه بل الشواهد على ضده متوافرة، وإنما جرأهم على هذا القول ما قعدوه في أصول الفقه من أن الكليات التشريعية وهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال والعرض هي مما اتفقت عليه الشرائع، وهذا القول وإن كنا نساعد عليه فإن معناه عندي أن الشرائع كلها نظرت إلى حفظ هاته الأمور في تشريعاتها، وأما أن تكون مراعاة باطراد في غير شريعة الإسلام فلا أحسب ذلك يتم، على أن مراعاتها درجات، ولا حاجة إلى البحث في هذا»[2].

ثم يستدل على رأيه هذا بما يتلى في كتب أهل الكتاب فيقول: «بيد أن كتب أهل الكتاب ليس فيها تحريم الخمر ولا التنزيه عن شربها، وفي التوراة التي بيد اليهود أن نوحًا شرب الخمر حتى سكر، وأن لوطًا شرب الخمر حتى سكر سكرًا أفضى بزعمهم إلى أمر شنيع، والأخير من الأكاذيب؛ لأن النبوءة تستلزم العصمة، والشرائع وإن اختلفت في إباحة أشياء فهنالك ما يستحيل على الأنبياء مما يؤدي إلى نقصهم في أنظار العقلاء، والذي يجب اعتقاده: أن شرب الخمر لا يأتيه الأنبياء؛ لأنه لا يشربها شاربوها إلا للطرب واللهو والسكر، وكل ذلك مما يتنزه عنه الأنبياء؛ ولأنها يشربونها لقصد التقوي لقلة هذا القصد من شربها. وفي سفر اللاويين من التوراة «وكلم الله هارون قائلًا: خمرًا ومسكرًا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكي لا تموتوا. فرضا دهريا في أجيالكم وللتمييز بين المقدس والمحلل وبين النجس والطاهر»[3].

ومن عظمة هذا الدين أنه لم يستأصل الخمر بقانون يجرمها، قد يقوم على تطبيقه من يشربها، ولكنه زرع محبة الناهي عنها وخوفه والحياء منه ورجاء رحمته وحذر عقابه في قلوب الناس قبل أن ينهاهم عنها، كما روى البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل

(١) روائع البيان، الصابوني ١/ ٢٧٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٣٨.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٣٩.

أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا)[1].

فأم المؤمنين رضي الله عنها «أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا «قالت: ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندعها»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف»[2].

ومن عظمة هذا الدين أيضًا أنه فرق بين الفواحش، فسارع إلى استئصال ما كان يمجه الطبع منها، وأخر ما لم يكن كذلك إلى حين كما في حديث عبادة الذي رواه البخاري من طريق الزهري، قال: أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله، أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد بدرًا وهو أحد النقباء ليلة العقبة: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال -وحوله عصابة من أصحابه-: (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه) فبايعناه على ذلك)[3]، ولفظه عند مسلم: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس، فقال: (تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئًا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه)[4].

فهذه الفواحش: الزنا، والسرقة، وقتل الولد، أو قتل النفس التي حرم الله، والبهتان، لم تؤخر ولكن وقع النهي عنها مع الشرك في صدر الإسلام، خلافًا للخمر، وذلك أن البيئة الجاهلية على ما فيها، كانت تمج هذه الفواحش، فكان التعجيل بمنعها واستئصالها موافقًا لما غرس في طباع الناس، بل مجاريًا لمنطق العقلاء وأهل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ٦/ ١٨٥، رقم ٤٩٩٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٩/ ٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، ١/ ١٢، رقم ١٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، ٣/ ١٣٣٣، رقم ١٧٠٩.

الشرف والأنفة. يشهد لذلك ما روى ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة:١٢].

أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع النساء، «فقال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ فقالت هند: يا رسول الله وهل تزني الحرة؟ قال: لا والله ما تزني الحرة»[(١)].

أما الخمر، فإن الناس ما زالوا يشربونها إلى ما بعد الهجرة بسنين، لكونها كانت مغروسة فيهم متأصلة في عاداتهم وطباعهم، ولكن التشريع الإلهي كان إذ ذاك يقطع المدد عن شجرة الهوى في النفوس فإذا هي تذبل يومًا بعد يوم، حتى إذا جاء الأمر الإلهي انكشفت معجزة الإسلام العظيمة وتربيته الحكيمة، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذي تسمونه الفضيخ، فإني لقائم أسقي أبا طلحة، وفلانًا وفلانًا، إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حرمت الخمر، قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل)[(٢)].

فأين هذا من تشريعات أمم رصدت لمنع الخمر المليارات، وانتدبت لذلك جيوشًا، وأنزلت أحكامًا قاسية، ثم اضطرت في الأخير للترخيص لها والتخلية بين الناس وبينها على ما تعلم من آثارها من حوادث مميتة، وأضرار صحية بالغة الكلفة، بل وكونها حارس كل عدوان أو جريمة؟ أين هذا من كلمة واحدة «حرمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل».

ومن دلائل الإعجاز التشريعي في تحريم الخمر ما تكشفت حكمته مماظهر ويظهر كل يوم من أضرارها على الناس جماعة وأفرادًا.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٤٢.
قال ابن كثير في تفسيره ٨/ ٩٩: «وهذا أثر غريب، وفي بعضه نكارة، والله أعلم».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إنما الخمر والميسر والأنصاب...)، ٦/ ٥٣، رقم ٤٦١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، وبيان أنها تكون من عصير العنب، ومن التمر والبسر والزبيب، وغيرها مما يسكر، ٣/ ١٥٧١، رقم ١٩٨٠.

أثر الخمر على الفرد والمجتمع

نص القرآن الكريم على بعض آثار الخمر في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩١].

فهي تنشر العداوة والبغضاء وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة. قال في روائع البيان: «لم يذكر في القرآن الكريم تعليل الأحكام إلاّ بالإيجاز، أمّا هنا فقد ذكر بالإطناب والتفصيل، وذكرت فيه الأسباب لتحريم الخمر والميسر بالإسهاب، منها: إلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين، والصدّ عن ذكر الله، وشغل المؤمنين عن الصلاة، كما وصفت الخمر والميسر بأنها رجس، وأنها من عمل الشيطان إلخ، وكل ذلك ليشير إلى الضرر العظيم، والخطر الجسيم، من جراء اقتراف هاتين الرذيلتين (جريمة القمار) و(جريمة تناول المسكرات) استمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]»[١].

«فللخمر مضار كثيرة: شخصية وصحية، واجتماعية بزرع العداوة والبغضاء، ودينية بالصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ومالية بتبديد الأموال في الضار غير النافع. وكذا للقمار أضرار نفسية عصبية بإحداث توتر في الأعصاب وقلق واضطراب، واجتماعية ودينية ومالية كالخمر تمامًا»[٢].

وقد جمعت الآية أصول ما في الخمر من أضرار فردية واجتماعية:

فكونها رجس: يقتضي نجاستها العينية المفضية إلى شتى أنواع الأمراض وفساد الأبدان، ونجاستها المعنوية المفضية إلى الانحراف الأخلاقي ومقارفة كل أنواع المنكرات والفواحش، «فالخمر إذا أذهبت العقل، هانت كرامة الإنسان على غيره، وفقد القدرة على إدراك الخير والبعد عن الشر، هذا فضلًا عن أضرار الخمر الصحية في كل أعضاء جهاز الهضم والأعصاب، بل قد يمتد الضرر إلى الأولاد، فينشأ الواحد منهم معتوهًا ضعيف المدارك، وكثيرًا ما أدت الخمر إلى الطلاق وتدمير الأسرة»[٣].

وكونها توقع العداوة والبغضاء: يعني أنها سبب الانهيار الاجتماعي والأسري بما تكسر من روابط الأخوة والجوار ونحوها في المجتمع، وما تفضي إليه من تضييع الحقوق، «أي: إن الشيطان لا يريد لكم من تعاطي الخمر والميسر إلا الإيقاع في

(١) روائع البيان، الصابوني ١/ ٥٦٢.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٣٩.

(٣) المصدر السابق.

العداوة بأن يعادي بعضكم بعضًا بسبب الشراب، والبغضاء بأن يزرع الكراهية والحقد والنفرة من بعضكم، فيتحقق هدفه من التفريق والتشتيت بعد التأليف بالإيمان والجمع بأخوة الإسلام»[١].

وكونها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة: يجعلها صادة عن كل مكرمة من المكارم، «ويريد أيضًا صرفكم بالسكر المذهب للعقل والاشتغال بالقمار عن ذكر الله الذي تطمئن به القلوب وتسعد به النفوس في الدنيا والآخرة، وعن الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، والتي تزكو بها النفوس، وتتطهر القلوب»[٢].

وقد تهوي بصاحبها إلى ما دون درجة البهيمة. قال في روائع البيان: «أثمن وأغلى شيء في الإنسان عقله، فإذا فقد الإنسان العقل أصبح كالحيوان؛ ولهذا حرم الله الخمر وسميت بـ(أم الخبائث)؛ لأنها سبب في كل قبيح.

قال القرطبي: «وإن الشارب يصير ضحكة للعقلاء، فيلعب ببوله وعذرته وربما يمسح وجهه، حتى رؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله، ويقول: اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، ورؤي بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول له: أكرمك الله كما أكرمتني»[٣].

وما في الخمر من أضرار نفسية وبدنية وخلقية وما يترتب عليها من آثار سيئة في الفرد والجماعة شيء يجمع عليه جميع العقلاء والعلماء سواء علماء الدين، أو الطب، أو الأخلاق، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، ولو أننا أخذنا رأيهم في تعاطي المسكرات لكان جواب جميعهم واحدًا: منع تعاطيها منعًا باتًّا؛ لأنها مضرة ضررًا فادحًا.

فعلماء الدين يقولون: إنها محرمة، وما حرمت إلا لأنها أم الخبائث.

وعلماء الطب يقولون: إنها من أعظم الأخطار التي تهدد نوع البشر[٤]، لا بما

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٧٤.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٧.

(٤) من آثار الخمر الإصابة بالتهاب القصبات الرئوية والرئة وبطانة الأنف، ويؤثر على الدماغ والخلايا العصبية ويثبط التنفس وقد يؤدي إلى الموت، ويؤثر على الأجنة في بطون الحوامل، ويؤدي إلى التهاب وتشقق اللسان وتأثر الذوق، والإصابة بسرطان اللسان، وسيلان لعابي مقرف، ويسبب قرحة المعدة وسرطان المريء والمعدة، وعسر الامتصاص، وغازات كريهة، ويؤثر على الكبد ويؤدي إلى تشحمه وتشمعه وهو أحد أكبر أسباب الوفيات، ويصيب باعتلال العضلة القلبية، وارتفاع الضغط، والقصور الجنسي، ويؤدي إلى ضعف الجهاز المناعي، وتعد الخمر وآثارها القاتل الأول في بعض الدول كفرنسا وألمانيا. انظر: موسوعة

تورثه مباشرة من الأضرار السامة فحسب، بل بعواقبها الوخيمة أيضًا، إذ أنها تمهد السبيل لخطر لا يقل ضررًا عنها. والخمر توهن البدن وتجعله أقل مقاومة وجلدًا في كثير من الأمراض مطلقًا، وهي تؤثر في جميع أجهزة البدن، وخاصة في الكبد، وهي شديدة الفتك بالمجموعة العصبية.

لذلك لا يستغرب أن تكون من أهم الأسباب الموجبة لكثير من الأمراض العصبية ومن أعظم دواعي الجنون والشقاوة والإجرام، لا لمستعملها وحده، بل وفي أعقابه من بعده.

فهي إذن علة الشقاء والعوز والبؤس، وهي جرثومة الإفلاس والمسكنة والذل، وما نزلت بقوم إلا أودت بهم: مادة ومعنى، بدنًا وروحًا، جسمًا وعقلًا.

وعلماء الأخلاق يقولون: لكي يكون الإنسان محافظًا على الرزانة والعفة والشرف والنخوة والمروءة، يلزم عدم تناوله شيئًا يضيع به هذه الصفات الحميدة[1].

وبالجملة فقد جمعت الخمر جميع المفاسد الدنيوية، فضلًا عن مفاسدها الدينية، ولذلك كانت أم الخبائث، وقد سميت بذلك في الأثر المروي عن عثمان رضي الله عنه قال: (اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادة، فدخل معها فطفقت كلما دخل بابا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب الخمر، فسقته كأسًا، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه)[2].

موضوعات ذات صلة:

الحرام، السؤال، الشرب، الميسر

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، يوسف الحاج أحمد ص٦٠٧-٦٣٧.

(١) انظر: فقه السنة، السيد سابق ٢/ ٣٧٣.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الأشربة والحد فيها، باب ما جاء في تحريم الخمر، ٨/ ٥٠٠، رقم ١٧٣٣٩.
قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ١٨٩: «رواه البيهقي وهذا إسناد صحيح. وقد رواه أبو بكر ابن أبي الدنيا في كتابه ذم المسكر عن محمد ابن عبد الله بن بزيع، عن الفضيل بن سليمان النميري، عن عمر بن سعيد، عن الزهري، به مرفوعًا، والموقوف أصح، والله أعلم».

الخوف

عناصر الموضوع

مفهوم الخوف	١٤٠
الخوف في الاستعمال القرآني	١٤١
الألفاظ ذات الصلة	١٤٢
أنواع الخوف	١٤٦
نفي الخوف عن الله	١٥٩
الخوف طبيعة إنسانية	١٦١
أسباب الخوف المحمود	١٦٩
آثار الخوف المحمود	١٧٧
جزاء الخائفين من الله	١٨٣

مفهوم الخوف

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (خوف) حول الذعر والفزع[1]، يقال: خاف يخاف خوفًا وخيفة ومخافة، ومنه التخويف والإخافة، والنعت منها خائف[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج عن معناه في اللغة تقريبًا، فالأصفهاني يعّرف الخوف بأنه: « توقّع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة، كما أنّ الرّجاء والطمع توقّع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة، ويضادّ الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية»[3].

وعرفه الجرجاني بأنه: «توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب»[4].

وقال التفتازاني: «غم يلحق الإنسان مما يتوقعه من السوء»[5].

يتضح مما سبق أن الخوف شعور بالاضطراب وعدم الأمن نتيجة حدوث مكروه في الحال، أو توقع حدوثه في المستقبل.

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٣٠ .
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٨١، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٢٩٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥١٢.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٣.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص ٩٠.
(٥) التوقيف، المناوي ص ١٦١.

الخوف في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خوف) في القرآن الكريم (١٢٤) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦]
الفعل المضارع	٦٨	﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٥٠]
فعل الأمر	١	﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]
المصدر	٣٤	﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش:٤]
اسم الفاعل	٣	﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨]

وجاء الخوف في القرآن الكريم على ثلاثة وجوه[(٢)]:

الأول: الخوف نفسه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:٥٦].

الثاني: القتل أو القتال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ [النساء:٨٣] أي: القتل، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ [الأحزاب:١٩] يعني: انجلى الحرب والقتال.

الثالث: العلم أو الظن: ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢٩] يعني: علمتم أو ظننتم.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٤٦-٢٤٨، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الخاء ص٤٨٨-٤٩١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٠٠-٢٠١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٧٩-٢٨١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٥٧٦-٥٧٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ٥٤٠-٥٤٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخشية:

الخشية لغة:

تدل مادة (خشي) على خوفٍ وذعرٍ[(١)].

الخشية اصطلاحًا:

عرفها الأصفهاني بأنها: «خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]»[(٢)].

وعرفها الجرجاني بأنها: «تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته. وخشية الأنبياء من هذا القبيل»[(٣)].

الصلة بين الخوف والخشية:

الخشية أعلى من الخوف وأشد منه.

وقيل: «الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا»[(٤)].

٢ الرعب:

الرعب لغة:

ذكر ابن فارس أن معنى الرعب يرجع إلى ثلاثة أصول: الخوف، والملء، والقطع[(٥)].

وقال الراغب: «الرّعب: الانقطاع من امتلاء الخوف»[(٦)].

الرعب اصطلاحًا:

هو الذعر والخوف الشديد من خطر يؤدي إلى فقدان القدرة على الحركة أحيانًا.

الصلة بين الخوف والرعب:

الرعب أخص من الخوف وهو يدل على امتلاء القلب بالخوف وسيطرته عليه مما يسبب

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٤٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص ٨٦-٨٧.
(٤) الكليات، الكفوي ص ٤٢٨.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٠٩.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥٦.

الانقطاع والذهول.

٣ الشفقة:

الشفقة لغةً:

أشفقت من الأمر، إذا رققت وحاذرت[١]، وهي «صرف الهمة إلى إزالة المكروه عن الناس»[٢]. شفق: الشّفق والشّفقة: الاسم من الإشفاق. والشّفق: الخيفة[٣].

الشفقة اصطلاحًا:

الشفقة هي ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان، وهي عناية مختلطة بخوف[٤].

«الإشفاق رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها»[٥].

الصلة بين الخوف والشفقة:

«إن الشفقة ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان، ومن ثم يقال للأم إنها تشفق على ولدها، أي: ترق له، وليست هي من الخشية والخوف في شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون:٥٧].

ولو كانت الخشية هي الشفقة لما حسن أن يقول: ذلك، كما لا يحسن أن يقول يخشون من خشية ربهم»[٦].

٤ الرهبة:

الرهبة لغة:

رهب: خاف رَهْبَةً ورُهْبًا. ورجلٌ رَهَبوتٌ، أي: مرهوبٌ، يقال: رَهَبُوتٌ خيرٌ من رحموتٍ. أي: لأن تُرْهَب خيرٌ من أن تُرْحَم[٧].

الرهبة اصطلاحًا:

الرهبة: هي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي مخافة مع تحرز واضطراب، وهي ضد

(١) المصباح المنير، الفيومي ص٣١٧.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٢٧.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٧٩.
(٤) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٣١.
(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٤.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤١.
(٧) مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٣٠.

الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه[1].

الصلة بين الخوف والرهبة:

قال العسكري: «الرهبة طول الخوف واستمراره، ومن ثمّ قيل للراهب راهب؛ لأنّه يديم الخوف»[2].

فالرهبة خوف مخصوص.

٥ الإشفاق:

الإشفاق لغةً:

أشفقت من الأمر، إذا رققت وحاذرت[3]، وهي «صرف الهمة إلى إزالة المكروه عن الناس»[4]. شفق: الشّفق والشّفقة: الاسم من الإشفاق. والشّفق: الخيفة[5].

الإشفاق اصطلاحًا:

«الإشفاق رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها»[6].

الصلة بين الخوف والإشفاق:

«الشّفقة ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان، ومن ثمّ يقال للأم إنّها تشفق على ولدها، أي: ترق له»[7].

وهكذا فالإشفاق من أعلى درجات الخوف، مصحوب برقة كبيرة وعناية ونصح للمشفق عليه، يرافقه التوقع والحذر.

٦ الفزع:

الفزع لغة:

قال ابن فارس: «(فزع) الفاء والزّاء والعين أصلان صحيحان، أحدهما الذّعر، والآخر الإغاثة»[8].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٦٦، مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٠٨.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٤١.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٣١٧.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٢٧.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٧٩.
(٦) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٤.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٤١.
(٨) مقاييس اللغة، ٤/ ٥٠١.

يقال: «فزع منه وفزع فزعًا وفزعًا وفزعًا، وأفزعه وفزّعه: أخافه وروّعه، فهو فزعٌ»[1].

الفزع اصطلاحًا:

«انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع، ولا يقال: فزعت من الله، كما يقال: خفت منه»[2].

الصلة بين الخوف والفزع:

«الفزع مفاجأة الخوف عند هجوم غارة أو صوت هدة وما أشبه ذلك، وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل»[3].

وهكذا فالفزع يختص بالمفاجأة، ويصاحبه توقع مكروه عاجل، وانقباض ونفور من المخوف.

٧ الأمن:

الأمن لغة:

ضد الخوف، والفعل منه: أمن يأمن أمنًا[4].

الأمن اصطلاحًا:

عدم توقع مكروه في الزمان الآتي[5]، وأصله: طمأنينة النفس وزوال الخوف[6].

الصلة بين الأمن والخوف:

الأمن ضد الخوف.

(١) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٥١.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٣٥.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٤٢.
(٤) العين، الفراهيدي ٨/ ٣٨٨.
(٥) التعريفات، الجرجاني، ص ٣٧.
(٦) التوقيف، المناوي، ص ٦٣.

أنواع الخوف

إن المتدبر في كتاب الله عز وجل يجد أن الخوف ينقسم -حسب مشروعيته- إلى قسمين:

أولًا: خوف مشروع:

وهو ينقسم إلى قسمين:

١. خوف الفطري.

وهو حالة انفعالية تتسم بالقلق وعدم الراحة بسبب التواجد قريبًا من مصادر الخطر، أو الشرور، أو الألم التي يتوقع الإنسان حدوثها أو مصادفتها، ويتوق إلى تجنبها.

وهذا الخوف موجود عند جميع البشر بمن فيهم الأنبياء، وهو ليس صفة ذم أو نقص بالعموم ما دامت تتناسب مع حجم المخوف، لذا فلا يلام عليها الإنسان؛ لأنه مفطور عليه في الغالب.

٢. خوف محمود.

وهو الخوف الذي يرضاه الله ورسوله.

ويشمل كل ما يحجز المرء عن محارم الله، ويردعه عن الانزلاق في مستنقع المعاصي والآثام، ويسوقه إلى التوبة النصوح كلما استزله الشيطان أو أصابه رذاذ الغفلة والنسيان.

و«الخوف له قصور، وله إفراط، وله اعتدال، والمحمود هو الاعتدال والوسط.

فأما القاصر منه: فهو الذي يجري مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألمًا مبرحًا فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها.

وأما المفرط: فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضًا؛ لأنه يمنع من العمل.

وأما خوف الاعتدال: فهو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفًا»[1].

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ص ١٥٠٥.

أو همًّا لازمًا، بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل لم يكن محمودًا»[1].

وهذا الخوف المحمود يشمل ثلاثة أمور:

١. الخوف من مقام الله.

ورد الخوف من مقام الله تعالى في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

منها قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦].

قال القرطبي: «والمعنى خاف مقامه بين يدي ربّه للحساب فترك المعصية. فـ﴿مَقَامَ﴾ مصدرٌ بمعنى القيام. وقيل: خاف قيام ربّه عليه، أي: إشرافه واطّلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد:٣٣].

وقال مجاهدٌ وإبراهيم النّخعيّ: هو الرّجل يهمّ بالمعصية فيذكر اللّه فيدعها من خوفه»[2].

والخوف من مقام الله يشمل الخوف من عظمته وجلاله وكبريائه، ومراقبته لعبده واطلاعه عليه وإحصائه لأعماله، والخوف من غضبه وسخطه وسطوته، كل ذلك يدفع المؤمن إلى تقوى الله بفعل طاعته واجتناب نواهيه، وزجر نفسه كلما دعته إلى اتباع الهوى ومقارفة السيئات. وهكذا يصوغ الخوف شخصية المؤمن وفق مسار التقوى فلا ينحرف عنه يمنة أو يسرة. يقول الأستاذ سيد قطب: «والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة، فظل في دائرة الطاعة.

ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة. فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان، وكل تجاوز، وكل معصية. وهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى، فالجهل سهل علاجه، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها.

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة. وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى. ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة. فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها، الخبير بدوائها، وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها، وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها! ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى. فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته، ولكنه كلفه

(١) التخويف من النار، ابن رجب ص ٢٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/١٤٨.

أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها، وأن يستعين في هذا بالخوف؛ الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب»[1].

٢. الخوف من عذاب الله.

تعددت النصوص القرآنية التي تحذر العباد من عذاب الله تعالى سواء الدنيوي أو الآخروي.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧].

قال ابن كثير: «أي: ينبغي أن يحذّر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذًا باللّه منه»[2].

إن غفلة الناس عن عذاب الله تعالى تدفعهم إلى الاستخفاف بحرماته وتضييع أوامره، وربما استغل الشيطان هذه الفرصة ففتح لهم أبواب الرجاء الكاذب والأمل الخادع ليجعلهم يتخذون من الطمع في رحمة الله، مدخلًا يدخلون به على المعاصي فى جرأة فاجرة، ناسين أن من يرجو ويطمع في رحمة الله عز وجل، يجب أن يكون ممن يخشاه، ويتوقّى محارمه.

ولقد قصَّ علينا القرآن الكريم صورًا كثيرة من عذاب الله الدنيوي للأمم السابقة التي تمادت في الكفر والجحود والعناد حتى أهلكها الله بعذابه، كما قال تعالى:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠]

قال ابن كثير: «﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهم عادٌ، وذلك أنّهم قالوا: من أشدّ منّا قوّةً؟ فجاءتهم ريحٌ صرصرٌ باردةٌ شديدة البرد، عاتيةٌ شديدة الهبوب جدًّا، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجّة وظهرت لهم الدّلالة، من تلك النّاقة الّتي انفلقت عنها الصّخرة، مثل ما سألوا سواءًا بسواءٍ، ومع هذا ما آمنوا بل استمرّوا على طغيانهم وكفرهم، وتهدّدوا نبيّ اللّه صالحًا ومن آمن معه، وتوعّدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحةٌ أخمدت الأصوات منهم والحركات.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وهو قارون الّذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرّبّ الأعلى، ومشى في الأرض مرحًا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنّه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف اللّه به

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٨-٣٨١٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٩.

ويداره الأرض.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أُغرقوا في صبيحةٍ واحدةٍ، فلم ينج منهم مخبرٌ.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم»[1].

كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢].

إنها سنة الله تعالى في إهلاك المجرمين الذين يستخفون بالإنذار والوعيد، ويتمادون في العناد والطغيان، فعندما يأتي عذاب الله في الأجل المقدر له فلا مفر منه ولا مهرب، فليحذر المجرمون من عقاب الله وعذابه، ولا يغرهم تأخر نزوله، فإنما هو إملاء واستدراج.

عن أبي موسى الأشعري رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: (إن اللّه تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾)[2].

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المرور بمنازل أهل العذاب إلا مع البكاء والخشية، فقد ذكر ابن عمر رضي الله عنه قال: لما مر النبي بالحجر- منازل ثمود قوم صالح- قال: (لا تدخلوا مساكن الّذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم إلاّ أن تكونوا باكين)، ثمّ قنّع رأسه وأسرع السّير حتّى أجاز الوادي[3].

أما عن العذاب الآخروي فقد وصفه الله تعالى بأنه أشد وأبقى كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٢٧].

«أي: أفظع من المعيشة الضّنك، وعذاب القبر. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أدوم وأثبت؛ لأنّه لا ينقطع ولا ينقضي»[4].

كما وصف العذاب بأنه أخزى كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت:١٦].

«والخزي: هو الذّلّ، والهوان بسبب ذلك الاستكبار ولعذاب الآخرة أخزى، أي: أشدّ إهانةً وذُلًّا، ووصف العذاب بذلك، وهو في الحقيقة وصفٌ للمعذّبين؛ لأنّهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٧٨-٢٧٩ باختصار.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب قوله تعالى: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة)، رقم ٤٦٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب نزول النبي الحجر، رقم ٤٤١٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٥٩.

الّذين صاروا متّصفين بالخزي»[1].

كما وصف بصفات أخرى منها: العذاب الأليم، كما في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات:٣٧].

ووصف أيضًا بالكبير كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:٣].

ووصف بأنه عذاب يوم محيط، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود:٨٤].

قال القرطبي: «وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم، فإنّ يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك: يومٌ شديدٌ، أي: شديدٌ حرّه. واختلف في ذلك العذاب، فقيل: هو عذاب النّار في الآخرة. وقيل: عذاب الاستئصال في الدّنيا»[2].

إن القلوب العامرة بالتقوى إذا تذكرت عذاب الله عز وجل امتلأت خشية وخوفًا، وسارعت إلى مرضاته وطاعته، وتجنبت ما يسخطه ويغضبه، ولقد مدح القرآن الكريم المؤمنين الذين يخشون عذابه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [المعارج:٢٧-٢٨].

إنها «درجة الحساسية المرهفة، والرقابة اليقظة، والشعور بالتقصير في جنب الله على كثرة العبادة، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية.

وفي قوله هنا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ إيحاء بالحساسية الدائمة التي لا تغفل لحظة، فقد تقع موجبات العذاب في لحظة الغفلة فيحق العذاب. والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية، فإذا غلبهم ضعفهم معها، فرحمته واسعة، ومغفرته حاضرة. وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق!»[3].

ولشدة عذاب الله عز وجل وخطورته، ذكر القرآن الكريم حرص وخوف عدد من الأنبياء عليهم السلام على أقوامهم وتحذيرهم من الكفر والتكذيب المستحق لعذاب الله الدنيوي والأخروي، فمن ذلك خوف نوح عليه السلام على قومه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود:٢٥-٢٦].

ومن ذلك خوف هود عليه السلام على قومه في قوله تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥١١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١١/ ١٩١-١٩٢.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٠٠ بتصرف.

خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف:٢١].

كما حذر شعيب عليه السلام قومه من عذاب ربهم إذا استمروا على عنادهم وكفرهم وتطفيفهم في الميزان، في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود:٨٤].

وقد سجل القرآن الكريم أيضًا خوف بعض الصالحين على أقوامهم، ونصحهم لهم، فمن ذلك نصيحة مؤمن آل فرعون لقومه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر:٣٠-٣٣].

٣. الخوف من التقصير في الواجبات.

لما علم المؤمنون أن ميزان الحساب دقيق يجازي على مثقال الذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وأن الكتاب لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

دفعهم ذلك إلى المراقبة الدائمة والمحاسبة المستمرة لجميع أعمالهم خشية أن يتسرب إليها شيء يفسدها أو مخافة ألا يؤدوها على الوجه الأكمل.. وقد أشار الله عزوجل إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠].

«قال الزّجّاج: قلوبهم خائفةٌ؛ لأنّهم إلى ربّهم راجعون، وسبب الوجل هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب، لا مجرّد رجوعهم إليه سبحانه. وقيل: المعنى: أنّ من اعتقد الرّجوع إلى الجزاء والحساب وعلم أنّ المجازي والمحاسب هو الرّبّ الّذي لا تخفى عليه خافيةٌ لم يخل من وجلٍ»[1].

«قيل: وجل العارف من طاعته أكثر من مخالفته؛ لأنّ المخالفة تمحوها التّوبة والطّاعة تطلب التّصحيح. وقال الحسن: المؤمن يجمع إحسانًا وشفقةً، والمنافق

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٨.

يجمع إساءةً وأمنًا»[1].

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: (لا يا بنت الصّدّيق، ولكنّهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدّقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦١])[2].

وهكذا يطهر الخوف والوجل قلوب المؤمنين من شوائب الاغترار أو العجب أو الرياء أو غير ذلك من آفات القلوب، ليمنح هذه القلوب الوجلة حساسية وتوقّيًا لكل مفسدات الأعمال.

ثانيًا: خوف غير مشروع:

وهو الذي لم يكن من الله، ولا من صفاته المقتضية للهيبة والخشية، ولا من معاصي العبد وجناياته، بل يكون لغير ذلك من الأمور.

وقد ذكر القرآن الكريم صورًا من الخوف المذموم، نذكر منها:

١. الخوف من الشيطان.

منذ اللحظة الأولى لرفض إبليس اللعين السجود لآدم وإعلانه تمرده، واستحقاقه الطرد من رحمة الله، ناصب إبليس آدم وذريته العداء وسعى بشتى الطرق لإضلالهم وإغوائهم.

لذا تعددت النصوص القرآنية التي تحذر من عداوة هذا الخبيث، ودعت عباد الله إلى عدم الخوف من كيده ومكره، كما دعتهم إلى عدم الاستجابة لوساوسه التي يلقيها عبر أوليائه من الكافرين والمنافقين لتوهين عزيمة المؤمنين وتثبيطهم عن الدعوة والجهاد، كما صور القرآن الكريم حال المؤمنين بعد غزوة أحد وهم في طريقهم إلى حمراء الأسد حيث أثخنتهم الجراح وأنهكهم القتال.

فاستغل الشيطان هذه الفرصة ليلقي بالوهن في قلوبهم ويخوفهم من عدوهم ويوهمهم بأنهم عدد كثير وأولو قوة وبأس شديد، وأن من مصلحة المؤمنين أن يقعدوا عن لقائهم، ويجبنوا عن مدافعتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣٧٩.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المؤمنين، رقم ٣١٧٥.
وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ٣/ ٢٨٧.

«وفي تخويف أوليائه قولان:

أحدهما: أنه يخوف المؤمنين من أوليائه المشركين، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

والثاني: أنه يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين، وهذا قول الحسن، والسدي»[1].

والقول الأول أولى بالصواب، فالشيطان يسعى لتثبيط المؤمنين عن قتال عدوهم بما يقذفه في قلوبهم من الخوف من كثرة أعدادهم وقوة أسلحتهم.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

«أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته. وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله»[2].

ومن المخاوف التي يثيرها الشيطان في قلوب العباد الخوف من الفقر، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة:٢٦٨].

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ «أي: يخوّفكم منه، وينذركم به، إذا أنتم أنفقتم في سبيل اللّه، والأصل فى الوعد أن يكون بالخير، والإيعاد بالشرّ، ووعد الشيطان هنا لمن يوسوس له بالشحّ والإمساك مخافة الفقر وعده له بالفقر، إنما هو في صورة الخير، إذ يحذره ويريه عاقبة أمره، فهو وعد الناصح الأمين الحريص على مصلحة من ينصحه. هكذا يزين الشيطان للناس الشر ويلبسه وجه النفع والخير»[3].

وفي مقابل وعد الشيطان بالفقر، هناك وعد الله بالمغفرة والفضل وسعة العطاء ووفرته لمن أعطى وبذل وأنفق فى سبيل اللّه.. فمن استجاب لوعد الشيطان قاده إلى الهلاك والخسران، ومن استجاب لدعوة الرحمن نال الرحمة والرضوان.. وقد قدمت الآية السابقة الدواء الناجع لعلاج وساوس الشيطان في تخويف العباد بالفقر، وذلك بتذكيرهم بأن الله تعالى بيده خزائن السماوات والأرض، يرزق عباده من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون، ويعوّض عليهم من واسع فضله أضعاف ما أنفقوه، كما أنه سبحانه يجعل إنفاقهم سببًا في مغفرة سيئاتهم والعفو عن ذنوبهم مع أنه غني عنهم ولا تنفعه طاعتهم أو تضره معصيتهم.

فهل يبقى مع وعد الله عز وجل لعباده

(١) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٣٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥٧.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١/ ٣٣٥.

أي وساوس أو مخاوف من الفقر؟!

وهكذا يستغل الشيطان خوف كثير من الناس من الفقر ليمنعهم من الإنفاق في سبيل الله ومرضاته، ويغريهم بالبخل، ويصيبهم بالهم والقلق الدائمين، فينغص عليهم عيشهم، ويحرمهم من السكينة والطمأنينة.

فأي جريمة يرتكبها المرء في حق نفسه عندما يستجيب لوعود الشيطان بالفقر وينسى أن ربه عز وجل واسع العطاء عظيم الفضل والإنعام!

إن القلب المؤمن لا يطرقه خوف الشيطان؛ لأنه يسجد في محراب الخشية لله عز وجل، فإذا اقترب منه الشيطان يغريه بالأوهام ويوسوس له بما يخيفه عاد سريعًا أعداء الإسلام في سبيل ذلك كافة الوسائل والتدابير التي من شأنها بث الخوف في قلوب المؤمنين وتثبيطهم، وإضعاف روحهم المعنوية. لذا كان الخوف من الأعداء من صور الخوف المذموم التي حذر الله عزوجل منها في أكثر من آية؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

وقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣].

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣].

وكيف يخاف المؤمن من أعدائه وهو يوقن بأن الله عز وجل وليه وناصره، صاحب القدرة النافذة والعزة الحقيقية، بيده الآجال

أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: لا يردّهم عمّا هم فيه من طاعة اللّه، وقتال أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لا يردّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يصدّهم عنه صادٌّ، ولا يحيك فيهم لوم لائمٍ ولا عذل عاذلٍ»[(١)].

فهم «يظهرون الشّدّة والغلظة والتّرفّع على الكافرين، ويجمعون بين المجاهدة في سبيل اللّه وعدم خوف الملامة في الدّين، بل هم متصلّبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحقّ وحزب الشّيطان من الإزراء بأهل الدّين وقلب محاسنهم مساوئ ومناقبهم مثالب، حسدًا وبغضًا وكراهةً للحقّ وأهله»[(٢)].

وقد قص القرآن علينا موقف بني إسرائيل لما أصابهم الخوف من عدوهم وجبنوا عن مقاتلتهم، ورفضوا دخول الأرض المقدسة، فاستحقوا الخزي والهوان.

قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة:٢١-٢٢].

وهكذا تصور هذه الآيات مدى الخوف الذي تمكن من قلوب بني إسرائيل حتى أصابهم بضعف الهمة وخور العزيمة والجبن عن ملاقاة عدوهم رغم وعد الله عز وجل لهم بالغلبة والنصر.

«وهذا الجبن والخوف والوهن هو أساس الداء عند أية أمة تسلك ما سلكه أولئك اليهود، حيث ترفض طريق القتال والجهاد والاستشهاد، وتؤثر عليه طريق الذل والضعف والاستسلام، وخداع النفوس بأوهام وخيالات، تتوهم فيها الانتصار على الأعداء عن طرق الضغط السلمي أو المفاوضات المباشرة وغير المباشرة. أو تنتظر خروج أعدائها من البلاد، وانسحابهم من الميدان بكرم وأريحية، وتعتبر هذا المنطق هو قمة الوعي والفطنة والدهاء والواقعية والاعتدال!»[(٣)].

وقد نجح أعداء الإسلام في استخدام سلاح بث الشائعات ونشر الأكاذيب والأراجيف عبر وسائل الإعلام التي تصور قوة العدو بأنها لا تقهر، وأنهم يمتلكون من الأسلحة الحديثة الفتاكة ووسائل القتال المتطورة والتي لا يمكن مواجهتها، وذلك من أجل بث الخوف والرعب في قلوب المسلمين، وهو ما يعرف بالحرب النفسية.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥١.
(٣) مع قصص السابقين في القرآن، صلاح الخالدي ص ١٨٩.

ولا بديل أمام المسلمين حيال ذلك إلا الاعتصام بالله والتوكل عليه وإعداد القوة واتخاذ الأسباب، ولتكن لهم عبرة في أسلافهم الأبرار عندما مدحهم الله عز وجل في كتابه بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣].

فلم يزدهم إرجاف المرجفين وتثبيط المخذّلين إلا إيمانًا وتسليمًا.

٣. الخوف من الموت المؤدي للنكوص عن الجهاد والفرار من التكاليف.

إن الخوف من الموت خوف طبيعي أو فطري لا يلام عليه العبد إلا إذا كان سببًا لترك واجب، أو فعل محرم. فالخوف من الموت محفز قوي لأصحاب القلوب الحية يدفعها للمسارعة إلى الخيرات والبعد عن المعاصي والسيئات، كما يسوقها إلى التوبة كلما حادت عن الصراط المستقيم.

أما إذا أدى الخوف من الموت إلى الجبن والخور، وترك تكاليف الجهاد، فهو خوف مذموم.

ولقد قص علينا القرآن الكريم قصة قوم خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم خوفًا من الموت.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة:٢٤٣].

يقص الله تعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، إما بسبب الخوف من العدو، أو بسبب وباء عام كالطاعون ونحوه، فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم، ليروا هم وكل من خلف بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله تعالى لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف، ولا لاغترار مغتر.

«وفي هذه القصّة عبرةٌ ودليلٌ على أنّه لن يغني حذرٌ من قدرٍ وأنّه، لا ملجأ من اللّه إلّا إليه، فإنّ هؤلاء فرّوا من الوباء طلبًا لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعًا في آنٍ واحدٍ»(١).

«إن الحذر من الموت لا يجدي، وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلًا، ولا يردان قضاءً، وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة، وإنه متفضل في الحالتين: حين يهب، وحين يسترد، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد. وإن مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك، وإن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء.

إن تجمع هؤلاء القوم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ وخروجهم من ديارهم ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ لا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٦١.

يكون إلا في حالة هلع وجزع، سواء كان هذا الخروج خوفًا من عدو مهاجم، أو من وباء حائم، إن هذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئًا»[1].

٤. الخوف المجاوز لليأس والقنوط.

ذكرنا أن الخوف المحمود ما حجز عن محارم الله، فإذا زاد عن حده، وأورث اليأس والقنوط، دفع المرء إلى استمراء المعاصي والذنوب نتيجة قوة يأسه.

لذا فالواجب على المؤمن ألا «يدع الخوف يفضي به إلى حد يوقعه في القنوط واليأس من رحمة الله، فإن هذا الخوف مذموم، وهذا الخوف الموقع في الإياس: إساءة أدب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه وجهل بها»[2].

لذا تنوعت النصوص القرآنية التي تدعو المؤمن إلى الجمع بين الخوف والرجاء، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٩﴾ [الزمر:٩].

كما جمع تعالى بين مغفرته وعذابه في قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

«فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائمًا بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها»[3].

كما حذر تعالى عباده من اليأس من روحه والقنوط من رحمته.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَايْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر:٥٦].

«إنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون؛ الضالون عن طريق الله الذين لا يستروحون روحه، ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته؛ فأما القلب الندي بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمت حوله الخطوب، ومهما غام الجو وتلبد، وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر؛ فإن رحمة الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٦٤.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٢٣٧٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٨.

قريب من قلوب المؤمنين المهتدين، وقدرة الله تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج، وتغير الواقع كما تغير الموعود»[1].

«وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم، فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخلقًا لازمًا، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته، فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئ من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها. فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل: لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه»[2].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٤٨.
(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي ص ٢١٣-٢١٤.

وهناك صور أخرى للخوف المذموم تشمل: خوف المرء من وثن، أو طاغوت، أو ميت، أو غائب من جن أو إنس أن يصيبه بما يكره؛ كما قال الله عن قوم هود عليه السلام أنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود:٥٤].

«أي: ما نقول إلّا أنّه أصابك بعض آلهتنا الّتي تعيبها وتسفّه رأينا في عبادتها بسوءٍ: بجنونٍ، حتّى نشأ عن جنونك ما تقوله لنا وتكرّره علينا من التّنفير عنها، فأجابهم بما يدلّ على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربّه وتوكّله عليه، وأنّهم لا يقدرون على شيء مما يريده الكفّار به، بل اللّه سبحانه هو الضّارّ النّافع، فقال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ﴾ أي: من إشراككم من دون اللّه من غير أن ينزّل به سلطانًا فكيدوني جميعًا أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنّها تقدر على الإضرار بي وأنّها اعترتني بسوء ثمّ لا تنظرون، أي: لا تمهلوني، بل عاجلوني واصنعوا ما بدا لكم. وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم الّتي يعبدونها ما يصكّ مسامعهم، ويوضّح عجزهم وعدم قدرتهم على شيءٍ إنّي توكّلت على اللّه ربّي وربّكم فهو يعصمني من كيدكم، وإن بلغتم في تطلّب وجوه الإضرار بي كلّ مبلغٍ، فمن

توكّل على اللّه كفاه»[1].

وقد خوّف المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوثانهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر:٣٦].

وهذا من ضلال المشركين إذ يحسبون أن آلهتهم الزائفة تلك تملك ضرًّا أو نفعًا، وتستطيع أن تلحق الأذى والسوء بمن يريدون.. فالله عز وجل هو الذي يتولى رعاية نبيه وحفظه كما يتولى رعاية عباده الصالحين، فمن ذا الذي يجرؤ أن يمس أولياء الله بسوء وهم في كنفه وعنايته؟

ومن ذا الذي يصيبه القلق أو الخوف من أوثان المشركين على اختلاف صورها وأشكالها وهو يتوكل على من بيده ملكوت السماوات والأرض؟

وقد أعلن إبراهيم عليه السلام هذه الحقيقة في وجه المشركين في يقين جازم وحسم قاطع، في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام:٨١].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٠٥.

نفي الخوف عن الله

من لوازم الإيمان بالله: الإيمان بأسمائه وبصفاته، والإيمان بهذه الصفات يشمل إثبات كل صفات الكمال والجلال والجمال لله عز وجل، وتنزيهه عن كل صفات النقص وعن مشابهته شيئًا من مخلوقاته، وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه له المثل الأعلى، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل:٦٠].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

يقول الشوكاني: «وللّه المثل الأعلى وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجود الشّامل والعلم الواسع، أو التّوحيد وإخلاص العبادة، أو أنّه خالقٌ رازقٌ قادرٌ مجازٍ»[2].

وأضاف الشيخ السعدي رحمه الله: «﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين والذكر الجليل والعبادة منهم. فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه»[3].

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٧٠-١٧١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٢.

ومن الصفات المنفية عن الله عز وجل: صفة الخوف، «فالخوف يتضمن نقصان العلم والقدرة والإرادة، فإن العالم بأن الشيء لا يكون، لا يخافه، والعالم بأنه يكون ولا بد قد يئس من النجاة منه فلا يخاف، وإن خاف فخوفه دون خوف الراجي، وأما نقص القدرة فلأن الخائف من الشيء هو الذي لا يمكنه دفعه عن نفسه، فإذا تيقن أنه قادر على دفعه لم يخفه.

وأما نقص الإرادة فلأن الخائف يحصل له الخوف بدون مشيئته واختياره، وذلك محال في حق من هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، ومن لا يكون شيء إلا بمشيئته وإرادته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا لا ينافي كراهته سبحانه وبغضه وغضبه، فإن هذه الصفات لا تستلزم نقصًا لا في علمه ولا في قدرته ولا في إرادته، بل هي كمال؛ لأن سببها العلم بقبح المكروه المبغوض المغضوب عليه، وكلما كان العلم بحاله أهم كانت كراهته وبغضه أقوى ولهذا يشتد غضبه سبحانه على من قتل نبيه أو قتله نبيه»[1].

قال الله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس:١٤-١٥].

«قال ابن عبّاسٍ: لا يخاف اللّه من أحدٍ تبعةً. وكذا قال مجاهدٌ، والحسن، وبكر بن عبد اللّه المزنيّ، وغيرهم. وقال الضّحّاك والسّدّيّ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي: لم يخف الّذي عقرها عاقبة ما صنع. والقول الأوّل أولى؛ لدلالة السّياق عليه، واللّه أعلم»[2].

وقال أبو السعود: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ «أي: عاقبتها وتبعتها كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك فيبقي بعض الإبقاء وذلك أنّه تعالى لا يفعل فعلًا إلاّ بحق وكلّ من فعل بحق فإنه لا يخاف عاقبة فعله وإن كان من شأنه الخوف»[3].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ وهذا يعني: «أن الله لا يخاف من عاقبة هؤلاء الذين عذبهم، ولا يخاف من تبعتهم؛ لأن له الملك وبيده كل شيء، بخلاف غيره من الملوك لو انتصروا على غيرهم، أو عاقبوا غيرهم تجدهم في خوف يخشون أن تكون الكرة عليهم. أما الله عز وجل فإنه لا يخاف عقباها. أي: لا يخاف عاقبة من عذبهم؛ لأنه سبحانه وتعالى له الملك كله، والحمد كله، فسبحانه وتعالى ما أعظمه، وما أجل سلطانه»[4].

وخلاصة القول إن الخوف صفة نقص تتصف بها المخلوقات الحية من أجل تحقيق افتقارها وفرارها وحاجتها الدائمة إلى مولاها.. أما الخالق جل وعلا فإنه

(١) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٤ / ١٤٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١٥.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٥٣٩.

(٤) تفسير جزء عم، ابن العثيمين ص ٢٢٩.

متنزه عن الخوف، فهو صاحب الإرادة التامة والمشيئة النافذة والقدرة الكاملة والهيمنة التامة والقوة القاهرة، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.. فهل يستطيع أحد من البشر الضعاف المهازيل أن يحول بينه سبحانه وبين تصرفه المطلق في شئون كونه بالحساب والمجازاة ؟! «سبحانه وتعالى ومن ذا يخاف؟ وماذا يخاف؟ وأنى يخاف؟ إنما يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه. فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل، يبلغ غاية البطش حين يبطش. وكذلك بطش الله كان: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾[البروج:١٢]، فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس»[1].

ألا فلترتدع وترعوي نفوس الطغاة التي استمرأت العدوان والظلم والطغيان، ولتستفق من نشوة سكرتها واغترارها بإمهال الله عز وجل لها واستدراجها!

ولتتأمل في حال المكذبين على مر العصور الماضية كانوا أشد منهم قوة، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وجعلهم أثرًا بعد عين، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم:٩٨].

الخوف طبيعة إنسانية

الخوف شعور فطري أوجده الله تعالى في النفس البشرية؛ ليعين الإنسان على اتقاء الأخطار التي تهدده مما يساعده على الحياة والبقاء، يقوى ويضعف حسب الحالة التي يكون فيها الإنسان والمؤثر الذي يتعرض له، فلا يخلو شخص من هذا الشعور مهما علت منزلته.

وهذا ما يؤكده علماء النفس: « فالخوف حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعر بها الإنسان فى بعض المواقف، ويسلك فيها سلوكًا يبعده عادة عن مصادر الضرر، وهذا كله ينشأ عن استعداد فطري أوجده الخالق فى الإنسان والحيوان، ويسمى الغريزة، ولابد أن يكون الخالق قد أوجد هذا الاستعداد الغريزي لحكمة تتعلق بصالح الكائن الحي، فالخوف هو الذي يدفعنا لحماية أنفسنا وللمحافظة عليها، فإذا كنا لا نخاف النار مثلًا فقد تحرقنا، وإذا كنا لا نخاف الحشرات والحيوانات الضارية فقد تقتلنا، وإذا كنا لا نخاف الجراثيم فقد تفتك بنا، وهناك كذلك الخوف من الزلل، وخوف الإنسان على سمعته وما إلى ذلك، ومن الطبيعي أن تقترن الحالة الشعورية الانفعالية (وهي الخوف) بالسلوك الملائم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩١٩.

وهو الخلاص من الخطر»[1].

يقول د. محمد بني يونس: «الخوف: ظاهرة طبيعية أو سوية، و لا يدل على أي اضطراب نفسي أو انحراف في الشخصية و طالما أن هناك أسبابًا معقولة له، وأن مستوى الخوف الذي يبديه الشخص الخائف يتناسب مع حجم المثير المخوف، والخوف في حد ذاته ليس شيئًا رديئًا يجب القضاء عليه، أو يجب الاستغناء عنه في مجالات التربية والمجالات الاجتماعية العادية»[2].

أما إذا تجاوز الخوف الحد المطلوب فإنه يصبح حالة مرضية تنغص على المرء معيشته، وتشل ذاكرته وتصيبه بالشلل الحركي، وتدفعه إلى الاستسلام والجمود.

ولقد وصف القرآن الكريم انفعال الخوف عند بعض الأنبياء عليهم السلام نتيجة تعرضهم لمؤثرات مختلفة[3]، نتناولها بإيجاز:

١. الخوف نتيجة شدة الموقف وعامل المباغتة.

ويتجلى ذلك بصورة واضحة في قصص موسى وداود ولوط عليهم السلام:

١. خوف موسى عليه السلام.

ويتجلى ذلك في موقفين:

الموقف الأول: عندما تحولت العصا في يده إلى ثعبان يتحرك يمينًا وشمالًا، قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ [النمل:٩-١٠].

قال عز وجل: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝٣١﴾ [القصص:٣١].

لقد فوجىء موسى عليه السلام بمجرد أن ألقى العصا أنها صارت حية كبيرة هائلة مخيفة، تهتز وتضطرب، تسعى وتسير، وتتحرك حركة سريعة مخيفة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ «أي: انطلق مسرعًا، فأعطاها ظهره، وأطلق ساقيه للريح فرارًا من هذا الهول الذي طلع عليه من تلك العصا التي كانت خشبة جامدة في يده منذ لحظات»[4].

لقد كان الأمر بالغ الصعوبة خاصة أن موسى عليه السلام فى مثل هذا الموقف كان يحوطه القلق والاضطراب، وتغمره

(١) أسس الصحة النفسية، عبد العزيز القوصي ص ٣٣٦.
(٢) سيكولوجية الدافعية والانفعالات، محمد بني يوسف ص ٢٤٤-٢٤٥.
(٣) ذكر أنواع هذه المؤثرات رمضان القذافي في كتابه علم النفس في الإسلام ص ١١٦.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٠ / ٢١٧.

الوحشة، ويحتويه الظلام وهو عائد من مدين إلى مصر يبحث عن الأنس والدفء في ظلمة الليل، ووحشة الصحراء، كما قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ [طه:٩-١٠].

لذا طمأنه الله عزوجل فقال له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ «وهذا أبلغ ما يكون في التأمين، وعدم الخوف.

فإن قوله: ﴿أَقْبِلْ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل في الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ أمر له بشيئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنًا، واثقًا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية، أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون أجراً له، وأقوى وأصلب»[1].

الموقف الثاني: عند لقاء السحرة، وإذا حبالهم وعصيّهم بما عمل فيها من حيل يخيّل للناظر إليها أنها حيات تسعى.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه:٦٥-٦٨].

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ «أي: أحسّ، وقيل: وجد، وقيل: أضمر، وقيل: خاف، وذلك لما يعرض من الطّباع البشريّة عند مشاهدة ما يخشى منه، وقيل: خاف أن يفتتن النّاس قبل أن يلقي عصاه، وقيل: إنّ سبب خوفه هو أنّ سحرهم كان من جنس ما أراهم في العصا، فخاف أن يلتبس أمره على النّاس فلا يؤمنوا، فأذهب اللّه سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشّره به بقوله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾»[2].

إن خوف موسى عليه السلام في هذا المشهد ليس خوف جبن أو خوفًا على حياته، بل كان خائفًا من أن يقع الناس تحت تأثير هذا المنظر بصورة يصعب معها إرجاعهم إلى الحقّ. «فالتعبير عن الحالة العرضية التي مرت بموسى عليه السلام بكلمة ﴿خِيفَةً﴾ بدل (خوف)، وتعيين هذه الحالة بأنها كانت في نفسه، يشير إلى أنها كانت حالة نفسية عرضية سريعة، سرعان مازالت وتلاشت، وحلّ محلها يقينه وثقته

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢١.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٧٤-٣٧٥.

وثباته، وهذا التوجس النفسي لم يؤثر على موقفه وتحديه، ولم يتحول إلى خوف وجودي، ينتج آثارًا عملية سيئة»[1].

فما أروع عناية الله عز وجل بأوليائه تربط على قلوبهم وتثبت أقدامهم في أحلك المواقف وأصعب اللحظات لتسكب في قلوبهم السكينة والطمأنينة.

٢. خوف داود عليه السلام في موقفه مع الخصمين.

قال الله عز وجل: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص:٢١-٢٢].

«تتحدّث الآيات عن قصة حدثت لداود عليه السلام، وتذكر أن خصمين دخلا عليه مجلسه في صورة غير مألوفة، إذ تسورا عليه السور، ولم يدخلا من المدخل الطبيعي إليه. ففزع منهما، وتوقع الشر من دخولهما على تلك الصورة، التي يقتحمان عليه فيها مجلسه اقتحامًا، من غير استئذان، وهو الملك، ذو البأس والسلطان، الذي تقوم على حراسته الجنود، والحجّاب»[2].

وكأن هذه الآيات تبين لنا أن داود عليه السلام مع ما أتاه الله من الحكم، والملك، والسلطان، والجاه، والجيوش والحراس. يفزع ويخاف، ويتوقع الشر، وحصول المكروه. مما يؤكد أن الخوف انفعال فطري لا يخلو منه أحد مهما كانت قوته وسلطانه أو علت مكانته ومنزلته.

٣. خوف لوط عليه السلام على ضيوفه من قومه المجرمين.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت:٣٣-٣٤].

تصور هذه الآيات الكرب والضيق والهم والأسى والحزن والخوف الذي أصاب لوطًا عليه السلام عندما جاءته الملائكة في صورة سويّة من صور البشر، فيهم الشباب، والنضارة، والجمال. فخاف عليهم من تعرض قومه الشاذين لهم وقد اشتهروا بفعل الفاحشة دون تحرج أو حياء، فأحس لوط عليه السلام وهو في هذا الموقف العصيب بأنه عاجز عن حماية ضيوفه والتصدي لقومه الذين أعمتهم سكرة الشهوة عن الاستجابة

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي ٢/ ٤٥٣.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ١٠٦٦.

لنداءاته المتكررة عبر استثارة النخوة الآدمية فيهم أو استجاشة وجدان تقوى الله فيهم، فقول الملائكة للوط عليه السلام: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ يدل على ظهور أمارات الخوف عليه مع ما أصابه من الهم والأسى.

٢. الخوف نتيجة الضغوط المتنوعة والشعور بالألم.

ويتجلى ذلك في خوف موسى عليه السلام من ضغط فرعون وإفراطه في التعدي.

قال تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٢-٤٦].

لما كلف الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون ودعوته إلى الحق، تذكر موسى عليه السلام -وقد تربى في قصره- بطش فرعون وطغيانه وجبروته، كما أن موسى قد قتل القبطي بطريق الخطأ، فهناك احتمال كبير أن يتعرض للمساءلة والحساب، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء:١٤].

فعندها توجه موسى وهارون عليهما السلام إلى الله عز وجل: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، فقد خاف موسى عليه السلام من أن يعجل فرعون بعقابه قبل أن يسمع منه ما أرسل به إليه، وهكذا شأن الطاغية دومًا إذا سمع شيئًا لا يعجبه ولا يتفق مع هواه، تعجل الأمر بالقتل.

وهنا تأتي المعية الربانية بالحفظ والتأييد والرعاية والعناية ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «لا تخافا منه، فإنّني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيءٌ، واعلما أنّ ناصيته بيدي، فلا يتكلّم ولا يتنفّس ولا يبطش إلّا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي»[(١)].

فأي ثقة وطمأنينة يستشعرها القلب المؤمن وهو يوقن أنه في معية من بيده ملكوت كل شيء، ومن يقول للشيء كن فيكون! فيا لقرة أعين المؤمنين بمعية ربهم تحفظهم في أشد المواقف وتحميهم من كيد الطغاة وبطش المجرمين!

٣. الخوف من المجهول أو غير المعلوم.

ويتجلى ذلك في هذه المواقف الثلاثة:

١. خوف إبراهيم عليه السلام من ضيوفه.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٩٦.

﴿الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات:٢٤-٢٨].

يصور هذا المشهد القرآني وصول مجموعة من الملائكة على صورة رجال إلى منزل إبراهيم عليه السلام، وكان إبراهيم لا يعرفهم، دخلوا عليه منزله، فقام من فوره وقدم لهم طعامًا شهيًّا، فلم تمتد أيديهم إليه، فلما رأى إبراهيم ذلك منهم نكرهم.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «نكر الشيء وأنكره: ضد عرفه، أي: نكر ذلك منهم، ووجده على غير ما يعهد من الضيف، فإن الضيف لا يمتنع من طعام المضيف إلا لريبة، أو قصد سيء، وأحس في نفسه خيفة منهم وفزعًا، أو أدرك ذلك وأضمره إذ شعر أنهم ليسوا بشرًا، أو أنهم ربما كانوا من ملائكة العذاب، والوجس يطلق على ما يعتري النفس من الشعور والخواطر عند الفزع»[1].

وقد عبر الله عز وجل عن هذا الموقف نفسه في سورة هود بقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود:٧٠].

ثم اكتشف إبراهيم حقيقة ضيوفه وأنهم ملائكة الرحمن جاءوا لإهلاك قوم لوط كما بشروه بغلام عليم يكون له من زوجه العجوز العقيم.

«والجميل في التعبير أنه بمجرد ما داخل إبراهيم الخوف، وظهرت علاماته على وجهه، بادر الملائكة إلى طمأنته، وطرد الشعور بالخوف من فؤاده، بالكشف عن هويتهم الملائكية الكريمة، وتعزيزها بإلقاء بشرى الولد، بردًا وسلامًا على إبراهيم، فالرسول آمن عند ربه، وما كان ليروعه شيء ولا أحد أبدًا، وإنما كان خوف إبراهيم توجسًا، أي: شعورًا خفيًّا، فقوله: ﴿وَأَوْجَسَ﴾ من الوجس، وهو إضمار الشعور بالخوف في النفس. ومع ذلك سارعت الملائكة إلى طرد ذلك الخاطر من قلبه، وتمكين وجدانه من روح الأمن والسلام»[2].

٢. خوف يعقوب عليه السلام على يوسف من الذئب.

منذ اللحظة الأولى التي قصَّ فيها يوسف رؤياه على أبيه يعقوب عليهما السلام، أدرك يعقوب أنه سيكون ليوسف مستقبل مشرق زاهر، فطلب من يوسف ألا يقص رؤياه على إخوته خوفًا من كيدهم ومكرهم،

(١) تفسير المنار، الشيخ محمد رشيد رضا ١٢/١٢٨.

(٢) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ٢/١٠٧.

خاصة وأنهم كانوا يرون تعلق يعقوب به وإيثاره عليهم في زعمهم، ثم جاءت اللحظة التي طلب فيها إخوة يوسف من أبيهم أن يرسل معهم يوسف في نزهة للهو واللعب، ووعدوه بحفظه وحمايته، كما حكى القرآن في قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف:١١-١٣].

«لقد سلّم لهم أبوهم بما طلبوه، ولكنه أظهر لهم بعض مخاوفه، إذا هو أجابهم إلى ما طلبوا.. فهو يحزن لبعد يوسف عنه، ولو ليوم أو بعض يوم، إذ كان سلوته، وأنسه.

ثم هو يخشى أن يصيبه مكروه إذا هم غفلوا عنه، فيعدو عليه ذئب من تلك الذئاب المتربّصة لصيد تناله من إنسان أو حيوان في هذه الفلاة التي يرعون فيها! وفي قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ قد وضع بين أيديهم السلاح الذي يستعملونه في تنفيذ أمرهم الذي دبّروه، وليكون لهم منه ما يصدّق ظنون أبيهم ومخاوفه فيما ظنّه وتخوّفه؛ فكانت قصّة الذئب التي جاءوا أباهم بها، هي من وحي هذه الظنون وتلك المخاوف التي أعلنها أبوهم لهم.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف:١٤]. إنهم التقطوا من أبيهم كلمة ﴿الذِّئْبُ﴾ وجعلوها العدوّ المتربص بهم، وأنهم سيأخذون حذرهم منه، وهم عشرة رجال، وإنه لن يستطيع أن ينال شيئًا منهم»[1].

«وهذا المشهد يؤكد حصول انفعال الخوف عند يعقوب عليه السلام تجاه ولده وقرّة عينه يوسف عليه السلام، وهذا الأمر طبيعي جدًّا، وهو فطرة بشرية مغروزة في أعماق الآباء تجاه أولادهم، فالخطر قد يدهم يوسف عليه السلام من غيرة إخوته وحسدهم، أو من بطشهم به من خلال وسوسة الشيطان لهم، فجاء تحذير يعقوب عليه السلام له. ومن حق يعقوب عليه السلام أن يخاف وينفعل، سواء خوفه من الذئب، أو من إهمالهم أخاهم فيأكله الذئب، أو من إخوته أنفسهم، وهو يستشعر تغلغل الحسد إلى قلوبهم»[2].

٣. خوف موسى عليه السلام من فرعون وزبانيته بعد قتله القبطي بطريق الخطأ.

قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١٢٤٣-١٢٤٤.

(٢) الانفعالات النفسية عند الأنبياء في القرآن الكريم، إبراهيم عبدالرحيم مصطفى، رسالة ماجستير، ص ٦٨-٦٩ باختصار.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

[القصص:١٨-٢١].

تصور هذه الآيات لحظات الحيرة والاضطراب التي انتابت موسى بعد قتله للقبطي بطريق الخطأ وانتشار الخبر في قصر فرعون، وخوف موسى من اكتشاف أمره، خاصة بعدما نصحه أحد الناصحين من آل فرعون بالخروج من مصر قبل أن تصل إليه أيدى زبانية فرعون.

«وقد صور القرآن حالة موسى عندما خرج من المدينة.

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص:٢١].

خرج من المدينة خائفًا، وكان قد أصبح في المدينة خائفًا، وخرج من المدينة يترقب، وكان قد أصبح في المدينة يترقب. كان في المرة الأولى خائفًا أن يتعرف عليه أحدهم؛ لأنه قتل قبطيًّا بالأمس، وكان يترقب ويتلفت وينظر يمنة ويسرة.

أما الآن فهو خائف من جنود فرعون، لأن معهم أمرًا بالقبض عليه وقتله.

وخوف موسى طبيعي، لا يلام ولا يعاب عليه، وليس جبنًا ولا ضعفًا، ألا تريد من رجل مطلوب القبض عليه وقتله أن يخاف من ذلك؟

ولكن خوف موسى الطبيعي من الخطر الفرعوني المحدق به لم يؤثر على إيمانه بالله وتوكله عليه وثقته به، فكل حياته كانت هكذا، وكان يرى فضل الله عليه وحفظه له، في كل ما مر به من أحداث»[1].

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي ٢/ ٣٢٣.

أسباب الخوف المحمود

أولًا: معرفة الله بصفات جلاله وعظمته وكبريائه:

إن التفكر في عظمة الله تعالى عبر التدبر في أسمائه وصفاته، يفتح للقلب البشري نافذة يطل منها على أوصاف العظمة والكبرياء لله عز وجل، بما يسكب في القلب الخوف منه والحرص على خشيته وتقواه، فالقلب اليقظ حين يتأمل في صفات مولاه ويعلم أنه هو القوي المتين، الكبير المتعال، الواحد القهار، الحميد المجيد، القادر المقتدر والجبار المتكبر، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد، ذو الجبروت والملكوت، عندها تنتابه قشعريرة ووجل تدفعه إلى سلوك سبيل الهدى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢].

إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر بالله في أمر أو نهي فيغشاه جلاله، وتنتفض فيه مخافته ويتمثل عظمة الله ومهابته، إلى جانب تقصيره هو وذنبه، فينبعث إلى العمل والطاعة، وهي الحال التي يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في صدد أمر أو نهي فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله؛ وَجَلًا وتَقْوَى لله[1].

وقد نعى الله عز وجل على أولئك الذين لا يتفكرون في عظمة ربهم في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح:١٣].

وقد ذكر الماوردي في هذه الآية خمس تأويلات نذكر منها:

«أحدها: ما لكم لا تعرفون للّه عظمة، قاله مجاهد، وعكرمة.

الثاني: لا تخشون للّه عقابًا وترجون منه ثوابًا، قاله ابن عباس في رواية ابن جبير.

الثالث: لا تعرفون للّه حقه ولا تشكرون له نعمه، قاله الحسن.

الرابع: لا تؤدون للّه طاعة، قاله ابن زيد»[2].

فما أعجب من يرى آيات الله مبثوثة في الكون والأنفس تنبىء عن عظمته وجلاله، ثم ينصرف دون أن يخشع قلبه أو تنتفض جوارحه أو يسكن الإيمان واليقين وجدانه!

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٧٥ بتصرف.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١٠١.

ثانيًا: الشعور بالتفريط في جنب الله، ومعرفة قبح عواقب الذنوب والمعاصي:

إن القلب اليقظ المترع بالخوف من مولاه ينتفض وجلًا وخشية كلما وقع في المعصية أو قصّر في الطاعة؛ لأنه يعلم ما للمعاصي والذنوب من أضرار سيئة وعواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، وأنها قد تشكل -مع إلفها والتعود عليها- حجابًا يحرمه تذوق حلاوة الإيمان ولذة العبادة، ويقوده إلى الغفلة واتباع الهوى.

«إن الخوف منه تعالى مانعٌ للذنب، عاصمٌ من الخطأ، حافظٌ من الزلل، مبعدٌ عن الخلل، حافزٌ للنفس، موقظٌ للضمير، حاثٌ على الاجتهاد، وأنى لقلب لم يزرع فيه خوف الله أن يرتدع عن الهوى، ويرعوي عن الجهل، وكيف لفؤادٍ لم تسكنه خشية الله والهيبة لجلاله، والوجل من بطشه، والإشفاق من وعيده؛ كيف له أن يعمر بالطاعة، ويتجافى عن المعصية، ويتنكر للخطيئة، ويستوحش من الذنب»[1].

فالخوف من الله يجعل العبد في حساسية وتوق للذنوب؛ لأنه يعلم أن كل ما يفعله من طاعات ومعاصٍ مسجل في صحيفته، منشور في ديوانه، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران:٣٠].

كما أخبر تعالى أن الميزان دقيق يزن أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

قال ابن القيم: «العبد إما أن يكون مستقيمًا أو مائلًا عن الاستقامة، فإن كان مائلًا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف، وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه، فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوء عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان، فإذا علم قبح

(١) الله أهل الثناء والمجد، ناصر الزهراني ص ٦٤٣.

الذنب، وعلم سوء مغبته، وخاف أن لا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد. وبالجملة، فمن استقر فى قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج فى قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو»[1].

ثالثًا: مراقبة الله تعالى في السر والعلن:

إن علم المؤمن بسعة علم الله تعالى وإحاطته وشموله ومراقبته، وأنه لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عنه ذرة، وأنه معه أينما كان، وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم، يعلم خلجات الأنفس، وخواطر القلب، وخائنة الأعين وما تخفي الصدور، كل هذه الحقائق إذا تمثلها القلب المؤمن غرست فيه شجرة الخوف من الله وامتدت فروعها إلى الجوارح، فآتت أكلها الطيبة بإذن ربها وأثمرت عملًا صالحًا، وقولًا رابحًا، وسلوكًا قويمًا، وفعلًا كريمًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤﴾ [المائدة:٩٤].

يخبر الله عز وجل في هذه الآية أنه ابتلى عباده المؤمنين بصيد البر يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًّا وجهرًا،ويقع في متناول أيديهم من غير معاناة، أو بحث عنه، إذ هو قريب دان، يغري بصيده، وذلك امتحان للتقوى في قلوبهم واختبار للخشية في نفوسهم، حيث لا يمنع المرء من الصيد في هذا الموطن إلا تقوى الله والخوف منه.

رابعًا: تذكر الموت وشدته والقبر وظلمته:

من أهم أسباب الخوف التفكر في الموت، المصير المحتوم، والأجل المكتوب، والخاتمة المنتظرة، لا مهرب منه ولا مفر، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ﴾ [الجمعة:٨].

لايفرق بين غني وفقير، ملك أو مملوك، عظيم أو حقير، الموت هو موعد ظهور نتيجة امتحان الدنيا وعندها ينقسم الناس إلى فريقين: فريق ينتظره التكريم والإحسان، كما قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

وفريق آخر ينتظره الخزي والهوان كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۙ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠﴾ [الأنفال:٥٠].

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٦١٦.

يقول أبو حامد الغزالي مصورًا هذه اللحظات العصيبة:

«اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول، ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرًا بأن ينغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نفس بصدده، كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته، وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل»[1].

وقد عرض القرآن الكريم صورة لحظة الموت وخروج الروح بما يبث الخشية في القلب، ويغرس المراقبة في النفوس، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة:٢٦-٣٠].

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ «أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها. فهذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها»[2].

ويلحق بالخوف من الموت الخوف من القبر وضمته وظلمته ووحشته.. عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: (إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة، وإن كان من أهل النّار فمن أهل النّار، فيقال: هذا مقعدك حتّى يبعثك الله يوم القيامة)[3].

خامسًا: التفكر في القيامة وأهوالها:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾ [الحج:١].

«أي: اخشوه في أوامره أن تتركوها، ونواهيه أن تقدّموا عليها. والاتّقاء: الاحتراس من المكروه، والمعنى: احترسوا بطاعته عن عقوبته. قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ الزّلزلة: شدّة

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٣/١٨٣٩-١٨٤٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٥٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، رقم ١٣٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم ٢٨٦٦.

الحركة، وأصل الكلمة من زلّ عن الموضع، أي: زال عنه وتحرّك، وهذه اللّفظة تستعمل في تهويل الشّيء. وقيل: هي الزّلزلة المعروفة الّتي هي إحدى شرائط السّاعة، الّتي تكون في الدّنيا قبل يوم القيامة، هذا قول الجمهور»[1].

إنه يوم عصيب شديد الأهوال «ومن هنا كان الذين يؤمنون بالآخرة، ولا يعملون لها، مطالبين بأن ينتبهوا، وأن يعملوا أكثر مما عملوا.. فإنهم على يقظتهم، وعلى خوفهم من لقاء ربّهم، وعلى إعدادهم ليوم اللقاء، إنهم مع هذا كله أشبه بالغافلين، فإن الهول شديد، والموقف لا يمكن تصوره، ومن هنا أيضًا كان المؤمن في حاجة دائمة إلى تذكر هذا اليوم، وإلى الحياة معه، وإلى العمل له، وإنه مهما أكثر من عمل، فإنه قليل إلى المطلوب منه لهذا اليوم، لو علم هوله، وتصور صورته»[2].

ولقد تعددت النصوص القرآنية التي تصف أهوال ذلك اليوم العصيب، منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [المزمل:١٧-١٨].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان:٣٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨].

روى الترمذي وأحمد من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير:١]، و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار:١]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١])[3].

إن تنوع النصوص القرآنية التي تصف أهوال ذلك اليوم وكثرتها يهدف إلى بث الخوف في قلوب العباد حتى يستقيم سيرهم على الصراط المستقيم في رحلتهم في الحياة الدنيا، ويسهل عليهم تقوى الله في السر والعلن، فتصبح التقوى هي الميزان الذي يزنون به جميع أقوالهم وأفعالهم، ويحتكمون إليه في خلافاتهم وخصوماتهم، ولا ينتفع بهذه الآيات إلا

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٣٥.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٩/ ٩٧٣.
(٣) أخرجه الترمذي، كتاب القراءات عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، باب ومن سورة (إذا الشمس كورت)، رقم ٣٣٣٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٠٨١.

أصحاب القلوب الحية الذين لا تشغلهم الدنيا بزخارفها وزينتها عن ذكر ربهم وعبادته، ابتغاء رضوانه، وخوفًا من لقائه في يوم تضطرب فيه القلوب هولًا وفزعًا، وتزيغ فيه الأبصار، كربًا وجزعًا كما وصفهم ربهم بقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:٣٧].

سادسًا: التفكر في النار وشدة عذابها:

إن المتدبر للنصوص القرآنية يجد القرآن قد عرض صورًا متكررة لعذاب النار من أجل بث الخوف في نفوس العباد وحمل القلوب على الاستقامة على طاعة الله والفرار من معصيته.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾ [المدثر:٣٥-٣٦].

«أي: إنّ هذه النّار لإحدى الكبر، أي: لإحدى الدّواهي، و﴿الْكُبَرِ﴾: هي العظائم من العقوبات، وقال الحسن: واللّه ما أنذر الخلائق بشيءٍ أدهى منها»[1]، كما وصف الله تعالى النار بأنها تلهب وتتوقّد وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [الليل:١٤].

كما أخبر سبحانه أن ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلى التقوى وزاجر عما يوجب العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ۝١٦﴾ [الزمر:١٦].

كما تنوعت الآيات التي تصف عذاب أهل النار، فقد ذكر تعالى أن حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها من حديد، ثيابهم من قطران، يصب فوق رؤوسهم الماء المغلي، فلا يفتر عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، كما في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٢٢﴾ [الحج:١٩-٢٢].

ويكفي في وصف عذاب النار أن غمسة واحد فيها تنسي المرء كل ألوان النعيم والمتاع في الدنيا، فما بالك بالخلود الأبدي والعذاب السرمدي.

عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: (يؤتى بأنعم أهل الدّنيا من أهل النّار يوم القيامة، فيصبغ في النّار صبغةً، ثمّ يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قطّ، هل مرّ بك نعيمٌ قطّ؟ فيقول: لا واللّه يا ربّ)[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢١/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة، رقم ٢٨٠٧.

يا لها من أهوال وشدائد يود المرء لو يفتدي في سبيل الخلاص منها بكل ما يملك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة:٣٦].

ولكن هيهات هيهات!

ولما تدبر عباد الرحمن صور عذاب أهل النار وما يقاسونه من الألم والحرمان، دعوا الله عز وجل في ضراعة وخشوع أن يصرف عنهم عذابها وينجيهم من أهوالها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان:٦٥-٦٦].

وهكذا يفعل الخوف في نفوس الصالحين يمنحهم يقظة دائمة تجعلهم يفكرون كثيرا في عذاب النار، حتى تصبح النجاة منها شغلهم الشاغل.

سابعًا: مجالسة الصالحين والاستماع لنصائحهم:

فالجليس لا يخفى أثره سلبًا أو إيجابًا على أحد، فمجالسة الخائفين تورث الخوف من الله، ومجالسة الغافلين تورث الغفلة عن الله.

ألم يوص الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بصحبة أولياء الله تعالى المريدين لوجهه والمبتغين لفضله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨].

فهي دعوة للنبي عليه الصلاة والسلام -ولأمته من بعده- بالمداومة على مجالسة الذين يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه ويدعونه في كل وقت يبتغون وجهه ويطلبون مرضاته، ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم، فإن صحبتهم ترقق القلب، وتزكي النفس، وتحفز على العمل للآخرة، وتثبّت المرء على الطاعة والعبادة، فشتان شتان بين صحبة تذكرك بالله، وتغرس الخشية منه تعظيمًا وإجلالًا لمقامه، وبين صحبة تزين لك شهوات الدنيا، وتغريك بالإقبال على مغرياتها، وتضعف رغبة القلب في السير إلى الآخرة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إنّما مثل الجليس الصّالح والجليس السّوء، كحامل المسك ونافخ الكير. فحامل المسك إمّا أن يحذيك[1]، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحًا طيّبةً. ونافخ الكير إمّا أن**

(١) أي: يعطيك.
انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٨/ ٣٩٥.

يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد ريحًا خبيثةً»[1].

«قال الراغب: نبه بهذا الحديث على أن حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم فهي قد تجعل الشرير خيرًا كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخير شريرًا، وليس إعداء الجليس جليسه بمقاله وفعاله فقط بل بالنظر إليه والنظر في الصور يورث في النفوس أخلاقًا مناسبة لخلق المنظور إليه»[2].

وهكذا فمجالسة الصالحين سبب للتشبه بهم، والأخذ عنهم والاتعاظ بأحوالهم.

ثامنًا: تدبر القرآن:

وتدبر القرآن يجمع كل ما سبق من أسباب الخوف، ففيه تدبر صفات الجلال والعظمة والكبرياء لله تعالى مما يثمر المراقبة له سبحانه، وفيه آيات الوعيد وما أعده الله عز وجل للعصاة من العذاب الأليم، وفيه وصف لأهوال الموت والقيامة والنار، وفيه ذكر عاقبة التفريط في جنب الله واستمراء الذنوب، وفيه عقوبات الله تعالى الدنيوية للأمم السابقة لما أصرت على التكذيب والعناد.

قال الإمام ابن القيم: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته؛ من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آياته، فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل»[3].

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

«قال ابن عبّاسٍ: قالوا: يا رسول اللّه لو خوّفتنا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: ما أعددته لمن عصاني من العذاب»[4].

وهكذا «إن كلمات القرآن إنما تقع موقع الإيمان من القلوب المشفقة من اليوم الآخر، ومن الفطر السليمة التي تصغي إلى وعيد الله ونذيره، فتدرك أنه الحق، ولا تعميها الأهواء والشهوات عن الاستجابة لله ولرسوله»[5].

وقد بين الله عز وجل أن لآياته المجيدة أعظم أثر في تخويف القلوب من باريها وتحذيرها سطواته، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم ٥٥٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم ٢٦٢٨.

(٢) فيض القدير، المناوي ٥/ ٥٠٧ بتصرف.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١١٦٠-١١٦٣ بتصرف.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤٦٧.

(٥) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ٢/ ٧١.

«والقشعريرة، حال تعتري الجسد من أثر رهبة أو خوف، فيموج الجلد بموجات أشبه بمسّة الكهرباء. واقشعرار جلود الذين يخشون ربّهم من هذا الحديث المنزل من عند اللّه، هو لما يقع فى قلوبهم من رهبة وجلال لما يسمعون من كلام اللّه، الذي يقول سبحانه وتعالى فيه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

فإذا نزل هذا القرآن على القلوب المؤمنة اهتزت لجلاله، وزلزلت أقطارها لرهبته»[١].

فيا لروعة القلوب المؤمنة تتلقى آيات ربها في وجل وارتعاش، وفي تأثر شديد تقشعر منه الجلود، فيستشعرون الرهبة منه عز وجل في حالة عصيانه أو التقصير في طاعته، فتعيدهم هذه الرهبة إلى الصراط المستقيم، لينعموا بالأمن والسلام والأمان.

آثار الخوف المحمود

للخوف المحمود آثار إيجابية منها:

أولًا: الاستقامة على طاعة الله، واجتناب الكبائر والموبقات.

إن الخوف من الله يمنح القلب يقظة تعينه على توقّي عثرات ومزالق الطريق، وتدفعه للاستقامة على طاعة ربه واجتناب كل ما حرمه من الكبائر والصغائر، كما تسوقه إلى التوبة إذا شرد عن الطريق أو غشيته سحب الغفلة.

وقد قص الله علينا في كتابه الكريم خبر ابني آدم عندما تقبل الله قربان أحدهما لصلاحه ولم يتقبل من الآخر لفساده، فعزم الأخير على قتل أخيه حسدًا وحقدًا، فأخبره الأخ الصالح أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا مدافعة بسبب خوفه من الله، كما قال تعالى: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة:٢٨].

والعبرة في هذا الموقف أن الخوف من الله إذا استقر في القلب أورث مراقبة الله عز وجل، والتي بدورها تمنعه من ارتكاب المحرمات، وفعل المعاصي والمنكرات.

فالخوف هو صمام الأمان في حياة الأفراد والجماعات، وإنه أقوى حارس لهم، يمنعهم من الاعتداء والظلم والطغيان.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ١١٤٥.

فالمؤمن عندما يواجه طوفان المغريات والموبقات، أو يزين له الشيطان الوقوع في المحرمات، يرفع دائمًا شعار ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فيثبت على الطاعة، ويلزم الاستقامة.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: «اعلم أن الشهوات لا تنقمع بشيء كما تقمع بنار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى»[1].

وقد ذكر ابن القيم بعض الأقوال التي تؤكد على أهمية الخوف في تحقيق الاستقامة منها: «قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلّا خرب، وقال إبراهيم بن شيبان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشّهوات منها، وطرد الدّنيا عنها، وقال ذو النّون: النّاس على الطّريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلّوا الطّريق»[2].

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٣/ ١٥٠٩.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٢ / ١٣٠٥.

ثانيًا: المسارعة إلى الخيرات والتنافس في الأعمال الصالحات:

تنوعت النصوص القرآنية التي تبين أن الخوف من الله باعث على المسارعة إلى الخيرات والتنافس في القربات.. فقد أثنى الله تعالى على أنبيائه لما كانوا عليه من الخوف من عذابه والخشوع لعظمته وجلاله والطمع في رحمته.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ «أي: في عمل القربات وفعل الطّاعات، ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾ قال الثّوريّ: ﴿رَغَبٗا﴾ فيما عندنا، ﴿وَرَهَبٗا﴾ ممّا عندنا، ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ قال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاس: أي: مصدّقين بما أنزل اللّه. وقال مجاهدٌ: مؤمنين حقًّا. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللّازم للقلب، لا يفارقه أبدًا»[3].

كما مدح الله عز وجل عباده الصالحين الذين دفعهم الخوف منه سبحانه إلى هجر مضاجعهم ليذكروا اللّه ويدعوه، خائفين من عذابه، طامعين في رحمته، كما في

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٧٠.

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة:١٦].

إنها «صورة وضيئة للأرواح المؤمنة، اللطيفة، الشفيفة الحساسة المرتجفة من خشية الله وتقواه، المتجهة إلى ربها بالطاعة المتطلعة إليه بالرجاء، في غير ما استعلاء ولا استكبار. هذه الأرواح هي التي تؤمن بآيات الله، وتتلقاها بالحس المتوفز والقلب المستيقظ والضمير المستنير»[1].

والآيات التي تدل على أثر الخوف في المسارعة إلى الخيرات كثيرة منها: قوله تعالى في وصف عباده الذين جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصودهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان:٧-١٠].

فالخوف من أهوال يوم القيامة دفعهم إلى المسارعة إلى الطاعات والإخلاص في أدائها.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

«إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه، ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة، ومن ثم يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه. كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته، ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله، ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرًا»[2].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنّ سلعة اللّه غالية، ألا إنّ سلعة اللّه الجنّة)[3].

الجرأة والشجاعة في طلب الحق والانتصار له: إذا تمكن خوف الله من القلب أزال كل خوف من سواه، فالمؤمن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨١٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٧٢.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم ٢٤٥٠. قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وصحّحه الألباني لغيره في صحيح الترغيب، رقم ٣٣٧٧.

يوقن أن الله وحده بيده الضر والنفع وأن ما سواه تحت سيطرته لا يشاؤون إلا أن يشاء الله، لذا فهو يجاهر بالحق، ويدافع عنه، ويجاهد في سبيل نصرته باللسان والسنان، لا يخاف أحدًا من المخلوقين ولو حصل منهم إرهاب أو أذى له في نفسه أو أهله أو ماله.

ولقد قصّ الله علينا في كتابة صورة سامقة لأثر الخوف من الله في تحصيل الجرأة والشجاعة في ميدان الجهاد.

فعندما رفض الجبناء من بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة مجاهدين، وجلسوا ينتظرون خروج أهلها منها مختارين، وقف رجلان منهما أنعم الله عليهما بالشجاعة والجرأة والثبات لخوفهما منه وحده ينصحانهم ويذكرانهم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة:٢٣].

وقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ «أي: فلمّا نكل بنو إسرائيل عن طاعة اللّه ومتابعة رسول اللّه موسى عليه السّلام حرّضهم رجلان للّه عليهما نعمةٌ عظيمةٌ، وهما ممّن يخاف أمر اللّه ويخشى عقابه»[1].

وهكذا المؤمن لا يجبن في مواطن اللقاء، ولا يخاف من مواجهة الأعداء، ولا يهادن الباطل خوفًا من بطشه، ولا يقصر في تبليغ الحق مهما واجه من صعوبات؛ لأنه يعلم أن الله عز وجل وحده المستحق للتعظيم والخشية، وأن ما عداه من البشر ضعفاء مهازيل لا يقدرون على إيصال الأذى له إلا أن يشاء الله.

وقد قص الله عز وجل علينا موقف سحرة فرعون عندما خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، واستقرت الخشية من الله وحده في نفوسهم، فلم يبالوا بتهديدات فرعون وبطشه، ولم ترهبهم قوة فرعون الغاشمة، فالقلب المتصل بالله يستخف بكل عذاب في سبيل إعلاء راية الحق، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧٢-٧٣].

«إن قوى الأرض كلها لا تخيف -أو لا ينبغي أن تخيف- لأنها قوى مسخرة. لا تستمد من نفسها، ولا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا، والقوة التي ينبغي أن تخاف حقًّا هي القوة التي بيدها كل شيء. هي المانحة حقًّا والمانعة حقًّا. وإذن فخوفها هو الخوف الواجب، وخشيتها هي السبيل. الخوف

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٦.

ينبغي أن يكون من الله، ومما يخوف به الله»[1].

ثالثًا: الانتفاع بالذكرى والإنذار، والتأثر بآيات القرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس:١١].

وقال سبحانه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه:٢-٣].

وقال عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٥١].

فهذه الآيات كلها تبين أن أهل الخوف والخشية من الله هم الذين ينتفعون بالإنذار ويستجيبون لمواعظ القرآن وهداياته، فالخوف يرقق قلوبهم، ويطهره من الآفات والأدران، ويمنحهم رؤية واضحة لعواقب الأمور. وقال سبحانه بعد ذكر أخذه الأليم الشديد للظالمين: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ «أي: في أخذ اللّه سبحانه لأهل القرى، أو في القصص الّذي قصّه على رسوله لعبرةً وموعظةً لمن خاف عذاب الآخرة لأنّهم الّذين يعتبرون بالعبر، ويتّعظون بالمواعظ»[2].

وقال عز وجل بعد إهلاك أصحاب الفاحشة من قوم لوط عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات:٣٧].

إن المؤمن ليرتجف قلبه وهو يتأمل الآيات التي تصور عذاب الله للمجرمين في الدنيا أو الآخرة، فهو يلمح فيها مظهرًا من مظاهر الجبروت الرباني العظيم، وأثرًا من آثار العزة الإلهية، ولمحة من لمحات عذاب الله الأليم، فينتفض قلبه كلما هم بمعصية أو وقع فيها، ويتوجه إلى الله ضارعًا أن يقيه شر السيئات وأن يوفقه للتوبة كلما استزله الشيطان. ولقد ذم الله أصحاب القلوب القاسية، المحبوسة في سجن الغفلة، المقفرة من الخوف، والتي لا تتأثر بالنذر والمواعظ، بل ويستقبلونها بالضحك والاستهزاء، في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم:٥٩-٦١].

«أي: كيف تعجبون منه تكذيبًا وتضحكون منه استهزاءًا مع كونه غير محلٍّ للتّكذيب ولا موضع للاستهزاء ولا تبكون خوفًا وانزجارًا لما فيه من الوعيد الشّديد. والسّمود: الغفلة والسّهو عن الشّيء»[3].

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ص ١٣١.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٢٤.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١١٨.

رابعًا: البكاء من خشية الله:

إن القلب إذا مازجته الخشية والخوف من الله، كان رفيقًا رقيقًا خاشعًا مستكينًا، لا تمر عليه آية رحمة أو عذاب إلا أثرت فيه أثرًا بليغًا، فلا ترى صاحبه إلا هطّال الدمع شوقًا وحزنًا، ورغبة فيما عند الله ورهبة من عقابه.. وقد أثنى الله عز وجل على أنبيائه لخشوعهم وبكائهم في قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم:٥٨].

«فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجدًا وبكيًّا»[(١)].

كما وصف سبحانه صالحي أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

«هكذا يخر عباد الرحمن لربهم، كلما وقعت الذكرى بقلوبهم ! يخرون كما تخر الجبال الرواسي إذا ازّلزلت الأرض من تحتها وانهارت من أعلاها خشوعًا وخضوعًا لله الواحد القهار! فلا يملك العباد عند ذلك إلا البكاء، البكاء الحار العميق، لما وقع في مواجيدهم من المعرفة بقدر الله العظيم وبمقامه العلي الكريم ولما تنثره أسماؤه الحسنى على قلوبهم المتضرعة من أنوار التسبيح وجمال التقديس! وما يقتضيه ذلك كله من المشاهدة لحقوق الله على عباده! فيهرع العبد إلى منازل البوء بالنعمة والبوء بالذنب معًا، تائبًا منيبًا، تسبقه دموعه إلى حدائق السجود ومن ذا يقدر على حبس عيون الروح أن تتدفق بأشجان الذكرى؟! إلا من كانوا صمًّا بكمًا عميًا فهم لا يفقهون»[(٢)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣١٤.

(٢) مجالس القرآن، فريد الأنصاري ١/ ٢٦٧.

جزاء الخائفين من الله

أولًا: جزاء الخائفين من الله في الدنيا:

١. النصر على الأعداء والتمكين في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

«فقوله ذلك إشارةٌ إلى أنّ ما قضى اللّه تعالى به من إهلاك الظّالمين وإسكان المؤمنين ديارهم إثر ذلك الأمر حق لمن خاف مقامي، وفيه وجوهٌ:

الأوّل: المراد موقفي وهو موقف الحساب؛ لأنّ ذلك الموقف موقف اللّه تعالى الّذي يقف فيه عباده يوم القيامة، ونظيره قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦].

الثاني: أن المقام مصدرٌ كالقيامة، يقال: قام قيامًا ومقامًا، قال الفرّاء: ذلك لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي إيّاه كقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣].

الثّالث: ذلك لمن خاف مقامي، أي: إقامتي على العدل والصّواب، فإنّه تعالى لا يقضي إلّا بالحقّ ولا يحكم إلّا بالعدل، وهو تعالى مقيمٌ على العدل لا يميل عنه ولا ينحرف البتّة.

الرّابع: ذلك لمن خاف مقامي، أي: مقام العائذ عندي وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول.

ثم قال تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قال الواحديّ: الوعيد اسمٌ من أوعد إيعادًا وهو التّهديد. قال ابن عبّاسٍ: خاف ما أوعدت من العذاب»[(١)].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾

«أي: إنّ ذلك الجزاء الحسن وهذا النصر العظيم، إنما هو لمن خاف مقام ربّه، وخشى بأسه، فوقّره وعظّمه، واتقى حرماته، وعظم شعائره، والرسل من هذا في المقام الأول، ثم من اقتفى أثرهم»[(٢)].

وهكذا فالخوف من الله يدفع المؤمنين إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، والابتعاد عن الفساد والإفساد، والعلو والاستكبار، فهم يريدون التمكين في الأرض من أجل نشر العدل والإصلاح؛ لذا وعدهم الله تعالى بوراثة الأرض والنصر على أعدائه والتمكين لهم.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٠٢.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ١٦١.

٢. قبول الدعاء.

قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

«أي: خوفًا ممّا عنده من وبيل العقاب، وطمعًا فيما عنده من جزيل الثّواب. ثمّ قال: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: إنّ رحمته مرصدة للمحسنين، الّذين يتّبعون أوامره ويتركون زواجره»[١].

﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ «أي: إن رحمته تعالى قريبة من المحسنين أعمالهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل كما قال: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن:٦٠].

فمن أحسن فى عبادته نال حسن الثواب، ومن أحسن فى الدعاء أعطى خيرًا مما طلبه، أو مثل ما طلبه»[٢].

ففي هذه الآية ارتباط وثيق بين الخوف من الله وقبول الدعاء، وكيف لا والخوف يحمل صاحبه على التشمير في الطاعات والاجتهاد في العبادات، فكلما وهن عزمه أو فترت همته ساقه الخوف إلى الجد في الطاعات والبعد عن السيئات، فهو يتقلب دائمًا بين خوفه من ربّه وطمعه فى رحمته.

٣. التوفيق للهداية.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠]

«وهذه الآية تدل على أنّ الواجب على المرء في كلّ أفعاله وتروكه أن ينصب بين عينيه: خشية عقاب اللّه، وأن يعلم أنّه ليس في يد الخلق شيءٌ البتّة، وأن لا يكون مشتغل القلب بهم، ولا ملتفت الخاطر إليهم»[٣].

فهذا هو الطريق للهدى والثبات على المنهج الحق، وتجنب الضلال، ومشابهة الأعداء والتلقي منهم خشية منهم، فالخوف من الله رأس كل خير، وأساس كل هداية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾ [النازعات:٢٦].

«والعبرة: الحالة الّتي ينتقل الذّهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها وعاقبة أمثالها، وهي مشتقّةٌ من العبر، وهو الانتقال من ضفّة وادٍ أو نهرٍ إلى ضفّته الأخرى. والمراد بالعبرة هنا الموعظة وجعل ذلك عبرةً لمن يخشى، أي: من تخالط نفسه خشية اللّه؛ لأنّ الّذين يخشون اللّه هم أهل المعرفة الّذين يفهمون دلالة الأشياء على لوازمها وخفاياها»[٤].

وهكذا إن الذي يعرف ربه ويخاف منه يهتدي إلى المواعظ والإنذار، وينتفع بهما،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٩.
(٢) تفسير المراغي ٨/ ١٨٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٥٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٨٢.

وتغرس في قلبه شجرة التقوى لتثمر نظرة سديدة بعواقب الأمور والاستعداد لها قبل وقوعها، «أما الذي لا يعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب. حتى يصطدم بالعاقبة اصطدامًا. وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى. وكل ميسر لنهج، وكل ميسر لعاقبة. والعبرة لمن يخشى»[1].

ثانيًا: جزاء الخائفين من الله في الآخرة:

١. المغفرة والأجر الكبير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

يقول تعالى مخبرًا عمّن يخاف مقام ربّه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن النّاس، فينكفّ عن المعاصي ويقوم بالطّاعات، حيث لا يراه أحدٌ إلّا اللّه، بأنّه له مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ، أي: يكفّر عنه ذنوبه، ويجازى بالثّواب الجزيل.

«والذين يخشون ربهم بالغيب، هم الذين خافوا عذاب يوم القيامة، وخافوا لقاء ربهم، قبل هذا اليوم الغائب عنهم. ثم إنهم هم الذين يخشون ربهم فى سرهم، كما يخشونه فى علانيتهم، حيث يشهدون سلطان اللّه قائمًا عليهم فى كل حال من أحوالهم. فهم لشهودهم هذا السلطان، لا يعصون اللّه، ولا يفعلون ما لا يرضاه، وهم لهذا مجزيّون من اللّه تعالى، بمغفرة ذنوبهم التي تقع منهم، وإلى جانب غفران ذنوبهم يكون مضاعفة أجرهم لما يعملون من حسنات»[2].

فيا لسعادة المؤمنين الخائفين بما أعده الله عز وجل لهم من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات المتواصلات، والقصور العاليات، والحور الحسان، والخدم والولدان.

٢. الفوز بالجنة وحصول الأمن في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

«أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثر هذا الخوف في قلبه فنهى نفسه عن هواها الذي يقيدها عن طاعة الله، وصار هواه تبعًا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير، ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ﴾ «المشتملة على كل خير وسرور ونعيم» ﴿هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ لمن هذا وصفه»[3].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٦.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٥/ ١٠٥٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٥.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق:٣٢-٣٤].

﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ﴾ «أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته ولازم على خشية الله في حال غيبه، أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة. ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: دخولًا مقرونًا بالسلامة من الآفات والشرور، مأمونًا فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم، ولا كدر ولا تنغيص، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات»[1].

كما أخبر تعالى في موضع آخر عن حال عباده الذين ألزموا قلوبهم الخوف منه سبحانه ومن عذابه، فأثابهم الله بالأمن والأمان والنجاة من عذاب النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور:٢٦-٢٧].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان:١٠-١٢].

وهكذا فالجزاء من جنس العمل؛ فالخوف من الله في الدنيا هو سبيل الأمن في الآخرة. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه عن ربه جلا وعلا، أنه قال: (وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، إذا خافني في الدّنيا أمّنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدّنيا أخفته يوم القيامة)[2].

٣. نيل رضا الله عز وجل.

قال تعالى وهو يصف ما أعده من النعيم والتكريم لعباده الصالحين: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٨].

﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ «ومقام رضاه عنهم أعلى ممّا أوتوه من النّعيم المقيم، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: هذا الجزاء حاصلٌ لمن خشي اللّه واتّقاه حقّ تقواه، وعبده كأنّه يراه، وقد علم أنّه إن لم يره فإنّه يراه»[3].

فيا لقرة أعين المؤمنين بهذه المنزلة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم ٦٤٠، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٧٥٩.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٣٣٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/٤٥٨.

العظيمة والكرامة السامقة برضا مولاهم عنهم، «هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم، وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم؛ الرضا عن قدره فيهم، والرضا عن إنعامه عليهم، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم، الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق، إنه تعبير يلقي ظلاله بذاته.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال!

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ وذلك هو التوكيد الأخير. التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله، ونوع هذه الصلة، والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح، وتنهى عن كل انحراف، الشعور الذي يزيح الحواجز، ويرفع الأستار، ويقف القلب عاريًا أمام الواحد القهار، والذي يخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره»[1].

موضوعات ذات صلة:

الأمن، التقوى، الجهاد، الحذر، الخشية، القتل، القتال

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٥٣.

الخيانة

عناصر الموضوع

مفهوم الخيانة	١٩٠
الخيانة في الاستعمال القرآني	١٩١
الألفاظ ذات الصلة	١٩٢
أنواع الخيانة في القرآن	١٩٤
طريقة التعامل مع الخائنين	٢٠٣
عاقبة الخائنين	٢١١

مفهوم الخيانة

المعنى اللغوي:

تدل مادة (خون) على التنقص. يقال: خانه يخونه خَوْنًا. وذلك نقصان الوفاء[١].

يقال: خانه الدهر والنعيم خونًا، إذا تغير حاله إلى شر منها. وخائنة الأعين: ما تخون به من مسارقة النظر إلى ما لا يحل له[٢].

وقد يكون التخون بمعنى التنقص، ويقال: تخونته الدهور وتخوفته، أي: تنتقصه. فالتخون له معنيان: أحدهما التنقص والآخر التعهد. ومن جعله تعهدًا جعل النون مبدلة من اللام. ويقال: رجل خائن وخائنة إذا بولغ في وصفه بالخيانة[٣].

المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الخيانة تعني التفريط في الأمانة»[٤].

وعرفها الفيروزآبادي بأنها: «أن يؤتمن الإنسان فلا ينصح»[٥].

فالخيانة نقص في الأمانة والوفاء.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٣٢.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٢٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة ٧/ ٢٣٧، مختار الصحاح، الرازي ص١٩٦، لسان العرب ٧/ ٢٨٥.
(٤) المفردات ص ٣٠٥.
(٥) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٥٨٢.

الخيانة في الاستعمال القرآني

ووردت مادة (خون) الدالة على الخيانة في القرآن الكريم (١٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنفال:٧١]
الفعل المضارع	٥	﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ [الأنفال:٢٧]
اسم فاعل	٥	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال:٥٨]
مصدر	٢	﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال:٥٨]
صيغة المبالغة	٢	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج:٣٨]

وجاءت الخيانة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو التنقّص، أو التفريط فيما يؤتمن عليه الإنسان[٢].

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١].

يعني: «وإن أبطنوا خيانة ما رغبوا أن يؤتمنوا عليه من العهد، فقد خانوا الله من قبل بكفرهم وتركهم النظر في آياته»[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص١٣٦- ١٣٩.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٢٨١، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٣١.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦٣٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ المكر:

المكر لغة:

الاحتيال في خفية والخداع[١].

المكر اصطلاحًا:

عرفه الراغب الأصفهاني بأنه: «صرف الغير عما يقصده بحيلة»[٢].

وعرّفه الجرجاني بأنه: «إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر»[٣].

الصلة بين المكر والخيانة:

أن النوع المقارب للخيانة بداهة هو المكر المذموم، وقد ورد الحديث عنه في القرآن الكريم في صورة واضحة بينة.

٢ الكيد:

الكيد لغةً:

هو المكر والخبث، والحيلة، والحرب[٤].

الكيد اصطلاحًا:

«إرادة مضرة الغير خفية، وهو من الخلق: الحيلة السيئة، ومن الله سبحانه وتعالى التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق»[٥].

الصلة بين الكيد والخيانة:

كلاهما يشتركان في الإرادة بسوء، إلا أن الخيانة خدعة في مقام الائتمان، وهو مذموم مطلقًا، بخلاف الكيد، فإنه لو وقع لمستحق فهو كمال.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي، ص٤٧٠، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٦٣، ٣٤٥، لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ١٨٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) التعريفات، ص٢٢٧.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٣١٦.
(٥) التعريفات، الجرجاني، ص١٨٩.

٣ النفاق:

النفاق لغة:

المادة تدل على الخفاء والإغماض، والانقطاع والذهاب، يقول صاحب البصائر: «والنّفق، يدّل على انقطاع الشيء وذهابه، وتارةً على إخفاء الشيء وإغماضه، وعلى مضيّ شيء ونفاذه، ومنه نفق البيع نفاقًا: راج»[(١)].

النفاق اصطلاحًا:

هو: «إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب»[(٢)].

والصلة بين الخيانة والنفاق:

الصلة بينة في إظهار المرء خلاف ما يبطن، وإيهام الغير بغير الواقع. قال الراغب الأصفهاني: «والخيانة والنفاق واحد، لكن الخيانة تقال اعتبارًا بالعهد والأمانة، والنفاق اعتبارًا بالدين، ثم يتداخلان»[(٣)].

(١) بصائر ذوي التمييز ٥/ ١٠٤- ١٠٥.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص٣١١.
(٣) المفردات ص ٣٠٥، التوقيف على مهمات التعاريف ص ١٦٢.

أنواع الخيانة في القرآن

الراصد لآيات القرآن الكريم يجد أنه بين أنواعًا للخيانة متعددة، تحدثت عنها الآيات بوضوح وجلاء، وفي النقاط الآتية نتناول تلك الأنواع على النحو الآتي:

أولًا: خيانة الله ورسوله:

من أشد أنواع الخيانة: خيانة الله والرسول؛ ذلك أنها تتعلق بمنبع الهدى ومصدر الإنعام، وتدل على تدني نفسية الخائن؛ فمن يخن الله والرسول لا يؤتمن على شيء، وكيف يؤتمن وقد خان مصدر وجوده في الحياة، والمنعم عليه بها، وخان رسول الحق الذي أنقذه من الضلال إلى الهدى، ومن الشقاء الأبدي إلى السعادة الخالدة، ولقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١].

ولقد تعددت أقوال المفسرين في بيان المقصود من خيانة الله والرسول، فمنهم من يرى أن المقصود بخيانة الله تعالى والرسول هي كفرهم به وعدم إيمانهم بما بعث به رسوله، وتوحيدهم إياه، واستندوا في هذا إلى سبب نزول الآية الكريمة، فقد قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي السرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين[(١)].

وخيانتهم للرسول: هي الغدر به والمكر والخداع له بإظهارهم له بالقول خلاف ما في أنفسهم[(٢)].

أو خيانته للرسول، أي: «في السعي لحربه ومنابذته»[(٣)].

يقول صاحب الظلال: «لقد خانوا الله فأشركوا به غيره، ولم يفردوه سبحانه بالربوبية، وهو قد أخذ العهد على فطرتهم فخانوا عهده. فإن أرادوا خيانة رسوله صلى الله عليه وسلم وهم أسرى في يديه، فليذكروا عاقبة خيانتهم الأولى التي أوقعتهم في الأسر، ومكّنت منهم رسول الله وأولياءه. والله ﴿عَلِيمٌ﴾ بسرائرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إيقاع العقاب بهم»[(٤)].

ومنهم من يرى أن المقصود من خيانة الرسول: نكثهم العهد، والبيعة على الإسلام، والردّة، واستحباب دين آبائهم[(٥)].

وفي الآية طمأنة للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، وضمان لهم بأنهم إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأنّ اللّه يمكّن المسلمين منهم مرّةً أخرى، كما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٩٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٨٧.
(٣) جامع البيان ١٤/ ٧٥.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٤.
(٥) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٢/ ٢٣٩.

أمكنهم منهم في هذه المرّة[1].

وفي ذلك طمأنة لكل من وقعت عليه خيانة بأن الله تعالى مضت سنته في ذلك بأنه لا يهدي كيد الخائنين، ولا يضيع عمل من وقعت في حقهم تلك الخيانة.

كما يرى بعض المفسرين أن الخيانة المقصودة هنا هي شركهم بالله تعالى؛ فإنّه خيانةٌ للعهد الفطريّ الّذي أخذه اللّه على بني آدم فيما حكاه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية. فإنّ ذلك استقرّ في الفطرة، وما من نفسٍ إلّا وهي تشعر به، ولكنّها تغالبها ضلالات العادات واتّباع الكبراء من أهل الشّرك[2].

ومنهم من يرى أن المقصود بخيانة الرسول: «ترك سنّته وارتكاب معصيته»[3].

ومن المفسرين من عبّر عن تلك الخيانة بالمعصية كما سبق، ومنهم من عبّر عنها بالغدر والمكر والخداع، كالطبري في جامع البيان؛ إذ يقول: «وإن يرد هؤلاء الأسارى الذين في أيديكم «خيانتك»، أي: الغدر بك والمكر والخداع، بإظهارهم لك بالقول خلاف ما في نفوسهم»[4].

ومنهم من رآها في كذبهم على الرسول، وقولهم له: «آمنّا بك ونشهد أنّك رسول الله»[5].

ومنهم من رآها في «الإخلال بالسّلاح في البعوث»[6].

وكل تلك الصور التي ذكرها المفسرون ألوان من الخيانة لله والرسول، وتنوعها لا ينفي بعضها، ولا يخرجها من كونها خيانة لله والرسول.

ثانيًا: خيانة الدين:

وخيانة الدين من أقبح الخيانات وكل الخيانات قبيحة؛ ذلك أنها خيانة للنعمة التي بدونها لا يكون الإنسان إنسانًا، ولا يعيش إلا كما تعيش البهم السائبة، بلا شرع ضابط ولا قانون رابط، يدل المرء على هدى أو يردّه عن ردى، وقد رصد القرآن الكريم صورة من أشد صور الخيانة للدين؛ لأنها كانت في بيئة يفترض أن تكون هي الناصر والمعين لنشر الدين ورفع رايته والدعوة إليه، ومن يضلل الله فما له من هاد.

وتلك الصورة كانت في شخص امرأة نبي الله نوح وامرأة نبي الله لوط؛ إذ قال القرآن عنهما: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٨١.
(٢) المصدر السابق ١٠/ ٨٢.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٨٤.
(٤) جامع البيان ١٤/ ٧٥.
(٥) الوجيز، الواحدي ص ٤٤٩.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٨٤.

﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، [التحريم: ١٠].

والخيانة المذكورة هنا هي خيانة الدين وليست خيانة العرض كما أجمع المفسرون على أنه ما خانت امرأة نبي قط.

فالخيانة هنا خيانة «في الدين، وما بغت امرأة النبي قط»[(١)].

وقد نص الإمام الماوردي في النكت والعيون على أن خيانتهما كانت في الدين، وأورد صورًا أربعة كلها تمضي في نفس الاتجاه، فيقول: «في خيانتهما أربعة أوجه:

أحدها: أنهما كانتا كافرتين، فصارتا خائنتين بالكفر، قاله السدي.

الثاني: منافقتين تظهران الإيمان وتستران الكفر، وهذه خيانتهما. قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين.

الثالث: أن خيانتهما النميمة، إذا أوحى الله تعالى إليهما شيئًا أفشتاه إلى المشركين، قاله الضحاك.

الرابع: أن خيانة امرأة نوح أنها كانت تخبر الناس أنه مجنون، وإذا آمن أحد به أخبرت الجبابرة به، وخيانة امرأة لوط أنه كان إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف»[(٢)].

وفي بناء الآية الكريمة وتركيبها ما يبيّن شناعة الخيانة في الدين، مهما كانت درجة القرب والصحبة والمعايشة والمعاشرة، كما تبيّن صيانة الله تعالى وحفظه وكرامته للمخانين، وعدم نقصان حقهم، كما تبين أن الجزاء من جنس العمل، فكما استقلت المرأتان وتقدمتا في تلك الخيانة حتى عن بنات جنسهما زجّ بهما القرآن في صفوف الذكور في موطن لا محمدة فيه ولا كرامة، فقال تعالى: ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ ولم يقل: تحتهما، «بل أظهر بالوصف العبودية المضافة إليه سبحانه وتعالى والوصف بالصلاح؛ لأن ذلك أفخم، فيكون أشد تأثيرًا للمواعظ وأعظم، ودفعًا لأن يتوهم أحد بشيء لا يليق بمقامهما عليهما الصلاة والسلام، فقال: ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ أي: كل واحدة منهما تحت عبد»[(٣)].

ثالثًا: خيانة العرض:

جاء الإسلام نقيًّا صافيًا يرقى بالبشرية إلى مدارج السمو الأخلاقي والمادي، ويأخذ بيدها إلى مصاف الإنسانية الحقيقة التي لم تدنّسها شهوانية ولم تغبّرها أدناس الحياة، فوضع منهاجًا سليمًا لصيانة الإنسان، يحفظه من خيانة العرض واختلاس ما ليس له بحق، بداية من الدعوة إلى غض

(١) الكشف والبيان ٩/ ٣٥١.
(٢) النكت والعيون ٦/ ٤٦.
(٣) نظم الدرر ٨/ ٥٧.

البصر، ومرورًا بالنهي عن الاقتراب من الفاحشة، ووصولًا إلى بيان بشاعة الوقوع فيها، ووصفها بأنها فاحشة ومقت وساءت سبيلًا، وصوّر القرآن الكريم مشهدًا من أدق المشاهد التي تبيّن طبيعة النفس البشرية وميولها، ومع ذلك صاغه في صورة راقية شفافة، لا تجرح شعورًا ولا تهيج ساكنًا، وهو موقف زليخا من يوسف، وضمت الآية الكريمة في صدرها نفيًا للخيانة، وفي عجزها بيانًا لسنة الله تعالى في الخائنين، وهي أن الله لا يهدي كيدهم، ولا يبلغهم مرادهم، ولا ينالون أمنياتهم.

فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾، [يوسف: ٥٢].

أي: «ذلك القول الذي قلته في تنزيهه والإقرار على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالكذب عليه، ولم تقع مني الفاحشة، وأنني راودته، واعترفت بذلك لإظهار براءتي وبراءته، وأن الله لا يوفّق أهل الخيانة، ولا يرشدهم في خيانتهم»[(١)].

وكما يقول الإمام القرطبي: «أي: أقررت بالصدق ليعلم أني لم أخنه بالغيب، أي: بالكذب عليه، ولم أذكره بسوء وهو غائب، بل صدقت وحدت عن الخيانة»[(٢)].

وقد اختلف المفسرون فيمن قال هذا القول: فذهب بعضهم إلى أنه من قول امرأة العزيز، وبعضهم إلى أنه من قول يوسف عليه السلام، وواضح من السياق أنه من كلام امرأة العزيز، وكما اختلفوا في ذلك اختلفوا فيمن توجه هذا الكلام ﴿لِيَعْلَمَ﴾ لزوجها أم ليوسف؟، فقالوا: «يحتمل أن مرادها بذلك زوجها، أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر منّي إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ فإن كل خائن، لابد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولابد أن يتبين أمره»[(٣)].

تلك منهجية القرآن الكريم في تخلية المجتمع من أدران الجاهلية وتطهيرها من أرجاسها، ولا يتعالى على نوازع النفس البشرية بل يهذّبها ويوظّفها ويوجّهها إلى طريقها الحق، ووجهتها الصحيحة، وما ضلت البشرية وارتكست في حمأتها إلا بعد أن تخلت تعاليم الإسلام وتوجيهاته في حفظ العرض، والحفاظ على نقاء الإنسان وطهارته.

(١) التفسير الميسر ٤/ ١٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٠٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٠.

رابعًا: خيانة النفس والجوارح:

وكما أبان القرآن الكريم عن صور وألوان من الخيانات وبيّن منهجية التعامل معها تناول خيانة النفس في آيتين كريمتين منه.

الأولى: في مجال تعامل الزوج مع زوجه في بداية فرض الصيام.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:١٨٧].

والثانية: في نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الدفاع عن الذين يختانون أنفسهم بالسرقة واتهام الغير ظلمًا وعدوانًا، كما في واقعة طعمة بن أبيرق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء:١٠٧].

لكن كيف يخون الإنسان نفسه أو يختانها؟

قال المفسرون: إن خيانة المرء نفسه تكون بتعريضها للعقاب، ونقصان حظها من الثواب[(١)].

ويعلق ابن عرفة على هذا التركيب اللغوي بأنه من باب القلب؛ لأنّ النفس هي الخائنة[(٢)].

أو أن المعنى: «يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة ويرمي بها اليهودي»[(٣)].

وقد يكون معنى الاختيان إلجاء المرء نفسه إلى الخيانة[(٤)].

وقد يكون معنى الاختيان للنفس بما يعود عليها من الإثم والعقوبة في الدنيا والآخرة[(٥)].

ذلك أن من قدم على المعصية، فقد حرم نفسه الثّواب، وأوصلها إلى العقاب، فكان ذلك منه خيانة لنفسه؛ ولهذا المعنى، قيل لمن ظلم غيره: إنّه ظلم نفسه[(٦)].

ونلاحظ في تعبير القرآن خاصة في صيغة «تختانون» ما يدل على الافتعال؛ لأن خيانة المرء نفسه ليست سهلة، بل تحتاج إلى جهد ومشقة؛ لأن الأصل فيه أنه يسعى إلى صلاحها وفلاحها وصيانتها، فعندما يعود الحارس لصًّا فقد اختان نفسه.

(١) أيسر التفاسير، ١/ ١٦٦.
(٢) تفسير ابن عرفة ٢/ ٥٥١.
(٣) الكشف والبيان ٣/ ٣٨٢.
(٤) التحرير والتنوير ٢/ ١٨٣.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ١٣٠.
(٦) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٧، روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢١٩.

«قال ابن قتيبة وطائفة من المفسرين: وجعلوا الإنسان قد خان نفسه، أي: ظلمها بالسرقة كما فعل ابن أبيرق -أو بجماع امرأته ليلة الصيام كما فعل بعض الصحابة- وهذا القول فيه نظر؛ فإن كل ذنب يذنبه الإنسان فقد ظلم فيه نفسه، سواء فعله سرًّا أو علانية»[1].

إن القرآن الكريم حفظ نفس العبد حتى من نفسه، ونصحها حتى من ذاته؛ لأنها ثمينة عند الله، فالإنسان هو خليفة الله في أرضه، والقائم بشرعه والمتعبد له به، فنهاه عن تعريضها للظلم، أو تعرّضها للعقاب والحساب، أو الدفاع عن الظالم، فكيف بمن يعين الظالم ويسعى له، ويحلّل له فعله، ويبرّر له ظلمه، بل يخرج له هذا الظلم بطريقة شرعية.

خامسًا: خيانة الأمانة:

اختلف المفسرون في بيان المقصود من خيانة الأمانة، بل اختلفوا في بيان وتحديد مفهوم الأمانة، الوارد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فمنهم من يرى أن الأمانة هي ما يخفى عن أعين النّاس من فرائض اللّه[2].

ومنهم من يرى أنها الأعمال، ومنهم من يرى أنها الدّين[3].

وعن ابن عباس في قوله: «﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾: الأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني: الفريضة. يقول: لا تخونوا يعني: لا تنقضوها»[4].

ومنهم من رآها في الغنيمة، ومنهم من جعلها في كل ما يؤتمن عليه الإنسان، يقول الإمام الماوردي: «﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: فيما أخذتموه من الغنيمة أن تحضروه إلى المغنم.

الثاني: فيما ائتمن الله العباد عليه من الفرائض والأحكام أن تؤدوها بحقها ولا تخونوها بتركها.

والثالث: أنه على العموم في كل أمانة أن تؤدى ولا تخان»[5].

ويرى الإمام السمعاني أنها «في جميع الأمانات، نهي العباد عن الخيانة في الأمانات، وتدخل في الأمانات الطّاعات؛ فإن الطّاعات أمانات عند العباد على معنى أنها بينهم وبين ربهم أدوها أو لم يؤدوها»[6].

ومنهم من جعل الأمانة هي النفس والأموال، بكل ما تشتمل عليه، «فعلى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٤٣٨.
(٢) انظر: جامع البيان ١١/ ١٢٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ١١/ ١٢٥.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٩٠.
(٥) النكت والعيون ٢/ ٣١١.
(٦) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٥٩.

ذلك أنفسكم وأموالكم لله عندكم أمانة استحفظكم فيها، فإن استعملتموها في غير ما أذن لكم فيها، ختتم الله والرسول فيها، فتخونوا أماناتكم التي لكم عند الله إذا ضيعتم الأمانة؛ كقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[البقرة:٤٠].

وقال بعضهم: قوله: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾، أي: ولا تخونوا أماناتكم التي فيما بينكم. وأصله: أنه عز وجل امتحنهم فيما امتحنهم لمنافع أنفسهم ولحاجتهم، فيصيرون فيما خانوا فيما امتحنهم كأنهم خانوا أنفسهم وخانوا أماناتهم؛ كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، وقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ الآية. وقوله عز وجل: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أن أنفسكم وأموالكم ليست لكم، إنما هي لله عندكم أمانة، فلا تخونوا فيها[1].

ومنهم من ترقى في بيان الأمانة إلى درجة الحديث عن الأعمال والأحوال، بأن الخيانة في الأعمال: الدعوى فيها بأنها من قبلك، دون التحقيق بأن منشئها الله.

والخيانة في الأحوال ملاحظتك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق، إن لم يكن استهلاكك في وجود الحق. وإذا أخللت بسنة من السنن أو أدب من آداب الشرع فتلك خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والخيانة في الأمانات -بينك وبين الخلق- تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب المسلمين، بإرادة القلب فضلًا عن المعاملة بالفعل[2].

ومن بدائع أهل التفسير وروائعهم حقًّا أنهم لمحوا مسؤولية الأمة عن ريادتها للبشرية، وتكليفها بقيادة الأمم إلى توحيد الله تعالى، وهدايتها إلى ربها، ودلالتها عليه، وهذا ما يعبّر عنه في عصرنا بالشهود الحضاري؛ إذ جعلوا معنى الأمانة التي كلّف الله تعالى بها المسلمين أنهم مكلّفون بذلك ومؤهّلون له، بل حددوا مؤهلات هذا الشهود، ومقومات تلك المسؤولية، بأن الأمة وسط، وعدل، فـ«هذه الأمة وسطًا عدلًا بقوله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ فكأنه قال: يا أيها الذين آمنوا قد جعلكم الله أمناء عدلًا وسطًا، فلا تخونوا الله فيه؛ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣١١.

(٢) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٦١٨.

وقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أخبر أنه ألزمهم الأمانة -أعني: البشر- دون ما ذكر من الخلائق فمنهم من ضيع تلك الأمانة؛ من نحو المنافقين والمشركين، وخانوا فيها، فلحقهم الوعيد بالتضييع»[(١)].

وفي هذا يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول. فالقضية الأولى في هذا الدين هي قضية: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، قضية إفراد الله سبحانه بالألوهية والأخذ في هذا بما بلّغه محمد صلى الله عليه وسلم وحده، ومن هنا كان التخلي عنها خيانة لله والرسول يحذّر الله منها العصبة المسلمة التي آمنت به وأعلنت هذا الإيمان، فأصبح متعيّنًا أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعي والنهوض بتكاليف هذا الجهاد في الأنفس والأموال والأولاد.

كذلك يحذّرها خيانة الأمانة التي حملتها يوم بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان، وليس مجرد عبارات وأدعيات، إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق. إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله، وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق وردّ المجتمع إلى حاكميته وشريعته، وردّ الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء وتأمين الحق والعدل للناس جميعًا، وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت، وتعمير الأرض، والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله.

وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها، وخاس بعهده الذي عاهد الله عليه، ونقض بيعته التي بايع بها رسوله»[(٢)].

وتلك أهم زاوية من زوايا الأمانة، وأعمق تعريف لها؛ لأنه يشمل كل التعاريف السابقة ويزيد عليها بيان مسؤولية الأمة عن ريادة العالم، وقيامها بمهمتها التي ندبها الله لها.

سادسًا: خيانة العهد:

لقد رسم القرآن الكريم للبشرية منهاجًا من الوفاء، لو اتبعته وسارت به لعزت في الدنيا ونجت في الآخرة، وتوالت وصايا القرآن الكريم مشدّدة على الوفاء بالعهد والبعد عن خيانته، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وحذّرهم من نقضه والانقلاب عليه،

(١) تأويلات أهل السنة، النيسابوري ٥/ ١٨٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٩٧-١٤٩٨.

ونبّههم إلى أن هذا العهد عهد مع الله، وأن الله كفيل عليهم، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

ووصف المؤمنين المفلحين بأنهم: ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وفي خيانة العهد تحدث القرآن الكريم مبيّنًا ضرره وخطره ومنهجية التعامل معه، كما يرد في عاقبتهم ومنهجية التعامل معهم، وورد هذا في قوله تعالى مخاطبًا الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨].

وقد نص المفسرون على أن الخيانة هنا: خيانة العهد، يقول الإمام الماوردي رحمه الله: «قوله عز وجل: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ يعني: في نقض العهد.

﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: فألق إليهم عهدهم حتى لا ينسبوك إلى الغدر بهم. والنبذ هو الإلقاء»[1].

لقد ربط القرآن الكريم بين الكفر ونقض العهد والخيانة فيه؛ تفظيعًا له، وبيانًا لما هو فيه من شر وضرر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٨].

وبيّن للنبي أنه إن شعر منهم بالنقض أو بوادره ينبذ إليهم على سواء؛ ذلك أن الله لا يحب الخائنين، حتى ولو كان ذلك الفعل مع الكفار.

وعلى ﴿سَوَاءٍ﴾ هنا بمعنى: البيان والوضوح، ذكر ابن عادل الحنبلي في الموضع الرابع من مواضع معنى كلمة سواء: أنها «بمعنى: البيان»[2].

لقد حذّر القرآن النبي من خيانة الخائنين، ومكر الماكرين، وبيّن له أن تلك سمتهم وهذا ديدنهم، فقال له: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿عَلَىٰ خَائِنَةٍ﴾ أي: على معصية، وكانت خيانتهم نقض العهد، ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، وهمّهم بقتله وسمه، ونحوها من الخيانات الّتي ظهرت منهم.

وبيّن أن هذه الخيانة طبع اليهود، لا يغادرونها ولا تغادرهم، ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك[3].

(١) النكت والعيون ٢/ ٣٢٨.

(٢) اللباب في علوم الكتاب ٧/ ٤٢.

(٣) انظر: المصدر السابق ٧/ ٢٥٤.

وقال مجاهدٌ وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك بالنّبيّ صلى الله عليه وسلم [1].

وتلك من خلائقهم التي ورثوها ممن قبلهم وورّثوها أولادهم وأحفادهم، والواقع المنظور خير دليل على ذلك.

طريقة التعامل مع الخائنين

المتتبع لآيات القرآن الكريم في قضية الخيانة يجد أنها رسمت في التعامل مع الخائنين منهاجًا واضح المعالم، بيّن القسمات، لو طبّقته الأمة المسلمة في التعامل معهم لنجوا من تكرار الخيانة في واقعهم، ولابتعدوا عن الوقوع فيها أفرادًا وجماعات، وشعوبًا وحكومات؛ ذلك المنهاج الحق، والطريق الصدق يتلخص في النقاط الآتية:

أولًا: عدم المدافعة عنهم:

وأول طريقة من طرق التعامل مع الخائنين هي عدم المدافعة عنهم، أو التستر عليهم؛ حتى لا ينبت هذا الداء العضال في أوصال المسلمين، أو يعشّش في بيوتهم وقلوبهم، وهو المجتمع الذي يتغيا الصفاء، ويبغي الطهر، ويسعى نحو الكمال البشري، ويبدو من ملامح الآية الكريمة التي تناولت تلك المنهجية، ومن خلال أسباب نزولها، أنها وقعت في أفراد من بين ثنايا المجتمع المسلم، قام به واحد، وشاركه آخرون، وسعى في الدفاع عنه غيرهم، فنزلت الآيات الكريمة -كما سيأتي- تبيّن للجميع منهاجية القرآن العادلة في التعامل معهم.

ولنا أن نقف أمام الآية الكريمة التي تناولت تلك المنهجية؛ حتى يتسنى لنا تبيّن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٦.

معالم وملامح منهجية التعامل مع الخائنين، وسنجد الآية الكريمة تخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم قائلة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَاأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٩].

وأول ما نقف أمامه من تلك الآية الكريمة هو سبب نزولها؛ حتى يتسنى لنا تبيّن الجو الذي نزلت فيه زمانًا، ومكانًا، وأفرادًا، فقد نزلت الآية في المدينة بمجتمعها الذي يجمع أنماطًا من الناس: مؤمنين ومسلمين ومشركين ويهود ومنافقين، حتى يكون هذا نموذجًا للمجتمع الجامع الذي يتعايش فيه الناس، متوحّدين على قاسم مشترك، مهما تباينت رؤاهم، واختلفت توجهاتهم، وتنزل الآيات تبيّن الحكم الفصل الذي ينطبق على الجميع بما أن قيادة هذا المجتمع في أيدي المسلمين القيمين على البشرية بما أوتوا من مؤهّلات تضعهم في الصدارة، وتعينهم على إقامة القسط والحكم بالعدل، ولو على أنفسهم والأقربين، كما سيتضح ذلك جليًّا في تضاعيف معالجة القرآن لهذا التعامل في قضية الخيانة.

وتذكر كتب التفسير وعلوم القرآن إجماعًا على نزول هذه الآيات في طعمة بن أبيرق، كما قال الإمام الكرماني: «أجمع المفسرون على أن هذه الآيات نزلت في طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر بن الحرث، إلا ابن بحر فإنه قال: نزلت في المنافقين»[(١)].

وفصّل ابن العربي سبب النزول «بأن بني أبيرق سرقوا طعام رفاعة بن زيد، واعتذر عنهم قومهم بأنهم أهل خير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتادة بن النعمان ذلك، فطالبهم عن عمه رفاعة بن زيد، فقال رفاعة: الله المستعان، فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ونصر رفاعة وأخزى الله بني أبيرق بقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي: بما أعلمك، وذلك بوحي أو بنظر»[(٢)].

كما يتبدّى أيضًا من متابعة سبب النزول أن الآية نزلت نصرة ليهودي على مسلم؛ لأن الحق في جانب اليهودي، وفي ذلك من ملامح قيام الأمة الممثّلة في رسولها صلى الله عليه وسلم على إقامة الحق ما

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٧٩.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٤٧٤.

فيه، والمتأمل لسياق الآية ودلالات السياق والسباق واللحاق يجد ذلك بيّنًا، فصدر الآية يؤكد للرسول صلى الله عليه وسلم أنه أنزل إليه الكتاب ليحكم بين الناس بالحق، ولك أن تتأمل ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ وليس بين المسلمين فقط، «إنه مطلب تكليفي من الله للمسلمين حتى يشيع في كل الناس، ولا يخص المؤمنين يتعاملون به فيما بينهم، وإنما يشمل أيضًا ما بين المؤمنين والكافرين، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إن ارتضوا حكم رسول الله، وحينما أمر الحق رسوله أن يحكم بين الناس فذلك الحكم يقتضي عدم تمييز المؤمن على الكافر؛ لأن المسلمين هم القوّام، وهم خير أمة أخرجها الله للناس كافة. ولو فهم الناس أن خير الأمة الإسلامية عائد عليهم لما حاربوها. فنحن -المسلمين- لسنا خيرًا لأنفسنا فقط، ولكننا أمة لخير الناس جميعًا»[1].

وكما قال المفسرون: «وفي هذه الآية تشريف للرسول صلى الله عليه وسلم، وتفويض الأمور إليه بقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[2].

إن الإسلام -والقرآن دستوره الخالد- يمتلك منهاج ريادة البشرية، والقدرة على العبور بها إلى بر الأمان، دون تفريق بين دين ودين، أو جنس وجنس، أو فصيل و فصيل، إن اليهود هم من أسسوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، ولكن الإسلام بما أنه كلمة الله الخاتمة إلى أهل الأرض يضع قانونًا عادلًا، ومنهاجًا وسطًا، الناس جميعهم أمامه سواء.

وكما قال شوقي في همزيته[3]:

الله فوق الخلق فيها وحده
والناس تحت لوائها أكفاء

وإن خطابات القرآن الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم ترد في صورة حانية، هادئة، حتى في مواطن العتاب يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم بصيغ أهدأ وألطف، حتى يخاطبه بصيغة الغيبة في عتابه في ابن أم مكتوم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١- ٢].

ويقدم العفو قبل بيان العتاب في: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في موطن آخر، أما هنا فالخطاب بصورة مباشرة، وبصيغة لافتة.

وإذا كان هذا الخطاب والتنبيه للنبي بتلك الصورة فهو لأمته من باب أولى، «إننا نحس في التعبير صرامة، يفوح منها الغضب للحق، والغيرة على العدل، وتشيع في جو الآيات وتفيض منها، وأول ما يبدو هذا في تذكير رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير الشعراوي ٢/ ٦٦٤.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٤٧٤.
(٣) الشوقيات ١/ ٣٩.

بتنزيل الكتاب إليه بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله، وإتباع هذا التذكير بالنهي عن أن يكون خصيمًا للخائنين، يدافع عنهم ويجادل. وتوجيهه لاستغفار الله سبحانه عن هذه المجادلة.

ثم تكرار هذا النهي، ووصف هؤلاء الخائنين، الذين جادل عنهم صلى الله عليه وسلم بأنهم يختانون أنفسهم، وتعليل ذلك بأن الله لا يحب من كان خوّانًا أثيمًا.

وهم خانوا غيرهم في الظاهر، ولكنهم في الحقيقة خانوا أنفسهم، فقد خانوا الجماعة ومنهجها، ومبادئها التي تميّزها وتفردها، وخانوا الأمانة الملقاة على الجماعة كلها، وهم منها.

ثم هم يختانون أنفسهم في صورة أخرى، صورة تعريض أنفسهم للإثم الذي يجازون عليه شر الجزاء، حيث يكرههم الله، ويعاقبهم بما أثموا، وهي خيانة للنفس من غير شك.

وصورة ثالثة لخيانتهم لأنفسهم، هي تلويث هذه الأنفس وتدنيسها بالمؤامرة والكذب والخيانة»[1].

لكن هل كان هؤلاء الذين دافعوا عن أبيرق يعلمون خيانته؟

إن المفسرين يقولون: إنهم «لم يكونوا أيضًا على يقين من أمر الخائن وسرقته، ولكنه لم يكن لهم الحكم جائزًا على اليهودي بالسرقة لأجل وجود الدرع في داره»[2].

وهذا يدل على أنه غير جائز لأحد أن يخاصم عن غيره في إثبات حق أو نفيه وهو غير عالم بحقيقة أمره؛ لأن الله تعالى قد عاتب نبيه على مثله وأمره بالاستغفار منه، وهذه الآية وما بعدها من النهي عن المجادلة عن الخونة إلى آخر ما ذكر كله تأكيد للنهي عن معونة من لا يعلمه حقًّا[3].

لكن أكان النبي صلى الله عليه وسلم هو المخاطب أصالة بهذا الخطاب أم كان المقصود من الخطاب أمته، وصدور الخطاب بهذه الصورة لشخص النبي صلى الله عليه وسلم مقصود به تفخيم الأمر والتنبيه على خطورته؟

يرى بعض المفسرين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد شيئًا من ذلك، ولا علم له بالواقعة، لولا أطلعه تعالى، وعليه فلا نقص في اهتمامه، ولا درك يلحقه، وأن الآية خرجت مخرج التعريف بحقيقة الأمر في النازلة[4].

ويرى بعضهم أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره، كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ «والنبي

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٢٣٤.

(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٦٦.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٦٤.

(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٤٨٢.

لا يشك مما أنزل الله، فإن قيل: قد أمر بالاستغفار، قلنا: هو لا يوجب وجود الذنب، ولا يجب أن يستغفر كما أمر في سورة الفتح بالاستغفار من غير ذنب مقدّم»[1].

وعلى كل حال فلا ينافي أن يكون الرسول مخاطبًا بذلك أصالة مقام النبوة؛ فهو صلى الله عليه وسلم بشر يوحى إليه، ولعل كون الخطاب له يشعر بعدالة السماء، فإذا كان القرآن قد تعامل مع أفضل الخلق بهذا فغيره من باب أولى.

كما يبدو من الآية أن من منهاج التعامل مع الخائنين عدم جواز المجادلة عنهم، وعدم جواز مجادلتهم هم عن أنفسهم؛ إذ كانت خائنة، «لها في السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس، فلا يجوز المجادلة عنها، فالاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز»[2].

ثانيًا: طرح عهودهم:

أما الملمح الثاني من ملامح منهج التعامل مع الخائنين، فيكمن في طرح عهودهم، ونبذ معاهداتهم، وهذا ما بيّنه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وهذا واضح فيه أنه في جانب الدول والأمم، حيث المعاهدات والمواثيق، وإن لم ينص المفسرون على هذا المعنى صراحة، لكن ورود العهد والنبذ والحرب وتشريد بهم من خلفهم يوحي بكونها في جانب الأمم والدول.

ومعنى ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾: أعلمهم بأنّك قد نقضت عهدهم حتّى يبقى علمك وعلمهم بأنّك حربٌ لهم، وهم حربٌ لك، وأنّه لا عهد بينك وبينهم على السّواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك»[3].

ومن تتبّع كلام المفسرين في معنى ﴿سَوَاءٍ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يبين لنا أنها تدل على واحد من خمسة معان: أحدها: على مهل. والثاني: على محاجزة مما يفعل بهم. والثالث: على سواء في العلم حتى لا يسبقوك إلى فعل ما يريدونه بك. والرابع: على عدل من غير حيف، أي: إلى العدل. والخامس: على الوسط[4].

ومما يشعر بالجانب الحضاري في هذا الدين أن عدم حب الله للخائنين ليس مقصورًا على الخائنين للمسلمين فحسب، بل مطلق الخائنين، أي: «حتّى ولو في حق الكافرين، لا يحبّها أيضًا»[5].

ولقد عاش الجيل القرآني الفريد هذا المعنى القرآني، وطبّقه في تعاملاته، حتى

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٣٨٢.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٤٤٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٩.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٢٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٩.

كانوا نماذج تحتذى للبشرية كلها، وفخرًا حقيقيًّا لكل مسلم على كرّ الدهور والعصور، فعن سليم بن عامر قال: «كان معاوية يسير بأرض الروم وكان بينهم وبينه أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدر، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدّها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء) فبلغ ذلك معاوية فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة»[1].

والمراد من خوف الخيانة ظهور آثارها، أو الإحساس ببدايتها، وليس ظن الخيانة، وليس الانتظار حتى يتمكن الخائنون، والنموذج التطبيقي لذلك ما حدث من بني قريظة في مظاهرتهم أبا سفيان ومن معه من المشركين[2] وذلك في غزوة الأحزاب.

وهذا هو ثبات المعايير، وصدق المبادئ في حضارة الإسلام، مع العدو والصديق، والقريب والبعيد، وتلك من مؤهلات الشهود الحضاري، الذي اختصت به أمة الإسلام.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم؛ لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة، ولقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ وهنا قد كان معلومًا عند الجميع غدرهم. ودل مفهومها أيضًا أنه إذا لم يخف منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته[3].

«إن الإسلام يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم، فليس بينه وبينهم أمان.

وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة، إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم.

فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة؛ لأن كل خصم قد أخذ حذره، فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هو غافل! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة؛ لأنها ليست غادرة! إن الإسلام يريد للبشرية

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٨/ ٢٢٩، رقم ١٧٠١٥. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٥/ ٤٧٢، رقم ٢٣٥٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٣٩، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٧٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢٤.

أن ترتفع، ويريد للبشرية أن تعف، فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود، ومن ثمّ لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة، إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة، وليس مسلمًا من يبرّر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية؛ لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات.

إن الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل، فإن الشط الممرع لابد أن تلوّثه الأقدام الملوثة في النهاية، من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة.

ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق. لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين حتى ذلك الزمان، قانون القوة التي لا تتقيد بقيد متى قدرت»[1].

ثالثًا: التنكيل بهم:

ومن منهجية التعامل مع الخائنين التي رصدها القرآن الكريم، ودل عليها صريح الآيات وبيّنها سياقها أننا بعد النبذ إليهم على سواء، لابد من مناجزتهم، وعدم تركهم يعيثون في الأرض فسادًا، يفرّخون فسادهم، ويدبّرون مكائدهم، فمن أمن العقوبة أساء الأدب، كما قالوا في أدبنا العربي؛ ولذلك تجد الآية السابقة عليها في نفس سياقها تقول: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧].

والمعنى: «نكّل بهؤلاء الذين جاءوا لحربك أو نقضوا عهدك تنكيلًا يفرّق بينهم من خلفهم من جماعاتهم»[2].

ذلك أن من الناس من لا يرعوي حتى يرى العقوبة ماثلة، بل في ذلك ما يجعلهم عبرة لكل من يجترأ على حرمات الديار وخفر الذمار، كما ختمت الآية بـ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ «أي: لعل المشردين يتعظون بما شاهدوا ما نزل بالناقضين، فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر»[3].

وفي تذييل الآية الكريمة بعدم حب الله تعالى للخائنين لطائف بديعة، منها أنه تعليل للأمر بالنبذ، وأن الله تعالى لا يحب من كانت الخيانة طبعه، وفيه من طمأنة الرسول ومن سار على منهاجه ما فيه؛ فكون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٤٢.

(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٧٤.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٣١٣.

هؤلاء الخائنين محرومين من حب الله لهم، يعني أنهم محرومون من الأمن والهداية، ومحرومون من النصر والغلب، وممنوعون من التمكن، فمن حرم حب الله تعالى حرم كل خير، وتخلّت عنه كل سعادة.

كما تلمح من هذا التذييل والتعليل البديع إشارة من القرآن الكريم للرسول بمناجزة قتال الخائنين، وعدم تركهم، ما دام تيقن من عزمهم على الخيانة، ففي التذييل «تعليل للأمر بالنبذ، إما باعتبار استلزامه النهي عن مناجزة القتال؛ لكونها خيانة، فيكون تحذيرًا له صلى الله عليه وسلم منها، وإما باعتبار استتباعه للقتال، فيكون حثًّا له صلى الله عليه وسلم على النبذ أولًا، وعلى قتالهم ثانيًا، كأنه قيل: وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم، ثم قاتلهم»[1].

وفي ذلك بيان صريح لمنهجية التعامل مع الخائنين في المستقبل، فيا ليت قومي يعلمون، يقول أبو حيان: «الظاهر أن هذا استئناف كلام، أخبره الله تعالى بما يصنع في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر»[2].

بل جعلها صاحب المنار قاعدة، من (القواعد الحربية العسكرية والسياسية) التي اشتملت عليها سورة الأنفال، فقال في (القاعدة التاسعة): «وجوب معاملة ناقضي العهد بالشدة التي يكونون بها عبرة ونكالًا لغيرهم، تمنعهم من الجرأة والإقدام على مثل خيانتهم بنقضهم، ومنه يظهر الفرق بين تعاليم الإسلام الجامعة بين الحزم والعدل، والشدة والفضل، وبين ما عليه دول المدنية الإفرنجية من القسوة والظلم»[3].

إننا أمام نظرية قرآنية جامعة ومنهجية متكاملة في التعامل مع الخائنين، سواء كانوا أفرادًا أم دولًا، وسواء كانت الخيانة مادية أم معنوية، إذا أخذ المسلمون بتلك المنهجية في تعاملهم مع هؤلاء الخائنين، كفّوا شرهم، ومنعوا أذاهم، ووأدوا فتنتهم في جحرها، ودفنوها في مهدها، ولا يتنافى هذا مع السماحة والندى، فلكل حلة لبوسها، ولكل عقوبة جزاؤها، وقديمًا كان العرب بفطرتهم الصحيحة يتفهّمون هذا المعنى، ويدركون قيمة القوة في مكانها، والمسامحة في بابها، قال أبو تمام[4]:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا
فليقس أحيانًا على من يرحم

(١) المصدر السابق ٥/ ٣١٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٤٠.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٢٧.
(٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف ص٣٢٨.

عاقبة الخائنين

لله عز وجل في الخائنين سنن ثابتة لا تتحوّل ولا تتبدّل، نصّت عليها آيات القرآن الكريم، ويمكننا أن نتناول تلك العاقبة في النقاط الآتية:

أولًا: حرمان الهداية إلى الحق:

ومن عقوبات الله تعالى للخائنين: أنه تعالى يحرمهم الهداية إلى الحق، والوصول إلى الصراط المستقيم، فهداية الله نوعان:

- هداية دلالة وإرشاد.
- وهداية معونة وتوفيق.

فالله تعالى يهدي عباده إلى طريقه المستقيم، ويعينهم على تلك الهداية، أما الناكثون عن طريق الحق، الرافضون لمنهاج الصدق فالله تعالى يكلهم إلى أنفسهم، ويخليهم إلى قدرتهم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

ويقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

والآيات الكريمة في ذلك كثيرة.

وقد نصّت آيات بعينها على حرمان الخائنين من هداية الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

والمعنى: «لا ينفذه ولا يسدده، أو لا يهدي الخائنين لكيدهم. وأوقع الفعل على الكيد مبالغة»[(١)].

«أي: لا يصلح»[(٢)]، أو: «وأن الله لا يوفّق أهل الخيانة، ولا يرشدهم في خيانتهم»[(٣)]، أو أنه تعالى «لا يهدي الخائنين بكيدهم»[(٤)].

قال السدي: «يعني لا يصلح عمل الزناة»[(٥)].

ومن بدائع القرآن الكريم ومنهاجيته في البيان عن تلك القضية أنه أوردها بصورة قاعدية سننية، تمضي على الجميع، وتعم كل الخائنين، وهذا ما نلمحه من تذييل الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

فهي واردة في حادثة معينة، ومع ذلك وردت في صورة عامة بتلك الصورة البنائية البيانية المعبّرة.

ومن لطائف الكتاب العزيز هنا أنه عبّر عن الزنا بالخيانة؛ ذلك أن هذا الفعل في حق الزوج خيانة، ولعل السر في التعبير بهذه الصيغة التنزه عن ذكر اللفظ في هذا المقام، وإن كان قد ورد في موطن آخر، والتنبيه على استبشاعه؛ حيث جرمه يلحق أكثر من طرف: الزوج، والولي، وكل من

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ١١٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٢٧٤.
(٣) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٣٧٧.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٧.
(٥) تفسير ابن أبي زمنين ١/ ٣٠٧.

يهمه أمرها، بل المجتمع بأسره.

كما عبّر عن تيسير الوصول بالهداية، وعبّر عن تركه بتركها؛ مبالغة في بيان تلك العقوبة التي تلحق الخائنين، وتعمهم؛ «لئلا يتوهّم أن الحديث عن خائن معين تعني نفسها، فيصير الجمع في هذه المواطن قرينة على قصد الاستغراق، فأطلقت الهداية التي هي الإرشاد إلى الطريق الموصلة على تيسير الوصول، وأطلق نفيها على نفي ذلك التيسير، أي أن سنة الله في الكون جرت على أن فنون الباطل وإن راجت أوائلها لا تلبث أن تنقشع[1]. كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

«أي: أنها أقرّت بأنه سبحانه وتعالى لا ينفذ كيد الخائنين، ولا يوصّله إلى غايته»[2].

وفي هذا التذييل البديع طمأنة لقلوب من وقعت عليهم الخيانة، وتسرية عن نفوسهم؛ حيث إن الله تعالى وعدهم أنه لا يهدي كيد من خانهم، ولا يوليهم إلى غايتهم التي خانوا من أجلها، كما أن «فيه إشارة إلى أن الله تعالى يوصل عباده الصادقين بعد الغم إلى السرور ويخرجهم من الظلمات إلى النور»[3].

«لا يرشد من خان أمانته، ويفضحه في عاقبته»[4].

والنص على إبطال كيد الخائنين ينبّه على أن غير الخائنين يهديهم الله تعالى، ويصلح أعمالهم؛ لأنه تعالى «خص الخائنين تنبيهًا أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة، ككيد يوسف بأخيه وقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧] أي: لأريدن بها سوءًا»[5].

ومن أبرز الدلائل على عدم هداية الله للخائنين، وأنه لا ينعم عليهم بأن يكونوا في سبيله الحق، أو على طريقه المستقيم، أنه يحرمهم من اتباعه، ويخلي بينهم وبينه، ولو كانت مصادر الهداية أقرب ما تكون منهم، أو كانت بواكير الوحي بين أيديهم، وفي بيوتهم، وأقرب مثال لذلك بيوت كانت بيوت النبوة، وأشخاص عاصروها، وعاشروها في حياتهم، ونزل الوحي في مساكنهم، ومع ذلك لم يتنسّموا عبيره، ولم يجدوا ريحه، وليس مثال امرأة نبي الله نوح وامرأة نبي الله لوط اللتين قال الله عنهما: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] عنا ببعيد.

أي: «كانتا في عصمة نبيين عظيمين،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٩٣.
(٢) تفسير الشعراوي ٣/ ١٦٣٥.
(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ١١٩.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٤٨.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٤٣.

متمكّنين من تحصيل خير الدنيا والآخرة، وحيازة سعادتهما، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بإفشاء سرهما، أو بالكفر والنفاق، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فلم يغن الرسولان عن المرأتين بحق ما بينهما من الزواج شيئًا من الإغناء من عذاب الله تعالى، ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما، أو يوم القيامة: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ أي: مع سائر الداخلين من الكفرة، الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء.

قال القشيري: لما سبقت للمرأتين الفرقة يوم القسمة لم تنفعهما القرابة يوم العقوبة.

قال ابن عطية: وقول من قال: إن في المثلين عبرة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعيد، قلت: لا بعد فيه لذكره إثر تأديب المرأتين، وليس فيه غض لجانبهن المعظم، إنما فيه إيقاظ وإرشاد لما يزيدهم شرفًا وقربًا من تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته، وصيانة سره، والمسارعة إلى ما فيه محبته ورضاه، وكل من نصحك فقد أحبك، وكل من أهملك فقد مقتك»[1].

وليس هذا المثل خاصًّا بمن ضرب لهم، كعادة القرآن في منهجياته، بل عادة ضرب الأمثال في اللغة، فكل من خان وتنكب الطريق عقوبته الحرمان والتيه وعدم الدلالة وفقدان الهداية.

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٣٦٥.

ففي «ضرب هذا المثل دليل على أن القرب من الأنبياء والصالحين، لا يفيد شيئًا مع العمل السيء»[2].

فهم مع قربهما من مصدر الوحي، وصلتهما بمنبع الرسالة لم يغنيا عنهما من الله شيئًا؛ «تنبيهًا بذلك على أن العذاب يدفع بالطاعة دون الوسيلة»[3]، ودخلتا النار «مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام»[4].

وفي ذلك بيان واضح لمن أراد أن يذّكر، وعبرة لمن أراد أن يعتبر، وورود هذا المثل بعد أن ذكر في صدر السورة ما يتعلق بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أنهن لا ينفعهن قربهن من النبي دون عملهن وطاعتهن، «وكذلك كفار مكة وإن كانوا أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم لا ينفعهم صلاح النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك أزواجه إذا خالفنه»[5].

وفي ذكر المثل في الآية الكريمة دليل على عموم القاعدة، وسننية القضية، وأنه ينسحب حكمها على كل من جمع صفاتها.

يقول الخازن: «وهذا مثل ضربه الله تعالى للصالحين والصالحات من النساء، وأنه لا ينفع العاصي طاعة غيره، ولا يضر

(٢) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص١٨٧.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٤٧.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٤٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧١.

المطيع معصية غيره، وإن كانت القرابة متصلة بينهم، وأن القريب كالأجانب بل أبعد، وإن كان القريب الذي يتصل به الكافر نبيًّا»[1].

وهذه لمحة من لمحات العدالة المطلقة في شريعة الإسلام فلا قرب ولا بعد إلا بالعمل، ولا نسب ولا شرف إلا برضا الله تعالى، كما أنها سمة من سمات التأهل للشهود الحضاري، وريادة البشرية على منهاج عدل، «فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلًا بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التي كانت بين لوط ونوح وامرأتيهما، فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئًا ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾»[2].

وتلك «سنة الله فيمن توغل في الظلم والشر والفساد أنه يحرم التوبة فلا يموت إلا كافرًا»[3].

ثانيًا: حرمان محبة الله عز وجل:

ومن أقسى عقوبات الله تعالى للخائنين: أنه يحرمهم محبته، ويمنعهم مودته، تلك المحبة التي هي سبب كل خير، وعدمها سبب كل بلاء وضر.

ومحبة الله معناها: «مراعاته لهم»[4]، أو هي: «حالة لا يعبر عنها مقالة»[5].

وقال صاحب البصائر: «ولا يحدّ المحبّة بحدّ أوضح منها، والحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً فحدّها وجودها. ولا توصف المحبّة بوصف أظهر من المحبّة، وإنّما يتكلّم النّاس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها»[6].

وقد نصّت آيات القرآن الكريم على تلك العقوبة، فقد أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في تعامله مع من يخاف خيانتهم أن ينبذ إليهم عهدهم على بيان ووضوح؛ ذلك أن الله تعالى لا يحب الخائنين، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وقال في بيان سبب من أسباب مدافعته عن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال في سبب نهيه عن المجادلة عن الذين يختانون أنفسهم: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٧].

أي: «لا يرضى فعلهم، وهو تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول

(١) لباب التأويل، الخازن ٧/ ١٢٣.
(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٢٢٢.
(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢٦٥.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٦٠.
(٥) التوقيف، المناوي ص ٢٩٩.
(٦) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤١٦.

عليه بالحال»[1].

فالله لا يحبهم؛ «لأنهم متصفون بالخيانة، فلا تستمر على عهدهم فتكون معاهدًا لمن لا يحبهم الله؛ ولأن الله لا يحب أن تكون أنت من الخائنين»[2].

وموقع التذييل هذا من الآية وروده عقب هذا الأمر بمناجزتهم والمنابذة إليهم على سواء مشعر بعلّية عدم حب الله للخائنين، ويحتمل أن تكون تلك الجملة الكريمة تعليلًا معنويًّا للأمر بنبذ العهد على عدل، وهو إعلامهم، وأن تكون مستأنفة سيقت لذم من خان رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقض عهده[3].

ومن روائع المنهاج القرآني أنه أورد صيغة عدم الحب خالية عن تحديدها حتى تكون عامة شاملة، سواء كانت تلك الخيانة في حق المؤمنين أو في حق الكافرين، أي: «حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضًا»[4].

وفي ذلك من خصائص السننية من الاطراد والعموم والشمول ما فيه.

كما أن في ذلك من دلالات تهيئة الأمة للشهود الحضاري ما لا يخفى؛ فالإسلام -والقرآن دستوره- ينهى عن الخيانة ولا يحب أصحابها، ولو كانت في حق الكافرين، ويؤمر نبيه بأن ينبذ إليهم على سواء، ولا يباغتهم قبل أن يعرفوا نقض عهدهم، وعلى سواء بما تحمله تلك الكلمة من بيان، أي: على وضوح وجلاء، أو بحيث يصل الخبر إليهم ويستوون في معرفته.

«وحاصل الكلام في هذه الآية أنه تعالى أمره بنبذ من ينقض العهد على أقبح الوجوه، وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه»[5].

وعاش أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تلك القيم عيشة حقيقية واقعية لفتت أنظار العدو قبل الصديق، إلى ربانية هذا الدين، ومثله العليا التي لا تقوم أخلاقه على نسبية تختلف من شخص إلى آخر ولا من جنس إلى جنس، ولا من دين إلى دين، بل الكل أمام القيمة سواء.

فقد «روي أنّ معاوية كان بينه وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدرًا، فإذا هو عمرو بن عنبسة، فأرسل إليه معاوية يسأله فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٣٦٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٥٣.
(٣) الدر المصون، السمين الحلبي ٥/ ٦٢٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٩.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٤٢١.

ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء»[1] فرجع معاوية»[2].

ويؤكد هذا الفهم أن القرآن الكريم قال في موطن آخر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥].

«تلاحظ أن الآية لم تقل: بين المؤمنين، ولكن قالت: ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ حتى لا تكون هناك تفرقة في العدل بين مؤمن وغير مؤمن، فغير المؤمن مخلوق لله، استدعاه الله إلى هذا الوجود، وسبحانه قد أعد له مكانه في هذا العالم؛ لذلك لابد أن تراعي العدل معه في كل الأمور ولا تظلمه بل تعطيه حقه؛ لأنك بذلك تكون أنت مددًا من إمدادات الله. وقد كان هذا السلوك العادل الذي أمر به الله سببًا في دخول عدد كبير في الإسلام»[3].

كما تلمح شدة بيان القرآن عن حرمانهم محبة الله تعالى من تركيب الجملة وسياقها، وقد أكد نفي محبة الله تعالى للخيانة «بالجملة الاسمية، وبـ(إن)، ونفي المحبة أبلغ في النهي؛ لأن محبة الله مطلوبة، فإذا كانت الخيانة لا تؤدي إليها فهي منهي عنها نهيًا شديدًا مؤكدًا»[4].

كما تلمح بلاغة الآية وعمق دلالتها عن دفاع الله عن المؤمنين وعدم حبه للخائنين من ترتب الجملة الاستئنافية المبدوءة بإن كأنها تعليل لما سبق في صدر الآية، كما قال صاحب التحرير والتنوير: و«تعليل الدفاع بكونه عن الذين آمنوا، بأن الله لا يحب الكافرين الخائنين، فلذلك يدفع عن المؤمنين لرد أذى الكافرين، ففي هذا إيذان بمفعول ﴿يُدَٰفِعُ﴾ المحذوف، أي: يدافع الكافرين الخائنين»[5].

وتلمح بلاغتها أيضًا في حذف مفعول ﴿يُدَٰفِعُ﴾ في صدر الآية «فلم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم، وإن كان في الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين، فلذلك قال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٖ﴾؛ فنبّه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار»[6].

وهي بشرى واضحة للمؤمنين الذين ابتلوا بالخيانة ممن ائتمنوهم، ووثقوا فيهم، بأن الله سيحفظهم وسينصرهم على هؤلاء الخائنين؛ فتلك سنة الله تعالى التي لا تتخلّف ولا تتبدل.

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٨/ ٢٢٩، رقم ١٧٠١٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٥/ ٤٧٢، رقم ٢٣٥٧.
(٢) السراج المنير، الشربيني ١/ ٤٥٦.
(٣) تفسير الشعراوي ٣/ ١٢٠٥.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣١٧٢.
(٥) التنوير والتحرير، ابن عاشور ٢٤/ ٨٣.
(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٤/ ٩٩.

وبتلك المناهج التي يربي الإسلام عليها أتباعه يعلي قيمة البشرية، ويرسّخ معنى الحضارة الحقة التي تمسك بمقود العالم، فلا يظلم فيه فقير لحساب غني، ولا يهان فيه ضعيف إرضاء لقوي؛ لأن صاحب المنهاج هو رب البشرية، وسيد العالمين، الإله الحق الذي خلقه كلهم عنده سواء، وفضله عليهم كلهم سواء.

«إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع؛ ويريد للبشرية أن تعف؛ لا يبيح الغدر في سبيل الغلب؛ وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد؛ ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود؛ ومن ثمّ لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة، إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ؛ ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة.. وليس مسلمًا من يبرّر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية؛ لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات.

إن الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل؛ فإن الشط الممرع لابد أن تلوّثه الأقدام الملوثة في النهاية.

من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة، وفي مقابل هذه النصاعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين النصر، ويهون عليهم أمر الكفار والكفر!»[1].

والمبالغة في لفظة ﴿خَوَّانٍ﴾ ليست على بابها، فليس المراد نفي المحبة عن الخوان فتثبت للخائن، بل المراد أن المشركين خوانون، أو «لأن خيانة أمانة الله تعالى وكفران نعمته لا يكونان حقيرين، بل هما أمران عظيمان، أو لكثرة ما خانوا فيه من الأمانات، وما كفروا به من النعم، أو للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي أولًا، وإيراد معنى المبالغة ثانيًا»[2].

وقد تكون صيغة المبالغة للنسب، فشملت ما لا مبالغة فيه، أو مراعاة الحال من الآية في شأنه.

ومما يؤيد نصرة الله تعالى لمن وقعت في حقه الخيانة، وينصره على الخائنين، الإذن بالقتال بعد نفي المحبة عن كل خوان كفور، وتلك سنة الله في الخيانة، لا تتبدل ولا تتغير، «وما دام هناك الخوّان والكفور فلابدّ للسماء أن تؤيّد رسولها، وأن تنصره في هذه المعركة أولًا، بأن تأذن له في القتال، ثم تأمره بأخذ العدة والأسباب المؤدية للنصر، فإن عزّت المسائل عليكم، فأنا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٤٣١.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٣/ ٧٤.

معكم أؤيدكم بجنود من عندي»[1].

وفي هذه الآية إشارة لطيفة بترك المدفوع عن المؤمنين عامًّا مطلقًا، وجعل سياقها يشير إلى الخيانة، وذلك بشارة عظيمة للمؤمنين الذين يتعرضون للخيانة، بأنه عز وجل متكفل بالدفاع عنهم.

إن لطف الله بعباده دائم، شامل، سواء عن طريق محبتهم وتأييدهم، أو عن طريق رصده لأعدائهم، فهو تعالى متكفل بالدفاع عنهم، ونصرتهم على أعدائهم، وتلك سنة الله الماضية، وناموسه الباقي، ما بقيت على الأرض حياة وأحياء.

ثالثًا: إبطال كيدهم:

ومن عقوبات القرآن الكريم للخائنين أن الله تعالى يبطل كيدهم، ويفلّ حدهم، ولا ينيلهم مبتغاهم، حتى وإن بدا للناظر المتعجل أنهم وصلوا إلى غايتهم، وظفروا بمنيتهم، ونالوا ما يصبون إليه، فمقاييس الحق غير مقاييس الباطل، وغايته غير غايته، وقد ومضت سنة الله تعالى بذلك، كما نصت الآيات الكريمة عليه.

لقد عبّر القرآن الكريم غب كيد امرأة العزيز على لسانها عن ذلك فقالت: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

ومعنى عدم هداية كيدهم يبيّن سننية القرآن الكريم في إبطال كيدهم، فعدم هداية كيدهم يعني: أنه «لا ينفذه ولا يسدده، أو لا يهدي الخائنين لكيدهم. وأوقع الفعل على الكيد؛ مبالغةً»[2].

وأتت الآية الكريمة مبينة استغراق الأمر لجميع الخائنين بـ(ال) التي تفيد الاستغراق، إضافة إلى ورودها بصيغة الجمع؛ «لئلا يتوهّم أن الحديث عن خائن معين.. فيصير الجمع في هذه المواطن قرينة على قصد الاستغراق»[3].

فكل خائن بهذه الصورة لا يصل إلى مبتغاه، ويبطل الله كيده، وتلك سنة الله الماضية، وقانونه الدائم في الخلق.

أو المعنى: «أن الله لا يوّفق أهل الخيانة»[4]، وعدم توفيقهم وإرشادهم فيه إبطال لكيدهم، فمن يهديهم أو يرشدهم بعد أن خلاهم الله وحرمهم الرشاد والهداية؟

أو المعنى: «لا يوصّله إلى غايته»[5]، وإذا لم يصل إلى غايته فقد بطل، وفشل، ولم يحقق غايته.

أو أن المعنى: «لا يصلح»[6]، وفي عدم صلاحه إبطال له.

(١) تفسير الشعراوي ٦/ ٢٦١٥.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٣٩٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٥٣.
(٤) التفسير الميسر ص ١٥٢.
(٥) تفسير الشعراوي ٩/ ٤٤٢٧.
(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٢٧٤.

أو المعنى: «قال: لا يقرب»[1]، فكيف يصل من لا يقرب؟

أو المعنى: «لا يرشد من خان أمانته»[2]، وما دام فقد إرشاد الله له فكيف يصل إلى مبتغاه، أو ينال مناه؟

وقد دلت الآية الكريمة على عدد من الدلالات فيما يخص إبطال الكيد، منها: أنهم يفتضحون في الدنيا قبل الآخرة، وأن الله يخليهم لذواتهم، ويتركهم لقدراتهم البشرية، فلا يعينهم ولا يرشدهم، ولا يهديهم ولا يسدّد فعلهم.

ومبالغة في نفي وصول الخائنين إلى مبتغاهم، أو تحصيلهم نوالهم وردت الصيغة البنائية في الآية الكريمة بهذه الصورة، موقعة الفعل على الكيد، لا على الفعل، فلم يقل القرآن الكريم: (لا يهديهم) أو (لا يهدي فعلهم)، بل قال: ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾؛ كأن الكيد نفسه لن يهتدي، بل هو مثل أصحابه تائه ضال، لن يصل إلى غايته، فهو مبطل من البداية.

كما قال علماء التفسير: «أوقع الفعل على الكيد مبالغة»[3]، فسبحان من هذا كلامه.

ثالثًا: الإهلاك:

ومن عقوبات الله تعالى للخائنين أنه يعاجلهم بالهلكة، ويمكّن منهم من نقضوا عهده وخانوه، ووردت الآيات الكريمة مبيّنة ذلك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١].

لقد وعد الله رسوله بأنه تعالى يتمكن من الخائنين، ويقهرهم ويخزيهم، وينصرك عليهم، وهذه سنة ماضية في الناس إلى يوم القيامة؛ لأن من سنته تعالى في الخائنين -كما سبق- أنه لا يحبهم، ولا يهديهم، ويعاجلهم بالعقوبة، ومعنى أمكن منهم أي: «أمكنكم أنتم أيها المؤمنون منهم فقتلتموهم وأسرتموهم»[4].

والتذييل في الآية الكريمة له دلالة بديعة كعادة القرآن في تذييله؛ حيث ورد هنا صفتان من صفات الله تعالى، هما (عليم)، (حكيم)، وهما -كما لا يخفى- متناسبتان تمام التناسب مع الوعد بالإمكان من الخائنين؛ فهو عليم بهم، حكيم في تمكينك منهم؛ حتى لا يعلو الباطل على الحق، وحتى تمضي سنة الله تعالى في ردع الخائنين، والإمكان منهم.

وقد فعل تعالى بالمشركين في بدر «فأمكنك -يا رسول الله- منهم وأظهرك

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ٣٤٥.
(٢) الوجيز، لواحدي ١/ ٥٥٠.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٩٤.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢٧٦.

عليهم يوم بدر، حتى قهرتهم وأسرتهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث أمكنك منهم، يعني إن خانوك أمكنتك منهم؛ لتفعل بهم مثل ما فعلت من قبل»[1].

وهذا من روائع القرآن الكريم وأسراره في التعبير؛ إذ يعبر عن المعنى بلفظ محدد له ظلال مقصوده، وهذا ما يسميه البلاغيون: العدول، حيث يترك القرآن لفظًا ويعبّر بآخر اختيارًا؛ لما للمختار من دلالة تتناسب مع السياق والمعنى المقصود للآية.

وفي ذلك من التطيب والتسرية والتطييب بالتهنئة والطمأنة ما فيه؛ «بأن ضمن لهم، إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأن الله يمكّن المسلمين منهم مرة أخرى، كما أمكنهم منهم في هذه المرة، أي: إن ينووا من العهد بعدم العود إلى الغزو خيانتك، وإنما وعدوا بذلك لينجوا من القتل والرق، فلا يضركم ذلك، لأن الله ينصركم عليهم ثاني مرة»[2].

وقد تطابق المسطور والمنظور في ذلك، في تمكين الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ممن خانوه بعد وعد بعدم القتال ضده، كالشاعر ابن عزة الجمحي، «فإنه سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم المنّ عليه بغير شيء؛ لفقره وعياله، وعاهده على أنه لا يظاهر عليه أحدًا، ثم خان فظفر به في غزوة حمراء الأسد عقب يوم أحد أسيرًا، فاعتذر له وسأله العفو عنه فقال: (لا، لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرّتين) وأمر به فضربت عنقه»[3].

وكما ورد الوعد بالإمكان منهم هنا ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾[الحج: ٣٨].

وفي الآية الكريمة وعد بالدفاع عن الذين آمنوا، وتعليل لهذا الدفاع بأنه لا يحب كل خوّان كفور.

وفي تذييل الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ «تعليل لما في ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي. وقيل: تعليل للدفاع عن المؤمنين ببغض المدفوعين على وجه يتضمن أن العلة في ذلك الخيانة والكفر، وأوثر ﴿لَا يُحِبُّ﴾ على يبغض تنبيهًا على مكان التعريض وأن المؤمنين هم أحباء الله تعالى»[4].

ومما يؤيد تأييد الله تعالى لمن وقعت في حقه الخيانة، وأنه ينصرهم على الخائنين، ويهلك هؤلاء الخونة بمغبة أفعالهم، إذنه

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٠٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٨١.
(٣) السراج المنير، الشربيني ١/ ٤٦١.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١٣/ ٧٤.

تعالى للمؤمنين بالقتال، وتلك سنة الله في الخيانة، لا تتبدل ولا تتغير، «وما دام هناك الخوّان والكفور فلابدّ للسماء أن تؤيّد رسولها، وأن تنصره في هذه المعركة أولًا، بأن تأذن له في القتال، ثم تأمره بأخذ العدة والأسباب المؤدية للنصر، فإن عزّت المسائل عليكم، فأنا معكم أؤيدكم بجنود من عندي»[(١)].

وفي هذه الآية إشارة لطيفة بترك المدفوع عن المؤمنين عامًّا مطلقًا، وجعل سياقها يشير إلى الخيانة، وذلك بشارة عظيمة للمؤمنين الذين يتعرضون للخيانة، بأنه عز وجل متكفل بالدفاع عنهم.

إن هلاك الخائنين ليس في الدنيا فقط، بالنصر عليهم وقهرهم وخزيهم، بل في الآخرة أيضًا، حتى يقال لهم: ادخلوا النار مع الداخلين، وقد أكد القرآن الكريم ذلك، حتى مع من كانوا أشد الناس قربًا من المرسلين، كامرأة نوح وامرأة لوط، إذ قال الله تعالى فيهم صراحة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

لقد جعلهم الله مثلًا يضرب، ونموذجًا مطلقًا على هلاك الخائنين مهما كانت مكانتهم، ومهما كان قربهم؛ لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق، وبتّ الوصل وجعلهم أبعد من الآمال، وإن كان المؤمن الذي يفصل به الكافر سائر أنبياء الله بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما خانتا ونافقتا الرسولين عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الأزواج أغنى من عذاب الله، وقيل لهما عند موتهما، أي: يوم القيامة: ادخلا النار مع سائر الداخلين الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء ومع داخلها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط.

وبذلك وضع القرآن قاعدة عامة في هلاك الخائنين مهما كانوا، بل صيّرهم مثلًا لغيرهم، «وقطع الله بهذه الآية طمع كل من يركب المعصية أن ينفعه صلاح غيره، ثم أخبر أن معصية غيره لا تضره إذا كان مطيعًا»[(٢)].

ويبيّن الإمام البقاعي -رحمه الله- سر القاعدية والسننية في هذا الإهلاك للخائنين في الدارين، وضرب الله بهم مثلًا، وأنهم لم تنفعهم قراباتهم، كما لا تضر المسلمين قراباتهم من الكافرين بأنه: «لما كان أمر الاستئصال في الإنجاء والإهلاك أشبه شيء بحال أهل الآخرة في الدينونة بالعدل والفضل، وكان المفتتح به السورة عتاب النساء، ثم أتبع بالأمر بالتأديب لجميع الأمة

(١) تفسير الشعراوي ٥/ ٢٦١٥.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٣٥٨.

إلى أن ختم بهلاك المخالف في الدارين، وكان للكفار قرابات بالمسلمين وكانوا يظنون أنها ربما تنفعهم، وللمسلمين قرابات بالكفار وكانوا ربما توهموا أنها تضرهم، قال مجيبًا لما يتخيل من ذلك تأديبًا لمن ينكر عليه صلى الله عليه وسلم من النساء وغيرهن ضرب الله المثل بهؤلاء في عدم انتفاعهم مع كفرهم بما بينهم وبين المؤمنين من الوصل والعلائق، فيغلّظ عليهم في الدارين معاملة بما يستحقون من غير محاباة لأحد، وإن جل مقامه، وعلا منصبه ومرامه»[1].

وتلك عقوبات الله تعالى للخائنين، حرمان من الهداية، وحرمان من محبة الله تعالى ومودته، وإبطال كيدهم، وإهلاك لا يتخلف ولا يتأجل، وتلك سنن الله الماضية، وعقوبته العاجلة، وناموسه الذي لا يتخلف، فليتعظ من خان ربه أو رسوله أو أمانة أو عرضًا، وليبادر بالتوبة النصوح قبل حلول الأجل، فسنة الله لا تنتقي ولا تنتخب، بل ماضية ما مضى الجديدان، دائمة ما كرّ الملوان، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

موضوعات ذات صلة:

الأمانة، العهد، الميثاق، النفاق، الوفاء

(١) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٥٧.

الخير

عناصر الموضوع

مفهوم الخير	٢٢٤
الخير في الاستعمال القرآني	٢٢٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٢٦
الخير الإلهي	٢٢٨
ميادين الخير في القرآن	٢٣٥
الخيرية بين المتضادات	٢٥٤
الحث على فعل الخير في القرآن	٢٦٣

مفهوم الخير

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (خير) على العطف والميل، فكل أحد يميل إلى الخير، ويعطف على صاحبه[1].

والخير ضد الشر، وجمعه خيور، ويقال: رجلٌ خَيْرٌ وخَيِّرٌ -مشدّد ومخفّف-، أي: فاضل، والجمع أخيارٌ، وخيارٌ، والخيرات جمع خيرةٍ، وهي الفاضلة من كل شيء[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف عن معناه اللغوي، فهو يطلق على «ما يرغب فيه كل الناس، كالعقل، والعدل، والفضل، والشيء النافع»[3].

كما يصدق الخير أيضًا على كل ما يتقرّب به العبد إلى الله تعالى من فعل الطاعات، والبعد عن المعاصي والسيئات، لذا قيل في تعريفه: هو إتيان ما يوجب الثواب الجزيل، ويجنب العقاب الأليم[4].

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٣٢.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص ٩٩.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠٠.
(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٥٩٣.

الخير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خير) في القرآن الكريم (١٩٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٨٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	١٧٦	﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦﴾ [آل عمران:٢٦]
الأسماء	١٢	﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]

وأطلق الخير في القرآن الكريم على أربعة أوجه[٢]:

الأول: كل ما هو طيب وممدوح ومرغوب فيه، ويشمل العافية والسعة والنفع والأجر وغير ذلك: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج:٣٦]، أي: لكم في البدن منافع كثيرة في الدنيا، والأجر في الآخرة إذا تقربتم إلى الله بذبحها.

الثاني: الإسلام أو القرآن: ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

الثالث: المال: ومنه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:١٨٠] أي: إن ترك مالًا.

الرابع: الأفضل: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢] أي: أنا أفضل منه.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن، عبدالله جلغوم، ص٤٩١-٤٩٥.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٩٦-١٩٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٥٧٢-٥٧٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٨٥-٢٨٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ البر:

البرّ لغة:

الاتساع في الإحسان والزيادة فيه إلى الناس، ويقال: أبر على صاحبه في كذا، أي: زاد عليه[١]، وأصل معنى البر السعة، ومنه أخذ البر مقابل البحر، ثم شاع في الشفقة والإحسان والصلة[٢].

البر اصطلاحًا:

قال الطبري: «كل طاعة لله تعالى تسمّى برًّا»[٣]، وقال الزمخشري: «البرّ سعة الخير والمعروف، ومنه البر، لسعته، ويتناول كل خير. ومنه قولهم: صدقت وبررت»[٤]. وقيل: هو اسم جامع لكل خير[٥].

الصلة بين البر والخير:

يشترك لفظ البر مع لفظ الخير في معان كثيرة، وبينهما فروق منها: «أن الخير يقابله الشر، والبر يقابله العقوق، ومنها: أن البر هو الخير الواصل إلى الغير، مع القصد إلى ذلك، أما الخير فمطلق سواء كان عن قصد أو غير قصد، حتى لو وقع عن سهو لم يخرج عن استحقاق الصفة به»[٦].

٢ النعمة:

النعمة لغة:

قال ابن فارس: «النعمة: المنة، وكذلك النعماء. والنعمة: المال، يقال: هو واسع النعمة»[٧]، يقال: نَعِمَ يَنْعَمُ نَعْمَةً، ونِعمة العيش: حُسْنه، ونعمة الله: مَنُّه وعطاؤه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: ٢٠][٨].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ١٣٨.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٥١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٧.
(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ١٣٣.
(٥) انظر: تحرير ألفاظ التنبيه، النووي ص ١٤٩.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص١٧٠.
(٧) مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٨٧٤.
(٨) تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٩.

النّعمة اصطلاحًا:

الحالة الحسنة[1]. وهي في أصل وضعها الحالة الّتي يستلذها الإنسان[2].

الصلة بين النعمة والخير:

أنها سبيل إليه، فنعمة المال سبيل للإنفاق منه في وجوه الخير، ونعمة الصحة سبيل للقيام بواجبات العبودية لله تعالى من صلاة وصيام وحج وهكذا. وقد ذكر أبو هلال العسكري الفرق بين لفظ الخير ولفظ النعمة، فقال: «والفرق بينها: أي: النعمة وبين الخير، أن الإنسان يجوز أن يفعل بنفسه الخير كما يجوز أن ينفعها، ولا يجوز أن ينعم عليها»[3].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨١٤.
(٢) الكليات، الكفوي ص٩١٢.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص١٩٧.

الخير الإلهي

من الحقائق الثابتة التي لا مراء فيها أن الله تعالى خالق كل شيء، وهو خالق الخير يهدي إليه من يشاء من خلقه، ولا يعلم حقيقة الخير إلا الله. والناظر في القرآن الكريم يجد أن لفظ الخير ورد في بعض الآيات مقرونًا ببعض أسماء الله تعالى وصفاته: كـ ﴿خَيْرُ النَّٰصِرِينَ﴾، و﴿خَيْرُ الْغَٰفِرِينَ﴾ ونحوهما، كما أن هناك ميادين كثيرة للخير: كالإيمان، والعبادات، والأخلاق؛ وضّحها القرآن الكريم ليرشد المسلمين إليها. والحديث حول هذا الموضوع يشتمل على ما يأتي:

أولًا: مصدر الخير:

مصدر الخير هو الله سبحانه وتعالى فهو الذي خلقه ويسّره لأهله، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

فالخير بيد الله تعالى هو خالقه وملهمه، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَٰلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: كيف قال: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ فذكر الخير دون الشر؟ قلت: لأنّ الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرته الكفرة، فقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك، ولأن كل أفعال اللّه تعالى من نافع وضارّ صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله، كإيتاء الملك ونزعه»[1].

وقال الفخر: «والألف واللام في الخير يوجبان العموم، فالمعنى: بقدرتك تحصل كلّ البركات والخيرات، وأيضًا فقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ يفيد الحصر، كأنّه قال بيدك الخير لا بيد غيرك»[2].

ومما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في افتتاح الصلاة بعد التكبير وقبل القراءة: (اللّهمّ أنت الملك لا إله إلاّ أنت، أنت ربّي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي إنّه لا يغفر الذّنوب إلاّ أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت، واصرف عنّي سيّئها إنّه لا يصرف سيّئها إلاّ أنت، لبّيك وسعديك، والخير بيديك، أستغفرك وأتوب إليك، لا منجا منك إلاّ إليك)[3].

ثانيًا: الخير في أسماء الله وصفاته:

اقترن الخير في مواضع من القرآن الكريم بأسماء الله تعالى وصفاته، كـ ﴿خَيْرُ النَّٰصِرِينَ﴾ ونحوه. ومعلوم أن أفعل

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٥٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٩٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ١/ ٥٣٤، رقم ٧٧١.

التفضيل هنا ليس على بابه، بل من قبيل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وبيان ذلك كما يأتي:

١. خير الناصرين.

ومعناه في حق الله تعالى أنه سبحانه ينصر من يستنصره، ويجازيه على استنصاره به[(١)].

وورد هذا الوصف في القرآن مرةً واحدةً، وذلك في قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠].

قال الفخر: «وإنّما كان تعالى خير النّاصرين؛ لأنّه تعالى هو القادر على نصرتك في كلّ ما تريد، والعالم الّذي لا يخفى عليه دعاؤك وتضرّعك، والكريم الّذي لا يبخل في جوده، ونصرة العبيد بعضهم لبعضٍ بخلاف ذلك في كلّ هذه الوجوه، واعلم أنّ قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ ظاهره يقتضي أن يكون من جنس سائر النّاصرين وهو منزّهٌ عن ذلك، لكنّه ورد الكلام على حسب تعارفهم»[(٢)].

وقال الألوسي: «وهو خير النّاصرين؛ لأنه القوي الذي لا يغلب، والناصر في الحقيقة فينبغي أن يخص بالطاعة والاستعانة»[(٣)]، فالله سبحانه هو الغالب الذي لا يغلب جنده وصاحب القدرة المطلقة، فلا نصر إلا منه تعالى، ومهما بلغت قوة العدو وعدته وعتاده، فلا قيمة لكل ذلك أمام قدرة الله تعالى، نصر رسوله صلى الله عليه وسلم في هجرته وهزم الأحزاب وحده.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (لا إله إلاّ الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده)[(٤)].

٢. خير الرازقين.

وهذا الوصف معناه في حق الله تعالى: «أنّه سبحانه مختصٌّ بأن يرزق ما لا يقدر عليه غيره، وأنه تعالى هو الأصل في الرزق»[(٥)].

وقد ورد هذا الوصف في خمسة مواضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

أي: أعطنا من عطائك؛ فإنك يا رب خير من يعطي، وأجود من تفضّل[(٦)].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة:

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٢٨٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٨٤.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٠٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢/ ٨٨٦، رقم ١٢١٨.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٤٣.
(٦) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٢٦.

١١].

قال ابن الجوزي في تفسيرها: «والله خير الرّازقين؛ لأنه يرزق من يؤمن به ويعبده، ومن يكفر به ويجحده، فهو يعطي من سأل ويبتدئ من لا يسأل، وغيره إنما يرزق من يرجو منفعته، ويقبل على خدمته»[(١)].

وقال ابن عاشور: «وذيّل الكلام بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ لأنّ اللّه يرزق الرّزق لمن يرضى عنه سليمًا من الأكدار والآثام؛ ولأنّه يرزق خير الدّنيا وخير الآخرة، وليس غير اللّه قادرًا على ذلك، والنّاس في هذا المقام درجاتٌ لا يعلمها إلّا اللّه، وهو العالم بالسّرائر»[(٢)].

٣. خير الفاصلين.

وهو من الفصل في الخصومات، ومعناه في حق الله تعالى أنه سبحانه خير من يفصل ويحكم بين الخلق كلهم.

قال الراغب: «الفصل: إبانة أحد الشيئين عن الآخر حتى يكون بينهما فرجة، وسمّي يوم القيامة يوم الفصل؛ لأنّه يبيّن الحق من الباطل، ويفصل بين الناس بالحكم، وفصل الخطاب ما فيه قطع الحكم»[(٣)].

وورد هذا الوصف مرةً واحدةً في القرآن في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

ومعنى الآية: «أنه هو خير من بيّن وميّز بين المحق والمبطل وأعدلهم؛ لأنه لا يقع في حكمه وقضائه حيف إلى أحد لوسيلة له إليه، ولا لقرابة ولا مناسبة، ولا في قضائه جور؛ لأنه لا يأخذ الرشوة في الأحكام فيجور، فهو أعدل الحكام وخير الفاصلين»[(٤)].

قال صاحب الكشاف: «يقصّ الحقّ: أي: القضاء الحق، وهو خير الفاصلين: أي: القاضين»[(٥)].

٤. خير الحاكمين.

ومعناه في حق الله تعالى أنه سبحانه أفضل من يحكم بين الناس. وورد هذا الوصف في ثلاثة مواضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

قال الطبري: «والله خير من يفصل وأعدل من يقضي؛ لأنه لا يقع في حكمه ميلٌ إلى أحد ولا محاباة لأحد»[(٦)].

٥. خير الفاتحين.

قال الراغب: «الفتح: إزالة الإغلاق

(١) زاد المسير، ٤/ ٢٨٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٣٠.
(٣) المفردات، ص٦٣٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٩٨.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٠.
(٦) جامع البيان، ١٢/ ٥٦١.

والإشكال، فتح القضيّة فتاحًا: أي: فصل الأمر فيها، وأزال الإغلاق عنها، والفاتح والفتّاح القاضي بلغة حمير»[1].

ومعناه في حق الله تعالى هنا أنه تعالى خير القاضين. وورد هذا الوصف في موضع واحد من القرآن هو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال ابن عاشور: «فسّروا الفتح هنا بالقضاء والحكم»[2].

وبذلك يعلم أنّه تعالى خير الفاتحين، أي: خير الحاكمين؛ لأنّ حكمه هو العدل والقسط، وعلمه هو النافذ غير الخاطئ أبدًا، بخلاف حكم الآخرين، فهم بين حاكم عادل أو جائر، ومصيب أو مخطئ.

٦. خير الغافرين.

قال صاحب اللسان: «الغفور الغفّار جلّ ثناؤه وهما من أبنية المبالغة، ومعناهما: الساتر لذنوب عباده، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم»[3].

قال الفخر: «خير الغافرين، معناه: أنّ كلّ من سواك فإنّما يتجاوز عن الذّنب: إمّا طلبًا للثّناء الجميل، أو للثّواب الجزيل، أو دفعًا للرّبقة الخسيسة عن القلب؛ وبالجملة فذلك الغفران يكون لطلب نفعٍ، أو لدفع ضررٍ، أمّا أنت فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوضٍ وغرضٍ، بل لمحض الفضل والكرم، فوجب القطع بكونه خير الغافرين»[4].

وورد هذا الوصف في القرآن مرّةً واحدةً في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ومعنى الآية كما قال الطبري: «﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾، أي: فاستر علينا ذنوبنا بتركك عقابنا عليها، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ تعطف علينا برحمتك، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، أي: أنت خير من صفح عن جرم، وستر على ذنب»[5].

٧. خير الماكرين.

قال الراغب: «المكر: صرف الغير عمّا يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكر محمود، وهو أن يتحرّى بذلك فعل جميل، ومذموم، وهو أن يتحرّى به فعل قبيح»[6].

وقد ورد هذا الوصف في موضعين من القرآن:

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

والثاني: في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

(١) المفردات، ص٦٢١.
(٢) التحرير والتنوير ٩/ ١١.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٥.
(٤) مفاتيح الغيب، ١٥/ ٣٧٨.
(٥) جامع البيان، ١٣/ ١٥٢.
(٦) المفردات ص٧٧٢.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد اتّفق المفسّرون على أنّ المراد من مكره سبحانه هو المجازاة على مكرهم.

قال ابن عاشور: «ومعنى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، أي: أقواهم عند إرادة مقابلة مكرهم بخذلانه إيّاهم. ويجوز أن يكون معنى ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: أنّ الإملاء والاستدراج الّذي يقدّره للفجّار والجبابرة والمنافقين الشّبيه بالمكر في أنّه حسن الظّاهر سيّئ العاقبة، هو خيرٌ محضٌ لا يترتّب عليه إلّا الصّلاح العامّ، وإن كان يؤذي شخصًا أو أشخاصًا، فهو من هذه الجهة مجرّدٌ عمّا في المكر من القبح، ولذلك كانت أفعاله تعالى منزّهةً عن الوصف بالقبح أو الشّناعة؛ لأنّها لا تقارنها الأحوال الّتي بها تقبّح بعض أفعال العباد من دلالةٍ على سفاهة رأيٍ، أو سوء طويّةٍ، أو جبنٍ، أو ضعفٍ، أو طمعٍ، أو نحو ذلك، أي: فإن كان في المكر قبحٌ فمكر اللّه خيرٌ محضٌ، ولك على هذا الوجه أن تجعل ﴿خَيْرُ﴾ بمعنى التّفضيل وبدونه»[1].

٨. خيرٌ حافظًا.

«الحفظ له معنى واحد يدل على مراعاة الشيء، والتحفّظ: قلّة الغفلة، والحفاظ: المحافظة على الأمور. والحفيظ: الموكّل بالشّيء يحفظه، كالحافظ»[2].

ورد هذا الوصف في القرآن مرةً واحدةً في قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

والآية تحكي ما قاله يعقوب عليه السلام لأبنائه عندما طلبوا منه أن يأخذوا أخاهم للملك؛ ليأذن لهم في الكيل.

ومعنى الآية كما قال ابن عاشور: «أي: خيرٌ حفظًا منكم؛ فإن حفظه اللّه سلم، وإن لم يحفظه لم يسلم، كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمنتكم عليه»[3].

٩- خير الوارثين.

قال في اللسان: «الوارث صفة من صفات الله عز وجل وهو الباقي الدائم الذي يرث الخلائق ويبقى بعد فنائهم، والله عز وجل يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، أي: يبقى بعد فناء الكل ويفنى من سواه؛ فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له»[4].

وورد هذا الوصف في القرآن أيضًا مرةً واحدةً في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

قال البغوي: «﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾:

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٥٧.

(٢) مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٢٤٤.

(٣) التحرير والتنوير ١٣/ ١٦.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٩٩.

ثناءٌ على اللّه بأنّه الباقي بعد فناء الخلق، وأنّه أفضل من بقي حيًّا»[1].

١٠. خير المنزلين.

قال الفخر: «الإنزال في الأمكنة قد يقع من غير اللّه، كما يقع من اللّه تعالى وإن كان هو سبحانه خير من أنزل؛ لأنّه يحفظ من أنزله في سائر أحواله، ويدفع عنه المكاره بحسب ما يقتضيه الحكم والحكمة»[2].

ورد هذا على أنه صفة لله تعالى مرةً واحدةً في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره لنبيه نوح عليه السلام: وقل إذا سلّمك الله، وأخرجك من الفلك، فنزلت عنها: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا﴾ من الأرض ﴿مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾: أنت خير من أنزل عباده المنازل»[3].

وفي هذه الآية توجيه من الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام أن يطلب من الله تعالى أن يتفضّل عليه بإنزاله منزلًا مباركًا، بأن يكون ذات ماء وشجر، أو غير ذلك ممّا يمهّد الحياة.

وورد قوله تعالى: ﴿خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ مرةً واحدةً أيضًا في شأن يوسف عليه السلام حينما قال لإخوته -فيما حكى القرآن-: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]، أي: خير المضيفين، «وعدهم بأن يوفي لهم الكيل، ويكرم ضيافتهم، إن أتوا بأخيهم»[4].

١١. خير الراحمين.

قال صاحب اللسان: «الرحمة: الرّقّة والتّعطّف، والرحمة: المغفرة، والرّحمة في بني آدم عند العرب: رقّة القلب وعطفه، ورحمة الله: عطفه وإحسانه ورزقه»[5].

ورد هذا الوصف في القرآن مرتين:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

والثانية: في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

أي: أنت يا ربّ خير من رحم ذا ذنب، فقبل توبته، ولم يعاقبه على ذنبه[6].

ثالثًا: حقيقة الخير لا يعلمها إلا الله:

إن الخير بيد الله تعالى فهو سبحانه خالقه وملهمه ولا يعلم حقيقته إلا هو، فقد يقع للإنسان شيء من الأقدار المؤلمة والمصائب الموجعة التي تكرهها نفسه،

(١) معالم التنزيل ٥/ ٣٥٢.
(٢) مفاتيح الغيب، ٢٣/ ٢٧٤.
(٣) جامع البيان، ١٩/ ٢٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٣.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٣٠.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٨٥.

فربما جزع أو أصابه الحزن وظنّ أن ذلك المقدور هو الضربة القاضية والفاجعة المهلكة لآماله وحياته، فإذا بذلك المقدور منحة من الله في ثوب محنة، وعطية منه تعالى في رداء بليّة، وكم أتى نفع الإنسان من حيث لا يحتسب، والعكس صحيح، فكم من إنسان سعى إلى شيءٍ ظاهره الخير، واستمات في سبيل الحصول عليه، وبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إليه، فإذا بالأمر يأتي على خلاف ما يريد.

وهذا هو ما يقرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والآية وإن كانت ورادة في شأن القتال والجهاد إلا أن العبرة بعموم اللفظ.

ومعنى الآية: «عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أنكم تغلبون وتظهرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيدًا، ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا﴾ الدعة وترك القتال ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ في أنكم تغلبون وتذلّون ويذهب أمركم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما يصلحكم وما هو خير لكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

والآية ورادة في كراهية الرجل لزوجته، والمعنى: «فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله في ذلك الشيء الذي تكرهونه خيرًا كثيرًا، والمراد بالخير الكثير -كما فسره ابن عباس- أن يعطف عليها فيرزق الرجل ولدها، ويجعل الله في ولدها خيرًا كثيرًا»[2].

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة تدل على ذلك، منها قصة الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام بأمر من الله تعالى؛ فإنه علّل قتله إياه بقوله: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠-٨١].

قال الطبري: «وأما الغلام، فإنه كان كافرًا، وكان أبواه مؤمنين، فعلمنا أنه يرهقهما. يقول: يغشيهما طغيانًا -وهو الاستكبار على الله- وكفرًا به. وعن قتادة أنه ذكر الغلام الذي قتله الخضر، فقال: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وقوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ يقول: خيرًا من الغلام الذي قتله

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٥٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٨/ ١٢٢- ١٢٣.

صلاحًا ودينًا»[1].

ومنها كذلك قصة أم موسى عندما ألقته في اليمِّ بأمر من الله تعالى، فظاهره شر، ولكنه خير لنجاة موسى عليه السلام وهو طفل، من بطش فرعون.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

والوحي هنا وحي إلهام لا وحي نبوة، قال قتادة: قذفنا في قلبها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾، يعني: من الذبح ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، أي: البحر، ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه من الغرق أو من الضيعة، ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ على فراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

(١) المصدر السابق ١٨/ ٨٥- ٧٨.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٩٠.

ميادين الخير في القرآن

للخير ميادين كثيرة، دل عليها القرآن الكريم، وأرشد المسلمين إليها وأمرهم بها؛ ليحصل لهم بسببها الفوز والفلاح، والسعادة في الدنيا والآخرة، كدعوته إلى الإيمان والتقوى، والطاعة والعبادة، والأخلاق الفاضلة وحسن المعاملة، إلى غير ذلك من الميادين الكثيرة التي أرشد إليها القرآن الكريم، والحديث حول هذا الموضوع يتضمن ما يأتي:

أولًا: الإيمان:

الإيمان من أعظم ميادين الخير التي أرشد إليها القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

«وقد اتّفق أهل العلم من اللّغويّين وغيرهم على أن الإيمان معناه التصديق»[3].

أما معناه الشرعي فهو كما بينه النبي صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل: ما الإيمان؟ فقال: (الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر،

(٣) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ١٩٠.

وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

وقد أمر الله به الناس جميعًا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٠].

ومعنى الآية: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، يعني: محمدًا صلى الله عليه وسلم، ﴿بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، يقول: بالإسلام الذي ارتضاه الله لعباده دينًا، ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾، يعني: من عند ربكم، ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾، يقول: فصدّقوه وصدّقوا بما جاءكم به من عند ربكم من الدين؛ فإن الإيمان بذلك خير لكم من الكفر به، ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾، يقول: وإن تجحدوا رسالته وتكذّبوا به وبما جاءكم به من عند ربكم، فإن جحودكم ذلك وتكذيبكم به، لن يضرّ غيركم»[2].

فالإيمان خير في الدنيا؛ لأنه تصديق بالله ورسوله، وخير في الآخرة؛ لأنه أول وأهم سبب من أسباب دخول الجنة.

ولا بد أن يكون الإيمان مقرونًا بالعمل؛ لينفع صاحبه عند الله.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والإيمان بالله وتوحيده هو دعوة الأنبياء جميعًا، ومنهم يوسف عليه السلام حينما قال لصاحبيه في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

ومن أعظم ميادين الخير أيضًا: التقوى، ومعناها إجمالًا: الائتمار بما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر. وهي من مستلزمات الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣].

قال ابن كثير: «ولو أنّهم -أي: اليهود- آمنوا باللّه ورسله واتّقوا المحارم، لكان مثوبة اللّه على ذلك خيرًا لهم ممّا استخاروا لأنفسهم ورضوا به»[3].

وقال عز وجل: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والمراد بلباس التقوى، قيل: هو الإيمان، وقيل: هو العمل الصالح، وقيل: هو خشية الله، وقيل: السمت الحسن، وقيل: هو الورع، والكل محتمل.

قال في الكشاف: «وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدوّ السّوآت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة السّاعة، ١/ ٣٦، رقم ٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٤١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٦٤.

وخصف الورق عليها؛ إظهارًا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارًا بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى»[1].

وقال ابن عباس: «لباس التّقوى: العمل الصّالح، وقيل: هو السّمت الحسن، وقيل: هو العفاف والتّوحيد»[2].

وقد أمر الله تعالى بالتزود منها فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال الفخر: «وتحقيق الكلام فيه أنّ الإنسان له سفران: سفرٌ في الدّنيا، وسفرٌ من الدّنيا، فالسّفر في الدّنيا لا بدّ له من زادٍ، وهو الطّعام والشّراب والمركب والمال، والسّفر من الدّنيا لا بدّ فيه أيضًا من زادٍ، وهو معرفة اللّه ومحبّته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد خير من زاد الأوّل؛ لوجوهٍ:

الأول: أنّ زاد الدّنيا يخلّصك من عذابٍ موهومٍ، وزاد الآخرة يخلّصك من عذابٍ متيقّنٍ.

وثانيها: أنّ زاد الدّنيا يخلّصك من عذابٍ منقطعٍ، وزاد الآخرة يخلّصك من عذابٍ دائمٍ.

وثالثها: أنّ زاد الدّنيا يوصلك إلى لذّةٍ ممزوجةٍ بالآلام والأسقام والبليّات، وزاد الآخرة يوصلك إلى لذّاتٍ باقيةٍ خالصةٍ عن شوائب المضرّة، آمنةٍ من الانقطاع والزّوال.

ورابعها: أنّ زاد الدّنيا وهي كلّ ساعةٍ في الإدبار والانقضاء، وزاد الآخرة يوصلك إلى الآخرة، وهي كلّ ساعةٍ في الإقبال والقرب والوصول.

وخامسها: أنّ زاد الدّنيا يوصلك إلى منصّة الشّهوة والنّفس، وزاد الآخرة يوصلك إلى عتبة الجلال والقدس. فثبت بمجموع ما ذكرنا أنّ خير الزّاد التّقوى»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

أي: «اعبدوا الله دون غيره، واتقوا سخطه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه»[4].

ومن مفاتيح الخير كذلك الانتهاء عن الكفر والشرك، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

وهذا نهي عن قول ذلك أو اعتقاده؛ لأنه

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٩٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٢.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٣٢١.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٨.

كفر بوحدانية الواحد سبحانه، وقد سمّى الله هؤلاء كفارًا؛ لقولهم واعتقادهم ذلك، وتهددهم بالعذاب الأليم إن لم ينتهوا عنه.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

والانتهاء عن ذلك القول يكون بالتوبة والرجوع إلى الله عز وجل واعتقادهم وحدانيته، وإلاّ فالله ورسوله منهم براء.

قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣].

قال الطبري: «قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من كفركم -أيها المشركون- ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، فالرجوع إلى ذلك ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإقامة على الشرك في الدنيا والآخرة»[1].

وقال تعالى أيضًا: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

والآية الكريمة نزلت في المنافقين الذين حلفوا بالله كذبًا على كلمة كفر تكلموا بها أنهم لم يقولوها، ثم تأمرهم بالتوبة منها والرجوع عنها والندم على قولها، فذلك خير لهم من الاستمرار على ما هم عليه من الكفر والنفاق، وإن يتولوا ويدبروا عن التوبة ويصروا على كفرهم؛ فإنّ الله يعذبهم عذابًا أليمًا موجعًا في الدنيا والآخرة[2].

وكلمة الخير في الآية تدل على أن توبتهم إلى الله أفضل مما هم عليه من كلمة الكفر، وهمّهم بما لم ينالوا ونقمتهم، فتكون توبتهم سببًا لنجاتهم من العذاب الذي يصيبهم إذا تولوا ولم يتوبوا ويرجعوا عن قولهم كلمة الكفر. قيل: نزلت في عبد الله بن أبيّ بن سلول.

فالتوبة كلها خير بالنسبة لمن يتوب من كفره وشركه ونفاقه؛ لأنه يعود إلى طريق الحق والإيمان، وخير لمن يتوب من ذنبه؛ لأنه يعود إلى رشده وصوابه، والعمل بطاعة ربه، وإتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (كلّ بني آدم خطّاءٌ، وخير الخطائين التّوّابون)[3].

(١) المصدر السابق ١٤/ ١٣١.

(٢) المصدر السابق ١٤/ ٣٦٤- ٣٦٥ باختصار.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥١.

كما حثّ عليها بقوله صلى الله عليه وسلم: (يا أيّها النّاس توبوا إلى الله، فإنّي أتوب إليه في اليوم مائة مرّةٍ)[1].

ثانيًا: العبادة:

من ميادين الخير التي أرشد إليها القرآن: العبادات بأنواعها:

- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾[البقرة: ١١٠].

ومعنى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أي: حافظوا عليها؛ لتحفظكم، وتحصلوا الخير بسبب حفاظكم عليها.

وفي بيان ما يحصل للعبد من خيرات بسبب إقامتها، يقول الفخر: «واعلم أنّ حفظ الصّلاة للمصلّي على ثلاثة أوجهٍ:

الأول: أنّ الصّلاة تحفظه عن المعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥].

فمن حفظ الصّلاة حفظته الصّلاة عن الفحشاء والمنكر.

والثاني: أنّ الصّلاة تحفظه من البلايا والمحن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[البقرة: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾[المائدة: ١٢].

ومعناه: إنّي معكم بالنّصرة والحفظ إن كنتم أقمتم الصّلاة وآتيتم الزّكاة.

والثالث: أنّ الصّلاة تحفظ صاحبها وتشفع لمصلّيها؛ ولأنّ الصّلاة فيها القراءة، والقرآن يشفع لقارئه، وهو شافعٌ مشفّعٌ»[2].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المزمل: ٢٠].

«أي: وما تقدّموا -أيها المؤمنون- لأنفسكم في دار الدنيا من صدقة أو نفقة تنفقونها في سبيل الله، أو غير ذلك من نفقة في وجوه الخير، أو عمل بطاعة الله من صلاة أو صيام أو حجّ، أو غير ذلك من أعمال الخير في طلب ما عند الله، تجدوه عند الله يوم القيامة في معادكم، هو خيرًا لكم مما قدمتم في الدنيا وأعظم منه ثوابًا، أي: ثوابه أعظم من ذلك الذي قدّمتموه لولم تكونوا قدّمتموه»[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣١، رقم ٤٥١٥.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الدعوات، باب في التوبة ٨/ ٧٢، رقم ٢٧٠٢.

(٢) مفاتيح الغيب، ٦/ ٤٨٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٧٠٠.

﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

وهنا يرشد الله عباده إلى أن يمضوا إلى الصلاة عندما يسمعوا النداء ويتركوا البيع وكل ما يشغلهم عنها، وأن ذلك فيه الخير لهم وهو الثواب في الآخرة التي هي خير وأبقى.

❁ الصوم.

قال تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

قال الطبري: «والصواب من القول في ذلك عندنا أنّ الله عمّم بقوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فلم يخص بعض معاني الخير دون بعض، وعني بقوله: ﴿وَأَن تَصُومُوا﴾ ما كتب عليكم من شهر رمضان هو خير لكم من أن تفطروه وتفدوا»[(١)].

❁ الحج والعمرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

والمعنى: «ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته الواجبة عليه فإن الله شاكرٌ له على تطوعه له بما تطوع به من ذلك ابتغاء وجهه، فمجازيه به عليمٌ بما قصد وأراد بتطّوعه بما تطوع به»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال الطبري: «أي: افعلوا -أيها المؤمنون- ما أمرتكم به في حجكم، من إتمام مناسككم فيه، وأداء فرضكم الواجب عليكم في إحرامكم، وتجنب ما أمرتكم بتجنبه من الرفث والفسوق في حجكم؛ لتستوجبوا به الثواب الجزيل»[(٣)].

والخير المترتب على الحج والعمرة كثير، ومنه تحصيل المنافع من الهدي والأضاحي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦].

أي: «لكم في البدن خير، والبدن: ما يساق من الإبل للهدي والنحر، وذلك الخير هو الأجر في الآخرة بنحرها والصدقة بها، وفي الدنيا الركوب إذا احتاج إلى ركوبها، وشرب لبنها»[(٤)].

❁ الفدية.

والمراد بها ما يقدم من مال ونحوه؛ لتخليص أسير أو غيره.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم

(١) المصدر السابق ١/ ١٩٦.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٤٧.

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٥٥.

(٤) المصدر السابق ١٨/ ١٣٠- ١٣١.

﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

والمعنى كما قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: يا أيها النبي، قل لمن في يديك وفي يدي أصحابك من أسرى المشركين الذين أخذ منهم من الفداء ما أخذ ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، يقول: إن يعلم الله في قلوبكم إسلامًا، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يقول: ويصفح لكم عن عقوبة جرمكم الذي اجترمتموه بقتالكم نبي الله وأصحابه، وكفركم بالله، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾، لذنوب عباده إذا تابوا، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم أن يعاقبهم عليها بعد التوبة»[1].

* الصدقة.

والمراد بها ما ينفق في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

والمعنى: «يسألك أصحابك يا محمد: أي شيء ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟ وعلى من ينفقونه فيما ينفقونه ويتصدقون به؟ فقل لهم: ما أنفقتم من أموالكم وتصدقتم به، فأنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل، فإنكم ما تأتوا من خير وتصنعوه إليهم فإن الله به عليم، وهو محصيه لكم حتى يوفّيكم أجوركم عليه يوم القيامة، ويثيبكم على ما أطعتموه بإحسانكم عليه. و(الخير) الذي قال جل ثناؤه في قوله: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، هو المال الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من النفقة منه، فأجابهم الله عنه بما أجابهم به في هذه الآية»[2].

وقد حثّ الله عباده المتصدقين على إخفاء الصدقات، وأن ذلك خير لهم من إعلانها؛ حتى لا يخالطهم العجب والرياء.

قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ۚ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ

(١) المصدر السابق ١٤/ ٧٢.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٩١- ٢٩٢.

﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧١-٢٧٣].

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، قال ابن عباس: «جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، يقال بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها، يقال: بخمسة وعشرين ضعفًا»[(١)].

كما حثّ الله تعالى الموسرين أن يتصدقوا على المعسرين الذين استدانوا منهم، ولم يستطيعوا الوفاء؛ لفقر يلازمهم.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

أي: «إن كان المدين غير قادر على الأداء؛ لعسرة ملازمة له، فانتظار إلى وقت يتيسر فيه؛ فلا يزيد عليه ليرهقه فيعجز عن الوفاء، بل ينتظر حتى يجيء الوقت الذي يستطيع الأداء. والميسرة: هي حال اليسر، وليست مجرد اليسار، بل هي اليسار المستقر الثابت الذي يتمكن فيه المدين من وفاء دينه كله، أي أن الدائن ينتظر المدين حتى يقف من عثرة العسرة ويستقيم أمره، لا أن يترقب أيّ مال حتى يأخذه كما يأخذ الصائد قنيصته، وإذا ثبت العجز وتقرر، وأصبح احتمال اليسار غير قريب فتصدقوا بالدّين على صاحبه وأبرئوه منه؛ فإن ذلك يكون خيرًا لكم في الدنيا والآخرة: أما في الدنيا فلأنكم إذا فقدتم الأمل في الاستيفاء فكل جهد في سبيله ضائع، وكل تعقب في سبيله يورث الإحن من غير جدوى، ويثير الأحقاد المستمرة من غير فائدة، فيكون من الخير العفو والإبراء والإبقاء على الأخوة والعلاقات الاجتماعية، وأما في الآخرة فالنعيم المقيم»[(٢)].

وكان الله تعالى قد أمر المؤمنين أن يقدموا صدقة بين يدي مناجاتهم الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢].

إلا أن هذا الأمر قد نسخ بالآية بعدها. قاله ابن كثير وجمهور المفسرين.

❁ الوصية.

وهي تمليك الغير عينًا أو دينًا أو منفعةً مضافًا إلى ما بعد الموت بطريق التبرع.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

والمعنى: فرض عليكم الوصية ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، والخير: المال، ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الذين لا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٦٥.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ١٠٦١.

يرثونه، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهو ما أذن الله فيه وأجازه في الوصية مما لم يجاوز الثلث، ولم يتعمّد الموصي ظلم ورثته، ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، يعني بذلك: فرض عليكم هذا وأوجبه، وجعله حقًّا واجبًا على من اتقى الله فأطاعه أن يعمل به. «وجمهور المفسرين على أن هذه الآية منسوخة بالمواريث»[1].

❁ تنمية أموال اليتيم.

حثّ القرآن على المحافظة على أموال اليتامى، وعدم إهدارها أو الاستيلاء عليها بغير وجه حق، ورغّب في تنميتها لهم، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٠].

والمعنى: «ويسألونك يا محمد عن مال اليتامى، وخلطهم أموالهم به في النفقة، والمطاعمة، والمشاربة، والمساكنة، والخدمة، فقل لهم: تفضّلكم عليهم بإصلاحكم أموالهم من غير أخذ عوض من أموالهم على إصلاحكم ذلك لهم، خيرٌ لكم عند الله، وأعظم لكم أجرًا؛ لما لكم في ذلك من الأجر والثواب، وخيرٌ لهم في أموالهم في عاجل دنياهم؛ لما في ذلك من توفر أموالهم عليهم»[2].

❁ التمسك بالكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

والمعنى كما قال ابن كثير: «ردّوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فدلّ على أنّ من لم يتحاكم في مجال النّزاع إلى الكتاب والسّنّة، ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمنًا باللّه ولا باليوم الآخر. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، أي: التّحاكم إلى كتاب اللّه وسنّة رسوله، والرّجوع في فصل النّزاع إليهما خيرٌ وأصلح لكم في دنياكم؛ لأن ذلك يدعوكم إلى الألفة، وترك التنازع والفرقة، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: وأحسن عاقبةً ومآلًا»[3].

❁ القتال في سبيل الله.

وهو من أفضل الأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

قال الطبري: «يخاطب جل ثناؤه عباده المؤمنين، يقول لهم: لا تكونوا -أيها المؤمنون- في شك من أن الأمور كلها بيد الله، وأن إليه الإحياء والإماتة، كما شك المنافقون في ذلك، ولكن جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله، على يقين

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٣٨٤.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٥٤- ٣٥٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٤٥- ٣٤٦.

منكم بأنه لا يقتل في حرب ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله، وحانت وفاته، ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أن موتًا في سبيل الله وقتلًا في الله، خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها، ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو»[1].

وقد يكون القتال في سبيل الله فرض عين على كل حال، في اليسر والعسر، والغنى والفقر، والخفة والثقل، قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وأصل النفر: الخروج إلى مكان لأمر واجب، والمراد هنا: الحث على الجهاد، والدعوة إليه عند غلبة العدو على بلد من بلاد المسلمين، أو مقاربته ديار الإسلام.

قال ابن كثير: «أمر اللّه تعالى بالنّفير العامّ مع الرّسول صلوات اللّه وسلامه عليه عام غزوة تبوك، لقتال أعداء اللّه من الرّوم الكفرة من أهل الكتاب، وحتّم على المؤمنين في الخروج معه على كلّ حالٍ، في المنشط والمكره، والعسر واليسر»[2].

﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، أي: نشاطًا وغير نشاط، وقيل: أقوياء وضعفاء، كهولًا وشبانًا، في العسر واليسر، أو أغنياء وفقراء.

كما أن الجهاد تجارة تنجي صاحبها من العذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

قال الفخر: «وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يعني: الّذي أمرتم به من الإيمان باللّه تعالى، والجهاد في سبيله، خيرٌ لكم من أن تتبّعوا أهواءكم»[3].

وفي الآية إشارة إلى أن الجهاد يقتضي بذل الأموال والأنفس، قال ابن عاشور: «وإذ قد كان الخطاب لقوم مؤمنين فإنّ فعل ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ مع ﴿وَتُجَاهِدُونَ﴾ مرادٌ به: تجمعون بين الإيمان باللّه ورسوله، وبين الجهاد في سبيل اللّه بأموالكم وأنفسكم؛ تنويهًا بشأن الجهاد، وأمّا ﴿وَتُجَاهِدُونَ﴾: فإنّه لإرادة تجدّد الجهاد إذا استنفروا إليه»[4].

- **الابتلاء بالخير.**

الابتلاء كما يكون بما تكرهه النفس، وهو الشر، كذلك يكون بما تحبه النفس، وهو الخير.

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٣٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٥٦.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٣٥١.
(٤) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٩٤.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وأصل البلاء في كلام العرب الاختبار والامتحان.

قال الطبري في معنى الآية: «أي: ونختبركم -أيها الناس- بالشر: وهو الشدة نبتليكم بها، وبالخير: وهو الرخاء والسعة العافية فنفتنكم به»[(١)].

وقال الزمخشري: «أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر»[(٢)].

ومن صور الابتلاء بالخير المذكورة في القرآن ما ورد في شأن الذين آتاهم الله مالًا فبخلوا به، ولم يؤدوا منه حقه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[آل عمران: ١٨٠].

قال الفخر في المسألة الثانية من تفسير هذه الآية: «اعلم أنّ الآية دالّةٌ على ذمّ البخل بشيءٍ من الخيرات والمنافع، وذلك الخير يحتمل أن يكون مالًا، وأن يكون علمًا»[(٣)].

وعليه، فالآية تدل على أن الله آتاهم من فضله مالًا أو علمًا، ابتلاءً، أي: امتحانًا واختبارًا لهم هل يؤدون حقه -وهو الزكاة- أو لا؟

ومن الناس من إذا أنعم الله عليه بالخير ابتلاءًا له أمسكه وضنّ به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١].

أي: «إذا كثر ماله، ونال الغنى فهو منوع لما في يده، بخيل به، لا ينفقه في طاعة الله، ولا يؤدّي حق الله منه»[(٤)].

❁ تعظيم حرمات الله.

ومن الخير: تعظيم حرمات الله، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾[الحج: ٣٠].

أي: «ومن يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه، فهو خيرٌ له عند ربّه، أي: فله على ذلك خيرٌ كثيرٌ وثوابٌ جزيلٌ، فكما على فعل الطّاعات ثوابٌ جزيلٌ وأجرٌ كبيرٌ، فكذلك على ترك المحرّمات واجتناب المحظورات»[(٥)].

ونقل الطبري عن مجاهد قوله: «الحرمات: مكة والحجّ والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها».

ونقل عن ابن زيد قوله: «الحرمات: المشعر الحرام، والبيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام»[(٦)].

وقال الفخر: «والحرمة: ما لا يحلّ هتكه، وجميع ما كلّفه اللّه تعالى بهذه الصّفة

(١) جامع البيان، ١٨/ ٤٣٩.
(٢) الكشاف ٣/ ١١٦.
(٣) مفاتيح الغيب، ٩/ ٤٤٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦١١.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤١٩.
(٦) جامع البيان، ١٨/ ٦١٧.

من مناسك الحجّ وغيرها، يحتمل أن يكون عامًّا في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصًّا فيما يتعلّق بالحجّ. وقوله: ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾: يدلّ على الثّواب المدّخر؛ لأنّه لا يقال عند ربّه فيما قد حصل من الخيرات»[1].

وقال ابن عاشور: «والحرمات: جمع (حرمةٍ) بضمّتين، وهي ما يجب احترامه. والاحترام: اعتبار الشّيء ذا حرمٍ، كنايةٌ عن عدم الدّخول فيه. أي: عدم انتهاكه بمخالفة أمر اللّه في شأنه. والحرمات يشمل كلّ ما أوصى اللّه بتعظيم أمره، فتشمل مناسك الحجّ كلّها»[2].

ثالثًا: الأخلاق:

الأخلاق ميدان عظيم من ميادين الخير، وبسببها فضل الله هذه الأمة على غيرها من الأمم؛ لتواصيها فيما بينها بالحق والصبر، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فلا بقاء لأمة من الأمم إلا ببقاء الأخلاق فيها، ومن الأخلاق التي دعا إليها الإسلام ونصّ على خيريتها:

- الصبر.

وهو حبس النفس على ما تكرهه؛ رضاءًا بقضاء الله تعالى، وهو ضد الجزع والضجر المذموم فاعله، وقد ذم الله بني إسرائيل؛ لجزعهم وتضجرهم مما رزقهم الله من طعام المنّ والسلوى الذي طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو الله لهم أن يبدلهم به القثّاء والفوم والعدس والبصل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٦١].

قال ابن كثير في تفسيرها: «واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المنّ والسّلوى، طعامًا طيّبًا نافعًا هنيئًا سهلًا، واذكروا دبركم وضجركم ممّا رزقتكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدّنيّة من البقول ونحوها ممّا سألتم، فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الّذي كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداسٍ وبصلٍ وبقلٍ وفومٍ»[3].

ولاشك أن عاقبة الصبر كلها خير، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ

(١) مفاتيح الغيب، ٢٣/ ٢٢٢.
(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٥٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٨٠.

﴿رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

والآية واردة في شأن نكاح الإماء بملك اليمين لمن لم يستطع نكاح الحرائر من النساء؛ خوفًا على نفسه من الوقوع في الفاحشة.

قال ابن كثير، وغيره: «وإن ترك تزوّج الأمة وجاهد نفسه في الكفّ عن الزّنا فهو خيرٌ له؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقّاء لسيّدها، ولما فيهنّ من الدّناءة في العدول عن الحرائر إليهن؛ ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾»[1].

وفي جانب العفو عن معاقبة المعتدي، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين: وإن عاقبتم -أيها المؤمنون- من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة، ولئن صبرتم عن عقوبته واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلم، ووكلتم أمره إلى الله حتى يكون هو المتولي عقوبته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾، يقول: للصّبر عن عقوبته بذلك خير لأهل الصبر؛ احتسابًا وابتغاء ثواب الله؛ لأن الله يعوّضه عن الذي أراد أن يناله بانتقامه من ظالمه على ظلمه إياه من لذّة الانتصار»[2].

والعفو من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، وبيّن القرآن أن أجر العافين عند الله عظيم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[الشورى: ٤٠].

قال الطبري: «فمن عفا عمن أساء إليه إساءته إليه، فغفرها له ولم يعاقبه بها، وهو على عقوبته عليها قادرٌ؛ ابتغاء وجه الله، فأجر عفوه ذلك على الله، والله مثيبه عليه ثوابه»[3].

وقد ذم الله الأعراب الذين جاءوا إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ينادونه بصوت عال من وراء الحجرات ولم يصبروا حتى يخرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤-٥].

قال الطبري: «أي: أكثرهم جهال بدين الله واللازم لهم من حقك وتعظيمك، ولو أن هؤلاء الذين ينادونك يا محمد من وراء الحجرات صبروا فلم ينادوك حتى تخرج إليهم إذا خرجت، لكان خيرًا لهم عند الله؛ لأن الله قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك، فهم بتركهم نداءك تاركون ما قد نهاهم الله

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٦٦-٢٦٧.

(٢) جامع البيان، ١٧/ ٣٢٢.

(٣) المصدر السابق ٢١/ ٥٤٨.

عنه»[1].

وقال الفخر: «في الآية إشارة إلى حسن الأدب الّذي على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب، فإنّهم لو صبروا لما احتاجوا إلى النّداء، وإذا كنت تخرج إليهم فلا يصحّ إتيانهم في وقت اختلائك بنفسك، أو بأهلك، أو بربّك؛ فإنّ للنّفس حقًّا، وللأهل حقًّا»[2].

❁ السمع والطاعة.

وهما يدلان على الانقياد التام لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء: ٤٦].

والآية واردة في شأن اليهود الذين عاندوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرفوا ما نزل إليهم على أنبيائهم.

قال الطبري: «ولو أن هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم، قالوا لنبي الله: «سمعنا يا محمد قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئتنا به من عند الله، واسمع منا، وانظرنا ما نقول، وانتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا»، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾، يقول: لكان ذلك خيرًا لهم عند الله، ﴿وَأَقْوَمَ﴾، يقول: وأعدل وأصوب في القول»[3].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وهي في شأن المشركين.

قال الطبري: «ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره؛ حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون، ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا لتولوا عن الله وعن رسوله، وهم معرضون عن الإيمان بما دلّهم على صحته مواعظ الله وعبره وحججه، معاندون للحق بعد العلم به»[4].

ولأهمية السمع والطاعة أمر الله تعالى بهما أمرًا مباشرًا، فقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾[التغابن: ١٦].

قال الطبري: «أي: واسمعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾، يقول: وأنفقوا مالًا من أموالكم لأنفسكم؛ تستنقذوها من عذاب الله، والخير في هذا الموضع المال»[5].

❁ الصلح والإصلاح.

والصلح يكون بين متخاصمين والإصلاح يكون بفعل ما يصلح المجتمع.

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٢٨٥.
(٢) مفاتيح الغيب، ٢٨/ ٩٧.
(٣) جامع البيان، ٨/ ٤٣٦.
(٤) المصدر السابق ١٣/ ٤٦٣.
(٥) المصدر السابق ٢٣/ ٤٢٧.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

قال الطبري: «أي: لا خير في كثير من نجوى الناس جميعًا ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، والمعروف: هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، وهو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما؛ ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة»[(١)].

وفي شأن تخاصم الأزواج قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظ عام مطلق، بمقتضى أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين على ما ذكرنا خير من الفرقة»[(٢)].

كما نهى القرآن عن الفساد في الأرض بعد أن أصلحها الله تعالى، وذلك فيما حكاه القرآن على لسان شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

قال الطبري في تفسيرها: «أي: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه، من عبادة غير الله والإشراك به، وبخس الناس في الكيل والوزن، ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، أي: بعد أن قد أصلح الله الأرض بابتعاث النبي عليه السلام فيكم، ينهاكم عما لا يحل لكم وما يكرهه الله لكم، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: هذا الذي ذكرت لكم وأمرتكم به من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض، خيرٌ لكم في عاجل دنياكم وآجل آخرتكم عند الله يوم القيامة»[(٣)].

❁ قول معروف ومغفرة.

قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:

(١) جامع البيان، ٩/ ٢٠٢.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ١٢٠.
(٣) جامع البيان، ١٢/ ٥٥٦.

٢٦٣].

والقول المعروف: هو الكلمة الطيبة، والمغفرة: هي العفو عمن أساء إليه، قال الطبري: «قولٌ جميلٌ ودعاء الرجل لأخيه المسلم، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، يعني: وسترٌ منه عليه لما علم من خلّته وسوء حالته، خيرٌ عند الله من صدقة يتصدقها عليه يتبعها أذى، يعني يشتكيه عليها، ويؤذيه بسببها»[(١)].

وقال ابن عطية: «هذا إخبار جزم من الله تعالى أنّ القول المعروف، وهو الدعاء والتأنيس والترجية بما عند الله، خيرٌ من صدقة هي في ظاهرها صدقة، وفي باطنها لا شيء؛ لأن ذلك القول المعروف فيه أجر، وهذه لا أجر فيها»[(٢)].

❁ قبول النصيحة.

والنصيحة: دعوة إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد[(٣)].

والنصيحة لا تكون إلا بخير، وقبولها سبب من أسباب الفلاح؛ لأنها من أساسيات الدين كما قال صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة)[(٤)].

وهي أيضًا من أهم السبل التي اتبعها الأنبياء في دعوة أقوامهم إلى الحق، فنوح عليه السلام قال لقومه فيما حكى القرآن: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

وقال صالح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وكان قبول بني إسرائيل لنصيحة موسى عليه السلام سببًا لقبول توبة الله منهم؛ حيث نصحهم بأن يتوبوا إلى الله من عبادتهم العجل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

ولا يخفى ما لقبول النصيحة من الخير الكثير في حياة الفرد والمجتمع على السواء.

❁ فعل الموعظة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

والمراد بالموعظة هنا: القرآن الكريم،

(١) المصدر السابق ٥/ ٥٢٠.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٣٥٧.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٤١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٤، رقم ٥٥.

كما قاله كثير من المفسرين[1].

«والباء في قوله: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ و﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ يجوز أن تكون متعلقة بما دل عليه المعنى، أي: قد جاءتكم الموعظة مصاحبة أو ملتبسة بفضل الله وبرحمته، وأن ذلك خير مما يجمعون من حطام الدنيا.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ صفة لقوله: ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وما عطف عليها من شفاء الصدور والهدى والرحمة»[2].

فإن ما يحصل للعبد من فضل الله ورحمته بهذا القرآن العظيم من الهدى، والرحمة، والموعظة، وشفاء ما في الصدور، لهو الجدير بأن يفرح به العبد؛ لأنه سعادة دنياه وآخرته، وليس من الجدير بالعبد أن يفرح بحطام الدنيا ليحصّله على حساب عمل الآخرة؛ لأن المال لا يخلّد أصحابه، وأصحابه لا يخلدون له، أما ما يحصل من فضل الله ورحمته بهذا القرآن الكريم فهو خالد لأصحابه باقٍ لهم، وهو خير ممّا يجمعون من الدنيا كلّها؛ لأن غايته الوصول إلى الجنة.

❁ السماع المحمود.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٦١].

والآية الكريمة هنا تسجل على المنافقين أذاهم للرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم هذا في حقه. ومعنى قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: «أنه يأخذ العلم من مسمعه من غير أن يفحصه، بل يقبله مصدقا له، فما عليهم إلا أن يحلفوا أنهم ما قالوه حتى يصدق أيمانهم من غير أن يفحص كذب ما قالوا، ونسوا أن اللّه يعلمه بما تبلبل به ألسنتهم، ويجيش في صدورهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، فقد سلّم بأنه أذن، يستمع إلى الأقوال التي تصل إليه، ولكن لا يقبلها بإطلاقها كما يتقوّلون، ولكن يفحصها ويعالج نفوسكم على مقتضاها، ويتدبر الأمر لهدايتكم، ولا يبادركم بشر يناسبكم، ولا يفضحكم؛ لأن الله تعالى أمره بذلك؛ ولأنه يقصد إلى خيركم»[3].

❁ العفّة.

قال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

والآية الكريمة تتحدث عن القواعد من النساء اللاتي قعدن عن طلب الزواج؛ لعدم رغبتهن فيه لكبر سنهن، أنه لا حرج عليهن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٠٥، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٥٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧٤.

(٢) الدر المصون، السمين الحلبي ٦/ ٢٢٤.

(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٦/ ٣٣٥١.

أن يتخففن من ملابسهن، كالقناع الذي يكون فوق الخمار، أو الرداء الذي يكون فوق الثياب، إذا كن غير متبرجات بزينة، وكن بحضرة محارمهن من الرجال، وأن الاستعفاف عن فعل ذلك خير لهن، قال في الكشاف: «ولكن التخفّف إذا احتجن إليه، والاستعفاف من الوضع خير لهنّ، لما ذكر الجائز عقبه بالمستحب؛ بعثًا منه على اختيار أفضل الأعمال وأحسنها»[1].

❁ الصدق.

قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

«وهذه الآية بيان لما يحصل للصادقين من الخير؛ جزاءًا لصدقهم وانتفاعهم به، وهو دخولهم الجنة ورضوان الله عليهم، والمراد باليوم: يوم القيامة، وإنما خصّ نفع الصدق به؛ لأنه يوم الجزاء. وفي الصدق هنا قولان: أحدهما: أنه صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة. والثاني: صدقهم في الآخرة ينفعهم هنالك»[2].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

والآية الكريمة تتحدث عن المنافقين وكرههم للقتال، وجبنهم من لقاء الأعداء، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾، أي: «جدّ الحال وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾، أي: أخلصوا له النية في الجهاد والقتال، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أي: لكان خيرًا لهم في عاجل دنياهم، وآجل معادهم، وهو الاستشهاد أو الظفر بالغنيمة»[3].

❁ إعطاء القريب حقه من الصلة والصدقة.

قال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

قال البغوي في معالم التنزيل: «قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾، من البرّ والصّلة، ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾، وحقّه أن يتصدّق عليه، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، يعني: المسافر، وقيل: هو الضّعيف، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾، يطلبون ثواب اللّه بما يعملون، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»[4].

❁ عدم السخرية.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

والمعنى كما قال الطبري: «لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٥٥.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٦٠٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٧.
(٤) معالم التنزيل، ٣/ ٥٧٩.

﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، يقول: عسى أن يكون المهزوء منهم خيرًا من الهازئين، ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ يقول: ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات، عسى المهزوء منهنّ أن يكنّ خيرًا من الهازئات»[1]. وهذا نهي صريح عن السخرية بالناس والاستهزاء بهم.

❁ **الإنفاق.**

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

أي: «وابذلوا ممّا رزقكم اللّه على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق اللّه كما أحسن إليكم، يكن خيرًا لكم في الدّنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرًّا لكم في الدّنيا والآخرة»[2].

رابعًا: المعاملات:

❁ **العدل في الكيل والوزن.**

لا شك أن تحقيق العدل في الكيل والوزن فيه المصلحة للناس جميعًا، وهي قضية أمانة وعدالة جاءت الشريعة بإقرارها، ودعت الناس إليها.

قال تعالى في قصة شعيب مع قومه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

«وهنا يأمر شعيب عليه السلام قومه بالعدل في الكيل والوزن، ويذكرهم بأن توفيتهم الكيل والوزن، وتركهم البخس والفساد هو خير لهم في طلب المال؛ لأنّ النّاس إذا علموا منهم الوفاء والصّدق والأمانة رغبوا في المعاملات معهم فكثرت أموالهم»[3].

وقال تعالى آمرًا عباده بتوفية الكيل: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

أي: «ذلك الوفاء خير لكم في معاشكم ومعادكم، وخير عند الله وأقرب إليه، وأحسن عاقبةً وجزاءً»[4].

❁ **الاستئذان في الدخول على البيوت.**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

قال العلامة أبو زهرة في زهرة التفاسير: «الاستئناس أدق في التعريف وأدل على الاستعلام؛ لأن الاستئذان الإذن المجرد، وتتحقق الإجابة بالإذن، أما الاستئناس

(١) جامع البيان، ٢٢/ ٢٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٤١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٤.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٤.

فطلب الأنس وإزالة الوحشة وذلك لا يتحقق بمجرد الإذن بل لابد لتحققه من إيجاد الألفة، وهو يتضمن في تحقيق طلب الإذن والاستجابة بالإذن فعلًا»[1].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: «استئناسكم وتسليمكم على أهل البيت الذي تريدون دخوله خير لكم؛ لأنكم لا تدرون أنكم إذا دخلتموه بغير إذن على ماذا تهجمون؟ على ما يسوءكم أو يسرّكم؟ وأنتم إذا دخلتم بإذن لم تدخلوا على ما تكرهون، وأدّيتم بذلك أيضًا حقّ الله عليكم في الاستئذان والسلام، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لتتذكروا بفعلكم ذلك أوامر الله عليكم واللازم لكم من طاعته، فتطيعوه»[2].

الخيرية بين المتضادات

قابل القرآن الكريم بين المتضادات في كثير من آياته، ونصّ على أن بعضًا منها خير من الآخر؛ لتثبيت الناس على الخير منها، وإبعادهم عن الشر منها، والحديث عن ذلك يشتمل على الآتي:

أولًا: المقابلة بين الإله الحق والآلهة الباطلة:

أقام القرآن الكريم الحجج القاطعة الدالة على وحدانية الله تعالى وأحقيته سبحانه بالألوهية والطاعة والعبادة، ومن بين هذه الحجج مقابلته بين الإله الحق سبحانه وتعالى وبين الآلهة الباطلة.

قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام وهو يدعو إلى الله في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

قال الطبري: «ذكر أن يوسف -صلوات الله عليه- قال هذا القول للفتيين اللذين دخلا معه السجن؛ لأن أحدهما كان مشركًا، فدعاه بهذا القول إلى الإسلام وترك عبادة الآلهة والأوثان، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، يقول: أعبادة أربابٍ شتى متفرقين وآلهة لا تنفع ولا تضر، خيرٌ، أم عبادة المعبود الواحد الذي لا ثاني له في

(١) زهرة التفسير، ١٠/ ٥١٧٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٩.

قدرته وسلطانه الذي قهر كل شي فذلّله وسخّره؛ فأطاعه طوعًا وكرهًا»[1].

وقال الشيخ أبو زهرة: «هذا استفهام إنكاري توبيخي توجيهي، فليس بمعقول أن تكون أرباب متفرقة ليس لها فضل المنشئ المنعم ليس لواحد منها ذلك، ولا لها مجتمعة قدرة، لا تنفع ولا تضر، وتكون عبادتها مع ضعفها وعدم قدرتها، خيرًا من عبادة الواحد الأحد الخالق للكون وحده والقهار الغالب عليه، والذي لا يكون في الكون شيء إلا بأمره»[2].

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

قال ابن كثير: «استفهام إنكارٍ على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره»[3].

فذكر تعالى خلق السموات والأرض وما فيهما من بدائع صنعه وعظيم قدرته، وإنزاله المطر وما ينبت به من النباتات والحدائق التي لم تستطع آلهتهم أن تنبت أشجارها ولا تخرج ثمارها، وخلق الجبال والبحار والأنهار، وجعل الحاجز بين المالح منها والعذب، وكونه تعالى يجيب دعاء المضطر ويكشف السوء، ويهدي الخلق، ويبدأ الخلق ثم يعيده.

كما أنه تعالى قد اتصف بجميع صفات الكمال المطلق الذي يليق بذاته المقدسة، فاتصف بالقدرة المطلقة، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، واتصف بالإرادة ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

واتصف بالعلم المطلق ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

وقال: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦].

وإليه تعالى وحده المرجع والمآب قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤].

وغير ذلك من صفات الكمال والجلال الثابتة لله تعالى، بخلاف هذه الآلهة الأخرى التي يعبدها الجاهلون من دون الله، فإنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، بل هي من مخلوقات الخالق سبحانه، فصفاتها دائمًا النقص المطلق، والضعف التام.

ثانيًا: المقابلة بين الدنيا والآخرة:

قابل القرآن بين الدنيا الفانية والآخرة

(١) جامع البيان، ١٦/ ١٠٤.
(٢) زهرة التفاسير ٧/ ٣٨٢٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٠١.

الباقية؛ للترغيب في العمل للآخرة، وعدم الانهماك في الدنيا بما ينسي الآخرة؛ لأن متاعها قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

قال الطبري: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، قل يا محمد لهؤلاء القوم الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ عيشكم في الدنيا وتمتعكم بها قليل؛ لأنها فانية وما فيها فانٍ، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، يعني: ونعيم الآخرة خير؛ لأنها باقية ونعيمها باق دائم، ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾، يعني: لمن اتقى الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، فأطاعه في كل ذلك، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، يعني: ولا ينقصكم الله من أجور أعمالكم فتيلًا»[1].

وقد صرح القرآن بأن كثيرًا من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧].

قال ابن عطية: «أخبر تعالى الناس أنهم يؤثرون الحياة الدّنيا، فالكافر يؤثرها إيثار كفر يرى أن لا آخرة، والمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة نفس إلا من عصم الله، وسبب الإيثار حب العاجل، والجهل ببقاء الآخرة»[2].

وقال تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره: وللدار الآخرة وما أعد الله لك فيها خير لك من الدار الدنيا وما فيها، فلا تحزن على ما فاتك منها؛ فإن الذي لك عند الله خير لك منها»[3].

أي: خير لك من الدنيا وما فيها؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يستكثر منها، وكان يقول: (مالي وللدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[4].

ثالثًا: المقابلة بين نعيم الآخرة وعذابها:

قابل القرآن بين نعيم الآخرة وعذابها، وما على العاقل إلا أن يختار النعيم المقيم.

قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢].

ومعنى الآية كما قال الطبري: «يقول

(١) جامع البيان ٨/ ٥٥١.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٧.

(٣) جامع البيان ٢٤/ ٤٨٧.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، ٤/ ٥٨٨، رقم ٢٣٧٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب في مثل الدنيا، ٢/ ١٣٧٦، رقم ٤١٠٩.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٨٩، رقم ٥٦٦٨.

-تعالى ذكره-: أهذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين الذين وصفت صفتهم من كرامتي في الجنة ورزقتهم فيها من النعيم خير، أو ما أعددت لأهل النار من الزّقّوم؟!

والزّقّوم: ثمرة شجرةٍ خبيثةٍ مرّةٍ كريهة الطّعم، يكره أهل النّار على تناولها، فهم يتزقّمونه على أشدّ كراهيةٍ، ومنه قولهم: تزقّم الطّعام، إذا تناوله على كرهٍ ومشقّةٍ»[1].

وقال ابن عاشور: «والاستفهام مكنى به عن التنبيه على فضل حال المؤمن وفوزه وخسار الكافر، وهو خطاب لكل سامع، والإشارة بـ ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم من حال المؤمنين في النعيم والخلود، وجيء باسم الإشارة مفردًا بتأويل المذكور، بعلامة بعد المشار إليه لتعظيمه بالبعد، أي: بعد المرتبة وسموّها؛ لأن الشيء النفيس الشريف يتخيل عاليًا، والعالي يلازمه البعد عن المكان المعتاد، وهو السفل»[2].

كما قابل القرآن أيضًا بين الآمنين من العذاب وبين المعذبين يوم القيامة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

«والاستفهام في الآية الكريمة بمعنى التقرير، والغرض التنبيه على أن الذين يلحدون في آيات الله يلقون في النار، والذين يؤمنون بآيات الله يـأتون آمنين يوم القيامة، والمعنى: هل يستوي من يلقى في النار قسرًا وقهرًا؛ لإلحاده بالآيات وتكذيبه للرسول، ومن يكون آمنًا يوم القيامة من العذاب؟ والمراد: أن الملحدين في الآيات يلقون في النار، وأن المؤمنين بها يأتون يوم القيامة آمنين، فاحكموا -أيها العقلاء- أيّ الحالين أفضل؟ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أي: اعملوا أي شيء تريدون فعله من خير أو شر؛ فإنّ الله عالم بكم، وبصير بأعمالكم، ومجازيكم بحسب ما تعملون، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وهذا وعيد وتهديد صرف فيه الأمر إلى التهديد»[3].

وقال ابن عاشور: «الآية لبيان أن الوعيد بنار جهنم تعريض بالمشركين بأنهم صائرون إلى النار، وبالمؤمنين بأنهم آمنون من ذلك، والاستفهام تفريع مستعمل في التنبيه على تفاوت المرتبتين»[4].

رابعًا: المقابلة بين الأقوام الهالكين:

قابل القرآن بين الأقوام الهالكين؛ للاتعاظ بأحوالهم، ولبيان عاقبة المتقدمين منهم والمتأخرين، وبيان عاقبة أقوياتهم وضعفائهم، ومن ذلك المقابلة بين مشركي

(١) جامع البيان، ٢١/ ٥٢.
(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ٣٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٦٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٥/ ٦٨.

مكة وما قبلهم من الأمم، كقوم تبّع، يقول الله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وتبّع هو تبّع الحميري، كان مؤمنًا وقومه كافرين، ولذلك ذمّ الله قومه ولم يذمّه، قال في الكشاف: «فإن قلت: ما معنى قوله تعالى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ ولا خير في الفريقين؟ قلت: معناه: أهم خير في القوّة والمنعة، وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما: أهم أشدّ أم قوم تبع»[(١)].

ومعنى الآية: «أكفار قريش الذين هم عرب من عدنان خير في القوة والمنعة، أم قوم تبّع الحميري الذين هم عرب من قحطان، الذين كانوا أقوى جندًا وأكثر عددًا، وكان لهم دولة وحضارة عريقة ومجد، وكذلك الأمم الذين سبقوهم، كعاد وثمود ونحوهم؛ أهلكناهم جميعًا لكفرهم وإجرامهم، فإهلاك من هو دونهم لجرمه وضعفه وعجزه بالأولى، فهم ليسوا بخير من قوم تبع في العدد والعز والمنعة»[(٢)].

وقد ذكر ابن كثير أن الله تعالى أهلك قوم تبع وخرب بلادهم وشردهم وفرقهم في البلاد[(٣)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣] فيه مقابلة بين مشركي مكة ومن قبلهم.

والمعنى: «أكفاركم -معشر قريش- خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وآل فرعون، فهم يأملون أن ينجوا من عذابي ونقمي على كفرهم بي، وتكذيبهم رسولي، يقول: إنما أنتم في كفركم بالله وتكذيبكم رسوله، كبعض هذه الأمم التي وصفت لكم أمرهم، وعقوبة الله بكم نازلة على كفركم به كالذي نزل بهم، إن لم تتوبوا وتنيبوا»[(٤)].

قال في الكشاف: «يعني: أكفّاركم -يا أهل مكة- خيرٌ من أولئكم الكفار المعدودين: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وآل فرعون، أي: أهم خير قوّة وآلة ومكانة في الدنيا؟ أو أقل كفرًا وعنادًا؟ يعني: أنّ كفاركم مثل أولئك بل شر منهم، أم أنزلت عليكم -يا أهل مكة- براءةٌ في الكتب المتقدّمة أنّ من كفر منكم وكذب الرسل كان آمنًا من عذاب الله فأمنتم بتلك البراءة؟!»[(٥)].

خامسًا: المقابلة بين ما عند الله وحطام الدنيا:

ركزت بعض آيات القرآن الكريم على صرف همم الناس عن الدنيا إلى ما عند الله

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٧٩- ٢٨٠.
(٢) التفسير المنير ٢٥/ ٢٢٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٥٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦٠٠، ٦٠١.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٤٠.

من الأجر والثواب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٥-٩٦].

أي: «ولا تنقضوا عهودكم -أيها الناس- وعقودكم التي عاقدتموها من عاقدتم مؤكّديها بأيمانكم، تطلبون بنقضكم ذلك عرضًا من الدنيا قليلًا، ولكن أوفوا بعهد الله الذي أمركم بالوفاء به؛ يثبكم الله على الوفاء به؛ فإن ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بذلك، هو خير لكم إن كنتم تعلمون فضل ما بين العوضين اللذين أحدهما الثمن القليل الذي تشترونه بنقض عهد الله في الدنيا، والآخر الثواب الجزيل في الآخرة على الوفاء به.

ثم بَيَّنَ -تعالى ذكره- فرق ما بين العوضين وفضل ما بين الثوابين، فقال: ما عندكم -أيها الناس- مما تتملكونه في الدنيا، وإن كثر فنافدٌ فانٍ، وما عند الله لمن أوفى بعهده وأطاعه من الخيرات باق غير فانٍ، فلما عنده فاعملوا، وعلى الباقي الذي لا يفنى فاحرصوا، وليثيبنّ الله الذين صبروا على طاعتهم إياه في السّراء والضرّاء ثوابهم يوم القيامة على صبرهم عليها، ومسارعتهم في رضاه بأحسن ما كانوا يعملون من الأعمال دون أسوئها، وليغفرنّ الله لهم سيّئها بفضله»[1].

قال ابن عطية: «أخبر تعالى أن ما عنده من نعيم الجنة ومواهب الآخرة خير لمن اتقى وعلم واهتدى، ثم بيّن الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتنقضي عن الإنسان، أو ينقضي عنها، ومنن الآخرة باقية دائمة»[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

ومعنى الآية كما قال الطبري: «قل لهم يا محمد: الذي عند الله من الثواب لمن جلس مستمعًا خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وموعظته يوم الجمعة إلى أن يفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، خير له من اللهو ومن التجارة التي ينفضّون إليها، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يقول: والله خير رازق، فإليه فارغبوا في طلب أرزاقكم، وإياه فاسألوا أن يوسع عليكم من فضله دون غيره»[3].

والآية نزلت في شأن من خرجوا من المسجد لطلب التجارة، وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم قائمًا يخطب الجمعة.

قال ابن كثير: «يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التّجارة الّتي قدمت المدينة

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٩.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٩.
(٣) جامع البيان، ٢٣/ ٣٨٩.

يومئذ»[1].

ولا ريب في أن ذلك يشمل كل عمل يلهي عن طلب ما عند الله تعالى.

سادسًا: المقابلة الفاسدة بين خلق إبليس وخلق آدم:

تحدث القرآن الكريم عن قصة خلق آدم عليه السلام وأمر الملائكة بالسجود له، وتكبّر إبليس -عليه اللعنة- وامتناعه عن السجود زاعمًا أنه خير منه؛ لأنه خلق من نار وآدم من طين.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وادعاء إبليس هذه الخيرية لنفسه باطل من وجوه ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال رحمه الله: «حجّة إبليس في قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ باطلةٌ؛ لأنّه عارض النّصّ بالقياس؛ ولهذا قال بعض السّلف: أوّل من قاس إبليس.

ويظهر فسادها بالعقل من وجوهٍ خمسةٍ:

أحدها: أنّه ادّعى أنّ النّار خيرٌ من الطّين، وهذا قد يمنع؛ فإنّ الطّين فيه السّكينة والوقار والاستقرار والثّبات والإمساك، ونحو ذلك، وفي النّار الخفّة والحدّة والطّيش، والطّين فيه الماء والتّراب.

الثاني: أنّه وإن كانت النّار خيرًا من الطّين، فلا يجب أن يكون المخلوق من الأفضل أفضل؛ فإنّ الفرع قد يختصّ بما لا يكون في أصله، وهذا التّراب يخلق منه من الحيوان والمعادن والنّبات ما هو خيرٌ منه.

الثالث: أنّه وإن كان مخلوقًا من طينٍ، فقد حصل له بنفخ الرّوح المقدّسة فيه ما شرّف به؛ حيث علّق السّجود بأن ينفخ فيه من روحه تعالى، فالموجب للتّفضيل هذا المعنى الشّريف الّذي ليس لإبليس مثله»[2].

وقال أبو زهرة: «وإبليس في هذا غافل ومدّع ما لا دليل فيه على دعواه، أما غفلته فهو أن الله تعالى خالق النار وخالق الطين، وما في خلقه تفاوت، فهما خلق الله تعالى وهو الذي اختار النار له، واختار الطين لآدم، واختار أن يسجد إبليس الناري لآدم الذي هو من طين، فكيف يعترض عليه بخلقه؟!

وإن هذا ضلال في الفهم، وغفلة في الإدراك؛ ولذا قال بعض العلماء: أشد العالمين غفلة إبليس، ودعواه أن النار خير من الطين، وأنه بذلك خير من آدم، هذه دعوى لا دليل عليها، بل الدليل يناقضها؛ لأن الطين خلق الله منه الخصب، وكان من الخصب الزروع والثمار والأشجار والنخيل وكل طعام أهل الأرض، والماء ينزل عليه

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٢٣.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٥-٦.

غيثًا فيكون منه ثمر كل شيء وطعام الإنسان والحيوان، والنار تدمر وتحرق، فإذا كان من الطين العمران، فمن النار الدمار»[1].

سابعًا: المقابلة الفاسدة بين فرعون وموسى:

ادعى فرعون عليه لعنة الله أنه خير من موسى عليه السلام؛ لما له من ملك وسلطان وجنود وخدم وبيان لسانه.

قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه وتمام خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أأنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم؟ أم ﴿هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ لا شيء له من الملك والأموال، مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟»[2].

وقال الفخر: «وعنى بكونه مهينًا كونه فقيرًا ضعيف الحال، وبقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حبسةً كانت في لسانه»[3].

(١) زهرة التفاسير ٥/ ٢٧٩٥.
(٢) جامع البيان ٢١/ ٦١٧.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٧/ ٦٣٧.

وقال ابن كثير: «إنّما يعني فرعون -عليه اللّعنة- أنّه خيرٌ من موسى عليه السلام، وقد كذب في قوله هذا كذبًا بيّنًا واضحًا، فعليه لعائن اللّه المتتابعة إلى يوم القيامة»[4].

وهذه سفاهة من فرعون أن يدعي أنه خير من نبي الله وكليمه موسى عليه السلام، وقد سمى ابن عاشور كلام فرعون هذا في حق موسى عليه السلام سفسطة عندما تعرض لتفسير هذه الآية، فقال: «ومقصوده تصغير شأن موسى في نفوسهم بأشياء هي عوارض ليست مؤثّرةً، انتقل من تعظيم شأن نفسه إلى إظهار البون بينه وبين موسى الّذي جاء يحقّر دينه وعبادة قومه إيّاه، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾.

والإشارة هنا للتّحقير، والمهين -بفتح الميم-: الذّليل الضّعيف، أراد أنّه غريبٌ ليس من أهل بيوت الشّرف في مصر، وليس له أهلٌ يعتزّ بهم، وهذا سفسطةٌ وتشغيبٌ إذ ليس المقام مقام انتصارٍ حتّى يحقّر القائم فيه بقلّة النّصير، ولا مقام مباهاةٍ حتّى ينتقص صاحبه بضعف الحال.

وأشار بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إلى ما كان في منطق موسى من الحبسة والفهاهة، وليس مقام موسى يومئذٍ مقام خطابةٍ ولا تعليمٍ وتذكيرٍ حتّى تكون قلّة الفصاحة نقصًا في عمله، ولكنّه مقام استدلالٍ وحجّةٍ،

(٤) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٣١.

فيكفي أن يكون قادرًا على إبلاغ مراده، وقد أزال اللّه عنه ذلك حين تفرّغ لدعوة بني إسرائيل»[1].

ثامنًا: المقابلة الفاسدة بين مقام أهل الشرك ومقام أهل الإيمان في الدنيا:

وذلك عندما افتخر المشركون بمنازلهم وديارهم وأثاثهم على المؤمنين الفقراء؛ وظنوا أنهم على حق وأنّ المؤمنين على باطل لفقرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن الكفّار حين تتلى عليهم آيات اللّه ظاهرة الدّلالة بيّنة الحجّة واضحة البرهان، أنّهم يصدّون عن ذلك ويعرضون ويقولون عن الّذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجّين على صحّة ما هم عليه من الدّين الباطل بأنّهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، أي: أحسن منازل وأرفع دورًا، ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وهو مجمع الرّجال للحديث، أي: ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطلٍ، وأولئك الّذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدّور على الحقّ؟

عن ابن عبّاسٍ قال: المقام: المنزل، والنّديّ: المجلس، والأثاث: المتاع، والرّئي: المنظر»[2].

وهذا الذي أعطاهم الله إياه من النعيم في الدنيا ليس تكريمًا لهم كما يزعمون، إنما هو استدراج.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

قال في الكشاف: «والمعنى: أنّ هذا الإمداد ليس إلا استدراجًا لهم إلى المعاصي، واستجرارًا إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعةً لهم في الخيرات وفيما لهم فيه نفع وإكرام، ومعاجلة بالثواب قبل وقته»[3].

كما أن نعيم الدنيا لا قيمة له إذا كان صاحبه من أهل النار يوم القيامة؛ فقد جاء في صحيح مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النّار يوم القيامة، فيصبغ في النّار صبغةً، ثمّ يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قطّ؟ هل مرّ بك نعيمٌ قطّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ، ويؤتى بأشدّ النّاس بؤسًا في الدّنيا من أهل الجنّة، فيصبغ صبغةً في الجنّة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قطّ؟ هل مرّ بك شدّةٌ قطّ؟

(١) التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٣٠-٢٣١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٥٧.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٩١.

فيقول: لا والله يا ربّ ما مرّ بي بؤسٌ قطّ، ولا رأيت شدّةً قطّ)[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدّنيا في النّار وصبغ أشدّهم بؤسًا في الجنّة، ٤/ ٢١٦٢، رقم ٢٨٠٧.

الحث على فعل الخير في القرآن

تعددت طرق القرآن الكريم في الدعوة إلى الخير، والاستزادة منه، والحث عليه؛ فتارةً يأمر بفعله، وتارةً يثني على أهله، وأخرى يعد على فعله الثواب الجزيل.

والحديث عن ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الأمر بفعل الخير:

ورد في بعض آيات القرآن الكريم الأمر بفعل الخير أمرًا مباشرًا، قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

أي: «بادروا -أيها الناس- إلى الصالحات من الأعمال، والقرب إلى ربكم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

«اللام في: (لتكن) هي لام الأمر، أي: لتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

قال الفخر: «قوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩١.

﴿ٱلْخَيْرَ﴾، قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: يريد به صلة الرّحم ومكارم الأخلاق، والوجه عندي في هذا التّرتيب أنّ الصّلاة نوعٌ من أنواع العبادة، والعبادة نوعٌ من أنواع فعل الخير؛ لأنّ فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الّذي هو عبارةٌ عن التّعظيم لأمر اللّه، وإلى الإحسان الّذي هو عبارةٌ عن الشّفقة على خلق اللّه، ويدخل فيه البرّ والمعروف، والصّدقة على الفقراء، وحسن القول للنّاس، فكأنّه سبحانه قال: كلّفتكم بالصّلاة، بل كلّفتكم بما هو أعمّ منها، وهو العبادة، بل كلّفتكم بما هو أعمّ من العبادة، وهو فعل الخيرات»[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

والآية تتحدث عن إبراهيم عليه السلام وذريته من الأنبياء، أن الله تعالى أنعم عليهم وجعلهم أئمة يرشدون الناس إلى الهدى والخير، وأوحي إليهم وألهمهم فعله، والمعنى: وجعلنا إبراهيم وذريته أئمة، أي: رؤساء يوجهون ويرشدون ويقتدى بهم، ويكونون قوة للخير والهداية.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يدعون بدعاية الله. وإضافة الهداية إلى أمر الله؛ للإشارة إلى طاعتهم أولا؛ ولبيان صواب ما يدعون إليه، وأنه الحق لا ريب فيه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: ألهمنا نفوسهم وقلوبهم فعل الخيرات، وهديناهم إليها، بما أوحينا به لرسلهم الذين جاءوا رسولًا بعد رسول، والخيرات: جمع (خير)، وهو كل ما فيه نفع للناس؛ ويقصد به فعله لنفعه للناس، ولإرضاء الله تعالى[2].

ثانيًا: الثناء على أهله:

من طرق القرآن أيضًا في الدعوة إلى الخير، الثناء من الله تعالى على أهله الذين يوصفون بأنهم أهل الخير.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

قال الطبري: «﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: ويبتدرون فعل الخيرات؛ خشية أن يفوتهم ذلك قبل معاجلتهم مناياهم، ثم أخبر جل ثناؤه أن هؤلاء من عداد الصالحين»[3].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ هم الذين سبق ذكرهم في الآيات السابقة

(١) مفاتيح الغيب، ٢٣/ ٢٥٤.

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٩/ ٤٨٩٥.

(٣) جامع البيان ٧/ ١٣٠.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠].

ومعنى الآية: أن هؤلاء الذين هذه صفاتهم يبادرون في الأعمال الصالحة، ويطلبون الزلفة عند الله بطاعته[١].

ولا شك أن العبد إذا عرف أن الله تعالى يثني على فاعلي الخير فإنه يحب أن يكون ممن أثنى الله تعالى عليهم، ويجتهد في أن يصل إلى هذه المنزلة.

قال صاحب الكشاف: «﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يراد: يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها.

والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام»[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

والبرية: هم الخلق كلهم. قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل: (إنّ المؤمنين)؛ إشارةً إلى أنّهم أقاموا سوق الإسلام حال كساده، وبذلوا الأموال والمهج لأجله؛ ولهذا السّبب استحقّوا الفضيلة العظمى[٣].

ثالثًا: الوعد بالثواب الجزيل:

وعد الله تعالى كل من يفعل الخير بالثواب الجزيل، وهذا أيضًا من باب الدعوة إلى فعل الخير والحث عليه.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥].

أي: «وما تفعل هذه الأمة من خير وتعمل من عملٍ لله فيه رضًى، فلن يكفرهم الله ذلك، يعني بذلك: فلن يبطل الله ثواب عملهم ذلك، ولا يدعهم بغير جزاء منه لهم عليه، ولكنه يجزل لهم الثواب عليه، ويسني لهم الكرامة والجزاء»[٤].

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

والآية الكريمة واردة في سياق الحديث عن قصة قارون، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٧.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٩٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٤٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٣٢.

قال الطبري في معنى الآية: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله، حين رأوا قارون خارجًا عليهم في زينته، للذين قالوا ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ اتقوا الله وأطيعوه؛ فثواب الله وجزاؤه لمن آمن به وبرسله وعمل بما جاءت به رسله من صالحات الأعمال في الآخرة خير مما أوتي قارون من زينته وماله»[1].

وفعل الخير أيضًا مهما قلّ فثوابه لن يضيع عند الله تعالى.

قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

والمعنى: فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير فإنه يرى ثوابه هنالك، وهذا حث لأهل الدنيا على العمل بطاعة الله، والزجر عن معاصيه.

قال صاحب التفسير المنير: «والمراد: أي عمل مهما كان صغيرًا، فإنه يجده يوم القيامة في كتابه، ويلقى جزاءه فيفرح به، أو يراه بعينه معروضًا عليه»[2].

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، البر، التطوع، الشر، المسابقة، المسارعة

(١) جامع البيان، ١٩/ ٦٢٩.
(٢) التفسير المنير، للزحيلي ٣٠/ ٣٦٠.

داود عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بداود عليه السلام	٢٦٨
ذكر داود عليه السلام في القرآن الكريم	٢٧١
فضائل داود عليه السلام	٢٧٢
داود وبنو إسرائيل	٢٨٦
آيات داود عليه السلام	٢٩٠
داود عليه السلام والفتنة	٢٩٩
فوائد من قصة داود عليه السلام	٣١٢

التعريف بداود عليه السلام

أولًا: نسب داود عليه السلام:

ورد اسم داود في القرآن علمًا على نبي الله، وهو اسم أعجمي، ونسبه كما ذكر أهل التاريخ[1] هو: داود بن إيشى بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمّيّ نوذب بن رام بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

وبالاطلاع على ما ذكره المؤرخون من نسب داود نجد أن فيه اتفاقًا، ما عدا تغير طفيف لا يكاد يذكر في إعجام أو إهمال بعض الحروف، مما قد يكون سببه النسخ أو التصحيف في المطبوع، فضلًا على أن مثل هذه الأنساب لا تستند إلى دليل يمكن الجزم به، وأوفرها حظًا ما كان مستنده المرويات الإسرائيلية.

ومما يلاحظ في نسب داود عليه السلام أن بينه وبين أبينا إبراهيم الخليل اثني عشر أبًا، مما قد يشير بالنظرة التقريبية إلى الفترة الزمنية بينهما على فرض إمكانية النسب بهذه الصورة.

ويرسم اسم (داود) في التوراة بأحرف ثلاثة (دود) وضبطه آخرون في التوراة بحيث ينطق (داويد) التي آلت من بعد إلى (دافيد) (David)[2].

وأما في النسخة المترجمة للعربية من الكتاب المقدس فإن الاسم مكتوب (داود)[3].

معنى اسم داود:

اسم (داود) عند علماء العبرية والتوراة بمعنى الحّب والمحبوب، ورجح صاحب العلم الأعجمي أن معنى داود (ذو الأيد) ودليله ما جاء في القرآن ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص:١٧].

ومما قال: «لم ترد (ذو الأيد) في كل القرآن إلا في هذا الموضع فحسب، تفسيرًا لمعنى الاسم العلم (داود) بالمرادف المطابق اللصيق (ذو الأيد)»[4].

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٧٦، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٩٤، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٣٠٠.
(٢) انظر: العلم الأعجمي في القرآن، محمود أبو سعدة ٢/ ١٧٣.
(٣) انظر: الكتاب المقدس، سفر صموئيل الثاني.
(٤) انظر: العلم الأعجمي ٢/ ١٧٣- ١٧٩.

ثانيًا: عمر داود عليه السلام:

ذكر ابن جرير في تاريخه[1] أن بعض أهل الكتاب زعم أن عمر داود كان سبعًا وسبعين سنة، وضعّف هذا ابن كثير في البداية والنهاية، وقال: «هذا غلط مردود عليه»[2].

رغم أن ابن جرير ذكر معلومة أخرى في ذات الموضع من تاريخه دون أن يرجّح، فقال: «عمره فيما وردت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة سنة»[3].

فيحتمل أنه ذكر ما ورد عن بعض أهل الكتاب لمجرد إيراد ما لديهم، ويحتمل لعدم ترجيحه عدم صحة الحديث الوارد لديه بأن عمر داود مائة سنة.

ولا شك أن الصواب في عمر داود عليه السلام ما صح به الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن عمره مائة سنة، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلًا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة، فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟! قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته)[4].

وممن صحح الحديث ابن الأثير في الكامل قال: «كان عمر داود لما توفي مائة سنة، صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم»[5].

ثالثًا: وصف داود عليه السلام:

جاء عن وهب بن منبه أنه قال: كان داود عليه السلام قصيرًا، أزرق العينين، قليل الشعر،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٨٥.
(٢) البداية والنهاية ٢/ ٣١٩.
(٣) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٨٥.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف، ٥/ ٢٦٧، رقم ٣٠٧٦. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٢٥، رقم ١٦٨١.
(٥) الكامل في التاريخ ١/ ١٩٩.

طاهر القلب نقيّه[1].

رابعًا: وفاته:

قيل: إن داود عليه السلام مات في أورشليم[2] يوم السبت، وقيل: الأربعاء[3]، وصح أنه مات عن مائة سنة، كما في حديث أبي هريرة السابق.

وأما قصة وفاته عليه السلام فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كان داود النبي فيه غيرة شديدة، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع) قال: (فخرج ذات يوم، وأغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقة؟ والله لتفتضحن بداود، فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمتنع مني الحجاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت، مرحبًا بأمر الله، فرمل داود مكانه حيث قبضت روحه حتى فرغ من شأنه، وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهم الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحًا جناحًا)[4]. وجوّد إسناده ابن كثير في البداية والنهاية، فقال: «إسناده جيد، ورجاله ثقات».

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٧٦، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٩٤، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٣٠٠.

(٢) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير ٧/ ٣٣٨: «داود بن يسي من سبط يهوذا من بني إسرائيل، ولد بقرية بيت لحم سنة ١٠٨٥ قبل المسيح، وتوفي في أورشليم».

(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٣٢١.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٥/ ٢٥٤، رقم ٩٤٣٢.
قال ابن كثير في البداية والنهاية: إسناده جيد، ورجاله ثقات.

ذكر داود عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر داود عليه السلام في القرآن الكريم (١٦) مرة، في (٩) سور.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	٢٥١
الأنبياء	٧٨-٨٠
ص	٢١-٢٥، ٣٠-٣٣

فضائل داود عليه السلام

وهب الله عز وجل داود عليه السلام عدة فضائل، منها:

أولًا: الجمع بين النبوة والملك:

كان داود عليه السلام نبيًا بدلالة القرآن الكريم؛ وذلك في أكثر من موضع ذكر فيه داود مع إخوته الأنبياء في سياق واحد في معانٍ مختلفة.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة:٧٨].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام:٨٤].

وذكره الله تعالى في معرض تفضيل الأنبياء فقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥].

كما نص الله في القرآن على إيتائه الزبور، فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣].

فذكر الله تعالى داود ضمن أنبيائه -في سياقات مختلفة- يدل على دخوله فيهم بلا شك، وأنه ممن اصطفاه رب العالمين معهم، كما جاء النص بإيتائه الزبور، وهو دليل محتمل يشير إلى إرساله بعد ثبوت نبوته، كما أن الله قد أعطى لداود من المعجزات الأخرى التي رافقت نبوته، قال الفخر الرازي في تفسيره: «لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الأنبياء والرسل»[(١)].

وقال السعدي في تفسيره: «داود وسليمان من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام الذين نوه الله بذكرهم، ومدحهم في كتابه مدحًا عظيمًا»[(٢)].

والجديد في حالة نبي الله داود عليه السلام وانفرد به عمَّن سبقه من الأنبياء الكرام: أن وهبه الله الملك مع النبوة، فهو أول من جمع الله له بين النبوة والملك من الأنبياء، فتميز بهذا، وانفرد عمن سبقه من أنبياء بني إسرائيل، فأعطى صورةً مختلفةً للنبي الملك للمجتمع الإسرائيلي.

قال ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن بيّن أنّ قتل داود لجالوت هو سبب حب بني إسرائيل لداود وتملكه عليهم: «وجمع الله له بين الملك والنبوة، بين خيري الدنيا والآخرة، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في سبط آخر، فاجتمع في داود هذا

(١) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٦٠٢.

وهذا»[1].

وقال العليمي الحنبلي في تفسيره: «ولم تجتمع السلطنة والنبوة لأحد قبل داود، بل كان الملك في سبط والنبوة في سبط»[2].

وقد كان حال بني إسرائيل مختلفًا قبل ذلك، فكان الملك في جماعة والنبوة في آخرين، كما روى ابن عباس: «كان في بني إسرائيل سبطان أحدهما للنبوة والآخر للملك، فلا يبعث نبي إلا من الواحد، ولا ملك إلا من الآخر»[3]. فكان داود أول من جمع الله له بين الملك والنبوة في بني إسرائيل[4].

وكان أول ملك ملّكه بنو إسرائيل على أنفسهم هو شاؤول[5]، وجاء في العهد القديم في سفر صموئيل الأول[6] الإشارة إلى أن الله أوحى لنبيه صموئيل أن يأتيه رجل فأوحي إليه أن: «امسحه رئيسًا لشعبي إسرائيل».

وشاؤول هو نفسه طالوت الذي نص الله على تملّكه على بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وإنما الاسم (شاؤول) هو الاسم العبراني له، والوارد في التوراة، وجاء في القرآن باللفظ العربي له (طالوت) وبينهما اتفاق في المعنى، وليس هذا محل التوسع في ذلك، وحسبنا أن نعلم أن ملك بني إسرائيل الذي اسمه شاؤول في التوراة اسمه الوارد في القرآن طالوت[7].

وبعدما مات طالوت ملّك بنو إسرائيل عليهم داود[8]، وقد أحبوه قبل ذلك عندما قتل جالوت.

وفي موضع آخر من القرآن جاءت الإشارة من الله عز وجل لملك داود وخلافته في الأرض، فقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص:٢٦].

وفسّر هذه الآية السديّ[9] بأن الله «ملّكه في الأرض»[10].

(١) البداية والنهاية، ٢/ ٣٠٠-٣٠١.
(٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن ١/ ٣٥٩.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٥١٦.
(٥) انظر: العلم الأعجمي، أبو سعدة ٢/ ١٧٤.
(٦) الإصحاح ٩.
(٧) انظر: العلم الأعجمي، أبو سعدة ٢/ ١٥٩-١٦٣.
(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٥١٤.
(٩) انظر: المصدر السابق ٢٠/ ٧٧.
(١٠) قال د.صلاح الخالدي في كتابه الأعلام الأعجمية في القرآن ص٩١: «لم يطلق لقب خليفة في القرآن إلا على نبيين: آدم في سورة البقرة، وداود في سورة ص عليهما

وفي ذات السياق جاء التوجيه الرباني لداود في طريقة حكمه في الأرض، فقال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وعندنا قضيتان هنا:

الأولى: هل كان داود نبيًّا عند قتله لجالوت؟

قال الماوردي في النكت والعيون: «واختلفوا هل كان داود عند قتله جالوت نبيًّا؟ ذهب بعضهم أنه كان نبيًّا؛ لأن هذا الفعل الخارج عن العادة، لا يكون إلا من نبي، وقال الحسن: لم يكن نبيًّا. قال ابن السائب: وإنما كان راعيًا، فعلى هذا يكون ذلك من توطئة لنبوته مِنْ بعد»[(١)].

والثانية: هل كان مَلِكًا ثم أوتي النبوة، أم العكس؟

الظاهر من سياق الآيات أن داود عندما قتل جالوت لم يكن نبيًّا ولا ملكًا، وكانت النبوة بعد تملكه على بني إسرائيل، وظاهر اختيار ابن جرير أنه آتاه الله الملك قبل قتله لجالوت.

قال ابن جرير في تاريخه بعد أن ساق بعض الإسرائيليات في قصة داود وطالوت: «وفي هذا الخبر بيان أن داود قد كان الله حوّل الملك له قبل قتله جالوت»[(٢)].

وذهب ابن كثير في البداية والنهاية إلى عكس ذلك، فقال: «والذي عليه الجمهور أنه إنما ولي الملك بعد قتل جالوت»[(٣)].

وذهب ابن الأثير في تاريخه إلى احتمال الأمرين[(٤)].

والذي يظهر أن داود أصبح ملكًا على بني إسرائيل قبل أن يكون نبيًّا.

قال ابن جرير في تاريخه: «ولما اجتمعت بنو إسرائيل على داود أنزل الله عليه الزبور، وعلمه صنعة الحديد، وألان له، وأمر الجبال والطير أن يسبحن معه إذا سبح»[(٥)].

كما أن ظاهر القرآن في ترتيب ما وهبه الله لداود كان الملك، ثم الحكمة التي فسرت بأنها النبوة، وسيأتي ذكر ذلك.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

وتحتمل الآية أن الله وهب داود الملك والنبوة معًا، ويحتمل أن داود أصبح ملكًا بعد حين أصبح نبيًّا.

السلام». وذكر معنى لطيفًا فقال: «وهذا يشير إلى معنى إيماني إسلامي خاص في ملك داود لبني إسرائيل، ففترة حكمه وملكه يعتز بها المسلمون؛ لأن حكمه لم يكن يهوديًا إسرائيليًّا، مع أنه إسرائيلي من حيث النسب، وإنما كان حكمًا إسلاميًّا إيمانيًّا، ولذلك وصفه الله بأنه خليفة».

(١) النكت والعيون ١/ ٣١٩-٣٢٠.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ١/ ٤٧٨.

(٣) البداية والنهاية ١/ ٣٠٥.

(٤) الكامل في التاريخ ١/ ١٩٤.

(٥) تاريخ الأمم والملوك ١/ ٤٨٧.

وعلّل الفخر الرازي القول بتقدم ملكه على نبوته بأنه: «ترقّى في المراتب العالية، وإذا تكلم المتكلم في كيفية الترقي فكل ما كان أكثر تأخرًا في الذكر كان أعلى حالًا، وأعظم شأنًا»[(١)].

وقال الفخر الرازي في تفسيره: «قال بعضهم: ظاهر الآية يدل على أن داود حين قتل جالوت آتاه الله الملك والنبوة؛ وذلك لأنه تعالى ذكر إيتاء الملك والنبوة عقيب ذكره لقتل داود جالوت، وترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم»[(٢)].

وأما في مدة ملك داود، فقد كانت مدته أربعين سنة، كما ذكر ابن جرير وابن الأثير في تاريخيهما[(٣)].

وعقب على ذلك ابن كثير في البداية والنهاية بقوله: «وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه»[(٤)].

ونلحظ أن ابن كثير دقيق في عبارته، فأشار إلى قبول نقله لا إلى إثباته.

ولو نظرنا في تحديد وقت ملكه فلا فائدة من ذلك، والمهم أنه ملك دهرًا، وجمعت له النبوة والملك، واستمر ملك داود عليه السلام إلى حين وفاته.

وقد أثنى الله على ملك داود ووصفه بقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [ص:٢٠]، فكان متانة ملك داود هبة من الله عز وجل.

ومعنى ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ تقويته، وتحديد متعلق القوة فيه خلاف، فقيل: إنه شدّد ملكه بالجنود والرجال، وهو قول السدي[(٥)].

وقيل: شدّد ملكه بأن أعطي هيبة من الناس له لقضية كان قضاها، وهو قول ابن عباس[(٦)].

وقال الطبري عقب ذكره للأقوال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى أخبر أنه شدّد ملك داود، ولم يحصر ذلك من تشديده على التشديد بالرجال والجنود دون الهيبة من الناس له، ولا على هيبة الناس له دون الجنود، وجائز أن يكون تشديده ذلك كان ببعض ما ذكرنا، وجائز أن يكون كان بجميعها، ولا قول أولى من ذلك بالصحة من قول الله؛ إذ لم يحصر ذلك على بعض معاني التشديد خبرٌ يجب التسليم له»[(٧)].

وقال ابن العربي في أحكام القرآن: «وعندي أن معناه: شددناه بالعون والنّصرة،

(١) مفاتيح الغيب ٢/ ٥١٧.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٥١٦.
(٣) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٨٥، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٩٩.
و في سفر صموئيل الثاني الإصحاح ٥: أن مدة ملك داود أربعين سنة.
(٤) البداية والنهاية ٢/ ٣١٩.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٦.
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٧.
(٧) جامع البيان ٢٠/ ٤٨.

ولا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير معان»[1].

وقال ابن كثير في تفسيره: «أي: جعلنا له ملكًا كاملًا من جميع ما يحتاج إليه الملوك»[2].

وقال الطاهر ابن عاشور: «فشد الملك هو تقوية ملكه وسلامته من أضرار ثورة لديه، ومن غلبة أعدائه عليه في حروبه»[3].

والذي ظهر هو الجمع بين الأقوال -كما ذهب إليه ابن جرير- فهي أبلغ في شدة ملكه وثبوته له مما يزعزعه.

ثانيًا: إيتاؤه الزبور:

لقد تفضل الله على داود عليه السلام بأن آتاه الزبور، وهو كتاب الله عز وجل المنزل على داود، وقد جاء ذكر الزبور ونسبته لداود ككتاب من الله لداود عليه السلام في القرآن والسنة.

فالزبور هو كتاب الله الذي أنزله على داود عليه السلام.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: «الزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام»[4].

وجاء ذكر إيتاء الله الزبور لداود عليه السلام في مواضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء:١٦٣].

وقال جل وعلا: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء:٥٥].

وقد جاءت آية سورة النساء في سياق ذكر الله لأنبيائه ومنهم داود، وهذا أول موضع ورد فيه اسم كتاب داود عليه السلام في القرآن الكريم.

معنى الزبور ونزوله على داود عليه السلام:

اختلف أهل العلماء في المقصود بالزبور هل هو اسم علم على كتاب داود عليه السلام أم وصف؟ وسيتضح أن الراجح أنه علم على كتاب الله الذي أنزله على داود عليه السلام، وعلى ذلك جملة من الأدلة، وسيأتي إيرادها، بعد التعريج على جذر كلمة الزبور ومعناها في المعجم العربي، وورودها في القرآن الكريم.

إن مادة (زبر) في المعاجم العربية تأتي بمعان، ومنها: زبره بالحجارة أي رماه بها، وزبر البناء يعني وضع بعضه فوق بعض، أي رصّه رصًّا، وزبره عن الأمر يعني منعه ونهاه، والأصل فيها قطعه عنه، فزبر بمعنى

(١) أحكام القرآن ٤/ ٤١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٥٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٢٩.
(٤) البداية والنهاية ٢/ ٤٦٩.

قطع، والزّبر الكتابة، وزبر الكتاب يعني كتبه، والأصل فيه أتقن كتابته مبينًا مفصلًا (مقطعًا) وهذا هو المعنى الرئيس في مادة زبر[1]. ولذا قال المفسرون (الزبور) بمعنى: المكتوب[2].

قال ابن منظور: «وقد غلب الزبور على صحف داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وكل كتاب زبور، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥]»[3].

علمًا أن الآية السابقة من سورة الأنبياء لا تدل بوجه الجزم على نسبة الزبور لداود، فقد اختلف المفسرون[4] في تحديد المقصود بالزبور فيها، فمنهم من اعتبره كتاب داود بعينه، ومنهم من قال: هو التوراة والإنجيل، وقيل: اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب، وقيل غيره، والخلاف في هذه الآية بعينها لا ينقض أصل نسبة الزبور ككتاب إلهي لداود عليه السلام، وأقصى ما يذهب إليه أن الخلاف الواقع هنا إنما هو في تحديد المراد بالزبور في تلك الآية فحسب، وسيأتي ذكر الآيات الدالة على نسبة الزبور لداود.

وقد وردت كلمة (الزبور) في القرآن في أكثر من موضع، ومن أصرحها في نسبة الزبور لداود قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء٥٥].

وفي كلمة (زبورًا) قراءتان متواترتان، فقرأ حمزة وخلف بضم الزاي (زبورًا) وقرأ الباقون بفتح الزاي (زبورًا)[5]. وتوجيه قراءة ضم الزاي أن يكون جمع زبر، أي: كتبًا وصحفًا مزبوره[6].

قال ابن جرير في تفسيره: «وجهوا تأويله: وآتينا داود كتبًا وصحفًا مزبوره، من قولهم: زبرت الكتاب أزبره زبرًا، وزبرته أزبره زبرًا: إذا كتبته»[7].

وقال ابن أبي مريم في الموضح: «بضم الزاي وهو على وجهين:

أحدهما: أن يكون جمع زبر، وهو المزبور، وجاز جمعه وإن كان مصدرًا لوقوعه موقع الأسماء.

الثاني: أن يكون زبور بالضم جمع زبور بالفتح، جمعًا بحذف الزوائد، وبفتح الزاي وهو ظاهر، فإن زبورًا بمعنى مزبور، وهو

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٤٠٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٥١، تفسير النسفي ٢/ ٤٢٣.
(٣) انظر: لسان العرب ٥/ ٤٠٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤١٣، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٣٨.
(٥) انظر: التيسير، الداني ص٢٦٧، إتحاف فضلاء البشر، البناء ١/ ٥٢٦.
(٦) الحجة، ابن زنجلة ص٢١٩.
(٧) جامع البيان ٧/ ٦٨٧.

اسم لهذا الكتاب المخصوص»[1].

وأما بفتح الزاي فيكون بمعنى: وآتينا داود الكتاب المسمى زبورًا. قال ابن أبي مريم في الموضح: «وبفتح الزاي وهو ظاهر، فإن زبورًا بمعنى مزبور، وهو اسم لهذا الكتاب المخصوص»[2].

فيكون اسمًا للكتاب الذي نزل على داود، كما سمّي الكتاب الذي أنزل على موسى بالتوراة، والذي نزل على عيسى بالإنجيل، والذي نزل على محمد عليهم الصلاة والسلام الفرقان؛ ولأن ذلك هو الاسم المعروف به مما أوتي داود[3].

قال مكي بن أبي طالب في الكشف: «حجة من قرأ بالفتح أن المعروف أن داود صلى الله عليه وسلم أوتي كتابًا اسمه الزّبور، كالتوراة والإنجيل والقرآن، فهو كتاب واحد لكل نبي، فالفتح أولى به؛ لأنه اسم لكتاب واحد، وهو الاختيار، لصحة معناه؛ ولأن عليه الجماعة»[4].

واعتبر السمرقندي[5] أن القراءتين بمعنى واحد، وهو عبارة عن الكتاب.

وجاء في العلم الأعجمي أن (الزبور) هو علم عربي -ليس فيه شبهة عجمة- على كتاب داود عليه السلام، وأن (زبور) بمعنى (مزبور) بالنظر إلى مادته وصيغته فهو كتاب (تسابيح) مقطعات، وقال: «ومن غير الجيد فهمه بمعنى مطلق الكتاب، وإلا لما تميز وحي الله على داود باسم علم يختص به من دون كتب الله على رسله، كما اختص باسمه العلم كل من التوراة والإنجيل والقرآن، وإنما أريد له معنى مضاف يميزه عن غيره من الكتاب المكتوب...، إنه كتاب (تسابيح) مقطعات»[6].

واسم كتاب داود في ترجمات العهد القديم هو (سفر المزامير) وهو كذلك في كتابهم المقدس الموجود الآن، وأما في النص العبراني فإن اسمه (سفر تهلّيم) أي: سفر التسابيح، وعليه فالترجمة العربية الدقيقة لاسم هذا السفر (سفر التسابيح) أو (سفر التهليل)[7].

ولقد أشار الله على فضل داود وكتابه الزبور، فقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥].

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها ١/ ٤٣٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٨٧.
(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ١/ ٤٠٢.
(٥) تفسير السمرقندي ١/ ٤٠٤.
(٦) العلم الأعجمي، أبو سعدة ٢/ ١٨٧ -١٨٨.
(٧) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٨٣ وجاء فيه: هو هلل العبري المأخوذ من هلل العربي، بمعنى سبح، وترخصت الترجمة السبعينية اليونانية لأسفار العهد القديم في تسميته في النسخة العربية بالمزامير؛ لأن في أصله العبري جاءت عند عنونة المقاطع بكلمة مزمور.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه»[1].

وثبت بأصرح مما سبق إثبات اسم الزبور كعلم لكتاب الله في عدة أحاديث مرفوعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وقرأ عليه أبيٌّ أمّ القرآن فقال: (والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، إنها السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيت)[2].

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل)[3].

بل وجاء في الحديث تحديد وقت نزول الزبور، فقد أخرج الطبراني في المعجم الكبير عن واثلة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع عشرة خلت من رمضان)[4].

وقد نزل الزبور على داود عليه السلام بعد أن اجتمعت بنو إسرائيل عليه، كما نص ابن جرير في تاريخه[5].

حجم الزبور ومحتواه:

نقل السمرقندي في تفسيره عن مقاتل قال: «الزبور مائة وخمسون سورة، ليس فيها حكم ولا فريضة، إنما ثناء على الله عز وجل»[6].

وهو كذلك في ما هو بين أيدي أهل الكتاب ضمن كتابهم المقدس، فقد بلغ مائة وخمسون مزمورًا.

وأما نسبة كل هذه المزامير لداود فغير صحيح، فإن أهل الكتاب ينسبون بعضها فقط إلى داود، وينسبون بعضها لابنه سليمان، كما ينسبون بعضها لرجل يدعى آساف، وهو كبير المغنين في بلاط داود، وبعضها الآخر مسكوت عنه غير منسوب[7].

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٨٨.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٨/ ٣٨٧، رقم ٨٦٦٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٩١، ٧٠٧٩.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٨/ ٣٨٧، رقم ٨٦٦٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤١، رقم ١٠٥٩.
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٧٥-١٨٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣١٣، ١٤٩٣.
(٥) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٤٧٨.
(٦) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٧٣.
(٧) وهنا ذكر محمود أبو سعدة فائدة عزيزة قال:

ولا يدرى على وجه التحقيق أي المزامير التي قالها داود؛ ولهذا في ترجمات العهد القديم سموه (سفر المزامير) بدلًا من (مزامير داود)[1].

ويصدّق ذلك الترجمة المطبوعة من الكتاب المقدس للغة العربية، فإنه في سفر المزامير يصدّرون بعضها بقولهم: «مزمور داود» كما في المزمور رقم (٤ و٥ و٦ و٨ و٩ و١١ و١٩ و٢٨ وغيرها) بينما بعضها دون تسمية، وبعضها نسبوها لغير داود كما في المزمور (٧٢) كتب: «المزمور الثاني والسبعون لسليمان».

وأما في المزمور (٧٣،٧٤،٥٠) كتب: «مزمور لآساف». بل ونسبوا لآساف اثني عشر مزمورًا!

وأما محتوى الزبور: فقد تميز عن غيره من كتب الله في محتواه، فقد كان فيه التسابيح والتهليل، وليس فيه شيء من التعاليم أو التكاليف، كما هي في التوراة والإنجيل والقرآن، وهو قول جماهير أهل العلم.

عن الربيع بن أنس قال: الزبور ثناء على الله عز وجل، ودعاء وتسبيح[2].

وعن قتادة قال: كنا نحدث أن الزبور دعاء علّمه داود عليه السلام، وتحميد وتمجيد لله عز وجل، ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض، ولا حدود[3].

وقال القرطبي في تفسيره: «الزبور: كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد»[4].

ومما يؤيد ذلك ما بقي من وحي الله على داود -سليمًا من التحريف- مما هو في أيدي أهل الكتاب في العهد القديم[5].

ولقد وهب الله داود عليه السلام سهولة قراءة كتابه، فقد أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده)[6]. والمراد بالقرآن هنا مصدر القراءة لا القرآن المعهود لهذه الأمة، كما قال ابن حجر في فتح الباري[7].

«وهذا يدلك على أن المجموع بين دفتي العهد القديم ليس كله من وحي الله عز وجل على رسله وأنبيائه، بل منه هذا وذاك، وهو يدلك أيضًا على أن معنى الوحي عند أهل الكتاب ليس هو نفس معناه عند أهل القرآن». انظر: العلم الأعجمي ٢/ ١٨٢.

(١) انظر: العلم الأعجمي، أبو سعدة ٢/ ١٨٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٤/ ١١١٨.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٦٢٥، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٣٣٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٠٥.

(٥) انظر: العلم الأعجمي، أبو سعدة ٢/ ١٨٧.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وآتينا داوود زبورًا)، ٤/ ١٦٠، رقم ٣٤١٧.

(٧) فتح الباري ٨/ ٣٩٧.

ثالثًا: إيتاؤه العلم والحكمة:

أثنى الله على داود عليه السلام بأنه آتاه العلم والحكمة في أكثر من موضع في القرآن، وجاءت الآيات بصور مختلفة: فتارةً يجمع الله له بين العلم والحكمة، وتارةً يذكر العلم فقط، وتارةً الحكمة فقط.

أما الجمع بين العلم والحكمة فجاءت في آية واحدة، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

وجاء ذكر العلم دون الحكمة لداود في آيتين:

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

ففي هذه الآية امتدح الله سليمان عليه السلام في إصابته في القضاء في الحكم إلا أن الله لم يذم داود، بل امتدحه الله بإيتائه العلم والحكمة، كما آتاهما سليمان، وكون الآية وردت في سياق تأييد الحكم لسليمان عليهما السلام، أعقبه الله تعالى بذكر الفضيلة لهما؛ لئلا يتوهم الإغضاء من قدر داود عليه السلام، ودفعًا لما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم، من عدم كون حكم داود عليه السلام حكمًا موافقًا للصواب[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل:١٥].

وأما التي ذكر فيها إيتاءه للحكمة دون العلم فهي آية واحدة:

قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:٢٠].

فالمذكور في الآيات مما وهبه الله لداود أمران: العلم والحكمة، فما المقصود بالعلم؟ وهل هو علم خاص بهما أم مشترك مع باقي الخلق؟ وما المقصود بالحكمة؟

١. العلم.

تعددت الأقوال في المراد بالعلم الذي أوتيه داود عليه السلام، وأساس الخلاف هل هو علم اختص الله به داود عليه السلام أم علم كباقي العلوم التي يمكن للعباد أن يؤتوها أو يكتسبوها؟

فقيل: هو الفهم، وهو قول قتادة[(٢)].

وقيل: هو علم بالدين والحكم وغيرهما[(٣)].

وقيل: «طائفة من العلم وهو علم الحكم

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١١/ ٢٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٨٧.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٩/ ٢٨٥٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١٢.

والشرائع، أو علمًا أي علم»[1].

وذهب ابن جرير إلى أن المراد بالعلم «علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه»[2].

وذهب ابن كثير إلى اختصاص العلم بداود، ولكن دون تحديد ماهية العلم، فقال في تفسيره: «علمه ما يشاء من العلم الذي اختصه به عليه السلام»[3].

وقيل: صنعة الكيمياء. قال القرطبي: «هو شاذ»، وقال عقب ذلك القرطبي: «وإنما الذي آتاهما الله النبوة والخلافة في الأرض والزبور»[4]. في إشارة للعلم أن يكون النبوة أو الزبور، والله أعلم.

وقال ابن عاشور: «علم نبوءة وحكمة»[5].

وجمع ما قيل في المراد بعلم داود الماوردي، فقال: «فيه ستة أوجه:

أحدها: فهمًا، قاله قتادة.

الثاني: صنعة الكيمياء، وهو شاذ.

الثالث: فصل القضاء.

الرابع: علم الدين.

الخامس: منطق الطير.

السادس: بسم الله الرحمن الرحيم»[6].

والذي يترجح لي -والله أعلم- أن الله خصه بعلم ديني ودنيوي، وهو الأكمل في حق داود عليه السلام، فأما الديني فيكفيه ما في النبوة والزبور من علم وافر، وأما العلم الدنيوي فمما يؤيده قوله تعالى عما آتاه لنبيه داود: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٠].

ويدخل فيها علمه لكلام الطير وغيره، وفي قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

إشارة إلى ذلك، قال في معناها ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها صنعة الدروع.

والثاني: الزبور.

والثالث: منطق الطير»[7].

وتحتمل كلمة (مما يشاء) أن يكون مما يشاؤه الله، أو يشاؤه داود، أو كلاهما[8].

فخص الله نبيه داود بعلم دون العباد، والفعل (آتينا) فيه إشارة إلى أنه «علم مفاض من عند الله، وليس علمًا مكتسبًا[9]. وهو

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٤١، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٧٢.
(٢) جامع البيان ١٨/ ١٢٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٦٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١١٢.
(٥) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٣٢.
(٦) النكت والعيون ٤/ ١٩٧.
(٧) زاد المسير ١/ ٣٠٠.
(٨) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٢١.
(٩) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٣٣.

علم عظيم في شأنه، بدلالة تنكير لفظة (علمًا) كما جاء في آية سورة النمل[1]، ويحتمل أن يكون التنكير للتكثير[2]، ولا مانع من الجمع بينهما، فهو علم عظيم وكثير، والله أعلم.

فهو إذن علم اختص به داود عليه السلام في الجنس والكم، ولو اشترك معه غيره من الخلق لما كان هناك مزية له في هذا العلم دون الآخرين.

قال القشيري على آية سورة النمل: «يقتضي حكم هذا الخطاب أنه أفردهما بجنس من العلم لم يشاركهما فيه أحد؛ لأنه ذكره على وجه تخصيصهما به، ولا شك أنه كان من العلوم الدينية، ويحتمل أنه كان بزيادة بيان لهما أغناهما عن إقامة البرهان عليه، وتصحيحه بالاستدلال الذي هو معرض للشك فيه، ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهما على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به، فيكون إخبارهما عن ذلك معجزة لهما»[3].

٢. الحكمة.

كما اختلف في المراد بالعلم وقع الخلاف في المراد بالحكمة التي وهبها الله لداود عليه السلام، فقيل: هي النبوة، وهو قول ابن عباس والسدي، أخرجه عنه ابن جرير واختاره[4].

وقيل: إنها السنة، وهو قول قتادة والحسن[5].

وقيل: العقل في الدين، وإليه ذهب زيد بن أسلم[6].

وقيل: الصواب، وهو قول مجاهد أخرجه سعيد بن منصور[7].

وقال ابن الجوزي: «وفي المراد بالحكمة ها هنا قولان:

أحدهما: أنها النبوّة.

والثاني: الزبور»[8].

وفي موضع آخر قال ابن الجوزي: «فيها أربعة أقوال:

الفهم، قاله ابن عباس والحسن وابن زيد.

والثاني: الصواب، قاله مجاهد.

والثالث: السنة، قاله قتادة.

والرابع: النبوة، قاله السدي»[9].

وعند ابن عطية في المحرر الوجيز ذكر

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥٢.
(٣) لطائف الإشارات ٥/ ٣٢.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره عن السدي ٥/ ٤١٥، ونسبه لابن عباس ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٠٠.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٨ عن قتادة، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ٤٨٠ عن الحسن.
(٦) أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ٤٨٠.
(٧) سنن سعيد بن منصور ٧/ ١٧٤.
(٨) زاد المسير ١/ ٣٠٠.
(٩) المصدر السابق ٧/ ١١١.

ما سبق وزاد في معنى الحكمة: أنها العلم الذي لا ترده العقول[1].

والذي يظهر أن الله ذكر إيتاءه الحكمة لنبيه داود في موضعين في كتابه الكريم، فجاء ذكر إيتائه الحكمة في سياق قتله لجالوت، فقال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:٢٥١].

وجاء ذكرها أيضًا في سياق تعداد النعم التي وهبها الله لداود، فقال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص:١٧-٢٠].

وإطلاق القول في معنى الحكمة في كلا الموضعين قد يحدث شيئًا من التداخل؛ فلذا لا بد من التفصيل، فلكل موضع مقال في معناها، فإذا فرقنا بين الموضعين، وما تحتمله من معنى اتضح لنا الأمر في معنى المراد بالحكمة، وفي نسبة الأقوال للسلف وغيرهم.

ففي الموضع الأول تكون الحكمة هي النبوة، كما ذهب إليه ابن عباس والسدي؛ بدلالة أن الله أشار في تلك الآية إلى إعطاء داود الملك بعد انتصارهم، وقرنه بالحكمة التي هي النبوة، فيكون أعظم امتنان على داود وبني إسرائيل.

وأما في الموضع الآخر: فإن الأقوال فيها تحتمل التعدد، فيمكن أن تكون الفهم أو الصواب أو العقل أو غيره، ويشملها النبوة.

رابعًا: فصل الخطاب:

لقد أثنى الله على داود بأن آتاه فصل الخطاب، فقال عز وجل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠].

وجاءت هذه الصفة في معرض ذكر فضائل داود عليه السلام، وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى (فصل الخطاب) فقيل فيها عدة أقوال، وهي:

علم القضاء والفهم به، ذهب إليه ابن عباس ومجاهد والسدي وابن زيد وأبو عبدالرحمن السلمي[2].

وقيل: تكليف المدّعي البينة، واليمين على المدّعى عليه، وبعبارة أخرى: الشهود والأيمان، وذهب إليه علي بن أبي طالب وشريح والشعبي وقتادة[3]، ووصف هذا

(١) المحرر الوجيز ٧/ ٣٣١ ونسبه لأبي العالية.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٩-٥٠. قال السعدي في تفسيره ص٧٢٢: «من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس؛ كما امتن الله به على عبده داود».

(٣) أخرجه عنهم جميعًا -ما عدا علي بن أبي طالب- الطبري في تفسيره ٢٠/ ٥٠-٥١، ونسبه إلى علي بن أبي طالب ابن عطية في المحرر الوجيز ٧/ ٣٣١، والقرطبي في

القول الواحدي[1] بأنه قول الأكثرين.

وقيل عبارة: أما بعد، وهو قول أبي موسى الأشعري[2]، ونسب إلى الشعبي[3]، وأخرجه سعيد بن منصور عن زياد بن أبيه[4][5].

وكل هذه الأقوال مناقب حري بها نبي الله داود، وخليق بها؛ ولذا اختار ابن جرير في معنى (فصل الخطاب) أنه يشملها كلها، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه آتى داود -صلوات الله عليه- فصل الخطاب، والفصل: هو القطع، والخطاب هو المخاطبة، ومن قطع مخاطبة الرجل الرجل في حال احتكام أحدهما إلى صاحبه قطع المحتكم إليه الحكم بين المحتكم إليه وخصمه بصواب من الحكم، ومن قطع مخاطبته أيضًا صاحبه إلزام المخاطب في الحكم ما يجب عليه إن كان مدّعيًا، فإقامة البيّنة على دعواه، وإن كان مدّعيًا عليه فتكليفه اليمين إن طلب ذلك خصمه، ومن قطع الخطاب أيضًا الذي هو خطبةٌ عند انقضاء قصة وابتداء بأخرى، الفصل بينهما بـ(أما بعد) فإذ كان ذلك كله محتملًا ظاهر الخبر، ولم تكن في هذه الآية دلالة على أي ذلك المراد، ولا ورد به خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثابت، فالصواب أن يعمّ الخبر كما عمّه الله، فيقال: أوتي داود فصل الخطاب في القضاء والمحاورة والخطب»[6].

وبهذا التوجيه من ابن جرير تكون الفضيلة لداود أعم وأتم، وهو الصواب الذي يدل عليها ظاهر القرآن، وتتوافق مع مكانة نبي الله داود عليه السلام.

خامسًا: قتله لجالوت:

لقد انضم داود عليه السلام ضمن جيش بني إسرائيل بقيادة ملكهم طالوت الذي خرج لمحاربة جالوت وجنده، وكان في ذلك الحين داود إنما هو عبد صالح في بني إسرائيل ولم يكن نبيًّا، وكان أول بروز له لكافة شرائح مجتمعه في تلك المعركة التي وفقه الله فيها إلى قتل جالوت، فبرز وكان له الشأن عند قومه، وكأن الله عز وجل أراد تهيئته أو تهيئة بني إسرائيل لنبوة وملك داود، فقال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ

تفسيره ١٨/ ١٤٩.

(١) البسيط ١٩/ ١٧٦.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٧/ ١١٢.

(٣) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٥١.

(٤) سنن سعيد بن منصور ٧/ ١٧٥.

(٥) ضعف هذا القول ابن العربي، فقال في أحكام القرآن ٤/ ٤٥: «لو صحّ أن داود قالها -أي أما بعد- فإنه لم يكن ذلك منه بالعربية، على هذا النظم، وإنما كان بلسانه، والله أعلم».
واستبعده ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٣/ ١٣٠ فقال: «ولا أحسب هذا صحيحًا؛ لأنها كلمة عربية، ولا يعرف في كتاب داود أنه قال ما هو بمعناها في اللغة العبرية».

(٦) جامع البيان ٢٠/ ٥٢.

﴿اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٥١] علمًا أن هذا هو أول موضع ورد فيه اسم داود في القرآن الكريم، بحسب ترتيب سوره.

فنص الله على أن داود قتل جالوت، وأشار عقبها مباشرةً إلى إعطاء الله الملك له والحكمة، فبعد تلك المعركة وبعد تلك الحادثة أصبح داود ملكًا ونبيًا لبني إسرائيل.

داود وبنو إسرائيل

كان عهد داود عليه السلام بعد موسى عليه السلام قطعًا بمدة من الزمن، فقد قال تعالى في مطلع قصة قتل داود لجالوت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦].

وقد نص ابن كثير[(١)] على أنه كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة.

وقد كان قبل داود على ملك بني إسرائيل طالوت، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٧].

وإن كان مجاهد ذهب إلى أن الملك في هذه الآية هو الإمرة على الجيش لا بالملك العام[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ [البقرة:٢٤٦] إشارة واضحة إلى وجود نبي لبني إسرائيل قبل داود، وفي تحديده خلاف بين المفسرين فقيل: شمعون[(٣)]، وقيل:

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٦٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦.
(٣) هو قول السدي أخرجه ابن جرير في تفسيره ٤/ ٤٣٦.

صمويل، وقيل: غيرهم[1]، وتحديد اسمه غير مهم لنا في هذا البحث، كما أنه ليس هناك دليل صحيح ينص على تحديده.

وقد توالت الأحداث على بني إسرائيل من خير وشر، ورفعة ومذلة، ثم كانت المعركة الفاصلة بين الملك طالوت ومعه داود عليه السلام وخصومهم جالوت وجنده، فوقع القتال بأمر الله، ثم قتل داود جالوت، فوقع حب داود في قلوب بني إسرائيل، ومالوا إليه، ثم آل الملك إليه مع ما منحه الله من النبوة.

فجمع الله لداود بين الملك على بني إسرائيل والنبوة.

وهنا لا بد من وقفة جلية تكشف لنا حقيقة صفات داود عند أهل الكتاب بما ورد في العهد القديم والعهد الجديد، مع موازنتها بما ذكره الله عز وجل عن نبيه داود في القرآن الكريم؛ ليتضح البون الشاسع بين ما نعتقد كمسلمين في حق داود عليه السلام، وبين ادعاءات البهتان لأهل الكتاب.

صفات داود في القرآن والعهد القديم:

إن الأنبياء هم صفوة الخلق، ونعتقد بجمال أحوالهم قبل نبوتهم وبعدها، ولا يتصور أي معظّم لأنبياء الله أن يرميهم بالنقائص والعيوب التي يترفع عنها بسطاء الناس فضلًا عن كبرائهم، فضلًا عن صفوة الخلق!

وإن اليهود يزعمون أنهم يعظمون داود، وهذا ادعاء لا يتفق مع ما يؤمنون به من كتبهم، فإن في العهد القديم نسبة الصفات القبيحة والشنيعة لداود عليه السلام حاشاه من تلك المعايب، ولا أدري أي تعظيم له بعد ذلك؟!

ولنبدأ بالوجه المشرق لصفات داود كما وردت في القرآن الكريم على وجه الاختصار[2]:

جاء في القرآن عن داود عليه السلام أنه:

- الخليفة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص:٢٦].
- صاحب الزبور: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء:١٦٣].
- الأواب: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:١٧].
- والذي تسبح معه الطير والجبال: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَٰقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾ [ص:١٨-١٩].
- صاحب الملك والحكمة والعلم: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].
- صاحب الصناعات: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٦٤.

(٢) انظر: الأنبياء في القرآن والكتاب المقدس، محمد عمارة ص٥٥.

﴿دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾ [سبأ:١٠-١١].

❁ المغفور له، وصاحب الزلفى وحسن المآب: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾ [ص:٢٥].

هذه صفات نبي الله داود في القرآن، وعندما تقرأ هذه الصفات تشعر بانشراح نفس، وارتياح في ذكر هذه الصفات، بينما إذا انتقلت للطرف الآخر شعرت بالضيق والحرج من ذكر تلك الصفات الشنيعة عن داود عليه السلام، ولأبرهن على استنقاص أهل الكتاب لداود نعرج على ما رموا -زورًا وبهتانًا- به داود عليه السلام.

ومن تلك الصفات القبيحة الواردة في العهد القديم[1] على وجه الإجمال: يصورون داود عليه السلام في صورة الفاسق والزاني والقاتل بغير حق، ومدعي الجنون، وقاطع الطريق!

ودونك كلامهم على وجه التفصيل:

❁ اتهامه بالزنا والعياذ بالله.

فجاء في سفر صموئيل الثاني (١١: ٢-٥) قال: «وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت جميلة المنظر جدًا، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثي؟! فأرسل داود رسلًا وأخذها فدخلت إليه، فاضطجع معها، وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود، وقالت إني حبلى».

فانظر أيها القارئ لهذا الاتهام الفاحش الذي يتورع عنه العقلاء في نسبته لصالحي الناس فضلًا عن الأنبياء -عليهم الصلوات والسلام-، قال الطاهر ابن عاشور: «وقد حكيت هذه القصة -أي قصة داود والمرأة- في سفر صموئيل الثاني في الإصحاح الحادي عشر على خلاف ما في القرآن، وعلى خلاف ما تقتضيه العصمة لنبوءة داود عليه السلام فاحذره»[2].

❁ اتهامه بالقتل دون حق.

بعد أن ذكروا اتهامه بالزنا والعياذ بالله، ولتكتمل القصة الدرامية في مخيلة اليهود، زعموا أنه مكر بزوج تلك المرأة لتغطية فعلته! فأمر بإرساله في وجه الموت ليموت، جاء في سفر صموئيل الثاني (١١: ٦-١٥)

(١) انظر: رسالة داود وسليمان في الأسفار اليهودية، مي المدهون ص ١٦٨-١٦٩.
وأشير هنا إلى أن الموازنة فيما ذكرت عن صفات داود عليه السلام في العهد القديم والقرآن فحسب وليس لما يورد في كتب التفسير؛ لأن تلك الكتب هي التي يعتقد أهل كل ملة نسبتها إلى الله.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٣٩.

بعد أن ذكروا أن داود سقاه الخمر، قال: «وكتب المكتوب -أي داود- يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت». فانظر إلى هذا التخطيط والمكر، أيعقل هذا من نبي كريم ؟! حاشا والله.

❁ ادعاء داود الجنون.

جاء في سفر صموئيل الأول (٢١: ١٢-١٥) «فوضع داود هذا الكلام في قلبه، وخاف جدًا من أخيش ملك، فغير عقله في أعينهم، وتظاهر بالجنون بين أيديهم، وأخذ يخربش على مصاريع الباب، ويسيل ريقه على لحيته».

❁ قاطع طريق.

تصور الأسفار اليهودية المحرفة انشقاق داود عليه السلام عن الملك شاؤول، وهروبه إلى الفلسطينيين، وانعزالهم في مغارة، ثم قيامهم بغارات على المارة، وكان داود رئيسًا لهم، كما جاء في سفر صموئيل الأول (٢٢: ١-٥).

❁ الخداع.

ذكروا له موقفًا في خداع قومه بأن أخذ في أحد المعارك البقر والغنم والحمير والجمال والثياب، وقدمها لملك فلسطين وأخبره أنه غزا أعداءهم وهو لم يفعل، وصدقه الملك، قال: «صار داود مكروهًا لدى شعبه إسرائيل» انظر: سفر صموئيل الأول (٢٧: ١٢).

وغير ذلك من صور شنيعة لمن يزعمون تعظيمه، فما بالك بمن يكرهونه كمحمد عليه الصلاة والسلام، وباقي المسلمين.

وقد يستغرب المرء عندما يقرأ هذه الصفات القبيحة المنسوبة لنبي الله داود من قبل اليهود وعن علة ذلك.

وفي ذلك يقول البقاعي في نظم الدرر: «وأخبرني بعض من أسلم منهم -أي اليهود- أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام؛ لأن عيسى عليه السلام من ذريته ليجدوا السبيل إلى الطعن فيه»[1].

والله أعلم.

(١) نظم الدرر ٦/ ٣٧٦.
وذكرت مي المدهون أن بعض اليهود كانوا ينفون عن داود النبوة ويعتبرونه ملكًا فحسب.

آيات داود عليه السلام

أولًا: تسخير الجبال له وتسبيحها معه:

وهب الله لنبيه داود عليه السلام عددًا من الآيات ومن جملتها: تسخير الجبال والطير معه، فقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء:٧٩].

وقال أيضًا: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ:١٠].

وقال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَٰقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص:١٧-١٩].

والآيات تذكر ما وهبه الله لداود وهي ثلاث آيات: تسخير الجبال، وتسخير الطير، وإلانة الحديد، وسنتناول هذه الآيات بشيء من التفصيل.

صدّر الله جل في علاه في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ منّته وفضله على داود، ثم بين ما وهبه من آيات، وفي ذلك إشعار لداود ولغيره من عباد الله أن هذه الفضائل هي من الله، ومستوجبة للشكر، فالمصدر والمنعم هو الله، وحسبنا بها من فضل.

وقبل الشروع في تسخير الجبال لداود أبين ما قيل في (الفضل) الذي أشارت إليه الآية آنفة الذكر، فقد قال القرطبي في تفسيره: «واختلف في هذا الفضل على تسعة أقوال:

الأول: النبوة.

الثاني: الزبور.

الثالث: العلم.

الرابع: القوة.

الخامس: تسخير الجبال والناس.

السادس: التوبة.

السابع: الحكم بالعدل.

الثامن: إلانة الحديد.

التاسع: حسن الصوت»[1]. انتهى مختصرًا.

والصواب -والله أعلم- أن الفضل المراد في هذه الآية هو ما ورد ذكره في نفس الآية، وبينه الله من تسبيح الجبال والطير وإلانة الحديد، وإن كان باقي أنواع الفضل نالها داود وثبتت بغير هذا الدليل.

فهذا الفضل الذي آتاه الله داود هو فضل عظيم، ونلحظ أن (فضلًا) جاءت بالتنكير، وهو تنكير للتفخيم[2]، كما أن لفظة (منا) تشير إلى أن الفضل من الله لداود بلا واسطة، لتأكيد فخامته الذاتية الإضافية، وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٦٠.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٢/ ٢٩.

بالمقدم والتشويق للمؤخر، ليتمكن في النفس عند وروده أفضل تمكن[1].

ومن اللطائف البلاغية في هذه الآية ما ذكره الزمخشري في الكشاف حيث قال: «ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى: من الدلالة على عزة الربوبية، وكبرياء الإلهية، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا، إشعارًا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته، غير ممتنع على إرادته»[2].

والمتأمل في الآيات التي جاء ذكر ما آتاه الله لداود من تسخير الجبال والطير يجد أن الآيات قد جاءت بالجمع بينهما فما أن يذكر تسخير الجبال إلا ويذكر تسخير أو تسبيح الطير، وأيضًا جاء ذكر الجبال مقدمًا على ذكر الطير في الثلاث آيات، وفي علة ذلك يقول الزمخشري: «فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد والطير حيوان، إلا أنه غير ناطق»[3].

وقد صاحب ذكر تسخير الجبال لداود عليه السلام بكلمتين هما ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ كما في سورة الأنبياء وسورة ص، وبكلمة ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ كما في سورة سبأ.

أما الكلمة الأولى فإن التسبيح معروف، وهو ظاهر الآيتين إلا أن هناك قولًا آخر فيه، فقد أخرج ابن جرير في تفسيره عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء:٧٩] أن المراد أي: يصلين مع داود إذا صلى، فجعل يسبح بمعنى يصلي[4].

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: «واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ فذهبت فرقة وهي الأكثر إلى أنه قول (سبحان الله)، وذهبت فرقة منها: منذر بن سعيد إلى أنه بمعنى: يصلين معه بصلاته»[5].

وقد يقال: لا يمنع أن يكون القولان بمعنى واحد، فالجبال تسبح مع داود، أي: بقول (سبحان الله)، وهي أيضًا تصلي معه، أي: تدعو الله وتذكره، ومعلوم أن ليس في صلاة داود الركوع والسجود الذي في شريعتنا، ولو كان فيها ذلك لما منع من حمل الصلاة على معناها اللغوي وهو الدعاء.

وأما ﴿أَوِّبِي﴾ فإن الفعل (أوّب) هو من آب يؤوب، والأوب في اللغة: الرجوع[6]، قال ابن جرير في تفسيره: «والتأويب عند

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٤.
(٣) الكشاف ٣/ ١٢٦.
(٤) جامع البيان ١٦/ ٣٢٨.
(٥) المحرر الوجيز ٦/ ١٨٨.
(٦) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٤٣٥.

العرب الرجوع»[1].

فإن الجبال كان ترجع مع داود تسبيحه، فداود عليه السلام يسبح وهي ترجع معه، أي: ترد الذكر والتسبيح[2].

وبعد النظر في معنى ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ لغة، نجد أن المفسرين ذكروا في معنى تأويب الجبال ثلاثة معاني، وهي: التسبيح والترجيع، وتصرفي معه، وسيري معه.

فالقول الأول: سبحي معه، وهو قول ابن عباس وأبي ميسرة ومجاهد وقتادة وابن زيد والضحاك، أخرجه عنهم ابن جرير في تفسيره[3].

قال ابن كثير: «الصواب رجعي معه، مسبحة معه»[4].

والقول الثاني بمعنى: تصرفي معه[5].

قال ابن جرير في تفسيره: «﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ قد كان بعضهم يقرؤه (أوبي معه) من آب يئوب، بمعنى تصرفي معه»[6].

القول الثالث: بمعنى سيري معه، ذكره ابن عطية بلا نسبة في المحرر الوجيز[7]، وهو قول أبي القاسم الزجاجي في كتابه الجمل قال: «أي: سيري معه بالنهار، والتأويب: سير النهار كله، والإسئاد: سير الليل كله»[8].

وتعقبه ابن كثير في تفسيره بقوله: «وهو غريب جدًا لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية ها هنا»[9].

وقول (سبحي ورجعي) يتفقان في المآل، فإن داود إذا سبح ثم سبحت بعده الجبال فقد سبحت ورجعت، أي: أعادت كلامه، وقد يشمل هذا التصرف، فإن التصرف -والله أعلم- المراد به متابعة داود فيما يتصرف به من كلام كالتسبيح، ويبقى القول الثاني وهو بمعنى السير وهو بعيد، كما ذكر ابن كثير وغيره، وإن كان ظاهر اللفظ يحتمله، ولكن تفاسير السلف على خلافه.

وعليه؛ فيكون الصواب في المراد بتأويب الجبال مع داود التسبيح والترجيع بدليل الآية الأخرى التي في سورة الأنبياء ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

وأما معنى تسبيح الجبال والطير فهو على حقيقته، والله قدير على كل شيء.

قال الأمين الشنقيطي: «والتحقيق أن

(١) جامع البيان ١٩/ ٢١٩.
(٢) انظر: المحرر الوجيز ٧/ ١٦١.
(٣) جامع البيان ١٩٦/ ٢٢٠-٢٢١.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٩٧.
(٥) الجامع في أحكام القرآن ١٧/ ٢٦١.
(٦) جامع البيان ١٩/ ٢١٩.
(٧) المحرر الوجيز ٧/ ١٦١.
(٨) الجمل في النحو ص١٥٢.
(٩) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٩٧. قال الشنقيطي عن هذا القول في أضواء البيان ٣/ ١٥٥: ساقط.

تسبيح الجبال والطير مع داود المذكور تسبيح حقيقي؛ لأن الله جل وعلا يجعل لها إدراكات تسبح بها، يعلمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤] الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢] الآية.

وقد ثبت في صحيح البخاري أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حنين[(١)].

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن)[(٢)].

وأمثال هذا كثيرة.

والقاعدة المقررة عند العلماء أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

والتسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء، وفي اصطلاح الشرع: تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله[(٣)].

ثانيًا: تسبيح الطير والترديد:

ذكر الله تعالى تسخير الطير[(٤)] لداود عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠].

وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

والمراد أن الله سخر الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح[(٥)]، فيكون قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ يعني: ونادينا الطير بمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه[(٦)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٤/ ١٩٥، رقم ٥٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ٤/ ١٧٨٢، رقم ٢٢٧٧.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٥٥.

(٤) مما يحتمل إضافته لآيات داود، علمه منطق الطير، فقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل:١٦].
والضمير في علّمنا يحتمل عوده على داود وسليمان عليهما السلام، ويحتمل عوده على سليمان فقط، قال البيضاوي في تفسيره ٢/ ١٧٣: «والضمير في علّمنا وأوتينا له ولأبيه عليهما الصلاة والسلام، أو له وحده على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة».
ورجح عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء ص٣٢٦ أن الضمير لداود وسليمان.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٢٨.

(٦) انظر: أضواء البيان ٣/ ١٥٥.

وجاء وصف اجتماع الطير لداود في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٩﴾ [ص:١٩].

فيقول تعالى ذكره: وسخرنا الطير يسبحن معه محشورة بمعنى: مجموعة له[١]، وذهب قتادة فيما أخرجه عنه ابن جرير[٢] إلى أن معنى ﴿مَحْشُورَةً﴾ مسخّرة، ومآل القولين -مجموعة أو مسخرة- واحد، فإن الله قد سخّر لداود الطير، وجمعها له، وجعلها تسبح معه، أو تردد معه، فأحدهما متضمن للآخر.

ووصف الله هيئة الطير عند داود بقوله تعالى: ﴿مَحْشُورَةً﴾ بلفظ اسم المفعول؛ لأنه لم يرد أنها تحشر شيئًا إذ حاشرها هو الله تعالى[٣].

ومعنى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: كل له مطيع، وهو قول قتادة وابن زيد[٤]، وقيل: كل ذلك لله مسبح، وهو قول السدي[٥].

فالخلاف آنف الذكر مبني على الخلاف في مرجع ضمير ﴿لَّهُۥٓ﴾ وفيه قولان:

«أحدهما: ترجع إلى داود، أي: كل لداود أواب، أي: رجاع إلى طاعته وأمره، والمعنى: كل له مطيع بالتسبيح معه، وهذا قول الجمهور.

والثاني: أنها ترجع إلى الله تعالى، فالمعنى: كل مسبح لله، قاله السدي»[٦].

فوهب الله لداود تسخير بعض الكائنات، فأصبح يسبح وتردد معه الطير وغيرها، وكان داود عليه السلام قد رزقه الله صوتًا جميلًا عند تلاوته الزبور، ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أثنى على حسن صوت أبي موسى الأشعري لمّا سمع عذوبة قراءته وهو يتلو القرآن، فقال صلى الله عليه وسلم: (يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود)[٧].

ثالثًا: إلانة الحديد وصنع الدروع:

خلق الله الخلق، وجعل لكل شيء عناصره التي يتكون منها، وتستمد منه خصائصه التي تميزه عن غيره، ومن ذلك الحديد جعل الله فيه القوة والصلابة، بحيث لا يتغير شكله إلا بقوة خارجة عليه، مؤثرة فيه كالنار عندما يصهر بها، فإنه يلين، ثم يتم

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٣٧٤.
(٤) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٥-٤٦.
(٥) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٦.
(٦) انظر: زاد المسير ٧/ ١١١.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن ٦/ ١٩٥، رقم ٥٠٤٨ ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ١/ ٥٤٦، رقم ٧٩٣.

تشكيله بأشكال مختلفة ينتفع به الناس.

«فالحديد تراب معدني إذا صهر بالنار امتزج بعضه ببعض ولان وأمكن تطريقه وتشكيله، فإذا برد تصلب»[(١)].

ومن فضل الله على نبيه داود أنه آتاه آيةً حسيةً بأن ألان له الحديد بحيث يشكّله كما يشاء، فقال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠].

فكان الحديد في يديه كالطين المبلول يصرفه في يده كيف يشاء بغير إدخال نار ولا ضرب بحديد[(٢)]. عن قتادة قال: «كان يسويها بيده ولا يدخلها نارًا، ولا يضربها بحديدة»[(٣)].

وقيل: إن المراد أن الله أعطى داود قوةً يثني بها الحديد، فيكون التغيير ليس في ذات عنصر الحديد، ولكن بما رزق الله داود من قوة يؤثر على الحديد، ويثنيه ويحركه، ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز[(٤)] ولم ينسبه لأحد، وذكر القولين الزمخشري في الكشاف[(٥)].

وعلى كلا القولين فإنها آية من الله لداود عليه السلام سواءً ألان الحديد لداود بمحض قدرته سبحانه أم رزقه السبب والقوة التي يثني بها الحديد، والآية تحتمل القولين، وإن كان الأول أقوى لظاهر مدلول الآية أن الإلانة متجهة للحديد، والله أعلم.

وهنا يأتي علاقة قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠] بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص:١٧].

فإن الله ذكر ما منحه لداود من إلانة الحديد، وأثنى في موضع آخر بأن كان (ذا الأيد) واختلف المفسرون في معناها، ففريق نظر للقوة الحسية، وفريق للقوة المعنوية، فقيل: المعنى: ذا القوة، وهو قول ابن عباس[(٦)]. وقيل: القوة في الطاعة، وهو قول مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد[(٧)].

ولو دققنا النظر في عباراتهم لوجدنا أن تفسير ابن عباس مطلق في القوة دون تقييد بنوع القوة، بينما الآخرون قيدوا القوة بأنها في الطاعة، فعبارة ابن عباس أعم وأشمل من عبارتهم، فيدخل فيها القوة في الطاعة، والقوة في غيرها، فالخلاف خلاف تنوع، فذكر ابن عباس العام، وهم ذكروا نوعًا منه.

والصواب أن يقال: إن الله رزق داود القوة الحسية والمعنوية، وبه نجمع بين قولي السلف في الآية، وهو الأكمل في حق نبي الله داود، فأما في الدين فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما عن عبد الله بن عمرو

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٢٢.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٢٢.
(٤) المحرر الوجيز ٧/ ١٦٢.
(٥) الكشاف ٣/ ٤٥٥.
(٦) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤١.
(٧) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٠.

ابن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يومًا، ويفطر يومًا)[1].

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم جعل أعلى حد في الاجتهاد في الصوم كصيام داود، فقد كان صائمًا نصف الدهر، أخرج البخاري في صحيحه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو عندما قال: أطيق غير ذلك، فقال له: (فصم صوم داود) قال: وما صوم نبي الله داود؟ قال: (نصف الدهر)[2].

وفيما سبق دلالة ظاهرة على قوته في الدين في الصلاة والصيام.

وأما قوته في الدنيا فإنه ظاهر المراد بالآية السابقة، كما أن الله امتدح داود في غير هذا الموضع بصنائع دنيوية كصنع الدروع، فالجمع حين ذلك بين المعنيين بأن يقال: بقوته في الدين وقوته في البدن، هو الأكمل والأحرى بداود، ومعنى الآية، قال ابن عطية في المحرر الوجيز: «و(الأيد) القوة، وهي في داود متضمنة قوة البدن وقوته على الطاعة»[3].

وللشيخ عبد الرحمن السعدي توجيه لطيف في معنى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠] فإنه اعتبر أن إلانة الحديد لداود هي على جاري العادة بأن علمه الله الأسباب المعروفة لإذابتها، واستدل بأن الآية فيها امتنان على العباد بإلانة الحديد، ولا يقع الامتنان إلا فيما كان في مقدور العباد، قال السعدي: «يحتمل أن تعليم الله له على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر؛ لأن الله امتن بذلك على العباد، وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها؛ لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام، متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما المنة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب من نام عند السحر، ٢/ ٥٠، رقم ١١٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به ٢/ ٨١٦، رقم ١١٥٩.
إذا علمنا أن داود عليه السلام كان كثير العبادة بما ذكر، فإن العجب يزداد ويبلغ مداه إذا استشعرنا قوته في العبادة وهو ملك، قد جمعت له من ملذات الدنيا ما طاب فيها وما لذ، ولم تشغله عن عبادته وتميزه فيها عمن سبقه ولحقه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حق الضيف، ٨/ ٣١، رقم ٦١٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، ٢/ ٨١٦، رقم ١١٥٩.

(٣) المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٠.

بالجنس، والاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه إلا قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠]وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك»[١].

وعلى قول الشيخ السعدي لا تكون إلانة الحديد من المعجزات لداود، وإنما هو علم كشفه الله لداود وأسبابه المادية متوفرة لدى الخلق، وفي ظني أنه توجيه بعيد؛ لأن الآية جاءت في سياق فضائل داود عليه السلام، وذكر بعض معجزاته، فقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ:١٠].

كما أن الثناء على فضائل الأنبياء حتمًا ستميز فضيلتهم عن غيرهم من الخلق وعلى مر العصور، ونحن نجد أن الأسباب العلمية لإلانة الحديد قد اشتهرت وعرفت من أزمان بعيدة والآن لا تخفى على أحد، والأسمى لفضيلة داود أن تكون قوة وهبها الله له دون باقي الخلق، وبهذا يكون القول المتجه أنها كانت في حق داود عليه السلام آية، وليس هي من قبيل العلم الذي يمكن اكتسابه، كما أنها يمكن أن تكون فضيلة لداود وامتنان على من بعده من خلق الله في تعلمهم لتلك الصنعة، فهي لداود فضيلة، ولمن سواه امتنان عليهم، والله أعلم.

وذكر القرطبي في هذه الآية فضيلة تعلم الحرف والصنائع، فقال: «في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم»[٢].

ثم قال تعالى عقب الآية السابقة: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ:١١].

فبين الله تعالى أمره لداود بأن يصنع دروعًا سابغات من الحديد الذي ألانه له، و(السابغات) هي: الدروع، وهو قول ابن زيد وقتادة[٣]. و(السرد) قيل هو: مسمار حلق الدروع، وهو قول قتادة[٤]. وقيل: هي الحلق بعينها، وهو قول ابن عباس وابن زيد[٥].

فنسج الدروع، أي: اجعل الحلق والمسامير في نسجك الدروع بأقدار متناسبة[٦].

وكان داود عليه السلام أول من صنع الدروع، فقد أخرج ابن جرير في تفسيره[٧] عن قتادة قال: كانت قبل داود صفائح، وهو أول من صنع هذا الحلق.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٥٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٦٣.
(٣) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٢٣.
(٤) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٢٣.
(٥) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٢٣.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٥٦.
(٧) جامع البيان ١٦/ ٣٢٩.

وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ:١١] هو داخل في تفصيل فن الحرفة، وتلك الصنعة، قال ابن كثير في تفسيره: «هذا إرشاد من الله لنبيه داود عليه السلام، في تعليمه صنعة الدروع»[(١)].

وأما في تحديد المراد بالتقدير في السرد، فقال ابن عطية في المحرر الوجيز: «اختلف المتأولون في أي شيء هو التقدير من أشياء السرد، إذ السرد هو اتباع الشيء بالشيء من جنسه، فقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة، أي: لا تعملها صغيرة فتضعف ولا تقوى الدرع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها من خلالها.

وقال ابن عباس: التقدير الذي أمر به هو المسمار يريد ثقبه حين يشد نتيرها.

وذكر البخاري في مصنفه ذلك، فقال: المعنى لا تدق المسمار فيسلسل، ويروى فيتسلسل، ولا تغلظه فيقصم بالقاف، وبالفاء أيضًا رواية.

وروى قتادة: أن الدروع كانت قبله صفائح فكانت ثقالًا، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة، أي: قدر ما يأخذ من هذين المعنيين بقسطه، أي: لا تقصد الحصانة فتثقل، ولا الخفة وحدها فتزيل المنعة»[(٢)].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير: «وفي معنى الكلام قولان:

أحدهما: عدّل المسمار في الحلقة ولا تصغّره فيقلق، ولا تعظّمه فتنفصم الحلقة، قاله مجاهد.

والثاني: لا تجعل حلقه واسعة فلا تقي صاحبها، قاله قتادة»[(٣)].

وقد نص الله سبحانه وتعالى على تصنيع داود للدروع، فقال جل ذكره: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٠].

فعلم الله داود صنعة الدروع فكان يصنعها أحكم صنعة؛ لتكون وقاية من الحرب، وسبب نجاة من العدو، فالمقصود بـ(اللبوس) هي الدروع[(٤)].

وقال الشنقيطي: «والدليل على أن المراد باللبوس في الآية الدروع أنه أتبعه بقوله: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض؛ لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف، والرمي بالرمح والسهم كما هو معروف»[(٥)].

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٩٨.
(٢) المحرر الوجيز ٧/ ١٦٢.
(٣) زاد المسير ٦/ ٤٣٧.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/ ١٨٩، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٥٨.
(٥) أضواء البيان ٣/ ١٥٦.

داود عليه السلام والفتنة

أولًا: حقيقة الفتنة ودخول الخصمين عليه:

لقد كثر كلام المفسرين في قصة دخول الخصمين على داود عليه السلام وحقيقة ما ظنّه أنه فتنة، وظاهر النص الوارد في القرآن أن فتنته حصلت عند تحاكم المتخاصمين لديه، ثم ظن داود أنه فتن فتاب وعاد إلى ربه وأناب، فغفر له الله ذلك، كما أن الفتنة جاءت في سياق تحاكم الخصمين، وفي ذلك إشارة لعلاقة ما ظنه فتنة بما دار في مجلس الحكم بين الخصمين.

وقد جاء ذكر فتنة داود في موضع واحد من القرآن في سورة ص، وهي سورة مكية[1].

قال فيها تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص:٢١-٢٥].

ولقد جال المفسرون في حقيقة الخصمين، وحقيقة تلك الفتنة، وارتباط الفتنة بتحاكم الخصمين، وأوردوا الكثير من الإسرائيليات في ذلك، منها ما قد يفهم منه البعض القدح في عصمة الأنبياء، فترتب عليه رد تلك الروايات، ومنه ما دون ذلك، ومنهم من رمى ذلك وراء ظهره، ولم يعول على تلك الإسرائيليات قط.

وقبل الخوض في تلك الفتنة والمراد بها أذكر معنى تلك الآيات بشرح إجمالي:

دخل على داود عليه السلام أشخاص أظهروا اختلافهم في قضية، وأظهروا النزاع فيها، وأرادوا أن يتحاكموا لداود، فدخلوا عليه من غير الهيئة المعهودة لديه؛ فتسوروا مكانه الذي كان يمكث فيه ليتعبد ربه، وتسبب دخولهم ذلك بالفزع لداود، فبادروه بتهدئته، وقالوا: لا تخف نحن خصمان، وشرحوا سبب مجيئهم له مباشرة؛ ليسكن روعه، ثم وجهوا لداود -بين يدي خصومتهم- النصيحة بأن يحكم بينهم بالعدل، ولا يسرف، أو يحف في حكمه، وأن يرشدهم إلى الحق والطريق المستقيم.

ثم بينوا له الواقعة، وهو أنه حصل بغي من أحدهما على الآخر، فقد كان لأحدهم تسع وتسعون نعجة، والآخر له واحدة، فطلب

(١) انظر: عدد السور، ابن عبد الكافي ص٣٧٧.

منه صاحب الأكثر أن يتركها له، وغلبه في خطابه معه حتى أدركها أو كاد، فحكم داود بأن صاحب الأكثر قد أخطأ في طلبه، وأن الظلم يقع بين الشركاء إلا من اتقى الله.

وعلم داود أنه قد وقع في فتنة وابتلاء، فاستغفر ربه، ورجع إليه أن يكون قد وقع في زلل أو خطأ، فغفر الله له ذلك، وبين ما له عند ربه من منزلة ومكانة عالية.

وإلى هنا انتهى تفسير الآيات إجماليًا، وراعيت فيه أن يكون موافقًا لجملة الأقوال التي قيلت في فتنة داود، أو في حقيقة الخصمين والنعجة.

وبالنظر في حقيقة هذه القصة نجد أن ثمة مسائل تقوم عليها كحقيقة الخصمين، ومعنى النعجة، وهل للخصومة ارتباط بفتنة داود؟ ثم حقيقة الفتنة الواقعة، فأركان القصة أربعة، وفيها ترابط في معناها، وتداخل مع تفسير القصة، وبين الأقوال تلك من الارتباط والتداخل الشيء الكثير؛ ولتجلية موقف المفسرين في ذلك يمكن جعل مواقف المفسرين في ثلاثة مسالك:

المسلك الأول: هو حمل القصة على ظاهرها، وأن المتخاصمين الذين دخلوا على داود هم من الإنس، وذهب إلى هذا القول النقاش[1]، وابن حزم الظاهري[2]، والفخر الرازي[3]، والسبكي[4]، وأبو حيان الأندلسي[5].

واتفق أصحاب هذا القول على أن المراد بالنعجة هو المعنى الحقيقي للماشية، ورجحه أبو حيان في البحر المحيط، فقال: «والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن، ولا يكنّى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك»[6].

ثم اختلف أصحاب هذا المسلك في حقيقة فتنة داود، فذهبوا فيه إلى أربعة مذاهب، هي:

الأول: أن داود ظنّ أن الداخلين عليه دخلوا لاغتياله.

وإليه ذهب الفخر الرازي في تفسيره[7]، وأبو حيان في البحر المحيط، وقال: «والذي يذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظانًا أنهم يغتالونه؛ إذ كان منفردًا في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم، كما قص الله

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٤٧.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٣٠٥.
(٣) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٨١.
(٤) في كتابه: القول المحمود في تنزيه داود، نقله عنه السيوطي في الإكليل ٣/ ١١٤٠.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٣٧٧.
(٦) المصدر السابق ٧/ ٣٧٦.
(٧) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٨١.

تعالى، وأن داود عليه السلام ظن دخولهم عليه في ذلك الوقت، ومن تلك الجهة إنقاذ من الله له أن يغتالوه، فلم يقع ما كان ظنه، فاستغفر من ذلك الظن، حيث أخلف ولم يكن يقع مظنونه، وخر ساجدًا، أو رجع إلى الله تعالى فغفر له ذلك الظن»[(١)].

الثاني: أنه تعجل في إصدار الحكم بعدما سمع من الأول، ولم يسمع من الطرف الآخر:

ذهب إلى هذا القول أبو عبد الله الحليمي في منهاج الدين[(٢)].

وحكى هذا القول -دون نسبة- ابن عطية في المحرر الوجيز وضعّفه، فقال: «وهذا ضعيف من وجوه؛ لأنه خالف متظاهر الروايات، وأيضًا فقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ معناه: أن ظهر صدقك ببيّنة أو باعتراف، وهذا من بلاغة الحاكم التي ترد المعوج إلى الحق، وتفهمه ما عند القاضي من الفطنة»[(٣)].

ووجه ابن المنير هذا القول في حاشيته على الكشاف[(٤)] بتعليق لطيف قال فيه: «مقصود هذا القائل تنزيه داود عن ذنب يبعثه عليه شهوة النساء، فأخذ الآية على ظاهرها، وصرف الذنب إلى العجلة في نسبة الظلم إلى المدعى عليه؛ لأن الباعث على ذلك في الغالب إنما هو التهاب الغضب وكراهيته أخف مما يكون الباعث عليه الشهوة والهوى، ولعل هذا القائل يؤكد رأيه في الآية بقوله تعالى عقبها وصية لداود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص:٢٦].

فما جرت العناية بتوصيته فيما يتعلق بالأحكام إلا والذي صدر منه أولًا وبان منه من قبيل ما وقع له في الحكم بين الناس».

الثالث: أن داود ظن أن الله امتحنه واختبره في وقت عبادته، هل يترك العبادة ليشتغل بالحكم، أو يترك الحكم ليشتغل بالعبادة، ذكره السبكي[(٥)].

الرابع: لم يكن ثمة ذنب يستوجب الاستغفار؛ بل هم من سمت الأنبياء تلبسهم بهذه الأفعال الكريمة «والاستغفار فعل خير لا ينكر ملك ولا نبي، ولا من مذنب ولا من غير مذنب، وإنما قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص:٢٤].

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٧٧.
وهو قول أبي شهبة في كتابه: الإسرائيليات ص٢٦٩.

(٢) عزاه له القرطبي في تفسيره ١٨/ ١٧٠، ومحققو الكتاب عزوه للمنهاج ٢/ ٥٥١-٥٥٢.

(٣) المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٩.
ومن ضعفه: ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ٥٥، والألوسي في روح المعاني ١٣/ ٢٥١.

(٤) الانتصاف من الكشاف، ابن المنيّر بهامش الكشاف ٤/ ٨٥.

(٥) في كتابه القول المحمود في تنزيه داود، نقله عنه السيوطي في الإكليل ٣/ ١١٤٠.

وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ [ص:٢٥].

فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما أتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة». وهو قول ابن حزم [(١)]، والقاضي عياض [(٢)].

المسلك الثاني: أن القصة ليست حقيقية، وإنما مجرد تمثيل، وعليه فإن الخصمين ملكان[(٣)]، وفتنة داود كانت بسبب امرأة، وأن المراد بكلمة (نعجة) كناية عن المرأة، قال المبرد في الكامل: «العرب تكنّي عن المرأة بالبقرة والنعجة»[(٤)]. ثم جاءت الملائكة لتنبيه داود على ما وقع فيه من زلة.

قال الطبري في تفسيره: «هذا مثلٌ ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه»[(٥)].

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: «ولا خلاف بين أهل التأويل[(٦)] أن هؤلاء الخصم إنما كانوا ملائكة، بعثهم الله تعالى ضرب مثل لداود عليه السلام، فاختصموا إليه في نازلة قد وقع هو في نحوها، فأفتى بفتيا هي واقع عليه في نازلته»[(٧)].

وفي إثبات أنهما ملكان، وأن الفتنة بسبب المرأة، قال الواحدي في البسيط: «وظاهر القرآن يوجب أن يكون داود قد كلّم أوريا في امرأته؛ لأن خصومة الملكين تمثيل لهذه القصة»[(٨)]. وفي نفس الموضع قال: «قال أهل التحقيق من علماء التأويل: جعل الله قصة الملكين تمثيلًا لداود أمره مع أوريا، وسلسلها له على ما فعل ليتوب ويراجع ربه فيستغفر».

وممن ذهب إلى هذا المسلك -على اختلاف توجيهاتهم للقصة-: ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، والسدي، وابن جرير، وأبو جعفر النحاس، والجصاص، والكيا الهراسي، والثعلبي، وابن العربي، والقاضي أبو يعلى، وابن عطية، والواحدي، والزمخشري -كما سيأتي-. والقائلون بهذا المسلك لهم ثلاثة أقوال في توجيه القصة:

الأول: أن داود طلب من زوج المرأة أن

(١) الفصل، ابن حزم ٢/ ٣٠٥ ومابين القوسين من الفصل.
(٢) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٣٧٣.
(٣) عند الواحدي في البسيط ١٩/ ١٧٨ قال ابن عباس: هما جبريل وميكائيل.
(٤) الكامل في اللغة والأدب ١/ ٣٠٧.
وممن اختار أن النعجة بمعنى المرأة في الآية، وإن اختلف تفسيرهم للقصة: الطبري في تفسيره ٢٠/ ٦١، والجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٥٦٠، والثعلبي في الكشف والبيان ٨/ ١٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٧، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ٤٩، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٨١، والواحدي في البسيط ١٩/ ١٨٢.
(٥) جامع البيان ٢٠/ ٥٨.
(٦) مقصود ابن عطية عدم وجود الخلاف عند المتقدمين من الصحابة والتابعين.
(٧) المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٤.
(٨) البسيط ١٩/ ١٨٥.

ينزل له عنها، وبهذا عوتب، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس، أخرجه عنهما ابن جرير في تفسيره[١] أنهما قالا: «ما زاد داود على أن قال: انزل لي عنها».

وقال بهذا القول: النحاس، والجصاص، والكيا الهراسي، والقاضي أبو يعلى، وابن العربي، والزمخشري، وابن عاشور[٢].

قال النحاس: «قول العلماء المتقدمين الذين لا يدفع قولهم، منهم: عبد الله بن مسعود وابن عباس رحمهما الله فإنهم قالوا: «ما زاد داود عليه السلام على أن قال للرجل: انزل عن امرأتك»[٣].

فعاتبه الله جل وعز على هذا، ونبّهه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي، ومن يخطي إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم، ويلحقه فيه الإثم العظيم».

الثاني: منهم من أخذ بكامل القصة، وهي أن داود نظر إلى امرأة وهي تغتسل فأعجب بها، ثم قدّم زوجها في القتال في مظان الموت؛ ليتزوجها بعد موته أو تزوجها، وهو مروي عن ابن عباس، والسدي، والحسن، ووهب بن منبه[٤]، وروي من طريق أنس مرفوعًا[٥] وهو قول الثعلبي في الكشف والبيان[٦]. ولا يعني هذا صحة كل تفاصيل القصة ونسبتها لهم، بل الصحيح أن أصل القصة هو ما يمكن نسبته لهم، وهو القدر المشترك بينهم، مع إمكانية وقوع الخلاف في تفاصيل القصة بمجموع مروياتها، وهذا لا يؤثر على القدر المشترك المتفق عليه في تلك المرويات.

الثالث: أن داود لم يتوجع على قتل زوج المرأة، ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز[٧]. وهو أبعد الأقوال في هذا المسلك.

وجاء النكير من المفسرين على أصحاب هذا المسلك، وكان المنكرون على نوعين، إما ينكر كل قصة نظر داود إلى المرأة، ولم

(١) جامع البيان ٢٠/ ٥٩.
(٢) انظر: إعراب القرآن، النحاس، ٣/ ٤٦١، أحكام القرآن، الجصاص، ٣/ ٥٦٠، أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٣٥٩، أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٥٤، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٨، التحرير والتنوير ٢٣/ ١٣٨.
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٤٦١.
(٤) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره ٢٠/ ٦٤-٧٥، وهو ظاهر قوله فإنه لم يعلق على المرويات، ونسب هذا القول له القاسمي في محاسن التأويل ١٤/ ١٥٦.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٧٤.
(٦) الكشف والبيان ٧/ ١٨٦.
وحكى ابن عطية في المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٥ أن ذلك الفعل كان مجرد همٍّ من داود ولم يفعله، وأن المعاتبة كانت على الهمّ.وهذا مما قد يستدرك على ابن عطية؛ لأن مصدره في أصل القول الذي اختاره ثم استدرك عليه بأنه مجرد همٍّ هو من المرويات الإسرائيلية التي رواها، وليس فيها ما يشير إلى أنه همّ من داود، فهو تحكم في المصدر دافعه تنزيه داود عن فعل ما لا يسوغ في نظر ابن عطية، والله أعلم.
(٧) المحرر الوجيز ٧/ ٣٣٥.

يقبل أن يكون حقيقة الخصمان مثل، وأنهما من الملائكة، وإما أن يثبت أن الموقف تمثيل، ولكنه أنكر نظر داود إلى المرأة وتسببه في مقتل زوجها، فبينهم عموم وخصوص.

فكلهم أنكر أن يكون داود نظر إلى المرأة وافتتن بها، ثم تسبب في قتل زوجها ليتزوجها، والبعض أنكر أن يكون الخصمين ملائكة.

قال أبو حيان: «ذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحًا»[1].

وقال ابن الجوزي: «ذكر جماعة من المفسرين أن داود لما نظر إلى المرأة سأل عنها، وبعث زوجها إلى الغزاة مرة بعد مرة إلى أن قتل، فتزوجها، وروي مثل هذا عن ابن عباس ووهب والحسن في جماعة، وهذا لا يصح من طريق النقل، ولا يجوز من حيث المعنى؛ لأن الأنبياء منزهون عنه». وقال: «فأما ما روي أنه نظر إلى المرأة فهويها، وقدّم زوجها للقتل، فإنه وجه لا يجوز على الأنبياء؛ لأن الأنبياء لا يأتون المعاصي مع العلم بها»[2].

وقال الفخر الرازي: «فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها: أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها، فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبًا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة، والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس، وأشدهم فجورًا لاستنكف منها، والرجل الحشوي الخبيث الذي يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه، وربما لعن من ينسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه.

الثاني: أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين: إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع في زوجته، وكلاهما منكر، وإن أوريا لم يسلم من داود لا في روحه ولا في منكوحه.

والثالث: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة، ووصفه أيضًا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافي

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٧٥.
(٢) زاد المسير ٧/ ١١٥-١١٧.
قال ابن الجوزي هذا القول، وقد سبق أن نقلت عنه قوله: «عن قصة نظر داود إلى المرأة عليه أكثر المفسرين». فإما أن يكون إنكاره لتفاصيل في القصة، أو أنه نقل ذلك عن أكثر المفسرين ولم يختاره.

كونه عليه السلام موصوفًا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح»[1]. انتهى بتصرف طفيف.

وأما من أنكر نظر داود للمرأة، وافتتانه بها، وتسببه في قتل زوجها، ولكنه لم ينكر قصة الملكين، وأنهما تمثلا بحال الخصمين الزمخشري[2]، وابن العربي المالكي[3]، والجصاص[4]، فجاءت في عباراتهم النكير على المرويات الإسرائيلية التي أسهبت في وصف نظر داود للمرأة وافتتانه بها، ولكنهم أثبتوا واختاروا أن الخصمين ملكان، وأنهما جاءا لموعظة داود.

وسلك الألوسي في روح المعاني منهجًا متوسطًا في ذلك دون البيان عما يرجحه، فقد ساق جملة القصص والأقوال التي رويت في قصة فتنة داود، ثم قال عقبها: «وعندي أن ترك الأخبار بالكلية في القصة مما لا يكاد يقبله المنصف، نعم لا يقبل منها ما فيه إخلال بمنصب النبوة، ولا يقبل تأويلًا يندفع معه ذلك، ولا بد من القول بأنه لم يكن منه عليه السلام إلا ترك ما هو الأولى بعلي شأنه، والاستغفار منه، وهو لا يخل بالعصمة»[5].

المسلك الثالث: التوقف في حقيقة القصة، وتفويض علمها إلى الله، وحمل القرآن على ظاهره دون التفصيل في فتنة داود:

وممن ذهب إلى هذا المسلك ابن كثير والسعدي، فقال ابن كثير في تفسيره: «ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا»[6].

وقال السعدي في تفسيره: «وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره؛ فالتعرض له من باب التكلف؛ وإنما الفائدة ما قصّه الله علينا من لطفه به، وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محلّه، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها»[7].

تحليل المسالك الثلاثة والترجيح:

بعد النظر والتأمل فيما سبق إيراده، وبعد سرد ونظم لأقوال المفسرين واختلافاتهم من مؤكد لقصة المرأة ونافٍ لها، ومن مؤكد لارتباط فتنة داود بقصة الخصمين، ومن نفى ذلك، نستخلص النتائج التالية:

أولًا: جميع المفسرين والعلماء يجمعون على عصمة الأنبياء، ومنهم داود عليه السلام

(١) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٧.
(٢) الكشاف ٤/ ٧٨.
(٣) أحكام القرآن ٤/ ٥٤.
(٤) أحكام القرآن ٣/ ٥٦٠.
(٥) روح المعاني ٢٣/ ٢٦٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٦٠.
(٧) تيسير الكريم الرحمن ص٧١١.

من الكبائر، وحكى الإجماع على ذلك ابن العربي[1]، كالزنا مثلًا.

ولذا فلا يصح بحال من الأحوال اتهام داود بفعل الفاحشة مع المرأة، بل هو منزه عن ذلك قطعًا، والمفسرون أجل من أن يرموا نبي الله بفعل فاحشة، كما أنه لم يرد مثل ذلك في كتب التفسير أبدًا، وقد ترفعوا عن روايتها -ولو روتها كتب بني إسرائيل كما ورد في العهد القديم-؛ ولذا فكل من قام بالتشنيع على من روى القصة إنما هو فيما دون فعل الفاحشة.

ثانيًا: انقسم المفسرون إلى فريقين في ضرورة حكاية القصة لفهم الآيات، فمر معنا أن ابن عطية جعل بعض تلك الأخبار جزءًا هامًا يقوم عليه تفسير الآيات، وكذا الألوسي قد اعتبر ترك الأخبار جملة لا يقبله منصف.

وأما الاتجاه الآخر وعلى رأسه ابن كثير فإنه رأى ضرورة إغفالها، وأنها لا تقدم مفيدًا في تفسير القصة، فلا يوجد اتفاق على حكايتها، أو عدم حكايتها بالنظر لجملة عصور المفسرين ككل، ويبقى الحال لاجتهاد المفسر، ويظهر أن حجة من نفى ضرورة حكاية الأخبار أنه يرى فيها قدحًا في العصمة، وليس ذلك على إطلاقه، فإن بعض الروايات قد ترد وبعضها قد يحكى ولا ضير فيه، وليس فيها ما يقدح في عصمة الأنبياء.

وإن كان ينبغي التأكيد على أن العبرة في منهج أصحاب القرون المفضلة في تفسير آيات الكتاب العزيز وهو بمثابة الميزان على العصور التي بعدها.

ثالثًا: مما يحيد بمسار البحث العلمي والبحث عن القول الصحيح استخدام عبارات فيها تشنيع وتقبيح لأفعال لا يرضها أي مسلم أو عاقل؛ لتكون حاجزًا نفسيًا يحول دون مجرد النظر في القول الآخر؛ فضلًا عن إمكانية صوابه.

فمثلًا يقول الفخر الرازي في تفسيره تشنيعًا على القول بقصة داود ونظره للمرأة وموت زوجها: «لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص:٢٥] لائقًا به»[2].

وأي عاقل ستسول له نفسه الظن -مجرد ظن- بأن نبيًّا لله يسعى في الفجور والقتل بغير حق؟! هذا أقرب إلى ما يسمى بالإرهاب الفكري! وكان الأحرى البعد عن استخدام العبارات النارية الصارفة للقارئ عن مرويات السلف، والنظر فيها بعين البحث العلمي لا بعين الحكم المسبق أو الألفاظ الرنانة.

رابعًا: الداعي لاستشناع المروي عن

(١) أحكام القرآن ٤/ ٥١.

(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٨.

الصحابة والتابعين في قصة داود ورده -لدى البعض- إنما هو الدليل العقلي المجرد ورد خبر الآحاد بالقطعيات.

ومن ذلك ما قاله الفخر الرازي في تفسيره: «نقول: إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقيةً صحيحةً، فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئًا من الثواب؛ لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلةً فاسدةً فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها، فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها، فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه، وأن شرح تلك القصة محرم محظور»[1].

وقال الرازي: «فإن قال قائل: إن كثيرًا من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة فكيف الحال فيها؟

فالجواب الحقيقي: أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى»[2].

خامسًا: حكاية نظر داود للمرأة ورغبته في نكاحها إنما رواه أئمة كبار من المفسرين من سلف الأمة، فقول ينسب لابن مسعود، ولابن عباس، والحسن، والسدي، ووهب ابن منبه، لا يصح رميه بأسوأ الأوصاف والألقاب لمجرد استشناع ما جاء في الروايات والاستقباح النفسي لها، بل إن منهج الرد والقبول له طريقه العلمي متى ما سلك أوصل إلى الصواب في منهجية البحث.

وقد يقال: إنّ من أغلظ في رده إنما اعتمد على عدم صحة نسبة تلك الأقوال إليهم، فإننا نقول: إنه لم يبين ضعف تلك الأسانيد، كما أنه قد قبل مروياتهم الأخرى وبذات السند المساق في هذه الروايات، فما وجه الفرق إذن ؟!

كما أن كثيرًا من كتب التفسير روتها لوجود الإذن الصريح من النبي صلى الله عليه وسلم في حكاية مرويات بني إسرائيل، كما أن كبير المفسرين ابن جرير الطبري قد حكى تلك الروايات عنهم، وهو من أئمة هذا الشأن، وكذا القاضي ابن عطية الغرناطي، ولا يغيب عليهما ما ورد في أذهان المتأخرين أو بعض المعاصرين من عدم صحة نسبة تلك الأقوال إليهم، أو احتمال تنقص نبي الله داود بمروياتهم.

وإذا علمنا أن ابن جرير وهو إمام المفسرين في زمانه وابن عطية قد حكوها، فإن العجب لا ينقضي من الباحث الذي يشتد نكيره على من رواها، ويقول: «وقد أعجب

(١) المصدر السابق ٩/ ٣٧٩.
(٢) المصدر السابق ٩/ ٣٨٠.

بعض المفسرين بهذه التفاصيل الإسرائيلية المكذوبة، فسجّلوها في تفاسيرهم، وفسّروا بها آيات القصة، ونسوا أنهم يتحدثون عن نبي رسول كريم، عصمه الله وحفظه، فكان أتقى وأفضل الناس» إلى أن قال: «أما المفسرون والمؤرخون المنهجيون فقد رفضوا تلك الإسرائيليات»[1].

ونلحظ أنه وصف من رفض تلك الإسرائيليات بالمنهجيين، فمن هم أولئك عنده؟ قال: «من هؤلاء ابن كثير وسيد قطب». ولازم قوله أن ابن جرير وابن عطية ليسوا من المفسرين المنهجيين! إن في ذلك مبالغة، وتزهيد للناس في إمام من أئمة هذا العلم، وكثير ممن جاء بعده إنما هم عالة عليه، كما أن له قدم السبق في التحرير والترجيح، وليس في جانب الرواية فقط. كما أن نقده لا يتجاوز أن يكون تشنيعًا بالألفاظ ممن يقدر عليه كل أحد، وإنما الحجة للدليل والبرهان مع حفظ مقام القامات العلمية المتخصصة من ذوي التفسير والتاريخ.

سادسًا: غالب من أنكر وشنع على من قال بقصة نظر داود للمرأة، ورغبته في استشهاد زوجها ليتمكن من تزوجها، انطلقوا من نقاط ثلاث: نظر داود للمرأة، أو استرساله في النظر لها، أو مساهمته في إراقة دم زوجها، أو تتبعه للدنيا وحرصه عليها.

وعند تأمل ذلك وتفنيده نجد أن ما ورد في الروايات ليس فيه قدحًا في عصمة داود، فإن النظر للمرأة كان فجأة، وهو معفو عنه بالإجماع، كما نص عليه ابن العربي[2].

ولا يتصور بنبي الله أن ينظر لها فجأةً وأدام النظر استمتاعًا بها، إن ذلك لا دليل عليه، ولم يقل به أحدٌ من السلف، وليس هو من أخلاق الصالحين فضلًا عن الأنبياء، ولو فرضنا جدلًا أن ذنب داود كان إعادة النظر للمرأة فإن ذلك صغيرة وليس كبيرة، وعصمة الأنبياء في الصغائر فيها خلاف بين أهل العلم؛ ولذا فمن روى رواية فيها إثبات صغيرة لنبي وهو لا يرى بعصمتهم في الصغائر فإن له ذلك من هذا الوجه.

أما موت زوجها فلا نقطع بموته كما لا نقطع بأن داود سعى في هلاكه؛ لأن معتمد من قال به إنما تفاصيل المرويات الإسرائيلية، ولا يمكن الجزم بها، ثم إنه قد يدخل باب التأويل، فإن الزوج كان يقاتل في سبيل الله؛ وذلك مظنة قتله فتقدمه وتأخره في المعركة ليس فيه تحول جذري، بل كل مواطن المعركة مظنة الموت.

أما تتبعه للدنيا -كما قيل في لحاقه بالحمامة- فإنه لا يقدح في داود عليه السلام لو وقع ذلك فعلًا، فإنه كان ملكًا ولم يذمه على ذلك من أحد، بل عدوها منقبةً له بما

(١) القصص القرآني، صلاح الخالدي ٣/ ٤٥٢.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ٥٤.

آتاه الله، وتتبع الدنيا بما لا يلهي عن ذكر الله وطاعته، وبما لا يوقع في المحظور لا يعد ذنبًا فضلًا أن يكون فيه قدحًا في العصمة.

سابعًا: أهم الركائز التي يدور عليها الخلاف هو ارتباط قصة الخصمين بفتنة داود، ومن نفى ذلك الارتباط فإنه قد دفعه لذلك تصوره أن ثمة ارتباطًا بين فتنة داود بقصة المرأة وتفاصيل ما حدث، فسلك طريق النفي لاعتقاده أنه أسلم.

ثامنًا: كل من فسّر فتنة داود بأن له علاقة بالمرأة فإن معتمده على الروايات الإسرائيلية، ولا حرج عليه -ويلزم من روايته لها أنه كان يعتقد أنه ليس ثمة ما يقدح في عصمة نبي الله داود فيما رواه- في رواياتها للإذن النبوي الذي سبق ذكره، وذلك في حالة صحته عنه.

الترجيح:

بالنظر في نص الآيات فحسب فإنه ليس فيها ما يجزم بحقيقة القول في فتنة داود، وبالاعتماد على أصول التفسير فإنه لا يوجد ما يفسر لنا ذلك إلا بالمروي عن الصحابة والتابعين.

وأما ما ورد في الحديث المرفوع الذي أخرجه ابن جرير في تفسيره فإنه ضعيف، وقد ضعّف إسناده ابن كثير في تفسيره، فقال: «ولم يثبت فيها -أي فتنة داود- عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين- لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة»[1].

وكذا ضعفه القاسمي في محاسن التأويل[2].

وتأخير ابن جرير له في إيراده في تفسيره قد يشير إلى تضعيفه له.

وأما ما روي عن الصحابة والتابعين فإنها لا تخرج عن مرويات إسرائيلية في عمومها، لا حرج عليهم في روايتها، قال القاسمي: «وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع -رضي الله عنهم-، فمعوّلهم في ذلك ما ذكر في التوراة من هذا النبأ، أو الثقة بمن حكي عنه، وينبني على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء»[3].

وكما هو مقرر في أصول التفسير من اعتبار تفسير الصحابي والتابعي واعتبارها حجة عند عدم وجود المخالف، فإن ما روي عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهم يجعلنا نطمئن إلى أن فتنة داود عليه السلام كانت في طلبه من زوج المرأة أن يتنازل له عنها، وأن الملكين جاءا له في هيئة رجال لإشعاره بما وقع فيه من فتنة لا توافق مقام الأنبياء العلي.

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٦٠.
(٢) محاسن التأويل ١٤/ ١٥٦.
(٣) المصدر السابق.

وأما تفاصيل القصة فكما أننا لا نجد اتفاقًا عليها في كل المرويات، فإن الجزم بصحة التفاصيل دونه خرط القتاد، ولا يلزم من ذلك القول بنفي أصل القصة، والله تعالى أعلم.

وأما من سلك تجاهل الروايات تلك فلا يضره ما لم يخالف منهجه العلمي المنصوص عليه في تفسيره أو المستقرأ منه، ومن شنّع على المفسرين الذين رووا تلك المرويات فلا يحق له ذلك التشنيع لوجود الإذن النبوي برواية الإسرائيليات دون الجزم بالتصديق أو التكذيب لذاتها، وقد مر ذكر الحديث الذي رواه البخاري، وهذا من الناحية النظرية، وثانيًا من ناحية عملية؛ لأن روايتها جاءت عن بعض الصحابة رضوان الله عنهم.

ثانيًا: الإنابة والاستغفار:

أثنى الله عز وجل على نبيه داود عليه السلام بصفات علية، كالاستغفار والإنابة والأوبة، قال جل وعلا: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤].

وقال عنه أيضًا: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:١٧] ومعنى (أناب)، أي: رجع إلى ربه وتاب[١]، وفي (راكعًا)، أي: خرّ ساجدًا[٢] قال ابن العربي: «لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا: السجود»[٣].

وحكى ابن تيمية الإجماع في ذلك، فقال: «وأما قوله عن داود عليه السلام: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾ [ص:٢٤] لا ريب أنه سجد، كما ثبت بالسنة وإجماع المسلمين أنه سجد لله»[٤].

وأما (أواب) فإنه من الأوبة، والأوبة الرجوع، والأواب: الرّجّاع الذي يرجع إلى التوبة والطاعة[٥].

واختلف قول المفسرين فيها، وكلها ترجع إلى جنس واحد، وهو حسن إقباله على ربه وطاعته له، فذهب مجاهد وابن زيد[٦] إلى أن معنى أواب: هو الرّجاع عن الذنب، وذهب قتادة[٧] إلى أنه المطيع لله كثير الصلاة، وأما السدي[٨] ففسره بالمسبّح، وفسّره الضحاك[٩] بأنه التوّاب.

وكل هذه الأقوال تعود لجنس واحد في معناه كما ذكرت، فيعدّ خلافهم اختلاف تنوع.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٤.
(٢) هو قول ابن جرير في تفسيره ٢٠/ ٦٤ وقيل غير ذلك، فالخلاف موجود كما ذكر ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٤٠.
(٣) أحكام القرآن ٤/ ٥٧.
(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٣/ ١٤٥.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢١٩.
(٦) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٢.
(٧) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٢.
(٨) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٣.
(٩) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٤٤.

واختار ابن كثير قولًا عامًا يجمع ما سبق إيراده من أقوال، فقال في تفسيره: «هو الرجاع إلى الله في جميع أموره وشؤونه»[1].

وجاءت هاتين الآيتين في موضعين، بداية ذكر قصة دخول الخصمين وفي نهايتها، فقبل أن يذكر الله ما ظنه داود من وقع الفتنة له قال قبله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]، وبعد أن ذكر الحادثة قال عقبها: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤]، فكانت النتيجة بعد استغفاره أن الله قال: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص:٢٥]، واسم الإشارة في قوله: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ يحتمل عوده إلى ذلك الذنب، كما فسّره قتادة[2]، وعمّم العبارة البيضاوي فقال: «أي: ما استغفر منه»[3].

ومدار خلافهم مبني على تفسيرهم لأصل فتنة داود، وعليه تنوعت تفاسيرهم لهذه العبارة، وسبق بيان ذلك بتوسع.

فبدأ وختم بذكر فضيلة داود في الاستغفار والإنابة إلى ربه؛ للتأكيد على حسن علاقة داود بربه في حال سرائه وضرائه، وهذا حاله عند وقوع فتنة له.

فما أعظمه من ثناء على داود من ربه بأنه رجاع إلى الحق، ومنيب تائب إلى ربه، وكل ذلك من عناية الله بداود عليه السلام، والتأكيد على منزلته ومكانته عند مولاه؛ ولئلا يظن به أحد الأغرار سوءًا بعد ما حكي من ظنه الفتنة -أيًا كانت تلك الفتنة- فإنها لم تنقص قدره ومنزلته، بل فيها رفعة وسمو له؛ لأنه يعرف طريق ربه، فعندما ظن أنه وقوع في الفتنة تاب وأناب ورجع لربه.

بل جاء التصريح والتأكيد بعلو منزلته؛ لينتفي أي احتمال ولو ضعيف بتدني منزلة داود عليه السلام، فقال تعالى: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾ [ص:٢٥]، فكما أنه استغفر ربه فهنا أثبت ربنا بأنه قبل توبته وغفر له، وأثبت له المنزلة العالية عنده.

قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: «واسم الإشارة في قوله: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ يشير إلى ما دلت عليه خصومة الخصمين من تمثيل ما فعله داود بصورة قضية الخصمين، وهذا من لطائف القرآن؛ إذ طوى القصة التي تمثّل له فيها الخصمان، ثم أشار إلى المطوي باسم الإشارة، وأتبع الله الخبر عن الغفران له بما هو أرفع درجة، وهو أنه من المقربين عند الله، المرضي عنهم، وأنه لم يوقف به عند حد الغفران لا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٧.
ونلاحظ أن قول ابن كثير هذا ينسجم مع ما ذهب إليه في قصة دخول الخصمين على داود، فجعل القول عامًا؛ كونه لم يربطه بفتنة المرأة أو غيره.
(٢) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٧٦، وهو اختيار ابن عطية في المحرر الوجيز ٧/ ٣٤٢.
(٣) أنوار التنزيل ٢/ ٣١٠.

غير»[1].

وهذا حال المؤمنين فضلًا عن صفوة الخلق الأنبياء، فهم يلازمون الاستغفار على كل حين للوصول إلى مراد الرب سبحانه، فداود استغفر ربه، وسجد لله وتاب له، فنال المنزلة العليا، وسينال يوم القيامة المكانة الأعلى التي وعدها إياه ربه.

وختامًا، فإن سوق قصة ابتلاء داود وتعقيبها بذكر استغفاره ورجوعه لربه دليل على فضله ومكانته العليّة عند ربه ومولاه، وما صدر عن داود من افتتان إنما «يستوجب العتاب ولا يقتضي العقاب»[2] فإن قدره محفوظ عند ربه، وفي ذلك العتاب من ألطاف الرحمن لداود ولعباد الله ما فيه من فوائد وحكم لا يتسع لها المقام.

فوائد من قصة داود عليه السلام

إن الله رفع قدر الأنبياء عن بقية خلقه، ومن مزيد اعتنائه بهم أن ابتلاهم بما قدّره عليهم ليرفع شأنهم، قال السعدي: «اعتناء الله بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود»[3].

كما أنه من فوائد ذلك الابتلاء أن يكون للخلق العظة والعبرة من حال الأنبياء؛ وليكون لهم فيهم أسوة حسنة، ومن تلك الفوائد في قصة داود عليه السلام:

١. في قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص:٢٢] إشارةٌ إلى الخوف الجبلي الذي يعتري البشر عند رؤية مكروه، ولا يؤاخذون عليه، ولا يتعارض مع طمأنينته بالنبوة، وثقته بالله، وتوكله عليه، وقد أجاب ابن عاشور[4] عن هذا بثلاثة أجوبة أحسنها ما أشرت إليه. وأما عن سبب الفزع ففيه أقوال؛ منها ما هو بالنظر للزمان، وهو أنهم دخلوا عليه ليلًا في وقت لا يتوقع فيه دخول أحد، أو بالنظر للمكان، وأنهم تسوروا المحراب، ولم يدخلوا من الباب[5].

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٤٠.
(٢) المصدر السابق ٢٣/ ١٣٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧١١.
(٤) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٣٢.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

٢. اجتمع لداود في تلك الخصومة عدة أمور نفسية لم تؤثر عليه سلبًا، فهم دخلوا عليه فجأة، وأصابه الفزع، ووعظوه قبل أن يحكم، ومع هذا اتسع صدر نبي الله لهم، واستمع وحكم بما رآه حقًّا.

٣. استدل المالكية بجواز التقاضي في المسجد بأن داود حكم بينهما في المسجد، قال القرطبي: «وليس في القرآن ما يدل على القضاء في المسجد إلا هذه الآية»[(١)]. ويسلم لهم هذا الاستدلال متى ما ثبت وقوع القصة في المسجد بدليل صحيح.

٤. نأخذ من قوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص:٢٢] فائدتين: الأولى تتعلق بالمحكوم، والثانية بالحاكم، فإن المتخاصمين طلبوا التحاكم إلى داود، وقبل أن يعرضا خصومتهما نصحاه بتلك النصائح، والتي قد يفهم منها ضعيف النفس اتهامًا له وتخوينه، ولكن داود عليه السلام تقبل منهم تلك النصيحة، ولم يزجرهما أو يغلظ عليهما، وهو نبي الله المؤيد بالوحي، فما بالنا بحال البشر ممن ليسوا بأنبياء! وهذا اللائق بمن وجهت له النصيحة، ولو في مجلس القضاء، طالما أنه ظهر من الناصح إرادة الحق، ولم يكن في تلك النصيحة تخوين له بالتصريح أو التلميح، قال السعدي: «عرف أنّ قصدهما -أي المتخاصمين- الحق الواضح الصرف، فلم يشمئز نبي الله داود من وعظهما له ولم يؤنبهما»[(٢)]. كما أن تلك النصيحة لم تصرف داود عن الاستماع للمظلمة، ولم تمنعه النصيحة من الحكم بالحق الصرف، وأيضًا ليس فيها تقليل من مقدار القاضي أو الحكم فلم يكن فيها جفاء، وذلك كونها قبل إصدار الحكم، قال ابن عاشور: «وصدوره -أي النصح- قبل الحكم أقرب إلى معنى التذكير، وأبعد عن الجفاء، فإن وقع بعد الحكم كان أقرب إلى الجفاء»[(٣)]. وفي هذا المعنى سطر الألوسي كلمات تكتب بماء الذهب، فقال: «وفي تحمل داود عليه السلام لذلك منهم دلالة على أنه يليق بالحاكم تحمل نحو ذلك من المتخاصمين لا سيما إذا كان ممن معه الحق، فحال المرء وقت التخاصم لا يخفى، والعجب من حاكم أو محكم أو

(١) المصدر السابق ١٨/ ١٧٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٧١١.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٣٤.

من للخصوم نوع رجوع إليه كالمفتي كيف لا يقتدي بهذا النبي الأواب عليه الصلاة والسلام في ذلك، بل يغضب كل الغضب لأدنى كلمة تصدر ولو فلتة من أحد الخصمين يتوهم منها الحط لقدره، ولو فكّر في نفسه لعلم أنه بالنسبة إلى هذا النبي الأواب لا يعدل -والله العظيم- متك ذباب[1]، اللهم وفقنا لأحسن الأخلاق، واعصمنا من الأغلاط»[2].

نسأل الله أن يلهمنا حسن الأخلاق والأقوال والأعمال، وأن يرزقنا العلم النافع، وأن يغفر لنا الزلل.

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، زكريا عليه السلام، سليمان عليه السلام، عيسى عليه السلام، موسى عليه السلام، الكتب المنزلة

(١) متك الذباب: أنف الذباب، وقيل ذكره. انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٨٥.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٢٤٦.

الدُّعَاءُ

عناصر الموضوع

مفهوم الدعاء	٣١٦
الدعاء في الاستعمال القرآني	٣١٧
الألفاظ ذات الصلة	٣١٩
الحث على الدعاء وبيان منزلته	٣٢١
آداب الدعاء	٣٢٨
أنواع الدعاء	٣٤٣
آثار الدعاء	٣٦١

مفهوم الدعاء

أولًا: المعنى اللغوي:

الدعاء: مصدر الفعل (دعا) ويقال: دعا الرجل دعوًا ودعاءً: ناداه، والاسم: الدعوة، ودعيت فلانًا صحت به واستدعيته، والدعوة المرة الواحدة، والدعاء واحد الأدعية.

والدعاء أن تميل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، تقول: دعوت فلانًا أدعوه دعاءً، أي: ناديته، وطلبت إقباله، يقال: دعوت الله أدعوه دعاءً: ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير، ودعا لفلان: طلب الخير له، ودعا على فلان: طلب له الشر[1].

والحاصل: أن أصل الدعاء: النداء والطلب مطلقًا، مع ملاحظة استعلاء المنادى المطلوب منه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو: سؤال العبد ربه حاجته.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: حقيقة الدعاء: مناداة الله تعالى لما يريد من جلب منفعة، أو دفع مضرة من المضار[2].

وقال الخطابي في معنى الدعاء: «استدعاء العبد ربه عز وجل العناية، واستمداده إياه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود، والكرم إليه»[3].

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

المعنى اللغوي والاصطلاحي متوافقان؛ إذ كل منهما يدلان على النداء والطلب، إلا أن المعنى الاصطلاحي خص هذا النداء بأنه نداء من العبد للرب.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٣٣، لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٢٥٧، تاج العروس، الزبيدي، ١/ ١٣٧.

(٢) انظر: مقدمة الترغيب في الدعاء والحث عليه، عبدالغني المقدسي، ص ٥٤.

(٣) شأن الدعاء، ص ٤.

الدعاء في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (د ع و) في القرآن الكريم (٢٠٧) مرات، يخص موضوع البحث منها(٢٠٥) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٠	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت:٣٣]
الفعل المضارع	١٠٦	﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨]
فعل الأمر (دعائي)	٣٢	﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾ [النحل:١٢٥]
اسم فاعل	٧	﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه:١٠٨]
اسم	٢٠	﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد:١٤]
مصدر	١٠	﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤]

ورد الدعاء في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: القول: ومنه قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] يعني: قولهم في الجنة.

الثاني: العبادة: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١] يعني: أنعبد من دون الله.

الثالث: النداء: ومنه قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠] يعني: فنادى ربه أني مغلوب.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٥٧-٢٦٠.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢١٣-٢١٥.

الرابع: الاستعانة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] **يعني: وليستعن بربه.**

الخامس: السؤال: ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: ٦١] **يعني: سل ربك.**

الألفاظ ذات الصلة

١ الذكر:

الذكر لغة:

الذِّكْر: ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذُّكْر: ما ذكرته بقلبك[١].

الذكر اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «الذِّكْرُ: تارة يقال ويراد به هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلّا أنّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذّكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللّسان. وكلّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ. وكلّ قول يقال له ذكر»[٢].

وقال ابن علان: «أصل وضع الذكر هو ما تعبّدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه»[٣].

الصلة بين الدعاء والذكر:

قال ابن القيم: «إن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاءً لتضمنه الطلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضل الدعاء الحمد لله)، فسمى الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجةً ما»[٤].

٢ الاستغاثة:

الاستغاثة لغة:

مصدر استغاث، وهو مأخوذ من الغوث بمعنى: الإغاثة والنّصرة عند الشّدّة[٥].

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٩٤.
(٢) المفردات ص٣٢٨.
(٣) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ١/ ٣٩٦.
(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٩.
(٥) انظر: لسان العرب ٦/ ٣٣١٢.

الاستغاثة اصطلاحًا:

طلب الغوث في الشدائد والأزمات[1].

الصلة بين الدعاء والاستغاثة:

الدعاء أعم من الاستغاثة؛ إذ الدعاء طلب لدفع الشر وجلب الخير، يعني: فيكون في الشدة وفي الرخاء، أما الاستغاثة فهي طلب لدفع الضر لا لجلب الخير، فلا تكون إلا في الشدة، فكل مستغيث داعٍ وليس العكس.

٣ الاستعاذة:

الاستعاذة لغة:

مصدر استعاذ، وهي من مادة (ع وذ) التي تدلّ على الالتجاء إلى الشيء[2].

الاستعاذة اصطلاحًا:

هي: اللّجوء والاعتصام، وطلب كف الشرّ[3].

الصلة بين الدعاء والاستعاذة:

الدعاء طلب دفع ضرر أو جلب نفع، أما الاستعاذة فهي التحصن بالله واللجوء إليه.

٤ الاستعانة:

الاستعانة لغة:

الاستعانة مصدر استعان، وهي: طلب العون، يقال: استعنته واستعنت به فأعانني[4].

الاستعانة اصطلاحًا:

لا يخرج عن المعنى اللغوي، فالاستعانة: طلب العون.

الصلة بين الدعاء والاستعانة:

الاستعانة طلب للعون، سواءً بالدعاء أو بغيره، والدعاء قد يكون طلبًا لدفع شر، أو جلب خير.

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص١٥٩.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٦٧، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣١٦٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٩٨.

الحث على الدعاء وبيان منزلته

تعددت وتنوعت أساليب الدعاء في القرآن حثًّا عليه، وبيانًا لمنزلته، وهذا ما نستعرضه في النقاط الآتية:

أولًا: صور الدعاء وتراكيبه:

الناظر في الدعاء القرآني يجده قد جاء على أساليب شتى، تجمع بين الخبر والانشاء؛ مما نستعرضه فيما يأتي:

١. الدعاء بفعل الأمر.

كثر الدعاء بأسلوب الأمر (الطلب) حتى إنه جاء أكثر من مائتين وثلاثين مرة، ولم ترد في الدعاء من صيغ الأمر المعروفة سوى ثلاث صيغ:

صيغة (افعل): وهو أكثر الصيغ ورودًا، كقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٤-٨٦].

وفي دعاء المؤمنين ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وقولهم كذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقد ورد في قوله تعالى تعليمًا لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأمته: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

صيغة (فعّل): كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

صيغة (تفعّل): نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

٢. الدعاء بالمصدر النائب عن فعل الأمر.

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٣. الدعاء بأسلوب النهي.

النهي هو «طلب الكف عن الفعل استعلاءً، وله صيغة واحدة وهي لا تفعل، وهو كالأمر في أنه قد يخرج عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية منها (الدعاء) وذلك إذا كان على وجه التذلل والخضوع لله عز وجل»[1].

وقد جاء الدعاء بأسلوب النهي نحو خمس عشرة مرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(١) مختصر السعد التفتازاني ضمن شروح التلخيص ٢/ ٣٢٤.

وقوله أيضًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وقوله كذلك: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥].

وقد يبنى الدعاء على الأمر وحده؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وقد يبنى على النهي وحده، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد يجمع بين الأمر والنهي في مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وليس لذكرهما معًا قاعدة معينة في الترتيب، فقد يذكر الأمر أولًا، ثم يليه النهي، وذلك كالآية الأولى أو العكس، فيبدأ الدعاء بالنهي، ثم يتبعه الدعاء بالأمر.

وقد يكون الدعاء بهاتين الصيغتين متلوًّا بما يقويه ويؤكده؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ فجملة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ جاءت تذييلًا مؤكدًا لمضمون الجملة قبله، ومثله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

وقوله كذلك: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

فجملتا ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ و﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جاءتا تأكيدًا لما قبلها.

٤. الدعاء بأسلوب الاستفهام.

جاء الدعاء بأسلوب الاستفهام في موضعين، والاستفهام في حقيقته يستعمل (لطلب حصول صورة الشيء في الذهن) وقيل: هو «طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل»[(١)].

وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية، تفهم من السياق، من بينها الدعاء[(٢)]؛ ومنه قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

(١) مختصر السعد للقزويني، ومواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص، ابن يعقوب المغربي ٢/ ٢٤٦.

(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، المجمع العلمي العراقي ١/ ١٨١.

أي: لا تهلكنا «فهذا استفهام على سبيل الإدلاء بالحجة في صيغة استعطاف وتذلل»[1]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] أي: أخرجنا.

٥. الدعاء بأسلوب الخبر.

جاء الدعاء بالأسلوب الخبري في تسع آيات؛ ولهذا الأسلوب مزية ذكرها الزركشي رحمه الله حين أشار أن في «لفظ الخبر الحاصل تحقيقًا لثبوته؛ وأنه مما ينبغي أن يكون واقعًا ولابد، وهذا هو المشهور»[2].

وأشار بعض البلاغيين إلى أن الخبر قد يقع موقع الإنشاء «إما للتفاؤل، أو لإظهار الحرص في وقوعه -والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتمل الوجهين- أو للاحتراز عن صورة الأمر»[3].

ونجد أنّ الدعاء بأسلوب الخبر قد التزم الجملة الاسمية للتعبير عن حاجات الداعين ومطالبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فقوله عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ يعدّ دعاءً، وإن لم يكن ذلك ظاهرًا «أي: وإن لم يكن بأسلوبي الدعاء المشهورين: الأمر والنهي»، وإنما جاء بالأسلوب الخبري، والذي دلّ أنه دعاء قوله تعالى بعده: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وكذلك ما جاء في دعاء سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فهو عليه السلام لم يدع الله صراحة، بل عرض حاجته في أدب، وأطلقها على حياءٍ من الله، فعرّض وكنّى عن طلبه -رفع البلاء والضرّ عنه- بالخبر دون الإنشاء، جاءت الآية بعد قوله هذا، فدلّت على أن ما صدر منه هو دعاءٌ وتضرع.

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

ثانيًا: تسمية الدعاء عبادة:

الدعاء هو حقيقة العبادة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٨٩، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٢.
(٢) البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٣٤٩.
(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، لخطيب القزويني ٣/ ٩٣.

﴿كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

والعبادة طلب الثواب بالأعمال الصالحة، كالنطق بالشهادتين، والعمل بمقتضاهما، والصلاة والصيام والزكاة والحج والذبح لله والنذر له، وبعض هذه العبادات تتضمن الدعاء بلسان المقال مع لسان الحال كالصلاة، فمن فعل هذه العبادات وغيرها من أنواع العبادات الفعلية، فقد دعا ربه، وطلبه بلسان الحال أن يغفر له.

والخلاصة أنه يتعبد لله طلبًا لثوابه وخوفًا من عقابه، وهذا النوع لا يصح لغير الله تعالى، ومن صرف شيئًا منه لغير الله فقد كفر كفرًا أكبر مخرجًا من الملة، وعليه يقع قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣][1].

جاء الدعاء بمعنى العبادة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

«أي: اعبدوني بدليل ما بعده (عبادتي) وكذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [غافر: ١٤]، أي: (اعبدوا)»[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، أي: عبادتكم[3].

قال تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤]، أي: نعبد[4].

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: (الدّعاء هو العبادة) وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠][5].

قوله: (الدّعاء هو العبادة): أتى بضمير

(١) انظر: فتح المجيد، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ص١٨٠.

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية ١/ ٤١٣.

(٣) معجم ألفاظ القرآن ١/ ٤١٤.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٢٤.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، ٢/ ٧٦، رقم ١٤٧٩، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، ٥/ ٦١، رقم ٢٩٦٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، ٢/ ١٢٥٨، رقم ٣٨٢٨.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٤١، رقم ٣٤٠٧.

الفصل والخبر المعرّف باللام ليدل على الحصر في أن العبادة ليست غير الدعاء مبالغةً.

ومعناه أن الدعاء معظم العبادة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (الحج عرفة)[1]، أي: معظم أركان الحج الوقوف بعرفة.

أو المعنى: أن الدعاء هو العبادة، سواءً استجيب أو لم يستجب؛ لأنه إظهار العبد العجز والاحتياج من نفسه والاعتراف بأن الله تعالى قادر على إجابته.

ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قيل: استدل بالآية على أن الدعاء عبادة؛ لأنه مأمور به، والمأمور به عبادة.

واستشهد بالآية لدلالتها على أن المقصود يترتب عليه ترتب الجزاء على الشرط، والمسبب على السبب، ويكون أتم العبادات، ويقرب من هذا قوله: (مخ العبادة)، أي: خالصها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أي: عن دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين ذليلين.

قال الطيبي: «معنى حديث النعمان أن تحمل العبادة على المعنى اللغوي؛ إذ الدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار والاستكانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ حيث عبر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار، ووضع عبادتي موضع دعائي، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصغار والهوان»[2].

قال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

أي: ادعوا الله وحده، مخلصين له العبادة التي أمركم بها، ولا تلتفتوا إلى كراهة الكفار، ودعوهم يموتوا بغيظهم، ويهلكوا بحسرتهم[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف: ١٩٧].

أي: تعبدونهم أو تدعونهم من دونه عز وجل للاستعانة بهم، لا يستطيعون نصركم في أمر من الأمور[4].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[مريم: ٤٨].

أي: أعتزل ما تعبدون من دون الله، وأعبد ربي، عسى أن لا أشقى بدعائه وعبادته، كما

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، ٢/ ٢٢٩، رقم ٨٨٩، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، ٢/ ١٠٠٣، رقم ٣٠١٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٠٦، رقم ٣١٧٢.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن ٦/ ١٧٠٨.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٩٠.

(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٤٦.

تشقون أنتم بعبادة الأصنام[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

«أي: لا أحد أضل منه، ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع فكيف يطمع في الإجابة فضلًا عن جلب نفع، أو دفع ضر؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين، وأضل الضالين والاستفهام للتقريع والتوبيخ»[2].

والمتأمل في حقيقة الدعاء يجد فيه تذكيرًا بأصول العقيدة، وتجديدًا للوعي بها؛ قال ابن عقيل: «قد ندب الله تعالى إلى الدعاء، وفي ذلك معان:

أحدها: الوجود، فإن ما ليس بموجود لا يدعى.

الثاني: الغنى، فإن الفقير لا يدعى.

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يدعى»[3].

ثالثًا: الوعد باستجابة دعاء الداعين:

من شروط قبول الدعاء الثقة بالله تعالى، واليقين بالإجابة[4]: فهو سبحانه على كل شيء قدير؛ إذ يقول للشيء كن فيكون، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ومما يزيد ثقة المسلم بربه تعالى أن يعلم أن جميع خزائن الخيرات والبركات عند الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

والله عز وجل رغب عباده في الدعاء، ووعدهم لبالغ رأفته ورحمته بهم وكرمه السابغ معهم بالإجابة.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومع الثقة في الإجابة يكون الإلحاح على الله عز وجل في الدعاء، فلا استعجال في تحقق المراد، ولا استبطاء لوقوعه؛ مما يبلور توكلًا صادقًا على الله، ويقينًا راسخًا

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٣٥.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٠.
(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص٤٥٨.
(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٤٠٧.

بقدرته ورحمته بعباده.

إنّ من علامة التذلّل والافتقار إلى الله عز وجل في الدعاء: الإلحاح فيه والتكرار؛ فعن أبي الدرداء وابن عباس رضي الله عنهما أنّهما كانا يقولان: اسم الله الأكبر: ربّ، وعن عطاء قال: ما قال عبد: يا ربّ ثلاث مرات إلا نظر الله إليه، فذكر ذلك للحسن فقال: أما تقرؤون القرآن؟!

ثم تلا قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران ١٩١-١٩٥][1].

ونجد هذا الإلحاح والتكرار في دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

(١) المصدر السابق ١/ ٩٢.

آداب الدعاء

للدعاء آداب سوف نعرضها في النقاط الآتية:

أولًا: الدعاء بأسماء الله الحسنى:

من أعظم الثناء على الله عز وجل الدعاء بالأسماء الحسنى، والتوسل بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠-١٨١].

ومن دواعي الإجابة تحري الأدعية التي اشتملت على اسم الله الأعظم؛ فعن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وفاتحة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢])[1].

ويستحضر الداعون حين يرفعون أكفهم بالدعاء عبوديتهم الخاضعة لله وحده، وتتجدد في وعيهم أبعاد وحدانية خالقهم المعطي سبحانه الذي يتوجهون إليه، وهم ينشدون تحقيق ما يرغبونه من جلب نفع، أو كشف ضر، أو طلب حاجة.

وقد أفاضت آيات من القرآن في بيان ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١١-

(١) أخرجه أبو داود في سننه، تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، ٢/ ٨٠، رقم ١٤٩٦، والترمذي في أبواب الدعوات، ٥/ ٣٩٤، رقم ٣٤٧٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، ٢/ ١٢٦٧، رقم ٣٨٥٥.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٢٩، رقم ٩٨٠.

١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

وقال عز وجل: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ۖ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦].

وكل من استغاث بغير الله، أو دعا غير الله دعاء عبادة أو دعاء مسألة فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك مرتد، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم

﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

على من يتوجّه إلى ربه عز وجل بعد شعوره بضعفه، وحاجته الماسة إلى ملك الملوك، ومن بيديه خزائن السموات والأرض أن يحمد ربه ويثني عليه، ويمجّده بما هو أهله، ويجعل ذلك وسيلته إلى رضا ربّه وقبول دعائه، يظهر ذلك في أدعية القرآن الكريم؛ فسورة الفاتحة التي هي أم الكتاب، والجامعة لمقاصده بدأت بحمد الله، وأثنت عليه ومجّدته سبحانه وتعالى، ثم ذكرت الاعتراف بعبوديّته، والاستعانة به وحده، وشرعت بعد ذلك في أعظم دعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

«ولمّا كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلّ المطالب، ونيله أشرف المواهب، علّم الله عباده كيفيّة سؤاله، وأمرهم أن يقدّموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديّتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسّل إليهم بأسمائه وصفاته، وتوسّل إليه بعبوديّته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يردّ معهما الدعاء»[1].

ومن أدعية القرآن المبدوءة بتمجيد الله تعالى:

- دعاء يونس عليه السلام: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].
- دعاء يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].
- ودعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

ثانيًا: الإخلاص في الدعاء:

الإخلاص: هو تصفية الدعاء من كل ما يشوبه، وصرف ذلك كله لله وحده، لا شرك فيه، وإنما يرجو العبد ثواب الله وينشد تحقيق آماله من الله وحده مخلصًا له سبحانه في عبوديته له.

وقد أمر الله تعالى بالإخلاص في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٣.

﴿نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ويرتبط التوحيد بالإخلاص في الدعاء، قال عز وجل: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

والعمل الصالح هو ما كان موافقًا لشرع الله تعالى، ويراد به وجه الله سبحانه، فلابد أن يكون الدعاء والعمل خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)].

ولهذا قال الفضيل بن عياض في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

قال: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»[(٢)]، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

فإسلام الوجه: إخلاص القصد والدعاء والعمل لله وحده، والإحسان فيه: متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته[(٣)]، فيجب على المسلم أن يكون متبعًا للنبي صلى الله عليه وسلم في كل أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٠٩.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٨٩.

(٣) انظر: المصدر السابق ٢/ ٩٠.

﴿تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقد يتوسل العبد إلى الله تعالى بأنواع التوسل المشروعة؛ قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه[1].

وأنواع التوسل المشروع ثلاثة:

١. التوسل في الدعاء باسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفاته، كأن يقول الداعي في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم، اللطيف الخبير أن تعافيني، أو يقول: أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ومن دعاء سليمان عليه السلام ما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

٢. التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي نفسه، ويدل على مشروعية ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران ٥٣].

٣. التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الحي الحاضر، وهو أن يطلب المسلم المفرّط والمقصر في دين الله من رجل صالح تقي أن يدعو له ربه فيفرج عنه كربه.

ثالثًا: الدعاء رغبًا ورهبًا:

مدح الله تعالى عبده زكريا عليه السلام وأهله بتذلّلهم عند دعائهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ذكر الحافظ ابن كثير بسنده عن عبدالله ابن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال: أمّا بعد، فإنّي أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٣.

بالمسألة، فإنّ الله أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠][1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ذكر الإمام القرطبي: «قيل: الرغب: رفع بطون الأكف إلى السماء، والرهب: رفع ظهورها»[2].

ومتى كان الدعاء رغبًا ورهبًا فلا يقع من العبد شيء من الاستعجال أو ترك الدعاء: فالعبد لا يستعجل في عدم إجابة الدعاء؛ لأن الله قد يؤخر الإجابة لأسباب: إما لعدم القيام بالشروط، أو الوقوع في الموانع، أو لأسباب أخرى تكون في صالح العبد وهو لا يدري، فعلى العبد إذا لم يستجب دعاؤه أن يراجع نفسه، ويتوب إلى الله تعالى من جميع المعاصي، ويبشر بالخير العاجل والآجل، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

الخشوع واستحضار القلب عند الدعاء:

يشترط في الدعاء الضراعة وحضور القلب، وإظهار الخشوع لله عز وجل، ويرتبط الخشوع وحضور القلب بالإقبال على الدعاء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

والمراد بالخشوع والخضوع وحضور القلب أن يقصد بدعائه الخضوع والتذلّل لعظمة ربّه، كما هو وصف العبد اللازم له، ولا يكون الدعاء بلسانه والغفلة بجنانه، فيكون مانعًا له من مراده.

إنّ الخشوع والخضوع أرجى لقبول الدعاء؛ لأنّ فيه تعظيم الله تعالى، واستحضار الضعف مع التأدّب عند مناجاة الربّ.

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥- ٥٦].

وهذا أمر بالدعاء وتعبّد به، ثم قرن جلّ وعزّ بالأمر صفات تحسن معه، وهي: الخشوع والاستكانة والتضرّع، أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقّب وتخوّف وتأمّل لله عز وجل حتّى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما هلك

(١) المصدر السابق ٣/ ١٨٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٣٦.

الإنسان، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

فرجّى وخوّف، فيدعوه الإنسان خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠][1].

وقد ذمّ الله الذين لا يتضرعون إليه، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:٧٦].

وقال الله عز وجل: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

وقال عز وجل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

مع هذا كلّه يجب أن يكون الداعي حاضر القلب، روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيّها النّاس فاسألوه، وأنتم موقنون بالإجابة، فإنّ الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل)[2].

وقد أمر الله تعالى بحضور القلب، والخشوع في الذكر والدعاء، فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يتضرّع عند الدعاء حتى يكاد يسقط رداؤه، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لمّا كان يوم بدرٍ نظر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابه ثلاث مائةٍ وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبيّ اللّه صلى الله عليه وسلم القبلة، ثمّ مدّ يديه، فجعل يهتف بربّه: (اللّهمّ أنجز لي ما وعدتني، اللّهمّ آت ما وعدتني، اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) فما زال يهتف بربّه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكرٍ فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثمّ التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ اللّه كفاك مناشدتك ربّك، فإنّه سينجز لك ما وعدك، فأنزل اللّه عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. فأمدّه اللّه بالملائكة[3].

(١) انظر: المصدر السابق ٧/ ٢٢٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٣٦.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلّف عنه أثره، إمّا لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله؛ لما فيه من العدوان، وإمّا لضعف القلب، وعدم إقباله على الله، وجمعيته عليه وقت الدعاء، وإمّا لحصول المانع من الإجابة، من أكل الحرام، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها»[1].

فلابد للمسلم في دعائه من أن يحضر قلبه مع الله عز وجل، ونعني به أن يفرّغ الدّاعي قلبه عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونًا بهما، ولا يكون الفكر جائلًا في غيرهما، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه، ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء، فقد حصل حضور القلب، وهذا أعظم شروط قبول الدعاء[2].

رابعًا: تحري أوقات ومواطن الإجابة:

من الأسباب الداعية الى استحضار القلب تحري الأحوال المختصة بالإجابة؛ فإجابة الدعاء علم قد اختص الله تعالى به، لا شأن للعبد فيه، فمن تأمل نصوص الكتاب الكريم يلاحظ أنّ الأوقات ليست كلّها سواء، فمنها ما تفتح فيها أبواب السماء، ولا يحجب فيها الدعاء، ومنها ما تستنزل فيها الرحمة أكثر من غيرها، وفيما يلي ذكر لبعض هذه الأوقات والأحوال، والأماكن التي ترجى فيها الإجابة:

- **جوف الليل ووقت السّحر.**

وقد مدح الله المستغفرين بالأسحار، فقال عز وجل: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: هم المؤمنون، وبلغنا أن نبي الله يعقوب حين سألوه أن يستغفر لهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٧-٩٨].

قال بعض أهل العلم: إنه أخّر الاستغفار إلى السحر، وهي الساعة التي تفتح فيها أبواب السماء، قال ابن زيد: السحر هو السدس الأخير من الليل[3].

- **يوم الجمعة.**

وقت اجتماع الهمم، وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ

الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ٣/ ١٣٨٣-١٧٦٣.

(١) انظر: الجواب الكافي، ص٨-٩.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ١٦١، جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٤٠٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٥٥.

﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩-١٠].

❁ رمضان.

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥-١٨٦].

فقد ذكر سبحانه إجابة الدعاء عقب ذكره فريضة الصيام، وقال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم)[(١)].

❁ ليلة القدر.

وهي أكثر الليالي أهمية في استجابة الدعاء، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)[(٢)]، فعلى المؤمن أن يتحرى هذه الليلة، ويحييها بالصلاة والدعاء.

❁ حال السجود.

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء)[(٣)].

❁ الحرم المكي.

ويظهر ذلك فيما ورد عن بعض الصحابة

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في العفو والعافية، ٥/ ٤٧٠، رقم ٣٥٩٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته، ١/ ٥٥٧، رقم ١٧٥٢.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن».
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٣٨٣، رقم ٢٥٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٤١٦، رقم ٣٥١٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، ٢/ ١٢٦٥، رقم ٣٨٥٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، ١/ ٦٤٦، رقم ٢٠٩١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٠- ٤٨٢.

رضوان الله عليهم؛ فعن حبيب بن صهبان قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف بالبيت وهو يقول بين الباب والركن أو بين المقام والباب: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١][1].

❁ المساجد.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وأما قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معناه: وجّهوا وجوهكم حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة، وقال آخرون: بل عنى بذلك: واجعلوا سجودكم لله خالصًا، دون ما سواه من الآلهة والأنداد، قال أبو جعفر: وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية أن القوم أمروا أن يتوجهوا بصلاتهم إلى ربهم لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام، وأن يجعلوا دعاءهم لله خالصًا، لا مكاءًا ولا تصدية[2].

وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

وفي هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعية طيبة مرتبطة بالمسجد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهمّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهمّ إني أسألك من فضلك)[3].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال: (بسم الله والسّلام على رسول الله، اللّهمّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج قال: بسم الله، والسّلام على رسول الله، اللّهمّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك)[4].

خامسًا: الدعاء وقت الشدة والضرورة:

لابدّ للداعي أن يتوجه إلى الله تعالى توجّه المضطر الذي لا يرجو غيره، وأن

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب دخول مكة، باب القول في الطواف، ٥/ ١٣٧، رقم ٩٢٩١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٨٠-٣٨١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما يقول إذا دخل المسجد، ١/ ٤٩٤، رقم٧١٣.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٤/ ١٥، رقم ٢٦٤١٧، وابن ماجه في سننه، كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، ١/ ٢٥٣، رقم ٧٧١ .
وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ١/ ٢٣٧، رقم ٦٣٢.

يرجع في كلّ حوائجه إلى ربه، ولا ينزلها بغيره من الأسباب التي لا تملك ضرًا ولا نفعًا، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: ٥٦].

فإذا لجأ الداعي إلى ربه بقلب سليم، وكان دعاؤه حقيقيًا صادقًا جادًا، تحقق الانقطاع الصادق بالاضطرار الحقيقي إلى الله تعالى الذي هو شرط في قبول الدعاء، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وهكذا قال ها هنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه[(١)].

المضطر المكروب هو ذو الضرورة المجهود الذي أحوجه مرض أو شدة، أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى واللجإ إليه تعالى من الاضطرار، وقال السدي: «الذي لا حول له ولا قوّة، وقيل: المذنب إذا استغفر، وهو إفتعال من الضرورة، واللام فيه للجنس، لا للاستغراق، فلا يلزم منه إجابة كل مضطر، ويكشف السّوء الضر، ويدفع عن الإنسان ما يسوءه»[(٢)].

وقد ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه؛ فأما قوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما دفع إليه من فقر إلى غنى، ومرض إلى صحة، وضيق إلى سعة إلا القادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا ينازع[(٣)].

والسبب في ذلك أنّ الضرورة إليه بالالتجاء تنشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عمّا سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٢٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٦٥، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٦٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٦٥.

[يونس: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

أجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه[(١)].

فمن اعتقد أن لله شريكًا لم يحصل له الاضطرار؛ لأنه يقول: إن كان هذا المعبود لا ينصرني فذاك الآخر ينصرني، وإن لم يحصل في قلبه الاضطرار لم تحصل الإجابة ولا النصرة[(٢)].

والحق أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم، في أمور دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

«يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الناس أنتم أولو الحاجة والفقر إلى ربكم فإياه فاعبدوا، وفي رضاه فسارعوا، يغنكم من فقركم، وتنجح لديه حوائجكم ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن عبادتكم إياه وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء؛ منكم ومن غيركم، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ يعني: المحمود على نعمه؛ فإن كل نعمة بكم وبغيركم فمنه، فله الحمد والشكر بكل حال»[(٣)].

قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه، ولا اتكال إلا عليه، وهذا يوجب عبادته؛ لكونه مفتقرًا إليه، وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره[(٤)].

وهذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئًا من ذلك كله، وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق، فإنه يحرمها في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته خطاياه في الآخرة[(٥)].

والعبد يسأل ربه كل شيء يحتاجه في أمر دينه ودنياه؛ لأن الخزائن كلها بيده سبحانه وتعالى، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

أي: وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزائن مثلًا لاقتداره أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة، التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد، وما ننزّله من بقاع القدرة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٢٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٨٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥٤.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٣٠.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٧.

إلّا بقدرٍ معلومٍ حده الحكمة وتعلقت به المشيئة، فإن تخصيص بعضها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتملًا على بعض الصفات والحالات لابد له من مخصص حكيم[1].

سادسًا: خفض الصوت في الدعاء:

من آداب الدعاء خفض الصوت، وجعله بين المخافتة والجهر؛ لقوله عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانوا يجهرون بالدعاء، فلما نزلت هذه الآية أمروا أن لا يجهروا ولا يخافتوا، وتأويل الكلام -كما ذكر الطبري-: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى، ولا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك ودعائك فيها ربك ومسألتك إياه، وذكرك فيها، فيؤذيك بجهرك بذلك المشركون، ولا تخافت بها، فلا يسمعها أصحابك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[2].

و«المراد بالصلاة: الدعاء، وهذا قول عائشة رضي الله عنها، وأبي هريرة، ومجاهد، وروي هذا مرفوعًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية: إنما ذلك في الدعاء والمسألة، لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك، فتعيّر بها، فالجهر بالدعاء منهي عنه، والمبالغة في الإسرار غير جائزة، والمستحب من ذلك التوسّط وهو أن يسمع نفسه»، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لم يخافت من أسمع أذنيه».

وروي عن الإمام مالك أنه قال: «إنما أنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ في الدعاء»[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، المراد منه: أن يقع ذلك الذكر بحيث يكون متوسطًا بين الجهر والمخافتة، كما قال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وتفسير قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، المعنى: أن يذكر ربه على وجه يسمع نفسه، فإن المراد حصول الذكر اللساني، والذكر اللساني إذا كان بحيث يسمع نفسه فإنه يتأثر الخيال من ذلك الذكر، وتأثر الخيال يوجب قوة في الذكر القلبي الروحاني، ولا يزال يتقوى

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٠٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٨١- ٥٨٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٧٢.

كل واحد من هذه الأركان الثلاثة، وتنعكس أنوار هذه الأذكار من بعضها إلى بعض، وتصير هذه الانعكاسات سببًا لمزيد القوة والجلاء والانكشاف والترقي من حضيض ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار مدبر النور والظلام[1].

كما أنّ الدعاء مع هذه الهيئة يكون كما قال الله تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ لأنّ ذلك يكون أبعد من الرياء؛ ذلك أنّ الشريعة مقرّرة أنّ السر فيما يعترض من أعمال البر أعظم أجرًا من الجهر، قال الحسن بن أبي الحسن: لقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سرًا فيكون جهرًا أبدًا[2].

ويبيّن العلامة ابن القيم فوائد لإخفاء الدعاء، فيقول:

أولها: أنّه أعظم إيمانًا؛ لأنّ صاحبه يعلم أنّ الله يسمع دعاءه الخفي.

ثانيها: أنّه أعظم في الأدب والتعظيم؛ ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الصوت، وإنّما تخفض عندهم الأصوات، ويخفت عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذًا ربنا يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بين يديه إلا خفض الصوت.

ثالثها: أنه -يعني الإخفاء- أبلغ في التضرّع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإنّ الخاشع الذليل الخاضع إنّما يسأل مسألة ذليل قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعه القلب على الله في الدعاء، فإنّ رفع الصوت يفرّقه ويشتّته، فكلّما خفض صوته كان أبلغ في حمده، وتجريد همته، وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

سادسها: أنه دالٌّ على قرب صاحبه من الله، وأنّه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنّه يكلّ لسانه وتضعف بعض قواه[3].

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قومًا يرفعون أصواتهم بالدعاء أنكر عليهم قائلًا: (أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا)[4].

(١) المصدر السابق ١٥/ ٤٤٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٢٣-٢٢٤.
(٣) التفسير القيم، ابن القيم ص٨٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/ ١٣٣، رقم ٤٢٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر

سابعًا: عدم الاعتداء في الدعاء:

ومن آداب الدعاء عدم الاعتداء فيه؛ فالاعتداء فيه من أسباب موانع إجابته، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقد فسّر الاعتداء -في معنى الآية- بتكلف السجع في عبارات الدعاء، أو التفصيل فيه بتكلف[(١)].

وكذلك فسّر برفع الصوت به؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما لعكرمة رحمه الله: «فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك»[(٢)]. يعني: لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب.

والتعجل من صور الاعتداء في الدعاء، والإنسان خلقه الله تعالى وأوجد فيه غرائز وفطر فيكون أحيانًا في غاية السرور والفرح من نفسه أو من أحد أقاربه وأصدقائه، وقد يتغيّر الحال تمامًا فيصير القريب عدوًا، والعدو صديقًا، بل قد يدعو الإنسان أحيانًا على نفسه وولده، ثم يندم بعد قليل، فلو استجيبت الدعوة لدام حزن هذا الإنسان إلى الأبد، قال عز وجل: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ﴾ [يونس: ١١].

قال أبو جعفر: «يقول -تعالى ذكره-: ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر، وذلك فيما عليهم مضرة في نفس أو مال ﴿ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾، يقول: كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ﴾، يقول: لهلكوا، وعجّل لهم الموت، وهو الأجل»[(٣)].

والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، ٤/ ٢٠٧٦، رقم ٢٧٠٤.

(١) الأذكار، النووي ص٤٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ما يكره من السجع في الدعاء، ٨/ ٧٤، رقم٦٣٣٧.

(٣) جامع البيان ١٥/ ٣٣.

أنواع الدعاء

ينقسم الدعاء في القرآن إلى دعاء ممدوح ودعاء مذموم، وسوف نعرضها في النقاط الآتية:

أولًا: الدعاء الممدوح:

إن أعظم الأدعية الممدوحة هي تلك التي أثرت عن الأنبياء عليه السلام.

وقدسجّلت آيات القرآن الكريم كثرة من أدعية الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، والنظر فيها يعلّم المسلم كثيرًا من آداب الدعاء، ويهبه كثيرًا من أوجه الخير؛ إذ يعرف كيف يدعو، وبم يدعو، ويتجدد وعيه بسير الأنبياء والمرسلين ممن يؤمن المسلم بهم، وهم لديه في مقام القدوة والاحتذاء.

وقد اهتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم من عباد الله الصالحين بالدعاء، فاستجاب الله دعاءهم، وهذا كثير في القرآن ومن أمثلته:

- آدم عليه السلام.

ذكر القرآن الكريم ما كان من وسوسة الشيطان لآدم عليه السلام: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

وما ترتب على ذلك من ندمه عليه السلام وزوجه؛ آنئذٍ اتجها إلى الله في ذل وانكسار واعتراف بالذنب؛ مما يسجّله قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وذلك عندما «قال آدم: أي ربّ أرأيت إن تبت واستغفرت؟! قال: إذًا أدخلك الجنة، فقالا قولهما السابق، وهي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه»[(١)].

وكانت الاستجابة للدعاء والاستغفار؛ فغفر الله لهما، كما قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ثم أكرمه الله بالاصطفاء، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وخصّه بالاجتباء، فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

- نوح عليه السلام.

فقد سجّل القرآن ما كان من حرص نوح عليه السلام على دعوة قومه ليلًا ونهارًا، لكن ذلك كله لم يغيّر من إعراضهم وصدهم شيئًا، بل استمروا في كفرهم حينها انقطعت الحجة، واستحقوا العذاب، فدعا عليهم عليه السلام بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٠٦.

مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٨].

وسبب الدعاء عليهم هو إضلالهم لعباد الله سبحانه وتعالى، وأنه لن يخرج من أصلابهم إلا الكفار، ولا شك أن هذا من علم الغيب، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع عليه نوحًا بما أوحى إليه، قال الطبري: «قال قتادة: أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]. فعند ذلك دعا عليهم نبي الله نوح»[(١)].

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي: «لما استنفذ الله سبحانه وتعالى من في الأصلاب والأرحام من المؤمنين، أوحى الله إليه»[(٢)].

وقال السعدي: «وإنما قال نوح ذلك لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم علم بذلك نتيجة أعمالهم؛ فلهذا استجاب الله دعوته، فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين»[(٣)].

وقد استجاب الله عز وجل دعاء نوح عليه السلام على قومه فأغرقهم بالطوفان، وأنجاه ومن آمنوا معه؛ قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٩-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦].

وقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

❁ إبراهيم عليه السلام.

وكان خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام معروفًا بالدعاء والمناجاة؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

إنه كان يكثر من الدعاء[(٤)].

قال الله تعالى عن دعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝٨٤ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٥].

فاستجاب الله له؛ قال تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

(١) جامع البيان ٢٩/ ١٠١.
(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٢٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٤٩.

وقال في قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وكانت الاستجابة لدعائه عليه السلام الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ مذكورةً في قوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٨-٨٠].

وقد أشرك ولده إسماعيل في الدعاء كما أشركه في البناء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

وقوله تعالى كذلك: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقوله أيضًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٥].

ويدل دعاؤه لأبيه رغم كفره وإعراضه على شفقته وعطفه، قال تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وذلك لأنه قد وعده بالاستغفار له، كما جاء في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

❁ هود عليه السلام.

وقد تضرع هود عليه السلام لربه حين كذّبه قومه، وخالفوه وتنقصوه قائلًا: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩].

❁ لوط عليه السلام.

أما لوط عليه السلام فأخذ يدعو قومه، ولكنهم لم يجيبوا داعي الله، وهمّوا بإخراجه قال تعالى على لسانهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

«فلما طال تماديهم في غيّهم ولم ينزجروا دعا عليهم لوطٌ، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]»[1].

❁ يعقوب عليه السلام.

وقد اشتد البلاء بيعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وقال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وقد ناجى يعقوب عليه السلام ربه شاكيًا إليه بثه وحزنه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٦/ ٥٦.

أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٣-٨٧].

ثم استجاب الله دعاءه، ورد عليه يوسف وأخاه، قال الله: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٠-٩٦].

❁ يوسف عليه السلام.

ودعا يوسف عليه السلام ربه حين استشعر وطأة البلاء: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٢-٣٤].

ويطلعنا دعاء المرسلين على ما كان من جهدهم المبذول في تبليغ الرسالة لأقوامهم، والاجتهاد في هدايتهم؛ فكان في تدبر الآيات التي تعلقت بدعائهم عليهم السلام ما يذكّر بسيرتهم، ويخوّف من مغبة الإعراض عن الصراط المستقيم.

❁ موسى عليه السلام.

وقد دعا موسى عليه السلام ربه طالبًا عونه للقيام بمهمة التبليغ على أكمل وجه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥-٣٢].

وقد استجاب الله له ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

وبعد أن وجد من الإعراض والعناد ما وجد دعا على فرعون وقومه، قال الله تعالى

عن موسى وهارون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

هذا دعاء عليهم بهلاك الأموال، أو جعلها غير منتفع بها؛ لأنهم جعلوا تلك الأموال في سبيل الإضلال، فيضلّون ويضلّون، وكذلك دعا عليهم بقساوة القلوب جزاء جحدها للحق، وإعراضها عن الدعوة[(١)].

وقد استجاب الله لهما ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

❁ يونس عليه السلام.

وهناك دعوة يونس عليه السلام التي ورد ذكرها في القرآن مقرونًا بذكر الاستجابة لها.

قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

إذ ذهب مغاضبًا لقومه لما تبرم بطول دعوتهم، وشدة شكيمتهم، وتمادي إصرارهم مهاجرًا عنهم، قبل أن يؤمر، وقيل: وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال، فظن أنه كذبهم وغضب من ذلك، وهو من بناء المغالبة للمبالغة؛ «أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها»[(٢)].

عن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)[(٣)].

❁ سليمان عليه السلام.

وسليمان عليه السلام آتاه الله الملك، وسخّر له الريح، وعلّمه منطق الطير، وجعل جنوده من الثقلين، فدعا الله بأن لا يكون هذا الملك لأحد من بعده، فقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يسلبنيه، وقد يتجه ذلك أن يكون بمعنى: لا ينبغي لأحد سواي من أهل زماني، فيكون حجةً وعلمًا لي على نبوتي، وأني رسولك

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤١.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٥٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٤٠٩، رقم ٣٥٠٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٣٧، رقم ٣٣٨٣.

إليهم مبعوث[1].

❁ أيوب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده؛ وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثير، ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك[2].

وصف ربه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها، واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفًا في السؤال[3].

وقد استجاب الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

❁ زكريا عليه السلام.

ودعا زكريا عليه السلام ربّه طالبًا الذّرّيّة، قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨-٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

ومع علمه أنه شيخٌ كبير، وأنّ زوجه عاقرٌ لا تلد، إلاّ أنه أخذ يناجي ربه ويدعوه خفيةً.

قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٢-٦].

فاستجاب الله له ورزقه بيحيى سيدًا وحصورًا ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

❁ عيسى عليه السلام.

وقد دعا عيسى عليه السلام ربّه أن ينزل المائدة على قومه كما طلبوا منه؛ لتكون دليلًا على نبوته، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/٢٠٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/٣٥٩.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/٥٨.

﴿وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

❁ محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه يفزعون إلى الدعاء؛ وفي هذا تعليم للأمة، وتربية في حسن التوجه إلى الله، وصدق التوكل عليه، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وفي بدر حيث التقى الجمعان، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّه، واستنصره متضرعًا إليه حتى سقط رداؤه، فأنجز له الله تعالى ما وعده، وأمدّه بألف من الملائكة مردفين، ولاحت بشائر الانتصار[1].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) فما زال يهتف بربه، مادًا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠]. فأمده الله بالملائكة[2].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

وبهذا كان المؤمنون من الصحب الكريم تمثيلًا لمرحلة من نصرة دين الله في تاريخ البشرية تذكّر بما كان من جنود طالوت الذين ثبتهم الله وقاتلوا جالوت؛ ولما اشتدّ

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٢٧٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣، رقم ١٧٦٣.

الفزع بأصحاب طالوت لكثرة العدد والعدة في صفّ جالوت وجنوده، طلبوا من الله النصر في ضراعة؛ فدعوا الله متضرعين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

وفي كل المراحل التي نهض المؤمنون فيها بجهادهم لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله كان التعويل على الدعاء يستمد به العون من ناحية، ويتوقى به اليأس من انقطاع الاسباب أو الاغترار بها من ناحية أخرى.

ويتأسى المسلمون بما تضمنته آي القرآن من أدعية الصالحين من عباد الله المؤمنين؛ إذ يلازم الدعاء إخلاص عبوديتهم لله وتمسكهم بدينه، وجهادهم في سبيله، ويتأسس دعاؤهم على عبوديتهم الخاشعة لله التي تملأ قلوبهم يقينًا بالاستعانة به وحده؛ فلا مدعو غيره، ولا مسئول سواه، ومع استحضار هذه المعاني في القلوب يكون (الصّراط المستقيم) هدفًا وغاية. ومن رحمة الله بعباده أن كان الوقوف بين يدي الله في كل صلاة وسيلة لتجديد الوعي بهذه الأبعاد؛ إذ يضرع المسلمون بهذا الدعاء في كل صلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥-٦].

ويدعو المسلم ربه كل يوم في فاتحة الكتاب -التي لا صلاة إلا بها- بهذا الدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

إن الهدف المبتغى الذي يضرع المسلم بهذا الدعاء العظيم لأجله هو الهداية للصراط المستقيم؛ وهو صراط وسط بين سبيل من حل عليه الغضب، ومن زل في الضلالة.

﴿اهْدِنَا﴾ دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب، والمعنى: دلنا على الصراط المستقيم، وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك، قال بعض العلماء: فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجملته موضوعًا في هذه السورة...، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به الداعي؛ لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذي تكلم به، وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: (ليس شيءٌ أكرم على

الله من الدعاء)[1][2].

والصراط الذي يسأل المؤمنون ربهم أن يهديهم إليه صراط من ظفر بالنعمة غير ضال ولا مغضوب عليه؛ والمفسرون يوجهون الدلالة إلى اليهود أهل الغلو في الدين، والنصارى أهل الغلو في الرهبانية، وكلا الطائفتين زلت في اعتقاد معوج متخبط.

«وقد اختلف في «المغضوب عليهم» و«الضالين» من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى»[3].

وبتأمل أحوال الأمم السالفة يكون استخلاص العبرة على نحو يتجلى في دعاء المؤمنين وتضرعهم إلى خالقهم؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال أبو جعفر: «ويعني بذلك جل ثناؤه: قولوا: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ يعني بـ﴿إِصْرًا﴾ العهد، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: ٨١].

وإنما عنى بقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾، ولا تحمل علينا عهدًا فنعجز عن القيام به ولا نستطيعه ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ يعني: على اليهود والنصارى الذين كلفوا أعمالًا، وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيام بها، فلم يقوموا بها، فعوجلوا بالعقوبة، فعلّم الله عز وجل أمة محمد صلى الله عليه وسلم الرغبة إليه بمسألته أن لا يحملهم من عهوده ومواثيقه على أعمال إن ضيعوها أو أخطأوا فيها أو نسوها، مثل الذي حمل من قبلهم، فيحل بهم بخطئهم فيه وتضييعهم إياه مثل الذي أحل بمن قبلهم»[4].

ويرتبط الإيمان بالتوجه الى الله بالدعاء صدورًا عن العبودية الخاشعة؛ كما نجد في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة، رقم ٨٧٤٨.
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٢٢٣٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٤٧.
(٣) المصدر السابق ١/ ١٤٩.
(٤) جامع البيان ٦/ ١٣٥.

[آل عمران: ١٦].

ويستشعر المؤمنون أن هذه الهدايه نعمة جليلة، وهبة عظيمة يسألون الله أن يحفظها لهم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ويظهر إدراك المؤمنين لعظم نعمة الإيمان في كثير من أدعية القرآن؛ ولاسيما حين تشتد المواجهة بين المؤمنين والكافرين؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وقد تضرع الذين آمنوا مع شعيب عليه السلام إلى الله عز وجل قائلين: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

واستمد السحرة المؤمنون بموسى الصبر من ربهم، مستمسكين بدينهم حتى انقضاء أجلهم؛ ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وتضرع الذين آمنوا معه ألا يكونوا فتنة للقوم الظالمين؛ على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

وأيضًا استمد أصحاب الكهف من ربهم الرحمة والرشد؛ حين خافوا الافتتان في دينهم، فهربوا إلى الكهف، ودعوا الله ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

والحواريون وهم أنصار عيسى عليه السلام وتلاميذه دعوا الله قائلين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

قال أبو جعفر: «وهذا خبر من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾، أي: صدّقنا ﴿بِمَا أَنزَلْتَ﴾، يعني: بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك، ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ يعني بذلك: صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به، وأعوانه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك، وقوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، يقول: فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقروا لك بالتوحيد، وصدّقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحلنا محلهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصد عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك»[1].

والحال كذلك مع رهبان النصارى وهم

(١) المصدر السابق ٦/ ٤٥٢.

الذين فاضت أعينهم بالدمع عند سماعهم القرآن لمعرفتهم بأنه الحق من ربهم ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

«هذه صفة قوم كانوا على شريعة عيسى من أهل الإيمان، فلما بعث الله -تعالى ذكره- نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم آمنوا به»[١].

ولهذا فقد كان من الدعاء المحمود الدعاء للمسلمين بالثبات على الدين؛ ويستفاد ذلك من دعاء إبراهيم عليه السلام لذريته بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

قال ابن كثير في تفسير قوله: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ «أي: ليكون ذلك عونًا لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع، فاجعل لهم ثمارًا يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[القصص: ٥٧].

وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته، أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابةً لدعاء الخليل عليه السلام»[٢].

ومن الله وحده يطلب المؤمنون خير الدنيا وخير الآخرة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال أبو جعفر: «يعني بذلك جل ثناؤه: فإذا قضيتم مناسككم أيها المؤمنون فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا، وارغبوا إليه فيما لديه من خير الدنيا والآخرة بابتهال وتمسكن، واجعلوا أعمالكم لوجهه خالصًا، ولطلب مرضاته، وقولوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، ولا تكونوا كمن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، فكانت أعمالهم للدنيا وزينتها، فلا يسألون ربهم إلا متاعها، ولا حظ لهم في ثواب الله، ولا نصيب لهم في جناته، وكريم ما أعد لأوليائه»[٣].

جاء في تفسير الرازي الإنسان خلق محتاجًا ضعيفًا، لا طاقة له بآلام الدنيا ولا بمشاق الآخرة، فالأولى له أن يستعيذ بربه من كل شرور الدنيا والآخرة[٤].

وقد اختلف أهل التأويل في معنى ﴿حَسَنَةً﴾ التي ذكر الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: يعني بذلك: ومن الناس من

(١) المصدر السابق ١٠/ ٥٠١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٤٢.

(٣) جامع البيان ٤/ ٢٠١.

(٤) مفاتيح الغيب ٥/ ٣٣٦.

يقول: ربنا أعطنا عافية في الدنيا وعافية في الآخرة، وقال آخرون: بل عنى الله عز وجل بالـ﴿حَسَنَةً﴾ في هذا الموضع في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة: الجنة، وقال آخرون: ﴿حَسَنَةً﴾ في الدنيا: المال، وفي الآخرة: الجنة، وقيل: في الدنيا حسنة امرأة صالحة، وفي الآخرة حسنة الجنة والحور العين، وقيل: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقًا حلالًا، وعملًا صالحًا، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ المغفرة والثواب.

قال أبو جعفر: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن قوم من أهل الإيمان به وبرسوله، ممن حج بيته، يسألون ربهم الحسنة في الدنيا، والحسنة في الآخرة، وأن يقيهم عذاب النار وقد تجمع الحسنة من الله عز وجل العافية في الجسم والمعاش والرزق والعلم والعبادة، وغير ذلك، وأما في الآخرة فلا شك أنها الجنة؛ لأن من لم ينلها يومئذٍ فقد حرم جميع الحسنات، وفارق جميع معاني العافية»[1].

ومن خير الدنيا ما ينعم الله به على عباده من عطايا ونعم، وما يهبهم من ذرية مما يتجلى في هذا الدعاء الذي ورد في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقد دعت امرأة عمران -أم مريم البتول- ربها قائلةً أن يقي ابنتها وذريتها من الشيطان الرجيم، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

أما في الآخرة فيشفق عباد الرحمن من النار، سائلين الله عز وجل أن يقيهم إياها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

ويسألونه الجنة ونعيمها، كما ورد في دعاء امرأة فرعون التي دعت ربها وتضرعت إليه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

ويستقي المؤمنون مما ورد في أدعية الأنبياء والمرسلين كثيرًا من آداب الدعاء وشروطه؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم غالبًا ما يصدّر دعاءه بالفعل (قل) لأنه تعليمٌ من الله عز وجل لرسوله كيفية الدعاء، والأمر للرسول أمرٌ لأمته أيضًا، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) انظر: جامع البيان ٤/ ٢٠٣-٢٠٥.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يدعو: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧].

وهمزات الشياطين: خطراتها التي تخطرها بقلب الإنسان[١].

وأمره كذلك بقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨].

فقد أمر رسوله «بأن يعوذ به تعالى من حضورهم بعدما أمر بالعوذ من همزاتهم؛ للمبالغة في التحذير من ملابستهم، وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به، وتخصيص حال الصلاة، وقراءة القرآن، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحال حلول الأجل كما روي عن عكرمة رحمه الله؛ لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها»[٢].

وقد أمر الله عز وجل رسوله بأن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

أي: أن يطلب الزيادة في العلم «وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم»[٣].

ومن الخير أن يدعو الداعي في دعائه لنفسه ولغيره؛ فهذا إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

قال القرطبي: «استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله»[٤].

كان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك، وتبين إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه[٥]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ونوح عليه السلام يقول: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين، وقيل: أراد بوالديه أباه وجده[٦].

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمنًا هو بر المؤمن بالمؤمن؛ وحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه، وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمنًا؛ لأن هذه كانت علامة النجاة، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة، ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات هو بر المؤمن بالمؤمنين كافةً في كل زمان ومكان، وشعوره بآصرة القربى

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٤٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٥٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٨٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٤٦.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥١.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٣١٤.

على مدار الزمن، واختلاف السكن، وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها على تباعد الزمان والمكان»[1].

ولا يجوز الدعاء بالمغفرة والرحمة لغير المسلم، فقد نهى الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الاستغفار للمشركين، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣].

وكان سبب نزول هذه الآية وعد النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب بالاستغفار، لما في حديث سعيد بن المسيب، عن أبيه رضي الله عنه أنه أخبره، أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب: (يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله)، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية[2].

ويعود النهي عن الاستغفار للمشركين لوعيد الله عز وجل إياهم بعدم المغفرة؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٨].

وكأن الاستغفار لهم طلب بأن يخلف الله وعيده[3].

ويلحق بالنهي عن الاستغفار للمشركين النهي عن الاستغفار للمنافقين؛ لقوله عز وجل: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[المنافقون: ٦].

وإبراهيم عليه السلام فيه أسوة حسنة لهذه الأمة إلا في شأن الاستغفار لأبيه المشرك، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ٢/ ٩٥، رقم ١٣٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، ١/ ٥٤، رقم ٢٤.

(٣) انظر: دعاء محمد صلى الله عليه وسلم، محمد أحمد وموسى الخطيب ص٧٢.

أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

أي: لكم في إبراهيم عليه السلام وقومه أسوة حسنة، تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه[(١)].

ثانيًا: الدعاء المذموم:

إن من أوضح صور الأدعية المذمومة، ما جاء عن الكافرين والضالين.

وقد سجّلت آي القرآن بعضًا من أدعية الكافرين ممن أعرضوا عن الصراط المستقيم، والتأمل في دعائهم كاشف عن اضطراب إدراكهم، ومبلغ تكذيبهم، وقد اتخذوا من سبيل الغي سبيلًا في الدنيا، وعن حرج موقفهم وبؤس مصيرهم، وقد هووا في جهنم في الآخرة.

فمن دعاء الكافرين ما كان تعبيرًا صريحًا عن استبعاد ما جاءت به الدعوة من بدهات، واستهزاء بإمكان وقوع ما أكدت حدوثه من وعد ووعيد.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

«القط: القسط من الشيء؛ لأنه قطعة منه، من قطه إذا قطعه، ويقال لصحيفة الجائزة: قط؛ لأنها قطعة من القرطاس، وقد فسر بهما قوله تعالى: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: نصيبنا من العذاب الذي وعدته، قيل: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله المؤمنين الجنة، فقالوا على سبيل الهزء: عجّل لنا نصيبنا منها، أو عجّل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها»[(٢)].

«وذلك لأن القوم كانوا في نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته، واعلم أن الكفار لما بالغوا في السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قالوا: إنه ساحر كذاب، وقالوا له على سبيل الاستهزاء: عجّل لنا قطنا أمره الله بالصبر على سفاهتهم، فقال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]»[(٣)].

«يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش: يا ربنا عجّل لنا كتبنا قبل يوم القيامة، قوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

أي: نصيبنا وحظنا من العذاب قبل يوم القيامة، قال: قد قال ذلك أبو جهل، وقال آخرون: بل إنما سألوا ربهم تعجيل أنصبائهم ومنازلهم من الجنة حتى يروها فيعلموا حقيقة ما يعدهم محمد صلى الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٤٩.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٧.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٧٣.

عليه وسلم، فيؤمنوا حينئذٍ به ويصدّقوه، وقال آخرون: سألوا أن يعجّل لهم كتبهم التي قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥].

في الدنيا لينظروا بأيمانهم يعطونها أم بشمائلهم؟ ولينظروا من أهل الجنة هم أم من أهل النار قبل يوم القيامة استهزاءً منهم بالقرآن وبوعد الله.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن القوم سألوا ربهم تعجيل صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاءً بوعيد الله، وإنما قلنا: إن ذلك كذلك لأن القط هو ما وصفت من الكتب بالجوائز والحظوظ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيل ذلك لهم، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧].

فكان معلومًا بذلك أن مسألتهم ما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم لم يكن بالذي يتبع الأمر بالصبر عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاءً، وكان فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أذى، أمره الله بالصبر عليه حتى يأتيه قضاؤه فيهم، ولما لم يكن في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦].

بيان أي القطوط إرادتهم، لم يكن لما توجيه ذلك إلى أنه معنيٌّ به القطوط ببعض معاني الخير أو الشر؛ فلذلك قلنا: إن مسألتهم كانت بما ذكرت من حظوظهم من الخير والشر»[1].

ومن دعاء الكافرين الكاشف عن موقفهم المعرض عن الدعوة ما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وفي هذا الدعاء ما فيه من استهزاء وتعنت؛ إذ لو كان فيه تحرٍّ للحق لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له مثلًا، ولكنهم كفروا وأنكروا واستهزأوا! وقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين[2].

قال أبو جعفر: «يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد أيضًا ما حل بمن قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

إذ مكرت بهم، فأتيتهم بعذاب أليم وكان ذلك العذاب قتلهم بالسيف يوم بدر، وهذه الآية ذكر أنها نزلت في النضر بن الحارث، كان يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٦٣-١٦٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦١٢.

هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم!»[1].

«يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وهم يعلمون ما حل بمن خلا قبلهم من الأمم التي عصت ربها، وكذّبت رسلها من عقوبات الله، وعظيم بلائه»[2].

وحين يأتي الموت يدرك الكافرون فساد ما كانوا عليه من اعتقاد وسلوك، قال تعالى: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وحين يتحقق العذاب في الآخرة وقد كانوا يستبعدونه، وحين يدركون مصيرهم الوبيل في الآخرة يتمنون لو يعودون إلى الدنيا عساهم يعملون صالحًا، ولكن هيهات!

يكشف ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

أي: «أبصرنا ما كنا نكذب به، وسمعنا منك ومن ملائكته ومن أصوات النيران وغير ذلك ما كنا نستبعده فصرنا في غاية العلم بتمام قدرتك، وصدق وعودك»[3].

فما أبصروه وما سمعوه جعلهم يطلبون الرجوع للدنيا رغبةً في العمل الصالح، ولكن لا أمل في رجوعهم، بل يلقون في النار، حينها يتعالى صراخهم ألمًا مما هم فيه، فيدعون ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧].

و﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقولهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

وما كان دعاؤهم إلا خلاصًا من عذابهم، ونلمح في دعائهم بأسلوب الاستفهام (هل) المراد به: التمني والاستعطاف رغبة قوية منهم في إبراز غير الممكن في صورة الممكن، وجعلوا هذا الاعتراف ضربًا من التوبة توهمًا منهم أن التوبة تنفع يومئذٍ؛ فلذلك فرّعوا عليه ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾... قال في الكشاف: «وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط»[4]، يريد أنّ في اقتناعهم بخروج مّا دلالة على أنهم يستبعدون حصول الخروج[5].

ويدعو الكافرون بمضاعفة العذاب للمضلين: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفًا مِّنَ الْعَذَابِ

(١) انظر: جامع البيان ١٣/ ٥٠٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٥٠.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٥٥.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٥١.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٩٩.

﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

وقولهم في موضع آخر: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١].

وقولهم كذلك: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وحين نتأمل الآية في سورة (ص) نجد الفعل (زده) قد وقع موقعه في إظهار شدة الحقد على هؤلاء المضلين؛ وذلك بطلب زيادة العذاب المضاعف لهم، والتعبير بالجار والمجرور ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ قوّى المعنى، حيث جعل العذاب يحيط بهم في النار من كل جانب، كإحاطة الظرف بالمظروفين، وهذه الآية تختلف عما في الأعراف؛ لأن السياق فيها للطاغين، أما في الأعراف فهو لمطلق الكافرين[1]، ذلك أن الطغاة أشد بطشًا من الكفار.

ثانيًا: دعاء المرء على نفسه بالشر:

أخبر سبحانه وتعالى لو أنه يعجّل للناس إجابة دعائهم في الشر كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة لهلكوا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

عن مجاهد، رحمه الله قال: «قول الرجل لولده إذا غضب عليه أو ماله: اللهم لا تبارك فيه والعنه»[2].

قال ابن عاشور رحمه الله: «بيّنت هذه الآية أن الرفق جعله الله مستمرًا على عباده غير منقطع عنهم؛ لأنه أقام عليه نظام العالم إذ أراد ثبات بنائه، وأنه لم يقدر توازي الشر في هذا العالم بالخير لطفًا منه ورفقًا، فالله لطيف بعباده، وفي ذلك منة عظيمة عليهم، وأن الذين يستحقون الشر لو عجّل لهم ما استحقوه لبطل النظام الذي وضع عليه العالم»[3].

وفي النهي عن الدعاء على النفس روى مسلم بسنده عن جابر بن عبد اللّه، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من اللّه تبارك وتعالى ساعة يسأل فيها عطاءٌ، فيستجيب لكم)[4].

ويستفاد من الآية: لطف الله سبحانه وتعالى وإحسانه بعباده.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٣٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ١٣١.

(٣) التحرير والتنوير ١١/ ١٠٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابرٍ الطّويل وقصّة أبي اليسر، ٤/ ٢٣٠٤، رقم ٣٠٠٩.

آثار الدعاء

للدعاء في القرآن آثار، ومن أهمها:

أولًا: إعطاء الداعي ما طلب:

الدعاء باب مفتوح للعبد إلى ربّه سبحانه، يلتمس من خلاله كل ما يحتاجه في دنياه من صحة الأبدان، وسعة الأرزاق، والخلاص من البلاء، والنصر على الأعداء، وهذا الذي كان يقوم به الأنبياء عليهم السلام، والله تعالى يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم، من المطاعم والمشارب، كما يسألونه الهداية والمغفرة، والعفو والعافية في الدنيا والآخرة[1].

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: «والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات»[2].

والدعاء أكرم شيء على الله، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء)[3].

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٨ - ٤٠.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ص٤٥٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٣٦٠، رقم ٨٧٤٨، والبخاري في الأدب المفرد، ص ٢٤٩، رقم ٧١٢.
وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص ٢٦٥، رقم ٥٥٢.

قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

والدعاء عبادة له آثاره البالغة، وفوائده العظيمة؛ لذلك أمرنا الحقّ جلّ في علاه بالدّعاء، ورغّبنا فيه النبي صلى الله عليه وسلم، فكم من محنة رفعها الله عز وجل بالدعاء، وكم من مصيبة أو كارثة كشفها الله عز وجل بالدعاء، وقد أورد القرآن الكريم جملةً من الأدعية التي استجابها الله تعالى بمنّه وفضله وكرمه.

يهدي النظر في آيات الدعاء في القرآن الكريم إلى كرم الله ورحمته بعباده ورأفته بهم؛ إذ يهبهم ما يطلبون.

وسنعرض بعضًا من الأمثلة الدالة على إعطاء الداعي ما طلب:

- **إبراهيم عليه السلام.**

طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يبعث في أمته «ذريته» المسلمة رسولًا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقد طلب أن يكون الرسول منهم «لأنه يكون أشفق على قومه، ويكونون هم أعز به، وأشرف وأقرب للإجابة؛ لأنهم يعرفون منشأه وصنفه وأمانته»[4]، فيعلّمهم هذا

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦٢٥.

الرسول القرآن وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة، ويطهّرهم عن دنس الشرك، وفنون المعاصي[1].

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد جاء طلب الولد والذرية على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

فأجاب الله له دعوته، وبشّره بغلام حليم، وهو إسماعيل. قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

ثم أنعم الله على إبراهيم، فوهب له ابنه إسحاق حين دعاه، ووهب له من إسحاق يعقوب زيادة على ذلك، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

❁ نوح عليه السلام.

دعا نوح ربه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وأخبر الله عن دعائه فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

واستجاب الله دعاء نوح عليه السلام فقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

❁ زكريا عليه السلام.

وزكريا عليه السلام الذي تاقت نفسه إلى الولد ليرثه ويرث من آل يعقوب، فدعا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

و﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

فاستجاب له دعاءه ووهب له على الكبر ابنه يحيى، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

❁ سليمان عليه السلام.

طلب سليمان عليه السلام من ربه أن يعطيه الملك في قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

ولم يكن سؤاله عليه السلام «طلبًا لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك، فأجيب نوح فأهلك من عليها، وأعطى سليمان المملكة»[2].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٠٤.

أما قوله: ﴿لَا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ «أي: أن يسأله فكأنه سأل منع السؤال بعده؛ حتى لا يتعلق به أمل أحد، ولم يسأل منع الإجابة»[1].

وقد استجاب الله دعاءه، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص: ٣٦ - ٣٨].

فسخّر الله الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاد وأوثقه[2].

ثانيًا: الأجر والثواب:

من عظم رحمة الله بخلقه وكرمه السابغ معهم أن جعل للدعاء خيرًا ونفعًا وثوابًا وأجرًا مما يظهر في الدنيا، ويمتد في الآخرة، ويرتبط الدعاء بالمحسنين ارتباطًا وثيقًا؛ قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والدعاء صلة بين المسلم والمسلم حتى بعد الممات، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[الحشر: ١٠].

(١) المصدر السابق.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧١٢.

ولقد ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم الأمور التي لا تنقطع عن الميت بعد موته، ومنها الدعاء، فقال: (أو ولد صالح يدعو له)[3].

والدّعاء سبب أكيد لغفران المعاصي والذنوب، ولرفع الدّرجات، ولجلب الخير ودفع الشّرّ، ومن ترك الدّعاء فقد سدّ على نفسه أبوابًا كثيرةً من الخير، هذا وقد ذكر شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله عشرة أسباب لغفران الذنوب، حيث قال رحمه الله: «والسبب الرابع الدافع للعقاب دعاء المؤمنين للمؤمن، مثل صلاتهم على جنازته»[4].

إن الدعاء من العبادات الجليلة التي أمر الله بها عباده المؤمنين، ووعدهم عليه جزيل الثواب، وتوعّد من أعرض عنه بالإثم العظيم، وهو سمة للعبودية، ويستدعي به العبد من الله العناية، ويستمد منه المعونة، ويستجلب الرحمة، ويستدفع النقمة، ويظهر به الافتقار والذلة البشرية، متبرئًا من الحول والقوة، وإذا تأملت كتاب الله سبحانه وتعالى وجدت فاتحته تضمنت الدعاء، وخاتمته تضمنت الدعاء، ففاتحة الكتاب بدئت بدعاء الثناء: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ٣/ ١٢٥٥، رقم ١٦٣١.
(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٢/ ٤٠٣.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. وتلاه دعاء المسألة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. وختم الكتاب بسورتي المعوذتين: دعاء مسألة متضمنًا دعاء ثناء[١].

ثالثًا: رفع العذاب والبلاء:

الدعاء أحد أسباب رفع البلاء ودفع الشقاء، كما في قوله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[مريم: ٤٨].

وقال عن زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[مريم: ٤].

أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردّني قط فيما سألتك[٢].

وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقًا، أن يتمم إحسانه لاحقًا[٣].

ومن أمثلة أدعية رفع الضر قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

فجمع أيوب عليه السلام في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين.

والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره. ومتى وجد المبتلي هذا كشفت عنه بلواه. وقد جرّب أنه من قالها سبع مرات ولاسيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره[٤].

وإذا ركب المشركون السفن وعلتهم الأمواج من حولهم كالسحب والجبال، أصابهم الخوف والذعر من الغرق ففزعوا إلى الله، وأخلصوا دعاءهم له، فلما نجاهم إلى البر، فمنهم متوسط لم يقم بشكر الله على وجه الكمال، ومنهم كافر بنعمة الله جاحد لها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

موضوعات ذات صلة:

الاستغفار، التسبيح، الحمد، الذكر، السؤال

(١) انظر: تصحيح الدعاء، بكر أبو زيد ص١٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٩.
(٤) التفسير القيم، ابن القيم ص ٣٨١.

الدَّعْوَة

عناصر الموضوع

مفهوم الدعوة	٣٦٦
الدعوة في الاستعمال القرآني	٣٦٨
الألفاظ ذات الصلة بالدعوة	٣٦٩
إسناد الدعوة إلى الله تعالى	٣٧٠
مقاصد الدعوة	٣٧٦
قواعد الدعوة	٣٨١
المدعو إليه	٣٨٦
أساليب الدعوة	٣٩١
موقف المدعوين من الدعوة	٣٩٧
نماذج من الدعاة	٤٠١
ثمرات الدعوة	٤٢١

مفهوم الدعوة

يعتبر موضوع الدعوة والنظر لحال المدعوّين، من الأمور المهمة التي ورد الحديث عنها في القرآن الكريم، وسوف أتحدث عن هذا الموضوع، فيما يأتي:

أولًا: المعنى اللغوي:

الدعوة: من دعا يدعو دعوةً ودعاءً[1]، والدّعاء كالنّداء، إلاّ أنّ النّداء قد يقال بـ (يا)، أو (أيا)، ونحو ذلك من غير أن يضمّ إليه الاسم، والدّعاء لا يكاد أن يقال إلّا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان، وقد يستعمل كلّ واحد منهما موضع الآخر، ودعوته: إذا سألته، وإذا استغثته[2]، يقال: دعوة فلان في بني فلان، ولبني فلان الدعوة على قومهم إذا كان يبدأ بهم، والدعوة: الوليمة[3]، فهي نداء إلى شيء.

وعليه فإن كلمة (دعوة) تفيد من حيث اللغة المحاولات القولية والفعلية لإمالة الناس إلى تحقيق هدف أو عمل، ويمكننا أن نطلق لفظ «الدعوة» على ما يراد إبلاغه ونشره من هدى أو ضلال[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تعرّف الدعوة بأنها نداء إلى شيء معين، وقد يكون هذا النداء عامًّا أو خاصًّا، مباشرًا أو غير مباشر، ولم يرد تعريف الدعوة كثيرًا في كتب اللغة؛ لأعتمد عليه في التعريف الاصطلاحي.

وجاء أن (الدّعوة) بالفتح في الطعام اسم من (دعوت) الناس، إذا طلبتهم ليأكلوا عندك، يقال: نحن في (دعوة) فلان و(مدعاته) و(دعائه) بمعنى واحد، وهذا كلام أكثر العرب[5]، وأصرح الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وأصل الدّعوة بفتح الدال، والمراد بها هنا: دعوة الإسلام[6]، وهي في القرآن الكريم

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٧٧.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ٣٤٨.
(٤) انظر: الدعوة والداعية، محمد البارودي ص٢٠.
(٥) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٩٥.
(٦) انظر: أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان ١/ ٧.

الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والدعوة إلى فعل الخير يندرج تحتها نوعان: أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف، والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر[1].

فهي الدعوة إلى الإيمان بالله وبما جاءت به رسله وذلك بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا[2].

والأصل في بيان ذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذًا رضي الله عنه على اليمن؛ قال: (إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله.. الحديث)[3].

فالدعوة في اللغة هي: مطلق الدعاء والنداء إلى شيء، وبالمعنى الاصطلاحي يتبيّن أن هذا النداء للدعوة هو: دعوة إلى الإيمان بالله تعالى، واتباع كتابه، والسير على منهج رسوله صلى الله عليه وسلم، والدّاعون إليه من أشرف الناس عند الله.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٠٧.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٥٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ٢/ ١١٩، رقم ١٧٥٤.

الدعوة في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (د ع و) في القرآن الكريم (٢٠٧) مرات، يخص موضوع البحث منها(٢٠٥) مرات[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت:٣٣]
الفعل المضارع	١٠٦	﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٨]
فعل الأمر (دعائي)	٣٢	﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾ [النحل:١٢٥]
اسم فاعل	٧	﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه:١٠٨]
اسم	٢٠	﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝١٤﴾ [الرعد:١٤]
مصدر	١٠	﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤]

وجاءت الدعوة في القرآن الكريم بمعناها في اللغة وهي مصدر دعا، أي: نادى وطلب، ودعا إلى الأمر: حثَّ عليه[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٥٧-٢٦٠.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٧٤٧.

الألفاظ ذات الصلة بالدعوة

١ الهداية:

الهداية لغةً:

أصل الهداية في اللغة: التقدم للإرشاد، فالهادي هو الذي يتقدم لإرشاد من خلفه[١].

والهدى: الرشاد والدلالة، ضد الضلالة[٢].

الهداية اصطلاحًا:

الهداية: هي الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب[٣].

الصلة بين الهداية والدعوة:

الدعوة هي طريق للهداية، فالهداية غاية، والدعوة وسيلة.

٢ الموعظة:

الموعظة لغةً:

الوعظ: التخويف، والاسم: العظة، وهو التذكير بالخير وما يرق له قلبه[٤].

الموعظة اصطلاحًا:

الموعظة: وهي ما يوعظ به من قول أو فعل[٥].

الصلة بين الموعظة والدعوة:

الموعظة إحدى وسائل الدعوة، وأكثرها استعمالًا، تجعل المدعو سريع الاستجابة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٤٢.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ١٠٢.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص٣١٩.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٢٦.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٤٣.

إسناد الدعوة إلى الله تعالى

تقدم معنا أن الدعوة لها ألفاظ ودلالات ومعان عدّة، وأهم هذه المعاني هي: أن الدعوة دعوة إلى عبودية الله وحده، واتباع رسوله وما أرسله به.

ومن عظيم رحمة الله تعالى أنه يدعو عباده بنفسه، وهذا إن دلّ فإنما يدل على عظيم كرمه، وجزيل إحسانه، وبيان ذلك كما يأتي:

أولا: دعوة الله تعالى لعباده إلى المغفرة:

جاء في آيات الدعوة الواردة في القرآن الكريم أن الله تعالى يدعو عباده بنفسه، ويمكن أن نجعل تلك الدعوة في قسمين:

الآيات الصريحة في دعوة الله تعالى لعباده إلى مغفرته:

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

يعني تعالى ذكره: هؤلاء الذين حرّمت عليكم -أيها المؤمنون- مناكحتهم من رجال أهل الشرك ونسائهم، يدعونكم إلى النار يعني: يدعونكم إلى العمل بما يدخلكم النار، وذلك هو العمل الذي هم به عاملون من الكفر بالله ورسوله؛ فلا تقبلوا منهم ما يقولون، ولا تستنصحوهم، ولا تنكحوهم ولا تنكحوا إليهم، فإنهم لا يألونكم خبالًا ولكن اقبلوا من الله ما أمركم به فاعملوا به، وانتهوا عما نهاكم عنه[1]؛ فذلك ما يوجب لكم المغفرة، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة، التي من آثارها دفع العقوبات وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح[2]، ويدعوكم إلى مخالطة المؤمنين لأن ذلك أوصل لكم إلى الجنة[3].

وقوله تعالى: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠].

أي: يدعوكم إلى التوحيد ليغفر لكم من ذنوبكم[4]، والدعوة أصلاً دعوة إلى الإيمان، المؤدي إلى المغفرة، ولكن السياق يجعل الدعوة مباشرةً للمغفرة، لتتجلى نعمة

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٧١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٤.
(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٩٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٩٩.

الله ومنته، وعندئذٍ يبدو عجيبًا أن يدعى قوم إلى المغفرة فيكون هذا تلقيهم للدعوة! ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فهو سبحانه مع الدعوة للمغفرة لا يعجلكم بالإيمان فور الدعوة، ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب، إنما يمنّ عليكم منّة أخرى فيؤخركم إلى أجل مسمى[1]، فليس العجب ممن تكلف لسيده المشاقّ وتحمل ما لا يطاق، وألّا يهرب من خدمة أو يجنح إلى راحة؛ إنما العجب من سيد عزيز كريم يدعو عبده ليغفر له وقد أخطأ، ويعامله بالإحسان وقد جفا[2].

ففي الآيات دلالة صريحة أن الله الكريم يدعو عباده بنفسه، وأهم قضية دعا إليها سبحانه وتعالى:

- دعوة عباده إلى جنته التي أعدها لمن غفرت له ذنوبه.
- دعوة عباده إلى مغفرته التي لا يملكها إلا هو.

ومن الآيات التي تتضمن دعوة الله تعالى لعباده إلى مغفرته: قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

أي: سارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهي الطاعة، والآية عامة[3]، فكل ما من شأنه الحصول على مغفرة الله تجب المسارعة إليه.

وقال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران: ١٥٣].

فأنتم مدبرون وهو ثابت في مكانه في نحر العدو في نفر يسير وثوقًا بوعد الله ومراقبة له[4]؛ لأن الأمر الحقيقي من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وجهاده هو التعلق بمغفرة الله، وذلك بالجهاد الذي يغفر الله به الذنوب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد: ٨-٩].

أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به[5].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٠.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٢٤٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٠٣.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤٣١.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [الملك: ١٢].

فهذه الآيات تتضمن الدعوة من الله تعالى لعباده أن يحذروا من غوايات الشيطان التي تبعدهم عن نيل مغفرة الله، وأن يسارعوا إلى مرضات الله تعالى ومغفرته، مع التخلق بأخلاق المستحقين لتلك المغفرة.

ثانيًا: دعوة الله تعالى لعباده إلى الجنة:

جاء في القرآن الكريم دعوة الله تعالى لعبادة إلى جنته مباشرةً، ويمكن أن نجعل هذا كالذي قبله وذلك في قسمين:

١. الآيات الصريحة في دعوة الله تعالى لعباده إلى جنته.

وهذا كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢١﴾ [البقرة: ٢٢١].

فهو يدعوكم إلى العمل بما يدخلكم الجنة، ويوجب لكم النجاة إن عملتم به من النار[(١)]، وهو يدعو عباده لتحصيل الجنة[(٢)]، وطريق المؤمنين والمؤمنات هو طريق الله، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه، وما أبعد دعوة المشركين إذن من دعوة الله، والله يحذر من هذه الدعوة المردية ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فمن لم يتذكر، واستجاب لتلك الدعوة فهو الملوم[(٣)].

فمن عمل بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد استجاب لدعوة الله له إلى الجنة، وهذا يتجلى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)[(٤)].

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٧١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٣٤.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٤٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

يقول تعالى ذكره لعباده: أيها الناس، لا تطلبوا الدنيا وزينتها، فإن مصيرها إلى فناءٍ وزوالٍ، كما مصير النبات الذي ضربه الله لها مثلا إلى هلاكٍ وبوارٍ، ولكن اطلبوا الآخرة الباقية، ولها فاعملوا، وما عند الله فالتمسوا بطاعته، فإن الله يدعوكم إلى داره، وهي جناته التي أعدّها لأوليائه، تسلموا من الهموم والأحزان فيها، وتأمنوا من فناء ما فيها من النّعيم والكرامة التي أعدّها لمن دخلها، وهو يهدي من يشاء من خلقه فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله جل ثناؤه سببًا للوصول إلى رضاه، وطريقًا لمن ركبه وسلك فيه إلى جنانه وكرامته[1].

فعمّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام، والحث على ذلك، والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة دار السلام؛ لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه، وحسنه من كل وجه[2]، فيا لبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس في لحظة، وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هي حصيد كأن لم تغن بالأمس، ودار السلام التي يدعو إليها الله، ويهدي من يشاء إلى الصراط المؤدي لها، حينما تنفتح بصيرته، ويتطلع إلى دار السلام[3].

ولذا حذر الله تعالى من الدعوة المضادة المباينة لهذه الدعوة فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

٢. الآيات التي تتضمن دعوة الله عباده إلى جنته[4].

وهذه الدعوة الضمنية تحمل في طياتها معنى التبشير والوعد، فذكر الله تعالى الجنة مشوقًا عباده إليها، وحاثًّا لهم على العمل من أجل الدخول فيها، فورد كثير من الآيات التي تذكر الجنة بسياق مختلف، حيث جاءت مفردة منكرة بلفظ (جنّة) كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

(١) الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله، ٩/ ٩٣، رقم ٧٢٨٠.
(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦٢.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٧٥.
(٤) انظر: صفة الجنة في القرآن الكريم، عبدالحليم السلفي ص٣١.

أي: كانت تلك الجنة للمتقين جزاءً على أعمالهم، ومصيرًا يصيرون إليه، ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: ما يشاءونه من النعيم، وضروب الملاذ[1].

وجاءت مفردةً معرّفةً مجرورةً كلفظ «بالجّنة» كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

يقول: وسرّوا بأن لكم في الآخرة الجنة التي كنتم توعدونها في الدنيا على إيمانكم بالله، واستقامتكم على طاعته[2].

وجاءت مرفوعةً مثنّاةً كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

وهذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

ولم يطغ ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما ذكر البخاري عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)[3][4].

وجاءت مجموعةً معرفةً في موضع واحد فقط وهو قوله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى: ٢٢].

أي: في الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسنًا وبهاءً، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقًا إلى لذّاتها ووداداً، ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٧٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب حور مقصورات، ٦/ ١٥٤، رقم ٤٨٧٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٦٢.

أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟[1].

وجاءت مجموعةً منكّرةً في مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

وهي ألوان من النعيم يستوقف النظر منها- إلى جانب الأزواج المطهرة- تلك الثمار المتشابهة، التي يخيل إليهم أنهم رزقوها من قبل- أما ثمار الدنيا التي تشبهها بالاسم أو الشكل، وأما ثمار الجنة التي رزقوها من قبل- فربما كان في هذا التشابه الظاهري والتنوع الداخلي مزية المفاجأة في كل مرة[2].

وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢] وغيرها كثير.

وكل هذه الآيات تتضمن الدعوة إلى الفوز بجنة الله تعالى مهما اختلفت صيغها، وتنوع سياقها، فهي تدعو إلى تحقيق أعمال وأخلاق تجعل أصحابها فائزين بجنة الله تعالى التي أعدها لعباده الصالحين.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٥٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩.

مقاصد الدعوة

للدعوة الإسلامية مقاصد مهمة ذكرت في ثنايا آيات الدعوة التي وردت في القرآن الكريم، ومن تلك المقاصد ما يأتي:

أولًا: تحقيق التوحيد:

فمن المقاصد العظيمة التي تبدو في ثنايا الآيات التي تتحدث عن الدعوة تحقيق توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

والتوحيد هو أصل دعوة الرسل وإليه دعوا أقوامهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥][1].

وسأذكر بعض الآيات الواردة في الدعوة إلى تحقيق التوحيد حسب ترتيب السور.

فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٦-١١٧].

ويدعون بمعنى: يعبدون؛ لأن من عبد شيئًا فإنه يدعوه عند احتياجه إليه[2].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: ٣٧].

يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت، وقبض أرواحهم إلى النار يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟! ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه، ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنا، فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[3].

وقد وردت آيات كثيرة تدعو لتحقيق هذا المقصد العظيم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ

(١) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ١/ ٦١.
(٢) مفاتح الغيب، الرازي ١١/ ٢٢١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٦٩.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ۝٣٦﴾ [الرعد: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠﴾ [النحل: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٢٠﴾ [الجن: ٢٠]وغيرها.

وفي ثنايا هذه الآيات ألحظ الدعوة إلى تحقيق التوحيد فيما يأتي:

- أن الدعوة إلى التوحيد أصل أصيل دعا إليه الله تعالى بنفسه، ولأجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب.
- النهي الصريح عن دعاء غير الله تعالى، أو الدعوة إلى عبودية غيره.
- تصريح الداعي إلى الله أن دعوته إلى عبودية الله دون سواه واتباع رسله.
- الدعوة الصريحة للتحاكم إلى الله تعالى وما جاء عنه.

ويلاحظ أن قاعدة التوحيد الأولى هي إفراد الله بالعبادة، وقد جاءت الدعوة إلى ذلك عن جميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وأنهم قاموا بدعوة أقوامهم إلى ذلك وتحذيرهم من الشرك بالله[1].

ثانيًا: الهداية والإصلاح:

ومن مقاصد الدعوة في القرآن الكريم: الهداية والإصلاح، وهما أمران متلازمان.

ومن الآيات التي تذكر معنا في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة[2]، بمعنى هدي للإجابة؛ ليصلح حاله.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

يقول تعالى: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأولئك هم

(١) انظر: معالم الدعوة في قصص القرآن، الديلمي ١/ ٦٤.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣٧.

المفلحون[1]، وهذا غاية في بيان هداية القائمين بالدعوة ودعوة غيرهم للاهتداء بها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

هذه الآية الكريمة عاب الله فيها الكفار بسخافة العقول، وأنهم إذا نزلت بهم شدة من العظائم الشداد أخلصوا في ذلك الوقت الدعاء إلى الله، وتركوا دعاء غير الله؛ لعلمهم بأنه لا ينفع ولا يضر، فإذا نجاهم الله من تلك الكربة، وأمنوا، رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله، وهذه سخافة عقول؛ لأنهم في وقت الشدائد يخلصون إلى الله[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٢﴾ [الأنعام: ٧١-٧٢].

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: للإسلام والتوحيد، وأنقذنا من عبادة الأصنام، فنصير كالمستمر على الضلال، واستمالته عن الطريق الواضح مردة الجن، في الأرض القفر المهلكة، تائهًا ضالًّا عن الجادة، لا يدري كيف يصنع، ولهذا المستهوي رفقة يدعونه إلى الطريق المستقيم[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وهؤلاء يدعون من دون الله شركاء، مع علمهم وتسليمهم بأن الله هو الخالق الرازق ولكن إذا سبّ المسلمون آلهتهم؛ اندفعوا عما يعتقدونه من ألوهية الله، دفاعًا عما زين لهم من عبادتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وتقاليدهم؛ فليدعهم المؤمنون لما هم فيه[4].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: ١٩٨].

إذ ليس لهم سمع، وإن صورت لهم الآذان، كما أنه لا بصر لهم، وإن صورت لهم الأعين وهذا من تمام التعليل؛ لعدم مبالاته بهم، فلا تكرار[5].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٨٧.
(٢) العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٢٣٤.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٩٦.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٦٩.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٤١.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقوله تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

ففي هذه الآيات وغيرها نلحظ أن آيات الدعوة اشتملت اشتمالًا واضحًا جليًّا في الدعوة إلى الهداية والإصلاح الذي هو ناتج عن الهداية وألحظ ذلك فيما يأتي:

- أن آيات الدعوة اشتملت على الدعوة الصريحة إلى الهداية.
- أهل الهداية الحقة هم الموحدون والداعون إلى توحيد الله تعالى.
- الدعوة إلى الهداية دعوة إلى امتثال أوامر الله تعالى، وترك زواجره ونواهيه، وهي ما يكون به الإصلاح.
- وجوب صحبة أهل الهداية؛ لأن المعرضون عن الدعوة إلى الهداية هم أظلم الناس.

ثالثًا: إقامة الحجة:

ومن المقاصد التي تلحظ في آيات الدعوة إقامة الحجة على المعرضين عن الهداية؛ فأرسل الله ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وذلك كما جاءت به الآيات والتي منها ما يأتي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ

﴿كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

فأخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهةً هم عباد لله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم؛ لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون وفي هذا تقريع لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: ٦٦].

فأخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئًا لا ضرًّا ولا نفعًا، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرّصهم وكذبهم وإفكهم[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

فالله تعالى بنفسه يقيم عليهم الحجة.

وقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [طه: ٤٧].

ففي هذه الدعوة إقامة الحجة على فرعون.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

وهذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع[3]، فـ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ واحدًا في صغره وقلته؛ لأنها لا تقدر عليه[4]، وإن يسلب الآلهة والأوثان الذباب شيئًا؛ لا تقدر الآلهة أن تستنقذ ذلك منه[5].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣١٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٤٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٦.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤٠٠.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٨٥.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٤-٥]. وغيرها كثير.

وبالنظر في ما مر معنا من الآيات ألحظ ما يأتي:

- أن آيات الدعوة اشتملت على إقامة الحجة البالغة في الدعوة إلى عبودية الله تعالى.
- دعت الآيات الكريمة إلى البراءة من ما يعبد من دون الله، وبينت عجزهم وضعفهم.
- الدعاة إلى توحيد الله من الأنبياء وغيرهم أقاموا الحجة على أقوامهم في عبادتهم غير الله.
- إنفراد الله تعالى بالخلق والتدبير دعوة للمشركين لأن يعبدوه وحده، إذ قد قامت الحجة عليهم؛ لأنهم علموا ذلك وأقروا به.

قواعد الدعوة

بالبحث فيما معنا من آيات الدعوة، ومعرفة كلام المفسرين حولها، نلاحظ أن هناك قواعد مهمة للدعوة، ذكرت في ثنايا الآيات، والتي منها ما يأتي:

أولًا: الإخلاص:

ذكر ابن القيم كلامًا مهمًّا في منزلة الإخلاص، كما ذكر تعاريف منها: أن الإخلاص: أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مجازيًا سواه[(١)].

وإخلاص الدعوة لله تعالى أمر واجب؛ ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يغل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة الأمر، والاعتصام بالجماعة)[(٢)].

ومن الآيات الواردة في الأمر بالإخلاص لمن سلك سبيل الدعوة، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩].

أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له، والدعاء يشمل دعاء المسألة،

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٩٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢١/ ٦٠، رقم ١٣٣٥٠، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٤٥، رقم ٦٧٦٦.

ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه[1].

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤].

أي: إذا كان الأمر كما ذكر من ذلك؛ فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التي أمركم بها ولو كره الكافرون ذلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغيظهم ويهلكوا بحسرتهم[2].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

يقول: هو الحي الذي لا يموت، الدائم الحياة، وكل شيء سواه فمنقطع الحياة غير دائمها، فلا معبود بحق تجوز عبادته، وتصلح الألوهية له إلا الله الذي هذه الصفات صفاته، فادعوه أيها الناس مخلصين له الدين، مخلصين له الطاعة، مفردين له الألوهية، لا تشركوا في عبادته شيئًا سواه، من وثن وصنم، ولا تجعلوا له ندًّا ولا عدلًا[3].

فتبين مما سبق أن الداعي لابد أن يكون مخلصًا مهمًّا كان موقعه، ومهما كانت منزلته في الدعوة إلى سبيل الله رب العالمين.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٥٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤١٠.

ثانيًا: العلم:

والعلم مفتاح كل شيء، ولا بد أن يكون الداعية عالمًا بشرع الله ليدعوا إلى الله على بصيرة[4].

ومن الآيات الواردة معنا في أهمية العلم في مجال الدعوة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

أي: على علم ودليل واضح وبرهان قاطع لا يترك في الحق لبسًا[5].

ويقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين: الإنس والجن، آمرًا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي[6].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر: ٦٦].

(٤) انظر: منهج ابن القيم في الدعوة، أحمد الخلف ١/ ٢٤٦.
(٥) العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٦٢.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٢.

يقول: لما جاءني الآيات الواضحات من عند ربي، وذلك آيات كتاب الله الذي أنزله[1]، من الحجج والآيات أو من الآيات فإنها مقوية لأدلة العقل منبهةً عليها[2]، فلست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة[3].

ولهذا يجب على الداعية أن يتعلم العلوم الشرعية؛ لأنه بذلك يدرك جميع صفات الكمال المطلوبة للداعية[4].

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه حسن السعي فيها[5].

ثالثًا: الرفق:

الرفق من الأمور المهمة التي ينبغي أن يتحلى بها جميع الدعاة؛ حتى تقبل دعوتهم.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه)[6].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤١١.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٢.
(٤) انظر: منهج ابن القيم في الدعوة، أحمد الخلف ١/ ٢٤٦.
(٥) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤٨٦.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، ٤/ ٢٠٠٣، رقم ٢٥٩٣.

وقال أيضًا: (من يحرم الرفق، يحرم الخير)[7].

ومن الآيات الواردة في بيان ذلك قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقًّا وغرضه صحيحًا ولما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بيّن أن الرشد والهداية ليس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك إليه تعالى، وإنما شرع الدعوة وأمر بها قطعًا للمعذرة، وتتميمًا للحجة، وإزاحةً للشبهة، وليس على الداعية غير ذلك، ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع إلى الحق فإن أبوا قوتلوا، أمر الداعي بأن يعدل في العقوبة[8].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾ [الأحقاف: ٣١-٣٢].

قوله: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أمر بإجابته في

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، ٤/ ٢٠٠٣، رقم ٢٥٩٣.
(٨) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٤٢.

كل ما أمر به، فيدخل فيه الأمر بالإيمان إلا أنه أعاد ذكر الإيمان على التعيين، لأجل أنه أهم الأقسام وأشرفها، وقد جرت عادة القرآن بأنه يذكر اللفظ العام، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه[1]، فاعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن، واعتبروا محمدًا صلى الله عليه وسلم داعيًا لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن، واستماع الثقلين له: فنادوا قومهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾[2]، فكان هؤلاء الدعاة من الجن متلطفين في خطاب قومهم، رفيقون بمن يدعونهم إلى الحق المبين.

رابعًا: مراعاة حال المدعوين:

يختلف حال المدعوّين من شخص لآخر ومن قبيلة لأخرى؛ لذا جاء في آيات الدعوة ما يبيّن كيفية التعامل معهم، ويوضح الطريق الذي ينبغي أن يسير عليه الداعية في دعوته مع الناس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ [آل عمران: ٦١].

ففي هذه الآية ومثيلاتها تظهر الشدة على هؤلاء المعاندين المكذبين.

(١) مفاتح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٢٣٧٤.

وقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم من كانوا يناظرونه في هذه القضية إلى هذا الاجتماع الحاشد، ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين؛ فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة وتبين الحق واضحًا[3]، فدل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فقد كان المؤمنون يسبون الأصنام بأنها أجرام لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر، فأنزل الله نهيهم عن ذلك لئلا يتذرع به المشركون فينتقمون منهم فيسبون ربهم[5]، فمثل هؤلاء لا يصلح ذم آلهتهم وسبّهم؛ لأنهم سيزدادون سفهًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: ٣٣-٣٤].

وهذا في حال من له عقل وخلق.

(٣) المصدر السابق ١/ ٤٠٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٣٣.
(٥) العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٨٦.

أي: ادفع يا محمد بحلمك جهل من جهل عليك، وبعفوك عمن أساء إليك إساءة المسيء، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منهم، ويلقاك من قبلهم[1]؛ لأن مقابلة إساءته بالإحسان تخجله وتقضي على عداوته حتى يضطر إلى أن يرجع صديقًا[2].

وقد ظهرت هذه المراعاة لأحوال المدعوّين جليةً واضحةً في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته، حيث بيّن دعوته، بل أمر معاذًا أن يراعي ذلك حين بعثه إلى اليمن.

خامسًا: الصبر:

يعتبر الصبر من القواعد الأساسية للدعاة، خاصةً وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصفوا بذلك في كثير من مواطن القرآن، بل أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال تعالى له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فيقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، مثبته على المضيّ لما قلّده من عبء الرسالة، وثقل أحمال النبوّة صلى الله عليه وسلم، وأمره بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على ما أصابك في الله من أذى مكذّبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار، ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدّة[3].

ويعد الصبر من أهم مقومات نجاح الداعية، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك زواجره، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسيةً يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عملًا صالحًا، ولا اعتقادًا صحيحًا[4]، وذلك للإيحاء للقلة المسلمة يومذاك في مكة أن تصبر كما صبر المختارون من بني إسرائيل، وتوقن كما أيقنوا، ليكون منهم

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٧١.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٤٣٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٤٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣١.

أئمة للمسلمين كما كان أولئك أئمة لبني إسرائيل؛ ولتقرير طريق الإمامة والقيادة، وهو الصبر واليقين[1].

وقد بيّن الله تعالى أن من علم أساس دعوته هان عليه ما يبذل من أجلها، فازداد صبرًا وثباتًا عليها كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾ [المؤمنون: ٧٣].

والداعية لا يمكنه الوصول إلى مبتغاه إلا أن يمر بجسر الابتلاء، وهذا يحتاج إلى وسيلة تذلل تلك العقبات ألا وهي: الصبر[2].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨١٤.
(٢) انظر: منهج ابن القيم في الدعوة، أحمد الخلف ١/ ٢٦٤.

المدعو إليه

أشار القرآن الكريم إلى مجموعة من الأمور التي يدعى إليها المدعوون، ومن تلك الأمور:

أولًا: الإيمان:

وحقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر؛ لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواءً شاهده، أو لم يشاهده، وسواءً فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه[3].

ومن الآيات التي تحدثت عن الدعوة إلى الإيمان بالله وما يتبع ذلك هذه الآيات التي بين أيدينا:

فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝١٠٣﴾ [البقرة: ١٠٣].

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٠.

أي: بما دعوا إليه من القرآن الحكيم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم[2].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، بمن قبل محمد من الأنبياء والرسل، وصدّقوا بما جاؤوهم به من عند الله ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، يقول: صدّقوا بالله وبمحمد رسوله، أنه لله رسولٌ، مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾، يقول: وصدّقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذي نزله الله عليه، وذلك القرآن ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، يقول: وآمنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل الكتاب الذي نزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو التوراة والإنجيل[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٨-٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: ٨].

وغيرها من الآيات كثير.

فهذه الآيات وغيرها ترشدنا إلى ما يأتي:

- أن أساس الدعوة هو وجوب الإيمان بالله تعالى وما جاء عنه.
- أن دعوة الرسول دعوة إلى الإيمان

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٣٦٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٣١٢.

الصحيح.

- أن آيات الدعوة والوعظ وغيرها اهتمت كثيرًا بتوجيه المؤمنين إلى ما يجب أن يستمسكوا به ويتخلقوا به؛ ليكونوا كاملي الإيمان.

ثانيًا: التقوى:

والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما، وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسمًا لتوقي جميع المعاصي، والبر اسمًا لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر[1].

وقد تقدم عن بعض ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٣].

يضاف إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

ومن أفضل ما قال المفسرون: في هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات زواجر عظيمة ينبغي لنا أن نعتبرها؛ لأن خالقنا جل وعلا بيّن لنا في أول سورة الأعراف من هذا المحكم المنزل الذي هو آخر كتاب نزل من السماء على آخر نبي بعثه الله في أرضه صلى الله عليه وسلم قال: إنه أنزل عليه هذا الكتاب ليخوف به الخلق من عقوبات خالق السماوات والأرض وسخطه، فإنه الجبار الأعظم الذي إذا سخط عاقب العقوبة المهلكة المستأصلة، فبهذا يجب علينا أن نتأمل في معاني القرآن، ونعرف أوامر ربنا التي أمرنا بها فيه، ونواهيه التي نهانا عنها، ونخاف من هذا الإنذار، والتهديد الذي أنزل هذا القرآن على الرسول ليفعله بمن لم يعمل بهذا القرآن العظيم.

فالإنسان يجب عليه أن يتدبر هذا القرآن العظيم، وينظر أوامره، وينظر نواهيه، ويعمل بما فيه من الحلال والحرام، فالحلال ما أحله الله في هذا القرآن وبينته السنة الكريمة، والدين ما شرعه الله؛ لأنه لا حكم إلا لله، فكل الأحكام هي لله، والتشريع لله، والتحليل والتحريم لله، وقد أنزل علينا هذا الكتاب ليخوفنا إذا لم نعمل بما فيه من العبر والآيات، فنحل حلاله، ونحرم حرامه، ونعتقد عقائده، ونعمل بمحكمه، ونؤمن بمتشابهه، ونعتبر بما فيه من الأمثال، وتلين قلوبنا لما فيه من المواعظ وضروب الأمثال. فهذا الإنذار لا ينبغي للمسلم أن يهمله ويعرض عنه صفحًا[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٥.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/١٨.

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم[١]، فاتقوه بطاعته واجتناب معصيته[٢]، أي: قل مناديًا لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمرًا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرًا لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما منّ الله عليهم به من الإيمان، فإنه موجب للتقوى[٣].

فالاهتمام بالدعوة إلى التقوى أمر جلي، دعت إليه الآيات وبيّنتها غاية البيان؛ ليعلم أن الأمر بالتقوى مقصد مهم عظيم من مقاصد الدعوة في القرآن الكريم.

ثالثًا: العبادة:

وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة[٤].

ويظهر ذلك في الآيات الواردة في موضوع الدعوة ومنها: قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].

فلما بين جل وعلا أنه العظيم الأعظم، خالق السماوات والأرض وخالق الشمس والقمر والنجوم، ومسخر الجميع، وبين عظمته وجلاله، أمر خلقه الضعاف المساكين أن يسألوه ويدعوه ليأتيهم بما يطلبون، ويكشف عنهم من الضر ما يسألون كشفه، والمراد بذلك: كأنه يقول: أنا العظيم الأعظم الجبار، الذي خلق السماوات والأرض والكواكب العظام، وأنا خالق كل شيء، وأنتم عبادي الفقراء الضعاف فادعوني؛ لأن الدعاء يستشعر به الداعي ذله وفقره وضعفه وحاجته، ويستشعر به عظمة من يدعو، وأنه عالم بكل شيء، لا يخفى عليه دعاؤه ولو كان في أخفى الخفاء، وأنه عظيم قادر على كل شيء، قادر على أن يذهب عنه بالضر ويأتيه بالخير، وهو من أعظم العبادات إذا كان مخلصًا فيه لله؛ ولذا أمر الله خلقه به في هذه الآية[٥].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

ذكر الطبري أقوال العلماء في بيان ذلك،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٧٩.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧٢٠.
(٤) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٥/ ١٥٤.
(٥) العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٣٩٨.

ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: استجيبوا لله وللرسول بالطاعة، إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق؛ وذلك أن ذلك إذا كان معناه، كان داخلًا فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب، أما في الدنيا، فبقاء الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة، وأما في الآخرة، فحياة الأبد في الجنان والخلود فيها[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٨-٤٩].

وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة، وأدعو ربي وحده، راجيًا -بسبب دعائي لله- ألا يجعلني شقيًّا، فالذي يرجوه إبراهيم هو مجرد تجنيبه الشقاوة، وذلك من الأدب والتحرج الذي يستشعره، فهو لا يرى لنفسه فضلًا، ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة!

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره، فلم يتركه الله وحيدًا[2].

رابعًا: الأخلاق:

يلاحظ أن الآيات التي تحدثت عن الأخلاق، تضمنت الدعوة لفعلها والتحلي بها، ومن الآيات الواردة معنا في ذلك ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب: ٥].

فهذا العدل الإلهي، أن لا ينال حقّ الابن إلا من يكون ابنًا، أما المتبنّى واللصيق فلا يكون له إلا حق المولى والأخ في الدين؛ فحرّم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعيّ لمن تبناه، وحظر عليهم أن يقتطعوا له شيئًا من حقوق الابن لا قليلًا ولا كثيرًا. وشدّد الأمر حتى قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر: هذا ابني، أو ينادى شخص آخر بمثل ذلك، لا عن قصد التبنّي[3]، وإنه لقسط وعدل أن يدعى الولد

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٦٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣١٢.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٨٤.

لأبيه، عدل للوالد الذي نشأ هذا الولد من بضعة منه حية. وعدل للولد الذي يحمل اسم أبيه، ويرثه ويورثه، ويتعاون معه ويكون امتدادًا له بوراثاته الكامنة، وتمثيله لخصائصه وخصائص آبائه وأجداده، وعدل للحق في ذاته الذي يضع كل شيء في مكانه، ويقيم كل علاقة على أصلها الفطري، ولا يضيع مزية على والد ولا ولد كما أنه لا يحمل غير الوالد الحقيقي تبعة البنوة، ولا يعطيه مزاياها. ولا يحمل غير الولد الحقيقي تبعة البنوة ولا يحابيه بخيراتها، وهذا هو النظام الذي يجعل التبعات في الأسرة متوازنة، ويقيم الأسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع، وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية بما فيها من الحق، ومن مطابقة الواقع الفطري العميق[1].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٢٥.

أساليب الدعوة

للدعوة أساليب تتّخذ للوصول إلى الهدف المطلوب من أقرب طريق وأخصره، وبالنظر في الآيات الواردة في الحديث عن الدعوة يمكن القول أن أساليب الدعوة كما يأتي:

أولًا: أساليب عقلية:

من أعظم الحجج التي تقام برهانًا للشيء ونفيه الحجج العقلية التي تلزم الخصم بالتسليم[2]، وهذا الأسلوب يستخدم مع المعارضين الجاحدين[3]، لتفنيد شبههم ومحاولة إقناعهم،ومن الآيات التي تتحدث عن هذا المقام ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٧].

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثًا، أي: أوثانًا وأصنامًا مسميات بأسماء الإناث كـ«العزى» و «مناة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى، فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه، أنها لا

(٢) انظر: معالم الدعوة، الديلمي ١/ ٢٩٩.
(٣) انظر منهج ابن القيم، أحمد الخلف ١/ ٣٣٦.

تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها بل ولا عن نفسها نفعًا ولا ضرًّا ولا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفئدة، فكيف يعبد من هذا وصفه ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد والجلال، والعز والجمال، والرحمة والبر والإحسان، والانفراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟

هل هذا إلا من أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟

ومع ذلك فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة، وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوهم الذي يريد إهلاكهم ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله[1]، فمن أصدق من الله قِيلاً، ومن أحسن من الله حديثًا، في بيان حقيقة ما يدعوه المشركون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

وإنما أطلق على الأصنام اسم العباد وعبر عنها بضمائر العقلاء؛ لأن الكفار يصفونها بصفات من هو خير من مطلق العقلاء، أنها معبودات، وأنها تشفع وتقرب إلى الله زلفى، فبهذا الاعتبار أجرى عليها ضمائر العقلاء، وعبر عنها بالعباد ووجه مماثلتهم هنا: أن الكفار العابدين، والأصنام المعبودات كلهم مخلوقات لله لا تقدر أن تجلب لنفسها نفعًا ولا أن تدفع عنها ضرًّا، فهم من قبيل تسخير الله لهم، وخلقه للجميع، وقدرته على الجميع، بهذا الاعتبار هم سواء[2].

ومن الآيات في هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٣.

(٢) العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ٤٢٦.

١٣-١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

وغيرها من الآيات، ومن خلال هذه الآيات ألحظ من الدلائل العقلية ما يأتي:

- أن من لم تكن دعوته ودعاؤه إلى الله تعالى فلا بد أن تكون شركًا لغير الله.
- كل ما يدعى من دون الله -مهما كانت منزلته- إنما هو عبد لله تعالى.
- الدعوة الحق هي الدعوة إلى الله والدعوة التي جاءت منه وأمرنا بها عن طريق رسله.
- من يدعى من دون الله تعالى لم يخلق نفسه أصلًا، فضلًا أن يكون مشاركًا لله في خلق السموات والأرض، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فضلًا عن أن يَهَبَهَا لغيره.

وبهذه الدلائل العقلية اتخذت الدعوة إلى الله أسلوبًا عقليًّا مقنعًا؛ لتبطل كل دعوة إلى غير الله، والأساليب العقلية التي وردت عن الأنبياء في دعوتهم سأشير إليها في نماذج الدعاة من الأنبياء.

ثانيًا: أساليب عاطفية:

ويظهر أن هذا الأسلوب قد يجمع بين أسلوبي الحكمة والموعظة، فأسلوب الحكمة لأصحاب العقول النيرة والفطر المستقيمة، وأسلوب الموعظة أسلوب يسهل فيه الوضوح البساطة وعدم التعقيد[(١)].

والآيات في ذلك كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

فالله تعالى يقول لهم بخطاب الرأفة والرحمة، اقبلوا من الله ما أمركم به فاعملوا به، وانتهوا عما نهاكم عنه، فإنه يدعوكم إلى الجنة، يعني: بذلك يدعوكم إلى العمل بما يدخلكم الجنة، ويوجب لكم النجاة إن عملتم به من النار، وإلى ما يمحو خطاياكم أو ذنوبكم، فيعفو عنها ويسترها عليكم[(٢)]، فيا بئس من ترك دعوة الله واتبع ما يغضبه ويأباه.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمر

(١) انظر: منهج ابن القيم في الدعوة، أحمد الخلف ١/ ٣٠١-٣٠٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٧١.

بالمعروف وتنهى عن المنكر، لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته، فهناك دعوة إلى الخير، ولكن هناك كذلك أمر بالمعروف، وهناك نهي عن المنكر، وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن الأمر والنهي لا يقوم بهما إلا ذو سلطان، هذا هو تصور الإسلام للمسألة، إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى، سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله، سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر، وتحقيق هذا المنهج يقتضي دعوة إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج[1].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

أي: ومن هذه صفته كيف يعبد؟ ومن حق المعبود أن يكون خالقًا لعابده لا محالة وهم يخلقون، أي: بل هم مخلوقون مصنوعون[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٣١-٣٢].

والأساليب العاطفية التي وردت عن الأنبياء في دعوتهم سأشير إليها في نماذج الدعاة من الأنبياء، وهذا الأسلوب يجمع بين العاطفة والعقل.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٤٤.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٣٧.

ثالثًا: أساليب حسية:

من الأساليب التي سلكتها الآيات في بيان طريق الدعوة ووجوب الاعتصام بها الأساليب الحسية، فما من نبي يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى إلا أجرى الله له من المعجزات الحسية ما يؤكد صدق دعوته، والأساليب الحسية التي وردت عن الأنبياء في دعوتهم سأشير إليها في نماذج الدعاة من الأنبياء.

ومن الأساليب الحسية الواردة في آيات الدعوة ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣].

يقول تعالى منكرا على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم، وهما: التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد[1].

فهذان أمران حسيان كتاب الله الذي كان بأيديهم، ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الذي جاء به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فالنهي عن مباشرة شيء يشاهده الذين يدعون من دون الله ويسمعونه.

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، وهي أصل أصيل في سد الذرائع وقطع التطرق إلى الشبه[2]، فإحساس المشركين بسبّ آلهتهم يجعلهم يسبون الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤١].

ففي هذه الآية الكريمة عاب الله على الكفار سخافة عقولهم، وأنهم إذا نزلت بهم شدة من العظائم الشداد -كمشاهدة العذاب أمام أعينهم وإحساسهم به، أو لو رأوا الساعة عيانًا وأحسوا بها- أخلصوا في ذلك الوقت الدعاء إلى الله، وتركوا دعاء غير الله؛ لعلمهم بأنه لا ينفع ولا يضر وهذا ذم من الله للكفار، ذمهم به في آيات كثيرة من كتابه[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٧٢.

(٣) العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٢٣٣.

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

والسياق يعرض هذا المشهد، مشهد الفلك في البحر، نموذجًا للحظات الشدة والحرج؛ لأن الشعور بيد الله في الخضم أقوى وأشد حساسية، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم، تتقاذفها الأمواج والتيارات والناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمن، إنه مشهد يحس به من كابده، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك صغيرًا كان أو كبيرًا[1]، فهو أسلوب حسي قويم في الدعوة إلى توحيد الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

وكل هالك فهلاكه محسوس بين الخلائق حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يبقى إلا الله وحده؛ لذا وجب أن لا يدعى إلا هو.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

أي: ائتوني بكتاب من قبل هذا الكتاب يعني القرآن فإنه ناطق بالتوحيد، أو أثارة من علم أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين عل فيها ما يدل على استحقاقهم للعبادة أو الأمر به[2]، فلا بد من إقامة الدليل الحسي من كتاب قديم أو علم يدل دلالةً واضحةً على جواز دعواهم لغير الله تعالى، ولما لم يكن لهم دليل على ذلك؛ ظهر بطلان ما يدعونه وقامت الحجة عليهم، مما يوجب عليهم الرجوع من الدعوى الباطلة، إلى لزوم دعوة الحق والاعتصام بها.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٠.

(٢) انظر: الكشاف الزمخشري ٤/ ٢٩٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١١١.

موقف المدعوين من الدعوة

تعتبر الدعوة أمرًا موجّهًا إلى جميع الثقلين استنادًا لأصل الإيجاد؛ ذلك أن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد كانت الرسل ترسل إلى أممها، فمنهم من يستجيب لهم، ومنهم من يعرض عنهم، ومنهم من يصدهم عن دعوتهم وتبليغ رسالتهم، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: المستجيبون للدعوة:

الضعفاء هم أكثر أتباع الرسل، وذلك كما قال تعالى -وهو يحدثنا عن ما جرى بين نوح وقومه أنهم قالوا له: -كما حكاه الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٥-٢٧].

فهذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح سواءً اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالبًا أن من يتبع الحق هم ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته[1].

وجاء في حديث ابن عباس أن هرقل لما سأل أبا سفيان قال له: «فأشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال أبو سفيان بل: ضعفاؤهم، فقال هرقل: كذلك هم أتباع الرسل[2].

ومن الآيات الواردة في بيان المستجيبين للدعوة:

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وتأويل الآية: ربنا سمعنا داعيًا يدعو إلى الإيمان والتصديق بك، والإقرار بوحدانيتك، واتباع رسولك، وطاعته فيما أمرنا به ونهانا عنه مما جاء به من عندك ﴿فَآمَنَّا رَبَّنَا﴾، يقول: فصدقنا بذلك يا ربنا؛ فاستر علينا خطايانا، ولا تفضحنا بها في القيامة على رءوس الأشهاد، بعقوبتك إيانا عليها، ولكن كفّرها عنا، وسيئات أعمالنا،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧٤.
(٢) أخرجه البخاري في صيححه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ١/ ٨، رقم ٧.

وامحها بفضلك ورحمتك إيانا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾[1]، فهي قلوب مفتوحة ما إن تتلقى حتى تستجيب، وحتى تستيقظ فيها الحساسية الشديدة، فتبحث أول ما تبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها، فتتجه إلى ربها تطلب مغفرة الذنوب وتكفير السيئات، والوفاة مع الأبرار[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦].

أي: لا يجيبك إلى ما تطلب وتدعو من الهدى، إلا الذين يسمعون، أي: جعل الله لهم سماع حق وتفهّم يسمعون به عن الله، أما الذين أعمى الله أبصارهم، وختم على آذانهم فلا يجيبونك أبدًا، فلا تحزن عليهم[3]، فالذين يستجيبون لدعوة الأنبياء هم الذين استخدموا عقولهم وسمعهم وأبصارهم الاستخدام الحقيقي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

قيل: إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام، أي: ألهموا ذلك، فامتثلوا ما ألهموا، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك[4].

فهي دعوة للاستجابة لرسولهم، وفيه دلالة على أن هناك استجابة في الأمم قبلهم وبعدهم.

ثانيًا: المعرضون عن الدعوة:

والأصل في المعرض أنه لم يقبل الدعوة أصلًا، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

فالذي يترك الدعوة الحق فهو معرض عنها لا محالة.

ومن لم يجب داعي الله تعالى، وأجاب داعي غيره إما آلهة ما أنزل بها من سلطان، أو الشيطان الرجيم وغيره، فذلك كما أخبرنا الله تعالى عن حاله بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

أي: دعوتكم إلى طاعتي ومعصية الله،

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٨٢.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٤٧.
(٣) العذب النمير، الشنقيطي ١/ ١٩٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٠١.

فاستجبتم لدعائي[1]، يعني: ما كان مني إلا مجرد هذه الدعوة[2]، فعادة المعرض أن يعرض عن أمر لاستحسان غيره في نفسه، أو للحصول على شيء معين مع علمه بصفاء ما أعرض عنه، أو غير ذلك من الأمور الصارفة عن الحق إلى الباطل.

ومن كان في طاعة الهوى في دينه، يتبعه في كل ما يأتي ويذر، لا يتبصر دليلًا، ولا يصغى إلى برهان؛ فهو عابد هواه، وجاعله إلهه[3].

ثالثًا: الصادون عن الدعوة:

وأكثر الصادين عن الدعوة هم الكبراء والمنافقون، ففي حال الكبراء يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف: ٤٥].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: ٣٤].

ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود: ١٩].

ويقول تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزخرف: ٥٧].

وقد كان أكابر القوم -الذين كانوا يخافون انتشار الدعوة بين الناس- يحرصون كل الحرص على إيجاد الهوّة بين الأنبياء وسائر الناس، وهذا الأسلوب من أخطر الأساليب في الصد عن دين الله، التي مارسها أعداء الدعوة منذ القدم[4].

ومن الآيات الواردة في شأن الدعوة والتي تبين حال هؤلاء قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وهذه نتيجة صدهم التي يصبون إليها، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

وهذا المقام الذي تبوؤوه فصدوا عن دعوة الله، وقادوا غيرهم لدعوى باطلة، ومن أوضح ما يميزهم ويوضح حالهم بكل جلاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢].

وما الذي أوصلهم إلى هذا الأمر إلا اتباع أهوائهم ودعوة غير الله تعالى والإعراض عن دعوته؛ لذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالتباين التام معهم فقال له: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قُل

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٦١.
(٢) مفاتح الغيب، الرازي ١٩/ ٨٦.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٨٢.
(٤) معالم الدعوة، الديلمي ٢/ ٧٢٦.

﴿لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام: ٥٦].

بل ربما وصل الأمر بالصد عن الدعوة ولو في جزء منها، كما قال تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

فعادة البخيل إن تمكن منه البخل؛ دعا غيره إلى أن يكون بخيلًا مثله، وربما شجّعه على ذلك وذكر له ما يخيل إليه أن البخل خير من الإنفاق، كما قال تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء: ٣٦-٣٧].

فدعوة الله تعالى لهم للإنفاق قد أعرضوا عنها وأمروا غيرهم وصدوهم عن دعوة الله تعالى.

ومن شأن الكفار أن يبذلوا كل سبيل للصد عن سبيل الله تعالى، سواءً كان صدًّا عن اتباع حملة الحق ودعاته، أو صد الدعاة عن استمرارهم في الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ دينه إلى الناس[1].

(١) المصدر السابق ٢/ ٧٧١.

نماذج من الدعاة

أولًا: الأنبياء والرسل:

تعتبر قصص القرآن الكريم من القضايا التي تكررت كثيرًا خاصةً فيما جرى بين الأنبياء وبين أقوامهم.

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع: فالنوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام[1].

وحتى لا يطول الحديث عن هذه النماذج فسأذكر ذلك في أمرين:

١. دعوة الرسل عمومًا.

دعوة الرسل أجمع هي: الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وحده دون سواه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥].

وأمر الله تعالى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

وكانت القاعدة العامة في كل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص٣١٧.

فعلم من هذا أن دعوة الرسل جميعًا هي: الدعوة إلى توحيد الله تعالى وحده لا شريك له، وكان هذا جواب من النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة حين قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، فقال: (دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصرى)[1].

ودعوة الرسل في القرآن الكريم لم تذكر فيها من التفصيلات سوى اليسير، وجلّ ما ذكر عنهم هو الاهتمام بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، والكفر بكل الطواغيت التي تعبد من دون الله[2].

وهذا هو الأصل؛ لأن الداعي لا ينتقل إلى الفروع إلا بعد التأكيد على معاني العقيدة، كما فعل الأنبياء في دعوتهم[3].

٢. نماذج من دعوة الرسل.

وسأذكر من الرسل: نوحًا وإبراهيم وموسى ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام وذلك فيما يأتي:

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٧٩، رقم ١٧١٥٠، عن عرباض بن سارية.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٣٠٥، رقم ٢٠٩١.
(٢) معالم الدعوة، الديلمي ١/ ٦٣.
(٣) انظر: أساليب الدعوة، عبدالكريم زيدان ص٤٢٣.

❁ دعوة نوح عليه السلام.

وأهم الآيات التي تتحدث عن دعوته عليه الصلاة والسلام ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

مع طول مدة الدعوة إلا أنهم لم ينجع فيهم البلاغ والإنذار[4]، بسبب كفر قومه.

قال الزمخشري: «فإن قلت: هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة؟

قلت: ما أورده الله أحكم، لأنه لو قيل كما قلت، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك، وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد، إلا أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظًا وأملأ بالفائدة، وفيه نكتة أخرى: وهي أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمّته وما كابده من طول المصابرة، تسليةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيتًا له، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه، أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدّة صبره»[5].

وكان الوقت الذي قضاه نوح عليه السلام وقتًا طويلًا، ومع ذلك كان فيه كامل النشاط

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٢.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٤٥.

جادًّا في العمل؛ لأن من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، وهذا مما يوجب على الدعاة بعده الاقتداء به في ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

بمعنى إن كان الأمر قد بلغ منكم مبلغ الضيق، فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم، ودعوتي لكم، وتذكيري لكم بآيات الله، فأنتم وما تريدون، وأنا ماض في طريقي لا أعتمد إلا على الله، فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعًا؟ كان معه الإيمان، القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير[1].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٠-٤٣].

حرص نوح عليه السلام على دعوة قومه عامة، وأهل بيته خاصة.

وتصف الآيات السابقة ما دار بين نوح عليه السلام وابنه، فقد كان ذلك النداء من نوح لابنه خوفًا عليه من الغرق[2]، وشفقة الأبوة حملته على ذلك النداء[3]؛ لكن الابن كان كافرًا، عَمِل عملًا غير صالح، فخالف أباه في دينه ومذهبه، فهلك مع من هلك، وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب، لما كانوا موافقين في الدين والمذهب[4].

وكانت عاطفة الأبوة ظاهرةً في محاولة إنقاذ نوح لابنه من الغرق في شدة تلاطم الأمواج، وكان أسلوب العاطفة ظاهرًا في مناداة نوح لربه حتى بعد انقضاء الأمر، وتوقف الماء، إضافةً إلى ذلك أنه قد استخدم مع قومه الأسلوب الحسي، فقبل الغرق حثهم على التفكر في مطر السماء والحصول على المال والبنين، والسموات

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٨١١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٢١.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٣٥١.

(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٠٣.

الطباق، ونور القمر وسراج الشمس وغيره، وفي حادثة الغرق أراهم صناعة السفينة وأمرهم بالركوب فيها وحذرهم من الغرق.

وقال تعالى في سورة نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: ٥-٩].

بينت هذه الآيات شيئًا من معالم دعوة نوح عليه السلام، فهو يدعو قومه دائمًا بلا فتور ولا توان[١]، ويدعوهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، فلم ينجع ذلك فيهم[٢].

ونبيّ الله نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بذل كل ما يمكنه في سبيل الدعوة إلى الله[٣]، وهذه السورة كلها تقص قصة نوح عليه السلام مع قومه، وتصف تجربةً من تجارب الدعوة في الأرض، وتمثل دورةً من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية، وشوطًا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل ثم هي بعد هذا وذلك، تعرض صورةً من صور الجهد المضني، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب الرسل صلوات الله عليهم لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة، وهي حصيلة مريرة.

ولكن الرسالة هي الرسالة، وهذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان، واضطلع بأكبر عبء كلّفه رسول، يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل، لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض، ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق، وفساد القيادة الضالة، وغلبتها على القيادة الراشدة.

ثم إرادة الله في إرسال الرسل تترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدّها نوح عليه السلام، وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة، وعلى الأمة المسلمة بعامة، وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض، وللمنهج الإلهي المنبثق من هذه الدعوة، القائمة عليه في وسط الجاهلية المشتركة يومذاك، وفي وسط كل جاهلية تالية، ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبي البشرية الثاني، كما ترى فيها عناية الله بالقلة المؤمنة، وإنجاءها من الهلاك الشامل

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٣٢٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٥٦.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٠٦.

في ذلك الحين[1].

فهل يتعظ بذلك الدعاة الذين سرعان ما يستولي اليأس على نفوسهم، ويسيئون الظن بأقوامهم، فيتسرعون في إصدار الأحكام الظالمة عليهم، وينهزمون أمام أية صدمة يتعرضون لها[2]، وبالفعل فإن دعوة نوح دائمًا ما تكون منطلقًا للدعاة إلى الله في الأخذ بمتطلبات الدعوة؛ خاصة في عدم الاستعجال.

❁ دعوة إبراهيم عليه السلام.

وأهم الآيات التي تتحدث عن دعوته عليه الصلاة والسلام ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

فدعوته عليه السلام أساسها التوحيد، وبنيانها الإخلاص لله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

فهذا إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم، وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تعريض بمعاندي أهل الكتاب والمشركين، أي لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء إلا من سفه نفسه، أي: حملها على السفه وهو الجهل[3].

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خالف إبراهيم فيما سن لمن بعده، فهو لله مخالف، وإعلام منه لخلقه أن من خالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهو لإبراهيم مخالف، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه اصطفاه لخلته، وجعله للناس إمامًا، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة، ففي ذلك أوضح البيان من الله تعالى ذكره عن أن من خالفه فهو لله عدو لمخالفته الإمام الذي نصبه الله لعباده[4]، ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين[5]، فأصل الدعوة وأساسها دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ملة التوحيد والتي أكّدها وختمها محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد بين القرآن الكريم أن من الأساليب الدعوية التي استعملها إبراهيم عليه السلام: أسلوب الجدل والمناظرة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٠٧.
(٢) منهج الأنبياء في الدعوة، محمد سرور ص٥٦.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٠٠.
(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٩١.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢٥.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

أي: إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادعيت تحيي وتميت، فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام؛ بهت: أي: أخرس، فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة[1]، وكانت هذه المناظرة دعوة من إبراهيم عليه السلام إلى توحيد الله تعالى والكفر بكل ما يدعى من دون الله، وبيان بطلانه والمجادلة في ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٧٤-٨١][2].

يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مثنيًا عليه ومعظمًا حاله لدعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك[3].

وقد شرح فرق المشركين - الذين تجب دعوتهم- في هذه السورة على أحسن الوجوه؛ وذلك لأن طائفة من المشركين يجعلون الأصنام شركاء لله تعالى، وإليهم الإشارة بقوله حكاية عن إبراهيم[4].

ولقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم ليدحض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه، ولقد كشف لهم عن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٥.

(٢) ووردت مثل هذه الآيات في سورة الصافات برقم ٨٣- ١١١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٦٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٧٨.

وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه، وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله، ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان في الكون، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة، فلما واجههم إبراهيم، بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة، لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها، سقطت حجتهم، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدةً وحجةً ومنزلةً[1]، كان أسلوبه قويًّا واضحًا استطاع من خلاله أن يوقعهم في معرفة بطلان دعوتهم.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠].

تبين هذه الآيات أن من الأساليب الدعوية التي استعملها إبراهيم عليه السلام: المواجهة المباشرة، والتغيير باليد.

وهذا أسلوب دعوي عملي وهو: إزالة المنكر فعلًا[2].

فيخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه[3]، فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي، أما الدليل العقلي فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم أن الله وحده، الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٤٢.

(٢) انظر: أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان ص٤٨٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٠٥.

والأرض، المدبر لهن، بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطورًا مدبرًا متصرفًا فيه، ودخل في ذلك، جميع ما عبد من دون الله، أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقًا متصرفًا فيه، لا يملك نفعًا، ولا ضرًّا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟ وأما الدليل السمعي فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم: شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلهذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصًا أولي العزم منهم خصوصًا خليل الرحمن[1].

وحقًّا لقد كانت الأولى رجعةً إلى النفوس، وكانت الثانية نكسةً على الرؤوس كما يقول التعبير القرآني المصور العجيب، كانت الأولى حركةً في النفس للنظر والتدبر، أما الثانية فكانت انقلابًا على الرأس فلا عقل ولا تفكير، وإلا فإن قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم. وأية حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون؟! ومن ثم يجبهم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم؛ لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم[2]، فها هو خليل الرحمن برشده وحسن دعوته يستخدم أسلوبًا عمليًا مؤيدًا بالعقل والسمع في بيان سلامة دعوته، وإبطال دعوة قومه.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤١-٥٠].

فقال لأبيه متلطفًا في دعوته إلى التوحيد ونهيه عن عبادة الأصنام: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا؟[3].

بهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٨٧.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٩٩.

إلى أبيه، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه وهو يتحبب إليه فيخاطبه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ هذه هي اللمسة الأولى التي يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه، ثم يتبعها بأنه لا يقول هذا من نفسه، إنما هو العلم الذي جاءه من الله فهداه، ولو أنه أصغر من أبيه سنًّا وأقل تجربةً، ولكن المدد العلوي جعله يفقه ويعرف الحق فهو ينصح أباه الذي لم يتلق هذا العلم، ليتبعه في الطريق الذي هدي إليه[1].

ولهذا كثيرًا ما يبدئ ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم، بسبب ما قاموا به، من عبادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية، فذكر الله في هذه السورة جملةً من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والاقتداء بهم[2].

لذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر في الكتاب الذي هو القرآن العظيم المنزل إليه من الله (إبراهيم) عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ويتلو على الناس في القرآن نبأه مع قومه، ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وكرر هذا المعنى المذكور في هذه الآيات في آيات أخر من كتابه جل وعلا[3]، فاستخدم عليه السلام الأسلوب العاطفي الرائع الذي يدل على عظيم حلم وكثير كرم، لكن أباه الكافر رفض دعوته.

دعوة موسى عليه الصلاة والسلام.

وأهم الآيات التي تتحدث عن دعوته عليه الصلاة والسلام ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥].

أي: أمرناه قائلين له أخرج قومك من الظلمات إلى النور، أي: ادعهم إلى الخير؛ ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان[4].

وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٣٢١١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٤.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٢٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٠.

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [طه: ٩-٢٤].

يقول تعالى ذكره: إنني أنا المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، لا إله إلا أنا فلا تعبد غيري، فإنه لا معبود تجوز أو تصلح له العبادة سواي[١].

ولما أوحى الله إلى موسى، ونبّأه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر، فقال: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: تمرّد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية -قبحه الله- أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحدًا، إلا بعد قيام الحجة بالرسل، فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملًا عظيمًا، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي هي من تمام الدعوة، فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ أي: وسّعه وأفسحه؛ لأتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم[٢].

والذهاب المأمور به ذهاب خاص، قد فهمه موسى من مقدمات الإخبار باختياره، وإظهار المعجزات له، أو صرّح له به وطوي ذكره هنا على طريقة الإيجاز، على أنّ التّعليل الواقع بعده ينبىء به[٣]؛ ولما آنسه بالعصا واليد، وأراه ما يدل على أنه رسول، أمره بالذهاب إلى فرعون، وأن يدعوه[٤].

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة: أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون بالرّفق واللّين، لا بالقسوة والشدة والعنف[٥].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٨٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢١٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٩٢.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٥.

﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا
أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾
فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ
يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ
مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ
أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا
أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ
فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ
الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ
﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن
نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا
سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو
بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ
أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾
فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا
هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ
سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٢٠].

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة وإظهاره الآيات البيّنات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، مظهرًا بأنه لا يقول على الله إلا الحق، أي: جدير بذلك وحري به، فحق عليّ أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم شأنه ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلًا على صدقي فيما جئتكم به ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم فإنهم من سلالة نبي كريم[1].

وفي سورة الشعراء: جرت في دعوة موسى المجادلة والتحاور، واستخدم موسى الأدلة العقلية كأسلوب في دعوته لفرعون وقومه: فقال فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[الشعراء: ٢٧].

يقول: إن رسولكم هذا الذي يزعم أنه أرسل إليكم لمغلوب على عقله، لأنه يقول قولًا لا نعرفه ولا نفهمه، وإنما قال ذلك؛ لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا رب غيره يعبد، وأن الذي يدعوه إليه موسى باطل ليست له حقيقة، فقال موسى عند ذلك محتجًّا عليهم، ومعرفهم ربهم بصفته وأدلته، إذ كان عند قوم فرعون أن الذي يعرفونه ربًّا لهم في ذلك الوقت هو فرعون فلما أخبرهم عليه السلام بالأمر الذي علموا أنه الحق الواضح، إذ كان فرعون ومن قبله من ملوك مصر لم يجاوز ملكهم عريش مصر، وتبين لفرعون ومن حوله من قومه أن الذي يدعوهم موسى إلى عبادته، هو الملك الذي يملك الملوك، قال فرعون حينئذ استكبارًا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٨.

عن الحق، وتماديًا في الغي لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾[الشعراء: ٢٩].

يقول: لئن أقررت بمعبود سواي ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩][(١)].

يريد أن يتهكّم على مسألة الرسالة في ذاتها؛ فيبعد القلوب عن تصديقها بهذا التهكم، لا أنه يريد الإقرار بها والاعتراف بإمكانها، ويتهم موسى عليه السلام بالجنون؛ ليذهب أثر مقالته التي تطعن وضع فرعون السياسي والديني في الصميم. وترد الناس إلى الله ربهم ورب آبائهم الأولين، ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت في عضد موسى، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤].

وفي قوله هاهنا: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ تنبيهٌ على عظم جرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره[(٣)]، فدعاهم إلى التوبة من ذلك.

وقال تعالى عن قصة عبادتهم للعجل: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٥٥].

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٤٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٢، وذكر كلامًا مهمًّا عند تفسير هذه المحاورة بين موسى وفرعون.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٦٤.

فيخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل، في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلًا، جسدًا لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى صار يسمع له خوار -كصوت البقر- وإنما أضاف الصوت إليه؛ لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول إخبارًا عن نفسه الكريمة ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[1].

وذكر جل وعلا: أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه بعد مجيئه للميقات في حال كونه في ذلك الرجوع غضبان أسفًا على قومه من أجل عبادتهم العجل[2].

ومع شدة غضبه إلا أنه دعاهم وأكّد ما دعاهم إليه من قبل فقال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ للتذكير بالبون الشاسع بين حال الخلف وحال المخلوف عنه، وتصوير لفظاعة ما خلفوه به، أي: بعدما سمعتم مني التحذير من الإشراك وزجركم عن تقليد المشركين[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢٠-٢١].

أمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشرهم بالنصرة، والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين سنةً عقوبةً لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى[4]، فهم لما رفضوا دعوة موسى عليه السلام وتركوا أمر ربهم عاقبهم سبحانه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٨٤.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٧٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١١٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٧.

(٣١) [البقرة: ٦٧-٧١].

أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلًا وادّارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلفتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد -لولا تبيين الله لكم- لحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبيين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره، وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فقال نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباد الله، فلما قال لهم موسى ذلك؛ علموا أن ذلك صدق فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾[1]، وهذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم الله به ولو تركوا التعنت والأسئلة المتكلفة لأجزأهم ذبح بقرة من عرض البقر، ولكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم[2]، فكانت هذه دعوة منه عليه السلام لتنتهي قصة القتيل، فلم يستجيبوا لهذه الدعوة، واتخذوا مسلك العناد والتعنت فكانت النتيجة أن شدّد عليهم في شأن هذه البقرة، لما لم يستجيبوا لدعوة نبيهم من أول مرة.

❁ دعوة محمد صلى الله عليه وسلم.

وتعتبر دعوته صلى الله عليه وسلم خاتمة الدعوات وأفضلها وأكملها وأشرفها، فكان شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ولقد حظيت دعوته بأنواع الأذى ولاقت صنوف العذاب، حتى مكّن الله تعالى لها في الأرض، ويعتبر النظر في القرآن الكريم كله نظرٌ إلى الدعوة التي جاء بها، وسار عليها، وجاهد من أجلها، والنظر في سنته يبيّن مجمل دعوته، ويخصص عامّها، ويقيد مطلقها، ويوضحها غاية الوضوح.

وكذلك النظر في سيرته التي توضح المنهج الدعوي الذي سار عليه ويجب على الأمة أن تمضي عليه[3].

فظهر من دعوة هؤلاء الأنبياء أنهم دعوا أقوامهم إلى التوحيد، وبذلوا كل ما يستطيعون في سبيل هذه الدعوة، فكانت طريقًا ناح من أجله نوح، وألقي في النار إبراهيم، وعالج موسى بني إسرائيل أشد المعالجة، وعالج أنواع الأذى محمد، ولقد

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ١١٤.
(٣) انظر: منهج النبي في الدعوة، محمد أمحزون ص٣٥٦.

كانوا صابرين في سبيل دعوة ربهم، مضحّين بكل شيء من أجلها، سالكين كل سبيل ينقذ قومهم من عذاب الله تعالى.

ثانيًا: المصلحون و أتباع الرسل:

لما دعا الأنبياء إلى الله تعالى آمن بهم بعض الناس، ومن هؤلاء المؤمنين من سار على درب رسله، وعلم أنه لا بد أن يدعو إلى المنهج الذي جاءت به الرسل.

ومن تلك النماذج:

ما ذكره الله عز وجل من قصة صاحب الجنتين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: ٣٧-٤٢].

فقال له صاحبه أي: الذي عيره بالفقر، تعييرًا له على كفره، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يراجعه كلام التعيير على الكفر، محاورته كلام التعيير على الفقر، في ضمن النكير عليه، ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: يجعل التراب نباتًا، ثم جعله غذاءً يتولد منه النطفة، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: عدلك وكملك إنسانًا ذكرًا بالغًا مبلغ الرجال؟[1].

فذكره صاحبه المؤمن حاله الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلًا كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة، والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب، وهيأ لك ما هيأ من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك.

فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلًا، وتجحد نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك؟

ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده، هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال: أنت -وإن فخرت علي بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقل منك مالًا وولدًا- فإن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه، أفضل من جميع الدنيا، التي

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٤.

يتنافس فيها المتنافسون[1].

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب، هكذا يستشعر الداعية المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله، وأن نقمة الله جبارة، وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين[2].

فدعاه إلى الله والاعتراف بنعمته عليه؛ ولم يمنعه فقره ولا قلته عن دعوة متكبر على عباد الله أن يرجع إلى الله ويستسلم لأمره، ويعرف حقه في ما أكرمه به.

ومن نماذج الدعاة الناصحين الذين ذكرهم القرآن: صاحب ياسين.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٠-٢٧].

جاء من أقصى مدينة القوم الذين أرسلت إليهم الرسل رجل يسعى إليهم؛ وذلك أن أهل المدينة عزموا، واجتمعت آراؤهم على قتل الرسل الثلاثة فيما ذكر، فبلغ ذلك هذا الرجل، وكان منزله أقصى المدينة، وكان مؤمنًا، فكان هذا حرصًا على نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما ردّ به قومه عليهم فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة، ثم ذكر تأييدًا لما شهد به ودعا إليه[3].

فجاء من أقصى المدينة يسعى؛ ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين، وإن الذي يدعو مثل هذه الدعوة وهو لا يطلب أجرًا ولا يبتغي مغنمًا؛ إنه لصادق، وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفًا من الله؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم، وهو لا يجني من ذلك كسبًا، ولا يطلب منهم أجرًا؟

وهداهم واضح في طبيعة دعوتهم، فهم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٣.

يدعون إلى إله واحد، ويدعون إلى نهج واضح، ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض، فهم مهتدون إلى نهج سليم، وإلى طريق مستقيم، وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة، وأشهدهم عليها، وهو يوحي إليهم أن يقولوها كما قالها، أو أنه لا يبالي بهم ماذا يقولون.

ويوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه، وإن كان لا يذكر شيئًا من هذا صراحة، إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم وما هم فيه ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق، متبعًا صوت الفطرة، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل، نراه في العالم الآخر، ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد[1].

فهذا مؤمن واحد آمن وصدق برسالة رسله، ثم دعا إلى اتباعهم وتحمّل البلاء في ذلك، ومات من أجل دعوته الصحيحة التي ترشد إلى عبودية الله تعالى وحده دون سواه.

ومن النماذج القرآنية للدعاة المصلحين: مؤمن آل فرعون.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٣٨-٤٦].

فإنه كان مؤمنًا كما وصفه الله، ولا يشك المؤمن وذكّرهم ما هم فيه من الملك؛ ليشكروا الله ولا يتمادوا في كفرهم، ثم كرر ذلك الرجل المؤمن تذكيرهم، وحذّرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم، وكرر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى الله وصرح بإيمانه، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم، وأنه إنما تصدى للتذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى، كما يقوله الرجل المحب لقومه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٦٤.

من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه.

ثم فسر الدعوتين فقال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ وليس له دعوة توجب له الألوهية في الدنيا ولا في الآخرة، ومرجعنا ومصيرنا إلى الله بالموت أولًا، وبالبعث آخرًا، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر، ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، أي: المستكثرين من معاصي الله، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ إذا نزل بكم العذاب وتعلمون أني قد بالغت في نصحكم وتذكيركم[1].

وشتان بين دعوة ودعوة، إن دعوته لهم واضحة مستقيمة، إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار، يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره، يدعوهم إليه؛ ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر، الذي تفضل بالغفران: ﴿الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾، فإلى أي شيء يدعونه؟

يدعونه للكفر بالله، عن طريق إشراك ما لا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز.

ويقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شيء، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة، وأن المرد لله وحده، وأن المسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار[2].

فهذا الرجل من قوم فرعون آمن بموسى عليه السلام، ولما علم أن الخير في دعوة موسى دلّ قومه عليها، وحذرهم من مخالفتها، وبين لهم بطلان دعوتهم أمام دعوة الله فكان من أفضل الداعين.

ومن النماذج أيضًا: دعاة الجن.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الخلق إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة، فالإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ أي: وصى بعضهم بعضًا بذلك،

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٦٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٨٣.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وقد وعوه وأثر ذلك فيهم ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ نصحًا منهم لهم، وإقامةً لحجة الله عليهم، وقيضهم الله معونةً لرسوله صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته في الجن[1].

فيقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هؤلاء النفر من الجنّ قالوا لقومهم: أجيبوا رسول الله محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله، وصدّقوه فيما جاءكم به وقومه من أمر الله ونهيه، وغير ذلك مما دعاكم إلى التصديق به؛ يغفر لكم ذنوبكم فيسترها لكم، ولا يفضحكم بها في الآخرة بعقوبته إياكم عليها، وينقذكم من عذاب موجع إذا أنتم تبتم من ذنوبكم، وأنبتم من كفركم إلى الإيمان بالله وبداعيه، ومن لا يجب أيّها القوم رسول الله محمدًا صلى الله عليه وسلم، فليس بمعجز ربه بهربه، إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه، وليس لمن لم يجب داعي الله من دون ربه نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه ربه على كفره به وتكذيبه داعيه[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ١-٣].

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾ [الجن: ١٥-١٧].

وهذه السورة سميت بهذا الاسم لاشتمالها على تفاصيل أقوالهم في تحسين الإيمان، وتقبيح الكفر، وكانت أقوالهم أشد تأثيرًا في قلوب العامة، لتعظيمهم إياهم[3].

فعلموا الصواب وتنبهوا لجميع أخطائهم خاصةً أنهم تنبهوا على الخطأ فيما اعتقده كفرة الجنّ من تشبيه الله بخلقه واتخاذه صاحبةً وولدًا، فاستعظموه ونزهوه عنه[4].

والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يثير العطف على شخص الرسول في قلب المستمع لهذه السورة، عطفًا مصحوبًا بالحب، وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ[5].

وجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى المتضمنة لترك الشر، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٤١.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٣٢٨.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٢٣.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٢٠.

والفوائد واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة[(١)].

وتهدف السورة إلى إثبات كرامة النبي صلى الله عليه وسلم بأن دعوته بلغت إلى جنس الجن، وإفهامهم فهم معان من القرآن الذي استمعوه، وفهم ما يدعو إليه من التوحيد والهدى، وعلمهم بعظمة الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد[(٢)].

وفي هذه السورة إظهار لحقيقة الدعوة، فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه إنما يدعو إلى ربّه ويقوم بما يجب له عليه، وهو لا يملك شيئًا من كفرهم أو إيمانهم وبأنه لن يجيره منهم أحد، إلّا أن يبلّغهم ما أرسله به إليهم، ثم ذكر أن من يعصيه الله سبحانه ويعصي رسوله صلى الله عليه وسلم، يخلّده في نار جهنم، فإذا رأوا ما يوعدون منها، يعلمون أنهم أضعف ناصرًا، وأقل عددًا.

ثم أمره أن يخبرهم، بأنه لا يدري متى يكون ما يوعدون به من ذلك، لأنه من علم الغيب الذي اختص به الله سبحانه[(٣)].

فكان الغرض من هذا هو بيان الأمر الذي جعل الجنّ يقبلون الدعوة ويعلمون صدقها، وبطلان ما كانوا عليه؛ وأن يكونوا نصحة لأقوامهم، داعين لهم إلى صراط الله المستقيم.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٩٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢١٧.
(٣) الموسوعة القرآنية، جعفر شرف الدين ١٠/ ١٦٩.

ثمرات الدعوة

تعتبر الدعوة عملًا مهمًّا من الأعمال التي أكدت عليها الشريعة، ولا بد لكل عمل من جهد يبذل فيه، ولكل جهد ثمرات، وللدعوة ثمرات يانعة، تظهر معنا من خلال الآيات ومن أهمها ما يأتي:

١. الإيمان بالله تعالى والوصول إلى مرضاته وعفوه ومغفرته.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾ [الحديد: ٨-٩].

٢. استجابة الله تعالى للمخلصين في دعوته ومحبته لهم.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤﴾ [غافر: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

٣. حصول الخيرية للأمة ونجاتها من الهلاك.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠].

٤. التمييز بين الحق والباطل.

وذلك كما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا

كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

٥. علو مكانة الدعاة وبيان عظيم فضلهم وسلامة دعوتهم.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢]

٦. القيام بالدعوة إلى الله من أسباب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

وللدعوة ثمار كثيرة، تناولها العلماء في كتبهم، وذكروها في توجيهاتهم، وأرشدوا إليها في محاضراتهم وخطبهم، يمكن لمن أرادها أن يرجع إليها في مظانها.

موضوعات ذات صلة:

التوحيد، الجدال، الحكمة، الحوار، النصيحة

الدَّفع

عناصر الموضوع

مفهوم الدفع	٨
الدفع في الاستعمال القرآني	١٠
الألفاظ ذات الصلة	١١
أسباب الدفع	١٣
مجالات الدفع	١٨
وسائل الدفع	٢٩
عواقب ترك الدفع	٤٧
نتائج الدفع	٤٩

مفهوم الدفع

أولًا: المعنى اللغوي:

دفع: الدال والفاء والعين أصل واحد مشهور، يدل على تنحية الشيء. يقال: دفعت الشيء أدفعه دفعًا، ودافع الله عنه السوء دفاعًا[(١)].

والدفع: الإزالة بقوة[(٢)]. ومنه يتبين لنا: أن الدفع معناه: الإزالة بقوة لكل ما يعرض من ضرٍ وأذى، كدفع بلية، أو دفع صائل ونحوه، وهي تدل على عموم الإزالة والإزاحة، والدفع لكل ما يدفع أو يندفع، حتى إنهم يقولون: تدفع السيل واندفع، أي: دفع بعضه بعضًا[(٣)].

والدفع إما أن يكون من الشخص لصالح نفسه، أي: يدفع الأذى عن نفسه، أو لصالح غيره، أي: يدفع الأذى عن غيره، كقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٧-١٦٨].

فإنه شمل أمرهم دفع أذى الكافرين عن أنفسهم، وعن إخوانهم من المسلمين بحسب الظاهر، والآية الأخيرة أمرتهم على سبيل التعجيز -إن هم خافوا الموت بامتثال الأمر بالدفع- أن يدفعوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين.

وقد يكون الدفع متبادلًا من شخصين أو فريقين؛ فيسمى حينئذ (دفاعًا)، و(تدافعًا)؛ لدلالة الدفاع والتدافع على الاشتراك في الفعل، فالأول فعله (دافع)، والثاني فعله (تدافع) مثل: (قاتل) و(تقاتل)، كلاهما يدل على المشاركة، ففي معنى التشارك ذكروا أن الصيغ (فاعل)، كخاصم، و(افتعل)، كاختصم، و(تفاعل) كتخاصم - تشترك كلها في هذا المعنى[(٤)]. ومنه تدافعوا الشيء: دفعه كل واحد منهم عن صاحبه. وتدافع القوم: دفع بعضهم بعضًا[(٥)].

ومن خلال ما سبق عرضه من كلام أهل اللغة يتبين لنا أن كلامهم في معنى الدفع ومشتقاته يدور حول إزالة الشيء بقوة أو إزاحته بقوة.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢٧٤.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) نزهة الطرف في علم الصرف، الميداني ص١١١-١١٢.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٧٤.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الدفع إذا عدي بإلى اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[النساء: ٦].

وإذا عدي بعن؛ اقتضى معنى الحماية، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[الحج: ٣٨].

وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٢-٣].

أي: حامٍ[(١)].

تبين لنا مما سبق أن الدلالة اللغوية للدفع تدل على عموم الدفع لكل ما يدفع أو يندفع، أما الدلالة الاصطلاحية للدفع فسوف نقتصر فيها على بعض تلك الدلالة العامة فتكون:

(دفع ما يلحق من الغير مما يعوق المسلم عن العمل للغاية التي خلق لأجلها، من كفر، وطغيان، وفساد، وشر، وإيذاء).

ويمكن أن يسمى ذلك (دفعًا)، كما يمكن تسميته كذلك (دفاعًا، ومدافعةً، وتدافعًا)، باعتبار أن كلًا من فريقي الحق والباطل يدفع الآخر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

قرأ نافع بألف وكسر الدال (دِفَاع)[(٢)]، على اعتبار أن كلاً من أهل الحق المصلحين، وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله ويدافعه[(٣)].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٦.
(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع، مكي بن أبي طالب ١/ ٣٠٤.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٤٩١.

الدفع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (دفع) في القرآن الكريم (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء:٦]
الفعل المضارع	١	﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨]
فعل الأمر	٤	﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران:١٦٧]
المصدر	٤	﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٢٥١﴾ [البقرة:٢٥١]
اسم الفاعل	٢	﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور:٧-٨]

وجاء الدفع في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: تنحية الشيء[٢]، ومما يجب التنبه له أن الدفع إذا عدي بـ(إلى) اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء:٦].

وإذا عدي بـ(عن) اقتضى معنى الحماية، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨][٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٦٠.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٨.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٦٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ١٨-١٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجهاد:

الجهاد لغة:

الجهاد: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان، أو ما أطاق من شيء، والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود[١].

الجهاد اصطلاحًا:

بذل الجهد واستفراغه في مدافعة العدو[٢].

الصلة بين الجهاد والدفع:

جهاد الدفع نوع من أنواع الجهاد، والجهاد أعم صورًا.

قال الراغب: «والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس.

وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢].

والمجاهدة تكون باليد واللسان[٣].

٢ المحاجة:

المحاجة لغة:

والتحاج لغة: التخاصم، يقال: «حاجه محاجةً وحجاجًا: نازعه الحجة، وحجه يحجه حجًا: غلبه على حجته. وفي الحديث (فحج آدم موسى)[٤]، واحتج بالشيء: اتخذه حجةً»[٥].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٣٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٠٨.
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم ٦١٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٤٧٩٣.
(٥) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٤٨٢.

المحاجة اصطلاحًا:

المحاجة إذا هي: مبادلة الخصم الحجة بالحجة، فهي مفاعلة من: حجه يحجه محاجة، والمفاعلة تكون من طرفين، كالمباراة والمباهاة والمباهلة والملاعنة ونحوها، فهي مبادلة الحجج بين خصمين، كل منهما متمسك بما معه، منافح عنه، ويحاول إقناع خصمه بما معه.

الصلة بين المحاجة والدفع:

المحاجة صورة من صور الدفع، كذلك للباطل وأهله، وهي من نوع التدافع؛ لأن كلًا من الفريقين يحاول أن يدفع حجة الآخر ويبطلها.

أسباب الدفع

تحدث القرآن الكريم عن أسباب الدفع عند المؤمنين وعند الكافرين، وسوف نتناول في النقاط الآتية:

أولًا: أسباب الدفع عند المؤمنين:

لما كانت غاية المؤمنين هي عبادة الله تعالى، وامتثال أوامره كانت تلك الغاية هي المحرك الأول لهم في جميع أمور حياتهم؛ ومن ثم فإن أهم أسباب الدفع لديهم هي:

١. تعبيد الناس لرب العالمين وحده.

وقد كانت هذه الرسالة واضحة في جهاد الصحابة وفتوحاتهم المجيدة، فهذا ربعي بن عامر يحمل دعوة الإسلام للفرس، ويدخل على ملكهم، غير هياب، ولا وجل، «فقال له رستم: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا، وجاء بنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؛ فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»[(١)].

٢. نصرة الدين، وأن يكون الدين كله لله.

فالمؤمنون أمرهم الله تعالى أن يدفعوا الكفر وأهله؛ لئلا يكون لهم العلو في الأرض؛ فيعبدوا الخلق لغير خالقهم؛ فأمر المؤمنين أن يجاهدوا الكافرين والمشركين؛ ليكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ وكلمة الكافرين هي السفلى.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وإذا صار الدين كله لله؛ ترتب على تحقيق ذلك كل الخير للعباد؛ مما سنكشف عنه في نتائج الدفع من حرية المعتقد، وحرية العبادة وأمكنتها، وإحقاق الحق، ورفع الظلم، وتمكين الحق وأهله، وخذلان الباطل وأهله.

ثانيًا: أسباب الدفع عند الكافرين:

إذا كانت أسباب الدفع عند المؤمنين تنطلق من منطلق إيمانهم وطاعتهم لله رب العالمين، وتحقيق عبوديته؛ فإن أسباب الدفع عند الكافرين تنطلق من منطلق كفرهم بالله، وسخطهم، وعداوتهم للمؤمنين به، ومحاولة ردتهم، وصدهم عن سبيل الله،

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء، الحميري، ٢/ ٤٥٨.

وإفسادهم، وإشاعة الفاحشة بينهم.

ومن أهم تلك الأسباب:

١. محاولة إطفاء نور الله تعالى بإشاعة الكفر، وإفساد عقيدة المسلمين.

لعل هذا يعد من أعظم أسباب دفع الكافرين المؤمنين، وقد يبدو ذلك مستغربًا؛ إذ قد يظن البعض أنه لا فائدة من ورائه لهؤلاء الكافرين، ولكنه الحقد -أولًا وقبل كل شيء- هو الذي يحرك أعداء المسلمين في قتالهم، ودفعهم، ورغبتهم في القضاء عليهم، ومحاولة إطفاء نور الله، ومحو كل مظاهر الإيمان وسلوكيات الطهر التي تذكرهم بجرائمهم، وتنكبهم عن سواء الصراط؛ ثم تأتي بعد ذلك بقية الأسباب من الاستحواذ على ثرواتهم ومقدراتهم وغير ذلك.

وقد أخبر سبحانه عن مدى عداوة هؤلاء الكافرين للمؤمنين، كاشفًا عن أسباب قتالهم إياهم، مبينًا أن أعظم تلك الأسباب هو إفساد المؤمنين بدفعهم عن الإيمان إلى الكفر، وأن يردوهم عن دينهم حسدًا وبغيًا.

فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وأخبر تعالى عن مكنون صدورهم في ذلك، وأن عداوتهم للمؤمنين ما هي إلا بغي وحسد فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

كما بين سبحانه أنهم ما كفروا إلا بعد معرفتهم بالحق واستيقانهم به، وأنهم ما فعلوا ذلك إلا بغيًا على أنبياء الله تعالى وأتباعهم من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩-٩٠].

وهم في ذلك كله يحاولون جاهدين أن يطفئوا نور الله بأفواههم؛ حتى لا يكون ثم إيمان، ولا مؤمنون.

وهذا واضح بينٌ كشف الله تعالى عنه في كتابه، ووضحه للمؤمنين؛ حتى يعرفوا

أعداءهم، فقال سبحانه: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩-٣٣].

فأمر سبحانه بقتالهم؛ لدفع فسادهم وكفرهم وعقائدهم الباطلة في عبادة غير الله تعالى، كعزير والمسيح عليه السلام حيث يريدون إطفاء نور الإيمان الواضح المبين الذي أرسل الله به رسله أجمعين، ودعوة الناس للكفر الواضح المبين من عبادة غير رب العالمين.

وبين في مقابل ذلك أنه ما بعث رسوله صلى الله عليه وسلم إلا لدفع الكفر وأهله؛ ليظهر دين الحق على الدين كله، ولو كره المشركون.

وجاء نحو ذلك في سورة الصف كذلك، فقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف: ٨-١١].

حيث أخبر سبحانه عن أسباب وغايات الدفع عند هؤلاء الكافرين، ثم أتبعها بتهييج المؤمنين على دفع منكرهم وباطلهم؛ جهادًا في سبيل الله.

٢. إفساد أخلاق المؤمنين.

من الثابت لدى أهل الإسلام ارتباط الأخلاق بالعقيدة الصحيحة؛ فالإيمان بالله ورسوله هو القاعدة والأساس الذي تنطلق منه جميع الأعمال الصالحة عند المسلم؛ وذلك أن الدين كله عقيدة وشريعة وأخلاقًا وآدابًا تنتظمه منظومة واحدة، هي منظومة العبودية والخضوع لله رب العالمين.

وهذا هو ما يؤكده النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان

يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)[1].

فنراه صلى الله عليه وسلم يربط ربطًا وثيقًا بين الأخلاق والإيمان بالله واليوم الآخر، ومن ثم إذا ما انهارت العقيدة -وهي الحصن الحصين للإسلام، وهي واسطة عقد نظامه-؛ لا شك ينهار هذا البناء، وينفرط عقد هذا النظام، ومن ثم جهد أعداء الإسلام على إحداث خلل كبير في أمر العقيدة عند كثير من الناس، في كثير من المجتمعات الإسلامية؛ مما يؤدي تلقائيًا إلى تردي أخلاق هؤلاء الذين أصابهم الخلل في عقيدتهم، ومن ثم ينهار بنيان المجتمع بكامله.

وليس عجبًا أن يربط الله تعالى في سورة من قصار السور بين الوصف بالتكذيب بالدين، وبين القسوة على اليتيم والمسكين، ليلفتنا إلى أثر العقيدة في سلامة الخلق.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٦-٧].

إذن فالإيمان بالدين، وهو الحساب والجزاء، وإكرام اليتيم، والحض على طعام المسكين، والمحافظة على الصلاة في أوقاتها، وتقديم الماعون لأهله.. كل ذلك تشمله منظومة واحدة متكاملة، ويرجع إلى أصل واحد، وهو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

ولذلك تجد أغلب الأوامر والنواهي التي تدعو إلى جميل الخصال، وتنهى عن رذيل الأحوال، تصدر كلها بنداء الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وذلك كما في سورة الحجرات على سبيل المثال.

وقد أصبحت أغلب المجتمعات اليوم -بفعل دفع أعداء الإسلام بكثير من صور الإفساد الأخلاقي- تعج بمظاهر الفظاظة والغلظة والقساوة وسوء الأخلاق، وصار من الأمور المألوفة في شوارع المسلمين وسككهم، ما يؤذي الآذان من السب والقذف والصخب والفحش، وما يؤذي الأعين من مظاهر التبرج والسفور والسكر والعهر والاختلاط المحرم، وكثرة الأذى في سبيل الناس وطرقهم، ورؤية المدمنين من متعاطي الخمور والمخدرات، وما يزكم الأنوف من دخان التبغ وغيره، وما يؤذي الضمائر والأنفس من فساد المعاملات وانتشار الرشوة والربا والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، وما يدمي القلوب من العقوق وقطع الأرحام وتفشي التدابر والتقاطع بين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ٨/ ١١، رقم ٥٧٨٥.

الأهل والجيران وسائر الإخوان.

كل ذلك يستدعي ضرورة المسارعة للدفع المقابل؛ لإنقاذ مجتمعات المسلمين من براثن ذلك الفساد الخلقي، المؤذن بخراب تلك المجتمعات وانهيارها مما أشاعه أعداؤهم في مجتمعات المسلمين، لا يألونهم خبالًا؛ لأنهم دائمًا يودون ما يعنتهم، ويوقعهم في الموبقات والمهالك.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

كما أخبر أن أعظم تلك الأسباب أيضًا هو إفساد المؤمنين بإشاعة الفواحش فيهم، ودعوتهم للميل عن دينهم الحق الذي يأمرهم بزكاة نفوسهم، واستقامة أخلاقهم إلى سبيل الفواحش والشهوات.

فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

٣. الحرص على التحكم في العباد ومقدرات الشعوب واستحواذ ملذات الحياة الدنيا.

الكافر لا يؤمن بالآخرة؛ ومن ثم فهو لا يطلب إلا الحياة الدنيا، ولا يريد سواها، وفي سبيل ذلك يدافع ويقاتل؛ فقد زينت له بشهواتها وأعراضها الزائلة؛ فتكالب عليها، وقاتل لأجلها، ولم ير لأحد حق فيها سواه.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وفي سبيل تحقيق تلك الشهوات والمآرب الدنيئة يطغى ويستكبر، ويعيث في الأرض فسادًا، والله لا يحب الفساد.

قال سبحانه في المنافقين الذين أظهروا الإيمان، ويبطنون الكفر والعداوة للمؤمنين، ويمالئون عليهم أعداءهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

وقال تعالى مبينًا سبب إفساد الكافرين في الأرض، وأنه يرجع إلى طغيانهم واستكبارهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وهؤلاء الكافرون يرون أنه ليس لأحد حق في هذه الحياة الدنيا وطيباتها سواهم، ومن ثم فهم يزاحمون المؤمنين فيها ويدفعونهم عنها، والله تعالى ما أحل هذه الطيبات إلا للمؤمنين؛ ولذا يجعلها خالصة لهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

مجالات الدفع

أولًا: الكفر والإيمان:

لا يزال الصراع والتدافع بين الكفر والإيمان منذ بدء الخليقة مستمرًا حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ وذلك منذ نشأت العداوة بين إبليس وآدم، وقد حذر الله آدم وزوجه، ومن ثم ذريتهما من بعدهما من عداوة إبليس؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٥-١٢٣].

فمن ثم تأسست العداوة في الأرض بين إبليس وذريته، ومن أعانه من شياطين الإنس والجن من جهة، وبين آدم وذريته ممن أطاع الله تعالى، واتبع سبيل المرسلين من جهة

أخرى.

لا جرم من أن يعين إبليس وجنده أهل الكفر والضلال من بني آدم المفسدين في الأرض، من الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله، من نعتهم الله بشياطين الإنس فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

ومن ثم صار الناس حزبين لا ثالث لهما: حزب الله، وحزب الشيطان، وقد وصف الله حال الفريقين بقوله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ١٩-٢٢].

ودارت رحى الحرب بين الفريقين؛ فاقتتلوا حيث تدافع الفريقان و﴿اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأخبر تعالى أن قتال هؤلاء الأعداء الكافرين لا يزال مستمرًا متجددًا إلى يوم القيامة، كما أخبر عن غاية هؤلاء من قتالهم المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

كما أيأس الله تعالى المؤمنين من أن يبلغوا رضا أعدائهم، أو أن يسالموهم؛ فيكفوا دفعهم وأذاهم الدائم لهم؛ فهم لا يرضون عن المؤمنين أبدًا حتى يتبعوا ملتهم الباطلة، ولا يزالون يقاتلونهم حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا

﴿النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ثانيًا: الخير والشر:

لقد خلق الله الإنسان، وركب فيه نوازع الخير والشر، وخيره بين اتباع أي منها؛ ولكنه رتب الفلاح والنجاح على تزكية المرء لنفسه إذا عمل بالخير ودعا إليه، ورتب الخيبة والخسران على تدنيس النفس بالشر إذا عمل به ودعا إليه؛ فقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وكما يتصارع ويتدافع أهل الإيمان وأهل الكفر منذ بداية الخليقة؛ يتصارع كذلك دعاة الخير ودعاة الشر كذلك، ودعاة الخير الحقيقيون هم المؤمنون، كما أن دعاة الشر هم الكافرون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٣٥].

فالمؤمنون المصلون هم أهل الخير ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، وأنهم ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، وأنهم ﴿بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾.

والكافرون المكذبون بيوم الدين بعكس ذلك، هم أهل الشر ترى أحدهم ﴿هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[المعارج: ١٩-٢١]، ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٢-٣].

ومن ثم توعد الله أهل الخير المؤمنين المصلين أن يتصفوا ببعض صفات أهل الشر المكذبين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

ولما كان المؤمنون هم أهل الخير؛ دعاهم الله تعالى ليس إلى مجرد فعله؛ بل أمرهم مع ذلك بدعوة الناس إليه، فقال تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ

﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالمؤمنون هم دعاة الخير الحقيقيون، أو هم الجديرون بذلك؛ لأن الإيمان بالله تعالى يأخذ بيد العبد إلى الخير كله، ولا يزال المرء على خصلة من الخير؛ حتى تأخذ بناصيته إلى البر كله، ولا يزال المرء على خصلة من الشر؛ حتى تأخذ بناصيته إلى الشر كله.

وعن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا)[1].

ويتصارع الفريقان أهل الخير وأهل الشر في إرادة الخير أو الشر بالناس، ونشره بينهم؛ فالمؤمنون أهل الخير ممتثلون أمر ربهم لهم في ذلك بدعوة الناس إلى الخير، وحثهم عليه ونشره بينهم، والكافرون أهل الشر عبيد الشهوات، همهم ورغبتهم أن يحولوا المجتمعات إلى مجتمعات تائهة، ينسلخ فيها الأفراد حتى من ثوب الإنسانية؛ لينحطوا إلى درك من البهيمية، مطلق من كل عقال ديني أو أخلاقي أو اجتماعي، متدثرين بشعارات خداعة من الحرية والتمدن والتحضر وغيرها من شعاراتهم الكاذبة، والتي هي في حقيقتها ليست سوى أسماء أخرى للشهوة المرادة في الآية[2].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وهم لا يريدون سوى إشاعة الفواحش والفجور في مجتمع المؤمنين بشتى الصور والوسائل؛ ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وانظر كيف صور سبحانه حال عباد الرحمن، وأثنى عليهم، ووعدهم على ذلك الجنة، بادئًا في الثناء عليهم بحسن أخلاقهم مع الخلق، وجميل أوصافهم في معاملاتهم وسلوكهم، مقارنًا بينهم وبين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: (يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)، ٨/ ٢٥، رقم ٦٠٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، ٤/ ٢٠١٣، رقم ٢٦٠٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٣١.

أهل الشر الكافرين، الذين أبوا السجود لأرحم الراحمين، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٠- ٧٦].

فعباد الرحمن هم خير الناس للناس، هينون لينون، بعيدون عن كل لغو ولغط وجدال وشقاق، قال سبحانه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ويتصارع الفريقان إلى يوم القيامة: فريق يحب الخير للناس ويدعو إليه، وهم الرسل وأتباع الرسل، وفريق يريد الشر للناس ويدعو إليه، وهم أولياء الشيطان وأعداء الرسل.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

ثالثًا: الحق والباطل:

قضى الله بحكمته وعدله أن يخلق الناس فريقين: أهل حق، وأهل باطل، أهل هدى، وأصحاب ضلالة ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

والقضية محسومة، أهل الإيمان هم أهل الحق؛ ﴿وَءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢].

والذين كفروا هم أهل الباطل، وقد كتب الله الفوز والسعادة وصلاح البال للمؤمنين أهل الحق، وكتب الخزي والضلال وحبوط الأعمال للباطل وأهله، وأوجب على المؤمنين مدافعتهم بكل ما أوتوا من قوة؛ حتى إذا لقوهم في الحرب فليس لهم إلا القتال وضرب الرقاب، ثم شد الوثاق.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ

مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١-٩].

والحق هو سلاح المؤمنين في دعوتهم إلى الله، كما أن الباطل هو حجة الكافرين الداحضة، يجادلون بها؛ ليدحضوا الحق.

قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٤-٥].

هكذا قضت سنته سبحانه أن يتصارع الحق والباطل، ويتدافعان إلى يوم القيامة، ولكنه كتب الغلبة والنصر والبقاء للحق وأهله، وضرب لكل مثلًا؛ فقال سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فالباطل لا يبقى ولا يدوم، بل الحق هو الذي يدفعه ويدمغه ويقضي عليه، فهو لا يثبت أمام الحق، وصدق سبحانه القائل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨-٤٩].

سنة ثابتة إذًا أن تكون الغلبة للحق وأهله، وأن يندحر الباطل وأهله، ولم لا، و﴿اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢].

و﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾

و﴿اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾؟!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

ومن ثم فلا بد من خسران الباطل وأهله، ولو كان ذلك في الجولة الأخيرة؛ فهم خاسرون لا محالة، بهذا قضت سنة الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

رابعًا: الظلم والعدل:

صراع الظلم والعدل ليس مقصورًا على صراع الكافرين مع أهل الإيمان -وإن كانوا هم أكثر الناس ظلمًا-، وإنما قد يقع من بعض الفسقة والمبتدعة والعصاة من أهل الإيمان.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره، ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام؛ لم يجز الاستغفار لهم؛ فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع»[(١)].

والحق أن الظلم مذموم من جميع الخلق -مؤمنهم وكافرهم-، بل يلحق المؤمن بذلك أعظم الذم؛ لأن الإيمان ينافي الظلم ويناقضه؛ إذ مبناه على الحق والعدل، و«جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم»[(٢)].

وإذا دب الظلم في ملك؛ أفسده وأذهبه، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل، الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق -وإن لم تشترك في إثم-، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، فالباغي يصرع في الدنيا -وإن كان مغفورًا له مرحومًا في الآخرة-، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل؛ قامت -وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق-، ومتى لم تقم بعدل؛ لم تقم -وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة-، فالنفس فيها داعية الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له، والتعدي عليه في حقه»[(٣)].

وليس معنى ذلك أن يخرج الناس على حكامهم إذا ما أقاموا فيهم كتاب الله وسنة رسوله، أو دون نظر في العواقب، وما يتبع ذلك من المفاسد العظام، «وقد قيل: ستون سنةً بإمامٍ ظالمٍ، خيرٌ من ليلةٍ واحدةٍ بلا إمامٍ»[(٤)].

ولما كان الظلم والبغي قد يقع من أهل الإيمان؛ حتى يحصل الاقتتال بين الطائفتين من المؤمنين أمر الله تعالى أهل العدل والإصلاح دفع هذا الظلم والبغي، بالعمل على الإصلاح بين الطائفتين، ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [الحجرات: ٩]؛ فقد

(١) الحيدة، عبد العزيز الكناني ص ١٥.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٨٦.
(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ص ٢٩.
(٤) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٥١٨.

أمر بقتال ﴿ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ﴾؛ وجب الإصلاح ﴿بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ والقسط.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقد تكلم العلماء في أحكام دفع البغي ومقاتلة البغاة تفصيلًا في كتب الأحكام -وليس هذا مقامه-، وتكلموا في حكم دفع الصائل الباغي، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وأما دفع الصائل على النفس الذي يريد قتل المعصوم بغير حق إذا لم يكن القتال في فتنة فهل يجب دفعه؟ فيه قولان هما روايتان عن أحمد: أن الممكن ليس بفاعل، بل ولو أراد مريد قتله؛ وجب عليه ذلك، كما يجب عليه الأكل من الميتة عند المخمصة، فكما يحرم عليه قتل نفسه؛ يجب عليه فعل ما لا تبقى النفس إلا به من طعام وشراب ودفع ضرر بلباس ونحو ذلك، فإذا أمكنه الهرب ونحوه؛ وجب عليه ذلك، وأما إذا كان دفع الصائل عن نفسه يحتاج إلى قتال الصائل فهنا فيه محذور آخر -وإن كان جائزًا- وهو قتل الآخر؛ فلهذا خرج الخلاف في وجوب دفعه عن نفسه»[1].

وقد أمر الحق سبحانه بإقامة العدل والحق والقسط والميزان في كل شيء؛ فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

وقد أمر بذلك الرسل أقوامهم.

قال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقد توعد المطففين في الكيل والميزان

(١) الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٣٢٧.

ظلمًا وبغيًا؛ ليأخذوا ما ليس له بحق، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين: ١-١١].

فتوعدهم ربهم بعذاب عظيم على ذلك الظلم المبين، وأتبع ذلك ببيان جزاء الذين يكذبون بيوم الدين، لما كانوا هم أكثر الناس ظلمًا لغيرهم.

خامسًا: الفساد والصلاح:

أمر الله عباده بطاعته التي فيها صلاح دنياهم وآخرتهم، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بالعمل بغير شريعته، فقال سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وامتدح الذين يصلحون، وينهون عن الفساد في الأرض فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

التدافع والصراع بين الفساد والصلاح صورة من صور سنة التدافع، وهو ليس مقصورًا على التدافع بين الكافرين والمؤمنين؛ إذ إن صدور الفساد ليس مقصورًا على الكافرين؛ بل قد يقع من بعض المسلمين وممن يندس فيهم من المنافقين كذلك، وإن كان أكثر ما يقع إنما يقع من الكافرين ومن تولاهم من المنافقين.

وقضت سنة الله الكونية والشرعية أن يقع التدافع بين أنبياء الله ورسله وأتباعهم من جهة، وبين أقوامهم من الكافرين المعاندين المحادين لله ورسله من جهة أخرى، وهذا ما حكاه لنا القرآن عن سائر رسل الله وأنبيائه.

قال تعالى عن التدافع بين شعيب وقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ

بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٤-٨٨].

فقد أمرهم بترك الإفساد في الأرض بنقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، ونهاهم أن يعيثوا في الأرض مفسدين، وبين لهم أنه ما يريد بذلك إلا الإصلاح بفعل ما فيه نفعهم وصلاح أمرهم، لكنهم أبوا إلا شقاقه ومدافعته عن دعوته، وتبليغ رسالة ربه؛ فحذرهم مغبة ذلك الشقاق بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٨٩-٩٠].

ولكن ما زادهم ذلك إلا شقاقًا وتعنتًا ومدافعة لشعيب عن تبليغ رسالة ربه، وتهديده بالرجم لولا رهطه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

فذكرهم شعيب بالله، وقد نسوه واتخذوه وراءهم ظهريًا، وبين لهم أنه ثابت على دعوته غير آبه بتهديدهم، متوكل على ربه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ۖ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٢-٩٣].

وقد فصل الله تعالى فسادهم وإفسادهم في الأرض وصدهم من آمن عن سبيل الله في سورة الأعراف فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

ومن أعظم الناس فسادًا المنافقون، وقد أطال القرآن في بيان أحوالهم وفسادهم في عديد من سوره، فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٢].

وأمر الله نبيه والمؤمنين بدفعهم بما يناسب حال الدولة الإسلامية، وواقع المسلمين من القوة والضعف وغير ذلك، ففي بداية العهد المدني أمر الله تعالى رسوله بدفع أذاهم بالإعراض عنهم تارة، أو بالإعراض عنهم مع الموعظة لهم.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وقد اختلف الحال بعد استقرار دولة المسلمين وظهورها في المدينة آخر الأمر؛ فجاء الأمر بمدافعتهم بقتالهم وجهادهم جهادًا كبيرًا بكل وسائل الدفع والمجاهدة، وجعل ذلك سنة ماضية إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

وسائل الدفع

تختلف صور الدفع ووسائله بين المؤمنين والكافرين والمنافقين؛ فيعتمد الكافرون والمنافقون كل وسيلة من الوسائل غير متقيدين لله بطاعة ولا شريعة؛ فيستبيحون إثارة الفتن والقلاقل، وإثارة الشهوات، وإشاعة الفواحش، ورذيل الأخلاق، واستباحة القتل والدماء وصنوف التعذيب بغير جريرة من المؤمنين مما فصله القرآن في مواضع كثيرة.

أما المؤمنون فمتقيدون بشرع ربهم، منطلقون في كل أعمالهم من قاعدة إيمانهم، فلا فحش ولا غدر ولا رذيلة، ولا يأتون إلا ما شرع الله وشرع رسوله صلى الله عليه وسلم.

أولًا: وسائل الدفع لدى الكافرين والمنافقين:

١. الدفع بإثارة اللغط والتشويش.

إثارة اللغط والتشويش على الدعوة الإسلامية هي دأب الكافرين والمنافقين في كل زمان ومكان، إما بالتشويش باللغو الساذج المتعمد قديمًا، وإما بالتشويش باللغو الذي تفنن فيه أعداء الإسلام في تقديمه في صور عديدة حديثًا للتشويش على صوت الحق، إما في صورة الفن الهابط الرخيص الذي يؤجج الشهوات، أو البرامج المشككة في الدين التي تثير الشبهات في صور ووسائل عديدة، يتفنن أعداء الإسلام في اختراعها يومًا بعد يوم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهم في ذلك يحاولون عبثًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢- ٣٣].

ونستطيع القول: إن أعداء الإسلام قد كشروا عن أنيابهم بكل صور العداوة للإسلام وأهله منذ اللحظة الأولى التي انطلقت فيها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

«قال أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيًا، حتى نزلت: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]. فخرج هو وأصحابه»[(١)].

كانت هذه الصيحة من النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة الإعلان عن هذه الدعوة، فبدأ ضعفاء الناس يتسللون إليها، ومنذ ذلك اليوم أعلنت العداوة السافرة بين حزب

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٤٧.

الموحدين وحزب المشركين، فعملت قريش على مجابهة هذه الدعوة بأساليب شتى، منها:

- السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.
- إثارة الشبهات والدعايات الكاذبة.
- الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن.
- اضطهاد المؤمنين وتعذيبهم.
- الاعتداءات على النبي صلى الله عليه وسلم.
- مساومة النبي صلى الله عليه وسلم على ترك دعوته.
- مقاطعتهم للمسلمين ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب[1].

٢. الدفع بإثارة الفتن والشبهات.

وهذا هو لون من ألوان الدفع بالمكر والخديعة، وهو ما يهدف إليه الكافرون ومنافقو أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام نفاقًا وابتغاء الفتنة للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٢-٧٤].

«ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد في أول النهار، ثم اكفروا به آخره؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ارتياب في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون: إن أهل الكتاب أعلم به منا»[2].

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

فهذه الآية وما بعدها من الآيات إنما نزلت لتعليم المؤمنين، كيف يحاورون الطاعنين على الدين، وكيف يردون شبهاتهم، حينما استغلوا حادث تحويل القبلة لتشكيك المسلمين في عقيدتهم.

قال الإمام ابن كثير: «قيل: المراد بالسفهاء هاهنا مشركو العرب، قاله الزجاج، وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد، وقيل: المنافقون، قاله السدي، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم»[3].

٣. الدفع بإثارة الشهوات وإشاعة الفواحش.

(١) انظر: الرحيق المختوم ص ١٠٠-١٤٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٣.

من أخبث صور الدفع لدى الكافرين الدفع بإفساد المؤمنين بإشاعة الفواحش فيهم ودعوتهم للميل عن دينهم الحق الذي يأمرهم بزكاة نفوسهم واستقامة أخلاقهم إلى سبيل الفواحش والشهوات.

فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

٤. الدفع بإسماع المؤمنين الأذى والطعن فيهم.

وهذه أيضًا صورة من صور الدفع التي حكاها القرآن عن المشركين مما مر به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم خير تطبيق لحكمة الدعوة في دفع هذا الأمر؛ امتثالًا لتوجيهات القرآن الكريم في ذلك، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينالهم الأذى من المشركين في بادئ الأمر، وكانت التوجيهات القرآنية تأمرهم بدفع ذلك بالعفو والصفح بما يناسب تلك المرحلة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ومن ذلك الأذى اللفظي الذي أسمعه الكافرون والمنافقون للمؤمنين فيما لقيه أتباع الرسل من أقوامهم في كل زمان ومكان، نعتهم إياهم بالسفهاء أو الأراذل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٣-١٤].

ففي هذه الآيات يحكي لنا القرآن الكريم ما يدور بين المؤمنين والمنافقين من حوارات حول الإيمان الحقيقي المبني على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ولزوم منهجه، وهو ما عليه المؤمنون الصادقون، كما يحكي لنا كذلك جواب هؤلاء المنافقين للمؤمنين، وما يشتمل عليه من سخرية واستهزاء وأنفة من اتباع ما عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيل المؤمنين.

«وإنما عنى المنافقون بقيلهم: أنؤمن كما آمن السفهاء -إذ دعوا إلى التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله، والإقرار بالبعث، فقيل لهم: آمنوا كما

آمن الناس- أصحاب محمدٍ وأتباعه من المؤمنين المصدقين به، من أهل الإيمان واليقين، والتصديق بالله، وبما افترض عليهم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وفي كتابه، وباليوم الآخر؛ فقالوا إجابة لقائل ذلك لهم: أنؤمن كما آمن أهل الجهل، ونصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم، كما صدق به هؤلاء الذين لا عقول لهم ولا أفهام؟»[1].

بل زادوا على ذلك بنعت الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه بالسحر والجنون والضلالة والسفاهة وغير ذلك، والآيات في ذلك كثيرة معلومة.

بل أعظم من ذلك تطاولوا على عرض النبي صلى الله عليه وسلم إفكًا وزورًا، كل ذلك لإضعاف المؤمنين، وتوهين عزائمهم.

٥. الدفع بالسخرية من المؤمنين.

من وسائل الدفع لدى الكافرين التي يريدون بها إضعاف عزائم المؤمنين السخرية الدائمة من المؤمنين، ومما هم عليه من الحق والهدى؛ بل السخرية من رموزهم وقادتهم، فلا يزال الكافرون قديمًا وحديثًا يسخرون من الأنبياء والصالحين، ويصورونهم في صورة قبيحة منكرة مخالفة لحقيقتهم الناصعة؛ حتى صار ذلك سنة ثابتة مع جميع المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠-١١].

وقد كان هذا دأب المنافقين كذلك.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقديمًا سخر الكافرون من نوح عليه السلام، وحكى القرآن سخريتهم هذه فقال: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨-٣٩].

ومن ذلك استهزاء بني إسرائيل بنبيهم موسى عليه السلام فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا۟ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فالحقيقة أنهم هم الذين يستهزئون بنبي الله عليه السلام؛ إذ ينسبون إليه الاستهزاء بهم فيما يبلغ من كلام ربه.

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٢٩٣.

ومن حوار الاستخفاف: استخفاف فرعون بقومه في حواره إياهم وتعنته فيما اشترطه في نبي الله موسى عليه السلام من التحلي بمظاهر الزخرف والزينة الفارغة.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤].

وقد سخر المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٢-١٧].

وأمثلته كثيرة في القرآن، منها ما حكاه القرآن من حوار المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَٰلِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧-٨].

قال الألوسي: «أخرجوا قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ [سبأ:٧] مخرج الظن والسخرية متجاهلين برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبكلامه من إثبات الحشر والنشر، وعقبوه بقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أضربوا عنه إلى ما هو أبلغ منه ترقيًا، من الأهون إلى الأغلظ من نسبة الجنون إليه، وحاشاه صلى الله عليه وسلم، فكأنهم قالوا: دعوا حديث الافتراء؛ فإن ههنا ما هو أطم منه؛ لأن العاقل كيف يحدث بإنشاء خلق جديد بعد الرفات والتراب»[1].

ولا تزال محاولات الاستهزاء والسخرية بالأنبياء والرسل ورموز الدين الحق مستمرة إلى يومنا هذا، وسوف تستمر إلى قيام الساعة؛ لأنها من صور تلك السنة الماضية سنة التدافع بين الحق والباطل.

٦. الدفع بالمبالغة في العدة المادية.

يعتمد الكافرون والمنافقون في دفعهم للمؤمنين على الأسباب المادية البحتة؛ وذلك أمر بدهي؛ حيث إنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ ولأنهم لا ينتظرون عونًا ولا مددًا من الله تعالى؛ تراهم يبالغون في

(١) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٢٦٠.

إعداد العدة المادية إلى أبعد الحدود؛ وقد أخبر الله عن المنافقين الذين يبطنون الكفر بقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٦-٤٨].

٧. الدفع بالمبالغة في العدة البشرية.

ويتفرع مما سبق من عدم الإيمان والتعويل على الأسباب المادية: المبالغة في الحشد، وإعداد العدة البشرية -مهما كانت قوتهم وسلطانهم-؛ لما يسيطر عليهم من هلع وفزع وحذر شديد.

قال تعالى عن فرعون وحشده السحرة لمواجهة موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦].

«يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ﴾ من يحشر له جنده وقومه»[1].

ولأن أعداء الحق يعتمدون في دفعهم على الأسباب المادية وقوة العدد؛ ونظرًا لكثرة الباطل وأهله؛ فهم يغترون بتلك الكثرة، ويعولون عليها، ولكن: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤-٤٥].

ومع هذا الحشد والجمع من الكافرين، لا يسع المؤمنين إلا الاعتصام بالله، والاحتماء به، واللجوء إليه.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

٨. الدفع بالتحالفات السياسية.

ويتفرع مما سبق من عدم الإيمان والتعويل على المبالغة في الحشد، وإعداد العدة البشرية: عقد التحالفات السياسية لمدافعة الإسلام وأهله؛ فيجمعون لذلك أحزابهم وحلفاءهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٥٠.

٩-١١].

«عن ابن إسحاق، قال: ثني يزيد بن رومان، في قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، والجنود: قريش وغطفان وبنو قريظة، وكانت الجنود التي أرسل الله عليهم مع الريح: الملائكة»[(١)].

٩. الدفع بالمقاطعة الاقتصادية.

من وسائل الدفع لدى الكافرين للمؤمنين ما حكته كتب السيرة من المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وحصارهم في شعب أبي طالب؛ وذلك أنه: «حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة آذاه قومه وهموا به، فقامت بنو هاشم وبنو المطلب؛ مسلمهم وكافرهم، دونه، وأبوا أن يسلموه، فلما عرفت قريشٌ أن لا سبيل إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم معهم اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشمٍ وبني المطلب أن لا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم.

وعمد أبو طالبٍ فأدخلهم الشعب شعب أبي طالبٍ في ناحيةٍ من مكة، وأقامت قريشٌ على ذلك من أمرهم في بني هاشمٍ وبني المطلب سنتين أو ثلاثًا، حتى جهدوا جهدًا شديدًا، ثم إن الله تعالى برحمته أرسل على صحيفة قريشٍ الأرضة فلم تدع فيها اسمًا لله إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، وأخبر بذلك رسوله، وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طالبٍ، واستنصر به أبو طالبٍ على قومه»[(٢)].

وواضح من هذه المقاطعة أن هدفها هو إرغام المسلمين على التراجع عن دينهم وعقيدتهم، أو على الأقل إضعافهم، ومحاصرتهم؛ لئلا ينتشر دينهم؛ لما رأوا من تأثير الدعوة الإسلامية على القلوب والعقول والفطر السليمة.

وهذا هو ما يقوم به أعداء الإسلام في كل زمان ومكان؛ لتحقيق تلك الأهداف الخبيثة.

١٠. الدفع بالمقاطعة الاجتماعية.

لم تكن مقاطعة الكافرين للمسلمين في شعب أبي طالب مجرد مقاطعة اقتصادية فقط، بل كانت مقاطعة اجتماعية شاملة شملت كذلك ألا ينكحوهم أو ينكحوا منهم كذلك؛ وذلك لما يعلمون من تأثير ذلك في زيادة عزلة المسلمين وحصارهم.

بل أعظم من ذلك وقعت المقاطعة الاجتماعية، التي تخطت مجرد المقاطعة

(١) المصدر السابق ٢٠/ ٢١٧.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٥٩٤، وأصله في صحيح البخاري رقم ١٥١٣، وصحيح مسلم رقم ١٣١٤، عن أبي هريرة.

إلى الإيذاء والاضطهاد الديني في محيط الأسرة؛ حيث يشير القرآن إلى مجاهدة الآباء أبناءهم الذين أسلموا لردهم عن دينهم.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

١١. الدفع بقتال المؤمنين وإهلاكهم والقضاء عليهم.

من أعظم وسائل الدفع لدى الكافرين للمؤمنين هو القتال، والحق أن قتال الكافرين للمؤمنين ليس مجرد وسيلة، بل هو وسيلة وغاية في الوقت نفسه؛ فهو وسيلة من أعظم وسائلهم لرد المؤمنين عن دينهم، وفتنتهم في عقيدتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهم لا يكتفون في ذلك بمجرد القتال والقتل؛ بل يتفننون في التعذيب بالمؤمنين، وإهلاكهم والقضاء عليهم بشتى الصور، والتاريخ قديمًا وحديثًا خير شاهد على ذلك، وقد سجل القرآن والسنة فتنة الكافرين للمؤمنين بالإحراق في الأخاديد في سورة عظيمة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هي سورة الأخدود (البروج).

وقد سجلت كتب التاريخ جرائم ومجازر التتار والصليبيين واليهود للمسلمين على مر التاريخ إلى يومنا هذا، وليس ما يحدث للمسلمين في بورما ببعيد.

ثانيًا: وسائل الدفع لدى المؤمنين:

١. لزوم الإيمان والتقوى.

٢. الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

٣. الاجتماع ونبذ الفرقة.

٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثمة آيات عظيمة في سورة آل عمران قد جمعت تلك الوسائل كلها؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٢- ١٠٥].

والمتأمل في هذه الآيات يجد أن الله تعالى قد بين فيها أهم سبل الدفع ووسائله وأسسه العظيمة التي ينبغي أن يقوم عليها، وهي:

١. لزوم الإيمان والتقوى والمحافظة على الإسلام والتمسك به والموت عليه.
٢. الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك بالتمسك بهما وعدم الحيدة عنهما إلى ما سواهما من سبل البدعة والضلالة.
٣. الاجتماع ونبذ الفرقة؛ وذلك بالاجتماع حول أصول الدين وثوابته، التي أسسها الكتاب والسنة؛ ولذا جعل الله تعالى التمسك بكتابه، وسنة نبيه هما مناط الاجتماع والاعتصام.
٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أعظم برهان على صدق الاعتصام والتمسك بالكتاب والسنة، ولا ينجع ولا يأتي بأثره ويكون له قوة في الدفع، ونكاية في العدو، إلا باجتماع الكلمة؛ لذا تأخر بعد الوصية بها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

ومن المعلوم أن تغيير الفساد والمنكر أصل عظيم من أصول هذا الدين له أثره الماضي في صلاح المجتمع، ودفع صور الفساد التي يبثها أعداء الإسلام في مجتمعاتنا؛ ولذا فهو أحد أربعة أسس يقوم عليها بناء المجتمع المسلم.

ونستطيع أن نتبين ذلك إذا تأملنا سورة قصيرة من سور القرآن كسورة العصر؛ حيث تبين أن معالم الفلاح والنجاح للفرد والمجتمع المسلم إنما ترجع إلى أربعة أركان أساسية، هي: الإيمان بالله، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

والتواصي بالحق إنما هو لزوم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي هو عماد التغيير والإصلاح، وهو قرين الإيمان بالله تعالى، ودليل عليه؛ ولذا جعله النبي صلى الله عليه وسلم في علاقة مطردة مع

الإيمان بالله تعالى قوة وضعفًا؛ فجعل قوته من قوة الإيمان وضعفه من ضعف الإيمان.(١)

ولعظم هذا الأمر ولأهميته وخطورته؛ قدمه الله تعالى في وصف هذه الأمة على وصفهم بالإيمان بالله تعالى؛ وذلك لما ناط الله تعالى بهذه الأمة من مهمة التغيير والإصلاح ودفع الفساد والمنكر في العالم كافة، وأعظم المنكر كفر بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فجعل الله تعالى خيرية الأمة منوطة بالقيام بهذا الواجب العظيم، الذي هو أساس دفع كل فساد وظلم، ولعل هذه الآية توضح أن المراد بمن في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ في الآية الأخرى ليس هو التبعيض، كما ذهب إليه أحد الفريقين في تفسير الآية.

ولذا فإن البحث يرجح أن تكون مهمة الدفع والإصلاح بوسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خطاب موجه لكل مسلم بالشروط الواجب مراعاتها في الأمر والنهي، بحسب ما يملك كل امرئ من العلم والحكمة، وعلى قدر ما يستطيع، وليس مقتصرًا على العلماء والمحتسبين المتصبين لذلك؛ ففي مسائل الدين كالصلاة والصيام ما هو معلوم بالضرورة لكل مسلم، ويستطيع أن يأمر بذلك من ولي عليه من أهله، أو رعيته بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فإن لم يستطع ذلك لعيٍ أو عجز أو ضعف أو جهل؛ حث غيره من القادرين على ذلك وأعانهم عليه.

وذلك على أرجح القولين في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد على خطورة إهمال تغيير المنكر فيقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود وغيره بإسناده: «عن إسماعيل، عن قيسٍ، قال: قال أبو بكرٍ: بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

قال: عن خالدٍ، وإنا سمعنا النبي صلى

(١) وذلك في حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).
أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١/ ٦٩، رقم ٤٩.

الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ)، وقال عمرٌو: عن هشيمٍ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من قومٍ يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقابٍ)، قال أبو داود: ورواه كما قال خالدٌ أبو أسامة: وجماعةٌ، وقال شعبة فيه: (ما من قومٍ يعمل فيهم بالمعاصي هم أكثر ممن يعمله)»[1].

٥. الدفع بالتي هي أحسن.

لعل من أجمل ما يتميز به أهل الإيمان في دفعهم للباطل وأهله أنهم يدفعون بالتي هي أحسن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ فما أمكن دفعه من الفساد بأخف الوسائل؛ لم يجز تعد هذه الوسيلة إلى ما هو أعظم منها فتكًا وإهلاكًا، كما هو مشاهد من فعل أهل الباطل من إسرافهم في استعمال القوة المفرطة والميل إلى الإبادة العامة للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥].

وذلك في حال السلم، أما في حال الحرب؛ فقد نهى رسولنا الكريم عن قتل الطفل أو المرأة أو الشيخ الكبير أو من لا يقاتلنا:

عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرًا على جيشٍ، أو سريةٍ، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصالٍ -أو خلالٍ- فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيءٌ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٢، رقم ٤٣٣٨. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٧٣.

أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم)[1].

عن ابن عباسٍ، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال: (اخرجوا بسم الله، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع)[2].

فنرى كيف ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغدر، والتشفي بالأعداء، والتمثيل بجثثهم، وعن قتال من لا يقاتل من الضعفاء كالنساء والأطفال والعجزة، وانظر كيف يجعل النبي صلى الله عليه وسلم الدفع بالقتال آخر الدواء، وكأنه لا يقدم عليه إلا مضطرًا؛ فأين ذلك مما يشوه به أعداء الإسلام صورة النبي صلى الله عليه وسلم وصورة الإسلام والمسلمين.

فإن لم يكن بد من القتال والقتل؛ فقد نهى رسولنا الكريم عن التعذيب والتمثيل، وأمر بإحسان القتل حتى في الحيوان، فما بالنا بالإنسان الذي كرمه الله على العموم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

بل حث على دفع باطلهم العقدي والفكري بالجدال بالتي هي أحسن كذلك، حيث ينبني منهج الحوار في الإسلام على أسس أخلاقية قويمة، تلتزم الصدق والعدل والإنصاف، وتحترم الآخر، وتعطيه حقوقه في الحوار كاملة، وتعترف بإنسانيته، وتجعله هو والطرف الآخر على حدٍ سواء، ولا تبيح سبه، أو إهانته أو السخرية منه -إلا أن يبدأ هو بذلك-، وترغب في العفو عن إساءته، وعدم مقابلة السيئة بمثلها؛ بل ترغب في دفعها بالتي هي أحسن، مع التزام كل ما هو متقرر من آداب الحديث والحوار والمجادلة.

وجماع ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن جرير رحمه الله: «﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمراء على البعوث، رقم ١٧٣١، ٣/ ١٣٥٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٤٦١، رقم ٢٧٢٨.
وحسنه المحقق.

رسالة ربك»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

«قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف، وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن؛ ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال مجاهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقًا، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلًا»[2].

فالصواب أن جدال أهل الكتاب وغيرهم بالتي هي أحسن ثابت ومحكم غير منسوخ، وهو يقتضي حسن معاملتهم؛ بل والعفو عن أذاهم، وحسن الأدب في حوارهم، وعدم تكذيبهم فيما لم يرد في شرعنا ما يشهد لاعتباره أو إلغائه، وإن كنا لا نعتقد بالضرورة صدقه، ولكن الإنصاف يقتضي عدم تكذيبهم فيه كذلك، وهذا غاية الأدب والإنصاف في المحاورة.

فمقتضى قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۖ﴾ التزام كل خلق حسن جميل مع المحاور، واجتناب كل خلق رذيل، وهذا مع كل محاور -وقيد أهل الكتاب هنا لا مفهوم له- بعموم دلالة الآية الأولى؛ فالمسلم أولى بلا خلاف من الكتابي بإحسان معاملته، وخصوصية الكتابي في إحسان محاورته لا تنفي أحقية غيره من الكفار والمشركين والملحدين في إحسان حوارهم ومجادلتهم.

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٨٣.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

«قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحدٌ؛ ليسمع كلام الله منك -وهو القرآن الذي أنزله الله عليه- ﴿فَأَجِرْهُ﴾، يقول: فأمنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، يقول: ثم رده بعد سماعه كلام الله -إن هو أبى أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن- إلى مأمنه، يقول: إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن، وردك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم، من أجل أنهم قوم جهلة، لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم بتركهم الإيمان بالله»[1].

فأوجب إجارته ممن يتعرض له بسوء، وتأمينه حتى يستطيع أن يسمع ويعقل كلام الله بأمان تام، بل أوجب تأمينه -بعد إسماعه ومحاورته- إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه، ويلحق بديار أهله من المشركين.

٦. الدفع عن طريق رد الشبه وكشف حقيقة الباطل عن طريق وسائل الإعلام المختلفة والحوار والمحاجة والمناظرة.

معرفة سبيل المجرمين بهدف الحذر منها، وكشفها وبيانها وإبطالها من أوجب الواجبات لمن انتصب للدفع عن الإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

«قال: لتعرفها»[2].

وإذا كانت استبانة سبيل المجرمين من واجبات الدين، ومن مهمات الدفع؛ وجب على المسلمين الإفادة من كل وسيلة صالحة لذلك، سواء عن طريق الكلمة المكتوبة، أو المسموعة، أو المرئية، سواء بكتاب أو جريدة أو مجلة أو إذاعات وفضائيات ومواقع الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وغير ذلك من الوسائل الإعلامية العديدة التي يعج بها العصر الحديث، وبرع أعداء الإسلام في استخدامها والإفادة منها؛ لمدافعة الدين الحق وأهله.

وقد بينا فيما سبق في التعريف بمصطلح الدفع والمصطلحات القريبة، ما هو قريب

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٣٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٨١.

من مصطلح الدفع، كالحوار والمجادلة والمحاجة والمناظرة، وذكرنا الفروق بينها، وبعض ما يستدل به على ذلك من كتاب الله تعالى.

والمقصود هنا بيان أن هذه الوسائل هي من وسائل الدفع المهمة، بل لعلها تكون هي وسيلة الدفع الوحيدة المتاحة حينما تعجز الآلة العسكرية؛ لضعف الإمكانات، أو لعدم تهيؤ الظروف لها.

وقد امتدح القرآن الشعراء الذين ينتصرون بشعرهم لدين الله تعالى؛ حيث استثناهم من الذم الذي ألحقه بالشعراء، حيث نعتهم بالغواية والضلال والإضلال، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾، أي: انتصروا لدينهم وعقيدتهم وأعراض المسلمين بشعرهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦].

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونه به نضح النبل)[1].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا، يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ينافح، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[2].

٧. الأخذ بما أمكن من أسباب القوة البشرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية.

مما لا شك فيه أن الأخذ بأسباب القوة المختلفة، لا سيما القوة العسكرية من أهم آلات الدفع في معركة الإسلام مع قوى الشر المختلفة، ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن كثيرًا من صور الانحراف الفكري لدى كثير من مفكري المسلمين إنما يرجع سببه إلى الهزيمة النفسية، التي ترجع إلى انبهارهم

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٥/١٤٧، رقم ٢٧١٧٤.
وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٦٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر رقم ٢٨٤٦.
قال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٨٦٥.

بالقوة المادية والعسكرية التي عليها أعداء الإسلام.

وقد أمرنا الله تعالى أن نأخذ بكل ما نستطيعه، ويمكن أن تصل إليه أيدينا من وسائل القوة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)[(١)].

والقوة تشمل القوة المادية، والقوة العسكرية، وسائر أنواع القوة؛ لعدم الدليل على التقييد بنوع دون آخر.

٨. التحالفات السياسية.

لا يستطيع المسلمون مدافعة أعدائهم على قوتهم واجتماعهم إلا بتحالفهم واجتماعهم، وموالاة بعضهم بعضًا؛ فقد أوجب الله على أهل الإيمان الموالاة في الدين والاجتماع والتآلف والتحالف عليه، ونهاهم عن التفرق والتخالف.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢].

وهيجهم على فعل هذه الولاية؛ بحرص أعدائهم عليها فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

كذلك يجوز لهم بحسب المصلحة عقد المعاهدات مع غيرهم، بحسب ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، كما عاهد النبي صلى الله عليه وسلم يهود المدينة[(٢)].

٩. القتال.

القتال كما هو معلوم من أعظم وسائل الدفع، وقد أخر الله تشريع القتال كوسيلة للدفع من المسلمين لأعدائهم، وأمر قبل ذلك بالعفو والصفح.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

والآيات في ذلك كثيرة، ثم نسخت تلك الآيات بآية السيف، والآيات المشابهة لها، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم ٢٦٦٤.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٥١٣، السيرة النبوية، ابن كثير ٢/ ٣٤٢.

[الحج: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ورغم قوة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة فكان يعمل قاعدة الحكمة والموازنة بين المصالح والمفاسد في التعامل مع المناوئين من اليهود والمنافقين والعرب؛ حتى تستوي قوة الدولة في المدينة، وذلك عملًا بتوجيهات القرآن الكريم حيث أمره بالعفو عن المنافقين في بادئ الأمر والإعراض عنهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

أما بعد تمكن الدولة؛ فقد جاء الأمر بتتبعهم وقتالهم وقطع دابرهم والإغلاظ لهم: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

وصالح النبي صلى الله عليه وسلم اليهود، وعاهدهم في بادئ الأمر، ثم لما نقضوا عهدهم؛ قاتلهم وأجلاهم عن المدينة.

وهكذا كان أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأسباب القوة؛ حماية للدعوة الإسلامية، وتمكينًا لها، مع العمل بميزان الحكمة في ذلك، وإعمال قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد.

وقد أنزل الله تعالى في سورة الحج الإذن بالدفع بالوسيلة القتالية؛ فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

فأذن تعالى للمظلومين في قتال الظالمين ومدافعتهم بالقوة؛ لئلا يستشري الفساد في الأرض، وتنتهك الحرمات، وتضيع معالم الخير، بضراوة أهل الظلم والطغيان، وتعديهم على مواضع العبادة وتخريبها، وذلك عنوان على أقبح صور الإفساد في الأرض؛ لأنه هتك لسياج الحرمات الفردية والجماعية في أقدس مقدساتها[1].

هذا والدعوة الإسلامية مأمورة بإعداد القوة والأخذ بأسبابها في جميع المراحل بحسب الاستطاعة، وهذا لا ينافي الأمر

(١) انظر: القرآن العظيم هداية وإعجاز، محمد صادق عرجون ص٣٠٨.

بالصبر، واحتمال الأذى من أعداء الدعوة في مرحلة البيان؛ حتى تكسب تعاطف الناس، وحتى تتمحص رسالتها للكشف عن الحقيقة والدعوة إلى الحق، وحتى لا يظن بها الظنون بابتغاء نوع من المنافع الدنيوية المادية العاجلة، ومع ذلك فهي مأمورة بالأخذ بأسباب القوة في جميع الأحوال لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولكن في مرحلة البيان لا يزيد الأمر عن إعداد القوة دون استخدامها، أو إظهارها، بخلاف مرحلة التمكن، واستقرار الدولة الإسلامية؛ فإنها يشرع لها استخدام القوة للدفاع عن الدعوة الإسلامية في وجه أعدائها والتمكين لها، وصد ودحر كل من يقف في سبيل إيصالها إلى الناس، كل ذلك بما لا يتناقض مع قواعد الحكمة، والنظر في ميزان المصالح والمفاسد، وعدم التعجل لكسب أي مكاسب سياسية أو مادية، بل المقياس الأول هو هداية الناس، وتبليغ هذا الدين.

١٠. المقاطعة الاقتصادية.

يتخذ المؤمنون المقاطعة الاقتصادية سلاحًا ووسيلة من أهم وسائل الدفع لأعدائهم، بحسب ما تقتضيه الحاجة والمصلحة؛ فمعلوم أن المال قوام الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

فهذا ثمامة بن أثال -ذلك الصحابي الجليل- بعدما أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة؛ ها هو يسن للمسلمين بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم له سنة المقاطعة الاقتصادية للمشركين والكافرين المحاربين للإسلام؛ وذلك أنه: (لما قدم مكة قال له قائلٌ: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطةٍ، حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم)[1].

١١. المقاطعة الاجتماعية.

من أهم الأسس التي يقوم الدفع عليها عند المؤمنين، براءتهم من الكافرين، ومما هم عليه من اعتقاد فاسد ينبني على الكفر بالله واليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، ٥/ ١٧٠، رقم ٤١١٤.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فبين الله تعالى أن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يجتمع مع موادة من حاد الله ورسوله، ولو كان من الأصول أو الفروع أو ذوي الأرحام المقربين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

والآيات في ذلك كثيرة.

عواقب ترك الدفع

أولًا: الخذلان:

إذا ترك المسلمون القيام بواجبهم في الدفاع عن عقيدتهم ومقدساتهم فإنهم بذلك يقضون بالغلبة لأعدائهم على أنفسهم.

لكن لا بد أن يقوموا نصرة لله تعالى ولدينه، لا حمية لجنس أو قومية أو أي شيء غير نصرة دين الله تعالى؛ فحينئذ يأتي نصر الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

فإذا نصر المسلمون دينهم وشريعتهم بالقيام بما افترضه الله عليهم والحمية له والذود عنه نصرهم الله، وإلا فالخذلان المبين بأن يكلهم لأنفسهم، وإن خذلهم فمن ذا الذي يملك لهم نصرًا من بعده سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ثانيًا: الذلة والهوان بعلو الكافرين على المؤمنين:

من المعلوم أن قيام المسلمين بواجبهم في الدفع إزاء الكافرين يحقق نوعًا من

توازن القوى؛ فلا يتمادى أهل الكفر في فسادهم وطغيانهم واستضعافهم واستذلالهم للمؤمنين، وإلا يأتي الله بأمره، وتمضي سنته في معاقبة الفاسقين وضرب مذلة الأسر والهوان عليهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، أي: تستطيبونها، يعني: القصور والمنازل، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾، فانتظروا، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قال عطاءٌ: بقضائه، وقال مجاهدٌ ومقاتلٌ: بفتح مكة، وهذا أمر تهديدٍ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ لا يوفق ولا يرشد ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، الخارجين عن الطاعة»[1].

وعن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًا، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[2].

فقضت سنة الله تعالى على عباده إذا تركوا ما كلفهم به من الدفع، والجهاد لأعدائهم؛ أن يضرب عليهم ذلًا، لا ينزعه حتى يرجعوا إلى دينهم.

ثالثًا: الاستبدال:

ومن السنن المترتبة على ترك الدفع كذلك استبدال الله تعالى بمن ترك الدفع والجهاد في سبيله من يقيم دينه، ويعطي ولاءه ومحبته للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة ٣/ ٢٧٤، رقم ٣٤٦٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٢٣.

نتائج الدفع

أولًا: حرية المعتقد و حرية العبادة:

إن من أهم ثمرات الدفع المأمور به شرعًا استقامة العقيدة وسلامتها، وخلوها من الآفات التي تشوبها من التوجه بالدعاء أو القصد أو الاستعانة إلى غير الله تعالى، أو التحاكم إلى غير شرعه، أو جحود شيء مما أنزل، أو وجود تصورات واعتقادات تخالف العقيدة الصحيحة التي تركنا عليها النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن مجتمعًا مثل هذا تسوده عقيدة إيمانية راسخة، ويقوم على توحيد الله تعالى، وإخلاص القصد له، لا شك أنه مجتمع تتنزل عليه رحمات الله وبركاته، ويستخلف أهله، ويمكنون في الأرض، كما وعد الله تعالى حيث قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فتأمل قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾؛ تعلم أن تلك الجائزة إنما هي ثمرة التوحيد وعاقبته الحميدة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فهذه الآيات وأمثالها كثير يدل على العاقبة الحسنة، والثمرة اليانعة للتوحيد، وسلامة الاعتقاد الناتجين عن دفع المؤمنين الكفر والكافرين، وسائر صور الفساد في الأرض.

ثانيًا: حرية العبادة وتحصين أماكنها:

من أعظم الظلم الذي يمارسه أعداء الإسلام -إذا تسلطوا على ديار الإسلام- أن يمنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه أو يهدموها بالكلية.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ١١٤].

ولعل من أهم آثار الدفع وعواقبه الحميدة أن يأمن الناس على دينهم وعقيدتهم، ويتمكنوا من أداء عباداتهم وشعائرهم دون خوف أو وجل أن يمنعوا منها، أو تهدم دور عبادتهم؛ إذ إن هذا الدفع لأعدائهم هو الذي يمنع ذلك كله.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فبالجهاد والدفع تعود للمساجد هيبتها وعزتها، كما أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

ثالثًا: إحقاق الحق ورفع الظلم، وخذلان الباطل وأهله:

من أهم آثار الدفع كذلك أن يحق الحق، ويبطل الباطل؛ فتعود الحقوق لأصحابها، ويرفع الظلم عن العباد والبلاد، وقد بين القرآن أن من أهم مقاصد الدفع إحقاق الحق وإبطال الباطل.

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥-٨].

فأخبر سبحانه أنه ما أخرج رسوله من بيته، ولا عرض المؤمنين لهذه الفتنة الشديدة -مع قلة عددهم وعتادهم-، ولا أغرى الفريقين بالقتال؛ إلا لهذه الغاية العظيمة، وهي إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

ولعمر الله إنها لسنة ماضية، أن يقضي الحق على الباطل؛ فتكون الغلبة له في النهاية، وذلك أن الباطل لا يثبت أمام الحق.

قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فالحق هو الذي يبقى، وهو ما ينفع الناس، والباطل يذهب جفاء.

قال سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ

أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

رابعًا: شفاء صدور المؤمنين:

ومن نتائج الدفع الحميدة كذلك شفاء صدور المؤمنين مما حل بهم من كيد أعدائهم وظلمهم لهم، والنيل من نفوسهم وأعراضهم وأموالهم.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

موضوعات ذات صلة:

الأذى، الإصلاح، التغيير، الجهاد، السياسة، الضر

الدَّيْن

عناصر الموضوع

مفهوم الدَّين	٥٤
الدين في الاستعمال القرآني	٥٥
الألفاظ ذات الصلة	٥٦
مشروعية الدين	٥٩
كتابة الدين	٦١
الإشهاد في الدين	٦٧
تحريم الإضرار في الكتابة والإشهاد	٧٣
الرهن في الدين	٧٦

مفهوم الدَّين

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (دين) تدل على الانقياد، والذُّل، والدِين: انقيادٌ لله تعالى وذُلٌ له، والدَين فيه كل الذل للعبد[1].

ودان: أخد الدين، ودنته: أقرضته، وأدنته: استقرضته منه، وقيل: رجل دائن ومدين ومديون، ومدان: عليه الدين، وقيل: هو الذي عليه دين كثير.

وأدان، واستدان، وادان أخذ بدين[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الدَين: «هو الحق الذي لا يسقط إلا بالأداء أو الإبراء»[3].

وقيل: «ما ثبت في الذمة من مال الآخر، سواء كان مؤجلًا أم لم يكن»[4].

وقيل: «كل معاوضة، يكون أحد العوضين فيها مؤجلًا»[5].

وقال القرطبي: «وحقيقة الدين عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدًا، والآخر في الذمة نسيئة؛ فإن العين عند العرب ما كان حاضرًا، والدين ما كان غائبًا»[6].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣١٩، ٣٢٠.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٩/ ٣٩٩.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص١٤١.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص٤٣٦.
(٥) المصدر السابق ص٤٢٦.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٧٧.

الدين في الاستعمال القرآني

وردت مادة (دين) في القرآن الكريم (١٠١) ومرة[١]، والتي تتعلق بموضوع الدَين (٨) مرات.

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾[البقرة:٢٨٢]
المصدر	٥	﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾[النساء:١٢]
اسم المفعول	٢	﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾[الصافات:٥٣]

وجاء الدين في القرآن على معناه اللغوي، وهو: القرض ذو الأجل، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٦٧-٢٦٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٥١٤-٥١٦.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢١١٧-٢١١٨، المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، ٢/ ٣٥٩-٣٦٠، تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤/ ١٢٨-١٣٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٣٠٧، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٧٩٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ القرض:

القرض لغةً:

إعطاء رجلٍ قرضًا ودفعٌ إليه مالًا، وأقرضه: أعطاه قرضًا من ماله[١].

القرض اصطلاحًا:

«الجزء من الشيء والقطع منه، كأنه يقطع له من ماله قطعة؛ ليقطع له من أثوابه إقطاعًا مضاعفة»[٢].

الصلة بين القرض والدين:

الدين: ما له أجلٌ، والقرض ما لا أجل له، والقرض أكثر ما يستعمل في العين والورق، هو أن تأخذ من مال الرجل درهمًا؛ لترد عليه بدله درهمًا، فيبقى دينًا عليك إلى أن ترده، فكل قرضٍ دينٌ، وليس كل دينٍ قرضًا[٣].

٢ السلف:

السلف لغةً:

من الفعل سلف، والسلف من القرض، والسلف: كل شيءٍ قدمته فهو سلفٌ[٤].

السلف اصطلاحًا:

وهو المال الذي يقدم لما يشترى نساءً، أي: مؤخرًا[٥].

الصلة بين السلف والدين:

السلف هو ما قدم من الثمن على المبيع، والدين ما ثبت في الذمة من مال الآخر[٦].

٣ الإعارة:

الإعارة لغة:

وهي اسم لعملية الاستلاف، أو لعقد الإعارة، مأخوذة من عار إذا ذهب وجاء، وقيل: من

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٢٧.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٢٦٩.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧٢٧.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي، ٧/ ٢٥٨.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٧٣.
(٦) انظر: المفردات، الأصفهاني ص٢٣٩.

التعاور، أي: التداول أو التناوب.

الإعارة اصطلاحًا:

«تمليك المنفعة بغير عوض»[(١)].

الصلة بين الدين والإعارة:

يتضح من خلال التعاريف السابقة أن الدين يكون في المال والأعيان التجارية. أما الإعارة فهي في الماعون.

٤ الإيجار:

الإيجار لغةً:

«الهمزة والجيم والراء أصلان يمكن الجمع بينهما بالمعنى، فالأول: الكراء على العمل، والثاني: جبر العظم الكسير، فأما الكراء فالأجر والأجرة، وأما جبر العظم فيقال منه: أجرت اليد»[(٢)].

الإيجار اصطلاحًا:

«عقد على منفعة معلومة مباحة من عين معينة، أو موصوفة في الذمة، أو على عمل معلوم بعوض معلوم مدة معلومة»[(٣)].

الصلة بين الدين والإيجار:

من التعريفات السابقة يتبين أن الدين ما تعطيه غيرك من مال أو غيره على أن يرده إليك، والإيجار هو الأجرة على العمل دون أن يرد.

٥ الهبة:

الهبة لغةً:

وهب له الشيء، أي: أعطاه إياه بلا عوض، وتصريفه: وهبه -يهبه- وهبًا[(٤)].

الهبة اصطلاحًا:

«تمليك العين بلا عوض»[(٥)].

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٥٥.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٣٥١- ٣٥٢.
(٣) الروض المربع، منصور البهوتي، ١/ ٣٦٥.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ١٠٥٩.
(٥) أنيس الفقهاء، القونوي، ص٩٥.

الصلة بين الدين والهبة:

الدين تمليك لزمنٍ محدود يجب رده لصاحبه، وأما الهبة فهي تمليك لا يرد مطلقًا.

٦ الغرم:

الغرم لغةً:

غرم يغرم غرمًا، ورجل مغرمٌ، من الغرم والدين، وقد أغرم بالشيء أي: أولع به، والغريم الذي عليه الدين، وقد يكون الغريم أيضًا الذي له الدين[(١)].

الغرم اصطلاحًا:

«أداء شيءٍ لزم من قبل كفالةٍ، أو لزوم نائبةٍ في ماله من غير جناية»[(٢)].

الصلة بين الدين والغرم:

الغرم أثقل من الدين، فالمغرم: المثقل بالدين المولع به، لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠][(٣)].

٧ السداد:

السداد لغةً:

الإصلاح والاستقامة والتوثيق، وسد يسد: صار سديدًا[(٤)].

السداد اصطلاحًا:

إرجاع الدين إلى الدائن من قبل المدين بتوثيق ذلك، واستقامة من قبل كليهما.

الصلة بين السداد والدين:

الدين تمليك لزمن محدد يجب رده، والسداد هو ذلك الرد.

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٤٨٨.
(٢) العين، الفراهيدي، ٤/ ٤١٨.
(٣) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ص٣٧٤.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٢٨٧.

مشروعية الدين

تستمد أحكام الدين الإسلامي من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقوله أيضًا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر: ٧].

وقد ورد في كتاب الله تعالى ما يبين الأمر بكتابة الدين؛ للإرشاد والتنبيه للمؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقد جعل الله تعالى في مشروعية التداين بعض القواعد التي يجب أن يحتاط بها الدائن والمدين، خلاصتها في آية الدين من سورة البقرة، ومن أهم هذه القواعد ما يأتي:

١. تحديد الزمن.

قال تعالى: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

يقول أبو السعود: «أي: مسمى بالأيام أو الأشهر ونظائرهما، مما يفيد العلم ويرفع الجهالة»[(١)].

٢. الكتابة.

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾، هذا توجيه من الله تعالى لعباده المؤمنين، إذا تعاملوا بديون مؤجلة بأن يكتبوها، وذلك أحفظ للدين سواء لمقداره أو ميقاته، وأضبط للشهادة فيه؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢][(٢)].

٣. حضور الشهود.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

لقد أمرنا الله تعالى بالكتابة والإشهاد على الكتابة؛ لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة، فأمرنا بالكتابة؛ كي لا ننسى، وبالشهود حجة على الطرفين حتى لا يغدر أحدهما بالآخر[(٣)].

وقد شدد النبي صلى الله عليه وسلم على قضايا الدين في حياة الأمة؛ لما لها من أهميةٍ اجتماعية وأخلاقية في المجتمع المسلم، وللحفاظ على المال العام والخاص من الضياع؛ فلذلك ذكر أحاديث كثيرة تحذر من مغبة أكل الدائن لمال المدين الذي استدان منه، أو المماطلة في سداده، ومن هذه الأحاديث:

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ٣٦٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٧٢٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٥٨.

٤. وفاء الدين.

يجب على الغني الوفاء بدينه، ويحرم عليه المماطلة في سداد الدين، فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مطل الغني ظلمٌ)[١].

معنى مطل الغني: أي: تسويف القادر المتمكن من أداء الدين الحال ظلم منه لرب الدين، فهو حرام بل كبيرة[٢].

وفيه دلالة على أن الحوالة إنما تكون بعد حلول الأجل في الدين؛ لأن المطل لا يكون إلا بعد الحلول، وفيه ملازمة المماطل وإلزامه بدفع الدين والتوصل إليه بكل طريق، وأخذه منه قهرًا[٣].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يغفر للشهيد كل ذنبٍ إلا الدين)[٤].

وعن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه، سمعه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنه قام فيهم، فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابرٌ محتسبٌ مقبلٌ غير مدبر، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف قلت؟ قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، وأنت صابرٌ محتسبٌ مقبلٌ غير مدبر، إلا الدين؛ فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك)[٥].

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يصلي على رجل مات وعليه دين، وليس أحدٌ يضمن سداده، فإذا تضمنه أحدٌ صلى عليه، وإلا أمر أن يصلى عليه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين، فيسأل: هل ترك لدينه فضلًا، فإن حدث أنه ترك لدينه وفاء صلى، وإلا قال للمسلمين: (صلوا على صاحبكم)، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك دينًا فعلي قضاؤه، ومن ترك مالًا فلورثته)[٦].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحوالات، باب مطل الغني، ٣/ ١١٨، رقم ٢٤٠٠.
(٢) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي، ٢/ ٣٧٦.
(٣) انظر: عمدة القاري، العيني، ١٨/ ٣٢٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، ٣/ ١٥٠٢، رقم ١٨٨٦.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، ٣/ ١٥٠١، رقم ١٨٨٥.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات،

كتابة الدين

إن التداين بدين إلى أجل مسمى يقتضي العمل على حفظ هذا الدين، حتى لا تضيع الحقوق، وتحدث المنازعات، ويخون الناس بعضهم بعضًا، وبيان هذه الأحكام فيما يأتي:

أولًا: حكم كتابة الدين:

وقد برز ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾[البقرة: ٢٨٢].

ابتدأت الآية الكريمة بخطاب المؤمنين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فمن اتصف بالإيمان طبق ما كلفه الله تعالى به بأكمل وجه؛ فالله تعالى قد أمر بالكتابة في الدين لحكمة أراد بها حماية حركة الحياة عند الناس، ورفع الحرج فيما بينهم، لذلك جاء الأمر منه سبحانه بالكتابة فقال: ﴿فَٱكۡتُبُوهُ﴾[1].

والآية تحمل في طياتها الأمر بكتابة جميع عقود الديون؛ فقوله سبحانه: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾، أي: إذا تعاملتم بدين ما، من أي صنف من أصناف المداينة، فاكتبوا هذا الصنف.

واختلف العلماء في هذه الكتابة أهي واجبة أم مستحبة؟

فقال بعضهم: هي واجبة؛ لأن الله تعالى يعلم طبيعة البشر، حيث إن فيهم من لا يؤتمن على حقوق الآخرين، فأمر بالكتابة لأجل أن يحفظها. والأكثرون قالوا: إنه أمر على الاستحباب، فإن ترك فلا بأس، كقوله تعالى في الانتشار بعد أداء صلاة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١].

وقال بعضهم: كانت كتابة الدين والإشهاد والرهن فرضًا، ثم نسخ الكل بقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣][2]، أي: بدون مكاتبة بينهما، تترك المكاتبة لأمانة المتداين ما دام صاحبه قد أمنه على ماله.

ثانيًا: شروط كاتب الدين:

ولأهمية الكتابة جعل الله تعالى لها شروطًا يحفظ من خلالها حقوق المتداينين، منها ما يتعلق بالدين نفسه، ومنها ما يتعلق بالمتداينين، ومنها ما يتعلق بكاتب الدين، ومنها ما يتعلق بشهود عقد الكتابة، وفيما يأتي نبين بعض الشروط المتعلقة بكاتب

باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من ترك كلًا أو ضياعًا فإلي)، ٧/ ٦٧، رقم ٥٣٧١.

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٧٧٩.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٤٩.

عقد الدين:

١. العدل بين المتداينين.

الذي له الدين قد يتهم في الكتابة من الذي عليه الدين، وكذلك بالعكس، فشرع الله سبحانه كاتبًا غيرهما، وأمر سبحانه أن يكتب بالعدل، فلا يكون في قلبه ولا قلمه مودة تؤدي إلى ظلم الآخر، فلا يكتب لصاحب الحق أكثر من حقه، محاباة له، وخاصة إذا كان الطرف الآخر لا يحسن القراءة، أو لا يفهم معاني اللغة، وذلك بالتدليس أو الالتفاف بالألفاظ التي يصعب عليه فهمها، أو بالتغير والتبديل فيما أملي عليه، وألا يزيد في المال أو الأجل، وكذلك لا يقلل في الكتابة من حق صاحب الحق بنفس الطريقة أو بغيرها[١].

يقول الزحيلي في تفسيره: «لقد بين الله كيفية الكتابة وعين من يتولاها، وذلك بأن يكتب كاتب مأمون عادل محايد، فقيه متدين يقظ، دون ميل لأحد الجانبين، مع وضوح المعاني، وتجنب الألفاظ المحتملة للمعاني الكثيرة، فهو كالقاضي بين الدائن والمدين، وهذا يدل على اشتراط العدالة في الكاتب، والعلم بكيفية كتابة وثيقة الدين»[٢].

٢. العلم بكيفية كتابة العقود.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾[البقرة: ٢٨٢].

(كاتب) أي: عالم بالأحكام الشرعية والفقهية والقانونية المتعلقة بالدين، والشروط المرعية عرفًا ونظامًا، كما شرعه الله وأمر به، فليكتب بحيث لا يزيد ولا ينقص، ويكتب ما يصلح أن يكون حجة عند الحاجة، ولا يخص أحد الخصمين بالاحتياط له دون الآخر، وأن يكون كل واحد منهما آمنًا من إبطال حقه، وأن يكون ما يكتبه متفقًا عليه عند العلماء، وأن يحترز من الألفاظ التي يقع النزاع فيها[٣].

ثالثًا: شروط كتابة الدين:

إن الله تعالى جعل كتابة الدين حفظًا للحقوق، ووضع سبحانه للكتابة شروطًا؛ لتقوية هذه العقود من أهمها:

١. أن يكون الكاتب من غير المتداينين.

لقد قرر الله تعالى لكاتب الدين أن يكون طرفًا ثالثًا غير المتداينين، حتى لا يكتب أحدهما لنفسه على الآخر، ولذلك اشترط سبحانه على الكاتب العدالة في نفسه، أي: أن يكون محقًا في كتابته، وبيان ذلك

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٢٨٣.

(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٣/ ١٠٨.

(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٠٩.

في قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

أي: كاتب آخر غيركم، وأن يكتب بالحق والمعدلة، فالباء في قوله تعالى: ﴿بِالْعَدْلِ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَلْيَكْتُب﴾ وليست متعلقة بكلمة ﴿كَاتِبٌ﴾؛ لأنه كان يلزم ألا يكتب وثيقة إلا والعدل في نفسه، وقد يكتبها الصبي والعبد إذا أقاموا فقهها. أما المتصبون لكتبها في مناصب الدولة فلا يجوز للولاة أن ينصبوهم للكتابة إلا عدولًا مرضيين، قال مالك رحمه الله تعالى: لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارف بها، عدل في نفسه مأمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

على هذا تكون لفظة ﴿بِالْعَدْلِ﴾ في موضع صفة للكاتب الذي هو موكل بكتابة عقد الدين[(١)].

٢. إملاء المدين.

لقد جعل الله تعالى الكتابة لأجل توثيق الدين، وجعل توثيق الدين لأجل حفظ الحقوق، ولذلك ينظر للضعيف في هذا العقد؛ لأجل حفظ حقه من القوي، فالجانب الضعيف هو المدين، فلذلك جعل الله تعالى إملاء الكتابة بيده لا بيد الدائن، فلذلك حدد الله الذي يملل في قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أي: يملي الذي عليه الدين، فيملي الصيغة التي تكون حجة عليه.

وإن من حكمته سبحانه بألا يملي الدائن؛ لأن المدين عادة يكون في مركز الضعف، ولو جعل الإملاء بيد الدائن لأملى ما لا يتحمله المدين، مستغلًا ضعفه وحاجته للدين، فعندما يأتي ميعاد السداد لا يستطيع تنفيذ ما أملي عليه. فلذلك جعل الله تعالى الإملاء بيد المدين، فيملي ما يكون عليه حجة عليه[(٢)].

فإن لم يكن المدين قادرًا على إملاء الدين، فإنه ينيب عنه غيره.

فقد يكون الذي عليه الدين سفيهًا، أو ضعيفًا، أو لا يستطيع أن يمل من ضعف في المعرفة، فالله تعالى وضع الحل في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

إن الحجر على مثل هؤلاء بالإملاء في كتابة عقود الدين يأتي من ضعف في الرأي عندهم، وخفة في عقولهم، وهو ما يسمى بالسفه، وليس السفه في هذه الآية بمعنى الفساد؛ لأنه لا يمكن وصف المؤمنين بالسفاهة التي بمعنى الفساد، فتسميتهم بهذا اللفظ هو لخفة في عقولهم، وليس ذلك

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٨٤.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٧٨١.

لتحقيرهم، وكذلك من ضعف في القراءة والكتابة، فمثل هذه الأعذار تستوجب ممن يتولى الإشراف على كتابة عقد الدين، أن يستبدل أمثال هؤلاء بمن ينوب عنهم ممن يملكون الأهلية في الكتابة، وسفه بمعنى: استخف؛ لأن السفاهة خفة العقل واضطرابه، يقال: تسفهه، أي: استخفه[1].

يقول الرازي: «إن إدخال حرف ﴿أَوْ﴾ بين هذه الألفاظ الثلاثة، أعني: السفيه، والضعيف، ومن لا يستطيع أن يمل، يقتضي أن تكون أمورًا متغايرة؛ لأن معناه: أن الذي عليه الحق إذا كان موصوفًا بإحدى هذه الصفات الثلاث، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾، فيجب في الثلاثة أن تكون متغايرة، وإذا ثبت هذا وجب حمل السفيه على الضعيف الرأي، ناقص العقل من البالغين، والضعيف على الصغير والمجنون والشيخ الخرف، وهم الذين فقدوا العقل بالكلية، والذي لا يستطيع لأن يمل من يضعف لسانه عن الإملاء لخرس، أو جهله بماله وما عليه، فكل هؤلاء لا يصح منهم الإملاء والإقرار، فلا بد من أن يقوم غيرهم مقامهم، فقال تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾، والمراد: ولي كل واحد من هؤلاء الثلاثة؛ لأن ولي المحجور السفيه، وولي الصبي، هو الذي يقر عليه بالدين، كما يقر بسائر أموره»[2].

٣. كتابة الأجل.

إن من شرط كتابة عقد الدين أن يكون الدين لأجل، والأجل يجب تسميته وتحديده بحيث لا يكون مبهمًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البقرة: ٢٨٢].

يعني الحق سبحانه بذلك: أن يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إذا تداينتم دينًا، أو إذا تبايعتم بدين، أو اشتريتم به، أو تعاطيتم أو أخذتم به إلى وقت معلوم، فاكتبوا ذلك الدين أو البيع بينكم، ولا تتركوه مهملًا، فتقعوا في أمور محذورة لا تتوقعونها، ولا يحمد عقباها؛ إذ إن كتابة الدين تقتضي أن يوثق تاريخ الدفع فيه، وقد يدخل في ذلك القرض والسلم، وكل ما جاز فيه، فالسلم المسمى الذي أجل بيعه يصير دينًا على بائع ما أسلم إليه فيه. ويحتمل كذلك بيع الحاضر الجائز بيعه من الأملاك بالأثمان المؤجلة، كل ذلك من الديون المؤجلة إلى أجل مسمى، إذا كانت آجالها معلومة بحد موقوف عليه[3].

وقد يكون البيع بالدين إلى أجل قريب، وقد يكون إلى أجل بعيد، فلما أمر بالكتابة عند المداينة، استثنى من الكتابة ما كان

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٢٨٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ٥٣١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٤٣.

الأجل فيه قريبًا، والتقدير: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ إلا أن يكون الأجل قريبًا، وهو المراد من التجارة الحاضرة، وإنما رخص الله تعالى في ترك الكتابة والإشهاد في هذا النوع من التجارة؛ لكثرة ما يجري بين الناس فيها، فلو تكلف فيها الكتبة والإشهاد؛ لشق الأمر على الخلق، ولذلك نجد أن من حكمة الله تعالى ورحمته بخلقه، استثناء هذا النوع من الدين من الكتابة[1].

٤ . قيمة الدين.

لقد اعتنى الشرع ببيان قيمة الدين المحرر في عقده، سواء كانت القيمة صغيرة أو كبيرة، أي: إن الله تعالى لم يحد نصابًا محدودًا لكتابة عقد الدين، إنما جعله في الكثير والقليل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾[البقرة: ٢٨٢].

قال ابن كثير: «هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيرًا كان أو كبيرًا، فقال: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾، أي: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة إلى أجله».

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أي: هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلًا هو ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة؛ لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالبًا، ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾، وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة.

رابعًا: مقاصد الكتابة:

إن الملاحظ من سياق الآيات أن تكرار لفظ الكتابة في آية واحدة مع التأكيد بحرف اللام، لهو دليل على حرص الشرع على الحفاظ على حق العباد من الضياع، فقال تعالى في موضع من الآية: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾، وفي ثانٍ: ﴿وَلْيَكْتُب﴾، وفي ثالثٍ: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾، وفي رابعٍ: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾، وفي خامسٍ: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾؛ لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه، وفي آخر: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾، وهذا الأمر بالتقوى بعد تكرار لفظ الكتابة لهو تأكيد لأهمية الكتابة وما تحمل في طياتها من فوائد، أهمها:

١ . حفظ المال، وعدم إضاعته.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ١٠٥٥.

وصونه من الهلاك والبوار بالمماطلة في سداد الدين، فالمكاتبة حصن منيع لحفظ المال.

٢. أعدل في الشهادة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أي: أثبت للشهادة، وكذلك أقرب لنفي الريب في معاملاتكم، أي: الشك، فالكتاب يدفع ما قد يعرض لهم من الريب كائنًا ما كان.

٣. اجتناب سخط الله والمواظبة على تقوى الله تعالى.

وذلك بمنع مسببات المماطلة في سداد الدين، حيث إن الكتابة هي من أهم عوامل سد باب المماطلة من الجانبين، وذلك أن صاحب الدين إذا علم أن حقه مقيد بالكتابة، والإشهاد تحذر من طلب زيادة، أو تقديم المطالبة قبل حلول الأجل، والمديون يحذر من الجحد، ويأخذ قبل حلول الدين في تحصيل المال؛ ليتمكن من أدائه وقت الحلول[(١)].

٤. البعد عن الوقوع في المحرمات.

مثل: الربا وغيره من الطرق المحرمة؛ للحصول على المال، حيث إن المكاتبة تشجع على فتح باب الدين بدلًا من فتح باب الربا.

٥. إقامة العدل بين المتعاملين.

فالبيان الذي أمر به القرآن من الكتابة والإشهاد أعدل في إصابة حكم الله تعالى، وهو أحرى بإقامة العدل بين المتعاملين، وأعون على أداء الشهادة على وجهها الصحيح، وأقرب إلى إزالة الشكوك في تعيين جنس الدين ونوعه وقدره وأجله، فهذه مزايا ثلاث تؤكد العمل بكتابة الدين[(٢)].

ويستدل من الآيات السابقة على أن الشرع اهتم بكتابة الدين، وجعل الله أحكامًا وشروطًا تتعلق بالدائن والمدين ومن ينوب عنه، وبينت الآيات صفات وأهلية لكاتب الدين، والهدف والأثر لكتابة الدين.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٤/ ٤٨٠.

(٢) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٣/ ١١٢.

الإشهاد في الدين

لقد أعطى الحق سبحانه وتعالى للدين عناية كبيرة؛ لأن فيه مواساة الفقير وإغاثة الملهوف، ولأجل أن يضمن سير حركة الحياة الاجتماعية والاقتصادية أن تمر بسلام دون فوضى، شرع ربنا عز وجل الكتابة في الدين، وجعل للكتابة شروطًا تقوم عليها، من أهمها الشهادة على عقد كتابة الدين، وجعل للشهادة أيضًا بعض الشروط التي تقوم عليها، ومن أهمها ما يأتي:

أولًا: عدد الشهداء:

الله تعالى أمر في المداينة بأمرين:

أحدهما: الكتابة بقوله: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾.

والثاني: الإشهاد بقوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾.

والله تعالى لأجل تحصين العقود وتوثيقها توثيقًا جيدًا بحيث لا يتخلله النسيان الذي قد يؤدي لجحد المال، جعل العقود وتوثيقها تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الشهداء، وخوفًا من النسيان أو الحوادث الطارئة التي قد تؤدي فقدان الشاهد.

والله تعالى شرع العدد بأكثر من شاهد، وذلك حفظًا لما سبق من الحقوق.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾، بمعنى: أشهدوا، فالسين والتاء فيه لمجرد التأكيد، أو للطلب، أي: اطلبوا شهادة شاهدين، فيكون تكليفًا بالسعي للإشهاد، وهذا التكليف متعلق بصاحب الحق[1].

والشهادة حقيقتها الحضور والمشاهدة؛ لأجل الاطلاع على التداين، أي: لمشاهدة أو لسماع تعاقدٍ بين متعاقدين، وتطلق الشهادة أيضًا على الخبر الذي يخبر به صاحبه عن أمر حصل لقصد الاحتجاج به لمن يزعمه، والاحتجاج به على من ينكره، كما هو حال طلب الشهود على حالة الزنا[2].

وقوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾، أي: من رجال المسلمين، فحصل به شرطان: أنهم رجال، وأنهم ممن يشملهم الضمير، والمراد به: المسلمون؛ لقوله في طالعة هذه الأحكام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾.

والرجل في أصل اللغة يفيد وصف الذكورة، فخرجت الإناث ولهن حكم خاص، ويفيد البلوغ فخرج الصبيان؛ لضعف عقله عن الإحاطة بمواقع الإشهاد ومداخل التهم، وأما الكافر فلأن اختلاف الدين يوجب التباعد في الأحوال والمخالطات

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٠٥، ١٠٦.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٣/ ١٠٥، ١٠٦.

والمعاشرات والآداب، فهذا التباعد بين المسلم والكافر، لا يمكن للكافر الإحاطة بأحوال العدول والمرتابين من الفريقين المسلمين، ولذلك اشترط الشرع في تزكية المسلمين شدة المخالطة، وكذلك قد عرف من غالب أهل الملل استخفافهم بحقوق من خالفهم في دينهم، فقال الله تعالى عنهم قولهم: ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[آل عمران: ٧٥][1].

ثم بين الشارع الحكيم شهادة النساء وعددهن وما يتعلق بشهادتهن.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾[البقرة: ٢٨٢].

وقد بين الله تعالى إن لم يكن الشاهدان رجلين ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فليشهد رجل وامرأتان بشرط أن يكونوا ممن ترضون من الشهداء، وعلمكم بعدالتهم، وبين سبحانه الحكمة والعلة من اعتبار عدد النساء اثنتين مقابل الرجل الواحد، وذلك لأجل أن إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتها ذكرتها الأخرى، أي: إن العلة في الحقيقة التذكير عند النسيان، وهذا فيه إشعار بنقصان عقلهن وقلة ضبطهن؛ لأنه ما قاله في الرجال[2].

ثانيًا: صفات الشهداء:

والله تعالى بين صفات من يشهد على حقوق العباد، فقال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

فهذه الآية فيها من الدلالة على صفات الشهود، ومنها:

١ . العدالة.

قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[الطلاق: ٢٠].

أي: رجلين مسلمين عدلين؛ لأن في الإشهاد المذكور، سدًا لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه[3].

والعدل: كل مسلمٍ بالغٍ عاقلٍ سليم من أسباب الفسق وخوارم المروءة، فأخرج هذا التعريف الكافر وغير البالغ، وفي المميز نزاعٌ، والمجنون، والفاسق وهو: من يفعل الكبيرة ويصر على الصغيرة، والفسق نوعان: بشبهةٍ كالخوارج والشيعة، وبشهوةٍ كشرب الخمر والسرقة، وأخرج من يخالف الآداب الشرعية وعرف المجتمع المسلم[4].

(١) انظر: المصدر السابق، ٣/ ١٠٧.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٥٧٨.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٨/ ١٥٠.

(٤) انظر: التعريفات الندية على المنظومة البيقونية، حمد النابت، ١/ ٤.

ومن شروط العدل:

❁ الإسلام.

قال تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، ففيه دلالة على أن الله إنما عني المسلمين دون غيرهم، حيث إنه سبحانه وصف الشهود أنهم منا، وممن نرضى عنهم، فدل هذا على أنه لا يجوز أن نقضي بشهادة شهود من غيرنا، حيث إننا لا نرضى بشهادة الكافر، فلو شهد ذمي على شيء لا تقبل شهادته عند كثير من أهل العلم على الإطلاق، وهو قول مالك، والشافعي.

ولقد رد الشافعي على بعض من أجاز شهادة الكافر الذمي، فقال: «كيف يجوز أن ترد شهادة مسلم اشترط الله فيه العدل، وثبتت عدم عدالته، حيث نعرفه يكذب على بعض الآدميين، ونجيز شهادة ذمي وهو يكذب على الله تبارك وتعالى، والمسلم غير العدل خير من كل المشركين، فكيف نجيز شهادة الذي هو شر، الذي يحيا بلا كتاب ولا سنة ولا أثر، ولا أمر اجتمعت عليه عوام الفقهاء، ونرد شهادة الذي هو خير منه، وهو المسلم الذي اتصف بغير العدل، ولكنه موحد لله تعالى؟ فإن أهل الذمة أعدلهم أعظمهم بالله شركًا، وأسجدهم للصليب وألزمهم للكنيسة!!»[1].

وذهب بعض أصحاب الرأي إلى أن شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض جائزة، وإن اختلفت مللهم، وذهب بعضهم إلى أن شهادة بعضهم على بعض تجوز عند اتفاق الملة، أما إذا اختلفت الملة بأن شهد يهودي على نصراني أو مجوسي فلا تقبل.

فإذا كان هذا الاختلاف في أهل الملل الأخرى، بأن لا تقبل شهادة من خالفهم في ملتهم، فكيف تقبل شهادتهم على الموحدين.

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن شهادة أهل الذمة في حق المسلمين باطلة، ولكن أجاز بعضهم شهادتهم على وصية المسلم في السفر فقط، واحتجوا بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦] أي: «من غير أهل دينكم»[2].

❁ البلوغ.

فشهادة من لم يبلغ سن الرشد لا تقبل؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾[البقرة: ٢٨٢].

قال بعضهم: تقبل في أمور معينة، فقيل: تقبل شهادة الصبيان على الجراح التي تقع في محل اجتماعهم ما لم يتفرقوا، ولا

(١) معرفة السنن والآثار، البيهقي، ١٤/ ٢٦٧.

(٢) شرح السنة، البغوي، ٥/ ١٤٠.

تقبل في غيرها، أي: شهادتهم على بعضهم البعض قبل المفارقة[1].

وروي عن ابن عباس في شهادة الصبيان قال: لا تجوز؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾، والصبيان لا يستراح ولا يرضى بشهادتهم[2].

❁ العقل.

فلا تقبل شهادة المجنون؛ لأنه لا حكم لقوله في شيء ما، وهذا إجماع العلماء، والعقل مناط التكليف، لأجل ذلك أحكام الشرع لا تجرى إلا على ذي عقل.

والعقل لغة: المنع، ولهذا يمنع النفس من فعل ما تهواه، مأخوذ من عقال الناقة: المانع لها من السير حيث شاءت، وهو أصل لكل علم، وكان بعض الأئمة يسميه أم العلم، وكثر الاختلاف فيه حتى قيل: إن فيه ألف قول، وقد تكلم فيه أصناف الخلق من الفلاسفة والأطباء والمتكلمين والفقهاء كل واحد ما يليق بصناعته، فأما الأطباء شأنهم الخوض فيما يصلح الأبدان، فالعقل سلطان البدن، وقال المتكلمون الذين هم أهل النظر: والنظر أبدًا يتقدمه العقل، والفقهاء تكلموا فيه من حيث إنه مناط التكليف، فقال الشافعي رضي الله عنه: «هو آلة خلقها الله لعباده يميز بها بين الأشياء وأضدادها، وقال في موضع آخر: والعقول التي ركبها الله فيهم؛ ليستدلوا بها على العلامات التي نصبها لهم على القبلة وغيرها منا منه ونعمة»[3].

❁ الخلو من الفسق وخوارم المروءة.

والمروءة شرط قبول الشهادة، وهي ما يتصل بآداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء، وهي حسن الهيئة، والسيرة، والعشرة، والصناعة، فإذا كان الرجل يظهر من نفسه في شيء منها ما يستحي أمثاله من إظهاره في الأغلب، يعلم به قلة مروءته، وترد شهادته، وإن كان ذلك مباحًا[4].

وقال الشافعي: «إذا كان الأغلب الأظهر من أمره الطاعة والمروءة قبلت شهادته، وإذا كان الأغلب الأظهر من أمره المعصية، وخلاف المروءة، ردت شهادته»[5].

ومن خوارم المروءة الخيانة، ولقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رد شهادة من ثبتت عدم عدالته بالخيانة والقذف، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رد شهادة الخائن والخائنة، وذي الغمر على أخيه، ورد شهادة

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي، ١/ ٦٥.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٢٦٨، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٠٦.
(٥) انظر: الأم، الشافعي، ٧/ ٥٣.

القانع لأهل البيت، وأجازها لغيرهم)[1].

وقوله: القانع، أي: هو السائل المستطعم، وقيل: هو المنقطع إلى القوم يخدمهم، وذلك مثل الأجير والوكيل، ترد شهادته؛ للتهمة، فيجر النفع إلى نفسه؛ لأن التابع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم، وقوله: الغمر، أي: الحقد والظنين -بالظاء- أي: المتهم.

والقاذف فاسق مردود الشهادة، وإذا تاب وحسنت حالته، قبلت شهادته، سواء أتاب بعد ما أقيم عليه الحد أو قبله، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٤].

وهذا قول أكثر أهل العلم[2].

٢. الحرية.

وهي شرط قبول الشهادة؛ لأنها من باب الولايات، والعبد ناقص الحال لا يملك زمام أمره، فيكون أمره في يد غيره.

اتفق الحنفية والمالكية والشافعية على أن الشاهد يشترط فيه أن يكون حرًا، فلا تقبل شهادة رقيق؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥].

ولأن الشهادة فيها معنى الولاية، وهو لا ولاية له.

وقال الحنابلة والظاهرية: تقبل شهادة العبد؛ لعموم آيات الشهادة؛ ولأن العبودية ليس لها تأثير في الرد، وقيدها الحنابلة فيما عدا الحدود والقصاص بقوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢][3].

وسأل رجل أحمد بن حنبل عن شهادة العبد هل تجوز؟ فقال: «تقبل شهادة العبد والأمة فيما تقبل فيه شهادة الحر والحرة، وقال: لا أعرف إلا ذلك، ولما سئل بأن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز شهادة أمة في الرضاع على شهادة العبد، هل يكون ذا حجة له؟ قال: نعم، وقبلها بعض العلماء في الأمور التافهة فقط»[4].

٣. العلم بما يشهد.

وجب على الشاهد أن يكون على علم تام بما يشهد به، ولا يجوز أن يشهد بما لم يعلم، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] أي: لا تتبعه.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب من ترد شهادته، ٥/ ٤٥٢، رقم ٣٦٠٠. وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢/ ٣٩٧.

(٢) انظر: شرح السنة، البغوي، ٧/ ١٤٠.

(٣) انظر: جامع الأصول، ابن الأثير، ١٠/ ١٩١، الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٨/ ١٧٤.

(٤) انظر: المحرر، ابن عبدالهادي ٢/ ٣٠٧.

والشهادة مشتقة من المشاهدة، وهي المعاينة؛ لأن الشاهد يخبر عما شاهده وعاينه وتم علمه به، ومعناها: الإخبار عما علمه بلفظ أشهد أو شهدت.

والشاهد: حامل الشهادة ومؤديها؛ لأنه شاهد وعالم لما غاب عن غيره، ولذلك قالوا: لا شهادة إلا بعلم، ولا يحل لأحد أن يشهد إلا بعلم.

ومن شروط العلم: العلم بالرؤية؛ كرؤية القتل والإتلاف، أو باستفاضة فيما يتعذر علمه غالبًا بدونها، ومنها ما يكتفى فيه بالسماع.

وتصح الشهادة بالاستفاضة عند الشافعية في النسب والولادة والموت والعتق والولاء والولاية والوقف والعزل والنكاح وتوابعه، وكذلك التعديل والتجريح والوصية والرشد والسفه والملك.

وقال أبو حنيفة: «تجوز في خمسة أشياء: (النكاح، والدخول، والنسب، والموت، وولاية القضاء)»، وقيل: تصح في سبعة: (النكاح، والنسب، والموت، والعتق، والولاء، والوقف، والملك المطلق)[1].

ثالثًا: مقاصد الإشهاد:

لقد ورد بيان إشهاد الصادق العدل من المسلمين عليها؛ لحكم ومقاصد أرادها الله تعالى بالكتابة والشهود، بيان بعضها فيما يأتي:

حكمة الكتابة والإشهاد في دين المال وما كان في الأجل:

قال تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ وقال في الوصية والرجعة ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ لأن المستشهد هناك صاحب الحق، فهو يأتي بمن يرضاه لحفظ حقه، فإن لم يكن عدلًا كان هو المضيع لحقه[2].

الحكمة من قبول شهود ترد شهاداتهم:

وقد اتفق العلماء على أن هناك مواضع حاجات يقبل فيها من الشهادات ما لا يقبل في غيرها[3] من حيث الجملة، وإن اختلفوا في بعض التفاصيل، وذلك لحكم أرادها الشرع فيها، مثال ذلك: قد أمر الله سبحانه بالعمل بشهادة شاهدين من غير المسلمين عند الحاجة في الوصية في السفر، وذلك لحكمة حفظ الحقوق وعدم تركها للضياع، وكقبول شهادة النساء منفردات في الأعراس والحمامات، والمواضع التي تنفرد النساء بالحضور فيها، فقبول شهادتهن هنا أولى من قبول شهادة الكفار على الوصية في السفر، وذلك لحكمة الستر على العورات والأعراض، وكذلك عمل الصحابة وفقهاء المدينة بشهادة الصبيان على تجارح بعضهم

(١) انظر: فقه السنة، سيد سابق، ٣/ ٢٢٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ١٠٥٠.

(٣) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٩٧، ٩٨.

بعضًا، وذلك لحكمة أن الرجال لا يحضرون معهم في لعبهم، ولو لم تقبل شهادتهم وشهادة النساء منفردات لضاعت الحقوق، وتعطلت وأهملت مع غلبة الظن، أو القطع بصدقهم، ولا سيما إذا جاءوا مجتمعين قبل تفرقهم ورجوعهم إلى بيوتهم، وتواطئوا على خبر واحد، واتفقت كلمتهم، فإن الظن الحاصل حينئذ من شهادتهم أقوى بكثير من الظن الحاصل من شهادة رجلين، وهذا مما لا يمكن دفعه وجحده، فلا نظن أن الشريعة الكاملة الحريصة على مصالح العباد في معاشهم ومعادهم وحياتهم، أنها تهمل مثل هذه الحكم والفوائد في الشهادة على الحقوق والمعاملات والحوادث وعدم تضيعها[1].

ويستفاد من الآيات السابق ذكرها -آيتا سورة البقرة- أن الله جعل شهودًا على وثيقة الدين لما لها من أهمية في حفظ الحقوق للدائن والمدين، وبين صفات الشهود، مثل: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والخلو من صفة الفسق وخوارم المروءة، وكذلك الحرية.

(١) انظر: المصدر السابق.

تحريم الإضرار في الكتابة والإشهاد

شرع الله لكتابة العقود المتعلقة بالديون وغيرها، والشهادة عليها ضوابط تضبطها، مع المحافظة على حقوق أخرى متعلقة بالكتابة والشهادة بحيث ألا تؤثر عليها، وهي مبينة فيما يأتي:

أولًا: تحريم الإضرار بالكتاب والشهود:

إن كتابة عقد الدين شرع شرعه الله تعالى، وكذلك الشهادة عليه شرع، وحماية الكاتب والشاهد والمتداينين كذلك شرع شرعه الله تعالى أوجب على عباده أن يحافظوا عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالكاتب والشاهد في العقود المبرمة بين المتعاقدين يؤديان عملًا إنسانيًا، حسبة لوجه الله تعالى، فمن الظلم أن يقوما بعمل يبتغيان به وجه الله تعالى، وبعد ذلك يمسهما سوء، أو ينالهما أذى من أجل هذا العمل الذي يقومان به، فإذا لم يتيسر سبل كتابة العقد، والشهادة عليه، ولم يمط عنهما كل أذى، فهذا يؤدي لزهد الناس في هذا العمل الخير والابتعاد عنه.

لهذا جاء قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ

﴿وَلَا شَهِيدٌ﴾ حماية للإحسان وللمحسنين من أن يكدر صفو الإحسان، وأن يساء إلى أهله بأي لون من ألوان الأذى المادي أو الأدبي[1].

إن الله تعالى يعلم أن كل إنسان له مصالحه في الحياة، ويجب ألا تتعطل أو تتعطل هذه المصالح أمام قضاء مصالح غيره، فالشاهد أو الكاتب حينما يستدعى الواحد منهم ليشهد أو ليكتب لمصلحة غيره، يجب ألا تتعطل مصالحه؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

والله تعالى قد حذر الدائن والمدين من أن ينال كلاهما أو أحدهما الكاتب أو الشاهد أذى منهم، فإن فعلوا كان ذلك فسقًا منهم، وخروجًا على سنة العدل والإحسان، وتعديًا على حدود الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾[2].

ثانيًا: إضرار الكتاب والشهود بالمتداينين:

وكما أن الله تعالى قد حذر من مغبة الضرر بالكاتب والشهيد وتضيع مصالحهما، بسبب استغلال عدالتهما، نجد أن الله تعالى قد حذر أيضًا من إضرار الكاتب أو الشهيد لأحد المتداينين، فنجده سبحانه وضع شروطًا على الكتاب والشهود، من أهمها عدم الإضرار بالدائن أو المدين، قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾[البقرة: ٢٨٢].

ومن أصناف الضرر الواقع في كتابة الدين: إضرار الكاتب والشاهد بأحد المتداينين، وبيان ذلك فيما يلي:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ هذا نهي عن المضارة لأحد الطرفين سواء الشاهد والكاتب أو أحد المتداينين، وقد تبين فيما سبق كيفية إضرار الدائن أو المدين أو كليهما بالشاهد أو الكاتب، أما إضرار الشاهد والكاتب بالمتداينين، فإن أصل لفظة ﴿يُضَارَّ﴾ هو يضارر، بكسر الراء الأولى، ومعناه: لا يضار الكاتب بأن يكتب أو يشهد، فيكون منه بذلك الضرر، والضرر منهما على عدة وجوه، منها:

الوجه الأول: بأن يدعى الكاتب للكتابة وهو أهل لها فيأبى أن يكتب، أو يدعى الشاهد للشهادة وهو أهل لها، فيأبى أن يشهد، فلا يجدان الرجل العدل الذي يكتب أو يشهد، فبذلك يضار المتداينان بكتابة أو شهادة غير عدل[3].

الوجه الثاني: حيث يضر الكاتب فيزيد

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٣/ ٣٨٥.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٧٨٣.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٠٨.

فيما يملى عليه في نص العقد، أو ينقص منه كلام أملي عليه كتابته، أو يحرف الكلام الذي أملي عليه بكلام غير مفهوم، أو كلام فيه غش وخداع لأحد الطرفين، فيضر صاحب الحق أو من عليه الحق[1].

وكذلك الشاهد إذا غير وبدل بشهادته، أو أنكرها أو أنكر بعضها، أو كذب وحلف الأيمان الباطلة على شهادته، فهو بذلك قد أضر أحد الطرفين من المتداينين[2].

يقول الثعلبي: في قوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ هو نهي الغائب، وأصله: يضارر، فأدغمت الراء في الراء، ونصبت؛ لحق التضعيف؛ لاجتماع الساكنين، والفتح أخف الحركات فحركت إليه.

وأما تفسير الآية: فأجراها بعضهم على الفعل المعروف، وقال: أصله يضار بكسر الراء وجعل الفاعل الكاتب والشهيد، معناه: ولا يضار كاتب فيكتب ما لم يملل عليه، (يزيد أو ينقص أو يحرف)، ولا شهيد فيشهد مالم يشهد عليه، أو يمتنع من إقامة الشهادة. وهذا قول طاووس، والحسن، وقتادة، وابن زيد. وأجراه آخرون على الفعل المجهول، وجعلوا الكاتب والشهيد مفعولين، وقالوا: أصله لا يضار.

ومعنى الآية: أن الرجل يدعوا الكاتب أو الشهيد وهما على حاجة مهمة، فيقولان: إنا مشغولان فاطلب غيرنا، فيقول الذي يدعوه: إن الله أمركما أن تجيبا في الكتابة والشهادة، ويلح عليهما ويشغلهما عن حاجتهما، فنهى الله عز وجل عن مضارتهما، وأمر أن يطالب غيرهما.

وقال الربيع بن أنس: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

كأن أحدهما يجيء إلى الكاتب فيقول له: أكتب، فيقول: إني مشغول، أو لي حاجة، فانطلق إلى غيري، فيلزمه ويقول: إنك قد أمرت بالكتابة، فلا يدعه فيضاره بذلك، وهو يجد غيره، وكذلك يفعل مع الشاهد، فأنزل الله تعالى: الآية، ودليل هذا التأويل قراءة عمر وأبي وابن مسعود ومجاهد: ﴿وَلَا يضارر كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ بإظهار التضعيف على وجه من لم يمنع.

وقرأ أبو جعفر: ولا يضار، مجزومًا مخففًا براء واحدة أصلًا.

وقرأ الحسن: (ولا يضار) بكسر الراء مشددًا[3].

ونستدل مما سبق أن الله تعالى كما حفظ حقوق المتداينين من أي ضياع يلحق بهما؛ فقد حفظ أيضًا الكاتب والشاهد من أي ضرر يلحق بهما من شهادته أو كتابته،

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/ ٢٩٧.

أو يلحق الكاتب أو الشهيد أي ضرر بأحد المتداينين من خلال كتابته أو شهادته، ثم توعد من فعل مثل ذلك بالعقاب الشديد.

الرهن في الدين

لقد اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده تيسير أمور حياتهم، فجعل لهم البدائل لبعض الأحكام التي أقرها عليهم حينما يتعسر عليهم تطبيقها، ومن هذه الأمور: الرهن، فحينما يتعسر كتابة الدين لأي ظرف طارئ كالسفر، وعدم وجود كاتب أو شهيد لكتابة عقد الدين، يتم البدل عنه بالرهن، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾[البقرة: ٢٨٣].

والرهن: حبس الشيء بحق يمكن أخذه منه؛ كالدين[(١)].

وقيل: «احتباس العين وثيقة بالحق؛ ليستوفي الحق من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم»[(٢)].

والله تعالى جعل للرهن أحكامًا أوجب على المسلمين الأخذ بها، بيانها فيما يأتي:

١ . القبض.

أي: قبض الشيء المرهون، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

يقول السعدي: «أي: إن كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتبًا يكتب بينكم ويحصل به التوثق، فحينها رهان مقبوضة، أي: يقبضها

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص١٥٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٤٠٩.

صاحب الحق، وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودل أيضًا على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنت به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضًا عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنت به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضرًا وسفرًا، وإنما نص الله على السفر؛ لأنه في مظنة الحاجة إليه؛ لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثق لحقه»[1].

٢. الرهن بالسفر والحضر.

لما ذكر الله تعالى الندب إلى الإشهاد والكتابة لمصلحة حفظ الأموال، عقب ببيان حال الأعذار المانعة من الكتابة، وجعل لها بديلًا وهو الرهن، وجعل من أهم الأعذار، السفر الذي هو غالب على كل الأعذار، وليس معنى ذلك أن الرهن مرهون على السفر فقط، فرب وقت يتعذر فيه الكاتب في الحضر فيندب بذلك البدل، وهو الرهن، وأيضًا فالخوف على خراب ذمة الغريم عذر يوجب طلب الرهن، وقد رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعه عند يهودي طلب منه سلف الشعير[2].

عن عائشة قالت: (توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير)[3].

فهذا بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أعطى رهنًا في حضر، حيث الطعام لأهل بيته وليس للسفر[4].

٣. الأمانة.

إن حكم الأمانة لا تتوقف على المدين فقط، بل تطلب من الدائن بحفظ الرهن الذي بحوزته، وذلك من الضياع أو الخراب أو التلف، إذًا طلب الأمانة لا تتوقف على المدين فقط، فهناك دائن قابض لرهن بدلًا من ماله يطلب منه الأمانة في حفظ ما عنده من رهن.

يقول الشعراوي: «قد نفهم أن الذي اؤتمن هو المدين، وهنا نقول: لا، إن الأمر مختلف، فهناك رهان، وذلك معناه وجود مسألتين:

المسألة الأولى: هي الدين.

والمسألة الثانية: هي الرهان المقبوضة،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٩٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٤٠٩.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الرهن، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٤١، رقم ٢٩١٦.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٨٦.

وهي مقابل الدين.

فواحد مأمون على الرهن في يده، والآخر مأمون على الدين، ولهذا يكون القول الحكيم مقصودًا به من بيده الرهن، ومن بيده الدين، ومعنى ذلك: أن يؤدي من معه الرهن أمانته، وأن يؤدي الآخر دينه.

وحين نرتقي إلى هذا المستوى في التعامل، فإن وازع الإنسان ليس في التوثيق الخارج عن ذات النفس، ولكنه التوثيق الإيماني بالنفس، ولكن أنضمن أن يوجد التوثيق الإيماني عند كل الناس؟ أنضمن الظروف؟ نحن لا نضمن الظروف، فقد توجد الأمانة الإيمانية وقت التحمل والأخذ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء»[1].

وقد وضع القرطبي في تفسيره عدة مسائل تتعلق بالرهن من أهمها[2]:

الأولى: قال جمهور من العلماء: الرهن في السفر بنص التنزيل، وفي الحضر ثابت بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، منها ما ورد في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها: (توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير لأهله)[3].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ قرأ الجمهور (كاتبًا) بمعنى: رجل يكتب، وقرأ ابن عباس وأبي ومجاهد والضحاك وعكرمة وأبو العالية: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كُتَّابًا﴾، فسره مجاهد فقال: «معناه: فإن لم تجدوا مدادًا، يعني: في الأسفار»، قال النحاس: «هذه القراءة شاذة، والعامة على خلافها، وقلما يخرج شيء عن قراءة العامة إلا وفيه مطعن، ونسق الكلام على (كاتب)»، قال الله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

قال ابن عطية: «(كتابًا) يحسن من حيث لكل نازلة (كاتب)، فقيل: كتابًا للجماعة، أي: ولم تجدوا كتابًا».

وأما قراءة أبي وابن عباس: (كتابًا)، فقال النحاس ومكي: هو جمع كاتب، والمعنى: وإن عدمت الدواة والقلم والصحيفة، ونفي وجود الكاتب، يكون بعدم وجود أي آلة، ونفي الكتاب أيضًا يقتضي نفي الكتاب، فالقراءتان حسنتان إلا من جهة خط المصحف.

الثالثة: ولما كان الرهن بمعنى الثبوت والدوام، فمن ثم بطل الرهن عند الفقهاء إذا خرج من يد المرتهن إلى الراهن بوجه من الوجوه؛ لأنه فارق ما جعل باختيار المرتهن له.

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٧٨٩.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٤٠٨-٤١٤.
(٣) سبق تخريجه قريبًا.

قال أبو حنيفة: «إن رجع بعارية أو وديعة لم يبطل»، وقال الشافعي: «إن رجوعه إلى يد الراهن مطلقًا لا يبطل حكم القبض المتقدم ودليلنا: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾، فإذا خرج عن يد القابض لم يصدق ذلك اللفظ عليه لغة، فلا يصدق عليه حكمًا، وهذا واضح».

الرابعة: إذا رهنه قولًا ولم يقبضه فعلًا لم يوجب ذلك حكمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

قال الشافعي: «لم يجعل الله الحكم إلا برهن موصوف بالقبض، فإذا عدمت الصفة، وجب أن يعدم الحكم وهذا ظاهر جدًا».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يقتضي بينونة المرتهن بالرهن، وأجمع الناس على صحة قبض المرتهن، وكذلك على قبض وكيله، واختلفوا في قبض عدل يوضع الرهن على يديه، فقال مالك وجميع أصحابه وجمهور العلماء: قبض العدل قبض، وقال قتادة وعطاء: ليس بقبض، ولا يكون مقبوضًا إلا إذا كان عند المرتهن، وقول الجمهور أصح من جهة المعنى؛ لأنه إذا صار عند العدل صار مقبوضًا لغة وحقيقة؛ لأن العدل نائب عن صاحب الحق وبمنزلة الوكيل، وهذا ظاهر.

السادسة: ولو وضع الرهن على يدي عدل فضاع لم يضمن المرتهن ولا الموضوع على يده؛ لأن المرتهن لم يكن في يده شيء يضمنه، والموضوع في يد أمين، والأمين غير ضامن.

السابعة: انتفاع المرتهن من الرهن، روي من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الرهن يركب بنفقته، إذا كان مرهونًا، ولبن الدر يشرب بنفقته، إذا كان مرهونًا، وعلى الذي يركب ويشرب النفقة)[1].

قال الطحاوي: «كان ذلك وقت كون الربا مباحًا، ولم ينه عن قرض جر منفعة ولا عن أخذ الشيء بالشيء، وإن كانا غير متساويين، ثم حرم الربا بعد ذلك، وقد أجمعت الأمة على أن الأمة المرهونة لا يجوز للراهن أن يطأها، فكذلك لا يجوز له خدمتها».

وقال بعضهم: ولو شرط المرتهن الانتفاع بالرهن فلذلك حالتان: إن كان من قرض لم يجز، وإن كان من بيع أو إجارة جاز؛ لأنه يصير بائعًا للسلعة بالثمن المذكور، ومنافع الرهن مدة معلومة، فكأنه بيع وإجارة، وأما في القرض فلأنه يصير قرضًا جر منفعة؛ ولأن موضوع القرض أن يكون قربة، فإذا دخله نفع صار زيادة في الجنس وذلك ربًا.

الثامنة: لا يجوز غلق الرهن، وهو أن يشترط المرتهن أنه له بحقه إن لم يأته به عند أجله، وكان هذا من فعل الجاهلية، فأبطله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرهن، باب الرهن مركوب ومحلوب، ٣/ ١٤٣، رقم ٢٥١٢.

النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا يغلق الرهن من صاحبه الذي رهنه له غنمه وعليه غرمه)، قال الشافعي رضي الله عنه: «غنمه: زيادته، وغرمه: هلاكه ونقصه»[1].

التاسعة: ورهن من أحاط الدين بماله جائز ما لم يفلس، ويكون المرتهن أحق بالرهن من الغرماء، وروي عن مالك خلاف هذا فقال: «إن الغرماء يدخلون معه في ذلك».

موضوعات ذات صلة:

الأجل، الشهادة، المال، الوراثة، الوصية

(١) انظر: مسند الشافعي ص١٤٨.

الذِّكْر

عناصر الموضوع

مفهوم الذكر	٨٢
الذكر في الاستعمال القرآني	٨٤
الألفاظ ذات الصلة	٨٦
كيفية الذكر	٨٧
أوقات الذكر	١٣٧
فوائد الذكر	١٤٤

مفهوم الذكر

أولًا: المعنى اللغوي:

(ذ ك ر) الذال والكاف والراء أصلان، عنهما يتفرع كلم الباب.

فالأصل الأول: الذكر (بالفتح): خلاف الأنثى، والأصل الآخر: الذكر (بالكسر): الحفظ للشيء، تذكره، والذكر: جري الشيء على اللسان، وذكرت الشيء: خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان، ويقولون: اجعله منك على ذكرٍ، بضم الذال، أي: لا تنسه. والذكر: العلاء والشرف، وهو قياس الأصل.

فعلى الأصل الثاني (الذكر) بالكسر له معنيان: أحدهما: التلفظ بالشيء، والثاني: إحضاره في الذهن، بحيث لا يغيب عنه، وهو ضد النسيان، و(الذكر) بالضم للمعنى الثاني لا غير. أي: أن الذكر بالكسر ما يكون باللسان، وبالضم ما يكون بالجنان.

وإذا أريد بالذكر الحاصل بالمصدر جمع على (أذكار) وهو الإتيان بألفاظٍ ورد الترغيب فيها، ويطلق ويراد به المواظبة على العمل بما أوجب أو ندب إليه، كالتلاوة، وقراءة الأحاديث، ودرس العلم، والنفل بالصلاة[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن علان: «أصل وضع الذكر هو ما تعبدنا الشارع بلفظه، مما يتعلق بتعظيم الحق، والثناء عليه»[2].

ونجد أن الذكر عند ابن تيمية واسع الدلالة؛ إذ هو عنده: «كل ما تكلم به اللسان، وتصوره القلب، مما يقرب إلى الله من تعلم علم، وتعليمه، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر فهو من ذكر الله؛ ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسًا يتفقه، أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهًا، فهذا أيضًا من أفضل ذكر الله»[3].

وعرفه ابن القيم في الوابل الصيب بقوله: «الذكر ثناء على الله عز وجل بجميل أوصافه

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٩٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٥٨، تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٣٨٧.

(٢) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ١/ ٣٩٦.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٦٦١.

وآلائه وأسمائه»[1].

والمقصود: أن الذكر في الاصطلاح يستعمل بمعنى ذكر العبد لربه عز وجل، سواء بالإخبار المجرد عن ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه، أو بتلاوة كتابه، أو بمسألته ودعائه، أو بإنشاء الثناء عليه بتقديسه، وتمجيده وتوحيده وحمده وشكره، وتعظيمه، ويستعمل الذكر اصطلاحًا بمعنى أخص من ذلك، فيكون بمعنى إنشاء الثناء بما تقدم دون سائر المعاني الأخرى المذكورة، ويشير إلى الاستعمال بهذا المعنى الأخص قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾[العنكبوت: ٤٥].

فبعد أن ذكر الصلاة وهي ذكر بالمعنى العام، قال بعدها: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ أي: بالمعنى الأخص.

ويلحظ أن الذكر اصطلاحًا مخصوص بذكر العبد ربه عز وجل، بالثناء عليه.

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٨٩.

الذكر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ذكر) في القرآن الكريم (٢٤٢) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٧	﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾[الأعلى:١٥]
الفعل المضارع	٧١	﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾[الأنبياء:٣٦]
فعل الأمر	٥٦	﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾[آل عمران:٤١]
اسم فاعل	١٠	﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[الأحزاب:٣٥]
اسم مفعول	١	﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾[الإنسان:١]
مصدر	٧٧	﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[البقرة:٢٠٠]

وجاء الذكر في القرآن على ثمانية أوجه[(٢)]:

الأول: الطاعة والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة:١٥٢]، يعني: اذكروني بالطاعة وأطيعوني، أذكركم بخير.

الثاني: الحفظ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[البقرة:٦٣]، يعني: احفظوا ما في التوراة.

الثالث: التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه:١٢٤]، يعني: عن توحيده سبحانه.

الرابع: الشرف، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[الأنبياء:١٠]، يعني:

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٧٠- ٢٧٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن، مقاتل بن سليمان، ص٥١- ٥٥، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢١٧- ٢٢٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٣٠١- ٣٠٥.

شرفكم.

الخامس: الوعظ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[الأنعام:٤٤]، يعني: ما وعظوا به.

السادس: الخبر، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾[الكهف:٨٣]، يعني: خبرًا.

السابع: الوحي، قال تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾[ص:٨]، يعني: الوحي.

الثامن: البيان، قال تعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾[ص:١]، يعني: ذي البيان.

الألفاظ ذات الصلة

١ التسبيح:

التسبيح لغةً:

تدل مادة (سبح) على التنزيه والتبرئة من السوء.

ومعنى: (سبحان الله): تنزيه الله وبراءته من السوء[١].

التسبيح اصطلاحًا:

التنزيه والتعظيم لله تعالى[٢].

الصلة بين التسبيح والذكر:

إن الذكر أعم من التسبيح، والتسبيح أخص من الذكر، فكل تسبيح ذكر وليس العكس.

٢ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة (د ع و) التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوى[٣].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربه حاجته.

الصلة بين الدعاء والذكر:

بينهما عموم وخصوص، فكل دعاء ذكر لله، وليس كل ذكر دعاء.

قال ابن القيم: «إن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضل الدعاء الحمد لله)، فسمى الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما[٤].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٥، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٩١٤.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٢٢٣، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٧٢.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠.
(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٩.

كيفية الذكر

أولًا: السر والجهر:

ذكر الله مشروع سرًا وجهرًا، إلا أن الأفضل فيه أن يكون دون الجهر من القول، أي: معتدلًا، فقد ذكر الله تعالى من آداب الذكر خفض الصوت، وعدم الجهر به، قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ونظيره في الدعاء قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

فقوله: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ فيها استحباب إمرار الذكر بالقلب، أو يكون المعنى: أن يذكر الله بينه وبين نفسه بحيث لا يطلع عليه أحد من شدة المخافتة. أو ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وآلائه وفضله عليك، وحاجتك إليه، متضرعًا له، خائفًا منه، راجيًا نعمه[(١)].

قال الجصاص: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هو الفكر في دلائل الله وآياته[(٢)].

وهذا الذكر لا بد أن يكون ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ والتضرع: التذلل؛ ولما كان التذلل يستلزم الخطاب بالصوت المرتفع في عادة العرب كنى بالتضرع عن رفع الصوت مرادًا به معناه الأصلي والكنائي؛ ولذلك قوبل بالخفية في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقوبل التضرع هنا بالخيفة، وهي اسم مصدر الخوف، فهو من المصادر التي جاءت على صيغة الهيئة، وليس المراد بها الهيئة مثل الشدة، ولما كانت الخيفة انفعالًا نفسيًا يجده الإنسان في خاصة نفسه كانت مستلزمة للتخافت بالكلام خشية أن يشعر بالمرء من يخافه؛ فلذلك كني بها هنا عن الإسرار بالقول مع الخوف من الله، فمقابلتها بالتضرع طباق في معنيي اللفظين الصريحين، ومعنييهما الكناءين، فكأنه قيل: تضرعًا وإعلانًا، وخيفة وإسرارًا.

وبين ابن القيم الفرق بين الخيفة والخفية بقوله: «وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بد، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره؛ لأنها توجب الإدلال

(١) تفسير المراغي ٩/ ١٥٦.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢٢٢.

والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل»[1].

فذكر الله -الذي حثت عليه هذه الآية وغيرها- ليس مجرد الذكر بالشفة واللسان؛ ولكنه الذكر بالقلب والجنان، فذكر الله إن لم يرتعش له الوجدان، وإن لم يخفق له القلب، وإن لم تعش به النفس، إن لم يكن مصحوبًا بالتضرع والتذلل والخشية والخوف لن يكون ذكرًا، بل قد يكون سوء أدب في حق الله سبحانه، إنما هو التوجه إلى الله بالتذلل والضراعة، وبالخشية والتقوى، إنما هو استحضار جلال الله وعظمته، واستحضار المخافة لغضبه وعقابه، واستحضار الرجاء فيه، والالتجاء إليه، حتى يصفو الجوهر الروحي في الإنسان، ويتصل بمصدره اللدني الشفيف المنير، فإذا تحرك اللسان مع القلب وإذا نبست الشفاه مع الروح؛ فليكن ذلك في صورة لا تخدش الخشوع، ولا تناقض الضراعة؛ ليكن ذلك في صوت خفيض، لا مكاء وتصدية، ولا صراخًا وضجة، ولا غناء وتطرية![2].

وقوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هو مقابل لكل من التضرع والخيفة، وهو الذكر المتوسط بين الجهر والإسرار، والمقصود من ذلك استيعاب أحوال الذكر باللسان؛ لأن بعضها قد تكون النفس أنشط إليه منها إلى البعض الآخر[3].

فيستفاد من ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ أي: دون الرفع في القول، أي: أسمع نفسك، كما قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

أي: بين الجهر والمخافتة، ودل هذا على أن رفع الصوت بالذكر -رفعًا فاحشًا- ممنوع[4]، فيكون في هذا التعبير استحباب ألا يكون الذكر نداء وجهرًا بليغًا.

والظاهر أن قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ حالة مغايرة لقوله: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ لعطفها عليها، والعطف يقتضي التغاير، فكأن الأولى معناها: أن يذكر الله بينه وبين نفسه بحيث لا يطلع عليه أحد، والثانية: إمرار الذكر بالقلب دون نطق.

لكن الجمهور على أنهما حالة واحدة، والمعنى: اذكر ربك بحيث تسمع نفسك لكن دون الجهر من القول، أي: مخافتة.

قال ابن عطية: «والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس، ولا يراعى إلا بحركة

(١) التفسير القيم ص ٢٥٩.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٢٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٤٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٥٥.

اللسان، قال: ويدل عليه من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فهذه مرتبة السر والمخافتة باللفظ»[1].

قال في البحر: «ولا دلالة في ذلك لما زعم، بل الظاهر المغايرة بين الحالتين، وأنهما ذكران نفساني ولساني»[2].

ولذلك قال الزمخشري: «ومتكلمًا كلامًا دون الجهر؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى التفكر»[3].

والحاصل: أن في الآية خطابًا للنبي الكريم ينضوي تحته المؤمنون جميعًا، ومطلوب هذا الخطاب هو ذكر الله دون الجهر من القول، وشغل القلب به في صمت وخشوع، وفي ضراعة لكبرياء الله، وخوف ورهب لسطوته وجبروته.

وهذا الذكر يشمل: ذكر القلب، حيث تسكن كل جارحة، وحيث يكون الإنسان كله مشاعر خاشعة، تلين بها الجلود، وتفيض منها العيون، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣][4].

ويشمل ذكر اللسان، وهو في درجة بعد هذه الدرجة، ومنزلة دون تلك المنزلة التي هي من شأن القلب وحده، ويلي هاتين المرتبتين مرتبة أعلى منهما، وهي أن يواطئ القلب اللسان في الذكر.

وهذه الآية قد اشتملت على الجمع بين الأمر بذكر الله والنهي عن ضده وهو الغفلة، وهذه الآية إضافة إلى دلالتها على ذلك، فقد اشتملت على جملة طيبة من الآداب الكريمة التي ينبغي أن يتحلى بها الذاكر، ومن هذه الآداب:

١ . أن يكون الذكر سرًا.

فالإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى الإجابة، وأبعد من الرياء.

فإن قيل: فما وجه الفرق بين الذكر وقراءة القرآن؟ فلماذا طلب في الذكر أن يكون خفية ودون الجهر من القول، ولم يطلب ذلك في القرآن مع أن القراءة أيضًا ذكر؟ والجواب: أن القرآن مشتمل على الوعظ والقصص الموجبة للعبرة والأحكام، ونظمه معجز جاذب للقلوب السقيمة إلى الإسلام.

ولذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقراءته باللسان عبادة زائدة على الذكر الذي هو عبادة عن طرد الغفلة عن الجنان، وإسماعه غيره عبادة أخرى مرغوبة عند

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٩٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٦٣.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٩٢.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ٥٥٣.

الرحمن بخلاف الذكر والدعاء، فإن المقصود من الدعاء الإجابة، ومن الذكر النسيان عما يشغله من العزيز المنان حتى يسقط عن بصيرته نفس الذكر، بل الذاكر أيضًا، ولا يبقى في بصيرته إلا الواحد القهار[1].

٢. أن يكون مصحوبًا بالتضرع.

وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير ليتحقق فيه ذلة العبودية، والانكسار لعظمة الربوبية.

٣. أن يكون مصحوبًا بخوف.

أي: الخوف من المؤاخذة على التقصير في العمل، والخشية من الرد، وعدم القبول، قال الله تعالى في صفة المؤمنين المسارعين في الخيرات، السابقين لأرفع الدرجات: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠، ٦١].

٤. أن يكون دون الجهر؛ لأنه أقرب إلى حسن التفكر.

قال ابن كثير رحمه الله: «ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداءً ولا جهرًا بليغًا»[2].

(١) التفسير المظهري ٣/ ٤٥٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٣٩.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا، ارتفعت أصواتنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنه معكم، إنه سميع قريب)[3].

٥. أن يكون باللسان لا بالقلب وحده.

وهو مستفادٌ من قوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾؛ لأن معناه: ومتكلمًا كلامًا دون الجهر، ويكون المراد بالآية الأمر بالجمع في الذكر بين اللسان والقلب، وقد يقال: هو ذكره في قلبه بلا لسانه بقوله بعد ذلك: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ إلا أن الأول هو الأصح، كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم.

وقد نظر له رحمه الله بقوله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه أنه قال: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[4].

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير ٤/ ٥٧، رقم ٢٩٩٢.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، ٩/ ١٢١، رقم ٧٤٠٥.

قال: «وهذا يدخل فيه ذكره باللسان في نفسه، فإنه جعله قسيم الذكر في الملأ، وهو نظير قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ والدليل على ذلك أنه قال: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ ومعلوم أن ذكر الله المشروع بالغدو والآصال في الصلاة وخارج الصلاة هو باللسان مع القلب، مثل صلاتي الفجر والعصر، والذكر المشروع عقب الصلاتين، وما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم وعلمه وفعله من الأذكار والأدعية المأثورة من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النهار بالغدو والآصال»[1].

٦. أن يكون بالغدو والآصال.

أي: في البكرة والعشي، فتدل الآية على مزية هذين الوقتين؛ لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد، وما بينهما الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش، وقد ورد أن عمل العبد يصعد أول النهار وآخره، فطلب الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر[2].

٧. النهي عن الغفلة عن ذكره.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: من الذين يغفلون عن ذكر الله، ويلهون عنه، وفيه إشعارٌ بطلب دوام ذكره تعالى، والاستمرار عليه، وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل.

فهذه سبعة آداب عظيمة اشتملت عليها هذه الآية الكريمة، لخصناها من كلام القاسمي في كتاب محاسن التأويل[3].

ومع ما تقدم يمكن القول: إن حكم الجهر والإسرار في الذكر يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فالإسرار أفضل حيث خيف الرياء، أو تأذي المصلين أو النيام، والجهر أفضل حيث خلا مما ذكر[4].

ويستثنى من هذا الأصل مواضع ينبغي فيها الجهر بالذكر، ورفع الصوت به؛ لما في ذلك من المصالح التي قدرها الشرع في ذلك، ومنها:

- ما قصد به الإسماع والتبليغ، كالأذان والإقامة وتكبيرات الإمام وقراءته في الجهرية، وتكبيرات المبلغ، وإلقاء السلام وجوابه، ونحو ذلك، فيجهر في ذلك بالقدر الذي يحصل به المقصود.
- بعض أنواع أذكار الصلاة، وردت السنة فيها بالجهر كالبسملة والتأمين والقنوت والتكبير والتسبيح والتحميد بعد الصلاة، وتكبيرات العيد، والتلبية

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٥.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ١/ ١١٥، رقم ٥٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما ١/ ٤٣٩، رقم ٦٣٢.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٤٨.
(٤) الدر المختار، وحاشية ابن عابدين: رد المحتار ٦/ ٣٩٨.

في الحج، وفي بعض ذلك خلاف يرجع إليه في مواضعه.

- بعض الأذكار التي يراد بها التنبيه أو التعليم، أو فائدة أخرى كأن يرفع صوته بالتسمية على الطعام حتى ينبه غيره، أو بالقراءة في صلاة الليل ليسمع أهله[1].

فالطريقة المثلى في هذا الباب أن يجهر في الموضع الذي ورد فيه الجهر، ويسر في الموضع الذي ورد فيه الإسرار، والموضع الذي لم يرد فيه الدليل على الجهر أو السر فالذاكر فيه بالخيار، ولكن لا بد للذاكر فيه من ملاحظة الآية السابقة: ﴿فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال الشيخ بكر أبو زيد: «مما تقدم يتبين أن الأصل في الذكر والدعاء هو الإسرار، وحده: التلفظ بتحرك اللسان بالحروف من مخارجها بصوت أقله أن يسمع نفسه، والجهر: هو التلفظ بتحريك اللسان بالحروف من مخارجها بصوت يسمعه غيره ممن يليه، ولا حد لأعلاه، والجهر في الذكر والدعاء استثناء لا يكون إلا بما ورد به الشرع، وهو دائر بين الوجوب والاستحباب، وأكثره في الذكر، أو في الذكر المشوب بالدعاء، ثم ذكر ما يجب فيه الجهر، وما يستحب.

ثم قال: ثم أحدث الناس جماعة أو فرادى الجهر الجهير، والمبالغة في رفع الصوت والصياح والصيحة، والذكر والدعاء بالجوقة ويمكبر الصوت، وما يتبع ذلك من الترنيم والتلحين والتطريب والترجيع واللحن بالتحزين»[2].

ثانيًا: القلبي واللساني:

الذكر يكون باللسان، ويكون بالقلب، ويكون بهما معًا، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعًا، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل[3]. وقلنا: إن الأفضل منه الذكر بالقلب مع اللسان؛ لأن الذاكر هنا يعمل آلتين في الذكر وليست آلة واحدة.

١. الذكر اللساني.

المراد بالذكر باللسان: أن يتحرك به اللسان، ويسمع نفسه على الأقل، إن كان ذا سمع، ولم يكن هناك لغط يمنع السماع، وذكر اللسان على الوجه المبين يتأدى به الذكر المكلف به في الصلاة ونحوها، ولا يجزئ في ذلك مجرد إمرار الذكر المطلوب على القلب[4].

والذكر اللساني هو المراد في إطلاق القرآن، فإذا أطلق الذكر حمل على القول اللساني؛ ولهذا قال الله في شأن التسبيح

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢١/ ٢٢٦.

(٢) تصحيح الدعاء ص٩٠-٩٢.

(٣) الأذكار، النووي ص ٩.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢١/ ٢٢٦.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [الحاقة: ٥٢].

فهناك اسم يذكر، وهذا يدل على وجود قول، قال الرازي: «ولو قال: فسبح ربك، ما أفاد الذكر لهم، وكان ينبئ عن التسبيح بالقلب؛ ولما قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ والاسم هو الذي يذكر لفظًا دل على أنه مأمور بالذكر اللساني، وليس له أن يقتصر على الذكر القلبي»[(١)].

وذكر الذكر باللسان في قوله: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ [الزخرف: ١٣].

أي: تنزهوا الله بصريح القول، ومنه قوله في سورة النساء: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٣].

يعني: اذكروه باللسان؛ ولهذا قال بعده: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ وقال في آل عمران مثل ذلك، وقال في سورة البقرة: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠] باللسان ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ بألسنتكم ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ يعني: باللسان.

وقال في سورة الأحزاب: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] يعني: باللسان.

وقال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. كذلك[(٢)].

ومنه قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]. أي: الذكر باللسان.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٢٤.
(٢) انظر: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه ص ١٥٨.

والذكر اللساني هو المأمور به في القرآن والسنة، والمترتب عليه الأجور المحددة، قال الفقهاء: وذلك معلوم من أقواله صلى الله عليه وسلم أن من قال كذا فله من الأجر كذا، فلا يحصل ذلك إلا بما يصدق عليه القول، لكن إذا صحب الذكر باللسان حضور القلب والتدبر والعمل بما تقتضيه هذه الأذكار فهذا قدر زائد لا يعرف قدره إلا الله جل وعلا؛ ولذا جاء في الحديث أنه -أي: الذكر-: (أفضل من أن تلقوا عدوكم)[(٣)].

والذكر اللساني مشروع في جميع الأوقات، ويتأكد في بعضها، فمما يتأكد فيه الذكر عقيب الصلوات المفروضات، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

ويستحب أيضًا الذكر بعد الصلاتين اللتين لا تطوع بعدهما، وهما: الفجر والعصر، وهذان الوقتان -أعني: وقت الفجر ووقت العصر- هما أفضل أوقات النهار للذكر؛ ولهذا أمر الله تعالى بذكره فيهما في مواضع من القرآن[(٤)]. كما سيأتي.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٣٢٠، رقم ٣٣٧٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب فضل الذكر، ٢/ ١٢٤٥، رقم ٣٧٩٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥١٣، رقم ٢٦٢٩.
(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٥٢٥.

لكن الذكر باللسان فقط دون معرفة القلب ودون العمل فائدته قليلة وقد لا يفيد، فينبغي للإنسان أن يتعرف على معاني ما يقوله، ويعمل به، ألا ترى أن الفقهاء أجمعوا على أن الرجل إذا قال: بعت واشتريت، مع أنه لا يعرف معاني هذه الألفاظ، ولا يفهم منها شيئًا فإنه لا ينعقد البيع والشراء، فكذا ها هنا[1].

٢. الذكر القلبي.

ومن أنواع الذكر: الذكر القلبي، وهو بمعنى تذكر عظمة الله عند أوامره ونواهيه، وإرادة الفعل الذي فيه رضاه فيفعله، أو الذي فيه سخطه فيتركه، والتفكير في عظمة الله وجبروته وآياته في أرضه وسماواته ومصنوعاته[2].

قال ابن عاشور: «الذكر القلبي وهو ذكر الله عند أمره ونهيه، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فدخل فيه التوبة، ودخل فيها الارتداع عن المظالم كلها من القتل، وأخذ أموال الناس والحرابة، والإضرار بالناس في المعاملات، ومما يوضح شموله لهذه الشرائع كلها تقييده بـ(كثيرًا)؛ لأن المرء إذا ذكر الله كثيرًا فقد استغرق ذكره على المحملين جميع ما يذكر الله عنده»[3].

وقال الشنقيطي: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ ذكرين، أما الذكر النفساني فهذا الذي يكون في نفسك لا يعلمه منك إلا ربك، من أن تتفكر في عظمته وسلطانه وجبروته وصفاته وعقابه وثوابه متضرعًا خائفًا منه جل وعلا، وهذا النوع من الذكر القلبي عظيم جدًا، الثاني: ذكر لساني، وقد علمهم جل وعلا آداب الذكر اللساني، وأنهم لا يرفعوا صوته جدًا ولا يخافتوا به جدًا[4].

وقد استنبط المفسرون إشارات في القرآن يفهم منها الدلالة على هذا النوع من الذكر، وهو الذكر القلبي، قال في اللباب: «ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ والمراد منه: أن العبد يجب أن يكون ذاكرًا لله تعالى في كل الأوقات؛ لأنه حثه على الذكر الغدوات وبالعشيات، ثم عمم بقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ يعني: أن الذكر القلبي يجب أن يكون دائمًا، وأن لا يغفل الإنسان عنه لحظةً واحدةً بحسب الإمكان»[5].

وقال ابن جزي: «﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي

(١) الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ١١٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٤٢.
(٢) انظر: الفتوحات الربانية ١/ ١٠٦-١٠٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٤.
(٤) العذب النمير ٤/ ٤٦٣.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ٤٤١.

﴿نَفْسِكَ﴾ يحتمل أن يريد الذكر بالقلب دون اللسان، أو الذكر باللسان سرًا، فعلى الأول يكون قوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ عطف متغاير، أي: حالة أخرى، وعلى الثاني: يكون بيانًا وتفسيرًا للأول»[1].

وقال الثعالبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ يدل على أن الذكر القلبي يجب أن يكون دائمًا، وألا يغفل الإنسان لحظةً عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية، وتحقيق القول في هذا أن بين الروح والبدن علاقةً عجيبةً لأن كل أثر يحصل في البدن يصعد منه نتائج إلى الروح، ألا ترى أن الإنسان إذا تخيل الشيء الحامض ضرس منه، وإذا تخيل حالةً مكروهةً أو غضب سخن بدنه»[2].

ويدخل في الذكر القلبي: الوقوف عند الحدود: إن رأى واجبًا ذكر الله بقلبه ففعله، وإن رأى محظورًا ذكر الله بقلبه فاجتنبه؛ ولهذا كان من دعاء العظماء: «اللهم إني أسألك أن لا ترانا حيث نهيتنا، ولا تفقدنا من حيث أمرتنا»[3].

ويدخل في الذكر القلبي التفكر في مخلوقات الله وآياته، فالتفكر في الكون أرضه وسمائه، حيوانه وجماده، أخضره ويابسه، ليله ونهاره، نجومه وكواكبه لمن أجل الأعمال، وأعظم الطاعات، وأفضل العبادات التي ترفع الإنسان في مدارج السمو الروحي، وتنقل الإيمان من التقليد إلى الأصالة، ومن الشك إلى اليقين.

قال الزمخشري: «الفكرة -أي: التفكر- تذهب الغفلة، وتحدث للقلب الخشية، كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة»[4].

والتفكر المقصود هو التفكر في خلق الله، وما حواه كونه من آيات باهرات، وشواهد ناطقات بوجوده ووحدانيته، لا التفكر في ذاته العلية، فإن ذلك مظنة الزيغ والهلاك؛ لهذا نهي عنه.

ويدخل في الذكر القلبي: أن تذكر نعم الله وأفضاله وآلاءه، في قلبك، فيحملك ذلك على شكره والثناء عليه باللسان، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وذكر القلب نوعان:

أحدهما: وهو أرفع الأذكار وأجلها: الفكر في عظمة الله تعالى، وجلاله وجبروته

(١) التسهيل، ابن جزي ١/ ٣١٩.
(٢) الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ١١٠.
(٣) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ٢/ ٣٢٩.
(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٥٤.

وملكوته وآياته في سماواته وأرضه.

والثاني: ذكره بالقلب عند الأمر والنهي، فيمتثل ما أمر به، ويترك ما نهي عنه، ويقف عما أشكل عليه، فإذا اجتمع هذا مع ذكر اللسان كان أعظم، وأما ذكر اللسان مجردًا فهو أضعف الأذكار، ولكن فيه فضل.

فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر، وأجله وأعظمه[(١)].

وقال شيخ الإسلام -وهو يتحدث عن مراتب الناس في الذكر-: «فإن الناس في الذكر أربع طبقات... وذكر منها: الذكر بالقلب فقط، فإن كان مع عجز اللسان فحسن، وإن كان مع قدرته فتركٌ للأفضل»[(٢)].

«وقال القاضي[(٣)]: واختلفوا هل تكتب الملائكة ذكر القلب؟ فقيل: تكتبه، ويجعل الله تعالى لهم علامة يعرفونه بها، وقيل: لا يكتبونه؛ لأنه لا يطلع عليه غير الله، قال النووي: قلت: الصحيح أنهم يكتبونه، وأن ذكر اللسان مع حضور القلب أفضل من القلب وحده»[(٤)].

ونفهم من قول ابن تيمية السابق، وما نقله النووي عن القاضي عياض رحمهم الله، أنهما يذهبان إلى جواز الذكر بالقلب تهليلًا وتسبيحًا وقراءة للقرآن وغير ذلك، وهذا كله في الذكر القلبي بالمعنى المبين الخاص، أما الذكر القلبي بمعنى تذكر عظمة الله عند أوامره ونواهيه، وإرادة الفعل الذي فيه رضاه فيفعله، أو الذي فيه سخطه فيتركه، والتفكر في عظمة الله وجبروته وآياته في أرضه وسماواته ومصنوعاته، فقال عياض: «هذا النوع لا يقاربه ذكر اللسان فكيف يفضله؟!»[(٥)].

وقال في البحر: «ولا شك أن الذكر الذي يصرف الشيطان عن القلب إنما هو الذكر القلبي لا اللساني، فكم من ذاكر بلسانه وقلبه مشغول بهواه»[(٦)].

وعليه فإن الذكر بالقلب جائز بجميع اعتباراته التي ذكرت من العلماء، ولكن اشتراط أهل العلم في الأذكار التعبدية أن ينطق بها مثل الفاتحة، وتكبيرة الاحرام، وأذكار الصلاة، فلا يكفي فيها الذكر القلبي، بل لا بد من حركة اللسان بها، كما قال خليل في مختصره في الفقه المالكي: «وفاتحة بحركة لسان»[(٧)]. بل يشترط أن يسمع القارئ نفسه.

والمقصود أن الذكر نوعان: قلبي

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص ٨٨.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٦٦.
(٣) إكمال المعلم، القاضي عياض ٨/ ١٨٩.
(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ١٦.
(٥) المصدر السابق.
(٦) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٢٥١.
(٧) مختصر خليل ص ٣١.

ولساني، ولكل منهما شواهد من الكتاب والسنة، فالذكر اللساني باللفظ المركب من الأصوات والحروف، لا يتيسر للذاكر في جميع الأوقات؛ فإن البيع والشراء ونحوهما يلهي الذاكر عنه ألبتة، بخلاف الذكر القلبي فإنه بملاحظة مسمى ذلك اللفظ المجرد عن الحروف والأصوات لا شيء يلهي الذاكر عنه.

ثالثًا: المنفرد والجماعي:

الذكر عبادة من العبادات، بل هو من أعظم العبادات، والعبادات مبناها على النص والاتباع، لا على الإحداث والاختراع؛ إذ هي توقيفية، لا مجال للابتداع فيها، أو الاستحسان.

١. الذكر المنفرد.

الأصل في الذكر أن يقوم به كل إنسان بمفرده، ولعل هذا يفهم من قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

فيحمل قوله: ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾ معنى: الانفراد. قال السعدي: «فأمر الله عبده ورسوله محمدًا أصلًا، وغيره تبعًا بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصًا خاليًا»[(١)]. فخاليًا أي: منفردًا.

ومدح زكريا عليه السلام بقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

ولا يكون نداء خفيًا إلا إذا كان منفردًا، خاليًا لوحده. قال أبو جعفر: «أي: سرًا»[(٢)]. وقال الواحدي: «أي: خافيًا، يخفي ذلك في نفسه، لا يريد رياء، وهذا يدل على أن المستحب في الدعاء الإخفاء»[(٣)].

فهذا الأصل في الذكر أن يؤديه كل إنسان بمفرده إلا ما استثناه الشارع، كالدعاء من الإمام في الصلاة، والتأمين عليه، سواءً بعد الفاتحة، أو في القنوت ونحو ذلك.

٢. الذكر الجماعي.

الذكر الجماعي: هو ما ينطق به المجتمعون للذكر بصوت واحد، يوافق فيه بعضهم بعضًا، كما يفعله بعض الناس من الاجتماع أدبار الصلوات المكتوبة، أو في غيرها من الأوقات والأحوال ليرددوا بصوت جماعي أذكارًا وأدعية وأورادًا وراء شخص معين، أو دون قائد، لكنهم يأتون بهذه الأذكار في صيغة جماعية، ومن صوت واحد.

ولم نجد في القرآن ما يدل على الذكر الجماعي، أو يشير إليه.

وقد اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في هذه المسألة، بين مجوز لها ومانع منها، وألفت فيها المؤلفات الكثيرة، ولا نستطيع

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٥٣.

(٣) الوسيط، الواحدي ٣/ ١٧٥.

بسط المسألة ومناقشة أدلتها، وأقوال العلماء هنا؛ لأن البحث في الذكر في القرآن.

فبالرجوع إلى القرآن الكريم وآيات الذكر فيه -كما قلنا- لا نجد نصًا يدل عليها، وإنما الموجود الأمر بالذكر، والحث عليه، وطلب الإكثار منه، ومدح أهله، ولم توجد إشارة إلى الذكر الجماعي نفيًا أو إثباتًا، إلا ما كان من استدلال بعضهم-وهو استدلال ضعيف- بقوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٩-٣٤].

فموسى عليه السلام طلب من الله أن يرسل معه أخاه هارون؛ وعلل ذلك بقوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فقيل: يستفاد من ذلك أن التسبيح والذكر الجماعي أكثر تأثيرًا ونفعًا من التسبيح والذكر الفردي، مثله كمثل الصلاة، فهي في الجماعة أفضل، ومثله مثل الصيام عندما يصوم الناس مجتمعين في شهر رمضان، يخفف على الصائم مشاق الصوم عندما يشعر أنه ليس صائمًا بمفرده، والتعاون -كما يقال- يهيج الرغبات، ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايده.

أما بالنظر إلى السنة النبوية فإنه قد وردت أحاديث كثيرة يفاد منها الذكر الجماعي والذكر الفردي، والاحتمالان قائمان من ذات الدليل، كحديث: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا)، قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟! قال: (حلق الذكر)[1].

وهذا يحتمل أن يكون التسبيح والذكر جماعيًا، كما يحتمل أن يكون فرديًا، ولا حجة لأي الفريقين على الآخر؛ كما يحتمل أن يكون المراد بحلق الذكر هنا سماع الوعظ والقرآن.

ومن الأدلة المحتملة قوله صلى الله عليه وسلم: (ما جلس قوم مجلسًا يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده)[2].

وفي تعليق الصنعاني على الحديث يقول: «وهذا من فضائل مجالس الذكر، تحضرها الملائكة بعد التماسهم لها، والمراد بالذكر هو التسبيح والتحميد وتلاوة القرآن، ونحو ذلك»[3].

وقال النووي في كتابه الأذكار: «اعلم أنه كما يستحب الذكر يستحب الجلوس في حلق أهله، وقد تظاهرت الأدلة على

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٣٢، رقم ٣٥١٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس».
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ١٠٠، رقم ٦٩٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩.

(٣) سبل السلام ٢/ ٧٠٠.

ذلك»[1]. إلا أن الصواب: أن المراد بحلق الذكر في هذه الأحاديث: تعلم العلم، وقراءة القرآن، لا الذكر الجماعي من تسبيح وتحميد وغيره.

لكن بالرجوع إلى سيرته وسنته الفعلية عليه الصلاة والسلام يجد الحق من طلبه وتحراه؛ إذ إننا نجد من هديه عليه الصلاة والسلام في الذكر أنه لم يثبت أنه دعا إلى الذكر الجماعي أو فعله مع أصحابه، وكذلك أصحابه من بعده، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، ولو كان خيرًا لفعله صلى الله عليه وسلم، واتبعه صحابته رضي الله عنهم، فكيف يمكن الزعم بعد هذا أن الدعاء الجماعي خير، والرسول لم يعمل به على الرغم من استطاعته على ذلك، وقد سبق القول: إن الذكر من العبادات التي يجب أخذها عن النبي صلى الله عليه وسلم، أضف إلى ذلك أن الذكر الجماعي فيه مفاسد، منها:

- الخروج عن السمت والوقار، فإن الذكر الجماعي قد يتسبب في التمايل والرقص.
- التشويش على المصلين والذاكرين الآخرين.
- تشبه بالنصارى الذين يجتمعون في كنائسهم لترتيل الأناشيد الدينية جماعة بصوت واحد.
- يؤدي ضعف الذكر المنفرد، حيث يكتفي بذكر الجماعة.
- تتبع طرق معينة، حيث نجد أن كل واحد يتبع شيخه بطريقة معينة[2].

وقد أنكر كثير من العلماء هذه البدعة، فممن أنكرها الإمام الشافعي[3]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[4]، والشاطبي[5]، وابن الحاج[6]، وابن باز[7]، وابن العثيمين[8] والفوزان[9] وغيرهم من العلماء قديمًا وحديثًا.

قال الإمام الشاطبي في بيان البدع: «كالجهر والاجتماع في الذكر المشهور بين متصوفة الزمان، فإن بينه وبين الذكر المشروع بونًا بعيدًا؛ إذ هما كالمتضادين عادة»[10].

وقال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «في الذكر الجماعي قاعدة هذه الهيئة التي يرد إليها حكمها هي: أن الذكر الجماعي بصوت واحدٍ سرًا أو جهرًا لترديد ذكر معين، وارد أو

(١) الأذكار، النووي ص ٨.

(٢) انظر: الذكر الجماعي بين الاتباع والابتداع، محمد الخميس ص٥٢-٥٣.
(٣) الأم، الشافعي ١/ ١٥٠.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ٥١٩.
(٥) الاعتصام، الشاطبي ١/ ٥٠٦.
(٦) المدخل، ابن الحاج ١/ ٩١.
(٧) مجموع فتاوى ابن باز ٣٠/ ٤٤.
(٨) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ١٦/ ٢٦٨.
(٩) مجموع فتاوى صالح الفوزان ١/ ٣٠٠.
(١٠) الاعتصام ٤/ ٣١٨.

غير وارد، سواءً كان من الكل أو يتلقونه من أحدهم، مع رفع الأيدي أو بلا رفع لها؛ كل هذا وصف يحتاج إلى أصل شرعي يدل عليه من الكتاب والسنة؛ لأنه داخل في عبادة، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الإحداث والاختراع؛ ولهذا نظرنا في الأدلة في الكتاب والسنة فلم نجد دليلًا يدل على هذه الهيئة المضافة، فتحقق أنه لا أصل له في الشرع المطهر، وما لا أصل له في الشرع فهو بدعة؛ إذًا فيكون الذكر والدعاء الجماعي بدعة يجب على كل مسلم مقتدٍ برسول الله صلى الله عليه وسلم تركها، والحذر منها، وأن يلتزم بالمشروع»[1].

إلا أن ثمة فرقًا بين الجهر بالأذكار في أدبار الصلوات وبين الذكر الجماعي، فالأول يقول به عامة علمائنا المعاصرين، وله أصل في السنة، ولا ينبغي أن يكون رفعًا يشوش على المصلين المسبوقين في صلاتهم، والثاني -أي: الذكر الجماعي- مبتدع لا أصل له في السنة النبوية.

وقد جاء عن جمع من السلف من الصحابة فمن بعدهم الإنكار على الذين يجتمعون فيدعون بصوت واحد، أو يذكرون الله بتهليل أو تكبير أو تسبيح بصوت واحد، فعن أبي عثمان النهدي قال: «كتب عامل لعمر بن الخطاب إليه: إن ههنا قومًا يجتمعون فيدعون للمسلمين وللأمير، فكتب إليه عمر: أقبل بهم معك، فأقبل، وقال عمر للبواب: أعد سوطًا، فلما دخلوا على عمر علا أميرهم ضربًا»[2].

وفي قصة أبي موسى أنه قال لعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: «يا أبا عبد الرحمن: إني رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرته، ولم أر -والحمد لله- إلا خيرًا، قال: فما هو؟ فقال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قومًا حلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة، قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك، إلى أن قال ابن مسعود رضي الله عنه لما وقف عليهم: ويحكم يا أمة محمد! ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة؟ قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه»[3].

فهذا أبو موسى الأشعري وابن مسعود

(١) تصحيح الدعاء ص١٣٤.

(٢) انظر: البدع، ابن وضاح ١/ ٤٧.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، ١/ ١٤٢، رقم ٢٢٢.

رضي الله عنهما أنكرا على أولئك النفر تلك الكيفية والهيئة الجماعية للذكر مع أن الذكر مستحب ومرغب فيه، ولكن ليس على الطرق المبتدعة المخترعة، وكيفيته وهيئته يجب أن تكون على الطريقة المتلقاة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه البررة رضي الله عنهم.

من صور الذكر:

ذكر الله تعالى في القرآن أنواعًا من الذكر، كالتسبيح والتحميد والتكبير وغيرها، وفيما يلي ذكر بعض صور الذكر الواردة في القرآن.

أولًا: الاستغفار:

من صور الذكر وأعظمها الاستغفار، والاستغفار وإن كان يتنزل منزلة الدعاء إلا أن الدعاء يتضمن الذكر.

والغفر والمغفرة: التغطية على الذنوب، والعفو عنها[1].

والاستغفار: طلب ذلك من الله، فـ(استغفر) تزيد على (غفر) معنى الطلب.

وعرفه الراغب بقوله: «الاستغفار: طلب المغفرة بالمقال والفعال»[2].

قال ابن تيمية: «الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو من جنس الدعاء والسؤال، وهو مقرون بالتوبة في الغالب»[3].

فقول العبد: «أستغفر الله» وإن كان لفظه خبرًا، إلا أن معناه دعاءٌ وطلب، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والمقصود أن القرآن الكريم قد ورد فيه آيات كثيرة، تحث على الاستغفار، وتأمر به، وتبين فضله، وفي ذلك دلالة واضحة على أهمية طلب العبد المغفرة من ربه ليستر عيوبه، ويعفو عن سيئاته، ويجنبه عقوبته؛ ولأهمية الاستغفار وفضله تجد أن دعوة جميع الأنبياء جاءت بالاستغفار، كما في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ومحمد -عليهم الصلاة والسلام-، بل إن سيرة رسولنا محمد عابقة بكثرة استغفاره، وهو الذي قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال ابن رجب في تفسيره: «كثر في القرآن ذكر الاستغفار، فتارة يؤمر به، كقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٩٠].

وتارة يمدح أهله، كقوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقوله: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ

(١) المحكم والمحيط الأعظم ٥/ ٤٩٩.
(٢) المصدر السابق ص٥٤٣.
(٣) منهاج السنة النبوية ٦/ ٢١٠.

﴿الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وتارة يذكر أن الله يغفر لمن استغفره، كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وكثيرًا ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذٍ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلوب والجوارح، وتارة يفرد الاستغفار، ويرتب عليه المغفرة»[1].

ونهى الله تعالى عن الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قربى، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٣-١١٤].

وقال في حق المنافقين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

فالاستغفار لا ينفعهم شيئًا وذلك لفداحة ما هم عليه من الاعتقاد الفاسد المبطن، ولإيغالهم في الكفر وانهماكهم في الفسق والقبائح، فاستحقوا هذا الجزاء الخطير، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

والقرآن أطلق الأمر بالاستغفار ولم يذكر صيغته، ولمعرفة ذلك يرجع إلى السنة، فكان عليه الصلاة والسلام ينوع في طلب المغفرة، ويعدد الذنوب بأنواعها.

والاستغفار على هذا لا يكون باللسان فقط، بل باللسان وبالفعال، فقد قيل: الاستغفار باللسان من دون فعال فعل الكذابين، والله سبحانه وتعالى لما أثنى على عباده بالاستغفار قيده بعدم الإصرار؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

المعنى: أخبر سبحانه وتعالى عن شأن عباده المؤمنين إذا صدرت منهم أعمالٌ سيئة من ظلم النفس، فذكروا حق الله سبحانه وتعالى وعظمته الموجبة لخشيته وخوفه، والحياء منه، وتذكروا كذلك وعده ووعيده، بادروا بطلب المغفرة منه عز وجل فإنه لا يغفر الذنوب أحدٌ سواه، ولم يصروا على قبيح فعلهم، وهم عالمون بقبحه، والنهي عنه، والوعيد عليه.

ويأتي الاستغفار في القرآن بمعنى التوبة ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وهنا قد يلتبس الأمر على كثيرٍ من الناس،

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ١٥٠.

فيظنون أن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار، وبتتبع النصوص يظهر أن بين التوبة والاستغفار عمومًا وخصوصًا من وجه، فإذا تفرقا اجتمعا، وإذا اجتمعا تفرقا، فعند الإطلاق يدخل كلٌّ منهما في مسمى الآخر، وعند اقترانهما يكون الاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهما مختلفان عند الرازي، فالتوبة عنده غير الاستغفار؛ إذ يقول: والاستغفار طلب المغفرة، وهو غير التوبة[1]. وقال العسكري: «والفرق بين الاستغفار والتوبة: أن الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء، والتوبة الندم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة»[2].

واختار ابن عاشور وابن القيم وغيرهما أن الاستغفار في لسان الشارع بمعنى التوبة، حيث يقول ابن عاشور: «ولما كان طلب الصفح عن المؤاخذة بالذنب لا يصدر إلا عن ندامة ونية إقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه كان الاستغفار في لسان الشارع بمعنى التوبة؛ إذ كيف يطلب العفو عن الذنب من هو مستمر عليه، أو عازم على معاودته، ولو طلب ذلك في تلك الحالة لكان أكثر إساءة من الذنب؛ فلذلك عد الاستغفار هنا رتبة من مراتب التقوى، وليس الاستغفار مجرد قول (أستغفر الله) باللسان والقائل ملتبس بالذنوب، وعن رابعة العدوية أنها قالت: (استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار) وفي كلامها مبالغة، فإن الاستغفار بالقول مأمور به في الدين؛ لأنه وسيلة لتذكر الذنب، والحيلة للإقلاع عنه»[3].

ويأتي الاستغفار في القرآن مفردًا، كما في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وغيرها من المواضع، ومقرونًا بالتوبة كما في قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢].

وغيره، قال ابن القيم: «وأما الاستغفار فهو نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة.

فالمفرد كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وكقول صالح لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

والمقرون كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

وقول هود لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٨١.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٥.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٩٢.

فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس أنها الستر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم، وحقيقتها: وقاية شر الذنب، ومنه المغفر لما يقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى وإلا فالعمامة لا تسمى مغفرًا ولا القبع ونحوه مع ستره، فلا بد في لفظ المغفر من الوقاية، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فإن الله لا يعذب مستغفرًا، وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق؛ ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، فها هنا ذنبان ذنب قد مضى، فالاستغفار منه طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة العزم على أن لا يفعله، والرجوع إلى الله يتناول النوعين، رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه، وسيئات أعماله، وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته، والتي توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه، فها هنا أمران، لا بد منهما، مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصت التوبة بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين؛ ولهذا جاء -والله أعلم- الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢].

فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل، وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن يقيه شر الذنب، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده»[1].

والعبد دائمًا دائرٌ بين نعمة من الله سبحانه وتعالى يحتاج معها إلى شكر، وبين ذنبٍ منه يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكل من هذين الأمرين من الأمور اللازمة للعبد؛ ولهذا فهو محتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار؛ بل هو مضطر إليه دائمًا في الأقوال والأفعال، وسائر الأحوال؛ لما فيه من المصالح، وجلب الخيرات، ودفع

(١) مدارج السالكين ١/ ٣١٤-٣١٥.

المضرات.

ولما كان الاستغفار بهذه الأهمية قرنه الله عز وجل في كتابه الكريم بتوحيده، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[محمد: ١٩].

قال ابن تيمية رحمه الله: «وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد، واقترانها بشهادة أن لا إله إلا الله، من أولهم إلى آخرهم، ومن آخرهم إلى أولهم، ومن الأعلى إلى الأدنى، وشمول دائرة التوحيد الاستغفار للخلق كلهم، وهم فيها درجات عند الله، ولكل عامل مقام معلوم»[(١)].

ثمرات الاستغفار:

ذكر الله في القرآن للاستغفار مننًا كبرى، وفضائل عظمى، من عظيم الجزاء، وواسع العطاء، ومن ذلك:

١. أن الاستغفار سبب المغفرة، ولو عظمت الذنوب، وبلغت من الكثرة عنان السماء.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١١٠].

قال السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «أي: من تجرأ على المعاصي، واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفارًا تامًا يستلزم الإقرار بالذنب، والندم عليه، والإقلاع، والعزم على ألا يعود، فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلًا عن توفيقه؛ لأنه قد غفره، وكذا سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة»[(٢)].

٢. الاستغفار أمان من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال: ٣٣].

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «إنه كان قبل أمانان، قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى، وأما الاستغفار فهو دائر فيكم إلى يوم القيامة»[(٣)].

فكان المطلوب من ذكر هذا الكلام استدعاء الاستغفار منهم، أي: لو اشتغلوا بالاستغفار لما عذبهم الله[(٤)].

٣. الاستغفار سبب للخيرات والبركات.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٩٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٠١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥١٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٨٠.

﴿كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

ففي الآية دليل على أن الاستغفار والتوبة سبب لنزول الأمطار والحصول على الأموال والبنين والجنات والأنهار وسائر الخيرات.

٤. الاستغفار سبب الحصول على القوة بمعناها الشامل.

قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

ففسروا هذه القوة بالمال والولد، والشدة في الأعضاء؛ لأن كل ذلكم ما يتقوى به الإنسان[١].

قال النسفي: «وقيل: أراد القوة بالمال أو على النكاح»[٢].

وفي قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ظاهره العموم في جميع ما يحسن الله تعالى فيه إلى العباد[٣].

٥. الاستغفار سبب في الحصول على المتاع الحسن والسعادة.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

وهذا يدل على أن المقبل على عبادة الله، والمشتغل بها يبقى في الدنيا منتظم الحال، مرفه البال.

والمتاع الحسن في الدنيا بطيب النفس، وسعة الرزق، أو بالرضا بالميسور، والصبر على المقدور، أو بترك الخلق والإقبال على الحق، قاله سهل رضي الله عنه: «﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الموت، أو القيامة، أو وقت لا يعلمه إلا الله تعالى، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ يهديه إلى العمل الصالح، أو يجزيه به في الآخرة»[٤].

قال شيخ الإسلام مبينًا حاجة العبد إلى الاستغفار: «الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، ومن العمل الناقص إلى العمل التام، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل، فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطرٌ إليه دائمًا في الأقوال والأحوال، في الغوائب والمشاهد؛ لما فيه من المصالح، وجلب الخيرات، ودفع المضرات، وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية»[٥].

(١) المصدر السابق ١٨/ ٣٦٤.
(٢) مدارك التأويل، النسفي ٢/ ٦٧.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٨٠.
(٤) تفسير القرآن، العز بن عبد السلام ٢/ ٨١.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٩٦.

وقال: «التوبة من أعظم الحسنات، والحسنات كلها مشروط فيها الإخلاص لله، وموافقة أمره باتباع رسوله، والاستغفار من أكبر الحسنات، وبابه واسع، فمن أحس بتقصير في قوله أو عمله أو حاله أو رزقه، أو تقلب قلب؛ فعليه بالتوحيد والاستغفار؛ ففيهما الشفاء إذا كانا بصدقٍ وإخلاص، وكذلك إذا وجد العبد تقصيرًا في حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والإخوان؛ فعليه بالدعاء لهم والاستغفار»[1].

أوقات الاستغفار:

الاستغفار مشروع ومستحب في كل وقت، إلا أن القرآن قد ذكر بعض الأوقات يتأكد فيها، ويكون له فيها مزية عن غيرها، ومن هذه الأوقات:

١. عند الوقوع في الذنب.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

فأخبر الله تعالى عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقترفوا السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ أي: معترفين بذنوبهم، باخعين بها ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة، والتوفيق لها، والثواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك؛ لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء بل ذلك شرك[2].

٢. بعد الأعمال الصالحة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

قال ابن رجب في تفسيره: «والاستغفار: هو خاتمة الأعمال الصالحة، فلهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعله خاتمة عمره، كما يشرع لمصلي المكتوبة أن يستغفر عقبها ثلاثًا، وكما يشرع للمتهجد من الليل أن يستغفر بالأسحار، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وكما يشرع الاستغفار عقيب الحج، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وسبب هذا أن العباد مقصرون عن القيام

(١) المصدر السابق ١١/ ٦٩٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٤.

بحقوق الله كما ينبغي، وأدائها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، وإنما يؤدونها على قدر ما يطيقونه، فالعارف يعرف أن قدر الحق أعلى وأجل من ذلك، فهو يستحي من عمله، ويستغفر من تقصير فيه، كما يستغفر غيره من ذنوبه وغفلاته، وكلما كان الشخص بالله أعرف، كان له أخوف، وبرؤية تقصيره أبصر»[1].

٣. وقت السحر.

قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

والمستغفرون هنا هم المصلون، وقيل: هم المستغفرون[2]. فوقت السحر له فضيلة، وهو الوقت الذي أخر يعقوب إليه الاستغفار، قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

قال أكثر المفسرين: أخره من الليل إلى السحر؛ وذلك أن الدعاء بالأسحار لا يحجب عن الله[3].

وخص تعالى السحر لما فسر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟)[4].

قال الرازي: «واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر في قوة الإيمان، وفي كمال العبودية، من وجوه، الأول: أن وقت السحر يطلع فيه نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل، وبسبب طلوع نور الصبح كأن الأموات يصيرون أحياء، فهناك وقت الجود العام، والفيض التام، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير يطلع صبح العالم الصغير، وهو ظهور نور جلال الصغير، وهو ظهور نور جلال الله تعالى في القلب، والثاني: أن وقت السحر أطيب أوقات النوم، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة، وأقبل على العبودية، كانت الطاعة أكمل»[5].

والحاصل: أن الله يسر أمر الاستغفار للعباد، فبمقدور كل عبدٍ الإتيان به في جميع أحواله وأوقاته: في ليله ونهاره، وفي خلوته وجلوته، وفي صحته ومرضه، وفي ظعنه

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/ ٦٤٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٦٦.
(٣) الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٢٥٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، ٢/ ٥٣، رقم ١١٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ١/ ٥٢١، رقم ٧٥٨.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٦٧.

وإقامته، وفي قيامه وقعوده، وهو طاهر ومحدث، لا عذر للمرء في التكاسل عنه بوجهٍ من الوجوه.

ثانيًا: التسبيح:

ومن صور الذكر العظيمة الواردة في القرآن: (التسبيح)، وهو قول: سبحان الله، ومعناه: تنزيه الله تعالى عن كل نقص أو عيب، وتعظيمه وتمجيده، وإكبار قدرته المطلقة التي لا يحدها حد، ولا يحصيها عد، قال السمعاني: «سبحان: تنزيه الله من كل سوء، وحقيقته تعظيم الله بوصف المبالغة، ووصفه بالبراءة من كل نقص»[(١)].

ومنه قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

فسبحان: اسم مصدر، ولم يذكر هنا فاعل التسبيح من هو؟ ولا المكان الذي يسبح فيه؛ لأن من طبيعة المصدر في اللغة أنه حدث قائم بذاته مجرد من مسبباته، فلم يقدر هذا المصدر بفاعل ولا بزمن؛ وذلك بغرض الإطلاق والاستغراق في التنزه دون انقطاع، فهو تعالى وحده أهل التسبيح ومستحقه، سواء كان هنالك من يسبحه أو لم يكن، غير مقيد بفعل ولا فاعل ولا زمن.

وسبوحٌ: من صفات الله، قال ثعلب: «كل اسم على (فعول) فهو مفتوح الأول، إلا السبوح والقدوس فإن الضم فيهما أكثر، وكذلك الذروح»[(٢)].

والمفسرون كذلك ذكروا أن التسبيح هو التنزيه[(٣)]، ولكنه ليس مجرد تنزيه أو نفي محض، بل فيه إثبات الكمال، فهو تنزيه يتضمن التعظيم، ودليل تضمنه التعظيم قول النبي عليه الصلاة والسلام: (فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل)[(٤)]. والوارد في الركوع تسبيح. قال شيخ الإسلام: «والأمر بتسبيحه يقتضي أيضًا تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات صفات الكمال له؛ فإن التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده»[(٥)].

وقال ابن القيم: «والتسبيح ثناء عليه سبحانه يتضمن التعظيم والتنزيه»[(٦)].

وكلمة (سبحان) خاصة بالله، قال السمعاني: «وكلمة سبحان كلمة ممتنعة، لا يجوز أن يوصف بها غير الله؛ لأن المبالغة

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢١٢.

(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ٣٧٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٧٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ١/ ٣٤٨، رقم ٤٧٩.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ١٢٥.
(٦) المنار المنيف ص٣٦.

في التعظيم لا تليق لغير الله»[1].

وقال ابن عاشور: «وهو من الأسماء التي لا تضاف لغير اسم الله تعالى»[2].

وقد جاء عن علي وابن عباس رضي الله عنهم أن (سبحان الله) كلمة رضيها الله تعالى لنفسه[3].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «سبحان الله: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه»[4].

فلا يسبح غير الله تعالى؛ لأنه قد صار مستعملًا في أعلى مراتب التعظيم التي لا يستحقها سواه[5].

وقال الماوردي رحمه الله: «ولا يجوز أن يسبح غير الله وإن كان منزهًا؛ لأنه صار علمًا في الدين على أعلى مراتب التعظيم التي لا يستحقها إلا الله تعالى»[6].

وقد ورد لفظ (التسبيح) ومشتقاته في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وبصيغ مختلفة، فورد بصيغة الفعل الماضي (سبح، سبحوا)، وفي صيغة الفعل المضارع (يسبح، نسبح، تسبح) مفردة ومجموعة، وفي صيغة الفعل الأمر (سبح، سبحوا، سبحه، سبحوه)، وفي صيغة اسم الفاعل (مسبحون، مسبحين)، وفي صيغة مصدر (تسبيحه، تسبيحهم)، وفي صيغة مصدر علم على التسبيح (سبحان، سبحانك، سبحانه).

والفعل (سبح) قد يتعدى بنفسه بدون اللام؛ كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

وقد يتعدى باللام كقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الحشر: ١].

وعلى هذا فسبحه وسبح له لغتان، كنصحه ونصح له، وشكره وشكر له[7].

ومن تصاريف التسبيح: فعل الماضي (سبح)، وفعل المضارع (يسبح)، قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى؛ ليبين أن ذلك التسبيح لله هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل[8].

وافتتحت بالتسبيح سبع سور، سميت (المسبحات)، وهي: (الإسراء والحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى)، وقد ذكر ابن عاشور الحكمة من افتتاح بعض السور بالتسبيح، فقال: «الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام متضمن ما يجب تنزيه الله عنه يؤذن بأن

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢١٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٧٣.
(٣) ينظر: الدر المنثور ١/ ٢٦٩.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ١/ ٨١.
(٥) تفسير القرآن، العز بن عبدالسلام ١/ ١١٥.
(٦) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٩٧.
(٧) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥٤٠.
(٨) المصدر السابق ٧/ ٥٤١.

خبرًا عجيبًا، يستقبله السامعون، دالًا على عظيم القدرة من المتكلم، ورفيع منزلة المتحدث عنه»[1].

وختمت به سور (الحجر والطور والواقعة والحاقة).

ومن أكثر السور التي ذكر فيها ألفاظ التسبيح بمختلف الصيغ: سورة الإسراء، وهي تسمى سورة سبحان[2]، حيث ذكر فيها التسبيح (٧) مرات، ولم يذكر بهذا الكم في سورة غيرها، فلا سورة في القرآن تماثلها في التسبيح؛ لما اشتملت على واقعة الإسراء التي كذب بها المشركون جاء لفظ (سبحان) تنزيهًا لله تعالى، وتعظيمًا لقدرته، وتصديقًا للرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك اختتمت بالحمد والتكبير، ولعل في هذا إشارة إلى نقله صلى الله عليه وسلم حين عرج به إلى عالم التسبيح في السماء، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى)[3].

بل يخبر الله تعالى ذكره عن قول ملائكته الذين ملئوا السماء: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ﴾ [الصافات: ١٦٤]، أي: مكان معلوم في السماء خاص بكل ملك للعبادة والتسبيح ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥].

فأمرهم ليس فوضى؛ بل هو منتظم محكم ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٦].

فهم لا يتركون التسبيح أبدًا، ما دامت السماوات والأرض، حتى ارتبطت بهم صفة التسبيح واسم التسبيح، فهم المسبحون ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ بل إنهم لا يفترون عن التسبيح، حتى مجرد فتورا ولا يتعبون من دوام تسبيح الله تعالى، ولا ينخفض مستوى تسبيحهم ولو للحظة واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

فقال: يسبحون الليل والنهار، فعرف بـ(ال) ولم يقل: يسبحون ليلًا ونهارًا؛ لأن المعنى يكون حينها جزءًا من الليل وجزءًا من النهار؛ بل قال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يسبحون الليل كله والنهار كله، لا يتركون التسبيح ولا للحظة واحدة

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٩.
(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٣٠، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ٣٨٧.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو تعلمون ما أعلم) ٤/ ١٣٤، رقم ٢٣١٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء ٢/ ١٤٠٢، رقم ٤١٩٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٨١، رقم ١١٢٧.

من لحظات الليل والنهار، ولا يفترون، ولا حتى في جزء منهما.

إنه هديرٌ من التسبيح لا ينخفض، ولا ينقطع زجله إلا ما شاء الله، ولقد ورد التسبيح في سورة الإسراء سبع مرات، فكأنها سبع مرات لسبع سماوات، فكل سماء يملؤها التسبيح، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (وسبحان الله، والحمد لله، تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض)[1].

ونجد بعض السور ذكر فيها التسبيح في أولها وآخرها، وهي سورة (الحشر) بدأت بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

وانتهت بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

والأمر بالتسبيح في القرآن يحمل على الندب إلا في التسبيح في الصلاة فهو أمر وجوب على الصحيح؛ كما دل عليه حديث عقبة بن عامرٍ رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجعلوها في ركوعكم)، فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]. قال: (اجعلوها في سجودكم)[2].

والتسبيح منه مطلق، ومنه مقيد بأدبار الصلوات، أو بالصباح والمساء، وسيأتي مزيد كلام عن هذا في أوقات الذكر.

والتسبيح يطلق في القرآن الكريم ويراد به ستة أشياء:

الأول: يطلق على التنزيه مع التعظيم، وهو أكثر ما ورد في القرآن، وهو المراد عند الإطلاق، ومنه قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩].

الثاني: يطلق على الصلاة، قال الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

الثالث: يطلق على الدعاء، ومنه قول الله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠].

الرابع: يطلق على عموم الذكر، ومنه قول الملائكة عليهم السلام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال الطبري: «يعني: إنا نعظمك بالحمد لك والشكر، وكل ذكر لله عند العرب فتسبيح وصلاة، يقول الرجل منهم: قضيت سبحتي من الذكر والصلاة، وقد قيل: إن

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ١/ ٢٠٣، رقم ٢٢٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، تفريع أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ١/ ٢٣٠، رقم ٨٦٩، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود ١/ ٢٨٧، رقم ٨٨٧.

التسبيح صلاة الملائكة»[1].

وقال شيخ الإسلام: «ويراد بالتسبيح جنس ذكر الله تعالى، يقال: فلان يسبح إذا كان يذكر الله، ويدخل في ذلك التهليل والتحميد، ومنه سميت السباحة للإصبع التي يشير بها، وإن كان يشير بها في التوحيد»[2].

الخامس: يطلق على عموم العبادة، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

عن وهب بن منبه: قال: «من العابدين»[3].

السادس: يطلق على الاستثناء، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٧-١٨]. والمراد به قول: إن شاء الله، لكن دلت الآيات على أنهم كانوا يسبحون مكانها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨].

قال السدي: «كان استثناؤهم في ذلك الزمان التسبيح»[4]. فيقولون: سبحان الله، بدل: إن شاء الله، فقوله: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تستثنون.

وجاء التسبيح في القرآن مفردًا ومقترنًا بالحمد، متقدمًا عليه، ومنه: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨].

فالتسبيح يتضمن نفي النقائص والعيوب، والتحميد يتضمن إثبات صفات الكمال التي يحمد عليها[5].

قال ابن كثير: «ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن»[6].

ويأتي التسبيح مقترنًا بالتهليل، كقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ومقترنًا بالاستغفار، كقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [غافر: ٥٥].

وذكر الله في القرآن تسبيح الجبال والطير ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وتسبيح الرعد ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٢.
(٢) جامع المسائل، ابن تيمية ٣/ ٢٩٢.
(٣) تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ١٠٣.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٢٣٦٦.
(٥) جامع المسائل، ابن تيمية ٣/ ٢٧٨.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٦.

﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وتسبيح كل الموجودات ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذه الآية تدل على أنه تسبيح حقيقي على كيفية لا يعرفها البشر، فلا يفقهون تسبيح هذه المخلوقات، وقد أخطأ من تأول تسبيحها لمعنى غير التسبيح المعهود في اللغة.

وتسبيح أهل الجنة، فقد أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠].

إلا أنه مما يجب التنبيه عليه أن التسبيح اعتقاد وقول وعمل، ودليل ذلك أن الصلاة تسمى تسبيحًا، وهي تشمل اعتقاد القلب وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها: (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سبح سبحة الضحى، وإني لأسبحها)[(١)].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «تسبيح الله تعالى قد يكون بالقلب -بالعقيدة-، وقد يكون باللسان، وقد يكون بهما جميعًا، والمقصود أن يسبح بهما جميعًا بقلبه لافظًا بلسانه»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «والتسبيح قول أو مجموع قول مع عمل يدل على تعظيم الله تعالى وتنزيهه؛ ولذلك سمي ذكر الله تسبيحًا، والصلاة سبحة، ويطلق التسبيح على قول سبحان الله؛ لأن ذلك القول من التنزيه»[(٣)].

فهنيئًا لمن أكثر من التسبيح في الدنيا، ووجد لذة فيه، وفرحًا به، فإنه حري أن يتلذذ بالتسبيح في الجنة، كما تلذذ به في الدنيا، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن أهل الجنة يلهمون التسبيح، وأنهم يسبحون الله تعالى بكرة وعشيًا.

يقول ابن تيمية: «أهل الجنة يتنعمون بالنظر إلى الله، ويتنعمون بذكره وتسبيحه، وإن كانت هذه الأمور في الدنيا أعمالًا يترتب عليها الثواب، فهي في الآخرة أعمال يتنعم بها صاحبها أعظم من أكله وشربه ونكاحه»[(٤)].

فما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين، بحيث إن أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه، فاعتاضوا عن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب من لم يصل الضحى ورآه واسعًا ٢/ ٥٨، رقم ١١٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى ١/ ٤٩٧، رقم ٧١٨.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ١٥٨.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٤٠٥.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٣٠.

السؤال بالثناء على ربهم، فألهموا إلى التزام التسبيح؛ لأنه أدل لفظ على التمجيد والتنزيه، فهو جامع للعبارة عن الكمالات[1].

ثالثًا: التحميد:

ومن صور الذكر الواردة في القرآن: التحميد، وهو قول: الحمد لله.

والتحميد: حمدك الله عز وجل مرةً بعد مرة، فهو كثرة حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة، وهو أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر[2]؛ لأن الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من معروف، والحمد أعم من حيث ما يقع عليه، فإن الله تعالى ينبغي أن يحمد على كل حال، سواءً أعطي العبد النعمة أو لم يعط.

وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي والميت وللجماد أيضًا، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك، ويكون من قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضًا فهو أعم[3].

ومعناه في الاصطلاح: الثناء باللسان والقلب على الجميل الاختياري[4].

والجميل الاختياري: هو الثناء على المنعم بسبب كونه منعمًا على الحامد أو غيره، فحقيقة الحمد الثناء على المحمود بذكر نعوته الجليلة، وأفعاله الجميلة، وهو الثناء لله بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

قال ابن عاشور: «فالحمد لله يشمل سائر صفات الكمال التي استحق الله لأجلها حصر الحمد له تعالى، بناء على ما تدل عليه جملة (الحمد لله) من اختصاص جنس الحمد به تعالى، واستحقاقه لذلك الاختصاص»[5].

وقد ورد الحمد في القرآن الكريم في أكثر من (٤٠) موضعًا، والتحميد: مفتتح القرآن، فقد افتتح الله كتابه الكريم بـ(الحمد لله) وافتتح بعض السور فيه بالحمد، مثل سور (الأنعام والكهف وسبأ وفاطر)، قال السيوطي: «اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء من السور عنها:

الأول: الثناء عليه تعالى، والثناء قسمان: إثبات لصفات المدح، ونفي وتنزيه من صفات النقص، فالأول: (التحميد) في خمس سور»[6]. ثم ذكر بقية الأوجه.

وافتتح الله تعالى خلقه بالحمد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١].

(١) التحرير والتنوير ١١/ ١٠٣.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٢٥٢، مختار الصحاح، الرازي ص ٨٠.
(٣) انظر: تفسير لقرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤.
(٤) انظر: البدائع ١/ ١٩، وفتح القدير ١/ ١٩.
(٥) التحرير والتنوير ١/ ١٣٤.
(٦) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٣٦١.

واختتمه بالحمد، فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

والحمد له سبحانه في الأولى والآخرة، في جميع ما خلق وما هو خالق، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وأمر الله بالحمد في كتابه، فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [النمل: ٩٣].

وأثنى على عباده الحامدين، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥].

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وأول حمد جاء في القرآن وأعظمه أن حمد نفسه بنفسه بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢].

في أعظم سورة في القرآن، وهي سورة الفاتحة، حيث ابتدأت بهذه الجملة العظيمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. قال عليه الصلاة والسلام: (إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي)[1].

والألف واللام في (الحمد) تفيد الجنس، فجنس الحمد وكل الحمد إنما هو لله وحده؛ لأنه رب العالمين الذي له كل المحامد، محمود على صفاته، ومحمود على أفعاله.

وكأنه لما علم سبحانه وتعالى شدة إرادة أوليائه بحمده وثنائه، وعجزهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه، أخبرهم أنه قد حمد نفسه بنفسه، بما افتتح به خطابه بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وتتفاوت طبقات الحامدين؛ لتباينهم في أحوالهم، فطائفة حمدوه على ما نالوا من إنعامه وإكرامه من نوعي صفة نفعه ودفعه، وإزاحته وإتاحته، وما عقلوا عنه من إحسانه بهم أكثره ما عرفوا من أفضاله معهم، قال جل ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

وطائفة حمدوه على ما لاح لقلوبهم من عجائب لطائفه، وأودع سرائرهم من مكنونات بره، وفرق بين من يمدحه بعز جلاله، وبين من يشكره على وجود أفضاله[2].

وإذا اجتمع التسبيح والحمد في القرآن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، ١/ ٢٩٦، رقم ٣٩٥.

(٢) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٤٥.

يتقدم التسبيح؛ قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣].

والسبب أن التسبيح يدل على كونه مبرأ في ذاته وصفاته عن النقائص، والتحميد يدل على كونه محسنًا إلى العباد، ولا يكون محسنًا إليهم إلا إذا كان عالمًا بجميع المعلومات ليعلم مواقع الحاجات، وإلا إذا كان قادرًا على المقدورات؛ ليقدر على تحصيل ما يحتاجون إليه، وإلا إذا كان غنيًا في نفسه وإلا شغله حاجة نفسه عن حاجة غيره، فثبت أن كونه محسنًا لا يتم إلا بعد كونه منزهًا عن النقائص والآفات[(١)].

قال الرازي: «إن التسبيح أينما جاء فإنما جاء مقدمًا على التحميد، ألا ترى أنه يقال: سبحان الله والحمد لله، إذا عرفت هذا فنقول: إنه جل جلاله ذكر التسبيح عند ما أخبر أنه أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

وذكر التحميد عند ما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١].

وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن التسبيح أول الأمر؛ لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي، وهو إشارة إلى كونه كاملًا في ذاته، والتحميد عبارة عن كونه مكملًا لغيره، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملًا في ذاته، ونهاية الأمر كونه مكملًا لغيره، فلا جرم وقع الابتداء في الذكر بقولنا: (سبحان الله) ثم ذكر بعده الحمد لله تنبيهًا على أن مقام التسبيح مبدأ، ومقام التحميد نهاية.

إذا عرفت هذا فنقول: ذكر عند الإسراء لفظ التسبيح، وعند إنزال الكتاب لفظ التحميد، وهذا تنبيه على أن الإسراء به أول درجات كماله، وإنزال الكتاب غاية درجات كماله، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن الإسراء به إلى المعراج يقتضي حصول الكمال له، وإنزال الكتاب عليه يقتضي كونه مكملًا للأرواح البشرية، وناقلًا لها من حضيض البهيمية إلى أعلى درجات الملكية، ولا شك أن هذا الثاني أكمل، وهذا تنبيه على أن أعلى مقامات العباد مقامًا أن يصير العبد عالمًا في ذاته، معلمًا لغيره»[(٢)].

والحاصل: أن جميع المحامد لله سبحانه إما وصفًا وإما خلقًا، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر؛ لوفور إحسانه، والحمد لله؛ لاستحقاقه لجلاله وجماله، والشكر لله؛ لجزيل نواله، وعزيز أفضاله، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحوله، وحمد الخلق له على إنعامه وطوله

(١) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٩٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٢١.

وجلاله وجماله، واستحقاقه لصفات العلو، ونعوت العز والسمو، فله الوجود، وله الجود، وله الثبوت الأحدي، والكون الصمدي، والبقاء الأزلي، والبهاء الأبدي، والثناء الديمومي، وله السمع والبصر، والقضاء والقدر، والكلام والقول، والعزة والطول، والرحمة والجود، والعين والوجه والجمال، والقدرة والجلال، وهو الواحد المتعال، كبرياؤه رداؤه، وعلاؤه سناؤه، ومجده عزه، وكونه ذاته، وأزله أبده، وقدمه سرمده، وحقه يقينه، وثبوته عينه، ودوامه بقاؤه، وقدره قضاؤه، وجلاله جماله، ونهيه أمره، وغضبه رحمته، وإرادته مشيئته، وهو الملك بجبروته، والأحد في ملكوته، تبارك الله سبحانه! فسبحانه ما أعظم شأنه![1].

فالحمد لله كلمة جليلة؛ لكنها يجب أن تذكر في موضعها ليحصل المقصود، قال السري: «منذ ثلاثين سنة أستغفر الله لقولي مرة واحدة الحمد لله؛ وذلك أنه وقع الحريق في بغداد، وأحرقت دكاكين الناس، فأخبرني واحد أن دكاني لم يحترق فقلت: الحمد لله، وكان من حق الدين والمروءة أن لا أفرح بذلك، فأنا في الاستغفار منذ ثلاثين سنة».

والحمد على نعم الدين أفضل من الحمد على نعم الدنيا، والحمد على أعمال القلوب أولى من الحمد على أعمال الجوارح، والحمد على النعم من حيث إنها عطية المنعم أولى من الحمد عليها من حيث هي نعم، فهذه مقامات يجب اعتبارها حتى يقع الحمد في موضعه اللائق به[2].

والمقصود: أن من صور الذكر العظيمة حمد الله تعالى، وقد جعل أجرها أنها تملأ الميزان، فهذه الكلمة العظيمة في ثوابها وثقلها تملأ الميزان، قال صلى الله عليه وسلم: (والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض)[3].

فالحمد لله عدد ما خلق، والحمد لله ملء ما خلق، والحمد لله عدد ما في الأرض والسماء، والحمد لله ملء ما في الأرض والسماء، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء.

رابعًا: التهليل:

ومن صور الذكر الذي جاء في القرآن: التهليل، وهو: قول: لا إله إلا الله، يقال: قد أكثرت من الهيللة، أي: من قول: لا إله إلا

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٤٥.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٩٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، ١/ ٢٠٣، رقم ٢٢٣.

الله[1].

قال الأزهري: «ولا أراه مأخوذًا إلا من رفع قائله به صوته»[2].

ومعنى هذا القول: نفي الألوهية عن كل شيءٍ، وإثبات استحقاقها لله تعالى وحده، فلا رب غيره، ولا يعبد سواه، وتسمى هذه الكلمة كلمة التوحيد، فإنها تدل على نفي الشريك على الإطلاق.

وهي الكلمة التي دعا إليها الرسل كلهم، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال؛ ولهذا -والله أعلم- لما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[البقرة: ١٦٣].

قال بعده: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

فإنه قد يخطر ببال أحدٍ خاطر شيطاني: هب أن إلهنا واحد فلغيرنا إله غيره، فقال تعالى: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وتسمى أيضًا كلمة الإخلاص، وهي خلاصة دعوة الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولا يصح الإيمان للقادر إلا بالنطق بها مع التصديق بمعناها بالجنان.

وقد ذكر التهليل في القرآن الكريم (٣٧) مرة، قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي في حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع: «وجاءت كلمة (لا إله إلا الله) في سبعة وثلاثين موضعًا من القرآن»[3].

وبالرجوع لبرنامج القرآن الحاسوبي كانت نتيجة البحث أنها جاءت بلفظ: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ مرتين في الصافات ومحمد، ومرة واحدة بلفظ: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ﴾ في الأنبياء، و﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٢٦) مرة، ومرة واحدة بلفظ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ في المائدة، وبلفظ: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي﴾ مرة واحدة في يونس، وبلفظ: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ ثلاث مرات في النحل وطه والأنبياء، فيكون المجموع (٣٤) مرة فقط.

وأيهما أرفع وأعظم من هذه الجمل: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أو ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؟ قيل: الأول أرفع درجة من لفظ: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ لأن الضمائر وضعت للذات البحت، ففي كلمة ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ينتقل الذهن أولًا إلى الذات بلا ملاحظة اسم من الأسماء، وصفة من الصفات، وشأن من الشئونات، وكلمة ﴿اللَّهُ﴾ وإن كان اسمًا للذات، لكن الذهن هناك ينتقل أولًا إلى الاسم،

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٥٣، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٧٠٥.
(٢) تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ١٤٩.
(٣) حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع ١/ ٢٣، حاشية رقم ٢.

وثانيًا إلى المسمى، وقد ينتقل الذهن من حيث الاشتقاق إلى معنى الألوهية، فيكون من أسماء الصفات غير أن صفة الألوهية يستدعي الاتصاف بجميع صفات الكمال، والتنزه عن جميع شوائب النقص والزوال، فيكون أتم وأشمل من سائر أسماء الصفات[1].

وكلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هي كلمة (السواء) التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب وأهل الملل الأخرى، فهي باب الهداية على صراط الله المستقيم، وأمر الله الجامع ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤][2].

ووصفها بالطيبة، وضرب الله بها مثلًا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤][3]. ووصفها كذلك بالوصف الخالد السرمدي كونها تخرق السبع الطباق، وتخرق الحجب ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

قال المفسرون: إن الطيب من القول والكلم هو لا إله إلا الله، والطيب المطلق هو معرفة لا إله إلا الله[4].

غير أنه ليس المقصود من دعوة الرسل مجرد التلفظ بالكلمة فحسب، بل لا بد من توفر شروطها حتى تكون نافعة عند الله، وإلا لم تنفع، فهذا عدو الله فرعون لما جاءته المحنة وهي الغرق فزع إلى هذا الذكر، إلى كلمة التوحيد، قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، فلم تنفعه.

أما يونس عليه السلام حينما ابتلعه بطن الحوت، ودخل في ظلمات ثلاث قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

استجاب الله له، فلماذا قبلت هذه الكلمة من يونس عليه السلام ولم تقبل من فرعون وكلاهما في المحنة؟ وقد قالا جميعًا: لا إله إلا الله، قال العلماء: فرعون ما عرف الله قبل المحنة لذلك ما نفعته عند المحنة، ويونس عرف الله قبل المحنة، فلما جاءت المحنة نفعته هذه الكلمة، وأيضًا أن يونس عليه السلام قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ كلمة (أنت) يخاطبه وجهًا لوجهٍ، وكأنه يرى الله معه، أما فرعون فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟

(١) انظر: التفسير المظهري ١/ ٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٧٨، تفسير السمرقندي ١/ ٢٢١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٦٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٤٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ١٠١.

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ففرعون سمع أنه يوجد إله لموسى بيده كل شيء، فلما شرع في الغرق شعر أن إله موسى هو الذي أغرقه، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فذكر ضمير الغائب دليل على أنه غير متحقق؛ فهو لم يعرفه في الرخاء حتى يعرفه في الشدة، والمقصود أنها قبلت (لا إله إلا الله) من سيدنا يونس؛ لأنه كان من المسبحين، ولم تقبل من فرعون لأنه لم يكن من المسبحين.

فلا بد من توفر شروط هذا الذكر (لا إله إلا الله) وقد ذكر العلماء من شروط (لا إله إلا الله) ما يلي:

١. العلم بمعناها.

وذلك بأن يعلم الناطق بها معنى هذه الكلمة، وما تضمنته من نفي الألوهية عن غير الله، وإثباتها له سبحانه، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

٢. اليقين.

بمعنى ألا يقع في قلب قائلها شك فيها أو فيما تضمنته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

٣. القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه.

والمراد بالقبول هنا هو المعنى المضاد للرد والاستكبار، ذلك أن الله أخبرنا عن أقوام رفضوا قول لا إله إلا الله، فكان ذلك سبب عذابهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٤-٣٥].

٤. الانقياد لما دلت عليه.

بمعنى: أن يكون العبد عاملًا بما أمره الله به، منتهيًا عما نهاه الله عنه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «العروة الوثقى هي لا إله إلا الله»[(١)].

٥. الصدق.

ومعناه أن يقولها صادقًا من قلبه، يوافق قلبه لسانه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-٩].

٦. الإخلاص.

وهو إرادة وجه الله تعالى بهذه الكلمة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

٧. المحبة لهذه الكلمة.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٤٢١.

ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقضها، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فهذا هو معنى هذه الكلمة، وهذه هي شروطها التي بها تكون سبب النجاة عند الله سبحانه، وقد قيل للحسن: «إن أناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة»[(١)].

والمقصود: أن هذا الذكر (التهليل) فضله عظيم، وقد ورد الأمر به في القرآن، قال تعالى: ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقد ورد في فضل هذا الذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)[(٢)].

وقال: (أفضل الذكر لا إله إلا الله)[(٣)].

قال المباركفوري رحمه الله: «لأنها كلمة التوحيد، والتوحيد لا يماثله شيء، وهي الفارقة بين الكفر والإيمان؛ ولأنها أجمع للقلب مع الله، وأنفى للغير، وأشد تزكية للنفس، وتصفية للباطن، وتنقية للخاطر من خبث النفس، وأطرد للشيطان»[(٤)].

خامسًا: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

ومن صور الذكر في القرآن: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أمر الله تعالى بها في القرآن، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وهذا فيه تنبيه على كمال الرسول صلى الله عليه وسلم، ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره.

قال القرطبي: «وهذه الآية شرف الله بها رسوله عليه السلام حياته وموته، وذكر منزلته منه، وطهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء، أو في أمر زوجاته ونحو ذلك، والصلاة من الله رحمته ورضوانه،

(١) ترتيب الأمالي الخميسية، الشجري ١/ ١٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، ١/ ٩٢، رقم ٤٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، ١/ ٤٥٥، رقم ٣٣.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، ٥/ ٤٦٢، رقم ٣٣٨٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، ٢/ ١٢٤٩، رقم ٣٨٠٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم».
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٢٤٨، رقم ١١٠٤.
(٤) تحفة الأحوذي ٩/ ٣٢٥.

ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره»[1].

وقال ابن كثير: «والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا»[2].

فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ أي: يثني الله عليه بين الملائكة، وفي الملأ الأعلى لمحبته تعالى له، وتثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون[3].

وصلاة الله عليه هنا لا يصلح حملها على معناها اللغوي، وهو الدعاء؛ لأن المعنى غير معقول في حق الله تعالى؛ فإنه لا يدعو له؛ لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث[4].

قال الألوسي: «والجملة صيغة خبر، ومعناها الدعاء بالسلامة، وطلبها منه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، واستشكل ذلك فيما إذا قال الله تعالى: السلام عليك أيها النبي أو نحوه بأن الدعاء لا يتصور منه عز وجل لأنه طلب، وهو يتضمن طالبًا ومطلوبًا ومطلوبًا منه، وهي أمور متغايرة، فإن كان طلبه سبحانه السلامة لنبيه عليه الصلاة والسلام من غيره تعالى فمحاليته من أجلى البديهيات، وإن كان من ذاته عز وجل لزم أن يغاير ذاته، والشيء لا يغاير ذاته ضرورة، وهذا منشأ قول بعضهم: إن في السلام منه تعالى إشكالًا له شأن، فينبغي الاعتناء به، وعدم إهمال أمره، فقل من يدرك سره»[5].

فإن قيل: إذا صلى الله وملائكته عليه فأي حاجة إلى صلاتنا؟

وقد أجاب الرازي بقوله: «نقول: الصلاة عليه ليس لحاجته إليها، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه، كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له إليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا عليه؛ ولهذا قال عليه السلام: (من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرًا)»[6].

ونلحظ من هذه الآية أنه أضاف الصلاة إلى الله دون السلام، وأمر المؤمنين بهما معًا، والحكمة كما قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): «وقد سئلت عن إضافة الصلاة إلى الله دون السلام، وأمر المؤمنين بها وبالسلام، فقلت: يحتمل أن يكون السلام له

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٣٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٥٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٨١.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٥٥.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٨٢.

معنيان: التحية والانقياد، فأمر به المؤمنون لصحتهما منهم، والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد، فلم يضف إليهم دفعًا للإيهام، والعلم عند الله»[1].

قال الشهاب الخفاجي عليه الرحمة: «قد لاح لي في ترك تأكيد السلام وتخصيصه بالمؤمنين نكتة سرية، وهي أن السلام عليه -عليه الصلاة والسلام- تسليمه عما يؤذيه، فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم والأذية إنما هي من البشر، وقد صدرت منهم، فناسب التخصيص بهم والتأكيد»[2].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلًا لإيمانكم، وتعظيمًا له صلى الله عليه وسلم، ومحبة وإكرامًا، وزيادة في حسناتكم، وتكفيرًا من سيئاتكم، وأفضل هيئات الصلاة عليه -عليه الصلاة والسلام- ما علم به أصحابه: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد)[3].

وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة[4].

والآية جمعت بين الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسلم.

قال النووي: «إذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم فليجمع بين الصلاة والتسليم، ولا يقتصر على أحدهما، فلا يقل: صلى الله عليه فقط، ولا عليه السلام فقط»[5].

قال ابن كثير: «وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسلم تسليمًا»[6].

والتعبير بالجملة الاسمية في صدر الآية؛ للإشعار بوجوب المداومة، والاستمرار على ذلك[7].

و﴿يُصَلُّونَ﴾ فعل مضارع يدل على

(١) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٥٣٣.
(٢) حاشية الشهاب على أنوار التنزيل، البيضاوي ٧/ ١٨٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ٨/ ٧٧، رقم ٦٣٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد، ١/ ٣٠٥، رقم ٤٠٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧١.
(٥) الأذكار، النووي ص ١١٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٧٩.
(٧) التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ٢٤٣.

الحال والاستقبال، أي: أن الله -جل جلاله- وملائكته منذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولًا يصلون عليه حال نزول الآية، ومستقبلًا وإلى يوم القيامة.

و﴿تَسْلِيمًا﴾: مفعول مطلق، أي: نسلم عليه كثيرًا ودوامًا عند زيارته في المسجد النبوي، وفي البعد، وحيث كنا من أرض الله تعالى[1]. فهو تسليم عليه، وتسليم له، تسليم عليه بالدعاء له بالأمن والسلام من الله (السلام عليك أيها النبي) والتسليم له من المؤمنين بالطاعة والولاء، فهذه الصلاة وهذا التسليم من المؤمنين هو بعض ما يجزي به المؤمنون النبي من إحسان في مقابل الإحسان العظيم الذي أحسن به إليهم؛ إذ هداهم إلى الإيمان، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وسلك بهم الطريق إلى رضوان الله، وإلى جنات لهم فيها نعيم مقيم، فما أقل ما يجزي به المؤمن هذا الإحسان الذي لرسول الله في عنقه[2].

والضمير في ﴿يُصَلُّونَ﴾ لله تعالى ولملائكته، وهذا قول من الله شرف به ملائكته، أو في الكلام حذف، والتقدير: إن الله يصلي، وملائكته يصلون.

قال القرطبي: «واختلف العلماء في الضمير في قوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ فقالت فرقة: الضمير فيه لله والملائكة، وهذا قول من الله تعالى شرف به ملائكته، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاء في قول الخطيب: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى» فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعصي الله ورسوله)[3].

قالوا: لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير، ولله أن يفعل في ذلك ما يشاء، وقالت فرقة: في الكلام حذف، تقديره: إن الله يصلي وملائكته يصلون، وليس في الآية اجتماع في ضمير؛ وذلك جائز للبشر فعله»[4].

وظاهر صيغة الأمر مع قرينة السياق تقتضي وجوب أن يصلي المؤمن على النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنه مجملٌ في العدد، فمحمله محمل الأمر المجمل أن يفيد المرة؛ لأنها ضرورية لإيقاع الفعل ولمقتضى الأمر؛ ولهذا ذكر الفقهاء أن الصلاة على النبي (خارج الصلاة) واجبة على كل مؤمن مرة في العمر، فجعلوا وقتها العمر كالحج، وقد اختلفوا فيما زاد على ذلك في حكمه ومقداره، ولا خلاف في استحباب الإكثار من الصلاة عليه، وخاصة

(١) تفسير المنتصر الكتاني ٣/٢١٠.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١١/ ٧٤٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ٢/ ٥٩٤، رقم ٨٧٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٣٢.

عند وجود أسبابها، ومن أسباب الصلاة عليه: أن يصلي عليه من جرى ذكره عنده، وعند الدعاء، وعند سماع الأذان، وعند انتهاء المؤذن، وعند دخول المسجد.

وذكر الفعل المضارع في (يصلون) إشارة إلى الترغيب في الإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تأسيًا بصلاة الله وملائكته[1].

قال القاسمي: «تدل الآية على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مطلقًا؛ لأن الأصل في الأمر للوجوب، فذهب قوم إلى وجوبها في المجلس مرة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، وآخرون إلى وجوبها في العمر مرة واحدة، ثم هي مستحبة في كل حال، وآخرون إلى وجوبها كلما ذكر، وبعضهم إلى أن محل الآية على الندب»[2].

قال ابن كثير: «وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب، ومنها مستحب»[3].

والظاهر أيضًا أنه لا يحصل الامتثال بأي ثناء ودعاء للنبي صلى الله عليه وسلم بغير هذه الصيغة التي تحتوي على لفظ الصلاة، قال الألوسي: «والظاهر أنه لا يحصل الامتثال باللهم عظم محمدًا التعظيم اللائق ونحوه، مما ليس فيه مشتق من الصلاة، كصل وصلى، فإنا لم نسمع أحدًا عد قائل ذلك مصليًا عليه صلى الله عليه وسلم؛ وذلك في غاية الظهور، إذا كان (قولوا: اللهم صل على محمد) تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: وقولوا: والسلام عليك أيها النبي ونحوه، وهذا ما عليه أكثر العلماء الأجلة»[4].

والمقصود: أن من الأذكار العظيمة الواردة في القرآن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاء الأمر بها في القرآن، إلا أنه لم يبين لنا عز وجل كيفية تلك الصلاة في كتابه، وبينها لنا رسوله صلى الله عليه وسلم، ورغب فيها، وحث عليها، وبين أن أجرها مضاعف، فقال صلى الله عليه وسلم: (فإنه من صلى علي صلاة، صلى الله عليه بها عشرًا)[5]، وقد شرعت عند ذكر اسمه، وبعد التشهد في الصلاة، وفي خطبة الجمعة والنكاح ونحوها.

وهي مما يدل على دوام أجره دون انقطاع؛ لأن صلوات الله تعالى عليه، وصلوات الملائكة والمؤمنين لا تنقطع ليلًا ولا نهارًا، وهي من الله تعالى رحمة، ومن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٩٨.
(٢) محاسن التأويل ٨/ ١٠٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٦٩.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٥٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ١/ ٢٨٨، رقم ٣٨٤.

الملائكة والمؤمنين دعاء[1].

فيا لها من مرتبة سنية حيث تردد جنبات الوجود، ثناء الله على نبيه، ويشرق به الكون كله، وتتجاوب به أرجاؤه، ويثبت في كيان الوجود ذلك الثناء الأزلي القديم الأبدي الباقي، وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهذا التكريم، وأين تذهب صلاة البشر وتسليمهم بعد صلاة الله العلي وتسليمه، وصلاة الملائكة في الملأ الأعلى وتسليمهم، إنما يشاء الله تشريف المؤمنين بأن يقرن صلاتهم إلى صلاته، وتسليمهم إلى تسليمه، وأن يصلهم عن هذا الطريق بالأفق العلوي الكريم الأزلي القديم[2].

ففي الصلاة والسلام عليه اعتناء بإظهار شرفه ورفع شأنه، ومن هنا قال بعضهم: تشريف الله محمدًا صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أبلغ من تشريف آدم بالسجود له.

سادسًا: قراءة القرآن:

ومن صور الذكر الوارد الأمر بها في القرآن: قراءة القرآن، والمتتبع لآي القرآن الكريم يجد الأمر واضحًا بتلاوته وتدبره، ويجد ما يترتب على ذلك من الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

والمعنى: فاقرءوا من الليل ما تيسر لكم من القرآن في صلاتكم؛ وهذا تخفيف من الله عز وجل عن عباده فرضه الذي كان فرض عليهم بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٢ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٢-٤][3].

فالأمر بقراءة القرآن هنا فيه قولان:

الأول: أن المراد من هذه القراءة الصلاة؛ لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، أي: فصلوا ما تيسر عليكم.

والقول الثاني: أن المراد قراءة القرآن بعينها، والغرض منه دراسة القرآن؛ ليحصل الأمن من النسيان[4]. وليقف المؤمن بقراءته على إعجازه، وما فيه من دلائل التوحيد، وبعث الرسل.

فعلى القول الثاني يكون الأمر بقراءة مستقلة، ويؤيد هذا أن الله قد أمر بترتيل القرآن، فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: اقرأه على تؤدة وتمهل وتبين حروف، بحيث يتمكن السامع من استيعابه، وتدبر معانيه.

والأمر في قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟﴾ للندب، وقال قوم منهم الحسن وابن سيرين: «هو

(١) انظر: أضواء البيان ٨/ ٢٤٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٩٥.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٩٤، واللباب في علوم الكتاب ١٩/ ٤٨٧.

فرض لا بد منه، ولو أقل ما يمكن»، حتى قال بعضهم: من صلى الوتر فقد امتثل هذا الأمر، وقيل: كان فرضًا ثم نسخ بالصلوات الخمس، وقيل: هو فرض على أهل القرآن دون غيرهم.

وذكر الله في هذه الآية الأعذار التي تكون لبني آدم تمنعهم من قيام الليل، فمنها: المرض، ومنها: السفر للتجارة، وهي الضرب في الأرض؛ لابتغاء فضل الله، ومنها: الجهاد، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر؛ تأكيدًا للأمر به، أو تأكيدًا للتخفيف، وهذا أظهر؛ لأنه ذكره بأثر الأعذار[1].

والحاصل: أن تلاوة القرآن سنة من سنن الإسلام، والإكثار منها مستحب؛ لأنها وسيلة إلى فهم كتاب الله، والعمل به، وفضلها ثابت في القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتلاوة القرآن، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

ومدح المشتغلين بتلاوته، فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وكان مطرف إذا مر بهذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يقول: «هذه آية القراء»[2]، يعني: أثنى الله عليهم بقراءة القرآن.

فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ يعني: يقرءون القرآن، وقيل: معناه: يتبعون كتاب الله تعالى، يقال: تلا يتلو إذا تبعه، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢][3].

ولعل الجمع بين القولين أولى، فهم يقرءونه ويتبعونه، لا مجرد قراءة باللسان فقط.

قال السعدي: «أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره، فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضًا ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتتبعها واستخراجها»[4].

فتلاوة كتاب الله تعني شيئًا آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت، تعني تلاوته عن تدبر، ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك، ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة، وبالإنفاق سرًا وعلانية من رزق الله، ثم رجاؤهم بكل هذا ﴿تِجَارَةً لَنْ

(١) التسهيل، ابن جزي ٢/ ٤٢٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ١٠٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨٩.

﴿تَبُورَ﴾ فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون، ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح، يعاملون فيها الله وحده، وهي أربح معاملة، ويتاجرون بها في الآخرة، وهي أربح تجارة، تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم، وزيادتهم من فضل الله[1].

ومجيء الجملة فعلية يدل على مداومة القراءة وتجددها.

قال الألوسي: «أي: إنهم يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم وعنوانًا، كما يشعر به صيغة المضارع، ووقوعه صلة، واختلاف الفعلين»[2].

فعطف الماضيين (أقاموا، وأنفقوا) على المضارع (يتلون)؛ لأن أوقات التلاوة أعم من أوقات الصلاة والزكاة، ويجوز أن يكون الماضيان سابقين على التلاوة، ويجوز أن تكون التلاوة في الصلاة.

فـ(يتلون) فعل مضارع و(أقاموا) فعل ماضي، والفعل المضارع يدل على الحال والتجدد والاستقبال والماضي مضى؛ وفي الآية ذكر تعالى أكثر ما يتجدد أولًا؛ لأن تلاوة القرآن أكثر من الصلاة، وإقامة الصلاة لا تكون إلا بقراءة القرآن، وقراءة القرآن تكون في كل وقت، وإقامة الصلاة هي أكثر من الإنفاق، إذن فالأفعال مرتبة في الآية بحسب الكثرة، وبحسب الاستمرار، فبدأ بالأكثر والأكثر استمرارًا، ثم بما دونها كثرة (الصلاة)، ثم الأقل (الإنفاق)[3].

والمراد بكتاب الله: القرآن[4]، ولا وجه لما قيل: إن المراد به جنس كتب الله.

قال أبو السعود: «والمراد بكتاب الله تعالى: القرآن، وقيل: جنس كتب الله، فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين منهم، وليس بذاك، فإن صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته، والعمل بما فيه واستتباعهما لما سيأتي من توفية الأجور، وزيادة الفضل، وحملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسفًا ظاهرًا مما لا سبيل إليه، كيف لا، والمقصود الترغيب في دين الإسلام، والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه من الكتب! فالتعرض لبيان حقيقتها قبل انتساخها والإشباع في ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة في تلاوتها، والإقبال على العمل بها، وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل قطعًا؛ لما أن الباقي مشروعًا ليس إلا حكمها؛ لكن لا من حيث أنه حكمها، بل من حيث إنه حكم القرآن، وأما تلاوتها فبمعزل من المشروعية، واستتباع الأجر

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٤٣.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٣٦٥.
(٣) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي ص ٧٤١.
(٤) غرائب التفسير، النيسابوري ٢/ ٩٤٦، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٣٦٥.

بالمرة، فتدبر!»[1].

والمقصود: أن من صور الذكر وأعظمها قراءة القرآن، فقد جاء الترغيب في تلاوة القرآن، ولو في غير صلاة، ومن غير وضوء، ويؤجر المسلم على مجرد ترديد لفظه، ولو من غير فهمه، إلا أنه إذا ضم إلى التلاوة فهمًا زاد بذلك أجرًا على أجر، بل إن قراءة القرآن أفضل من الذكر والدعاء، وقد سئل ابن تيمية عمن يحفظ القرآن أيما أفضل له تلاوة القرآن أم الذكر؟

فأجاب: «جواب هذه المسألة ونحوها مبني على أصلين: فالأصل الأول أن جنس تلاوة القرآن أفضل من جنس الأذكار، كما أن جنس الذكر أفضل من جنس الدعاء»[2].

سابعًا: الحسبلة:

ومن صور الذكر الواردة في القرآن قول: حسبنا الله ونعم الوكيل، وقد أثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده، حيث أفردوه بالحسب، حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

فهؤلاء قالوا هذه الكلمة العظيمة (حسبنا الله ونعم الوكيل) أي: قالوا معبرين عن صادق إيمانهم بالله: الله يكفينا ما يهمنا من أمر الذين جمعوا الجموع لنا، فهو لا يعجزه أن ينصرنا على قلتنا وكثرتهم، أو يلقى في قلوبهم الرعب، فيكفينا شر بغيهم وكيدهم، وقد كان الأمر كما ظنوا، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان وجيشه على كثرة عددهم، وتوافر عددهم، فولوا مدبرين، وكان في ذلك عزة لله ولرسوله وللمؤمنين[3].

فـ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: نعيم بن مسعود، وإنما أراد به جنس الناس، وكان رجلًا واحدًا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ يعني: أبا سفيان وأصحابه ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ ولا تخرجوا إليهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ أي: تصديقًا ويقينًا، وجرأة على القتال ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: ثقتنا بالله، وأيقنوا أن الله لا يخذل محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: نعم الثقة لنا ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ انصرفوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بأجر من الله ﴿وَفَضْلٍ﴾ يعني: ما تسوقوا به من السوق، واشتروا الأشياء بسعر رخيص ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ يعني: قتال ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٥٢.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٣/ ٥٦-٦٠.
(٣) تفسير المراغي ٤/ ١٣٥.

أي: ذو من عظيم[1].

والحاصل: أنه يستحب قول هذا الذكر وهذه الكلمة عند الغم، والأمور العظيمة[2].

وهي الكلمة التي قالها المؤمنون هنا، كما في هذه الآية، وهي التي قالها إبراهيم عليه السلام حينما ألقي في النار، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار»[3].

وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣][4].

فالحسبلة مقتضى التوكل، وإنما يكون التوكل على الله وحده، كما قال لنبيه: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

أي: عليه وحده، بدلالة تقديم الظرف، ومثله في هذا الحصر آيات كثيرة.

وقال في المنافقين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

(١) تفسير السمرقندي ١/ ٢٦٦.
(٢) انظر: الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي ص ٧٤.
(٣) تفسير القرآن الكريم، المقدم ٢٨/ ٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (إن الناس قد جمعوا لكم)، ٦/ ٣٩، رقم ٤٥٦٣.

أي: لكان خيرًا لهم، علمهم الله تعالى أن يسندوا الإعطاء من الصدقات إلى الله؛ لأنه المعطي الذي فرض الصدقات وأوجبها، وإلى رسوله؛ لأنه هو الذي يقسمها، وأن يسندوا كفاية الإحساب إلى الله وحده، وتكون رغبتهم إلى الله وحده، ولم يأمرهم أن يقولوا: حسبنا الله ورسوله؛ إذ لا يكفي العباد إلا ربهم وخالقهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

ولا سيما الكفاية الكاملة التي يعبر عنها بحسبك، أي: التي يقول فيها المكفى: حسبي حسبي، وهي المرادة هنا -كما تقدم- ، وإذا كان دأب آحاد المؤمنين وهجيراهم (حسبنا الله ونعم الوكيل) فأنبياء الله ورسله أولى بهذا؛ لأنهم أكمل توحيدًا وتوكلًا من غيرهم، وناهيك بخاتمهم وأفضلهم صلى الله عليه وسلم، ثم ناهيك بوعد الله تعالى إياه بهذه الكفاية[5].

فإذا وفق الله عبدًا توكل بحفظه وكلاءته، وهدايته وإرشاده، وتوفيقه وتسديده، وإذا خذله وكله إلى نفسه أو إلى غيره؛ ولهذا كانت هذه الكلمة: «حسبنا الله ونعم الوكيل» كلمةً عظيمةً، قال من سبق ذكرهم من الأنبياء والصالحين، وممن قالها أيضًا عائشة رضي الله عنها حين ركبت الناقة لما انقطعت عن الجيش، وهي كلمة المؤمنين،

(٥) تفسير المنار ١٠/ ٦٤.

فمن حقق التوكل على الله لم يكله إلى غيره، وتولاه بنفسه، وحقيقة التوكل: تكلة الأمور كلها إلى من هي بيده، فمن توكل على الله في هدايته وحراسته وتوفيقه وتأييده ورزقه، وغير ذلك من مصالح دينه ودنياه تولى اللّه مصالحه كلها، فإنه تعالى ولي الذين آمنوا، وهذا هو حقيقة الوثوق برحمة الله، فمن وثق برحمة ربه ولم يثق بغير رحمته، فقد حقق التوكل على ربه في توفيقه وتسديده، فهو جديرٌ بأن يتكفل الله بحفظه، ولا يكله إلى نفسه[1].

فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل، والوكيل لا يستحق المدح إذا لم يجلب لمن توكل عليه منفعة، ولم يدفع عنه مضرة، والله خير من توكل العباد عليه، فهو نعم الوكيل يجلب لهم كل خير، ويدفع عنهم كل شر.

وقال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩].

وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٢].

فأمر أن يتخذ وكيلًا، ونهى أن يتخذ من دونه وكيلًا؛ لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد، والوكالة الجائزة أن يتوكل الإنسان في فعل يقدر عليه، فيحصل للموكل بذلك بعض مطلوبه، فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله، وذاك الذي يوكله لا يفعل شيئًا إلا بمشيئة الله وقدرته، فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله، بل يعتمد على الله في تيسير ما وكله فيه، فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره، ويحصل بلا توكل لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلًا أنفع من اتخاذ الخالق وكيلًا، وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد؛ لأن التوكل على الخلق يشهد نفعه[2].

فالحسيب: هو الكافي، والوكيل: فعيل من التوكل، أي: متوكلًا عليه، تفوضون إليه أموركم، فيوصل إليكم النفع، ويكف عنكم الضر، أي: ربًا تكلون إليه أموركم.

قال ابن الجوزي: «قيل للرب: وكيل؛ لكفايته وقيامه بشئون عباده، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل»[3].

وقال القرطبي: «وكيلًا، أي: شريكًا»[4].

والمعاني متقاربة، ومرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الوكيل: من يتوكل عليه، فتفوض الأمور إليه، ليأتي بالخير، ويدفع الشر، وهذا لا يصح إلا لله وحده جل وعلا؛ ولهذا حذر من اتخاذ وكيل دونه؛ لأنه لا نافع ولا ضار، ولا كاف إلا هو وحده جل وعلا،

(١) انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٧٢.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٨٢.

(٣) زاد المسير ٣/ ٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢١٣.

عليه توكلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

ثامنًا: التكبير:

ومن صور الذكر القرآني: التكبير، وقد أمر الله به في قوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣].

والتكبير: التعظيم، وهو مصدر كبر بمعنى: عظم، وهو قول: الله أكبر.

والتكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، وفي الأمر بذلك بعد ما تقدم مؤكدًا بالمصدر المنكر من غير تعيين لما يعظم به تعالى إشارة إلى أنه مما لا تسعه العبارة، ولا تفي به القوة البشرية، وإن بالغ العبد في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد فلم يبق إلا الوقوف بإقدام المذلة في حضيض القصور، والاعتراف بالعجز عن القيام بحقه جل وعلا[1].

والأمر هنا ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ وإن كان للرسول صلى الله عليه وسلم فهو أمر للناس جميعًا على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأن أمر القدوة أمر لأتباعه. ومعنى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: قل: الله أكبر، الله أكبر، تكبيرًا مطلقًا، من غير مقايسة أو مفاضلة، الكبير في كل مقام، فهو سبحانه الكبير المتعال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقد يحمل المعنى على ما هو أشمل، أي: عظمه تعظيمًا[2].

قال الرازي في هذا التكبير: «يحتمل أنواعًا من المعاني:

أولها: تكبيره في ذاته، وهو أن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته، وأنه غني عن كل ما سواه.

وثانيها: تكبيره في صفاته؛ وذلك من ثلاثة أوجه:

أولها: أن يعتقد أن كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٨/ ١٨٤.
(٢) تفسير يحيى بن سلام ١/ ١٦٩.

وهو منزه عن كل صفات النقائص.

وثانيها: أن يعتقد أن كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات، وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات.

وثالثها: أن يعتقد أنه كما تقدست ذاته عن الحدوث، وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال، فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال.

النوع الثالث: من تكبير الله تكبيره في أفعاله.

النوع الرابع: تكبير الله في أحكامه، وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع، وله الأمر والنهي، والرفع والخفض، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه يعز من يشاء، ويذل من يشاء.

النوع الخامس: تكبير الله في أسمائه، وهو أن لا يذكر إلا بأسمائه الحسنى، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية المنزهة.

النوع السادس: من التكبير هو أن الإنسان بعد أن يبلغ في التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله، ولسانه لا يفي بشكره، وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته، فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافيًا بكنه مجده وعزته، وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم»[1].

والحاصل: أن هذه آية عظيمة ختمت بها سورة الإسراء، وقد احتوت على الأمر بحمد الله والتكبير.

وروى غير واحد أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم الغلام من بني عبد المطلب إذا أفصح ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية سبع مرات، وسماها عليه الصلاة والسلام آية العز[2].

وقال ابن كثير: «عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أهله كبيرهم وصغيرهم هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾»[3].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قول العبد: الله أكبر خير من الدنيا وما فيها»[4].

والمقصود أن التكبير هنا ورد ذكرًا مطلقًا، ولم يحدد بوقت معين، ولفظه: الله أكبر، ومعناه: أي: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون تعظيمًا كبيرًا، فذلك التعظيم الذي يتناسب مع جلاله وعظمته وقدسيته، فهو الكبير المتعال في ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته، وأنه غني

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٢٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٨/ ١٨٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٢٩.
(٤) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٤٢.

عن كل الوجود وفي صفاته، فله صفات الكمال، المنزه عن كل صفات النقصان، وفي أفعاله: فلا يحدث شيء في ملكه إلا بمقتضى حكمته ومشيئته، وفي أحكامه: فله مطلق الأمر والنهي والعز والذل، لا معقب لحكمه، ولا اعتراض لأحد على شيء من أحكامه، وفي أسمائه: فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية.

وقد جاء التكبير في القرآن ذكرًا مقيدًا بعد انتهاء بعض العبادات، قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

ففي الآية الأولى التكبير عند إكمال شهر رمضان، يوم الفطر[(١)]، والآية الثانية في الأضاحي[(٢)].

تاسعًا: الاسترجاع:

ومن صور الذكر الوارد في القرآن: الاسترجاع، وهو قول العبد: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

ففي هذه الآية أخبر الله أن المؤمن إذا سلم الأمر إلى الله، ورجع واسترجع عند المصيبة كتب له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتحقيق سبيل الهدى.

ومعنى: ﴿قَالُوا﴾ أي: نطقوا بهذا الذكر العظيم، ولم يرد به القول اللساني فقط، بل لا بد أن يكون معه اعتقاد وعمل، فمن شرط اللفظ: العمل بمقتضاه، وهو أنه يصبر ويحتسب، فإن قاله قولًا فقط فلا فائدة فيه، وإن صبر ولم يقله فقد قاله بلسان الحال، ويحصل له (الأجر) وإن فعل الأمرين أخلفه الله الخير في الدنيا، وأعظم له الأجر في الآخرة.

قال أبو السعود: «وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل بالقلب، بأن يتصور ما خلق له، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكر نعم الله تعالى عليه، ويرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه، فيهون ذلك على نفسه، ويستسلم»[(٣)].

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يعني يقولون: نحن عبيد الله وفي ملكه، إن عشنا فعليه أرزاقنا، وإن متنا فإليه مردنا، وإليه راجعون

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٧٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٢٩.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٠.

بعد الموت، ونحن راضون بحكمه.

إنا لله كلنا، كل ما فينا، كل كياننا وذاتيتنا لله، وإليه المرجع والمآب في كل أمر، وفي كل مصير، التسليم المطلق، تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهًا لوجه بالحقيقة الوحيدة، وبالتصور الصحيح[1].

فإذا علم العبد أنه وجميع أهله وماله ملك لله طابت نفسه، وهانت عليه مصيبته.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: أهل هذه الصفة، إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت، ومعنى البعد فيه للإيذان بعلو رتبتهم[2].

﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ الصلاة اسم مشترك المعنى، فهي من الله تعالى الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الناس الدعاء[3]. والصلاة هنا المراد بها الرحمة، وجمعها؛ لإرادة التكرار عليهم[4].

وقد تحمل الصلاة من الله تعالى هنا على ثلاثة أشياء: توفيق الطاعة، والعصمة عن المعصية، ومغفرة الذنوب جميعًا، فبالصلاة الواحدة تتكون لهم هذه الأشياء الثلاثة، فقد وعد لهم الصلوات الكثيرة، ومقدار ذلك لا يعلمه إلا الله[5].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٤٥.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٠.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢١٠.
(٤) تفسير ابن عرفة ٢/ ٤٧٠.
(٥) تفسير السمرقندي ١/ ١٠٦.

﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي: عليهم رحمات كثيرة متعددة، ورحمة أخرى أعظم من الجميع، فلذلك أفردها بالذكر، وعطفها عليها، وليس فيه تكرار بوجه[6].

ثم قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي: الموفقون للاسترجاع، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يكن الاسترجاع إلا لهذه الأمة، ألا ترى أن يعقوب عليه السلام قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

فلو كان له الاسترجاع لقال ذلك[7].

فـ﴿ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي: الذين اهتدوا إلى طريق الحق؛ فإن هذا الكلام الذي يقولونه مع الصبر هو الهداية.

والمقصود: أن هذه كلمة عظيمة يستحق عليها الإنسان المؤمن الثواب العظيم، وهو من أعظم الذكر الوارد في القرآن.

وقد جعل سبحانه هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب؛ لما جمعت من المعاني المباركة، من توحيد الله سبحانه، والإقرار له بالعبودية، والبعث من القبور، واليقين بأن رجوع الأمر كله إليه، كما هو له، قال الفخر: «قال أبو بكر الوراق: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار منا له بالملك ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار على أنفسنا بالهلاك».

وفي هذا التركيب العجيب من لطائف

(٦) تفسير ابن عرفة ٢/ ٤٧٠.
(٧) تفسير السمرقندي ١/ ١٠٦.

اللطائف وعوارف المعارف ما يدق ويرق، وما هو بهذا النظام أليق وأخلق، وحسب الإنسان أن يذكر في محنته أن لله بدأه، ولله نهايته؛ ليكون لله فيما بينهما ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أما البشرى فقد أشارت إلى مضمونها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

سمعها عمر رضي الله عنه فقال: «نعم العدلان، ونعمت العلاوة»[(١)].

فما أروعها من جملة، وما أطيبها من كلمة، جامعة مانعة، تجمع بين السهولة والقوة؛ سهولة اللفظ، وقوة المعنى، وبين العبودية والعزة، عبودية المخلوق للخالق؛ وعزة المخلوق بخالقه.

وجرت العادة أن هذه الكلمة إذا سمعت فإنها توحي بمصيبة، وهذا ما جاءت في القرآن لأجله؛ ولذلك ينطقها اللسان بنبرات حزينة، وربما برأس مخفوض، ووجه عبوس، وقلب مكلوم، نعم هي ترافق المصيبة، وتأتي معها؛ لكن لا لتزيدها أو تعمق جراحها، بل لتخففها، وتقوي الصبر عليها؛ وهل التعزية إلا التقوية؟! يقولها أهل المصائب مؤمنون بها، مستسلمون لحكمها.

أوقات الذكر

أمر الله تعالى في القرآن بالإكثار من الذكر في جميع الأحوال والأوقات دون تقييد بوقت محدد أو عدد محدد، وجاء الأمر بالذكر في أوقات معينة، ويمكن تقسيم الذكر الوارد في القرآن إلى الذكر المطلق من التقييد بوقت أو حال أو عدد، والذكر المقيد بأوقات معينة:

أولًا: ذكر مقيد:

أمر الله تعالى في القرآن بالذكر عمومًا، والتسبيح خصوصًا، مقيدًا في الأوقات التالية:

١. البكور والعشي.

أمر الله تعالى في القرآن بالذكر بكرة وعشيًا، مقيدًا بهذين الزمانين، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وخص من الذكر التسبيح، فقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

وقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

فـ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخر النهار، وخصا بالذكر؛ لأن ملائكة الليل

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٨٧.

وملائكة النهار يجتمعون فيهما[1].

أو هو إشارة إلى المداومة؛ وذلك لأن مريد العموم قد يذكر الطرفين، ويفهم منهما الوسط، كقوله عليه السلام: (لو أن أولكم وآخركم)[2] ولم يذكر وسطكم، ففهم منه المبالغة في العموم[3].

فإذا أمر العبد بالذكر في هذين الوقتين، وهما وقتا شغل ابتداء أو انتهاء، فوجوب الذكر في غيرهما من باب الأولى.

وقيل: إن ذلك إشارة إلى صلاة الصبح والعصر، وقال ابن عطية: «أراد في كل الأوقات، فحد النهار بطرفيه»[4].

وخص التسبيح بالذكر من جملة الذكر لفضله على سائر الأذكار، ففيه تنزيه عما لا يجوز عليه[5].

والحاصل: أنه خص البكرة والأصيل في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ بالذكر؛ لإظهار فضلهما، والتنويه بهما؛ لأن العبادة فيهما آكد على الإنسان، كما خص التسبيح وهو من أنواع الذكر؛ ليبين فضله على سائر الأذكار.

وقد يكون السر أيضًا في اختيار هذين الوقتين لأنهما أصلح الأوقات وأنسبها لذكر الله، واستحضار جلاله وعظمته.

ففي أول النهار يتزود الإنسان بهذا الزاد الطيب الذي يغذي به مشاعره وأحاسيسه، ويشحن به عواطفه ونوازعه، ثم يخرج إلى الحياة ومعه هذا الرصيد العظيم من أمداد الله ورحماته، فيواجه الحياة بقلب سليم، وعزم موثق، ولسان عف، ويد نقية، فيكون من هذا كله في حراسة أمينة يقظة، فلا يزل ولا ينحرف!

فإذا كان آخر النهار كان له إلى نفسه عودة ومراجعة، فيعرضها على الله، ويصلح ما وقع لها من خلل أثناء رحلتها مع الحياة طوال اليوم، وبهذا يظل المؤمن -المتصل بالله هذا الاتصال- على الصحة والسلامة أبدًا[6].

وأمر الله تعالى بالذكر بالعشي والإبكار، مقيدًا بهذين الزمانين، فقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

و(العشي): هو من الزوال إلى الغروب، قاله مجاهد، وقيل: من العصر إلى ذهاب صدر الليل (والإبكار) أي: وقته وهو من الفجر إلى الضحى، وإنما قدر المضاف؛ لأن الإبكار بكسر الهمزة مصدر لا وقت، فلا تحسن المقابلة كذا قيل، وهو مبني

(١) مدارك التأويل، النسفي ٣/ ٣٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٧٢.
(٤) التسهيل، ابن جزي ٢/ ١٥٤.
(٥) غرائب القرآن، النيسابوري ٥/ ٤٦٨.
(٦) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٥٥٣.

على أن بالعشي جمع عشية، الوقت المخصوص، وإليه ذهب أبو البقاء، والذي ذهب إليه المعظم أنه مصدر أيضًا على فعيل لا جمع[1].

وخص هذان الوقتان بالذكر؛ لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد، وما بينهما من أوقات الغالب فيها الانقطاع لأمر المعاش.

٢. الغدو والآصال.

وأمر الله تعالى بالذكر بالغدو والآصال، مقيدًا بهذين الزمانين، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

والغدو: أول النهار، مصدر غدا يغدو، والمراد وقت الغدو، والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار، وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب، وقد يقال: اشتقاقه من الأصل، واليوم بليلته إنما يبتدئ في الشرع من أول الليل، فسمي آخر النهار أصيلًا؛ لكونه ملاصقًا لما هو الأصل لليوم الثاني[2].

وأفرد الغدو بالذكر: لأن فيه صلاة واحدة هي صلاة الصبح، وجمع الأصيل؛ لأنه زمن ممتد فيه صلاة الظهر والعصر والعشاءين (المغرب والعشاء)[3].

وخص سبحانه أوقات الغدو والآصال بالذكر؛ لشرفها، وكونها أشهر ما تقع فيه العبادات.

قال الرازي: «خص الغدو والآصال بهذا الذكر والحكمة فيه أن عند الغدوة انقلب الإنسان من النوم الذي هو كالموت إلى اليقظة التي هي كالحياة، والعالم انقلب من الظلمة التي هي طبيعة عدمية إلى النور الذي هو طبيعة وجودية، وأما عند الآصال فالأمر بالضد؛ لأن الإنسان ينقلب فيه من الحياة إلى الموت، والعالم ينقلب فيه من النور الخالص إلى الظلمة الخالصة، وفي هذين الوقتين يحصل هذان النوعان من التغيير العجيب القوي القاهر، ولا يقدر على مثل هذا التغيير إلا الإله الموصوف بالحكمة الباهرة، والقدرة الغير المتناهية، فلهذه الحكمة العجيبة خص الله تعالى هذين الوقتين بالأمر بالذكر.

ومن الناس من قال: ذكر هذين الوقتين والمراد: مداومة الذكر والمواظبة عليه بقدر الإمكان، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف:

(١) روح المعاني، الألوسي ٢/ ١٤٦.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٣٦٩.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٩/ ١٢٩١.

١٩١].

لو حصل لابن آدم حالة رابعة سوى هذه الأحوال لأمر الله بالذكر عندها، والمراد منه أنه تعالى أمر بالذكر على الدوام»[(١)].

وقال الشوكاني: «وخص هذين الوقتين لشرفهما»[(٢)]. وفي البحر المديد: «وإنما خص الوقتين؛ لأنهما محل الاشتغال فأولى غيرهما»[(٣)].

والحاصل: أن من أعظم الأوقات لهذا الذكر وقتان أول النهار وآخره؛ لأنهما طرفا النهار، ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرًا بأن يراقب الله ولا ينساه فيما بينهما، وأهم الذكر فيهما صلاتا الفجر والعصر اللتان تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار، ويشهدان عند الله تعالى بما وجدا عليه العبد، كما ورد في الصحيح.

قال سيد: «وذكر الله لا يقتصر على هذه الآونة -في مطالع النهار وفي أواخره- فذكر الله ينبغي أن يكون في القلب في كل آن، ومراقبة الله يجب أن تكون في القلب في كل لحظة؛ ولكن هذين الآنين إنما تطالع فيهما النفس التغير الواضح في صفحة الكون من ليل إلى نهار، ومن نهار إلى ليل، ويتصل فيهما القلب بالوجود من حوله، وهو يرى يد الله تقلب الليل والنهار، وتغير الظواهر والأحوال، وإن الله سبحانه ليعلم أن القلب البشري يكون في هذين الآنين أقرب ما يكون إلى التأثر والاستجابة؛ ولقد كثر في القرآن التوجيه إلى ذكر الله سبحانه، وتسبيحه في الآونة التي كأنما يشارك الكون كله فيها في التأثير على القلب البشري وترقيقه وإرهافه وتشويقه للاتصال بالله»[(٤)].

٣. قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وقال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

قال ابن كثير: «وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبًا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته حولًا، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب»[(٥)].

فالتسبيح هنا إما أن يكون المراد به الصلاة، وإما عموم الذكر، ولعل حمله على

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٤٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٢٠.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٣٠٠.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٠٩.

المعنيين أولى.

٤. من الليل وأطراف النهار.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

وقال: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ [ق: ٤٠]. [الطور: ٤٩].

وخص طرفي النهار؛ لشرفهما، وقيل: داوم على صلاة الفجر والظهر والعصر، فإن الأصيل يتناولهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ بعض الليل ﴿فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ فإنه وقت الاقتراب إليه؛ لدنو رحمته، وخلو الوقت للمناجاة، وقيل: صلاتي المغرب والعشاء، ويؤيده: ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ أي: نزهه، أو صل له تطوعًا.

والوجه في الاهتمام بـ﴿ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ وزلفه أن الليل وقت تميل فيه النفوس إلى الدعة، فيخشى أن يتساهل في أداء الصلاة فيه، وعلل له الفخر الرازي بقوله: «لأن الجمعية -أي جمع القلب والهمة- فيه أكثر؛ وذلك لسكون الناس وهدوء حركاتهم، وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الأعمال؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

وقال: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

ولأن الليل وقت السكون والراحة، فإذا صرف إلى العبادة كانت على الأنفس أشق، وللبدن أتعب، فكانت أدخل في استحقاق الأجر والفضل»[(١)].

ولعل النكتة البلاغية لجمع (طرف) في قوله جل شأنه: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠].

على الرغم من أن للنهار طرفان، ورد ذكرهما في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤].

وقوعه في حال الجمع معمولًا لـ(سبح)، ووقوعه في حال التثنية معمولًا لـ(أقم الصلاة)، وفي هذا ما يشير إلى أن الصلاة وإن كان الأمر فيها قاصرًا على طرفي النهار أوله وآخره، وهما على ما ترجح (الفجر والعصر)، فإنه لا يعني أن يخلو سائر يوم المسلم من تسبيح لله، وشغل للسان بذكره، وأنه إذا كان للنهار طرفان يتم شغلهما بتأدية الصلاة التي لا تشغل حيزًا كبيرًا من الوقت، فإن ثمة طرفين آخرين يستغرقان سائر ساعات النهار، ينبغي ملؤهما مع سابقيهما، بالتقديس والتنزيه لصاحب العظمة والكبرياء جل جلاله.

أولهما: عند انتهاء النصف الأول من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١١٤.

الطرف الأول من النهار، وهو طرف سير الشمس في قوس الأفق، وبلوغ سيرها وسطه، والمعبر عنه بالزوال.

والثاني: عند ابتداء النصف الثاني من القوس، والذي يوافق الشطر الأول من النصف الثاني من النهار.

فيكون للنهار أربعة أطراف أوله وآخره، وآخر نصفه الأول وأول نصفه الثاني، والكل مستغرق بالتسبيح؛ ولذا نزع الخافض، وإن كان لا يوجد بأسًا في الاستئناس في ذلك من إمكانية أن يكون السر في جمع طرف حاصلًا من كون الطرف يتكرر في كل نهار ويعود، فتكون (أل) في النهار للجنس الشامل لكل نهار، ويكون الجمع باعتبار تعدد النهار، وأن لكلٍ طرفين، أو يكون من باب إطلاق الجمع على المثنى، وهو متسع فيه في العربية عند أمن اللبس؛ والذي حسن جمعه هنا وقوعه مشاكلة لجمع آخر هو قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ [طه: ١٣٠][1].

٥. أدبار السجود.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال ابن أبي نجيح عن مجاهدٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما: «هو التسبيح بعد الصلاة».

والقول الثاني: أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هما الركعتان بعد المغرب[2].

٦. أدبار النجوم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩].

أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر. والله أعلم[3].

وقت القيام:

قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

فقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فسر بإرادة القيام إلى الصلاة، وهو قول زيد بن أسلم والضحاك، وفسر بالقيام من النوم، وهو قول أبي الجود، وفسر بالقيام من المجالس[4].

ومما جاء في الذكر المقيد بزمن أو مكان أو حال:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة (٢٠٣].

(١) انظر: من بلاغة القرآن في التعبير بالغدو والأصال، محمد دسوقي ص ٥٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٨٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١٨.

(٤) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٦٣٤.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

ثانيًا: ذكر مطلق:

أمر الله في القرآن بالذكر مطلقًا في سائر الأوقات، والمراد بالمطلق: ما لم يقيد بزمان، ولا مكان، ولا عدد، فأطلق في العدد، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقال تعالى في سياق صفات المؤمنين والمؤمنات: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ أي: في أكثر الأوقات، خصوصًا أوقات الأوراد المقيدة كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات[(١)].

قال مجاهد: «لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا»، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبق المفردون)، قالوا: وما المفردون؟ قال: (الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات)[(٢)][(٣)].

قال الفخر: «﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ يعني: هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله، ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله، واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ها هنا، وفي قوله بعد هذا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقال من قبل: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر، فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائمًا بالصلاة، ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل، ويذكره وهو شارب أو ماشٍ أو بائع أو شارٍ.

وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. ولأن جميع الأعمال صحتها بذكر الله تعالى، وهي النية»[(٤)].

وأطلق في كل الأحوال، فقال: ﴿الَّذِينَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، ٤/ ٢٠٦٢، رقم ٢٦٧٦.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٥٥٠.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٦٩.

﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

فكأنه قيل: تضرعًا وإعلانًا وخيفة وإسرارًا، وفي ذلك من الشمول والاستيعاب لجميع أحوال الإنسان، ومن التحذير من الغفلة ما لا يخفى.

فوائد الذكر

الذكر عبادة عظيمة، وله منزلة رفيعة، ودرجة سامية، وأهمية عظيمة، وفوائد جليلة، شاملة للدين والدنيا والآخرة، أوصلها ابن القيم في كتابه الوابل الصيب إلى أكثر من سبعين فائدة، والذي يهمنا هنا ذكر فوائده المذكورة في القرآن:

أولًا: ذكر الله عز وجل لعبده الذاكر:

من أعظم فوائد الذكر ذكر الله تعالى للذاكر. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

فقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ الفاء هنا هي فاء السببية، وهي ما يكون قبلها سببًا لما بعدها، وهي للتفريع، عاطفة جملة الأمر بذكر الله وشكره على جمل النعم المتقدمة، أي: إذ قد أنعمت عليكم بهاته النعم فأنا آمركم بذكري.

وهذا الأمر ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ جوابه ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ وفيه: معنى المجازاة[1] والجزاء من جنس العمل في الخير والشر.

قال أبو عثمان النهدي: «إني لأعلم حين يذكرني ربي عز وجل، قيل: كيف ذلك؟ قال: إن الله عز وجل قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وإذا ذكرت الله تعالى ذكرني»[2].

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٨٢.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢١.

وقال الحكماء: إنما كان الذكر أفضل الأشياء؛ لأن ثواب الذكر الذكر، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1].

والذكر هنا يحمل على العموم، فيشمل الذكر باللسان، وهو: الحمد والتسبيح والتمجيد وقراءة كتب الله، وبالقلب، وهو: الفكر في الدلائل الدالة على التكاليف والأحكام، والأمر والنهي والوعد والوعيد، والفكر في الصفات الإلهية، والفكر في أسرار مخلوقات الله تعالى حتى تصير كل ذرة كالمرآة المجلوة المحاذية لعالم التقديس، فإذا نظر العبد إليها انعكس شعاع بصره منها إلى عالم الجلال، وبالجوارح بأن تكون مستغرقة في الأعمال المأمور بها، خالية عن الأعمال المنهي عنها، وعلى هذا الوجه سمى الله الصلاة ذكرًا بقوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩][2].

وسمي الثواب المترتب على ذلك ذكرًا على سبيل المقابلة لما كان نتيجة الذكر وناشئًا عنه سماه ذكرًا[3]. هذا ذكر العبد ربه.

أما ذكر الله لعبده: فهو ثناؤه عليه في الملإ الأعلى بين الملائكة، ومباهاتهم به، وتنويهه بذكره[4].

(١) المصدر السابق ٧/ ٢٨٣.
(٢) البحر المحيط ٢/ ٤٩.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٥٠.
(٤) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ١٢٨.

قال أبو جعفر: «أذكركم برحمتي إياكم، ومغفرتي لكم»[5].

وعن السدي قال: «ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره الله، لا يذكره مؤمن إلا ذكره برحمة»[6].

فليس العجب من ذكر العبد الفقير المحتاج الضعيف لربه، إنما العجب والشأن في ذكر الرب الملك العظيم لعبده.

يا للتفضل الجليل الودود! الله جل جلاله يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئًا لذكرهم له في عالمهم الصغير، إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة، وهم أصغر من أرضهم الصغيرة! والله حين يذكرهم يذكرهم في هذا الكون الكبير، وهو الله العلي الكبير، أي تفضل! وأي كرم! وأي فيض في السماحة والجود؟! ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ إنه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله الذي لا خازن لخزائنه، ولا حاسب لعطاياه، الفضل الفائض من ذاته تعالى بلا سبب ولا موجب إلا أنه هكذا هو سبحانه فياض العطاء.

إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ، ولا يعبر عن شكره الحق إلا سجود القلب، وذكر الله ليس لفظًا باللسان، إنما هو انفعال القلب معه أو بدونه، والشعور بالله ووجوده

(٥) جامع البيان ٣/ ٢١١.
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢/ ٦٩٦.

والتأثر بهذا الشعور تأثرًا ينتهي إلى الطاعة في حده الأدنى، وإلى رؤية الله وحده ولا شيء غيره لمن يهبه الله الوصول، ويذيقه حلاوة اللقاء[(١)].

فالله سبحانه وتعالى لا ينسى حتى يذكر فيذكر، بل هو -جل شأنه- يذكرنا دائمًا ذكرناه أو لم نذكره! ولعل المراد بذكره لنا هنا إذا ذكرناه هو أننا إذا ذكرناه وجدناه سبحانه حاضرًا في قلوبنا وعقولنا، وأننا إذا لم نذكره فهو سبحانه حاضر كذلك، ولكن هذا الحضور لا نحس به، ولا نتأثر له.

فإذا ذكر المؤمن ربه وجد ربه تجاهه، وكأنه بتفلته عن ذكر ربه قد بعد عن الله، فإذا ذكر ربه، وأشرق عليه بنوره السني البهي، وفي الحديث القدسي: (من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)[(٢)].

فذكر الله وامتلاء القلب بهذا الذكر يفيض على الذاكر أنوارًا من جلال الله وبهائه، وإذا هو في حمى عزيز لا ينال، وفي ضمان وثيق من أن يهون، أو يذل لغير الله الواحد القهار، وأسمى الذكر وأكمله هو ذكر العارفين بالله معرفة يطلعون منها على ما يملأ قلوبهم جلالًا وخشية لله، حيث يشهدون من كمالات الله ما لا يشهده إلا المقربون، الذي رضي الله عنهم، ورضوا عنه[(٣)].

فذكر الله لك أيها العبد أعظم من ذكرك له، وأكبر من ذكرك له، وأشرف من ذكرك له، وذكر الله تعالى امتلاء النفس بعظمته وقدرته وجلالته، والإحساس بنعمه الظاهرة والباطنة، وليس ذكره جلت قدرته بترديد اللسان فقط، بل إن الذكر طاعة لله، فمن أطاع الله فقد ذكر الله، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن أكثر التسبيح وتلاوة الكتاب، قال أبو جعفر: «يعني: -تعالى ذكره- بذلك: فاذكروني أيها المؤمنون بطاعتكم إياي فيما آمركم به، وفيما أنهاكم عنه، أذكركم برحمتي إياكم ومغفرتي لكم»[(٤)].

ثانيًا: الحصول على المغفرة والأجر العظيم:

ومن فوائد الذكر: المغفرة، ودخول الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٣٩-١٤٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، ٤/ ٢٠٦٧، رقم ٢٦٧٥.
(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٧/ ١١٥.
(٤) جامع البيان ٣/ ٢١١.

فالذاكرون الله بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم والذاكرات كذلك أعد الله لهم مغفرة لذنوبهم، و﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: ثوابًا في الآخرة على ذلك من أعمالهم عظيمًا؛ وذلك الجنة[1]. وعطف ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أي: كذلك في الحكم، فليس هذا الحكم خاص بالرجل فقط، ففي الآية الكريمة تسوية بين الرجل والمرأة في مقام التكليف والجزاء.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعدٍ وقاصر، وما بين أفعال الخير وترك الشر الذي من قام بهن فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان، فجازاهم على عملهم بالمغفرة لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم[2].

وهذه الصفات الكثيرة التي جمعت في هذه الآية تتعاون في تكوين النفس المسلمة، فهي الإسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدق والصوم وحفظ الفروج، وذكر الله كثيرًا، ولكل منها قيمته في بناء الشخصية المسلمة. وبقية ألفاظ الآية في غاية البيان والوضوح.

ثالثًا: الفلاح:

ومن فوائد الذكر: الحصول على الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقد علم الله عباده هنا في هذه الآية الثانية إذا التقوا بالفئة -وهي الجماعة من المحاربين- نوعين من الأدب: الأول: الثبات، وهو أن يوطنوا أنفسهم على اللقاء ولا يحدثوها بالتولي، والثاني: أن يذكروا الله كثيرًا، وفي تفسير هذا الذكر قولان:

القول الأول: أن يكونوا بقلوبهم ذاكرين الله، وبألسنتهم ذاكرين الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله أولياءه بذكره في أشد أحوالهم تنبيهًا على أن الإنسان لا يجوز أن يخلي قلبه ولسانه عن ذكر الله، ولو أن رجلًا أقبل من المغرب إلى المشرق ينفق

(١) المصدر السابق ٢٠/ ٢٦٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٥.

الأموال سخاء، والآخر من المشرق إلى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله كان الذاكر لله أعظم أجرًا».

والقول الثاني: أن المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر؛ لأن ذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى[1].

والآية محتملة للمعنيين.

وهنا أيضًا قال: ﴿كَثِيرًا﴾ أي: ذكرًا كثيرًا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذرٍ، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حالٍ»[2].

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يقول: كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصر والظفر عليهم[3]؛ لأن مقاتلة الكافر إن كانت لأجل طاعة الله تعالى كان ذلك جاريًا مجرى بذل الروح في طلب مرضاة الله تعالى، وهذا هو أعظم مقامات العبودية، فإن غلب الخصم فاز بالثواب والغنيمة، وإن صار مغلوبًا فاز بالشهادة والدرجات العالية، أما إن كانت المقاتلة لا لله، بل لأجل الثناء في الدنيا، وطلب المال لم يكن ذلك وسيلة إلى الفلاح والنجاح[4].

فالفلاح في هذه الآية له أوجه:

أحدها: على رجاء الفلاح.

والثاني: أي: لكي تفلحوا.

والثالث: على قطع وجوب الفلاح إذا فعل ذلك؛ بما قالوا: إن (لعل) و(عسى) من الله تعالى واجبة[5].

والحاصل: أن ﴿تُفْلِحُونَ﴾ مضارع (أفلح الرجل يفلح فهو مفلح): إذا نال الفلاح، والفلاح يطلق في لغة العرب إطلاقين معروفين مشهورين:

أحدهما: تطلق العرب الفلاح بمعنى الفوز بالمطلوب الأكبر، فكل من فاز بالمطلوب الذي كان يهتم به جدًا، وهو من أكبر مطالبه، تقول العرب: أفلح هذا، أي: فاز بما كان يطلب، وهذا معنًى معروف في كلام العرب.

الإطلاق الثاني: هو إطلاق العرب الفلاح على البقاء السرمدي في النعيم، فالعرب تقول: أفلح هذا: إذا كان باقيًا خالدًا في نعيم

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٨٩.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٩/ ١٦٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢١٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٨٩.
(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ١٤.

سرمدي، وهذا المعنى معروف مشهور في كلام العرب أيضًا.

والمقصود: أن من أطاع الله جل وعلا وذكره كثيرًا نال الفلاح بمعنييه، ففاز بمطلوبه الأكبر، وهو الجنة ورضا الله، ونال البقاء السرمدي الأبدي في نعيم الجنات.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن الذين إذا لقوا فئة من فئات الكفار في ميدان القتال ولم يثبتوا أو لم يذكروا الله كثيرًا أنهم لا يفلحون، وهو كذلك؛ لأن النصر من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

قال في بدر: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

مع أنه أنزل ملائكة السماء ناصرين، يعني: لا تظنوا أن الملائكة ينصرونكم، الناصر هو الله وحده جل وعلا؛ ولذا قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥][(١)].

والخلاصة: إننا أمرنا بالذكر على كل حال نكون عليها في الحرب، كما يدل على ذلك السياق، فأجدر بأن نؤمر به في حال السلم، إلى أن المؤمنين في جهاد مستمر، وحروب دائمة، فهم تارة يجاهدون الأعداء، وأخرى يجاهدون الأهواء، ومن ثم أمرهم الله بالذكر في كثير من الآي[(٢)].

وعن كعب الأحبار قال: «ما من شيء أحب إلى الله من قراءة القرآن والذكر؛ ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه قد أمر الناس بالذكر عند القتال؟ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]»[(٣)].

رابعًا: النجاة من البلاء:

ومن فوائد الذكر: النجاة من البلاء، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

يقول تعالى ذكره: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ﴾ يعني: يونس عليه السلام ﴿كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من الذاكرين الله قبل ذلك، وكان عليه السلام كثير الذكر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «من المصلين»، وقال وهب: «من العابدين»، وقال الحسن: «ما كانت له صلاة في بطن الحوت، ولكنه قدم عملًا صالحًا»، وقال الضحاك: «شكر الله تعالى له طاعته القديمة»، وقيل: فلولا أنه كان من المسبحين في بطن الحوت، قال سعيد ابن جبير: «يعني: قوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]»[(٤)]. وكل الأقوال صحيحة.

(١) انظر: العذب النمير ٥/ ٧٩.
(٢) تفسير المراغي ٥/ ١٤٣.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٧١١.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٤٧.

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إن العبد إذا كان له دعاء في السر، فإذا نزل به البلاء قالت الملائكة: عبدك نزل به البلاء، فيشفعون له فينجيه الله، فإذا لم يكن له دعاء قالوا: الآن فلا تشفعون له»، بيانه: لفظة فرعون: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١][(١)].

والمقصود: أن من فوائد الذكر النجاة من الكروب، كما ذكر الله من حال يونس عليه السلام أنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء، فأنقذه ونجاه.

خامسًا: اطمئنان القلوب:

ومن فوائد الذكر: حصول الطمأنينة، وقد مدح الله قومًا اطمأنت قلوبهم بذكره، وفي الذكر وجدوا سلوتهم، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

قوله: ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: تسكن قلوبهم، وتستأنس بذكر الله[(٢)].

وفي هذا الذكر قولان:

أحدهما: أنه القرآن؛ لأنه يسمى ذكرًا، كما قال تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَـٰرَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. لأنه آية بينة تسكن القلوب، وتثبت اليقين فيها.

والثاني: ذكر الله على الإطلاق.

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان:

أحدهما: أنها الحب له والأنس به.

والثاني: السكون إليه من غير شك، بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم، والمعنى: تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين؛ لأن الكافر غير مطمئن القلب[(٣)].

والمعنيان مرادان، ولا تعارض بينهما، فذكر الله تسبيحه وتهليله وتكبيره، ويحتمل أن يكون المراد به القرآن.

قال السعدي: «ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: حقيق بها وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذ للقلوب، ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥١٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٩٤.

أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين؛ وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم؛ وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة، وتضاد الأحكام»[1].

وعدل إلى صيغة المضارع؛ لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: بذكره دون غيره تسكن القلوب أنسًا به، واعتمادًا عليه، ورجاء منه، وقدر بعضهم مضافًا، أي: بذكر رحمته ومغفرته، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته[2].

واختير المضارع في ﴿تَطْمَئِنُّ﴾ مرتين لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد.

وافتتحت جملة ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ بحرف التنبيه اهتمامًا بمضمونها، وإغراء بوعيه، وهي بمنزلة التذييل لما في تعريف القلوب من التعميم، وفيه إثارة الباقين على الكفر على أن يتسموا بسمة المؤمنين من التدبير في القرآن؛ لتطمئن قلوبهم، كأنه يقول: إذا علمتم راحة بال المؤمنين، فماذا يمنعكم بأن تكونوا مثلهم؟! فإن تلك في متناولكم؛ لأن ذكر الله بمسامعكم[3].

إذن تطمئن القلوب بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه، تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء، ومن كل ضر، ومن كل شر إلا بما يشاء، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء، وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله، يعرفونها ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها؛ لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها، ويهش لها، ويندى بها ويستريح إليها، ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفردًا بلا أنيس، فكل ما حوله صديق؛ إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه.

وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله، ليس أشقى

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٧.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٨٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٣٨.

ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون، ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لم جاء؟ ولم يذهب؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة؛ لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود، ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريدًا وحيدًا شاردًا في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين، وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنًا إلى الله، مطمئنًا إلى حماه، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد، ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله[1].

سادسًا: مغفرة الذنوب:

ومن فوائد الذكر: مغفرة الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

فهؤلاء إذا فعلوا فاحشة بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعد به العاصين، ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تزيل عنهم كل محذور ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يحولون عنها، ولا يبغون بها بدلًا، ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ عملوا لله قليلًا، فأجروا كثيرًا، فـ «عند الصباح يحمد القوم السرى»، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملًا موفرًا[2].

والمقصود: أنهم حصلوا على هذه المغفرة من الله، والجنات، والخلود فيها بسبب الاستغفار، وهو ذكر من الأذكار.

موضوعات ذات صلة:

الاستعانة، الاستغاثة، الاستغفار، التسبيح، الحمد، الغفلة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٦٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٩.

الذُّلُّ

عناصر الموضوع

مفهوم الذل	١٥٤
الذل في الاستعمال القرآني	١٥٥
الألفاظ ذات الصلة	١٥٦
أنواع الذل	١٥٨
العقاب بالذل	١٦٣
أسباب الوقوع في الذل	١٦٨
أسباب رفع الذل	١٧٥

مفهوم الذل

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (ذلل) على الخضوع والاستكانة واللين[١].

والذُّل: نقيض العز، يقال: ذَل يَذِل ذُلًا وذِلة وذِلَالة ومَذَلَة، وتذلل له، أي: خضع، والذِل بالكسر: اللين، وهو ضد الصعوبة[٢].

وقال الراغب: «الذُل: ما كان عن قهر، والذِل بعد تصعب وشماس[٣] من غير قهر، ذلت الدابة بعد شماس ذِلًا، وهي ذلولٌ، أي: ليست بصعبة»[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن عاشور: « الذلة: خضوع في النفس واستكانة من جراء العجز عن الدفع»[٥].

من خلال هذا التعريف، يلاحظ أن ابن عاشور اقتصر على تعريف الذل المذموم، وهو المتبادر إلى الذهن.

وقال العسكري: « الذلة: الضعف عن المقاومة، ونقيضها العزة، وهي القوة على الغلبة، ومنه الذلول وهو المقود من غير صعوبة؛ لأنه ينقاد انقياد الضعيف عن المقاومة، وأما الذليل فإنه ينقاد على مشقة»[٦].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٤٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٢٥٧.
(٣) شماس: شمست الدابة وهي شموس، أي: شردت وجمحت ومنعت ظهرها ولا تكاد تستقر. انظر: أساس البلاغة، الزمخشري، ص ٤٠١.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٣٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ١١٩.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٥١.

الذل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ذلل) في القرآن الكريم (٢٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٨) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه:١٣٤]
المصدر	١٠	﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]
اسم التفضيل	٢	﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]
الاسم	٤	﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]

وجاءت كلمة الذل في القرآن على وجهين[(٢)]:

الأول: القلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]، أي: قليلًا.

الثاني: التواضع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، أي: متواضعين على المؤمنين.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٢٠-٢٢١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٠٠-٣٠١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصغار:

الصغار لغة:

الصَغار، بالفتح: الذل والضيم، وكذلك الصغر، بالضم، والمصدر الصغر، بالتحريك، يقال: قم على صغرك وصغرك، الليث: يقال صغر فلانٌ يصغر صغرًا وصغارًا، فهو صاغر، إذا رضي بالضيم وأقر به، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩][(١)].

الصغار اصطلاحًا:

هو الاعتراف بالذل والإقرار به[(٢)].

الصلة بين الذل والصغار:

الصغار زيادة في الإذلال والهوان[(٣)].

٢ الخزي:

الخزي لغة:

خزي خزيًا ومخزاة: ذل، وأخزاه الله، وهو من أهل المخازي والمخزيات، ورجل خز، وامرأة خزية. وخزوته: قهرته[(٤)]، وخزي الرجل لحقه انكسار، إما من نفسه وإما من غيره[(٥)].

وفي لسان العرب: «المخزى في اللغة، المذل المحقور بأمرٍ قد لزمه بحجة، وكذلك أخزيته ألزمته حجةً إذا أذللته بها»[(٦)].

الخزي اصطلاحًا:

جميع الآيات التي ورد فيها مادة (خزي) تدور حول معنى الذل والهوان والفضيحة.

الصلة بين الذل والخزي:

الخزي ذلٌ مع افتضاح، وقيل: هو الانقماع لقبح الفعل، والخزاية الاستحياء؛ لأنه انقماع

(١) لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٥٩.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص ٢٤٩.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: أساس البلاغة، الزمخشري، ١/ ٢٤٥، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٢٦.
(٥) انظر: غريب القرآن، الأصفهاني، ١/ ١٤٧.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٢٦.

عن الشيء لما فيه من العيب، قال ابن درستويه: الخزي الإقامة على السوء، خزي يخزى خزيًا، وإذا استحيا من سوء فعله أو فعل به قيل: خزي يخزى خزاية؛ لأنهما في معنى واحد، وليس ذلك بشيء؛ لأن الإقامة على السوء والاستحياء من السوء ليسا بمعنى واحد[١].

٣ الخضوع:

الخضوع لغة:

الانقياد والمطاوعة[٢].

جاء في كتاب جمهرة اللغة مادة (خ ض ع) «خضع الرجل، يخضع خضوعًا إذا ذل، وكل ذليل خاضع»[٣].

الخضوع اصطلاحًا:

إظهار الانقياد والطاعة لذي سلطان.

الصلة بين الذل والخضوع:

الذل: الانقياد كرهًا، ونقيضه العز، وهو الإباء والامتناع، والانقياد على كره، وفاعله ذليل، والذل والانقياد طوعًا، وفاعله ذلول[٤].

أما الخضوع: فهو التطامن، والتطأطؤ، والخاضع المطأطئ رأسه وعنقه[٥].

(١) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٤٨.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٧٣.
(٣) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٦٠٦.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٥٠.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣/ ١٩.

أنواع الذل

ينقسم الذل إلى نوعين من جهة أنه محمود ومذموم، ولقد ذكر القرآن الكريم كلا القسمين، فمن أشرف أنواع الذل المحمود الذي يكون مع الخالق عز وجل ثم مع الوالدين ثم مع المؤمنين، وفي المقابل الذل المذموم الذي يكون مع ما يعبد من دونه عز وجل، أو مع الحكام المستبدين، أو مع الشيطان.

أولًا: ذل محمود:

١ . الذل مع الله.

من أشرف أنواع الذل المحمود هذا الذي يكون مع الخالق عز وجل، وهذا الذل عنوان العز والشرف والنصر في الدنيا والآخرة.

إن الحكمة من خلق الإنسان هي: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

يقول ابن عطية في تفسير هذه الآية: «ما خلقت الإنس والجن إلا معدين ليعبدوني، وكأن الآية تعديد نعمه، أي: خلقت لهم حواسًا وعقولًا وأجسامًا منقادة نحو العبادة، وهذا كما تقول: البقر مخلوقة للحرث، والخيل للحرب، وقد يكون منها ما لا يحارب به أصلًا، فالمعنى أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة، لكن بعضهم تكسب وصرف نفسه عن ذلك»[(١)].

والعبادة هي: إظهار الخضوع والذل للمعبود عز وجل[(٢)].

قال ابن القيم في النونية[(٣)]:

وعبادة الرحمن غاية حبه
مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر
ما دار حتى قامت القطبان

وقال ابن القيم أيضًا: «والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد، أي: مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له حتى تكون محبًا خاضعًا»[(٤)].

فتحقيق الذل إذًا يكون بتحقيق العبودية لله تعالى وحده.

قال الذهبي: «من خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ١٨٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٧/ ٢٦.
(٣) شرح نونية ابن القيم، محمد هراس ص٩٩.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٩٥.

أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه في خالص حقه»[1].

يحكى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه[2].

٢. الذل مع الوالدين.

قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٤].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وكن لهما ذليلًا رحمة منك بهما، تطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن لله معصية، ولا تخالفهما فيما أحبا»[3].

وقال السعدي: «تواضع لهما ذلًا لهما ورحمة واحتسابًا للأجر؛ لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد»[4].

جاء في الحديث الذي يرويه عبدالله ابن مسعودٍ قال: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها. قال: ثم أيٌّ؟ قال: بر الوالدين. قال: ثم أيٌّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله)[5].

فقرن الله بر الوالدين بعبادته وحده لا شريك له، وجعله في المنزلة الثانية من أحب الأعمال إليه بعد الصلاة لأكبر دليل على عظم هذا الأمر.

ولا نعمة تصل إلى الإنسان أعظم وأجل من نعمة الخالق عليه، ثم نعمة الوالدين، فمن أعظم الحقوق علينا بعد حق الله عز وجل حق الوالدين، وقد ذكر الله عز وجل بهذا الحق في جملة من آياته، وجعله مقرونًا بعبادته.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [البقرة:٨٣].

وذكر الله بر الوالدين مقرونًا بتوحيده، وإخلاص العبادة له، يدل على شدة تأكد وجوب بر الوالدين والإحسان إليهما إحسانًا تامًا في المعاملة[6].

[انظر التواضع: خفض الجناح للوالدين وللمؤمنين]

(١) العرش، الذهبي ص١٢١.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٤٢٩.
(٣) جامع البيان ١٧/ ٤١٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٥٦.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب البر والصلة، رقم ٥٩٧٠.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٨٥.

٢. الذل مع المؤمنين.

وهو بمعنى التراحم والتواضع والعطف، وليس بمعنى التذلل والانكسار على وجه الضعف والخور.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]

قال الطبري: «﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أرقاء عليهم، رحماء بهم، ويعني بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أشداء عليهم، غلظاء بهم»[(١)].

وقال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه»[(٢)].

وقال سيد قطب: «قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هي الصفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين، فالمؤمن ذلول للمؤمن، غير عصي عليه ولا صعب، هين لين، ميسر مستجيب، سمح ودود وهذه هي الذلة للمؤمنين»[(٣)].

[انظر: التواضع: تواضع مع الخلق]

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٢١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٣٦.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٩١٩.

ثانيًا: ذل مذموم:

١. مع ما يعبد من دون الله.

ما يعبد من دون الله أشياء كثيرة منها:

- الهوى.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوى شيئًا إلا ركبه، لأنه لا يؤمن بالله، ولا يحرم ما حرم، ولا يحلل ما حلل، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به، فأصبح هواه إله يعبد من دون عز وجل[(٤)].

قال ابن القيم: (لكل عبد بداية ونهاية فمن كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه)[(٥)].

- الآلهة من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣].

في هذه الآية تقريع للمشركين بعبادتهم ما دون الله والتنبيه لهم على موضع خطأ

(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٧٥.
(٥) روضة المحبين ص ٤٨٣.

فعلهم ببيان أن آلهتهم التي يعبدونها لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة ومع ذلك فهي لا تملك دفع ضر عن نفسها ولا جلب منفعة إليها، ولا تملك إماتة ولا إحياء ولا بعثًا، والعجيب أنك تراهم يتذللون لهذه الآلهة حتى تجلب لهم النفع[1].

وقد ذكر الله تعالى هذه الآيات بعد قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فأفردوا أيها الناس لربكم الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه صلى الله عليه وسلم الألوهية، وأخلصوا له العبادة دون كل ما تعبدون من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجن والإنس، فإن كل ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو ملك جميع ذلك»[2].

٢. مع الحكام المستبدين.

لربما لم تعرف البشرية ذلًا أكثر من ذل الناس لفرعون وجنوده آنذاك، لدرجة أن فرعون قال للناس: أنا ربكم الأعلى.

ففرعون يعتبر نفسه الإله والحقيقة المؤكدة في الدين، ولذلك كان قلقًا من رسالة موسى عليه السلام، وتتضح مخاوفه في الآية القرآنية.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢٣٧.
(٢) المصدر السابق ١٩/ ٢٣٦.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

فمن مظاهر الذل الذي تعرض له بنو إسرائيل من فرعون يتضح من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

بعد أن جعل فرعون أهل مملكته شيعًا وأحزابًا، اختص طائفة منهم بالإذلال والقهر والظلم، فصار يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، أي: يذبح الذكور من بني إسرائيل بمجرد ولادتهم، ويترك الإناث أحياء[3].

يقول سيد قطب: «إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة، فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلًا واستكانة وخوفًا، فأما حين استعلن الإيمان، في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعوا الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج و دون تحرج، و دون اتقاء للتعذيب، فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة، وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٣٧٥.

في الأرواح والقلوب»[1].

٣. مع الشيطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

من أقبح أنواع الذل هذا الذي يكون مع الشيطان، ففي الآية السابقة تجسيد لمشهد من مشاهد غزوة أحد، حيث طاوع بعض المسلمين الشيطان بعد أن وسوس لهم معصية النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت مخالفتهم لرسولهم وقائدهم طاعة للشيطان، فحرمهم الله تأييده وتقوية قلوبهم.

والمراد بالزلة هنا: ما حدث منهم من مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ترتب عليها هزيمتهم[2].

قال الراغب: «استزله إذا تحرى زلته، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: استجرهم الشيطان حتى زلوا، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه، والزلة في الأصل: استرسال الرجل من غير قصد»[3].

نخلص مما سبق أن أشرف أنواع الذل المحمود هذا الذي يكون مع الخالق عز وجل، فهذا النوع من الذل يترتب عليه أجر وثواب عظيم، بل إن عبادة الذل والافتقار إليه عز وجل من العبادات النادرة، ولذلك قال أحدهم: إنه دخل على الله من عبادة الصيام فوجد خلقًا كثيرًا ودخل على الله من عبادة الصلاة فوجد خلقًا كثيرًا، قال: ثم دخلت عليه من عبادة الذل والافتقار فلم أجد إلا القليل، في المقابل فإن من أخطر أنواع الذل المذموم هو الذل يكون مع الشيطان، فهذا النوع من الذل إن لم يحذر منه الإنسان قطعًا سيورده المهالك.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٥.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، لطنطاوي ٢/ ٣٠٩.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٤.

العقاب بالذل

العقاب بالذل في الدنيا والآخرة من أبشع أنواع العقاب التي تلحق بالمشركين والعصاة من المسلمين، فقد تعددت وتنوعت صور إذلال الله لهم في الدنيا والآخرة، هذا ما ستتعرف عليه من خلال النقاط الآتية:

أولًا: العقاب بالذل في الدنيا:

تنوعت صور إذلال الله تعالى للعصاة في الدنيا، ومن تلك الصور:

١. ضنك الحياة والعيش.

قد يعاقب الله بعض عباده بضنك العيش في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

أي: فإن لهذا المعرض معيشة ضيقة مليئة بالهم والغم والأحزان وسوء العاقبة، حتى ولو ملك المال الوفير، والحطام الكثير.. فإن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة الله، وامتثال أمره، واجتناب نهيه[(١)].

٢. الأسر والخوف والرعب.

ومن العصاة من أذلهم الله عز وجل بالرعب والقتل والأسر، وهم العصاة من أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب٢٦-٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ﴾ أي: الخوف؛ وهو جندي من جنود الله تعالى، وهذا الرعب الذي ألقاه الله عز وجل في قلوب الكافرين هو الذي فرقهم، وأخرجهم من حصونهم المنيعة، ولم يجعل لكثرة عددهم قيمة، فألحق الله بهم الهزيمة والذل على أيدي المؤمنين، قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم المقاتلون الذين يحملون السلاح، وقوله ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذراري، وغيرهم مما لا يحملون السلاح، وأعطاهم أرضهم وديارهم وأموالهم، بعد زوالهم وانهزامهم، ووعدهم الله تعالى بأماكن جديدة، لم يذهبوا إليها إمعانًا في ذل اليهود، وهي خيبر[(٢)].

٣. الخسف.

ومما يلحق العصاة من ذلٍ في الدنيا: الخسف.

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٤١٦، التفسير الوسيط، طنطاوي ٩/ ١٦٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٦١، تفسير الشعراوي، ١٩/ ١٢٠٠٣.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

أمر الله تعالى أن تبتلع قارون وداره وأمواله، انتقامًا منه لكفره ونفاقه، وبغيه وكبريائه، فلم تمنع ثروته ولا جاهه ولا أتباعه عذاب الله عنه، لما أراد الله خذلانه بخسف الأرض به وبداره، ومن فيها من أعوانه الظلمة المجرمين، ولا هو استطاع بجهده وقدرته أن يمنع العذاب عن نفسه[1].

ثانيًا: العقاب بالذل في الآخرة:

إن ميزان العدل الإلهي في غاية الوضوح والاعتدال، فأهل النار إنما يعاقبون في الآخرة ويلحق بهم الذل والصغار بسبب فسادهم وإشراكهم بالله وكفرهم بآياته ولقائه واتخاذهم آيات الله هزوًا وسخرية، وقد ذكر الحق عز وجل في غير موضع في كتابه العزيز حال أهل النار من أهل الكفر والعصيان، وما يسومهم من أصناف الذل والهوان، لذا كان من دعاء المؤمنين الصادقين.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران:١٩٢].

ومن المواقف التي يتعرض فيها العصاة والكفار للذل في الآخرة:

١. عند قبض أرواحهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

والمعنى: لو عاينت وشاهدت أيها العاقل حال الذين كفروا حين يتوفى الله أرواحهم، لعاينت وشاهدت منظرًا مخيفًا، وأمرًا فظيعًا تقشعر من هوله الأبدان، ثم فصل الله سبحانه هذا المنظر المخيف بجملة مستأنفة فقال: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ والمراد بوجوههم: ما أقبل منهم، وبأدبارهم: ما أدبر وهو كل الظهر، وخص سبحانه الضرب للوجوه والأدبار بالذكر، لأن الوجوه أكرم الأعضاء، ولأن الأدبار هي الأماكن التي يكره الناس التحدث عنها فضلًا عن الضرب عليها، أو لأن الخزي والنكال في ضربهما أشد وأعظم[2].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

أي: فكيف حالهم، أو فكيف يعملون ويحتالون حينئذ؟ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ١٠٢.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٦٣، التفسير المنير الزحيلي ١٠/ ٣٥.

﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ هذا تصوير لتوفيهم، أي: يتوفونهم وهم يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد، وفي هذا تخويف وتهديد، إذ يتعرضون عند التوفي إلى أهوال وفظائع شديدة[1].

٢. عند الخروج من القبر.

قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج:٤٢-٤٤].

أي: فاتركهم يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم حتى يلاقوا يوم القيامة الذي يوعدون فيه بالعذاب، يوم يخرجون من القبور مسرعين، كما كانوا في الدنيا يذهبون إلى آلهتهم التي اختلقوها للعبادة من دون الله، يهرولون ويسرعون، ذليلة أبصارهم منكسرة إلى الأرض، تغشاهم الحقارة والمهانة، ذلك هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا، وكانوا به يكذبون[2].

٣. عندما يساقون إلى المحشر.

قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٦].

أي: ونسوق المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم في دنياهم، نسوقهم سوقًا إلى جهنم كما تساق البهائم، حالة كونهم عطاشًا، يبحثون عن الماء فلا يجدونه[3].

ومن ألوان العذاب والذل لهؤلاء أنهم يحشرون عميًا.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

أي: فمن يتكبر عن عبادة الله عز وجل ويعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكًا في الحياة الدنيا، مليئة بالهم والغم والشقاء، حتى ولو ملك كنوز الدنيا؛ لأن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة، ويحشر يوم القيامة أعمى، قال ابن عباس رضي الله عنه: وذلك حين يخرج من القبر يخرج بصيرًا، فإذا سيق إلى المحشر عمي[4].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٣٤]

يبين الله عز وجل حال المكذبين يوم البعث، فهم يحشرون على وجوههم، تسحبهم ملائكة العذاب يجرونهم على وجوههم، وهذه صورة حسية في غاية الفظاعة والشناعة، تجمع بين العذاب

(١) انظر: التفسير المنير الزحيلي ٢٦/ ١٢١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ١٨١، التفسير الوسيط، طنطاوي، ١٥/ ١٠٧.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٨١.
(٤) تفسير السمرقندي، ٢/ ٤١٧.

الحسي، والتحقير المعنوي وتوحي بالذلة والمهانة[1].

وقد بَيَّنَ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بحديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: (أن رجلًا قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا، قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)[2].

كما يحشرون أيضًا زرق العيون من شدة الغم والهم الذي أصابهم من هول هذا الموقف.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢].

قال الإمام الطبري: «عنى بالزرق في هذا الموضع: ما يظهر في أعينهم من شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر لرأي العين من الزرق»[3].

وقيل: وصفوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها عند العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم، وهم زرق العيون[4].

وفي الحديث التالي سيتضح لنا مدى الذل والحقارة التي تلحق بالمتكبرين يوم الحشر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكانٍ، يساقون إلى سجن جهنم، يقال له: بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار: طينة الخبال)[5].

وقبل أن يدخلوا النار تراهم ينظرون لها وهم خائفون.

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[الشورى:٤٥].

المراد بالخشوع في هذه الآية: ما يظهر عليهم من أثر الذلة والخزي، وهو شامل لسائر البدن بما فيه أصواتهم، وأبصارهم، لذا قال تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ من ذله وصغاره، وذلك من هول ما يرونه من العذاب فهم يسارقون النظر إلى النار مسارقة شزرًا من هيبتها وخوفًا منها وذلةً في أنفسهم[6].

٤. عندما يدخلون جهنم.

الذل الأعظم والهوان الأكبر عندما يدخلون إلى النار –عافانا الله منها– فهم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٨٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب كيف الحشر، رقم ٦٥٢٣.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٦٩.
(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٣٨.
(٥) أخرج الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، رقم ٢٤٩٢، ٤/ ٦٥٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٨٠٤٠.
(٦) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ٣٤٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٦١.

منبوذون في النار.

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ [الهمزة:٤].

النبذ: هو طرح ما هو خفيف هين، ويستخدم للتحقير والمهانة والذل[(١)].

ومن الذل الذي يلحق بهم أيضًا أنهم يصفدون في الأغلال والسلاسل.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [إبراهيم:٤٩].

لقد بينت الآية الكريمة ما أعد الله عز وجل لأهل النار جزاء كفرهم بالله وآياته، فهم ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ أي: مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى أعناقهم بالوثاق، قد قرن بعضهم مع بعض، أو قرنوا مع شياطينهم[(٢)].

وزيادة في التنكيل والعذاب، فهم يسحبون في نار جهنم.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾ [غافر٧٠-٧٢].

وفي وصف السلسلة، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢﴾ [الحاقة٣٠-٣٢].

فهي سلسلة من سلاسل الجحيم، كل حلقة منها قدر حديد الدنيا، طولها سبعون ذراعًا يسلوكونها[(٣)].

ومن شدة الذل التي يلحق بهم ترى وجوههم مسودة تلفحها النار، قال تعالى: ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤].

«تحرقها، واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيرًا منه، وتخصيص الوجوه بذلك؛ لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السر في تقديمها على الفاعل»[(٤)].

ثم إن وجوههم تغشاها النار، وتسعر أجسامهم المسربلة بالقطران.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٠].

نحن أمام مشهد من مشاهد العذاب المذل المخزي لأهل النار، فهم مقرونون في الأغلال والقيود، سرابيلهم وثيابهم من قطران، وتعلو وجوههم وتضربها النار، وخص «القطران» بالذكر؛ لأنه شديد القابلية للاشتعال، مع نتن رائحته، ففيه الذل

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤١٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٥٢، الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥٦٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤١٦.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ١٥١.

والتحقير، وفيه الإيحاء بشدة الاشتعال[1].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب:٦٦].

قال الزمخشري: «وقوله: تقلب بمعنى تتقلب، ومعنى تقليبها: تصريفها في الجهات، كما ترى البيضة تدور في القدر إذا غلت، فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة، أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها، أو طرحها في النار مقلوبة منكوسة»[2].

أسباب الوقوع في الذل

إن الوقوع في الذل من أعظم المصائب التي يقع بها كثير من الناس، وهذا الوقوع لا يكون عبثًا أو صدفةً، إنما ينتج عن أسباب كثيرة، نتعرف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الشرك بالله تعالى والابتداع في الدين:

يقول الحق تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

يبين الحق عز وجل مصير المشرك به بقوله ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: ومن يشرك بالله تعالى بأن يعبد سواه، أو يجعل معه شريكًا في العبادة فقد سار في طريق الشرور والآثام سيرًا بعيدًا ينتهي به إلى الهلاك، ويفضي به إلى الذل والهوان[3].

ولقد حاربت الشريعة الإسلامية جميع أنواع الشرك بالله تعالى، وحاربت البدع والمحدثات التي تخرج الناس عن العقيدة السليمة وأحكام الشرع، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ)[4].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ١٦٨.
(٢) الكشاف، ٣/ ٥٦٢.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٣١٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح،

فالمبتدع يلقى عليه الذل في الدنيا، والغضب من الله تعالى، والطرد من رحمة الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[الأعراف: ١٥٢].

أي: إن الذين كفروا بالله عز وجل واتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم، وسيصيبهم هوان وذلة عقوبة من الله في الدنيا قبل الآخرة[(١)].

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا خاصٌ بافتراء البدع، قال الحسن البصري: «إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت[(٢)] بهم البغلات[(٣)]، وطقطقت[(٤)] بهم البراذين[(٥)]»، وقال سفيان بن عيينة: «كل صاحب بدعةٍ ذليلٌ»[(٦)].

فالإيمان بالله تعالى القائم على التوحيد يجعل المؤمن يستمد عزته ومنعته وقوته من ربه عز وجل، ومن فقد الإيمان بالله عز وجل والاعتزاز بعزته، واعتمد على عزةٍ من الناس فهو ذليل؛ لأنه فقد الإذعان لأحكام الله تعالى، فحقت عليه كلمة الذلة»[(٧)].

وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[آل عمران: ١١٢].

أي: أحاطت بهم الذلة كما يحيط السرادق بمن فيه، وكما تحيط القبة بما في داخلها، أو ألصقت بهم، من ضرب الطين على الحائط، فهي محيطة بهم ولازمة لهم وملصقة بهم، فهم في نشاطهم وحركتهم في ذلة، لا ينتقلون من ذل إلا إلى ذل[(٨)].

واستحقوا غضبًا من الله، بسبب كفرهم

باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم ٢٦٩٧، ٣/ ١٨٤.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ١٣٤.

(٢) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة وبخترة. انظر: العين، الفراهيدي، ص١٠٣١.

(٣) جمع بغل، وهو الحيوان الشحاج صوت البغل الذي يركب. انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ١٢٠.

(٤) الطقطقة: صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة. انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ١٢٩.

(٥) البراذين: جمع البرذون: الدابة من الخيل. انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ٥٨.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٧٨.

(٧) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٦/ ٢٩٥٩.

(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٤٣٢، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣/ ١٣٦٣.

بآيات الله تعالى، وأدلته التي يقيمها عليهم، في كتبه وخلقه على ألسنة رسله، ولا يكتفون بجحود الحق وإنكاره، بل يعتدون على الداعي إليه، فيقتلون رسل الله عز وجل[(١)].

وكما أن الشرك بالله يودي بصحبه في الذل والمهانة، كذلك الابتداع في الدين، يقول الامام الشاطبي: «كل من ابتدع في دين الله، فهو ذليل حقير بسبب بدعته، وإن ظهر لبادي الرأي عزه وجبروته، فهم في أنفسهم أذلاء. وأيضًا فإن الذلة الحاضرة بين أيدينا موجودة في غالب الأحوال، ألا ترى أحوال المبتدعة في زمان التابعين، وفيما بعد ذلك؟ حتى تلبسوا بالسلاطين، ولاذوا بأهل الدنيا، ومن لم يقدر على ذلك، استخفى ببدعته، وهرب بها عن مخالطة الجمهور، وعمل بأعمالها على التقية»[(٢)].

ثانيًا: التكبر عن طاعة الله تعالى:

ورد الكبر في القرآن في أكثر من موضع، وصرحت آيات عديدة بالمنع من التكبر مطلقًا، وبذمه وذم المتخلقين به، وبينت أنه سبب في هلاك الأمم ودمار القرى.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

فهذا وعيد من الله عز وجل لكل متكبر، إنه لا يحب المستكبرين، وقد يراد به المستكبرون عن التوحيد، ويجوز أن يعم كل مستكبر ويدخل هؤلاء تحت عمومه[(٣)].

قال ابن القيم: «من تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفًا ورجاءً والتجاءً واستعانة، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وألوهيته، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان، ويذله غاية الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه»[(٤)].

والكبر يعتبر من أول الذنوب التي عصي الله تعالى بها، قال تعالى مبينًا سبب امتناع إبليس عن السجود لآدم، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

قال الإمام الطبري: «وهذا، وإن كان من الله جل ثناؤه خبرًا عن إبليس، فإنه تقريع لضربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله، والانقياد لطاعته فيما أمرهم به، وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق»[(٥)].

فكان مصيره الطرد من الجنة، وأصبح من أهل الصغار من الهوان على الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣/ ١٣٦٥، تفسير المراغي، ١/ ١٣٢.
(٢) الاعتصام، الشاطبي ١/ ٢٢١.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦٠١.
(٤) الداء والدواء، ابن القيم، ص ١٣٧.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥١٠.

﴿تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

يبين الله عز وجل أن الإذلال والخزي هو مصير كل من يتكبر على أوامر الله تعالى، فعندما استكبر إبليس بإبائه السجود، كان مصيره الطرد من الجنة التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة، لأنها لا تقبل عاصيًا متكبرًا، فدلت هذه الآية على أن التكبر على الله يوجب العقاب الشديد، وهذه المعاملة بعكس ما يريد المتكبر، يريد لنفسه الرفعة والشرف والعظمة والتجبر، فعاقبه الله تعالى بالإذلال والهوان؛ لأنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله عز وجل ثوب الصغار[(١)].

ثالثًا: استمراء المعاصي والإصرار عليها:

إن استمراء المعاصي والتمادي في الباطل يورث في القلوب الجحود بالحق، لأن المعاصي تنكت في القلب نكتًا سوداء، فإذا استمر الشخص عليها وضعت عليه أغلفة من الظلمة تمنع أن يصل الحق إليه، ولذلك قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [الأعراف: ١٣][(٢)].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٧/ ٣٦٦، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٥/ ٢٧٩٦.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣/ ١٣٦٣.

وقال ابن المبارك[(٣)]:

رأيت الذنوب تميت القلوب
وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب
وخيرٌ لنفسك عصيانها

وما حل في بني إسرائيل من ضرب الذلة والمسكنة، واستحقاق الغضب الإلهي؛ كان بسبب ما استمرأته نفوسهم من اقتراف المعاصي والإصرار عليها.

قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

رابعًا: محادة الله ورسوله:

إن من أسباب الوقوع في الذل محادة الله ورسوله، ومخالفة أوامره ونواهيه، فالكفار المعاندون الذين يحاربون الحق ويعادون الإسلام هم من أذل خلق الله تعالى، ولا

(٣) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ص ٥٩.

يوجد أحدٌ أذل منهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

أي: أن الكفار المخالفون لأوامر الله عز وجل ونواهيه، المعادون يشاقون الله ورسوله ويجعلون أنفسهم في حد، وشرع الله ورسوله في حد آخر، فأصل المحادة: مخالفة حدود الله تعالى التي حدها لخلقه[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أي: من جملة من أذله الله من الأمم السابقة، فهم أذل خلق الله تعالى، وذلهم في الدنيا بالقتل أو الأسر أو الطرد من الديار، وفي الآخرة بالخزي والعذاب، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [آل عمران: ١٩٢][2].

فهؤلاء الذين يحادون الله ورسوله ما كانوا ليتجرءوا على فعل ذلك إلا لكثرة أعوانهم وأتباعهم، فيظن من يراهم أنهم الأعزاء، الذين لا يوجد على الأرض من هو أعز منهم.

لذا نعتهم الحق عز وجل بقوله: ﴿فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أي: الذين يعرفون أنهم أذل الخلق، بحيث يوصف كل منهم بأنه الأذل مطلقًا من غير مفضل عليه، وذلك في الدنيا والآخرة، فالجزاء من جنس العمل[3].

وهذا المعنى الذي تضمنته الآية الكريمة، من كون الذين يحادون الله ورسوله هم أذل خلق الله عز وجل في الأولين والآخرين، بينه الله عز وجل في غير موضع في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [المجادلة: ٥].

يخبر سبحانه عن المعادين لله ورسوله، الخارجين عن حدوده وفرائضه بأنهم ﴿كُبِتُواْ﴾ أي: أخزوا وذلوا وأهينوا ولعنوا، وقيل: صرعوا وكبوا على وجوههم[4]، وللتأكيد على تحقق وقوع الذل والخزي لهم عبر سبحانه عن المستقبل بلفظ الماضي[5].

فالذل والصغار واقع بهم، كما ذل الذين من قبلهم من كفار الأمم الماضية بسبب ما وقع منهم من معاندة ومعاداة لشرع الله عز وجل.

خامسًا: ترك الجهاد:

من أهم أسباب الوقوع في الذلة والمهانة: ترك الجهاد في سبيل الله، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٨/ ١٦٤.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٨/ ٥٨، فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٣٠.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٨/ ٤٢٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣٢٢، نظم الدرر، البقاعي، ١٩/ ٣٥٥.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٢٢.

الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[1].

وسبب هذا الذل: أنهم تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الإسلام وإظهاره على كل دين، وأقبلوا على الزرع ونحوه، تسلط عليهم العدو لعدم تأهبهم له واستعدادهم لنزوله، فأولاهم ذلًا وهوانًا، لا يتخلصون منه حتى يرجعوا إلى ما هو واجب عليهم من جهاد الكفار، والإغلاظ عليهم، وإقامة دين الله، ونصرة الإسلام وأهله، وإعلاء كلمة الله، وإذلال الكفر وأهله[2].

إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة، وضريبة الذل أفدح في كثير من الأحيان، ولكن أصحاب النفوس الضعيفة يخيل إليهم أن للكرامة ضريبة باهظة لا يطيقونها، فيختارون الذل والمهانة هربًا من تكاليف الكرامة، فيعيشون عيشة تافهة رخيصة.

قال تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

يعيشون أذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة، ضريبة الذل والمهانة[3].

ففي الجهاد الفوز والسعادة، وفي تركه والتخلف عنه الهلاك والشقاوة في الدنيا والآخرة[4].

والناظر إلى أحوال المسلمين اليوم يرى أنهم قد فرطوا في دينهم تفريطًا عظيمًا، وركنوا إلى الدنيا، وتركوا الجهاد في سبيل الله، فألزمهم الله الذل في أعناقهم، فهم يلجئون إلى الشرق أو الغرب خاضعين ذليلين، يطلبون منهم العزة والنصر، وما عرف أولئك أن الذل لا يرفع عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

سادسًا: اتباع الهوى:

قال ابن القيم رحمه الله: «أن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه، لو تأملت حال كل ذي حال سيئة زرية، لرأيت بدايته الذهاب مع هواه، وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب النهي عن العينة، رقم ٣٤٦٢، ٣/ ٢٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٢٣.

(٢) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي، ٩/ ٢٤٢

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٠/ ٢٣٧.

(٤) انظر: الأساس، سعيد حوى ٤/ ٢٣٣.

رشده، كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله عز وجل، وعند الناس»[1].

والعاقل ينهى نفسه عن لذة، يعقبها ألم، وشهوة تورث ذلًا وندمًا، فمخالفة الهوى توجب شرف الدين وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن[2].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[النازعات:٤٠].

أي: أما من تذكر مقامه للحساب بين يدي الله عز وجل، وأدرك مقدار عظمته وقهره، وجبروته وسطوته، وجنب نفسه الوقوع في محارمه، فالجنة مثواه وجزاؤه[3].

وقد ورد ذم الهوى في آيات عديدة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣].

«فالتعبير القرآني يرسم نموذجًا عجيبًا للنفس البشرية، حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب، وحين تعبد هواها وتخضع له، وتقيمه إلهًا آمرًا مستوليًا عليها؛ تتلقى أوامره المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول»[4].

وليس هناك أضل وأبعد عن طريق الرشاد ممن اتبع هواه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

«أي: (ومن أضل) عن طريق الرشاد، وسبيل السداد ممن اتبع هوى نفسه بغير بيان من عند الله، وعهد من الله، ويترك عهد الله الذي عهده إلى خلقه في وحيه وتنزيله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومعنى الآية: إن الله لا يوفق لإصابة الحق وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته، وكذبوا رسوله، وبدلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم إيثار منهم لطاعة الشيطان على طاعة الرحمن عز وجل[5].

وقد نهى الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن طاعة من اتبع هواه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

أي: ولا تطع يا محمد صلى الله عليه وسلم من شغلنا قلبه -من الكفار الذين

(١) روضة المحبين، ابن القيم، ص ٤٨٣.
(٢) انظر: غذاء الألباب، السفاريني، ٢/ ٤٥٩، ذم الهوى، ابن الجوزي، ص١٣.
(٣) انظر: تفسير المراغي، ٣٠/ ٣٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩١٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣٢٣٠.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٥٩٢.

سألوك طرد المؤمنين الضعفاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي عنك- عن ذكرنا؛ بالكفر وغلبة الشقاء عليه، واتبع هوى نفسه، وترك اتباع أمر الله ونهيه، وآثر هواه على طاعة ربه، وكان أمره ضياعًا، فما كان لمثل هذا الهالك أن يطاع[1].

(١) المصدر السابق ٢٨/ ٨.

أسباب رفع الذل

بعدما تعرفنا في المبحث السابق أن الوقوع في الذل لا يكون صدفة، إنما من خلال أسباب يفعلها الانسان توقعه في الذل، كان لا بد أن نتعرف على الأسباب التي ترفع الذل عنه.

ومن تلك الأسباب:

١. الإيمان بالله والمداومة على العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:٢٦].

والمقصود بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ الإخبار عن خلوص نعيمهم من كل ما يكدر الصفو، إثر بيان ما أعطاهم من رضوان، أي: ولا يغطي وجوههم يوم القيامة شيء مما يغطي وجوه الكفار، من السواد والهوان والصغار[2].

قال ابن كثير: «﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قتام وسواد في عرصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم:

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي، ص ٤٩٥، الدر المصون، السمين الحلبي، ٦/ ١٨١.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١][(١)].

٢. الاعتزاز بالله، والتمسك بدينه، وتطبيق شريعته.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[(٢)].

وقال الحسن بن علي رضي الله عنه: علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في قنوت الوتر -وفيه-: (إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت)[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣].

قال الطبري: «قال قتادة: في هذه الآية، كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا، وأشقاه عيشًا، وأبينه ضلالة، وأعراه جلودًا، وأجوعه بطونًا، مكعومين[(٤)] على رأس حجر بين الأسدين: فارس، والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلًا يومئذ من حاضر الأرض، كانوا فيها أصغر حظًا وأدق فيها شأنًا منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام، فورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين، وإن أهل الشكر في مزيد من الله تبارك وتعالى»[(٥)].

٣. الدعاء بارتفاع الذل وحصول العز.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم)[(٦)].

قال الطيبي: «قوله: (والذلة) أي: من أن أكون ذليلًا في أعين الناس؛ بحيث يستخفونه ويحقرون شأنه، والأظهر أن المراد بها الذلة الحاصلة من المعصية، أو التذلل للأغنياء

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٢٦٢.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ١/ ١٣٠، رقم ٢٠٧.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم ٤٦٤، ٢/ ٣٢٨.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٢/ ١٧٢، رقم ٤٢٩.
(٤) مكعوم: من كعم البعير إذا شد فاه في هياجه؛ لئلا يعض أو يأكل. لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٥٢٢.
(٥) جامع البيان، جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٧٨.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، ١٣/ ٤١٨، رقم ٨٠٥٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٦، رقم ١٢٨٧.

على وجه المسكنة، والمراد بهذه الأدعية تعليم الأمة»[1].

٤. موالاة الله ورسوله وصالح المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

أي: يقول هؤلاء المنافقون -على سبيل التبجح وسوء الأدب- لئن رجعنا إلى المدينة بعد انتهاء هذه الغزوة، ليخرجن الفريق الأعز منا الفريق الأذل من المدينة، حتى لا يبقى فيها أحد من هذا الفريق الأذل، بل تصبح خالية الوجه لنا.

وقد رد الله تعالى على مقالتهم الباطلة هذه بما يخرس ألسنتهم فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقد كذب المنافقون فيما قالوه، فإن لله تعالى وحده العزة المطلقة والقوة التي لا تقهر، فالعزة لله سبحانه ولرسوله وللمؤمنين، ومن والاهم وسار على هداهم ينتفي عنه ذل الدنيا والآخرة، ويحصل له عز الدنيا والآخرة[2].

٥. طاعة الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

جاء في الأدب النبوي: «لو أطاعوه -الرسول- لما أصابهم ما لحقهم من الذل والهوان بالفشل والهزيمة في الحرب تارة؛ والقتل والأسر تارة أخرى، وبالعجز المبين عن أن يقفوا في سبيل دعوته، ويمنعوا انتشارها في أقطار المعمورة، ويحولوا دون دخول الناس في دين الله أفواجًا، وما كان عنادهم ولا مجادلتهم عن يقين يعتقدونه، ولا شبه لم يجل الشك عنها، ولكن تكبرًا وعتوًا؛ مخافة أن تزول عنهم مناصب توارثوها، ومظاهر تخيلوا أن العز والمجد في المحافظة عليها»[3].

موضوعات ذات صلة:

التواضع، الخشوع، العبادة، العزة، الوهن

(١) عون المعبود، العظيم آبادي، ٤/ ٢٨٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢٦٦٧، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٣٠٠.
(٣) الأدب النبوي، محمد الخولي، ١/ ٢٩١.

الذم

عناصر الموضوع

مفهوم الذم	١٨٠
الذم في الاستعمال القرآني	١٨١
الألفاظ ذات الصلة	١٨٢
أسباب الذم	١٨٤
نماذج مذمومة في القرآن الكريم	٢٠٩
ذم في غير موضعه	٢٣٢
مقاصد الذم في القرآن	٢٣٨

مفهوم الذم

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ذم م) تدل على خلاف الحمد[1].

يقال: ذممته أذمه ذمًا خلاف مدحته، فهو ذميم ومذموم، أي: غير محمود[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

خلاف المدح، وهو الانتقاد واللوم، والوصف بالمعايب التي في الموصوف[3].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٤٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٢٠، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢١٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٦٠، معجم لغة الفقهاء، محمد رواس ص ٢١٤.

الذم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ذ م م) في القرآن الكريم (٥)، والذي يخص موضوع البحث (٣) مرات[١].
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم المفعول	٣	﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء:٢٢]

وجاء الدفع في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي الذي هو خلاف المدح.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشتم:

الشتم لغة:

السب، والاسم الشتيمة، والشتم: الكلام القبيح وليس فيه قذف[١].

الشتم اصطلاحًا:

وصف الغير بما فيه نقص وإزراء[٢].

الصلة بين الذم والشتم:

والصلة بين الذم والشتم: أن كلًا منهما يقال لأجل الانتقاص والاستخفاف.

٢ السب:

السَّبُّ لغة:

هو الشتم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام:١٠٨][٣].

السَّبُّ اصطلاحًا:

الشتم الوجيع، والسُّبَّة: ما يسب به، وكني بها عن الدبر، وتسميته بذلك كتسميته بالسوءة[٤].

الصلة بين الذم والسب:

والصلة بين الذم والسب: أن كلًا منهما يقصد به الانتقاص والاستخفاف.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣١٨، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٣٠٤.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٠٢.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٥٥.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٠.

٣ المدح:

المدح لغة:

نقيض الهجاء وهو حسن الثناء على الغير لما فيه من الصفات، سواء أكانت تلك الصفات خلقية أم اختيارية، وهو أعم من الحمد[١].

المدح الاصطلاح:

الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصدًا[٢].

الصلة بين الذم والمدح:

العلاقة بين الذم والمدح علاقة ضدية، فكل واحد منها ضد الآخر.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٨٩، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٦٦، الكليات، الكفوي ص ٨٥٧.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٠٧.

أسباب الذم

من أسباب الذم في القرآن الكريم: الأعمال السيئة، والصفات الخلقية القبيحة، والصفات الخلقية، وسوء العاقبة، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الأعمال السيئة:

ذم القرآن الكريم الأعمال السيئة من عبادة غير الله وتطفيف الميزان والتخلف عن الجهاد وموالاة الكافرين وبيان ذلك كما يأتي:

١. عبادة غير الله.

من أسباب الذم التي ذكرها القرآن الكريم: عبادة غير الله تعالى من الأصنام وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال:٣٤-٣٥].

ذم الله تعالى الكفار بأفعالهم القبيحة وسوء العاقبة واستحقاقهم العذاب، ونفي الولاية عنهم، وأنهم ليسوا بأولياء البيت الحرام، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾، «أي: وأي شيء يمنع من عذاب مشركي قريش بعد خروجك -يا محمد- وخروج المؤمنين المستضعفين من بين أظهرهم؟ إنه لا مانع أبدًا من وقع العذاب عليهم، وقد وجد مقتضية منهم، حيث اجترحوا من المنكرات والسيئات ما يجعلهم مستحقين للعقاب الشديد»[(١)].

ثم بين صفاتهم الذميمة، فقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، جملة حالية مبينة لجريمة من جرائمهم الشنيعة، أي: لا مانع يمنع من تعذيبهم: وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالمسجد الحرام، ومن زيارته، ومن مباشرة عباداتهم عنده..؟ إنهم لا بد أن يعذبوا على هذه الجرائم[(٢)].

ثم ذمهم بنفي الولاية عنهم، والمقصود إظهار اعتدائهم في صدهم عن المسجد الحرام، ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾، أي: وما كانوا مستحقين للولاية عليه لشركهم وعمل المفاسد فيه كطوافهم فيه عراة رجالًا ونساء، وهذا رد لقولهم: نحن ولاة البيت الحرام، نصد من نشاء وندخل من نشاء، ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾، أي: إنه لا يلي أمره إلا من كان برًا تقيًا، لا من كان كافرًا عابدًا للصنم[(٣)]، إنهم ليسوا أولياء هذا البيت ولا أصحابه،

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٩٢.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٣٦.

إنهم أعداء هذا البيت وغاصبوه! إن بيت الله الحرام ليس تركة يرثها الخلف عن السلف، إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله.. ومثله دعواهم أنهم ورثة إبراهيم -عليه السلام-، فوراثة إبراهيم ليست وراثة دم ونسب إنما هي وراثة دين وعقيدة[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، تعيين لأوليائه الحق، وتقرير لمضمون ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ مع زيادة ما أفاده القصر من تعيين أوليائه، فهي بمنزلة الدليل على نفي ولاية المشركين، ولذلك فصلت، وإنما لم يكتف بجملة القصر مع اقتضائه أن غير المتقين ليسوا أولياء المسجد الحرام، لقصد التصريح بظلم المشركين في صدهم المسلمين عن المسجد الحرام بأنهم لا ولاية لهم عليه، فكانت جملة: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾، أشد تعلقًا بجملة: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، من جملة: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وكانت جملة: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، كالدليل، فانتظم الاستدلال أبدع انتظام، ولما في إناطة ولاية المسجد الحرام بالمتقين من الإشارة إلى أن المشركين الذين سلبت عنهم ولايته ليسوا من المتقين، فهو مذمة لهم وتحقيق للنفي بحجة[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أنهم ليسوا أولياء الله، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين، فهم الآمنون من عذابه بمقتضى عدله في خلقه والجديرون بولاية بيته[3].

ثم ذم أفعالهم القبيحة عند البيت الحرام، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، وكان أحدهم يضع يده على الأخرى ويصفر.

قال ابن عباس: «كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، وروي عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون»[4].

فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم، وهو صحيح، لأن الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة، فإن قيل: كيف سماها صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة؟ الجواب: إنهم كانوا يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة، فخرج ذلك على حسب معتقدهم[5].

ثم ذمهم بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ودل فعل الأمر في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٠٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٣٧.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٢٠٣.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٢٣.
(٥) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣١٠، غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٣٩٦.

قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، على عذاب واقع بهم، إذ الأمر هنا للتوبيخ والتغليظ، وذلك هو العذاب الذي حل بهم يوم بدر، من قتل وأسر وحرب، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، أي: بكفركم فـ(ما) مصدرية، وكان إذا جعل خبرها جملة مضارعية أفادت الاستمرار والعادة، وعبر هنا بـ﴿تَكْفُرُونَ﴾ لأن العذاب المتحدث عنه لأجل الكفر والإضلال وما يجره الإضلال من الكبرياء والرئاسة[1].

٢. التطفيف في الميزان.

من أسباب الذم في القرآن الكريم: التطفيف والخيانة في الكيل والوزن، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾[المطففين:١-٣].

في الآيات ذم التطفيف والخيانة في الكيل والوزن، وهو أخس ما يقع من المعصية، وهو التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئًا في تثمير المال وتنميته[2].

وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، قيل: الويل شدة الشر، وقيل: الحزن والهلاك، وقيل: العذاب الأليم، وقيل: جبل في جهنم[3].

والتطفيف: البخس والنقص في الكيل والوزن ولما أن ما يبخس في كيل أو وزن واحد شيء طفيف، أي: نزر حقير[4].

وحسبهم أن التطفيف يجمع ظلمًا واختلاسًا ولؤمًا، والعرب كانوا يتعيرون بكل واحد من هذه الخلال متفرقة ويتبرؤون منها، ثم يأتونها مجتمعة، وناهيك بذلك أفنًا[5].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، أي: إذا أخذوا من الناس ما أخذوا بحكم الشراء ونحوه كيلًا يأخذونه وافيًا وافرًا، وتبديل كلمة ﴿عَلَى﴾، هنا بمن قيل: لتضمين (الاكتيال) معنى الاستيلاء، أو للإشارة إلى أنه اكتيال مضر للناس[6]، وللإشارة إلى ما فيه عملهم المنكر من الاستعلاء والقهر، شأن المتغلب المتحامل المتسلط، الذي لا يستبرئ لدينه وذمته[7].

وجملة ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، إدماج، مسوقة لكشف عادة ذميمة فيهم هي الحرص على توفير مقدار ما يبتاعونه بدون حق لهم فيه، والمقصود الجملة المعطوفة عليها، وهي جملة: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، فهم مذمومون

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٣٩.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٣.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٥٦، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٣.
(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٤٦٠، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٣.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٩٢.
(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٤.
(٧) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٤٢٨.

بمجموع ضمن الجملتين[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، للناس وما تقدم في الأخذ من الناس وهذا في الإعطاء، فالمعنى وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ينقصون[2].

ومدار الذم ما تضمنه مجموع المتعاطفين، والكلام كقولك: فلان يأخذ حقه من الناس تامًا ويعطيهم حقهم ناقصًا، وهي عبارة شائعة في الذم بل الذم بها أشد من الذم بنحو: يأخذ ناقصًا ويعطي ناقصًا، وكونه دون الذم بنحو قولك: يأخذ زائدًا ويعطي ناقصًا، لا يضر كما لا يخفى[3].

قال الألوسي: «ولعل الاقتصار على الاكتيال في صورة الاستيفاء وذكر الكيل والوزن في صورة الإخسار أن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة، وإذا أعطوا كالوا ووزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعًا، والحاصل أنه إنما جاء النظم الجليل هكذا ليطابق من نزل فيهم، فالصفة تنعى عليهم ما كانوا عليه من زيادة البخس والظلم، وهذا صحيح، جعلت الصفة مخصصة لهؤلاء المطففين كما هو الأظهر أو كاشفة لحالهم فقد أريد بالأول معهود ذهني»[4].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ استئنافٌ واردٌ لتهويل ما ارتكبوه من التطفيف، والهمزة للإنكار والتعجيب، وأدخل همزة الاستفهام على النافية توبيخًا وليست (ألا) هذه للتنبيه[5].

وقال سبحانه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾، ولم يقل: ألا يظنون، لقصد تمييزهم والتشهير بهم، زيادة في ذمهم، وفي تقبيح أفعالهم[6].

وللإشعار بأنهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس أكمل امتياز، نازلون منزلة الأمور المشار إليها إشارة حسية، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد درجتهم في الشرارة والفساد.

والمعنى: أبلغت الجرأة بهؤلاء المطففين، أنهم صاروا من بلادة الحس، ومن فقدان الشعور، لا يخشون الحساب يوم القيامة، ولا يخافون العذاب الشديد الذي سينزل بهم، يوم يقوم الناس من قبورهم استجابة لأمر رب العالمين، حيث يتلقون جزاءه العادل، وحكمه النافذ[7].

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، يعني: يوم القيامة، أي: لا يظن أولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل أنهم مبعوثون ليومٍ عظيمٍ لا

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٩٠.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٥.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ١٥/ ٢٧٦.
(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦١٤.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٣١٩.
(٧) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٧.

يقادر قدر عظمه، فإن من يظن ذلك وإن كان ظنًا ضعيفًا لا يكاد يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن يتيقنه، ووصف اليوم بالعظيم لعظم ما فيه كما أن جعله علة للبعث باعتبار ما فيه وقدر بعضهم مضافًا، أي: لحساب يوم، وقيل: الظن هنا بمعنى اليقين، والأول أولى وأبلغ[1].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: لحكمه تعالى وقضائه عز وجل، ووصفه تعالى بربوبية العالمين من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف ما لا يخفى، وليس ذلك نظرًا إلى التطفيف من حيث هو تطفيف، بل من حيث إن الميزان قانون العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فيعم الحكم التطفيف على الوجه الواقع من أولئك المطففين وغيره[2].

قال القرطبي: «وفي هذا الإنكار، والتعجيب، وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام الناس فيه الله خاضعين، ووصف ذاته بـ(رب العالمين)، بيان بليغ لعظيم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية»[3].

وفي الآيات بيان تحريم التطفيف في المكيال والميزان، وإنذار من يفعل ذلك، بأنه مبعوث لحساب لا تساهل فيه بتطفيف أو نحوه، ومثل التطفيف في الكيل والوزن النقص في الذرع وجر السلعة حالة الذرع، ويوشك أن لا يكاد في هذا الزمن كيال أو وزان أو ذراع يسلم من نقص إلا من عصمه الله تعالى، أجارنا الله من النقص المادي والمعنوي بمنه وكرمه[4].

وقد جاء الأمر بإيفاء الكيل والميزان، والنهي عن تطفيفهما، في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود:٨٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء:٣٥].

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢].

٣. التخلف عن الجهاد.

من أسباب الذم التي ذكرها القرآن

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٥٥.
(٤) انظر: بيان المعاني، عبد القادر ملا ٢/ ٤٩٣.

الكريم: التخلف عن الجهاد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧﴾ [التوبة:٨٦-٨٧].

يذم تعالى المتخلفين عن رسوله، في الجهاد في سبيله، والناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود، ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾، يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، ﴿ٱسۡتَـٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين[1].

والاقتصار على الطول يدل على أن أولي الطول مراد بهم من له قدرة على الجهاد بصحة البدن، فبوجود الطول انتفى عذرهم إذ من لم يكن قادرًا ببدنه لا ينظر إلى كونه ذا طول[2].

﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلامًا.

كما قال الله تعالى، عنهم في الآية الأخرى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٩﴾ [الأحزاب:١٩] أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء[3].

وقوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ استئنافٌ قصد منه التعجيب من دناءة نفوسهم وقلة رجولتهم بأنهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعًا للنساء، وفي اختيار فعل (رضوا) إشعار بأن ما تلبسوا به من الحال من شأنه أن يتردد العاقل في قبوله، والخوالف: جمع خالفة وهي المرأة التي تتخلف في البيت بعد سفر زوجها، فإن سافرت معه فهي الظعينة، أي: رضوا بالبقاء مع النساء[4].

وذلك أبلغ في الذم، فكونهم رضوا بأن يكونوا قاعدين مع النساء في المدينة أبلغ ذم لهم وتهجين، لأنهم نزلوا أنفسهم منزلة النساء العجزة اللواتي لا مدافعة عند هن ولا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٨٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٨٩.

غنى[1].

وقوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، والطبع تمثيل لحال قلوبهم في عدم قبول الهدى بالإناء أو الكتاب المختوم، والطبع مرادف الختم، وأسند الطبع إلى المجهول إما للعلم بفاعله وهو الله، وإما للإشارة إلى أنهم خلقوا كذلك وجبلوا عليه، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: فلأجل الطبع لا يفقهون ولا يتدبرون ولا يتفهمون ما في الجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلف من الشقاء والضلال، فآثروا نعمة الدعة على سمعة الشجاعة، وعلى ثواب الجهاد إذ لم يدركوا إلا المحسوسات، فلذلك لم يكونوا فاقهين، وذلك أصل جميع المضار في الدارين[2].

٤. موالاة الكافرين.

من أسباب الذم التي ذكرها القرآن الكريم: موالاة الكافرين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة:١].

نهى الله تبارك وتعالى، عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم، وأن يتخذوهم أولياء وأصدقاء وأخلاء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين[3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، نداء من ربهم للذين آمنوا به، يدعوهم باسم الإيمان الذي ينسبهم إليه، يدعوهم ليبصرهم بحقائق موقفهم، ويحذرهم حبائل أعدائهم، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم، وفي مودة يجعل عدوهم عدوه، وعدوه عدوهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾، فيشعر المؤمنين بأنهم منه وإليه، يعاديهم من يعاديه، فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض، وهم أوداؤه وأحباؤه، فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه[4].

ثم فسر هذه الموالاة فقال: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾، بدأه هنا بـ ﴿تُلْقُونَ﴾، وبعده بـ ﴿تُسِرُّونَ﴾، تنبيهًا بالأول على ذم مودة الأعداء، جهرًا وسرًا، وبالثاني على تأكيد ذمها سرًا، وخص الأول بالعموم لتقدمه، وباء ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾، زائدةٌ، وقيل: سببيةٌ، والمفعول محذوفٌ والتقدير: يلقون إليهم

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٨٠.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٨٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٨٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٨٥.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٠.

أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، بسبب المودة التي بينكم وبينهم[1].

ثم ذكر أن مما يمنع هذا الاتخاذ أمرين: الأول: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾، أي: وقد كفروا بالله ورسوله وكتابه الذي أنزله عليكم! فكيف بكم بعد هذا تجعلونهم أنصارًا وتسرون إليهم بما ينفعهم ويضر رسولكم، ويعوق نشر دينكم، والثاني: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، أي: يخرجون الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ولم يكن لهم جريرة ولا جرم سوى ذلك[2].

وفي التعبير عن إخراج المشركين للنبي والمؤمنين، بالفعل المضارع الذي يفيد تجدد الزمن حالًا بعد حال، للإشارة إلى أن المشركين ما زالوا على موقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وأنه لو عاد النبي والمؤمنون إلى ديارهم بمكة لأخرجهم المشركون منها، بما يلاحقونهم به من أذى وضر، كما أن المشركين لم يزل هذا موقفهم من المؤمنين الذين كانوا في مكة، ولم تتح لهم فرصة الهجرة لسبب أو لآخر[3].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾، أي: إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي، باغين مرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم حنقًا عليكم وسخطًا لدينكم.

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾، هو استفهام إنكاري، أي: أبعد هذا الذي علمتم أو تعلمون من أمر القوم، أبعد هذا تسرون إليهم بالمودة؟ أي: تبادلونهم المودة في ستر وخفاء، ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾، فإنه لا يخفى على الله خافية في الأرض ولا في السماء[4].

ثم توعد الله من يفعل ذلك وشدد النكير عليه وذكر ما فيه أعظم الزجر له، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أي: ومن يفعل هذه الموالاة ويبلغ أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم لأعدائه فقد جار عن قصد الطريق التي توصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى[5].

قالوا: «والموالاة الممنوعة هي التي يكون فيها خذلان للدين أو إيذاء لأهله أو إضافة لمصالحهم، وأما ما عدا ذلك كالتجارة وغيرها من ضروب المعاملات الدنيوية فلا

(١) انظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا الأنصاري ١/ ٥٦٠.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ٦٢.
(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ١٤/ ٨٩٢.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم يونس ١٤/ ٨٩٢.
(٥) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ٦٣.

تدخل في ذلك النهي، لأنها ليست معاملة فيها أذى للإسلام والمسلمين»[1].

ثانيًا: الصفات الخلقية المذمومة في القرآن:

ذم القرآن الكريم الصفات الخلقية الذميمة، كالظلم والاعتداء والإثم والخيانة والكذب والعناد والغرور والاستكبار وبيان ذلك كما يأتي:

١ . الظلم.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الظلم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام:٢١].

الظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، والظلم يقال في مجاوزة الحد الذي يجرى مجرى النقطة في الدائرة، ويقال فيما يكثر ويقل من التجاوز، ولذا يستعمل في الذنب الصغير والكبير[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا بأن جعل لله شريكًا أو ولدًا، أو كذب بآياته المنزلة كالقرآن المجيد، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله، وإذا كان كل من هذا التكذيب وذلك الكذب والافتراء يعد وحده غاية في الظلم ويطلق على صاحبه اسم التفضيل فيه، فكيف يكون حال من جمع بينهما، فكذب على الله وكذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة؟[3].

وعبر عن الشرك هنا بالظلم، وهو كثير ليعلم السامع أن جنس الظلم قبيح مذموم، ناهيك أن الشرك من أنواعه[4].

ثم ذم الظلم بسوء العاقبة فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: الحال والشأن أن الظالمين عامة لا يفوزون في عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب الله تعالى، ولا بنعيم الجنة مهما يكن نوع ظلمهم، فكيف تكون عاقبة من وصف بأنه لا أحد أظلم منه لافترائه على الله تعالى أو لتكذيبه بآياته أو عاقبة من جمع بين الأمرين فكان أظلم الظالمين؟[5].

وقد ذم الله الظلم والظالمين في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٧٥.
(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٢٥٤.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ٧/ ٢٨٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٨٦.
(٥) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ٧/ ٢٨٧.

[إبراهيم:٤٢].

وقال في عاقبة الظلم: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾، [النمل:٥٢].

ذم الظلم بسوء العاقبة، وفي ذلك إشارة إلى أن للظلم أثرًا في خراب البلدان[١].

٢. الاعتداء.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الاعتداء.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة:٦١].

يذم الله تعالى بني إسرائيل بأنهم أهل عدوان، والاعتداء والتعدي والعدوان خروج عما حد ورسم[٢].

وكان العدوان سببًا لأن تضرب عليهم الذلة والمسكنة، وأن يبوءوا بغضب من الله، وكان سببًا على جحود النعم، وسوء الأدب وحمق التفكير، وهوان النفس، وبلادة الطبع، وبطر الحق، والبغي على أنفسهم وعلى غيرهم، ودناءة نفوسهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، واذكروا -أيها اليهود المعاصرون- إذ قال آباؤكم: يا موسى لا يمكننا أن نستمر على طعام واحد مثل المن والسلوى، وذلك أنهم سئموا من المن والسلوى وملوه، فاشتهوا عليه غيره؛ لأن المواظبة على الطعام الواحد تكون سببًا لنقصان الشهوة، وإنما قالوا على طعام واحد وهما طعامان؛ لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يتبدل، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، يقال: لا يأكل فلان إلا طعامًا واحدًا، ويراد بالوحدة نفي التبدل والاختلاف أو أرادوا أنهما ضرب واحد؛ لأنهما معًا من طعام أهل التلذذ والتترف، وكانوا من أهل الزراعات، فأرادوا ما ألفوا من البقول والحبوب وغير ذلك.

﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾، الفوم: الخبز، وقيل: هو الحنطة، وقيل: هو الثوم، ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، إنما طلبوا هذه الأنواع لأنها تعين على تقوية الشهوة أو لأنهم ملوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد، وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة[٣].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٨٦.
(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٥/ ٤١٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي﴾، أي: الذي هو أخس وأردأ وهو الذي طلبوه، ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، يعني: بالذي هو أشرف وأفضل وهو ما هم فيه، ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، يعني: إن أبيتم إلا ذلك، فأتوا مصرًا من الأمصار، وقيل: بل هو مصر البلد الذي كانوا فيه، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، يعني: من نبات الأرض[1].

وقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾، أي: جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذل والهوان، ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾، أي: الفقر والفاقة، وسمي الفقير مسكينًا؛ لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، فترى اليهود وإن كانوا أغنياء مياسير كأنهم فقراء، فلا ترى أحدًا من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود، ﴿وَبَاءُو﴾، أي: رجعوا ولا يقال: باء، إلا بشر، ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، وغضب الله إرادة الانتقام ممن عصاه ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الغضب، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم التي في التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾، النبي: معناه المخبر من أنبأ ينبئ، وقيل: هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة، وهو المكان المرتفع، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أي: بغير جرم[2].

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، أي: إن كفرهم بآيات الله وجرأتهم على النبيين بالقتل، إنما كانا بسبب عصيانهم وتعديهم حدود دينهم، فإن للدين هيبة في النفس تجعل المتدين به يحذر مخالفة أمره، حتى إذا تعدى حدوده مرة ضعف ذلك السلطان الديني في نفسه، وكلما عاد إلى المخالفة كان ضعفه أشد، إلى أن تصير المخالفة طبعًا وعادة، وكأنه ينسى حدود الدين ورسومه، ولا يصبح للدين ذلك الأثر العميق الذي كان متغلغلًا في قرارة نفسه[3].

وعبر سبحانه عن عصيانهم بالماضي فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾، للإشارة إلى استقرار العصيان في طبائعهم، وثباته في نفوسهم وجوارحهم.

وعبر عن عدوانهم بالمضارع، للإيذان بأنه مستمر قائم، فهم لم يتركوا نبيًا إلا وآذوه، ولم يتركوا مصلحًا إلا واعتدوا عليه، فاعتداؤهم على المصلحين مستمر في كل زمان ومكان[4].

قال محمد رشيد رضا: «قال الأستاذ: ذلك الذل وتلك الخلاقة بالغضب إنما لزماهم؛ لأنهم عصوا الله فيما أمرهم أن

١/ ٤٢٢، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٩٣، لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٩.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٩.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٣٣.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٤٩.

يأخذوا به من الأحكام؛ ولأنهم اعتدوا تلك الحدود التي حدها الله لهم في شرائع أنبيائهم، وقد كانت تلك الأحكام والحدود هي الوسيلة لإخراجهم من الذل وتمكين العز والسلطان لهم في الأرض الموعودة؛ لأنها كانت الكافلة بنظامهم، الحافظة لبناء جماعتهم، فإذا أهملوها فسدت ألفتهم، وانهدم بناؤهم، وأسرعت إليهم الذلة التي لم تكن فارقتهم إلا منهزمة من يدي سلطان الشريعة، ولم يكن يصدها عنهم إلا معاقل النظام تحت رعايته، ولزمتهم الذلة والمسكنة بعد هذا لزوم الطابع للمطبوع»[1].

٣. الإثم.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الإثم.

قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة:٦٢-٦٣].

ذم الله تعالى في الآيات اليهود بأنهم يسارعون في الإثم والعدوان، وقوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾، أي: وترى -أيها الرسول الكريم أو أيها السامع- كثيرًا من هؤلاء اليهود، يسارعون في ارتكاب الآثام وفي التعدي والظلم وأكل المال الحرام بدون تردد أو تريث، والتعبير بقوله: ﴿وَتَرَىٰ﴾، يفيد أن ارتكابهم لهذه المنكرات لم يكن خافيًا أو مستورًا، وإنما هم يرتكبونها مجاهرة وعلانية، لأن فضيلة الحياء قد نضبت من وجوههم، والمسارعة في الشيء: المبادرة إليه بسرعة وخفة ونشاط، وأكثر استعمالها في الخير، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦١].

وقد استعملت هنا في مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت، للإشارة إلى أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات وكأنهم محقون فيها، والتعدية بحرف في تؤذن بأنهم مغمورون في الآثام، وأنهم يتنقلون فيها من حال إلى حال أخرى شر منها، حتى لكأن السير في طريق الحق والصدق والفضيلة صار غير مألوف عندهم[2].

وإسناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحري الحق في عبارات الكتاب العزيز، فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم، بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر[3].

(١) تفسير المنار ١/ ٢٧٦.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢١١.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ١٠/ ٣٤٤.

ولم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم[1].

والإثم: هو كل قول أو عمل لا يرضاه الله تعالى، والعدوان: مجاوزة الحد في الظلم والتعدي. والسحت: هو المال الحرام كالرشوة وغيرها.

ثم بالغ في ذم هذه الأعمال فقال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: والله ما أقبح هذا العمل الذي يعمله هؤلاء من مسارعتهم في كل ما يفسد الأخلاق، ويدنس النفوس، ويقوض نظم المجتمع، وويل للأمة التي يعيش فيها أمثال هؤلاء[2].

وهذه الجملة هي حكم من الله تعالى عليهم بذم أعمالهم، وقد جمع سبحانه في حكمه بين صيغة الماضي ﴿كَانُوا﴾، وصيغة المضارع ﴿يَعْمَلُونَ﴾، للإشارة إلى أن هذا العمل القبيح كان منهم في الماضي، وأنهم قد استمروا عليه في حاضرهم ومستقبلهم بدون توبة أو ندم، وقد أكد سبحانه هذا الحكم بالقسم، وباللام الموطئة للقسم، وبكلمة (بئس) الدالة على شدة الذم، أي: أقسم لبئس العمل الذي كان هؤلاء يعملونه من مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت[3].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة:٦٢]: «والمسارعة مفاعلة تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقًا في الإثم والعدوان، وأكل الحرام. وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع، ولكنها تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشري فيها الفساد وتسقط القيم ويسيطر الشر.. وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال، فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر، إلى الإثم والعدوان، قويهم وضعيفهم سواء، فالإثم والعدوان -في المجتمعات الهابطة الفاسدة- لا يقتصران على الأقوياء، بل يرتكبهما كذلك الضعفاء، فحتى هؤلاء ينساقون في تيار الإثم. وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء، إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعًا. ولكن يعتدي بعضهم على بعض، ويعتدون على حرمات الله؛ لأنها هي التي تكون في المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذي لا حارس له من حاكم ولا محكوم، فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد، والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات! وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٧.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦/ ١٥٠.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢١١.

وكذلك أكلهم للحرام، فأكل الحرام كذلك سمة يهود في كل آن!»[1].

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن (لولا) إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، أبلغ من قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، من حيث إن الصنع عمل الإنسان بعد تدرب فيه وتروٍ وتحري إجادة، ولذلك ذم به خواصهم، ولأن ترك الحسبة أقبح من مواقعة المعصية؛ لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها، وليس ترك الإنكار عليها كذلك، فكان جديرًا بأبلغ الذم[2].

٤. الخيانة.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الخيانة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء:١٠٧-١٠٨].

الخيانة: لغة تدل على الإخلاف والخيبة بنقص ما كان يرجى ويؤمل من الخائن، فقد قالوا: خانه سيفه، إذا نبا عن الضربية، وخانته رجلاه، إذا لم يقدر على المشي[3].

وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، لفظ عام يندرج تحته أصحاب النازلة، ويتقرر به توبيخهم[4]، أي: ولا تخاصم وتدافع عن هؤلاء الذين ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: يخونونها بشدة وإصرار، إن الله تعالى لا يحب ولا يرضى عمن كانت الخيانة وصفًا من أوصافه، وخلقًا من أخلاقه، وكذلك لا يحب ولا يرضى عمن كان الانهماك في الإثم والمعصية عادة من عاداته[5].

وجاء سبحانه بلفظ ﴿يَخْتَانُونَ﴾، بمعنى يخونون، لقصد وصفهم بالمبالغة في الخيانة؛ لأن مادة الافتعال تدل على التكلف والمحاولة، وجعلت خيانة هؤلاء لغيرهم خيانة لأنفسهم، لأن سوء عاقبة هذه الخيانة سيعود عليهم، ولأن المسلمين جميعًا كالجسد الواحد، فمن تظاهر بأنه منهم ثم خان أحدهم فكأنما خان نفسه، وأوردها موارد البوار والتهلكة باعتدائه على حقوق الجماعة الإسلامية، وزعزعة أمنها واستقرارها[6].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٢٨.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٣٤.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٩/ ١٩٢.
(٤) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٢٩٨.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٢٩٩.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٢٩٩.

وهم خانوا غيرهم في الظاهر، ولكنهم في الحقيقة خانوا أنفسهم، فقد خانوا الجماعة ومنهجها، ومبادئها التي تميزها وتفردها، وخانوا الأمانة الملقاة على الجماعة كلها، وهم منها.. ثم هم يختانون أنفسهم في صورة أخرى، صورة تعريض أنفسهم للإثم الذي يجازون عليه شر الجزاء، حيث يكرههم الله، ويعاقبهم بما أثموا. وهي خيانة للنفس من غير شك.. وصورة ثالثة لخيانتهم لأنفسهم، هي تلويث هذه الأنفس وتدنيسها بالمؤامرة والكذب والخيانة[1].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾، بصيغة المبالغة لإفادة أن الخيانة والإثم صارا وصفًا ملازمًا لهؤلاء الخائنين الآثمين، أي: أن صيغة المبالغة هنا ليست للتخصيص حتى لا يتوهم متوهم أن الله تعالى يحب من عنده أصل الخيانة والإثم[2].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء:١٠٧].

«وهذه عقوبة أكبر من كل عقوبة.. وهي تلقي إلى جانبها إيحاء آخر. فالذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد، ولا أن يحامي عنهم أحد. وقد كرههم الله للإثم والخيانة! ويعقب الوصف بالإثم والخيانة تصوير منفر لسلوك هؤلاء الخونة الآثمين: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهي صورة زرية داعية إلى الاحتقار والسخرية، زرية بما فيها من ضعف والتواء، وهم يبيتون ما يبيتون من الكيد والمؤامرة والخيانة ويستخفون بها عن الناس. والناس لا يملكون لهم نفعًا ولا ضرًا. بينما الذي يملك النفع والضر معهم وهم يبيتون ما يبيتون مطلع عليهم وهم يخفون نياتهم ويستخفون. وهم يزورون من القول ما لا يرضاه! فأي موقف يدعو إلى الزراية والاستهزاء أكثر من هذا الموقف؟»[3].

٥. الكذب.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الكذب.

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المجادلة:١٤-١٥].

يذم الله تعالى هؤلاء المنافقين بجملة من

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٥٤.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٢٩٩.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٥٤.

الصفات القبيحة، التي على رأسها تعمدهم الكذب، وإصرارهم عليه، والكذب: هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه سواء فيه العمد والخطأ، والكذب: الخبر المخالف لما هو حاصل في نفس الأمر من غير نظر إلى كون الخبر موافقًا لاعتقاد المخبر أو هو على خلاف ما يعتقده، ولكنه إذا اجتمع في الخبر المخالفة للواقع والمخالفة لاعتقاد المخبر كان ذلك مذمومًا ومسبة، وإن كان معتقدًا وقوعه لشبهة أو سوء تأمل فهو مذموم، ولكنه لا يحقر المخبر به.

والأكثر في كلام العرب أن يعني بالكذب ما هو مذموم، والكذب خلاف الصدق، وهو جامع لكل الصفات الرديئة[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾، استفهام للتعجيب من حال هؤلاء المنافقين، حيث اتخذوا اليهود حلفاء لهم، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين، والمراد إنكار الله على المنافقين توليهم القوم الذين غضب الله عليهم، وهم اليهود والكفار، وهذا الإنكار يدل على شدة منع ذلك التولي، والمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم: اليهود، ووصفهم بذلك للتنفير منهم، ولبيان أن المنافقين قد بلغوا النهاية في القبح والسوء، حيث والوا وناصروا من غضب الله عليهم، لا من رضي الله عنهم[2].

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾، أي: فلا هم بالمؤمنين حقًا بل هم مؤمنون من طرف اللسان مداراة للمؤمنين وخوفًا من بطشهم، ولا هم مع اليهود، لأنهم لا يعتقدون أنهم على الدين الحق، ولكنهم يريدون أن ينتفعوا بما عندهم من عرض الدنيا، وأن يحتفظوا بمودتهم إذا احتاجوا إليها[3].

وقوله: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾، احتراسًا وتتميمًا لحكاية حالهم، وعلى هذا الاحتمال يكون ذم المنافقين أشد؛ لأنه يدل على حماقتهم، إذ جعلوا لهم أولياء من ليسوا على دينهم، فهم لا يوثق بولايتهم وأضمروا بغض المسلمين فلم يصادفوا الدين الحق[4].

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: أنهم ينقلون إلى اليهود أسرار المؤمنين، مع أنهم لا تربطهم باليهود أية رابطة، لا من دين ولا من نسب، وفضلًا عن كل ذلك، فإن هؤلاء المنافقين يواظبون ويستمرون على الحلف الكاذب المخالف للواقع، والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٢٨، التعريفات، الجرجاني ص ١٨٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٠.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥٥٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٢٦٧.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ٢٢.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٤٨.

علمًا لا يخالطه شك أو ريب[1].

وجملة: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾، عطف على ﴿تَوَلَّوْا﴾، وجيء به مضارعًا للدلالة على تجدده ولاستحضار الحالة العجيبة في حين حلفهم على الكذب للتنصل مما فعلوه، والكذب الخبر المخالف للواقع، وهي الأخبار التي يخبرون بها عن أنفسهم في نفي ما يصدر منهم في جانب المسلمين[2].

وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: أرصد الله لهم نكالًا وعذابًا أليمًا جزاء صنيعهم بغش المسلمين واطلاع أعدائهم على أسرارهم ونصحهم لهم[3].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس:١٧]، أي: لا أحد أشد ظلمًا عند الله، وأجدر بعقابه وغضبه، ممن افترى عليه الكذب، بأن نسب إليه سبحانه ما هو بريء منه، أو كذب بآياته وحججه التي أنزلها لتأييد رسله[4]، فأظلم الظالمين من يجرؤ على ركوب هذا المركب المهلك فيتقول على الله، ويفتري الأحاديث عليه.

وأظلم الظالمين من يرى آيات الله، ويستمع إليها، ثم يكذب بها، ويصم أذنيه عنها، ويغلق عقله وقلبه دونها[5].

والاستفهام إنكاري، والظلم: هنا بمعنى الاعتداء، وإنما كان أحد الأمرين أشد الظلم؛ لأنه اعتداء على الخالق بالكذب عليه وبتكذيب آياته[6].

وإنما كانوا أشد الظالمين ظلمًا؛ لأن الظلم الاعتداء على أحد بمنعه من حقه وأشد من المنع أن يمنعه مستحقه ويعطيه من لا يستحقه، وأن يلصق بأحد ما هو بريء منه، وتقييد الافتراء بالحال الموكدة في قوله كذبًا لزيادة تفظيع الافتراء؛ لأن اسم الكذب مشتهر القبح في عرف الناس، وإنما اختير الافتراء للدلالة على أنهم يتعمدون الاختلاق تعمدًا لا تخالطه شبهة. وتقييد تكذيبهم بالحق بقوله لما جاءه لإدماج ذم المكذبين بنكران نعمة إرسال الحق إليهم التي لم يقدروها قدرها، وكان شأن العقلاء أن يتطلبوا الحق ويرحلوا في طلبه، وهؤلاء جاءهم الحق بين أيديهم فكذبوا به، وأيضًا فإن (لما) التوقيتية تؤذن بأن تكذيبهم حصل بدارًا عند مجيء الحق، أي: دون أن يتركوا لأنفسهم مهلة النظر[7].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٢٦٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٤٨.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٤٢.
(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٦/ ٩٧٤.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٢٤.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٥.

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، تذييل قصد به التهديد والوعيد، أي: إن حال وشأن هؤلاء المجرمين، أنهم لا يفلحون، ولا يصلون إلى ما يبغون ويريدون[1].

٦. العناد.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: العناد.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٢-١٣٣].

ذم الله تعالى قوم فرعون بسبب عنادهم وعتوهم، للحق وإصرارهم على الباطل، ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي: إنك إن جئتنا بكل نوع من أنواع الآيات التي يستدل بها على أنك محق في دعوتك، لأجل أن تسحرنا بها وتصرفنا بها بدقة ولطف عما نحن فيه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا، فما نحن بمصدقين لك ولا بمتبعين رسالتك[2].

وجملة: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، مفيدة المبالغة في القطع بانتفاء إيمانهم بموسى؛ لأنهم جاءوا في كلامهم بما حوته الجملة الاسمية التي حكته من الدلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامه، وبما تفيده الباء من توكيد النفي، وما يفيده تقديم متعلق (مؤمنين) من اهتمامهم بموسى في تعليق الإيمان به المنفي باسمه، ومنطقهم هذا يدل على منتهى العناد والجحود، فهم قد صاروا في حالة نفسية لا يجدي معها دليل ولا ينفع فيها إقناع، لأنهم قد أعلنوا الإصرار على التكذيب حتى ولو أتاهم نبيهم بألف دليل ودليل، وهكذا شأن الجبارين الذين قست قلوبهم، ومسخت نفوسهم[3].

ثم أخبر تعالى ما حل بهؤلاء الفجرة من عقوبات جزاء عتوهم وعنادهم فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، والفاء في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾، لتفريع إصابتهم بهذه المصائب على عتوهم وعنادهم[4]، أي: فأرسلنا عليهم عقوبة على جرائمهم تلك المصايب والنكبات، وهي آيات بينات على صدق رسالة موسى، إذ قد توعدهم بوقوع كل واحدة منها على وجه التفصيل، لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل تأويلًا بأنها وقعت لأسباب لا ارتباط لها برسالته، فاستكبروا عن الإيمان بها لرسوخهم في

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٤٢.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٤٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٦٩، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣٥٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٦٩.

الإجرام والإصرار على الذنوب وإن كانوا يعتقدون صدق دعوته وصحة رسالته[1].

ثم بين صنوف العذاب، ومنها الطوفان: وهو ما طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل، فهو اسم جنس من الطواف.

وقيل: إنه في الأصل مصدر، وهو اسم لكل شيء حادث يحيط بالجهات ويعم؛ كالماء الكثير، والقتل الذريع، والموت الجارف، وقد اشتهر في طوفان الماء.

وقيل: الموت، وقيل: هو الطاعون.

ثم أرسل عليهم الجراد، وهو جند من جنود الله تعالى يسلطه على من يشاء من عباده، فأكل زرعهم وثمارهم وثيابهم وسقوف دورهم، ولم يدخل دور بني إسرائيل.

فضجوا إلى موسى وفزعوا لشدة ما حل بهم، وأعطوه العهود والمواثيق بأنه إذا كشف عنهم هذا الضر يؤمنون به ويرسلون معه بني إسرائيل، فدعا ربه فكشفه بعد أن دام سبعة أيام، وقبل أن يقضي على البقية الباقية من مواشيهم.

فلما كشف عنهم، قالوا: بقي لدينا ما يكفينا، ما نحن بتاركي ديننا من أجلك، ونكثوا عهودهم، فدعا عليهم فأرسل الله عذابًا سابعًا ذكره بقوله: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾.

فملأ طعامهم وشرابهم وآلمهم بقرحة وأكل منهم شعور رؤسهم وأهدابهم وحواجبهم، ولم يصب بني إسرائيل شيء منه، فاشتد عليهم البلاء أكثر من ذي قبل، فعجوا إلى موسى واستغاثوا به ووثقوا إليه العهود وعظموا له الايمان بأنه إذا كشف عنهم هذه المرة يؤمنون ولا يعودون إلى الكفر ويرسلون معه بني إسرائيل، وذلك بعد أن دام عليهم سبعة أيام أيضًا، فرق لهم موسى ورحمهم ودعا ربه، فكشف عنهم، فلم يبق منه واحدة، فقالوا: ما كنا نوقن أنه ساحر مثل اليوم!

كيف ذهب ما كنا نراه بكلمة واحدة، ونكثوا عهدهم، ونقضوا أيمانهم، فدعا عليهم، فأرسل عذابًا ثامنًا بينه بقوله: ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾.

وهكذا توالت الآيات حتى بلغت تسعًا، وكلما كشف عنهم عادوا إلى سابق عهدهم من الكفر والضلال، وسمى الله تعالى هذا العذاب الذي أرسله على بني إسرائيل آيات؛ لأنها دلائل على صدق موسى؛ لاقترانها بالتحدي، ولأنها دلائل على غضب الله عليهم لتظافرها عليهم حين صمموا على الكفر والعناد، و﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ وصف لآيات.

فيكون مرادًا منه معنى الفصل المجازي وهو إزالة اللبس؛ لأن ذلك هو الأنسب بالآيات والدلائل، أي: هي آيات لا شبهة في كونها كذلك لمن نظر نظر اعتبار.

(١) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٤٣.

وقيل: المراد أنها مفصول بعضها عن بعض في الزمان، أي: لم تحدث كلها في وقت واحد، بل حدث بعضها بعد بعض.

وعلى هذا فصيغة التفعيل للدلالة على تراخي المدة بين الواحدة والأخرى.

ويجيء على هذا أن العذاب كان أشد وأطول زمنًا، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف:٤٨].

وعلى هذا الوجه فالأنسب أن يجعل ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ حالًا ثانية من الطوفان والجراد، وأن لا يجعل صفة لآيات، ثم أخبر الله تعالى أن هذه الآيات لم تنفع فيهم وأنها لم تزدهم إلا كبرًا وعتوًا وبعدًا عن الحق.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، للتفريع والترتيب، أي: فتفرع على إرسال الطوفان وما بعده استكبارهم، كما تفرع على أخذهم بالسنين غرورهم بأن ذلك من شؤم موسى ومن معه، فعلم أن من طبع تفكيرهم فساد الوضع، وهو انتزاع المدلولات من أضداد أدلتها، وذلك دليل على انغماسهم في الضلالة والخذلان، وبعدهم عن السعادة والتوفيق، فلا يزالون مورطين في وحل الشقاوة، فالاستكبار: شدة التكبر كما دلت عليه السين والتاء، أي: عد أنفسهم كبراء، أي: تعاظمهم عن التصديق بموسى وإبطال دينهم إذ أعرضوا عن التصديق بتلك الآيات المفصلات.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٣]، معطوفة على جملة ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، فالمعنى: فاستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات وأجرموا، وإنما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم، وتمكنه منهم، ورسوخه فيهم من قبل حدوث الاستكبار، وفي ذلك تنبيه على أن وصف الإجرام الراسخ فيهم هو علة للاستكبار الصادر منهم، فـ (كان) دالة على استمرار الخبر وهو وصف الإجرام.

وهذه الآيات التي أرسلها الله تعالى على فرعون وقومه كانت متعلقة بالزرع وآفاته، وهم أهل زرع وضرع من أقدم العصور[(١)].

ومن صفات الذم عنادهم وتكبرهم عن اتباع الحق والرضى بالكفر، كقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء:٤٦].

قال القرطبي: «وذمهم الله تعالى بذلك لانهم يفعلونه متعمدين»[(٢)].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٥٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٤٣.

٧. الغرور.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الغرور.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران:٢٣-٢٤].

يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادًا لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد[١].

ثم ذكر السبب الذي غر أهل الكتاب بتجرئهم على معاصي الله، وهو قولهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، افتروا هذا القول فظنوه حقيقة، فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم منتهم وغرتهم أن مآلهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة[٢].

والغرور: هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع، والغرور: هو كل ما يغر الإنسان ويخدعه من مال أو جاه أو شهوة أو غير ذلك من الأشياء التي تغر الإنسان وتخدعه وتجعله غافلًا عن اتباع الحق[٣].

وذم الله تعالى الغرور في الدين والجنس.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء:٤٩-٥٠].

ويذم الله تعالى الغرور، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، أي: انظر واعجب من الذين يدعون أنهم أزكياء بررة عند الله، مع ما هم عليه من الكفر وعظيم الذنب، زعمًا منهم أن الله يكفر لهم ذنوبهم التي عملوها، والله لا يغفر لكافر شيئًا من كفره ومعاصيه[٤].

وقد رد الله عليهم دعواهم الزكاة والطهارة فقال: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، أي: لا عبرة بتزكيتكم أنفسكم بأن تقولوا:

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٢٦.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٦١.

(٤) انظر: تفسير المراغي ٥/ ٥٩.

نحن أبناء الله وأحباؤه، وبأنكم لا تعذبون في النار، لأنكم شعب الله المختار، وتتفاخروا بنسبكم وبدينكم، بل الله يزكى من يشاء من عباده، من أي شعب كان، ومن أي قبيلة كانت، فيهديهم إلى صحيح العقائد، وفاضل الآداب، وصالح الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أي: ولا ينقص الله هؤلاء الذين يزكون أنفسهم شيئًا من الجزاء على أعمالهم[1].

وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، أي: انظر كيف يكذبون على الله بتزكية أنفسهم وزعمهم أن الله يعاملهم معاملة خاصة بهم، لا كما يعامل سائر عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾، أي: إن تزكية النفس، والغرور بالدين والجنس، مما يبطئ عن نافع العمل الذي يثاب عليه الناس، وكفى بهذا إثمًا ظاهرًا، لأنه لا أثر له من حق، ولا سمة عليه من صواب، فالله لا يعامل شعبًا معاملة خاصة تغاير سننه التي وضعها في الخليقة، وما مصدر هذه الدعوى إلا الغرور والجهل، وكفى بذلك شرًا مستطيرًا[2].

٨. الاستكبار.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الاستكبار.

(١) انظر: تفسير المراغي ٥/ ٦٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٦١.

قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر:٧٢].

ذم الله تعالى المتكبرين بسوء العاقبة، والاستكبار: طلب العبد كبر الشأن بتصغير غيره، وهي صفة ذم[3].

وقوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل[4].

وقال سبحانه: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، ولم يقل: فبئس مدخل المتكبرين، للإشارة إلى خلودهم في جهنم، إذ الثواء معناه: الإقامة الدائمة، مأخوذ من ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة[5].

وجاء ذم التكبر في آيات أخر، قال تعالى:

(٣) انظر: تفسير ابن فورك ٢/ ٢١٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١١٩.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٣١٢.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل:٢٩].

وقال جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠].

وأخبر سبحانه: أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم، فقال جل في علاه: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر:٣٥][1].

ثالثًا: الصفات الخلقية المذمومة في القرآن:

من أسباب الذم عند الناس في القرآن الكريم الصفات الخلقية.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف:٥٢-٥٣].

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، وأم هنا للإضراب على تلك المشاعر التي يراها فرعون تتحرك في صدور قومه، من استخفاف به، وإكبار لموسى.

فهو يقول لهم: لا تظنوا هذه الظنون بموسى، ولا تجعلوه معي على كفة ميزان، إنه ليس مثلي، ولا خيرا مني، بل أنا خير من هذا الذي هو مهين، لا ملك معه، ولا سلطان له، ولا منطق مستقيم على لسانه[2].

والمعنى: بل أنا ولا شك خير -بما لي من السعة في المال والجاه والملك العريض- من هذا المهين الحقير الذي لا يكاد يفصح عما يريد، إذ كان في لسانه حبسة في صغره فعابه بها، وهو لا يعلم أن الله استجاب سؤله حين قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٧-٢٨].

فحل عقدة لسانه كما جاء في قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦][3].

ومقصوده: تصغير شأن موسى في نفوسهم بأشياء هي عوارض ليست مؤثرة، انتقل من تعظيم شأن نفسه إلى إظهار البون بينه وبين موسى الذي جاء يحقر دينه وعبادة قومه إياه، والمهين: الذليل الضعيف، أراد أنه غريب ليس من أهل بيوت الشرف في مصر وليس له أهل يعتز بهم، ولعل فرعون قال ذلك لما يعلم من حال موسى قبل أن

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣١٦.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ١٣/ ١٤٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣١، تفسير المراغي ٢٥/ ٩٩.

يرسله الله حين كان في بيت فرعون، فذكر ذلك من حاله ليذكر الناس بأمر قديم[1].

قال ابن كثير: «وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة تبهر أبصار ذوي الأبصار والألباب، وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾، كذب، بل هو المهين الحقير خلقة وخلقًا وديناً، وموسى عليه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار»[2].

رابعًا: سوء العاقبة:

من أسباب الذم في القرآن الكريم: سوء العاقبة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة:٧٣].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

ذم الله تعالى الكفار والمنافقين بسوء العاقبة، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ابذل أيها النبي جهدك في مقاومة هاتين الطائفتين اللتين تعيشان بين ظهرانيك بمثل ما يبذلان من جهد في عداوتك، وعاملهما بالغلظة والشدة التي توافق سوء حالهما[3].

وقرن المنافقون هنا بالكفار: تنبيهًا على أن سبب الأمر بجهاد الكفار قد تحقق في المنافقين، فجهادهم كجهاد الكفار، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فإن كل واحد منهم يخشى أن يظهر أمره فيعامل معاملة الكفار المحاربين فيكون ذلك خاضدًا شوكتهم[4].

وقوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، من الغلظة التي هي نقيض الرقة والرأفة، يقال: أغلظ فلان في الأمر إذا اشتد فيه ولم يترفق[5].

وإنما وجه هذا الأمر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه جبل على الرحمة، فأمر بأن يتخلى عن جبلته في حق الكفار والمنافقين وأن لا يغضي عنهم كما كان شأنه من قبل[6].

وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، تذييل قصد به بيان سوء مصيرهم في الآخرة بعد بيان ما يجب على المؤمنين نحوهم في الدنيا، أي: عليك -أيها النبي- أن تجاهدهم وأن تغلظ عليهم في الدنيا، أما

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٣٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣١.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٦٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٦٥.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٥١.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٦٧.

في الآخرة فإن جهنم هي دارهم وقرارهم، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: وبئس المصير مصيرهم، فانه لا مصير أسوأ من الخلود في جهنم.

ومن هذه الآية الكريمة نرى أن على المؤمنين -في كل زمان ومكان- أن يجاهدوا أعداءهم من الكفار والمنافقين بالسلاح الذي يرونه كفيلًا بأن يجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى[1].

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب، والاستفهام للتعجيب من أحوالهم الذميمة، و(بدلوا) من التبديل بمعنى التغيير والتحويل، والمراد به: وضع الشيء في غير وضعه ومقابلة نعم الله بالجحود وعدم الشكر، ونعمة الله التي بدلوها، تشمل كفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى لإخراجهم من الظلمات إلى النور، كما تشمل إكرام الله لهم -أي: أهل مكة- بأن جعلهم في حرم آمن، وجعلهم سدنة بيته، ولكنهم لم يشكروا الله على هذه النعم، بل أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى.

ثم بين رذيلة أخرى من رذائلهم، فقال: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، والمراد بقومهم: أتباعهم وشركاؤهم في الكفر والعناد حتى ماتوا على ذلك، والبوار: الهلاك والخسران، ويطلق أيضًا على الكساد، يقال: بار المتاع بوارًا، إذا كسد، إذ الكاسد في حكم الهالك[2].

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: جهنم يصلون حرها وسعيرها، ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ قرارهم فيها، والمخصوص بالذم محذوف، أي: بئس القرار هي، أي: جهنم. وفيه إشارة إلى أن حلولهم فيها كائن على وجه الدوام والاستمرار[3].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٥٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ٧/ ٥٥٥.

(٣) انظر: المصدر السابق ٧/ ٥٥٦.

نماذج مذمومة في القرآن الكريم

لقد ذم القرآن الكريم الذين خالفوا ما شرعه الله من أمور دينهم ودنياهم سواءً كانوا أفرادًا أو أممًا أو ملأً، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: أفراد ذمها الله تعالى:

ذم القرآن الكريم أفرادًا؛ كالشيطان والنمرود وفرعون وهامان وقارون ويأجوج ومأجوج وامرأة لوط وامرأة نوح، وبيان ذلك كما يأتي:

١. الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور:٢١].

ذم القرآن الكريم الشيطان في مواضع كثيرة، وورد لفظ (الشيطان) في (ثمانٍ وستين) آيةً[(١)].

وحذرت الآية المؤمنين من الشيطان وخطر اتباعه، وأن يستجيبوا له فيما يدعوهم إليه، فإن دعوته لا تكون إلا إلى شر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، بدء الخطاب بالنداء المؤكد للمؤمنين بـ (أيها) لتنبيه المخاطبين على أنما بعده أمر خطير، يستدعي مزيد العناية والاهتمام بشأنه، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه، ووازع عن الإخلال به[(٢)].

وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقًا غير طريقة المشئوم! صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن، ويرتجف لها وجدانه، ويقشعر لها خياله! ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، أي: لا تسلكوا مسالكه في كل ما تأتون وتذرون من الأفاعيل، والتي من جملتها: منع الإحسان إلى من أساء إليكم غضبًا وحميةً، وخطوات جمع خطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فكأن المعنى: لا تمشوا في سبله وطرقه من الأفعال الخبيثة، فشبه حال فاعلها في كونه متلبسًا بوسوسة الشيطان، بهيئة الشيطان يمشي، والعامل بأمره يتبع خطى ذلك الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، تمثيلٌ مبني على تشبيه حالة محسوسة بحالة معقولة، إذ لا

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد ١/ ٤٦٩.

(٢) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني ٢/ ٤٧٨.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٠٤.

يعرف السامعون للشيطان خطوات حتى ينهوا على اتباعها[1].

والشيطان النون فيه أصلية، وهو من: شطن أي: تباعد، وقيل: بل النون فيه زائدة، من: شاط يشيط: احترق غضبًا، فالشيطان مخلوق من النار، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن:١٥].

ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة، وامتنع من السجود لآدم، وقيل: الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، وضع الظاهر موضع المضمر، حيث لم يقل: ومن يتبعها، أو: ومن يتبع خطواته؛ لزيادة التقرير والمبالغة في الذم والتنفير من خطوات الشيطان وأساليبه، وهذا من أبلغ الذم[3].

﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، والفحشاء: ما أفرط قبحه، والمنكر: ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، أي: لولا فضله بأن هداكم إلى الخير ورحمته بالمغفرة عند التوبة ما كان أحد من الناس زاكيًا؛ لأن فتنة الشيطان فتنة عظيمة لا يكاد يسلم منها الناس لولا إرشاد الدين، قال تعالى حكاية عن الشيطان، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص:٨٢][5].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، ممن سبقت له السعادة وكان عمله الصالح أمارة على سبق السعادة له، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، لجميع أقوالهم وكلامهم من قذف وغيره، ﴿عَلِيمٌ﴾، بحق ذلك من باطله، لا يجوز عليه في ذلك وهم ولا غلط[6].

٢. النمرود.

ذم القرآن الكريم النمرود بن كنعان الذي غره ملكه وسلطانه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨].

بينت الآية الصفات الذميمة التي حملت هذا الذي جادل إبراهيم عليه السلام في ربه، وجرأته على الإقدام على هذا الغلط العظيم

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٧٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٥٤.
(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٢.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٢١.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨٧.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٧٢.

في الجدال والذي سهله له كبره وإعجابه بنفسه، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، ألف ﴿أَلَمْ﴾، استفهام، وفيها معنى التعجب والتنبيه على ما يتعجب منه[1].

و﴿إِلَى﴾، جاءت هنا لتدل على أنه أمر بلغ من العجب غاية بعيدة، وهو بالفعل قد بلغ من العجب غاية بعيدة، والحق سبحانه وتعالى لم يقل لنا من هو ذلك الإنسان الذي حاج إبراهيم في ربه، لأنه لا يعنينا التشخيص سواءً كان النمروذ أو غيره[2].

وذمه بأن سبب هذا الجدال: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾، أي: أبطره إيتاء الملك وحمله على المحاجة وأورثه الكبر، فحاج لذلك، أو حاجه لأجله، وضعًا للمحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه الشكر، وهي من الصفات الذميمة[3].

فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، وهذه هي براعة القرآن في أن يترك الشيء ثقة بأن السامع يرد كل شيء إلى أصله، فقوله الحق: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فكأن الذي حاج إبراهيم سأله: من ربك؟ فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[4].

وعبر بالمضارع في قوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، لإفادة معنى التجدد والحدوث الذي يرى ويحس بين وقت وآخر، أي: ربي هو الذي يحيي الناس ويميتهم، كما ترى ذلك مشاهدًا في كثير من الأوقات، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع وأن تقلع عما أنت فيه من كفر وطغيان وضلال[5].

ثم ذكر جواب النمرود، ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، أي: أنا أحيي من حكم عليه بالإعدام بالعفو عنه، وأميت من شئت إماتته بالأمر بقتله، وهذا الإنكار من ذلك الملك الجبار يدل على أنه لم يفهم قول إبراهيم عليه السلام، فإن الحياة في جوابه بمعنى إنشاء الحياة في جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرها، وإزالة الحياة بالموت، وفي جواب نمروذ بمعنى أنه يكون سببًا في الإحياء والإماتة، من أجل هذا أوضح إبراهيم جوابه كما حكى سبحانه عنه[6].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، أعرض إبراهيم عليه السلام عن الاعتراض على معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٨٥٦.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ١١٢٣.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥٥، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٩٦.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ١١٢٦.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٥٩٣.
(٦) انظر: تفسير المراغي ٣/ ٢١.

بما لا يقدر فيه على نحو هذا التمويه دفعًا للمشاغبة، وهو في الحقيقة عدول عن مثال خفي إلى مثال جلي من مقدوراته التي يعجز عن الإتيان بها غيره، لا عن حجة إلى أخرى، ولعل نمروذ زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله فنقضه إبراهيم بذلك، وإنما حمله عليه بطر الملك وحماقته، أو اعتقاد الحلول.

وقيل: لما كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام سجنه أيامًا ثم أخرجه ليحرقه، فقال له: من ربك الذي تدعو إليه؟ وحاجه فيه، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾، فصار مبهوتًا، وقرئ ﴿فَبُهِتَ﴾، أي: فغلب إبراهيم عليه السلام الكافر، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الذين ظلموا أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية.

وقيل: لا يهديهم محجة الاحتجاج أو سبيل النجاة، أو طريق الجنة يوم القيامة[1].

٣. فرعون.

ذم القرآن الكريم فرعون عن إضلاله قومه عن دين الهدى.

قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه:٧٩].

بينت الآية الصفات الذميمة لفرعون، وأنه كان سببًا في ضلال قومه، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾، والإضلال: الإيقاع في الضلال، وهو خطأ الطريق الموصل، ويستعمل بكثرة في معنى الجهالة وعمل ما فيه ضر، وهو المراد هنا، والمعنى: أن فرعون أوقع قومه في الجهالة وسوء العاقبة بما بث فيهم من قلب الحقائق والجهل المركب، فلم يصادفوا السداد في أعمالهم حتى كانت خاتمتها وقوعهم غرقى في البحر بعناده في تكذيب دعوة موسى عليه السلام[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾، أي: ما أرشدهم قط إلى طريق موصلٍ إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقريرٌ لإضلاله وتأكيدٌ له إذ رب مضلٍ قد يرشد من يضله إلى بعض مطالبه، وفيه نوع تهكم به، وتكذيب له في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

فإن نفي الهداية عن شخص مشعرٌ بكونه ممن يتصور منه الهداية في الجملة، وذلك إنما يتصور في حقه بطريق التهكم، وحمل الإضلال والهداية على ما يختص بالديني منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيوي، وجعلهما عبارةً عن الإضلال في البحر والإنجاء منه مما لا يقبله العقل السليم[3].

وذم الله تعالى فرعون بسوء العاقبة.

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٧٢.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٣٢.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۝٩٨ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾ [هود:٩٦-٩٩].

٤. هامان.

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨﴾ [القصص:٨].

ذمت الآية هامان في الاقتران الجماعي، حيث اقترن ذكره مع شخصيات مذمومة، وخص تعالى هامان بالذكر تنبيهًا على مكانه من الكفر، ولكونه أشهر رجال فرعون، وكان وزيره المدبر لمكائده، المعين له على ظلمه وبطشه[(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، تعليل لالتقاطهم موسى عليه السلام بما هو عاقبته ومؤداه تشبيهًا له بالغرض الحامل عليه، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، في كل شيء، فليس ببدع منهم أن قتلوا ألوفًا لأجله، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون، أو مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم، فالجملة اعتراض لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به[(٢)].

وجاء ذم هامان مقترنًا بشخصيات مذمومة في قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝٣٩﴾ [العنكبوت:٣٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٢٤﴾ [غافر:٢٣-٢٤].

في الآيات ذم لهامان باقترانه بشخصيات مذمومة، وبسوء عاقبته، وتكبره.

وقوله: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ﴾، أي: وأهلكنا أيضًا قارون صاحب الأموال الطائلة والكنوز الكثيرة، وفرعون ملك الملوك في عصره ومصره ووزيره هامان، ولقد جاءهم موسى بآيات بينات تدل على صدق رسالته، فاستكبروا في الأرض وأبوا أن يصدقوه وأن يؤمنوا به، وما كانوا فائتين الله ولا هاربين من عقابه، بل هو قادر عليهم وآخذهم أخذ عزيز مقتدر[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٥٤.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٢.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٠/ ١٤٠.

﴿الْأَرْضِ﴾، ذم لهم لأنهم كفروا عن عناد وكبرياء لا عن جهل وغلواء، والاستكبار: شدة الكبر، واستكبر: يعني افتعل الكبر، فلم يقل: تكبر، إنما استكبر كأنه في ذاته ما كان ينبغي له أن يستكبر؛ لأن الذي يتكبر بشيء ذاتي فيه، إنما بشيء موهوب؟ لأنه قد يسلب منه فكيف يتكبر به؟[1].

وتعليق قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، بـ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾، للإشعار بأن استكبار كل منهم كان في جميع البلاد التي هو منها، فيومئ ذلك أن كل واحد من هؤلاء كان سيدًا مطاعًا في الأرض فالتعريف في الأرض للعهد، فيصح أن يكون المعهود هو أرض كل منهم، أو أن يكون المعهود الكرة الأرضية، مبالغة في انتشار استكبار كل منهم في البلاد حتى كأنه يعم الدنيا كلها، ومعنى السبق في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾، الانفلات من تصريف الحكم فيهم[2].

٥. قارون.

ذم القرآن الكريم قارون، بطغيان المال والتكبر، والتمرد على أمر الله.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص:٧٦].

بينت الآية الصفات الذميمة لقارون وسوء عاقبته، وقوله: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾، أي: من بني إسرائيل، وكان ابن عم موسى عليه السلام، وكان ممن آمن به، ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، أي: تجاوز الحد في احتقارهم، والقرابة كثيرًا ما تدعو إلى البغي[3].

والبغي: الاعتداء، والاعتداء على الأمة الاستخفاف بحقوقها، وأول ذلك خرق شريعتها[4].

ولم يذكر فيم كان البغي، ليدعه مجهلًا يشمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم -كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان- وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال، حق الفقراء في أموال الأغنياء، فتفسد القلوب، وتفسد الحياة، وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب[5].

وذكر سبب هذا البغي وهو الثراء، ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾، من الأموال المدخرة، ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾، مفاتيح صناديقه، جمع مفتح بالكسر، وهو ما يفتح به.

وقيل: خزائنه، وقياس واحدها المفتاح.

﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾، خبر إن

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٥٠، تفسير الشعراوي ١٨/ ١١١٦٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٥٠.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٠/ ٩٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٧٦.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧١١.

والجملة صلة ما وهو ثاني مفعولي آتى، وناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة والعصابة الجماعة الكثيرة، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾، لا تبطر، والفرح بالدنيا مذموم مطلقًا؛ لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقه لا محالة يوجب الترح[1].

﴿لَا تَفْرَحْ﴾، فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ، لا تفرح فرح البطر الذي ينسي المنعم بالمال وينسي نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران، لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطير له لبه، ويتطاول به على العباد.

وعلل النهي ها هنا بكونه مانعًا من محبة الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، أي: بزخارف الدنيا، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، بصرفه فيما يوجبها لك فإن المقصود منه أن يكون وصلة إليها، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك، وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم، المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفًا، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها[2].

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، فيما أنعم الله عليك، وقيل: أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن إليك بالإنعام، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، بأمر يكون علة للظلم والبغي، نهي له عما كان عليه من الظلم والبغي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

٦. امرأة لوط.

ذم القرآن الكريم امرأة لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٥].

بينت الآية الصفات الذميمة لامرأة لوط عليه السلام بسوء عاقبتها القبيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: وإن لوطًا عليه السلام ﴿لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، الذين أرسلناهم لهداية الناس، وقد أرسل الله تعالى لوطًا إلى قرية سدوم -من قرى الشام- وكان أهلها يعبدون الأصنام ويرتكبون الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين[3].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾، الظرف «إذ» هو قيد لنجاة لوط

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٨٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧١١.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ١١٠.

وأهله بسبب أنه كان من المرسلين، الذين اختارهم الله لحمل رسالته إلى عباده[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾، إشارة إلى امرأة لوط، التي كانت من الضالين، الذين لم يستجيبوا لدعوته، وكانت تفشي أسرار زوجها، فأهلكها الله فيمن أهلك من قوم لوط، وقد ضربها الله سبحانه وتعالى مثلًا لنبتة السوء تنبت في الأرض الطيبة.

فقال تعالى فيها وفي امرأة نوح: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم:١٠].

فبين أنها خائنة، وأنها من أهل النار، وأنها واقعة فيما أصاب قومها من الهلاك[2].

٧. امرأة نوح.

ذم القرآن الكريم امرأة نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم:١٠].

بينت الآية الصفات الذميمة لامرأة نوح عليه السلام، فبين أنها خائنة، وأنها من أهل النار، وأنها واقعة فيما أصاب قومها من الهلاك، واقترانها بشخصية مذمومة مثلها، وسوء عاقبتها.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾، وضربها مثلًا لبيان قبحها، وضرب المثل في مثل هذا الموقع عبارة عن إيراد حالة غريبة لتعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها في الغرابة، أي: جعل الله تعالى مثلًا لحال الكفرة حالًا ومآلًا[3].

ومن لطائف التقييد بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أن المقصد الأصلي هو ضرب المثل للذين كفروا، وذلك من الاحتراس من أن يحمل التمثيل على المشابهة من جميع الوجوه والاحتراس بكثرة التشبيهات، ومنه تجريد الاستعارة، ومناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط تعريض لطيف بالتحذير من خطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحق ما يجب من الإخلاص للنبي صلى الله عليه وسلم ليكون الشبه في التمثيل أقوى[4].

وقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾، وهما نوح ولوط عليهما السلام، ووصفهما بالصلاح، مع أنهما نبيان

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ١٢/ ١٠٢٦.
(٢) انظر: المصدر السابق، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٥.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٥٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٤.

والنبوة أعظم هبة من الله لعبد من عباده تنويهًا بوصف الصلاح، وإيماء إلى أن النبوة صلاح ليعظم بذلك شأن الصالحين، ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهن أزواجهن، فإن وصف النبوءة قد انتهى بالنسبة للأمة الإسلامية، مع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد الله الصالحين وعناية ربهم بهم ومدافعته عنهم[1].

وقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، وليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، والخيانة والخون ضد الأمانة وضد الوفاء، وذلك تفريط المرء ما اؤتمن عليه وما عهد به، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، وتنكير ﴿شَيْئًا﴾ للتحقير، أي: أقل غنى وأجحفه بله الغنى المهم، وزيادة مع الداخلين لإفادة مساواتهما في العذاب لغيرهما من الكفرة الخونة[2].

﴿وَقِيلَ﴾، لهما عند موتهما أو يوم القيامة، وعبر بالماضي لتحقق الوقوع، ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾، أي: مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام[3].

(١) انظر: المصدر السابق ٢٨/ ٣٧٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢٨/ ٣٧٦.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٥٧.

ثانيًا: الأمم المذمومة في القرآن الكريم:

ذم القرآن الكريم أممًا كعاد وثمود وقوم فرعون وقوم نوح وقوم لوط، وبيان ذلك كما يأتي:

١. عاد.

ذم القرآن الكريم قوم عاد.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:٥٩-٦٠].

بينت الآية الصفات الذميمة لقوم عاد عليه السلام، فبينت أنهم جحدوا آيات ربهم، وعصوا رسله، واتبعوا أمر رؤسائهم الطغاة، ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾، أي: وتلك هي قصة قبيلة عاد مع نبيها هود عليه السلام وتلك هي عاقبتها، وكانت الإشارة للبعيد تحقيرًا لهم، وتهوينًا من شأنهم بعد أن انتهوا، وبعدوا عن الأنظار والأفكار، وقد كانوا يقولون: من أشد منا قوة[4].

والجحد: الإنكار الشديد، مثل إنكار الواقعات والمشاهدات، وهذا يدل على أن هودًا أتاهم بآيات فأنكروا دلالتها[5].

وجمع الرسل في قوله: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾، وإنما عصوا رسولًا واحدًا، وهو هود

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١١٠.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٢٨.

عليه السلام؛ لأن المراد ذكر إجرامهم، فناسب أن يناط الجرم بعصيان جنس الرسل؛ لأن تكذيبهم هودًا لم يكن خاصًا بشخصه لأنهم قالوا له: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣].

فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهم مكذبون به[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: أطاعوا في الشرك أمر كل جبار عنيد لا يستدل بدليل، ولا يقبله من غيره، يريد رؤساءهم وكبراءهم، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل، والجبار: المتكبر، والعنيد: مبالغة في المعاندة، يقال: عند، إذا طغى، ومن كان خلقه التجبر، والعنود لا يأمر بخير ولا يدعو إلا إلى باطل، فدل اتباعهم أمر الجبابرة المعاندين على أنهم أطاعوا دعاة الكفر والضلال والظلم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: جعلت تابعة لهم في الدارين، أي: لازمة، والتعبير عن ذلك بالتبعية للمبالغة، فكأنها لا تفارقهم، وإن ذهبوا كل مذهب، بل تدور معهم، حيث ما داروا[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، دعا عليهم بالهلاك أو باللعنة، وفيه من الإشعار بالسخط عليهم، والمقت، ما لا يخفى فظاعته، وتشهير بالقوم، وإذاعة لجريمتهم في الناس، واستدعاء لكل ذي سمع ونظر، أن يشهد هؤلاء القوم، وينظر إليهم وهم متلبسون بهذا الجرم الغليظ، فلا يقول فيهم إلا ما يسوءهم ويخزيهم، وتكرير حرف التنبيه، وإعادة (عاد) للمبالغة في تهويل حالهم، والحث على الاعتبار بنبئهم[(٤)].

٢. ثمود.

ذم القرآن الكريم قوم ثمود.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت:١٧].

في الآية الكريمة ذم قوم ثمود عليه السلام بسوء العاقبة وصفاتهم الذميمة، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، أي: وأما ثمود فبينا لهم الحق على لسان نبيهم صالح، ودللناهم على سبل النجاة بنصب الأدلة التكوينية، وإنزال الآيات التشريعية، فكذبوه واستحبوا العمى على الهدى، والكفر على الإيمان[(٥)].

واستحبوا العمى معناه: أحبوا، فالسين

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٠٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٢/ ١٠٦.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١١١.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١١١، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٦/ ١١٦٠.
(٥) انظر: تفسير المراغي ٢٤/ ١١٧.

والتاء للمبالغة، أي: كان العمى محبوبًا لهم، والعمى: هنا مستعار للضلال في الرأي، أي: اختاروا الضلال بكسبهم. وضمن (استحبوا) معنى: فضلوا، وهيأ لهذا التضمين اقترانه بالسين والتاء للمبالغة؛ لأن المبالغة في المحبة تستلزم التفضيل على بقية المحبوبات، فلذلك عدي (استحبوا) بحرف على، أي: رجحوا باختيارهم، وتعليق على الهدى بفعل (استحبوا) لتضمينه معنى: فضلوا وآثروا[1].

ثم ذكر جزاءهم على ما اختاروه لأنفسهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: فأرسلنا عليهم صيحة ورجفة وذلًا وهوانًا، بما كانوا يكسبون من الآثام بكفرهم بالله وتكذيبهم رسله[2].

وكان العقاب مناسبًا للجرم؛ لأنهم استحبوا الضلال الذي هو مثل العمى، فمن يستحبه فشأنه أن يحب العمى، فكان جزاؤهم بالصاعقة؛ لأنها تعمي أبصارهم في حين تهلكهم[3].

٣. قوم فرعون.

ذم القرآن الكريم قوم فرعون.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ۝٤٨﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٨].

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والانقياد لأمرهما، لكونهما بشرين، كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين[4].

ثم ذمهم بأوصافهم القبيحة فقال: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ جميعًا عن الاستماع إلى دعوة موسى وهارون عليهما السلام، ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي: مغرورين متكبرين، مسرفين في البغي والعدوان[5].

ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾، أي: فقال فرعون وملؤه كيف ندين لموسى وأخيه، وبنو إسرائيل وقومهما خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا ويتلقون أوامرنا؟ وما قصدوا بهذا إلا الزراية بهما

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٦٢.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٤/ ١١٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٦٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٧٥.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٣٧.

والحط من قدرهما، وبيان أن مثلهما غير جدير بمنصب الرسالة، وقد قاسوا الشرف الديني والإمامة في تبليغ الوحي عن الله بالرياسة الدنيوية المبنية على نيل الجاه والمال[1].

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾، أي: فكذب فرعون وأتباعه موسى وهارون عليهما السلام فيما جاءا به من عند ربهما عز وجل، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أغرقنا فرعون ومن معه جميعًا[2].

وقد جاء ذم قوم فرعون في آيات أخر، منها قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود:٩٦-٩٩].

٤. قوم نوح.

ذم القرآن الكريم قوم نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان:٣٧].

ذم الله تعالى قوم نوح عليه السلام بسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة، ووصفهم بالتكذيب، وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾، والمراد بالرسل: نوح ومن قبله، أو نوح وحده، وعبر عنه بالرسل، لأن تكذيبهم له يعتبر تكذيبًا لجميع الرسل؛ لأن رسالتهم واحدة في أصولها.

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾، أي: بعد أن أغرقناهم بسبب كفرهم، جعلنا إغراقهم أو قصتهم عبرة وعظة للناس الذين يعتبرون ويتعظون، والتعبير بـ﴿آيَةً﴾ بصيغة التنكير، يشير إلى عظم هذه الآية وشهرتها، ولا شك أن الطوفان الذي أغرق الله تعالى به قوم نوح من الآيات التي لا تنسى.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، بيان لسوء مصير كل ظالم يضع الأمور في غير مواضعها، أي: وهيأنا وأعددنا للظالمين عذابًا أليمًا موجعًا، بسبب ظلمهم وكفرهم، وعلى رأس هؤلاء الظالمين قوم نوح، الذين كفروا به وسخروا منه[3].

وقد جاء ذم قوم نوح عليه السلام

(١) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ٢٦.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٣٨.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٩٦.

في آيات أخر منها: قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات:٤٦]، خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان[(١)].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم:٥٢].

ذمهم الله تعالى بالظلم والطغيان لطول دعوة نوح إياهم وعتوهم على الله بالمعصية والتكذيب، وهم الباقون بالظلم والمتقدمون فيه، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، والبادىء أظلم، وأما أطغى فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم والظالم[(٢)].

٥. قوم لوط.

ذم القرآن الكريم قوم لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف:٨٠-٨٥].

ذم الله تعالى قوم لوط عليه السلام بأفعالهم القبيحة التي تخالف الفطرة، وسوء العاقبة، فيخبر تعالى عن عبده لوط عليه السلام، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء[(٣)].

وقوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، أي: واذكر لوطًا حين قال لقومه موبخًا لهم: أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت الغاية في القبح والفحش[(٤)].

وابتداء قصة لوط وقومه بذكر (لوطًا) لأنه لم يكن لقوم لوط اسم يعرفون به، وقوم لوط كانوا خليطًا من الكنعانيين وممن نزل حولهم، ولذلك لم يوصف بأنه أخوهم؛

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٥٠.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ٢٢١.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٠.
(٤) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٤.

إذ لم يكن من قبائلهم، وإنما نزل فيهم واستوطن ديارهم، ولوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وكان لوط عليه السلام قد نزل ببلاد (سدوم) ولم يكن بينهم وبينه قرابة[1].

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، أي: أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت نهاية القبح والفحش، والتي ما فعلها أحد قبلكم في زمن من الأزمان، والاستفهام في ﴿أَتَأْتُونَ﴾ للإنكار والتوبيخ، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التلبس والعمل، أي: أتعملون الفاحشة، وكني بالإتيان على العمل المخصوص وهي كناية مشهورة، والفاحشة: الفعل الدنيء الذميم[2].

ثم ذمهم بأنهم أول من عملها: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، أي: ما عملها أحد قبلكم في أي زمان، بل هي من مبتدعاتكم في الفساد، فأنتم فيها أسوة وقدوة، فتبوءون بإثمها وإثم من اتبعكم فيها إلى يوم القيامة[3].

والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبح قبيح واختراعه أقبح، فأنكر عليهم أولًا إتيان الفاحشة[4].

ثم بين الأفعال الذميمة التي يعملونها فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾، أي: إنكم أيها القوم لممسوخون في طبائعكم حيث تأتون الرجال الذين خلقهم الله ليأتوا النساء، ولا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة الخبيثة القذرة، ولا ذم أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل ألبتة كطلب النسل ونحوه[5].

والإتيان: كناية عن الاستمتاع والجماع، من أتى المرأة إذا غشيها، والتأكيد -بإن واللام- كناية عن التوبيخ؛ لأنه مبني على تنزيلهم منزلة من ينكر ذلك، لكونهم مسترسلين عليه غير سامعين لنهي الناهي. والإتيان كناية عن عمل الفاحشة[6].

وفي إيراد لفظ الرجال دون الغلمان والمردان ونحوهما، مبالغة في التوبيخ والتقريع[7].

ثم انتقل من غرض الإنكار إلى غرض الذم والتحقير والتنبيه إلى حقيقة حالهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، أي: إنكم لا تأتون هذه الفاحشة ثم تندمون

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٢٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٠، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٥.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٤.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٥.
(٥) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٤، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٥.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣١.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٥.

على ما فعلتم، بل أنتم قوم مسرفون فيها وفي سائر أعمالكم ولا تقفون فيها عند حد الاعتدال[1].

والإسراف مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه، أي: المسرفون في الباطل والجرم، ووصفهم بالإسراف بطريق الجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي: أنتم قوم تمكن منهم الإسراف في الشهوات، فلذلك اشتهوا شهوة غريبة لما سئموا الشهوات المعتادة[2].

ثم أخبر القرآن عن جوابهم القبيح على نصائح نبيهم لهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، أي: وما كان جواب قومه عن هذا الإنكار وتلك النصيحة شيئًا من الحجج المقنعة أو الأعذار المسكنة لثورة الغضب، بل كان جوابهم الأمر بإخراجه هو ومن آمن معه من قريتهم، وما حجتهم على تبرير ما عزموا عليه إلا أن قالوا: إن هؤلاء أناس يتطهرون ويتنزهون عن مشاركتهم في فسوقهم ورجسهم، فلا سبيل إلى معاشرتهم ولا مساكنتهم، لما بينهم من الفوارق في الصفات والأخلاق، وهذا الجواب منهم يدل على منتهى السخرية والتهكم، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة، وقد بلغ من وقاحتهم وفجورهم أن يفعلوا الفاحشة ويفخروا بها ويحتقروا من يتنزه عنها، وهذا أسفل الدركات، ولا يهبط إليه إلا من لا يؤمن بالله واليوم الآخر[3].

والتطهر: تكلف الطهارة، وحقيقتها النظافة، وتطلق الطهارة -مجازًا- على تزكية النفس والحذر من الرذائل وهي المراد هنا، وتلك صفة كمال، وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، قصدوا به ذمهم، وهم قد علموا هذا التطهر من خلق لوط عليه السلام وأهله لأنهم عاشروهم، ورأوا سيرتهم، ولذلك جيء بالخبر جملة فعلية مضارعية لدلالتها على أن التطهر متكرر منهم، ومتجدد، وذلك أدعى لمنافرتهم طباعهم والغضب عليهم وتوجه إنكار لوط عليه السلام عليهم[4].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: فأنجيناه وأهل بيته الذين آمنوا معه إلا امرأته، فإنها لم تؤمن به، بل خانته بولاية قومه الكافرين، فكانت من جماعة الهالكين أو الباقين الذين نزل بهم العذاب في الدنيا، وبعده عذاب الآخرة[5].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، أي: وأرسلنا عليهم مطرًا عجيبًا

(١) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٥.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٥.
(٥) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٦.

أمره، وهو الحجارة التي رجموا بها، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: فانظر أيها المعتبر هذا القصص وتأمله حق التأمل، لتعلم عقاب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة، وهذا العقاب أثر طبيعي لذلك، فإنك ترى الترف والفسق يفسدان أخلاق الأمم ويذهبان ببأسها ويفرقان كلمتها ويجعلانها شيعًا وأحزابًا متعادية، فيسلط الله عليها من يستذلها ويسلبها استقلالها، ويسخرها لمنافعه، ولا يزال بها هكذا حتى تنقرض وتكون من الهالكين[1].

وقد ذم القرآن قوم لوط عليه السلام في آيات أخر.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت:٢٨-٢٩].

وقال سبحانه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

أي: متجاوزون لحدود الفطرة وحدود الشريعة، وقال جل وعلا: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل:٥٥].

وهو يشمل الجهل الذي هو ضد العلم، والجهل الذي هو بمعنى السفه والطيش، ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل، وانحطاط الخلق، وإيثار الغي والعدوان على الرشاد والتدبر[2].

٦. يأجوج ومأجوج.

ذم الله تعالى يأجوج ومأجوج بأفعالهم القبيحة.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف:٩٣-٩٧].

يقول تعالى مخبرًا عن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾، وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٦.

ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام[1].

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: قال مترجموهم: إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب وأخذ الأقوات وسائر ضروب الإفساد.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾، أي: فهل تحب أن نجعل لك جعلًا من أموالنا، فتجعل بيننا وبينهم حاجزًا يمنعهم من الوصول إلينا؟

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، أي: قال ذو القرنين: إن ما مكننى فيه ربي من بسطة الملك والسلطان ووفرة المال، خير مما تبذلونه لي من الخراج، فلا حاجة بي إليه، والدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة، ولا تأخذ منها مالًا مادامت قادرة على إغاثتها[2].

وقوله تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، أي: ولكن ساعدونى بفعلة وصناع يحسنون العمل والبناء، أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج سدًا منيعًا، وحاجزًا حصينًا أمنع مما تريدون.

ثم بين تلك القوة التي طلبها فقال: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، أي: جيئوني بقطع الحديد، فلما جاءوه بها أخذ يبني شيئًا فشيئًا حتى إذا جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساويًا لهما في العلو، قال للعملة: انفخوا بالكيران في زبر الحديد التي وضعت بين الصدفين ففعلوا، ومازالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالًا وتوهجًا، فصب النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق بعضه ببعض، وسد الفجوات التي بين الحديد وصار جبلًا صلدًا، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، أي: إن يأجوج ومأجوج ما قدروا أن يصعدوا من فوق السد لارتفاعه وملاسته، ولا استطاعوا نقبه لصلابته وثخانته[3].

ثالثًا: الملل المذمومة في القرآن الكريم:

ذم القرآن الكريم مللًا كالكفر والشرك والنفاق وأهل الكتاب، وبيان ذلك كما يأتي:

١. الكافر.

ذم القرآن الكريم الكفر.

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة:١٧١].

الكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزراع لستره البذر في الأرض، وكفر النعمة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٩٥.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١٦/ ١٨.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٦/ ١٩.

وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤].

وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالًا، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعًا.

قال سبحانه: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء:٩٩].

ولما كان الكفران يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود، قال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة:٤١].

أي: جاحد له وساتر، والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال: كفر لمن أخل بالشريعة، وترك ما لزمه من شكر لله عليه[1].

ذم الله تعالى الكافرين بأنهم لا يسمعون الحق ولا يعقلونه وأنهم كالأنعام، ولما جعل كل فعل محمود من الإيمان جعل كل فعل مذموم من الكفر.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾، أي: إن مثل الكافرين في تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم، وإخلادهم إلى ما هم عليه من الضلال، وعدم تأملهم فيما يلقى إليهم من الأدلة، مثل البهائم التي ينعق عليها الراعي، ويسوقها إلى المرعى، ويدعوها إلى الماء، ويزجرها عن الحمى، فتستجيب دعوته وتنزجر بزجره، وهي لا تعقل مما يقول شيئًا، ولا تفهم له معنى، وإنما تسمع أصواتًا تقبل لسماع بعضها وتدبر لسماع بعض آخر بالتعود، ولا تعقل سببًا للإقبال والإدبار، ثم بالغ في ذمهم وتقريعهم فقال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: إنهم يتصامون عن سماع الحق، فكأنهم صم، ولا يستجيبون لما يدعون إليه، فكأنهم خرس، ولا ينظرون في آياته تعالى في الآفاق وفي أنفسهم، فكأنهم عمي، لا يعقلون لعملهم مبدأ ولا غاية، بل ينقادون لغيرهم كما هو شأن الحيوان، ومن ثم اتبعوا من لا يعقلون ولا يهتدون[2].

وذم القرآن الكريم الكافرين بأنهم شر ما دب على الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال:٥٥].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧١٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٢/ ٤٦.

أي: إن شر ما يدب على وجه الأرض في حكم الله وعدله هم الكافرون الذين أصروا على الكفر ولجوا فيه بحيث لا يرجى إيمان جملتهم أو إيمان جمهورهم[1].

وقد لقبهم الله بالدواب وهو اللفظ الذي غلب استعماله في ذوات الأربع، لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط، بل هم أضل من العجماوات؛ لأن لها منافع، وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم، كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٤].

كما ذمهم بأنهم شر الدواب لا شر الناس، للإشعار بأنهم بمعزل عما يتحلى به الناس من تعقل وتدبر للأمور؛ لأن لفظ الدواب وإن كان يطلق على الناس، إلا أنه عند إطلاقه عليهم يلقى ظلًا خاصًا يجعل العقول تتجه إلى أن هؤلاء الذين أطلق عليهم اللفظ هم إلى الدواب التي لا تعقل أقرب منهم إلى الآدميين العقلاء، وفي وصفه سبحانه لهم بأنهم شر الدواب زيادة توبيخ لهم، لأنهم ليسوا دواب فحسب، بل هم شرها وأخسها[2].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: إنهم -بسبب إصرارهم على الكفر- صار الإيمان بعيدًا عنهم، وأنهم سواء أنذروا أو لم ينذروا مستمرون في الضلال والعناد[3].

وذم سلوكهم وتصرفاتهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد:١٢].

وهو تصوير زري، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه، ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره، والمتاع الحيواني الغليظ، بلا تذوق، وبلا تعفف عن جميل أو قبيح، إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة، ولا من اختيار، ولا حارس عليه من تقوى، ولا رادع عنه من ضمير، وهذا غاية الذم لهم في بلاغة التشبيه[4].

٢. المشركون.

ذم القرآن الكريم الشرك.

قال تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

في الآية ذم وتقبيح الشرك والمشركين بسوء العاقبة، وأن الوقوع في الشرك يؤدي إلى الهلاك الذي لا نجاة معه بحال، وقوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾، أي: تمسكوا بهذه الأمور على وجه العبادة لله وحده دون

(١) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٢٠.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ١٣٣.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٩٠.

إشراك أحد سواه معه[1].

وقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾ جمع حنيف، وهو المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق[2].

ثم صور سبحانه حال من يشرك بالله تصويرًا تنخلع له القلوب، ويحمل كل عاقل على اجتناب هذا الرجس، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، أي: ومن يشرك بالله تعالى في عبادته، ومات على ذلك، فكأنما سقط من السماء إلى الأرض، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله، أو تسقطه الريح في مكان بعيد أشد البعد بحيث لا يعثر له على أثر، والمقصود من هذه الجملة تقبيح حال الشرك والمشركين، وبيان أن الوقوع في الشرك يؤدى إلى الهلاك الذي لا نجاة معه بحال، لأن من يسقط من السماء فتتمزق أوصاله، وتتخطفه الطير أو تلقي به الريح في مكان بعيد لا يطمع له في نجاة، بل هو هالك لا محالة، فالجملة الكريمة مقررة لوجوب اجتناب الشرك بأبلغ صورة[3].

وذم الله تعالى الشرك بأنه ظلم عظيم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

أي: واذكر أيها الرسول الكريم موعظة لقمان لابنه، وهو أشفق الناس عليه، وأحبهم لديه حين أمره أن يعبد الله وحده، ونهاه عن الشرك، وبين له أنه ظلم عظيم أما كونه ظلمًا، فلما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وأما أنه عظيم، فلما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه، وهو سبحانه وتعالى، ومن لا نعمة لها، وهي الأصنام والأوثان[4].

وذم الله تعالى المشركين في القرآن على اتباع ما شرع لهم شركاؤهم من الدين ما لم يأذن به الله من عبادة غيره وفعل ما لم يشرعه من الدين.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى:٢١].

كما ذمهم على أنهم حرموا ما لم يحرمه الله، والدين الحق أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه[5].

٣. المنافقون.

ذم القرآن الكريم المنافقين، قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ

(١) انظر: تفسير المراغي ١٧/ ١١٠.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٩/ ٣٠٦.
(٣) انظر: المصدر السابق ٩/ ٣٠٧.
(٤) انظر: تفسير المراغي ٢١/ ٨١.
(٥) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ١٢٤.

نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٧-٦٨].

يذم الله تعالى المنافقين بصفاتهم القبيحة، وسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة، واقترانهم مع الكافرين، ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾، أي: إن أهل النفاق رجالًا ونساء يتشابهون في صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم[1].

المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، المنافقون في كل زمان وفي كل مكان، تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة، تلك سماتهم الأصيلة[2].

ثم ذم سلوكهم وأخلاقهم القبيحة: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾، أي: يأمرون غيرهم بكل ما تستنكره الشرائع، وتستقبحه العقول، وينهونهم عن كل أمر دعت إليه الأديان، وأحبته القلوب السليمة، وقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، أي: إن من صفات هؤلاء المنافقين أنهم بخلاء أشحاء عن بذل المال في وجوهه المشروعة[3].

واقتصر من منكراتهم الفعلية على الامتناع عن البذل، لأنه شرها وأضرها وأقواها دلالة على النفاق كما أن الإنفاق في سبيل الله أقوى دلائل الإيمان[4].

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، كناية عن رسوخهم في الكفر، وانغماسهم في كل ما يبعدهم عن الله تعالى[5]، أي: نسوا أن يتقربوا إليه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، ولم يعد يخطر ببالهم أن له عليهم حق الطاعة والشكر، واتبعوا أهواءهم ووساوس الشيطان، فجازاهم على ما فعلوا بحرمانهم من لطفه وتوفيقه في الدنيا، ومن الثواب في الآخرة[6].

إنهم ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾، فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويدارونهم، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، الله فلا وزن لهم ولا اعتبار، وإنهم لكذلك في الدنيا بين الناس، وإنهم لكذلك في الآخرة عند الله. وما يحسب الناس حسابًا إلا للرجال الأقوياء الصرحاء، الذين يجهرون بآرائهم، ويقفون خلف عقائدهم، ويواجهون الدنيا

(١) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٥٥.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٣.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٤٣.
(٤) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٥٦.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٤٣.
(٦) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٥٦.

بأفكارهم، ويحاربون أو يسالمون في وضح النهار[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ﴾، تذييل قصد به المبالغة في ذمهم. أي: إن المنافقين هم الكاملون في الخروج عن طاعة الله، وفي الانسلاخ عن فضائل الإيمان، ومكارم الأخلاق[2].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، بيان لسوء مصيرهم، بعد بيان جانب من صفاتهم الذميمة، أي: وعد الله تعالى المنافقين والمنافقات والكفار المجاهرين بكفرهم ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ خلودًا أبديًا[3].

وزيادة ذكر الكفار هنا للدلالة على أن المنافقين ليسوا بأهون حالًا من المشركين إذ قد جمع الكفر الفريقين[4].

وقوله جل جلاله: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: إن تلك العقوبة الشديدة كافية لإهانتهم وإذلالهم بسبب فسوقهم عن أمر ربهم، ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: طردهم وأبعدهم من رحمته ولطفه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: ولهم عذاب دائم لا ينقطع، فهم في الدنيا يعيشون في عذاب القلق والحذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم، وفي الآخرة يذوقون العذاب الذي هو أشد وأبقى، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان، وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد بينتا جانبًا من قبائح المنافقين، ومن سوء مصيرهم في عاجلتهم وآجلتهم[5].

ومن صفات المنافقين الذميمة الجامعة للخصال الرذيلة (الكذب والخداع).

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

وأما قوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١].

فإن التربص صفة للمنافقين وحدهم بدليل قوله ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ [النساء:١٤١]، والتربص حقيقة في المكث بالمكان، ومن بديع النظم القرآني آية جمعت ذم المنافقين لما في دواخلهم وذم أفعالهم وذم نيتهم.

كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة:٢].

وغيرها من الصفات التي وردت في الآيات القرآنية[6].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٧٣.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٤٤.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٥٦.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٤٤.
(٦) انظر: الذم والمدح في القرآن الكريم، معن الحيالي ١/ ٢٦٦.

٤. أهل الكتاب.

ذم القرآن الكريم أهل الكتاب الكفرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة:٦].

يذم الله تعالى الكفرة من أهل الكتاب المخالفين لكتب الله، بسوء العاقبة، واقترانهم بالمشركين، وأنهم شرار الخلق، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: إن هؤلاء الذين دسوا أنفسهم بقبيح الشرك واجتراح المعاصي، وإنكار الحق الواضح بعد أن عرفوه كما يعرفون أبناءهم، يجازيهم ربهم بالعقاب الذي لا يخلصون منه أبدًا، فيدخلهم نارًا تلظى جزاء ما كسبت أيديهم، وجزاء إعراضهم عما دعا إليه الداعي، وهدت إليه الفطرة[(١)].

ثم ذمهم الله تعالى فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، أي: هم شر الخليقة على الإطلاق، لإصرارهم على الكفر والإشراك مع علمهم بالحق[(٢)]، وتوسيط ضمير الفصل لإفادة اختصاصهم بكونهم شر البريئة، لا يشاركهم في ذلك غيرهم من فرق أهل الكفر[(٣)].

وذمهم الله تعالى على كفرهم وتضليل المؤمنين وصدهم عن دينهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٩﴾ [آل عمران:٩٨-٩٩].

وغير ذلك من الآيات.

(١) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ٢١٦.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٤٧٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٨٤.

ذم في غير موضعه

نقل القرآن الكريم ذم الكفار للملائكة والأنبياء والمرسلين والكتب السماوية والمؤمنين، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: ذم المشركين للملائكة:

يخبر تعالى عن ذم المشركين للملائكة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف:١٩].

يخبر الله تعالى أن الكفار افتروا على الملائكة أنهم إناث، زاعمين أنهم بنات الله، ثم توعدهم سبحانه بسوء المصير بسبب افترائهم الكذب، فقال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾، والجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشيء، كما تقول: جعلت زيدًا أفضل الناس، أي: حكمت عليه بذلك، أي: أن هؤلاء المشركين زعموا وحكموا بأن الملائكة الذين هم عباد الرحمن، وصفوة خلقه، وأهل طاعته، زعموا أنهم إناث، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقناهم حتى حكموا عليهم بهذا الحكم الباطل؟[1].

ثم وبخهم على ذلك توبيخًا شديدًا، وأنكر عليهم ذلك في قوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾، أي: أحضروا خلق الله لهم، فشاهدوهم بنات حتى يحكموا بأنوثتهم؟

وفي هذا تجهيل شديد لهم، ورمي لهم بالسفه والحمق، ثم توعدهم على مقالهم فقال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾، أي: ستكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في الدنيا في ديوان أعمالهم، ويسألون عنها يوم القيامة ليأتوا ببرهان على صحتها، ولن يجدوا لذلك سبيلًا[2].

وقد حكى القرآن ذلك في آيات أخر، قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء:٤٠].

وهي كونهم اعتقدوا الملائكة إناثًا، فقد ذكرها، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ [النجم:٢٧].

وقوله جل وعلا: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصافات:١٤٩].

ثانيًا: ذم المشركين للأنبياء والمرسلين:

يخبر تعالى أن الكفار ذموا الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٧٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٥/ ٧٨.

﴿إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان:٧-٨].

يقول تعالى مسليًا لرسوله الله صلى الله عليه وسلم، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول، ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، أي: إن مشركي قريش لم يكتفوا بقولهم: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن، وإن القرآن أساطير الأولين.

بل أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل السخرية والتهكم والإنكار لرسالته: كيف يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولًا، وشأنه الذي نشاهده بأعيننا، أنه ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، كما يأكل سائر الناس، ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، أي: ويتردد فيها كما نتردد طلبًا للرزق. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾، أي: هلا أنزل إليه ملك يعضده ويساعده ويشهد له بالرسالة ويكون هذا الملك، ﴿مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾، أي: منذرًا من يخالفه بسوء المصير، ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾، أي: مال عظيم يغنيه عن التماس الرزق بالأسواق كسائر الناس، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، أي: حديقة مليئة بالأشجار المثمرة، لكي يأكل منها ونأكل معه من خيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، أي: ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا مغلوبًا على عقله، ومصابًا بمرض قد أثر في تصرفاته[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الفرقان:٤١-٤٢].

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، إذا رأوه، وقولهم ساخرين: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، أي: على سبيل الذم والتنقص والازدراء، قبحهم الله[2].

وهذا صنف من الأذى تبعثهم إليه مشاهدة الرسول في غير زي الكبراء والمترفين، لا يجر المطارف ولا يركب النجائب، ولا يمشي مرحًا ولا ينظر خيلاء، ويجالس الصالحين ويعرض عن المشركين، ويرفق بالضعفاء ويواصل الفقراء، وأولئك يستخفون بالخلق الحسن، لما غلب على آرائهم من أفن، لذلك لم يخل حاله عندهم من الاستهزاء به إذا رأوه بأن حاله ليست حال من يختاره الله لرسالته دونهم، ولا هو

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٧٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٣.

أهل لقيادتهم وسياستهم، وهذا الكلام صدر من أبي جهل وأهل ناديه، وإسناد يتخذونك إلى ضمير الجمع للدلالة على أن جماعاتهم يستهزئون به إذا رأوه، وهم في مجالسهم ومنتدياتهم، وصيغة الحصر للتشنيع عليهم بأنهم انحصر اتخاذهم إياه في الاستهزاء به يلازمونه ويدأبون عليه، ولا يخلطون معه شيئًا من تذكر أقواله ودعوته، فالاستثناء من عموم الأحوال المنفية، أي: لا يتخذونك في حالة إلا في حالة الاستهزاء[1].

وقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، مقول لقول محذوف وعائد الموصول محذوف أيضًا، أي: كلما وقعت أبصار أعدائك عليك -أيها الرسول الكريم- سخروا منك، واستنكروا نبوتك، وقالوا على سبيل الاستبعاد والتهكم: أهذا هو الإنسان الذي بعثه الله تعالى ليكون رسولًا إلينا، وقولهم هذا الذي حكاه القرآن عنهم، يدل على أنهم بلغوا أقصى درجات الجهالة وسوء الأدب[2].

ثم يشير القرآن إلى كذبهم فيما قالوه، لأنهم مع إظهارهم للسخرية منه صلى الله عليه وسلم كانوا في واقع أمرهم، وحقيقة حالهم يعترفون له بقوة الحجة، وهذا ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾، يعنون: أنه كاد يثنيهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها[3].

فهم يسمون الهداية إضلالًا لسوء تقديرهم للحقائق وتقويمهم للقيم[4].

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، تهديد لهم على سوء أدبهم، وعلى جحودهم للحق بعد أن تبين لهم، أي: وسوف يعلم هؤلاء الكافرون حين يرون العذاب ماثلًا أمام أعينهم، من أبعد طريقًا عن الحق، أهم أم المؤمنون[5].

ثالثًا: ذم المشركين للكتب السماوية:

يخبر تعالى أن الكفار ذموا الكتب السماوية.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان:٤-٦].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٣٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢٠٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢٠٠.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٦٥.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢٠٠.

يخبر تعالى عن سخافة عقول الجهلة من الكفار، في قولهم عن القرآن: إنه إفك، وإنه أساطير، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾، أي: وقال الكافرون: إن هذا القرآن ليس من عند الله، بل اختلقه محمد، وأعانه على ذلك جماعة من أهل الكتاب ممن أسلموا، وكان يتعهدهم ويختلف إليهم فيلقون إليه أخبار الأمم الغابرة، وهو يصوغها بلغته وأسلوبه الخاص[1]، وإسناد هذا القول إلى جميع الكفار لأنه واقع بين ظهرانيهم وكلهم يتناقلونه[2].

فرد الله عليهم مقالهم فقال: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾، أي: فقد وضعوا الأشياء في غير مواضعها، وكذبوا على ربهم، إذ جعلوا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إفكًا مفترى من قبل البشر، وكيف يتقولون ذلك على الرسول، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله، وهم ذوو اللسن والفصاحة والغاية في البلاغة، فعجزوا أن يأتوا بمثله، ولو كان ذلك في مكنتهم ما ادخروا وسعًا في معارضته، وقد ركبوا الصعب والذلول ليدحضوا حجته، ويبطلوا دعوته، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد استعان في ذلك بغيره لأمكنهم أيضًا أن يستعينوا هم بغيرهم[3].

ثم حكى الله تعالى عنهم مقولة أخرى من مقولاتهم الفاسدة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾، أي: ما هذا إلا أحاديث الأولين الذين كانوا يسطرونها في كتبهم من نحو أحاديث رستم وإسفنديار، اكتتبها من اليهود فهي تستنسخ منهم وتقرأ عليه، ليحفظها غدوة وعشيًا، أي: قبل انتشار الناس وحين يأتون إلى مساكنهم، وقد عنوا بذلك أنها تملى عليه خفية لئلا يقف الناس على حقيقة الحال، وهذه جرأة عظيمة منهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون، وقد يكون مرادهم أنها تملى عليه دائمًا[4].

ثم أمره الله تعالى بإجابتهم عما قالوا بقوله: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: قل لهم ردًا وتحقيقًا للحق: ليس ذلك كما تزعمون، بل هو أمر سماوي أنزله الذي لا يعزب عن علمه شيء، وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لا تحوم حوله الأفكار، ومن ثم أعجزكم بفصاحته وبلاغته، كما أخبركم فيه بمغيبات مستقبلة، وأمور مكنونة، لا يوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ

(١) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ١٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٢٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ١٥٠.
(٤) انظر: المصدر السابق ١٨/ ١٥١.

﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: إنكم استوجبتم العذاب بمكايدتكم لرسوله، لكنه لم يعجله لكم رحمة بكم، رجاء توبتكم وغفران ذنوبكم، ولولا ذلك لصب عليكم العذاب صبًا[1].

قال ابن كثير: «وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة: أن محمدًا رسول الله لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بعث إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره.

فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا ماذا يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب.

قال الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء:٤٨]»[2].

رابعًا: ذم المشركين للمؤمنين:

يخبر تعالى أن الكفار ذموا المؤمنين.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود:٢٧].

يخبر تعالى أن قوم نوح عليه السلام كان ردهم له على دعوته ذم أتباعه واستنقاصهم، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، أي: سفلتنا، والرذل الدون من كل شيء، قيل: هم الحاكة والأساكفة وأصحاب الصنائع الخسيسة.

وإنما قالوا ذلك جهلًا منهم أيضًا؛ لأن الرفعة في الدين ومتابعة الرسول لا تكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية، بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل، ولا يضرهم خسة صنائعهم إذا حسنت سيرتهم في الدين.

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، أي: أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير تثبت وتفكر في أمرك، ولو تفكروا ما اتبعوك، وقيل: معناه: ظاهر الرأي، يعني: أنهم اتبعوك ظاهرًا من غير أن تفكروا باطنًا.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، يعني: بالمال والشرف والجاه.

وهذا القول أيضًا جهل منهم؛ لأن

(١) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ١٥٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٩٤.

الفضيلة المعتبرة عند الله بالإيمان والطاعة لا بالشرف والرياسة، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

قيل: الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه، وقيل: هو لنوح وحده، فعلى هذا يكون الخطاب بلفظ الجمع للواحد على سبيل التعظيم [(١)].

قال ابن كثير: «هذا اعتراض الكافرين على نوح، عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء.

ثم الواقع غالبًا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف:٢٣].

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم.

فقال هرقل: هم أتباع الرسل [(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف:١١].

أي: وقال الذين كفروا للذين آمنوا -على سبيل الذم والسخرية والاستخفاف بهم-، لو كان هذا الذي أنتم عليه من الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حقًا وخيرًا، لما سبقتمونا إليه، ولما سبقنا إليه غيركم من المؤمنين لأننا نحن العظماء الأغنياء، وأنتم الضعفاء الفقراء [(٣)].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٨١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٦.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٣/ ١٨٧.

مقاصد الذم في القرآن

إن مقاصد الذم في القرآن الكريم هو الحرص على الحفاظ على الكليات الخمس الضرورية: (الدين والعقل والنفس والمال والنسل)، وصيانتها من كل ما يفسدها ويدمرها، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: الذم لحفظ الدين:

ومن مقاصد الذم في القرآن الكريم هو تطهير المجتمع الإسلامي من العقائد الفاسدة الموروثة، والحفاظ على العقيدة الصحيحة، والتي هي سبب الفوز والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

وهي السبب في الحفاظ على الفرد والأسرة والمجتمع، وهي التي تحفظ الفرد من البدع والضلالات والشبهات، ولذلك ذم الله تعالى كل العقائد الفاسدة والسبل المؤدية إلى الضلال من الشرك والكفر، واليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وعباد القبور، وسائر أهل الملل والأوثان، والشذوذ والأهواء والطوائف، كما بين العاقبة السيئة التي انتهى إليها كل هؤلاء بسبب كفرهم وإعراضهم عن الحق، وأشير إلى ذلك في آيات كثيرة، كما سبق في البحث[1].

وكما ذم القرآن الكريم كل العقائد الفاسدة وتوضيحها وتطهير المجتمع منها، فقد ذم أيضًا كل ما يفسد الدين من الأخلاق القبيحة والفاسدة، وعالج عناصر الضعف البشري مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية، في كل صورها وإقامة هذا المجتمع الجديد، الفريد في تاريخ البشرية، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة المتينة التي لا تدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية، والتي لا تترجرج مع الأهواء والميول والشهوات![2].

وعامة ما ذم الله به المشركين في القرآن من الدين المنهي عنه إنما هو الشرك والتحريم، كما حكي عنهم في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام:١٤٨]، وأما من ترك المأمور به فقد ذمهم الله كما ذمهم على ترك الإيمان به وبأسمائه وآياته وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وترك الصلاة والزكاة والجهاد وغير ذلك من الأعمال[3].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٨، تفسير القرآن الكريم، ابن القيم ص ١٨، تفسير المراغي ٢٥/ ٢٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢١٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٥٢.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/ ١١٣.

ولأهمية الدين في حياة البشر فقد ذم القرآن الكريم الكفار والمنافقين، وبين حقيقة حالهم وقبح أعمالهم، وما يعقبها من الفساد والضرر بهم وسخط الله تعالى عليهم، واستحقاقهم لعقابه، وبعدهم من رحمته وثوابه؛ بقصد الإنذار والوعظ، لأجل التنفير والزجر، ولذلك تراها موجهة إليهم بوصفهم أو إلى وصفهم العام: المشركين، الكافرين، المنافقين، الفاسقين، الظالمين، المجرمين، المفسدين، أو الخاص بطائفة منهم، كبعض الأحبار والرهبان لا كلهم دون الأشخاص المعينين بأسمائهم وألقابهم، مهما يكن من شدة كفرهم وإيذائهم للنبي صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، كعبد الله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين الذي كان شرهم وأجرأهم على الضرر، فقد كان ضرره في المدينة أشد من ضرر أئمة الكفر والشرك في مكة؛ كأبي جهل[1].

ثانيًا: الذم للحفاظ على العقل:

ومن مقاصد الذم في القرآن الكريم: الحفاظ على العقل، فقد ذم القرآن الكريم كل ما كان ضارًا بالأفراد في عقولهم، وإنما أتى على ذم من قدم ذكره من الشخصيات والأمم المكذبة لعدولهم عن النظر السديد، اعتمادًا على الأهواء والتقليد، ونبذًا للعقل والإنصاف، ولو عقل أولئك الأمم لأدركوا بعقولهم صدق الرسل في دعوتهم، ولنبذوا معبوداتهم من دونه جل وعلا، وأجابوا الرسل، فلم يهلكوا، ولكنهم انحرفوا عن ميدان الإنصاف والعقل، فكذبوا فهلكوا.

ثالثًا: الذم للحفاظ على النفس:

ومن مقاصد الذم: الحفاظ على النفس وصيانتها من الاعتداء عليها، وشمل الذم في القرآن الكريم كل ما كان يعمله أهل الجاهلية، فكانت الجاهلية تقتل أولادها خشية كثرة العيلة، ودخول الفقر عليهم إذا كثروا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١].

أي: حرم قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد، فيخرج الحربي ويدخل الذمي، فما روي عن ابن جبير من كون المراد بالنفس المذكورة النفس المؤمنة ليس في محله، ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق الذي هو أمر الشرع بقتلها.

وذلك كما جاء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ١١/ ١٠٦.

الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق الجماعة)[1].

أو من أعم الأسباب، أي: لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق وهو ما في الخبر، أو من أعم المصادر، أي: لا تقتلوها قتلًا إلا قتلًا كائنًا وهو القتل بأحد المذكورات[2].

والحفاظ على النفس يشيع في المجتمع الأمن والسلام ويقضي على كل مظاهر العنف، ويحفظ التعايش مع جميع المجتمعات والأمم والشعوب، فالإسلام دين السلام والتعايش والقبول بالآخر، ويرفض كل أشكال العنف والتطرف بجميع أشكاله وأنواعه وصوره.

رابعًا: الذم للحفاظ على المال:

ومن مقاصد الذم: الحفاظ على الأموال، فقد ذم القرآن الكريم كل ما كان ضارًا بالأفراد في أموالهم، وقد نهى الإسلام عن المعاملات، التي قامت على أكل المال بالباطل، كالربا والميسر والغش وبيع الغرر، وستر العيب، وغيرها مما ينطوي على الظلم، وتحريم تطفيف المكيال والميزان، ووجوب الصدق والبيان، وتحريم الكذب والخيانة.

وهذا المنهج الإسلامي في بناء الأخلاق يقتضي أيضًا الفضائل والقضاء على الرذائل، بأن تقوم المعاملات على تزكية الإنسان بالآداب الكريمة والأخلاق الفاضلة، وعلى المحافظة على الشعائر والقيم الإسلامية النبيلة، وإلا اهتز نظام المجتمع، وتدمرت حياة الفرد، لفقدان الثقة، وغروب الأمن والطمأنينة، فتستعر المعاملات بالرشوة، والاختلاس والغش.

ولذلك وصف الله عباده المؤمنين في تجارتهم وبيعهم ومعاملاتهم بقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور:٣٧-٣٨].

فحفظ القرآن الكريم أموال الناس من الضياع، وحذر أصحاب النفوس الضعيفة من المساس بها، وحفظ الموازين في التجارة لتستقيم المعاملات، وعمل على حفظ مال الفرد والجماعة والأمة، وأشير

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس..)، رقم ٦٨٧٨، ٩/ ٥، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦، ٣/ ١٣٠٢.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٩٨.

لذلك في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين:١-٦].

خامسًا: الذم للحفاظ على النسل:

ومن مقاصد الذم في القرآن الكريم: الحفاظ على النسل والعرض، فقد ذم القرآن الكريم كل ما كان ضارًا بالأفراد في أنفسهم وأعراضهم.

وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾ [الأعراف:٨٠-٨١].

والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية، والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب، فهي مجرد «شهوة» شاذة؛ لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية، فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري، قبل أن يكون فساد الأخلاق، ولا فرق في الحقيقة. فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية، بلا انحراف ولا فساد[1].

وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث، لأن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا، وجعل النساء محلًا للشهوة وموضعًا للنسل، فإذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فقد أسرف وجاوز واعتدى، لأنه وضع الشيء في غير محله وموضعه الذي خلق له، لأن أدبار الرجال ليست محلًا للولادة التي هي مقصودة بتلك الشهوة للإنسان[2].

والقاعدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع، وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة والأخلاق، فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها؛ لأنه لا يمكن قيام أمة، ولا استقامة مجتمع، ولا أسرة في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع، والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع، والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار، والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية، شواهد من

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣١٥.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٦.

التاريخ، ومقدمات الدمار والانهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد، والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار.

ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هي أقسى العقوبات، لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار، وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١][1].

والخلاصة: أن الذم في القرآن الكريم من أجل الحفاظ على الكليات الضرورية للفرد والمجتمع، وهي: الدين والنفس والعرض والمال والعقل، وكل ما فيه صلاح المجتمع وسلامته، والحفاظ على أمنه ووحدته واستقراره بما يكفل له سبل الحياة الكريمة، فإذا هم اجتنبوا ذلك كثر في الأمة الخير، وندر فيها وقوع الشر، وائتلفت قلوب أهليها، وسعدوا في دنياهم وآخرتهم، وإصلاح الله تعالى لحال البشر كان بهداية الدين وإرسال الرسل، وتمم ذلك ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي كان رحمة للعالمين، فبه أصلحت عقائد البشر، وهذبت أخلاقهم وآدابهم بما جمع لهم فيها من مصالح الروح والجسد، وما شرع لهم من التعاون والتراحم، وبما حفظ لهم من العدل والمساواة، وبما شرع لهم من الشورى المقيدة بقاعدة درء المفاسد وحفظ المصالح، وبذا امتاز به دينهم عن بقية الأديان[2].

موضوعات ذات صلة:

الحمد، المدح

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٣٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٧٨.

الذنب

عناصر الموضوع

مفهوم الذنب	٢٤٤
الذنب في الاستعمال القرآني	٢٤٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٤٦
الله غافر الذنب	٢٤٨
مراتب الذنوب	٢٥٢
مكفرات الذنوب	٢٥٦
آثار الذنوب في الدنيا والآخرة	٢٥٩

مفهوم الذنب

أولًا: المعنى اللغوي:

الذنب من أذنب يذنب إذنابًا، والذنب هو الاثم والجرم والمعصية، والذنب مفرد، والجمع ذنوب، وجمع الجمع ذنوبات، ويقال: قد أذنب الرجل، أي: صار ذا ذنب، ويطلق الذنب على كل أمر غير مشروع يرتكب[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الذنب ما يحجبك عن الله تعالى»[(٢)].

وقال المراغي في تفسيره: «الذنب هو التقصير في المعاملة بين العبد وربه»[(٣)].

وقال الشنقيطي: «الذنب هو الجريمة التي يستحق صاحبها النكال»[(٤)].

وبالنظر في التعريفات السابقة نجد أنه لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، ويمكن تعريف الذنب بأنه: كل فعل يستقبح شرعًا، ويستحق صاحبه العقوبة من الله تعالى.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٦١، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٨٩، تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي ٢/ ٤٣٦.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٠٧.
(٣) تفسير المراغي ٤/ ١٦١.
(٤) العذب النمير ٥/ ١٢٠.

الذنب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ذنب) الدالة على (الذنب) في القرآن الكريم(٣٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم (مفرد)	١١	﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء:١٤]
اسم (جمع)	٢٦	﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]

وجاء الذنب في القرآن الكريم بمعناه اللغوي، وهو الإثم والجرم والمعصية[٢].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك:١١]، أي: فأقروا بمعصيتهم وجرمهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٨٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإثم:

الإثم لغة:

من أثم. الهمزة والثاء والميم أصل واحد، يدل على التأخر[١]

الإثم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني بأنه: «ما يجب التحرز منه شرعًا وطبعًا»[٢]، وهو أيضًا التأخر عن فعل الطاعات[٣].

الصلة بين الذنب والاثم:

الذنب عبارة عن ارتكاب المحظور، أما الإثم فهو التقصير في عمل مطلوب[٤].

٢ الجرم:

الجرم لغةً:

هو الكسب، وجمعها أجرام وجروم[٥].

الجرم اصطلاحًا:

«هو الجناية والذنب العظيم»[٦].

الصلة بين الذنب والجرم:

الذنب يقال في معرض بيان العقوبة المترتبة على ارتكاب المخالفة، أما الجرم فيقال في معرض الاستقباح والذم للفعل الذي يخالف أمر الله أو يهينه[٧].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس١/ ٦٠.
(٢) التعريفات ص٩.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة٥/ ٢٦٤٨.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري١/ ١٥.
(٥) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٣٨٦، تفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ١/ ٣١٧.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٤٨.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٤.

٣ الخطيئة:

الخطيئة لغةً:

هي الذنب، وجمعها خطايا[١].

الخطيئة اصطلاحًا:

«هي الذنب المقصود المتعمد»[٢].

الصلة بين الذنب والخطيئة:

الذنب إما أن يكون خطأ، وإما أن يكون عمدًا[٣]، أما الخطيئة فلا تكون إلا عمدًا[٤].

٤ السيئة:

السيئة لغةً:

من سوء بمعنى القبح[٥].

السيئة اصطلاحًا:

«هي التقصير في حقوق العباد ومعاملة الناس بعضهم بعضًا»[٦].

الصلة بين الذنب والسيئة:

الذنب يكون بالتقصير في حق الله تعالى[٧]، أما السيئة تكون بالتقصير في حق العباد[٨].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٤٨، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥/ ٢٣١.
(٢) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ٢/ ٤٦.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص٤٠.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٤٤.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١١٣.
(٦) تفسير المراغي ٤/ ١٦١.
(٧) المصدر السابق ٤/ ١٦١.
(٨) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٢١-٢٢٢.

الله غافر الذنب

من رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يغلق باب العفو والصفح عمن ضل طريق الحق باتباع أهوائه وشيطانه، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولأهمية العفو والمغفرة في حياة المؤمن لزم التعرف على معنى كلًا من العفو والمغفرة، وعلى الفرق بينهما، وعلى مدى عفو ومغفرة الله تعالى لعباده المذنبين.

أولًا: المغفرة في حق الله تعالى:

مغفرة الذنوب قضية خاصة بالله تعالى، فلا أحد يملك غفران الذنوب سواه جل وعلا، وهذا ما أكد عليه المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم في قوله: (سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[1].

كما وردت آيات كثيرة تنسب صفة الغفران لله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٢-٣].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص: ٦٦].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۚ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وغيرها من الآيات.

ومن أسماء الله تعالى الحسنى:

الغافر: وهو على وزن (فاعل)، وقد ورد في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[غافر: ٣].

ومعناه أنه سبحانه يغفر ما سلف من الذنوب[2].

الغفّار: صيغة مبالغة على وزن (فعال)، والمعنى أنه جل وعلا هو الذي يستر ذنوب عباده ويغطيها[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار ٨/ ٦٧، رقم ٦٣٠٦.

(٢) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، محمد التميمي، ص١٨٠.

(٣) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج،

الغفور: صيغة مبالغة على وزن (فعول)، وهي من غفر بمعنى ستر، والفرق بين الغفور والغفار، أن الغفار مبالغة في المغفرة مع تكرارها، أما الغفور أي: مغفرة عالية الجودة شاملة لكافة الذنوب[1].

العفو: وهو المتجاوز عن سيئات العباد[2].

والفرق بين العفو والمغفرة: أن العفو هو «ترك العقاب على الذنب، والمغفرة تغطية الذنب بإيجاب المثوبة»[3].

لذا كان من أهم الدعاء في ليلة القدر، ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: (يا رسول الله أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر، ما أقول فيها ؟ قال: قولي، (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)[4].

يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «العفو هو المتجاوز عن سيئات عباده»[5].

وكان من أهم ما أوصى به ربنا عباده فعل الخيرات لأنها تزيل السيئات.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

ومعنى ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: يغفر الله بهن تلك المعاصي[6].

إن في العفو مبالغة ليست في الغفور، فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، وهو أبلغ من الستر، لأن الستر للشيء قد يحصل مع إبقاء أصله، بخلاف المحو فإنه يزيل الشيء جملة وتفصيلًا[7].

مما سبق يمكن القول بأن العفو هو محو أصل الذنب مع إسقاط العقوبة المترتبة عليه، أما المغفرة فهي الإبقاء على الذنب مع إسقاط العقوبة المترتبة على هذا الذنب.

ويؤيد ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن صفوان بن محرز المازني، قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخذ بيده، إذ عرض رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه وستره، فيقول: نعم، أي

ص٣٨.

(١) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، ص١٠٥.

(٢) انظر: مذكرة على العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، ص٣١.

(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٣٦٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات ٥/ ٥٣٤، رقم ٣٥١٣.
قال الترمذي: حسن صحيح.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ١٠٠٨، رقم ٣٣٣٧.

(٥) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٥/ ٢٢٣.

(٦) انظر: العذب النمير ٣/ ١٥٢.

(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٦٣.

رب، حتى إذا قر بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم)[1].

ثانيًا: علم الله بذنوب عباده:

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

هاتان الآيتان الكريمتان من كتاب الله تعالى، تفيدان بأن الله تعالى:

أولًا: بكل شيءٍ محيط، والمعنى أنه تعالى أحاط بكل شيء علمًا، وقدرة، ورحمة، وتدبيرًا[2].

ثانيًا: عليم بالغيب والشهادة، والظاهر، والباطن، وغير ذلك مما دق أو عظم[3].

قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٩-١٠].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

مما سبق يمكن القول أن ذنوب العباد هي كسائر أعمالهم غير خافية على الله تعالى، سواء أكانت حقيرة أم عظيمة، وهذا ما ذكره القرآن الكريم في مواضع منها:

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

«أي: وكفى بالله خبيرًا بذنوب خلقه مطلعًا عليها، يحصي عليهم أعمالهم ومعاصيهم، فلا يخفى عليه شيء من أفعال المشركين وغيرهم، وهو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية، والخبير: العليم بهم، والبصير: الذي يبصر أعمالهم، وفي هذا تنبيه على أن الذنوب هي أسباب الدمار والهلاك لا غير، وأن الله عالم بها، ومعاقب عليها»[4].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

«أي: وحسبك بالحي الذي لا يموت، خبيرًا بذنوب خلقه ما ظهر منها وما بطن، فهو لا يخفى عليه شيء منها، وهو محصيها عليهم ومجازيهم عليها»[5].

ومما تجدر الإشارة إليه أن علم الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغضب، باب قول الله تعالى: (ألا لعنة الله على الظالمين)، ٣/ ١٢٨، رقم ٢٤٤١.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٠٦.
(٣) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، ص٤٣.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٣٨.
(٥) تفسير المراغي، ١٩/ ٣١.

تعالى بذنوب عباده لا يكون عقب ارتكابها، وإنما يكون قبل ذلك، أي: منذ الأزل، فعلم الله تعالى هو علم أزلي.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)[1].

كما تجدر الإشارة إلى أن علم الله تعالى الأزلي بأن الذنوب ستقع من العباد لا يؤثر على أفعال العباد، وبالتالي فعلم الله تعالى المسبق بوقوع الذنب لا يحمل صاحب الذنب على اقتراف الذنب، وإنما يكون اقتراف الذنوب باختيار العباد، على الرغم من بيان الله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم طريق الهداية وحثهم على سلوكه، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: ٣].

يقول سيد سابق في تفسير هذه الآية: «أي: هديناه وأرشدناه إلى طريق الحق والباطل، والخير والشر، والصدق والكذب، فهو إما سلك السبيل الأهدى، فيكون شاكرًا، أو الطريق المعوج، فيكون كفورًا»[2].

وهذا يدل على أن الإنسان مخير في أفعاله لا مسير، كما تجدر الإشارة أيضًا إلى أن وقوع الذنوب لا يخرج عن مشيئة الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[التكوير: ٢٩].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث عبادة بن الصامت، ٣٧/٣٧٨، رقم ٢٢٧٠٥، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة نون، ٥/ ٤٢٤، رقم ٣٣١٩. قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) العقائد الإسلامية، ص١٠٢.

مراتب الذنوب

مما لا شك فيه أن هنالك تفاوتًا بين المخالفات الشرعية، وهذا الاختلاف يعود إلى تباين الأثر القبيح الذي تتركه تلك الذنوب والمخالفات، ولمزيد المعرفة لهذه المسألة، لابد من التعرف على مراتب ما يرتكبه العباد من الذنوب، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: الكبائر:

الكبائر: هي الذنوب التي ورد في حقها لعنة أو غضب أو نار أو وعيد شديد[1].

يقول تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[2].

ذكر في هذا الحديث سبعًا من الكبائر، وذكر في أحاديث أخرى غيرها: مثل عقوق الوالدين، قول الزور، اليمين الغموس.

فالكبائر لا تنحصر في عدد معين، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن الكبائر أسبع هي ؟ فقال: «هي إلى السبعين أقرب»[3].

ومن أمثلة على الكبائر:

١ . الشرك بالله.

الشرك بالله من أكبر وأعظم الكبائر.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

عن ابن مسعود قال: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل الله ندًا وهو خلقك)[4].

والشرك بالله ينقسم إلى قسمين:

الأول: الشرك الأكبر: وهو أن يتخذ العبد مع الله شريكًا أو ندًا يعبده كما يعبد الله،

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٦٠٢، اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، محمد الخميس، ص٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)، ٤/ ١٠، رقم ٢٧٦٦.

(٣) أخرجه معمر بن راشد، مطبوع ملحقًا بمصنف عبدالرزاق الصنعاني ١٠/ ٤٦٠، رقم ١٩٧٠٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، ١/ ٩٠، رقم ١٤١.

ويدعوه كما يدعو الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله، وهو مخرج من ملة الإسلام، وإن مات صاحبه عليه يكون مخلدًا في نار جهنم، ولا يخفف عنه من عذابها[(١)].

الثاني: الشرك الأصغر: و«هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات، والأقوال، والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة»[(٢)].

والشرك الأصغر، لا يخرج صاحبه من الملة، وإذا مات عليه ولم يتب منه، فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، ولو عذبه الله سبحانه، فإنه لا يخلد في النار، وينال الشفاعة بإذن الله تعالى[(٣)].

٢. السحر.

السحر: «أمر يمكن تعلم قواعده ومعرفته بالممارسة»[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢].

ومما سبق يتضح أن السحر من أكبر الكبائر، ومن أعظم المصائب، وهو من الكفر.

٣. قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

وهو الاعتداء على الإنسان وإزهاق روحه عمدًا دون وجه حق[(٥)].

وهذا الفعل حرمه الإسلام، واعتبره من أكبر الكبائر التي توقع صاحبها في الهلاك يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

(١) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن، ص٢٨٣، تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله ص٣٣٠.

(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي ص٥٨.

(٣) انظر: سد الذرائع في مسائل العقيدة على ضوء الكتاب والسنة الصحيحة، عبد الله الجنيدي، ص٢٠٨، عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، صالح بن عبد الله العبود ٢/ ٦٩٤.

(٤) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد السلام اللوح، ص١٤.

(٥) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٩/ ١١٥.

٤. أكل الربا.

وهو أخذ زيادة على أصل المال وفائدة دون بيع صحيح مشروع[(١)].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥].

فلذلك يعتبر الربا من أكبر الكبائر عند الله تعالى، وقد توعد الله صاحبه بالنار، وآذنه بالحرب إن أصر عليه ولم يتب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

٥. أكل مال اليتيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

حرم الله تعالى أكل مال اليتيم بغير حق، وذلك عن طريق إتلافه، فلا يجوز الاقتراب من مال اليتيم إلا لفائدة أو مصلحة لليتيم، وذلك عن طريق حفظه، واستثماره، وتنميته، والأكل منه حال الفقر والحاجة، حتى يصبح رشيدًا، أي: يبلغ مبلغ الرجال، فبعد ذلك يسلم له المال[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:٦].

٦. التولي يوم الزحف.

أي: الفرار من أرض المعركة، حرم الإسلام الفرار من أرض المعركة، وجعله من المهلكات، والكبائر[(٣)].

لذلك فلا يجوز الفرار من أرض المعركة إلا للمكيدة، والخدعة بالأعداء، فالذي يفر من أرض المعركة يستحق الغضب من الله، والعذاب في نار جهنم[(٤)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٨٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٦٣، التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٣٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٨٧.

[الأنفال:١٥-١٦].

٧. قذف المحصنات.

أي: يرمون المسلمات الحرائر العفيفات الطاهرات بالفاحشة، وهن بريئات من ذلك[١].

فقد جاء الإسلام ليحفظ أعراض الناس، لذلك حرم الفاحشة، وكل ما يوصل للفاحشة، كما وضع الإسلام عقوبة لمن خاض في أعراض الناس، ولم يأت بأربعة شهود فجزاؤه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:٢٣].

ثانيًا: الصغائر:

الصغائر: هي الذنوب اليسيرة التي لم تقترن بوعيد أو بحد مقدر، فالشخص يرتكبها بدون إصرار عليها[٢].

والذنوب اليسيرة التي يرتكبها الإنسان بدون إصرار عليها أو استهانة بها أو مداومة عليها، إذا أتبعها فاعلها بالتوبة الصادقة النصوح، يذهبها الله تعالى ويغفرها[٣].

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:١١٤].

فالله عز وجل جعل باب التوبة مفتوحًا لعباده.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

وقد سمى القرآن الكريم الصغائر: لممًا.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم:٣٢].

والمقصود بـ(اللمم) في هذه الآية هو ما قل وصغر من الذنوب[٤].

(١) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٤٢٧، مدارك التأويل، النسفي ٢/ ٤٨٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٢٩.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٣٠، التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي ١/ ٣١٢.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٣٠.

(٤) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥١١، التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ٥٦١.

مكفرات الذنوب

لابد للعبد إذا ما وقع في الذنوب أن يسارع لإزالة أثر تلك الذنوب، لئلا يباغته الموت، فيلقى الله وهو غاضب عنه، فيلقى بذلك ما لا يطيق من العقوبة، وللتمكن من إزالة آثار تلك الذنوب، يجب التعرف على مكفراتها، وفيما يلي الحديث عن أهمها:

أولًا: التوبة والاستغفار:

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:٣].

في هذه الآية وغيرها من الآيات قدم الله تعالى الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار فيه الابتعاد عن الشرك، وما اتصل به من جحود وعناد وإنكار، أما التوبة فهي الرجوع إلى الله تعالى وطاعته فيما أمر والابتعاد عما نهى عنه[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، والله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إلي شبرًا، تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا، تقربت إليه باعًا، وإذا أقبل إلي يمشي، أقبلت إليه أهرول)[٢].

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا عل عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة)[٣].

والتوبة واجبة على جميع العباد، والدليل على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

قوله: ﴿وَتُوبُوا﴾ أمر، وكل أمر للوجوب ما لم يصرفه صارف عن الوجوب، لذلك فالتوبة واجبة بإجماع المسلمين من كل ذنب اقترفه الإنسان[٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٧/ ٣٦٦٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه،كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٢، رقم ٢٦٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ٨/ ٦٧، رقم ٦٣٠٦.

(٤) انظر: العذب النمير ١/ ٣٤٧.

اليوم إليه مائة مرة)[1].

ويشترط لقبول التوبة عدة شروط.

إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى فلها ثلاثة شروط وهي:

١. أن يقلع العبد عن المعصية.

٢. أن يندم العبد على فعل المعصية.

٣. أن يعزم على عدم العودة إلى المعصية أبدًا.

أما إذا كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فلها أربعة شروط، الثلاثة السابقة، والشرط الرابع: أن يرد العبد المظالم إلى أصحابها[2].

والتوبة لا تقبل إذا طلعت الشمس من المغرب.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله عز وجل جعل بالمغرب بابًا عرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله)[3].

لا تقبل توبة العبد عندما تبلغ روحه الحلقوم ويوقن بالموت.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩٠-٩١].

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[4].

والاستغفار يمحو الذنوب ويسترها ويطهر العبد من الخطايا.

عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، ٤/ ٢٠٧٥، رقم ٢٧٠٢.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٩٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، ٥/ ٤٣٧، رقم ٣٥٣٦.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٧١، رقم ٤١٩١.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، ٥/ ٤٣٨، رقم ٣٥٣٧.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٨٦، رقم ١٩٠٣.

كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ، إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه)[1].

ثانيًا: الحسنات الماحية:

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤].

أي: فعل الخيرات والأعمال الصالحة ومن هذه الأعمال الصالحة الصلوات الخمس تكفر الذنوب السالفة[2].

إن فعل الحسنات يقوم على الإيمان، والعمل الصالح.

ثالثًا: المصائب:

قد يبتلي الله عز وجل بعض عباده ببعض المصائب، حتى تكون مكفرات لذنوبهم إذا صبروا عليها.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، أو حط عنه بها خطيئة)[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر و الصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، ٤/ ١٩٩١، رقم ٢٥٧٢.

يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)[1].

والمصائب يمكن أن تكفر ذنوب الإنسان، إلا الكفر؛ لأن من لقي الله كافرًا يستحيل أن يتخلف وعيده[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

رابعًا: الدعاء:

والدعاء بطلب المغفرة وتكفير الذنوب هو من سنن الأنبياء والمرسلين.

قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١].

والدعاء بطلب المغفرة من صفات المؤمنين الصالحين.

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨].

وأخبر الله عز وجل أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ٧/ ١١٤، رقم٥٦٤١.

(٢) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، محمد التويجري ٤/ ٦٢٠.

آثار الذنوب في الدنيا والآخرة

الذنوب لها آثار تعود على الفرد فيضل عقله، ويضطرب فؤاده، ويبلى جسده، وأخرى تعود على المجتمع فتتمزق وحدته، ويتشرذم أفراده، وتضيع هيبته، ومن هذه الآثار ما يأتي:

١. حرمان العلم.

العلم نور يقذفه الله تعالى في قلب أهله، والذنوب تطفئ ذلك النور، فيحرم المذنب من العلم[3].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

٢. وحشة القلب.

وهي وحشة يجدها المذنب في قلبه، فلا يشعر بأي لذة حتى ولو اجتمعت له لذات الدنيا كلها، فلم تف بتلك الوحشة، وهي تجعل المذنب يبتعد عن أهل الصلاح ومجالستهم، وبذلك يحرم بركة الانتفاع بهم حتى يقرب من حزب الشيطان، فتقوى هذه الوحشة حتى تقع بينه وبين أقرب المقربين إليه، بل وبينه وبين نفسه[4].

٣. الذل والندامة.

(٣) انظر: مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله ٦/ ٢٤٢.

(٤) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ص٥٢.

إن الذنوب تورث في الإنسان الذل والضعف والإهانة؛ لأن العز لايكون إلا في طاعة الله تعالى[1].

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧].

٤ . انتشار الفساد في الأرض:

إن الذنوب تسبب أنواعًا من الفساد في الأرض، مثل فساد في الزرع والمياه والهواء والمساكن.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الزنا، الصلاح، العبرة، العذاب، الفواحش، الكفر، النفاق

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٥.

ذو القرنين

عناصر الموضوع

التعريف بذي القرنين	٢٦٢
ذكر ذي القرآنين في القرآن الكريم	٢٦٥
مناسبة قصة ذي القرنين وسبب نزولها	٢٦٦
قصة ذي القرنين	٢٧٠
الدروس من قصة ذي القرنين	٢٧٦
لمسات بيانية في قصة ذي القرنين	٢٨١

التعريف بذي القرنين

أولًا: اسمه:

اختلف فيه على أقوال كثيرة، فقيل: هو الإسكندر المقدوني.

وهناك من زعم أنه قورش الفارسي، أو دارا الفارسي، أو ملك من ملوك اليمن، أو ابن فرعون مصر.

ويرى أبو الكلام أزاد في كتابه: ويسألونك عن ذي القرنين، أنه قورش امبراطور فارس الذي غزا بلاد اليونان، وأنه كان عادلًا.

بينما يرى البعض أنه الإسكندر المقدوني الذي غزا بلاد فارس، وكان عادلًا.

قال المسعودي: «الإسكندر وذوالقرنين: وقد تنازع الناس فيه: فمنهم من رأى أنه ذو القرنين، ومنهم من رأى أنه غيره، وتنازعوا أيضًا في ذي القرنين: فمنهم من رأى أنه سمي بذي القرنين لبلوغه أطراف الأرض، وأن الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الاسم، ومنهم من رأى أنه من الملائكة»[(١)].

قلت: جبل قاف هذا من أخبار الإسرائيليات التي لا دليل عليها، ولا مستند من كتاب، أو سنة أو أثر صحيح، والقول بأنه ملك من الملائكة قول بعيد غريب، بل هو من البشر.

وقال القزويني: «وذكر بعض النساب أن أفريدون هو ذو القرنين الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، لأنه ملك المشرق والمغرب، وأمر بعبادة الله تعالى، وكان ذا عدل وإحسان»[(٢)].

والمتأمل في هذه الأقوال وما استندت إليه يجدها لا أصل لها في الكتاب أو السنة، كما أنها مبنيةٌ على الظن والاحتمال، فضلًا عن أن ذا القرنين كان مؤمنًا موحدًا.

وقيل: كان نبيًا من الأنبياء، فقد روى ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد الله بن عمرو قال: ذو القرنين نبي[(٣)].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ذو القرنين نبي[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أدري أتبع لعينًا كان أم لا، وما أدري ذو القرنين نبيًا كان أم لا، وما أدري الحدود كفاراتٌ لأهلها أم

(١) مروج الذهب، المسعودي ١/ ١٢٧.
(٢) آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني ١/ ٩٢.
(٣) المصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٦٨.
(٤) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٩/ ٦٣٢.

لا)[1].

وهذا الحديث إن صح ففيه ردٌّ على من قال بنبوة ذي القرنين.

والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملك مؤمن على علمٍ وصلاحٍ، مكن الله له، فسعى جاهدًا ومتجردًا لنشر الحق والعدل.

والذي يعنينا أن نتدبر في قصته، ونستخلص منها الدروس والعبر في الدعوة والإصلاح والقيادة والإدارة والسياسة والقضاء. ثم إن السؤال ليس عن شخص ذي القرنين، وإنما عن حياته وجهاده وأمجاده.

قال البغوي: «والأكثرون على أنه كان مَلِكًا عادلًا صالحًا»[2].

قال ابن القيم: «الإسكندر المقدوني، وهو ابن فيلبس، وليس هو بالإسكندر ذي القرنين الذي قص الله تعالى نبأه في القرآن، بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين، فذو القرنين كان رجلًا صالحًا موحدًا لله تعالى، يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكان يغزو عباد الأصنام، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج.

وأما هذا المقدوني فكان مشركًا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف سنة وستمائة سنة، والنصارى تؤرخ له، وكان أرسطاطاليس وزيره، وكان مشركًا يعبد الأصنام، وهو الذي غزا دارا بن دار ملك الفرس في عقر داره، فثل عرشه ومزق ملكه وفرق جمعه، ثم دخل إلى الصين والهند وبلاد الترك فقتل وسبى. وكان لليونانيين في دولته عز وسطوة بسبب وزيره أرسطو، فإنه كان مشيره ووزيره ومدبر مملكته.

وكان بعده لليونان عدة ملوك يعرفون بالبطالسة، واحدهم بطليموس، كما أن كسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم، ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم، فصاروا رعية لهم وانقرض ملكهم، فصارت المملكة للروم، وصارت المملكة واحدة، وهم على شركهم من عبادة الأصنام، وهو دينهم الظاهر ودين آبائهم»[3].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٤٠٥، ٢/ ١٤.
قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.
ولم يتعقبه الذهبي.
وصحح البخاري إرساله في التاريخ الكبير ١/ ٥٣.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١٢.

(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ٢/ ٢٦٤.

وأثبت ابن عاشور أنه ليس إسكندر المقدوني، قال: « لأنه لم يكن ملكًا صالحًا، بل كان وثنيًا، فلم يكن أهلًا لتلقي الوحي من الله، وإن كانت له كمالات على الجملة، وأيضًا فلا يعرف في تاريخه أنه أقام سدًا بين بلدين»[(١)].

وذكر أبو السعود أقوالًا عديدة في سر تسميته بذي القرنين، أكتفي بذكر أقربها للصواب، قال: «واختلف في وجه تسميته بذي القرنين، فقيل: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها. وقيل: لأنه ملك الروم وفارس. وقيل: الروم والترك. وقيل: لأنه كان في تاجه ما يشبه القرنين. وقيل: لأنه كان له ذؤابتان. وقيل: لقب به لشجاعته»[(٢)].

ثانيًا: صفات ذي القرنين:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٣-٨٤].

ذو القرنين كان عبدًا صالحًا، وقائدًا حكيمًا محنكًا، وملكًا عادلًا، جمع الله له بين الصلاح والملك والعلم والهمة العالية في إقامة العدل ونشر الخير، والتيسير على الخلق، أخذ بالأسباب، بل طورها حتى مكن الله له.

قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٤-٨٥].

مكن الله له في الأرض، ووهبه أسباب النصر والتمكين، وأصول السياسة وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المنح والمواهب على أتم وجهٍ، بل جعلها ركيزةً ومنطلقًا إلى ريادة الكون بالعلم والإيمان، والعدل والإحسان.

مكن له صاحب العظمة والسلطان تمكينًا عظيمًا في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد ملكه وبسط سلطانه، وكبت أعدائه وتحقيق أهدافه.

قال ابن عاشور: «وجعل خبر ذي القرنين تلاوة وذكرًا للإشارة إلى أن المهم من أخباره ما فيه تذكير، وما يصلح لأن يكون تلاوة حسب شأن القرآن، فإنه يتلى لأجل الذكر، ولا يساق مساق القصص»[(٣)].

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ١٢٣.
(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٤٠.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ١٢٥.

ذكر ذي القرآنين في القرآن الكريم

ورد ذكر (ذو القرنين) عليه السلام في القرآن الكريم (٣) مرات، في سورة الكهف.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في سورة الكهف.

السورة	الآيات
الكهف	٧٣-٩٨

مناسبة قصة ذي القرنين وسبب نزولها

أولًا: مناسبة القصة:

تتجلى لنا المناسبة بين هذه القصة والقصص التي سبقتها، وبين القصة ومحور السورة ومقصودها:

فبعد الحديث عن رحلة موسى مع الخضر وما انطوت عليه من عجائب وآيات، وما تفتقت عنه من فوائد وثمرات، وما أسفرت عنه من عبرٍ وعظاتٍ، يأتي الحديث عن قصةٍ أخرى عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكن الله له، وهيأ له الأسباب فأخذ بها، واجتهد في استثمارها وتطويرها، فطوف في الأرض، وجال في أقطارها، قائدًا ظافرًا، وحكمًا عادلًا، وسلطانًا قويًا ، وعبدًا شكورًا، فملأ الدنيا عدلًا ونورًا.

طاف موسى عليه السلام طلبًا للعلم النافع، وطاف الخضر بأمر الله تعالى حاملًا لواء الجهاد وراية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده، لينشر العدالة في ربوع الكون، ويبلغ دعوة الحق، ويصحح المفاهيم، ويقيم الموازين القسط، ويرسخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة.

قال البقاعي: «ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم، عقبها بقصة من طاف الأرض لطلب الجهاد، وقدم الأولى إشارة إلى علو درجة العلم؛ لأنه أساس كل سعادةٍ، وقوام كل أمرٍ»[1].

كذلك تضعنا الآيات أمام مقارنةٍ بينة بين صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه وجحد النعمة وتمادى في الضلال، وبين صاحبه الذي يذكره بالله ويحذره من عقابه، وبين ذي القرنين الذي يتذكر دائمًا فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائمًا بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسداه من الكرم، ويوظف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة في أرجاء الأرض.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: ٣٥-٣٩].

أما ذو القرنين فإنه نموذجٌ رائعٌ للملك الصالح المتعفف الذي مكنه الله في الأرض فأقام ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الكفر والطغيان، وحمل راية الحق ومصابيح الهدى، وعاش الناس في عهده حياةً آمنة مطمئنةً. فشتان بين عهدين : عهدٍ ساد فيه

(١) نظم الدرر ٤/ ٥٠١.

الكفر والفساد، وعهد أشرقت فيه شمس الهداية وأضاءت أنوار العدالة. مملكة كافرة تجعل الكفر لها دستورًا وسياجًا، وملكٌ غاصبٌ طاغيةٌ، ومملكة مؤمنة تجعل الإيمان لها عصمةً ومنهاجًا ونورًا وسراجًا! وبضدها تتبين الأشياء.

ومن أوجه المناسبة بين قصة أصحاب الكهف والهدف الرئيسي لسورة الكهف أنها خطت لنا طريق النجاة من الفتن، وأوردت نموذجا عمليًا يحتذى به، حيث تعرض الفتية لفتنة عظيمة عصمهم الله منها، حين سعى الملك إلى فتنتهم في دينهم واستغل سلطانه في مساومتهم على الحق وإغرائهم بكل المغريات، كما استخدم فتنة التهديد والوعيد، فعصمهم الله من كل تلك الفتن، لما خلصت نيتهم وصفت سريرتهم وقويت عزيمتهم وصدق توجههم إلى الله.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ٩-١٦].

وهكذا نجد السورة الكريمة تبرز لنا طريق النجاة من جميع الفتن، فتنة السلطان وفتنة الأهل والعشيرة وفتنة المال وفتنة الولد وفتنة العلم وفتنة إبليس اللعين وفتنة القوة والتمكين من خلال قصة ذي القرنين، وفتنة يأجوج ومأجوج وفتنة اتباع الأهواء والاغترار بزخرف القول، مما يتواكب مع خواص السورة وفضائلها وعصمتها لتاليها من الفتن الحوالك.

لما بين الله عز وجل أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والامتحان الذي يبرز معادن الناس، ويجلي عن قصدهم وهمتهم نحو العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٧-٨].

لما بين الله تعالى ذلك ضرب أمثلة تكشف عن موقف الناس من زينة الدنيا، فبدأ بقصة أصحاب الكهف الذين لم يغتروا بزينة الشباب وزينة الأهل والعشيرة

وزينة الأبهة والسلطان، بل تركوا كل هذه الملذات، وأعرضوا عن جميع الإغراءات، وهجروا الأهل والخلان في سبيل الله جل في علاه.

ثم جاءت قصة صاحب الجنتين الذي غره المال ولم يحمد الله عليه، بل ازداد بطرًا وأشرًا، في حين نجح صاحبه في الابتلاء حيث عرف حقيقة هذه الدنيا الفانية، فكان له ناصحًا أمينًا وواعظًا بليغًا.

ثم يأتي التعقيب على هذه القصة مبينًا حقيقة الدنيا الفانية، وما فيها من زينة تسلب القلوب وتأسر النفوس، وتصرفها عن غاية وجودها وعاقبة أمرها.

وإذا كان هناك من يغتر بالمال أو بالولد، فإن هناك من يغتر بالوعود الكاذبة والأماني الباطلة التي يمني بها إبليس اللعين، هذا العدو القديم الذي أظهر عداوته قديمًا يوم أن امتنع عن السجود لآدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

ومن أشد أسلحة إبليس اللعين سلاح التزيين، فكم من معصية زينها، وكم من بدعة حسنها، وكم من طاعة صرف الناس عنها، وكم من ضلالة زخرفها، وكم من توبة سوّفها.

ثم يورد لنا السياق حقائق ساطعة، وسننًا ربانية، وقضايا عقدية حول الألوهية والرسالة واليوم الآخر، وسنن الله الماضية والجارية في الأمم، ومن الناس من يغتر بنعمة العلم، بل وربما ظن أنه أعلم الناس، وهنا تأتي قصة موسى والخضر عليهما السلام؛ لتبين أن العالم مهما بلغ من العلم، فإن هناك من هو أعلم منه، ومهما أوتينا من العلم فما قيمته وما قدره أمام علم علام الغيوب!

ثم يضرب الله مثلًا لمن لم يغتر بالقوة والسلطان العبد الصالح ذو القرنين الذي وظف ملكه وسلطانه في نشر الدين ورفع الظلم عن المظلومين ورد الطغاة الباغين، وكان كلما جدد الله له نعمة جدد لها شكرًا، وردها إلى المنعم عز وجل.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: ٩٥].

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٨].

فلنقارن بين من اغتر بجنتيه وجحد النعمة وتمادى في الضلال، وبين من يتذكر دائمًا فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائمًا بحمده تعالى.

كما تدور هذه القصة مع المحور العام للسورة: العواصم من الفتن، فتبرز لنا أهمية

التوكل على الله تعالى واليقين به تعالى مع الأخذ بالأسباب في النجاة من الفتن، كما يتجلى لنا من خلال هذه القصة دور الحاكم العادل في حماية البلاد من شرور الفتن.

ثانيًا: سبب نزول القصة:

ذكر ابن إسحاق: أن قريشًا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود، وقالوا لهما: سلاهم عن محمدٍ، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم؛ فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا؟

فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسلٌ، وإن لم يفعل فالرجل متقولٌ، فروا فيه رأيكم.

سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول: ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديثٌ عجبٌ. وسلوه عن رجلٍ طوافٍ قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها: ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك، فاتبعوه فإنه نبيٌّ، وإن لم يفعل فهو رجلٌ متقولٌ فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريشٍ، فقالا: يا معشر قريشٍ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمدٍ، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبيٌّ، وإن لم يفعل فالرجل متقولٌ، فروا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصةٌ عجبٌ، وعن رجلٍ كان طوافًا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ وأخبرنا عن الروح ما هي؟

قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبركم بما سألتم عنه غدًا، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما يذكرون- خمس عشرة ليلةً لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمدٌ غدًا، واليوم خمس عشرة ليلةً قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الله الفتية والرجل الطواف[1].

(١) هذه القصة رواها ابن إسحاق عن ابن عباس

قصة ذي القرنين

أولًا: بلوغه مغرب الشمس:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف:٨٦-٨٨].

كانت له ثلاث رحلات رئيسة، والظاهر أنه انطلق من المشرق إلى رحلته الأولى جهة المغرب، حيث بلغ بجنوده أقصى الغرب مستعينًا بما هيأه الله له من أسباب، وهدف الرحلة كما يظهر من خلال الآيات نشر الحق، وهداية الناس، وإقامة العدل، انطلق في رحلته حتى شاهد غروب الشمس، ﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ عين ماء ذات حمأة، وقرئ ﴿فِى عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ يعني: أنها تغرب في عين ماء حارة، تلك إشارة إلى نظر المؤمن وتمتعه بجمال الكون وروعته، فللنظرة الجمالية انعكاسها على جمال الحضارة، جمعت بين كونها حمئة وبين حرارتها[1].

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾: لما تمكن منهم، وخير في شأنهم: كان حكمًا مقسطًا، إذ حكم على من بقي على الظلم بالعذاب، وعلى من اختار طريق الهداية بالخير والإحسان، فقال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ذكر جزاء الله له في الآخرة ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاقٌّ عليه، بل قولًا ذا يسر وسهولة، قولًا ميسورًا.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: يوم القيامة فيعذبه العذاب الشديد الأليم، الذي يحار العقل في أمره، لأنه لم ير مثله، ولا قريبًا منه ليعتبره به[2].

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً

رضي الله عنه، كما في السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٣٢١.
وأخرجها الطبري في تفسيره، ١٧/ ٥٩٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٦٩.

(١) قرأ ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائي (حامية) أي: حارة، والباقون (حَمِئَة) أي: كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء، تقول: حمأت البئر حمأ بالتسكين إذا نزعت حمأتها، وحمئت البئر حمأ بالتحريك كثرت حمأتها، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة، فخففت الهمزة وقلبت ياء، وقد يجمع بين القراءتين، فيقال: كانت حارة وذات حمأة.
انظر: النشر في القراءات العشر، الجزري ٢/ ٣١٤.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٠٢ بتصرف.

﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: يستحق البشارة بها، فضلًا عن حسن معاملته في الدنيا، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ فهو أهلٌ لكل فضل وسماحةٍ.

«فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم العادل، ويكون من بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض، فسيلقى العذاب الرادع من الحاكم المقسط في الدنيا، ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأشد بما اقترفت يداه في حياته الأولى»[1].

وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسنًا، ومكانًا كريمًا، وعونًا وتيسيرًا؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والاستقامة والجد والاجتهاد، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون؛ فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد[2].

قال ابن العربي: «وعلى الملك فرض أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغرهم من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي يجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤن، واستوفتها العوارض، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروطٍ:

١. ألا يستأثر بشيءٍ عليهم.
٢. أن يبدأ بأهل الحاجة منهم فيعينهم.
٣. أن يسوي في العطاء بينهم على مقدار منازلهم.

فإذا فنيت بعد هذا ذخائر الخزانة وبقيت صفرًا، فأطلعت الحوادث أمرًا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغن ذلك، فأموالهم تؤخذ منهم على تقديرٍ، وتصرف بأحسن تدبيرٍ.

فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال قال: لست أحتاج إليه، وإنما أحتاج إليكم فأعينوني بقوةٍ، أي: اخدموا بأنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم؛ ورأى أن الأموال لا تغني دونهم، وأنهم إن أخذوها أجرةً نقص ذلك مما يحتاج إليه، فعاد عليهم بالأخذ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى[3].

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ٣٠٥ بتصرف.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٢.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢٤٣.

ثانيًا: بلوغه مطلع الشمس:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ٩١ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢﴾ [الكهف: ٩٠ - ٩٢].

بعد رحلةٍ ناجحةٍ بلغ فيها ذو القرنين أقصى الغرب، سلك طريقًا إلى أقصى الشرق ليواصل مسيرته في حمل بشائر الخير ونشر مشاعل النور.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠﴾ أي: أقصى الشرق وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يسترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، قيل: كانوا حفاة عراة لا يأوون إلى شيء من العمارة؛ وقيل: لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقر عليها البناء، أو لما هم عليه من بداوةٍ، وخلوٍ من جميع مظاهر التمدن والرقي.

عن قتادة، في الآية قال:«ذكر لنا أنهم بأرض لا يثبت لهم فيها شيء، فهم إذا طلعت دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم»[1].

ولا بد أنه رحمه الله وقد حمل مشاعل النور وراية الإصلاح قد ارتقى بتلك البلاد ونهض بها وألحقها بركب الحضارة، فرسالة العبد الصالح رسالة تنوير وتحرير، رسالة إصلاح وتعمير، رسالة نهوض وتطوير.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ٩١﴾ أي: لا يعزب ذو القرنين وجيوشه عن علمنا مهما بلغوا من أصقاع بعيدة وبلادٍ نائيةٍ، ولا يخفى علينا تدبيره وسياسته، فهو مهما شرق أو غرب، في محيط ملك الله الواسع وسلطانه العظيم وتحت قهره وإرادته، وكل هذه البلاد البعيدة التي وصلها ذو القرنين: يعلمها الله تعالى فلا يخفى عليه من أحوالها خافيةٌ، وقد أحاط رب العالمين خبرًا بما لدى ذي القرنين من مواهب وملكات وطاقات وإمكانات تؤهله لارتياد الأقطار قائدًا مظفرًا وحاكمًا عادلًا.

فكما مكن الله تعالى له وهيأ له الأسباب وأعانه على الأخذ به فهو تعالى مطلعٌ عليه محيط بما لديه، خبيرٌ ببواطن الأمور.

ولو شاء الله تعالى لأخبر عن قصته على وجه التفصيل، ولكنه تعالى ذكر شيئًا منها للعظة والاعتبار، فلا يتوهمن أحدٌ أن إيجاز القرآن واقتضابه مما يقدح فيه، بل هو من وجوه بلاغته ومراعاته لمقتضى المقام، فذكر من القصة ما فيه تذكرةٌ، وأشار لذلك في البداية ﴿قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرٗا﴾.

قال البقاعي: «﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا﴾ بما لنا من العظمة، ﴿بِمَا لَدَيۡهِ﴾ أي: كله من الأمور التي هي أغرب المستغرب، ﴿خُبۡرٗا﴾ أي:

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ٩/ ٢٣٥.

من جهة بواطن أموره، فضلًا عن ظواهرها، فلا تستغرب إخبارنا عن ذلك، ولا عن أمر أصحاب الكهف، ولا يظن أن تفضيل أمر الوحي خفي عنا؛ لأنا مطلعون على خفايا الأمور وظواهرها، شواهدها وغوائبها، وكيف لا ونحن أوجدنا، ولكنا لا نذكر من ذلك إلا ما نريد، على ما تدعو إليه الحكمة، فلو شئنا لبسطنا هذه القصة وقصة أهل الكهف، وفصلنا أمر الروح تفصيلًا يعجز عن حفظه الألباء»[1].

«و﴿بِمَا لَدَيْهِ﴾ ما عنده من عظمة الملك من جندٍ وقوةٍ وثروةٍ. والخبر: العلم والإحاطة بالخبر، كنايةٌ عن كون المعلوم عظيمًا بحيث لا يحيط به علمًا إلا علام الغيوب»[2].

قال أبو السعود: «وقد أحطنا بما لديه من الأسباب والعدد والعدد خبرًا، يعني: أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير»[3].

فلما بلغ بلاد الشرق الأقصى قضى فيهم بعدله وحكمته، كما قضى فيمن سبقهم من أهل الغرب، حيث دعاهم لدعوة الحق وأقام عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ثم عاقب الكفرة الظلمة، وسالم أهل الحق وكرمهم وقربهم وبشرهم بما عند الله من ثواب عظيم. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: طريقًا آخر غير الطريق الأولى، وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق.

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطرق المؤدية إلى مقصده، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التواريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال، والسيرة الحميدة، والإعداد الموفي، والحزم المستيقظ المتقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة ولا مر بمدينة إلا دانت له، ودخلت في طاعته، وكل من عارضه أو توقف عن أمره جعله عظةً وآيةً لغيره»[4].

فلا يزال يرتقي سلم النهوض والتقدم، ويجتهد في الأخذ بالأسباب وتنميتها، وفي تكرار هذه العبارة: ما يدل على حرص هذا القائد الرباني على الأخذ بالأسباب واجتهاده في تحصيلها وتطويرها وتطويعها لتحقيق الهدف، ونيل المراد.

ثالثًا: بلوغه بين السدين:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ

(١) نظم الدرر ٤/ ٥٠٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٣٠.
(٣) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٤٤.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٠.

﴿وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

[الكهف: ٩٣ - ٩٨]

بعد أن ساهم في نهوض هذه الشعوب البدائية الفقيرة وتنويرها، توجه بهذا الخير إلى موضعٍ عبر عنه القرآن بأنه بين السدين، منطقة يحيط بها جبلان شاهقان وعران، حيث يتسلل المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون ثرواتها ويعيثون فيها فسادًا، فطلب أولئك المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سدًا منيعًا يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، وفي هذا ما يدل على ثقتهم في أمانته وقدراته.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾

وجد ذو القرنين من دون السدين قومًا لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم، ولا يكادون يفقهون أحدًا قولهم، مع ذلك تمكن من معرفة مطالبهم وفهمهم وتفهيمهم، بفضل ما وهبه الله تعالى من أسبابٍ.[1].

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

عرضوا على ذي القرنين أن يعطوه من أموالهم ما يستعين به على بناء السد، وأجرة بنائه؛ ليحميهم من أولئك المفسدين على سبيل حفزه وترغيبه، فقال لهم ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾: أجابهم هذا القائد الزاهد والإمام الراشد إلى مطلبهم دون مقابلٍ، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤديها في ربوع الكون، فهل يطمح في أعراض الدنيا الزائلة أم يجنح إلى هممٍ قاصرة؟ وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعة وانقيادًا وعزمًا واجتهادًا في غرس بذور الخير أينما حل.

«قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السد بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطأه لي، وقواني عليه، خيرٌ من جعلكم، وأجرتكم التي تعرضونها علي لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفعلة وصناعٍ يحسنون العمل والبناء»[2].

وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة، فإن القوم لو جمعوا له خرجًا لم يعنه أحد، ولو كلوه إلى البنيان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٠٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ١١٣ بتصرف.

ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج[1].

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردمًا، والردم: هو الحاجز، ولعله سمى السد الذي وعد بإنجازه ردمًا تواضعًا.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا﴾ أي: جيئوني بزبر الحديد، وهي جمع زبرة، والزبرة: القطعة من الحديد. فجعلها بين الصدفين، أي: حافتي الجبلين، حتى إذا ساوى بينهما بما جعل بينهما من زبر الحديد، قال للعمال: انفخوا النار، فنفخوا حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد نارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، أصب عليه قطرًا، والقطر: النحاس المذاب.

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثًا في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، كما أن النحاس أملس؛ لا يمكن تسلقه، فهدى الله ذا القرنين إلى هذه الوسيلة الناجحة.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزًا بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس لعلوه وملاسته، ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله؛ لسمكه وصلابته.

قال بعد أن أتم البناء بإحكام وإتقان: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: هذا البنيان رحمة وفضل من الله الذي وهبني العلم ومنحني الملكات والطاقات، وهيأ لي الأسباب حتى تم البناء الذي يحجز أولئك المفسدين ويحمي هؤلاء المستضعفين، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: مساويًا للأرض، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: كائنًا لا محالة. فأشار إلى مدة انتهاء صلاحية هذا الردم، وذلك عند تحقق الوعد الإلهي.

عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة، عن زينب بنت جحشٍ رضي الله عنهن أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ من نومه وهو يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) الحديث[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم:

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، ٢/ ٣٦٨، رقم ٣٣٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، ٤/ ٢٢٠٧، رقم ٢٨٨٠.

ارجعوا فستحفرونه غدًا، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله عز وجل أن يبعثهم إلى الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله، ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفًا في أقفائهم فيقتلهم بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمدٍ بيده، إن دواب الأرض لتسمن شكرًا من لحومهم ودمائهم)[1].

الدروس من قصة ذي القرنين

من الدروس والعبر التي تؤخذ من قصة ذي القرنين ما يأتي:

- من عوامل النهوض وأسباب الرقي: الأخذ بالأسباب المعينة على ذلك من الإيمان الخالص والعلم النافع والعمل الصالح، مع الإخلاص والتجرد والتوكل واليقين وعلو الهمة.
- العقيدة الصحيحة والإيمان الراسخ من صفات ذي القرنين، لاحظ كثرة ترديده لكلمة ربي، حتى لا تكاد تمر جملة إلا ويذكرها: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾. ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾، وفي هذا تعظيمٌ لله ومحبةٌ له، وترسيخٌ للعقيدة، وشكرٌ وامتنانٌ.
- في هذا نموذج يحتذى لخطاب الحكام والساسة، وترسيخ لمعاني الربوبية وتذكيرٌ بآثارها، وفيه ما يدل على محبة وتعظيم وعبودية وتسليم لله تعالى، فهو وإن قاد العالم لكنه ينقاد لخالقه وبارئه.
- خطاب الحاكم وكلماته لا بد وأن يعنى فيها بالترغيب والترهيب، ويذكر دائمًا بأمور الآخرة لما في ذلك من بالغ الأثر في إصلاح القلوب وتهذيب النفوس

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٦/ ٣٦٩، رقم ١٠٦٣٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، ٢/ ١٣٦٤، رقم ٤٠٨٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٥٢، رقم ٢٢٧٦.

وحفز الهمم لثواب الآخرة.

- قيام الحضارات لا يتأتى بين عشية وضحاها؛ بل يأتي بعد جهدٍ جهيدٍ وصبرٍ جميلٍ وإعدادٍ جيدٍ وتخطيطٍ محكمٍ، والأمم إن لم تنهض وتتقدم، فإنها تتقاعس وتتخلف.
- الحضارة الإسلامية تبعث في النفس روح النهوض والأمل، وتنمي ملكة الابتكار والتطوير، ويسعى المسلمون لنشر روح الحضارة والرقي في كافة بقاع الأرض ليعم الخير الجميع.
- ضرورة التخطيط الواعي المقترن بالتنفيذ المحكم لإصلاح البلاد والنهوض بها.
- حتى تصل رسالة التوحيد إلى الأمم والشعوب التي لم تصلها بعد لا بد وأن نكون أمة متحضرة متقدمة حتى يسمع العالم لنا، فهذا ذو القرنين يستمع العالم له ويشيد بعدله ويحتمي بسلطانه.
- في قصة ذي القرنين نموذجٌ رائعٌ ومثالٌ واقعيٌ للقائد الراشد والحاكم العادل والفاتح المؤيد، الذي يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛ فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها ؛ فلا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للكسب المادي، واستغلال الأفراد وابتزاز الشعوب، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه. . إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين المستضعفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التغيير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق، وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية في عهودها الأولى.
- العدل في العقوبة، فلا يتجاوز الحاكم حدود الشرع فيها، والإحسان في المكافأة والإثابة، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟
- الحزم في الأمور من صفات القائد والحاكم، تأمل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف: ٨٧].
- الأدب مع الله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ لما ذكر ما أعد الله له من الحسنى جزاء لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل، بل اقتصر على القول أدبًا مع الله تعالى، وإن كان يعلم أنه يحسن إليه فعلًا وقولًا.
- في تخيير ذي القرنين رحمه الله بين أن يعذبهم وبين أن يتخذ فيهم حسنًا، ما يدل على ما كانوا عليه من ظلمٍ

بينٍ، وصدٍ عن الحق، مما يستوجب معاقبتهم، وفي هذا ما يرشد إلى وجوب مجابهة الظالمين وكفهم عن ظلمهم.

- التيسير من مقاصد الشريعة ومظاهرها، وهو واجب شرعي على الحكام والمسؤولين، فينبغي مراعاته، سيما لمن هو أهله من أهل الصلاح والاستقامة، والتيسير في القول والفعل .
- من صفات الحاكم والقائد الرحمة، فالرحمة من كريم الشمائل، ومن الواجبات والمقاصد الشرعية مهمة الحاكم تحقيقها ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].
- الحاكم العادل يعطي الرعية أكثر مما تطمح إليه، حيث بنى لهم سدًا منيعًا دون مقابل مادي.
- الحاكم المسلم لا بد وأن يكون مؤهلًا بمعارفه الواسعة وثقافاته المتشعبة وفقهه بأمور الدين والحياة.
- أهمية تعلم اللغات للتفاهم والتواصل والتعاون مع الشعوب، عن ابن زيدٍ رضي الله عنه، في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، قال: «علمًا، من ذلك تعليم الألسنة، كان لا يعرف قومًا إلا كلمهم بلسانهم»[1].
- الأخذ بالأسباب وإعداد العدة للأسفار البعيدة بما يناسبها.
- الهمة العالية والعزيمة القوية لبلوغ الأهداف.
- التأكيد على أهمية طلب العلم والتزود بالمعرفة، والسؤال عما يجهله الإنسان أو السؤال للتثبت من الإجابة، والسؤال هو المفتاح الثاني بعد القراءة لطلب المعارف والعلوم واكتشاف المجهول.
- حرص الحاكم القائد على نشر أصول الحضارة والمدنية في دائرة ملكه وخارجها.
- ضرورة إعداد الجيوش وتجهيزها بأحدث التقنيات مع إعداد الجنود والقادة، فلا سبيل إلى إزاحة الأنظمة المستبدة وحماية المستضعفين، وتمهيد طريق الدعوة، وتأمين المدعوين، ونشر العدالة والرحمة، إلا بالجهاد.
- من صفات الإمام العادل أنه حربٌ على أعداء الله وسلم لأولياء الله، يدني أهل الطاعة ويباعد أهل المعصية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويذكر دائمًا بفضل الله ورحمته، ومن واجبه أن يصون البلاد من كل مكروهٍ.

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٣٠.

- جمع إلى جانب العلم النافع والخبرة الدقيقة والمهارة الفائقة والإمكانات الهائلة: التواضع الرفيع والإيمان العميق والنفس الراضية العفيفة، والأيادي السخية النظيفة، والأريحية والشهامة: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾. لم يستغل حاجتهم في تجريدهم من الممتلكات والثروات، كما تفعله في عصرنا الحاضر الأمم الغالبة المتحضرة مع الشعوب المقهورة النامية، من نهب ثرواتهم وحصد خيراتهم وجني ثمارهم! والتآمر على بقائهم تحت وطأة الجهل ونير الاستبداد. ما فعل ذو القرنين كما تفعل تلك الدول التي ترهق الشعوب الفقيرة بالديون المركبة، تطوق بها أعناقهم وتلهب بها ظهورهم، وتنتزع ولاءهم وخنوعهم! وترغم أنوفهم.
- في حبس ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم: دليلٌ على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، لمعاقبتهم ومنع شرهم وتقويم سلوكهم . قال القرطبي: في هذه الآية (آية السد) دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضربًا ويحبسون، أو يكفلون ويطلقون[1].
- دفع الشر بأيسر ما يندفع به، ذلك أن ذا القرنين مع حزمه وقوته رأى أن بناء السد كافٍ في دفع أذى يأجوج ومأجوج دون الحاجة لإراقة الدماء.
- شكر المنعم وإجلاله والتواضع لعظمته والإقرار بفضله: قال السعدي: «فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله، كما قال سليمان عليه السلام ، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]. بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض، فإن النعم تزيدهم أشرًا وبطرًا»[2].
- ألا ما أحوج البشرية إلى الدعاة والمصلحين والقادة الراشدين، الذين يبددون ظلام الاستبداد، ويقطعون

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٥٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٦

دابر الفساد، ويقيمون موازين القسط، ويرفعون مشاعل النور، كما قال محمد إقبال[1]:

فأين جحافل الأبطال منا
يضيء مسيرها للسالكين
وتغبطها شعوبٌ أرهقتها
بالاستبداد أيدي الظالمين

- سرعة تحقيق العدالة وإنجاز الأعمال التي تجلب المصالح أو تدفع المضار للأمم والشعوب، فالعدالة البطيئة ظلم، والتواني في إنجاز المشاريع مفسدة عظيمة.
- السياحة في الأرض والتجوال فيها لا بد وأن تكون هادفةً بناءةً ليس لمجرد المتعة والتسلية، بل لنشر قيم العدالة والخير.
- النظر والتأمل والاستمتاع بروائع الكون وظواهره الخلابة، كمنظر الشمس وهي تغرب، فيلتقي قرصها وهو آخذٌ بالاحمرار مع زرقة البحار، في مشهد يأخذ بالأبصار.
- السياحة في الأرض تؤدي إلى تلاقح الأفكار وتبادل الخبرات، فضلًا عن تقارب الأمم والشعوب ولقاء الحضارات.
- السعي إلى غوث الملهوف ونصرة المظلوم دون ترددٍ ولا تقاعس.
- أهمية الصناعات الثقيلة وأثرها في حالة السلم والحرب.
- العلم والمعرفة والخبرات ملكٌ للإنسانية ليس لأحد أن يحتكرها.
- ربط الأعمال كلها بمشيئة الله سبحانه.
- التعاون والعمل الجماعي يساعد في إنجاز المهمات الكبرى.
- لا تزال هناك أممٌ متخلفة عن ركب الحضارات، وقبائل تعيش في أصقاع الأرض، في جزر نائية أو أدغال، أو قمم جبال منعزلة تمامًا عن البشرية، وتلك مسؤولية الشعوب والحكومات المتحضرة أن تمد يد العون.

(١) ديوان محمد إقبال، مختارات من شعره ص ٣، ٢٨، ١٠٧.

لمسات بيانية في قصة ذي القرنين

- حسن المطلع، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]. فالبداية بالسؤال من بلاغة الاستهلال وروائعه، ومما يسترعي الانتباه ويلفت الأنظار، ويشوق النفوس، وفي الجواب شفاءٌ ووفاءٌ، بما يفي بحاجة السائل، «والتعبير بصيغة الاستقبال ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ لاستحضار الصورة الماضية؛ لما أن في سؤالهم على ذلك الوجه مع مشاهدتهم من أمره ما شاهدوا نوع غرابة، وقيل: للدلالة على استمرارهم على السؤال إلى ورود الجواب»[1].
- ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ قصة ذي القرنين جديرةٌ بالمذاكرة والمدارسة لما فيها من عبرٍ وعظاتٍ وحكمٍ ومعانٍ وآدابٍ وشمائل، وفوائد للقادة والمصلحين والساسة والمربين والرعايا، فكان جديرًا بأن يذكر في أشرف الكتب ويتردد على مسامع خير الأمم، فهو أسوةٌ للحكام قدوة للقادة إمامٌ للمصلحين.
- بداية القصة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ من حسن المطلع وروعة الاستهلال، إذ قبل الحديث عن ملك من أعظم ملوك الأرض يأتي الحديث عن ملك الملوك، فهو من وهب لذي القرنين هذا الملك العظيم ومكن له، فالتمكين من الله تعالى. والتعبير بنون العظمة دليل على عظمة الله تعالى وعظمة ما وهبه لذي القرنين من ملك وسلطانٍ وتمكينٍ في الأرض، قال البقاعي: «ولما كانت قصته من أدل دليل على عظمة الله، جلاها في ذلك المظهر فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا﴾ أي: بما لنا من العظمة، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ بعظمتنا»[2].
- بلاغة الربط بين الأحداث، وجمال الفواصل بينها ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾، تكررت مع كل رحلة، وانتهاء الفاصلة بالألف المدية من جمال القرآن الكريم.
- دقة القرآن الكريم في التعبير بالفاء ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وبـ(ثم) في ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ فالفاء تدل على الجد والمبادرة إلى الأخذ بالمزيد من الأسباب، و(ثم) تدل على التراخي الزمني، بين هذه الرحلات.
- والتعبير بالفاء ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يشير إلى همةٍ عالية وعزيمةٍ قويةٍ تأخذ

(١) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٢٤.

(٢) نظم الدرر ٤/ ٥٠١.

الأمور بجدٍ، فلا توانٍ ولا تقاعس ولا تكاسل ولا تراخي عن الأخذ بأسباب التقدم والنهوض، أما التعبير بـ(ثم) مرتين ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ فيشير إلى دأبه واستمراره على طلب المزيد.

- قدم العذاب الدنيوي على الأخروي لأن الكافر يرعوي وينزجر بالعقاب الدنيوي، بينما قدم ما عند الله على ما عنده؛ لأن نفوس المؤمنين تطمح لما لها عند رب العالمين وتستشرف هذا الثواب المدخر، وتتشوف لنصيبها في الآخرة.
- جاء التعبير بسوف: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ للدلالة على إمهاله لهم حتى تقام عليهم الحجج، فإن هم أصروا على كفرهم وظلمهم فقد استوجبوا العقاب، كما أن (سوف) أبلغ من السين، وفي ذلك إمعانٌ في تهديدهم إن لم يتوبوا، قال أبو حيان: «وأتى بحرف التنفيس في ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ لما يتخلل بين إظهاره كفره وبين تعذيبه من دعائه إلى الإيمان وتأبيه عنه، فهو لا يعاجلهم بالقتل على ظلمهم، بل يدعوهم ويذكرهم، فإن رجعوا وإلا فالقتل»[1].
- ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ تقديم ﴿فَلَهُۥ﴾ للاعتناء والتخصيص، وتأخير الحسنى للتشويق مع مراعاة الفاصلة، مع فصاحة التركيب.
- المقابلة بين الظلم والإيمان: والأصل المقابلة بين الإيمان والكفر؛ لأن الكافر لا يعاقب دنيويًا على كفره فحسب، بل يعاقب على ظلمه واعتدائه.
- دقة القرآن الكريم في ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ﴾: قال البقاعي: «وزيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل»[2].

موضوعات ذات صلة:

التمكين، التطوع، الحضارة، السياسة، الفساد

(١) البحر المحيط ٦/ ١٥٦.

(٢) نظم الدرر ٤/ ٥٠٥.

الرُّؤْيَا

عناصر الموضوع

مفهوم الرؤيا	٢٨٤
الرؤيا في الاستعمال القرآني	٢٨٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٨٦
أنواع الرؤيا	٢٨٩
الرؤيا والنبوة	٢٩٦
رؤيا ملك مصر وفتيانه	٣١٧
الأصول القرآنية في تعبير الرؤى	٣٢٤

مفهوم الرؤيا

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن منظور: «والرؤيا ما رأيته في منامك... وهي الرؤى، ورأيت عنك رؤى حسنة حلمتها، وأرأى الرجل إذا كثرت رؤاه بوزن رعاه، وهي أحلامه، جمع الرؤيا، ورأى في منامه رؤيا على فعلى بلا تنوين، وجمع الرؤيا رؤى بالتنوين مثل رعى»[(١)].

وقال الفراهيدي: «ولا تجمع الرؤيا، ومن العرب من يلين الهمزة فيقول: رويا، ومن حول الهمزة فإنه يجعلها ياءً، ثم يكسر فيقول: رأيت ريًا حسنة، والري ما رأت العين من حال حسنة من المتاع واللباس»[(٢)].

وقال الفراء: «إذا تركت العرب الهمزة من الرؤيا قالوا: الرويا، طلبًا للخفة، فإذا كان من شأنهم تحويل الواو إلى الياء قالوا: (لا تقصص رياك) في الكلام، وأما في القرآن فلا يجوز. قال: ولا تجمع الرؤيا، وقال غيره: تجمع الرؤيا: رؤى، كما يقال: عليا، وعلى».[(٣)]

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يوجد فرق كبير بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، لأنها لا تعدو معنى ما يراه المرء في النوم.

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٩١.
(٢) العين، الفراهيدي ٨/ ٣٠٧.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٢٢٨.

الرؤيا في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رأي) في القرآن الكريم (٣٢٧) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٤	﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾[الصافات:١٠٢]
الفعل الماضي	١	﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]
المفرد	٧	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف:٤٣]

وجاءت الرؤيا في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: ما يراه الإنسان في منامه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٨٠-٢٨٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٩٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحلم:

الحلم لغة:

الحلم بالضم والحلم بضمتين: الرؤيا، وجمعها الرؤى، وهي أحلامٌ، حلم في نومه واحتلم وتحلم وانحلم، وتحلم الحلم: استعمله وحلم به، وعنه: رأى له رؤيا أو رآه في النوم[(١)].

قال الليث: «الحلم الرؤيا، يقال: حلم يحلم إذا رأى في المنام، والحلم: بضم الحاء واللام أو ضم الحاء وسكون اللام، وهو ما يراه النائم، والحلم: بكسر الحاء وسكون اللام هو الأناة والعقل»[(٢)].

الحلم اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، إلا أنه غلب في الاستعمال الشرعي على ما يراه النائم من الشر والقبيح.

الصلة بين الرؤيا والحلم:

قال ابن الاثير: «الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم في نومه، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقبيح، ومنه قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف:٤٤]. ويستعمل كل واحد منهما موضع الآخر»[(٣)].

ويؤيده الحديث النبوي: (الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم فليتعوذ منه، وليبصق عن شماله، فإنها لا تضره)[(٤)].

قال ابن حجر: «إن التي تضاف إلى الله لا يقال لها: حلم، والتي تضاف للشيطان لا يقال لها: رؤيا، وهو تصرف شرعي وإلا فالكل يسمى رؤيا»[(٥)].

---

(١) القاموس المحيط، الفيرزوآبادي ص ١٠٩٦.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٦٩.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الجزري ص ١٠٣٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، ٦/ ٢٥٦٣، رقم ٦٥٨٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧١، رقم ٢٢٦١.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣٦٩.

٢ الرؤية:

الرؤية لغة:

وتعني إدراك المرئي والإقبال بالبصر نحوه، قد يدرك وقد لا يدرك؛ ولذلك قد ينظر الشخص ولا يرى المرئي، وعليه فيجوز أن يقال لله تعالى: إنه راءٍ، ويقال: إنه ناظر.

الرؤية اصطلاحًا:

هو «المشاهدة بالبصر حيث كان في الدنيا والآخرة»[(١)].

الصلة بين الرؤيا والرؤية:

إن الاستعمال الشائع للفظة «الرؤيا» هو ما يراه الإنسان في النوم، وأما معنى «الرؤية» فهو ما يراه الإنسان بحاسة بصره، أي: بعينه، وما يراه بقلبه، أي: فكره، وفرق بين الرؤيا والرؤية بتاء التأنيث للفرق بين ما يراه النائم وما يراه اليقظان.

قال ابن حجر: «وأما الرؤيا فهي ما يراه الشخص في منامه، وهي بوزن فعلى، وقد تسهل الهمزة، وقال الواحدي: هي في الأصل مصدر كاليسرى، فلما جعلت اسمًا لما يتخيله النائم أجريت مجرى الأسماء»[(٢)].

قال الفيروز آبادي: «الرؤية: النظر بالعين وبالقلب»[(٣)].

قال الراغب: «والرؤية: إدراك المرئي، وذلك أضرب بحسب قوى النفس، والأول: بالحاسة وما يجري مجراها، نحو ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر:٦-٧]. والثاني: بالوهم والتخيل، نحو أرى أن زيدًا منطلق، والثالث: بالتفكر، نحو ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:٤٨]. والرابع: بالعقل، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم:١١]»[(٤)].

قال ابن حجر نقلًا عن بعض العلماء: «وقد تجيء الرؤية بمعنى الرؤيا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]»[(٥)].

---

(١) التعريفات، الجرجاني ص١٠٩.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣٥٢.
(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٢٨٥.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٤.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣٥٢.

٣ الوحي:

الوحي لغة:

الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وحيت إليه الكلام وأوحيت، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه[١].

الوحي اصطلاحًا:

قال الزرقاني: «الوحي في لسان الشرع أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر»[٢].

الصلة بين الرؤيا والوحي:

الرؤيا في حق الأنبياء عليهم السلام وحي، وأما غيرهم فليست وحيًا، ولكنها من البشارات، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة)[٣].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٧/ ٣٧٠، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٧٩.
(٢) مناهل العرفان، الزرقاني ١/ ٦٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، ٩/ ٣١، رقم ٦٩٨٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧٣، رقم ٢٢٦٣.

أنواع الرؤيا

إن النبي صلى الله عليه وسلم قسم الرؤيا إلى ثلاثة أقسام، منها ما تكون رؤيا صادقة، ومنها ما يكون من فعل ابليس، ومنها ما يكون من حديث النفس.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس)[1].

قال ابن القيم: «والرؤيا كالكشف، منها رحماني، ومنها نفساني، ومنها شيطاني»[2].

ولم يحك القرآن الكريم من هذه الأنواع إلا النوع الأول، وجاء ذكر أضغاث الأحلام عرضًا على لسان حاشية ملك مصر تارة، وعلى لسان المشركين تارة أخرى، كما سيأتي.

أولًا: الرؤيا الصالحة:

الرؤيا الصالحة هي الرؤيا الصادقة ومعنى الصادقة: المطابقة للواقع، وهي الرؤيا الحق، لأنها تقع كما هي، وهي الرؤيا الحسنة أيضًا، باعتبار حسن ظاهرها، أو حسن تأويلها، وهذه هي الأسماء والأوصاف النبوية التي أطلقت على الرؤيا الصالحة.

وكل الرؤى التي تناولها القرآن الكريم كانت عبارة عن رؤى صادقة، فقد قص علينا رؤى سيدنا إبراهيم ويوسف ومحمد عليهم الصلاة والسلام رؤاهم الصالحة، وكانت رؤيا الفتيان ورؤيا ملك مصر من الرؤى الصادقة كذلك، وسيأتي الكلام على ذلك بالتفصيل في المباحث اللاحقة.

قال المهلب: «الرؤيا الصالحة هي تباشير النبوة؛ لأنه لم يقع فيها ضغث فيتساوى مع الناس في ذلك، بل خص صلى الله عليه وسلم بصدقها كلها»[3].

وهي أول ما بدئ الوحي بها، واستمرت مدة ستة أشهر من ربيع الأول إلى شهر رمضان المبارك حيث جاءه الوحي الصريح.

وإنما اقتصر الوحي في بدايته على الرؤيا فقط مراعاة لسنة التدرج، وتلطفًا وإيناسًا له صلى الله عليه وسلم، ورفقًا به، لئلا يفجأه الملك يقظة فيشق عليه، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، أي: فكانت رؤياه صلى الله عليه وسلم كلها صحيحة صادقة، لا يرى رؤيا إلا تحقق تفسيرها وظهر، كما يظهر الصباح في هذا الوجود[4].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧٣، رقم ٢٢٦٣.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١.
(٣) عمدة القاري، العيني ١/ ٥٣.
(٤) منار القاري، حمزة قاسم ١/ ٣٤.

أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[1].

وفي صحيح البخاري جاء وصفها بالرؤيا الحسنة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة)[2].

قال المهلب: «المراد غالب رؤيا الصالحين، وإلا فالصالح قد يرى الأضغاث، ولكنه نادر لقلة تمكن الشيطان منهم، بخلاف عكسهم، فإن الصدق فيها نادر لغلبة تسلط الشيطان عليهم، فالناس على هذا ثلاث درجات الأنبياء ورؤياهم كلها صدق، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير، والصالحون والأغلب على رؤياهم الصدق، وقد يقع فيها ما لا يحتاج إلى تعبير، ومن عداهم يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث، وهي على ثلاثة أقسام: مستورون، فالغالب استواء الحال في حقهم، وفسقة، والغالب على رؤياهم الأضغاث ،ويقل فيها الصدق، وكفار، ويندر في رؤياهم الصدق جدًا»[3].

ويكفي الرؤيا الصالحة أنها مضافة إلى الله عز وجل إضافة تشريف، وكما جاء ذلك في الصحيحين عن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم فليتعوذ منه وليبصق عن شماله، فإنها لا تضره)[4].

وإنها جزء من أجزاء النبوة كما تقدم، وإنها من مبشرات النبوة التي يبشر بها المؤمن، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: (أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له)[5].

والرؤيا الصالحة من النعم الإلهية التي تستحق الشكر، ولهذا يستحب لمن رأى رؤيا صالحة تسر بها نفسه أن يشكر الله عليها؛ لأنها نعمة، وأن يحدث بها أحبابه الذين يثق بهم،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٤، رقم ٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٣٩، رقم ١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب رؤيا الصالحين، ٦/ ٢٥٦٢، رقم ٦٥٨٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣٦٢.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، ١/ ٣٤٨، رقم ٤٧٩.

ويطمئن إلى علمهم ورجاحة عقلهم[1].

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله، فليحمد الله عليها وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد، فإنها لن تضره)[2].

قال ابن القيم: «والرؤيا الصحيحة أقسام، منها: إلهام يلقيه الله سبحانه في قلب العبد، وهو كلام يكلم به الرب عبده في المنام، كما قال عبادة بن الصامت وغيره، ومنها: مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها، ومنها: التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم، ومنها: عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له، ومنها: دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك، فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التي هي عند الناس من جنس المحسوسات»[3].

ومن علامات الرؤيا الصالحة تواتر المسلمين عليها، كما حصل للصحابة رضي الله عنهم في رؤاهم لليلة القدر في السبع الأواخر، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن رجالًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر)[4].

قال ابن القيم: «فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شيء، كان كتواطؤ روايتهم له وكتواطؤ رأيهم على استحسانه واستقباحه، وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح»[5].

ومن علامات الرؤيا الصادقة صدق الحديث، فمن كان أصدق الناس حديثًا كان أصدقهم رؤيا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا)[6].

قال النووي: «ظاهره أنه على إطلاقه، وحكى القاضي عن بعض العلماء أن هذا

(١) منار القاري، حمزة قاسم ٥/ ٣٤٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ٦/ ٢٥٨٢، رقم ٦٦٣٨.
(٣) الروح، ابن القيم ص ٢٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب صلاة التراويح، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، ٢/ ٧٠٩، رقم ١٩١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها، ٢/ ٨٢٢، رقم ١١٦٥.
(٥) الروح، ابن القيم ص ٩.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧٣، رقم ٢٢٦٣.

يكون في آخر الزمان عند انقطاع العلم وموت العلماء والصالحين ومن يستضاء بقوله وعمله، فجعله الله تعالى جابرًا وعوضًا ومنبهًا لهم، والأول أظهر»[1].

وقال ابن القيم: «والذي هو من أسباب الهداية هو الرؤيا التي من الله خاصة، ورؤيا الأنبياء وحي، فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة؛ ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا، وأما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة أو تواطأت؟

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له منبهة عليه أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه لم يعرف الرائي اندراجها فيه فيتنبه بالرؤيا على ذلك، ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال والمحافظة على الأمر والنهي، ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه، فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة»[2].

ثانيًا: حديث النفس:

ولم يرد شيء من هذا النوع «حديث النفس» في القرآن الكريم، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام بين المقصود من رؤيا حديث النفس بأنها: (ورؤيا يحدث بها الرجل نفسه) وجاءت بلفظ آخر وهي: (ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس)[3].

وفي سنن ابي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن أن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا، والرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، والرؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس)[4].

وعند ابن ماجه والطبراني عن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرؤيا ثلاث منها أهاويل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم،

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٢٠.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١- ٥٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧٣، رقم ٢٢٦٣.
(٤) أخرجه أبو داود ، في سننه، ٤/ ٤٦٢، والترمذي في سننه، ٤/ ٥٣٢.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ومنها ما يهم به الرجل في يقظته، فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة)[١].

قال القاضي عياض: «إن ما يكون من الأخلاط من باب ما يحدث به المرء نفسه، لأن غلبة حديث المرء عليه في يقظته تعتريه في نومه حتى يسمعه يتكلم به، وقد يعتريه عند شدة مرضه وبرسامة إغمائه حتى في صحته عند اشتغال سره، يتكلم بشيء مع غيره، فيقلب اللفظ ويغير الخطاب ببعض الكلمات والأسماء التي يحدث بها المرء نفسه، وكذلك غلبة الخلط عليه هو من هذا الباب»[٢].

قال العزيزي: «وهو ما كان في اليقظة يكون في مهم، فيرى ما يتعلق به في النوم»[٣].

قال القرطبي: «ويدخل فيه ما يلازمه في يقظته من الأعمال والعلوم والأقوال، وما يقوله الأطباء من أن الرؤيا من خلط غالب على الرائي»[٤].

والمراد هنا: جميع الأحلام الناشئة عن أمور نفسية، فمن أراد أمرًا ما، أو تمناه، أو هم به، أو عزم على فعله، أو انشغل فكره بما له تعلق بمزاجه أو عادته المستمرة، وما إلى ذلك، فقد حدث به نفسه، فإذا رأى ذلك الأمر في منامه، فإن رؤياه من قبيل الأحلام النفسية[٥].

وهي كما وصفت في الحديث الشريف، مما يحدث به المرء نفسه، أو ما يهم به في يقظته، فيراه في منامه، فهي ما يراه في منامه مما يقع له في مجريات حياته، من الخواطر التي تجري من غير قصد، وهذا كثير في مرائي الناس، كمن يرى أنه يأكل ويشرب ونحو ذلك مما تحدث به نفسه في اليقظة.

وعلامة هذا القسم أنه من الأمور المباحة، فلا يسر كحال الرؤية الصالحة، ولا يحزن كالتي من الشيطان، ومثلها الهم والخواطر في اليقظة، وهذا القسم لا حكم له ولا دلالة له[٦].

ثالثًا: أضغاث الاحلام:

قال ابن فارس: «والضغث يدل على التباس الشيء بعضه ببعض، يقال للحالم: أضغثت الرؤيا، والأضغاث الأحلام الملتبسة، والضغث قبضة من قضبان أو حشيش، والأضغاث جمع ضغث»[٧].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا ثلاث، ٢/ ١٢٨٥، رقم ٣٩٠٧. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٤٨٧، رقم ١٨٧٠.
(٢) إكمال المعلم، القاضي عياض ٧/ ٢١٥.
(٣) عون المعبود، العظيم الآبادي ١٣/ ٢٤٧.
(٤) فيض القدير، المناوي ٤/ ٤٧.
(٥) دراسة أحاديث: الرؤيا من أجزاء النبوة ص١٠.
(٦) الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين ص ١١٣-١١٤.
(٧) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٦٣.

قال الأزهري: «وكذلك أضغاث الرؤيا اختلاطها والتباسها، وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال غيره ما لا تأويل له. قال: وإنما سميت أضغاث أحلام لأنها مختلطة، فدخل بعضها في بعض، وليست كالصحيحة من الرؤيا»[(١)].

قال ابن جريج: قال لي عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها: الكاذبة. وقال الهروي: قوله تعالى ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط أحلام[(٢)].

وقد جاء هذا الوصف في القرآن الكريم مرتين، مرة في في شأن يوسف عليه السلام مع ملك مصر، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:٤٤].

ومرة في حكاية سخرية كفار قريش بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء:٥].

قالت د. عائشة بنت الشاطيء: «استعمل القرآن الأحلام ثلاث مرات، يشهد سياقها بأنها الأضغاث المهوشة والهواجس المختلطة، وتأتي في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع، دلالة على الخلط والتهويش لا يتميز فيه حلم من آخر»[(٣)].

وقد عرفتها السنة النبوية بأنها تحزين من الشيطان، كما مر في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ورؤيا تحزين من الشيطان، فمن رأى ما يكره فليقم فليصل)[(٤)].

ووردت في رواية عوف بن مالك رضي الله عنه بأنها أهاويل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم، كما مرت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الرؤيا ثلاث، منها أهاويل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم)[(٥)].

ورواها ابن ابي شيبة عن عوف بن مالك رضي الله عنه بلفظ: تخويف من الشيطان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الرؤيا على ثلاثة، منها تخويف من الشيطان ليحزن بها ابن آدم، ومنها الأمر يحدث به نفسه في اليقظة فيراه في المنام، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة)[(٦)].

وأضغاث الأحلام: هي الأحلام

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٤٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٩.
(٣) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص ٢١٥.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٨١.

الشيطانية التي يصورها الشيطان للإنسان في أثناء نومه أشكالًا مختلفة من الأشباح المخيفة، التي تؤذي النائم، وتثير في نفسه الآلام والمخاوف، وتسبب له القلق النفسي، فقد يرى أسدًا يفترسه، أو عدوًا يقتله، وما هي إلا مجرد خيالات لا تمت إلى الواقع بصلة[١].

وفي كل الروايات نص بأنها من إفزاع من الشيطان الرجيم، وأن الشيطان يصور للإنسان في منامه ما يخوفه، ولهذا يستحب لمن رأى شيئًا من ذلك أن يستعيذ بالله تعالى من شرها، وذلك كما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله، فليحمد الله عليها وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد، فإنها لن تضره)**[٢].

وإنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتعوذ منها مع أنها خيال لا حقيقة، له ليتخلص من تأثيرها النفسي وما تحدثه من وساوس وأوهام وآلام نفسية قد تؤدي بصاحبها إذا استسلم لها إلى الجنون أو الموت المحقق؛ لأن الوهم وحش كاسر يقتل صاحبه ويفتك به، فالتعوذ من هذه الرؤى يقضي على آثارها النفسية، ويخلص المرء من شرها، كما روي عن أبي سلمة رضي الله عنه أنه قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت أبا قتادة رضي الله عنه يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا، فتمرضني حتى سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(الحلم من الشيطان)**[٣]، فما كنت أباليها، أي: فما عادت تخيفني لقناعتي نفسيًا بعدم تأثيرها سيما بعد الاستعاذة منها[٤].

إن للرؤيا الفاسدة أمارات يستدل بها عليها، فمنها أن يرى ما لا يكون كالمحالات وغيرها مما يعلم أنه لا يوجد بأن الله سبحانه وتعالى على صفة مستحيلة عليه، أو يرى نبيًا يعمل عمل الفراعنة، أو يرى قولًا لا يحل التفوه به[٥].

ومن الأضغاث ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأعرابي جاءه فقال: إني حلمت أن رأسي قطع فأنا أتبعه، فزجره النبي صلى الله عليه وسلم وقال: **(لا تخبر بتلعب الشيطان بك في المنام)**[٦].

---

(١) منار القاري، حمزة قاسم ١/ ٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ٦/ ٢٥٨٢، رقم ٦٦٣٨.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) منار القاري، حمزة قاسم ١/ ٤٤.

(٥) أدب المفتي والمستفتي، ابن الصلاح ص١٤٣.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا،

قال ابن الجوزي: «وهذا تنبيه على أن كل رؤيا كانت من هذا الجنس، فلا ينبغي أن يتحدث بها، فإنها من الشيطان»[1].

قال المازري: «يحتمل أن النبي صلى الله عليه وسلم علم أن منامه هذا من الأضغاث بوحي أو بدلالة من المنام دلته على ذلك، أو على أنه من المكروه الذي هو من تحزين الشياطين»[2].

وأخرج ابن أبي حاتم أن عمر بن الخطاب قال: «العجب من رؤيا الرجل، إنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على باله فتكون رؤيا كأخذ باليد، ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئًا! فقال علي بن أبي طالب، أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢].

فالله يتوفى الأنفس كلها، فما رأت وهي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها، فعجب عمر من قوله»[3].

الرؤيا والنبوة

لقد كان للرؤيا الصالحة نصيب من النبوة في القرآن الكريم؛ لأنها من الوحي بالنسبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي من المبشرات بالنسبة لغيرهم، وستتناول رؤى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في النقاط الآتية.

أولًا: رؤى الأنبياء وحي:

الرؤيا الصالحة هي أول مراتب الوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولهذا عنون الإمام البخاري في أول صحيحه (كتاب بدء الوحي) وبوب له (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)، والمناسبة في ذلك أنه ذكر حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[4].

والمراد بفلق الصبح ضياؤه، وخص بالتشبيه؛ لظهوره الواضح الذي لا شك فيه.

باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام، ٤/ ١٧٧٦، رقم ٢٢٦٨.

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٣/ ٩٧.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٢٧.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٥٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٤، رقم ٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٣٩، رقم ١٦٠.

قال ابن عباس: «رؤيا الأنبياء وحي»[1].

قال الحافظ ابن حجر: «ورؤيا الأنبياء وحي، بخلاف غيرهم، فالوحي لا يدخله خلل؛ لأنه محروس، بخلاف رؤيا غير الأنبياء، فإنها قد يحضرها الشيطان»[2].

وكذلك فإن أعينهم تنام، ولكن قلوبهم لا تنام، كما ثبت في الصحيحين أن عائشة رضي الله عنها سئلت كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان؟ فقالت: (ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: (يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي)[3].

قال ابن عاشور: «وكان أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة، ولكن الشريعة لم يوح بها إليه إلا في اليقظة مع رؤية جبريل دون رؤيا المنام، وإنما كانت الرؤيا وحيًا له في غير التشريع، مثل الكشف على ما يقع، وما أعد له، وبعض ما يحل بأمته، أو بأصحابه، فقد رأى في المنام أنه يهاجر من مكة إلى أرض ذات نخل، فلم يهاجر حتى أذن له في الهجرة، كما أخبر بذلك أبا بكر رضي الله عنه، ورأى بقرًا تذبح، فكان تأويل رؤياه من استشهد من المسلمين يوم أحد»[4].

والملاحظ أن الرؤيا الصالحة لم ترد في جواب النبي عليه الصلاة والسلام حينما سأله الحارث بن هشام رضي الله عنه كيف يأتيك الوحي؟ قال صلى الله عليه وسلم: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا، فيكلمني فأعي ما يقول)، قالت عائشة رضي الله عنها: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[5].

لأن الرؤيا قد يشاركه فيها غيره، والمقصود من الرؤيا الصادقة هو اعتبار صدقها لا غير، وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبيًا، وعلى هذا الأساس ذهب أهل العلم إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوح اليه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٩.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣٥٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل في رمضان وغيره، ٢/ ٥٣، رقم ١١٤٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه وسلم، ١/ ٥٠٩، رقم ٧٣٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٥٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٤، رقم ٣.

بالقرآن الكريم في النوم عن طريق الرؤيا، أما غير القرآن فهذا هو المقصود بالوحي، لأنه لا خلاف بين أهل العلم في أن رؤيا الأنبياء وحي لما تقدم من حديث البخاري في كتاب بدء الوحي، وكذلك هي داخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١].

كما تقدم في المبحث الأول في العلاقة بين الرؤيا والوحي.

ولأن إبراهيم عليه السلام ما كان ليذبح ابنه بسبب رؤيا رآها لولا أن تلك الرؤيا من الوحي.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات:١٠٢].

ورؤيا الأنبياء عليهم السلام حق أيضًا، قال تعالى في رؤيا يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠].

وعن معاذ رضي الله عنه قال: (إن كان عمر لمن أهل الجنة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ما رأى في يقظته أو نومه فهو حق، وإنه قال: (بينما أنا في الجنة إذ رأيت فيها دارًا، فقلت: لمن هذه؟ فقيل: لعمر بن الخطاب رضي الله عنه)[1].

وهي صدق أيضًا، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧].

والرؤى التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة، وقد عدها العلماء من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام؛ لتضمنها أمورًا غيبية مستقبلية، وتحقق وقوعها كلها كما رآها عليه الصلاة والسلام وكما عبرها، ولنكتفي بذكر بعض الأمثلة من الصحيح على ذلك، ففي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته بأخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقرًا والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد،

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٤٣١، رقم ٢٢١٢٠.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٧٤: رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

وإذا الخير ما جاء الله به من الخير، وثواب الصدق الذي آتانا الله بعد يوم بدر)[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على أم حرام بنت ملحان، وكانت تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها يومًا، فأطعمته وجعلت تفلي رأسه، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: (ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة)، قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك، فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: (ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله) كما قال في الأولى، قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: (أنت من الأولين)، فركبت البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أعطيت مفاتيح الكلم، ونصرت بالرعب، وبينما أنا نائم البارحة إذ أتيت بمفاتيح خزائن الأرض حتى وضعت في يدي). قال أبو هريرة: فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتقلونها[3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب)[4].

ثانيًا: رؤيا إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات:١٠٢].

إن الله سبحانه وتعالى قص علينا قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل عليه السلام، منذ أن سأل إبراهيم عليه السلام

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الاسلام، ٣/ ١٣٢٦، رقم ٣٤٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٧٧٩، رقم ٢٢٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب الرؤيا بالنهار، ٦/ ٢٥٧٠، رقم ٦٦٠٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في البحر، ٣/ ١٥١٨، رقم ١٩١٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، ٦/ ٢٥٦٨، رقم ٦٥٩٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٧٧٩، رقم ٢٢٧٠.

الله عز وجل أن يرزقه ولدًا من الصالحين، فبشره الله تعالى بذلك ورزقه غلامًا حليمًا، ولما كبر وترعرع وبلغ السعي مع أبيه وصار يقضي شؤونه، رأى أبوه إبراهيم عليه السلام رؤيا، وقال له: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، وكان عمر إسماعيل عليه السلام يومئذ ثلاث عشرة سنة، كما تذكر ذلك كتب التفاسير[(١)].

قال ابن عاشور: «والنظر هنا نظر العقل لا نظر البصر، فحقه أن يتعدى إلى مفعولين، ولكن علقه الاستفهام عن العمل، والمعنى تأمل في الذي تقابل به هذا الأمر، وذلك لأن الأمر لما تعلق بذات الغلام، كان للغلام حظ في الامتثال، وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختبار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته، لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله، وهو لا يرجو من ابنه إلا القبول؛ لأنه أعلم بصلاح ابنه، وليس إبراهيم مأمورًا بذبح ابنه جبرًا، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين: أحدهما بتلقي الوحي، والآخر بتبليغ الرسول إليه، فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه، فاعتبر كافرًا»[(٢)].

قال الطبري: «اختلفت القراء في قراءة قوله: (ماذا ترى)؟، فقرأته عامة قراء أهل المدينة والبصرة، وبعض قراء أهل الكوفة: (فانظر ماذا ترى)؟ بفتح التاء، بمعنى: أي شيء تأمر، أو فانظر ما الذي تأمر، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة: (ماذا ترى) بضم التاء، بمعنى: ماذا تشير، وماذا ترى من صبرك أو جزعك من الذبح؟ والذي هو أولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأه: (ماذا ترى) بفتح التاء، بمعنى: ماذا ترى من الرأي[(٣)].

فإن قال قائل: أو كان إبراهيم يؤامر ابنه في المضي لأمر الله، والانتهاء إلى طاعته؟ قيل: لم يكن ذلك منه مشاورة لابنه في طاعة الله، ولكنه كان منه ليعلم ما عند ابنه من العزم: هل هو من الصبر على أمر الله على مثل الذي هو عليه؟ فيسر بذلك أم لا؟ وهو في الأحوال كلها ماض لأمر الله»[(٤)].

قال الفراء: «المعنى ماذا تريني من رأيك أو ضميرك، و(رأى) في الكلام على خمسة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٩٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥١.

(٣) قال الأزهري: قرأ حمزة والكسائي: (ماذا تُرِي) بضم التاء وكسر الراء، وقرأ الباقون: (مَاذا تَرَى) بفتح التاء، وأمال أبو عمرو الراء من (ترى)، وفتحها الباقون، قال أبو منصور: من قرأ: (ماذا تَرَى) فهو من الرأي، المعنى: ماذا ترى فيما أمر الله به؟ ومن قرأ: (ماذا تُرِي) فله وجهان: أحدهما: ماذا تشير؟ وقال الفراء: معناه: ماذا ترى من صبرك؟ والقراءة الأولى أجود القراءتين.
معاني القراءات، الأزهري ٢/ ٣٢٠- ٣٢١.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٧٥.

أوجه: بمعنى (أبصر) نحو: رأيت، وبمعنى (علم) نحو: رأيت زيدًا عالمًا، وبمعنى (ظن) نحو قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج:٦-٧].

فالأول بمعنى الظن، والثاني بمعنى العلم، وبمعنى اعتقد، وبمعنى الرأي، نحو قولك: رأيت هذا الرأي.

فأما (رأيت في المنام) فمن رؤية البصر، فلا يجوز أن تكون (ترى) هاهنا بمعنى تبصر؛ لأنه لم يشر إلى شيء يبصر بالعين، ولا يجوز أن تكون بمعنى (علم) أو (ظن) أو (اعتقد)؛ لأنه هذه الأشياء تتعدى إلى مفعولين، وليس هاهنا إلا مفعول واحد، مع استحالة المعنى، فلم يبق إلا أن يكون من (الرأي)، والمعنى ماذا تراه»[1].

قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات، وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم، وهذا ثابت في الخبر المرفوع، قال صلى الله عليه وسلم: (إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا)[2].

وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي، واستدل بهذه الآية، ويقال: إن إبراهيم رأى في ليلة التروية كأن قائلًا يقول: إن الله يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح روى في نفسه، أي: فكر أهذا الحلم من الله أم من الشيطان؟ فسمي يوم التروية، فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضًا، وقيل له: الوعد، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهم بنحره فسمي يوم النحر[3].

قال ابن كثير: «وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ [مريم:٥٤]»[4].

وعند تفكيك البنية التركيبية في نص الرؤيا نجدها تضم عشرة أفعال، ثلاثة منها في الزمن الماضي (قال-أرى-قال) وأربعة في الزمن المضارع المبني للمعلوم (أذبحك-ترى-ستجدني-إن شاء) وواحد للمضارع المبني للمجهول (تؤمر) وفعلا أمر (أنظر-افعل) في حين اشتملت على

(١) النكت في القرآن الكريم، القيرواني ص ٤١٩.
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ١٧١، عن عطاء مرسلًا.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٠٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨.

خمسة أسماء هي (بني–المنام–أبت–الله–الصابرين) جاءت الأفعال ضعف الأسماء؛ لأن الأفعال تتحرك بين ثلاث: الله يأمر، إبراهيم يستجيب ويخبر وينفذ، إسماعيل يستجيب وينفذ.

وبرسم شبكة العلاقات القائمة في الآية نجد تناغمًا وتجاوبًا كبيرين بين الابن وأبيه، يتضح ذلك من خلال البيان التالي:

الأب (المرسل):

١. ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾.
٢. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.
٣. ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾.

الابن (المستقبل):

١. ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾.
٢. ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾.
٣. ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وهذا يظهر دلالة المحبة والود والقرب المتحقق بين الأب وابنه، وكأنه يقول له: أنت ابني قبل كل شيء، وهذه العلاقة هي التي دفعت الأب لمصارحة ابنه بما رأى، وكان بإمكانه تنفيذ الرؤيا دون أن يخبر ولده، ولكن ليتجلى الدرس الأخلاقي بأجل صورة، ولتظل هذه الصورة ماثلة أمام كل من يقرأ القرآن الكريم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ثلاث إشارات بثها الوالد لابنه، وكانت الإستجابة من الإبن سريعة وشافية لم يهمل أية جزئية من جزئياتها. هذه العلاقات جاءت في نسيج الرؤيا نفسها[1].

قال ابن عاشور: «والمقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه وإثبات علو مرتبته في طاعة ربه، فإن الولد عزيز على نفس الوالد، والولد الوحيد الذي هو أمل الوالد في مستقبله أشد عزة على نفسه لا محالة، وقد علمت أنه سأل ولدًا ليرثه نسله ولا يرثه مواليه، فبعد أن أقر الله عينه بإجابة سؤله وترعرع ولده، أمره بأن يذبحه فينعدم نسله ويخيب أمله ويزول أنسه ويتولى بيده إعدام أحب النفوس إليه، وذلك أعظم الابتلاء فقابل أمر ربه بالامتثال، وحصلت حكمة الله من ابتلائه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات:١٠٦].

وإنما برز هذا الابتلاء في صورة الوحي المنامي إكرامًا لإبراهيم عن أن يزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة، لأن رؤى المنام يعقبها تعبيرها، إذ قد تكون مشتملة على رموز خفية، وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقي هذا التكليف الشاق عليه، وهو ذبح ابنه الوحيد»[2].

قال الرازي: «بيان الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة، أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح

(١) الرؤيا في القران ص ٣٤- ٣٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٥٠- ١٥١.

والمذبوح، فورد أولًا في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة، بل شيئًا فشيئًا»[1].

ونقل القرطبي عن بعض أهل الإشارة: «أن إبراهيم ادعى محبة الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة، فقيل له: يا إبراهيم اذبح ولدك في مرضاتي، فشمر وأخذ السكين وأضجع ولده، ثم قال: اللهم تقبله مني في مرضاتك، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد، وإنما المراد أن ترد قلبك إلينا، فلما رددت قلبك بكليته إلينا رددنا ولدك إليك، وقال كعب وغيره: لما أري إبراهيم ذبح ولده في منامه، قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدًا أبدًا، فتمثل الشيطان لهم في صورة الرجل، ثم أتى أم الغلام وقال: أتدرين أين يذهب إبراهيم ابنك؟ قالت: لا، قال: إنه يذهب به ليذبحه، قالت: كلا هو أرأف به من ذلك، فقال: إنه يزعم أن ربه أمره بذلك، قالت: فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، ثم أتى الغلام فقال: أتدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: لا، قال: فإنه يذهب بك ليذبحك، قال: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره الله به، سمعًا وطاعة لأمر الله، ثم جاء إبراهيم فقال: أين تريد؟ والله إني لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك، فعرفه إبراهيم فقال: إليك عني يا عدو الله، فوالله لأمضين لأمر ربي، فلم يصب الملعون منهم شيئًا، وقال ابن عباس: لما أمر إبراهيم بذبح ابنه عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى»[2].

لقد حملت هذه الرؤيا خيرًا للبشرية جمعاء، وفي ذلك حكمة إلهية في امتثاله عليه السلام لأمر الله ولو كان فيما يكره، وهو بهذا الأمر دلل على طهارة قلب كل من الأب والابن، فكلاهما على خلق عظيم، وهذه صفات الأنبياء، وفيها بشرى بأن إسماعيل نبي كأبيه، وفيها إشارة لاستجابة دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ١٣٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٠٥-١٠٦.
وأثر ابن عباس أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٤٣٧، والحاكم في المستدرك، ١/ ٦٣٨.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وإسماعيل الممتثل لأمر الله لم يكن ظالمًا، لذا كانت البشرى بنبوته افتداء سيدنا إسماعيل عليه السلام بالكبش، وهو بمثابة افتداء للبشرية بأسرها[1].

ودلت الآية على أن من نذر نحر ابنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش، كما فدى به إبراهيم ابنه، قاله ابن عباس، وعنه رواية أخرى: ينحر مائة من الإبل كما فدى بها عبدالمطلب ابنه، روى الروايتين عنه الشعبي وروى عنه القاسم بن محمد: يجزيه كفارة يمين، وقال مسروق: لا شيء عليه، وقال الشافعي: هو معصية يستغفر الله منها، وقال أبو حنيفة: هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة، ولا يلزمه في غير ولده شيء، قال محمد: عليه في الحلف بنحر عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث.

وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال: أنا أنحر ولدي عند مقام إبراهيم في يمين، ثم حنث فعليه هدي، قال: ومن نذر أن ينحر ابنه ولم يقل: عند مقام إبراهيم، ولا أراد فلا شيء عليه، قال: ومن جعل ابنه هديًا أهدى عنه.

قال القاضي ابن العربي: يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة، لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعًا، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة، لأن الله تعالى قال ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨].

والإيمان التزام أصلي، والنذر التزام فرعي، فيجب أن يكون محمولًا عليه. فإن قيل: كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد، وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز؟

قلنا: هذا اعتراض على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام، فكيف بمن يفتي في الحلال والحرام، وقد قال الله تعالى:« افعل ما تؤمر» والذي يجلو الإلباس عن قلوب الناس في ذلك: أن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، وإنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال، والمعصية عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال، فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسماعيل من إبراهيم صار طاعة وابتلاء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات:١٠٦].

في الصبر على ذبح الولد والنفس، ولما تعلق النهي بنا في ذبح أبنائنا صار معصية.

فإن قيل: كيف يصير نذرًا وهو معصية؟

قلنا: إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوي الفداء.

فإن قيل: فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء؟

(١) الرؤيا في القران الكريم لفتحية صرصور ص ٣٩.

قلنا: لو قصد ذلك لم يضره في قصده ولا أثر في نذره، لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعًا[1].

قال الزرقاني: «فأنت ترى في هذا العرض الكريم لقصة إبراهيم الخليل وولده الذبيح إسماعيل ما يفيد أنه سبحانه قد أمر إبراهيم بذبح ولده ثم نسخ ما أمره به قبل أن يتمكن من تنفيذه وفعله، أما أنه أمره بالذبح فيرشد إليه:

أولًا: قول إبراهيم لولده ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ لأن رؤيا الأنبياء حق من ناحية، ولأن مفاوضة إبراهيم لولده في هذا الأمر الجلل تدل على أن هذا أمر لا بد منه من ناحية أخرى، وإلا لما فاوضه تلك المفاوضة الخطيرة المزعجة التي هي أول مراحل السعي إلى التنفيذ.

ثانيًا: أن إسماعيل أجاب أباه بإعلان خضوعه وامتثاله لأمر ربه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

ثالثًا: أن إبراهيم اتخذ سبيله إلى مباشرة الأسباب القريبة للذبح حيث أسلم ولده وأسلم إسماعيل نفسه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات:١٠٣].

رابعًا: أن الله ناداه بأنه قد صدق الرؤيا، أي: فعل من صدقها وحققها، ولو لم يكن هذا أمرًا من الله واجب الطاعة ما مدحه الله على تصديقه لرؤياه وسعيه إلى تحقيق ما أمره مولاه.

خامسًا: أن الله فدى إبراهيم بذبح عظيم، فلو لم يكن ذبح إسماعيل مطلوبًا لما كان ثمة داع يدعو إلى الفداء.

سادسًا: أن الله امتدح إبراهيم بأنه من المؤمنين ومن المحسنين المستحقين لإكرام الله إياه بالفرج بعد الشدة، وقرر سبحانه أن هذا هو البلاء المبين، وكافأه بأنه ترك عليه في الآخرين ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ [الصافات:١٠٩].

وكل ذلك يدل على أن الله أمره فأطاع، وابتلاه أشد الابتلاء فاستسلم وانصاع.

وأما أن الله نسخ هذا الأمر قبل تمكن إبراهيم من امتثاله، فيرشد إليه محاولة إبراهيم للتنفيذ بالخطوات التي خطاها، والمحاولات التي حاولها، وهي مفاوضة ولده حتى يستوثق منه أو يتخذ إجراء آخر، ثم استسلامهما بالفعل لحادث الذبح وصرعه فلذة كبده وقرة عينه على جبينه، كيما يضع السكين ويذبحه كما أمره رب العالمين، ولكن جاء النداء بالفداء قبل التمكن من الامتثال وتنفيذ الذبح»[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١١١-١١٢.

(٢) مناهل العرفان، الزرقاني ٢/ ٢٢٨-٢٣٠.

ثالثًا: رؤيا يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف:٤-٥].

سورة يوسف من السور المميزة في باب الرؤيا؛ لوجود أربع رؤى فيها من بين الرؤى المعدودة في القرآن الكريم، وقد ابتدأت قصة يوسف عليه السلام برؤياه التي رآها، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف:٤].

وانتهت القصة بتصديق رؤياه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠].

وإن الأحداث التي في رؤيا يوسف عليه السلام تختلف عن الأحداث التي في رؤيا إبراهيم عليه السلام، ويترتب على ذلك اختلاف في التأويل، وكما أن رؤيا إبراهيم عليه السلام لها مكانة كما مر بنا، فإن رؤيا يوسف عليه السلام لها مكانة أيضًا، بحيث اعتبرت قصة يوسف التي ابتدأت بها من أحسن القصص.

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلًا سواه، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه، روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، -وهو سريره- وإخوته بين يديه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠][1].

قال الطبري: «وقوله ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ يقول: والشمس والقمر رأيتهم في منامي سجودًا، وقال ﴿سَاجِدِينَ﴾ والكواكب والشمس والقمر إنما يخبر عنها بـ«فاعلة» و«فاعلات» لا بالواو والنون، لأن الواو والنون إنما هي علامة جمع أسماء ذكور بني آدم أو الجن أو الملائكة، وإنما قيل ذلك كذلك، لأن السجود من أفعال من يجمع أسماء ذكورهم بالياء والنون أو الواو والنون، فأخرج جمع أسمائها مخرج جمع أسماء من يفعل ذلك، كما قيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل:١٨].

وقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ وقد قيل: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ فكرر الفعل، وذلك على لغة من قال: كلمت أخاك كلمته، توكيدا للفعل بالتكرير»[2].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٥٦.

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ وكيف جاء مذكرًا: «فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة السجود، وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عمن يعقل»[1].

قال أبو جعفر: «يقول جل ذكره قال يعقوب لابنه يوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ هذه ﴿عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ فيحسدوك ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ يقول: فيبغوك الغوائل ويناصبوك العداوة، ويطيعوا فيك الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ يقول: إن الشيطان لآدم وبنيه عدو قد أبان لهم عداوته وأظهرها، يقول: فاحذر الشيطان أن يغري إخوتك بك بالحسد منهم لك إن أنت قصصت عليهم رؤياك، وإنما قال يعقوب ذلك؛ لأنه قد كان تبين له من أخوته قبل ذلك حسدًا»[2].

قال القرطبي: «إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيرًا حين رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: لا تقصص رؤياك على إخوتك؟ فالجواب أن الرؤيا إدراك حقيقة، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام، وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا اعتراض، وروي أن يوسف عليه السلام كان ابن اثنتي عشرة سنة»[3].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا، بحيث يخرون له ساجدين إجلالًا وإكرامًا واحترامًا، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدوه على ذلك فيبغوا له الغوائل؛ حسدًا منهم له ولهذا قال له ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ أي: يحتالوا لك حيلة يردونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحدًا، فإنها لن تضره)[4]»[5].

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في أن لا نقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٥٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ٩/ ٤٣، رقم ٧٠٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧٢، رقم ٢٢٦١.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧١.

على من لا يحسن التأويل فيها، وفي هذه الآية دليل على أن مباحًا أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلًا في معنى الغيبة، لأن يعقوب عليه السلام قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له، وفيها ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدًا وكيدًا، وفيها دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا، فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم ولم يبال بذلك من نفسه، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرًا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه، ويدل أيضًا على أن يعقوب عليه السلام كان أحس من بنيه حسد يوسف وبغضه، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوفًا أن تغل بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه، ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت»[1].

وقد أخرج الطبري بسنده عن جابر رضي الله عنه رواية ذكر فيها أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام، قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من يهود يقال له: بستانة اليهودي، فقال له: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها؟ قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه بشيء، ونزل عليه جبريل وأخبره بأسمائها، قال: فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فقال: (هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟) قال: نعم، فقال: (جربان والطارق، والذيال، وذو الكنفات، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، وذو الفرغ، والضياء، والنور). فقال اليهودي: والله إنها لأسماؤها[2].

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:١٠٠].

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني: السرير، أي: أجلسهما معه على سريره ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلًا، ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ أي: التي كان قصها على أبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤].

وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم، إذا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦-١٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٥٥٥.

سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى، والغرض أن هذا كان جائزًا في شريعتهم؛ ولهذا خروا له سجدًا، فعندها قال يوسف: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾، أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣].

أي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أي: صحيحة صدقًا، يذكر نعم الله عليه ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ أي: البادية[1].

قال الرازي: «لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا هو، كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلا هو، ويوسف ما كان راضيًا بذلك في قلبه إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت، ثم حكى تعالى أن يوسف لما رأى هذه الحالة ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه لما رأى سجود أبويه وإخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه، وقال ليعقوب: هذا تأويل رؤياي من قبل، كأنه يقول: يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا أمر أمرت به وتكليف كلفت به، فإن رؤيا الأنبياء حق، كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده صار سببًا لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة، فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف وحكاها ليعقوب سببًا لوجوب ذلك السجود»[2].

وقد جاء في كتاب ضوابط تعبير الرؤيا تسع فوائد مستنبطة من رؤيا يوسف عليه السلام وهي على التوالي:

الأولى: مشروعية قص الرؤيا على أهل العلم والفضل، فيعقوب نبي، وهو من أهل العلم والفضل، ولذا قصها يوسف عليه ولعلمه بتأويله لها.

الثانية: معرفة يعقوب عليه السلام برؤيا يوسف وغايتها وما تؤول إليه ووسائلها التي تتقدم عليها، ففسر الشمس والقمر بأبيه وأمه والأحد عشر كوكبًا بإخوته، وأن الحال سيكون بأن الجميع سيسجد له.

الثالثة: حصول المكانة العظيمة ليوسف عند أبويه عند رؤياه التي قصها عليه، ولذا تراه كان معظمًا تعظيمًا بليغًا عندهم.

الرابعة: إن حصول الرؤيا الصالحة لا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٥١٢.

تكون لكل البشر، فلا تحصل لأهل العلوم الفاسدة والأعمال الخبيثة الذين ينشرون الرذيلة في المجتمعات، بل لا تكون إلا لأهل الاجتباء من الله، فلا تحصل إلا لأهل العلوم النافعة والأعمال الصالحة والأخلاق الجميلة. ولذا قال يعقوب ليوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[يوسف:٦].

الخامسة: إن من علم أن المكاره والمشقات تفضي إلى الخير والراحات، تسلى وهانت عليه مشقتها وسهلت عليه وطأتها وحصل بذلك من اللطف والروح شيء عظيم، وهذا من جملة اللطف الذي أشار إليه يوسف في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ وكأن يوسف عليه السلام له علم أنه ستكون له مكانة عظيمة ولكن لا يكون ذلك إلا بعد حصول مكروه له، فيجب عليه أن يصبر، وكأن يعقوب بذلك يريد أن يسهل على ابنه وطأة ما يحصل له، وهكذا ينبغي لكل معبر أنه إذا عبر لإنسان رؤياه وكان مآلها إلى خير، لكن بعد حصول مكروه للرائي، فإنه يدعو الرائي إلى الاستعداد ولمقابلة ما يحدث له.

السادسة: البشارة العظيمة ليعقوب وأم يوسف وأخوته بحصول الرفعة والصلاح والخير.

السابعة: إنه يتعين على الإنسان أن يعدل بين أولاده، وينبغي له إذا كان يحب أحدهم أكثر من غيره أن يخفي ذلك ما أمكنه، وأن لا يفضله بما يقتضيه الحب من إيثار بشيء من الأشياء، فإنه أقرب إلى صلاح الأولاد وبرهم له واتفاقهم فيما بينهم، ولهذا لـما ظهر لأخوة يوسف من محبة يعقوب الشديدة ليوسف وعدم صبره عنه وانشغاله به عنهم سعوا في أمر وخيم وهو التفريق بينه وبين أبيه.

الثامنة: في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ففيها الآتي:

١. أن الأصل أن لا تقص الرؤيا إلا على شفيق أو ناصح، ولا تقص إلا على من يحسن تأويلها.
٢. أن يحذر المسلم أخاه المسلم، وإن كان أخاه في النسب مما يخاف عليه.
٣. جواز ترك إظهار النعمة عند من يخشى غائلته حسدًا وكيدًا.
٤. فيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب بتأويل الرؤيا فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم.
٥. أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره، وهذا لقوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

التاسعة: في قول إخوة يوسف لأبيهم:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف:٩٧].

إن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والسماح من يوسف ومن أبيهم الدعاء لهم بالمغفرة[1].

رابعًا: رؤى النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

لا شك أن رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحي، وأن القرآن الكريم ذكر رؤيا نبي الله إبراهيم عليه السلام ونبي الله يوسف عليه السلام كما تقدم، ولقد تعرض القرآن الكريم لأكثر من رؤيا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام، منها ما هو متفق عليها عند المفسرين أنها رؤيا في المنام، ومنها ما هو مختلف في تفسيرها: هل هي رؤيا عين أم أنها رؤيا في المنام؟

ولنبدأ بما هو متفق عليه وهي رؤيا النبي عليه الصلاة والسلام المنصوص عليها في القرآن الكريم وهي:

١. رؤيا دخول مكة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لقد صدق الله رسوله محمدًا رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين لا يخافون أهل الشرك، مقصرًا بعضهم رأسه ومحلقًا بعضهم»[2].

ومعنى صدق الله رسوله الرؤيا أنه أراه رؤيا صادقة، لأن رؤيا الأنبياء وحي، فآلت إلى معنى الخبر فوصفت بالصدق لذلك، وهذا تطمين لهم بأن ذلك سيكون لا محالة، وهو في حين نزول الآية لما يحصل بقرينة قوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾.

ومعنى ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ تحقيق دخول المسجد الحرام في المستقبل، فيعلم منه أن الرؤيا إخبار بدخول لم يعين زمنه فهي صادقة فيما يتحقق في المستقبل، وهذا تنبيه للذين لم يتفطنوا لذلك، فجزموا بأن رؤيا دخول المسجد تقتضي دخولهم إليه أيامئذ وما ذلك بمفهوم من الرؤيا، وكان حقهم أن يعلموا أنها وعد لم يعين إبان موعوده، وقد فهم ذلك أبو بكر إذ قال لهم: إن المنام لم يكن مؤقتًا بوقت وأنه سيدخل. وقد جاء في سورة يوسف ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾

(١) ضوابط تعبير الرؤيا، الطيار ص ٢٠-٢١.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٥٧.

[يوسف:١٠٠][1].

قال ابن كيسان: إنه حكاية ما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم في منامه، خوطب في منامه بما جرت به العادة، فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك، ولهذا استثنى، تأدب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

وقيل: خاطب الله العباد بما يحب أن يقولوه، كما قال ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

وقيل: استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون، قاله ثعلب، وقيل: كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى، قاله الحسين بن الفضل.

وقيل: الاستثناء من ﴿مُحَلِّقِينَ﴾، وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة.

وقيل: معنى ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ إن أمركم الله بالدخول.

وقيل: أي: إن سهل الله.

وقيل: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: كما شاء الله.

فوعدهم دخول المسجد الحرام، وعلقه بشرط المشيئة، وذلك عام الحديبية، فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا، ثم تأخر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه، فساءهم ذلك واشتد عليهم وصالحهم ورجع، ثم أذن الله في العام المقبل، فأنزل الله ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾.

وإنما قيل له في المنام: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام، فليس هنا شك، كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك، والله تعالى لا يشك، و﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ تحقيق، فكيف يكون شك.

فـ﴿إِن﴾ بمعنى (إذا). ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ أي: من العدو.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: من دون رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم فتح خيبر، قاله ابن زيد والضحاك.

وقيل: فتح مكة، وقال مجاهد: هو صلح الحديبية، وقاله أكثر المفسرين.

قال الزهري: ما فتح الله في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية، لأنه إنما كان القتال حين تلتقي الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضًا، فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، فلقد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٩٨-١٩٩.

دخل تينك السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر، يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف[1].

قال ابن كثير: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أري في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: (بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا) قال: لا، قال: (فإنك آتيه ومطوف به). وبهذا أجاب الصديق، رضي الله عنه، أيضًا حذو القذة بالقذة[2].

ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ وهذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء»[3].

وفي الصحيحين أن سهل بن حنيف رضي الله عنه قام يوم صفين فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، فإنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالًا لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: (بلى). فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: (بلى). قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: (يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا). فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدًا، فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: (نعم).

قال الزهري: «قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا»[4].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٩٠-٢٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ٢/ ٩٧٤، رقم ٢٥٨١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٥٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب اثم من عاهد ثم غدر، ٣/ ١١٦٢، رقم ٣٠١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، ٣/ ١٤١١، رقم ١٧٨٥.

قال الحافظ ابن حجر: «المراد به الأعمال الصالحة، ليكفر عنه ما مضى من التوقف في الامتثال ابتداء، وقد ورد عن عمر التصريح بمراده بقوله: «أعمالًا»، ففي رواية ابن إسحاق: وكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ؛ مخافة كلامي الذي تكلمت به. وعند الواقدي من حديث ابن عباس قال عمر: لقد أعتقت بسبب ذلك رقابًا، وصمت دهرا»[1].

وقد وقع تصديق رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، ودخلوها آمنين غير خائفين كما وعدهم الله عز وجل.

٢. رؤيا ليلة الاسراء والمعراج.

والرؤيا الثانية التي ذكرت في القرآن الكريم وذكر فيها أن الله سبحانه وتعالى أراها للنبي صلى الله عليه وسلم هي رؤيا ليلة الإسراء والمعراج، وقد ذكرت بعض التفاسير الخلاف فيها: هل هي رؤيا عين أم هي رؤيا منام؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء:٦٠].

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٣٤٦.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: «هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى بيت المقدس، قال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال: هي شجرة الزقوم»[2].

وعلى الرغم من نقل بعض التفاسير الخلاف في المراد بهذه الرؤيا إلا أنهم لم يثبتوا فيها قولًا أعلى من قول ابن عباس، لا من حيث السند ولا من حيث الدرجة، فهو ترجمان القرآن وحبر الأمة، وروايته هذه في صحيح البخاري، نعم إن الطبري قد نقل عنه قولًا ثانيًا في المراد من الرؤيا بأنها رؤياه التي رأى أنه يدخل مكة.

قال الطبري: حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: يقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أري أنه دخل مكة هو وأصحابه وهو يومئذ بالمدينة، فعجل رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى مكة قبل الأجل، فرده المشركون، فقالت أناس: قد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها، فكانت

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج، ٣/ ١٤١٢، رقم ٣٦٧٥.

رجعته فتنتهم[1].

قال القرطبي: وفي هذا التأويل ضعف؛ لأن السورة مكية، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة[2].

بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا السند ضعيف لا يرقى من أي وجه للمقارنة مع سند الامام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد قال عنه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه: هذا الإسناد من أكثر الأسانيد دورانا في تفسير الطبري، وهو إسناد مسلسل بالضعفاء من أسرة واحدة، إن صح هذا التعبير[3].

وعليه فإن ابن عباس رضي الله عنهما قد حسم القول فيها بأنها رؤيا عين، ولا عبرة بأي قول آخر.

قال ابن كثير: «وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد»[4].

قال البغوي: «فالأكثرون على أن المراد منه ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات، قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج والأكثرين، والعرب تقول: رأيت بعيني رؤية ورؤيا، فلما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أنكر بعضهم ذلك، وكذبوا، وكان فتنة للناس»[5].

٣. رؤيا المشركين في بدر.

والرؤيا الثالثة التي ذكرت في القرآن الكريم وأن النبي عليه الصلاة والسلام رآها، هي رؤيا المشركين في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال:٤٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وإن الله يا محمد سميع لما يقول أصحابك، عليم بما يضمرونه، إذ يريك الله عدوك وعدوهم ﴿فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، يقول: يريكهم في نومك قليلًا، فتخبرهم بذلك، حتى قويت قلوبهم واجترأوا على حرب عدوهم، ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرًا لفشل أصحابك، فجبنوا وخافوا ولم يقدروا على حرب القوم، ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا، إنه عليم بما تجنه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضمره القلوب»[6].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٨٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٨٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٢٦٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٩٢.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٤١.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥٦٩-٥٧٠.

قال ابن كثير: «وقد زعم بعضهم أن معنى قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أي: في عينك التي تنام بها فصير المنام هو العين كأنه أراد: إذ يريكهم الله في عينك قليلًا.

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلًا، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك، فكان تثبيتًا لهم، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وقد روى ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال: بعينك[1].

قال ابن كثير: وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه»[2].

قال الزمخشري: «وهذا تفسير فيه تعسف، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن، وما يلائم عليه بكلام العرب وفصاحته»[3].

وتصديقًا لرؤيا النبي عليه الصلاة والسلام وتثبيتًا للصحابة رضي الله عنهم، قلل الله عز وجل جيش الكفار داخل المعركة في أعين الصحابة رضي الله عنهم أيضًا.

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لصاحبي الذي إلى جانبي: كم تراهم؟ أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، حتى أخذنا منهم رجلًا فسألناه فقال: كنا ألفًا[4].

فانظر إلى رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال:٤٣] كم حصل بها من منافع واندفع من مضار.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧].

كم حصل بها من زيادة إيمان، وتم بها من كمال إيقان، وكانت من آيات الله العظيمة[5].

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٧٠٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٩.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢١٣.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٨/ ٤٧٨، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ١٤٧.
(٥) بهجة قلوب الأبرار، السعدي ص ١٤٩-١٥٠.

رؤيا ملك مصر وفتيانه

أولًا: رؤيا ملك مصر:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف:٤٣-٤٩].

قال القرطبي: «إن الملك الأكبر الريان بن الوليد رأى في نومه، كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سمان، في أثرهن سبع عجاف، أي: مهازيل، وقد أقبلت العجاف على السمان، فأخذن بآذانهن فأكلنهن إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خضر قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن، حتى أتين عليهن، فلم يبق منهن شيء وهن يابسات، وكذلك البقر كن عجافًا فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وأشراف قومه، فقال: يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي، فقص عليهم، فقال القوم: أضغاث أحلام»[1].

قال الألوسي: «وعبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء، تهويلًا لأمره وتفخيمًا لشأنه، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة الحكم المبهمة»[2].

قال ابن كثير: «هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززًا مكرمًا، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحزاة[3] وكبراء دولته وأمراءه وقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي: أخلاط اقتضت رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها، فعند ذلك تذكر ذلك الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٨.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٢٤٦.
(٣) وهم الكهنة، قال الأصمعي: التحزي التكهن. انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ١١٤.

يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدة.

وقال بعضهم: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد نسيان.

فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام: فبعثوا فجاء. فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك.

فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر.

ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلًا قليلًا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السمان؛ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئًا، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء.

ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضًا، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يحلبون»[1].

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾: «وهذا خبر من يوسف عليه السلام للقوم عما لم يكن في رؤيا ملكهم، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله دلالة على نبوته وحجة على صدقة»[2].

قال ابن عاشور: «إن الرؤيا قد تحاكي الصورة التي في نفس الأمر، وهو الأكثر في مرائي الأنبياء، وقد تحاكي المعنى الرمزي وهو الغالب في مرائي غير الأنبياء، مثل رؤيا ملك مصر سبع بقرات، ورؤيا صاحبي يوسف في السجن، وهو القليل في مرائي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٢-٣٩٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٢٨.

الأنبياء»[1].

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تخرج على حسب ما رأى، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن، فكيف إذا كانت آية لنبي ومعجزة لرسول وتصديقًا لمصطفى للتبليغ وحجة للواسطة بين الله جل جلاله وبين عباده»[2].

ثم قال: «إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءًا من النبوة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلط أهلًا لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة، كمنام رؤيا الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين في السجن، ورؤيا بخت نصر، التي فسرها دانيال في ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، ومنام عاتكة، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره وهي كافرة، وقد ترجم البخاري «باب رؤيا أهل السجن» فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة، إذ ليس كل من صدق في حديثه عن غيب يكون خبره ذلك نبوة، وقد تقدم في «الأنعام» أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء، قال المهلب: إنما ترجم البخاري بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءًا من النبوة»[3].

وقد تصدق رؤيا لكافر ولا تكون حينئذ جزءًا من النبوة ولا مبشرات، ولكن إنذارًا له أو لغيره ووعظًا[4].

وقد ذكر الشيخ عبدالله الطيار بعض الفوائد المستنبطة من رؤيا ملك مصر وقد جمعها جمعًا لطيفًا من بعض كتب التفسير نذكر منها:

- إن مكانة الرؤيا عظيمة في نفوس أصحابها، فكان ولا بد من عرضها على أهل تأويلها، ولذا أرسل الملك إلى أهل العلم منهم والبصر بالكهانة والعرافة والسحر وأشراف قومه وقص عليهم رؤياه.
- قوة يوسف عليه السلام في تعبير الرؤيا، فلما عجز الناس عن تفسير رؤيا الملك للبقرات والسنبلات، فسرها بالسنين الخصبة والسنين الجدبة، ووجه المناسبة أن الملك ترتبط به

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٠٤.
(٣) المصدر السابق ٩/ ١٢٤-١٢٥.
(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ٥/ ١٤.

أحوال الرعية ومصالحها وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية واستقامة أمر الناس أو عدمه، وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها ويستقي عليها الماء، وإذا أخصبت السنة سمنت وإذا أجدبت صارت عجافًا، وكذلك السنابل في الخصب تكثر وتخضر وفي الجدب تقل وتيبس، وهي أفضل غلال الأرض.

- إنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريقة التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم مع ذلك على ما يضعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع وكثرة جبايته[1].

وإضافة إلى ذلك نذكر قول القرطبي بأن هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئًا منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده من غير وجوب عليه ولا استحقاق، هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين، وبسطه في أصول الفقه[2].

ويوسف عليه السلام عندما جاءه ساقي الملك طالبًا منه تأويل رؤيا الملك، ذكر يوسف عليه السلام لذلك الفتى تعبيرها مباشرة من غير أن يشترط عليه الخروج من السجن مقابل ذلك، ومن غير تعنيف ولا تأنيب لذلك الفتى في نسيانه ما وصاه به قبل أن يخرج من السجن[3].

وأخيرًا نقول: إن هذه الرؤيا كانت سببًا لكي يكون يوسف عليه السلام على خزائن الأرض لمدة خمس عشرة سنة أو أكثر، وإدارة الأزمة التي ستمر بمصر، وذلك من خلال وضع خطة اقتصادية تتحكم في الإنتاج الزراعي وتخزينه واستهلاكه، حتى تمر فترة الجفاف والقحط بسلام ولا يهلك الناس فيها.

(١) ضوابط تعبير الرؤيا، الطيار ص ٢١-٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٠٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٢-٣٩٣.

ثانيًا: رؤيا الفتيان:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف:٣٦-٤١].

ذكر القرآن الكريم قصة هذين الشابين اللذين دخلا السجن مع يوسف عليه السلام، قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه[(١)].

وقد قيل: إن الخباز وضع السم في الطعام، فلما حضر الطعام قال الساقي: أيها الملك لا تأكل؛ فإن الطعام مسموم، وقال الخباز: أيها الملك لا تشرب، فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب، فشرب فلم يضره، وقال للخباز: كل، فأبى فجرب الطعام على حيوان، فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقيا في السجن تلك المدة مع يوسف[(٢)].

قال الخباز ليوسف عليه السلام: رأيت كأني اختبزت في تنانير ثلاثة، وجعلته في ثلاث سلال، فوضعته على رأسي، فجاء الطير فأكل منه، وقال الآخر: رأيت كأني أخذت عناقيد من عنب أبيض، فعصرتهن في ثلاث أوان، ثم صفيته، فسقيت الملك كعادتي فيما مضى، فذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنبًا[(٣)].

قالا له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم[(٤)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٨٩.

(٣) المصدر السابق ٩/ ١٩٠.
وسمي العنب خمرًا باعتبار ما سيؤول اليه.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٣٨٧-٣٨٨.

قال الألوسي: وأما رؤيا صاحبي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها في السجن بضع سنين، وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له، وتنبيه على أنه تعالى إنما أتاه ما آتاه لكونه محسنًا في أعماله متقنًا في عنفوان أمره، ومن هنا قال الحسن: من أحسن عبادة الله سبحانه في شبيبته آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله[1].

قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي: قال للساقي: إنك ترد على عملك الذي كنت عليه من سقي الملك بعد ثلاثة أيام، وقال للآخر: وأما أنت فتدعى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك، قال: والله ما رأيت شيئًا، قال: رأيت أو لم تر ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[2].

وقد ذكر أهل التفسير قولين في رؤيا صاحبي السجن، الأول لابن عباس رضي الله عنهما ومن تابعه بأن رؤيا صاحبي السجن رؤيا صحيحة، والثاني لابن مسعود رضي الله عنه ومن تابعه بأن رؤيا صاحبي السجن رؤيا كذب.

روى الطبري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، وإنما كانا تحالما ليجربا علمه، وقال قوم: إنما سأله الفتيان عن رؤيا كانا رأياها على صحة وحقيقة، وعلى تصديق منهما ليوسف لعلمه بتعبيرها[3].

قال ابن كثير: «والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا منامًا، وطلبا تعبيره»[4].

قال القرطبي: «قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق، رأياها وسألاه عنها، ولذلك صدق تأويلها»[5].

ونقل القرطبي عن العلماء قولهم: «إن قيل: من كذب في رؤياه ففسرها العابر له، أيلزمه حكمها؟ قلنا: لا يلزمه، وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبي، وتعبير النبي حكم، وقد قال: إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال: تحقيقًا لنبوته، فإن قيل: فقد روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني رأيت كأني أعشبت ثم أجدبت ثم أعشبت ثم أجدبت، فقال له عمر: أنت رجل تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر، ثم تموت كافرًا، فقال الرجل: ما رأيت شيئًا، فقال له عمر: قد قضي لك ما قضي لصاحب يوسف، قلنا: ليست لأحد بعد عمر؛ لأن عمر كان محدثًا»[6].

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٤٠٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٩٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٨٩-١٩٠.
(٦) المصدر السابق ٩/ ١٩٣.

وقد مر بنا في مطلب رؤيا ملك مصر بأن هذه الآيات أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تخرج على حسب ما رأى، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن، فكيف إذا كانت آية لنبي ومعجزة لرسول، وانها ليست من أجزاء النبوة.

وقد ظهرت فوائد كثيرة من هذه الرؤيا من أهمها:

ذلك الدرس الواعي للدعاة في سبيل الله، وكيف استطاع سيدنا يوسف عليه السلام، أن يستثمر سؤالهم عن تعبير الرؤيا إلى دعوتهم إلى عقيدة توحيد الله عز وجل وعبادته، وأنه عليه السلام لم يتعجل الإجابة مع علمه بتأويل رؤياهما.

قال الألوسي: «وقد تلطف عليه السلام بهما في ردهما إلى الحق وإرشادهما إلى الهدى، حيث أبرز لهما ما يدل على بطلان ما هما عليه بصورة الاستفهام، حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة، بإبطال ما ألفاه دهرًا طويلًا ومضت عليه أسلافهما جيلًا فجيلًا، فقال: ءأرباب متفرقون متعددون متكثرون يستعبدكما منهم هذا وهذا، والكلام على ما صرح به أبو حيان على حذف مضاف، أي: أعبادة أرباب متفرقين خير لكما، أم الله؟ أي: أم عبادة الله سبحانه الواحد المنفرد بالألوهية القهار الغالب الذي لا يغالبه أحد جل وعلا؟»[1].

ونقل ابن كثير عن ابن جريج أنه قال: إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عرف أنها ضارة لأحدهما، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك، لئلا يعاودوه فيها، فعاودوه، فأعاد عليهم الموعظة.

قال ابن كثير: «وفي هذا الذي قاله -يعني: ابن جريج- نظر؛ لأنه قد وعدهما أولًا بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببًا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع في تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال»[2].

ظهر أدب يوسف عليه السلام في مخاطبتهما إذ قال في تعبيره عن الرؤى، أما أحدكما ولم يسمه؛ كي لا يحزن الآخر، وترك التحديد لفهمهما، ولوقت تحقق الرؤيا[3].

يجوز للعالم أن يخبر الناس بعلمه، لا لأجل التفاخر والمباهاة، بل ليستفيد الناس منه ومن علمه.

لا بأس بطلب العالم ممن يعلمه، القيام

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٤٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٠.
(٣) الرؤيا في القران الكريم، فتحية صرصور ص ٥٢.

بخدمته وقضاء حاجاته، إن كان ذلك بمقدور المتعلم واستطاعته.

وذكر السعدي منها، أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير الرؤيا داخل في الفتوى لقوله للفتيين ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وقال الملك ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾، وقال الفتى ليوسف ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم[1].

الأصول القرآنية في تعبير الرؤى

لم يترك القرآن الكريم شيئًا من مصالح الناس إلا وقد أمر به، ولا شيئًا من مضار الناس إلا وقد نهى عنه، سواء كان ذلك نصًا، أو ضمن ألفاظ العموم.

ولهذا أجمع أهل العلم على أن مقاصد الشريعة مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد، ومن هذه المصالح المتعلقة بالإنسان والتي راعى القرآن الكريم وجودها في طبيعته، هي الرؤيا وتعبيرها، والتي وضع لها أصولًا معتبرة لتأويلها أخذًا من قصة إبراهيم ويوسف ونبينا محمد عليهم الصلاة والسلام، فضلًا عن باقي الرؤى الثلاث التي ذكرت في سورة يوسف.

قال ابن خلدون: «هذا العلم من العلوم الشرعية، وهو حادث في الملة، عندما صارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها، وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودًا في السلف كما هو في الخلف، وربما كان في الملوك والأمم من قبل، إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الإسلام، وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق ولا بد من تعبيرها، فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٠٧.

وعن أبي بكر رضي الله عنه، والرؤيا مدرك من مدارك الغيب»[1].

ومن أهم أصول وقواعد تعبير الرؤى:

١. السؤال عن الرؤيا.

الرؤى التي جاءت في القرآن الكريم محدودة جدًا منها للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم إبراهيم ويوسف ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وهم لم يطلبوا لرؤياهم تأويلًا، لاستغنائهم عنه بالوحي، وثلاث رؤى أخرى لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في سورة يوسف، وهي رؤيا ملك مصر، ورؤيا الفتيين صاحبي السجن، وهؤلاء طلبوا من نبي الله يوسف عليه السلام تأويلًا لرؤاهم، لحاجتهم لها وجهلهم بتعبيرها، بل إن يوسف عليه السلام شجعهم على ذلك ورغبهم فيه حينما قال لهما ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف:٣٧].

ومن هنا استحب لمن يجهل تعبير رؤياه أن يسأل عنها من يكون أهلًا للتعبير وعالمًا به.

وقد حث النبي عليه الصلاة والسلام على تعبير الرؤى، حينما كان يسأل أصحابه عما رأوه.

فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه: (هل رأى أحد منكم من رؤيا؟) قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص)[2].

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يقول لأصحابه: (من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له)[3].

قال النووي: «وفي هذا الحديث الحث على علم الرؤيا، والسؤال عنها، وتأويلها. قال العلماء: وسؤالهم محمول على أنه صلى الله عليه وسلم يعلمهم تأويلها وفضلها واشتمالها على ما شاء الله تعالى من الإخبار بالغيب»[4].

قال ابن عبد البر: «وهذا الحديث يدل على شرف علم الرؤيا وفضلها، لأنه لم يكن صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من صلاة الغداة: هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا، إلا ليقصها عليه ويعبرها؛ ليتعلم أصحابه كيف الكلام في تأويلها، وذلك دليل على فضل عبارة الرؤيا وشرف علمها، وحسبك بيوسف صلى الله عليه وسلم وما أعطاه الله

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/ ١٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، ٦/ ٢٥٨٣، رقم ٦٦٤٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب في تأويل الرؤيا، ٤/ ١٧٧٧، رقم ٢٢٦٩.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٣٠-٣١.

منها، وفي أنبياء الله أسوة حسنة صلوات الله عليهم»[1].

٢. الرؤى الصالحة تقع كما ترى، وتقع على غير ما ترى.

قال الكرماني: «رؤيا الأنبياء تنقسم قسمين: رؤيا تقع كما ترى، وذلك مثل ما رأى النبي عليه السلام أنه يدخل المسجد الحرام ومعه المؤمنون، فكان كما رأى لقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح:٢٧] الآية، ورؤيا تعبر فتقع على غير ما يرى، كرؤيا يوسف عليه السلام، وهو قوله ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:٤] الآية، فكانت أخوة يوسف وأبويه لقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] الآية، وبعدها ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾، وكانت رؤيا إبراهيم من القبيل الثاني فاحتاط، فأخذ بظاهرها وعدها من القبيل الأول فقصد ذبحه، ففداه الله، وقال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات:١٠٧]»[2].

قلت: وهذا ليس محصورًا برؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل هو كذلك في رؤى غيرهم من الصالحين، فمنهم من تقع رؤياه كما رآها ولا تحتاج إلى تأويل، ومنهم من تقع رؤياه على غير ما رأى، وأما قول الكرماني بأن رؤيا إبراهيم عليه السلام من القبيل الثاني فلا نسلم به، بل الأرجح أن رؤيا إبراهيم عليه السلام من النوع الأول، ولكن الله عز وجل صرف وقوعها، لأنه ليس من المعقول على سيدنا إبراهيم أو أي نبي آخر عليهم الصلاة والسلام أن يتجرأ على قتل أحد، ولو كان ابنه، برؤيا يتأولها، والإشكال هنا ليس في أن رؤيا الأنبياء وحي، بل هو في التأويل الذي هو أقرب إلى الاجتهاد، فضلًا عن سياق الآيات، وقول ابنه إسماعيل عليه السلام ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وهذا صريح في أنها أمر على الحقيقة، وليس تأويلًا، والله أعلم.

وقد ورد هذان القسمان في السنة النبوية كثيرًا، فمن قبيل الأول: رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، قال صلى الله عليه وسلم: (أريتك في المنام مرتين، إذا رجل يحملك في سرقة من الحرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشفها، فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه)[3].

وقد أمضاه الله تعالى له عليه الصلاة والسلام.

ومن قبيل الثاني: رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، فعن عبد

(١) الاستذكار، ابن عبد البر ٨/ ٤٥٦.
(٢) غرائب التفسير، الكرماني ٢/ ٩٨٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها، ٣/ ١٤١٥، رقم ٣٦٨٢ ، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها ٤/ ١٨٨٩، رقم ٢٤٣٨.

الله بن عمر رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم: (رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت بمهيعة، فتأولتها أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة) وهي الجحفة[1].

٣. تعبير الرؤى علم عظيم.

إن تعبير الرؤيا علم من العلوم بنص الآيات القرآنية، ولهذا تجد بأن الإمام البخاري أفرد كتابًا في صحيحه سماه كتاب التعبير، وضمنه ثمانية وأربعين بابًا، روى فيه عشرات الأحاديث في الرؤى، وكذلك فعل مسلم في صحيحه في كتاب الرؤيا، وكذلك أصحاب السنن والمصنفات الحديثية.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:٦]: «والاجتباء اختيار معالي الأمور للمجتبى، وأصله من جبيت الشيء أي: حصلته، ومنه جبيت الماء في الحوض، قال النحاس: وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي أتاه الله تعالى، من التمكين في الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث، وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا. قال عبد الله بن شداد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة، وذلك منتهى الرؤيا، وعنى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام، وهي معجزة له، فإنه لم يلحقه فيها خطأ»[2].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يقول: ويعلمك ربك من علم ما يؤول إليه أحاديث الناس، عما يرونه في منامهم، وذلك تعبير الرؤيا»[3].

قال ابن عبد البر: «وقد أثنى الله عز وجل على يوسف بن يعقوب صلى الله عليهما، وعدد عليه فيما عدد من النعم التي آتاه: التمكين في الأرض وتعليم تأويل الأحاديث، وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها»[4].

قال البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]: «أي: العالمين بعبارة الرؤيا»[5].

٤. لا ينبني على الرؤيا حكم شرعي.

ومن المعلوم أن الرؤيا الصالحة بالنسبة للأنبياء وحي، وبالنسبة لغيرهم من المؤمنين الصالحين جزء من أجزاء النبوة، إلا أنه لا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المرأة السوداء، ٦/ ٢٥٨٠، رقم ٦٦٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٨-١٢٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٦٠.

(٤) التمهيد، ابن عبد البر ١/ ٣١٣-٣١٤.

(٥) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٩١.

ينبني عليها حكم شرعي.

قال النووي: «لو كانت ليلة الثلاثين من شعبان، ولم ير الناس الهلال، فرأى إنسان النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال له: الليلة أول رمضان، لم يصح الصوم بهذا المنام لا لصاحب المنام ولا لغيره، ذكره القاضي حسين في الفتاوى وآخرون من أصحابنا، ونقل القاضي عياض الإجماع عليه، وقد قررته بدلائله في أول شرح صحيح مسلم، ومختصره أن شرط الراوي والمخبر والشاهد أن يكون متيقظًا حال التحمل وهذا مجمع عليه، ومعلوم أن النوم لا تيقظ فيه ولا ضبط، فترك العمل بهذا المنام لاختلاط ضبط الراوي لا للشك في الرؤية، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من رآني في المنام فقد رآني حقًا فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي)[1]. والله تعالى أعلم»[2].

ويتفرع عن هذا رؤيا الصحابة رضي الله عنهم إذا أقرها الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه يعمل بها بلا خلاف، لا لأنها حجة، بل لتقرير النبي صلى الله عليه وسلم لها، ومن أمثلة ذلك رؤيا الآذان الذي أريه عبد الله بن زيد رضي الله عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به، فإنه أندى صوتًا منك)[3][4].

٥. طرق تعبير الرؤى.

قال ابن القيم: «من فهم القرآن فإنه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير، وأصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن»[5].

قال السيوطي: «واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب، فإن عسر فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف:١٩٩][6].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، ١/ ٥٢، رقم ١١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب قول النبي عليه الصلاة و السلام: من رآني في المنام فقد رآني، ٤/ ١٧٧٦، رقم ٢٢٦٨.

(٢) المجموع، النووي ٦/ ٢٨٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٦/ ٤٠٢، رقم ١٦٤٨٧، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب كيف الأذان، ١/ ١٣٥، رقم ٤٩٩.
وحسنه الألباني في الإرواء، ١/ ٢٦٥، رقم ٢٤٦.

(٤) الرؤى الصادقة حجيتها وضوابطها، آل عابد ص ٢٩.

(٥) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ١٩١- ١٩٤.

(٦) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣٢.

قال ابن عاشور: «عبر -يعني: يوسف عليه السلام- الرؤيا بجميع ما دلت عليه، فالبقرات لسنين الزراعة، لأن البقرة تتخذ للإثمار، والسمن رمز للخصب، والعجف رمز للقحط، والسنبلات رمز للأقوات، فالسنبلات الخضر رمز لطعام ينتفع به، وكونها سبعًا رمز للانتفاع به في السبع السنين، فكل سنبلة رمز لطعام سنة، فذلك يقتاتونه في تلك السنين جديدًا، والسنبلات اليابسات رمز لما يدخر، وكونها سبعًا رمز لادخارها في سبع سنين، لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان، وتأويل ذلك: أن سني الجدب أتت على ما أثمرته سنو الخصب»[1].

إن الرؤيا تختلف باختلاف حال الرائي لها، وذلك أن الصالح الذاكر لله يقل سلطان الشيطان عليه في اليقظة، وقد يتلاشى وينتفي كما هو حال الأنبياء، لذلك تقع رؤاهم كلها صالحة، وكلما كان الانسان صالحًا كلما ضعف سلطان الشيطان عليه وعلى رؤياه فتقع صالحة، أما الفاسق العاصي فللشيطان سلطان عليه في اليقظة، وسلطانه عليه في النوم أشد، لانه غائب الوعي والعقل، وقد بين الله تعالى في القرآن أن للشيطان سلطانًا على الفاسقين والغافلين عن ذكر الله وطاعته فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف:٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠][2].

قال البغوي: «وقد يتغير التأويل عن أصله باختلاف حال الرائي، كالغل في النوم مكروه، وهو في حق الرجل الصالح قبض اليد عن الشر، وكان ابن سيرين يقول في الرجل يخطب على المنبر يصيب سلطانًا، فإن لم يكن من أهله يصلب، وسأل رجل ابن سيرين، قال: رأيت في المنام كأني أؤذن. قال: تحج. وسأله آخر، فأول بقطع يده في السرقة، فقيل له في التأويلين، فقال: رأيت الأول على سيماء حسنة، فأولت قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج:٢٧].

ولم أرض هيئة الثاني، فأولت قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠].

وقد يرى الرجل في منامه فيصيبه عين ما رأى حقيقة من ولاية، أو حج، أو قدوم غائب، أو خير، أو نكبة، فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم الفتح، فكان كذلك، قال الله

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٨٦.

(٢) أحكام تفسير الرؤى والأحلام في القران الكريم والسنة المطهرة، العوضي ص ٣١.

سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح:٢٧]».[١]

قال الراغب الأصفهاني: «ومن الفراسة علم الرؤيا»[٢].

وقال ابن قتيبة: «وقد تتغير الرؤيا عن أصلها، باختلاف هيئات الناس وصناعاتهم وأقدارهم وأديانهم فيكون لواحد رحمة وعلى الآخر عذابًا»[٣].

قال الملا علي القاري: «والحاصل أن الرؤيا مختلفة باختلاف الرائي، فإنه قد يكون سالكًا من مسالك طريق الدنيا، وقد يكون سائرًا في مسائر صراط العقبى، فلكل تأويل يليق به ويناسب بحاله ومقامه، وهذا أمر غير منضبط، ولذا لم يجعل السلف فيه تأليفًا مستقلًا جامعًا شاملًا كافلًا لأنواع الرؤيا، وإنما تكلموا في بعض ما وقع لهم من القضايا، ولذا لم تلق معبرين يكونان في تعبيرهما لشيء متفقين»[٤].

قال الإمام القرطبي عند تفسيره قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:٤٤]: «في الآية دليل على بطلان قول من يقول: إن الرؤيا على أول ما تعبر؛ لأن القوم قالوا ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ ولم تقع كذلك، فإن يوسف فسرها على سني الجدب والخصب، فكان كما عبر، وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر فإذا عبرت وقعت»[٥].

قال الشيخ عبدالله الطيار: «قلت: وكلام الإمام القرطبي رحمه الله فيه نظر؛ لأن الذي قال بأن الرؤيا على رجل طائر فإذا عبرت وقعت هو النبي صلى الله عليه وسلم، فقد روى أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت) قال الراوي: وأحسبه قال: (لا يقصها إلا على واد، يعني: محب، أو ذي رأي)»[٦][٧].

قلت: والعجيب أن الإمام القرطبي ذكر هذه الرواية في تفسير السورة نفسها، وذكر تخريجها أيضًا، وعرف باسم الراوي! فالعجب كيف وقع في مثل هذا؟! فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف:٥]: «هذه

(١) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٤.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٥٠.
(٣) تعبير الرؤيا، ابن قتيبة ص ٤٥.
(٤) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٢٩٢١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٠١.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٦/ ١٠٠، رقم ١٦١٨٢، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في تعبير الرؤيا، ٤/ ٣٠٥، رقم ٥٠٢٠، وابن ماجه في سننه، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا إذا عبرت وقعت، ٢/ ١٢٨٨، رقم ٣٩١٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٣، رقم ٣٥٣٥.
(٧) ضوابط تعبير الرؤيا، الطيار ص ٢١-٢٣.

الآية أصل في ألا نقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها، روى أبو رزين العقيلي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الرؤيا جزء من أربعين جزءًا من النبوة). و (الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها، فإذا حدث بها وقعت، فلا تحدثوا بها إلا عاقلًا أو محبًا أو ناصحًا) أخرجه الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح، وأبو رزين اسمه لقيط بن عامر»[1].

قال ابن كثير: «ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر»[2].

قال ابن قتيبة: «قالوا: كيف تكون الرؤيا على رجل طائر؟ وكيف تتأخر عما تبشر به أو تنذر منه بتأخر العبارة لها، وتقع إذا عبرت؟ وهذا يدل على أنها إن لم تعبر لم تقع.

قال أبو محمد: ونحن نقول: إن هذا الكلام خرج مخرج كلام العرب وهم يقولون للشيء، إذا لم يستقر: هو على رجل طائر وبين مخاليب طائر، وعلى قرن ظبي، يريدون: أنه لا يطمئن ولا يقف، وكذلك الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، يراد أنها تجول في الهواء حتى تعبر، فإذا عبرت وقعت.

ولم يرد أن كل من عبرها من الناس وقعت كما عبر، وإنما أراد بذلك العالم بها، المصيب الموفق.

وكيف يكون الجاهل المخطئ في عبارتها لها عابرًا، وهو لم يصب ولم يقارب؟ وإنما يكون عابرًا لها إذا أصاب.

يقول الله عز وجل: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣].

يريد: إن كنتم تعلمون عبارتها.

ولا أراد أن كل رؤيا تعبر وتتأول؛ لأن أكثرها أضغاث أحلام، فمنها ما يكون عن غلبة الطبيعة، ومنها ما يكون عن حديث النفس، ومنها ما يكون من الشيطان.

وإنما تكون الصحيحة، التي يأتي بها الملك، ملك الرؤيا عن نسخة أم الكتاب، في الحين بعد الحين»[3].

قال البغوي: «واعلم أن تأويل الرؤيا ينقسم أقسامًا، فقد يكون بدلالة من جهة الكتاب، أو من جهة السنة، أو من الأمثال السائرة بين الناس، وقد يقع التأويل على الأسماء والمعاني، وقد يقع على الضد والقلب»[4].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧١.
(٣) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة ص ٤٨٣-٤٨٥.
(٤) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٠.

❁ **التعبير بدلالة القرآن الكريم.**

قال البغوي: «فالتأويل بدلالة القرآن، كالحبل يعبر بالعهد، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٠٣].

والسفينة تعبر بالنجاة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت:١٥].

والخشب يعبر بالنفاق، لقوله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤].

والحجارة تعبر بالقسوة، لقوله جل ذكره: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

والمريض بالنفاق، لقوله تبارك وتعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠].

والبيض يعبر بالنساء، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات:٤٩].

وكذلك اللباس، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧].

واستفتاح الباب يعبر بالدعاء، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ [الأنفال:١٩]. أي: تدعوا.

والماء يعبر بالفتنة في بعض الأحوال، لقوله عز وجل: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٦-١٧].

وأكل اللحم النيء يعبر بالغيبة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات:١٢].

ودخول الملك محلة، أو بلدة، أو دارًا تصغر عن قدره، وينكر دخول مثله مثلها، يعبر بالمصيبة والذل ينال أهلها، لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل:٣٤]».[1]

❁ **التعبير بدلالة الحديث النبوي الشريف.**

قال البغوي: «وأما التأويل بدلالة الحديث كالغراب يعبر بالرجل الفاسق؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سماه فاسقًا.

والفأرة يعبر بالمرأة الفاسقة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سماها فويسقة.

والضلع يعبر بالمرأة، لقوله صلى الله عليه وسلم: (إن المرأة خلقت من ضلع أعوج)[2].

والقوارير تعبر بالنساء، لقوله صلى الله عليه وسلم: (يا أنجشة، رويدك سوقًا بالقوارير)»[3][4].

---

(١) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٠-٢٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب خلق آدم عليه السلام وذريته، ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، ٢/ ١٠٩٠، رقم ١٤٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، ٥/ ٢٢٧٨، رقم ٥٧٩٧، ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب رحمة النبي صلى الله عليه وسلم النساء وأمر السواق مطاياهن بالرفق بهن، ٤/ ١٨١١، رقم ٢٣٢٣.

(٤) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٠-٢٢١.

❁ **التعبير بدلالة المعاني.**

قال البغوي: «والتأويل بالمعنى كالأترج يعبر بالنفاق، لمخالفة باطنه ظاهره، إن لم يكن في الرؤيا ما يدل على المال.

وكالورد والنرجس يعبر بقلة البقاء إن عدل به عما ينسب إليه، لسرعة ذهابه.

ويعبر الآس بالبقاء؛ لأنه يدوم.

حكي أن امرأة سألت معبرًا بالأهواز: إني رأيت في المنام كأن زوجي ناولني نرجسا، وناول ضرة لي آسا.

فقال: يطلقك ويتمسك بضرتك، أما سمعت قول الشاعر:

ليس للنرجس عهد

إنما العهد لآس»[1].

قال السعدي: «وإن أغلب ما تبنى عليه، أي: الرؤيا، المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى فيها الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ساجدين، وجه المناسبة فيها أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها.

فكذلك الأنبياء والعلماء، زينة الأرض وجمالها، وبهم يهتدى في الظلمات، كما يهتدى بهذه الأنوار.

ولأن الأصل أبوه وأمه وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورًا وجرمًا لما هو فرع عنه، فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات فكانت لأبيه وإخوته.

ومن المناسبة أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظمًا ومحترمًا عند أبويه وإخوته، ومن لازم ذلك أن يكون مجتبى مفضلًا في العلم والفضائل الموجبة لذلك. ولذلك قال أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦].

ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أن الرؤيا الأولى، التي رأى صاحبها أنه يعصر خمرًا، أن الذي يعصر خمرًا في العادة، يكون خادمًا لغيره، والعصر يقصد لغيره، فكذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأول رؤيا الآخر: أي أنه يحمل فوق رأسه خبزًا، تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمل، وأنه سيبرز للطير بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأول رؤيا الملك للبقرات والسنبلات

(١) المصدر السابق ١٢/ ٢٢٣.

بالسنين المخصبة والسنين المجدبة، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد.

وكذلك السنون، بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.

وأما البقر، فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقى عليها الماء، وإذا أخصبت السنة سمنت وإذا أجدبت صارت عجافًا.

وكذلك السنابل في الخصب، تكثر وتخضر، وفي الجدب تقل وتيبس، وهي أفضل أغلال الأرض»[(١)].

ومن هذا القبيل ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بينما أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى أني لأرى الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب)، قالوا: فما أولته ذلك يا رسول الله؟ قال: (العلم)[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر: «وتفسير اللبن بالعلم لاشتراكهما في كثرة النفع بهما»[(٣)].

وأخرجا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بينما أنا نائم رأيت الناس عرضوا علي وعليهم قمص، فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعرض علي عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين)[(٤)].

قال ابن القيم: «ألا ترى أن الثياب في التأويل كالقمص تدل على الدين، فما كان فيها من طول أو قصر أو نظافة أو دنس فهو في الدين، كما أول النبي صلى الله عليه وسلم القميص بالدين والعلم والقدر المشترك بينهما أن كلًا منهما يستر صاحبه ويجمله بين الناس، فالقميص يستر بدنه، والعلم والدين يستر روحه وقلبه ويجمله بين الناس»[(٥)].

❁ التعبير بدلالة الأسماء.

قال ابن قتيبة: «فأما التأويل بالأسماء فتحمل على ظاهر اللفظ، كرجل يسمى الفضل تتأوله إفضالًا، ورجل يسمى راشدًا تتأوله رشدًا، أو سالمًا تتأوله سلامة، وأشباه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل العلم، ١/ ٤٣ رقم ٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، ٤/ ١٨٥٩ رقم ٢٣٩١.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٨٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، ١/ ١٧، رقم ٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، ٤/ ١٨٥٩، رقم ٢٣٩٠.
(٥) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٢٢٥.

هذا كثير.

ثم روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم، كأنا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب)[1].

قال ابن قتيبة: فأخذ من رافع الرفعة، وأخذ طيب الدين من رطب ابن طاب.

ثم روى عن الأصمعي قال: قيل لابن سيرين: رجل رؤي على حمار ولا يزال يلقيه في ماء وطين، ثم رؤي كأنه أردف جارية، قال: ما اسمها؟ قال: عتبة، قال: أعتب الرجل»[2].

قال ابن سيرين: نوى التمر نية السفر، وقد يعبر السفرجل بالسفر إذا لم يكن في الرؤيا ما يدل على المرض، لأن أوله سفر، والسوسن بالسوء، لأن أوله سوء، إذا عدل به عما ينسب إليه في التأويل[3].

❁ **التعبير بدلالة الأمثال.**

قال البغوي: «والتأويل بالأمثال، كالصائغ يعبر بالكذاب، لقولهم: أكذب الناس الصواغون.

وحفر الحفرة يعبر بالمكر، لقولهم: من حفر حفرة وقع فيها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣].

والحاطب يعبر بالنمام، لقولهم لمن وشى: إنه يحطب عليه، وفسروا قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد:٤] بالنميمة.

ويعبر طول اليد بصنائع المعروف، لقولهم: فلان أطول يدًا من فلان.

ويعبر الرمي بالحجارة وبالسهم بالقذف، لقولهم: رمى فلانًا بفاحشة، قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور:٤].

ويعبر غسل اليد باليأس عما يأمل، لقولهم: غسلت يدي عنك»[4].

❁ **التعبير بدلالة الضد والقلب.**

قال ابن قتيبة: «وأما التأويل بالضد والمقلوب، فكقولهم في البكاء: إنه فرح، ما لم يكن معه رنة أو صوت، وفي الفرح والضحك: إنه حزن.

وقولهم في الوالي يرى عهده أتاه: إنه العزل، ومن رأى ذلك من ليس بوالٍ: إنه ابتداء ولايته»[5].

قال البغوي: «وأما التأويل بالضد والقلب، فكما أن الخوف في النوم يعبر بالأمن، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٧٧٩ رقم ٢٢٧٠.
(٢) تعبير الرؤيا، ابن قتيبة ص ٣٢- ٣٣.
(٣) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٣.
(٤) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٢.
(٥) تعبير الرؤيا، ابن قتيبة ص ٤٥.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ [النور:٥٥].

والأمن فيه يعبر بالخوف.

ويعبر البكاء بالفرح إذا لم يكن معه رنة.

ويعبر الضحك بالحزن، إلا أن يكون تبسمًا»[(١)].

موضوعات ذات صلة:

البصر، الرؤية، يوسف عليه السلام

(١) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٣.

الرُّؤْيَة

عناصر الموضوع

مفهوم الرؤية	٣٣٨
الرؤية في الاستعمال القرآني	٣٣٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٠
رؤية الله تعالى	٣٤٢
أنواع الرؤية في القرآن	٣٤٨
العالم غير المرئي	٣٥٢
الرؤية الوهمية	٣٥٧
رؤية النعم	٣٦٠
رؤية الأدلة العلمية والجنائية	٣٦٥
الرؤية والاعتبار	٣٧١
رؤية ثواب الأعمال	٣٧٨
رؤية النعيم والعذاب	٣٨٢
أثر الرؤية على النفس	٣٨٦

مفهوم الرؤية

أولًا: المعنى اللغوي:

الرؤية لغة مأخوذة من الفعل رأى، قال ابن فارس: «(رأى) الراء والهمزة والياء أصل يدل على نظر وإبصار بعين أو بصيرة»[(١)]، أي: أن الرؤية لغة هي: إدراك المرئي، وذلك أضرب بحسب قوى النفس:

الأول: إدراك المرئي بالحاسة وما يجري مجراها، نحو قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر:٦-٧].

والثاني: إدراك المرئي بالوهم والتخيل، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠].

والثالث: إدراك المرئي بالتفكر، نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:٤٨].

والرابع: إدراك المرئي بالعقل، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النجم:١١][(٢)].

ورأى إذا عدي إلى مفعولين اقتضى معنى العلم نحو قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ:٦][(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هي: المشاهدة بالبصر حيث كان في الدنيا والآخرة[(٤)].

ويمكن تعريف الرؤية اصطلاحًا بأنها: عبارة عن الإدراك بالبصر للأشياء الظاهرة والمحسوسة، أو بالبصيرة، وهي نور في القلب يدرك به الحقائق والمعقولات، والأمور المعنوية، حين يكون القلب مشحونًا باليقين والإيمان[(٥)].

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٤٧٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٥.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٣.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص١٠٩.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٢٧، تفسير الشعراوي ٨/ ٤٥٤١.

الرؤية في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (رأي) في القرآن الكريم (٣٢٧) مرة، يخص موضوع (الرؤية) (٣١٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩٣	﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[الأنعام:٧٦]
الفعل المضارع	٢٢٠	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[الروم:٢٤]
صفة مشبهة	١	﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم:٧٤]
مصدر سماعي	٢	﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾[آل عمران:١٣]

وجاءت الرؤية في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: النظر والمشاهدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، يعني: نظرت إليهم.

الثاني: العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، يعني: بما أعلمك الله.

الثالث: الاعتبار، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك:١٩]، يعني: أولم يعتبروا بها.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٨٠-٢٨٥.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٤٤-٢٤٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ النظر:

النظر لغة:

هو تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته[١]. والنظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام، وما كان بالبصائر كان للمعاني[٢].

النظر اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين الرؤية والنظر:

يشتركان في أنهما: عبارة عن الإدراك بالبصر للأشياء الظاهرة والمحسوسة، أو بالبصيرة في الأمور المعنوية، وقد يكون في كل منهما رؤية مجردة للأشياء أو مع التأمل والفحص.

٢ البصر:

البصر لغة:

الإدراك بالعين التي هي حاسة الرؤية[٣]، ويطلق على العلم، فيقال: بصرت بالشيء: إذا صرت به بصيرًا عالمًا[٤].

البصر اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين الرؤية والبصر:

أن الرؤية تتم بواسطة حاسة البصر، وعلى قدر سلامة البصر تكون الرؤية.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨١٢.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٧٧.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٩٦.
(٤) مقاييس اللغة ١/ ٢٥٣.

٣ التأمل:

التأمل لغة:

التثبت، وتأملت الشيء أي: نظرت إليه مستثبتًا له[١].

التأمل اصطلاحًا:

تدبر الشيء وإعادة النظر فيه مرة بعد أخرى ليتحققه[٢]، التأمل: هو استعمال الفكر، والتدبر: تصرف القلب بالنظر في الدلائل[٣].

الصلة بين الرؤية والتأمل:

أن الرؤية والتأمل يشترك كل منهما في إدراك الأشياء بالبصيرة إلا أن الرؤية قد تكون مجردة عن التأمل كما في الإدراك بالبصر.

٤ الرؤيا:

الرؤيا لغة:

ما يرى في المنام، أي: ما رأيته في منامك، وهي الرؤى، ورأيت عنك رؤى حسنة: حلمتها، وأرأى الرجل: إذا كثرت رؤاه، وهي أحلامه، جمع الرؤيا[٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح:٢٧][٥].

الرؤيا اصطلاحًا:

ما يراه النائم في المنام[٦].

الصلة بين الرؤية والرؤيا:

أن الرؤية هي إدراك الأشياء في اليقظة، والرؤيا إدراك الأشياء في المنام.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٢٧.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٨٩.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص٢٨٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٩٧.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٥.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي ص٤٠٤، معجم لغة الفقهاء، محمد رواس وحامد قنيبي ص ٢٢٨.

رؤية الله تعالى

تحدث القرآن الكريم عن جانبين يتعلقان برؤية الله تعالى، أحدهما: رؤية الله تعالى لعباده، والثاني: رؤية العباد لله تعالى، وبيانهما في النقاط الآتية:

أولًا: رؤية الله تعالى لعباده:

إن رؤية الله تعالى لعباده تكون لأعمالهم في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس:١٤].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: ثم جعلناكم، أيها الناس، خلائف من بعد هؤلاء القرون الذين أهلكناهم لما ظلموا، تخلفونهم في الأرض، وتكونون فيها بعدهم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، يقول: لينظر ربكم أين عملكم من عمل من هلك من قبلكم من الأمم بذنوبهم وكفرهم بربهم، تحتذون مثالهم فيه، فتستحقون من العقاب ما استحقوا، أم تخالفون سبيلهم فتؤمنون بالله ورسوله وتقرون بالبعث بعد الممات، فتستحقون من ربكم الثواب الجزيل»[(١)].

«فقد أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولًا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)»[(٢)][(٣)].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٩].

والمعنى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: «يرى ذلك بوقوع منكم؛ لأن الله جل وعز لا يجازيهم على ما يعلمه منهم من خطيئاتهم التي يعلم أنهم عاملوها لا محالة، إنما يجازيهم على ما وقع منهم»[(٤)].

وفي قول موسى عليه السلام ذلك لقومه أمران: أحدهما: الوعد بالنصر والاستخلاف في الأرض، والثاني: التحذير من الفساد فيها؛ لأن الله تعالى ينظر كيف يعملون[(٥)].

---

(١) جامع البيان ١٥/ ٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، رقم ٢٧٤٢، ٤/ ٢٠٩٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢١.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٦٧.

(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٥٠.

وقال تعالى في المنافقين: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [التوبة:٩٤].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «نزلت في المنافقين، يعتذرون إليكم إذا رجعتم من غزوة تبوك، فلا تعذروهم فليس لهم عذر، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوه يعتذرون، فقال الله تعالى: قل لا تعتذروا لن نصدقكم، قد أخبرنا الله أنه ليس لكم عذر، وسيرى الله عملكم ورسوله إن عملتم خيرًا وتبتم من تخلفكم، ثم تردون بعد الموت إلى عالم الغيب والشهادة، فيخبركم بما كنتم تعملون في السر والعلانية»[(١)]؛ لأنه سبحانه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم[(٢)].

وقال تعالى في المتخلفين عن الجهاد من المؤمنين: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة:١٠٥].

والمعنى: «قل يا محمد لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك: ﴿اعْمَلُوا﴾، لله بما يرضيه، من طاعته، وأداء فرائضه، فسيرى الله إن عملتم عملكم، ويراه رسوله والمؤمنون، في الدنيا، وستردون يوم القيامة إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم، فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بما كنتم تعملون، وما منه خالصًا، وما منه رياء، وما منه طاعة، وما منه لله معصية، فيجازيكم على ذلك كله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته»[(٣)].

ورؤية الله تعالى لأعمال العباد كما تكون في الدنيا تكون كذلك في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم:٤٠].

أي: وإن عمل كل عامل سوف يراه الله يوم القيامة، فيجازيه عليه الجزاء الأوفى من خير أو شر، وهو المجازي جميع عباده بأعمالهم صالحهم وطالحهم[(٤)].

وبهذا يتبين أن محل نظر الله تعالى هو القلوب والأعمال، وليس الصور والأموال؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى

(١) زاد المسير، ابن الجوزي٢/ ٢٨٩.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي٣/ ٩٤.
(٣) جامع البيان، الطبري١٤/ ٤٦٢.
(٤) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧١٧٢، الجواهر الحسان، الثعالبي٥/ ٣٣١.

قلوبكم وأعمالكم)[1].

والمعنى: إن الله لا ينظر نظر اعتبار إلى(صوركم)؛ إذ لا اعتبار بحسنها وقبحها (وأموالكم)؛ إذ لا اعتبار بكثرتها وقلتها، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وإلى ما فيها من اليقين والصدق، والإخلاص، وقصد الرياء، والسمعة، وسائر الأخلاق الرضية، (وأعمالكم) من صلاحها وفسادها، فيجازيكم على وفقها[2].

قال النووي: «ومعنى نظر الله هنا مجازاته ومحاسبته، أي: إنما يكون ذلك على مافي القلب دون الصور الظاهرة، ونظر الله رؤيته محيط بكل شيء، ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب»[3].

ورؤية الله تعالى لعباده هي رؤية شاملة وليست محصورة برؤية الأعمال والقلوب، بل تشمل الأجساد وخفايا النفوس، ولكن الرؤية التي يترتب عليها الثواب والعقاب تكون لأعمالهم في الحياة الدنيا، وأن محل نظر الله تعالى هو القلوب والأعمال، وليس الصور والأموال.

ثانيًا: رؤية العباد لله تعالى:

ثبتت رؤية العباد لله تعالى في الآخرة بالكتاب والسنة والإجماع:

أولًا: من القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٤].

قال ابن عباس وأكثر المفسرين: «تنظر إلى ربها عيانًا بلا حجاب، قال الحسن: حق لها أن تنظر إلى الخالق سبحانه وتعالى، وروي عن مجاهد وأبي صالح أنهما فسرا النظر في هذه الآية: بالانتظار، قال مجاهد تنتظر من ربها ما أمر لها به، وقال أبو صالح: تنتظر الثواب من ربها»[4].

قال ابن جرير الطبري: «وأولى القولين في ذلك عندنا بالصواب القول الذي ذكرناه عن الحسن وعكرمة، من أن معنى ذلك تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»[5].

وقال ابن كثير: « قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ من النضارة، أي: حسنة بهية مشرقة مسرورة إلى ربها ناظرة، أي: تراه عيانًا، كما رواه البخاري في صحيحه: (إنكم سترون

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم ٢٥٦٤، ٤/ ١٩٨٧.

(٢) مرقاة المفاتيح، علي ملا قاري ٨/ ٣٣٣١.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١٢١.

(٤) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٧٢.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٥٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٠٧.

(٥) جامع البيان ٢٤/ ٧٣.

ربكم عيانًا)[1]، وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها»[2].

وقوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦].

قال الماوردي: «﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ يعني: عبادة ربهم ﴿الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فيه خمسة تأويلات:

أحدها: أن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وهذا قول أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري.

والثاني: أن الحسنى واحدة من الحسنات، والزيادة مضاعفتها إلى عشر أمثالها، قاله ابن عباس.

الثالث: أن الحسنى حسنة مثل حسنة، والزيادة مغفرة ورضوان، قاله مجاهد.

والرابع: أن الحسنى الجزاء في الآخرة والزيادة ما أعطوا في الدنيا، قاله ابن زيد.

والخامس: أن الحسنى الثواب، والزيادة الدوام، قاله ابن بحر.

ويحتمل سادسًا: أن الحسنى ما يتمنونه، والزيادة ما يشتهونه»[3].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني: جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، لا يغشى وجوههم كآبة، ولا كسوف، حتى تصير من الحزن كأنما علاها قتر. والقتر: الغبار، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، ولا هوان ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، يقول: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، هم أهل الجنة وسكانها ومن هو فيها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، يقول: هم فيها ماكثون أبدًا، لا تبيد، فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين فتنغص عليهم لذتهم»[4].

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:٢٦].

قال ابن عباس: للذين قالوا: لا إله إلا الله، الجنة وزيادة، وهي النظر إلى وجه الله في قول أبي بكر الصديق، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة، وابن عباس، وقتادة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، رقم ٧٤٣٥، ٩/ ١٢٧، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم٨/ ٢٨٧.

(٣) النكت والعيون٢/ ٤٣٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ٧٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ١٥.

والضحاك، والسدي، ونحو ذلك فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦])[(١)][(٢)].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن:٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف[(٣)]»..

ثانيًا: من السنة النبوية الشريفة:

وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك:

ما رواه صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فو الله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم)[(٤)][(٥)].

وما رواه جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلة -يعني: البدر-

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم ١٨١، ١/ ١٦٣.
(٢) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٤.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٩.
(٤) سبق تخريجه قريبًا.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٩.

فقال: (إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا)، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩][(١)].

وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: (هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟)، قالوا: لا يا رسول الله قال: (فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟)، قالوا: لا، قال: (فإنكم ترونه كذلك، يحشر الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبع، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل)[(٢)].

ثالثًا: الإجماع:

قال ابن كثير بعد أن ساق تفسير الآيات السابقة: «وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام، ومن تأول ذلك بأن المراد بـ(إلى) مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري عن منصور عن مجاهد ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر الثواب من ربها، رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد، وكذا قال أبو صالح أيضًا، فقد أبعد هذا القائل النجعة وأبطل فيما ذهب إليه، وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥].

قال الشافعي: ما حجب الكفار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل، ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما دل عليه سياق الآية الكريمة»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم٥٥٤، ١/ ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم٨٠٦، ١/ ١٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم ١٨٢، ١/ ١٦٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم٨/ ٢٨٧.

أنواع الرؤية في القرآن

إن أنواع الرؤية في القرآن ثلاثة هي: الرؤية البصرية، والرؤية العلمية، والرؤية المنامية، وسيتم توضيح ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: الرؤية البصرية:

وردت الرؤية البصرية في القرآن الكريم بثلاثة ألفاظ، وهي:

١. لفظ (رأى) ومشتقاتها.

وقد وردت هذه الرؤية بمعنى الرؤية البصرية للتأمل والاعتبار، ومنها:

- النظر في ملكوت السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ:٩].

أي: ألم يتأملوا ويعلموا أن الذي خلق السماء والأرض قادر على أن يبعثهم، وقادر أن يخسف بهم الأرض أو يسقط السماء عليهم كسفًا[(١)]؛ لأن رؤية مخلوقات الله في السماء والأرض من شأنها أن تهديهم لو تأملوا حق التأمل، والاستفهام للإنكار على انتفاء تأملهم فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، أي: من المخلوقات العظيمة الدالة على أن الذي قدر على خلق تلك المخلوقات من عدم هو قادر على تجديد خلق الإنسان بعد العدم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام:٧٥-٧٨].

فالمراد من الرؤية في الآيات الرؤية البصرية بالعين، والمعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥][(٣)].

- النظر في إحياء الأرض بالغيث.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٤٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٥٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٩، وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١١٨.

﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج:٦٣].

والمراد هو الرؤية الحقيقية، لأن الماء النازل من السماء يرى بالعين، واخضرار النبات على الأرض مرئي، وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى[(١)].

٢. لفظ (بصر) ومشتقاتها.

وردت الرؤية البصرية بلفظ (البصر) ومشتقاتها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك:٣-٤].

قال الماوردي: «﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ قال قتادة: معناه: فانظر إلى السماء، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: من شقوق، قاله مجاهد والضحاك.

الثاني: من خلل، قاله قتادة.

الثالث: من خروق، قاله السدي.

الرابع: من وهن، قاله ابن عباس.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: انظر إلى السماء مرة بعد أخرى، ويحتمل أمره بالنظر مرتين وجهين:

أحدهما: لأنه في الثانية أقوى نظرًا وأحد بصرًا.

الثاني: لأنه يرى في الثانية من سير كواكبها واختلاف بروجها ما لا يراه من الأولى، فيتحقق أنه لا فطور فيها.

وتأول قوم بوجه ثالث: أنه عنى بالمرتين قلبًا وبصرًا»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [القلم:٥].

والمعنى: فسترى يا محمد، ويرى مشركو قومك الذين يدعونك مجنونًا[(٣)].

﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ أي: ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحق وانكشف الغطاء، وذلك يوم القيامة، ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾، أي: أيكم المفتون بالجنون[(٤)].

والخلاصة: ستبصر ويبصرون غلبة الإسلام، واستيلاءك عليهم بالقتل والأسر، وهيبتك في أعين الناس أجمعين، وصيرورتهم أذلاء صاغرين[(٥)].

٣. لفظ (نظر) ومشتقاتها.

وقد وردت في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر:١٦].

أي: وزينا السماء بالكواكب لمن نظر

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٤٦.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٥١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري٢٣/ ٥٣٠.

(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٩/ ٢٧٢، فتح القدير، الشوكاني٥/ ٣١٩.

(٥) انظر: تفسير المراغي٢٩/ ٢٩.

إليها وأبصرها[1].

والمعنى: أي ولقد خلقنا في السماء نجومًا كبارًا، ثوابت وسيارات، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة، وآياتها الباهرة التي يحار الفكر في دقائق صنعتها، وقدرة مبدعها[2].

قال تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾ [الشعراء:٣٣].

والمراد: الرؤية البصرية[3].

والمعنى: أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ [النمل:١٢].

قال ابن عباس: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ يعني: من غير برص، ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول، وكذا قال مجاهد وغير واحد[4].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۖ رَّأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠﴾ [محمد:٢٠].

أي: أن المنافقين يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون نظرًا شديدًا، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت، وإنما ذلك لأنهم منافقون، يكرهون القتال[5].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾ [الشورى:٤٥].

ومعنى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ أي: لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تامًا؛ لأنهم ناكسو الرؤوس، والعرب تصف الذليل بغض الطرف، كما يستعملون في ضده حديد النظر إذا لم يتهم بريبة، فيكون عليه منها غضاضة، وقال قتادة والسدي والقرظي وسعيد بن جبير: يسارقون النظر من شدة الخوف، وقيل: المعنى ينظرون من عين ضعيفة النظر، وقال يونس: ﴿مِن﴾ بمعنى الباء، أي: ينظرون بطرف خفي، أي: ضعيف من الذل والخوف، ونحوه عن الأخفش، وقال ابن عباس رضي الله عنه: بطرف ذابل ذليل، وقيل: أي: يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب[6].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري١٧/ ٧٧.
(٢) انظر: تفسير المراغي١٤/ ١٣.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري٣/ ٣١٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٣/ ٤٠٩.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي٤/ ١٢٦.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٤٥.

ثانيًا: الرؤية العلمية:

إن الرؤية العلمية في القرآن وردت في العديد من الآيات منها:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة:١٢٨].

﴿وَأَرِنَا﴾ أي: علمنا وبصرنا مناسكنا، أي: شرائع ديننا وأعلام حجنا[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥].

قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ معناه: بما أعلمك الله، وسمي ذلك العلم بالرؤية؛ لأن العلم اليقيني المبرأ عن جهات الريب يكون جاريًا مجرى الرؤية في القوة والظهور[(٢)].

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل:٩٣].

وهذه الإراءة في الآيتين المراد بها الإراة العلمية[(٣)].

قال ابن جرير: «إن الله عز وجل وعد نبيه صلى الله عليه وسلم أن يري هؤلاء المشركين الذين كانوا به مكذبين آيات في الآفاق، وغير معقول أن يكون تهددهم بأن يريهم ما هم راءوه، بل الواجب أن يكون ذلك وعدًا منه لهم أن يريهم ما لم يكونوا رأوه قبل من ظهور نبي الله صلى الله عليه وسلم على أطراف بلدهم وعلى بلدهم، فأما النجوم والشمس والقمر، فقد كانوا يرونها كثيرًا قبل وبعد، ولا وجه لتهددهم بأنه يريهم ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يقول جل ثناؤه: أري هؤلاء المشركين وقائعنا بأطرافهم وبهم حتى يعلموا حقيقة ما أنزلنا إلى محمد، وأوحينا إليه من الوعد له بأنا مظهرو ما بعثناه به من الدين على الأديان كلها، ولو كره المشركون، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يقول تعالى ذكره: أولم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على كل شيء مما يفعله خلقه، لا يعزب عنه علم شيء منه، وهو مجازيهم على أعمالهم، المحسن بالإحسان، والمسيء جزاءه»[(٤)].

---

(١) لباب التأويل، الخازن١/ ٨١.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي١/ ١٦٧.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١١.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي٣/ ٥٢٠، في ظلال القرآن، سيد قطب٥/ ٢٦٢٥.
(٤) جامع البيان ٢١/ ٤٩٣.

العالم غير المرئي

بين القرآن الكريم أن في الوجود أشياء لا تدركها أبصارنا، ولا نستطيع أن نراها بأعيننا، ومن ذلك:

أولًا: الملائكة:

إن الملائكة أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السموات، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون[(١)].

قال ابن عاشور عن الملائكة: «أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرهم السماوات، ما لم يرسلوا إلى جهة من الأرض»[(٢)].

«ومن الأصول المعتبرة في القرآن: الإيمان بالملائكة، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال، وأخرى على طريق التفصيل، أما بالإجمال فقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾، أما بالتفصيل فمنها: ما يدل على كونهم رسل الله، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١].

ومنها: أنها مدبرات لهذا العالم، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات:٤-٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾ [الصافات:١].

ومنها: حملة العرش، قال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧].

ومنها: الحافون حول العرش، قال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر:٧٥].

ومنها: خزنة النار، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

ومنها: الكرام الكاتبون، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار:١٠-١١].

ومنها: المعقبات، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين»[(٣)].

والقوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، قال عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام:٩].

أي: لو أرسلنا إليهم ملكًا لم نرسله إلا

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٨٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٥٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٤٤٥.

في صورة إنسان؛ لأن الملك فيما قيل لو نظر إليه ناظر على هيئته لصعق، وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنس[1].

فقدكان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه، فعن أبي هريرة، وأبي ذر رضي الله عنه، قالا: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل... ثم قال: (لا والذي بعث محمدًا بالحق هدًى وبشيرًا، ما كنت بأعلم به من رجل منكم، وإنه لجبريل عليه السلام نزل في صورة دحية الكلبي)[2].

وجاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين على قول في تفسير قوله عز وجل: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص:٢١]؛ لأنهما وردا على داود، وهما ملكان في صورة رجلين يختصمان إليه، ومنه أن الملائكة أتت إبراهيم في صورة الضيفان: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات:٢٤-٢٥].

وكذلك أتت لوطًا عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الحجر:٦١-٦٢].

فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام:٩][3].

ولم تر الملائكة على حقيقتها التي خلقها الله عليها إلا جبريل عليه السلام، فقد رآه النبي عليه السلام على حقيقته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم:١٣-١٤].

يعني: رأى جبريل في صورته التي خلق عليه نازلًا من السماء نزلة أخرى، وذلك أنه رآه في صورته مرتين، مرة في الأرض، ومرة في السماء[4].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين)[5].

وعن زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٢/ ٢٣١.
(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام، رقم٤٩٩١، ٨/ ١٠١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١١١١، ٣/ ١٠٤.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٢/ ٢٣١.
وانظر: الوجيز، الواحدي ص ٣٤٦، معالم التزيل، البغوي ٢/ ١١١، أنوار التنزيل، البيضاوي٢/ ١٥٥.
(٤) معالم التنزيل، البغوي٤/ ٣٠٥.
وانظر: جامع البيان، الطبري٢٢/ ٥١١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم٤٨٥٥، ٦/ ١٤٠.

﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم:١٨]. قال: (رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح)[1].

أما في الآخرة فإن المؤمنين يرون الملائكة، قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر:٧٥].

والمعنى: أن الرائي يراهم بهذه الصفة في ذلك اليوم، حال كونهم مسبحين لله متلبسين بحمده، وقيل: معنى يسبحون: يصلون حول العرش شكرًا لربهم، والحافين: أي: محدقين حول العرش، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بين العباد بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار[2]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: وترى أيها الرائي الملائكة محيطين بجوانب العرش، قائمين بجميع ما يطلب منهم، فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتقديس، ويصلون حول العرش، شكرًا لربهم وتنزيهًا له عن كل نقص[3].

وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء:١٠٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣١].

وأما عن رؤية المجرمين للملائكة، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان:٢٢].

«يقول تعالى ذكره: يوم يرى هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ بتصديق محمد الملائكة، فلا بشرى لهم يومئذ بخير ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ يعني: أن الملائكة يقولون للمجرمين: حجرًا محجورًا، حرامًا محرمًا عليكم اليوم البشرى أن تكون لكم من الله»[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم٣٢٣٢، ٤/ ١١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: (ولقد رآه نزلة أخرى)، رقم١٧٤، ١/ ١٥٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني٤/ ٥٤٩.

(٣) انظر: تفسير المراغي٢٤/ ٣٩.

(٤) جامع البيان، الطبري١٩/ ٢٥٤.

«وأعلم الله عز وجل أن الوقت الذي يرون فيه الملائكة هو يوم القيامة، وأن الله قد حرمهم البشرى في ذلك الوقت»[1].

المعنى في هذه الآية: أن الكفار لما قالوا ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان:٢١-٢٢].

أخبر الله تعالى أنهم يوم يرون الملائكة إنما هو يوم القيامة، وقد كان أول الآية يحتمل أن يريد يوم تفيض أرواحهم، لكن آخرها يقتضي أن الإشارة إلى يوم القيامة، ومعنى هذه الآية أن هؤلاء الذين تمنوا نزول الملائكة لا يعرفون ما قدر الله في ذلك، فإنهم يوم يرون الملائكة هو شر لهم، ولا بشرى لهم، بل لهم الخسار ولقاء المكروه يومئذ[2].

ثانيًا: الجن:

الجن مخلوقات نارية لا ترى، أصل خلقهم من النار[3]، من شأنها التشكل بأشكال مختلفة[4].

وقد بين الله تعالى أن الجن لا ترى في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف:٢٧].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ جنوده، قال مجاهد: يعني: الجن والشياطين، ابن زيد: (قبيله) نسله، وقيل: جيله، من حيث لا ترونهم، قال بعض العلماء: في هذا دليل على أن الجن لا يرون، لقوله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ وقيل: جائز أن يروا؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى[5].

قال النحاس: «في قوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧].

يدل على أن الجن لا يرون إلا في وقت نبي ليكون ذلك دلالة على نبوته؛ لأن الله جل وعز خلقهم خلقًا لا يرون فيه، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم، وذلك من المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلى الله عليهم وسلم»[6]؛ لأن الله تعالى خلق في عيون الجن إدراكًا، فهم به يرون الإنس؛ والإنس لا يرونهم؛ لأنه تعالى لم يخلق هذا الإدراك في عيون الإنس[7].

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٤/ ٦٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية٤/ ٢٠٦.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد قنيبي ص١٦٦.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٣١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٧/ ١٨٦. وانظر: تفسير القرآن، السمعاني٢/ ١٧٦.
(٦) إعراب القرآن، النحاس٢/ ٥٠.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٩٤.

كما تدل الآية على أن الإنس لا يرون الجن على العموم في ذلك؛ لأن قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يتناول أوقات الاستقبال من غير تخصيص[(١)].

ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن عفريتًا من الجن جعل يفتك علي البارحة، ليقطع علي الصلاة، وإن الله أمكنني منه فذعته، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون-أو كلكم- ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص:٣٥]، فرده الله خاسئًا)[(٢)].

ووجود الجن معلوم من هذه الشريعة، كما أن الملائكة أيضًا معلوم وجودهم من هذه الشريعة، وقد قام البرهان العقلي القاطع على وجوده وقد صح تصورهم في الأجسام الكثيفة ورؤية بني آدم لهم في تلك الأجسام، كالشيطان الذي رآه أبو هريرة رضي الله عنه حين جعل يحفظ تمر الصدقة[(٣)]، والعفريت الذي رآه الرسول وقال فيه: (لولا دعوة أخي سليمان لربطته إلى سارية من سواري المسجد)[(٤)]، وكحديث خالد بن الوليد حين سير لكسر ذي الخلصة، وكحديث سواد بن قارب مع رئيه من الجن[(٥)] إلا أن رؤيتهم في الصور الكثيفة نادرة، كما أن الملائكة قد تبدو في الصور الكثيفة كحديث جبريل، وحديث الملك الذي أتى الأعمى والأقرع والأبرص[(٦)]، وهذا أمر قد استفاض في الشريعة، فلا يمكن رد تصورهم في بعض الأحيان في الصور الكثيفة[(٧)].

وعالم الجن، أو الشيطان، وإن يكن غير منظور لنا، فإن علينا الإيمان به، وأنه يعيش معنا على هذه الأرض، ويرانا من حيث لا تراه، كما يقول تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

«وهذا العالم غير المرئي، هو عدو لنا، متربص بنا، أشبه بجراثيم الأمراض التي لا

(١) المصدر السابق ١٤/ ٢٢٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، رقم٤٦١، ١/ ٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، رقم٥٤١، ١/ ٣٨٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا، رقم٢٣١١، ٣/ ١٠١.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب إسلام عمر رضي الله عنه، رقم٣٨٦٦، ٥/ ٤٨.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم٣٤٦٤، ٤/ ١٧١.
(٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان٥/ ٣٢.

ترى بالعين المجردة، وإن كان يمكن رؤيتها بأجهزة خاصة، كما يمكن أن يرى الشيطان لكثير من المؤمنين بعين البصيرة لا الإبصار، فلنحذر هذا العدو الراصد، كما نحذر الوباء، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦].

وإنه ليس علينا أن نبحث عن كنه الشيطان، ولا عن حياته الخاصة في عالمه، ولا عن طعامه، شرابه، وتزاوجه، وتوالده، وإنما الذي علينا أن نعلمه، هو أنه عدو غير مرئي لنا، وأنه يتدسس إلى مشاعرنا، ومدركاتنا، وعواطفنا، ويحاول جاهدًا أن يؤثر فيها، وأن يخرج بها عن جادة الحق والخير، إلى طريق الغواية والضلال، فيزين لنا الشر، فنراه خيرًا، والضلال، فنراه هدى! والشيطان، ليس هو النفس الأمارة بالسوء، كما يرى ذلك بعض الناس، وإنما هو كائن له وجوده المستقل خارج العالم الإنساني، وله حياته الخاصة، شأنه في هذا شأن الكائنات والعوالم غير المرئية التي تعيش معنا، كالجراثيم، والهواء، بل والإنسان الذي يلبس ثوب الوسواس، فإنه شيطان غير مرئي»[(١)].

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٦/ ١٧٥١.

الرؤية الوهمية

أشار القرآن الكريم إلى هناك رؤية موهومة، يرى الرائي شيئًا، والحقيقة تختلف عما يراه.

ومن تلك النماذج التي أشار إليها القرآن الكريم:

أولًا: رؤية الجبال:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل:٨٨].

وقد اختلف المفسرون في الرؤية الواردة في الآية هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور المفسرين: إن الآية حكت حادثًا يحصل يوم ينفخ في الصور فجعلوا قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ عطفا على ﴿يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النمل:٨٧].

أي: ويوم ترى الجبال تحسبها جامدة إلخ.. وجعلوا الرؤية بصرية، ومر السحاب تشبيهًا لتنقلها بمر السحاب في السرعة[(٢)].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨] أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي:

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٤٧.

تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ [الطور:٩-١٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف:٤٧].

وقوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذي أتقن كل شيء، أي: أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء»[1].

القول الثاني: إن هذه الرؤية في الدنيا.

قال ابن جرير: «﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ يا محمد ﴿تَحْسَبُهَا﴾ قائمة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ قاله ابن عباس، قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يقول: قائمة، وإنما قيل: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ لأنها تجمع ثم تسير، فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيرًا حثيثًا، قوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أوثق خلقه»[2].

وقال الزمخشري: «﴿جَامِدَةً﴾ من جمد في مكانه إذا لم يبرح، تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب، فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفه ثابتة في مكان واحد، وهي تمر مرًا حثيثًا كما يمر السحاب، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد: إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها»[3].

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وهذا تمجيد لهذا النظام العجيب إذ تتحرك الأجسام العظيمة مسافات شاسعة والناس يحسبونها قارة ثابتة، وهي تتحرك بهم، ولا يشعرون[4].

لذلك قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨].

فليس غريبًا الآن أن نعرف أن للجبال حركة، وأن كنا لا نراها؛ لأنها ثابتة بالنسبة لموقعك منها؛ لأنك تسير بنفس حركة سيرها، كما لو أنك وصاحبك في مركب، والمركب تسير بكما، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنك تتحرك بنفس حركته.

وقد شبه الله حركة الجبال بمر السحاب، فالسحاب لا يمر بحركة ذاتية فيه، إنما يمر بدفع الرياح، كذلك الجبال لا تمر بحركة ذاتية إنما بحركة الأرض كلها، وهذا دليل واضح على حركة الأرض[5].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ١٩٥.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي٣/ ٥١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية٤/ ٢٧٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٧٤.

(٢) جامع البيان ١٩/ ٥٠٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٨٧.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٥٠.

(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٥٢٧.

فللجبال حركة مرتبطة بحركة الأرض، وهذه الحركة لا ترى؛ لأنه لا يمكن لمن على الأرض أن يشعر بحركتها؛ لأنه يتحرك معها، وما دامت الجبال أوتادًا في الأرض وهي -أي: الجبال- تمر مر السحاب، فلا بد أن الأرض كذلك تمر، وتتحرك بنفس الحركة، وحركة الجبال ليست ذاتية، إنما هي تابعة لحركة الأرض، والحق سبحانه شبه حركة الجبال بحركة السحاب، والسحاب حركته غير ذاتية، إنما هي تابعة لحركة الرياح[1].

ثانيًا: رؤية السراب:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور:٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ:٢٠][2].

السراب: ما يرى في نصف النهار من اشتداد الحر؛ كالماء في المفاوز يلصق بالأرض، وهو غير الآل[3] الذي يرى في طرفي النهار، ويرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء[4].

وهذا مثل ضربه الله لأعمال أهل الكفر به، فقال: والذين جحدوا توحيد ربهم وكذبوا بهذا القرآن، وبمن جاء به مثل أعمالهم التي عملوها (كسراب) يقول: مثل سراب، والقاع: ما انبسط من الأرض واتسع، وفيه يكون السراب.

والمعنى: حتى إذا جاء الظمآن السراب ملتمسًا ماءً، يستغيث به من عطشه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ يقول: لم يجد السراب شيئًا، فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور، يحسبون أنها منجيتهم عند الله من عذابه، كما حسب الظمآن الذي رأى السراب، فظنه ماء يرويه من ظمئه، حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعه عند الله، لم يجده ينفعه شيئًا؛ لأنه كان عمله على كفر بالله، ووجد الله، هذا الكافر عند هلاكه بالمرصاد، فوفاه يوم القيامة حساب أعماله التي عملها في الدنيا، وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه عليه منه[5].

والسراب: هي ظاهرة ضوئية تلاحظ في ظروف مناخية وجغرافية متعددة، وأكثرها شيوعًا ما يلاحظه المسافر في المناطق الصحراوية خلال فترة الظهيرة، من وجود

(١) المصدر السابق ١٩/ ١١٦٠٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٠٥.
(٣) الآل: والسراب واحد، وقيل: الآل من الضحى إلى زوال الشمس، والسراب بعد الزوال إلى صلاة العصر.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٣١٥، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٦، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٥٢.

(٤) الكليات، الكفوي ص٥١٤.
(٥) جامع البيان، الطبري١٩/ ١٩٥.

رقعة مائية أمامه، وكلما تقدم، تقدمت تلك الرقعة المائية أمامه، وما هي في الحقيقة بماء، وهو لن يدركها أبدًا، وقد ضرب الله في قرآنه المحكم مثلًا بهذه الظاهرة الطبيعية التي يراها الناس بأعينهم ويعرفون مدلولها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور:٣٩].

فقد شبه الله أعمال الكافرين بالسراب، وما هو بماء حقيقي، ولكنه وهم وخداع نظر، فهي أعمال يحسبها الكافرون تنفعهم بدون إيمان، حتى إذا جاءوا يوم القيامة وجدوا أعمالهم هباءً منثورًا[1].

رؤية النعم

لقد منَّ الله عز وجل على بني آدم بنعم كثيرة، لا تعد ولا تحصى، يرونها في جميع تفاصيل حياتهم، لا يختلف في ذلك غنيهم عن فقيرهم، فالكل منعم عليه.

ولكن نظرة الناس إلى تلك النعم تختلف، وهذا ما سنناقشه في النقاط الآتية:

أولًا: رؤية الشاكر:

إن الشاكر يرى أن النعم من الله تعالى، ولهذا فهو يطلب من الله تعالى أن يلهمه شكر هذه النعم.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٥].

والمعنى: أغرني بشكر نعمتك التي أنعمت علي[2]، يعني: ألهمني ما أؤدي به شكر نعمتك، وما أوزعت به نفسي، أن أكفها عن كفران نعمتك، وأصله من وزعته، أي: دفعته، يعني: ادفعني أن أؤدي شكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي بالإسلام، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ يعني: تقبله ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ يعني: أكرمهم بالتوحيد[3].

(١) القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص٤٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري٢٢/ ١١٤.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي٣/ ٢٨٨.

كما أن الشاكر يرى أن الله سخر له ما في السموات والأرض وتم تلك النعم عليه الظاهرة والباطنة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان:٢٠].

يقول تعالى منبهًا خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفًا محفوظًا، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي: في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠]. أي: مبين مضيء[(١)].

وكذلك يرى الشاكر أن من شكر النعم أن يحدث بها، ويذكرها ويعمل بمقتضاها[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى:١١].

أي: انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء، والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر[(٣)].

والتحدث بنعمة والإخبار بها، وقول العبد: أنعم الله علي بكذا وكذا شكر.. عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر: (من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله، التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب)[(٤)].

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى جميل، يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده)[(٥)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٣١٠.
وانظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٧١٧.

(٢) جامع البيان، الطبري٢٤/ ٤٨٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٢٠/ ١٠٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم١٨٤٤٩، ٣٠/ ٣٩٠.
وحسنه الألباني في الجامع الصغير، رقم ٣٠١٤، ١/ ٥٧٨.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٨١٠٧، ١٣/ ٤٦٨ ، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه، رقم٢٨١٩، ٥/ ١٢٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع،

يعني: يشكر بما أنعم الله تعالى عليه، ويحدث به، فيظهر على نفسه أثر النعمة[1].

وفي حديث جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أعطي عطاء، فوجد فليجز به، ومن لم يجد فليثن، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور): ومعنى قوله: (ومن كتم فقد كفر) يقول: قد كفر تلك النعمة[2].

فذكر أقسام الخلق الثلاثة، شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها، والكاتم لها، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها، فهو متحل بما لم يفعله[3].

والشكر ثلاثة أشياء:

الأول: معرفة النعمة بمعنى إحضارها في الخاطر بحيث يتميز عندك أنها نعمة، فرب جاهل يحسن إليه وينعم عليه، وهو لا يدري، فلا جرم أنه لا يصح منه الشكر.

والثاني: قبول النعمة بتلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة، فإن ذلك شاهد بقبولها حقيقة.

والثالث: الثناء بها بأن تصف المنعم بالجود والكرم ونحوه مما يدل على حسن تلقيك لها واعترافك بنزول مقامك في الرتبة عن مقامه، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى[4].

وشكر الله تعالى مبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره، هذه الخمسة هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر[5].

والشاكر في الحقيقة: من يرى عجزه عن شكره، ويرى شكره من الله عز وجل، لتحققه أنه هو الذي خلقه، وهو الذي وفقه لشكره، وهو الذي رزقه الشكر، وهو الذي اجتباه حتى كان بالكلية له سبحانه[6].

والخلاصة أن: رؤية الشاكر للنعم هو القيام بالشكر اعتقادًا وقولًا وفعلًا، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وبهذا يتبين أن رؤية الشاكر للنعم تتمثل في الاعتراف بها والإقرار بوجوب الشكر، اعتقادًا بأن النعم من الله وحده لا شريك له،

رقم١٧٤٢، ١/ ٣٥٩.

(١) انظر: تفسير السمرقندي٣/ ٥٩٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٤٥٩٣، ٤١/ ١٤٢، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه، رقم٢٠٣٤، ٤/ ٣٧٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٠٥٦، ٢/ ١٠٤٦.

(٣) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٥٧٣.

(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٤٥.

(٥) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٣٧.

(٦) انظر: لطائف الإشارات، القشيري٢/ ٣٢٧.

وقولًا بالتحدث بالنعم وإظهارها، وعملًا ببذلها لمن يحتاجها؛ لما رواه ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لله عبادًا اختصهم بالنعم لمنافع العباد، يقرهم فيها ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم، فحولها إلى غيرهم)[1].

ثانيًا: رؤية الجاحد:

إن الله تعالى إذا أنعم على الجاحد فإنه يرى أن هذه النعم هي بسبب فضله وعلمه ومكانته بين الناس، كما قال تعالى عن قارون: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ [القصص:٧٦-٧٨].

قال عطاء: فكفر قارون لما رأى أن المال حصل له بعلمه، ولم يعتبره من عطاء الله، فكأنه أراد بعلمه في التصرف وأنواع المكاسب، وقال آخرون: معناه: إنما أوتيته على خير علمه الله عندي، فكنت أهلًا لما أعطيته لفضل علمي، وقال الكلبي: على علم عندي بصنعة الذهب[2].

وقال ابن زيد: أي: إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني، أي: أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل في، وقيل: أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب[3].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾ [الفجر:١٥-١٦].

«يقول تعالى ذكره: فأما الإنسان إذا ما امتحنه ربه بالنعم والغنى فأكرمه بالمال، وأفضل عليه، ونعمه بما أوسع عليه من فضله فيقول: ربي أكرمن، فيفرح بذلك ويسر به ويقول: ربي أكرمني بهذه الكرامة.

وأما إذا ما امتحنه ربه بالفقر فقدر عليه رزقه يقول: فضيق عليه رزقه وقتره، فلم يكثر ماله، ولم يوسع عليه فيقول: ربي أهانن، يقول: فيقول ذلك الإنسان: ربي أهانني، يقول: أذلني بالفقر، ولم يشكر الله على ما وهب له من سلامة جوارحه، ورزقه

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم٥١٦٢، ٥/ ٢٢٨، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم٧٢٥٦، ١٠/ ١١٧.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢١٦٤، ١/ ٤٣٢.

(٢) انظر: الوسيط، الواحدي٣/ ٤٠٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣١٥.

من العافية في جسمه»[1].

قال النووي: «اختلف العلماء في كفر من

أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف:١٧].

والمعنى: ولا تجد أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتك التي أنعمت عليهم، وشكرهم اياه، طاعتهم له بالاقرار بتوحيده، واتباع

رؤية الأدلة العلمية والجنائية

سيكون هذا المبحث في بيان رؤية الأدلة العلمية، والجنائية في القرآن الكريم، وذلك في النقاط الآتية:

انشق»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اشهدوا)[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ أي: دليلًا وحجة وبرهانًا ﴿يُعْرِضُوا﴾ أي: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحجج سحر، ومعنى مستمر: ذاهب، أي: باطل مضمحل لا دوام له، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم[3].

٢. رؤية معجزات موسى عليه السلام.

لقد ذكر القرآن الكريم رؤية فرعون وقومه لمعجزات سيدنا موسى عليه السلام في كثير من الآيات.

منها قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف:١٠٥-١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء:٣١-٣٣].

والمعنى: أنه أخرج يده من جيبه أو من تحت جناحه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني: من غير برص، وقيل: إن موسى عليه عليه السلام أدخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه، وقيل: أخرج يده من تحت إبطه، فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم اللون، ثم ردها إلى جيبه فأخرجها، فإذا هي كما كانت، ولما كان البياض المفرط عيبًا في الجسد، وهو البرص قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه:٢٢].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٠.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٧٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٨٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، رقم ٤٨٦٤، ٦/ ١٤٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٠.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٨٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٧.

يعني: من غير برص، والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضًا عجيبًا خارجًا عن العادة يتعجب منه[1].

ومعنى: ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أن بياضها مما يقصده الناظرون لأعجوبته، وكان لون جلد موسى عليه السلام السمرة، والتعريف في ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ للاستغراق العرفي، أي: لجميع الناظرين في ذلك المجلس، وهذا يفيد أن بياضها كان واضحًا بينًا مخالفًا لون جلده بصورة بعيدة عن لون البرص[2].

٣. رؤية أدلة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

أمر الله تعالى بالنظر في السموات والأرض لرؤية أدلة الإعجاز العلمية.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس:١٠١].

والمعنى كما قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله، وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السموات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها، وأقوات أهلها وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعتبرًا، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يغنيكم عما سواه من الآيات.

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وما تغني الحجج والعبر والرسل المنذرة عباد الله عقابه، عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى لهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار، لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به؟»[3].

وقد أخبر تعالى بأنه هو الذي يري عباده الأدلة العلمية.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [غافر:١٣].

والمعنى: هو الذي يريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته، وينزل لكم من أرزاقكم من السماء بإدرار الغيث الذي يخرج به أقواتكم من الأرض، وغذاء أنعامكم عليكم، وما يتذكر حجج

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٣٣.
وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٠٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٥١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٢٤.
(٣) جامع البيان ١٥/ ٢١٤.

الله التي جعلها أدلة على وحدانيته، فيعتبر بها ويتعظ ويعلم حقيقة ما تدل عليه، إلا من ينيب، يقول: إلا من يرجع إلى توحيده، ويقبل على طاعته[1].

وآيات الله: تعم آيات قدرته، وآيات قرآنه، والمعجزات الظاهرة على أيدي رسله[2].

قال ابن كثير: «هو الذي يريكم آياته، أي: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾، أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي: من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى»[3].

ورؤية أدلة الإعجاز العلمي ليست محددة بوقت، بل تشمل جميع الأزمان قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ يعني: أقطار الأرض والسماء من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار والبحار والأمطار، ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، وسبيل الغائط والبول، حتى إن الرجل ليأكل ويشرب من مكان واحد، ويخرج ما يأكل ويشرب من مكانين.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يعني: إن ما نريهم ونفعل من ذلك هو الحق، وقيل: إنه يعني: الإسلام، وقيل: محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: القرآن[4].

ومثل الآية قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء:٣٧].

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾: معناه أن بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١][5].

﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ والمعنى: يا أيها المستعجلون ربهم بالآيات القائلون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون،

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٦٢.
وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٠.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٥٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٢١.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٣٠٠.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٨.

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾، كما أريتها من قبلكم من الأمم التي أهلكناها بتكذيبها الرسل، إذا أتتها الآيات، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، يقول: فلا تستعجلوا ربكم، فإنا سنأتيكم بها ونريكموها[1].

ونتيجة رؤية الأدلة العلمية هي الإيمان والتصديق بالنسبة للمؤمنين، أما الكافرين فقد أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الصافات:١٤].

أي: إذا رأوا حجة من حجج الله عليهم، ودلالة على نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم يسخرون ويستهزءون بها[2].

٤. رؤية الأدلة العلمية على ثبوت الوقائع.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف:٣٥].

والمعنى: ظهر للعزيز وأهل مشورته أدلة وعلامات براءة يوسف عليه السلام من قد القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحز الأيدي، وقلة صبرهن عن لقاء يوسف عليه السلام• أن يسجنوه كتمانًا للقصة ألا تشيع في العامة، وللحيلولة بينه وبينها، فالقميص من الآيات، وشهادة الشاهد من الآيات، وقطع الأيدي من الآيات، وإعظام النساء إياه من الآيات[3]، والأدلة على صدقه في عفته ونزاهته[4].

ويدخل في رؤية الأدلة العلمية ما يهبه الله تعالى للعلماء من ملكة فقهية لرؤية الأدلة العلمية في الكتاب والسنة على الأحكام، ومن ثم بناء الأحكام الفقهية عليها.

ثانيًا: رؤية الأدلة الجنائية:

ورد في القرآن ما يختص برؤية الأدلة الجنائية، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف:٢٨].

استدل العلماء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها، كما استدل يعقوب عليه عليه السلام على كذبهم بصحة القميص، فيجب على الناظر أن يلحظ الآيات، والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة، ولا خلاف بين العلماء في الحكم بها[5].

فيحتج بالآية من يرى الحكم بالأمارات والعلامات، فيما لا تحضره البينات، كاللقطة والسرقة والوديعة ومعاقد الحيطان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري١٨/ ٤٤٤.
(٢) انظر: المصدر السابق٢١/ ٢٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٨٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٣٣١.
(٥) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٤١.

والسقوف وشبهها[1].

فمن ذلك قول المالكية وغيرهم: إن القرينة الجازمة ربما قامت مقام البينة، مستدلين على ذلك بجعل شاهد يوسف شق قميصه من دبر قرينة على صدقه، وكذب المرأة[2].

وسمي قوله شهادة؛ لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف عليه السلام على سيدته أو دحضه، وهذا من القضاء بالقرينة البينة؛ لأنها لو كانت أمسكت ثوبه لأجل القبض عليه لعقابه لكان ذلك في حال استقباله له إياها، فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قبل، وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض، ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر ببال الشاهد أن تمزيقًا وقع وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص، والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها، فأراد أن يقيم دليلًا على صدقها، فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام[3].

ويفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين وكذب الآخر؛ لأن ذكر الله لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف عليه السلام يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب؛ لأن كون القميص مشقوقًا من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب عنها، وهي تنوشه من خلفه، ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن محل العمل بالقرينة ما لم تعارضها قرينة أقوى منها، فإن عارضتها قرينة أقوى منها أبطلتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٨].

وهذه الآيات المذكورة أصل في الحكم بالقرائن[4].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٨].

قال بعض العلماء: لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم؛ قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التخريق، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف، وهو لابس القميص، ويسلم القميص من التخريق، ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص لم يجد فيه

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٧٠.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٨٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٥٧.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢١٥.

خرقًا، ولا أثرًا، استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: تزعمون أن الذئب أكله، ولو أكله لشق قميصه[1].

وبهذا يكون النظر في الأدلة الجنائية وأدوات الجريمة مما يساعد في كشف الجريمة وملابستها ومعرفة الجاني.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٤١.

الرؤية والاعتبار

إن الرؤية والاعتبار في القرآن الكريم يكون في التفكر والاعتبار في الآيات الكونية، وفي الاعتبار والعظة بهلاك الأمم السابقة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الآيات الكونية:

الآيات الكونية هي: الآيات المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كونه الله تعالى فكان، وذلك السموات والأرض والجبال والسهول والأنهار والشمس والقمر والنبات والحيوان والجماد، وخلق الإنسان، وآيات الله عز وجل في الآفاق، وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات[2].

جاء الأمر الصريح في القرآن على الحث على التفكر في الكون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السموات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري١/ ١٤١.

وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعتبرًا، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يغنيكم عما سواه من الآيات»[(١)].

وهذه الآية أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع، وغير ذلك من آيات السماوات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك[(٢)].

أي: انظروا بالتفكر والاعتبار ماذا في السماوات والأرض من الآيات والعبر التي تدل على وحدانيته ونفاذ قدرته كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، وكل هذا يقتضي خالقًا مدبرًا سبحانه[(٣)].

قال الإمام الرازي: «ولو أن الإنسان أخذ يتفكر في كيفية حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد، ولا شك أن الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل في القرآن المجيد، فلهذا السبب ذكر قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولم يذكر التفصيل، فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية، حتى إن العاقل يتنبه لأقسامها، وحينئذ يشرع في تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية والبشرية، ثم إنه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتأمل، بين بعد ذلك أن هذا التفكر والتدبر في هذه الآيات لا ينفع في حق من حكم الله تعالى عليه في الأزل بالشقاء والضلال»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت:٢٠].

أرشد الله تعالى في الآية إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون[(٥)].

والمعنى: سيروا في الأرض وشاهدوا السموات وما فيها من الكواكب النيرة، ثوابتها وسياراتها، والأرض وما فيها من

(١) جامع البيان ١٥/ ٢١٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٤٥.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٥٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي١٧/ ٣٠٦.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ٢٤٤.

جبال ومهاد، وبراري وقفار، وأشجار وثمار، وأنهار وبحار، فكل ذلك شاهد على حدوثها في أنفسها، وعلى جود صانعها الذي يقول للشيء: كن، فيكون[(١)].

وإنما أمر بالسير في الأرض؛ لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحوياتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها، فيرى كثيرًا من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولانًا لم يكن يخطر له ببال، حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه؛ لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائبًا عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال، فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل، فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي؛ لأن السائر ليس له من قرار في طريقه، فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن، وأنه قادر على إيجاد أمثالها، فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها[(٢)].

قال محمد إسماعيل إبراهيم: «وها هو القرآن يدعونا إلى التفكر في بدء الخلق منذ أن تصلبت قشرة الأرض الخارجية، وتكونت عليها القارات والمحيطات، لذلك اجتهد علماء الجيولوجيا أن يقرأوا تاريخ الأرض من طبقات الصخور الرسوبية التي تراكمت عليها، وفي طياتها الكثير من بقايا الكائنات الحية التي عاشت عليها، سواء كانت لحيوان أو نبات، وهذه البقايا المتحجرة هي ما نسميه اليوم بالحفريات، وهي في واقعها سجل حافل بتاريخ الخليقة منذ بدايتها، وقد استطاع العلم بوسائله المتقدمة أن يقرأ كثيرًا من صفحات هذا السجل، ويعرف حقائق كثيرة عن نشأة الأرض وتطوراتها خلال الأزمنة الجيولوجية»[(٣)].

وقوله عز وجل: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء:٩٩].

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أولم ينظر هؤلاء القائلون من المشركين: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٩٨] بعيون قلوبهم، فيعلمون أن الله الذي خلق

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٠/ ١٢٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٠.

(٣) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص ٦٨.

السماوات والأرض، فابتدعها من غير شيء، وأقامها بقدرته، قادر بتلك القدرة على أن يخلق مثلهم أشكالهم، وأمثالهم من الخلق بعد فنائهم، وقبل ذلك، وأن من قدر على ذلك فلا يمتنع عليه إعادتهم خلقًا جديدًا، بعد أن يصيروا عظامًا ورفاتًا»[1].

وقد أمر الله تعالى بالنظر إلى آية المطر للاستدلال على قدرته سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم:٥٠].

والمعنى: انظروا نظر استبصار واستدلال، أي: استدلوا بذلك على أن من قدر على ذلك قادر على إحياء الموتى[2].

وقد نعى الله تعالى على تاركي التفكر في الآيات الكونية، ووصفهم بأنهم لا يفكرون في ما حولهم، وشنع عليهم تركهم التفكر[3].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم:٨-١١].

والمعنى: «أولم يثبتوا التفكر في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة، فيتفكروا بها في مصنوعات الله، حتى يعلموا أنها ما خلقت عبثًا، والتفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقوله: اعتقده في قلبك، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾، التي هي أقرب إليهم من غيرها، وهم أعلم بأحوالها، فيتدبروا ما أودعها الله تعالى، ظاهرًا وباطنًا، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازي فيه، على الإحسان إحسانًا، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا، عند ذلك أن سائر الخلائق مثلها، وأنه لا بد لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت، فيعلموا أن ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى أي: ما خلقها باطلًا وعبثًا من غير حكمة ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة البالغة، وتنتهي إلى أجل مسمى وهو قيام الساعة، ووقت الحساب

(١) جامع البيان، الطبري١٧/ ٥٦٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٤٥.
(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري٣/ ٢٥٣.

بالثواب والعقاب، فيخرب هذا العالم، ويقوم عالم آخر، لا انتهاء لوجوده»[1].

وقد وصف الله تعالى تاركي التفكر والاعتبار بأنهم مكذبون وكافرون بهذه الآيات ووبخهم وتهكم عليهم[2]، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء:٣٠-٣٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول جل وعز: وكم من آية في السموات والأرض لله، وعبرة وحجة، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، يقول: يعاينونها فيمرون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهة لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء، فدبرها»[3].

[انظر: الآيات الكونية، مجالات استدلال القرآن بالآيات الكونية]

ثانيًا: هلاك الأمم السابقة:

أمر الله تعالى بالسير في الأرض للاعتبار بهلاك الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام:١١].

والمعنى: سيروا في الأرض لتعرفوا أحوال أولئك الأمم، وتفكروا في أنهم كيف أهلكوا لما كذبوا الرسل وعاندوا، فتعرفوا صحة ما توعظون به، وفي السير في الأرض، والسفر في البلاد، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها تكملة للاعتبار، وتقوية للاستبصار[4].

كما حض الله سبحانه على رؤية ما حل بالأمم السابقة وأخذ العبرة من ذلك، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام:٦][5].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٢٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢١/ ٣١.
(٣) جامع البيان ١٦/ ٢٨٥.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٣١.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٢١.
(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٦٨.

لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي، الجاحدون نبوتك، كثرة من أهلكت من قبلهم من القرون، وهم الأمم الذين وطأت لهم البلاد والأرض توطئة لم أوطئها لهم، وأعطيتهم فيها ما لم أعطهم؟»[1].

والقرن الأمة من الناس، والجمع القرون[2]، وقيل: القرن مدة أغلب أعمار الناس وهي سبعون سنة، وقيل: ثمانون، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لم يغن ذلك عنهم شيئًا، وأحدثنا من بعدهم قرنًا آخرين بدلًا منهم، والمعنى: أنه سبحانه وتعالى كما قدر على أن يهلك من قبلكم كعاد وثمود، وينشئ مكانهم أقوامًا يعمر بهم بلاده، يقدر أن يفعل ذلك بكم[3].

وقد بين الله تعالى أن قوة وشدة الأمم السابقة لم تمنع عنهم الهلاك، ولم تكن قوتهم وعمارتهم للأرض وقاية لهم من ذلك.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم:٩].

وقوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر:٢١].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر:٨٢].

والمعنى: أولم يسر هؤلاء المكذبون بالله، الغافلون عن الآخرة في البلاد التي يسلكونها للتجارة ونحوها، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة، كيف كان عاقبة أمرها في تكذيبها رسلها، فقد كانوا أشد منهم قوة.

﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: استخرجوا الأرض، وحرثوها وعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رسلهم، فلم يقدروا على الامتناع، مع شدة قواهم مما نزل بهم من عقاب الله، ولا نفعتهم عمارتهم ما عمروا من الأرض، فأحل الله بهم بأسه، وعلل ذلك الهلاك بقوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله، وجحودهم آياته، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعصيتهم

(١) جامع البيان ١١/ ٢٦٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩١.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٥٤.

ربهم[1].

وفي الآيات تقرير لسيرهم في البلاد، ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ثم وصف حالهم فقال: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ وحرثوها ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ أي: المدمرون ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: من عمارة أهل مكة وغيرهم[2].

ومع السير في الأرض للاعتبار بهلاك الأمم السابقة بين تعالى أن الآخرة خير للمتقين.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف:١٠٩].

والمعنى: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك، أو من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها، فيقلعوا عن حبها، ولدار الآخرة أي: الحياة الآخرة، ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير[3].

وقد بين الله تعالى أن للكافرين مثل ذلك الهلاك الذي حل بالأمم السابقة: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد:١٠].

يقول: وللكافرين من قريش المكذبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب العاجل، أمثال عاقبة تكذيب الأمم الذين كانوا من قبلهم رسلهم على تكذيبهم رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم[4].

والمعنى: فينظروا كيف كان عاقبة الكافرين الذين من قبلهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم الله ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي: أمثال تلك العاقبة، فأهلك الله عز وجل بالسيف من أهلك ممن صد عن النبي صلى الله عليه وسلم[5].

ومن الاعتبار في هلاك الأمم السابقة أنهم لا يرجعون إلى الدنيا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس:٣١-٣٢].

قال السعدي: «يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٧٨.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٩٢.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٧٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٦٢.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٨.

الجميع خلقًا جديدًا، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة»[1].

وبعد أن ذكر أنه أهلكهم وبين طريق ذلك، أعقب هذا بأن لهم حسابًا وعقابًا فقال: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: وإن جميع الأمم ماضيها وحاضرها وآتيها ستحضر يوم القيامة بين يدى الله، فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة له، والخلاصة: إن الناس يجمعون للحساب والجزاء، ويوفى كل عامل جزاء عمله من خير أو شر[2].

رؤية ثواب الأعمال

في الآخرة يعرف العباد مصيرهم، ويرون ثواب أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وسيكون حديثنا في هذا المبحث في النقاط الآتية:

أولًا: رؤية ثواب الأعمال الصالحة:

بين الله تعالى رؤية ثواب الأعمال الصالحة في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦﴾ [الزلزلة:٦].

يقول: يومئذ يصدر الناس أشتاتًا متفرقين، عن اليمين وعن الشمال، ليروا أعمالهم، فيرى المحسن في الدنيا المطيع لله عمله، وما أعد الله له يومئذ من الكرامة على طاعته إياه كانت في الدنيا، ويرى المسيء العاصي لله عمله وجزاء عمله، وما أعد الله له من الهوان والخزي في جهنم على معصيته إياه كانت في الدنيا، وكفره به[3].

وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ [الزلزلة:٧].

يقول: فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير، يرى ثوابه هنالك[4].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيرًا يره في الدنيا، ولا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٩٥.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٣/ ٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٤٩.
(٤) المصدر السابق ٢٤/ ٥٤٩.

يثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات، ويتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه، ويضاعف له في الآخرة»[1].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠].

والمعنى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا من خير ﴿مُّحْضَرًا﴾ يعني: تجد ثوابه حاضرًا، ولا ينقص من ثواب عمله شيء، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ يعني: من شر في الدنيا ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ يعني: تتمنى النفس أن تكون بينها، وبين ذلك العمل أجلًا بعيدًا، كما بين المشرق والمغرب، ولم تعمل ذلك العمل قط، ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: عقوبته في عمل السوء، ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال ابن عباس: يعني: بالمؤمنين خاصة، وهو رحيم بهم»[2].

والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن[3].

وأسند الإحضار إلى النفوس لأنها الفاعلة للأعمال التي يظهر جزاؤها يومئذ، فهذا الإسناد من إسناد فعل الشيء إلى سبب فعله، فحصل هنا مجازان: مجاز لغوي ومجاز عقلي، وحقيقتهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ وجعلت معرفة النفوس لجزاء أعمالها حاصلة عند حصول مجموع الشروط التي ذكرت في الجمل الثنتي عشرة، لأن بعض الأحوال التي تضمنتها الشروط مقارن لحصول علم النفوس بأعمالها، وهي الأحوال الستة المذكورة أخيرًا، وبعض الأحوال حاصل من قبل بقليل، وهي الأحوال الستة المذكورة أولًا[4].

ثانيًا: رؤية جزاء الأعمال السيئة:

إن ثواب الأعمال السيئة هي الجحيم، وقد أخبر سبحانه أنها تبرز لمن يرى.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٤٥٠.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٠٦.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٥١.

قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات:٣٦].

قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء، فينظر إليها الخلق[(١)]، والحكمة في إظهار الجحيم هو مشاهدة الكفار مكان عقوبتهم، وليعلم المؤمنون من أي عذاب نجوا[(٢)].

ومثلها قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر:٥-٧].

هذا تفسير الوعيد المتقدم في قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التكاثر:٣-٤].

توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية أهل النار إذا زفرت زفرة واحدة خر كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال[(٣)].

أي: إن دار العذاب التي أعدت لمن يلهو عن الحق لا ريب فيها ولترونها بأعينكم، فاجعلوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم، لتنبهكم إلى ما هو خير لكم مما تلهون به.

والمراد برؤية الجحيم: ذوق عذابها، وهذا استعمال شائع في الكتاب الكريم، ثم كرر ذلك للتأكيد فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر:٧] أي: لترونها رؤية هي اليقين نفسه، إلى أي دين أو إلى أي شخص كانت نسبتكم، فلتتقوا الله ربكم، ولتنتهوا عما يقذف بكم فيها، ولتنظروا إلى ما أنتم فيه من نعمة، ولترعوا حق الله فيها، فاستعملوها فيما أمر أن تستعمل فيه، ولا تجترحوا السيئات وتقترفوا المنكرات، إنكم لتمنون أنفسكم بأنكم ممن يعفو الله عنهم، ويزحزحهم من النار بمجرد نسبتكم إلى الدين الإسلامي وتلقيبكم بألقابه، مع مخالفتكم أحكام القرآن، وعملكم عمل أعداء الإسلام[(٤)].

قال الرازي: «في تكرار الرؤية وجوه: أحدها: أنه لتأكيد الوعيد أيضًا، لعل القوم كانوا يكرهون سماع الوعيد، فكرر لذلك، ونون التأكيد تقتضي كون تلك الرؤية اضطرارية، يعني: لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها، لكنكم تحملون على رؤيتها شئتم أم أبيتم، وثانيها: أن أولهما الرؤية من البعيد: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢].

وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات:٣٦].

والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار، وثالثها: أن الرؤية الأولى عند الورود، والثانية عند الدخول فيها، قيل: هذا التفسير ليس بحسن؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ والسؤال يكون قبل الدخول، ورابعها: الرؤية الأولى

(١) انظر: الوسيط، الواحدي ٤/ ٤٢١.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٥٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥٢.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ٢٣٢.

للوعد، والثانية المشاهدة، وخامسها: أن يكون المراد ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ غير مرة، فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها؛ لأنهم مخلدون في الجحيم، فكأنه قيل لهم: على جهة الوعيد، لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة متصلة، فتزول عنكم الشكوك، فإن قيل: ما فائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين؟ قلنا: لأنهم في المرة الأولى رأوا لهبًا لا غير، وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية، ولا شك أن هذه الرؤية أجلى، والحكمة في النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى التفريع على ترك النظر؛ لأنهم كانوا يقتصرون على الظن، ولا يطلبون الزيادة»[1].

ورؤية ثواب الأعمال في الآخرة قد سبقه الإنذار بذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ:٤٠].

فقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: العذاب في الآخرة، وكل ما هو آت قريب.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يعني: أن كل أحد يرى عمله في ذلك اليوم، ما قدم من خير وشر مثبتًا عليه في صحيفته، فيرجو ثواب الله على صالح عمله، ويخاف العقاب على سوء عمله، وأما الكافر فإنه يقول: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

قال الحسن: إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، فقضى بين الثقلين الجن والإنس، وأنزلهم منازلهم، قال لسائر الخلق: كونوا ترابًا، فكانوا ترابًا، فحينئذ يقول الكافر: يا ليتني كنت ترابًا[2].

ورؤية ثواب الأعمال الصالحة، وثواب الأعمال السيئة يكون بعد رؤية ما كسبه الإنسان في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم:٣٩-٤١].

كما قال تعالى في بدو سيئات ما كسب الكافرون: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر:٤٨].

أي: أنه ظهر للكافرين ما كانوا يعملون من سيئات، وانكشف لهم وجهها القبيح الذي ينادى عليهم بالويل والثبور ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: حل وأحاط بهم، هذا اليوم الذي كانوا يستهزئون به، وينكرون أن يكون واقعًا أبدًا[3].

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/ ٢٧٣.

(٢) الوسيط، الواحدي ٤/ ٤١٧.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٥٥.

ورؤية ثواب الأعمال يقوم على ميزان العدل الإلهي، وقد أوضح هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء:٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

والآيات بمثل ذلك كثيرة[1].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٨٩.

رؤية النعيم والعذاب

يترتب على السعي في الحياة الدنيا رؤية العمل وثوابه، كما يترتب على ذلك رؤية النعيم، ورؤية العذاب، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: رؤية النعيم:

ذكر الله تعالى رؤية النعيم في قوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان:١٩-٢١].

والنعيم: سائر ما يتنعم به[2]، والملك الكبير هو كما قال ابن كثير: «وإذا رأيت يا محمد الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا، أي: مملكة لله هناك عظيمة وسلطانًا باهرًا، وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا إليها: (إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها)[3].

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم٦٥٧١، ٨/ ١١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم١٨٦، ١/ ١٧٣، عن عبد الله بن مسعود.

فإذا كان هذا عطاءه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى؟»[1].

وقال المراغي: «﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: وإذا نظرت في الجنة رأيت نعيمًا عظيمًا وملكًا كبيرًا لا يحيط به الوصف.

وقد اختلفوا في المراد من هذا الملك الكبير، فقيل: إن أدناهم منزلة من ينظر ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه، كما يرى أدناه، وقيل: هو استئذان الملائكة عليهم، فلا يدخلون إلا بإذنهم، وقيل: هو الملك الدائم الذي لا زوال له، ولم يجئ في الأخبار الصحيحة ما يفسر هذا الملك الكبير، فأولى بنا أن نؤمن به ونترك تفصيله إلى علام الغيوب»[2].

ومن رؤية النعيم رؤية الولدان المخلدون في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان:١٩].

والمعنى: «إذا رأيت يا محمد هؤلاء الولدان مجتمعين أو مفترقين، تحسبهم في حسنهم، ونقاء بياض وجوههم وكثرتهم، لؤلؤًا مبددًا، أو مجتمعًا مصبوبًا»[3].

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢٩٩.
(٢) تفسير المراغي ٢٩/ ١٧٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١١.

ثانيًا: رؤية العذاب:

أخبر تعالى أن الظالمين يرون العذاب يوم القيامة في آيات من كتابه الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٦].

تقدير الكلام في الآية: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه[4].

والمعنى: ولو يشاهد الذين ظلموا أنفسهم بتدنيسها بالشرك، وظلم الناس وغشهم، بحملهم على أن يحذو حذوهم، ويتخذوا الأنداد مثلهم، حين يرون العذاب في الآخرة، فتقطع بهم الأسباب، ولا تغني عنهم الأنداد والأرباب، أن القوة لله وحده، بها يتصرف في كل موجود، لعلموا أن هذه القوة التي تدبر عالم الآخرة هي عين القوة التي تدبر عالم الدنيا، وأنهم كانوا ضالين حين لجئوا إلى سواها، وأشركوا معها غيرها، وكان ذلك منشأ عقابهم وعذابهم[5].

كما أخبر تعالى أن الظالمين يسرون الندامة حين يرون العذاب، قال تعالى:

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٤٦.
(٥) تفسير المراغي ٢/ ٤٠.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس:٥٤].

قال أبو جعفر الطبري: «ولو أن لكل نفس كفرت بالله، وظلمها في هذا الموضع عبادتها غير من يستحق عبادته، وتركها طاعة من يجب عليها طاعته ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من قليل أو كثير ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ يقول: لافتدت بذلك كله من عذاب الله إذا عاينته، وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يقول: وأخفت رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامة حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ يقول: وقضى الله يومئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وذلك أنه لا يعاقب أحدًا منهم إلا بجريرته، ولا يأخذه بذنب أحد، ولا يعذب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر وتابع عليه الحجج»[1].

ومن المفسرين من قال بأن الإسرار في الآية المراد به الإظهار، أي: إظهار الندامة؛ لأن الإسرار من الأضداد الذي يتناول الإخفاء والإظهار؛ لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة، وفي القيامة بطل هذا الغرض فوجب الإظهار[2].

وقوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان:٤٢].

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن هؤلاء المشركين الذين كانوا يهزءون برسول الله صلى الله عليه وسلم: إنهم يقولون إذا رأوه: قد كاد هذا يضلنا عن آلهتنا التي نعبدها، فيصدنا عن عبادتها لولا صبرنا عليها، وثبوتنا على عبادتها.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ يقول جل ثناؤه: سيبين لهم حين يعاينون عذاب الله قد حل بهم على عبادتهم الآلهة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يقول: من الراكب غير طريق الهدى، والسالك سبيل الردى أنت أو هم؟[3].

كما أن الله تعالى يأمر المشركين أن يدعوا شركاءهم حين يروا العذاب، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص:٦٤].

والمعنى: وقيل للمشركين بالله في الدنيا: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين كنتم تدعون من دون الله من الآلهة والأنداد ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ

(١) جامع البيان ١٥/ ١٠٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٦٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري١٩/ ٢٧٤.

﴿يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ يقول: فلم يجيبوهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يقول: وعاينوا العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ يقول: فودوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق[1].

وحين يرى الظالمون العذاب يوم القيامة يطلبون الرجوع إلى الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى:٤٤][2].

أي: وترى الكافرين بالله حين يعاينون العذاب يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا ويقولون: هل من رجعة لنا إليها؟

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨][3].

والمراد: أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب، ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥].

أي: حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذل[4].

وقد أخبر تعالى بأن الكافرين لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

ومعناه: فلا يصدقوا بتوحيد الله ويقروا بوحدانيته، حتى يروا العذاب الموجع[5]، قيل: هذا بمعنى الدعاء(كأنه) قال: فلا آمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وقيل: معناه معنى الخبر[6].

(١) انظر: المصدر السابق١٩/ ٦٠٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٧/ ١٩٦.
(٣) انظر: تفسير المراغي٢٥/ ٥٨.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٠٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ١٨٢.
(٦) انظر: تفسير القرآن، السمعاني٢/ ٤٠١.

أثر الرؤية على النفس

في القرآن الكريم آثار للرؤية كثيرة على النفس، أهمها ما يأتي:

أولًا: الإيمان والتقوى:

وهذا الأثر ناتج عن النظر فيما يقدم الإنسان لليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر:١٨].

أي: لينظر أحدكم إلى شيء قدم لنفسه من الأعمال عملًا صالحًا ينجيه أم سيئًا يوبقه، والمراد بالغد يوم القيامة، وقربه على الناس كأن يوم القيامة يأتي غدًا، وكل ما هو آتٍ فهو قريب ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وكرر الأمر بالتقوى تأكيدًا، وقيل: معنى الأول: اتقوا الله في أداء الواجبات، ومعنى الثاني: واتقوا الله فلا تأتوا المنهيات ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: تركوا أمر الله فأنساهم أنفسهم، أي: أنساهم حظوظ أنفسهم حتى لم يقدموا لها خيرًا ينفعها وعنده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[1].

ثانيًا: العمل لليوم الآخر:

وهذا الأثر يأتي من خلال معرفة أن يوم القيامة هو اليوم الحق الذي ينظر المرء ما قدم له، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النبأ:٣٩-٤٠].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ﴾ يعني: يوم القيامة، وهو يوم يقوم الروح والملائكة صفًا ﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ يقول: إنه حق كائن لا شك فيه، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ يقول: فمن شاء من عباده اتخذ بالتصديق بهذا اليوم الحق، والاستعداد له، والعمل بما فيه النجاة له من أهواله ﴿مَـَٔابًا﴾، يعني: مرجعًا، وهو مفعل من قولهم: آب فلان من سفره.

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ «يقول: إنا حذرناكم أيها الناس عذابًا قد دنا منكم وقرب، وذلك ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ﴾ المؤمن ﴿مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ من خير اكتسبه في الدنيا، أو شر سلفه، فيرجو ثواب الله على صالح أعماله، ويخاف عقابه على سيئها»[2].

ثالثًا: العظة والعبرة:

وهذا الأثر يحصل لصاحب النفس الذي يسير في الأرض فينظر كيف عاقبة المكذبين.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن٤/ ٢٧٦.

(٢) جامع البيان، الطبري٢٤/ ١٧٩.

﴿مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف:١٠٩].

فإن معرفة هلاك الأمم السابقة تدفع المؤمن للعمل بما يخالف أعمال أمم الذين من قبلهم من المكذبين بالرسل والآيات، أو من من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها، فيقلعوا عن حبها، ويعملوا للحياة الآخرة، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:١٠٩].

أي: يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير[(١)].

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

أي: مضت من قبلكم سنن، أي: وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين، فسيروا في الأرض التي فيها ديارهم الخربة وآثار إهلاكهم، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، أي: وقيسوا بهم عاقبة اللاحقين بهم في الهلاك والاستئصال، والأمر بالسير والنظر؛ لما أن لمشاهدة آثار المتقدمين أثرًا في الاعتبار والروعة، أقوى من أثر السماع[(٢)].

والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي، كما أن النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض ورأوا آثار الذين خلوا يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن ويفيده عظة واعتبارًا، فتحصل العظة والعبرة، ولكنها تكون دون اعتبار الذين يسيرون في الأرض بأنفسهم، ويرون الآثار بأعينهم[(٣)].

رابعًا: الإحسان والإخلاص في القول والعمل:

من آثار موضوع الرؤية في القرآن الإحسان والإخلاص في القول والعمل؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يومًا بارزًا للناس، إذ أتاه رجل يمشي، فقال: (يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر)، قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: (الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان)، قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك)[(٤)].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي٣/ ١٧٩.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي٢/ ٤١٦.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١١٧، تفسير المراغي ٤/ ٧٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، رقم٥٠، ١/ ١٩، ومسلم في

قال الإمام النووي في شرح الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، هذا من جوامع الكلم التي أوتيها صلى الله عليه وسلم؛ لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به، فقال صلى الله عليه وسلم: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك»[1].

خامسًا: التفقه في الدين:

وهذا الأثر يحصل من خلال أن النظر والرؤية، هي وسيلة الحصول على العلم، فقد أخبر تعالى بأنه هو الذي يري عباده الأدلة العلمية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر:١٣].

والمعنى: هو الذي يريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته[2].

وآيات الله: تعم آيات قدرته وآيات قرآنه والمعجزات الظاهرة على أيدي رسله[3].

ومثل الآية قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء:٣٧].

فرؤية الآيات هي العلم الذي جعله الله[4].

وعلى الرؤية والنظر بنى الفقهاء والعلماء الكثير من الأحكام والاجتهادات الفقهية، وعلى الرؤية والاختلاف فيها ظهرت المدارس والمذاهب الفقهية.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، البصر، التفكر، الرؤيا، السير، العبرة، العقل، العين

صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم٨، ١/ ٣٦.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم١/ ١٥٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٦٢. وانظر: تفسير القرآن، السمعاني٥ / ١٠.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٥٠.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٤٤.

الربا

عناصر الموضوع

مفهوم الربا	٣٩٠
الربا في الاستعمال القرآني	٣٩١
الألفاظ ذات الصلة	٣٩٢
أنواع الربا	٣٩٤
حكم الربا	٣٩٧
التوبة من الربا	٤١٢
عقوبة آكل الربا	٤١٣

مفهوم الربا

أولًا: المعنى اللغوي:

الربا مصدر من الفعل ربا، بمعنى: نما وزاد، يقال: ربا يربو ربًا، فهو رابٍ، وأربيته نميته، والربا: الزيادة، يقال: ربا المال، أي: زاد وارتفع، وربت الأرض أي: انتفخت وعظمت وزادت؛ فالربا معناها: الزيادة في كل شيء[(١)].

والربوة والربوة والرابية: كل ما ارتفع من الأرض، وأربى الرجل: إذا قام على رابيةٍ، وربوت الرابية: علوتها[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الربا: عقدٌ على عوضٍ مخصوصٍ، غير معلومِ التماثل في معيار الشرع حالة العقد، أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما[(٣)].

وقيل: بأنه تفاضلٌ في أشياء، ونسءٌ في أشياء، مختصٌ بأشياء، ورد الشرع بتحريمها -أي: تحريم الربا فيها- نصًا في بعضها، وقياسًا في الباقي منها[(٤)].

فالربا: «هو الزيادة على أصل المال من غير عقد تبايعٍ»[(٥)]، والربا يطلق على شيئين: «يطلق على ربا الفضل، وربا النسيئة»[(٦)].

وربا الفضل هو: البيع الذي فيه زيادة أحد العوضين على الآخر، كبيع دينار بدينارين، نقدًا ونسيئة، وصاع بصاعين، ورطل برطلين، يدًا بيد، ونسيئة.

وربا النسيئة هو: الزيادة المشروطة التي يأخذها الدائن من المدين نظير التأجيل[(٧)].

والمعنى الاصطلاحي للربا مشتق من المعنى اللغوي له، الذي يدل على الزيادة والنماء.

---

(١) انظر: لسان العرب ١٤/ ٣٠٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٣٢٦.
(٢) انظر: لسان العرب ٤/ ٣٠٤.
(٣) انظر: أسنى المطالب، زكريا الأنصاري ٢/ ٢١، مغني المحتاج، الشربيني ٢/ ٣٦٣.
(٤) انظر: شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/ ٦٤.
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ١٩٢.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٩٤.
(٧) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ١٤٣-١٤٤.

الربا في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ربو) في القرآن الكريم (١٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج:٥]
الفعل المضارع	٣	﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ [الروم:٣٩]
اسم فاعل	٢	﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد:١٧]
مصدر	٨	﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥]
أفعل التفضيل	١	﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل:٩٢]
اسم مكان	٢	﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون:٥٠]

وجاء الربا في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

أحدها: الزيادة والكثرة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢]، يعني: أغنى وأكثر عددًا.

والثاني: المكان المرتفع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، يعني: موضع مشرف ومكان مرتفع.

والثالث: الشدة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة:١٠]، يعني: شديدة.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٣١٣.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٣٩-٢٤٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزكاة:

الزكاة لغة:

النماء، يقال: زكى الزرع يزكو أي: نما، وهي الطهارة والبركة والمدح[١].

الزكاة اصطلاحًا:

إيجاب طائفة من المال في مال مخصوص لمالكٍ مخصوص، معتبرًا فيه الحول والنصاب[٢].

الصلة بين الزكاة والربا:

كلا اللفظين يحمل معنى الزيادة والنماء، إلا أن لفظ الزكاة فيه زيادة دلالة؛ إذ يدل أيضًا على الطهارة والبركة، وقد سمى الله عز وجل ما يخرجه الإنسان من ماله إلى الفقراء والمستحقين زكاة لما فيه من معاني النمو والبركة والتزكية للنفس وللمال.

٢ البركة:

البركة لغة:

مشتقة من الفعل: برك، قال ابن فارس: «الباء والراء والكاف أصلٌ واحدٌ، وهو ثبات الشيء»[٣]. ومن ذلك اشتقت البركة، والتي هي بمعنى الزيادة والنماء، سميت بذلك لدلالتها على ثبات الخير[٤].

البركة اصطلاحًا:

هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء[٥].

الصلة بين البركة والربا:

كلا اللفظين يدل على الزيادة، إلا أن الزيادة التي يدل عليها لفظ الربا زيادة محسوسة مشاهدة، أما الزيادة التي يتضمنها لفظ البركة فهي زيادة غير محسوسة.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٠٧، طلبة الطلبة، النسفي ص ١٦.
(٢) التعريفات ص ١١٤.
(٣) مقاييس اللغة ١/ ٢٢٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٦٥.
(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٢٦.

٣ المحق:

المحق لغة:

مشتق من الفعل (محق)، قال ابن فارس: «الميم والحاء والقاف كلماتٌ تدل على نقصان، ومحقه: نقصه[١]». فالمحق: النقصان وذهاب البركة، ومنه المحاق وهو آخر الشهر إذا محق الهلال[٢].

المحق اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للمحق عن المعنى اللغوي له، فهو في الاصطلاح يعني: النقص والمحو، قال ابن الأثير: «المحق: النقص والمحو والإبطال»[٣].

الصلة بين المحق والربا:

المحق ضد الربا، فإذا كانت الربا تعني الزيادة والنماء، فإن المحق يعني النقصان والمحو؛ ولذا فقد جازى الله عز وجل الذي يأكل الربا بنقيض قصده؛ فإن المرابي يريد الزيادة والكثرة، والله عز وجل يعاقبه على انتهاكه لحرماته بالنقص والمحو والإبطال، محو لماله في الدنيا، ومحو وإبطال لعمله وثوابه يوم القيامة.

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٣٠١.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٨٢.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٣٠٣.

أنواع الربا

أولًا: ربا النسيئة:

هو الربا الذي كان موجودًا قبل الإسلام، من «نسأ الشيء ينسؤه نسًا وأنسأه: أخره، والاسم النسيئة والنسيء، ونسأ الشيء: باعه بتأخيرٍ، فتقول: نسأته البيع وأنسأته، وبعته بنسأةٍ، وبعته بنسيئةٍ، أي: بأخرةٍ»(١).

والنسيء: شهرٌ كانت العرب تؤخره في الجاهلية، فنهي عنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٧].

وربا النساء، هو البيع بشرط أجلٍ، ولو قصيرٌ في أحد العوضين، ومن ثم فربا النسيئة مأخوذ من النسأ، وهو التأخير، وهو نوعان:

الأول: قلب الدين على المعسر، وهذا هو ربا الجاهلية، فيكون للرجل على الرجل مالٌ مؤجلٌ فإذا ما حل موعد قضاء الدين، قال له صاحب الدين: إما أن تقضي، وإما أن تربي فإن قضاه وإلا زاد الدائن في الأجل، وزاد في الدين مقابل التأجيل، فيتضاعف الدين في ذمة المدين.

الثاني: ما كان في بيع جنسين اتفقا في علة ربا الفضل، مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما، كبيع الذهب بالذهب أو بالفضة، أو الفضة بالذهب مؤجلًا أو بدون تقابض في مجلس العقد.

وسمي ربا النسيئة لأن الزيادة فيه مقابل الأجل أيًا كان سبب الدين، بيعًا كان أو قرضًا، وسمي ربا القرآن؛ لأنه حرم بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

ثانيًا: ربا الفضل:

يكون بالتفاضل في الجنس الواحد من أموال الربا إذا بيع بعضه ببعضٍ، كبيع درهمٍ بدرهمين نقدًا أو بيع صاع قمحٍ بصاعين من القمح، ونحو ذلك.

ويسمى ربا الفضل لفضل أحد العوضين على الآخر، وإطلاق التفاضل على الفضل، إنما هو من باب المجاز، فإن الفضل في أحد الجانبين دون الآخر.

ويسمى ربا النقد في مقابلة ربا النسيئة: ويسمى الربا الخفي، قال ابن القيم: «الربا نوعان: جليٌ وخفيٌ؛ فالجلي حرم؛ لما فيه من الضرر العظيم، والخفي حرم؛ لأنه ذريعةٌ إلى الجلي، فتحريم الأول قصدًا، وتحريم الثاني؛ لأنه وسيلةٌ، فأما الجلي، فربا النسيئة، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية».

وجاء تحريم ربا الفضل من باب سد الذرائع، كما صرح به في حديث ابن عمر

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٦٦.

رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين؛ فإني أخاف عليكم الرماء، والرماء هو الربا)[1].

فمنعهم من ربا الفضل لما يخافه عليهم من ربا النسيئة؛ وذلك أنهم إذا باعوا درهمًا بدرهمين، ولا يفعل هذا إلا للتفاوت الذي بين النوعين، إما في الجودة، وإما في السكة، وإما في الثقل والخفة، وغير ذلك، تدرجوا بالربح المعجل فيها إلى الربح المؤخر، وهو عين ربا النسيئة، وهذا ذريعةٌ قريبةٌ جدًا، فمن حكمة الشارع أن سد عليهم هذه الذريعة، وهي تسد عليهم باب المفسدة.

فلو باع رجلٌ كيلو من التمر من النوع الجيد باثنين كيلو من التمر من النوع الرديء، فإن هذا غير جائزٍ، ومن ثم يعد من ربا الفضل الذي دل على تحريمه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ربا اليد: هو البيع مع تأخير قبض البدلين أو تأخير قبض أحدهما دون ذكر أجل التسليم في العقد، وذلك كأن يبيع رجلٌ لآخر مائة جرامٍ من الذهب بثلاثمائة من الفضة مثلًا من غير أن يقبض كل من البائع والمشتري ما اتفقا عليه، أو يقبض أحدهما، ولا يقبض الآخر دون أن يتفقا على وقت تسليم العوض غير المقبوض، وسمي بهذا الاسم نظرًا لخلو يد أحد المتبايعين مما يستحق من العوض، أو خلو يديهما معًا.

وفي الحديث: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح؛ مثلًا بمثلٍ، يدًا بيدٍ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواءٌ)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (التمر بالتمر، والحنطة بالحنطة، والشعير بالشعير، والملح بالملح، مثلًا بمثلٍ، يدًا بيدٍ، فمن زاد، أو استزاد، فقد أربى، إلا ما اختلفت ألوانه)[3].

وللخروج من مثل هذه الحالة أن يبيع المرء ما معه من البر أو الشعير بالمال، ثم يشتري بالمال ما شاء من النوع الآخر من البر أو التمر، أو الشعير، حتى يسلم من الربا.

ولكن إذا اختلفت هذه الأجناس بين الناس، فيبيعون كيف شاؤوا إذا كان يدًا بيدٍ؛ إذ تدل السنة على أنه لا يجوز أن يباع عشرة أصواعٍ من التمر الجيد بعشرين صاعًا من

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٠/ ١٢٥، رقم ٥٨٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الصرف، ٣/ ١٢١٠، رقم ١٥٨٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الصرف، ٣/ ١٢١١، رقم ١٥٨٨.

الرديء؛ لأن هذا هو ربا الفضل، وحرم سدًا لباب ربا النسيئة، وقد أكدت السنة النبوية المثال التطبيقي الفعلي لتحريم الربا.

ففي الحديث عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: (جاء بلالٌ رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمرٍ برنيٍ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (من أين هذا؟) قال بلالٌ: كان عندنا تمرٌ رديٌ، فبعت منه صاعين بصاعٍ؛ لنطعم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك: (أوه أوه، عين الربا، عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيعٍ آخر ثم اشتره)[1].

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلًا على خيبر، فجاءه بتمرٍ جنيبٍ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكل تمر خيبر هكذا؟) قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا)[2].

وأكدت السنة النبوية تحريمه في خطبة الوداع، وفي أحاديث أخرى، ومن ثم انعقد إجماع المسلمين على تحريمه.

والربا الذي كانت العرب تعرفه، وتفعله، إنما كان قرض الدراهم والدنانير إلى أجلٍ بزيادةٍ على مقدار ما استقرض على ما يتراضون به، والذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، كأن يؤخر دينه ويزيده في المال، وكلما أخره زاده في المال المضاف (الفائدة) حتى تصير المائة عنده آلافًا، فالمرابي يقول: إن الذي أخذ المال بالربا، اشترى به إبلًا وأرضًا وتاجر فيه وكسب كثيرًا، وليس بمحرمٍ علي أن يعطيني نسبةً مما ربحه، وكثير من الذين يأخذون الربا، إنما يأخذونه للاستثمار، وقليلٌ منهم من يأخذ للحاجة الماسة أو للضرورة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا باع الوكيل شيئًا فاسدًا فبيعه مردود، ٣/ ١٠١، رقم ٢٣١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، ٣/ ٧٧، رقم ٢٢٠١، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلًا بمثل، ٣/ ١٢١٣، رقم ١٥٩٣.

حكم الربا

إن هذا القرآن العظيم لا تنتهي فوائده، وكلما قلب العلماء النظر في آياته، وتأملوا دلالاته يفتح الله عليهم من فيض علمه سبحانه وتعالى ما ينير به بصائرهم، ومازال العلماء ينهلون من كتاب الله تعالى، ويظهرون إعجازه إلى أن يرث الله الأرض من عليها، فمن خصائص القرآن: أنه معجزٌ.

ومن الأصول المقررة في الشريعة، أن الله تعالى لا يأمر بشيءٍ إلا بما يحقق مصلحة عباده، ولا ينهاهم إلا عما يفسد حياتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فلم يبق عدلٌ ولا إحسانٌ ولا صلةٌ إلا أمر به في هذه الآية الكريمة، ولا منكرٌ متعلقٌ بحقوق الله ولا بغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم إلا نهى عنه، ووعظ عباده أن يتذكروا ما في هذه النواهي من الشر والضرر، فيجتنبوه، وقد نهى الله تعالى عن المعاصي جميعها، وتوعد من خالف أمره بالعقاب.

أولًا: تحريم الربا في الإسلام:

لقد حرم الله الربا وجعله من أكبر الكبائر، كما بين أنه سببٌ لعقوباتٍ عديدةٍ في الدنيا والآخرة، ومنع الإسلام من تقديم مساعدة للتعامل الربوي، ومن ثم تنوعت أدلة تحريمه في الكتاب والسنة، وأجمع علماء المسلمين على تحريمه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وفي الحديث في خطبة الوداع: عن سليمان بن عمرٍو عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يقول: (ألا إن كل ربًا من ربا الجاهلية موضوعٌ، لكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون)[1].

ولذلك فإن كل التزامٍ بالربا يجب التنازل عنه، فمن لديه مالٌ من ربًا، فليتخلص منه، ولكن له أن يبقي رأس ماله، لا يلحقه ظلمٌ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢/ ٨٨٦، رقم ١٢١٨.

ولا أن يظلم أحدًا.

إن الله تعالى حكم ببطلان الربا، وكل ربا الجاهلية موضوعٌ، وأول ربًا وضع وحظر كان ربا العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أجمع المسلمون على تحريم الربا.

ومن ثم، فليس ثمة اختلافٌ في الرأي بين علماء المسلمين بشأن حظر التعامل بالربا في الشريعة الإسلامية؛ لأن القرآن والسنة لم يدعا مجالًا للشك في تحريمه.

وقد جاء في الحديث عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من شفع لأخيه بشفاعةٍ، فأهدى له هديةً عليها، فقبلها فقد أتى بابًا عظيمًا من أبواب الربا)[1].

وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواءٌ)[2].

ومن ثم فإنه لا يجوز لرجلٍ ما أن يضمن صاحبه للحصول على قرضٍ من أحد المصارف مقابل حصول المصرف على فائدة ما.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الربا سبعون حوبًا، أيسرها أن ينكح الرجل أمه)[3].

إن الربا وبالٌ على المجتمعات والدول التي لا تحرمه؛ إذ يتدهور اقتصاد تلك البلدان المتعاملة به؛ لأن الله سبحانه عد الربا من الموبقات وحرمه في القرآن وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم تحريمًا أكيدًا.

ولما كان الربا من المحرمات التي انتشرت في هذه الأيام، وأصبح الناس يتعاملون به بينهم، كان من الواجب أن يتبينوا حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في هذه المعاملة المحرمة.

ولبيان بشاعة الربا، هب مثلًا أن رجلًا لديه مثلًا ألف جنيهٍ، ورجلٌ آخر لا يملك شيئًا، فصاحب الألف يستطيع أن يديرها، وأن يعيش منها، أما الآخر الذي لا يملك شيئًا، فقد يضطر إلى أن يقترض ليعيش مثل صاحبه، فإن اقترض: الألف جنيهٍ قرضًا بمائة جنيهٍ فائدةً، فمن أين يوفر هذه المائة المضافة؟ إذ إنه لا يملك شيئًا أصلًا.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في الهدية لقضاء الحاجة، ٣/ ٢٩١، رقم ٣٥٤١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٨٢، رقم ٦٣١٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا وموكله، ٣/ ١٢١٨، رقم ١٥٩٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ٢/ ٧٦٤، رقم ٢٢٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٤، رقم ٣٥٤١.

إن أخذها من عائد المال يخسر، وإن أخذها من السلعة بأن يقلل من الجودة، أو من العناصر الفعالة المكونة للسلعة، أو في التغليف، أو غير ذلك جاءت السلعة أقل من مثيلاتها، وبارت، ولم تجد من يقبل على شرائها.

إذن: الزيادة لابد أن يتحملها المستهلك، وهذا إضرارٌ به، وهو ليس طرفًا في العقد، إذن: العقد باطلٌ، لوقوع الضرر على المستهلك الذي لا ناقة له في الأمر، ولا جمل.

ثانيًا: التدرج في تحريم الربا:

لقد سلك القرآن الكريم أسلوب الرفق والتدرج، في نقل المخاطبين من حياة الجاهلية، إلى سماحة الإسلام ويسره، وتجلى ذلك في شرائع الإسلام، وأحكامه العملية، إن التدرج في التشريع هو المنهج الكامل للقرآن الكريم، والسنة النبوية، فالتدرج سنة الحياة، فقد خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، وقال العلماء: (من طلب العلم جملةً فاته العلم جملةً).

لقد كان الربـا بأنواعه وأشكاله المختلفة عصب الاقتصاد في المجتمع العربي الجاهلي، ومن ثم كانت الحكمة تقتضي أن يتدرج التشريع القرآني في تحريمه، حتى لايحدث ما يؤدي إلى التفكك والانهيار الاجتماعي والاقتصادي، فكان التدرج.

وقد ذكر بعض الباحثين أن الربا في القرآن الكريم، قد تدرجت الآيات في تحريمه، كما تدرجت في تحريم الخمر[1].

وسبب هذا التدرج في تحريم بعض الأحكام الفرعية، إنما هو رسوخ، وتعلق المخاطبين بهذه العادات والأفعال، حتى أنه كان من الصعب عليهم الامتثال، للإقلاع عنها دفعةً واحدةً، فكان التدرج.

ومن ثم نجد هذا التدرج في تحريم الربا في أربع آياتٍ قرآنيةٍ، تتعلق بتحريم الربا، واحدةٌ منها نزلت بمكة، وثلاثٌ في المدينة، ويمكن ترتيب هذا التدرج، على عدة مراحل.

المرحلة الأولى: هي ما جاء في سورة الروم، وهي مكية نزلت قبل الهجرة ببضع سنين، حيث جاء الأمر مقرونًا بذم الربا، ومدح الزكاة، وذلك قبل فرض الزكاة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

(١) انظر: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية، محمد عبد الله دراز، ص ١٥٧، الربا والقرض في الفقه الإسلامي، أبو سريع عبد الهادي، ص٢١، الربا والفائدة، دراسة اقتصادية مقارنة، محمد رفيق المصري، ومحمد رياض الأبراش، ص ٣٠.

وقد جاء في السور المكية أصول الواجبات، والمحرمات بشكل إجمالي، كما في هذه الآية الكريمة، وجاءت هذه الآية لتوجه الأنظار، وتهيء النفوس؛ لتقبل فكرة التحريم، ومن ثم ترى أن التدرج أول الأمر حيث أوضح الله أن الربا لا نماء فيه، ولا بركة، وقارن بينه وبين الزكاة مبينًا أن الزكاة مما يضاعف الله ثوابها، ويبارك فيها.

قال أبو إسحاق: «يعني به دفع الإنسان الشيء؛ ليعوض ما هو أكثر منه، وذلك في أكثر التفسير ليس بحرام، ولكنه لا ثواب لمن زاد على ما أخذ، والربا ربوان، والحرام: كل قرضٍ يؤخذ به أكثر منه، أو يجر منفعةً، فهذا حرامٌ، والذي ليس بحرامٍ أن يهبه الإنسان يستدعي به ما هو أكثر منه، أو يهدي الهدية، ليهدى له ما هو أكثر منها»[1].

وقال الفراء: «وما أعطيتم من شيءٍ لتأخذوا أكثر منه؛ فليس ذلك بزاكٍ عند الله»[2].

المرحلة الثانية: وهي في سورة النساء، وهي سورةٌ مدنيةٌ.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

تبين الآيات أن الله تعالى قد نهى اليهود عن الربا، فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواعٍ من الحيل وصنوفٍ من الشبه[3]، إذ يخبر الله تعالى، أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم.

وهذا تلميحٌ بالتحريم؛ لأنه جاء على سبيل الحكاية عن بني إسرائيل، وأن الربا كان محرمًا عليهم، فاحتالوا على أكله، ومن ثم فهو بذلك تمهيدٌ، وإيماءٌ إلى إمكان تحريم الربا على المسلمين، كما هو محرمٌ على بني إسرائيل، وفي الآية إيماءٌ آخر، أنه إذا حرم عليكم الربا، فلا تكونوا مثل اليهود، ولا تفعلوا مثل فعلهم، فتلقوا من العذاب الأليم مثل ما لقوا؛ لأن هذا سلوك الكافرين، فكانت هذه الآية بيانًا من الله بعدم قبول الربا، ومقدمة للمنع.

المرحلة الثالثة: هي ما جاء في سورة آل عمران بشأن النهي عن أكل الربا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣١].

في الآية خطابٌ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ في إسلامكم بعد إذ هداكم

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٨٧.
(٢) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٢٥.
(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٨٧.

الله، كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم، وهذا النهي مفيدٌ لتحريم الربا، ويريد بالأكل الأخذ أضعافًا مضاعفةً، وهو أن يقول المرابي لمن عليه الدين بعد حلول الأجل: إما أن تقضي، وإما أن تربي، فإن لم يدفعه ضاعف ذلك عليه، ثم يفعل كذلك عند حلوله من بعد حتى تصير أضعافًا مضاعفةً، وقد نهي الله بعد ذلك عن تعاطي الربا في الصورة التي كانت شائعةً بين الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ يدل على أن الربا من الكبائر التي يستحق عليها الوعيد بالنار، إلا أنه لم يكن فيه من التهديد والوعيد على نحو ما سنرى.

المرحلة الرابعة: هي المرحلة التي جاءت الآيات الكريمة فيها بالحكم الشرعي، فقد جاء التشريع بالتحريم للربا بجميع أنواعه، مصحوبًا بالتهديد الشديد، وإعلان الحرب على المرابين، ولم يكن ذلك إلا حين استقر في نفوس المسلمين أن الربا لا فائدة فيه، ولا طائل منه، وأن الله لا يرضى عن التعامل به.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥-٢٧٩].

وهذه الآيات آخر ما نزل من القرآن الكريم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذه آخر آيةٍ نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم»[(١)].

ويستمر تحريم الربا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، ولكن يأبى الذين استحوذ عليهم الشيطان إلا عتوًا ونفورًا؛ ليستمروا على التحكم بأموال الناس بغير حقٍ.

وقد أباح الإسلام استثمار المال عن طريق التجارة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وأثنى سبحانه وتعالى على الضاربين في الأرض للتجارة، قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾

(١) علقه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب موكل الربا، ٣/ ٥٩.

[المزمل: ٢٠].

وقد أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم حربه على الربا والمرابين، وبين خطره على المجتمع، فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم: إنه إذا ظهر الربا والزنا في قريةٍ، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله.

فعن عبد الله بن مسعودٍ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه)، قال: وقال: (ما ظهر في قومٍ الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل)[(١)].

ومن ثم، نرى أن الربا من أكبر الكبائر، إن لم يكن أكبرها مطلقًا، وقد آذن الله المرابين بحربٍ منه، إن لم يتركوا ما بقي من الربا، كما أمرهم وأعلمهم بأنهم في حربٍ من الله ورسوله، وهذه الحرب معروفة المصير، مقررة العاقبة، لا هوادة فيها، إنها حربٌ على الأعصاب والقلوب وحربٌ على البركة والرخاء، وحربٌ على السعادة والطمأنينة.

ثالثًا: تحريم الربا عند الأمم الأخرى:

إن الغالب في المال الحرام أن يأتي عن طريق الربا، وقد يأتي عن طريق الرشوة (الهدية)، وقد جاء الكتاب الكريم والسنة بالنهي عن الربا والوعيد الشديد فيه ما لم يرد في غيره من الذنوب، فمن تجرأ على الله عز وجل، ولم يتب عن الربا، فقد عرض نفسه لأنواع العقوبات العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر في سبب تحريم الربا وجوهًا:

أحدها: الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوضٍ؛ لأن من يبيع الدرهم بدرهمين نقدًا كان أو نسيئةً، فيحصل له زيادة درهمٍ من غير عوضٍ، ومال الإنسان متعلق حاجته، وله حرمةٌ عظيمةٌ عند الله، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه)[(٢)].

فوجب أن يكون أخذ ماله من غير عوضٍ محرمًا.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون لبقاء رأس المال في يده مدة مديدة عوضًا عن الدرهم الزائد؛ وذلك لأن رأس المال لو بقي في يده هذه المدة لكان المال الذي يتجر فيه، ويستفيد بسبب تلك التجارة ربحًا، فلما تركه في المديون وانتفع به المديون، لم يبعد أن يدفع إلى رب المال ذلك الدرهم الزائد

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٥٨، رقم ٣٨٠٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٨٤، رقم ٥٦٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢/ ٨٨٦، رقم ١٢١٨.

عوضًا عن انتفاعه بماله[1].

قلنا: إن هذا للانتفاع الذي ذكر أمرٌ موهومٌ، قد يحصل، وقد لا يحصل، وأخذ الدرهم الزائد أمرٌ متيقنٌ، فتفويت المتيقن لأجل الأمر الموهوم لا ينفك عن نوع ضرر.

وثانيها: قال بعضهم: الله إنما حرم الربا من حيث أنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب؛ وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقدًا كان أو نسيئةً خف عليه اكتساب وجه المعيشة؛ فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعة الشاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات[2].

وثالثها: قيل: السبب في تحريم عقد الربا، أنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض؛ لأن الربا إذا حرم طابت النفوس بقرض الدرهم، واسترجاع مثله، ولو حل الربا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان.

رابعها: أن الغالب أن المقرض يكون غنيًا، والمستقرض يكون فقيرًا؛ فالقول بتجويز عقد الربا تمكينٌ للغني من أن يأخذ من الفقير مالًا زائدًا، وذلك غير جائزٍ برحمة الرحيم.

خامسها: أن حرمة الربا قد ثبتت بالنص، ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومةً للخلق، فوجب القطع بحرمة عقد الربا، وإن كنا لا نعلم الوجه فيه[3].

ومن ثم فإنه إذا كان الله تعالى قد حرم الربا، فلا مجال للجدال في هذا التحريم؛ لأنه لا اجتهاد مع النص، ولا يجوز لنا أن نفسر الآيات تبعًا للهوى، وطمعًا في مكسبٍ ممحوق البركة.

تحريم الربا في التشريع اليهودي:

لقد خلق الله الناس لعبادته تعالى، فالناس جميعًا أمةٌ واحدةٌ، وربهم واحدٌ لا شريك له.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

وبالنظر في حكم الربا في الشرائع السابقة، كاليهودية والمسيحية، لم نر في شريعتهم ما يحل الربا، فالربا لم يحل في شريعةٍ قط؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

إن اليهود هم أكلة الربا، لقد حرم الله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٧٩٣.
(٢) المصدر السابق ٧/ ٩٤.
(٣) المصدر السابق.

الربا على اليهود، وهم يعلمون ذلك، وينهون عنه فيما بينهم، لكنهم يبيحونه مع غيرهم، قال الإمام الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله تعالى: «أي: أن الله قد نهاهم عن الربا، فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواعٍ من الحيل وصنوفٍ من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل»[(١)].

وقد صرف اليهود النص المحرم للربا؛ حيث قصروا التحريم فيه على التعامل بين اليهود بعضهم بعضًا، أما معاملة اليهودي لغير اليهودي بالربا، فجعلوه جائزًا لا بأس به.

لقد حرم الله الربا في التوراة على اليهود، ولكنهم خالفوا أمره، واحتالوا، وحرفوا، وبدلوا كلام الله واعتبروا أن التحريم إنما يكون بين اليهود فقط، أما مع غيرهم فلا يكون محرمًا في زعمهم الباطل؛ ولذلك ذمهم الله في هذه الآيات كما بيناه.

قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[المائدة: ٤٢].

ومن سمات اليهود أنهم أكالون للسحت، وهو المال الحرام الذي يسحت الطاعات، أي: يستأصلها.

أما ما جاء في تحريم الربا عند اليهود[(٢)]، فقد ذكر الربا في مواضع متعددةٍ من التوراة، فقصت في سفر الخروج: «إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك، فلا تكن له كالمرابي، لا تضعوا عليه ربًا»[(٣)].

والشريعة اليهودية في كتاب التوراة، كانت تنهى الناس في العهد القديم عن أخذ الربا من إخوتهم وينص العدد (٢٠) في نسخة التوراة التي يتداولها يهود اليوم، على أن «للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا؛ لكي يباركك الرب، إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخلٌ إليها لتمتلكها»[(٤)].

وقد حفلت النصوص برعاية المدينين، ومنعت مضارتهم في الرهون المقبوضة منهم، وفرضت إبراء المعسر مما عليه من القرض كل سبع سنين، وكل ذلك عندهم ما لم يكن المدين أجنبيًا.

ويذهب بعض المفسرين من أهل الكتاب[(٥)] إلى أن نصوص سفري الخروج واللاويين التي سلفت إنما حرمت الربا الفاحش، وأن تحريم مطلق الفائدة، لم يشرع إلا من بعد ذلك بما جاء في سفر التثنية، وقيل: إن صحف موسى حرمت

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٦٧.
(٢) نصوص تحريم الربا عند اليهود، مجلة البحوث الإسلامية، العدد الخامس، ص ١٩٦.
(٣) الإصحاح ٢٢، رقم ٢٥.
(٤) سفر التثنية ٢٣، رقم ١٩-٢٠.
(٥) نصوص تحريم الربا عند اليهود، مجلة البحوث الإسلامية، العدد الخامس، ص ١٩٦.

على اليهود أخذ الربا من الفقراء، ولو كانوا من الأجانب، ثم انحصر التحريم في إقراض اليهود، وإن كان المقترض موسرًا.

ولم يكن اليهود يعملون بالتجارة حين أنزلت التوراة، فلم تشر نصوصها إلى الديون التجارية، ولكنهم حين حرموا أخذ الربا على الديون التجارية، قد رخصوا في الوقت ذاته، فيما يؤدي إلى التهرب من هذا التحريم من طريق الحيلة القانونية، بأن يعتبر المقرض بالربا بمثابة شريكٍ مستحقٍ لأرباح المشروع التجاري الذي أمده برأس ماله، لكن دون أن يتحمل المقرض نصيبه من الخسائر. ويبين لنا القرآن الكريم أن الربا حرم في شريعة اليهود، فهو محرمٌ في كل الشرائع السماوية.

تحريم الربا في التشريع المسيحي:

الشريعة المسيحية تحرم الربا، وتنهى عنه، وتشير بعض المراجع التاريخية إلى أن الكنيسة كانت ومازالت تحرم الربا في نطاق أخذ الفائدة من الفقراء عند اقراضهم لسد احتياجاتهم، وقد حث السيد المسيح عليه السلام الناس دائمًا على أن يحب الناس بعضهم بعضًا، وأن يساعد بعضهم بعضًا، وجاء النهي عن الربا في شريعتهم.

ففي إنجيل لوقا: «إذا أقرضتم الذين ترجون منهم المكافأة، فأي فضلٍ يعرف لكم، لكن افعلوا الخيرات، وأقرضوا غير منتظرين عائدتها، وإذًا يكون ثوابكم جزيلًا»، وقد أجمع رجال الكنيسة ورؤساؤها، وقد اتفقت مجامعها على تحريم الربا تحريمًا قاطعًا.

ولم يكن تحريم الربا قاصرًا على أرباب الديانتين، بل حرمه من اشتهر بالعلم والفهم والحكمة، والفكر.

«أحبوا أعداءكم وأحسنوا، وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئًا؛ فيكون أجركم عظيمًا»[1].

وجاء التحريم في سفر الخروج: «إن أقرضت لشعبي الفقير الذي عندك، فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه ربًا»[2].

وجاء في سفر المزامير: «والرزيل محتقرٌ في عينيه، ويكرم خائفي الرب، يحلف للضرر، ولا يغير فضته، لا يعطيها بالربا، ولا يأخذ الرشوة على البريء، الذي يصنع هذا لا يتزعزع إلى الدهر»[3].

ومن ثم فإنني لم أر فيما اطلعت عليه تشريعًا من عند الله يحل الربا، أو يبيح التعامل به؛ لأن أخذ الربا ظلمٌ، وما كان الله ليشرع للناس إلا ما فيه خيرهم.

وأما العرب في جاهليتهم على الرغم من تعاملهم بالربا إلا أنهم كانوا ينظرون إليه نظرة ازدراءٍ، ويدل على ذلك أنه عندما تهدم

(١) إنجيل لوقا: الإصحاح ٦، رقم ٣٥.
(٢) سفر الخروج: الإصحاح ٢٢، رقم ٢٥.
(٣) مزمور: ١٥، رقم ٥.

سور الكعبة، وأرادت قريش إعادة بنائه حرصت على أن تجمع الأموال لذلك من بيوت الأشراف التي لا تتعامل بالربا، حتى لا يدخل في بناء البيت مالٌ حرامٌ.

إن الربا «كان محرمًا في الشرائع، والذي فعله العرب في الجاهلية، إنما كان عادة المشركين، واشتمال شرائع الأنبياء قبلنا على تحريم الربا مشهورٌ مذكورٌ في كتاب الله تعالى، كما حكي عن اليهود في قوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]».

وقيل: «جاء رجلٌ إلى مالك بن أنسٍ، فقال: يا أبا عبد الله، إني رأيت رجلًا سكرانًا يتعاقر يريد أن يأخذ القمر، فقلت: امرأتي طالقٌ إن كان يدخل جوف ابن آدم أشر من الخمر، فقال: ارجع حتى أنظر في مسألتك، فأتاه من الغد، فقال له: ارجع حتى أنظر في مسألتك، فأتاه من الغد، فقال له: امرأتك طالقٌ، إني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه، فلم أر شيئًا أشر من الربا؛ لأن الله أذن فيه بالحرب»[(١)].

ومن ثم نؤكد أن أكل الربا والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك عند كل ذي عقلٍ رشيدٍ.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٨٤.

رابعًا: شبهٌ حول تحريم الربا:

لقد تناول القرآن الكريم الحديث عن الربا في أربعة مواضع، وكان أول موضعٍ منها وحيًا مكيًا، والثلاثة الباقية مدنية.

وإذا نظرنا إلى مواقف العلماء من مسألة الربا، نجد منهم من يحاول التحايل على النص، والتماس مخرج يبيحه، ومنهم من يحرم، وهم كثرٌ، ولكن هب أنهم متساوون من يحرم، ومن يحلل، فما حكم الشرع، فيما تساوت فيه الاجتهادات؟

فعن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الحلال بينٌ، وإن الحرام بينٌ، وبينهما مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حمًى، ألا وإن حمى الله محارمه)[(٢)].

إن النبي صلى الله عليه وسلم قد بين لنا مسألة الشبهة بما أوتي من جوامع الكلم، في الحديث الشريف، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن فعل الشبهات،

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩.

وإنما قال: (فمن اتقى): أي تركها، إذن: من وقع في الشبهات، لم يستبريء لا لدينه ولا لعرضه، ومن ثم لا يرضى أحدٌ أن يوصف هذا الوصف.

إن المتأمل في المجتمعات التي تحيط بنا، يجد في كل بلدٍ أناسًا يتعاملون بالربا، ولا يجدون في ذلك غضاضةً، وهؤلاء المرابون لا يموتون بخيرٍ، وثرواتهم كاملةٌ؛ لأن الله تعالى توعد المرابي بأن يزيل ما كسبه، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]؛ لذلك نسمع مقولات (فلانٌ ماهرٌ في التجارة)، (فلانٌ يضع يده في التراب يصير ذهبًا) فالله تعالى يعطي الكافر ويوسع عليه زهرة الدنيا، حتى إذا أخذه كان أخذه أليمًا، فإن أردت أن توقع عدوك لا توقعه من مكانٍ منخفضٍ، إنما من مكانٍ عالٍ حتى يكون السقوط مؤلمًا.

والله يمحق المال المكتسب من الربا، والمال المحرم ممحوق البركة معرضٌ هو، وما خالطه من الحلال للتلف والزوال، وإن بقي، فلا يقبل الله منه صدقةً، ولا حجًا ولا صلةً، وإنما يقاسي صاحبه أتعابه، ويتحمل حسابه، وهذا في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

إن المرابي مهما اكتسب، واغتنى، فإنما غناه كيدٌ فيه، ومبالغةٌ في إيذائه، إنما يمد له حتى إذا أخذه لم يفلته.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

فالدنيا لا قيمة لها عند الله، وإنما هي متاعٌ، وعملٌ للآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٦].

ويسعى بعض الناس جاهدين التمسك بمفاهيم خاطئةٍ، فهم يبيحون الفوائد (الربا) إذ يقولون: إن العقد شريعة المتعاقدين، وأن كلا الطرفين (الدائن والمدين) راضيان عن هذا العقد، وأن العقد شريعة المتعاقدين، بيد أنهم نسوا أن هناك مشرعًا أعلى، وهو الله سبحانه وتعالى، وأن مقولة: (العقد شريعة المتعاقدين) لا تصلح إلا في العقود الحلال، وإلا لأصبحت عقود الزنى حلالًا؛ لوجود التراضي بين الاثنين.

ولا شك أن الربا عقوده باطلةٌ قانونيًا،

وليس شرعيًا فقط، فالأصل أن القانون يحمي الطرفين: المقرض والمقترض، أما عقود الربا فإنها تحمى المقرض فقط؛ لأنها تبيح له أن يأخذ كل الضمانات التى يريدها من المقترض، فتبيح الحجز على متاع بيته، أو غير ذلك، ولا يعطي للمقترض أي حق؛ ومن ثم فإن عقد الربا مفسوخٌ لا يجوز بحالٍ؛ لما رواه الأئمة عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: (جاء بلالٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمرٍ برني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (من أين هذا؟) قال بلالٌ: كان عندنا تمرٌ رديٌ، فبعت منه صاعين بصاعٍ؛ لنطعم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك: (أوه أوه، عين الربا عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيعٍ آخر، ثم اشتره)[1].

وفي روايةٍ: (هذا الربا، فردوه، ثم بيعوا تمرنا واشتروا لنا من هذا).

قال علماؤنا: «فقوله: (أوهِ عين الربا) أي: هو الربا المحرم نفسه لا ما يشبهه»[2].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فردوه) يدل على وجوب فسخ صفقة الربا، وأنها لا تصح بوجهٍ، وهو قول الجمهور، خلافًا لأبي حنيفة حيث يقول: «إن بيع الربا جائزٌ بأصله من حيث هو بيعٌ، ممنوعٌ بوصفه من حيث هو ربًا، فيسقط الربا ويصح البيع، ولو كان على ما ذكر لما فسخ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصفقة، ولأمره برد الزيادة على الصاع، ولصحح الصفقة في مقابلة الصاع»[3].

ومن الشبهات ما قيل: إن تحريم الربا في الإسلام يصيب الاقتصاد العالمي بالشلل التام:

والحقيقة غير ما ادعاه المبطلون؛ ذلك أن الربا، كما قال الاقتصادي الألماني شاخت: «ليتسبب في مصائب عالمية، وإن الربا ليضر بالاقتصاد العالمي، وإنه ليزيد الفقير فقرًا، والغنى غنًى»؛ لأن الغني تتضاعف أمواله بالربا، أما الفقير فإنه ينشغل بسداد ديونه وفوائدها، فيزداد فقرًا على فقرٍ ويضطر إلى الحرام.

وكذلك فإن البريطاني (كينز) مؤسس علم الاقتصاد العالمي، قال: «حين تصل قيمة الفوائد إلى الصفر، يشيع النماء والرخاء في العالم كله»، ومعنى هذا هو عدم الربا، وقد لجأت الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة للإقراض بدون فوائد؛ لتشجيع الاستثمار فى المجتمع الأمريكي، كما أن المصرف المركزي للاتحاد الأوروبي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا باع الوكيل شيئًا فاسدًا فبيعه مردود، ٣/ ١٠١، رقم ٢٣١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٧٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٨٠.

يجعل سعر الفائدة نصف في المائة[1].

ويرى كينز أن من واجب الدولة أن تعمد إلى تحقيق وفرة المدخرات، ومن ثم وفرة رؤوس الأموال المتاحة؛ للتوظيف في النشاط الاقتصادي، وبهذا تتحقق العدالة الكاملة، وتنتفي ندرة رأس المال، ويهبط سعر الفائدة إلى الصفر[2].

بيد أن الإسلام عندما حرم الربا، لم يترك الفقراء عالةً يتكففون الناس، وإنما حث على الصدقة والقرض الحسن، وجعل أجره أعلى من أجر الصدقة، ووعد من صبر على المعسر بجزيل الأجر والثواب، وفي هذا تكافلٌ اجتماعي كبيرٌ.

ويخوض بعض الناس في شبهات حول الربا، منها أن الاقتصاد العالمي قائمٌ على البنوك والتعامل بالربا، وأن عمل البنوك اليوم يشبه المضاربة؛ لأن البنك يجني أرباحًا من الودائع، ويدفع نسبةً من هذه الأرباح طواعيةً ورضًا، ومن ثم يرون أنه يمكن اعتبار ما يدفعه البنك من ربًا، مثل نسبة ربحٍ قياسًا على المضاربة، خاصةً وأن البنك يدفعها عن رضًا، وإذا خسر البنك، فإنه يمكنه أن يلجأ للقضاء، ويثبت خسارته، ومن ثم يصبح غير ملزمٍ بدفع نسبة الربح المتفق عليها.

ويروج بعض الناس عدة أمورٍ عن الربا:

إذ يرون أن الزيادة في القرض حقٌّ للمرابي؛ لأن المال الذي يدفعه للمقترض يتيح له الفرصة للعمل وللربح تمامًا، وهذا ادعاءٌ غير صحيحٍ؛ لأن رأس المال في القرض يتحمل مسئوليته المقترض، بالإضافة إلى الزيادة (الفائدة)، من دون أن يتحمل صاحب المال شيئًا، فهو رابحٌ دائمًا، بينما يكون العامل معرضًا للربح والخسارة.

من الشبهات عدم الوسع، وهي كلمة حقٍ أريد بها باطلٌ:

إذ تسمع الرويبضة المتفيهقين يصرفون الناس عن منهج الإسلام، فيفتون بما لا يعلمون، فيقول قائلهم: قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦].

أي: ليس في وسعه الآن تنفيذ شرع الله، نقول له: من الذي يحدد الوسع؟ أنت أم المشرع سبحانه وتعالى؟

ونقول: مادام الله تعالى قد كلف، فاعلم أن التكليف في وسعك، فخذ الوسع من التكليف، لا أن تقدر أنت الوسع، وتنسى ما كلفك الله به.

لذلك ترى أن الله تعالى إذا ضاق الوسع يخفف عنك دون أن تطلب أنت التخفيف؛ لأن الله شرع الدين للبشرية إلى يوم القيامة،

(١) موقع البنك الدولي.
(٢) وضع الربا في البناء الاقتصادي، عيسى عبده ص ١٨٣-١٨٦، النظرية الاقتصادية في الإسلام، فكري أحمد نعمان ص ٢٣٢-٢٣٣.

فلا تقل: إن تعاليم الدين لا تناسب العصر، إذن: اجعل العصر هو المشرع، وانصرف عن تشريع الله إلى ما يحتمله العصر، إن الله سبحانه هو أعلم بما يصلح البشرية وينظم حركة الكون.

من الناس من لا يرى بأسًا في الربا، ويرى أن تحريم الربا لم يرد إلا في المضاعفة للفوائد الربوية، أما ما دون الضعف فليس ربًا، بيد أن هذا القول يعد تلصصًا على النص؛ إذ اتفق المفسرون والفقهاء على أن المراد من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

هو بيان الواقع، لا اختصاص التحريم بحالة المضاعفة.

قال ابن عطية: «وقوله ﴿مُّضَٰعَفَةٗ﴾ إشارةٌ إلى تكرار التضعيف عامًا بعد عامٍ، كما كانوا يصنعون، فدلت هذه العبارة المؤكدة على شنعة فعلهم وقبحه؛ ولذلك ذكرت حال التضعيف خاصةً، وقد حرم الله جميع أنواع الربا، فهذا هو مفهوم الخطاب؛ إذ المسكوت عنه من الربا في حكم المذكور، وأيضًا فإن الربا يدخل جميع أنواعه التضعيف والزيادة على وجوهٍ مختلفةٍ من العين أو من التأخير، ونحوه»[(١)].

وقال الشوكاني: «وقوله تعالى: ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ ليس لتقييد النهي لما هو معلومٌ من تحريم الربا على كل حالٍ، ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجلٍ، فإذا حل الأجل زادوا في المال مقدارًا يتراضون عليه، ثم يزيدون في أجل الدين، فكانوا يفعلون ذلك مرةً بعد مرةٍ؛ حتى يأخذ المربي أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء»[(٢)].

وقال الألوسي في روح المعاني: «وليس هذه الحال لتقييد المنهي عنه ليكون أصل الربا غير منهي، بل لمراعاة الواقع، فقد روى غير واحدٍ أنه كان الرجل يربي إلى أجلٍ، فإذا حل قال للمدين: زدني في المال حتى أزيدك بالأجل فيفعل، وهكذا عند كل أجل، فيستغرق بالشيء ماله بالكلية، فنهوا عن ذلك»[(٣)].

وقد ترى آراء ظهرت تبرر أخذ الفائدة، وترى أنها تغطيةٌ للنفقات الكتابية والإدارية للمصرف، والشريعة الإسلامية تجعل النفقة مشروعة، ولكن لا تجعلها في إطار الفائدة والربا، فنفقة سداد القرض في مكانٍ غير المكان الذي تم فيه الإقراض يتحملها المتسبب في النقل سواءٌ أكان المدين، أم الدائن.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٠٧.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٨١.

(٣) روح المعاني ٤/ ٥٥.

والفقه الإسلامي يقر أن أخذ النفقة والأجرة أمرٌ مشروعٌ، فعن مالكٍ أنه بلغه أن عمر رضي الله عنه سئل في رجلٍ أسلف طعامًا على أن يعطيه إياه في بلدٍ آخرٍ، فكره عمر، وقال: «أين كراء الحمل؟»[1].

وهم لا يرون الفائدة القليلة ربًا، بل الربا في زعمهم الزيادة الفاحشة، أما الزيادة المعقولة بزعمهم: فإنها جائزةٌ عندهم، ويدعون أن الربا إنما هو الفائدة المرتفعة فقط.

وهذا القول باطلٌ؛ لأن الربا في الشريعة الإسلامية، هو الزائد على رأس المال اشتراطًا، وإن كان قبضة شعيرٍ واحدةٍ، وهذا التفريق بين القليل والكثير منهجٌ غير إسلامي، يقصد به التلاعب بالعقول.

ومن ثم يبطل اعتبار الفائدة أجرة المصرف على أعماله التي يقدمها للعميل، فالأجرة مشروعةٌ، أما الفائدة فحرامٌ، ولكن يجوز للمصرف أن يستوفي من عميله المقترض أجرًا مقابل الأعباء الإدارية، والكتابية المتعلقة بالقرض؛ إذ إن الأجر يستقضى مقابل منفعةٍ، ويشترط فيها أن تكون معلومة القدر، إما بغايتها أو بتحديد مدتها.

ومن ثم يجب أن يكون الأجر مبلغًا معينًا مقطوعًا لا يتكرر إلا بتكرار الخدمة التي يقدمها المصرف، فاستحقاق المصرف للأجر، إنما يكون نظير قيامه بأعمالٍ معينةٍ؛ لذلك يجب أن يكون على أساس مبلغٍ مقطوعٍ، وليس على أساس نسبةٍ من قيمة القرض.

(١) تيسير الوصول إلى جامع الوصول من حديث الرسول، ابن الربيع الشيباني ١/ ٧٧.

التوبة من الربا

التوبة: الرجوع من الذنب، فالندم توبةٌ، وتاب إلى الله يتوب توبًا وتوبةً ومتابًا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة، وتاب الله عليه: وفقه لها، ورجلٌ توابٌ: تائبٌ إلى الله، والله توابٌ: يتوب على عبده؛ فالله غافر الذنب، وقابل التوب، والله التواب: يتوب على عبده بفضله، إذا تاب إليه من ذنبه.

ومن المعلوم يقينًا أن رحمة الله واسعةٌ، وأنه يغفر الذنوب جميعًا، لا يتعاظم ذنبٌ عن عفوه ومغفرته، فما جعل الله التوبة إلا للخطاة، وما أرسل الأنبياء إلا للضالين من الناس، وما جعل المغفرة إلا للمذنبين، وما سمى نفسه الغفار التواب العفو الكريم، إلا من أجل أننا نخطئ فيغفر لنا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولكن للتوبة الصادقة من الربا شروط:

- الرجوع إلى الله، والندم على اقتراف الذنب، والعزم على عدم العودة إلى المعصية والذنب مرةً أخرى.
- التخلص من المال الربوي برده لأصحابه إن أمكن، وإلا فيصرفه في وجوه البر والإحسان.

فلا بد لآكل الربا أن يرد المال الذي أخذه زيادةً، والاكتفاء برأس المال، ويدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

ولكن إذا طالت المدة، ولم يعرف الرجل الذي أخذ منه الربا، فعلى آكل الربا التائب أن يتحرى ويجد في ذلك، فإن عجز عن معرفته، فله أن يتصدق بهذا المال عنه.

عقوبة آكل الربا

إن من فضائل الله تعالى علينا أنه سبحانه وتعالى يحاسبنا على أعمالنا حسابًا عادلًا؛ فمن أحسن حسنةً، يضاعفها له، ومن أساء سيئة جزاه سيئة، ولايظلم ربك أحدًا، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

فالجزاء من جنس العمل؛ لذلك كان الجزاء مماثلًا للعمل من جنسه في الخير والشر.

وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧].

ومظاهر عدل الله سبحانه وتعالى كثيرةٌ، فمن ستر مسلمًا ستره الله، ومن يسر على معسرٍ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن تجاوز تجاوز الله عنه، فهذا شرع الله وقدره، وثوابه وعقابه، كله قائمٌ بهذا الأصل، وهو إلحاق المثل بالمثل، فمن رحمته وفضله سبحانه وتعالى أن جعل الجزاء من جنس العمل.

أولًا: جزاء آكل الربا في الدنيا:

لقد بينت السنة النبوية جزاء آكل الربا في الدنيا، فآكل الربا يحال بينه وبين أبواب الخير في الدنيا، فالمرابي لا يقرض القرض الحسن، ولا ينظر المعسر، ولا ينفس الكربة عن المكروب؛ لأنه جشعٌ يعز عليه إعطاء المال بدون فوائد ماديةٍ محسوسةٍ، فقد نسي فضل الله عليه، وتغافل عن حقيقة أن المال مال الله.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أحدٌ أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلةٍ)[1].

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لعن الله آكل الربا، وموكله وشاهديه، وكاتبه)، قال: وقال: (ما ظهر في قومٍ الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل)[2].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

هذا وعيدٌ إن لم يذروا الربا، والحرب داعية القتل، قال ابن عباس: «من كان

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ٢/ ٨١٢، رقم ٢٤٣١. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٦٨، رقم ٥٥١٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٥٨، رقم ٣٨٠٩. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٨٤، رقم ٥٦٣٤.

مقيمًا على الربا لا ينزع عنه؛ فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع، وإلا ضرب عنقه»[1].

وذلك بعقوبة التعزير في الفعل المحرم، مثل: (العمل بالربا، وشهادة الزور)[2].

وعقوبة التعزير، إذا لم يكن هناك حدٌّ مقدرٌ.

وقيل: أوعد الله أهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجًا أينما ثقفوا، وقيل: المعنى: إن لم تنتهوا فأنتم حربٌ لله ولرسوله، أي: أعداء.

وقال ابن خويز منداد: «ولو أن أهل بلدٍ اصطلحوا على الربا استحلالًا كانوا مرتدين، والحكم فيهم، كالحكم في أهل الردة، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالًا جاز للإمام محاربتهم»[3]؛ لأن الله تعالى قد أذن في ذلك، فقال تعالى: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

والحرب التي يتعرض لها المرابون، هي ما نراه في أناسٍ لا ينالون استقرارًا، ولا طمأنينةً ولا راحةً، فالناس مع ما هم فيه من الرقي والتقدم والرخاء المادي قلقون خائفون مضطربون، قد فشت فيهم الأمراض العصبية، والنفسية؛ لخواء أرواحهم من صدق الإيمان، هذا الإيمان الذي يسبب الهدوء والسكينة والراحة والطمأنينة للنفس.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذا التشرذم والصراع على مطالب الدنيا، إنما هو ابتلاءٌ من الله لما قدمت أيدينا.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

«ذكر ابن بكير، قال: جاء رجلٌ إلى مالكٍ ابن أنسٍ، فقال: يا أبا عبد الله، إني رأيت رجلًا سكرانًا يتعاقر يريد أن يأخذ القمر، فقلت: امرأتي طالقٌ إن كان يدخل جوف ابن آدم أشر من الخمر، فقال: ارجع حتى أنظر في مسألتك، فأتاه من الغد فقال له: ارجع حتى أنظر في مسألتك فأتاه من الغد، فقال له: امرأتك طالقٌ؛ إني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه، فلم أر شيئًا أشر من الربا؛ لأن الله أذن فيه بالحرب»[4].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٨٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويتية، ١٢/ ٢٥٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٨٥.

(يأتي على الناس زمانٌ يأكلون فيه الربا)، قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: (من لم يأكله منهم ناله من غباره)[1].

وروى الدارقطني عن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لدرهم ربًا أشد عند الله تعالى من ستٍ وثلاثين زنيةٍ في الخطيئة)[2].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الربا سبعون حوبًا، أيسرها أن ينكح الرجل أمه)[3].

الرسول صلى الله عليه وسلم ينفر أمته من الوقوع في خطيئة الربا، فمثل لها بمثالٍ تأباه كل نفسٍ؛ لما في ضرب المثل من تأثيرٍ ينفر من ارتكاب هذه الأفعال غير المرغوب فيها؛ وذلك حتى يأخذ العصاة في الربا بطرفٍ من وعيد هذا الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات)، قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[4].

وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواءٌ)[5].

وعن عبد الله بن مسعودٍ عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لعن الله آكل الربا، وموكله، وشاهديه، وكاتبه)، قال: وقال: (ما ظهر في قومٍ الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل)[6].

وقد بين الله فضل من أعان عباده المؤمنين ونفس عنهم الكرب.

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٦/ ٢٥٨، رقم ١٠٤١٠، وأبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في اجتناب الشبهات، ٣/ ٢٤٣، رقم ٣٣٣١.
وضعفه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٧٠٢، رقم ٤٨٦٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٨٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ٢/ ٧٦٤، رقم ٢٢٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٤، رقم ٣٥٤١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قوله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)، ٤/ ١٠، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٩٢، رقم ٨٩.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا وموكله، ٣/ ١٢١٨، رقم ١٥٩٧.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٥٨، رقم ٣٨٠٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٨٤، رقم ٥٦٣٤.

وقال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

والأحاديث عن إنظار المعسر، أو التجاوز عما عنده، وجواز التصدق على غير القادرين كثيرةٌ.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أنظر معسرًا أو وضع عنه، أظله الله في ظله)[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نفس عن مؤمنٍ كربةً من كرب الدنيا نفس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسرٍ يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كان الرجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، قال: فلقي الله فتجاوز عنه)[(٣)].

الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمنا قيمة من أعظم قيم التكافل والتراحم بين البشر، فبين أن من يمهل المديون حتى يستطيع تدبير أمره وسداد ما عليه بأن الله تعالى أعد له ثوابًا يعادل ثواب الصدقة عن كل يوم يمهل فيه صاحبه، وفي ذلك توجيهٌ عظيمٌ لمن يريدون الثواب من الله.

ثانيًا: جزاء آكل الربا في الآخرة:

وأما في الآخرة، فالأمر أشد، والخطب عظيمٌ، والمصاب جسيمٌ، وأي مصيبةٍ أعظم من أن يعرض أحدٌ نفسه لسخط الله، فيكون من الذين غضب الله عليهم، وتوعدهم بالعذاب الشديد، كما في قوله تعالى: ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وحريٌّ بنا أن نبين أن تخلف بعض العقوبات عن بعض الناس في الدنيا، قد يكون شرًا من نزولها بهم، فإذا رأيت المرابي المعرض عن الله آمنًا في أهله وماله، فلا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل، ٤/ ٢٣٠١، رقم ٣٠٠٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، ٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من أنظر معسرًا، ٣/ ٥٨، رقم ٢٠٧٨.

تظن أن الله تاركه، ولكنه يملي له حتى إذا حان أخذه له أخذه أخذًا شديدًا مباغتًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

إن جزاء المرابي عند الله شديدٌ، فقد أعد له ما يستحقه من العذاب؛ لأنه حارب الله ورسوله. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[البقرة: ٢٧٥].

فالآية تشبه حال القائم بحرصٍ وجشعٍ إلى تجارة الدنيا بقيام المجنون؛ لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما تقول لمسرعٍ في مشيه يخلط في هيئة حركاته إما من فزعٍ أو غيره: قد جن هذا، ويبعثون من قبورهم، على هذه الهيئة، عقوبةً لهم وتمقيتًا عند أهل المحشر.

وقوله تعالى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ جعل الله هذه العلامة لأكلة الربا؛ وذلك أنه أرباه في بطونهم فأثقلهم، فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون.

ويقال: إنهم يبعثون يوم القيامة، وقد انتفخت بطونهم، كالحبالى، وكلما قاموا سقطوا، والناس يمشون عليهم.

وقال بعض العلماء: إنما ذلك شعارٌ لهم يعرفون به يوم القيامة، ثم العذاب من وراء ذلك، كما أن الغال يجيء بما غل يوم القيامة بشهرةٍ يشهر بها، ثم العذاب من وراء ذلك.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾ المراد يكسبون الربا ويفعلونه، وإنما خص الأكل بالذكر لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنه دالٌّ على الجشع، وهو أشد الحرص، وقد أقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كله، فاللباس والسكنى والادخار والإنفاق على العيال داخل فيه، والمس: الجنون، يقال: مس الرجل، فهو ممسوسٌ، إذا كان مجنونًا، وذلك علامة الربا في الآخرة.

وفي الحديث عن جابرٍ رضي الله عنه قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواءٌ)[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الربا سبعون حوبًا، أيسرها أن ينكح الرجل أمه)[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا وموكله، ٣/ ١٢١٨، رقم ١٥٩٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ٢/ ٧٦٤، رقم ٢٢٧٤.

وعن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الحلال بينٌ، والحرام بينٌ، وبينهما أمورٌ مشتبهةٌ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصي حمى الله، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه)[1].

ووجه دلالة الحديث أنه منع من الإقدام على المتشابهات مخافة الوقوع في المحرمات؛ سدًا للذريعة.

موضوعات ذات صلة:

الاقتصاد، الإنفاق، الحرام، الزكاة، المال

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٤، رقم ٣٥٤١.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩.

الرجاء

عناصر الموضوع

مفهوم الرجاء	٨
الرجاء في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
الرجاء في حق المؤمنين	١٢
الرجاء في حق الكافرين	٢٤
أساليب القرآن في الحديث عن الرجاء	٢٧
وسائل تحقيق المرجو	٣٢
آثار الرجاء	٣٥

مفهوم الرجاء

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (رجا) تدل على الأمل[1].

وهو نقيض اليأس، يقال: رجا يرجو[2].

وقد يجيء الرجاء بمعنى: الخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣] أي: تخافون عظمة الله[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: الرجاء: ظنّ يقتضي حصول ما فيه مسرّة[4].

وعرفه الكفوي بأنه: الطمع فيما يمكن حصوله، ويرادفه الأمل[5].

وعرفه الجرجاني بأنه: تعلق القلب بمحصول محبوب في المستقبل[6].

وبناءً عليه فمعنى الرجاء اصطلاحًا لا يختلف عن معناه لغةً.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٩٤.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١١/ ١٢٤.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٥٢.
(٤) المفردات، ص ٣٤٦.
(٥) الكليات ص ٤٦٨.
(٦) التعريفات ص ١٠٩.

الرجاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رجا) في القرآن الكريم (٢٨) مرة، يخص موضوع البحث منها(٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢١	﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[النساء: ١٠٤]
فعل الأمر	١	﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[العنكبوت: ٣٦]
اسم مفعول	١	﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾[هود: ٦٢]

وجاء الرجاء في القرآن على وجهين[٢]:

أحدهما: الأمل والطمع: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢١٨].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء: ٥٧]. أي: يأملون ويطمعون في رحمته وجنته[٣].

الثاني: الخوف: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [يونس: ٧] يعني: لا يخافون لقاءنا يوم القيامة، فهم لذلك مكذبون بالثواب والعقاب[٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧] أي: لا يخافون حسابًا.

وعند التأمل نجد أن لفظة الرجاء من الأضداد[٥]، فتستعمل بمعنى الأمل والطمع، وبمعنى الخوف، وقرينة السياق تدل على المعنى المطلوب.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٠٤.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص١٧٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٣٠٨، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٢٧-٢٢٩.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٥١.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٢١.
(٥) انظر: الأضداد، ابن الأنباري ص٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأمل:

الأمل لغة:

تدل مادة (أمل) على معنين رئيسين، أحدهما: التثبت والانتظار[١]، ومنه: الأمل، بمعنى: الرجاء، فتقول: أملته أؤمله تأميلًا، وأملته آمله أملًا وإملةً على بناء جلسة[٢]. ومنه: التأمل، أي: التثبت في النظر[٣].

الأمل اصطلاحًا:

عرفه المناوي بقوله: الأمل: توقع حصول الشيء، وأكثر ما يستعمل فيما يبعد حصوله، فمن عزم على سفر إلى بلد بعيد يقول: أملت الوصول، ولا يقول: طمعت إلا إن قرب منها، فإن الطمع ليس إلا في القريب[٤].

الصلة بين الرجاء والأمل:

الرجاء والأمل لفظان متقاربان في المعنى، حيث يعرف أهل اللغة الرجاء بالأمل، والأمل بالرجاء، إلا أن المتأمل في معناهما في كتب اللغة يجد فرقًا طفيفًا بينهما، وهو أن الرجاء أكثر ما يستعمل فيما يقرب حصوله، بينما الأمل أكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله.

وقيل: الأمل: آكد من الرجاء؛ لأن الرجاء معه خوف؛ فلذلك جاء بمعنى خاف نحو: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣][٥].

٢ التمني:

التمني لغة:

تدل مادة (مني) على تقدير شيء، ونفاذ القضاء به، منه قولهم: منى له الماني، أي: قدر المقدر، وتمني الإنسان: أمل يقدره[٦].

والتمني نوع من الطلب إلا أن الطلب يكون باللسان، والتمني شيء يهجس في القلب

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٠.
(٢) العين، الخليل بن أحمد ٨/ ٣٤٧.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٠.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٦٢.
(٥) المصدر السابق ص ١٧٤.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٧٦- ٢٧٧.

يقدره المتمني[1].

التمني اصطلاحًا:

التمني: طلب حصول الشيء، سواءً كان ممكنًا أو ممتنعًا[2].

الصلة بين الرجاء والتمني:

الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز، والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه[3].

٣ الخوف:

الخوف لغة:

الخاء والواو والفاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على الذّعر والفزع[4].

الخوف اصطلاحًا:

«خلاف الأمن، والأمن سكون النفس، والخوف من انزعاجها وقلقها»[5].

وقال التفتازاني: «غم يلحق الإنسان مما يتوقعه من السوء»[6].

الصلة بين الرجاء والخوف:

الخوف هو توقع حلول مكروه، أو فوت محبوب، والرجاء عكسه، توقع حصول محبوب، وهما قرناء لا ينفع أحدهما إلا بوجود الآخر، وهما من أركان العبادة التي لا تتم إلا باجتماعهما مع الحب[7].

(١) الكليات، الكفوي ص ٤٦٨.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٦٦، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٠٩.
(٣) الروح، ابن القيم ص ٢٤٥.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٣٠.
(٥) الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، ص ٢٠٣.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٦١.
(٧) الكليات ص ٤٦٨.

الرجاء في حق المؤمنين

الرجاء في الله تعالى، وفيما عنده من العبادات القلبية العظيمة.

وقد ذكر القرآن الكريم أن المؤمنين هم أهل الرجاء، وأهل حسن الظن بالله، الذين جمعوا بين حسن العمل، وحسن الرجاء، إذ الرجاء المحمود لا يكون إلا لمن عمل بطاعة الله، ورجا ثوابه، أو تاب من معصيته، ورجا قبول توبته، فأما الرجاء بلا عمل فهو غرور وتمنٍ مذموم.

ومن صور الرجاء التي أثنى الله بها على المؤمنين:

أولًا: رجاء لقاء الله:

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥] وقال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالمؤمن يرجو لقاء الله.

واختلف المفسرون في المراد بلقاء الله، على أقوال:

الأول: أن المراد بلقاء الله: رؤيته سبحانه وتعالى، فالمؤمن يرجو رؤية الله؛ ولهذا يعمل الأعمال الصالحة من أجل أن ينعم بهذه الرؤية، لعل هذا العمل الصالح يكون سببًا في رؤية الله جل وعلا.

الثاني: أن لقاء الله: ثوابه، فالمؤمن يرجو ثواب الله بعمله، ويخشى عقاب الله بعمله، فهو يصلي ويقرأ القرآن ويصوم، ويعمل الأعمال الصالحة من أجل حصول الثواب، والابتعاد عن العقاب.

الثالث: أن لقاء الله هو يوم القيامة.

وقد جمع هذه الأقوال كلها وغيرها أبو السعود، حيث قال: «﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾، أي: يتوقع ملاقاة جزائه ثوابًا أو عقابًا، أو ملاقاة حكمه يوم القيامة.

وقيل: يرجو لقاء الله عز وجل في الجنة.

وقيل: يرجو ثوابه.

وقيل: يخاف عقابه.

وقيل: لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة من تلقي ملك الموت والبعث والحساب والجزاء.

على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل، وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتي ويذر، فإما أن يلقاه ببشر وكرامة لما رضي من أفعاله، أو بضده لما سخطه، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾، أي: فإن الوقت الذي عينه تعالى لذلك ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه؛ لأن أجزاء الزمان على التقضي والتصرم دائمًا، فلا بد من إتيان ذلك الجزاء أيضًا ألبتة، وإتيان وقته موجب لإتيان اللقاء حتمًا، والجواب محذوف، أي: فليختر

من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب؛ وليحذر ما يسوقه إلى سوء العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى، وقيل: فليبادر إلى ما يحقق أمله، ويصدق رجاءه، أو ما يوجب القربة والزلفى»[١].

والمقصود: أن المؤمنين يرجون لقاء الله، فيعملون لهذا اللقاء، ويستعدون له، بعكس المنكر للقاء الله، الغافل عنه.

وقد اختلف في تفسير الرجاء على قولين:

فقيل: الرجاء: بمعنى الطمع والأمل، قاله سعيد ابن جبير[٢].

قال الزجاج: معنى من كان يرجو لقاء الله: من كان يرجو ثواب لقاء الله، أي: ثواب المصير إليه، فالرجاء على هذا: معناه: الأمل[٣].

وقيل: الرجاء: بمعنى الخوف.

قال القرطبي: «وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت[٤].

وقال السعدي: «يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه، مستصحبًا الرجاء، مؤملًا الوصول إليه، ولكن ما كل من يدعي يعطى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقًا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبًا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح»[٥].

ولما كان المؤمنون هم الذين يرجون لقاء الله، ويشتاقون له، ويعملون له، أخبر الله عن المشركين أنهم على الضد من ذلك فهم لا يرجون لقاء الله، أي: لا ينتظرون هذا اللقاء، ولا يحسبون حسابه، ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم على أساسه، ومن ثم لا تستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته وجلاله، فتنطلق ألسنتهم بكلمات وتصورات لا تصدر عن قلب يرجو لقاء الله.

قال الله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١]، فقد كانوا يستبعدون أن يكون الرسول بشرًا، وكانوا يطلبون، لكي يؤمنوا بالعقيدة التي يدعوهم إليها أن تنزل عليهم الملائكة تشهد بها، أو أن يروا الله سبحانه وتعالى فيصدقوا، وهو تطاول على مقام الله سبحانه، تطاول الجاهل المستهتر الذي لا

(١) إرشاد العقل السليم، ٧/ ٣٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٢٢.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٢٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٢٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٢٦.

يحس جلال الله في نفسه، ولا يقدر الله حق قدره[1].

وقال ابن عاشور: ورجاء لقاء الله: ظن وقوع الحضور لحساب الله...، ولقاء الله: الحشر للجزاء؛ لأن الناس يتلقون خطاب الله المتعلق بهم، لهم أو عليهم، مباشرةً بدون واسطة...، وعبر بفعل الرجاء عن ترقب البعث؛ لأن الكلام مسوق للمؤمنين وهم ممن يرجو لقاء الله؛ لأنهم يترقبون البعث لما يأملون من الخيرات فيه[2].

والخلاصة: أن هذه الآية: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥] فيها حث الإنسان على أن يكون راجيًا في ثواب المصير إلى الله تعالى، فالرجاء سبب من الأسباب التي ينال بها العبد ما عند الله، من مغفرة ذنوبه، وهدايته، وتوفيقه، وإعانته على طاعته، ودخوله الجنة، ونجاته من النار، فالرجاء هو قطب الرحى الذي يدور عليه صلاح العبادة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع، وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات»[3].

ولا يقال: إن الرجاء اعتراض من العبد على ما سبق به حكم الله، فليس الأمر كذلك، بل إنما هو تعلق بما سبق به الحكم، فإن العبد إنما يرجو فضلًا وإحسانًا ورحمةً سبق بها القضاء والقدر، وجعل الرجاء أسباب حصولها، فليس الرجاء اعتراضًا على القدر، بل هو طلب لما سبق به قدر الله.

وقد ذم الله الكافرين الذين لا يرجون لقاءه، ورضوا بالحياة الزائلة، واطمأنوا إليها، فقد حكم لهم بأن مأواهم النار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: ٧-٨].

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وهذه الآية توضح لنا أن العبد إذا كان يرجو لقاء الله صادقًا مخلصًا في ذلك، فإن عاقبة ذلك ونتيجته يؤديان به إلى إصلاح عمله.

فهذه الآية فيها إشارة قاطعة إلى أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل.

ورجاء العبد لقاء ربه الذي خلقه هو

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٥٨.
(٢) التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٠٨.
(٣) مدارج السالكين ٢/ ٤٣.

من أفضل ما يرجوه العبد المؤمن ويأمله، قال العلامة ابن القيم: «رجاء أرباب القلوب، وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق، المبغض المنغص للعيش، المزهد في الخلق، هذا الرجاء أفضل أنواع الرجاء وأعلاها، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥]، وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين؛ ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه، وضرب لهم أجلًا يسكن نفوسهم ويطمئنها»[١].

ثانيًا: رجاء اليوم الآخر:

ومما ينبغي أن يرجوه المؤمن اليوم الآخر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وقال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِن اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَابْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة: ٤].

ومعنى: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، أي: وارجوا بعبادتكم إياي جزاء اليوم الآخر، وذلك يوم القيامة[٢].

قال أبو السعود: «معنى: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، أي: توقعوه، وما سيقع فيه من فنون الأهوال، وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلته»[٣].

والمراد باليوم الآخر: يوم القيامة؛ لأنه آخر الأيام، وقيل: وارجوا يوم الموت؛ لأنه آخر عمرهم[٤].

وإنما عبّر شعيب عليه السلام بلفظ الرجاء؛ لأن عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين كما سبق.

والرجاء: الترقب واعتقاد الوقوع في المستقبل، وأمره إياهم بترقب اليوم الآخر يدل على أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث[٥].

ورجاء اليوم الآخر كفيل بتحويلهم عما كانوا يرجونه في هذه الحياة الدنيا من الكسب المادي الحرام، بالتطفيف في الكيل والميزان، وغصب المارين بطريقهم للتجارة، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، والاستطالة على الخلق[٦].

(١) المصدر السابق ٢/ ٥٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٤.
(٣) إرشاد العقل السليم ٧/ ٣٩.
(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٤٦٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٤٧.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٤.

ثالثًا: رجاء رحمة الله:

ومن أعظم ما يرجوه المؤمن رحمة الله.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

فهذه الآية بينت أن من صفات المؤمنين أنهم يرجون رحمة الله، بمعنى: أنهم يطمعون في رحمة الله، ويرجون أن يدخلهم الجنة برحمته إياهم، وفضله عليهم.

عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال: «أثنى الله على أصحاب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أحسن الثناء، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وأنه من رجا طلب، ومن خاف هرب»[1].

والناظر لأول وهلة في هذه الآية يظن أن فيها رجاءً وترغيبًا، لكن المتدبر والمتأمل يجد العكس، وهو أن فيها تخويفًا وترهيبًا، حيث جعل الله تعالى رحمته لمن تحققت فيه هذه الأوصاف (الإيمان، والهجرة، والجهاد) وهي ثقيلة على النفس.

وهذه الأوصاف الثلاثة لأولئك المقربين الصديقين:

أولها: أنهم آمنوا، والإيمان تصديق للحق، وإذعان لحكمه، وتنفيذ لأوامره، وإخلاص في القلب، ونور في البصيرة، وذلك وحده كاف للجزاء، إن قام المؤمن به، وحقق لوازمه وخواصه، وصار شعاره ومظهره، وسريرته وحقيقته.

وثانيها: الهجرة، فقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾، وكرر الموصول هنا للإشارة إلى أن الهجرة وحدها عمل زائد على الإيمان يستحق وحده الثواب؛ لأنه ترك للمال والأهل، وطلب للعزة، وإعزاز الدين، بدل البقاء في الذلة والرضا بحياة المستضعفين، وقد أمر الله بالهجرة عند الاستضعاف، ونهى عن البقاء تحت نير غير المسلمين.

ولذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٨.

وثالثها: الجهاد في سبيل الله تعالى، وهو باب الجنة، وهو رهبانية هذه الأمة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن طلب منه الوصية: (وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام)[1].

ولقد بين سبحانه جزاءهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، أي: إن أولئك المتصفين بهذه الصفات ليس من شأنهم أن يخافوا العذاب لخطأ غير مقصود في الجهاد، بل إنهم يرجون الرحمة والثواب[2].

والمراد برحمة الله ها هنا:

يحتمل أن تكون الرحمة التي هي صفته، أي: أن يرحمهم.

ويحتمل أن يكون المراد ما كان من آثار رحمته.

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: (أنت رحمتي أرحم بك من أشاء)[3]، فجعل المخلوق رحمةً له؛ لأنه من آثار رحمة الله؛ ولهذا قال: (أرحم بك).

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٨/ ٢٩٧، رقم ١١٧٧٤.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٨، رقم ٢٥٤٣.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ٦٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾، ٦/ ١٣٨، رقم ٤٨٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٨٦، رقم ٢٨٤٦.

أما الرحمة التي هي وصفه، فهي شيء آخر، فالآية محتملة للمعنيين، وكلاهما متلازمان؛ لأن الله إذا رحم عبدًا أدخله الجنة التي هي رحمته[4].

فيكون في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ قولان:

الأول: أن المراد منه الرجاء، وهو عبارة عن ظن المنافع التي يتوقعها، وأراد تعالى في هذا الموضع أنهم يطمعون في ثواب الله؛ وذلك لأن عبد الله بن جحش -الذي نزلت فيه هذه الآية-[5] ما كان قاطعًا بالفوز والثواب في عمله، بل كان يتوقعه ويرجوه.

فإن قيل: لم جعل الوعد مطلقًا بالرجاء، ولم يقع به كما في سائر الآيات؟

قال الراغب: قلنا: الجواب من وجوه:

أحدها: أن مذهبنا أن الثواب على الإيمان، والعمل غير واجب عقلًا، بل بحكم الوعد، فلذلك علقه بالرجاء.

وثانيها: هب أنه واجب عقلًا بحكم الوعد، ولكنه تعلق بأن لا يكفر بعد ذلك، وهذا الشرط مشكوك فيه لا متيقن، فلا جرم كان الحاصل هو الرجاء لا القطع.

وثالثها: أن المذكور ها هنا هو الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله، ولا بد

(٤) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ٦٤.

(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١٨٧، تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٨.

للإنسان مع ذلك من سائر الأعمال، وهو أن يرجو أن يوفقه الله لها، كما وفقه لهذه الثلاثة، فلا جرم علقه على الرجاء.

ورابعها: ليس المراد من الآية أن الله شكك العبد في هذه المغفرة، بل المراد وصفهم بأنهم يفارقون الدنيا مع الهجرة والجهاد مستقصرين أنفسهم في حق الله تعالى، يرون أنهم لم يعبدوه حق عبادته، ولم يقضوا ما يلزمهم في نصرة دينه، فيقدمون على الله مع الخوف والرجاء، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠].

القول الثاني: أن المراد من الرجاء: القطع واليقين في أصل الثواب، والظن إنما دخل في كميته وفي وقته، وفيه وجوه قررناها في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

وفي الآية دلالة على أن الذي يحق رجاؤه يعمل ما ذكر الله، ومن وصل إلى ذلك فحق له أن يرجو رحمته، فإن قيل: الإنسان راج لرحمة الله وإن لم يبلغ هذه المنازل!

قيل: إن الذي نسميه رجاءً لن لم يبلغ مثل هذه المنازل فهو تمن على الله، المعني بقوله عليه السلام: (والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني)[1].

أو رجاءً لتفصيل غير مستحق، وما ذكره الله عز وجل ها هنا هو الرجاء المستحق الذي وصف به المؤمنين في غير موضع، نحو قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

إن قيل: لم ذكر المؤمنين برجاء الرحمة وهي لهم لا محالة؟

قيل: المؤمن وإن بذل الجهد في طاعته فواجب أن يكون بين نظرين: نظر إلى سعة رحمة الله عز وجل، ونظر إلى ما عسى أن يقع، أو وقع منه من ذنب فينتج له خوفًا[2].

ونظير الآية السابقة: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧][3].

فـ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفة، أي: يدعونهم آلهة، أو يعبدونهم، والخبر ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، يعني: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة، وهي القربة إلى الله عز وجل، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كغيرهم من عباد

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٥٠، رقم ١٧١٢٣، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٦٣٨، رقم ٢٤٥٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ٢/ ١٤٢٣، رقم ٤٢٦٠.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ٦٢٥، رقم ٤٣٠٥.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٤٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٩٥.

الله فكيف يزعمون أنهم آلهة[1].

وقال الطبري: «قوله: ﴿وَيَرْجُونَ﴾، أي: بأفعالهم تلك»[2].

والمقصود: أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يرجون رحمة الله تعالى على إيمانهم وهجرتهم وجهادهم.

فأثبت لهم الرجاء إشعارًا بأن العمل غير موجب، ولا قاطع في الدلالة، سيما والعبرة بالخواتيم[3].

قال القاسمي: «وإنما ثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للإيذان بأنهم عالمون بأنّ العمل غير موجب للأجر، وإنما هو على طريق التفضّل منه سبحانه، لا لأنّ في فوزهم اشتباهًا»[4].

فوضع الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله موضع الرجاء من رحمة الله، ولم يعطهم الثواب والمغفرة والرضوان على القطع والتحقيق؛ وذلك ليقيمهم من هذا الرجاء على عمل دائم، وجهاد متصل، وهذا على خلاف ما إذا سوّى حسابهم بعد الهجرة، وبعد كل موقف من مواقف الجهاد، فقد يقعد بهم هذا عن أن يضيفوا جديدًا، أو يخفّوا للجهاد مرةً بعد مرة.

ثم إنه من جهة أخرى يرى الذين آمنوا -مجرد إيمان- ولم يهاجروا ولم يجاهدوا- يريهم شناعة موقفهم، ومغبّة تقصيرهم بتخلفهم عن ركب المهاجرين والمجاهدين، ويرفع لأعينهم بعد ما بينهم وبين مواقع رحمة الله ورضوانه؛ إذ يرون المهاجرين المجاهدين، ولمّا يلمسوا بأيديهم مواقع الرحمة والرضوان، وأنهم ما زالوا على رجاء! فكيف بالذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا؟ إن المدى بعيد بينهم وبين أن يصلوا إلى جانب الأمن والسّلامة، وإن عليهم أن يحثّوا المطي إلى ميدان الهجرة والجهاد، ليلحقوا بركب المهاجرين المجاهدين، وليكونوا بمعرض من رحمة الله ورضوانه![5].

ورجاء المؤمن في رحمة الله لا يخيبه الله أبدًا، ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق، فجاهدوا وصبروا، حتى حقق الله لهم وعده بالنصر، أو الشهادة، وكلاهما خير، وكلاهما رحمة، وفازوا بمغفرة الله ورحمته[6].

رابعًا: رجاء ثواب الله:

ومن أنواع الرجاء المذكورة في القرآن رجاء ثواب الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا

(١) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٦٢-٢٦٣.
(٢) جامع البيان ١٤/ ٦٢٧.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣٧.
(٤) محاسن التأويل ٢/ ١٠٩.
(٥) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١/ ٢٤٢.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٢٨.

﴿تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، قال مقاتل: يعني: من الثواب والأجر[(١)].

وقال البغوي: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، أي: وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب في الآخرة، والنصر في الدنيا ما لا يرجون.

وقال بعض المفسرين: المراد بالرجاء الخوف؛ لأن كل راج خائف أن لا يدركه مأموله، ومعنى الآية: وترجون من الله، أي: تخافون من الله، أي: تخافون من عذاب الله ما لا يخافون، قال الفراء رحمه الله: ولا يكون الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجدّ، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]، أي: لا يخافون، وقال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣].

أي: لا تخافون لله عظمةً، ولا يجوز رجوتك بمعنى: خفتك، ولا خفتك وأنت تريد رجوتك[(٢)].

قال في البحر: «﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، هذه تسلية منه تعالى للمؤمنين، والتأسي فيه أعظم مسلاة»[(٣)].

ولفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، ويجوز أيضًا استعماله في الشر؛ لأنه مأخوذ من قولهم: ثاب إليه عقله، أي: رجع إليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله، سواءً كان خيرًا أو شرًا، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير، فإن حملنا لفظ الثواب ها هنا على أصل اللغة استقام الكلام، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك واردًا على سبيل التهكم، كما يقال: تحيتك الضرب، وعتابك السيف، أي: جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤][(٤)].

وفي جعل رجاء المؤمنين من الله في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إشعار للمؤمنين بأنهم في جانب الله تعالى، وأن رجاءهم عنده، وهو يجيب رجاء المؤمن ودعاءه، ويؤيده بنصره: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وليس للمشركين من يرجون إلا أن يكون أصنامًا لا تضر ولا تنفع!

وإذا كان الرجاء من الله فهو رجاء من العليم بكل شيء، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، وينصر من ينصره بحكمته؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾،

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٤٠٤.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٩٨.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٥٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٩٠.

أي: ثبت وتقرر أن العلم والحكمة من أسماء الله تعالى الحسنى[1].

وفي الآية رد على من يقول: لا يصح أن يعبد الله رجاء الثواب، فإن هذه عبادة التجار، وإنما يعبد الله لذاته حبًا فيه.

قال القاسمي: «وتدل على أن للمجاهد أن يجاهد لطلب الثواب؛ لقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، فجعل هذا سببًا باعثًا على الجهاد، هذا معنى كلام الحاكم، ونظير هذا: لو صلى لطلب الثواب أو السلامة من العقاب، وقد ذكر في ذلك خلاف، فعن الراضي بالله: يجزي ذلك، وقواه الفقيه يحيى بن أحمد، وعن أبي مضر: لا يجزي؛ لأنه لم ينو الوجه الذي شرع الواجب له»[2].

ونظير الآيتين السابقتين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر: ٢٩].

قال السمعاني: «قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾، أي: لن تهلك، ولن تفسد، والمراد من التجارة: ما وعده الله من الثواب»[3].

وقال يحيى بن سلام في تفسيره: «قوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾، أي: لن تفسد، وهي تجارة الجنة، يعملون للجنة، ولهذا قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾، ثوابهم في الجنة، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]، أي: يضاعف لهم الثواب، قال الحسن: تضاعف لهم الحسنات، يثابون عليها في الجنة»[4].

فهؤلاء الذين يكثرون من قراءة القرآن الكريم، ويؤدون ما أوجبه الله تعالى عليهم، يرجون من الله تعالى الثواب الجزيل، والربح الدائم؛ لأنهم جمعوا في طاعتهم له تعالى بين الإكثار من ذكره، وبين العبادات البدنية والمالية.

قال الرازي: «وقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ إشارة إلى الإخلاص، أي: ينفقون لا ليقال: إنه كريم، ولا لشيء من الأشياء، غير وجه الله، فإن غير الله بائر، والتاجر فيه تجارته بائرة»[5].

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ ذكر ما يوجب الخوف والرجاء، فكونه عزيزًا ذا انتقام يوجب الخوف التام، وكونه غفورًا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ»[6].

والمقصود: أن المؤمنين يرجون بأعمالهم وعباداتهم ثواب الله، وأجره في الآخرة.

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٨٣٧.
(٢) محاسن التأويل ٣/ ٣١٨.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٣٥٧.
(٤) تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٧٨٧.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٣٧.
(٦) المصدر السابق ٢٦/ ٢٣٦.

خامسًا: رجاء نصر الله وتأييده:

ومما يدل على ذلك قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فالرجاء هنا كما يحمل على رجاء الثواب والأجر، يحمل أيضًا على رجاء النصر والظفر من العدو، قال الخازن: «يعني وتأملون من الله من الثواب في الآخرة ما لا يرجون، وقيل: ترجون النصر والظفر في الدنيا، وإظهار دينكم على الأديان كلها»[(١)].

وقال المراغي: «﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ من ظهور دينكم الحق على سائر الأديان الباطلة»[(٢)].

سادسًا: رجاء أيام الله:

ومن أنواع الرجاء المذكورة في القرآن رجاء أيام الله.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية: ١٤].

قال مقاتل بن سليمان: «﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، يعني: لا يخشون عقوبات الله، مثل عذاب الأمم الخالية»[(٣)].

وقال السعدي: «الذين لا يرجون أيام الله أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون، فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم، ثوابًا جزيلًا، وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي»[(٤)].

والذين لا يرجون أيام الله يراد بهم المشركون من أهل مكة، والرجاء: ترقب وتطلب الأمر المحبوب، وهذا أشهر إطلاقاته، وهو الظاهر في هذه الآية.

والأيام: جمع يوم، وهذا الجمع أو مفرده إذا أضيف إلى اسم أحد أو قوم أو قبيلة كان المراد به اليوم الذي حصل فيه لمن أضيف هو إليه نصر وغلب على معاند أو مقاتل، ومنه أطلق على أيام القتال المشهورة بين قبائل العرب: أيام العرب، أي: التي كان فيها قتال بين قبائل منهم، فانتصر بعضهم على بعض، كما يقال: أيام عبس، وأيام داحس والغبراء، وأيام البسوس، فإذا قالوا: أيام بني فلان، أرادوا الأيام التي انتصر فيها من أضيفت الأيام إلى اسمه، ويقولون: أيام بني فلان على بني فلان، فيريدون أن المجرور بحرف الاستعلاء مغلوب لتضمن لفظ أيام أو (يوم) معنى الانتصار والغلب، وبذلك التضمن كان المجرور متعلقًا بلفظ

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٢٣.
(٢) تفسير المراغي ٥/ ١٤٥.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٨٣٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٦.

أيام أو (يوم)، وإن كان جامدًا فمعنى أيام الله على هذا هو من قبيل قولهم: أيام بني فلان، فيحصل من محمل الرجاء على ظاهر استعماله.

ومحمل أيام الله على محمل أمثاله أن معنى الآية للذين لا تترقب نفوسهم أيام نصر الله، أي: نصر الله لهم: إما لأنهم لا يتوكلون على الله، ولا يستنصرونه، بل توجههم إلى الأصنام، وإما لأنهم لا يخطر ببالهم إلا أنهم منصورون بحولهم وقوتهم فلا يخطر ببالهم سؤال نصر الله، أو رجاؤه، وهم معروفون بهذه الصلة بين المسلمين، فلذلك أجريت عليهم هنا وعرفوا بها، وأوثر تعريفهم بهذه الصلة ليكون في ذلك تعريض بأن الله ينصر الذين يرجون أيام نصره وهم المؤمنون، والغرض من هذا التعريض: الإيماء بالموصول إلى وجه أمر المؤمنين أن يغفروا للمشركين، ويصفحوا عن أذى المشركين، ولا يتكلفوا الانتصار لأنفسهم لأن الله ضمن لهم النصر.

وقد يطلق أيام الله في القرآن على الأيام التي حصل فيها فضله ونعمته على قوم، وهو أحد تفسيرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

ومعنى لا يرجون أيام الله على هذا التأويل: أنهم في شغل عن ترقب نعم الله بما هم فيه من إسناد فعل الخير إلى أصنامهم بانكبابهم على عبادة الأصنام دون عبادة الله، ويأتي في هذا الوجه من التعريض والتحريض مثل ما ذكر في الوجه الأول؛ لأن المؤمنين هم الذين يرجون نعمة الله، وفسر به قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣].

فيكون المراد بـ﴿بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أيام جزائه في الآخرة؛ لأنها أيام ظهور حكمه وعزته، فهي تقارب الأيام بالمعنى الأول، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩]، أي: ذلك يوم النصر الذي يحق أن يطلق عليه (يوم)، فيكون معنى هذه الآية: أنهم لا يخافون تمكن الله من عقابهم لأنهم لا يؤمنون بالبعث.

ومعنى الآية[1]: أن المؤمنين أمروا بالعفو عن أذى المشركين، وقد تكرر ذلك في القرآن قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد في هذه الآية: وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٤٠.

الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى[1].

الرجاء في حق الكافرين

أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم لا يرجون الله، ولا يرجون اليوم الآخر، ولا يرجون ثوابًا ولا حسابًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧﴾ [النبأ: ٢٧].

وهذا شأنهم في الحياة الدنيا؛ ولهذا لم يعملوا ليوم القيامة، ولم يوقروا الله، وأهملوا العمل للآخرة.

قال ابن الجوزي: «﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧﴾، فيه قولان:

أحدهما: لا يخافون أن يحاسبوا؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، قاله الجمهور.

والثاني: لا يرجون ثواب حساب؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، قاله الزجاج»[2].

واختار السمعاني الأول حيث قال: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧﴾، أي: لا يخافون، وقد بينا الرجاء بمعنى الخوف فيما سبق»[3].

وقال مقاتل: «يعني: أنهم كانوا لا يخافون من العذاب أن يحاسبوا بأعمالهم الخبيثة إذا عملوها»[4].

وقال ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧﴾، قال: «لا يؤمنون بالبعث

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والمشركين أذى كثيرًا)، ٦/ ٣٩، رقم ٤٥٦٦.

(٢) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٩٠.

(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٤٠.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٥٦٣.

ولا بالحساب، وكيف يرجو الحساب من لا يوقن أنه يحيا، ولا يوقن بالبعث»[1].

فإن قيل: الحساب شيء شاق على الإنسان، والشيء الشاق لا يقال فيه: إنه يرجى، بل يجب أن يقال: إنهم كانوا لا يخشون حسابًا.

والجواب: من وجوه:

أحدها: قال مقاتل وكثير من المفسرين قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾، معناه: لا يخافون، ونظيره قولهم في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣].

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يرجو رحمة الله؛ لأنه قاطع بأن ثواب إيمانه زائد على عقاب جميع المعاصي سوى الكفر، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾، إشارة إلى أنهم ما كانوا مؤمنين.

وثالثها: أن الرجاء ها هنا بمعنى التوقع؛ لأن الراجي للشيء متوقع له، إلا أن أشرف أقسام التوقع هو الرجاء، فسمي الجنس باسم أشرف أنواعه.

ورابعها: أن في هذه الآية تنبيهًا على أن الحساب مع الله جانب الرجاء فيه أغلب من جانب الخوف؛ وذلك لأن للعبد حقًا على الله تعالى بحكم الوعد في جانب الثواب، ولله تعالى حق على العبد في جانب العقاب، والكريم قد يسقط حق نفسه، ولا يسقط ما كان حقًا لغيره عليه، فلا جرم كان جانب الرجاء أقوى في الحساب؛ فلهذا السبب ذكر الرجاء، ولم يذكر الخوف[2].

والمقصود: أن الله تعالى أخبر عن الكفار في عدة آيات أنهم لا يرجون لقاءه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [يونس: ٧].

قال السعدي: «أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤملون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلًا عن الآخرة»[3].

وقال الله في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، فلماذا لا يرجون لقاء الله؟ لأن الذي يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء؛ ليستقبل ثواب الله، لكن الذي لم يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله فكيف له أن يرجو لقاء الله؟ إنه لا يرجو ذلك.

وعلى سبيل المثال: إن الرجل الذي يستشهد، ويقدم نفسه للشهادة، ونفسه هي أعز شيء عنده، إنما يفعل ذلك لوثوقه بأن ما يستقبله بالاستشهاد خير مما يتركه من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٦٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٨.

الحياة[1].

ونظير الآيتين السابقتين قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١١].

وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

قال الرازي: «إنّ وصفهم بأنهم لا يرجون لقاء الله أريد به كونهم مكذبين بالحشر والنشر، منكرين للبعث والقيامة، ثم في تقرير حسن هذه الاستعارة وجوه:

الأول: قال الأصم: لا يرجون لقاءنا، أي: لا يرجون في لقائنا خيرًا على طاعة، فهم من السيئات أبعد أن يخافوها.

الثاني: قال القاضي: الرجاء لا يستعمل إلا في المنافع؛ لكنه قد يدل على المضار من بعض الوجوه؛ لأن من لا يرجو لقاء ما وعد ربه من الثواب، وهو القصد بالتكليف لا يخاف أيضًا ما يوعده به من العقاب، فصار ذلك كناية عن جحدهم للبعث والنشور.

واعلم أن كلام القاضي قريب من كلام الأصم، إلا أن البيان التام أن يقال: كل من كان مؤمنًا بالبعث والنشور فإنه لا بد وأن يكون راجيًا ثواب الله، وخائفًا من عقابه، وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم، فلزم من نفي الرجاء نفي الإيمان بالبعث، فهذا هو الوجه في حسن هذه الاستعارة»[2].

والمقصود: أن الكفار لا يرجون لقاء الله تعالى، ولا الدار الآخرة؛ ولهذا ركنوا إلى الدنيا، وأهملوا الآخرة؛ ولهذا أخبر عنهم الله أنهم رضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها.

ومعنى: رضوا بالحياة الدنيا أنهم لم يعملوا النظر في حياة أخرى أرقى وأبقى، لأن الرضا بالحياة الدنيا والاقتناع بأنها كافية يصرف النظر عن أدلة الحياة الآخرة، وأهل الهدى يرون الحياة الدنيا حياة ناقصة، فيشعرون بتطلب حياة تكون أصفى من أكدارها، فلا يلبثون أن تطلع لهم أدلة وجودها، وناهيك بإخبار الصادق بها، ونصب الأدلة على تعين حصولها، فلهذا جعل الرضا بالحياة الدنيا مذمةً، وملقيًا في مهواة الخسران.

وفي الآية إشارة إلى أن البهجة بالحياة الدنيا والرضا بها يكون مقدار التوغل فيهما بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة، وليس ذلك بمقتضى الإعراض عن الحياة الدنيا، فإن الله أنعم على عباده بنعم كثيرة فيها وجب الاعتراف بفضله بها، وشكره عليها، والتعرف بها إلى مراتب أعلى هي مراتب حياة أخرى، والتزود لها، وفي

(١) تفسير الشعراوي ٩/ ٥٧٤٩.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٧/ ٢٢٤.

ذلك مقامات ودرجات بمقدار ما تهيأت له النفوس العالية من لذات الكمالات الروحية[1].

أساليب القرآن في الحديث عن الرجاء

تتنوع أساليب القرآن الكريم في الحث على الشيء المرغوب فيه، فتارةً بالأمر الصريح به، وتارةً بالنهي عن ضده، وتارةً بذكر ثوابه، ونجد هذا التنوع في الأسلوب في الحث على الرجاء، حيث جاء في القرآن على النحو الآتي:

أولًا: الأمر به:

من وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء الأمر به؛ إذ لا يأمر الله تعالى إلا بالأمر المحبوب إليه، المطلوب من العباد فعله؛ لحسنه عقلًا وشرعًا، وقد جاء الأمر بالرجاء في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وهذا الأمر أقل أحواله الندب، وإن كان الأولى به ها هنا الوجوب؛ وبخاصة أنه اقترن بأمر أعظم، وهو عبادة الله تعالى، فقد أمر شعيب عليه السلام قومه بأمرين، هما: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦] ونهي واحد وهو: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

ومعناه كما قال السمعاني: «أي: واخشوا اليوم الآخر، وقيل: الرجاء ها هنا على

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٩٩.

حقيقته، وهو الأمل»[1].

وقال مقاتل: «يعني: واخشوا البعث الذي فيه جزاء الأعمال»[2].

وقال أبو حيان: «والأمر بالرجاء أمر بفعل ما يترتب الرجاء عليه، أقام المسبب مقام السبب.

والمعنى: وافعلوا ما ترجون به الثواب من الله، أو يكون أمرًا بالرجاء على تقدير تحصيل شرطه، وهو الإيمان بالله، وقال أبو عبيدة: ﴿وَٱرۡجُواْ﴾، أي: خافوا جزاء اليوم الآخر من انتقام الله منكم إن لم تعبدوه، وتضمن الأمر بالعبادة والرجاء أنه إن لم يفعلوا ذلك وقع بهم العذاب؛ كذلك جاء: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وجاءت ثمرة التكذيب، وهي: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾»[3].

أو أنهم: أمروا بالرجاء، والمراد اشتراط ما يسوّغه من الإيمان؛ كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط[4].

وقال أبو السعود: «أي: توقّعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال، وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلته»[5].

وإنما قال شعيب بلفظ الرجاء؛ لأن عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين[6].

وهذا موافق لما جاء في الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً)[7].

فالظن الحسن بالله يعني: الرجاء.

قال ابن الجوزي في التعليق على هذا الحديث: «اعلم أن صدق رجاء المؤمن لفضل الله عز وجل وجوده يوجب حسن الظن به، وليس حسن الظن به ما يعتقده الجهال من الرجاء مع الإصرار على المعاصي»[8].

وقال النووي: «قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا، ويكونان سواءً، وقيل: يكون الخوف

(١) تفسير القرآن ٤/ ١٨٠.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٣٨٢.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٥٦.
(٤) السراج المنير، الشربيني ٣/ ١٤٠.
(٥) إرشاد العقل السليم ٧/ ٣٩.
(٦) مراح لبيد، الجاوي ٢/ ٢١٧.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، ٩/ ١٢١، رقم ٧٤٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، ٤/ ٢٠٦١، رقم ٢٦٧٥.
(٨) كشف المشكل من حديث الصحيحين ٣/ ٣٢٣.

أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه؛ لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح، والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال، فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى، والإذعان له»[1].

والمقصود: أن من أساليب القرآن في الحث على الرجاء الأمر به، كما في قوله: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، وهذا الأسلوب من أقوى أساليب الحث على الشيء، إذ هو أمر صريح به.

ثانيًا: الثناء على فاعله:

ومن وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء الثناء على فاعله، والقائم به، وقد حث الله تعالى في القرآن الكريم على أهل الرجاء، الراجين للقاء الله، وحسن ثوابه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨].

فعن قتادة قال: «أثنى الله على أصحاب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أحسن الثناء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨].

هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وأنه من رجا طلب، ومن خاف هرب»[2].

وقال ابن عثيمين: «والرجاء: الطمع في حصول ما هو قريب، ومعلوم أن الطمع بما هو قريب لا يكون قريبًا إلا بفعل ما يكون قريبًا به، وهؤلاء فعلوا ما تكون الرحمة قريبة منهم، والذي فعلوه: الإيمان والهجرة والجهاد، فإذا لم يرج هؤلاء رحمة الله فمن الذي يرجوها؟ فهؤلاء هم أهل الرجاء، فالرجاء لا بد له من أسباب، وحسن الظن لا بد له من أسباب»[3].

والمقصود: أنه مدح أهل الرجاء، مما يدل على فضل الرجاء، والحث عليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، وكرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد، كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أثبت لهم الرجاء إشعارًا بأن العمل غير موجب، ولا قاطع في الدلالة، سيما والعبرة بالخواتيم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لما فعلوا خطأً، وقلة احتياط ﴿رَّحِيمٞ﴾ بإجزال الأجر

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ٢١٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٢٠.

(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ٦٤.

والثواب[1].

ومما يدل على مدح أهل الرجاء قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فهؤلاء جمعوا بين رجاء رحمته، ومخافة عذابه، وهذا هو الرجاء المحمود الذي يكون مع العمل، وبذل الأسباب.

ثالثًا: ذم تاركه:

ومن وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء ذم تاركه؛ فقد ذم القرآن الكريم الذين لا يرجون الحساب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ [النبأ: ٢٧].

وهذا خبر عن أصحاب النار بأن من صفاتهم أنهم كانوا في الدنيا لا يرجون الحساب.

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

قال في الكشاف: «﴿بَلْ كَانُوا﴾ قومًا كفرةً بالبعث، لا يتوقعون ﴿نُشُورًا﴾ وعاقبةً، فوضع الرجاء موضع التوقع؛ لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن، فمن ثم لم ينظروا ولم يذكروا، ومرّوا بها كما مرّت ركابهم، أو لا يأملون نشورًا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم، أو لا يخافون، على اللغة التهامية»[2].

رابعًا: النهي عن ضده:

ومن وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء النهي عن ضده، فقد نهى الله تعالى في القرآن الكريم عن اليأس والقنوط، الذين هما نقيض الرجاء والأمل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَايْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

والقاعدة: أن النهي عن الشيء أمر بضده[3].

و﴿رَّوْحِ اللَّهِ﴾ المراد به: رحمته وفرجه، وتيسيره ولطفه في جمع الشتات، وتيسير المراد، ثم علل هذا النهي بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ﴾، أي: لا يقنط ﴿مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، أي: الذي له جميع صفات الجلال والإكرام ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، عياذًا بالله من سلوك سبيلهم، ومشابهة أحوالهم.

والمقصود: أن في قوله: ﴿وَلَا تَايْأَسُوا﴾، وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾، نهيين عن القنوط واليأس، يقتضيان الأمر بضدهما،

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٨١.

(٣) انظر: الفصول في الأصول، الجصاص ٢/ ١٠١.

وهو الرجاء والأمل.

خامسًا: اقتران الرجاء بالخوف:

ومن وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء، والترغيب فيه، والدعوة إليه، قرنه بشيء مأمور به، ومرغب فيه، وعطفه عليه.

ومن هذا قرن الرجاء بالخوف الذي هو مطلوب، ومأمور به، قال الله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وهذا في سياق مدح عباد الله الصالحين أنهم جمعوا بين رجاء ما عند الله من الثواب، والخوف من العذاب، فلما قرن بين هاتين الصفتين دل على الحث عليهما، والدعوة إليهما، بحيث يكون حال العبد بين الخوف والرجاء، الخوف من عقاب الله وانتقامه، ورجاء عفوه ورحمته وفضله.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

فالحذر هو الخوف.

ونظيره أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالرغبة في الدعاء والرهبة كلاهما مطلوب، بدلالة الجمع بينهما في سياق المدح.

سادسًا: الاستفهام:

ومن وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء المحبوب إلى الله، والترغيب فيه، والدعوة إليه، الإنكار على عدم فعله، والاستفهام والتعجب من تركه.

كما قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣].

فقوله: ﴿مَّا لَكُمْ﴾ استفهام وتعجب، والمعنى: كيف لا ترجون لله وقارًا وهو خالقكم ورازقكم، ومحييكم ومميتكم، وإليه معادكم؟

فلماذا لا ترجونه وتعظمونه وتوقرونه، وقد دل العقل والشرع على استحقاقه التوقير والتعظيم، لما له من عظمة وكبرياء، ولما له من فضل وإنعام.

فهذا الاستفهام والإنكار عليهم تركهم للرجاء، يدل على الحث عليه، والأمر به؛ إذ لا ينكر الله عليهم إلا ترك ما ينبغي عليهم فعله، والقيام به.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الانشقاق: ٢٠].

وقوله: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

قال السعدي: «أي: لا يفهمون حديثًا بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا، وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن

الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه، فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر، والحسنات والسيئات، كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سببًا لشر يحدث، هم ولا ما جاءوا به، لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٩.

وسائل تحقيق المرجو

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم بعض الوسائل لتحقيق المرجو، منها:

أولًا: العمل الصالح:

من وسائل تحقيق المرجو العمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فمن كان يرجو لقاء الله وثوابه ورضوانه وجنته فليعمل، ولا يكتفي بالرجاء المجرد عن العمل، فإن الرجاء الخالي عن العمل عجز وضعف، وأمانٍ باطلة، ولهذا جاء في حديث شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله)[2].

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا شرط، ولا يتحقق الشرط إلا

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٥٠، ١٧١٢٣، الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٦٣٨، رقم ٢٤٥٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ٢/ ١٤٢٣، رقم ٤٢٦٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ٦٢٥، رقم ٤٣٠٥.

بوجود المشروط.

وشرط العمل أن يكون صالحًا، لا أي عمل، والعمل الصالح هو العمل الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب، وقد وضع العلماء له شرطين:

١. أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى.

٢. أن يكون متبعًا به سنة رسول الله، وهو ما عبر عنه بقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وهو أخلصه أصوبه[(١)].

فالعمل الصالح شامل لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده الواجبة والمستحبة.

والمقصود: أن من أعظم الوسائل التي يتوصل بها إلى تحقيق المرجو والمطلوب العمل الدؤوب للوصول للهدف المطلوب، وهذه قاعدة ثابتة ليست في أمور الآخرة فقط، بل هي حتى في أمور الدنيا، فمن رجا شيئًا سعى إليه، وجد في طلبه، وإلا فقد فرط في الطريق الصحيح للوصول إليه، فمن رجا ولدًا سعى في الزواج، ومن رجا زرعًا زرع وسقى وتعب وجد واجتهد، ومن رجا مالًا سعى في طلبه في العمل، وبذل الجهد.

وأعظم مرجو على الإطلاق هو الحصول على رضوان الله وجنته، ولهذا لا بد أن يكون السعي إليه وطلبه عظيم، لا تواني فيه، ولا تكاسل ولا تردد.

ثانيًا: ترك المناهي:

ومن وسائل الحصول على المرجو ترك المناهي، وأعظمها الشرك بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وما يرجوه المؤمن هو دخول الجنة، ومعلوم أنها محرمةٌ على أهل الشرك، لهذا كان ترك الشرك من أعظم الوسائل لتحقيق المرجو الأخروي، وهو رضوان الله، ودخول جنته.

والشرك يشتمل الأكبر والأصغر، ويشمل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أيضًا ترك الرياء.

فيكون معنى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، أي: لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصًا لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه[(٢)].

وهكذا من يرجو النجاة من عقاب الله عليه أن يترك عموم المعاصي والسيئات، وإلا كان رجاؤه خائبًا، إذ كيف ينجو من

(١) تفسير التستري ص ١٧٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٩.

العقاب وهو قد فعل كل الأعمال التي يستحق بها العبد عقاب الله وعذابه، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

المقصود: أن من وسائل تحقيق المرجو -وأعظمه الفوز في الآخرة- اجتناب المعاصي، وأعظمها الشرك بالله الذي لا رجاء لمن أتى ربه مشركًا به غيره، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤﴾ [طه: ٧٤].

ثالثًا: الدعاء:

ومن وسائل تحقيق المرجو الدعاء، فالدعاء من أعظم الأسباب في حصول ما يرجوه الإنسان ويتمناه من الفوز في الدنيا والآخرة، وانظر إلى دعاء يعقوب عليه السلام لما كان قلبه معلقًا بابنه، وكان يرجو عودته إليه مرة أخرى، لم يفقد الأمل في ذلك، بل كان راجيًا من الله عودة ابنه إليه، ولهذا استعان على ذلك بالدعاء.

قال الله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

الذي يعلم حاجته، وهذا دعاء، ورغبة إلى الله، ولجوء إليه، فبالدعاء تتحقق جميع المطلوبات والرغبات والرجاءات.

فحقق الله ما رجاءه من عودة ابنه إليه بعد طول السنين والأعوام، قال السعدي في قوله: ﴿وَلَا تَايْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]: فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس: يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه ﴿إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين، ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه[(١)].

والمقصود: أن من أعظم وسائل الحصول على ما يرجوه العبد من خيرات الدنيا والآخرة الدعاء، ومما يبين ذلك قول أصحاب الجنة: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ هذا رجاء ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۝٣٢﴾ [القلم: ٣٢].

قال مقاتل بن سليمان: «في الدعاء إليه»[(٢)].

رابعًا: الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم:

ومن أعظم الوسائل التي يحقق المسلم بها ما يرجوه في الآخرة الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، وإلا فأنى له تحقيق ما

(١) المصدر السابق ص ٤٠٤.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٤٠٧.

يرجو من الفوز والنجاة، وهو بعيدٌ عن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه.

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

ونظيرها قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَابْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٦].

إذ أنه لا طريق موصل إلى الله إلا عن طريقه صلى الله عليه وسلم فهو المبلغ عن الله بأقواله وأفعاله وهديه وخلقه، وكثيرٌ من الناس يظنون أنهم على خير، وأنهم سالكون الطريق المستقيم، الموصل إلى الله، والدار الآخرة، وهم بعيدون عن سنة رسول الله، بل محاربون لها، مبغضون لأهلها، مبتدعون طرقًا غيرها، ثم يرجون ويتمنون الأماني، فأنى لهم الرجاء؟ وكيف لهم النجاة؟ وهم ما عرفوا هديه ولا استقاموا على شريعته، وما استضاءوا بنوره!

ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فمن كان يرجو لقاء الله والدار الآخرة فليقتد بالرسول صلى الله عليه وسلم في أفعاله وأقواله، هذا هو الطريق الصحيح الموصل إلى ما يرجوه المسلم.

آثار الرجاء

الرجاء عبادة قلبية عظيمة؛ لها آثار جليلة، وفوائد كبيرة، وثمار عديدة، تعود على العبد في حياته، وبعد مماته، ومن هذه الثمار والآثار:

أولًا: زيادة الإيمان:

من آثار الرجاء زيادة الإيمان، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة، المقربة إلى الله تعالى، وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه، والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير، فمن تمت له تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلامة المحبة ما ذكره الله: أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح

فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب[1].

والمقصود: أن الرجاء عمل قلبي، وعبادة عظيمة، وقد مدح الله صاحبه بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

فاثبت للراجي العلم، والعلم سبب في زيادة الإيمان، والعلماء هم أكثر الناس خشيةً لربهم سبحانه وتعالى، وإيمانًا به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال السعدي: «هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه، كمن هو قانت، أي: مطيع لله بأفضل العبادات، وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن»[2].

ثانيًا: الحث على العمل:

ومن آثار الرجاء الحث على العمل، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فمن ثمار الرجاء أنه يحث على العمل والبذل من أجل تحقيق المرجو، سواءً كان مما يتعلق بأمور الدنيا، أو بأمور الآخرة، فمن رجا شيئًا سعى إليه، وبذل كل ما في وسعه للوصول إليه.

وانظر في قصة نبي الله يعقوب عليه السلام لما كان يرجو عودة ابنه يوسف عليه السلام كيف أمر أولاده بالسعي والبحث والتحسس من يوسف، ولم ييأس، بل قال لهم: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

والمقصود: أن الرجاء أعظم حادٍ يحدو إلى العمل، ويدفع إلى البذل، فليس الراجي كاليائس، فلو يأس يعقوب عليه السلام لما أمرهم بالذهاب ولا البحث ولا التحسس.

وهكذا في أمور الآخرة، فإن الرجاء في الحصول عليها يحدو إلى العمل، بل هي أشد من أمور الدنيا، ففي الدنيا ربما يحصل الإنسان على ما يرجو بغير عمل، بالوساطة مثلًا، أو بالرشوة، أو بالاحتيال، أما الرجاء فيما عند الله في الآخرة من الفضل والرضوان والرحمة والعفو، فإنه لا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦١.
(٢) المصدر السابق ص ٧٢٠.

يكون إلا بالعمل والبذل والطاعة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعمل الصالح يعد وسيلةً لتحقيق الرجاء، وثمرةً له في نفس الوقت، وسيلةً من حيث أنه لا رجاء مأمولًا إلا بالعمل والبذل والسعي له، وثمرةً من ثمار الرجاء من حيث أن الرجاء دافع وحادي يحدو إلى العمل.

ثالثًا: الصبر:

ومن آثار الرجاء الصبر، فالراجون لما عند الله يوم القيامة من الأجر والثواب، هم أكثر الناس صبرًا؛ لما يصيبهم في الدنيا من اللأواء والبلاء والمصائب؛ ولهذا لما كان يعقوب يرجو من الله ثواب مصيبته، وعودة ابنه، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

والناظر في قصة يعقوب عليه السلام هذه يلحظ أنه بدأ بالبعيد زمنًا ورجاءً، الذي هو يوسف، الذي أكله الذئب -حسب زعمهم- من سنين طويلة، فرجاء عودة الميت مستبعدة، ثم ذكر القريب، وهو أخوه بنيامين، فقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

وهذا يدل على عظيم رجائه في عودته إليه، وعدم اليأس، فلم يفقد الأمل من عودة يوسف مع تعاقب السنين، ومرور الأعوام، وفي قضية ميؤوس منها، إنه الموت، ليس بعده عودة إلى الدنيا، وقد جاءوا على قميصه بدم كذب، فانتهت القضية، وانتهت معالمها، وغطاها غبار النسيان، إلا أنه لم ييأس، ولم يفقد الأمل.

فيا له من رجاء! ويا له من أمل! ما أوسعه! هكذا كان الأنبياء أوسع الناس رجاءً، وأوسعهم أملًا، وأبعدهم يأسًا وقنوطًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ولهذا جاء في سياق القصة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ إلى أرض فلسطين، شم يعقوب ريح القميص، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]، أي: تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور؛ لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول.

فوقع ما ظنه بهم فقالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف: ٩٥]، أي: لا تزال تائهًا في بحر الحب، لا تدري ما تقول، حيث كنت مترجيًا للقاء يوسف، مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن[1].

وانظر أيضًا إلى قصة أصحاب الجنة، كيف حداهم الرجاء بما عند الله أن صبروا على ما أصابهم من هلاك جنتهم، حيث

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٥.

قالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾ [القلم: ٣٢].

راغبون في الأجر، راغبون في العوض، راغبون في العفو.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التقوى، الخشية، الخوف

الرجولة

عناصر الموضوع

مفهوم الرجولة	٤٠
الرجولة في الاستعمال القرآني	٤١
الألفاظ ذات الصلة	٤٢
منزلة الرجولة	٤٤
صفات الرجولة	٤٨
الرجولة والمسؤولية	٥٩
الرجولة في الشدائد	٦٤
عوامل ضياع الرجولة	٧٠

مفهوم الرجولة

أولًا: المعنى اللغوي:

الرجولة اسم مأخوذ من الرّجل، وهو لغة: الذّكر من نوع الإنسان، وتصغيره رجيل، ورويجل، والجمع رجال.

وقيل: إنّما يكون الرجل رجلًا، إذا كان فوق الغلام، وذلك إذا احتلم وشبّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أي: ذكرين بالغين.

ويقال: امرأة رجلة، إذا كانت متشبّهة بالرّجل في بعض أحوالها، وفي الحديث: (لعن اللّه الرّجلة من النّساء)[(١)]، بمعنى المترجّلة، يعني اللاّتي يتشبّهن بالرّجال في زيّهم وهيآتهم، فأمّا في العلم والرّأي فمحمود[(٢)].

وقد تكون الرجولة صفةً بمعنى الشدة والقوة، والكرم، ومكارم الأخلاق، والرجولية: كمال الرجل، يقال: أرجل الرجلين: أقواهما، وفرس رجيل: قوي على المشي، وارتجل الكلام: قوي عليه من غير حاجة فيه إلى فكرة وروية، وترجل النهار: قوي ضياؤه، فأصل كلمة الرجل مأخوذة من الرجولية بمعنى القوة[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الرجل في الاصطلاح هو: الذّكر من الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩].

ومن هنا يمكن تعريف الرّجولة في الاصطلاح القرآني بأنّها: اتّصاف المرء بما يتّصف به الرّجل عادة من الإيمان والقوة والشدة والسعي والجلادة ومكارم الأخلاق والنجدة والشهامة وغيرها من الصفات المشابهة[(٤)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب لباس النساء، رقم ٤٠٩٩، ٤/ ٦٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٠٥٩، ٢/ ٩٠٧.

(٢) انظر: فيض القدير، المناوي ٥/ ٢٦٩.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٨٩، مختار الصحاح، الرازي ص ١١٩، تاج العروس، الزبيدي ٢٩/ ٣٤.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٤٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٤١، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٣٨.

الرجولة في الاستعمال القرآني

وردت لفظة (رجل) في القرآن الكريم (٥٥) مرة [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الإفراد	٢٤	﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: ٧٨]
التثنية	٥	﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]
الجمع	٢٦	﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

الرجال: اسم يجمع ذكور بني آدم دون إناثهم، وقد استعمله القرآن الكريم بمعناه اللغوي، على الصحيح [(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٣٨-٢٤١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٤٧٩-٤٨٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الذكورة:

الذّكر لغة:

خلاف الأنثى، وجمعه ذكور وذكران، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾ [الليل: ٣].

ويطلق على عضو التناسل منه. وقد يأتي الذكر صفة؛ كقولهم: رجل ذكر: شهم من الرجال، قوي شجاع أبي، ماض في أموره. ويقال: سيف ذكر: ماض في ضريبته، ومن الحديد أيبسه وأشده وأجوده[(١)].

الذكورة اصطلاحًا:

فلا يخرج معنى الذكورة في اصطلاح القرآن عن معناها اللغوي، سواء من حيث إنه يقابل لفظ الأنوثة، أو من حيث المعاني الزائدة على وصف الذكورة.

الصلة بين الرجولة والذكورة:

الذي يظهر أن الذكورة تأتي للجنس غالبًا وللوصف على قلة، بينما الرجولة تأتي للجنس، وتأتي للصفة على حد سواء كما سبق.

٢ الفتوة:

الفتى لغة هو:

الشاب الطريّ الحديث السّنّ، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وأصل الفتوّة مشتقة من الفتى[(٢)].

الفتوّة اصطلاحًا:

الإحسان وكفّ الأذى عن الغير، واحتمال الأذى منهم، واستعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق[(٣)].

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٢٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٥، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٠٩، تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٣٨١.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٦٩٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٢٠٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٤٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٥٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ١٧٠، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٢٠٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٧٣.

الصلة بين الرجولة والفتوة:

الرّجولة في أظهر معانيها تعني اتّصاف الإنسان بما يوصف به الرّجال عادة من الإيمان والتقوى والكرم والشهامة والأخلاق الحسنة والمواقف البطولية، أمّا الفتوّة فإنّها تعني اتّصاف المرء بما يوصف به الفتى من النّجدة والنّشاط وتوقّد الذّكاء[١].

٣ المروءة:

المروءة لغة:

الاتصاف بمحاسن الأخلاق وجميل العادات[٢].

المروءة اصطلاحًا:

الأفعال الجميلة المستتبعة للمدح شرعًا وعقلًا وعادةً[٣].

الصلة بين الرجولة والمروءة:

إن الرجولة تفيد القوة على الأعمال، ولهذا يقال في مدح الإنسان إنه رجل، والمروءة تفيد أدب النفس، ولهذا يقال المروءة أدب مخصوص[٤].

٤ الأنثى:

الأنثى لغة:

خلاف الذكر من كل شيء[٥].

الأنثى اصطلاحًا:

الأنثى: خلاف الذكر، ويطلق على الشيء الذي فيه ضعف: أنثى، فيقال لما يضعف عمله: أنثى[٦].

الصلة بين الرجولة والأنثى:

قال الزبيدي: «ويقال: هذه امرأة أنثى إذا مدحت بأنها كاملة من النساء، كما يقال: رجل ذكر، إذا وصف بالكمال من صفات الرجال، وهو مجاز»[٧].

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٥/ ٢٠٤٢.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٧٢، لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٥٤، تاج العروس، الزبيدي ١/ ٤٢٧.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢١٠، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٠٣.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٧٧.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ١٠٦، مجمل اللغة، ابن فارس ص ١٠٤.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٩٣.
(٧) تاج العروس ٥/ ١٥٩.

منزلة الرجولة

تظهر منزلة الرجولة من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الرجولة نعمة:

إن الرجولة نعمة من نعم الله تعالى، يمتن بها الله عز وجل على من يشاء من عباده، ويدل على ذلك قول الرجل المؤمن الذي يعلّم صاحبه الكافر، موبخًا ومقرعًا، ومذكرًا له بنعم الله عز وجل عليه، وأن الرجولة نعمة من الله تستحق الشكر يقول له: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧].

أي: قال له صاحبه المسلم وهو يحاوره: أكفرت بالذي خلقك يعني خلق أباك، وأصلك من تراب، ثم خلقك من نطفة، يعني ماء الرجل والمرأة، ثم سواك رجلًا، أي: عدلك بشرًا سويًّا ذكرًا، ﴿لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨]، يقول: أما أنا فلا أكفر بربي، ولكنا هو الله ربي، فقد اعتبرت الآية أن الرجولة من نعمة الله تعالى يجب شكرها على الإنسان[(١)].

كما أن الرجولة نعمة من نعم الله تعالى وهي صفة كمال يتميز بها الرجال عن النساء، ويتمثل ذلك من عدة أمور: العقل، والدية، والمواريث، والقوامة، والإمامة، والقضاء، والشهادة، والجهاد، والغنيمة، والطلاق، والرجعة، وقد أوضح هذا المعنى في آيات في كتابه العزيز منها: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

ثانيًا: النبوة والرجولة:

ذكر القرآن الكريم أن رسل الله تعالى كلهم رجال، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧].

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٧١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥١٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٤١، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٣/ ١٠٧٠، تفسير الشعراوي ٥/ ٣٠٦١.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله جل شأنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢].

وكلمة رجال في حق الأنبياء عليهم السلام لها معنيان:

أحدهما: أن النبوءة لا تنافي البشرية، وأن جميع الأنبياء عليهم السلام من جنس الرجال، بمعنى لم يكونوا نساءً، ولا ملائكةً، ولا من الجن، ولا خلقًا آخر، وإنما كانوا بشرًا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ويولد لهم، ونحو ذلك من صفات البشر، إلا أن الله تعالى فضلهم بوحيه ورسالته وشرفهم على خلقه.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨﴾ [الفرقان: ٧-٨].

وكذلك قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: ٢٠].

فرد الله تعالى على المشركين الذين تعجبوا أن يكون الرسول من البشر، أي: إن جميع من سبقك من الرسل كانوا يأكلون الطعام للتغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، ولم يقل أحد إن ذلك نقص لهم يغض من كرامتهم ويزري بهم، ولم يكن لهم امتياز عن سواهم في هذا، وإنما امتازوا بصفاتهم الفاضلة، وخصائصهم السامية، وآدابهم العالية، وبما ظهر على أيديهم من خوارق العادات، وباهر المعجزات، مما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة نافذة على صدق ما جاءوا به من عند ربهم، فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعًا من الرسل، إذ يأكل ويمشي في الأسواق، وليس هذا بذم له، ولا مطعن في صدق رسالته كما تزعمون[1].

كما يشير القرآن على أن النبوة مقصورة في الرجال وأن الله تعالى لو أرسل للبشر ملكًا لجعله رجلًا، وأنه لو كانت في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لنزل عليهم ملكًا رسولًا، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٤٢٣، ملاك التأويل، الغرناطي ٢/ ٢٦٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥٨، تفسير المراغي ١٨/ ١٦١.

﴿يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩][1].

فقد جعل الله تعالى الرسل من الرجال من جنس البشر، ولو كانوا من الملائكة لوقع النفار والشرود، لافتراق الجنسية، أي: ليكون أقرب إليهم لئلا يقع تنافر، فكونهم من البشر أقرب وأقوم للحجة؛ لأن الجنس إلى جنسه أميل، وأكثرهم تفهمًا وإدراكًا لما يلقى عليه من أبناء جنسه، وليكونوا قدوةً لهم في تطبيق ما يدعوهم إليه، فالرسول عندما يبلغ منهج الله عليه أن يطبق هذا المنهج في نفسه أولًا، فلا يأمرهم أمرًا، وهو عنه بعيد، بل هو إمامهم في القول والعمل[2].

وقد أوضح القرآن هذا المعنى في آيات عديدة منها: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

أي: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩].

فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسل إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه[3].

وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

في هذه الآية سؤال لهم يوم القيامة وليس من الجن رسل، وقال بعض الفقهاء: إن في الجن رسل، واحتجوا بهذه الآية الكريمة، وقال بعض العلماء: المراد بالرسل من الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلغونه إلى قومهم.

ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقال بعض العلماء: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أي: من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس؛ لأنه لا رسل من الجن.

قال الشنقيطي: «ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مرادًا بعضه، كقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، وقوله جل وعلا:

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٢١٣، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٨٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٦٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢١٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٧٢.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٨٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٦٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥٨.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]، مع أن العاقر واحد منهم، كما بينه بقوله جل وعلا: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩]»[(١)].

وجعل الله تعالى الرسل من الرجال ولم يرسل رسلًا من النساء؛ لأن طبيعة الرسول قائمة على المخالطة والمعاشرة لقومه، لأنه يظهر للجميع، ويتحدث إلى الجميع ويبلغ الدعوة ليلًا ونهارًا وفي كل الظروف والأحوال، أما المرأة فالأصل فيها أنها مبنية على التستر والحشمة، ولا تستطيع أن تقوم بدور الأسوة للناس، ولو نظرنا لطبيعة المرأة لوجدنا في طبيعتها أمورًا كثيرةً لا تناسب دور النبوة، ولا تتمشى مع مهمة النبي، مثل انقطاعها عن الصلاة والتعبد؛ لأنها حائض أو نفساء[(٢)].

والثاني: أن صفات الرجولة التي تحلى بها الأنبياء هي أعلى وأرقى صفات الرجولة الكاملة التي لا يمكن أن يصل إليها غيرهم من البشر، وذلك من الإيمان والتقوى والصلاح والمروءة وخشية الله تعالى، وتبليغ رسالته، والصبر على تحمل الشدائد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومكارم الأخلاق التي تحلى بها الأنبياء عليهم السلام.

(١) أضواء البيان ١/ ٤٩٣.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٤٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٦٧.

وقد ذهب جمهور الفقهاء والمفسرين إلى أنه لم تكن النبوة في غير الرجال، قال الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩]: «يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع.

وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧].

وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣].

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا

شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا؟ والذي عليه أهل السنة والجماعة، أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبرًا عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن»[1].

وبهذا يتبين أن النبوة والرسالة مقصورة على الرجال فقط، ويدل على ذلك أداة الحصر والقصر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

وقوله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٢.
وانظر فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٧١، عمدة القاري، العيني ١٥/ ٣٠٩.

صفات الرجولة

تظهر صفات الرجولة من خلال النقاط الآتية:

أولًا: صفات إيمانية:

من صفات الرجولة الإيمانية التي ذكرها القرآن ما يأتي:

١. أنهم يخافون يوم الحساب.

ذكر الله تعالى أن من صفات الرجولة الحقة الخوف من الله تعالى، لأن من أعلى صفات الرجولة الإيمان بالله، والخوف من عذاب الله، قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

وهذا النوع الفريد من الرجال موصوفون بالوجل والخوف، قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

إذ يخافون ذلك اليوم؛ لأنه يوم مجهول، وذلك اليوم عظيم جدًا، ومهول ومخوف، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧].

فقد قال الله تعالى عن الكفار بأنهم يتركون العمل من أجل هذا اليوم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا

﴿٢٧﴾ [الإنسان: ٢٧].

وقال تعالى منبهًا عن حال وأهوال هذا اليوم: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

فلا تجد صفات أعظم من هذه الصفات في ذلك اليوم؛ حيث يتحول الطفل إلى شيخ كبير السن شعره أبيض من شدة المخاوف، وتذهل فيه المرضعة عما أرضعت، ولذلك فإن هؤلاء لا يلامون أن يخافوا؛ لأنه يوم يرجف فيه القلب رجفًا شديدًا، ومن شدة الارتجاف يصعد هذا القلب حتى يسد الحنجرة، يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، تتقلب فيه القلوب؛ لأن القلوب ترى أشياء لم تكن تراها في الدنيا، وتتيقن منها، والأبصار تشاهد أشياء لم تكن تشاهدها في الدنيا، إنما كانت توصف لها وصفًا، وهذه قلوب الملاحدة وأهل الشك، وكذلك الأبصار تشاهد أشياء ما كانت تراها في الدنيا، بل كانت تسمع عنها، فانقلب القلب إلى إدراك أشياء ما كان يدركها من قبل، وانقلب البصر إلى رؤية أشياء لم يكن يراها من قبل[1].

ومن هنا على المسلم أن يأخذ درسًا من هؤلاء، فمهما بلغ الإنسان من الصلاح والتقى والإيمان والخشية لله عز وجل وتطبيق أوامر الله، فيجب عليه أن يكون خائفًا دائمًا؛ لأنه لا يأمن يوم القيامة إلا من خاف وحذر في الدنيا[2].

وإن الخوف الذي مدح الله تعالى به المؤمنين، وحثهم عليه، هو الخوف الذي يراد به فعل الخيرات المأمور بها، فإن مخافة الله تكون بإقامة عباداته، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، والكف عن المعاصي، ونهي النفس عن الهوى، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وهو الخوف الذي يحمل صاحبه على المسارعة في الخيرات، والمذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وهذا الخوف هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

ومدحهم بها في الدنيا وحثهم عليها وأمنهم منها في الآخرة، وعلى ذلك حكى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٢٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٧٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٣٩٨، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٩٩.

عنهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] (١).

وهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله تعالى؛ لأنه من لوازم الألوهية، ونهى الله تعالى عن مخافة الشيطان، والمبالاة بتخويفه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

أي: فلا تأتمروا لشيطان وائتمروا لله (٢).

وقد جاء هذا الوصف في آيات أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

ولما سمعت عائشة رضي الله عنها هذه الآية من رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: (يا رسول الله! ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، أهم الذين يسرقون ويزنون ويفعلون الفواحش فيخافون؟ قال: لا، بل هم قوم يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخشون ألا يتقبل الله ذلك منهم) (٣).

٢. أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

ومن صفات الرجولة التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز: المحافظة على ذكر الله والصلاة، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز رجال أعمال، وتجار بيع وشراء، وأهل غنى وسعة في هذه الحياة الدنيا، ليس لديهم وقت للفراغ، لكن ومع ذلك الترف كله كانت تجارتهم مع الله تعالى أغلى وأعز وأثمن وأربح تجارة إلى نفوسهم، فكان ذكر الله تعالى عندهم أربح تجارة، وكانت الصلاة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٢٠، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٦٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٧٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٧٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٥٢٦٣، ٤٢/ ١٥٦، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، رقم ٣١٧٥، ٥/ ٣٢٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب التوقي على العمل، رقم ٤١٩٨، ٢/ ١٤٠٤.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٠٥.

بالنسبة لهم أغلى وأثمن بيع يتاجرون فيه، فلم يكن يشغلهم شيء عن ذكر الله وعن الصلاة، وهذه هي الرجولة الحقة التي يستحق أهلها أن يوصفوا بالرجولة، فالرجل الحقيقي هو الذي يحرص دائمًا على أن يحقق أعلى المكاسب، وهؤلاء هم الذين عناهم الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

وهذه كلها تدل على تعظيم ورفع مستوى هؤلاء الرجال، أي: ليسوا ذكورًا فحسب ولكنهم رجال، ولذلك جاءت لفظة ﴿رِجَالٌ﴾ بلفظ التنكير، والتنكير دائمًا يدل إما على التحقير أو على التعظيم، والمراد به هنا: التعظيم، وخص التجارة بالذكر؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة والطاعات، وأراد بالتجارة الشراء، وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعًا؛ لأنه ذكر البيع بعد هذا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ [الجمعة: ١١] [(١)].

ويأتي قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾، تعريضًا بالمنافقين أصحاب الحجج الواهية، المنشغلين عن الاتصال بالله بالتجارة وبغيرها من الأعمال.

والآية نزلت في أهل الأسواق، قاله ابن عمر، قال سالم: مر عبد الله بن عمر بالسوق وقد أغلقوا حوانيتهم وقاموا ليصلوا في جماعة، فقال: فيهم نزلت: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله)، وقيل: إن رجلين كانا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أحدهما بياعًا فإذا سمع النداء بالصلاة، فإن كان الميزان بيده طرحه ولا يضعه وضعًا، وإن كان بالأرض لم يرفعه، وكان الآخر قينًا يعمل السيوف للتجارة، فكان إذا كانت مطرقته على السندان أبقاها موضوعة، وإن كان قد رفعها ألقاها من وراء ظهره إذا سمع الأذان، فأنزل الله تعالى هذا ثناء عليهما وعلى كل من اقتدى بهما[(٢)].

كما تشير الآية إلى أن الرجال لا تلهيهم المناصب والأعمال والمشاغل بمختلف أنواعها عن الصلاة والذكر وغيرها من الواجبات.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٥١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٧٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٣٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٧٩.

ثانيًا: صفات عبادية:

ومن صفات الرجولة العبادية التي ذكرها القرآن ما يأتي:

١. الطهارة.

ذكر الله تعالى أن من صفات الرجال: الطهارة، وأن الله يحب هؤلاء الرجال الذين هذه صفتهم.

قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وهؤلاء الرجال الذين تميزوا بأعلى صفات الرجولة، وامتازوا عن غيرهم، هم رجال يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات المذمومة؛ طلبًا لمرضاة الله سبحانه وتعالى، وأطلقت المحبة في قوله: يحبون كناية عن عمل الشيء المحبوب؛ لأن الذي يحب شيئًا ممكنًا يعمله لا محالة، فقصد التنويه بهم بأنهم يتطهرون تقربًا إلى الله بالطهارة، وإرضاءً لمحبة نفوسهم إياها، بحيث صارت الطهارة خلقًا لهم، فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم، ومجيء: رجال، نكرة يشعر بعظمتهم عند الله، وبخفاء صفاتهم على غيرهم لأنهم لا يراءون بأعمالهم، وإنما يتوجهون بها إلى خالقهم سبحانه وتعالى، والمراد بالرجال الذين يحبّون أن يتطهروا، هم الذين يلقون الله في الصلاة في المسجد، فهي صلاة مقبولة، في مكان طاهر تؤدى فيه عبادة خالصة لله، من شأنها أن تطهّر أهلها، الذين يداومون عليها، ويقيمونها بقلوب مؤمنة، خالية من الرياء والنفاق[(١)].

وجملة: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ ثناء على مؤمني الأنصار الذين يصلون بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمسجد قباء، وتعريض بمن لم يتطهروا واتخذوا من النفاق طريقًا لهم حين لجأوا إلى مسجد الضرار قاصدين التفرقة بين المسلمين، أما هؤلاء الرجال المؤمنون فقد تطهروا وفازوا بحب الله تعالى، ومن أراد أن يحبه الله فليتطهر؛ لأن الله تعالى لا يحب إلا المطهرين، والمقصود بالمحبتين هنا: محبتهم التطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء المشتهي له على إيثاره، ومحبة الله تعالى إياهم، أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه، وفيه إشارة إلى أن نفوسهم وافقت خلقًا يحبه الله تعالى، وكفى بذلك تنويهًا بزكاء أنفسهم[(٢)].

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٦٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٩٨، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٨٩.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٨٩، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٤٨.

ودل الاهتمام بالطهارة البدنية على الإخلاص والصفاء والاستعداد التام لملاقاة الله تعالى على أكمل وجه، وفي أحسن الأحوال، وأطيب الهيئات، فالله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها، والقيام بمشروعاتها، والتطهر من الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى، واستحقاق ثوابه ومدحه[1].

٢. عمارة المساجد.

إن من صفات الرجولة التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز: عمارة المساجد.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

كما يشير إلى عمارة المساجد قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وتحصل عمارة المسجد بأحد أمرين:

الأول: بناؤها لقصد وجه الله عز وجل، وقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات رجالًا متصفين بصفات الرجولية، أهل الإيمان والتقوى الصادقين المخلصين الموحدين، هؤلاء الرجال من صفتهم عمارة المساجد وبناؤها ووضع أسسها، إخلاصًا وصدقًا لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾، إنه مسجد قباء الذي أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه رضي الله عنهم، وصلى فيه أيام مقامه بقباء من الاثنين إلى الجمعة، وقصد ببنائه منذ وضع أساسه في أول يوم تقوى الله بإخلاص العبادة له، وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى، وقوله تعالى: ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾، استعارة مكنية، حيث شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة يقوم عليها البناء، ثم حذف المشبه به وأشير إلى شيء من لوازمه وهو التأسيس، والتأسيس إحكام أسس البناء وهو أصله، وتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه، أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة، وفيه إشعار بأن زكاء نفس الباني، وصدق نيته،

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٥٠٧.

مؤثر في البناء، وأن تبرّك المكان، وكونه مبنيًا على الخير، يقتضي أن يكون فيه أهل الخير والصلاح، ممن يناسب حاله حال بانيه[1].

وهذه المساجد المؤسسة على التقوى والإخلاص وابتغاء وجه الله تعالى، وجمع المؤمنين على محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعمل على وحدة الإسلام، أولى وأحق من غيرها بالصلاة فيها، وهي مؤسسة بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾.

ثم ذكر القرآن الكريم صورة أخرى من عمارة المساجد، وهي: صورة الكفر والنفاق والضرار، ومسجد بني رياءً وسمعةً وصدًا عن منهج الله، على قاعدة أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق، الذي مثله مثل شفا جرف هار، في قلة الثبات والاستمساك، ووضع شفا الجرف في مقابلة التقوى لأنه جعل مجازًا عما ينافي التقوى، يعني: أن بناء هذا المسجد الذي بني ضرارًا كبناء على حرف جهنم يتهور بأهله فيها، وهو قوله: ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ أي: بالباني ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

قال ابن عباس: «يريد: صيرهم النفاق إلى النار»، وفي قوله تعالى: ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، تصوير للعاقبة التي ينتهي إليها هذا المسجد -مسجد الضرار- بأهله الذين بنوه، وأنه إذ بنوه على ضلال ونفاق وزيف، فهو بناء على خواء، على شفا جرف هار، وأنه إذ ينهار فسينهار بهم في نار جهنم، فهم بهذا قد ظلموا أنفسهم: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨].

للفرق بين مقاصد أهل مسجد التقوى وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأنصاره، ومقاصد أهل مسجد الضرار الذي زادوا به رجسًا إلى رجسهم.

وقد وردت أحاديث عديدة في فضل بناء المساجد وآدابها منها:

ما رواه عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنّة وفي رواية بيتًا في الجنة)[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٧٤.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٧١١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٢٥، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ٨٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب من بنى مسجدًا، رقم ٤٥٠، ١/ ٩٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل بناء المساجد والحث عليها، رقم ٥٣٣،

وما روته عائشة رضي الله عنها قالت: (أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وأن تنظّف وتطيّب)[1].

الثاني: عمارتها بالتسبيح والتحميد والتهليل والصلاة.

ذكر الله تعالى النوع الثاني من عمارة المساجد، وهي عمارتها بالصلاة والتسبيح والذكر، ويتلى فيها كتابه آناء الليل وأطراف النهار، كما يشير إلى عمارة المساجد قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝٣٧﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

فقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾، أي فيه رجال يعمرونه بإقامة الصلاة وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدو والآصال، ويحبون أن يتطهروا بذلك مما يعلق بأنفسهم من أوضار الذنوب والآثام، رجال معلقة قلوبهم بالمساجد، متصلة قلوبهم بربهم، وأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الاتصال بالله[2].

وهؤلاء الرجال مرتبطون بالمساجد بالغدو والآصال، فعلاقتهم علاقة متينة مع الله تعالى، لهذا لا يسبح له فيها بالغدو والآصال إلا: ﴿رِجَالٌ﴾ التي جاءت نكرة، ليكون في الوصف بعد ذلك اشتياق، فغموض النكرة يجعل المتلقي يسأل: ومن الرجال؟ وما صفاتهم؟ كما أن في تأخير النكرة اعتناءً بالمؤخرة، وفي وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن الانتظام.

والتسبيح في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾، المقصود به الصلاة، وأطلق التسبيح على الصلاة لأنه جزء منها، ويطلق الجزء على الكل أحيانًا، وهؤلاء الكرام يديمون هذا التسبيح ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، أوائل النهار وأواخره، وكذلك الليل.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢].

وهؤلاء المديمون ذكره صباح مساء ابتغاء خيره هم (رجال) عظام، وأي رجال كبار فخام، ولذلك وصفهم بأنهم: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ولا عن ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ بوقتها، فإنهم لا يؤخرون شيئًا عن وقته، كما أمروا به، عدا ما هم عليه

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب اتخاذ المساجد في الدور، رقم ٤٥٥، ١/ ١٢٤، والترمذي في سننه، أبواب السفر، باب ما ذكر في تطيب المساجد، رقم ٥٩٤، ٢/ ٤٩٠.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٢/ ٣٥٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٢٦، بيان المعاني، عبد القادر العاني ٦/ ١٤١.

من الأعمال الصالحة المذكورة، لعلمهم بشدة هول يوم القيامة، وتوغل معرفتهم بالله، وخالص يقينهم بأنهم مهما عبدوه لم يؤدوه حقه ولا بعض حقه، وأن أعمالهم كلها لا تؤهلهم دخول الجنة، إذا لم يشملهم برحمته، ولعلمهم أنه تعالى لا يتقيد بشيء ولا يسأل عما يفعل، وقد وفقوا للخوف والخشية منه بفضله[(١)].

٣. أنهم يؤتون الزكاة.

كما أن من صفات الرجولة التي ذكرها القرآن الكريم هي: إيتاء الزكاة التي جعلها الله حقًا في أموال الأغنياء للفقراء.

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

لأن الزكاة أخت الصلاة، وتأتي الزكاة في القرآن عادةً مقرونةً بالصلاة، من غير فصل، ولا شك أن تطهير النفس بأعمال البر، وإيتاء الزكاة تطهير للنفوس والأبدان من أدناس الآثام، ودفع زكاة المال من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الجنة؛ إذ كان المال والتصرفات الدائرة حوله، هو المحك الذي تظهر به أخلاق الناس، لما للمال من سلطان على النفوس، في جمعه، وفي إنفاقه، وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطري، وإقامة نظام لحياة الجماعة يرتكن إلى التكافل والتعاون، ويجد الواجدون فيه والمحرومون الثقة والطمأنينة، ومودات القلوب التي لم يفسدها الترف ولا الحرمان[(٢)].

ولأن هؤلاء الرجال صدقوا مع ربهم ومع أنفسهم في إعطاء الزكاة جاء قوله تعالى: ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ لتفخيم ذلك وتعظيمه، إذ عبر عنه بما يفيد ذلك من خلال التعبير بلفظ الإيتاء، فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم، قال تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠].

فدل على أن هذه الزكاة من أفعال المؤمنين الصادقين المفلحين، والتعبير بالإيتاء فيه معنى القبول أيضًا[(٣)].

ويلاحظ من خلال الآيات أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مرتبطة بعمارة المساجد؛ لأن الإنسان إذا عمر المسجد أقام الصلاة وآتى الزكاة؛ لأن عمارة المسجد إنما

(١) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٢٦، بيان المعاني، عبد القادر العاني ٦/ ١٤١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٣١٢، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٨٣، تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٥٣٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٠٧.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦١، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/ ٣٦٨، الكليات، الكفوي ص ٢١٢.

تلزم لإقامة الصلاة فيه، ولا يشتغل بعمارة المسجد إلا إذا كان مؤديًا للزكاة؛ لأن الزكاة واجبة وعمارة المسجد نافلة، ولا يشتغل الإنسان بالنافلة إلا بعد إكمال الفريضة الواجبة عليه[1].

ثالثًا: صفات أخلاقية:

من صفات الرجولة الأخلاقية التي ذكرها القرآن ما يأتي:

١. الوفاء بالعهد.

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أن من صفات الرجولة الحقة: الوفاء بالوعد.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقد أثنى الله تعالى على الذين يوفون بالعهد، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ١٥].

وذمّ الذين ينقضون العهد من المنافقين وغيرهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾، أي: عاهدوا الله ثم صدقوا في الوعد، وصدقوا ما عاهدوا الله على هذا المنهج، استمروا عليه، تشبثوا به، وساروا غير مضطربين ولا متحيرين، لا تعيقهم العوائق، ولا تقف أمامهم الصعوبات ولا الشهوات، ولا الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام، نموذج فريد عجيب في صدر الإسلام أوفوا بما عاهدوا عليه من الصبر على البأساء والضراء، وحين البأس، والثبات مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمقاتلة للأعداء، والطاعات، وتعظيم العهد الذي عظمه الله تعالى[2].

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، من المؤمنين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من السابقين الأولين، من الثبات للقاء العدو عكس المنافقين إذ زادهم اللقاء جبنًا وإنكارًا لما وعدهم الله ورسوله وتكذيبًا وجحودًا، أما هؤلاء الكرام ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، فمات شهيدًا في واقعة أحد وفاء بنذره وعهده وميثاقه على الاستمرار في القتال حتى النهاية، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشهادة، ويتوقعها باشتياق للفوز بما عند الله من الكرامة للشهداء، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ما بدلوا ولا غيروا ولا انحرفوا، بل هم مستقيمون على هذا المنهاج، ينتظرون أمر الله تعالى أن يتوفاهم وهم سائرون على هذا

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٤٢، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٠٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٣٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣١.

الدرب مستقيمون عليه، لا يلوون على شيء إلا مرضاة ربهم عز وجل[1].

والوفاء بالعهد خلق من أخلاق الإسلام، وسمة من سماته التي يحرص عليها، ويكررها القرآن كثيرًا، ويعدها آية الإيمان، وآية الآدمية وآية الإحسان.

قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

وهي ضرورية لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد، وعلاقات الجماعات، وعلاقات الأمم والدول، تقوم ابتداءً على الوفاء بالعهد مع الله، وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعًا قلقًا لا يركن إلى وعد، ولا يطمئن إلى عهد، ولا يثق بإنسان، ولقد بلغ الإسلام من الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواء قمةً لم تصعد إليها البشرية في تاريخها كله، ولم تصل إليها إلا على حداء الإسلام وهدي الإسلام[2].

وقد جعل القرآن الكريم نقض العهد من صفات الكافرين والمنافقين.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧].

كما بين الله تعالى أن الكافرين ليس لهم عهد: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٢].

وقد لعن الله تعالى من ينقض العهد، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥].

وهذا نص صريح أن الله تعالى جعل نقض العهد من الكبائر، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ١٥][3].

(١) انظر: بيان المعاني، عبد القادر ملا ٥/ ٤٦٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٣٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣١، في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٦١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٣٧، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٨٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣١.

والخلاصة في هذا المبحث هي: أن الرجولة ليست كما يظن البعض مال وثروة وجاه وشهرة، وليست منصبًا أو وظيفةً، وليست أفلامًا أو مسلسلات، وليست الرجولة بناء الأجسام، ومتابعة كرة القدم، ولا امتلاك السيارات، ولا العمارات، وليست الأزياء ولا هي الموضات، إنها القيم والأخلاق والمبادئ، والعبادة والعمل، والصدق والوفاء، رسم ملامحها القرآن الكريم، إيمان يزن الجبال، والحفاظ على الصلاة، والذكر في بيوت الله، والدفاع عن الأوطان، والوقوف في وجه البطل، وكلمة حق يراد بها وجه الله، فأمتنا اليوم في أمس الحجة إلى هؤلاء الرجال، رجولة في كل المجالات وفي شتى الميادين، رجال كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وصهيب، وعمار، وياسر، وخالد، وصلاح الدين.

الرجولة والمسؤولية

لقد فضل الله تعالى الرجال على النساء بالولاية العامة والإمامة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: القوامة:

ذكر القرآن الكريم أن الرجال قوامون على النساء.

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والقوامة هي: القيام على الأمر أو المال ورعاية المصالح، وتسيير شئون الأسرة والقيام على مصالحها بقيادة الرجل، وذلك لما فضل الله الرجل على المرأة بسعة العقل والخبرة، والحكمة والاتزان دون التأثر السريع بالعواطف العابرة؛ ولأنه هو الذي ينفق ماله وكسبه من بداية تكوين الزواج بدفع المهر، إلى نهايته بالنفقة الدائمة على شؤون الحياة بتوفير المسكن والملبس والطعام، وهذا هو سبب القوامة ومنشأها، كما قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وقد ذكر العلماء في فضل الرجال أمورًا منها: العقل، والحزم، والعزم، والقوة، وأن منهم الأنبياء، وفيهم الإمامة الكبرى، والصغرى، والجهاد، والأذان، والخطبة، والشهادة في الحدود، والقصاص، والزيادة في الميراث، والولاية في النكاح، وإليهم الانتساب، وغير ذلك[(١)].

وجعل القوامة للرجل؛ لأن كل شركة، أو حياة اجتماعية تتطلب وجود رئيس مسئول عنها، يتحمل الأعباء، ويستعد لتحمل المغارم والخسارات، ويدير أمر هذه المؤسسة بما يوصلها إلى شاطئ الأمن والسعادة والاستقرار، في داخل المنزل وخارجه، تعليمًا وتعلمًا، وتمكينًا من ممارسة الخبرات والمهارات التي تفيد الزوجة والفتاة في حاضر الزمان ومستقبله[(٢)].

وإذا كان اضطلاع الرجل غالبًا بالمهام الملقاة على عاتقه خارج المنزل، لتوفير الموارد المالية والمكاسب المطلوبة لحياة الأسرة، فإن المرأة تضطلع غالبًا بمسؤوليات جسام تكمل مهمة الرجل، في رحاب البيت، فهي الملكة التي تربي الأولاد على الأخلاق والفضائل، وهي التي تعين الرجل على توفير متطلبات الحياة[(٣)].

من خلال الآيات يتبين أن الرجال قوامون على النساء لأمرين:

الأول: تفضيل جنس الرجال على جنس النساء، وذلك بما خصّ الله تعالى به الرّجل من الفضيلة الذّاتيّة له، والفضل الذي أعطيه من العقل والمال والجاه والقوّة والقوامة،

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/١٤٨، معالم التنزيل، البغوي ١/٦١١، الكشاف، الزمخشري ١/٥٠٥، أحكام القرآن، ابن العربي ١/٥٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/٣٨، روائع البيان، الصابوني ١/٤٦٦، تفسير الشعراوي ٤/٢١٩٢.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/١٤٨، معالم التنزيل، البغوي ١/٦١١، الكشاف، الزمخشري ١/٥٠٥، أحكام القرآن، ابن العربي ١/٥٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/٣٨.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

وهذا التفضيل الذي جعله الله تعالى في حق الرجال إنما هو من أجل تنظيم الأسرة وإصلاحها ورعايتها والحفاظ عليها والدفاع عنها بما يتناسب مع جنس الرجال، وما فطرهم الله عليه ليكونوا قوامين لهذه المسؤولية الملقاة عليهم[(١)].

الثاني: قيام الرجال بالإنفاق على النساء بما يدفعونه من المهور وغيرها من النفقات، وقوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، منتظم للمهر والنفقة؛ لأنهما جميعًا مما يلزم الزوج لها، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[(٢)].

ووجه التفضيل أن الرجل له الكدح، وله الضرب في الأرض، وله السعي على المعاش، وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها[(٣)].

وكون القوامة الدنيوية بيد الرجال لا يعني أن جنس الرجال أفضل من جنس النساء عند الله، فأساس التفضيل عند الله ليس الجنس أو اللون، إنما هو الإيمان والتقوى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فإذا كانت المرأة صالحة تقية كانت أفضل عند الله من زوجها غير التقي، أو الأدنى منها في التقوى[(٤)].

كما لا تعني القوامة للرجل على المرأة أن ذلك يعارض حريتها، بل على العكس القوامة تحافظ على حرية المرأة وشرفها، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: شأنهم القيام عليهن قيام الولاة على الرعية بالأمر والنهي ونحو ذلك، واختيار الجملة الاسمية مع صيغة المبالغة للإيذان بعراقتهم ورسوخهم في الاتصاف بما أسند إليهم، وفي الكلام إشارة إلى سبب استحقاق الرجال الزيادة في الميراث[(٥)].

وفي قوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، إشارة إلى أن القوامة محصورة

---

(١) انظر: المصادر السابقة، روائع البيان، الصابوني ١/ ٤٦٦، تفسير الشعراوي ٤/ ٢١٩٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨، ٢/ ٨٩٠.

(٣) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٥٣١، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦١١، الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٠، روح المعاني، الألوسي ٣/ ٢٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٣٧.

(٤) انظر: القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ١/ ٤٠٨.

(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ٢٣.

في الرجال، فقد جعل القرآن سبب القوامة معلومًا للناس من فضل الرجال ومن إنفاقهم ليصلح الخطاب للفريقين: عالمهم وجاهلهم، وكذا لم يصرح سبحانه بما به التفضيل رمزًا إلى أنه غني عن التفصيل، وقد ورد في الحديث: (أنهن ناقصات عقل ودين)[1]، والرجال بعكسهن كما لا يخفى[2].

قال الشنقيطي: «فمحاولة استواء المرأة مع الرجل في جميع نواحي الحياة لا يمكن أن تتحقق؛ لأن الفوارق بين النوعين كونًا وقدرًا أولًا، وشرعًا منزلًا ثانيًا تمنع من ذلك منعًا باتًّا، ولقوة الفوارق الكونية والقدرية والشرعية بين الذكر والأنثى، صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لعن المتشبه من النوعين بالآخر، ولا شك أن سبب هذا اللعن هو محاولة من أراد التشبه منهم بالآخر، لتحطيم هذه الفوارق التي لا يمكن أن تتحطم، وقد ثبت في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال)[3]، ولأجل تلك الفوارق العظيمة الكونية القدرية بين الذكر والأنثى، فرق الله جل وعلا بينهما في الطلاق، فجعله بيد الرجل دون المرأة، وفي الميراث، وفي نسبة الأولاد إليه»[4].

(١) هذه العبارة جزء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: (يا معشر النساء، تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار)، فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: (تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: (أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل)، قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم)، قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان دينها).
أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم ٣٠٤، ١/ ٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، ككفر النعمة والحقوق، رقم ٧٩، ١/ ٨٦.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١٤٨، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٥٣١، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦١١، الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٣٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في لباس النساء، رقم ٤٠٩٧، ٤/ ٦٠، والترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في المتشبهات بالرجال من النساء، رقم ٢٧٨٤، ٥/ ١٠٦، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب في المخنثين، رقم ١٩٠٤، ١/ ٦١٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٢٢٨.

(٤) أضواء البيان ٧/ ٤١٥.

ثانيًا: الإمامة:

١. الإمامة العامة.

لقد فضل الله تعالى الرجل على المرأة في الولاية؛ فإن الله سبحانه وتعالى جعل الرجل قوامًا على المرأة؛ فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض؛ ولهذا لا يحل أن تتولى المرأة ولايةً عامةً أبدًا؛ فالولاية العامة ليست من حقوق النساء أبدًا، والمرأة لا تصلح لهذا المنصب؛ لأن المرأة ناقصة في أمر نفسها، حتى لا تملك النكاح، فلا تجعل إليها الولاية على غيرها، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، فلو كانت لهن القدرة على القيام بشؤون أنفسهن لما وكل الله أمرهن إلى الرجال[١].

ولحديث أبي بكرة رضي الله عنه، قال: (لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الجمل، بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم، قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس، قد ملكوا عليهم بنت كسرى، قال: (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)[٢].

والفلاح: الفوز بالمطلوب، والتدبير يحتاج إلى كمال الرأي، ونقص المرأة مانع، وفي الحديث دليل على أن المرأة لا تلي الإمارة، ولا القضاء، ولا عقد النكاح[٣].

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى: «أن الذين لهم درجة على النساء هم الرجال الذين هم جديرون بهذا الوصف؛ وأما من جعل نفسه بمنزلة النسوة فهذا يكون شرًا من المرأة؛ لأنه انتكس من الكمال إلى الدون؛ ومن ثم لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء؛ والمتشبهات من النساء بالرجال؛ حتى لا يعتدي أحد على حق؛ أو على اختصاصات أحد»[٤].

٢. الإمامة في الصلاة.

إن الإمامة موضع شرف ورفعة وعلو منزلة وتقدم على الناس في أهم أمر الدين، وأجل عبادة المسلمين، وهي مما يلزمه الخلفاء، ويقوم به الأمراء، فلا يجوز أن تكون المرأة إمامًا للرجال لنقصها[٥].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر، رقم ٤٤٢٥، ٦/ ٨.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٥٦، عمدة القاري، العيني ٢٤/ ٢٠٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ١٠٧.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٥٦، المنتقى شرح الموطإ، الباجي ١/ ٢٣٥، كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٣/ ٢٠٢، فتح الباري، ابن رجب ٦/ ١٧٦، سبل السلام، الصنعاني ١/ ٣٧٣.

قال ابن قدامة: «وأما المرأة فلا يصح أن يأتم بها الرجل بحال، في فرض ولا نافلة في قول عامة الفقهاء»[(١)].

ولحديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن جدته مليكة دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعته فأكل منه، ثم قال: (قوموا فلأصلي لكم)، قال أنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس فنضحته بماء، فقام عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصففت أنا واليتيم وراءه، والعجوز من ورائنا فصلى لنا ركعتين، ثم انصرف صلى الله عليه وسلم[(٢)].

فقد نبه الحديث على أن إمامة المرأة للرجال لا تجوز، لأنه لما لم يجز أن تساويهم في الصف كانت من أن تتقدمهم أبعد[(٣)].

(١) انظر: المغني ٢/ ١٤٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على الحصير، رقم ٣٨٠، ١/ ٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب جواز الجماعة في النافلة، والصلاة على حصير وخمرة وثوب، وغيرها من الطاهرات، رقم ٦٥٨، ١/ ٤٥٧.
(٣) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٣/ ٢٠٢، فتح الباري، ابن رجب ٦/ ١٧٦، سبل السلام، الصنعاني ١/ ٣٧٣، نيل الأوطار، الشوكاني ٣/ ١٩٦.

الرجولة في الشدائد

تظهر الرجولة في الشدائد من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الجهاد:

إن الجهاد سنة ماضية في سبيل الله، لا يقوم به إلا الرجال الأقوياء الصادقون، الذين نذروا أنفسهم وأموالهم لله تعالى، وقد ذكر القرآن الكريم نموذجًا فريدًا من المؤمنين بالله، المصدقين برسوله الذين صدقوا بما عاهدوا الله عليه، من حسن البلاء والتفاني في الجهاد، والثبات على العهد مع الله تعالى، والصبر في اللأواء وحين البأساء، فاستشهد بعضهم يوم بدر، وبعضهم يوم أحد، وبعضهم في غير هذه المواطن، ومنهم كذلك من ينتظر قضاءه والفراغ منه، كما قضى من مضى منهم نحبه على الوفاء لله بعهده، وما غيروه وما بدلوه ومنهم من ينتظر الشهادة، ويتوقعها باشتياق للفوز بما عند الله من الكرامة للشهداء والدرجات التي أعدها الله لهم.

قال الله عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤].

ما بدلوا ولا غيروا ولا انحرفوا، بل هم مستقيمون على هذا المنهاج، ينتظرون أمر الله تعالى أن يتوفاهم وهم سائرون على هذا الدرب مستقيمون عليه، لا يلوون على شيء إلا مرضاة ربهم عز وجل، بخلاف المنافقين فإنهم قالوا لا نولي الأدبار، فبدلوا قولهم، وولوا أدبارهم، ونقضوا عهدهم، وذمهم الله تعالى.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

أي: بصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة، كما صدقوا مواعيدهم، ويعذب المنافقين الذين كذبوا وأخلفوا[1].

والإخبار عنهم برجال زيادة في الثناء؛ لأن الرجل مشتق من الرجل وهي قوة اعتماد الإنسان كما اشتق الأيد من اليد، رجال من المؤمنين ثبتوا في وجه العدو يوم أحد وهم: عثمان بن عفان، وأنس بن النضر، وطلحة بن عبيد الله، وحمزة، وسعيد بن زيد، ومصعب بن عمير، فأما أنس بن النضر وحمزة ومصعب بن عمير، فقد استشهدوا يوم أحد، وأما طلحة فقد قطعت يده يومئذ، وهو يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما بقيتهم فقد قاتلوا ونجوا[2].

فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر، فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهدًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد ليرين الله تعالى ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد ابن معاذ رضي الله عنه، فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال: واها لريح الجنة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية، ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].. إلخ)[3].

وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين الصادقين المخلصين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان، في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٦٣، بيان المعاني، عبد القادر ملا ٥/ ٤٦٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٠٧، تفسير المراغي ٢١/ ١٤٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)، رقم ٢٨٠٥، ٤/ ١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم ١٩٠٣، ٣/ ١٥١٢.

الفريق، لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن، وتذكر المسلمين بإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، لتكتمل التربية، وتثبت القلوب وتستمسك بالعروة الوثقى، وتنهض من كبوتها، وتسترد الثقة والطمأنينة، فتسير في طريق السابقين أصحاب الوفاء وأهل الإخلاص[1].

وذكر القرآن الكريم نموذجًا آخر من الرجال المؤمنين الصادقين المجاهدين الذين يقفون في وقت الشدائد، وينصرون الله ورسوله في أصعب المواقف الحرجة التي تواجه الدعوة.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

وهذان الرجلان من بني إسرائيل من الذين يخافون مقت الله وعقابه، والذين أنعم الله عليهما بالثبات على الإيمان والوفاء بالعهد، نصحوا قومهم بالجهاد والتوكل على الله تعالى في الدفاع عن أنفسهم وعن وطنهم، ولم يمنعهم الخوف من أن يقولوا الحق فأثنى الله تعالى عليهما بذلك، فدل على فضيلة قول الحق عند الخوف وشرف منزلته، وقالا مخاطبين قومهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: باب قرية الجبارين، فنحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، ومتى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم، ودخلتم البلدة التي كتبها الله لكم، ولكن بني إسرائيل لم ينفع ذاك فيهم شيئًا، ولجوا في عصيانهم، وسمعوا من العشرة النقباء الجواسيس الذين خوفوهم أمر الجبارين، ووصفوا لهم قوة الجبارين وعظم خلقهم، فصمموا على خلاف أمر الله تعالى، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم وتخلف عن مقاتلة الأعداء، ومن هنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف منه، فهذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشئ لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين! ويرزقهما شجاعة في وجه الخطر الموهوم! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة، وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس، فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد ٥/ ٢٨٤٤.

بين مخافتين، مخافته جل جلاله ومخافة الناس[1].

والرجولة في الجهاد تكون بكل صوره وأشكاله، سواءً أكان ذلك بالنفس أو المال أو بقول كلمة حق عند سلطان جائر، لما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، أو أمير جائر)[2].

ثانيًا: نصرة الحق وأهله:

إن من صفات الرجولة الوقوف في الشدائد ونصرة الحق والدفاع عنه والتضحية في سبيله مهما يكن الثمن، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٠-٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس: ٢٠].

فقد ذكر القرآن الكريم في هذه الآيات هذا النموذج الفريد في إيمانه وصدقه وإخلاصه وشجاعته في نصرة الحق، رجال المواقف في ميدان الرجولة النادرة التي تخلى عنها الكثيرون، أن يقف مثل هذا الموقف الخالد الذي سجله القرآن وأثنى الله تعالى عليهم.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

هذا الرجل من بني إسرائيل الذي استشعر المسؤولية الواجبة عليه في هذا الموقف العصيب، وهي إبلاغ موسى عليه السلام بمؤامرة خبيثة تحاك ضده، تناسى كل الأخطار والمصائب واختصر الطريق ليؤدي واجبه الإنساني تجاه رجل بريء لينقذه من الموت، في جد واهتمام ومسارعة، مصحوبًا بعقيدة حية في ضمير مؤمن يقظ واثق مطمئن، وقال: إن القوم يريدون قتلك، وأنا واقف على تدبيرهم وقد أرادوا إعلام فرعون، فاخرج من هذا البلد،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧٥، أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٥٠٠، بيان المعاني، عبد القادر ملا ٦/ ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم ٤٣٤٤، ٤/ ١٢٤، والترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم ٢١٧٤، ٤/ ٤٧١، والنسائي في سننه، كتاب البيعة، فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر، رقم ٤٢٠٩، ٧/ ١٦١، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٤٠١١، ٢/ ١٣٢٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٢٤٨.

إني لك من الناصحين.

فهذا الرجل الناصح الأمين المحب لموسى عليه السلام الذي يريد أن ينقذ موسى عليه السلام من القتل، تجده يسعى من أقصى المدينة، والتعبير بـ﴿أَقْصَا﴾ يدل على المحبة الخالصة الطيبة، ثم كلمة يسعى تدل على أنه جاء عدوًا لا قرار عنده ولا اطمئنان، ووصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه، فسبق إلى موسى عليه السلام، وقوله: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ﴾، وهو كبار القوم يدبرون الأمر ليقتلوك[1].

وكذلك الحال في قصة مؤمن آل ياسين عليه السلام فقد جاء الرجل من أقصا المدينة إلى أقصاها لا يمنعه مانع، ليضرب لمجتمع المؤمنين المثل في كيفية الحرص على دعوة ربهم، والحرص على الدفاع عن الدعاة والقائمين على أمور الدعوة، والحرص على مناصرة الحق وأهله مهما كان الثمن، ومهما بلغ التعب في سبيل ذلك، فقد جاء ناصحًا ينصح لهم ويحثهم على اتباع الرسل، المرسلين إليهم، وأن يقبلوا ما يأتون به من عند مرسلهم، فهذا الرجل الناصح الأمين تجده يسعى من أقصى المدينة، والتعبير بأقصى يدل على المحبة الخالصة الطيبة، كما يدل على أنه جاء من أبعد مواضعها فهي مترامية الأطراف والتعبير بالمدينة يدل على كبرها فهي ليست قرية محدودة! ثم كلمة يسعى تدل على أنه جاء عدوًا، لا قرار عنده ولا اطمئنان[2].

وهذا المشهد القرآني يوضح عظمة الحق في قلوب الرجال ومحبته، وفيه عناية الله بمن اصطفاه لذلك، واختاره للقيام بهذه المهمة ووعده بالنصر والنجاة مما يحاك له من المكائد.

كما أن في هذه الآيات عظة وعبرة لكل مؤمن بأن يكون يقظًا في كل ما يمس دينه وعقيدته ووطنه، ورجال دولته ورجال الدعوة الخيرين المخلصين، وفيها أن الرجولة في القرآن الكريم صفات رفيعة، وأخلاق فاضلة، وشجاعة نادرة، ورأي سديد في الأوقات العصيبة، وأن الرجل يقوم بواجب النصيحة ولا يتأخر بها عن وقتها، كما فعل هذا الرجل الإسرائيلي الذي أتى لنصح موسى عليه السلام حيث إنه لم يأت للتحذير فقط من مكيدة فرعون وقومه، بل إنه أتى بالحل والمخرج من هذه المحنة العصيبة، وهذا التآمر الخبيث بقوله، ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[3].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٦، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٩١.

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٦، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٩١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٩٧.

ومن خلال النظر في الآيتين نلمس ما يأتي:

وجاء تقديم قوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ على: ﴿رَجُلٌ﴾ بيانًا لفضله، إذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم، وأن بعده لم يمنعه من الانطلاق لمناصرة الرسل من أقصا المدينة إلى أقصاها، وربما يكون التقديم اهتمامًا بشأن المقدم، وقيل: أن تقديم الجار والمجرور في آية يس، لأن ما قبل هذه الآية دال على سوء معاملة أهل المدينة للرسل، فكان ذلك مظنة أن يسأل سائل: أكانت هذه المدينة كلها بهذه الصفة أم أن فيها موطنًا هو منبت خير؟ لذلك قدم ما يشتمل على المدينة لأنها أهم عند المخاطب[1].

وجاء التعبير عن الرجل بالنكرة ﴿رَجُلٌ﴾، ليفيد التعظيم لهذا الرجل، ومعلوم أن التنكير فيه معاني شاملة عميقة وكلها صالحة للتعبير عن المعنى المقصود، ثم إنه رجل مجهول منكور، لا يعرفه أحد.

كما أن الرجل يسرع في القيام بواجب النصيحة، وإن كان محله بعيدًا لما في ذلك من الحرص والتوجه والقصد إلى الله تعالى، فيحس بواجبه ومن ثم يقوم بمناصرة الحق، ومقاومة الباطل وأهله، ويكف عن الدعاة بغي الباغين، فقد جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: (من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته، ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة، يوم تزل الأقدام)[2].

ثالثًا: إنكار المنكرات:

ومن صفات الرجولة التي ذكرها القرآن الكريم الوقوف في وجه المنكر ومحاربته بكل صوره وأشكاله.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: ٧٨].

فقد ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن نبيه لوطًا عليه السلام وعظ قومه ونهاهم أن يفضحوه في ضيفه، وعرض عليهم النساء، وترك الرجال، فلم يلتفتوا إلى قوله، وتمادوا فيما هم فيه من إرادة الفاحشة، وتلطف لوط عليه السلام وبالغ في التلطف إلى قومه، عله يدفع هذا الخزي عن ضيوفه، ولكنه لما رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يهدي إلى الرشد والفضيلة.

وفيه إشارة إلى أن الرجل هو الذي يقوم

(١) انظر: كشف المعاني، الكناني ص ٢٨٤، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٩١، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني ٢/ ١٨٧.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ٦/ ٣٤٨. وحسنه الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٣٥٨.

بإنكار المنكر، فإن ظهور الرجل الرشيد في الفئة الضالة يفتح باب الرشاد لهم، وبالعكس تمالؤهم على الباطل يزيدهم ضراوةً به[1].

ومن خلال هذه الآية يتضح بأن المجتمعات البشرية بحاجة إلى الرجال الأقوياء الأشداء الذين يقفون في وجه المنكر ويحاربونه، وإذا خلي المجتمع من هؤلاء الرجال، استفحل فيهم المنكر، وصار المنكر عملًا يتباهى به السفلة دون أن يردعهم عن ذلك رادع من أنفسهم ولا من غيرهم، ومن علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدد في أقواله وأفعاله، وأنه صحيح الرأي، يفعل الجميل ويكف عن القبيح، وينصر المظلومين، ويفرج الكرب عن المكروبين، ويأمر بالخير، وينهى عن الشر، هذا هو الرشيد حقيقة، فلهذا قال لوط: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] ؟ أي: فيأمر بمعروف، وينهى عن منكر، ويدفع أهل الشر والبغي[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٢٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٩٠، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٤٩، بيان المعاني، عبد القادر ملا ٣/ ١٤٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٧٧، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٢١٧.

عوامل ضياع الرجولة

يوجد عدة عوامل تؤدي إلى ضياع الرجولة وأهم هذه العوامل ما يأتي:

١. ضعف الإيمان.

لأن الإيمان من أعلى صفات الرجولة، قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٢. البعد عن المسجد.

فالمساجد موطن من مواطن صناعة الرجولة، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: ٣٦].

٣. البعد عن القرآن الكريم الذي يصنع الرجال.

قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين)[3].

٤. انقلاب المعايير.

كما أخبرنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم ٨١٧، ١/ ٥٥٩.

الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة)، قيل: وما الرويبضة؟ قال: (الرجل التافه في أمر العامة)[1].

٥. البعد عن القدوة الصالحة، واتخاذ القدوة السيئة.

كما في حديث أبي موسى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثةً)[2].

٦. إتيان المنكرات.

مثلما كان يفعل قوم لوط، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨١].

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، البنوة، النبوة، النساء، النكاح

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٧٩١٢، ١٣/ ٢٩١، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر، رقم ٤٠٣٦، ٢/ ١٣٣٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٦٨١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، رقم ٢١٠١، ٣/ ٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء، رقم ٢٦٢٨، ٤/ ٢٠٢٦.

الرَّحِم

عناصر الموضوع

مفهوم الرحم	٧٤
الرّحم في الاستعمال القرآني	٧٥
الألفاظ ذات الصلة	٧٦
مكانة الرحم	٧٨
أنواع الرحم	٨٢
حقوق الرحم	٩١
قطيعة الرحم وعاقبته	١٠٥
حقوق الرحم من غير المسلمين	١٠٩

مفهوم الرحم

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «(رحم) الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة، يقال من ذلك: رحمه يرحمه، إذا رق له، وتعطف عليه، والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى، والرحم: علاقة القرابة، ثم سميت رحم الأنثى رحمًا من هذا؛ لأن منها ما يكون ما يرحم، ويرق له من ولد»[(١)].

وقال ابن سيده: «الرحم أسباب القرابة، وأصلها الرحم التي هي منبت الولد»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الأزهري: «الرحم: القرابة تجمع بني أب وبينهما رحم»[(٣)].

وقال القرطبي: «الرحم: اسم لكافة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره»[(٤)].

وعرف ابن حجر العسقلاني الرحم بقوله: «يطلق على الأقارب، وهم من بينه وبين الآخر نسب، سواءً كان يرثه أم لا، سواءً كان ذا محرم أم لا»[(٥)].

وعرفها الشوكاني بقوله: «الرحم: اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره، لا خلاف في هذا بين أهل الشرع، ولا بين أهل اللغة»[(٦)].

فالأرحام: هم الذين يجتمعون مع المرء في النسب، سواءً أكان قريبًا أم بعيدًا، وسواءً أكانوا محارم أم غير محارم، ويدخل ضمنهم من يرتبط مع المرء بصلة المصاهرة أو الرضاع[(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٤٩٨.
(٢) المحكم والمحيط الأعظم ٣/ ٣٣٨.
(٣) تهذيب اللغة ٥/ ٣٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٧.
(٥) فتح الباري ١٠/ ٤١٤.
(٦) فتح القدير ١/ ٤٨١.
(٧) انظر: ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص٧.

الرّحم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رحم) بمعنى الرحم في القرآن الكريم (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
جمع تكسير	١٢	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]

وجاءت الرحم في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: القرابة: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، يعني: القرابات؛ لأنهم يجمعهم رحم واحد.

الثاني: رحم المرأة: قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] يعني: الوليد في الرحم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٠٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٤٤، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٨١.

الألفاظ ذات الصلة

١ القرابة:

القرابة لغة:

خلاف البعد[١]، قال ابن فارس: «يقال: قرب يقرب قربًا، وفلان ذو قرابتي، وهو من يقرب منك رحمًا»[٢].

القرابة اصطلاحًا:

العلاقة بين الأرحام بسبب النسب أو المصاهرة أو الرضاع[٣].

الصلة بين الرحم والقرابة:

إن القرابة والرحم بمعنى واحد، بحيث يطلق كل منهما على العلاقة بين الأرحام بسبب النسب أو المصاهرة أو الرضاع، إلا أن في لفظة الأرحام معنى الحث والترغيب واستجاشة المشاعر في صلة الرحم.

٢ النسب:

النسب لغة:

القرابات، يقال: فلان نسيبي، ورجل نسيب حسيب: ذو حسب ونسب، والنسبة مصدر الانتساب، والنّسّابة: الرجل العالم بالأنساب، ونسبت فلانًا إلى أبيه: إذا رفعت في نسبه إلى جده الأكبر[٤].

النسب اصطلاحًا:

القرابة الموروثة التي لا يد للإنسان فيها[٥].

الصلة بين الرحم والنسب:

إن النسب هي أصل الرحم والقرابة، ومنها تأتي القرابة بسبب الزواج والرضاع.

---

(١) انظر: المغرب في ترتيب المعرب الخوارزمي ص٣٧٦.
(٢) مقاييس اللغة ٥/ ٨٠.
(٣) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ٢٩٨.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري١٣/ ١٢.
(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد قنيبي ص٤٧٨.

٣ الصهر:

الصهر لغة:

القرابة [١]، قال ابن فارس: «(صهر) الصاد والهاء والراء أصلان: أحدهما يدل على قربى، والآخر على إذابة شيء، فالأول الصهر، وهو الختن، قال الخليل: لا يقال لأهل بيت الرجل إلا أختان، ولا لأهل بيت المرأة إلا أصهار، ومن العرب من يجعلهم أصهارًا كلهم، قال ابن الأعرابي: الإصهار: التحرم بجوار أو نسب أو تزوج» [٢].

الصهر اصطلاحًا:

القرابة بالزواج [٣]، أي: ما يحل لك نكاحه من القرابة، وغير القرابة [٤].

الصلة بين الرحم والصهر:

أن الصهر سبب من أسباب الرحم والقرابة الحاصلة بسبب الزواج.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٧١، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٣٦٧.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٣١٥.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد قنيبي ص ٢٧٧.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٣٥.

مكانة الرحم

إن الرحم لها مكانتها العظيمة ومنزلتها الرفيعة، فقد أكد الإسلام على اعتبارها والاهتمام بها واعتنى بتوثيق الأواصر بين الأرحام والأقارب، ووجهها الوجهة الصحيحة بعيدًا عن العصبية القبلية، وبعيدًا عن مجرد الافتخار بمآثر الآباء والأجداد، وأضفى على صلة القرابة طابعًا دينيًا، وجعلها متصلة بالعبادات بحيث يثاب المسلم على الإحسان للأقارب، ويتقرب إلى الله بصلة الأرحام[(١)].

وقد حظيت القرابة بمكانة خاصة عند العرب سواءً في الجاهلية أو الإسلام، فقد كان أهل الجاهلية يتمسكون بوشائج القرابة، ويوقرون الرحم، ويعتزون بالأنساب، ذلك أن النظام القبلي الذي كان معمولًا به في الجاهلية يعتمد في أساسه على رابطة النسب، وكانت العصبية القبلية تدفعهم للتناصر والتعاضد مع أقربائهم، والدفاع عنهم في الحق والباطل.

وقد صحح الإسلام كثيرًا من المفاهيم المتعلقة بالرحم والقرابة، وحدد ضوابط العلاقات بين الأرحام وذوي القربى، فكان منهج الإسلام في التعامل مع الأقارب هو السبيل الأمثل لإقامة المجتمع القوي المتماسك.

وبالرغم من تلك المكانة التي تميزت بها القرابة في الجاهلية إلا أنها كانت تقوم على أسس فاسدة أحيانًا، وكانت هناك جوانب سلبية عديدة في التعامل مع ذوي القربى والأرحام، وذلك مرجعه إلى أن النظام الجاهلي لم يكن مرتبطًا بمنهج صحيح وقويم.

واكتسبت العلاقة بين الأرحام قدسيتها بما حباها الله عز وجل من تعظيم وتكريم، حيث إن الله قد اشتق اسم الرحم من اسمه الرحمن، فأضفى هذا الاسم عليها القداسة والمهابة[(٢)]، وذلك فيما رواه عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته)[(٣)].

فقد أراد الله تعالى أن تتميز العلاقة بين الأرحام وذوي القربى، فأنزل الرحم منزلةً عظيمةً باشتقاق اسمها من اسمه، وبين

(١) انظر: ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص٣٤.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٥٩، ٣/ ١٩٨، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في قطيعة الرحم، رقم ١٩٠٧، ٤/ ٣١٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٣١٤، ٢/ ٧٩٥.

ثواب من يصل رحمه، وعقاب من يقطعها، فمن وصلها وصله الله برحمته وعطفه والإحسان إليه، ومن قطعها قطع الله عنه رحمته وفضله، وإحسانه[1].

ولقد بلغ من قدسية الرحم ومكانتها العالية أن الله جعلها معلقةً بالعرش تدعو الله تعالى أن يصل من يصلها، ويقطع من قطعها، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله)[2].

قال النووي: «والمراد تعظيم شأنها وفضيلة واصليها، وعظيم إثم قاطعيها بعقوقهم؛ لهذا سمي العقوق قطعًا، والعق الشق، كأنه قطع ذلك السبب المتصل، والعائذ: المستعيذ، وهو المعتصم بالشيء، الملتجئ إليه، المستجير به، قال العلماء وحقيقة الصلة: العطف والرحمة، فصلة الله سبحانه وتعالى عبارة عن: لطفه بهم ورحمته إياهم، وعطفه بإحسانه ونعمه، أو صلتهم بأهل ملكوته الأعلى، وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته، قال القاضي عياض: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة»[3].

كما تعاظمت مكانة الرحم لما قرن الله تقواه بتقوى الرحم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

والمعنى: واتقوا الأرحام أن تقطعوها[4].

قال ابن العربي: «المعنى: اتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقد اتفقت الملة على أن صلة ذوي الأرحام واجبة، وأن قطيعتها محرمة»[5].

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ فقرأ حمزة بخفض الميم، وقرأ الباقون بنصبها[6]، ومعناه: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقرئ بكسر الميم فهو كقولك: سألتك بالله وبالرحم وناشدتك بالله وبالرحم؛ لأن العرب كان من عادتهم أن يقولوا ذلك، والرحم القرابة، وإنما استعير اسم الرحم للقرابة؛ لأنهم خرجوا من رحم واحدة، وقيل هو مشتق من الرحمة؛ لأن القرابة يتراحمون ويعطف بعضهم على بعض، وفي الآية دليل على

(١) انظر: ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص٣٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم٢٥٥٥، ٤/ ١٩٨١.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم١٦/ ١١٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري٧/ ٥٢٣.
(٥) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي١/ ٤٠١.
(٦) انظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص١١٨، معاني القراءات، الأزهري ١/ ٢٩٠، تحبير التيسير في القراءات العشر، ابن الجزري ص٣٣٤.

تعظيم حق الرحم والنهي عن قطعها[1].

ولم تقتصر العناية بالرحم في الإسلام على الوصية بها فقط، بل قد بين القرآن أن الإحسان إلى الأقارب والأرحام مما أخذ الله عليه العهد والميثاق على القيام به في الشرائع السابقة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

وقد نالت الرحم حظها من النصوص الشرعية التي تبين مكانتها، وعظيم الاهتمام بها، والترغيب في وصلها، والترهيب من قطعها، وبين العلماء أحكامها بما يكفل لهذه الرحم أن تكون سببًا للعلاقة بين الأقارب.

فقد أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى بعد الوالدين، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله.

قال تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦][2].

وإنما أمر بالإحسان إلى ذي القربى استبقاءً لأواصر الود بين الأقارب، إذ كان العرب في الجاهلية قد حرفوا حقوق القرابة فجعلوها سبب تنافس وتحاسد وتقاتل[3].

وقد ربط الاسلام صلة الرحم بدوافع نفسية يسعى إليها كل إنسان من التأخير في أجله، والتوسعة في رزقه تظهر ثمرتها في حياته، كما ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه)[4].

وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من قطيعة الرحم؛ لأنها سبب لقطع من لم يقم بوصلها بها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن١/ ٣٣٧.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٢/ ٥٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٧٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور٥/ ٤٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم ٢٠٦٧، ٣/ ٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم٢٥٥٧، ٤/ ١٩٨٢.

لك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣])[١].

والقطع من الله: كناية عن حرمان الإحسان، والوصل من الله تعالى كناية عن عظيم إحسانه[٢]، كما قال النووي: «قال العلماء: وحقيقة الصلة العطف والرحمة، فصلة الله سبحانه وتعالى عبارة عن لطفه بهم، ورحمته إياهم، وعطفه بإحسانه ونعمه، أو صلتهم بأهل ملكوته الأعلى، وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته»[٣]، بل قد يكون القطع حقيقةً بأن يقطع الله من عمره ورزقه، كما أن في الوصل زيادة في العمر والرزق.

وقد رتب النبي صلى الله عليه وسلم الحرمان من دخول الجنة لقاطع الرحم فقد روى محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يدخل الجنة قاطع) قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطع رحم[٤].

وتظهر مكانة الرحم وأهميتها والعناية بها من خلال بيان الحقوق والواجبات والأحكام المتعلقة بها كما سيأتي.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وتقطعوا أرحامكم)، رقم٤٨٣٠، ٦/ ١٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم٢٥٥٤، ٤/ ١٩٨٠.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٢٠٥، عمدة القاري، العيني ٢٢/ ٩٣.

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١١٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم٥٩٨٤، ٨/ ٥، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم ٢٥٥٦، ٤/ ١٩٨١.

أنواع الرحم

إن الرحم في القرآن الكريم تتنوع إلى نوعين رئيسين: رحم عامة، وهي: رابطة الدين بين المسلمين، ورحم خاصة تتمثل في: رابطة القرابة بأحد أسبابها، وهي: النسب والمصاهرة والرضاع، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: رحم عامة:

إن رابطة الدين من أعظم الروابط بين المسلمين، وهذه الرابطة تتعدى رابطة النسب واللون واللغة والوطن، فإذا كان بين الناس قرابة النسب والصهر، فإن بين المؤمنين قرابة الإيمان، فهي أوثق من قرابة النسب والصهر، وحسب المؤمنين أن الله وصف ما بينهم من مودة ورحمة بأنهم إخوة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، أي: في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب»[1].

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأن يكونوا إخوانًا في تعاملاتهم وحياتهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث)[2].

ومعنى (كونوا عباد الله إخوانًا) أي: تعاملوا وتعاشروا معاملة الإخوة في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير ونحو ذلك مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال[3].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته)[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا

(١) الجامع لأحكام القرآن١٦/ ٣٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم٦٠٦٤، ٨/ ١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر، رقم٢٥٥٨، ٤/ ١٩٨٣.

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١١٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم٢٤٤٢، ٣/ ١٢٨.

تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا) ويشير إلى صدره ثلاث مرات (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه)[1].

والمراد بذلك: أخوة الإسلام لا أخوة النسب، فأخوة الإسلام توجب على المسلم حماية أخيه المسلم، والدفاع عنه، ونصرته، ومواساته، والإحسان إليه[2].

قال ابن عاشور: «وجيء بصيغة القصر ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغةً في تقرير هذا الحكم بين المسلمين، فهو قصر ادعائي، أو هو قصر إضافي للرد على أصحاب الحالة المفروضة، الذين يبغون على غيرهم من المؤمنين، وأخبر عنهم بأنهم إخوة مجازًا على وجه التشبيه البليغ زيادةً لتقرير معنى الأخوة بينهم، حتى لا يحق أن يقرن بحرف التشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأخوة، وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين؛ لأن شأن (إنما) أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته»[3].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم حال المؤمنين في الرحم العامة التي بينهم في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[4].

قال سيد قطب: «هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق. هذا المجتمع الذي حققه الإسلام مرةً في أرقى وأصفى صوره، ثم ظل يحققه في صور شتى على توالي الحقب، تختلف درجة صفائه، ولكنه يظل في جملته خيرًا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر، وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية! هذا المجتمع الذي تربطه آصرة واحدة -آصرة العقيدة- حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان، واللغات والألوان، وسائر هذه الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم٢٥٦٤، ٤/ ١٩٨٦.

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٨/ ٣٠٨.

(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٤٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم٢٥٨٦، ٤/ ١٩٩٩.

الإنسان»[1].

إن رابطة الأخوة التي تجمع المؤمنين من أقوى الروابط؛ لأنها انبثقت من العقيدة الراسخة؛ لذا فهي لا تتأثر بما قد يطرأ على العلاقات الدنيوية من وهن وضعف؛ لأنها أخوة قوية أساسها الإيمان بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وميزانها التعاون على البر والتقوى، والتواصي بالصبر، والتواصي بالحق[2].

والحديث عن القرابة الإيمانية ضمن أنواع القرابة ليس حديثًا بعيدًا عن السياق، وإنما هو متمم لأنواع القرابة، فإن اجتمع ذوو القربى في النسب، وتقارب الأصهار بالزواج، وانضم أقارب الرضاع إلى دائرة القرابة بخمس رضعات؛ فإن المؤمنين يجمعهم نسب واحد، وهو الإيمان، وأب واحد هو الإسلام، وتقاربت أرواحهم في الله، وانضموا إلى البيت الإيماني لما ارتضعوا من نبع الأخوة في الله[3].

والأخوة الإسلامية من نعم الله تعالى، وهي كفيلة بإزالة العداوات والثارات والصراع بين القبائل والمجتمعات والدول، كما قال تعالى في الأوس والخزرج: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فقد ذكرهم الله بعظيم النعمة عليهم في الإسلام؛ لأنهم كانوا في جاهليتهم يقتل بعضهم بعضًا، ويستبيح كل غالب منهم من غلبه، فحظر عليهم الإسلام الأنفس والأموال إلا بحقها، فعرفهم الله عز وجل ما لهم من الحظ في العاجل في الدخول في الإسلام.

وهذه نزلت في الأوس والخزرج[4]؛ لأنهم كانت بينهم في الجاهلية حروب دائمة قد أتت عليها السنون الكثيرة، فأزال الإسلام تلك الحروب وصاروا إخوانًا في الإسلام متوادين على ذلك، وأصل الأخ في اللغة: أن الأخ مقصده مقصد أخيه، وكذلك هوى الصداقة تكون إرادة بينهم، فكل واحد من الأخوين يكون موافقًا لما يريد صاحبه، والعرب تقول: فلان يتوخى مسار فلان، أي: يقصد ما يسره[5].

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٠٩.
(٢) ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص ١٠١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص ١٢١، العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني ٢/ ٧٢٧.
(٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٥٠.

﴿إِخْوَانًا﴾ فهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن وأحقاد، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣][1].

وعلى ركيزة الأخوة العامة بنيت المجتمعات الإسلامية والدول، قال سيد قطب: «ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم، فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه: ركيزة الإيمان والتقوى أولًا، الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة، الأخوة في الله، على منهج الله، لتحقيق منهج الله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام.. من الركيزة الأولى.. أساسها الاعتصام بحبل الله -أي: عهده ونهجه ودينه- وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة! ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى. وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائمًا، وهو هنا يذكرهم هذه النعمة. يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية أعداءً، وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد. وهما الحيان العربيان في يثرب. يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة، وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعًا. ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه، ولا تعيش إلا معه. فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام، وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة، وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع، فيصبحون بنعمة الله إخوانًا»[2].

وبهذا يتضح أن للقرابة الإيمانية شأن عظيم في تقوية أركان المجتمع المسلم،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٧٧.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٤٢.

ولها تأثير بالغ في اتحاد المسلمين وتآلفهم، فلو عايش المسلمون معاني هذه الأخوة التي أوجبتها هذه القرابة وطبقوها واقعًا عمليًا في حياتهم؛ لما أصاب مجتمعاتهم من الضعف؛ ولما تجرأ عليهم الأعداء، وتكالبت عليهم الأمم.

ولكن المسلمين هانوا في أعين أعدائهم يوم ضعفت أواصر الأخوة والمحبة بينهم، فلا سبيل للعزة والنصرة إلا إذا رجع المسلمون إلى تطبيق مبادىء دينهم وقاموا بأداء ما عليهم من واجبات تجاه إخوانهم المسلمين وأمدوهم بالمعونة والنصرة والمؤازرة[1].

ثانيًا: الرحم الخاصة:

أما الرحم الخاصة بين الأرحام والأقارب فهي في القرآن الكريم على ثلاثة أنواع:

١ . قرابة النسب.

إن قرابة النسب من أهم أنواع القرابة، فتعريف الشخص في المجتمع لا يكون إلا من خلال انتسابه إلى أبيه وجده وعائلته؛ لذا كان اعتناء العرب قديمًا وحديثًا بأصالة النسب وعراقته كونهم يتعارفون به بين الناس[2].

وقد ذكر الله قرابة النسب في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

ويترتب على قرابة النسب الكثير من الأحكام، والتي منها تحريم النكاح، كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وسيأتي المزيد من الأحكام في مبحث حقوق القرابة بكل أنواعها.

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم الأنساب من أجل صلة الرحم، كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر)**، ومعنى قوله: **(منسأة في الأثر)**، يعني: زيادة في العمر[3].

(١) انظر: ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص ١٠٤.
(٢) المصدر السابق ص ١٠٤.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ، رقم ٨٨٦٨، ١٤/ ٤٥٦، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في تعليم النسب، رقم ١٩٧٩، ٤/ ٣٥١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٢٩٦٥، ١/ ٥٧٠.

٢. قرابة المصاهرة.

إن قرابة المصاهرة ثاني أنواع القرابة، ولا تقل أهمية عن قرابة النسب، فقد قرنها الله تعالى بها قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤].

والصهر من يحل نكاحه من القرابة وغير القرابة، وأصل الصهر الاختلاط، فسميت المناكح صهرًا لاختلاط الناس بها[١].

وقرابة المصاهرة هي: القرابة الحاصلة بسبب الزواج، وبالزواج تتقارب عائلتان لم يكن بينهما من قبل صلة، فتتعارفان وتتآلفان وتنشأ بينهما قرابة الصهر التي تعتبر هي أساس القرابة؛ حيث ينشأ من العلاقة الزوجية الأبناء الذين ينضمون إلى نسب الأب ويلتحقون بسلسلة قرابة النسب[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: ٧٢].

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: من جنسكم أزواجًا، جعل لكم من أزواجكم بنين وبنات وحفدةً، وهم أولاد البنين تزوجونهم؛ فيحصل لكم بسببهم الأختان والأصهار[٣].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورًا وإناثًا، وجعل الإناث أزواجًا للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين»[٤].

وقال السعدي: «يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجًا ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات من جميع المآكل والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها»[٥].

والقرابة بالمصاهرة يحرم بها نكاح سبعة من المحرمات، ستة منها في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ۖ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١٥١.
(٢) ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص ٩٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠٣
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٤٤.

﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٢٣].

والسابعة في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢][1].

٣. قرابة الرضاع.

وقرابة الرضاع هي ثالث أنواع القرابة، ولها من الأهمية ما لقرابة النسب، لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في بنت حمزة رضي الله عنه عندما عرض عليه نكاحها: (لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة)[2]، ويترتب على الرضاع بعض الأحكام مثل:

- تحريم النكاح.

فيحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وذلك بالنظر إلى أقارب المرضع؛ لأنهم أقارب للرضيع، وأما أقارب الرضيع فلا قرابة بينهم وبين المرضع، والمحرمات من الرضاع سبع: الأم والأخت بنص القرآن، والبنت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت؛ لأن هؤلاء يحرمن من النسب، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٢٣][3].

ولما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في بنت حمزة: (لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة)[4].

- ثبوت المحرمية التي تبيح النظر.

تبيح الرضاعة ما تبيحه الولادة من حيث انتشار الحرمة بين الرضيع وأولاد المرضعة وتنزيلهم منزلة الأقارب في جواز النظر

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٤٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، والرضاع، رقم ٢٦٤٥، ٣/ ١٧٠.
(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ١٥٧، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، والرضاع، رقم ٢٦٤٥، ٣/ ١٧٠.

والخلوة والمسافرة؛ لما روته عمرة بنت عبدالرحمن، أن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أخبرتها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عندها، وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، هذا رجل يستأذن في بيتك، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أراه فلانًا) لعم حفصة من الرضاعة، فقالت عائشة: لو كان فلان حيًّا -لعمها من الرضاعة- دخل علي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، إن الرضاعة تحرم ما يحرم من الولادة)[1].

قال النووي مبينًا أحكام الرضاعة: «هذه الأحاديث متفقة على ثبوت حرمة الرضاع، وأجمعت الأمة على ثبوتها بين الرضيع والمرضعة، وأنه يصير ابنها يحرم عليه نكاحها أبدًا، ويحل له النظر إليها، والخلوة بها، والمسافرة، وأجمعوا أيضًا على انتشار الحرمة بين المرضعة وأولاد الرضيع، وبين الرضيع وأولاد المرضعة، وأنه في ذلك كولدها من النسب لهذه الأحاديث، وأما الرجل المنسوب ذلك اللبن إليه لكونه زوج المرأة أو وطئها بملك أو شبهة فمذهبنا ومذهب العلماء كافةً ثبوت حرمة الرضاع بينه وبين الرضيع ويصير ولدًا له، وأولاد الرجل إخوة الرضيع وأخواته، وتكون إخوة الرجل أعمام الرضيع، وأخواته عماته، وتكون أولاد الرضيع أولاد الرجل، ولم يخالف في هذا إلا أهل الظاهر وابن علية، فقالوا: لا تثبت حرمة الرضاع بين الرجل والرضيع، ونقله المازري عن ابن عمر وعائشة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ ولم يذكر البنت والعمة كما ذكرهما في النسب، واحتج الجمهور بهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة في عم عائشة وعم حفصة»[2].

❁ عدم ثبوت سائر الأحكام.

لا يثبت بالرضاع أحكام النسب وأحكام النفقة والميراث وغيرها، فلا يترتب على الرضاع أحكام الأمومة من كل وجه، فلا يتوارثان، ولا يجب على واحد منهما نفقة الآخر، ولا يعتق عليه بالملك، ولا ترد شهادته لها، ولا يعقل عنها، ولا يسقط عنها القصاص بقتله فهما كالأجنبيين في هذه الأحكام[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض، رقم٢٦٤٦، ٣/ ١٧٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة، رقم١٤٤٤، ٢/ ١٠٦٨.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم١٠/ ١٩، وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٩٠.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم١٠/ ١٩،

وإنما ثبتت حرمة الرضاع بشرطين:

الأول: أن يكون إرضاع الصبي في حال الصغر، وذلك إلى انتهاء سنتين من ولادته لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]؛ ولما روته أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يحرم من الرضاع إلّا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام)[(١)].

الثاني: أن يوجد خمس رضعات متفرقات، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن، بخمس معلومات، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهن فيما يقرأ من القرآن[(٢)(٣)].

إن اهتمام الإسلام بقرابة الرضاع، وجعلها كقرابة النسب يبرز ما لهذه القرابة من منزلة، وينبه المسلمين إلى ضرورة مراعاة حقوق أقاربهم من الرضاعة، ويبين خطورة الجهل بأحكام الرضاعة، كحرمة تزوج الرجل من محارمه من الرضاعة؛ لئلا يتزوج من إحداهن وهو لا يعلم؛ لذا وجب إعطاء أمر الرضاعة مزيدًا من العناية والتحقق من المرضع وأقاربها؛ لئلا تنتهك الحرمات وتستباح المحرمات[(٤)].

وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٩٠، لباب التأويل، الخازن١/ ٣٥٩.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الرضاع، باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين، رقم١١٥٢، ٣/ ٤٥٠، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب لا رضاع بعد فصال، رقم ١٩٤٦، ١/ ٦٢٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم٧٤٩٥، ٢/ ١٢٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، رقم١٤٥٢، ٢/ ١٠٧٥.

(٣) لباب التأويل، الخازن١/ ٣٥٩.

(٤) ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص ١٠٠.

حقوق الرحم

إن حقوق الرحم تتنوع بين الحقوق الاجتماعية، والحقوق المالية، والحقوق الدعوية، وسيأتي بيان هذه الحقوق في النقاط الآتية:

أولًا: الحقوق الاجتماعية:

تتمثل الحقوق الاجتماعية في صلة الرحم بالإحسان بالقول والفعل، كالزيارة ونحوها، والتربية الإيمانية والعبادية والأخلاقية، وسيتم توضيح ذلك في الفقرات الآتية:

١. صلة الرحم بالإحسان بالقول والفعل.

من الحقوق الاجتماعية صلة الرحم بالإحسان بالقول والفعل، فقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف، والفعل الجميل بطاعة أمرهما، واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما، وللإحسان ضدان، الإساءة وعدم الإحسان، وكلاهما منهي عنه[١]، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق[٢].

والإحسان إلى الزوجة يكون بالمعاشرة بالمعروف، فقد ورد الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

فقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨][٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخيركم خيركم لنسائهم)[٤].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٧٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٢.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الرضاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١١٦٢، ٣/ ٤٥٨، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم ١٩٧٨، ١/ ٦٣٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم

وكذلك الإحسان إلى الأولاد، ويدل عليه عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

فقد أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى بعد الوالدين، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله[(١)].

ولأن قوله تعالى: ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ عام يشمل الأصل، وهو الأبوان وما يتصل بالمرء من ناحيتهما من أصولها وفصولهما، ويشمل الفصل، وهو الأبناء والبنات وما يتصل به منهما من فصول، غير أن الوالدين لمزيد العناية بهما خصصا بالذكر في الآيات المتقدمة، وإن كانا داخلين في هذا العموم[(٢)].

فيكون الإحسان إلى الأولاد بجميع أنواع الإحسان المادية والمعنوية، ومن ذلك: تربيتهم تربيةً حسنةً، وتعليمهم، والتلطف بهم، ورحمتهم، والإنفاق عليهم، والعدل بينهم في العطايا والهبات؛ لما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: تصدق علي أبي ببعض ماله، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليشهده على صدقتي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفعلت هذا بولدك كلهم؟) قال: لا، قال: (اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم)، فرجع أبي، فرد تلك الصدقة[(٣)].

وقد أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى بعد الوالدين، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل.

قال تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ

٣٢٦٥، ١/ ٦٢٠.

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٥٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٨.

(٢) انظر: تفسير ابن باديس ص ٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، رقم ١٦٢٣، ٣/ ١٢٤٢.

﴿السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦][1].

وإنما أمر بالإحسان إلى ذي القربى استبقاءً لأواصر الود بين الأقارب، إذ كان العرب في الجاهلية قد حرفوا حقوق القرابة، فجعلوها سبب تنافس وتحاسد وتقاتل[2].

كما أمر الله تعالى بالإحسان إلى الجيران، فقال سبحانه: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

والجار قد أمر الله تعالى بحفظه، والقيام بحقه، والوصاة برعي ذمته في كتابه، وعلى لسان نبيه، والله سبحانه أكد ذكر الجار بعد الوالدين والأقربين، فقال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾، أي: القريب، يعني الذي بينك وبينه قرابة، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾، أي: الغريب الذي ليس بينك وبينه قرابة، قاله ابن عباس، وقال نوف الشامي: «﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ المسلم، ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ اليهودي والنصراني»، وقال جابر الجعفي عن الشعبي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهم: «﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعني: المرأة»، وقال مجاهد أيضًا في قوله: «﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يعني: الرفيق في السفر»[3].

قال القرطبي: «وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلمًا كان أو كافرًا، وهو الصحيح، والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما زال يوصيني جبريل بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)»[4][5].

والجوار ضرب من ضروب القرابة، فهو قرب بالمكان والسكن، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب، فيحسن أن يتعاون الجاران، ويكون بينهما الرحمة والإحسان، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر فلا خير فيهما لسائر الناس، وقد حث الدين على الإحسان في معاملة الجار، عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه،

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٥٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٤٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٦١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، رقم ٦٠١٤، ٨/ ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم ٢٦٢٥، ٤/ ٢٠٢٥.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ١٨٣.

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره)[1].

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام، وزاده الإسلام توكيدًا بما جاء في الكتاب والسنة، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه، ودعوته إلى الطعام، وتعاهده بالزيارة والعيادة إلى نحو ذلك[2].

٢. حق التربية لذوي الأرحام.

إن حق التربية لذوي الأرحام حق كامل يشمل تربية النفس، وتكون من خلال غرس عقيدة التوحيد في نفوس ذوي الأرحام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣][3].

ويدخل في تربية النفس: التربية على مراقبة الله تعالى في كافة الأحوال والأعمال، قال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

وفي هذه الآية يكشف لقمان لابنه عن علم الله، وبسطة سلطانه، حتى يعبده عن علم به، ومعرفة بما ينبغي له من كمال وجلال[4].

وكذلك التربية على أداء العبادات، قال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧].

وتعتبر الصلاة الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عماد الدين، أمر الله تعالى عباده بالمحافظة عليها حال السفر والحضر، حالة الصحة والسقم، والأمن والخوف، وإقامتها تعني أداءها في وقتها بأركانها وواجباتها بخشوع، على النحو المرضي، لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات له، ولما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر، وإذا تم ذلك صفت النفس وأنابت إلى بارئها في السراء والضراء[5].

والتربية على العبادة يشمل كل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة وبر الوالدين، وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم، والمسكين، وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم ٤٨، ١/ ٦٩.
(٢) انظر: تفسير المراغي٥/ ٣٦.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي٨/ ٣٠، تفسير المراغي٢١/ ٨٤.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٥٧٠.
(٥) تفسير المراغي٢١/ ٨٤.

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله تعالى[1].

والتربية الأخلاقية: والخلق هو: عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية[2].

والآيات التي تمثل التربية الأخلاقية كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨-١٩].

فقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

قرأ الجمهور (ولا تصاعر)، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب (ولا تصعر)[3]، يقال: صاعر وصعر، إذا أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب آخر، وهو مشتق من الصعر بالتحريك لداء يصيب البعير فيلوي منه عنقه، فكأنه صيغ له صيغة تكلف، بمعنى تكلف إظهار الصعر وهو تمثيل للاحتقار؛ لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف في غالب الأحوال[4].

ثانيًا: الحقوق المالية:

إن الحقوق المالية المترتبة على الرحم والقرابة تتمثل في: الميراث المستحق بسبب الرحم والقرابة، وكذلك النفقة الواجبة والمندوبة، بالإضافة إلى الوصية والصدقة لذوي الرحم، وكذلك حق ذوي القربى الغنيمة والفيء، وبيان ذلك في الفقرات الآتية:

١. الميراث.

يترتب على القرابة أحكام شرعية نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومن هذه الأحكام: الميراث، فالأقارب يجمعهم أصل واحد، ويلتزمون بحقوق وواجبات، ويتعاونون فيما بينهم في تحمل النفقات؛ لذا كانوا أحق بمال قريبهم بعد موته، مع اختلاف نصيب كل قريب بحسب درجة القرابة بينه وبين الميت[5].

وقد بين الله تعالى حق الميراث في

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١٤٩.
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٧٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٥٢.
(٣) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٣٤٦.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٤.
(٥) ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص١٣٥.

قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النساء: ٧].

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١﴾ [النساء: ١١].

وقوله سبحانه: ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝١٢﴾ [النساء: ١٢].

٢. النفقة.

أوجبت الشريعة الإسلامية على المسلم القادر أن ينفق على أقاربه الذين تلزمه نفقتهم كالزوجة والأولاد والوالدين، وأن يوفر لهم ما يكفيهم من طعام وكسوة وسكنى، وحق النفقة بسبب القرابة يكون واجبًا لبعض الأقارب، ويكون غير واجب لبعضهم، وسيتم توضيح ذلك في الفقرات الآتية:

- نفقة الأقارب الواجبة.

تكون نفقة الأقارب الواجبة على القريب الموسر للزوجة والأولاد والآباء كما يأتي:

١. نفقة الزوجة.

نفقة الزوجة وكسوتها وطعامها وسكناها واجبة على زوجها لقاء احتباسها في بيت زوجها ومشاطرته تربية الأبناء ورعايتهم، فإنها تستحق كل ما تحتاج من نفقات سواءً أكانت غنيةً أم فقيرةً، وكذلك تستحق الزوجة المطلقة النفقة، إذا كانت مطلقة في حال حملها أو رضاعها لأولادها أو كونها في العدة، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقال سبحانه: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق: ٦-٧].

والنفقة من حقوق الزوجة، وبسببها يكتسب الزوج حق القوامة عليها، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] [(١)].

قال أبو جعفر الطبري: «الرجال أهل قيام على نسائهم، في تأديبهن والأخذ على أيديهن فيما يجب عليهن لله ولأنفسهم ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، يعني: بما فضل الله به الرجال على أزواجهم: من سوقهم إليهن مهورهن، وإنفاقهم عليهن أموالهم وكفايتهم إياهن مؤنهن، وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهن، ولذلك صاروا قوامًا عليهن، نافذي الأمر عليهن فيما جعل الله إليهم من أمورهن»[(٢)].

٢. نفقة الوالدين.

يجب على المسلم الموسر نفقة الوالدين، ولو كانا كافرين وبرهما وخدمتهما وزيارتهما إلا أن يخاف أن يجلباه إلى الكفر[(٣)]، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ۝٢١٥﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

مع بيان النبي صلى الله عليه وسلم لمراد الله بقوله: فيما رواه طارق المحاربي، قال: قدمنا المدينة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: (يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك، وأباك، وأختك، وأخاك، ثم أدناك، أدناك)[(٤)]، وفيه الدلالة على وجوب نفقة الوالدين، والأقربين عليه[(٥)].

وقد أجمع العلماء على وجوب النفقة للوالدين اللذين لا كسب لهما ولا مال، سواءً أكان الوالدان مسلمين أو كافرين، وسواءً كان الفرع ذكرًا أم أنثى، قال الشربيني: «قال ابن المنذر: وأجمعوا على أن نفقة الوالدين اللذين لا كسب لهما ولا مال واجبة في مال الولد، والأجداد والجدات ملحقون بهما إن لم يدخلوا في عموم ذلك، كما ألحقوا بهما

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٥٣.
(٢) جامع البيان ٨/ ٢٩٠.
(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٧٩.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في بر الوالدين، رقم ٥١٤٠، ٤/ ٣٣٦، والنسائي في سننه، كتاب الزكاة، باب أيتهما اليد العليا، رقم ٢٥٣٢، ٥/ ٦١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٨٠٦٧، ٢/ ١٣٤١.
(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٧٩.

في العتق والملك، وعدم القود، ورد الشهادة وغيرهما»[1]، ويشترط لوجوب النفقة يسار المنفق، وإعسار المنفق عليه، واحتياجه إلى النفقة، وهذا باتفاق العلماء في الجملة[2].

٣. نفقة الأولاد.

يجب على الوالد الموسر النفقة على أولاده الصغار؛ لأن الأولاد جزء منه، فالإنفاق عليهم كالإنفاق على نفسه، وإحيائهم كإحياء نفسه، ونفقة الأولاد واجبة بالكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وفي الآيتين دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد لعجزه وضعفه؛ فجعل الله تعالى ذلك على يدي أبيه؛ لقرابته منه وشفقته عليه[3].

ومن السنة النبوية ما روته عائشة رضي الله عنها، قالت: دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني إلا ما أخذت من ماله بغير علمه، فهل علي في ذلك من جناح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك)[4].

أما الإجماع: فقد حكى الإجماع على ذلك ابن قدامة وقال: «وأما الإجماع، فحكى ابن المنذر قال: أجمع أهل العلم على أن نفقة الوالدين الفقيرين اللذين لا كسب لهما، ولا مال، واجبة في مال الولد، وأجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم، على أن على المرء نفقة أولاده الأطفال الذين لا مال لهم، ولأن ولد الإنسان بعضه، وهو بعض والده، فكما يجب عليه أن ينفق على نفسه وأهله كذلك على بعضه وأصله»[5].

٤. نفقة باقي الأقارب.

أما نفقة باقي الأقارب فقد اختلف المفسرون والفقهاء في حكم النفقة عليهم على أقوال، والراجح أن النفقة تجب على الأقارب العاجزين عن الكسب إذا كان القريب موسرًا[6].

(١) مغني المحتاج، الشربيني ٥/ ١٨٣.
(٢) انظر: المغني، ابن قدامة ٨/ ٢١١، الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٩/ ٢٣.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٧٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة والمكيال والوزن، وسننهم على نياتهم ومذاهبهم المشهورة، رقم ٢٢١١، ٣/ ٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قضية هند، رقم ١٧١٤، ٣/ ١٣٣٨.
(٥) المغني، ابن قدامة ٨/ ٢١٢.
(٦) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٦٨، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٣٧، تفسير

فتجب النفقة لكل قريب وارث من الأصول والفروع والحواشي، كالإخوة والأعمام وأبنائهم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣][(١)]، قال ابن كثير: «وقد استدل بذلك من ذهب إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف، ويرجح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعًا (من ملك ذا رحم محرم، عتق عليه)[(٢)]»[(٣)].

٣. الوصية.

الوصية مشروعة في وجوه الخير المتعددة، ولكنها تستحب للأقارب غير الوارثين؛ لأن الوصية لهم لون من ألوان البر والإحسان الذي أمر الله به لذوي القربى؛ لأن ذلك نوع من أنواع التكافل والتعاضد ومدعاة للتآلف[(٤)]، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة: ١٨٠-١٨١].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾، فرض عليكم، أيها المؤمنون، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ والخير: المال، للوالدين والأقربين الذين لا يرثونه، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: وهو ما أذن الله فيه وأجازه في الوصية مما لم يجاوز الثلث، ولم يتعمد الموصي ظلم ورثته، ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني بذلك: فرض عليكم هذا وأوجبه، وجعله حقًا واجبًا على من اتقى الله فأطاعه أن يعمل به[(٥)].

قال ابن كثير: «اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجبًا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتمًا من غير وصية ولا تحمل منة الموصي، ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها

الراغب الأصفهاني ١/ ٤٨٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٣٥.

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٣٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العتق باب فيمن ملك ذا رحم محرم، رقم ٣٩٤٩، ٤/ ٢٦، والترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء فيمن ملك ذا رحم محرم، رقم ١٣٦٥، ٣/ ٦٣٨، وابن ماجه في سننه، كتاب العتق، باب من ملك ذا رحم محرم فهو حر، رقم ٢٥٢٤، ٢/ ٨٤٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٥٥٧، ٢/ ١١١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٩.

(٤) ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص ١٤٠.

(٥) جامع البيان٣/ ٣٨٤.

عن عمرو بن خارجة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب وهو يقول: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث)[1]»[2].

ومن خلال هذه النصوص يتبين أن الوصية للأقارب غير الوارثين مستحبة، وليست واجبة[3].

٤. الصدقة.

من حقوق الرحم المالية: الصدقة لهم والمواساة بالمال.

قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والبر: التوسع في الخير، وفي لسان الشرع: كل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال وفاضل الأخلاق، ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي: ناحيتيهما، ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ أي: أعطاه[4]، وذوو القربي: المحتاجون، وهم أحق الناس بالبر، إذ المركوز في الفطرة أن الإنسان يألم لفاقة ذوي رحمه وعدمهم أشد مما يألم لغيرهم، فهو يرى أن هوانه بهوانهم وعزه بعزهم، فمن قطع رحمه وامتنع عن مساعدتهم، وهم بائسون وهو في نعمة من الله وفضل، فقد بعد عن الدين والفطرة، وجاء في الحديث الذي رواه سلمان بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة)[5]، أي: صدقة وصلة رحم[6].

وقد حضّ سبحانه على صلة القرابة وبر الأقارب والإحسان إليهم، وإيتاء حقوقهم من البر والصلة.

قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث، رقم ٢٨٧٠، ٣/ ١١٤، والنسائي في سننه، كتاب الوصايا، باب إبطال الوصية للوارث، رقم ٣٦٤١، ٦/ ٢٤٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، رقم ٢٧١٣، ٢/ ٩٠٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٧٨٩، ١/ ٣٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٠.

(٣) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ١٠٣.

(٤) انظر: تفسير المراغي ٢/ ٥٣.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٢٢٦، ٢٦/ ١٦٤، والترمذي في سننه، أبواب الزكاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة، رقم ٦٥٨، ٣/ ٣٧، والنسائي في سننه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على الأقارب، رقم ٢٥٨٢، ٥/ ٩٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة، رقم ١٨٤٤، ١/ ٥٩١. وصححه ابن الملقن في البدر المنير ٧/ ٤١١، والألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٨٥٨، ٢/ ٧١٧.

(٦) انظر: تفسير المراغي ٢/ ٥٦.

﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم: ٣٨][1].

كما أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أمرًا تدخل الأمة فيه، وهذا على جهة الندب إلى إيتاء ذي القربى حقه من صلة المال وحسن المعاشرة ولين القول، قال الحسن: حقه المواساة في اليسر، وقول ميسور في العسر[2].

وقال الشوكاني: «لما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى ما ينبغي من مواساة القرابة، وأهل الحاجات ممن بسط الله له في رزقه، فقال: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وأمته أسوته، أو لكل مكلف له مال وسع الله به عليه، وقدم الإحسان إلى القرابة؛ لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغب فيها، والمراد: الإحسان إليهم بالصدقة، والصلة، والبر»[3].

٥. الغنيمة والفيء.

إن الغنيمة والفيء من الحقوق المالية لذوي القربى قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧].

والغنيمة هي: المال المأخوذ من الكفار، بإيجاف الخيل والركاب، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها أو يتوفون عنها، ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف. ومن العلماء من يطلق الفيء: على ما تطلق عليه الغنيمة، وبالعكس أيضًا[4].

والمراد ب (ذوي القربى): قرابته صلى الله عليه وسلم، وذهب الجمهور إلى أن سهم ذوي القربى يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب خاصة؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية، وفي أول

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٣٤، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٨٠.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٣٨.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢.

الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمايةً له، مسلمهم طاعةً لله ولرسوله، وكافرهم حميةً للعشيرة، وأنفةً، وطاعةً لأبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وإن كانوا ابني عمهم، فلم يوافقوهم، بل حاربوهم ونابذوهم[1]؛ ولأنهم قد منعوا الصدقة، فجعل لهم حق في الفيء[2].

وفي هذا روى جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما بنو المطلب، وبنو هاشم شيء واحد) قال الليث: حدثني يونس، وزاد، قال جبير: ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس، ولا لبني نوفل[3].

وبهذا يكون لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم خمس خمس الغنيمة، وخمس الفيء في حياته صلى الله عليه وسلم.

أما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم أم لا؟

فذهب الجمهور إلى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس، للذكر مثل حظ الأنثيين، وهو قول مالك والشافعي، وذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت، وقالوا سهم النبي صلى الله عليه وسلم، وسهم ذوي القربى مردود في الخمس، فيقسم خمس الغنيمة على ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل، فيصرف إلى فقراء ذوي القربى مع هذه الأصناف دون أغنيائهم، وحجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى، ولأن الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعطون ذوي القربى، ولا يفضلون فقيرًا على غني؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله، وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه، وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد، وقال: ويفضل الذكر على الأنثى فيعطى الذكر سهمين والأنثى سهمًا[4].

بل قد حكى بعض العلماء الإجماع على

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٩٧.
(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٧٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس للإمام وأنه يعطي بعض قرابته دون بعض ما قسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني المطلب، وبني هاشم من خمس خيبر، رقم ٣١٤٠، ٤/ ٩١.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣١٣.

أن ذلك السهم يكون في الكراع والسلاح في سبيل الله، فقد أخرج النسائي وغيره عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد بن الحنفية قال: «اختلف الناس بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في هذين السهمين: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسهم لذوي القربى، فقالت طائفة: سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للخليفة من بعده، وقالت طائفة: سهم لذوي القربى لقرابة الخليفة، فأجمعوا على أن يجعلوا هذين السهمين في الكراع وفي العدة في سبيل الله»[1].

وبهذا يمكن القول بأن سهم ذوي القربى يصرف في المصالح العامة وخاصة في هذا العصر؛ لتعذر معرفة قرابات النبي صلى الله عليه وسلم، وبعدهم عن عصره صلى الله عليه وسلم، مع الحب والتقدير لمن ينتسب إلى آل النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: حقوق دعوية:

يجب على المسلم أن يخص أقاربه بالدعوة إلى الله تعالى والنصح والإرشاد كونه يتحمل المسؤلية تجاههم، بل إن تلك الدعوة والنصح والإرشاد من حقوق القرابة لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الأقربين من عشيرته إلى الدين الإسلامي، وخصهم بالدعوة؛ لأنه يمكنه أن يجمعهم، أو لأن الإنسان يساهل قرابته، فأمر بإنذارهم من غير تليين، أو ليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا[2]؛ لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشرك، وعشيرته الأقربون هم قريش، وقيل: بنو عبد مناف[3].

وقد بينت السنة النبوية كيف دعا النبي صلى الله عليه وسلم عشيرته، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشًا، فاجتمعوا فعم وخص، فقال: (يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، رقم ٣٣٤٥، ١٦/ ٥١٧، والنسائي في سننه، كتاب قسم الفيء، باب بدون، رقم٤١٤٣، ٧/ ١٣٣، والطبري في تفسيره ١٣/ ٥٥٧.

(٢) إيجاز البيان عن معاني القرآن، نجم الدين النيسابوري ٢/ ٦٢٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي١٣/ ١٤٣.

فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها)[1].

ومعنى: سأبلها ببلالها، أي: سأصلها، فقد شبهت قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بالماء الذي يطفئ ببرده الحرارة، ومنه حديث: (بلوا أرحامكم ولو بالسلام)[2][3]، أي: صلوا أرحامكم، قال ابن حجر: «وقال الطيبي وغيره شبه الرحم بالأرض التي إذا وقع عليها الماء وسقاها حتى سقيها أزهرت ورؤيت فيها النضارة فأثمرت المحبة والصفاء، وإذا تركت بغير سقي يبست وبطلت منفعتها فلا تثمر إلا البغضاء والجفاء»[4].

كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

ووقاية النفس عن النار بترك المعاصي وفعل الطاعات، ووقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب[5]، وأيضًا فهم أحق أن يتصدق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى[6].

ومن خلال هذه النصوص يتبين أن من حقوق القريب على قريبه دعوته إلى الإيمان والتقوى والاستقامة بما يقيه من النار يوم القيامة، كما يجب على القريب نصح وإرشاد قريبه للخير والصلاح الديني والدنيوي.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟، رقم ٢٧٥٣، ٤/ ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، رقم ٢٠٤، ١/ ١٩٢.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٧٦٠٢، ١٠/ ٣٤٦.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٨٣٨، ١/ ٥٤٦.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٨٠.

(٤) فتح الباري ١٠/ ٤٢٣.

(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٥١.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٤٩.

قطيعة الرحم وعاقبته

سيكون هذا المبحث في بيان معنى قطيعة الرحم، وصورها، وكيفية صلتها، وعاقبة قطيعة الرحم في الدنيا والآخرة، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: قطيعة الرحم:

إن قطيعة الرحم من الكبائر العظيمة التي توجب لعنة الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

قال ابن كثير: «ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق عديدة ووجوه كثيرة»[(١)].

وقد أجمع العلماء على حرمة قطيعة الرحم، قال القرطبي: «اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة»[(٢)].

وقطيعة الرحم تكون: بالإساءة إلى الرحم، وتكون بترك الإحسان؛ لأن الأحاديث آمرة بالصلة ناهية عن القطيعة فلا واسطة بينهما، والصلة نوع من الإحسان كما فسرها بذلك غير واحد من العلماء، والقطيعة ضدها، وهي ترك الإحسان[(٣)].

قال القرطبي: «وبالجملة فالرحم على وجهين: عامة وخاصة، فالعامة: رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم، والعدل بينهم، والنصفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة، كتمريض المرضى، وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم، وأما الرحم الخاصة: وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة، كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب»[(٤)].

وتكون صلة الرحم بالمال وبالعون على الحاجة، وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه، وبالدعاء، والمعنى الجامع: إيصال ما أمكن

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٩٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٦.
(٣) انظر: سبل السلام، الصنعاني ٢/ ٦٢٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٤٧.

من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة، فإن كانوا كفارًا أو فجارًا فمقاطعتهم في الله هي صلتهم، بشرط بذل الجهد في وعظهم، ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى[(١)].

والخلاصة أن صلة الرحم: هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارةً تكون بالمال، وتارةً بالخدمة، وتارةً بالزيارة، والسلام، وغير ذلك[(٢)]، أي: أن صلة الرحم: مشاركة ذوي القرابة في الخيرات[(٣)].

ثانيًا: عاقبة قطيعة الرحم:

توجب قطيعة الرحم عددًا من العقوبات والعواقب يمكن بيانها في الفقرات الآتية:

١. اللعنة من الله.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

والمعنى: أن هؤلاء الذين يفسدون ويقطعون الأرحام لعنهم الله، فأبعدهم من رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾، أي: فسلبهم فهم ما يسمعون بآذانهم من مواعظ الله في تنزيله، ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ يقول: وسلبهم عقولهم، فلا يتبينون حجج الله، ولا يتذكرون ما يرون من عبره وأدلته[(٤)].

٢. القطع من الله.

القطع من الله عاقبة من عواقب قطيعة الرحم؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته)[(٥)].

ومعنى: الرحم شجنة من الرحمن، أي: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق، شبهه بذلك مجازًا واتساعًا، وأصل الشجنة بالكسر والضم: شعبة في غصن من غصون الشجرة[(٦)].

«والمراد منها هنا: أنها مشتقة (من الرحمن)، أي: من الرحم المشتق من اسم الرحمن، فكأنها مشتبكة به اشتباك العروق، وقيل: في وجه الشجنة أن حروف الرحم موجودة في اسم الرحمن، ومتداخلة فيه

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤١٨.
(٢) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ١٤٥.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢١٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم٥٩٨٨، ٨/ ٦.
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٤٤٧.

كتداخل العروق لكونها من أصل واحد، والمعنى: أنها أثر من آثار رحمة الله مشتبكة بها، فالقاطع فيها مقطوع من رحمة الله، والواصل فيها واصل إلى رحمته»[(١)].

والقطع من الله كناية عن حرمان الإحسان، والوصل من الله تعالى كناية عن عظيم إحسانه[(٢)]، بل قد يكون القطع حقيقةً بأن يقطع الله من عمره ورزقه، كما أن في الوصل زيادة في العمر والرزق.

٣. الحجب من دخول الجنة.

من عواقب قطيعة الرحم الحجب من دخول الجنة، لما رواه جبير بن مطعم رضي الله عنه: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يدخل الجنة قاطع)[(٣)].

قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطع رحم[(٤)].

قال الإمام النووي: «هذا الحديث يتأول تأويلين سبقا في نظائره في كتاب الإيمان، أحدهما: حمله على من يستحل القطيعة بلا سبب ولا شبهة مع علمه بتحريمها فهذا كافر يخلد في النار، ولا يدخل الجنة أبدًا، والثاني: معناه ولا يدخلها في أول الأمر مع السابقين، بل يعاقب بتأخره القدر الذي يريده الله تعالى»[(٥)].

٤. تعجيل العقوبة في الدنيا مع ما يؤجل في الآخرة.

من عواقب قطيعة الرحم تعجيل العقوبة في الدنيا مع ما يؤجل في الآخرة ويدل على ذلك ما رواه أبو بكرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم)[(٦)].

٥. الخسران في الدنيا والآخرة.

رتب الله تعالى على نقض العهود وقطيعة الرحم و الفساد في الأرض الخسارة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧].

(١) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٣٠٨٥.
(٢) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٢٠٥، عمدة القاري، العيني ٢٢/ ٩٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم ٥٩٨٤، ٨/ ٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم ٢٥٥٦، ٤/ ١٩٨١.
(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١١٣.
(٦) أخرجه أبي داود في سننه، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، رقم ٤٩٠٢، ٤/ ٢٧٦، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم ٢٥١١، ٤/ ٦٦٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البغي، رقم ٤٢١١، ٢/ ١٤٠٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٧٠٥، ٢/ ٩٩٥.

والخاسرون هم: الهالكون والناقصون أنفسهم حظوظها من رحمة الله بمعصيتهم له، كما يخسر الرجل في تجارته، بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، فكذلك الكافر والمنافق، وقاطع الرحم خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة، أحوج ما كان إلى رحمته[1]، وخسر بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية، واستبدال الإنكار والطعن في الآيات بالإيمان بها، والنظر في حقائقها والاقتباس من أنوارها، واشتراء النقص بالوفاء، والفساد بالصلاح، والعقاب بالثواب[2].

٦. الحرمان من قبول العمل.

الحرمان من قبول العمل من عواقب قطيعة الرحم، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم)[3].

والمعنى: أن من قطع رحمه بنحو إساءة أو هجر، فعمله لا ثواب فيه، وإن كان صحيحًا، ولا تلازم بين الصحة وعدم القبول، وهذا وعيد شديد يفيد أن قطعها كبيرة، بخلاف قطعها بترك الإحسان أو نحوه فليس بكبيرة بل ولا صغيرة، ويحتمل كونه صغيرة في بعض الأحوال[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري١/ ٤١٧.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي١/ ٦٥.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٠٢٧٢، ١٦/ ١٩١، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٧٥٩٥، ١٠/ ٣٤١.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد رقم١٣٤٥٠٨/ ١٥١: أخرجه أحمد، ورجاله ثقات.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٥٣٨، ٢/ ٣٣٩.
(٤) انظر: فيض القدير، المناوي٢/ ٤٢٦.

حقوق الرحم من غير المسلمين

إن الرحم من غير المسلمين إما أن يكونوا مسالمين وإما أن يكونوا محاربين، ولكل نوع من هؤلاء الرحم حقوق يمكن بيانها في النقاط الآتية:

أولًا: حقوق الرحم المسالمين من غير المسلمين:

رخص الله سبحانه في صلة الرحم المسالمين من غير المسلمين الذين لم يقاتلوا المؤمنين، ولم يخرجوا من ديارهم بالإحسان والبر، والقسط إليهم، والعدل معهم، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨][1].

واختلف العلماء فيمن نزلت فيهم هذه الآية:

فقال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت في خزاعة، منهم: هلال بن عديم، وخزيمة، ومزلقة بن مالك بن جعشم، وبنو مدلج، وكانوا صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدًا.

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: (نعم صليها)[2][3].

قال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله عز وجل عم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ؛ لأن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرم، ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح، قد بين صحة ما قلنا في ذلك، الخبر الذي ذكرناه عن ابن الزبير في قصة أسماء وأمها. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ يقول: إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيبرون من برهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم»[4].

ومما يؤيد قول الطبري بأن الآية محكمة

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٨٥.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٧١.

(٤) جامع البيان ٢٣/ ٣٢٣.

غير منسوخة أن هذا قول جمهور المفسرين، ومن أدلتهم: أنها نزلت في أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما جاءت إليها وهي لم تسلم بعد وكان بعد الهجرة، وجاءت لابنتها بهدايا فأبت أن تقبلها منها وأن تستقبلها حتى تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن لها وأمرها بصلتها[(١)(٢)].

ومما ينفي النسخ عدم التعارض بين هذا المعنى، وبين آية السيف؛ لأن شرط النسخ التعارض، وعدم إمكان الجمع، ومعرفة التاريخ، والجمع هنا ممكن والتعارض منفي، وذلك لأن الأمر بالقتال لا يمنع الإحسان قبله، كما أن المسلمين ما كانوا ليفاجئوا قومًا بقتال حتى يدعوهم إلى الإسلام، وهذا من الإحسان قطعًا، ولأنهم قبلوا من أهل الكتاب الجزية، وعاملوا أهل الذمة بكل إحسان وعدالة[(٣)].

ومفهومه: أن المؤمنين إذا كانوا في حالة قوة وعدم خوف وفي مأمن منهم، وليس منهم قتال، وهم في غاية من المسالمة فلا مانع من برهم بالعدل والإقساط معهم، وهذا مما يرفع من شأن الإسلام والمسلمين، بل وفيه دعوة إلى الإسلام بحسن المعاملة، وتأليف القلوب بالإحسان إلى من أحسن إليهم، وعدم معاداة من لم يعادهم، ومما يدل لذلك من القرائن ما جاء في التذييل لهذه الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، كما قابل هذا بالتذييل على الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ففيه مقابلة بين العدل والظلم، فالعدل في الإحسان، والقسط لمن يسالم القريب، والظلم ممن يوالي من يعادي قومه[(٤)].

وقد أوصى الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

أي: صاحبها في الدنيا بالبر والصلة، والعشرة الجميلة وهو المعروف من غير أن تطيعهما في معصيتي[(٥)].

ومن الإحسان إليهما أيضًا: النفقة عليهما كما سبق في حق القرابة في النفقة، وليس من الصحبة بالمعروف تركه جائعًا مع القدرة على سد جوعته، وهذه الصلة والإحسان إليهما واجبة بالإجماع إذا كانا مسالمين[(٦)].

ثانيًا: حقوق الرحم المحاربين:

أما حقوق الرحم المحاربين فهو بمعادتهم ومقاطعتهم وهجرهم، وهذا هو

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٩٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ٨/ ٩٣.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٢٣١، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٨٨.
(٦) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٩٤.

صلة الرحم بهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٩].

والمعنى: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم، وأخرجوكم، وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم، ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١][1].

فالذين قاتلوا المؤمنين في الدين، أي: من أجل الدين، وأخرجوهم من ديارهم، ﴿وَظَاهَرُوا﴾، أي: أعانوا على إخراجهم، أما هؤلاء فهم الذين ينهى الله المؤمنين عن توليهم لهم، أي: موالاتهم وبرهم، والإحسان إليهم، ووصل حبال المودة بهم. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾، أي: يقيم ولاءً معهم، ويبقى على صلة بهم، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: الذين اعتدوا على حق الله، وظلموا أنفسهم بما حملوها من أوزار[2].

ولا يجوز اتخاذ الأولياء والأنصار والأحباب من الذين قاتلوا المسلمين على الدين، وأخرجوهم من ديارهم، وعاونوا على إخراجهم، وهم مشركو أهل مكة، ومن يفعل ذلك بأن يواليهم، فأولئك هم الظلمة المستحقون للعقاب الشديد، والخلاصة: لا ينهى الله عن مبرة الفريق الأول، وإنما ينهى عن تولي الفريق الثاني[3].

وقد أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣].

والمعنى كما قال الرازي: «أنه لا يجتمع الإيمان مع وداد أعداء الله، وذلك لأن من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١١٩.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٩٠٤.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٣٧.

أحب أحدًا امتنع أن يحب مع ذلك عدوه، وهذا على وجهين أحدهما: أنهما لا يجتمعان في القلب، فإذا حصل في القلب وداد أعداء الله، لم يحصل فيه الإيمان، فيكون صاحبه منافقًا، والثاني: أنهما يجتمعان ولكنه معصية وكبيرة، وعلى هذا الوجه لا يكون صاحب هذا الوداد كافرًا بسبب هذا الوداد، بل كان عاصيًا في الله، فإن قيل: أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالطتهم ومعاشرتهم، فما هذه المودة المحرمة المحظورة؟ قلنا: المودة المحظورة هي إرادة منافسه دينًا ودنيًا مع كونه كافرًا، فأما ما سوى ذلك فلا حظر فيه، ثم إنه تعالى بالغ في المنع من هذه المودة من وجوه أولها: ما ذكر أن هذه المودة مع الإيمان لا يجتمعان، وثانيها: قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ والمراد أن الميل إلى هؤلاء أعظم أنواع الميل، ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مغلوبًا مطروحًا بسبب الدين»[1].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

أي: إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا، أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

وقد أمر الله تعالى بقطع موالاة الكفار حيهم وميتهم، فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين، فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣][3].

وعن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله)، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة حتى قال

(١) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٤٩٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٠٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٧٢.

أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[القصص: ٥٦][1].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: (استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت)[2].

قال النووي: «فيه جواز زيارة المشركين في الحياة وقبورهم بعد الوفاة؛ لأنه إذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وفيه النهي عن الاستغفار للكفار، قال القاضي عياض: سبب زيارته صلى الله عليه وسلم قبرها أنه قصد قوة الموعظة والذكرى بمشاهدة قبرها»[3].

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الإحسان، الأمومة، البر، البنوة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم٣٨٨٤، ٥/ ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم ٢٤، ١/ ٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، رقم ٩٧٦، ٢/ ٦٧١.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم٧/ ٤٥.

الرحمة

عناصر الموضوع

مفهوم الرحمة	١١٦
الرحمة في الاستعمال القرآني	١١٧
الألفاظ ذات الصلة	١١٩
الرحمة في حق الله سبحانه وتعالى	١٢٠
من وصف بالرحمة في القرآن	١٣٨
موجبات رحمة الله تعالى	١٤٩
أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله	١٥٩
من مظاهر رحمة الله وآثارها	١٦٢
موقف الخلق من رحمة الله	١٧٢

مفهوم الرحمة

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (ر ح م) حول الرقّة، والعطف.

قال ابن فارس: «الرّاء والحاء والميم أصل واحد، يدل على: الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك: رحمه يرحمه إذا رقّ له وتعطّف عليه، والرّحم والمرحمة والرّحمة بمعنًى»[1].

وقال ابن منظور رحمه الله: «الرحمة: الرقة والتعطف، والرحمة في بني آدم: رقة القلب وعطفه»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر أهل العلم في تعريف الرحمة في الاصطلاح عدة تعريفات مأخوذة من دلالة المعنى اللغوي للكلمة، ومن هذه التعريفات:

قول الراغب الأصفهاني رحمه الله: «الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارةً في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو رحم الله فلانًا»[3].

وقال الكفوي رحمه الله: «الرحمة حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان»[4].

وعرفها بعض الباحثين بقوله: «رقة يجدها المخلوق في قلبه تحمله على العطف والإحسان إلى سواه ومواساته، وتخفيف آلامه»[5].

والرحمة هي السبب الذي بين الله وبين عباده؛ بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم، وبها أنعم عليهم[6].

فالمعنى الاصطلاحي للرحمة لا يبعد عن معناه اللغوي، إلا أنه خص برحمة الله لعباده، ولا ينافي معنى الرحمة أن يكون في بعض التكاليف مشقة.

---

(١) مقاييس اللغة، ٣/ ٣٩٨.
(٢) لسان العرب ١٢/ ٢٣١.
(٣) المفردات ص ١٩١.
(٤) الكليات ص٤٧١.
(٥) الرحمة في القرآن الكريم، موسى عسيري ص٢١-٢٢.
(٦) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٥.

الرحمة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رحم) في القرآن الكريم (٣٣٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]
الفعل المضارع	١٥	﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: ٢١]
المصدر	١١٦	﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨]
اسم الفاعل	٦	﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤]
صيغة المبالغة	١٧٢	﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة: ٣]
اسم التفضيل	٤	﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢]
الاسم	١٣	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]

وأطلقت الرحمة في الاستعمال القرآني على عدة أمور[٢]:

الأول: الإسلام والإيمان: ومنه قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الإنسان: ٣١]، أي: في دينه الإسلام. وقوله تعالى: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨]، أي: الإيمان.

الثاني: الجنة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، أي: في جنته.

الثالث: المطر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٣٠٤-٣٠٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٣٩-٤٢، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٢٤-٢٢٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٣١-٣٣٤، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٢٢٧-٢٢٨.

[الأعراف: ٥٧]، أي: المطر.

الرابع: النبوة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]، أي: مفاتيح النبوة.

الخامس: القرآن: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]، أي: القرآن.

السادس: الرزق: ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، أي: رزق ربي.

السابع: النصر والفتح: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، أي: النصر والفتح.

الثامن: العافية: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨]، أي: عافية.

التاسع: المودة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، أي: مودة.

العاشر: التوفيق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النساء: ٨٣]، أي: توفيقه.

الحادي عشر: العصمة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

الألفاظ ذات الصلة

١ الرأفة:

الرأفة لغة:

أصل مادة (ر أ ف) تدل على رقّة ورحمة، وهي الرّأفة[١].

الرأفة اصطلاحًا:

قال الكفويّ: «الرّأفة مبالغة فى رحمة مخصوصة، هي رفع المكروه وإزالة الضرّ»[٢].

الصلة بين الرأفة والرحمة:

الرّأفة أخص من الرحمة؛ فالرّأفة: أشد الرحمة[٣]، أو الرّأفة: أعلى معاني الرحمة[٤]، أو الرّأفة: ألطف الرحمة وأرقها[٥].

قال الزجاج رحمه الله: «الرّأفة هي المنزلة الثانية، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رءوف»[٦].

٢ القسوة:

القسوة لغةً:

القسوة: الصّلابة في كلّ شيء، والقسوة في القلب تعني ذهاب اللّين والرّحمة والخشوع منه[٧].

القسوة اصطلاحًا:

قال الراغب: «القسوة: غلظ القلب»[٨].

الصلة بين القسوة والرحمة:

العلاقة بينهما التضاد، فالقسوة ضد الرحمة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٧١.
(٢) الكليات ص ٣٧٨.
(٣) انظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٥٩، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٧٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ١٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٢١.
(٥) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٨، تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمن، من سورة الحجرات وحتى الحديد ص٤٢٨.
(٦) تفسير أسماء الله الحسنى ص٦٢.
(٧) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٨٠.
(٨) المفردات ص٦٧١.

الرحمة في حق الله سبحانه وتعالى

الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان: رحمة ذاتية موصوف بها سبحانه على الوجه اللائق به، وإضافتها إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

والرحمة الأخرى: رحمة مخلوقة، وهي من أثر صفة الرحمة الذاتية، وإضافتها إليه سبحانه من إضافة المخلوق إلى خالقه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وكما جاء في الحديث: (فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي)[(١)(٢)].

ورحمة الله وردت في القرآن الكريم صفة له سبحانه، واشتق منها اسمان عظيمان هما الرحمن والرحيم، وسأعرض لما تقدم من خلال النقاط الآتية:

أولًا: ورود الرحمة مفردة صفة لله تعالى:

جاءت رحمة الله في مواضع من القرآن الكريم موصوفة بصفة معينة، ككتابة الله لها على نفسه وكالسعة، والقرب من المحسنين، وسأعرض لهذه الأوصاف والدلالات من خلال الآتي:

١. الرحمة مما كتبه الله سبحانه على نفسه.

ليس لأحد أن يلزم الله شيئًا، ولكن الله يلزم نفسه ما شاء، ومعنى إلزامه أن يخبر به، ووعده جل وعلا صادق لا يتخلف، فما وعد الله به فهو واجب الوقوع لازمه محتوم؛ لأن الله لا يخلف الميعاد[(٣)].

ومما أخبر الله به سبحانه عن نفسه أنه كتب على نفسه الرحمة، أي: أوجبها على نفسه الكريمة تفضلًا منه وإحسانًا؛ وهذه الكتابة كونية قدرية لم يوجبها عليه أحد[(٤)].

قال ابن حجر رحمه الله: « قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ليس معناه أن ذلك لازم له؛ لأنه لا آمر له، ولا ناهي يوجب عليه ما يلزمه المطالبة به، وإنما معناه إنجاز ما وعد به من الثواب،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٨٥، رقم ٢٨٤٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٤٠٨.

(٣) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٣٤٠.

(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الفوزان ص٣٥.

وهو لا يخلف الميعاد»[1].

وقد ورد إخبار الله سبحانه عن نفسه أنه كتب على نفسه الرحمة في موضعين من سورة الأنعام:

الأول: قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[الأنعام: ١٢].

بيّن تعالى كمال إلاهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقات بالكلية، ثم أردفه بكمال رحمته وإحسانه إلى الخلق فقال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[2].

فقضى أنّه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا منه تعالى استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة[3].

و﴿الرَّحْمَةَ﴾ هنا الظاهر أنها عامّة، فتعم المحسن والمسيء في الدنيا، وهي عبارة عن الاتصال بهم والإحسان إليهم، ولم يذكر متعلق الرحمة لمن هي فتعم[4].

قال ابن سعدي رحمه الله: «وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتابًا أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم»[5].

وقد أورد العلاّمة ابن عاشور رحمه الله عدة معانٍ بديعة في وقوع جملة ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ معترضة، حيث قال: «وفي هذا الاعتراض معان: أحدها: أنّ ما بعده لـمّا كان مشعرًا بإنذار بوعيد قدّم له التذكير بأنّه رحيم بعبيده، عساهم يتوبون ويقلعون عن عنادهم، على نحو قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: ٥٤].

والشرك بالله أعظم سوءٍ وأشدّ تلبّسًا بجهالة، والثاني: أنّ الإخبار بأنّ لله ما في السماوات وما في الأرض يثير سؤال سائل عن عدم تعجيل أخذهم على شركهم بمن هم ملكه. فالكافر يقول: لو كان ما تقولون صدقًا لعجّل لنا العذاب، والمؤمن يستبطىء تأخير عقابهم، فكان قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ جوابًا لكلا الفريقين بأنّه تفضّل بالرحمة، فمنها رحمة كاملة: وهذه

(١) فتح الباري ١٣/ ٤١٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١٣٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٧٣.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٨٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٥١.

رحمته بعباده الصالحين، ومنها رحمة موقّتة وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضّالّين، والثالث: أن ما في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ من التمهيد لما في جملة ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ من الوعيد والوعد. ذكرت رحمة الله تعريضًا ببشارة المؤمنين وبتهديد المشركين»[1].

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

جاءت هذه الآية إرشادًا من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في شأن فريق من الناس، وهم الذين يجيئون الرسول آنًا بعد آنٍ مؤمنين بآيات الله المثبتة للتوحيد والرسالة، فيدخلون في الإسلام مذعنين لأمر الله ورسوله[2].

ثم بين سبحانه أن المراد بالرحمة في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ غفرانه ما يعملون من سوء إذا تابوا وأصلحوا، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا﴾ مفسر لتلك الرحمة مبين لها[3].

والتوبة لا بد فيها من ترك الذنوب، والندم عليها، وإصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة، فإذا وجد ذلك كله ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يصب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به[4].

وقريب من هذه الآية[5] قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

فمدلول هذه الآية أن الله ليس عليه حق بقبول توبة أحد من المذنبين، وليس الله براجع لأحد منهم إلى ما يحبه من العفو عنه والصفح عن ذنوبه التي سلفت منه، إلا للذين يزاولون المعاصي عن جهل منهم، وهم من عذاب ربهم مشفقون، فيتوبون من ذنوبهم ويراجعون طاعة الله التي ترضيه، ويلازمون الاستغفار والندم على ما فات

(١) التحرير والتنوير ٧/ ١٥١.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٣٤٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٥٧، العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٣٤١.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٥٨.
(٥) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ١/ ١٣٩.

عازمين على ترك العودة إليه[1].

ومما يجدر الإشارة إليه في ختام الكلام على الآيتين الكريمتين أن ما أخبر الله من أنه سبحانه بأنه كتب على نفسه الرحمة هو الذي دلت عليه السنة، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن الله جل وعلا كتب في كتاب فهو عنده فوق عرشه: (إن رحمتي غلبت غضبي)[2].

وهذا المعنى هو الذي دلت عليه آيات أخرى من كتاب الله، وهو الذي سيكون عنه الحديث في الفقرة الآتية.

٢. سبق رحمة الله غضبه.

بسط الله سبحانه على عباده رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتابًا أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة[3].

وقد جاء هذا المعنى في عدة آيات من كتاب الله تعالى، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

الله سبحانه هو الغني: في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه، الغني عن عباده والكل مفتقر إليه؛ فلا ينفعه إيمان المؤمنين، ولا طاعة الطائعين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

كما لا يضره كفر الكافرين، أو معصية العاصين، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨][4].

وفي الحديث القدسي، الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه، أن الله جل وعلا يقول: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا)[5].

والنكتة في الآية: أن الله بما قدّم قبل هذه الآية من آيات أمر ونهي، وبين ما

(١) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، عبدالرحمن الدوسري ٥/ ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده)، ٣/ ١١٦٦، رقم ٣٠٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، ٤/ ٢١٠٧، رقم ٢٧٥١، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥١.

(٤) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٣/ ٥٦٢.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧، عن أبي ذر رضي الله عنه.

يدخل الجنة وما يدخل النار، ثم نبه خلقه، فكأنه يقول: يا عبادي: لا تظنوا أنني آمركم وأنهاكم لأجل أن أجر بذلك لنفسي نفعًا أو أصرف عنها ضراً، لا، أنا الغني بذاتي الغنى المطلق، وإنما النفع لكم لا لي[1].

ثم تليت هذه الصفة بقوله تعالى: ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ فأردف الاستغناء بالتفضل وهذا أجمل تناسق[2]، والوصف بذي الرحمة يساوي وصف الرحيم؛ لأن ذو تقتضي رسوخ النسبة بين موصوفها وما تضاف إليه[3]، وقوله: ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾، أي: أنه صاحب الرحمة وحده، فهو الرحيم رحمة مطلقة بعباده، ورحمة غيره رحمة نسبية، تليق بالمخلوقات، أما الله تعالى فرحمته واسعة، وسعت كل شيء، خلق الكون والناس برحمته، وخلق العقلاء وكفلهم برحمته، وأنزل من السحاب ماءً مدرارًا برحمته، وخلق من الماء كل شيء حي برحمته، وجعل الأرض مهادًا والجبال أوتادًا برحمته، وخلق الموت والحياة برحمته، وخلق البعث والنشور برحمته، وأنشأ السمع والأبصار والأفئدة برحمته[4].

والمقصود من الوصف بذي الرحمة، تمهيد لمعنى الإمهال الذي في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: فلا يقولنّ أحد لماذا لم يذهب هؤلاء المكذبين، أي: أنه لرحمته أمهلهم إعذارًا لهم[5]؛ فلو شاء لعجل لهم العقاب وسارع إلى إهلاكهم واستخلاف غيرهم، كما أهلك أسلافهم الذين خرجوا من أصلابهم، لكنه تعالى يمهلهم لعلهم يرجعون، ويؤخرهم فعساهم يتوبون[6].

ومن الآيات الدالة على سبق رحمة الله غضبه قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

الله واسع المغفرة، يغفر الذنوب، ويتوب على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخرت عنها مدة طويلة[7].

وفي معنى هذه الآية وردت آيات

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٣٠٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٥٥-٣٥٤.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٥٧.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٦٧٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٦.
(٦) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٣/ ٥٦٢.
(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٠.

كثيرة[1]، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[النحل: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

فإنه لو عاجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة؛ لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السماوات والأرض لا يفوته شيء أراده[2].

ذكر الله تعالى الكفار بالصفات الموجبة للخزي والخذلان[3] في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف: ٥٧].

ولما كان هذا مقتضيًا لأخذهم أتبعه بقوله[4]: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ جريًا على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس؛ فلما رماهم بقوارع التهديد والوعيد عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة؛ لعلهم يتفكرون في مرضاته، ثم التذكير بأنه يشمل الخلق برحمته في حين الوعيد، فيؤخر ما توعدهم به إلى حد معلوم، إمهالًا للناس لعلهم يرجعون عن ضلالهم، ويتدبرون فيما هم فيه من نعم الله تعالى فلعلهم يشكرون[5].

ومن استمر منهم ﴿لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ وهو يحتمل أن يكون المراد ما سيكون عليهم من القتل بأيدي المؤمنين في الدنيا، أو ما سيكون عليهم يوم القيامة الذي لا مفر منه[6]، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾[مريم: ٧٥].

أي: فليهمله الرحمن إمهالًا فيما هو فيه حتى يستدرجه بالإمهال ويموت على ذلك ولا يرجع عنه، بل يستمر على ذلك حتى يرى ما يوعده الله، وهو: إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين، كقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، أو بغير ذلك، وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم على ذلك الكفر[7].

وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٩٣.
(٢) المصدر السابق٣/ ٣٤٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٧٦.
(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٤٨٤.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٦.
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة الكهف ص١٠٦.
(٧) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤٥٠.

ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدًا لهم، أنزل بهم بأسه[1]؛ ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وهذا استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد؛ ليتنبهوا لذلك، ولا يغتروا بتأخر العذاب[2].

٣. سعة رحمة الله.

الله سبحانه واسع الرحمة، له كمال الرحمة، ورحمته قد ملأت العالم العلوي والسفلي وجميع المخلوقات، وشملت الدنيا والآخرة[3].

وهذه الرحمة الواسعة التي عمت البر والفاجر، وجميع المخلوقات، دلّ عليها عدة آيات من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

جمع جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة، بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين، هما جلب النفع ودفع الضر[4]، والله سبحانه قرن في عدة آيات من كتابه بين الترغيب في رحمته، والترهيب من عذابه، كقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

أي: فإن كذبك مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم[5]، فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ تسع جميع خلقه، المحسن والمسيء، لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنّقمة، ولا يدع كرامة من آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثواب عمله، رحمةً منه بكلا الفريقين[6].

فالله سبحانه أمهلهم، وأغدق عليهم نعمه، وأعطاهم العافية والإمهال، وهم يكذبون رسله، ويرتكبون مساخطه، ويتمردون عليه، فسبحانه ما أرحمه[7]!

إلا أنه سبحانه مع سعة رحمته؛ فإن سطوته وعذابه لا يردّه إذا أحله عند غضبه على المجرمين، فقال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٠.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٣١.
(٣) المواهب الربانية من الآيات القرآنية، السعدي ص١١٦.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٧٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٥٧.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٠٦.
(٧) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٤٠٧.

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

وقرن سبحانه بين سعة رحمته وشدة بأسه؛ ليكون الخوف والرجاء جناحين يطير بهما الإنسان إلى امتثال أمر الله، هذا الملك الجبار الذي أدعوكم إليه رحيم عظيم الرحمة الواسعة لمن أطاعه، شديد النكال والبأس لمن عصاه، فعليكم أن تخافوا بأسه ونكاله، وتطمعوا في رحمته فتطيعوه[2].

ومن الآيات الدالة على سعة رحمته قوله تعالى عن حملة العرش ومن حوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وسعتها عموم تعلقها بكل شيء؛ كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلقه بكل معلوم[3].

فما من موجود في الدنيا إلا وقد نالته قسمة من رحمة الله، سواء في ذلك المؤمن والكافر والإنسان والحيوان[4]؛ لأن الله قرن الرحمة مع العلم، فكل ما بلغه علم الله، وعلم الله بالغ لكل شيء، فقد بلغته رحمته، فكما يعلم الكافر، يرحم الكافر أيضًا؛ لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن، فالذي يرزق الكافر هو الله الذي يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك، أما المؤمنون، فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم، لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية[5].

وسعة رحمته تتضمن أنّه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته، فإنّه واسع الرحمة، لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كلّ شيء[6].

ومن الآيات الدالة على سعة رحمته قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهذه الآية قال عنها ابن كثير رحمه الله: «آية عظيمة الشمول والعموم؛ كقوله إخبارًا عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]»[7].

فرحمته سبحانه وسعت العالم العلوي والسفلي، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه[8]، فالعموم في

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٠٦.
(٢) العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٤٠٧.
(٣) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٤١٠.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٩١.
(٥) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص ٢٠٥.
(٦) انظر: الداء والدواء، ابن القيم ص٢٧١.
(٧) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٨١.
(٨) تيسير الكريم الرحمن السعدي ص ٣٠٥.

الرحمة عموم كامل صادق، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولم يقل كل شخص، للإشارة إلى أن الرحمة شاملة عامة للأشياء والأشخاص، فشريعته عدل ورحمة، وإرساله الرسل عدل ورحمة، وخلقه الكون وما فيه من شمس مشرقة مضيئة للكون، وقمر منير، ونجوم ذات بروج، وسحاب ورياح مرسلات رحمة، وهكذا كل ما سخره الله تعالى للإنسان، وما مكنه منه رحمة به[1].

ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[2].

فعموم الرحمة في الآية الكريمة قد ورد ما يخصصه وهو قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[3].

قال ابن عادل رحمه الله: «﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أن رحمته في الدنيا تعم الكل، وأمّا في الآخرة فهي مختصة بالمؤمنين؛ لقوله هنا: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وهذا من العام الذي أريد به الخاص كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]»[4].

فنعيم الجنة رحمة من الله، وقد كتبها الله تعالى للذين يؤمنون بالله وبالآخرة، ولذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[5].

وإن كان المتقون هم أهل الرحمة، والرحمة مرصدة لهم؛ فقد دل القرآن الكريم أيضًا على قربها منهم، وهو ماسيكون الكلام عنه في الفقرة الآتية.

٤. قرب رحمة الله من المحسنين.

الله يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وكتب رحمته ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والذين يتبعون رسوله فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠][6].

فالرحمة مرصدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامر الله ويتركون زواجره[7]، وقد قرّب الله تعالى رحمته لعباده[8] فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وأوضح في موضع آخر صفات عبيده الذين سيكتبها لهم في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٢٩٦٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٥.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٩٢، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٧١.
(٤) اللباب في علوم الكتاب٩/ ٢٣٨.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٢٩٦٦.
(٦) بدائع الفوائد، ابن القيم ٤/ ٣١.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٨١.
(٨) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٢٨٧٠.

﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[الأعراف: ١٥٦][(١)].

جاء ذكر قرب رحمة الله من المحسنين عقب جملة من آداب الدعاء هي: الإخلاص فيه لله وحده، وأن يكون القلب خائفًا طامعًا لا غافلًا ولا آمنًا، ولا غير مبال بالإجابة[(٢)] فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

ولما كان قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مشتملًا على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء، عقّبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنما تنال من دعاه خوفًا وطمعًا، فهو المحسن، والرحمة قريب منه؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله رحمته، ورحمته قريب من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعًا وخفيةً، وخوفًا وطمعًا فقرر مطلوبكم منه، وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة؛ لأنها إحسان من الله عز وجل أرحم الراحمين، وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بعدٌ ببعدٍ، وقربٌ بقرب، فمن تقرب إليه بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيء منه[(٣)].

فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان واستدعائه من النفوس وترغيبها فيه غاية حظ وأشرفه وأجله على الإطلاق، وهو أفضل إعطاء أعطيه العبد، وهو قربه تبارك وتعالى من عبده الذي هو غاية الأماني، ونهاية الآمال، وقرة العيون، وحياة القلوب، وسعادة العبد كلها[(٤)].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٩١.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٢٦-٢٨.
(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم ٤/ ٤٧.

ثانيًا: اسما الله تعالى الرحمن والرحيم:

ورد اسما الله تعالى الرحمن والرحيم منفردين في مواضع من كتاب الله، واقترنا في مواضع أخر من كتاب الله، كما اقترن اسم الرحيم بغيره من الأسماء الحسنى، كما اعتبر بعض أهل العلم الأسماء المضافة مثل: أرحم الراحمين، وعدّها من ضمن الأسماء الحسنى[1].وسأعرض لما تقدم من خلال الآتي:

١ . ورود كل من الاسمين الكريمين منفردًا كل منهما عن الآخر.

الحسن في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون بجمعه إلى غيره فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمالٌ فوق كمال[2].

وقد ورد اسما الله ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ منفردين في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وأما اسم الله ﴿الرَّحِيمُ﴾ فلم يرد في القرآن منفردًا إلا في ثلاثة مواضع هي:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة، ورحمان أبلغ من رحيم، و ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ خاص لله لا يسمى به غيره ولا يوصف، و﴿الرَّحِيمُ﴾ يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال: رحمان[3].

والمعنى الذي حمل عليه أكثر أهل العلم الاسمين الكريمين سواءً وردا منفردين أو مقترنين هو: أن ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، و﴿الرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة. وهذا القول نسبه الشنقيطي رحمه الله إلى أكثر العلماء واختاره[4].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم

(١) انظر: معتقد أهل السنة الجماعة في أسماء الله الحسنى، محمد التميمي ص ١٨٨.
(٢) المصدر السابق ص ٣١٥.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٢١٠.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٨.

جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين»[(١)].

وذكر الشنقيطي رحمه الله قول ابن كثير المتقدم وزاد عليه بقوله: «ومثله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك: ١٩]، أي: ومن رحمانيته: لطفه بالطير وإمساكه إياها صافات وقابضات في جو السماء، ومن أظهر الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ [الرحمن: ١-٢].

إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. فخصهم باسمه الرحيم»[(٢)].

٢. ورود الاسمين الكريمين مقترنين.

ورد هذان الاسمان مقترنين في أكثر من موضع من كتاب الله ومنها قوله تعالى في أول آية من كتاب الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١].

وعن سر الجمع بينهما واقترانهما في آية واحدة رأيان لأهل العلم:

الرأي الأول: أن الرحمن والرحيم بمعنىً واحد، وجمع بينهما تأكيدًا.

قال النحاس رحمه الله: «قال قطرب: يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد[(٣)]؛ وهذا قول حسن، وفي التوكيد أعظم الفائدة، وهو كثير في كلام العرب يستغني عن الاستشهاد»[(٤)].

وقال ابن العربي رحمه الله: «والصحيح أنهما بمعنىً واحد للتأكيد، كندمان ونديم»[(٥)].

الرأي الثاني: التفريق بين الرحمن والرحيم في المعنى، والجمع بينهما ليس للتأكيد.

وأشهر الأقوال التي ذكرت في معناهما قولان:

القول الأول: أن ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، و﴿الرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة.

وهذا القول نسبه الشنقيطي رحمه الله إلى أكثر العلماء واختاره[(٦)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٢٦.
(٢) أضواء البيان ١/ ٤٨.
(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري ١/ ٥٨.
(٤) معاني القرآن ١/ ٥٤.
(٥) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ١/ ٤٠٦.
(٦) أضواء البيان ١/ ٤٨.

قال الخطابي رحمه الله: «﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم وأسباب معايشهم ومصالحهم، وعمت الجميع المؤمن والكافر، وأما الرحيم فخاص للمؤمنين كما قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣][1]».

وقد أورد بعض أهل العلم على هذا القول إشكالًا؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣][2]؛ فلفظ الناس يشمل المؤمنين والكفار جميعًا.

وأجاب عنه ابن عثيمين رحمه الله بقوله: «هذه هي الرحمة العامة التي بها يعيش الناس في دنياهم برزق الله من طعام، وشراب، وكسوة، وغيرها؛ وأما الرحمة الخاصة فهي للمؤمنين خاصة؛ وبها يحصل سعادة الدنيا، والآخرة، كالعلم والإيمان المثمرين لطاعة الله، ورسوله»[3].

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ص ٤٠٦.
(٢) النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، النجدي ١/ ٧٨.
(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثمين، سورة البقرة، ٢/ ١٢١.
وقال رحمه الله في شرح الواسطية ص٢٨: «فيجتمع من الرحمن الرحيم: أن رحمة الله واسعة وأنها واصلة إلى الخلق، وهذا ما أومأ إليه بعضهم بقوله الرحمن: رحمة عامة، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة في الدنيا فقط فكأنها لا رحمة لهم».

القول الثاني: أن ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ دال على صفة ذاتية، و﴿الرَّحِيمُ﴾ دال على صفة فعلية.

وهذا القول: هو اختيار: القرطبي، وابن القيم، وابن عاشور، وابن عثيمين رحمهم الله[4].

قال القرطبي رحمه الله: «وروي عن أبي عبيدة أنه قال: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ذو الرحمة، و﴿الرَّحِيمُ﴾ هو الراحم[5]. قال ابن الحصّار: يشير -والله أعلم- إلى ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ صفة الخالق سبحانه، و﴿الرَّحِيمُ﴾ يدل على أفعاله التي يرحم بها عباده، ولله درّه في هذا القول»[6].

إن التفريق بين الرحمن والرحيم في المعنى أولى من القول أنهما بمعنى واحد والجمع بينهما للتأكيد، وهو الذي تعضده قاعدة من قواعد الترجيح عند المفسرين وهي: قاعدة: التأسيس أولى من التأكيد[7].

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «وينسب إلى قطرب: أن ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ يدلان على معنى واحد من

(٤) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ص ٤٠٦، بدائع الفوائد، ابن القيم ص٤٢.
(٥) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٢١.
(٦) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ص ٤٠٦.
(٧) قواعد الترجيح عند المفسرين، الحربي ٢/ ٤٧٣.

الصفة المشبهة، فهما متساويان، وجعل الجمع بينهما في الآية من قبيل التوكيد اللفظي، ومال إليه الزجاج[1]، وهو وجه ضعيف؛ إذ التوكيد خلاف الأصل والتأسيس خير من التأكيد، والمقام هنا بعيد عن مقتضى التوكيد»[2].

٣. اقتران اسم الله الرحيم ببقية الأسماء الحسنى.

اقترن اسم الله الرحيم بستة أسماء غير اسم الرحمن، وسأذكرها مرتبة حسب الأكثر ورودًا في القرآن، وهي:

الأول: الغفور:

اقترن الاسمان الغفور والرحيم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كلها تقدّم فيها الغفور على الرحيم إلا في موضع واحد وهو قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢]

والغفور: هو الذي يستر الذنوب عن الخلق، ولا يظهرها[3].

والله سبحانه يقرن بين الاسمين الكريمين ﴿الْغَفُورُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾؛ لأنهما دالان على معنىً متشابه؛ ففي المغفرة زوال المكروب وآثار الذنب، وفي الرحمة حصول المطلوب[4].

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن القيم رحمه الله بقوله: «فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم ويهب لهم ذنوبهم، ولا يؤاخذهم بها بمغفرته، فقال: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢]»[5].

وعن سر تقديم الغفور على الرحيم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ في سبأ، فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة فإما بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم، والمغفرة تخصهم والعموم بالطبع قبل الخصوص، كقوله: ﴿فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]»[6].

الثاني: العزيز:

اقترن الاسمان العزيز والرحيم في أكثر من موضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩].

والعزيز: هو الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٢٩.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٧٢.
(٣) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ٢٨، الحجة في بيان المحجة، الأصبهاني ١/ ١٤٤.
(٤) شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص ٢٩٠.
(٥) بدائع الفوائد ١/ ٨٧.
(٦) المصدر السابق ١/ ١١٢.

أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته[1].

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فللإشارة إلى أن العزة على من لم يؤمن منهم، والرحمة لمن آمن[2].

قال أبو حيان رحمه الله: «﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الشعراء: ٩]، أي: الغالب القاهر، ولما كان الموضع موضع بيان القدرة، قدم صفة العزة على صفة الرحمة. فالرحمة إذا كانت عن قدرة، كانت أعظم وقعًا، والمعنى: أنه عز في نقمته من الكفار، ورحم مؤمني كل أمة»[3].

وقال ابن جرير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: «﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الدخان: ٤٢].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يقول جلّ ثناؤه واصفًا نفسه: إن الله هو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه، وأهل طاعته»[4].

الثالث: التـواب:

اقترن الاسمان التواب والرحيم في أكثر من موضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

والتواب من أسمائه تعالى، وهو الكثير القبول لتوبة العبد، أو الكثير الإعانة عليها[5].

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أن الرحيم يدل على تفضله سبحانه على عبده مع التوبة بالرحمة، ورحمته إياه إقالة عثرته، وصفحه عن عقوبة جرمه، فقبول التوبة سبب رحمة الله لعبده[6].

قال ابن سعدي رحمه الله: «وختمه كثيرًا من الآيات بهذين الاسمين ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض من رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه، فمناسبته جليلة لكل أحد، وأنه لما كان هو ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفقهم للأخذ بالأسباب التي يتوب عليهم ويرحمهم بها، ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولًا بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانيًا حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم لطفًا منه ورحمةً بهم»[7].

الرابع: الرؤوف.

اقترن الاسمان الرؤوف والرحيم في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٦.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ٢٢٧.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٧.
(٤) جامع البيان ٢٢/ ٤٢.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٢٠.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٤٨، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٢٠.
(٧) انظر: القواعد الحسان ص٥٣.

أكثر من موضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الرءوف: مأخوذ من الرّأفة، وهي أشد الرحمة، وألطف الرحمة[١].

قال الزجاج رحمه الله: «الرّأفة هي المنزلة الثانية، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رءوف»[٢].

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿رَءُوفٌ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾: فللإفادة أنه تعالى يرحم الرحمة القوية لمستحقها، ويرحم مطلق الرحمة من دون ذلك[٣].

قال ابن عثيمين رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: «﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]: الرءوف: مأخوذ من الرّأفة، وهي أشد الرحمة، وألطف الرحمة، والرحيم: هو ذو الرحمة التي يكون بها الإحسان إلى خلقه، والإنعام عليهم»[٤].

الخامس: الودود.

اقترن الاسمان الودود والرحيم في موضع واحد من كتاب الله، هوقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

والودود من أسمائه تعالى: هو الذي يحب أنبياءه ورسله وأولياءه وعباده المؤمنين فهو الودود بمعنى الوّاد، وهو المودود، أي: المحبوب الذي يستحق أن يحب الحب كله، وأن يكون أحب إلى العبد من سمعه وبصره وجميع محبوباته[٥].

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿الْوَدُودُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ يقول ابن القيم رحمه الله: «وما ألطف اقتران اسم الله الودود بالرحيم؛ فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولايحبّه، وكذلك قد يرحم من لايحبّ، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبّه مع ذلك فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبّه ولو كان منه ما كان»[٦].

السادس: البر.

اقترن الاسمان البر والرحيم في موضع واحد من كتاب الله، هوقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

والبـّر: هو العطوف على عباده، المحسن إليهم، عم ببره جميع خلقه، فلم يبخل عليهم برزقه[٧].

---

(١) أحكام من القرآن الكريم، ابن عثيمين ١/ ٣٨١.
(٢) تفسير أسماء الله الحسنى ص٦٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٥.
(٤) أحكام من القرآن الكريم، ابن عثيمين ١/ ٣٨١.
(٥) انظر: جلاء الأفهام، ابن القيم ٤/ ١٤٤، فتح الرحيم الملك العلام، السعدي ص٥٥.
(٦) التبيان في أقسام القرآن، ص٥٧.
(٧) شأن الدعاء للخطابي ص ٨٩.

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿ٱلبَرُّ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فلأن كليهما عطاء من الله وتكرم، فالرحيم: المريد إكرام عباده المؤمنين في الدنيا بالرزق والعطف والإحسان، وفي الآخرة بالجنة، والبرّ: هو المحسن إلى خلقه؛ عمهم برزقه، وخص من شاء منهم بولايته، ومضاعفة الثواب له على طاعته والتجاوز عن معصيته، وكلا الاسمين فيهما إحسان وإكرام وعطاء وتفضل، وكلا الاسمين نعمة، وهذا كله رحمة[1].

٤. الأسماء المضافة.

ذهب جمع من أهل العلم إلى اعتبار الأسماء المضافة وعدّها من ضمن الأسماء الحسنى[2]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكذلك أسماؤه المضافة مثل: أرحم الراحمين... وغير ذلك ممّا ثبت في الكتاب والسنّة، وثبت في الدّعاء بها بإجماع المسلمين»[3].

ومن الأسماء المضافة ولها تعلق بالرحمة: أرحم الراحمين، وخير الراحمين.

أما أرحم الراحمين: فقد ورد في دعاء أنبياء الله عليهم السلام.

قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأعراف: ١٥١].

وقال عن يوسف عليه السلام في موضعين: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٩٢].

وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣].

وأرحم الراحمين، أي: الأشد رحمة من كل راحم[4]، ومن يرحم غاية الرحمة[5].

قال ابن جرير رحمه الله: «﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأعراف: ١٥١].

يقول: وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئًا»[6].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وكون الله تعالى أرحم الراحمين؛ لأن رحمته أكمل الرحمات لأن كل من رحم غيره فإما أن يرحمه طلبًا للثناء في الدنيا، أو للثواب

(١) رحمة الله أسبابها وآثارها، مسفر الغامدي، ص٢٠٦.
(٢) انظر: معتقد أهل السنة الجماعة في أسماء الله الحسنى، التميمي ص١٨٨.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ٤٨٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١١٨.
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٣١.
(٦) جامع البيان١٣/ ١٣٣.

في الآخرة، أو دفعًا للرقة العارضة للنفس من مشاهدة من تحق الرحمة له، فلم يخل من قصد نفع لنفسه، وأما رحمته تعالى عباده فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العلية»[(١)].

وأما خير الراحمين: فقد ورد في موضعين من القرآن الكريم في سورة المؤمنون وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[المؤمنون: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وخير الراحمين، أي: أفضل من رحم[(٢)]، وخير من رحم[(٣)].

قال الواحدي رحمه الله: «﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، أي: أفضل رحمة من الذين يرحمون»[(٤)].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه»[(٥)].

٥. اقتران الفضل بالرحمة.

اقترن الفضل والرحمة في مواضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤].

وقد ذكر بعض أصحاب الوجوه والنظائر أن الفضل إذا اقترن بالرحمة يكون بمعنى المنة أو النعمة.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ذكر أهل التفسير أن الفضل في القرآن على ثمانية أوجه... السادس: المنة والنعمة، ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]... وفي النور: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]»[(٦)].

وقال الحيري رحمه الله: في بيان الوجوه التي ورد بها الفضل في القرآن الكريم: «أحدها: المنة كقوله في البقرة: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤] وحيث كان»[(٧)].

وقال ابن عثيمين رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النساء: ١١٣]: «والفضل هو العطاء الزائد، والرحمة أعم؛ لأن الرحمة يكون فيها دفع المكروه وحصول المطلوب،

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ١٢٧.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي زمنين ٣/ ٢١٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤٩٦.
(٤) الوسيط ٣/ ٣٠١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٠.
(٦) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٤٧٢.
(٧) وجوه القرآن، الحيري ص ٤١٧. وانظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٦٧.

والفضل حصول المطلوب»[1].

وفي كلام ابن جرير ما يدل للمعنى الذي ذكره ابن عثيمين رحمه الله؛ فقد قال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥]: «يقول: فسوف تنالهم رحمته التي تنجيهم من عقابه، وتوجب لهم ثوابه ورحمته وجنته، ويلحقهم من فضله ما لحق أهل الإيمان به والتصديق برسله»[2].

من وصف بالرحمة في القرآن

الله أرحم الراحمين، جعل الرحمة صفةً له سبحانه، ووصف بها من شاء في كتابه، فوصف كتبه، وأنبياءه، وعباده المؤمنين، وبعض مخلوقاته بالرحمة، وسأعرض لمن وصفهم بها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الكتب السماوية:

نعمة إنزال الكتب من أجل النعم التي أنعم الله بها عباده.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

قال الخازن: «قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني: إنزاله عليهم رحمةً مني عليهم»[3]؛ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية[4].

ومن أعظم الكتب المنزلة: القرآن، والتوراة؛ وجرت العادة أن الله ينوه بالتوراة والقرآن معا؛ لأنهما أعظم الكتب المنزلة؛ لأنه قبل نزول القرآن كانت التوراة أعظم

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ٢/ ٢٠٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٢٩.
(٣) لباب التأويل ٢/ ٢٠١.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٣.

الكتب المنزلة وأجمعها للأحكام، كما قال الله فيه: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٥٤].

فلما نزل القرآن كان أشمل كتاب وأعظمه؛ لأنه جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، وزاد فيه أشياء لم تنزل على غيره؛ ولذا لما نزلت التوراة في قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: ١٥٤].

نوّه بالقرآن العظيم بعده فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام: ١٥٥].

ومثل هذا يتكرر في القرآن[١].

وقد ورد وصف كلا الكتابين بالرحمة كما تقدم في الآيتين من سورة الأنعام، كما اقترن وصف الرحمة في كليهما بأوصاف أخرى، كوصفهما بالهدى والبصائر.

قال الشنقيطي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[الجاثية: ٢٠]: «وما تضمنته آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة، ذكر تعالى مثله في سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[القصص: ٤٣]»[٢].

وقد جاءت الرحمة بصيغة التنكير في وصف كلا الكتابين في جميع المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم؛ للدلالة على التعظيم والتفخيم؛ حيث لا يقدر قدرها ولا يدرك شأنها[٣].

قال الشوكاني رحمة الله: «والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة»[٤].

وقد قصر الله الرحمة التي تضمنتها تلك الكتب على المؤمنين فقط، فقال تعالى في التوراة: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[الأعراف: ١٥٤].

فليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[٥]، الذين هم يخافون الله؛ وخصهم لأنهم هم المنتفعون به[٦].

---

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٥٢٥، ٥٢٤.

(٢) أضواء البيان ٧/ ٣٨٠.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٥٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٥.

(٤) فتح القدير ٢/ ٢٨٥.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٣.

(٦) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ١٩٠.

وقال تعالى أيضًا عن التوراة: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [هود: ١٧].

أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم، وقدوةً يقتدون بها، ورحمةً من الله بهم؛ فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [هود: ١٧][1].

وقال سبحانه في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فالهدى هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدى به، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين، وإذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور[2].

ومما يجدر الإشارة إليه أن التوارة رحمة لمن أنزلت إليهم قبل أن تنسخ بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فكانوا يرجعون إليها في أمور الدين والأحكام، فهداهم الله بها من الضلال؛ وهذا هو السبب للرحمة حتى نسخ الله منها ما نسخ[3]؛ فلا يستدل بالمطبوع من التوراة الذي يغيّر إلى الآن آنًا بعد آنٍ، تقرؤه تجد في ذاته دليل بطلانه، وبرهان بهتانه[4].

ثانيًا: الرسل:

الرحمة صفة الأنبياء والمرسلين، وقد جاء ذلك مصرحًا به في القرآن الكريم؛ فقال تعالى عن نبيه يحيى عليه السلام ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].

والحنان هو الرحمة، والعطف والشفقة[5]؛ وقد أعطاه الله هذه الصفة لا بتربية ولا تعليم، فهو مهدي حنون شفيق بمقتضى تكوينه الفطري، ولذا قال تعالى: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾[6]، فأعطاه الله تلك الرحمة التي تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله[7]، ويجوز أن يكون المعنى أعطيناه رحمةً من لدنا كائنةً في قلبه يتحنن بها على الناس؛ حتى يخلصهم من الكفر[8].

والمعنيان متلازمان؛ قال البغوي رحمه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٦٦.
(٣) انظر: الرحمة في القرآن الكريم، موسى عسيري ص١٤٣.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٦٨٧.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٨٨.
(٦) انظر: زهرة التفاسير ٩/ ٤٦١٨.
(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٠.
(٨) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٢٦.

الله: «ومعنى الآية: وآتيناه رحمةً من عندنا وتحننًا على العباد، ليدعوهم إلى طاعة ربهم»[1].

والحنان صفةٌ ضرورية للنبي المكلف برعاية القلوب والنفوس، وتأليفها واجتذابها إلى الخير في رفق[2]؛ ولذا قال تعالى في وصف نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: برحمة الله لك ولأصحابك، منّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك؛ لأن الأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص؛ فلذا كان من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، معاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالًا لأمر الله، وجذبًا لعباد الله لدين الله[3].

وقال تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

رحمة من الله عز وجل لمريم؛ لما حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة[4]؛ لأنها صارت به أم نبي، له وجاهته ومكانته في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

ورحمة من الله به حيث جعله نبيًا يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده في مهده وكهولته، كما قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥][5].

ورحمة لمن آمن به؛ لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير؛ لأن كل نبي رحمة لأمته[6].

وخاتم الأنبياء وأفضلهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وصفه ربه بالرحمة في آيات عدة من كتاب الله، وأخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه بقوله: (إنما أنا رحمة مهداة)[7].

(١) معالم التنزيل ٥/ ٢٢٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٠٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٤.
(٤) انظر: المصدر السابق ص ٤٩١.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٢٢.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٧٩.
(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٩١، رقم

ومن الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

اشتملت هذه الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته؛ بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه[١].

والرحمة على عمومها في الآية الكريمة، وهذا العموم يحتمل وجهين:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته[٢]؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق، وكان رحمةً للمؤمنين حيث هداهم طريق الجنة، ورحمةً للمنافقين حيث أمنوا القتل، ورحمةً للكافرين بتأخير العذاب[٣].

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة، فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمةً لهم لكن لم يقبلوها[٤].

وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلًا قال: لو فجر الله عينًا للخلق غزيرة الماء، سهلة التنازل، فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها، فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل، فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها[٥]، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال الله تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤][٦].

ومن الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ

١٠٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرطهما. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٦٣.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٦٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٥٢.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٥.

(٤) انظر: جلاء الأفهام ص٢٨٨. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٨٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٣٢.

(٥) انظر: أضواء البيان ٤/ ٢٨٨.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٨٥، أضواء البيان ٤/ ٢٨٨.

﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

كان النبي صلى الله عليه وسلم يسعى في إيصال الخير والرحمة إلى المنافقين مع كونهم في غاية الخبث والخزي، ثم إنهم بعد ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة، وخيراته بالشرور[١]؛ وقد جرأهم على ذلك إغضاؤه صلى الله عليه وسلم عن إجرامهم وإمهالهم حتى يتمكن من الإيمان من وفقه الله للإيمان منهم[٢]؛ فإنه لو أمره الله تعالى أن يعاملهم بما يخفون من الكفر لكان ذلك أمرًا بقطع رقابهم، وبقاؤهم خير لهم بالمعنى الذي يعتقدونه من لفظ الخير، وخير لهم في نفس الأمر؛ لأنه إمهال لهم يرجى أن يتوب بسببه من فيه استعداد للإيمان منهم بما يراه من آيات الله، وتأييده لرسوله وللمؤمنين[٣].

وخص المؤمنين في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ وإن كان رحمة للعالمين، لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا بالذكر وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيتهم[٤].

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا: من اتبعه واهتدى بهداه، وصدّق بما جاء به من عند ربه، لأن الله استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتّباعه جنّاته[٥].

ولذا قال أبو الليث السمرقندي رحمه الله: «﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ في السر والعلانية»[٦].

ويؤيد هذا القول: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهو مقابل قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾، يدل على إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول أو الفعل ينافي الإيمان الذي هو سبب الرحمة، فجزاؤه ضد جزائه وهو العذاب الشديد الإيلام[٧].

وقيل المراد بالذين آمنوا هنا: المتظاهرون بالإيمان المبطنون للكفر، وهم المنافقون[٨].

وكونه رحمةً لهم؛ لأنه قبل منهم الإيمان الظاهر، لا تصديقًا لهم بل رفقًا بهم، ولم يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم، وأنه رحمة لهم بقبول ظواهرهم ومعاملتهم بها معاملة المؤمنين[٩].

ويؤيد هذا أن الله قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي١٦/ ٩٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور١٠/ ٢٤٣.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٦٤.
(٤) انظر: المنار، محمد رشيد رضا١٠/ ٤٤٨.
(٥) انظر: جامع البيان ١٨/ ٥٥٢.
(٦) تفسير السمرقندي ٢/ ٦٩.
(٧) انظر: المنار، محمد رشيد رضا١٠/ ٤٤٩.
(٨) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور١٠/ ٢٤٤.
(٩) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٧١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٧٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٢٩، روح المعاني، الألوسي١٠/ ١٢٧.

بالوصف[1].

وهذا القول لم يرتضه عدد من أهل العلم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما بعث رحمة لمن آمن به حقًا، وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم[2].

وأما قولهم: أن الله قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف؛ فهذا القول ضعيف؛ لأن كثيراً ما ناط التنزيل الجزاء على الإيمان بالتعبير عن أهله بالفعل الماضي[3].

وأما تفسيرهم كونه رحمةً بالمنافقين بستره عليهم وقبول الإيمان منهم ظاهرًا؛ فهو خطأ أيضًا؛ لأن ذلك يعتبر استدراجًا من الله لهم، وكيف يكون رحمةً لهم وهم يعيشون في الدنيا في أسوأ حال، وهم يتوقعون في كل يوم أن يوقع بهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا انكشفوا وظهرت حقيقتهم، وسيؤول أمرهم في الآخرة إلى أسوأ حال حيث يكونون في الدرك الأسفل من النار؟![4].

ومن الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وصف الله رسوله بصفتين من صفاته العلى، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، فإنه قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا نهاية الكرامة[5].

وتقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار؛ وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني؛ فهو صلى الله عليه وسلم يسعى بشدة في إيصال الخير والنفع للمؤمنين، وفي إزالة كل مكروه عنهم[6].

ولما كانت الرأفة والرحمة خاصة جاء متعلقها خاصًا وهو قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[7]؛ للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم، وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فهي رحمة مشوبة بشدة على غير

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٨.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤١.
(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٨.
(٤) انظر: المنافقون في القرآن الكريم، الحميدي ص٤١٩.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٦٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤٤٢.
(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٥٢.
(٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٢٠.

المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم[1].

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «وتخصيص رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين، لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين، كما هو ظاهر، فإن هذه الرحمة مبذولة لجميع الأمم، لعموم بعثته صلى الله عليه وسلم ولكن منهم من قبلها ومنهم من ردّها، وقد بيّنا في تفسير ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة: ٧٣]، أنه إنما أمر بذلك صلوات الله تعالى عليه؛ لأن الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة، والأدب في المقابلة والمعاشرة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩]»[2].

ثالثًا: المؤمنون:

وصف الله عباده المؤمنين بالرحمة في عدة آيات من كتابه مدحًا وثناءً عليهم بهذه الصفة، ومنها قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ابتدأ الله سبحانه الآية الكريمة بوصف رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾، وهو مشتمل على كل وصف جميل[3]؛ ومن الصفات الجميلة التي وصف الله بها نبيه أنه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وارتضى لعباده المؤمنين ما ارتضاه لنبيه صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالتأسي به، ووصفهم بقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[4].

وفي وصف أصحابه بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، مدح عظيم لهم، وجمع بين الوصفين على سبيل الاحتراس، فهم ليسوا أشداء مطلقًا، ولا رحماء مطلقًا، وإنما شدتهم على أعدائهم، ورحمتهم لإخوانهم في العقيدة، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤][5].

وفي هذا إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الروية[6]؛ لأن الشدة في محل اللين هي من الحمق والخرق، واللين في محل الشدة هو من الضعف والخور، والسداد والحكمة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٧٣.
(٢) المنار ١١/ ٧٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٦٠.
(٤) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١١٩.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ١٢٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠٥.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٠٥.

أن تكون الشدة في محل الشدة، واللين في محل اللين[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيمًا برًا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ١٢٣].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر)[2]، وقال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه)[3]»[4].

ومن الآيات التي وصف الله بها عباده المؤمنين بالرحمة، ما وصف به الحواريين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[الحديد: ٢٧].

ثناء من الله على أتباع عيسى عليه السلام، وهم الحواريين، الذين اتبعوا عيسى على منهاجه وشريعته[5]، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[الصف: ١٤].

ووصف لهم بما وصف به صحابة نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩][6].

وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الرأفة رحمة خاصة، تتعلق بدفع الأذى والضر، أما الرحمة فهي أشمل وأعم؛ لأنها عطف وشفقة على كل من كان في حاجة إليها[7].

ومعنى جعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتّبعوه: أن تعاليم الإنجيل الذي آتاه الله عيسى أمرتهم بالتخلق بالرأفة والرحمة فعملوا بها، أو أن ارتياضهم بسيرة عيسى عليه السلام أرسخ ذلك في قلوبهم وذلك بجعل الله تعالى؛ لأنه أمرهم به ويسّره عليهم، ذلك أن عيسى بعث لتهذيب نفوس

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ١٥٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٥/ ٢٢٣٨، رقم ٥٦٦٥، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٤/ ١٩٩٩، رقم ٢٥٨٦، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، ٢/ ٨٦٣، رقم ٢٣١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٤/ ١٩٩٩، رقم ٢٥٨٥، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٦٠.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢١٣، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٤/ ١٠٠.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٠٢.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٢١.

اليهود، واقتلاع القسوة من قلوبهم التي تخلقوا بها في أجيال طويلة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤][١].

بل إن الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢][٢].

ولكن بعد أن كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم صاروا أغلظ الناس، أو من أغلظ الناس، كما جرى بين المسلمين وبين النصارى في الحروب الصليبية[٣]، وتمالؤهم مع اليهود ضد الإسلام والمسلمين منذ القدم إلى يومنا هذا تبين حقيقة عداوتهم للإسلام والمسلمين[٤].

ومن الآيات التي وصف الله بها عباده المؤمنين بالرحمة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

التواصي بالصبر على الشدائد والطاعات، وعن المعاصي والسيئات، والتواصي بالتراحم، من شأنه أن يفتح الباب أمام سائر الفضائل، ويغلق الطريق دون سائر الرذائل، وهذا عنوان أهل الميمنة[٥]؛ لأن هاتين الصفتين على رأس الصفات الفاضلة بعد الإيمان بالله[٦].

فالصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها؛ لأنها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية وذلك من الصبر، والمرحمة ملاك صلاح الجامعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والتواصي بالرحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضًا كناية عن اتصافهم بالمرحمة؛ لأن من يوصي بالمرحمة هو الذي عرف قدرها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصي بها[٧].

وقد قرن الله بين الصبر والمرحمة في الآية الكريمة والناس أربعة أقسام: منهم من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس[٨].

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، من سورة الحجرات وحتى الحديد ص٤٢٧.
(٤) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، اللاحم ١/ ٥٤٣.
(٥) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم٩/ ١٣٨.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٥/ ٤٠٧.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٦١.
(٨) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٤٧.

فالذين اتصفوا بالصبر والرحمة، هم الذين وفقهم الله لاقتحام العقبة التي ذكرها الله في الآيات التي تسبق هذه الآية[1].

قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١١-١٦].

ففكوا الرقاب، وأطعموا المساكين، وواسوا ذوي القربى في يوم المسغبة؛ ولذا كانوا هم السعداء الممتعون بجنات النعيم[2] ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٨]؛ الذين يؤتون كتابهم يوم القيامة بأيمانهم، ومن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله مسرورًا[3].

رابعًا: الغيث:

المطر رحمة من الله يرحم بها عباده في الدنيا فيكونون في جدب وفي فقر، ومواشيهم على وشك الهلاك، فيغيثهم الله بالمطر، فتنبت زروعهم وثمارهم وتنعم مواشيهم فتكثر عندهم اللحوم والأسمان والأزباد، وتتوفر عندهم الأشعار والأصواف والأوبار، ينسجون منها اللباس وغيره من الفرش والخيام وما جرى مجرى ذلك. فهذا من غرائب آياته، وعظائم نعمه، فهذا هو أصل النعم الدنيوية على الخلق[4]؛ ولذا سماه الله رحمة في أكثر من موضع من كتابه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

فالحياة على هذه الأرض كلها تعيش على ماء المطر إما مباشرة، وإما بما ينشئه من جداول وأنهار على سطح الأرض، ومن ينابيع وعيون وآبار من المياه الجوفية المتسربة إلى باطن الأرض منه، ولكن الذين يعيشون مباشرة على المطر هم الذين يدركون رحمة الله الممثلة فيه إدراكًا صحيحًا كاملًا، وهم يتطلعون إليه شاعرين بأن حياتهم كلها متوقفة عليه، وهم يترقبون الرياح التي يعرفونها تسوق السحب، ويستبشرون بها؛ ويحسون فيها رحمة الله إن كانوا ممن شرح الله صدورهم للإيمان[5].

فإذا انقطع عنهم المطر مدة وظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالًا، فينزل الله الغيث وينشر به رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعًا عظيمًا، ويستبشرون

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٧٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٢٤.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ١٦٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم، ص٢١٨.
(٤) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٤١٦، ٤١٥.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٧٠.

بذلك ويفرحون[1]، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[الشورى: ٢٨]

وقد أمرهم تعالى أن ينظروا نظرة تعقل واتعاظ واستبصار، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر، وكيف أن نزوله حول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح، وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة[2]، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الروم: ٤٨-٥٠].

فبعد أن بيّن استبشار الناس بنزوله بعد الإبلاس؛ اعترض بذكر الأمر بالنظر إلى أثر الرحمة وإغاثة الله عباده حين يحيي لهم الأرض بعد موتها بالجفاف، والأمر بالنظر للاعتبار والاستدلال[3]؛ فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾، يعني: المطر، ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[4].

موجبات رحمة الله تعالى

إن رحمة الله جل وعلا تستجلب بأسباب ذكرها الله في كتابه، ومن هذه الأسباب:

١. الإيمان والهجرة والجهاد.

الإيمان الصحيح الذي يحشو قلوب أهله بحب الله وتعظيمه، ويجعلهم يتفانون في طاعة الله ورسوله ويفضلونها على الأهل والعشيرة والأوطان والمال والإخوان والجاه وكل متع الدنيا ولذاتها، فيهجرونها في سبيل الله، ويعرضون أنفسهم للمكابد؛ والمكائد، فيجاهدون ابتغاء وجهه الكريم[5]؛ فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة[6]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٨].

وبين جل وعلا في موضع آخر أن من قام بهذه الأعمال المذكورة، أنهم أعظم درجة عند الله من جميع الخلق[7]، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥٨.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ٩٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٢٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢٣.
(٥) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٣/ ٣٥٧.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٨.
(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/ ٤٤٢.

﴿الْفَائِزُونَ﴾[التوبة: ٢٠].

ثم بين الدرجة العظيمة التي في قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾[التوبة: ٢١-٢٢].

فتلك الدرجة: هي عناية الله تعالى بهم بإدخال المسرة عليهم، وتحقيق فوزهم، وتعريفهم برضوانه عليهم، ورحمته بهم، وبما أعد لهم من النعيم الدائم[١].

٢. طاعة الله ورسوله؛ وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

انتظمت هذه الطاعات والعبادات التي جعلها الله من موجبات رحمته في آية من كتاب الله تعالى، أبان الله فيها حسن حال المؤمنين والمؤمنات في الحال والمآل فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٧١].

وابتدأها بالإشارة إلى أنّ اللحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فيها على السواء ليس واحد منهم مقلّدًا للآخر، ولا تابعًا له على غير بصيرة؛ لما في معنى الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر[٢].

ثم بين الصفات التي أوجبت لهم رحمة الله.

ومنها: طاعة الله ورسوله التي هي سبب للرحمة[٣] كما تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

فأمر الله المؤمنين أن يطيعوا اللّه في كل ما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول صلوات الله وسلامه عليه، سالكين وراءه فيما به أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعلكم بهذه الطاعة تكونون في رحمة من الله؛ ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١][٤].

والمراد: أنه تعالى يتعهد المؤمنين والمؤمنات برحمته الخاصة المستمرة في مستقبل أمرهم في الدنيا والآخرة، باستمرارهم على طاعته وطاعة رسوله[٥].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٤٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٢٦٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة آل عمران، ٢/ ١٦٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٨١.

(٥) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٦٩.

ومن الصفات التي أوجبت لهم رحمة الله: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

الصلاة والزكاة أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى العبيد فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو متمنٍ كاذب، وقد منّته نفسه الأماني الكاذبة[(١)].

وخص الله الزكاة بكونها سببًا من أسباب الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وخصها دون ما عداها من الطاعات؛ لأن النفوس شحيحة ففتنته تقتضي أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين غيرها من الطاعات[(٢)].

ويفهم من هذه الآية من مفهوم مخالفتها: أن الذين لا يتقون الشرك ولا المعاصي، ولا يؤتون الزكاة لا تكتب لهم هذه الرحمة، وقد بين تعالى ذلك في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: ٦-٧][(٣)].

ومن الصفات التي أوجبت لهم رحمة الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وهاتان الصفتان من أخص صفات المؤمنين التي يمتازون بها على المنافقين وعلى غيرهم من الكفار، هما سياج حفظ الفضائل، ومنع فشو الرذائل[(٤)]، والمعروف اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، والمنكر كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة[(٥)].

ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو بعيد عن رحمة الله، مستحق لغضب الله ولعنته، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٣.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٨٠.
(٣) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ٢٠٥.
(٤) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٦٧.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٣.

عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨]

فهذه الصفات الأربع استوجب بها المؤمنون رحمة الله.

وبعد أن بيّن صفاته ورحمته لهم إجمالًا بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾؛ بين ما وعدهم به من الجزاء المفسر لرحمته تفصيلًا؛ للتنبيه على أنّ تلك الرحمة هي هذه الأشياء[1] فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

٣. الصبر.

الصابرون المحتسبون على المصائب، عليهم من ربهم الرحمن الرحيم صلواته العامة ورحمته الخاصة[2]، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة؛ ثناء وتنويه بحالهم ورحمة عظيمة، أولها توفيقه إياهم للصبر الذين ينالون به الأجر، وجبرهم في مصيبتهم بأن يخلف عليهم خيرًا منها[3].

فالله تعالى لم يمن على عباده الصابرين بالمغفرة والرضوان فقط، وحسبهما جزاءً للصبر ولكن منّ بالرحمة، رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء، فرحمهم في الدنيا بالهداية والتوفيق لفعل الخير، ورحمهم في الآخرة بالنعيم المقيم[4].

وهذه الرحمة يحسدهم عليها الكافرون، فإن الكافر الذي حرم من هذه الرحمة، إذا نزلت به المصيبة تضيق به الأرض بما رحبت، حتى لقد يقضي على نفسه بيده إذا لم يجد وسيلةً للخلاص مما حلّ به[5]؛ فمن لم يصبر فهو محروم من صلوات الله ورحمته وهدايته[6].

٤. العفو.

القصاص في النفس والجراح كان حتمًا في التوراة على اليهود، ولم يكن لهم أخذ الدية، وكان في شرع النصارى الدية ولم يكن لهم القصاص، فخير الله تعالى هذه الأمة بين القصاص وبين العفو عن الدية

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٥٧.
(٢) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٢/ ٤٦٩.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٧٥.
(٥) انظر: تفسير المراغي ١/ ٢٥٦.
(٦) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم الدوسري ٢/ ٤٦٩.

تخفيفًا منه ورحمة[1]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فالإسلام قد جمع في تشريعه الحكيم لعقوبة القتل بين العدل والرحمة، فالأخذ بالقصاص عدل، والأخذ بالعفو رحمة[2].

وكان العفو والدية تخفيفًا من الله إذ فيه انتفاع الولي بالدّية، وحصول الأجر بالعفو استبقاء مهجة القاتل، وبذل ما سوى النفس هين في استبقائها[3].

وقد رغب الشارع في العفو بما يحرك عاطفة الرحمة والحنان[4]؛ بذكر الأخوة الرابطة التي لم يقطعها الاعتداء؛ لأنها برباط الله تعالى فلا يفكه العبد[5]، فقال: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ ترقيق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجانًا[6].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٤٣.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٧.
(٤) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٣/ ٤٢.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٥٣٦.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤.

وإنما كانوا العفو رحمة؛ لأن من استبقى مهجتك بعد استحقاق إتلافها فقد رحمك؛ وأي رحمة أعظم من ذلك؟ ولعل القاتل المعفو عنه يستقل من الأعمال الصالحة في المدة التي عاشها بعد استحقاق قتله ما يمحو به هذه الفعلة الشنعاء، فمن الرحمة إمهاله لعله يصلح أعماله[7].

وكذلك العفو رحمة بالعافي إذ به يتخلص من الأحقاد، وأضغانها، ورحمة بالأمة لكونه بدل أن ينقص عددها اثنين ينقص إلى واحد، وبدل أن تتبادل الدماء تنتهي المعركة[8].

فبالعدالة والرحمة تسعد الأمم وتطمئن في حياتها؛ إذ العدالة هي التي تكسر شر النفوس، وتغسل غل الصدور، وتردع الجاني عن التمادي في الاعتداء، لأنه يعلم علم اليقين أن من وراء الاعتداء قصاصًا عادلًا، والرحمة هي التي تفتح الطريق أمام القلوب لكي تلتئم بعد التصدع وتتلاقى بعد التفرق، وتتواد بعد التعادي، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو؛ فلله هذا التشريع الحكيم الذي ما أحوج العالم إلى الأخذ به، والتمسك بتوجيهاته[9].

٥. الموت في سبيل الله.

(٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٧.
(٨) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٥٣٧.
(٩) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٣٧٢.

الموت في سبيل الله، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني[1]، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[آل عمران: ١٧٥].

في هذه الآية ترغيب للمؤمنين في الجهاد وأنه مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون؛ وتعزية لهم وتسلية مما أصابهم في سبيل الله تعالى[2]؛ لأنه سبحانه لا يختارهم لشيء أفضل مما عنده، ولا يختار الجزاء الدنيوي فقط مهما عظم وضخم؛ لأنه لا يساوي شيئًا مما في الآخرة، فبموت المؤمن أوقتله يتخلص من عدوه ويلحق بمحبوبه الرب العظيم، فكان جزاؤه منه سبحانه المغفرة والرحمة التي لا تعدلها الدنيا ثمنًا[3]؛ لأن الشيء يعظم بعظم باذله ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾[4]؛ وجمع بينهما ليكمل للإنسان سعادته؛ إذ بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب[5]، فالمغفرة تمحو ما كان من ذنوبه، والرحمة ترفع درجاته[6].

وذكر رحمة الله تعالى في هذا المقام؛ لكيلا تذهب نفوس المؤمنين حسرة على من ماتوا منهم، فإنهم ليسوا في شقاء بل هم في نعيم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩][7].

٦. الاعتصام بالله.

وعد الله المؤمنين المعتصمين به بالرحمة والفضل والهداية، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[النساء: ١٧٥].

فالذين اعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب، ولجأوا إليه واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم واستعانوا بربهم[8]؛ ستنالهم الرحمة العاجلة والآجلة[9]، الرحمة العاجلة في الدنيا بأن يكونوا في سعادة واطمئنان وهدوء بال[10]؛ لأن أنعم الناس بالًا وأشدهم انشراحًا في الصدور هم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٧.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٠٤.
(٣) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٤/ ٣٨٤.
(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة آل عمران ٢/ ٣٥٩.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٣٦٠.
(٦) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١١٠.
(٧) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٤٧٢، تفسير المراغي ٤/ ١١٠.
(٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١٧.
(٩) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ٢/ ٥٣٣.
(١٠) انظر: زهرة التفاسير ٤/ ١٩٩٤.

المؤمنون المعتصمون بالله[1]، وأما الرحمة الآجلة فهي النعيم المقيم، وجنات عدن خالدين فيها أبدًا[2].

ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرمهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالًا مبينًا، عقوبةً لهم على تركهم الإيمان فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة[3].

٧. التقوى.

تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه سبب لرحمة أرحم الراحمين[4]، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف: ١٥٦].

فرحمته سبحانه وسعت العالم العلوي والسفلي، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[5] [الأعراف: ١٥٦].

لأن الإقبال إلى الله عز وجل، واجتناب معصيته -الذي هو التقوى- سبب للرحمة[6]، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[يس: ٤٥].

أي: فيرحمكم ربكم إن أنتم حذرتم ذلك، واتقيتموه بالتوبة من شرككم والإيمان به، ولزوم طاعته فيما أوجب عليكم من فرائضه[7].

ولذا قال نبي الله نوح عليه السلام لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهرًا وباطنًا، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة[8].

قال الرازي رحمه الله: «وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ٢/ ٥٣٣.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٩٩٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١٧.
(٤) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، اللاحم ١/ ٤٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٥.
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة يس ص١٦١.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٢٦.
(٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٩٢.

كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة»[1].

بل جاء ما يدل على زيادة الرحمة لأهل التقوى فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: ٢٨].

فهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم أعطاهم الله ﴿كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى: أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى[2].

٨. قراءة القرآن والاستماع والإنصات إليه.

الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن، والحصانة من نزغ الشيطان، هي الاستماع له إذا قرئ، والإنصات مدة القراءة[3] كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤].

وقد جاء الأمر بالاستماع والإنصات بعد أن وصف القرآن بأنه بصائر وهدى ورحمة في قوله: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤]؛ لأنّ الذي اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة حريّ بأن يصغى إليه، حتى يحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة وينتفع بها؛ فيستبصر من العمى ويهتدي من الضلال ويرحم بها[4].

والخطاب في قوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ﴾ إن كان للكفار فترجى لهم الرحمة باستماعه والإصغاء إليه بأن كان سببًا لإيمانهم، وإن كان للمؤمنين فرحمتهم هو ثوابهم على الاستماع والإنصات والعمل بمقتضاه، وإن كان للجميع فرحمة كلّ منهم على ما يناسبه[5].

فمن لازم الاستماع والإنصات؛ حين يتلى كتاب اللّه، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدًى متزايدًا، وبصيرةً في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما؛ فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خيركثير[6].

٩. البراءة من عبادة غير الله.

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٤/ ١٢٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٣.
(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٤٦١.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٤٤٨.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.

اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبوديهم من أسباب لطف الله به ورحمته[1]، كما قال تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

فهؤلاء الفتية بعد تقريرهم لعقيدة التوحيد، وإبطالهم لعقيدة الشرك وبراءتهم من الكفر وأهله بينوا واجبهم الذي يتحتم عليهم فعله، وهو اعتزال قومهم، وما يعبدون من دون الله، والبراءة من شركهم[2].

فلما اعتزلوه أمرهم الله بالتوجه للكهف؛ وفي هذا دليل على ما كانوا عليه من التوكل حيث أووا إلى كهف، ورتبوا على مأواهم إليه نشر رحمة الله عليهم، وتهيئة رفقه تعالى بهم؛ لأن من أخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان لا يضيعهم[3].

وقبل هذا أخبر سبحانه أنهم دعوه بقولهم: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقًا، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة[4].

وفي معنى هذه الآية أيضًا قوله تعالى في نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٥٠].

واعتزالهم إياهم هو مجانبتهم لهم، وفرارهم منهم بدينهم[5].

والرحمة تذكر هنا؛ لأنها هبة الله التي تعوض إبراهيم عن أهله ودياره، وتؤنسه في وحدته واعتزاله[6].

والأظهر أنها عامة لكل خير ديني ودنيوي أوتوه ممالم يؤت أحد من العالمين؛ وإن كان ذكرها بعد جعلهم أنبياء إيذانًا بأن النبوة من باب الرحمة التي يختص بها من يشاء[7].

قال ابن سعدي رحمه الله: «﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ يشمل جميع ما وهب الله لهم

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤٣.
(٢) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٤/ ٣١٠.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٠٣.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤٣.
(٦) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣١٣.
(٧) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٦/ ١٠٣.

من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون»[1].

١٠. قيام الليل.

العابد لربه الطائع له، يقضي ساعات الليل في القيام والسجود لله، يخاف عذاب الآخرة، ويأمل رحمة ربه[2]، أي: حصولها[3]، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزمر: ٩].

فوصفه الله بأفضل العبادات الظاهرة وهي الصلاة، في أفضل الأوقات وهو أوقات الليل، ووصف عمل قلبه بالخوف والرجاء، فهو بين الخوف من سيئاته وفلتاته، وبين الرجاء لرحمة ربه أن يثيبه على حسناته[4]، فيدخله الجنة[5].

١١. الإصلاح بين المؤمنين.

من حقوق المؤمنين الإصلاح بينهم، وبه تحصل لهم الرحمة من الله عز وجل[6]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

فالمؤمنون إخوة في الدين والعقيدة، يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان، كما يجمع الإخوة أصل واحد وهو النسب، وكما أن أخوة النسب داعية إلى التواصل والتراحم والتناصر في جلب الخير، ودفع الشر، فكذلك الأخوة في الدين تدعوكم إلى التعاطف والتصالح[7]، ومن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها.

وقد رتب الله على الإصلاح بين المؤمنين وبتقوى الله، الرحمة[8]؛ وإنما اختيرت الرحمة لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة، فيكون الجزاء عليها من جنسها[9].

وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم الاقتتال والتنازع بين المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة[10].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٩٤.
(٢) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٤٨٣.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٠٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٤٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٦٨.
(٦) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، اللاحم ١/ ٤٢.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/ ٣٠٩.
(٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٠٠.
(٩) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٤٥.
(١٠) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٠.

أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله

عرض القرآن الكريم لعدد من أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله؛ ومن هذه الأسباب:

١. الجهل بالله تعالى وسعة رحمته.

من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئًا كثيرًا[(١)]؛ كما ذكر الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بالولد مع كبر سنه وحال زوجه التي يستبعد معها حصول الولد: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر: ٥٥-٥٦].

فأجابهم بأنه ليس بقانط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته؛ فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك[(٢)]، لكنه قال ذلك على وجه التعجب والتفكر في عظيم قدرة الله ورحمته[(٣)].

وإنما يقنط من رحمة الله القوم الذين أخطؤوا سبيل الصواب، وتركوا قصد السبيل في تركهم رجاء الله؛ لأنهم لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره فضلّوا بذلك عن دين الله[(٤)].

وقد كان القانط من رحمة الله ضالًا؛ لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئًا على قدرة الله، ومن علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله سبحانه[(٥)].

قال الرازي رحمه الله: «القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور: أحدها: أن يجهل كونه تعالى قادرًا عليه، وثانيها: أن يجهل كونه تعالى عالمًا باحتياج ذلك العبد إليه، وثالثها: أن يجهل كونه تعالى منزهًا عن البخل والحاجة والجهل؛ فكل هذه الأمور سبب للضلال، فلهذا المعنى قال: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر: ٥٦]»[(٦)].

والمعنى الذي قاله إبراهيم عليه السلام، قاله أيضًا يعقوب عليه السلام لبنيه في قوله: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧].

(١) المصدر السابق ص ٤٣٢.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، ابن محمد بن عبدالوهاب ص٤٤٩.
(٣) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان ص٧٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١١٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٢.
(٥) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ٢/ ٢٠٤.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٥١.

فروح الله رحمته، وفرجه، وتنفيسه[1]، وقد كان اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين؛ إذ فيه: إما التكذيب بالربوبية؛ وإما الجهل بصفات الله تبارك وتعالى[2]، جهل بقدرته وسعة رحمته، وجهل لما لله في عباده من حكم بالغة ولطف خفي، أما المؤمن حقًا فلا تقنطه المصايب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفريجه لكربه[3].

٢. إسراف العبد على نفسه في المعاصي والإفراط فيها.

فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله؛ لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة[4]؛ وهذا ما يلمح إليه قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الخطاب في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك؛ لأن الله عم بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جميع المسرفين، فلم يخصص به مسرفًا دون مسرف[5]، وكلهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم[6]؛ فأهل الشرك لما دعوا إلى الإيمان بالله قالوا: كيف نؤمن وقد أشركنا وزنينا، وقتلنا النفس التي حرّم الله، والله يعد فاعل ذلك النار، فما ينفعنا مع ما قد سلف منا الإيمان، وأهل المعاصي من أهل الإيمان يقولون: كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فيبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليهم الرحمن[7].

وفي نسبة عبوديتهم إلى الله تعالى إيماء إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده[8]، ولكن لهذه الرحمة ونيلها أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى اللّه تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم أيها المسرف إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم[9].

٣. عدم الصبر عند حصول المحن، والشكر عند حصول المنن.

الصبر خير كله، وهو أول صفات المؤمنين، ومن الصبر ألا يكفر عند النعمة،

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٣٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٨.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٣/ ٣٠.
(٤) انظر: القول السديد ص١٢٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣١٠.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٤١.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣١٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢٧.
(٨) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٤١.
(٩) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٢٧.

وألا ييأس عند النقمة[1]، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: ٩-١١].

فإذا أعطي الإنسان نوعًا من أنواع النعم كرخاء عيش، وبسطة رزق، وصحة، وأمن، وولد بار، فكان شديد الاغتباط بها، ثم سلب تلك النعمة بما يحدث من الأسباب التي قدرها الله في الخليقة كالمرض والموت والعسر، فإنه يظل في هذه الحال شديد اليأس من الرحمة، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة، كثير الكفران لغيرها من النعم التي لا يزال يتمتع بها فضلًا عما سلف منها؛ فهو يجمع بين اليأس مما نزع منه، والكفر بما بقي له؛ لحرمانه من فضيلتي الصبر والشكر[2].

ولذا استثنى تعالى الصابرين على الضراء وعاملي الصالحات، ومنها: الشكر على النعماء[3] من هذا الجنس بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ لأنهم إن نالتهم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا[4]؛ فكان جزاؤهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ غفران ذنوبهم التي يزول بها عنهم كل محذور، والفوز بجنات النعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين[5].

وما تضمنته هذه الآيات من أن عدم الصبر عند حلول المصايب، والشكر عند حلول النعم من أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله دلت عليه آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

فالنعمة تطغى وتبطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر، والشدة تيئس وتقنط ما لم يتصل الإنسان بالله، فيرجو ويأمل، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله، فيتفاءل ويستبشر، ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان، وما فيه من رحمة في السراء والضراء سواء[6].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

فهم يفرحون بها فرح البطر الأشر، الذي لا يقابل نعم الله تعالى بالشكر، ولا يستعملها فيما خلقت له؛ فالمراد بالفرح هنا: الجحود والكفران للنعم، وليس مجرد السرور بالحصول على النعم، وإن أصابتهم مصيبة بسبب شؤم معاصيهم، وإهمالهم

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٦٧.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٢٤.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٠٧.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٦٤.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢٧.
(٦) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٨.

لشكر اللّه تعالى على نعمه أسرعوا باليأس من رحمة اللّه، وقنطوا من فرجه، واسودت الدنيا في وجوههم، شأن الذين لا يعرفون سنن الله تعالى في خلقه، والذين يعبدون اللّه على حرف، فهم عند السراء جاحدون مغرورون، وعند الضراء قانطون يائسون[1].

من مظاهر رحمة الله وآثارها

ما يفتحه للناس من رحمته وإنعامه عليهم بجميع أنواع النعم، لا يقدر أحد كائنًا ما كان أن يمسكه عنهم، وما يمسكه عنهم من رحمته وإنعامه لا يقدر أحد كائنًا من كان أن يرسله إليهم، وهذا معلوم بالضرورة من الدين[2]، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فخزائن الرحمات بيد الذي يقول للشيء: كن فيكون، يجود بها على من يشاء من عباده[3]، وعبر عن إرسالها بالفتح؛ إيذانًا بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالًا[4].

والرحمة المذكورة في الآية عامة في كل ما يرحم الله به خلقه من الإنعام الدنيوي والأخروي، كفتحه لهم رحمة المطر، كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الروم: ٥٠].

ومن رحمته إرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ٨٧.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٦٩٥.

(٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٢٤٣.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٤٢.

﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦][(١)].

وقد عرض القرآن الكريم لعدد من مظاهر رحمة الله في القرآن الكريم، ومنها:

١. إرسال الرسل وإنزال الكتب.

إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه[(٢)]؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان: ٦].

وقد جاء في القرآن الكريم إطلاق الرحمة على النبوة في غير موضع، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فالنبوة وما أيدها من الوحي والقرآن والنصر وهو المعبر عنه بالرحمة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾[(٣)]، وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه، وهدايته من هدى من عباده، رحمة منه له ليصيره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة، واستحقاقه بها ثناءه؛ وكل ذلك رحمة من الله له[(٤)].

ومن إطلاق النبوة على الرحمة ما ذكره الله عن هارون عليه السلام وأن نبوته رحمة في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم: ٥١-٥٣].

فالهبة في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ هي في الحقيقة واقعة على رسالته لا على نفس هارون؛ لأن هارون أكبر من موسى[(٥)]؛ كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد أنه وهب له نبوته[(٦)].

ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًا، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣][(٧)].

ومن إطلاق النبوة على الرحمة قوله تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٦٩٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٥٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٧١.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٠٣.
(٦) انظر: جامع البيان١٨/ ٢١١.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٣٨.

﴿قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[القصص: ٤٦].

فبعثة الرسول بما أوحاه الله إليه من الوحي رحمة من الله له ولهم[١]؛ فثبت بالدليل القطعي صحة رسالته، ورحمة الله به للعباد[٢].

ومن إطلاق النبوة على الرحمة قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾[ص: ٨-٩].

فالنبوة عطية من الله عز وجل يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين[٣]، وليس الاختيار لهؤلاء المشركين المنكرين وحي الله إلى محمد؛ ولكنها بيد العزيز في سلطانه، الوهاب لمن يشاء من خلقه، ما يشاء من ملك وسلطان ونبوة، فيمنعوك يا محمد، ما من الله به عليك من الكرامة، وفضّلك به من الرسالة[٤].

ونظير هذه الآية قوله تعالى[٥]: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣٢].

فالله يخص بالنبوة من يشاء من عباده على ما تقتضيه حكمته وإرادته، وليس ذلك بتدبير المخلوقين ولا بإرادتهم[٦]، فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، وهو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته[٧]؛ فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبًا ونفسًا، وأشرفهم بيتًا، وأطهرهم أصلًا[٨].

وقد جاء في القرآن التنصيص على إن إرسال الرسل بالكتب إلى العباد رحمة من الله، كما قال تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾[الدخان: ٦].

فإرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه[٩]؛ لأن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٦.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٧.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢١٦.
(٤) انظر: جامع البيان٢١/ ١٥٥.
(٥) انظر: السراج المنير، الشربيني ٣/ ٣٢٦.
(٦) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٤/ ٢٨.
(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦٤.
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢٦.
(٩) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٧١.

الإرسال بالإنذار رحمة بالناس ليتجنبوا مهاوي العذاب ويكتسبوا مكاسب الثواب، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] (١).

وأنزل الله الكتاب على نبيه صلى الله عليه وسلم رحمة به وبالعباد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

فالآية تذكير لنعمه تعالى على رسوله، وأنه تعالى رحمه رحمةً لم يتعلق بها رجاؤه (٢)، فالاستثناء في ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء منقطع؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يرجو أن يبعثه الله بكتاب من عنده، بل كان ذلك مجرد رحمة من الله تعالى به واصطفاء له (٣)، فأرسله بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (٤).

وقال تعالى أيضًا لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]؛ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية (٥).

٢. رحمته بالرسل عليهم السلام.

الأنبياء عليهم السلام هم أكثر الخلق مسارعةً إلى الخيرات، وأصدقهم توجّهًا وتذلّلًا لله تعالى؛ وأعظمهم رغبةً ورهبةً؛ وفي ذكر رحمة الله لهم، وبأي سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره ومعرفته، والسبب الموصل إليه (٦).

ومن ذلك الرحمة التي رحم الله بها عبده زكريا عليه السلام حين أسرّ بدعائه إليه، كما قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٣].

ثم فصّل كيفية دعائه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٨١.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ١٣٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٩٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٥.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣٣.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٤٨٩، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة من المؤلفين ٤/ ٤١٣.

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٤-٦][1].

فمن رحمة الله بعبده، أن يرزقه ولدًا صالحًا، جامعًا لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم؛ فرحمه ربه واستجاب دعوته، فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[مريم: ٧][2].

فوهبه الله الولد الصالح مع كبر سنه وعقم زوجه، فكانت ولادة يحيى تكريمًا ورحمةً بهذا النبي العابد[3].

ومن ذلك أيضًا الرحمة التي رحم الله بها عبده أيوب عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

فقد ألطف أيوب في السؤال؛ حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب، ولم يعين الضر الذي مسه[4]؛ فأذهب الله عنه ما به من الأذى، ورد عليه أهله وماله، ومنحه الله العافية من الأهل والمال شيئًا كثيرًا[5]؛ وكل ذلك رحمةً بأيوب إذ قال: وأنت أرحم الراحمين[6].

ووصفت الرحمة بأنها من عند الله تنويهًا بشأنها بذكر العندية الدالة على القرب المراد به التفضيل[7]؛ فهي رحمة تليق بذاته الكريمة، وهو الرحمن الرحيم[8].

وكون كشف الضر عن أيوب رحمةً من الله به، فكذلك هو ذكرى؛ لنعتبر ونعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين، وأن مع العسر يسرًا، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة[9].

٣. قبول التوبة وغفران الذنوب.

التوبة لا بد فيها من ترك الذنوب، والندم عليها، وإصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة، فإذا وجد ذلك فإن الله يصب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به[10] كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ

(١) انظر: تفسير المراغي١٦/ ٣٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٨٩.
(٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة من المؤلفين ٤/ ٤١٢.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣١٠.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٢٨.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٢٨.
(٧) انظر: المصدر السابق.
(٨) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٩٠٧.
(٩) انظر: تفسير المراغي ٢٣/ ١٢٦.
(١٠) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٥٨.

﴿عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فبين سبحانه أن المراد بالرحمة في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ غفرانه ما يعملون من سوء إذا تابوا وأصلحوا، فقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا﴾ مفسر لتلك الرحمة مبين لها[١].

فرحمة الله جل وعلا وسعت كل شيء، ولا يهلك على الله إلا هالك؛ ولا أحد أشنع قولاً من الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ومع هذه الفريةالعظمى والوقوع في جناب الله جل وعلا بهذا الأمر الهائل العظيم، فالله مع هذا يستعطفهم ويتلطف بهم للتوبة والمغفرة[٢]، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

فالآية فيها التعجب من افترائهم على الله وإصرارهم على ذلك بدون توبة من هذا الاعتقاد القبيح، وفيها التلطف بدعوتهم إلى التوبة، وأن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة يقبل توبة التائبين، فلذلك ختمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]، يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات[٤].

٤. عصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

امتن الله على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله[٥]، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

والفضل والرحمة هنا: نعمة إنزال الكتاب تفصيلًا لوجوه الحق في الحكم، وعصمته من الوقوع في الخطأ فيه[٦]؛ فيحفظه ويعصمه من قبول تدليس المبطلين، فلا تنطلي تضليلاتهم عليه، بل يوفقه الله ويحفظه من مؤامرتهم، وينور بصيرته، ويعلمه ما لم يكن يعلمه صيانة لأحكامه أن يصدر منها تبرئة مجرم، أو ظلم بريء[٧].

ثم كرر الامتنان عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له[٨]، فقال: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾، وهذه نعمة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٥٧، العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٣٤١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٨.
(٣) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٩/ ١٩٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٩.
(٥) المصدر السابق ص ٢٠٠.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٩٧.
(٧) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٦/ ٢٥٨.
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٠.

كبيرة على رسوله صلى الله عليه وسلم تتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم[1].

٥. إرسال الرياح اللينة بالغيث.

إجراء الريح وانتشارها من ههنا وهاهنا أمام المطر مبشرة به من غرائب صنعه وعجائبه، ومن عظائم نعمه على خلقه[2]، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فإنه سبحانه لما ذكر قرب رحمته من المحسنين في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف: ٥٦][3]، أتبعها بذكر أثر من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته، وهو إرسال الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله[4].

٦. إنجاء المؤمنين وإهلاك المجرمين.

نزول العقاب بالكافرين ونجاة المؤمنين يكون برحمة كريمة من الله، وحسبها شرفًا أنها من رب العالمين[5]؛ كما قال تعالى عن نبيه هود عليه السلام ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقال عن نبيه صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦-٦٧].

وقال عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

فنجاتهم جميعًا هم ومن آمن معهم وإهلاك أعدائهم كان برحمة من الله؛ وقد جاءت الرحمة بصيغة التنكير في جميع المواضع التي وردت فيها؛ للتعظيم، ووصفها بأنها من الله للدلالة على كمالها[6].

والباء في ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ يحتمل أن تكون

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٠.
(٢) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٤١٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٧٨.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٢٩٢.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبوزهرة ٧/ ٣٧٢٠.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢١٤.

للسببية[1]؛ حيث جعل إيمانهم سببًا ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته؛ ويجوز أن تكون للمصاحبة؛ حيث الرحمة مصاحبة لهم إذ كانوا بمحل اللطف والرفق حيثما حلوا إلى انقضاء آجالهم[2].

وفي هذا ما يدل على التشبث بعرى الإيمان ومتابعة المرسلين لينال العباد بذلك الرحمة والنجاة من العذاب الدنيوي والأخروي، والتحذير من مخالفة المرسلين، وبيان أن ذلك سبب العذاب في الدنيا والآخرة؛ وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣].

ويقول: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨][3].

٧. حفظ الصالحين وأولادهم.

العبد المؤمن الصالح يتولاه الله حتى بعد مماته رحمة منه، وخاصة ما ترك من الذرية[4]؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فإنه تعالى من كمال تدبيره وحكمته وتمام لطفه ورحمته أن قيض موسى والخضر في مصلحة يتيمين[5]؛ حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما، لكونهما صغيرين عدما أباهما، وحفظهما الله أيضًا بصلاح والدهما[6]؛ وكان الذي فعله الخضر لم يكن من تلقاء نفسه، ومجرد إرادته؛ وإنما ذلك من رحمة الله وأمره، الرحمة التي ليس بعدها رحمة، والحكمة التي ليس بعدها حكمة[7].

٨. الوقاية من عداوة الشيطان ووسوسته.

الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر؛ فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم[8]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٢٩، روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٩٢.
(٢) انظر: روح المعاني ١٢/ ٩٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢١٤.
(٣) انظر: الرحمة في القرآن الكريم، موسى عسيري ص١٤٨.
(٤) انظر: رحمة الله أسبابها وآثارها، مسفر الغامدي ص٢٤٠.
(٥) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة من المؤلفين ٤/ ٣٨٠.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٨٢.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٨/ ٥٦١.
(٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص١٩٠.

فاتباع الشيطان هم المحرومون من فضل الله ورحمته، فقدوا عصمة الله لعنادهم، وركوبهم أهواءهم، وإيثارهم رغبات أنفسهم على فطامها عما حرم الله، وجعلهم الخيرة لأنفسهم في سلوك مراداتهم من السبل دون سبيل الله، أما القليل الرافضون لهمزات الشيطان على اختلاف أنواعها، والمتقبلون هداية الله، والمؤثرون لمرضاته وسلوك سبيله على مرادات أنفسهم وشهواتها فهم الحائزون على فضله بعصمتهم من أي شيطان، ورحمتهم بتثبيت قلوبهم، وهم الذين يأس الله منهم بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقد اعترف إبليس أنهم لا من جنده ولا أتباعه بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

فعصمتهم من اتباع الشيطان هي بفضل الله ورحمته[١].

وهذه الآية كقوله تعالى[٢]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

فالشيطان يأتي النفوس من قبل أهوائها وشهواتها، والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، ولكن الله تعالى لا يترك عباده جميعًا تحت غواية الشيطان الرجيم؛ فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، فهو يجتبي من عباده من يزكيه ويطهره في قلبه ولسانه ونفسه، ولا يشاء الله تعالى لعبده تلك الطهارة إلا إذا سلك سبيلها، واختارطريقها، فيأخذه إلى ما اختار[٣].

٩. المودة والرحمة بين الزوجين.

لا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين[٤]، ومحبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما؛ لأن الله قال في حقهما[٥]: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فجعل بين كل زوجين مودةً ومحبةً، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وجعل بينهما رحمة فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة[٦].

وجعل بينهما محبةً ورأفةً، فإن الرجل

(١) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٦/ ١١٤.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٢٤٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٣، وزهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٦٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٢٥.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦١.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٧١.

يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق[1]؛ فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة[2].

١٠. إمساك الطير حال الطيران.

من رحمانيته تعالى لطفه بالطير وإمساكه إياها صافات وقابضات في جو السماء[3]، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك: ١٩].

فالذي يحفظ الطير من السقوط بما أودع فيها من خاصية الطيران بالقبض والبسط هو الرحمن، وخص ذكره دون لفظ الجلالة (الله)؛ للدلالة على أن هذا الحفظ من رحمته بهذه المخلوقات وبمن سخرت له، فرحمة الله بالمخلوقات بإمهالهم وعدم العجلة بعقابهم كرحمة الله بالطير في الهواء من السقوط والهلاك[4].

فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته[5].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣٩.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٤٠، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٢٨٠.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٧.

موقف الخلق من رحمة الله

رحمة الله مبذولة لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ولا يهلك على الله إلا هالك، وقد انقسم الناس تجاه هذه الرحمة إلى طرفين وواسطة، ولكل عرض القرآن الكريم.

أولًا: الآيسون القانطون من رحمة الله:

والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان:

١. إياس الكفار منها، وتركهم الأسباب التي تقربهم منها[١].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

فأخبر عن يأسهم من رحمة الله بالفعل الماضي؛ تنبيهًا على تحقيق وقوعه، والمعنى: أولئك سييأسون من رحمة الله لا محالة[٢]؛ لأنهم لم يعلموا سببًا واحدًا يحصلون به الرحمة، وإلا لو طمعوا في رحمته، لعملوا لذلك أعمالًا[٣].

قال القرطبي رحمه الله: «اليأس من رحمة الله؛ فيه تكذيب القرآن؛ إذ يقول وقوله الحق: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهو يقول: لا يغفر له؛ فقد حجر واسعًا؛ هذا إذا كان معتقدًا لذلك؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]»[٤].

٢. إياس العصاة[٥].

فيقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته، فييأس من الرحمة[٦]؛ وهذا ما يلمح إليه قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ثانيًا: الذي يتكلون على عفو الله ومغفرته ورحمته:

الاتكال على رحمة الله يسبب مفسدةً عظيمةً هي الأمن من مكر الله[٧]؛ فيسترسل في المعاصي ويتكل على رحمة الله من غير

(١) انظر: المصدر السابق ص ٦٢٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن٦/ ٢٦٥.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٩.
(٦) انظر: القول السديد، السعدي ص١٢٢.
(٧) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ١/ ٥٦.

عمل[1]؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

فإذا كان أمن العالم المدبر والصالح المتعبد من مكر الله تعالى جهلًا يورث الخسر، فكيف حال من يأمن مكر الله، وهو مسترسل في معاصيه اتكالًا على عفوه ومغفرته ورحمته؟[2]، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب[3].

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفًا وجلًا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيًا بقوله: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[4]، وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإن العبد -ولو بلغت به الحال ما بلغت- فليس على يقين من السلامة[5].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٦٥.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٢٦.
(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٤٥٦.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ١٦٠، رقم ١٢١٠٧، والترمذي في سننه، ٤/ ٤٤٨، رقم ٢١٤٠، عن أنس رضي الله عنه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٣.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٨.

ثالثًا: الذين جمعوا بين الخوف من عذاب الله، وبين الرجاء لرحمة الله:

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزمر: ٩].

فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا[6].

فللخوف مزيته من زجر النفس عما لا يرضي الله، وللرجاء مزيته من حثها على ما يرضي الله، وكلاهما أنيس السالكين[7].

وقد وصف الله عبده في الآية الكريمة بأفضل العبادات الظاهرة وهي الصلاة، ووصف عمل قلبه بالخوف والرجاء، فهو بين الخوف من سيئاته وفلتاته، وبين الرجاء لرحمة ربه أن يثيبه على حسناته[8].

فالمؤمن إذا خاف لا يقنط من رحمة الله، بل يرجوها مع العمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٨].

فذكر سبحانه أنهم يرجون رحمة الله

(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٤٥٧.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٤٧.
(٨) انظر: المصدر السابق ٢٣/ ٣٤٦.

مع الاجتهاد في الأعمال الصالحة[1]؛ لأن الرجاء يتبعه السعي لتحصيل المرجو، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٩]؛ فإن ترقب المرء المنفعة من غير أسبابها فذلك الترقب يسمى غرورًا[2].

ومن الآيات التي مدح الله فيها أهل الخوف والرجاء قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[الإسراء: ٥٧].

فابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب بحبه وطاعته، ثم ذكر الرجاء والخوف[3]؛ وذكر خوف العذاب بعد رجاء الرحمة للإشارة إلى أنهم في موقف الأدب مع ربهم؛ فلا يزيدهم القرب من رضاه إلا إجلالًا له وخوفًا من غضبه[4].

وهذه الأمور الثلاثة: الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير، فمن تمت له تمت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور[5].

ولذا جاء عن بعضهم قوله: من عبدالله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهوحروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد[6].

موضوعات ذات صلة:

الجنة، الحساب، السعة، العذاب، العفو، الهداية، اليأس

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله ص٤٤٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٤٧.
(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله ص٤٤٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ١٤٠.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٠.
(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٤٥٨.

الرزق

عناصر الموضوع

مفهوم الرزق	١٧٦
الرزق في الاستعمال القرآني	١٧٧
الألفاظ ذات الصلة	١٧٨
الله خير الرازقين	١٨٠
حقيقة الرزق وتنوع صوره	١٨٧
المعبودات من دون الله والرزق	١٨٩
أسباب الرزق	١٩٠
علاقة المعاصي بالرزق	٢٠٢
الرزق في الآخرة	٢٠٥

مفهوم الرزق

أولًا: المعنى اللغوي:

الرزق: الراء والزاء والقاف أصيلٌ واحدٌ، يدلّ على عطاءٍ لوقت، ثم يحمل عليه غير الموقوت؛ والرزق: بالفتح مصدر، وبالكسر اسم الشيء المرزوق، وهو كل ما ينتفع به، وجمعه أرزاق، والرازق والرزّاق: صفة الله تعالى، فعّال من أبنية المبالغة، لا يقال إلا لله تعالى، ولأنه يرزق الخلق أجمعين، وهو الذي خلق الأرزاق، وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦][(١)].

قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩]، أي: فليأتكم بقوت منه[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الرزق: كل ما ينتفع به، سواءً كان ماديًّا كالأموال من ذهب وفضة وحيوان وزروع وثمار وعقار، وكل ما هو مأكول ومطعوم وملبوس ومشروب ومسكون ونحو ذلك، أو كان معنويًّا كالمعارف والعلوم والمنزلة والجاه والسلطان والعقل والذكاء وحسن الخلق ونحو ذلك، وسواءً كان ما ينتفع به في الدنيا وهو ما ذكرناه، أو ينتفع به في الآخرة وهو رضوان الله تعالى وثوابه ونعيم الجنة، ونحو ذلك مما أخبرنا الله تعالى به[(٣)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٣٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٥١، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١١٥.
(٢) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٢٩٥.
(٣) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد،عبد الكريم زيدان ص٢٦٤.

الرزق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رزق) في القرآن الكريم (١٢٣) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٧	﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]
الفعل المضارع	١٩	﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]
فعل الأمر	٥	﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]
اسم الفاعل	٦	﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩]
صيغة المبالغة	١	﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]
اسم	٥٥	﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١]

وجاء الرزق في القرآن على وجهين[(٢)]:

الأول: العطاء بكل أنواعه، ومنه قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، يعني: مما أعطيناهم من الأموال والعلوم والجاه وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، يعني: طعامًا أو فاكهة.

الثاني: النفقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، يعني: نفقتهنّ.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣١١-٣١٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٥٧٦-٥٧٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٣٤-٢٣٥، نزهة الأعين النظائر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٢٤-٣٢٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٦٥-٦٧، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٨٧-٨٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكسب:

الكسب لغة:

طلب الرّزق وابتغاؤه، والسعي في تحصيله، وأصله: الجمع، كسب يكسب كسبًا وتكسّب واكتسب، قال سيبويه: «كسب: أصاب، واكتسب: تصرف واجتهد»[١].

الكسب اصطلاحًا:

هو: الأفعال الموصلة إلى المادة، والتصرف المؤدي إلى الحاجة[٢].

وقال الراغب في مفرداته: «الكسب: ما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفعٍ، وتحصيل حظٍ، ككسب المال، وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة، ثم استجلب به مضرة»[٣].

وعلى ذلك فالكسب هو: ما يحصل ويجتمع من المال بالاكتساب من حلالٍ أم من حرام[٤].

الصلة بين الكسب والرزق:

الكسب لا يأتي إلا بسعي و طلب، و الرزق قد يأتي بسعي و بدون سعي، فكل كسبٍ رزقٌ و ليس كل رزقٍ كسبًا.

٢ العطاء:

العطاء لغة:

مأخوذٌ من العطو: وهو التّناول، يقال: عطوت الشّيء أعطو: تناولته، وفي الأثر: (أربى الرّبا عطو الرّجل عرض أخيه بغير حقٍّ)[٥]، أي: تناوله بالذم ونحوه، وهو في اللغة: اسم لما يعطى به، والجمع عطايا، وأعطية وجمع الجمع: أعطيات[٦].

العطاء اصطلاحًا:

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٣٨٧٠.
(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص٢٥٧.
(٣) المفردات ص٤٣٠.
(٤) الاكتساب في الرزق المستطاب، محمد بن الحسن الشيباني ص٢١.
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٥٠٨.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٦٨.

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي في أن معناه يدور حول المناولة، قال ابن العربي: «حقيقة العطاء هي: المناولة، وهي في اللغة والاستعمال عبارة عن: كل نفع أو ضر يصل من الغير إلى الغير»[(١)].

وقال المناوي: «العطاء: التناول، والمعاطاة: المناولة، لكن استعملها الفقهاء في مناولة خاصة»[(٢)].

والعطاء نوعان: العطاء العام: وهو ما يكون للخلائق عامة، والعطاء الخاص: وهو ما كان خاصًّا كإجابة الدعاء، وتحقيق مطلب الأنبياء والصالحين[(٣)].

الصلة بين العطاء والرزق:

يقال للعطاء الجاري: رزقٌ، دينيًّا كان أم دنيويًّا، فالرزق يشمل العطاء وغيره، وقيل: الرّزق: ما يفرض للرّجل في بيت المال بقدر الحاجة والكفاية، مشاهرةً أو مياومةً[(٤)].

والعطاء: ما يفرض للرّجل في كل سنةٍ لا بقدر الحاجة بل بصبره وعنائه في أمر الدّين[(٥)].

(١) أحكام القرآن ٤/ ٧٤.
(٢) التوقيف على مهمات التعريف ١/ ٢٢٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٩٨.
(٤) ياومه في مياومةً، ويوامًا: عامله أو استأجره باليوم.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٥٦.
(٥) الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٠/ ١٥٠.

الله خير الرازقين

أولًا: الله هو الرزاق:

«الرازق: المفيض على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قوامًا إلا به، والمنعم لهم باتصال حاجتهم من ذلك إليهم؛ لئلا تتنغص عليهم لذة الحياة بتأخره عنهم، ولا يفقدوها أصلًا بفقدهم إياه.

والرزاق: هو الرازق رزقًا بعد رزق، والمكثر الواسع لها»[1].

يقول العلامة الشيخ السعدي: «الرزاق لجميع عباده، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته»[2].

لقد ضمن الله تعالى لكل مخلوق رزقه كما وقت له أجله، وذلك ظاهر في آيات متعددة منها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

فالآية تثبت أن الله هو الرازق مطلقًا لخلقه، المتكفّل بأقواتهم، ذو القوة المتين[3] ويعتبر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾؛ تعليلًا لما تقدّم من الأمرين؛ فقوله: ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ تعليلٌ لعدم طلب الرزق، وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ تعليل لعدم طلب العمل؛ لأن من يطلب رزقًا يكون فقيرًا محتاجًا، ومن يطلب عملًا من غيره يكون عاجزًا لا قوة له، والله ليس كذلك[4].

ومن لطائف ما جاء في هذا الباب: ما قاله السفاريني: «قال العمريّ: رأيت البهلول وقد دلّى رجله في قبرٍ وهو يلعب بالتّراب، قلت أنت ها هنا؟ قال: نعم عند قومٍ لا يؤذوني، وإن غبت لا يغتابوني. قلت له إنّ السّعر قد غلا، قال: لو بلغت كلّ حبّةٍ بمثقالٍ لا أبالي، نعبده كما أمرنا، ويرزقنا كما وعدنا، ثمّ أنشد يقول: رحمه الله تعالى:

أفنيت عمرك فيما لست تدركه
ولا تنام عن اللّذّات عيناه
يا من تمتّع بالدّنيا ولذّتها
يقول للّه ماذا حين يلقاه»[5]

وجاءت الآية التالية لتثبت تعميم الرزق على السماء والأرض: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

(١) المنهاج في شعب الإيمان، الحليمي ١/ ٢٠٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٤٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٥.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٩٥.
(٥) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، السفاريني ٢/ ٤٢١.

يعترف بذلك المشركون بأن الرزق بيد الله وحده، ومن على الأرض يعلم أن الرزق بيد الله الواحد، قال صاحب الظلال: «من المطر الذي يحيي الأرض وينبت الزرع، ومن طعام الأرض نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها، ثم سائر ما كانوا يحصلون عليه من الأرض لهم ولأنعامهم، وذلك بطبيعة الحال ما كانوا يدركونه حينذاك من رزق السماء والأرض، وهو أوسع من ذلك بكثير، وما يزال البشر يكشفون - كلما اهتدوا إلى نواميس الكون - عن رزق بعد رزق في السماء والأرض، يستخدمونه أحيانًا في الخير، ويستخدمونه أحيانًا في الشر حسبما تسلم عقائدهم أو تعتلّ، وكله من رزق الله المسخّر للإنسان، فمن سطح الأرض أرزاق، ومن جوفها أرزاق، ومن سطح الماء أرزاق، ومن أعماقه أرزاق، ومن أشعّة الشمس أرزاق، ومن ضوء القمر أرزاق، حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق»[1]، ثم جاءت الآية التي تخصص بعد تعميم فتذكر رزق الدواب، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[هود: ٦]. إن المتأمل في آيات القرآن المتلوة، وآيات الكون المرئية يجد -بلا ريب- أن الرزق بيد الله وحده؛ فكما أنه الخالق فهو الرازق[2].

أثر الإيمان بهذه الأسماء في ترسيخ العقيدة وزيادة الإيمان:

١. إفراد الله بالعبادة.
٢. زيادة التوكل على الله.
٣. زيادة الرضا عن الله تعالى.
٤. زيادة محبة العبد لله تعالى.
٥. الشكر لله تعالى.
٦. دعاء الله تعالى.
٧. الإحسان إلى الناس.
٨. تزكية النفس من التكبر والحسد[3].

ثانيًا: الحكمة في تفاوت الأرزاق:

من سنة الله في الخلق التفاوت في الأرزاق بين الناس، وله حكم عظيمة يعلمها الله عز وجل، وقد يظهر لنا بعض منها، وسأعرض لبعض الآيات التي تبين بعضًا من هذه الحكم.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[النحل: ٧١].

قال المفسرون: أخبر الله عز وجل في هذه الآية أن الرزق متفاوت بين البشر، قد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٨١.

(٢) الرزق في القرآن الكريم، عدي عصفور ص٤.

(٣) دراسة لاسمي الله الرازق والرزاق وما في معناهما من أسماء الله تعالى، أحمد المزيد ٥٢-٥٣.

قسمه الله عز وجل، أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردّوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تتساووا في الملبس والمطعم[1].

وقيل: جعلكم متفاوتين فيه، فوسّع على بعض عباده حتى جعل له من الرّزق ما يكفي ألوفًا مؤلّفةً من بني آدم، وضيقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفّف لهم؛ وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلّها، والاطلاع على حقيقة أسبابها، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم، والفهم وقوة البدن وضعفه، والحسن والقبح والصحّة والسقم، وغير ذلك من الأحوال[2].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

لطيف بعباده، برٌّ بليغ البرّ بهم، قد توصّل برّه إلى جميعهم، وتوصّل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه، وهم أحدٌ من كلياته وجزئياته.

يقول صاحب الكشاف: «فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ بعد توصّل برّه إلى جميعهم؟ قلت: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه، إلا أن البرّ أصناف، وله أوصاف، والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير، فيطير لبعض العباد صنف من البرّ لم يطر مثله لآخر، ويصيب هذا حظٌّ»[3].

ومن أروع ما قرأت في هذا الباب ما قاله الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «ومن لطفه بهم تبارك وتعالى: أن يقدر لهم أرزاقهم بحسب علمه تبارك وتعالى بمصالحهم، لا بحسب مراداتهم، فقد يريدون شيئًا وغيره الأصلح وإن كرهوا؛ لطفًا بهم وبرًا وإحسانًا»[4].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن العبد ليهمّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له، فينظر الله إليه من فوق سبع سماوات، فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عز وجل عنه، فيظلّ يتطيّر يقول: سبقني فلان، دهاني فلان، وما هو إلا فضل الله عز وجل عليه»[5].

ويتضح من النصوص السابقة أن الرزق وسعته وضيقه من الله، فهو سبحانه وتعالى يبسط الرزق ويوسعه لمن يشاء وفق قضائه

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٢٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢١٣.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢١٨.
(٤) المواهب الربانية من الآيات القرآنية، السعدي ص١٢٥.
(٥) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/ ٢٦١.

وقدره المبني على علمه وحكمته على الأوجه التالية: إما أن يكون:

- فضلًا منه ورحمةً ابتداءً.
- امتحانًا واختبارًا.
- استدراجًا وإمهالًا وعذابًا.

ويضيق الله الرزق على من يشاء وفق قضائه وقدره المبني على علمه وحكمته على الأوجه التالية:

- إما حمايةً لعبده منةً ورحمةً به.
- أو امتحانًا له واختبارًا.
- أو حرمانًا وعذابًا.

وهو سبحانه يبسط الرزق لبعض عباده؛ لأنه يعلم أنه لا يصلحه إلا بسط الرزق، ويضيق الرزق على بعض عباده؛ لأنه يعلم أن التضييق عليه في الرزق أصلح له، ولله في قضائه وقدره حكم عظيمة، وكل ما يقدره ويقضيه لعباده فيه الخير والصلاح[1].

ومن حكم التفاوت في الرزق كما جاء بها القرآن:

١. ليتخذ بعضنا بعضًا سخريا.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

والمعنى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾، أي: أسباب معيشتهم في الحياة الدنيا قسمةً تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادى المعاش وأسبابه ﴿دَرَجَاتٍ﴾ متفاوتة. فقد فاوتنا بينهم فيما أعطيناهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فكان منهم القوي والضعيف، والعالم والجاهل، والحاذق والأبله، والرئيس والمرؤوس، والغني والفقير. وإنما فعلنا ذلك ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، أي: ليسخر بعضهم بعضًا في الأعمال لاحتياج بعضهم إلى بعض، وبهذا يمكن أن يتعايشوا ويحصل كل منهم على ما يحتاجه بمساعدة الآخرين، ولولا هذا التفاوت فيما ذكرنا لما أمكن أن يقضي بعضهم حاجة بعض، ولا أن يخدم بعضهم بعضًا[2].

٢. المنع من البغي.

ومن حكمة التفاوت في الرزق: منع بغي الناس في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

والمعنى: لو وسع الله على عباده

(١) الرزق: مصدره، أسباب حصوله وزيادته، حلاله وحرامه، شروطه، مسفر الغامدي ص٢٥١.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/٢٤٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/٢٠٩.

في الرزق ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لطغوا وعصوا، أو لتكبروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من الفساد والعلو فيها، ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ أي: ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم، ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعرف ما يؤول إليه أحوالهم، فيقدر لهم ما هو أقرب إلى جمع شملهم، فيرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر كما توجبه حكمته تعالى. ولو أغناهم جميعًا لبغوا، ولو أفقرهم جميعًا لهلكوا، ولا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل، ومع الغنى أكثر وأغلب[1]، والمؤمن لا يحزن لهذا التفاوت الذي اقتضته حكمة الله حتى ولو كان شديد الفقر، لأن كل ما يؤتاه الإنسان من الدنيا فهو متاع قليل وزائل، ولا يستحق أن تستشرف له نفس المؤمن، ولا أن يكون مقصدها وهمها، ولا أن يحزن على فوته أو فقده، لأن مقصده الآخرة، وغايته طلب مرضاة الله، ولأنه يعلم مدى حقارة الدنيا عند الله تعالى. ومما يدل على حقارة الدنيا عند الله تعالى وإنها وكل ما فيها مما تستشرف إليه النفس، شيء تافه وزائل ومتاع قليل[2].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٢٧.

الحكمة في رزق الكفار:

إن حقيقة أرزاق الكفار وأهل المعاصي تكمن في أن الله سبحانه قد ضمن الرزق لكل مخلوقاته مؤمنهم وكافرهم؛ فعموم الأدلة الشرعية تدل على شمول رزق الله لكل مخلوقاته، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

ولذلك لما دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يرزق من آمن من ذريته من أهل البيت بيّن الله تعالى له أنه يرزق الكافرين أيضًا[3].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

قال الشيخ السعدي: «قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين، تأدبًا مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيدًا بغير الظالم، فلما دعا لهم بالرزق، وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملًا للمؤمن والكافر، والعاصي والطائع، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، أي: أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر، فيتمتع فيها قليلًا

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١١٩.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أي: ألجئه وأخرجه مكرهًا ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾»[1]؛ لأنه ربهم ولا رازق إلا هو، ولكنه سبحانه يمتعهم برزقهم ذلك في الحياة الدنيا، ويعذبهم في الآخرة على خلاف المؤمنين الذين يرزقهم في الدنيا، ويكمل لهم رزقهم ويمتعهم به خالصًا في الآخرة.

بل لربما يزيد الله في أرزاق بعض الكفار أكثر من أرزاق المؤمنين في الدنيا، وذلك ابتلاءً للمؤمنين وامتحانًا لهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٢ - ٣٥].

قال القرطبي في تفسير هذه الآيات: «ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة ودرجها ذهبًا وفضةً لولا غلبة حب الدنيا على القلوب فيحمل ذلك على الكفر. قال الحسن: المعنى لولا أن يكفر الناس جميعًا بسبب ميلهم إلى الدنيا عن الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عند الله»[2].

ويستفاد من الآيات: أن الميل إلى الدنيا وطلب متاعها فطري في الإنسان؛ فلذا لو أعطيها الكافر بكفره لمال إليها كل الناس وطلبوها بالكفر، وكذا: هوان الدنيا على الله وعدم الاكتراث بها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء)[3].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)[4].

ثم: بيان أن الآخرة خير للمتقين[5]، والله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦].

يقول شيخ الإسلام: «فالجواب يقول:

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٨٥.

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب هوان الدنيا على الله عز وجل، ٤/ ٦٥٠.
وصححه الألباني صحيح الجامع، رقم ٥٢٩٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٧٢، رقم ٢٩٥٦.

(٥) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٦٤٠.

ما كل من وسعت عليه أكرمته، ولا كل من قدرت عليه أكون قد أهنته، بل هذا ابتلاء، ليشكر العبد على السراء، ويصبر على الضراء، فمن رزق الشكر والصبر كان كل قضاء يقضيه الله خيرًا له[1]، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاءً إلا كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)[2].

فالمؤمن يصبر على البلاء ولكن لا يسأل الله الصبر قبل وقوع البلاء، قال صلى الله عليه وسلم لرجل سمعه يقول: اللهم إني أسألك الصبر، فقال: (لقد سألت الله البلاء، فسله العافية)[3].

لكن عند وقوع الضيق والشدة يسأل العبد ربه الصبر على ما ابتلي به، ولعل من الحكمة في هذا -يعني أن الفضلاء يقلل لهم، والجهلاء يضيق عليهم- لئلا يتوهم الفضلاء أن الفضل يرزقهم، وإنما يرزقهم الله تعالى.

ورحم الله الشافعي إذ قال[4]:

تموت الأسد في الغابات جوعًا
ولحم الضأن تأكله الكلاب
وعبدٌ قد ينام على حريرٍ
وذو نسبٍ مفارشه التراب

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ١/ ٢٦٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ٤/ ٢٢٩٥، رقم ٢٩٩٩.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٤١، رقم ٣٥٢٧.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ١٠/ ٢٥، رقم ٤٥٢٠.
(٤) ديوان الشافعي ص١٨.

حقيقة الرزق وتنوع صوره

قد يرزق الله عباده بسبب وبغير سبب، وبطلب وبغير طلب، وقد يرث الإنسان مالًا فيدخل في ملكه من غير قصد إلى تملكه، وهو من جملة الأرزاق، وكل ما وصل منه إليه من مباح فهو رزق الله، على معنى أنه قد جعله له قوتًا ومعاشًا، إلا أن الشيء إذا كان مأذونًا له في تناوله فهو حلال حكمًا، وما كان منه غير مأذون له فيه فهو حرام حكمًا[1].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

وهذا من رحمة الله ولطفه بعباده أن نوع أرزاقه وفضله ونعمه وعددها؛ فجعل منها ما هو ظاهر، وما هو باطن، ومنها ما هو أول، ومنها ما هو آخر، ومنها ما هو مادي، ومنها ما هو معنوي؛ ومنها ما عجله لعباده في الحياة الدنيا، ومنها ما أخره، والآية فيها إشارة إلى ذلك حيث خلق لنا كل شيء، وسخر لنا كل شيء، وأعطانا من كل شيء سألناه، ومن كثرة نعمه لا يمكن أن يحصيها أحد، ولا يمكن أن يعدها عاد، فلله الحمد، وله الشكر، وله الثناء الحسن.

وللرزق مفهومان: مفهوم عام، ومفهوم خاص.

فالعام: هو كل ما تفضل به الله على عباده وأنعم، سواءً في الدنيا أو في الآخرة، وسواءً كان هذا الرزق ماديًا أو معنويًا.

أما الخاص: فهو المادي في الدنيا، ومن كسب الإنسان.

ومن أمثلة على الرزق العام فيما يأتي:

١. خلق المخلوقات علويها وسفليها لصالح الإنسان. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٩].

٢. تفضله سبحانه وتعالى على من يشاء بالملك والعز والخير. قال تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٣. إنزال المطر وإنشاء الجنات والأنعام. قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ

(١) شأن الدعاء، الخطابي ص٥٥.

مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ [الأنعام: ١٤١- ١٤٢]

٤. ومن رزق الله: البحر وما فيه من أرزاق وخيرات، قال عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر الآية ١٢].

أخرج البخاري في صحيحه من حديث جابر، قال: غزونا جيش الخبط، وأمّر أبو عبيدة فجعنا جوعًا شديدًا فألقى البحر حوتًا ميّتًا لم نر مثله، يقال له: العنبر، فأكلنا منه نصف شهرٍ، فأخذ أبو عبيدة عظمًا من عظامه فمرّ الرّاكب تحته، فأخبرني أبو الزّبير أنّه سمع جابرًا يقول: قال أبو عبيدة: كلوا، فلمّا قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنّبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: (كلوا رزقًا أخرجه اللّه، أطعمونا إن كان معكم)، فأتاه بعضهم بعضوٍ فأكله)[1].

هذه الغزوة: غزوة سيف البحر، أو سرية الخبط[2]، وكانت في رجب سنة ثمانٍ، بعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ساحل البحر يتلقون عيرًا لقريش، بينهم وبين المدينة خمس ليال، وخرج بهم أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه، ولما كانوا في أثناء الطريق انتهى زاد الجيش، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش، فجمعها فكانت مزود تمر، والمزود هو: ما يوضع فيه الزاد، قال جابر: فكان أبوعبيدة يعطينا تمرةً تمرةً، فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله، قال: وانطلقنا في ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر فأكلنا منها نصف شهر.. الحديث.

(١) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة سيف البحر، رقم ٤٣٦١.

(٢) الخَبَط: ورق الشّجر السّاقط بمعنى المخبوط، وخبط الشجرة بالعصا يخبطها خبطًا: شدّها ثم ضربها بالعصا ونفض ورقها منها ليعلفها الإبل والدوابّ.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٢٦٩ .

المعبودات من دون الله والرزق

أولًا: لا تملك المعبودات من دون الله الرزق:

من ثوابت الإيمان التي يجب على المسلم أن يؤمن بها ويتمسك بها أن تكون ثقته أن الرزق بيد الله، وأنه سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن على الإنسان أن يلجأ في طلب الرزق إليه سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

في الآية السابقة: وجوب إفراد الله تعالى بالدعاء والعبادة، أما هذه الآية فهي كالتفسير للآية السابقة، وقد دلت على وجوب الدعاء لله وحده وطلب الرزق منه، وعلى وجوب إفراد الله بجميع أنواع العبادة ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾، وعلى وجوب شكر الله على نعمه، ﴿وَاشْكُرُوا﴾ هذا فعل أمر.

ثانيًا: التقرب إلى المعبودات من دون الله بنصيب من رزق الله:

العبادة حق لله وحده لا شريك له سواءً كانت ذبحًا أو نذرًا أو سجودًا أو ركوعًا أو طوافًا ونحوها، فإن من جعل شيئًا منها لمخلوق كائنًا من كان فقد أشرك بالله تعالى في عبادته، واتخذ مع الله أندادًا. وبيان ذلك أن الذبح أو النذر لغير الله تعالى شرك بالله تعالى؛ لأنهما عبادتان يجب صرفهما لله تعالى وحده، فمن صرفهما لغيره فقد أشرك، كما أن هؤلاء الذين ينحرون أو ينذرون لغير الله تعالى سواءً كان للأموات، أو للجن، أو للملائكة عليهم السلام، أو لطلعة سلطان ونحوها، إنما يفعلون ذلك عن اعتقاد باطل، فيعتقدون أنها تجلب النفع أو تدفع الضر، ومنهم من يقدم تلك النحائر والنذور إلى هذه المعبودات من أجل أن تقربهم عند الله زلفى.

يقول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

يقول ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ «يعني: ما ذبح لغير الله تعالى، وقصد به صنم أو بشر من الناس كما كانت العرب تفعل، وكذلك النصارى، وعادة الذابح أن يسمي مقصوده ويصيح به،

فذلك إهلاله»[1].

يقول ابن تيمية: «قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

ظاهره أنه ما ذبح لغير الله تعالى، مثل أن يقال: هذا ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود، فسواءً لفظ به أو لم يلفظ، فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله، وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقربًا به إليه لحرم، وإن قال فيه باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين قد يتقربون إلى الكواكب، بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان»[2].

ويقول ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

قال مجاهد وابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جريج: وهي ثلاثمائة وستون نصبًا، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب، فهو من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا»[3].

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٥٦٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٢.

أسباب الرزق

أولًا: الإيمان والتقوى:

الإيمان بالله تعالى سبب من أسباب الرزق، لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [٩٦: الأعراف].

ومن لوازم الإيمان بالله تعالى: شكره سبحانه، فكما أن الإيمان سبب في الرزق فالشكر سبب في زيادته، والشكر مبني على ثلاثة أركان هي: الاعتراف بها -أي: بالنعمة- باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة وليّها ومسديها ومعطيها سبحانه[4].

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ فقد بينت الآية الكريمة أن الشكر سبب في زيادة النعم، والمزيد يتضمن الحفظ والزيادة، ومتى لم ير الإنسان نفسه في مزيدٍ فليستقبل الشكر.

وذكر القرطبي أن الآية نص في أن الشكر سبب المزيد في الرزق وأنه أحد الأقوال في الآية[5]، وأن الكفر عمومًا بعدم الإيمان وعدم رد النعمة إلى الله تعالى سبب في

(٤) الوابل الصيب، ابن القيم ص١٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣٤٢.

العذاب لأن الكفر بالنعمة كفر ببارئها. كما جاءت الأحاديث الشريفة مؤكدة للمعنى الذي أشارت إليه الآية الكريمة، فعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يرزق الله عبدًا الشكر فيحرمه الزيادة)؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

كما جعل الله تعالى التقوى في الآية نفسها سببًا من أسباب الرزق، وفي هذا إشارة إلى أن رغد العيش وسعة الرزق تكون بالإيمان والتقوى.

وفي آية أخرى أفرد الله سبحانه التقوى سببًا من أسباب الرزق، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢].

وقد يتصوّر أكثر الناس أن السعي في الأرض والمشي في مناكبها هو السبب الوحيد لتحصيل الرزق، ولكن اللّه سبحانه، الذي هو باسط الرزق ومسبب أسبابه، يؤكد في كتابه المجيد أن الأمر مختلف، فالتقوى والإيمان في البيان القرآني من أسباب الرزق أيضًا:

التقوى عرفها العلماء بقولهم: امتثال أمر الله، واجتناب نهيه، والوقاية من سخطه وعذابه عز وجل؛ ولذا من صان نفسه عن المعاصي هو متق لله، ومن قام بالواجبات والأوامر وحافظ عليها كان من المتقين لله تعالى، أما من عرض نفسه بالمعصية لسخط الله وعقوبته فقد أخرج نفسه عن وصف المتقين، والدليل على ارتباط التقوى بالرزق قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

أي: لأكثر الله الرزق النازل عليهم من السماء، والنابت لهم من الأرض، ولأسبغ عليهم الدنيا إسباغًا[2].

ومن صور التقوى: التفرغ لعبادة الله عز وجل: ومعناه: حضور القلب وخشوعه وخضوعه لله أثناء العبادة، فعن معقل بن يسارٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول ربّكم تبارك وتعالى: يا ابن آدم، تفرّغ لعبادتي، أملأ قلبك غنىً، وأملأ يديك رزقًا، يا ابن آدم، لا تباعد منّي، فأملأ قلبك فقرًا، وأملأ يديك شغلًا)[3].

ثانيًا: التوكل:

جعل الله التوكل عليه من أسباب الرزق كذلك. وحقيقة التوكل على الله هي

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/ ٣٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٨٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٣٢١، رقم ٨٦٩٦، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٤٢، رقم ٢٤٦٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٣/ ٣٤٦، رقم ١٣٥٩.

الاعتماد عليه سبحانه، وإسناد الأمر إليه، والتفويض الكامل له، واستسلام القلب له؛ اعتمادًا على كفاية الله عبده، وإحسان العبد الظنّ بربه، وإثباتًا للتوحيد في الأمر كله لله سبحانه، حيث لا خالق ولا فاعل إلا هو، وهو تام العلم والقدرة والرحمة، فمن آمن بذلك توكل على الله[1]، كما دل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إلى كفاية الله لكل من توكل عليه في أي أمر من الأمور، ويدخل في هذا العموم الرزق. وفي سنن الترمذي عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا)[2].

ففي هذا الحديث دلالة على الجمع بين الرزق والتوكل، وأن الناس لو توكلوا على الله لرزقهم كما يرزق الطير، التي تخرج من أعشاشها صباحًا خاوية البطون من الجوع تبحث عن رزقها، وتعود مساءً ممتلئة الحواصل، شبعةً من رزق الله[3].

فترك الأسباب ومجرد تفويض الأمر إلى الله في نظرهم هو الإيمان. وحقيقة الأمر أن التوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركنّ سنّته[4]، والتوكل على الله في عموم حاجات المسلم من علامات إيمان المرء، ويتأكد ذلك في التوكل على الله في الرزق، وتحصيله، قال أبو حاتم بن حبّان رحمه الله الواجب على العاقل: لزوم التوكل على من تكفل بالأرزاق؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان، فالنظام: هو السلك الذي تنظم فيه حبات العقد.

وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر، ووجود الراحة، وما توكل أحدٌ على الله جل وعلا من صحة قلبه، حتى كان الله جلّ وعلا بما تضمّن من الكفالة أوثق عنده بما حوته يده: إلا لم يكله الله إلى عباده، وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب.

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي[5]:

توكل على الرحمن في كلّ حاجةٍ
أردتّ فإن الله يقضي ويقدر
متى ما يرد ذو العرش أمرًا بعبده
يصبه، وما للعبد ما يتخيّر
وقد يهلك الإنسان من وجه أمنه
وينجو بإذن الله من حيث يحذر

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣١٨.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله، باب في التوكل على الله، ٤/ ٥٣٧، رقم ٢٣٤٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٣٢، رقم ٥٢٥٤.
(٣) شرح السنة، البغوي، ١٤/ ٣٠١.
(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ٢/ ٤٩٨.
(٥) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان البستي ص ١٥٣، ١٥٤.

قال ابن حجر: والمراد بالتوكل اعتقاد ما دلت عليه هذه الآية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وليس المراد به: ترك التسبب والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين لأن ذلك قد يجر إلى ضد ما يراه من التوكل، وقد سئل أحمد عن رجل جلس في بيته أو في المسجد، وقال: لا أعمل شيئًا[١].

ثم إن التوكّل على الله -وليس بمعنى التواك- من أبواب الرزق، فعلى الإنسان أن يعمل ويجدّ في طلب الرزق، ولا يعني أن عمله بالطاعة يغنيه عن العمل الدّنيوي لجلب الرزق، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم: (لو توكّلتم على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا، وتروح بطانًا)[٢].

وقد قال ابن تيمية: وأما قوله: (يا عبادي، كلّكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، وكلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم)[٣].

فيقتضي أصلين عظيمين؛ أحدهما: وجوب التوكّل على الله في الرّزق المتضمّن جلب المنفعة؛ كالطعام، ودفع المضرّة كاللّباس، وأنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرةً مطلقةً[٤].

قال ابن القيم رحمه الله: «التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل[٥].

ثالثًا: الاستغفار:

والاستغفار: طلب المغفرة قولًا وفعلًا، والغفران والمغفرة: هو أن يصون الله عز وجل العبد من أن يمسه العذاب[٦].

ثمرات الاستغفار:

إن من منن الله الكبرى، والفضائل العظمى، ما رتّب على الاستغفار من عظيم الجزاء، ومن ذلك:

١. أن الاستغفار سبب المغفرة، ولو عظمت الذنوب، وبلغت من الكثرة عنان السماء.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١١٠].

أي: من تجرأ على المعاصي، واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفارًا تامًّا،

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣٠٥.
(٢) سبق تخريجه قريبًا.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧.
(٤) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ١/ ١٠٦.
(٥) طريق الهجرتين،ابن القيم ص٣٨٩.
(٦) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٣٦.

يستلزم الإقرار بالذنب، والندم عليه، والإقلاع، والعزم على ألا يعود، فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدّم من الأعمال الصالحة، ويوفّقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلًا عن توفيقه؛ لأنه قد غفره، وكذا سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسمي ﴿سُوٓءًا﴾؛ لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئًا غير حسن، وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق، يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، وسمى ظلم النفس ظلمًا؛ لأن نفس العبد ليست ملكًا له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها الصراط المستقيم علمًا وعملًا، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب[1].

٢. أن الاستغفار سبب لرفع البلاء والنقم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقد دلّت هذه الآية على فضيلة الاستغفار وبركته، بإثبات أن المسلمين أمنوا من العذاب، الذي عذّب الله به الأمم؛ لأنهم استغفروا من الشرك باتّباعهم الإسلام[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان في هذه الأمة أمانان: رسول الله صلى الله عليه و سلم، والاستغفار، فذهب أمان، يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقي أمان، يعني: الاستغفار[3].

٣. الاستغفار سبب للمتاع الحسن في الدنيا.

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

هذه الآيات نزلت في قوم نوح لما كذبوه زمانًا طويلًا فحبس الله عز وجل عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فرجعوا فيه إلى نوح، فقال نوح عليه السلام: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، أي: استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه، والغفار أبلغ من الغفور، وهو من الغافر، وأصل الغفر: الستر والتغطية، والمغفرة من الله ستره للذنوب وعفوه عنها بفضله ورحمته لا بتوبة العباد وطاعتهم[4].

ولتحريك داعي الاستغفار قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، فبين أنه دائم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٦.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٣٣٥.

(٣) الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٥٨.

(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ١٦/ ١٤٨.

المغفرة كثيرها للتائبين، ووعدهم أنهم إن آمنوا يرزقهم الله تعالى الخصب ويدفع عنهم ما هم فيه[1]، فالآيات تدل على أن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات، ويحكي لنا القرآن الكريم أن نبي الله هود عليه السلام قد تفطن لثمرة الاستغفار، وأنه من أسباب الرزق والعز والقوة؛ حيث قال عز وجل على لسانه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

والمعني: كما يقول السعدي: «﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ عما مضى منكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيما تستقبلونه، بالتوبة النصوح، والإنابة إلى الله تعالى، فإنكم إذا فعلتم ذلك ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ بكثرة الأمطار التي تخصب بها الأرض، ويكثر خيرها، ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[فصلت: ١٥].

فوعدهم أنهم إن آمنوا، زادهم قوة إلى قوتهم، أي: عزًا مضمومًا إلى عزكم أو مع عزكم»[2].

وكان أكثر دعاء نبينا صلي الله عليه وسلم: (اللّهمّ ربّنا آتنا في الدّنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النّار)[3].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «قال ابن كثير: الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، وولد بار، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما شملته عباراتهم، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا، وأما الحسنة في الآخرة فأعلاها دخول الجنة، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة»[4].

فإذا ما استغفر المسلم ولم يجد نتيجة، فليتذكر أنه ليس المراد بالاستغفار مجرد قول «استغفر الله» بل الرجوع عن الذنوب وتطهير الألسنة والقلوب[5].

وليعلم أن الخلل فيه هو لا في غيره، وأن استغفاره لم يتجاوز لسانه، وأن استغفاره دون وعي، ودون عمل يحتاج إلى استغفار.

قال تعالى حاكيًا قول شعيب عليه السلام

(١) روح المعاني، الألوسي ٢١/ ٣١٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٨٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، ٨/ ٨٣، رقم ٦٣٨٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار،٤/ ٢٠٧٠، رقم ٢٦٩٠.
(٤) فتح الباري ١٨/ ١٨٤.
(٥) إعراب القرآن وبيانه، الدرويش ١٠/ ٢٢٧

لقومه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

قال السعدي في سرده لفوائد قصة شعيب: «ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه ويعفى عنه، فإن الله تعالى يحبه ويودّه ولا عبرة بقول من قال: (إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له ويعود عليه بالعفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود)، فإن الله تعالى قال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]»[(١)].

رابعًا: الدعاء:

لقد أمر الله تعالى عباده بأن يدعوه وحضهم على الدعاء وسماه عبادة، ووعدهم بأن يستجيب لهم، وأخبرهم بأنه قريب يجيب دعوة من دعاه، ويستحي أن يرد يدي عبده خاليتين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا)[(٢)].

وللدعاء أهمية كبرى، وثمرات جليلة، وفضائل عظيمة، وأسرار بديعة منها[(٣)]:

١. الدعاء طاعة لله وامتثال لأمره عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

٢. الداعي مطيع لله، مستجيب لأمره، السلامة من الكبر.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال الإمام الشوكاني في هذه الآية: «والآية الكريمة دلت على أن الدعاء من العبادة؛ فإنه سبحانه وتعالى أمر عباده أن يدعوه، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾. فأفاد ذلك أن الدعاء عبادة، وأن ترك دعاء الرب سبحانه استكبار»[(٤)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٨٩.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء، ٢/ ٧٨، رقم ١٤٨٨، والترمذي في أبواب الدعوات، ٥/ ٥٥٦، رقم ٣٥٥٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٦٢، رقم ١٧٥٧.

(٣) أهمية الدعاء وكيفيته في السنة النبوية، محمد بن إبراهيم الحمد ١-٢.

(٤) تحفة الذاكرين ص٢٨.

ويجمع خيري الدنيا والآخرة سؤال الله حسنة في الدنيا، وفي الآخرة حسنة، فهذا من جوامع الدّعاء؛ سأل قتادة أنسًا: أي دعوة كان يدعو بها النبيّ صلى الله عليه وسلم أكثر؟ قال: كان أكثر دعوة يدعو بها، يقول: (اللهمّ آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النار)، قال: وكان أنسٌ إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، فإذا أراد أن يدعو بدعاءٍ دعا بها فيه[1].

قال ابن كثير: «جمعت هذه الدعوة كلّ خيرٍ في الدنيا، وصرفت كلّ شرٍّ، فإنّ الحسنة في الدنيا تشمل كلّ مطلوب دنيوي؛ من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسّرين، ولا منافاة بينها، فإنّها كلها مندرجةٌ في الحسنة في الدنيا»[2].

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾[المائدة: ١١٤- ١١٥].

والمعنى: «﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ أي: يا الله المطلوب لكل مهمّ، الجامع للكمالات، الذي ربانا بها، ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية، إظهارًا لغاية التضرع ومبالغةً في الاستدعاء، ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: التي فيها ما تعدنا من نعيم الجنة، ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي: يكون يوم نزولها عيدًا نعظمه ونسرّ به، نحن الذين يدركونها. ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتقوّون في دينهم، (العيد) العائد، مشتق من (العود) لعوده في كل عام بالفرح والسرور، وكل ما عاد عليك في وقت فهو عيد، وقيل: العيد: ما اعتادك من هم أو مرض أو حزن ونحوه، كل يوم فيه جمع، ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ أي: على كمال قدرتك وصدق وعدك وتصديقك إياي، ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي: أعطنا ما سألناك، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: خير من يرزق، لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض[3].

ومن صور الدعاء: الاستعاذة بالله من المأثم والمغرم:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، ٨/ ٨٣، رقم ٦٣٨٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ٤/ ٢٠٧٠، رقم ٢٦٩٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٥٨.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٢٩٧.

عن عائشة رضي الله عنها أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان يدعو في الصّلاة: (اللّهمّ إنّي أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدّجّال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللّهمّ! إنّي أعوذ بك من المأثم والمغرم). قالت: فقال له قائلٌ: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم يا رسول الله! فقال: (إنّ الرّجل إذا غرم، حدّث فكذب، ووعد فأخلف)[1].

خامسًا: الإنفاق:

ومن صوره:

١-الإنفاق في سبيل الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

والمعنى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ في فعل الخيرات التي أمر الله بها في كتابه وبيّنها رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ أي: يعوضه عليكم إما في الدنيا وإما في الآخرة، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: إن الناس مجرد وسطاء، فإن رزق العباد لبعضهم بعضًا إنما هو بتيسير الله وتقديره، وليسوا برازقين على الحقيقة، وإنما الرازق الحقيقي هو الله تعالى[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق أنفق عليك)[3].

٢-الإنفاق على أهل العلم:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان أخوان على عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلم فكان أحدهما يأتي النّبيّ صلى الله عليه وسلم والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: (لعلّك ترزق به)[4].

٣-إكرام الضعفاء والإحسان إليهم:

عن مصعب بن سعدٍ قال: رأى سعدٌ رضي الله عنه أنّ له فضلًا على من دونه، فقال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (هل تنصرون وترزقون إلاّ بضعفائكم)[5].

وفي الصحيح عن أبي هريرة أنّ النبي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الدعاء قبل السلام، رقم ٨٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال ومن المأثم والمغرم بين التشهد والتسليم، ١/ ٤١٢، رقم ٥٨٩.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، ٧/ ٤٩٧، رقم ٥٣٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، ٢/ ٦٩٠، رقم ٩٩٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب في التوكل على الله، ٤/ ١٥٢، رقم ٢٣٤٥. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٦٣٦، رقم ٢٧٦٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، رقم ٢٨٩٦.

صلى الله عليه وسلم قال: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا)[1].

ويكون الخلف بعدة وجوه:

يخلفه في الدنيا، إذا رأى ذلك صلاحًا، فيعوّضه مثل ما أنفق وأزيد يخلفه في الآخرة بالأجر والثواب.

سادسًا: السعي في الأرض:

لقد أعلن القرآن الكريم دعوته الأكيدة على ضرورة العمل، وعلى الكسب، وبذل الجهد.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

إن المنهج الإسلامي يتسم بالتوازن بين العمل لمقتضيات الحياة في الأرض، وبين العمل في تهذيب النفس، والاتصال بالله تعالى وابتغاء رضوانه، والى ذلك يشير القرآن الكريم[2].

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

والمعنى: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ولا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعًا، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك، وأحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بهذه الأموال، ولا تبغ الفساد في الأرض بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم، إنّ الله لا يحبّ المفسدين بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة[3].

قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

لما ذكر سبحانه أنه يسرها للمشي، ذكرهم بأنه سهلها لإخراج الخيرات والبركات فقال: ﴿وَكُلُوا﴾ ودل على أن الرزق فوق الكفاية بقوله: ﴿مِن رِّزْقِهِ﴾ أي: الذي أودعه لكم فيها، وأمكنكم من إخراجه بضد ما تعرفون من أحوالكم، فإن الدفن في الأرض مما يفسد المدفون ويحيله إلى جوهرها كما يكون لمن قبرتموه فيها، ومع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى)، رقم ١٤٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك رقم ١٠١٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ٢٠٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٠٨.

ذلك فأنتم تدفنون الحب وغيره مما ينفعكم فيخرجه لكم سبحانه على أحسن ما تريدون ويخرج لكم من الأقوات والفواكه والأدهان والملابس ما تعلمون، وكذلك النفوس هي صعبة كالجبال وإن قدتها للخير انقادت لك، كما قيل: (هي النفس ما عودتها تتعود)، ولما كان التقدير للبعث على الشكر والتحذير من الكفر: واعبدوه جزاءً على إحسانه إليكم وتربيته لكم. فمنه مبدأ جميع ذلك، عطف عليه ما يدعو إلى الحياء من السيد والخجل من توبيخه عند لقائه فقال: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: وحده ﴿النُّشُورُ﴾ وهو إخراج جميع الحيوانات التي أكلتها الأرض وأفسدتها، يخرجها في الوقت الذي يريده[1].

والكد والعمل -طلبًا للرزق- من سنن الأنبياء، قال عليه الصلاة والسلام: (ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده)[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضةً»[3].

وخلاصة القول: أن الحياة جهاد وكفاح، فليس طلب المعيشة بالتمني ولكن بالعمل، وعجز المرء وكسله سبب البلاء والتأخير، وقد تعوذ النبي صلى الله عليه وسلم من الكسل فقال: (اللهم إني أعوذ بك من الكسل والجبن والبخل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال)[4].

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تكسل)[5].

فسبحان من أخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وأمرهم باستعمالها، وهداهم إلى أسباب الرزق، ويسرها لمن طلبها.

ومن آداب السعي لطلب الرزق وزيادته وحصول البركة فيه:

التبكير في طلب الرزق:

عن صخرٍ الغامديّ رضي الله عنه عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (اللّهمّ بارك لأمّتي في بكورها)، وكان إذا بعث سريّةً أو جيشًا بعثهم من أوّل النّهار، وكان صخرٌ

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢٠/ ٢٤٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب كسب الرجل وعمله، رقم ٢٠٧٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم ١٠٤٢.
(٣) تاريخ عمر بن الخطاب،ابن الجوزي ص٢٠٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الرجال، رقم ٦٣٦٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله، ٤/ ٢٠٥٢، رقم ٢٦٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

رجلًا تاجرًا، وكان يبعث تجارته من أوّل النّهار، فأثرى وكثر ماله حتى كان لا يدري أين يضع ماله[1].

قال الإمام الشوكاني: «وحديث صخر المذكور فيه مشروعية التبكير من غير تقييد بيوم مخصوص سواءً كان ذلك في سفر جهاد أو حج أو تجارة أو في الخروج إلى عمل من الأعمال ولو في الحضر»[2].

سابعًا: صلة الرحم:

إن من أعظم الطاعات التي تزيد في الرزق هي صلة الرحم؛ كما روي عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سرّه أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه)[3].

ومعنى قوله: (وينسأ له في أثره) أي: يبقى ذكره الطيب وثناؤه الجميل مذكورًا على الألسنة، فكأنه لم يمت، والعرب تقول: «الثناء يضارع الخلود»، كما يسمى الذم موتًا، وقال سابق البربري: موت التّقيّ حياةٌ لا انقطاع لها، قد مات قومٌ وهم في النّاس أحياء[4].

يعني: بسوء أفعالهم وقبح ذكرهم، وفي الحديث السابق: إباحة اختيار الغنى على الفقر، فإن قيل: هذا الحديث يعارض قوله عليه السلام: (يجمع خلق أحدكم في بطن أمّه أربعين يومًا مضغة...) وفيه: (فيكتب رزقه وأجله)[5].

قال المهلب: اختلف العلماء في وجه الجمع بينهما على قولين:

القول الأول: معنى البسط في رزقه: البركة؛ لأن صلته أقاربه صدقة، والصدقة تربي المال وتزيد فيه، فينمو بها ويزكو.

والقول الثاني: أنه يجوز أن يكتب في بطن أمه أنه إن وصل رحمه فإن رزقه وأجله كذا، وإن لم يصل رحمه فكذا؛ بدلالة قوله تعالى في قصة نوح: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٣- ٤].

يريد: أجلًا قد قضى به لكم إن أطعتم،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البيوع، باب التبكير في التجارة، ٣/ ٥١٧، رقم ١٢١٢، وابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب ما البركة في البكور، ٢/ ٧٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٨، رقم ١٣٠٠.

(٢) نيل الأوطار، الشوكاني ٧/ ٢٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، ١٠/ ٤٢٩، رقم ٥٩٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم، ٩/ ٣٦٨٧، رقم ٤٦٠٤.

(٤) زهر الأكم في الأمثال والحكم، اليوسي ١/ ٧٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم ٢٦٤٣.

يؤخّركم إليه؛ لأن أجل الله إذا جاء في حال معصيتكم لا يؤخّر عنكم[1].

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]؛ وهو الهلاك على الكفر، ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهذا كله من المكتوب في بطن أمه؛ أي الأجلين استحقّ لا يؤخّر عنه، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وقد روي عن عمر بن الخطاب ما هو تفسيرٌ لهذه الآية؛ كان يقول: «اللهم إن كنت كتبتني عندك شقيًّا، فامحني واكتبني سعيدًا؛ فإنك تقول: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]».

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٦/ ٢٠٦.

علاقة المعاصي بالرزق

لا شك أن المعاصي جميعًا سواءً كانت في حق الله أو في حقوق العباد من أسباب ضيق الرزق ونكد العيش، وعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يردّ القدر إلاّ الدّعاء، وإنّ الرجل ليحرم الرّزق بالذنب يصيبه)[2].

حتى وإن أنعم الله سبحانه على العاصي ببعض النعم استدراجًا له فإنها لا تأتيه إلا منغصةً منزوعة البركة بسبب ذنوبه ومخالفته.

يقول ابن القيم في كتابه الجواب الكافي: «ومن عقوباتها -المعاصي-: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة، وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق»[3].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، رقم ٢١٣٩، وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب العقوبات، ٢/ ١٣٣٤، رقم ٤٠٢٢.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ١٤٥٢.

(٣) الجواب الكافي ص ٥٨.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي: لوسّعنا عليهم الخير، ويسّرناه لهم من كل جانب»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وفي الحديث: (إنّ روح القدس نفث في روعي أنّ نفسًا لن تموت حتّى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطّلب، ولا يحملنّ أحدكم استبطاء الرّزق أن يطلبه بمعصية الله، فإنّ الله تعالى لا ينال ما عنده إلاّ بطاعته)[(٢)].

وإن الله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والمعنى: لئن شكرتم إنعامي عليكم بما ذكر لأزيدنّكم نعمةً إلى نعمة؛ تفضّلًا منّي، وقيل: لأزيدنكم من طاعتي، وقيل: لأزيدنّكم من الثواب[(٣)].

المعاصي تمحق الأرزاق:

قد ينخدع الناس بزيادة خيرات الدنيا مع معاصيهم؛ فيظنوا ذلك بسطًا في الرزق فيزدادوا غيًّا وإعراضًا، ولكن اقتران المعاصي مع فيض النعم يعني الإمهال من الله تعالى لحصول التوبة، فإذا تعدى ذلك حدود الإياب والتوبة؛ فإنه يكون الاستدراج الذي يليه الهلاك والعذاب.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدة مواضع، ولعل من أوضحها دلالة ما جاء في سورة الكهف -في قصة صاحب الجنتين- حيث يقول تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٥٣.
(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ١٠/ ٢٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٢٠، رقم ٢٠٨٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٩٦.

﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤].

تجيء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلًا للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلًا على المنعم، موجبةً لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره[1].

إن الوقوع في المعاصي والآثام يؤدي إلى محق الرزق وإهلاكه، وتهلك أصحابها ذلًا وضيقًا وعذابًا في الدنيا والآخرة. إن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم قيام الليل، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقًا كان قد هيئ له.

فانظر رعاك الله إلى قول الله عز وجل: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٩ - ٢٠].

قال ابن كثير: «عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب اللّه ما بأيديهم بالكلية: رأس المال، الربح، والصّدقة، فلم يبق لهم شيءٌ، قد حرموا خير جنتهم بذنبهم»[2].

فما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، وليست سعة الرزق والعمل بكثرته، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق وطول العمر بالبركة فيه، ومعلوم أن عمر العبد: مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته؛ فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره، ومحبّته، وعبادته وحده، والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره، والأنس بقربه، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله[3].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٩٦.

(٣) الجواب الكافي، ابن القيم، ص٨٤.

الرزق في الآخرة

لقد شاءت حكمة الله تعالى أن يكون رزقه لعباده في الدنيا محدودًا، وعلى دفعات.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

ولو بسط الله الرزق لعباده، فوسّعه وكثّره عندهم لبغوا؛ فتجاوزوا الحد الذي حدّه الله لهم إلى غير الذي حده لهم في بلاده بركوبهم في الأرض ما حظره عليهم، ولكنه ينزّل رزقهم بقدر؛ لكفايتهم الذي يشاء منه، فالله يعلم أن عباده -هؤلاء البشر- لا يطيقون الغنى إلا بقدر.

وفي قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

وهكذا الحال: ترى كثيرًا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضًا منه، وكثيرًا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأمّا المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة، فما يبالي: أوتي حظًّا من الدنيا أو لم يؤت، فإن أوتي فيها وإلا فربما كان الفقر خيرًا له وأعون على مراده[1].

ومن عظيم رزقه تعالى في الآخرة الجنة: الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه، وهي دار النعيم الأبدي بعد دار التعب والنصب والعمل، ولا يمكن بحال مقارنة نعيمها بنعيم الدنيا وإن اشتركا في الاسم، إذ بينهما فرق أعظم مما بين السماء والأرض، سواءً في المساكن، أو النساء، أو الطعام، أو المراكب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء[2].

ونعيم الجنة يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا، ومهما ترقى الناس في دنياهم، فسيبقى ما يبلغونه أمرًا هينًا بالنسبة لنعيم الآخرة، فالجنة: نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد وفاكهة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، في

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٥٦.
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه، رقم ١١٩٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٤١٠.

مقام أبدًا، في حبرة ونضرة، في دور عالية سليمة بهية.

ومن أعظم فضل الله ورزقه وعطائه في الآخرة: النظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

روى صهيب عن النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال: (إذا دخل أهل الجنّة الجنّة يقول اللّه تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم. فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنّة وتنجّنا من النّار. قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النّظر إلى ربّهم عزّ وجلّ)[1].

وذكر القرآن أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في المحشر، وفي الجنة.

قال تعالى عن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فدل على المؤمنين يرونه يوم القيامة، و قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وفسّر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الحسنى: بأنها الجنّة، وفسّر الزّيادة بأنها: النظر إلى وجه الله الكريم، وهو ثابتٌ في صحيح مسلم[2].

وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إن مما لا شك أن في الجنة فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، مما لا يوجد مثله في الدنيا، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله: أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، ولموضع سوط أحدكم في الجنّة خيرٌ من الدّنيا وما فيها، فاقرءوا إن شئتم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، وإنّ في الجنّة لشجرةً يسير الرّاكب في ظلّها مائة عام فما يقطعها، اقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾)[3].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يومًا يحدّث وعنده رجلٌ من أهل البادية، أنّ رجلًا من أهل الجنّة استأذن ربّه في الزّرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكنّي أحبّ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، ١/ ٦٣، رقم ١٨١.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى رقم ١٨١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٠٧٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٢٨٢٤.

أن أزرع، قال: فبذر فبادر الطّرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: دونك يا ابن آدم، فإنّه لا يشبعك شيءٌ، فقال الأعرابيّ: والله لا تجده إلاّ قرشيًّا أو أنصاريًّا فإنّهم أصحاب زرعٍ، وأمّا نحن فلسنا بأصحاب زرعٍ، فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم)[1].

وهي ليست جنة واحدة، بل جنان متعددة.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من آمن باللّه وبرسوله، وأقام الصّلاة، وصام رمضان كان حقًّا على اللّه، أن يدخله الجنّة جاهد في سبيل اللّه، أو جلس في أرضه الّتي ولد فيها)، فقالوا: يا رسول اللّه، أفلا نبشّر النّاس، قال: (إنّ في الجنّة مائة درجةٍ أعدّها اللّه للمجاهدين في سبيل اللّه، ما بين الدّرجتين كما بين السّماء والأرض، فإذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنّة، وأعلى الجنّة أراه فوقه عرش الرّحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنّة)[2] وثبت في الصحيح أيضًا عن أنس أنّ أمّ حارثة أتت النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، وقد هلك حارثة يوم بدرٍ، أصابه سهمٌ غربٌ، فقتله، فقالت: يا رسول اللّه، قد علمت موضع حارثة من قلبي، فإن كان في الجنّة، لم أبك عليه، وإلا سوف ترى ما أصنع، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: (هبلت أوجنّةٌ واحدةٌ هي؟ إنّما هي جنانٌ كثيرةٌ، وإنّه لفي الفردوس الأعلى)[3].

وجاء في مساكنها: ما في سنن الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الجنة وبنائها فقال: (الجنّة بناؤها لبنةٌ من فضّةٍ، ولبنةٌ من ذهبٍ، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللّؤلؤ والياقوت، وتربتها الزّعفران، من دخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم)[4].

وأما غرف الجنة وخيامها، فذكر القرآن أن لأهل الجنة مساكن وبيوتًا وغرفًا مبنيةً بعضها فوق بعض.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب كراء الأرض بالذهب والفضة، ٣/ ١٠٨، رقم ٢٣٤٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، ٤/ ١٦، رقم ٢٧٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، ٥/ ٧٧، رقم ٣٩٨٢، عن أنسٍ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، ٤/ ٥٨٠، ٢٥٢٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣١١٦.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

وقال تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ في الجنّة غرفةً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدّها اللّه لمن أطعم الطّعام، وألان الكلام، وتابع الصّيام، وصلّى والنّاس نيامٌ)[1].

وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ للمؤمن في الجنّة لخيمةً من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوّفةٍ طولها ستّون ميلًا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا)[2].

وهذه الخيام غير الغرف والقصور، بل هي خيام منصوبة في البساتين، وعلى شواطئ الأنهار.

وأما طعام أهل الجنة وشرابهم، فأشجار الجنة وثمارها، وقطوفها الدانية المذللة تذليلًا، واختيار أهل الجنة من ثمارها ما يريدون ويشتهون، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب.

قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها، وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون.

قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧، ٥٣٩، رقم ٢٢٩٠٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الرحمن، باب ٢، رقم ٤٨٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب صفة خيام الجنة، ٤/ ٢١٨٢، رقم ٢٨٣٨.

﴿فِيهَا أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقد يتبادر إلى الذهن: أن الطعام والشراب في الجنة ينتج عنه ما ينتج عن طعام أهل الدنيا وشرابهم من البول والغائط والمخاط والبزاق ونحو ذلك، والأمر ليس كذلك، فالجنة دار خالصة من الأذى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ أوّل زمرةٍ يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، ثمّ الّذين يلونهم على أشدّ كوكبٍ درّيٍّ في السّماء إضاءةً، لا يبولون ولا يتغوّطون، ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذّهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوّة -الألنجوج، عود الطّيب- وأزواجهم الحور العين، على خلق رجلٍ واحدٍ، على صورة أبيهم آدم، ستّون ذراعًا في السّماء)[1].

وأهل الجنة خالدون فيها، ونعيمهم دائم.

ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ في الجنّة لسوقًا يأتونها كلّ جمعةٍ فتهبّ ريح الشّمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا، فيقول لهم أهلوهم: واللّه لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا، فيقولون: وأنتم واللّه لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا)[2].

قال النووي: «المراد بالسوق: مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق، ومعنى يأتونها كل جمعة: أي في مقدار كل جمعة أي أسبوع، وليس هناك حقيقة أسبوع؟ لفقد الشمس والليل والنهار. وقال القاضي: وخص ريح الجنة بالشمال؛ لأنها ريح المطر عند العرب، كانت تهب من جهة الشام، وبها يأتي سحاب المطر، وكانوا يرجون السحابة الشامية، وجاءت في الأحاديث تسمية هذه»[3].

قال صلى الله عليه وسلم: (ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بد الخلق، باب خلق آدم، ٤/ ١٣٢، رقم ٣٣٢٧، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة، ٤/ ٢١٧٨، رقم ٢٨٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمه، ٤/ ٢١٧٨، رقم ٢٨٣٣.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٧٠.

﴿وَلَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣])[(١)].

وأما لباس أهل الجنة وحليهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: ٣٠-٣١].

يقول السعدي: «أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه، متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون.

وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها، يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطى جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان، ودلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية، عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة؛ لأنه أطلقها في قوله ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه»[(٢)].

وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفنى، فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من يدخل الجنّة ينعم لا ييأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه)[(٣)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة وقوله تعالى: (ونودوا أن تلكم الجنة)، رقم ٢٨٣٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٧٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، رقم ٢٨٣٦.

وأما غلمان أهل الجنة، فقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧-١٨].

قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

قال ابن عاشور: «وأحسن من يتّخذ للخدمة الولدان؛ لأنّهم أخفّ حركةٍ وأسرع مشيًا، ولأنّ المخدوم لا يتحرّج إذا أمرهم أو نهاهم، ووصفوا بأنّهم مخلّدون للاحتراس ممّا قد يوهمه اشتقاق ولدانٌ من أنّهم يشبّون ويكتهلون، أي: لا تتغيّر صفاتهم، فهم ولدانٌ دومًا، وإلّا فإنّ خلود الذّوات في الجنّة معلومٌ فما كان ذكره إلّا لأنّه تخليدٌ خاصٌّ، وشبّهوا باللّؤلؤ المنثور تشبيهًا مقيّدًا فيه المشبّه بحالٍ خاصٍّ لأنّهم شبّهوا به في حسن المنظر مع التّفرّق»[1].

ويزوج الله المؤمنين في الجنة بزوجات جميلات غير زوجاتهم اللواتي في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤].

والحور: جمع حوراء، وهي التي يكون بياض عينها شديد البياض، وسواده شديد السواد. والعين: جمع عيناء، والعيناء: واسعة العين، وقد ورد ذكر الحور منكّرة في القرآن الكريم في أربعة مواضع:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣].

وقد وصف الله أزواج أهل الجنة، فقال سبحانه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل، والأدب القولي والفعلي، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضا، بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح[2].

الفرق بين رزق الدنيا ورزق الآخرة:

هناك عدة فروق بينهما، منها:

- رزق الدنيا قليل ومنقطع وزائل، بينما رزق الآخرة كثير ودائم وخالد.

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٩٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦.

- رزق الدنيا يحصل لصاحبه بتكلف، ومشقة، رزق الآخرة بلا تكلف ولا مشقة.
- رزق الدنيا مشوب بالهموم والغموم والمكاره، أما رزق الآخرة خالص من الأنكاد.
- رزق الدنيا يعتريه النقص وتشوبه الآفات، بينما رزق الآخرة في زيادة واستمرار.
- رزق الدنيا ليس مقياسًا للمنزلة عند الله بخلاف الرزق في الآخر.

موضوعات ذات صلة:

الإنفاق، البخل، التوكل، الزكاة، السؤال، السير، العطاء، المن

الرِّضا

عناصر الموضوع

مفهوم الرّضا	٢١٤
الرضا في الاستعمال القرآني	٢١٥
الألفاظ ذات الصلة	٢١٦
رضا الله تعالى غاية وجزاء	٢١٨
الرضا المثبت والمنفي في حق الله	٢٢٢
رضا المخلوقين بين المحمود والمذموم	٢٣٧
الرضا في المعاملات	٢٤٧

مفهوم الرّضا

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (ر ض و) على خلاف السّخط، يقال: رضي يرضى رضًا، والرضوان هو الرضى الكثير[(١)].

فالرضا ضد السخط، وفي الحديث: (اللهمّ إنّي أعوذ برضاك من سخطك)[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال المناويّ: «الرّضا طيب نفسيّ للإنسان بما يصيبه أو يفوته مع عدم التّغيّر»[(٣)].

وقيل: الرضا: سرور القلب بالقضاء، وعدم الجزع[(٤)].

فالرضا إذًا يدور حول قبول النفس للأمر، وعدم التسخط منه، وهو بذلك لا يختلف عن معناه اللغوي.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٢٣، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٥٧، الكليات، الكفوي ص ٤٧٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر، رقم ١٤٢٧، ٢/ ٦٤، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب دعاء الوتر، ٣٥٦٦، ٥/ ٥٦١، والنسائي في سننه، كتاب التطبيق، باب نصب القدمين في السجود، رقم ١١٠٠، ٢/ ٢١٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء باب ما تعوذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٨٤١، ٢/ ١٢٦٢.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث حماد بن سلمة».
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٢٨١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١١١، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٧٨.

الرضا في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رضو) الدالة على (الرضا) في القرآن الكريم (٧٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٣	﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]
الفعل المضارع	٢٣	﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٦]
اسم الفاعل	٤	﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: ٢١]
اسم المفعول	٢	﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥]
صيغة المبالغة	١	﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٦]
مصدر	٢٠	﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢]

وجاء الرضا في القرآن الكريم بمعناه اللغوي، الذي هو ضد السخط[٢].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨] أي: وكرهوا ما يرضيه عنهم[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٢٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٢١.

الألفاظ ذات الصلة

١ التسليم:

التسليم لغة:

الانقياد وبذل الرضا بالحكم[١].

التسليم اصطلاحًا:

الاستسلام والإذعان والانقياد لأمر الله تعالى، وترك الاعتراض فيما لا يلائم، وقيل: التسليم: استقبال القضاء بالرضا، وقيل: التسليم، هو الثبوت عند نزول البلاء من تغير في الظاهر والباطن[٢].

الصلة بين الرضا والتسليم:

التسليم انقيادٌ لأوامر الله تعالى وأحكامه، والإذعان لما يصدر من الحكمة الالهية، وما يصيبه من الحوادث والنوائب ظاهرًا وباطنًا، وقبول كل ذلك من غير إنكار بالقلب واللسان، وهو مرتبة فوق الرضا[٣].

٢ المحبة:

المحبة لغةً:

عبارة عن ميل الطّبع في الشّيء الملذ، فإن تأكّد الميل، وكان قويًّا؛ يسمى عشقًا، وأول مراتب الحبّ: الهوى، وهو ميل النّفس، وقد يطلق ويراد به: نفس المحبوب[٤].

قال الفيروز آبادي: «ولا يحدّ المحبّة بحدّ أوضح منها، والحدود لا تزيدها إلاّ خفاءً وجفاءً فحدّها وجودها، ولا توصف المحبّة بوصف أظهر من المحبّة»[٥].

المحبة اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي، الذي هو ميل الإنسان للشيء وغلبته على قلبه[٦].

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٥٣، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٩٠.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٥٧، مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٩٦.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٦.
(٤) الكليات، الكفوي ١/ ٣٩٨.
(٥) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤١٦.
(٦) تاج العروس، الزّبيدي ٢/ ٢١٤.

الصلة بين الرضا والمحبة:

قيل: هما نظيران، وإنما يظهر الفرق بضديهما، فالمحبة ضدها البغض، والرضا ضده السخط، قيل: وهو يرجع إلى الإرادة، فإذا قيل: (رضي عنه)، فكأنه أراد تعظيمه وثوابه، وإذا قيل: (رضي عليه) فكأنه أراد ذلك، والسخط إرادة الانتقام[١].

٣ اليقين:

اليقين لغة:

هو العلم و زوال الشك. يقال منه: يقنت الأمر يقنًا، وأيقنت، واستيقنت، وتيقّنت، كلّه بمعنًى. وأنا على يقين منه. وإنّما صارت الياء واوًا في قولك: موقنٌ؛ للضمة قبلها. وإذا صغّرته رددته إلى الأصل وقلت: مييقنٌ. وربّما عبّروا عن الظنّ باليقين، وباليقين عن الظنّ[٢].

اليقين اصطلاحًا:

من صفة العلم فوق المعرفة والدّراية وأخواتها، يقال: علم يقينٍ، ولا يقال: معرفة يقينٍ، وهو سكون القلب إلى خبر المخبر ووثوقه به، مع ثبات الحكم[٣].

الصلة بين الرضا واليقين:

اليقين هو سكون القلب إلى خبر المخبر ووثوقه به. أما الرضا فهو سرور القلب بمرّ القضاء، وارتفاع الجزع في أيّ حكم كان، وربما كان الرضا ثمرة لليقين.

٤ السخط:

السخط لغة:

الكراهية للشّيء، وعدم الرّضا به[٤].

السخط اصطلاحًا:

قيل: الغضب الشديد المقتضي للعقوبة[٥].

الصلة بين الرضا والسخط:

إن العلاقة بين الرضا والسخط علاقة تضاد.

---

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٧.
(٢) الصحاح، الجوهري ٢/ ٣٠٠.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٩٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٩٩.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣١٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٢.

رضا الله تعالى غاية وجزاء

لقد ذكر القرآن الكريم أن رضا الله تعالى هو أكبر الجزاء وأعظم النعيم في الجنة، وهو الغاية التي ليس وراءها غاية، وسوف نذكر ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: رضا الله غاية:

ذكر القرآن الكريم أن العبادات والصدقات والجهاد وغيرها من الأعمال يجب أن يبتغي بها العبد رضا الله تعالى وحده.

قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

إن رضوان الله تعالى هو الغاية الذي ليس فوقها غاية لكل إنسان، وقد ذكر القرآن الكريم أن الناس تجاه الدين مراتب، أقلها من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أي: يضمر الكيد ويفسد على الناس ما فيه نفع الجميع، وهو خيرات الأرض، وأعلاها من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]؛ لأن النفس أغلى ما يبذل، فهذا القسم هو الذي تمحض فعله للخير حتى بلغ غاية ذلك، وهو تعريض نفسه التي هي أنفس الأشياء عليه للهلاك؛ لأجل تحصيل ما يرضي الله تعالى، وإنما رضا الله تعالى بفعل الناس للخير الذي أمرهم به، ويشري معناه: يبيع، كما أنَّ يشتري بمعنى: يبتاع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

واستعمل (يشري) هنا في البذل مجازًا، والمعنى: ومن الناس من يبذل نفسه للهلاك؛ ابتغاء مرضاة الله، أي: هلاكًا في نصر الدين، وهذا أعلى درجات الإيمان؛ لأن النفس أغلى ما عند الإنسان، وهذا البيع لا يتحقق إلا إذا جاد المؤمن بنفسه وماله في سبيل الله إذا دعت الحاجة إلى ذلك، كجهاد أعداء الأمة عند الاعتداء عليها، أو الاستيلاء

على شيء من أرضها، فمن قدر على الجهاد بنفسه وجب عليه ذلك، ومن قدر عليه بماله وجب عليه ذلك، وإن قدر عليهما معًا وجب عليه، فإن قصّر في شيء من ذلك فقد آثر نفسه على مرضاة الله وخرج من زمرة المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد سمى الله تعالى ذلك تجارة، فقال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١] (١).

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

فمن رأفته أنه جعل النعيم الدائم جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته جوز لهم كلمة الكفر؛ إبقاء على النفس، ومن رأفته أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ومن رأفته ورحمته أن المصر على الكفر مائة سنة إذا تاب -ولو في لحظة- أسقط كل ذلك العقاب وأعطاه الثواب الدائم، ومن رأفته أن النفس له والمال، ثم إنه يشتري ملكه بملكه فضلًا منه ورحمة وإحسانًا (٢).

وقد ذكرت الروايات سبب نزول هذه الآية: وأنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، وذلك أنه لما أسلم بمكة، وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وعرضوا عليه إن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم، وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة إلى طرف الحرّة، فقالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم، فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية (٣).

وقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

والمعنى: أن هذه الأقسام الثلاثة من الطاعات وإن كانت في غاية الشرف والجلالة إلا أن الإنسان إنما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه الله ولطلب مرضاته، فأما إذا أتى بها للرياء والسمعة انقلبت القضية فصارت

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٥١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٣٩، لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٧١، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣٣، تفسير المراغي ٢/ ١١٢، ١١٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٧٢، في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٠٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٥٠.

(٣) انظر: العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر ١/ ٥٢٦.

من أعظم المفاسد[1].

وعطف ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

في مرضاة الله على الآية في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[البقرة: ٢٦٤] ؛ لزيادة بيان ما بين المرتبتين من البون، وتأكيدًا للثناء على المنفقين بإخلاص، وتفننًا في التمثيل؛ فإنه قد مثله فيما سلف بحبة أنبتت سبع سنابل، ومثل الذي ينفق ماله ابتغاء مرضات الله كمثل جنة بربوة؛ لتحصل السرعة بتخيل مضاعفة الثواب وحسن الجزاء وبهجته وجماله، فمثله بما هو أعجب في حسن التخيل، فإن الأمثال تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيبًا وضمنت الهيأة المشبه بها أحوالًا حسنة تكسبها حسنًا؛ ليسري ذلك التحسين إلى المشبه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه[2].

وقد ذكرت الآيات أنه يجب على المؤمن أن يبتغي بعمله مرضات الله تعالى في كل أفعاله وأقواله؛ من صلاة وصيام وصدقة وجهاد في سبيل الله وإصلاح ذات البين، وغيرها من أفعال الخير، وفيها تحذير من الرياء والنفاق، فيجب على كل مؤمن أن يكون رضا الله غايته في كل عمل يعمله؛ فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (إنما الأعمال بالنيات)[3][4].

ثانيًا: رضا الله جزاء:

ذكر القرآن الكريم الرضا جزاء في قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

بينت هذه الآيات أن جزاء المؤمنين على صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١٨.
(٢) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ١٦٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٥٠، تفسير المراغي ٥/ ١٥٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، باب بدأ الوحي، رقم ١، ١/ ٦.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١٨.

ومجاهدة أعدائه، وعدم ولايتهم، بأن رضي الله عنهم فأرضاهم، فرضوا عنه، وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به ربًّا، وبمحمد نبيًّا، وبالإسلام دينًا، فإن منزلة الرضا أشرف المنازل بعد النبوة، وأكبر الأجر وأعظم الجزاء الذي أعده الله تعالى لعباده المؤمنين، فمن رضي عن اللّه فقد رضي اللّه عنه؛ لقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

فجعل أحد الرضاءين مقرونًا بالآخر، فمن بلغ هذه المنازل فقد عرف خساسة الدنيا، واطلع على جنة المأوى، وخطب مودة الملأ الأعلى، وحظي بتحيتهم المعنية بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

ورضوان أكرم الأكرمين يستلزم رضا من رضي هو عنه؛ لأنه يعطيه أضعاف ما يستحق، وفوق ما يؤمل ويرجو، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ورضوانه تعالى فوق كل شيء، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله؛ لأن رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت[(١)].

وروي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٤٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٦٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥١١، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٢٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة، رقم ٦٥٤٩، ٨/ ١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا، رقم

وقد ذكرت الآيات أن رضوان الله تعالى هو الغاية العظيمة التي ليس وراءها غاية، وهو الجزاء الكبير والفوز العظيم، وفيها تنبيه للمؤمنين؛ ليطلبوا رضوان الله، كما قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

وكما قال سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦][1].

الرضا المثبت والمنفي في حق الله

إن الله تعالى رضي عن أنبيائه وعن المؤمنين وعن الأعمال الصالحة، والشفاعة لمن يشاء من عباده الصالحين، ولم يرض لعباده الكفر والفسوق والعصيان، فيجب على العبد أن يوافق ربه في رضاه وسخطه، وسوف نذكر هذه الأشياء في النقاط الآتية:

أولًا: الرضا المثبت في حق الله تعالى:

١. رضاه عن الرسل والانبياء.

إن النبوة درجة عظيمة يعطيها الله تعالى لمن رضي له هذه المرتبة، وارتضاه من بين عباده، ومنتهى درجة العبد أن يكون راضيًا مرضيًّا عند ربه، وهو مطلوب الأنبياء عليهم السلام، وقد ذكر القرآن زكريا عليه السلام، وهو يسأل ربه ذكرًا صالحًا، ويكون وليًّا من بعده مرضيًّا عند الله وعند خلقه، وراضيًا بتقدير الله، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦].

وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده، أن يرزقه ولدًا صالحًا، جامعًا لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربه واستجاب دعوته، وذكر الله تعالى إسماعيل وأنه ارتضاه للنبوة والرسالة،

٢٨٢٩، ٤/ ٢١٧٦.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٤٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥١١، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٢٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩٠.

قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

وهو في نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات، وذكر القرآن شوق موسى عليه السلام إلى رضى الله، فقال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٣-٨٤].

وسليمان عليه السلام يستعين بربه؛ ليمكنه من شكر نعمته عليه وعلى والديه، ويستعين ربه كذلك؛ ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه، وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله، قال عز من قائل: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩][1].

٢. رضاه بدين الاسلام.

بين القرآن الكريم إكمال الله تعالى للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم بالقرآن، وإتمام نعمته عليهم بالإسلام، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

إن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن أعظم وأجل نعمة امتن بها عليهم هي دين الإسلام، وقد كتب الله له الكمال وسجل له البقاء، وأظهره على الدين كله، وأن الكفار قد يئسوا من زوال هذا الدين، وانقطع رجاؤهم من إبطاله ورجوعكم عنه؛ لما شاهدوا من فضل الله عليكم؛ إذ وفّى بوعده، وأنه ينبغي لكم -وقد بدلكم بضعفكم قوة، وبخوفكم أمنًا، وبفقركم غنى- ألا تخشوا غيره، وقد عرفتم فضله وإعزازه لكم، وأتمَّ هذا الكمال فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه فلا ينقص أبدًا، وقد رضيه فلا يسخطه أبدًا، وأن هذا هو الدين المرضي عند الله تعالى.

ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٤٢٠، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٤٩٦ معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٣٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٥٠، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٩٠، تفسير المراغي ١٩/ ١٢٩، في ظلال القرآن، سيد ٥/ ٢٦٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٠.

﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضيه الله وأحبه وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه[(١)].

ورضيت لكم الإسلام لأمري والانقياد لطاعتي فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود ومعالم الدين الذي أكملته لكم، وإنما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، يوم نزلت هذه الآية -وإن كان الله تعالى لم يزل راضيًا بدين الإسلام فيما مضى قبل نزول هذه الآية-؛ لأنه لم يزل يصرف نبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين من حال إلى حال، وينقلهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها حتى أكمل لهم شرائع الدين ومعالمه، وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه، ثم أنزل عليهم هذه الآية: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

يعني: أتممت عليكم دينكم فهو اليوم في نهاية الكمال وأنتم الآن عليه فالزموه ولا تفارقوه، وذكر الله تعالى في آيات أخر أن دين الإسلام هو دين كل الأنبياء السابقين، ألا ترى أن أنبياء الله ورسله رغبوا فيه إليه وسألوه إياه، فقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال جل وعلا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة: ١٣٦-١٣٧].

وقال سبحانه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

فحكم الله بأن من أسلم فقد اهتدى، ومن آمن فقد اهتدى، فسوى بينهما، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في موسى: (لو كان حيًّا ما وسعه إلا اتباعي)[(٢)]، ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٨٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٥٥، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٤٥.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ١٧٤، ١/ ٣٤٧، والبغوي في شرح السنة رقم ١٢٦، ١/ ٢٧٠، كتاب العلم، باب حديث أهل الكتاب.
وحسنه الألباني في إرواء الغليل ٦/ ٣٤.

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥][(١)].

قال سيد قطب: «أما ارتضاء الله الإسلام دينًا للذين آمنوا، يقف أمام رعاية الله سبحانه وعنايته بهذه الأمة، حتى ليختار لها دينها ويرتضيه، وهو تعبير يشي بحب الله لهذه الأمة ورضاه عنها، حتى ليختار لها منهج حياتها، وإن ارتضاء الله الإسلام دينًا لهذه الأمة ليقتضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار، ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين بقدر ما في الطاقة من وسع واقتدار، وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل -بله أن يرفض- ما رضيه الله له، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله!، وإنها -إذن- لجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء، ولا يترك صاحبها يمضي ناجيًا أبدًا، وقد رفض ما ارتضاه له الله، ولقد يترك الله الذين لم يتخذوا الإسلام دينًا لهم، يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين، فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه، واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم الله، فلن يتركهم الله أبدًا ولن يمهلهم أبدًا، حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون!»[(٢)].

ولقد انتبه لهذا الفضل العظيم بعض أتباع الملل الأخرى كاليهود.

(قال يهودي لعمر رضي الله عنه: آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا!! قال: وأي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

قال عمر: إني أعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه: نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة يوم الجمعة)[(٣)].

٣. رضاه عن المؤمنين.

بين القرآن الكريم رضا الله تعالى عن المؤمنين.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨-١٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧-٨].

فهي عامة في جميع المؤمنين الذين هذه صفاتهم، وقد أثنى الله ورسوله على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٥٢٣، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٠، بيان المعاني، عبدالقادر ملا ٦/ ٢٩٣.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم ٤٥، ١/ ١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، رقم ٣٠١٧، ٤/ ٢٣١٢.

المهاجرين والأنصار في غير ما آية من كتابه، فقال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، ورضاه عن المؤمنين من المهاجرين والأنصار الذين تركوا الديار والأموال والعشائر، وخرجوا حبًّا لله ولرسوله، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة، حتى ذكر أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم، وسبب رضاه ما علمه عنهم من صدق الإيمان في قلوبهم، وطاعتهم لله ولرسوله، وأعمالهم الصالحة.

وكان سبب هذه البيعة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالته إلى الملإ من قريش، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء، فظن أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم على ما وصفت، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان، بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يولوا في القتال ولا يهربوا.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسان، ولم يرض عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان، والرضا من الله صفة قديمة فلا يرضى إلا عن عبد علم أنه يوافقه على موجبات الرضى، ومن رضي الله عنه لم يسخط عليه أبدًا، و أيضًا فكل من أخبر الله أنه رضي عنه فإنه من أهل الجنة، وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه وعمله الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح له، فلو علم أنه يتعقب ذلك ما يسخط الرب لم يكن من أهل ذلك[(١)].

وقد جاء من حديث أم مبشر، أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول عند حفصة: (لا يدخل النار -إن شاء الله- من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها)[(٢)].

قال ابن كثير: «فقد أخبر الله العظيم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٢٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٥، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم، رقم ٢٤٩٦، ٤/ ١٩٤٢.

أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياذًا بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؛ إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدعون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون»[1].

٤. رضاه عن الأعمال الصالحة.

ذكر القرآن الكريم رضا الله تعالى عن الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

بين القرآن الكريم أن مطلب الأنبياء والصالحين الإعانة على العمل الصالح المرضي عند الله تعالى، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ لأن العمل مهما كان حسنًا إذا لم يرضه الله لا يعد شيئًا، والمراد بكونه مرضيًّا له تعالى: أن يكون سالمًا من غوائل عدم القبول كالرياء والعجب وغيرهما، فحاصله: اجعل عملي على وفق رضاك، وقيل: المراد بالرضا هنا ثمرته على طريق الكناية، واعلم أن الشيء الذي يعتقد أن الإنسان فيه كونه صالحًا على قسمين:

أحدهما: الذي يكون صالحًا عنده ويكون صالحًا أيضًا عند الله تعالى.

والثاني: الذي يظنه صالحًا ولكنه لا يكون صالحًا عند الله تعالى.

فلما قسم الصالح في ظنه إلى هذين القسمين طلب من الله أن يوفقه؛ لأن يأتي بعمل صالح يكون صالحًا عند الله، ويكون مرضيًّا عند الله، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، أي: تقبله، وهي الفرائض الخمس وغيرها من الطاعات والتنوين؛ للتفخيم والتنكير،

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٠٣.

وقال بعضهم: العمل الصالح المقرون بالرضى: بذل النفس لله والخروج مما سوى الله الى مشاهدة الله، وفيه إشارة إلى أنه لا يمكن للعبد أن يعمل عملًا يرضى به ربه إلا بتوفيقه وإرشاده، ومن العمل الصالح، إرسال هذه النعم في وجوه الخير والإحسان[1].

وفي الآيات إشارة إلى أن العمل المرضي الذي يحبه الله تعالى هو غاية ومطلب الإنسان الصالح السوي، وفيها دعوة لكل مؤمن أن يبادر بالأعمال الصالحة المرضية عند الله تعالى، فرضى الله هو الغاية التي يتطلع إليها، وهو وحده الرجاء الذي يأمل فيه.

٥. الرضا عن المشفوع له.

بين القرآن الكريم أن الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله لمن رضي عنه، وأن هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لا يشفعون إلا لمن كان الله تعالى راضيًا عنه بإيمانه وعمله الصالح.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

أخبر تعالى عن ملائكته أنهم لا يشفعون لأحد إلا أن يرتضيه الله عز وجل، قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك: «﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أي: لمن قال: لا إله إلا الله»، وهذه الآية من أقوى الدلائل في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر، وتقريره: هو أن من قال: لا إله إلا الله فقد ارتضاه تعالى في ذلك، ومتى صدق عليه أنه ارتضاه الله تعالى في ذلك فقد صدق عليه أنه ارتضاه الله؛ لأن المركب متى صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه، وإذا ثبت أن الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية، فثبت بالتقرير الذي ذكرناه أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ما قرره ابن عباس رضي الله عنهما[2].

وأجمع أهل السنة أن شفاعة الأنبياء والصالحين تقبل في العصاة من المؤمنين، خلافًا للمعتزلة الذين قالوا: إن الكبيرة تخلد صاحبها في النار، وأنكروا الشفاعة، وهم على ضربين؛ طائفة أنكرت الشفاعة إنكارًا كليًّا، وقالوا: لا تقبل شفاعة أحد في أحد، واستدلوا بظواهر الآيات، منها الآيات الدالة على عدم نفع الشفاعة، كقوله تعالى: ﴿فَمَا

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٠٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٩٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٠، المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٦، روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٧٦.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٤٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٣٥، المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٢٤٣، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٦.

﴿تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله جل وعلا: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

قالوا: والمعصية ظلم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وصاحب الكبيرة ليس بمرتضى، ومنها قوله جل جلاله: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [غافر: ٧].

وخص تلك الظواهر أصحابنا بالكفار؛ لثبوت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة، وطائفة أنكرت الشفاعة في أهل الكبائر، وقالوا: وإنما تقبل في الصغائر[(١)].

والظاهر أن الذي دعا المعتزلة إلى إنكار الشفاعة منافاتها لخلود صاحب الكبيرة في العذاب الذي هو مذهب جمهورهم الذين فسروا قول واصل بن عطاء بالمنزلة بين المنزلتين، بمعنى: إعطاء العاصي حكم المسلم في الدنيا وحكم الكافر في الآخرة، ولا شك أن الشفاعة تنافي هذا الأصل، فما تمسكوا به من الآيات إنما هو لقصد التأييد ومقابلة أدلة أهل السنة أمثالها[(٢)].

وتفيد الآية الترغيب والتحريض على طلب مرضاة الله عز وجل والاحتراز عن معاصيه[(٣)].

٦. الرضا عن أهل الجنة.

بين القرآن الكريم رضا الله تعالى عن أهل الجنة، وأن الفوز بالرضوان أعلى وأعظم وأجل وأكبر مما هم فيه من النعيم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١].

وقوله جلّ في علاه: ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٠٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٧.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٠٠.

﴿مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨].

بينت الآيات أخص صفات أهل الجنة، من الرحمة والرضوان، والخلود، والإقامة الدائمة في جنات عدن، إذ العدن: الإقامة الدائمة، ومنها المعدن؛ لدوام إقامته في مكانه، وقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

قال ابن عباس: «أكبر مما يوصف»، وقال الزجاج: «أكبر مما هم فيه من النعيم»، وقال الحسن بن أبي الحسن: «وصل إلى قلوبهم برضوان الله من اللذة والسرور ما هو ألذ عندهم وأقر لأعينهم من كل شيء أصابوه من لذة الجنة»، وأتى به نكرة؛ ليدل على مطلق، أي: وشيء من رضوانه أكبر من كل ما ذكر؛ لأنّ رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعيم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت، وإنما صار الرضوان أكبر من الثواب؛ لأنه لا يوجد شيء من الثواب إلا بالرضوان؛ إذ هو الموجب له[(١)].

وأما الرضوان فهو مصدر بمعنى: الرضا، مع ما في زيادة المبنى من المبالغة في المعنى فكأنه قال: ورضوان عظيم من الله لا يشوبه ولا يعقبه سخط: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وفي هذا من تفضيل الرضوان على نعيم الجنات وما فيها ما لا غاية وراءه، وعطف رضوان من الله على ما أعد للذين اتقوا عند الله؛ لأن رضوانه أعظم من ذلك النعيم المادي؛ لأن رضوان الله تقريب روحاني، وأظهر اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، دون أن يقول: ورضوان منه، أي: من ربهم؛ لما في اسم الجلالة من الإيماء إلى عظمة ذلك الرضوان[(٢)].

وثبت (أن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا)[(٣)].

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥١١، الكشاف الزمخشري ٢/ ٢٨٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٦٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٥٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٨٤.

(٣) سبق تخريجه.

ثانيًا: الرضا المنفي:

١. الرضا بالكفر.

بيّن تعالى أنه لا يرضى لعباده الكفر، قال سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

فالكفر والشرك لا يرضاه الله سبحانه وتعالى، بل إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لمحاربة الكفر والشرك والقضاء عليهما.

قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وإذا كان الله لا يرضى بالكفر والشرك فإن الواجب على المؤمن أن لا يرضى بهما؛ لأن رضا المؤمن وغضبه تبع لرضا الله وغضبه، فيغضب لما يغضب الله ويرضى بما يرضاه الله عز وجل.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار)[(١)(٢)].

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

هل هي عامة أم خاصة؟

فذهب فريق إلى أنها عامة لعباد الله جميعًا؛ فالكفر غير مرضي لله سبحانه على كل حال كما هو الظاهر، قال قتادة: «والله ما رضي الله لعبد ضلالة، ولا أمره بها، ولا دعا إليها، ولكن رضي لكم طاعته، وأمركم بها، ونهاكم عن معصيته»، فكفر الكافر غير مرضيّ لله تعالى وإن كان قدّره وشاءه، فليس من لازم القدر الرضا، فالله يقدر الكفر وهو يبغضه؛ من أجل أن يتميز الناس بعضهم من بعض، ويتميز الصادق من الكاذب، ويتبين المؤمن من الكافر، ويتبين المنافق من المؤمن الصحيح، فالله قدّر هذه الأمور المكروهة لحكمة منه سبحانه، ما قدرها عبثًا، ورتب الجزاء على أفعالهم التي يفعلونها باختيارهم، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات مشركًا دخل النار، رقم ٩٣، ١/ ٩٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٦٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٧٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٨٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٢١.

الرضا، وهذا مذهب أهل السنة[1].

وذهب فريق منهم ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، أنهم عباده المخلصون الذين قال عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله وحببها إليهم، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾، دعوة للمؤمنين -وكلهم عباد الله- أن يكونوا بالمكان الذي يرضاه الله لهم، ويقبله منهم، وأن ينأوا عما لا يرضاه الله لهم، فإنهم عباده![2].

والصواب من ذلك هو مذهب الفريق الأول؛ لأن الإرادة في النصوص جاءت على معنيين: إرادة كونية قدرية: وهي المشيئة ولا ملازمة بينها وبين المحبة والرضا، بل يدخل فيها الكفر والإيمان والطاعات والعصيان والمرضيّ والمحبوب والمكروه وضده، وهذه الإرادة ليس لأحد خروج منها ولا محيص عنها، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

وإرادة دينية شرعية: مختصة بمراضي الله ومحابّه، وعلى مقتضاها أمر عباده ونهاهم، كقوله جل وعلا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله جلّ في علاه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

وغيرها من الآيات، وهذه الإرادة لا يحصل اتباعها إلا لمن سبقت له بذلك الإرادة الكونية، فتجتمع الإرادة الكونية والشرعية في حق المؤمن الطائع، وتنفرد الكونية في حق الفاجر العاصي، فالله سبحانه دعا عباده عامة إلى مرضاته، وهدى لإجابته من شاء منهم، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

فعمم سبحانه الدعوة وخص الهداية بمن شاء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠][3].

فجملة: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ مبينة لإنكار انصرافهم عن التوحيد، أي: إن كفرتم بعد هذا الزمن فاعلموا أن الله غني عنكم، ومعناه: غني عن إقراركم له بالوحدانية،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٣٦.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: الدرة البهية، السعدي ص ٧٠، مفهوم الأسماء والصفات، سعد ندا ٤٧ - ٤٨/ ٨٢.

أي: غير مفتقر له، وهذا كناية عن كون طلب التوحيد منهم لنفعهم ودفع الضر عنهم لا لنفع الله، وتذكيرهم بهذا؛ ليقبلوا على النظر من أدلة التوحيد، والخبر مستعمل كناية في تنبيه المخاطب على الخطإ من فعله.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، اعتراض بين الشرطين؛ لقصد الاحتراس من أن يتوهم السامعون أن الله لا يكترث بكفرهم ولا يعبأ به، فيتوهمون أنه والشكر سواء عنده؛ ليتأكد بذلك معنى استعمال الخبر في تنبيه المخاطب على الخطإ، وبهذا تعين أن يكون المراد من قوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾، العباد الذين وجّه الخطاب إليهم في قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وذلك جري على أصل استعمال اللغة لفظ العباد، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧][1].

٢. الرضا بالفسوق.

ذكر القرآن الكريم أن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٤-٩٦].

في الآية السابقة على هذه الآيات، رفع الله الحرج عن الضعفاء والمرضى، وعن الذين لا يجدون ما ينفقون، إذا هم لم يكونوا في موكب المجاهدين الذين يلقون العدوّ في ميدان القتال؛ إذ كانوا ومعهم أعذارهم التي تحول بينهم وبين القيام بهذا الأمر الذي ندب الله سبحانه وتعالى المؤمنين له، ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١][2].

ثم أخبر الله تعالى عن المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد بقوله سبحانه: إنهم سيحلفون معتذرين؛ لتعرضوا عنهم، ولا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس أي: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاء، أي: لأجل الجزاء

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٣٧.

(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٤٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٨، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٦/ ٨٦٩.

بما كانوا يكسبون من الآثام والخطايا، ثم أخبر عنهم بأنهم: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

أي: الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة: فويسقة؛ لخروجها من جحرها، ويقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها، وهذا شر مقال قاله الله في أحد من خلقه، حيث أمر عز وجل بالإعراض عنهم وعدم معاتبتهم؛ احتقارًا لهم، ثم أمر باجتنابهم، والابتعاد عنهم؛ لأنهم رجس، والرجس والنجس بمعنى واحد، ثم توعدهم أشد الوعيد في قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[التوبة: ٩٤].

ثم بيّن أن محاولتهم التخلص من التوبيخ والتأنيب، وإرضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالأيمان الكاذبة لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن الله سيفضح أمرهم ويهتك سترهم في هذه السورة التي سميت سورة الفاضحة[(١)].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

أي: فلا ينبغي لكم -أيها المؤمنون- أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه، وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

ولم يقل: «فإن الله لا يرضى عنهم»؛ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم، ويرضى عنهم، وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم؛ لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضيه الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك، والنفاق، والمعاصي[(٢)].

وحاصل ما ذكره الله: أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعذارًا في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حبًّا ولا كرامة لهم، وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية والرجس، وقوله: ﴿رِجْسٌ﴾ تعليل؛ لترك معاتبتهم، يعني: أنّ المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم، إنما يعاتب الأديب ذو البشرة،

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٣/٤٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٨، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٦/٨٦٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٩.

والمؤمن يوبَّخُ على زلة تفرط منه؛ ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، يعني: وكفتهم النار عتابًا وتوبيخًا، فلا تتكلفوا عتابهم، وحكم هذه الآية يستمر في كل مغموص عليه ببدعة ونحوها، فإن المؤمن ينبغي أن يبغضه ولا يرضى عنه لسبب من أسباب الدنيا، ووضع الفاسقين موضع ضميرهم؛ للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حلّ بهم من السخط، وللإيذان بشمول الحكم لكل من كان مثلهم في ذلك.

والمراد به نهي المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجهٍ وآكده، فإن الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى ممّا لا يكاد يصدر عن المؤمن، وقيل: إنما قيل ذلك؛ لئلا يتوهم متوهمٌ أن رضا المؤمنين من دواعي رضا الله تعالى، قال أهل المعاني: هؤلاء طلبوا إعراض الصفح، فأعطوا إعراض المقت، وطلب الإعراض عنهم فيه تحذير للناس من أخلاق المنافقين الخبيثة والرذيلة، فكما يجب الاحتراز عن الأرجاس الجسمانية، فوجوب الاحتراز عن الأرجاس الروحانية أولى؛ خوفًا من سريانها إلى الإنسان، وحذرًا من أن يميل طبع الإنسان إلى تلك الأعمال[1].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٢٤،

٣. الرضا بالأعمال والأقوال السيئة.

يخبر الله تعالى عن صفة من صفات المنافقين، وهي تبييت ما لا يرضى من القول.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٧-١٠٨].

نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن المجادلة، عمن أذنب وتوجه عليه عقوبة من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية، ثم أخبر سبحانه أنه: ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده وهو البغض، فإذا كان العدوان من وليّ الأمر على الظالم الآثم أمرًا تنكره الشريعة، فتفرض حماية على الظالم المعتدي، حتى لا يجاوز بعقابه الحدّ المرصود لجريمته، فإن الميل مع الظالم الآثم، والتماس المعاذير لجريمته، ابتغاء التخفيف عنه، لا يقلّ في نظر الشريعة عن

الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٠٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٧٢، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٨٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٩٤.

فعل الظالم نفسه؛ لأن في هذا عدوانًا على حق الله، وتعطيلًا لحدوده!

ثم أخبر جل وعلا أن من صفات هؤلاء الخونة: أنهم يستترون من الناس عند اجتراحهم الآثام إما حياء وإما خوفًا من ضررهم، ولا يستترون من الله ولا يستحيون منه بتركها؛ لضعف إيمانهم؛ إذ الإيمان يمنع من الإصرار وتكرار الذنب، ولا تقع الخيانة من صاحبه إلا عن غفلة أو جهالة عارضة لا تدوم، فمن يعلم أن الله يراه لابد أن يترك الذنب والخيانة؛ حياء منه تعالى وخوفًا من عقابه، وهو تعالى شاهدهم حين يدبرون ليلًا ما لا يرضى من القول؛ تبرئة لأنفسهم ورمي غيرهم بجريمتهم، ثم توعدهم على عظيم جرمهم فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، جل وعلا عالم بهم وبأحوالهم، يسمع ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب[1].

ثم حذر المؤمنين من مساعدة هؤلاء الخونة فقال: ها أنتم يا هؤلاء جادلتم عنهم وحاولتم تبرئتهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلًا، يوم يكون الخصم والحاكم هو الله المحيط علمه بأعمالهم وأحوالهم وأحوال الخلق كافة؟! أي: لا يمكن أن يجادل هنالك أحد عنهم، ولا أن يكون وكيلًا بالخصومة لهم، فعلى المؤمنين أن يراقبوا الله تعالى في مثل ذلك، ولا يحسبوا أن من أمكنه أن ينال الفرج بالحكم له من قضاة الدنيا بغير حق، يمكنه كذلك أن يظفر في الآخرة، يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله[2].

والسبب الذي نزلت فيه هذه الآية هو: أن رجلًا من الأنصار اسمه: طعمة بن أبيرق وكان منافقًا، سرق درعًا لعمه كانت عنده وديعة، فلما أن خاف أن يعرف فيه قذفها على يهودي، وأخبر بني عمه بذلك فجاء اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بالدرع، وقال: والله ما سرقتها يا أبا القاسم ولكن طرحت علي! فلما رأوا ذلك بنو عم طعمة جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبرئوا صاحبهم من الدرع، ويسألونه أن يبرئه منها، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبرئه من السرقة حتى نزل: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧].

يريد: طعمة وبني عمه، ولما نزل القرآن في طعمة لحق بقريش وارتد، ثم عاد إلى مشربة الحجاج حليف لبني عبد الدار فنقبها فسقط عليه حجر، فنحل لحمه، فلما أصبح

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٩١، تفسير المراغي ٥/ ١٤٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٠٠، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٣/ ٨٩٠.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٣٢٥.

أخرجوه، ونفوه من مكة فخرج فلقي ركبًا فعرض لهم، وقال: ابن سبيل منقطع به، فحملوه حتى إذا جن الليل عدا عليهم، فسرقهم، ثم انطلق، فخرجوا في طلبه فأدركوه فقذفوه بالحجارة حتى مات[1].

رضا المخلوقين بين المحمود والمذموم

إن الرضا من العباد مطلوب شرعًا سواء كان ذلك الرضا عن الله وقضائه وقدره، أو كان رضا بعضهم عن بعض، وينقسم رضا العباد إلى قسمين؛ قسم محمود وقسم مذموم، وسوف يتم تناول ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الرضا المحمود:

١ . الرضا عن الله.

أخبر الله تعالى عن رضاه عن المؤمنين ورضاهم عنه.

قال عز وجل: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

إن الرضا عن الله سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين بالله.

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا

(١) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/١٤٥٨.

﴿ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فمن أحسن الرضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه، فقابل الرضا بالرضا، وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء، وهو قوله عز وجل: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قيل: ذلك في الدنيا، فرضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه: هو رضاهم بجميع ما قسم لهم من جميع الأرزاق والأقدار، وكقوله سبحانه: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨].

وقال الرّاغب: «رضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمرًا بأمره ومنتهيًا عن نهيه، وأرضاه: أعطاه ما يرضى به، وترضّاه: طلب رضاه»[(١)].

وقال بعض الصالحين: رضى العباد عن الله: رضاهم بما يرد من أحكامه، ورضاه عنهم أن يوفقهم للرضى عنه»، وقال أبو بكر بن طاهر: «الرضى عن الله: خروج الكراهية عن القلب حتى لا يكون إلا فرح وسرور»، وقال السري السقطي: «إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تطلب منه الرضا عنك؟»، وكتب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعريّ: «أمّا بعد، فإن الخير كلّه في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلاّ فاصبر، والرضا حال يصحب العبد في الدنيا والآخرة.

قال بعض العلماء: الرضا عن الله باب الله الأعظم، وجنة الدنيا ولذة العارفين، والرضوان عن الله في الجنة وهم في الدنيا راضون عنه متلذذون بمجاري أقضيته، سليمة صدورهم من الغل، مطهرة قلوبهم عن الفساد، لا يتحاسدون ولا يتباغضون، وقيل: ذلك في الآخرة، فرضاهم عنه رضاهم بما من به عليهم من النعم، ورضاهم عنه هو ما روي أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: (هل رضيتم بما أعطيتكم؟ فيقولون: نعم ربنا وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين؟! فيقول: أنا أعطيكم أفضل من كل ما أعطيتكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا)[(٢)][(٣)].

٢. الرضا بقدر الله.

بين القرآن الكريم أن من صفات المؤمنين الرضا بقدر الله، وعدم الاعتراض عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٥٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٥٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٥٠٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٣٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٨٢، إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش ١٠/ ٥٤٧.

مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أعلم الله في هذه الآية أنه لا اختيار على ما قضاه الله ورسوله، بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعًا لرأيه، واختيارهم تلوًا لاختياره، وسبب نزول هذه الآية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش، فظنت أن الخطبة لنفسه، فلما بين أنه إنما يريدها لزيد بن حارثة رضي الله عنه كرهت وأبت، فنزلت الآية، فأذعنت زينب رضي الله عنها حينئذ وتزوجته، فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣][1].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

أخبر الله تعالى عباده أنه سوف يبتليهم بنقص من الأموال والأنفس والثمرات، ثم أخبر بما لهم عند الله تعالى عند الصبر على هذه الشدائد في طاعة الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧].

يعني: الثناء الجميل والبركات والرحمة، وهي النعمة التي لا يعلم مقاديرها إلا الله تعالى، كقوله في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، إقرار بالبعث والنشور، واعتراف بأن الله تعالى سيجازي الصابرين على قدر استحقاقهم، فلا يضيع عنده أجر المحسنين. وقد تضمنت الآية مدح الصابرين على شدائد الدنيا وعلى مصائبها على الوجه التي ذكر، والوعد بالثواب والثناء الجميل والنفع العظيم لهم في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا: فما يحصل له به من الثناء الجميل في نفوس المؤمنين؛ لائتماره لأمر الله تعالى، ولأن في الفكر في ذلك

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٤٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢٣.

تسلية عن الهمّ ونفي الجزع الذي ربما أدى إلى ضرر في النفس وإلى إتلافها في حال ما يعقبه ذلك في الدنيا من محمود العاقبة، وأما في الآخرة: فهو الثواب الجزيل الذي لا يعلم مقداره إلا الله.

قال أبو بكر الجصاص: «وقد اشتملت هذه الآية على حكمين، فرض ونفل، فأما الفرض: فهو التسليم لأمر الله والرضا بقضاء الله والصبر على أداء فرائضه، لا يثنيه عنها مصائب الدنيا ولا شدائدها، وأما النفل: فإظهار القول بـ(إنا لله وإنا إليه راجعون)، فإن في إظهاره فوائد جزيلة؛ منها فعل ما ندب الله إليه، ووعده الثواب عليه، ومنها أن غيره يقتدي به إذا سمعه، ومنها غيظ الكفار وعلمهم بجدّه واجتهاده في دين الله تعالى، والثبات على طاعته ومجاهدة أعدائه. ويحكى عن دواد الطائي أنه قال: «الزاهد في الدنيا لا يحب البقاء فيها، وأفضل الأعمال الرضا عن الله، ولا ينبغي للمسلم أن يحزن للمصيبة؛ لأنه يعلم أن لكل مصيبة ثوابا»[1].

فقضاء الله كله خير وعدل وحكمة، يجب الرضا به كله، والمقضيّ -وهو المفعول المنفصل عنه- لا يجب الرضا به كله، فإنه إنما شرع الرضا بما يرضى الله به، والمقضي نوعان:

النوع الأول: شرعي ديني: فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة، ولا اعتراض، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليمًا، وهذه حقيقة الرضا بحكمه، فالتحكيم: في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان، والتسليم: في مقام الإحسان.

والنوع الثاني: الرضا بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه -من الصحة، والغنى، والعافية، واللذة- أمر لازم بمقتضى الطبيعة؛ لأنه ملائم للعبد، محبوب له، فليس في الرضا به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لا يعصي المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك، والرضا بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته -مما لا يلائمه، ولا يدخل تحت اختياره- مستحب،

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١١٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦.

وهو من مقامات أهل الإيمان، وفي وجوبه قولان، وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك، والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره -مما يكرهه الله ويسخطه، وينهى عنه- كأنواع الظلم والفسوق والعصيان: حرام يعاقب عليه، وهو مخالفة لربه تعالى، فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه، فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟[1].

ودلت هذه الآية، أعني قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسران، فما أعظم الفرق بين الفريقين! وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين! فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها؛ لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر، وأن هذا الابتلاء والامتحان، سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، كما اشتملت على بيان أنواع المصائب[2].

٣. الرضا بحكم الله.

إن الرضا بحكم الله تعالى واجب شرعًا، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة، أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسوله صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، ثم ينقاد لما حكم به ظاهرًا وباطنًا ويسلمه تسليمًا كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، وهذه حقيقة الرضا بحكمه، فالتحكيم: في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان، والتسليم: في مقام الإحسان، وبين في آية أخرى أن قول المؤمنين محصور في هذا التسليم الكلي، والانقياد التام ظاهرًا وباطنًا لما حكم به صلى الله عليه وسلم، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة، ولا اعتراض[3].

(١) انظر: الرضا عن الله بقضائه، ابن أبي الدنيا ص ٦٥، مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٨٩.

(٢) انظر: الرضا عن الله بقضائه، ابن أبي الدنيا ص ٥٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥١٨، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٧٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٩، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٤٥.

ثانيًا: الرضا المذموم:

١. الرضا بالأقوال الباطلة.

ذم الله تعالى قومًا رضوا بالأقوال الباطلة، فقال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أنه جعل له أعداء يخالفونه ويكذبونه ويعادونه، كما جعل ذلك لكل نبي تقدم قبله، فلا يهولنه ذلك، وأخبر سبحانه أن هؤلاء الأعداء هم شياطين من الإنس وشياطين من الجن، والشيطان كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس، قالوا: وشياطين الإنس أشد تمردًا من شياطين الجن؛ لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على إغوائه بشيطان الإنس؛ ليفتنه، ومن صفات هؤلاء الشياطين أنهم يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، وأنهم يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم ويغرونهم بها على المعاصي، وأن هذا بمشيئة الله، وأن الله تعالى لو شاء لمنع الشياطين من إلقاء الوسوسة إلى الإنس والجن، ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم أنه الأجزل له في الثواب إذا صبر على المحنة، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ١١٢].

يعني: فخلّهم يا محمد وما زين لهم إبليس وغرهم به من الكفر والمعاصي فإني من ورائهم، ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الشياطين إنما يخدعون ويغرون من هم على شاكلتهم من الكفار والضلال الذين لا يؤمنون بالله، وتميل نفوسهم إلى هذه الزخارف الباطلة ويرضون بها؛ لأنها توافق أهواءهم وشهوتهم، وأما المؤمنون بالله فلا يقبلون هذه الزخارف ولا يرضونها؛ لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها، وليرضوه لأنفسهم بعد ما مالت اليه أفئدتهم[(١)].

وفيه تحذير من الكفر وترغيب في الإيمان وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيه له على ما أعد للكفرة من العقاب، وله من الثواب بسبب صبره على سفاهتهم وتلطفه بهم.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٩، مراح لبيد، الجاوي ١/ ٣٤٢، تفسير المراغي ٨/ ٨.

٢. الرضا بالقعود عن الجهاد.

ذم الله تعالى قومًا رضوا بالتخلف عن الجهاد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٨٦ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦-٨٧].

وقد بين تعالى أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين، إذا أنزل الله سورة فيها الأمر بالجهاد، استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الجهاد والخروج معه لقتال أعداء الله من المشركين، ورضوا أن يكونوا في منازلهم كالنساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد، فهن قعود في وبيوتهن، وقد كانت الرجولة تفترض فيهم أن يهبوا للقتال، لكنهم ارتضوا لأنفسهم ضعف النساء والأطفال. وقوله سبحانه: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، استئناف قصد منه التعجيب من دناءة نفوسهم وقلة رجولتهم بأنهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعًا للنساء، وفي اختيار فعل (رضوا) إشعار بأن ما تلبسوا به من الحال من شأنه أن يتردد العاقل في قبوله، كما في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقوله جل جلاله: ﴿إِنۡ رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

والطبع تمثيل لحال قلوبهم في عدم قبول الهدى بالإناء أو الكتاب المختوم، والطبع مرادف الختم، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق منه، فلا يدخله شيء، وأسند الطبع إلى المجهول إما للعلم بفاعله وهو الله، وإما للإشارة إلى أنهم خلقوا كذلك وجبلوا عليه، وفرع على الطبع انعدام علمهم بالأمور التي يختص بعلمها أهل الأفهام، وهو العلم المعبر عنه بالفقه، أي: إدراك الأشياء الخفية، أي: فآثروا نعمة الدعة على سمعة الشجاعة وعلى ثواب الجهاد؛ إذ لم يدركوا إلا المحسوسات؛ فلذلك لم يكونوا فاقهين، وذلك أصل جميع المضار في الدارين، وجيء في إسناد نفي الفقاهة عنهم بالمسند الفعلي؛ للدلالة على تقوي الخبر وتحقيق نسبته إلى المخبر عنهم وتمكنه منهم[(١)].

قال سيد قطب: «إن للذلّ ضريبة كما أن للكرامة ضريبة، وإن ضريبة الذلّ لأفدح في كثير من الأحايين، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة؛ هربًا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤١٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٨٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٥٦.

رخيصة، مفزعة قلقة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها، يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة، إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة، يؤدونها من نفوسهم، ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سمعتهم، ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيرًا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون»[1].

٣. الرضا بالدنيا وزينتها.

ذم الله تعالى قومًا رضوا بالدنيا، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئًا، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤملون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدلا عن الآخرة، ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾، أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها، فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممرّ، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون، ومن صفاتهم، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾، فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الكونية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود، ثم أخبر الله تعالى بما يستحقونه من الجزاء وهو نار جهنم، فبين سبحانه أن رضوانهم بالحياة الدنيا واطمئنانهم بها ناتج عن مرض الكفر بالله وبلقائه سبحانه، وأن ذلك كله مترتب على مرض الجهل الحاصل من حب الدنيا[2].

٤. الرضا عن المنافقين.

أخبر الله تعالى عن أخلاق المنافقين القبيحة وتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيمانهم الكاذبة وخوفهم

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٨٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢١٠، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٤٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٩٩.

من المؤمنين ومحاولة استرضائهم، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يعرضوا عنهم، فلا يأخذونهم باللّوم، ولا يضعونهم موضع الاتهام، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦].

وقد أخبر الله تعالى عن المنافقين الذين تخلفوا بقوله: إنهم سيحلفون معتذرين؛ لتعرضوا عنهم ولا تؤنبوهم، فأعرضوا عنهم إنهم رجس، والرجس: الخبث، والمراد: تشبيههم بالرجس في الدناءة ودنس النفوس، رجس معنوي، أي: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ثم توعدهم أشد الوعيد، في قوله سبحانه: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ثم أخبر عنهم بأنهم: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، أي: الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والفسق هو الخروج ومنه سميت الفأرة: فويسقة؛ لخروجها من جحرها، ويقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها، وهذا أشد ما ذم الله به أحدًا من خلقه، حيث أمر عز وجل بالإعراض عنهم وعدم معاتبتهم؛ احتقارًا لهم، ثم أمر باجتنابهم، والابتعاد عنهم، ثم بيّن أن محاولتهم التخلص من التوبيخ والتأنيب، وإرضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالأيمان الكاذبة لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن الله سيفضح أمرهم، ويهتك سترهم في هذه السورة التي سميت الفاضحة.

قال أهل المعاني: هؤلاء طلبوا إعراض الصفح، فأعطوا إعراض المقت.

ثم ذكر العلة في وجوب الإعراض عنهم، فقال: إنهم رجس، والمعنى: أن خبث باطنهم رجس روحاني، فكما يجب الاحتراز عن الأرجاس الجسمانية، فوجوب الاحتراز عن الأرجاس الروحانية أولى؛ خوفًا من سريانها إلى الإنسان، وحذرًا من أن يميل طبع الإنسان إلى تلك الأعمال[1].

وفي الآيات السابقة: أن من أرضى الناس بسخط الله أسخطهم عليه وسخط عليه، ومن أسخط الناس في رضي الله أرضاهم عليه، ورضي عنه، فمن أقر منكرًا حياء أو خوفًا من الناس، فقد أسخط مولاه،

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٠٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٧٢، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٢٤، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٨٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٩٤.

ومن أنكر منكرًا، ولم يراقب أحدًا، فقد أرضى مولاه، ومن راقب الناس لم يراقب الله، ومن راقب الله لم يراقب الناس، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢][1].

٥. الرضا المشروط بالمنفعة.

أخبر الله تعالى عن حال المنافقين، وأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله، بقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٨-٥٩].

أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن سوء نية بعض المنافقين وخبث نفوسهم، وقبائحهم وفضائحهم، وجشعهم في الدنيا، وطعنهم في الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء، ويقولون: إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته، وينسبونه إلى أنه لا يراعي العدل وأنه يحابي فيها، وسبب سخطهم أنهم يودون أن توزع الصدقات عليهم، فإذا رأوها توزع على غيرهم طعنوا في إعطائها بمطاعن يلقونها في أحاديثهم، ويظهرون أنهم يغارون على مستحقيها، ويشمئزون من صرفها في غير أهلها، وإنما يرومون بذلك أن تقصر عليهم، وقد عبر عن رضاهم بصيغة الماضي؛ للدلالة على أنه كان يكون لأجل العطاء في وقته وينقضي، فلا يعدونه نعمة يتمنون دوام الإسلام لدوامها، وعبر عن سخطهم بـ(إذا) الفجائية، وبالفعل المضارع؛ للدلالة على سرعته واستمراره، وهذا دأب المنافقين وخلقهم في كل زمان ومكان، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، أي: ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الله من فضله بما أنعم عليهم من الغنائم وغيرها، وأعطاهم رسوله بقسمه للغنائم والصدقات كما أمره الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾، أي: هو حسبنا وكافينا في كل حال: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، أي: سيعطينا الله من فضله في المستقبل من الغنائم والكسب؛ لأن فضله دائم لا ينقطع، ويعطينا رسوله مما يرد عليه من الغنائم والصدقات زيادة مما أعطانا من قبل، لا يبخس أحدًا منا حقا يستحقه في شرع الله تعالى ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، لا نرغب إلى غيره في شيء، وفي الآية إشارة للعبد أن لا يكون رضاه وغضبه، تابعًا لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعًا لمرضاة ربه[2].

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٤٠٠.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦٨٨، المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٣١، تيسير الكريم

الرضا في المعاملات

إن الرضا في الشريعة الإسلامية مبدأ من المبادئ الأساسية في المعاملات، وسنذكر بعض المعاملات القائمة على التراضي، وهي ما يأتي:

أولًا: الرضا بالمهر:

إذا وجب المهر بين الزوجين وعلم فلا بأس أن يقع فيه التراضي بعد ذلك بين الرجال والنساء في تركه كله أو بعضه أو الزيادة عليه.

قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٢٤].

لما بين الله تعالى ما يحل من النساء وما يحرم، وأخبر أن المهر فريضة واجبة للنساء على الرجال، وأنه في مقابلة الاستمتاع، وأخبر سبحانه أن هذه الفريضة قائمة على التراضي بين الزوجين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾، أي: لا حرج ولا تضييق عليكم منه تعالى إذا تراضيتم بعد الفريضة على الزيادة فيها أو النقص منها أو حطها كلها، فإن الغرض من الزوجية أن تكونوا في عيشة راضية ومودة ورحمة تصلح بها شئونكم، وترتقي بها أمتكم، والشرع يضع لكم قواعد العدل، ويهديكم مع ذلك إلى الإحسان والفضل، وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

وقوله جل وعلا: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ٢٤].

فيضع لعباده من الشرائع بحكمته ما يعلم أن فيه صلاح حالهم ما تمسكوا به، ومن ذلك أن أوجب على الرجل أن يفرض لمن يريد الاستمتاع بها أجرًا يكافئها به على قبول قيامه ورياسته عليها، ثم أذن له ولها في التراضي على ما يريان الخير فيه لهما والائتلاف والمودة بينهما[1].

وذهبت الشيعة إلى أن المراد بالآية:

الرحمن، السعدي ص ٣٤٠، البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٣٩٤.

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٤٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٣٥، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٥٩، المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ١١، روح المعاني، الألوسي ٣/ ٧.

(نكاح المتعة)، ونكاح المتعة: هو نكاح المرأة إلى أجل معين كيوم أو أسبوع أو شهر، ولا خلاف أنه كان مرخصًا فيه في بدء الإسلام، وأباحه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في بعض الغزوات؛ لبعدهم عن نسائهم، فرخص فيه مرة أو مرتين؛ خوفًا من الزنا، فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين، ثم نهى عنه نهيًا مؤبدًا؛ لأن المتمتع به غالبًا لا يكون مقصده الإحصان، وإنما يكون مقصده الاستمتاع فقط.

وقد نهى سيدنا عمر رضي الله عنه في خلافته عن نكاح المتعة، وأعلن بتحريمه على المنبر، وأقر الصحابة له على ذلك، ومنع نكاح المتعة يقتضي منع النكاح بنية الطلاق، ولكن بعض الفقهاء أجازوه إذا نواه الرجل ولم يشترطه في العقد، وإن كان كتمانه يعد خداعًا وغشًّا وعبثًا بهذه الرابطة العظيمة التي هي أعظم الروابط البشرية، وإيثارًا للتنقل في مراتع الشهوات، إلى ما يترتب على ذلك من العداوة والبغضاء، وذهاب الثقة بين الزوجين حتى بالصادقين الذين يريدون بالزواج الإحصان، والتعاون على تأسيس البيت الصالح والعيشة السعيدة، ولا شك أن الإسلام بقيمه السامية وأخلاقه الرفيعة لا يقبل بأي حال من الأحوال بهذا النوع من النكاح ولا يرتضيه، وليس من خلق المسلم هذا العمل القبيح، بل إن هذا العمل منكر[1].

قال البقاعي: «ولما ذكر في هذه الآيات أنواعًا من التكاليف هي في غاية الحكمة، والتعبير عنها في الذروة العليا من العظمة، وختمها بإسقاط الجناح عند الرضى، وكان الرضى أمرًا باطنًا لا يطلع عليه حقيقة إلا الله تعالى، حثّ على الورع في شأنه بنوط الحكم بغلبة الظن، فقال: مرغبًا في امتثال أوامره ونواهيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: الذي له الإحاطة التامة علمًا وقدرة ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾، أي: بمن يقدم متحرّيًا لرضى صاحبه أو غير متحرٍّ لذلك ﴿حَكِيمًا﴾، أي: يضع الأشياء في أمكن مواضعها من الجزاء على الذنوب وغيره»[2].

ثانيًا: الرضا بالنفقة:

إن الله سبحانه وتعالى تعهد نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالإرشاد والتأديب؛ لأنهن الأسوة والقدوة الحسنة، قال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١٠٦، تفسير السمرقندي ١/ ٢٩٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٤٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٥٩، نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٢٣٤، المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ١١.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٢٣٤.

﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

بينت الآيات أن الله سبحانه فوض الأمر إلى رسوله صلى الله عليه وسلم كي يصنع مع زوجاته ما شاء، من تقديم وتأخير، وعزل وإمساك، وضم من أرجأ، وإرجاء من ضم إليه، وما شاء في أمرهن فعل توسعة عليه، ونفيًا للحرج عنه، وكان القسم والتسوية واجبًا عليه، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار إليه فيهن، فصار حق المبيت حقًّا له لا لهن بخلاف بقية المسلمين، ثم أبان الله تعالى سبب هذا التفويض للنبي صلى الله عليه وسلم في الإيواء والإرجاء وأنه لمصلحتهن، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾، أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، وأنه غير واجب عليك، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، وأنت مع ذلك تقسم لهن باختيارك لا جبرًا عنك، فرحن بذلك، واستبشرن به، وقدّرن جميلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن، وتسويتك بينهن، وإنصافك لهن، وعدلك فيهن، ورضين كلهن بما تفعل، دون إقلاق ولا بلبلة؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له في شيء كان راضيًا بما أوتي منه وإن قلّ، وإن علم أن له حقًّا لم يقنعه ما أوتي منه، واشتدت غيرته عليه، وعظم حرصه فيه، فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه، واستقرار أعينهن على ما يسمح به منه لهن، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه، ومع هذا التخيير للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يأخذ لنفسه به تكرمًا منه على أزواجه، قال الزهري: «ما علمنا أن رسول الله أرجأ أحدًا من أزواجه بل آواهن كلهن»، فقد كان صلى الله عليه وسلم يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، روى أحمد، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: (اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)[1]، يعني: القلب، وزيادة الحب لبعض دون بعض[2].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٥١١١، ٤٢/ ٤٦، والترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، رقم ١١٤٠، ٣/ ٤٣٨، والنسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، رقم ٤٩٣٤، ٧/ ٦٣، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم ١٩٧١، ١/ ٦٣٣.
وصححه ابن الملقن في البدر المنير ٨/ ٤٠.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٧٨، تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٢٩٨، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٧٦، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٣٢، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٠، تفسير المراغي ٢٢/ ٢٥، التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٦٧.

وفي هذه الآيات حث على تحسين ما في القلوب، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله له من ذلك، وفوضه إلى مشيئته، وبعث على تواطؤ قلوبهن، والتصافي بينهن، والتوافق على رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه توجيه لجميع المؤمنات أن يرضين بما قسم الله تعالى لهن من النفقة فلا يكلفن أزواجهن ما لا يطيقون، فقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٥١]، خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولأزواجه، ويندرج فيه جميع المؤمنين والمؤمنات وجمع بجمع الذكور؛ للتغليب[(١)].

ثالثًا: الرضا بالشهادة:

ذكر القرآن الكريم أن من شرط الشاهد أن يكون عدلًا مرضيًّا عنه.

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فقد أمرنا الله سبحانه بأن نحمّل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضا، فقوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قالوا: أي ممن ترضون دينهم وعدالتهم حال كونهم من الشهداء، وهو عام في كل شاهد، وإنما وصف الرجل مع المرأتين بهذا الوصف؛ لضعف شهادة النساء وقلة ثقة الناس بها، ولذلك وكل الأمر فيه إلى رضا المستشهدين، ثم بين علة جعل المرأتين بمنزلة رجل واحد بقوله عز وجل: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أن تضل إحداهما أي: تخطئ؛ لعدم ضبطها وقلة عنايتها، فتذكّر كل منهما الأخرى بما كان، فتكون شهادتها متممة لشهادتها، أي: إن كلًّا منهما عرضة للخطأ والضلال، أي: الضياع وعدم الاهتداء إلى ما كان وقع بالضبط، فاحتيج إلى إقامة الثنتين مقام الرجل الواحد؛ لأنهما بتذكير كل منهما للأخرى تقومان مقام الرجل، ولهذا أعاد لفظ إحداهما مظهرًا، وليس المعنى: لئلا تنسى واحدة فتذكرها الثانية، كما فهم كثير من المفسرين[(٢)].

وجملة القول فيمن تقبل شهادته: أن تجتمع فيه عشر خصال: أن يكون حرًّا بالغًا مسلمًا عدلًا عالمًا بما يشهد به، ولا يجر بشهادته إلى نفسه منفعة، ولا يدفع عن

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٥٢، التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ٢٣٣.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٩٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٩٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٩٥، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٠٦، المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٠٣.

نفسه مضرّة، ولا يكون معروفًا بكثرة الغلط ولا يترك المروءة، ولا يكون عنده لين، ولا يشهد عليه عبده، فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال كان مقبول القول جائز الشهادة، فشهادة الكافر مردودة؛ لأن الكذاب لا تقبل شهادته، فالذي يكذب على الله أولى بأن ترد شهادته، وجوز بعض أهل الرأي شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض، ولا تقبل شهادة العبيد، وأجازها ابن شريح وابن سيرين وهو قول أنس، ولا قول للمجنون معتبر حتى تصح شهادته، ولا تجوز شهادة الصبيان، وسئل ابن عباس عن ذلك فقال: «لا تجوز؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

والعدالة شرط: وهو أن لا يكون الشاهد مقيمًا على الكبائر مصرًّا على الصغائر، والمروءة شرط: وهي ما تتصل بآداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء، وهي حسن الهيئة والسيرة والعشرة والصناعة، فإن كان الرجل يظهر في نفسه شيئًا مما يستحيي أمثاله من إظهاره في الأغلب علم بذلك قلة مروءته وترد شهادته، وانتفاء التهمة شرط: فلا تقبل شهادة العدو على عدوه، وإن كان مقبول الشهادة على غيره؛ لأنه متهم في حق عدوه لا في حق غيره، ولا تقبل شهادة الرجل لولده ووالده وتقبل شهادته عليهما، ولا تقبل شهادة من يجر بشهادته إلى نفسه نفعًا، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تجوز شهادة خائن، ولا خائنة، ولا محدود في الإسلام، ولا ذي غمر على أخيه)[(١)].

قال الفزاري: «أراد بالخيانة الخيانة في الدين والمال والأمانة، فإن من ضيع شيئًا من أوامر الله أو ارتكب شيئًا مما نهى الله عنه لا يكون عدلًا، والغمر -بكسر الغين-: الحقد»[(٢)].

وفي الآية دليل على تفويض القبول في الشهادة إلى الحاكم؛ لأن الرضا معنى يكون في النفس بما يظهر إليها من الأمارات عليه، ويقوم من الدلائل المبينة له، ولا يكون غير هذا؛ فإنا لو جعلناه لغيره لما وصل إليه إلا بالاجتهاد، واجتهاده أولى من اجتهاد غيره، وقصر الشهادة على الرضا خاصة؛ لأنها ولاية عظيمة؛ إذ هي تنفيذ قول الغير على الغير؛ فمن حكمه أن يكون له شمائل

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٦٦٩٨، ١١/ ٢٩٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب من لا تجوز شهادته، رقم ٢٣٦٦، ٢/ ٧٩٢.
وحسنه الألباني في إرواء الغليل ٨/ ٢٨٣.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٩٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٩٤، مفاتيح الغيب، الرازي، ٧/ ٩٥، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٠٦، المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٠٣.

ينفرد بها، وفضائل يتحلى بها حتى يكون له مزية على غيره توجب له تلك المزية رتبة الاختصاص بقبول قوله على غيره، ويقضى له بحسن الظن، ويحكم بشغل ذمة المطلوب بالحق بشهادته عليه، ويغلب قول الطالب على قوله بتصديقه له في دعواه[1].

رابعًا: الرضا بالتجارة:

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

أي: لا تأكلوا أموالكم بينكم بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا والقمار، والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور، وأخذ المال باليمين الكاذبة، وجحد الحق ونحو ذلك.

وإنما خص الأكل بالذكر ونهى عنه؛ تنبيهًا على غيره من جميع التصرفات الواقعة على وجه الباطل؛ لأن معظم المقصود من المال الأكل، وقيل: يدخل فيه أكل ماله بالباطل، وأكل ماله بالباطل: هو إنفاقه في المعاصي، ويدخل في أكل المال الباطل جميع العقود الفاسدة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

هذا الاستثناء منقطع؛ لأن التجارة عن تراض ليست من جنس أكل المال بالباطل، فكان الاستثناء هاهنا بمعنى: لكن يحل أكله بالتجارة عن تراض، يعني: بطيبة نفس كل واحد منكم، وقيل: هو أن يخير كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع فيلزم، وإلّا فلهما الخيار ما لم يتفرقا؛ لما روي عن ابن عمران أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا وكانا جميعًا أو يخير أحدهما الآخر، فإن خيّر أحدهما الآخر فتبايعا على ذلك فقد وجب البيع، وإن تفرقا بعد أن تبايعا ولم يترك واحد منهما البيع فقد وجب البيع)[2].

وانما خص التجارة بالذكر؛ لكونها أغلب أسباب المكاسب وقوعًا، وأوفقها

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٣٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا خير أحدهما صاحبه بعد البيع فقد وجب البيع، رقم ٢١١٢، ٣/ ٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين، رقم ١٥٣١، ٣/ ١١٦٣.

لذوى المروءات[1].

خامسًا: الرضا بفسخ العقود:

ذكر القرآن الكريم الفسخ بالرضا في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

بينت الآية أن مدة الرضاع حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، والتقدير: والوالدة مأمورة بإرضاعه حولين كاملين إذا أريد إتمام الرضاعة؛ فإذا أرادت الإتمام كانت مأمورة بذلك، وكان على الأب رزقها وكسوتها، وإن أراد الأب الإتمام كان له ذلك؛ فإنه لم يبح الفصال إلا بتراضيهما جميعًا.

وفيه دليل على أنه يجوز الفطام قبل ذلك إذا كان لمصلحة، وقد بين ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وذلك يدل على أنه لا يفصل إلا برضى الأبوين، فلو أراد أحدهما الإتمام والآخر الفصال قبل السنتين كان الأمر لمن أراد الإتمام؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣][2].

قال الإمام الماوردي: «وفي زمان هذا الفصال عن تراض قولان:

أحدهما: أنه قبل الحولين إذا تراضى الوالدان بفطام المولود فيه جاز، وإن رضي أحدهما وأبى الآخر لم يجز، وهذا قول مجاهد، وقتادة، والزهري، والسدي.

والقول الثاني: أنه قبل الحولين وبعده، وهذا قول ابن عباس»[3].

وعلى هذه الآية اعتبر الفقهاء الرضا في فسخ العقود اللازمة الصحيحة من طرفي العقد؛ لأن العقد انعقد بتراضيهما، فلا ينفرد بالفسخ؛ لعدم ولايته، وإذا فسخ لا ينفسخ إلا بتراضيهما على الفسخ، فيلزمهما بتراضيهما.

فقد أجاز العلماء إلغاء التصرفات والعقود غير اللازمة من جانب المتعاقدين،

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨، الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٥١، لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٦٨.

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٣/ ٣٧١.

(٣) النكت والعيون ١/ ٣٠١.

أما في العقود اللازمة من جانب واحد فإنه يصح الإلغاء من الجانب الآخر غير الملتزم به كالوصية.

وأما في العقود والتصرفات الملزمة فلا يرد عليها الإلغاء بعد نفاذها إلا برضا العاقدين، كما في الإقالة، أو بوجود سبب مانع من استمرار العقد كظهور الرضاع بين الزوج والزوجة، وقد يكون هنا الإلغاء بمعنى الفسخ[1].

قال بدر الدين الزركشي: «سائر العقود تقبل الفسخ بالتراضي، وحكى الرافعي في أول الخلع قولين في أن النكاح هل يقبل الفسخ بالتراضي؟ أحدهما: نعم كالبيع، والثاني: لا؛ لأن وضع النكاح على الدوام والتأبيد، وإنما يفسخ؛ لضرورة عظيمة تدعو إليه، وجعلها أصل الخلاف في أن الخلع طلاق أو فسخ، وهذا في العقود اللازمة، أما الجائزة فلا يشترط تراضيهما، بل لكل منها الفسخ، وكذلك في الجائزة من أحد الطرفين كالمرتهن يفسخ الرهن، والعبد يفسخ الكتابة، والعامل في الجعالة ونحوه»[2].

موضوعات ذات صلة:

السعادة، الغضب، القدر، المحبة

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٦/ ١٨٥.
(٢) المنثور في القواعد الفقهية ٣/ ٤٧.

الرفعة

عناصر الموضوع

مفهوم الرفعة	٢٥٦
الرفعة في الاستعمال القرآني	٢٥٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٥٨
الرفعة في حق الله تعالى	٢٦٠
أنواع الرفعة	٢٦٢
أسباب تحصيل الرفعة	٢٨٦
أسباب الحرمان من الرفعة في الآخرة	٢٨٩

مفهوم الرفعة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ر ف ع) تدل على خلاف الوضع، تقول: رفعت الشيء رفعًا إذا جعلته عاليًا.

كما يأتي الرفع بمعنى: تقريب الشيء، قال الله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤﴾ [الواقعة: ٣٤] أي: مقربة لهم، ومن ذلك قوله: رفعته للسلطان، أي: قربته منه.

ويأتي الرفع كذلك بمعنى: إذاعة الشيء وإظهاره[(١)].

والرفع قد يكون حسيًّا ؛ كرفع البناء ورفع القواعد، ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]. وقوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقد يكون معنويًّا؛ كارتفاع الدرجة والمنزلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]. وقوله جل وعلا: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ويقال: رَفُعَ رِفْعَةً، أي: ارتفع قدره[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الرفعة: الإعلاء والتشريف ورفع القدر والمنزلة[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٤، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٧٩، القاموس المحيط لإبراهيم مصطفى ص ٧٢٢، تاج العروس، الزبيدي ٢١/ ١١١، الكليات، الكفوي ص ٤٧٧.

(٢) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٢١.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٠، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٧٩.

الرفعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رفع) في القرآن الكريم (٢٩) مرة، وما جاء منها بمعنى الرفعة (١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤]
الفعل المضارع	٤	﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]
اسم الفاعل	١	﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقعة: ٣]
اسم المفعول	١	﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤﴾ [عبس: ١٤]
صيغة مبالغة	١	﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥]

وجاءت الرفعة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: نقيض الذلة، وخلاف الضعة.

وهي تقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها، وتارة في البناء إذا طوّلته، وتارة في الذكر إذا نوّهته، وتارة في المنزلة إذا شرّفتها[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن، عبدا لله جلغوم، ص٥٩٠-٥٩١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٦٠-٣٦١.

الألفاظ ذات الصلة

١ العلو:

العلو لغة:

السموّ والارتفاع والشرف، ومنه قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣][(١)].

العلو اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي، الدال على الارتفاع، ويستعمل في الأمكنة والأجسام أكثر، وفي المحمود والمذموم[(٢)].

الصلة بين الرفعة والعلو:

الرفعة والعلو في اللغة بمعنى واحد، وهو الفوقية[(٣)].

٢ السمو:

السمو لغة:

هو الارتفاع والعلو فيقال للشريف والملك سمو فلان، والسماء معروفة[(٤)].

السمو اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي الدال على العلو والشرف والرفعة والعظمة[(٥)].

الصلة بين الرفعة والسمو:

الرفعة تقال في الأعيان والمعاني، أما السمو لا يكون إلا في المعاني، والرفع في الأعيان كرفع البناء، والرفع في المعاني كرفع درجة العلم.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٤٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١١٣، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٢٥.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٤٦.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٨.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٨، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٩٧.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٤٠٥، غريب الحديث، ابن قتيبة ١/ ٤٧٣، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٧، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٩٠.

٣ المنزلة:

المنزلة لغة:

هي المكانة والمرتبة والدرجة، يقال: له منزلة عند الأمير، وهو رفيع المنزل والمنازل[١].

المنزلة اصطلاحًا:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي للمنزلة عن المعنى اللغوي له الدال على المكانة.

الصلة بين الرفعة والمنزلة:

الرفعة تقال في الأعيان والمعاني، والمنزلة: تقال في الأمور المعنوية[٢].

٤ الضعة:

الضّعة لغة:

خلاف الرفعة في القدر، والأصل وضعة، والوضيع: الدنيء من الناس[٣].

الضعة اصطلاحًا:

هي الذل والهوان والدناءة والخسة، والوضيع: ضد الشريف، وهو المحطوط القدر الدنيء، وهو لا يختلف عن المعنى اللغوي[٤].

الصلة بين الرفعة والضعة:

يظهر من خلال بيان الفرق بين الرفعة والضعة أن بينهما علاقة تضادّ.

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٩/ ٤٦، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٥٨، تاج العروس، الزبيدي ٣٠/ ٤٨٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩١٥.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٠/ ٤٨٢.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٤٨، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٩٧.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٤٠.

الرفعة في حق الله تعالى

إن الله تعالى هو رفيع الدرجات وهو كناية عن رفعة شأنه وسلطانه عز شأنه، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع درجات الخلق في العلم والأخلاق الفاضلة والرزق وغيرها، وإن من لم يرفعه الله فهو موضوع، فهو الخافض الرافع سبحانه، وفي هذا البحث بيان معنى الرفيع.

يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه، وعلوه على جميع المخلوقات التي أعلاها وأعظمها عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها.

قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٣-٤].

والرفعة في حق الله تعالى تأتي صفة ذات وصفة فعل، فالأول: اسم الله رفيع الدرجات، والثاني: اسم الله الرافع[1].

١. اسم الله رفيع الدرجات.

وصف الله تعالى نفسه بأنه رفيع الدرجات ذو العرش، وهي رفعة الذات على جميع المخلوقات، وفوق كل شيء، وليس فوقه شيء، فذكر العرش عند هذه الصفة من أدلة فوقيته تعالى، ودليل على أنه في السماء على العرش، لأن ﴿ذُو﴾ نعت، ولا يكون إلا نعت استوائه عليه، وكذا قال في سورة البروج: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٥].

فهو سبحانه وتعالى الكبير المتعال، ذو العرش والسلطان، المتفرد بهذا المقام العالي، والسلطان العظيم، لا يشاركه أحد، ولا ينازعه سلطان، ورفعة القدر وهي رفعة صفاته وعظمتها، وأنه أرفع الموجودات وأعلاها في جميع صفات الجلال والإكرام، الذي لا أرفع قدرًا منه، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، فلا ريب أنه سبحانه أشرف الموجودات وأجلها رتبة من جهة استغنائه في وجوده وفي جميع صفات وجوده عن كل ما سواه، وافتقار كل ما سواه إليه في الوجود وفي توابع الوجود، فهو سبحانه الرفيع في جميع صفات الكمال والجلال، فله الكمال المطلق في كل صفة وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم الذي هو أول لكل ما سواه، وليس له أول، وآخر لكل ما سواه، وليس له آخر، وهو العالم بجميع الذوات والصفات والكليات والجزئيات، كما قال تعالى:

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٧٠، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٥٦.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهو أعلى القادرين وأرفعهم، لأنه في وجوده وجميع كمالات وجوده غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فإنه محتاج في وجوده وفي جميع كمالات وجوده إليه، وهو الواحد الذي يمتنع أن يحصل له ضد وند وشريك ونظير[(١)].

والدرجات مستعارة للمجد والعظمة، وجمعها إيذان بكثرة العظمات باعتبار صفات مجد الله التي لا تحصر، والمعنى: أنه حقيق بإخلاص الدعاء إليه، وإجراء وصف ذي المعارج على اسم الجلالة لاستحضار عظمة جلاله، ولإدماج الإشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه، فإن المعارج من خصائص منازل العظماء.

قال تعالى: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

ولكل درجة المعارج قوم عملوا لنوالها، قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وليكون من هذا الوصف تخلص إلى ذكر يوم الجزاء الذي يكون فيه العذاب الحق للكافرين[(٢)].

٢. اسم الله الرافع.

وإن فسرناه بالرافع، كان معناه أن كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشيء سواه، فإنما حصلت بإيجاده وتكوينه وفضله ورحمته.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

أي: رافع درجات الخلق في العلم والأخلاق الفاضلة، كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وكذا في الرزق والأجل، قال جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وجعل للملائكة مقامات معينة.

قال جل وعلا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: ١٦٤].

وللأجسام البسيطة العلوية والسفلية درجات معينة كما يشهد به علم الهيئة، أو يراد رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة، وجعل لكل أحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٠، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٤٧، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٠، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٩٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٠٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٠٦، ٢٩/ ١٥٦.

السعادة وموجبات الشقاوة، وفي الآخرة آثار لظهور تلك السعادة والشقاء[1].

ويجوز أن يكون رفيع من أمثلة المبالغة، أي كثير رفع الدرجات لمن يشاء، وهو معنى قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦].

وإضافته إلى الدرجات من الإضافة إلى المفعول، فيكون راجعًا إلى صفات أفعال الله تعالى[2].

وفي هذه الآيات تثبيت للمؤمنين على عبادة الله تعالى وترغيب لهم بالتعرض إلى الدرجات العالية التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين.

أنواع الرفعة

تأتي الرفعة في القرآن الكريم على أنواع، الأول: الرفعة في الدنيا، والثاني: الرفعة في الآخرة، فالأول رفعة الأنبياء والرسل والعلماء والمؤمنين والأعمال الصالحة والشعائر والملك والحكم والقرآن والبيت الحرام والتفاوت في الدرجات بين الناس، والثاني: الرفعة في الآخرة، وهو درجات الجنة ونعيمها، وسيكون بيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الرفعة في الدنيا:

١. رفعة الأنبياء والرسل.

ذكر الله تعالى أن الرسل والأنبياء هم أرفع درجة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقال تعالى عن إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٧].

بينت الآيات فضيلة الرسل والأنبياء

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٠، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٤٧، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٠، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٩٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٠٦.

عليهم السلام وارتفاع درجاتهم وعلو منزلتهم، وتمجيد سمعتهم، وتعليم المسلمين أن هذه الفئة الطيبة مع عظيم شأنها قد فضل الله بعضها على بعض، وأسباب التفضيل لا يعلمها إلا الله تعالى، غير أنها ترجع إلى ما جرى على أيديهم من الخيرات المصلحة للبشر ومن نصر الحق، وما لقوه من الأذى في سبيل ذلك، وما أيدوا به من الشرائع العظيمة، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لأن يهدي الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس)[1].

فما بالك بمن هدى الله بهم أممًا في أزمان متعاقبة، ومن أجل ذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل، ويتضمن الكلام ثناء عليهم وتسلية للرسول عليه السلام فيما لقي من قومه، وللتفاضل بينهم قال عليه الصلاة والسلام: (فضلت على الأنبياء بست: أوتيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وختم بي النبيون، وأرسلت إلى الناس كافة)[2][3].

وأجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وعلى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور، وعلى أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧].

وقوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى: ١٣][4].

وفي قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

أشار بالبعيد لعلو مرتبتهم في الكمال وسمو درجتهم، وهو إشارة إلى جميع الرسل، فتكون الألف واللام للاستغراق، وقيل: هو إشارة إلى الأنبياء المذكورين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، رقم ٣٠٠٩، ٤/ ٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم ٢٤٠٦، ٤/ ١٨٧٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم ٥٢٣، ١/ ٣٧١.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٢٢، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٦٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٣٤، تفسير السمرقندي ١/ ١٦٦، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥١٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٥٢١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٨.

في هذه السورة، وقيل: إلى الأنبياء الذين بلغ علمهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم بين تفضيلهم، فقال تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، مثل موسى عليه السلام، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، يعني إدريس عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧].

وجعل بعضهم خليلًا، وبعضهم ملكًا، وسخّر لبعضهم الريح والشياطين، وأحيا ببعضهم الموتى، وأبرأ الأكمه، والأبرص[(١)].

ذكر الفقهاء في هذه الآية الكريمة، أعني قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] إشكالًا قويًّا معروفًا، ووجهه: أنه ثبت في حديث أبي هريرة المتفق عليه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله)[(٢)].

وثبت أيضًا في حديث أبي سعيد المتفق عليه: (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة)[(٣)] الحديث.

وفي رواية: (لا تفضلوا بين أنبياء الله)[(٤)].

وفي رواية: (لا تخيروني من بين الأنبياء)[(٥)].

والجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل. وفي هذا نظر.

والثاني: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

والثالث: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذا الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر.

والرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٢٢، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٦٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٣٤، تفسير السمرقندي ١/ ١٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، رقم ٢٤١١، ٣/ ١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٧٣، ٤/ ١٨٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، رقم ٢٤١٢، ٣/ ١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٧٤، ٤/ ١٨٤٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإن يونس لمن المرسلين)، رقم ٣٤١٤، ٤/ ١٥٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٧٣، ٤/ ١٨٤٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)، رقم ٤٦٣٨، ٦/ ٥٩.

والعصبية.

والخامس: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به.

وقيل: إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخر زائدة عليها.

قال الشنقيطي: «وهذا قول حسن، فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض، إنما هو بما منح من الفضائل وأعطى من الوسائل، وقد أشار ابن عباس إلى هذا فقال: «إن الله فضل محمدا صلى الله عليه وسلم على الأنبياء وعلى أهل السماء، فقالوا: بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء؟ فقال: إن الله تعالى قال: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ [الأنبياء: ٢٩].

وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢].

قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] فأرسله إلى الجن والإنس»[(١)].

وقال أبو هريرة: «خير بني آدم نوح وإبراهيم وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، وهم أولو العزم من الرسل»[(٢)].

وهذا نص من ابن عباس وأبي هريرة في التعيين، ومعلوم أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل؛ فإن من أرسل فضل على غيره بالرسالة، واستووا في النبوة إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم، وهذا مما لا خفاء به»[(٣)].

قال ابن عطية: «ونص الله في هذه الآية على تفضيل بعض الأنبياء على بعض، وذلك في الجملة دون تعيين مفضول، وهكذا هي الأحاديث عن النبي عليه السلام، فإنه قال:

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب دلائل النبوة، باب ما أعطي النبي صلى الله عليه وسلم من الفضل، رقم ٤٧، ١/ ١٩٤، والطبراني في المعجم الكبير، رقم ١١٦١٠، ١١/ ٢٣٩.

(٢) أخرجه البزار في مسنده، رقم ٩٧٣٧١، ٧/ ١٤١، والخلال في السنة، رقم ٣٢٤، ١/ ٢٦٤، وابن الأعرابي في معجمه، رقم ٨٨، ١/ ٦٤.
قال المناوي: إسناده صحيح.
انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير ١/ ٥٢٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٣٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٦٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٧١، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ١٥٦.

(أنا سيد ولد آدم ولا فخر)[1]، ولم يعين.

ومنع التفضيل على طريق الخصوص، كقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تفضلوني على موسى)[2]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى)[3]، وفي هذا نهي شديد عن تعيين المفضول»[4].

وقد ذكر القرآن الكريم بعض الأنبياء وخصهم بالرفعة وهم:

- إدريس عليه السلام.

لقد أثنى القرآن الكريم على إدريس عليه السلام وبيّن علو مكانه.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٦-٥٧].

إدريس عليه السلام، هو من ذرية آدم الأولين، وهو جدّ أعلى لنوح[5]، ولهذا اختصّ بالذكر؛ لأنه ليس من الأنبياء الذين جاءوا من ذرية إبراهيم، ووصفه الله تعالى بأمور، أنه كان صديقًا، وأنه كان نبيًّا، وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧].

وفيه قولان:

أحدهما: أنه من رفعة المنزلة، كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤].

فإن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة.

الثاني: أن المراد به الرفعة في المكان إلى موضع عال.

ثم اختلفوا فقال بعضهم: إن الله رفعه إلى السماء، وإلى الجنة، وهو حي لم يمت.

وقال آخرون: بل رفع إلى السماء وقبض روحه.

وقيل: إن الله جلّ ذكره جعله في السماء الرابعة قاضيًا، كالملك في وسط ملكه، وجعل خزائن السموات بيده.

وقيل: رفع إلى السماء السادسة، واعلم أن الله تعالى إنما مدحه بأن رفعه إلى

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٠٩٨٧، ١٧/ ١٠، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم ٣١٤٨، ٥/ ٣٠٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم ٤٣٠٨، ٢/ ١٤٤٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٤٦٨، ١/ ٣٠٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى)، رقم ٣٣٩٥، ٤/ ١٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام، رقم ٢٣٧٦، ٤/ ١٨٤٦.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٣٣٨.

(٥) وقد جزم البخاري في صحيحه ٤/ ١٣٥، في كتاب أحاديث الأنبياء بأن إدريس جد نوح أو جد أبيه، فقال: وهو جد أبي نوح، ويقال جد نوح عليهما السلام.

السماء؛ لأنه جرت العادة أن لا يرفع إليها إلا من كان عظيم القدر والمنزلة، ولذلك قال في حق الملائكة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩][(١)].

وفي حديث الإسراء عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج)[(٢)].

❁ إبراهيم عليه السلام.

ذكر تعالى أنه خص إبراهيم عليه السلام بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية الرفيعة.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

فذكر الله تعالى أنه رفعه بالتوحيد الذي هداه إليه وحاج به قومه، قال بعضهم: هي احتجاجه عليهم بقوله سبحانه: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

وحجته في ذلك أن الذي يعبد الله لا يشرك به شيئًا أحق بالأمن من الذي يعبد الله ويشرك به، وقيل: أراد به الحجج الذي حاج به نمروذ، على ما سبق في سورة البقرة، وعبر بالإيتاء، وذلك يدل على أن إيتاء الله تعالى إبراهيم عليه السلام تلك الحجة من أشرف النعم، ومن أجل مراتب العطايا والمواهب، وبهذا استحق إبراهيم أن يلقى من ربّه هذا التكريم، وأن ينعته هذا النعت العظيم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ۖ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، فهو أمة وحده، ومجتمعه أشبه بفرد واحد إزاء هذه الأمة العظيمة، أو هو الأمة، وقومه لا شيء، إذ كان هو الإنسان الوحيد فيها، الذي يحمل عقل الإنسان وينتفع به، ومن فضل الله على إبراهيم عليه السلام: النبوة والعلم والفهم والملك والإمامة، وجعله عزيزًا في الدنيا، وذلك لأنه تعالى جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله، ومن ذريته وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة، لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٧٧، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٠٠، تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٢٢١، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٣٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١١٧، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٧، ٤/ ١٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٤، ١/ ١٥٠.

والملوك، والمقصود من هذه الآيات تعديد أنواع نعم الله على إبراهيم عليه السلام جزاء على قيامه بالذب عن دلائل التوحيد[1].

وقد ذكر بعضهم الإجماع على أن خير البرية بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو إبراهيم الخليل عليه السلام[2]، فعن أنس بن مالك، قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا خير البرية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاك إبراهيم عليه السلام)[3].

❁ يوسف عليه السلام.

خص الله تعالى نبيه يوسف عليه السلام بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية الرفيعة، بالنبوة والحكم والعلم والفهم والفضيلة والعقل.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١].

وقال جل وعلا: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

وقال عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦].

وقال جلا في علاه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

لقد منّ الله تعالى على نبيه يوسف عليه السلام بكل درجات الرفعة فآتاه الملك والسلطان والعلم والنبوة وتعليم الأحاديث، وهذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك، فقال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، وأيضا وصف إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، عند إيراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن إلهية الشمس والقمر والكواكب ووصف هاهنا يوسف أيضًا بقوله سبحانه:

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٥١، الجامع لأحكام القرآن القرطبي ٧/ ٣٠، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٤/ ٢٢٨.

(٢) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ١/ ٥٢٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٦٩، ٤/ ١٨٣٩.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ لما هداه إلى هذه الحيلة، وكم بين المرتبتين من التفاوت[1].

❁ رفع عيسى عليه السلام.

أخبر الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام أنه منجيه من كيد الكافرين المتآمرين على قتله، وأنه سوف يصونه من القتل ويرفعه إليه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل، وليس بينه وبين النبي محمد صلى الله عليه وسلم نبي آخر، وهو من آل عمران، ومن نسل داود، ولذلك اضطهده اليهود، وآذوه، وحاولوا قتله، دعا الإسرائيليين إلى شريعة موسى عليه السلام وبشر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين من بعده، وهو أحد أولي العزم من الرسل، الذين أبلوا بلاء حسنًا، وصبروا على ما كذبوا، وأوذوا حتى أتاهم نصر الله المبين، وإن الذي يجب اعتقاده بنص القرآن: أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وأن الله رفعه إليه بروحه وجسده، ولما علم الله أن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

فيه أربعة أقاويل:

أحدها: معناه: إني قابضك برفعك إلى السماء من غير وفاة بموت.

والثاني: متوفيك وفاة نوم للرفع إلى السماء.

والثالث: متوفيك وفاة بموت.

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٢٤٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٦٢٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣١٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٨٩.

والرابع: أنه من المقدم والمؤخر بمعنى رافعك ومتوفيك بعده.

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، قولان:

أحدهما: رافعك إلى السماء.

والثاني: معناه رافعك إلى كرامتي[1].

قال ابن عطية: «وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى عليه السلام في السماء حي، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة ملة محمد صلى الله عليه وسلم[2]، ويحج البيت ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعًا وعشرين سنة، وقيل أربعين سنة، ثم يميته الله تعالى»[3].

وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وسينزل عيسى ابن مريم، في آخر هذه الأمة حكمًا عدلًا، يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون[4].

❁ رفعة محمد صلى الله عليه وسلم.

أجمعت الأمة على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال الزجاج: «جاء في التفسير أنه أراد محمدًا صلى الله عليه وسلم، لأنه أرسله إلى الناس كافة، وليس شيء من الآيات التي أعطاها الله الأنبياء عليهم السلام إلا والذي أعطى محمدًا صلى الله عليه وسلم أكثر، لأنه قد كلمته الشجرة، وأطعم من كفّ من التمر خلقًا كثيرًا، وأمرّ يده على شاة أم معبد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٧٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧، الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٣٢٧، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣٢٤، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٩٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٤٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٣٧، التحرير والتنوير ٦/ ٢٢.

(٢) وهو ما أخرجه أبا هريرة رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد».
أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم ٢٢٢٢، ٣/ ٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، رقم ١٥٥، ١/ ١٣٦.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٤.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣٢٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٢، ٩٦٧.

فدرّت لبنًا كثيرًا بعد الجفاف، ومنها انشقاق القمر، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢] يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤] رفعة ذكر وجلال قدر وشرف وتعظيم ومحبة، رفعة ذكر في الدنيا، ورفعة ذكر في الآخرة، ورفعة في السماء، ورفعة في الأرض، ورفعة النبوة، رفعة لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود.

ورفع الذكر مجاز في إلهام الناس لأن يذكروه بخير، وذلك بإيجاد أسباب تلك السمعة حتى يتحدث بها الناس، واستعير الرفع لحسن الذكر؛ لأن الرفع جعل الشيء عاليًا لا تناله جميع الأيدي ولا تدوسه الأرجل، فقد فطر الله رسوله صلى الله عليه وسلم على مكارم يعز وجود نوعها ولم يبلغ أحد شأو ما بلغه منها حتى لقب في قومه بالأمين، ومن عظيم رفع ذكره أن اسمه مقترن باسم الله تعالى في كلمة الإسلام وهي كلمة الشهادة، والأذان، والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها، ولو أن رجلًا عبد الله جل ثناؤه، وصدق بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن محمدًا رسول الله، لم ينتفع بشيء وكان كافرًا، ومن عظيم رفع ذكره، أن الله تعالى ذكره في كتب الأنبياء قبله، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه، وأمرهم بالبشارة به، ولا دين إلا ودين محمد صلى الله عليه وسلم يظهر عليه[٢].

وفيه يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه يمدح النبي صلى الله عليه وسلم[٣]:

أغرّ عليه للنّبوّة خاتمٌ
من اللّه مشهودٌ يلوح ويشهد
وضمّ الإله اسم النّبيّ مع اسمه
إذا قال في الخمس المؤذّن أشهد
وشقّ له من اسمه ليجلّه
فذو العرش محمودٌ وهذا محمّد

٢. رفعة العلماء.

إن العلم هو أجل نعم الله على عباده، وهو الذي ترجح به موازين الناس، وترتفع به منازل بعضهم على بعض، وإنه ليكفي العلم قدرًا وجلالًا، أن يرفع الله قدر أهله، وينزلهم منازل رضوانه، بقدر ما حصّلوا من

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٣٤.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٤، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ٢٣٣، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٩٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٠٦، تفسير المراغي ٣٠/ ١٨٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤١١، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٧٨.

(٣) انظر: ديوان حسان ص ٤٢.

علم، وما حققوا من إيمان، فيقول سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٩﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٥﴾ [النمل: ١٥].

بل يكفي بأن عطف الله سبحانه وتعالى العلماء على الملائكة، فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

فهذه كلها درجات العلم والحجة، وإن العلماء هم أرفع درجة بعد الأنبياء، فهم ورثة الأنبياء، وإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، لأن العلم أشرف المقامات، وأعلى الدرجات، خصوصًا العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إمامًا للناس، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره، وبحسب حاله ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ورفعة الدرجات تدل على الفضل إذ المراد به كثرة الثواب، وبها ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة.

وقيل: في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

أي: بالقرآن، وكان كلما نزل شيء من القرآن ازداد به النبي صلى الله عليه وسلم علمًا.

وقيل: ما أمر الله رسوله بزيادة الطلب في شيء إلا في العلم، وقد طلب موسى عليه السلام الزيادة فقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] (١).

وفي قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ تعميم ثم تخصيص، وتفصيل ذلك: أن الجزاء برفع الدرجات هنا مناسبة للعمل؛ لأن المأمور به تفسيح المجالس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان الرفيع حوله صلى الله عليه وسلم فيتضايقوا، وذلك لا يليق بآداب المجلس التي من أولويَّاتها تفادي إزعاج المجالسين وترنيق صفوهم، واجتناب ما يكدّر صفاءهم وينغص بالهم، ولما كان المتمثّل لذلك

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٣٣، تفسير المراغي ١٣/ ٢٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٦٣.

الأمر يخفض نفسه عمّا يتنافس فيه من الرفعة امتثالًا وتواضعًا جوزي على تواضعه برفع الدرجات، ثم لما علم سبحانه أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعًا لله عز وجل، وفي هذا التخصيص إلماع إلى فضل العلم.

وقيل: إنه تعالى خص أهل العلم ليسهل عليهم ترك ما عرفوا بالحرص عليه من رفعة المجالس وحبهم للتصدير، وهذا من مغيبات القرآن لما ظهر من هؤلاء في سائر الأعصار من التنافس في ذلك[1].

وفي الآيات دليل على شرف العلم وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلًا على كثير من عباد الله، وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (ورثة الأنبياء)، إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة، لأنهم القوام بما بعثوا من أجله، وفيها تحريض للعلماء على أن يحمدوا الله على ما آتاهم من فضله، وأن يتواضعوا ويعتقدوا أن من عباد الله من يفضلهم فيه، وفيها التحريض على طلب العلم[2].

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين فضل العلم ومنها:

وعن قيس بن كثير قال: (قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء، وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما جئت لحاجة غيره، قال: لا، قال: أما قدمت في تجارة؟ قال: لا، قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث، قال: نعم، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورّثوا العلم، من أخذه فقد أخذ بحظ وافر)[3].

(١) انظر: حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي ٨/ ١٧٠، تفسير المراغي ٢٨/ ١٧، روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٢٢٣.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٥٣، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٩٥، تفسير المراغي ١٩/ ١٢٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم ٣٦٤١، ٣/ ٣١٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم ٢٢٣، ١/ ٨١. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٠٧٩.

وعن أبي أمامة الباهلي، قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)[1].

٣. رفعة المؤمنين.

ذكر الله تعالى علو درجات المؤمنين وارتفاع شأنهم ورفعة قدرهم ومكانهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۝٧٥﴾ [طه: ٧٥].

وقال جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وقوله جل وعلا: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٣٢﴾ [الأنعام: ١٣٢] ونحو ذلك من الآيات.

يخبر الله تعالى أن أهل الإيمان هم الذين لهم الرفعة في الدنيا والآخرة، وذلك بطاعتهم لله ورسوله واتباع أوامره، ومن سواهم فإنهم موضوعون بحسب بعدهم عن الإيمان، وكم من إنسان في الدنيا رفيع الجاه، معظَّمٌ عند الناس يكون يوم القيامة من أحقر عباد الله، وكلما ازداد الإيمان كلما ارتفعت درجة المؤمن، فكانت له الدرجات العلا بالنصر وحسن الذكر في الدنيا، والإيواء الى غرف الجنان في الآخرة، وتنكير درجات للإشارة إلى أنواعها من درجات الدنيا ودرجات الآخرة، والدرجات مستعارة للكرامة؛ فإن الرفع في الآية رفعًا مجازي، وهو التفضيل والكرامة، وجيء للاستعارة بترشيحها بكون الرفع درجات، وهو أفضل ما اشتغل بعلمه إنسان، كما في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أي العمل أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (إيمان

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم ٢٦٨٥، ٥/ ٥٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٩.

بالله ورسوله)[1] [2].

وفي الآيات إشارة إلى أن الرفعة يؤتيها الله تعالى للمؤمن الذي يبتغي بعمله وجه الله تعالى، وقبول عمل المؤمن، أما ما عداهم من أهل النفاق والكفر، فليس لأعمالهم قبول عند الله، وفيها دعوة للمؤمن أن يسارع الى تكميل الدرجات، والوصول إلى أحسن الحالات، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي والله بأعمالكم ذو خبرة لا يخفى عليه المطيع منكم من العاصي، وهو مجازيكم جميعًا بأعمالكم، فالمحسن بإحسانه، والمسيء بالذي هو أهله أو يعفو[3].

٤. رفع الأعمال الصالحة.

يخبر الله تعالى أنه إليه يصعد الكلم الطيب، قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

والكلم الطيب، هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة، وقيل: هو التحميد والتمجيد، وذكر الله والدعاء، ونحوه من القرب، وأن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وهو العمل بطاعته، وأداء فرائضه والانتهاء إلى ما أمر به، والأعمال الخبيثة لا يقبلها الله تعالى[4].

قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، على معنى: يرفعه الله، أو يرفع صاحبه، ويجوز أن يكون المعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، والصعود هو الحركة إلى فوق، وهو العروج أيضًا، ولا يتصور ذلك في الكلام لأنه عرض، لكن ضرب صعوده مثلًا لقبوله، لأن موضع الثواب فوق، وموضع العذاب أسفل، يقال ارتفع الأمر إلى القاضي أي علمه، فهو بمعنى العلم، وخص الكلام والطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله يصعد، وقيل: يصعد إلى سمائه والمحل الذي لا يجري فيه لأحد غيره حكم، وقيل: أي يحمل الكتاب الذي كتب فيه طاعات العبد إلى السماء[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل، رقم ٢٦، ١/ ١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم ٨٣، ١/ ٨٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٤٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٩، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٤٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٨، اللباب في علوم الكتاب ١٨/ ٥٤٥، روح البيان، إسماعيل حقي ٩/ ٤٠٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٤٠- ٤٢.

(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ١١٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٤٠، ٤٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٤٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٣١.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٦٥، تفسير السمرقندي ٣/ ١٠٢، الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ١٠١، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٦٤، تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٣٤٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣٢٩،

قال ابن بطّال: «والكلمة الّتي ترفع بها الدّرجات ويكتب بها الرّضوان هي الّتي يدفع بها صاحبها عن المسلم مظلمة، أو يفرّج بها عنه كربة، أو ينصر بها مظلومًا»[1].

٥. رفعة الشعائر.

إن الله تعالى أمر برفع الشعائر وتعظيمها، فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: ٣٦].

بيوت الله هي المساجد، وقد أمر الله برفعها وتعظيمها، وصيانتها عن الأقذار، والأوساخ، والصبيان، والمخاط، والخنا من الأقوال وغيرها.

وقوله سبحانه: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]، فيه أقوال: قال مجاهد: تبنى، وقال الحسن: تعظم، يعني: أنه لا يذكر فيها الخنا من القول، وعن بعضهم: تطهر.

قال الرازي «والقول الثاني: أولى؛ لأن قوله: في بيوت أذن الله أن ترفع ظاهره أنها كانت بيوتًا قبل الرفع فأذن الله أن ترفع».

وقال الجصاص عند تفسير قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦].

حيث قال: «يجوز أن يكون المراد الأمرين جميعًا من رفعها بالبناء ومن تعظيمها جميعًا لأنها مبنية لذكر الله والصلاة، وهذا يدل على أنه يجب تنزيهها من القعود فيها لأمور الدنيا، مثل: البيع والشراء وعمل الصناعات، ولغو الحديث الذي لا فائدة فيه والسفه وما جرى مجرى ذلك»[2].

٦. رفعة الملك والحكم.

إن رفعة الملك والحكم والسلطان من أعظم الدرجات التي يرفع الله تعالى إليها من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقال جل وعلا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ

التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٧٢.

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣١١.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ١٨٨، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٣٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٣٩٦.

﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ٥٤﴾ [النساء: ٥٤].

وقال جل وعلا: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: ١٠١].

ذكرت الآيات أن درجة الخلافة من أعظم الدرجات التي يرفع الله تعالى إليها من يشاء من عباده، وأن الملك بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، بين تعالى أنه جمع لداود عليه السلام الملك والحكمة والنبوة، وهي أعظم فضيلة، إذ لم تخص بمجموعها إلا بعض الأنبياء، وجعل لبعضهم النبوة دون الملك، وإن لم يخل أحد منهم من نصرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٥١].

وقال لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ [القصص: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ٥٤].

وذكر الملك ثم الحكمة ثم النبوة بعد من باب الترقي، والملك صاحب رسالة دنيوية، يعالج بها شئون الناس في الحياة، ويقيمهم على صراط مستقيم، فهو بهذا الوصف مكمل لرسالة الرسول، ومطبّق للشرع الإلهي الذي جاء به الرسول، وهو أن الفصل في الخصومات بين الناس أمر خطير، يحتاج إلى علم واسع، وبصيرة نافذة، ونفس تجردت من كل هوى، وإلا كان الخطأ والزلل، الذي من شأنه إن غلب أفسد حياة الناس، وأغرى بعضهم ببعض، وإيتاء الملك درجة عظيمة يمن الله تعالى بها على من يشاء.

وقد دل القرآن الكريم على ذلك، إذ عبر عنه بما يفيد ذلك من خلال التعبير بلفظ الإيتاء، فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾ [سبأ: ١٠] (١).

وذكر الغزالي أن الملك والسلطان يأتي في المرتبة الثالثة بعد أن ذكر أن الأنبياء هم أعلى رتبة ويليهم العلماء حيث قال: «ثم يليهم السلاطين بالعدل؛ لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم، ولأجل

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٢٩، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥١٣، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٩٣، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٩/ ٩٢٤، التحرير والتنوير ٣/ ٣٢.

اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء، فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم، ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء»[1].

٧. رفعة القرآن الكريم.

رفعة القرآن من جهة أنه قرآن مكتوب معتنىً به:

ذكر الله تعالى أن القرآن مكرم عنده مرفوع في اللوح المحفوظ، مطهر، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤].

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠].

وقال جل ذكره: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

وقال جل في علاه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾ [عبس: ١١-١٤].

يخبر سبحانه وتعالى عن منزلة القرآن وعلوه ورفعته وشرفه، وإنه عليٌّ في ذاته، وأنه مودع في أم الكتاب عند الله، مكتوب في اللوح المحفوظ في السماء السابعة، ومكتوب أيضًا في صحف عند الملائكة، وحسبه بهذا علوًّا وشرفًا، وكونه عاليًا على جميع الكتب بسبب كونه معجزًا باقيًا على وجه الدهر[2].

والقرآن الكريم رفيع من حيث كونه كلام رفيع الدرجات جل جلاله، وهل هناك أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم؟ وهو في لوح محفوظ، وهو رفيع في الأخلاق الرفيعة التي يدعوا إليها، ورفيع في القضاء العادل الذي يأمر به[3].

رفعة القرآن لمن يعمل به:

يخبر الله تعالى أن اتباع آياته والعمل بما جاء فيها سببًا للهداية والتزكية والرفعة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أي: أن من شأن من أوتي آيات الله تعالى أن ترتقي نفسه، وترتفع في مراقي الكمال درجته، لما فيها من الهداية والإرشاد والذكرى، وإنما يكون ذلك لمن أخذ هذه الآيات وتلقاها بالقبول، وعمل بما جاء فيها، وأخلص في عمله.

والرفع يشمل معاني كثيرة، منها الرفع في المنزلة عنده، والرفع في شرف الدنيا ومكارمها، والرفع في الذكر الجميل والثناء الرفيع، والرفعة مستعارة لكمال النفس

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٩٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢١١، مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٥٥.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٧٦.

وذكائها، لأن الصفات الحميدة تخيل صاحبها مرتفعًا على من دونه، أي لو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلًا وذكاءً وتميزًا بالفضل، فمعنى لرفعناه ليسرنا له العمل الذي يشرف به[1].

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: سكن إلى الحياة الدنيا في الأرض، ومال إليها، وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة، فحططناه ووضعنا منزلته، وجاء الاستدراك هنا تنبيهًا على السبب الذي لأجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره ممن أوتي الهدى فآثره واتبعه، والكلام تمثيل لحال المتلبس بالنقائص والكفر بعد الإيمان والتقوى، بحال من كان مرتفعًا عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل، فبذكر الأرض علم أن الإخلاد هنا ركون إلى السفل، أي: تلبس بالنقائص والمفاسد[2]، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، ورفض طاعة الله وخالف أمره، واتباع الهوى ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة، على ما يدعو إليه الحق والرشد، فالاتباع مستعار للاختيار والميل، والهوى شاع في المحبة المذمومة الخاسرة عاقبتها، وموافقة الهوى تنزل صاحبها من سماء العزّ إلى تراب الذّل، وتلقيه في وهدة الهوان، ومن لم يصدّق علمًا فعن قريب يقاسيه وجودًا، والأرض في هذه الآية عبارة عن الدنيا، وذلك أن الدنيا هي الأرض، لأن ما فيها من العقار والرياع والضياع كلها أرض وسائر متاعها يستخرج منها[3].

ثم ضرب الله له مثلًا فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ولو شئنا لرفعناه ولكنا لم نشأ، فمثله كمثل الكلب، فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها، وهي حال دوام اللهث به واتصاله، سواء حمل عليه أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه، ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال، كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلًا دائم الذلة لاهثًا في الحالتين، وقيل: لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود بعد ما قرءوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة[4].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٦٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٢٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٢٣، تفسير المراغي ٩/ ١٠٨، التحرير والتنوير ٩/ ١٧٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٦١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٢٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٦.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٧٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٧٨.

عند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]: «من فوائد الآية: بيان علوّ القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾، فالإشارة بالبعد تفيد علوّ مرتبته؛ وإذا كان القرآن عالي المكانة والمنزلة، فلا بد أن يعود ذلك على المتمسك به بالعلوّ والرفعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وكذلك ما وصف به القرآن من الكرم، والمدح، والعظمة فهو وصف أيضًا لمن تمسك به»[١].

وخلاصة ذلك: إن من شأن من يؤتى الآيات أن تسمو نفسه وتصعد في سلم الكمال؛ لما فيها من الهداية إلى سبيل الخير الحاضة على عمل النافع وما فيه فائدة روحية له، على شريطة أن يتلقاها بعزيمة ونية صادقة كما جاء في الحديث: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)[٢]، أما من تلقاها بغير قصد أو بنية كسب المال والجاه وفي نفسه ما يصرفه عنها فلن يستفيد منها شيئًا وسرعان ما ينسلخ منها[٣].

وقد ورد في هذا المعنى من حديث عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث، لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين)[٤].

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها)[٥].

وعند النظر في عدد آيات القرآن نجد أن الرفعة عظيمة جدًّا، فإن عدد آيات القرآن ست وثلاثون ومائتان وستة آلاف، على اختلاف في ذلك، فسبحان من أعطى هذه

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ١/ ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدأ الوحي، باب كيف كان بدأ الوحي، رقم ١، ١/ ٦.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٩/ ١٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم ٨١٧، ١/ ٥٥٩.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم ١٤٦٤، ٢/ ٧٣، والترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، رقم ٢٩١٤، ٥/ ١٧٧، والنسائي في السنن الكبرى، كتابة القرآن، باب الترتيل، رقم ٨٠٠٢، ٧/ ٢٧٢.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم ٥/ ٢٠٥.

الدرجات[1].

٨. رفعة البيت الحرام.

ذكر الله تعالى أن أول من بنى المسجد الحرم ورفع أساسه هو إبراهيم الخليل عليه السلام، وولده إسماعيل عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧][2].

وقيل: إن إبراهيم عليه السلام كان يبني وإسماعيل يرفع إليه الأحجار ويناوله، والرفع يقال في الأجسام، وفي الشرف، وعبر عنه بالمضارع وخولف الأسلوب الذي يقتضيه الظاهر في حكاية الماضي أن يكون بالفعل الماضي بأن يقول وإذ رفع إلى كونه بالمضارع (يرفع) لاستحضار الحالة وحكايتها كأنها مشاهدة؛ لأن المضارع دال على زمن الحال فاستعماله هنا استعارة تبعية، شبه الماضي بالحال لشهرته ولتكرر الحديث عنه بينهم، فإنهم لحبهم إبراهيم عليه السلام وإجلالهم إياه لا يزالون يذكرون مناقبه، وأعظمها بناء الكعبة، فشبه الماضي لذلك بالحال، ولأن ما مضى من الآيات في ذكر إبراهيم، من قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧]، مما يوجب امتلاء أذهان السامعين بإبراهيم وشؤونه حتى كأنه حاضر بينهم، وكأن أحواله حاضرة مشاهدة، وكلمة (إذ) قرينة على هذا التنزيل؛ لأن غالب الاستعمال أن يكون للزمن الماضي، وهذا معنى قول النحاة أن إذ تخلص المضارع إلى الماضي[3].

وذكر القرآن الكريم الحالة التي كان عليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يحصل فيه النفع العميم، ودعوا لأنفسهما، وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح[4].

وقيل: ليس المراد برفعهما قواعد البناء فقط، بل رفع مكانة البيت وإظهار شرفه ودعاء الناس إلى حجّه، ودعاء الله بحفظه، وصح نسبة ذلك إليهما وإن كان الله تعالى في الحقيقة شرفه من حيث أنهما من

(١) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الغنيمان ١/ ٤٠٣.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٩٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧١٧.

(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦.

الأسباب المتأخرة لتشريفه[1].

والأكثرون من أهل الأخبار على أن هذا البيت كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فإن هذا صريح في أن تلك القواعد كانت موجودة متهدمة إلا أن إبراهيم عليه السلام رفعها وعمرها[2].

ومن خلال ما سبق يتبين أن أول من دله الله تعالى على مكان البيت إبراهيم عليه السلام، وهو أول من بناه مع ولده إسماعيل، وأول من حجه، ويجب على العبد أن يخلص بعمله ويقصد به وجه الله تعالى، وأن يكون أشد حرصًا على طلب القبول من الله تعالى لهذا العمل، ويلح بالدعاء كما فعل إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام.

٩. التفاوت في الدرجات بين الناس.

ذكر القرآن الكريم التفاوت في الدرجات بين الناس في الدنيا في آيات عدة منها:

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقوله جل جلاله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

ذكرت الآيات أن الله تعالى هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل، على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهو الذي جعل لكل واحد من عباده درجة معينة في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وجعل لكل واحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة، ومنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام، وجعل الله تعالى هذا التفاوت بين العباد لحكمة؛ لأنه لو سوى بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحدًا، ولم يصر أحد منهم مسخرًا لغيره، وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا، وهذا التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل فإنه تعالى متعال عن هذه الصفات، وإنما هو لأجل الابتلاء

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٥٩.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٣.

والامتحان، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

أي: أن الله تعالى إذا خص بعض عبيده بنوع فضله ورحمته في الدين، فهذه الرحمة خير من الأموال التي يجمعها؛ لأن الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض، وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد[(١)].

وفي هذا التفاوت الذي بين الناس، وفي درجات التفاضل المقسومة بينهم، يتحرك الناس، فيلحق المتأخر بالمتقدم، ويسعى المتقدم ليلحق بمن تقدم عليه وفضله، أو ينزل عن مكانه الذي هو فيه ليأخذه غيره، وهكذا يتحرك الناس في الحياة صعودًا وهبوطًا، ويتبادلون المواقف، ويتنازعون منازل الفضل، وبهذا تظل ريح الحياة في حركة دائمة مجدّدة، يتنفس فيها الناس أنفاس الأمل، والقوة، والحياة[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فيه عبرة وعظة، لعدم الاغترار بالقوة والرفعة، ولجعل ذلك وسيلة لشكر تلك النعمة، والسعي في زيادة الفضل لمن قصر عنها، والرفق بالضعيف وإنصاف المظلوم، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

أي: ليخبركم فيما أنعم به عليكم من درجات النعم حتى يظهر للناس كيف يضع أهل النعمة أنفسهم في مواضعها اللائقة بها وهي المعبر عنها بالدرجات، والدرجات مستعارة لتفاوت النعم، وهي استعارة مبنية على تشبيه المعقول بالمحسوس لتقريبه، والإيتاء مستعار لتكوين الرفعة في أربابها تشبيهًا للتكوين بإعطاء المعطي شيئًا لغيره.

والبلو: الاختبار، والمراد به ظهور موازين العقول في الانتفاع، والنفع بمواهب الله فيها وما يسره لها من الملائمات والمساعدات، فالله يعلم مراتب الناس، ولكن سمى ذلك بلوى؛ لأنها لا تظهر للعيان إلا بعد العمل، أي ليعلمه الله علم الواقعات بعد أن كان يعلمه علم المقدرات، فهذا موقع لام التعليل[(٣)].

---

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٣٣٣، الوجيز، الواحدي ص ٩٧٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٥٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٤٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٣٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٥٨، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٨٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢١٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٧١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٩٢، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٨٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٨٤، التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٣٥٩، تفسير المراغي ٢٥/ ٨٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢١١.

ثانيًا: الرفعة في الآخرة.

لا منزلة ولا درجة أرفع من الجنة، وقد ذكر القرآن الكريم أن التفاضل في درجات الآخرة أكبر من التفاضل في درجات الدنيا، فالدرجات أكبر، والتفاضل أعظم؛ لأن الآخرة ثواب وأعواض وتفضل وكلها متفاوتة، فأهل النار في دركات سفلى متفاوتة، وأهل الجنة في درجات عليا متفاضلة، وأن المجاهدين والمهاجرين أعظم درجة عند الله.

قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ٢٠].

وقال جل وعلا: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٣].

ومنها قوله في ربط درجات العمل بدرجات الجزاء: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقوله عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٧٥] (١).

فهذه الآيات تبين أن درجات الآخرة أعظم من درجات الدنيا ومن تفضيلها، فإنّ نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإن كان الإنسان تشتدّ رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب الآخرة أحرى؛ لأنها دار المقامة، فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه، فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتقلب في الجحيم ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدًا عده، والجنات نفسها متنوعة، فهناك جنات الفردوس، وجنات عدن، وجنات نعيم، وهناك دار الخلد، ودار السلام، وجنة المأوى، وهناك عليون الذي هو أعلى وأفضل الجنات، وأعلى ما فيها التمتع برؤية

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٣٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤١٦، تفسير المراغي ١٥/ ٢٩، المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٨٠، التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٤٥.

الحق تبارك وتعالى، وهو نعيم يعلو كثيرًا عن أي نعيم في الطعام والشراب في الدنيا، ودرجات الجزاء في الآخرة على حسب الأعمال والنوايا، وحسب درجات الارتقاء بالعلم والعمل في الدنيا، وأن هذه الدرجات لا يعلمها إلا من أحاط بكل شيء علمًا[(١)].

وفي الآيات تعظيم شأن يوم القيامة، والترغيب والترهيب، ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة فيطيعوا الله ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضًا، وأن عطاء الدنيا غير منوط بصلاح الأعمال ألا ترى إلى ما فيه من تفاضل بين أهل العمل المتحد، وقد يفضل المسلم فيه الكافر، ويفضل الكافر المسلم، ويفضل بعض المسلمين بعضًا، وبعض الكفرة بعضًا، وكفاك بذلك هاديًا إلى أن مناط عطاء الدنيا أسباب ليست من وادي العمل الصالح ولا مما يساق إلى النفوس الخيرة[(٢)].

قال الضحاك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤]: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم، كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء) قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم، فقال: (بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين)[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى، كما تراءون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعما)[(٤)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٥، المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٨٠، تفسير الشعراوي ١/ ٢٠٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٦٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥١٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٥٦، ٤/ ١١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، كما يرى الكوكب في السماء، رقم ٢٨٣١، ٤/ ٢١٧٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٥٥٥، ٨/ ١١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، كما يرى الكوكب في السماء، رقم ٢٨٣٠، ٤/ ٢١٧٧.

أسباب تحصيل الرفعة

لقد خص الله تعالى بالرفعة في الحياة الدنيا والآخرة من يشاء من عباده، وجعل أرفع درجة في الحياة الدنيا النبوة، واصطفى من عباده من يشاء لهذه الدرجة الرفيعة، وخصهم بالأخلاق الرفيعة التي تؤهلهم لحمل هذه الرسالة التي سوف يحملونها للعالم، وجعل الله تعالى للرفعة أسباب أخرى، ترفع صاحبها في الدنيا ولآخرة، ومن هذه الأسباب، الإيمان والعلم والجهاد في سبيل الله تعالى واتباع الحق والعمل به، وسوف أذكر هذه الأسباب في النقاط الآتية:

١. النبوة والرسالة.

ذكر الله تعالى أن النبوة والرسالة هي أرفع الدرجات التي يصطفي إليها من يشاء من عباده، ويخصهم بهذه المرتبة العالية، وليس لأحد سبب اختيار هذه الدرجة، أو اعتراض عليها، ولكنه سبحانه وحده الذي له اختيار ذلك، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١].

يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾، أي: مكة والطائف، وذلك لأنهم -قبحهم الله- كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغيًا وحسدًا، وعنادًا واستكبارًا، كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١].

وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠][1].

٢. الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

من أسباب الرفعة التي ذكرها القرآن الكريم هو الإيمان، والإيمان أصل الأسباب كلها؛ لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال، وتزكو الخصال، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة، ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٩٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٢٢، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٢٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٣٢.

للآفات والبليات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه.

قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١].

أمرهم أن يكونوا ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه، ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سقط منها ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾، بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، أي: بعيد، كذلك المشرك، وإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات الإيمان الصحيح، وبه يحيا العبد حياة طيبة في الدارين، وبه ينجو من المكاره والشرور، وبه تخف الشدائد، وهو السبب الوحيد للقيام بكل شرائع الدين من صلاة وزكاة وصيام وحج وصدقة وأمر بمعروف ونهي عن منكر وجهاد في سبيل الله، فكلما قوي إيمان العبد علمًا ومعرفةً وإرادةً وعزيمةً، زاد قربًا من الله وطاعته، وقام بكل ما يقدر عليه بحسب حاله ومرتبته، فنال الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة، وإذا ضعف الإيمان تكاسل عن الطاعات وقلة درجاته ورفعته بحسب ضعف إيمانه، وهذا كله من ثمرات الإيمان ومن تمامه وكماله؛ وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرع عن الإيمان ومترتب عليه، والهلاك والنقص إنما يكون بفقد الإيمان ونقصه؛ والله المستعان[(١)].

٣. العلم.

من أسباب الرفعة التي ذكرها القرآن الكريم العلم، وهو خير ما سعى له الإنسان فالعلم أصل كل شيء ومنبع كل خير منه؛ لأنه لا يمكن أن يجاهد المجاهد ولا أن يصلي المصلي ولا أن يزكي المزكي ولا أن يصوم الصائم ولا أن يحج الحاج ولا أن يعتمر المعتمر ولا أن يأكل الآكل ولا أن يشرب الشارب ولا أن ينام النائم ولا أن يستيقظ المستيقظ إلا بالعلم، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)[(٢)(٣)].

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

ولم يعين عز وجل الدرجات؛ لأن

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٨٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم ٧١، ١/ ٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب النهي عن المسألة، رقم ١٠٣٧، ٢/ ٧١٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٨٩، مراح لبيد، الجاوي ٢/ ٥٠٣.

هذه الدرجات بحسب ما مع الإنسان من الإيمان والعلم كلما قوي الإيمان وكلما كثر العلم وانتفع الإنسان به ونفع غيره كان أكثر درجات، فإن الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١][1].

٤. الجهاد.

بين القرآن الكريم درجة المجاهدين، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥].

من أسباب الرفعة التي ذكرها القرآن الكريم الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، فلا رفعة ولا عزة ولا مكانة للأمة إلا بالجهاد بالنفس والمال، وإن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل، فأمة بلا جهاد لا تساوي شيء، ولا مكانة لها بين الأمم، وعيش المذلة والمهانة والدون، ومن يقبل بالمذلة والمهانة في الحياة الدنيا فليس له في الآخرة إلا الدركات السفل جزاء وفقا، فدين الإسلام دين العزة والكرامة والشموخ والإباء لا يرضى بالضيم والمذلة أبدًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

ولما كان المجاهد في سبيل الله قد رغب عن الدنيا وأقبل على الله كانت درجته في الآخرة أعلى الدرجات، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم هم الذين ترتفع بهم كرامة الأمة ويحمونها، ولذلك كان الجزاء من جنس العمل، وهو ارتفاع درجتهم وقدرهم في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل ودفع شر الأعداء عن الأمة والبلاد، وكذلك عند الله تعالى لهم أجر عظيم، ثم بين هذا الأجر العظيم بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنات العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وأحوال الرحمة والبركات، إحسانًا منه وتكريمًا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٦][2].

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٥/ ٤٢٠.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٨٠، المنار،

وفي الآيات الحض على الجهاد والترغيب فيه وتنشيط المجاهدين ليرغبوا، وتبكيت القاعدين ليأنفوا.

٥. اتباع الحق وإيثاره.

ذكر القرآن الكريم أن اتباع الحق وإيثاره سبب من أسباب الرفعة، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العالم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به، نعوذ بالله من علم لا ينفع[1].

أسباب الحرمان من الرفعة في الآخرة

كما أن للرفعة أسباب ينال بها الشخص المنزلة الرفيعة والمكانة العالية كذلك هناك أسباب للحرمان من الرفعة في الآخرة وهي:

١. الكفر.

لما كان أعز الأشياء الموجبة للرفعة في درجات الآخرة هو الإيمان، فإن أذل الأشياء الموجبة للمذلة المانعة من الرفعة هو الكفر، وهو سبب الحرمان من دخول الجنة ونيل الرفعة فيها.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحرمان ووصف الكافرين أنهم هم الذين كانوا سبب هذا الحرمان، هو أنهم اتخذوا في دينهم أعمالًا لا تزكي الأنفس، فتكون أهلًا لدار الكرامة، بل هي إما لهو: وهو ما يشغل الإنسان عن الجد والأعمال المفيدة بالتلذذ بما تهوى النفس، وإما لعب: وهو ما لا تقصد منه فائدة صحيحة كأعمال الأطفال، وغرتهم بذلك الحياة الدنيا فكان كل همهم التمتع بشهواتها ولذاتها -حرامًا كانت أو حلالًا- لأنها مطلوبة عندهم لذاتها.

وأما أهل الجنة فهم الذين سعوا لها سعيها بأعمال الإيمان التي تزكي الأنفس وترقيها فلم يغتروا بالحياة الدنيا، بل كانت الدنيا عندهم مزرعة الآخرة لا مقصودة لذاتها؛ لذلك كانوا يقصدون بالتمتع بنعم

محمد رشيد رضا ٩/ ٤٩٥، تفسير المراغي ٥/ ١٢٩.

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ٢٩٢.

الله فيها الاستعانة بها على ما يرضيه من إقامة الحق وعمل الخير والاستعداد للحياة الأبدية.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تحريم الجنة ونعيمها على من كفر بالله تعالى وخلوده في نار جهنم، وأنه لا يرجى له خلاص، جاء موضحًا في مواضع أخر كقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من أشرك بالله غيره أي ومات ولم يتب من ذلك فقد وقع في هلاك، لا خلاص منه بوجه، ولا نجاة معه بحال؛ لأنه شبهه بالذي خرّ، أي: سقط من السماء إلى الأرض، فتمزقت أوصاله، وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقيها في مكان سحيق، أي: محل بعيد لشدة هبوبها بأوصاله المتمزقة، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرجى له خلاص ولا يطمع له في نجاة، فهو هالك لا محالة، لأن من خر من السماء إلى الأرض لا يصل الأرض عادة إلا متمزق الأوصال، فإذا خطفت الطير أوصاله وتفرق في حواصلها، أو ألقته الريح في مكان بعيد فهذا هلاك محقق لا محيد عنه[1].

٢. اتباع الدنيا.

إن من أذل الأشياء الموجبة للمذلة المانعة من الرفعة هو حب الدنيا، وهو سبب الحرمان من دخول الجنة ونيل الرفعة فيها، وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحرمان وذم من غرتهم الحياة الدنيا، فكان كل همهم التمتع بشهواتها ولذاتها؛ لأنها مطلوبة عندهم لذاتها، ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

يعني: وخدعهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته، وشغلهم ما هم فيه من

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٨٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢٦، المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٩١، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٥٦.

ذلك عن الإيمان بالله ورسله وعن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية على ذلك، والغرة غفلة في اليقظة وهو طمع الإنسان في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات، فإذا حصل ذلك صار محجوبًا عن الدين وطلب الخلاص؛ لأنه غريق في الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك.

ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال سبحانه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

يعني: فاليوم نتركهم في العذاب المهين جياعًا عطاشًا كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا[(١)].

والجانب المذموم في حب الدنيا هو التعلق بها الذي يبعد صاحبه عن دين الله وطاعته وتشغله عنها، ويترك ما أوجب الله عليه ويؤثر الحياة الدنيا، ومن ذلك حب الدنيا وعدم المبالاة بما حرم الله، فلا فرق بين حلال وحرام، وطيب وخبيث.

وقد نبه سبحانه عباده المؤمنين من حال الحياة الدنيا وصفتها التي تمتاز بها فأعلم بذلك ليجتنبوها ويحذروا غرورها، وليعملوا إلى الرفعة الحقيقية وهي الدار الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ [محمد: ٣٦].

وقال جل وعلا: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠][(٢)].

٣. اتباع الهوى.

إن من أذل الأشياء الموجبة للمذلة المانعة من الرفعة هو اتباع الهوى، وهو سبب الحرمان من دخول الجنة ونيل الرفعة فيها، وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحرمان وذم اتباع الهوى فإن الهوى يهوي بصاحبه إلى أسفل الدركات، وبالهوى تندفع النفوس إلى الشهوات الضارة المهلكات، وموافقة الهوى تنزل صاحبها من سماء العزّ إلى تراب الذّل، وتلقيه في وهدة الهوان، ومن لم يصدّق علمًا فعن قريب يقاسيه وجودًا كما يقال، والهوى مصدر هواه إذا أحبه، ثم سمي بالهوى المشتهى محمودًا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٣٧، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠٥، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٤٩.

(٢) انظر: ملاك التأويل، الثقفي ١/ ١٥٦.

كان أو مذمومًا، ثم غلب على غير المحمود.

وتدلّ المادّة الّتي اشتقّ منها على الخلوّ والسّقوط، ومن ذلك: الهواء بين السّماء والأرض سمّي بذلك لخلوّه، وكلّ خال هواء.

قال تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، أي: خالية لا تعي شيئًا، ويقال: هوى الشّيء يهوي أي سقط، والهاوية جهنّم؛ لأنّ الكافر يسقط فيها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

والسبب الذي لأجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره ممن أوتي الهدى فآثره واتبعه، هو اتباع الهوى[1].

موضوعات ذات صلة:

الذل، العزة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٦١، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٠٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٢٧.

الرُّكُوع

عناصر الموضوع

مفهوم الركوع	٢٩٤
الرّكوع في الاستعمال القرآني	٢٩٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٦
الحث على الركوع	٢٩٨
بين الركوع والسجود	٣٠٧
ثمرات الالتزام بالركوع	٣١٣

مفهوم الركوع

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ر ك ع) تدل على الانحناء[1]، والركوع في اللغة له معانٍ متعددة، منها:

الركوع: الانحناء، ومنه ركوع الصلاة. يقال: ركع الشيخ، أي: انحنى من الكبر[2].

وتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي، وتارة في التّواضع والتّذلّل، إمّا في العبادة، وإمّا في غيرها[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وعليه يمكن القول بأن الركوع في الاصطلاح: هو الانحناء لذي قدر ومكانة في نفس فاعله؛ تعظيمًا وإجلالًا؛ للدلالة على الخضوع والاستسلام والطاعة تعبدًا[4].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٣٤.
(٢) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٢٢.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٤.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص١٨١.

الرّكوع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ركع) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	١	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات: ٤٨]
فعل الأمر	٤	﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣]
اسم الفاعل	٥	﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤]
الجمع	٣	﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]

وجاء الركوع في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الصلاة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] أي: صلّوا مع المصلّين.

الثاني: السجود: ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] يعني: ساجدًا.

الثالث: الركوع بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم ص٥٩٣.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٤٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ السجود:

السجود لغة:

سجد في اللغة: خضع، وأصله التطامن والتذلل، وسجد: طأطأ رأسه وانحنى[١].

السجود اصطلاحًا:

هو إلصاق الرأس والأطراف بالأرض على هيئة مخصوصة في الصلاة وغيرها، يقول فيها العبد ألفاظًا مخصوصة؛ تعظيمًا وإجلالًا للمعبود، وخضوعًا وانكسارًا من العبد على سبيل التعبد.

الصلة بين الركوع والسجود:

إن كلًا من الركوع والسجود يدل على الانحناء[٢]، غير أن السجود يكون بانحناءٍ أشد، ويجوز أن يفعل خارج الصلاة تعبدًا لله.

٢ القنوت:

القنوت لغة:

يأتي بمعنى الطاعة، وطول القيام، والصلاة، والسكوت[٣].

القنوت اصطلاحًا:

هو طول القيام في الصلاة طاعة لله، على هيئة مخصوصة، في وقت مخصوص، تعظيمًا لله وإجلالًا.

وقيل: الدعاء في الصلاة في محل مخصوص من القيام[٤].

الصلة بين الركوع والقنوت:

كلاهما من أفعال الصلاة، لكن تختلف فيهما الهيئة والأقوال، فالقنوت يكون بقراءة القرآن والدعاء، والحمد والثناء، بينما الركوع لا يجوز فيه قراءة القرآن.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٦٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٧١٤.
(٣) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري ١/ ٦٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٤٧.
(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٢/ ٤٩٠.

٣ الخشوع:

الخشوع لغة:

تدل مادة (خ ش ع) على التطامن. يقال: خشع، إذا تطامن وطأطأ رأسه، يخشع خشوعًا. وهو قريب المعنى من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن والإقرار بالاستخذاء، والخشوع في الصوت والبصر[١].

الخشوع اصطلاحًا:

إقبال المرء بقلبه على الله في دعائه وصلاته؛ خوفًا وانقيادًا، مع خضوع الجوارح والأعضاء[٢].

الصلة بين الركوع والخشوع:

الركوع عمل يقوم به المرء ظاهرًا على هيئة مخصوصة، بانحناء القامة والأعضاء، بينما الخشوع يكون محله القلب، ويظهر أثره بهيئة مغايرة على أعضاء الإنسان بسكونها، وعلى الصوت فيخفت، وعلى البصر فيخضع.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٨٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣، الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٨، التعريفات، الجرجاني ص ٩٨.

الحث على الركوع

لقد وردت لفظة «الركوع» ومشتقاتها في الأسلوب القرآني بأوامر ربانية في ثلاثة أساليب صريحة، تحث على الركوع، وورد أسلوب واحد بلفظ السجود مؤولًا بالركوع، وسنرى ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الأسلوب الصريح:

وقد استخدم في ذلك عدة أساليب:

١. أسلوب فعل الأمر.

نحو قوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ﴾، ﴿وَٱرۡكَعِي﴾.

وقد جاء ذلك في أربع آيات، منها:

قول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[البقرة: ٤٣].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، هذا أمر من الله تعالى لمن ذكر من أحبار بني إسرائيل ومنافقيها -أي: منافقي المدينة- بالإنابة والتوبة إليه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والدخول مع المسلمين في الإسلام، والخضوع له بالطاعة، ونهيٌ منه سبحانه وتعالى لهم عن كتمان ما قد علموا من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بعد تظاهر حججه عليهم»[(١)].

قال ابن عطية رحمه الله: «﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، قال قوم: جعل الركوع -لما كان من أركان الصلاة- عبارة عن الصلاة كلّها، وقال قوم: إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع»[(٢)].

وقال أيضًا: «﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، أي: صلّوا مع المصلين، محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وذكر بلفظ الركوع؛ لأن الركوع ركن من أركان الصلاة، ولأن صلاة اليهود لم يكن فيها ركوع، وكأنه قال: صلوا صلاةً ذات ركوع، قيل: وإعادته بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لهذا، أي: صلّوا مع الذين في صلواتهم ركوع، فالأول: مطلق في حق الكل، وهذا في حق أقوام مخصوصين»[(٣)].

وقال الواحدي رحمه الله: «قال المفسرون: قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، معناه: وصلوا مع المصلين محمد وأصحابه، فعبّر بالركوع عن جميع الصلاة؛ إذ كان ركنًا من أركانها كما عبّر باليد عن عمل الجسد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠].

وقيل: إنما عبّر بالركوع عن الصلاة؛ لأنه أول ما يشاهد، مما يدل على أن الإنسان يؤدي الصلاة، وإنما قال: ﴿وَٱرۡكَعُواْ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وكان الركوع داخلًا في الصلاة؛ لأنه أراد الحث على إقامة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٦١١.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٩٩.

(٣) المصدر السابق، وانظر: أحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٤٥.

الصلاة جماعة.

وقيل: لأنه لم يكن في دين اليهود ولا في صلاتهم ركوع، فذكر ما اختص بشريعة الإسلام، والآية خطاب لليهود»[1].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «وقوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة؛ لأنه عبّر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته لها».

وقال أيضًا: «﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآياته، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية»[2].

وقال الله عزّ ثناؤه: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

أمر صريح من الله لمريم عليها الصلاة والسلام بالخضوع له بالطاعة، وهذا ما أشار إليه الإمام الطبري رحمه الله بقوله: «فتأويل الآية إذن: يا مريم أخلصي عبادة ربك لوجهه خالصًا، واخشعي لطاعته وعبادته، مع من خشع له من خلقه، شكرًا له على ما أكرمك به من الاصطفاء والتطهير من الأدناس، والتفضيل على نساء عالم دهرك، وقد بيّنا معنى الركوع والسجود بالأدلة المؤكدة على صحته، وأنهما عين الخشوع لله، والخضوع له بالطاعة والعبودية»[3].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [الحج: ٧٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «في تفسير قول الله تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ﴾: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله اركعوا لله في صلاتكم، ﴿وَٱسۡجُدُواْ﴾ له فيها ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾، يقول: وذلّوا لربكم، واخضعوا له بالطاعة لتفلحوا بذلك»[4].

وقال الله جل شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

وعن مجاهد بن جبر رحمه الله: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾، قال: «إذا قيل لهم صلّوا لا يصلّون»[5].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذبين بوعيد الله أهل التكذيب به:

(١) التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٤٤٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٠٠.
(٤) المصدر السابق ١٦/ ٦٣٨-٦٣٩.
(٥) تفسير مجاهد بن جبر ص٦٩٣.

اركعوا، لا يركعون».

واختلف أهل التأويل في الحين الذي يقال لهم فيه:

فقال بعضهم: «يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨] يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود، من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا».

وقال آخرون: «بل قيل ذلك لهم في الدنيا».

وعن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ «أي: عليكم بحسن الركوع، فإن الصلاة من الله بمكان؛ لأن المقصود بالآية عنده هو الركوع نفسه».

وقال قتادة في آخرين: «هذه حال كفار قريش في الدنيا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم وهم لا يجيبون، وذكر الركوع عبارة عن جميع الصلاة، وهذا قول الجمهور».

وقال قتادة عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أنه رأى رجلًا يصلي ولا يركع، وآخر يجر إزاره، فضحك، فقيل له: ما يضحكك؟ قال: أضحكني رجلان؛ أما أحدهما فلا يقبل الله صلاته، وأما الآخر فلا ينظر الله إليه»[1].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المشركين: ﴿ارْكَعُوا﴾، أي: صلّوا: ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾، أي: لا يصلّون».

قال مقاتل: «نزلت في ثقيف، امتنعوا من الصلاة فنزل ذلك فيهم، قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (أسلموا)، وأمرهم بالصلاة فقالوا: لا ننحني فإنها مسبةٌ علينا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود)[2].

قال ابن العربي رحمه الله: «هذه الآية حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركنًا في الصلاة، وقد انعقد الإجماع عليه، وظنّ قوم أن هذا إنما يكون في القيامة، وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويلٌ وعقابٌ، وإنما يدعون إلى السجود كشفًا لحال الناس في الدنيا، فمن كان يسجد يمكّن من السجود، ومن كان يسجد رئاءً لغيره صار ظهره طبقًا واحدًا».

وقيل: أي: إذا قيل لهم اخضعوا للحق

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦١٢-٦١٤، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٣٠٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٩١٣، ٢٩/ ٤٣٨، وأبو داود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جاء في خبر الطائف، رقم ٣٠٢٦.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ٤٧١١.

لا يخضعون، فهو عام في الصلاة وغيرها، وإنما ذكر الصلاة، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد. وقيل: الأمر بالإيمان؛ لأنها لا تصح من غير إيمان[(١)].

قال الواحدي رحمه الله: «إذا أمروا بالصلوات الخمس لا يصلّون مع محمد صلى الله عليه وسلم»[(٢)].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]، أي: إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه»[(٣)].

قال البغوي رحمه الله: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾، يعني: صلّوا، ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾: لا يصلّون»[(٤)].

قال ابن عطية رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ «هي حكاية حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس، فأرادوا السجود فانصرفت أصلابهم إلى الأرض، وصارت فقراتهم كصياصي البقر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره».

وقال بعض المتأولين: «عني بالركوع التواضع» كما قال الشاعر[(٥)]:

بجمعٍ تضلّ البلق في حجراته
ترى الأكم فيه سجّدًا للحوافر

ويتابع ابن عطية قائلًا: «إنّ ذكر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أحوال العبادة، إنما كان لأن كثيرًا من العرب كان يأنف من الركوع والسجود، ويراها هيئةً منكرةً؛ لما كان في أخلاقهم من العجرفة»[(٦)].

٢. أسلوب الوصف الدال على المدح.

وقد جاء في ثمانية مواضع، منها:

قال الله عز وجل: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

وقال الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال عز وجل: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦٢٧.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٢٣/ ١٠٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٨.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٩٩٣.
(٥) الشاعر هو: زيد الخيل، إذ يستشهد بالبيت على أن السجود يأتي بمعنى الخضوع والتواضع، موافقًا للغة، وانظر: كتاب الصّاحبيّ، لابن فارس ٢٦١، حيث ورد بلفظ: بجمع تضلّ...، وأورد رواية ثانية: بجيش تضل...
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥١٠.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقال وتعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩].

٣. أسلوب الوصف الدال على الذمّ.

وقد ورد في موضع واحد.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]..

٤. الأمر بالركوع بلفظ السجود.

وقد ورد بلفظة ﴿سُجَّدًا﴾، في ثلاثة مواضع هي:

قال الله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ٦١].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «القول في: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، فإن ابن عباس كان يتأوّل قوله تعالى: ﴿سُجَّدًا﴾ بمعنى: الـرّكـّع»[1].

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ «ركعًا من باب صغير»[2].

وعن ابن عباس من طريق آخر في قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، قال: «أمروا أن يدخلوا ركعًا».

قال أبو جعفر: «وأصل السجود الانحناء لمن سجد له معظّمًا بذلك، فكل منحنٍ لشيء تعظيمًا له وخشوعًا فهو له ساجد»[3].

وقال الإمام الواحدي رحمه الله: «وقوله: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعًا، وهو شدة الانحناء، والمعنى: منحنين متواضعين»[4].

وجاء بلفظ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، بموضع واحد.

قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «معنى ذلك: ويرى تقلّبك في صلاتك حين تقوم، ثم حين تركع، وتسجد، وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ «قيامك وركوعك وسجودك»[5].

ونقل مثل هذا التفسير عن عكرمة أيضًا، وقد رجّح الإمام الطبري هذا القول بعد ذكره للأقوال الواردة في تفسير هذه الآية.

ويمكن أن نضيف أسلوبًا غير صريح يحث على الركوع: وهو الأمر بإقامة

(١) جامع البيان ١/ ٧١٤-٧١٥.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٢٦٢، وقال: صحيح على شرط الشيخين.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٧١٤-٧١٥.
(٤) البسيط ٢/ ٥٥٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٦٦٦-٦٧٠.

الصلاة، فإن ذلك يتضمن الأمر بالركوع؛ حيث إن الركوع جزء من الصلاة، وما أكثر الآيات الواردة في ذلك، ولا حاجة للإطالة في ذكرها.

ثانيًا: الثناء على الراكعين:

يعتبر الركوع من أهم الصفات التي يتميز بها العبد المسلم بخضوعه لربه جل جلاله، منحنيًا بهامته لخالقه ورازقه بكل عبودية وتعظيم وإخلاص لله تعالى.

ولقد أثنى الله عز وجل على الراكعين في أكثر من آية وردت بآيات الذكر الحكيم، وبعدة أساليب، أهمها:

١. المدح المباشر للراكعين.

وقد ظهر ذلك بمدحه لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه؛ بأنهم يركعون لله سبحانه، ولهذا أمر اليهود بأن يخضعوا لله سبحانه، وأن يتبعوا رسوله محمدًا عليه الصلاة والسلام ويكونوا مع أتباعه، خاضعين لله ورسوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣][(١)].

وبأمر الله لمريم عليها السلام بأن تكون راكعة مع الراكعين لله تعالى ، مخلصة له بالعبادة اصطفاؤها وتفضيلها على العالمين: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣][(٢)].

ويجعل الركوع صفة من الصفات الممدوحة للمؤمنين المتبعين لشرع الله ورسوله، وجعل سبحانه وتعالى المكافأة على ذلك بأن الراكع وليه الله ورسوله، بل أوجب موالاتهم وحبهم بأداة الحصر (إنما): ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥][(٣)].

وبمدح عباد الله المؤدين للصلوات المفروضة، والمكثرين من النوافل بعدة صفات، كان الركوع الصفة الخامسة، بقوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢][(٤)].

مدح الله عز وجل للمكثرين من الركوع والسجود المتجهين إلى الكعبة المشرفة في صلاتهم وركوعهم، سواء أكانوا حولها أم بعيدين عنها.

بل أمر سبحانه خليله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بتطهير وتهيئة بيته المحرم لهؤلاء: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗاۖ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِيمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا

(١) المصدر السابق ١/ ٦٦٦.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٤٠٠.
(٣) المصدر السابق ١/ ١٠٤.
(٤) البسيط، الواحدي ١١/ ٧١.

﴿بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥][(١)].

مدح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم من المكثرين في الصلاة، والركوع والسجود من أجل أركان الصلاة: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩][(٢)].

دلالة على محبة الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم حال رؤيته له متقلبًا في صلاته وركوعه وسجوده بقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

٢. الركوع سبب من أسباب قبول التوبة والفلاح.

فقد جعل الله سبحانه الركوع سببًا للتوبة عن بني إسرائيل، وشكرًا لله عز وجل على أن سهّل لهم فتح بيت المقدس، فقال: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨][(٣)].

وقال: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤][(٤)].

وقال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١][(٥)].

وكلها أتت كما قال ابن عباس ومن وافقه بمعنى «ركعًا منحنين خاضعين لله سائلينه أن يحطّ عنهم سيئاتهم، ولكن بني إسرائيل خالفوا أمر الله جلّ ثناؤه، فلم يدخلوا راكعين، إنما دخلوا متزحفين على أستاههم -وفي رواية على أوراكهم-، مخالفين لأمر الله فاستحقوا الرجز من رب السماء»[(٦)].

ونرى ذلك واضحًا في قبول التوبة والفلاح بقصة داوود عليه الصلاة والسلام الواردة في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤و٢٥].

أي: ألقى بنفسه نحو الأرض متطامنًا متواضعًا لله عز وجل، سائلًا ربه بأن يغفر له ذنبه، تائبًا مما وقع فيه من الخطأ. قال الحسن بن الفضيل: «سألني عبد الله بن طاهر عن قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، هل يقال للراكع خرّ؟ قلت: لا، ومعناه، أي: ساجدًا بعد ما كان راكعًا»[(٧)].

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥١٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٧/ ٦٨٩، الوسيط، الواحدي ٢٠/ ٣٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٣٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٤) المصدر السابق ١/ ٧١٢.
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٣٥، ٧١٢.
(٦) التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٥٥٨.
(٧) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٨٠٠.

٣. ذم الذين لا يركعون لله تعالى.

فقد ذمّ الله الذين لا يركعون له في الدنيا، وهدّدهم بأن يفضحهم على رؤوس الخلائق يوم القيامة في أرض المحشر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩].

وإذا استخدمنا مفهوم المخالفة لهذا النص اقتضى مدح من كان يركع لله في الدنيا فهو ناجٍ برحمة الله تعالى يوم القيامة من عذاب جهنم، مستحق للفوز برضوانه وجنته.

قال مقاتل رحمه الله في تفسير هذه الآية «قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (أسلموا)، وأمرهم بالصلاة، فقالوا: لا ننحني؛ فإنها مسبةٌ علينا فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود)»[(١)].

ورجح الإمام ابن عطية: «بأن ذكر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أحوال العبادة، إنما كان لأن كثيرًا من العرب كان يأنف من الركوع والسجود، ويراهما هيئة منكرة، لما كان في أخلاقهم من العجرفة!»[(٢)].

ثالثًا: بيان حسن الجزاء للراكعين في الآخرة:

يقوم المؤمن بطاعته لربه، وخضوعه لأوامره، واجتناب نواهيه، مخلصًا لله عز وجل في جميع أقواله وأعماله، مبتغيًا بذلك جزيل التوفيق في الحياة الدنيا، ورضى الله تعالى والفوز بجنته في الآخرة.

وقد رتب الله سبحانه على من اتصف بصفات الطاعة (بالركوع والسجود له) جزاء عظيمًا في الآخرة، نستخلصها من آية سورة الفتح، كما يأتي:

أولًا: وعد الله لهم بمغفرته ورضوانه، وإدخالهم النعيم المقيم في جنته.

قال الله تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]. تراهم ركعًا أحيانًا لله في صلاتهم، سجدًا أحيانًا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، يقول: يلتمسون بركوعهم وسجودهم وشدتهم على الكفار، ورحمة بعضهم بعضًا ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، وذلك برحمته إياهم، بأن يتفضل عليهم فيدخلهم جنته، وأن يرضى عنهم ربهم، وقوله: ﴿مَّغْفِرَةً﴾، يعني: عفوًا عامًّا عما مضى من ذنوبهم وسيء أعمالهم بحسنها.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦٢٧.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥١٠.

وقوله: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: وثوابًا جزيلًا، وذلك الجنة»[1].

وزاد ابن كثير رحمه الله: «﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وعدهم الله مغفرة لذنوبهم، وثوابًا جزيلًا ورزقًا كريمًا. ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدّل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم»[2].

ثانيًا: علامة يجعلها الله في وجوه المؤمنين يوم القيامة، يعرفون بها؛ لما كان من سجودهم له في الدنيا، ثم اختلف أهل التأويل في «السيما» الذي عناه الله في هذا الموضع:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة». وقال الحسن رضي الله عنه وعن خالد الحنفي وعطية: «مواضع السجود من وجوههم يوم القيامة تكون أشد بياضًا»، وهو كقوله سبحانه: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

وهناك أقوال أخرى وردت في بيان معنى هذه السيما، ذكرها ابن كثير ورجّحها جميعها، ولكنه قدّم هذه العلامة وأنها ستكون لهم في الآخرة، وذكر عدة أحاديث في ذلك منها، قال: «سمعت شبيبًا يقول: عن مقاتل بن حيان، قال: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩].

قال: النور يوم القيامة»[3].

ثالثًا: ونرى في المقابل أن الله عز وجل توعد من لم يركع ويخضع له في الدنيا بالعذاب الشديد يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «واختلف أهل التأويل في الحين الذي يقال لهم فيه، فقال بعضهم: يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود، من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا»[4].

وقال آخرون: «بل قيل ذلك لهم في الدنيا»[5].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢١ - ٣٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٣٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦١٢-٦١٤.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦٢٧.

بين الركوع والسجود

إذا أمعنا النظر في لفظتي الركوع والسجود سواء من الناحية اللغوية، أو من الناحية الاصطلاحية، نجد بينهما توافقًا في جوانب، وتباينًا في جوانب أخرى، وسنفصل ذلك فيما يلي:

أولًا: جوانب التوافق:

من الناحية اللغوية:

يتفقان في أن كلًا منهما يدل على الخضوع والانحناء والذّل والخوف لشيءٍ قوي قاهر، سواء كان للمخلوقات، أو كان خضوعًا لله سبحانه وتعالى بالطاعة له، والانقياد لشرعه.

وعلى هذا يمكن تفسير عبادة غير الله تعالى: بأن الناس اعتقدوا فيما يعبدونه من دون الله تعالى القوة والبطش، فذلوا لآلهتهم وعبدوها وقدّموا لها القرابين، وكانوا يدخلون أماكنها وهم يركعون، أو يسجدون، أو راكعين ساجدين.

أما المسلم فلا يركع إلا لله عز وجل، فهو خالقه والمنعم عليه؛ طمعًا في مرضاته وفوزه بجنته، وخوفًا من غضبه وعذابه، فيكون الركوع والسجود في الصلاة شكرًا لله عز وجل، وطلبًا لعبادته، وتعظيمًا لقدره، وتقربًا إليه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [الحج: ٧٧].

وغير ذلك مما ورد في شأن الركوع أو السجود.

من الناحية الشرعية:

نجد أن الركوع أو السجود أو كليهما كانا عند جميع الأمم وفي شرائعهم المنزلة، كما أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

وقوله سبحانه آمرًا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وأمره سبحانه لإبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام في موضع آخر: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

بل ذمّ الله سبحانه وتعالى من لم يركع له في الدنيا، وأن له العذاب الشديد يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩].

ثانيًا: جوانب التباين:

من الناحية اللغوية:

الركوع هو: انحناء وخفض للرأس والظهر بدون أن يصل الراكع إلى الأرض، أمّا السجود فإنه لابدّ للساجد من وضع جبهته وأنفه على الأرض، وعليه فالسجود أكثر خضوعًا وتذللًا من الركوع؛ لذا ورد في الحديث: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء)[1].

من الناحية الشرعية:

فالركوع انحناء للظهر واستقامته مع الرأس ومسك اليدين للركبتين، ويكون فيه تعظيمٌ للربّ بقول الراكع: (سبحان ربي العظيم) ثلاثًا.

أما السجود فهو وضع الجبهة مع الأنف واليدين والركبتين وباطن أصابع القدمين على الأرض، ويكون فيه التسبيح لله تعالى العلي القهار بقول الساجد: (سبحان ربي الأعلى) ثلاثًا، ويكون فيه الدعاء بما يشاء العبد، ويكون فيه أقرب إلى الله تعالى ، وعلى هذا جاء نص الحديث التالي: (فأما الركوع فعظّموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمنٌ أن يستجاب لكم).

لذلك إذا استقرأنا الآيات التي ذكر فيها الركوع والسجود، نرى تقديم الركوع فيها على السجود دائمًا، ماعدا آية آل عمران رقم ٤٣، ففيها تقديم السجود على الركوع، وسنرى تعليل ذلك، ونجد أيضًا أن ترتيب الركوع في الصلاة يكون قبل السجود، ولا يتوصل إلى السجود إلا بالركوع، فالركوع بداية الخضوع، والسجود كمال الخضوع ونهايته، وكلاهما لا يكون إلا لله ربّ العالمين.

ثالثًا: الركوع بمعنى السجود:

بالرجوع إلى نصوص الآيات التي وردت بالركوع، نرى أن لفظة الركوع تصرف إلى حقيقتها الشرعية واللغوية مالم يكن هنالك صارف إلى معنى آخر، وأنه ركن من أركان الصلاة، فعبّر الله تعالى بالركوع عن الصلاة التي فيها الصلة به والخضوع له، لكننا نجد أن الركوع ورد بمعنى السجود في:

أولًا: قول الله تعالى حكاية عن نبيه داوود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

فقد فسّرها الإمام الطبري رحمه الله: «فخرّ ساجدًا لله، ورجع إلى رضى ربه، وتاب من خطيئته»[2].

وقال الحسين بن الفضل: «المعنى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٤٨٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٤.

(خرّ من ركوعه)، أي: سجد بعد أن كان راكعًا»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في (ص) وقال: (سجدها داوود عليه السلام توبةً، ونسجدها شكرًا)[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية سعيد بن جبير«﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، ساجدًا».

وقال الواحدي رحمه الله: «ويجوز أن يعبّر بالركوع عن السجود، لأن الركوع في اللفظ معناه الانحناء، ولا خلاف بين المفسرين أنه خرّ ساجدًا»[3].

قال الإمام البغوي رحمه الله: «﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، أي: ساجدًا، عبّر بالركوع عن السجود، لأن كل واحد منهما فيه انحناء، قال الحسين بن الفضل: سألني عبد الله بن طاهر عن قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، هل يقال للراكع خرّ؟ قلت: لا، ومعناه: فخرّ، أي: ساجدًا، بعد ما كان راكعًا»[4].

ثانيًا: وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «واختلف أهل التأويل في الحين الذي يقال لهم فيه، فقال بعضهم: يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود. من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا»[5].

قال ابن عطية رحمه الله: « قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، قيل: هي حكاية حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس، فأرادوا السجود فانصرفت أصلابهم إلى الأرض وصارت فقراتهم كصياصي البقر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره»[6].

رابعًا: السجود بمعنى الركوع:

ذكرنا سابقًا أنه ورد لفظ السجود بمعنى الركوع في ثلاثة مواضع:

قال الله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ١٥٤].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٧/ ٣٤١.
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى، ٢/ ٥، رقم ١٠٣١.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم ٥/ ١٥٤.
(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ١٩/ ١٩٠.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٨٠٠.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦١٢-٦١٤.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥١٠.

وقال تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [الأعراف: ١٦١].

وكلها وردت في أمر الله تعالى لبني إسرائيل بأن يدخلوا من باب حطة إلى بيت المقدس راكعين، خاشعين، شاكرين لله على أنه فتح عليهم مدينة بيت المقدس.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وأما قوله: ﴿سُجَّدٗا﴾، فإن ابن عباس كان يتأوّله بمعنى الركوع».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، قال: «ركّعًا من باب صغير»[(١)].

وعن ابن عباس من طريق آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، قال: «أمروا أن يدخلوا ركّعًا».

قال أبو جعفر: «وأصل السجود الانحناء لمن سجد له معظّمًا بذلك، فكل منحنٍ لشيء تعظيمًا له وخشوعًا فهو له ساجد»[(٢)].

وقال الإمام الواحدي رحمه الله: «وقوله: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ركّعًا، وهو شدة الانحناء، والمعنى: منحنين متواضعين.

قال مجاهد رحمه الله: هو باب حطة من بيت المقدس، طوطئ لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم، فلم يخفضوا ولم يركعوا، ودخلوا متزحفين على أستاههم»[(٣)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «وحكي عن بعضهم أن المراد هنا بالسجود الخضوع؛ لتعذّر حمله على حقيقته»[(٤)].

وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالى: «﴿سُجَّدٗا﴾، أي: ركّعًا، خضّعًا، منحنين.

وقال وهب: فإذا دخلتموه فاسجدوا شكرًا لله»[(٥)].

وورد أيضًا في بعض التفاسير أن السجود أتى بمعنى الركوع في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «ويرى تقلّبك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وتركع وتسجد؛ لأن ذلك هو الظاهر من معناه»[(٦)].

وقال الإمام الشنقيطي رحمه الله: «﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: المصلين، إذا صليت بالناس»[(٧)].

خامسًا: الركوع والسجود منفردين ومجتمعين:

بالتتبّع لآيات الركوع والسجود نجد أن آيات الركوع الواردة في القرآن الكريم أقل من آيات السجود عمومًا، وأن آيات الركوع

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٢٦٢، وقال: صحيح على شرط الشيخين.
(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ٧١٤-٧١٥.
(٣) التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٥٥٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٦.
(٦) جامع البيان، الطبري ١/ ٦٦٦ - ٦٦٩.
(٧) أضواء البيان ٦/ ٣٨٨.

جاءت منفردة بالركوع في آيات، ومجتمعة مع السجود في آيات أخر.

١. مجيء الركوع منفردًا.

أتت آيات الركوع منفردة لم يذكر معها السجود بثلاثة مواضع، هي:

- لجماعة المصلين كما في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].
- وقوله: ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].
- ولمن طلب منهم الصلاة بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].
- خاص لمريم عليها الصلاة والسلام في قول الله عز وجل: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].
- خاص بداوود عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

٢. مجيء الركوع والسجود مجتمعين.

غالب الآيات التي ورد فيها الركوع، قرن بالسجود؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، [الحج: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقوله: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧].

وقوله: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: ٢٩].

مما يدلّ على تلازم الركوع مع السجود؛ حيث جاءت مرتبة للركوع قبلًا ثم السجود، ولأن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى السجود قبل المرور بالركوع، وهذا هو الترتيب في أداء الصلاة، الركوع أولًا ثم يعقبه الرفع منه ثم السجود، وكلاهما يدلان على محض الخضوع والخشوع لله تعالى.

وجاء الركوع والسجود في آية واحدة مجتمعين؛ ولكن بتقديم السجود على الركوع، في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣].

فلم قدّم السجود هنا على الركوع؟

وللمفسرين في بيان سبب تقديم السجود على الركوع في هذه الآية أربعة أقوال، نبسطها لبيان الحكمة في ذلك:

القول الأول: الواو هنا للجمع لا للترتيب، وليس فيه دليل على المبدوء به.

فقدم السجود لفظًا، وهو مؤخر معنىً[1].

القول الثاني: أن السجود كان مقدمًا في شريعة زكريا عليه الصلاة والسلام وغيره من أنبيائهم.

قال المنتجب الهمذاني: «أي قيل لمريم: افعلي كليهما، وقد ثبت في الصدور واستقر في النفوس تقديم الركوع على السجود،

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٢٤٧-٢٥٠.

والقوم -أي: العرب- إذا أمنوا اللبس تلعّبوا بألفاظهم، مع أن العطف عارٍ عن الترتيب»[1].

القول الثالث: أن الأمر ورد عامًا فيه حضٌّ على أفعال الخير، فكأنه قال: استعملي السجود في حال، واستعملي الركوع في حال، ولم يذهب إلى أنهما يجتمعان، ثم يقدّم السجود على الركوع، بل أراد العموم بالأمر على اختلاف الحالين.

قال ابن عطية رحمه الله: «وإنما المعنى: افعلي هذا وهذا، وقد علم تقديم الركوع -أي: في الصلاة- وهذه الآية أكثر إشكالًا من قولنا: قام زيد وعمرو؛ لأن قيام زيدٍ وعمروٍ ليس له رتبة معلومة، وهذه الآية قد علم أن السجود بعد الركوع، فكيف جاءت الواو بعكس ذلك؟»[2].

القول الرابع: أن مريم أمرت بفعلين ومعلمين من معالم الصلاة، هما طول القيام والسجود أولًا ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي﴾، وخصّا بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة؛ إذ العبد يقرب في وقت سجوده من الله تعالى ، وهذان يختصان بصلاتها منفردة، وإلا فمن يصلي وراء إمام فليس يقال له: أطل قيامك!.

ثم أمرت بعد بالصلاة في الجماعة، فقيل لها: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وقصد هنا معلمًا من معالم الصلاة؛ لئلا يتكرر اللفظ، ولم يرد بالآية السجود الذي هو منتظم في ركعة واحدة، والله أعلم[3].

ونقل ابن كثير رحمه الله قول الأوزاعي «أن مريم ركدت في محرابها راكعة ساجدة وقائمة حتى نزل الماء الأصفر على قدميها رضي الله عنها وأرضاها»[4].

وللفائدة: نذكر مقارنة أجراها الإمام ابن القيم، توضح لنا نقطة مهمة تعتبر سببًا من أسباب تقديم الركوع على السجود؟ أو تقديم السجود على الركوع؟ وذلك في الآيتين التاليتين:

الأولى: قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

ففيها ترتيب من الخاص إلى العام بين أربعة أشياء: أخصّها الركوع ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام، المتضمن لما سبقه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

ففيها ترتيب من العام إلى الخاص،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٨٩.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٢٤٧.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٤.

فتقدّم السجود بسبب تقدّم القنوت الذي هو أعم منه، ولأن في السجود الدعاء القريب من القنوت ثم الركوع[1].

ثمرات الالتزام بالركوع

أولًا: ثمرات دنيوية على مستوى الفرد:

الغاية من خلق الإنسان بل الثقلين هي: توحيد الله عقيدة وعبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فعلى الإنسان المؤمن أن تكون عبادته وحياته ومماته كلها لله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

فخضوع الفرد في هذه الحياة الدنيوية لا ينبغي أن يكون إلا للخالق عز وجل وحده لا شريك له، فإننا نستطيع استخلاص الثمرات التي يحصل عليها الفرد المسلم في الركوع لمولاه دون سواه، وأهمها:

١ . ثمرات إيمانية.

امتثال أمر الله بالركوع والخضوع تذللًا للمولى سبحانه وتعالى، وتعظيمًا له حسب التسبيح المأثور.

تحقيق معنى العبودية الخالصة لخالقه عزّ شأنه.

منح العزة الإيمانية التي تعطي المسلم الحياة الكريمة، بحيث لا يركع إلا لخالقه سبحانه.

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم ص٨٠.

استقلال شخصية العبد عن التبعية للآخرين ممن أشركوا وعبدوا غير الله تعالى.

حسن الركوع والخشوع من أسباب قبول الصلاة والتلذذ بالعبادة، وعن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨] : عليكم بحسن الركوع، فإن الصلاة من الله بمكان. وقال قتادة عن ابن مسعود: «أنه رأى رجلًا يصلي ولا يركع، وآخر يجرّ إزاره، فضحك، قال: ما يضحكك؟ قال: أضحكني رجلان؛ أما أحدهما فلا يقبل الله صلاته، وأما الآخر فلا ينظر الله إليه»[1].

مغفرة الله لذنوب الراكعين الملتزمين بأوامره، وزيادة الإحسان إليهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

وقوله: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥].

محبة الله للمصلين الراكعين الساجدين، حيث أمر الله إبراهيم مرة بتطهير بيته الحرام بمكة المكرمة، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وأمر إبراهيم مع ولده إسماعيل مرة ثانية، فقال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، [البقرة: ١٢٥].

ثانيًا: ثمرات دنيوية على مستوى الجماعة:

كل الطاعات لله عز وجل لها فوائد وجني ثمارٍ يانعة على مستوى الفرد والجماعة، وقد ذكرنا سابقًا على مستوى الفرد، ونوجز هنا أهم الثمرات الدنيوية التي تستفيد منها الجماعة المسلمة، وهي:

١. الحث على صلة الفرد المسلم بإخوانه يوميًّا خمس مراتٍ، عن طريق أداء الصلاة مع الجماعة، قال تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، وقوله: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وقوله: ﴿وَارْكَعِي مَعَ﴾، وقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، وقوله: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾، وقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾، مما يجعل الجماعة في ترابط دائم وتعاضد مستمر في السراء والضراء.

٢. الحث على ارتياد المساجد التي بنيت لأداء الصلاة والذكر وقراءة القرآن؛ مما يؤدي إلى إعمارها بجماعة المسلمين، وإبقاء دور المسجد في العبادة والعلم وجميع ما يلزم لأحوال المسلمين، قال تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾،

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦١٢.

وقوله: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، فإن (مع) تفيد وجوب أداء الصلاة بشهود الجماعة، وهذا يكون في المساجد[1].

٣. تزكية الجماعة الراكعة لله تعالى بأنهم من عمّار بيت الله الحرام في مكة؛ لذا أمر الله خليله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بتطهير بيته المكرم لهم، فقال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥][2].

٤. الركوع خضوعًا لله تعالى بعد المعصية من أسباب قبول التوبة وتكفير الذنوب، وزيادة الإحسان للعبد من خالقه، قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨][3].

٥. وجود الركوع في الصلاة من خصوصيات أمة محمدٍ عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد ذكر هذا بعض المفسرين في تفسير آية: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، حيث قال: إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع![4].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٤٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٤٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٩٩.

ثالثًا: ثمرات أخروية على مستوى الفرد والجماعة:

يحرص كل مسلم في هذه الدنيا على القيام بطاعة الله سبحانه ، جاعلًا من دنياه مزرعة لآخرته؛ ليحصل على إرضاء مولاه، ويقطف ثمار ما زرعه في دنياه يوم القيامة والحساب، فيفوز برضى الله وجنته، وقد بين الله عز وجل في آيات الركوع بعض ما يكون للعبد من جزاء في الآخرة، نوجزها بما يلي:

١. بشارة الله سبحانه لمن اتصف بهذه الصفات التسع بأنهم من المؤمنين، وذكر من ضمنها صفة ﴿الرَّاكِعُونَ﴾، قال الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

٢. الوعد بالفلاح في الآخرة للمؤمنين الراكعين، الساجدين، العابدين الله، الفاعلين للخير، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

٣. للراكعين الساجدين سيما وعلامة

تميّزهم بها من غيرهم في أرض المحشر من أثر السجود، وقد وصف الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم والذين معه بذلك، فقال سبحانه: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

٤. تقريب الله تعالى للعبد المؤمن المستغفر من ذنبه، الراكع لربه والمنيب إليه، ومنحه الدرجات العالية في الجنة على توبته، قال الله تعالى بعد قبول توبة نبيه داوود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥][1].

٥. الوعد بالمغفرة والأجر العظيم في الآخرة لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ومن سار على نهجهم، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

٦. كشف كذب المجرمين الذين لم يركعوا لله في الدنيا أمام الخلائق في أرض المحشر يوم القيامة، وأن لهم العذاب الشديد في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩].

موضوعات ذات صلة:

التسبيح، الذكر، السجود، الصلاة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩.

الرُّوح

عناصر الموضوع

مفهوم الروح	٣١٨
الروح في الاستعمال القرآني	٣١٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٠
إسناد الروح إلى الله تعالى	٣٢٢
حقيقة الروح وصفاتها	٣٣٣
الموصوفون بالروح في القرآن	٣٣٦
نعيم الروح وعذابها	٣٤٢

مفهوم الروح

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ر و ح) تدل على سعة وفسحة واطراد، وأصل ذلك كله الريح[١].

والرُّوحُ: النَّفْس[٢]. ويذكّر ويؤنّث، والجمع الأَرْواح. وسُمِّي القرآن رُوحًا، وكذلك جبريلُ وعيسى عليهما السلام[٣].

والرَّوْحُ: برد نسيم الريحِ. والرائحةُ: النسيم، طيبًا كان أو نتنًا[٤].

قال ابن الأثير: «قد تكرر ذكر الروح في الحديث، كما تكرر في القرآن، ووردت فيه على معان، والغالب منها أن المراد بالروح الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة، وقد أطلق على القرآن، والوحي، والرحمة، وعلى جبريل»[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال البغوي في تفسيره: «والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان»[٦].

وقال القرطبي: «الروح: جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه، أضافه إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا»[٧].

وقال عنها المراغي: «إنها جسم نوراني، علويّ، خفيف، حي، متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسرى فيها سريان الماء في الورد، والنار في الفحم»[٨].

وقال ابن عاشور: «والروح: يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني، الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير، وهو الذي يتقوم في الجسد الإنساني حين يكون جنينًا»[٩].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥٤.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ١٣٩.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٣٦٧.
(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ٥٠٨.
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/ ٢٨٧١.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٨٠.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٤.
(٨) تفسير المراغي ٤/ ١٧٦.
(٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩٦.

الروح في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ر و ح) في القرآن الكريم (٥٧) مرة، وتكررت (الروح) (٢١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٢١	﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]

وجاءت الروح في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: مادة الحياة في الإنسان وذوات الأروح: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥] يعني: الروح التي هي سبب الحياة.

الثاني: جبريل عليه السلام: ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢] يعني: جبريل عليه السلام.

الثالث: الوحي: ومنه قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ [النحل: ٢] يعني: بالوحي.

الرابع: الرحمة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] يعني: قوّاهم برحمة منه.

الخامس: الأمر: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] يعني: وأمر منه.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٢٦.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٢٩-٢٣٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ النفس:

النفس لغة:

تطلق النفس في اللغة على معنين: الروح، وذات الشيء وحقيقته.

فمن الأول: قولهم: خرجت نفس فلَان، أي: روحه.

ومن الثاني: قولهم: قتل فلَان نَفسه، وَالْمعْنَى: أنه أوقع الهلاك بذاته كلها[١].

النفس اصطلاحًا:

يقول المناوي عن النفس: «هي جوهر مشرق للبدن ينقطع ضوؤه عند الموت من ظاهر البدن وباطنه، وأما وقت النوم فينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن دون باطنه، فالموت انقطاع كلي، والنوم انقطاع خاص. وعلى ذلك فيكون تعلقها بالإنسان على ثلاثة أضرب: إن غلب ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو حال اليقظة، وإن انقطع عن ظاهره فقط فهو النوم، وإن انقطع بالكلية فالموت»[٢].

الصلة بين النفس والروح:

قال بعض اللغويين: النفس والروح واحد، وقال آخرون: بل هما متغايران؛ إذ النفس هي مناط العقل، والروح مناط الحياة، وسميت النفس نفسًا لتولّد النّفس منها واتصاله بها، كما سموا الروح روحًا؛ لأن الروح موجود بها[٣].

ويقول الألوسي: «اختلف الناس في الروح والنفس، وهل هما شيء واحد أم شيئان؟ فحكى ابن يزيد عن أكثر العلماء أنهما شيء واحد؛ فقد صح في الأخبار إطلاق كل منهما على الآخر»[٤].

وقال ابن تيمية: «والروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت، هي الروح المنفوخة فيه، وهي النفس التي تفارقه بالموت، قال النبي صلى الله عليه وسلم لما نام عن الصلاة: (إن الله قبض أرواحكم حيث شاء وردها حيث شاء)[٥]، وقال له بلال رضي الله عنه: (أخذ

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ٩٨٤، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٣٢.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٢٨.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ٩٨٤، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٣٢.
(٤) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، الألوسي ص١٦٥.
(٥) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من نام عن الصلاة أو نسيها، ١/ ١٢٠، رقم ٤٣٩.

بنفسي الذي أخذ بنفسك بأبي أنت يا رسول الله)[1]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[الزمر: ٤٢]. قال ابن عباس وأكثر المفسرين: يقبضها قبضين: قبض الموت، وقبض النوم، ثم في النوم يقبض التي تموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى حتى يأتي أجلها وقت الموت»[2].

٢ الحياة:

الحياة لغة:

مادة (حيّ) تدور حول أصلين: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الّذي هو ضدّ الوقاحة.فأمّا الأوّل فالحياة والحيوان، وهو ضدّ الموت والموتان. ويسمّى المطر حيًّا لأنّ به حياة الأرض، والأصل الآخر: قولهم استحييت منه استحياءً»[3].

الحياة اصطلاحًا:

الحياة: في الأصل: الروح وهي الموجبة لتحرك من قامت به، ذكره العكبري.

وقال الحرالي: الحياة تكامل في ذات ما أدناه حياة النبات بالنمو والاهتزاز مع انغراسه إلى حياة ما يدب بحركته وحسه إلى غاية حياة الإنسان في تصرفه وتصريفه، إلى ما وراء ذلك من التكامل في علومه وأخلاقه. وقال في موضع آخر: الحياة كل خروج عن الجمادية من حيث إن معنى الحياة بالحقيقة تكامل الناقص[4].

الصلة بين الحياة والروح:

قال العسكري: «إن الروح من قرائن الحياة، والحياة عرض والروح جسم رقيق من جنس الريح، وقيل: هو جسم رقيق حساس، وتزعم الأطباء أن موضعها في الصدر من الحجاب والقلب، وذهب بعضهم إلى أنها مبسوطة في جميع البدن وفيه خلاف كثير»[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم ٦٨٠.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٨٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٢.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٤٩
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٦١.

إسناد الروح إلى الله تعالى

أسند الله تعالى الروح إلى نفسه في كثير من آيات كتابه العزيز، من ذلك توضيحه وبيانه لعباده أن أمر الروح منه هو، ولم يسنده لأحد غيره سبحانه، وأنه من اختصاص الله دون غيره من خلقه، فقال في ذلك: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وفي موضع آخر من كتابه الكريم نجد أنه سبحانه أسند الروح لنفسه، وقد وردت في القرآن كثيرًا في سياق الإشارة إلى هبة نسمة الحياة لآدم والمسيح والناس، مضافة إلى الله عز وجل ، كما في آيات سورة الحجر، وذلك بعد خلقه للبشر، وتسويته معظمًا لهم ورافعًا من شأنهم، وذلك بأنه بعد أن سوّى خلقه وأكمله، نفخ فيه من روحه، فقال في ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

وفي موضع آخر: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

وقال في مكان آخر: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

ونتابع المواضع التي أسند فيها الله سبحانه وتعالى الروح لنفسه، موضّحًا أن الروح من أمره هو، نقرأ في ذلك هذه الآيات: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، التي يبين لنا فيها أن الروح -أيًا كان معناه- لا ينزل ولا يلقى إلا بأمره سبحانه وتعالى، وإلى هذا المعنى أشار في قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢].

وقوله جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وأسند الله تعالى الروح لنفسه مرة أخرى عندما أراد خلق عيسى عليه السلام من أمه مريم العذراء، مبينًا المعجزة العظمى والقدرة الخارقة في خلقه، فقال في ذلك مرة: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

مسندًا الروح التي أرسلها إلى مريم لنفسه.

وقال في موضع آخر: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي غيره: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾

[التحريم: ١٢].

موضحًا في ذلك أن النفخ فيها من روحه هو سبحانه وتعالى. كما سمى هذه الروح المسنودة إليه: كلمة، وأسندها لنفسه كذلك، فقال: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾[النساء: ١٧١].

وفي سورة يوسف أسند سبحانه وتعالى الروح الذي يأتي بمعنى الرحمة والفرج -حسب إفادة كثير من المفسرين- أسنده لنفسه، مبينًا في ذلك أن الفرج والرحمة لا تكون إلا منه وحده، فقال: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

كما بيّن سبحانه وتعالى تأييده للمؤمنين به، ناسبًا الروح التي أيدهم بها إليه هو دون غيره من خلقه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وعندما أسند الله تعالى الروح لنفسه كان لذلك دلالات عديدة، نتطرق إليها فيما يأتي:

أولًا: أن هذا الأمر من اختصاص الله وحده لا ينازعه فيه أحد من خلقه، ولم يطلع سبحانه أحدًا من عباده على هذا الأمر، وفيه دلالة كذلك على أنه من المأمورات التي قضاها وقدرها على مخلوقاته؛ لذلك يقول ابن القيم في كتابه الروح: «وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله، أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق، فمعلوم قطعًا أنه ليس المراد ها هنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام، فيكون المراد: أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر ها هنا المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب، وفي القرآن منه كثير كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] أي: مأموره الذي قدّره وقضاه، وقال له كن فيكون.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾[هود: ١٠١]. أي: مأموره الذي أمر به من إهلاكهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق، كقوله تعالى للجنة: أنت رحمتي، فليس في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما، وقد قال بعض السلف في تفسيرها: جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر، يعني خلقًا من خلقي»[(١)].

وإلى هذا المعنى وهذه الدلالة أشار شارح الطحاوية حين قال: «وقد أجمعت الرسل على أنها محدثة مخلوقة، مصنوعة

(١) الروح، ابن القيم، ص١٤٤.

مربوبة مدبرة، وهذا معلوم بالضرورة من دينهم، أن العالم محدث، ومضى على هذا الصحابة والتابعون، حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة، فزعم أنها قديمة، واحتج بأنها من أمر الله، وأمره غير مخلوق، وبأن الله أضافها إليه بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

وبقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]»[(١)].

ثانيًا: ومن دلالات هذا الإسناد، أن الروح خلقٌ من خلق الله تعالى كما بيّن ذلك صاحب أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، قائلًا في حديثه عن الآية: «أي: من خلق ربي، أو من فعل ربي؛ إذ الأمر بمعنى الفعل وارد، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧].

أي: فعله. والجواب وقع من قبيل صرف الأهم، أي: إن عقولكم لا تدرك هذا، فإن له مقدمات طبيعية تدق عن الأفهام، وتقصر دونها الأوهام، لكن الأهم، أن تعلموا أن الروح من عالم الأمر، أي: الخلق.

وقال الحافظ ابن الجوزي في موضع آخر: «رأيت كثيرًا من الخلق والعلماء لا ينتهون عن البحث عن أصول الأشياء التي أمروا بعلم جملها من غير بحث عن حقائقها، كالروح مثلًا، فإن الله تعالى سترها بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، فلم يقنعوا، وأخذوا يبحثون عن ماهيتها وحقيقتها، ولا يقنعون بشيء، ولا يثبت لأحدهم برهان على ما يدعيه، وكذلك العقل، فإنه موجود بلا شك، كما أن الروح موجودة بلا شك، وكلاهما إنما يعرف بآثاره لا بحقيقة ذاته، قال: فإن قال قائل: فما السر في كتم هذه الأشياء؟ قلت: لأن النفس لا تزال تترقى من حالة إلى حالة، فلو اطّلعت على هذه الأشياء لترقّت إلى خالقها، فكان ستر ما دونه زيادة في تعظيمه؛ لأنه إذا كان بعض مخلوقاته لا تعلم حقيقته فهو سبحانه أجل وأعلى»[(٢)].

وجاء في أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية: «ويأتي أمر الله، بمعنى مأموره، أي: الشيء الذي وجد أو سيوجد بأمره، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

ونحوها، وقد جمع الله بين الأمر بمعنى المأمور، والأمر بمعنى كلامه الذي يأمر به في أول سورة النحل، بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ

(١) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٥٦٢.

(٢) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، مرعي الكرمي ص١٩٠، وص٢١٤.

﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ١-٢]»[١].

ويقول السهيلي في ذلك: «وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أيضًا ولم يقل: من أمر الله، ولا من أمر ربكم، يدل على خصوص، وعلى ما قدمناه من أنه لا يعلمه إلا من أخذ معناه من قول الله سبحانه، وقول رسوله صلى الله عليه وسلم بعد الإيمان بالله ورسوله»[٢].

ثالثًا: ودل إسناد أمر الروح للواحد الأحد على عجز البشر وقلة علمهم، وعظم قدرة الخالق وجلال قدره وعلمه، نطالع ذلك في البداية والنهاية: «أي خلقٌ عجيبٌ من خلقه، وأمرٌ من أمره، قال لها: كوني فكانت. وليس لكم الاطلاع على كل ما خلقه، وتصوير حقيقته في نفس الأمر يصعب عليكم بالنّسبة إلى قدرة اللّه تعالى وحكمته»[٣].

وفي شرح القسطلاني أن إسناد أمر الروح لله تعالى يدل دلالة واضحة على عجز الخلائق عن إدراك ماهيتها: «﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي: مما استأثر الله بعلمه، فهو من أمر ربي لا من أمري، فلا أقول لكم ما هي، والأمر بمعنى الشأن، أي: معرفة الروح من شأن الله لا من شأن غيره، وعجزت الأوائل عن إدراك ماهيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه، إشارة إلى تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له؛ ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز»[٤].

وهذا ما جاء في العقائد الإسلامية في إطار حديثه عن إسناد أمر الروح لخالق الكون: «فالروح من أمر الله الذى لا يعلمه غيره، ولم يطلع عليه أحدًا سواه، ولم يعط الإنسان الوسائل التي توصله إلى هذا اللون من العلم والإحاطة به، فعلم الإنسان قليل ومحدود، وهو لم يدرك حقيقة المادة، ولا الكون المحسوس المحيط به، فكيف يتطلع إلى إدراك سر من أسرار الله، وغيب من غيوبه؟! كانت الروح هي المميزة للإنسان عن غيره في هذا العالم، وبها صار عالمًا وحده، وبالروح أسجد الله للإنسان ملائكته، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وجعله سيد هذا الكون، وخليفته في الأرض»[٥].

وفي هذا العجز البشري الذي استمر عبر العصور عن معرفة كنه الروح والتوصل إلى حقيقتها، يقول ألكسيس كاريل: «لقد بذل الجنس البشري مجهودًا جبارًا لكي يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزًا من الملاحظات التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء والروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم

(١) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله الجربوع ٢/ ٥٠٤.
(٢) الروض الأنف، السهيلي ٣/ ٩٦.
(٣) البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٦٩.
(٤) إرشاد الساري، القسطلاني ٧/ ٢١٢.
(٥) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ٢٢٤.

جوانب معينة فقط من أنفسنا، إننا لا نفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة، وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب؛ لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة»[1].

رابعًا: ومن دلالات إسناد أمر الروح لله تعالى أن ذلك من علمه الذي لا يحيط به أحدًا من خلقه، وأنه سر من الأسرار التي أخفاها الله تعالى عن خلقه، وأنها من شئونه التي لا يجوز الاطلاع عليها، قال ابن جرير: «﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، يعني: أنه من الأمر الذي يعلمه الله دونكم، فلا تعلمونه، ويعلم ما هو»[2]. وممن قال بذلك المراغي في تفسيره: «الأمر واحد الأمور: أي: الروح شأن من شئونه تعالى حدث بتكوينه وإبداعه من غير مادة، وقد استأثر بعلمه، لا يعلمه إلا هو؛ لأنكم لا تعملون إلا ما تراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم»[3].

وهذا القرطبي يقول حول دلالة الإسناد في الآية: «دليل على خلق الروح، أي: هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى»[4]، ويتجه الأصفهاني إلى أن الدلالة في ذلك أنه نوع من الإبداع الإلهي، فيقول: «أي: هو من الإبداع الذي لا يمكن للبشر تصوره، فنبّه أن الأرواح كلها مرجوعة إليه وراجعة»[5]، وقال في المفردات: «أي: من إبداعه وعبّر عنه بأقصر لفظة، وأبلغ ما يتقدّم فيه فيما بيننا بفعل الشيء، وعلى ذلك قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فعبّر عن سرعة إيجاده بأسرع ما يدركه وهمنا»[6].

وسار ابن عاشور في هذا الاتجاه قائلًا: «الروح من أمر الله، أي أنه كائن عظيم من الكائنات المشرفة عند الله، ولكنه مما استأثر الله بعلمه. فلفظ أمر يحتمل أن يكون مرادف الشيء، فالمعنى: الروح بعض الأشياء العظيمة التي هي لله، فإضافة أمر إلى اسم الجلالة على معنى لام الاختصاص، أي أمر اختص بالله اختصاص علم»[7]. وفي البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: «﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي: سر من أسراره»[8]، كما جاء ذلك في

(١) الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريل ص١٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٥٧.
(٣) تفسير المراغي ١٥/ ٨٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٢٤.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٣٥.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٨.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩٨.
(٨) البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٢٩١.

التفسير الوسيط: «﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، أي: من علم ربي، أي: أنكم لا تعلمونه»[1].

وجاء في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري في دلالة إسناد أمر الروح لله تعالى قوله: «يعني: أنها كانت ووجدت بأمر الله، فأمر الله ليس هو الروح، وإنما وجدت الروح بأمره، وهو سابق لما وجد به»[2]. ويقول صاحب زهرة التفاسير في تفسيره للآية: «أي: أنها خلق من خلقه، والعلم بها من شأنه وأمره الخاص به»[3]، أما السعدي فقد اتجه اتجاهًا مغايرًا عندما رأى أن دلالة الإسناد هنا ردع للذين يسألون أسئلة في غير موضعها، وليس من وراءها فائدة مرجوة، فقال: «وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد؛ ولهذا أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم بغيرها. وفي هذه الآية دليل على أن المسئول إذا سئل عن أمر الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه»[4].

ولسيد قطب فلسفة أخرى في دلالة هذا الإسناد نطالعها في تفسيره القيم: في ظلال القرآن، حيث يقول: «وليس في هذا حجرٌ على العقل البشري أن يعمل، ولكنّ فيه توجيهًا لهذا العقل أن يعمل في حدوده، وفي مجاله الذي يدركه، فلا جدوى من الخبط في التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه؛ لأنه لا يملك وسائل إدراكه. والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشري، وبعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها. وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق»[5].

ويرى صاحب النكت في القرآن الكريم أن إخفاء أمر الروح عن العباد، وجعلها من أمر الله؛ لما في ذلك من مصلحة لهم، فيقول: « وقيل: في قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، أي: من الأمر الذي يعلمه ربي، ومما يسأل عنه أن يقال: لم لم يجابوا عن الروح؟! والجواب: لما في ذلك من المصلحة؛ ليوكلوا إلى علم ما في عقولهم من الدلالة،

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٢٦.
(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الغنيمان ٢/ ٢٢٧.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٤٤٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٦.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٩.

مع ما في ذلك من الرياضة. وقيل: إنهم وجدوا في كتابهم: أنه إن أجابهم عن الروح فليس بنبي»[1].

وقال ابن القيم في هذه الدلالة: «فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده سبحانه. والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه: كالبيت، والناقة، والعبد، والرسول، والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكًا له، وكذلك ناقة الله، والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده، فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]»[2].

خامسًا: وفي إسناد الروح إليه تعالى في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] [ص: ٧٢]، دلالة على تكريم بني آدم وتفضيلهم على غيرهم، والإحسان إليهم، ومن قال بذلك الواحدي والسمعاني: «وأضاف روح آدم إليه إكرامًا وتشريفًا، وهي إضافة الملك»[3]، «وأضافها إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا»[4].

ويسير النيسابوري في هذا الاتجاه ببيان أن دلالة الإضافة للتشريف والتكريم فيقول: «ولا خلاف في أن الإضافة في قوله: روحي للتشريف والتكريم، مثل: ناقة الله، وبيت الله»[5].

ويتجه ابن عاشور الاتجاه نفسه في تفسيره التحرير والتنوير بقوله: «وإضافة الروح إلى الله إضافة تشريف؛ لأنه روح مبعوث من لدن الله تعالى بدون وساطة التطورات الحيوانية للتكوين النسلي، وجعلها وابنها آية، هو من أسباب تشريفهما والتنويه بهما»[6].

وجاء هذا الرأي في روح البيان عندما قال: «يشير بتشريف هذه الإضافة إلى اختصاص الروح بأعلى المراتب من الملكوت الأعلى، وكمال قربه إلى الله، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

(١) النكت في القرآن الكريم، علي بن فضّال ص٢٩٦.
(٢) الروح، ابن القيم ص١٥٤.
(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٥.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٣٨.
(٥) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٢٢٠.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٣٨.

[ق: ١٦]، وإلى اختصاصه بقبول النفخة فإنه تشرف بهذا التشريف وخص به من سائر المخلوقات»[١].

وقال بهذه الدلالة صاحب التفسير المظهري: «أضاف الروح إلى نفسه؛ تشريفًا لآدم أو تشريفًا للروح»[٢].

وهذا ما قال به عبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن، حيث يقول: «تجد أن الروح التي تلبس الكائن الحي -من إنسان أو حيوان- هي روح، وهي من أمر الله، ولكننا إذ ننظر في قوله تعالى في خلق آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]، نجد مزيدًا من الإحسان والتكريم للإنسان، بإضافة روحه إلى الله سبحانه وتعالى»[٣].

وجاء في التفسير الوسيط أن دلالة ذلك تشريف للإنسان وخيريته على إبليس الذي رفض السجود إليه، فقال في معرض تفسيره للآية، ومقارنته بين أصل الإنسان وأصل إبليس: «كذلك هو خير منه روحًا، لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، بإضافة روحه إلى الله تعالى؛ تشريفًا لا تبعيضًا، ونشرت فيه من الروح المنسوب إليّ نسبة تشريف وملك وإيجاد، فأرواح العباد منسوبة إلى الله نسبة ملك وإيجاد، وليست جزءًا من روحه تعالى، فهو منزه عن التجزئة والتبعيض»[٤].

سادسًا: وذهب فريق ممن تحدث عن دلالة إضافة الروح لرب العزة والجلالة إلى المكانة السامية والعالية للروح، من هؤلاء: الإمام الطبري في تفسيره: «يقول تعالى ذكره: فإذا سوّيت خلقه، وعدّلت صورته، ونفخت فيه من روحي، قيل: عني بذلك: ونفخت فيه من قدرتي»[٥].

ويرى الإمام الرازي في تفسيره أن ذلك يدل على قدرته سبحانه وتعالى عندما قال: «ميّز تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح، فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء، وتعديل المزاج والأشباح، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء، ثم أضاف الروح إلى نفسه بقوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾، دل ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد. ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوي قدسي»[٦].

ومنهم ابن عادل في كتابه اللباب: «فأضاف الروح إلى نفسه، وذلك يدل على أنه جوهر شريف علويّ قدسيّ»[٧].

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ٤/ ٤٦١..
(٢) التفسير المظهري، محمد ثناء الله ٨/ ١٩٢.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٢/ ١١٦٣.
(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٥٣٨، ٣/ ١٣٨٧.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٤٤.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٠٤-٤١٠.
(٧) اللباب في علوم الكتاب ١٦/ ٤٥٤.

ويعقد ابن الجوزي مقارنة بين هذه الإضافة وبين الحديث الشريف حول خلق آدم عليه السلام فيقول: «أما قوله: (خلق الله آدم على صورته)[1]، فللناس فيه ثلاثة مذاهب: أحدها: مذهب جمهور السّلف، وهو السّكوت عن تفسير هذا وأمثاله. والثّاني: أن الهاء راجعة إلى آدم، فيكون المعنى: أنه خلقه على تلك الحال، ولم ينقله من نطفة إلى علقة، وهذا مذهب أبي سليمان الخطابيّ. والثّالث: أنّها ترجع إلى الله سبحانه، فهي مضافة إضافة ملك لا إضافة ذات، كما أضاف الرّوح التي نفخت في آدم إليه، فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

وهذا مذهب ابن عقيل، قال: وإنّما خص آدم بإضافة الصّورة إليه لخصيصة فيه»[2].

ويؤيد أبو السعود الدلالة التي تميز الإنسان، وأن ذلك تشريف وتكريم له، فيقول: «﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]؛ أضافه إليه تعالى تشريفًا له وإيذانًا بأنّه خلقٌ عجيبٌ وصنعٌ بديعٌ، وأنّ له شأنًا له مناسبةٌ إلى حضرة الرّبوبية، وأنّ أقصى ما تنتهي إليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذي يعبر عنه تارةً بالإضافة إليه تعالى وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾»[3].

وقال الماوردي: «﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩] فيه أربعة أوجه:

أحدها: من قدرته، قاله أبو روق.

الثاني: من ذريته، قاله قتادة.

الثالث: من أمره أن يكون فكان، قاله الضحاك.

الرابع: روحًا من روحه، أي: من خلق، وأضافه إلى نفسه لأنه من فعله وعبر عنه بالنفخ؛ لأن الروح من جنس الريح»[4].

ويقول ابن عاشور في الآية: «ثم أعقب بقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾، فجيء بفعل الإلقاء، وبكون الروح من أمره، وبصلة من يشاء من عباده، فآذن بأن ذلك بمحض اختياره وعلمه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]»[5].

وللمفسرين في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أقوال: فقالوا: «مجيئه بمعنى الباء، قال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [غافر: ١٥].

وقال: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: أمره ابتداء الغاية»[6].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب بدء السّلام ٨/ ٥٠، رقم ٦٢٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب يدخل الجنة أقوام ، ٤/ ٢١٨٣، رقم ٢٨٤١.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٣/ ٤٩٨.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٨١.

(٤) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٥٦.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١٠٨.

(٦) الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري

وذكر أبو حيان قوله: «أي: بأمره، ويظهر أن ﴿مِنْ﴾: لابتداء الغاية، وقال ابن عباس: من أمره: من قضائه»[1].

وفي التفسير الحديث، وفي معرض تعليقه على إضافة الروح لله تعالى، يقول: «وتعليقًا على ذلك نقول: إن القرآن استعمل تعبير: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]، في صدد خلق آدم في سورة ص، وتعبير: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]، في صدد خلق الإنسان في سورة السجدة، هذا أولًا. وثانيًا: إن القرآن ذكر في سورة مريم: أن روح الله تمثّل لمريم بشرًا ليهب لها غلامًا، ولم يذكر أسلوب الهبة. وروح الله في سورة مريم يعني على ما تلهمه العبارة بكل قوة، بل وصراحة، ملك الله، وبين هذا وبين ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

و﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] فرق واضح»[2].

وقال الشيخ طنطاوي في تفسيره: «وهذه الخاصية هي التي تجعل من هذا الإنسان، إنسانًا ينفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى التي تشاركه في هذه الحياة»[3].

وجاء في إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل في صدد حديثه عن إضافة الروح لله تعالى: «أما قوله في حق آدم: ﴿مِن رُّوحِي﴾، فهو إضافة خلق إلى خالقه، وملك إلى مالكه؛ لأن الأرواح كلها بيد الله تعالى لا أنها جزء منه، تعالى الله عن ذلك، وإضافته إليه إضافة تشريف: إمّا لآدم عليه السلام كما قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، أو لأنّها جوهر لطيف شريف علوي.

وأما النفخ فالمراد به -والله أعلم- خلقها وإيجادها، وقال بعضهم: كيفيّة النفخ لا يعلمها إلا الله تعالى، ونسبة إضافة الرّوح في آيات مريم كلها نسبة إضافة ملك وخلق وتشريف، كما قدمناه في آدم عليه السلام؛ لأن نفخ جبريل كان بأمر الله، وسمي المسيح عليه السلام روح الله إمّا تشريفًا له، أو لأنّه كان بأمره وخلقه من غير واسطة لأب»[4].

ويرى بعضهم أن دلالة ذلك خصوصية لآدم وعيسى عليهما السلام: «وأما الخبر الذي مخرجه مخرج الخصوص، ومعناه معنى الخصوص، فهو قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ

ص٤٤٠.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٤٤.

(٢) التفسير الحديث، محمد عزت ٥/ ٢٨٥.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٤٧.

(٤) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، ابن جماعة الكناني ص١٤٢.

﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠].

فكان مخرج الخبر لآدم عليه السلام مخرج الخصوص، ومعناه معنى الخصوص، وكذلك كان مخرج الخبر لعيسى عليه السلام مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى الخصوص»[(١)].

ويفصّل الشيخ العثيمين في هذه الإضافة قائلًا: «والمضاف إلى الله عز وجل إما صفة، وإما عين قائمة بنفسها، وإما وصف في عين قائمة بنفسها... أن يكون عين قائمة بنفسها ولكنها في عين أخرى، مثل: روح الله، كما قال الله عز وجل: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقال في آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

فهنا ليس المراد روح الله عز وجل نفسه، بل المراد من الأرواح التي خلقها، لكن أضافها إلى نفسه تشريفًا وتعظيمًا»[(٢)].

وجاء في تسلية أهل المصائب: «ولا خلاف بين المسلمين، أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها وكونها واخترعها»[(٣)].

ونطالع في فتح البيان في مقاصد القرآن ما قاله حول إضافة الروح لله تعالى: «﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩].

أي: جعله حيًا حساسًا بعد أن كان جمادًا، وبالإضافة للتشريف والتكريم، وهذه الإضافة تقوي أن الكلام في آدم لا في ذريته»[(٤)].

وقد فصّل أصحاب الاختصاص كثيرًا في دلالات إضافة الروح لله تعالى، وأكثرهم اتفق على أن ذلك يدل على المكانة التي جعلها الله تعالى للروح، وتشريفًا وتكريمًا للجنس البشري الذي خلقه الله تعالى بيديه، وسواه وأحسن خلقه، ثم نفخ فيه ليمنحه الحياة التي قدّرها له.

(١) الحيدة، الكناني ص٥٥.
(٢) شرح الأربعين النووية، ابن عثيمين ص٣٦٥.
(٣) تسلية أهل المصائب، المنبجي ص٢١٨.
(٤) فتح البيان، القنوجي ١١/ ١٨.

حقيقة الروح وصفاتها

أولًا: حقيقة الروح:

عند الحديث عن حقيقة الروح، وبما أننا نتحدث عنها من خلال القرآن الكريم، فالأجدر بنا أن نستخلص هذه الحقيقة من كتاب الله تعالى، ومن خلال آياته الكريمة. والآية الكريمة التي تحدثت عن حقيقة الروح مجردة، هي آية الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

وبدايةً لابدّ من معرفة ما هي الروح التي وقع السؤال عنها، ثمّ نشرع في ما هي حقيقتها، وفقًا لما جاء في أقوال أهل الاختصاص، واختلف المفسّرون في الروح التي وقعت محلًا للسؤال مذاهب متفرقة، يأتي تفصيلها لاحقًا إن شاء الله تعالى وبرجوعنا إلى كتب السلف التي تحدثت عن الروح وعن حقيقتها، نجد تفسير هذه الحقيقة عند السيوطي، بعد أن أورد حديث سبب نزول الآية: «... فاختلف الناس في الروح على فرقتين: فرقة أمسكت عن الكلام فيها؛ لأنها سر من أسرار الله تعالى لم يؤت علمه البشر، وهذه الطريقة هي المختارة. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن الروح، قال: الروح من أمر ربي لا تتأولوا هذه المسألة فلا تزيدوا عليها، قولوا كما قال الله تعالى وعلّم نبيه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأخرج ابن جرير بسند مرسل أن الآية لما نزلت قالت اليهود هكذا نجده عندنا. قلت: فمسألة أبهمها الله تعالى في القرآن والتوراة، وكتم عن خلقه علمها، من أين للمتعمقين الاطلاع على حقيقة أمرها؟!»[1].

وفي تفسير المراغي: «وللعلماء في حقيقة الروح أقوال كثيرة، أولاها بالاعتبار قولان:

الأول: إن الروح جسم نوراني، حي، متحرك من العالم العلوي، مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس، سار فيه سريان الماء في الورد، والدّهن في الزيتون، والنار في الفحم، لا يقبل التبدل والتفرق والتمزق، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحًا لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان، وإلا حدث الموت. واختاره الرازي وابن القيم في كتاب الرّوح.

الثاني: إنه ليس بجسم ولا جسماني، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، وإلى هذا ذهب حجة الإسلام الغزالي وأبو القاسم الراغب الأصفهاني، ثم أكد عدم علم أحد بها؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]»[2].

وقال ابن عادل الحنبلي وهو يتحدث عن

(١) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، السيوطي ص٣١٠.
(٢) تفسير المراغي ١٥/ ٨٩.

حقيقة الروح: «فهم قالوا: ما حقيقة الروح وماهيته؟ أهو أجسامٌ موجودة داخلة في البدن مولدةٌ من امتزاج الطبائع والأخلاط؟ أو هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب؟ أو هو عبارة عن عرض قائم بهذه الأجسام؟ أو هو عبارة عن موجودٍ يغاير هذه الأجسام والأعراض؟ فأجاب الله عنه بأنّه موجودٌ مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأعراض؛ وذلك لأن لهذه الأجسام ولهذه الأعراض أشياء تحدث عن امتزاج الأخلاط والعناصر، وأمّا الروح فإنه ليس كذلك، بل هو جوهرٌ بسيطٌ مجردٌ، ولا يحدث إلا بمحدثٍ يقول له: كن فيكون، فأجاب الله عنه بأنه موجود محدث بأمر الله وتكوينه، وتأثيره في إفادة الحياة بهذا الجسد، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه»[1].

وفي حقيقة الروح قالوا: «وأما حقيقة الروح فهي لطيفة ربانية، وعنصر من عناصر العالم العلوى تتصل بمدد رباني إلى العالم السفلى»[2].

وفي فيض الباري: «أن القرآن لم يتعرض في الجواب إلى حقيقة الروح ومادته، بل ذكر العلة الصّورية فقط، ويريد أن الروح محركٌ للبدن وانتهاء شعورها أمر الرب، فهذا علتها الصورية فقط، أما حقيقتها فلا يعلمها إلا هو»[3].

وقال ابن حجر: «قال ابن بطال: معرفة حقيقة الروح مما استأثر الله بعلمه، بدليل هذا الخبر، قال: والحكمة في إبهامه اختبار الخلق؛ ليعرّفهم عجزهم عن علم ما لا يدركونه؛ حتى يضطرهم إلى رد العلم إليه»[4].

وقال ابن عاشور: «واختلف المفسرون في الروح المسئول عنه المذكور هنا، ما هو من هذه الثلاثة؟ فالجمهور قالوا: المسئول عنه هو الروح بالمعنى الأول، الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني، قالوا: لأنه الأمر المشكل الذي لم تتضح حقيقته، وأما الروح بالمعنيين الآخرين فيشبه أن يكون السؤال عنه سؤالًا عن معنى مصطلح قرآني. وقد ثبت أن اليهود سألوا عن الروح بالمعنى الأول؛ لأنه هو الوارد في أول كتابهم وهو سفر التكوين من التوراة؛ لقوله في الإصحاح الأول: «وروح الله يرف على وجه المياه». وليس الروح بالمعنيين الآخرين بوارد في كتبهم»[5].

وفي إعانة الطالبين: «واختلف في حقيقة الروح، فقال أكثر أهل السنة والجماعة: الأولى أن نمسك المقال عنها، ونكف عن

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٢/ ٣٧٤.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٠٦.
(٣) فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه ١/ ٣١٣.
(٤) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٤٠٣.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩٧.

البحث فيها، وأنها مما استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه»[1]. وإليه أشار ابن رسلان في زبده بقوله[2]:

والروح ما أخبر عنها المجتبى
فنمسك المقال عنها أدبا

وفي لوامع الأنوار البهية: «وقد تنازع الناس في حقيقة الروح، واختلفوا فيها اختلافًا كثيرًا مع القطع باتصالها بالبدن، وإنها تخرج منه وتعرج إلى السماء، وقد تخبط فيها الفلاسفة ومن وافقهم تخبط الذي به مس من الشيطان؛ لكونهم رأوها من غير جنس البدن وعالمه وصفاته، فعدم مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون الصفات الثابتة لها من الصعود والنزول والاتصال والانفصال حقًّا»[3].

وهكذا يتضح لنا أن حقيقة الروح -وبحسب معظم المفسرين- أنها مما استأثر الله بعلمه، ولم يطلع على ذلك أحدًا من خلقه، ويجب علينا ألا نخوض فيها بأكثر من تفويض العلم فيها لرب العباد.

ثانيًا: صفات الروح:

ونتناول هنا الصفات التي اتصفت بها الروح بناءً على النصوص الشرعية التي تحدثت عن ذلك، فمن النصوص الثابتة القوية في وصف الروح الإنسانية، ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم والمسند وسنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[4].

وقال صاحب التحفة المهدية، معددًا الصفات التي اتصفت بها روح الإنسان: «فإن روح ابن آدم تسمع، وتبصر، وتتكلم، وتنزل، وتصعد، كما ثبت ذلك بالنصوص الصحيحة، والمعقولات الصريحة، ومع ذلك فليست صفاتها وأفعالها كصفات البدن وأفعاله»[5].

وجاء في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: «ومذهب أهل السنة والجماعة: أنّ الروح والعقل من الأعيان، وليسا بعرضين كما ظنّته المعتزلة وغيرهم، وأنهما يقبلان الزيادة من الصفات الحسنة والقبيحة، كما تقبل العين الناظر غشاوة ورمدًا، والشمس انكسافًا؛ ولهذا وصف الروح بالأمّارة

(١) إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، الدمياطي ٢/ ١٢٢.
(٢) غاية البيان شرح زبد ابن رسلان، شهاب الدين الرملي ص١٨.
(٣) لوامع الأنوار البهية، السفاريني الحنبلي ١/ ٢٦٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة، ٤/ ٢٠٣١، رقم ٢٦٣٨.
(٥) التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية، فالح بن مهدي الدوسري ١/ ١٠٧.

بالسّوء مرة، وبالمطمئنّة أخرى»[1].

وقال ابن القيم في كتاب الروح: «وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول، والخروج، والقبض، والتوفي والرجوع، وصعودها إلى السماء، وفتح أبوابها لها وغلقها عنها، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨].

فأخبر أنه سوّى النفس، كما أخبر أنه سوّى البدن في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

فهو سبحانه سوّى نفس الإنسان كما سوّى بدنه، بل سوّى بدنه كالقالب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له»[2]. هذا ما قيل في الصفات التي اتصفت بها الروح ونلحظ أنها جميعًا مما أثبتته النصوص الشرعية.

الموصوفون بالروح في القرآن

من خلال تتبع الآيات نجد أنها وصفت بعض الأشياء بالروح، ومن ذلك:

أولًا: جبريل عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] . والروح الأمين الذي نزل بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، هو جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، أرسل إليها جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

أي: تنزل الملائكة وجبريل معهم، وهو الروح في ليلة القدر[3].

وفي قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، أي: يرسل جبريل.

والمراد بالروح في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النبأ: ٣٨] : جبريل عليه السلام[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، قال قتادة والحسن: هو جبريل[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

(١) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي ١/ ٨٨٣.
(٢) الروح، ابن القيم ص٣٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٤٤.
(٤) انظر: غرائب التفسير، الكرماني ١/ ٦٤٠.
(٥) تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ٣١٣.

﴿الرُّوحِ﴾[الإسراء: ٨٥] قيل: هو جبريل عليه السلام[١].

قال ابن عاشور: «ويطلق لفظ (الروح) على الملك الذي ينزل بالوحي على الرسل، وهو جبريل عليه السلام، ومنه قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]»[٢].

وعن قتادة في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، قال: جبريل عليه السلام[٣].

وقال السمعاني في تفسيره لآية القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].

قال: «الأكثرون على أنه جبريل عليه السلام»[٤].

«أي: يتنزل فيها جبريل عليه السلام، الذي هو مختص بتبليغ الوحى، والاتصال بالنبيّ، أما الملائكة الذين يحفون به، فهم وفد الله معه لحمل هذه الرحمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى عباد الله»[٥].

وفي تفسيره لآية النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢] يقول الثعلبي: «يعني جبرائيل»[٦].

ويلحظ في بعض الآيات التي وصفت جبريل عليه السلام بـ(الروح)، أنها أضافت وصفًا آخر إليه وهو (القدس).

وقد جاء ذلك في عدة آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[البقرة: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠].

قال الطبري: «روح القدس الذي أخبر الله تعالى ذكره أنه أيّد عيسى به، هو جبريل عليه السلام»[٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

والقدس بمعنى المقدس والمطهر، وهو تعبير تكريمي كما هو المتبادر[٨].

وقد صرحت بعض الآيات بأن الملك الموكل بإنزال الوحي هو جبريل عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقد وصفت آية سورة الشعراء الملك الموكل بإنزال الوحي بأنه ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

(١) أوضح التفاسير، ابن الخطيب ١/ ٣٤٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩٧.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٧.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٨٣.
(٥) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٦/ ١٦٣٦.
(٦) الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٤١٩.
(٧) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٢٠.
(٨) التفسير الحديث، محمد عزت ٥/ ١٨٤.

وفي الحديث الشريف: عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه، قال: (مر عمر في المسجد وحسان ينشد فقال: كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: أنشدك بالله، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أجب عني، اللهم أيّده بروح القدس)؟ قال: نعم)[1].

وفي سنن الترمذي: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا، يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو قالت: ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر، أو ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[2].

و(روح القدس) هو: جبريل عليه السلام، وسمي بذلك من حيث إنه ينزل بالقدس من الله، أي: بما يطهّر نفوسنا من القرآن والحكمة والفيض الإلهي[3].

وقيل: «ومعنى روح القدس: الروح المقدسة، أي: الطاهرة من الأدناس»[4].

ثانيًا: رحمة الله:

ومن الأمور التي وصفت بـ(الروح) رحمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: من رحمة الله[5].

وفي قول تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال الرازي: «أي: برحمة منه. وقال عليه الصلاة والسلام: (إنما أنا رحمة مهداة)»[6][7].

ثالثًا: الوحي:

ومن الأمور التي وصفت بأنها (روح) الوحي الذي أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ٤/ ١١٢، رقم ٣٢١٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر، ٤/ ٤٣٥، رقم ٢٨٤٦. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٢١٤، رقم ١٦٥٧.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٣٦٩.

(٤) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي ١/ ٤٦٦.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٣٣.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم ٢٩٨١، ٣/ ٢٢٣، والحاكم في المستدرك، رقم ١٠٠، ١/ ٩١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرطهما.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٣٤٥، ١/ ٤٦٣.

(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٧١.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

أي: ينزل الوحي من أمره على من يشاء من عباده[١].

وقال الضحاك: يعني بالروح: الكتاب ينزله على من يشاء[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ [النحل: ٢].

قال ابن عباس: بالوحي[٣].

قال السعدي: «سماه روحًا؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير»[٤].

رابعًا: عيسى عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

قال أبيّ بن كعب: «لما أخذ الله الميثاق على بني آدم كان عيسى روحًا من تلك الأرواح، فأرسله إلى مريم، فحملت به»[٥].

قال الرازي: «جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئًا بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روح، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب، وإنما تكوّن من نفخة جبريل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح»[٦].

وقيل: سمي روحًا؛ لأنه كان يحيي الأموات أو القلوب[٧].

وفي الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)[٨].

قال سيد طنطاوي: «وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، أي: ونفخة منه؛ لأن عيسى حدث بسبب نفخة جبريل في درع مريم، فكان عيسى بإذن الله. فنسب إلى أنه روح من الله؛ لأنه بأمره كان، وسمى النفخ روحًا؛ لأنه ريح تخرج من الروح»[٩].

خامسًا: النصر والتأييد:

ومما فسر به الروح في بعض المواضع: النصر والتأييد.

قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٦٣.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٧٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٢.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٠١.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ٢٧١.
(٧) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١١١.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) ٣٤٣٥، ٤/ ١٦٥.
(٩) التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٤٠١.

قال البغوي: «قوّاهم بنصر منه. قال الحسن: سمى نصره إياهم روحًا؛ لأن أمرهم يحيا به»[1].

وقال ابن عباس: «قوّاهم بنصر منه في الدنيا على عدوهم»[2].

وقال المراغي: «أي: إنه قوّاهم بطمأنينة القلب، والثبات على الحق، فلا يبالون بموادّة أعداء الله، ولا يأبهون لهم»[3].

سادسًا: النفس:

مما وصف بأنه روح النفس الإنسانية التي بها الحياة.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (إني مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث بالمدينة، وهو متكئ على عسيب، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا: سلوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون، فأتاه نفر منهم فقالوا له: يا أبا القاسم، ما تقول في الروح؟ فسكت، ثم قام، فأمسك بيده على جبهته، فعرفت أنه ينزل عليه، فأنزل الله عليه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا﴾[الإسراء: ٨٥][4].

قال الشوكاني: «اختلف الناس في الروح المسئول عنه، فقيل: هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته، وبهذا قال أكثر المفسرين، قال الفراء: الروح الذي يعيش به الإنسان لم يخبر الله سبحانه به أحدًا من خلقه، ولم يعط علمه أحدًا من عباده، فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، أي: إنكم لا تعلمونه»[5].

وقال القرطبي في تفسيره: «وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد، وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل»[6].

ويقول الشيخ الفوزان: «بيّن أنها من خصوصياته سبحانه وتعالى، وأنه هو الذي خلقها، وهو الذي يعلمها، ولا يعلمها أحد من الخلق، فهي سر من الأسرار، ولا تزال سرًّا، وهذا من معجزات القرآن، فإنه

(١) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٦٣.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٦٨.
(٣) تفسير المراغي ٢٨/ ٢٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قوله تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا)، رقم ١٢٥، ١/ ٣٧، ومسلم في صحيح، كتاب صفات المنافقين، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح، ٤/ ٢١٥٢، رقم ٢٧٩٤.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٤٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٢٤.

مع تقدم الطب والمهارة فيه، ومع حرص الناس على البحث في هذا الشأن، لم يعرفوا شيئًا عن حقيقة الروح ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، على أن المراد بالروح: ما يحيا به الإنسان»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

قال ابن الجوزي: «هذه الروح هي التي يحيا بها الإنسان، ولا تعلم ماهيّتها، وإنما أضافها إليه؛ تشريفًا لآدم، وهذه إضافة ملك. وإنما سمي إجراء الروح فيه نفخًا؛ لأنها جرت في بدنه على مثل جري الريح فيه»[2].

فـ«الروح: يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني، الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير، وهو الذي يتقوم في الجسد الإنساني حين يكون جنينًا بعد أن يمضي على نزول النطفة في الرحم مائة وعشرون يومًا»[3].

قال الشعراوي: «وسميّ الشيء الذي يتصل بالمادة، فتدبّ فيها الحياة روحًا، فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩].

وسمّي المنهج الذي ينزل من السماء لهداية الأرض روحًا، وسمّي الملك الذي ينزل به روحًا؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية لا فناء لها، وهكذا يتم الارتقاء بالحياة؛ لذلك سمّى المنهج روحًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وسمّى الملك الذي نزل به روحًا: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

إذن: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أي: الحياة الحقيقية التي لا تفوتها ولا تفوتك، ولا يفارقك نعيمها، ولا ينغّصه عليك شيء، كما أن التنعّم في الدنيا على قدر إمكاناتك وأسبابك، أمّا في الآخرة فالنعيم على قدر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى»[4].

(١) مجموع فتاوى صالح بن فوزان ١/ ١٥٨.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٣٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩٦.
(٤) المصدر السابق ١٥/ ٩٥٢٦.

نعيم الروح وعذابها

إن العنصر المهم في الإنسان هو روحه، فهي التي تشعر بالنعيم والعذاب، وهي التي تتفاعل معه.

يقول ابن القيم: «إن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان، متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى»[(١)].

فالأرواح تتذوق النعيم أو العذاب الذي يكون عليها في القبور.

أولًا: نعيم الروح:

دلت النصوص الشرعية أن الأرواح تنعّم بما ينالها من نعيم قدّره لها ربّ العباد؛ مكافأة لعمل صاحبها بأوامر الله تعالى، واقتداء بشرعه، من ذلك ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، فيعرج بها حتى ينتهي بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان ابن فلان، فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان،، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل)**[(٢)].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى القيامة)**[(٣)].

وفي مسند أحمد عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: **(خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولمّا يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله، كأنّ على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت**

(١) الروح، ابن القيم ص٥٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣، رقم ٤٢٦٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميّت يعرض عليه بالغداة والعشيّ ٢/ ٩٩، رقم١٣٧٩.

في الأرض، فرفع رأسه، فقال: (استعيذوا بالله من عذاب القبر) مرتين، أو ثلاثًا، ثم قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون -يعني بها- على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض؛ فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها، وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي، ومالي)»[1].

وقال المراغي في تفسيره: «وقد أثبت علماء الأرواح حديثًا، نعيم الروح وعذابها، وشبهوا ذلك بما يراه النائم حين نومه، فقد نرى نائمين في سرير واحد، يقوم أحدهما مذعورًا كئيبًا وجلًا مما شاهد في نومه، بينما نرى الثاني مستبشرًا فرحًا بما لاقى من المسرّة والنعيم، فيروى أنه كان في حديقة غناء وشاهد كذا وكذا مما فيها من بهجة

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٤٩٩، رقم١٨٥٣٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

وبهاء، وجمال ورواء»[1].

وجاء في شرح الطحاوية لأبي العز الحنفي، وهو يتحدث عن مراتب الأرواح في عالم البرزخ: «إن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت، فمنها أرواح في أعلى عليين، في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وهم متفاوتون في منازلهم، ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء، لا كلهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه، كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش: (أن رجلًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: (الجنة)، فلما ولّى، قال: (إلاّ الدين، سارّني به جبريل آنفا)[2][3].

ومن النعيم الذي أعده الله تعالى لعباده المؤمنين رؤيته -جل شأنه وعظم قدره-. جاء ذلك في موسوعة فقه القلوب: «ومن نعيم الروح رؤية الرب جل جلاله ورضاه، والقرب منه»[4].

(١) تفسير المراغي ٢٤/ ٧٨.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم١٧٢٥٣، ٢٨/ ٤٩١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٤٢٥، ١/ ٣٠٠.
(٣) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٥٨٤.
(٤) موسوعة فقه القلوب، التويجري ٤/ ٣٥٣٩.

وبهذا اتضح بما لا يدع مجالًا للشك، وبهذه النصوص البينة الواضحة الجلية القطعية في دلالاتها، أن الأرواح تنعّم وتشعر بما ينالها من هذا النعيم الذي كتبه لها رب العزة والجلالة.

ثانيًا: عذاب الروح:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

قال السمعاني فيها: «قيل: للعذاب، وقيل: لقبض الأرواح. ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، أي: أرواحكم، فإن قال قائل: الروح إنما تخرج كرهًا، فما معنى قوله: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾؟ قيل: إنما قال ذلك تغليظًا عليهم، كمن يخرج من الدار كرهًا، ويقال له: اخرج»[5].

وقال البغوي: «﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، بالعذاب والضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم، وقيل: بقبض الأرواح. ﴿أَخْرِجُوٓا۟﴾، أي: يقولون ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، أي: أرواحكم كرهًا؛ لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربه، ونفس الكافر تكره ذلك»[6].

(٥) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١٢٧.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٤٥.

وإلى هذا أشار رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. عن أنس عن عبادة بن الصامت رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أراد لقاء الله أراد الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)[1].

وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾، فدل على أن المراد به عذاب القبر.

قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧].

وهذا يحتمل عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ، وهو أظهر؛ لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا، وقد يقال -وهو أظهر-: إن من مات منهم عذب في البرزخ، ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ. قال السمرقندي في تفسيره: «﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، يعني: من قبل عذاب النار، قد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: عذاب القبر، وقال معمر عن قتادة، قال: عذاب القبر في القرآن»[2].

ومنها قوله جل شأنه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

فذكر عذاب الدارين ذكرًا صريحًا لا يحتمل غيره، فدل على ثبوت عذاب القبر.

قال السدي: «بلغني أن أرواح قوم فرعون في أجواف طير سود تعرض على النار غدوًّا وعشيًّا، حتى تقوم الساعة»[3].

وقال ابن كثير في تفسيره: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور»[4].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ٨/ ١٠٦، رقم٦٥٠٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ٤/ ٢١٩٩، رقم٦٥.

(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٣٥٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤٦.

﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٩٤].

«فذكر ها هنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية؛ إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام، كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام»(١).

وكما وقفنا على ما جاء عن عذاب القبر في كتاب ربنا، فإن السنة النبوية المطهرة قد أفردت حيزًا معتبرًا لهذا الموضوع، وإذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلًا وتفسيرًا لما دل عليه القرآن، وأحاديث عذاب القبر كثيرة متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ رواها أئمة السنة وحملة الحديث ونقاده عن الجم الغفير والجمع الكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن أدلة عذاب القبر من السنة النبوية:

ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين، فقال: (إنهما ليعذّبان، وما يعذّبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)، ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة، قالوا: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: (لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)(٢).

و«هذا دليلٌ على أنّ العذاب محسوسٌ ومسموعٌ لمن كان له أذنان، لا أنه متخيّلٌ فقط، نعم هو في عالم آخر، والناس يريدون أن يسمعوه في هذا العالم، فيقعون في الخبط، ألا أنّ الحواس الخمس في هذا العالم، ثم لا يدري أحدهما ما في عالم الآخر، فلا تدري الشّامّة ما السمع والذوق؟ ولا تدري السامعة ما الشمّ والذوق؟ فهكذا لا يمكن أن يكتنه من في عالم الأجساد ما في عالم البرزخ، إلاّ أن يسمعه الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. ولم يدّع الشرع أنّ أحوال البرزخ من أحوال عالم الأجساد، ليقال إنّا لا نسمع الصوت، ولا نرى أحدًا في القبر معذّبًا، إلى غير ذلك، فاعلمه»(٣).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار، على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبرٌ ستة

(١) الروح، ابن القيم ص٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول ١/ ٥٤، رقم٢١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، ١/ ٢٤٠، رقم١١١.

(٣) فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه ١/ ٤١٠.

أو خمسة أو أربعة -قال: كذا كان يقول الجريريّ- فقال: (من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟) فقال رجل: أنا، قال: (فمتى مات هؤلاء؟) قال: ماتوا في الإشراك، فقال: (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه)[1]. ففيه دلالة واضحة أن عذاب القبر مسموع لمن أراد الله أن يسمعه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال)[2]. ففي توجيهه صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالتعوذ دلالة على أن الأمر واقع وحاصل لا محالة.

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد وجبت الشمس، فسمع صوتًا، فقال: (يهود تعذّب في قبورها)[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخلت عليّ عجوزين من عجز يهود المدينة، فقالتا لي: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فكذبتهما، ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل عليّ النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت له: يا رسول الله، إن عجوزين، وذكرت له، فقال: (صدقتا، إنهم يعذّبون عذابًا تسمعه البهائم كلها)[4]، فما رأيته بعد في صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر)[5].

وفي الحديث الآخر: (وإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها حتى تخرج، فينتهي بها إلى السماء، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان ابن فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء، فترسل إلى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ٤/ ٢١٩٩، رقم٢٨٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ١/ ٤١٢، رقم٥٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر ٢/ ٩٩، رقم١٣٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ٤/ ٢٢٠٠، رقم٢٨٦٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر ٨/ ٧٩، رقم ٦٣٦٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من عذاب القبر ٨/ ٧٨، رقم ٦٣٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ١/ ٤١٠، رقم٥٨٦.

الأرض ثم تصير إلى القبر)[1].

ومن العذاب الذي يصيب الروح في القبر، ما ورد على لسان سيد الخلق صلى الله عليه وسلم: (... وأمّا الكافر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقةٍ من حديدٍ ضربةً بين أذنيه، فيصيح صيحةً يسمعها من يليه إلا الثّقلين)[2].

ومن عذاب القبر ما جاء في مسند أحمد عن البراء بن عازب، وفيه: (وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[الأعراف: ٤٠].

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣، رقم٤٢٦٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال ٢/ ٩٠، رقم١٣٣٨.

رب لا تقم الساعة)[1].

«ومن عذاب الجسد ما يعذّب به أهل النار من النار التي تحرق أجسامهم، والحميم الذي يقطّع أمعاءهم، والطعام الكريه المر الذي تعافه النفوس من الزقوم والغسلين والضريع، ومن الشراب الماء الحميم، والصديد الكريه، كما قال سبحانه: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦ -١٧].

وتعذّب أرواحهم بالصّغار والإهانة، وتحجب أبصارهم عن رؤية الله، وعذاب الاحتجاب عن الله وإهانته لهم وغضبه عليهم وسخطه والبعد عنه، أعظم عليهم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥ -١٦]»[2].

قال الشيخ الفوزان: «تنبيه هام: وعذاب القبر وسؤال الملكين ينالان كل من مات، ولو لم يدفن، فهو اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وسمي عذاب القبر باعتبار الغالب، فالمصلوب والمحرق والمغرق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما»[3].

موضوعات ذات صلة:

الإنسان، الحياة، العقل، القلب، النفس الوحي

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٤٩٩، رقم١٨٥٣٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري ٤/ ٣٥٣٩.

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان ص٢٧٧.

الرياء

عناصر الموضوع

مفهوم الرياء	٣٥٢
الرياء في الاستعمال القرآني	٣٥٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٥٤
مجالات الرياء ومظاهره	٣٥٦
عاقبة الرياء	٣٦٥
علاج الرياء	٣٦٨

مفهوم الرياء

أولًا: المعنى اللغوي:

الرياء من الرؤية مصدر من الفعل راءيته مراءاةً ورئاءً، وجذرها (رأي)، وبالكسر: أريته أنّي على خلاف ما أنا عليه[1]، وهو مهموز العين (رئاء)؛ لأنه من الرؤية، ويجوز تخفيفها بقلبها ياء، فنقول: رياء، واسترآه: استدعى رؤيته، وأريته إياه إراءً وراءيته مراءاةً ورئاءً: أريته على خلاف ما أنا عليه[2]، وفلان مراءٍ، وقوم مراؤون، والاسم الرياء، يقال: فعل ذلك سمعة ورياء، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾ [الماعون: ٦]. يعني المنافقين إذا صلى المؤمنون صلوا معهم ليروهم أنهم على ما هم عليه[3].

وقال الهروي وابن منظور: «المرائي يري الذي يراه أنه يفعل، ولا يفعل بالنية»[4].

فالرياء: إظهار فعل جميل ليراه الناس؛ -لذلك قيل: رياء، أو رئاء-، وبهدف حمد الناس لا رغبة في ثواب الله.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الرياء: ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه»[5].

وقيل: «الرّياء: وهو إظهار العمل للناس ليروه ويظنوا به خيرًا، فالعمل لغير اللّه نعوذ باللّه منه»[6].

وقال الغزالي: «الرياء طلب المنزلة في قلوب الناس بالعبادة»[7].

«وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس»[8].

فالرياء اصطلاحًا لا يختلف عن معناه اللغوي.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد، ٢/ ١٠٦٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/ ٣٤١.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٢٨٥.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٤٨، تاج العروس، الزبيدي ٣٨/ ١٠٥.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٢٣٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٠٢.
(٥) التعريفات ص١١٣.
(٦) المصباح المنير، الفيومي، ١/ ١٤٦.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٨٤.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ٢١٢.

الرياء في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ر أ ي) في القرآن الكريم (٣٢٨) مرة، وما يتعلق منها بموضوع الرياء (٥) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون: ٦]
المصدر	٣	﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]

وجاء الرياء في القرآن بمعناه في اللغة، والمراد به إظهار جميل الفعل رغبة في حمد الناس لا في ثواب الله تعالى[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٨٥.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٢٢٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ النفاق:

النفاق لغة:

والنفاق، بالكسر، فعل المنافق، والنفاق: الدخول في الإسلام من وجه والخروج من آخر، ونافق منافقة ونفاقًا، وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره[١].

النفاق اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني بقوله: «إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب»[٢].

الصلة بين الرياء والنفاق:

أن النفاق إظهار الإيمان مع إسرار الكفر، والرياء إظهار جميل الفعل رغبة في حمد الناس لا في ثواب الله تعالى[٣].

٢ الكذب:

الكذب لغة:

الكذب: خلاف الصدق، وكذب كذبًا، فهو كذاب وكذبة[٤].

الكذب اصطلاحًا:

إخبار عن المخبر به على خلاف ما هو به مع العلم بأنّه كذلك[٥].

الصلة بين الرياء والكذب:

يختلف الكذب عن الرياء، فالكذب خبر مخالف للواقع، بينما الرياء مخالفة النية لظاهر العمل.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٣٥٩.
(٢) التعريفات، ص٢٤٥.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص ٢٢٩.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٨١.
(٥) الكليات، الكفوي، ص٥٥٦.

٣ الإخلاص:

الإخلاص لغة:

مصدر خلص، والإخلاص: التوحيد لله خالصًا[١].

الإخلاص اصطلاحًا:

التعريف المناسب للإخلاص هو القيام للعمل ابتغاء وجه الله تعالى.

الصلة بين الرياء والإخلاص:

هما ضدان، فالرياء فعل الشيء ليراه الآخرون، أما الإخلاص فهو ترك الرياء.

٤ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: (أشرك بالله: كفر أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك)[٢]، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه[٣].

الصلة بين الرياء والشرك:

يعتبر الرياء من الشرك الخفي كما قال أهل العلم عنه[٤]، قال أبو السعود عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]: «إشراكًا جليًّا كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، ولا إشراكًا خفيًّا كما يفعله أهل الرياء ومن يطلب به أجرًا»[٥].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: (الرياء)[٦].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٧/ ٦٥.
(٢) تاج العروس، الزّبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.
(٣) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٣٧٥، البحر المديد، ابن عجيبة، ٣/ ٣١٤.
(٥) إرشاد العقل السليم، ٥/ ٢٥١.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٩/ ٣٩، رقم ٢٣٦٣٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٢٣، رقم ١٥٥٥.

مجالات الرياء ومظاهره

الرياء خلق ذميم يتصف به ضعاف الإيمان، يظهر على الإنسان بعلامات أهمها: النشاط في العمل ومضاعفة الجهد أمام الآخرين، والكسل والتقصير إذا بعد الإنسان عن الناس.

وإلى هاتين السمتين يشير سيدنا على رضى الله تعالى عنه: فيقول: (للمرائي علامات: كسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم)[1].

وقد حذر الإسلام من هذه الصفة الذميمة، وبين عواقبها، ونفَّر منها في جميع مجالاتها، سواء كانت في العبادات أو الصدقات أو الجهاد في سبيل الله، فكل ذلك منهي عنه ويبطل الأعمال، وسوف نتناول هذه المجالات بشيء من التفصيل بإذنه تعالى.

أولًا: الرياء في العبادات:

خلق الله عز وجل الإنسان لغاية كريمة، واستخلفه في الأرض، وكرمه على سائر مخلوقاته بالعقل؛ ليقوم بهذا الهدف الأسمى، وهو العبادة، قال المولى عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالعبادة هدف سامي يقوم بها الإنسان طاعة لله عز وجل وإرضاءً وتقربًا له تبارك وتعالى، وحتى تقبل العبادة من العبد ينبغي أن يكون مخلصًا فيها لله عز وجل، بعيدًا عن الرياء، فالإخلاص واجب في الطاعات حتى تقبل، وقد جاءت النصوص المتضافرة في الكتاب والسنة لتبين أهمية الإخلاص، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)[2].

وقصة الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة[3].

والرياء ينافي الإخلاص لله عز وجل، فالرياء شعبة من شعب النفاق؛ وصفة ملازمة للمنافقين.

وقد بين لنا ذلك القرآن الكريم الرياء

(١) انظر: آفات على الطريق، محمد نوح، ٢/ ٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، ٤/ ٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥.

(٣) انظر: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥.

في العبادة، وأنها من صفات المنافقين في أكثر من موضع، قال المولى عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

فمن صفاتهم، أنهم يأخذون من الدين ما سهل عليهم، أو ما فيه مصلحتهم، ولا يفعلون ذلك لوجه الله بل رياءً للمؤمنين، وإذا أدّوا شيئًا من العبادات فإنما يستكرهون أنفسهم عليه، ويؤدونه بتكاسل وتثاقل، هذا ديدنهم؛ لذا عبر الله عز وجل عن رياءهم بالفعل المضارع (يراؤون) الذي يفيد الاستمرار، فأعمالهم كلها رياء وسمعة، لا لمرضاة الله عز وجل.

هكذا هم المنافقون لهم علامات يعرفون بها، من أوضحها وأبرزها الرياء، فلهم عبادةٌ يعبدون الله بها في بيوتهم، ولهم عبادة يعبدون الله بها أمام الناس، أساس مواقفهم الرياء، وقعد بهم الكسل عمّا أمروا من أوامر، فأصبح الإخلاص عليهم ثقيلًا.

ففي صحيح الحديث (إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا)[1]، فإن العتمة تأتي وقد أتعبهم عمل النهار فيثقل عليهم القيام إليها، وصلاة الصبح تأتي والنوم أحب إليهم من أن يقوم للصلاة؛ لأن صلاتهم لأجل الناس، لا طاعة لله عز وجل.

لذلك توعدهم الله عز وجل فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ يعني المنافقين[2]، فقد نزلت فيهم، ثم نعتهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ فهم لا يرجون بصلاتهم ثوابًا إن صلوا، ولا يخافون عليها عقابًا إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، ثم وصفهم الله عز وجل فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾﴾ فهم يراؤون المؤمنين في صلاتهم، أو يراءون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليثنوا عليهم[3].

والمرائي يتحبب ويتقرب إلى العباد، ويبتعد من الله عز وجل، وهذا ما أشار إليه الإمام ابن الجوزي بقوله: «وقد لبس إبليس على جماعة من قوام الليل فتحدثوا بذلك بالنهار فربما قال أحدهم فلان المؤذن أذن بوقت ليعلم الناس أنه كان متنبهًا، فأقل ما في هذا إن سلم من الرياء أن ينقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فيقل الثواب تلبيسه عليهم في القرآن، وقد لبس على آخرين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، ١/ ٤٥١، رقم ٦٥١.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٤٧٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي، ٢٠/ ٢١١، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٤٧٨، التفسير المظهري، محمد ثناء الله، ١٠/ ٣٤٩، فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٦١٢.

انفردوا في المساجد للصلاة والتعبد فعرفوا بذلك، واجتمع اليهم ناس فصلوا بصلاتهم وشاع بين الناس حالهم وذلك من دسائس إبليس وبه تقوى النفس على التعبد لعلمها أن ذلك يشيع ويوجب المدح»[1].

واعتبر النبي صلى الله عليه وسلم الرياء في العبادة أشد خطرًا من فتنة المسيح الدجال، فقد جاء عن أبي سعيدٍ، قال: (خرج علينا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر المسيح الدّجّال، فقال: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدّجّال؟) قال: قلنا: بلى، فقال: (الشّرك الخفيّ، أن يقوم الرّجل يصلّي، فيزيّن صلاته، لما يرى من نظر رجلٍ)[2].

فالمرائي يظهر ما ليس في قلبه من زيادة خشوع؛ ليعتقد فيه من يراه أنه متدين، والرياء يبطل العمل فلا ينتفع به صاحبه يوم القيامة. والدوافع للرياء في العبادة بينها لنا الإمام الغزالي رحمه الله فقال: «وإنما يبتلي به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم، فوجدت مخلصًا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في التقريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركة دعائه وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين»[3].

وللرياء ثلاثة أوجه حين يتصل بالعبادة، أشار إليها الإمام ابن القيم في جوابه على من يعمل العمل لله ولغيره، فلا يكون لله محضًا ولا للناس محضًا، هل يبطل العمل كله أم يبطل ما كان لغير الله ويصح ما كان

(١) تلبيس إبليس، ص ١٧٤.
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، ٢/ ١٤٠٦، رقم ٤٢٠٤. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٠٩، رقم ٢٦٠٧.
(٣) إحياء علوم الدين، ٣/ ٢٧٥.

لله؟ فأجاب ابن القيم رحمه الله:

الوجه الأول: أن يكون الباعث لله، ثم يعرض له الرياء في أثناء العمل، فهذا المعول فيه على الباعث الأول ما لم يفسخه بإرادة جازمة لغير الله فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها، أي ترك استصحاب حكمها.

الوجه الثاني: أن يكون الباعث الأول لغير الله، ثم يعرض له قلب النية لله، فهذا لا يحتسب له بما مضى من العمل، ويحتسب له من حين قلب نيته؛ فإذا كانت العبادة لا يصح آخرها إلا بصحة أولها وجبت الإعادة، كالصلاة، وإلا لم تجب كمن أحرم لغير الله ثم قلب نيته لله عند الوقوف والطواف.

الوجه الثالث: أن يبدأ العبادة لله والناس، فيريد أداء فرضه والجزاء والشكور من الناس، كمن يحج ليسقط الفرض عنه ويقال فلان حج، فهذا لا يقبل منه العمل؛ لأن حقيقة الإخلاص التي هي شرط في صحة العمل والثواب عليه لم توجد، والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدمه[1]، ودل على ذلك أيضًا ما ورد أن «رجلًا جاء إلى عبادة بن الصامت رضي الله عنه فقال: أنبئني عما أسألك عنه، أرأيت رجلًا يصلي يبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويصوم يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويحج يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد. فقال عبادة: ليس له شيء»[2].

وذكر ذلك ابن رجب فقال رحمه الله «اعلم أن العمل لغير الله أقسام؛ فتارة يكون رياء محضًا؛ كحال المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها؛ فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله؛ فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه، وأما إن كان العمل لله وطرأ عليه نية الرياء؛ فإن كان خاطرًا ثم دفعه؛ فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه؛ فهل يحبط عمله أو لا؛ فيجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجّحا أن عمله لا يبطل بذلك»[3].

وليس من الرياء أن يسرّ الإنسان بفعل الطاعة؛ لأن ذلك دليل إيمانه، قال النبي

(١) انظر: إعلام الموقعين، ٢/ ١٢٥.

(٢) انظر: ذم الرياء في الأعمال، الحسن الضراب، ص١٠٥.

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان، ١/ ١٢١.

صلى الله عليه وسلم: (من سرّته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن)[1].

والرياء قد يقع من المسلم في أي عبادة يقوم به قاصدًا بها الحمد والشكر من الناس لا ثواب الخالق عز وجل، ومن ذلك العالم وقارئ القرآن، فقد جاء في أحاديث كثيرة فضل العلم والعلماء، خاصة تعلم القرآن، قال عليه السلام: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[2]، لكن العالم أو قارئ القرآن إذا كانت نيته غير خالصة لله عز وجل، وكان القصد الرياء والسمعة فكان جزاؤه النار والعياذ بالله، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه...، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار...)[3].

وقال عليه السلام: (من تعلّم علمًا ممّا يبتغى به وجه اللّه، لا يتعلّمه إلّا ليصيب به عرضًا من الدّنيا، لم يجد عرف الجنّة يوم القيامة)[4].

فعلى الإنسان أن يكون شديد الحذر، ويراقب نفسه؛ خوف الوقوع في الرياء، وأن يجدد النية الخالصة لله عز وجل، وأن يحذر المنافقين وصحبتهم لينجوا بنفسه، ويفوز برضا الله عز وجل.

ثانيًا: الرياء في الصدقات:

قد ينفق الإنسان في سبيل الله عز وجل، لكنه لا ينال الأجر والثواب من الله تعالى، فهذا هو المرائي الذي يريد بظاهر عمله غير الباطن.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ففي هذه الآية يخاطب الله عز وجل المؤمنين قائلًا لهم لا تُذهبُوا أجر صدقاتكم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، ٤/ ٤٦٥ رقم ٢١٦٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٩، رقم ٢٥٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ٤/ ١٩١٩، رقم ٤٧٣٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٣ رقم ١٩٠٥.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ١/ ٩٢، رقم ٢٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٦٠، رقم ٦١٥٩.

بالمن والأذى، فالصدقة التي يعلم من صاحبها أنه يمن أو يؤذي الفقير بها، لا تقبل منه، وقيل: إنّ المن والأذى دليل على أن نيته لم تكن خالصة، فلذلك بطلت صدقته، كإبطال المنافق الذي يرائي بإنفاقه فيظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة؛ ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فالرياء يبطل الصدقة، ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين، لكن من فعل المنافقين لأن الكافر معلن بكفره غير مراء به، فمثل هذا المرائي بصدقته وسائر أعماله كمثل الحجر الأملس الصلب وعليه تراب فأصابه المطر الشديد العظيم القطر، فتركه أملس لا شيء عليه من ذلك التراب، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن المنان بصدقته يؤذي الناس، يرى الناس أن لهؤلاء أعمالًا في الظاهر، كما يرى التراب على الصفوان فإذا جاء المطر أذهبه وأزاله، وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة، تبطل أعمالهم وتضمحل؛ لأنها لم تكن لله تعالى كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب، والله لا يهدي القوم الكافرين إلى الخير والرشاد، وفيه تعريض بأن الرئاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها[1].

وقد بين المولى عز وجل في محكم كتابه أن صفة الرياء إنما هي من تزيين الشيطان، فمن اتصف بها فقد اتبع خطوات الشيطان، فيكون مصيره النار وبئس المصير، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء: ٣٨].

فالآية نزلت في المنافقين، الذين كان انفاقهم رياءً وسمعةً، فقوله (رياء) مفعول له، للإنفاق، يعني ينفقون لأجل أن يراهم الناس ويقولوا ما أجودهم، فالمراؤون يتحرّون بإنفاقهم رضى الناس، والإنفاق رياء كفر وشرك خفيّ؛ لذلك عطف عليه قوله ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[2]، وكان الشيطان قرينهم لا يفارقهم.

والمعنى من يكن عمله بما سول له الشيطان فبئس العمل عمله، وقيل هذا في الآخرة يجعل الله الشياطين قرناءهم في النار يقرن مع كل كافر شيطان في سلسلة من

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٩٤، أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٥٨، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١٣٤، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٢٠٠.

(٢) انظر: التفسير المظهري، ٢/ ١٠٦، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٥٢، مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ٧٩.

النار[1].

ومع ذلك لا ينبغي للعبد أن يترك التصدق أو العمل الصالح خوف الرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، قال الفضيل بن عياض: ترك العمل بسبب الخلق رياء، وفعله لأجل الخلق شرك[2].

وقال عليه السلام مبينًا جزاء من ينفق رياء وسمعة: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد...، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار)[3].

كما وجاءت الآيات صريحة الدلالة في تفضيل الصدقة سرًّا بعدًا عن الرياء، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

فالآية الكريمة ظاهرة في تفضيل صدقة السّر على صدقة العلانية، وذهب جمهور المفسرين في تفسير هذه الآية: إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، فكتمان صدقة التطوع وإخفائها أفضل من إظهارها، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها؛ لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات والفرائض، فيجب إظهار الفرائض من الصلاة والزكاة؛ لأنها شعائر الإسلام وتاركها مستحق للعن فيجب نفي التهمة بالإظهار، فالإظهار فيها أفضل، قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفًا، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها[4].

فالأعمال والعبادات الخفيّة، والطاعة في الخلوات، تفضل الأعمال الجليّة غير الفرائض الظّاهرة، فضلًا عظيمًا، وتحميه من أدران الرّياء، والتّطلع لحبّ الثناء من الناس، وقد جاء التّوجيه عن السلف الصالح

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٧٥، البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ٥٠٤، محاسن التأويل، القاسمي، ٣/ ١١٠.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ٤/ ٨٣٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٣٢، أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٦٠، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٢٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٢/ ٣٠٤.

بحثّ العبد المؤمن على أن يكون له عبادة في السّر، فعن الزّبير بن العوام رضي الله عنه قال: (من استطاع منكم أن يكون له خبءٌ من عملٍ صالحٍ فليفعل)[1].

وقد مدح الله عز وجل المنفقين المخلصين في عبادتهم إياه على كل الأحوال فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

فقدّم تعالى صدقة السّرّ عن العلانية، وصدقة اللّيل عن النّهار لخفائهما، وبعدهما عن الرّياء والمباهاة، وحظوظ النّفس المريضة.

وجاء من السّبعة الذين يظلّهم الله عز وجل يوم القيامة في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه في قوله عليه السلام: (رجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[2].

والعمل في السر يقطع الطريق على الشيطان في الرياء، كما قال عقبة بن عبد الغافر: «إذا عمل العبد في السر عملًا حسنًا، ثم عمل في العلانية مثله قال الله تعالى هذا عبدي حقًّا»[3].

لهذا وجب على الإنسان أن يراقب نفسه، ويحاسبها، وأن يكون متيقظًا، ويسد منافذ الشيطان ووساوسه التي تؤدي به إلى النار وبئس المصير.

ثالثًا: الرياء في الجهاد:

إن الإخلاص في العمل شرط من شروط قبول العمل، ونيل الأجر والثواب من الله عز وجل، ومن الطاعات التي يتقرب بها العبد من خالقه تبارك وتعالى الجهاد في سبيله، وقد عبر عنه بالقول (في سبيله) دليل على أن أساس قبوله النية الخالصة، وهناك من الآيات والأحاديث التي جاءت تنهى عن الرياء في الجهاد، وتبين ذهاب أجر المرائي.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٤٧].

فقد نهى الله عز وجل عن الخروج للجهاد بطرًا ورئاء الناس، والبطر هو الطغيان في النعمة وترك شكرها، والرياء المباهاة والتصنع وإظهار الجميل ليراه الناس مع إبطال القبيح[4].

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٧/ ١١٦، رقم ٣٤٦٢٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، ٢/ ٥١٧، رقم ١٣٥٧.
(٣) أخجه البيهقي في شعب الإيمان، ٩/ ٢١٢.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٥٣٧، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣١٧.

«حذرهم بالنهى عن التنازع واختلاف الرأى نحو ما وقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من فشلهم وذهاب ريحهم، كالذين خرجوا من ديارهم هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير، فأتاهم رسول أبى سفيان وهم بالجحفة: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدرًا نشرب بها الخمور، وتعزف علينا القيان، ونطعم بها من حضرنا من العرب، فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم، فوافوها، فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله عز وجل، مخلصين أعمالهم لله»[1].

وجاءت الأحاديث تحذر من هذه الصفة الذميمة وتبين عاقبة من خرج للقتال رياءً، فورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)[2].

وجاء عن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «قال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا حتى نزلت ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]»[4].

(١) الكشاف، ٢/ ٢٢٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ٣/ ١٠٣٤، رقم ٢٦٥٥.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ١٢٢- رقم ٢٥٢٧.
قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ومسلم.

عاقبة الرياء

الرياء من السجايا الذميمة، والخلال المقيتة، الدالّة على ضعة النفس، وسقم الضمير، إذ هو الوسيلة الخادعة التي يتخذها المتلونون والمنحرفون ذريعة لأهدافهم ومآربهم دونما خجل واستحياء من هوانها ومناقضتها لصميم الدين والكرامة، وحسب المرائي ذمًّا أنه اقترف جرمين عظيمين: الجرم الأول: أنه تحدّى اللّه تبارك وتعالى، والجرم الثاني: أنه استخف بجلال المولى عز وجل، بإيثار عباده عليه في الزلفى والتقرب، ومخادعة الناس والتلبس عليهم بالنفاق والرياء.

ومع ذلك نجد المرائي حليف الهم والعناء، يستهوي قلوب الناس، ويتملق رضاهم، ورضى الناس غاية لا تنال، فيعود بعد طول المعاناة خائبًا، شقيًّا، سليب الكرامة والدين.

ومن الثابت أنّ سوء السريرة سرعان ما ينعكس على المرء، ويكشف واقعه، ويبوء بالفضيحة والخسران، نعوذ بالله من هذه الصفة.

فإن من أبرز آثار الرياء وعواقبه فقدان الأجر والثواب من الله عز وجل؛ لأن المرائي قد فقد أهم شرط لقبول الأعمال وهو إخلاص العمل لله عز وجل، فهو يريد بعمله الحمد من الناس على أعماله، لا الثواب من الله عز وجل، وقد جاءت الآيات والأحاديث مجتمعة على محق ثواب المرائي وبطلان عمله.

وقد بين المولى عز وجل في آيات عديدة قبح الرياء، وبطلان أعمال المرائين عند الله عز وجل يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قال المفسرون في معنى قوله تعالى: لا تبطلوا صدقاتكم: إنّ الصدقة التي يعلم من صاحبها أنه يمن أو يؤذي لا تقبل منه، أو أن ثوابها يمحقه الله عز وجل [(١)].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود: ١٥-١٦].

نزلت هذه الآية في كل من عمل عملًا وأراد به غير الله عز وجل [(٢)].

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١٣٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ٢/ ٤١٨،

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «هم أهل الرياء، يقال للقراء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك، ولمن وصل الرحمن وتصدّق: فعلت حتى يقال فقيل، ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء، فقد قيل»[1].

ويؤيد ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار)[2].

«وعن ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرًا، يقول: من عمل صالحًا التماس الدنيا، صومًا أو صلاة أو تهجدًا بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين»[3].

فجزاء المرائي ألا يقبل عمله في الآخرة، ويعتبر باطل لا ثواب عليه، لكنه يعطى أجره في الدنيا فمن عمل عملًا صالحًا في غير تقوى أعطى على ذلك أجرًا في الدنيا، فمن يصل رحمًا، أو يعطي سائلًا، أو يرحم مضطرًا، أو نحو ذلك من أعمال البر، فالله يجعل ثواب عمله في الدنيا بأن يوسع عليه في المعيشة والرزق، ويدفع عنه المكاره في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾، والعياذ بالله.

وقال الله عز وجل في أعمال المرائيين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ١٣٠، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٧٦.

(١) الكشاف، ٢/ ٣٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣١١.

وهباءً أي: باطلًا لا ثواب له؛ لفوات شرط الثواب عليه من الإيمان والإخلاص لله[1].

وقد توعد الله عز وجل المرائين بالويل؛ فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾، والويل هو العذاب لهم، أو الهلاك، أو واد في جهنم ذال هو مصيرهم[2].

وكما قلنا فالرياء شعبة من شعب النفاق، فالمنافقين إنما يعبدون الله عز وجل رياءً وسمعة؛ لذا لا تقبل منهم أبدًا، قال الله عز وجل في حديثه عن المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ۝٥٤﴾ [التوبة: ٥٤].

فهم لا يرجون ثوابًا ولا يخافون بتركها عقابًا، فهم يصلون ويعطون الزكاة ذلك رياء ونفاقًا[3].

وقد أوضح ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم وأكد أن الأعمال التي يقوم بها المرائي لا تنفعه يوم القيامة، ويقال له اذهب إلى من كنت ترائي فيه فالتمس عنده الثواب، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر) قالوا: وما الشّرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: (الرّياء، يقول الله عزّ وجلّ لهم يوم القيامة: إذا جزي النّاس بأعمالهم: اذهبوا إلى الّذين كنتم تراءون في الدّنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً)[4].

وفي النهاية فإن المرائي يفضحه الله في الدنيا وعلى رؤوس الأشهاد يوم القيامة، ذلك أن المرائي إنما يقصد بعمله هذا خداع غيره ليعطيه هذا الغير زمامه، وليسلم إليه قياده، ويأبى الله عز وجل ذلك نظرًا لما يمكن أن يصنعه هذا المرائي أو المسمع من إفساد في الأرض وإهلاك للحرث و النسل.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

لذا فإنه يفضحه في الدنيا، حتى يحذره الناس، ولا يغتروا به، أما في الآخرة فإن الفضيحة تكون مزيدًا من الانتقام والعذاب[5].

(١) انظر: التفسير المظهري، ٧/ ٢٠.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٦١٢.
(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٣٩٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٩/ ٣٩، رقم ٢٣٦٣٠.
وجود إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٦٣٤.
(٥) انظر: آفات على الطريق، محمد نوح، ٢/ ١٠.

علاج الرياء

الرياء خلق ذميم حذر منه الإسلام، وبين عاقبته، وبين لنا طرق علاجه، ولا يطلب العلاج إلا من أحس بالداء، قال يونس بن عبيد: «لا يزال العبد بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله»[(١)]، وأول طرق العلاج من هذه الصفة الذميمة هو الإخلاص.

وهناك العديد من الآيات والأحاديث، وما جاء من الآثار التي تبين فضل الإخلاص في الأعمال والطاعات والقيام بها في الخفاء.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

فالآية الكريمة ظاهرة في تفضيل صدقة السّر على صدقة العلانية، وذهب جمهور المفسرين في تفسير هذه الآية: إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، فكتمان صدقة التطوع وإخفاؤها أفضل من إظهارها، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها؛ لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات والفرائض، فيجب إظهار الفرائض من الصلاة والزكاة؛ لأنها شعائر الإسلام وتاركها مستحق للعن؛ فيجب نفي التهمة بالإظهار، فالإظهار فيها أفضل، قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفًا، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها[(٢)].

وقد مدح الله عز وجل المخلصين في عبادتهم إياه على كل الأحوال فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

فقدّم تعالى صدقة السّرّ عن العلانية، وصدقة اللّيل عن النّهار لخفائهما، وبعدهما عن الرّياء والمباهاة، وحظوظ النّفس المريضة.

وجاء من السّبعة الذين يظلّهم الله عز وجل يوم القيامة في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه في قوله عليه السلام: (رجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[(٣)].

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٩/ ١٨٩، رقم ٦٤٨٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٣٢، أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٦٠، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٢٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٢/ ٣٠٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة،

والعمل في السر يقطع الطريق على الشيطان في الرياء، كما قال عقبة بن عبد الغافر: «إذا عمل العبد عملًا في السر، عمل حسنًا، ثم عمل في العلانية مثله قال الله تعالى هذا عبدي حقًا»[(١)].

وقال الثوري عن زيد: «إذا كانت سريرة الرجل أفضل من علانيته، فذلك الفضل، وإذا كانت سريرة الرجل وعلانيته سواء، فذلك النصف، وإذا كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور»[(٢)].

وجاء عن الفضيل أنه كان يقول: «خير العمل أخفاه، وأمنعه من الشّيطان، وأبعده من الرّياء»[(٣)].

ومع ذلك لا ينبغي للعبد أن يترك العمل خوف الرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، قال الفضيل بن عياض: ترك العمل بسبب الخلق رياء، وفعله لأجل الخلق شرك[(٤)].

فالأعمال والعبادات الخفيّة، والطاعة في الخلوات، تفضل الأعمال الجليّة غير الفرائض الظّاهرة، فضلًا عظيمًا، وتحميه من أدران الرّياء، والتّطلع لحبّ الثناء من الناس، وقد جاء التّوجيه عن السلف الصالح بحثّ العبد المؤمن على أن يكون له عبادة في السّر، فعن الزّبير بن العوام رضي الله عنه قال: «من استطاع منكم أن يكون له خبءٌ من عملٍ صالحٍ فليفعل»[(٥)].

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الشرك، الصدق، الكفر، النفاق

باب الصدقة باليمين، ٢/ ٥١٧، رقم ١٣٥٧.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٩/ ٢١٢.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٩/ ٢٢٨.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٩/ ١٩٣.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ٤/ ٨٣٦.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ٧/ ١١٦، رقم ٣٤٦٢٥.

الرياح

عناصر الموضوع

مفهوم الرياح	٨
الرياح في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
الرياح آية من آيات الله	١١
صفات الرياح	١٤
منافع الرياح	١٩
الرياح جند من جنود الله تعالى	٢٧
الرياح في المثل القرآني	٣١

مفهوم الرياح

أولًا: المعنى اللغوي:

إن أصل الياء في كلمة الريح واوٌ (روح)، ثم قلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، وأصل مادة (ر و ح) تدل على سعة وفسحة واطراد[١].

والريح: نسيم الهواء، وكذلك نسيم كل شيء[٢]، وهي مؤنثة وتصغيرها رويحة، والريح مفرد، ويجمع تكسيرًا في الكثرة على رياح، وفي القلة على أرواح[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، الذي يعني: الهواء المتحرك[٤].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٥٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ١٣٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢١.

الرياح في الاستعمال القرآني

وردت (الريح) في القرآن الكريم (٢٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
مفرد	١٩	﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:١٢]
جمع	١٠	﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧]

وجاءت الريح في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

أحدها: الشدة والقوة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]، يعني: قوتكم وشدتكم.

الثاني: ريح العذاب: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر:١٩]، يعني: عذابًا.

الثالث: ريح الخير والرحمة، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم:٤٦].

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٣٢٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٥٩٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الهواء:

الهواء لغة:

هو الجو ما بين السماء والأرض، والجمع الأهوية[١].

الهواء اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، ويمكن أن يعرف تعريفًا علميًّا ويقال: غاز يغلف الكرة الأرضية ويتكون من الأزوت والأكسجين وغازات قليلة أخرى والجو[٢].

الصلة بين الهواء والريح:

الهواء أصل الرياح؛ إلا أنه ساكن في مكانه فمتى ما تحرك صار رياحًا أو ريحًا.

٢ الإعصار:

الإعصار لغة:

قال الزجاج: «الإعصار الرياح التي تهب من الأرض وتثير الغبار فترتفع كالعمود إلى نحو السماء، وهي التي تسميها الناس الزوبعة، وهي ريح شديدة لا يقال لها إعصار حتى تهب كذلك بشدة»[٣].

الإعصار اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، يقول الزمخشري عن معنى لفظ الإعصار: «هي الريح التي تستدير في الأرض، ثم تسطع نحو السماء كالعمود»[٤]. ويقول الطوسي أيضًا: «الإعصار: غبار يلتف بين السماء والأرض كالتفاف الثوب في العصير»[٥].

الصلة بين الإعصار والريح:

الإعصار نوع من أنواع الرياح القوية، وليس كل ريح إعصارًا.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٧٠.
(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٠١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٧٨.
(٤) الكشاف ١/ ٣٤١.
(٥) التبيان في تفسير القرآن ٢/ ٣٤٢.

الرياح آية من آيات الله

لله عز وجل في هذا الكون آيات كثيرة لا تعد ولا تحصى، تدل دلالةً واضحةً على وحدانيته وقدرته وعظمته وحكمته، ومن هذه الآيات آية الريح، وهي خاضعة لأمر الله وتقديره، فهو المتصرف في أحوالها، ومن تلك الأحوال:

١. إرسال الرياح.

قال عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم:٤٦].

أي: ومن دلالات بديع قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر لأنها تتقدمه[(١)].

ويذكر تعالى نعمه على خلقه في إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، أي: المطر الذي ينزّله فيحيي به العباد والبلاد[(٢)].

ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى وأنه الإله المعبود والملك المحمود، ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ أمام المطر ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بإثارتها للسحاب ثم جمعها فتبشّر بذلك النفوس قبل نزوله[(٣)].

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف:٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان:٤٨].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ءَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل:٦٣].

٢. إسكان الرياح.

قال عز وجل: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى:٣٣].

فمن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه، تسخيره البحر؛ لتجري فيه الفلك بأمره وهي: الجواري في البحر كالأعلام، أي: كالجبال، قاله مجاهد والحسن والسدي والضحاك، أي: هذه في البحر كالجبال في البر، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ أي: التي تسير في البحر بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، أي: على وجه الماء، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: إن في تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالات على نعمه

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦٤، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٨٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤٣.

تعالى على خلقه، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء[1].

وإنها لتركد أحيانا فتهمد هذه الجواري، وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في إجرائهن وفي ركودهن على السواء آيات لكل صبار شكور، والصبر والشكر كثيرًا ما يقترنان في القرآن، الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء وهما قوام النفس المؤمنة في الضراء والسراء[2].

فما شاء الله كان، وسبحان من جعل في ذلك آيةً، وما يذكر إلا من وفقه الله.

٣. تصريف الرياح.

قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الجاثية:٣-٥].

وزعم بعض أهل العربية أنّ معنى قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾، أنها تأتي مرّة جنوبًا وشمالًا وقبولًا ودبورًا، ثم قال: وذلك تصريفها[3]، وهذه الصفة التي وصف الرياح بها، صفة تصرّفها لا صفة تصريفها، لأن (تصريفها) تصريف الله لها، (وتصرّفها) اختلاف هبوبها.

وقد يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾، تصريف الله تعالى ذكره هبوب الريح باختلاف مهابّها... فأما معنى قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾، فإنه علامات ودلالاتٌ على أن خالق ذلك كلّه ومنشئه، إله واحدٌ لمن عقل مواضع الحجج، وفهم عن الله أدلته على وحدانيته، فأعلم تعالى ذكره عباده، بأنّ الأدلة والحجج إنما وضعت معتبرًا لذوي العقول والتمييز، دون غيرهم من الخلق، إذ كانوا هم المخصوصين بالأمر والنهي، والمكلفين بالطاعة والعبادة، ولهم الثواب، وعليهم العقاب[4].

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ فهذه العبارة الموجزة في كلماتها وراءها حقائق علمية رائعة، فهذه الرياح التي هي الهواء المتحرك فوق غلاف الأرض الجوي إنما تتحرك بتأثير حرارة الشمس التي تجعله يخف

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٩١، وانظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٧١.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٥٩.
(٣) انظر: ما قاله الفراء في معاني القرآن ١/ ٩٧.
(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٧٦.

ويرتفع ويحل محله هواء بارد ثقيل يندفع نحو منطقة الضغط المنخفض بنظام دقيق، فيه تصريف للرياح وتوجيه لها في هبوبها من مكان إلى مكان معين، وينشأ عن حركة الرياح نتائج لها أهميتها في حياة الناس فهي تسوق السحاب المطرة إلى الأرض المجدبة، وتساعد السفن الشراعية في سيرها، وتحمل اللقاح إلى النباتات النامية وتوزع الحرارة والبرودة في دورات منتظمة على الأرض وغير ذلك من حكمة الله في تصريف الرياح... وقد أثبت العلم الدورة الهوائية على سطح الكرة الأرضية وكيف يكون تصريفها من جهة إلى أخرى[1].

ويرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة... وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقا لأن به يحصل الرزق فأحيا به الأرض بعد موتها أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء[2].

وذكر جل وعلا في هذه الآيات الكريمة، من أول سورة الجاثية ستة براهين، من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته:

الأول: منها خلقه السماوات والأرض.

الثاني: خلقه الناس.

الثالث: خلقه الدواب.

الرابع: اختلاف الليل والنهار.

الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.

السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين، إنما ينتفع بها المؤمنون، الموقنون الذين يعقلون عن الله حججه، وآياته؛ فكأنهم هم المختصون بها دون غيرهم؛ ولذا قال: ﴿لَآيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

وهذه البراهين الستة المذكورة في أول هذه السورة الكريمة، جاءت موضحة في آيات كثيرة جدًا كما هو معلوم[3].

وهذا يدل دلالةً واضحةً على أن الرياح آية عظيمة وجند قوي من جنود الله تعالى.

وفي الرياح من العبر: هبوبها وسكونها ولينها وشدتها واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابّها وتصريفها وتنوع منافعها وشدة الحاجة إليها... وهي مع غاية قوتها ألطف شيء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثّر والتأثير، لطيفة المسارق بين السماء والأرض، إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها الله سبحانه

(١) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ١/ ٩٥، موسوعة الإعجاز العلمي، النابلسي ٢/ ٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٣.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٧٩.

إذا شاء ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الآذان والرائحة إلى الأنف والسحاب إلى الأرض الجزر، وهي من روح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب، وهي أقوى خلق الله كما رواه الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لما خلق الله الأرض جعلت تميد؛ فخلق الجبال فقال بها عليها فاستقرت؛ فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله)[1]... والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته[2].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، الباب الأخير، ٥/ ٣١٤، رقم ٣٣٦٩.
وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم ١٩٢٣.
(٢) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص ١٧٣.

صفات الرياح

ذكر العلماء كما تقدم معنا حالات للرياح إذا كانت ملازمةً لها سميت باسمها، وقد وردت في ثنايا القرآن الكريم صفات خاصة بعضها للرياح و البعض الآخر للريح، ويمكن أن نتحدث عنها كما يلي:

أولًا: صفات الرياح:

١. المبشرات.

وأصل البشارة الخبر السار والبشور من الرياح التي تبشر بالمطر[3]، فهو الخبر الصدق السار الذي ليس عند المخبر به علمه، ووجود المبشر به وقت البشارة ليس بلازم[4].

وقد مر معنا ذلك كقوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم:٤٦].

وقوله عز وجل: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ءَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل:٦٣].

فالبشر جمع البشير؛ لأن الريح تبشر بإتيان المطر بعدها فهي بشير المطر... فإجراء الريح وانتشارها من ههنا وهاهنا أمام

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥٨.
(٤) الكليات، الكفوي ص٣٥٥.

المطر مبشرة به من غرائب صنعه وعجائبه، ومن عظائم نعمه على خلقه[1].

٢. الذاريات.

وذرّته الريح تذروه وتذريه[2]، يعني: الرياح تذرو التربة وغيره[3].

وقد ورد ذكرها في قوله عز وجل: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾ [الذاريات:١].

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تذروا، في هبوبها ﴿ذَرْوًا﴾ بلينها، ولطفها، ولطفها وقوتها، وإزعاجها[4].

وبيّن أن هذا الذّرو من فعل الرياح فقال عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف:٤٥].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾ يا محمد للناس ﴿مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها، ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، أي: ما فيها من الحب، فشبّ وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله أصبح هشيمًا يابسًا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾، أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال[5].

(١) العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٤١٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٢٧.
(٣) الكليات، الكفوي ص٧٣١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٠٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٥.

ثانيًا: صفات الريح:

١. صرصر.

وريح صرصر شديدة البرد وشديدة الصوت معًا[6].

وقد جاء ذكرها في قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت:١٦].

واختلف أهل التأويل في معنى الصرصر، فقال بعضهم: عني بذلك أنها ريح شديدة... وقال آخرون: بل عني بها أنها باردة... وأولى القولين في ذلك بالصواب قول مجاهد، وذلك أن قوله: ﴿صَرْصَرًا﴾ إنما هو صوت الريح إذا هبت بشدة، فسمع لها[7].

وكذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ [القمر:١٩]، أي: شديدةً جدًّا[8].

وقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة:٦]، أي: شديدة العصوف والبرد عاتية أي: متجاوزة الحد المعروف في الهبوب والبرودة[9]، فظهر أن أهم معنى لهذه الصفة هو الشدة.

(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٨٢، الكليات، الكفوي ص٨٩٤.
(٧) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٤.
(٨) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢٦.
(٩) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٣٠٩.

٢. عاصف.

عصفت الريح تعصف عصوفًا وأعصفت وهي عاصف وعاصفة: اشتدت[١].

وورد ذكر الريح بهذه الصفة في قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته، ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾، أي: بسرعة سيرهم رافقين فبينما هم كذلك؛ إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي: تلك السفن، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، أي: شديدة، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾[٢].

وقوله عز وجل: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم:١٨].

ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها، ولا الانتفاع به أصلًا، يجسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددًا[٣].

وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء:٨١]

والمعنى: وسخّرنا لسليمان الريح عاصفةً أي: شديدة الهبوب تجري بأمره يعني: بأمر سليمان إلى الأرض الّتي باركنا فيها وهي أرض الشام... والمعنى: أنها كانت تسير به إلى حيث شاء، ثم تعود به إلى منزله بالشام[٤].

٣. قاصف.

انقصف الشيء انكسر وبان[٥]، والقاصف الريح الشديدة التي تقصف الشجرة وتكسرها، وكذلك البناء وغيره[٦].

وقد ورد ذكر هذه الصفة للريح في قوله عز وجل: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً

(١) انظر: المخصص، ابن سيده ٢/ ٤١٥، الكليات، الكفوي ص١٠٤٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٦.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٤٩.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٠٤.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٤٠.
(٦) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٢٩٠، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٨٣.

أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ [الإسراء:٦٨-٦٩].

أي: يقوي دواعيكم لركوب البحر تارة أخرى؛ فيرسل عليكم قاصفا من الريح، أي: ريحا شديدة لا تمر بشيء إلا قصفته؛ فتكسر السفينة وسط البحر فيغرقكم بما كفرتم[١].

٤. مصفرًّا.

الصّفرة: لونٌ من الألوان التي بين السّواد والبياض، وهي إلى السّواد أقرب، ولذلك قد يعبّر بها عن السّواد[٢].

ووردت هذه الصفة للريح في قوله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الروم:٥١].

يقول تعالى: ولئن أرسلنا ريحا يابسة على الزرع الذي زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه مصفرا، أي قد اصفر وشرع في الفساد لظلوا من بعده، أي بعد هذا الحال، يكفرون، أي يجحدون ما تقدم إليهم من النعم[٣].

٥. عقيم.

العقيم: التي لا يستفاد منها، وهو ضد اللقاح[٤]، والريح العقيم: التي لا يكون معها لقح، أي لا تأتي بمطر، إنما هي ريح الهلاك[٥]، فلا تلقح سحابا ولا شجرا[٦].

ووردت هذه الصفة للريح في قوله عز وجل: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

وهي وإن ذكرت معرفة، فالمعرّف نكرة؛ لأن تلك الريح منكّرة كأنه يقول: وأرسلنا الريح التي لم تكن من الرياح التي تقع ولا وقع مثلها فهي لشدتها منكرة[٧]، يعني التي لا خير فيها ولا بركة، فلا تلقح شجرًا ولا تحمل مطرًا[٨].

٦. السكون.

وهو ثبوت الشيء بعد تحرك[٩]، ومنه قوله عز وجل: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى:٣٣]، أي: يسكن الريح التي تجري بها السفن، فيظللن أي: السفن، رواكد أي: سواكن ثوابت على ظهر

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٩١، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٤٧٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٨٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٠.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٧٩.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ١٨٩.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٧٦.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٤٨.
(٨) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٩٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٧٦.
(٩) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤١٧.

البحر[1].

ثالثًا: صفات أخرى:

١. سموم.

والسّموم: الرّيح الحارّة التي تؤثّر تأثير السّمّ[2]، والسموم بالنهار، وقد تكون بالليل[3]، وهي: الريح الحارة... تكون غالبًا بالنهار والحر الشديد النافذ في المسام[4].

وقد ذكرت كصفة للريح التي تأتي من حر جهنم أعاذنا الله برحمته منها، وذلك في قوله عز وجل: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٧-٢٨].

وقد تستعمل السموم في لفح البرد، وهي في لفح الحر والشمس أكثر[5]، أي: العذاب الحار الشديد حرّه[6]، و أصله: اسم للريح التي تهبّ من جهة حارّة جدًا فتكون جافّة شديدة الحرارة، وهي معروفة في بلاد العرب تهلك من يتنشّقها، وأطلق هنا على ريح جهنم على سبيل التقريب بالأمر المعروف[7].

٢. حرور.

الحرور الريح الحارة وهي بالليل كالسموم بالنهار[8].

وقد ذكرت هذه الصفة في قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١﴾ [فاطر:١٩-٢١].

والحرور الريح الحارة بالليل، وقد تكون بالنهار[9]، والقول في ذلك: أن الحرور يكون بالليل والنهار، غير أنه في هذا الموضع... أشبه مع الشمس؛ لأن الظل إنما يكون في يوم شمس، فذلك يدل على أنه أريد بالحرور: الذي يوجد في حال وجود الظل[10].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦١٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٢٤٢.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٢٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٠٢.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٥١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٧٠.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٥.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٥٧.
(٨) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٢٧٥، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٢٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٧٧.
(٩) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٦٥.
(١٠) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٥٧.

منافع الرياح

جعل الله عز وجل في الريح بعض المنافع للناس، ومن تلك المنافع:

١. الرياح سبب حمل المطر لإحياء الأرض الميتة.

قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف:٥٧].

قرأه أكثر السبعة: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ بالجمع، وقرأه بعض السبعة: ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ بالإفراد، وعلى قراءة الإفراد فالمراد الجنس، فلا تنافي قراءة الإفراد قراءة الجمع[(١)].

ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النّشر، الذي هو خلاف الطي، فكأن الريح مع سكونها كانت مطوية ثم ترسل من طيها فتصير كالمنفتحة[(٢)].

أي: إن ربكم المدبّر لأمور الخلق، هو الذي يرسل الرياح بين يدي رحمته، أي: بين الأمطار وأمامها حال كونها مبشرات بها، فينشئ بها سحابًا ثقالًا لكثرة ما فيها من الماء، حتى إذا أقلتها ورفعتها إلى الهواء ساقها لإحياء بلد ميت قد عفت مزارعه، ودرست مشاربه، وأجدب أهله[(٣)].

يضاف إلى ذلك قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان:٤٨-٥٠].

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك يقم الأرض، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨] أي: آلة يتطهر بها كالسحور والوقود وما جرى مجراهما، فهذا أصح ما يقال في ذلك[(٤)].

وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر:٩].

فالإثارة: رفع الشيء المستقر وقلبه بعد

(١) العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٢٣.
وانظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص٢٧٧.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٧٧.
(٣) تفسير المراغي ٨/ ١٨٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٤.

استقراره، أي: تسوقه وتدفعه من مكان إلى مكان، وأطلقت الإثارة هنا على قلب تراب الأرض بجعل ما كان باطنًا ظاهرًا وهو الحرث[1].

وإذ قد كان القصد من الاستدلال هو وقوع الإحياء وتقرّر وقوعه جيء بفعل الماضي في قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾، وأما تغييره إلى المضارع في قوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ فلحكاية الحال العجيبة التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وهي طريقة للبلغاء في الفعل الذي فيه خصوصية بحال تستغرب وتهم السامع[2].

وجاء به على جهة المضارعة والاستقبال بين فعلين ماضيين، وهما قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾ ﴿فَسُقْنَاهُ﴾، والسر في مثل هذا، هو أن الفعل المستقبل يوضح الحال، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن الإنسان يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي إذا عطف؛ لأنه لا يعطي هذا المعنى ولا يدل عليه، فإذا قال ﴿فَتُثِيرُ﴾، على جهة الاستقبال بعد ما مضى قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾. فإنما يكون دالاً على حكاية الحال التي تقع فيها إثارة الريح للسحاب، واستحضار لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة[3].

فكانت الرياح التي تؤثر في هذا المطر معينة له في إحياء الأرض بعد موتها، حيث قال عزوجل: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ [الزخرف:١١]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق:٩-١١].

٢. الرياح سبب لجريان الفلك في البحر وغيره.

من النعم العظيمة التي منّ الله عز وجل بها على عباده نعمة جريان الفلك في المياه بأمره[4].

والفلك: السّفينة، ويستعمل ذلك للواحد والجمع[5]، وجاء عن مجاهد أنها السفن في البحار[6].

ومن الآيات التي تحدثت عن ذلك صراحة ، قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٥٧.
(٢) المصدر السابق ٢٢/ ٢٦٨.
(٣) الطرّاز لأسرار البلاغة، يحيى بن حمزة ٢/ ٧٤.
(٤) وهذا الأمر: أمر قدري كوني.
انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٤٥.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٩٣.

﴿مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢﴾ [يونس:٢٢].

وهذه نعمة عظيمة أن كانت الريح سبباً لجريان الفلك، فإن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود، حصل له الفرح التام والمسرة القوية[1]؛ فالذي أجرى الفلك في البحر لنيل الخير هو الريح الطيب، ولو اشتد بهم لكان به الهلاك.

وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٤٦﴾ [الروم:٤٦]، أي: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بهذه الرياح[2].

وقد وردت آيات أخرى امتن الله عز وجل بها على عباده؛ بأن جعل الفلك تجري بهم؛ لينالوا منافعهم في البر والبحر، ويعلم بها أن الفلك لا تجري إلا بمساندة الريح لها وذلك في قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢﴾ [إبراهيم:٣٢]. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: المزن ﴿مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: تعيشون به، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بإرادته ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: فتجري حيث تشاؤون من شرب وسقي وسواهما[3].

وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤﴾ [النحل:١٤].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: تمخر في البحر العجاج الهائل بمقدمها حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم[4].

وقوله عز وجل: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٦٦﴾ [الإسراء:٦٦].

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾ [لقمان:٣١-٣٢].

أي: ليريكم بعض آياته، وهو جري السفن في البحر بالريح[5]، وقوله عز

(١) مفاتح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٣٢.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٢٧٥.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣١٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٧.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢١٨.

وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر:١٢]؛ لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبةً فراتاً، سائغاً شرابها، لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات ؛ ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ[1].

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر:٧٩-٨٠].

وعلى الأنعام، وعلى السفن تحملون على هذه في البر، وعلى هذه في البحر[2]، وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية:١٢].

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى؛ فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي : على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية[3].

وقد ثبت علمياً أن كل المراكب التي تستخدم كافة أنواع الوقود، وتتحرك بالمراجل البخاري، يمكن أن تتوقف تماماً؛ إذا توقفت الريح؛ لأن وسيلة احتراق هذا النوع من الطاقة هي غاز الأوكسجين الموجود في الريح[4].

٣. الرياح سبب لتلقيح السحاب والنبات.

من المنافع التي ذكرها القرآن الكريم في حديثه عن الرياح، تلقيح السحاب لإنزال المطر وتلقيح النبات لإخراج الثمر، وذلك كما في قوله عزوجل: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢].

واختلف أهل العربية في وجه وصف الرياح باللقح، وإنما هي ملقحة لا لاقحة، وذلك أنها تلقح السحاب والشجر، وإنما توصف باللقح الملقوحة لا الملقح... والصواب من القول في ذلك عندي: أن الرياح لواقح كما وصفها به جلّ ثناؤه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٤.
(٤) انظر: إيجاز البيان في إعجاز القرآن، فؤاد البنّا ص١١٤.

من صفتها، وإن كانت قد تلقح السحاب والأشجار، فهي لاقحة ملقحة، ولقحها: حملها الماء ، وإلقاحها السحاب والشجر: عملها فيه[1].

ومعنى الإلقاح: أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين ، فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماءً في الجو ثم ينزل مطرًا على الأرض؛ وأنها تلقح الشجر ذي الثمرة بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت، وبدون ذلك لا تثبت أو لا تصلح... ومن بلاغة الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العملين اللّذين تعملهما الرياح، وقد فسرت الآية بهما، واقتصر جمهور المفسرين على أنها لواقح السحاب بالمطر[2].

وقد أثبت العلم الحديث أن من وسائل تلقيح النبات الرياح؛ لأنها تنقل الملقحات من عضو التذكير النباتي إلى عضو التأنيث النباتي[3].

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر:٩].

وقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم:٤٨].

إن الحقائق التي ذكرتها آيات القرآن الكريم عامةً وما يتعلق منه بتأثير الرياح في إنشاء السحب وتلقيحها وتشكيلها، ثم نزول المطر أو البرد منها، هذه الحقائق من أعجب الأمور وأدقها... والأصل في تكوين السحب على اختلاف أنواعها وأشكالها إنما هي الرياح.

وحقيقة أخرى أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢].

فقد حملها كثير من المفسرين على أن الرياح اللواقح تلقح النباتات فتحمل الطّلع من الذكر إلى الأنثى فتلقح بويضاتها، والحقيقة أن هذا الأمر مما يتحقق بواسطة الرياح، إلا أن سياق الآية في هذا المقام لا يحتمل ذلك بل يشير إلى حقيقة أخرى أدق وهي تلقيح السحب.

وقد توصل العلم الحديث إلى أن نمو السحب ونزول المطر يتطلب أن تلقّح الرياح هذه السحب... وعلى هذا النحو عرف الناس الآن أن الآية الكريمة إنما تشير

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٨٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٦٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٤.
(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن، القطان ص٢٨١.

إلى تلقيح الرياح للسحب ببخار الماء... لكي تجود بالمطر[1].

فتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسخرت له المثيرة أولاً فتثيره بين السماء والأرض، ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية، ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقاً واحداً، ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهاماً لا ماء فيه، ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك، ثم سخرت له بعد إعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعاً ولو نزل جملةً لأهلك المساكن والحيوان والنبات، بل تفرقه فتجعله قطرًا، وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيمًا.

وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر، ومن منافعها أنها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها، وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح؛ فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذوي النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنتن العالم وفسد.

ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان وأمرض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو؛ فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته[2].

٤. تسخير الرياح لسليمان عليه السلام.

من المنافع المهمة التي ذكرت في القرآن الكريم عن الرياح، المنفعة العظيمة التي كانت لنبي الله سليمان عليه السلام وذلك من تمام النعمة والملك الذي وهبه الله عز وجل إياه.

وسليمان عليه السلام هو: سليمان بن داود... بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ورث عن أبيه الملك والنبوة[3].

وقد ميّزه الله عز وجل بملك خاص عن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يوضح ذلك حديث عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة، فأمكنني الله

(١) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص١٩٥-١٩٦.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢١٧.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٢٨٤.

منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي)، قال روح: «فرده خاسئًا»[(١)].

ومن ما جاء في حديث القرآن الكريم عن الريح التي سخرها الله عز وجل لنبيه سليمان عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء:٨١].

أي: وسخرنا لسليمان الريح في حال كونها عاصفةً، أي: شديدة الهبوب... تطيعه وتجري إلى المحل الذي يأمرها به[(٢)].

فإذا أراد الإسراع في السير سارت عاصفة وإذا أراد اللين سارت رخاء، والمقام قرينة على أن المراد المواتاة لإرادة سليمان[(٣)].

و﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: الشام بيت المقدس، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان، ثم تعود إلى منزله بالشام[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ:١٢].

غدوها إلى انتصاف النهار مسيرة شهر، ورواحها من انتصاف النهار إلى الليل مسيرة شهر[(٥)]، فهي تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين[(٦)].

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص:٣٦]، ليست بالعاصف ولا باللينة بين ذلك، ومطيعة له حيث أراد[(٧)].

وسخّر له الريح بدلًا من الأفراس، فلا يحتاج في إمساكها إلى العلف والمؤن[(٨)].

تنبيه: اعلم أن في هذه الآيات التي ذكرنا سؤالين معروفين:

الأول: أن يقال: إن الله وصف الريح المذكورة في سورة الأنبياء بأنها عاصفة، أي: شديد الهبوب، ووصفها في سورة (ص) بأنها تجري بأمره رخاء، والعاصفة غير التي تجري رخاء.

والسؤال الثاني: هو أنه في سورة الأنبياء خص جريها به بكونه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وفي سورة (ص) قال:

(١) صحيح البخاري ١/ ٩٩، كتاب الصلاة، باب الأسير أوالغريم يربط في المسجد،رقم ٤٦١.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٤.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٢١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٢٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢١٢، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٣٣٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٦٢، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٨٣.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٩٢.
(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٩٣.
(٨) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٢٥٧.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، يدل على التعميم في الأمكنة التي يريد الذهاب إليها على الريح، فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث أراد.

أما الجواب عن السؤال الأول فمن وجهين:

الوجه الأول: أنها عاصفة في بعض الأوقات، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة، كأن تعصف ويشتد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاءً حيث أصاب.

الوجه الثاني: هو ما ذكره الزمخشري قال: «فإن قلت: وصفت هذه الريح بالعصف تارة بالرخاء أخرى، فما التوفيق بينهما؟ قلت: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، فكان جمعها بين الأمرين: أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم»[1].

وأما الجواب عن السؤال الثاني: فهو أن قوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾؛ لأن مسكنه فيها وهي الشام، فترده إلى الشام، وعليه فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ في حالة الذهاب، وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ في حالة الإياب إلى محل السكنى؛ فانفكت الجهة فزال الإشكال[2].

والأصل أنها ريح عاصف شديدة؛ ولما كانت مسخرة لسليمان عليه السلام كان زمام أمرها بيده، فلا تراها تسير إلا في أمور الخير.

(١) الكشاف، ٣/ ١٣٠.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٥.

الرياح جند من جنود الله تعالى

من المعاني التي جاءت في القرآن الكريم مختصة بالريح، معنيان مهمان:

الأول: نصرة عباد الله المؤمنين بمساعدة الرياح لهم.

والثاني: هلاك الكافرين بتسليط الريح عليهم.

وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الرياح نصرة للمؤمنين:

وذلك في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩].

يقول تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي أنعمها على جماعتكم ، وذلك حين حوصر المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الخندق ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾: جنود الأحزاب: قريش، وغطفان، ويهود بني النضير ، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ وهي فيما ذكر: ريح الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق، حتى كفأت قدورهم على أفواهها؛ فضرب الله وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم الله بالريح[1].

ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحا شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين[2].

والريح المذكورة هنا : هي ريح الصّبا ، وكانت باردة وقلعت الأوتاد والأطناب، وسفت التراب في عيونهم ، وماجت الخيل بعضها في بعض وهلك كثير من خيلهم وإبلهم وشائهم[3].

وبسبب تلك الريح وتلك الجنود ردّهم الله عز وجل بغيظهم وكفى الله عز وجل المؤمنين القتال[4].

ولذا جاء عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور)[5].

فالمسلمون إذا استمسكوا بالدين غلبوا الأعداء، وهذا الذي ذكر الله يوم الخندق شيئاً ما كان في حسبانهم، وما كانوا يظنونه، فهو أمر إلهي من الله... فالحاصل: أن القرآن لا يأمر بالتكاسل والتواكل، بل إنما يأمر بالقوة والاستعداد لكل هجوم، والمتمسك به أيضًا لو بوغت قبل أن يستعد،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢١٤، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٢١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٢٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٤.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٧٩.

(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٣٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا، ٢/ ٣٤، رقم ١٠٣٥.

أو في حالة ضعف فإن الله يقوّيه وينصره على عدوه بالطرق التي يعلمها هو وحده، وإن لم تكن في حسبان المسلمين، كما نصر أهل الأحزاب بالريح وبجنود لم يروها، نصرهم بالريح، كلما نصبوا -أي: جنود الكفر- خباءً في البر نسفته الريح، وكلما وضعوا قدرًا ليطبخوا فيه نسفته الريح، فبقوا مثلًا لا قرار لهم، لا كنّ يكنهم، ولا طعام يأكلونه، فاضطروا للفرار، حتى قال رئيسهم أبو سفيان بن حرب: ارتحلوا وأنا أول مرتحل[1].

ثانيًا: الرياح عذاب للكافرين:

جاءت الريح في القرآن الكريم تحمل معنى العذاب الذي عذّب الله عز وجل به الكافرين، وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف:٢٤].

وهذا الحديث في شأن قوم عاد ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هودًا، ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حقف، وهو الرمل المستطيل المرتفع، كذبوا نبيهم؛ فلما جاءهم عذاب الله الذي استعجلوه، فرأوه عارضًا في ناحية من نواحي السماء، متجها نحو مزارعهم ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ﴾ أي: سحاب ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: بغيث نحيا به، ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود: بل هو ﴿مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ أي: من العذاب ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

والريح التي عذّبوا بها؛ نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هود من بين أظهرهم... قال ابن عباس: أول ما رأوا العارض قاموا فمدوا أيديهم، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما، ولهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشف عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر، فهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: كل شيء مرت عليه من رجال عاد وأموالها[3].

وقوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحق

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٥٥٠.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٤٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٠٦.

أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية ؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم ، وكانت باردة شديدة البرد جدا، ابتدءوا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام حسوما حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة[1].

إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحس عليهم، وإنه الخزي في الحياة الدنيا، الخزي اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد[2].

وقوله عز وجل: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات:٤١].

أي: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هودا عليه السلام[3].

ووصفت بالعقم؛ لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، أو لأنها لم تتضمن خيرًا ما، من إنشاء مطرٍ أو إلقاح شجرٍ[4].

وقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة:٦].

﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي: باردة، قال قتادة والسدي والربيع بن أنس والثوري: عاتية أي: شديدة الهبوب، وقال قتادة: عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم، وقال الضحاك: صرصر باردة عاتية عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، وقال علي وغيره: عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب.

فسخرها عليهم ، أي: سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما أي: كوامل متتابعات مشائيم[5].

وروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس أنهما قالا: إنه لم ينزل من السماء قطرة ماء إلا بمكيال على يد ملك ولا هبت ريح إلا كذلك إلا ما كان من طوفان نوح وريح عاد، فإن الله أذن لهما في الخروج دون إذن الخزان[6].

والريح في القرآن الكريم ما ذكرت أنها جاءت كعذاب أليم شديد متتابع إلا على قوم عاد، وذلك -والله أعلم- لأن الله عز وجل ذكر صفتهم في القرآن بأجمع وصف فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر:٦-٨].

يعني: مثل عاد، والهاء عائدة على عاد، وجائز أن تكون عائدة على إرم، وهي: بلدة كانت عاد تسكنها ، وإنما عني بقوله :

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٥٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١١٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١١٨.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٥.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٥٧.

﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ في العظم والبطش والأيد، وبنحو ذا قال أهل التأويل[1].

فلم يصنع مثلها في البلاد؛ لأنها قوية ومحكمة، وهذا هو الذي غرهم وقالوا: من أشد منا قوة؟[2].

فكانوا من أشد الناس كفرًا، وأقواهم جحودًا، فأهلكهم الله عز وجل ليعتبر بذلك ويتعظ من كان دونهم.

فاستكبروا، أي: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وإن بطشه شديد؛ فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته وعصوا رسوله[3].

و أخبر الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام، أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت، من جهة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال عز وجل: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف:٦٩].

وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والطول المديد،والأرزاق الدارة،والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هودا عليه السلام إليهم ، رجلا منهم رسولا وبشيرا ونذيرا، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه... استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن[4].

ويكفي في وصفها قوله عز وجل: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف:٢٥].

ولما كانوا مكذبين لرسولهم، صاروا بذلك مكذبين لجميع الرسل؛ واستحقوا هذا النوع من العذاب الأليم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٠٧.
(٢) انظر: تفسير جزء عم، ابن عثيمين ص ١٧١، تفسير جزء عم، مساعد الطيار ص٨٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٥٤.
(٤) انظر: المصدر السابق ٦/ ١٣٨.

الرياح في المثل القرآني

ضرب الله عز وجل أمثالا كثيرة في القرآن الكريم، بآيات كثيرة ومخلوقات عظيمة، تختلف بحسب سياقها في القرآن الكريم.

والمثل: والمثل عبارة عن قولٍ في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبيّن أحدهما الآخر ويصوّره، وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال، فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١][1].

وإذا نظرنا وجدنا أن القصد من ضرب الأمثال هي العظة والعبرة، واعتبار الإنسان بما يعرف ويشاهد أبلغ في العظة والخوف[2].

وقد جاءت الريح في أمثال القرآن الكريم، كما سنجمله في النقاط الآتية:

أولا: الرياح:

١. ضرب الرياح مثلًا للحياة الدنيا.

وذلك كما ورد في قوله عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف:٤٥].

أي: فالتفّ بسببه وتكاثف، حتى خالط بعضه بعضًا، فشبّ وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: بعد ذلك الزّهو ﴿هَشِيمًا﴾ أي: جافًا يابسا مكسورا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي: تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذي حصل للنبات من شرف النموّ، ثم يزولون زوال النبات، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة[3].

وعبّر عن هذا المعنى بـ﴿تَذْرُوهُ﴾، لما في ذرا، يذرو من معنى الارتفاع، والسرعة. يقال: ذرا فلان يذرو: ارتفع، ومرّ مرًّا سريعًا، ومنه سمّيت الرياح بالذاريات. قال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾ [الذاريات:١]، وإنما سميت بذلك؛ لأنها تحمل التراب، أو الهشيم عاليًا، وتفرقه بسرعة في كل جهة؛ بحيث يستحيل إعادته كما كان[4].

وتدل الآية على زينة الدنيا الخادعة من الأموال والضياع والجاه والرئاسة والملك وأن الإنسان ينخدع ويغتر بها مع أنها كما يرى دائمًا من نبات الأرض الذي لا يدوم فإما الموت أو الآفات وتنغيص الحياة[5].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٥٩.
(٢) المحرر في أسباب النزول، المزيني ١/ ٥٤٥.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٨.
(٤) الإعجاز اللغوي والبياني، علي الشحوذ ١/ ٤٧.
(٥) الفرقان في بيان إعجاز القرآن، عبد الكريم الحميد ١/ ٣٥.

والنبات لا ينمو ولا ينضج، ولكنه يصبح هشيما تذروه الرياح، وما بين ثلاث جمل قصار، ينتهي شريط الحياة، ولقد استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشاهد، بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ فما أقصرها حياة! وما أهونها حياة![1].

٢. ضرب الرياح مثلًا للبعث بعد الموت.

وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر:٩].

فيخبر تعالى عن كمال اقتداره، وسعة جوده، وأنه ﴿أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾؛ فأنزله الله عليها ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الله الأموات من قبورهم، بعدما مزقهم البلى، فيسوق إليهم مطرا، كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل[2].

فإن قلت: لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله، وما بعده؟ قلت: ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها: لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: فسقنا، وأحيينا، معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه[3].

ومن الأغراض البلاغية: إخبار عن ماض بمستقبل لإبراز صورة معينة يريدها المتحدث، من ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر:٩].

فإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَتُثِيرُ﴾ مستقبلًا وما قبله وما بعده ماض ﴿أَرْسَلَ﴾ ﴿فَسُقْنَاهُ﴾ أفعال ماضية وتثير فعلًا مضارعًا، لذلك المعنى المراد وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة[4].

وهذه آية احتجاج على الكفرة في إنكار البعث من القبور، فدلهم تعالى على المثال

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٥.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦٠١.
(٤) الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، مناهج الجامعة الإسلامية ص٤٦٣.

الذي يعاينونه وهو سواء مع إحياء الموتى، و «البلد الميت» هو الذي لا نبت فيه قد اغبر من القحط فإذا أصابه الماء من السحاب اخضر وأنبت فتلك حياته[1].

وهبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن، وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب، وقد لا ينشئ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر... و وجه التشبيه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه وجوه: أحدها: أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة، وثانيها: كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء، وثالثها: كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت[2].

وكثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها؛ ليعتبر المرتاب في هذا، فإنه من أظهر الآيات وأوضحها[3].

ثانيًا: الريح :

١. ضرب الريح مثلًا لإنفاق الكافرين.

وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿مَّثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:١١٧].

يعني بذلك جل ثناؤه: شبه ما ينفق الذين كفروا، أي: شبه ما يتصدق به الكافر من ماله، فيعطيه من يعطيه على وجه القربة إلى ربّه وهو لوحدانية الله جاحد، ولمحمد صلى الله عليه وسلم مكذب، في أن ذلك غير نافعه مع كفره، وأنه مضمحلّ عند حاجته إليه، ذاهبٌ بعد الذي كان يرجو من عائدة نفعه عليه، كشبه ريح فيها برد شديد، أصابت هذه الريح التي فيها البرد الشديد ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾، يعني: زرع قوم قد أمّلوا إدراكه، ورجوا ريعه وعائدة نفعه، ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، يعني: أصحاب الزرع، عصوا الله، وتعدّوا حدوده ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾، يعني: فأهلكت الريح التي فيها الصرّ زرعهم ذلك، بعد الذي كانوا عليه من الأمل ورجاء عائدة نفعه عليهم.

و﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ فيه حذف مضاف، تقديره : كمثل مهلك ريح ، أي: ما ينفقون

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٣٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٥.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٦١.

هالك، فريح مجرورة بالإضافة أيضًا، للدلالة على أن هذا الإنفاق لا يجدي[1].

فكذلك فعل الله بنفقة الكافر وصدقته في حياته، حين يلقاه، يبطل ثوابها ويخيب رجاؤه منها، وخرج المثل للنفقة، والمراد بـ «المثل» صنيع الله بالنفقة، فبيّن ذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾، فهو كما قد بيّنا في مثله قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[البقرة:١٧].

فتأويل الكلام: مثل إبطال الله أجر ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا، كمثل ريح فيها صر؛ وإنما جاز ترك ذكر إبطال الله أجر ذلك، لدلالة آخر الكلام عليه، وهو قوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾، ولمعرفة السامع ذلك معناه[2].

ومعنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها، كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار؛ فأحرقته وأهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء بعد ما كانوا يرجون فائدته ونفعه[3].

وما ينفق الكفرة قربة ، أو مفاخرة وسمعة ، أو المنافقون رياء أو خوفًا، ﴿فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد والشائع إطلاقه للريح الباردة كالصّرصر، فهو في الأصل مصدر نعت به، أو نعت وصف به البرد للمبالغة كقولك برد بارد، ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي أهلكته عقوبة لهم لأن الإهلاك عن سخط أشد، والمراد تشبيه ما أنفقوا في ضياعه بحرث كفار ضربته صرٌّ؛ فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما في الدنيا والآخرة، وهو من التشبيه المركب ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه للريح دون الحرث، ويجوز أن يقدر كمثل مهلك ريح وهو الحرث[4].

٢. ضرب الريح مثلًا لأعمال الكافرين.

وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم:١٨].

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي : مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئا ، ولا

(١) انظر: التبيان في إعراب القرآن أبو البقاء العكبري ١/ ١٤٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٤٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٧٨.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٤.

ألفوا حاصلا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي : ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم[1].

وعبر بالرماد، الذي هو أدق الأشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه لا يبقى منه شيئا ، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل[2]، وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار، يريد: أنهم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا لأنهم أشركوا فيها غير الله كالرماد الذي ذرته الريح لا ينتفع به[3].

وقوله تعالى: ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ كناية عن سرعة هذه الريح وقوتها، يقال: اشتدّت الريح. أي: أسرعت بقوة. وتعدية الفعل بالباء، دون تعديته بـ (على) يفيد أن هذه الريح حملت الرماد، وأسرعت الذهاب به، وبددته في جهات هبوبها؛ بحيث لا يقدر أحد على الإمساك بشيء منه، بخلاف قولنا: اشتدت عليه؛ فقد تشتد الريح عليه، وهو ثابت في مكانه، لا يتبدد.

ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدىً، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها، ولا الانتفاع به أصلًا، يجسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددًا.فكما تعصف الريح الشديدة بالرماد، وتذهب به في جهات هبوبها؛ كذلك تعصف رياح الكفر والنفاق بالأعمال، التي تكون لغير الله جل وعلا، وعلى غير طاعة الرسل عليهم الصلاة والسلام[4].

ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدىً، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها، ولا الانتفاع به أصلًا... وهكذا يلتقي المشهد المصور مع الحقيقة العميقة، وهو يؤدي المعنى في أسلوب مشوق موح مؤثر، ويلتقي معهما التعقيب: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ﴾[5].

٣. ضرب الريح مثلًا في بيان حال المشرك بالله تعالى.

وذلك كما في قوله عز وجل: ﴿حُنَفَاءَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٨.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٤.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤٣.
(٤) الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، علي الشحوذ ص٤٢.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٤.

﴿لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من أشرك بالله غيره ، أي : ومات ولم يتب من ذلك فقد وقع في هلاك، لا خلاص منه بوجه ولا نجاة معه بحال؛ لأنه شبهه بالذي خر، أي: سقط من السماء إلى الأرض، فتمزقت أوصاله، وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقيها في مكان سحيق: أي محل بعيد لشدة هبوبها بأوصاله المتمزقة، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرجى له خلاص ولا يطمع له في نجاة، فهو هالك لا محالة، لأن من خر من السماء إلى الأرض لا يصل الأرض عادة إلا متمزق الأوصال، فإذا خطفت الطير أوصاله وتفرق في حواصلها، أو ألقته الريح في مكان بعيد فهذا هلاك محقق لا محيد عنه، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من هلاك من أشرك بالله وأنه لا يرجى له خلاص، جاء موضحًا في مواضع أخر[1].

فإنه من يشرك بالله شيئًا من دونه، فمثله في بعده من الهدى وإصابة الحقّ وهلاكه وذهابه عن ربه، مثل من خرّ من السماء فتخطفه الطير فهلك، أو هوت به الريح في مكان سحيق، يعني من بعيد... فهكذا مثل المشرك بالله في بعده من ربه ومن إصابة الحقّ، كبعد هذا الواقع من السماء إلى الأرض، أو كهلاك من اختطفته الطير منهم في الهواء[2].

وأشارت الآية إلى أن الكافرين قسمان: قسم شركه ذبذبة وشكّ، فهذا مشبّه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلاّ انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه، وقسم مصمّم على الكفر مستقر فيه، فهو مشبّه بمن ألقته الريح في واد سحيق، وهو إيماء إلى أن من المشركين من شركه لا يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير، ومنهم من شركه قد يخلص منه بالتوبة إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول[3].

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، البشرى، الرحمة، السحاب، الماء، النبات

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٥٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٢٠.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٥٥.

الزكاة

عناصر الموضوع

مفهوم الزكاة	٣٨
الزكاة في الاستعمال القرآني	٣٩
الألفاظ ذات الصلة	٤٠
مشروعية الزكاة ومقاصدها	٤٢
أنواع الصدقة وفضلها	٥٩
مصارف الزكاة	٦٧

مفهوم الزكاة

أولًا: المعنى اللغوي:

الزكاة والزكاء في اللغة مصدران من الفعل الثلاثي المضعف بالتشديد (زكّى)، ومن الثلاثي المخفف (زكا)، فأما الأول وهو (الزكاة) يقال: زكّى يزكّي تزكيةً إذا أدّى عن ماله زكاته، ويقال أيضًا: زكّاه إذا أخذ زكاته، وتزكّى، أي: تصدّق، وأما الثاني وهو (الزّكاء) بالمد فمعناه النّماء والرّيع، مأخوذ من قولهم: زكا يزكو زكاءً وزكوًّا، والزكاء أيضًا يطلق على ما أخرجه الله تعالى من الثمر[1].

وللزكاة معان عدة مدارها على النمو، والبركة، وزيادة الخير، والطهارة، يقال: زكا الزرع إذا نما وزكت النفقة إذا بورك فيها، وفلان زاكٍ، أي: كثير الخير، وتطلق الزكاة أيضًا على التطهير المعنوي للنفس والمال.

وأصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يختلف الفقهاء في تعريف الزكاة اختلافًا يسيرًا، مع اتفاقهم على المعاني العامة فيها.

فعند الحنفية هي: تمليك جزء مالٍ، عيّنه الشارع، من مسلمٍ فقيرٍ، غير هاشمي ولا مولاه، مع قطع المنفعة عن الملك من كل وجه لله تعالى[3].

وعند المالكية: جزء من المال، شرط وجوبه لمستحقه بلوغ المال نصابًا[4].

وعند الشافعية: اسم لما يخرج عن مال أو بدن على وجه مخصوص[5].

وعند الحنابلة: حق واجب في مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت مخصوص[6].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٥٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٣.
(٣) انظر: الدر المختار، الحصكفي ٢/ ٢٥٧-٢٥٨، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، شيخي زاده ص٢٨٤-٢٨٥.
(٤) شرح حدود ابن عرفة، الرصاع ص٥٣٩.
(٥) نهاية المحتاج، الرملي ٣/ ٤٣.
(٦) الإقناع في فقه الإمام أحمد، الحجاوي ١/ ٢٤٢.

الزكاة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (زكا) في القرآن الكريم (٣٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١]
مصدر	٣٢	﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣]
اسم تفضيل	٤	﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف:١٩]

وجاءت (الزكاة)في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: النقاء والطهارة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] يعني: ما طهر منكم من أحد.

الثاني: الزكاة المفروضة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] يعني: زكاة المال المفروضة.

الثالث: الحلال: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩] أي: أحل طعامًا.

الرابع: الصدقة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ [مريم: ١٣] أي: صدقة تصدّق بها على أبويه.

الخامس: الصلاح: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: ٨١] أي: صلاحًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٣٣١-٣٣٢.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٤٩، ٢٥١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٣٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصدقة:

الصدقة لغة:

الصدقة (بالتحريك) مصدر الفعل الرباعي تصدّق يتصدق فهو متصدقٌ، والمراد بها ما أعطيته في ذات الله تعالى للفقراء، أو: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة، كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال: للمتطوع به، والزكاة تقال للواجب. وقيل: يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبه الصدق بفعله [(١)].

الصدقة اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: ((الصدقة ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة، كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوّع به، والزكاة للواجب، وقد يسمّى الواجب صدقةً إذا تحرّى صاحبها الصدق في فعله))[(٢)].

وقال التّهانويّ: ((الصّدقة: عطيّة يراد بها المثوبة لا التّكرمة؛ لأنّ بها يظهر الصّدق في العبوديّة، وهي أعمّ من الزّكاة، وقد تطلق عليها أيضًا))[(٣)].

الصلة بين الصدقة والزكاة:

بينهما عموم وخصوص مطلق، أي : أن أحدهما أعم وأشمل من الآخر، وهذا الأعم هو الصدقة والزكاة أخص منها، فكل زكاة صدقة وليس كل صدقة زكاة.

٢ النفقة:

النفقة لغة:

جاء في لسان العرب: نفق الزاد ينفق نفقًا ، أي : نفد، وقد أنفقت الدراهم من النّفقة، ورجل منفاقٌ أي كثير النّفقة، والنّفقة ما أنفقت واستنفقت على العيال، ويطلق عليها (نفقة) (وإنفاق) وهو صرف المال إلى الحاجة [(٤)].

النفقة اصطلاحًا:

(١) تاج العروس، الزبيدي ١/ ٦٤٢١.
(٢) المفردات، ص ٢٧٨.
(٣) كشاف اصطلاحات الفنون، ٤/ ٢٦٠.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٧٥، التعريفات، الجرجاني ص٥٧.

عند الشافعية: النفقة مأخوذة من الإنفاق وهو الإخراج، ولا يستعمل إلا في الخير[١].

وعند الحنابلة هي: كفاية من يمونه طعامًا وكسوة ومسكنًا وتوابعها[٢].

الصلة بين النفقة والزكاة:

الزكاة والنفقة تشتركان في وجوب إخراج الأموال، إلا أن النفقة واجبة على الشخص لمن يلزمه الإنفاق عليهم من زوجة وأولاد وأقارب وغيرهم، وتكون في كل ما يحتاجه المنفق عليه من طعام وشراب وكسوة وغير ذلك ولا تختص بجانب من ذلك معين، وليس لها قدر معين بل بقدر الكفاية.

٣ العطية:

العطية لغة:

بمعنى العطاء، والمراد بهما: اسمٌ لما يعطى، والجمع عطايا وأعطية، وجمع الجمع (أعطياتٌ)، ويقال: رجلٌ معطاءٌ كثير العطاء، وامرأة معطاءٌ كذلك ومفعالٌ يستوي فيه المذكّر والمؤنّث[٣].

وفرّق بعض اللغويين بين العطية والصدقة بأن الصدقة هي ما يرجى به الثواب، بخلاف العطية[٤].

العطية اصطلاحًا:

ما يعطى بغير عوض، هبة كان، أو صدقة، أو هدية[٥].

الصلة بين العطية والزكاة:

العطية أعم من الصدقة، ومن الزكاة، فالعطية تشمل ما يراد به وجه الله وما يراد به التودد إلى الخلق.

(١) انظر: مغني المحتاج، الشربيني ٣/ ٤٢٥.
(٢) انظر: كشاف القناع، البهوتي ١٣/ ١١٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٦٨، تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٤٧.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٧.
(٥) معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي ص٣٧٨.

مشروعية الزكاة ومقاصدها

أولًا: مشروعية الزكاة:

الزكاة مشروعة على نحو ما تقدم ذكره؛ حيث ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وبناء على ذلك فإن هذه المشروعية تشتمل على جوانب إعجاز تشريعية قديمة وحديثة.

فالزكاة على جهة الإجمال فرض من فرائض الإسلام، أو ركن من أركانه الخمسة الواردة في حديث (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة)[1].

فيها من الأسرار ما فيها، ولها مكانة عظمى في الإسلام، فهي عبادة من العبادات الأربع، ومن هذا الوجه تقرن في القرآن والحديث بالصلاة، وتأتي بعدها عادة في كتب الفقه في قسم العبادات.

وهي مورد أساس من الموارد المالية في الدولة الإسلامية، وهذا يخرجها عن أن تكون عبادة محضة، فهي جزء من النظام المالي والاقتصادي في الإسلام؛ ولهذا عنيت بها كتب الفقه المالي في الإسلام[2].

ونشير هنا إلى أبرز خصاص الزكاة، ثم أهم جوانب حكمة تشريعها، واقترانها بالصلاة.

المسألة الأولى: خصائص الزكاة.

من خلال تتبع مشروعية العبادات الأربعة (الصلاة والزكاة والصيام والحج) يستنتج أن الزكاة تتسم بالخصائص التالية:

١. الزكاة عبادة جمعت بين المالية والزمانية.

المعروف أن العبادات تنقسم من حيث البدن والمال إلى ثلاثة أقسام: عبادات بدنية محضة، وهي الصلاة والصوم، وعبادات مالية محضة، وهي الزكاة، وعبادات تجمع بين المالية والبدنية وهي الحج.

وتنقسم من حيث الزمان والمكان إلى قسمين: عبادات زمانية محضة وهي الصلاة والصوم والزكاة، وعبادات تجمع بين الزمانية والمكانية وهي الحج.

وبهذا ندرك قيمة الزكاة ومكانتها بين أركان الإسلام، فمن حيث كونها مالية محضة، نجد أن المرء لا يتعب بدنه في إخراجها، ولا أثر للأعذار البدنية في إسقاطها، فالعبرة بوجود المال بشروطه المعروفة، ولا عبرة بكون المزكي مريضًا أو ذا عاهة، أو لم يخرجها بنفسه، بل وكّل غيره في إخراجها... الخ.

ومن حيث الزمان فهي ترتبط بمرور الحول في كل أنواع الزكاة عدا الزروع والثمار والركاز والمعدن. ومن حيث المكان لا تجد الشريعة الإسلامية تفرض

(١) سبق تخريجه.
(٢) فقه الزكاة، القرضاوي ١/ ٣.

على المزكي موضعًا معينا لتوزيع الزكاة، بل تركت هذا الباب مفتوحًا لآراء الفقهاء، وحالة المزكي، ومستحقي الزكاة.

٢. الزكاة عبادة تقبل النيابة بخلاف الصلاة والصيام.

أيضًامن حكمة تشريع الزكاة أنه يجوز فيها النيابة أو الوكالة، فلا يشترط أن يخرجها المزكي بنفسه، بل يوكل من يخرجها عنه لسبب أو بدون سبب، أو يوكل الحاكم من يجمع الزكاة من أربابها (العاملين عليها) وهم صنف من أصناف الزكاة كما سبق ذكره في آية المصارف.

وهذا فيه من مظاهر التيسير ورفع الحرج ما فيه، حيث لو كلّف كل إنسان أن يخرج زكاة ماله بنفسه ويعطيها للمستحق لوجد الناس في ذلك حرجًا ومشقة كبيرين.

ولذلك نجد حكمة جليلة في تنوع الخطاب القرآني الخاص بالزكاة، على نحو ما سبق في آيات الزكاة، فأكثر آيات وجوب الزكاة وردت بلفظ الإيتاء بمشتقاته، والإيتاء لا يقتضي الدفع بالنفس، بل يمكن أن تدفعها بنفسك أو توكّل من يدفعها عنك.

ونجد آيات أخرى يخاطب بها الحاكم ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهذا إشارة إلى عملية قبض الحاكم أو أعوانه للزكاة من أربابها.

ونجد في آية مصارف الزكاة ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وذلك إشارة إلى وجود طرف ثالث في الزكاة يأخذ من المزكي، ويجمع ليعطي للفقير.

٣. الأسس العامة للزكاة لا تخضع للاجتهاد البشري، بل هي مقدرة من الشرع.

وبيان ذلك أن الله تعالى قد جعل الزكاة دين متعبّد به ، ووضع إلهي مستقر لا يتغير ولا يتبدل، غير خاضع للأهواء البشرية، تنتقل آثاره إلى الحياة الآخرة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ٥-١١].

ووضع الإسلام في الزكاة أسسًا عامة ، وأحكامًا فرعية ، أو بالأحرى ثوابت ومتغيرات، فجعل الأسس أو الثوابت خاضعة لنصوص الشرع لا تقبل التغيير ولا الاجتهاد، فحدد المصارف والأنصبة والمقادير.

وترك باب الاجتهاد مفتوحًا في أمور مثل: كيفيات التوزيع من حيث الطريقة والمكان، وتقديم الزكاة أو تأخيرها حسب الحاجة والحالة، واستحداث مصارف جديدة تدور في إطار المصارف الأصلية

الواردة في القرآن الكريم، وإيجاب الزكاة في أصناف معينة من الأموال والزروع والثمار والحيوان ، أو عدم إيجابها حسبما يترجح لدى الفقهاء في كل رأي، ودفع القيمة في بعض أنواع الزكوات، واستيعاب كل المصارف الواردة في الآية أو الاكتفاء ببعضها. وغير ذلك من المسائل الخلافية.

المسألة الثانية: حكمة تشريع الزكاة.

من أبرز حكم تشريع الزكاة ما يلي:

١. خطاب الأمر بالزكاة فيه حثٌّ للغني، وإعزاز للفقير، ورفع للحرج عنه.

وبيان ذلك أننا حين نتدبر أوامر القرآن والسنة المتعلقة بالزكاة نجد أن الخطاب فيها موجّهٌ إلى الغني بالدفع والإيتاء، ولم يوجّه فيها للفقير بالطلب والاستعطاء، فالشرع لم يكلّف الفقير بالسعي لطلب الزكاة، بل كلّف الغني بالسعي للبحث عن مستحق للزكاة ليعطيه إياها.

فقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: (أغنوهم عن طواف هذا اليوم)[1].

ولهذا لا تبرأ ذمة الغني أو تسقط عنه الزكاة إذا عدم مستحق الزكاة ببلده أو محلته، بل هو مكلّف بالسعي خارج محلته حتى يجد مستحق الزكاة، ولا تخلو محلة أو يخلو بلد صغيرًا كان أو كبيرًا من مصرف أو أكثر من مصارفها.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله مبيّنًا تقسيم مصارف الزكاة على البلاد ومدى توافر بعضها وانقراض الآخر: «وقد عدم من الثمانية صنفان في أكثر البلاد، وهم المؤلّفة قلوبهم، والعاملون عليها، ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف: الفقراء ، والمساكين، والغارمون، والمسافرون -أعني أبناء السبيل-، وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون بعض، وهم الغزاة والمكاتبون»[2].

٢. الزكاة تحقق التنمية الاقتصادية الفردية والجماعية.

تعدّ الزكاة عاملًا مهمًّا في تنمية المجتمع المسلم على المستوى الفردي والجماعي، بما تقدّمه من حلول، وما تسهم به من موارد، وما تعالجه من مشكلات اجتماعية، والتي يقع على رأسها معالجة مشكلة الفقر، التي سعى الإسلام للقضاء عليها بشتى الوسائل من خلال الكفّارات، والزكوات، والصدقات؛ وذلك لأنّ محاربة الفقر، أو القضاء عليه تنقذ المجتمع من براثنه، وتهيئ للإنسان حياة كريمة، ومستوىً من المعيشة

(١) أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب زكاة الفطر، ٢/ ١٥٢ ، رقم٦٧.
وضعفه الألباني في الإرواء، ٣/ ٣٣٢، رقم ٨٤٤.

(٢) أسرار الزكاة، الغزالي ص٦١.

يليق بكرامته[1].

والناظر إلى دور الزكاة في تنمية المجتمع المسلم من الناحية الاقتصادية يجد هذه الملامح:

- أنّ تخصيص جزء من حصيلة الزكاة للفقراء والمساكين جعل منها أداة لتحقيق مجتمع إسلامي متضامن ومتعاون.
- أنّ إيجاب الزكاة في الذهب والفضة، وهما المالان الأساسان لعملية التنمية- حتى ولو كانا غير موضوعين بطريق الاستثمار- يعدّ نوعًا من أنواع التنمية الاقتصادية؛ حيث إن من حكمة الزكاة مهاجمة الأموال المكتنزة، وبعثها من مرقدها؛ لتسهم في عملية التنمية[2].
- أنّ الزكاة من حيث أسعارها (مقدار الزكاة) ومن حيث وعائها (الأموال التي تجب فيها الزكاة) فريضة مالية تشمل الثروات النامية جميعها من ناحية، ومن ناحية أخرى تمثّل نسبةً فعّالةً ومجديةً؛ فهي تصل في بعض الثروات إلى ٢٠٪ أي الخمس (مثل زكاة الركاز والمعدن)، و٢,٥ ٪ في الثروة النقدية وعروض التجارة، وهذا من شأنه أن يجعل جميع أموال الزكاة وسائل للتنمية، كل بحسب مكانته[3].
- يكفل الإسلام عن طريق الزكاة حدّ الكفاية، أو حدّ الغنى لكل فرد، بمعنى أنه إذا عجز فردٌ ما عن توفير المستوى المناسب للمعيشة لسببٍ خارج عن إرادته، فإن نفقته تكون واجبة في بيت مال المسلمين[4]، ولا شك أن الزكاة تحقّق له ذلك.
- أنّ نتيجة إخراج الأموال المكنوزة ودفع الزكاة عنها يمثّل استثمارًا وتشغيلًا في صورة دخول أموالٍ نقدية جديدة وعديدة إلى مجالات التشغيل والتوظيف، بعد أن كانت هذه الأموال والثروات عاطلة ومكتنزة[5].
- أنّ الزكاة تعمل على سرعة دوران رأس المال؛ إذ أنها تشجّع صاحب المال بطريق غير مباشر على استثمار أمواله؛ حتى يتحقق فائض يؤدي منه الزكاة، ومن ثمّ فقد استفاد صاحب المال من استثماره بالربح، وأفاد المجتمع بأداء حق المستحقين بالزكاة،

(١) انظر: الإسلام والاقتصاد، عبد الهادي النجار ص ١٣٤-١٣٥.

(٢) مناقشة بحوث زكاة الديون، د مصطفى الزرقا، مجلة مجمع الفقه الإسلامي ٢/ ٦٥.

(٣) الآثار الاقتصادية للزكاة، محمد سميران، وراكان الدغمي ص ٥.

(٤) انظر: الإسلام والاقتصاد، عبدالهادي النجار ص١٣٩.

(٥) الآثار الاقتصادية للزكاة، سميران والدغمي ص١٣.

وهذا ما يؤدي إلى دوران رأس المال وتحريكه، فالزكاة دافع للأموال نحو الاستثمار[1].

٣. الزكاة تحقّق الأخوة الإيمانية وتكافل المجتمع.

من حكمة تشريع الزكاة إسهامها الواضح في تحقيق الأخوة الإيمانية بين المسلمين، ونشر التكافل الاجتماعي بينهم؛ وذلك لأن الشارع الحكيم أراد أن يكون مجتمع المسلمين مجتمعًا متكافلًا متآزرًا متعاونًا، يأمن فيه العاجز والضعيف والقاصر، ويشعرون أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس، لا بين أظفار ومخالب ونيوب.

ولن تتحقق هذه الصورة البهية لمجتمع المسلمين لو ترك الناس لضمائرهم ومشاعرهم وقلوبهم، فأوجب الإيتاء وندب إلى الإعطاء؛ فقال تعالى موجبًا التعاون المطلق في كل ما هو بر وتقوى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى منبّهًا إلى حق المحرومين والطالبين لحاجة: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

وقال تعالى حاضًا على حق المساكين والمحتاجين: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وقال تعالى آمرًا بالدفع لأهل الحاجة حتى لو كانوا أرقاء: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وقال تعالى مرغّبًا للعطاء وتقديم يد العون لدفع الحاجة والعوز، ورفع المسكنة المالية والعيلة في أفراد المسلمين: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢٢].

فجاء تشريع الزكاة دالًا على بهاء المظهر والجوهر لشرعة الإسلام، ودعوتها لإقامة مجتمع المتكافلين، وجماعة المتعاونين، ممارسةً للتضامن والتناصر، وإقامةً للعدل الاجتماعي، وسبيل ذلك مدّ يد المعونة للمحتاج، وإغاثة الملهوف، وتفريج الكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع، قصدًا إلى ترسيخ معاني التعاطف والتراحم والولاء بين المسلمين.

٤. الزكاة تقضي على البطالة.

البطالة مشكلة كبيرة تواجه جميع الدول، ويترتب عليها عواقب وخيمة، وأضرار جسيمة على المجتمع كله، مثل: الانحراف الأخلاقي، والديني، وانتشار الجريمة، وتعاطي المخدرات، وانتشار

(١) انظر: الاقتصاد الإسلامي، منذر قحف ص١١٩.

السرقة والغصب، ونحوها، ويلاحظ دور الزكاة الواضح في القضاء على البطالة من خلال أمرين بارزين هما:

الأمر الأول: وجود مصرف (العاملين عليها) ضمن مصارف الزكاة المنصوص عليها في الآية، وهذا المصرف قد يظن البعض للوهلة الأولى أنّه مجرد وظيفة واحدة، وهي جباية الزكاة أو جمعها، ولكنّه في الحقيقة عدة وظائف، أو بالأحرى مسمى وظيفي عام يشمل عدة أشخاص، كما يفهم من تفسير الفقهاء له.

فالعاملون على الزكاة يشمل: الجباة وهم جامعو الزكاة (الذين يعيّنهم الحاكم لأخذ الزكاة بأنواعها من أربابها)، ويشمل الموزّعين لها على المستحقين، وهؤلاء تجد فيهم الكاتب، والحاشر، والمعاون، والموزّع، والقائم بالكيل أو الوزن، وتجد فيهم القائمين بتجهيز وحصر أسماء المستحقين، والباحثين في بيانات المستحقين، والقائمين بالحراسة، ونحو ذلك.

وعليه فإن عمل هؤلاء جميعًا في مؤسسات الزكاة يعدّ نوعًا من التخلص من البطالة بشكل شرعي، وهو وإن كان يأخذ من الزكاة كمصرف من مصارفها، إلا أن أخذه حينئذٍ يعدّ أجرًا في مقابل عمل.

ومن ثمّ فلا غرو أن تجد كثيرًا من الفقهاء يعطون للعامل الفقير من الزكاة مرتين، مرة لكونه فقيرًا، ومرة لكونه عاملًا، كما قال الشيخ أحمد الدردير في شرحه على مختصر خليل: «(وأخذ) العامل (الفقير بوصفيه) أي :وصف الفقر والعمل إن لم يغنه حظ العمل»[1].

الأمر الثاني: إيجاد فرص عمل عن طريق إنشاء مؤسسات خيرية تقوم على أموال الزكاة، كما يحدث في الكثير من البلاد الإسلامية، حيث ينشأ مشروع خيري يتم فيه جلب الفقراء والمساكين للعمل فيه، فيكتسبوا من الزكاة بطريقين: مرة بكونهم فقراء أو مساكين، وهذا كسب مباشر مسماه الزكاة، ومرة أخرى باعتباره صانعًا أو حرفيًا أو مهنيًا في مؤسسةٍ تابعة لأموال الزكاة، فيكون الأول نصيبه في الزكاة، ويكون الثاني أجرة في نظير عمل.

ولهذا نظائر كثيرة في الدول الإسلامية، حيث تستقدم الفتيات اليتيمات، والأرامل للعمل في مشروعات إنتاجية، تنتج ملابس وأطعمة ونحوها تابعة لمؤسسات الزكاة، ويتقاضين رواتب ثابتة، أو رواتب بنسب معينة حسب ما يقمن بإنتاجه من صناعات.

وما سبق ذكره مجرد أمثلة من جوانب تشريع الزكاة، وإلا ففيها من الحكم والأسرار، وجوانب الإعجاز ما فيها مما

(١) الشرح الكبير، الدردير ١/ ٤٥٩.

يعجز عنه الوصف، ولا تكفيه الصفحات، وحسبنا أنها فريضة من فرائض الإسلام وعمود من أعمدته، شرعت لتكون عبادة، ووسيلة لحل العديد من المشاكل والأزمات الاقتصادية التي تعتري الأمة عبر العصور.

المسألة الثالثة: اقتران الزكاة بالصلاة في القرآن.

بتتبع آيات القرآن الكريم نجد أن لفظة «الزكاة» المعرفة فقط هي التي اقترنت بالصلاة، وذلك في أربعة وعشرين موضعًا في القرآن الكريم، أما بقية المشتقات فلم تقترن بالصلاة إلا في موطن واحد وهو ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

وتقدم الكلام عليه.

وقد ورد في فعل الصحابة ما يشير صراحةً إلى أن التفريق بين الصلاة والزكاة أمر لا يرضاه الشرع، ففي واقعة منع الزكاة بعد لحوق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى كان موقف سيدنا أبي بكر واضحًا حيث قال: (والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصّلاة والزّكاة؛ فإنّ الزّكاة حقّ المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدّونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه)[1].

وإذا أراد المرء تتبع حكمة ودلالة اقتران الزكاة بالصلاة لما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولكن حسبه أن يتلمس طرفًا من ذلك مما ذكره العلماء أو يستنبطه على هذا النحو:

- أن في الصلاة إصلاح حال الفرد، وفي الزكاة إصلاح حال المجتمع، فالمال شقيق الروح، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله سهل عليه بذل نفسه في سبيل الله؛ تأييدًا لدينه وإعلاء لكلمته، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة سبب من أسباب النصر والتمكين[2].
- أن الصلاة هي التي تصلح النفوس وتنقّيها من أدران الرذائل، وتحلّيها بأنواع الفضائل، وروحها هو الإخلاص لله والخشوع لعظمته وسلطانه، فإن فقدته كانت صورًا ورسومًا لا تغني فتيلًا، أما الزكاة ففيها إصلاح لشئون المجتمع[3].
- أن الحكمة هي بسبب كون الصلاة زكاة أيضًا، فهي تزكي النفس عن الكبر والعجب وتجنب الإنسان الغفلة، وتذكّره بواجبه تجاه ربه؛ ولذلك اقترنت بزكاة الأموال، والتي هي بذل نفسي في الأساس يجعل الإنسان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم ١٣٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، رقم ١٣٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٩١-١٩٢.

(٣) انظر: المصدر السابق ١/ ١٥٩.

يمد يد العون لأخيه الإنسان ويشعر بمعاناته، فكلاهما زكاة، وكلاهما بذل في سبيل الله.

- أن الله تعالى لم يشأ أن يذكر حقه على الناس بواجب الطاعة المتمثلة بالصلاة، بل قرنها بحاجة الناس للنفقة والعون، فحق الله تعالى مقرون بحق الناس.
- أن الصلاة أفضل وسيلة للتقرب من الله، وهي تخصيص جزء من الوقت للتعبد والوصال مع الخالق، أي : أننا نقطع بعضًا من حياتنا اليومية لنثني ونشكر ربنا، ونطلب منه أن يهدينا للصراط المستقيم، أي : الأعمال الصالحة؛ وبذلك يحقق الإنسان طهارة نفسية؛ ليصل لمرتبة الروحانية التي هي المغزى الحقيقي. والزكاة لزكاء النفس وتعني الطهارة أيضًا ، ولكي لا يتعلق الإنسان بالأمور الدنيوية وينسى خالقه فرض الله عليه أن يقطع من ماله وكدّ يومه، ويدفعه في سبيل الله؛ حتى يطهّر نفسه وماله؛ لأن لله حق في أموالنا، فهنا نجد أن الزكاة والصلاة مرتبطين بالطهارة.
- وجود علاقة قوية بين الصلاة والزكاة، فالزكاة تضحية بجزء من المال، والمال في الحقيقة نتيجة العمل، والعمل فرع الوقت، أما الصلاة فهي تضحية بالوقت نفسه، فالصلاة زكاة الوقت، وحق الله الراتب يوميًا، فالمؤمن يقتطع من وقته الذي هو رأس مال الحياة فيجعله خالصًا لله، ويقتطع جزءًا من ماله فيجعله خالصًا لله والصلاة والزكاة أصل ورأس العبادات البدنية والمالية؛ فلذلك تسمى الصلاة عماد الدين، والزكاة قنطرة الإسلام، ومن أتى بهما يسهل عليه أن يأتي بغيرهما، فإذا سهل عليه إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة سهل عليه أن يصوم ويحج ويأتي بالأفعال الأخرى من باب أولى، فإنه ذكر ما هو أهم وما هو أولى من غيره، وأن من أتى به فإنه يأتي بغيره من باب أولى.
- أنه لما أمر بالعفو والصفح يعني في آية البقرة ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ [البقرة: ١٠٩-١١٠]. أمر بالمواظبة على عمودي الإسلام: العبادة البدنية، والعبادة المالية ؛ إذ الصلاة فيها مناجاة الله تعالى والتلذذ بالوقوف بين يديه، والزكاة فيها الإحسان إلى الخلق بالإيثار على النفس ، فأمروا بالوقوف بين يدي الحق و بالإحسان إلى

الخلق[1].

- أن المقصود بالأمر بالصلاة والزكاة الثبات على الإسلام؛ فإن الصلاة والزكاة ركناه، فالأمر بهما يستلزم الأمر بالدوام على بقية التعاليم[2].

ثانيًا: مقاصد الزكاة:

مقاصد الشريعة الإسلامية عامة وخاصة، فالعامة هي: المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظاتها في الكون في نوع خاص من أحكام الشريعة[3].

والخاصة هي: الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة؛ كي لا يعود سعيهم في مصالحهم الخاصة بإبطال ما أسس لهم من تحصيل مصالحهم العامة إبطالًا عن غفلة أو استنزال هوى أو شهوة[4].

ولها تقسيمات متعددة، فإذا نظرنا إليها من حيث الحاجة إليها: فهي تشمل الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات، ومن حيث المحل قسمان: مقاصد الشارع، ومقاصد المكلف، ومن حيث تعلقها بعموم الأمة وخصوصها ثلاثة أقسام: عامة، وهي التي تلاحظ في أغلب أبواب الشريعة، وخاصة، وهي التي تتعلق بباب معين، وتشمل مقاصد العائلة ، والتصرفات المالية، والعمل والعمال ، والقضاء والشهادات و العقوبات ، وعقود التبرعات ....الخ ، وجزئيةوالمرادبهاعلل الأحكام وأسرارها[5].

والناظر إلى مقاصد الزكاة على جهة الإجمال يجد أن من بينها التكثير من باب الهبات والتبرعات؛ لما فيها من المصالح العامة والخاصة، ولما يترتب عليها من الثواب الأخروي[6]. ولهذا فلا غرو أن يرجع في تقييم بعض أمور الزكاة في العصر الحاضر إلى ما يتفق مع مقاصد الشريعة، ومراعاة مصالح المكلفين.

وبناء على الفهم السابق للمقاصد وتقسيماتها المعتبرة، فإن مقاصد الزكاة كثيرة ومتشعبة الجوانب، وهي ذات شقين: تحقيق الزكاة لمقاصد الشريعة العامة، والثاني: تحقيقها لمقاصد خاصة بها تعود على المزكي وآخذ الزكاة، وهو ما نشير إليه

(١) تفسير البحر المحيط ١/ ٥١٩.
(٢) التحرير والتنوير ،ابن عاشور ١/ ٦٧٢.
(٣) مقاصد الشريعة، ابن عاشور ص٥١.
(٤) المصدر السابق ص٥١، ١٤٦.
(٥) انظر: مقاصد الشريعة، ابن عاشور ص ٥١، مقاصد التشريع الإسلامي، مفهومها ضرورتها و ضوابطها، نور الدين الخادمي بحث كامل٢٧ صفحة مجلة العدل، عدد ٦ ربيع الآخر ١٤٢١هـ.
(٦) مقاصد الشريعة، ابن عاشور ص١٨٩.

في مسألتين:

المسألة الأولى: تحقيق الزكاة للمقاصد العامة للشريعة.

اتفقت جميع الشرائع السماوية على حفظ الكليات الخمس (الدين والنفس والعقل والعرض والمال).

١. حفظ الدين.

حفظ الدين كما هو معلوم من الكليات الخمس المعروفة، والزكاة راعت ذلك، ففيها مصرف خاص، وهو مصرف (في سبيل الله)، ويصرف على تجهيز الغزاة والمجاهدين والإنفاق عليهم لنشر الدعوة إلى الله، والتمكين لدين الله في الأرض؛ امتثالا لأمر الله تعالى الوارد في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

كما أن فيها أيضًا مصرفًا خاصًا يصرف على تأليف القلوب على الإسلام وهو المؤلّفة قلوبهم، يعطى لمن دخلوا في الإسلام حديثًا؛ تثبيتًا لهم على الإسلام وعونًا لهم على مواجهة التحديات التي تواجههم، وهذا فيه ما فيه من الحفاظ على الدين.

وفي العصر الحاضر نجد الحاجة ما زالت ماسةً إلى تأليف القلوب على الإسلام، ونشر علومه والتعريف بأحكامه خاصة في الدول الأسيوية، والأفريقية وفي البلاد التي بها أقليات إسلامية كالمسلمين في بلاد البلقان، والجمهوريات الإسلامية التابعة التي كانت تابعة للإتحاد السوفيتي القديم، هذه الدول الإسلامية تظل في أشد الحاجة إلى أموال الزكاة؛ للحفاظ على بقاء الإسلام واستمراره في تلك البلاد [(١)].

كما أن للزكاة دورًا كبيرًا في مواجهة الأفكار والفلسفات الهدامة، والحملات التبشيرية التنصرية، وذلك من خلال الصرف من مصرف فى سبيل الله على الدعاة، والمعاهد الإسلامية التي تعمل في المجال الدعوي، والتي تقوم بالتصدي لمثل هذه الأفكار الهدامة كما تعمل على الوقوف في مجابهة الحملات التنصيرية، وفي ذلك أيضًا حفاظ على الدين [(٢)].

٢. حفظ النفس.

من مقاصد تشريع الزكاة حفظ النفس، وهو من أهم مقاصدها؛ حيث يقوم على مساعدة الفقراء والفئات العاجزة عن الكسب في العلاج من الأمراض الخطيرة التي يبتلون بها، فيكون في مال الزكاة إحياء لنفوسهم وإنقاذهم من الهلاك، وفي نفس الوقت يمكن دفعها إلى المصابين

(١) الزكاة الضمان الاجتماعي الإسلامي، عبد الله حسين ص٢٥.

(٢) مؤسسة الزكاة في ولاية قدح دار الأمان ودورها في تحقيق مقاصد تشريع الزكاة، سعد جمعة زغلول ص١٧١.

من الأوبئة والمتضررين من السيول والفيضانات والحروب والكوارث؛ لأجل استبقاء أرواحهم، وإنقاذهم من الهلاك.

فتقوم الزكاة بدور فعّال في الإسهام في إنشاء مراكز علاجية كالمستشفيات ونحوها، لاسيما فيما يتعلق ببعض الأمراض الخطيرة أو المنتشرة بكثرة (كالسرطان، والفشل الكلوي وغيرها)، كنوع من التخفيف عن كاهل الدولة في هذا الصدد.

وقد أفتى بعض كبار العلماء بجواز الإسهام في هذه المشروعات من الزكاة المفروضة، إذا عرف أنها تعالج الفقراء خاصةً، ومن فتوى الشيخ جاد الحق علي جاد الحق بشأن دفع الزكاة لإنشاء معهد الكبد في مصر، وفتوى دار الإفتاء المصرية بخصوص دفع الزكاة لإنشاء مستشفى سرطان الأطفال[1].

٣. حفظ العقل.

من مقاصد تشريع الزكاة حفظ العقل، وذلك يظهر عندما نرى بعض الفقهاء يقررون أن طالب العلم الذي يتأتى منه التحصيل له الحق في الأخذ من الزكاة من مصرف في سبيل الله[2].

٤. حفظ المال.

اهتم القرآن والسنة بحفظ المال بشتى الطرق والوسائل، ومن المقاصد العامة التي تحققها الزكاة حفظ المال جملة وتفصيلًا، حفظًا معنويًا وماديًا.

ومن جوانب تحقيق الزكاة لحفظ المال ما يلي:

- أن تعلق الزكاة بالمال يمنع من اكتنازه، فالإسلام منع من اكتناز النقود ونهى عن تجميدها؛ ذلك أن حبس المال عن التداول، والامتناع عن الإنفاق في سبيل الله، وإخراج زكاته من شأنه أن يفسد التوازن المالي والتجاري والاقتصاد عامة ؛ وهذا يؤدي بدوره إلى اختلال التوازن الاجتماعي؛ وهذا يفضي إلى محظورات ومحرمات، هذه المحظورات يجب منعها عملًا بقاعدة سد الذرائع، وبناء عليه فمسألة كنز المال ليست مسألة شخصية يترك أمرها للأفراد، أو جريمة ذاتية يترك حسابها إلى الله في الآخرة، إنما تصبح مسألة تشريعية ترتبط بمصالح الجماعة فيجب على الدولة التدخل لمنع عدم تداول المال واكتنازه[3].

(١) الفتاوى الإسلامية، الصادرة عن دار الإفتاء المصرية ١/ ١٧٠، الفتوى بتاريخ ٣ ذو الحجة ١٤٠٠ هـ، ١٢ أكتوبر ١٩٨٠ م، والفتوى رقم ٢٠١١ لسنة ٢٠٠٣م، بشأن دفع الزكاة لمستشفى سرطان الأطفال.

(٢) إعانة الطالبين، البكري ٢/ ٣٣٨.

(٣) المقاصد العامة للشريعة، يوسف العالم ص٤٩٨.

- أن الزكاة تعدّ أداة رئيسة لتشجيع الاستثمار وإيجاد فرص للعاطلين، إضافة إلى توسيع القاعدة الإنتاجية بالنسبة لذوي المهن والحرف والصناعات، خصوصًا الذين يفتقرون إلى رؤوس أموال تمكّنهم من امتلاك أدوات العمل؛ ولذلك يرى بعض الفقهاء أن من يحسن حرفة ولا يملك آلات حرفته يعطى من الزكاة ثمن آلات حرفته وإن كثرت [(١)]. يقول الرملي: «أما من حسن حرفة لائقة تكفيه، فيعطى آلات حرفته وإن كثرت، ومن يحسن تجارة يعطى رأس مال يكفيه ربحه منه غالبًا باعتبار عادة بلده» [(٢)].
- أن الزكاة تحد من ارتكاب الجرائم المالية، ولا شك أن الجرائم المالية تؤثر على المجتمع تأثيرًا سيئًا؛ لما فيها من ضياع للحقوق، وسلب للأموال التي رزق الله تعالى بها عباده، والزكاة تؤدي إلى إطفاء نار الحقد والحسد بين الغني والفقير، كما تقضي على الفقر الذي يؤدي بدوره إلى زيادة معدلات الجريمة من السرقة وتجارة المخدرات، وتؤدي إلى انكفاف الفقير عن التطلع لمال الغني بالحسد أو النهب أو السرقة. والغني إذا واسى الفقير بماله، وسعى لانتشاله من براثن الفاقة، صلح حال الفقير، وصلحت أحوال أبنائه، فلم تكن ثمة حاجة لضخ الأموال وتضييع الجهود لحراسة المال من السرقة، ولن يوجد القلق النفسي القاتل الذي يصاحب نفس أصحاب الأموال خوفًا من السطو عليها [(٣)].

٥. حفظ النسل.

كذلك من مقاصد الزكاة حفظ النسل من الانقراض، وذلك بتطمين الفقراء وإزالة الخوف من نفوسهم، إذا خافوا من إكثار النسل مخافة العوز والفقر، فإذا تأكد أحدهم بأنه معانٌ بالزكاة فلا يخطر بباله مثل هذا التفكير، ومن أجل ذلك أوجب الله الزكاة على الأغنياء لتردّ على الفقراء [(٤)].

المسألة الثانية: تحقيق الزكاة لمقاصد أخرى تعود على المزكي وآخذ الزكاة.

فمما يعود على المزكي ما يلي:

- الامتثال لأوامر الله عز وجل بإخراج الزكاة: وبذلك يتحقق للمزكي صفتا الإسلام والإيمان، الإسلام لتنفيذه

(١) انظر: المجموع، النووي ٦/ ٢٠٢، الأحكام السلطانية، الماوردي ص١٢٢.
(٢) نهاية المحتاج ٦/ ١٥٩.
(٣) انظر: الآثار الاقتصادية لتفعيل فريضة الزكاة على الفرد والمجتمع، الجهضمي، جريدة الرؤية، ٣٠/ ٧/ ٢٠١٢م.
(٤) مؤسسة الزكاة في ولاية قدح دار الأمان ص١٧٣.

ركنًا من الأركان الخمسة، والإيمان لإدراكه أهمية الزكاة في الدين ودورها في المجتمع، وسعي المزكي لتحقيق ذلك.

- شكر النعمة والمحافظة عليها: من مقاصد تشريع الزكاة شكر النعمة من أجل الحفاظ على النعمة ودوامها، فالعبادات مشروعة لإظهار شكر المنعم بها في الدنيا، ونيل الثواب في الآخرة، والنعم الدنيوية، نعمتان: نعمة البدن، ونعمة المال، وكل نعمة يجب شكر المنعم عليها، فكما أن العبادات البدنية كالصلاة شكر على نعمة البدن، فالزكاة شكر عملي لنعمة المال التي أنعم الله بها على بعض عباده[1]. وشكر نعمة المال بإخراج الزكاة منه يستلزم بقاءه وتنميته قال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

- طهرة لنفوس الأغنياء والفقراء: من مقاصد تشريع الزكاة تطهير نفوس الأغنياء من البخل والشح والحرص والطمع؛ وكلها صفات مذمومة تودي بمن يتصف بها إلى البوار والخسران؛ فأداء الزكاة تخلّص صاحبها من كل هذه الصفات، ويفوز المزكي بالرضا والفلاح. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٣]. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌ مطاعٌ، وهوىً متّبعٌ، وإعجاب المرء بنفسه)[2]، وأما بالنسبة للفقراء فتطهّر قلوبهم من الحقد والغل والحسد تجاه الأغنياء الذي يتولد بسبب الحرمان وشدة الحاجة بسبب منع الأغنياء فضل أموالهم، فبالزكاة تنتزع الإسلام الغل من قلوب المؤمنين وباعد بينهم وبين تلك الأمراض النفسية التي تفعل فعلها في خلق الأحقاد والضغائن بين أفراد المجتمعات المعاصرة التي لا تأخذ بهذه الفريضة، وهذا أمر مشاهد ملموس[3].

(١) المقاصد العامة للشريعة، يوسف لعالم ص٢٤٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٥/ ٣٢٨، رقم ٥٤٥٢، والبيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٤٧١، رقم ٧٤٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٤١٢، رقم ١٨٠٢.

(٣) المقاصد العامة للشريعة، يوسف العالم ص٢٤٣.

ثالثًا: عقوبة مانعي الزكاة:

لما كانت الزكاة ركنًا من أركان الإسلام الخمسة، فقد حث القرآن الكريم في آيات عديدة على إخراجها على نحو ما تقدم بيانه، ورتّب على منعها عقوبات دنيوية وأخروية، وقد ورد طرف من هذه العقوبات في آيات من كتاب الله عز وجل وأحاديث من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونشير إلى طرف من ذلك على هذا النحو:

العقوبة الأولى: كي الجباه والجنوب والظهور.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

وبالنظر إلى هاتين الآيتين الكريمتين نجد أن العقاب الذي ورد فيهما فيه من المناسبة للحال ما فيه، وفيه من الإجمال والتفصيل في أنواع العذاب ما فيه.

فالتبشير بالعذاب الأليم على جهة العموم فيه تهكم على أصحاب الأموال الذين يكنزونها ويمنعون حق الله تعالى فيها، ثم إن تصوير هذا العذاب بهذا الوصف فيه من وجوه الإعجاز والبلاغة ما فيه.

قال بعض العلماء: «إنما خص هذه الأعضاء بالكي من بين سائر الأعضاء، لأن الغني صاحب المال إذا أتاه السائل فطلب منه شيئًا تبدو منه آثار الكراهة والمنع، فعند ذلك يقطّب وجهه، ويكلح وتجتمع أسارير وجهه فيتجعد جبينه، ثم إن كرّر السائل الطلب نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانبًا، ثم إن كرّر الطلب وألحّ في السؤال ولاه ظهره وأعرض عنه، واستقبل جهة أخرى، وهي النهاية في الرد، والغاية في المنع الدال على كراهية الإعطاء والبذل، وهذا دأب مانعي البر والإحسان وعادة البخلاء؛ فلذلك خص هذه الأعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة»[1].

ومن لطائف الآيتين أن العلماء اختلفوا في أمرين فيهما:

الأمر الأول: ضابط الكنز المذموم في هذه الآية:

اختلف العلماء في المال الذي أديت منه الزكاة هل يسمى كنزًا أم لا؟ على أقوال مردها إلى معنى الكنز في اللغة والشرع، وما ورد في شأنه من الأحاديث والآثار:

القول الأول: لأكثر الصحابة وهو أن

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٨٨-٨٩.

المراد به المال الذي لم تؤدّ زكاته، فقد روي عن عمر بن الخطاب وابن عمر، وابن عباس وجابر بن عبد الله وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.

ودليله: (ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها كانت تلبس أوضاحًا[1] من ذهب فسألت عن ذلك النبي صلى الله عليه وسلم: أكنز هو؟ فقال: (إذا أديت زكاته فليس بكنز)[2].

وما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل ما أدّيت زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مال لم تؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض)[3].

وذكر بعض العلماء أن الإنفاق هنا يندرج فيه سائر الحقوق من الكفارات، والديون، ونفقة الحج، والجهاد والإنفاق على الأهل والعيال، وضمان المتلفات، وأروش الجنايات.

القول الثاني: أن كل مال كثير فهو مذموم سواء أدّيت زكاته أو لم تؤدّ[4]. وممن ذهب إلى هذا علي رضي الله عنه حيث روي عنه قوله: «أربعة آلاف فما دونها نفقة، وما كثر فهو كنز وإن أدّيت زكاته»[5].

ويروى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن كل ما زاد عن حاجة المرء فهو كنز، حيث ذكر القرطبي أن هذا مذهب أبي ذر رضي الله عنه ومن مفرداته وشدائده، وعلّله القرطبي بقوله: «يحتمل أن يكون مجمل ما روي عن أبي ذر في هذا، ما روي أن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين وقصر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم، ولم يكن في بيت المال ما يسعهم، وكانت السنون الجوائح هاجمة عليهم، فنهوا عن إمساك شيء من المال إلا على قدر الحاجة، ولا يجوز ادخار الذهب والفضة في مثل ذلك الوقت فلما فتح الله على المسلمين ووسّع عليهم أوجب صلى الله عليه وسلم في مائتي درهم خمسة دراهم، وفي عشرين دينارًا نصف دينار، ولم يوجب الكل، واعتبر مدة الاستنماء، فكان

(١) الأوضاح جمع «وضح» وهي نوع من الحلي يعمل من الفضة، وقد سمي بذلك لبياضه. انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٦٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب الكنز ما هو وزكاة الحلي، رقم ١٥٤٦. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ١٠٠، رقم ٥٥٩.

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى، كتاب الزكاة، باب تفسير الكنز الذي ورد الوعيد فيه، رقم ٧٤٨٤٤، وقال: «ليس هذا بمحفوظ، وإنما المشهور عن سفيان عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر موقوفًا».

(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٤٦٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٢٥.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الزكاة، باب كم الكنز ولمن الزكاة، رقم ٧١٥٠، وابن أبي حاتم في تفسيره، ٦/ ١٧٨٨.

ذلك منه بيانًا صلى الله عليه وسلم»[1].

ولكل قول من القولين حججه وأدلته مما لا يتسع المقام لذكره.

الأمر الثاني: المقصود بالذم في الآية:

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الذم في هذه الآية مقصود به أهل الكتاب، وإليه ذهب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[2].

وروي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وتبعه في هذا القول غيره أنها عامة في أهل الكتاب وفي المسلمين، ووقع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خلاف في ذلك[3].

العقوبة الثانية: توعّدهم بالويل، وتشبيههم بالمشركين.

وهذا ما جاء في إحدى السور التي نزلت بمكة، حيث لم تكن الزكاة فرضت بعد، فقد جاء في سورة فصلت قول الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦ - ٧].

وفي الآية لطائف تفسيرية عند القائلين بأن المراد بها زكاة المال، وهم الحسن وقتادة، وغيرهم، منها:

- أنها واردة على سبيل الإخبار بما سيقع من الذين لا يؤمنون بفرضية الزكاة ولا يؤدونها؛ وذلك لأن الزكاة لم تكن فرضت وقت نزول الآية.... وإنما جعل منع الزكاة مقرونًا بالكفر بالآخرة لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته، وصدق نيته، وخلوص طويته، وما ارتدت العرب إلا بمنعها[4].
- أن المقصود بالزكاة فيها الصدقة، وليس زكاة النصب المعينة في الأموال، وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن الكريم[5].
- ومن لطائف استلزام الويل على منع الزكاة ما قاله بعضهم: «.... فأما كون الشرك وإنكار البعث موجبين للويل فظاهر، وأما كون عدم إيتاء الزكاة موجبًا للويل فذلك لأنه حمّل عليهم ما قارن الإشراك وإنكار البعث من عدم الانتفاع بالأعمال التي جاء بها الإسلام، فذكر ذلك هنا لتشويه كفرهم وتفظيع شركهم وكفرانهم بالبعث، بأنهما يدعوانهم إلى منع الزكاة، أي

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٢٥-١٢٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥١٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٤٩٧.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢١٩.

إلى القسوة على الفقراء الضعفاء وإلى الشحّ بالمال، وكفى بذلك تشويهًا في حكم الأخلاق وحكم العرف فيهم؛ لأنهم يتعيرون باللؤم، ولكنهم يبذلون المال في غير وجهه، ويحرمون منه مستحقيه، وهناك من قال: بأن المقصود بالزكاة في الآية زكاة النفس بالتوحيد والدخول في الإسلام، وهو قول ابن عباس وغيره[(١)].

العقوبة الثالثة: التطويق بالشجاع الأقرع يوم القيامة.

من عقوبات منع الزكاة ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

هذا وقد أخرج الشيخان بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (من آتاه اللّه مالًا فلم يؤدّ زكاته مثّل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع، له زبيبتان، يطوّقه يوم القيامة، ثمّ يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه، ثمّ يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثمّ تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]) [(٢)].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قال: ((من كان له مال لم يؤد زكاته طوّقه الله يوم القيامة شجاعًا أقرع، بفيه زبيبتان، ينقر رأسه حتى يخلص إلى دماغه، ولفظ الحاكم ينهسه في قبره فيقول: ما لي ولك؟! فيقول: أنا مالك الذي بخلت بي[(٣)].

ومعنى كلمة ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾، يحتمل أنه مشتق من الطاقة وهي تحمل ما فوق القدرة، أي : سيحملون ما بخلوا به ، أي : يكون عليهم وزرًا يوم القيامة، أو أنه مشتق من الوق وهو ما يلبس تحت الرقبة فوق الصدر، أي : تجعل أموالهم أطواقًا يوم القيامة فيعذّبون بحملها[(٤)].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٧/ ١٠٢، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧٢٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم ١٣٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم ٢٣٤٤.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران، رقم ٣١٦٩، والطبراني في الكبير، رقم ٩١٤٥، ٩/ ٢٣٠.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٨٢.

أنواع الصدقة وفضلها

أولًا: أنواع الصدقة:

الصدقة إما واجبة، وإما تطوع، فالواجبة هي الزكاة المفروضة بشروطها وأحكامها، والتي هي أحد أركان الإسلام الخمسة، والتطوع هي ما يتقرّب به المرء على سبيل التطوع بلا وجوب، وكل منهما أنواع، وفي ذلك مسألتان بيانهما على النحو الآتي:

١. الصدقة الواجبة (الزكاة).

الصدقة الواجبة أو الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام الخمسة، ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة والإجماع على نحو ما تقدم ذكره، وهي أنواع متعددة، تتعلق بما يملكه المسلم من مال بكسب أو إرث أو غير ذلك، وتخرج جميع أنواع الزكاة وفقًا لشروط عامة وشروط خاصة، وقد ورد في القرآن الكريم الأمر بالزكاة على جهة الإجمال، وجاءت السنة النبوية بالتفصيل، وبعض أنواع الزكاة متفق عليها، وبعضها مختلف فيه.

وقد أحسن ابن رشد الحفيد صنعًا بتقسيمه لأنواع الزكاة من حيث المتفق عليه والمختلف فيه، ونورد طرفًا من كلامه على هذا النحو:

قال ابن رشد: «وأما ما تجب فيه الزكاة من الأموال فإنهم اتفقوا منها على أشياء واختلفوا في أشياء، أما ما اتفقوا عليه فصنفان من المعدن الذهب والفضة اللتين ليستا بحلي، وثلاثة أصناف من الحيوان الإبل والبقر والغنم، وصنفان من الحبوب الحنطة والشعير، وصنفان من الثمر التمر والزبيب، وفي الزيت خلاف شاذ. والذي اختلفوا فيه من الذهب هو الحلي فقط».

ثم قال: «وأما ما اختلفوا فيه من الحيوان: فمنه ما اختلفوا في نوعه، ومنه ما اختلفوا في صنفه؛ أما ما اختلفوا في نوعه فالخيل.....، وأما ما اختلفوا في صنفه فهي السائمة من الإبل والبقر والغنم من غير السائمة منها، فإن قومًا أوجبوا الزكاة في هذه الأصناف الثلاثة سائمة كانت أو غير سائمة.. وقال سائر فقهاء الأمصار: لا زكاة في غير السائمة من هذه الأنواع الثلاثة».

ثم قال: «وأما ما اختلفوا فيه من النبات بعد اتفاقهم على الأصناف الأربعة التي ذكرناها فهو جنس النبات الذي تجب فيه الزكاة، فمنهم من لم ير الزكاة إلا في تلك الأربع فقط.... ومنهم من قال: الزكاة في جميع المدّخر المقتات من النبات....، ومنهم من قال: الزكاة في كل ما تخرجه الأرض ما عدا الحشيش والحطب والقصب»[1].

ونورد هنا ذكر أصناف الزكاة، ودليل كل

(١) بداية المجتهد ١/ ٢٥١-٢٥٤ بتصرف.

صنف منها من القرآن الكريم بإيجاز على النحو الآتي:

١. زكاة المال (النقدين).

وهو ما يملكه المسلم من مال، أو نقد ذهب أو فضة، ونصابها من الذهب عشرون مثقالًا، وهو ما يساوي ٨٥ جرامًا من الذهب، ومن الفضة مائتي درهم، وهو ما يساوي ستمائة جرام، ومقدار المخرج منه (ربع العشر) أي ٢,٥ ٪، ويشترط فيها كونها فائضة عن الحاجة، ومرور الحول، وتمام النصاب.

ودليلها من القرآن قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ودليلها كذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

ودليلها كذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وروي عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال: «من الذهب والفضة؛ ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: يعني من الحب والتمر وكل شيء عليه زكاة»[1].

٢. زكاة الزروع والثمار.

وهي تشمل أصنافًا معينة مما تنتجه الأرض من زروع وثمار على تفصيل معروف عند الفقهاء، ونصابها خمسة أوسق، والوسق ستون صاعا، والصاع قدح وثلث بالكيل المصري، والمقدار المخرج منها العشر إن كانت الأرض تسقى بالراحة، ونصف العشر إن كانت تسقى بالآلة ونحوها، ولا يشترط فيها مرور الحول، بل الحصاد، وبلوغ النصاب فقط على تفصيل معروف في بابه.

ودليلها من القرآن قول الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ويدل عليها كذلك قوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

٣. زكاة عروض التجارة.

وهي الأشياء التي يعدّها المرء ليتجر فيها مثل: العقارات والأثاث والسيارات والمواشي، وغيرها.

وزكاة التجارة مثل زكاة المال نصابًا ومقدارًا، ودليلها من القرآن قول الله تعالى:

(١) الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٤٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

٤. زكاة الأنعام.

ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات الكريمة التي تبيّن نعمة الأنعام وأصنافها وفوائدها للإنسان، وتأمره بشكر الله تعالى على تلك النعم، ومن معالم هذا الشكر ما ورد في السنة من وجوب الزكاة في الأنعام، وتحديد أنصبتها ومقاديرها، وتولية الرسول صلى الله عليه وسلم للسعاة ليجمعوها من أربابها.

واتفق فقهاء الأمة على الأنعام التي تجب فيها الزكاة هي (الإبل والبقر والغنم، وأن البقر يدخل فيها الجاموس، والغنم يدخل فيها الماعز)، وهناك خلاف في أصناف أخرى من الحيوانات حول وجوب الزكاة فيها من عدمه. ولزكاة الأنعام شروط عامة وشروط خاصة بكل نوع منها، وأنصبة لكل نوع، لا مجال هنا لذكرها هنا.

٥. زكاة الركاز أو المعدن.

الركاز اختلف في تعريفه، فقيل: إنه اسم للمعدن حقيقة، أو المال الذي خلقه الله تعالى في الأرض[(١)].

وقيل: إنه المال المدفون قبل العصر الإسلامي، وسمي ركازًا كأنه ركز في الأرض، أي: أثبت فيها[(٢)].

ويشمل الركاز عند بعض المالكية كل ما وجد من ذهب أو فضة في باطن الأرض مخلصًا، سواء دفن فيها أو كان خاليًا عن الدفن[(٣)].

ومقدار زكاته الخمس لما روي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (في الرّكاز الخمس)[(٤)].

واستدل لوجوبها من القرآن بعموم قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧][(٥)].

٦. زكاة الفطر.

زكاة الفطر أو صدقة الفطر قيل: إنها مأخوذة من الفطر الذي هو مقابل الصوم، فهي اسم مصدر من قولك: أفطر الصائم إفطارًا، وأضيفت إلى الفطر؛ لأنه سبب وجوبها، من إضافة الشيء إلى سببه، وقيل: إنها مأخوذة من الفطرة بمعنى الخلقة، وهذه

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ٢/ ٦٧، البحر الرائق، ابن نجيم ٢/ ٢٥١.

(٢) انظر: شرح منتهى الإرادات، البهوتي ١/ ٤٢٦.

(٣) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١/ ٤٨٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة باب في الركاز الخمس، رقم ١٤٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب جرح العجماء والمعدن والبئر جبار، رقم ٤٥٦٢.

(٥) الذخيرة، القرافي ٣/ ٥٩.

يراد بها الصدقة عن البدن[1].

وهي ما يدفعه المسلم عن نفسه وعمن يعوله، وتجب بغروب شمس آخر يوم من رمضان حتى انتهاء صلاة عيد الفطر.

ودليل مشروعيتها محل خلاف بين الفقهاء على قولين: أولهما- أنها وجبت بالسنة النبوية، والثاني: أنها وجبت بالقرآن في قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وكذلك قوله جل شأنه: ﴿وَمَا أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥][2].

وتفصيل شروطها ومقدارها وما تخرج منه، ومن تخرج عنها، ومصارفها مبسوط في موضعه من كتب الفقه.

٢. صدقة التطوع.

ورد في العديد من آيات القرآن الحث على صدقة التطوع، وبيان فضلها وثوابها عند الله تعالى، وقد سبق ذكر طرف من الآيات التي تتكلم عن الصدقة، وسيأتي بيان فضل الصدقة وثوابها.

وليس لصدقة التطوع حد معين أو نصاب مقدر، فباستطاعة المرء أن يتصدّق بما شاء قل أو كثر، وليس لها مصارف محددة، بل تشمل مصارف الزكاة الثمانية، وما سواها مما هو قريب منها أو شبيه بها، بل تشمل الأصناف الذين لا يحل دفع الزكاة المفروضة لهم، كغير المسلمين والأغنياء.

ومن هنا كان مجال صدقة التطوع أوسع، حيث يمكن لكل مسلم أن يتصدق صدقة تطوع، بخلاف الزكاة المفروضة على الغني بشروط معينة، وتدفع وفق أنصبة ومقادير ومصارف معينة.

أنواع صدقة التطوع:

صدقة التطوع نوعان أساسان:

النوع الأول: الصدقة بالمال على حسب أنواعه، والحاجة إليه، وما يحتسبه الإنسان من النفقات، والهبات يرجو ثوابها عند الله تعالى، وهذا باب كبير حثت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية الشريفة؛ لما فيه من الفضل العظيم والخير الكبير والثواب الجزيل، ولما يقدمه من نفع للفرد والأمة.

والنوع الثاني: ما سوى المال، وهذا يشمل صنوفًا كثيرة من أعمال البر والخير لو ذهبنا نستقصيه لما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، وأكتفي بالإشارة إلى طرف منه على هذا النحو:

- جميع أنواع المعروف صدقة؛ لحديث حذيفة رضي الله عنه، قال: قال نبيكم

(١) انظر: حاشية الدسوقي ١/ ٥٠٤، كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٢٤٥-٢٤٦.
(٢) الحاوي الكبير، الماوردي ٣/ ٣٥١.

صلى الله عليه وسلم (كل معروف صدقة)[1].

- ذكر الله عز وجل تسبيحًا وتحميدًا وتهليلًا وتكبيرًا ضرب من ضروب الصدقة.
- الإمساك عن الشر، وكف الأذى عن الطريق، ونحو ذلك من صنوف صدقة التطوع.
- الدلالة على فعل الصدقات، أو التوجيه إلى فعل الخيرات ضرب من ضروب صدقة التطوع.
- الكلمة الطيبة صدقة، وتبسم المسلم في وجه أخيه صدقة... الخ.

وهكذا نرى تنوعًا واضحًا في صدقات التطوع، مما وردت الإشارة إليه في آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وأكتفي هنا ببعض الآيات التي تحث على التصدق، وتبيّن فضله، وحملها المفسرون على صدقة التطوع.

أولًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والمراد بهم المنفقين أموالهم في طاعة الله تعالى من الرجال والنساء، سواء كانت صدقة واجبة أو تطوع[2].

ثانيًا: قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

حيث ذكر المفسرون أن مقصود النفقة فيها هو التصدق في سبيل الله[3].

ثانيًا: فضل الصدقة:

يترتب على الصدقات بأنواعها فريضة كانت أو تطوعًا الثواب الكبير والفضل العظيم في الدنيا والآخرة، وقد أشارت بعض آيات القرآن الكريم إلى ذلك، وتواترت أحاديث السنة النبوية التي تحث على الصدقة وبذل المال وتبين فضل ذلك، وبيان ذلك على النحو الآتي:

١. تكفير الذنوب والآثام.

لم يختلف العلماء في أن الصدقة تكفّر عن المرء شيئًا من ذنوبه وآثامه وتمحو خطاياه، التي تتعلق بحقوق الله تعالى، بل وذهب بعض منهم إلى أنها تكفّر بعض الذنوب التي بين المخلوقين استدلالًا ببعض الآيات والأحاديث، بل إن الإمام البخاري رحمه الله قد بوّب بابًا في صحيحه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من أنواع المعروف، رقم ١٠٠٥.

(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٧.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٩٧، أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٢٦١.

بعنوان: (باب الصدقة تكفّر الخطيئة)[1].

ونشير هنا إلى طرف من هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية.

أولًا: قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

قال القرطبي: «ذهب الجمهور إلى أن الآية في صدقة التطوع؛ لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات»[2]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: «وتكفّر عنكم من سيئاتكم» وقال: «الصدقة هي التي تكفّر»[3].

ثانيًا: حديث (يا معشر النّساء تصدّقن فإنّي أريتكنّ أكثر أهل النّار)[4].

قال ابن بطال: «وفيه: دليل أن الصدقة تكفّر الذنوب التي بين المخلوقين»[5].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٣٦، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٣٣٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٣٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٢/ ٥٣٧، رقم ٢٨٥١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم ١٤٦٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بنقصان الطاعات، رقم ٢٥٠.
(٥) شرح البخاري، ابن بطال ١/ ٤١٩.

ومما ورد في تكفير الذنوب ما يلي:

أولًا: ما روي عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه: أيّكم يحفظ حديث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن الفتنة؟ قال: قلت: أنا أحفظه كما قال. قال: إنّك عليه لجريءٌ! فكيف قال؟ قلت: (فتنة الرّجل في أهله وولده وجاره تكفّرها الصّلاة والصّدقة والمعروف). قال سليمان: قد كان يقول :(الصّلاة والصّدقة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر....)[6].

ثانيًا: ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة: (والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار)[7].

٢. تطهير النفس وتزكيتها.

تقوم الصدقة بدور كبير في تطهير النفس البشرية من أدران المعاصي، وتزكيها، وتسمو بها فوق الشهوات واتباع خطوات الشيطان، حيث يخرج المرء ماله في سبيل الله قاصدًا به ابتغاء وجه الله تعالى.

يقول الغزالي في بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة: «اعلم أن على مريد طريق

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب مواقيت الصلاة، رقم ٥٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، رقم ٣٨٦.
(٧) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب، باب ما ذكر في فضل الصلاة، ٢/ ٥١٢، رقم ٦١٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩١٣، رقم ٥١٣٦.

الآخرة بزكاته وظائف، الوظيفة الأولى: فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها، وأنها لم جعلت من مباني الإسلام، مع أنها تصرّفٌ مالي، وليست من عبادة الأبدان»[1].

قال تعالى في شأن الصدقة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والجمهورعلى أن المقصود بها الزكاة المفروضة.

وقد فسرها بعضهم بأنها صدقة التطوع على سبيل الكفارة لذنوب المتصدقين، وجعلوها خاصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها؛ لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية. وفسّرها الإمام مالك في رواية عنه بأنها زكاة الفطر[2].

٣. مضاعفة الثواب.

ورد في مضاعفة الصدقة للثواب ما يلي:

أولًا: قول الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ومعنى ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يضاعف ثوابها، ويبارك في المال الذي أخرجت منه[3].

ثانيًا: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبّتان من حديدٍ من ثديّهما إلى تراقيهما، فأمّا المنفق فلا ينفق إلّا سبغت أو وفرت على جلده حتّى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلّا لزقت كلّ حلقةٍ مكانها فهو يوسّعها ولا تتّسع)[4].

ثالثًا: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (ما من يومٍ يصبح العباد فيه إلّا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللّهمّ أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللّهمّ أعط ممسكًا تلفًا)[5].

رابعًا: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاثٍ صدقةٌ جاريةٌ، وعلمٌ ينتفع به، وولدٌ صالحٌ يدعو له)[6].

هذا وقد ورد في الصدقة آيات وأحاديث

(١) أسرار الزكاة، الغزالي ص٦٣.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٠٨، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٠.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٣٦٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب مثل المتصدق والبخيل، رقم ١٤٤٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، رقم ١٤٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب المنفق والممسك، رقم ٢٣٨٣.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب، رقم ١٦٣١.

تشير إلى دورها في الفوز بالجنة والنجاة من النار، ومن ذلك:

أولًا: قول الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ففي الآية إخبار من الله تعالى أنه لا خير في كثير من أولئك المتناجين ولا في نجواهم لنفاقهم وسوء طواياهم اللهم إلا في نجوى أمر أصحابها بصدقة تعطى لمحتاج إليها من المسلمين، أو معروف استحبه الشارع أو أوجبه من البر والإحسان أو إصلاح بين الناس؛ للإبقاء على الألفة والمودة بين المسلمين. ثم أخبر تعالى أن من يفعل ذلك المذكور من الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس طلبًا لمرضاة الله تعالى فسوف يثيبه بأحسن الثواب، ألا وهو الجنة دار السلام؛ إذ لا أجر أعظم من أجر يكون الجنة[(١)].

ثانيًا: ما روي عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول: (اتّقوا النّار ولو بشقّ تمرةٍ)[(٢)].

ثالثًا: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النّبيّ صلى الله عليه وسلم، يوم عيدٍ فصلّى ركعتين، لم يصلّ قبل ولا بعد، ثمّ مال على النّساء، وبلالٌ معه، فوعظهنّ، وأمرهنّ أن يتصدّقن، فجعلت المرأة تلقي القلب والخرص[(٣)].

قال ابن بطال: «دلّ هذا الحديث أنّ الصدقة قد تنمي المال، وتكون سببًا إلى البركة والزيادة فيه، وأن من شح ولم يتصدق، فإن الله يوكى عليه، ويمنعه من البركة في ماله والنماء فيه»[(٤)].

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٥٤١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، رقم ١٤١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، رقم ٢٣٩٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، رقم ١٤٣١.
(٤) شرح البخاري، ابن بطال ٣/ ٤٣٤.

مصارف الزكاة

من حكمة الله عز وجل في تشريع الزكاة أن حدد لها مصارف، موجودة كلها أو أكثرها في كل البلاد والعصور، كما قال الإمام الغزالي رحمه الله: «وقد عدم من الثمانية صنفان في أكثر البلاد، وهم المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها، ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف: الفقراء والمساكين، والغارمون، والمسافرون - أعني أبناء السبيل-، وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون بعض، وهم الغزاة والمكاتبون»[1].

وهذه المصارف مذكورة في كتاب الله تعالى في قوله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقد فسّرها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه: قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته - فذكر حديثًا طويلًا - فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي، ولا غيره في الصدقات، حتى حكم فيها هو فجزّأها ثمانية أجزاء، فإن كنت منهم أعطيتك حقّك)[2].

هذا وقد لاحظ بعض العلماء فرقًا دقيقًا بين الأصناف الأربعة الأولى والثانية، بأن الأربعة الأولى (الفقير والمسكين، والعامل على الزكاة، والمؤلفة قلوبهم) يأخذون منها أخذًا مستقرًا، لا يجب عليهم رد ما أخذوه بأي حال حتى لو استغنوا، والأربعة الثانية (في الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل) يأخذوا من الزكاة لينفقوا في تلك الاحتياجات، فإن لم ينفقوا المال فيها، وجب عليهم رده[3].

وقد اتفق الفقهاء على أنّ هذه الآية تفيد الحصر، أي : حصر مصارف الزكاة في هذه الثمانية، كما قال الكمال ابن الهمام: «فمن كان من هؤلاء الأصناف كان مصرفًا، ومن لا فلا؛ لأن «إنما» تفيد الحصر فيثبت النفي عن غيرهم»[4].

وقد ادعى بعض العلماء أن هذا من الإجماع، إلا أنّ دعوى الإجماع غير مستقيمة؛ لما روي عن أنس بن مالك والحسن من جواز دفعها لغير هؤلاء الثمانية[5].

(١) أسرار الزكاة، الغزالي ص٦١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب من يعطى الصدقة، رقم ١٦٣٠ .
وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود.

(٣) كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٢٨٥.

(٤) شرح فتح القدير، ابن الهمام ٢/ ٢٥٩.

(٥) منار السبيل، ابن ضويان ١/ ٢٠٧.

وما ذهب إليه بعض الحنفية والشيخ تقي الدين بن تيمية من جواز صرف الزكاة لشراء كتب العلم إذا احتاج إليها طالب العلم، غير أن بعض فقهاء الحنابلة قد اعتبروه غير خارج عن الأصناف الثمانية[1].

ونتناول بيان تلك المصارف في السطور الآتية:

١ . الفقراء.

الفقراء جمع فقير، وقد جرى خلاف كبير في تعريفه، في اللغة و اصطلاح الفقهاء والمتصوفة، والذي يعنينا من ذلك هو الفقير في ضوء القرآن الكريم، والذي يستحق الزكاة.

فأما عن تعريف الفقير في اللغة: فقيل: إنه مشتق من فقر الظهر، وهو الذي نزعت فقرة ظهره فانقطع صلبه، وفقير، بمعنى مفعول أي : مفقور،، ورجل فقيرٌ من المال وقد فقر فهو فقير ، والجمع فقراء[2].

وقيل: إنه فعيل بمعنى فاعل يقال: فقر، يفقر، من باب تعب إذا قلّ ماله، وقيل: الفقير الذي له بلغةٌ من العيش، قال الراعي يمدح عبد الملك بن مروان ويشكو إليه سعاته:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد[3].

وأما عن تعريفه لدى الفقهاء، فقيل: إنه والمسكين بمعنى واحد، وقيل: له تعريفات أخرى هي:

- أن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه[4].
- أنه الذي لا يسأل الناس، كما قال الله تعالى في صفة الفقراء: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[5].
- أنه الذي يسأل ويظهر افتقاره وحاجته إلى الناس، استدلالًا بقوله عز وجل: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[6].
- أنه الذي له بلغة لا تكفيه لعيش عامه[7].
- أنه الذي لا يقدر على ما يقع موقعًا من كفايته لا بمال ولا بكسب[8].
- أنه الذي لا يجد شيئا ألبتة، أي : قطعًا، أو يجد شيئًا يسيرًا من الكفاية دون نصفها من كسب أو غيره مما لا يقع موقعا من كفايته[9].

(١) انظر: المحيط البرهاني ابي مازة البخاري ٢/ ٤٩٨، كشاف القناع ،البهوتي ٢/ ٢٧١، مطالب أولي النهى ، السيوطي الرحيباني ٢/ ١٣٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٦٠.
(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٧٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٦٩.
(٥) وهو رواية أبي يوسف عن أبي حنيفة، كما في المبسوط ،للسرخسي ٣/ ١٤.
(٦) وهو رواية الحسن بن زياد عن أبي حنيفة، كما في المبسوط ٣/ ١٤.
(٧) وهو مشهور عن ابن عرفة المالكي، كما في شرح خليل للخرشي ٢/ ٢١٢.
(٨) وهو مروي عن الشافعي وبعض أصحابه، كما في المجموع،للنووي ٦/ ١٩٠.
(٩) كشاف القناع ، للبهوتي ٢/ ٢٧٢.

وأما عن ورود ذكره في القرآن فعلى النحو الآتي:

ورد لفظ الفقير مفردًا بالتعريف والتنكير في المواضع الآتية:

في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

والمشهور في سبب نزولها ما ذكره اليهودي فنحاص بن عازوراء لعنه الله، حينما دعاه سيدنا أبو بكر الصديق للإسلام وأن يصدّق بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ويقرض الله قرضًا حسنًا، فقال فنحاص: تزعم أن الله يستقرضنا أموالنا، ولا يستقرض إلا الفقير، ثم جحد مقالته بعد ذلك أمام النبي صلى الله عليه وسلم؛ فنزلت الآية [(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وفي قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

والمراد هنا الفقر إلى الله المشار إليه في قول بعض الصالحين: «اللهم أغنني بالافتقار إليك».

وورد لفظ الفقراء بالجمع (معرفًا ومنكرًا) في المواضع الآتية:

في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وفي قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

والمراد بهم هنا خواص الفقراء، أي: فقراء المهاجرين ،وكانوا نحو أربعمائة لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٩٤.

وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد، وكانوا وقفًا على كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله. وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله. وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد. وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش، فلا يستطيعون ضربًا فى الأرض. والصحيح أنه لفقرهم وعجزهم وضعفهم لا يستطيعون ضربًا فى الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء، وهؤلاء يقابلهم أصحاب الجدة، ومن ليس محصرًا في سبيل الله، ومن لم يكتم فقرًا وضعفًا[1].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

والمراد بهم فقراء المسلمين من الخاصة والعامة المستحقون للزكاة، وهؤلاء يقابلهم أصحاب الجدة (أي: الغني)، ومن ليس محصرًا في سبيل الله، ومن لم يكتم فقرًا وضعفًا، وهذا الصنف يقابل أصحاب الجدة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره، والمحصر وغيره[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

والمراد هنا الفقر العام لأهل الأرض كلهم غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم، وهؤلاء لا مقابل لهم، بل الله وحده الغنى وكل ما سواه فقير إليه[3].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

والمعنى هنا مثل سابقه.

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وورد لفظ الفقر في المواضع الآتية:

في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي ٤/ ٢٠٥.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: المصدر السابق.

[البقرة:٢٦٨] [البقرة: ٢٦٨].

والمعنى أن الشيطان يعدكم في الإنفاق الفقر، ويأمركم بالبخل ومنع التصدق، فالمراد بالفحشاء هنا كما ذكره كثير من المفسرين: البخل وعدم التصدق [١]. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. فإنه منع الزكاة[٢].

٢. المساكين.

جاء في لسان العرب في مادة (سكن): المسكين الذي لا شيء له، وقيل: الذي لا شيء له يكفي عياله قال أبو إسحاق: المسكين الذي أسكنه الفقر ، أي : قلّل حركته وهذا بعيد؛ لأن مسكينًا في معنى فاعل، وقوله: الذي أسكنه الفقر يخرجه إلى معنى مفعول، والاسم منه المسكنة، قال الليث: المسكنة مصدر فعل المسكين وإذا اشتقوا منه فعلًا قالوا: تمسكن الرجل، أي: صار مسكينًا، ويقال: أسكنه الله وأسكن جوفه أي : جعله مسكينًا، وقد يكون بمعنى الذّلّة والضعف يقال تسكّن الرجل وتمسكن [٣].

واختلف في تعريف المسكين على أقوال، منها:

- أن المسكين هو الذي به زمانة لا يسأل ولا يعطى له، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦]. أي لاصقًا بالتراب من الجوع والعرى [٤].
- أنه الذي يسأل الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. وقد جاء يسأل [٥].
- أن المسكين هو من ليس لديه شيء بالكلية [٦].
- أنه الذي يقدر على ما يقع موقعًا من كفايته إلا إنه لا يكفيه [٧].
- أنه الذي يجد معظم الكفاية أو نصفها، من كسب أو غيره [٨].

قلت: ومما تقدم يمكن استخلاص تعريف أو وصف للمسكين بأنه: من ليس لديه ما يكفيه بسبب عجز، بدني أو قلة في الكسب، مع تعففه عن سؤال الناس.

الفرق بين الفقير والمسكين:

للعلماء في التفرقة بين الفقير والمسكين

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٠٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٠.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢١١.

(٤) وهو رواية الحسن بن زياد عن أبي حنيفة، كما في المبسوط ،للسرخسي٣/ ١٤.
(٥) وهي رواية أبي يوسف عن أبي حنيفة، كما في المبسوط ،للسرخسي٣/ ١٤.
(٦) وهو مشهور عن ابن عرفة المالكي، كما في شرح خليل للخرشي ٢/ ٢١٢.
(٧) وهو مروي عن بعض الشافعية كما في المجموع، للنووي ٦/ ١٩٥.
(٨) كشاف القناع ،البهوتي ٢/ ٢٧٢.

أو التشابه بينهما أقوال أوجزها في ثلاثة:

القول الأول: أن الفقير أحسن حالًا من المسكين، قال ابن السكيت: سألت أعرابيًا: أفقير أنت؟ فقال: لا والله بل مسكينٌ.

القول الثاني: أنّ المسكين أحسن حالًا من الفقير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ وكانت تساوي جملة، وقال في حقّ الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾.

القول الثالث: أنهما صنف واحد، وهو الذي لا شيء له فجعلهما سواء[1].

لفظ المسكنة ومشتقاته في القرآن الكريم:

ورد لفظ المسكنة في القرآن الكريم في موضعين:

في قوله تعالى في شأن بني إسرائيل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].

وفي قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

والمسكنة التي ضربها الله تعالى على بني إسرائيل فسّرت بتفسيرات عدة.

ففسّرها بعض العلماء بالفقر والمهانة بسبب إساءتهم في حق الله، وما اقترفوه في حق الأنبياء والرسل[2].

وفسّرها بعض آخر بأن المراد بها فقر النفوس حتى ولو كان صاحبها غنيًا[3].

وفسّرها آخرون بأنها العبودية، فبعد أن كانوا في عزة وتمكين تعرّضوا للعبودية والذلة، والتشريد في البلاد، وضياع الأموال والثروات، والمراد بضرب المسكنة عليهم تقديرها لهم، وهذا إخبار بمغيّب؛ لأن اليهود المخبر عنهم قد أصابهم الفقر حين أخذت منازلهم في خيبر، والنّضير، وقينقاع، وقريظة، ثمّ بإجلائهم بعد ذلك في زمن عمر رضي الله عنه[4].

وورد لفظ «المسكين» مفردًا منكّرًا في ثلاثة مواضع:

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٦٠، ١٣/ ٢١١، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٨٣.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٦٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٣١.
وانظر: المبسوط، السرخسي ٣/ ١٤، شرح خليل، الخرشي ٢/ ٢١٢، المجموع، النووي ٦/ ١٩٥، كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٢٧٢.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٣٠.

(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٩٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٢٦.

في قوله تعالى في كفارة الظهار: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤].

وقوله تعالى في شأن التصدق بالطعام: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وقوله تعالى في شأن الإطعام: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦].

والمراد به مسكينًا ذا لصوق بالأرض؛ لحاجته وشدة فقره، يقال: ترب فلان: إذا افتقر والتصق بالتراب، ويقال أيضًا: ترب بمعنى افتقر، وأترب، أي: استغنى، كأنّ الهمزة للسّلب[(١)].

وورد لفظ المسكين مفردًا معرفًا في موضعين:

في قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وورد لفظ «مساكين» منكرًا بالجمع في ثلاثة مواضع:

في قوله تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقوله تعالى في جزاء الصيد: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٩٥].

والمسكين في كل ما سبق ذكره هو المسكين الوارد في مصارف الزكاة المستحق لها.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩].

وبسبب لفظ المساكين الوارد هنا اختلف العلماء في تعريف المسكين والفرق بينه وبين الفقير على نحو ما تقدم، وخلاصة ما في ذلك على أوجه:

أولها: أنهم سموا مساكين باعتبار الغاصب الذي كان يريد غصب سفينتهم، فهم مساكين بسبب ذلك حتى ولو كانوا أغنياء، كما يقال في جماعة تتعرض للظلم: مساكين لا حيلة لهم[(٢)].

ثانيًا: أنهم سموا مساكين لزمانتهم؛ فإن السفينة كانت مملوكة لعشرة، منهم خمسة زمنى[(٣)].

ثالثًا: أن مسكنتهم بسبب ضعفهم البدني أو ضعف كسبهم منها[(٤)].

هذا... وليس بالضرورة أن تكون السفينة

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ٣٨٩.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٢.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٥١٥، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٧.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ١٧٨.

مملوكة لهم، بل ذهب بعض المفسرين إلى أنهم كانوا يعملون أجراء عليها[1].

وورد لفظ «المساكين» بالجمع والتعريف في تسعة مواضع:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله تعالى في خصال البر: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقوله تعالى في مصارف الزكاة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [الحشر: ٧].

ويلاحظ في ثمانية مواضع من التسعة السابقة أن المسكين مرتبط بذي القربى واليتامى وأبناء السبيل.

هذا وبنظرة إجمالية لما تقدم ذكره من مواضع لفظ المسكنة ومشتقاته في القرآن الكريم نجد أن حقيقة المسكين تدور على معانٍ عدة بعضها مشترك مع الفقير وبعضها مختلف، وأن المسكين ليس بالضرورة مستحق لهذا الوصف بسبب المال، بل قد يستحقه بسبب الضعف البدني والمرض ونحو ذلك، أو بسبب ما يلحقه من مذلة ومهانة تزري من قدره أمام الناس، حتى ولو كان في كل هذه الحالات غنيًا.

٣. العاملون عليها.

العاملون على الزكاة، هم الساعون في تحصيل الزكاة وجمعها من أربابها، ويدخل فيهم الحاشر والكاتب والمفرق، وهناك خلاف في دخول الحارس والخازن

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٧.

ونحوهما[1].

ويأخذ عامل الزكاة نصيبه منها على قدر عمالته، ويشترط فيه الإسلام والأمانة والتكليف، وإن كان العامل فقيرًا أخذ من الزكاة نظرا لفقره بلا خلاف.

ولكن وقع خلاف في مسائل:

الأولى: هل يأخذ العامل الغني من الزكاة أم لا؟.

الثانية: هل يجوز استعمال أحد بني هاشم على الزكاة أم لا؟.

الثالثة: في حالة جواز استعمال أحد بني هاشم على الزكاة، هل يأخذ من الزكاة أم لا؟[2].

وهذه المسائل بسط الفقهاء فيها الكلام في مواضعها من كتاب الزكاة، مما لا يتسع المقام لذكره، ونشير هنا إلى مسألة معاصرة تتعلق بعامل الزكاة على النحو الآتي:

العاملون في مؤسسات الزكاة المعاصرة:

إذا نظرنا اليوم إلى العاملين في مؤسسات الزكاة نجدهم أصنافًا شتى؛ حيث لم يعد الأمر مقصورًا على شخص، أو عدة أشخاص يقومون بالجمع والتوزيع، بل يشمل مؤسسات وجمعيات متعددة، وهي تشتمل على عشرات الموظفين ذوي الرتب المختلفة.

ومهنة العامل تحتاج إلى مؤنة وعمل شاق، وجهد متواصل، ومتابعة دؤوبة، ووقت طويل، فهي تشبه وظيفة المحاسب في الشركات والمؤسسات الذي يقوم بالمتابعة، والتسجيل والقيد وبيان الوارد، والصادر، وصرف المرتبات، والتأكد من شخصية مستحقيها، ولا فرق بينهما سوى أن المحاسب يصرف الأجور لكل المسجلين عنده بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعي من حيث الفقر والغني، بينما العامل يقوم بجمع للزكاة بإذن الإمام أو نائبه، والتوزيع على المستحقين لها من الأصناف الثمانية المحددة في آية الصدقة.

ومن ثمّ كان من العدل جعل نصيب لهذا العامل من الزكاة مادام متفرغًا لهذا العمل الجليل، وليس هذا مقصورًا على العاملين على الصدقات فقط، بل كل من أوقف نفسه لعمل من فروض الكفايات التي يجوز النيابة فيها فله أجرة مثله.

وعليه فلم يختلف أحد أنّ عامل الزكاة إذا كان فقيرًا أنه يأخذ منها، أما إذا كان غنيًا، ففي المسألة خلاف فقهي معروف.

وفي تقديرنا أنه يمكن أخذ العاملين في مؤسسات الزكاة نصيبًا من الزكاة في حالتين:

الأولى: إذا كانوا فقراء لا تكفيهم رواتبهم التي يتقاضونها من هذه المؤسسات.

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ١٢١.

(٢) انظر: المبسوط، السرخسي ٣/ ١٥، الذخيرة، القرافي ٣/ ١٦٤، الأم، الشافعي ٢/ ٧١-٧٢، كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٢٧٥.

الثانية: إذا كانوا متفرغين للقيام بأعمال جمع الزكاة وتوزيعها، بحيث توكل إليهم تلك المهمة، ولا يمارسون وظيفة أخرى غيرها.

٤. المؤلفة قلوبهم.

المؤلفة قلوبهم اختلف في تعريفهم على أقوال هي:

القول الأول: أنهم كفار ظهر ميلهم للإسلام، فيعطوا من الزكاة ترغيبًا في الإسلام، قاله مالك وغيره [(١)].

القول الثاني: أنهم قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة، فيعطوا؛ ليتمكن الإسلام في قلبهم، وحكمهم باق [(٢)].

القول الثالث: أنهم أشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظائرهم، أو هم قوم من وجوه العرب، يقدمون عليه، فينفق عليهم منها ما داموا حتى يسلموا أو يرجعوا [(٣)].

قال القرافي: «هم عظماء من ملوك الكفار أسلموا فيعطون ليتألفوا أتباعهم؛ لأن الجهاد يكون تارة بالنسيان وتارة بالبيان، وتارة بالإحسان، يفعل مع كل صنف ما يليق به» [(٤)].

وروي عن ابن عباس أنهم قوم كانوا يأتون رسول الله قد أسلموا وكان يرضخ لهم من الصدقات، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيرًا قالوا: هذا دين صالح، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه [(٥)].

خلاصة أنواع المؤلفة قلوبهم:

١. نوع يرجى إسلامه أو إسلام قومه أو عشيرته كصفوان بن أمية، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه مائة من الإبل فقال صفوان: والله لقد أعطاني النبي صلى الله عليه وسلم وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي) [(٦)].

٢. نوع يرجى بإعطائه كفّ شره، وشر غيره عن المسلمين، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: إن قومًا كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فإن أعطاهم من الصدقات مدحوا الإسلام، وقالوا: هذا دين حسن، وإن منعهم ذموا وعابوا الإسلام والمسلمين [(٧)].

٣. نوع دخلوا في الإسلام حديثًا، فيعطون لتثبيت قلوبهم على الإسلام، كما أعطى صلى الله عليه وسلم يوم حنين جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٧٩، البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ١٢١.
(٢) البحر المديد ٣/ ١٢١.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: الذخيرة، القرافي ٣/ ١٤٦.
(٥) شرح فتح القدير، ابن الهمام ٢/ ٢٥٩.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط فقال: لا، رقم ٦١٦٢.
(٧) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣١٣.

مائة من الإبل [1]، وقال صلى الله عليه وسلم (... إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه؛ مخافة أن يكبّه الله على وجهه في النار)[2]، وأيضًا لما يتعرض له هؤلاء من التضييق عليهم في معاشهم وأرزاقهم من ذويهم، وكثيرًا ما يحاربون من أهل دينهم وعشيرتهم، فهؤلاء أولى بالعطاء تشجيعًا لهم، وتثبيتًا لهم على الإسلام [3].

٤. نوع من سادات المسلمين أقوياء الإيمان، لا يحتاجون في أنفسهم للتأليف، ولكن لهم نظراء من الكفار، فإن أعطى هؤلاء السادة المسلمون رجي إسلام نظرائهم، ويستدل لهذا بإعطاء أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- الزبرقان بن بدر، وعدي بن حاتم الطائي مع حسن إسلامهم [4].

٥. نوع من السادة والزعماء ضعاف الإيمان، فهؤلاء يعطون لتقوية إيمانهم وتثبيتهم على الإسلام، ومن هؤلاء النوع كبار كفار قريش الذين أسلموا في فتح مكة، واشتركوا مع المسلمين في غزوة حنين، فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم من غنائم هوازن وثقيف مما كان سببًا في تقوية إسلامهم [5].

هل سهم المؤلفة قلوبهم باقٍ أم سقط؟

اختلف الفقهاء هل سقط سهمهم بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم أم أنه باق حتى يومنا هذا؟ على قولين:

القول الأول: أن سهمهم قد سقط بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم واعتزاز الإسلام، ولا حاجة في تأليفهم. وهو قول الحنفية، والمالكية، والشافعي في أحد قوليه، وهو مروي عن الشعبي.

القول الثاني: أن سهمهم باق ولم يسقط. قاله الزهري، والشافعي في قول، والحنابلة، والحسن البصري [6].

والذي تطمئن إليه النفس في العصر الحاضر أن سهم هؤلاء باق، حيث وجدت احتياجات عصرية تدخل تحت هذا الصنف بيانها بإيجاز على النحو الآتي:

أولًا: مساعدة الهيئات والجمعيات التي تهتم بالمسلمين الجدد: من المعروف أن الذين يدخلون في الإسلام حديثًا يلاقون تضييقًا من عشيرتهم وذويهم، ومحاربتهم بكل الوسائل لإجبارهم على ترك الإسلام، والرجوع إلى دينهم الأصلي، هؤلاء

(١) انظر:سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٥/ ١٧٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا، رقم ١٤٧٨.
(٣) فقه الزكاة، القرضاوي ٢/ ٦٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٤/ ١١٤.
(٥) المجموع، النووي ٦/ ١٨٠.
(٦) انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٢٤، بدائع الصنائع، الكاساني ٢/ ٤٥.

المسلمون الجدد في أمس الحاجة إلى من يقف بجانبهم، ويأخذ بأيديهم؛ ليثبتوا على الإسلام، ولا يستجيبوا للضغوطات التي تمارس عليهم، لا سيما في البلاد الواقعة في جنوب شرق آسيا كماليزيا، وأندونيسا، وتايلاند، حيث تحتدم الحرب بين الإرساليات التبشيرية بكل ما تملكه من إمكانيات جبارة، والجمعيات الخيرية الإسلامية التي ينقصها الدعم الكافي من جانب الحكومات الإسلامية، والتي تهتم بهؤلاء المسلمين الجدد.

وقد جاء في قرار الندوة الثالثة لقضايا الزكاة المعاصرة: «إيجاد المؤسسات العلمية والاجتماعية لرعاية من دخل في دين الله، وتثبيت قلبه على الإسلام، وكل ما يمكنه من إيجاد المناخ المناسب معنويًا وماديًا لحياته الجديدة»[(١)].

ثانيًا: مساعدة رؤساء الدول الفقيرة غير الإسلامية: يجوز دفع سهم المؤلفة قلوبهم لرؤساء الدول الفقيرة؛ لأن إسلامهم يؤدي لإسلام كثير من رعاياهم بما لهم من نفوذ، والدلائل التاريخية تؤكد صدق هذا، فالإسلام قد دخل في بعض الدول عن طريق إسلام ملوكها ورؤسائها وأهل النفوذ فيها، مثل :ماليزيا وإندونيسا وغيرهما، وجاء في قرار الندوة الثالثة لقضايا الزكاة المعاصرة: «تأليف من يرجى إسلامه، وبخاصة أهل الرأي والنفوذ، ممن يظن أن له دورًا كبيرًا في تحقيق ما فيه صلاح المسلمين»[(٢)].

ثالثًا: الصرف في مواجهة الحملات الدعائية التي تعمل على تشويه الإسلام: ذهب بعض المعاصرين إلى جواز صرف سهم المؤلفة قلوبهم في رد طغيان الدول المسيحية الطامحة في هدم الإسلام والمسلمين عن طريق ذمم بعض الكتاب المسلمين للنيل من الإسلام[(٣)].

٥. الرقاب.

الرقاب، هم الصنف الخامس من المستحقين للزكاة، وللعلماء في المقصود بهذا الصنف أقوال:

القول الأول: أن المراد به شراء العبيد وإعتاقهم من مال الزكاة، وهذا رأي كثير من العلماء والمفسرين[(٤)].

القول الثاني: أنه ليس المراد به العبد الكامل، بل المراد المكاتب يعطى من مال الزكاة ليستكمل حريته[(٥)].

هذا وقد روي عن عمر بن عبد العزيز

(١) انظر: فقه الزكاة، القرضاوي ٢/ ٦١، تأليف القلوب على الإسلام، الأشقر ص٨٠.

(٢) الندوة الثانية، ندوات قضايا الزكاة المعاصرة، الكويت، ١٩٨٩م.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٥٧٤.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٥، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٧٠.

(٥) انظر: الكشاف ٢/ ٢٧٠.

رضي الله عنه والزهري القولان: حيث قالا: سهم الرقاب نصفان، نصف لكل مكاتب ممن يدعي الإسلام، والنصف الباقي يشترى به رقاب ممن صلى وصام وقدم إسلامه من ذكر أو أنثى يعتقون لله[1].

القول الثالث: أن المراد به فكاك الأسرى، وهو مذهب أبي حنيفة وبعض المالكية[2].

من لطائف التفسير في الآية:

من بلاغة القرآن في الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر الأصناف الأربعة الأولى بحرف الجر (اللام)، وبعد ذلك عدل عن حرف اللام إلى حرف (في)، وقد استنبط المفسرون من ذلك نكتًا وفوائد بلاغية منها:

أولًا: ما قاله ابن عادل الدمشقي: «إن الأصناف الأربعة يدفع إليهم نصيبهم. وأما الباقون فيصرف نصيبهم في المصالح المتعلقة بهم لا إليهم»[3].

ثانيًا: ما قاله الزمخشري: «فإن قلت: لم عدل عن اللاّم إلى «في» في الأربعة الأخيرة؟ قلت: للإيذان بأنّهم أرسخ في استحقاق التصدّق عليهم ممّن سبق ذكره؛ لأنّ «في» للوعاء، فنبّه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات، وجعله مظنّة لها ومصبًّا»[4].

ثالثًا: ما قاله القرافي: «اجتمع فيه (أي: في الرقاب) العرف الشرعي واللغة، أما العرف فلأنه تعالى أطلق الرقبة في الظهار والقتل، ولم يرد بها إلا الرقيق الكامل الرق والذات، وأما اللغة فإن الرقبة تصدق لغة على الأحرار والعبيد ومن كمل ومن نقص، فالمشهور تقديم العرف الشرعي، وهو المشهور في أصول الفقه بأنه ناسخ للغة، ومن لاحظ اللغة لكونها الحقيقة وغيرها مجاز أجاز المكاتب والمدبر والمعيب والأسير، وإن كان الولاء له دون المسلمين، فلأن مقصود الزكاة شكر النعمة وسدّ الخلة؛ وهذا حاصل»[5].

صنف الرقاب ومواضعه في القرآن الكريم:

اهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بتحرير العبد من رقّ العبودية، سواء كانت عبودية كاملة، أو ناقصة كالمكاتب ونحوه؛ ولهذا وردت آيات كثيرة تحض على فك الرقاب في الكفّارات وغيرها، وهذا ما نورده إجمالا على النحو الآتي:

في كفارة القتل الخطأ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا

(١) انظر: المحرر الوجيز،ابن عطية ٣/ ٥٥، الكشاف ،الزمخشري٢/ ٢٧٠، البحر المحيط ٥/ ٦١.
(٢) انظر: البحر المحيط ، ابو حيان ٥/ ٦١، المبسوط،السرخسي ٢/ ٢٩٥.
(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٠/ ١٢٦.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٧٠.
(٥) الذخيرة ٣/ ١٤٧.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وفي كفارة اليمين، قال الله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وفي كفارة الظهار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ٣].

وفي التصدق والعطاء، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي التصدق والعطاء أيضًا قال الله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣].

وهذه المواطن السابق ذكرها تبيّن مدى حرص الإسلام على هذا الصنف من أصناف الاحتياجات.

٦. الغارمون.

الغرم في اللغة معناه لزوم ما يشق على النفس، والغارم هو: الذي عليه دين يعجز عن سداده، ويشمل أصنافًا شتى استنادًا لما روي عن السلف.

فقد روي عن مجاهد في قوله: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ قال: «ثلاثةٌ من الغارمين: رجلٌ ذهب السّيل بماله، ورجلٌ أصابه حريقٌ فذهب بماله، ورجلٌ له عيالٌ وليس له مالٌ، فهو يدّان وينفق على عياله»[(١)].

وروي عن مقاتل في قوله: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ قال: «هو الذي يسأل في دم أو جائحة تصيبه»[(٢)].

ونحوه قاله الشافعي رحمه الله: «من تحمّل غرامة في إصلاح ذات البين وإطفاء الثائرة بين القبيلتين».

ويشترط فيه أن يكون مسلمًا، استدان في غير سرف ولا فساد أو معصية، ولا يستطيع قضاء دينه[(٣)].

قال ابن عادل الدمشقي: «الدّين إن حصل بسبب معصيةٍ لا يدخل في الآية؛ لأنّ المقصود من صرف المال إليه الإعانة، والمعصية لا تستوجب الإعانة، وإن حصل لا بسبب معصية فهو قسمان: دينٌ حصل بسبب نفقات ضرورية أو في مصلحة، ودين

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الزكاة، باب ما قالوا في الغارمين، ٣/ ٢٠٧، رقم ١٠٧٦٣.
(٢) الدر المنثور ،السيوطي ٤/ ٢٢٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٨١، البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ١٢١. وانظر: المبسوط، السرخسي ٣/ ١٦، الذخيرة، القرافي ٣/ ١٤٧-١٤٨، المغني، ابن قدامة ٧/ ٣٢٤.

بسبب حمالات وإصلاح ذات بين، فيدخل في الآية»[1].

روى مسلم عن أبي سعيدٍ الخدريّ قال: (أصيب رجلٌ في عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في ثمارٍ ابتاعها فكثر دينه، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (تصدّقوا عليه). فتصدّق النّاس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لغرمائه: (خذوا ما وجدتم وليس لكم إلاّ ذلك)[2].

وذكر الماوردى أن الغارمين صنفان، صنف منهم استدانوا فى مصالح أنفسهم فيدفع إليهم مع الفقر دون الغنى ما يقضون به ديونهم، وصنف منهم استدانوا فى مصالح المسلمين فيدفع إليهم مع الفقر والغنى قدر ديونهم من غير فضل[3].

وفي الآية لمحة بيانية رائعة، وهي أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ فكأنه قال: (الصدقات في الغارمين) ولم يقل: «للغارمين»، وعليه فالغارم لا يشترط تمليكه ويجوز الوفاء عنه، وهذا ما اختاره وأفتى به الإمام ابن تيمية[4].

هذا وللفقهاء تفصيل في مسائل تتعلق بالغارمين مبسوطة في مواضعها، لا يتسع المقام لذكرها، مثل: هل يرجع المدين ما أخذه من الزكاة إذا استغنى بعد ذلك؟ وهل يسدد منها دين الميت أم لا؟.

٧. في سبيل الله.

مصرف «في سبيل الله» أحد مصارف الزكاة التي توسع الفقهاء في معناها، وما يشتمل عليه من أعمال الجهاد وغيرها، وما يشترط فيه مثل اشتراط كونه فقيرًا ليأخذ سهمًا من الزكاة من عدمه الخ... الأحكام المتعلقة به. ولكن الذي يعنينا من هذه المسائل ثلاثة أمور:

الأمر الأول: التوسع في مفهوم مصرف «في سبيل الله» باعتبار الأشخاص:

أكثر العلماء على أن «في سبيل الله» يقصد به الغزاة والمرابطون، فيعطوا من الزكاة حتى ولو كانوا أغنياء، ويشترى منها آلات الجهاد[5].

وهناك رأي ثانٍ لبعض الصحابة والتابعين والفقهاء أدخلوا فيه الحجّاج بناء على تعدد سبل الخير وشموليتها لأكثر من جهة، ومن هؤلاء : ابن عمر رضي الله عنهما ، ومحمد بن الحسن من الحنفية، وأحمد بن حنبل في رواية، وإسحاق بن راهويه، والرازي

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٠/ ١٢٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين، رقم ١٥٥٦.
(٣) الأحكام السلطانية، الماوردي ص١٣٢.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٥/ ٨٠.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٨٥، أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٣٢٩.

وغيرهم[1].

وبناء على الرأي الثاني، فيمكن أن يتسع نطاق هذا المصرف ليشمل الجهاد وغيره من أعمال الخير، العائد نفعها على الأمة أو الفرد.

الأمر الثاني: التوسع في مفهومه المقتصر على المجاهدين، بحيث يشمل أمورًا كثيرةً من أمور الجهاد:

أدخل بعض العلماء كثيرًا من أعمال الجهاد تحت مصرف «في سبيل الله» مثل: شراء السلاح، وإقامة المنشآت العسكرية[2].

فذكر الكاساني أن الغازي يعطى من الزكاة إذا كان فقيرًا، وكذا إذا كان غنيًا ثم عرضت له حاجة، وخرج للغزو، فيعطى منها ما يشتري به آلات الحرب ومركب الحرب، بل وخادم يعينه في الحرب[3].

قلت: وعلى الرغم من وجود الخلاف في هذه المسألة واختيار أكثر العلماء لتفسيره بالغزاة والمرابطين، وما يتعلق بشئون الجهاد، فإن هذا المصرف يمكن أن يشمل هذه الفئات باعتبارهم من المجاهدين:

أولًا: المجندين في الجيوش النظامية في بعض البلاد الفقيرة، التي يعاني المجندون فيها من نقص في الموارد والإمكانيات.

ثانيًا: الجيوش الحرة (الأفراد والمجموعات) التي تتشكّل في بعض الدول التي تعاني اضطهادًا أو قمعًا من حكّامها الطغاة، فهذه الجيوش في أمسّ الحاجة للمعونة المالية، والزكاة وسيلة مثلى من وسائل الإعانة لهم تحت بند (في سبيل الله).

ثالثًا: الشعوب المضطهدة من الاحتلال كالشعب الفلسطيني، سواء كان في مرحلة جهاد مفاجيء كما في حالات الغارات الإسرائيلية عليهم، أو جهاد دائم بوقوعهم تحت نير الاحتلال الغاشم.

رابعًا: الأقليات المسلمة التي تعاني اضطهادًا في دول معينة من قبل كفار تلك الدولة، ولا توفّر لهم حكوماتهم حماية ولا مساندة ، كما هو الحال في مسلمي بورما، وكشمير، وبنجلاديش، والبوسنة ، والهرسك وغيرها من المناطق.

خامسًا: المرابطين في الثغور إذا كانت حالتهم المادية فقيرة ، فيشمل ذلك قوات حرس الحدود والموانيء ونحوها من المنافذ البرية والبحرية للدولة، لاسيما التي في اتجاه عدو ظاهر أو مشهور بعدائه للمسلمين.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٧١، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٥٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٨٥، أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٣٢٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٨٥.

(٣) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٢/ ٤٥.

ويمكن أن يشمل من أمور الجهاد ما يلي:

- الإنفاق على التسليح لفئات الجهاد المختلفة، فيشمل شراء الأسلحة وتطويرها وإصلاحها.
- الإنفاق على الأعمال المعاونة للجهاد، كالأعمال الاستخباراتية من مراقبة العدو، ورصد تحركاته.
- عمل المنشآت العسكرية من حفر الخنادق، وإنشاء النقاط الحصينة، وبناء المساكن.
- دفع أموال لصد العدوان عن ديار المسلمين، سواء كان الدفع لمن يخذّل العدو عن المسلمين أو يعرقل سيرهم نحو ديار المسلمين، أو كان الدفع لصنف من الأعداء لا ينكّف إلا بذلك[1].

ويؤيد هذا ما ذكره شراح متن (خليل) من المالكية من أن الزكاة يعطى منها المجاهد والمرابط وما يلزمهما من آلة الجهاد، بأن يشتري منها سلاحًا أو خيلًا لينازل عليها، ويأخذ المجاهد من الزكاة ولو كان غنيًا؛ لأن أخذه بوصف الجهاد لا بوصف الفقر، ويعطى منها جاسوس يرسل للاطلاع على عورات العدو ويعلمنا بها، ولو كان كافرًا[2].

(١) انظر: الذخيرة، القرافي ٣/ ١٤٨، الشرح الكبير، الدردير ١/ ٤٩٧.

(٢) الشرح الكبير، الدردير ١/ ٤٩٧، ويرى ابن بشير المالكي عدم صرف الزكاة في بناء الأسوار والسفن التي تستخدم في أعمال الجهاد.

الأمر الثالث: التوسع في مفهومه باعتبار الأفعال والقربات:

توسع بعض العلماء في مفهوم «في سبيل الله» كثيرًا؛ فأدخل تحته كل أنواع القربات، كما فعله الكاساني الحنفي، حيث قال: «ويدخل فيه كل من سعى في طاعة الله وفي سبيل الخيرات إذا كان محتاجًا»[3].

وبناء على هذا التوسع في المفهوم؛ فإنه ينبغي إدخال أسر المجاهدين وذويهم، باعتبار ذلك ذا صلة مباشرة بأعمال الجهاد من ناحية، فلا يخرج عن إطار «في سبيل الله».

ويمكن الاستناد في هذا إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من جهّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخيرٍ فقد غزا)[4]. ومن ناحية أخرى إذا وجد فيهم وصف الفقر أو المسكنة فقد دخلوا في أصناف أخرى من مصارف الزكاة.

٨. ابن السبيل.

اختلف في المقصود بابن السبيل في

(٣) بدائع الصنائع ٢/ ٤٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله، رقم ١٨٩٥.

مصارف الزكاة، على أقوال:

أولًا: أنه المسافر الغريب أو عابر الطريق، الذي انقطعت به النفقة، وسمي بذلك كأن الطريق ولدته[1].

ثانيًا: أن المراد به الضيف، أو المسافر الذي يمر بحي من الأحياء، حيث يجب إكرامه[2].

ورود ذكر ابن السبيل في القرآن:

ورد ذكر ابن السبيل على اختلاف تفسيره في المواضع الآتية من كتاب الله تعالى:

في آية خصال البر، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي آية النفقة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وفي الوصية بذوي الحاجات والقربى والجيران في سورة النساء، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وفي توزيع الغنائم في سورة الأنفال، -قال تعالى-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وفي آية مصارف الزكاة التي نحن بصددها في سورة التوبة.

وفي الوصية بإعطاء الحقوق لأصحابها في سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وفي الوصية بإعطاء الحقوق لأصحابها لا سيما ذوي الحاجات من هم في سورة الروم، قال الله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وفي تقسيم الفيء، في سورة الحشر، قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧].

ومن مجمل هذه الآيات يتبيّن لنا مدى حرص القرآن الكريم على ابن السبيل، وضرورة تحقيق النفع له بوجوه شتى، هي:

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٤٤، البحر المديد ١/ ٢١٩، ٣/ ١٢١.
(٢) انظر: المصادر السابقة.

- إعطاؤه من الزكاة بالبلد التي مر بها على التفصيل المعروف في الفقه.
- إيفاؤه حقه من الضيافة ونحوها، كتقديم العون والمساعدة له، ودفع الضرر عنه.
- استحقاقه من الغنيمة والفيء.
- ضرورة النفقة عليه والتصدق.
- الإحسان إليه بكل وجوه الإحسان؛ لما في ذلك من البر.

وبعد... فقد رأينا خلال هذه الصفحات القليلة كيف اهتم القرآن الكريم بشأن الزكاة وأعلى قدرها، وحث عليها، وبيّن منزلتها، ومنزلة من يؤديها ويحافظ عليها، وبيّن عاقبة وسوء خاتمة من يمنعها أو يبخل بها، وبسط الكلام عن فضائلها وأحكامها.

وما ذلك إلا ترغيبًا في الزكاة، وترهيبًا من إهمالها والضنّ بها، وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه العزيز مبيّنًا أن الزكاة من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٤].

موضوعات ذات صلة:

الأجل، الاقتصاد، الإنفاق، البخل، البركة، التزكية، الرزق، السر، السعة، الكسب، المال

زكريا عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بزكريا عليه السلام	٨٨
ذكر زكريا عليه السلام في القرآن الكريم	٩٠
كفالة زكريا لمريم عليهما السلام	٩١
سؤال زكريا عليه السلام الولد	٩٣
عائلة زكريا عليه السلام	١٠٥
الدروس المستفادة من قصته عليه السلام	١٠٧

التعريف بزكريا عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

هو نبي الله زكريا، أبو نبي الله يحيى عليهما السلام، من بني إسرائيل، وينتسب لنبي الله يعقوب عليه السلام كما يفهم من قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم:٦].

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٥]

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق أنه من ذرية سليمان بن داود عليهما السلام[(١)].

وفي كتاب البدء والتاريخ: أنه من ولد داود وكان يعمل نجاراً وكانت تحته أخت مريم بنت عمران أم عيسى وكان يحيى وعيسى ابني خالة، وكفل زكريا مريم[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: (كان زكريّا نجّارًا)[(٣)].

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

عاش نبي الله زكريا عليه السلام قبل ميلاد عيسى عليه السلام، حيث عاصر ميلاد مريم وكفلها، واستجاب الله دعاءه ورزقه بيحيى عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧].

ثالثًا: قرابته لمريم وعيسى عليهما السلام:

---

(١) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ١٩/ ٤٨، قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٣٤٨.

(٢) انظر: البدء والتاريخ ، ابن طاهر المقدسي ٣/ ١١٦، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي ٢/ ٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في فضائل زكريا عليه السلام، رقم ٢٣٧٩.

قيل: هو زوج أخت مريم عليها السلام.

وقيل: زوج خالتها.

قال ابن كثير: «وإنّما المحفوظ في بعض ألفاظ الصّحيح في حديث الإسراء: (فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة)[1]. فجاء على قول الجمهور، كما هو ظاهر الحديث، فإنّ أمّ يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران.

وقيل: بل أشياع وهي امرأة زكريّا أمّ يحيى هي أخت حنّة امرأة عمران أمّ مريم، فيكون يحيى ابن خالة مريم، فاللّه أعلم»[2].

رابعًا: وفاته عليه السلام:

قتل عليه السلام بتحريضٍ من قتلة يحيى عليه السلام[3]، وقتل اليهود للأنبياء من أشنع ما ارتكبوه من جرائم.

قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ٥/ ٥٣، رقم ٣٨٨٧ حديث أنس ابن مالك في الإسراء والمعراج، وفيه: (فلمّا خلصت إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة).

(٢) البداية والنهاية، ٢/ ٦٥.

(٣) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ١٩/ ٥٦.
وقد جاء في إنجيل متى ٢٣/ ٣٥ وفي إنجيل لوقا ١١/ ٤٩ ذمٌّ ووعيدٌ لقاتليه.

ذكر زكريا عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر زكريا عليه السلام في القرآن الكريم (٧) مرات، في (٤) سورة.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
آل عمران	٣٧-٤١
مريم	٧-١١
الأنبياء	٨٩-٩٠

كفالة زكريا لمريم عليهما السلام

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

تبدأ قصة زكريا عليه السلام كما في سورة آل عمران وهي سورة مدنية نزل صدرها بمناسبة قدوم وفد من نصارى نجران، وحوارهم مع النبي صلى الله عليه وسلم الذي دار محوره حول المسيح عليه السلام، ويبدأ الحديث عن زكريا بهذا العمل العظيم الذي حرص على القيام به ووفق إليه، كفالة اليتيمة مريم، تلك الطفلة التي تقبلها المولى عز وجل وأنبتها نباتاً حسناً، فكان كفالته لها نعمة من الله ورحمة.

أولًا: كيف تمت تلك الكفالة؟

تم هذا الأمر بتوفيق من الله عز وجل بعد أن تنافسوا وتنازعوا على كفالة مريم، كلٌّ يرجو لنفسه أن ينال هذا الشرف، فمريم بنت إمامهم ومعلمهم عمران عليه السلام الرجل الصالح الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤيتها، وحرصا على هذا الشرف ووفاء لمعلمهم وإمامهم كان تنافسهم وتسابقهم على كفالتها، ولما لم تجتمع لهم كلمة ولم يتفق لهم رأي وطال جدالهم حول من يستأثر بهذه المكرمة: اتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

قال ابن عبّاسٍ: اقترعوا فجرت الأقلام مع الجرية وعال قلم زكريّا الجرية فكفلها زكريّا[1].

قال ابن حجر: ((وعال قلم زكريا) أي: ارتفع على الماء وفي إحدى الروايات وعلا، و(الجرية) بكسر الجيم والمعنى: أنهم اقترعوا على كفالة مريم أيهم يكفلها فأخرج كل واحد منهم قلما وألقوها كلها في الماء فجرت أقلامهم الجميع مع الجرية إلى أسفل وارتفع قلم زكريا فأخذها)[2].

وفاز زكريا عليه السلام بالقرعة وتولى كفالة مريم رضي الله عنها.

قرئ: (وَكَفَلَهَا)، بالفاء المفتوحة المخففة على إسناد الفعل إلى زكريا عليه السلام: إخبار من الله بأنه هو الذي تولى كفالتها، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾.

وقرئ بالتشديد ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ أي: جعل الله زكريا لها كافلًا.

والقراءتان صحيحتان، لا تعارض بينهما في المعنى، فالمولى عز وجل قد أكرم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، ٣/ ١٨١.

(٢) فتح الباري ٥/ ٣٤٧ باختصار.

مريم رضي الله عنها بأن جعل زكريا لها كافلا، ولقد توجه زكريا وقصد كفالة مريم تقربًا إلى الله عز وجل ووفاءً وعرفانًا وبرًّا وإحسانًا، وزكريا عليه السلام وإن كان قد أقبل على كفالتها، وأصاب سهمه فإن الذي هداه إلى ذلك ووفقه ويسّر له ذلك الأمر هو الله عز وجل[1].

كرامة لمريم عليها السلام:

قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

قام نبي الله زكريا عليه السلام بكفالة مريم، وجعل مقامها في بيت المقدس، في موضع تخلو فيه للعبادة وهو المحراب.

ولابد أن هذا المكان بمعزل عن الاختلاط بالرجال والظهور لهم، فهو خلوة لمريم تتعبّد لربها بصفاء ذهن وإقبال قلب.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ لم يحمله إليها، ولا هو مما يعهد في هذا الوقت من الزمن، وهو يعلم أنه لا يدخل عليها غيره؛ فهو القائم على كفالتها، حتى أثار ذلك الأمر دهشته وعجبه.

(١) بالتخفيف قراءة: نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، والباقون بالتشديد.
انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٣٩.

قال ابن كثير: «قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وعن مجاهد قال: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي: علمًا، أو قال: صحفًا فيها علم. والأول أصح.وفيه دلالة على كرامات الأولياء، وفي السنة لهذا نظائر كثيرة»[2].

هذا الرزق كرامة من جملة الكرامات التي أظهرها الله لمريم تمهيدا وتهيئة للآية العجيبة التي تنتظرها.

موقف زكريا عليه السلام من هذه الكرامة: سأل زكريا مريم متعجبًا من أين لك هذا ؟ كيف وصل إليك قالت هو من عند الله؛ فعطاؤه ممدود، وفضله عظيم وخزائنه زاخرة. كما قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

فالله سبحانه يعطي العباد من حيث لا يحتسبون، بدون تقدير منهم ولا تدبير، وفي الحديث (يمين الله ملأى لا يغيضها شيء، سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه)[3].

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، ٢/ ٦٩٠، رقم ٩٩٣، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن تواليي النعم بسح اليمين، سح الماء سحا: سال من

سؤال زكريا عليه السلام الولد

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨].

وفي سورة مريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٢-٦].

وفي سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩].

لقد أكرم المولى عز وجل زكريا عليه السلام بإكرامه لمريم تلك اليتيمة ذات المكانة العظيمة، وكانت تلك الكرامة التي حدثت لمريم سببًا مباشرًا في توجّه زكريا عليه السلام إلى الله ودعائه بأن يرزقه ذرية طيبة.

ومن هنا تبدأ القصة، ولذا قال سبحانه: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الوقت وفي نفس المكان، وزكريا عليه السلام يشهد هذه الكرامة، ويرى تلك العجيبة، في المحراب مكان العبادة والطاعة، والرحمات والبركات والنفحات، يتوجه زكريا بالدعاء راجيًا من المولى عز وجل أن يرزقه ذرية طيبة، معلقا رجاءه بقدرة الله ورحمته ولطفه أن يرزقه الولد في غير حينه كما رأى الفاكهة في غير حينها.

قال القشيري: «لما رأى كرامة الله سبحانه مع مريم ازداد يقينا على يقين ورجاء على رجاء فسأل الولد على كبر سنه، وإجابته إلى ذلك كانت نقضا للعادة»[1].

لما رأى كرامة لمريم تدل على صلاحها وقربها من الله تمنى أن يكون له ولد صالح تقرّ به عينه، وينشرح له صدره.

وجاء الطلب بلفظ الهبة: «لأن الهبة إحسان محض، ليس في مقابلة شيء وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد، لكبر سنه، ولا للوالدة؛ لكونها عاقرا لا تلد»[2].

ومنح الولد مع اجتماع موانعه من كبر السن والعقم أمر خارق للعادة، مظهر لعظيم قدرة الله وجليل صنعه ولطيف إرادته. لذلك كان التفسير بـ(لدن) التي هي أخص من (عند) لأن هبة الولد لزكريا مع كبر سنه وعقم زوجته فيه منحة وخصوصية من المولى القدير جل وعلا.

فوق إلى أسفل وسححته إذا أسلته..والسح هو الصب الكثير.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ١٢٢.

(١) انظر: لطائف الإشارات، ١/ ٢٥١.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٤٤.

قال الرازي: «لأن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة، فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب كان المعنى: أريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة، وأن تحدث هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من الأسباب [1].

والذرية الطيبة الولد الصالح الذي تطيب به النفس ، ويبتهج الفؤاد وتقر به العين، فيوافق ما يتمناه أبواه ويرجوانه له من الصلاح.

«لما كان الباعث عليه ما شاهد من أمر مريم وخصوص كرامتها على الله، وامتلاء قلبه من شأنها لم يملك من نفسه إلا أن يسأل ربه أن يهبه مثلها كرامة ومكانة عند الله؛ ولذلك استجيب في عين ما سأل من الله، ووهب له يحيى وهو أشبه الأنبياء بعيسى عليه السلام، وأجمع الناس لما عند عيسى وأمه مريم الصديقة من صفات الكمال والكرامة...» [2] ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: قابله ومجيبه.

قال النبيّ المستجاب دعاؤه

ما كنت ربّي بالدّعاء شقيّا
هب لي بفضلك وارثًا متعبّدًا
واجعله يا ربّ العباد رضيّا

فأجاب دعوته وأنجز وعده
بفتاه أعني عبده زكريّا [3]

وفي سورة مريم قال تعالى في مستهل السورة عن دعاء زكريا عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم:١-١٥]

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾:

(١) مفاتيح الغيب، ٨/ ٣٣.
(٢) انظر: الميزان، الطباطبائي ٣/ ١٧٥.
(٣) أورد الفيروزآبادي هذه الأبيات في بصائر ذوي التمييز ٦/ ٩٣، ولم يذكر قائلها.

تذكير للنبي صلى الله عليه وسلم ولسائر المخاطبين برحمة الله عز وجل بعبده ونبيه زكريا عليه السلام.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾: دعا ربه خفية، ومن المعلوم أن إخفاء الدعاء أو الجهر به عند الله سواء فهو سبحانه لا يخفى عليه شيء، وللدعاء في السر مزية فهو أدعى للخضوع والخشوع والإخلاص، وأقرب للإجابة، يقول قتادة: إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي[1].

وفي الحديث: (أربعوا على أنفسكم فإنكم ليس تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا، وهو معكم)[2].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾: ضعفت عظامي وخارت قواي، «فالعظم عماد البدن ودعام الجسد فإذا أصابه الضعف والرخاوة تداعى ما وراءه وتساقط قواه»[3].

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾: وشاب شعر الرأس كناية عن كبر سنه، فالشيب يسري في الرأس وينتشر فيها، كما تسري النار وتشتعل في الهشيم. والمراد من هذا: «الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة»[4]. وفي هذا إشارة إلى ضعفه، وفقره إلى رحمة الله عز وجل.

حسن الرجاء:

﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾: لم أعهد منك ربي إلا إجابتي في دعوتي فأنت رجائي وغايتي، وأنت قصدي ووجهتي، عودتني على الكرم والإحسان.

ولم أكن بدعائي إياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر الطويل ، بل كلما دعوتك استجبت لي، وهذا توسل منه بما سلف من الاستجابة عند كل دعوة إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة من كبر السن، وضعف الحال، فإنه تعالى بعدما عود عبده بالإجابة دهرا طويلا لا يخيبه أبدا لا سيما عند الاضطرار وشدة الافتقار ، روي أن محتاجا قال لبعضهم: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا، فقال: مرحبا بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته... يقال: سعد بحاجته إذا ظفر بها، وشقي بها إذا خاب[5].

إخلاص النية والحرص على الخير:

﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يخبر زكريا عليه السلام عن أسباب طلبه للولد فقد وهن منه العظم وشاب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع فيها برفعه كالتلبية وغيرها، ٤/ ٢٠٨٦، رقم ٢٧٠٤، عن أبي موسى الأشعري.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٥٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١١.
(٥) انظر: روح البيان ، إسماعيل حقي ٥/ ٣١٤.

الشعر وتقدم به العمر، وهو خائف من أن يموت دون وارث له، يرث عنه النبوة والصلاح. قال الإمام القاسمي: «﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾، أي: الذين يلون أمر رهطي من بعد موتي، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفني في القيام بما كنت أقوم به، من الإرشاد ووعظ العباد، وحفظ آداب الدين والتمسك بهديه المتين»[1].

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾: «و في الإخبار عنه بلفظ الماضي (وكان): إعلام بتقادم العهد في ذلك، وغرض زكريا من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد، فكان إيراده بلفظ الماضي أقوى»[2] في الدلالة، فهي لا تلد منذ شبابها، فكيف بها الآن؛ وقد بلغت من الكبر عتيا!

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾: هب لي من لدنك من يلي أمري، ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: المقصود هنا ليس ميراث الملك أو المال، وإنما ميراث النبوة والحكمة، فالأنبياء لا يورثون دينارا ولا درهما، وإنما يورثون الحكمة والهدى والصلاح، والميراث يكون في المال أو في الملك أو في العلم والحكمة أو في النبوة والصلاح، والأول مستبعدٌ لأنه لم يطلب الولد ليرث ماله فالأنبياء لا يورّثون مالا. وليس ميراث ملك لأن زكريا لم يكن ملكا وآل يعقوب لم يتوارثوا ملكا ويحيى عليه السلام لم يصبح ملكا. ومن هنا فإن الميراث الحقيقي الذي سيرثه عن أبيه هو الصلاح والعلم والحكمة.

قال الراغب: «﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يعني وراثة النبوة والعلم والفضيلة دون المال، فالمال لا قدر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه، بل قلما يقتنون المال ويملكونه»[3].

سؤال الصلاح للولد:

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: مرضيًّا عندك في جميع أحواله.قال ابن كثير: «مرضيا عندك وعند خلقك تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه»[4]، كما قال عز وجل في ختام سورة مريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

أي: سيجعل لهم في قلوب العباد محبة ومودة.

قال الماوردي «فيها وجهان: أحدهما: حبا في الدنيا مع الأبرار، وهيبة عند الفجار، الثاني: يحبهم الله ويحبهم الناس... ويحتمل ثالثًا: أن يجعل ثناء حسنا...»[5].

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن

(١) محاسن التأويل، ١١/ ١١١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ١٨٣.
(٣) المفردات، ص ٥١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١١.
(٥) النكت والعيون، ٢/ ٦.

الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه قال: فيحبه جبريل، ثم ينادى في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادى في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض)[1].

دعاء زكريا في سورة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩].

وهذا هو الموضع الثالث الذي يتحدث فيه القرآن الكريم عن دعاء زكريا عليه السلام، وسياق الآيات هنا في بيان رحمة الله بأنبيائه واستجابته لدعواتهم، ونلاحظ أن مضمون الدعاء في السور الثلاث واحد والهدف منه واحد، وإن تنوعت الأساليب، فإن تنوعها يكشف عن حقائق هذا الدعاء ومقاصده، ومن المرجّح أن الدعاء تكرر من زكريا عليه السلام.

وفي موضع سورة الأنبياء يخبر الله تعالى في سياق إنعامه على أنبيائه واستجابته لدعائهم، كيف يطلب زكريا عليه السلام من المولى عز وجل أن لا يتركه وحيدا لا ولد له؛ يقوم بوراثة الصلاح والنبوة من بعده، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩]

فالوارث الحقيقي هو الله سبحانه وهو الباقي بعد فناء خلقه. قال ابن كثيرفي قوله ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: «دعاء وثناء مناسب للمسألة»[2].

وقال الألوسي في معنى ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: «وفيه مدح له تعالى بالبقاء وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، وفي ذلك استمطار لسحائب لطفه عز وجل»[3].

استجابة الله تعالى لدعاء زكريا عليه السلام:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩]

وقال عز وجل في سورة مريم: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم: ٧].

وقال سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا وضع له القبول في الأرض، ٤/ ٢٠٣٠، رقم ٢٦٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٩٣.

(٣) روح المعاني ١٧/ ٨٧.

﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠]

في الموضع الأول من سورة آل عمران يذكر المولى عز وجل أن الملائكة نادت على زكريا عليه السلام وهو يصلي في المحراب ذاك المكان الطاهر المبارك، وبشرته ببشارة عظيمة ، بشرته بغلام يدعى يحيى يكون سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين.

قال ابن كثير: «خاطبته الملائكة مشافهة خطابا أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته» [(١)]. والتعبير بالفاء هنا يدل على التعقيب، المفيد لسرعة الجواب، كما قال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾.

ولقد اختلف المفسرون في المراد بالملائكة هنا: هل هم جمع منهم أم أن المراد جبريل عليه السلام ؟

وظاهر النص: يفيد أن المنادي جمع من الملائكة، وقيل إن المنادي جبريل، ذكر ذلك ابن جرير في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه [(٢)] ، وقال الألوسي معلقا على هذا الرأي: «فالجمع هنا مجاز عن الواحد للتعظيم، أو يكون هذا من إسناد فعل البعض للكل، وقيل : الجمع فيه مثل قولك: فلان يركب الخيل ويلبس الديباج، واعترض بأن هذا إنما يصح إذا أريد واحد لا بعينه، وهاهنا أريد المعين فلعل ما تقدم أولى بالإرادة ، وقيل : الجمع على حاله ، والمنادي كان جملة من الملائكة» [(٣)].

والذي أراه في هذه المسألة أن المنادي جمع من الملائكة كما يفيد ظاهر النص؛ لأن الأصل هو الأخذ بظاهر النصوص واستعماله الحقيقي دون اللجوء إلى صرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز. وفي نداء جمع من الملائكة مزيد اعتناء وتكريم لزكريا، وتعظيم لتلك البشارة وللواهب جل وعلا.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ ذكر المبشر به وهو يحيى عليه السلام يدل على أنه ذكر وعلى أن المولى عز وجل قد اختار له هذا الاسم الطيب المبارك.

وفي سورة مريم ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾ [مريم: ٧]

وفي هذه الآية إشارة إلى أن المبشر به وهو يحيى عليه السلام سوف يولد ويكبر حتى يصير غلاما، وفي قوله تعالى: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ ما يفيد أن هذا الاسم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٦١.
(٣) روح المعاني، ٣/ ١٤٥.

لم يسم به أحد قبل يحيى عليه السلام، فهو اسم بكر، وللاسم البكر الجميل وقعه في النفوس، وصداه في الآذان، واختيار هذا الاسم ليحيى نعمة وهبة من الله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فالمسمى والاسم هبة ونعمة من الله عز وجل.

أما عن سر التسمية بهذا الاسم، فيقول مقاتل: ((لم يكن أحد من الناس فيما خلا يسمى يحيى، وإنما سماه يحيى لأنه أحياه من بين شيخ كبير وعجوز عاقر))[1]. وعن قتادة قال: ((أحياه اللّه بالإيمان))[2].

﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: مؤمنا بعيسى عليه السلام، قيل إن يحيى عليه السلام هو أول من صدّق بعيسى عليه السلام، وقيل ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي : مؤمنا بكتاب منه تعالى[3].

لقد كانت ولادة يحيى عليه السلام من شيخ كبير وأم عجوز عاقر تمهيدا لآية أعجب وهي ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، مع القرب الزمني بين الحدثين المتعاقبين، حيث ولد يحيى وبعده عيسى عليهما السلام.

﴿وَسَيِّدًا﴾: كريما، شريفا، يسود الناس بفقهه وعلمه وحلمه، وحكمته وهمّته، وزهده وقوته في الحق[4]، ساد نفسه بأن حملها على طاعة الله وصرفها عن معصيته، وساد قومه بما تحلى به من مكارم الأخلاق، ومن ساد نفسه ساد غيره.

﴿وَحَصُورًا﴾: حصر نفسه أي: حبسها ومنعها من الهمم الدنية[5]، وقيل : هو الذي لا يأتي النساء لا لعجزه عن ذلك، وإنما لزهده وانشغاله بالطاعات والقربات[6].

ولا تعارض بين المعنيين، وإن كان الأول أولى، لأن الزواج سنة الأنبياء عليهم السلام.

وسياق الكلام يدل على البشارات التي ساقتها الملائكة لزكريا عليه السلام لتدخل على قلبه السرور، والحصور صفة مدح وكمال لا صفة ذم ونقصان.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جمع عليه السلام بين النبوة والصلاح، فالأنبياء هم أشد

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٦٢١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٤٧.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٧٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٦١.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣١٣، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٧٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٦، روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٤٧.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦١، روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣١.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦١، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٦، روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٤٨، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٥.

الناس صلاحا واستقامة على منهج الله[1]، والصلاح صفة ملازمة لهم قبل النبوة، لكن النبوة تزيدهم صلاحا على صلاح.

وفي الموضع الثاني من سورة مريم يأتي الجواب من قبل الله عز وجل: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: ٧].

لم نجعل له شبيها من أهل عصره في أحواله وصفاته، أو لم نجعل له من قبل من يشاركه في هذا الاسم.

قال الزمخشري: «لم يسم أحد بيحيى قبله... وقيل: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ مثيلا وشبيها كقوله في نفس السورة: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾.

وإنما قيل للمثل: سميّ؛ لأن كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثيل والشبيه والنظير، فكل واحد منهما سميّ لصاحبه... قالوا :لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر، وأنه كان حصورًا»[2].

وفي الموضع الثالث في سورة الأنبياء: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فقد استجاب المولى عز وجل لزكريا عليه السلام وأصلح زوجته للحمل والولادة، وأثنى سبحانه على زكريا ويحيى وامرأة زكريا بأنهم ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي : يبادرون إلى فعل الطاعات، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ يجمعون بين الرغبة والرهبة، بين الخوف والرجاء، وهذه حال المؤمن ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ بقلوبهم وأبدانهم خاشعين لربهم، ضارعين له.

موقف زكريا عليه السلام من هذه البشارة:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ [آل عمران: ٤٠].

وقال تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم: ٨ -

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٥.

١١].

دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه الولد فاستجاب المولى عز وجل لدعائه، وجاءته الملائكة تبشره بغلام يرث النبوة والصلاح عنه، ولقد كانت الاستجابة مفاجأة لزكريا عليه السلام، فقال عليه السلام مقالته متعجبا من هذه البشارة، ومتسائلا عن كيفية تحققها ووقوعها وقد بلغ من الكبر مبلغا ؟

وتساؤل زكريا عليه السلام عن كيفية وقوع هذه البشارة هل سيعود إلى شبابه هو وزوجته ؟ أم سيعود له شبابه ويتزوج بامرأة أخرى تكون ولودا، أم كيف تتمّ هذه البشارة العجيبة.

قال الماوردي: «ولم يقل ذلك عن شكٍّ بعد الوحي ولكن على وجه الاستخبار: أتعيدنا شابين ؟ أو ترزقنا الولد شيخين؟»[1].

وفي سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وقوله تعالى: ﴿عِتِيًّا﴾: العتي هو النهاية في الكبر واليبس، ﴿مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ السن الذي تعتو فيه العظام والمفاصل، أي : تيبس وتجف وهو حال لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها.

فاجتمع لديه ثلاثة موانع: كون امرأته عاقرا منذ شبابها، وكونه قد بلغ من الكبر عتيا، وكذلك زوجته، فلا سبيل لمداواة الشيخوخة.

جواب الحق جل وعلا عن تساؤل زكريا:

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: ٤٠].

وقال عز وجل في سورة مريم : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٩].

جاء الجواب الإلهي شافيا كافيا، فهذا العطاء العجيب وهذه الآية الخارقة مندرجة ضمن مشيئته جل وعلا، وهي أمرٌ هيّنٌ يسيرٌ أمام المولى القدير الذي نقلك من العدم إلى الوجود.

قال الألوسي في تفسيره : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: يفعل الله ما يشاء أن يفعله من الأفعال العجيبة الخارقة للعادة فعلا مثل ذلك الفعل العجيب، والصنع البديع الذي هو خلق الولد مع الحالة التي يستبعد معها الخلق بحسب العادة»[2].

وفي التعبير باسم الجلالة ما يفيد الهيبة والعظمة والروعة والإجلال.

وفي التعبير بوصف الربوبية في موضع سورة مريم دلالة بالغة - الإظهار في موضوع الإضمار، وهو ما يسمى عند البلاغيين خلاف مقتضى الظاهر - لما في

(١) النكت والعيون، ٢/ ٥٨.

(٢) روح المعاني، ٣/ ١٥.

ذلك من إبراز جلال الربوبية في هذا المقام: فالرب هو الخالق المدبر المصرف لشئون خلقه، وكما خلق عز وجل عبده زكريا عليه السلام من العدم فهو سبحانه قادر على أن يرزقه الولد مع كبر السن وعقم الزوجة، والرب هو القدير الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء، وقدرة المولى عز وجل قدرة مطلقة لا تحدها حدود، ولا تقيدها قيود، وهذا الأمر يقع بتدبير الله تعالى لزكريا، فلا يحتاج لطبيب أو لدواء، والرب هو الرحيم اللطيف والاستجابة لدعاء زكريا من لطف الله تعالى به ورحمته له، والربوبية من التربية والرعاية وهذا المعنى في هذا السياق واضحٌ جليٌّ.

وهذا الأمر الذي يتعجب منه زكريا عليه السلام ويقف أمامه مشدوها ومبهورا، هو أمر هيّن يسير على الله عز وجل.

قال الإمام القرطبي «... أي: كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئا موجودا فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده»[1].

زكريا يطلب آية من الله عز وجل:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال عز وجل في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١٠ - ١١].

طلب زكريا عليه السلام آية من المولى عز وجل، علامة تدل على وقت حدوث الحمل، ليس شكًّا في هذه البشارة وإنما شغفا ولهفة على معرفة وقت حدوث الحمل، فتلك أعظم لحظات الفرح والبهجة لمن طال انتظاره للولد، كذلك ليبادر إلى شكر الواهب جل وعلا.

قال الماوردي: «قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، أي: علامة لوقت الحمل ليتعجل السرور به»[2].

وفي روح البيان «أي: علامة تدل على تحقق المسئول أو وقوع الحبل، وإنما سألها لأن العلوق أمر خفي لا يوقف عليه، فأراد أن يطلعه الله عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة منه حين حصولها بالشكر ولا يؤخره إلى أن يظهره ظهورًا معتادًا»[3].

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

وفي سورة مريم يقول: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٨٤.

(٢) النكت والعيون، ١/ ٣١٤.

(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣١.

﴿تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾ [مريم: ١٠].

أجاب المولى عز وجل زكريا عليه السلام فيما طلبه، فأعطاه الآية الدالة على وقوع الحمل وهذه الآية هي امتناعه عن الكلام لمدة ثلاثة أيام بلياليهن، فلا يتكلم إلا بالإشارة والإيماء.

قال الزمخشري: «قال: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح سويّ الخلق، ما بك خرس ولا بكم»[1].

ومنع زكريا عليه السلام من الكلام لحكمة بليغة فللصمت فوائده العديدة، ففيه راحة النفس، وهدوء البال، وسكينة القلب، وانطلاق الفكر، وصفاء العقل، ومن هنا فمنع زكريا عليه السلام من الكلام من تمام نعمة الله عليه ورعايته له، كذلك إذا كان الكلام نعمة عظيمة تدل على قدرة الله تعالى كما قال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات: ٢٣].

كذلك امتناع السليم من الكلام آية عجيبة.

قال السعدي: ((ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، أي: أول النهار وآخره[2].

ولصاحب الظلال في هذا المقام كلام طيب ، حيث يقول رحمه الله بعد أن وضح أن القدرة الإلهية لا تفرق بين هين وعسير، أو بين مألوف وغريب فقدرته عز وجل مطلقة من كل قيد، ومنطلقة بلا حدّ: «ولكن زكريا لشدة لهفته على تحقق البشرى، ولدهشة المفاجأة في نفسه راح يطلب إلى ربه أن يجعل له علامة يسكن إليها: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾.. وهنا يوجهه الله سبحانه إلى طريق الاطمئنان الحقيقي، فيخرجه من مألوفه في ذات نفسه... إن آيته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو توجه إلى الناس، وأن ينطلق إذا توجه إلى ربه وحده يذكره ويسبحه ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾... ويسكت السياق هنا، ونعرف أن هذا قد كان فعلا، فإذا زكريا عليه السلام يجد في ذات نفسه غير المألوف في حياته وحياة غيره...،

(١) الكشاف، ٣/ ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣.

لسانه هذا هو لسانه ولكنه يحتبس عن كلام الناس، وينطلق لمناجاة ربه... أي قانون يحكم هذه الظاهرة ؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية... فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة.. كذلك رزقه بيحيى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر !!!»[1].

ماذا فعل زكريا في هذه الأيام الثلاث ؟

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

وفي سورة مريم يقول عز وجل: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

رغم منع زكريا عليه السلام من الكلام إلا أنه يواصل ذكر الله عز وجل ويأمر الناس به حيث يشير إليهم بما يفهم منه دوام الذكر، وزكريا عليه السلام أنعم الله عليه بالصمت، وفي الصمت فكرة وعبرة كما أنعم الله عليه بتوفيقه إلى الذكر فاجتمع له الذكر مع الفكر، والذكر من أسنى المقامات ومن أجل القربات ومن أفضل الأعمال ومن أسمى الأحوال. والذكر مطلوب في كل حال حتى يصير المؤمن على صلة بالله عز وجل، وزكريا عليه السلام يواصل ذكر الله حتى وهو ممنوع عن الكلام، حيث يحتبس لسانه عن سائر الكلام إلا الذكر، وتلك آية عجيبة، كما يواصل دعوة قومه إلى ذكر الله عز وجل وحين يمتنع عن الكلام فإن الإشارة توصل إلى المطلوب، أشار إليهم أن يداوموا على التسبيح في جميع الأوقات.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٩٥.

عائلة زكريا عليه السلام

زكريا عليه السلام هو زوج أخت مريم، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل ، يرجع نسبه إلى سليمان بن داوود ، ومنه إلى إبراهيم عليه السلام، فهو من نسل طاهر ومن أصل كريم.

وامرأته زوجة صالحة صابرة، ابتلاها المولى عز وجل بالعقم، فأسلمت أمرها لله ورضيت بقضاء الله، وعاشت مع زوجها حياة حافلةً بالإقبال على الطاعات والمسارعة للخيرات، ولقد أثنى المولى عز وجل في كتابه الكريم على زكريا وزوجته وولده يحيى.

فقال سبحانه: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

ولقد استجاب الله دعاء زكريا عليه السلام، وأصلح له زوجه، بأن جعلها صالحة للحمل والولادة بعد أن كانت عقيما، وبأن زادها صلاحا على صلاح ، ورزقهما بيحيى عليه السلام، الذي ورث النبوة والصلاح عن أبويه، وكان بارًّا بهما محسنًا إليهما.

ومن الناس من يقول بأنه كانت سيئة الخلق بذيئةً فأصلحها الله تعالى ، وهذا يتعارض مع الآية السابقة التي وصفت زكريا وابنه يحيى وزوجه بالمسارعة للخيرات والمداومة على الدعاء راغبين راهبين، وملازمة الخشوع.

قال الرازي: «وفي تفسير قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾: ثلاثة أقوال: أحدها: أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع بالعادة، وهذا أليق بالقصة. والثاني: أنه أصلحها في أخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه وجعل ذلك من نعمه عليه. والثالث: أنه سبحانه جعلها مصلحة في الدين، فإن صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعيًا إلى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعًا. وهذا كأنه أقرب إلى الظاهر لأنه إذا قيل: أصلح الله فلانًا فالأظهر فيه ما يتصل بالدين»[1].

وابنه نبي الله يحيى عليه السلام وهبه الله إياه على الكبر، ونشأ في بيت صلاح وطاعة، وقرأ التوراة وأخذ بأحكامها، وآتاه الله الحكم والنبوة، ودعا إلى ربّه حتى قتله اليهود.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف تدل على

(١) مفاتيح الغيب، ٢٢/ ١٨٣.

فضله ومكانته.

وصفه بأنه سيد وحصور ووهبه النبوة والصلاح قال تعالى عنه: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال تعالى في سورة مريم عنه: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٢-١٥].

أمر إلهي ليحيى عليه السلام أن يأخذ التوراة مأخذ الجد في العلم بها، وفي فهمها وفي العمل بها ودعوة الناس إلى الأخذ بها.

قال ابن كثير: «أي :تعلم الكتاب بقوة أي: بجد واجتهاد وحرص»[(١)].

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾: قال ابن جرير: «أعطاه الله الفهم لكتابه في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال»[(٢)].

وقال ابن كثير: «أي :الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير... والاجتهاد فيه وهو صغير حدث»[(٣)].

فالحكم: هو العلم والفهم والجد والعزم، والمعرفة بالأحكام، وفهم التوراة والحكمة.

﴿وَحَنَانًا﴾ عطف على الحكم ، أي:وآتيناه الحكم وحنانا، والتنوين للتعظيم والتفخيم، والحنان: الرفق واللين والشوق والعطف، ولقد ملأ الله قلب يحيى بالحنان لأبويه ولغيرهما، فكان برا بأبويه ورحيما بالناس.

﴿وَزَكَاةً﴾: «وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع، يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس فيطهرها ويزكيها»[(٤)].

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعًا لله عز وجل، يمتثل ما أمره به ويجتنب ما نهى عنه، ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾: محافظا على البر لهما والإحسان إليهما، ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: «ولم يكن متكبرًا متعاليًا عن قبول الحق والإذعان له، أو متطاولًا على الخلق، وقيل: الجبار هو الذي لا يرى لأحد عليه حقًّا»[(٥)].

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾: «سلم الله تعالى على يحيى وحياه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول»[(٦)].

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١٣.
(٢) جامع البيان ١٨/ ١٥٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١١٣ بتصرف.
(٤) في ظلال القرآن ، سيد قطب ٤/ ٢٣.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٧٣.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٨٨.

الدروس المستفادة من قصته عليه السلام

١. الترغيب في كفالة اليتيم.

حرص الأحبار من بني إسرائيل على كفالة مريم وتنافسوا على ذلك تنافسا شريفا وصل بهم إلى حد الاقتراع لحرص كل واحد منهم على الأجر والثواب، فمريم بنت إمامهم ومعلمهم، وهي طفلة يتيمة تحتاج إلى يد حانية وإلى قلب عطوف، يقودها إلى بر الأمان، ولقد حثنا الإسلام على كفالة اليتيم، وأمر بإصلاح شأنه والمحافظة على ماله، وتنميته، حتى يبلغ سن الرشد.

٢. ثبوت كرامات الأولياء.

فهذا الرزق الذي ساقه المولى عز وجل لمريم بغير حساب وبهذا الأمر العجاب كرامة لها. والكرامة هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح غير مدع للرسالة.

وهي مأخوذة من ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وعقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بها، والتسليم لها إذا وقعت أوصلت للسامع عن طريق الرواة الثقات. قال الإمام القاسمي: ((وفي الآية ، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا﴾ دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى كما وقعت لخبيب بن عدي الأنصاري رضي الله عنه[١] حين أسر بمكة وحبس بها فخرجوا به من مكة ليقتلوه في الحل، وقد وجد عنده وهو في محبسه قطف من العنب، جاء إليه من عند الله عز وجل كرامة له وتثبيتا لقلبه والقصة في صحيح البخاري[٢].

وقال الإمام الطحاوي رحمه الله: «ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات في رواياتهم»[٣].

---

(١) أخرج القصة البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل، ٤/ ٦٧، رقم ٣٠٤٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الحديث: تحكي بنت الحارث بن عامر، وكان خبيب قد قتل أباها في غزوة بدر، تحكي بنت الحارث فتقول: والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر..وإنه لرزق من الله رزقه خبيبًا.

(٢) أخرج القصة البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل، ٤/ ٦٧، رقم ٣٠٤٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الحديث: تحكي بنت الحارث ابن عامر، وكان خبيب قد قتل أباها في غزوة بدر، تحكي بنت الحارث فتقول: والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر..وإنه لرزق من الله رزقه خبيبًا.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ص ٤٩٥.

٣. مشروعية القرعة.

من الأحكام المستفادة من القصة: مشروعية القرعة.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: ((استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة، وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم، وترتفع الظنة عمن يتولى قسمتهم، ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد؛ إتباعا للكتاب والسنة))[1].

٤. الربوبية.

تتجلى لنا معاني الربوبية في هذه القصة العظيمة، إذ لا يكاد تخلو كلّ جملة من جمل الدعاء الذي رفعه زكريا عليه السلام من ندائه وخطابه لربه (ربّ)، ففي سورة آل عمران تكررت ثلاث مرات (قال ربّ)، وفي سورة مريم خمس مرات (ربّ)، وفي سورة الأنبياء مرة واحدة، وهذا يعني أنه ينطق بها في كل جملة ومع كل دعوة، وهذا يعني استحضاره لمعاني الربوبية حين يلهج لسانه بكلمة ربّ، الخلق والرزق والإمداد والعطاء واللطف والرحمة والعناية والرعاية، والقدرة والعظمة، واستشعاره حين ينطقها بعظمة الله ومحبته وقربه من عباده.

٥. حب الولد فطرة إنسانية.

جبلت النفوس على حب الولد، فالولد هو قرة العيون، وثمرة الفؤاد، وفلذة الأكباد، وبهجة النفوس وزينة الحياة.

قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

٦. الولد هبة من الله عز وجل وإنعام منه سبحانه.

قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

وقال تعالى في سورة النحل ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: ٧٢].

فالولد هبة وإنعام من الله، وحب الولد فطرة إنسانية. ولقد جاء الإسلام بما يلائم هذه الفطرة، ويدعمها، فهذا أبو الأنبياء

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٨٦.

إبراهيم عليه السلام يدعو المولى عز وجل فيقول ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠].

ويستجيب المولى عز وجل لدعوته ويصلح له في ذريته قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]، وهو إسماعيل عليه السلام.

ويقول سبحانه أيضًا: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات:١١٢].

ولقد دعا صلى الله عليه وسلم لأنس إبن مالك بكثرة الولد فقال :(اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته) [(١)].

وقد استجاب الله دعوة نبيه وأكثر لأنس المال والولد وبارك له فيما أعطاه.

ومن هنا: «فإن طلب الولد الصالح أمر مرغوب، فالولد الصالح رحمة من الله ونعمة، وبه يصلح البيت ويصلح المجتمع وتستقيم الحياة.

٧. فضل الدعاء.

حوى دعاء زكريا عليه السلام آدابا كثيرة ومعاني سامية ففي قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ ما يدل على أن أفضل الدعاء ما كان في الخفاء فإنه أقرب إلى الإخلاص ، وأدعى للخشوع ، وأرجى للقبول ونتعلم من دعاء زكريا عليه السلام: تحري الأوقات الشريفة الفاضلة المباركة ، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ فإنه عليه السلام لما رأى كرامة مريم ازداد إيمانا على إيمان، ويقينا على يقين، فتوجه بالدعاء وهو في هذا المقام الأسنى والمكان الأسمى، في بيت الله عز وجل حيث تتنزل الخيرات والبركات والرحمات؛ ومن هنا فإن بركة الوقت مع سمو المكان مع علو الحال والمقام الذي يكون عليه الداعي كل هذه العوامل تكون أدعى إلى قبول الدعاء.

قال ابن القيم: «وأما قول زكريا ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ فقد قيل : إنه دعاء المسألة، والمعنى إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه ، كما حكي أن رجلا سأل رجلا وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا، فقال : مرحبا بمن توسل إلينا بنا وقضى حاجته، وهذا ظاهر هنا ، ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه إلى ما سأله[(٢)].

وذكر ابن القيم في فضل إخفاء الدعاء فوائد جمة: «أحدها: أنه أعظم إيمانا لأن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة، رقم ٦٣٧٨، ٦٣٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك، ٤/١٩٢٨، رقم ٢٤٨٠.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص٣٧٩.

صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي ، وليس كالذي قال : إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا.

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ، ولله المثل الأعلى ، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده ، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه ،وخشع صوته ، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه ، فلا يطاوله بالنطق فقلبه سائل طالب مبتهل ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت ، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلًا.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعه القلب على الله تعالى في الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته ، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

سادسها: أنه دال على قرب صاحبه من الله ، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد. ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾))[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حكيم قال: ((خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾))[2].

٨. فضل المداومة على ذكر الله عز وجل.

والذكر من أفضل الأعمال ومن أجل القربات، ولقد جمعت هذه الآية بين فضيلة الذكر والتفكر والدعاء.

وزكريا عليه السلام رغم احتباس لسانه عن كلام الناس إلا أن المولى عز وجل قد أمره بالذكر: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

قال القرطبي: «أمره الله تعالى بألا يترك

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ٥/ ٣٦٥.

الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه، وقال محمد بن كعب القرظي: لو رخّص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا عليه السلام لما حبس لسانه عن كلام الناس، ولرخص للمجاهد في سبيل الله حين ينشغل بقتال الأعداء ،ولكن الله عز وجل أمر زكريا مع منعه من كلام الناس بمداومة الذكر، وأمر المجاهدين بكثرة الذكر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]»[1].

٩. دروس في الدعوة.

ويعلمنا زكريا عليه السلام درسًا هامًّا في الدعوة إلى الله عز وجل، وهو أن لا يتخلى الدعاة عن دعوتهم أبدًا، وأن يعيشوا بها ويتعايشوا معها في كل زمان ومكان، وفي كل الظروف والأحوال، وأن لا يقصروا فيها مهما كانت العوائق والمثبطات، وأن يجندوا لها كل ما يملكون من قدرات وطاقات وأوقات وملكات وإمكانيات، وأن لا يستقلوا أي عمل أو جهد دعويٍّ مهما كان يسيرًا؛ فزكريا عليه السلام وهو ممنوع عن الكلام لكنه يعتمد في دعوته على الإشارة، وهي بديل الكلام ووسيلة من وسائل التعبير.

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

فإذا حرم الدعاة من وسيلة دعوية فليلجئوا إلى غيرها، وإذا أغلق أمامهم باب فليطرقوا بابا آخر، فمن داوم قرع الأبواب ولج. فعلى الدعاة إلى الله أن يتزودوا بالعزم واليقين.

كما يعلمنا الاهتمام والاشتغال بأمر الدعوة ومستقبلها، فقد همّ زكريا أن لا يجد من يراه أهلا لحمل أمانة الدعوة والاضطلاع بمهامها، فخاف من تقصير محتمل ممن سيخلفونه.

١٠. أثر الدعاء للأبناء في صلاحهم، فينبغي المبادرة إلى الدعاء.

قوله تعالى في وصف يحيى: ﴿وَسَيِّدًا﴾: السيادة الحقيقية في طاعة الله وفي تقواه وفي العلم والعمل.

قوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا﴾ نستفيد من هذه الصفة التي وصف الله بها يحيى عليه السلام: أن حبس النفس عن الشهوات أمر محبوب ومطلب مرغوب، قال الإمام ابن تيمية :((المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه.))[2].

قوله في وصف يحيى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

حثٌّ على الهمة العالية والعزيمة القوية في طلب العلم والعمل به.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٨٢ بتصرف.

(٢) الوابل الصيب، ابن القيم ص ٤٤ .

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾: أهمية التربية الراشدة، منذ الصّبا، ويحيى عليه السلام في صباه نموذجٌ يحتذى وأسوة ترتجى.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ تربية القلوب على الرحمة والعطف والحنان، والحنان والرقة والرحمة عطاء من الله تعالى، ومن مكارم الأخلاق التي مدحها القرآن.

﴿وَزَكَوٰةً﴾ الزكاة: الطهارة والنماء، وتزكية الأنفس تطهيرها والنهوض بها، وهذا من مقاصد التربية الراشدة.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ غرس التقوى والمراقبة في نفوس الأبناء والتلاميذ.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ بر الوالدين من أجلّ وأعظم مكارم الأخلاق ، فهما أحق الناس بحسن الصحبة.

١١. تعهد الكفيل لمن يكفله بالتربية والنصح والإرشاد والمراقبة، والحرص على الخير.

١٢. علو همة الأنبياء في الصلاح والخير.

وينبغي على الداعي أن يكون موقنًا بالإجابة، وحسن الظن بالله عز وجل وواثقًا بما عند الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : (إن الله يقول أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني)[1].

وفي الحديث: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه)[2].

العلم الحديث مع التقدم الهائل والإمكانات العظيمة في مجال الطب فإنهم إلى الآن لم يكتشف ولن يكتشف علاج لمرض الشيخوخة ، وما يعتري الطاعنين في السن من ضعف ووهن.

والله عز وجل هو القادر وهو الفعال لما يريد، وفي هذا ما يزيد المؤمن إيمانًا وتسليمًا ويقينًا.

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، التبني، عيسى عليه السلام، مريم عليها السلام

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الذكر والدعاء وحسن الظن بالله تعالى، ٤/ ٢٠٦٧، رقم ٢٦٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٤٨٣، رقم ٣٤٧٩.
وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم ٢٧٦٦، ٣/ ١٦٤.

الزنا

عناصر الموضوع

مفهوم الزّنا	١١٤
الزنا في الاستعمال القرآني	١١٥
الألفاظ ذات الصلة	١١٦
حكمة تحريم الزنا	١١٨
أسباب الوقوع في الزنا	١٢٢
الوسائل الوقائية من الوقوع في الزنا	١٢٦
أساليب القرآن في النهي عن الزنا	١٣٧
أثر شيوع الزنا على الفرد والمجتمع	١٤٤
الإعجاز التشريعي في تحريم الزنا	١٤٩

مفهوم الزّنا

أولًا: المعنى اللغوي:

تطلق مادة (ز ن ي) على معانٍ مختلفة غير متداخلة[1].

وأشهر معانيها الفاحشة المعروفة، والزّنا يمدّ ويقصر، يقال: زنى يزني زنًا وزناءً، والنسبة إلى المقصور زِنَوِيٌّ، وإلى الممدود زِنائِيٌّ. والمرأة تزاني مزاناةً وزناء أي:تباغي[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو الوطء في قبلٍ خالٍ عن ملكٍ وشبهةٍ[3]،أو من غير نكاح ولا شبهة نكاح[4]، أو إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعًا محرم قطعًا[5].

ويعرّفه القرطبي فيقول: «هو اسم لوطء الرّجل امرأةً في فرجها من غير نكاحٍ ولا شبهة نكاحٍ بمطاوعتها. أو: هو إدخال فرجٍ في فرجٍ مشتهًى طبعًا محرّمٍ شرعًا، فإذا كان ذلك وجب الحد»[6].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٦.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٦٩.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١١٥.
(٤) انظر: الهداية في شرح بداية المبتدي، المرغيناني ٢/ ٤٣٣.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣٠٣.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ١٥٩.

الزنا في الاستعمال القرآني

وردت مادة (زني) في القرآن الكريم (٩) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]
المصدر	١	﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢]
اسم الفاعل	٦	﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢]

وجاء الزنا في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي والشرعي، وهو: وطء المرأة من غير عقدٍ شرعيٍّ وملك يمينٍ[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص٦٠٣.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٣٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ البغاء:

البغاء لغةً:

مصدر بغت المرأة بغاء: زنت، والبغاء جمع بغي، ولا يقال بغية، وبغت الأمة: عهرت وزنت، أو فجرت، وقيل: البغيّ: الأمة، فاجرة كانت أو غير فاجرة، وقيل: البغيّ أيضًا: الفاجرة، حرة كانت أو أمة، وقال الأزهريّ: ومعنى البغي قصد الفساد[١].

البغاء اصطلاحًا:

«وهو الزنا»[٢]، أو «هو طلب المرأة للزنا»[٣] أو «الفجور»[٤].

الصلة بين البغاء والزنا:

البغاء وقوع في فاحشة الزنا، والزنا من الفجور[٥].

٢ العفّة:

العفّة لغةً:

قال ابن منظور((العفّة: الكفّ عما لا يحلّ ويجمل))[٦].

العفة اصطلاحًا:

قال الراغب: «العفة حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر»[٧].

الصلة بين العفّة والزنا:

العفّة عن الزنا: هو ألا يكون قد وطء في عمره وطًا حرامًا، في غير ملك، ولا نكاح أصلًا، ولا في نكاح فاسد فسادًا مجمعًا عليه في عهد السلف[٨].

---

(١) انظر: غريب الحديث، إبراهيم الحربي ٢/ ٦٠٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٧٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣١٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٣٢.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٩٠.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٣٢.
(٦) لسان العرب، ٩/ ٢٥٣.
(٧) المفردات، ص٤٤٠.
(٨) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٧/ ٥٤٠٧.

٣ الزواج:

الزواج لغةً:

(زوج) الزّاء والواو والجيم أصلٌ يدلّ على مقارنة شيءٍ لشيءٍ، من ذلك الزّوج زوج المرأة، والمرأة زوج بعلها، وهو الفصيح، ويقال: لفلانٍ زوجان من الحمام، يعني ذكرًا وأنثى[١].

الزواج اصطلاحًا:

هو عقد يقصد به حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر وائتناسه به طلبًا للنسل على الوجه المشروع، أو هو عقد يرد على ملك المتعة قصدًا[٢]، أو هو عقد يفيد حل استمتاع كل من العاقدين بالآخر على الوجه المشروع[٣].

الصلة بين الزنا والزواج:

قال الشافعيّ رحمه الله: ((ووجدت اللّه تعالى حرم الزنا)) ، فقال المحاور: أجد جماعًا وجماعًا، فأقيس أحد الجماعين بالآخر، فقال الشافعي: «فقد وجدت جماعًا حلالًا حمدت به، ووجدت جماعًا حرامًا رجمت به»[٤]، فالزواج جماع يحمد الإنسان ويؤجر به، والزنا جماع يجلد أو يرجم به.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥.
(٢) انظر: كنز الدقائق، النسفي ٢/ ١٧٤ مع شرحه النهر الفائق.
(٣) انظر: الأحوال الشخصية، أبو زهرة ص١٧.
(٤) انظر: الواضح في أصول الفقه، ابن عقيل ٢/ ٢٨٤.

حكمة تحريم الزنا

حرّم الله الزنى لعظيم ما فيه من المفاسد والشرور، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

فهو اعتداء على أعراض المسلمين، حيث يفسد نساء المسلمين ورجالاتهم، إذ إنه من أعظم الذنوب التي تفسد المجتمعات، وتدمر الأخلاق والقيم، وما فشا في أمّة إلا ذهب حياؤها وسقطت مروءتها، وأصبحت كالبهائم لا ترعى حرمة ولا تحفظ ذمة، كما أنه ترجّح على غيره من الفواحش لما فيه من تضييع حرمة الحقّ، وهتك حرمة الخلق، ثم لما فيه من الإخلال بالنّسب، وإفساد ذات البين من مقتضى الأنفة والغضب[1].

وإنّ هذه الأضرار التي تعارف الناس على أن يذكروها عند الكلام عن هذه الجريمة، من اختلاط الأنساب، وإثارة الأحقاد، وتهديد البيوت الآمنة المطمئنة، كل واحد من هذه الأسباب يكفي لتحريم الزنا، ولكنّ السبب الأول وهو دفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية، ووقاية الآداب الإنسانية التي تجمعت حول الجنس، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد، هذا السبب هو الأهم، وهو الجامع لكل الأسباب الفرعية الأخرى[2].

ويمكن أن نجمل هذه الأسباب بما يلي:

أولها: اختلاط الأنساب واشتباهها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره، فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده، وذلك يوجب ضياع الأولاد، وانقطاع النسل وخراب العالم[3].

وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها بأقوم الطرق وأعدلها، ولذلك لما حرم الزنى أوجب فيه الحد الرادع، وأوجب العدة على النساء عند المفارقة بطلاق أو موت، لئلا يختلط ماء رجل بماء آخر في رحم امرأة محافظة على الأنساب، فقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢].

وقال تعالى في إيجاب العدة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤].

ولأجل المحافظة على النسب منع سقي زرع الرجل بماء غيره، فمنع نكاح الحامل

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٤٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٨٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣٣٢.

حتى تضع، قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤][1].

ثانيها: إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل، وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة، وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا[2].

كما أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة، وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت، وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب[3].

ولم يخلق الله الناس لهذا الهدف، بل جعلهم ذكرًا وأنثى ليتعارفوا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣].

ثالثها: أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم، وكل خاطر مستقيم، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج، الذي جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١][4].

لأنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس، وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وأن تكون قائمة بأمور الأولاد والعبيد، وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية[5].

رابعها: موافقة هذا التحريم للعقل والفطرة التي فطر الله الناس عليها: في تسمية الله للزنا بالفاحشة إنما يستفحش في الشرع والعقل، والفطر، لتضمنه التجرؤ على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد[6].

ومما يدل على قبحه عند العقل السليم والطبع القويم قبل ورود النهي عنه، ما روي عن عثمان بن عفان أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يحل دم امرىء مسلم إلا في إحدى ثلاث: رجل زنى وهو محصن فرجم أو رجل قتل نفسًا بغير

(١) انظر: أضواء البيان ٣/ ٤٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣٣٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٥/ ٤٢.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣٣٢.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: أحكام القرآن، الجصاص، ٣/ ٣٠٠.

نفس، أو رجل ارتد بعد إسلامه)، فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلت نفسًا مسلمة، ولا ارتددت منذ أسلمت[1].

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب الخيل له من طريق الأوزاعي أن مهرًا أنزي على أمه فامتنع فأدخلت في بيت وجللت بكساء وانزي عليها فنزى فلما شم ريح أمه عمد إلى ذكره فقطعه بأسنانه من أصله[2].

فإذا المهر غار على عرضه، واستقبح الزنا فأولى بالإنسان أن يغار على عرضه[3].

خامسها: وقاية الإنسان من أمراض خطيرة سببها الاتصال الجنسي غير المنظم، ويؤكد هذا ما ظهر أخيرًا من انتشار مرض فقد المناعة المعروف بالإيدز، ويلتقي مع الحديث الشريف حيث يقول صلى الله عليه وسلم: (يا معشر المهاجرين، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم)[4].

سادسها: إن الأرواح الإنسانية كريمة الجوهرة لأنها من عالم النور؛ فقد خلقت من نفخ الملك، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه الثابت في الصحيح: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح)[5].

ولذا أضافها الله تعالى إلى نفسه في معرض الامتنان، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة:٩].

وما يطرأ عليها بعد اتصالها بالبدن من تزكية ترقى بها في معارج الكمال، أو تدسية تنحط بها إلى أسفل سافلين، حيث يتكون هذا المخلوق العظيم العجيب المسمى بالإنسان الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض ليعمرها، ويستثمرها ويعبرها إلى دار الكمال الحق، والحياة الدائمة الأبدية، هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلًا قطعيا، وكلية عامة في الدين، وفي الزنا إراقة للنطفة، وسفح لها في غير محلها، فلو كان منها ولد لكان مقطوع النسب، مقطوع

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الحدود، باب لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، رقم ٢٥٣٣، ٢/ ٨٤٧.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٧/ ١٦١.
(٣) انظر: التدابير الواقية من الزنا، فضل إلهي، ص٢٤.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٨٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ١/ ٣٤٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ٤/ ٢٠٣٦، رقم ٢٦٤٣.

الصلة، ساقط الحق، فمن تسبب في وجوده على هذه الحالة فكأنه قتله، ولهذا بعدما نهى عن قتلهم نهى عن الزنا الذي هو كقتلهم، لأنه سبب غير مشروع لوجودهم[1].

لذلك كله نجد أن الله تعالى وصف الزنا بصفتين: الأولى أنه فاحشة، والثانية أنه ساء سبيلًا، أما كونه فاحشة فهو إشارة إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم واشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج وهو أيضًايوجب خراب العالم، وأما أنه ساء سبيلًا، فهو أنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث، وأيضًا يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبورًا بشيء من المنافع[2].

ولهذا لما نهى الله عنها ساقها مع النهي عن الشرك بالله و النهي عن قتل النفس بغير حق فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

وجعل جزاء ذلك: الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة، والإيمان، والعمل الصالح، وقال الإمام أحمد: «ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا».

ومما ينبغي ملاحظته أن كل الأديان حرّمته لخطورة آثاره، حتى القوانين الوضعية لم تبحه على إطلاقه، ولذلك جاءت عقوبته قاسية، وقد وردت الآيات الدالة على تحريم الزنا مطلقة من غير تخصيص على تحريم الزنا بالمسلمات فقط، أو تحريمه في مكان دون آخر، وفي ذلك يقول الإمام الشافعي رحمه الله : «الإسلام ملزم للمسلم حيثما كان، بوجوب تطبيق أحكامه وأداء فرائضه من عبادات وواجبات، وهي لا تسقط إذا كان في بلاد الكفار أو غيرها من الديار، ما دام حيًا عاقلًا مختارًا»[3].

(١) انظر: تفسير ابن باديس ص٨٨-٩١.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٧٠.
(٣) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس الجلعود ٢/ ٧٦٦.

أسباب الوقوع في الزنا

لما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢] كان النهي أبلغ من قوله : لا تزنوا، ذلك أن النهي عن الاقتراب يقتضي النهي عن أسبابه ومقدماته ودواعيه.

الأسباب و المقدمات لجريمة الزنا:

١ . إطلاق النظر.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١].

فإطلاق النظر هو النافذة الكبيرة والخطوة الرئيسة في الزنا، فعن بعض السّلف قال: «إن النّظر يزرع الشّهوة في القلب، ورب شهوة أورثت حزنا طويلًا». وعن خالد بن أبي عمران أنه قال: «إن الرجل لينظر نظرة فينغل قلبه، كما ينغل الأديم، فيفسد قلبه حتّى لا ينتفع به»[(١)].

والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواسّ إليه، وبحسب ذلك كثر السّقوط من جهته، ووجب التّحذير منه، وغضّه واجبٌ عن جميع المحرّمات، وكلّ ما يخشى الفتنة من أجله.

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥١٩.

وعن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (إيّاكم والجلوس بالطّرقات) فقالوا: يا رسول اللّه، ما لنا من مجالسنا بدٌّ نتحدّث فيها، فقال: (إذا أبيتم إلّا المجلس، فأعطوا الطّريق حقّه) قالوا: وما حقّ الطّريق يا رسول اللّه؟ قال: (غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السّلام، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر)[(٢)].

وقال صلى الله عليه وسلم لعليٍّ: (لا تتبع النّظرة النّظرة فإنّما لك الأولى وليست لك الثّانية)[(٣)].

كما أن من مضار إطلاق البصر أنه يفسد القلب والخلق ، ويحدث لوعة القلب ، وهياج الشّوق فيجرّ إلى الحرام، كما أنه يورث قلّة الحياء وفقد الحشمة[(٤)].

٢ . التبرج ونزع الحجاب.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾، رقم ٦٢٢٩، ٨/ ٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات ٣/ ١٦٧٥، رقم ٢١٢١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/ ٧٤، رقم ٢٢٩٧٤، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، ٢/ ٢٤٦، رقم ٢١٤٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣١٦، رقم ٧٩٤٩.

(٤) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٩/ ٣٩١١.

﴿ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١].

إذا نزعت المرأة حجابها، وعرضت مفاتنها، وهتكت عرض زوجها وأهلها، ثم خرجت تبيع الفتنة بلا ثمن، أوقعت في حبائلها المنخدعين والشهوانيين ممن لا يخافون الله، فتنتشر جريمة الزنا، فنهى الله المرأة أن تبدي من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره، مما تستدعي به شهوة الرجل[(١)].

كما أنه أمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وسبب هذه الآية أن النساء كن في ذلك الزمان إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة سدلنها من وراء الظهر، كما يصنع النبط فيبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك فأمر الله تعالى بضرب الخمار على الجيوب وهيئة ذلك يستر جميع ما ذكر[(٢)].

٣. الخضوع بالقول.

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٣٢].

أي: فلا ترققن بالقول عند الرجال فيطمع في الخيانة الذي في قلبه مرض، أي: شهوة الزنا، وقلن قولًا معروفًا، أي: حسنًا مع كونه خشنًا، فينهاهن حين يخاطبن الأغراب من الرجال أن يكون في نبراتهن ذلك الخضوع اللين الذي يثير شهوات الرجال، ويطمع مرضى القلوب[(٣)].

وقيل: وصفهم بذلك لأنهم يشتهون إتيان الفواحش، لضعف إيمانهم، أو نفاقهم، فهو يستخف بحدود الله، و يتهاون بإتيان الفواحش[(٤)].

٤. عدم التلبس بلباس التقوى.

يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف:٢٦].

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: الإيمان، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، يقول: ذلك خير من الرياش واللباس يواري سوءاتكم[(٥)].

والتقوى جلباب ورداء ستر عليه خيمة تحترز بها من كل معصية، فإذا خرج الإنسان من هذا الرداء أو من هذا اللباس، وقع وسقط، قال عبد الرحمن بن أسلم: «يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى».

فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة وبين التقوى، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وعن شعور التقوى لله،

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٢٠.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٧٨.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٥٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٥٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧٢.

ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري من الحياء والتقوى، والعري من اللباس وكشف السوأة[1].

٥. إلغاء العقوبة الشرعية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

إن العقوبة الشرعية المقررة في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الزاني والزانية رادعة وزاجرة للزاني نفسه ، ولكل من تسول له نفسه القيام بهذه الفعلة النكراء، وبيان ذلك في المباحث القادمة، وفي كثيرٍ من بلاد المسلمين أسقطت هذه العقوبة فاعتبر الموضوع بسيطًا، فكان مدعاة لانتشار هذه الجريمة، ومما يجدر ذكره أن العالم الغربي يحارب الإسلام في نظام عقوباته، فيدعي أن هذه العقوبات قاسية ويحارب تطبيقها، ومن يتزعم هذه الحملات غالبًا هم اليهود، مع أن التوراة نفسها شرعت على هذه الجريمة عقوبات جسدية كالقتل والتحريق والرجم بالحجارة، إضافة إلى عقوبات معنوية وهي أن الزانية تعتبر ذليلة ورذيلة وخارجة من جماعة الرب[2].

٦. تحديد الزواج بواحدة.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [النساء:٤].

يروج أعداء الإسلام، ويشنون حربًا ضروسًا على تعدد الزوجات، وهم بهذا يريدون أن يضيقوا واسعًا، وأن يعرضوا العديد من الفتيات اللائي بالإمكان أن يستوعبوهن عن طريق التعدد للفساد والفتن، وقد تصاب المرأة بالبرود الجنسي ولا سيما عقب بلوغ سن اليأس أو قبله بسبب مرض، وقد يكون الرجل ذا قدرة جنسية زائدة، فلا يكتفي بامرأة واحدة، فيكون اللجوء للتزوج بثانية، حاجزًا له عن الوقوع في الزنى الذي يضيّع الدّين والمال والصّحة، ويسيء إلى السّمعة[3].

٧. تأخير الزواج، ووضع العراقيل أمامه.

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور:٣٢].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٧٨.

(٢) انظر: التدابير الواقية من الزنا، فضل إلهي ص٢٦.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٢٤٣.

إن تعقيد الشباب من الزواج المبكر، ووضع العراقيل أمامهم من غلاء المهور وزيادة التبعات، من أهم أسباب شيوع هذه الفاحشة، والله عز وجل أمر بعون الأيامى على الزواج واعتبر ذلك من واجبات ولي الأمر كما في الآية، وكما حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج)[1].

٨. خروج المرأة من بيتها لغير حاجة.

من التدابير أيضًا التي شرعها الله للنساء القرار في البيوت، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣].

قرئ بكسر القاف، من الوقار أو القرار في الموضع، وأما القراءة بالفتح[2]، فمن القرار في الموضع، وهو الأرجح، لأن سودة رضي الله عنها قيل لها : لم لا تخرجين؟ فقالت: «أمرنا الله بأن نقرّ في بيوتنا»[3].

وهو أمرٌ لهنّ من الوقار والقرار جميعًا[4]، أي: لا تتكسّرن ولا تتغنّجن.

ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن[5].

وعن قتادة :((إذا خرجتن من بيوتكن، قال:كانت لهن مشية وتكسر وتغنج وتبختر، يعني بذلك الجاهلية الأولى، فنهاهن الله عن ذلك)).

وقيل التبرج: هو إظهار الزينة، وإبراز المرأة محاسنها للرجال[6]، أو أنها تلقي الخمار عن رأسها ولا تشده فيرى قرطها وقلائدها، والجاهلية الأولى: قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم.

أمرهن أيضًا بالعفة، وأمر بضرب الحجاب عليهن، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

يعني الإثم الذي نهاهن عنه في هذه الآيات.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ٢/ ١٠١٨، رقم ١٤٠٠.

(٢) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف أمر من قَرِرْنَ بكسر الراء الأولى يَقْرَرْنَ بفتحها، فالأمر منه اقرَرْن حذفت الراء الثانية الساكنة لاجتماع الراءين، ثم نقلت فتحة الأولى إلى القاف، وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها فصار قَرْن، والباقون بالكسر من قَرَّ بالمكان بالفتح في الماضي، والكسر في المضارع وهي الفصيحة.
انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص ٤٥٤

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٥١.

(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ص ٨٦٥.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٦٧.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٦٠.

الوسائل الوقائية من الوقوع في الزنا

حدّ الله عز وجل حدودًا وشرع عقابًا رادعًا وزاجرًا لكل جريمة، يتناسب مع طبيعة هذه الجريمة كمًا وكيفًا ، ذلك أن الله عز وجل حفظ على المسلم نفسه وماله وعرضه، فما كان فيه تعد على أيٍّ منها كانت العقوبة، وإن العظمة في التشريع الإسلامي أنه وضع العلاجات الوقائية للجريمة المانعة من وقوعها، قبل أن تقع، ولذلك لما حرم الله هذه الجريمة النكراء الزنا ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢]. نهى عن مقدماتها وكل ما يؤدي إلى الوقوع فيها[(١)].

وفيما يلي أمور وقائية لعلاج هذه الجريمة:

١ . إقامة حد الزنا.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور:٢].

إن الحد عقوبة تجمع بين الإيلام الخفيف والاستصلاح، أما الإيلام فلقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ فسميت العقوبة عذابًا، ويراد من هذه العقوبة أيضًا الزجر والإصلاح لأنه يمكن أن يراد من العذاب: ما يمنع المعاودة كالنكال، فيكون الغرض منه الاستصلاح[(٢)].

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليكون عليهم أشدّ، وليكون تخويفًا لمتعاطي ذلك الفعل، ثم من حقّ الذين يشهدون ذلك الموضع أن يتذكروا عظيم نعمة الله عليهم أنهم لم يفعلوا مثله، وكيف عصمهم من ذلك، وإن جرى منهم شيء من ذلك يذكروا عظيم نعمة الله عليهم كيف ستر عليهم ولم يفضحهم، ولم يقمهم في الموضع الذي أقام فيه هذا المبتلى به[(٣)].

كان حد الزانيين في أول الإسلام ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝١٦﴾ [النساء:١٥-١٦].

فكان حد المرأة الحبس في البيت والأذى بالتعيير، وكان حد الرجل الأذى بالتعيير، إلى أن جعل الله لهن سبيلًا، فأصبح الجلد هو حد البكر من الرجال والنساء، وهو الذي لم يحصن بالزواج، ويوقع عليه متى كان

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٨٦

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٣٨

(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٥٩٤، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢١.

مسلمًا بالغًا عاقلًا حرًا، وأما المحصن وهو من سبق له الوطء في نكاح صحيح وهو مسلم حر بالغ فحده الرجم، وقد ثبت الرجم بالسنة، وثبت الجلد بالقرآن، ولما كان النص القرآني مجملًا وعامًا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم الزانيين المحصنين.

فقد تبين من هذا أن الجلد خاص بغير المحصن، وحديث عبادة بن الصامت: (خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب جلد مائة ورجمها بالحجارة)[1].

وهناك خلاف فقهي حول الجمع بين الجلد والرجم للمحصن، والجمهور على أنه لا يجمع بين الجلد والرجم، كما أن هناك خلافًا فقهيًا حول تغريب الزاني غير المحصن مع جلده، وحول حد الزاني غير الحر، وهو خلاف طويل لا ندخل في تفصيله هنا، يطلب في موضعه من كتب الفقه، إنما نمضي نحن مع حكمة هذا التشريع، فنرى أن عقوبة المحصن هي الرجم، ذلك أنه قد عرف الطريق الصحيح النظيف وجرّبه، فعدوله عنه إلى الزنا يشي بفساد فطرته وانحرافها، فهو جدير بتشديد العقوبة، بخلاف البكر الغفل، الذي قد يندفع تحت ضغط الميل وهو غرير، كما أن هناك فارق آخر في طبيعة الفعل، فالمحصن ذو تجربة فيه تجعله يتذوقه ويستجيب له بدرجة أعمق مما يتذوقه البكر، فهو حري بعقوبة أشد، والقرآن حين يذكر حد البكر يشدد في الأخذ به، دون تسامح ولا هوادة[2].

وإن تقديم الزانية على الزاني: لأن الزنى في الأغلب يكون بتعرض المرأة للرجل وعرض نفسها عليه بأساليب متنوعة، كما أن مفسدة الزنى وعاره يصيبها أكثر من الرجل، فهي المادة الأصلية في الزنى[3].

٢. المنع من إنكاح الزاني، ونكاح الزانية.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور:٣].

عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها أم مهزول (أو أم مهدون) وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها، فأنزل الله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

ومما ذكره الواحدي في سبب نزولها: «أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه، كان يحمل الأسارى بمكة، وكان بمكة بغي،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنا، رقم ١٦٩٠، ٣/ ١٣١٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٨٧.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٢٣.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢١١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

يقال لها عناق، وكانت صديقته، قال: فجئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، أنكح عناق؟ قال: فسكت عني، فنزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣].

فقرأ علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (لا تنكحها)»[١].

وقد تكون الآية نزلت في مرثد المذكور، أو في جماعة من فقراء المهاجرين، استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التزوج ببغايا من الكتابيات والإماء اللائي كن بالمدينة، فأنزل الله فيهم هذه الآية[٢].

وظاهر الآية وهذه الروايات تفيد تحريم العفيفة على الزاني، والزانية على العفيف ونكاح المؤمن للزانية ما لم تتب، ونكاح المؤمنة للزاني كذلك[٣].

وعن الشّعبيّ، قال: «من زوّج كريمته من فاسقٍ فقد قطع رحمها»[٤].

والمسألة خلافية تطلب في كتب الفقه، وعلى أية حال فهي فعلة تعزل فاعلها عن الجماعة المسلمة وتقطع ما بينه وبينها من روابط، وهذه وحدها عقوبة اجتماعية أليمة كعقوبة الجلد أو أشد وقعًا[٥].

والمعنى: أن غالب الزناة لا يرغب إلا في الزواج بزانية مثله، وغالب الزواني لا يرغبن إلا في الزواج بزان مثلهن، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا، وسبب النزول يشهد له[٦].

ويقول الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور:٢٦].

«أكثر المفسرين على أن الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات، وكذا الطيبات من القول للطيبين من الناس، وقال الزجاج: ومعناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء»[٧].

وذكر أكثر من مفسر أن: النساء الخبيثات للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون للخبيثات، وكذا الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، وهو الظاهر[٨].

والطّيّبات من الأشخاص هن: المبرّءات من التعريج في أوطان الشهوات، والطيبون من الرجال: الذين هم قائمون بحقّ الحقّ لا يصحبون الخلق إلا للتعفّف، دون

(١) أسباب النزول ٥/ ٢٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٩٧.
(٣) انظر: المغني، ابن قدامة ٦/ ٦٠١.
(٤) انظر: شعب الإيمان، البيهقي ١١/ ١٥٧.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٢٤.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧.
(٧) المصدر السابق ٤/ ٢١.
(٨) انظر: تفسير العز بن عبد السلام ٢/ ٣٩٥، التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٩٨.

استجلاب الشهوات[1].

وقيل: الخبيث من الرجال عبد الله بن أبي بن سلول كلامه في عائشة، والخبيثات من النساء أهل بيته، والطيبات هي عائشة من النساء وأمثالها، والطيبون النبي وقومه[2].

٣. إقامة حد القذف.

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [النور:٤-٥].

الرّمي بالزّنا[3]، أو قذفهن بالزنى[4].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [النور:٢٣].

والمحصنات يراد بهن هنا : العفائف، والعفة أعلى معاني الإحصان إذ في طيه الإسلام[5].

وخصهن بالذكر لأن قذفهن أكثر وأشنع من قذف الرجال، ودخل الرجال في ذلك بالمعنى إذ لا فرق بينهم، وأجمع العلماء على أن حكم الرجال والنساء هنا واحد[6].

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٦٠٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥١٥.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ، الرازي ٢٣/ ٣٢٠.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢١٣.
(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٦٤.
(٦) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٦١.

«إنّ ترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات بدون دليل قاطع، يترك المجال فسيحًا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئًا بتلك التهمة النكراء ثم يمضي آمنًا! فتصبح الجماعة وتمسي، وإذ أعراضها مجرحة، وسمعتها ملوثة وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام، وإذا كل زوج فيها شاك في زوجه، وكل رجل فيها شاك في أصله، وكل بيت فيها مهدد بالانهيار، وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق، ذلك إلى أن اطراد سماع التهم يوحي إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوث وأن الفعلة فيها شائعة فيقدم عليها من كان يتحرج منها، وتهون في حسه بشاعتها بكثرة ترددها، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها!

ومن ثم لا تجدي عقوبة الزنا في منع وقوعه، والجماعة تمسي وتصبح وهي تتنفس في ذلك الجو الملوث الموحي بارتكاب الفحشاء، لهذا وصيانة للأعراض من التهجم، وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تصب عليهم، شدد القرآن الكريم في عقوبة القذف، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا ثمانين جلدة، مع إسقاط الشهادة، والوصم بالفسق، والعقوبة الأولى جسدية، والثانية أدبية في وسط الجماعة، ويكفي أن

يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة، وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشي بينهم متهمًا لا يوثق له بكلام! والثالثة دينية فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم، فيوصف بالفسق، ذلك إلا أن يأتي القاذف بأربعة يشهدون برؤية الفعل، أو بثلاثة معه إن كان قد رآه. فيكون قوله إذن صحيحًا، ويوقع حد الزنا على صاحب الفعلة»[1].

٤. مشروعية الاستئذان.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور:٢٧].

بعد بيان حكم قذف المحصنات وقصة أهل الإفك، ذكر الله تعالى ما يليق بذلك، وهو آداب الدخول إلى البيوت من الاستئذان والسلام، منعًا من الوقوع في التهمة، باقتحام البيوت دون إذن والتسلل إليها، أو حدوث الخلوة التي هي مظنة التهمة أو طريق التهمة التي تذرع بها أهل الإفك للوصول إلى بهتانهم وافترائهم، ومراعاة لأحوال الناس رجالًا ونساءً، الذين لا يريدون لأحد الاطلاع عليها، ولأن النظر والاطلاع على العورات طريق الزنى[2].

كان التشريع لا تدخلوا بيوتًا غيركم حتى يؤذن لكم، وحتى تسلموا على أهل البيت، حتى لا تنظروا إلى عورات غيركم، أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بعصاة ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح)[3].

ويروى أنّ أبا موسى الأشعري أتى منزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: واحدة، فقال أبو موسى: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: ثنتان، قال أبو موسى: السلام عليكم أأدخل؟ ومرّ، فوجّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلفه من ردّه فسأله عن صنيعه فقال: إنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك، وإلا فارجع)[4]، فقال عمر: لتأتيني بالبيّنة أو لأعاقبنّك، فانطلق أبو موسى فأتاه بمن سمع ذلك معه[5].

ويقول تعالى أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٩٠، بتصرف.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٠٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه فلا دية له، رقم ٦٩٠٢، ٩/ ١١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب الاستئذان ٣/ ١٦٩٤، رقم ٢١٥٣.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٨٥.

﴿تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور:٥٨-٦٠].

وهذه الآية فيها بيان استئذان الذين يعيشون في دار واحدة لبعضهم من بعض، فذكر سبحانه وتعالى وجوب الاستئذان في ثلاثة أوقات، هذه الأوقات هي أوقات التجرد من الثياب وكون الناس يكونون في حال لا يرغبون أن يراهم فيها أحد، وبعد هذه الأوقات التي تكون مظنة كشف العورات إشارة إلى أن الإثم يلحق الذين يكشفون عوراتهم ولا يتخذون الأستار، وقاية من أن تنالها الأعين ولو كانت بريئة، وفي ذلك دعوة إلى ضرورة اتخاذ أسباب[1].

وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أستأذن على أمي؟ فقال: (نعم)، قال الرجل: إني معها في البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استأذن عليها)، فقال الرجل: إني خادمها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استأذن عليها، أتحبّ أن تراها عريانةً؟) قال: لا، قال: (فاستأذن عليها)[2].

٥. تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية.

يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١].

قدّم غض الأبصار على حفظ الفروج؛ لأنّ النظر بريد الزنى ورائد الفجور، والبلوى فيه أشدّ وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه[3].

وخص المؤمنين مع تحريمه على غيرهم، لكون قطع ذرائع الزنا التي منها النظر، هم أحق من غيرهم بها، وأولى بذلك ممن سواهم[4].

وغض البصر: خفضه كفًّا له عن النظر، ولفظ (من) قد تكون للتبعيض، فالمراد: غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل[5].

(١) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥٢٢٥.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٨٥.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٣٠.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٦/ ١٤٠١.

وإنّ النظرة الأولى لا يملكها الإنسان وإنّما يغضّ فيما بعد ذلك، لذلك وقع التبعيض، والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته،ووجب التحذير منه، والنواظر صوارم مشهورة فاغمدها في غمد الغضّ والحياء من نظر المولى وإلاّ جرحك بها عدوّ الهوى، ولا ترسل بريد النظر فيجلب لقلبك رديء الفكر، غضّ البصر يورث القلب نورًا، وإطلاقه يقدح في القلب نارًا[(١)].

ومما يجدر الإشارة إليه لما ذكر سبحانه حكم الاستئذان، أتبعه بذكر حكم النظر على العموم، فيندرج تحته غض البصر من المستأذن، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إنما جعل الإذن من أجل البصر)[(٢)].

وفي هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحل النظر إليه[(٣)].

وعن حذيفة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانًا يجد حلاوته في قلبه)[(٤)].

أزكى: الذي هو أفعل التفضيل للمبالغة في أن غض البصر وحفظ الفرج يطهران النفوس من دنس الرذائل، والمفاضلة على سبيل الفرض والتقدير، أو باعتبار ظنهم أن في النظر نفعًا[(٥)].

وأطهر لهم من دنس الريبة وأطيب من التلبس بهذه الدنيئة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ في ذلك وعيد لمن لم يغض بصره ويحفظ فرجه[(٦)].

وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسي، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، كما أن فيه إغلاقًا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية، ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم! وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة، ويقظة الرقابة، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى، ومن ثم يجمع بينهما في آية واحدة بوصفهما سببًا ونتيجة أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع[(٧)].

وقيل: من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته، أو في قلبه، فإن النظر هو رسول

(١) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٨٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه فلا دية له، رقم ٦٩٠١، ٩/ ١٠.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقائق، رقم ٧٨٧٥، ٤/ ٣٤٩، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢١٤.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٧.
(٧) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥١٢.

الشيطان إلى تحريك الشهوة، والدعوة إلى الفاحشة، وقدّم الرجال على النساء، لأنهن عورة، والنظر إليهن يدعو إلى الفتنة أكثر من نظرهن إلى الرجال[1].

٦. تحريم التبرج والسفور.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩].

يعني: القناع الذي يكون فوق الخمار وذلك أن المهاجرين قدموا المدينة ومعهم نساؤهم فنزلوا مع الأنصار في ديارهم فضاقت الدور عنهم، وكان النساء يخرجن بالليل إلى النخل فيقضين حوائجهن، فكان المريب يرصد النساء بالليل فيأتيها فيعرض عليها ويغمزها، فإن هويت الجماع أعطاها أجرها وقضى حاجته، وإن كانت عفيفة صاحت فتركها، فذكر نساء المؤمنين ذلك لأزواجهن وما يلقين بالليل من الزناة، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل الآية[2].

وعن مجاهد: «يتجلببن حتى يعلم أنهن حرائر لا يعرض لهن فاسق بأذى من قول أو ريبة»[3].

وكان المنافقون هم الذين كانوا يتعرضون للنساء[4].

وهذا تنبيه لهن على حفظ الحرمة وإثبات الرّتبة، وصيانة لهن، وأمر لهن بالتصاون والتعفّف، وقرن بذلك تهديده للمنافقين في تعاطيهم ما كان يشغل قلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإرجاف في المدينة، فقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ۝٦١﴾[الأحزاب:٦٠-٦١].

إنهم إن لم يمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سنّتنا في التدمير على من سلف من الكفار[5].

ويقول تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٩/ ١٢٦٣
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٥٠٧.
(٣) تفسير مجاهد ص ٥٥٢.
(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٧٣٨.
(٥) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ١٧١.

﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

ذكر الله تعالى أحكامًا خاصةً بالنساء ومنها: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أي: يلا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب حين التحلي بها، وهي كل ما يتزين به ويتجمل من أنواع الحلي والخضاب وغيرها، فيكون إبداء مواقع الزينة منهيًا عنه بالأولى، أو لا يظهرن مواضع الزينة بإطلاق الزينة وإرادة مواقعها، بدليل قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ لأن الزينة نفسها ليست مقصودة بالنهي، وهناك تلازم بين الزينة وموضعها، والغاية هي النهي عن أجزاء الجسد التي تكون محلًا للزينة، ويستأنس بالحديث الذي روي عن عائشة رضي الله عنه: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: (يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا)[1].

وأشار إلى وجهه وكفيه، ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما جرت العادة بظهوره[2].

فعن ابن مسعود، قال: ((الزينة زينتان: فالظاهرة منها الثياب، وما خفي: الخلخالان والقرطان والسواران))، وعن ابن عبّاسٍ الظاهرة: قال: (رقعة الوجه وباطن الكفّ))[3].

والمسألة خلافية تطلب من مظانها في كتب الفقه.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وليلقين بخمرهنّ، أي: بمقانعهن وهي جمع خمار، وهو غطاء رأس المرأة على جيوبهنّ وصدورهن ليسترن بذلك شعورهنّ وأقراطهنّ وأعناقهن، قالت عائشة: «يرحم الله النساء المهاجرات الأول لمّا أنزل الله سبحانه هذه الآية شققن أكتف مروطهنّ فاختمرن به».

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، الخفيّة التي أمرن بتغطيتها، ولم يبح لهنّ كشفها ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ [النور:٣١][4].

وقد اختلف العلماء في تحديد عورة المرأة على مذاهب تطلب في كتب الفقه وليس محلها في بحثنا هذا، والزينة: ما تزينت به المرأة، وذكر الزينة دون مواقعها؛

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب فيما تبدي المرأة من زينتها، ٤/ ٦٢، رقم ٤١٠٤.
قال: أبو داود: هذا مرسل.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٩٥، رقم ٢٩٤٤.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٨/ ٢١٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٥٥.

(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ١٩٦، الكشف والبيان، الثعلبي، ٧/ ٨٧، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٧٤.

للمبالغة في الأمر بالتصوّن والتستر، لأنّ هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، فنهى عن إبداء الزينة نفسها، ليعلم أنّ النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع- بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال في حله- كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكنا في الحظر، ثابت القدم في الحرمة، شاهدا على أن النساء حقهن أن يحتطن في سترها ويتقين الله في الكشف عنها[1].

٧. تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية والاختلاط بها.

كان عمر بن عبد العزيز يقول: «لا يخلون رجل بامرأة وإن كان يحفظها القرءان»، فلا يعتد بالنوايا الطيبة فمعظم النار من مستصغر الشرر، ولابد في هذا وغيره من صحة العمل، لأنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، فلا يؤمن مع الخلوة وقوع المحظور، لاسيما في زمن يقل فيه وازع الإيمان والدين، ويكثر فيه الفساد، فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:(ولا يخلونّ رجلٌ بامرأةٍ فإنّ ثالثهما الشّيطان)[2].

وقد روى ابن عباس عن رسول صلى الله عليه وسلم قوله: (لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم). فقال له رجل: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا؟ قال: (انطلق فحج مع امرأتك)[3].

٨. الترغيب في الزواج.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٢-٣٣].

فالزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة، فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها، والعقبة المالية هي العقبة الأولى في طريق بناء البيوت، وتحصين النفوس.والإسلام نظام متكامل، فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيأ لها أسبابها،

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٣٠.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٢٦٨، رقم ١١٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٩٨، رقم ٢٥٤٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع ذي محرم، رقم ١٣٤١، ٢/ ٩٧٨.

وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء، فلا يلجأ إلى الفاحشة حينئذ إلا الذي يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامدًا غير مضطر، لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال في طريقهم إلى النكاح الحلال فيتعين إعانة الراغبين منهم في الزواج، وتمكينهم من الإحصان، والآباء مسئولون عن تربية أبنائهم وتعليمهم وتزويجهم حصانة لهم أو مساعدتهم على ذلك[(١)]، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية، وتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة، وهو واجب، ووسيلة الواجب واجبة[(٢)].

وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر، وأحفظ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء)[(٣)].

والباءة: القدرة على التزوج، وامتلاك الصلاحية له، والوجاء: الخصاء، الذي به تموت الشهوة، وينقطع اتصال الرجل بالمرأة. فالمسلمون مطالبون بأن يتحصنوا بالزواج، وأن يرغبوا فيه، وييسّروا أموره، وذلك حتى لا تفشو فيهم دواعي الفساد، والاعتداء على الفروج، أو حتى لا يتجه أصحاب الإيمان القوىّ إلى الرهبنة، التي تحرمها شريعة هذا الدين.

فعن أنس رضي الله عنه أن نفرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر. فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: (ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[(٤)(٥)].

(١) انظر: التربية الإسلامية ومراحل النمو، عباس محجوب ص ١٢٤.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥١٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ٢/ ١٠١٨، رقم ١٤٠٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٥٠٦٣، ٩/ ١٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة ٢/ ١٠٢٠، رقم ١٤٠١.
(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١٢٧٠.

أساليب القرآن في النهي عن الزنا

اعتمد القرآن أسلوب الوقاية في إنشاء المجتمع النظيف قبل أن يعتمد العقوبة، وهو لا يحارب الدوافع الفطرية، لكنه ينظمها ويضمن لها الجو النظيف الخالي من المثيرات المصطنعة، والفكرة السائدة في منهج الإسلام في هذه الناحية، هي تضييق فرص الغواية، وقطع الطريق على أسباب التهييج والإثارة، مع إزالة العوائق دون الإشباع الطبيعي بوسائله النظيفة المشروعة، كي لا تكون الفعلة سهلة ميسرة، فتغري بيسرها وسهولتها بالفحشاء[1].

وجميع الشرائع جاءت بتحريم الزنا، ولم يكن في يوم من الأيام مباحًا منذ أن خلق الله تعالى الخليقة؛ ولذلك قال الله تعالى عن مريم عليها السلام عندما جاءت بعيسى إلى قومها حكاية عنهم: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم:٢٧].

فجعلوا ذلك أمرًا عظيمًا ومنكرًا، كما حرّمته الديانة اليهودية أيضًا، بل وصفته أنه فاحشة وأنه منجس للأرض، وفرضت عليه العقوبات القاسية، من قتل وتحريق ورجم بالحجارة، وكان قبيحًا عند العرب قبل البعثة فلم يكن يرتكبه إلا سفاسف الناس وأرذلهم من الإماء والعبيد، وشدد الإسلام على حرمته حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع النساء على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة:١٢].

ولم يحرم الإسلام الزنا على مراحل مثلما حرم الخمر، وذلك لعظم قبحه وفحشه وكثرة أضراره وعواقبه، وإنما كان التدرج في إنزال العقوبة بفاعله، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ لم ينزل فيه عقوبة، وإنما كان الغرض منه تقبيح هذه الفعلة في النفوس، وذمها سبيلًا لإشباع هذه الرغبة، فكان ذلك تربية للنفوس وتهيئة لإنزال العقوبة.

ثم كان العقوبة أول الأمر بالإيذاء والتوبيخ والتعنيف بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ [النساء:١٦].

والحبس في البيوت للنساء، بقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء:١٥][2].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٠٧.

(٢) انظر: التدابير الواقية من الزنا، فضل إلهي

فعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢] ، ((كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت، وكان الرجل إذا زنا أوذي بالتعيير وضرب بالنعال، فأنزل الله الآية[(١)].

وقال الشوكاني: «وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساء»[(٢)].

فجعل الله السبيل عقوبة الزاني البكر مائة جلدة ، والرجم للثيب حتى يموت، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث عبادة بن الصامت: (خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلًا البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[(٣)].

ومن أساليب القرآن في النهي عن الزنا ما يلي:

أولًا: أسلوب النهي المباشر:

١. النهي عن قربان الزنا.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

فإن هذا النهي تناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها ، وفي هذا زجر عن إتيانها، ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى مؤكدًا إبلاغًا في التنفير عنه لما للنفس من شدّة الداعية إليه ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ فقبحها بهذه التسمية أي: فعلةٌ ظاهرة القبح زائدته، والفاحشة هي الرذيلة التي تجاوزت الحد في القبح، وعظم قبح الزنا مركوز في العقول من أصل الفطرة كان ولم يزل كذلك معروفًا[(٤)].

ووصفته بالسبيل السيء، وقد نهى الله تعالى عن الفحشاء في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠][(٥)].

٢. النهي عن قربان الفواحش.

يقول تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١].

ص٣٧.

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٠٦.

(٢) المصدر السابق ١/ ٥٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنا، رقم ١٦٩٠، ٣/ ١٣١٦

(٤) انظر: تفسير ابن باديس ص ٩٢.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٧.

وهو نهي عن أنواع الزنا سرًا وعلنًا، وكانت الزواني في الجاهلية على نحوين : كانت لبعضهنّ رايات على الأبواب، علمًا لمن أراد الزنا؛ فكن يزنين علنًا، وأخريات كن يزنين سرًا، فهذا المراد بالفواحش ما ظهر منها وما بطن[1].

فعن الضحاك : كان أهل الجاهلية يستسرّون بالزنى ، ويرون ذلك حلالًا ما كان سرًّا ، فحرّم الله السر منه والعلانية بقوله تعالى:﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[2].

وعن ابن عباس:((كانوا يكرهون أن يزنوا علانيةً فيفعلون ذلك سرًّا، فنهاهم الله عن الزنا سرًا وعلانية))[3].

وقال آخرون: الظاهر: التعرّي والتجرد من الثياب، وما يستر العورة في الطواف، والباطن: الزنا[4].

وفي قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقة وهي: أن الإنسان إذا احترز عن المعصية في الظاهر ولم يحترز عنها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته، ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس، وذلك باطل لأن من كان مذمة الناس عنده أعظم وقعًا من عقاب الله ونحوه، فإنه يخشى عليه من الكفر، ومن ترك المعصية ظاهرًا وباطنًا، دل ذلك على أنه إنما تركها تعظيمًا لأمر الله تعالى وخوفًا من عذابه ورغبة في عبوديته[5].

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ [النحل:٩٠].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أجمع آية في كتاب الله آية في سورة النحل»، وتلا هذه الآية:﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.

والفحشاء هنا: ما اشتد قبحه قولًا أو فعلًا، أو يتجاوز الحد في القبح، وقال ابن عباس)) :الزنى، و غالبًا ما يخصص به الاعتداء على العرض[6].

ثانيًا: أسلوب النهي غير المباشر:

١ . اقتران الزنا بالشرك.

قال الله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور:٣].

والمعنى: أن الزاني لا ينبغي له أن يتزوج إلا زانية أو مشركة ولا يقترن بالعفيفة الشريفة الطيبة لقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور:٢٦]، فيقع

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١٥٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢١٩.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٣٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٢.
(٥) مفاتيح الغيب بتصرف، الرازي ١٣/ ١٧٨.
(٦) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٩١، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٢٥، التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ٢١٠.

الزاني على من هي مثله وتقع الزانية على من هو مثلها زان أو مشرك، فاقتران الزاني بالمشركة والزانية بالمشرك إشارة إلى عظيم خطر الزنا وكبير ضرره.

قال العلامة الألوسي في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور:٣]: «تقبيح لأمر الزاني أشد تقبيح ببيان أنه بعد أن رضي بالزنا لا يليق به أن ينكح العفيفة المؤمنة فبينهما كما بين سهيل والثريا، وإنما يليق به أن ينكح زانية هي في ذلك طبقه ليوافق شن طبقه، أو مشركة هي أسوأ منه حالا وأقبح أفعالًا، فلا ينكح : خبر مراد منه لا يليق به أن ينكح، ثم المراد اللياقة وعدم اللياقة من حيث الزنا فيكون فيه من تقبيح الزنا ما فيه، ولا يشكل صحة نكاح الزاني المسلم الزانية المسلمة ، وكذا العفيفة المسلمة وعدم صحة نكاحه المشركة المذكورة في الآية، لكن يعني : الزانية بعد أن رضيت بالزنا فولغ فيها كلب شهوة الزاني لا يليق أن ينكحها من حيث إنها كذلك إلا من هو مثلها وهو الزاني أو من هو أسوأ حالًا منها وهو المشرك، وأما المسلم العفيف فإن غيرته تأبى ورود جفرتها»[1].

٢. النهي عن مقدمات الزنا وذرائعه وتحريمها.

ومنها: نهي المرأة عن إظهار زينتها أمام غير المحارم، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

فذكرت الآية المحارم من الرجال الذين جاز للمرأة أن تبدي لهم زينتها.

ومنها: نهي المرأة عن الخضوع في القول حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض، فحرم عليها أن تظهر جمالها بصوتها، فقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢].

وإن نساء الأمة تبع لنساء النبي صلى الله عليه وسلم في الأخذ بهذه الأحكام وبغيرها من الآداب المذكورة في سورة الأحزاب، عندما تخضع المرأة بالقول تحرك الفتنة في قلب الرجل ،ولذلك يتشوق إلى رؤية هذا الصوت، قاله لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهن أطهر النساء وهن يكلمن أطهر الرجال.

ومنها: نهي الله المرأة أن تضرب بخلخالها؛ ليعلم ما تخفي من زينتها.

فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

ومنها: أمر المرأة بالقرار في البيوت ، فقد قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣].

ومنها: تحريم الخلوة بين الرجل والمرأة، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا يخلون

(١) روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٨٣-٢٨٢.

أحدكم بامرأة إلا والشيطان ثالثهما)[1].

ولا نطيل هنا في هذا الجانب، ذلك لأنه استوفى البحث في أسباب الوقاية من الزنا فلا داعي للتكرار.

ثالثًا: أسلوب الترغيب فيما يمنع الوقوع في الزنا:

١. الترغيب في الزواج.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

وقال صلى الله عليه وسلم: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)[2].

وعن عبد الله بن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يا شباب قريش لا تزنوا، ألا من حفظ فرجه فله الجنة)[3].

فأمره صلى الله عليه وسلم الشباب بالزواج وتبشيره بالجنة لمن حفظ فرجه لا شك أنها من أقوى الأساليب في النهي عن الفاحشة؛ لأنه ما من مسلم إلا ويشتاق للجنة إلا من أبى. كما أنه صلى الله عليه وسلم بين خطورة هذه الجريمة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن)[4].

فينفي عنه صفة الإيمان عند قيامه بهذه الفاحشة.

٢. الترغيب في مساعدة الراغبين في الزواج.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور:٣٢].

٣. أمر بالاستعفاف لمن لم يجد نكاحًا.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٢٦٨، رقم ١١٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٨، رقم ٢٥٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٥٠٦٣.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، ٧/ ٦١، رقم ٦٨٥٠، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الحدود، رقم ٨٠٦٢، ٤/ ٣٩٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٤٤٠، رقم ٢٦٩٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، رقم ٥٧، ١/ ٧٦.

﴿تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٣].

٤. إباحة تعدد الزوجات.

قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣].

فالإسلام حين حرّم الزنا وشدّد في تحريمه شرع الزواج، وأباح التعدد فيه كما مضى، ولا ريب أن منع التعدد ظلم للمرأة والرجل؛ فمنعه قد يدفع إلى الزنا؛ لأن عدد النساء يفوق عدد الرجال في كل زمان ومكان، ويتجلى ذلك في أيام الحروب؛ فقصر الزواج على واحدة يؤدي إلى بقاء عدد كبير من النساء دون زواج، وذلك يسبب لهن الحرج، والضيق، والتشتت، وربما أدى بهن إلى بيع العرض، وانتشار الزنا، وضياع النسل[1].

٥. أمر بغض البصر وحث عليه.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١].

تنهي الآية الرجال والنساء عن النظرة الثانية، كما تبين ما في غض البصر من الخير، للمسلم في دنياه و أخراه، كما مر في مبحث الوسائل الوقائية من الوقوع في الزنا.

رابعًا: أسلوب الترهيب:

١. تشريع العقوبة القاسية وتنويعها على مرتكبي الجريمة.

فأقام حد الجلد على غير المحصن، وتغريبه عام، وإسقاط شهادته، والحكم عليه بالفسق، أما المحصن فالرجم حتى الموت، وأهم من ذلك كله الفضيحة بأن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، فقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور:٢].

٢. ضمان العدالة في تطبيق هذه الحدود.

بحيث لا يمكن أن يقبل الحاكم بالعفو أو التقليل من الحد إذا وصل الأمر للقضاء. لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

٣. اقتران النهي عن الزنا بالنهي عن الشرك والقتل.

وإذا ما نظرنا إلى سياق الآيات التي جاء النهي عن الزنا وجدنا أنها وردت بين نهيين عن القتل وذلك في قول الله تعالى:

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، محمد أسد ص ٨٦.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء:٣١-٣٣].

توسطت آية النهي عن قربان الزنى بين آيتين، الأولى تنهى عن قتل الأبناء، والثانية تنهى عن قتل النفس بغير حق فاستنبط من ذلك، أن الزنى نوعٌ من أنواع القتل، بل هو أشد أنواع القتل إذ هو ليس قتل مادي فحسب، بل هو قتل معنوي أيضًا.

فهذه المرأة التي تقع في الزنى كأنك قتلتها فأخرجتها من إنسانيتها، وأبعدتها عن مهمتها المقدسة، وعن الوظيفة العليا التي خلقت من أجلها، وعن أن تقوم بدورها الطبيعي الإنساني، كما أن مرتكبي هذه الفاحشة غالبًا ما يعقبونها بجريمة قتل حرصًا منهما على التخلص من آثار هذه الجريمة فيقتلون هذا الجنين أو حتى بعد أن يولد يلقى على قارعة الطريق ليكون مصيره الموت، ولوشاء الله وقدر له الحياة سيعيش حياة الذل والقهر والحرمان، الأمر الذي يؤدي إلى إنتاج شخصية حاقدة على المجتمع تجنح للقتل وارتكاب الجرائم، ذلك أنه يقتل معنويًا في كل يوم مرات ومرات.

ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة : الشرك، والزنا، وقتل النفس.

ذلك أنها كلها جرائم قتل في الحقيقة! الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة ،والثانية جريمة قتل للجماعة، والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة، إن الفطرة التي لا تعيش على التوحيد فطرة ميتة. والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار. لذلك جعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هي أقسى العقوبات، لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار[1].

خامسًا: أسلوب النفي الذي غرضه النهي:

ذكره الله تعالى في وصف المؤمنين، الذين نفى عنهم الشرك بالله تعالى، ونفى عنهم أيضًا الزنا، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان:٦٨].

هنا وصفهم الله بأنهم لا يزنون ، أي: لا يباشرون الزنا نفسه ، أما مقدماته فلم ينفها عنهم مصداقًا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (كتب على ابن آدم نصيبه

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب٣/ ١٢٣٢.

من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة. العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان زناهما البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه)[1][2].

نزّه المؤمنين عن الاتصاف بهذه الفاحشة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠﴾ [المعارج:٢٩-٣٠].

ووصف المؤمنات بالمحصنات، فعن ابن عباس قوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥].

يعني: تنكحوهن عفائف غير زواني في سرّ ولا علانية، ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ يعني: أخلاء.

وعنه رضي الله عنه أنه قال : ((كان أهل الجاهليّة يحرّمون ما ظهر من الزّنا، ويستحلّون ما خفي، يقولون: أمّا ما ظهر منه فهو لؤمٌ، وأمّا ما خفي فلا بأس بذلك، فأنزل اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١]))[3].

أثر شيوع الزنا على الفرد والمجتمع

دعا الإسلام الحنيف إلى الزواج ورغب فيه؛ لأنه أسلم طريقة لتصريف الغريزة الجنسية، وهو الوسيلة المثلى لإخراج سلالة يقوم على تربيتها الزوجان ويتعهدانها بالرعاية، لكي تستطيع هذه السلالة أن تنهض بتبعاتها وتسهم بجهودها في ترقية الحياة وإعلائها[4].

وإن ممارسة هذه الجريمة وشيوعها ليترك آثاراً وأضرارًا تشيب منها الرؤوس وتقشعر منها الأبدان[5].

وروى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يا معشر المهاجرين، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم)[6].

وعن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: (أن تجعل لله ندًا وهو خلقك) قلت: ثم أي؟ قال: (أن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، رقم ٢٦٥٧، ٤/ ٢٠٤٧.
(٢) تفسير ابن باديس ص ٩١.
(٣) جامع البيان، الطبري ٨/ ١٩٣.

(٤) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال عبدالرحمن إسماعيل ص ١٩-٢١.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٣٨.
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٨٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ١/ ٣٤٣.

تقتل ولدك خشية أن يأكل معك)، قلت: ثم أي؟ قال: (أن تزني بحليلة جارك) فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨][١].

أولًا: أثر شيوع الزنا على الفرد:

١. انتشار الأمراض الجنسية وضعف بنية الشباب.

فالزنا سبب مباشر في انتشار الأمراض الجنسية الخطيرة التي تفتك بالبدن وتضعف الشباب وتنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء وأبناء الأبناء[٢].

يقول الدكتور جون بيستون وهو أستاذ الطب الوقائي في جامعة كاليفورنيا: «إن القرائن التي جمعت من عدة دراسات تدل على أن الأمراض الجنسية تنتج في معظمها عن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج أي: من الزنا»[٣].

و لا شك، أن هذه الأمراض تشكل عقابًا إلهيًا عاجلًا لمن تجرأ و اعتدى على الفطرة الإنسانية السليمة و سلك غير سبيل الهدى بارتكاب الفواحش.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (فلا تجعلوا لله أندادا)، رقم ٧٥٢٠، ٩/ ١٥٢.
(٢) انظر: التدابير الواقية من الزنى، فضل إلهي ص ٥١.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٥٢.

٢. اختلاط الأنساب.

في الزنا ضياع الأنساب واختلاطها وتمليك الأموال لغير أصحابها عند التوارث، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيمن يخلط النسب حينما أراد رجل أن يطأ جارية وكانت حاملًا فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لقد هممت أن ألعنه لعنًا يدخل معه قبره، كيف يورثه وهو لا يحل له، كيف يستخدمه وهو لا يحل له)[٤].

قال ابن القيم: «يعني: إن استلحقه وشركه في ميراثه لا يحل له لأنه ليس بولده، وإن أخذه مملوكا يستخدمه لم يحل له، لأنه قد شرك فيه لكون الماء يزيد في الولد».

قال: «وفي هذا دلالة ظاهرة على تحريم نكاح الحامل»[٥].

فإذا كان نكاح الحامل محرمًا سواء كانت حرة فتزوجها، أو من السبايا فوطأها؛ فما بالنا إذا زاد الطين بلًا فزنى، والزاني لا يفتّش فيمن يزني بها، وهي إما أن تحمل منه فتدخل على قومها من ليس منهم، وإما أن تكون حاملًا فماء الزاني يزيد في ولدها، وإما لا يعلم أمن زوجها الحمل أم من غيره، ومن هنا تختلط الأنساب والنّطف.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم وطء الحامل المسبية، رقم ١٤٤١، ٢/ ١٠٦٥.
(٥) زاد المعاد، ٥/ ١٥٥.

٣. مشكلة أولاد الحرام.

إن في هذه الفاحشة جناية على الجنين الذي يأتي من الزنا؛ حيث يعيش مقطوع النسب، محتقرًا ذليلًا، وقد أثبتت تجارب الحرب الأخيرة بين أطفال المحاضن أن الطفل الذي تتناوب تربيته عدة حاضنات تختل شخصيته وتنفك ولا تنمو فيه مشاعر الحب والتعاون[١].

ولقد أخذت هذه المشكلة تتفاقم، حيث بلغت نسبة الأولاد غير الشرعيين في بعض المدن الفرنسية ٥٠٪ بالنسبة للمجموع الكلي لعدد المواليد[٢].

٤. الهم والحزن والمقت بين الناس والخوف.

إذ إنه دنس العرض والشرف ونزع شعار الطهر والعفاف والفضيلة ولطخ فاعله بالعار والشنار، ويجعل الزانية والزاني بين خطرين، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رؤوسهم، فإن حملت من الزنا وقتلت ولدها جمعت بين جريمتي الزنا والقتل، وإن أمسكته أضافت إلى زوجها غير ولده.

ثانيًا: أثر شيوع الزنا على المجتمع:

١. كثرة الجرائم.

والزنا أحد أسباب جريمة القتل فقد لا يجد الغيور على عرضه وسيلة يغسل بها العار الذي لحقه ولحق أهله إلا سفك الدم[٣]، أثبت علماء النفس أن معظم المجرمين والجانحين في العالم يكونون من أولاد الحرام وممن عاشوا في ملاجئ الأطفال، وفي أجواء بعيدة عن العاطفة، الأمر الذي يؤدي إلى كثرة الجرائم وعدم الأمن والأمان في المجتمع.

وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة، وقد توسط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس لذات الصلة وذات المناسبة، إن في الزنا قتلًا من نواحٍ شتى، إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها. يتبعه غالبا الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق، قبل مولده أو بعد مولده فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة، أو حياة مهينة، فهي حياة مضيعة في المجتمع على نحو من الأنحاء، وهو قتل في صورة أخرى، قتل للجماعة التي يفشو فيها، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء، وتذهب الثقة في العرض والولد، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها، فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين

(١) التدابير الواقية من الزنى،فضل إلهيص ٥٤.
(٢) انظر: حقوق الإنسان في الاسلام، عبدالواحد وافي ص١٥٩.
(٣) انظر: التدابير الواقية من الزنا، فضل إلهي ص ٧٨.

الجماعات.

وهو قتل للجماعة من جانب آخر، إذ إن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها، ويجعل الأسرة تبعة لا داعي إليها، والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه.

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال، منذ التاريخ القديم إلى العصر الحديث، وقد يغر بعضهم أن أوروبا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما، ولكن آثار هذا الانحلال في الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لا شك فيها، أما في الأمم الفتية كالولايات المتحدة، فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب واتساع موارده كالشاب الذي يسرف في شهواته فلا يظهر أثر الإسراف في بنيته وهو شاب ولكنه سرعان ما يتحطم عند ما يدلف إلى الكهولة فلا يقوى على احتمال آثار السن، كما يقوى عليها المعتدلون من أنداده! والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا، وهي مبالغة في التحرز، لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان[1].

٢. تفكك المجتمع وذلك عن طريق تشتيت العلاقة الزوجية.

فالزنا يشتت الحياة الزوجية إذ ينتج عنه الإحجام عن الزواج ؛ لأنه يجد إشباعًا لحاجاته دون تحمله لأدنى مسؤولية والزواج يحمله هذه المسؤولية، حتى بعض من يقبل على الزواج سرعان ما تنهار حياته الزوجية[2].

فيفسد نظام البيت ويهز كيان الأسرة ويقطع العلاقة الزوجية، ويعرض الأولاد لسوء التربية مما يتسبب عنه التشرد والانحراف والجريمة، مما يحطم المجتمعات ويفكك روابطها ويكثر فيها اللقطاء والضائعون حيثما يولد الولد وهو لا يدري أباه ولا أمه[3].

والتهرب من مسؤولية بناء الأسرة التي هي لبنة المجتمع، يفكك عرى هذا المجتمع و يحوله إلى أفراد لا يجمع بينهم أي رابط مشترك.

٣. ظهور الزنا من أمارات خراب العالم.

فقد ورد في الصحيحين من خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف أنه قال : (يا أمة محمد، والله إنه

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٣.

(٢) انظر: التدابير الواقية من الزنا، فضل إلهي ص ٧٠.

(٣) انظر: ولا تقربوا الفواحش، محمد جمال إسماعيل ص٢٢.

لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ثم رفع يديه وقال:اللهم هل بلغت؟)[1].

قال ابن القيم: «وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله، وظهور الزنا من أمارات خراب العالم»[2].

فتغير حال الشمس وذهاب ضوئها بالكسوف علامة من علامات تغير الحال من الأحسن إلى الأسوأ وقد يكون بسبب المعاصي والذنوب، لذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى في صلاة الكسوف.

٤ . انخفاض نسبة المواليد.

ذلك أن هذه الجريمة تعمل على نشر الأمراض، الأمر الذي يؤدي إلى موت كثير من الأطفال وهم في سن مبكرة، كما أن كل من يمارس هذه الفاحشة سيحرص على أن يخفي أو يتخلص من تبعاتها فربما يقتل الجنين ابن الزنا.

٥ . انتشار الزنا من أشراط الساعة.

وذلك كما جاء في الصحيحين عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه قال : لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي•صلى الله عليه وسلم : (أن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد)[3][4].

وفي إشارة نبوية رائعة لنتائج انتشار هذه الفواحش انتشار الأمراض يقول صلى الله عليه وسلم: (ولم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا)[5].

فكان انتشار هذه الأمراض مع الإباحية الجنسية والعلاقات الفاجرة ما هو إلا تحقيق لنبوءة وإعجاز لسيد البشر بهذا الحديث.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم ١٠٤٤، ٢/ ٣٤.
(٢) الجواب الكافي ص ١٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب إثم الزناة، رقم ٦٨٠٨، ٨/ ١٦٤.
(٤) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال عبدالرحمن إسماعيل ١/ ٢٦، الطريق إلى الإسلام ، محمد أسد ص ٨٦.
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٨٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ١/ ٣٤٣.

الإعجاز التشريعي في تحريم الزنا

إنّ من الإعجاز التشريعي في تحريم الزنا أنّه لما نهى الله عز وجل عن الزنى نهى عن قربانه قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

أي: لا تقتربوا منه ولا من أسبابه ودواعيه، لأن تعاطي الأسباب مؤد إليه وهو فعل شديد القبح و عظيم الذنب، كمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه خصوصًا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه[(١)].

كما أن الله عز وجل سماه فاحشة وقد نهانا عن الاقتراب من الفواحش في آية أخرى، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١][(٢)].

كما أن النهي عن الزنى جاء بعد النهي عن الوأد؛ لأنه من بابه، وإذا كان الوأد قتلًا للولد، فالزاني كذلك؛ لأنه يرمي النطفة، ولذا لوحظ في الأمم التي تكثر فيها الفاحشة، أنها تفنى شيئًا فشيئًا، وأن شيوع الزنى في أمة يضعف قوتها ونخوتها ويجعلها جماعة لاهية لاعبة[(٣)].

(١) انظر: مراح لبيد، الجاوي ١/ ٥٢٩.
(٢) انظر: السراج المنير، الشربيني ٢/ ٣٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٧.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٣٨.

قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله)[(٤)].

والدواء نوعان:

- دواء تحصين واكتساب للمناعة ضد هذا المرض ينتج عنه تحصين وحفظ الفرج.
- دواء لاقتلاع المرض بعد حدوثه واستئصال جذوره[(٥)].

وقد استعمل القرآن الكريم أساليب متنوعة في علاج هذه الجريمة؛ فمن الأمور العلاجية ما يلي:

١. فرض الاسلام العقوبات المشددة لمنع الزنا والتحرشات.

قال تعالى في عقوبة الزناة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾، مع التنكيل بهما ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، والتشهير بهم ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، شرع القرآن الكريم حدّ الزّنا، وأوجب الله سبحانه وتعالى على أولي الأمر إقامة الحد عليهم حفاظًا على الأعراض، ومنعًا لاختلاط

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٥٠، رقم ٣٥٧٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٧١، رقم ١٨٠٩.
(٥) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال عبدالرحمن إسماعيل ٢/ ١٠٨.

الأنساب، وتحقيقًا للعفاف والصون وطهر المجتمع.

وفي قول الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ ثلاث إشارات بيانية:

أولها: في تقديم الزانية على الزاني، قالوا: لأن قوة الشهوة الدافعة إلى الزنى عند المرأة أقوى، وربما لا نوافق على ذلك كثيرًا؛ لأن الرجل يطلب المرأة في أكثر الأحيان، والمرأة لا تطلب الرجل إلا قليلًا، وإن حدثتها نفسها فإن الحياء يكفها إلا إذا خلعته، وقد نقول: إنها إن طلبها الرجل ولم تكن مؤمنة سارعت إليه، ونقول في تعليل ذلك إن العقوبة قاسية، وقد قدمت المرأة لكيلا يمتنع أحد عن إقامة الحد بدعوى ضعفها، والشفقة عليها والرفق بها؛ لأنها من القوارير.

ثانيها: أن كلمة الزاني والزانية وصف بالزنى، وذلك يكون في أكثر الأحوال من تعوّد هذه الجريمة، ولذلك لا يكون إلا ممن أعلن هذه الجريمة الفاحشة ولذلك كان لابد من شروط لإقامة هذا الحد: أن يشهد أربعة بها، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الجريمة معلنة مجاهرًا بها، وذلك لا يكون إلا ممن تعودوا هذه الجريمة، وقد يكون الزنى في أول أمره، ولكن يندر أن يحضره أربعة من الرجال العدول، ومع ذلك يطبق الحكم سدًا للذريعة.

ثالثها: أن التعبير عن الضرب بالجلد للإشارة إلى أنه يؤلم الجلد، وذلك بأن يكون الضرب قريبًا من الجلد، فلا يستره إلا ثوب عادي، ولا يضرب على حشوة من قطن أو نحوه.

وهذه هي العقوبة الأولى، وقد تبعتها عقوبة أخرى، وهي أن تكون هذه العقوبة في العلن لا في السر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور:٢].

أي: ليحضر العقوبة ﴿طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وما حد الطائفة ، قيل : اثنان. وقيل : أربعة.

والظاهر: أنها الطائفة التي يكون بها الإعلام، بأن تكون العقوبة في مكان تكون فيه علنية لا سرية، وسمى الله هذه العقوبة عذابا؛ لأنها عذاب الدنيا، ووراءها عذاب الآخرة، إن لم يتوبا توبةً نصوحًا؛ ولأنها قاسية غليظة، والرحمة بالجاني تشجيع على الجناية، والغلظة في عقابه رحمة بالجماعة الإنسانية.

ولغلظة العقوبة قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢].

والرأفة انفعال نفسي يدفع إلى الشفقة والألم، فلا يصح أن تكون الرأفة هي المسيطرة ، أي : لا يصح أن تستولي عليكم حتى يقال: إنها أخذتكم، فالرأفة بالجاني

استهانة بالحكم وتشجيع عليه[1].

وقد خص الله سبحانه وتعالى حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص:

الأولى: القتل فيه بأشنع القتلات للزاني المحصن، فقد دلّت السّنة الصحيحة على أنّ الحدّ لكل منهما هو الرجم[2]، وعندما يكون الحد جلدًا للزاني غير المحصن، فقد جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

جاء في الصحيحين: أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:يا رسول الله، إن ابني كان عسيفًا (أجيرًا) على هذا فزنى بامرأته ، وإني أخبرت أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ، ووليدة (جارية)، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني : جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجل : الرجم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:(والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم ردٌّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها)، فغدا عليها فاعترفت فأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم فرجمت[3].

الثانية: نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن تأخذهم بالزناة رأفة في دين الله عند إقامة الحد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

والرأفة ترك إقامة حدّ الله عليهما وتعطيله، فأما إذا أقيم عليهما الحد فلم تأخذهم بهما رأفة في دين الله، أو تخفيف الضرب عنهما، ولكن يجب أن يوجعوهما ضربًا[4].

الثالثة: أنه سبحانه أوجب عليهما الفضيحة رغم أنه تعالى «ستّيرٌ» يحب الستر وعفوٌّ يحب العفو، لكن لقبح الزنا وبشاعته أوجب ذلك ردعًا للغير، فأمر أن يكون الحد بمشهد من المؤمنين، ولا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر، فقال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢][5].

والأمر بشهادة الطائفة للتشهير، فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير، والواحد

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٣٩.
(٢) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال إسماعيل ٢/ ١٣٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط التي لا تحل في الحدود، ٣/ ١٩١، رقم ٢٧٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ٣/ ١٣٢٤، رقم ١٦٩٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٩١، ٩٢، تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٢٤
(٥) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال إسماعيل ٢/ ١٣٥.

والاثنان ليسوا بتلك المثابة، ويشهد له قول ابن عباس رضي الله عنهما : ((أربعة إلى أربعين رجلًا من المصدقين بالله، واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أفضح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل))[1].

٢. عقوبة خوض اللسان في الفواحش وقذف المحصنات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور:٤].

شرع القرآن الكريم أيضًا حدًّا للقذف من أجل الحفاظ على العرض، والذي هو جلد ثمانين جلدة، وهي عقوبة جسدية، وعدم قبول شهادتهم، والحكم عليهم بالفسق وهي عقوبة معنوية، بل وحرم على المسلم الأقل من ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢].

وقبح جل وعلا غيبة المسلم غاية التقبيح فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١][2].

فإذا كانت الغيبة محرمة ومجرمة وكذلك التنابز بالألقاب فمن باب أولى أن يحرم القذف.

٣. قرن الزنا بالشرك وقتل النفس.

وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح[3].

فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

ويتضح اقتران الزنى والقتل بالشرك أيضًا في حديث ابن مسعود رضي الله عنه الذي ورد في الصحيحين فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم؟ فقال: (أن تجعل الله ندًا وهو خلقك)، قلت: ثم أي؟ قال: (أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك) قلت: ثم أي؟ قال: (أن تزاني حليلة جارك)[4].

وقرن الزاني بالمشركة أو الزانية، حيث

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢١١.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٩.
(٣) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال إسماعيل، ٢/ ١٣٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، رقم ٧٥٢٠، ٩/ ١٥٢.

يقول الله عز وجل: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور:٣].

أما الأمور الوقائية فهي كثيرة تدعو بمجموعها الفصل بين الجنسين وعدم حصول الإغراءات بينهما والتي هي سبب في مثل هذه الجرائم.

١. نهى القرآن عن اتباع خطوات الشيطان.

لكي تحول بينهم و بين الوقوع في الشهوات و العقوبات فدعت إلى تخفيف نار الشهوة في النفوس بنهيها عن اتباع الشيطان وخطواته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور:٢١].

٢. الأمر بغض البصر.

فبين الله أهمية غض البصر في كبح جماح الشهوة وحفظ الفروج للرجال والنساء وأمر به.

فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور:٣٠].

وأمر النساء به كذلك فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣١].

٣. الأمر بالستر والحجاب.

فحث المرأة على ستر زينتها، حتى لا يفتن بها الرجال ونهى عن إبداء ما لا يجوز إبداؤه من هذه الزينة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

٤. الحث على المساعدة على الزواج.

شجّع المولى تبارك وتعالى تيسير الزواج الحلال، ذلك مقابل كفّ النفس عن إشباع الغريزة الجنسية بالحرام، حتى لا يحدث كبت نفسي الذي قد يؤدي إلى انفجار غير محسوب، فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور:٣٢].

وقال صلى الله عليه وسلم عن علاج الشهوة بالصوم : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[1].

ومع الصوم أمر الإسلام بالتعفف

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ٢/١٠١٨، رقم ١٤٠٠.

والاستعفاف لمن حيل بينه وبين الزواج حتى ييسر الله عليه، قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٣][(١)].

٥. تحريم الاختلاط بين الرجال والنساء.

فهو سبب لتأجيج نار الشهوة، ويؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، فقد حرص شرعنا الحنيف على منع الاختلاط بين الجنسين، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣]، فدلت الآية على أن الأصل احتجاب النساء عن الرجال وعدم الاختلاط لاسيما في دور العلم حرصا على طهارة قلوب الرجال و النساء، بل و نهى الشرع عن خلوة الرجل بالمرأة.

٦. تحريم لمس المرأة الأجنبية.

فحرّم الإسلام مصافحة الرجال للنساء: يقول صلى الله عليه وسلم: (إني لا أصافح النساء)[(٢)]، فقد حرم على الرجل أن يمسّ يد امرأة من غير محارمه.

موضوعات ذات صلة:

الإحصان، العفة، الفواحش، اللعن، النكاح

(١) انظر: ولا تقربوا الفواحش، جمال إسماعيل ٢/ ١٣٣.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب البيعة، بيعة النساء، رقم ٤١٨١، ٧/ ١٤٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٤، رقم ٢٥١١.

الزور

عناصر الموضوع

مفهوم الزور	١٥٦
الزور في الاستعمال القرآني	١٥٧
الألفاظ ذات الصلة	١٥٨
مجالات الزور	١٦٠
التحذير من الزور	١٦٨
أحكام متعلقة بشهادة الزور	١٧٣
أثر انتشار الزور على الفرد والمجتمع	١٧٩

مفهوم الزور

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «(زور) الزاء والواو والراء: أصل واحد يدل على الميل والعدول، من ذلك الزور: الكذب؛ لأنه مائل عن طريقة الحق. ويقال: زور فلان الشيء تزويرًا، إذا: هيأه؛ لأنه يعدل به عن طريقة تكون أقرب إلى قبول السامع»[(١)].

والزور في اللغة هو: الكذب، والباطل، وفعلهما[(٢)]، يقال: زّور فلان الكتاب والكلام تزويرًا: إذا قواه وشدده، وسواه وحسنه؛ والكلام المزوّر أي: المحسن الذي يبدو حقيقيًا وصوابًا[(٣)]، ثم يتكلم به؛ ومنه شهادة الزور؛ لأنه يقويها ويشددها ويحسنها ويشبهها بالشهادة الصحيحة حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه، أنها خلاف ما هو عليه[(٤)].

والتزوير هو: التزيين والتحسين والتشبيه، وفعل الكذب والباطل، وأصل الزور: الميل والعدول، وبهذا يكون المعنى اللغوي للزور أنه الكذب والباطل، وفعلهما بكل أشكالهما وصورهما[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى الزور اصطلاحًا عن معناه اللغوي، الدال على الميل والانحراف، الذي يصحبه تحسين للباطل، وإظهاره على غير حقيقته.

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٣٦.
(٢) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري ١/ ٤٨٧.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣١٨، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٣٧، تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٤٦٩.
(٤) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٧١١.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٨٦، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٦٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٠٦.

الزور في الاستعمال القرآني

وردت مادة (زور) في القرآن الكريم (٤) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٤	﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: ٣٠]

وجاء الزور في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، الدال على الميل وانحراف، وتحسين للباطل، والذي من صوره ، الشرك، والكذب، وشهادة الزور، وغير ذلك[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٣٤.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٤٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكذب:

الكذب لغة:

نقيض الصدق[١]، قال ابن فارس: «(كذب) الكاف والذال والباء: أصل صحيح يدل على خلاف الصدق»[٢].

الكذب اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «هو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع؛ سواء بالقول، أو بالإشارة، أو بالسكوت»[٣].

الصلة بين الزور والكذب:

«أن الزور هو الكذب بعينه إلا أنه كذب محسن، مزين يخيل لمن سمعه أو رآه أنه على خلاف ما هو به»[٤].

٢ البهتان:

البهتان لغة:

مشتقٌ من بهت الرجل يبهته بهتًا وبهتانًا فهو بهّات، أي: قال عليه ما لم يفعله، فهو مبهوتٌ، والبهتان: افتراءٌ[٥].

البهتان اصطلاحًا:

هو الافتراء على الغير، وهو: الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه؛ لأنّه يبهت من ينقل عنه[٦].

الصلة بين الزور والبهتان:

أن الزور هو: الكذب الذي قد سوي وحسن في الظاهر؛ ليحسب أنه صدق، وهو من قولك: زورت الشيء: إذا سويته وحسنته، وأما البهتان فهو مواجهة الإنسان بما لم يحبه[٧]،

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٠٤، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٢٨.
(٢) مقاييس اللغة ٥/ ١٦٧.
(٣) التعريفات ص٧٤.
(٤) جامع البيان ١٩/ ٣١٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٠٠.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٨.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٧.

أي: الكذب الذي يواجه الإنسان به صاحبه على جهة المكابرة[1].

٣ الافتراء:

الافتراء لغةً:

الفرية: الكذب. فرى كذبًا فريًا وافتراه: اختلقه. ورجلٌ فريٌّ ومفرًى وإنه لقبيح الفرية[2].

الافتراء اصطلاحًا:

اختراع قضية لا أصل لها، أو هو: الكذب العظيم عن عمد[3].

الصلة بين الزور والافتراء:

أنهما من أسماء الكذب، وأن كلًّا منهما يطلق على الشرك وعلى الكذب.

٤ الإفك:

الإفك لغة:

أفك إفكًا وأفوكًا: كذب، وأفك فلانًا: جعله يكذب، وحرمه مراده[4].

الإفك اصطلاحًا:

أعظم الكذب، وكل شيء في القرآن إفك فهو كذب[5].

الصلة بين الزور والإفك:

أن كلًّا منهما من أسماء الكذب وأشده وأعظمه، إلا أن الإفك هو أشد الزور وأكذبه.

(١) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٢٤٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٥٤.
(٣) انظر: مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٧، الكليات، الكفوي ص ١٥٤، دستور العلماء، القاضي الأحمد نكري ١/ ٩٩.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٣١.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٥٣.

مجالات الزور

إن مجالات الزور من خلال القرآن الكريم تكون في الأقوال والأفعال، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الزور في الأقوال:

يمكن تصنيف الأقوال التي وصفها الله تعالى بأنها من قول الزور في النقاط الآتية:

١. أقوال الشرك بجميع أنواعها.

إن من الزور الشرك بالله تعالى بالقول: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال الإمام الواحدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾: «يعني: الشرك بالله، وكان أهل الجاهلية يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، ويريدون: الصنم»[(١)].

وكقولهم في الملائكة: قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَٰتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٣].

وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ١٩-٢٠].

ومنه شرك اليهود والنصارى بقولهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

أي: جميع الأقوال المحرمات التي تدخل في العقيدة، إنها من قول الزور الذي هو الكذب على الله تعالى[(٢)].

٢. التكذيب بالقرآن.

بين الله تعالى أن التكذيب بالقرآن من القول الزور الباطل، ومن وضع الأشياء في غير موضعها، ومن الكذب على الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤-٦].

(١) انظر: التفسير الوسيط ٣/ ٢٧٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٣٧.

٤-٦].

يقول تعالى مخبرًا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كذب افتراه، يعنون: النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

أي: فقد افتروا هم قولًا باطلًا، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون.

قال الإمام ابن كثير: «وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بعث : الأمين؛ لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] الآية، أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخبارًا حقًّا صدقًا مطابقًا للواقع في الخارج، ماضيًا ومستقبلًا الذي يعلم السر، أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر»[(١)].

وقال الإمام الرازي: «إن الله تعالى وصف كلامهم بأنه ظلم وبأنه زور، أما أنه ظلم فلأنهم نسبوا هذا الفعل القبيح إلى من كان مبرأ عنه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه وذلك هو الظلم، وأما الزور فلأنهم كذبوا فيه، وقال أبو مسلم: الظلم: تكذيبهم الرسول والرد عليه، والزور: كذبهم عليهم»[(٢)].

ثم رد الله سبحانه عليهم فقال: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾، أي: فقد قالوا ظلمًا هائلًا عظيمًا وكذبًا ظاهرًا، وانتصاب (ظلمًا) بـ(جاءوا)، فإن جاء: قد يستعمل استعمال

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٨٥.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٤٣٣.

أتى، ويعدى تعديته، وقال الزجاج: إنه منصوب بنزع الخافض، والأصل: جاءوا بظلم. وقيل: هو منتصب على الحال، وإنما كان ذلك منهم ظلما؛ لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه، وهذا هو الظلم، وأما كون ذلك منهم زورا فظاهر؛ لأنهم قد كذبوا في هذه المقالة[1].

أي: فقد وضعوا الأشياء في غير مواضعها، وكذبوا على ربهم؛ إذ جعلوا القرآن -الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه- إفكًا مفترى من قبل البشر، وكيف يتقولون ذلك على الرسول وقد تحداهم أن يأتوا بمثله، وهم ذوو اللسن والفصاحة والغاية في البلاغة، فعجزوا أن يأتوا بمثله، ولو كان ذلك في مكنتهم ما ادخروا وسعًا في معارضته، وقد ركبوا الصعب والذلول؛ ليدحضوا حجته، ويبطلوا دعوته، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد استعان في ذلك بغيره لأمكنهم أيضًا أن يستعينوا هم بغيرهم، فما مثله في اللغة إلا مثلهم.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤-٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٧-٨][2].

٣. تحريم ما أحل الله.

كما أن من الزور بالقول تحريم ما أحل الله تعالى، وقيل أيضًا: شهادة الزور. وهذا كله جائز.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧٢، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٤/ ٤٧٧.

(٢) تفسير المراغي ١٨/ ١٥٠.

﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

والآية تدل على أنهم نهوا أن يحرموا ما حرم أصحاب الأوثان نحو قولهم: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، ونحو: نحرهم البحيرة والسائبة، فأعلمهم الله أن الأنعام محللة إلا ما حرم الله منها، ونهاهم الله عن قول الزور أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام؛ ليفتروا على الله كذبًا[(١)].

وقد وصف الله تعالى هذا القول الزور بأنه افتراء وكذب على الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦][(٢)].

٤. جميع الأقوال المحرمة.

كما أن من الزور بالقول: الكذب وشهادة الزور، وجميع الأقوال المحرمة، قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

أي: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور[(٣)].

والآية تدل على أن الله نهى عن الكذب وقول الزور، وشهادة الزور، والنفاق، وكل قول محرم؛ لأنه باطل، وهذا ما قال به أكثر المفسرين[(٤)].

٥. الظهار من الزوجة من القول الزور.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ [المجادلة: ٢].

أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور، فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة، والزور: هو الكذب، وإنما جعله كذبًا؛ لأن المظاهر يصيّر امرأته كأمّه، وهي لا تصير كذلك أبدًا؛ لأن قوله: أنت علي كظهر أمي، إما أن يجعله إخبارًا أو إنشاء، وعلى التقدير الأول أنه كذب؛ لأن الزوجة محللة والأم محرمة، وتشبيه المحللة بالمحرمة في وصف الحل والحرمة كذب، وإن جعلناه إنشاء كان ذلك أيضًا كذبًا؛ لأن كونه إنشاء معناه: أن الشرع جعله سببًا في حصول الحرمة، فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه، كان جعله إنشاء في وقوع هذا الحكم يكون كذبًا وزورًا، وقال بعضهم: إنه تعالى إنما وصفه بكونه: منكرًا

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٢.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٣٧.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٥، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٧٠.

من القول وزورًا؛ لأن الأم محرمة تحريمًا مؤبدًا، والزوجة لا تحرم عليه بهذا القول تحريمًا مؤبدًا، فلا جرم كان ذلك منكرًا من القول وزورًا، وهذا الوجه ضعيف؛ لأن تشبيه الشيء بالشيء لا يقتضي وقوع المشابهة بينهما من كل الوجوه، فلا يلزم من تشبيه الزوجة بالأم في الحرمة تشبيهها بها في كون الحرمة مؤبدة، لأن مسمى الحرمة أعم من الحرمة المؤبدة والمؤقتة[1].

وهذا تشبيه باطل؛ لتباين الحالين إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم يريد أن الأمهات على الحقيقة إنما هن الوالدات وغيرهن ملحقات بهن؛ لدخولهن في حكمهن، فالمرضعات أمهات[2].

ثم زاد الأمر إيضاحًا وبالغ في الاستهجان؛ توبيخًا لهم على صنيعهم فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: وإنهم ليقولون قولًا منكرًا لا يجيزه شرع، ولا يرضى به عقل، ولا يوافق عليه ذو طبع سليم، فكيف تشبه من يسكن إليها وتسكن إليه وجعل الله بينه وبينها مودة ورحمة، وصلة خاصة لا تكون لأم ولا لأخت، بمن جعل صلتها بابنها صلة الكرامة والحنو والإجلال والتعظيم؟ إلا أن الرجل قوام على المرأة له حق تأديبها إذا اعوجت، وهجرانها في المضاجع إذا جمحت ولم يعط ذلك لابن ليعامل به أمه، فهذا زور وبهتان عظيم[3].

وأما حكم الظهار فإنه معصية ومحرم لا يجوز إيقاعه؛ لقوله بعده: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ٤].

فإيقاع الظهار معصية، وبكونه معصية فسر ابن عطية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ بالحرام، وبذلك أيضًا فسر القرطبي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ وقال ابن الفرس: ((هو حرام لا يحل إيقاعه. ودل على تحريمه ثلاثة أشياء:

أحدها: تكذيب الله تعالى من فعل ذلك.

الثاني: أنه سماه منكرًا وزورًا، والزور الكذب، وهو محرم بإجماع.

الثالث: إخباره تعالى عنه بأنه يعفو عنه ويغفر، ولا يعفي ويغفر إلا على المذنبين)).

وأقوال فقهاء الحنفية تدل على أن الظهار معصية، ولم يصفه أحد من المالكية ولا الحنفية بأنه كبيرة، ولا حجة في وصفه في الآية بزور؛ لأن الكذب لا يكون كبيرة إلا إذا أفضى إلى مضرة[4].

وكعادة القرآن الكريم في قرن الترهيب

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٨١.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٨٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٢٨، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٨٩، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٧٠، تفسير المراغي ٢٨/ ٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٣.

بالترغيب، حتى لا تيأس النفوس من رحمة الله، ختمت الآية الكريمة بما يدل على فضله تعالى.

فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ﴾ أي: وإن الله تعالى لكثير العفو والمغفرة، لمن تاب إليه سبحانه وأناب وأقلع عن تلك الأقوال والأفعال التي يبغضها سبحانه [(١)].

ثانيًا: الزور في الأفعال:

وصف سبحانه عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

أي: لا يشهدون الشهادة الكاذبة، أو لا يحضرون الزور، وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين، قال الزجاج: الزور في اللغة الكذب ولا كذب فوق (الشرك) بالله، قال الواحدي: ((أكثر المفسرين على أن الزور هاهنا: بمعنى الشرك، والحاصل: أن يشهدون إن كان من الشهادة، ففي الكلام مضاف محذوف، أي: لا يشهدون شهادة الزور، وإن كان من الشهود والحضور -كما ذهب إليه الجمهور- فقد اختلفوا في معناه، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، وقال محمد بن الحنفية: لا يحضرون اللهو والغناء، وقال ابن جريج: الكذب. وروي عن مجاهد أيضًا، والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور، بل المراد: الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائنًا ما كان، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: معرضين عنه غير ملتفتين إليه، واللغو: كل ساقط من قول أو فعل. قال الحسن: اللغو: المعاصي كلها)) [(٢)].

قال ابن جرير: «فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئًا من الباطل لا شركًا، ولا غناء، ولا كذبًا ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور؛ لأن الله عم في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر أو عقل» [(٣)].

فمعنى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الباطل في أي لون من ألوانه قولًا أو فعلًا أو إقرارًا، وكل ما خالف الحق.

لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٢٨، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٨٩، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٨٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٢٤٧.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٠٣.

(٣) جامع البيان ١٩/ ٣١٤.

[الأنعام: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠][(١)].

أي: لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه. والزور: كل باطل زوّر وزخرف، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد. وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس، وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين. وعن عكرمة: اللعب[(٢)].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الزور أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله والجدال الباطل والغيبة والنميمة والسب والقذف والاستهزاء والغناء المحرم وشرب الخمر وفرش الحرير، والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلة في قول الزور تدخل في هذه الآية بالأولوية.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا أن الخوض فيه -وإن كان لا إثم فيه- فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربئوا بأنفسهم عنه[(٣)].

وهذه أيضًا من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل، وقال محمد ابن الحنفية: هو اللغو والغناء. وقال أبو العالية وطاووس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم: هي أعياد المشركين.. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا، وقال مالك عن الزهري: شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه، كما جاء في الحديث: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر)[(٤)].

والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أي: لا يحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٧٧، تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٥١٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٧٩.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٧.

(٤) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم ٦٧٠٨، ٦/ ٢٥٧، والحاكم في المستدرك رقم ٧٧٧٩، ٤/ ٣٢٠.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٥٠٦، ٢/ ١١٠٩.

أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾[1].

المعنى: على الاحتمال الأول: والذين لا يحضرون مشاهدة الباطل والإثم في كل مجلس تتعدى فيه الحدود، أو تنتهك فيه الحرمات، أو يحكم فيه بالجور أو تعظم فيه الطواغيت، أو يدعى فيه بدعوى الجاهلية، أو تحيى فيه معالم الوثنية، أو تطمس فيه السنة النبوية، أو يدعى فيه أحد مع الله، أو يضرع إلى سواه.

وعلى الاحتمال الثاني: والذين لا يشهدون شهادة الزور ولا يخبرون إلاّ بالحق الواقع. ترجيع وترجيح:

يلزم من أنهم لا يشهدون مشاهدة الباطل أنهم لا يشهدون بالزور؛ لوجهين:

الأول: لأنهم إذا كانوا لا يحضرون مجالس الباطل فبالأحرى أنهم لا يقولونه.

والثاني: أن مشهد شهادة الزور من مشاهد الباطل التي لا يحضرونها؛ فيكون الوجه الأول أولى؛ لأنه أشمل.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا فائدة فيه، دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم، ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوه سفها منافيا لمكارم الأخلاق.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره، ولا سماعه، ولكن يحصل ذلك بغير قصد، فيكرمون أنفسهم عنه[2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٨.

(٢) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٦٦.

التحذير من الزور

هناك أساليب ذكرها القرآن الكريم في التحذير من الزور، وهي الأمر بالاجتناب، والتشنيع بأهله، والثناء على تاركيه، ويمكن بيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الأمر بالاجتناب:

إن من الأساليب التي ذكرها القرآن الكريم في التحذير من الزور بكل صوره وأشكاله الأمر بالاجتناب، عما هو أقصى المحرمات قال تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

فقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور لما فيها من ادعاء الاستحقاق، كأنه تعالى لما حث على تعظيم الحرمات أتبع ذلك بما فيه رد لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما، والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك، ولم يعطف قول الزور على الرجس، بل أعاد العامل؛ لمزيد الاعتناء، والمراد من الزور: مطلق الكذب، وهو من الزور بمعنى: الانحراف، فإن الكذب منحرف عن الواقع، والإضافة بيانية.

وقيل: هو أمر باجتناب شهادة الزور؛ لما أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه والطبراني وغيرهم عن ابن مسعود: أنه صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح، فلما انصرف قائمًا قال: (عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى) ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآية[(١)(٢)].

والزور: الباطل والكذب. وسمي زورًا؛ لأنه أميل عن الحق، ومنه: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٧].

ومدينة زوراء، أي: مائلة، وكل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور، وهذه الآية تضمنت الوعيد على الشهادة بالزور، وينبغي للحاكم إذا عثر على الشاهد بالزور أن يعزره وينادي عليه؛ ليعرف؛ لئلا يغتر بشهادته أحد، ويختلف الحكم في شهادته إذا تاب، فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرز فيها لم تقبل؛ لأنه لا سبيل إلى علم حاله في التوبة؛ إذ لا يستطيع أن يفعل من القربات أكثر مما هو عليه، وإن كان دون ذلك فشمر في العبادة وزادت حاله في التقى قبلت شهادته.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، ٣/ ٣٠٥، رقم ٣٥٩٩، والترمذي في سننه، أبواب الشهادات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في شهادة الزور، ٤/ ٥٤٧، رقم ٢٢٩٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب شهادة الزور، ٢/ ٧٩٤، رقم ٢٣٧٢.
ضعفه ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ٤٦٠، والألباني في الجامع الصغير وزيادته، رقم ٦٣٨٧.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٥٥.

وفي الصحيح من حديث أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) قلنا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)، وكان متكئًا فجلس فقال:(ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور) فما زال يقولها، حتى قلت: لا يسكت)[1].

وجمع بين الشرك وقول الزور أي: الكذب والبهتان أو شهادة الزور، وهو من الزور، وهو الانحراف؛ لأن الشرك من باب الزور؛ إذ المشرك زاعم أن الوثن يحق له العبادة[2].

قال محمد رشيد رضا: «إنه جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب وهو أبلغ من الترك؛ لأنه يفيد الأمر بالترك مع البعد عن المتروك بأن يكون التارك في جانب بعيد عن جانب المتروك -كما تقدم-، ولذلك نرى القرآن لم يعبر بالاجتناب إلا عن ترك الشرك والطاغوت الذي يشمل الشرك والأوثان وسائر مصادر الطغيان، وترك الكبائر عامة، وقول الزور الذي هو من أكبرها، قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[النجم: ٣٢]»[3].

قال الشنقيطي: «وفي هذه الآية الكريمة الأمر باجتناب عبادة الأوثان، ويدخل في حكمها، ومعناها عبادة كل معبود من دون الله كائنًا من كان، وهذا الأمر باجتناب عبادة غير الله المذكور هنا، جاء مبينًا في آيات كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

وبين تعالى أن ذلك شرط في صحة إيمانه بالله في قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وأثنى الله على مجتنبي عبادة الطاغوت المنيبين لله، وبين أن لهم البشرى، وهي ما يسرهم عند ربهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾[الزمر: ١٧].

وقد سأل إبراهيم ربه أن يرزقه اجتناب عبادة الطاغوت، في قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم ٥٩٧٦، ٨/ ٤.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٣٩.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٥٤.

﴿وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والأصنام تدخل في الطاغوت دخولًا أوليًّا»[١].

وقال في موضع آخر: «وإذا علمت ذلك فاعلم أنه هنا قال: واجتنبوا قول الزور بصيغة عامة، ثم بين في بعض المواضع بعض أفراد قول الزور المنهي عنه كقوله تعالى في الكفار الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

فصرح بأن قولهم هذا من الظلم والزور، وقال في الذين يظاهرون من نسائهم، ويقول الواحد منهم لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

فصرح بأن قولهم ذلك منكر وزور، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟) قلنا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الإشراك بالله وعقوق الوالدين) وكان متكئًا فجلس فقال: (ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور) فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[٢].

وقد جمع تعالى هنا بين قول الزور والإشراك به تعالى في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وكما أنه جمع بينهما هنا، فقد جمع بينهما أيضًا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ لأن قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو قول الزور، وقد أتى مقرونًا بقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ وذلك يدل على عظمة قول الزور؛ لأن الإشراك بالله قد يدخل في قول الزور، كادعائهم الشركاء، والأولاد لله، وكتكذيبه صلى الله عليه وسلم فكل ذلك الزور فيه أعظم الكفر والإشراك بالله، نعوذ بالله من كل سوء»[٣].

وعموم الأمر باجتناب قول الزور وجيهة، حتى ولو صحّ أن الجملة من الوجهة الزمنية ومقام ورودها قد عنت تلك الصيغة، ويوجب على المسلم أن يتجنب الزور وقول الزور وشهادة الزور في كل ظرف ومكان؛

(١) انظر: أضواء البيان ٥/ ٢٥٥.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٥٦.

لما في ذلك من عظيم البغي والضرر والشرّ، حتى استحقّ وصف الرسول الأعظم له بأنه من أكبر الكبائر وبأنه يعدل الشرك[1].

والتعبير بقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟﴾ أبلغ من التعبير بلفظ حرم؛ لأنه يفيد التحريم وزيادة، وهو التنفير والابتعاد عنه بالكلية[2].

كما تفيد الآية وجوب التباعد عن قول الزور كما يجب أن يتباعد عن الشرك[3].

ثانيًا: التشنيع بأهله:

شنع الله تعالى على القائل بالزور بأن رفع الذكر بالقبيح الذي قالوه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

أي: إن الله تعالى شنع على هؤلاء العصاة الذين لم يستجيبوا لدعوة النبي إلى الإسلام، وإنما افتروا على الله الكذب بوصف المعجزات بأنها سحر، ثم ذكر غرضهم من الافتراء، وهو محاولة إبطال دين الله وإطفاء نوره وشرعه، والحال أن الله متم نوره، ومظهر دينه على الأديان كلها[4].

كما شنع سبحانه على المظاهرين من نسائهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

فقد وصف الله تعالى قولهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ،أي: وإن هؤلاء المظاهرين ليقولون بهذا قولًا منكرًا، أي :فظيعًا ينكره الشرع ويقبحه ولا يجيزه، كما لا يقره عقل، ﴿وَزُورًا﴾، أي: كذبًا، وإن الله كثير العفو والمغفرة؛ إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم عن هذا المنكر، كما أن الله غفور لمن أذنب وتاب، وغفور من غير توبة لمن يشاء، كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

يتبين منه أن الله وصف الظهار بأنه منكر وزور؛ لتشبيه الزوجة بالأم، فهو خبر زور كذب، وإنشاء منكر ينكره الشرع ولا يعرفه، وهو يدل على أن الظهار محرم، وهو أيضًا عند الشافعية معصية كبيرة؛ لأن فيه الإقدام على إحالة حكم الله تعالى وتبديله بدون إذنه سبحانه، ولأن المقدم على ذلك كاذب معاند للشرع[5].

ثالثًا: الثناء على تاركيه:

أثنى الله سبحانه وتعالى على الذين لا

(١) التفسير الحديث، محمد دروزة ٦/ ٤٦.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٣٤.
(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٩٩.
(٤) انظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ٢/ ٢٦٤.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٣.

يشهدون الزور.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

ثم بين ثوابهم فقال عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

يعني: غرف الجنة كقوله: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ يعني: صبروا على أمر الله تعالى في الدنيا، وعلى الطاعة ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ يعني: في الجنة ﴿تَحِيَّةً﴾ يعني: التسليم ﴿وَسَلَامًا﴾ يعني: سلام[1].

«والزور: هو الكذب والباطل، ولا يشاهدونه وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين، قال الزجاج: الزور في اللغة الكذب ، ولا كذب فوق الشرك بالله، قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن الزور هاهنا: بمعنى الشرك، والحاصل أن ﴿يَشْهَدُونَ﴾ إن كان من الشهادة، ففي الكلام مضاف محذوف، أي: ﴿لَا يَشْهَدُونَ﴾ شهادة الزور وإن كان من الشهود والحضور، كما ذهب إليه الجمهور فقد اختلفوا في معناه، فقال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، وقال محمد بن الحنفية: لا يحضرون اللهو والغناء، وقال ابن جريج: الكذب. وروي عن مجاهد أيضًا، والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور، بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائنًا ما كان، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: معرضين عنه غير ملتفتين إليه، واللغو: كل ساقط من قول أو فعل، قال الحسن: اللغو: المعاصي كلها، وقيل: المراد مروا بذوي اللغو، يقال: فلان يكرم عما يشينه، أي: يتنزه ويكرم نفسه عن الدخول في اللغو والاختلاط بأهله، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بالقرآن، أو بما فيه موعظة وعبرة ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: لم يقعوا عليها حال كونهم صما وعميانا، ولكنهم أكبّوا عليها سامعين مبصرين، وانتفعوا بها، قال ابن قتيبة: المعنى لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يبصروها»[2].

كما جاء في الحديث الذي رواه جابر رضي الله عنه: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر)[3].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٤٧، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٣٢.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٨٩.

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم ٦٧٠٨، ٦/ ٢٥٧، والحاكم في المستدرك رقم ٧٧٧٩، ٤/ ٣٢٠.

لا يحضرون من المشاهدة، والزور: الشرك والصنم أو الكذب أو آلة الغناء أو أعياد النصارى[1].

قال سيد قطب: «وبعد هذا البيان المعترض يعود إلى سمات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.. وعدم شهادة الزور قد تكون على ظاهر اللفظ ومعناه القريب، أنهم لا يؤدون شهادة زور، لما في ذلك من تضييع الحقوق، والإعانة على الظلم. وقد يكون معناها الفرار من مجرد الوجود في مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه؛ ترفعًا منهم عن شهود مثل هذه المجالس والمجالات. وهو أبلغ وأوقع. وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتماماتهم عن اللغو والهذر: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ لا يشغلون أنفسهم به، ولا يلوثونها بسماعه إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤيته بله المشاركة فيه! فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها في نفسه وفي الحياة كلها في شغل شاغل»[2].

أحكام متعلقة بشهادة الزور

هناك أحكام متعلقة بشهادة الزور تدل على مدى اهتمام الشريعة الإسلامية بهذه الشهادة، وهذه الأحكام يمكن ذكرها باختصار كما يأتي:

أولًا: حكم شهادة الزور:

لا خلاف بين الفقهاء بأن شهادة الزور من أكبر الكبائر، وأنها محرمة شرعًا، وقد نهى الله تعالى عنها في كتابه مع نهيه عن الأوثان، فقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠][3].

ونهى عنها رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟) قلنا: بلى يا رسول الله، قال ثلاثا: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين) -وكان متكئًا- فقال: (ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور) فما زال يقولها حتى قلنا: ليته سكت[4].

وبما رواه خريم بن فاتك الأسدي رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح فلما انصرف قام قائمًا، فقال: (عدلت شهادة الزور الإشراك بالله)،

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٥٠٦، ٢/ ١١٠٩.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٨.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٨٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٤٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٥

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، ٣/ ١٧١، رقم ٢٦٥٤.

ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠])[١].

وشهادة الزور جريمة خلقية شائنة تتنافى مع النظام العمراني، وتفضي إلى الفوضى في كل نواحي الحياة، فهي شر مستطير، يجب على الناس أن ينزهوا أنفسهم عنها تنزيهًا تامًا[٢].

كما أن شهادة الزور شهادة باطلة لا يجوز الحكم بها؛ لأن الغاية من التزوير إبطال الحق وتفويته على صاحبه والقضاء بالحق لغير صاحبه، وذلك كله من الباطل والمحرم في الشريعة[٣].

ثانيًا: ثبوت شهادة الزور:

تثبت شهادة الزور بأحد ثلاثة أوجه:

أحدها: الإقرار، وذلك بأن يقر الشاهد أنه شاهد زور: فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن شهادة الزور لا تثبت إلا بالإقرار؛ لأنه لا تتمكن تهمة الكذب في إقراره على نفسه، ولا تثبت عندهم بالبينة؛ لأنها نفي لشهادته، والبينة حجة للإثبات دون النفي، وقد تعارضت البينتان، فلا يعزر في تعارض البينتين، أو ظهور فسقه أو غلطه في الشهادة؛ لأن الفسق لا يمنع الصدق، والتعارض لا يعلم به كذب إحدى البينتين بعينها، والغلط قد يعرض للصادق العدل ولا يتعمده فيعفى عنه[٤].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣].

الثاني: تثبت من جهة الواقع، وذلك بأن يشهد بما يقطع بكذبه: كأن يشهد على رجل بفعل في الشام في وقت، ويعلم أن المشهود عليه في ذلك الوقت في الحجاز، أو يشهد بقتل رجل وهو حي، أو أن هذه البهيمة في يد هذا منذ ثلاثة أعوام، وسنها أقل من ذلك، أو يشهد على رجل أنه فعل شيئًا في وقت وقد مات قبل ذلك، أو لم يولد إلا بعده، وأشباه هذا، مما يتيقن بكذبه ويعلم تعمده لذلك، وإذا ثبت ذلك بالبينة فعليه العقوبة،

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، ٣/ ٣٠٥، رقم ٣٥٩٩، والترمذي في سننه، أبواب الشهادات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في شهادة الزور، ٤/ ٥٤٧، رقم ٢٢٩٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب شهادة الزور، ٢/ ٧٩٤، رقم ٢٣٧٢.
ضعفه ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ٤٦٠، والألباني في الجامع الصغير وزيادته، رقم ٦٣٨٧.

(٢) انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ٥/ ٣٩١.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٦٠٣، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١١٢.

(٤) انظر: المبسوط، السرخسي ١٦/ ١٤٥، مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ١٢٢، روضة الطالبين، النووي ١١/ ١٤٥، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٢٣٣.

سواء أكان ذلك قبل الحكم أم بعده.

الثالث: أن تقوم عليه البينة أنه شاهد زور، ذهب إلى ذلك الإمام ابن فرحون من المالكية والشيرازي من الشافعية[1].

ثالثًا: عقوبة شاهد الزور:

اتفق الفقهاء على أن عقوبة شاهد الزور عقوبة تعزيرية، فمتى ثبت عند القاضي عن رجل أنه شهد بزور عمدًا عزره باتفاق الفقهاء؛ لأن الشريعة لم تقدر عقوبة محددة لشاهد الزور[2]، لكن اختلف الفقهاء في تفصيلات هذه العقوبة التعزيرية على أقوال:

القول الأول: قال الشافعية والحنابلة وبعض المالكية: «تأديب شاهد الزور مفوض إلى رأي الحاكم، إن رأى تعزيره بالجلد جلده، وإن رأى أن يحبسه، أو كشف رأسه وإهانته وتوبيخه فعل ذلك ولا يزيد في جلده على عشر جلدات»، وقال الشافعي: «لا يبلغ بالتعزير أربعين سوطًا»[3].

القول الثاني: قال الإمام أبو يوسف، ومحمد بن الحسن وبعض المالكية: «إذا ثبت عند القاضي أو الحاكم عن رجل أنه شهد بالزور، عوقب بالسجن والضرب، ويطاف به في المجالس؛ لما روي عن عمر رضي الله عنه أنه ضرب شاهد زور أربعين سوطًا وسخم وجهه، والتسخيم هو: التسويد، وسخم وجهه: سوده وطلاه بالسخام، وهو سواد القدر والفحم، ويكون ذلك في التعزير عقوبة شاهد الزور»[4].

ولما روي عن عمر رضي الله عنه أيضًا أنه كتب إلى عماله بالشام: «إذا أخذتم شاهد الزور فاجلدوه بضرب أربعين سوطًا وسخموا وجهه وطوفوا به حتى يعرفه الناس ويحلق رأسه ويطال حبسه؛ لأنه أتى كبيرة من الكبائر، يتعدى ضررها إلى العباد بإتلاف أنفسهم وأعراضهم وأموالهم»[5].

قال الإمام ابن العربي: «ومن الوسم الصحيح في الوجه ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور علامة على قبح

(١) انظر: تبصرة الحكام، ابن فرحون ٢/ ٣٠٥، المهذب في فقه الإمام الشافعي، الشيرازي ٣/ ٤٤٤.

(٢) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٨٩، مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ١٢٢، نهاية المطلب، الجويني ١٨/ ٥٨٠، روضة الطالبين، النووي ١١/ ١٤٥، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٢٣٢.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ١٥١، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٥٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٨٠، مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ١٢٢، روضة الطالبين، النووي ١١/ ١٤٥.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٨٣، تاج العروس، الزبيدي ٣٢/ ٣٥٥، معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي ص١٣٠.

(٥) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٨٩، البحر الرائق، ابن نجيم ٧/ ١٢٧، القوانين الفقهية، ابن جزي ص٢٠٣، الشرح الكبير، الدردير وحاشية الدسوقي ٤/ ١٤١.

المعصية، وتشديدًا لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته. وقد كان عزيزًا بقول الحق، وقد صار مهينًا بالمعصية؛ وأعظم الإهانة إهانة الوجه، وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سببًا لحياة الأبد، والتحريم له على النار؛ فإن الله قد حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، حسبما ثبت في الصحيح[1]»[2].

القول الثالث: قال أبو حنيفة: «إذا أقر الشاهد أنه شهد زورًا: يشهر به في الأسواق إن كان سوقيًّا، أو بين قومه إن كان غير سوقي، وذلك بعد صلاة العصر في مكان تجمع الناس، ويقول المرسل معه: إنا وجدنا هذا شاهد زور فاحذروه، وحذروه الناس، ولا يعزر بالضرب أو الحبس؛ لأن القاضي شريح كان يشهر شاهد الزور ولا يعزره، وكانت قضاياه لا تخفى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينقل أنه أنكر عليه منكر؛ ولأن المقصود هو التوصل إلى الانزجار؛ وهو يحصل بالتشهير بل ربما يكون أعظم عند الناس من الضرب، فيكتفى به، والضرب وإن كان مبالغة في الزجر لكنه يقع مانعًا عن الرجوع فوجب التخفيف في ذلك؛ نظرًا إلى هذا الوجه»[3].

والذي يظهر أن عقوبة شاهد الزور عقوبة تعزيرية مفوضة إلى رأي الحاكم، فله أن يحبسه طويلًا بحسب ما يراه الحاكم ويضربه، ولا يسخم وجهه؛ لأنه مثلة، وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن المثلة[4]، ولا يركبه مقلوبًا، ولا يكلف الشاهد أن ينادي على نفسه، وفي الجملة ليس في ذلك تقدير شرعي فللحاكم أن يفعل ما يراه ما لم يخرج إلى مخالفة نص أو معنى نص[5].

ففي الآية وعيد على شهادة الزور، ولكن ليس في الآية ما يدل على تعزير شاهد الزور؛ لأنها اقتصرت على تحريم شهادة الزور. وإنما يعزر من قبيل المصلحة والسياسة الشرعية، التي للحاكم أن يسير على نهجها لحفظ الحقوق العامة، وردع أهل الفساد. وهذا رأي المالكية وأبي يوسف ومحمد[6].

رابعًا: تضمين شهود الزور:

اتفق الفقهاء على تضمين شهود الزور، إن كان المحكوم به مالًا أو حقًّا لم يفت،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم ٦٥٧٣، ٨/ ١١٧.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٣٠٧.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٧٧، بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٨٩.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قصة عكل وعرينة، ٥/ ١٢٩، رقم ٤١٩٢.

(٥) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/ ٢٤٢، مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ١٢٢، تبصرة الحكام، ابن فرحون ٢/ ٢٩١، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٢٣٣.

(٦) التفسير المنير، الزحيلي ١٧/ ٢١٢.

وكذلك إن كان إتلافًا؛ لأن القاضي متى علم أن الشهود شهدوا بالزور: تبين أن الحكم كان باطلًا، ولزم نقضه وبطلان ما حكم به، ويضمن شهود الزور ما ترتب على شهادتهم، فإن كان المحكوم به مالًا أو حقًّا رده إلى صاحبه، وإن كان إتلافًا: فعلى الشهود ضمانه؛ لأنهم سبب إتلافه[1]، واختلفوا إن كان المحكوم به حدًّا أو قصاصًا على قولين هما:

القول الأول: ذهب الشافعية والحنابلة: إلى وجوب القصاص على شهود الزور إذا شهدوا على رجل بما يوجب قتله، كأن شهدوا عليه بقتل عمد عدوان أو بردة أو بزنى وهو محصن، فقتل الرجل بشهادتهما، ثم رجعا وأقرا بتعمد قتله، وقالا: تعمدنا الشهادة عليه بالزور؛ ليقتل أو يقطع: فيجب القصاص عليهما؛ لتعمد القتل بتزوير الشهادة، لما روى الشعبي: «أن رجلين شهدا عند علي رضي الله عنه على رجل بالسرقة فقطعه ثم عادا فقالا: أخطأنا، ليس هذا هو السارق، فقال علي: لو علمت أنكما تعمدتما لقطعتكما»، ولا مخالف له في ذلك من الصحابة فيكون إجماعًا، وإنهما تسببا إلى قتله أو قطعه بما يفضي إليه غالبًا فلزمهما كالمكره[2].

وكذلك الحكم إذا شهدوا زورًا بما يوجب القطع قصاصًا، فقطع أو في سرقة لزمهما القطع وإذا سرى أثر القطع إلى النفس فعليهما القصاص في النفس[3].

القول الثاني: ذهب الحنفية والمالكية: إلى أن الواجب هو الدية لا القصاص؛ لأن القتل بشهادة الزور قتل بالسبب، والقتل تسببًا لا يساوي القتل مباشرة، ولذا قصر أثره، فوجبت به الدية لا القصاص عندهم[4].

خامسًا: توبة شاهد الزور:

اختلف الفقهاء في قبول شهادة شاهد الزور بعد توبته على أقوال:

القول الأول: ذهب الحنفية إلى أنه إذا تاب شاهد الزور، وأتت على ذلك مدة، قيل: سنة، وقيل: ستة أشهر، والصحيح أنها مفوضة لرأي القاضي.

فإن كان فاسقًا تقبل شهادته؛ لأن الحامل له على الزور فسقه، وقد زال بالتوبة، وإن

(١) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/ ٢٤٥، حاشية ابن عابدين رد المحتار على الدر المختار ٥/ ٥٠٤، البيان والتحصيل، ابن رشد ١٠/ ٧، القوانين الفقهية، ابن جزي ص٢٠٦، تحفة المحتاج، ابن حجر الهيتمي ١٠/ ٢٨١، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ٦٠٧.

(٢) انظر: نهاية المطلب، الجويني ١٦/ ١٦٩، كشاف القناع، البهوتي ٦/ ٨٦.

(٣) انظر: روضة الطالبين، النووي١١/ ٩٩ كشاف القناع، البهوتي ٦/ ٤٤٣.

(٤) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٨٥، البحر الرائق، ابن نجيم ٧/ ١٢٨

كان مستورًا لا يقبل أصلًا، وكذا إذا كان عدلًا، على رواية بشر عن أبي يوسف، لأن الحامل له على ذلك غير معلوم، فكان الحال قبل التوبة وبعدها سواء، وروى أبو جعفر أنها تقبل، قالوا: وعليه الفتوى.

القول الثاني: ذهب الشافعي وأحمد: تقبل شهادته إذا أتت على ذلك مدة تظهر فيها توبته، ويتبين فيها صدقه، وعدالته.

القول الثالث: قال مالك: «لا تقبل شهادته أبدًا؛ لأنه لا يؤمن على قول الصدق»[1].

سادسًا: حكم التزوير في الوثائق:

الأصل في التزوير أنه محرم شرعًا بكل صوره ومعانيه، سواء أكان في الشهادة؛ لإبطال حق أو إثبات باطل، أو في المستندات والوثائق التقليدية أو الإلكترونية، والدليل على حرمته:

من الكتاب قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

ومن السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: (الإشراك بالله وعقوق الوالدين)، وجلس وكان متكئًا، ثم قال: (ألا وقول الزور). فما يزال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[2][3].

ولأن التزوير أساسه الكذب، والكذب محرم في الإسلام، والتزوير في مدلوله يعني: تغيير الحقيقة أيًا كانت وسيلته، بالقول أم بالكتابة، فهو في جوهره كذب وفي مرماه اغتيال لعقيدة الغير؛ لأنه تحريف مفتعل للحقيقة في الواقع والبيانات التي يراد إثباتها بصكّ أو مخطوط يحتج بها، قد ينجم عنها ضرر مادي أو معنوي أو اجتماعي[4].

(١) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٢١، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٠١، البيان والتحصيل، ابن رشد ١٠/ ٢٢٤، تحفة المحتاج، ابن حجر الهيتمي ١٠/ ٢٤١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، ٣/ ١٧١، رقم ٢٦٥٤.

(٣) انظر: المغني، ابن قدامة ١٠/ ٢٣١.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٠/ ٢٠٣.

أثر انتشار الزور على الفرد والمجتمع

إن لانتشار الزور بمفهومه العام آثارًا على الفرد والمجتمع، وهذه الآثار يمكن بيانها من خلال المحاور الرئيسة لمعنى الزور بمفهومه العام:

أولًا: انتشار الزور الذي بمعنى الشرك:

إن انتشار الزور الذي هو بمعنى الشرك بالله تعالى بكل صوره وأشكاله يؤدي إلى انتهاك حرمات الله تعالى، وأن ذلك يجعل الفرد مضطرب الفكر والعقل والجسم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

والمعنى: أي: اجتنبوا أيها الناس عبادة الأوثان، وقول الشرك، مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له، وإفراد الطاعة والعبادة له خالصًا دون الأوثان والأصنام، غير مشركين به شيئًا من دونه، فإنه من يشرك بالله شيئًا من دونه، فمثله في بعده من الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه، مثل من خرّ من السماء فخطفته الطير فهلك، أو هوت به الريح في مكان سحيق، يعني: من بعيد[1].

فقد ضرب للمشرك مثلًا في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ، أي: سقط منها ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه الطيور في الهواء ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه[2].

أي: إن المشرك يعيش في اضطراب عقدي ونفسي وجسمي، وهذا أثر بارز لانتشار الزور قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ثانيًا: آثار انتشار الزور الذي بمعنى الكذب والافتراء على الله تعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

والآية تدل على أن عدم الهداية للخير والصواب والدين الحق من ثمار انتشار

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٢٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٦٩.

الزور، أي: إن الله لا يوفق للحق من هو متعد إلى فعل ما ليس له فعله، كذاب عليه يكذب، ويقول عليه الباطل وغير الحق، وقد اختلف أهل التأويل في معنى الإسراف الذي ذكره المؤمن في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني به الشرك، وأراد: إن الله لا يهدي من هو مشرك به مفتر عليه[1].

والكذب هو: مخالفة القول للواقع، وهو من أبشع العيوب والجرائم، ومصدر الآثام والشرور، وداعية الفضيحة والسقوط، لذلك حرمته الشريعة الإسلامية، ونعت على المتصفين به، وتوعّدتهم في الكتاب والسنة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

والمعنى: إن الذين لا يؤمنون بحجج الله وأدلته، فيصدقون بما دلت عليه ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ [النحل: ١٠٤].

أي: لا يوفقهم الله لإصابة الحق، ولا يهديهم لسبيل الرشد في الدنيا، ولهم في الآخرة وعند الله إذا وردوا عليه يوم القيامة عذاب مؤلم موجع[2].

والكذب باعث على سوء السمعة، وسقوط الكرامة، وانعدام الوثاقة، فلا يصدق الكذاب وإن نطق بالصدق، ولا تقبل شهادته، ولا يوثق بمواعيده وعهوده، ويضعف ثقة الناس بعضهم ببعض، ويشيع فيهم أحاسيس التوجس والتناكر.

والكذب هو الذي يؤثر سلبا في بنية المجتمع الأخلاقية والإنسانية، ويؤدي إلى تفكك أواصر العلاقات السليمة، ويلحق الأضرار الجسيمة والبالغة بالأفراد والمجتمع على حد سواء؛ منها ما يسبب إراقة وهدر الدماء ،وإزهاق النفوس، وهتك الأعراض ،وغمط الحقوق، وتدنيس الشرف، وانتهاك الحرمات، وأكل المال العام والخاص دون مبالاة أو اكتراث أو شعور بالمسئولية ،أو وخز الضمير بعد موته بالذنوب والآثام ،وأعظمها خطرًا الخلل والميلان بالميزان الاجتماعي واستقراره على قواعده الصحيحة.

ثالثًا: الزور الذي هو بمعنى شهادة الزور:

إن شهادة الزور جريمة خطيرة، وظلم سافر هدّام، تبعث على غمط الحقوق، واستلاب الأموال، وإشاعة الفوضى في المجتمع، بمساندة المجرمين على جرائم التدليس والابتزاز.

إن مقترف شهادة الزور، يسيء إلى نفسه إساءة كبرى بتعريضها إلى سخط اللّه تعالى،

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣١٣.
(٢) المصدر السابق ١٧/ ٣٠٢.

وعقوباته التي صورتها النصوص السالفة، ويسيء كذلك إلى من سانده ومالأه، بالحلف كذبًا، وبالشهادة زورًا، حيث شجّعه على بخس حقوق الناس، وابتزاز أموالهم، وهدر كراماتهم.

ويسيء كذلك إلى من اختلق عليه الشهادة المزورة، بخذلانه وإضاعة حقوقه، وإسقاط معنوياته، ويسيء إلى المجتمع عامة بإشاعة الفوضى والفساد فيه، وتحطيم قيمه الدينية والأخلاقية.

ويسيء إلى الشريعة الاسلامية بتحدّيها، ومخالفة دستورها المقدس، الذي يجب اتباعه وتطبيقه على كل مسلم، وأضرار شهادة الزور على الفرد والمجتمع يمكن تلخيصها فيما يأتي:

«أولًا: إن شهادة الزور من أكبر الكبائر وأعظم المصائب، حيث إن شاهد الزور يقف أمام القاضي بدون خجل ولا حياء، ويتهم بريئًا لم يقترف ذنبًا؛ لتوقع به العقوبة إثر شهادات مزيفة وأقوال مزورة. وهذا عمل يغضب الرب ويستحق صاحبه أن يعجل الله له العقوبة، فضلًا عن كونه عملًا منقصًا لإيمان عامله.

ثانيًا: إن شهادة الزور تتسبب في ضياع حقوق الناس زورًا وكذبًا، فالشاهد للزور أضاع حق المشهود عليه، وأثبت للمشهود له حقًا ليس له بسبب شهادته الكاذبة.

ثالثًا: ما ينشأ عن شهادة الزور وقوله من فقدان العدالة؛ إذ سيترتب على ذلك ضياع الحقوق، وهنا ستطمس معالم العدالة، فكيف تكون هناك عدالة والحقوق مضيعة ومعطاة لغير أهلها.

رابعًا: قلب الحياة بشهادة الزور إلى شقاء وبلاء؛ إذ لا سعادة وهناء في مجتمع تضاع فيه الحقوق وينصر الظالم ويخذل المظلوم.

خامسًا: ما يترتب على شهادة الزور أو قوله أو فعله من جرائم لا تطاق ومظالم لا تحتمل كالقتل، والقطع، والجلد، وأخذ المال بالباطل.

سادسًا: تضليل القضاة والحكام والمسئولين، فيحكمون بخلاف الحق بسبب الشهادة الباطلة أو التزوير المكذوب.

سابعًا: ولو لم يكن في شهادة الزور إلا ما فيها من قلب للحقائق والموازين لكفى.

والتزوير والزور ليس مقصورًا على شهادة يدلي بها شاهد أمام قاض ونحوه فقط، بل هي أشمل وأعم؛ إذ يدخل فيها كل ما حمل معناها، فالتزوير في الأوراق والمعاملات الرسمية محرم، وهو من أعظم المصائب. وذلك كتزوير الأختام الرسمية لإحدى المصالح الحكومية أو المؤسسات أو الأفراد ،وكالتزوير الذي يرتكبه موظف أو غيره في المحاضر أو الوثائق أو السجلات

أو السندات أو الأوراق الرسمية، سواء ، أكان ذلك بوضع توقيعات وأختام مزورة أو بتغيير المحررات أو الأختام أو التوقيعات أو بزيادة كلمات أو بوضع أسماء أشخاص آخرين كل هذه الأمور من المعاصي المحرمة شرعًا»[1].

كما أن في شهادة الزور تعاونًا على الإثم والعدوان؛ لأنه تعاون على الباطل، والباطل في معاني الزور كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ [الفرقان: ٤].

ومن ذلك الإعانة على إقامة المنكر وما هو باطل أو التهيئة له، ومنه تكثير سواد أهل الباطل، فقد مدح الله عباد الرحمن فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢].

فالمفروض أن المؤمن يعرف خطورة إثم الزور قولًا وفعلًا وشهادةً، وضرر إشاعة الفاحشة بين المسلمين، ويعرف أن مصلحة المجتمع الإسلامي هي مصلحته، فلا يقدم على شهادة من هذا النوع في حق أخيه المسلم إلّا إذا كان على يقين منها، بحيث يعتقد أنه مؤاخذ عند الله إذا كتمها، في حين أن هذا لا يكون مؤكدًا من غير المسلم في حق المسلم[2].

موضوعات ذات صلة:

الافتراء، الشهادة، الصدق، الكذب، الميسر

(١) انظر: مقال: التزوير مضاره وآثاره السيئة، د.عقيل بن عبدالرحمن العقيل، منشور في: جريدة الرياض الإلكترونية العدد ١٣٨٣٦ بتاريخ الجمعة ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ-١٢ مايو ٢٠٠٦م.

(٢) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٨/ ٥٣.

الزينة

عناصر الموضوع

مفهوم الزينة	١٨٤
الزينة في الاستعمال القرآني	١٨٥
الألفاظ ذات الصلة	١٨٦
أنواع الزينة	١٨٧
مظهر الاغترار بالزينة وآثاره	١٩٧
أحكام الزينة ومواطنها	٢٠١
صور التزيين	٢٠٧

مفهوم الزينة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الزاء والياء والنون: أصل صحيح يدل على حسن الشيء وتحسينه»[(١)]، و«الزينة بالكسر: ما يتزين به»[(٢)]، وفي التهذيب: «اسمٌ جامع لكل شيء يتزين به»[(٣)]، و«الزّين: خلاف الشّين، وجمعه أزيانٌ»[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

أما في الاصطلاح فقال ابن الجوزي: «الزّينة: ما يحصل به التحسين للشّيء حتّى تتوق النّفس إليه بالشهوة»[(٥)].

ويقال: «الزينة: تحسين الشيء بغيره؛ من لبسة أو حلية أو هيئة»[(٦)].

ويقول ابن عاشور: «الزينة: تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مسرًّا له، وفي طباع الناس الرغبة في أن تكون مناظرهم حسنة في عين ناظريهم، وذلك في طباع النساء أشد»[(٧)].

(١) مقاييس اللغة.ابن فارس ٣/ ٤١.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص ١٣٩.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ١٧٥.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٠١.
(٥) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٣٩.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٨٨.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٠٢.

الزينة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (زين) في القرآن الكريم (٤٦) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٦	﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت:١٢]
الفعل المضارع	١	﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر:٣٩]
اسم المصدر	١٩	﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]

وجاءت الزينة في القرآن على وجهين[(٢)]:

الأول: ما يتزيّن به، ويشمل الملابس والحلي وغيرها: ومنه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

الثاني: التحسين والتجميل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك:٥].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٣٥-٣٣٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم ص٦٠٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٥١-٢٥٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٢٣٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ١٥٥-١٦٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ١٥٨-١٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الريش:

الريش لغة:

كسوة الطائر الواحدة ريشة واللباس الفاخر والحالة الجميلة، والجمع أرياش ورياش. الريش والرياش:ما ظهر من اللباس[(١)].

الريش اصطلاحًا:

قال ابن عاشور: «والريش: لباس الزينة الزائد على ما يستر العورة، وهو مستعار من ريش الطير لأنه زينته، ويقال للباس الزينة رياش»[(٢)].

العلاقة بين الريش والزينة:

الريش جزء من الزينة التي يتزين بها، فالزينة:اسمٌ جامع لكل شيء يتزين به.

٢ الزخرف:

الزخرف لغة:

الزينة، فكل زينة زخرف، يقال: زخرف البيت زخرفة، أي: زينه وأكمله. وكل ما زين، فقد زخرف[(٣)].

ومنه قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

قال الزجاج: «الزخرف:الزينة، والمعنى أن بعضهم يزيّن لبعضٍ الأعمال القبيحة»[(٤)].

الزخرف اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، الذي هو الزينة وكمال حسن الشيء[(٥)].

العلاقة بين الزخرف والزينة:

زخرف هو حالة اكتمال الزينة وتمامها، وأما الزينة فهي أعم من ذلك.

---

(١) انظر: لسان العرب ٦/ ٣٠٨- ٣٠٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨-ب/ ٧٥.
(٣) انظر: لسان العرب ٩/ ١٣٢.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٢٨٤ بتصرف.
(٥) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٣٩١.

أنواع الزينة

«من بديع حكمة الله في خلقه:أنه ألبس مطالب الحياة أثواب مطالب الشهوات، لتكون هذه الشهوات بمثابة المحرّض الذاتي على تناول حاجات الجسد، التي تمدّه بالبقاء إلى أمده المقدّر له، أو على ممارسة الغرائز التي تمد النوع بالتكاثر والبقاء، إلى الأمد المقدّر لبقاء النوع، أو لبقاء الحياة على هذه الأرض، أو على السعي لتحقيق حاجاتٍ نفسيّة ترتبط بها مصلحةٌ من المصالح الإنسانية الفردية أو الجماعية.

ولقد أبدع القرآن أيما إبداع؛ إذ اختار لفظة «الزينة» للتعبير عن الخصائص التي أودعها الله في الأشياء، ليكون فيها ملاءمةٌ وجذب للغرائز والطبائع التي فطر الله الأنفس عليها، وتلك نعمةٌ كريمة من نعم الله في الحياة، ولو أن حاجات الحياة مرتبطة بأشياء لا زينة فيها، فلا ملاءمة بينها وبين شهوات الأنفس وغرائزها وطبائعها؛ لكان السعي لاستمرار الحياة مشكلةٌ قد تستعصي على الحل!»[1].

سنحاول في النقاط الآتية التأمل في أنواع الزينة في القرآن الكريم بشيء من التفصيل بعون الله تعالى.

(١) أجنحة المكر الثلاثة، عبدالرحمن حبنكة ص ٥٠٥.

أولًا: زينة الكون:

إن الله سبحانه هو أحسن الخالقين، خلق هذا الكون فأبدع خلقه، وزينه وأتقن صنعه، وجعله كالبيت الواحد؛ فالسماء سقفه المحفوظ، والأرض فرشه الممهود، والجبال جدرانه الراسيات، وخلق فيه كل ما تحتاجه المخلوقات في ذلك البيت: من الماء والنبات وأنواع المشروبات والمطعومات، والأعظم من هذا والأجل: أن الله سبحانه خلق كل ذلك في أحسن صورة، وأجمل منظر، وأبدع شكل، فيه من الزخرف والزينة ما عجزت فصاحة البشر أن تفصح عنه، وبلاغتهم أن تبلغ وصفه!

قال الله سبحانه ممتنًا على عباده: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً﴾ [الكهف:٧].

« قال الزمخشري في معنى هذه الآية الكريمة: «ما عليها » يعني ما على الأرض مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها، من زخارف الدنيا وما يستحسن منها»[2].

وقال بعض العلماء: كل ما على الأرض زينة لها من غير تخصيص، وعلى هذا القول فكل الحيات وغيرها مما يؤذي زينة للأرض؛ لأنه يدل على وجود خالقه، واتصافه بصفات الكمال والجلال، ووجود ما يحصل به هذا العلم في شيء زينة له.

فمن أنواع البيان المذكورة في القرآن

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٠٤.

الكريم: أن يذكر لفظ عام ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢].

مع تصريحه بأن البدن داخلة في هذا العموم بقوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٣٦]الآية.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً﴾ قد صرح في مواضع أخر ببعض الأفراد الداخلة فيه، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:٨].

إلى غير ذلك من الآيات»[1].

وطوّف الله تعالى بنا في آيات بديعات لتتأمل زينة هذا الكون، وبديع إتقان الله له، فقال في معرض ردّه على المكذبين بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق:٦-١١].

«إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذي فارقوه، أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب! إن الثبات والكمال والجمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق هنا، مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال، ومن ثم تجيء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج»[2].

وعن بديع لون السماء يقول الرازي رحمه الله: «تفكّر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير؛ فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر وتقوية له، حتى أن الأطباء يأمرون من أصابه وجع العين بالنظر إلى الزرقة، فانظر كيف جعل الله تعالى أديم السماء ملونًا بهذا اللون الأزرق، لتنتفع به الأبصار الناظرة إليها، فهو سبحانه وتعالى جعل لونها أنفع الألوان، وهو المستنير ، وشكلها أفضل الأشكال، وهو المستدير»[3].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٠٣ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٥٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٤٠.

ثم قال الحق تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ «وكذلك الأرض صفحةٌ من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس، الجميل البهيج، فالامتداد في الأرض، والرواسي الثابتات، والبهجة في النبات؛ تمثّل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال، التي وجّه النظر إليها في السماء.

وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة، والأرض الممدودة الراسية البهيجة؛ يلمس قلوب أولئك المكذبين، ويوجهها إلى جانبٍ من حكمة الخلق، ومن عرض صفحات الكون: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ تبصرة تكشف الحجب، وتنير البصيرة، وتفتح القلوب، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب.. تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب، يرجع إلى ربه من قريب...

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح، الذي يقرأ بكل لغة، ويدرك بكل وسيلة، ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور، كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده، فيجد فيه زادًا من الحق، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق»[1].

إن إخبار الله تعالى بمنته على خلقه بهذا الكون المزيّن البديع «يجمع الامتنان على الناس والتذكير ببديع صنع الله؛ إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبه النفوس من الزينة والزخرف، والامتنان بمثل هذا كثير، مثل قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل:٦].

وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤].

ولا تكون الأشياء زينة إلا وهي مبثوثةٌ فيها الحياة التي بها نماؤها وازدهارها، وهذه الزينة مستمرة على وجه الأرض منذ رآها الإنسان، واستمرارها باستمرار أنواعها، وإن كان الزوال يعرض لأشخاصها فتخلفها أشخاصٌ أخرى من نوعها، فيتضمن هذا امتنانًا ببث الحياة في الموجودات الأرضية.

ومن لوازم هذه الزينة: أنها توقظ العقول إلى النظر في وجود منشئها، وتسبر غور النفوس في مقدار الشكر لخالقها وجاعلها لهم، فمن موفٍ بحق الشكر، ومقصّر فيه، وجاحدٍ كافرٍ بنعمة هذا المنعم؛ ناسبٍ إياها إلى غير موجدها!

ومن لوازمها أيضًا: أنها تثير الشهوات لاقتطافها وتناولها، فتستثار من ذلك مختلف الكيفيات في تناولها، وتعارض الشهوات في الاستيثار بها، مما يفضي إلى تغالب الناس

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٥٩.

بعضهم بعضًا، واعتداء بعضهم على بعض، وذلك الذي أوجد حاجتهم إلى الشرائع لتضبط لهم أحوال معاملاتهم، ولذلك علل جعل ما على الأرض زينة بقوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧]»[1]، «وتحقيق معنى كونها ابتلاء: أن الله تعالى يختبر بها:

- طالبها ما يقصد منها؟
- وواجدها أيشكر المنعم عليه بها إذا استعملها، ويقف عند الحد المشروع فيها، وماذا يقصد وينوي بترك ما يتركه منها؟
- وفاقدها أيصبر على فقدها، أم يكون ساخطًا على ربه، وحاسدًا لأهلها؟»[2].

ولو أردنا استقصاء كلّ زينةٍ لله سبحانه وتعالى في هذا الكون لتطلب منا ذلك كتبًا مستقلة! وهي موجودة ولله الحمد لمن أراد مزيد علم في هذا الباب، لكنا اقتصرنا هنا على ما يناسب هذا البحث؛ فذكرنا أمثلة تدل على ما وراءها.

ثانيًا: زينة بني آدم:

لقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

وامتن عليه سبحانه فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

فـ«جعلهم أحسن الحيوان كلّه وأبهاه، بدليل: أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور، ومن حسن صورته أنه خلق منتصبًا غير منكب، كما قال عز وجل: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

فإن قلت: فكم من دميمٍ مشوّه الصورة!

قلت: الحسن كغيره من المعاني؛ على طبقات ومراتب، فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطًا بيّنًا وإضافتها إلى الموفى عليها؛ لا تستملح، وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حدّه، ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها، ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها، فينبو -ينصرف- عن الأولى طرفك، وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها، وتهالكك عليها! وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال، والبيان»[3].

«وإن شئت فتأمل عضوًا واحدًا من أعضاء الإنسان، وهو العين:

فخلق الحدقة سوداء، ثم أحاط بذلك السواد بياض العين، ثم أحاط بذلك البياض سواد الأشفار، ثم أحاط بذلك السواد بياض الأجفان، ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين، ثم خلق فوق ذلك السواد بياض

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٢٥٧.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٢٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٤٦-٥٤٧ بتصرف يسير.

الجبهة، ثم خلق فوق بياض الجبهة سواد الشعر! وليكن هذا المثال الواحد أنموذجًا لك في هذا الباب»[1].

ثم كمّل الله هذا الإنسان بزينة خارجة عن ذاته، ويهمّنا هنا أن ندرس ما ذكره القرآن الكريم من تلك الزينة، وعند البحث في القرآن ، نجد أنه ذكر أنواعًا من الزينة لبني آدم، منها:

١ . زينة اللباس.

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف:٢٦] «فالزينة (الإنسانية) هي زينة الستر، بينما الزينة (الحيوانية) هي زينة العري، ولكن (الآدميين) في هذا الزمان يرتدّون إلى رجعية جاهلية! تردهم إلى عالم البهيمة، فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها!»[2].

قال عبد الرحمن بن أسلم: «يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى»[3].

فجمعت هذه الآية بين الزينتين: الحسية ﴿لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾، والمعنوية: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، «فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة، وبين التقوى، كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه...والله يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم! وفي تمكينهم منه بما يسّر لهم من الوسائل: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾»[4].

«والمراد بإنزال ما ذكر: أن الله تعالى خلق لبني آدم مادّته من القطن والصوف والوبر وريش الطير والحرير وغيرها، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل:٨٠-٨١].

وعلّمهم بما خلق لهم من الغرائز والقوى والأعضاء وسائل صنع اللباس منها كالزراعة والغزل والنسج والخياطة، كما قال جل وعلا: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٣٧٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٧٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٥٨.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٧٨.

وإن مننه تعالى بهذه الصناعات على أهل هذا العصر أضعاف مننه على المتقدمين من شعوب بني آدم؛ فيجب أن يكون شكرهم له أعظم»[1].

ثم قال رشيد رضا: «فقد بلغ من إتقان صناعات اللباس: أن عاهل ألمانية الأخير (قيصرها) دخل مرة أحد معامل الثياب ليشاهد ما وصلت إليه من الإتقان؛ فجزّوا أمامه عند دخوله صوف بعض أكباش الغنم، ولما انتهى من التجوال في المعمل ومشاهدة أنواع العمل فيه وأراد الخروج؛ قدّموا له معطفًا ليلبسه تذكارًا لهذه الزيارة، وأخبروه أنه صنع من الصوف الذي جزوه أمامه عند دخوله! فهم قد نظفوه في الآلات المنظفة فغزلوه بآلات الغزل، فنسجوه بآلات النسج، ففصلوه فخاطوه في تلك الفترة القصيرة، فانتقل في ساعة أو ساعتين من ظهر الخروف إلى ظهر الإمبراطور»![2].

٢. زينة النساء.

ولعلهن من أعظم زينة بني آدم، فهي إن كانت أمًّا فهي زينة بحنانها وعطفها ورحمتها، وإن كانت بنتًا فهي زينة كونها نعمة يسعى لها كل والدين، وزينة بدلالها لوالديها وتحببها لهما، والتهائهما بها، وإن كانت زوجة فهي زينة بجمالها وحبها ومشاعرها وسكون الزوج إليها، قال الحق سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ [آل عمران:١٤].

قال ابن عاشور: «وتعليق التزيين بالحب جرى على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن المزين للناس هو الشهوات، أي المشتهيات نفسها، لا حبها، فإذا زينت لهم أحبوها، فإن الحب ينشأ عن الاستحسان، وليس الحب بمزين، وهذا إيجاز يغني عن أن يقال: زينت للناس الشهوات فأحبوها...»[3].

وقال ابن عطية: «وإذا قيل: زيّن الله، فمعناه: بالإيجاد والتهيئة لانتفاع وإنشاء الجبلّة عن الميل إلى هذه الأشياء، وإذا قيل: زين الشيطان، فمعناه: بالوسوسة والخديعة، وتحسين أخذها من غير وجوهها، والآية تحتمل هذين النوعين من التزيين»[4].

«وأخّر ذكر الذهب والفضة عن النساء والبنين، لأنهما أقوى في الشهوة الجبلية من المال، فإن الطبع يحث على بذل المال فيحصل النكاح، والنساء أقعد من الأولاد في الشهوة الجبلية، والبنون أقعد من الأموال، والذهب أقعد من الفضة، والفضة أقعد من الأنعام، إذ هي وسيلة إلى تحصيل النعم، فلما صدّرت الآية بذكر الحب، وكان المحبوب مختلف المراتب، اقتضت حكمة

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣١٩.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٣٢٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٧٩.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٠٨.

الترتيب أن يقدّم ما هو الأهم فالأهم في رتبة المحبوبات»[1].

٣. زينة البنين.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

وأنه من زينة بني آدم قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

«وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض، وما كان كذلك فإنه يقبح بالعاقل أن يفتخر به، أو يفرح بسببه، أو يقيم له في نظره وزنًا»[2].

وقد جعلهم الله هنا زينة «اعتبارًا بأحوال الناس في تزيّنهم بهم، وسماهم فتنة في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨] اعتبارًا بما ينال الإنسان من الاختبار بهم، وسمّاهم عدوًّا في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن:١٤] اعتبارًا بما يتولّد منهم»[3].

فالبنون زينة يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

فمنهم من يرزقه الله إناثًا فقط، ومنهم من يرزقه ذكورًا فقط، ومنهم من يرزقه الزوجين؛ إناثًا وذكورًا، ومنهم من يجعله الله عقيمًا، فالبنون هبة من الله تعالى يزين بهم حياة من شاء من عباده، فواجب المسلم مع هذه المنّة والهبة الإلهية أن يحوطها بالحفظ والرعاية والتربية الحسنة، فهم رعية سيسأل عنهم يوم القيامة.

٤. زينة المال.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

«وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، لأن في المال جمالًا ونفعًا، وفي البنين قوة ودفعًا؛ فصارا زينة الحياة الدنيا»[4].

وهنا تساؤل: لماذا قدّم في سورتي آل عمران والتوبة البنون على الأموال؟

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٢٤٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٧ بتصرف.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٢٤ بتصرف.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤١٣.

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤].

الجواب: لـمّا يذكر سبحانه الحبّ الفطري يؤخّر الأموال، لأن الأموال تترك للأبناء؛ يعمل ويكد ويعلم أنه ميت ويترك الأموال للأبناء.

أما في مواطن الإلهاء قدّم الأموال على الأولاد مع أن حبّ الأولاد أكثر! لكن الالتهاء بالمال يكون أكثر، لذا قدّم الأموال على الأولاد للتحذير.

قال أبو حيان رحمه الله: «ولما كان المال في باب المدافعة والتقرب والفتنة أبلغ من الأولاد؛ قدّم في هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران:١٠].

وفي قوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ:٣٧].

وفي قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨].

وفي قوله: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد:٢٠].

وفي قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشعراء:٨٨]، بخلاف قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤]؛ فإنه ذكر هنا حبّ الشهوات، فقدّم فيه النساء والبنين على ذكر الأموال»[1].

قال حكيم بن حزام رضي الله عنه: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: (يا حكيم! إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى)[2].

فيجب على المسلم أن يحذر من فتنة المال وزينته وزخرفه، بل يتق الله تعالى في أخذه وفي إنفاقه؛ فهو مسؤل عن ذلك يوم القيامة.

٥. زينة الحلي.

والحلي: اسم لكل ما يتزين به من مصاغ الذهب والفضة، والجمع حليٌّ بضم الحاء

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (هذا المال خضرة حلوة)، رقم ٦٤٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن اليد العليا هي المنفقة وأن السفلى هي الآخذة، رقم ١٠٣٥.

وكسرها، كالخلخال، والسّوار، والقرط، والقلادة، والطّوق، ونحو ذلك[1].

قال الله تعالى عن قوم موسى أنهم: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ [طه:٨٧].

وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف:١٨].

«﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ وهو الحلي الذي لا يليق إلا بالإناث دون الفحول، لتزينهن بذلك لأزواجهن...وفي ذلك إشارة إلى أن الرجل لا يناسب له التزين كالمرأة، وأن يكون مخشوشنًا»[2].

ولا يعني هذا أن الرجل لا يتزين بأي زينة لامرأته! بل لقد ؤ قال ابن عباس رضي الله عنه: « إني أحب أن أتزين للمرأة، كما أحب أن تتزين لي؛ لأن الله تعالى ذكره يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨]»[3]، إنما المحرم تشبه الرجل بالمرأة في زينتها، كالتحلي بالذهب ولبس الحرير...الخ.

ثالثًا: زينة الحياة الدنيا:

كثيرة هي الآيات التي تحدثت عن هذه الحياة الدنيا وزينتها وزهرتها وزخرفها ومتاعها وغرورها وحقيقتها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام:٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨].

وضرب لنا فيها الأمثال فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف:٤٥].

وكان من الآيات الجامعة في هذا الباب هي قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥] «يعني منفعة ومتعة، كالفأس والقدر والقصعة، ثم تزول ولا تبقى، وقال الحسن: كخضرة النبات ولعب البنات؛ لا حاصل له»[4].

وأجمع منها قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٤٣٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٥٢.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٣٦٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٤/ ٥٣٢.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٤٥.

﴿٢٠﴾ [الحديد:٢٠].

قال ابن عاشور: «واللعب يكثر في أحوال الناس في الدنيا، فهو جزء عظيم من أحوالها، وحسبك أنه يعمر معظم أحوال الصبا.

واللهو: يغلب على أحوال الشباب، فطور الشباب طوره.

والزينة: تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مسرًّا له...ويكثر التزين في طور الفتوة، لأن الرجل يشعر بابتداء زوال محاسن شبابه، والمرأة التي كانت غانية تحب أن تكون حالية.

والتفاخر: الكلام الذي يفخر به، والفخر: حديث المرء عن محامده والصفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل... وأغلب التفاخر في طور الكهولة واكتمال الأشد؛ لأنه زمن الإقبال على الأفعال التي يقصد منها الفخر»[1].

وأوضح لنا القرآن الكريم أن زينة الحياة الدنيا ليس شيئًا واحدًا؛ بل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

ومجالسة الأغنياء والأشراف زينة الحياة الدنيا[2].

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].

«أي لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم، وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين، الذين جعلوا همّهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة، وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية؛ فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة، وجعلوا همّهم الصور الظاهرة»[3].

وعند التأمل في أمثال هذه الآيات؛ نجد أن الله تعالى يتبع الحديث عن زينة الدنيا وزخرفها ومتاعها الزائل بثواب الآخرة الدائم الثابت الجليل، فمثلًا:

بعد قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران:١٤-١٥]

وبعد قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٠٢-٤٠٣ بتصرف.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٦٦.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥ بتصرف يسير.

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦][1].

وبعد قوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد:٢٠]قال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد:٢١].

وغيرها من الآيات الدالة على ذلك.

ولعل من أبرز حكم ذلك: ليعلمنا الله تعالى «أن خيرات الدنيا منقرضة منقضية، وخيرات الآخرة دائمة باقية، والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي، وهذا معلوم بالضرورة، لا سيما إذا ثبت أن خيرات الدنيا خسيسة حقيرة، وأن خيرات الآخرة عالية رفيعة»[2].

مظهر الاغترار بالزينة وآثاره

حذّر الله تعالى المؤمنين في كتابه الكريم من أن يغتروا بهذه الحياة الدنيا أو بشيء من زينتها ، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان:٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

لكن: ما هي مظاهر الاغترار بالدنيا وزينتها؟ وما عواقب ذلك؟ في هذا المبحث نريد أن نتعرف على ذلك من خلال آيات القرآن الكريم.

أولًا: مظاهر الاغترار بالزينة:

من مظاهر وصور الاغترار بالزينة ما يأتي:

١ . الشرك.

كما في قول الحق سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ [الكهف:٣٢].

فلما أهلك الله ملكه، وأخذ ما كان معه

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٤٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٨.

من زينة هذه الحياة الدنيا، وصف الله حاله فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢]!

فاعترف أخيرًا بالذنب والخطيئة التي أخذ الله ملكه بسببها، وهي: الشرك، بسبب اغتراره بما أعطاه الله من نعم وزينة وصفها الله بقوله: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف:٣٢-٣٣].

وفي هذا المثل المضروب «زجر للكفرة من قريش أو غيرهم؛ لئلا تجيء لهم حالٌ يؤمنون فيها بعد نقم تحل بهم»[(١)].

١. الضلال والإضلال.

قال الله تعالى عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

«فالزينة تلهيهم عن اتباع المواعظ، وتعظّم شأنهم في أنظار قومهم، والأموال يسخّرون بها الرعية لطاعتهم، وقد كان للفراعنة من سعة الرزق ورفاهية العيش ما سار ذكره في الآفاق، وظهرت مثلٌ منه في أهرامهم ونواويسهم»[(٢)].

٣. كفر النعمة.

يبين ذلك هذا المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

قال الرازي: «قوله: ﴿ءَامِنَةً﴾ إشارة إلى الأمن، وقوله: ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ إشارة إلى الصحة، لأن هواء ذلك البلد لما كان ملائماً لأمزجتهم اطمأنوا إليه واستقروا فيه، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ إشارة إلى الكفاية، قال المفسرون: وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ السبب فيه: إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام[(٣)] وهو قوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم:٣٧]»[(٤)]، «﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحدت آلاء الله عليها، وأعظم ذلك بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم»[(٥)].

٤. نسيان ما ذكروا به من مواعظ.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥١٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٦٩.

(٣) على القول بأن هذه القرية هي مكة، كما رجح ذلك الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٠٩.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٧٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٨.

بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤].

«أي: تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء والضراء، ولم ينزجروا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾ أي: أعجبوا بما أوتوا من النعم، ولم يزيدوا على البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه، ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾»[1]، « قال أهل المعاني: « وإنما أخذوا في حال الرخاء والراحة، ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من كل خير»[2].

٥. الفرح المذموم.

قال الله سبحانه محذرًا من هذا النوع من الفرح: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٣].

«قال المبرد: «ليس نفي الأسى والفرح على الإطلاق، بل معناه: لا تحزنوا حزنًا يخرجكم إلى أن تهلكوا أنفسكم، ولا تعتدوا بثواب على فوات ما سلب منكم، ولا تفرحوا فرحًا شديدًا يطغيكم حتى تأشروا فيه وتبطروا»[3].

٦. البغي والكبر.

كما في قوله تعالى عن قارون الذي اغتر بما آتاه الله من زينة الحياة الدنيا: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص:٧٦].

«فتجاوز حدّه في الكبر والتجبّر عليهم»[4]، والبغي هو الاعتداء[5].

وقد «بغى على قومه بأنواع من البغي ، من ذلك: كفره بموسى، واستخفافه به، ومنعه حقوق الفقراء من زكاة ماله، إلى غير ذلك مما يصدر عمن فسد اعتقاده»[6].

ثانيًا: آثار الاغترار بالزينة:

لا شك أن الاغترار بالزينة، وعدم شكر الله تعالى عليها، وإيثارها على محبة الله تعالى وطاعته والقيام بحقوقه؛ أنه يجلب على صاحبه آثارًا وخيمة في الدنيا والآخرة، ومن خلال آيات القرآن الكريم سنحاول التعرف على بعض تلك الآثار على الفرد والمجتمع:

١. زوال النعم.

قال الله تعالى عن الرجل الذي دخل بستانه وهو ظالم لنفسه وهو يقول في كبر وغرور: ﴿مَّآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ

(١) البحر المديد، الفاسي ٢/ ١١٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥٣٥.
(٣) المصدر السابق ٢٩/ ٤٦٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦١٦.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٧٦.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٩٨ بتصرف.

﴿إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف:٣٥-٣٦].

فقال الله عن خاتمته كما سبق ذكرها: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص:٥٨].

٢. الخسف.

قال سبحانه عن قارون بعد أن اغتر بما أعطاه الله من زينة الحياة الدنيا، وبعد أن قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٦-٧٧].

فقال في كبر وغرور: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]!

فكانت العاقبة الإلهية: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١].

«لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم؛ عقّب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض»[1]، «والخسف: انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها، وعكسه، يقال: خسفت الأرض، وخسف الله الأرض فانخسفت، فهو يستعمل قاصرًا ومتعديًا، وإنما يكون الخسف بقوة الزلزال، وأما قولهم: (خسفت الشمس) فذلك على التشبيه»[2].

٣. الخسران.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

«لا تشغلكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾ والتصرف فيها، والسعي في تدبير أمرها، والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاغتلال، وابتغاء النتاج والتلذذ بها، والاستمتاع بمنافعها، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ وسروركم بهم، وشفقتكم عليهم، والقيام بمؤنهم، وتسوية ما يصلحهم من معايشهم في حياتكم وبعد مماتكم، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد، وأنه أهون شيء وأدونه في جنب ما عند الله ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وإيثاره عليها، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في تجارتهم؛ حيث باعوا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٨٥.

العظيم الباقي بالحقير الفاني!»[1].

فبما أن الأموال والأولاد من زينة الحياة الدنيا؛ فحذّر الله تعالى عباده المؤمنين أن تسوقهم تلك الزينة إلى الخسار في الدنيا والآخرة؛ بعدم استغلال تلك الزينة فيما أمر الله تعالى، أو باستخدامها فيما يغضب الله تعالى، أو الالتهاء بها عن ذكر الله سبحانه.

٤ . النار والعذاب.

كما قال الحق سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف:٥٠-٥١].

«﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ أي: مما زيّنه لهم الشيطان، واللهو: كل ما صدّ عن الحق، واللعب: كل أمر باطل، أي: ليس دينهم في الحقيقة إلا ذلك، إذ هو دأبهم وديدنهم ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ بزخارفها العاجلة، فلم يعملوا»[2].

فانظر كيف ساقتهم زينة الحياة وزخرفها إلى نسيان دين الله تعالى، فاغتروا بها؛ حتى كانت لهم تلك العاقبة المؤلمة في نار جهنم!

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٤٤.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٦٤-٦٥.

أحكام الزينة ومواطنها

أولًا: حكم الزينة:

بعد تتبع آيات الزينة في القرآن الكريم؛ وجدنا أنه يقسّم حكمها إلى قسمين:

١ . زينة مباحة.

والزينة هنا يدخل فيها جميع أنواع الزينة؛ كتنظيف البدن، وزينة المركوب، والطّيب، والسواك، والثياب الحسنة غير الحرير للرجال، والنعل الحسنة، وتسريح شعر اللحية، وقص الشارب، وكل ما وجد استحسانه في الشريعة ولم يقصد به مستعمله الخيلاء، ولا تعدى به إلى الإسراف[3].

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣٢﴾ [الأعراف:٣٢].

«فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتنعم بذلك يوم القيامة... ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا -كأصحاب الصّفّة- يكون لهم أجر زائد على ذلك؛ لأن المؤمنين يؤجرون بما يصيبهم في الدنيا من

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٩٢، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٣٠.

المصائب والشدائد، كما هو معلوم»[1].

قال ابن بطال: «﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ فدخل فيه كل زينة مباحة»[2].

ومن الزينة المباحة التي ذكرها القرآن الكريم: زينة الأنعام، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل:٨].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ [طه:٨٧] وهي: الحلي.

٢. زينة واجبة.

كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

فهذا أمر، والأمر في الشريعة للوجوب، والزينة هنا هي: ستر العورة، يرجح ذلك أمران:

الأول: أن سبب نزول الآية كما سبق طواف المشركين بالبيت عراة، فنزلت هذه الآية التي توجب على المسلم ستر عورته عند العبادة.

الثاني: نقل بعض العلماء الإجماع أن مقصود الآية هنا هو: ستر العورة، قال ابن حزم رحمه الله عند هذه الآية: «فاتفق على أنه ستر العورة»[3].

وتبويب البخاري رحمه الله في صحيحه يشير لذلك، حيث قال: «باب وجوب الصلاة في الثياب، وقول الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾»[4].

قال ابن عبد البر عن القول بالوجوب: «والقول الأول أصح في النظر، وأصح أيضًا من جهة الأثر، وعليه الجمهور»[5].

ثانيًا: مواطن الزينة:

ورد في القرآن الكريم ذكر المواطن التي يباح أو يجب على المسلم أن يبدي فيها زينته، وهي كما يلي:

١. التزين عند ارتياد المساجد.

كما في قول الله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

قال ابن عطية: «عند كل موضع سجود...ويدخل مع الصلاة: مواطن الخير كلها، ومع ستر العورة ما ذكرناه من الطيب للجمعة وغير ذلك»[6].

قال ابن كثير: «ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة: يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب: البياض»[7].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٣٠، وانظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢/ ٣٢١.
(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٢/ ٣٩.
(٣) المحلى بالآثار، ابن حزم ٢/ ٢٤٠.
(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب الصلاة ١/ ٧٩.
(٥) الاستذكار، ابن عبدالبر ٢/ ١٩٧.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٩٢.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٦.

تزين الزوجين لبعضهما: قال تعالى في حق الزوج: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وقال في حق الزوجة: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

«عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي؛ لأن الله تعالى ذكره يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»[1].

ولاشك أن الزينة التي يظهرها الزوجان لبعضهما ليست هي التي يظهرانها لأقاربهما أو الأجانب عنهما.

ثالثًا: إظهار الزينة:

أما بالنسبة لإظهار الزينة كما ورد في القرآن الكريم؛ فنقسمها كما يلي:

١. زينة الرجل.

كاللباس الحسن، والمظهر الحسن، والمركب الحسن، فهذا ذكر القرآن الكريم أن الرجل يظهره بلا كبر أو خيلاء في المساجد ،كما في الآية السابقة: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

وفي مجامع الناس كما مرّ أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨].

ثم الزينة التي يتزين بها الرجل لزوجته كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨].

فهذه مواطن يجوز للرجل إظهار زينته فيها، وفي كل موطن بحسبه.

٢. زينة المرأة.

أما المرأة فكونها محط فتنة للرجال، والفتنة بها أشد من غيرها؛ فقد كان من حكمة الشريعة أن سدّت كل الذرائع التي تدعو للافتتان بالمرأة؛ حتى لا يغرق المجتمع في مستنقع الرذيلة والفاحشة، ولتحفظ الأنساب، فأمر الشرع الرجل بأن يغض بصره عن النساء، وأمر النساء بأن لا يظهرن زينتهن لكل أحد.

ومن خلال آيات القرآن الكريم؛ نجد أنه حدّد المواضع التي يجوز للمرأة فيها أن تظهر زينتها، وقد جمعت أغلب تلك المواضع في آية واحدة.

وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٣١].

وقبل الشروع في التفصيل ؛ نبدأ بتعريف

(١) جامع البيان، الطبري ٤/ ٥٣٢.

الزينة في هذه الآية، يقول الشنقيطي: «الزينة في لغة العرب: هي ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها -كالحلي، والحلل-»، ثم قال رحمه الله: «فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر، ولا يجوز الحمل عليه، إلا بدليل يجب الرجوع إليه...»[1] وذكر ما يرجح قوله، فليراجع ذلك من أراد مزيد تفصيل.

أولًا: ما ظهر منها:

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، «...عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: هي الثياب»[2]، «أي: الثياب الظاهرة، التي جرت العادة بلبسها، إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها»[3]، فهذه لا حرج على المرأة في إظهارها.

ثانيًا: الزوج:

قال سبحانه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ و«البعولة: جمع بعل، وهو الزوج، وسيد الأمة...وأصل البعل الرب والمالك (وسمي الصنم الأكبر عند أهل العراق القدماء بعلًا، وجاء ذكره في القرآن في قصة أهل نينوى ورسولهم إلياس)، فأطلق على الزوج لأن أصل الزواج ملك وقد بقي من آثار الملك فيه: الصّداق؛ لأنه كالثمن»[4].

فللزوج أن ينظر لكل بدن امرأته، كما للزوجة أن تنظر لكل بدن زوجها، وقد ثبت في الصحيحين أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت تغتسل هي وزوجها رسول الله عليه الصلاة والسلام من إناء واحد[5].

أما حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنها: (ما نظرت -أو ما رأيت- فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قط)[6] فقد ضعف.

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٥١٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٥٦.
إسناد رواية ابن جرير هذه هو: «حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني الثوري، عن أبي إسحاق الهمداني، عن أبي الأحوص، عن عبد الله...»، قال المقدّم: «إسناده في غاية الصحة وأورد هذا الأثر الإمام ابن كثير في تفسيره» عودة الحجاب. المقدّم ٣/ ٢٨٧.

(٣) إظهار الحق والصواب في حكم الحجاب، سعيد القحطاني ص ١٠٧.
وانظر: عودة الحجاب، محمد المقدّم ٣/ ٢٨٣.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٠٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب غسل الرجل مع امرأته، رقم ٢٥٠، ومسلم في صحيحه كتاب الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، وغسل الرجل والمرأة في إناء واحد في حالة واحدة، وغسل أحدهما بفضل الآخر، رقم ٣٢١.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، مسند عائشة رضي الله عنها، ٤٢/ ٣٦٧، رقم ٢٥٥٦٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة وسننها، باب النهي أن يرى عورة أخيه، رقم ٦٦٢.
وضعفه الألباني في الإرواء، ٦/ ٢١٣، رقم ١٨١٢.

ثالثًا: المحارم:

قال جل وعلا: ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ « عن ابن عباس رضي الله عنه قال: « الزينة التي يبدينها لهؤلاء: قرطاها، وقلادتها، وسوارها، فأما خلخالاها ومعضداها ونحرها وشعرها؛ فإنه لا تبديه إلا لزوجها»[1].

رابعًا: النساء المسلمات:

قال تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ قال ابن كثير: «يعني: تظهر زينتها أيضًا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة؛ لئلا تصفهن لرجالهن، وذلك -وإن كان محذورًا في جميع النساء- إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد؛ فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تباشر المرأة المرأة، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها) أخرجاه في الصحيحين[2]، عن ابن مسعود»[3].

خامسًا: ملك اليمين:

قال سبحانه: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ قال ابن عطية: «يدخل فيه الإماء الكتابيات ويدخل فيه العبيد عند جماعة من أهل العلم، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، وقال ابن عباس وجماعة من العلماء : لا يدخل العبد على سيدته فيرى شعرها ونحو ذلك إلا أن يكون وغدا، فمنعت هذه الفرقة الكشف بملك اليمين وأباحته بأن يكون من ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ﴾»[4].

سادسًا: الرجال التابعين من غير أولي الإربة:

قال الله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ التابعين أي: «كونهم من أتباع بيت المرأة وليسوا ملك يمينها، ولكنهم يترددون على بيتها لأخذ الصدقة أو للخدمة»[5].

ويكون هؤلاء الرجال من الذين «لا إربة لهم في هذه الشهوة؛ كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكالعنّين الذي لم يبق له شهوة، لا في فرجه، ولا في قلبه، فإن هذا لا محذور من نظره»[6]، «مع السلامة الغالبة

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٦٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، رقم ٢٤٠.وليس الحديث في مسلم كما وهم ابن كثير رحمه الله.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٧.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٧٩.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢١١.
(٦) إظهار الحق والصواب في حكم الحجاب، سعيد القحطاني ص ١٠٨.

من تطرق الشهوة وآثارها من الجانبين»[1].

سابعًا: الأطفال غير المميزين:

قال جل وعز: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ «يعني: لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن؛ من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن، فإذا كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك؛ فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقًا أو قريبًا منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرق بين الشوهاء والحسناء؛ فلا يمكّن من الدخول على النساء»[2].

ثامنًا: القواعد من النساء:

و«هن اللواتي قعدن عن الحيض والولد؛ من الكبر، ولا مطمع لهن في الأزواج»[3].

فهؤلاء يجوز لهن وضع ثيابهن الظاهرة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ﴾ [النور:٦٠].

أي: حرج وإثم، ﴿أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ [النور:٦٠].

أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ فهؤلاء: يجوز لهن أن يكشفن وجوههن؛ لأمن المحذور منها وعليها، ولما كان نفي الحرج عنهن في وضع الثياب، ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء؛ دفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾ [النور:٦٠]»[4].

أي: «غير مظهرات زينةً، يريد: الزينة الخفية التي أرادها في قوله: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، أو غير قاصدات بالوضع التبرج، ولكن التخفف إذا احتجن إليه ، والاستعفاف من الوضع ﴿خَيۡرٞ لَّهُنَّ﴾ [النور:٦٠].

لما ذكر الجائز عقّبه بالمستحب، بعثًا منه على اختيار أفضل الأعمال وأحسنها، كقوله: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧].

﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢٨٠]»[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢١١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٢٠.
قال ابن قتيبة: «ولا أراها سميت قاعدًا، إلا بالقعود. لأنها إذا أسنّت: عجزت عن التّصرّف وكثرة الحركة، وأطالت القعود».
انظر: غريب القرآن ص ٣٠٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٤.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٥٥.

صور التزيين

«التزيين: تصيير الشيء زينًا أي حسنًا، فهو تحسين الشيء المحتاج إلى التحسين، وإزالة ما يعتريه من القبح أو التشويه، ولذلك سمّي الحلاق مزيّنًا»[1]، وللتزيين في القرآن الكريم صور متعددة، بيانها فيما يلي:

أولًا: تزيين محمود:

وهو: تزيين الإيمان:

دليل ذلك قول الحق سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحجرات:٧-٨].

فقوله سبحانه: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ «أي: حبّبه إلى نفوسكم، وحسّنه في قلوبكم»[2].

إن من يحب شيئًا قد يمل منه حين يجده ثم يطول مكثه عنده! إلا الإيمان بالله تعالى؛ فإنه «كل يوم يزداد حسنًا، ولكن من كانت عبادته أكثر، وتحمله لمشاق التكليف أتم؛ تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل، ولهذا قال في الأول: حبّب إليكم، وقال ثانيًا: وزينه في قلوبكم، كأنه قرّبه إليهم ثم أقامه في قلوبهم»[3].

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان؛ جاء موضحًا في آيات كثيرة، مصرح فيها بأنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كقوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ [الأعراف:١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ [الإسراء:٩٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف:٤٣].

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، نرجو الله الرحيم الكريم أن يهدينا وألا يضلنا[4].

ثانيًا: تزيين مذموم:

وبتتبع آيات التزيين في القرآن نجد أن هذا النوع من التزيين له صور، منها:

١. تزيين الكفر والضلال.

قال الله تعالى عن إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحجر:٣٩].

أي: لأزينن لهم المعاصي والكفر في الدنيا[5].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٧٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٧٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٢.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤١٢.
(٥) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٨٨.

﴿إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]

ومعناه أنهم يغرّون به المضلّلين، ويوهمون لهم أنهم على شيء والأمر بخلافه![1]، قال السدي: أما «شياطين الإنس»: فالشياطين التي تضل الإنس، «وشياطين الجن»: الذين يضلون الجن، يلتقيان فيقول كل واحد منهما: «إني أضللت صاحبي بكذا وكذا، وأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا»، فيعلّم بعضهم بعضًا»[2].

٢. تزيين الشيطان للأعمال السيئة.

كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام:٤٣].

وقوله جل وعلا: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النحل:٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

والأعمال في كل هذه الآيات يقصد بها الأعمال الخبيثة والسيئة، التي تصدهم عن سبيل الله ورضوانه.

«فإن قلت: قد أسند الله هنا التزيين إلى الشيطان وأسنده إلى نفسه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨].

فهل هو حقيقة فيهما أو في أحدهما؟

قلت: وقع التزيين في النظم في مواضع كثيرة، فتارة أسنده إلى الشيطان، وتارة إلى نفسه، وتارة إلى البشر كقوله: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٧].

وتارة مجهولًا غير مذكور فاعله كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:١٢]؛ لأنّ التزيين له معان يشهد بها الاستعمال واللغة:

أحدها: إيجاد الشيء حسنًا مزينًا في نفس الأمر، كقوله: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الصافات:٦].

والثاني: جعله مزينًا من غير إيجاد، كتزيين الماشطة العروس.

والثالث: جعله محبوبًا للنفس، مشتهى للطبع، وإن لم يكن في نفسه كذلك، فهذا إن كان بمعنى خلق الميل في النفس والطبع فلا يسند إلا إلى الله، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل:٤]

أي: زينا لهم أعمالهم القبيحة، بأن جعلناها مشتهاة بالطبع محبوبة للنفس، -وذلك عقوبة لهم لعدم إيمانهم بالآخرة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

فإذا بيّن لهم ما يتقون فلم ينقادوا له؛ عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٣٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٢.

الحق المبين»[1].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

وإن كان تزيين الباطل بمجرّد تزويره وترويجه بالقول وما يشبهه، كالوسوسة والإغواء كما أفصح عنه تعالى في حكايته قول إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [الحجر:٣٩] فهذا يسند إلى الشيطان أو البشر»[2].

٣. تزيين قتل المشركين لأولادهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٧].

تأتي هذه الآية بعد أن حكى لله تعالى شيئًا من سفه المشركين وضلالهم، وطاعتهم العمياء لشياطين الإنس والجن، فبين الله تعالى في هذه الآية أن من سفه المشركين وضلالهم أيضًا: «أنه زيّن لكثير من المشركين شركاؤهم -أي: رؤساؤهم وشياطينهم- قتل أولادهم، وهو: الوأد، الذين يدفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة».

فهذه كلها أنواع من التزيين المذموم، الذي يفتن العباد ويصرفهم عن ما خلقهم الله تعالى له من عبادته وتوحيده، وصاحب هذا التزيين المذموم متوعد بعذاب الله تعالى في نار جهنم إن لم يتب إلى ربه قبل موته، بل هو ومن اتبعه في تزيينه ذلك يتلاومون في نار جهنم! كما قال سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الصافات:٢٧-٣٣].

« عن السدي، في قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال: « تأتوننا من قبل الحق تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الحق»[3].

وفي ختام هذا النوع المذموم من التزيين، نورد كلامًا قيمًا لابن عاشور رحمه الله، وهو قوله: «وقد استقريت مواقع التزيين المذموم فحصرتها في ثلاثة أنواع:

الأول: ما ليس بزينٍ أصلًا -لا ذاتًا ولا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٤.
(٢) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٤/ ٥٩ بتصرف يسير.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢.

صفة- لأن جميعه ذمٌّ وأذى، ولكنه زيّن للناس بأوهام وخواطر شيطانية، وتخييلات شعرية (كالخمر).

الثاني: ما هو زين حقيقة، لكن له عواقب تجعله ضرًّا وأذى (كالزنا).

الثالث: ما هو زين لكنه يحف به ما يصيره ذميمًا (كنجدة الظالم)»[1].

ثالثًا: تزيين كوني قدري:

وهو: تزيين الحياة الدنيا ومتاعها:

وهذه الزينة أو التزيين سماه بعض العلماء: (الزينة الحيادية)! وهي تزيين الله تعالى متاع الدنيا للناس؛ التي يمكن للإنسان أن يستخدم ذلك التزيين في طاعة الله تعالى، ويمكنه أن يستخدمه في المعصية، كما قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾[آل عمران:١٤].

وحسن المآب يكون لمن استقام في الدنيا على الصراط الذي رسمه الله للمتقين، وكما قال سبحانه: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[النحل:٨].

وعن الحكمة من هذا التزيين يقول سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف:٧] فهذا النوع من التزيين إنما هو: ليبتلي الله عباده، فيكشف المطيعين والعاصين عن طريقه.

فحبّ الشهوات من النساء، وحبّ البنين، وحبّ المال، وحبّ المآكل والمشارب، وحبّ المراكب، وحبّ الخيل المسوّمة والأنعام والحرث، إلى غير ذلك ممّا جعل الله فيه زينة للناس، فالزينة في كلّ ذلك من خلق الله، ومن فطرته التي فطر المزيّنات والنفوس عليها؛ ليمتحن إرادات الناس بها.

فإن استخدمت هذه الزينة في حدود ما أذن الله، دون عدوان، ولا ظلم، ولا بغي، ولا إسراف، ولا تبذير، ولا تجاوز إلى مواطن الضرر؛ كانت منّة من الله تعالى وإكرامًا لعبده، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف:٣١-٣٢].

أمّا إن استخدمت هذه الزينة في غير ما أذن الله وأحلّ؛ فإنّها تكون إمهالًا من الله تعالى واستدراجًا لصاحبها، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٩٥.

﴿أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤][1].

وبعد: فقد ذكرنا في صور التزيين أن الأولى: تزيين محمود، لأنه يعود على الإنسان بالخير والرحمة، فحري بالمسلم أن يسعى قدر مستطاعه لتزيين الأعمال الصالحة لنفسه ولغيره، فمن فعل ذلك فهو محمود ممدوح، وهو داخل في الدعوة إلى الله تعالى، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت:٣٣].

أما الصورة الثانية: فتزيين مذموم ؛ لأنه يعود على الإنسان بالشر والعذاب، فعلى المسلم أن يسعى لاجتناب تزيين الشر لنفسه أو لغيره؛ فقد قال تعالى ماقتًا ومحذرًا الذين يزخرفون ويزينون الباطل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

أما الصورة الثالثة: التزيين القدري، فعلى المسلم أن يعلم ذلك ثم يسعى لاغتنام ذاك التزيين فيما يعود عليه بالخير والفلاح.

موضوعات ذات صلة:

حجاب المرأة، الحياة، العفة، النساء

(١) أجنحة المكر الثلاثة ص ٥٠٧ بتصرف.

السؤال

عناصر الموضوع

مفهوم السؤال	٢١٤
السؤال في الاستعمال القرآني	٢١٥
الألفاظ ذات الصلة	٢١٦
أنواع السؤال في القرآن	٢١٨
السؤال في الجانب العقدي	٢٢٠
السؤال عن الجانب التشريعي	٢٢٨
السؤال عن الجانب الإخباري	٢٣٩
السؤال عن المخلوقات الكونية	٢٤٦
مقاصد السؤال وآدابه	٢٤٨

مفهوم السؤال

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «السين والهمزة واللام كلمة واحدة، يقال: سأل يسأل سؤالًا ومسألة، وتساءل الرجال أي سأل بعضهم بعضًا، ومن أكثر منه يقال له: رجل سؤالة وسؤله كهمزة: كثير السؤال»[1]. ولهذا فالفقير يسمى سائلاً إذا كان مستدعيًا لشيء، ولأنه من طبعه أن يسأل كثيرًا[2]، حتى يعطى وتقضى حاجته، ومن يكثر السؤال يصبح ملحًا، وجمع السائل الفقير: السؤّال[3]. وبه فسّر قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى:١٠] وفسّره الحسن بطالب العلم[4]. فالسائل هو الطالب.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف العلماء السؤال بأنه استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة[5]، أو ما يؤدّي إلى المال، فاستدعاء المعرفة جوابه على اللّسان، واليد خليفة له بالكتابة أو الإشارة، واستدعاء المال جوابه على اليد، واللّسان خليفة لها، إمّا بوعد أو برد[6].

يقول الراغب الأصفهاني: والسؤال على ضربين:

الأول: طلب مقال، وجوابه المقال: وهذا مثاله : قوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١]. وقال: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾[الأحقاف:٣٢].

والثاني: طلب نوال: وجوابه النوال: وعلى الثاني قوله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس:٨٩]. أي: أعطيتما ما سألتما[7].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ص٥٠١.
وانظر: تاج العروس، الزبيدي، ٢٩/ ١٥٨.
(٢) العين، الفراهيدي، ٧/ ٣٠١.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٣/ ٤٨.
(٤) تاج العروس، الزبيدي، ٢٩/ ١٦٠.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٤٣٧.
(٦) الكليات، الكفوي، ١/ ٥٠١.
(٧) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢١٠.

السؤال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سأل) في القرآن الكريم (١٢٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢١	﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾ [الملك:٨]
الفعل المضارع	٧٨	﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ [القيامة:٦]
فعل الأمر	١٦	﴿وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]
اسم الفاعل	٧	﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ [الذاريات:١٩]
اسم المفعول	٥	﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦]
مصدر	٢	﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ [ص:٢٤]

وجاء السؤال في القرآن الكريم على وجهين[٢]:

الأول: بمعناه اللغوي، وهو استدعاء معرفة أو ما يؤدي إليها، أو استدعاء مال أو ما يؤدي إليه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣].

الثاني: الحساب: ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر:٩٢] أي: لنحاسبنهم على ما كان منهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٣٦- ٣٣٨.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٦٨-٢٦٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ١٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاستخبار:

الاستخبار لغةً:

يقول ابن فارس:«الخاء والباء والرّاء أصلان، فالأوّل ؛ من الخبر وهو العلم، والثّاني :من الخبراء، وهي الأرض اللّيّنة، وهو يدلّ على لينٍ ورخاوةٍ وغزرٍ. ويقال: استخبره أي سأله عن الخبر وطلب أن يخبره. والخبير العالم، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ فَسْأَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

الاستخبار اصطلاحًا:

أما اصطلاحًا فهو طلب خبر ما ليس عندك.

الصلة بين السّؤال والاستخبار:

يقول أبو الهلال العسكري: أن الاستخبار طلب الخبر فقط والسّؤال يكون طلب الخبر الأمر والنّهي وهو أن يسال السّائل غيره أن يأمره بالشي أو ينهاه عنه والسّؤال والأمر سواء في الصّيغة، وإنّما يختلفان في الرّتبة، فالسؤال من الأدنى في الرّتبة والأمر من الأرفع فيها[١].

يقول الراغب الأصفهاني: وكل استخبار سؤال، وليس كل سؤال استخبارًا[٢].

٢ الاستفهام:

الاستفهام لغةً:

هو مصدر من الاستفعال، وهو من الفهم، يقول ابن فارس: «الفاء والهاء والميم علم الشّيء»[٣]. يقال «استفهم أي سأله أن يفهّمه ، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهّمته تفهيمًا»[٤]. والاستفهام طلب الإفهام وهو أخص من الاستخبار[٥].

الاستفهام اصطلاحًا:

هو «استعلام ما في ضمير المخاطب»[٦]. أو هو «طلب المتكلم من مخاطبة أن يحصل

(١) الفروق اللغوية ص ٣٧.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٥/ ٤٦٦.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٥٧.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٤٥٩.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني، ٥/ ٤٦٦.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٤٩.

في ذهنه ما لم يكن حاصلاً عنده مما سأله عنه»[1]. أو هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن تصديقًا أو تصورًا، فإن كانت تلك الصورة هي وقوع نسبة بين الشيئين، فحصولها هو التصديق وإلا فهو تصور[2].

الصلة بين السّؤال والاستفهام:

قال صاحب الفروق اللغوية: إن الاستفهام لا يكون إلّا لما يجهله المستفهم أو يشك فيه ؛ وذلك أن المستفهم طالب لأن يفهم ،ويجوز أن يكون السّائل يسأل عمّا يعلم لا يعلم ، فالفرق بينهما ظاهر[3].

(١) الكليات، الكفوي ص٩٧.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٥٩.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٣٧.

أنواع السؤال في القرآن

١ . السؤال الاستفهامي.

والاستفهام طلب الفهم أو معرفة ما هو خارج الذهن، بواسطة أدوات استفهامية. ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ [الماعون:١].

فقوله عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ حرف يستعمل في موضع السؤال والاستفهام[1]؛ كقوله: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤٤].

والاستفهام يرد مجازًا على غير حقيقته، بحيث إن المستفهم لا يرجو من سؤاله حصول علم لم يكن قبل السؤال، والسؤال في هذا الصنف من الله تعالى ولا ريب، وقد أحصى علماء اللغة أغراضًا مجازية كثيرة يمكن أن يستعمل الاستفهام لها، ومن تلك الأغراض ما يلي[2]:

- الأمر، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]. أي: انتهوا.
- النهي، كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة:١٣]. أي: لا تخشوهم. قال المرسي: «إن الأمر والنّهي والاستفهام كلها بمعنى السّؤال والاستدعاء»[3].
- النفي، قال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم:٢٩] أي: لا هادي لمن أضلّ الله. ومنه قوله جلّ ثناؤه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:١٩] أي: لست منقذهم.
- الإنكار، كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:٤٠].
- التقرير، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح:١]. أي: لقد شرح الله صدرك.
- التهويل، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة:٣].
- الاستبعاد، كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾ [الدخان:١٣] وغير ذلك. ومن الأمثلة الدالة عليه كذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:١١٦] هذا استفهام معناه التوبيخ لمن ادعى ذلك على المسيح، ويكذبهم المسيح فيكون ذلك توبيخاً لهم، وهو قوله: قال سبحانك أي: برأتك من السوء، ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦]. أي: لست أستحق العبادة فأدعو الناس إليها[4].

٢ . السؤال الإنكاري.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٦٢٢.
(٢) الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، ص٤٥.
(٣) المخصص، ابن سيده المرسي، ٥/ ٢٣٤.
(٤) الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٤٧.

وهو إنكار على المخاطب المستفهم عنه بالسؤال[1]، ومنه الأسئلة التي استخدمها موسى عليه السلام للتعبير عن إنكاره لما جرى أمام عينيه من تعدٍّ وظلم ظاهر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف:٧١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

إن أسئلة نبي الله موسى الإنكارية المتكررة هي التي جعلت الخضر عليه السلام لا يجد مناصًا من تبيين حكمة ما فعل لموسى عليه السلام، وهذا يدل على فاعلية السؤال وقوة تأثيره في القصة، إذ أثمر معرفةً وفهمًا وتفسيرًا لأمور كانت أسبابها غير معروفة وغير ظاهرة للعيان.

٣. السؤال الطلبي.

الطلب هو محاولة وجدان الشّيء[2] وأخذه، والسؤال الطلبي: هو سؤال يتضمن معاني الطلب أمرًا أو نهيًا[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] أي: فاطلب بالله ما تطلب[4].

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص١٢٦.
(٢) العين، الفراهيدي، ٧/ ٤٣٠.
(٣) السؤال في ضوء القرآن الكريم، وردة مصطفى كحيل، ص٢٤.
(٤) غرائب التفسير، الكرماني، ٢/ ٨٢٠.

ومن أمثلته، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ [سبأ:٥٢] أي: التناول، وهو من بعد الطلب[5]. ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨].

٤. السؤال التقريري.

«هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمرٍ قد استقر عنده»[6].

ومن أمثلته في القرآن، قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه:١٧].

فهذا السؤال هو سؤال تقريرٍ والحكمة في هذا السّؤال تنبيهه وتوقيفه على أنّها عصًا حتّى إذا قلبها حيّةً علم أنها معجزةٌ عظيمةٌ[7]. ويقال: «قررت عنده الخبر حتّى استقر ثبت بعد أن حققته له، وقرر المسألة أو الرّأي: صححه وحققه»[8].

٥. السؤال التوبيخي.

التوبيخ هو الملامة[9] والتهديد والتأنيب[10]، والسؤال التوبيخي هو توبيخ المخاطب على فعل وقع، لماذا وقع، أو

(٥) غريب الحديث، الحربي، ٢/ ٨٨٤.
(٦) السؤال في ضوء القرآن الكريم، كحيل، ص٢١.
(٧) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢٥٨.
وانظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، النيسابوري، ٢/ ٥٤٦.
(٨) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٠٢/ ٧٢٥.
(٩) العين، الفراهيدي، ٤/ ٣١٥.
(١٠) الصحاح، الجوهري، ١/ ٤٣٤.

على ترك فعل ما كان ينبغي ألا يقع[1].

يقول قطرب: السّؤال ضربان: سؤال استعلام وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن:٣٩]. يعني: استعلامًا. وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر:٩٢] يعني: توبيخًا وتقريعًا[2].

ومن التوبيخ لأعداء الله قوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات:١٥١-١٥٣].

(١) من بلاغة القرآن، البدوي، ص١٢٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٦٧.
وانظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، النيسابوري، ١/ ٤٧٥.

السؤال في الجانب العقدي

هناك أسئلة كثيرة وردت في الخطاب القرآني حول القضايا الاعتقادية، والتي صدق وجزم بها المؤمن بدون ريب أو شك؛ لأنها من الأشياء التي يجب الاعتقاد بها ضرورة، ويمكن أن ندرجها حول أصول الإيمان ؛لأنها واجبات فرضت فرض عين على كل مسلم ومسلمة. ومن هذه الأسئلة ما كان حول الخالق سبحانه، وما يكون يوم القيامة ومتى تقوم الساعة، وما هو مصير العباد في ذلك، ناهيك عن السؤال الذي أحيل به الجواب إلى الله عز وجل، وهو سؤال الروح.

١ . السؤال عن الخالق.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

أخرج ابن أبي حاتم أنه جاء رجلٌ إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول اللّه أقريبٌ ربّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ فسكت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فأنزل اللّه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[3]، إذا دعوني، استجبت

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة البقرة، رقم ٢٩٧٣.
قال الترمذي: حسن صحيح.

لهم[1].

والفاء في قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، جواب إذا، وفيه حذف تقديره: فقل لهم إنّي قريبٌ؛ لأنّه لا يترتّب على الشّرط القرب، إنّما يترتّب الإخبار عن القرب[2].

فالله عز وجل قريب من كل شيء، عالم بكل شيء، يصدقه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة:٨٥] وهو قرب العلم والإحاطة وارتفاع الجهات، لا قرب الذات[3].

قال أبو حيان: «والقرب المنسوب إلى اللّه يستحيل أن يكون مكانيًّا، وإنّما قصد منه سماع الدعاء، والإسراع في الإجابة»[4].

وفي هذا إرشاد لنناجيه ولا ننادي عليه برفع الصوت، فهو قريب لا يحتاج لكي ينادى عليه، كما أنه قريب من عابده، و(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[5].

وفي الحديث القدسي: (أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن اقترب إليّ شبرًا اقتربت منه ذراعًا، وإن اقترب إليّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً)[6]. فهذا قربه من عابده[7].

وقد ورد أن اليهود سألوا نبي الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: كيف يسمع ربك دعاءنا، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام، وأن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام؟! فنزل قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، هذا لما لم يعرفوا الصانع، ألا تراهم جعلوا له الولد، وجعلوا له شركاء، فخرج سؤالهم ، مخرج سؤال المتعنت، لا المسترشد»[8].

عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ليسألنّكم النّاس عن كلّ شيءٍ حتّى يقولوا: الله خلق كلّ شيءٍ فمن خلقه؟) قال يزيد: فحدّثني نجبة بن صبيغ السّلميّ: أنّه رأى ركبًا أتوا أبا هريرة، فسألوه عن ذلك فقال: الله أكبر

وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٥٩٠.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ١/ ٣١٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٢/ ٢٠٥.
(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٤٨.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٢/ ٢٠٥. وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٢٥، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٤٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٢١٥.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في حسن الظن بالله عز وجل، رقم ٣٦٠٣.
قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٥٢، رقم ٨١٣٧.
(٧) التفسير القيم، ابن القيم، ص٢٥٦.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٣٠٨.

ما حدّثني خليلي بشيءٍ ، إلّا وقد رأيته وأنا أنتظره، قال جعفرٌ: بلغني أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سألكم النّاس عن هذا فقولوا: الله كان قبل كلّ شيءٍ، والله خلق كلّ شيءٍ والله كائنٌ بعد كلّ شيءٍ)[1].

٢. السؤال عن يوم القيامة.

قال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات:٤٢-٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف:١٨٧].

قال ابن عادل الحنبلي: «لما سمع المشركون أخبار القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل: ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً، متى تكون الساعة؟»[2].

والمعنى: في أي شيء هم من سؤال الساعة، ألم يعلموا أنك أنت من علاماتها، فإنك بعثت في نسيم الساعة، واسمك نبي آخر الزمان.

وأما قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٨٧] حفي عن الشيء إذا سأل، وحفي بالشيء، عني به، وحفى بالشيء أيضًا حفاوة فرح به. قال الزجاج: «كأنك حفيٌّ، أي فرحٌ بسؤالهم»[3].

وفي الآية دلالة على أن المقصد من سؤال الكفار عن الساعة للتمويه والتلبيس على ضعفة الإيمان من الناس؛ لأنهم عرفوا أن وقت الساعة ليس بيد النبي صلى الله عليه وسلم، فإن سألوه عنها ومتى وقتها وطلبوا الاستعجال بها، عرفوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بيده الجواب عنها فيستغلوا ذلك في التحريض ضد النبي صلى الله عليه وسلم ودينه.

كما دل إخفاء الساعة عن الخلق بما فيهم الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون ؛ لأن ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، ومثله كإخفاء الأجل والصلاة الوسطى وليلة القدر ، فالله عز وجل كتم وقت قيام الساعة عن الخلق ليسرع المكلفون إلى التوبة والطاعة فى جميع الأوقات ؛ فإنه لو علم وقت قيامها لتقاصر الخلق عنها وأخروا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم ٢١٦.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٢٠/ ١٤٩.

(٣) غرائب التفسير، الكرماني، ١/ ٤٣٠.

الطاعة[1].

هناك ثلاثة آراء في السائلين عن الساعة، فالرأي الأول: منهم من قال إن السائلين هم قريش ، قال أبو جعفر: عني بذلك قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش[2]. فسؤالهم ينبئ عن شكهم من قيامها، قال عز وجل: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل:٦٦].

وقصدهم من طرح تلك النوعية من الأسئلة : التمويه والتلبيس على ضعاف الإيمان ، ونسوا أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (بعثت أنا والسّاعة كهاتين)[3].

يقول الشاطبي: «إن الله تعالى قال بعد سؤالهم عن السّاعة أيّان مرساها: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾﴾ [النازعات:٤٣] ، أي: إنّ السّؤال عن هذا سؤالٌ عمّا لا يعني؛ إذ يكفي من علمها أنّه لا بدّ منها، ولذلك لمّا سئل صلى الله عليه وسلم عن السّاعة ، قال للسّائل: (ما أعددت لها؟)[4]؛ إعراضًا عن صريح سؤاله إلى ما يتعلّق بها ممّا فيه فائدةٌ، ولم يجبه عمّا سأل»[5].

الرأي الثاني: السائلون هم اليهود[6]: قال ابن عباس: أتى قوم من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا له: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًّا؟ أي: متى قيامها؟[7].

وهذه الطائفة يمكن أن يكونوا من المؤمنين بالبعث، لكنهم لم يؤمنوا بالنبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

والرأي الثالث: السائلون هم من المؤمنين بالبعث والنشور والساعة ، وكان سؤالهم سؤال استهداء، كأنه لما قيل لهم: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار:١].

و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١].

قالوا: متى تكون الساعة؟ فنزلت هذه الآية[8].

هل في الآيتين تكرار لنفس الجواب؟

قال الخازن: عبر عن الجواب في السؤال الأول بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف:١٨٧] وعن الجواب في السؤال الثاني بقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣] فهل من فرق بين الصورتين في الجوابين؟

قلت: فيه فرق لطيف، وهو أنه لما كان

(١) روح البيان، إسماعيل حقي، ٣/ ٢٩٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٢٩١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «بعثت أنا والسّاعة كهاتين»، رقم ٦٥٠٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرّجل ويلك، رقم ٦١٦٧.
(٥) الموافقات، الشاطبي، ١/ ٤٥.
(٦) النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٢٨٤.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٤/ ٢٦٦٠.
(٨) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٤١٥.

السؤال الأول واقعاً عن وقت قيام الساعة عبر عن الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربي. أي: يعلم جليّة أمرها، ومتى يكون على التّحديد[1].

فهو سبحانه قد استأثر به ولم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا.

ولما كان السؤال الثاني واقعاً عن أحوالها وشدائدها وثقلها ؛ عبر عن الجواب فيه بقوله سبحانه وتعالى عند الله ؛ لأنه أعظم الأسماء[2] مهابة وجلالة وعظمة وهيبة.

٣. السؤال عن مصير العباد في الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١﴾ [الصافات:٥٠-٥١].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠﴾ [المدثر:٣٩-٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۝٦٢﴾ [ص:٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٥-٢٨].

لا شك إن مصير العباد بيده سبحانه، فهو وحده القادر على محاسبتهم على القطمير والنقير، ولا يماري في ذلك إلا كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، على الأغلب أنها: ولهذا ما يؤيده قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة:١٣].

وفي ذلك اليوم فإن ملك الملوك سوف يخبر كل إنسان بجميع أنواع الأعمال التي قام بها في القديم ، وفي الحديث سواء كانت صغيرة أم كبيرة، ومصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

يقول السعدي: «فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩].

ويقول الله عز وجل عن أهل الجنة[4] بأنهم سوف يتساءلون تساؤل راحة وتنعم عن الفضائل والمعارف، وعما جرى لهم وعليهم في الدنيا، فالتعبير عنه بصيغة الماضي للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتمًا[5].

فالآية تدل على أن هناك أوقات سمر واجتماع بين المؤمنين من أهل الجنة الذي خلت بالهم من كل المشاغل، فيتخلله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٥١٨.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٧٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٢١.
(٤) تفسير يحيى بن سلام، ٢/ ٨٣١.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٩٢. وانظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ٥٩٨.

شراب، وفي وقت الشراب يحلو الحديث والتساؤل، ومن أسئلتهم أنهم يتذكرون أحوالهم في الدنيا، ويكون هذا من تمام النعمة عليهم، ويقول أحدهم: إنه كان لي قرين وصاحب سوء ملازم لي في الدنيا، وكان هذا الصاحب كافر بالبعث، بل منكر له، فهو ينكر على المؤمن إيمانه بالله ، ويوبخه على تصديقه بوعد الله وما أعد للمؤمنين في الجنة. يقول المراغي: «والحديث ذو شجون، فهم يتحادثون في شتى الفضائل والمعارف وفيما سلف لهم من شئون الدنيا، وما أحلى تذكر ما فات حين رفاهية الحال، وفراغ البال، واطمئنان النفس، وخلوّها من المخاوف العاجلة والآجلة»[1].

وتأكد هذا الموقف من خلال قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠﴾ [المدثر:٣٩-٤٠].

فمن تمام نعيم أهل الجنة الذين يجلسون في الغرفات آمنون مكرمون أنهم يتساءلون فيما بينهم عن المجرمين الذين حبسوا في سقر، بسبب تكذيبهم لدعوة الله، ورفضوا الاستجابة لأمر الله عز وجل.

يقول ابن عاشور: «ومعنى يتساءلون يجوز أن يكون على ظاهر صيغة التّفاعل للدّلالة على صدور الفعل من جانبين، أي: يسأل أصحاب اليمين بعضهم بعضًا عن شأن المجرمين، وتكون جملة ما سلككم في سقر بيانًا لجملة يتساءلون»[2].

وقال تعالى في سورة الطور: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥﴾ [الطور:٢٥].

في المقابل نجد أن الله عز وجل يخبرنا عن أهل النار الطغاة المستكبرين الذين كانوا يعدون أنفسهم من الأشراف والرؤساء، يتساءلون فيما بينهم لماذا لا نرى رجالًا كنا نعدهم من الأشرار، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ٦٢﴾ [ص:٦٢].

لحظة التذكر هذه تدل على حالة أسف وتوبيخ لأنفسهم ولذواتهم، إذ لم يجدوا المستضعفين والمخالفين والفقراء والمؤمنين بالله عز وجل معهم في جهنم. يقول ابن الجوزي: قال الفراء: «وهذا استفهام بمعنى التعجّب والتوبيخ، والمعنى أنهم يوبّخون أنفسهم على ما صنعوا بالمؤمنين»[3]. وصدق الله العظيم حين قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾ [ص:٦٤].

قال الرازي معلقًا على الموقفين: «واعلم أنّه تعالى ذكر من أحوال أهل النّار أنواعًا فالأوّل: مرجعهم ومآبهم، فقال: ﴿هَٰذَا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٢٥.

(٢) تفسير المراغي، ٢٣/ ٥٩.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٥٨١.

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥﴾ [ص:٥٥].
وهذا في مقابلة قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٩﴾ [ص:٤٩]. فبيّن تعالى أنّ حال الطّاغين مضادٌّ لحال المتّقين»[1].

فالمؤمنون لهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾ [الكهف:٣١].

والكافرون الطغاة الظلمة لهم نار جهنم يصلونها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف:٢٩].

وعليه فإنه لا بد من تصنيف الناس يوم القيامة ، كل حسب عمله وحسب إيمانه وتقواه، فهو سبحانه يعطينا سؤالًا استفهاميًّا استنكاريًّا فيقول تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم:٣٥].

وإجابة الاستفهام معروفة أنهم لا يستوون ؛ فليس المسلمون كالمجرمين. فالسؤال ينكر بشكل بليغ كيف يطالب هؤلاء مساواة المسلم مع المجرم، وكيف يستوي عند هؤلاء من أسلم نفسه لله واتبع منهجه وآمن بربه وبشرعه مع من خرج على منهج الله ورفض اتباعه وعصى وأبى، وأفسد في الأرض...لا يستوون.

أورد عمر سليمان الأشقر توجيهًا منهجيًّا لمن توهم أن في النصوص تعارض في موضوع مساءلة الكفار يوم القيامة، قال رحمه الله: «فإن قيل: قررتم فيما سبق أن الكفار يسألون ويجادلون ويتكلمون ويعتذرون، فيكف تفعلون بالنصوص الدالة على خلاف ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] مضاد لقوله: ﴿وَلَيُسْـَٔلَنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٣] يتناقض مع قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١﴾ [المؤمنون:١٠١] ونحو ذلك من النصوص»[2].

قال القرطبي رحمه الله: «فنقول: ليس بين هذه النصوص وتلك تعارض، وقد وفق أهل العلم بينهما بوجوه عدة:

الأول: أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لم عملتم كذا وكذا؟ وكذا يقال في تكليمهم واعتذارهم، أي لا يكلمهم الله بما يحبونه، بل يكلمهم بما لا يحبون بطريقة فيها تقريع

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٤٠٣

(٢) القيامة الكبرى، عمر سليمان الأشقر، ص٢٠٠.

وتوبيخ.

الثاني: أنهم لا يسألون سؤال استفهام، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: لم فعلتم كذا؟ قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم، لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة.

الثالث: أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن، قال القرطبي: «القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك»[(١)].

قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنيّة: «أوّل ما تبعث الخلائق على مقدار ستّين سنةً، لا ينطقون، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثمّ يؤذن لهم في الكلام فيتكلّمون، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة:١٢] الآية، فإذا أذن لهم في الكلام تكلّموا واختصموا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر:٣١] عند الحساب وإعطاء المظالم، ثمّ يقال لهم بعد ذلك ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ [ق:٢٨] يعني في الدّنيا، فإنّ العذاب مع هذا القول كائنٌ»[(٢)].

(١) التذكرة في أحوال الموتي وأمور الآخرة، القرطبي، ١/ ٣٢٩.
(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني، ٢/ ١٧٤.

٤. السؤال عن الروح.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء٨٥].

إن الله عز وجل أخبرنا عن الروح بعد أن سئل عنها رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يعطنا عن كيفيتها علمًا، يقول أبو الحسن الأشعري: «إن الله لم يخبر عنها ما هي، لا أنها جوهر ولا أنها عرض»[(٣)]. ويقول فهد الرومي: «صرف الجواب عن ماهيتها؛ لأنه ليس من شئون العقل ولا من مداركه»[(٤)].

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن عبد الله وهو ابن مسعود[(٥)]، قال: (بينما أنا أمشي مع النّبيّ صلى الله عليه وسلم في حرثٍ، وهو متكئٌ على عسيبٍ، إذ مرّ بنفرٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعضٍ: سلوه عن الرّوح، فقالوا: ما رابكم إليه، لا يستقبلكم بشيءٍ تكرهونه، فقالوا: سلوه، فقام إليه بعضهم فسأله عن الرّوح، قال: فأسكت النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فلم يردّ عليه شيئًا، فعلمت أنّه يوحى إليه، قال: فقمت مكاني، فلمّا نزل الوحي قال: (﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

(٣) مقالات الإسلاميين، الأشعري، ص٣٣٤.
(٤) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، ٢/ ٧١٣.
(٥) فتح الباري، ابن حجر، ٨/ ٤٠١.
وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي، ٣/ ٢١٤.

الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ [الإسراء:٨٥])[1].

قال ابن وهبٍ عن مالكٍ: لم يأته في ذلك جوابٌ، وقد قال بكر بن مضر في رواية ابن وهبٍ عنه: إنّ اليهود قالوا: سلوه عن الرّوح، فإن أخبركم فليس بنبيٍّ، وإن لم يخبركم فهو نبيٌّ، فسألوه فنزلت الآية[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن الرّوح، رقم ٢٧٩٤.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، ٣/ ٢١٥.

السؤال عن الجانب التشريعي

القرآن الكريم كلام الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ولهذا فإن آياته في غاية الدقة والإحكام وتشريعاته واضحة بينة فصلها الخبير العليم، من أجل إسعاد البشرية، فكان القرآن العظيم هو المصدر الأول للتشريع، ولأجل هذا ذكر القرآن عددًا من التساؤلات حول الجانب التشريعي كالإنفاق والرزق والمال والخراج والإرث، ثم ذكر القرآن الكريم تساؤلات عن اليتامى والخمر والميسر والمحيض والحلال والحرام وعن القتال في الأشهر الحرم وتقسيم الغنائم. يقول ابن عاشور: وجميع الآيات الّتي افتتحت بيسئلونك هي متضمّنةٌ لأحكامٍ وقع السّؤال عنها فيكون موقعها في القرآن مع آياتٍ تناسبها نزلت في وقتها أو قرنت بها[3].

وتفصيل كل ذلك في المطالب التالية:

١. السؤال عن الإنفاق.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ١٩٠.

﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة:٢١٩].

يقول الطبري: «يسألك أصحابك يا محمد، أي شيء ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟ وعلى من ينفقونه؟ فقل لهم: أنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل، فإنكم ما تأتوا من خير وتصنعوه إليهم فإن الله به عليم، وهو محصيه لكم حتى يوفّيكم أجوركم عليه يوم القيامة، ويثيبكم على ما أطعتموه بإحسانكم عليه»[1].

فالصحابة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على من ينبغي أن يفضلوا؟ فأعلم الله عز وجل أن أول من تفضّل عليه الوالدان والأقربون[2].

وفي الآية دلالة على أن المنفق في سبيل الله لا بد أن ييسر الله له من ينفق عليه وعلى عياله.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤].

لأنه يقرض الله قرضًا حسنًا، ولن يضيع الله مال من أقرضه ، وصدق الله حين قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل:٢٠].

كما أن على الناس أن يعلموا أن المال في الحقيقة هو مال الله، ولكنه استخلفه عباده ليرى كيف يعملون.

وقد ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن ابن عبّاسٍ: «أنّ نفرًا من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم، حين أمروا بالنّفقة في سبيل اللّه، أتوا النّبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبيّ اللّه: إنّا لا ندري ما هذه النّفقة الّتي أمرتنا بها في أموالنا فما ننفق منها؟ فأنزل اللّه في ذلك: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩] وكان قبل ذلك ينفق ماله حتّى ما يجد ما يتصدّق به، ولا ما يأكل حتّى يتصدّق عليه»[3].

وأورد الطبري بسنده عن السدي قال: «يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة، وإنما هي النفقة ينفقها الرجل على أهله، والصدقة يتصدق بها فنسختها الزكاة»[4].

٢. السؤال عن الإرث.

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ

(١) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٩١.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ١/ ٢٨٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٢/ ٣٨١.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٩٤.

﴿مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء:١٧٦].

ورد في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن جابر بن عبد الله مرض، فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «كيف أصنع في مالي يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يجبني بشيء، حتّى نزلت آية الميراث»[(١)].

والثاني: أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بابنتين لها، فقالت: يا رسول قتل أبو هاتين معك يوم أحد، وقد استفاء عمهما مالهما، فنزلت، روي عن جابر بن عبد الله أيضاً[(٢)].

والثالث: أن عبد الرحمن أخا حسان بن ثابت مات، وترك امرأة ، وخمس بنات، فأخذ ورثته ماله، ولم يعطوا امرأته ، ولا بناته شيئا، فجاءت امرأته تشكو إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب عيادة المغمى عليه، رقم ٥٦٥١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الصلب، ٣/ ١٢٠، رقم ٢٨٩١، والترمذي في سننه، أبواب الفرائض،باب ما جاء في ميراث البنات، ٤/ ٤١٤، رقم ٢٠٩٢.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في الإرواء، ٦/ ١٢٢، رقم ١٦٧٧.

الإرث: ملك ما يتركه الميت لمن بعده ممن هو أولى به في حكم الله[(٣)]. أو هو تركة الماضي للباقي[(٤)] بدون كسب.

قال أبو حيان الأندلسي: روي عن أبي بكرٍ رضي الله عنه أنّه قال في خطبته: «ألا إنّ آية أوّل سورة النّساء أنزلها اللّه في الولد والوالد، والآية الثّانية أنزلها اللّه في الزّوج والزّوجة والأخوة من الأمّ، والآية الّتي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام»[(٥)].

وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس رضي اللّه عنهما، قال: «كان المال للولد، وكانت الوصيّة للوالدين، فنسخ اللّه من ذلك ما أحبّ، فجعل للذّكر مثل حظّ الأنثيين، وجعل للأبوين لكلّ واحدٍ منهما السّدس، وجعل للمرأة الثّمن والرّبع، وللزّوج الشّطر والرّبع»[(٦)].

٣. السؤال عن اليتامى.

يقول الله تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

(٣) تفسير ابن فورك، من أول سورة المؤمنون، إلى آخر سورة السجدة، ص٦٩.

(٤) المصدر السابق ص ٢٣٢.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٤/ ١٥٠.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، رقم ٢٧٤٧.

﴿حَكِيمٌ ۝٢٢٠﴾ [البقرة:٢٢٠].

ورد في تفسير عبد الرزاق عن قتادة قال: لمّا نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء:١٠] اعتزل النّاس اليتامى، فلم يخالطوهم في مأكولٍ، ولا مشروبٍ، ولا مالٍ، فشقّ ذلك على النّاس، فسألوا النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فأنزل اللّه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠][1].

وفي الآية دلالة على أن المقصد الأسمى من هذه الآية هو رعاية شأن اليتيم، والحرص على جلب المنافع له، فمن فعل ذلك فقد تخلق بأخلاق الصالحين والأنبياء ، وأهم موضوع في رعاية اليتيم مخالطته، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ لأن الناس خافوا من التعامل مع اليتامى خوف أكل أموالهم أو ظلمهم، فأخبرهم أن الإصلاح لشأنهم هو الحل، وذلك بكفالتهم ورعاية مصالحهم رعاية شاملة، بدءًا من الإصلاح الإنساني بمراعاة مشاعر اليتيم وإكرامه كإنسان له كيان محترم، ناهيك عن مراعاته كطفل فقد حنان الأبوة أو الأمومة.

ثم الإصلاح الاجتماعي في إيجاد مأوى ومسكن له ، فنحميه من التشرد والنوم في الطرقات، وكذلك الإصلاح المالي في كل جوانبه، فلا نأكل ماله ظلمًا، ومن فعل ذلك فسوف يعاقبه الله بالنار تأكل بطنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠].

بل إن القرآن أوصانا بعدم الاقتراب من ماله إلا في مجالات تنميته وزيادته، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

لما نزل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، أشفق المسلمون من خلطة اليتامى فعزلوا لهم بيتًا، وعزلوا طعامهم وخدمهم وثيابهم، فشق ذلك عليهم جميعًا، فسألوا عن ذلك رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ الآية[2].

إن السؤال عن اليتامى فيه إضمار ، لأنه تعالى لم يبين في أي حكم[3] لكنه يحتوي على ما يعمل الناس في أموال اليتامى، من المخالطة وأنواع المصالح[4].

وإضماره -واللّه أعلم- أن يقال: يسألونك عن مخالطة اليتامى، يبين ذلك قوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أن السؤال

(١) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٣٤٩.

(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ١٢٠-١٢١.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٢٠.

(٤) المصدر السابق ٢/ ١١٧.

كان عن المخالطة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة:٢٢٠] أي: هو يعلم حين تخلط مالك بماله فهل نيتك إصلاح مالك أم ماله، ويعلم من يريد أن ينمي مال اليتيم ويربيه أم يفسده.

وفي قصة موسى عليه السلام مع الخضر، نجد أن الخضر عليه السلام يبذل قصارى جهده لبناء جدار في قرية رفضت ضيافته، ونحن نعلم كم في ذلك من مشقة وعنت، لكنه يبين مقصده من أفعاله تلك بأنه فعل ما فعل من أجل يتيمين، ومراعاة لمصالحهما.

يقول الله تعالى عنه: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗاۖ﴾ [الكهف:٨٢].

٤. السؤال عن الخمر والميسر.

قال تعالى: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة:٢١٩].

يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم القمار، فقل لهما إنّ في تعاطيهما ضررًا عظيمًا وإثمًا كبيرًا، ومنافع مادية ضئيلة، لأنّ ضياع العقل وذهاب المال، وتعريض البدن للمرض في الخمر وما يسببه القمار من خراب البيوت، ودمار الأسر، وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعبين لا يساوي ما فيهما من نفع قليل تافه[2].

ولهذا من حِكَمِ تسمية الخمر بهذا الاسم: أنها تستر العقل وتخامره وتخالطه وتغطيه[3].

والسؤال فيه إضمار لأنه تعالى لم يبين أي حكم، فكأنه قال: يسألونك عن شرب الخمر والعمل بالقمار، فقال: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾، وهذا دل على أن السؤال كان عن شرب الخمر والعمل بالميسر[4].

فإذا تعارضت المصلحة والمفسدة روعي أكبرهما، فعطلت المفسدة الكبرى، ولو بإهمال مصلحة لا توازي تلك المفسدة[5].

وفي الآية تأكيد على أن الخمر والميسر إثم، لقوله تعالى: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة:٢١٩].

وقد حرم الله الإثم، أي: الذنب الذي يؤثم صاحبه، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ

(١) المصدر السابق ٢/ ١٢٠.

(٢) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، الرحيلي، ٢/ ٧٨٩.

(٣) مناظرة بين الإسلام والنصرانية، مجموعة من العلماء، ص٤٢٥.

(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ١٢٠.

(٥) منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، عبد العزيز آل معمر، ٢/ ٦٨٦.

﴿رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وعلى كل فإنه قد يكون في الشيء المحرم فيه منفعة، ولكن ليس كل ما فيه منفعة يجوز استعماله، وقد قال الله عز وجل في الخمر والميسر: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩] فأخبر أن فيهما منافع، ولكن الضر أكبر ، وهكذا المحرمات، قد ينتفع الزاني بالزنا وهو محرم، فليس كل شيء فيه نفع يجوز فعله، بل يجب على الإنسان أن يتبع شرع الله، في الإباحة والحرمة، والغالب أن ما نهى الله عز وجل عنه ونهى عنه رسوله أن نفعه مستغرق في مضراته، وضره أعظم وأشد وأكثر. ولهذا فإن القاعدة الأصولية تقول: إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح؛ ولذلك حرم الله تعالى الخمر مع أن فيه منافع، لكن المفسدة فيه كانت أعظم من المصلحة، ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

فمفاسد الخمر: من زوال العقل وانتشار الفساد والصد عن سبيل الله وعن الصلاة، أكبر من جلب المصلحة الكامنة في الربح الزهيد المترتب على بيع الخمر ونحوه، فيقدم درء المفاسد على المصالح.

٥. السؤال عن المحيض.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

كانت العرب في الجاهلية إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يساكنوها في بيت ولم يجالسوها على فراش كفعل المجوس واليهود ، فسأل أبو الدحداح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال: «يا رسول الله، كيف نصنع بالنساء إذا حضن؟ فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾»[1].

وفي الآية دلالة على أن المراد بالاعتزال عن الحيض جماعهنّ، وذلك أن المجوس واليهود كانوا يجتنبون الحيّض في كل شيء، وكان النصارى يجامعوهن ولا يبالون بالحيض، فأنزل الله تعالى بالاقتصاد بين هذين الأمرين، وخير الأمور أوسطها[2].

لكن مسألة استخدام الحائض ومباشرة بدنها إذا كانت مؤتزرة وبالاستمتاع بها فوق الإزار، فهذا مما أباحه الشرع. وقد دل الأمر باعتزال النساء في المحيض على أن السؤال عن المحيض إنما كان عن الاعتزال، وإن لم

(١) الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/ ١٥٦.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ١٥٨.

يكن في السؤال بيان المراد[1].

ومن الأحكام الخاصة بالرجال في هذه المسألة أنه كره العلماء الصلاة في ثياب النساء، مخافة أن يكون أصابها شيء من دم الحيض[2].

٦. السؤال عن الحلال والحرام.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾ [المائدة:٤].

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يسألك، يا محمد ، أصحابك: ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل؟ فقل لهم: أحل لكم منها الطيبات، وهي الحلال الذي أذن لكم ربكم في أكله من الذبائح وأحل لكم أيضًا مع ذلك، صيد ما علّمتم من الجوارح، وهن الكواسب من سباع البهائم[3].

وفي الآية دلالة على أن السؤال الحاصل يتضمن معنى القول، ماذا أحل لنا؟ وكان التفاتًا من الحاضر إلى الغائب للتنبيه ولتوجيه الذهن[4].

والخطاب للنّبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به العرب، وكانت العرب تستقذر أشياء كثيرة فلا تأكلها، وتستطيب أشياء تأكلها فأحلّ اللّه عز وجل لهم ما استطابوه، ممّا لم ينزل بتحريمه تلاوةٌ مثل: لحوم الأنعام وألبانها، ومثل: الدّوابّ الّتي كانوا يأكلونها من الضّباب واليرابيع والأرانب والظباء وغيرها[5].

كما دل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ : على أن سؤالهم كان عن الطيبات، ومما يصطاد من الجوارح[6].

فالطيبات هي الحلال وكل شيءٍ لم يأت تحريمه في القرآن العظيم ولا في سنة نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما سمي الحلال طيبًا، وإن لم يكن مستلذًا تشبيهًا بما يستلذ[7].

وقال الراغب الأصفهاني: «هو الحلال الذي لا يعقب إثما»[8].

ولا ضرر منه بالبدن والعقل. لكن المسألة الخطيرة هي أنه لا يجوز لنا أن نحكم بأن هذا طيب وهذا خبيث ثم نبنى على ذلك التحريم والتحليل، فإننا لا نعرف مثلما يعرف خالقنا عن كيفية وجدوى ترتيب الأشياء بالنسبة لنا، حتى لا نقع في دائرة الذين يستطيبون المسائل الضارة،

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٣٧٤.
(٢) غريب الحديث، الهروي، ١/ ٣١١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٩/ ٥٤٣.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٤/ ٢٠٣٦.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤/ ٣٠.
(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٤٥٦.
(٧) النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ١٤.
(٨) تفسير الراغب الأصفهاني، ٤/ ٢٧٠.

كهؤلاء الذين يتناولون المخدرات والسموم والخمور[1].

ورد في سبب نزولها أن زيد بن الخيل الطّائي، وعدي بن حاتم الطّائي سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالا: إنّا نصطاد بالكلاب، فماذا يحل منه وما يحرم؟ فنزلت الآية[2].

قال ابن تيمية: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] جاء بعدها، قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤].

فأخبر أنّه أحلّها ذلك اليوم، وسورة المائدة مدنيّةٌ بالإجماع، وسورة الأنعام مكّيّةٌ بالإجماع، فعلم أنّ تحليل الطّيّبات كان بالمدينة لا بمكّة[3].

يقول رشيد رضا مؤكدًا هذه القاعدة الأصولية: «إنه من المعلوم أنّ الله سخّر هذه الأرض وما فيها للنّاس ينتفعون بها، وإنّما المحظور عليهم هو ما يضرّهم، ولكنّ النّاس لا يقفون عند حدود الفطرة، بل دأبهم الجناية على فطرتهم، ومن ذلك أنّ العرب استباحت أكل الميتة والدّم المسفوح من الخبائث الضّارّة، وحرّمت على أنفسها بعض الطّيّبات كالبحيرة والسّائبة وغير ذلك، ولأجل هذا كانت الحاجة قاضيةً ببيان ما يحلّه الله وما حرّمه ممّا أحلّوه، وذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾»[4].

إن صيغة المضارع المستعملة هنا للدلالة على تجدد السؤال، أي تكرره أو توقع تكرره، وعليه فوجه فصل جملة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أنها استئناف بياني ناشئ عن جملة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣].

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة:٣]، أو هي استئناف ابتدائي: للانتقال من بيان المحرمات إلى بيان الحلال بالذات، وإن كان السؤال لم يقع، وإنما قصد به توقع السؤال، كأنه قيل: إن سألوك عن كذا فجوابه كذا لتوقع السؤال[5].

يقول أبو حيان الأندلسي: «والظّاهر أنّ المعنى: ماذا أحلّ لهم من المطاعم، لأنّه لمّا ذكر ما حرّم من الميتة وما عطف عليه من الخبائث، سألوا عمّا يحلّ لهم؟ ولمّا كان يسألونك الفاعل فيه ضميرٌ غائبٌ قال لهم بضمير الغائب»[6].

وقوله: ﴿مَاذَآ أُحِلَّ﴾؟ استفهام معلّق للسؤال، وإن لم يكن السؤال من أفعال القلوب إلاّ أنّه كان سبب العلم، والعلم يعلق، فكذلك سببه[7].

(١) تفسير الشعراوي، ٥/ ٢٩٣٢.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني، ٢/ ١٢.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ١/ ١٦٢.
(٤) المنار، محمد رشيد رضا، ٦/ ١٤٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ٣٦.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٤/ ١٧٨.
(٧) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٧/ ٢٠٣.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾:

قال الماتريدي: «اختلف في هذه الآية: هذا المسألة من المسائل التي وقعت ثم أجاب الله عنها، وكان الجواب ملتصقًا بالسؤال، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة:٤].

والله لم يتكلم بهذا الجواب في القرآن قبل أن يسألوا، بل بعد أن سألوا»[١].

وأما القول في قوله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾: كأنهم سألوا رسول اللّه، صلى الله عليه وسلم عما يحل من الجوارح؛ فذكر ذلك لهم، مع ما ذكر في بعض القصة: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل الكلاب، فأتاه أناس، فقالوا: ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ الآية[٢].

قال الشّافعي رحمه الله: «أصل التحريم، نص كتاب، أو سنّة، أو جملة كتاب، أو سنّة، أو إجماع. قال اللّه عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤] الآية. وإنّما تكون الطّيّبات والخبائث عند الآكلين كانوا لها، وهم العرب الّذين سألوا عن هذا، ونزلت فيهم الأحكام، وكانوا يكرهون من خبيث المآكل ما لا يكرهها غيرهم»[٣].

وقال ابن كثير: «إنّ آية التّحريم، أعني قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣] إلى آخرها، محكمةٌ لم يدخلها نسخٌ ولا تخصيصٌ، وكذا ينبغي أن تكون آية التّحليل محكمةً، أعني قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤] فينبغي ألّا يكون بينهما تعارضٌ أصلًا وتكون السّنّة جاءت لبيان ذلك»[٤].

٧. السؤال عن القتال في الشهر الحرام.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة:٢١٧].

يسألونك يا محمد أصحابك عن قتال في الشهر الحرام وهو رجب[٥]. فقل يا محمد إن القتال فيه واستحلال الدم وسفكه فيه عظيم عند الله[٦].

(١) شرح العقيدة السفارينية، ابن عثيمين، ص٤١٨.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٤٥٧.
(٣) الأم، الشافعي، ٢/ ٢٧١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٠.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٩٩.
(٦) المصدر السابق، ٤/ ٣٠٠.

لكن الصد عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم عنه إذ أنتم أهله وولاته، أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم[1].

وفي الآية دلالة على أن ظاهرها يحرم القتال في أشهر الحج، لكن فيه دليل على حل القتال بقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧].

والفتنة الشرك، أي : إن الشرك فيه أكبر وأعظم من القتل[2].

أنّ رجلًا من بني تميمٍ أرسله رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في سريّةٍ، فلقي ابن الحضرميّ يحمل خمرًا من الطّائف إلى مكّة فرماه بسهمٍ فقتله، وذلك في آخر يومٍ من جمادى الآخرة وأوّل يومٍ من رجبٍ، وكان بين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبين قريشٍ عهدٌ، فقالت قريشٌ: أفي الشّهر الحرام قتلتم ولنا عهدٌ؟ فأنزل اللّه عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٧] إلى قوله: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ [البقرة:٢١٧] يقول: كلّ هذا أكبر من قتل ابن الحضرميّ، ثمّ قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ [البقرة:٢١٧]. يعني: الكفر باللّه، وعبادة الأوثان أكبر من هذا كلّه[3].

(١) المصدر السابق، ٤/ ٣٠٥.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٦٥.
(٣) تفسير مجاهد، ص٢٣١.

فهذه القضية أظهرت قضيتين:

الأولى: القتال في الأشهر الحرم وحرمة القتال فيه.

والقضية الثانية: متعلقة في الكفر بالله عز وجل والصد عن سبيله وإيذاء العباد والبلاد لدرجة الفتنة عن الدين وإخراج الناس من أوطانهم وديارهم.

فهذا السؤال أجاب عن هذه المعادلة بشكل جريء وبين أن الصد عن سبيل الله وفتنة الناس عن دينها أعظم حرمة من التستر وراء حرمة القتال في الأشهر الحرم. إنها واقعية الإسلام العظمى التي لا تخدم المثاليات الميتة، بل هي الحلول المناسبة لكل حالة ولكل موقف ولكل ظرف، فلكل حادثة سياقها الذي خرجت منه ولا يجوز الحكم عليها بحكم التاريخ.

٨. السؤال عن تقسيم الغنائم.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال:١].

السؤال عن الغنائم يحتمل وجهين:

الأول: يحتمل أنهم سألوا عن حلها وحرمتها؛ لأنها كانت لا تحل في الابتداء.

والثاني: يحتمل السؤال عن قسمتها، وهو ما روي في بعض القصة أن الناس كانوا يوم بدر ثلاثة أثلاث: ثلث في نحر العدو،

وثلث خلفهم ردءًا لهم، وثلث مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يحرسونه، فلما فتح اللّه عليهم اختلفوا في الغنائم، فقال الأوائل: نحن أحق بالغنائم، نحن ولينا القتال، وقال من كان ردءًا لهم: لستم بأولى بها منا، وكنا لكم ردءًا، وقال حرس رسول اللّه: لستم بأحق بها منا، كنا نحن حرسًا لرسول اللّه فتنازعوا فيها إلى رسول اللّه، فنزل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال:١][1].

وفي الآية دلالة على أن سؤالهم يتضمن العطاء، فكأنهم يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: أعطنا، لكن الله جعل الخمس مخصوصًا لأهله صلى الله عليه وسلم، وذلك على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[الأنفال:٤١] ، فقد بين أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قسم هذا الخمس على خمسة أنصباء، خمسٍ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وخمس ليتامى المسلمين لا ليتامى آل النبي صلى الله عليه وسلم ، وخمس في المساكين - مساكين المسلمين لا مساكين النبي صلى الله عليه وسلم وخمس لابن السبيل.

قال الشّافعي رحمه الله: « قال محمد بن إسحاق: سئل عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، انتزعه اللّه منا حين اختلفنا، وساءت أخلاقنا، فجعله اللّه عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم يجعله حيث شاء»[2]. أي: كانت غنائم معركة بدر لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث شاء، بعد أن سلمها المسلمون وردها صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على فقرائهم.

هذه الحادثة حصلت للصحابة بعد معركة بدر الكبرى، والتي كانت بلا شك مفصلًا عظيمًا في تاريخ هذه الأمة بل كانت أعظم معركة في تاريخ الإسلام، ولهذا سميت بيوم الفرقان، الذي يفرق بين الحق والباطل، وأنتجت أعظم رجال بعد الأنبياء، وساهمت في تحرير الإنسانية من عبادة العباد إلى عبادة الله عز وجل ، وهذا السؤال القرآني في بداية سورة الأنفال جاء ليبين لنا الحالة البشرية بكل رغباتها وشهواتها الفطرية التي لا تغيب عن الصحابة رغم معاشرتهم الطويلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد اختلفوا على سيف ورمح ودرع ؛ ولهذا جاء العتاب من رب الأرباب وأسند الأمر إلى الله ورسوله.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١/ ٣١٨.

(٢) الأم، الشافعي، ٧/ ٣٥٣.

السؤال عن الجانب الإخباري

يتناول هذا المبحث ثلاث قضايا إخبارية تاريخية لكنها في غاية الأهمية:

القضية الأولى السؤال عن أصحاب الكهف وبيان سر هروبهم من بلدتهم التي كانوا يسكنون فيها إلى كهف مظلم، تاركين المال والجاه والغنى والسلطان والطعام والشراب والنوم الهنيء إلى حيث لا مال ولا جاه ولا طعام بل ظلام ونوم على التراب.

أما السؤال الثاني فكان عن قضية إخبارية عن ملك عادل متواضع، يجوب الأرض شرقًا وغربًا، لا هم له سوى مساعدة الناس وإنقاذهم من الجهل والعدوان والظلم.

أما السؤال الثالث، فكان عن قصة نبي ورسول من أولي العزم، ظن في وهلة أنه أعلم الأرض، فأخبره الله تعالى أن هناك من هو أعلم منه، فأظهر حرصه العظيم على اتباع ذلك العالم الذي آتاه الله عز وجل من لدنه علمًا، رغم بعد المسافة بينهما.

والمدقق يجد أن المقصد من هذه الأسئلة أن تكون دليلًا قويًا على صدق نبوة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

والمطالب المتعلقة بهذا المبحث:

١. السؤال عن أصحاب الكهف.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۝١٤﴾ [الكهف: ٩-١٤].

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ [الكهف:١٩].

ذكر محمّد بن إسحاق سبب نزول هذه القصّة مشروحًا ، فقال كان النّضر بن الحارث من شياطين قريشٍ وكان يؤذي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث رستم وإسفنديار، وكان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلسًا ذكر فيه اللّه وحدّث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، وكان النّضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا واللّه يا معشر قريشٍ أحسن

حديثًا منه، فهلمّوا فأنا أحدّثكم بأحسن من حديثه، ثمّ يحدّثهم عن ملوك فارس، ثمّ إنّ قريشًا بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيطٍ إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلوهم عن محمّدٍ وصفته وأخبروهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتّى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمّدٍ ، فقال أحبار اليهود: سلوه عن ثلاثٍ: عن فتيةٍ ذهبوا في الدّهر الأوّل ما كان من أمرهم فإنّ حديثهم عجبٌ، وعن رجلٍ طوّافٍ قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الرّوح وما هو؟ فإن أخبركم فهو نبيٌّ وإلّا فهو متقوّلٌ، فلمّا قدم النّضر وصاحبه مكّة قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمّدٍ، وأخبروا بما قاله اليهود فجاؤوا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (أخبركم بما سألتم عنه غدًا) ولم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلةً حتّى أرجف أهل مكّة به، وقالوا: وعدنا محمّدٌ غدًا واليوم خمس عشرة ليلةً فشقّ عليه ذلك، ثمّ جاءه جبريل من عند اللّه بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة اللّه إيّاه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرّجل الطّوّاف»[1].

يقول فخر الدين الرازي: «اعلم أنّ القوم تعجّبوا من قصّة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرّسول على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت أنّهم كانوا عجبًا من آياتنا فقط، فلا تحسبنّ ذلك فإنّ آياتنا كلّها عجبٌ، فإنّ من كان قادرًا على تخليق السموات والأرض ثمّ يزيّنها ثمّ يجعلها بعد ذلك صعيدًا جرزًا خاليةً عن الكلّ كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفةٍ مدّة ثلاثمائة سنةٍ وأكثر في النّوم، هذا هو الوجه في تقرير النّظم، واللّه أعلم»[2].

وقد اختلف أهل العلم في سبب مصير هؤلاء الفتية إلى الكهف، فقال بعضهم: أنهم كانوا مسلمين على دين عيسى، وكان لهم ملك عابد وثن، دعاهم إلى عبادة الأصنام، فهربوا بدينهم منه خشية أن يفتنهم عن دينهم، أو يقتلهم، فاستخفوا منه في الكهف[3].

والفتية: جمع فتى، والفتى: بمعنى الكامل من الرجال[4]. قال سهل: إنما سماهم فتية لأنهم آمنوا به بلا واسطة، وقاموا إليه بإسقاط العلائق عن أنفسهم[5].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ٧٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٦٠٥.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٦٦.
(٥) تفسير التستري، ١/ ٩٧.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف:١٩] بعثهم الله عز وجل من رقدتهم ونومهم الذي يشبه الموت؛ وحفظ أجسادهم وأشعارهم وأبشارهم وثيابهم، حيث لم يفقدوا رغم طول الزمان جزءاً من أحوالهم وهيئاتهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين[١]، فحفظهم من البلى على طول الزمان[٢]، لما علم ما يكون منهم، وهو التساؤل[٣].

ويسأل بعضهم بعضًا عن مقدار نومهم، واللام في: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟﴾ لام العاقبة، كاللام في: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]؛ لأنهم لم يبعثوا لمجرد السؤال[٤]، لكنهم سألوا ليعرفوا عظيم قدرة الله فيزدادوا يقينًا في إيمانهم؛ إذ لبثوا مدة عظيمة من الزمان وهيئهم وثيابهم لم يتغيرا[٥]. فالمقصود من التساؤل إظهار القدرة الإلهية على الإنامة والبعث جميعًا[٦].

والتساؤل الذي حصل مداره أن واحدًا منهم قال: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩] فأجابه واحد منهم على سؤاله قائلًا: لبثنا يومًا؛ لأنه أطول مدة النوم المعهود، فلما رأى الشمس لم تغرب قال ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم أنيموا أول النهار ونبهوا آخره[٧]. فكأنه حصل بينهم تنازع واختلاف في حقيقة مدة اللبث في الكهف.

وهذه الحالة مشابهة لقصة العزير، حين قال الله تعالى عنه: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩].

٢. السؤال عن ذي القرنين.

قال الله عز وجل في كتابه العزيز يصف ذي القرنين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف:٨٣-٨٥].

وفي الآية دلالة على أن القرآن العظيم لم يؤرخ لهذا الزعيم التقي الراشد، ولم يقم له تمثالًا، إنما ركز على الأوصاف التي تعني الحق وتعني الخلق. فيكفي أن نعلم أنه إنسان مكّنه الله في الأرض، يعني: أعطاه من أسباب القوة وأسباب المهابة والسيطرة، وأعطاه من كلّ مقوّمات القوة: أعطاه المال والعلم والجيوش، فلم يكتف بذلك كله، بل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٤٥.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ١٥٩.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٧/ ١٥١.
(٤) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ١٥٩.
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٦/ ٤٣٤٦.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٢٩١.
(٧) النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٢٩٣.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف:٨٥].

يعني: أخذ بالأسباب التي تؤدّي إلى الخير. من جهة أخرى فإن القرآن وهو يحدثنا عن شخصيات الأبطال في قصص؛ لم يهتم بمسألة تأريخ عريق لهذه الشخصيات، ولم يعطها أي نوع من الخصوصية؛ بل أرادها أن تكون شخصيات عامة لتكون مثلًا يحتذى، ويتم بها الاعتبار، وتحدث الأثر المراد من القصة ، ولو تم تشخيصهم وتعيينهم لقال الناس: إنها حادثة خاصة بهؤلاء، أو أنهم نماذج لا تتكرر؛ لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأسوة تسير في الزمان كله.

إن التمكين لذي القرنين كان بمنحه الأسباب التالية:

١. التمكين بالعلم والتدبير وحسن التصرف: أعطاه من العلوم ما يجعله قادرًا على استقراء سنن الأمم صعودًا وهبوطًا ، وزوده الله بعلم منازل الأرض وعرفه ألسنة الأقوام، فكان لا يغزو قومًا إلا خاطبهم بلسانهم ، ويقول خير يوسف: «أي جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار»[١].

٢. التمكين بكثرة الأعوان والجنود وأسباب القوة: إن التمكين بكثرة الجنود أسهم في إلقاء الرعب في نفوس الأعداء، الأمر الذي سهل لذي القرنين فتح المشرق والمغرب حتى خضعت له الملوك والشعوب ، وكانت العلاقة الطيبة بينه وبين الرعية أثر بالغ في تنفيذ المشاريع التي خطط لها من فتح البلاد وإقامة السدود وضرب الأعداء ،كما أن الله أكرم ذي القرنين حيث «مكن له في سياسة النفوس أفرادًا وجماعاتٍ تهذيبًا وتربية وانتظامًا»[٢].

٣. التمكين في أسباب العمران والحضارة: مكن الله لذي القرنين من خلال ما زوده به من قوة وعلم في بناء الحضارات، «فخطط للمدن وشق القنوات وبنى السدود ونمى الزراعة»[٣].

٣. السؤال عن موسى وصاحبه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى

(١) ذو القرنين، القائد الفاتح والحاكم الصالح، محمد خير، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص٣٠٤.

(٣) المصدر السابق.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف:٦٠ - ٦٥].

من الواضح أن موسى عليه السلام استخدم السؤال ليعرف مكان الخضر عليه السلام ويتعلم منه، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فمرّ بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه؟ فقال أبي: نعم سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه يقول: (بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: أتعلم أحدًا أعلم منك؟ فقال موسى: لا فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى عبدنا خضر. فسأل السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه... الحديث)[1].

كما استخدم عليه السلام السؤال في اتباعه الخضر، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

قال القرطبي في تفسير الآية: «هذا سؤال الملاطف المستنزل المبالغ في حسن الأدب، والمعنى هل يتفق لك ويخف عليك»[2].

وقد استخدم نبي الله موسى عليه السلام السؤال هنا لتحقيق أغراض ،منها: الاتباع، والتعلم الراشد.

إن طلب الخضر من نبي الله موسى عليه السلام أن لا يسأله عن شيء حتى يبينه له، يدل على أن السؤال من الوسائل المهمة لمعرفة أسباب القيام ببعض الأمور التي لا يرى لها حكمًا ظاهرة، فيجلي أسرارها وخفاياها.

كان السؤال وسيلة موسى عليه السلام الوحيدة التي استخدمها للتعبير عن إنكاره لما يجرى أمام عينيه، لأنه في تصوره تعدٍّ وظلم في الظاهر، ولهذا كثرت أسئلته الإنكارية التي أوردها القرآن كما جاءت في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف:٧١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

فموسى عليه السلام بشخصيته التي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم، رقم ٧٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١/ ١٧.

لا تتحمل القهر لم يصبر ، على تصرفات الخضر، أكثر من الأسئلة بطريقة منكرة، وهذا يدل على فاعلية السؤال وقوة تأثيره في القصة، إذ أثمر معرفةً وفهمًا وتفسيرًا لأمور كانت أسبابها غامضة وغير معروفة وغير ظاهرة للعيان.

وفعل موسى عليه السلام يدل على الآتي: على أنه لا ينبغي لأحد ترك طلب العلم والازدياد منه والرحلة فيه وإن كان قد بلغ فيه مبلغه ، ويدل على وجوب التواضع لمن هو أعلم منه[1].

وفي الآيات دلالات على أن الاشتغال بالنوافل وترك التعلم، يورث الجهل ، وهذا يتنافى مع مقصد الشريعة التي تأمر أصحابها بزيادة العلم، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجعل من دعائه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

وقال تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام، ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

وقال تعالى حاثا الأمة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢].

ومن دلالات الآيات أن موسى عليه السلام لما اجتمع بصاحبه، تواضع له كما يتواضع التلاميذ لأساتذتهم، واتبعه في صورة مستفيد منه، وهذا مما يدلّ على أنه نبيٌّ مثله، يوحى إليه كما يوحى إليه، لكن الله عز وجل قد خصّ صاحب موسى عليه السلام من العلوم اللدنيّة والأسرار النبويّة بما لم يطلع الله عليه نبيه موسى الكليم عليه السلام.

وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦] دلالة على أن موسى عليه السلام أفضل من صاحبه، وأن الخضر لن يفضل موسى أبدًا، ومع ذلك لما آتاه الله شيئًا من العلم سأله سؤال المتأدب المتلطف معه.

وقد وجه القرآن الكريم المتعلمين إلى الحرص على السؤال والتعلم حتى لو كان من يتعلم منه أقل فضلًا ممن يتعلم، فنبي الله موسى عليه السلام كان حريصًا على التعلم من الخضر مع كونه أفضل منه.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

قال الرازي: «إن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه، ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له»[2].

قال الرازي: «اعلم أن هذه تدل على أن

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٦/ ٤٤٢٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢١/ ١٣٥.

موسى عليه السلام راعى أنواعًا كثيرة من الأدب عندما أراد أن يتعلم من الخضر، حيث جعل نفسه تابعًا ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف:٦٦].

وثانيها :أنه استأذن في هذه التبعية، هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعًا لك ، وهذا مبالغة عظيمة في التواضع»[١].

وأن الأمور لا تجري أو تقاس على حسب الظاهر منها، بل ربما يكون الأمر على خلاف الأمر الظاهر ، فلا نستعجل بالأحكام على الخلق ، وأن على المسلم أن يعتقد دائمًا أن هناك من هو أعلم منه، وهذا نتعلمه من موقف موسى عليه السلام حين سئل عن هذا الموضوع، فأجاب: ليس على الأرض من هو أعلم مني - ولم يستثن - ولم يقل: إن شاء الله ، فأوحى الله إليه أنه يوجد من هو أعلم منك في الأرض في مجمع البحرين.

ولقد دلت هذه القصة على مشروعية الصحبة في طلب العلم، وهذا ما فعله موسى عليه السلام حين خرج ومعه فتاه.

إن القرآن الكريم لم يخبرنا عن اسم صاحب موسى عليه السلام، لتبقى سلسلة المفاجآت المتوالية هي المسيطرة على هذا الجو الغامض الذي أحاط بسيدنا موسى عليه السلام، قال سيد قطب: «إنما يراد به أن يمثل الحكمة الكونية العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة»[٢].

(١) المصدر السابق ٢١/ ١٣٧.

(٢) التصور الفني في القرآن، سيد قطب، ص١٨٤.

السؤال عن المخلوقات الكونية

في هذا المبحث سوف ينحصر الحديث عن سؤالين في القرآن الكريم، وهما سؤال عن الأهلة وسؤال عن الجبال، والمدقق يجد أنهما مخلوقات كونية لها تأثير بالغ في حياة الناس، وخصوصًا الهلال الذي عبر عنه بالجمع رغم أنه واحد، وذلك لعظم فوائده ، وملخص الأمر يدور على أن المرء لا بد أن يسأل عما ينفعه ويترك السؤال عما لا يعنيه. وهذا المبحث له مطلبان:

١ . السؤال عن الأهلة.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة:١٨٩].

روي عن معاذ بن جبلٍ، وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثمّ يزيد؛ حتّى يمتلىء ويستوي، ويستدير، ثمّ لا يزال ينقص حتّى يعود كما بدأ، لا يكون على حالةٍ واحدةٍ؛ كالشّمس، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾[1].

ثم معنى السؤال عن الأهلة : هو أنهم لما رأوا الشمس تطلع دائمًا على حالة واحدة، ورأوا القمر مختلف الأحوال فحملهم ذلك على السؤال عن حال القمر، فأخبر عز وجل أنه جعل الهلال معرفًا للخلق الأوقات ومعرفة وقت الحج ، وعدة النساء وتعرف الشهور، ورمضان ونعرف شهر الحج، وآجال العقود في البيع والإيجار، وسداد الديون وأوقات الزرع، إلخ، لأنه لو جعل معرفة ذلك بالأيام لاشتد حساب ذلك عليهم، ولتعذر معرفة السنين والأوقات بالأيام ، فجعل عز وجل بلطفه وبرحمته، الأهلة ليعرفوا بذلك الآجال، ويعرفوا وقت الزكاة؛ طلبًا للتخفيف والتيسير عليهم[2].

وقيل: إنهم لمّا سألوا عن شيء قليل الجدوى أجيبوا بما فيه فائدةٌ، وعدل عن سؤالهم إذ لا فائدة فيه[3].

وفي الآية دلالة على أن المرء لا بد أن يسأل عما ينفعه ويترك السؤال عما لا يعنيه. فالجواب عن الأهلة بهذا الشكل أفاد بأن السؤال عن سر الاختلاف، ليس فيه منفعة شرعية، وإنما ينبغي الاهتمام بما فيه منفعة دينية[4]. وشاهده في السنة قوله صلى الله عليه وسلم: (من حسن إسلام المرء تركه

(١) انظر: أسباب النّزول، الواحدي، رقم ١٠٩، الدر المنثور، السيوطي ١/ ٤٩٠.

(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٦٠.

(٣) غرائب التفسير، الكرماني ١/ ٢٠٢.

(٤) البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ٢٣٩.

ما لا يعنيه)[1]. كما أفادتنا الآية الشهور القمرية لها فوائد عظيمة، إذ بها تعرف كثير من العبادات، وما سمّي الهلال هلالًا إلا لأنه حين يرى يهل الناس بذكر الله[2]، وقيل: هو من البيان، أي: لظهوره وقت رؤيته بعد خفائه، ولذلك يقال: تهلّل وجهه: ظهر فيه بشرٌ وسرورٌ[3]. فالهلال ليلتان من أول الشهر أو ثلاث، وما بينهما «قمرٌ»[4]. ويقال له: «بدرٌ» من ١٢ إلى ١٤ [5]، ولقد جمع الهلال، رغم إفراده؛ اعتبارًا باختلاف أزمانه ، وعلى اعتبار أنه هلالًا في شهر غير كونه هلالًا في آخر[6]. إن مذهب العرب من الزمان الأول أن تكون السنة قمرية لا شمسية، وهذا الحكم توارثوه عن إبراهيم وإسماعيل، عليها السلام ، فأما عند اليهود والنصارى، فليس الأمر كذلك، فالسنة عندهم شمسية.

ويؤيد هذا تجريد الجواب من كلمة قل التي ذكرت في مواقع السؤال من القرآن نحو: مع ما في هذا النظم العجيب من زيادة إخراج الكلام في صورة الحكم الكلي ؛ إذ جاء بحكم عام في سياق الشرط فقال: ﴿سَأَلَكَ عِبَادِي﴾ وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ ولو قيل: وليدعوني فأستجيب لهم لكان حكمًا جزئيًّا خاصًّا بهم، فقد ظهر وجه اتصال الآية بالآيات قبلها ومناسبتها لهن وارتباطها بهن من غير أن يكون هنالك اعتراض جملة»[7].

٢. السؤال عن الجبال.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

قال مقاتل: «نزلت في رجال من ثقيف[8] أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا يا محمد: كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فنزلت هذه الآية»[9]. وزاد ابن عاشور فقال: «وثقيف أهل جبالٍ لأنّ موطنهم الطّائف وفيه جبل كرى، وسواءٌ كان سؤالهم استهزاءً أم استرشادًا، فقد أنبأهم اللّه بمصير الجبال إبطالًا لشبهتهم وتعليمًا للمؤمنين»[10].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ٢/ ١٣١٥.رقم ٣٩٧٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٢٧، رقم ٥٩١١.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/ ٨٥.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٣/ ٣٣٢.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١١٢.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٣/ ٣٣٢.
(٦) المصدر السابق.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ١٧٦.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٤١.
(٩) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ١٧٦.
(١٠) التحرير والتنوير لبن عاشور ١٦/ ٣٠٧.

مقاصد السؤال وآدابه

أولًا: مقاصد السؤال:

يمكن تحديد مقاصد السؤال من خلال النقاط التالية:

١. التعنت.

وهو طلب العنت وهو المشقّة[١].

وقال ابن منظور: « أصل التعنت التشديد»[٢]، وإدخال المشقة والأذى على الغير[٣]. ومنه سؤال اليهود النبي الكريم عن الروح، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥].

حيث كانوا يقصدون من مسائلهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم المزلة والإنقاص. ولذلك يقال لكل من يتعنت في السؤال فإنه يطلب مزلته[٤]، وإيذاء المسؤول وإدخال المشقة عليه، ووضح كذلك من سؤال بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان:٢١].

فقد سألوه سؤال تعنت، لا سؤال مسترشد ، والأمثلة على التعنت كثيرة، ومنها ما فعلته قريش عندما طلبت من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات وآيات اقترحوها، ولو تدبرت قريش كلام الله لوجدوا في القرآن المسطور وفي الكون المنظور أضعافًا مضاعفة من هاته الآيات التي طلبوها.

قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

٢. الاحتجاج.

وهو الاستقامة في النّظر سواء كان من جهة ما يطلب معرفته أو من جهة غيره[٥].

وغالبًا يصدر عن المشركين، على خصمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجّة. ومثاله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢١٧].

والحجة من الاحتجاج، قال اللّه تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة:١٥٠].

وفي الآية: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣]. أي: غلبني في الاحتجاج[٦].

(١) انظر: طلبة الطلبة، النسفي، ص٢٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ٦١.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٠٢.
(٤) شمس العلوم، الحميري، ٧/ ٤٨٠٠.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري، ص٧٠.
(٦) لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٣٧٨.

ومن أضداده الاعتلال، وهو الاحتجاج بما ليس حجة[1]، وفي حديث الدّجّال: (إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه)[2]، أي: مغالبه بإظهار الحجّة عليه[3].

ومن الأمثلة عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩].

قال ابن عطية: « سؤال موجه للرسل والهدف منه: « لتقوم الحجة على الأمم ويبتدأ حسابهم على الواضح المستبين لكل مفطور»[4].

يقول الماتريدي: « إنه سبحانه « يسأل الرسل عن تبليغ الرسالة إلى قومهم، ويسأل قومهم عن إجابتهم لهم؛ ليقطع احتجاجهم، وإن لم يكن لهم الحجاج»[5].

٣. الاستهزاء.

يقول الله تعالى مخبرًا عن استهزاء وسخرية كفار قريش من المؤمنين: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣].

وكسؤال المنافقين تهكمًا وتكبرًا وتبخترًا، ومثاله ما رواه البخاري عن أبي موسى، قال: (سئل النّبيّ صلى الله عليه وسلم عن أشياء كرهها، فلمّا أكثر عليه غضب، ثمّ قال للنّاس: (سلوني عمّا شئتم) قال رجلٌ: من أبي؟ قال: (أبوك حذافة) فقام آخر فقال: من أبي يا رسول اللّه؟ فقال: (أبوك سالمٌ مولى شيبة) فلمّا رأى عمر ما في وجهه قال: يا رسول اللّه، إنّا نتوب إلى اللّه عزّ وجلّ)[6].

وتعليق الاستهزاء بالله عز وجل مجازٌ جلّ ربّنا عن الاستهزاء ، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٥] أي: يجازيهم على استهزائهم.. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

أورد الطبري بسنده عن قتادة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها! فأطلع الله نبيه

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٠٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم٢٩٣٧.
(٣) تاج العروس، الزبيدي، ٥/ ٤٦٨.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٥٦.
(٥) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٦٤٦.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتّعليم إذا رأى ما يكره، رقم٩٢.

صلى الله عليه وسلم على ما قالوا، فقال: عليّ بهؤلاء النفر! فدعاهم فقال : (قلتم كذا وكذا) ! فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب![1].

٤. الاسترشاد.

أصله أن يسأل الرجل من يرشده، وهذا مقصد المؤمن من أسئلته، فمقصده من سؤاله الاسترشاد، ومعرفة أحكام الله سبحانه وتعالى، وأحكام رسوله صلى الله عليه وسلم في المسائل ليعمل بها ، ومثّلوا لسؤال الاسترشاد الذي من هذا القبيل بسؤال الملائكة إذ قالوا لربّهم كما جاء في سورة البقرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

وقد يطرح المتكلم سؤالًا استفهاميًّا ظاهره يشعر بالاستشكال أو الاعتراض، وغرضه الاسترشاد، ويمكن أن نعتبر من الأمثلة على هذا أسئلة موسى للخضر في اعتراضاته على تصرّفاته، كما أبان الله لنا في سورة الكهف، ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف:٧١].

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٣٤.

٥. التقرير.

وهو تحصيل ما لم يصرح به القول[2]، يراد منه أن يكون المسؤول متيقظًا لما يراد به من الاطلاع عليه، كما قال الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه:١٧][3]. ومنه الطلب من القوم الإقرار بالشيء.

قال الماتريدي: «وهو كقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦].

هذا السؤال تقريري لا غير؛ لأنه كان يعلم أنه لم يقل لهم ذلك، لكنه سألهم تقريرًا؛ ليقروا بذلك؛ لئلا يقولوا: هو قال لهم ذلك»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَ السَّٰحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزخرف:٤٩] أسلوب إنشائي في صورة نداء غرضه التقرير. وكقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

٦. الامتحان.

وهو من المحن[5]، وهو الاختبار.

قال تعالى: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠].

وذلك حتى تظهر حال المسؤول على

(٢) الفروق اللغوية، العسكري، ص٦٤.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٢٤٨.
(٤) المصدر السابق، ٤/ ٣٦٠.
(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢/ ٢٤٨.

حقيقتها فيعترف بقصوره عن الإحاطة بالأشياء، كفعل الملائكة عند قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[البقرة:٣١].

بقولهم: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢][(١)].

٧. التعجب والبراءة.

وهو استعظام شيء زائد على غيره لمزيّة فيه[(٢)]، وذلك حين يكون السؤال بريئًا غير موجه بهدف أو مقصد، وليس المقصود منه الإساءة والشتم والإغاضة، بل المقصود الإيضاح حول موضوع معين تعجب منه. ومن التعجيب قوله جلّ ثناؤه: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ [البقرة:٢٨].

وكذلك يمكن تمثيله بسؤال زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام حين وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا﴾ [آل عمران:٣٧].

فعندها قال زكريا: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران:٣٧].

ومثله كذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾ [يس:٧٧].

(١) شمس العلوم، الحميري، ٩/ ٦٢٣٨.
(٢) اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، محمد علي السراج، ص١١٨.

يقول الواحدي: «ألا يرى أنه مخلوق من نطفة، ثم هو يخاصم! وهذا تعجيب من جهله، وإنكار عليه خصومته، أي: كيف لا يتفكر في بدء خلقه حتى يدع خصومته»[(٣)].

ومعنى الكلام: التعجّب من جهل هذا المعاند الألد المكابر المخاصم في إنكاره البعث ، فالكلام يفهم حالة من التّعجيب الشديد من تطوّر الإنسان من أمهن حالةٍ إلى أبدع حالةٍ ، وهي حالة الخصومة والإبانة النّاشئتين عن التّفكير والتّعقّل، والدّلالة على كفرانه النّعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعم عليه[(٤)].

ثانيًا: آداب السؤال:

هناك عدد لا بأس من الآداب تتعلق بالسائل تجاه المسؤول، نختار منها الآتي:

١. مراعاة المناسبة وعدم إيذاء العلماء بمضايقتهم في أوقاتهم وحسن اختيار مكانه.

فاختيار الوقت ومكانه الذي يتفرغ فيه المسؤول أمر في غاية الأدب، فلا تشغل المفتي وهو مشغول أو نائم ، فيتصل به تلفونيًا قبل الفجر أو بعده ، فهذا لم ترع المناسبة والأعراف ، لهذا أدبنا الله عز وجل أن نستأذن قبل أن نلج الأماكن الخاصة بالآخرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(٣) الوسيط، الواحدي، ٣/ ٥٢٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ١٠٣.

﴿يَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور:٥٨].

٢. أن يكون السؤال استفهاميًّا وليس إنكاريًّا أو تعجيزيًّا.

ولهذا كانت أسئلة الصحابة للنبي الكريم ضمن الأسئلة الاستفهامية وليس التعجيزية، ومثاله: قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [البقرة:٢٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢١٥].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة:١٨٩].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٤].

٣. معرفة مقام من تسأل، فإن غاب عن السائل مقام المسؤول ربما قل أدبه، وكان سؤاله تعجيزيًّا.

ولو كانت يهود أو قريش تعرف مقام ربها ومقام نبيها ما سألت رسول الله إنزال كتاب من السماء، ولهذا جاء الخطاب القرآني مستهجناً هذه الطريقة في السؤال، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣].

٤. الاختصار في السؤال.

وهو مستنبط من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [المجادلة:١٢].

وقت النبي الكريم ليس كوقت واحد من المسلمين، فإن كثرت المناجاة وكثرت المسائل زاد التكليف وعظمت المشقة، ولهذا كان لا بد من منهج يحدد التعامل مع النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في عرض المسائل، قال فخر الدين الرازي، « قال ابن عبّاسٍ: إنّ المسلمين أكثروا المسائل على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حتّى شقّوا عليه، وأراد اللّه أن يخفّف عن نبيّه، فلمّا نزلت هذه الآية شحّ كثيرٌ من النّاس فكفّوا عن المسألة »[1].

٥. جمال العبارة والأسلوب اللطيف.

لا بد للسائل أن تكون عبارته جميلة ومحتشمة مليئة بالتلطف والأدب، وتراعي نفسية المسؤول، وفيها هيبة للعالم الذي يسأل، وخالية من العبارات السوقية ، بل ينادي المفتي بم يليق به من مقام، وقد كان موسى عليه السلام في غاية التلطف عند سؤال الخضر في اتباعه والتعلم منه، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٩/ ٤٩٥.

٦. الوضوح وتجنب الغموض والإبهام في السؤال.

ففي أحيان كثيرة، يكون السؤال غامضًا غير واضح في طرحه، مبهم في إلقائه مما يؤدي إلى إحراج المسؤول. لأنه قد يجيب عن شيء غير ما قصده السائل، فعندها يقول: سألت العالم الفلاني فأجابني عن مسألتي بالطريقة التالية، لكن قصد المسؤول كان غير قصد السائل فيكون التباسًا للجميع ، وهذا مأخوذ من سؤال يهود النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عن الروح، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:٨٥].

فالروح كما نعلم موجود خفي، والسؤال عنه بهذا الشكل أمر غير لائق ؛ لأنه غامض بل في غاية الإبهام، ولذلك كان القصد منه تعجيزي بحت.

٧. أن لا يضرب أقوال أهل الذكر من العلماء بعضها ببعض.

فهو يسمع من واحد، فيجيبه، فلا يقتنع ثم يسأل عالمًا آخر، فيجيبه ربما بجواب آخر مخالف تماماً للأول، فعندها يقول إن فلانا أعلم من فلان، وينسى أن المسألة فيها نظر وخلاف، وأن الصحابة الثقات العدول اختلفوا مع بعضهم البعض ، ويمكن أخذ هذا الأدب من قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة:١٠٨]

٨. أن يكون الهدف من السؤال الاسترشاد وفهم الحكم الشرعي المتعلق بموضوع السؤال.

وهذا مستنبط من سؤال الصحابة رضي الله عنهم نبيهم الكريم عن الخمر والميسر، وغيرها من الأسئلة ذوات الأحكام المفيدة ، والتي لها تعلق في حياتهم؛ كقوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة:٢١٩].

٩. أن تكون نية السائل خالصة لوجه الله الكريم، يطلب فيه زيادة في التعبد واستزادة في العلم.

وذلك من باب قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

فلا بد أن يكون السؤال عبادة لله عز وجل وليس امتحانًا أو اختبارًا أو إيقاعًا في ورطة أو تشهيرًا...إلخ.

١٠. أن يمتلك السائل صبرًا جميلًا وحسن استماع للمسؤول العالم، وخصوصًا إذا أجابه المفتي بعكس ما كان يتوقع، فعليه أن يصبر بل يدعو للمفتي بكل خير ويشكره.

قال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾[الكهف:٧٠] أي: « لا تفاتحني بالسؤال عن حكمته فضلًا عن المناقشة والاعتراض ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف:٧٠] أي: حتى أبتدأ ببيانه، وفيه إيذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة، وهذا من أدب المتعلم مع العالم»[١].

١١. أن يتورع السائل عن الأسئلة التي لا يحتاجها، والتي لا تنفعه بشيء من أمر دينه ودنياه.

ويركز على الأسئلة الخاصة به ، والتي تزيد من إيمانه وعمله وتحسن من سلوكه ومعاملاته وإنتاجه، وليعلم أن حسن السؤال نصف العلم. وهذا مستنبط من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[المائدة:١٠١].

وهذه الآية أصل في النهي عن كل سؤال فيه تعنت وتكلف ما يعني، قال الصابوني: «أي لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها ، إن ظهرت لكم ساءتكم»[٢].

ففي الآية نهي وتحذير من الله عز وجل للمؤمنين عن أشياء لا يطيقونها أو أن يسألوا عن أشياء قد نهوا عنها أو لا يعلمونها كسؤال النصارى عيسى أن ينزل ربنا عليهم مائدة من السماء. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (ذروني ما تركتكم، فإنّما هلك أهل الكتاب قبلكم أو من كان قبلكم بكثرة اختلافهم على أنبيائهم، وكثرة سؤالهم)[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[الإسراء:٣٦].

وقد أورد صاحب الزوائد بابًا أسماه: باب سبب النهي عن كثرة السؤال: عن سعدٍ قال: كان النّاس يتساءلون عن الشّيء من أمر النّبيّ صلى الله عليه وسلم يسألون رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وهو حلالٌ، فلا يزالون يسألون فيه حتّى يحرم عليهم[٤].

وعن الزّهريّ قال أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقّاصٍ عن أبيه: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ أعظم النّاس في المسلمين جرمًا من سأل عن مسألةٍ لم تحرّم فحرّم على المسلمين من أجل مسألته)[٥].

موضوعات ذات صلة:

الاستعانة، الاستغاثة، الدعاء، الشك، العلم

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٣٥.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٣٤٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، ٢/ ٩٧٥، رقم ١٣٣٧.
(٤) أخرجه البزّار في مسنده، ٤/ ٦٢، رقم ١٢٢٩.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٨.

السجود

عناصر الموضوع

مفهوم السجود	٢٥٦
السجود في الاستعمال القرآني	٢٥٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٥٨
سجود ما في السموات والأرض لله	٢٦٠
الثناء على الساجدين لله	٢٦٥
بشارة الله للمؤمنين الساجدين	٢٦٧
أصناف الساجدين وطبيعة سجودهم	٢٦٩
ثمرات السجود	٢٨٠
جزاء من رفض السجود لله	٢٨٤

مفهوم السجود

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ج د) على تطامن وذل. يقال سجد، إذا تطامن. وكل ما ذل فقد سجد[1].

ومنه سُجودُ الصلاة، وهو وضع الجَبْهة على الأَرْضِ، والاسْمُ السِجْدَةُ بالكسر[2].

وفلان ساجد المنخر: ذليلٌ خاضعٌ، والساجدة: مؤنث ساجد، والسّجّاد: كثير السجود. والسّجّادة: الطنفسة، والبساط الصغير الذي يصلى عليه، وأثر السجود في الجبهة، والمسجدة: السجادة[3].

والمسجد: «بيت الصلاة، وأيضًا موضع السجود من بدن الإنسان، والجمع: مساجد»[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «السُّجُودُ أصله: التّطامن والتّذلّل، وجعل ذلك عبارة عن التّذلّل لله وعبادته، وهو عامّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان:

سجود باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحقّ الثواب، نحو قوله: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم:٦٢]، أي: تذللوا له.

وسجود تسخير، وهو للإنسان، والحيوانات، والنّبات، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد:١٥]»[5].

«ومنه سجود الصلاة: وهو وضع الجبهة على الأرض، ولا خضوع أعظم منه»[6].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٣٣.
(٢) الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٨٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٠٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٦٦، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤١٦.
(٤) المصباح المنير، الفيومي ص ٢٢٠.
(٥) المفردات ص ٣٩٦.
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣٤٢.

السجود في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سجد) في القرآن الكريم (٩٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر:٣٠]
الفعل المضارع	١٥	﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران:١١٣]
فعل الأمر	١٢	﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم:٦٢]
المصدر	٤	﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩]
اسم فاعل	٤	﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف:١٢٠]
اسم مكان	٢٨	﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٢٩] ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨]

وجاء السجود في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: السجود الشرعي، وهو وضع الجبهة على الأرض: ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥].

الثاني: الركوع الشرعي: ومنه قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨] أي: ادخلوه ركعًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن، عبد الله جلغوم، مركز تفسير ص٦٠٧-٦٠٨.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٤٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحّده وأطاعه، وانقاد وخضع وذلّ له، والتزم شرائع دينه، وأدّى فرائضه[١].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصّت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»[٢].

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التّذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التّذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»[٣].

الصلة بين العبادة والسجود:

العبادة أعم من السجود، فالسجود نوع من أنواع العبادات التي شرعها الله تعالى.

٢ الركوع:

الركوع لغة:

يأتي بمعنى الخضوع والافتقار والانحناء[٤].

الركوع اصطلاحًا:

هو الانحناء لذي قدر ومكانة في نفس فاعله؛ تعظيمًا وإجلالًا؛ للدلالة على الخضوع والاستسلام والطاعة تعبدًا.

الصلة بين الركوع والسجود:

إن كلًا من الركوع والسجود يدل على الانحناء[٥]، غير أن السجود يكون بانحناءٍ أشد، ويجوز أن يفعل خارج الصلاة تعبدًا لله، وقد ورد ذكره في القرآن من فعل الكفار لآلهتهم،

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٤٤٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٣٤.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣١٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٣٣، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٣٧٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٧١٤، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٦.

ولم يرد ذكر الركوع بذلك فيه، يقول الله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

وقد ورد ذكر جواز السجود لغير الله في القرآن على سبيل التقدير والاحترام، ولم يرد ذكر الركوع بذلك فيه، يقول تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠].

٣ الخشوع:

الخشوع لغة:

خشع في اللغة: خضع وذل وخاف، والخشوع: الخضوع والسكون والتذلل والخوف.

الخشوع اصطلاحًا:

إقبال المرء بقلبه على الله في دعائه وصلاته؛ خوفًا وانقيادًا، مع خضوع الجوارح والأعضاء[١].

الصلة بين الخشوع والسجود:

السجود عمل يقوم به المرء ظاهرًا على هيئة مخصوصة، بانحناء القامة والأعضاء ووضع الجبهة والأنف على الأرض، بينما الخشوع يكون محله القلب، ويظهر أثره بهيئة مغايرة على أعضاء الإنسان بسكونها، وعلى الصوت فيخفت، وعلى البصر فيخضع.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣، الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٨، التعريفات، الجرجاني ص ٩٨.

سجود ما في السموات والأرض لله

وردت (ما) و (من) في أربع آيات من آيات السجود لتخص جميع مخلوقات الله عزّ جلّ في السموات والأرض طوعًا أوكرهًا، وهي: الآية/ ١٥ في سورة الرعد، والآيتان/ ٤٨ و٤٩ في سورة النحل، والآية/ ١٨ في سورة الحج، ولبيان تفسير كلٍ منهما، والفروق بينهما إذا وجدت، نسير ببيانها كالآتي:

أولًا: تفسير مجيء (ما): وقد وردت في (آيتين) بموضعين اثنين متتابعين في سورة النحل:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل:٤٨].

يعني: «يخبر الله عن عظمته وجلاله وكبريائه بأن كل ما له ظلٌ يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، بكرة وعشيًّا فإنه ساجد بظله لله تعالى ، و﴿سُجَّدًا﴾ حال من الظلال، أي: كل شيءٍ له ظله»[1].

وقال مجاهد رحمه الله: «إذا زالت الشمس سجد كل شيءٍ لله عزّ وجلّ. وقال: سجود كل شيءٍ فيؤه».

وقال أبو غالب الشيباني: «أمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم».

وقوله: «﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾، أفرد الله ﴿الْيَمِينِ﴾ للجنس، وجمع في ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾؛ لأن لفظ اليمين واحدٌ لكن معناه معنى الجمع، أي: عن يمين ما خلق، ثم رجع إلى معناه في الشمائل بالجمع»[2].

والمعنى: «أولم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئةٌ عن أيمانها وشمائلها عن جانبي كل واحد وشقّيه، منقادة غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، وهذا استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء».

وفي قوله: «﴿دَاخِرُونَ﴾، جمع بالواو هنا؛ لأن المصدر الدّخور، من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب»[3].

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩].

يقول الإمام الطبري رحمه الله في تفسيرها: «فوالله يخضع ويخشع ويستسلم لأمره ما في السموات والأرض من دابة تدبّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التذلل له بالطاعة، والذين لا يؤمنون بالآخرة تتفيأ ظلالهم عن اليمين والشمائل سجدًا لله وهم صاغرون.

(١) الكشاف، الزمخشري ص٥٧٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٤٣.

(٣) الكشاف، الزمخشري ص٥٧٤.

وقال بعض نحاة البصرة: اجتزيء بذكر الواحد من الدّواب عن ذكر الجميع، بتقدير: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ﴾، كما يقال: ما أتاني من رجلٍ. بمعنى: ما أتاني من الرجال.

وقال بعض نحويي الكوفة: إنما قيل: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾؛ لأن (ما) وإن كانت قد تكون على مذهب «الذي» - فإنها غير مؤقتة، فإذا أبهمت غير مؤقتة أشبهت الجزاء، والجزاء يدخل «من» فيما جاء من اسم بعده من النكرة، فيقال: من ضربه من رجل فاضربوه.

ولا تسقط «من» من هذا الموضوع، كراهية أن تكون حالًا لـــ: (من) و (ما) فجعلوه بـــ: «من» ليدلّ على أنه تفسير لـــ: (ما) و(من)؛ لأنهما غير مؤقتتين، فكان دخول «من» فيما بعدهما تفسيرًا لمعناها، وكان دخول «من» أدلّ على ما لم يؤقّت من (من) و (ما)، فلذلك لم تلقيا»[1].

وذكر الإمام الزمخشري رحمه الله في تفسير هذه الآية «عدة أقوال:

- يجوز أن يكون بيانًا لما في السموات وما في الأرض جميعًا، على أن في السموات خلقًا لله يدبون فيها كما يدبّ الأناسيّ في الأرض.
- ويجوز أن يكون بيانًا لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات: الخلق الذي يقال له الروح.
- ويجوز أن يكون بيانًا لما في الأرض وحده، ويراد بما في السموات الملائكة، وكرر سبحانه وتعالى ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصًا من بين الساجدين؛ لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم.
- ويجوز أن يراد بما في السموات ملائكتهنّ، وبقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾، ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم»[2].

ثانيًا: تفسير مجيء (من): وقد وردت في (آيتين) بموضعين اثنين:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد:١٥].

والمعنى: «أن جميع المخلوقات مما احتوت عليه السموات والأرض كلها خاضعة لربها تسجد له، حتى ظلال هذه المخلوقات تسجد أول النهار وآخره، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤]»[3].

«ومن هنا تقع على الملائكة عمومًا وسجودهم طوعًا بلا خلاف، أما أهل الأرض فالمؤمنون منهم داخلون في

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٤٥.

(٢) الكشاف، الزمخشري ١٤/ ٥٧٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٩١و٤٩٢، وانظر تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٥.

سجودهم طوعًا، أما سجود الكفرة فهو الكره، وذلك على نحوين من هذا المعنى.

فإن جعلنا السجود هنا الهيئة المعهودة؛ فالمراد من الكفرة من يضمه السيف إلى الإسلام فيسجد كرهًا، وإما نفاقًا، وإما أن الكره أول حاله فتستمر عليه الصفة وإن صح إيمانه بعد.

وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلل فيدخل الكفار أجمعون في (من)؛ لأنه ليس من كافر إلا ويلحقه من التذلل والاستكانة بقدرة الله أنواع أكثر من أن تحصى بحسب رزاياه واعتباراته.

وقال النحاس والزجاج رحمهما الله: «إن الكره يكون في عصاة المسلمين وأهل الكسل منهم»[1].

ويقول الفيروز آبادي رحمه الله: «السجود ضربان:

١- سجود اختيار (طاعة): وليس ذلك إلا للإنسان[2]، قال تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [النجم: ٦٢].

٢- سجود تسخير (اضطرار): وهو للإنسان والحيوان والنباتات ولكل مخلوق، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]»[3].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

«يذكر الله سبحانه وتعالى: بأن جميع المخلوقات في السماء -من الملائكة-، والأرض -من جنٍّ وإنس وغيرهم-، والشمس والقمر- في السماء-، والجبال والشجر والدّواب في الأرض، وسجود ذلك ظلاله، وكثير من الناس - من يهود ونصارى ومجوس ومشركين-، وهؤلاء يسجد ظلهم أيضًا.

فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته، دلّ على أنه الربّ المعبود، من عدل عنه إلى سواه فقد ضلّ وخسر. وهذا مذهب حسن موافق لمذهب أهل السنة.

وروي عن أبي العالية الرياحي رحمه الله قوله: «ما في السماء نجمٌ، ولا شمسٌ، ولا قمرٌ، إلا يقع ساجدًا لله حين يغيب، ثم لا

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٩١.

(٢) حصر الإمام الفيروزآبادي سجود الاختيار على: أنه خاص بالإنسان فيه قصور عن المكلفين من المخلوقات، وقد وضّحها وعمّمها الشيخ السعدي بقوله: «وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات».
انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٢.

(٣) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ١٨٨.

ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

وقد أدخلت المخلوقات غير العاقلة من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب تشبيهًا لأفعال المكلفين بالسجود والانقياد والطاعة لله تعالى.

وقال مجاهد رحمه الله في قول الله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، « إن هؤلاء رغم استحقاقهم للعذاب بكفرهم فإن ظلهم يسجد لله الخالق سبحانه»[1].

وقال ابن كثير رحمه الله: «إنما ذكر الله سبحانه ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾، على التنصيص؛ لأنها عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة، وأنها خلق فاعلٍ عظيم؛ لذلك قال سبحانه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصّلت: ٣٧]»[2].

ثانيًا: الاتفاق والاختلاف بين ورود (من) و(ما) في سياق الآيات:

تأتي كلٌّ من: (من) و(ما) للاستفهام، أو الشرط، أواسم الموصول المشترك، أو غير ذلك مما يفهم من سياق الكلام العربي.

وفي هذه الآيات الأربع التي وردت فيها «من» و«ما»؛ فهي من أسماء الموصول المشتركة، يظهر معناهما جليًا إذا كان في الجملة صلة الموصول.

وقد تتنوع دلالات اسم الموصول حسب السياق والسباق الوارد في الآية، ومنها: تعظيم الموصوف به بما يدل على أمرٍ عظيم ؛ إذ فيها تعظيم للخالق بالخضوع والسجود له من جميع مخلوقاته، المنتشرة في كل ملكه السماوي والأرضي، وهذا تعظيم لله وعبادة وخضوع للمولى سبحانه تعالى.

والأصل في المعنى اللغوي بين (من) و(ما):أن (من) يؤتى بها في جملة الصلة للدلالة على العاقل، أما (ما) فيؤتى بها للدلالة على غير العاقل، وقد تغلّب إحداهما على الأخرى لوجود قرينة، أو تحلّ إحداهما محل الأخرى بوجود إشارة واضحة[3].

وبإمعان النظر في آيات السجود الأربعة التي وردت فيها (من) و(ما) نجد ما يلي:

أولًا: أنه لا فرق بين مجيء (من) و(ما)، إذ كلٌّ منهما تأخذ نفس المعنى.

يفهم هذا من كلام الإمام ابن كثير رحمه الله إذ يقول: « بعد أن فسّر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]-، «هذه كقوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٨٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٦. وانظر: بصائر ذوي التمييز ٣/ ١٨٩.
(٣) انظر البلاغة العربية، عبد الرحمن حبنكه ١/ ٤٢٨، البلاغة العربية، فضل عباس ص٣٠٧.

﴿لِلَّهِ﴾[النحل: ٤٨] أي: (من) الواردة في سورة الرعد مثل (ما) الواردة في سورة النحل»[(١)].

ويقول الإمام ابن عطية رحمه الله: في تفسير الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[النحل: ٤٩].

«وقعت (ما) في هذه الآية لما يعقل، ثم نقل كلام الزّجّاج ، فظاهر كلامه أنها حلّت محلها في المعنى»[(٢)].

وبهذا المعنى أولّ ابن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[ص: ٢٤].

فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: «قليل من يتقي، و (ما) على هذا القول بمعنى (من)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾[الليل:٣] بمعنى: من خلق الذكر والأنثى»[(٣)].

ثانيًا: تغليب الكلام للعاقل على غير العاقل؛ لأن السجود مما يختص به العقلاء.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[الرعد: ١٥] ، وبين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾[النحل: ٤٩].

«فنزّل هنا مخلوقات السموات والأرض منزلة من يعقل إذا أسند السجود إليهم وهو من فعل العقلاء»[(٤)].

كما نجد ذلك واضحًا في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[الحج: ١٨].

«وقد أدخلت المخلوقات غير العاقلة من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب تشبيهًا لأفعال المكلفين بالسجود والانقياد والطاعة لله تعالى»[(٥)].

ويورد الإمام الزمخشري في تفسير الآية/ ٤٩ من سورة النحل تساؤلًا ويجيب عنه بقوله: «فإن قلت: فهلا جيء بمن تغليبًا للعقلاء من الدواب على غيرهم؟ قلت: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب، فكان متناولًا للعقلاء خاصةً، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة للعموم»[(٦)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٠٤.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٦٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٨١.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٤٥.
(٦) الكشاف، الزمخشري ص٥٧٤.

الثناء على الساجدين لله

لقد أثنى الله عزّ وجلّ على عباده الطائعين الساجدين له في مواضع من كتابه.

ونرى في هذا الثناء منه سبحانه تشجيعًا وحثًّا على الاقتداء بهم، واغتنام هذه الأزمنة ليلحق المرء مع ركب الساجدين.

وإذا استعرضنا آيات السجود نجد أن هذا الثناء اتصل بأزمنة محددة، نبينها في النقاط الآتية:

أولًا: الثناء على الساجدين لله في الليل:

وقد وردت في أربع آيات هي:

قال تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣].

ففي شرح هذه الآية يرجح الإمام الطبري رحمه الله قول من قال: «عني بذلك تلاوة القرآن في صلاة العشاء؛ لأنها صلاة لا يصليها أحدٌ من أهل الكتاب، وفيها مدحٌ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم يصلونها دون أهل الكتاب...»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان:٦٤].

أي: «الذين يبيتون لربهم يصلون له، ويراوحون بين سجود في صلاتهم وقيام، وقالوا: من قرأ شيئًا من القرآن في صلاته وإن قلّ فقد بات ساجدًا وقائمًا»[(٢)].

ويقول الإمام القرطبي رحمه الله: «ناقلًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «من صلّى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدًا وقائمًا»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ [الزمر:٩].

فمعناها: «أمّن هو يقنت آناء الليل ساجدًا طورًا، وقائمًا طورًا، ونصبت: ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ على الحال من قانت»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان:٢٦].

يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم قائلًا: «ومن الليل فاسجد له في صلاتك، وسبحه أكثر الليل. وقد كان هذا أول شيءٍ فرضه الله؛ أي: الصلاة والتسبيح، ثم نسخ فرض قيام الليل وأصبح نافلة»[(٥)].

ثانيًا: الثناء على الساجدين لله عند تلاوة القرآن:

وقد وردت في ثلاث آيات هي:

قال تعالى: ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

يعني: «أن أهل العلم - من مؤمني أهل

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٩٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٩٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٤٩.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧٦.
(٥) المصدر السابق ٢٣/ ٥٧٣.

الكتابين-إذا يتلى عليهم هذا القرآن؛ يخرون لأذقانهم سجدًا بالأرض تعظيمًا له وتكريمًا، وعلمًا منهم بأنه من عند الله»[1].

وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[مريم:٥٨].

يعني: «إذا تتلى على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين أدلة ذكره، وحججه التي أنزلها الله عليهم في كتبهم، خرّوا سجدًا وهم باكون.

وفي إضافة الآيات إلى اسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ دلالة على أن من آياته رحمته بعباده، وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[السجدة: ١٥].

أي: «ما يصدّق بحججنا وآيات كتابنا إلا القوم الذين إذا ذكروا بها ووعظوا ﴿خَرُّوا﴾ لله ﴿سُجَّدًا﴾ لوجوههم؛ تذللًا له، واستكانة لعظمته، وإقرارًا له بالعبودية»[3].

ثالثًا: الثناء على الساجدين لله عند الاستغفار من الذنب:

وقد وردت في آية واحدة هي:

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤].

يعني: «علم داوود عليه الصلاة والسلام أن الله ابتلاه ليختبره، فسأل ربه المغفرة، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ وخرّ ساجدًا لله، ﴿وَأَنَابَ﴾ وتاب من خطيئته، فغفر له ذنبه»[4].

رابعًا: الثناء على الساجدين لله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم:

وردت في آية واحدة هي:

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩].

أخبر الله سبحانه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم «ركعًا أحيانًا لله، سجدًا له أحيانًا، وهذا دليلٌ على كثرة صلاتهم، ومداومتهم عليها؛ والتي من أجلّ أركانها الركوع والسجود»[5].

(١) المصدر السابق ١٥/ ١٢٠.
(٢) المصدر السابق ١٥/ ٥٦٦.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٦٠٧.
(٤) المصدر السابق ٢٠/ ٦٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٩٣.

بشارة الله للمؤمنين الساجدين

لقد ذكر الله جلّ وعلا عباده المؤمنين بأنهم ساجدون له طواعيةً وعبادةً، طمعًا في المغفرة، وزيادةً في الإحسان، غير مستكبرين عن عبادة ربهم في الليل والنهار، مسبحين له في كل وقت، يخرون سجدًا باكين متذللين عند تلاوة آيات القرآن الكريم، يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وسنرى هذه الصفات للساجدين واضحة جليّة في الموضعين التاليين:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

لقد عدّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية صفات للمؤمنين، فكانت صفة السجود السادسة من بين هذه الصفات التسع الآتية:

١. التائبون من الذنوب، الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات، طمعًا في المغفرة.
٢. العابدون لله تعالى، المتصفون بالعبودية لله، القائمون بفعل الواجبات والمستحبات في كل وقت.
٣. الحامدون لربهم في السراء والضراء، الشاكرون لله على نعمه الكثيرة، والمثنون عليها دومًا.
٤. السائحون، في عبادة الله، من صيامٍ، وطلب علمٍ، وجهادٍ، وحجٍ وعمرةٍ، وصلة أرحامٍ، ونحوها.
٥. الراكعون في صلاتهم له عزّ وجلّ، المكثرون منها.
٦. الساجدون في الصلاة لله تذللًا وقربةً.
٧. الآمرون بالمعروف، أي: الأمر بكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأفعال الواجبة والمستحبة.
٨. الناهون عن المنكر، أي: النهي عن كل ما نهى الله ورسوله عنه، من الأقوال والأفعال السيئة.
٩. الحافظون لشرع الله في جميع أقوالهم وتصرفاتهم الظاهرة والباطنة؛ إخلاصًا لله، وخوفًا من عذابه.

فمن اتصف بهذه الصفات فهو مؤمن ببشارة الله له، وقد جمعت هذه الصفات كل وجوه العبادة والخير والسعادة في الدارين.

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله: «لم يذكر الله ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن. أما مقدارها وصفتها؛ فإنها بحسب حال المؤمنين، وإيمانهم (قوةً، وضعفًا)، وعملًا

بمقتضاه»[1].

الموضع الثاني: قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:١١٣و١١٤].

فقد وصف الله الساجدين في هاتين الآيتين بست صفاتٍ هي:

١. الإيمان بالله واليوم الآخر: وهذا وإن تأخر حتى صدر الآية الثانية، لكنه الأصل في قبول العمل، فإن الحساب يكون يوم القيامة على أساس الاعتقاد.

٢. يتلون القرآن الكريم في صلواتهم: وبالأخص في صلاة العشاء ؛ التي انفردت بها أمة الإسلام عن غيرها من الأمم.

٣. ساجدون لله: يؤدون صلاتهم، وهم ساجدون لله فيها تقربًا وطاعةً.

٤. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر: يقولون ويفعلون كل ما يحبه الله ورسوله، ويتركون كل ما يبغضه الله ورسوله.

٥. يسارعون في الخيرات: حتى لا يصرفهم صارفٌ عن فعلها، وهذا كناية عن مبادرتهم في فعل الخير، ومسابقتهم في الخيرات.

٦. وصفهم الله بأنهم من الصالحين: وهذه تشمل الصفات الستة مما يتحلى بها المتقون الصالحون، المستحقون لهذا الوصف من رب العزة والجلال[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٣.

(٢) انظر: المصدر السابق.

أصناف الساجدين وطبيعة سجودهم

تحدث القرآن الكريم عن أصناف من الساجدين.

نتحدث عنهم في النقاط الآتية:

أولًا: الساجدون لله تعالى وحده:

١. المخلوقات الساجدة لله تعالى طواعية وعبادة.

أولًا: سجود المؤمنين:

قال تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قصد بهذه الآية: «جماعة القوم الراكعين والساجدين في البيت الحرام لله تعالى»[(١)].

«وقدّم الطواف في الآية لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف؛ لأنه من شرط المسجد مطلقًا، ثم الصلاة؛ لأن القيام والركوع والسجود هيئة المصلي، مع أنها الأفضل لهذا المعنى»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

«قرن الله الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في أغلب الأحوال»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وقد وردت عدة أقوال في المراد بالسجود هنا:

«تلاوة القرآن في صلاة العشاء ؛ لأنها صلاة لا يصليها أحد من أهل الكتاب، فوصف الله جلّ ثناؤه أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم يصلونها دون أهل الكتاب الذين كفروا بالله ورسوله، وهذا الذي رجحه الإمام الطبري رحمه الله.

ونقل عن الفراء رحمه الله: أن معنى السجود في هذه الآية، اسم للصلاة لا للسجود؛ لأن التلاوة لا تكون في السجود ولا في الركوع، فكأن معنى الكلام كان عنده: يتلون آيات الله آناء الليل وهم يصلون.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم - يقصد: بإقامة صلاة العشاء-.

وقد ردّ على الفرّاء بأن المعنى ليس ما ذهب إليه؛ وإنما معنى الكلام: «من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل في صلاتهم، وهم مع ذلك يسجدون فيها، فالسجود هنا هو السجود المعروف بالصلاة»[(٤)].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢١-٣٢٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٩٨.

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «هي الصلاة بين المغرب والعشاء»[1].

وقال الشيخ ابن السعدي رحمه الله: «هذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاواتهم لكتاب الله ، وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له سبحانه وتعالى»[2].

ولعل هذا الرأي الأخير أشمل وأقرب إلى ظاهر نص الآية التي تفيد العموم لكل صلاة تكون في الليل، من الصلاة النافلة (بين العشائين)، أو صلاة الفرض (العشاء)، أو قيام الليل (التهجد).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾[النساء: ١٠٢].

هذا يكون في تعليم صلاة الخوف أثناء الجهاد في سبيل الله تعالى، «والضمير في: ﴿سَجَدُوا﴾ يعود للطائفة المصلية، والمعنى: فإذا سجدوا معك الركعة الأولى فلينصرفوا»[3].

وقال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[التوبة:١١٢].

«أي: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود»[4]،

وقال ابن عطية رحمه الله: «هم المصلون الصلوات الخمس، ويدخل في وصف ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ الذي يكثر من النوافل أيضًا»[5].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[الفرقان:٦٤].

يقول تعالى ذكره بأن من صفات المؤمنين أنهم: «يبيتون لربهم يصلون لله، يراوحون بين سجود في صلاتهم وقيام»[6].

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: «يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم، متذللين له ، والبيتوته هي: خلاف الظلول، بأن يدركك الليل نمت أو لم تنم. وقالوا: من قرأ شيئًا من القرآن في صلاته وإن قلّ فقد بات ساجدًا وقائمًا»[7].

وقال ابن عباس: «من صلّى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدًا وقائمًا»[8].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾[الزمر: ٩].

يعني: «أن المؤمن مطيع لله، يقنت آناء

(١) تفسير سفيان الثوري ص٧٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٣.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤١٩.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٩٥.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٦.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٤٩.

الليل ساجدًا طورًا، وقائمًا طورًا، خوفًا من عذاب اليوم الآخر»[1].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[الفتح:٢٩].

يعني: أن أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، تراهم ركعًا وسجدًا لله في صلاتهم[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[السجدة:١٥].

أي: «أن المؤمنين بآيات الله تعالى إذا وعظوا بها لا يستكبرون عن السجود والتسبيح لله، ويخرون ساجدين له ، غير مستنكفين عن التذلل لربهم»[3].

ثانيًا: سجود سحرة فرعون:

قال الله تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾[الأعراف:١٢٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وألقي السحرة عندما عاينوا من عظيم قدرة الله في معجزته لموسى عليه الصلاة والسلام، ساقطين على وجوههم، سجدًا لربهم قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:١٢١].

أي: صدقنا بما جاءنا به، ﴿مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[الأعراف: ١٢٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: لما رأت السحرة ما رأت، عرفت أن ذلك أمر السماء وليس بسحرٍ، فخروا سجدًا لله، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[الأعراف:١٢١-١٢٢][4].

وزاد صاحب الكشاف قائلًا: «وخروا سجدًا كأنما ألقاهم ملقٍ لشدة خرورهم، وقيل: لم يتمالكوا ما رأوا فكأنهم ألقوا.

وعن قتادة رحمه الله: «كان السحرة أول النهار كفارًا سحرة، وفي آخره شهداء بررة»[5].

وقال عزّ وجلّ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[طه:٧٠].

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «وفي هذا الكلام متروك قد استغني بدلالة ما ذكر عليه، وهو: فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا، فألقي السحرة سجدًا، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[طه:٧٠].

وذكر أن موسى لما ألقى ما في يده تحوّل ثعبانًا، فالتهم كل ما كانت السحرة ألقته من الحبال والعصي، ثم جاء إليها فقبض عليها، فإذا هي عصا، فخرّ السحرة سجدًا»[6].

وقال سبحانه: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾[الشعراء:٤٦].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧٦.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢١/ ٣٢١-٣٢٦.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٦٠٧.
(٤) المصدر السابق ١٠/ ٣٦١.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٧٩.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١١٣.

«فألقى موسى عصاه حين ألقت السحرة حبالهم وعصيهم، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥].

فإذا عصا موسى تزدرد ما يأتون به من الفرية والسحر الذي لا حقيقة له، وإنما هو مخاييل وخدعة، وتبين للسحرة أن الذي جاءهم به موسى حقٌّ لا سحرٌ.

وعن عكرمة رحمه الله تعالى، أن الفرق بين الإلقاءين هو لما خروا سجدًا، أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة»[1].

ثالثًا: سجود الملائكة:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[الأعراف:٢٠٦].

وتعتبر هذه الآية أول سجدة تلاوة في القرآن الكريم بالإجماع[2].

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، أي: «لا تستكثر أيها المستمع المنصت للقرآن عن عبادة ربك، واذكره إذا قرئ القرآن تضرعًا وخفية ودون الجهر من القول، فإن الذين عند ربك من ملائكته لا يستكبرون عن التواضع والتخشّع له سبحانه وتعالى.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾، يعني: يعظمون ربهم بتواضعهم له وعبادتهم، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾، ولله يصلون، وهو سجودهم ، فصلوا أنتم أيضًا- أيها المؤمنون- له وعظموه بالعبادة كما يفعله من عنده من الملائكة. وهذا تعريض بمن سواهم من المكلفين»[3].

وقال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص:٧٣].

لما خلق الله عزّ وجلّ أبو البشر آدم عليه الصلاة والسلام ونفخ فيه من روحه، امتثلت الملائكة كلهم أمر الله بالسجود له، منفذين لأمر الله تعالى، إلا إبليس لم يسجد تكبرًا وحسدًا، وأكّد الله سجود الملائكة لآدم عليه الصلاة والسلام بمؤكّدين اثنين (كلهم، أجمعون)؛ لقطع أي احتمال أو شك[4].

رابعًا: سجود المخلوقات عامة:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[الرعد:١٥].

ومعنى ذلك: فإن امتنع هؤلاء -المشركون- من إفراد الطاعة وإخلاص العبادة لله، فلله يسجد من في السموات من الملائكة الكرام طوعًا بلا خوفٍ، ومن في الأرض من المؤمنين به طوعًا، أما المنافقون فيسجدون كرهًا.

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: كان

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦٦١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٣.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٠١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٨٢-٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٤٨. وعلى هذا التفسير تندرج كل آيات سجود الملائكة الواردة في سورة الأعراف: ٢٠٦، والرعد:٣٠، والإسراء:٦١، والكهف:٥٠ وغيرها.

الربيع بن خثيم (أبو يزيد الثوري الكوفي) رحمه الله، إذا تلا هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[الرعد:١٥].

قال: بلى يا رباه، أو طوعًا ربنا، بلى طوعًا[(١)].

وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى، قال: «يسجد من في السموات طوعًا، ومن في الأرض طوعًا وكرهًا»[(٢)].

وقال عزّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[النحل:٤٨].

يقول الإمام الطبري نقلًا عن ابن جريج رحمهما الله، في قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾، قال: « فإذا فاءت الظلال - ظلال كل شيء- بالغدو سجدت لله، وإذا فاءت بالعشي سجدت لله.

وقال الضحاك رحمه الله: تسجد الظلال لله غدوة إلى أن يفيء الظل، ثم تسجد لله تعالى إلى الليل...

وقال آخرون: بل الذي وصف الله بالسجود في هذه الآية ظلال الأشياء، فإنما يسجد ظلالها دون التي لها الظلال.

ورجح الإمام الطبري رحمه الله قول من قال: «إن ظلال الأشياء هي التي تسجد، وسجودها ميلانها ودورانها من جانب إلى جانب، ومن ناحية إلى ناحية، كما قال به ابن عباس رضي الله عنهما، ويقال في اللغة: سجدت النخلة، إذا مالت. وسجد البعير، وأسجد، إذا ميّل للركوب»[(٣)].

وزاد ابن كثير رحمه الله: «أنزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم»[(٤)].

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[النحل:٤٩].

معنى الآية: «ولله يخضع ويخشع ويستسلم لأمره ما في السموات وما في الأرض من دابة تدبّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التذلل له بالطاعة، والذين لا يؤمنون بالآخرة، قلوبهم منكرة، وهم لا يستكبرون، وظلالهم تتفيأ عن اليمين والشمائل سجدًا لله، وهم داخرون.

وكان بعض نحويي البصرة يقول: اجتزئ بذكر الواحد من الدواب عن ذكر الجميع، وعليه فإن معنى الكلام: ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من الدواب والملائكة، كما يقال: ما أتاني من رجلٍ، بمعنى: ما أتاني من رجالٍ»[(٥)].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٩١.
(٢) تفسير الحسن البصري ٢/ ٧١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٤٠-٢٤٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٨١.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٤٥.

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[الحج:١٨].

يقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ألم تر يا محمد بقلبك وعقلك، فتعلم أن الله يسجد له ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة، ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الخلق، من الجنّ والإنس وغيرهما، ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ في السماء، ﴿وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ في الأرض، وسجود ذلك ظلاله حين تطلع الشمس، وحين تزول، إذا تحول ظلّ كل شيءٍ فهو سجوده، ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ أي: ويسجد كثير من بني آدم، وهم: المؤمنون بالله، يسجدون لله سجود طاعة وعبادة، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: وكثيرٌ أبى السجود فلم يوفقه الله للإيمان؛ فاستحق العذاب بذلك.

وعن أبي العالية الرياحي رحمه الله، قال: «ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدًا حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

وقيل سجودها: بمعنى الطاعة، فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله، يسبح له»[1].

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦].

أي: «ما قام على ساقٍ- كالشجر ونحوه- وما لم يقم على ساقٍ -مما ينبت من الأرض- يسجدان، وسجودهما: انقيادهما لله فيما خلقا له، وأنهما لا يمتنعان تشبيهًا بالساجدين المكلفين في انقياده، وقيل سجودهما: سجود ظلهما»[2].

وقال مجاهد رحمه الله: «النجم هو الكوكب، وسجوده طلوعه»[3].

خامسًا: سجود الأنبياء:

قال تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾[مريم:٥٨].

أخبر الله في هذه الآية: «إذا تليت على هؤلاء الأنبياء الذين أنعم الله عليهم آيات الله خروا لله سجدًا، استكانة له، وتذللًا وخشوعًا لأمره وانقيادًا له، وهم باكون»[4].

«و﴿سُجَّدٗا﴾: جمع ساجد، وتعرب حالًا. ﴿وَبُكِيّٗا﴾: جمع باكٍ، أخبر الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا بآيات الله سجدوا وبكوا»[5].

«وأجمع العلماء على شرعية السجود هنا اقتداءً بالأنبياء، واتباعًا لمنوالهم»[6].

و قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

(١) المصدر السابق ١٦/ ٤٨٧.

(٢) المصدر السابق ٢٢/ ١٧٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٦٦.
(٥) مختصر تفسير البغوي ٢/ ٥٦٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٦.

[الشعراء:٢١٩].

يعني: «أن الله يرى تقلبك في صلاتك حين تقوم، ثمّ حين تركع، وحين تسجد، وقال آخرون: يرى تصرفك في أحوالك، كما كانت الأنبياء من قبلك تفعله»[١].

وقال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «خرّ داوود ساجدًا؛ شكرًا لله تعالى، وقال في سجدة (ص): ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها»[٢].

سادسًا: سجود أهل الكتاب:

قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣].

قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية: «لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم - بأداء صلاة العشاء - أي: يصلونها ولا يصليها من سواهم من أهل الكتاب»[٣].

وقال سفيان الثوري: «المقصود هنا الصلاة بين المغرب والعشاء»[٤].

ويفسر الشيخ ابن السعدي قوله تعالى: «﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، بأن هذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب الله وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له»[٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[الإسراء:١٠٧].

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: «قل يا محمد لهؤلاء القائلين لك: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء:٩٠].

آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به، فإن إيمانكم به لن يزيد في خزائن رحمة الله، ولا تركككم الإيمان به ينقص ذلك، وإن تكفروا به، فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتابين، إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون- تعظيمًا له، وتكريمًا، وعلمًا منهم بأنه من عند الله- لأذقانهم سجدًا بالأرض»[٦].

وقد اختلف أهل التفسير في معنى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «يخرون للوجوه سجدًا»[٧].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «عني بذلك اللحى»[٨].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٩٨.
(٤) تفسير سفيان الثوري ص٧٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٨.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٢٠.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٨.
(٨) تفسير الحسن البصري، ٢/ ١٠٧.

وهذا هو الذي رجحه الإمام الطبري رحمه الله؛ لأن الذقن في كلام العرب هو مجمع اللحيين، وهذا هو الأشبه بظاهر التنزيل، أي: خروا للأذقان سجدًا عند سماعهم القرآن يتلى عليهم، تنزيهًا لربنا وتبرئةً له مما يضيف إليه المشركون به»[1].

وقال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

أي: «يخرّ هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان، إذا يتلى عليهم القرآن؛ لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر ﴿خُشُوعًا﴾، يعني: خضوعًا لأمر الله وطاعته، واستكانة له.

ويقول الإمام الطبري رحمه الله في موضع آخر نقلًا عن ابن زيد: بأن هذه الآية جواب وتفسير للآية التي في سورة مريم قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨]»[2].

وقال الزمخشري رحمه الله: «خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين»[3].

واستخلص البغوي من هذه الآية: «أن البكاء مستحب عند قراءة القرآن»[4].

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٢٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٢٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ص٦١١.
(٤) مختصر تفسير البغوي ١/ ٥٢٨.

٢. المخلوقات التي أمرت بالسجود لله وحده.

أولًا: أمر الله لبني إسرائيل بالسجود له:

قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء:١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف:١٦١].

هذه الآيات الثلاث: أمر الله بني إسرائيل بأن يدخلوا الباب في بيت المقدس سجدًا شاكرين ومتواضعين لله، فلم يسجدوا، ودخلوا على أدبارهم على غير الجهة التي أمروا أن يدخلوا بها[5].

وقال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٣].

«أمر الله مريم ابنة عمران عليها السلام بأن تصلي له، وعبّر عن ذلك بذكر القنوت والسجود، فهما من هيئات الصلاة وأركانها، ثم أمرها بأن تكون مع جماعة المصلين لله تعالى، ففعلت ما أمرت به»[6].

ثانيًا: أمر الله لعبدة الكواكب بالسجود له.

وقال تعالى: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

(٥) انظر جامع البيان، الطبري ١/ ٧١٢-٧١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٦) جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٠٠.

﴿خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، أي: «لا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يسجد بآخر الآيتين من (حم السجدة)، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يسجد بالأولى منهما»[١].

وإنما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾، بصيغة التأنيث؛ لأنه أجراها على طريق جمع التكسير، ولم يجرها على التغليب للمذكر على المؤنث[٢].

ثالثًا: أمر الله لرسوله بالسجود له:

قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الحجر:٩٨].

يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم: «بأن يفزع إليه فيما يصيبه من أمر يكرهه ، يسبح الله ويكثر من السجود له سبحانه، فيكفيه ما أهمه»[٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[الإنسان:٢٦].

يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم: «ومن الليل فاسجد له وسبحه أكثر الليل، وقد كان هذا أول شيء فرضه الله، ثم جعل سبحانه قيام الليل نافلةً، ومن تفيد هنا التبعيض»[٤].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

«لا تطع - يا محمد صلى الله عليه وسلم- أبا جهل في ترك الصلاة والسجود لربك عند الكعبة المشرفة، بل ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾، اسجد لربك وتقرّب إليه بالطاعة، ولن يقدر أبو جهل على إيذائك، والله مانعه من ذلك»[٥].

وقد أمر الله هنا نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَٱسْجُدْ﴾ ولم يقل: (وصلّ)؛ لأن السجود من أهم أركان الصلاة، ويكون العبد فيه أقرب إلى ربه، كما ورد في الحديث: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[٦].

رابعًا: أمر الله لعامة خلقه بالسجود له:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[الفرقان:٦٠].

«الخطاب لكل مشرك بأن يجعلوا سجودهم خالصًا لله عزّ وجلّ، والذي من أسمائه وصفاته الحسنى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فأنكروا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٣٦.
(٢) مختصر تفسير البغوي ٢/ ٨٣٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٥٤.
(٤) المصدر السابق ٢٣/ ٥٧٣.
(٥) المصدر السابق ٢٤/ ٥٤٠.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٢١٥.

ذلك الاسم أن يكون لله تعالى!»[1].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [النجم:٦٢].

أي: «أيها الناس اسجدوا لله في صلاتكم دون سواه من الآلهة والأنداد، وأخلصوا له العبادة والسجود»[2].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: «الأمر بالسجود لله خصوصًا، ليدل ذلك على فضله، وأنه سرّ العبادة ولبّها، فإن لبّها الخشوع لله، والخضوع له. والسجود: أعظم حالة يخضع بها العبد بقلبه وبدنه، جاعلًا أشرف أعضائه على الأرض»[3].

٢. المخلوقات التي أمرت بالسجود من الله لغيره.

وقد وقع ذلك مع صنف واحد:

ولا نجد ذلك إلا في قصة خلق آدم عليه الصلاة والسلام، إذ أمر الله ملائكته بالسجود له، سجود تحية وتكريم لهذا المخلوق الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه علومًا تفوق بها على الملائكة، وقد ذكر ذلك في تسعة مواضع، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف:٥٠].

ثانيًا: الساجدون لغير الله تعالى:

ورد ذكر الساجدين لغير الله تعالى في ثلاثة مواضع، اثنان جائزان، والثالث شرك، وهي على النحو الآتي:

١. سجود إخوة يوسف وأبويه له.

قال يوسف عليه السلام: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤].

رؤيا الأنبياء وحيٌ من الله تعالى، ورؤيا المؤمن صادقة بعد ختم الرسل، وانقطاع الوحي، والرؤيا هنا رمزية، حيث رمز بالشمس والقمر لأبويه، وبالكواكب الأحد عشر لإخوته، وقد عبّر الله عن الكواكب والشمس والقمر بجمع المذكر السالم؛ لأن السجود من أفعال العقلاء.

«وكان السجود في عصرهم جاريًا مجري التحية والتكرمة، كالقيام والمصافحة، وتقبيل اليد ونحو ذلك، مما جرت عليه عادة الناس لمن اشتهر بالتعظيم والتوقير.

وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير للجباه، لأن سجودهم يأباه يوسف عليه

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٨٢.
(٢) المصدر السابق ٢٢/ ١٠٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢٣.

الصلاة والسلام.

وقيل: خروا لأجل يوسف شكرًا لله على ما اجتباه به، واتمام نعمته عليه بالعلم والحكمة والتمكين في الأرض»[1].

وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[يوسف:١٠٠].

قال قتادة رحمه الله تعالى: «خرّ يعقوب عليه الصلاة والسلام وزوجه وولده ليوسف عليه الصلاة والسلام سجود تحية كانت معروفة في زمنهم، يحيي بعضهم بعضًا بها، احترامًا وتوقيرًا.

ولكن الله أبدل هذه الأمة الإسلامية بتحية أهل الجنة «السلام» كرامة من الله تبارك وتعالى، عجّلها لهم في الدنيا نعمة منه وفضلًا»[2].

٢. سجود الملائكة لآدم عليه الصلاة والسلام.

وقد ذكر أنها بأمر الله تعالى، على سبيل التحية والتكريم، وهي امتثالٌ لأمر الله جلّ جلاله، فسجدوا طاعة لله وتنفيذًا لأمره.

٣. سجود عبدة الكواكب لها.

وهو سجود شركي محرم.

قال هدهد سليمان: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[النمل:٢٤].

يقول الهدهد مخبرًا سليمان عليه الصلاة والسلام: «وجدت هذه المرأة ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس؛ فيعبدونها من دون الله، بتزيين الشيطان لهم عبادة الشمس وسجودهم لها»[3].

ونقل ابن عطية قول زيد وابن إسحاق رحمهم الله: بأن قول الله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩﴾[النمل:٢٥-٢٦].

هو من كلام الهدهد موضحًا وحاثًّا لهم بالسجود لله الخالق لكل شيء، ورب العرش العظيم.

ويحتمل أن يكون هذا من كلام سليمان عليه الصلاة والسلام لما أخبره الهدهد عن القوم[4].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[فصلت:٣٧].

«يخاطب الله سبحانه الناس ناهيًا لهم عن عبادة الكواكب عمومًا، وعن الشمس والقمر خصوصًا، فهما يجريان في الفلك بمنافعكم؛ بإجراء الله إياها لكم، طائعين له في جريهما ومسيرهما...، فالله هو خالق

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٠-١٣.
(٢) المصدر السابق ١٣/ ٣٥٤-٣٥٦.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٤٠.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/ ٥٣١-٥٣٤.

الليل والنهار والشمس والقمر، وهذه من مخلوقات الله تعالى، بينما الخالق هو الأحق بالعبادة ، وكانت الصابئة تزعم أنهم يقصدون بسجودهم للكواكب - ومنها الشمس والقمر- أنهم يسجدون لله؛ فنهوا عن هذه الواسطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصًا؛ إن كانوا إياه يعبدون»[1].

ثمرات السجود

السجود لله عز وجل من أعظم العبادات وأجلها، وله ثمرات جليلة، منها:

أولًا: إظهار العبودية لله وطاعته:

يقرر الله عزّ وجلّ أن كل المخلوقات طائعة خاضعة له، ساجدة لخالقها طوعًا أو كرهًا.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[النحل:٤٩].

حتى ظلال المخلوقات تسجد لله تعالى، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[الرعد: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[النحل: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

وإذا أمعنا النظر في نتائج وثمرات السجود، نجد أن إظهار العبودية لله وطاعته تأتي في مقدمتها، ونرى ذلك جليًّا في ختم الآيات بقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[آل عمران: ١١٣] عبودية وطاعة لله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٣٦.

[الأعراف: ٢٠٦] عابدين وطائعين له.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الإسراء:٦١] طاعة وامتثالًا لأمر الله لهم بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

وقوله: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] أي: يخرون سجدًا باكين طائعين عابدين لله عزّ وجلّ.

وقوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠] عابدين طائعين لما رأوا المعجزة التي أعطيت لموسى عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤] يقومون الليل عبادة وطاعة لله.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥] لا يستكبرون عن السجود طاعة له سبحانه.

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩].

ترى محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، راكعين ساجدين طاعة لله تعالى، لذا أمر الله عباده المؤمنين وغيرهم بالطاعة والسجود له، فقال: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم:٦٢].

وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤] لمعرفة داوود عليه الصلاة والسلام، أن السجود قربة لله استغفر ربه من ذنبه، ثم سجد له عبودية وطاعة وطمعًا بالمغفرة، فاستجاب الله له وغفر له ذنبه.

وقد اعتبر سبحانه أن بيات المؤمنين لربهم سجدًا وقيامًا جعلتهم يدخلون تحت وصف عباد الرحمن، فأضافهم لنفسه، تشريفًا لهم وتكريمًا.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٤].

بما سبق يتبين أن السجود هو خضوع لله، وطاعة له، وعبودية وتذللٌ للخالق جلّ وعلا.

ثانيًا: نيل رضوان الله وثنائه عليهم ومغفرته لهم:

من ثمرات السجود لله تعالى: أن العبد يكسب عدة أمور أوجزها بالآتي:

١. المغفرة من الذنوب والزيادة في الإحسان.

كما قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

فجعل سبحانه وتعالى المغفرة وزيادة الإحسان إليهم جزاءً ونتيجةً لطاعتهم لله بدخول بيت المقدس سجدًا، ونرى ذلك

أيضًا في قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص: ٢٥].

فكان نتيجة استغفار داوود عليه الصلاة والسلام من الذنب، وسجوده لله، -كما ورد في الآية٢٤ التي قبل هذه الآية- أن غفر له ذنبه، ورفعه منزلة عالية، وقربه منه، وجعل رجوعه عن الذنب حسنًا، فضلًا منه وكرمًا.

البشارة بفضل الله ورضوانه: كما جاء في ختم هذه الآية: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١١٢].

وبشارة الله تكون برضاه عنهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والبشارة في الجنة، لمن اتصفوا بهذه الصفات، ونجد ذلك الفضل والرضوان مطلبًا رئيسًا من مطالب الرّكّع السجود من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لدخول الجنة، كما في هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩].

٢. الوصف بأنهم من الصالحين.

وقد جاء هذا الوصف لهم في هاتين الآيتين: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران: ١١٣-١١٤].

٣. المسارعة بالسجود عند تلاوة القرآن عليهم.

وهذا ورد في قول الله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

أي: يسارعون إلى السجود لله عند تلاوة آياته.

٤. نيل الفلاح في الدارين.

وهذا ما وعد الله عباده الساجدين العابدين له.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الحج: ٧٧].

ووعد الله نافذٌ لا محالة؛ بأنهم سيكونون يوم القيامة من المفلحين، الفائزين بجنات النعيم.

ثالثًا: ظهور السيما على وجوه الساجدين:

لقد وردت لفظة: (السيما) بأنها علامة ظاهرة على وجوه أمة خاتم الأنبياء والمرسلين؛ تمييزًا لهم عن بقية الأمم.

تعريف(السيما): هي بياضٌ ونورٌ ظاهر في جبهة السّجّاد يوم القيامة، وسمتٌ حسنٌ وصلاحٌ وخشوعٌ وتواضعٌ تظهر على

وجوههم في الدنيا، من أثر سجودهم لله.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

«المراد بها : السمة التي تحدث في جبهة السّجّاد من كثرة السجود، أي: من التأثير الذي يؤثّره السجود - في وجوههم-»[١].

و قد لخص ابن كثير رحمه الله تعالى أقوال أهل العلم في تفسير لفظة: (السيما) نذكرها كما يلي:

«قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: السمت الحسن.

وقال مجاهد، وسفيان الثوري، وغير واحد رحمهم الله: هي الخشوع والتواضع.

وقال السدي رحمه الله: الصلاة تحسن وجوههم. وبهذا أخذ الشيخ ابن السعدي رحمه الله، وبرّر أخذه بهذا التفسير: بأنه لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم.

وعن الحسن البصري رحمه الله: السيما مواضع السجود من وجوههم يكون أشد وجوههم بياضًا يوم القيامة. وقال بعض السلف رحمهم الله: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقال بعضهم: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الناس»[٢].

وزاد الطبري رحمه الله معاني أخرى ، ومنها : قول الحسن بن علي رضي الله عنهما: بأنها الصفرة ؛ التي تظهر من سهر الليل. ولكنه- الطبري- رجح القول: بأنها ظهور آثار الإسلام عليهم في الدنيا، وبياض الوجوه من أثر السجود - في الآخرة-»[٣].

رابعًا: استحقاق جنات الخلد والنعيم:

ومن آخر ثمرات السجود لله تعالى، الفوز بالنعيم الدائم في جنات الخلد يوم القيامة، كما أرى في المقابل الجزاء والعقاب لمن رفض السجود لله عزّ وجلّ.

١. المغفرة والأجر العظيم للساجدين.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

فالأجر العظيم المذكور هو: مكافأة الله لهم بالنعيم الدائم في جنة الخلد.

٢. الفوز بالجنة دار الخلود.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾

(١) الكشاف، الزمخشري ص١٠٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٣٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢١-٣٢٦.

[الزمر:٩].

ورجاء رحمة الله، هي: طلب الجنة التي فيها النعيم الدائم، والله لا يرد رجاء عبده المؤمن.

وفي قصة سجود السحرة وإيمانهم برسالة موسى عليه الصلاة والسلام، قام فرعون بتهديدهم بالتنكيل والعذاب، فلم يأبهوا لذلك طمعًا بما عند الله من النعيم المقيم، فكان جزاء الله لهم: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[طه:٧٦].

وفي سورة مريم رتّب الله سبحانه وتعالى الجزاء لمن خروا سجدًا وبكيًّا، ولكل من تاب وآمن وعمل صالحًا فلهم: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ [مريم:٦١].

جزاء من رفض السجود لله

وقد جاء هذا في صنفين اثنين:

الأول: إبليس؛ لرفضه أمر الله بالسجود لآدم: فكان جزاءه في أمرين اثنين:

١. دمغه بالكفر.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

وقول الله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [ص:٧٤].

٢. اللعن والطرد من رحمة الله.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر:٣٤-٣٥].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ [ص:٧٧].

الثاني: الكافرون الرافضون السجود لله.

فجازاهم الله بعدة أمور، هي:

١. قلوبهم قاسية.

فهم لا يتعظون بما يتلى عليهم من القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾[الانشقاق:٢١].

٢. الذلة والصغار يوم القيامة.

لأنهم دعوا للسجود لله، وهم في صحة وعافية طيلة حياتهم، فأبوا ذلك.

قال الله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

٣. فضحهم يوم القيامة أمام الخلائق.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[القلم: ٤٢].

وذلك بتيبس فقرات ظهورهم فلا يقدرون على السجود.

موضوعات ذات صلة:

آدم، الركوع، الصلاة، العبادة، الوجه

السَّحَابُ

عناصر الموضوع

مفهوم السحاب	٢٨٨
السّحاب في الاستعمال القرآني	٢٨٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٠
السحاب من دلائل القدرة الإلهية	٢٩٢
أوصاف السحاب في القرآن	٢٩٤
السحاب والرياح	٢٩٧
السحاب والماء	٣٠٠
السحاب بين الرحمة والعذاب	٣٠٢
السحاب في المثل القرآني	٣٠٥
لمسات إعجازية في السحاب	٣٠٦

مفهوم السحاب

أولًا: المعنى اللغوي:

«السين والحاء والباء أصل صحيح يدل على جر شيء مبسوط ومده، تقول: سحبت ذيلي بالأرض سحبًا، وسمي السحاب سحابًا؛ تشبيهًا له بذلك، كأنه ينسحب في الهواء انسحابًا»[1].

والسحاب: جمع سحابة، والسحابة: الغيم، سميت بذلك؛ لانسحابها في جو السماء، أو لجرها الماء، أو لانجرارها في ممرّه، أو لجرّ الرياح لها؛ لأن السّحب الجرّ[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي، وقد عرفه المناوي بأنه: «المتراكم من جهة العلو من جوهر بين الماء والهواء»[3].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ص٥٠٩.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٦، مختار الصحاح، الرازي ص١٦٥، المصباح المنير، الفيومي ص١٦٢.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٩١.

السّحاب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سحب) في القرآن الكريم (١١) مرة، يخصّ موضوع البحث منها (٩) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم جمع	٩	﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤]

وجاء السّحاب في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي الذي هو الغيم المعروف[٢].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد: ١٢] أي: الغيم.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص٥٩٣.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٩٥-١٩٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الغمام:

الغمام لغةً:

جمع غمامة، وهي السحابة، وقد أغمت السماء أي تغيّمت[١].

الغمام اصطلاحًا:

«هو أقوى من السحاب ظلمة، فإنه أول ما ينشأ هو النشر، فإذا انسحب في الهواء فهو السحاب، فإذا تغيرت له السماء فهو الغمام»[٢].

الصلة بين الغمام والسحاب:

الغمام في الاصطلاح خاص بما فيه ظلمة أكثر من السحاب.

٢ المزن:

المزن لغةً:

جمع مزنة وهي السحابة البيضاء[٣].

المزن اصطلاحًا:

السحاب المضيء شديد البياض[٤].

الصلة بين المزن والسحاب:

المزن ما كان أبيض من السحاب فإنه يكون مضيئًا.

٣ العارض:

العارض لغةً:

السحابة التي ترى ناحية السماء[٥].

العارض اصطلاحًا:

الذي يكون محمولًا على السحاب خارجًا عنه[٦].

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٣٠، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٤٤.
(٢) الكليات، الكفوي ص٦٧١.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٠٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣١٨.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٠٤.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ٢٩٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٧٨.
(٦) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٤٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٣.

الصلة بين العارض والسحاب:

العارض خاص بما يعرض من السحاب دون غيره.

٤ الغيوم:

الغيوم لغةً:

السحاب، وأغيم القوم أصابهم غيمٌ، وغيّم الليل جاء كالغيم[١].

الغيوم اصطلاحًا:

شيء يكسو السحاب سوادًا ساعة نزول المطر.

الصلة بين الغيوم والسحاب:

السحاب أعمّ وأشمل من الغيوم؛ إذ الغيوم تختص بالسحابة السوداء ساعة نزول الغيث.

٥ المعصرات:

المعصرات لغةً:

«السّحاب فيها المطر، وقيل: السّحائب تعتصر بالمطر»[٢].

المعصرات اصطلاحًا:

كل سحاب ملئت بالماء الذي يعتصر فيصبح مطرًا.

الصلة بين المعصرات والسحاب:

المعصرات أخص من السحاب؛ فهي كل سحابة تمتلئ ماءً يعتصر.

٦ المطر:

المطر لغةً:

«الماء المنسكب من السحاب، والمطر: ماء السحاب»[٣].

المطر اصطلاحًا:

كل ماء ينزل من السحاب، بقدر الله تعالى، سواء أكان للرحمة أو العذاب.

الصلة بين المطر والسحاب:

المطر هو الماء المنسكب من السحاب، ومن ثم فهو أثر من آثار السحاب في ظواهرها الجوية المصاحبة لها.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١١٤٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٧٧.
(٣) المصدر السابق ٥/ ١٧٨.

السحاب من دلائل القدرة الإلهية

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن السحاب، يظهر له جليًّا عظمة الله تعالى، وعظمة قدرته؛ فقد بيّنت تلك الآيات القرآنية عناوين عظيمة لقدرة الله تعالى، ومنها:

١. بيان القدرة على إحياء الخلق بعد مماتهم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾[فاطر:٩].

حيث إن هذه الآية تبين أنّ الله تعالى قدّر إرسال الرياح، فترفع السحاب وتهيّجه للحياة، ومن ثم الغيث؛ فيساق بأمر الله تعالى إلى بلدٍ مجدب الأهل، محل الأرض، داثر لا نبت فيه ولا زرع، فبعد ذلك أخصب الله تعالى بغيث ذلك السحاب الأرض التي سيق الغيث إليها بعد ما كانت جدباء، ونبت فيها الزرع بعد المحل، وتأتي الفاصلة القرآنية في هذه الآية الكريمة؛ لتبين أنه كما أحيا الله تعالى الأرض الجدباء بعد مماتها فهو قادرٌ عل أن ينشر الموتى بعد فنائهم في قبورهم؛ فيحييهم من بعد ممات[1]، فما أعظم قدرة الله تعالى!!! وما أحكم آياته!!!.

٢. بيان رحمة الله تعالى بخلقه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[النور:٤٣].

فالله تعالى برحمته وتفضّله على خلقه يسوق السحاب، ثم يضم بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة قطعةً واحدة، ثم يجعل بعض السحاب فوق بعض، فيرى ذلك المخلوق المطر شديده وهيّنه يخرج من خلاله، وينزّل الله تعالى من السماء من الجبال التي في السماء المخلوقة من البرد؛ فيصيب الله تعالى بعدله من يشاء فيضرّه في زرعه وثمره، ويصرفه عمّن يشاء من عباده برحمته وفضله؛ حيث إن هذا السحاب يكاد ضوء برقه يذهب بالأبصار فيعميها[2].

وفي هذه الآية الكريمة تتجلى رحمة الله تعالى مع قدرته؛ فإن من كمال الرحمة أن يصاب المخلوق بها مع علمه بأن الله تعالى قادرٌ على عقابه وحسابه.

٣. القدرة على بسط السحاب كيف يشاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٤٢، تفسير السمرقندي ٣/ ١٠١.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٠١.

[الرعد:١٢].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن الله تعالى يري الناس جميعًا ذلك البرق الذي هو عبارةٌ عن مخاريق بأيدي الملائكة من نارٍ يسوقون بها السحاب إلى حيث يشاء الله تعالى؛ فالبرق له دلالتان: الأولى أنه نذير خوف من صاعقةٍ أو مطرٍ في غير موعده النفعي أو غير ذلك من أنواع الخوف، والأخرى أنه بشير طمعٍ في نفع المطر، ثم ينشئ الله تعالى السحاب الثقال من حمل المياه[1]، ومما لا شكّ فيه أن ذلك آية دالة على القدرة الإلهية.

٤. مراحل تكوين السحاب.

حيث يكون السحاب عبارة عن قزع، قطعة هنا وقطعة هناك، فيأتي هواء خفيف فيدفع هذه السحب شيئًا فشيئًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ [النور:٤٣].

ويتكون السحاب الركامي حين تجتمع سحابتان، أو تنمو سحابة سريعة، عندها يتكون تيار هوائي تلقائي في داخلها، وهذا التيار الهوائي الذي بداخلها يصعد إلى أعلى، وحين يصعد إلى أعلى يعمل مثل الشفاطة التي تشفط الهواء من الجنب، وتقوم بسحب السحب بالشفط، بعدما تكونت على هذا النحو وأصبح لها قوة سحب وجذب للسحب المجاورة وهذا هو التأليف، فإذا تباعدت السحب الأخرى يتوقف الشفط، ويحدث شيء قوي جدًّا، وهو نموٌّ رأسيٌّ إلى أعلى، وبهذا النمو الرأسي إلى أعلى يركم السحاب بعضه فوق بعض، فيصير ركامًا ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾، وتعلو السحابة فوق، وتعلو بعضها فوق بعض، فترى المطر عندها يتوقف الركم ويضعف، فإذا ضعف فإن المطر ينزل على ذلك الأثر، ولذلك قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور:٤٣].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٨٣.

أوصاف السحاب في القرآن

ورد السحاب في الاستعمال القرآني بأوصاف عديدة ظاهرة، ومنها:

١. التسخير.

قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

حيث إن الآية السابقة دعت إلى توحيد الله تعالى في ألوهيته، وبيّنت صفتين من صفات المولى الكريم جل جلاله، وهما الرحمن الرحيم، وبذلك يتضح أن المقام هو الحديث عن أمورٍ غيبية في التوحيد المطلق لله تعالى، ولما كان هذا المقام لا يصح إلا بتمام العلم وكمال القدرة نصب الأدلة على ذلك في هذه الآية[(١)].

حيث إن هذه الآية الكريمة تحثّ على التفكّر فيما خلق الله تعالى بدءًا من خلق السماوات والأرض وعظيم ما فيهما من شواهد دالة على قدرته تعالى، ومرورًا باختلاف الليل والنهار وما ينتج عن ذلك من ظواهر كونية عظيمة، وكذلك السفينة المدوّرة التي تمخر في عباب البحر بما تقدّمه من منافع للناس من ركوبة أو صيد أو غير ذلك، وما أنزل الله تعالى من السماء من غيث يحيي الأرض وينبت الزرع، وبثّ فيها من كل دابّة، وتصريف الله تعالى الرياح، ومما يستحق التعقّل والاعتبار هو ذلك السحاب المسخّر المذلّل المقهور على فعل ما يريده الله تعالى، ومن المعلوم أن صفة التسخير المصاحبة للسحاب أبلغ من أية صفة في مقام التدبّر بآيات الله تعالى الكونية؛ لأن التسخير يعني حمل تلك السحاب على القيام بوظائفها عمومًا دون إرادةٍ منها[(٢)].

ومما يدلل على تسخير السحاب صلاة الاستسقاء التي شرعت في طلب المطر عند القحط أو عند الجفاف، وما يتبعه من هلاك الحياة، واستجابة الله الفورية، وإنزال المطر، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى الغيم والريح، عرف ذلك في وجهه، فأقبل وأدبر، فإذا أمطر سري عنه، وذهب عنه ذلك، وكان يخشى أن يكون فيه العذاب[(٣)].

ويلاحظ في هذه الآية أن الله تعالى قد بيّن أن السحاب المسخّر هو ما وقع بين السماء والأرض، ويترتب على ذلك حقائق، أهمها:

- السحاب عمومًا موصوف بأنه مسخّر مقهور على فعل ما يريده الله تعالى، فالتسخير صفة ذاتية لا تنفكّ عن أي نوع من أنواع السحاب، وقد ورد أن

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٢٨٧.

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٥٩.

(٣) انظر: السحاب في القرآن، حسني حمدان الدسوقي حمامة، موقع الألوكة الثقافية.

الله تعالى يسخّر ماءً بعينه في سحابةٍ بعينها لأمر يريده جل جلاله [1]، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض، فسمع صوتًا في سحابةٍ: اسق حديقة فلانٍ، فتنحّى ذلك السّحاب، فأفرغ ماءه في حرّةٍ، فإذا شرجةٌ من تلك الشّراج قد استوعبت ذلك الماء كلّه، فتتبّع الماء، فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقته يحوّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلانٌ - للاسم الّذي سمع في السّحابة - فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إنّي سمعت صوتًا في السّحاب الّذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلانٍ، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أمّا إذ قلت هذا، فإنّي أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدّق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأردّ فيها ثلثه)[2]، وهذا الحديث دالٌّ على أن هذا السحاب مسخّرٌ بمشيئة الله تعالى وإرادته.

- السماء في عمومها هي كل ما علا على سفل الأرض، وتشمل بذلك السحاب وغيرها؛ لكن المقام في هذه الآية هو أن السماء ما كان أعلى من السحاب من جهة، وأن السحاب موكّلٌ بوظائف مقدّرة من الله تعالى؛ فهي بذلك مسخّرة على فعلها، ومن ذلك: الغيث وإنزال العقاب وغير ذلك.

٢. الثقل.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد:١٢].

فعندما خوّف الله تعالى عباده بإنزال ما لا مردّ له من العذاب أتبع هذه الآية وما بعدها، وهي تشتمل على أمور ثلاثة، وهي:

- أنها تدل على قدرة الله تعالى وحكمته.
- وأنها تشبه النّعم والإحسان من بعض وجوهٍ.
- وأنها تشبه العذاب والقهر من بعض وجوهٍ.

وعلى هذا فإن الله تعالى بيّن أن من دلائل قدرته جل جلاله وحكمته رؤية البرق خوفًا من العذاب وطمعًا في الرحمة؛ فحدوث البرق دليلٌ عجيبٌ على قدرة اللّه تعالى، وبيانه: أنّ السّحاب لا شكّ أنّه جسمٌ مركب في أجزاءٍ رطبةٍ مائيّةٍ، ومن أجزاءٍ هوائيّةٍ وناريّةٍ، ولا شكّ أنّ الغالب عليه الأجزاء المائيّة والماء جسم بارد رطب، والنار جسم حار يابسٌ، وظهور الضّدّ من الضّدّ التّامّ على خلاف العقل؛ فلا بدّ من صانعٍ مختارٍ يظهر

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين ٤/ ٢٢٨٨، رقم ٢٩٨٤.

الضّدّ من الضّدّ[1].

وإن ظهور النار الضعيفة بلونها في ظل أجزاء السحاب الثقال من كثرة ما تحمل من ماء خالص لهو دليلٌ عملي على قدرة الله تعالى وحكمته، وأنه يخوّف عباده بالعذاب، ويجعلهم يطمعون في رحمته[2].

وإنشاء السحاب إبداؤه[3]، وفي ذلك ظهور عظمة قدرة الرب سبحانه وتعالى بجعل السحاب مثقلة بالمياه في جو السماء، ثم سوقها وإزجاؤها حيث يشاء رحمة منه بعباده.

٣. التراكم.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[الطور:٤٤].

والمركوم هو: المجتمع الكثيف، فالله يزجي السحاب، فيسوقه، ثم يجمعه، ثم يجعله مجتمعًا كثيفًا[4].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾[النور:٤٣].

ففي جعل الله تعالى السماء ركامًا دليلٌ عظيمٌ على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن العلماء لم يعرفوا بأن عملية الركم الناتجة عن عملية الرفع عقبها نزول المطر مباشرة إلا عن طريق الدراسة باستخدام الأجهزة العلمية المتطورة التي لم تكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فانظر كيف قال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، أي: ينزل المطر بعد الركم مباشرة كما كشف العلم الحديث، فسبحان الله العظيم[5].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٢٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٩/ ٢١.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥٣٥، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٢٨٢١، التفسير البسيط، الواحدي ١٦/ ٣٢٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٨٨.
(٥) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن، جامعة المدينة العالمية ص٣١٤.

السحاب والرياح

وردت كلمة الرياح في القرآن الكريم عشر مرات، وفي كل مواضع ورودها كانت مرتبطةً بالسحاب سواء من خلال بيان لفظتها، أو من خلال إظهار آثارها، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

١. ارتباط السحاب بتصريف الرياح.

وردت كلمة السحاب مرتبطة بتصريف الرياح في آيتين، إحداهما مكية، وهي قوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الجاثية:٥].

والأخرى مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

والتصريف : هو صرف الشيء من وجه إلى وجه آخر[١]، قال الطبري رحمه الله تعالى: «وتصريف الله إياها أن يرسلها مرة لواقح، ومرة يجعلها عقيمًا، ويبعثها عذابًا تدمر كل شيء بأمر ربها»[٢]، وقال أيضًا: «وفي تصريفه الرياح لكم شمالًا مرة، وجنوبًا أخرى، وصبًّا أحيانًا، وزبورًا أخرى لمنافعكم، وقد قيل: عنى بتصريفها بالرحمة مرة، وبالعذاب أخرى[٣].

قال أبو الحسن الحرالي: «لما ذكر تعالى الأعلى والأسفل، ومطلع الليل والنهار من الجانبين وإنزال الماء إهواءً ذكر ما يملأ ما بين ذلك من الريح والسحاب الذي هو ما بين حركة هوائية إلى استنارة مائية، إلى ما يلزم ذلك من بوادي نيرانه ، من نحو صواعقه وجملة أحداثه، فكان في هذا الخطاب اكتفاءً بأصول من مبادئ الاعتبار، فذكر السماء والأرض والآفاق وما بينهما من الرياح والسحب والماء المنزل الذي جملته قوام الخلق في عاجل دنياهم؛ ليجعل ذلك آية على علو أمر من وراءه، ويكون كل وجه منه آية على أمر من أمر الله فيكون آيات»[٤].

ويلاحظ أن الآيتين المكية والمدنية قد جاءت فاصلتهما بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وهذا يعني ضرورة إعمال العقل في التفكر والتأمل في آيات الله تعالى الكونية الدالة على عظيم قدرته جل جلاله، وهذا يشمل العهدين:

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٦٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٣٨٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٧٥.

(٣) المصدر السابق ٢١/ ٧٤.

(٤) تراث الحرالي ١/ ٣٠٣.

المكي والمدني، إلا أن الآية المدنية ذكرت السحاب باعتباره مذلّلًا من الله تعالى لهذه الوظيفة، أما الآية المكية فقد ذكرت السماء التي هي أعم من السحاب؛ لأن المقام في مكة هو توجيههم للتوحيد والتخلص من الشرك، وليس إظهار دقائق الأمور، وهذه العبرة ينبغي أن يتعلمها الدعاة في مخاطبة الناس؛ فالأصل هو إيصال الناس إلى الهدف الأسمى ، وهو: إخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وبذلك لا يشتغلوا بتفاصيل الدعوة إلا بعد تغلغل الأصول في قلوب المدعوّين إلى الله تعالى.

ويلاحظ أيضًا أن تصريف الرياح من وجهة إلى أخرى للسحاب المكلف بإنزال الماء عذابًا أو رحمة؛ للدلالة على قدرة الله تعالى في إمهال الناس دون الغفلة عنهم، أو عن عقابهم جزاء أفعالهم.

٢. إرسال الرياح للسحاب بشرى ورحمة من الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٥٧].

وإرسال الرياح هنا، أي: بسطها بين يدي المطر، وهذا لأجل الرحمة بالعباد والبشرى لهم بالغيث الذي يحيي الأرض التي لا نبات فيها من بعد ممات[(١)]، ومثل معنى هذه الآية ورد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[الفرقان:٤٨].

قال السدي في تفسيرها: «إن الله عز وجل يرسل الرّياح ، فتأتي بالسّحاب من بين الخافقين طرفا السّماء والأرض ، حيث يلتقيان فيخرجه من ثمّ، ثمّ ينشره فيبسطه في السّماء كيف يشاء ، ثمّ يفتح أبواب السّماء ليسيل الماء على السّحاب ، ثمّ تمطر السّحاب بعد ذلك»[(٢)].

ومن مظاهر رحمة الله تعالى وبشراه لخلقه أن الرياح لواقح للنباتات، فإذا نزل الغيث وانسكب الماء عليه بالسقاية كانت الرحمة بالعباد بإخراج ما لذّ وطاب ونفع من الثمرات، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[الحجر:٢٢].

وقد اختلف المفسرون في لواقح الرياح، والذي يظهر من كلام ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، أن الله تعالى يبعث الرياح؛ «لتلقح السّحاب ، فتحمل الماء وتمجّه في السّحاب، ثمّ إنّه يعصر السّحاب ويدرّه كما تدرّ اللّقحة ، فهذا هو تفسير إلقاحها

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ١٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٤.

للسّحاب»[1]، والرياح إذا ذكرت في القرآن الكريم في اليابسة تكون رحمة، وإذا ذكرت في البحر فهي للعذاب، وإذا ذكرت الريح في البحر تكون رحمة، وإذا ذكرت في اليابسة تكون للعذاب.

٣. تفريق الرياح للسحاب المحمل بالماء؛ لبيان العظة المستفادة.

ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

حيث مثّل القرآن الكريم هذه الحياة الدنيا بالماء الذي أنزله الله تعالى من السماء فاختلط نبات الأرض بهذا الماء حتى استوى وأينعت ثماره، فإذا به يصبح متكسرًا متفتتًا تفرّقه الرياح وتطيّره، وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لبيان أن الله تعالى مقتدر على كل شيء[2]، والسحاب منه الموجب والسالب، وعندما يزجي بين السحاب يحدث تجاذب بين نوعيه فيحدث تفريغ هوائي ينتج عنه البرق والرعد (الصوت) ، وفي ذلك دلالة على الوحي والنبوة.

وما أجمل ما نقله القرطبي رحمه الله عن قول لبعض الحكماء في بيان الحكمة من تمثيل الدنيا بالماء، وذلك أنهم قالوا: «إنما شبه تعالى الدنيا بالماء؛ لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقي على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل ، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعًا منبتًا، وإذا جاوز المقدار كان ضارًّا مهلكًا، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر»[3].

٤. إرسال الرياح مع البشرى للخلق؛ لأجل دعوتهم إلى التوحيد الخالص لله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٦٣].

فالله تعالى هو الهادي للعباد في ظلمات البر والبحر عند سفرهم وترحالهم، وهو الذي يرسل الرياح في مقدمة الغيث؛ ليبشر الناس بالرحمات المترتبة على ذلك الغيث الذي حمله السحاب[4]، ثم تأتي الفاصلة القرآنية، وذلك بصيغة الاستفهام التعجبية

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤١٢.
(٢) مفاتيح الغيب الرازي ١٩/ ١٣٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥١١.

الإنكارية لأفعالهم؛ إذ كيف يعبدون إلهًا غير الله تعالى، أو يتوجهون إلى مخلوق مهما علت مرتبته ومناقبه، فالله تعالى وتنزّه عن كل صفات النقص التي تنسب إليه ظلمًا وبهتانًا من أولئك الذين تغمرهم نعم الله تعالى.

السحاب والماء

إن الآيات القرآنية التي أوردت السحاب قد بيّنت في أكثر من موضع أنّ منه ما هو مثقلٌ بما يحمله من ماء تصرفه الرياح حيث يشاء الله تعالى؛ لمنافع عديدة، منها:

١. إخراج النبات والحبوب الزراعية، وإزهار الجنات والحدائق الملتفّة بالأغصان والزروع، وسقاية الخلق جميعًا.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: ٢١-٢٢].

حيث إنه لما بيّن الله تعالى في الآية السابقة أنه أنبت في الأرض من كل شيءٍ موزون، وجعل فيها معايش أتبعه بذكر السبب، وهو أن كلّ المخلوقات عند الله تعالى خزائنهم ومتطلباتهم؛ لكن لا ينزل إلا بقدرٍ معلومٍ؛ فالماء مثلًا يرسل بتقدير الله تعالى وعلمه بعد تلقيح النبات؛ فقد يأتي مباشرةً على كل النباتات، وقد يصرف إلى نباتات دون الأخرى، وقد ينزل على البحر معظم كميته؛ فالقدر عند الله تعالى معلوم، إلا أن تقسيمه هو شأن الذات الإلهية[1].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٣٣.

وقد وضّحت آيات سورة النبأ سبب إنزال الماء الثجّاج، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾[النبأ:١٤-١٦].

حيث وردت هذه الآيات في سياق الحديث الرباني عن بعض نعمه، ومنها: إنزال الماء السيّال المجتمع المنصبّ الكبير من السحاب التي تعصر بذلك الماء، وهذا لأجل إخراج الحبوب الكثيرة للناس، والنبات للدواب من العشب والكلأ، وأيضًايخرج بسبب إنزال الماء بعد تقدير الله تعالى الجنات والحدائق الملتف بعضها في بعض[(١)].

ومن المعلوم أن الماء حينما ينزل فإن الخلق جميعًا يشربونه؛ كسبب رئيس للحياة.

٢. التطهير وإذهاب النجس بأنواعه.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[الأنفال:١١].

حيث إن هذه الآية تبين بعضًا من مظاهر امتنان الله تعالى على عباده المؤمنين مع رسول الخلق وحبيب الحق أنه أراهم آيات البشرى بالانتصار والتأييد قبل غزوة بدر الكبرى، ومن هذه البشريات : أنه أنزل عليهم ماءً مباركًا؛ ليطهرهم من الحدثين الأكبر والأصغر، ويذهب عنهم نجاسات الشيطان القلبية وما يترتب عليها، وليزيل رعب القلوب؛ حتى تثبت أقدامهم في المعركة الفاصلة بين الحق والباطل[(٢)].

٣. إقامة الحجة على الناس؛ حتى يوحدوا الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[الواقعة:٦٨-٧٠].

حيث وردت هذه الآيات في سياق مخاطبة الله تعالى للضالين المكذبين؛ فبعد أن عرضت تلك الآيات كثيرًا من الحجج الدالة على وحدانية الله تعالى، تستأنف هذه الآيات ذكر حججٍ أخرى، ومنها الماء الصالح للشرب الذي يراه الناس جميعًا، فهل أنزل هؤلاء المكذبون الضالون ذلك الماء من السحاب إلى قرار الأرض؟ أم إن الله تعالى هو الذي أنزله بتقديره وعلمه؟!

ثم إنّ الله تعالى قادرٌ - إن شاء- أن يجعل الماء مرًّا مالحًا لا يستطيع أن يتجرّعه أحدٌ، أو أن ينتفع به في الزروع والكروم، وتأتي الفاصلة القرآنية في الآية السبعين بأسلوب التحريض لغرض الشكر لله تعالى على إنعامه على الخلق من نعمٍ موجبةٍ لذلك

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٣٧.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٣٢.

الثناء[1].

٤. بيان حال الكافرين وضياعهم.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/٧٢٨٦.

السحاب بين الرحمة والعذاب

إن الله تعالى قد جعل من آياته الكونية عظيم امتنان على عباده؛ إذ لو شاء لجعل من كل رحمة عذابًا، أو من كل عذاب رحمة؛ فكلّ ما خلق الله تعالى هو مسيّرٌ لأمره وتقديره وعلمه.

وإن هذا المبحث يركز على إحصاء آيات السحاب التي تأتي للرحمة، وآيات السحاب التي تأتي للعذاب، ومن ثم التعرف على عظيم حب الله تعالى لخلقه، والله الموفق والمستعان.

أولًا: سحاب الرحمة:

إن آيات السحاب هي في معظمها تدل على الرحمة الكبيرة من الله تعالى، وتدعو بأسلوب التفضل النعم كلّ الناس أن يشكروا ربهم جل جلاله، ويمكن تلخيص دلالات الرحمة في السحاب في القرآن الكريم من خلال ما يأتي:

١. إرسال الرياح؛ للقح السحاب، وإحلال الخير.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم:٤٨].

فقوله (الرياح) قد قرأها ابن كثير وحمزة

والكسائي على الإفراد، وقرأها الباقون على الجمع، وقد اشتهر عند المفسرين أن الرياح إذا كانت جمعًا فهي رحمة، وإذا كانت مفردة فهي عذاب[1].

وبعد المتابعة لوحظ أن كلامهم ينسحب على السياق القرآني في قراءات معينة، وليس كل القراءات المتواترة؛ فمثلًا: هذه الآية قرئت جمعًا وقرئت مفردةً، والسياق في ظاهره يعني الرحمة والفرح والاستبشار؛ فبتحريك الريح أو الرياح -على اختلاف القراءات- للسحاب وبسطه في السماء، ثم جعله في طبقات فوق بعضها البعض ينزل المطر المحمّل بالاستبشار والبهجة والسرور.

والسنة النبوية ملئت بالأحاديث التي تدلُّ على أن الريح منها ما هو رحمة ومنها ما يكون عذابًا، إلا أنه إذا أطلقت كلمة الرياح فإنها لا تعني إلا الرحمة، ومنها حديث أبي هريرة، حيث قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الريح من روح الله) قال سلمة: « فروح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب؛ فإذا رأيتموها فلا تسبوها، وسلوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها»[2].

وأما الحديث المشهور (اللهم اجعلها رياحًا لا ريحًا)، فهو حديث ضعيف جدًّا موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما[3].

٢. من الرياح ما يكون مبشّرًا باقتراب نزول الغيث من السحاب.

وما يترتب عليه من: إحياء الأرض وإنبات الزرع بعد أن كانت الأرض كلها ميتة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[الأعراف:٥٧].

وقد قرأ عاصم بالباء الموحّدة وضمها وإسكان الشين (بشرًا)؛ فيكون إرسال الرياح مبشّرًا بنزول المطر بعد بسط السحاب المحمّل بالماء في السماء، وقرأ ابن عامر بالنون وضمها وإسكان الشين (نشرًا)؛ فيكون إرسال الرياح من نشر السحاب في السماء؛ تهيئةً لنزول المطر، فهي بشارةٌ كبيرة لكل الخلق، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون وفتحها (نشرًا)؛ فيكون إرسال الرياح التي تهبّ من كل جهة؛ لجمع السحاب الممطرة، وقرأ الباقون بالنون وضمها وضم الشين (نشرًا)؛ فيكون

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦٥.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٣/ ٦٩، رقم ٧٦٣١، وأبو داود في سننه، كتاب، باب ما يقول إذا هاجت الريح، ٤/ ٣٢٦، رقم ٥٠٩٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، / ٦٦٦، رقم ٣٥٦٤.
(٣) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، الألباني ٩/ ٢٢٨، رقم ٤٢١٧.

إرسال الرياح تهيئة لنزول المطر تمامًا كلغة (نشرًا) السابق ذكرها[1].

٣. إذاقة الرحمة للبشر جميعًا.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَٰحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[الروم:٤٦].

حيث تبين هذه الآية أن من رحمة الله تعالى في إرسال الرياح للسحاب وتسييرها بأن السبب إذاقة الخلق «بها الغيث والخصب، أو نعمته من المياه العذبة، والأشجار الرطبة، وصحة الأبدان، وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا الله»[2]، حيث كانت الرحمة الناتجة عن إرسال الرياح مبشرات عبارة عن ثوب يكسي أبدان أهل القرية فيشعر جميعهم بطعم هذه الرحمة الناتجة عن الغيث المنبت للزرع والمحي للأرض.

ثانيًا: سحاب العذاب:

سبقت الإشارة إلى أن آيات السحاب معظمها للرحمة؛ لكن منها ما يتوعّد الله تعالى بها خلقه من المشركين، ويمكن تلخيص دلالات الرحمة في السحاب في القرآن الكريم من خلال ما يأتي:

(١) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/٢٦٩، ٢٧٠، المبسوط في القراءات العشر، ابن مهران ص٢٠٩، معاني القراءات، الأزهري ١/٤٠٩، الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص١٥٧.

(٢) فتح البيان، القنوجي ١٠/ ٢٦٠.

١. تهديد للذين يأمنون عقاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[الملك:١٧].

فهل أمنتم من في السماء عذابه وعقابه وهو الله تعالى، أن يرسل عليكم سحابًا محمّلة بالحجارة؛ لتنالوا العقاب، فستعلمون حينها كيف نذير الله تعالى بالعقاب والوعيد[3].

٢. إنزال بعض المؤشرات المنذرة بالعقاب من السماء.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[الطور:٤٤].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن الكفار بلغ من فرط عنادهم وشدة كفرهم أنهم طلبوا كسفًا من السماء؛ ليتبين لهم صدق دعوى النبي صلى الله عليه وسلم، فنزل الكسف، وهو قطعة من السماء منذرة بالعذاب، فلما رأوا تلك الكسف استمروا في كذبهم، وقالوا هذا سحاب متراكم بعضه فوق بعض[4].

٣. إصابة السحاب لأجل العذاب والعقاب.

(٣) انظر: فتح البيان القنوجي ١٤/ ٢٤١.

(٤) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٣٠٣.

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[النور:٤٣].

فإن هذه الآية تبين أن الله تعالى ينزل من السماء من خلال السحاب بردًا ومطرًا وصقيعًا، وقد يكون هذا رحمةً وهو الغالب، وقد يكون نقمةً؛ لأجل العذاب والانتقام، كما يحدث بين الفترة والأخرى في بعض بلاد العالم، فإن من يصاب بهذا من الناس فهو بتقدير الله تعالى، ومن يصرف عنه فهو برحمته وعلمه وقدرته؛ فإن من السحاب ما يحمل نارًا حارقة يرى في البرق شدة لمعانها وكذلك الصواعق، وغيرها[1].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٣/ ٢٩٢.

السحاب في المثل القرآني

ضرب الله تعالى مثلًا لظلمة قلب الكافر، فقال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

فقد شبّهت الآية الكريمة الظلمات الكثيفة على قلب الكافر بظلمات في بحرٍ لجّيٍّ، أي: عميق كثير الماء، ولجة البحر: معظمه، يغشاه أي: يعلوه موج من فوق، موج، أي: متراكم من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، وذلك أن البحر اللجي يكون قعره مظلماً جدًّا بسبب غمورة الماء، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة فإذا كانت فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة غايتها[2].

وقد صور القرآن الكريم في هذا المثل ظلمات قلب الكافر، وهي معنوية في صورة حسية، هي: ظلمات الموج المتراكم، ومن فوق السحاب؛ وذلك لتوضيح المعنى وتقريبه إلى الأذهان، والله أعلم.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩٨، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥١٢٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١١١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٨٥.

لمسات إعجازية في السحاب

إن الوجه المعجز الوحيد في القرآن الكريم هو الوجه البياني المتضمن للفظ والمعنى والنظم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور:٤٣].

وعند تأمل هذه الآية نجد أنها أشارت إلى بعض الجوانب العلمية التي اكتشفت في العصر الحديث، ومنها[(١)]:

١. وصف الله تعالى السحاب بأنه يزجي، وهذا يعني أن الرياح تسوقه برفق إلى حيث قدّر الله تعالى في نزول المطر، وقد اكتشف العلماء أن السحاب الركامي تسوقه الرياح قطعًا من السحب الصغيرة إلى مناطق التجمّع، فتزداد كمية بخار الماء، وخاصةً أول التجمّع.

٢. يؤلّف بين السحاب بعد الإزجاء، وهذا يعني الجمع بين قطعه المتفرقة مع التنظيم والترتيب، ثم تتألّف السحب المتعددة؛ لتكون سحابًا واحدًا، ومن المؤكّد علميًّا أن هذه العملية تستغرق وقتًا طويلًا؛ ولذا جاء السياق القرآني (ثمّ) الذي يفيد التراخي[(٢)].

٣. جعل السحاب ركامًا بعد التأليف، وهذا يعني أن السحاب بعد أن أصبح قطعةً مترابطة واحدةً، تجتمع بعضها فوق بعض، وإن العلماء قالوا: إن عامل ركم السحاب الذي يكون بالنمو الرأسي لنفس السحابة، هو العامل الرئيسي في هذه المرحلة، وإن الانتقال إليه من المرحلة السابقة يحتاج كذلك إلى زمن ، لذلك كان استعمال حرف العطف الدال على الترتيب مع التراخي في الزمن. وهو حرف العطف (ثم).

٤. وصف الآية نزول المطر من فتوق السحاب ومخارجه، وهذا هو ما قرّره علماء الأرصاد.

٥. وصف قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾[النور:٤٣]. ومعنى هذه الآية هو ما فهمه المختصون بأنه لا بد أن يكون السحاب في شكل جبلي يسمح بتكوين الثلج في المناطق العليا منه، ويسمح بتكوين الماء الشديد

(١) انظر: أنواع السحب رؤية قرآنية، عادل الصعدي، موقع جامعة الإيمان اليمنية الالكتروني.

(٢) انظر: إعجاز القرآن الكريم في وصف أنواع الرياح والسحاب والمطر، من بحوث المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مجموعة من الباحثين.

البرودة الذي سيتحول إلى مزرعة للبرد عندما يشاء الله في المنطقة الوسطى من السحابة، وإن البرد يتكون عندما تمكث نواة ثلجية لفترة زمنية كافية وتحتوي على ماء شديد البرودة (ماء درجة حرارته تحت الصفر حتى درجة -٤٠م).

٦. قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾، يبين الله تعالى أن للبرد برقًا شديد اللمعان، فالضمير في برقه يرجع إلى أقرب مذكور وهو البرد، وسنا البرق: شدة بريقه وضوئه، ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾، أي: خطفه إياها من شدة الإضاءة، فنسب البرق إلى البرد في كتاب الله تعالى، والبرد يقوم بتوزيع الشحنات الكهربائية في جسم السحابة أثناء صعوده وهبوطه ، ثم يقوم بالتوصيل بين الشحنات الكهربائية المختلفة فيحدث تفريغًا هائلًا.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، الرياح، السماء، الماء

السِّحر

عناصر الموضوع

مفهوم السّحر	٣١٠
السحر في الاستعمال القرآني	٣١١
الألفاظ ذات الصلة	٣١٢
حقيقة السّحر	٣١٤
تأثير السّحر	٣١٦
وصف الحق بالسّحر	٣١٨
حكم السّحر	٣٢٦
إبطال السّحر	٣٢٨
جزاء السّحرة	٣٣١

مفهوم السّحر

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «السّين والحاء والرّاء أصولٌ ثلاثةٌ متباينةٌ: أحدها عضوٌ من الأعضاء، والآخر خدعٌ وشبهه، والثّالث وقتٌ من الأوقات»[1].

والسحر: «الأخذة التي تأخذ العين حتى تظن أن الأمر كما ترى وليس الأصل على ما ترى»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تعددت تعاريف السحر لدى العلماء، بسبب كثرة أنواعه المختلفة، قال الشافعي: «والسحر اسم جامع لمعان مختلفة»[3]، فكل عالم يعرف نوعاً من أنواع السحر دون غيره، فمنهم من يعرف سحر التخييل فقط، ومنهم من يعرف سحر التفريق فقط، وهكذا.

وقال الطبري: «معنى السحر: تخييل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به في عينه وحقيقته»[4].

وعرفه البيضاوي بأنه: «ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس»[5].

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٣٨.
(٢) انظر: تهذيب اللغة ٤/ ١٦٩، مختار الصحاح، الرازي ص١٤٣..
(٣) الأم، الشافعي ١/ ٢٩٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٤٦.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٩٧.

السحر في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (س ح ر) في القرآن الكريم (٦٣) مرة، وما يخص موضوع (السحر) (٦٠) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف:١١٦]
الفعل المضارع	٢	﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:١٣٢]
مصدر سماعي	٢٨	﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ﴾ [يونس:٨١]
اسم الفاعل	٢٢	﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤﴾ [ص:٤]
اسم المفعول	٦	﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٤٧﴾ [الإسراء:٤٧]
صيغة المبالغة	١	﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ۝٣٧﴾ [الشعراء:٣٧]

وجاء السحر في القرآن على أربعة أوجه[(٢)]:

الأول: السحر المعروف الذي يأخذ بالعين والقلب، ومنه قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

الثاني: الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف:١١٦] يعني: بكذب.

الثالث: الجنون، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الإسراء:٤٧] يعني: مجنونًا.

الرابع: الصرف، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون:٨٩] يعني: تصرفون عن الحق.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٤٦-٣٤٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٧٠-٢٧١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخداع:

الخداع لغة:

هو إظهار خلاف ما يخفيه الشخص[١].

الخداع اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قال ابن القيم: «والمخادعة: هي الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع»[٢].

الصلة بين الخداع والسحر:

يتفق الخداع مع السحر في قضية إخفاء الحقيقة وإظهار خلافها، لكنه يختلف مع السحر من حيث الحكم والوسيلة، فحكم السحر كفر عند جمهور أهل العلم، بينما حكم الخداع يختلف باختلاف أهدافه، فقد يكون حراماً وقد يكون حلالاً.

٢ الكهانة:

الكهانة لغة:

كهن له كمنع ونصر وكرم كهانة بالفتح، وتكهن تكهنًا: قضى له بالغيب؛ والكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار. والعرب تسمي كل من يتعاطى علمًا دقيقًا كاهنًا، ومنهم من كان يسمي المنجم، والطبيب، كاهنًا[٣].

الكهانة اصطلاحًا:

ادعاء علم الغيب[٤].

وقال ابن تيمية: الإخبار ببعض الغائبات عن الجن[٥].

الصلة بين الكهانة والسحر:

من خلال ما سبق يتبين لنا أن هناك فرقاً بين السحر وبين الكهانة من حيث التعريف، ومن حيث الوسيلة، فالكاهن من يدعي علم الغيب متوسلاً بالجن أو ببعض ما يزعم أنها

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم ١/ ١٣٢.
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/ ٣٤٠.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢٦٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٥٨٥.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٦/ ٨١.
(٥) النبوات ص١٣.

استدلالات تعينه على معرفة علم الغيب، بينما الساحر يعتمد اعتماداً كليًّا على الجن والشياطين فيما يدعيه من علم الغيب[1].

ومن حيث الحكم نجد بأن السحر والكهانة كلٌّ منهما محرم شرعًا، وما جاء من أدلة في تحريم السحر، تصلح أيضًافي باب حكم الكهانة.

٣ العرافة:

العراف لغة:

قال الجوهري: «والعراف الكاهن والطبيب»[2].

العراف اصطلاحًا:

قال الخطابي: «هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها»[3].

وقيل عنه أيضًا: أنه من يدعي علم الغيب، وربما شمل الكاهن والمنجم والرمال[4].

الصلة بين العرافة والسحر:

بينهما تقارب ظاهر بيّنٌ، فالعرافة من حيث ارتباطها بالجن لا تختلف عن السحر، فكلٌّ من العرّاف والساحر لا يستغنيان عن الجن والشياطين في أعمالهما الكفرية.

ومن حيث الحكم فالعرافة محرمة كما السحر، وعقوبة العراف القتل مثل الساحر[5].

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٦/ ٨٢.
(٢) الصحاح ٤/ ١٤٠٢.
(٣) معالم السنن ٤/ ٢٢٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣.
(٥) انظر: الفروع، ابن مفلح ٦/ ١٦٨.

حقيقة السّحر

السحر كلمة تكررت في كل العصور، واستخدمتها كل الأمم، بطرق ووسائل مختلفة، ونسجوا لها القصص والخيالات، ووقف الجميع أمام مسألة السحر، فمن منبهر مصدق معظّم، ومن جاحد مكذب، ومن مصدق لحقيقة السحر، مع اعتقاده بتوقف أثره على مشيئة الله.

وفي هذا المبحث سأناقش مسألة حقيقة السحر، وهل له حقيقة؟ أم أن المسالة لا تعدو أن تكون ضرباً من التمويه والتخييل ليس إلا؟

قال أبو حيان: «واختلف في حقيقة السحر على أقوال:

الأول: أنه قلب الأعيان واختراعها وتغيير صور الناس مما يشبه المعجزات والكرامات، كالطيران وقطع المسافات في ليلة.

الثاني: أنه خدع ومخاريق وتمويهات وشعوذة لا حقيقة لها...

الثالث: أنه أمر يأخذ بالعين على جهة الحيلة...

الرابع: أنه نوع من خدمة الجن، وهم الذين استخرجوه من جنس لطيف أجسامهم وهيئاتها، فلطف ودق وخفي.

الخامس: أنه مركب من أجسام تجمع وتحرق، وتتخذ منها أرمدة ومداد، ويتلى عليها أسماء وعزائم، ثم تستعمل فيما يحتاج إليها من السحر.

السادس: أن أصله طلسمات[1]..، تبنى على تأثير خصائص الكواكب...

قال بعض معاصرينا: هذه الأقوال كلها التي قالوها في حقيقة السحر أنواع من أنواع السحر، وقد ضم إليها أنواع أخر»[2].

الخلاف في هذا المسألة بين جمهور العلماء من جهة، وبين المعتزلة وبعض أهل السنة من جهة أخرى.

فبينما يذهب جماهير العلماء إلى القول بأن للسحر حقيقة، مستدلين بما يلي:

قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦].

---

(١) المراد بالطلسم في باب السحر: «خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجي».
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٦٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ١/ ٥٢٥.

وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق:٤].

فقد ذكر الله تعالى في الآية الأولى نتيجة هذا السحر وهو التفريق بين الزوجين، ولو لم يكن للسحر حقيقة لما أثر على العلاقة التي تكون بين الزوجين، وهي من أعظم العلاقات.

والآية الثانية بينت أن للسحر حقيقة وأثراً، إلا أن هذا الأثر متوقف على المشيئة، فلو لم يكن ثم حقيقة وأثر لما كان لذكر المشيئة هنا أي فائدة.

وفي الآية الثالثة يخبر تعالى أنهم أتوا بسحر ، وفي هذا دليل على أن للسحر حقيقة.

وفي الآية الأخيرة يأمرنا الله تعالى أن نستعيذ به من شر السحر، ولو لم يكن للسحر حقيقة ولا أثر لما أمرنا الله تعالى أن نستعيذ به من شره.

يذهب المعتزلة إلى القول بأن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو من قبيل الخداع والشعوذة والتمويه.

واستدلوا بما يلي:

قال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف:١١٦].

وقالوا بأن القضية كانت مجرد تخييل فقط ولا حقيقة لها في الواقع، بدليل قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦].

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

وقالوا مادام أنه نفى عنه الفلاح، فهذا يعني أنه ليس على حق، أو لا حقيقة لما معه من السحر.

لكن يقال لهم نفي الفلاح لا يدل على نفي الحقيقة، فنفي الفلاح إنما هو عقوبة وجزاء على هذا الفعل الشنيع.

وقالوا: لو سلمنا بحقيقة السحر لحدث التباس بينه وبين معجزات الأنبياء، فعاد ذلك على المعجزات بالإبطال.

وهذا غير صحيح ؛ فإن هناك فرقًا كبيرًا بين معجزات الأنبياء وبين سحر الساحرين.

معجزات الأنبياء سببها النبوة ، وأما ما يجري على يد السحرة فسببه الجن والشياطين الذين يستعين بهم الساحر.

كذلك معجزات الأنبياء غير معارضة، ولا يقدر أحد على المجيء بمثلها، بينما سحر السحرة غير سالم من المعارضة.

كذلك معجزات الأنبياء هي تأييد من الله تعالى لهم لهداية البشر، أما السحر فهو إضلال للبشر، وإبعاد لهم عن الله تعالى.

والذي يظهر في هذه المسالة : أن السحر له حقيقة وتأثير، لكن ذلك التأثير متوقف على قدر الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

[البقرة:١٠٢].

لكن لا يعني هذا أنه لا يوجد من أنواع السحر ما هو تخييل وخفة يد وما شابه ذلك.

قال ابن حجر: «وقال القرطبي السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته وأكثرها تخييلات بغير حقيقة، وإيهامات بغير ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك، كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦].

مع أن حبالهم وعصيهم لم تخرج عن كونها حبالاً وعصياً، ثم قال: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيرًا في القلوب كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم»[(١)].

تأثير السّحر

السحر وتأثيره على الأعيان، وحقيقة ذلك التأثير، ونطاق ذلك التأثير، من المسائل التي تثار في باب الحديث عن السحر.

فهل للسحر تأثير؟

وما حدود ذلك التأثير؟

وهل تأثيره مستقل بذاته أم مرتبط بالمشيئة؟

في هذا المبحث سأجيب على كل تلك التساؤلات.

أما هل للسحر تأثير؟

فنجد الجواب عنه فيما يلي:

قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢].

فالآية الكريمة تذكر لنا أثراً من آثار هذا السحر، وهو أنه يؤثر في صرف القلوب المتحابة عن بعضها البعض، فبعد الحب بغض، وبعد القرب والتآلف بعد وتنافر، بل قد يصل الحال بالزوجين إلى الطلاق[(٢)].

ويكون ذلك التأثير من خلال «ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خلق أو نحو ذلك، أو عقد أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة»[(٣)].

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٤٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٤.

وذكر في الآية التفريق بين الزوجين، ليدلل على أنه ما دام السحر أثر على الزوجين «مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما ؛ لأن الله قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]»[(١)]، فمن باب أولى أن يؤثر على غيرهما.

قال الشوكاني رحمه الله: «في إسناد التفريق إلى السحرة، وجعل السحر سبباً لذلك دليل على أن للسحر تأثيراً في القلوب بالحب والبغض، والجمع والفرقة، والقرب والبعد.

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة؛ لأن الله ذكر ذلك في معرض الذم للسحر، وبين ما هو الغاية في تعليمه، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره.

وقالت طائفة أخرى: إن ذلك خرج مخرج الأغلب، وأن الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه ، وقيل: ليس للسحر تأثير في نفسه أصلاً، لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

والحق أنه لا تنافي بين قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢] وبين قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١.

فإن المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثيراً في نفسه، ولكنه لا يؤثر ضرراً إلا فيمن أذن الله بتأثيره فيه.

وقد أجمع أهل العلم على أن له تأثيراً في نفسه وحقيقة ثابتة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة وأبو حنيفة»[(٢)].

وقال القرطبي رحمه الله أيضًامبيناً أن للسحر تأثيرًا في القلوب وتفريقًا بين المتحابين: «ولا ينكر أن السحر له تأثير في القلوب، بالحب والبغض، وبإلقاء الشرور حتى يفرق الساحر بين المرء وزوجه، ويحول بين المرء وقلبه، وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأسقام، وكل ذلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره معاندة»[(٣)].

واستدل ابن قيم الجوزية بقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق:٤] على إثبات تأثير السحر[(٤)].

إذن فمسألة تأثير السحر مفروغ منها، وأنها ثابتة وأمر مجمع عليه، وإنما حدث خلاف في حدود ذلك التأثير، وقد بين الشوكاني والقرطبي فيما سبق هذه المسألة بما لا يحتاج إلى مزيد تفصيل.

أيضًا فإننا نجد فيما سبق من كلام الشوكاني رحمه الله إجابة لبقية التساؤلات وهي:

(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٤١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٥٥.
(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ٦٣٤.

حدود تأثير السحر، وعلاقته بالمشيئة:

فتأثير السحر عام لا يختص بالزوجين فقط، كما أن هذا التأثير خاضع لمشيئة الله تعالى، وليس مستقلاً بذاته، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

ومما يدل أيضًا على تأثير السحر قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه:٦٦-٦٨].

فيذكر الله تعالى هنا أن السحر أثر في العيون، بل وصل الأمر إلى أن خاف موسى عليه السلام، على خلاف في السبب الذي خاف من أجله موسى، أهو خوف طبيعي على نفسه، أم خاف أن يلتبس الأمر على القوم فينصرفوا عن اتباعه[1].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٨٣.

وصف الحق بالسّحر

الحق في كل العصور يتعرض لحملات تشويه من قبل أهل الباطل، ومن خلال مطالعتنا لكتاب الله تعالى نجد بأن الكفار قد ألصقوا بالحق كل نقيصة وعيب.

وليتضح هذا الأمر، سأتناول هذه القضية من خلال النقاط الآتية:

أولًا: وصف الكتب المنزلة بالسّحر:

وكما وصف المشركون رسلهم بالسحرة، كذلك فقد وصفوا ما أنزل عليهم من الكتب بالسحر، والغاية هنا هي الغاية هناك، وهي التنفير عن الوحي والرسل، والصد عن سبيل الله، والكذب على الجماهير التي تبحث عن الحق وتطلبه.

وسأذكر هنا نماذج دالة على وصف الكفار للكتب المنزلة بالسحر، فمن ذلك:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام:٧].

فيخبر الله تعالى أن الكفار الذين كتب الله عليهم الشقاء في الدنيا، والعذاب والنكال في الآخرة، مهما بذل معهم الرسول من الوسائل والحجج، فسيقابلونها بالتكذيب وينسبونها إلى السحر[2]، ولذلك ذكر الله تعالى أن المشركين لو عاينوا تنزيل

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٨٩.

الكتاب ولمسوه بأيديهم؛ ليتحققوا من أنه ليس بسحر يخدع العيون[1]، لما قابلوا ذلك إلا بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:٧].

والله يخبر عنهم هنا أنهم سيقولون ذلك جازمين به غير شاكين فيه، فمن يهدي من أضل الله؟!

قال الشوكاني رحمه الله عند تفسير الآية السابقة: «في هذه الجملة بيان شدة صلابتهم في الكفر، وأنهم لا يؤمنون ولو أنزل الله على رسوله كتابًا مكتوبًا في قرطاس بمرأى منهم ومشاهدة فلمسوه بأيديهم، حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين: حاسة البصر، وحاسة اللمس، لقال الذين كفروا منهم: إن هذا إلا سحر مبين، ولم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا»[2].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود:٧].

يذكر تعالى أن أهل الكفر حينما يسمعون آيات الله تخبرهم بأنهم مبعوثون بعد الموت، فإنهم يسارعون إلى اتهام هذا الوحي المنزل بأنه من قبيل السحر، وليس أي سحر، بل سحر بيّن غاية البيان وواضح غاية الوضوح.

قال الطبري رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود:٧]: «أي: ما هذا الذي تتلوه علينا مما تقول، إلا سحر لسامعه، مبين لسامعه عن حقيقته أنه سحر»[3].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣﴾ [سبأ:٤٣].

وما زال أهل الشرك والتنديد يتخبطون في غيهم وضلالهم، فمرة يتهمون المرسل ومرة يتهمون الرسول، ومرة يتهمون الوحي، وفي هذه الآية الكريمة يتهمون الرسول بأنه صاد عن دين الآباء والأجداد، ثم نراهم مرة أخرى يتهمون الوحي المنزل بأنه إفك افتراه الرسول، وفي آخر المطاف، حينما رأوا بأن الحق يظهر والناس يدخلون في دين الله أفواجاً، نجدهم يتهمون الوحي بأنه سحر واضح بيّن، وربما اقتسموا هذه التهم فيما بينهم، فمنهم من يقول إفك ومنهم من يقول سحر، وهكذا[4].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٨٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١١٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٥١.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣١٠.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزخرف:٣٠].

حينما أتى الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، لم يكن أمام المشركين والمكذبين إلا طريقان اثنان لا ثالث لهما:

- إما أن يسلموا ويذعنوا للحق.
- وإما أن يكفروا ويجحدوا الحق -مع علمهم أنه حق واضح بين لا مرية فيه-.

لكن هذا الأخير سيوقعهم في حرج، وهو أنهم أمام حق واضح غاية الوضوح، فلا بد من تهمة يلصقونها بالوحي -الحق الذي جاءهم- حتى يبرروا كفرهم وعنادهم، فلم يجدوا أمامهم سوى اتهام الوحي بأنه من قبيل السحر.

قال الطبري رحمه الله: «ولما جاء هؤلاء المشركين القرآن من عند الله، ورسول من الله أرسله إليهم بالدعاء إليه ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ﴾ يقول: هذا الذي جاءنا به هذا الرسول سحر يسحرنا به، ليس بوحي من الله ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ يقول: قالوا: وإنا به جاحدون، ننكر أن يكون هذا من الله»[1].

فقدحوا -بهذه التهمة الكاذبة- قدحا شنيعا في الوحي الحق؛ حينما جعلوه من قبيل السحر، الذي لا يتعاطاه إلا أخبث الخلق وأرذلهم[2].

وعجيب حال هؤلاء المشركين، نجدهم يتهمون الوحي الذي نزل على الرسول بأنه سحر، ثم نجدهم لا يمانعون أن يتبعوا هذا الوحي نفسه الذي اتهموه بأنه سحر، لكن بشرط أن ينزل على رجل من القريتين عظيم، فيا له من تخبط وتناقض صارخ، قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأحقاف:٧].

«يقول تعالى مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أي: في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر واضح»[3].

فالله تعالى يريد أن يقيم الحجة البالغة على الخلق؛ حتى لا يبقى لمعتذر عذر، لذلك كان الوحي الذي أنزله الله تعالى على رسله في غاية الوضوح والبيان، وكان كله حقًّا لا مرية فيه ولا شك.

لكن من طبع الله على قلوبهم، قابلوا هذا الحق بالصد والاعراض، وألصقوا به التهم الكاذبة؛ ليبرروا كفرهم وعنادهم، فنجدهم هنا يتهمون الوحي المنزل من عند الله بأنه ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ «يعنون: هذا القرآن

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٩١.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٧٥.

خداع يخدعنا، ويأخذ بقلوب من سمعه -منا-فعل السحر ﴿مُّبِينٌ﴾..: يبين لمن تأمله ممن سمعه أنه سحر»[1].

وما ذلك إلا للتملص والهروب من التصديق والإيمان، ولتنفير الناس من الالتفاف حول الأنبياء والرسل والإيمان بما أوحاه الله إليهم من الكتاب.

وما يفعله المكذبون من وصف الوحي بالسحر المبين هو من «باب قلب الحقائق الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وبين السحر من المنافاة والمخالفة ما هو أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق -الذي علا وارتفع ارتفاعاً على الأفلاك وفاق بضوئه ونوره نور الشمس ، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة- بالباطل الذي هو السحر الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله وهل هذا إلا من البهرجة؟»[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف:٦].

لما بعث الله تعالى النبي محمدًا[3] صلى الله عليه وسلم، وأيده بالبينات التي من أعظمها الوحي -القرآن- قال أهل الشرك ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فاتهموا الوحي بالسحر البين الذي لا خفاء فيه، وهم حينما اتهموه بذلك يعلمون أنهم كاذبون، لكنه العناد والاستكبار، وإلا فلا تشابه ولا تقارب بين الوحي الذي هو غاية ومنتهى الحق، وبين السحر الذي هو غاية ومنتهى الباطل.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر:٢٤].

ما زالت التهمة للوحي بأنه سحر مستمرة، ولا يزال الكفار يتواصون بها، فبعد أن يبهرهم الحق المبين، ويدحض باطلهم الوحي الكريم، لا يجدون أمامهم سوى اتهام الوحي بأنه سحر، وهذا السحر تعلمه من غيره[4].

وهذه التهمة لم تأت إلا بعد اجتماعات ومداولات استنفد فيها المشركون كل التهم

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٩٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨٠.

(٣) ومنهم من يقول بأن النبي الذي اتهموا ما جاءهم به من الوحي بالسحر، هو عيسى عليه السلام وليس محمدا صلى الله عليه وسلم، ذكر ذلك الشوكاني ورجحه.
انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٦٣.
وفي كلا الحالين فالمقصود أنهم اتهموا الوحي المنزل والآيات بأنها من قبيل السحر.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٦٦.

والافتراءات ضد الرسول، وما أتى به من الوحي المبين.

وعجيب حالهم، كيف يصفون ما هو حق مبين، بما هو باطل مبين؟!

إذن فيما تقدم من الآيات بيّنت أن الكفار قد اتهموا الوحي بأنه من قبيل السحر، وكان لهم من وراء هذه التهمة أهداف وغايات من أهمها هدفان اثنان:

الهدف الأول: ليبرروا لأنفسهم الكفر والتكذيب.

الهدف الثاني: لينفروا الناس ويبعدوهم عن اتباع الوحي.

ثانيًا: وصف الرسل بالسّحر:

كثيرًا ما اتهم الكفار الرسل بالسحر، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

قال فرعون عن موسى في موطن من المواطن: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥].

وهو بهذا الاتهام يريد التنفير من اتباع موسى عليه السلام؛ ولذلك أخبر فرعون قومه بأن هدف موسى هو إخراجهم من أرضهم وديارهم، وبما أن الإخراج من الديار صعب على النفس باعتبار الحب الفطري المغروس في النفوس للوطن والبلاد، فقد استغل فرعون هذا الأمر، وصور لقومه موسى بأنه ساحر، وسحره خطير جداً يصل تأثيره إلى حد الإخراج من الديار، فمن أراد البقاء في دياره ووطنه فيجب عليه أن يقاطع هذا الساحر ويعاديه، وهذه التهمة بالسحر كما ألصقت -زورًا وبهتانًا- بموسى عليه السلام ألصقت أيضًا -زورًا وبهتانًا- بهارون عليه السلام.

قال تعالى حاكياً عن الكفار: ﴿قَالُوٓا إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه:٦٣].

وفي موطن آخر نجد أن الطغاة قد أجمعوا على اتهام موسى بأنه ساحر؛ حينما لم يقدروا على مواجهة ما جاء به من الحق والدين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٤].

أي: أنه ساحر فيما أظهر من المعجزات، وكاذب في دعواه بأنه نبي مرسل إليهم من الله[1].

قال تعالى عن كفار قريش حينما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً ومبشرًا ونذيرًا: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٣١٥.

﴿هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ [يونس:٢].

هذه الآية وردت فيها قراءتان: القراءة الأولى : بإثبات الألف، فيكون الموصوف بالسحر هو الرسول، والقراءة الثانية : بحذف الألف فيكون الموصوف بالسحر هو الوحي أو الشرع الذي بعث به الرسول[١].

وحجتهم في هذه القراءة «أن السحر يدل على الساحر ، لأن الفعل لا يكون إلا من فاعل ، والساحر قد يوجد ولا يوجد معه السحر»[٢].

وفي كلا الأمرين المقصود واحد وهو إثبات تهمة السحر؛ ليتم بعد ذلك التنفير والتشهير، والصد عن سبيل الله تعالى.

المهم أن كفار قريش تعجبوا من هذا الرسول البشري، وظنوا جهلاً أنه لا يمكن أن يكون الرسول إلى البشر إلا ملكاً، ونسوا أو تناسوا أن الله تعالى ما بعث قبل محمد صلى الله عليه وسلم إلا رجالاً من البشر، هذا التعجب الاستنكاري قادهم إلى اتهام النبي المرسل بأنه ساحر، بل وصفوا سحره بأنه بين واضح، وهذا من جهلهم وسفههم، وإلا فهم يعرفون السحرة ونفثهم وعقدهم وتمتماتهم، وليس هذا مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، بل هذا النبي الكريم قد جاء لمحاربة السحر والسحرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات)، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر...)[٣]، فكيف يتناقض مع نفسه؟!

فيحارب السحر في الوقت الذي هو فيه يشتغل به، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وهاهم أيضًا مرة أخرى يتهمونه بالسحر في قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤﴾ [ص:٤].

فاتهموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر، وما فعلوا ذلك إلا من أجل التنفير عنه، والصد عن اتباع ما جاء به من الحق والدين، وكذلك هي سنة الكافرين مع رسلهم.

بل ما بعث الله تعالى رسولاً إلا واتهمه قومه بالسحر، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾ [الذاريات:٥٢].

وهم بهذا الاتهام يهدفون إلى هدم الرسالة، والطعن في الرسل لتنفير الناس عنهم؛ لأن كلاً من اتهامهم بالسحر أو

(١) انظر: معاني القراءات، الأزهري ١/ ٣٤٢.
(٢) حجة القراءات، ابن زنجلة ص ٣٢٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ٨٩ .

الجنون يكفي لتشويههم وتشويه ما جاءوا به من الحق والدين، ونجد تاريخ الكفر ممتدًا إلى عصرنا الحديث، فنرى الحملات الإعلامية المتواصلة ضد أتباع الرسل من العلماء والدعاة، واتهامهم بشتى التهم، بهدف إبعاد الجماهير عنهم، حتى لا تتفطن الأمة لما يراد بها ويخطط لها من قبل الكافرين والمنافقين.

ثالثًا: وصف المعجزات والحجج بالسّحر:

إن موسى عليه السلام كان من أكثر الأنبياء تعرضاً للاتهام بالسحر، وما جاءهم بآية من آيات الله تعالى الدالة على صدق نبوته ورسالته، إلا وسارعوا لاتهامه واتهام ما جاء به بأنه سحر.

ولعل من أسباب ذلك، أن مهنة السحر كانت رائجة في عصرهم.

قال تعالى وهو يذكر بعض الآيات والمعجزات التي أيده الله بها لدعوة قومه إلى الله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [النمل:١٢-١٣].

فكذبوا الرسول، وجحدوا الآيات، وجعلوا ما أقامه الله تعالى دليلاً لهدايتهم، من قبيل السحر والشعوذة، وزعموا أن هذه الآيات سحر بين وواضح لا يخفى على أحد، فاستحقوا بذلك العذاب، وباءوا بالخسران في الدنيا والآخرة.

وكذلك نجد الأمر في القوم الذين بعث الله إليهم عيسى عليه السلام، فقد أمده الله تعالى بمعجزات وآيات كثيرة، لا لشيء إلا لتقام عليهم الحجة، ويتبين لهم طريق الهداية واضحًا جليًّا، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة:١١٠].

فوصف القوم الكافرون المعجزات والآيات البينات الواضحات بالسحر، كما في قراءة من حذف الألف في قوله: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ووصفوا الرسول بالساحر على قراءة من أثبت الألف في قوله: ﴿سَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾، وكلها قراءات صحيحة[1].

كذلك فإن أهل الشرك والوثنية قد وصفوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه

(١) انظر: الحجة للقراء السبعة، الفارسي.

وسلم من الآيات والمعجزات بالسحر، رغم يقينهم بأنه ليس بساحر ولا كاهن، ولكنه الحقد والحسد والكبر المغروس في القلوب الضالة.

فنجد كفار قريش في موقف من المواقف يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم معجزة يرونها بأم أعينهم؛ ليستدلوا من خلالها على صدق نبوته ورسالته، وأنه مؤيد من الله تعالى بالمعجزات والبراهين، فطلبوا منه أن يشق لهم القمر في ليلة البدر، وزعموا أنهم سوف يؤمنون ويصدقون بما جاء به.

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم حريص على هداية قومه؛ فقد توجه إلى ربه تعالى طالباً منه أن يؤيده بهذه الآية العظيمة؛ حتى لا تبقى لأحد حجة على الله تعالى، فاستجاب الله تعالى لنبيه، وشق له القمر شقين، لكن شيئاً مما وعده به الكفار لم يحدث، بل قابلوا ذلك بالعناد والاستكبار، وفسروا هذه الآية والمعجزة العظيمة بأنها من قبيل السحر، فكانوا بهذا من المعاندين، وبالعذاب من الموعودين[1].

قال تعالى حاكيًا عن نبأ انشقاق القمر:

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾

[القمر:١-٢].

وزعموا أن هذه الآية العظيمة من قبيل السحر الذاهب الذي لا يثبت، أو من قبيل السحر الشديد القوي الدائم الذي أصبح لا يتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم، بخلاف السحرة الذين قد يقدرون على شيء أو شيئين فقط[2].

إذن هؤلاء ثلاثة من الأنبياء والرسل من أولي العزم، أيدهم الله بالآيات والمعجزات، فما كان أمام القوم الكافرين إلا التهرب من اتباع الحق بحجة أنه من قبيل السحر، مع تمييزهم بين ما هو سحر وما ليس بسحر، ولكنه العناد والاستكبار.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٦٥.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٩٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٩٠.

حكم السحر

السحر قضية من القضايا التي تحدث عنها القرآن كثيرًا، وزاد بيانها النبي صلى الله عليه وسلم في سنته، كما أننا نجد العلماء والفقهاء قد أفردوا لها في كتبهم فصولًا وأبوابًا، وتحدثوا عنها بتفصيلات وتفريعات، وما ذلك إلا دليل واضح على أن هذه المسألة من المسائل الشرعية التي يتعلق بها كثير من الأحكام.

وفي هذا المبحث سأتكلم على كون السحر علمًا، وعلى حكمه من خلال مسألتين:

أولًا: إثبات أن السحر علم من العلوم:

لا ينكر أن السحر علم من العلوم الموجودة قديماً من حيث الأصل، ومع تقدم الزمان حدثت لهذا العلم تطورات من حيث الوسائل فقط، أما من حيث الأصل فهو باق على ما هو عليه، وهذا الثبات في الأصل والتجديد في الوسائل، هو ما جعل هذا العلم يحفظ ويصان من الضياع والاندثار.

وإذا وقفنا مع آية سورة البقرة التي تحدثت عن السحر؛ فإننا سنخرج بيقين بأن السحر علم، وهذه هي المسألة الأولى.

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة:١٠٢].

ففي هذا الآية الكريمة عدة مواطن أثبتت أن السحر علم، هذه المواطن هي:

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:١٠٢]

قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقال تعالى في موطنين آخرين: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه:٧١].

إذن من خلال ما سبق تبين لنا جلياً أن

السحر علم من العلوم، الذي له مصادره ومراجعه ورجالاته.

ثانيًا: بيان حكم هذا النوع من العلوم:

هذه المسالة هي الأهم في هذا المبحث، وهي بيان حكم هذا النوع من العلوم، وفي الآيات السابقة البيان الشافي والكافي لحكم هذا العلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

فالآية هذه مصرحة بأن السحر كفر.

والمعنى: أي أنك أيها الشخص إذا تعلمت هذا النوع من العلم فسوف يسلب منك دينك الحق وتكون من جملة الكافرين، ومادام أن هذا العلم يتسبب في كفر متعلمه، فما حكم هذا العلم إذن؟

الجواب في غاية الوضوح، إنه علم محرم، بل هو في درجة الكبائر من المحرمات، ولا يتعاطاه من في قلبه ذرة من إيمان.

قال النبي صلى الله عليه وسلم (اجتنبوا السبع الموبقات)[1] وعد منهن السحر.

والله تعالى قد دافع عن نبيه سليمان عليه السلام حينما اتهم بأنه كان ساحراً، وكان يسيّر من تحت يده بالسحر، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

فنفى الله عن نبيه السحر؛ لأن السحر كفر ينزه عنه أنبياء الله ورسله.

قال ابن حجر: «وفي إيراد المصنف هذه الآية إشارة إلى اختيار الحكم بكفر الساحر لقوله فيها: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢] فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك، ولا يكفّر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر»[2].

وقال الثعلبي عند قوله تعالى: «﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة:١٠٢] بالسحر فانّ السحر كفر»[3].

والآيات والأحاديث الكثيرة التي تنفر من السحر وتحذر من الذهاب إلى السحرة أو تصديقهم، تعطينا بمجموعها حكم السحر وأنه كفر وشرك بالله العظيم.

فخلاصة هذا المبحث أن السحر علم من العلوم الكفرية التي نهى الله ورسوله عنها نهي تحريم، ورتبوا على ذلك العقاب في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ٨٩.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٢٢٥.

(٣) الكشف والبيان، الثعلبي ١/ ٢٤٤.

إبطال السّحر

بما أنني أثبت فيما سبق بأن للسحر حقيقةً وتأثيرًا، فسأبين في هذا المبحث الطرق والوسائل لإبطال ذلك الأثر، وإزالة ذلك الضرر بإذن الله تعالى، وذلك من خلال النقاط الآتية:

١. السحر مهما عظم واشتد بأسه وخطره فهو باطل.

من خلال تتبع الآيات التي تتحدث عن السحر نجد أن الله تعالى يذكر فيها أن السحر باطل، وأن الساحر مهما بلغ من السحر فليس مفلحاً وعمله ليس موفّقاً، كذلك فالسحر من الفساد في الأرض، والله لا يحب الفساد ولا المفسدين، وما كان كذلك فهو باطل، والسحر أيضًا من أسلحة الطغاة، ومعلوم أن الطغاة وكيدهم إلى تباب وبوار.

ولو تأملنا في هذه النصوص لتبينت لنا هذه الحقيقة جلية واضحة:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾ [يونس:٨١].

فيخبر موسى الطاغية فرعون ومن معه من السحرة بأن سحرهم باطل؛ لأنه من عمل المفسدين الذين لا يحبهم الله ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤].

ولا يتم عملهم، ولا يجعل لهم التمكين والغلبة في الأرض على عباده الموحدين، فأذهب الله سحرهم بما أيد به نبيه موسى عليه السلام من الآيات[(١)].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَاۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ [يونس:٧٧].

قال الطبري رحمه الله: «قوله: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، يقول: ولا ينجح الساحرون ولا يبقون»[(٢)].

وما دام أن الساحر لا ينجح فسحره أيضًا لا ينجح وهو -وإن حدث له تأثير بمشيئة الله- إلى زوال وبطلان، فالفلاح معلق بكل ما يحبه الله ويرضاه، وليس من قبيل ذلك السحر.

وفرعون حينما استخدم الكيد ضد موسى عليه السلام، كان من أعظم الكيد السحر الذي أراد أن يصادم به الحقيقة التي جاء بها موسى عليه السلام، وقد أخبر الله تعالى في القرآن الكريم بأن كيد فرعون في تباب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ [غافر:٣٧].

«قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار»[(٣)]، فكتب الله الخسارة والبطلان على كل الكيد الذي جاء به فرعون وجنده

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٦٢.
(٢) المصدر السابق ١٥/ ١٥٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤٤.

وأعوانه من السحرة.

٢. طرق إبطال السحر كما ورد في القرآن الكريم.

لقد ورد في القرآن الكريم عدة آيات تبين كيف يبطل السحر، وفيما يلي عرض لبعض تلك الآيات:

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾﴾ [طه:٦٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الشعراء:٤٥]

ففي هاتين الآيتين الكريمتين يبين الله تعالى أن المعجزات والآيات التي أيد بها رسله من أعظم ما يبطل السحر؛ لأن السحر عبارة عن كيد البشر وكذبهم، ممزوجاً بمكر وكيد شياطين الجن، ولا ثبات له أمام آيات الله العظيمة.

وقد يقول قائل: كان ذلك مع معجزات الأنبياء وتحديداً مع موسى، فكيف نبطل السحر الآن؟

والجواب: أننا نبطله بإذن الله تعالى بمعجزة نبينا الخالدة وهي القرآن الكريم، عن طريق ما يعرف في الشرع بالرقية الشرعية، التي ترتكز أساساً على القرآن الكريم، وقد جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقروهم، فبينما هم كذلك، إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوه فضحك وقال: (وما أدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لي بسهم)[(١)].

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الفاتحة -التي هي من القرآن وهو معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الخالدة- رقية، والرقية نافعة من ذوات السموم ومن المس والسحر والعين.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن سورة البقرة: (اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة). قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة[(٢)].

فالقرآن الكريم معجزة باقية، يبطل الله به سحر الساحرين وكيدهم، كما أبطل الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الرقى بفاتحة الكتاب، ٧/ ١٣١، رقم ٥٧٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، ٤/ ١٧٢٧، رقم ٢٢٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، ١/ ٥٥٣، رقم ٨٠٤.

تعالى سحر سحرة فرعون بالعصى معجزة موسى عليه السلام.

ومما يبطل به السحر بإذن الله تعالى: التوكل على الله وعدم الخوف من كيد الساحرين.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه:٦٨].

فالخوف باب من أبواب تسلط السحرة على الناس؛ لذلك قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف:١١٦].

فالسحرة يستعينون بالخوف الذي في نفوس البشر للتأثير والسيطرة عليهم، ولكي نبطل على السحرة سحرهم لا بد أن نكون على ثقة تامة بالله تعالى، متمسكين به وحده، ولا نخاف أحداً سواه، ولا يتأتى لنا الأمان إلا بالتوحيد وصفاء العقيدة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

كذلك مما يبطل به السحر اليقين بأن الله مبطل كيد الساحرين.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس:٨١].

قال موسى ذلك متيقنًا بقدرة ربه تعالى، فاليقين الجازم بقدرة الله تعالى على إبطال السحر، من أعظم ما يبطل به السحر.

ولا شك أن هناك طرقًا لإبطال السحر، والتحصن منه، وردت في السنة وفي آثار السلف منها:

١. تمر العجوة.

فقد بوب البخاري رحمه الله في صحيحه بابًا سماه: (باب الدواء بالعجوة للسحر)[(١)].

ثم ساق تحته الحديث التالي: عن عامر بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من تصبح بسبع تمرات عجوة، لم يضره ذلك اليوم سم، ولا سحر) وقال غيره: (سبع تمرات)[(٢)].

٢. حل عقد السحر حين العثور عليه.

عن زيد بن أرقم، قال: (سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياماً، فأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك عقد لك عقداً، فأرسل إليه رسول الله عليا رضي الله عنه، فاستخرجها فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام النبي صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال، فما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط)[(٣)].

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، ٧/ ١٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعجوة للسحر، رقم ٥٧٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فضل تمر المدينة، رقم ٢٠٤٧، واللفظ لمسلم.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٥/ ١٨٠،

جزاء السحرة

إن الضرر والفساد المترتب على فعل السحر لا يكاد ينكره إلا مكابر، فكم فتك بالمجتمعات، وفكك من أسر، وفرق من شمل بعد الاجتماع، وكم أفسد من عقول، وأمرض من أبدان.

والله تعالى لا يحب الفساد في الأرض، ولا يحب المفسدين، وقد وضع الله أحكامًا صارمة للقضاء على فساد السحرة، نجد تلك الأحكام مبثوثة في القرآن والسنة.

وفي هذا المبحث سأتحدث عن جزاء السحرة كما ورد في القرآن الكريم.

أولًا: جزاء السحرة في الدنيا:

نفى الله عنهم الفلاح، وأثبت لهم اسم الفساد، ووصفهم بالمفترين، وهذا من أقبح الجزاء وأشنعه، وهم مستحقون له جزاء ما تعاطوه من سحر وكفر بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس:٨١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه:٦١].

وفي هذه الآية أيضًا توعدهم الله تعالى بالهلاك والاستئصال في قوله: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي يهلككم أو يستأصلكم[(١)].

وأخبر الله تعالى أيضًا أنه سيبطل عمل الساحرين، وأنه سيجعلهم ينقلبون بالهزيمة والخسارة.

قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف:١١٨-١١٩].

كما أن جزاء الساحر في الدنيا القتل، وهو مذهب الجمهور[(٢)].

قال ابن قدامة: «وحد الساحر القتل، روي ذلك عن عمر، وعثمان بن عفان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز، وهو قول أبي حنيفة ومالك... عن بجالة قال: كنت كاتباً لجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس، إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة: اقتلوا كل ساحر، فقتلنا ثلاث سواحر في يوم، وهذا اشتهر فلم ينكر، فكان إجماعاً، وقتلت حفصة جارية لها سحرتها، وقتل جندب بن كعب ساحراً كان يسحر بين

رقم ٥٠١٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٧٦١.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٨٠.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله ص ٣٣٤.

يدي الوليد بن عقبة»[1].

ثانيًا: جزاء الساحر في الآخرة:

أما عقوبة الساحر في الآخرة فهي مترتبة على عقوبته والحكم عليه في الدنيا.

فإن حكمنا عليه في الدنيا بالكفر والردة، فعقوبته يوم القيامة النار خالدًا فيها.

وإن لم نحكم عليه بالكفر والردة، فهو من المتوعدين بالعذاب إن مات ولم يتب -على خلاف في قبول توبته-، لكنه ليس من المخلدين في النار، ولو قتل في الدنيا حداً كان له ذلك كفارة يوم القيامة[2].

بعد هذه المقدمة عن جزاء الساحر والحكم عليه، يحسن بنا أن نتناول هذه القضية بنوع من التفصيل، وذلك من خلال مسألتين:

المسالة الأولى: حكم الساحر.

اختلف الفقهاء في حكم الساحر، هل يكفر بفعله السحر أم لا، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: وهو مذهب الجمهور (أبو حنيفة[3]، ومالك[4]، ورواية عن أحمد، وهو المعتمد عند الحنابلة[5]) أن الساحر كافر يجب قتله، ولا تقبل توبته.

قال ابن تيمية رحمه الله: «أكثر العلماء على أن الساحر كافر، يجب قتله، وقد ثبت قتل الساحر عن عمر ابن الخطاب، وعثمان ابن عفان، وحفصة بنت عمر، وعبد الله ابن عمر، وجندب ابن عبد الله، وروي ذلك مرفوعا عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم»[6].

وقال أيضًا: «وقد يستدل على أن المفسد متى لم ينقطع شره إلا بقتله، فإنه يقتل، بما رواه عرفجة الأشجعي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من أتاكم وأمركم جمع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه)»[7][8].

وقال أبو حنيفة رحمه الله: «الساحر جمع

(١) المغني، ابن قدامة ٩/ ٣١،٣٠.
(٢) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٤٩٠.
(٣) انظر: الدر المختار وحاشية ابن عابدين ٤/ ٢٤٠، فتح القدير، ابن الهمام ٦/ ٩٩.
(٤) انظر: التاج والإكليل لمختصر خليل، العبدري ٨/ ٣٧١، بداية المجتهد، ابن رشد ٤/ ٢٤٢.
(٥) انظر: زاد المسير ١/ ٩٦.
(٦) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩/ ٣٨٤.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، رقم ١٨٥٢، ٣/ ١٤٧٩.
(٨) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٣٤٦.

مع كفره السعي في الأرض بالفساد»[١].

وقال ابن قدامة رحمه الله: «قال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلمه وفعله سواء اعتقد تحريمه أو إباحته. وروي عن أحمد ما يدل على أنه لا يكفر، فإن حنبلًا روى عنه قال: قال عمي في العراف والكاهن والساحر: أرى أن يستتابوا من هذه الأفاعيل كلها، فإنه عندي في معنى المرتد، فإن تاب وراجع يعني يخلى سبيله، قلت له: يقتل؟ قال: لا، يحبس لعله يرجع، قلت له: لم لا تقتله؟ قال: إذا كان يصلي لعله يتوب ويرجع، وهذا يدل على أنه لم يكفره؛ لأنه لو كفره لقتله، وقوله في معنى المرتد، يعني في الاستتابة...وقال: قال علي رضي الله عنه: الساحر كافر، ويحتمل أن المدبرة تابت فسقط عنها القتل والكفر بتوبتها، ويحتمل أنها سحرتها بمعنى أنها ذهبت إلى ساحر سحر لها»[٢].

وقال أبو عبد الله المواق المالكي: «قول مالك وأصحابه أن الساحر كافر بالله تعالى، قال مالك: هو كالزنديق إذا عمل السحر بنفسه قتل، ولم يستتب»[٣].

القول الثاني: وهو رواية عن الإمام أحمد[٤] وإسحاق ابن راهويه[٥]، أن الساحر يجب قتله، ولم يقطعا بكفره.

قال ابن قدامة: «وروي عن أحمد ما يدل على أنه لا يكفر، فإن حنبلاً روى عنه قال: قال عمي في العراف والكاهن والساحر: أرى أن يستتابا من هذه الأفاعيل كلها، فإنه عندي في معنى المرتد، فإن تاب وراجع يعني يخلى سبيله، قلت له: يقتل؟ قال: لا، يحبس لعله يرجع، قلت له: لم لا تقتله؟ قال: إذا كان يصلي لعله يتوب ويرجع، وهذا يدل على أنه لم يكفره؛ لأنه لو كفره لقتله»[٦].

وقال الماوردي مبيناً مذهب إسحاق وأحمد: «والثاني وهو مذهب أحمد ابن حبل[٧]، وإسحاق ابن راهويه، أن الساحر يجب قتله، ولم يقطعا بكفره»[٨].

القول الثالث: مذهب الشافعي، وهو أن ما يفعله الساحر من السحر أنواع، فلا يكفر الساحر ولا يجب به قتله، إلا أن يكون ما يسحر به كفراً، فيصير باعتقاد الكفر كافراً، يجب قتله، بالكفر لا بالسحر[٩].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٦٢٨.
(٢) المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٩.
(٣) التاج والإكليل لمختصر خليل، العبدري ٨/ ٣٧١.
(٤) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٢.
(٥) انظر: الحاوي الكبير، الماوردي ١٣/ ١٦٥.
(٦) المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٩.
(٧) الصواب أنها رواية عن أحمد.
(٨) الحاوي الكبير ١٣/ ١٦٥.
(٩) انظر: الأم، الشافعي ١/ ٢٩٣.

قال النووي مبيناً مذهب الشافعي: «عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع... وأنه قد يكون كفراً، وقد لا يكون كفراً، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر، وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام، فإن تضمن ما يقتضي الكفر كفر، وإلا فلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر، عزر واستتيب منه، ولا يقتل عندنا، فإن تاب قبلت توبته»[1].

أدلة الجمهور القائلين بكفر الساحر:

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة:١٠٢].

ووجه الاستدلال في الآية:

- أنه نفى عن سليمان عليه السلام الكفر الذي سببه تعلم السحر.
- أنه صرح بكفر الشياطين الذين يعلمون الناس السحر.
- ذكر في الآية أن الملكين يحذران طالب السحر من تعلم السحر لأنه كفر، ويكفر متعلمه.
- أن الله تعالى نفى النصيب في الآخرة عن متخذي السحر، ونفي النصيب بالكلية لا يكون إلا للكفار.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

وجه الاستدلال من الآية: أن الآية نفت على وجه العموم جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم، ولا ينفى الفلاح العام عن أحد إلا إذا كان كافراً ولا خير فيه[2].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:١٠٣]

ووجه الاستدلال من الآية: قول ابن كثير رحمه الله: «وقد استدل بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف»[3].

وحينما ذكر السحر في مقابل الإيمان والتقوى، دل على كفر الساحر، كما قال الجصاص[4].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/ ١٧٦.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٤٩.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٦٥.

أيضًا لا يقال للمؤمن المتقي: لو أنه آمن واتقى، وإنما يقال ذلك لمن كفر بالله، فدل ذلك على أن الساحر قد كفر بالله، كما قال حافظ حكمي[1].

أدلة القول الثاني:

قال عمر ابن الخطاب: «اقتلوا كل ساحر»[2]

وجه الاستدلال: أن عمر أمر بقتل الساحر، ولا يدل القتل على الكفر.

أدلة القول الثالث:

ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها باعت مدبرة لها سحرتها[3].

وجه الاستدلال: أن عائشة رضي الله عنها لم تحكم عليها بالكفر، مع إقرار الجارية بأنها قد سحرتها.

ومن خلال النظر والتأمل في أدلة الأقوال السابقة، فإن أدلة القول الأول قوية وصريحة وواضحة، في تكفير الساحر.

أما أدلة القول الثاني، فلا دلالة فيه على عدم كفر الساحر؛ لأن لفظ: اقتلوا، تفيد أن عقوبة الساحر القتل، ولا تنفي عدم كفره، فكفره ثابت في أدلة أخرى، بينتها في أدلة القول الأول.

وأما دليل القول الثالث، وهو حديث عائشة، فإنه قد خالفها فيه كثير من الصحابة، ويحتمل أن المدبرة قد تابت فسقط عنها حكم القتل والكفر[4].

فأقوى الأقوال في هذه المسالة هو قول الجمهور، وهو القول بكفر الساحر، وذلك لقوة وصراحة ما استدلوا به من أدلة.

وممن رجح هذا القول ابن قدامة[5] وشيخ الاسلام ابن تيمية[6].

المسألة الثانية: عقوبة الساحر.

بعد أن تحدثت عن حكم الساحر، وبينت بأنه كافر، أنتقل هنا إلى الحديث عن عقوبته.

اختلف العلماء في عقوبة الساحر إلى قولين:

القول الأول: وهو ما ذهب إليه أكثر أهل العلم، ولم يعلم عن الصحابة سواه، وهو قول الإمام ابي حنيفة مالك ورواية عن أحمد، وهو المعتمد عند الحنابلة، أنه إذا ثبتت جريمة السحر بحق إنسان بإقرار أو بيّنة، وجب قتله مطلقاً من غير استتابة، إلا أن يأتي تائباً قبل أن يقدر عليه.

نقل ابن قدامة عن جماعة من الصحابة قتل الساحر بدون استتابة[7].

(١) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ حكمي ٢/ ٥٥٤.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم١٦٥٧، ٢/ ٣٠٢.
(٣) أخرجه الحكام في المستدرك، كتاب الطيب، رقم٧٥١٦.
وصححه الألباني في الإرواء، رقم ١٧٥٧.
(٤) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٠.
(٥) انظر: المصدر السابق ٩/ ٣٥.
(٦) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩/ ٣٨٤.
(٧) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٠.

قال ابن عابدين: «قال أبو حنيفة: الساحر إذا أقر بسحره أو ثبت بالبينة يقتل ولا يستتاب منه»[1].

وقال القرطبي: «ذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبتاً، لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزاني، ولأن الله تعالى سمى السحر كفرا بقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ «وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق والشافعي»[2].

القول الثاني: وهو مذهب الإمام الشافعي، ورواية عن أحمد، أن الساحر إذا عمل بسحره ما يبلغ الكفر وجب قتله كفراً، بعد الاستتابة، أما إذا لم يبلغ الكفر وقتل نفساً، قتل قصاصاً، وما سوى ذلك يعزر.

قال الشافعي في الأم: «والسحر اسم جامع لمعان مختلفة ،فيقال للساحر صف السحر الذي تسحر به ،فإن كان ما يسحر به كلام كفر صريح استتيب منه فإن تاب، وإلا قتل، وأخذ ماله فيئاً، وإن كان ما يسحر به كلاماً لا يكون كفراً وكان غير معروف، ولم يضر به أحداً نهي عنه فإن عاد عزر»[3].

وكذلك قال ابن المنذر كما نقل عنه القرطبي، بأن الساحر إذا ثبت عنه أنه سحر بكلام يكون كفراً فإنه يجب قتله إذا لم يتب، إما إذا لم يبلغ سحره الكفر فلا يقتل[4].

أدلة قول الجمهور:

استدل الجمهور بأدلة من الكتاب والسنة، منها:

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]

وجه الاستدلال: نفي الكفر عن سليمان عليه السلام في معرض اتهامه بالسحر، دليل على أن السحر كفر.

وحينما يحذر الملكان من أراد تعلم السحر، يعللان ذلك بأنه كفر ومن كفر بعد إسلامه فقد ارتد وعقوبة المرتد القتل؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (من بدل دينه اقتلوه)[5].

قال عمر ابن الخطاب: «اقتلوا كل ساحر»[6].

«عن يحيى بن أبي كثير، قال: إن غلاماً

(١) الدر المختار وحاشية ابن عابدين٤/ ٢٤٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٧.
(٣) الأم، الشافعي ١/ ٢٩٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله، ٤/ ٦١، رقم ٣٠١٧.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، رقم١٦٥٧، ٢/ ٣٠٢.

لعمر بن عبد العزيز أخذ ساحرة فألقاها في الماء فطفت، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: إن الله لم يأمرك أن تلقيها في الماء، فإن اعترفت فاقتلها»[(١)].

ونقل ابن حزم قتل الساحر عن عمر بن الخطاب، وحفصة، وعبد الله ابن عمر، وعبيد الله ابنه، وعثمان، وقيس بن ربيعة[(٢)].

قال ابن قدامة بعد أن ذكر من قال من الصحابة بوجوب قتل الساحر: «وهذا اشتهر فلم ينكر، فكان إجماعاً»[(٣)].

أدلة القول الثاني:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة)[(٤)].

وجه الاستدلال: أن النفس معصومة ما لم ترتكب أحد هذه الثلاثة الأمور.

ما ورد في الصحيحين من أن لبيد ابن الأعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يقتله[(٥)].

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها باعت مدبّرة لها سحرتها[(٦)].

وجه الاستدلال: «أنه لو وجب قتلها لما حل بيعها قاله ابن المنذر، وغيره»[(٧)].

تحرير محل النزاع:

اتفق الفقهاء على أن الساحر الذي بلغ بسحره الكفر يقتل مطلقًا، ويقتل أيضًا الساحر الذي لم يبلغ بسحره الكفر، لكن قتل بسحره نفسًا معصومة.

إنما حصل الخلاف في الساحر الذي لم يبلغ بسحره الكفر، ولم يقتل نفساً معصومة، فالجمهور كما تقدم، يقولون بقتله مطلقاً، ولو لم يكفر بسحره ؛ للأدلة الواردة، ولأن السحر الحقيقي لا يتأتى إلا بالتقرب إلى الشياطين، وعبادة الكواكب، ونحو ذلك.

وذلك عين الكفر، لذا كان حكمه القتل مطلقًا.

والشافعي ومن معه قالوا: لا يقتل، وإنما يعزر.

سبب الخلاف:

من خلال ما تقدم يظهر أن سبب الخلاف بين الجمهور وبين الشافعي ومن معه هو:

(١) انظر: المحلى بالآثار ١٢/ ٤١١.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) المغني، ابن قدامة ٩/ ٣١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أنّ النّفس بالنّفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب السحر، رقم٥٧٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب السحر، رقم ٢١٨٩، عن عائشة رضي الله عنها.
(٦) أخرجه الحكام في المستدرك، كتاب الطيب، رقم٧٥١٦.
وصححه الألباني في الإرواء، رقم ١٧٥٧.
(٧) أضواء البيان ٤/ ٥٥.

هل السحر الحقيقي لا يتأتى إلا بالكفر، أم أن من السحر الحقيقي ما ليس بكفر؟

فالجمهور يرون أن السحر الحقيقي لا يتأتى إلا بالتقرب إلى الشياطين، وعبادة الكواكب ونحو ذلك، وذلك عين الكفر.

والشافعي ومن معه يرون أن من السحر الحقيقي ما يتأتى بدون الشرك والكفر، ولذا فصلوا فيه.

ومن خلال النظر في أدلة القولين: يظهر أن أدلة الجمهور أقوى دلالة في قتل الساحر الذي ثبت سحره، ولأن السحر الحقيقي لا يتحصل إلا بالتقرب إلى الشياطين، والشرك والكفر بالله العظيم، فيكون حد الساحر القتل مطلقًا.

وأما إن كان سحره من باب السحر المجازي، الذي يتأتى بالأدوية وبالكلام وخفة الحركة ونحو ذلك، فليس بكفر، بل معصية، حق صاحبها التعزير إذا لم يقتل نفسًا.

وأما قول المذهب الثاني: بأن السحر الحقيقي يتأتى بدون الشرك، ومحاولة بعضهم من الجمع بين الأدلة المذكورة بحمل السحر على الذي يقتضي الكفر في قول من قال بالقتل، وحمله على الذي لا يقتضي الكفر في قول من قال بعدم القتل لا يصح ؛ لأن الآثار الواردة في قتله جاءت بقتل الساحر الذي سحره من نوع الشعوذة كساحر جندب الذي قتله، وليس ذلك مما يقتضي الكفر المخرج من ملة الإسلام، كما تقدم إيضاحه ؛ فالجمع غير ممكن»[1].

أما ما استدل به أصحاب القول الثاني من حديث حرمة دم المرء المسلم إلا بإحدى ثلاث، فجماهير العلماء يرون بأن الساحر كافر، وعلى ذلك فهو حلال الدم، وعلى فرض أنه ليس بكافر، فإن هذا الدليل عام، وأدلة قتل الساحر خاصة، والخاص مقدم على العام.

وأما الاستدلال بقصة سحر النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يقتل لبيد، فقد أجيب عنه بما يلي:

الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك قتل لبيد لكونه ليس بواجب، وإنما ترك قتله خشية أن تثار فتنة بين الناس، وهي أعظم من قتل رجل واحد، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس شراً)[2]، أو يكون في قتله تنفير عن الدخول في الإسلام[3].

(١) المصدر السابق.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أنّ النّفس بالنّفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.
(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢٣١.

وأما الاستدلال بفعل عائشة رضي الله عنها، حينما أعتقت جارية لها سحرتها.

فيقال: لعل سحر تلك الأمة لم يكن فيه كفر، كأن يكون عن طريق الأدوية وما شابه ذلك، أو أنها لم تعمل بنفسها السحر وإنما عمل لها، أو أنها تابت فسقط عنها حكم القتل والكفر بتوبتها.

موضوعات ذات صلة:

الباطل، الشر، الشرك، فرعون، موسى عليه السلام

السِّرّ

عناصر الموضوع

مفهوم السرّ	٨
السر في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
استواء السر والعلن في علم الله	١٢
الإسرار المحمود وميادينه	١٧
أنواع الإسرار المذموم	٢٤
السر يوم القيامة	٣٢
المحاسبة على السر	٣٥
أثر إفشاء السر على الفرد والمجتمع	٣٨

مفهوم السرّ

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ر ر) تدل على إخفاء الشيء. وما كان من خالصه ومستقره[(١)].

السرُّ: مَا أَسْرَرْت. والسَّريرةُ: عمل السِّرّ من خَيْر أَو شَرّ[(٢)].

والإسرار خلاف الإعلان، وهو: اسم لما يكتمه الإنسان ويخفيه[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الراغب الأصفهاني السّر بقوله هو: «الحديث المكتّم في النفس»[(٤)]، وهو خلاف الإعلان، ويستعمل في الأعيان والمعاني[(٥)].

ففي الأعيان جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩].

وفي المعاني كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

ويمكن تعريف السر بأنه: اسم لما يكتم ويخفى من الأعيان والمعاني من العقائد والنيات والأقوال والأعمال وغيرها[(٦)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٦٧.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٠١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٧.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، وانظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤.
(٦) انظر: السرائر في ضوء القرآن الكريم زينب حسين أبو مور ص١٠-١١.

السر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سرر) في القرآن الكريم (٤٤) مرة، يخص موضوعنا منها (٣٢) مرة [(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٠	﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة:٥٢]
الفعل المضارع	٧	﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [التغابن:٤]
فعل الأمر	١	﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك:١٣]
المصدر	٢	﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح:٩]
الاسم	١٢	﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [طه:٧]

وجاء السرّ في القرآن على وجهين [(٢)]:

الأول: النكاح: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة:٢٣٥] أي: نكاحًا.

الثّاني: ضد العلانية: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ [طه:٧].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٤٨-٣٤٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٧٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٢٠٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ النجوى:

النجوى لغة هي:

إسرار الحديث إلى الغير، وما يتفرد به الجماعة والاثنان سرّاً كان أو ظاهراً، وتطلق على القوم المتناجين، ويستوي فيه المفرد، والجمع [(١)].

النجوى اصطلاحًا هي:

المسارة بالحديث في خفاء، ولا يخرج معناها في اصطلاح القرآن الكريم عن معانيها في اللغة[(٢)].

الصلة بين النجوى والسر:

النجوى تكون في الحديث وإخفاؤه عن الناس، والسر يشمل الكلام وغيره[(٣)].

٢ الإخفاء:

الإخفاء لغة:

الستر والكتمان، يقال: خفيت الشيء أخفيه: كتمته، وأخفيت الشيء: سترته وكتمته، ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء: تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها، وهو من الأضداد[(٤)].

والإخفاء اصطلاحًا هو:

لا يختلف عن معناه اللغوي، الذي يدل على الستر وتغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها[(٥)].

الصلة بين الإخفاء والسر:

السر هو: اسم لما يكتمه الإنسان ويخفيه على جهة العزيمة، وأما الإخفاء فهو: السر الذي

---

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٩٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٠١.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٦٣.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٣٤، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٥٦٤.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢، الكليات، الكفوي ص ٥١٤.

لم يبلغ حد العزيمة[1].

٣ الكتمان:

الكتمان لغة:

الإخفاء والستر[2]، يقال: كتمت الحديث كتمًا وكتمانًا، أي: سترته، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢][3].

الكتمان اصطلاحًا هو:

لا يختلف عن معناه اللغوي الدال على إخفاء الشيء حتى لا يرى ولا يعلم[4].

الصلة بين الكتمان والسر:

فرّق أبو هلال العسكري بين السر والكتمان بقوله: إن السر أعم من الكتمان؛ لأن الكتمان يختص بالمعاني غالبًا، كالإسرار والإخبار؛ ولأن الكتمان لا يستعمل إلا فيهما في الغالب[5]، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فقد نهى الله تعالى النساء عن كتمان ما في الأرحام، والسر يختص بالأعيان غالبًا؛ لأن الأصل في السر تغطية الشيء بغطاء، ثم استعمل في غيرها تجوزًا[6].

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٦٣.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٠٦، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٢٥.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٧.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٤٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ٣/ ١٠٤، لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٧.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٤٧.
(٦) انظر: المصدر السابق ص ٤٤٨.

استواء السر والعلن في علم الله

يستوي في علم الله تعالى السر والعلانية، والصغير والكبير، والغيب والشهادة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨-١٠].

وهذه الآية أبلغ آية في استواء علم الله بالسر والجهر، سواء من أسر القول ومن جهر به، و من هو مستخف بالليل ، أي : من هو مستتر بالليل، والليل أستر من النهار، ومن هو سارب بالنهار ، أي : من هو ظاهر بالنهار في طريقه، متصرف في حوائجه[1].

وتعد صفة العلم إحدى الصفات الذاتية لله جل ذكره؛ لأن الله هو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي، والسفلي، ولا يخلو عن علمه مكان، ولا زمان ويعلم الغيب، والشهادة، والظواهر، والبواطن، والجلي، والخفي، قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والنصوص في ذكر إحاطة علم الله، وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جداً ، لا يمكن حصرها، وإحصاؤها، وأنه سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، وأنه لا يغفل، ولا ينسى، وأن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد جعل الله تعالى العلم بالسر دليلاً على أولهيته سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن الذي له الألوهة التي لا تنبغي لغيره، المستحق عليكم إخلاص الحمد له بآلائه عندكم، أيها الناس، الذي يعدل به كفاركم من سواه، هو الله الذي هو في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم، فلا يخفى عليه شيء، والذي يستحق عليكم الحمد، ويجب عليكم إخلاص العبادة له، هو هذا الذي صفته، لا من لا يقدر لكم على ضر ولا نفع، ولا يعمل شيئاً، ولا يدفع عن نفسه سوءاً أريد به»[2].

كما قد جعل الله تعالى العلم بالسر دليلاً

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٢٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٤١، جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٢٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦١.

على أن القرآن من عنده سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

ولما كان السر يغلب على الأعمال المذمومة، فقد بيَّن الله تعالى أنه يعلم السر والجهر للمؤمنين والكافرين والمنافقين وجميع المخلوقين، وأنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧][(١)].

كما أن الله تعالى يعلم إسرار من يسر بمودة الكفار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١][(٢)].

وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥، ٢٦][(٣)].

كما أن الله يعلم السر مهما تخفى به صاحبه واستخدم من وسائل التخفي والكتمان في ذلك، كما في قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥][(٤)]، بل قد بيَّن تعالى أنه يعلم ما هو أخفى من السر: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٧ - ٨].

والسر في هذه الآية فيه ستة تأويلات:

أحدها: أن (السر) ما حدَّث به العبد غيره في السر، (وأخفى) من السر، مما أضمره في نفسه، ولم يحدِّث به غيره، قاله ابن عباس.

الثاني: أن السر ما أضمره العبد في نفسه، وأخفى منه مالم يكن ولا أضمره أحد في نفسه، قاله قتادة وسعيد بن جبير.

الثالث: يعلم أسرار عباده، وأخفى سر

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٤. السراج المنير، الشربيني ٢/ ٢٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤١٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١١٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٨٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٤، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٠٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٦٣.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٥٧.

نفسه عن خلقه، قاله ابن زيد.

الرابع: أن السر ما أسره الناس، وأخفى: الوسوسة، قاله مجاهد.

الخامس: أن السر ما أسره من علمه وعمله السالف، وأخفى: وما يعلمه من عمله المستأنف، وهذا معنى قول الكلبي.

السادس: السر: العزيمة، وما هو أخفى هو: الهم الذي دون العزيمة.

والصحيح من هذه المعاني هو القول الأول، أي: أنه تعالى يعلم السر، وأخفى من السر، في الأحوال التي يجهر فيها القائل بالقول لإسماع مخاطبه، أي: فهو لا يحتاج إلى الجهر؛ لأنه يعلم السر وأخفى، وهذا أسلوب متبع عند البلغاء شائع في كلامهم بأساليب كثيرة[(١)].

وقد رجح الإمام ابن جرير الطبري هذا القول بقوله: «والصواب من القول في ذلك، قول من قال: معناه: يعلم السر وأخفى من السر؛ لأن ذلك هو الظاهر من الكلام.

والصواب من القول في معنى أخفى من السر أن يقال: هو ما علم الله مما أخفى عن العباد، ولم يعلموه مما هو كائن ولم يكن؛ لأن ما ظهر وكان فغير سر، وأن ما لم يكن وهو غير كائن فلا شيء، وأن ما لم يكن وهو كائن فهو أخفى من السر؛ لأن ذلك لا يعلمه إلا الله، ثم من أعلمه ذلك من عباده»[(٢)].

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]؛ لأن السر: ما حدَّث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال، والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم[(٣)].

وفي الآية تهديد ووعيد للمنافقين الذي يسرون الكفر ويعلنون الإيمان مع علمهم بأنه تعالى يعلم ذلك من حالهم، كما يعلم الظاهر، وأنه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر؛ لأن الله علام الغيوب، والذي تقتضي ذاته تعالى العلم بجميع الأشياء، فكيف يمكن إخفاء السر والنجوى منه[(٤)].

ثم أمر الله تعالى المشركين بأن يسروا القول أو يجهروا، وأن ذلك عنده سواء؛ لأن الله عليم بذات الصدور، وأنه يعلم تفاصيل خلقه، قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٧٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢١٧، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٩٤، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٢١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٥٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور١٦/ ١٨٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٧٤.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٦٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢١.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٠٩.

﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣ - ١٤][1].

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

أي: مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً ، مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه لهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره الآية: «ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضاً مع علمه بهم محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ؛ لأن الله بكل شيء عليم»[2].

وقد أخبر الله تعالى أنه يعلم السر والنجوى، وأن هناك من رسله من يكتب ذلك؛ ليعلموا أن علم الله بما يسرون علم يترتب عليه أثر فيهم، وهو مؤاخذتهم بما يسرون؛ لأن كتابة الأعمال تؤذن بأنها ستحسب لهم يوم الجزاء، والرسل: هم الحفظة من الملائكة ؛لأنهم مرسلون لتقصي أعمال الناس، ولذلك قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] أي: رقيب[3].

كما هدد الله وتوعد من ينكر علمه بالسر والعلن، كما في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦].

ولا جرم معناه: حق وواجب، ولا بد ولا محالة، أي: حقًّا أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني: المشركين، ويجوز أن يعم كل مستكبر،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥١١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٤٠، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٧٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٨٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٧٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٦٣.

ويدخل هؤلاء تحت عمومه[1].

وقد وردت آيات تبين أن الله تعالى يستوي عنده السر والعلن بألفاظ أخرى بمعنى السر:

أولًا: بلفظ الكتمان ،كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ [النور: ٢٩].

وغيرها من الآيات.

ثانيًا: بلفظ الإخفاء: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ [الممتحنة: ١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠][2].

فالله سبحانه في كبريائه، وفي علوه، محيط بكل صغيرة وكبيرة في الوجود.. يتساوى لديه في ذلك بعيد الأمور وقريبها، خفيها وظاهرها، إذ لا قرب ولا بعد عند من احتوى الوجود كله، ولا خفاء ولا ظهور لدى من ملك الأمر جميعه ؛ لأنه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣][3].

ثالثًا: بلفظ الإكنان: ففي التنزيل العزيز: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أي: أخفيتم.

ويترتب على أن الله بكل شيء عليم، وأنه يستوي في علمه السر والجهر: أن تظهر صفة المراقبة لله تعالى لدى العبد في السر والعلن، وذلك أن العبد إذا استشعر عظمة علم الله وسعته، وشموله لكل ما خلق الله سبحانه، وأنه يعلم السر والجهر، فإنه يعيش دائماً يراقب الله الذي يعلم السر وأخفى،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٨٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٩٤، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٠١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٨٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٦٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٨٩.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٧٩.

ويعمل على إصلاح سريرته وعلانيته في كل وقت وحين، كما يدفعه ذلك لأن يجتنب الكبائر والصغائر ويتقي الله في خلوته ووحدته، كما يفعل ذلك في حضرته وشهوده[1].

(١) انظر: بحث: مفهوم الأسماء والصفات سعد ندا، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٦، العام ١٤٠٠-١٤٠١هـ ص ٦١.

الإسرار المحمود وميادينه

للإسرار المحمود ميادين نبينها فيما يأتي:

أولًا: الإسرار بالدعوة:

تعتبر الدعوة السرية أحد أطوار الدعوة الإسلامية ومبتدأها، في كل وقت وحين، وهي سنة المرسلين والأنبياء جميعاً، وكذلك الدعاة المصلحين، وقد جسد ذلك نبي الله نوح عليه السلام عندما قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ٥ - ١٠].

فقد ذكر أولًا أنه دعاهم بالليل والنهار، ثم ذكر أنه دعاهم جهاراً، ثم دعاهم في السر والعلن، أفراداً وجماعات، والحاصل: أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السر، ثم دعاهم جهارًا[2].

قال الإمام ابن عطية: «الجهار دعاؤهم في المحافل ومواضع اجتماعهم، والإسرار

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٣١، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٥٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٤٨، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٤٣.

دعاء كل واحد على حدته، فقد اتبع نوح صلى الله عليه وسلم كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة، ثم زاوج بين الإعلان والإسرار تارة أخرى»[1].

ويتضح من خلال الآيات أن نوحًا عليه السلام لم يترك سبيلاً للدعوة إلا فعلها، فاستعمل طرقاً ثلاثة:

١. بدأهم بالمناصحة في السر، فعاملوه بما ذكر في الآية من سد الآذان، والاستغشاء بالثياب، والإصرار على الكفر، والاستعظام عن سماع الدعوة.
٢. جاهرهم بالدعوة، وأعلنهم بها على وجه ظاهر لا خفاء فيه.
٣. جمع بين الإعلان والإسرار بحسب الأحوال والظروف[2].

وما من نبي من الأنبياء إلا وجمع في دعوته بين السرية والجهرية، ومنهم سيد الخلق النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقد بدأ دعوته بالسرية: فقد اتخذ صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم لتكون مقرّاً للدعوة السرية للدين الجديد، وقد استمرت هذه الدعوة ثلاث سنوات، وما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً هو والمسلمون في دار الأرقم حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

فجهر النبي صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه بالدعوة وبلغوها لجميع الناس[3].

ولم تكن سرية الدعوة في أول أمرها خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه، ولكنها إلهام من الله لتعليم الدعاة من بعده، وإرشادهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره، فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى، فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام.

ومن هنا تدرك، أن أسلوب دعوته صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيًّا.

(١) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٣١، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٥٥، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٤٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٤٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٩٧، تفسير المراغي ٢٩/ ٨٢.
(٣) انظر: سبل الهدى والرشاد، محمد الصالحي الشامي، ص ١٦.

وبناء على ذلك : فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية، في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة -من حيث السرية والكتمان أو من حيث الجهر والإعلان، أو اللين والقوة- حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه، وهي مرونة حددتها الشريعة الإسلامية، اعتماداً على واقع سيرته صلى الله عليه وسلم، على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية[1].

ثانيًا: إسرار الإنفاق:

دعت الآيات القرآنية الكريمة إلى الإنفاق في سائر الحالات: في السر والجهر، وفي الليل والنهار، وفي السراء والضراء، وفاضلت أحياناً بين نفقة السر والعلن، وبينت فضل الصدقة في كل الأحوال، ذلك أن الله سبحانه وتعالى وجّه عباده إلى الإنفاق والمبادرة فيه سرّاً وعلانية بالليل والنهار ، في السراء والضراء ، في الفرض والنفل.

فالإنفاق سرّاً حتى لا يقع الإنسان فريسة المباهاة؛ والإنفاق علناً كي يعطي غيره من القادرين أسوة حسنة، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم من قبل أن يأتي يوم (هو يوم القيامة) لا بيع فيه ولا خلال ، أي : من قبل أن يأتي اليوم الذي لا تنفع فيه فدية، ولا تجدي فيه صداقة، فلا يشفع خليل ولا يصفح عن عقابه لمخالته لصديقه، بل هناك العدل والقسط[2]، فقد قال تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾[إبراهيم: ٣١].

ويستحب إعلان الواجب، وإخفاء المتطوع به، إلا في محل الاقتداء لأهل الإخلاص[3].

والمراد بالسر في الآيات: ما خفي، وبالعلانية ما ظهر، وهو قول جمهور المفسرين، الثاني: أن السر في التطوع، والعلانية في الفرض[4].

والإنفاق في سبيل الله تعالى من أفضل الأعمال ، لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤]؛ فقد جاء في سبب نزول الآية أنها نزلت في علف

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، محمد سعيد البوطي ص ٦٩، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، رؤوف شلبي ص ٣٠١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٣٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩٩، تفسير المراغي ١٣/ ١٥٤، تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٥٣١.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩٩.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٣٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٤٣٧.

الخيل وارتباطها في سبيل الله، فكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مر بفرس سمين قرأ هذه الآية[1].

ولكن الآية عامة في الذين ينفقون في سبيل الله تعالى، وفي الذين يعممون الأوقات والأحوال بالصدقات، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يعلقوها بوقت ولا حال، وهذا هو أحسن الوجوه في معنى الآية[2].

ثم ذكر الله أن الإنفاق في السراء والضراء، أي في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، والليل والنهار، وفي السر والعلانية ، وفي جميع الأحوال والأوقات صفة من صفات أهل الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

أي: يرجون ثوابًا عند الله لا بد من حصوله[3].

وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية؛ وذلك لأنه قدم الليل على النهار، والسر على العلانية في الذكر، كما فضل الله صدقة السر على صدقة الجهر في قوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١][4].

قد جعل الله ذلك من صفات أولي الألباب.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢ - ٢٤].

كما جعل سبحانه الإنفاق سرًّا وجهرًّا من صفات الكمال البشري ، كما في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي ص ٩٠، العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني ١/ ٦٣٤.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٤٧، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٩٢، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٧٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣٠٥.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٧١.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

فكما لا يستوي العبد الذي لا يملك شيئاً ولا يقدر عليه، والرجل الحر الذي قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرًّا وجهراً؟ فكذلك لا يستوي الكافر العامل بمعاصي الله المخالف أمره، والمؤمن العامل بطاعته[(١)].

ويلاحظ من خلال الآيات السابقة أنها تشير وتحث على الإنفاق الجماعي الذي يستفاد من خطاب الجمع في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: ٣١]. وغيرها من الآيات.

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية: « الذين ينفقون أموالهم».. هكذا بوجه عام يشمل جميع أنواع الأموال.. «بالليل والنهار. سرًّا وعلانية».. لتشمل جميع الأوقات وجميع الحالات.. «فلهم أجرهم عند ربهم».. هكذا إطلاقاً. من مضاعفة المال ، وبركة العمر ، وجزاء الآخرة ، ورضوان الله. «ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».. لا خوف من أي مخوف، ولا حزن من أي محزن.. في الدنيا وفي الآخرة سواء[(٢)].

ثالثًا: الإسرار بالدعاء:

أمر الله تعالى بالإسرار بالدعاء في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

كما بيَّن الله تعالى حال الداعين بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

لأن الإسرار بالدعاء أبعد من الرياء وأدل على الإخلاص؛ لأن الدعاء حقيقته النداء لطلب مهم، واستعمل مجازاً في العبادة لاشتمالها على الدعاء والطلب بالقول أو بلسان الحال، كما في الركوع والسجود، مع مقارنتها للأقوال، وهو إطلاق كثير في القرآن؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الدعاء هو العبادة)[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٠٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٢١٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣٤، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٥٦٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٣١٦.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم ١٤٧٩، ٢/ ٧٦، والترمذي في سننه، أبواب من قال في القرآن برأيه، باب ومن سورة المؤمن، رقم ٣٢٤٧، ٥/ ٢١١، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم ٣٨٢٨، ٢/ ١٢٥٨.
قال الترمذي: حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم

وقد راعى نبي الله زكريا عليه السلام أدب الدعاء، وهو إخفاؤه ؛ لكونه أبعد عن الرياء، وأدخل في الإخلاص حين وصف الله فعله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣][(١)].

وتدل هذه الآيات على وجوه أهمها:

الأول: أن هذه الآية تدل على أنه تعالى أمر بالدعاء مقروناً بالإخفاء، وظاهر الأمر للوجوب، فإن لم يحصل الوجوب، فلا أقل من كونه ندبًا.

الثاني: أنه تعالى أثنى على زكريا عليه السلام فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

أي: أخفاه عن العباد وأخلصه لله وانقطع به إليه، فالآية تشير إلى أن الدعاء خفية مندوب، وأن ذلك إسرارٌ محمودٌ.

الثالث: ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، أنهم كانوا في غزاة فأشرفوا على واد فجعلوا يكبرون ويهللون رافعي أصواتهم ، فقال صلى الله عليه وسلم: (ارفقوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وإنه لمعكم)[(٢)(٣)].

ويطلق التضرع على الجهر بالدعاء؛ لأن الجهر من هيئة التضرع؛ لأنه تذلل جهري، كما في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]؛ لأنه أنسب بمقابلته بالخفية، فيكون أسلوبه وفقاً لأسلوب نظيره في قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

والتضرع لفظة تقتضي الجهر؛ لأن التضرع إنما يكون بإشارات جوارح وهيئات أعضاء تقترن بالطلب.

والخفية: الدعاء في السر، وهو مأمورٌ به مقصودٌ بذاته، أي : ادعوه مخفين دعاءكم، حتى أوهم كلام بعضهم أن الإعلان بالدعاء منهي عنه أو غير مثوب عليه، وخفية يريد في النفس خاصة.

والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر، بل يندب الإسرار في جميع نوافل القربات من: الصلاة، والصوم، وقيام الليل، والعمل الصالح.

وتأول بعض العلماء التضرع والخفية في الآية في معنى السر جميعاً، فكأن التضرع فعل للقلب، ذكر هذا المعنى الحسن بن أبي الحسن البصري، وقال: لقد أدركنا أقواماً

٣٤٠٧، ١/ ٦٤١.

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٤٢٠٥، ٥/ ١٣٣.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٧٢.

ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يكون سرًّا فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وذكر عبدا صالحا رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣][(١)].

ولكن الصحيح جواز الدعاء جهراً؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا علناً غير مرة، وعلى المنبر بمسمع من الناس، وما رويت أدعيته إلا لأنه جهر بها يسمعها من رواها، فالصواب أن قوله: تضرعاً إذن بالدعاء بالجهر والإخفاء، وأما ما ورد من النهي عن الجهر فإنما هو عن الجهر الشديد الخارج عن حد الخشوع[(٢)].

رابعًا: إسرار الغضب:

جعل الله سبحانه وتعالى إسرار الغضب وكتمانه مع القدرة على إنفاذه من صفات المتقين، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

والكاظمين الغيظ هم: الجارعون الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، ولم يظهروه بقول أو فعل، فحفظوا نفوسهم من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه، باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها.

وقد وصف الله تعالى أنبياءه بذلك فقال عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]؛ لأنه لم يشك إلى أحد، وإنما كان يكمد في نفسه، ويمسك همه في صدره، وكان يكظمه أي يرده إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب.

وقوله تعالى في نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

فقد أسر في نفسه قذفهم له وتحمل القذف ولم يظهر غضباً منها، أسر هذه الفعلة وحفظها في نفسه، ولم يبد تأثره منها، وهو يعلم براءته وبراءة أخيه، وأعرض

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٤٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٤٩، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٢٥٩، الوجيز، الواحدي ص ٣٥٨، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١١٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٧١.

عن زجرهم وعقابهم مع أنها طعن فيه وكذب عليه[1].

كما أن من يسر الغضب ويكتمه ويتحكم بانفعالاته فهو الشديد الشدة المحمودة؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[2].

وروى سهل بن معاذ، عن أبي رضي الله عنهم أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: (من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور العين ما شاء)[3].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٦٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٦٢٤، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم ٦١١٤، ٨/ ٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب، رقم ٢٦٠٩، ٤/ ٢٠١٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من كظم غيظاً، رقم ٤٧٧٧، ٤/ ٢٤٨، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في كظم الغيظ، رقم ٢٠٢١، ٤/ ٣٧٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحلم، رقم ٤١٨٦، ٢/ ١٤٠٠.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٥٢٢، ٢/ ١١١٢.

أنواع الإسرار المذموم

الإسرار المذموم أنواع نتناولها بالبيان في ما يأتي:

أولًا: إسرار الكفر:

إن من أخلاق المنافقين إسرار الكفر وإعلان الإيمان، وذلك أنهم إذا استقبلوا المؤمنين دفعوا عن أنفسهم بقولهم: آمنا استهزاء، وإبداء لخبثهم ومكرهم، وكشفاً عن إفراطهم في ادعاء أنهم مثل المؤمنين في الإيمان الحقيقي[4].

وقد ذكر الله تعالى أن ذلك خلق راسخ ومتجذر فيهم في آيات كثيرة ، منها: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

وقوله عز من قائل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٤٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٠٢، أنوار التنزيل البيضاوي ١/ ٨٩، فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٢٠، روح المعاني، الألوسي ١/ ١٥٨.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٦-٧٧].

وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٦١].

وقد أجمع أهل التفسير على أن هذه الآيات نزلت في قوم من أهل النفاق بصفة عامة، وذهب جمهور المفسرين إلى أن الآية نزلت في يهود نافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية في عامة المنافقين الذين يظهرون كلمة الإيمان ويسرون الكفر، فنفى الله سبحانه وتعالى عنهم الإيمان، وبيَّن أن هذه الصفة صفتهم[(١)].

فالمنافقون يصانعون المؤمنين في الظاهر، وقلوبهم منطوية على الكفر، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر، مع أن الله تعالى عليم بما يسرون، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله أعلم بهم منهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، ثم بين الله تعالى أنه سيظهر ذلك يوم القيامة في قوله عز وجل: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

أي: أن الله تعالى يوم القيامة يكشف أسرار المنافقين الذين كانوا يسرون الكفر ويظهرون الإسلام، وأخبر أنهم لو ردوا إلى الحياة الدنيا لعادوا لما نهوا عنه؛ لأن المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه[(٢)].

ثانيًا: إسرار العداوة والبغضاء:

إن إسرار العداوة والبغضاء لأهل الإيمان من أعمال المنافقين، وبالرغم من إسرار المنافقين العداوة والبغضاء وكتمانها في قلوبهم عن المسلمين، إلا أنها تبدو من أفواه المنافقين إلى إخوانهم من الكفار، وتظهر عداوتهم بالشتيمة والوقيعة في المسلمين وإطلاع المشركين على أسرارهم، وما تخفي صدورهم من العداوة والخيانة أكبر: أعظم مما أظهروا، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٤٤، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٥٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٣٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٣٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣١.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٢٩، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٥٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٨٧، المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٤٠٨.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١١٩].

وبسبب ما يسرون من البغضاء للمؤمنين نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ خواص ومقربين ودخلاء من غير أهل ملتهم بطانة؛ لأنهم: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ والخبال: الفساد والشر، أي: لا يقصرون ولا يتركون جهداً في مضرتكم وفسادكم[(١)].

والمنافقون لا يقصرون بجهدهم وطاقتهم بإطلاع الكافرين على سرائر المؤمنين، وما يضمرونه لهم، وما يسعون به في مخالفتهم، وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم[(٢)].

أما المؤمنون فلا يكفي إسرار العداوة والبغضاء للكافرين والمنافقين، بل يجب إبداء تلك العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها لهم أبداً حتى يؤمنوا بالله وحده، ما لم تكن هناك مصلحة شرعية في عدم إظهارها، فإذا آمنوا صارت تلك العداوة موالاة، والبغضاء محبة، عملاً وتأسياً حيث أظهروا البراءة من قومهم بسبب شركهم وكفرهم بالله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤][(٣)].

ثالثًا: إسرار المكر والكيد:

المكر في اللغة هو: التدبير على العدو في احتيال وخفية، واصطلاحًا هو: إخفاء الكيد وطيه، والكيد: المكر والخبث، وظاهر كلام أهل اللغة أن الكيد والمكر مترادفان، وقد فرق بينهما بعض فقهاء اللغة، بأن الكيد: المضرة، والمكر: إخفاء الكيد وإيصال المضرة، وقيل: الكيد هو: الأخذ على خفاء من غير إظهار الماكر خلاف ما يبطن، والمكر: الأخذ على خفاء مع إظهار الماكر خلاف ما يبطن[(٤)].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٨٥، التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٢٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٤٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٦١، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٨٣، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٦٤.

(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص ٢٢٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٨٥، التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٢٨.

(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٩، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٨٣، تاج العروس، الزبيدي ٩/ ١٢٢.

إن إسرار المكر والكيد لله ولرسله وللمؤمنين في كل وقت وحين هو من أخلاق الكافرين والمنافقين، ولا يكون المكر والكيد إلا في سرٍّ وخفيةٍ، وهو على أنواع:

الأول: المكر والكيد بآيات الله بالطعن فيها وتكذيبها والاحتيال في دفعها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

وقد بيَّن الله تعالى أنه أسرع مكراً منهم، فقد دبّر عقابهم قبل أن يدبروا كيدهم، والمكر من الله تعالى: صفة مقابلة لا تطلق عليه إلا في مقابل مكر وكيد الكافرين والمنافقين.

ولما كان المكر والكيد يكون في سرٍّ وخفية، فقد بين الله تعالى إن الحفظة يكتبون ما يمكر به المنافقون والكافرون؛ تحقيقاً للانتقام منهم، وتنبيهاً على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة فضلاً أن يخفى على الله تعالى[1].

ثانيًا: المكر والكيد برسل الله تعالى والمؤمنين:

دلت الكثير من الآيات على مكر وكيد الكافرين والمنافقين برسل الله تعالى والمؤمنين، منها: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

وقوله جل شأنه: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨][2].

وقد بيَّن الله عاقبة مكر وكيد الكافرين والمنافقين وأنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله، وستكون العاقبة لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، كما مكر الذين من قبلهم برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وبيَّن الله تعالى أنه يدمر من يمكر،

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٣٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٩.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦١٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٠٦.

وقومه برسل الله بقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠- ٥٢].

ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦][1].

كما أوصى الله المؤمنين بما يدفع المكر والكيد وهو :الصبر والتقوى ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ثالثًا: المكر والكيد بين المسلمين بعضهم لبعض، وهذا محرم ولا يجوز، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٨٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٩٨.

وكذلك الغدر بالمسلمين، يدخل في المكر والكيد، وهو محرم لما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان)[2].

والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيًّا لا يطلع عليه الناس، فيكشف الغدر والغادر يوم القيامة علانية ويطلع عليه بصورة فيها شيء من الإهانة، ويصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل[3].

رابعًا: الإسرار بالمودة للكافرين:

بيَّن الله تعالى بأن من يسرّ من المسلمين إلى المشركين بالمودة فقد جار عن قصد السبيل التي جعلها الله طريقاً إلى الجنة ومحجة إليها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، رقم ٦١٧٧، ٨/ ٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم ١٧٣٥، ٣/ ١٣٥٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٩.

١]؛ لأن المودة هي عماد عقيدة الولاء والبراء للباري سبحانه، ومكانها القلب الذي هو موئل العاطفة، ومنبت الإحساس والمشاعر، وهي معنى خفي لا يطلع عليه إلا الخالق عالم الغيب والشهادة، ولذلك كان عطاء لله تعالى للعبد على قدر إخلاصه في هذه المحبة لله ولرسوله ولدينه ولعباده المؤمنين ، فلابد أن تجرد هذه المحبة لله وتصفى وتنقى من أي شائبة بشرك أو غبار رياء، أو تكدير نفاق[(١)].

والإسرار في الآية على وجهين:

أحدهما: تعلمونهم سراً أن بينكم وبينهم مودة.

الثاني: تعلمونهم سرًّا بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم بسبب المودة التي بينكم وبينهم، وقد فسر بأن معناه: يظهرون، وهذا صحيح ؛ فإن الإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضى إليه بالسر، وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره، فإن قولهم: أسررت إلى فلان يقتضي من وجه الإظهار، ومن وجه الإخفاء[(٢)].

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية وما بعدها من أول هذه السورة نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وكان قد كتب إلى قريش بمكة يطلعهم على أمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخفاه عنهم، وبذلك جاءت الآثار والرواية عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم[(٣)].

فقد روى علي بن أبى طالب رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ- وهو مكان بين مكة والمدينة- فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها فأتونى به فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي . ويروى أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وكان كتب إلى أهل مكة يتنصح لهم، فكتب إليهم أن رسول الله يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم فأطلع الله نبيه على ذلك، وكان كتب إليهم كتاباً ووجه به مع امرأة يقال إنها كانت مولاة بني هاشم، فوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم علي والزبير خلفها فلحقاها فسألاها عن الكتاب فأنكرت، ففتشا ما معها فلم يجدا شيئاً، فقال علي رضوان الله عليه: إن رسول الله صلى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣١٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٥٥، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥١٧، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥١٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣١٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٥٥، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥١٧، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥١٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣١٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٥٥.

الله عليه وسلم لم يكذبنا فأقسم علي عليها لتخرجن الكتاب أو ليضربنها بالسيف، فقالت لهما: وليا وجوهكما وأخرجت الكتاب من قرن من قرون شعرها، فجاء بالكتاب إلى النبي عليه السلام فعرضه على حاطب فاعترف به، وقال: إن لي بمكة أهلاً ومالاً فأردت أن أتقرب منهم، ولن يرد الله بأسه عنهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية إلى آخر القصة[1].

لكن الآية عامة في كل من يسر مودة الكافرين؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[2].

خامسًا: الإسرار بمواعدة النساء بالزواج:

حرم الله تعالى النكاح في العدة، وأوجب التربص على الزوجة مدتها، وقد علم سبحانه أن الخلق لا يستطيعون الصبر عن ذكر النكاح والتكلم فيه، فأذن في التصريح بذلك مع جميع الخلق، وأذن في ذكر ذلك بالتعريض مع العاقد له، وهو المرأة أو الولي؛ وهو في المرأة آكد.

قال الإمام ابن عطية: «أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رفث من ذكر جماع، أو تحريض عليه فإنه لا يجوز، وقال أيضاً: أجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة للمرأة في نفسها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]»[3].

والتعريض هو: القول المفهم لمقصود الشيء، وليس بنص فيه، أي: الإشارة بالكلام إلى ما ليس فيه ذكر النكاح، والتعريض المباح في العدة بخطبة معتدة الوفاة في أثناء العدة: أن يقول لها الرجل مثلاً: إنك لجميلة، ومن يجد مثلك، ورب راغب فيك، ولعل الله أن يسوق إليك خيراً، أو يقول: رب رجل يرغب فيك، وما جرى مجرى هذه الألفاظ. والتصريح هو: التنصيص عليه والإفصاح بذكره. والتعريض مأخوذ من عرض الشيء وهو ناحيته، كأنه يحوم على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، رقم ٤٢٧٤، ٥/ ١٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، رقم ٢٤٩٤، ٤/ ١٩٤١.

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي ٤/ ٢٦٩، شرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي ٣/ ١٧٧.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٥٨.

النكاح، ويمشي حوله ولا ينزل به[1].

وقد اختلف العلماء في السر المراد في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه الزنا، قاله: جابر بن زيد، وأبو مجلز: لاحق بن حميد، والحسن بن أبي الحسن، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وهو اختيار الإمام الطبري[2].

الثاني: الجماع، وهو قول الشافعي، ويكنى به عن الجماع حلاله وحرامه؛ لكونه يكون في سر، وقد يعبر به عن العقد؛ لأنه سبب فيه[3].

الثالث: التصريح بالنكاح: ذهب إلى ذلك جمهور العلماء، أي: لا تتعدوا معهن وعداً صريحاً على التزوج بهن[4].

والمراد بالسر في الأصل: هو الوطء، ويقصد به هنا عقد الزواج في العدة سرًّا، فأطلق على العقد الذي هو سبب الوطء، وقيل: المراد به هنا هو الزنى، وهو اختيار الإمام الطبري، أو هو التعريض بالقول لها: إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري، قال الإمام ابن كثير: وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك[5].

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية: «والعلة في النهي عن المواعدة؛ لأن المواعدة على هذه الحال مدرجة للفتنة، ومظنة للقيل والقال، بخلاف التعريض فإنه يكون على ملأ من الناس، فلا عار فيه ولا عيب، ولا يكون وسيلة إلى ما لا تحمد عقباه؛ لأن المرأة في عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت، وبمشاعر أسرة الميت، ومرتبطة كذلك بما قد يكون في رحمها من حمل لم يتبين، أو حمل تبين، والعدة معلقة بوضعه.. وكل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة؛ لأن هذا الحديث لم يحن موعده؛ ولأنه يجرح مشاعر، ويخدش ذكريات.

ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض -لا التصريح- بخطبة النساء. أبيحت الإشارة البعيدة التي تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها»[6].

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص٩٠، معاني القرآن، النحاس ١/ ٢٢٨، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٨٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٠٥، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٠٤، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٨٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣١٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٣، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٨٧، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٢٢، تفسير المراغي ٢/ ١٩٤.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٠٥، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٠٤، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٨٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣١٥.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٣.

(٦) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٢٥٥.

السر يوم القيامة

تنكشف أسرار الناس يوم القيامة فلا يخفى منه على الله شيء، وهذا ما سنبينه في النقاط الآتية:

أولًا: انكشاف السرائر:

في يوم القيامة تنكشف السرائر، ويعرض الناس على عالم السر والنجوى، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، وفي ذلك اليوم يعرض العباد على الله لحسابهم، فلا يخفى على الله تعالى من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم وأمورهم شيء، فهو يعلم السر وأخفى، ويدل على هذا المعنى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وقوله جل شأنه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩][1].

وفي هذا المقام قال سيد قطب في ظلال قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] فالكل مكشوف. مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير. وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود.. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه! وما أقسى الفضيحة على الملأ. وما أخزاها على عيون الجموع! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن، ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور، وهو مخدوع بستور الأرض. فها هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد في يوم القيامة. وكل شيء بارز في الكون كله. الأرض مدكوكة مسوّاة لا تحجب شيئاً وراء نتوء ولا بروز، والسماء متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئاً، والأجسام معرّاة لا يسترها شيء، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر! ألا إنه لأمر عصيب، أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء! وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٨٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٩، التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ٨٩.

التاريخ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع..

وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد ففي نفسه منحنيات شتى ودروب، تتخفى فيها نفسه وتتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها، وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة، فتنطوي سريعاً، وتنكمش داخل القوقعة، وتغلق على نفسها تمامًا.

إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عيناً تدسست عليه فكشفت منه شيئاً مما يخفيه، وأن لمحة أصابت منه درباً خفيا أو منحنى سريًّا! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية..

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان. عريان حقًّا. عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير. عريان من كل ساتر. عريان... كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار؟! ألا إنه لأمر، أمر من كل أمر! ! ! وبعدئذ يعرض مشهد الناجين والمعذبين، كأنه حاضر تراه العيون[1].

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٠.

وانكشاف السرائر يوم القيامة لا يقتصر على الأعمال فقط، بل تنكشف عقائد المنافقين الذين كانوا يسرون الكفر، ويظهرون الإسلام، ويبدى لهم يوم القيامة ما كانوا يخفون من قبل، على أحد المعاني لقوله عز وجل: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨][2].

ثانيًا: إسرار الندامة:

أخبر الله تعالى أن الكافرين يسرون الندامة يوم القيامة، والندامة: الحسرة لوقوع شيء أو فوت شيء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣][3].

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٥٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٩٧، المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٤٠٨، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٩٣.

(٣) انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٣٠٠، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٣٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٠٩.

وإسرار الندامة يوم القيامة على معنيين:

الأول: الإخفاء والكتمان، أي: أخفى الرؤساء في الكفر الندامة من الذين أضلوهم، وستروها عنهم، وهذا قول عامة المفسرين، وهو المشهور في اللغة والشائع في الاستعمال؛ لأن السر من الأضداد - كما سبق - ولا موجب للعدول عن المشهور والشائع في الاستعمال إلا بدليل؛ ولأن (السر) يستعمل غالباً في الكتمان، وذلك ما ينصرف إليه الذهن بادىء الرأي، وهو أنسب بالمقام.

الثاني: الإظهار والإعلان، أي : أظهروا الندامة وأعلنوها على ما فاتهم من الكفر والعصيان، ويدل على هذا المعنى أن الآخرة ليست دار تجلد وتصبر؛ كي يظهروا خلاف ما يبطنون ، وقد ذهب إلى هذا المعنى جماعة من المفسرين؛ لأن الإسرار من الأضداد، يقال: أسررت الشيء، أخفيته، وأسررته، أعلنته، فيكون المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤] أي: أظهروها[1].

ومما يؤيد هذا المعنى أن الندامة تظهر يوم القيامة جهراً في مواضع أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

وقد حكى جماعة من المفسرين عن المبرّد وجهاً ثالثًا في معنى إسرار الندامة: أنه بدت بالندامة أسرة وجوههم، وهي تكاسير الجبهة، واحدها سرار[2].

ومن خلال النظر في أقوال المفسرين يمكن القول بأن الإسرار يوم القيامة يحتمل المعاني الثلاثة: ففي مواطن يكتمون الندامة، وفي أخرى يظهروها، مع بدو الندامة في أسرة وجوههم في جميع الأحوال.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٩١، معاني القرآن، النحاس ٣/ ٢٩٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٥٠، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٨٩.

(٢) انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٣٠٠، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٣٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٠٨، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٧١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٥٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٠٩.

المحاسبة على السر

لما كان الله تعالى له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وكان المطلع على ما فيهن، بحيث لا تخفى عليه الظواهر، ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

أخبر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة بأنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

وفي الآية إشارة إلى أن ابتلاء السرائر يوم القيامة يتحقق بظهورها بعد الخفاء والاستتار ليتم تمحيصها واختبارها.

وهذا المعنى يتضح في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤][1].

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم[2]، وذلك لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)، قالوا: سمعنا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١١٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٢١، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٥.

وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم»[1].

وبموجب هذه الحديث اختلف المفسرون والفقهاء هل هذه الآية منسوخة، أو محكمة على قولين هما:

القول الأول: ذهب الإمام علي وابن عمر وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وآخرون من الصحابة رضي الله عنهم إلى أن هذه الآية منسوخة؛ لأنها تثبت الحساب على الوساوس وخواطر النفوس، فرجع معنى هذه الآية إلى كونه تعالى عالماً بكل ما في الضمائر والسرائر[2]، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥][3].

القول الثاني: ذهب ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد وعائشة رضي الله عنهم: إلى أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وأن الله تعالى يحاسب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوه مما ثبت في نفوسهم فأضمروه ونووه وأرادوه، فيغفر للمؤمنين ويأخذ به أهل الكفر والنفاق، ورجح هذا القول الإمام الطبري وذهب إلى أن الآية محكمة غير منسوخة[4].

ويكون القول الراجح هو: أن الآية محكمة غير منسوخة، وأن المراد من قوله

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، رقم ٤٥٤٥، ٦/ ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، رقم ١٢٥، ١/ ١١٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٢١، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٥٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٧.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٦٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٨٩

في الحديث: «نسخها الله» ، أي : أزال ما أخافهم، وأن آية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ليست ناسخة، ولكنها موضحة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل)[1]، ويدل على منع القول بالنسخ الأدلة التالية:

١. إن قوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ خبر، والأخبار لا تنسخ عند جمهور الأصوليين[2].

٢. إن كسب القلب وعمله مما دل الكتاب والسنة والإجماع والقياس على ثبوته والجزاء عليه، ظهر أثره على الجوارح أم لم يظهر، كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٥].

٣. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

٤. إن الوساوس العارضة وحديث النفس الذي لا يصل إلى درجة القصد الثابت والعزم الراسخ لا يدخل في مفهوم الآية، كما قال المحققون.

٥. إن تكليف ما ليس في الوسع ينافي الحكمة الإلهية.

وأما قول الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بالنسخ فهو مما يتفق مع علو مرتبة هؤلاء وكمالهم، حتى إنهم ليجدون أن وسوسة النفس مما تخضع للحساب، وهم يريدون التطهر من كل آثار الإثم، لذا قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فتحرجهم من باب كمال التزكية وتمام الطهارة واعتقاد النقص في أنفسهم[3].

واختبار سرائر الصدور يظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦][4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، ولا عتاقة إلا لوجه الله، رقم ٢٥٢٨، ٣/ ١٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم ١٢٧، ١/ ١١٦.

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي ٥/ ٢٤٧، المسودة في أصول الفقه، آل تيمية ص ١٩٦، شرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي ٣/ ٦٦.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣/ ١٢٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١١٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٠٤، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٥.

أثر إفشاء السر على الفرد والمجتمع

إن المحافظة على الأسرار من أعظم الأمانات في العلاقات؛ ليس على المستوى الفردي فحسب؛ بل على مستوى الدول والحكومات، وكم من أسرار كشفت للخصوم والأعداء؛ فسبّبت الذل والهوان لأفراد وشعوب وأمم!

ومن هنا فرعاية الإسلام للمحافظة على الأسرار يستهدف من ورائها تكوين المجتمع الإسلامي، ووضع التشريعات الضابطة لحماية العلاقات وتنميتها أمر لازم لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحية المادية والمعنوية.

ولو أهملت المبادئ الأخلاقية والاجتماعية، وسمح للخيانة، وفشو الأسرار بالانتشار؛ لزالت المعاني الإنسانية العظيمة، كالأمانة، وكتمان الأسرار من حياة الناس، وتحولت الحياة الاجتماعية إلى جحيم لا يطاق[1].

وينبغي التنبيه في هذا المقام إلى أن المحافظة على الأسرار مشروطة بأن لا تؤثر في حق الله تعالى أو حق المسلمين، وإلا عدّ ذلك من الخيانة لحق الله تعالى، أو حق المسلمين، وليس حفظ الأسرار هنا من الأمانة[2].

وقد عالج القرآن الكريم إفشاء الأسرار وبيَّن أثر ذلك في المجتمعات والدول والأفراد من جميع الجوانب ،سواء العامة أو الخاصة في الأمور السياسية والعسكرية أو الاجتماعية والفردية كما يأتي:

أولًا: عالج القرآن الكريم إفشاء الأسرار وبيَّن أثر ذلك في المجتمعات والدول والأفراد في الأمور السياسية والعسكرية:

وذلك حين نهى الله المؤمنين أن يخونوا أماناتهم فيما بينهم، أو فيما أسر الرسول إليهم من السر، وهم يعلمون أن الخيانة ليست من شأن الكرام، بل هي من شأن اللئام، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ومن هنا يكون إفشاء السر خيانة صغرى أو كبرى كما يأتي:

١. كشف السر خيانة صغرى: فقد ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ذهب جمهور المفسرين إلى أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري

(١) انظر: مقال: المحافظة على الأسرار، عبداللطيف الحسين، منشور في مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد ١٩٧، السنة ١٩، ص ٢٨.

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة الميداني ٢/ ٣٦١.

رضي الله عنه، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن ابعث إلينا أبا لبابة نستشيره في أمرنا، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم، فقالوا: يا أبا لبابة، ما ترى أننزل على حكم محمد؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه - أنه الذبح فلا تفعلوا -، ثم ندم بعد ذلك وقال: والله! ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله»[1]، فإن أبا لبابة رضي الله عنه كان يعلم الحكم في يهود بني قريظة بأنه الذبح! ولكنه أشار بيده إلى حلقه، فكان ذلك منه خيانة لأمانة المجلس، ويكون إفشاء السر في مثل هذه الحالة خيانة صغرى لعدم الإفصاح بالسر[2].

٢. كشف السر خيانة كبرى: لأن حفظ أسرار المجالس أمانة كبرى يجب رعايتها، وعدم إفشاء ما يدار فيها من أمور وأخبار مهمة ربما يصل كشفها إلى الخيانة الكبرى، كما في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في نقله لخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح مكة إلى زعمائها[3]؛ إذ إن حاطبًا ممن أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بوجهته إلى مكة، وهو ما جاء في سبب نزول[4] قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

٣. أن افشاء السر والإذاعة به من أخلاق المنافقين الذين يكيدون ويمكرون بالمؤمنين، كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسرين، أو من أخلاق ضعفة المسلمين الذين يفشون الأسرار من غير معرفة بالأضرار الناجمة عن ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٨٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٧٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥١٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٨٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٧٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥١٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً، رقم ٣٩٨٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، رقم ٤٢٧٤، ٥/ ١٤٥.
وانظر: أسباب النزول، الواحدي ص ٣٤٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١.

بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣][1].

كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به ، وكانت إذاعتهم مفسدة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولي الأمر منهم- وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور أو الذين كانوا يؤمرون منهم- لعلمه :لعلم تدبير ما أخبروا به ، الذين يستنبطونه : الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها[2].

ثانيًا: الأضرار الناجمة على الفرد والمجتمع عن إفشاء الأسرار الاجتماعية، وكيف عالج القرآن الكريم ذلك:

فقد جسد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٣-٥].

وبعض أزواجه هي: حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعدل عن ذكر اسمها ترفعاً عن أن يكون القصد معرفة الأعيان، وإنما المراد العلم بمغزى القصة وما فيها مما يجتنب مثله أو يقتدى به، وكذلك طي تعيين المنبئة بالحديث، وهي عائشة رضي الله عنها.

وذكرت حفصة رضي الله عنها بعنوان بعض أزواجه للإشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع سره في موضعه ؛ لأن أولى الناس بمعرفة سر الرجل زوجه، وفي ذلك تعريض بملامها على إفشاء سره؛ لأن واجب المرأة أن تحفظ سرَّ زوجها إذا أمرها بحفظه أو كان مثله مما يجب حفظه[3].

قال جماعة المفسرين: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الغيرة والكراهية في وجه حفصة، أراد أن يترضاها، فأسرَّ إليها بشيئين:

أحدهما: تحريم مارية على نفسه أو ما حرم على نفسه مما كان الله جل ثناؤه قد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٦٨، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٥٣، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٧٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٤١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٥٢.

أحله له من شربه العسل عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً يبتغي بذلك مرضاة أزواجه، وحلفه على ذلك.

والثاني: تبشيرها بأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر رضي الله عنه [1].

وعلى ذلك يجب حفظ أسرار الزوجين: الرجل والمرأة مؤتمنان على حفظ أسرار كل منهما، ويجب عليهما أن يحرصا أشد الحرص على عدم إفشائها، ولا شك أن حفظ سر الزوجين من أخص خصائص كل منهما تجاه الآخر، ومن أكثرها إسهامًا في ديمومة الحياة الزوجية واستقرارها، ويدخل في المحافظة على الأسرار: ستر العورات في العلاقات الزوجية، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها) وفي رواية عنه أيضاً: (إنّ من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرّها) [2].

وكذلك يعتبر نقل النميمة من شخص إلى آخر من إفشاء السر، فمن قال لآخر: فلان يقول فيك أو يفعل فيك [3]، فإن ذلك من إفشاء السر بالإضافة إلى كونه نميمة والكل محرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] [4].

والمحافظة على الأسرار أمانة عظيمة يجب الوفاء بها، وقد حثّنا الشرع عليها، وحذّرنا من فشو الأسرار والتفريط فيها، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢].

فعلى من أودع سرًّا أن يحافظ عليه ولا يفشيه أبدًا، وإلا أصبح خائنًا، لأن إفشاء السر صفة مشابهة للمنافق الذي إذا اؤتمن على شيء خانه، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أربعٌ من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النّفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حرم طعامه، رقم ٦٦٩١، ٦/ ١٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته، ولم ينو الطلاق، رقم ١٤٧٤، ٢/ ١١٠٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم ١٤٣٧، ٢/ ١٠٦٠.

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ١١٣.

(٤) انظر: سبل السلام، الصنعاني ٢/ ٦٧٨.

وإذا خاصم فجر)[1].

بالإضافة إلى أن حفظ الأسرار وكتمانها من الأخلاق العظيمة التي تعلي من شيم أصحابها وشمائل صفاتهم، فقد كان الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم مضرب المثل في حفظ الأسرار التي يؤتمنون عليها، فهذا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أمين سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين، وكان يقال له: صاحب السّر الذي لا يعلمه أحدٌ غيره[2].

بالإضافة إلى أن في حفظ الأسرار وكتمانه عوناً على قضاء الحوائج ودفعاً للحسد والمكر وغيرها من الآفات والمخاطر التي تنتج عن إفشاء الأسرار والإعلان بها، وفي ذلك تظهر الحكمة والغاية التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم الناس بقوله: (استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود)[3].

وفي الجملة ينبغي المحافظة على الأسرار الخاصة والعامة بكل الوسائل، وخاصة الأسرار العامة التي تهم الدول والمجتمعات ويؤدي إفشاؤها إلى دمار الشعوب، وخاصة مع وجود وسائل التنصت والتجسس المتطورة، والتي يجب الاحتراز والحذر منها بكل الوسائل الممكنة.

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الإنفاق، الحساب، العلن، الكتمان، النجوى، النفاق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، واللفظ له، رقم ٣٤، ١/ ١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٥٨، ١/ ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما، رقم ٣٧٤٢، ٥/ ٢٥.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٢٤٥٥، ٣/ ٥٥، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٦٢٢٨، ٩/ ٣٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٤٥٣، ٣/ ٤٣٩.

السَّعَادَةُ

عناصر الموضوع

مفهوم السعادة	٤٤
السعادة في الاستعمال القرآني	٤٥
الألفاظ ذات الصلة	٤٦
أنواع السعادة	٤٨
أسباب السعادة	٦٠
بعض مظاهر السعادة الدنيوية	٧٤
مظاهر السعادة في الدار الآخرة	٨٢

مفهوم السعادة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ع د) تدل على خير وسرور خلاف النحس، فالسعد: اليمن في الأمر[1].

والسعادة: خلاف الشقاوة، يقال: يوم سعد ويوم نحس، وقد سعد يسعد سعدًا وسعادة فهو سعيد: نقيض شقي، وسَعُد بالضم فهو مسعود، والجمع سعداء[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها الراغب بأنها: معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير[3].

وقال ابن عاشور: «والسّعيد: ضدّ الشّقيّ، وهو المتلبّس بالسّعادة الّتي هي الأحوال الحسنة الخيّرة الملائمة للمتّصف بها»[4].

والسعادة عند علماء التربية: «حالة نفسية من مشاعر الراحة والطمأنينة والرضى عن النفس والقناعة بما كتب الله سبحانه وتعالى»[5].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٥٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢١٣.
(٣) المفردات ص ٤١٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٦٤.
(٥) دليلك الشخصي إلى السعادة والنجاح، إبراهيم القعيد، ص٣٧.

السعادة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سعد) في القرآن الكريم مرتين[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود:١٠٨]
صيغة المبالغة	١	﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود:١٠٥]

وجاءت السعادة في الاستعمال القرآني بمعنى معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٣٥٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤١٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ١٩٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الرضا:

الرضا لغةً:

ضد السخط، وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللّهمّ أعوذ برضاك من سخطك)[١]: وأرضاه: أعطاه ما يرضى به[٢].

الرضا اصطلاحًا:

سرور القلب بمر القضاء[٣]، أو طيب النفس بما يصيبه ويفوته مع عدم التغير[٤].

الصلة بين الرضا والسعادة

وبمقارنة الرضا بالسعادة نجد أن الأول ضد السخط والثاني ضد الشقاوة وأن السخط بعض ألوان الشقاء.

٢ الفرح:

الفرح لغة:

يقال فرح يفرح فرحًا، فهو فرحٌ على خلاف الحزن[٥].

الفرح اصطلاحًا:

«انشراح الصّدر بلذّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللّذات البدنيّة الدّنيوية»[٦].

الصلة بين الفرح والسعادة:

نجد أن الفرح يبدو واضحًا تحققه في اللذة العاجلة المرتبطة بملذات الدنيا، ويؤكد ذلك الآيات القرآنية؛ كقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وبمقارنته بالسعادة نجد بينه وبين مفهوم السعادة نوعًا من التقارب الواضح، إلا أن الأوضح، هو أن السعادة أشمل وأعم، ففرح الإنسان بنعم الله ولذات الدنيا ومتاعها وانشراح صدره بذلك إنما هو داخل في المعونة الإلهية للإنسان على نيل الخير، والذي يشمل خير الدنيا والآخرة، إلا أن الفرح قد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٤٨٦.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٢٣.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص١٢٥.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٦٥.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٩٩.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٢٨.

يحدث عند الإنسان بلذة دنيوية بحتة، لا تقرب من سعادة الآخرة، بل ربما تباعد بينه وبينها قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد:٢٦].

٣ السرور:

السّرور لغة:

يقال: سررت برؤية فلانٍ وسرّني لقاؤه، وقد سررته أسرّه ، أي : فرّحته، السّرور خلاف الحزن ، تقول: سرّني فلانٌ مسرّةً، والسرور: ما ينكتم من الفرح [(١)].

السرور اصطلاحًا:

«حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد وعلم أو ظن لحصول شيء لذيذ»[(٢)].

الصلة بين السرور والسعادة:

السرور هو ما انشرح واطمأن له القلب من الفرح بلذة عاجلة أو آجلة، وبمقارنته بالسعادة نجد بينه وبين مفهوم السعادة نوعًا من التقارب، إلا أن السعادة أشمل وأعم، فسرور الإنسان بنعم الله ولذات الدنيا ومتاعها وانشراح صدره بذلك إنما هو داخل في المعونة الإلهية للإنسان على نيل الخير، والذي يشمل خير الدنيا والآخرة، إلا أن السرور قد يحدث عند الإنسان بلذة دنيوية بحتة، لا تقرب من سعادة الآخرة، بل ربما تباعد بينه وبينها، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق:١٣].

وعليه فقد يكون الشخص مسرورًا لكنه شقي.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦١.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٣.

أنواع السعادة

كل إنسان على وجه الأرض يسعى لتحقيق السعادة لنفسه، ورغم اختلاف الناس في مشاربهم ومذاهبهم وأعراقهم وألوانهم إلا أنهم يتفقون في غاية واحدة هي طلب السعادة، ويبذلون لتحقيقها الأموال والأعمار.

والسعادة: هي ذاك الشعور الداخلي الذي يحسه الإنسان بين جنبيه، وتتمثل في سكينة النفس وطمأنينة القلب وراحة الضمير والبال؛ نتيجةً لاستقامة السلوك الظاهر والباطن، المدفوع بقوة الإيمان، لا تقتصر على تحقيق مطالب وملذات الجسد والدنيا، بل تمتد لتشمل التشوق إلى الحياة الأخروية الأبدية الدائمة المتمثلة في دار الخلود التي لا ينقطع نعيمها ولا يمتنع.

ويشتمل هذا المبحث على النقاط الآتية:

أولًا: السعادة الموهومة الزائلة:

السعادة هي الحلم الذي ينشده كل إنسان على الأرض فأين نجدها؟ سؤال حير الناس من قديم.... أين السعادة؟ طلبها الأكثرون في غير موضعها، فعادوا كما يعود طالب اللؤلؤ في الصحراء صفر اليدين، مجهود البدن، كسير النفس!

فقد جرّب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية، وصنوف الشهوات الحسية فما وجدوها وحدها تحقق السعادة أبدًا ، وربما زادتهم مع كل جديد منها همًّا جديدًا[1].

لقد ظن قوم أن السعادة في النساء فأكثروا من منادمتهن بالحلال والحرام، وظن آخرون أنها في النعيم المادي والغنى ورخاء العيش، وظن غيرهم أنها في البنين فتفاخروا بهم وتباهوا، ورآها آخرون في المنصب والملك والجاه.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

في هذه الآية الكريمة يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان، والتي يعتقد أنها سر سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ؛ لأنها خلاصة الرغائب الأرضية، إما بذاتها، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى، ويخبر تعالى عمّا زين للناس في هذه الدنيا من أنواع الملاذ بصيغة الفعل المبني للمجهول، إشارة إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل، فهو محبب ومزين، بل هو جزء من

(١) انظر: الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، ص٧٦.

تكوين الإنسان الأصيل لا حاجة لإنكاره، فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد[1].

١. السعادة في النساء.

المرأة كائن عجيب هي ألطف الكائنات إذا اتقت ربها، وأحبت نبيها، وهي سكن الرجل وسر راحته واستقراره، وحلم حياته، وهي شيطان بل أشد كيدًا إذا ما أطلقت العنان لنفسها! قال بعضهم: «إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطئ، وأنت موضع سري، وأنت رسولي في حاجتي»[2].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بهن لكثرة تشوف النفوس إليهن، لأنهن حبائل الشيطان وفتنة الرجل، عن أسامة بن زيدٍ رضي اللّه عنهما، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (ما تركت بعدي فتنةً أضرّ على الرّجال من النّساء)[3].

ويقال : في النساء فتنتان ، وفي الاولّاد فتنة واحدة ؛ لأن النساء خلقن من الرجل، والرجل خلق فيه الشهوة، وجعلت سكنًا له فغير مأمون كل واحدٍ منهما على صاحبه، قال عمر حين نزلت الآية: «الآن يا رب حين زينتها لنا»[4].

وقال غيره من المفسرين: بدأ سبحانه بأقوى دواعي الشهوة وهو حب النساء، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: (ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أغلب لذي لبٍّ منكنّ)[5].

أما إذا كان القصد بالنساء الإعفاف وكثرة الاولّاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه بالأحاديث الشريفة المرغبة في الزواج والاستكثار منه، وخير هذه الأمة أكثرها نساءً.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الدّنيا متاعٌ وخير متاعها المرأة الصّالحة)[6].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حبّب إليّ من الدّنيا : النّساء ، والطّيب ، وجعلت قرّة عيني في الصّلاة)[7].

(١) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٣٧٣.
(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١٠٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما تبقى من شؤم المرأة، رقم ٥٠٩٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٧٦٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب ترك الحائض الصوم، رقم ٣٠٤.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا الزوجة الصالحة، رقم ١٤٦٧.
(٧) أخرجه النسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم ٣٩٤٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٩٩، رقم ٣١٢٤.

فهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم يقر بحبه لنسائه، ويقرر أن خير المتاع والمسرّة والسعادة تكمن في المرأة الصالحة.

وإذا رجعنا إلى تاريخ البشرية القديم نجد أن أول جريمة قتل ارتكبت على الأرض بسبب النساء.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:٢٧][1].

فهل السعادة المنشودة تحصل حقًّا بمنادمة النساء والنظر إليهن والأنس بهن فقط، وأن اللذة بهن فوق كل اللذات والسعادات؟ إن كان كذلك ؛ فما الذي منع يوسف عليه السلام أن يحقق لنفسه أعظم اللذات والسعادات، وما الذي جعل امرأة العزيز تلوم نفسها وتعترف بصراحة ﴿ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف:٥٣].

ما الذي دفع عابد بغداد حين تعرضت له إحدى الغانيات لتفتنه وتتراقص له بين الأشجار أن يصدها واعظًا لها حتى قلبها من بغي إلى ناسكة عابدة[2].

ولماذا امتنع الرجل الثاني في حديث الثلاثة الذين أغلق عليهم الغار بفعل صخرة انحدرت على بابه -عن مواقعة ابنة عمه[3].

لولا أن هناك سعادة أعظم، وسرورًا أكبر ينتظر! ما ظننت أن هؤلاء يفوتون على أنفسهم تلك السعادة المرجوة بمعاشرة النساء.

٢. السعادة في البنين.

الأولاد زهرة الحياة الدنيا وزينتها، ومجال للتفاخر بهم، وللتباهي والتعالي على الناس.

قال تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف:٣٤] أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا، قال قتادة: تلك أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر[4].

(١) سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى، وكان آدم عليه السلام يزوج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الآخر، ولا تحل له أخته التي ولدت معه، فولدت مع قابيل أخت جميلة، ومع هابيل أخت ليست كذلك، فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق بأختي، فأمره آدم فلم يأتمر، وزجره فلم ينزجر، فاتفقوا على القربان وأنه يتزوجها من تقبل قربانه.فتقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل، فقال قابيل لأخيه: لأقتلنك ثم قتله.
انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٦.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ١٠١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي، رقم ٢٢١٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١١٣٠.

فكثير من الناس يرى أن سعادته وسروره وقرة عينه في الأبناء، ويحلم بتكثير عددهم، ويطلبهم للاستئناس والفرح بهم، والقرآن الكريم يروي لنا قصة موسى الرضيع حين وجده آل فرعون.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص:٩].

وقال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص:١٣].

وقد سجل القرآن الكريم اعتزاز العرب بالبنين وتفاخرهم بهم.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۝٣٩﴾ [الطور:٣٩].

وقد عيروا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مقطوع لا ولد له.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر:٣].

وأشارت سورة المدثر إلى منّة الله العظيمة على الوليد بن المغيرة المخزومي بنعمة الولد ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾ [المدثر:١٢-١٣].

فالبنون حلم جميل وشهوة محببة إلى النفس ، لذا نرى جميع الناس يسعون إليها، وتتعلق قلوبهم بها، ويظهر ذلك جليًّا فيمن حرم هذه النعمة، وعقم عن الإنجاب، فإنه يدفع أغلى الأثمان من الآلاف المؤلفة، من أجل الحصول على ولد ، حتى أن الأنبياء الذين اختبرهم الله بعدم الإنجاب، رفعوا أيديهم بالدعاء لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم:٢-٧].

لو استقرأنا الواقع لوجدنا أن كثيرًا من الأولاد جرّوا على آبائهم الويلات وأذاقوهم أصناف العذابات، حتى كان حتف بعضهم على يد ابنه طمعًا في ثروته!، وكم سمعنا من القصص العجيبة عن عقوق الأبناء وتعاسة الآباء.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝٨٠﴾ [الكهف:٨٠] حيث كان قتل هذا الغلام أفضل لوالديه من حياته.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ

﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن:١٤].

فالسعادة إذن لا تتحقق بالأبناء، ثم هل الذين حرموا من الأولاد محكوم عليهم بالشقاء المؤبد والتعاسة الدائمة؟ لا أظن ذلك[١].

٣. السعادة في المال.

إن المال عصب الحياة حقيقة، والكل يشتهي اقتناءه على شتى أصنافه من ذهب أو فضة أو مجوهرات أو أوراق نقدية، ويرى فيه مصدر عزٍّ وعلو مكانةٍ، ويحرص على الاستزادة منه دون شبع، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لو كان لابن آدم واديان من ذهبٍ لابتغى الثّالث)[٢].

وقد ورد لفظ المال ومشتقاته في القرآن في ستة وثمانين موضعًا على اختلاف المفاهيم التي تشير إليها الآيات[٣].

قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف:٤٦].

وقال تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤﴾ [القلم:١٣-١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ [الفجر:٢٠].

وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الحديد:٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس:٨٨].

وقد حرص الناس على اقتناء الذهب والفضة وكنزهما، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥].

وتشير آيات الزخرف الكريمة إلى افتتان الناس بالفضة والذهب، وتعلقهم بحب اقتنائهما، وقد قال المفسرون في تبيين معنى تلك الآيات: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال فيصبحون أمة واحدة مجتمعة على الكفر، لجعل الله لبيوت الكافرين سقفًا وسلالم ودرجًا من فضة عليها يصعدون، وأبوابًا لبيوتهم وأغلاقًا وسررًا، كل ذلك مصنوع من الفضة والذهب، وما ذلك إلا من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أي يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في

(١) انظر: الإيمان والحياة، ص ٨٠، ٨١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يتّقى من فتنة المال، رقم ٦٤٣٦.
(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص٦٨٢، ٦٨٣.

الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها[1].

وهذا المال الذي يميل إليه كثير من الناس، ويرون أن السعادة تتحقق بجمعه، وبه يحصلون على متع الحياة ولذاتها، قد يكون سببًا لشقاء الإنسان في الحياة الدنيا؛ لأن في جمع المال والحفاظ عليه مشقة، فصاحبه لا يصبح إلا مهمومًا ولا يمسي إلا مغمومًا. فهل حقًّا السعادة في المال والنعيم المادي؟!!

ومما يؤكد على أن السعادة ليست في المال: أن بعض الإحصاءات أشارت إلى أن كلًّا من شعوب إيسلندا وهولندا والدانمارك أكثر من ٩٢٪ من أفرادها يستشعرون السعادة رغم أن مستواها الاقتصادي يقل كثيرًا عن دول مثل أمريكا وألمانيا التي يسود أفرادها الاكتئاب والأمراض النفسية المختلفة، كما أن الثروة الطائلة لم تحقق لليابانيين والصينيين وكل أتباع بوذا وكنفوشيوس السعادة المرجوة، وأكدت التجارب والخبرات أن السعادة شعور خفي ينبعث من داخل الفرد نفسه، وأنه ينبغي الفصل التام بين المال والسعادة[2].

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة:٥٥].

والعذاب هو المشقة والألم والهم والسقم[3].

وما قصة قارون عنا ببعيد حين حمد الذين تمنوا مكانه بالأمس الله على فضله عليهم ومنّه الذي تمثل بحرمانهم من الثروات والكنوز التي أودت بقارون إلى الخسف والهلاك.

وقد ربّى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على ما هو أعظم من حب المال والتعلق به إلى ما فيه راحة وسعادة أعظم؛ رباهم على القناعة وغرسها في نفوسهم[4].

ومثال ذلك ما حدث مع حكيم بن حزام، فقد كان رضي الله عنه يحب المال ويكثر من طلبه، عن حكيم بن حزام رضي اللّه عنه، قال: (سألت رسول اللّه صلّى الله عليه وسلم، فأعطاني، ثمّ سألته، فأعطاني، ثمّ قال لي: يا حكيم، إنّ هذا المال خضرٌ حلوٌ، فمن أخذه بسخاوة نفسٍ، بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفسٍ، لم يبارك له فيه، وكان كالّذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خيرٌ من اليد السّفلى، قال حكيمٌ: فقلت: يا رسول اللّه، والّذي بعثك بالحقّ لا أرزأ أحدًا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٦٨٠.
(٢) انظر: مجلة الأزهر، ربيع الأول ١٤٢٣هـ يونيو ٢٠٠٢، ج٣، السنة ٧٥.
(٣) انظر: الإيمان والحياة، ص ٧٦-٧٩.
(٤) انظر: تزكية النفس، محمد عبدالقادر أبو فارس، ص ٢٧٠.

بعدك شيئًا حتّى أفارق الدّنيا، فكان أبو بكرٍ يدعو حكيمًا ليعطيه العطاء، فيأبى أن يقبل منه شيئًا، ثمّ إنّ عمر دعاه ليعطيه، فيأبى أن يقبله، فقال: يا معشر المسلمين، إنّي أعرض عليه حقّه، الّذي قسم اللّه له من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيمٌ أحدًا من النّاس بعد النّبيّ صلى الله عليه وسلم حتّى توفّي رحمه اللّه)[1].

والقناعة في الحقيقة طريق السعادة في الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن القناعة تعني العزة والكرامة وعدم سؤال الناس حتى ولو كان محتاجًا، وإذا كان ولابد فليسأل الله تبارك وتعالى ؛ فسؤاله عبادة وهو القادر وحده على سد الحاجة، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل)[2].

٤. السعادة في الخيل المسوّمة.

لقد ذكر الله الخيل في كتابه الكريم في عدة مواضع منها ما جاء في سورة آل عمران في الآية موضع البحث ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

وجاء ذكرها في سورة كاملة في القرآن الكريم وهي سورة العاديات ، قال تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ [العاديات:١-٥].

يقسم الله سبحانه وتعالى بالعاديات ضبحًا، قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة ومقاتل وأبو العالية وغيرهم: هي الخيل العادية في سبيل الله تضبح، والضبح: صوت أجوافها إذا عدت[3]. ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى لا يقسم بشيء إلا لتشريفه ولإظهار مكانته.

والخيل لها شأنها عند العرب منذ القدم، وكانت مصدر مفاخرة بينهم وكان الشعراء يتباهون بها باعتبارها مصدرًا من مصادر القوة لديهم، وهناك القصائد العديدة التي ألقيت في الخيل، أشهرها قول المتنبي[4]:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والضرب والطعن والقرطاس والقلم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي، رقم ٣١٤٣.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف، رقم ١٦٤٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/ ١٥٤.
(٤) ديوان المتنبي بشرح العكبري ٢/ ٣٦٩.

وقول امرئ القيس في وصف فرسه[1]:

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا
كجلمود صخرٍ حطّه السّيل من عل

وورد في الحديث عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من فرسٍ عربيٍّ إلاّ يؤذن له عند كلّ سحرٍ بدعوتين : اللّهمّ خوّلتني من خوّلتني من بني آدم وجعلتني له فاجعلني أحبّ أهله وماله إليه أو من أحبّ ماله وأهله إليه)[2].

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يلوي ناصية فرسٍ بإصبعه، وهو يقول: (الخيل معقودٌ بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة)[3].

ومما يؤكد هذه المكانة العظيمة للخيل في نفوس مقتنيها، ما ذكره القرآن الكريم في قصة نبي الله سليمان عليه السلام ، وكيف شغله حبه للخيل وإعجابه بها عن ذكر الله أو صلاة العصر.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص:٣٠-٣٣].

ومعنى قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: آثرت حب الخير وأراد بالخير الخيل، وسميت كذلك ، لأنه معقود بنواصيها الخير، الأجر والمغنم، فهل حقًّا السعادة في اقتناء الخيول وامتطاء صهواتها مطلقًا؟! لو كان الأمر كذلك لما وجدنا سليمان عليه السلام يذبحها لأنها شغلته عن صلاة ما، ولما وجدنا حاتم الطائي يذبح فرسه لإطعام ضيفه وإكرامه، إذن هناك سعادة أعظم وأمورًا أكثر إسعادًا من الخيل!

٥. السعادة في الأنعام والحرث.

تختلف أذواق الناس فيما يسعدهم ويدخل السرور إلى قلوبهم، فهناك من رأى سعادته في كنز الذهب والفضة والأوراق النقدية مثل الرأسماليين الكبار، وأهل الفروسية يرون سعادتهم فيما يقتنونه من خيل وركاب، والفلاحون وأهل الزراعة يرون سعادتهم فيما يمتلكونه من أنعام وحرث.

وقد امتن سبحانه وتعالى على عباده بهذه النعمة العظيمة، بل أنزل سورة كاملة

(١) ديوان امرئ القيس، ص٥٢٠.
(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الخيل، باب دعوة الخيل، رقم ٣٥٧٩.
وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، ٢/ ٥٣١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أحلت لكم الغنائم)، رقم ٣١١٩.

تتحدث عن هذا الفضل الكبير، شيعها سبعون ألفاً من الملائكة هي سورة الأنعام.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٤١-١٤٢].

وفصلت الآيات في أنواع هذه الأنعام، قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام:١٤٣-١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [النحل:٦٦-٦٧].

وتبرز سورة الكهف موقفًا لبعض أولئك الذين وجدوا سعادتهم في الزروع والجنات مما دفعه إلى التفاخر والتباهي والتعالي على صاحبه.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف:٣٢-٣٦].

جاءت هذه الآيات الكريمة بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم القرآن مثلًا برجلين، جعل لأحدهما جنتين، أي: بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة، في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر في غاية الجودة، حيث قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾، أي: أخرجت ثمارها ولم تنقص منه شيئًا والأنهار متفرقة بين الأشجار[1].

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيل له مال من الذهب والفضة، وقيل: ثمار وهو هنا أظهر، قال صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يجادله

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ١٢٤-١٢٥.

ويخاصمه ويفتخر عليه أنه أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا، ودخل حديقته متمردًا متكبرًا كافرًا بأنعم الله، ومتجبرًا منكرًا المعاد، اغترارًا منه لما رأى فيها من الزروع والثمار ظانًا أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك، بل ويصر على أنه لو كان هناك معاد ورجعة إلى الله سيكون حظه أحسن من الدنيا لأن له عند الله كرامة؛ كما يزعم[1].

فهل حقًا تكمن السعادة في اقتناء الأنعام وامتلاك الحدائق والبساتين، والجواب في قصة أصحاب الجنة الواردة في سورة القلم، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القلم:١٧].

في هذه القصة مثل يضربه الله تعالى لكفار قريش ولكل من أنعم الله عليهم بنعمة كبيرة أو رحمة عظيمة فقابلوها بالجحود والنكران. وأصحاب الجنة هؤلاء إخوة من اليمن ورثوا حديقةً عن أب تقي كان يؤدي حق الله في جنته، ولما أرادوا أن يجنوا ثمارها بعد أن نضجت وصلحت، قرّروا أن يمنعوا حق الفقراء فيها، ويقطفوها ليلًا دون أن يشعر بهم أحد ، ظانين أن السعادة والفرح في استئثارهم بثمر تلك الجنة، فلما وصلوها أنكروها بعد أن رأوها قد تحولت عن تلك النضارة والزهوة إلى سوداء مدلهمة ، لا ينتفع بشيء منها فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم:٢٧].

أي: نحن لا حظ لنا ولا نصيب.

ثم أقروا جميعًا بسوء صنيعهم وأدركوا أن الخير كل الخير في الرجوع إلى الله تعالى ، وشكره على ما أعطاهم وأنعم عليهم، واعترفوا بظلمهم لأنفسهم وطغيانهم، ورجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها في الدنيا ليحسنوا من جديد، أو احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة. بعد أن عاشوا أيام تعاسة وشقاء على فقدان تلك الجنة التي كانوا يرون فيها مصدر سعادة وهناء[2].

فلا سعادة إذن في حرث وزرع قد يثمر وقد لا يثمر وفي حدائق قد تزهر وقد تصبح حطامًا، تنشغل بها النفوس وتتعلق بها القلوب وهي ترتقب وتنتظر.

ها قد أوردنا كل ما يعتقده المعتقدون ويلهث وراءه اللاهثون ويتلذذ به المتلذذون بأنواع الشهوات المختلفة من نساء وبنين وأموال وخيل وأنعام وحرث وشهرة.

هؤلاء التائهون اللاهثون وراء أوهام السعادة المزيفة من كفروا بالله، وأعرضوا عن طريق الإيمان لن يصلوا إلا للهلاك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤].

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ٣/ ١١٢٩-١١٣٠.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ، أبو السعود ٦/ ٣٧٨، فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣١٤.

كل ما سبق هي سعادات موهومة لا حقيقة لها، يغلفها الهم والغم والشقاء! أين السعادة إذن؟ وكيف نحصل عليها؟

ثانيًا: السعادة الأبدية الخالدة:

وهي بيت القصيد في هذا البحث المتواضع والتي لأجلها رخص الشهداء أرواحهم وأموالهم، وجاهد المؤمنون شهواتهم وأهوائهم، وأفنى العلماء والعباد أعمارهم، إنها الجنة دار السعادة التي لا تنقطع، والسرور الذي لا يزول، فنعيم الجنة يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا، ومهما تقدموا وتطوروا وترقوا في دنياهم فسيبقى ما يبلغونه أمرًا هينًا ولا يذكر بالنسبة لنعيم الآخرة، ولقد حاز ذكر الجنة ووصفها في القرآن الكريم على الكثير من الآيات والسور، وكذلك أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وذاك حتى تتعلق بها القلوب، وتسعى إلى سكناها النفوس، متسليةً بها عن كل ملمات الحياة ومشاقها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان:٢٠].

وما أخفاه الله عنا من نعيم الجنة شيء عظيم لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كنهه الأفكار، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: شهدت من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا وصف فيه الجنّة حتّى انتهى ثمّ قال صلى الله عليه وسلم في آخر حديثه: (فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٦-١٧][1].

وفي وصف طعام أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة:٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١].

قال المفسرون في شرح الآيات: أي: يطوف عليهم الغلمان بما يتخيرون من الثمار، وفي الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف:١٠٧].

وقال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان:٥٦].

وقال تعالى: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٢٨٢٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٨٢٣.

[الحديد:١٢].

الجنة خالدة لا تفنى ولا تبيد، وأهلها فيها خالدون، لا يرحلون عنها ولا يظعنون ولا يبيدون، ولا يموتون والآية الكريمة في سورة الدخان تؤكد على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا[١].

كما ثبت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح فينادي منادٍ يا : أهل الجنّة فيشرئبّون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت وكلّهم قد رآه ، ثمّ ينادي: يا أهل النّار فيشرئبّون وينظرون فيقول :هل تعرفون هذا فيقولون :نعم هذا الموت وكلّهم قد رآه فيذبح، ثمّ يقول : يا أهل الجنّة خلودٌ فلا موت ويا أهل النّار خلودٌ فلا موت)[٢].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ينادي منادٍ إنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا ، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا ، وإنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا ، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا)[٣].

إن مقتضى النصوص أن الجنة تخلق خلقًا غير قابل للفناء ، وكذلك أهلها ، ففي الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من يدخل الجنّة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه)[٤].

وقد أنكر أهل السنة والجماعة قول الجهم بن صفوان -إمام المعطلة -بفناء الجنة والنار، قال شارح الطحاوية: «فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر به.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود:١٠٨]»[٥].

(١) انظر: المصدر السابق، ٤/ ١٦٩٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، رقم ٤٧٣٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، رقم ٢٨٣٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب في دوام نعيم الجنة، رقم ٢٨٣٦.
(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٦٤١، انظر: حادي الأرواح، ابن القيم، ص٢٤٤-٢٤٥.

أسباب السعادة

غفل كثير من الناس عن الأسباب الحقيقية التي تبعث السعادة في النفوس، والتي يمكن إجمالها في الالتزام بكتاب الله عز وجل وهدي نبيه صلى الله عليه وسلم الذي بين لنا أن التمسك بهما طريق السعادة الحقيقية.

وقبل الحديث عن الأسباب التي تحقق السعادة في الدنيا والآخرة لابد من الإشارة إلى أنه لا توجد سعادة مطلقة في هذه الدنيا وإنما هي نسبية، وهي ومضات خاطفة في حياة الناس؛ في مواقف وأوضاع خاصة، وتبعًا لأسباب وأخلاق وقيم إنسانية يمكن الوقوف عليها من خلال المطالب الستة التالية.

أولًا: الإيمان:

الإيمان معناه: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[1].

هذا ما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام حين سأله عن الإيمان في حديث عمر رضي الله عنه.

وهو أعظم نعم الله سبحانه على عباده، والتي تستحق من صاحبها أن يواظب على شكرها ليلًا ونهارًا قائلًا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات:١٧].

إن الإنسان الذي يؤمن بالله تعالى إيمانًا صافيًا من الشوائب يكون مطمئن القلب، هادئ النفس. فخضوع المؤمن لله تعالى يقوده إلى الراحة النفسية.

والإيمان ليس فقط سببًا لجلب السعادة بل هو أيضًا سبب لدفع موانعها، «وإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية، فإن الإيمان بالله وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها، وهواؤها وضياؤها، إن الإيمان يفجر ينابيع السعادة التي لا يمكن أن تغيض، والتي تتمثل في السكينة والأمن والأمل والرضا والحب»[2]

ويظهر من خلال السياق القرآني ما ينعم به المؤمنون من خير عميم يمكن أن يلخص بما يلي:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

يخبر سبحانه وتعالى: أنه يهدي من اتبع

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم ٢.

(٢) انظر: الإيمان والحياة، القرضاوي، ص٩٢.

رضوانه سبل السلام، فيخرج المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، فما أعظمها سعادةً أن ينقذ الله من آمن من التخبط والحيرة ويلهمهم الصراط المستنير، وقد أفرد سبحانه وتعالى لفظ ﴿النُّورِ﴾ لوحدة الحق، وجمع ﴿الظُّلُمَٰتِ﴾ لتعدد فنون الضلال، فالحق واحد والكفر أجناس[1].

وهذا النور ليس قاصرًا على الدنيا بل يراه المؤمن نورًا حقيقيًا يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد:١٢].

يقول سيد قطب: «هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم، ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعًا لطيفًا هادئًا، ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم، فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت.... إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات، والذي أشرق في أرواحها فغلبت على طينتها، أم لعله النور الذي خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه ظهر بحقيقته في هذه المجموعة التي حققت في ذواتها حقيقتها»[2].

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد:٢٨-٢٩].

أي: تطيب وتركن وتسكن وترضى به مولىً ونصيرًا.

قال ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ﴾ فرح وقرة عين، وقال الضحاك غبطة لهم وقيل: خير لهم وقيل أصابوا خيرًا، وحسنى لهم[3].

ثانيًا: العمل الصالح:

العمل الصالح وعلى رأسه أداء العبادات هو ثمرة من ثمرات الإيمان، لذا لا نكاد نرى آيةً تتحدث عن الإيمان إلا وقرنت ذلك بالعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد:٢].

الصالحات في اللغة: جمع مؤنث سالم من اسم الفاعل صالح، والصلاح ضد

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٥٠.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٨٣.

الفساد[1].

وفي الاصطلاح: كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل، وفي أولها إقامة شريعة الله في الأرض، والحكم بين الناس بما شرع الله[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدّقوا ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ أي: محبة في الناس في الدنيا، يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه المؤمنين، قال ابن عباس: الود من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن واللسان الصادق[3].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريل، فقال: إني أحبّ فلاناً فأحبّه، قال: فيحبّه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل عليه السلام، فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إنّ الله يبغض فلانًا فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض)[4].

وكان هرم بن حيان يقول:ما أقبل عبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. وكان عثمان ابن عفان رضي الله عنه يقول:(ما من عبد يعمل خيرًا أو شرًا إلا كساه الله عز وجل رداء عمله)[5].

قال القرطبي: «إذا كان محبوبًا في الدنيا فهو كذلك في الآخرة، فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمنًا تقيًا، ولا يرضى إلا خالصًا نقيًا، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه»[6].

وأما سيد قطب فيقول: «وللتعبير بالود في هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب، وروح رضي يلمس النفوس، وهو ود يشيع في الملأ الأعلى، ثم يفيض على الأرض والناس فيمتلئ به الكون كله ويفيض»[7].

وأفضل الأعمال على الإطلاق هي العبادات التي شرعها الله وجعل فيها الخير كل الخير، والسعادة كل السعادة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي فيما يروى عن رب العزة عز وجل: (من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيءٍ أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته

(١) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥١٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٥٣.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٧٦، تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١٧٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٨.
(٦) المصدر السابق ١١/ ١٩١.
(٧) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢١.

كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ويده الّتي يبطش بها، ورجله الّتي يمشي بها، وإن سألني عبدي لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما تردّدت عن شيءٍ أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته)[1].

التزام المؤمن بما فرض الله عليه من صلاة وصيام وزكاة وحج، ثم الزيادة عليها بالنوافل من قيام وصيام وصدقة يرفعه ويعلي شأنه ليصبح من أولياء الله، فتصاحبه معية الله وتلازمه في حله وترحاله، ويقظته ومنامه، فإذا هو يرى بنور الله ويسمع، ويستعمل يده بتوفيق الله، بل ويسدد له خطاه، ثم هو مستجاب الدعوة عند ربه ومستجار.

وللعبادات دور مهم في إسعاد المسلم، يمكن توضيحه في النقاط الآتية:

١. الصلاة والزكاة.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون:١-٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى:١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [لقمان:٤-٥].

يقول سيد قطب في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: «تستشعر قلوبهم رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله، فتسكن، وتخشع، ويغشى أرواحهم جلال الله في حضرته، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل، ولا تشتغل بسواه... ويتطهر وجدانهم من كل دنس وتجد الروح الحائرة طريقها، ويعرف القلب الموحش مثواه»[2].

ويقول في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾. «والزكاة طهارة للقلب من الشح، واستعلاء على حب الذات، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء، وطهارة للمال تجعل ما بقي من بعدها طيبًا حلالًا»[3].

وتتضافر الآثار التربوية والنفسية التي يغنمها العبد المصلي، وتؤدي الصلاة دورها في تزكية النفس وطهارتها فقد ورد عن أبي مالكٍ الأشعريّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والصلاة نور)[4].

فهي نور تضيء لصاحبها طريق الهداية، وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم ٦٥٠٢.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٥٤.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٤٥٥، بتصرف.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٤٢٢.

الصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وهي نور في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ولذة المناجاة لربه، وهي نور لما تمنح النفس من تزكية وطمأنينة وراحة، وبما تمدها من أمن وسكينة، وهي نور ظاهر على وجه المقيم لها في الدنيا، تتجلى بها وضاءة الوجه وبهاؤه بخلاف تارك الصلاة، وهي نور له يوم القيامة[١].

ومن أهم آثار الصلاة الطمأنينة وراحة النفس فإذا أقبل العبد على صلاته بهمّة ورغبة تمده بقوة روحية وتمنحه طمأنينة النفس وراحتها، وتعينه على مواجهة متاعب الحياة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(وجعلت قرة عيني في الصلاة)[٢].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول:(قم يا بلال فأرحنا بالصلاة)[٣].

أي: أقم الصلاة لنستريح بها من مقاساة الشواغل، كما يستريح المتعب إذا وصل إلى مأمنه ومنزله، ولذلك لم تكن الصلاة مقصورةً على الفرائض، وإنما هناك سنن ونوافل متنوعة تزيد صلة العبد بربه وتقر بها عينه، وتأمن بها نفسه حتى تصبح الصلاة سلاحه الدائم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (قم يا بلال فأرحنا بالصلاة) يدل على أنه صلى الله عليه وسلم تقر عينه وتغمره الفرحة والبهجة والسكينة والطمأنينة بل والسعادة، كلها عندما يناجي ربه في صلاته؛ لأن الصلاة صلة بالله سبحانه وحضور بين يديه سبحانه[٤].

٢. الصيام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣].

ومعنى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: «تتّقون المعاصي بسبب هذه العبادة، لأنّها تكسر الشّهوة وتضعف دواعي المعاصي، كما ورد في الحديث أنّه جنّةٌ وأنّه وجاءٌ»[٥].

وأما عن أثر الصيام في سعادة المسلم

(١) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس، أنس أحمد كرزون، ص٢٣٣.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم ٣٩٤٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٩٩، رقم ٣١٢٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في صلاة العتمة، رقم ٤٩٨٦.
وصححه الألباني في الإرواء، ٨/ ٦٦.

(٤) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس، أنس أحمد كرزون ١/ ٢٢٥-٢٢٧.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٧.

قال تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٤].

تظهر هذه الآية فضل الصيام وكونه خير للمسلم في الدنيا والآخرة، والصائم يعيش سموًا روحيًا يتعالى فيه على مطالب الجسد، يسيح فيه القلب والفكر والوجدان في ملكوت السموات، والصبر أخو الصلاة في ضبط المسلم حيث قال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥].

الصبر في هذه الآية : الصوم، وفيه قيل لرمضان : شهر الصبر، فجاء الصوم والصلاة على هذا القول متناسبًا، في أن الصيام يكبح الشهوات، ويزهد في الدنيا، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، بل وهناك سعادة أكيدة وفرحة يقينية تحل في قلب الصائم حيث روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:(للصّائم فرحتان : فرحةٌ عند فطره، وفرحةٌ عند لقاء ربّه)[(١)(٢)].

٣. الحج.

وأما الحج: فإن المتعة والسعادة واللذة الروحية التي يتركها الحج في قلوب حجاج بيت الله الحرام لا تخفى على أحد، وقد سمع الجميع ما يرويه الحجاج، ويتحدثون به عن مشاعرهم عندما وطأت أقدامهم الأرض المباركة، وعند رؤية الكعبة المشرفة، أو زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا رجعوا إلى ديارهم يتشوقون للعودة لتلك الديار وأداء تلك المناسك.

ثالثًا: الإحسان إلى عباد الله:

للإحسان مرتبة عظيمة تعلو على مرتبة الإيمان والإسلام وهو كما ورد في حديث عمر رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ما الإحسان؟ فقال:(أن تعبد اللّه كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك)[(٣)].

وهو مرتبة سامية تتبوأها الصفوة المختارة من عباد الله الأخيار؛ الذين يستشعرون رقابة الله عليهم في كل عمل وعبادة، فيجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا الذنوب الصغيرة التي تكفل الاستغفار بها؛ لأن العصمة لا تكون إلا للنبي. والإحسان كما قال المناوي:«إسلام ظاهر يقيمه إيمان باطن يكمله إحسان شهودي ، أي : إخلاص وكمال الطاعة»[(٤)].

والإحسان ضد الإساءة.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم ١٩٠٤.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٧٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم ٥٠.
(٤) انظر: التقوى، محمود طافش، ص٦٥.

﴿لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧].

وكل حسنة سواء أكانت صغيرة أو كبيرة تعد إحسانًا لكن مرتبة الإحسان لا يتذوق حلاوتها إلا من روض نفسه على ترك المعاصي والإكثار من الحسنات، فهو يحسن لمن أحسن إليه ويحسن لمن أساء إليه وهنا يكمن السر.

عن كلثوم الخزاعيّ رضي الله عنه قال:أتى النّبيّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال يا رسول اللّه: كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أنّي قد أحسنت ، وإذا أسأت أنّي قد أسأت فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (إذا قال جيرانك قد أحسنت فقد أحسنت وإذا قالوا إنّك قد أسأت فقد أسأت)[1].

ومن صور الإحسان في حياة المسلم:

١. الإحسان إلى الوالدين.

الوالدان هما سر حياة الإنسان ومصدر وجوده، لهما عليه كل حق وتقدير فلابد من برهما، والتودد إليهما، والدعاء لهما، وقد قرن الله سبحانه وتعالى بين عبادته وحده والإحسان إليهما.

قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

أمر المولى ببرهما في كل الأحوال وخاصةً في سن الكبر حين يضعف جسمهما، وفاءً لهما ولما قدماه لولدهما وقد بلغ بأحد الصالحين أن لا يؤاكل أمه في طبق واحد حتى لا تسبق يده إلى ما تسبق إليه عينها، وآخر أنه ما علا سقفًا يكون أبوه أسفله، أو تقدم عليه برًا به. وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال:أقبل رجلٌ إلى نبيّ اللّه صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من اللّه، قال: (فهل من والديك أحدٌ حيٌّ ؟)قال: نعم بل كلاهما قال: (فتبتغي الأجر من اللّه؟) قال :نعم قال: (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)[2].

٢. الإحسان إلى ذي القربى واليتامى والمساكين والجيران والخدم.

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الثناء الحسن، رقم ٤٢٢٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/١٦٦، رقم ٦١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم ٢٥٤٩.

[النساء:٣٦].

تناولت هذه الآية الكريمة أمر الإحسان لشريحة واسعة وممتدة وشاملة لأصناف المجتمع المسلم.

فبعد أن أوصى سبحانه وتعالى بالإحسان إلى الوالدين، عطف بالإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، وإلى اليتامى الذين فقدوا من يقوم بمصالحهم ثم المساكين؛ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفايتهم.

عن عليٍّ رضي الله عنه، قال:كان آخر كلام رسول اللّه صلى الله عليه وسلم:(الصّلاة الصّلاة اتّقوا اللّه فيما ملكت أيمانكم)[١].

وعن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إخوانكم خولكم جعلهم اللّه تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل ، وليلبسه ممّا يلبس ولا تكلّفوهم ما يغلبهم فإن كلّفتموهم فأعينوهم)[٢].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (من مسح رأس يتيمٍ لم يمسحه إلاّ للّه كان له بكلّ شعرةٍ مرّت عليها يده حسناتٌ، ومن أحسن إلى يتيمةٍ أو يتيمٍ عنده، كنت أنا وهو في الجنّة كهاتين)، وفرّق بين أصبعيه السّبّابة والوسطى[٣].

وفي الإحسان إلى الجار: يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو شريحٍ الخزاعيّ رضي الله عنه : (من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليحسن إلى جاره)[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يدخل الجنّة من لا يأمن جاره بوائقه)[٥].

وذلك لأن سعادة المجتمع وترابطه وشيوع المحبة بين أبنائه لا تتم إلاّ بالقيام بهذه الحقوق للجار وغيره مما جاءت به الشريعة، وإن واقع كثير من الناس يشهد بقصور شديد في هذا الجانب، حتى إن الجار قد لا يعرف اسم جاره الملاصق له في السكن، وبعضهم يغصب حق جاره، وإن بعضهم ليخون جاره، ويعبث بعرضه وحريمه، وهذا من أكبر الكبائر، وإذا كان الشاعر الجاهلي عنترة يعف عن جارته

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حق المملوك، رقم ٥١٥٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٤٧، رقم ٤٦١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، رقم ٣٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٤٧٤، رقم ٢٢١٥٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم ٤٨.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، رقم ٤٦.

فيقول[1]:

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

فحري بنا نحن المسلمين أن نكون أكثر حرصًا وأداءً لحقوق الجار، والإحسان إليه، وحفظ عرضه.

٣. الإحسان إلى البنات.

عن ابن عبّاسٍ رضي الله تعالى عنهما، قال:قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: **(ما من رجلٍ تدرك له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه أو صحبهما إلاّ أدخلتاه الجنّة)**[2].

ومن صور إحسان النبي صلى الله عليه وسلم إلى كريمته السيدة فاطمة رضي الله عنها وأرضاها، أنه كان إذا دخلت عليه يقوم لها ويقبل رأسها.

٤. الإحسان في الزواج.

بدءًا من اختيار الزوج وانتهاءً بحسن العشرة وأداء الحقوق.

هذا غيض من فيض من صور الإحسان في الإسلام ولا يتسع المقام لتقصيها وقد تجاوزت الإحسان إلى البشر إلى الإحسان إلى الحيوان.

يقول عائض القرني: «الجميل كاسمه والمعروف كرسمه والخير كطعمه، أول المستفيدين من إسعاد الناس هم المتفضلون بهذا الإسعاد، يجنون ثمراته عاجلًا في نفوسهم وأخلاقهم وضمائرهم، فيجدون الانشراح والانبساط والهدوء والسكينة ، فإن طاف بك طائف من همٍّ أو ألمّ بك غمٌّ فامنح غيرك معروفًا، وأسد لهم جميلًا، تجد الفرحة والسرور، وأعط محرومًا، انصر مظلومًا، أنقذ مكروبًا، أطعم جائعًا، عد مريضًا، أعن منكوبًا تجد السعادة تغمرك من بين يديك ومن خلفك. إن فعل الخير كالمسك ينفع حامله وبائعه ومشتريه، وعوائد الخير النفيسة عقاقير مباركة تصرف في صيدلية الذين عمرت قلوبهم بالبر والإحسان. إن توزيع البسمات المشرقة على فقراء الأخلاق صدقة جارية في عالم القيم، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال:قال لي النّبيّ صلى الله عليه وسلم: **(لا تحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلقٍ)**[3]. إن شربة ماء من كف بغي لكلب عقور أثمرت دخول جنة عرضها السموات والأرض لأن صاحب الثواب غفور

(١) ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: محمد سعيد مولوي، ص٣٠٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالدين والإحسان إلى البنات، رقم ٣٦٧٠.
وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص٥٧، رقم ٧٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، رقم ٢٦٢٦.

شكور»[1].

ما أعظمها من سعادات أن يحيا المؤمن المحسن في هذه الحياة الدنيا وهو يشع بالخير والإحسان لكل من خالطه أو جاوره أو رافقه أو عاشره أو آكله أو احتاجه أو استعان به، فهو كحامل المسك إن لم يعط لم يؤذ بل أسعد الناس بطيب ريحه.

فكان جزاؤه أن يقذف الله في قلبه سعادة يتذوق طعمها في قلبه، ويحظى بفوائد وآثار تقر بها عينه ونفسه.

رابعًا: الرضا والاستسلام لقضاء الله والصبر:

الصبر فضيلة من أمهات الفضائل، وهو من أبرز الأخلاق التي كثر ذكرها في آيات القرآن الكريم، وهو دليل على صدق الإيمان، ووسيلة تعين على هذه الدنيا، وهو الدواء الشافي لنفس المصاب أو المبتلى حيث يخفف حزنها وآلامها[2].

ولقد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن الكريم في نحو مائة وثلاثة مواضع وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٦].

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

والصبر خلق أهل العزائم وأصحاب الإرادة القوية: قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٣].

والصبر والاستسلام لقضاء الله يمنح الروح طاقة قادرة على الصمود أمام كوارث الحياة، وهو في حالة وقوعها ثابت لا يهتز، قوي لا يقهر ولا يتقهقر، لأن من مقتضيات الإيمان التسليم قولًا وعملًا بقاعدة أزلية ربانية هي: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١].

مما يعطي المؤمن ثقة بالنفس واعتزازًا بها واستعلاءً على صغائر الحياة، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

والمؤمن بقضاء الله لا يعرف المهانة والذلة ولا يستسلم للضعف والحزن[3].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه عند الموت: يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم، أن ما

(١) ثلاثون سبباً للسعادة، عائض القرني، بتصرف يسير، ص٢١-٢٢.

(٢) انظر: الأخلاق في الإسلام، كايد فرعوش وآخرين، ص١٣٣.

(٣) انظر: المدخل إلى القيم الإسلامية، جابر قميحة، ص٧١.

أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنّ أوّل ما خلق اللّه القلم فقال له: اكتب، قال: ربّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شيءٍ حتّى تقوم السّاعة) يا بنيّ إنّي سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: (من مات على غير هذا فليس منّي)[1].

قال علي رضي الله عنه: يا ابن آدم لا تفرح بالغنى ولا تقنط بالفقر ولا تحزن بالبلاء ولا تفرح بالرخاء، إن الذهب يجرّب بالنار وإن العبد الصالح يجرب بالبلاء، وإنك لا تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تبلغ ما تؤمل إلا بالصبر على ما تكره[2].

فأي قرة عين! وأي طمأنينة نفس وراحة بال تحل على قلب من استسلم لقضاء الله وتصبّر. قال عمر رضي الله عنه لو كان الصبر والشكر بعيرين فما باليت أيهما أمتطي[3]... وأي سعادة تحل على قلوب الصابرين في الدنيا والآخرة.

خامسًا: استشعار نعم الله وشكرها:

إن نعم الله على الإنسان كثيرة، ولا أصدق في التعبير عن ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨].

وحقيقة لا مراء فيها أن المرء لو حاول أن يعد نعم الله عليه لوجد أن ما دقّ وخفي من النعم أكثر مما ظهر واتضح، ووجد أنه يتقلب في نعم الله ليلًا ونهارًا، بل في كل لحظة من لحظات عمره في الدنيا منذ أن كان جنينًا إلى أن يلقى الله ثم تستمر النعم والسعادة على المؤمنين.

إن تقلب الإنسان في نعمة الله عليه وإلفه لها جعله يفقد الشعور بقيمة تلك النعمة بالنسبة إليه؛ إلا أن يسلبها فيدرك ذلك ويرفع أكف الضراعة إلى المنعم أن يعيدها عليه.

والمؤمن يملك أعظم نعمة على الإطلاق حيث ينعم بالطمأنينة والسكنية والسعادة التي يتمناها غيره ولا يدركها.

وتعداد نعمة الله يطول والاستطراد فيه ليس هنا مقامه، ولا يمكن تحصيله وإدراكه؛ ولذلك لابد من التعرض إلى شكر المنعم سبحانه وتعالى.

والشكر من أعلى مراتب الدين، وأسمى درجات الإيمان ومن دلائل حب العبد لمولاه، لذلك أكثر القرآن الكريم من الآيات التي تتحدث عن فضل الشكر والشاكرين، وكفار النعمة الجاحدين، وأمر سبحانه عباده

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، رقم ٤٧٠٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٠٥، رقم ٢٠١٨.
(٢) انظر: رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي ص٥٢-٥٦.
(٣) انظر: الصبر والثواب عليه، ابن أبي الدنيا، ص ٢٤.

الصالحين بالشكر قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢] وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر:٦٦].

ووعد سبحانه على الشكر بالمزيد حيث قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم:٧].

ومما يجب معرفته أن الشكر لا تعود منفعته على الله، لأن الله غني عن عباده بل فضله وعائدته يكون لصاحبه[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

وإن تذكر الإنسان نعم الله عليه التي تغمره تزيل ما يصيب نفسه من حزن و كآبة بسبب الملمات.

يقول الشيخ محمود المصري: «عندك عينان، ولسان وشفتان ويدان ورجلان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن:١٣].

هل هي مسألة سهلة أن تمشي على أقدامك، وقد بترت أقدام، وأن تعتمد على ساقيك، وقد قطعت سوق، أحقير أن تنام ملء عينيك وقد أطار الألم نوم الكثير، وأن تملأ معدتك من الطعام الشهي، وأن تكرع من الماء البارد، وهناك من عكّر عليه الطعام، ونغص عليه الشراب، بأمراض وأسقام، تفكر في سمعك وقد عوفيت من الصمم»[(٢)].

وذكر النعمة كذلك من أسباب السعادة لذلك أمرنا القرآن الكريم بذكر النعم.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

يذكر سيد قطب موقفًا عاشه استشعر فيه قيمة النعمة التي يغفل الناس عن شكرها يقول: «وكنا فترة طويلة محرومين من رؤية الشمس. وكان شعاع منها لا يتجاوز حجمه حجم القرش ينفذ إلينا أحيانًا. وإن أحدنا ليقف أمام هذا الشعاع يمرره على وجهه ويديه وصدره وظهره وبطنه وقدميه ما استطاع. ثم يخلي مكانه لأخيه ينال من هذه النعمة ما نال! ولست أنسى أول يوم بعد ذلك وجدنا فيه الشمس. لست أنسى الفرحة الغامرة والنشوة الظاهرة على وجه أحدنا وفي جوارحه كلها وهو يقول في نغمة عميقة مديدة الله! هذه هي الشمس، شمس ربنا وما تزال تطلع، الحمد لله»[(٣)].

والشكر صفة الله سبحانه وتعالى و(الشكور) اسم من أسمائه:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٨٩.

(٢) لا تحزن وابتسم للحياة، ص٦٤-٦٥.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٨٨.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨] فما أعظم أن يتحلى المرء بما وصف الله به نفسه وله المثل الأعلى سبحانه.

سادسًا: جهاد النفس:

تعيش الإنسانية اليوم أشد مراحل الهبوط والانحطاط البشري، والفساد الأخلاقي، والاختلال في الموازين، والانحراف عن الحق والفضيلة والاستسلام للهوى والشهوات، والانغماس في الضلال، وكثرة الفاسدين والمفسدين؛ وارثة كل ما تركه السابقون من فساد في العقيدة والتصور، والخضوع لشريعة الشيطان، حتى أصبح الإنسان تتقاذفه أمواج الفتن بحيث لا يكاد ينجو من هذا الخضم الزاخر بالفتن إلا بشق الأنفس، مخدوشًا غير سالم بالكلية، فإن نجا من فتنة احتوته أخرى[(١)].

فضلًا عن سقوط المقدسات في يد أعداء الأمة الإسلامية وترديها إلى حد جعل أعداءها يتداعون عليها كتداعي الأكلة على قصعتها، فأصبح المسلم المستقيم على دينه غريبًا كالقابض على الجمر.

هذا يستدعي أن يبذل المسلم الجهود المضاعفة أضعافًا كثيرةً على محاور عديدة في جهاد نفسه، وأصبحت مجاهدة النفس أمرًا ليس بالهيّن، يمكن أن ندّعي لصاحبها البطولة في السّمو وعلو الهمّة، ويكون ممن قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أنس بن مالك رضي الله عنه: (يأتي على النّاس زمانٌ الصّابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر)[(٢)].

ومعنى جهاد النفس: استفراغ الوسع في تزكية النفس بترويضها على الطاعات، ومخالفة نوازعها الشريرة وأهوائها، والغاية من جهاد النفس: إدراك السعادة السرمدية.

ومقام المجاهدة من المقامات العظمية في الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

وهذا جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته، ومنه مجاهدة النفس، والمرابطة على ثغورها لئلا تنزع إلى أمر الشيطان في غفلة عن الإنسان، وهذا المقام هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠].

(١) انظر: فقه الجهاد في الإسلام، حسن أيوب ص١٢-١٤.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، رقم ٢٢٦٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٦، رقم ٨٠٠٢.

يقول ابن كثير في معنى قوله تعالى: «﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، أي: لنبصرنهم طرقنا في الدنيا والآخرة وقال بعض العارفين: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون»[1].

وجهاد النفس من أفضل أنواع الجهاد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

أي: زجرها عن المعاصي والمحارم وقيل: «ترك الهوى مفتاح الجنة، وقال عبدالله بن مسعود: أنتم في زمان يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق فنعوذ بالله»[2].

وأما قطب فيقول في قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾: «إن الإنسان إنسان بهذا النهي، وبهذا الجهاد، وبهذا الارتفاع، وليس إنسانًا بترك نفسه لهواها، وإطاعة جواذبه إلى دركها، بحجة أن هذا مركب في طبيعته، فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى، هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه، ونهي النفس عنه، ورفعها عن جاذبيته، وجعل له الجنة جزاءً ومأوىً حين ينتصر ويرتفع ويرقى»[3].

والإنسان في هذه الدنيا يعيش حالة صراع مع أعداء ظاهرين وآخرين لا يراهم، وربما كانوا أشد فتكًا به من أعدائه المشاهدين، وإن أعدى أعداء المرء نفسه التي بين جنبيه، فإنها تحث على نيل كل مطلوب والفوز بكل لذة، حتى وإن خالفت أمر الله ورسوله[4].

والعبد إذا أطاع نفسه هلك أما إن جاهدها وزمها بزمام الإيمان وألجمها بلجام التقوى فإنه يحرز نصرًا في أعظم ميادين الجهاد.

وفي شأن السعادة واللذة التي تعقب مجاهدة الإنسان لهوى النفس يقول ابن القيم: «ومن فوائد غض البصر: أنه يورث القلب سرورًا وفرحةً وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته، ومخالفة نفسه وهواه. وأيضًا فإنه لما كف لذته، وحبس شهوته لله أعاضه الله سبحانه مسرّةً ولذةً أكمل منها»[5].

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (النظر سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركه من خوف

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ٣/ ١٤٢٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢٠٨.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٩، بتصرف يسير.
(٤) انظر: مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل، العز بن عبدالسلام، ص١٢٤.
(٥) روضة المحبين، ابن القيم ، ص ١٠٢، ١٠٣ بتصرف يسير.

الله آتاه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه)[1].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (من غض بصره عن النظر الحرام: زوج من الحور العين حيث أحب، ومن اطلع فوق بيوت الناس حشره الله يوم القيامة أعمى)[2].

بعض مظاهر السعادة الدنيوية

لقد تكرر القول بأن السعادة في هذه الدنيا أمر نسبي، وهي ومضات خاطفة أو ساعات معدودة لا تستمر ولا تدوم، بل لابد وأن تعتريها منغصات ومكدّرات من الأمراض والأعراض، لأن هذه الدنيا دار ممر للآخرة، والإنسان فيها مسافر، عما قريب سيحط رحاله إما إلى جنة أو إلى نار، وهي سجن المؤمن، لذا فهي محفوفة بالآلام والابتلاءات، والمصاعب والمشكلات.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد:٤].

إن الفرح أو اللذة الدنيوية إنما هي لحظات قليلة يمكن اعتبارها إرهاصات للسعادة الحقيقية الدائمة، ولمحات أو إشارات سريعة تربط قلب المؤمن بمصيره الأبدي المنتظر، فيظل هذا القلب ينبض في الدنيا بأشواق الآخرة، وتظل النفس تتشوف لذلك النعيم المقيم الذي لا يقع في دائرة الإدراك أو الحواس.

وسنتعرض في هذا المبحث إلى بعض مظاهر السعادة الدنيوية من النقاط الآتية:

أولًا: الحياة الطيبة:

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق، رقم ٧٨٧٥، ٤/ ٣٤٩.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٣/ ١٧٧، رقم ١٠٦٥.

(٢) انظر: رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي، ص ١١٩.

﴿٩٧﴾ [النحل:٩٧].

الحياة الطيبة أعظم مظاهر السعادة الدنيوية وكذلك الأخروية، لأن الطّيّب: خلاف الخبيث، وقد تتسع معانيه فيكون الطيب: هو الحسن والأفضل في كل شيء، يقال: أرض طيبة للتي تصلح للإنبات، وريح طيبة: إذا كانت لينة.

قال تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢].

طعام طيب إذا كان حلالًا مستلذًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون:٥١].

أي: كلوا من الحلال، وكل مأكول حلال مستطاب.

وامرأة طيبة: إذا كانت حصانًا عفيفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:٢٦].

أي: الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، أو الكلمات الطيبات للطيبين.

وكلمة طيبة إذا لم يكن فيها مكروه، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠].

والكلام الطيب: توحيد الله وقول لا إله إلا الله. وبلدة طيبة: أي: آمنة، كثيرة الخير، قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥].

ونفس طيبة بما قدّر لها، أي: راضية وطاب الشيء: لذّ وزكا.

وقوله تعالى: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣].

معناه طيبين في الدنيا فادخلوها[1]، أي: الجنة.

ومن المدلولات المختلفة لكلمة الطيب في اللغة، يبدو واضحًا مقدار ما يتميز به المؤمن الذي يعمل الصالحات على غيره من حيازة الخير والحسن في كل شيء، حيث وردت هذه الكلمة في القرآن في مواضع عديدة، وفي كل موضع كانت توحي بالهناء والسرور.

يقول سيد قطب في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾: «إن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمةً رغدةً ثريةً بالمال. فقد تكون به، وقد لا يكون معها. وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: ففيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه. وفيها الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير، وآثاره في الحياة، ليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٦٣-٥٦٥.

منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله. وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات فما أكرمه من جزاء!»[1].

وقال غير واحد: الحياة الطيبة في الدنيا، أريد بها حياةً تصحبها القناعة والرضا بما قسمه الله تعالى وقدّره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النّبيّ صلى الله عليه وسلم يدعو يقول: (اللّهمّ قنّعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف على كلّ غائبةٍ لي بخير)[2].

وهؤلاء أصحاب الحياة الطيبة زادهم الله من فضله فكل شيء في حياتهم طيب، الرزق والبلد، الطعام والشراب، الأزواج والزوجات أقوالهم طيبة، وطريقهم طيب.

يقول تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج:٢٤].

هؤلاء الطيبون طيبون في كل شيء حتى تحيتهم طيبة مثل حياتهم، قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١].

وهل السعادة تتحقق إلا بالحياة الطيبة التي وصفتها الآيات الكريمة السابقة؟

ثانيًا: البشريات العديدة:

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

البشرى ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية في كثير من المواضع، وهذا يدل على أن الله عز وجل يريد لعباده الخير والسعادة والسرور.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ اختلف المفسرون فيمن يستحق هذا الاسم، قال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٣].

وقال قوم: هم المتحابون في الله يجعل الله وجوههم نورًا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدّام الرحمن يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون.

عن عبدالرحمن بن غنم رضي الله عنه

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٣.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الدعاء والتهليل والذكر، رقم ١٨٧٨، ١/ ٦٩٠.
قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد، ٦٦، رقم ١٠٦.

قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: من أولياء الله فقال: (خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله)[1].

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ اختلفوا في هذه البشرى على أقوال:

الأول: البشرى في الدنيا: هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، سأل رجلٌ أبا الدّرداء عن قول اللّه تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فقال ما سألني عنها أحدٌ غيرك إلاّ رجلٌ واحدٌ منذ سألت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال: (ما سألني عنها أحدٌ غيرك منذ أنزلت، هي الرّؤيا الصّالحة يراها المسلم أو ترى له)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: (لم يبق من النّبوّة إلاّ المبشّرات) قالوا وما المبشّرات؟ قال: (الرّؤيا الصّالحة)[3].

الثاني: هي الثناء الحسن، قال أبو ذر: قيل لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم أرأيت الرّجل يعمل العمل من الخير ويحمده النّاس عليه قال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)[4].

الثالث: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله تعالى عند الموت.

قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

وعن ابن عباس: «البشرى في الدنيا عند الموت، تأتيهم الملائكة بالبشارة وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن، يعرج بها إلى الله ويبشر برضوان الله»[5].

الرابع: قال الحسن: هي ما بشر الله المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:٢٥].

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٢٢٣، التوبة:١١٢، يونس:٨٧، الصف:١٣].

وقوله: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠][6].

هذا وقد قدم السياق القرآني بشريات متعددة منها ما هو للدنيا مثل: تبشير إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة بإسحاق.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٩٩٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٨٣٥، رقم ٢٨٤٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب سورة يونس، رقم ٢٢٧٣.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٤٤، رقم ٢٨٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المبشرات، رقم ٦٩٩٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم ٢٦٤٢.

(٥) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٠٤.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٥٧.

قال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود:٧١].

وزكريا عليه السلام ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم:٧].

وأكثرها مبشرات لأهل الله من الأتقياء والمؤمنين والمحسنين الصالحين. قال تعالى في شأن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله مبشرًا بالرحمة والرضوان: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة٢٠-٢١].

وبشر الذين قتلوا في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١].

وبشر تعالى أهل التوحيد والاستقامة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

وهناك الكثير من البشارات التي لا يتسع المقام لذكرها.

ولكن ما أعظم هؤلاء المؤمنين الذين أخذوا بأسباب السعادة، فأتم الله عليهم سعادته، بالحياة الطيبة في الدنيا، والبشريات المختلفة التي تملأ قلوبهم سرورًا وحبورًا وتشوقًا لاستكمال هذه السعادة في دار المقامة التي لا يمسهم فيها لغوب.

ثالثًا: الرضا:

قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة:١١٩].

وقال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٨].

والرضا واحد من المقامات العالية التي يبلغها المؤمن، وهو «ارتفاع الجزع في أيّ حكم كان. وقيل رفع الاختيار، وقيل استقبال الأحكام بالفرح. وقيل سكون القلب تحت مجاري الأحكام. وقيل نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد»[1].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٧٥، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، السفاريني، ٢/ ٥٣٢.

وقيل: «من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه»[1].

وعن عمر رضي الله عنه أنه كتب لأبي موسى الأشعري: «أما بعد فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر»[2].

وقد تضمنت الآيات الكريمة السابقة الجزاء على الصدق والإيمان والأعمال الصالحة، ومجاهدة أعداء الله، بأن رضي عنهم فأرضاهم، فرضوا عنه وإنما حصل لهم هذا الرضى لأنهم رضوا بالله ربًا وبمحمد نبيًا وبالإسلام دينًا ويتحقق الرضا عن الله للعبد إذا استوت في رضاه النعمة والمصيبة بحسب اختيار الله له، كما في قول عمر رضي الله عنه: «لو كان الصبر والشكر بعيرين لما باليت أيهما أمتطي»[3]، لأن المسلم يذوق بالرضا طعم السكينة التي لا أنفع له منها، لأنها متى نزلت على فؤاده استقام، وصلحت أحواله وهدأ باله، فمن أعظم نعم الله على عبده المسلم أن ينزل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها الرضى عن الله في جميع الحالات.

والمسلم يعلم كذلك أن أعظم راحة وسرور ونعيم في الرضى عن ربه - تعالى وتقدس -في جميع الحالات لأن الرضى باب الله الأعظم ومستراح المحبين، فجدير بمن نصح لنفسه أن تشتد رغبته فيه وأن لا تستبدل به غيره[4].

يقول سيد قطب في قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة:٨] : ورضا الله عنهم هو الرضا الذي تتبعه المثوبة، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه سبحانه والثقة بتقديره، وحسن الظن بقضائه، والشكر على نعمائه، والصبر على ابتلائه، ولكن التعبير بالرضا هنا وهناك يشيع جو الرضا الشامل الغامر، المتبادل الوافر، الوارد الصادر بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده، ويرفع من شأن هذه الصفوة -من البشر -حتى ليبادلون ربهم الرضى، وهو ربهم الأعلى، وهم عبيده المخلوقون، وهو حال وشأن وجوّ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه، ولكن يتنسم ويستشرف ويستجلى من خلال النص القرآني بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحسّ الموصول! ذلك حالهم الدائم مع ربهم ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وهناك تنتظرهم علامة هذا الرضى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠][5].

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٢/ ٣٩٧.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٨٥.
(٣) انظر: الصبر والثواب عليه، ابن أبي الدنيا ص ٢٤.
(٤) انظر: منهاج الأنبياء في تزكية النفوس، سليم الهلالي ص٤٧-٤٨.
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٠٦، بتصرف.

وليس هناك سعادة أعظم من أن يرضى العبد عن ربه فيتقبل الضراء كما يتقبل السراء برضى نفس وطمأنينة وشعور داخلي بعدم الجزع أو السخط.

رابعًا: الأمن النفسي والطمأنينة والسكينة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل:٨٩].

من أعظم مظاهر سعادة المؤمن تحقق الأمن النفسي لديه، ولا نعمة أعظم من الأمن، عن عبيد اللّه بن محصنٍ الخطميّ رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم آمنًا في سربه معافًى في جسده عنده قوت يومه فكأنّما حيزت له الدّنيا)[1].

بل ويمتن الله سبحانه على عباده الذين رضي عنهم بأن حقق لهم الأمن في غرفات الجنات هذا عن الأمن الحسي، أما الأمن النفسي، فيقول القرضاوي: «كما لا يتحسر المؤمن على الماضي باكيًا حزينًا، ولا يلقى الحاضر جزوعًا ساخطًا، لا يواجه المستقبل خائفًا وجلًا، ولا يعيش في فزع منه، ورهبة من غموضه، بل يعيش آمن النفس كأنه في الجنة، لأن إيمانه كان مصدرًا للأمن والطمأنينة والسكينة، ولا سعادة بدون هذا الأمن النفسي وقد قيل لحكيم: ما السرور؟ فقال: الأمن فإني وجدت الخائف لا عيش له، ولا عجب أن جعل الله الجنة دار السلام والأمن الكاملين، فأهلها في الغرفات آمنون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وتتلقاهم الملائكة منذ اللحظة الأولى ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر:٤٦]»[2].

يقول المفسرون في تلك الآية الكريمة من سورة الأنعام: إن الناس يخافون من أشياء كثيرة وأمور شتى، ولكن المؤمن سدّ أبواب الخوف كلها، فلم يعد يخاف إلا الله وحده، يخافه أن يكون فرّط في حقه أو اعتدى على خلقه، أما الناس فلا يخافهم وهذا إبراهيم عليه السلام يدعو إلى توحيد الله وتحطيم الأصنام، فخوفه قومه من آلهتهم فقال إبراهيم متعجبًا: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام:٨١] أي: الفريقين أحق بالأمن؟ فيجيبهم سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، رقم ٢٣٤٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤٢.

(٢) الإيمان والحياة ص١٥٧.

﴿ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمنًا مطمئنًا على رزقه وأجله وعلى أولاده وزوجه، فكان يذهب إلى ميدان الجهاد حاملًا روحه على كفه متمنيًا الموت في سبيل الله ، ومن خلفه ذرية ضعاف موقن أنه يتركهم في رعاية رب كريم هو أبر بهم وأحنى عليهم منه[1].

قال ابن القيم رحمه الله : « في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدًا»[2].

والسعادة الدنيوية ثلاثة أضرب:سعادة نفسية وبدنية وخارجية، ولا يمكن أن تتحقق السعادة النفسية التي هي أهم السعادات إلا بتحقق الأمن والطمأنينة والسكينة في النفس الإنسانية[3].

(١) انظر: الإيمان والحياة ص١٦٠.
(٢) مدارج السالكين ٣/ ١٧٢.
(٣) انظر التوقيف على مهمات التعاريف ، المناوي ص٤٣٣.

خامسًا: انشراح الصدر:

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح:١].

انشراح الصدر نعمة عظيمة ومظهر من مظاهر سعادة المسلم في هذه الحياة، وقد منّ الله على حبيبه محمد بهذه النعمة العظيمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ لهذه الدعوة ونيسر لك أمرها، ونجعلها حبيبةً لقلبك، ونشرع لك طريقها، وننر لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة، ألم نفتح ونوسع ونلن لك قلبك بالإيمان والنبوة والعلم والحكمة[4].

فتش في صدرك، ألا تجد فيه الروح والانشراح والإشراق والنور؟ واستعد في حسك مذاق هذا العطاء وقل: ألا تجد معه المتعة مع كل مشقة والراحة مع كل تعب، واليسر مع كل عسر، والرضى مع كل حرمان[5].

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢].

(٤) انظر: معالم التنزيل ٤/ ٤٦٩.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٢٩.

والله يشرح للإسلام قلوبًا يعلم فيها الخير، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضيء.

يقول سيد قطب: «وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتنشرح له، وتندى به، وتصور حالها مع الله حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة والإشراق والاستنارة...ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره، ليس قطعًا كالقاسية قلوبهم من ذكر الله وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء»[1].

هذا غيض من فيض من مظاهر سعادة المؤمن الذي أخذ بأسباب السعادة سابقة الذكر، وهو من باب الإشارة إلى ذلك ولا سبيل لحصر مظاهر السعادة في الحياة الدنيا، ولعل من أهمها بعد ما ذكر الحب في الله والثبات في الحياة والممات، والسعادة الزوجية القائمة على إرضاء الله، والسكينة وراحة البال والأنس بالله والقناعة وغيرها.

مظاهر السعادة في الدار الآخرة

للسعادة في الدار الآخرة أشكال وألوان، وصور ومظاهر متعددة، يتقلب السعيد فيها من صورة إلى أخرى ومن مظهر لآخر.

إنها سعادة كاملة لا يشوبها نقص، ولا يعكر صفوها كدر، وما ذكره القرآن الكريم وما أخبر به النبي صلي الله عليه وسلم يحير العقل ويذهله، لأن العقل يعجز عن إدراك واستيعاب وتصور ذلك النعيم[2].

والحقيقة التي لا مراء فيها ولا جدال، أنه لا وجه أبدًا للمقارنة بين متاع الدنيا وإن كان حاصلًا وواقعًا مشهودًا، وبين نعيم الجنة الموعود.

فنعيم الجنة خير وأفضل، وقد أطال القرآن في بيان فضل الآخرة وذم الدنيا، وذلك حتى يشمّر المشمّرون، ويجتهد العابدون.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨].

فنعيم الجنة كثير لا ينفد ولا ينقطع، عن

(١) المصدر السابق ٥/٣٠٤٨.

(٢) انظر: الجنة والنار، عمر الأشقر ص١١٣.

أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غدوةٌ في سبيل اللّه أو روحةٌ خيرٌ من الدّنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمٍ من الجنّة خيرٌ من الدّنيا وما فيها)[1].

وسنتحدث في النقاط الآتية عن السعادة الحقيقية الخالدة التي تصبو إليها النفوس وتتشوف إليها العقول والقلوب.

أولًا: الزحزحة عن النار:

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

يخبر تعالى إخبارًا عامًا يعم جميع الخليقة بأن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

فالجميع ميت، الجن والإنس والملائكة وحملة العرش، فإذا شاء الله أقام القيامة، وجازى الخلائق بأعمالها ، جليلها وحقيرها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحدٌ مثقال ذرة ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي : من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٥٦٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٠٢.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ موضع سوطٍ في الجنّة لخيرٌ من الدّنيا وما فيها ، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[3].

إن النجاة من النار في حكم الله وتقديره هي الفلاح العظيم والفوز الكبير والنجاة العظمى[4]، والتي تبدو تباشيرها عند حضور ملك الموت[5].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أحبّ لقاء اللّه أحبّ اللّه لقاءه ومن كره لقاء اللّه كره اللّه لقاءه)، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنّا لنكره الموت، قال : (ليس ذاك ولكنّ المؤمن إذا حضره الموت بشّر برضوان اللّه وكرامته، فليس شيءٌ أحبّ إليه ممّا أمامه فأحبّ لقاء اللّه وأحبّ اللّه لقاءه ، وإنّ الكافر إذا حضر بشّر بعذاب اللّه وعقوبته فليس شيءٌ أكره إليه ممّا أمامه كره

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب سورة آل عمران، رقم ٣٠١٣.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢٧، رقم ٦٦٣٥.
(٤) انظر: الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر، ص١١٣.
(٥) انظر: البعث، أبو بكر بن أبي داود السجستاني، ص١٤-١٥.

لقاء اللّه وكره اللّه لقاءه)[1].

ثانيًا: نزع الغل من الصدور:

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف:٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر:٤٧].

أي: نزعنا ما في صدورهم من حقد وحسد وضغينة، فبعد أن يجتاز المؤمنون النار ويزحزحون عنها، يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار ثم يهذبون وينقون وذلك بأن يقتص لبعضهم من بعض إذا كانت بينهم مظالم في الدنيا حتى إذا دخلوا الجنة كانوا أطهارًا أبرارًا.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يخلص المؤمنون من النّار فيحبسون على قنطرةٍ بين الجنّة والنّار فيقصّ لبعضهم من بعضٍ مظالم كانت بينهم في الدّنيا حتّى إذا هذّبوا ونقّوا أذن لهم في دخول الجنّة فوالّذي نفس محمّدٍ بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنّة منه بمنزله كان في الدّنيا)[2]

وقال ابن عباس: «إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة، في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبدًا»[3].

أما الفخر الرازي فيقول في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: «اعلم أن نزع الشيء قلعه من مكانه، والغل: الحقد الذي يدخل بلطفه إلى صميم القلب فيكون لهذه الآية تأويلان:

الأول: أن يكون المراد أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا فيكون المعنى: تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ومنعها من أن ترد على القلوب، لأن الشيطان في العذاب فليس له سبيل لإلقاء الوساوس في القلوب.

والقول الثاني: أن المراد أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقصان فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى أن أصحاب الدرجة النازلة لا يحسدون أصحاب الدرجة الكاملة»[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم ٦٥٠٧١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم ٦٥٣٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٠٨، الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر، ص١١٧.

(٤) مفاتيح الغيب ١٤/ ٨٠.

ثالثًا: تسليم الملائكة على أهل السعادة والترحيب بهم:

قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل:٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر:٧٣].

هذه الآيات الكريمة تعرض لمظهر عظيم من مظاهر سعادة أولئك السعداء، أولئك في مقامهم العالي لهم عقبى الدار: جنات عدن للإقامة والقرار، تشارك الملائكة فيه بالتأهيل والترحيب والتكريم في حركة رائحة غادية ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، ويدعنا السياق نرى المشهد حاضرًا وكأنما نشهده، ونسمع الملائكة أطوافًا أطوافًا ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام[1].

هذا التسليم والتكريم لا يكون في الجنة فحسب؛ بل إنه يبدأ قبل ذلك بكثير، من يوم الاحتضار الذين تتوفاهم الملائكة طيبةً نفوسهم بلقاء الله، معافين من الكرب وعذاب الموت يقولون ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ طمأنةً لقلوبهم وترحيبًا بقدومهم ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ تعجيلًا لهم بالبشرى وهم على أعتاب الآخرة[2].

أخبر الله عن هؤلاء السعداء المتصفين بالصفات الحسنة بأن لهم جنات الإقامة يخلدون فيها مع أزواجهم وآبائهم وذرياتهم، والملائكة تدخل عليهم من ههنا وههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام[3].

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (هل تدرون أوّل من يدخل الجنّة من خلق اللّه؟) قالوا : اللّه ورسوله أعلم ، قال: (أوّل من يدخل الجنّة من خلق اللّه الفقراء والمهاجرون الّذين تسدّ بهم الثّغور، ويتّقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً فيقول اللّه عز وجل لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيّوهم : فتقول الملائكة : نحن سكّان

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٥٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢١٦٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٩٨٢.

سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلّم عليهم؟ قال: إنّهم كانوا عبادًا يعبدوني لا يشركون بي شيئًا وتسدّ بهم الثّغور ويتّقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كلّ بابٍ، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار)[1].

وهذا الترحيب بعد قطعهم جسر جهنم وحبسهم على قنطرة للقصاص حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان عليه السلام وأصحابه: سلام عليكم[2].

رابعًا: ذهاب الهموم والأحزان ونسيان البؤس والآلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر:٦١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤].

نعيم الجنة نعيم حقيقي مؤكد لا يشوبه كدر، تبشر به الملائكة عند الموت وفي القبر وعند البعث من القبور وعند دخول الجنة، تبشر به من سبقت له السعادة والفوز عند ربه، فلا همّ ولا غمٌّ ولا نقص ولا تغيير، آمنون من الفزع الأكبر ومن كل فزع وخوف[3].

وقد حكى سبحانه وتعالى عن حال أهل الجنة إذا دخلوها قولهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤].

قال السعدي: « أسكنهم الدار التي تدوم فيها الإقامة والتي يرغب في المقام فيها لكثرة خيراتها وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥].

أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى ولا في كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب ولا هم يحزنون»[4]. أراحهم مما كانوا يتخوفون ويحذرون من هموم الدنيا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٥٧٠.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٣١٨٣، ٣/ ١٣١.
(٢) انظر: فتح القدير ٣/ ٩٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٦٢٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٥٨.

والآخرة[1].

وهذا المظهر العظيم من مظاهر سعادة المؤمن في الجنة عام في كل من دخل الجنة سواءً دخل النار قبلها، أو لم يدخل، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن غمسةً واحدةً في الجنة تنسي السعيد كل بؤس عاشه في الدنيا، فكيف بمن تكون الجنة مستقره وداره! ولا يبعد أن يشمل هذا البؤس الذي عاناه المسلم عندما كان في النار.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بأنعم أهل الدّنيا من أهل النّار يوم القيامة فيصبغ في النّار صبغةً ثمّ يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قطّ؟ هل مرّ بك نعيمٌ قطّ؟ فيقول: لا واللّه يا ربّ، ويؤتى بأشدّ النّاس بؤسًا في الدّنيا من أهل الجنّة فيصبغ صبغةً في الجنّة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قطّ؟ هل مرّ بك شدّةٌ قطّ فيقول: لا واللّه يا ربّ ما مرّ بي بؤسٌ قطّ ولا رأيت شدّةً قطّ)[2].

فما أعظم هذا الفضل والمن! إنه من إله رحيم كريم!

خامسًا: الفوز بالجنة:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر:٢٠].

وقال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف:١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات:٦٠-٦١].

عند الحديث عن السعادة الحقيقة في الدار الآخرة لا يمكن الاستغناء عن صيغة أفعل التفضيل!! فهل حقًا هناك أعظم وأحسن من الفوز.. وأي فوز! إنه الفوز بالجنة! هل هناك أدنى وجه للمقارنة بين من كان من أهل النار، في الحميم والغساق وشجر الزقوم، وبين من سكن الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، شتان.. شتان!

يقول قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾: لا يستويان طبيعةً وحالًا، ولا طريقًا ولا سلوكًا، ولا وجهًا ولا مصيرًا، فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدًا في طريق ولا في سمة ولا في خطّة، ولا يلتقيان أبدًا في سياسة ولا يلتقيان أبدًا في صف واحد في دنيا ولا في آخرة[3].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٥٤٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، ح٢٨٠٧.
(٣) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٣١.

﴿تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الصف:١٠-١٢].

وهذه الآيات تشير إلى تجارة رابحة وصفقة ناجحة مع رب العالمين، بل هي أربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة حتى حين يفقد هذه الحياة كلها، ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم وحقًا ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[1].

ويحسن الإشارة هنا إلى أن الفوز بنعيم الجنة لا يستلزم ترك متاع الدنيا كما يظن الرهبان وكثير من العباد، الذين يشقون على أنفسهم، ويعذبون أجسادهم، ويعزفون عن العمل والزواج، وهذه فكرة خاطئة إذ من عظمة هذا الدين أن يجمع للمسلم خير الدنيا إلى الآخرة.

قال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف:٣٢].

سادسًا: الاشتغال بالملذات والتمتع بالمسرات:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾ [يس:٥٥-٥٦].

قال ابن مسعود وابن عباس: « شغلهم افتضاض العذارى»، وقال أبو قلابة: «بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له: تحوّل إلى أهلك فيقول: أنا مع أهلي مشغول، فيقال : تحول أيضًا إلى أهلك»، وقيل: أصحاب الجنة في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرهم وما هم فيه من أليم العذاب؛ وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم. وقالوا ﴿فِي شُغُلٖ﴾ أي : في زيارة بعضهم بعضًا وقيل: في ضيافة الله تعالى، أو في نعيم معجبون به، ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي : فرحون بسماع الأوتار مسرورون[2].

وقال ابن عباس: « إن الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة لا يملها ولا تمله، كلما أتاها وجدها بكرًا»[3].

يقول قطب: «إنهم مشغولون بما هم فيه من النعيم، ملتذون متفكهون وإنهم لفي ظلال مستطابة يستروحون نسيمها..وعلى أرائك متكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم ولهم فوق اللذائذ التأهيل والتكريم ﴿سَلَٰمٞ﴾ يتلقونه من ربهم الكريم»[4].

(١) انظر: المصدر السابق، ٦/ ٣٥٥٩.

(٢) حادي الأرواح، ابن القيم، ص١٦٥.
(٣) انظر: جامع أحكام القرآن ١٥/ ٤٤-٤٥، حادي الأرواح، ابن القيم، ص١٦٥.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٢.

لماذا يأكل أهل الجنة ويشربون ويمتشطون إذن؟ هل يجوعون؟ هل يعطشون؟. إذا كان أهل الجنة فيها خالدون، وكانت خاليةً من الآلام والأوجاع والأمراض لا جوع فيها ولا عطش ولا قاذورات ولا أوساخ، فلماذا يأكلون؟[1].

أجاب القرطبي في التذكرة عن هذا السؤال قائلًا: «نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دفع ألم اعتراهم، فليس أكلهم عن جوع، ولا شربهم عن ظمأ، ولا تطيبهم عن نتن، وإنما هي لذات متوالية ونعم متتابعة ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:١١٨-١١٩].

وحكمة ذلك أن الله تعالى عرفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله عز وجل»[2].

سابعًا: رؤية الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦].

قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: «فأما الذين أحسنوا الاعتقاد، وأحسنوا العمل، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم، وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار الإسلام، فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة»[3].

عن صهيبٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنّة الجنّة قال يقول اللّه تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيّض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنّة وتنجّنا من النّار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النّظر إلى ربّهم عز وجل)، وفي رواية ثمّ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[4].

وقيل: الحسنى البشرى، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ من النضارة أي : حسنة بهية مشرقة مسرورة، و﴿نَّاظِرَةٌ﴾ أي : تراه عيانًا، وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة، في

(١) انظر: الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر، ص٢٢٥.
(٢) انظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٤١٦.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، رقم ١٨١.

الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها[1].

عن جرير بن عبد اللّه، قال: كنّا عند النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلةً -يعني البدر- فقال: (إنّكم سترون ربّكم كما ترون هذا القمر لا تضامّون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشّمس وقبل غروبها فافعلوا)[2].

وعن أبي بكر بن عبد اللّه بن قيسٍ، عن أبيه، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (جنّتان من فضّةٍ آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهبٍ آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلاّ رداء الكبر على وجهه في جنّة عدنٍ)[3].

وفي هذا رد على كل من أنكر رؤية المؤمنين لله يوم القيامة مثل المعتزلة والجهمية والفرعونية، والرافضة والقرامطة والباطنية والصابئة والمجوس واليونان الذين قالوا بكفر من اعتقد ذلك وأنه من أهل التشبيه والتجسيم، وتابعهم على ذلك كل عدو للسنة وأهلها، والله تعالى ناصر كتابه وسنة رسوله ولو كره الكافرون[4].

يقول قطب: هذه الوجوه الناضرة، نضّرها أنها إلى ربها ناظرة؟! فأي مستوى من الرفعة هذا؟ أي مستوى من السعادة؟ إن روح الإنسان لتستمتع أحيانًا بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون والنفس، تراها في الليلة القمراء أو الليل الساجي أو الفجر الوليد، إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود فتغمرها النشوة وتفيض بالسعادة، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة وتتوارى عنها أشواك الحياة. فكيف بها وهي تنظر -لا إلى جمال صنع الله- ولكن إلى جمال ذات الله؟ ألا إنه مقام يحتاج أولًا إلى مد من الله، ويحتاج ثانيًا إلى تثبيت من الله، ليملك الإنسان نفسه، فيثبت ويستمتع بالسعادة التي لا يحيط بها وصف، ولا يتصور حقيقتها إدراك؟ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، وما لها لا تنضر وهي إلى جمال ربها ناظرة؟[5].

موضوعات ذات صلة:

البكاء، الجنة، الحزن، الغم، الفرح، اليأس

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩٧١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الفجر، رقم ٥٧٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وجوه يومئذ ناضرة، رقم ٧٤٤٤.
(٤) انظر: حادي الأرواح، ص٢١١.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٧٠ بتصرف.

السَّعَة

عناصر الموضوع

مفهوم السّعة	٩٢
السعة في الاستعمال القرآني	٩٣
الألفاظ ذات الصلة	٩٤
السّعة في حق الله تعالى	٩٦
السّعة نعمة إلهية	١٠٥
أنواع السّعة	١١٤

مفهوم السّعة

أولًا: المعنى اللغوي:

هي: الغنى والجدة والطاقة، ونقيض الضيق، قال ابن فارس: «(وسع) الواو والسين والعين: كلمة تدل على خلاف الضيق والعسر، يقال: وسع الشيء واتسع، وهو ينفق على قدر وسعه، أي : طاقته وقدرته، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧]»[(١)].

ورجل موسع: وهو المليء، والوسع: الغنى والجدة وقدرة ذات اليد، وأوسع الرجل إذا كثر ماله، قال الله عز جل: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦][(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي الذي يدل على خلاف الضيف والعسر، وتكون في الأمكنة والحال والفعل والجود[(٣)].

(١) انظر: مقاييس اللغة ٦/ ١٠٩.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٦١، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ١٨٤، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٩٣، تاج العروس، الزبيدي ٢٢/ ٣٢٥.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٧٠.

السعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (السعة) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت ثنتين وثلاثين مرة [(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف:٨٩]
المصدر	١١	﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]
اسم الفاعل	١٥	﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢]

ووردت السعة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهي: كلمة تدل على خلاف الضيق والعسر [(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٧٥١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص١٤١١-١٤١٢.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٠٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢/ ١٠٣١، المخصص، ابن سيده، ٣/ ٣٤١، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣١٠-٣١١.

الألفاظ ذات الصلة

١ القدرة:

القدرة لغة:

الطاقة والقوة على الشيء والتمكن منه، والغنى والثراء، يقال رجل ذو قدرة ذو يسار وغنى [(١)].

القدرة اصطلاحًا:

الصفة التي تمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة[(٢)]، والقدرة: صفة تؤثر على قوة الإرادة[(٣)].

الصلة بين السعة والقدرة:

أن السعة والقدرة يأتيان بمعنى الغنى وقدرة ذات اليد إلا أن القدرة فيها معنى القوة على الشيء والتمكن منه، والسعة فيها معنى زائد وهو الفسحة واتساع المكان.

٢ الطاقة:

الطاقة لغة:

الوسع، وأطقت الشيء إطاقة: قدرت عليه، والطاقة هي: القدرة وما يستطيع الإنسان أن يفعله بمشقة [(٤)].

الطاقة اصطلاحًا:

غاية مقدرة القادر واستفراغ وسعه في المقدور[(٥)].

الصلة بين السعة والطاقة هو:

أن بينهما معنىً مشتركًا وهو القدرة على الشيء، إلا أن في الطاقة استفراغ الوسع في المقدور.

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٤٠، مختار الصحاح، الرازي ص ٢٤٨، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٩٢.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٧٣، الكليات، الكفوي ص ١٠٨.

(٣) التعريفات، الجرجاني ١٧٣.

(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٨١، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ١٠٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٧١.

(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٣٦.

٣ الجهد:

الجهد لغة:

بالفتح، المشقة، وقيل: المبالغة والغاية، وبالضم، الوسع والطاقة؛ وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة، ومنه قول الله جل وعز: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة:٧٩] أي: طاقتهم تقول: هذا جهدي، أي : طاقتي [(١)].

الجهد اصطلاحًا:

الوسع والطاقة [(٢)].

الصلة بين السعة والجهد:

أن بينهما معنى مشتركًا وهو الوسع والطاقة والقدرة على الشيء إلا أن في الجهد معنى المشقة.

٤ الضيق:

الضيق لغة:

قال ابن فارس: «(ضيق) الضاد والياء والقاف كلمة واحدة تدل على خلاف السعة، وذلك هو الضيق والضيقة: الفقر، يقال: أضاق الرجل: ذهب ماله» [(٣)].

الضيق اصطلاحًا:

الفقر وسوء الحال [(٤)].

الصلة بين السعة والضيق:

أن الضيق ضد السعة.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ٢٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٣٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١١٢، تاج العروس، الزبيدي ٧/ ٥٣٤.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٣٣ ١١٢.
(٣) انظر: مقاييس اللغة ٣/ ٣٨٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٢٠٨، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٤٥.

السعة في حق الله تعالى

إن السعة في حق الله تعالى تتضح من خلال بيان معنى اسم الله: (الواسع)، واسمه: (واسع المغفرة) بالإضافة لبيان سعة رحمة الله تعالى، وسعة علمه سبحانه، واقتران اسم الله الواسع بأسماء الله الحسنى، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: معنى اسم الله (الواسع):

إن من أسماء الله الحسنى اسمه: (الواسع)، وهو على وزن (فاعل)، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم تسع مرات منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء:١٣٠].

وقد ذكر المفسرون العديد من معاني هذا الاسم الكريم منها قولهم: الواسع هو: الغني، وقيل: الواسع هو: المحيط بكل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، أي أحاط به، وقيل الواسع هو: الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء، وقيل: الواسع هو: واسع الفضل، يوسع على من يشاء من عباده، وقيل: الواسع هو: الذي يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وقيل الواسع هو: واسع الفضل والصفات وعظيمهما، وقيل الواسع هو: العالم، فيرجع معناه إلى صفة، العلم، أي: أنه يسع علمه كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨][(١)].

ومن المفسرين من فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥] بأنه: واسع الشريعة بالترخيص لهم والتوسعة على عباده في دينهم، لا يضطرهم إلى ما يعجزون عن أدائه[(٢)].

قال الإمام ابن جرير: «ومعنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وهو عليم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم»[(٣)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٣٧، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٢٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٣٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٠، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٢٣.
(٣) انظر: جامع البيان ٢/ ٥٣٧.

واسم الله (الواسع) يجمع هذه المعاني كلها: ويفيد هذا الاسم: الغنى والملك المطلق والعظمة والسلطان، واتساع المكان، فهو تعالى لا يحصر ولا يتحدد، فيصح أن يتوجه إليه في كل مكان[1]، وهو عند إجرائه على الذات يفيد كمال صفاته الذاتية وهي: الوجود، والحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة[2].

ومن أسمائه تعالى (الموسع): وهو اسم من أسماء الله تعالى على وزن (مفعل) وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرةً واحدةً بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

ومعنى اسمه تعالى: (الموسع): أنه تعالى ذو الوسع والسعة، أي: القادر، وقيل الموسع: أي :لأرجاء السماء وأنحائها، أي: أنه لذو سعة، بخلقها وخلق غيرها، لا يضيق عليه شي يريده، وأنه سبحانه: الموسع على عباده بالرزق[3].

وأسماء الله تعالى: (الواسع والموسع) ثابتة بالكتاب والسنة، والدليل من الكتاب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

والدليل من السنة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (إنّ أول الناس يقضى يوم القيامة... ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال)[4].

والفرق بين لفظ (الموسع) في حقه تعالى في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

أي: أنه تعالى ذو الوسع والسعة والقدرة والقوة والملك والغنى المطلق، والموسع لأرجاء السماء وأنحائها، بخلقها وخلق غيرها، لا يضيق عليه شي يريده، وأنه سبحانه الموسع على عباده بالرزق والفضل والنعم.

أما لفظ (الموسع) في حق العبد الوارد في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا

(١) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٩٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥١٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٢٩، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٣٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٥٧، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٧٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٥٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم ١٩٠٥، ٣/ ١٥١٣.

﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦].

فهي تدل على الغنى والقدرة على الإنفاق النسبي، وذكرت في مقابل المقتر وهو: الفقير الذي يكون في ضيق من وقلة ذات اليد.

ثانيًا: معنى اسمه تعالى ﴿وَسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾:

إن من أسماء الله تعالى الحسنى: (واسع المغفرة)، فقد جاء هذا الاسم مضافًا إلى المغفرة مرةً واحدةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

أي: أن الله تعالى هو الغفور الذي لم يزل يغفر الذنوب، ويتوب عل كل من يتوب، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)[1].

ويكون معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾، أي: رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر كقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣][2]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف:٥٨].

فقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه غفور، أي: كثير المغفرة، وأنه ذو الرحمة يرحم عباده المؤمنين يوم القيامة، ويرحم الخلائق في الدنيا.

وبين في مواضع آخر: أن هذه المغفرة شاملة لجميع الذنوب بمشيئته جل وعلا إلا من مات على الشرك لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، رقم ٣٥٤٠، ٥/ ٥٤٨.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٣٣٨، ٢/ ٧٩٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٣٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢٩.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وقد بين سبحانه أن هذه الرحمة الواسعة، صادرة عن علم شامل للظواهر والبواطن، ثم أكد الله تعالى علمه بالأشياء كلها، بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

أي: إن الله بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر منكم، حين ابتدأ خلقكم بخلق أبيكم آدم من التراب، واستخرج ذريته من صلبه، وحين صوركم أجنة في أرحام أمهاتكم، وتعهدكم بالنمو والتكوين في أطوار مختلفة. والجنين: هو الولد ما دام في البطن، وفائدة قوله: في بطون أمهاتكم التنبيه على كمال العلم والقدرة، فإن بطن الأم في غاية الظلمة، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد[1].

لكن مع هذه المغفرة الواسعة قد بين في مواضع أخر أنه مع سعة مغفرته، شديد العقاب، كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦].

وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر:٣] وقوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]. إلى غير ذلك من الآيات[2].

ثالثًا: سعة رحمة الله تعالى:

ذكر ربنا جل وعلا أنه رحمته وسعت كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٤٧﴾ [الأنعام:١٤٧].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

وقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أن مخرجه عام ومعناه خاص، وتأويله: ورحمتي وسعت المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، قاله ابن عباس.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٧/ ١٢١.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣١٦.

والثاني: أن هذه الرحمة على العموم في الدنيا، والخصوص في الآخرة وتأويلها: ورحمتي وسعت كل شيء في الدنيا، البر والفاجر، وفي الآخرة هي للمتقين خاصةً، قاله الحسن، وقتادة، فعلى هذا، معنى الرحمة في الدنيا للكافر أنه يرزق ويدفع عنه، كقوله في حق قارون: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

أي: وسعت كل من يدخل فيها لا تعجز عن من دخل فيها، أو يكون يعني الرحمة التي قسمها بين الخلائق يعطف بها بعضهم على بعض حتى عطف البهيمة على ولدها[١].

والثالث: أن الرحمة: التوبة، فهي على العموم، قاله ابن زيد.

والرابع: أن الرحمة تسع كل الخلق إلا أن أهل الكفر خارجون منها، فلو قدر دخولهم فيها لوسعتهم، قاله ابن الأنباري، قال الزجاج: «وسعت كل شيء في الدنيا، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ في الآخرة، قال المفسرون: معنى ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾: فسأوجبها، وفي الذين يتقون قولان: أحدهما: أنهم المتقون للشرك، قاله ابن عباس، والثاني: للمعاصي، قاله قتادة»[٢].

والآية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]؛ ولما روى سلمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعةً وتسعين إلى يوم القيامة)[٣]؛ لأنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤][٤].

وهذه الآية من العام الذي أريد به الخاص، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣].

فرحمته وسعت في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصةً[٥].

---

(١) انظر: معاني القرآن، الأخفش ١/ ٣٤٠، جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٥٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤١٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٥٨، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٦٧، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم ٢٧٥٣، ٤/ ٢١٠٨.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤١٥، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٦٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٦١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٣٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٣٣.

(٥) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤١٥،

والمعنى: إن رحمة الله مع أنها عامةً شاملةً، تسع الوجود كله، وهي على سعتها، وعمومها وشمولها، لا ينالها إلا أهل طاعته الذين آمنوا واتقوا.. ثم إن العصاة في الدنيا لم يحجب الله عنهم نعمه، ولم يحرمهم رزقه، ولم يصبهم في جوارحهم التي يعيشون بها مثل سائر الناس.

وأصحاب النار وهم في النار، هم ممن وسعتهم رحمة الله، إذ هناك عذاب فوق هذا العذاب، وبلاء أكبر من هذا البلاء، وقد وقف الله بهم عند هذا الحد من العذاب الذي هم فيه، وذلك رحمة من رحمته، ولولا ذلك لضاعف لهم هذا العذاب الذي هم أهل له بما ارتكبوا من آثام[1].

ووجه تعقيب صفة عموم العلم بصفة الرحمة أن عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته ويمهل المعاندين إلى عقاب الآخرة[2].

رابعًا: سعة علم الله تعالى:

إن علم الله واسع وشامل، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وهو بكل شيء عليم، والآيات الدالة على سعة علم الله بكل شيء كثيرة في كتاب الله العزيز، منها قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨][3].

ومما يدل على سعة علم الله تعالى الآيات التي تدل على أن الله بكل شيء عليم: ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام:١٠١].

وكذلك الآيات التي تدل على أن الله عالم بالغيب والشهادة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٦٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٦١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٣٧٩، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦٠٩، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٦٠٤.

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٤٩١، ٤٩٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢١٢، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٥٦٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٣٠١.

[الحشر:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة:١٠٥][1].

ومما يدل على سعة علم الله الآيات الدالة على إحاطة علم الله بكل شيء، وقد أوضح هذا المعنى في آيات في كتابه العزيز منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء:١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠].

والتعبير بالإحاطة استعراض لعظمة الله وسعة ملكه، ومقدار سلطانه، الذي يشمل كل شيء، وينفذ إلى كل شيء! ومن كان هذا شأنه، وتلك صفته، فإن من السفه والضلال أن يولّي الإنسان وجهه إلى غيره، أو يعبد معبودا سواه[2].

وإسناد الإحاطة إلى اسم الله تعالى مجاز عقلي، لأن المحيط هو علم الله تعالى فإسناد الإحاطة إلى صاحب العلم مجاز في عدم خفاء شيء من عملهم عن علم الله تعالى، ويلزمه أنه مجازيهم عن عملهم بما يجازي به العليم القدير من اعتدى على حرمه، وتضمن ذلك الوعيد الشديد والتقريع البالغ، وإذ كان تعالى محيطاً بجميع الأقوال والأعمال، فكان ينبغي أن تستر القبائح عنه بعدم ارتكابها[3].

خامسًا: اقتران اسم الله الواسع بأسماء الله الحسنى:

اقترن اسم الله الواسع ببعض أسماء الله الحسنى، وهذا الاقتران يتناسب مع هذا الاسم سياقًا ومعنى وهي:

١. اقتران الواسع بالعليم.

إن اسم الله (الواسع) اقترن في سبع آيات، التي ورد فيها باسمه (العليم)، ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٣].

فالله واسع عليم أي: واسع بالعطاء،

(١) انظر بحث: مفهوم الأسماء والصفات، سعد ندا، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد ٤٦ العام ١٤٠٠، ١٤٠١هـ ص ٦١.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٩١٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦١، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٤.

عليم بالنية، وقيل: واسع القدرة على المجازاة، عليم بمقادير المنفقات وما يرتب عليها من الجزاء[1].

وهو كذلك واسع الإحاطة، وواسع الصفات؛ فهو واسع في علمه، وفي قدرته، وسمعه، وبصره، وغير ذلك من صفاته؛ و﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم؛ وعلمه محيط بكل شيء، وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم»[2].

وقد ختم الله تعالى هذه الآيات باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها وهما : الواسع والعليم، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه، فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإن كرمه وفضله لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه[3].

ولعل هذا يشير إلى: أن الله سبحانه يعطي من فضله الواسع من يشاء عن كمال العلم بمن يستحق هذا العطاء، سواءً أكان هذا العطاء رحمةً، أو مغفرةً، أو ملكاً، أو مالاً، أو علماً، أو أي نوع من أنواع العطاء، وعطاؤه سبحانه - فضلا عن كونه عن كمال العلم- فهو مع كمال الحكمة، وسعة المغفرة[4].

٢. اقتران الواسع بالحكيم.

وجاء اسمه تعالى: (الواسع) مقترنًا باسمه (الحكيم) مرةً واحدةً في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء:١٣٠].

إن اقتران اسم الله الواسع بالحكيم ناسب ذلك ذكر السعة؛ لأن اسمه الواسع عام في الغنى والقدرة والعلم وسائر الكمالات، وناسب ذكر وصف الحكمة، وهو وضع الشيء موضع ما يناسب[5].

قال الراغب الأصفهاني:«والواسع: عام في الغنى، والقدرة، والعلم، وعقبه بالحكم، منبهاً أن السعة ما لم يكن معها الحكمة، والعلم، كان إلى الفساد أقرب منها إلى الصلاح»[6].

فقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه بأن يعوضه الله

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٦٥٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٤٩.
(٣) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٦٤.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٩٠.
(٦) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٨٦.

من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه، ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ أي: واسع الفضل، عظيم المن، حكيما، في جميع أفعاله وأقداره وشرعه، وتدبيره وقضاياه في خلقه[1].

٣. إضافة الواسع إلى المغفرة.

جاء اسم الله (الواسع) سبحانه مضافًا إلى المغفرة مرةً واحدةً: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢].

في إضافة اسمه سبحانه وتعالى: (الواسع) إلى المغفرة إشارة إلى أن مغفرة الله تعالى كثيرة، حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر، والكبائر بالتوبة، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ إشارة كذلك إلى أن الكبائر إذا تاب الإنسان منها غفر الله له، وكأنها لم تكن، وإن لم يتب منها فهو تحت المشيئة: إن شاء غفر الله له، وإن شاء عاقبه بما يستحق، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾، أي: رحمته وسعت كل شيء ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

وفي الآية امتنان من الله تعالى على المذنبين بسعة مغفرته لكل الذنوب، فكأن السامعين لما سمعوا ذلك الامتنان شكروا الله وهجس في نفوسهم خاطر البحث عن سبب هذه الرحمة بهم فأجيبوا بأن ربهم أعلم بحالهم من أنفسهم فهو يدبر لهم ما لا يخطر ببالهم[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٧٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٨٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٢٤.

السعة نعمة إلهية

إن السعة نعمة من نعم الله تعالى التي ينعم بها على من يشاء من خلقه، ويمنعها على من يشاء من خلقه، وتجري على نعمة السعة كل الأحكام الشرعية المقررة على النعم، من واجب الشكر عليها وبذلها لمن هو محتاج إليها، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: السعة في المال:

إن السعة في المال نعمة إلهية يمنحها الله تعالى لمن يشاء، ويمنعها عمن يشاء.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء:٣٠].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ:٣٦].

فالله سبحانه وتعالى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر على من يشاء، أي: بحسب ماله في ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيراً، فيبسط لهذا في رزقه، ويضيق ويقتر على هذا في رزقه، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:٢١].

أي: كما هم متفاوتون في الدنيا فهذا فقير، وهذا غني موسع عليه، فكذلك هم في الآخرة هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات، ومع هذا التفضيل بين الناس في الدنيا والآخرة، يكون أطيب الناس في الدنيا من أسلم ورزق كفافًا[1]، كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم:(قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه)[2].

وهذا التفضيل في الرزق هو مقتضى خبرة الله بعباده: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾: أي: إن ربك ذو خبرة بعباده، ومن الذي تصلحه السعة في الرزق وتفسده؛ ومن الذي يصلحه الإقتار والضيق، ﴿بَصِيرًا﴾: أي : هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم[3].

وليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع ويضيق

(١) الكفاف لغة هو: ما كف عن الناس وأغنى، واصطلاحًا هو: ما يكون بقدر الحاجة ولا يفضل منه شيء، ويكف عن السؤال.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٣٠٦، تاج العروس، الزبيدي ٢٤/ ٣٢٣، التعريفات، الجرجاني ص ١٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب في الكفاف والقناعة، رقم ١٠٥٤، ٢/ ٧٣٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٣٥.

ويوسع ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود رضي الله عنه (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب)[1].

فقد أوسع الله على قارون بالمال الكثير مع كفره وعصيانه.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص:٧٦].

كما أن العادة في نظر الناس القاصر أن السعة في المال من أسباب الملك والسلطان في الأرض، وهذا ما صوره القرآن بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ [البقرة:٢٤٧].

قال الإمام الزمخشري:«والمعنى: كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير ولا بد للملك من مال يعتضد به، وإنما قالوا ذلك؛ لأن النبوة كانت في سبط لاوى بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا ولم يكن طالوت من أحد السبطين، ولأنه كان رجلاً سقاءً أو دباغاً فقيراً، وروى أن نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكاً، فأتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ يريد أن الله هو الذي اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم ولا اعتراض على حكم الله، ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال وهما: العلم المبسوط والجسامة»[2].

وكان بنو إسرائيل اعتقدوا أن الملك يستحق بالوراثة وكثرة المال، وكان فيهم أسباط ملوك، فلما أنبأهم نبيهم أن الله بعث لهم طالوت ملكاً، ولم يكن من بيت الملك، ولا كان ذا مال، استعظموا، فراجعوه وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا﴾[3]، فرد الله تعالى عليهم بأنه: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ يريد: أن الملك ليس بالوراثة، وإنما هو بإيتاء الله تعالى واختياره، والله واسع أي: واسع الرزق والفضل، والرحمة

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٣٦٧٢، ٦/ ١٨٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٧١٤، ٦/ ٤٨٢.

(٢) الكشاف ١/ ٢٩٢.

(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥٠٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٩١.

وسعت رحمته كل شيء، وهذا كما يقال: فلان كبير عظيم[1].

وهكذا في كل زمان يظن الجهال أن أحق الناس بالزعامة والقيادة أصحاب النفوذ والثروة، كما زعم بنو إسرائيل بقولهم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾، مع أن الأجدر بالقيادة أهل العلم والخبرة والمقدرة الشخصية والخلق الكريم كما تدل على ذلك الآية الكريمة[2].

ثانيًا: السعة في العلم:

جعل الله تعالى السعة في العلم من نعمه على عباده التي يمن بها على من يشاء، كما ذكر الله تعالى ذلك في شأن العبد الصالح: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧][3].

والبسطة: الزيادة في كل شيء، من بسط الشيء بسطاً إذا نشره ووسعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة:٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى:٢٧]

أي: لو وسعه عليهم لبغوا، قال المفسرون إن المراد بالعلم في الآية: هو العلم بالحروب، والظاهر علم الديانات والشرائع[4].

والمعنى: زاده بسطةً في العلم بالحرب، والجسم بالطول، وكان يفوق الناس برأسه ومنكبيه، وإنما سمي طالوت لطوله[5]، أي: أعطاه من العلم، وقال بعضهم: بسطته في العلم هو أن انتفع هو به ونفع غيره فصار له به بسطة أي : جود[6]، وبسط له في الجسم قدراً يزيد على ما أعطى أهل زمانه[7].

قال الإمام الرازي: «وقدم العلم على الجسم ولا شك أن المقصود من سائر النعم سعادة البدن، فسعادة البدن أشرف من السعادة المالية فإذا كانت السعادة العلمية راجحةً على السعادة الجسمانية فأولى أن تكون راجحةً على السعادة المالية»[8].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٢٨، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٥٧.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٤٣٤.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٥٧، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٥٠، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥٠٧.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٨٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢١٨، البحر المحيط ٢/ ٥٧٥.
(٥) انظر: المصادر السابقة.
(٦) انظر: الموسوعة القرآنية، الخطيب ٨/ ٥٢.
(٧) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٨٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢١٨.
(٨) انظر: مفاتيح الغيب ٢/ ٤١٨.

والعلم الواسع هو: ما أورث الخشية من الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

يعني بالعلماء: الذين يخافونه، وقد ذكر المفسرون أقوالا عن السلف بهذا المعنى منها ما قاله الربيع بن أنس: «من لم يخش الله فليس بعالم، قال ابن مسعود: المتقون سادة، والعلماء قادة[(١)]، وقال مقاتل: أشد الناس لله خشيةً أعلمهم به، وقال مسروق: كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً، وقال مجاهد والشعبي: العالم من خاف الله تعالى، وروى عكرمة، عن ابن عباس، قال: من خشي الله فهو عالم. وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم»[(٢)].

وقال الإمام ابن كثير: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر»..... ثم قال أيضا: «والعلم الذي فرض الله عز وجل أن يتبع، فإنما هو الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين، فهذا، لا يدرك إلا بالرواية»[(٣)].

ثالثًا: السعة في الخلق:

بين الله تعالى في كتابه الكريم أن الزيادة في خلق المخلوقات من نعمه تعالى التي يمن بها على من يشاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [فاطر:١].

وذلك زيادته تبارك وتعالى في خلق هذا الملك من الأجنحة على الآخر ما يشاء، ونقصانه عن الآخر ما أحب، وكذلك ذلك في جميع خلقه يزيد ما يشاء في خلق ما شاء منه، وينقص ما شاء من خلق ما شاء، له الخلق والأمر وله القدرة والسلطان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: إن الله تعالى قدير على زيادة ما شاء من ذلك فيما شاء، ونقصان ما شاء منه ممن شاء، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يمتنع عليه فعل شيء أراده سبحانه وتعالى[(٤)].

قال الإمام الماوردي: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾: «فيه ثلاثة تأويلات: أحدها:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣١٣، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٧٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥٠.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٧١، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٠٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٨٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٣٦.

أنه حسن الصوت، قاله الزهري وابن جريج، الثاني: أنه الشعر الجعد، حكاه النقاش، الثالث: يزيد في أجنحة الملائكة ما يشاء، قاله الحسن، ويحتمل رابعاً: أنه العقل والتمييز، ويحتمل خامساً: أنه العلوم والصنائع، ويكون معناه على هذين التأويلين: كما يزيد في الخلق ما يشاء كذلك يزيد في أجنحة الملائكة ما يشاء»[(١)].

وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ هي: الملاحة في العينين، والحسن في الأنف، والحلاوة في الفم، وقيل: الخط الحسن[(٢)].

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: في خلق الملائكة، فقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام ليلة أسري به، وله ستمائة جناح[(٣)].

ولهذا قال سبحانه ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي يزيد في خلق الأجنحة وغيره ما يشاء مما تقتضيه حكمته لأن الله على كل شيء قدير[(٤)].

ومن المفسرين من عمم المعنى، وقال إن المراد بـ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾: الوجه الحسن، ومنهم من قال : الصوت الحسن، ومنهم من قال : كل وصف محمود، وهو الأولى، أي: يزيد بعض مخلوقاته على بعض، في صفة خلقها، وفي القوة، وفي الحسن، وفي زيادة الأعضاء المعهودة، وفي حسن الأصوات، ولذة النغمات[(٥)].

قال الإمام الزمخشري: «والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجرأة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأت في مزاولة الأمور، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف ، ثم ختم سبحانه- الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إن الله تعالى لا يعجزه شيء يريده، لأنه قدير على فعل كل شيء، فالجملة الكريمة تعليل لما قبلها من كونه-

(١) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٦٢.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٩٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٢٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم ٣٢٣٢، ٤/ ١١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم ١٧٤، ١/ ١٥٨، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٢٩.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٢٩.

سبحانه- يزيد في الخلق ما يشاء، وينقص منه ما يشاء»[1].

ورأي الأمام الزمخشري هو المختار في تفيسر الآية؛ لأن الأقوال والتفسيرات قبله هو تفسير بالمثال.

والزيادة في الخلق قد تكون لأقوام وأجيال بعينها كما ذكر عن عاد قوم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف:٦٩].

يذكر الله تعالى عاد قوم هود النعمة التي أنعم الله بها عليهم، يقول: اذكروا أن الله أهلك قوم نوح واستخلفكم بعدهم ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف:٦٩].

أي: فضيلة في الطول والأجسام، قال ابن عباس: « يريد : أنكم أجسم وأتم من آبائكم الذين ولدوكم بأن زاد في أجسامكم طولاً وعظماً على أجسام قوم نوح، وفي قواكم على قواهم، نعمةً منه بذلك عليكم، فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في أجسامكم وقواكم، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له، وترك الإشراك به، وهجر الأوثان والأنداد لعلكم تفلحون، فتدركوا الخلود والبقاء في النعم في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده»[2].

قال محمد رشيد رضا: «أي: واذكروا فضل الله عليكم ونعمه إذ جعلكم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح، وزادكم في المخلوقات بسطةً وسعةً في الملك والحضارة، أو زادكم بسطةً في خلق أبدانكم؛ إذ كانوا طوال الأجسام أقوياء الأبدان، وقد نص القرآن على قوتهم وجبروتهم وهذه الآيات هي قوله تعالى عن عاد قوم هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود:٥٢].

وقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت:١٥]»[3].

وقد تكون الزيادة في الخلق والبسط في الجسم في شخص واحد كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ

(١) الكشاف ٣/ ٥٩٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٢.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٤٣.

عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧].

رابعًا: السعة في الذرية:

إن السعة في الذرية من نعمة الله تعالى الواسعة على عباده يهبها لمن يشاء، ويمنع الذرية عمن يشاء، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

والذرية أصلها: الصغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف، ويستعمل للواحد والجمع، وأصله الجمع.

قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران:٣٤].

وقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣].

وقال سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس:٤١][1].

وقد بين الله تعالى أنه بسط ذرية آدم، ومن حمل مع نوح، ومن ذرية إبراهيم وجعل فيها النبوة.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨].

وقد ذكر الله تعالى أنه بسط ذرية من حمل مع نوح حتى جاء منهم موسى وهارون عليهم السلام من بني إسرائيل في قوله عز وجل: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣].

يعني موسى وقومه من بني إسرائيل ذرية من حملهم الله تعالى مع نوح في السفينة وقت الطوفان[2].

ويلاحظ من خلال هذه الآية أن من أسباب البسط في الذرية العبادة والشكر حيث علل سبحانه وتعالى بقاء ذرية نوح بكونه عبدًا شكورًا.

كما بين الله تعالى أنه جعل ذرية نوح هم الباقين بعد أن أهلك قومه الكافرين: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٧].

والمعنى: وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد مهلك قومه، وذلك أن الناس كلهم من بعد مهلك نوح إلى اليوم

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٢٧.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٢٨، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٢٦.

إنما هم ذرية نوح، فالعجم والعرب أولاد سام بن نوح[1].

وجعل الله تعالى في ذرية نوح وإبراهيم النبوة والكتاب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد:٢٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام:٨٤-٩٠][2].

فأما نوح عليه السلام: فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، وهم الذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام: فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً ، إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٦].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨].

(١) منها : ما أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٠٠٩٩٣، ٣/ ٢٩٢، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ومن سورة الصافات، رقم ٣٢٣٠، ٥/ ٣٦٥، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٧] قال: «حام، وسام، ويافث» بالثاء.يقال: يافث، ويافث بالتاء والثاء«وفي رواية: «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش» ويقال: يافث ويافث ويفث».
قال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن بشير.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٨/ ١٦٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦٦.

ويخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧] حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى بن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾[الحديد:٢٧].

وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه - وهم الحواريون- رأفة ، أي : رقة ، وهي الخشية ورحمة بالخلق[(١)].

وقد بسط الله في ذريات أمم وشعوب وأقوام نعمةً منه بعد إن كانوا قلةً، قال تعالى في قوم شعيب عليه السلام :﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

والآية تدل على أن نبي الله شعيباً عليه السلام ذكرهم بنعمة الله عندهم بأن كثر جماعتهم بعد أن كانوا قليلًا عددهم، وأن رفعهم من الذلة والقلة، يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك، وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا نقمته بترك[(٢)].

وقد يبسط الله في ذرية شخص بعينه كما ذكر عن نبيه أيوب عليه السلام كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

قال ابن عباس:«لما دعا أيوب استجاب الله له، وأبدله بكل شيء ذهب له ضعفين، رد إليه أهله ومثلهم معهم»[(٣)].

وقال الإمام الماوردي في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ «ففي هبتهم له ومثلهم معهم خمسة أقاويل:

أحدها: أن الله تعالى رد عليه أهله وولده ومواشيه بأعيانهم، لأنه تعالى أماتهم قبل آجالهم ابتلاء ووهب له من أولادهم مثلهم، قاله الحسن.

الثاني: أن الله سبحانه ردهم عليه بأعيانهم ووهب له مثلهم من غيرهم قاله ابن عباس.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٦٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٠، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٠٦.

الثالث: أنه رد عليه ثوابهم في الجنة ووهب له مثلهم في الدنيا، قاله السدي.

الرابع: أنه رد عليه أهله في الجنة، وأصاب امرأته فجاءته بمثلهم في الدنيا»[1].

أنواع السّعة

يمكن تقسيم السعة إلى سعة في الحال، وسعة في المكان.

وبيانها في النقاط الآتية:

أولًا: السّعة في الحال:

إن المراد من السعة في الحال هو حال الشخص في قدرته على الإنفاق الواجب والمندوب، مع مراعاة يساره وفقره، فلكل حالة أحكامها، ويتضح هذا في الفقرتين الآتيتين:

١. السّعة في الإنفاق على المطلقات.

اعتبر القرآن الكريم السّعة في الإنفاق على المطلقات وهي: الاستطاعة والقدرة في الإنفاق، وذلك بأن تكون النفقة بقدر حالة الطرفين بالنسبة لليسار والإعسار وأمثالهما، بحيث يكون ذلك بلا ضرر فيه ولا إضرار، وذلك في الأمور الآتية:

أولًا: نفقة الرضاع.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة:٢٣٣].

(١) النكت والعيون ٥/ ١٠٢.

قال أبو جعفر الطبري: «لا تحمل نفس من الأمور إلا ما لا يضيق عليها، ولا يتعذر عليها وجوده إذا أرادت، وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك: لا يوجب الله على الرجال من نفقة من أرضع أولادهم من نسائهم البائنات منهم، إلا ما أطاقوه ووجدوا إليه السبيل، كما قال تعالى ذكره: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]»[(١)].

والمعنى: أي: على والد الطفل نفقة أمه المطلقة مدة الإرضاع، أي : طعامهن ولباسهن بالمعروف، وهو قدر الميسرة كما فسره قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، يعني : طاقتها، ومن كان رزقه بمقدار القوت فلينفق على مقدار ذلك، ونظيره: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي : ما أعطاها من الرزق، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني، وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي : بعد ضيق وشدة غنى وسعة ورخاء ، وكان الغالب في ذلك الوقت الفقر والفاقة، فأعلمهم الله تعالى أن يجعل بعد عسر يسراً وهذا كالبشارة لهم بمطلوبهم[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٥.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٦٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٧٠، البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ١٩٩.

ثم نهى تعالى عن المضارة بكل أنواعها وأشكالها وممن صدرت: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٣٣] بأن يكلف أن يعطيها أكثر من أجر مثلها أو خارجاً عن وسعه وطاقته واعتبار الوسع في النفقة مبني على العرف والعادة[(٣)].

فلا يكلف أبو الولد في الإنفاق عليه وعلى أمه إلا قدر ما تتسع به مقدرته، ولا يبلغ إسراف القدرة لا تضار والدة بولدها، أي: يأخذ ولدها منها بعد رضاها بإرضاعه ورغبتها في إمساكه وشدة محبتها له ولا مولود له، يعني الأب بولده، بطرح الولد عليه يعني: لا تلقي المرأة الولد إلى أبيه وقد ألفها، تضاره بذلك[(٤)].

ولهذا قال سبحانه: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٣٣] أي: لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها، إما أن تمنع من إرضاعه، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة،

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣١١، لباب التأويل، الخازن١/ ١٦٦، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٠١.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٣١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٣٢، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٥٤، التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٣٦٠.

والكسوة أو الأجرة، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة له، أو تطلب زيادةً عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع الضرر[1].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: أن عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور وقيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله مجاهد والشعبي والضحاك[2].

كما يعتبر الشرع الحكيم الحال سعةً ويساراً وإعساراً وفقراً في الإنفاق على الأقارب الواجب الإنفاق أو المندوب من غير المذكورين في الآيات كالوالدين والأولاد: فقد استدل بالآية من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف، ويرجح ذلك بحديث الحسن عن سمرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من ملك ذا رحم محرم، عتق عليه)[3].

ثانيًا: نفقة السكنى.

قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق:٦-٧].

أي: اسكنوا مطلقات نسائكم من الموضع الذي سكنتم ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾: يقول: من سعتكم وعلى قدر طاقتكم التي تجدون؛ وإنما أمر الرجال أن يعطوهن مسكناً يسكنه مما يجدونه، حتى يقضين عددهن[4].

والوجد هو: المقدرة ويكون المعنى: اسكنوا مطلقات نسائكم من الموضع الذي سكنتم ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ يقول: من سعتكم التي تجدون، حتى يقضين عددهن[5].

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق:٦].

نهى الله تعالى عن مضارتهن، بالتضييق

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٤.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٣١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٣٢، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٥٤.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العتق باب فيمن ملك ذا رحم محرم، رقم ٣٩٤٩، ٤/ ٢٦، والترمذي في سننه، أبواب الأحكام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء فيمن ملك ذا رحم محرم، رقم ١٣٦٥، ٣/ ٦٣٨.
وصححه الألباني في الإرواء، رقم ١٧٤٦، ٦/ ١٦٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٥٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٨٧، الكشف والبيان، الثعلبي ١/ ٢٦٣.
(٥) انظر: معاني القرآن، الأخفش ٢/ ٥٤٤، جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٥٦.

عليهن في المسكن والنفقة، ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦].

لأن عدتها تكون بوضع الحمل، فلها النفقة إلى أن تضع حملها، وإن كانت مطلقةً ثانيةً أو ثالثةً، فإنها تستحق النفقة إذا كانت حاملاً، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦]. يعني: حق الرضاع وأجرته بالتراضي[١].

ثالثًا: متعة الطلاق.

قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦].

حيث أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها، إن كانت مفوضةً وإن كان في هذا انكسار لقلبها، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره[٢].

قال الإمام ابن عاشور: «والمتعة هي: عطية يعطيها الزوج للمرأة إذا طلقها»[٣]، «وأصل المتعة والمتاع: ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير ذلك، ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند طلاقها منه لتنتفع به، جبراً لخاطرها، وتعويضاً لما نالها بسبب هذا الفراق»[٤].

والموسع هو: الغنى الذي يكون في سعة من غناه. يقال: أوسع الرجل إذ كثر ماله، واتسعت حاله، والمقتر هو: الفقير الذي يكون في ضيق من فقره. أقتر الرجل أي: افتقر وقل ما في يده[٥].

وقد اختلف العلماء: هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها، والراجح من تلك الأقوال: إن المتعة حق للمطلقة سواءً سمى لها الزوج الصداق أم لم يسم، وقد جعل الله التمتيع جبرًا لخاطر المرأة المنكسر بالطلاق بحكم آية سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٣١٥، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٣٣، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١١١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٥.
(٣) التحرير والتنوير ٢/ ٤٦٢.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٥٤١.
وانظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٢/ ١٨٤، المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي ص ٣٩٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٢٠، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٨٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٦٢.

﴿جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب:٤٩][1].

«لأن الله أمر بالتمتيع للمطلقة قبل البناء مطلقاً فكان عمومها في الأحوال كعمومها في الذوات، وليست آية البقرة بمعارضة لهذه الآية إذ ليس فيها تقييد بشرط يقتضي تخصيص المتعة بالتي لم يسم لها صداق لأنها نازلة في رفع الحرج عن الطلاق قبل البناء وقبل تسمية الصداق، ثم أمرت بالمتعة لتينك المطلقتين فالجمع بين الآيتين ممكن»[2].

وظاهر هذه الآية وجوب المتعة لكل المطلقات عملاً بظاهر قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة:٢٤١].

ولكن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

لم يجعل للتي طلقت قبل الدخول وقد فرض لها مهر إلا نصف ما فرض لها، ولم يجعل لها متعةً، لأن وروده في مقابلة قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦].

يجعله كالبيان لمفهوم القيد الذي هو عدم الفرض، فيكون كالصريح في أن التي طلقت قبل الدخول ولم يفرض لها مهر ليس لها متعة[3].

٢. السّعة في الإنفاق على الأقارب والمساكين والمجاهدين.

اعتبر القرآن الكريم السّعة في الإنفاق على الأقارب والمساكين والمجاهدين حيث نهى الله تعالى أولي الفضل والسعة، وأولوا الفضل هم: أهل الطول والصدقة والإحسان، والسعة: أي: الجدة أن يحلفوا بأن لا يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:٢٢].

أي: لا تحلفوا[4] أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين، وهذا في غاية

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٦٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٦٢.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٧٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٨٩.
(٤) معنى تأتلي: تحلف، هو مأخوذ من الألية، والألية اليمين، ومعنى أن يؤتوا: أن لا يؤتوا أولي القربى، والمعنى: ولا يحلف أولو الفضل منكم والسعة أن لا يعطوا أولي القربى والمساكين.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣١٣، أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٣٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩.

الترفق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي: عما تقدم منهم من الإساءة والأذى؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم، وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح ابن أثاثة بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال[1].

ونزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق، وكان حلف أن لا يفضل على مسطح بن أثاثة، وكان ابن خالته بسبب سبه عائشة رضي الله عنها فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة، وكان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها، وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه[2].

وأعاد الإفضال على مسطح وعلى من حلف أن لا يفضل عليه وكفر عن يمينه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان[3].

ويمكن القول بالقاعدة الأصولية إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعليه فتعتبر السعة في الإنفاق على الأقارب والمساكين والمجاهدين.

ثانيًا: السّعة في المكان:

أثبت القرآن الكريم سعة المكان الدالة على عظمة الله جل وعلا والغنى المطلق له سبحانه من خلال ما يأتي:

١ . سعة كرسي الله تعالى.

أثبت الله سبحانه وتعالى سعة كرسيه في أعظم آية من كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣١٣، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥١٤، أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٣٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣١٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، رقم ٢٦٦١، ٣/ ١٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم ٢٧٧٠، ٤/ ٢١٢٩.

﴿بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ : بمعنى شمل واتسع وأحاط، يعني: أن كرسيه محيط بالسماوات والأرض، وأكبر منها، لأنه لولا أنه أكبر ما وسعها.

وفيها إثبات عظيم قدرة الرب جل وعلا حيث ذكر سعة كرسيه السماوات والأرض وأنه سبحانه: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥].

أي: لا يكرثه ولا يثقل عليه [(١)].

قال ابن منظور: «الكرسي: معروف واحد الكراسي، والكرسي في اللغة الشيء الذي يعتمد عليه ويجلس عليه، فهذا يدل على أن الكرسي عظيم دونه السماوات والأرض، والكرسي في اللغة والكراسية إنما هو الشيء الذي قد ثبت ولزم بعضه بعضا» [(٢)].

والكرسي ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع جمهور السلف، القول الراجح في معناه هو: إن الكرسي شيئ عظيم يضبط السموات والأرض، نسلم به بدون بحث في تعينه، ولا كشف عن حقيقته، ولا كلام فيه بالرأي دون نص عن المعصوم [(٣)]، إلا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهم بأن الكرسي موضع قدمي الرب عز وجل [(٤)].

وليس هو العرش، بل العرش أكبر من الكرسي وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن السماوات والسبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة) [(٥)].

وما روي في ذلك عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض) [(٦)].

من ذلك وغيره يتبين أن القول الفصل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٩٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٤١، مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٣٧، تفسير القرآن العظيم ابن كثير ١/ ٥٢٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣.

(٢) لسان العرب ٦/ ١٩٤.

(٣) تفسير المراغي ٣/ ١٤.

(٤) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة ٥٨٦، وابن أبي شيبة في كتاب العرش ٦١، وابن خزيمة في التوحيد ٢٤٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٨٢ وقال: صحيح عن شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الدارقطني في كتاب الصفات ٣٦ عن ابن عباس موقوفاً عليه، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٣ للطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني في مختصر العلو٤٥: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات.

(٥) سبق تخريجه قريبًا.

(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٤١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣.

في هذه المسألة هو: ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن الكرسي هو موضع قدمي الرب عز وجل، وبهذا القول جزم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى وغيرهما من أئمة العلم وأهل التحقيق[(١)].

٢. سعة السموات.

يخبر الله تعالى بأنه بنى السماء بأيدٍ، أي: بقوة وقدرة تتناسب مع عظم هذا المخلوق، وأن السماء في اتساع دائم.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات:٤٧][(٢)].

وقد ذكر المفسرون في معنى الآية أوجه:

أحدها: لموسعون في الرزق بالمطر، قاله الحسن.

الثاني: لموسعون السماء، قاله ابن زيد.

الثالث: لقادرون على الاتساع بأكثر من اتساع السماء.

الرابع: لموسعون بخلق سماء مثلها، قاله مجاهد.

الخامس: لذو سعة لا يضيق علينا شيء نريده[(٣)].

وفي الآية إشارة إلى امتداد السماء واتساعها، كما يبدو ذلك لأي ناظر ينظر إليها، حيث لا يبلغ الإنسان لها حداً، فحيث كان من عالم الأرض، فإن السماء تظله على امتداد الآفاق حوله، ولعل هذا من بعض ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر:١][(٤)].

وهذه الآية تصف سعة الكون أو أن نظرية تمدد الكون تتوافق مع هذه الآية؟ من الناحية الأولى نرى أن (أينستين) يتخيل سعة هذا الكون بأنه يتسع لبلايين من السدم وكل سديم منها يحتوي على مئات من النجوم المكهربة.

أما نظرية تمدد الكون، فقد لاحظ علماء الفلك في أقصى ما يدركه المنظار علامات تدل على حركة السدم الخارجية حركات نظامية، واستدلوا منها على أن جميع السدم الخارجية أو (الجذر الكونية) تبدو على أنها تتباعد عن مجموعتنا الشمسية بل

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٦٠، اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن القيم ٢/ ١٥١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٣٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ١٨٠، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٢، الجامع لحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٥٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٥.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ١٨٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٥٧، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٧٣، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٤٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١١.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٧/ ٤١، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٢٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٥٣٠.

إنها تتباعد عن بعضها البعض، وعلى هذا الأساس فإن الكون ليس ساكناً إنما يتمدد كما تتمدد فقاعة الصابون أو كما يتمدد البالون ولكن الأجسام المادية هي تحافظ على أحجامها[1].

وقد تقدم عدد من العلماء الكونيين بنظريات تشرح لغز الكون المتمدد، منهم: الدكتور: هابل، رائد الباحثين في السدم فقد لاحظ أن هناك نزعة واحدة تسود هذه المجموعات النجمية الواسعة الشاسعة البعد، وهي أنها أميل إلى الإدبار منها إلى الإقبال كما لاحظ أن سرعة الإدبار تزيد بازدياد أبعاد هذه الجزر الكونية[2].

قال محمد إسماعيل إبراهيم: «ويقرر العلم الحديث أن ملكوت الله العظيم والممتد بلا نهاية والمتسع باستمرار فيه بلايين النجوم ذات الأقدار المختلفة حجماً ولمعاناً وكل واحد من هذه النجوم يتفجر كما انفجرت شمسنا مكونةً مجموعاتها من الكواكب الدائرة حولها، وبهذه الانفجارات الكثيرة للنجوم يتسع نطاق ملك الله، ثم إن هذه النجوم كانت أجزاء من سدم هائلة هي السحب الكونية التي كانت متصلةً ثم انفصل بعضها عن بعض بسبب هذه الانفجارات التي حدثت بصورة دقيقة ومحكمة وتركت ما تناثر منها في حركة منتظمة بلا خلل ولا تصادم بينها، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

والحقائق الثابتة والمشاهدة بأجهزتنا الدقيقة في الصور الفوتغرافية العديدة التي حصلنا عليها تدلنا دلالةً واضحةً على أن جميع ما في الكون الشاسع من حجم الذرة إلى حجم أكبر النجوم لا تتحرك أو تدور أو تسبح في أفلاكها إلا بحكمة فائقة وتقدير متناه في الدقة حيث لا شيء مطلقاً في ملك الله يتحرك حركةً عشوائيةً لانه سبحانه قدر كل شيء تقديراً وأحكمه إحكاماً»[3].

وتحدثت الآية الكريمة عن حقيقة البناء الكوني في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

وقد ثبت يقينًا أن البناء الكوني منظم ومعقد ومحكم، وأن في الكون هندسة مبهرة فالكون يحوي أعمدة، ويحوي جسورًا من المجرات، ويحوي كذلك خيوطًا عظمى كل خيط يتألف من آلاف المجرات ويمتد لمئات البلايين من السنوات الضوئية، فسبحان من أحكم هذا البناء وحدثنا عنه

(١) انظر: معجزات القرآن العلمية، حامد حسين قدير، منشورات مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الرابعة عشرة، العددان الخامس والخمسون والسادس والخمسون، رجب، ذو الحجة ١٤٠٢هـ ص ١٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ١٨٠.

(٣) انظر: القرآن وإعجازه العلمي ص ١٧٢.

قبل أن يكتشفه علماء الغرب بقرون طويلة.

وهنا يتفوق القرآن على العلم من جديد، فالعلم يتحدث عن (فضاء)، والقرآن يتحدث عن (بناء)، وكلمة (بناء) هي الكلمة الأنسب علميًا لوصف السماء، فسبحان القائل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان:٣٣].

والقائل سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣].

والقائل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

ويفهم من الآية الكريمة أن هذه الكون يتسع باستمرار من بداية خلقه إلى يومنا هذا، فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

وعبر عن هذا الاتساع باسم الفاعل (موسع)، واسم الفاعل يكون في الأزمنة الثلاثة (الماضي والحال والاستقبال) كما يقرر ذلك علماء اللغة العربية، أي : أن هذا الاتساع بدأ في الماضي وهو مستمر في عصر نزول الآية وسيستمر إلى ما شاء الله تعالى، وتوسع الكون حقيقةً لم يتمكن الإنسان من إدراكها إلا في الثلث الأول من القرن العشرين، ودار حولها الجدل حتى سلّم بها أهل العلم أخيراً، وقد سبق القرآن الكريم بإقرارها قبل أربعة عشر قرنًا أو يزيد، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرًا لتلك الإشارة القرآنية الباهرة غير الله الخالق تبارك وتعالى، فسبحان خالق الكون الذي أبدعه بعلمه وحكمته وقدرته، والذي أنزل لنا في خاتم كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم عددًا من حقائق الكون الثابتة، ومنها تمدد الكون وتوسعه فقال عز من قائل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

لتبقى هذه الومضة القرآنية الباهرة مع غيرها من الآيات القرآنية، شهادة صدق بأن القرآن الكريم كلام الله، وأن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم كان موصولًا بالوحي، معلمًا من قبل خالق السماوات والأرض، وأن القرآن الكريم هو معجزته الخالدة إلى قيام الساعة[1].

٣. سعة الأرض.

أخبر الله تعالى أن أرضه واسعةً للمهاجرين في سبيله ، والذين قد يظنون أن في الهجرة بعد عن الأوطان وربما يحصل ضيق في العيش.

قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

(١) انظر بحث: الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، عادل الصعدي، منشور في موقع جامعة الإيمان اليمنية.

[النساء:١٠٠].

قال الإمام الماوردي: «في المراغم خمسة تأويلات:

أحدها: أنه المتحول من أرض إلى أرض، وهذا قول ابن عباس والضحاك.

والثاني: مطلب المعيشة، وهو قول السدي.

والثالث: أن المراغم المهاجر، وهو قول ابن زيد.

والرابع: يعني بالمراغم مندوحة عما يكره.

والخامس: أن يجد ما يرغمهم به، لأن كل من شخص عن قومه رغبةً عنهم فقد أرغمهم، وهذا قول بعض البصريين، وأصل ذلك الرغم وهو الذل. والرغام: التراب لأنه ذليل، والرغام بضم الراء ما يسيل من الأنف.

والظاهر: أنه المنع الذي يتحصن به ويراغم به الأعداء . قوله ﴿وَسَعَةً﴾ يعني: الرزق، قاله غير واحد منهم قتادة حيث قال: في قوله : ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي : من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَسَعَةً﴾ ثلاث تأويلات:

أحدها: سعة في الرزق، وهو قول ابن عباس.

والثاني: يعني من الضلالة إلى الهدى ومن العيلة إلى الغنى، وهو قول قتادة.

والثالث: سعة في إظهار الدين»[2].

وقد بين الله تعالى ظلم من لم يهاجر من أرض الشرك إلى أرض الإسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء:٩٧].

والآية توجب المهاجرة إلى المدينة مع المسلمين، وذلك أن الله تعالى لم يرض بإسلام أهل مكة حتى يهاجروا، روى البخاري قال: حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا حيوة، وغيره، قالا: حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود، قال: قطع على أهل المدينة بعث، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة، مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس: «أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم، فيقتله - أو يضرب فيقتل» فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٥

(٢) النكت والعيون ١/ ٥٢٢.
وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٤٧٠
الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٤٧.

﴿الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٧][1].

وذلك أنهم خرجوا مع المشركين يكثرون سوادهم فقتلوا معهم[2].

وروى أبو داود عن سمرة بن جندب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله)[3].

واستثنى الله تعالى من هؤلاء: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٨-٩٩].

وهذه الآية عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني طريقًا[4].

والأمر بالهجرة من أرض الشرك والمعاصي عام يشمل جميع المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت:٥٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠].

فقال تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ إن تعذرت العبادة عليكم في بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتي بحال، وبهذا علم أن الجلوس في دار الحرب حرام، والخروج منها واجب[5].

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر[6].

وفي الآيات تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده، أي: إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة، لإظهار التوحيد بها.

قال الزجاج: «أمروا بالهجرة من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ رقم٤٥٩٦، ٦/ ٤٨

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٠٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد باب في الإقامة بأرض الشرك، رقم ٢٧٨٧، ٣/ ٩٣.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦١٨٦، ٢/ ١٠٦٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٤.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٦٩.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٦.

الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله، وكذلك يجب على من كان في بلدة يعمل فيها بالمعاصي، ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد الله حق عبادته»[(١)].

وقال ابن جبير وعطاء: «إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق. وقاله مالك، وقال مجاهد: إن أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا»[(٢)].

وقال سفيان الثوري: «إذا كنت بأرض غالية فانتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزًا بدرهم، وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرضى الجنة واسعة، فاعبدون حتى أورثكموها فإياي فاعبدون»[(٣)].

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك: أصحمة النجاشي ملك الحبشة، فآواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم آمنين في بلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية المطهرة[(٤)].

وفي بيان سعة الأرض للمؤمنين تطمين لهم في كل وقت وحين بأن أرض الله واسعة للهجرة في كل عصر، وعلى هذه الآيات يستند المؤمنون الذين يضايقون وينكل بهم في بعض بلدان الأرض بسبب عقيدتهم ودينهم بأن لهم متسعًا في الأرض يمكنهم من الفرار بدينهم إلى بلدان أخرى بحيث تكون لهم الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم الدينية والبعد من البلدان التي يضيق عليهم فيها.

موضوعات ذات صلة

الإسراف، الاقتصاد، الإنفاق، البخل، الرزق، الكسب، المال، اليسر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٢٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٥٧.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٣/ ٣٥٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٦٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٤٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦٢.

السَّعْيُ

عناصر الموضوع

مفهوم السعي	١٢٨
السعي في الاستعمال القرآني	١٢٩
الألفاظ ذات الصلة	١٣٠
أنواع السعي	١٣١
كتابة السعي والمحاسبة عليه	١٥٠
أسباب السعي	١٥٦
جزاء السعي	١٦٢

مفهوم السعي

أولًا: المعنى اللغوي:

يأتي السعي في اللغة على معان هي:

الأول: المشي، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات:١٠٢] يعني: المشي[(١)].

الثاني: الإسراع في المشي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص:٢٠]. أي: يسرع في مشيه[(٢)].

الثالث: السعي: الجد، ومنه قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [سبأ:٥]. أي: اجتهدوا في أن يظهروا لنا عجزاً فيما أنزلناه من الآيات[(٣)].

الرابع: العمل والتصرف والكسب في أي عمل كان، ومنه قوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[طه:١٥]. أي: تكسب[(٤)]، وأصل السعي التصرف في كل عمل وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم:٣٩].أي: إلا ما عمل[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

السعي اصطلاحًا هو: العمل والفعل، وهذا مروي عن كثير من المفسرين منهم عكرمة ومجاهد، وزيد بن أسلم، وابن شهاب قال مالك: وإنما السعي في كتاب الله عز وجل العمل والفعل[(٦)].

ويمكن صياغة تعريف للسعي في القرآن بأنه: العمل والفعل الجاد الذي يقوم على النية والقصد سواءً أكان ذلك في الخير أو الشر.

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٢٧٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٥٧، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٧٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤١١.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤١٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٢٢٢.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٨٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٨/ ٢٨٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٣١.
(٥) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٧٧.
(٦) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٨٩، أحكام القرآن، الجهضمي ص ١٩٨.

السعي في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سعى) في القرآن الكريم (٣٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧	﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة:٢٠٥]
الفعل المضارع	١٢	﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص:٢٠]
فعل الأمر	١	﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]
المصدر	١٠	﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات:١٠٢]

وجاء السعي في القرآن الكريم على وجهين، وهما[٢]:

الأول: المشي، أو الإسراع في المشي: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ [عبس:٨]. يعني: يمشي، أو يسرع.

الثاني: العمل: قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء:١٩]. يعني: وعمل لها عملًا وهو مؤمن، كان عملهم مقبولًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٥١.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٥٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٤٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ العمل:

العمل لغة:

المهنة والفعل، قال ابن فارس: «(عمل) العين والميم واللام أصل واحد صحيح، وهو عام في كل فعل يفعل»[(١)].

العمل اصطلاحًا:

كل فعل كان بقصد وفكر سواءً كان من أفعال القلوب كالنية أم من أفعال الجوارح كالصلاة[(٢)].

الصلة بين العمل والسعي:

العمل هو المعنى الرئيس في القرآن للسعي ويقوم على القصد والإرادة.

٢ الشغل:

الشغل لغة:

(شغل) الشين والغين واللام أصل واحد، يدل على خلاف الفراغ، تقول: شغلت فلانًا فأنا شاغله، وهو مشغول، وجمع الشغل أشغال، وقد جاء عنهم: اشتغل فلان بالشيء، وهو مشتغل[(٣)].

الشغل اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الشغل في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

وقال الراغب: الشّغل والشّغل: العارض الذي يذهل الإنسان، قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ [يس:٥٥][(٤)].

الصلة بين الشغل والسعي:

يشتركان في العمل الذي ينشغل به الإنسان، فهو سعي وشغل، وقد يكون الشغل بغير عمل، وقد يراد بالسعي غير العمل.

---

(١) مقاييس اللغة ٤/ ١٤٥.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٧٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ١٠١.
(٢) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي ص ٣٢٢.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٩٥.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٥٧.

أنواع السعي

أقسم الله تعالى على أن سعي الناس أنواع مختلفة، وذلك في قوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل:١-٤].

أي : إن عملكم لمختلف أيها الناس؛ لأن منكم الكافر بربه، والعاصي له في أمره ونهيه، والمؤمن به، والمطيع له في أمره ونهيه، ومنكم من سعيه في طلب دنياه، ومنكم من سعيه في شهوات نفسه واتباع هواه، ومنكم من سعيه في طلب جاهه ومناه، وآخر في طلب عقباه[1].

أولًا: السعي الممدوح:

١ . السعي في الطاعات.

إن السعي في الطاعات التي يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى من السعي الممدوح الذي يكسب به الساعي رضى الله تعالى، وثناء الناس.

وقد أمر الله تعالى بالسعي إلى الطاعات في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة:٩].

وفي الآية أمر من الله تعالى للمؤمنين بالسعي إلى صلاة الجمعة عند قعود الإمام على المنبر للخطبة، وأصل السعي في هذا الموضع العمل، والسعي لذكر الله تعالى يتضمن جميع الطاعات، وهذا أولى لأنه أوفق لعموم اللفظ[2].

ومثله السعي في الحج في جميع المشاعر وبين الصفا والمروة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ۝١٥٨﴾ [البقرة:١٥٨][3].

كما أخبر سبحانه وتعالى أن من يسعى إلى عمل الآخرة أن سعيهم مشكور.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء:١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٦٧، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٨٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٥٠٢ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٠٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٨٠.

(٢) انظر: معاني القرآن، الأخفش ٢/ ٥٤٢، جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٨٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٣٩، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٧٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٨٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٦١، النكت والعيون، الماوردي٦/ ٨، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٤١، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٥٥.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤].

وهذه الآيات مشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة وهي تشمل جميع الطاعات[١].

كذلك يدل على هذا المعنى الآيات التي ذكر فيها عمل الصالحات، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:٢٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء:٩].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار)[٢]، وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله -وأحسبه قال- وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر)[٣].

والمراد بالساعي في الحديث: الكاسب لهما، العامل لمؤنتهما، والأرملة من لا زوج لها سواء كانت تزوجت أم لا، وقيل هي التي فارقت زوجها، وسميت أرملة لما يحصل لها من الإرمال وهو الفقر وذهاب الزاد بفقد الزوج، يقال: أرمل الرجل إذا فني زاده، والمسكين الذي لا شيء له[٤].

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة)، وفي رواية (وأنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئًا[٥].

وأما كافل اليتيم فهو: القائم بأموره من

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٠١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣٢٣، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم ٥٣٥٣، ٧/ ٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم ٢٩٨٢، ٤/ ٢٢٨٦.

(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٠٣، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣٨٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم ٥٣٠٤، ٧/ ٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم ٢٩٨٣، ٤/ ٢٢٨٧، عن سهل بن سعد.

نفقة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك وهذه الفضيلة تحصل لمن كفله من مال نفسه أو من مال اليتيم بولاية شرعية[1].

٢. السعي في نصرة الحق وأهله.

إن السعي في نصرة الحق وأهله من السعي الممدوح فاعله.

قال تعالى عن العبد الصالح الذي نصر الحق ودافع عن المرسلين: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس:٢٠][2].

فقد جاء هذا الرجل من أقصى المدينة، وفي ذلك بلاغة باهرة؛ لأن ذلك يدل على أنه تحمل المشقة والبعد من أجل نصرة الحق وأهله، والمدينة هي أنطاكية، وهي كانت كبيرةً شاسعةً، قائلا لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، أي: اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل[3]، حتى وإن ضحى الساعي في نصرة الحق بنفسه فقد جاء قتادة في قوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ قال: بلغني أنه رجل كان يعبد الله في غار واسمه حبيب فسمع بهؤلاء النفر الذين أرسلهم عيسى إلى أهل انطاكية فجاءهم فقال: تسألون أجراً فقالوا: لا ، فقال لقومه ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ حتى بلغ ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ قال: فرجموه بالحجارة فجعل يقول: رب اهد قومي فإنهم لا يعلمون ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ حتى بلغ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قال: فما نوظروا بعد قتلهم إياه حتى أخذتهم ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[4].

وكذلك ذكر القرآن الكريم مؤمن آل فرعون حين نصر الحق.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر:٢٨].

فقد كتم هذا الرجل الإيمان من أجل الدعوة والدفاع عنها، وفي مرحلة الضعف خوفا على النفس، مما أباحه الشرع، وقد ذكر الله تعالى في معرض المدح رجلاً مؤمناً من آل فرعون كان يكتم إيمانه[5]، وأظهر الرجل إيمانه حين رأى أن ذلك من مصلحة

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/ ١١٢، شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٢١٨.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٢/ ١٥٣، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ١٠٠.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٦٢.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٤، الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٥١.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٧٥.

الدعوة، ومواجهة خطر فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر:٢٦].

فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل وقام بواجبه بالجهاد بالكلمة عند سلطان جائر والتي هي أفضل الجهاد، كما قال صلى الله عليه وسلم: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)[(١)].

ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهي قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨] أي: لأجل أن يقول ربي الله[(٢)].

واختلف المفسرون أيضًا: هل كان إسرائيلياً أو قبطياً من آل فرعون ؟ والتحقيق أن الرجل المؤمن المذكور في هذه الآية هو من جماعة فرعون، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾[(٣)]، دون أن يذكر القرآن اسمه، وإنما أشار إلى خاصته، وذوي قرابته، فهو إنسان ذو شأن في المجتمع الفرعوني، ومع هذا لم يكشف القرآن عن اسمه.

ويكون السعي في نصرة الحق وأهله بكل الوسائل الممكنة بالقول والبيان كما في هذه الآيات السابقات، أومن خلال الجهاد الشرعي المضبوط بضوابطه الفقهية المعروفة عند الفقهاء.

قال تعال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال:٥-٨].

٣. السعي في طلب العلم.

إن السعي في طلب العلم من أفضل الأعمال التي توازي الجهاد في سبيل الله

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأوامر والنواهي، رقم ٤٣٤٤، ٤/ ١٢٤، والترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم ٢١٧٤، ٤/ ٤٧١، والنسائي في سننه، كتاب البيعة، فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر، رقم ٤٢٠٩، ٧/ ١٦١.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٤٠.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٠٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ١٢٢٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٤.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٠٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٤.

تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

أي: فهلا خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعة ويبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة، ليتفقهوا في الدين، يعني: فرقة القاعدين يتعلمون القرآن والسنن والفرائض والأحكام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أنزل الله بعدهم على نبيه من القرآن[(١)].

وقد عاتب الله تعالى نبيه الكريم في الإعراض عن الذين يسعون في طلب العلم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾ [عبس:٨] أي: لطلب العلم، ويخشى الله فأنت عنه تتلهى، وتتشاغل... وهذا كله من قبيل العتاب للنبي صلى الله عليه وسلم[(٢)].

وقد بين الله تعالى أنه اصطفى من عباده من يحمل الكتاب وهم: علماء الأمة من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، أو الأمة بأسرهم، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم فمنهم ظالم لنفسه بالتقصير في العمل به، ومنهم مقتصد يعمل به في غالب الأوقات، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله بضم التعليم والإرشاد إلى العمل، وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم، وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذي خلط الصالح بالسيء والسابق الذي ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢][(٣)].

وروى الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر)[(٤)].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٠٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢١٥، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٦٣، تفسير المراغي ٣٠/ ٤١، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٢٨٤.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٥٩.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ٣٦٤١، ٣/ ٣١٧، والترمذي في سننه، أبواب العلم عن رسول

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه)[1].

ومعنى الحديث: من سلك طريقا: حسية أو معنوية، ونكره ليتناول أنواع الطريق الموصلة إلى تحصيل أنواع العلوم الدينية، والمعنى سهل الله له بسبب العلم طريقاً من طرق الجنة ، وذلك لأن العلم إنما يحصل بتعب ونصب، فمن تحمل المشقة في طلبه سهلت له سبل الجنة سيما إن حصل المطلوب.

قال ابن جماعة: «والأظهر أن المراد أن يجازيه يوم القيامة بأن يسلك به طريقاً لا صعوبة له فيه ولا هول إلى أن يدخله الجنة سالمًا، فأبان أن العلم ساعد السعادة وأس السيادة والمرقاة إلى النجاة في الآخرة والمقوم لأخلاق النفوس الباطنة والظاهرة فهو نعم الدليل والمرشد إلى سواء السبيل، وتقديم الظرفين (فيه - له) للاختصاص؛ لأن تسهيل طريق الجنة خاص بالله وغيره في مقابلته كالعدم ؛ لأنه في حقه غير مفيد، وكذا بالنسبة لسببه فإن غير هذا السبب من أسباب التسهيل كالعدم ؛ لأنه أقوى الأسباب المسهلة وفيه حجة باهرة على شرف العلم وأهله في الدنيا والآخرة لكن الكلام في العلم النافع لأنه الذي يترتب عليه الجزاء المذكور كما تقرر»[2].

وهناك أحاديث نبوية صحيحة عديدة فيها تنويه بالعلم وحثّ عليه وتنويه بالعلماء وفضلهم ومسؤولياتهم، يصح أن يساق في هذا المقام، من ذلك حديث رواه البخاري ومسلم عن معاوية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدّين)[3].

وسلوك طريق العلم مما تعترضه

الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم ٢٦٨٢، ٥/ ٤٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم ٢٢٣، ١/ ٨١ .
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢١١٧، ٢/ ١٠٧٩.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٧٤، فيض القدير، المناوي ٦/ ١٥٤، دليل الفالحين، البكري ٧/ ١٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم ٧١، ١/ ٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب النهي عن المسألة، رقم ١٠٣٧، ٢/ ٧١٩.

المشقات والسفر والبعد عن الأوطان.

وقد قال الله تعالى عن نبيه موسى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف:٦٢-٦٩].

يخبر تعالى عن قول موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم، وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر قال له موسى : هل أتبعك ؟ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم[1].

٤ . السعي في عمارة المساجد.

إن السعي في عمارة المساجد من السعي المحمود الذي يقوم به المؤمنون

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٧-١٨].

إن عمارة المسجد هي: لزومه، والإقامة فيه، وعبادة الله فيه، وبناؤه وترميمه، وهي نوعان: حسية، ومعنوية:

فالحسية: بالتشييد والبناء والترميم والتنظيف والفرش والتنوير بالمصابيح والدخول إليها والقعود فيها.

والمعنوية: بالصلاة وذكر الله، والاعتكاف، والزيارة للعبادة فيها، وذلك يشمل العمرة، ومن الذكر: درس العلم، بل هو أجله وأعظمه وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا، فضلا عن فضول الحديث[2].

والمعنى في هذه الآية إنما يعمر مساجد الله بالحق لهم والواجب، ولفظ هذه الآية الخبر وفي ضمنها أمر المؤمنين بعمارة المساجد، وقد قال بعض السلف: إذا رأيتم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٤١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٦، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٩٤، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٥٤، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٨٦.

الرجل يعمر المسجد فحسنوا به[1]، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، وعمارتها رمّ ما استرم منها، وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا ؛ لأنها بنيت للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم[2].

ثم بين سبحانه أن المؤمنين الصادقين هم الجديرون بعمارة مساجد الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: ليس المشركون أهلًا لعمارة مساجد الله وإنما الذين هم أهل لذلك المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله إيماناً حقًّا، وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، وآمنوا بما فرضه الله عليهم من فرائض فأدوها بالكيفية التي أرشدهم إليها نبيهم صلى الله عليه وسلم فهم في صلاتهم خاشعون وللزكاة معطون بسخاء وإخلاص.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨][3].

٥. السعي في النصيحة.

إن النصيحة ذات أهمية عظيمة عند ذوي الألباب والفهوم؛ لأنها إرشاد إلى الصواب وتوجيه نحو العمل الصالح والأخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة وهداية إلى ما يعود نفعه وفائدته على المنصوح بالسعادة والعز والنصيحة ، تبصير بالمضار حتى لا يقع فيها من لا يعرفها.

ولذلك ينبغي أن يكون الناصح ذا رأي ثاقب وعقل راجح قد جرب الأمور وعركته الأيام والليالي ، وذاق حلوها ومرها وانتفع بما رآه فيها من عسر ويسر وفرح وسرور، وخلص قلبه من هم قاطع وغم شاغل ليسلم رأيه وتخلص نصيحته من الشوائب المكدرة[4].

والسعي في النصيحة من الأعمال التي قام بها الأبياء عليهم السلام.

قال تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٥٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٩٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٠٥.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٢٢٨.
(٤) انظر: موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان ٣/ ٤٦٧.

﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف:٥٩-٦٢].

وقال عن هود عليه السلام: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف:٦٥-٦٨].

وقال عن صالح عليه السلام: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف:٧٧-٧٩].

وقال عن شعيب عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف:٩٠-٩٣].

فإذا علمت أن شراً سينزل بمؤمن غافل عنه فواجب عليك أن تنبهه وتحذره ليأخذ حذره من الكائدين، وأسرع بأخباره كما حذر رجل موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠].

فهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون والمشهور إن هذا الرجل المؤمن كان (قبطيًّا) من آل فرعون، وجاء من أقصى المدينة ومعنى ﴿يَسْعَىٰ﴾ يعدو أي: من أطرافها البعيدة، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: يتشاورون في قتلك.

الثاني: يأمر بعضهم بعضًا بقتلك.

ومنه قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٦] أي: ليأمر بعضكم بعضًا، والملأ أشراف القوم، والمنظور إليهم.

﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص:٢٠] أي: من الناصحين لك في الأمر بالخروج، والنصح للإنسان هو الإشارة عليه بما يصلح أمره، وقد كان السلف يطلب هذا بعضهم من بعض[1].

وتختلف النصيحة عن السعي بالنميمة؛

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٣٨، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٤٤، تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٤١.

لأن النميمة نقل للحديث من قوم الى قوم على وجه الإفساد بينهم وهي من الكبائر، أما نقل الكلام بقصد النصيحة فواجب، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠][1].

ثانيًا: السعي المذموم:

إن السعي المذموم في القرآن الكريم لكل صور وأمثلة، منها:

١. السعي في الصد عن سبيل الله تعالى.

إن الصد عن سبيل الله تعالى قد يكون بالانصراف والامتناع عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء:٦١].

وقد يكون بالصرف والمنع عن سبيل الله نحو قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد:١] إلى غير ذلك من الآيات[2].

وقد بين الله تعالى أن الكافرين والمنافقين يسعون مجتهدين في الصد عن سبيل الله تعالى بكل أنواع الصد، سواءً أكان بالإعراض عن القرآن، وعدم الالتفات إليه، أو كان ذلك بمنع وصرف من يريد اتباع الرسول، والإقرار بالقرآن الذي أنزله الله تعالى كما يدل عليه قوله بعد: ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ:٦][3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾، إشارة إلى سعى هؤلاء المشركين، وأنه سعي للباطل والضلال، حيث يسعون لإعجاز آيات الله، وغلبتها وصرفها عن طريقها.

وفي تعدية الفعل بحرف الجر «في» الذي يفيد الظرفية، إشارة إلى أنهم يدخلون فى آيات الله ويلبسون الحق بالباطل، إذ يحرفون الكلم عن مواضعه، ويلقون فيه بالهذر من القول، والسخف من الكلام[4].

ويكون المعنى: والذين جهدوا في إبطال آياتنا، ورد دعوة الدين، والتكذيب بها، وثبطوا الناس عن متابعة النبي صلى

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٢٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٢٦.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٧٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٩٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢١٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٦٤.

(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، يونس الخطيب ٩/ ١٠٥٩.

الله عليه وسلم، ظناً منهم أنهم يعجزوننا ويتفلتون من أمرنا وبعثنا لهم وأننا لا نقدر عليهم، فهم أهل النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، المقيمون فيها على الدوام.

وقد بين الله تعالى أن هؤلاء هم أصحاب الجحيم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج:٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ:٥][1].

كما حكى القرآن ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سبأ:٣٨].

كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨][2].

واختلف أهل التفسير في معنى قوله: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾، قال الماوردي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه تكذيبهم بالقرآن، قاله يحيى ابن سلام.

الثاني: أنه عنادهم في الدين، قاله الحسن.

(معجزين) قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقرأ الباقون (معاجزين) فمن قرأ معجزين ففي تأويله أربعة أوجه:

أحدها: مثبطين لمن أراد اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قول السدي.

الثاني: مثبطين في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قول مجاهد.

والثالث: مكذبين، حكاه ابن شجرة.

الرابع: معجزين لمن آمن بإظهار تعجيزه في إيمانه.

ومن قرأ (معاجزين) ففي تأويله أربعة أوجه:

أحدها: مشاقين، قاله ابن عباس.

والثاني: متسارعين حكاه ابن شجرة.

والثالث: معاندين، قاله قطرب.

والرابع: معاجزين يظنون أنهم يعجزون الله هرباً، قاله السدي[3].

ثم أخبر عن هؤلاء أنهم أصحاب النار بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج:٥١].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ:٥].

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٤٧.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٧/ ٢٤٤.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣.

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ [النحل:٨٨].

فالعذاب من الرجز الأليم المذكور في «سبأ» هو عذاب الجحيم المذكور في الحج[1].

ثم توعدهم الله تعالى بالويل: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم:٢-٣][2].

وأخبر تعالى أن أهل الكتاب يصدون عن سبيل الله، فقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة:٣٤].

وكذلك قال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال:٤٧][3].

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم، ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعاً للحق، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل: لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرةً أشقياء في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم[4].

٢. السعي بالإفساد في الأرض.

إن السعي بالفساد من سجايا اليهود قولًا

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٧٦، جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٦١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٣٣، تفسير المراغي ١٧/ ١٢٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٣٣، تفسير المراغي ١٧/ ١٢٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٠٣.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٣.

وفعلًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤]

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: ... ويعمل هؤلاء اليهود والنصارى بمعصية الله، فيكفرون بآياته ويكذبون رسله، ويخالفون أمره ونهيه، وذلك سعيهم فيها بالفساد والله لا يحب المفسدين»، يقول: والله لا يحب من كان عاملاً بمعاصيه في أرضه»[1]، أي: من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته[2].

وصفة السعي بالفساد من صفات الملوك الجبابرة، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل:٣٤].

وقال تعالى عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النازعات:٢٢].

فبعد أن رأى فرعون الآية الكبرى، وهي المعجزة الكبرى الدالة على صدق نبوته، وهي انقلاب العصا حيةً أو اليد، ومع ذلك كذب وخالف، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي: فكذب فرعون بموسى وبما جاء به وبالحق، وعصى الله عز وجل فلم يطعه، وتولى وأعرض عن الإيمان، وأخذ يسعى بالفساد في الأرض، ويجتهد في مكايدة موسى ومعارضة ما جاء به والعمل على إبطال أمره[3].

وكذلك يسعى المنافقون في الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

فالمنافق إذا تولى وأعرض وأدبر أو تولى إذا أصبح واليًا سلطانًا جارٍ، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٦١.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٣.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٨٩، تفسير الراغب الأصفهاني ٥/ ٣٩٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٤٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠٢، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٥٠، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢١٨ التفسير القرآني للقرآن، يونس الخطيب ١٦/ ١٤٣٩.

[البقرة:٢٠٥][(١)].

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول الآية أقوالًا:

قال القاضي ابن عطية: «قال السدي: «نزلت في الأخنس بن شريق، واسمه أبي، والأخنس لقب، وذلك أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأظهر الإسلام، وقال: الله يعلم أني صادق، ثم هرب بعد ذلك، فمر بقوم من المسلمين، فأحرق لهم زرعاً، وقتل حمرًا، فنزلت فيه هذه الآيات ، وما ثبت قط أن الأخنس أسلم.

وقال ابن عباس: نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قتلوا في غزوة الرجيع عاصم بن ثابت وخبيب وابن الدثنة وغيرهم قالوا: ويح هؤلاء القوم لا هم قعدوا في بيوتهم ولا أدوا رسالة صاحبهم، فنزلت هذه الآيات في صفات المنافقين.

ثم ذكر المستشهدين في غزوة الرجيع في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وقال قتادة ومجاهد وجماعة من العلماء: نزلت هذه الآيات في كل مبطن كفر أو نفاق أو كذب أو إضرار وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك، فهي عامة»[(٢)].

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣١٠، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٢٨.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٧٩.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٣٢، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣١٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨٥.

وقوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾.

قال المفسرون إن : المراد الأخنس في إحراقه الزرع وقتله الحمر، وقال مجاهد: المراد أن الظالم يفسد في الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل، وقيل: المراد أن المفسد يقتل الناس فينقطع عمار الزرع والمنسلون، وقال الزجاج: يحتمل أن يراد بالحرث : النساء وبالنسل نسلهن»[(٣)].

قال القاضي أبو محمد بن عطية: «والظاهر أن الآية عبارة عن مبالغة في الإفساد، إذ كل فساد في أمور الدنيا، فعلى هذين الفصلين يدور»[(٤)].

أي: أن المنافق أعوج المقال سيء الفعال، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، وليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث، وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو نتاج الحيوانات اللذين لا قوام للناس إلا بهما، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي : لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك[(٥)].

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠٢، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٥٠، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢١٨.

(٤) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٢٧٩.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٠.

ومن الفساد في الأرض محاربة الله ورسوله كقطع الطريق وقتل النفس ونقض العهود والمواثيق.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المائدة:٣٣-٣٤].

والمحاربة هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر،[1] حتى قال كثير من السلف، منهم سعيد بن المسيب: إن قطع الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ [البقرة:٢٠٥].

ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، كما روى ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري، قالا: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ نزلت هذه الآية في المشركين، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه، لم يكن عليه سبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل، أو أفسد في الأرض، أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب.

قال الإمام ابن كثير: «والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات.

كما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي قلابة واسمه عبدالله ابن زيد الجرمي البصري عن أنس بن مالك أن نفرًا من عكل ثمانية، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا المدينة، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال (ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيبوا من أبوالها وألبانها) فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا، فقتلوا الراعي، وطردوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث في آثارهم

(١) الحرابة هي: قطع الطريق وإشهار السلاح خارج المصر، وقال البعض تتحقق الحرابة داخل المصر..والمحارب وفسره الجمهور في هذه الآية بالذي يقطع الطريق على الناس، مسلماً كان أو كافرًا.
انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي ص ١٧٧، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ٨٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٨٤، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٥٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور٦/ ١٨٢.

فأدركوا فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا[(١)(٢)].

وقال ابن عاشور: «وفي الآية الكريمة إشارة إلى بني إسرائيل، وإلى أنهم هم الوجه البارز فى الإنسانية، الذي تظهر فيه تلك المنكرات ظهوراً واضحاً، حتى لتكاد تكون الأصل الذي يقاس عليه كل منكر يظهر في الناس. فهم يحادون الله ورسوله، والمحادة هي العدوان على حدود الله، والاستباحة لحرماته»[(٣)].

٣. السعي في خراب المساجد.

إن السعي في خراب المساجد من أظلم الظلم كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

أي: لا أظلم ممن اجتهد وبذل وسعه في خرابها الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقذيرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام، لكل من اتصف بهذه الصفة[(٤)].

وقد اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها؟ على قولين:

القول الأول: إن المراد بالذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها بأنهم هم النصارى قال مجاهد: هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وعن قتادة قال: هو بختنصر وأصحابه، خرب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى، وقال سعيد عن قتادة: قال أولئك أعداء الله، النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس، حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف[(٥)].

وهذا القول اختاره ابن جرير، واحتج بأن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق، رقم ٣٠١٨، ٤/ ٦٢، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب حكم المحاربين والمرتدين، رقم ١٦٧١، ٣/ ١٢٩٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٨٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٢٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦٩.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٢٠، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٢٨، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٧٣، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦٩.

قال ابن جرير: «والدليل على صحة ما قلنا في ذلك، قيام الحجة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها، وأن لا مسجد عنى الله عز وجل بقوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾، إلا أحد المسجدين، إما مسجد بيت المقدس، وإما المسجد الحرام، وإذ كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الصلاة فيه صح وثبت أن الذين وصفهم الله عز وجل بالسعي في خراب مساجده، غير الذين وصفهم الله بعمارتها، إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه، كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم.

وأخرى أن الآية التي قبل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذم أفعالهم، والتي بعدها نبهت بذم النصارى والخبر عن افترائهم على ربهم، ولم يجر لقريش ولا لمشركي العرب ذكر، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر بقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ إليهم وإلى المسجد الحرام.

وإذ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه، وهو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها، إذ كان خبرها لخبرهما نظيراً وشكلاً إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت»[1].

القول الثاني: إن المراد بهم المشركون الذين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، وبين أن يدخلوا مكة، حتى نحر هديه بذي طوى، وهادنهم، فعن ابن عباس أن قريشاً منعوا النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[2].

ورجح هذا القول الإمام ابن كثير فقال في ترجيح هذا القول: «شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله صلى

(١) جامع البيان ٢/ ٥٢٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٢٠، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٩٢، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٢٨، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٧٣، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦٩.

الله عليه وسلم وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال:٣٤].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح:٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨].

فإذا كان من هو كذلك مطرودًا منها مصدودًا عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟

وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك»[1].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ هذا خبر معناه الطلب، أي: لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها، إلا تحت الهدنة والجزية، وهذا إنما كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨].

وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين، على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين، أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى: ما كان إلا الحق والواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم.

وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين، أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم، حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم، إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل،

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٧٠.

إن لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يجلى اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة. وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافةً، بشيراً ونذيراً، صلى الله عليه وسلم، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا، لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها، ولهم في الآخرة عذاب عظيم على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، والطواف به عرياً وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله[1].

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨][2].

وعلى أي حال، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتشمل أهل الكتاب والمشركين ومن على شاكلتهم، في كل زمان ومكان، وينطبق على ما وقع من تيطس الروماني الذي دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وخربها، وهدم هيكل سليمان عليه السلام، وأحرق بعض نسخ التوراة، وكان المسيح قد أنذر اليهود بذلك، كما ينطبق على مشركي مكة الذين منعوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من دخول مكة، وكذلك على الصليبيين الذين أغاروا على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين، وصدهم عن المسجد الأقصى وتخريبهم كثيراً من المساجد، ويتكرر الأمر من اليهود في الوقت الحاضر بتخريب كثير من مساجد فلسطين، وإحراق المسجد الأقصى، ومحاولات هدمه المتكررة[3].

قال وهبة الزحيلي: «إن تدمير المساجد أو الصد عنها جرم عظيم، لا يرتكبه إلا من فقد الإيمان، وعادى جوهر الدين، واتبع الأهواء، وحارب الأخلاق والفضائل، ولم يقدم على تلك الجريمة في الماضي أو في العصر الحاضر، سواءً في ديار الإسلام أو غيرها إلا الملحدون المارقون من الدين، الذين يبتغون نشر الإلحاد وتقويض دعائم الدين والإسلام»[4].

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٩٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٧٠.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٣.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٢٨٠.
(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٨١.

كتابة السعي والمحاسبة عليه

بدهي أن يكتب السعي ويحاسب عليه؛ لأن ذلك سنة الله الجارية في الخلق وسيكون هذا المبحث عن ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: كتابة السعي:

بين الله تعالى أنه يكتب سعي المؤمن الذي يعمل الصالحات في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤].

والمعنى: فمن عمل بما أمره الله به من العمل الصالح، وأطاعه في أمره ونهيه، وهو مقر بوحدانية الله؛ مصدق بوعده ووعيده متبرئ من الأنداد والآلهة، فإن الله يشكر عمله الذي عمل له مطيعاً له، وهو به مؤمن، فيثيبه في الآخرة ثوابه الذي وعد أهل طاعته أن يثيبهموه، ولا يكفر ذلك له فيجحده، ويحرمه ثوابه على عمله الصالح ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ يقول: ونحن نكتب أعماله الصالحة كلها، فلا نترك منها شيئاً لنجزيه على صغير ذلك وكبيره وقليله وكثيره. وإنا مثبتون له ذلك في صحيفة أعماله، لا نترك منه شيئاً جل أو قل، عظم أو حقر، والكتابة تكون في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي مع الحفظة أو في صحيفة عمله[(١)].

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:١٩٥].

أي: كل ذلك محفوظ ليجازي به[(٢)].

وأكد ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ مؤكدًا بحرف التأكيد للاهتمام به، والكتابة كناية عن تحققه وعدم إضاعته؛لأن الاعتناء بإيقاع الشيء يستلزم الحفظ عن إهماله وعن إنكاره، ومن وسائل ذلك كتابته ليذكر ولو طالت المدة. وهذا لزوم عرفي[(٣)].

كما بين سبحانه أنه يكتب سعي وعمل الكافر في مواضع متعددة من كتابه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس:٢١].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٢٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠٤، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٢٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٨٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٤٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٣٠، تفسير المراغي ١٧/ ٧٠.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٦٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٤٤.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف:١٩].

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران:١٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

إلى غير ذلك من الآيات[1].

كما أخبر الله تعالى عن كتابة السعي بخيره وشره للمسلم والكافر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس:١٢][2].

فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها والثالث: ما ذكرنا أن الآثار الأعمال وما قدموا النيات فإن النية قبل العمل[3].

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون ذلك بياناً لكون ما قدموا وآثارهم أمرًا مكتوبًا عليهم لا يبدل، فإن القلم جف بما هو كائن فلما قال: نكتب ما قدموا بين أن قبل ذلك كتابة أخرى، فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا، ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه.

وثانيها: أن يكون ذلك مؤكدًا لمعنى قوله: ﴿وَنَكْتُبُ﴾؛ لأن من يكتب شيئًا في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال: نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٢٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٨٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٤٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٥٠٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٥٨.

وثالثها: أن يكون ذلك تعميمًا بعد التخصيص كأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرةً عليه، بل كل شيء محصى في إمام مبين، وهذا يفيد أن شيئًا من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر:٥٢-٥٣].

يعني: ليس ما في الزبر منحصرًا فيما فعلوه، بل كل شيء فعلوه مكتوب.

وقوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أبلغ من كتبناه، لأن من كتب شيئًا مفرقًا يحتاج إلى جمع عدده فقال: هو محصى فيه وسمي الكتاب إماماً لأن الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة اتبعوه.

وقيل هو اللوح المحفوظ، وإمام جاء جمعًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١] ، أي : بأئمتهم وحينئذ، فإمام إذا كان فردًا فهو ككتاب وحجاب، وإذا كان جمعًا فهو كجبال وحبال.

والمبين هو المظهر للأمور لكونه مظهرًا للملائكة ما يفعلون وللناس ما يفعل بهم، وهو الفارق يفرق بين أحوال الخلق فيجعل فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير[1].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٥٩، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٢٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٨٠.

ثانيًا: المحاسبة على السعي:

إن كتابة السعي تمثل مرحلةً تمهيديةً للحساب عليه.

وقد عامل الله سبحانه وتعالى البشر بما أمرهم أن يتعاملوا به من توثيق المعاملات بينهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

من أجل أن يعلموا أن السعي في الخير والشر مسجل ومقيد بكل صغيرة وكبيرة ليوم الحساب.

قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾ [النجم:٣٩-٤٠].

أي: أن عمل كل عامل سوف يراه يوم القيامة، من ورد القيامة بالجزاء الذي يجازى عليه، خيراً كان أو شراً، لا يؤاخذ بعقوبة ذنب غير عامله، ولا يثاب على صالح عمله عامل غيره[2].

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ قيل: معناه يراه الخلق يوم القيامة، والأظهر أنه صاحبه[3]؛ لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٤٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٧٦.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٧٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣١١.

أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٦-٨].

وقد أخبر تعالى بأن الحساب سيكون بموجب الكتابة للأعمال.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨][1].

إلا ما سعى بصيغة الماضي دون المستقبل لزيادة الحث على السعي في العمل الصالح وتقريره هو أنه تعالى لو قال: ليس للإنسان إلا ما يسعى، تقول النفس إني أصلي غداً كذا ركعة وأتصدق بكذا درهماً، ثم يجعل مثبتاً في صحيفتي الآن لأنه أمر يسعى وله فيه ما يسعى فيه، فقال: ليس له إلا ما قد سعى وحصل وفرغ منه، وأما تسويلات الشيطان وعداته فلا اعتماد عليها ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم:٤٠-٤١][2].

كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة:١٠٥].

أي: فيخبركم به ويجزيكم عليه أتم الجزاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهكذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أي: الأوفر[3].

إن المقصود من كتابة السعي لكل إنسان هو الحساب يوم القيامة فكل سعي يعمله الإنسان من خير أو شر فهو مكتوب مسجل له أو عليه، ويعطى له كتابه يوم القيامة بكل ما عمله من خير أو شر، وذلك لإقامة الحجة عليه؛ لأن الله تعالى عليم بكل شيء، ولا يحتاج إلى كتابة تعالى الله علواً كبيراً، و حتى ما يهم به الإنسان من خير فإنه يكتب له.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٩١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٧٧، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢١٤، الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٣٣١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٤٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٧٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣١١، التسهيل لعلوم التنزيل تفسير ابن جزي ٢/ ٣٢٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٣٢.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله عز وجل: إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنةً فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف ،وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئةً واحدةً)[1].

فهذا الحديث صريح في أن كل شيء يعمله الإنسان فهو مكتوب عند الحفظة سواءً كان خيراً أو شراً، حتى الهم إذا هم بالحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة[2].

وحساب الله تعالى على الأعمال هو: أن تقابل السيئات بالحسنات، وتقابل الحسنات بالنعم، فإن الإنسان عليه حقوق لله تعالى في مقابل النعم. وبعض الناس يستكثر أعماله فيقول: عملت أعمالاً كثيرةً من صلوات وصدقات وأذكار وقراءة قرآن وجهاد وحج وعمرة وصوم وطواف، ولم أقترف سيئات أبدًا.

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

ويخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما من إنسان إلا وسيجد كتاب أعماله ملازمًا له، ينشر عليه في يوم القيامة، ويقال له: اقرأ كتابك وأنت حسيب نفسك، بعد أن تقف على كل أعمالك التي عملتها في الدنيا، وهذا هو العدل التام، والإنصاف الكامل.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٩].

وهذا وصف من الله جل وعلا، وتقسيم كذلك لحال الناس بالنسبة لإيتائهم كتبهم: قسم يأخذه بيمينه، ثم يعبر عن سروره وغبطته، وما يصير إليه حاله من النعيم العظيم، والفوز الكبير.

وقسم آخر يأخذه بشماله، ثم يعبر عن حسرته وندامته وتمنيه أنه لم يكلف بقراءة كتاب ولم يوقف لحساب، أو تمنيه كذلك لأن تكون موتته التي ماتها هي القاضية فلا يبعث ولا يحاسب، ثم يتذكر بعض الأسباب التي كانت تحول بينه وبين السعادة في الآخرة، والتي منها اغتراره بالمال والسلطان، وهما آفة الكثير ممن يقع عليهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد، ١/ ١١٧، رقم ١٢٨.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٧/ ٦٦.

شدة الحساب ووقوع العذاب.

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

وهذا تصوير بديع لحالة وقوف الناس على كتبهم خائفين وجلين، وكأنهم قد اطلعوا على ما فيها من تسجيل كامل لجرائمهم التي كانوا يتفننون في ارتكابها، ومع هذا الخوف الشديد، والرهبة الكاملة فهم لا يخفون انزعاجهم من دقة هذا الكتاب، الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، ووضحها تمام الوضوح، ولكن هذا صنع من يريد العدل سبحانه وتعالى بعباده، فليس هناك خوف من الظلم، فليطمئن كل مخلوق إلى أنه سوف لا يقع عليه إلا ما قدم لنفسه.

قال الإمام ابن كثير في معنى الآية: «﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير.

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي: من أعمالهم السيئة، وأفعالهم القبيحة، لأن هذا الكتاب لم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٣٢.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء:٧١].

يخبر سبحانه وتعالى أنه في يوم القيامة، في موقف فصل القضاء، يدعو كل أمة بإمامهم، أي: كتاب الأعمال ثم يعطون كتب أعمالهم، على ما سبق وصفه، إما باليمين أو بالشمال، وأخبر سبحانه أنه لا يقع على أي مخلوق ظلم أو نقص من عمل، حتى وإن كان شيئًا تافهًا لا يسترعي الانتباه، كالفتيل ومثقال الذرة وما إلى ذلك[2].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق:٧-١٢].

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٤٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣١١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٣٢.

أسباب السعي

إن هناك أسباب للسعي الممدوح، والسعي المذموم، وهذه الأسباب تعتبر الطرق الموصلة لكلا السعيين، ويمكن بيانها في النقاط الآتية:

أولًا: أسباب السعي الممدوح:

١. الإيمان.

اعتبر القرآن الكريم الأيمان أهم الأسباب الموصلة للسعي الممدوح الموصل إلى الجنة بإذن الله تبارك و تعالى، ولكنه دائماً يأتي مقروناً بالعمل الصالح، لذلك لا تكاد تجد موضع فيه ذكر للأيمان وأنه سبب لدخول الجنة إلا وهو مقرون بالعمل الصالح، وباب الأعمال الصالحة واسع وكبير، وطرق كسب الثواب عظيمة ومتعددة لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد:١٢].

٢. التقوى.

إن التقوى سبب لكثير من أنواع السعي الممدوح.

قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة:١-٥].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

٣. طاعة الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩].

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾ [النور:٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [الفتح:١٧].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)[1].

كما أن امتثال قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾ [الجمعة:٩].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات:١٠٢].

٤. الجهاد في سبيل الله.

إن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال من أعظم الأعمال ومن الأسباب التي تجعل المجاهد يعمل السعي الممدوح لما في ذلك من الفضل العظيم.

قال تبارك وتعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة:١١١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [الصف:١٠-١٣].

ولما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: (إيمان بالله ورسوله). قيل: ثم ماذا؟ قال: (الجهاد في سبيل الله) قيل: ثم ماذا؟ قال: (حج مبرور)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٧٢٨٠، ٩/ ٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان،

٥. التوبة.

إن التوبة تدفع المسلم لمزيد من السعي الممدوح من أجل المحافظة على التوبة والحذر من العودة إلى المعاصي والسيئات.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾ [مريم:٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه:٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ٧١﴾ [الفرقان:٧٠-٧١].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾ [القصص:٦٧].

فالتوبة تجب ما قبلها وكما قال صلى الله عليه وسلم: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[1].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾ [مريم:٦٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم:٨].

٦. الاستقامة على دين الله.

وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود:١١٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصلت:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [الأحقاف:١٣-١٤].

إن الاستقامة هي أن يجمع العبد بين فعل الطاعات واجتناب المعاصي؛ لأن التكليف يشتمل على أمر بطاعة تبعث على الرغبة ونهي عن معصية يدعو إلى الرهبة[2].

باب من قال إن الإيمان هو العمل، رقم٢٦، ١/ ١٤.

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد باب ذكر التوبة، رقم ٤٢٥٠، ٢/ ١٤١٩، من حديث ابن مسعود.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٠٠٨، ١/ ٥٧٨.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٨٠.

٧. طلب العلم.

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (... ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، و ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ [عبس:٨].

ثانيًا: أسباب السعي المذموم:

١. الكفر والشرك بالله تعالى.

الشرك بالله: بأن يجعل لله شريكاً في الرّبوبية، أو الألوهية، أو الصّفات. فمن اعتقد أنّ مع الله خالقاً مشاركاً، أو منفرداً، أو اعتقد أن مع الله إلهاً يستحق أن يعبد، أو عبد مع الله غيره فصرف شيئاً من أنواع العبادة إليه، أو اعتقد أنّ لأحدٍ من العلم والقدرة والعظمة ونحوها مثل ما لله عزّ وجلّ؛ فقد أشرك بالله شركاً أكبر، واستحقّ الخلود في النار.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

والكفر بالله عزّ وجلّ، أو بملائكته، أوكتبه، أو رسله، أو اليوم الآخر، أو قضاء الله وقدره: فمن أنكر شيئاً من ذلك تكذيباً، أو جحداً، أو شكّ فيه؛ فهو كافر مخلّد في النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

وهؤلاء هم الذين وصف الله سعيهم بأنه ضلال.

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف:١٠٤].

٢. الصد عن سبيل الله تعالى.

إن الصد عن سبيل الله تعالى يعتبر من السعي المذموم فاعله.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾ [الحج:٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ [سبأ:٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا

(١) سبق تخريجه.

﴿مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾ [سبأ:٣٨].

٣. النفاق.

وهو أن يكون كافراً بقلبه، ويظهر للناس أنه مسلم، إما بقوله، أو بفعله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾ [النساء:١٤٥].

وهذا الصنف أعظم مما قبله؛ ولذلك كانت عقوبة أصحابه أشدّ، فهم في الدرك الأسفل من النار؛ وذلك لأن كفرهم جامع بين الكفر والخداع، والاستهزاء بالله وآياته ورسوله، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

٤. الفساد في الأرض.

إن الفساد في الأرض بكل صوره وأشكاله من السعي المذموم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة:٦٤].

٤. الحرابة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المائدة:٣٣-٣٤].

٥. الظلم.

ومن أظلم الظلم السعي في خراب المساجد.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾ [البقرة:١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ

﴿قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٧].

٦. فعل الكبائر والمعاصي.

كعقوق الوالدين: وعقوقهما أن يقطع ما يجب لهما من برٍّ وصلةٍ، أو يسيء إليهما بالقول أو الفعل.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

وقطيعة الرّحم: وهي أن يقاطع الرجل قرابته فيمنع ما يجب لهم من حقوقٍ بدنيةٍ، أو ماليةٍ، فعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنّة قاطع)[1].

قال سفيان: يعني قاطع رحمٍ، وقال صلى الله عليه وسلم: (خلق اللّه الخلق فلمّا فرغ منه قامت الرّحم فأخذت بحقو الرّحمن فقال له : مه ، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟! قالت :بلى يا ربّ ، قال : فذاك ثمّ ، قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد:٢٢-٢٣])[2].

وأكل الرّبا: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣٢].

وقد توعّد الله تعالى من عاد إلى الرّبا بعد أن بلغته موعظة الله، وتحذيره توعّده بالخلود في النار، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة:٢٧٥].

٧. العمل من أجل الدنيا.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم ٥٩٨٤، ٨/ ٥، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، رقم ٤٨٣٠، ٦/ ١٣٤.

أن السعي من أجل الدنيا دون اعتبار قصد الآخرة من السعي المذموم، وعلى العكس من ذلك العمل من أجل الآخرة، فمن كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

ولهذا قال هاهنا ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم[1].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٧.

جزاء السعي

إن السعي بنوعيه الممدوح والمذموم لكل منهما جزاء في الدنيا والآخرة، وهذا الجزاء يدفع بالمسلم للسعي الممدوح حتى ينال الجزاء المترتب عليه، ويجتنب السعي المذموم حتى لا يناله الجزاء على ذلك أيضاً، كما أن معرفة الجزاء يدفع المسلم للإقدام على السعي الممدوح، واجتناب السعي المذموم، وفي هذا المبحث سيتم بيان هذين النوعين من الجزاء كما يأتي:

أولًا: جزاء السعي الممدوح في الدنيا والآخرة:

١. جزاء السعي الممدوح في الدنيا.

إن للسعي الممدوح جزاءٌ عاجلٌ في الدنيا قبل الثواب في الآخرة، وليس جزاء العمل الصالح مقتصرًا على الجزاء الأخروي فقط كما يظن ذلك كثير من الناس، بل إن الله تعالى يجازي من يعمل صالحاً جزاءً دنيوياً عاجلًا كما دلت على ذلك النصوص، ومنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ الله لا يظلم مؤمناً حسنةً، يعطى بها في الدّنيا ويجزى بها في الآخرة)[2].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في

فمن ذلك ما يأتي:

❁ المودّة في قلوب المؤمنين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

وفي الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أحب الله تعالى العبد، نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إنّ الله يحبّ فلانًا فأحبّوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)[1].

❁ الثناء الحسن من الله تعالى.

فيثني الله عليه ثناءً حسنًا جزاءً على السعي الممدوح في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة:٧].

فقد أثنى الله تعالى عليهم بأنهم خيرية البرية، والبرية كل من خلق الله على العموم[2].

ويكفي العمل الصّالح فضلًا، ويكفي أهله شرفًا أنّ الله تعالى زكّاهم وأثنى عليهم، فيا له من فضلٍ وشرفٍ لمخلوقٍ يزكّيه الخالق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة:٧]. فجعلهم سبحانه خير الخليقة.

وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤].

فالعمل الصالح سبب لسعادة القلب وفرحه، وذهاب همه وغمه؛ ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرتاح بالصلاة، وجعلت قرة عينه فيها، وكان إذا حزبه أمر صلى، والمؤمن يجد لذةً وسعادةً عقب كل عمل صالح يعمله، وهذه السعادة التي لا تشترى بمال، ولا تنال بجاه، وهي من الجزاء العاجل على العمل الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] فمن الّذي لا يريد الحياة الطّيّبة الهانئة؟! والحياة الطّيّبة تشمل وجوه الرّاحة من أيّ جهةٍ كانت.

❁ التمكين في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥].

وعد الله الذين آمنوا بالله ورسوله منكم

الدنيا، رقم ٢٨٠٨، ٤/ ٢١٦٢.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٩، ٤/ ١١١.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٥٤٠، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٦٣.

أيها الناس، وعملوا الصالحات وأطاعوا الله ورسوله فيما أمراه ونهياه ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : ليورثنهم الله أرض المشركين من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي : كما فعل من قبلهم ذلك ببني إسرائيل، إذ أهلك الجبابرة بالشأم، وجعلهم ملوكها وسكانها ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ يقول: وليوطئن لهم دينهم، يعني: ملتهم التي ارتضاها لهم، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بمعنى: وليغيرن حالهم عما هي عليه من الخوف إلى الأمن، قال أبي ابن كعب: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة آوتهم الأنصار ومنهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا مع السلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت هذه الآية»، وقد حقّق الله تعالى ذلك للمسلمين الأولين لما آمنوا وعملوا الصالحات، ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها، ومنحهم التمكين والعزّة والقوة[1].

❁ تفريج الكروب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢].

وقال سبحانه: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم....)[2].

وفي هذا الحديث الشريف؛ أنّ السعي والعمل الصالح مع الإخلاص: يفرّج الكروب، وينجي من الشدائد والصعاب.

❁ النصر.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد:٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

فمن ينصر دين الله في الأرض، ينصره الله تعالى على أعدائه، وهذا ما حقّقه المسلمون، إذ نصروا دين الله تعالى، فنصرهم الله، مع قلّة عددهم وكثرة عدوهم.

❁ الإنفاق على الساعي.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم ٢٧٤٣، ٤/ ٢٠٩٩.

﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ:٣٩].

وعن أسماء رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا توكي فيوكى عليك) أي: لا تدّخري ما عندك، وتمنعي ما عندك، فينقطع الله عنك الرزق. والإيكاء: شد رأس الوعاء بالوكاء، وهو الرباط الذي يربط به، وفي رواية: (أنفقي ولا تحصي، فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك)[١].

❁ وفي اصطناع المعروف.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نفّس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة. ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه. ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[٢].

❁ صلاح أحوال العبد.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد:٢] أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم. فإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، والمعنى: أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكرون إلا صالحاً، ولا يتدبرون إلا ناجحاً[٣].

❁ حفظ أهل العامل وذريته.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «حفظا بصلاح أبيهما، وقيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء، قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده، وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم»[٤].

❁ ولاية الله تعالى للعبد ونصرته وإجابة دعائه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾، رقم ٢٥٩١، ٣/ ١٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة باب الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء، رقم ١٠٢٩، ٢/ ٧١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٥١، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٩٠، لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٣٩.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٠١، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١١.

قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦].

فهذه الآية دليل على أنّ من سنّته سبحانه وتعالى أن ينصر الصّالحين من عباده ولا يخذلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى:٢٦] أي: إذا دعوه استجاب دعاءهم، وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم.

٢. جزاء السعي الممدوح في الآخرة.

- غفران الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩] يعني: فمن فعل ذلك ﴿كَانَ سَعْيُهُم﴾ يعني: عملهم بطاعة الله ﴿مَّشْكُورًا﴾ وشكر الله إياهم على سعيهم ذلك حسن جزائه لهم على أعمالهم الصالحة، وتجاوزه لهم عن سيئها برحمته، ويضعف لهم الحسنات، ويمحو عنهم السيئات، ويرفع لهم الدرجات[(١)].

قال القاضي ابن عطية: «وذلك كله مرتبط متلازم ثم شرط في مريد الآخرة أن يسعى لها سعيها، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه، فأولئك يشكر الله سعيهم ولا يشكر الله عملاً ولا سعياً إلا أثاب عليه وغفر بسببه»[(٢)].

- دخول الجنة.

وقد أوضح تعالى هذا في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤].

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

وقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر:٤٠] إلى غير ذلك من الآيات[(٣)].

- أن نورهم يسعى بين أيديهم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٢٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١١٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢١١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٥٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ٩/ ٩٢، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣١٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٨١.

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد:١٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ۚ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم:٨].

يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «يسعى نورهم بين أيديهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرةً ويطفأ مرةً»[1].

- التنعم بنعمة الرضا.

قال تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية:٩].

أي: لعملها الذي عملت في الدنيا من طاعة ربها راضية، وقيل: والمعنى: لثواب سعيها في الآخرة راضية، يعني: رأى ثوابه في الجنة، راضية مرضية، رضي الله عنه بعمله في الدنيا، ورضي العبد من الله تعالى في الآخرة، من الثواب في جنة عالية يعني: ذلك الثواب في جنة عالية، مرتفعة في الدرجات العلى[2].

قال تعالى: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية:١٠-١٦].

قال الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية:٩]: «فيه تأويلان:

أحدهما: أنهم حمدوا سعيهم واجتهادهم في العمل لله، لما فازوا بسببه من العاقبة الحميدة كالرجل يعمل العمل فيجزى عليه بالجميل، ويظهر له منه عاقبة محمودة فيقول، ما أحسن ما عملت، ولقد وفقت للصواب فيما صنعت فيثني على عمل نفسه ويرضاه.

والثاني: المراد لثواب سعيها في الدنيا راضية إذا شاهدوا ذلك الثواب، وهذا أولى، إذ المراد أن الذي يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد الرضا حتى لا يريدوا أكثر منه، وإما وصف دار الثواب»[3].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٧٣، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٨٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٤١، التفسير القرآني للقرآن، يونس الخطيب

ثانيًا: جزاء السعي المذموم في الدنيا والآخرة:

١. جزاء السعي المذموم في الدنيا.

❁ **الزيغ والضلال.**

قال تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

لما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة.

❁ **نسيان الله تعالى.**

قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف:٥١].

وقال سبحانه: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة:١٤]

ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به وتناسيكم له، يقول الله تعالى ذلك من باب المقابلة؛ لأنّ الله تعالى لا ينسى شيئًا، ولا يضلّ عنه شيء. وقد حذّر الله تعالى عباده أن ينسوه فقال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

❁ **مجازاتهم بعين صنيعهم.**

قال تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٤-١٥].

وقال تعالى في المنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة:٧٩].

وأما المكر: تدبير الأمر في خفية، والمكر من الله تعالى هو جزاؤهم بالعذاب مع مكرهم من حيث لا يشعرون. وقال سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

وقال: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل:٥٠].

❁ **الخزي في الحياة الدنيا.**

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

❁ **القتل والتشريد وإقامة الحد عليهم.**

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟

٨/٧٨٦.

مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة:٣٣-٣٤].

❁ **إلقاء العداوة والبغضاء بينهم الى يوم القيامة.**

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤].

❁ **الضلال في أعمال الدنيا.**

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف:١٠٤-١٠٨].

٢. جزاء السعي المذموم في الآخرة.

❁ **أنهم أصحاب الجحيم.**

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج:٥١].

وهو العذاب من رجز أليم: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ:٥].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سبأ:٣٨].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل عليه، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿يَصْلَاهَا﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً[1].

❁ **تحبط أعمالهم يوم القيامة.**

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٥٨.

﴿جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف:١٠٤-١٠٦].

وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم في آيات أخر؛ كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم:١٨].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور:٣٩].

إلى غير ذلك من الآيات.

* أن عمل الكافر الذي يتقرب به إلى الله يجازى به في الدنيا، ولا حظ له منه في الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠][1]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

وتوفيتهم أعمالهم، إنالتهم ثمراتها مكملةً في الدنيا، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: لا ينقصون من جزائهم عليها بتحصيل المسببات التي توسلوا إليها بأسبابها. ثم في الآخرة تحبط تلك الأعمال فلا يكون عليها من جزاء ولا لها من ثمرة، لأنها كانت أعمالًا باطلةً لا ثبات لها[2].

موضوعات ذات صلة:

الرزق، السير، العمل، الكسب، المشي

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٨٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٦٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٦٧، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥١.

السلام

عناصر الموضوع

مفهوم السلام	١٧٢
السّلام في الاستعمال القرآني	١٧٣
الألفاظ ذات الصلة	١٧٤
مكانة السلام	١٧٥
السلام الإلهي	١٨٢
سلام الملائكة	١٨٨
السلام شعار المؤمن	١٩٣
السلام مع المخالفين	١٩٧
أثر إفشاء السلام على المجتمع	٢٠٠

مفهوم السلام

أولًا: المعنى اللغوي:

السلام: اسم مصدر من الفعل «سلّم» يقال: سلّم تسليماً مصدر، وسلامًا اسم مصدر.

وأصل مادة «سلم» تفيد معنى السلامة من كل شر، قال ابن فارس: «السين واللام معظم بابه من الصحة والعافية، والشاذ عنه قليل»[(١)].

وقال الراغب: «السّلم والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة»[(٢)]. وقريب منه المعنى المحوري للمادة: «صحة جرم الشيء والتئام ظاهره في ذاته»[(٣)].

و(السلام) من أسماء الله الحسنى، لسلامته سبحانه من كل نقص.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى اللغوي للكلمة الذي ترجع إليه كل معانيها هو السلامة من كل عيب حسي أو معنوي.

ولا يختلف السلام في معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي ويمكننا أن نعرّفه فنقول: السلام اسم من أسماء الله تعالى يدل على معنى التحية والسلامة من كل سوء وشر.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٠.
(٢) المفردات ص ٤٢١.
(٣) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل ٢/ ١٠٦٣.

السّلام في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سلم) في القرآن الكريم (١٤٠) مرةً، يخص موضوع البحث (٥٠) مرةً[١].
والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال:٤٣]
الفعل المضارع	٢	﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧]
الفعل الأمر	٢	﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النور:٦١]
المصدر	٤٥	﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف:٤٦]

وجاء السّلام في الاستعمال القرآني على خمسة أوجه[٢]:

الأول: هو الله تعالى: ومنه قوله تعالى: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣].

الثاني: الخير: ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] يعني: وقل خيرًا.

الثالث: الثناء الحسن: ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

الرابع: السلامة من الشر: ومنه قوله تعالى: ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨] يعني: بسلامة من الشر والغرق.

الخامس: التحية التي يحيّي بها المسلمون بعضهم بعضًا، وهي تحية أهل الجنة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص٦٣١-٦٣٤.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٦٣-٢٦٤، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٣٥٦-٣٥٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ التحية:

التحية لغة:

مصدر حيى يحيى، وأصلها تحيية على وزن تفعلة، فأدغمت الياء في الياء، ، والتحية تأتي بمعنى : البقاء، يقال: التحيات لله، الملك والبقاء لله، وتأتي بمعنى : السلام، والتحية في كلام العرب ما يحيى بعضهم بعضًا إذا تلاقوا[١].

التحية اصطلاحًا:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين التحية والسلام:

التحية تشترك مع السلام، وهي أعم، قال العسكري:«التحية أعم من السلام؛ يدخل في التحية حياك الله، ولك البشرى، ولقيت الخير»[٢].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٨٧، المفردات، الراغب ص ٢٦٩، لسان العرب ١٤/ ٢١٧.
(٢) الفروق اللغوية ص ٥٩.

مكانة السلام

أولًا: السلام اسم من أسماء الله الحسنى:

لقد ورد اسم الله السلام في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾[الحشر: ٢٣].

وورد في السنة أيضًا؛ فعن عبد الله بن مسعود قال: كنا إذا صلينا مع النبي صلى الله عليه وسلم قلنا: السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل، السلام على ميكائيل، السلام على فلان وفلان، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل علينا بوجهه فقال: (إن الله هو السلام، فإذا جلس أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله)[(١)].

وعن ثوبان قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثًا وقال: (اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام)[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (السلام اسم من اسماء الله تعالى وضعه فأفشوه بينكم)[(٣)].

وفي معنى اسم السلام يقول ابن بطال: ومعناه السالم من النقائص والآفات الدالة على حدوث من وجدت به، متضمن لمعنى السلامة من ذلك كله[(٤)].

وقال الزجاج: «السلام هو الذي سلم من عذابه من لايستحقه»[(٥)].

وقيل: المسلم أولياءه.

وقيل: المسلم عليهم[(٦)].

وقيل: سلم الخلق من ظلمه، بمعنى أنه لا يتصف بالظلم.

وقيل: مسلم عباده من الهلاك.

وقيل: مسلم المؤمنين من العذاب.

وقيل: المسلم على مصطفي عباده بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[النمل:٥٩].

وقيل: المسلم على المؤمنين في الجنة لقوله ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس:٥٨].

وقيل: لطول بقائه[(٧)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب السلام اسم من أسماء الله تعالى، ٨/ ٥١، رقم ٦٢٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، ١/ ٣٠١، رقم ٤٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، ١/ ٤١٤، رقم ٥٩١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب السلام اسم من أسماء الله، ص٥٥٢، رقم ٩٨٩.
قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ٢٥٠: إسناده جيد.

(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٠/ ٤٠٩.

(٥) تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣١.

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ١١٦.

(٧) شرح سنن أبي داود، بدر الدين العيني ٥/ ٤٢٢- ٤٢٣.

وكلها معان صحيحة يجوز إطلاقها عليه سبحانه ولا تعارض بينها، فهو سبحانه السلام في ذاته وصفاته وأفعاله، «بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار؛ فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه.. فهو السلام من الصاحبة والولد والسلام من الشريك، وإذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضادها؛ فحياته سلام من الموت، وكذلك قيوميته وقدرته»[1].

ثانيًا: من أسماء الجنة دار السلام:

أعد الله الجنة دارًا للمؤمنين خالدين فيها أبدًا، وغرس كرامتهم فيها بيده سبحانه؛ فكانت دار سلام وأمن لا فيها أذى ولا نصب، ومن أسمائها دار السلام.

قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:١٢٧].

وفي الآية وعد حسن من الله للقوم الذين يذّكرون بأن لهم دار السلام، ودار السلام هي الجنة إجماعًا، وفي تقديم ﴿لَهُمْ﴾ دلالة على اختصاصهم بالجنة، والسلام له معنيان: «أحدهما: ان السلام اسم من أسماء الله عز وجل، فأضاف الدار إليه هي ملكه وخلقه، والثاني أنه المصدر بمعنى السلامة، كما تقول : السلام عليك»[2].

والظاهر رجحان المعنى الثاني؛ «فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من اسمائه غير السلام وكان يقال: دارالرحمن أو دار الله.... وأيضًا فلأن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها؛ أماالأول فنحو دار القرار، دار الخلد.... وأما الثاني فنحو: دار المتقين ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله في القرآن، فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن»[3].

وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من كل آفة، وقيل: لأن من دخلها سلم من البلايا والرزايا أجمع، وقيل: لأنها سلمت من دخول أعداء الله، كيلا يتنغص أولياء الله فيها كما ينغص مجاورتهم في الدنيا وقيل: سميت بذلك لأن كل حاله من حالات أهلها مقرونه بالسلام»[4].

وهذه دعوة من الله العلي الأعلى لعباده على لسان رسله وملائكته كي ينيبوا إلى ربهم ويفعلون ما يوصلهم إلى دار السلامة والكرامة، وفي الحديث عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل

(١) انظر بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٣٥.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٤٤.
(٣) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٣٤.
(٤) الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ١٩٠.

وكفى خيرً مما كثر وألهى. وأنزل الله في ذلك قرآناً في سورة يونس ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥][1].

وتتعدد مواطن السلامة في الجنة، فالدخول في الجنة بسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر:٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق:٣١- ٣٤].

وفي الآيتين حذف فعل القول، وهو في القرآن كثير، وتقدير المعنى: ويقال لهم: ادخلوها بسلام، والقائل: الله تعالى أو ملائكته الكرام، ومعنى بسلام، بسلامة من النار، أو بسلامة تصحبكم من كل آفة، أو بتحية من الله»[2].

ولفظ السلام يشمل كذلك السلامة من الغل والخصام والنزاع بدليل ما بعدها ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

والسلامة في الجنة من كل ما ينغص، وفي الحديث: (ينادي مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا)[3].

والتحية في الجنة هي : السلام.

قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم:٢٣].

وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤].

إن التحية بالسلام نوع من الإكرام، وفيها السلامة من كل شر.

قال ابن القيم: «ولما كانت الجنة دار السلامة من كل عيب وشر وآفة، بل قد سلمت من كل ما ينغص العيش والحياة، كانت تحية أهلها فيها سلام، والرب يحييهم فيها بالسلام والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم»[4].

وإذا كانت الآيات السابقة قد أفادت أن

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٨/ ١٢١ رقم ٣٣٢٩، والبيهقي في شعب الإيمان، ٥/ ٩٠، رقم ٣١٣٩، والطبري في التفسير ١٢/ ١٥٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٨٠٤، ٤٤٣.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٦١، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٣٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفه نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، رقم ٢٨٣٧.

(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٤٥.

التحية في الجنة تكون بالسلام، فقد ورد في القرآن أن السلام في الجنة غير التحية، قال تعالى في ثواب عباد الرحمن: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان: ٧٥].

فعطف التحية على السلام، وفي الفرق بينهما يقول الزمخشري: «والتحية دعاء بالتعمير، والسلام دعاء بالسلامة»[(١)].

وقال العسكري: «والتحية أعم من السلام، والسلام مخصوص ويدخل في التحية: حياك الله، ولك البشرى، ولقيت كل خير»[(٢)].

وقال مقاتل: المراد بالتحية: سلام بعض على بعض، أو سلام الملائكة عليهم، والمراد بالسلام أن الله سلمهم مما يخافون وسلم إليهم أمرهم، وقيل: التحية من الملائكة أو من أهل الجنة والسلام من الله تعالى عليهم، وقيل: التحية من الله تعالى لهم بالهدايا والتحف، والسلام بالقول[(٣)].

ومن أوجه السلام في الجنة أن القول فيها سلام؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: ٦٢].

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٧.
(٢) الوجوه والنظائر، العسكري ص ٢٥٨.
(٣) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، زين الدين الرازي ص ٣٦٧.

وقال ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥- ٢٦].

ومن جملة النعيم الذي يحظى به أهل الجنة أنهم يسمعون الكلام الطيب، واستثناء السلام من اللغو في الآية الأولى ومن اللغو والتأثيم في الآية الثانية إنما هو من قبيل الاستثناء المنقطع الذي ليس من جنس المستثنى منه.

والمعنى: أن أهل الجنة لايسمعون أي كلام من اللغو أو الهذر الذي لا فائدة منه.

قال تعالى «﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥].

وقال ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١].

و﴿لَاغِيَةً﴾ نكرة في سياق النفي أفادت العموم، فلا لغو في الجنة بحال. بل يسمعون الكلام الطيب الذي يسلمون به.

قال الزجاج: «(وسلامًا) اسم جامع للخير متضمن للسلامة، فالمعنى: أن أهل الجنة لا يسمعون إلا ما يسلمهم»[(٤)].

ويرى الزمخشري أن الاستثناء في الآية متصل، وتقدير المعنى عنده، أي: إن كان تسليم بعضهم على بعض، وتسليم الملائكة عليهم لغوًا، فلا يسمعون لغواً إلا ذلك[(٥)]، فهو يعدها من قبيل تأكيد المدح بما يشبه الذم.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٧.
(٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٣٧.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

يقول ابن القيم: «وهذا فيه نفي لسماع اللغو والتأثيم، وإثبات لضده وهو السلام المنافي لهما: فالمقصود به نفي شيء وإثبات ضده»[١].

والتسليم من الله تعالى على عباده في الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ۝ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس:٥٥:٥٨].

والمعنى«ولهم فيها ما يدعون، وذلك هو سلام من الله عليهم، بمعنى تسليم من الله»[٢].

والظاهر من سياق الكلام أنه سلام من الله بدون واسطة ملك. وقد روى من حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وذلك قول الله ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[يس:٥٨]. قال: فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم، ماداموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته في ديارهم)[٣].

وعن عمر بن عبد العزيز، قال: « إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار، أقبل في ظلل من الغمام والملائكة، قال: فيسلم على أهل الجنة فيردون عليه السلام». قال القرطبي: «وهذا في القرآن ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[٤]. وسلام الملائكة ثابت في أكثر من آية وسيأتي.

ومن أوجه السلام على أهل الجنة ما يسلم به عليهم أهل الأعراف، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾[الأعراف: ٤٦].

والأعراف مشتق من العرف؛ لأن كل مرتفع من الأرض عند العرب أعراف[٥].

وقد اختلف فيهم على أقوال متعددة؛ قال صديق خان: «وفي هذه الأقوال ما يدل على أن أصحاب الأعراف دون أهل الجنة في الدرجات وإن كانوا يدخلون الجنة

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٦٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٦٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، ١/ ٦٥، رقم ٢١٨٤.
قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٢٦: هذا إسناد ضعيف، لضعف الفضل بن عيسى ابن إيان الرقاشي.
(٤) تفسير القرآن، ابن وهب ٦/ ٥٨٤، جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٦٨، الرد على الجهمية، الدارمي ص رقم ١٤٦.
(٥) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٢١٥.

برحمة الله تعالى، وفيها ما يدل على أنهم أفضل من أهل الجنة وأعلى منهم منزلةً وليس في الباب ما يقطع به من نص جلي وبرهان نير»[1].

وإن كانت دلالة لفظ الأعراف توحي أنهم في منزلة عالية يعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم، وهم يطمعون في موضع الحال من ضمير الجماعة في ﴿يَدْخُلُوهَا﴾ ويكون المعنى لم يدخلوها في حال طمع بها، بل في حال يأس وخوف[2].

قال القاسمي: «ولا يبعد عندي أن يكون ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حالًا من ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: نادوهم بالسلام وهم في الموقف على طمع دخول الجنة يبشرونهم بالأمان والفوز من العذاب إشارةً إلى سبق أهل الأعراف على غيرهم في دخول الجنة وعلو منازلهم على سواهم»[3].

ومما سبق يتضح لنا أن الجنة دار السلام؛ يسلم فيها الرب جل في علاه على أهل الجنة، وتسلم عليهم الملائكة، ويسلم عليهم أصحاب الأعراف، والسلام تحيتهم فيما بينهم، وهو تحيتهم عند الدخول، وفي داخلها، وهو كلامهم فيما بينهم، فهم في سلام دائم.

(١) فتح البيان، القنوجي ٤/ ٣٦٥.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٠٥.
(٣) محاسن التأويل ٥/ ٦٢.

ثالثًا: السلام صفة شرع الله ودينه:

إن مادة (الإسلام) ومادة (السلام) ترجعان إلى أصل لغوي واحد هو السلامة والخلوص من كل ما يسوء، وما وحدة الأصل هذه إلا إشارة إلى وشائج قوية وصلة وثيقة بين الإسلام والسلام حتى صارت الجملة مثلًا سائرًا: (الإسلام دين السلام).

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة: ١٥، ١٦].

فالنور هو القرآن، أو هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم لعطفه على الكتاب، وهو سبب الهداية لمن اتبع رضوان الله فيهتدي إلى طريق الجنة، قال الطبري: «سبل السلام سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه، وبعث به رسله، وهو الإسلام الذي لا يقبل من أحد عملًا إلا به، لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية»[4].

وإذا كان لفظ السبل جاء مجموعًا هنا فهو بمثابة شعب الإيمان الذي يجمعها جامع واحد، فكل هذه السبل للخير، كجداول الماء التي تخرج من النهر، أو كالشجرة التي يخرج منها أطايب الثمار فتؤتي أكلها كل

(٤) جامع البيان ٨/ ٢٦٥.

حين بإذن ربها.

والتعبير القرآني ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ يعتبر من الأوصاف الربانية العظيمة الدقيقة لهذا الدين الخالد، يقول سيد قطب:«وما أدق هذا التعبير وأصدقه، إنه (السلام) هو ما يسكبه هذا الدين في الحياة كلها.... سلام الفرد. وسلام الجماعة. وسلام العالم. سلام الضمير، وسلام العقل، وسلام الجوارح، وسلام البيت والأسرة، وسلام المجتمع والأمة، وسلام البشر والإنسانية. السلام مع الحياة والسلام مع الكون. والسلام مع الله رب الكون والحياة. السلام الذي لا تجده البشرية ولم تجده يومًا. إلا في هذا الدين وإلا في منهجه ونظامه وشريعته، ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته»[(١)].

ومن الألفاظ المقاربة التي جاءت بمعنى الإسلام قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[البقرة: ٢٠٨].

فإن السلم هنا معناه : الإسلام عند جمهور المفسرين[(٢)].

وللراغب تأويل لطيف لارتباط معنى السلم هنا بالطاعة فيقول : «عني بالسلم سلم العبد لله عز وجل، وذلك أن الإنسان في كفره وكفران نعمة الله كالمحارب له، وبهذا يسمى الكافر: المحارب، في نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣].

وسلم العبد لله على ثلاث أضرب.... الإسلام الذي سلم به من الله أن يراق دمه...، واثنان بعد الإيمان أحدهما : أن يسلم من سخطه بارتسام أوامره وزواجره... والثاني : أن يكون سليماً من الشيطان وأوليائه وسليماً فيما يجري من قضائه، وبه يحصل دار السلام وهذا غاية ما ينتهي إليه العبد.... وهذا السلم هو المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[آل عمران: ١٩][(٣)].

وهذا ربط جيد بين معاني لفظة السلام بمشتقاتها، فالمسلم مستسلم لربه، منقاد له بمحبة وإخبات، مسالم لكل ما حوله ومن حوله، سالم من شر الشيطان وشركه، ومصيره إلى دار السلام بسلام، وفي معنى السلام والاستسلام والانقياد تدخل كل مفردات ومشتقات مادة (الإسلام) بصيغها المختلفة.

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٢.
(٢) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٧١، معاني القرآني، الأخفش ١/ ١٨٠، جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٩٥، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ١٠٢، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٤٠، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٨٥.
(٣) تفسير الراغب ١/ ٤٣٢.

السلام الإلهي

إن من معاني اسم الله (السلام) أنه تبارك وتعالى هو المسلّم على أوليائه سلام بر وإكرام ولطف وثناء حسن منه تعالى، وأمان منه لهم في كل أمورهم وأحوالهم، وفي القرآن الكريم سلام من الله تعالى على أنبيائه إجمالًا وعلى بعضهم تخصيصًا.

أولًا: سلام الله على أنبيائه ورسله:

فمن الأول قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٥٩].

والآية خطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن قص عليه إهلاك الأمم المكذبة أمره أن يحمده على هلاك الظالمين، أو هي استفتاح الاعتبار بالحمد لله والسلام.

وقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ يعني أمنةً ثابتةً من الله لعباده المصطفين، وجملة ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾ من الله تحتمل وجهين: «تحتمل أن تكون داخلة في حيز القول فتكون معطوفةً على الجملة الخبرية وهي الحمد لله، ويكون الأمر بالقول متناولاً للجملتين معًا.

وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ويكون محلها النصب محكية بالقول، ويحتمل أن تكون جملةً مستقلةً معطوفة على جملة الطلب، وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب، وهذا التقدير أرجح وعليه يكون السلام من الله عليهم»[(١)].

والمصطفون هم الأنبياء كما ورد عن عبدالرحمن بن زيد[(٢)].

وورد عن عبد الله بن عباس والسدي والثوري أنهم الصحابه الكرام رضوان الله عليهم[(٣)].

قال ابن كثير: «ولا منافاة؛ فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى». وقال ابن جزي: «واللفظ يعم الملائكة والأنبياء والصحابة والصالحين»[(٤)].

وفي ختام سورة الصافات جاء قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات: ١٨٠: ١٨٢].

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٤٩.
وفي كتاب بدائع الفوائد ٢/ ١٧٢ له قال: «الآية تتضمن الأمرين جميعاً....فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه....والكلام كلام الرب تبارك وتعالى، فهو الذي حمد نفسه وسلم على عباده وأمر رسوله بتبليغ ذلك.... فهو سلام من الله ابتداءً ومن المبلغ بلاغاً ومن العباد اقتداءً وطاعة».

(٢) واختاره الطبري في تفسيره ١٨/ ٩٨.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢١٨، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٧١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٢٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠١، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٠٥.

وفي السورة عرض لافتراءات المشركين على الملائكة وعلى الذات الإلهية ورد عليها، ثم تأتي الآية الكريمة في الختام وفيها الرد الإجمالي على كل مكذب، ففيها أولًا تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق، وسلامة رسله الكرام من كل افتراء وكيد ثم تختتم بالثناء الجميل على الله جل في علاه، وقد اقترن السلام على المرسلين بالتسبيح والحمد، وفي الآية السابقة اقترن السلام على المرسلين بالحمد.

وجاء التسبيح في الآية الأولى والحمد في الثانية، إذا التسبيح مقدمة الحمد، ففيه التنزيه وفي الحمد الثناء، وهو بعد التسبيح، فسبحان الله وبحمده؛ قال الماتريدي«في هذه الأحرف الثلاثة جميع ما بينه الله تعالى من الحق على الخلق من التوحيد والثناء الحسن والحمد لنعمه، وجميع ما عليهم من الثناء الحسن والحمد له، وما ألزمهم من الثناء الحسن على جميع المرسلين»[1].

وفي الآية تعليم للأمة أن تصلي على جميع المرسلين، وفي الحديث: (صلوا على أنبياء الله ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثني)[2].

وفي آي القرآن تفصيل للسلام على بعض صفوة الله من خلقه صلوات الله عليهم أجمعين وهم:

١. السلام على نوح عليه السلام.

وذلك في موطنين، أولهما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[هود: ٤٨].

وجاءت الآية في ختام قصة نوح بعد إغراق قومه المكذبين في الطوفان ونجاته هو ومن معه من المؤمنين، فجاء النداء الإلهي بالانتشار في الأرض مصاحبًا للسلامة والأمن والتحية من الله له ولمن معه، وهم في أحوج حال إلى السلامة أثناء نزولهم إلى الأرض ليهنأ لهم العيش، وفي حاجة إلى البركة بعد نزولهم ليحدث التكاثر في ذريته وفي من معه من الكائنات. فالسلامة من الله النجاة من آثار الطوفان لنوح ولمن معه ولمن كانوا في صلبه، وإن لكل مؤمن نصيبًا من هذه السلامة، نحن ذرية من كان مع نوح، قال القرطبي: «دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة»[3].

وفي استفتاح الزمرة الطيبة من صفوة خلق في سورة الصافات جاء السلام على نوح عليه السلام من الرب الجليل فقال

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٥٩٦.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، ٢/ ٢١٦، رقم ٣١١٨، والبيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٢٧٧، رقم ١٣٠، عن أبي هريرة.
قال ابن حجر في المطالب العالية ١٣/ ٨١٣: سنده حسن.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٣٨

تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[الصافات: ٧٨- ٧٩].

ففي الآيات ثناء على نوح وإبقاء لذلك الذكر الطيب في كل عصر ومصر، فجملة ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ في محل نصب مفعول (تركنا) على الحكاية، كما تقول قرأت من القرآن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(١)].

فجميع العالمين يسلمون على نوح ويدعون له ويذكرونه بالخير، ويصلون عليه، ولم يأت ذكر ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ مع نبي في السورة سواه، وذلك لأنه الأب الثاني للبشر، وأول رسول أرسل إلى الأرض، وهو من أولي العزم الذين صبروا على أذى قومهم وظل يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فاستحق أن يظل الثناء عليه باقياً في الأرض لا ينقطع.

ويرى الطبري أن السلام على نوح أمنةً من الله له لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء. وعلى هذا يكون قوله (سلام) مستأنفًا، مسلّم الله عليه ليقتدي بذلك البشر[(٢)].

٢. السلام على إبراهيم عليه السلام.

وجاء السلام عليه في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات: ١٠٩- ١١١].

والسلام على إبراهيم عليه السلام ثابت وحاصل وممتد، فهو الخليل أبو الأنبياء، وهو الأمة الإمام المقتدى به، الذي تتشرف كل الأمم بالانتساب إليه. ومن جملة السلامة له ما حصل له من معجزة أثناء إلقائه في النار حيث نجاه الله تعالى، قال سبحانه: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فكان السلام حافظاً له أن يؤذيه حرها أو بردها، قال ابن عباس: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من شدة بردها[(٣)].

٣. السلام على موسى وهارون عليهما السلام.

وثالث سلام في سورة الصافات على موسى وهارون.

قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات: ١٢٠- ١٢٢].

وموسى عليه السلام من أولي العزم الذين جاهدوا في الله وتحملوا أذى قومهم، وقد قام بدين الله خير قيام هو ووزيره هارون النبي ، فنصرهما الله وآتاهما التوراة ، وترك لهما في الآخرين الذكر الطيب والصلاة

(١) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٨٨، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٩/ ٦١١١، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٠٦.

عليهما.

٤. السلام على إلياس عليه السلام.

إن إلياس عليه السلام من الأنبياء الذين أبقى الله لهم ثناءً ودعاءً، و(إل ياسين) على وزن إسماعيل، وهو إلياس على الصحيح أو إلياس وآله الذين آمنو معه واتبعوه[(١)].

وفي التسليم على هؤلاء الأنبياء الكرام تنويه بفضلهم، وإشعار بحسن الثناء عليهم.

وفي تنكير (سلام) دلالة على التعظيم، وفي تقديم السلام على الاسم لفتة؛ ذلك «أن في الدنيا قدموا اسم الدعاء المحبوب الذي تشتهيه النفوس وتطلبه ويلذ السمع لفظه فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب المطلوب ويبدأ القلب بتصوره فيفتح له القلب والسمع فيبقى السامع كالمنتظر لمن يحصل هذا وعلى من يحل فيأتي باسمه فيقول عليك أو لك فيحصل له من السرور والفرح»[(٢)].

٥. السلام على يحيى عليه السلام.

ومن السلام على الأنبياء ما ورد في قصة يحيى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم:١٥].

وهذه المواطن هي أشد مواطن على المرء فيحتاج فيها إلى الأمان والسلامة، فيسلم بها نزغة الشيطان المتحتمة لكل مولود ومن فتنة الشيطان عند الموت، ومن كرب وهول المطلع يوم القيامة.

قال سفيان بن عيينة: «أوحش ما يكون ابن آدم في ثلاثة مواطن: في يوم ولد فيخرج إلى دار همٍّ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيراناً لم ير مثلهم، ويوم يبعث فيشهد مشهدًا لم ير مثله قط، قال الله تعالى ليحيى ابن زكريا في هذه الثلاثة مواطن: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥][(٣)].

والسلام هنا بمعنى الأمان عند الطبري وغيره، قال ابن عطية : «والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأنبه من الأمان»، ووفق الشنقيطي بين القولين فقال:«ومرجع القولين إلى شيء واحد؛ لأن معنى السلام: التحية والأمان والسلامة مما يكره، وقول من قال هو الأمان، يعني أن ذلك الأمان من الله، والتحية من الله معناها الأمان والسلامة مما يكره»[(٤)].

٦. السلام على عيسى عليه السلام.

وقد جاء السلام في حق عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[مريم:

(١) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٩١، مجاز القرآن، أبو عبيدة ٢/ ١٧٢.

(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٨٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٨١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٨١.

٣٣].

وسلام يحيى من الله عليه، أما عيسى فقد أنطقه الله في المهد بالسلام عليه في نفس المواطن، وجاء سلام عيسى معرفًا بالألف واللام، قيل: لأنه لما جرى ذكر (سلام) قبل هذا الموضع بغير ألف ولام كان الأحسن أن يرد ثانية بالألف واللام[(١)].

فيكون المعنى: السلام الذي سبق على يحيى متوجه إليه أيضًا، وقيل: إن الأول من الله، والقليل منه كثير ، والثاني من عيسى والكثير منه لا يبلغ معشار سلام الله[(٢)].

ثانيًا: سلام الله على أهل الجنة:

وليس السلام الإلهي قاصرًا على الدنيا وأحوالها ولا على الأنبياء وحسب، وإنما يعم السلام جميع أهل الجنة وهم فيها، فالتحية في الجنة من الله بالسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٥: ٥٨].

ولفظ (سلام) جعله بعضهم مرتبطاً بما قبله.

قال الفراء: «ذلك لهم سلام قولًا، أي: لهم ما يدعوه مسلم خالص، أي: هو خالص، يجعله خبرًا لقوله لهم ما يدعون، خالص، ورفع على الاستئناف، يريد ذلك لهم سلام»[(٣)].

والأقرب الذي عليه الجمهور أن السلام خبر؛ فيكون المعنى أن السلام من الله عليهم، وهو التحية، والسلام «يجمع جميع النعم»[(٤)].

وبذلك يشمل التحية والسلام، قال ابن سعدي: «وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه وحصلت لهم التحية لا تحية أعلى منها ولا نعيم مثلها، فما ظنك التحية ملك الملوك الرب العظيم الرؤوف الرحيم لأهل دار كرامته»[(٥)].

وإذا كان السلام عند جماعة من المفسرين يحتمل أن يكون من الرب الرحيم مباشرة ويحتمل أن يكون من الملائكة فإن الأقرب والأولى بنظم الآية أن يكون من الله تعالى؛ فـ(من) هنا ابتدائية، فالسلام من السلام وهذا غاية الإكرام.

ومن سلام الله على عباده المؤمنين في الجنة قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[الواقعة: ٩٠: ٩١].

وهذه السلامة تصحبهم في احتضارهم، وهم في الجنة، وقيل: المعنى: مسلم لك

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٢٩.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٤٨٣.
(٣) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٨١.
(٤) نظم الدرر، البقاعي ١٦/ ١٤٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٩٧.

إنك من أصحاب اليمين[1].

ونلاحظ أن السلام هنا تعدى باللام ولم يتعد بـ(على) كما في غيره من المواضع، وفي تأويل ذلك يقول أبوالسعود:«إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، كما يفصح عنه اللام لا حكاية إفشاء سلام بعضهم على بعض، وإلا قيل عليك»[2].

ويقول ابن القيم: «﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾، أي: ثبت لك السلام وحصل لك، وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب، فهو خطاب للجنس، أي: فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئًا لك يا من هو منهم»[3].

وهذا السلام الأقرب أنه بمعنى السلامة وإن كانت اللفظة تشمل كل إكرام وتبعد عن كل سوء وشر.. ويدخل في السلام الإلهي على أهل الجنة ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[يونس:١٠٥].

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[إبراهيم: ٢٣].

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤].

وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾[ق: ٣٤].

وقوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

فكل هذا سلام إلهي سواءً كان من الرب الرحيم مباشرةً أو بواسطة الملائكة، فإنهم مبلغون عن الرب ذي الجلال والإكرام والفيض والإنعام على عباده سكان دار السلام.

(١) معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٣١. وهو اختيار البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الواقعة، ٦/ ١٤٦.
(٢) إرشاد العقل السليم، ٨/ ٢٠٢.
(٣) بدائع الفوائد ٢/ ١٤٧.

سلام الملائكة

تتعدد مواقف الملائكة مع المؤمنين، فالملائكة يثبتون المؤمنين، ويدعون لهم، ويستغفرون لهم، ويحفظونهم من الأمر إلى غير ذلك. ومن المواقف الطيبة المباركة للملائكة مع المؤمنين: السلام عليهم وتتعدد مواطن ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: سلام الملائكة على الأنبياء:

وقد ورد في القرآن الكريم سلام الملائكة على إبراهيم عليه السلام وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾[هود: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾[الحجر: ٥١- ٥٢].

وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[الذاريات: ٢٤- ٢٥].

وخلاصة تفسير هذه الآيات: أن الملائكة نزلوا على إبراهيم متلبسين أو مصاحبين بالبشرى وهي ولادة يعقوب، وقيل: بإهلاك قوم لوط[(١)].

ولا مانع من إرادة كليهما وإن كان الأول أقرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

قال الشنقيطي: «لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى، لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي لما»[(٢)].

وقد حيوه بالسلام، فقالوا: نسلم عليك سلامًا، فرد تحيتهم بأحسن منها، فقال: سلام عليكم. أو يكون التقدير: فأمري سلام.

قال ابن القيم: «فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلامًا، وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة إسمية تقديره: سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن»[(٣)(٤)].

وللسهيلي في تأويل النصب من قولهم والرفع من قول إبراهيم عليه السلام تأويل لطيف حيث قال: «وحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية هذا ورفعه ونصب ذلك، إشارة لطيفة وفائدة شريفة؛ وهو أن السلام من دين الإسلام، والإسلام ملة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٨٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٨٧.

(٢) الرسالة التبوكية ص ٦٦.

(٣) أضواء البيان ٢/ ١٨٥.

(٤) الرسالة التبوكية ص ٦٦.

إبراهيم عليه السلام، وقد أمرنا بالاتباع والاقتداء به، فحكي لنا قوله ولم يحك لنا قول أضيافه، إذ لا فائدة في تعريف كيفيته، وإنما الفائدة في تبيين قول إبراهيم وكيفية تحيته، ليقع الاقتداء به»[1].

ومن جملة تحية الملائكة للأنبياء ما ورد في حق يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[مريم: ١٥].

قال الرازي: «هذا السلام يمكن أن يكون من الله تعالى وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لا تختلف، لأن الملائكة لا يسلمون إلا عن أمر الله تعالى»[2].

ثانيًا: السلام ساعة الموت:

تمر على المرء لحظات شدة يحتاج فيها إلى البشارة، ومن أشد هذه الأوقات ساعة الاحتضار، ومقاساة شدائد نزع الروح وما في ذلك من كرب وألم وسكرات وغمرات، في وسط هذه الشدائد تنزل الملائكة على المؤمنين تبشرهم بالأمن والأمان.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣١- ٣٢].

وقد جاءت الآية بعد الحديث عن وفاة الكفار ظالمي أنفسهم وإخبارهم بدخولهم جهنم خالدين فيها، في مقابل هذا تأتي بشارة الملائكة في لحظة خروج الروح فالملائكة تتوفى المؤمنين وهم طيبون، وكلمة (طيبين) «كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة مبرئين عن الأخلاق المذمومة»[3].

وقولهم:(سلام عليكم) يحتمل أن يكون بمعنى التحية ويحتمل معنى السلامة والأمن، ولها مانع من إرادة كليهما؛ قال محمد بن كعب القرظي: «إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك فقال: السلام عليك ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، ثم نزع بهذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾[النحل: ٣٢][4].

وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بشارة لهم بدخول الجنة.

ومن البشارات الطيبة للمؤمنين ساعة الموت قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠- ٩١].

وهذا السلام من جملة مقول القول لهم، وتقدير المعنى: وأما إن كان من أصحاب

(١) نتائج الفكر، السهيلي ص٣١٩.
(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥١٨.
(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٢٠٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٣.

اليمين فيقال: سلام لك من أصحاب اليمين، أي: تقول له الملائكة[1].

وقد ورد عن السلف في تفسير الآية ما يدل على هذا القول، فقال قتادة: سلام من عند الله وسلمت عليه ملائكة الله[2].

وقال الضحاك: عند قبض روحه في الدنيا يسلم عليه ملك الموت[3].

وهذا السلام جاء متعدياً بحرف اللام الذي يفيد الاختصاص، فالسلام مختص به، واصلٌ أثره إليه، فيه الأمن والسلامة وفيه التحية والبشارة.

ومما ورد في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[فصلت: ٣٠- ٣١].

قال مجاهد: ذاك عند الموت[4].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[إبراهيم: ٢٧].

قال ابن عباس في تفسيرها: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا في جنازته...»[5].

ومن الأحاديث في ذلك ما ورد عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها)[6].

ثالثًا: السلام في الجنة:

تتعدد وجوه النعيم والإكرام لأهل الجنة؛ ومن ذلك تسليم الملائكة عليهم؛ فان تحية الملائكة لهم تكون بالسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٤٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٦٢
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٦٧
(٤) تفسير مجاهد ص ٥٨٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٦٦٤، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٤٥.
(٦) أخرجه مطولًا أحمد في مسنده، ٣٠/ ٥٠٣، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٦١٠.

[يونس: ٩، ١٠].

ففي الآية الكريمة بيان لتحية أهل الجنة، والتحية تحتمل أن تكون بين المؤمنين وبعضهم البعض أو من الله لهم أو من الملائكة؛ قال الألوسي: في تفسير الآية: «والفاعل إما الله سبحانه؛ أي: تحية الله تعالى إياهم ذلك، ويرشد إليه قوله عز وجل: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨].

أو الملائكة عليهم السلام، ويرشد إليه قوله سبحانه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ﴾[الرعد:٢٣].

يجوز أن تكون الإضافة إلى الفاعل بتقدير مضاف ، أي : تحية بعضهم بعض آخر ذلك»[١].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[إبراهيم: ٢٣].

قال ابن جريج:«الملائكة يسلمون عليهم في الجنة»[٢].

وقوله تعالى﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾[الأحزاب: ٤٤].

قال الماتريدي: «جائز أن تكون تحية الملائكة عليهم سلام.... أوتحية بعضهم على بعض سلام»[٣].

وإذا كانت الآيات السابقة تحتمل أن تكون التحية لهم من الله تعالى أو من الملائكة أو من المؤمنين، فإن هناك آيات نصت صراحةً على أن الملائكة يسلمون على أهل الجنة؛ ومن ذلك قوله تعالى في جزاء أولي الألباب: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٣- ٢٤].

فإن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الحميدة لهم جنات إقامة هم ومن آمن واستقام من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وهذه تهنئة الدخول، تدخل الملائكة عليهم بالتهنئة بدخول الجنة، قائلين: سلام عليكم.

قال ابن عاشور: «وهذا من كرامتهم والتنويه بهم، فإن تردد رسل الله عليهم مظهر من مظاهر إكرامه، وذكر ﴿مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ كنايةً عن كثرة غشيان الملائكة إياهم بحيث لا يخلو باب من أبواب بيوتهم لاتدخل منه الملائكة. ذلك أن هذا الدخول لما كان مجلبة مسره كان كثيراً في الأمكنة، ويفهم منه أن ذلك كثير في الأمكنة فهو متكرر، لأنهم ما دخلوا من كل باب إلا لأن كل باب مشغول بطائفة منهم، فكأنه قيل: من كل باب

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٧٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٦٣٤.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٣٩٧.

في كل آن»[1].

ومن الأحاديث الواردة في تحية الملائكة لهؤلاء المؤمنين الصالحين ما ورد عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:(هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟) قالو: الله ورسوله أعلم، قال: (أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين تسد بهم الثغور ويتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عباداً يعبدوني، لا يشركون بي شيئاً، وتسد بهم الثغور، ويتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم، وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب): ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤])[2].

ومن تحية الملائكة للعباد المتقين قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وهذا تكريم مضاعف؛ فالملائكة تتلقى أولئك المتقين وهم يدخلون الجنة أفواجاً وجماعات، حتى إذا جاءوها والأبواب معدة مفتوحة لهم قبل وصولهم، عندئذ قال لهم خزنتها من الملائك : سلام عليكم تطهرتم من دنس المعاصي ومن كل خبث، والسلام يحتمل التحية ويحتمل السلامة والأمان، والآية جمعت بين وصفهم بأنهم طيبون وبين حلول السلام عليهم. وبهما معا تكمل الفرحة والنعيم، فالملائكة تتوفاهم طيبين بالسلام ويدخلون الجنة طيبين بالسلام.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور١٣/ ١٣٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ١٣٢، وابن حبان في صحيحه ١٦/ ٤٢٩، رقم ٧٤١٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ١٢٥، رقم ٢٥٥٩.

السلام شعار المؤمن

إن السلام شعار المؤمن في كل حياته، فهو تحيته التي اختارها الله له، ولذلك فإن من صفات غير المسلمين أنهم لا يحيون بهذه التحية.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾[المجادلة: ٨].

وقد حملها جمع من المفسرين على اليهود[(١)].

عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: سام عليكم، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[المجادلة: ٨] فنزلت هذه الآية[(٢)].

وذهب كثير من المفسرين إلى أنها تشمل اليهود والمنافقين[(٣)]، وهذا هو الأقرب.

وآيات السورة تتحدث عن الطائفتين وتبين موالاة المنافقين لليهود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾[المجادلة: ١٤].

وقد كان المنافقون إذا دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم يخفتون لفظ (السلام عليكم) لأنه شعار الإسلام ولما فيه من جمع معنى السلامة، يعدلون عن ذلك، ويقولون: أنعم صباحًا، وهي تحية العرب في الجاهلية لأنهم لا يحبون أن يتركوا عوائد الجاهلية[(٤)].

بل جعل الله هذه التحية أمارةً على الإسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[النساء: ٩٤].

وورد في سبب نزولها عن عبد الله ابن عباس قال: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[(٥)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٦٩، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٧٦، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٦٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ١٦٠.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٢: إسناده جيد.
وبنحوه عند مسلم عن عائشة، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، ٤/ ١٧٠٧، رقم ٢١٦٥.

(٣) انظر: معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٤٠، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٣٦٢، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٩١، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٤٥.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٧٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣١٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير

والمفسرون يحملون اللفظ هنا على ظاهره فيقولون: السلام بمعنى التسليم[1].

«أي: من خاطبكم بتحية الإسلام علامة على أنه مسلم»[2].

وحملها جماعة على معنى الاستسلام والانقياد، والجمع بينهما ممكن.

قال ابن عطية: «لأن سلامه بتحية الإسلام مؤذن بطاعته وانقياده»[3].

وهذا دليل واضح على أن السلام شعار يتميز به المؤمن عن غيره، بل يعصم دمه وماله، وما ذاك إلا لأنه دليل على المسالمة الذي هي الإسلام.

والتسليم لأمر الله وحكمه علامة الانقياد والاستسلام.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥].

قال الزجاج: «أي يسلّمون فيما يأتي من حكمك، لا يعارضونه بشيء، و﴿تَسْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد، والمصادر المؤكدة بمنزلة ذكر الفعل ثانيًا، كأنك إذا قلت: سلّمت تسليماً فقد قلت: سلّمت سلّمت»[4].

ومن الرسول للمؤمنين سلام، ومنهم له في كل عصر ومصر سلام، أما سلامه على المؤمنين ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والآية حملها قوم على من جاء النهي عن طردهم من ضعفاء المؤمنين قبل هذه الآية[5].

وحملها آخرون على المذنبين من المؤمنين؛ لأن الكلام انتهى عن القوم السابقين[6].

والراجح أن لفظ الآية عام يشمل كل مؤمن.

قال الرازي: «والأقرب من هذه الأقاويل أن تحمل هذه الآية على عمومها، فكل من آمن بالله دخل تحت هذا التشريف»[7].

وفي الآية أمر من الله لرسوله أن يبتدأهم بالسلام أو يبلغهم سلام ربهم، وفيه التحية، وفيه السلامة من أثر الذنوب؛ فمن أسرف على نفسه وجهل قدر ربه ووقع في الذنب

القرآن باب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ٦/ ٤٧، رقم ٤٥٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، رقم ٤٣٠٢٥/ ٢٣١٩.

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ١٤٣٣، الوجيز، الواحدي ص ٢٨٢، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٦٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٩١.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٦٧.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٩٦.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٧١.

(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٦/ ٤٥٣.

(٦) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٧٢.

(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٥.

ثم تاب وأصلح فهو في دائرة السلامة والعفو من رب عفو رحيم.

ومن المؤمنين لرسولهم في كل وقت سلام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦].

لقد بدأ الله بالصلاة على رسوله، وثنّت الملائكة، ثم بعد ذلك جاء الأمر للمؤمنين بالصلاة والتسليم على النبي الكريم، وقد علّم النبي أصحابه كيف يصلون عليه، وفي الصلاة والسلام على سيد الأنام فضل عظيم وخير عميم، فبها تفرج الهموم وتغفر الذنوب، وترفع الدرجات وتزيد الحسنات، ويصلي الرب الجليل عشراً على من صلى على نبيه صلاةً واحدةً. ومن ترك الصلاة على النبي فهو من أبخل البخلاء.

والسلام شعار المسلم في كل وقت، يحيى به أهل بيته ويحيى به إخوته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾[النور:٢٧].

والمعنى: يا من تحليتم بحلية الإيمان، ليس لكم أن تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم التي تسكنوها حتى تستأنسوا من الاستئناس، بمعنى: الأنس ،أي الاطمئنان، فلا بد لصاحب المنزل أن يأنس بدخولكم عليه احتراماً لخصوصيته، ولكي يتهيأ للقاء زائريه، والسلام أفضل مدخل يدخل به الإنسان إلى قلوب الناس وإلى بيوتهم.

وقال تعالى﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[النور:٦١].

والمقصود بأنفسكم هنا أهل هذه البيوت كما ورد المعنى بذلك عن عبد الله بن عباس[(١)].

والتعبير بالأنفس عن أصحاب البيوت تنزيل لهم منزلة النفس، وهذا يبين شدة الاتصال وقوة الارتباط بين المسلمين وبعضهم البعض، فالمسلّم على أخيه إنما يسلم على نفسه بتحية من عند الله مباركةً طيبةً ويالها من منزلة عظيمة للسلام في دين السلام.

ويحتمل أن يكون المعنى إذا دخلتم بيوتاً ليس فيها غيركم فسلموا على أنفسكم. استجلابًا للسلامة والبركة واستشعاراً للأنس. وهذا الشعار الإيماني العظيم لا يكون من طرف واحد، بل يشترك فيه البادىء بالسلام ومن توجه إليه السلام، فإنه ينبغي عليه أن يرد بخير من التحية أو مثلها اتباعًا للأمر القرآني ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[النساء: ٨٦].

قال القرطبي: «والصحيح أن التحية ها

(١) انظر:شعب الإيمان، البيهقي ١١/ ٢٢٧.

هنا السلام»[1].

فأرشدت الآية أولًا إلى الأكمل وهو الرد بأحسن من السلام، فإن لم يكن فلا أقل من رد السلام بلا نقصان، وهذا تعليم وتوجيه رباني لحسن الأدب وحسن الرد.

وللسلام في الإسلام منزلة عظيمة، وقد رغبت فيه الآيات القرآنية، ووردت في شأنه الأحاديث النبوية، التي تبين فضله، حتى أفرد له المحدثون فصولاً وأبواباً في كتبهم المسندة تجمع أحكامه وآدابه، وورد في فضله عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ رجلاً سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أيّ الإسلام خير؟ قال: (تطعم الطّعام، وتقرأ السّلام على من عرفت ومن لم تعرف)[2].

والإسلام لا يطلب من أتباعه أن يسلم بعضهم على بعض وحسب، وإنما يطلب منهم في نصوص صريحة أن يفشوا السلام ويكثر حتى يصير سمةً بارزةً وشعاراً للمجتمع المسلم، ولا يقتصر على الأحياء وإنما يشمل السلام الأموات أيضاً فتعمهم السلامة وتغشاهم الرحمة، وقد علم النبي أصحابه ان يقولوا عند زيارة القبور:(السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون)[3]. لتكون التحية والسلامة واصلةً للجميع فيسلموا ويغنموا.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، ١/ ١٥، رقم ٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، ١/ ٦٥، رقم ٣٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند القبور والدعاء لأهلها، ٢/ ٦٦٩، رقم ٩٧٤.

السلام مع المخالفين

إن السلام شعار المسلم، فهو في سلام مع نفسه، ومع كل من حوله، فهو في سلام مع الحيوانات لا يؤذيها ومع النباتات لا يقتلعها عبثًا، ومن أوجه السلام: السلام مع المخالفين، نتحدث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: السلام مع المخالفين في الدين:

ورد في القرآن موقفان فيهما السلام على المشركين، وكلاهما من قصص الأنبياء السابقين، وورد أمر من الله لنبيه بقول السلام لغير المؤمنين؛ أما الموقف الأول فهو بين نبي الله إبراهيم وأبيه آزر[(١)].

وذلك في المحاورة التي انتهت بقول إبراهيم: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾[مريم: ٤٧].

وقد جاء هذا السلام في نهاية حوار إبراهيم معه، فحملها جمع من المفسرين على أنها تحية مفارقة ومتاركة، وعلى هذا القول فإنه يجوز تحية الكافر بها، وهو مذهب سفيان بن عيينه.

قال القرطبي: الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة[(٢)].

وقال السيوطي:استدل بها من أجاز ابتداء الكافر بالسلام[(٣)].

وذهب جماعة إلى أن لفظ السلام من إبراهيم عليه السلام بمعنى السلامة، قال الطبري: أمنة مني لك[(٤)].

وقيل: على الإضمار والتقدير: سلام عليك إذا أسلمت[(٥)].

والآية الثانية أمر من الله تعالى لنبيه موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون لدعوته بالقول اللين ويطلبوا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل فقال سبحانه: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[طه: ٤٧].

والسلام هنا بمعنى المسالمة والأمن، قال الزجاج:«ليس يعني به التحية، وإنما معناه أن من اتبع الهدى سلم من عذاب الله وسخطه، والدليل على أنه ليس بسلام أنه ليس ابتداء لقاء وخطاب»[(٦)].

---

(١) يوجد خلاف بين المفسرين هل كان آزر أباه أم عمه؟ والذي عليه جمهورهم أنه أبوه حقيقة. والله أعلم.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٣١، روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٨٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١١٢.

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي ص ١٧٤.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٠٧.

(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٢٤٠.

(٦) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٥٨.
وقال بهذا القول جمع من المفسرين، انظر:الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٦٤٧، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٧٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٦٠.

ويحتمل أن يكون السلام هنا بمعنى التحية، قال أبو حيان:«فالسلام بمعنى التحية رغباً به عنه، وجرياً على العادة في التسليم عند الفراغ من القول»[1].

وهذا الوجه يقويه أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يبدأ كتبه للملوك والأمراء بهذه الصيغة، فقد كتب هرقل عظيم الروم: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى أما بعد...)[2].

والآية الثالثة في السلام على المخالفين في الدين ما ورد خطابًا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[الزخرف: ٨٨- ٨٩].

المعنى أن الله تعالى عنده علم الساعة وعلم قوله صلى الله عليه وسلم شاكياً قومه إن هؤلاء الذين أرسلت إليهم لا يؤمنون، ثم يلتفت الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم آمرًا إياه أن يصفح عنهم وأن يقول قولًا فيه المسالمة والمتاركة لهم.

قال ابن كثير: «﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾ أي : لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلًا وقولًا»[3].

وحملها بعضهم على معنى التسليم، قال الرازي: «احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر»[4].

وفي المسألة خلاف بين أهل العلم؛ فجمهور الفقهاء على عدم الجواز لحديث أبي هريرة مرفوعًا: (لا تبدءو اليهود والنصارى بالسلام)[5].

وذهب آخرون إلى جواز ذلك ابتداءً، وروى ذلك عن ابن عباس وأبي أمامة وابن محيريز، وذهب آخرون إلى جوازه ابتدائه للضرورة أو لحاجة أو لحقٍّ وسبب، ويروي ذلك عن علقمة وإبراهيم، وقال الأوزاعي: إن سلمت فقد سلم الصالحون، وإن تركت فقد ترك الصالحون[6].

ثانيًا: السلام مع الجاهلين:

يأتي لفظ: (جهل) في القرآن ويراد السفاهة وسوء الخلق غالبًا، ومن الشواهد اللغوية على ذلك ما ذكره الزمخشري في مادة جهل: «فلان جهول، وقد جهل بالأمر،

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٣٣٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب كيف يكتب الكتاب إلى أهل الكتاب، ٨/ ٥٨، رقم ٦٢٦٠، عن عبد الله بن عباس.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٤.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٥٠.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، ٤/ ١٧٠٧، رقم ٢١٦٧.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١١٢، إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٧/ ٥٣.

وجهل حق فلان، وهو يجهل على قومه يتسافه عليهم، قال[1]:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ولو كان المقصود بالجهل في الاستعمال القرآني عدم العلم لأمرنا الله أن نعلمهم لا أن نعرض عنهم.

وفي القرآن الكريم آيتان كريمتان تذكران نماذج طيبة للمؤمنين الصادقين المتخلقين بأحسن الأخلاق الذين يواجهون الجهال السفهاء بالمسالمة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[القصص:٥٥].

تتحدث الآيات عند طائفة من أهل الكتاب آمنو بالإسلام وبما قرئ عليهم من القرآن فأيقنوا أنه الحق من عند ربهم، فكان جزاؤهم أن يؤتوا أجرهم مرتين بما صبروا، فإذا سمعوا كلاما يؤذيهم أعرضوا عن اللغو وقالوا لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم سلام عليكم، لا نريد محاورة أهل الجهل والسفاهة. قال مجاهد:«كان ناس من أهل الكتاب أسلموا، فكان المشركون يؤذونهم، فكانوا يصفحون عنهم، يقولون ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[القصص: ٥٥][2].

ويقال: إنها نزلت في نصارى قدموا على رسول الله فآمنوا به وصدقوه، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم[3].

وجمهور المفسرين على أن السلام هنا سلام مفارقة ومتاركة[4].

وهذا من حسن الأدب وترك الجدال.

قال السخاوي: «المراد بالجاهلين السفهاء، وهذه صفة محمودة باقية إلى يوم القيامة، وما زال الإغضاء عن السفهاء، والترفع عن مقابلة ما قالوه بمثله من أخلاق الفضلاء، وبذلك يقضي الورع والشرع، والأدب والمروءه»[5].

والآية الثانية وردت في مدح عباد الرحمن؛ قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[الفرقان: ٦٣].

تصف هذه الآية أقوامًا صالحين انتسبوا إلى ربهم بأعظم وأشرف نسبة، وهي نسبة العبادة، فهم أصحاب العبودية الخاصة للرحمن، وأول أوصافهم أن يمشون مشيةً

(١) أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ١٥٣.
والبيت لعمر وبن كلثوم في ديوانه ص ٧٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٨١، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٩٢، رقم ١٦٩٩٢.
(٣) انظر: سيرة ابن إساحق ١/ ٢١٨، دلائل النبوة، البيهقي ٢/ ٣٠٦.
(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢١٦، أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥١٢ أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٣٣٥.
(٥) جمال القراء، السخاوي ص ٤٤١.

هينةً سهلةً لا كبر فيها ولا خيلاء، فهم أهل تواضع، ثم ذكر صفةً مناسبةً للتواضع وهي الحلم، فهم لا يتسافهون مع السفهاء ولا يجهلون مع الجاهلين، فإذا ما تعرض لهم جاهل بالأذى خاطبوه بقول لا إثم فيه ولا رد للاعتداء بل يقولون قولًا سلامًا، فسلامًا هنا صفه لمصدر محذوف والمعنى: سدادًا من القول[1].

وهذا خلق الأتقياء الذين لا تزيدهم شدة الجهل إلا حلمًا، ولا يجزون السيئة بالسيئة، بل يحلمون إذا جهل عليهم، ويصبرون على ما يصيبهم من أذى السفهاء ويدرؤون بالحسنة سيئة الجهال فاستحقوا بذلك عقبى الدار؛ عن النعمان بن مقرن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وسب رجل رجلًا عنده، فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام، قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم (أما إن ملكاً بينكما يذب عنك كلما يشتمك هذا، قال له: بل أنت وأنت أحق به، وإذا قاله: عليك السلام قال: لا بل لك أنت، أنت أحق به)[2].

(١) قاله مجاهد.جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٩٤.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٩/ ١٥٤.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٧٥: رجاله رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة.

أثر إفشاء السلام على المجتمع

ليس السلام مجرد كلمة تنطق بها الألسنة فقط، بل هو منهج تعامل واستفتاح بالمسالمة وضمان حفظ الدم والمال والعرض، وفيه - مع هذا - الدعاء بالسلامة في كل أمور الدين والدنيا. وإن لإفشاء السلام آثارًا طيبةً على المجتمع كله نوجزها فيما يأتي:

١. أنه مدخل المحبة بين أفراد المجتمع المسلم.

فبالسلام تسود المحبة؛ وهذا نص حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولًا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)[3].

قال ابن عبد البر: «وفي ذلك دليل على فضل السلام، لما فيه من رفع التباغض وتوريث الود، ولقد أحسن القائل: قد يمكث الناس دهرًا ليس بينهم ود فيزرعه التسليم واللطف»[4].

وقال النووي: «والسلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٩٣، ١/ ٥٣، عن أبي هريرة.
(٤) التمهيد ٦/ ١٢٨.
والبيت غير منسوب في ربيع الأبرار للزمخشري ٢/ ٤٢٤، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٥٧.

إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض»[1].

٢. أنه إشعار بالأمان في الأرض.

فالسلام مع كونه يورث المحبة، فإنه كذلك يضفي على المجتمع إحساسًا بالسلم والأمان، فالسلام يتضمن اسماً من أسماء الجمال لله تعالى كما يتضمن الدعاء بالسلامة من كل ما يضر، مع زيادة حصول الخير بالرحمة وحصول دوامه وزيادته بالبركة، وهذا إشعار بالمسالمة ودوام الخيرية، ويصدق هذا قوله صلى الله عليه وسلم: (أفشوا السلام تسلموا)[2]، فإفشاء السلام يورث المجتمع الأمن والسلام.

٣. إفشاء السلام سبب للرفعة والعلو.

أكد القرآن الكريم أن التنازع سبب لذهاب قوة المجتمعات.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال: ٤٦].

وفي المقابل فإن السلام باللسان مقدمة لتصافح القلوب ليكونوا عباد الله إخوانًا، فتقوى شوكتهم ويعلو أمرهم، عن أبي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أفشوا السلام كي تعلوا)[3].

قال المناوي: «فإنكم إذا افشيتموه تحاببتم، فاجتمعت كلمتكم فقهرتم عدوكم وعلوتم عليه»[4].

٤. في السلام قهر وإغاظة للعدو.

إذ هو مظهر من مظاهر تآلف وتراحم المجتمع، ويعكس قوة ترابطه وشيوع الرحمة بين أفراده وذلك مما يغيظ أعداء المسلمين الذين يسعون إلى أن نظل متفرقين متنافرين، لذا فهم يحسدون المسلمين على أي رابطة جامعة بينهم، وفي الحديث: (ما حسدكم اليهود على شيء ما حسدوكم على السلام والتأمين)[5].

٥. إفشاء السلام دليل على الأخلاق الحسنة في المجتمع.

وإفشاء السلام يعكس وجود أخلاق طيبة بين أفراده؛ فالسلام يدل على وجود

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٣٦.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٤٩٤، والبخاري في الأدب المفرد، باب الغناء واللهو، رقم ١٧٨٧/ ٤٢١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤٦، رقم ١٠٨٧.

(٣) أخرجه الطبراني كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٣٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤٦، رقم ١٠٨٨.
(٤) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ١/ ١٨٠.
(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب فضل السلام، ص ٣٤٢، رقم ٩٨٨، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة، باب الجهر بآمين ١/ ٢٧٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٠١، رقم ١٩٩٧.

خلق الكرم النفسي، وفي الحديث: (أبخل الناس من بخل بالسلام)[1].

ويدل على خلق التواضع وخفض الجناح للمؤمنين، وفي الصحيح عن عمار ابن ياسر: (ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من إقتار)[2].

والعالَم بفتح اللام[3]. وهذا أمارة على تحقق خلق التواضع ولين الجانب لجميع المؤمنين.

قال أبو الزناد: «جمع عمار في هذه الألفاظ الثلاث الخير كله»[4].

٦. إفشاء السلام دليل على وجود الخيرية في المجتمع.

لأن المجتمع الذي يفشو فيه السلام مجتمع تحوطه الرحمة والبركة، ولذلك فإن من علامات الساعة أن يكون السلام على من يعرفه المرء فقط، قال رسول الله: (إن من أشراط الساعة أن يسلم الرجل على الرجل، لا يسلم عليه إلا للمعرفة)[5].

وهذا دلالة على انشغال كلٍ بأمر نفسه، وعلى تفتت رابطة الإسلام الجامعة بين القلوب والأرواح، وهذا نذير شؤم، وإيذان بقرب حلول الساعة.

٧. في السلام تعاون على البر.

فالذي يلقى السلام مأجور، والذي يرد السلام مأجور أيضًا، والباديء بالسلام يقوم بدعوة عملية بين الناس للتذكير بسنّة عظيمة الأجر وفي الحديث عن أبي أمامة مرفوعًا (إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام)[6].

موضوعات ذات صلة:

الاقتصاد، الحرب، السلم، السياسة

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ١٠١٥، ص ٣٥١.
قال ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٥٦٥: هذا موقوف صحيح على أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، ١/ ١٥.
وصححه ابن حجر في تغليق التعليق ٢/ ٣٦ موقوفًا.

(٣) إرشاد الساري، القسطلاني ١/ ١١٣.

(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١/ ٨٤.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٩٨ عن عبدالله ابن مسعود.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٢٤٨، رقم ٦٤٨.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب أبواب النوم، باب في فضل من بدأ بالسلام، ٤/ ٣٥١، رقم ٥١٩٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٠٣، رقم ٢٠١١.

السّلم

عناصر الموضوع

مفهوم السّلم	٢٠٤
السّلم في الاستعمال القرآني	٢٠٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٠٦
مظاهر السّلم في القرآن	٢٠٨
مقاصد السّلم	٢١٨
من أساليب القرآن في الحديث عن السّلم	٢٢٧
قواعد السّلم مع غير المسلمين	٢٣٢
أثر السلم على الفرد والمجتمع	٢٣٧
السّلم بين القرآن و المواثيق الدولية	٢٤٣

مفهوم السّلم

أولًا: المعنى اللغوي:

يقول ابن فارس: «(سلم) السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية، ويكون فيه ما يشذ، والشاذ عنه قليل، فالسلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى»[(١)].

فمن معانيه: الحياد وعدم وجود العلاقة بين طرفين، والعافية والسلامة من الأذى والآفات، وعلامة المسالمة وعدم وجود الحرب، وقول سديد لا لغو فيه، وقيل: قالوا سلامًا أي سدادًا من القول وقصدًا لا لغو فيه، وبمعنى ضد الحرب، والاستسلام والانقياد وإظهار الخضوع[(٢)].

فأكثر المعاني تعود لباب الصحة والعافية والسلامة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

أما في الاصطلاح الشرعي فقد عرفه الماوردي بقوله: «أمن عام تطمئن إليه النفوس وتنشر فيه الهمم ويسكن إليه البريء ويأنس إليه الضعيف»[(٣)].

وقال الراغب «السلم والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة»[(٤)].

وتعرف إحدى الباحثات السلم بأنه: «غياب المظاهر السلبية في المجتمعات الإنسانية وكل ما له علاقة بالعنف، أو بحضور المظاهر الإيجابية مثل: الهدوء والاستقرار، والصحة، والنماء»[(٥)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٠.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٨٩، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٨٥٨، الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٥٠. تاج العروس، الزبيدي ٣٢/ ٣٧١.
(٣) أدب الدنيا والدين، الماوردي ١/ ١٤٢.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢١.
(٥) لغة الحوار وأثرها على السلم الإجتماعي، مي عمر نايف ص ٣.

السّلم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سلم) في القرآن الكريم (١٤٠) مرة، يخص موضوع البحث (٣) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
السِّلم	١	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة:٢٠٨]
السَّلم	٢	﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ [الأنفال:٦١]

وجاء السّلم في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الصلح: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١].

الثاني: شرائع الدين: ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة:٢٠٨]. يعني: في الدين.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٥٥-٣٥٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٦٥-٢٦٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأمن:

الأمن لغة:

ضد الخوف، والفعل منه: أمن يأمن أمنًا[١].

الأمن اصطلاحًا:

عدم توقع مكروه في الزمان الآتي[٢]، وأصله: طمأنينة النفس وزوال الخوف[٣].

الصلة بين الأمن والسلم:

الأمن حالة من الاطمئنان ضد الخوف، سواء كان الخوف من الحاضر أو من المستقبل، وأكثر ما يستعمل في الأمن الداخلي، أما السلم فتعم السلم الداخلي والخارجي، فكلمة السلم أعم.

٢ الأمان:

الأمان لغة:

هو طلب الأمن وتأمينه للغير[٤].

الأمان اصطلاحًا:

وهو الذي يعطى للكافر الحربي فلا يجوز التعرض له، ويدخل دار الإسلام آمنًا، ويجب على المسلمين رعاية هذا الأمان ومقتضاه ما دام قائمًا[٥].

الصلة بين الأمان والسلم:

الفرق بينهما واضح بين، إن المستأمن يكون في حالة سلم لا يحارب ما دام في عقد الأمان، وطلب الأمان لا يكون للمسلم لعدم احتياجه إليه، فالعقد خاص بغير المسلم.

٣ الموادعة:

الموادعة لغة:

مأخوذ من مادة (و د ع) بمعنى الترك، «وادع بني فلان أي صالحهم وسالمهم على

(١) العين، الفراهيدي ٨/ ٣٨٨.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص ٣٧.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٦٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢١.
(٥) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، عبدالكريم زيدان ص ٤٦-٤٧.

ترك الحرب والأذى، وحقيقة الموادعة المتاركة أي: يدع كل واحد منهما ما هو فيه»[1].
فالموادعة: المصالحة والمسالمة.

الموادعة اصطلاحًا:

وقد عرفت الموادعة بأنها ترك القتال. قال شهاب الدين الشلبي: «إنما سميت المصالحة موادعة لما فيها من ترك القتال. والودع الترك»[2].

الصلة بين السلم والموادعة:

الموادعة نوع من السلم تكون مع المحاربين، فالسلم أشمل وأعم.

٤ الحرب:

الحرب لغة:

نقيض السلم، ورجل محرب أي شجاع، وفلان حرب فلان أي يحاربه، وحرّبته تحريبًا أي حرّشته على إنسان فأولع به وبعداوته[3].

الحرب اصطلاحًا:

قال المناوي: «دفع بشدة عن اتساع المدافع بما يطلب منه الخروج فلا يسمح به ويدافع عنه بأشد مستطاع»[4].

وقال الجرجاني: «وهو القتال بين فئتين»[5].

الصلة بين السلم والحرب:

السلم ضد الحرب، ولا يجتمعان.

(١) لسان العرب، ابن منظور٨/ ٣٨٦.
(٢) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي، الزيلعي ٣/ ٢٤٥
(٣) انظر:العين، الفراهيدي ٣/ ٢١٣.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ١/ ١٣٧.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ١٠٤.

مظاهر السّلم في القرآن

أولًا: السّلم العقدي:

يقصد بالسلم العقدي كل ما يحقق للفرد المؤمن الحماية والسلامة والأمان والاطمئنان في نفسه ودينه ومجتمعه. ويتحقق هذا الأمان بمعرفة الحقائق الدينية المجموعة في أركان الدين الواردة في حديث جبريل عن أبي هريرة قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزًا يومًا للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث). قال: ما الإسلام؟ قال: (الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان). قال: ما الإحسان؟ قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك). قال: متى الساعة؟ قال:(ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]). ثم أدبر، فقال: ردوه. فلم يروا شيئًا. فقال: (هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم)[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾[طه: ١٢٤].

وقد فسر البعض العذاب المذكور في الآية بعذاب القبر، ولكن العلامة السعدي يفسر الضنك الوارد في الآية «بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها»[2].

فالتوافق مع الذات ومطابقة الظاهر للباطن وعدم التناقض بين عقيدة الإنسان وسلوكه اليومي من أهم سمات ومظاهر الإنسان السليم.

يقول سيد قطب: «إن الإسلام يبدأ محاولة السلام أولًا في الضمير، ثم في محيط الأسرة ، ثم في وسط الجماعة، وأخيرًا يحاوله في المحيط الدولي بين الأمم والشعوب الأخرى»[3].

وقد خصص سيد قطب في كتابه (السلام العالمي والإسلام) مساحةً واسعة من كتابه لشرح أثر العقيدة الإسلامية في الإنسان سماه (سلام الضمير) و(المنطق والعقيدة) بين فيه بساطة ووضوح العقيدة الإسلامية

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم ٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥١٥.

(٣) السلام العالمي والإسلام، سيد قطب ص ٣٣.

في كافة المسائل بلا غموض ولا تعقيد وبدون ألغاز ومعميات، وقارن بينه وبين ما عند الكنيسة من الآراء الغامضة ودور رجال الدين الكهنة في إضلال الناس[1].

أثر التوحيد بأنواعه في السلم الداخلي:

مما لا شك فيه أن الإنسان المؤمن لا يعيش في صراع داخلي مع نفسه، وذلك راجع للتوحيد الذي يؤمن به.

يقول الدكتور القرضاوي: «عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين... فلم يعد بشر يسجد لبشر أو ينحني لبشر أو يقبل الأرض بين يدي بشر، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحقة ، وأصل الحرية الحقة، وأصل الكرامة الحقة ؛ إذ لا أخوة بين عابد ومعبود، ولا حرية لإنسان أمام إله أو مدعي ألوهية، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذه حكمًا من دون الله»[2].

علامات صحة النفس:

ولصحة النفس وسلامتها من الآفات والأمراض، أمارات تعرف بها:

١. هداية القلب وراحة البال.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التغابن: ١١].

يقول الطبري: «ومن يصدّق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك يهد قلبه: يقول: يوفّق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه»[3]. فراحة البال وهداية القلب متلازمان.

٢. الشعور بالأمن.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «أولئك لهم الأمن دون غيرهم من العقاب الديني المتعلق بأصل الدين وهو الخلود في دار العذاب»[4]. فعدم الوقوع في الشرك تتبعه الشعور بالأمن.

٣. السعادة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

يقول الزمخشري: «قد جاءتكم موعظة، أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد، وهو فيه شفآء أي : دواء مما يجمعون صدوركم من العقائد الفاسدة ودعاء إلى الحق ورحمة لمن آمن به منكم»[5].

(١) انظر: المصدر السابق، ص٣٨.
(٢) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي ص ٣١-٣٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٢١.
(٤) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٨٤.
(٥) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٣٦

وفي معنى السعادة يقول الشيخ السعدي: «إذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور ؛ ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك.. فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها، وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب»[1]. فسعادة المرء دليل على صحة قلبه.

٤. الاطمئنان على الرزق.

قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

فالأرزاق تنزل من السماء فلا داعي للقلق، قال البغوي: «قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، وما توعدون، قال عطاء: من الثواب والعقاب. وقال مجاهد: من الخير والشر»[2].

٥. الاطمئنان على الأجل.

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

جاء في تفسيره «لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال، وذلك أنه ليس كائن منها إلا وله أجل في بدئه أو في خاتمته، وكل أجل مكتوب محصور فأخبر تعالى عن كَتْبِهِ الآجال التي للأشياء عامة. وقال الضحاك والفراء: المعنى لكل كتاب أجل»[3].

ثانيًا: السّلم في العبادات:

شرع الله سبحانه العبادات للإنسان لكي يتقرب به إلى الله تعالى ، والعبادة كلمة جامعة لكل معاني الخير كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية[4]. ومع ذلك فإن لكل عبادة أهدافًا وغايات أخرى تتحقق بالالتزام بتلك العبادة، وأحاول أن أركز على أهم العبادات وآثارها على إشاعة السلم والأمان في نفسية الفرد وفي المجتمع.

٦. الصلاة والسلم.

الصلاة لا تكون في تمام وطمأنينة إلا في ظل الأمن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

يقول السعدي في تفسير الآية: «قوله ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

أي: ذليلين خاشعين، ففيه الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع الأمن والطمأنينة»[5].

والمصلي يكتسب المناعة ضد كل سلوك جرمي وتقيه من الأمراض الفتاكة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٦٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٢٨٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٢٠.
(٤) انظر: العبودية، ابن تيمية ص ٣٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٦.

بالفرد والمجتمع، وقال تعالى مبينًا هذه الحكمة من الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالمصلي إذا أدى الصلاة كما أمر، اكتسب طاقة روحية تقيه من كل فاحشة ومنكر.

والصبر مع الصلاة شعار سلمي يرفعه المسلم لمواجهة أعباء الحياة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والمسلم لا يخرج من الصلاة قبل التلفظ بعبارة السلام عليكم.

مما سبق تبين لنا متانة العلاقة بين عبادة الصلاة وبين السلم.

٧. الصوم والسلم.

قال تعالى مبينًا أثر عبادة الصوم في السلوك الإيجابي للمسلم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالصيام يعد الناس ليصلوا إلى مرتبة التقوى. والوقاية هي ؛ «حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، فالتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف»[١].

وينقل الشيخ محمد رشيد رضا بعضًا من حِكَم الصوم بقوله: «ومن وجوه إعداد الصوم للتقوى : أن الصائم عندما يجوع يتذكر من لا يجد قوتاً فيحمله التذكر على الرأفة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة، وقد وصف الله تعالى نبيه بأنه رءوف رحيم، ويرتضي لعباده المؤمنين ما ارتضاه لنبيه صلى الله عليه وسلم، ولذلك أمرهم بالتأسي به»[٢].

ومن ثمار الصوم أيضًا : توطيد العلاقات الاجتماعية بين المؤمنين، غنيهم وفقيرهم فهو يغرس في نفوس الموسرين روح البذل والعطاء حين يحسون وهم صائمون بالحاجة إلى الطعام، فيكون ذلك الجوع المؤقت مدعاةً لتذكّر جوعة الفقير الدائمة بسبب الحاجة والحرمان.

٨. الزكاة والسلم.

أصل الزكاة النمو والبركة[٣] ، وهو أحد مباني ، الإسلام ولأهميتها قرنت في القرآن الكريم بالصلاة. وشرع الزكاة كما أشار إليه الآية الكريمة إلى التطهير والتزكية.

ولو أردنا أن نبين العلاقة بين فريضة الزكاة والسلم الداخلي أو السلم بين أفراد المجتمع، يجدر بنا أن نذكر أهم حِكَمِها. وقد ذكر العلماء لها حِكَمًا وفوائد، ونحن هنا نذكر فقط الحِكَم المتعلقة بالبحث:

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٨١.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١١٩.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢١٣.

الزكاة جزء من خطة الإسلام للقضاء على الفقر في المجتمع: ففي الزكاة دفع لحاجات الفقراء. وحول أهداف الزكاة يقول الدكتور القرضاوي: «ومن هذه الأهداف ما له صبغة اجتماعية، كمساعدة ذوي الحاجات والأخذ بأيدي الضعفاء من فقراء ومساكين وغارمين وأبناء سبيل، فإن مساعدة هؤلاء تؤثر فيهم بوصفهم أفراداً، وتؤثر في المجتمع كله باعتباره كيانًا متماسكًا»[(١)].

مكافحة الإجرام في المجتمع، وفي هذا يقول الدكتور الزلمي«أثبتت فلسفة التشريعات الجنائية بالاستقراء أن من أهم عوامل ارتكاب الجرائم (بوجه خاص الجرائم الاقتصادية)، عامل الفقر والحاجة. فتسديد حاجة المحتاجين ماديًا يقلل من ظاهرة الانحراف نحو السلوك الجرمي»[(٢)].

فالزكاة تمنع الجرائم المالية، مثل: السرقات والنهب وما أشبه ذلك لاستغناء الفقراء عن هذه الجرائم بإعطائهم الزكاة أو بالصدقة والإحسان إليهم.

شيوع روح المحبة والألفة بين الفقراء والاغنياء: فمن أهداف الإسلام الكبرى بناء المجتمع السليم المتآخي البعيد عن أسباب الحقد والغضاء. وأداء الزكاة كفيل بتحقيق هذه الأهداف.

تطهير نفوس الأغنياء من الطغيان الذي سببه الغنى وكثرة المال. والطغيان من الرذائل الخلقية، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦].

فالطغيان هو التعاظم والكبر، والاستغناء هو شدة الغنى، فمن طبع الإنسان أن يطغى ويتكبر ويتعاظم على غيره إذا أحس من نفسه الاستغناء[(٣)].

٩. الحج والسلم.

الحج من أهم العبادات التي تتجلى فيها بوضوح معاني السلم، وتوضيح ذلك تكون من خلال:

الحج تدريب للمسلم على السلام، فوقوعها في أشهر حرمت فيها القتال، وفي بلد سمي ببلد الحرام، وفي حال تمنع فيه حتى الصيد، كل ذلك تمنح المسلم جوًّا تسوده السلام والأمن والأمان، إن الحج لا يتحقق إلا مع الأمن والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾[البقرة: ١٩٦].

وحذر القرآن الكريم من أكل أموال الناس بالباطل، وذلك من أجل بناء مجتمع متحاب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم

(١) فقه الزكاة في الإسلام، يوسف القرضاوي ص ٨٨٠.

(٢) حكم أحكام القرآن، مصطفى الزلمي ص ٥٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٠/ ٤٤٤.

﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

والذي ينوي أداء الحج يجب عليه أن يؤدي الحقوق الواجبة عليه، قبل السفر إلى الديار المقدسة، وهذا الأداء يكون من خلال:

- إرضاء الخصوم برد المظالم إلى أصحابها وقضاء الديون ورد الأمانات والودائع. وهذا الحكم (رد الحقوق) عام، سواء كان الاعتداء بالقول كالسب والشتم أو الغيبة، أو بالفعل كالقتل والجرح.
- أن يترك لأهله ولده وزوجته ومن له حق النفقة عليه، ما يكفيهم ويقضي حاجاتهم ومتطلبات حياتهم ما يغنيهم في فترة غيابهم[(١)].
- الحج والتكافل الاجتماعي: من حِكَم الحج أنها وسيلة لاجتماع المسلمين في كافة أنحاء العالم.
- البعد عن الأذى في الحج: قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والقرآن الكريم حريص على تهذيب سلوك الحاج أثناء أداء العبادة وتخليصه من السلوك المخل بالعبادة، ورتب شعائر الحج بطريقة تجعل الحاج في سلم شامل، ليس مع الناس فقط، بل مع كل شيء؛ الشجر والحجر والحيوان ومع الكون كله، تسليمًا لرب العالمين.

ثالثًا: السّلم في الأخلاق:

للأخلاق الإسلامية أثر كبير في إشاعة الأمن والاستقرار النفسي في نفسية المتخلق بها، «إنها تحقق للفرد الإحساس بالأمان؛ إذ هو يستعين بها على مواجهة ضعفه وضعف نفسه، ومواجهة التحديات والعقبات التي تواجهه في حياته، كما أنها تعمل على إصلاح الفرد نفسيًّا، وتوجهه نحو الخير والإحسان الواجب وكافة مكارم الأخلاق التي تضمن حياة نظيفة في الدنيا وجزاء أوفى في الآخرة»[(٢)].

فالأخلاق يمنح الإنسان السعادة ورضى الضمير، والبعد عن القلق والاضطراب وكثير من الأمراض النفسية.

أما عن أثر الأخلاق في الحفاظ على السلم الإجتماعي والاستقرار فيقول الدكتور الزلمي: «إن المتدبر في آيات الله يجد أن الروح السائدة في القرآن الكريم من أوله إلى آخره روح خيرة ورشيدة تدعو إلى العلم والعمل والحرية والمساواة والعدل والرحمة والهدى والحق والإحسان والإيثار

(١) انظر: المقاصد في المناسك، عبدالوهاب سليمان، ص ٥٣.

(٢) موسوعة نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٨٥.

والإنفاق والتكافل والتضامن والصدق والأمانة والإخلاص ، إلى غير ذلك من الفضائل الإنسانية التي يجب أن يتحلى بها الإنسان»[1].

وهذه الأخلاق المذكورة كلها تسهم في بناء العلاقات الاجتماعية القوية، فالأخلاق ضرورة اجتماعية لا غنى عنها، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيلة والرابط بين الناس، تفكك بناء المجتمع، فانهيار خلق من الأخلاق يقابله انقطاع رابطة من الروابط الاجتماعية.

فخلق الصبر مثلًا له أثر كبير في إدامة واستقرار العلاقة الزوجية.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «فإن كرهتموهن لعيب في الخلق، أو الخلق مما لا يعد ذنبًا لهن، لأن أمره ليس في أيديهن، أو التقصير في العمل الواجب عليهن في خدمة البيت والقيام بشئونه مما لا يخلو عن مثله النساء وكذا الرجال في أعمالهم، أو الميل منكم إلى غيرهن، فاصبروا»[2].

فالقرآن أمر بالصبر حتى إن أحس الزوج بالنفرة لزوجته.

وفي قصة موسى مع العبد الصالح تعليم لنا أن على التلميذ التحلي بالصبر إذا أراد العلم، فالصبر في مجال العلاقات الإنسانية إحدى مجالات الصبر المأمورة بها المسلم.

وكذلك بقية مكارم الأخلاق المأمور بها، كل منها لها أثر كبير عند التحلي بها في إرساء دعائم السلام في المجتمع، والعكس صحيح. وإذا شاع بين الأفراد مكارم الأخلاق، ربط بينهم بأوثق الروابط من الألفة والثقة والتعاون ، ونشأ منهم مجتمع قوي فاضل ، متماسك كالبنيان، متعاطف كالجسد، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

ونستطيع أن نوجز أثر الأخلاق في تماسك المجتمع في جملة من النقاط:

- «تحفظ على المجتمع تماسكه، فتحدد له أهداف حياته، ومثله العليا، ومبادئه الثابتة المستقرة التي تحفظ له هذا التماسك والثبات اللازمين لممارسة حياة اجتماعية سليمة ومتواصلة.
- تساعد المجتمع على مواجهة التغيرات التي تحدث فيه، بتحديدها الاختيارات الصحيحة والسليمة التي تسهل على

(١) حكم أحكام القرآن، مصطفى الزلمي ص ٢٧.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٣٧٤.

الناس حياتهم، وتحفظ على المجتمع استقراره وكيانه في إطار موحد.

- تربط أجزاء المجتمع بعضها ببعض حتى تبدو متناسقة، كما أنها تعمل على إعطاء النظم الاجتماعية أساسًا إيمانيًّا وعقليًّا يصبح عقيدة في ذهن أعضاء المجتمع.
- تقي المجتمع من الأنانية المفرطة والنزعات والأهواء والشهوات الطائشة التي تضر به وبأفراده ونظمه.
- تزود المجتمع بالصبغة الملائمة التي تربط بين نظمه الداخلية من اقتصادية وسياسية وإدارية، وبالتالي تحوطه بسياج حام من التفكك والانحلال»[1].

رابعًا: السّلم في المعاملات:

المراد بالمعاملات: الأحكام الشرعية المنظمة لتعامل الناس في الدنيا، من بيع وشراء وإجارة ورهن وكتابة دين وغيرها[2].

لا ريب أن القرآن الكريم أعطى أهمية لتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع من بيع وشراء ورهن وكتابة دين وغيرهم. وقد اقتصر القرآن الكريم في ذكر المعاملات على العناصر الأساسية من الأحكام، وخول العقل البشري ما عداها في ضوء حاجاته ومتطلباته وفي حدود المباديء التي حددها له القرآن الكريم.

أهم المقاصد التي أرساها القرآن الكريم في المعاملات المالية:

ولزيادة توضيح العلاقة بين المعاملات التي شرعها القرآن الكريم وأثرها في تحقيق السلم في المجتمع، لابد من ذكر أهم المقاصد في المعاملات المالية المتعلقة بالموضوع، فقد أرسى القرآن الكريم دعائم أساسية لتثبيت السلم من خلال مباديء مذكورة في آيات كثيرة:

١. مبدأ العدل.

أي: تحقيق العدل والمساواة بين المتعاقدين البائع والمشتري في عقد البيع مثلًا.

قال تعالى﴿ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «والقسط هو ميزان الحقوق، متى وقعت فيه المحاباة والجور لأي سبب أو علة من العلل زالت الثقة من الناس، وانتشرت المفاسد وضروب العدوان بينهم، وتقطعت روابطهم الاجتماعية، وصار بأسهم بينهم

(١) موسوعة نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٨٦.
(٢) انظر: مقاصد الشريعة في المعاملات المالية عند ابن تيمية، ماجد العسكر، ص ٣٦.

شديدًا، فلا يلبثون أن يسلط الله تعالى عليهم بعض عباده الذين هم أقرب إلى إقامة العدل والشهادة بالقسط منهم، فيزيلون استقلالهم، ويذيقونهم وبالهم»[1].

ولما كانت المعاملات سببًا للمشاحنات، فقد اشتملت التجارات والمعاملات على ظلم وهضم للحقوق، فقد منع القرآن الكريم الظلم بجميع أنواعه وصوره. وإن من أعظم وسائل الشريعة في تحقيق مقصد العدل ومنع الظلم إباحة البيع وتحريم الربا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ثم نبه سبحانه عند ختم آيات تحريم الربا على على المقصود الشرعي من إباحة البيع وتحريم الربا، وهو تحقيق العدل ونفي الظلم. ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

٢. مبدأ الصدق والبيان في المعاملات المالية.

والمراد به الصدق والبيان والتوضيح في جميع أجزاء العقد وفي كل مراحله، لما في الكتمان والكذب من مفاسد تهدد السلم الاجتماعي ويفضي إلى التنازع والخلاف[2].

ومن الأمثلة على تحريم الكذب في المعاملات:

- الأمر بكتابة الدين لتوثيقها كما في آية الدين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. قال البيضاوي: «وفائدة ذكر الدين أن لا يتوهم من التداين المجازاة ويعلم تنوعه إلى المؤجل والحال، وأنه الباعث على الكتبة ويكون مرجع ضمير فاكتبوه إلى أجل مسمى معلوم بالأيام والأشهر لا بالحصاد وقدوم الحاج. فاكتبوه لأنه أوثق وادفع للنزاع، والجمهور على أنه استحباب»[3].
- الأمر بالإشهاد على الحقوق المالية، كما في الآية الكريمة ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[البقرة: ٢٨٢]. قال البيضاوي: «واطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان من رجالكم من رجال المسلمين، وهو دليل اشتراط إسلام الشهود، وإليه ذهب عامة العلماء»[4].
- تشريع الرهن، وهو توثيق دين بدين،

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٢٦.
(٢) انظر: تفعيل المقاصد الشرعية في المالية الإسلامية: التأصيل والتطبيق، صالح محمد الفوزان، ص٥٠.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٦٤.
(٤) المصدر السابق ١/ ١٦٤.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣][1].

يقول الرازي : «اعلم أنه تعالى جعل البياعات في هذه الآية على ثلاثة أقسام: بيع بكتاب وشهود، وبيع برهان مقبوضة، وبيع الأمانة، ولما أمر في آخر الآية المتقدمة بالكتبة والإشهاد، واعلم أنه ربما تعذر ذلك في السفر إما بأن لا يوجد الكاتب، أو إن وجد لكنه لا توجد آلات الكتابة ذكر نوعًا آخر من الاستيثاق وهو أخذ الرهن ، فهذا وجه النظم وهذا أبلغ في الاحتياط من الكتبة والإشهاد»[2].

٣. مبدأ تحقيق التعاون والاجتماع والائتلاف.

وهي من أعظم مقاصد الشريعة وخاصةً في المعاملات المالية.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ومن الأمثلة عليه:

تحريم الميسر ؛ لكونه أعظم وسائل الشيطان للوقيعة بين المسلمين وشق صفهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

يقول الشيخ المراغي: «إن الشيطان يريد لكم شرب الخمر ومياسرتكم بالقداح ليعادي بعضكم بعضاً ويبغّض بعضكم إلى بعض عند الشراب والمياسرة، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوّة الإسلام، ويصرفكم بالسكر والاشتغال بالميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي فرضها عليكم، تزكيةً لنفوسكم وتطهيرًا لقلوبكم»[3].

٤. مبدأ عدم التعدي على أموال الناس بالباطل، وتوفر عنصر الرضا وطيبة النفس.

وقد منع القرآن الكريم التعدي على أموال الناس وأكل أموالهم بالباطل، وذلك لتحقيق استقرار المجتمع وحماية مصالح أفراده.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

فكل عقد لم يتوفر فيه رضا الطرفين وحصل عنصر الإكراه والخداع والغش، فهو حرام بنص الآية الكريمة. وتحت باب

(١) انظر: المقاصد الشرعية وأثرها في فقه المعاملات المالية، رياض منصور الخليفي، ص ٣١-٣٣.

(٢) مفاتيح الغيب ، الفخر الرازي، ٧/ ٩٩.

(٣) تفسير المراغي ٧/ ٢٣.

الأكل بالباطل تدخل كثير من المعاملات المالية، كالغصب والسرقة والخيانة، وعقود الربا والقمار ؛ لأنها من أكل أموال الناس بالباطل.

مقاصد السّلم

أولًا: الاعتصام والوحدة:

الاعتصام في الاصطلاح يأتي بمعنى: التمسك بالدين والوثوق بوعد الله والالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم. وهذه المعاني تربي من فهمها على أهمية الوحدة والاجتماع.

وقد اهتم القرآن الكريم ببناء العلاقات بين المسلمين وتمتينها باعتبارها ضرورةً دينية لا غنى للمسلم عنها، واستخدم أساليب عديدة لتأكيد هذه الوحدة.

أساليب القرآن الكريم في الحفاظ على الوحدة الإسلامية والاعتصام بحبل الله:

١. التحذير من التنازع والاختلاف والتفرق؛ لأنه موجب لعذاب الله..

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

يقول الشيخ ابن عاشور: «وأولئك لهم عذاب عظيم مقابل قوله في الفريق الآخر: وأولئك هم المفلحون ، فالقول فيه كالقول في نظيره، وهذا جزاء لهم على التفرق والاختلاف وعلى تفريطهم في تجنب أسبابه»[1].

٢. الحض على الإخاء بين المؤمنين

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٤٣.

وتقويته بشتى السبل.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقد أحاط القرآن الكريم هذه العلاقة بمجموعة من التدابير الوقائية للحفاظ عليها:

فقد نهى عن السخرية والتنابز بالألقاب والظن والتجسس والغيبة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

فهذه الآيات كما يقول سيد قطب «تقيم سياجًا آخر في هذا المجتمع الفاضل الكريم حول حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم، في أسلوب مؤثر عجيب»[(١)].

٣. النهي عن العصبية والتحذير من مكائد غير المسلمين من أهل الكتاب ومن غيرهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «بعد ما وبخ أهل الكتاب على كفرهم وصدهم عن سبيل الله وهو الإسلام، آثر إقامة الحجج عليهم وإزالة شبهاتهم، ناسب أن يخاطب المؤمنين مبينًا لهم أن من كان هذا شأنهم في الكفر، وهذا شأن ما دعوا إليه في ظهور حقيقته، لا ينبغي أن يطاعوا ولا أن يسمع لهم قول، فإنهم دعاة الفتنة ورواد الكفر»[(٢)].

٤. التحذير من الفرقة والاختلاف.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال الراغب الأصفهاني في سبب استحقاق أهل الكتاب العذاب: «نبه بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أن سبب

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤٥.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٦.

استحقاقهم العذاب افتراقهم واختلافهم، تنبيهًا أنكم إن فعلتم فعلهم استحققتم العذاب استحقاقهم»[1].

نهى عن الخبائث المفضية إلى الفرقة والعداوة.

قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والنهي هنا عن السحر، لدوره في إفساد الرابطة الزوجية، وقال تعالى في تحريم الخمر والميسر ذاكرًا الحكمة من التحريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

لذلك فقد نهى القرآن الكريم عن كل ما يؤدي إلى إيغار الصدور والعداوة والبغضاء.

٥. أمر بإصلاح ذات البين.

قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:١].

ويراد بالإصلاح هنا «إزالة المنازعات والخصومات، وإحلال الألفة والمودة بين الناس سواء بين الزوجين، أو الورثة أو الإخوة أو غير ذلك»[2].

٦. أمر في آيات كثيرة بإفشاء السلام وإطعام الطعام، وآداب أخرى كلها تحافظ على وحدة الأمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾[النساء: ٨٦].

وفي إطعام الطعام أثنى عليهم فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وفي الاعتصام صلاح المرء، وهو يورث محبة الله والعباد، ويجنب الإنسان مسالك الشيطان، وفي الاعتصام قوة الأمة؛ لأن الجماعة رحمة والفرقة عذاب. وثمرة الاعتصام في الآخر سعادة الدارين.

ثانيًا: رفع الشقاق والتنازع:

فالصلح والسلم ليس رافعًا للنزاع فقط، بل مانع لوقوعه أيضًا، حيث يقوم بدور وقائي لمنعه، وإذا كان رفع النزاع والشقاق من أهم مقاصد السلم فقد بين العلماء معنى الصلح واشتقاقاته بأنه رفع النزاع والتخاصم.

فالإصلاح: «الوسائل المتنوعة المتعددة التي يزال بها الفساد أو النزاع أو الخصومة، أما المصالحة فهي العقد الذي يصل إليه المصلحون في جهودهم

(١) تفسير الراغب الأصفهاني، ٢/ ٧٧٩.

(٢) الإصلاح في القرآن الكريم، فايزة عدلي، ص ٥٦.

الإصلاحية، والصلح اسم منه، وهو التوفيق أو الاتفاق الذي يصل إليه المصلحون بعد إصلاحهم»[1].

والقرآن الكريم يبني السلم الاجتماعي الذي يقصد به «حالة الهدوء والاستقرار والوئام والاتفاق والانسجام، وفي العلاقة بين شرائحه وأفراده وقواه العديدة المختلفة»[2].

وذلك من خلال:

٧. رفع النزاع بين الورثة.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢].

والآية واردة في كيفية رفع النزاع بين الورثة حال الوصية دون إضرار بالورثة ولا تبذير للوصية.

قال الطبري: «من معاني الإصلاح الإصلاح بين الفريقين، فيما كان مخوفًا حدوث الاختلاف بينهم فيه، بما يؤمن معه حدوث الاختلاف؛ لأن الإصلاح إنما هو الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين، فسواء كان ذلك الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين قبل وقوع الاختلاف أو بعد وقوعه»[3].

٨. رفع النزاع بين الزوجين.

قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

فالآية واردة في الصلح بين الزوجين في حالة النشوز أو الإعراض، وكيفية رفع الخلاف بينهما.

قال الإمام القرطبي: «﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته في مال أو وطء أو غير ذلك. خير أي خير من الفرقة؛ فإن التمادي على الخلاف والشحناء والمباغضة هي قواعد الشر»[4].

٩. رفع النزاع بين أفراد المجتمع.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

«ومع أن الخلاف والصراع أمر محتمل الوقوع بين المؤمنين باعتبارهم بشرًا ، لهم مصالح وأهواء، لكن المجتمع عليه أن يتدخل لوضع حد لهذا الصراع»[5].

فالخلاف أمر محتم، وسرعة العلاج

(١) المصالحة وخطابها، عبدالرؤوف أحمد عبدالغفور، ص ٥-٦.
(٢) دور الصلح العشائري في تحقيق السلم الاجتماعي، محمد سعيد صلاح، ص ٢٢.
(٣) جامع البيان، الطبري٣/ ٤٠٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٠٦.
(٥) دور الصلح العشائري في تحقيق السلم الاجتماعي، محمد سعيد صلاح، ص ٣٢.

واجب.

١٠. رفع النزاع بين الحاكم والمحكوم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨-٥٩].

قال أبو حيان: «فإن اختلفتم أنتم وأولوا الأمر في شيء من أمور الدين»[(١)].

وقد ذكر القرآن الكريم في هذه الآية كيفية رفع النزاع بين الحاكم الذي سمي (أولي الأمر) وبين المحكوم أو الرعية، وهي الرجوع إلى الله (القرآن الكريم) ورسوله (السنة النبوية).

ولهذا يقول الشيخ السعدي: «أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى رسوله أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو عمومهما ، أو إيماءًا، أو تنبيهًا، أو مفهومًا، أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما»[(٢)].

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٣/ ٦٨٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٣.

ثالثًا: تحقيق الأمن:

الأمن في القرآن الكريم يراد به الأمن في الدنيا والآخرة، أما الأمن عند الآخرين فالمقصود فقط أمن الدنيا لا غير.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

يقول ابن كثير مبينًا ما ذكرنا من شمول الأمن في القرآن للدارين: «هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، لو لم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة»[(٣)].

الأمن وأنواعه في القرآن:

ذكر المختصون في هذا المجال أنواعًا كثيرة للأمن، أوصلها بعضهم إلى (٢٦ نوعًا)[(٤)].

والقرآن الكريم أشار إلى عدة أنواع من الأمن، كل نوع منها تندرج في حفظ أمن الفرد أو المجتمع ، ونحن نذكر هنا بعضاً منها للتوضيح:

١. الأمن الجماعي في القرآن.

قال تعالى حاثًا المؤمنين على التمسك بدينهم الذي هو سر وحدتهم ، والسبب الرئيسي لأمنهم واستقرارهم: ﴿وَاعْتَصِمُوا

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٤.
(٤) انظر: الأمن في ضوء القصص القرآني، سامي محمد بشير الجدبة ص ١٠.

﴿بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أمن الدولة، والقرآن الكريم يذكرنا بدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام حين يدعو بالأمن والسلام لبلده وأهله ، وحمايتها من الأخطار الخارجية والداخلية.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

٢. الأمن الجنائي.

وقد ذكر القرآن الكريم في ذكره للحكمة من القصاص أنها وسيلة لردع المجرم حتى لا يرتكب قاتل آخر ما فعله الأول، وبذلك يأمن الناس من الاعتداء عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

٣. الأمن الغذائي.

والقرآن الكريم يمن على قريش بأنهم يتمتعون بعيش آمن من خلال حصولهم على احتياجاتهم اليومية الغذائية دون خوف من أحد.

قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: ١-٤].

٤. الأمن النفسي والشخصي.

كل فرد في المجتمع بحاجة للاطمئنان على عيشه وتأمين حياته، كي يكون في حالة توازن وتوافق، والقرآن الكريم يشير إلى هذا النوع من الأمن بقوله : ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

أهمية الأمن وكونها إحدى المقاصد في القرآن:

عند ذكرنا لأنواع الأمن في القرآن تبين لنا أهمية الأمن، ولتأكيدها فقد عد الأمن من أهم المقاصد في القرآن «فالله سبحانه وهب الإنسان نعمة الحياة، جعل حياطتها وحفظها كلًا وجزءًا مادةً ومعنىً في طليعة الأهداف التي أبرزها دينه الخالد ، وبعث بها رسله الأكرمين، ولذلك قرر لها من الحقوق والواجبات ما يحفظ لها ضروراتها الخمس المتمثلة في الدين والعقل والنفس والمال والعرض، ويكفل لها طمأنينتها ورخاءها»[1].

فتحقيق الأمن مقصد من مقاصد

(١) الأمن في الخطاب القرآني وفي شعر صدر الإسلام، فاطمة القاضي، ص ١٨١.

الشريعة، يقول صاحب كتاب المقاصد في المناسك عند ذكره المقاصد الاجتماعية: «المقصد الأول: الأمن على النفس والمال والعرض، مقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية له أعظم الاعتبار ليس في شعيرة الحج فحسب، بل في كل أمر من أمور الحياة التعبدية والمعاملات والعادات وجميع أنواع الحياة البدوية والحضرية ... يعطي الشرع الشريف أهميةً كبيرةً على الحرص على الأمن على هذه المحاور الثلاثة في الاعتقادات والعبادات والمعاملات وفي كل أمور الحياة»[1].

وفي أثر الأمن على طلب العلم والعمل، يقول أبو حامد الغزالي: «لذا يجب أن نعلم أنه لا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة»[2].

رابعًا: معاداة الشيطان وعدم اتباع خطواته:

«الشيطان أو إبليس هو الجان الذي أبى السجود لآدم حين خلقه الله فاستحق لعنته، وطرد من جنته، ووجبت له النار بعد إنظار الله له إلى يوم القيامة، وأوتي من وسائل الإغواء ما لم يؤت أحد من العالمين»[3].

وقد ذكر في القرآن الكريم في آيات كثيرة عداوة الشيطان لآدم وذريته، ومحاولته إغوائهم وصدهم عن السبيل وهدم مجتمعهم وتفكيكهم.

١. خطوات الشيطان في القرآن.

المراد بخطوات الشيطان : «المراحل الشيطانية الموقعة في المعصية بدءًا ببواعث تلك المعصية ودواعيها في النفس، ثم مرورًا بارتكابها واكتساب الإثم، ثم انتهاءًا بكون تلك المعصية مفتاحًا لما يتلوها من معاص تنتهي إلى غاية الشيطان الكبرى ، وهي إيقاع الناس في الكفر والموت على ذلك»[4].

وقد وردت في القرآن عبارة (خطوات الشيطان) أربع مرات، وهي:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

جاء في تفسيره «لا تتبعوا سبيله ولا تسلكوا طريقه ، لأن الخطوة اسم مكان، وهذا قول الزجاج وابن قتيبة، فإنهما قالا: خطوات الشيطان طرفه، وإن جعلت الخطوة بمعنى الخطوة كما ذكره الجبائي، فالتقدير:

(١) المقاصد في المناسك، عبدالوهاب أبو سليمان، ص ٦٩.
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي ص ١٢٨.
(٣) الشيطان خطواته وغاياته، وائل عمر علي بشير، ص ٦.
(٤) المصدر السابق، ص ١٠٢.

لا تأتموا به ولا تقفوا أثره ، والمعنيان مقاربان»[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر: «أمرهم بالعمل بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ما استطاعوا، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، فالذي يدخل في الإسلام مبتعد عن الشيطان وخطواته، والذي يترك شيئًا من الإسلام فقد اتبع بعض خطوات الشيطان، ولذلك كان تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، أو الأكل من المحرمات والخبائث»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

يقول الألوسي: «معنى الآية استحلوا الأكل مما أعطاكم الله تعالى ، ولا تتبعوا في أمر التحليل والتحريم بتقليد أسلافكم المجازفين في ذلك من تلقاء أنفسهم المفترين على الله سبحانه خطوات الشيطان ، أي : طرقه فإن ذلك منهم بإغوائه واستتباعه إياهم ، إنه لكم عدو مبين أي ظاهر العداوة»[3].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١].

«والفحشاء كل فعل أو قول قبيح، والمنكر ما تنكره الشريعة وينكره أهل الخير»[4].

فمن وقع في الفحشاء والمنكر فقد اتبع خطوات الشيطان.

٢. مداخل الشيطان.

الشيطان له غاية كبيرة وهي تمزيق المجتمع وتفكيكه، وللوصول لغايته يستخدم وسائل عدة، وقد ذكرها القرآن الكريم لنحذرها حتى ننعم بالسلم والأمان، فهو يأمر بالسوء والفحشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

قال الطبري: «والسوء الإثم، والفحشاء وهي كل ما استفحش ذكره، وقبح مسموعه»[5].

وهو ينزغ بين الناس ليفرق بينهم، لذلك يأمرنا الله سبحانه بالقول الأحسن حتى نتجنب نزعات الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ

(١) مفاتيح الغيب ، الرازي ٥/ ١٨٦.
(٢) عالم الجن والشياطين، عمر سليمان الأشقر، ص١٢٨.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٨٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ١٨٧.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٣/ ٣٠٣.

﴿أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال الطبري: «إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضًا ينزغ بينهم، يقول: يفسد بينهم، يهيج بينهم الشر»[(١)].

ويخوفهم بالفقر وحثهم على عدم الإنفاق، وبذلك يحدث ثغرةً في بناء المجتمع، ويبعد الأغنياء عن الفقراء.

قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

قال البيضاوي: «الشّيطان يعدكم الفقر في الإنفاق، والوعد في الأصل شائع في الخير والشر، ويأمركم بالفحشاء ويغريكم على البخل»[(٢)].

ويوسوس إلى أوليائه بمجادلة الناس والإكثار من ذلك ليشغلهم عن ظهور الحق.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١].

قال الفيومي في معنى المجادلة: «وجادل مجادلة وجدالًا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم»[(٣)].

وتأثير الجدل في هدم المجتمع واضح بين في تفكيك رباط المجتمع وزرع الحقد بينهم.

«والغضب مدخل من مداخل الشيطان، إذ به تحدث الجرائم وتتفكك الأسر ويضعف الإيمان وتضعف رابطة الأخوة، فهو شر تنبع منه شرورًا كثيرة»[(٤)].

(١) المصدر السابق، ١٧/ ٤٦٩.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٦٠.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٩٣.
(٤) البيان في مداخل الشيطان، عبدالحميد البلالي ص ١٠٣.

من أساليب القرآن في الحديث عن السلم

استخدم القرآن الكريم أسلوبين أساسيين وهما:

أولًا: أسلوب الأمر:

استخدم القرآن الكريم أسلوب الأمر بصيغ مختلفة تنطوي على أساليب بلاغية غاية في الروعة، لا تجاريها أسلوب بياني من غير القرآن الكريم الذي أنزله رب العزة، ومن هذه الصيغ المتعلقة بالآيات الواردة في السلم وما يتعلق بها:

١. فعل الأمر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال الشيخ الطاهر بن عاشور: «صيغة الأمر في (ادخلوا) من أن حقيقتها طلب تحصيل فعل لم يكن حاصلًا أو كان مفرطًا في بعضه»[(١)].

فهنا أسلوب الأمر الحقيقي، باستخدام صيغة فعل الأمر (ادخلوا)، «والأصل في الأمر أن يراد به الحقيقة، بأن يكون لطلب الفعل على سبيل الاستعلاء والإيجاب، وذلك بأداء ما تضمنه الأمر حقًّا من غير تأويل بمعنى ثانوي»[(٢)].

٢. المضارع المجزوم بلام الأمر.

قال تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ [قريش: ٣].

يقول أبو حيان: «أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلة»[(٣)].

فصيغة الأمر هنا قوله ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾ وهو عبارة عن لام الأمر داخلة على الفعل المضارع يعبد.

٣. الإخبار بأن ترك الفعل كفر أو ظلم أو فسق.

مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

يقول الرازي: «﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط، أولها: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول لا يكون مؤمنًا»[(٤)].

فهنا الأمر للوجوب كما ذكرنا من قبل.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٧٦.

(٢) أسلوب الأمر في سورة يوسف، أحمد فتحي رمضان و أحمد محمود عزو ص ٧.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ١٠/ ٥٤٨.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٢٨.

٤. أسلوب الدعاء.

قال تعالى في دعاء إبراهيم عليه السلام أن ينعم على مكة بالأمن والأمان والسلام، ويرزقهم من أنواع الثمرات: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[البقرة: ١٢٦].

وأسلوب الأمر هنا مجازي يسمى الدعاء، مستعملًا فعل الأمر ﴿ٱجْعَلْ﴾. «إبراهيم الأواه الحليم القانت المستقيم، يتأدب بالأدب الذي علمه ربه، فيراعيه في طلبه ودعائه»[(١)].

٥. أسلوب الأمر في سياق النهي، وتفيد معنى الأمر.

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

قال ابن عاشور: «ولذلك أمر المؤمنين بكف أيديهم عن هؤلاء إن اعتزلوهم ولم يقاتلوهم»[(٢)].

وهذا الأسلوب وارد في اللغة العربية «فقد ترد صيغة الأمر في سياق النهي، والعكس في عدد من الآيات، ونحن نعلم أن النهي أمر في عدم الفعل، وهو في حقيقته أمر، إلا أنه ورد بأسلوب آخر.»[(٣)].

٦. الأمر على سبيل الاستفهام.

وهو أمر غير صريح، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩١].

وهذا الأمر من أبلغ أنواع الأمر، يقول الدكتور سعود بن غازي أبوتاكي: «والأمر عن طريق الاستفهام له دلالة تزيد عن الأمر بصيغه الصريحة، ومنها:

- الأمر عن طريق الاستفهام أولى بالقبول والإستجابة لما فيه من تلطف في الطلب.
- الأمر في الاستفهام، فيه مبالغة في الطلب.
- الأمر عن طريق الاستفهام يعطي ثباتًا للمعنى وتأكيدًا».[(٤)]

٧. الأمر في صورة المصدر.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فكلمة ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ﴾ هنا مصدر أناب معنى

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١١٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٥٤.
(٣) أسلوب الأمر في سورة يوسف، أحمد فتحي رمضان و أحمد محمود عزو صالح ص ٦.
(٤) صور الأمر في العربية بين التنظير والتطبيق، سعود بن غازي أبو تاكي ص٢٣٥.

فعل الأمر (فاتبع).

يقول أحد الباحثين: «فسياق الآية الترغيب في المصالحة في الدماء، وذلك أمر عظيم لا تكاد تذل النفس العربية إليه سريعًا، ومعالجتها له جد عظيمة، فلا تكاد صيغة (افعل) أو (لتفعل) قائمةً فيه بما يراد فعدل عن قوله (فليتبعه) و(فليؤده) إلى اتباع وأداء، مقام فعلي الأمر، فإن في هذا العدول إلى المصدر دلالة على الثبات»[1].

ومن المعلوم أثر العفو عن القاتل في تمتين العلاقة بينه وبين أولياء المقتول، وذهاب الشحناء والبغضاء بينهما وبالتالي تقوية أواصر المحبة والسلم الاجتماعي.

ثانيًا: أسلوب النهي:

استخدم القرآن الكريم أسلوب النهي في حديثه عن السلم وضرورة قيامه في المجتمع. ومن هذه الأساليب المتعلقة بالآيات الواردة في السلم وما يتعلق بها:

١. لا الناهية مع الفعل المضارع.

وهذه الصيغة هي حقيقة في التحريم، بمعنى أنها تفيد تحريم الفعل المنهي عنه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤].

فصيغة النهي في الآية صريح وهي: لا الناهية الداخلة على الفعل المضارع ﴿تَقُولُوا﴾، ومعنى النهي للتحريم لتحذيره من قتل المؤمن.

قال أبو السعود العمادي: «نهيٌ عما هو نتيجةٌ لترك المأمور به وتعيينٌ لمادّة مهمّةٍ من الموادّ التي يجب فيها التبيين»[2].

وقال ابن عاشور: «استقصاء للتحذير من قتل المؤمن بذكر أحوال قد يتساهل فيها وتعرض فيها شبه»[3].

فقد استخدم القرآن الكريم هذه الصيغة ليحذر من قتل المؤمن، وقتله بغير حق يؤدي إلى تعكير السلم والأمن في المجتمع.

٢. الاستفهام الإنكاري أو التعجبي مقرونًا بالتهديد على الفعل.

قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

يقول الطاهر بن عاشور في معنى الآية: «انتقال من الاستدلال إلى التخويف؛ لأنه لما تقرر أنه خالق الأرض ومذللها للناس، وتقرر أنهم ما رعوا خالقها حق رعايته، فقد استحقوا غضبه وتسليط عقابه بأن يصير مشيهم في مناكب الأرض إلى تجلجل في طبقات الأرض ، فالجملة معترضة

(١) صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، محمود توفيق محمد سعد، ص ٥٥.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢١٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٦٦.

والاستفهام إنكار وتوبيخ وتحذير»[1].

٣. كلمات اجتنبوا واتركوا التي تدل على طلب ترك الفعل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾[الحجرات: ١٢].

قال أبو حيان: «اجتنبوا كثيرًا من الظن: أي: لا تعملوا على حسبه، وأمر تعالى باجتنابه، لئلا يجترىء أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله»[2].

فهنا أسلوب النهي باستخدام كلمة تدل على ترك الفعل. ويدل على تحريم الظن أحاديث كثيرة منها:

عن أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا وكونوا إخوانًا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك)[3].

٤. ما اشتق من كلمة النهي يفيد عموم الترك.

وهو أعم من أن يكون حرامًا أو مكروهًا. وهي من أبلغ ما ينتهي به كما يقول الرازي[4].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

فكلمة ﴿مُّنتَهُونَ﴾ مشتق من كلمة (نهى)، والتي تدل على النهي الحقيقي، فالخمر والميسر منهي عنه نهيًا حقيقيًا لكونه يفضي شربه إلى هدم المجتمع وتهديد للأمن والاستقرار، وقد استخدم هذا الأسلوب في الحديث النبوي بكثرة، منها: عن جابر بن عبد الله، قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كراء الأرض، وعن بيعها السنين، وعن بيع الثمر حتى يطيب)[5].

٥. الخبر المعرب عن النهي.

وقد يقع النهي بالجملة الإنشائية، وهو أبلغ في النهي، وهذا كثير في القرآن.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ [النساء: ٨٣].

والآية واردة في النهي عن نشر الإشاعة في حالتي السلم والحرب.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «فخوض العامة في السياسة وأمور الحرب والسلم، والأمن والخوف، أمر معتاد وهو ضار جدًّا إذا شغلوا به عن عملهم، ويكون ضرره أشد

(١) المصدر السابق ٢٩/ ٣٣.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٩/ ٥١٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٥١٤٣، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٥٣٦، كتاب البيوع، باب النهي عن المحاقلة والمزابنة وعن المخابرة، وبيع الثمرة قبل بدو صلاحها، وعن بيع المعاومة وهو بيع السنين.

إذا وقفوا على أسرار ذلك وأذاعوا به»[1].

يقول الدكتور محمود توفيق محمد سعد: «جمهور أهل العلم على أن الخبر المنفي قد يرد في سياق فيفيد النهي عما دخلت عليه أداة النفي أو لازم ما دخلت عليه، فلا يكون النفي على ظاهره»[2].

٦. العرض والتحضيض المراد به النهي.

قال تعالى مذممًا الذين يطففون في الكيل والوزن وينشرون الغش والخداع في المجتمع، فتشيع البغضاء والحقد بين أفراده ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ [المطففين: ١-٥].

يقول الزمخشري مبينًا موضع النهي الوارد في الآية: «إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يحظرون ببالهم ولا يخمنون تخمينًا، ومحاسبون على مقدار الذرّة والخردلة.. وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصفه ذاته برب العالمين: بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط، والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء، بل في كل قول وعمل»[3].

فكلمة ﴿أَلَا﴾ فيه معنى التحضيض المعرب عن معنى النهي.

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٢٤٢.
(٢) صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، محمود توفيق محمد سعد ص ٨٤.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٢١.

قواعد السّلم مع غير المسلمين

أرسى القرآن الكريم في علاقة المسلم بغيره عدة قواعد ومبادئ، يرجع إليها المسلم في بناء علاقته مع الغير، وقد سار الرسول الكريم والصحابة على هذه القواعد والمبادئ العامة، وسوف أتناول ذلك بالبيان فيما يلي:

أولًا: مبادئ وحدة الإنسانية والتكاليف والدين والمصير:

١. الوحدة الإنسانية.

صرح القرآن الكريم في آيات كثيرة بهذه الوحدة، وهي أن الناس جميعًا أمة واحدة، وأن الاختلاف عارض منشؤه الهوى، فكل الناس سواء في الحقوق بغض النظر عن اختلاف اللون والقومية والجنس، ولا محل لنظرية الشعب المختار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾[الحجرات: ١٣].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالًا كثيرًا ونساءًا، وفرقهم وجعلهم شعوبًا وقبائل، أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا»[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: ١].

«فالآية تصرح بأن بأن الأصل واحد، فقد خلق الله الناس جميعًا من نفس واحدة وخلق من هذه النفس زوجها، وتولد الناس من هذين الأبوين الكريمين»[(٢)].

٢. وحدة التكاليف.

تتجه أوامر القرآن ونواهيه إلى كل الناس دون تفرقة بينهم، فأوامر القرآن الكريم يطالب بها كل الأجناس والطوائف من عرب وعجم وذكر وأنثى وأبيض وأسود، ورئيس ومرؤوس وغني وفقير.

يقول الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣].

وقد خاطب الله سبحانه جميع البشر وأمرهم بالتقوى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١].

وعبارة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وردت كثيرًا في القرآن الكريم والمخاطب بها بني آدم كلهم. فالجميع على مستوى من المسؤولية أمام الله، وأمام المجتمع.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠٢.
(٢) العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، ص ٢١.

٣. وحدة الدين.

القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وخاتمها، فكل كتاب سماوي سابق كانت مناسبةً للزمان والمكان الذي أرسلت فيه، وتلتقي الرسالات السماوية جميعًا في الأسس العامة، أما التفصيلات فإنها تختلف باختلاف ظروف كل شريعة، وفقًا للزمان والمكان الذي ظهرت فيه، والإسلام هو دين الأنبياء جميعًا، منذ وجد الإنسان على وجه الأرض.

يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

يقول سيد قطب: «وبذلك يقرر حقيقة الأصل الواحد، والنشأة الضاربة في أصول الزمان»[(١)].

وهذا الشعور بالقربى يدعو إلى التعاون والتفاهم وإرساء السلام العميق، فالأصول الكلية واحدة والدين لدى الأنبياء كلهم هو الإسلام.

٤. وحدة المصير.

والمراد بها «عرض جميع الخلائق على ربهم في عالم الآخرة، مما يقتضيهم التزام أمر الله، واجتناب نهيه، فتحقق لهم السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، ولا داعي بعدئذ للتفرق والاختلاف في الدين»[(٢)].

فالبشرية مصيرهم واحد في أطوار حياتهم وفي نهايتهم.

يقول تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟﴾ [الحج: ٥].

وهذا الشعور بوحدة المصير تدفع المسلم إلى بناء علاقة سليمة مع غيره.

ثانيًا: القواعد والمبادئ التي على أساسها يتعامل المسلم مع غيره:

١. مبدأ التعاون الانساني.

التعاون مبدأ عام قرره القرآن الكريم، فقد حث على التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

يقول ابن عاشور: «فهم وإن كانوا كفارًا يعاونون على ما هو بر؛ لأن البر يهدي للتقوى، فلعل تكرر فعله يقربهم من الإسلام»[(٣)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٤٧.

(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦١٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ٨٧.

وانتماؤهم إلى أصل واحد أدعى إلى التعاون والتعارف، والتعارف لا يكون إلا بالتفاعل الإيجابي.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا الأساس هو ما يتعامل به مع الناس فتكمل إيمانهم ويدخلون به ملكوت السماوات، وأساس هذا التعاون أن يتظافروا على دفع الاعتداء وإقامة الحق، أو ما يسمى بالتعايش السلمي، وهذا التعاون مطلوب في كل صوره حتى تختفي روح التناحر والنزاع.

٢. مبدأ الحرية.

الحرية مبدأ قرآني قرره في آيات عدة كمبدأ للتعامل والتعايش بين المسلم وغيره. «والحرية الحقيقية تبدأ بتحرير النفس من سيطرة الأهواء والشهوات، وجعلها خاضعة لسلطان العقل والإيمان»[(١)].

قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد نص القرآن الكريم على حرية العقيدة باعتبار أنها لا تبنى بالإكراه والقوة، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فمنع أن يكون الإكراه طريقًا للدين، ومنع المؤمنين من أن يكرهوا أحدًا على الدين.

٣. مبدأ العدل.

وقد جاء الإسلام لتحقيق الحق وإبطال الباطل وإقامة العدل مع الجميع الصديق والعدو.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فالعدل حق للأعداء كما هي للأولياء، والقرآن الكريم لم يعمم الحكم على الجميع بل أعطى لكل حقه، فقال عزو وجل: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

يقول الطبري: «يعني بذلك: أنهم غير متساوين. يقول: ليسوا متعادلين، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد، والخير والشر»[(٢)].

والعدالة شاملة للجميع، فلا تمييز بسبب دين أو لون أو عرق. ولإقامة العدل أثر كبير

(١) العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، ص ٢٩.

(٢) جامع البيان، أبو جرير الطبري، ٧/ ١١٨.

في بناء العلاقات السليمة البعيدة عن الحقد والكراهية والنزاعات.

٤. مبدأ الوفاء بالعهد.

والوفاء بالعهد خلق رفيع، سمي بذلك «لما فيه من بلوغ تمام الكمال في تنفيذ كل ما عاهد عليه الله، وفي كل ما عاهد عليه الناس»[(١)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

والوفاء بالعهد هو السبيل لاستقرار السلام بين الأفراد أو بين الجماعات، ولذلك حث القرآن على الوفاء واعتبرها قوة والنكث فيها ضعفًا، فمن وثق عهده باليمين فقد اتخذ الله كفيلًا، فلا يصح له الغدر والغش.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾[النحل: ٩١].

والقرآن الكريم لا يكتفي بمجرد الدعوة إلى الوفاء بالعهد، بل يجعلها من المبادىء السامية والقواعد الأساسية لإرساء السلم والسلام مع الغير[(٢)].

٥. مبدأ الفضيلة.

وهي من الأسس المهمة التي أكد عليها القرآن في تنظيم العلاقة بين الأفراد أو بين الجماعات في حالتي السلم والحرب. والفضيلة حق لكل إنسان بحكم إنسانيته والتي هي وصف مشترك بين كل أبناء آدم. وهي من المبادىء الإسلامية السامية، لما فيها من محافظة على قيمه الرفيعة، ودعوة إلى إقامة مجتمع فاضل يستطيع النهوض بأعبائه.

ومراعاة للفضيلة فقد نهى عن التمثيل بالقتلى والتشويه بأجسادهم، وقتل الأطفال والشيوخ والنساء، ونهى عن التعذيب، حتى لو فعل الغير ذلك. ولا تقتل الأسير ولا يتم تجويعهم.

قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقد ذكر الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره تلك الأمور فقال: «أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال. والنهي عن الاعتداء، يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع

(١) موسوعة نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ٨/ ٣٨٣٩.

(٢) انظر: العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة ص ٤٣-٤٤، أسس العلاقات الإنسانية في الإسلام، محمد نجيب نصرات ص ١٨.

الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين. ومن الاعتداء : مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها، فإن ذلك لا يجوز»[1]. وبمراعاة تلك الأسس الأخلاقية في الحروب تميز المسلمون عن غيرهم.

٦. مبدأ التسامح.

بتتبعنا لآيات القرآن الكريم لم نجد لفظة التسامح ومشتقاتها.

بل وردت لفظة الصفح والعفو، قال تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[البقرة: ١٠٩].

وكظم الغيظ، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[آل عمران: ١٣٤].

والصبر، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشورى: ٤٣].

ويهدف القرآن في إرساء هذا المبدأ في المجتمع إلى الدعوة للدخول في الإسلام، ونشر روح المحبة والسلام والوئام في المجتمع ونبذ التفرقة والاختلاف فيه.

ويتمثل تسامح القرآن مع مخالفيه في:

- عدم إكراه أحد على الدخول في الدين ابتداءًا، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- إتاحة الفرصة للغير بإبداء آراءه شريطة عدم المساس بثوابت الدين وأمن المجتمع، وله أن يستخدم الأدلة والبرهان لإقناع الناس، قال تعالى﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥][2].

- الترفق بغير المسلمين في الخطاب والنداء، فقد ورد في كثير من الآيات: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩.

(٢) انظر: التعايش السلمي في إطار التعددية المذهبية داخل المجتمع المسلم وتطبيقاته في التربوية في الأسرة والمدرسة، مزنة بنت بريك بن مبارك المحلبدي، ص ٣٤-٣٥.

أثر السلم على الفرد والمجتمع

للسلم أثر كبير وهام في حياة الفرد والمجتمع، سنتحدث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: أثر السلم على الفرد:

للسلم أثر كبير في حياة الفرد، منها:

٣. حصول الاطمئنان النفسي وراحة البال، والانسجام بين الإنسان ونفسه وضميره.

والطمأنينة هي «الوثوق بالشيء أو سكون يقويه أمن صحيح شبيه بالعيان، وهي سكون نفس في استراحة عيان»[(١)].

فهي نفي الخوف والفزع عن الإنسان فردًا أو جماعةً، فالسلم يحقق راحة البال. وإلى هذا المعنى أشار الماوردي بقوله: «صلاح المرء وانتظامها في الدنيا بستة أشياء: أمن عام تطمئن إليه النفوس»[(٢)].

قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾[الأنفال: ١١].

يقول ولديورانت: «إن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ، لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهض للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها»[(٣)].

وفي السلم تحصل للنفس حالة التوافق الشخصي أي الرضا عن النفس، والتوافق الاجتماعي، ويحصل للمرء حالة من السعادة والراحة النفسية، لشعوره بالأمن والطمأنينة والثقة، ويشعر كذلك بالسعادة مع الآخرين، لما في علاقته معهم من الحب والاحترام والثقة المتبادلة بينهم، بسبب التكافل الاجتماعي.

٤. توفر الصحة والعافية للفرد، ببعده عن الصراعات والحروب، وسلامته من العاهات والآفات الظاهرة والباطنة.

قال تعالى على لسان ملكة سبأ موضحًا أثر الحروب على المجتمعات وتدميرها: ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤].

يقول القاسمي: «إن الملوك إذا دخلوا قريةً أي عنوةً وقهرًا أفسدوها أي أخربوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً أي بالقهر والغلبة والقتل والأسر ونهب الأموال، وكذلك يفعلون تأكيد لما وصفت من حالهم، وتقرير

(١) السكينة وطمأنينة النفس في القرآن الكريم، صلاح الدين سليم محمد ص ١١.
(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٤٢.
(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت ١/ ٣.

له بأن ذلك عادتهم المستمرة»[1].

ومن آثارها المجاعات والإعاقات بشتى أنواعها والموت والجرحى والدمار في الممتلكات والأمراض، وتشريد اللاجئين في البلدان المستسلمة بسبب الصراع.

ومن أخطار الحروب: الأسلحة الفتاكة التي اكتشفها العلم ودفعت بأيدي البشرية، مما يوجب استعمالها في الحرب نسف الحضارة، من غير فرق بين الحروب المحدودة والحرب العالمية.. وفي حرب العراق مع إيران قدر مجموع القتلى والجرحى من الطرفين بمئات الألوف، كما أن حرب الروس لأفغانستان خلفت أكثر من مليون قتيل وجريح، بالإضافة إلى أربعة ملايين مشرد، والحرب بالإضافة إلى الهلاك والتدمير، تخلف مشوهي الحرب، والجرحى الذين يتألمون طول حياتهم من ويلاتها، فإن الأسلحة الفتاكة توجب مختلف الأمراض والتشويهات في الإنسان والحيوان والنبات، وقد جاء في تقرير: أن روسيا اشترت خمسة وعشرين مليون عضوًا كاليد والرجل والعين الصناعية، لأجل المشوهين، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، هذا بالإضافة إلى أن الحرب تذر الديار بلاقع، لا تصلح لإنبات النبات إلى آماد بعيدة.

تلك هي حالة الناس في الحروب، والأمور تعرف بأضدادها، فالسلم يجنب الناس مآسي الحروب وويلاتها.

٥. تنشئة الفرد تنشئة صحيحة في حالة السلم.

الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع، وهي نواته، ومنها تخرج الأجيال إلى المجتمع، فإذا ساد فيها السلم والوئام، كانت النتيجة تربية أناس أكفاء. وبوجود التنازع والشقاق في المؤسسة ينعكس ذلك على تربية الأفراد الموجودين فيها.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

يقول الشيخ المراغي: «من آياته الدالة على البعث والإعادة: أن خلق لكم أزواجًا من جنسكم لتأنسوا بها، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام»[2].

يتعاون الزوجان على بناء الأسرة وتحمل المسؤولية، فكل منهما يكمل الآخر، وبهذا التعاون يصلان إلى أفضل النتائج في تربية الأولاد في ظل المحبة والسلام والاستقرار، لأن من أهم عوامل نجاح التربية وجود بيئة صالحة خالية من النزاعات، يقول

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٤٩١.

(٢) تفسير المراغي ٢١/ ٣٧.

الدكتور عبدالرحمن المحلاوي: «إذا اجتمع الزوجان على أساس من الرحمة، والاطمئنان النفسي المتبادل، فحينئذ يتربى الناشئ في جو سعيد يهبه الثقة، والاطمئنان والعطف والمودة بعيدًا عن القلق وعن العقد والأمراض النفسية التي تضعف شخصيته»[1].

ولهذا يأمر القرآن الكريم أهل الزوجين بالسرعة في إيجاد الحل لمشاكل الأسرة عند وجود شقاق ونفرة بين الزوجين، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

ثانيًا: أثر السلم على المجتمع:

١. السلم وعلاقته بعمران المجتمع، تقدم ورقي المجتمع والتنمية المستدامة في المجتمع.

فإذا شعر الإنسان أن السلم والعدل قد شمل الكل، أدى ذلك إلى إقباله على العمل بجدية، وبذلك تكثر الأموال والخيرات، ولكن حينما يرى الاعتداء على الناس ولا يحس بالأمن، يحجم عن مزاولة الأعمال.

نلاحظ أن الشريعة الإسلامية تربط ربطًا وثيقًا بين أهداف الإنتاج وتنميته وبين عدالة التوزيع بين الأفراد وعدم الطغيان.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

قال سيد قطب: «فالآية تقرر سنة الله، لقرية انها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون الذين نشروا الفاحشة واستهترت بالقيم والمقدسات والكرامات فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، فهي مسؤولة عما يجري لها على أيدي المترفين.»[2].

فكلما زاد الإحساس بالأمن لدى المجاميع الواسعة في أفراد الشعب من ناحية، كلما زادت مساحة العدل المتحققة في صوره المتعددة من ناحية ثانية، كل ما زاد التقدم الحضاري في ذلك المجتمع. «فالسلم هو المرتكز الأساس لكل عوامل البناء والتنمية، وتحقيق النهضة الشاملة في كافة المجالات. ولهذا ذكره الله إلى جانب الغذاء، فقال ممتنًا على أهل مكة: أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. بل قدمه على الغذاء، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف»[3].

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، عبدالرحمن المحلاوي ص ١١٢.

(٢) في ظلال القران، سيد قطب ٤/ ٢٢١٧-٢٢١٨.

(٣) هدي النبي صلى الله عليه وسلم في إقامة الأمن والسلام، محمد سجاد يونس، مقال

يقول الدكتور محسن عبدالحميد: «بناء العلاقات على أساس السلم ستساعد كثيرًا على تنمية الحياة والمجتمع وإنجاح خطط التقدم الحضاري والاستفادة القصوى من الأمم المتقدمة، لأجل التغيير والبناء والتعويض عما فات من الخير»[1].

والتنازع والتخاصم يؤدي إلى انتكاسة في الاقتصاد، لأن الأموال تنفق في وجوه غير مشروعة من شراء السلاح، ودفع التعويضات للمتضررين. أما السلم فيحقق للمجتمع عمارتها وازدهارها، ويسرع تقدم عجلة التنمية.

٢. حصول العدالة والمساواة في المجتمع في حالة السلم، وعدم استئثار فئة على حقوق الآخرين، ويحصل بذلك الاتفاق والتراضي.

والمراد بالمساواة : «تشابه المكانة الاجتماعية والحقوقية والمسئوليات والفرص للناس في المجتمع على النحو الذي تقوم فيه الحالة المتماثلة فيما بينهم»[2].

وبناءً على هذه الصورة للمساواة فالحكام والمحكومون والراعي والرعية متساوون في نظر الشريعة الإسلامية من جهة الحقوق والواجبات الإنسانية، فلا امتياز من حيث الأصل والمنشأ، إنما التفاوت بحسب القدرة والكفاءة والطموح والإبداع والتفوق.

ومن المباديء التي على أساسها تم السلم في المجتمع: الأخوة والمحبة بين الناس، لذلك أمر الله سبحانه بتوزيع الثروة بالعدل والمساواة، وهذا لا يتم إلا في أجواء الحب والإخاء والمحبة بين الناس.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٧-٨].

فالآية ترفض كل من ينادي بتغذية الصراع بين الأغنياء والفقراء، أو بين الطبقات بعضها مع بعض.

٣. الانسجام الاجتماعي بسبب التكافل والتضامن.

قال الماوردي رحمه الله: «العدل الشامل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة وتعمر البلاد، وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل

منشور على شبكة الألوكة.

(١) الإسلام والتنمية الاجتماعية، محسن عبدالحميد ص ١٣٤.

(٢) الإسلام والأمن الاجتماعي، محمد عمارة، ص ٩٢.

ويأمن به السلطان، فليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق، من الجور ؛ لأنه ليس يقف على حد ولا ينتهي إلى غاية، ولكل منه قسط من الفساد حتى يستكمل»[1].

فالسلم يدعو إلى الألفة ويبعث على الطاعة وتعمر البلاد ، وما أجمل ذلك المشهد لتلك الأمة الجادة في عملها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

يقول الرازي: «والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم. والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم»[2].

فلا يهلك الله أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، وعذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم مشركين فقط، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم، وهذا ما حدث في قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس.

٤. السلم والحرية وأثره في انتشار الدعوة الإسلامية.

من الآثار الهامة في السلم وجود حالة من الحرية تسمح للناس أن تسمع كلام الآخرين ومناقشتها وقبولها، وهذه الحالة لا توجد في الحرب والصراع. «إن حرية الإنسان في الرؤية الإسلامية هي فريضة اجتماعية وتكليف إلهي، تتأسس عليها أمانة المسؤولية ورسالة الاستخلاف، التي هي جماع المقاصد الإلهية في خلق الإنسان.

وفي الاصطلاح الإسلامي: الحرية ضد العبودية، والحر نقيض العبد والرق، وتحرير الرقبة عتقها من الرق والعبودية، فالحرية هي الإباحة التي تمكن الإنسان من الفعل المعبر عن إرادته في أي ميدان من ميادين الفعل أو الترك، وبأي لون من ألوان التعبير»[3].

وفي السلم يتمتع الناس بحرياتهم من غير ضغوط أو إكراه، ولذلك سمى الله سبحانه حالة السلم والهدنة مع قريش بالفتح بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣].

يقول الزهري: «وما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى

(١) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١١٩.
(٢) مفاتيح الغيب ، الرازي، ١٨/ ٤١٠.
(٣) الإسلام والأمن الاجتماعي، محمد عمارة ص ٨٥.

الناس؛ فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضًا، فالتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه ، فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر»[(١)].

فقد وضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة. وهذه هي حالة السلم في كل العصور، تتلاقى فيها الأفكار والمباديء ويسمع الناس كل مة الحق بحرية ودون إكراه.

٥. دفع المفسدة وقمع الشرور، وقلة الجرائم المرتكبة في المجتمع.

ففي السلم حقن الدماء التي قد تراق بين المتنازعين، وحماية للنفس البشرية التي حرم الله الاعتداء عليها وقتلها إلا بالحق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣].

يقول سيد قطب: «والإسلام دين الحياة ودين السلام، فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله، فالله واهب الحياة، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها»[(٢)].

ولتحقيق السلم شرع القصاص في القتلى ووصف بالحياة، وكذلك مبدأ العفو في القصاص له أثر في الحد من الجريمة وتقليلها.

ففي موضوع أثر العفو في التقليل من الجرائم يقول محمد أبو ركاب: «فشرعية القصاص فيها حياة لنفوس كثيرة، وفتح باب أخذ رأي أولي الدم يفتح بابًا للحياة وبابًا لسد المشكلات ونشر الأمن والاستقرار»[(٣)].

فالمجتمع الآمن هو الذي يأمن الناس فيه على النفس والعرض والممتلكات؛ لأن وجود الأمن والسلم في المجتمع يؤدي إلى الحد من ارتكاب الجريمة، بل كفيل بمنعها نهائيًا، وتجربة سيدنا عمر بن عبدالعزيز خير دليل على ما ذكرنا، حيث لم يرتكب الجريمة في عهده إطلاقًا[(٤)].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٥٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٤.
(٣) المقاصد الاجتماعية من مشروعية القصاص في جريمة القتل العمد، محمد أبو ركاب ص ٣٦٦.
(٤) انظر: الأمن الاجتماعي في الإسلام، أسامة عبدالسميع، ص ١٦٦.

السّلم بين القرآن و المواثيق الدولية

أولًا: مفهوم السلم بين الفكر الإسلامي والمواثيق الدولية:

١. مفهوم السلم في الفكر الإسلامي.

الفكر الإسلامي هو الفكر الذي ينطلق من الكتاب والسنة الصحيحة.

وقد بين علماؤنا الكرام من مفسرين وفقهاء ومحدثين وغيرهم قديمًا وحديثًا مفهوم السلم كما جاء في القرآن والسنة.

فقد بحثوا في كتاباتهم طبيعة العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول: هل الأصل السلم أم الحرب؟ وتقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب، كما حصل الآن من تقسيمه إلى دول وحكومات.

وبحثوا مسائل الأمان والمعاهدات وأنواعها، وأهل الذمة، ولم ينسوا مسألة أسرى الحرب ومصيرهم والجرحى وكيفية معاملتهم، وكذلك مسألة الضرائب والخراج والغنائم وأموال الحرب. وذكروا المسائل المتعلقة بانتهاء الحرب والصلح وأقسامه وشروطه.

استخدم علماؤنا مصطلح (السير) للدلالة على الأحكام المتعلقة بتنظيم العلاقة مع الغير في حالة الحرب. وأول من استعمل هذا المصطلح هو الإمام أبو حنيفة، ثم دون تلميذه محمد بن الحسن الشيباني هذه الأحكام في كتابين: السير الصغير والسير الكبير. فعلم السير هو «قواعد التعامل مع غير المسلمين في دار الكفر وفي دار الإسلام، وقت السلم ووقت الحرب»[(١)]. وهو ما يعرف بالقانون الدولي.

يقسم الفكر الإسلامي مصطلح السلم إلى أقسام، وهو ما يميز الفكر الإسلامي عن غيره:

١. السلم الداخلي.

ويعني به «إصلاح نفسية الفرد ليكون خاضعًا لله في حكمه وأمره، محبًّا للناس في عسره ويسره، عاملًا للخير في منشطه ومكرهه، بعيدًا عن الأذى في غضبه ورضاه»[(٢)].

٢. السلم الأسري.

والمراد به: «إقامة نظام الأسرة على حب تسكن إليه النفس، وسلم لا تشوبه محن ولا نزاع، وحقوق يتوازن بعضها مع بعض»[(٣)].

٣. السلم داخل المجتمع.

وتبنى السلم في المجتمع على أسس

(١) أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني، عثمان جمعة ضميرية، ١/ ٢٤٠.
(٢) مفهوم السلم في الفكر الإسلامي، محمد بازياني، ص ٢٣٩.
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٠.

العلم، وإعطاء الحقوق، ونشر الفضائل في المجتمع، وسيادة القانون. ووثيقة المدينة بين سكان المدينة من مسلمين وغيرهم خير شاهد على ذلك: فقد نظم العلاقة في مجموعة بنود تصب في صالح السلم والسلام في المجتمع على قاعدة الإخاء بين المهاجرين والأنصار، وأنهم أمة واحدة دون الناس، وأنهم كجسد واحد، وأن يدهم واحدة على من عاداهم. وعلى قاعدة العدل والمواطنة والحقوق والواجبات المتقابلة لغير المسلمين، كما أكدت على الحرية الدينية لكل الطوائف[1]. وسلم المجتمع بحاجة لإقامة حكومة عادلة تعمل على إقامة السلم في المجتمع بتربية النفوس على الخلق القويم، ومنع ما يؤدي إلى الاضطراب وتعكير صفو الأمن.

٢. مفهوم السلم في الوثائق الدولية:

١. السلم الخارجي والقانون الدولي العام.

يقصد بالقانون الدولي العام: «المواثيق والأعراف الدولية التي تطبق حال النزاعات المسلحة على اختلاف أقسامها، وتهدف إلى تقييد النزاع في حق استخدام أساليب القتال ووسائله، وحماية المتضررين من هذا النزاع، وتخفيف آثاره عنهم، وذلك حفاظًا على كرامة الإنسان وحقوقه الأساسية»[2].

وهذا القانون يشمل: قانون لاهاي (١٨٠٩-١٩٠٧) والذي ينظم حقوق وواجبات المقاتلين عند وقوع الحرب، وقانون جنيف والذي يستهدف حماية المدنيين الذين لا يشاركون في الحروب ومعاملتهم معاملة إنسانية (١٩٤٩)[3].

وقد مرت مفهوم السلم في العلاقات الدولية بعدة مراحل من خلال اتفاقيات، أهمها:

- معاهدة لاهاي عام ١٨٩٩م: اتفقت الدول الموقعة على أن محاولة التسوية السلمية أمر مرغوب فيه، وقطعت على نفسها عهدًا ببذل جهودها.
- إتفاقية لاهاي ١٩٠٧م: هذه الاتفاقية سدت الثغرات الموجودة في الإتفاقية الأولى، وأسهمت في تأصيل السلم وتفضيل وسائل التسوية في حل النزاعات بين الدول.
- عصبة الأمم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى: قامت محكمة دائمة للعدل الدولي، وتضمن مادته السادسة عشرة جزاءات توقع على الدول التي تلجأ

(١) انظر نص الوثيقة في: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، ص ٣٠٥-٣٠٧.

(٢) أحكام القانون الدولي في الإسلام، محمد سليمان نصرالله الفرا، ص ٦.

(٣) انظر: الأسس والمبادىء الاسلامية للعلاقات الدولية، علي محي الدين القرداغي، مؤتمر مكة ص ٢٢٤.

للحروب.

- مؤتمر الأمم المتحدة: بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عقد ممثلون عن ٥٠ دولة مؤتمرًا للمحافظة على السلام والأمن في العالم وتنمية الود بين الأمم، وتحقيق التعاون في حل المشكلات الدولية، وأن تكون مركزًا لتنسيق أعمال الأمم للوصول إلى تلك الغايات العامة.

٢. يستند القانون الدولي في الحرب على مصادر، أهمها:

- العرف: والمقصود به العرف المتبع بين الدول، والعدالة من الحق الطبيعي أو تعاليم الدين أو إملاء العقل والتأثر بآراء الفلاسفة والمفكرين والفقهاء ورجال السياسة. وتتبلور بقرارات هيئات التحكيم أو محاكم العدل الدولية.
- الاتفاق: فيبنى بوجه خاص على المعاهدات العامة ذات الصفة التشريعية، إلى جانب المعاهدات الخاصة والتعامل الفعلي المستمر[١].

فمفهوم السلم في القانون الدولي العام هي : إشاعة السلم بين الدول وحل المنازعات الدولية بالطرق السلمية والودية، ومراعاة قواعد الحرب أثناء اندلاع الحروب بين الدول والتعايش السلمي وصيانة السلم العالمي. وقد سبق الإسلام كل المواثيق الدولية وأكد الحقوق المنصوص عليها في تلك المواثيق.

ثانيًا: ضمانات تحقيق السلم بين القرآن والمواثيق الدولية:

١. ضمانات تحقيق السلم في القرآن.

الضمان في الاصطلاح الشرعي هو: «ضم ذمة الضامن إلى ذمة المضمون عنه في التزام الحق، فيثبت في ذمتهما جميعًا، ولصاحب الحق مطالبة من شاء منهما، ويكون برد الشيء أو بدله، بالمثل أو بالقيمة.

أما في الاصطلاح القانوني فيراد به: رابطة قانونية، نكون بمقتضاها مجبرين على الوفاء بأمر ما طبقًا للقانون»[٢]. عندما يقر القرآن الكريم أمرًا أو تشريعًا فلا يكتفي بمجرد الدعوة إليها، بل يضع من الضمانات والأسس ما يجعلها على أرض الواقع.

ولتحقيق السلم في المجتمع، وضع ضمانات نذكرها في نقاط:

الضمانة الأولى: طاعة الله ورسوله ضمان لتحقيق السلم والأمان.

(١) انظر: مفهوم السلم في الفكر الإسلامي، محمد بازياني، ص ٢٧١-٢٨٥.

(٢) ضمانات الحقوق والحريات في المجتمع الإسلامي، ناظم عبدالله رشيد، ص ١٧-١٨.

في كثير من الآيات يربط القرآن الكريم بين حصول الأمن والسلام وبين اتباع أوامر الله سبحانه، وذلك ليؤكد لنا أن السلم يعني الدخول في الإسلام، كما أمر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وربط دفع المضرة عنه وهو تحقيق السلم بتقوى الله، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وبعكسه الذنوب والمعاصي تجلب الويلات للإنسان وتدمر أمنه وحياته، كما قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وإلى هذا المعنى أشار الرسول الكريم بقوله : (يا معشر المهاجرين : خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم)[1].

الضمانة الثانية: إقرار القرآن الكريم لمباديء السلام.

السلام هو: اسم من أسماء الله الحسنى، والإسلام دين السلام، وتحية المسلمين هي السلام، ودار السلام هي الجنة. وقد أقر القرآن الكريم جملة من المباديء تعتبر الالتزام بها جزءًا من الإيمان. فالناس جميعاً إخوة مهما اختلفت لغاتهم وأنسابهم وأوطانهم، فهم أبناء أب واحد وأم واحدة، والحب والتعاون وبذل الخير للناس جميعًا هو أساس الايمان. وفي كثير من الآيات المذكورة في ثنايا البحث فيها الإشادة بالسلام، فكل ما يؤدي إلى إيغار الصدور وإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس حرام لا يجوز فعله، والأديان السماوية واحدة في أصولها وأهدافها العامة. هذه المباديء وغيرها كفيل بتحقيق السلام في المجتمع ومع غير المسلمين[2].

الضمانة الثالثة: التنمية بمعناها الشامل والتي تبناها القرآن الكريم أكبر ضمانة

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٤٠١٩، كتاب الفتن، باب العقوبات.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٤٦٨، رقم ٧٦٤.

(٢) انظر: مفهوم السلم في الفكر الإسلامي، الدكتور محمد بازياني ص ٢٣٠.

لتحقيق السلم، وعدم نشوب الحرب.

والتنمية هي: تلبية الحاجات المتمثلة بتحقيق النمو الاقتصادي والتوزيع العادل للثروات، وتحقيق التنمية الاجتماعية بين أفراد المجتمع، والمحافظة على البيئة وحمايتها، واحترام التنوع الثقافي في المجتمع، وتحقيق التوازن بين المدن والأرياف والتهيئة العمرانية[1].

والأصل فيها قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[الحشر: ٧].

يقول الشيخ المراغي في معنى الآية: «وإنما حكمنا بذلك وجعلناه مقسمًا بين هؤلاء المذكورين، لئلا يأخذه الأغنياء ويتداولوه فيما بينهم، ويتكاثروا به، كما كان ذلك دأبهم فى الجاهلية، ولا يصيب الفقراء من ذلك شيء»[2].

وفي سبيل تحقيق العيش الكريم للفرد فقد ربط القرآن الكريم كثيرًا من العبادات والكفارات بالإطعام والكسوة، وحرم الافتخار بكثرة المال، وأكد على تواضع الأغنياء مراعاة للفقراء.

الضمانة الرابعة: ضمان حقوق الكل من المعاهدين والمقاتلين وأهل الذمة.

في المجتمع الإسلامي تعيش إلى جانب المسلمين من هو على غير دينهم وهم أهل الذمة من أهل الكتاب، وهؤلاء لهم حقوق وعليهم واجبات.

وقد تربط الدولة الإسلامية بغيره من الدول علاقات تترتب عليها مسؤوليات والتزامات، وقد ألزم القرآن الكريم في الحالتين الوفاء بالعهود والالتزامات، فالوفاء بها ضرورة دينية، وكذلك تعتبر الضمان لتحقيق السلم بين المسلمين وغيرهم.

«إن الضمان الوحيد لتكريس السلم في واقع أي مجتمع، هو ضمان حقوق أفراده، وهذا الضمان ليس من باب الإحسان أو المنة، وإنما هي واجبات على الدولة وحق مقرر لكل مواطن فيها بمقتضى العقد الاجتماعي»[3].

وقد كفل القرآن الكريم لهم حرية الاعتقاد والعبادة، ومساواتهم بالمسلمين أمام القانون في كثير من المسائل، وضمن لهم حقوقًا عامة كسائر المسلمين مثل حق حفظ كرامتهم الإنسانية، وعصمة النفس بالإضافة إلى حقوقهم المالية مع وجوب البر والعدل معهم، ولهم الحق في تقلد الوظائف العمومية.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يقول ابن عاشور: «وهي دليل واضح

(١) انظر: الأمن والتنمية، محسن بن العجمي عيسى، ص ٥٣.

(٢) تفسير المراغي ٢٨/ ٣٩.

(٣) ضمان حقوق الأقليات وأثره في السلم الاجتماعي، صايل أحمد حسن أمارة، ص ٣٥.

على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه، لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر وبالاختيار[1].

وإذا تعامل المسلمون مع هذا الاختلاف في مجتمعهم المتمثل بوجود أهل الكتاب، انعكس إيجابيًّا عليهم فيكونون عامل تطور وتقدم، وإذا أهملوها صارت عامل تفرق وتشرذم وصراع، تهدد سلمهم، فالحفاظ على حقوقهم مع كونه واجب شرعي، أكبر ضمانة لتحقيق السلم في مجتمعهم.

٢. ضمانات تحقيق السلم في المواثيق الدولية.

في بحث مفهوم السلم في المواثيق الدولية، ذكرنا أهم المعاهدات التي أدت إلى تأصيل مفهوم السلم في العالم. وتبعتها اتفاقيات أخرى بين الأعضاء، فقد عقدت اتفاقية السلم والتسامح في باريس من ٢٥ تشرين الأول -١٦ تشرين الثاني ١٩٩٥م، وحضرتها الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، وفي تحليل لنص الاتفاقية وضح لنا ما يلي:

- تأكيد الأعضاء على إيمانهم بحقوق الإنسان وعزمهم على العيش بسلام.
- ركزوا على دور التربية في تنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب.
- الخوف من انتشار مظاهر الكراهية والعنف والإرهاب، وهي أعمال تهدد السلم.
- الإعلان عن مباديء بشأن التسامح، موضحًا معنى التسامح، ودور الدولة في ضمان العدل وعدم التحيز.
- يجب أن تتخذ اليونسكو التدابير الكافية بضمان التساوي في الكرامة والحدود للأفراد والجماعات.
- التعليم هو أنجح الوسائل لمنع اللاتسامح، أي تعليم الناس الحقوق والحريات التي يتشاركون فيها مع غيرهم، وذلك لكي تحترم هذه الحقوق.
- الالتزام بالعمل على تعزيز التسامح عن طريق برامج ومؤسسات.[2]

ونظرة على الوثيقة تبين لنا جانبًا من ضمانات تحقيق السلم في المواثيق الدولية، وهي:

- حفظ السلم عن طريق النصوص القانونية والمباديء المقررة لضمان احترام القانون الدولي. إن الكم الهائل من الاتفاقيات الدولية في مجال القانون الدولي تعد شاهدًا ودليلًا على حرص المجتمع الدولي على إرساء قواعد قانونية ذات طابع دولي لحماية حقوق

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٦.

(٢) للاطلاع على نصوص الاتفاقية، انظر: موقع منظمة العدل للتنمية والإحسان.
وقد لخصنا أهم الفقرات الواردة فيما يخص السلم.

الإنسان، حيث تمثل هذه القواعد الجانب الموضوعي للحماية الجنائية الدولية لحقوق الإنسان، والتي تعد في نظري ضمانةً مهمةً لهذه الحماية، وإن كانت الصيغة عامةً.

ومن بين البنود المتعلقة:

- عدم خضوع مجرمي الحرب لنظام التقادم، وتشمل الجرائم ضد الإنسانية المقترفة في وقت الحرب أو السلم، وعدم امتداد الحصانات الداخلية والدولية لمجرمي الحرب.
- وجود آلية تضمن تطبيق تلك القواعد من قبل الدول، وهو ما سعت الأمم المتحدة إلى إنشائها، وتبين لنا في ثنايا هذه الدراسة بأن تلك الآليات منها ذات طبيعة وقائية (آلية الإشراف والرقابة) ومنها مالها طابع علاجي كآلية الحماية القضائية.
- نشر ثقافة السلم في الدول والمجتمعات، عن طريق التربية والتعليم والبرامج والمؤسسات.
- مرحلة الإنتقال من نصوص قانونية عقيمة، كثيرًا ما نجحت المصالح السياسية للدول العظمى في إيقاف دواليب وضعها حيز النفاذ، فرضتها الحاجة الإجتماعية للسلم. و يميّز ذلك عبر إحياء المعطيات الدينية والعقائدية التي تحث على السلم. ثقافة السلم تتطلب إقصاء العنف و القوة خارج الإطار الشرعي على المستوى الوطني كذلك. هذه السبل تضفي على مجهودات تحقيق السلم فاعلية واقعية ناجعة.
- القوة الإلزامية لقواعد القانون الدولي الإنساني تتميز بصفتها الآمرة، بمعنى أن قواعده ملزمة لجميع أعضاءه. فالطبيعة الآمرة لبعض قواعد القانون الدولي تجعلها في مرتبة أعلى، وتؤدي إلى إبطال كل ما يتعارض معها أو يخالفها من الاتفاقات التي تبرمها الدول و التي لا تتمتع أحكامها بنفس الطبيعة.[1]
- الجرائم في حق السلم من بين الأفعال التي تم تجريمها على المستوى الدولي، و يكون مرتكبها مذنبًا على المستويين، الدولي و الداخلي، و لا يمكن التذرع بالحماية الدبلوماسية، ولا الحصانة على أساس أن القائم بهذا النوع من الجرائم كان في خدمة دولته و اقتصرت مهمته على تنفيذ أوامر السلطة العامة في الدولة .

موضوعات ذات صلة:

الجهاد، الحرب، القتال، القتل، السلام، السياسة

(١) انظر: آليات وضمانات تطبيق القانون الدولي الإنساني، أنس المرزوقي، مقال نشر في موقع الحوار المتمدن في ٨/ ١/ ٢٠١٤.

سليمان عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بسليمان عليه السلام	٢٥٢
ذكر سليمان عليه السلام في القرآن	٢٥٤
فضائل سليمان عليه السلام	٢٥٥
خصائص ملك سليمان عليه السلام	٢٥٨
مواقف من سيرة سليمان عليه السلام	٢٦٤
شبهات حول سليمان عليه السلام	٢٧٥
موت سليمان عليه السلام	٢٨٠
تدبير سليمان عليه السلام لملكه	٢٨١
الهدايات المستفادة من قصة سليمان	٢٨٦

التعريف بسليمان عليه السلام

اسمه ونسبه:

سليمان بن داوود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن تخشون بن عمينا آداب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم [(١)].

ذلك ما يذكره المؤرخون من نسب سليمان عليه السلام، أما في كتاب الله فقد جاءت آيات تدل على أنه ابن لداوود عليه السلام وهي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[سبأ: ١٣].

والخطاب هنا سليمان عليه السلام [(٢)]؛ إذ الآل في اللغة يستعمل فيمن يختص بالإنسان اختصاصًا ذاتيًّا إمّا بقرابة قريبة، أو بموالاة[(٣)]. ففي هذه الآية دلالة على أنه من أهله وقرابته.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

فالمعنى أن الله تعالى وهب لداوود سليمان ابنًا [(٤)]، وكثيراً ما يذكر الله تعالى الأبناء بلفظ الهبة ، كما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾[الشورى: ٤٩] .

وقال تعالى: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾[مريم: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾[مريم: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ولا يتعارض هذا مع ما ورد في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وسواء أرجعنا الضمير إلى نوح عليه السلام أم إلى إبراهيم عليه السلام فلا تنافي بين كونه ابناً لداوود عليه السلام، وأما نوح عليه السلام فكل من جاء بعده فهو من ذريته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَٰقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] ، وأما إبراهيم عليه السلام فهو جد لداوود كما رأينا في نسبه فهو من ذريته.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[النمل: ١٦].

فالأصل أن الولد يرث أباه؛ قال السعدي: «أي: ورث علمه ونبوته فانضم علم أبيه إلى

(١) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ٢٢/ ٢٣١، قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٢٨٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٦٣.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٩٨.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٠٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦٤.

علمه، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه»[1].

فظهر من مجموع دلالات هذه الآيات الثلاث أن سليمان عليه السلام ابن لداوود عليه السلام.

زمانه:

إن الناظر في سياق الآيات القرآنية التي تتحدث عن سليمان عليه السلام يجد أن السياق لا يخرج عن أحد ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون ذكره مقترناً بأبيه داوود عليه السلام، ومن هذا الاقتران ما يدل دلالة قطعية على اجتماعهما في مكان واحد وزمن واحد ، قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٨].

فحكمهما في قضية واحدة في مكان واحد دليل على وجودهما في زمن واحد[2].

الثاني: أن يذكر سليمان عليه السلام بعد ذكر أبيه داوود، ومثال ذلك ورود قصته بعد قصة أبيه في سورة ص.

الثالث: أن يذكر سليمان عليه السلام منفردا، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾[البقرة: ١٠٢].

ومن مجموع ما سبق يظهر لنا جليًّا أن سليمان عليه السلام عاش مدة من الزمن في حياة أبيه داوود عليه السلام، وبلغ من العمر ما يؤهله لأن يحضر مجلس قضاء والده، ويستدرك عليه بعض أحكامه، وبعد وفاة والده ورثه في الملك والنبوة، واستقل بذلك، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ﴾[النمل: ١٦] ، وما يهمنا هنا أن الوراثة لا تكون إلا بعد موت المورث[3]، أما ماهية هذه الوراثة فسنذكره عند الكلام عن فضائله عليه السلام.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري١٦/ ٣٢٢، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٩٨.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٦٦.

ذكر سليمان عليه السلام في القرآن

ورد ذكر سليمان عليه السلام في القرآن الكريم (١٧) مرة، في (٧) سور.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	١٠٢
الأنبياء	٧٨-٨٢
النمل	١٥-٤٤
سبأ	١٢-١٤
ص	٣٠-٤٠

فضائل سليمان عليه السلام

حبا الله تعالى نبيه سليمان عليه السلام بفضائل جليلة، منها:

١. العلم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾[النمل: ١٥].

وهو علم مخصوص غير النبوة؛منطق الطير والدواب، ومعرفة القضاء.

قال الطبري: «وذلك علم كلام الطير والدواب، وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه»[(١)].

وقال السمعاني:« علم القضاء وعلم منطق الطير ومنطق الدواب »[(٢)].

٢. وراثة النبوة.

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[النمل: ١٦].

ولكن يا ترى ما هو هذا الميراث الذي ورثه هذا النبي الكريم ؟

إن هذا الميراث قد ذكره المفسرون عند كلامهم على هذه الآية، وفي ذلك يقول ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ﴾[النمل: ١٦] أباه داوود العلم الذي كان آتاه الله في حياته، والملك الذي كان خصه به على سائر قومه، فجعله له بعد أبيه داوود دون سائر ولد أبيه»[(٣)].

فالوراثة إذن وراثة للعلم والملك؛ ولكن لم لا يكون ورث مع ذلك مال أبيه، مع أنه المتبادر إلى الأذهان من لفظ الوراثة والميراث؟

يجيب على ذلك الإمام ابن كثير بقوله: «وليس المراد وراثة المال؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داوود، فإنه قد كان لداوود مائة امرأة، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: (نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة)[(٤)]»[(٥)].

ومما يؤكد هذا ويؤيده أنه قد ورد الاستعمال القرآني للوراثة في وراثة العلم والدين دون المال في غير ما آية من كتاب الله تعالى منها:

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾[الأعراف: ١٦٩].

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٨١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا نورث ما تركنا صدقة) ٨/ ١٥٠، ٦٧٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا نورث ما تركنا فهو صدقة) ٣/ ١٣٧٩، رقم ١٧٥٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٢.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[فاطر: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[الشورى: ١٤].

فظهر مما تقدم أن سليمان عليه السلام ورث علم أبيه ونبوته وملكه.

٣. تعليم منطق الطير.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[النمل: ١٦].

يقول ابن كثير: «أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر -فيما علمناه -مما أخبر الله به ورسوله»[(١)].

٤. الشكر.

وقد ذكر الله تعالى شكر هذا النبي في ثلاث آيات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[النمل: ١٩].

قال الألوسي: «أي اجعلني أزع شكر نعمتك أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني وهو مجاز عن ملازمة الشكر والمداومة عليه فكأنه قيل: رب اجعلني مداوماً على شكر نعمتك»[(٢)].

وهنا كان شكره عليه السلام على سماع قول النملة، وفهم خطابها.

الثانية: قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[النمل: ١٦].

قال الزمخشري: «قوله: إنّ هذا لهو الفضل المبين قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة»[(٣)].

فشكر ربه سبحانه على ما وهب له من علم وما آتاه الله من الملك.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[النمل: ٤٠].

قال الطبري: «هذا البصر والتمكن والملك والسلطان الذي أنا فيه حتى حمل إلي عرش هذه في قدر ارتداد الطرف من مأرب إلى الشام، من فضل ربي الذي أفضله علي وعطائه الذي جاد به علي ليختبرني ويمتحنني، أأشكر ذلك من فعله علي، أم

(١) المصدر السابق.

(٢) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٧٦.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٥٤.

أكفر نعمته علي بترك الشكر له؟»[1].

وفي هذا الموضع كان شكره على نعمة التسخير والتمكن من إحضار العرش بين يديه في زمن يسير جدًّا.

٥. الفهم.

قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء: ٧٩].

والفهم أخص من العلم[2].

قال الزبيدي: «فإن العلم مطلق الإدراك، وأما الفهم فهو سرعة انتقال النفس من الأمور الخارجية إلى غيرها»[3].

وفهم سليمان عليه السلام إمّا إنه قد جعل الله له من فضل قوّة الفهم ما أدرك به ما يعرض له من القضايا، وإمّا بأن ألقى ذلك في روعه إلهامًا، أو بأن يوحى إليه بوحي خاص[4].

وظهرت عليه هذه الصفة في زمان أبيه، وقد ذكر في القرآن الكريم ما يدل على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فيذكر ربنا سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين قضية حدثت في زمان داوود عليه السلام، يلخصها العلامة السعدي بقوله: «إذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفشت فيه غنم القوم الآخرين، أي: رعت ليلاً فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه، فقضى فيه داوود عليه السلام ، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظراً إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرها وصوفها ويقومون على بستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله، ترادًّا ورجع كل منهما بما له، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام»[5].

٦. الأوبة.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

قال السعدي: «أي: رجّاعًا إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها على كل شيء»[6].

وقد ذكر الله هذه الصفة تعليلًا لمدح

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٧٤.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٢٧٤.
(٣) تاج العروس، الزبيدي ٣٣/ ٢٢٤.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٤٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٨. وانظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٢٢، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٩٤.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص ٧١٢.

سليمان عليه السلام بكونه نعم العبد، فكل من كان كثير الرجوع إلى الله ناله حظه من هذا المدح الإلهي.

وفي هذا يقول الرازي: «وهذه الكلمة للتعليل، فهذا يدل على أنه إنما كان نعم العبد لأنه كان أوابا، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى في أكثر الأوقات وفي أكثر المهمات كان موصوفا بأنه نعم العبد وهذا هو الحق الذي لا شبهة فيه»[1].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٨٩.

خصائص ملك سليمان عليه السلام

لا بد لكل نبي يرسل إلى قوم أن يؤيده ربه سبحانه ببرهان يظهر به صدقه ويكون عنوان هداية لمن يريد سبحانه أن يهديه سواء السبيل، فيلهمه رشده، وفي السنة ما يدل على ذلك.

فعن أبي هريرة، قال: قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (ما من الأنبياء نبيٌّ إلّا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الّذي أوتيت وحيًا أوحاه اللّه إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[2].

وعموم هذا الحديث يدخل فيه نبي الله سليمان عليه السلام؛ فيا ترى ما هو برهان هذا النبي ودليل صدقه على نبوته ؟

لقد وهبه ربه جل في علاه ملكًا خصه فيه بخصائص تدل على نبوته، ولم تكن لغيره من بعده، وهي:

١. تسخير الجن والشياطين.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن من سخر لسليمان عليه السلام نوعان:

النوع الأول: بعض الشياطين الذين هم

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف بنزل الوحي، ٦/ ١٨٢، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٣٤، رقم ١٥٢.

الكفار من الجن[1]، وهؤلاء كانوا على قسمين:

القسم الأول: من امتثل أوامر سليمان عليه السلام، فكان بعض هؤلاء الممتثلين يقومون بالغوص في البحار كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

أي: يغوصون في أعماق البحار لاستخراج اللآلئ و الدرر وغير ذلك مما يطلب منهم[2].

وصنف آخر منهم لهم عمل غير الغوص الذي هو البناء، قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص:٣٧].

فهؤلاء يقومون ببناء المدن والقصور ويخترعون الصنائع العجيبة[3].

والقسم الثاني: هم العصاة المتمردون من الشياطين، وهؤلاء يقول الله فيهم: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾[ص: ٣٨].

قال ابن كثير: «أي: موثقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى أو قد أساء في صنيعه واعتدى»[4].

والذي جعلنا نجزم بأن هؤلاء هم الكفار من الجن دليلان:

الأول: أن الكافر من الجن يسمى شيطانًا[5].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾[الأنبياء: ٨٢].

يقول ابن كثير: «أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه»[6].

فحراسة الله تعالى له عن أن يناله منهم سوء يدل على كفرهم إذ إن من يقدم ذلك يدل على بغضه للرسول ورسالته ، وهذا من المكفرات المعلومة والله أعلم.

النوع الثاني: بعض مؤمني الجن.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

فبين تعالى أنه سخر بعضاً من مؤمني الجن للعمل بين يدي سليمان عليه السلام، وكانت أعمالهم ما ذكره الله في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

فهم يعملون له ما يلي:

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٨١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٩٥.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٨٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٧٣.
(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١٠٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٥٩.

المحاريب: وهي جمع محراب، والمحراب: كل بناء حسن، وأشرف شيء فيه وصدره سواء كان مسجداً أم بيتاً أم مصلى[1].

التماثيل: وهي جمع تمثال، والتمثال: (كل ما صوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان)[2].

الجفان: جمع جفنة، وهي: ما يوضع فيه الطعام، ولعظمها شبهها بالجواب التي هي جمع جابية، وهي البركة التي يجبى إليها الماء[3].

القدور: ما يطبخ فيها الطعام، ولعظمها كانت ثابتة على الأثافي لا تنزل عنها[4].

٢. تسخير الريح.

فقد سخر الله تعالى لسليمان عليه السلام الريح.

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨١].

ووصفها الله تعالى بصفات:

الأولى: أنها ريح عاصفة، بمعنى أنها شديدة الهبوب[5].

الثانية: أنها رخاء، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص: ٣٦].

والمعنى: أنها ريح لينة لا تزعزع ولا تعصف[6].

فإن قيل: كيف يمكن الجمع بين الوصفين المتناقضين؟

فالجواب: ذكر المفسرون للجمع وجوهًا:

الأول: إن المراد بالعاصفة أنها في قوة العاصفة ولا تعصف.

والثاني: إنها تكون تارة رخاء، وتارة عاصفة على ما يريده سليمان عليه السلام ويشتهيه[7].

والظاهر من السياق أنها تكون بحسب ما يريده سليمان عليه السلام ، يقول ابن عاشور: (..وذلك باختلاف الأحوال فإذا أراد الإسراع في السير سارت عاصفة ، وإذا أراد اللين سارت رخاء، والمقام قرينة على أن المراد المواتاة لإرادة سليمان كما دل عليه قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ في الآيتين المشعر باختلاف مقصد سليمان منها كما إذا كان هو راكباً في البحر ؛ فإنه يريدها رخاء لئلا تزعجه ، وإذا أصدرت مملكته بضاعة أو اجتلبتها سارت عاصفة ، وهذا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي٨/ ١٣٧.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي٨/ ١٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٦.
(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠٠.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٠١.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٩٧.
(٧) انظر: المصدر السابق.

بين بالتأمل)[1].

الثالثة: أنها تجري حيثما يريد سليمان عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص: ٣٦].

أي: إنها تجري حيثما أراد، وهذا يدل على التعميم في الأمكنة التي يريد الذهاب إليها[2].

ولكن في الآية الأخرى يقول تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

فظاهر هذه الآية أن جريها مخصوص بكونه إلى الأرض التي بورك فيها، فكيف الجمع بينهما ؟

يقول العلامة الشنقيطي: «قوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص: ٣٦] يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]؛ لأن مسكنه فيها وهي الشام، فترده إلى الشام. وعليه فقوله: حيث أصاب في حالة الذهاب. وقوله: إلى الأرض التي باركنا فيها في حالة الإياب إلى محل السكنى، فانفكت الجهة فزال الإشكال»[3].

الرابعة: سرعة جري هذه الريح المسخرة، وهذا ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[سبأ: ١٢].

قال الطبري: «وسخرنا لسليمان الريح، غدوها إلى انتصاف النهار مسيرة شهر، ورواحها من انتصاف النهار إلى الليل مسيرة شهر»[4].

وقال ابن كثير: «من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر، قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغذى بها، ويذهب رائحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع»[5].

٣. إسالة النحاس.

قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾[سبأ: ١٢].

قال البيضاوي: «النحاس المذاب أساله له من معدنه فنبع منه نبوع الماء من الينبوع، ولذلك سماه عينًا وكان ذلك باليمن»[6].

٤. تعليمه منطق الطير.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٢٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٥.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٢٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩٩.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٣.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٢٩.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾[النمل: ١٦].

قال ابن كثير: «أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير. وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر -فيما علمناه -مما أخبر الله به ورسوله»[(١)].

٥. تنوع جنوده.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[النمل: ١٧].

فهذه الآية الكريمة تبين أن لسليمان عليه السلام أنواعاً من الجنود، جند من الإنس، وجند من الجن، وجند من الطير.

قال ابن كثير: «وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم يكونون في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حرًّا أظلته منه بأجنحتها، وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[النمل: ١٧]. أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له»[(٢)].

وقد ذكر الله تعالى نموذجًا واحدًا لكل نوع من هذه الجنود:

فمن الطير ذكر سبحانه الهدهد، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

ومن الجن العفريت المذكور في قصة الملكة بلقيس، قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾[النمل: ٣٩].

ومن هذه الآية يتبين لنا بعض صفات هذا العفريت وهي السرعة الفائقة، والقوة والأمانة[(٣)].

ومن الإنس: الذي عنده علم من الكتاب، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل: ٤٠].

وأهم ما يتميز به هذا الجندي من الإنس: العلم ومعرفة اسم الله الأعظم وإجابة الدعاء[(٤)].

وقبل أن ننهي الكلام على ملك سليمان عليه السلام وما اختصه الله تعالى به من خصائص نذكر مسألتين لهما به ارتباط:

المسألة الأولى: كم كان عمر سليمان عليه السلام حينما أصبح ملكاً؟

يذكر المؤرخون في ذلك قولين:

الأول: إنه آل إليه الملك، وهو ابن اثنتي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٣.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٥، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٩٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٦.

عشرة سنة[1].

الثاني: كان عمره اثنتين وعشرين سنة[2].

المسألة الثانية: إلى أي البلاد وصل ملك سليمان عليه السلام وما هي حدود مملكته؟

فالذي يمكن أن نجزم به أن هذا الملك كان على بني إسرائيل في فلسطين والشام إذ هي الأرض المباركة[3]، والذي قد كان ورثه عن أبيه، وهذا ظاهر من قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١].

ووجه الاستدلال: أن حرف الجر (إلى) هنا لانتهاء الغاية في المكان[4]، ويلزم من ذلك أن يوجد مكان هو ابتداء الجري منه، فتكون فلسطين هي مبدأ الرحلة والشام نهايتها، والفعل المضارع يدل على التجدد والحدوث[5]، فليس هذه رحلة واحدة بل هي متكررة، ولا يمكن لملك عظيم حازم فضلاً عن نبي مؤيد بالوحي أن تكون رحلاته متجددة في التنزه، بل هي بتفقد الملك أليق وبه ألصق ، فإذا تقرر ما سبق فقد امتاز ملكه عليه السلام بتسخير الريح والجن والشياطين وغير ذلك مما ذكرناه سابقاً، لا بعظم رقعة الأرض.

أما ما يذكر من أنه عليه السلام ملك الأرض كلها، فهذا قول لا دليل عليه، وظاهر قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ يرده؛ إذ كيف يكون تحت ملكه من لا يعرف خبره إلا من هدهد مع سعة مملكة سبأ وعظمها وقربها النسبي، والله أعلم.

(١) انظر: البدء والتاريخ، ابن طاهر المقدسي ٣/ ١٠٣، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٠٠.
(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٢.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ٦٨.
(٤) انظر: همع الهوامع، السيوطي ٢/ ٤١٤.
(٥) انظر: الطراز لأسرار البلاغة، يحيى بن حمزة ٢/ ١٤٣، مفتاح العلوم، السكاكي ص ٢٠٧

مواقف من سيرة سليمان عليه السلام

بعد أن تكلمنا على خصائص ملك سليمان عليه السلام نذكر ثلاثة مواقف من سيرته في النقاط الآتية:

أولًا: قصة سليمان عليه السلام مع النملة:

ركب سليمان عليه السلام في تواضع لله سبحانه وجموع كثيرة من الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن بعدهم في المنزلة، أما الطير فتكون فوق رأسه، فإن كان حَرًّا أظلته منه بأجنحتها، وقد جعل لكل صنف من جنده من يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له[(١)].

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[النمل: ١٧].

ثم انطلق بهذا الجيش العظيم، ولم يبين لنا سبحانه أين مقصدهم ولا جهتهم التي يقصدون ؛ إذ القصة مسوقة لبيان العبرة من قصة النملة فحسب.

واصل الجيش بقيادة نبي الله سليمان سيره حتى مر بمن معه من الجن والإنس والطير على وادي النمل.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل: ١٨].

وهذا الوادي قيل: إنه في الطائف، وقيل: إنه بالشام[(٢)].

والذي يظهر من إضافة الوادي إلى النمل، أن هذا الوادي كثير النمل حتى كأنه مستحق للنمل دون غيرهم مما يعيش فيه[(٣)].

وكما هي عادة النمل في النهار الانتشار لجلب رزقها، وقد جعلن لهن من يحرسهن عن أن يصل إليهن ما يضرهن ؛ إذ الغالب في الوادي أن يكون مسلوكاً كما يظهر من حراسة النملة لقومها، وهنا أحست هذه النملة، فقد أدركت مجيء الجيش، وأنه لسليمان وجنوده وأدركت كثرتهم، وأن عليها وعلى النمل أن يتجنبوا الطريق، ويدخلوا مساكنهم[(٤)].

وهنا نادت، فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فجمعت في هذه العبارة الوجيزة أحد عشر جنسًا من صنوف الكلام.

قال الزركشي: «فجمع في هذه اللفظة أحد عشر جنساً من الكلام نادت وكنت ونبهت وسمعت وأمرت وقصت وحذرت وخصت وعمت وأشارت وعذرت؛ فالنداء: (يا) والكناية: (أي)، والتنبيه: (ها)، والتسمية: (النمل)، والأمر: (ادخلوا)، والقصص: (مساكنكم)، والتحذير: (لا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٣.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي٣/ ٣٥٦.

(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي٦/ ٣٣٣.

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٩.

يحطمنكم)، والتخصيص: (سليمان)، والتعميم: (جنوده)، والإشارة: (وهم)، والعذر: (لا يشعرون)»[1].

فلما سمع نبي الله سليمان هذا النداء تبسم، قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾[النمل: ١٩].

فإن قيل: لم تبسم نبي الله سليمان من قولها؟

ذكر المفسرون وجهين في ذلك:

الأول: إنما تبسم سروراً بما ألهمت من حسن حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة ، وابتهاجاً بما خصه الله تعالى به من إدراك ما هو همس بالنسبة إلى البشر وفهم مرادها منه.

الثاني: أن يكون ذلك تعجباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها.

ورجح الألوسي الوجه الأول لمناسبته لما بعده من الدعاء الذي سأل فيه ربه أن يوفقه لشكر نعمته[2].

وبعد تبسمه عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

قال ابن كثير: «أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾[النمل: ١٩] أي: عملًا تحبه وترضاه، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[النمل: ١٩] أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك»[3].

وقال أبو السعود: «أي: اجعلني أزع شكر نعمتك عندي واكفّه وأرتبطه بحيث لا ينفلت عنّي حتّى لا أنفكّ عن شكرك أصلًا»[4].

ثانيًا: قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد:

تبدأ أحداث هذه القصة حينما ذهب سليمان عليه السلام يتفقد الطير؛ ليعرف من هو موجود منها ومن هو غائب، فلم ير الهدهد، فسأل عنه: لماذا لا أرى الهدهد ؟ أهناك شيء يستره مما هو أكبر منه حجماً أم هو غائب؟[5].

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٢٧.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٧٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٣.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٧٩.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٧٧.

فلما تيقن سليمان عليه السلام من غياب الهدهد، وكان غياباً بلا إذن كما هو ظاهر السياق توعده قائلًا: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[النمل: ٢١].

فأقسم على أن يعذبه عذابًا شديدًا، وكان تعذيبه للطير فيما ذكر نتف ريشه[(١)]، أو ليقتلنه أو ليأتينه بسلطان بين وحجة واضحة في عذره[(٢)].

لم يمض على الهدهد زمان طويل في غيبته، بل جاء على وجه السرعة إلى سليمان عليه السلام[(٣)].

قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[النمل: ٢٢]. فعاتبه على مغيبه، فقال معتذراً: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢][(٤)].

أي: عندي من العلم علم ما أحطت به على علمك الواسع وعلى درجتك فيه، وابتداء كلامه بذلك لترويجه عنده عليه السلام، وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالة قلبه، قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

أي: القبيلة المعروفة في اليمن بخبر خطير متيقن وشأن كبير[(٥)]، فأعلم سليمان ما لم يكن يعلمه، ودفع عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح[(٦)].

ثم بدأ يفصل ما أجمل فقال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾[النمل: ٢٣].

أي : تتصرف بهم ولا يعترض عليها أحد[(٧)].

وقال ابن عاشور: «وتنكير امرأة وهو مفعول أول لـ(وجدت) له حكم المبتدأ فهو كالابتداء بالنكرة إذا أريد بالنكرة التعجب من جنسها كقولهم: بقرة تكلمت، لأن المراد حكاية أمر عجيب عندهم أن تكون امرأة ملكة على قوم، ولذلك لم يقل: وجدتهم تملكهم امرأة»[(٨)].

وقال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[النمل: ٢٣] ؛ أي: وأوتيت من كل شيء يؤتاه الملوك في عاجل الدنيا مما يكون عندهم من العتاد والآلة[(٩)].

وقال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[النمل: ٢٣] أي: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ[(١٠)].

ولكن لماذا استعظم الهدهد عرش

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٥، نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٥٠.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٢٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٦.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٣.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٨٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٤.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٨١.
(٧) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٨٣.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٥٢.
(٩) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٩.
(١٠) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٧.

بلقيس مع ما يشاهده من ملك سليمان؟

قال الألوسي: «واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام إما بالنسبة إلى حالها أو إلى عروش أمثالها من الملوك، وجوز أن يكون ذلك، لأنه لم يكن لسليمان عليه السلام مثله وإن كان عظيم الملك فإنه قد يوجد لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون للملك الذي هم تحت طاعته. وأيًّا ما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه السلام لما ذكر أولًا من ترغيبه عليه السلام في الإصغاء إلى حديثه، وفيه توجيه لعزيمته عليه السلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها»[1].

ثم قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

قال أبو السعود: «أي: يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى، وزين لهم الشيطان أعمالهم التي هي عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي، فصدهم بسبب ذلك عن سبيل الحق والصواب؛ فإن تزيين أعمالهم لا يتصور بدون تقويم طرق كفرهم وضلالهم، ومن ضرورته نسبة طريق الحق إلى العوج، فهم بسبب ذلك لا يهتدون إليه»[2].

ثم قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [النمل: ٢٥].

أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها[3].

وقال: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

قال السعدي: «يعلم الخفي الخبيء في أقطار السماوات وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات وبذور النباتات وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء بإنزال المطر وإنبات النباتات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم»[4].

وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]؛ أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال[5].

وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النمل: ٢٦].

أي: لا تنبغي العبادة والإنابة والذل والحب إلا له؛ لأنه المألوه لما له من الصفات الكاملة والنعم الموجبة لذلك؛ ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦].

الذي هو سقف المخلوقات ووسع

(١) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٨٥.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٨١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٧.

الأرض والسماوات، فهذا الملك عظيم السلطان كبير الشأن هو الذي يذل له ويخضع ويسجد له ويركع، فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم وتعجب سليمان كيف خفي عليه[1].

وقال الخازن: «والمقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وغيرها، من دون الله ؛ لأنه لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من في السموات والأرض، عالم بجميع المعلومات، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[النمل: ٢٦] أي: هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره»[2].

وقد أحسن الهدهد في انتقاله من خبر إلى خبر، وكان سرده لذلك في غاية الترابط.

قال أبو حيان: «وما أحسن انتقالات هذه الأخبار بعد تهدد الهدهد وعلمه بذلك:

أخبر أولًا: باطلاعه على ما لم يطلع عليه سليمان، تحصنا من العقوبة بزينة العلم الذي حصل له، فتشوف السامع إلى علم ذلك.

ثم أخبر ثانيًا: بتعلق ذلك العلم، وهو أنه من سبأ، وأنه أمر متيقن لا شك فيه، فزاد تشوف السامع إلى سماع ذلك النبأ.

ثم أخبر ثالثًا: عن الملك الذي أوتيته امرأة، وكان سليمان عليه السلام قد سأل الله أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

ثم أخبر رابعًا: ما ظاهره الاشتراك بينه وبين هذه المرأة التي ليس من شأنها ولا شأن النساء أن تملك فحول الرجال، وهو قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[النمل: ٢٣] وكان سليمان له بساط قد صنع له، وكان عظيمًا.

ولما لم يتأثر سليمان للإخبار بهذا كله، إذ هو أمر دنيوي، أخبره خامسا: بما يهزه لطلب هذه الملكة، ودعائها إلى الإيمان، وإفراده بالعبادة فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[النمل: ٢٤]»[3].

وقال ابن عاشور: «وقد جمع هذا القول الذي ألقي إلى سليمان أصول الجغرافية السياسية من صفة المكان والأديان، وصبغة الدولة وثروتها، ووقع الاهتمام بأخبار مملكة سبأ ؛ لأن ذلك أهم لملك سليمان إذ كانت مجاورة لمملكته يفصل بينهما البحر الأحمر، فأمور هذه المملكة أجدى بعمله»[4].

وقال الشنقيطي: «ففي هذا السياق عشر قضايا يدركها الهدهد ويفصح عنها لنبي الله سليمان:

الأولى: إدراكه أنه أحاط بما لم يكن في علم سليمان.

الثانية: معرفته لسبأ بعينها دون غيرها،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٤.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٤٤.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان٨/ ٢٢٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٥٤.

ومجيئه منها بنبأ يقين لا شك فيه.

الثالثة: معرفته لتولية المرأة عليهم مع إنكاره ذلك عليهم.

الرابعة: إداركه ما أوتيته سبأ من متاع الدنيا من كل شيء.

الخامسة: أن لها عرشًا عظيمًا.

السادسة: إدراكه ما هم عليه من السجود للشمس من دون الله.

السابعة: إدراكه أن هذا شرك بالله تعالى.

الثامنة: أن هذا من تزيين الشيطان لهم أعمالهم.

التاسعة: أن هذا ضلال عن السبيل القويم.

العاشرة: أنهم لا يهتدون»[1].

ولما فرغ الهدهد من كلامه، وأبدى عذره في غيبته، أخر سليمان أمره إلى أن يتبين له صدقه من كذب[2]، فقال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاءه به، إنما يأخذ في تجربته، للتأكد من صحته . شأن النبي العادل والملك الحازم[3].

فكان اختباره أن يرسل لهم كتاباً مع الهدهد، وينتظر الجواب، فإن جاءه الجواب دل على صدقه وإلا فإنه يكون كاذباً، قال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨].

أي: اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم، ثم تنح عنهم فكن قريباً منهم، فانظر ماذا يردون من الجواب[4].

ثالثًا: قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ:

امتثل الهدهد أمر سليمان عليه السلام، وحمل الكتاب إلى ملكة سبأ، فوجدها في حال خلوتها، فألقاه إليها وتنحى عنها لينظر ماذا يكون جوابها عنه طاعة لمن أرسله به[5].

ففتحت الكتاب، وقرأته وعرفت محتواه[6]، ثم خرجت من خلوتها إلى أشراف قومها، وأخبرت قومها بالكتاب ومحتواه: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٠].

فهو كتاب مختوم حسن مضمونه وما فيه، ومن عند ملك كريم، ووصل على نهج غير معتاد[7].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي٨/ ٨.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٣٢.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب٥/ ٢٦٣٩.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠١.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٩٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٨.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٥٨.
(٧) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٦٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود٦/ ٢٨٣.

فاسم سليمان عنوان الكتاب وخاتمه[1]، أما مضمونه فهو تسمية الله، ثم نهاهم عن الامتناع عن إجابته؛ فإن ترك الإجابة من العلو والتكبر، وأمرهم المجيء إليه طائعين منقادين[2].

وبعد أن عرفتهم محتوى كتاب نبي الله سليمان عليه السلام، استشارتهم فيم يكون العمل وكيف يكون الرد عليه: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[النمل: ٣٢].

قال الألوسي: «أي: أشيروا عليّ بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث لي وذكرت لكم خلاصته، وقصدت بما ذكرت استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوها ويقوموا معها ، وأكدت ذلك بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾؛ أي: ما أقطع أمراً من الأمور المتعلقة بالملك إلا بمحضركم وبموجب آرائكم، والإتيان بـ(كان) للإيذان بأنها استمرت على ذلك، أو لم يقع منها غيره في الزمن الماضي فكذا في هذا»[3].

فكان جوابهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[النمل: ٣٣]؛ أي: نحن ذوو القوة على القتال، والبأس الشديد في الحرب، وأرادوا بالقوة: قوّة الأجساد وقوّة الآلات والعدد، بالبأس: النجدة والشجاعة والبلاء في الحرب، والأمر أيتها الملكة إليك في القتال وفي تركه، فانظري من الرأي ما ترين، فمرينا نأتمر لأمرك[4].

فكان ردها: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[النمل: ٣٤]؛ أي إذا دخلوا بلداً عنوة خربوه، وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، والأشراف والكبراء فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر؛ كي يستقيم لهم الأمر[5].

وهذا القول منها تزييف لما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القوى الذاتية والعرضية، وإشعار بأنها ترى الصلح مخافة أن يتخطى سليمان خططهم فيسرع إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعماراتهم، ثم أن الحرب سجال لا تدري عاقبتها، فقد تكون الدائرة عليهم[6].

وكان هذا القول منها رحمها الله صائبًا؛

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي٣/ ٣٦٠، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٥٩، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور١٩/ ٢٥٩.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠٢، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٤٥.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٩٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٠، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٦٤.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٠.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي٤/ ١٦٠.

ولهذا صدقها الله تعالى فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[النمل: ٣٤] أي: كما قالت هي يفعل الملوك[(١)].

ثم لما قدمت لهم هذه المقدمة، وبينت لهم ما في دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة، أوضحت لهم وجه الرأي عندها، وصرحت لهم بصوابه[(٢)]، قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

قال البغوي: «أي: وإني مرسلة إليهم بهدية، والهدية هي العطية على طريق الملاطفة، وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سيست وساست، فقالت للملأ من قومها: إني مرسلة إلى سليمان وقومه بهدية أصانعه بها عن ملكي وأختبره بها أملك هو أم نبي؟ فإن يكن ملكا قبل الهدية وانصرف، وإن كان نبيا لم يقبل الهدية، ولم يرضه منا إلا أن نتبعه على دينه»[(٣)].

وأما الهدية فقد ذكروا في تعيينها أقوالا مضطربة متعارضة، وذكروا من حالها ومن حال سليمان حين وصلت إليه الهدية، وكلامه مع رسلها ما الله أعلم به[(٤)].

ولعل أقرب ما قيل في ذلك ما ذكره ابن كثير بقوله: «ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك. وقال بعضهم: أرسلت بلبنة من ذهب. والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب»[(٥)].

أخذ رسول الملكة بلقيس الهدية، واتجه بها إلى الشام حيث كان سليمان عليه السلام، فلما وصل إليه كان جوابه ما قصه الله تعالى عنه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَىٰنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[النمل: ٣٦].

قال ابن كثير: «وقال منكرًا عليهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟!

﴿فَمَا ءَاتَىٰنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَىٰكُم﴾ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه.

﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف»[(٦)].

وقال أبو السعود: «﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾: إضراب عما ذكر من إنكار الإمداد بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التي أهدوها إليه عليه الصلاة والسلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها»[(٧)].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٩.
(٣) معالم التنزيل ٣/ ٥٠٢.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٣٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٠.
(٦) المصدر السابق ٦/ ١٩١.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٨٥.

ثم أردف استنكاره لفعلهم بالتهديد فقال عليه السلام: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

أي: ارجع أيها الرسول إلى بلقيس وقومها فو الله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها ولنخرجنهم من سبأ أذلة بعدما كانوا فيه من العز والتمكين، وهم أسارى مهانون [(١)].

رجع رسول الملكة بلقيس، وأخبرها برد سليمان عليه السلام، فتجهزت للمسير إليه إذ علمت أنه نبي ولا طاقة لها بقتاله، وقبل خروجها أحرزت عرشها، وغلقت عليه أبوابها ووكلت به حراسا ليحفظوه [(٢)].

فلما علم سليمان عليه السلام بقدومها إليه، وخروجها من بلدها، وكان في مجلس ملكه قال: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

أي: قبل أن يأتوني طائعين مستسلمين، فإن قيل: كيف رد الهدية، وطلب إحضار عرشها ؟

فالجواب: أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وسخر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده. وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه. هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة [(٣)].

فأجابه أحد جنوده من الجن: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩].

فأجابه رئيس من الجن مارد قوي: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك، وكان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس [(٤)].

وبين ما فيه من صفات تؤهله ليحظى بشرف خدمة نبيه سليمان عليه السلام، فقال: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ [النمل: ٣٩]؛ أي: قوي على حمله، أمين على ما فيه من الجوهر [(٥)].

لكن سليمان عليه السلام قال: أريد أعجل من ذلك وأسرع [(٦)]، ولعله عرف أنها قد باتت قريبة، والوقت لا يحتمل التأخير، وهنا قال آخر: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠].

وهذا القائل رجل من الإنس يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا

(١) انظر: المصدر السابق ٦/ ٢٨٦.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٩٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٢.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٦٣.

سئل به أعطي[1]: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

أي: ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك[2].

فلما عاين سليمان وملؤه ذلك، ورآه مستقرًا عنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠].

أي: هذا من نعم الله علي ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي: ليختبرني، ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

أي: هو غني عن العباد وعبادتهم، كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد[3].

ثم أمرهم فقال: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١].

أي: غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته، سواء بالزيادة والنقصان منه أو جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه أو بتغيير الألوان[4].

والسبب في ذلك هو اختبارها: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١].

أي: ننظر أتعرف عرشها بعد تنكيرها فتكون معرفتها سبباً لإيمانها - لأن الإتيان به يكون معجزة دالة على نبوة سليمان عليه السلام- أم لا ؟[5].

فلما جاءت بلقيس سليمان وقد كان العرش منكراً بين يديه[6]، ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢].

قال أبو حيان: «أي مثل هذا العرش الذي أنت رأيتيه عرشك الذي تركتيه ببلادك؟ ولم يأت التركيب: أهذا عرشك؟ جاء بأداة التشبيه، لئلا يكون ذلك تلقيناً لها.

ولما رأته على هيئة لا تعرفها فيه، وتميزت فيه أشياء من عرشها، لم تجزم بأنه هو، ولا نفته النفي البالغ، بل أبرزت ذلك في صورة تشبيهية فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢] وذلك من جودة ذهنها، حيث لم تجزم في الصورة المحتملة بأحد الجائزين من كونه إياه أو من كونه ليس إياه، وقابلت تشبيههم بتشبيهها»[7].

وعندها قال سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

فهذا من تمام كلامه شكرًا لله على

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٢.
(٣) المصدر السابق ٦/ ١٩٣.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠٦.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٦٩، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٤٢، نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٦٧.
(٦) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ٢٠١.
(٧) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٤٢.

فضلهم عليها، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام. ومعناه: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته، وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها بذلك.

ثم بين الله تعالى سبب كفر هذه المرأة مع ما هي عليه من الفطنة والذكاء؛ فقال: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٣].

أي: عن الإسلام، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل؛ ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣].

فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون؛ فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر[1].

وكان سليمان عليه السلام قد أمر الشياطين قبل قدومها أن يبنوا له قصراً من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظامًا لأمره، وتحققًا لنبوته، وثباتًا على الدين[2].

فلما جاءت دعاها لدخول هذا القصر، قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وعندها حسبت القصر لشدة صفاء الزجاج واتصال الماء بسطحه الأسفل غمرة عظيمة من ماء، فعزمت على خوضها إظهارًا لتمام الاستسلام، وكشفت عن ساقيها؛ لئلا تبتل ثيابها فتحتاج إلى تغييرها.

وهنا بين لها سليمان الحقيقة فقال: إنه قصر مملس، من زجاج ليتصف بشفوفة الماء فيظن أنه لا حائل دونه[3].

والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، تعالى، وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله عز وجل، وقالت: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤].

أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، وقالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده، لا شريك له، الذي خلق كل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٧٠.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٧١.

شيء فقدره تقديراً[1]، ووصفته بربوبية العالمين لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التي من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس[2].

شبهات حول سليمان عليه السلام

جاء في تفسير بعض الآيات الواردة عن سليمان عليه السلام أقوال تقدح في مقام هذا النبي الكريم، وشبهات تنقص من قدرة نعرض لها في النقاط الآتية:

أولًا: إلقاء الجسد على كرسيه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[ص: ٣٥].

ونحن هنا سنعرض لأقوال المفسرين في هذه الآية، ونبين ما نراه صواباً وبالله المستعان، فيا ترى ما هو الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان عليه السلام؟

ذكر المفسرون في هذا الجسد أقوالًا:

الأول: إن هذا الجسد شيطان تمثل بسليمان عليه السلام وغصبه ملكه[3].

الثاني: إنه ولد لسليمان ولد فاجتمعت الشياطين، فقال بعضهم لبعض: إن عاش له ولد، لم ننفكّ من البلاء، فسبيلنا أن نقتل ولده أو نخبله، فعلم سليمان، فأمر السّحاب فحمله، وعدا ابنه في السّحاب خوفاً من الشياطين، فعاتبه الحقّ تعالى على تخوّفه من الشياطين، ومات الولد، فألقي على كرسيه ميتًا جسدًا[4].

الثالث: إن الجسد هو سليمان عليه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٧.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٨٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٧.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٠٥.

السلام نفسه مرض سليمان مرضاً كالإغماء حتى صار على كرسيه جسداً كأنه بلا روح[1].

الرابع: إن الجسد المذكور هو نصف إنسان ولد لسليمان[2].

إلا أن القول الأول باطل من أوجه:

الوجه الأول: الاضطراب في سياق رواياته فمن ذلك:

الاختلاف في اسم هذا الشيطان قال الطبري: «ولقد ابتلينا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا شيطانًا متمثلًا بإنسان، ذكروا أن اسمه صخر وقيل: إن اسمه آصف وقيل: إن اسمه أصر وقيل: إن اسمه حبقيق»[3].

الاختلاف في سبب استيلاء هذا الشيطان على الخاتم على أقوال:

الأول: إن سليمان عليه السلام هو من أعطاه ذلك[4].

الثاني: إن الشيطان تمثل بصورة سليمان عليه السلام، وجاء إلى امرأته فأخذ الخاتم[5].

الثالث: إن سليمان عليه السلام طلب من هذا الشيطان أن يبين له كيف يفتن الناس؟ فطلب منه الشيطان أن يعطيه خاتمه لكي يعرفه بذلك، فدفعه له فرماه في البحر[6].

الرابع: إن الخاتم سقط من سليمان عليه السلام في البحر فتسلط عليه الشيطان[7].

الوجه الثاني: إنه ليس في جلوس الجن على الكرسي معنى الإلقاء إلا أن يتكلف.

الوجه الثالث: ما قاله القاضي عياض: «ولا يصح ما نقله الأخباريون من تشبه الشيطان به وتسلطه على ملكه وتصرفه في أمته بالجور، في حكمه ؛ لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله»[8].

إذاً تبين مما سبق أن القول المشهور بين المفسرين لا يمكن أن يكون صواباً لما سبق، فالأقوال الأخرى فليس فيها ما هو مرفوع سوى القول بالاستثناء فيتعين أنه الصواب، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال سليمان بن داوود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، أو تسع وتسعين كلهن، يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده، لو قال:

(١) البحر المحيط ٩/ ١٥٦.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٠٥، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٩٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٧.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٨.
(٥) المصدر السابق ٢٠/ ٩١.
(٦) المصدر السابق ٢٠/ ٨٨.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٤٢.
(٨) الشفا، القاضي عياض ٢/ ٣٨١

إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله، فرساناً أجمعون)[1].

وقد قال بهذا جمع من المفسرين كأبي حيان وأبي السعود وغيرهما[2].

ثانيًا: مسح سوق الخيل وأعناقها:

قال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾[ص: ٣١].

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى أن سليمان عليه السلام عرض عليه في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات -وهي التي تقف على ثلاث أرجل وطرف حافر الرابعة- والجياد: السراع[3].

وفي عدد هذه الخيل المعروضة قولان للمفسرين:

القول الأول: إنها عشرون فرساً ذات أجنحة[4].

القول الثاني: إنها كانت الخيل التي شغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس، فعقرها[5].

ولكن سياق الآيات يدل على أن القول الثاني هو الأشبه بالصحة، وذلك لأن العرض استمر من العصر إلى غروب الشمس، قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾[ص: ٣١].

والعشي يبدأ من العصر، واستمر هذا العرض إلى غروب الشمس كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ وهذا وقت طويل يقتضي خيلاً كثيرة، ما يجعل عرضها يستغرق هذا الوقت؛ ولهذا قال الإمام ابن كثير: «وهذا أشبه»[6].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[ص: ٣٢].

والمعنى: آثرت حب الخيل واشتغلت بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً[7].

ثم قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾[ص: ٣٣] أي: ردوا الخيل علي[8].

ثم بين سبحانه ما فعل سليمان عليه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، ٤/ ٢٢، رقم ٢٨١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب الاستثناء، ٣/ ١٢٧٦، ١٦٥٤.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ١٥٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود٧/ ٢٢٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨١، تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٤٣٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦٤.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٤١.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦٤.

(٧) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٤٣٩، زاد المسير، ابن الجوزي٣/ ٥٧٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦٥.

(٨) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٤٤٠.

السلام بهذه الخيل، فقال: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[ص: ٣٣].

وقد ذكر المفسرون هنا أقوالاً هي:

الأول: المراد أنه قطع عراقيبها وأعناقها، وهذا قول أكثر المفسرين[١].

الثاني: إن سليمان عليه السلام جعل يمسح عراقيبها وأعناقها بيده شفقة عليها.

الثالث: معناه أنه حبسها في سبيل الله وكوى سوقها وأعناقها بكي الصدقة.

وقد اعترض أصحاب القول الأول على القول الثاني بقولهم: أيّ مناسبة بين شغلها إيّاه عن الصلاة وبين مسح أعرافها حبًّا لها؟!.

ورد الآخرون على القول الأول: بأنه فاسد إذ لا ذنب للحيوان، فكيف وجّه العقوبة إليه وقصد التّشفّي بقتله، وهذا يشبه فعل الجبّارين، لا فعل الأنبياء[٢].

والذي يبدو لي أن الصواب هو القول الثاني لما يلي:

أولًا: الأصل في اللغة أن المسح باليد، أما أن يراد به القطع فهو مجاز والحقيقة مقدمة[٣].

ثانيًا: أنه قول ابن عباس نقله عنه ابن جرير وابن أبي حاتم[٤].

ثالثًا: ما قاله الطبري: «بأن نبي الله صلى الله عليه وسلم لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها»[٥].

والله أعلم.

ثالثًا: قول اليهود: إن سليمان كان ساحرًا:

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية قولين:

الأول: قالت اليهود: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، وإنما كان ساحراً يركب الريح. فأنزل الله عذر سليمان[٦].

الثاني: إن اليهود سألوا النبي- صلى الله عليه وسلم عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله: واتبعوا ما تتلوا الشياطين إلى آخر

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٤٤٠.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٦، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٦٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٧٢.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٧٢.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٢٢، تاج العروس، الزبيدي ٧/ ١٢٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٧، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٤١.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٧.
(٦) انظر: المصدر السابق ٢/ ٣٢٧.

الآية[1].

إذن فاليهود عليهم لعنة الله يقولون: إن سليمان عليه السلام كان ساحرًا، فكيف ترد شبهتهم هذه؟

ترد هذه الشبهة من وجهين:

الوجه الأول: في قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾[البقرة: ١٠٢] تكذيب لمن زعم ذلك، وعبر عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبيًا كان معصومًا منه[2].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾[البقرة: ١٠٢] تبرئة من الله لسليمان، ولم يتقدم في الآية أن أحدًا نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفراً صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر»[3].

الوجه الثاني: أن الله تعالى قد نص في كتابه أن سليمان عليه السلام نبي يوحى إليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾[النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[الأنعام: ٨٤].

إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾[الأنعام: ٨٩].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ١٨٦.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٩٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٣.

موت سليمان عليه السلام

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤].

ذكر الله سبحانه وتعالى أنه سخر الجن لنبيه سليمان عليه السلام يستعملهم في أعمال سبق أن ذكرناها، وقبل موته كلفهم بإتمام بيت المقدس، وفي زمان عملهم جاءه الموت.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤].

أي: فلما أمضينا قضاءنا على سليمان بالموت فمات[(١)]، فأخفى الله سبحانه وتعالى موته عنهم لسببين:

الأول: ليكملوا بناء المسجد الذي بدأ عملهم فيه؛ قال بعض المفسرين: كانت الجن تعمل لسليمان عليه السلام في بناء مسجد بيت المقدس؛ فقرب موت سليمان وقد بقي من العمل بقية، فقبض الله روح سليمان وهو متكئ على عصا، وكانوا يظنون أنه حي، ويجتهدون في العمل[(٢)].

الثاني: أن الجن كانوا يدعون علم الغيب بقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤].

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٣٧.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٣٢٢.

ولكن ما هو معنى: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾[سبأ: ١٤]؟

يذكر المفسرون أقوالاً في بيان معناها:

الأول: إن معنى تبين: بان وظهر، فيكون المعنى: تبينت الجن للإنس أنهم لا يعلمون الغيب، بمعنى بان أمرهم وافتضحوا في ادعائهم الغيب.

الثاني: بمعنى علم وأدرك، فيكون معنى الآية علمت الجن وعرفوا أنهم لا يعلمون الغيب، والمقصود من هؤلاء جمهور الجن وعامتهم ،فقد كان رؤساؤهم وكبارهم يوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فيصدقونهم[(٣)].

ومكث الجن في عملهم الشاق مدة طويلة قيل إنها سنة[(٤)]؛ إذ إن أكل الأرضة لعصاه يستغرق وقتًا طويلًا، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾[سبأ: ١٤].

قال الطبري: «لم يدل الجن على موت سليمان إلا دابة الأرض وهي الأرضة وقعت في عصاه، التي كان متكئا عليها فأكلتها»[(٥)].

أما مدة حياته عليه السلام فقد كانت

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٣٢٤، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٧٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤١٢، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٣٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٣٧.

اثنتان وخمسون سنة، ملكه منها أربعون سنة، ذكر ذلك المؤرخون [1].

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٥٠٣، قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٣١٤، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي١/ ١٤٥، تتمة المختصر في أخبار البشر، ابن الوردي ١/ ٢٥.

تدبير سليمان عليه السلام لملكه

كان سليمان عليه السلام ملكاً نبياً ساس مملكته وفق شرع الله تعالى ، وقد أبان الله تعالى معالم سياسة هذا الملك العظيم والنبي الكريم في كتابه تعالى ، ويمكن أن نبين شيئًا من ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: السياسة الداخلية:

ظهرت سياسته في شأن المملكة الداخلي فيما يلي:

١ . بناء دور العبادة.

قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ [سبأ: ١٣].

وقد ورد عن أئمة التفسير أن المحاريب هي المساجد، ومما يحسن ذكره هنا أنه عليه السلام جدد بناء المسجد الأقصى ، فعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: (قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه)[2].

وعن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، ٤/ ١٤٥، رقم ٣٣٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢٠.

صلى الله عليه وسلم (أن سليمان بن داود، لما بنى مسجد بيت المقدس، سأل الله خلالاً ثلاثة: سأل الله حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله حين فرغ، من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه)[1]، ويجمع بين الحديثين بأن المراد من بناء سليمان عليه السلام لمسجد بيت المقدس تجديده لا ابتداء بنائه[2].

٢. صناعة أوعية الطعام لإطعام الرعية.

قال تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣]

٣. بناء البيوت والقصور.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [سبأ: ١٢].

وقد سبق بيان ذلك.

٤. استخراج اللؤلؤ والجواهر من البحار.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾[الأنبياء: ٨٢].

٥. استخدام النحاس.

قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾[سبأ: ١٢].

٦. تخصيص مجلس لفض الخصومات.

قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]. ويحكم بالقرائن.

٧. تنفيذ العقوبات فيمن يستحقها.

والعصاة من رعيته لهم عقوبات متنوعة من التعذيب أو القتل أو الحبس والتقييد.

قال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ﴾[النمل: ٢١].

وقال: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨].

٨. إقامة العروض العسكرية.

قال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾[ص: ٣١].

٩. توزيع الجنود وتصنيفهم.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[النمل: ١٧].

وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضاً لأن في ذلك شفقة على الطائفتين، أما

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٢٠، رقم ٦٦٤٤، والنسائي في سننه، كتاب المساجد، باب فضل المسجد الأقصى، ٢/ ٢٤، رقم ٦٩٣، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس، ١/ ٤٥٢، رقم ١٤٠٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٢٠، رقم ٢٠٩٠.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٠٩.

الأوائل فمن جهة أن يستريحوا في الجملة بالوقوف عن السير، وأما الأواخر فمن جهة أن لا يجهدوا أنفسهم بسرعة السير[1].

١٠. تشجيع الجنود وبث فيهم روح المبادرة للقيام بالمهام.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

١١. شكر الله تعالى أمام الجنود؛ ليكون قدوة لهم في ذلك.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

فلما رآه مستقرًّا عنده جعل يشكر نعمة ربه بعبارة فيها تعليم للناس وهي عرضة للاقتداء بها والاقتباس منها[2].

ويتفقد رعيته ليعرف الغائب من الحاضر ويعرف الضعيف وذا الحاجة.

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ [النمل: ٢٠].

أي: تعرف أحوال الطير تعرف الملك لمملكته، حسبما تقتضيه عناية الملك بمملكته، والاهتمام بكل جزء منها لا سيما الضعفاء منها[3].

وفيه دلالة على تفقد الإمام أحوال رعيته والمحافظة عليهم[4].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام الملك، ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته، قال: لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر. فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان»[5].

ويلحظ سيد قطب رحمه الله تعالى من هذا التفقد بعضاً من صفات سليمان عليه السلام فيقول: «كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته: سمة اليقظة والدقة والحزم، فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير، الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق ويتكث»[6].

ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم، كي لا تكون فوضى. فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سرًّا.

وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند، ومن ثم نجد سليمان الملك

(١) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٧٠.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٦١.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ١٨٧.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٢٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٧٨.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٣٨.

الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١].

ولكن سليمان ليس ملكًا جبارًا في الأرض، إنما هو نبي. وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائياً قبل أن يسمع منه، ويتبين عذره.. ومن ثم تبرز سمة النبي العادل: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

أي: حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذة عنه»[١].

وهو يعذر من يستحق العذر بعد أن يمتحن صدقه من كذبه، وقوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

أي: بعذر ظاهر[٢]، وفعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظًا عن العاصين وعقابًا على إخلاله بنوبته ورتبته[٣].

قال القاسمي: «وأن في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

قبول الوالي عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به»[٤].

ويهتم بتنمية الزرع، وتربية الحيوان، ظهر هذا جلياً في حكمه في رعي الغنم للزرع.

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٨٨.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٥٥.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٤٩٥.

قال سيد قطب: «ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العدل دافعاً إلى البناء والتعمير. وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة. وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء»[٥].

وهذه الحادثة وإن كانت في زمان أبيه داود عليه السلام، فلأن يكون مثل ذلك في زمان ملكه من باب أولى.

ثانيًا: السياسة الخارجية:

نبين في هذا المطلب شيئاً من سياسته تجاه خارج مملكته، والتي نأخذ منها سلوكه مع مملكة سبأ على سبيل الأنموذج المحتذى، وتمثلت سياسته تجاهها فيما يلي:

١. المراسلة بمعنى إرسال الكتب مع رسوله؛ ليدعوهم إلى التوحيد. قال تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨]؛ قال الألوسي: «وفي الآية دليل على جواز إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام لإبلاغ الدعوة والدعاء إلى الإسلام»[٦]، وعلم رسوله سلوك الأدب مع من يرسله إليهم في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾،

(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٣٨٩.
(٦) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٨٨.

قال السمعاني: «علم الهدهد أدب الدخول على الملوك يعني: إذا دخل الداخل على الملك ينبغي أن لا يقف، بل يذهب في الحال ثم يرجع ويطلب الجواب»[1]، ويختار الرسول المناسب الذي يعلم شيئاً من حال المرسل إليه.

٢. التهديد لهم إن لم يذعنوا، ويجيبوا لدعوته إياهم للإيمان، قال تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]. قال ابن عطية: «ثم توعدهم بالجنود والغلبة والإخراج أذلاء والمعنى إن لم يسلموا»[2].

٣. تسيير الجيوش إليه إن لم ينفع معه التهديد، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ [النمل: ١٧] ؛ قال الألوسي: «والظاهر أن هذا الحشر ليس إلا جمع العساكر ليذهب بهم إلى محاربة من لم يدخل في ربقة طاعته عليه السلام»[3].

٤. لا يقبل المساومة مع العدو على الدين، ولا تفتنه الرشوة وإغراء المال، قال تعالى: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]. قال سيد قطب: «وفي الرد استهزاء بالمال، واستنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله. مجال العقيدة والدعوة»[4]. وقال ابن عاشور: «وقد أبى سليمان قبول الهدية ؛ لأن الملكة أرسلتها بعد بلوغ كتابه ولعلها سكتت عن الجواب عما تضمنه كتابه من قوله: وأتوني مسلمين، فتبين له قصدها من الهدية أن تصرفه عن محاولة ما تضمنه الكتاب، فكانت الهدية رشوة لتصرفه عن بث سلطانه على مملكة سبأ»[5].

٥. يستخدم الحيلة ليتبين حال العدو ويعرف مدى عقله وإدراكه وهذا ظاهر من قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]. قال الرازي: «أراد أن يؤتى بذلك العرش فيغير وينكر، ثم يعرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره، والمقصود اختبار عقلها»[6]، وقوله: ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢]. قال الألوسي: «ولم يقل: أهذا عرشك لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين لديه عليه السلام حالها»[7].

٦. الاستعانة في ما يريد تجاه العدو بالأتباع المؤهلين. قال تعالى: ﴿قَالَ

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٩٢.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٥٩.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٦٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٤٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور١٩/ ٢٦٨.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٥٦.
(٧) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ٢٠١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]. قال أبو حيان: «فيه دليل على جواز الاستعانة ببعض الأتباع في مقاصد الملوك، ودليل على أنه قد يخص بعض أتباع الأنبياء بشيء لا يكون لغيرهم، ودليل على مبادرة من طلبه منه الملوك قضاء حاجة»[1].

الهدايات المستفادة من قصة سليمان

١. العلم أعظم من المال ؛ ولهذا نوه الله تعالى بوراثة سليمان لعلم أبيه.
٢. قيد النعمة شكر الله تعالى عليها ونسبتها إليه.
٣. الملك بيد الله تعالى يهبه لمن يشاء من عباده.
٤. الرجوع إلى الله تعالى والإنابة إليه من أرقى مراتب العبودية.
٥. الاستغفار سبب للتعرض لنعم الله تعالى ومننه ؛ فسليمان عليه السلام يستغفر ثم يطلب الملك.
٦. الأصل في معرفة الله تعالى أن تكون على بصيرة ودليل، فالهدهد يستدل عليها بقدرة الله على إخراج الخبء في السموات والأرض، ويعلمه بالسر والعلن.
٧. العلم يرفع الصغير، ويجل به الحقير ويجعله يرافق العظماء، فالهدهد عصفور صغير، منتن الريح وبالعلم بالله ارتقى لأن يصاحب أعظم ملك ذكره الله في كتابه.
٨. شرف العلم بأسماء الله تعالى، ومنها الاسم الأعظم.
٩. اعتذرت النملة لسليمان وجنده، وبنو البشر أحق في أن يلتمس بعضهم

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٣٩.

لبعض الأعذار ما أمكن.

١٠. عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم ؛ لذلك قدّم سليمان عليه السلام الاستغفار على طلب الملك.

١١. الإغلاظ على العصاة المذنبين ليرتدع من خلفهم أمر مطلوب ولكن بعد سماع عذرهم إن كان لهم عذر.

١٢. الشورى مبدأ أصيل في الحكم، وبه يتوصل إلى الصواب بعكس التفرد بالرأي.

١٣. إرسال العيون للتعرف على أحوال العدو وما يدور عنده من سياسة الأنبياء.

١٤. للهدية تأثير في قلب من أهديت إليه وتجعله يرق له ويحبه [١].

موضوعات ذات صلة

بنو إسرائيل، الجن، داود عليه السلام، الرياح، الطير

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٥.

السماء

عناصر الموضوع

مفهوم السماء	٢٩٠
السماء في الاستعمال القرآني	٢٩١
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٢
القسم بالسماء في بعض أحوالها	٢٩٤
أوصاف خاصة للسماء	٣٠١
السماء وضرب الأمثال	٣١٩
لمسات إعجازية في السماء	٣٢٤

مفهوم السماء

أولًا : المعنى اللغوي:

لفظ السماء مأخوذ من: سما يسمو سموًّا أي: علا، ومنه يقال: سمت همته إلى معالي الأمور إذا طلب العزّ والشرف، والسّماء المظلة للأرض، وهو على معنى السقف [(١)].

والسماء في اللغة: يقال لكل ما ارتفع وعلا قد سما يسمو، وكل سقف فهو سماء، ومن هذا قيل للسحاب: السماء، لأنها عالية[(٢)].

فهي كل ما علا وارتفع و كان فوق رأسك وأصلها السماء المعروفة.

ثانيًا : المعنى الاصطلاحي:

الأصل أن: سماء كلّ شيء: أعلاه[(٣)]، ومنه هذه السماء المعروفة التي فوقنا.

والسماء: اسم جنس للعالي لا يخص شيئًا، فهي متعبد الملائكة ومستقر الوحي وفيها أنوار الطاعات[(٤)]، فهي عمومًا كل ما في الجهة العليا فوق رءوسنا، وكل ما علاك فأظلك[(٥)]، يقال له سماء.

فكل أفق من الآفاق فهو سماء كما أن كل طبقة من الطباق سماء[(٦)].

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ص ١٥١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ٤٥٢.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ١١٥.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٢٧.
(٤) الوابل الصيب، ابن القيم ص٥٣.
(٥) تفسير المراغي ١٠/ ١٠٩.
وانظر: فقه اللغة، الثعالبي ص ٢٧٥.
(٦) الكليات، الكفوي ص٧٨٠.

السماء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سمو) في القرآن الكريم (٣٨١) مرةً، ويخص موضوع البحث منها (٣١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم (مفرد)	١٢٠	﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة:٢٢]
الاسم (جمع)	١٩٠	﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١٢]

وجاءت السماء في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: السماء المعروفة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ﴾ [الذاريات:٤٧].

الثاني: سقف البيت: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥]. أي: فليمدد بحبل إلى سماء البيت.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب السين ص٦٨٣-٦٤٤.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٢٦٢-٢٦٤، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٣٥٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الفلك:

الفلك لغة:

كل شيء دائر، والفلك مجرى الكواكب وتسميته بذلك لكونه كالفلك، قال الله عز وجل: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] وفلكة المغزل ومنه اشتق فلك ثدي المرأة، وفلكت الجدي إذا جعلت في لسانه مثل فلكة يمنعه عن الرضاع[١].

الفلك اصطلاحًا:

والفلك واحد أفلاك النجوم. وفي حديث ابن مسعود: (تركت فرسي كأنه يدور في فلك). كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذي تدور عليه النجوم. قال ابن زيد: الأفلاك مجاري النجوم والشمس والقمر، وهي بين السماء والأرض[٢].

الصلة بين الفلك والسماء:

الفلك جزء كبير تحت السماء الدنيا ، فيه كل ما يزينها من نجوم وكواكب ، ويمكن أن يقال هو: ما يكون تحت السماء الدنيا مباشرة، التي يراها الناس ويبحثون فيها ويستكشفون ما بها وينظرون فيها ويطيرون تحتها ويهتدون بما فيها وغير ذلك.

٢ الأرض:

الأرض لغة:

الجرم المقابل للسماء، وجمعه أرضون، ولا تجيء مجموعة في القرآن، ويعبر بها عن أسفل الشيء، كما يعبر بالسماء عن أعلاه[٣].

الأرض اصطلاحًا:

يمكن القول أن أشمل تعريف هو ما ذكره علماء الجغرافيا والبيئة: «الأرض هي أحد الكواكب التسعة التي تدور حول الشمس، وهي الثالثة بالنسبة للقرب من الشمس، والثالثة من حيث درجة اللمعان إذا ما شوهدت من عند الشمس، والخامسة بين المجموعة الشمسية من حيث الحجم».[٤]

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٥٤، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٧٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٨٦.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٣.
(٤) المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، محمد محمود محمدين ص ١٠٩.

الصلة بين الأرض والسماء:

صلة السماء بالأرض من حيث إن الأرض مهبط لما ينزل من السماء، والسماء مصعد لما يرفع إليها من الأرض، وقد ذكرتا مقترنتين في القرآن الكريم بألفاظ متقاربة في مواضع كثيرة.

قال ابن القيم: «وأما الأرض فأكثر ما تجيء مقصودًا بها معنى التحت والسفل دون أن يقصد ذواتها وأعدادها، وحيث جاءت مقصودًا بها الذات والعدد أتى بلفظ يدل على البعد كقوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

وفرق ثان وهو أن الأرض لا نسبة لها إلى السموات وسعتها، بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء ، فهي وإن تعددت وتكبرت فهي بالنسبة إلى السماء كالواحد القليل فاختير لها اسم الجنس[1].

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم ص ١٤٩.

القسم بالسماء في بعض أحوالها

القسم: هو أن يريد المتكلم الحلف على شيء فيحلف بما يكون فيه فخر له أو تعظيم لشأنه أو تنويه لقدره[(١)].

أولًا: السماء والطارق:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق:١-٣].

والطارق: النجم لأنّه يطلع بالليل، وما أتاك ليلًا فهو طارق، ثم فسره فقال: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ والثاقب: المضيء، والعرب تقول: أثقب نارك للموقد، ويقال: إن الثاقب: هو النجم الّذي يقال له: زحل، والثاقب: الّذي قد ارتفع على النجوم، والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعًا: قد ثقب، كل ذلك جاء في التفسير[(٢)]، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب[(٣)].

وأقسم ربنا بالسماء وبالطارق الذي يطرق ليلاً من النجوم المضيئة، ويخفى نهاراً، وكل ما جاء ليلاً فقد طرق وبنحو ذا قال أهل التأويل[(٤)].

وأبهم الموصوف بالطارق ابتداء، ثم زيد إبهامًا مشوبًا بتعظيم أمره بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ثم بين بأنه: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ليحصل من ذلك مزيد تقرر للمراد بالمقسم به وهو أنه من جنس النجوم[(٥)].

فهي النجوم العالية التي تضيء وتتلألأ في الليل المظلم، وتختفي إذا طلعت شمس النهار، والفرق بين الطارق والطرائق : أن الطارق نجم، والطرائق هي السبع السماوات فكل سماء طريقة.

وإنما سمي النجم طارقاً ؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح (نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً)[(٦)]، أي: يأتيهم فجأة بالليل[(٧)].

ثم تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه وإجلال محله ما لا يخفى على ذي نظر ثاقب، ولإرادة ذلك لم يقل ابتداء والنّجم الثّاقب مع أنه أخصر وأظهر، ولله عز وجل أن يفخم شأن ما شاء من خلقه لما شاء[(٨)].

فالطارق الذي أقسم الله به نجم ساطع في الليل ، وضوؤه ثاقب فهي له مزية خاصة به دون غيره.

(١) الاتقان، السيوطي ٢/ ٢٤٣.
(٢) معاني القرآن، الفراء ٣/ ٢٥٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٨٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٣٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٥٨.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الطروق، ٣/ ١٨٢٥، رقم ١٨٤
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠١٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٩٠.
(٨) انظر: روح المعاني ٢٩/ ٤٢٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٧٣.

ثانيًا: السماء ذات الرجع:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ [الطارق:١١] أي: المطر ويسمى رجعاً لأنه تعالى يرجعه وقتًا فوقتًا إلى العباد، ولولاه لهلكوا وهلكت مواشيهم[(١)]، فهو يرجع من السماء وترجع به السماء، فترجع به الأرض إلى البهاء والحسن.

قال ابن عباس: الرجع المطر، وعنه: هو السحاب فيه المطر، وعنه: والسماء ذات الرجع تمطر ثم تمطر، وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم، وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها يأتين من هاهنا[(٢)].

ثم أقسم قسمًا ثانيًا على صحة القرآن، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضًا بالأقدار والشئون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات[(٣)]، فهي أمور ترجع بالسماء ومن السماء بين حين وآخر.

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٣٧٦، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٣٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٩، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠١٨، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٦٠، تفسير المراغي ١٠/ ١١٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٠٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٨٥.

وافتتح الكلام بالقسم تحقيقًا لصدق القرآن في الإخبار بالبعث وفي غير ذلك مما اشتمل عليه من الهدى، ولذلك أعيد القسم بالسماء، كما أقسم بها في أول السورة، وذكر من أحوال السماء ما له مناسبة بالمقسم عليه، وهو الغيث الذي به صلاح الناس، فإن إصلاح القرآن للناس كإصلاح المطر، وفي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا)[(٤)].

وفي اسم الرجع مناسبة لمعنى البعث في قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق:٨] وفيه محسن الجناس التام، وفي مسمى الرجع وهو المطر المعاقب لمطر آخر مناسبة لمعنى الرجع البعث، فإن البعث حياة معاقبة بحياة سابقة[(٥)]، فهي سماء ذات رجع لحياة الأرض بعد موتها ليدل على حياة أخروية دائمة لا تنقطع.

وللبدء في القسم بالطارق ثم بالرجع بيان للمفسرين وهو كما يأتي:

أنه قسم على الغيث الذي به صلاح الناس والقرآن مثل الغيث في إصلاحه كما

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم، ٤/ ١٧٨٧، رقم ٢٢٨٢.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٦٦.

تقدم.

مجموع قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ أي: إنزال المطر، وإنبات النبات وهو إحياء الأرض بعد موتها، مناسب لأن يكون الإقسام على تحقق البعث[1].

وخلاصة ذلك: أن: قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق:١١-١٢].

هذا هو القسم الثاني للسماء، والقسم الأول ما كان في أول السورة، فهناك قال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطارق:١-٣].

وهنا قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ والمناسبة بين القسمين -والله أعلم: أن الأول فيه إشارة إلى الطارق الذي هو النجم، والنجم ترمى به الشياطين الذين يسترقون السمع، وفي رمي الشياطين بذلك حفظ لكتاب الله عز وجل، أما هنا فأقسم بالسماء ذات الرجع أن هذا القرآن قول فصل، فأقسم على أن القرآن قول فصل، فصار القسم الأول مناسبته: أن فيه الإشارة إلى ما يحفظ به هذا القرآن حال إنزاله، وفي القسم الثاني الإشارة إلى أن القرآن حياة، يعني يقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ الرجع هو المطر، يسمى رجعًا؛ لأنه يرجع ويتكرر، ومعلوم أن المطر به حياة الأرض. ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ الصدع هو: الانشقاق يعني التشقق بخروج النبات منه، فأقسم بالمطر الذي هو سبب خروج النبات، وبالتشقق الذي يخرج منه النبات، وكله إشارة إلى حياة الأرض بعد موتها، والقرآن به حياة القلوب بعد موتها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

فسمى الله القرآن روحًا؛ لأنه تحيى به القلوب[2].

فهو في القسم الأول حفظ للقرآن من السماء حتى يصل إلى الأرض، وهو في القسم الثاني بيان لما يفعله القرآن من صلاح وإصلاح حين يعمل به في الأرض، والله أعلم.

ثالثًا: السماء ذات البروج:

جاء في القرآن الكريم أن للسماء بروجاً، وورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر:١٦].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج:١].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٩٦.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم، ص ١٥١.

والبروج: القصور، الواحد: برج، وبه سمّي بروج السماء لمنازلها المختصة بها، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج:١].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨].

ويصح أن يراد بها بروج في الأرض -أي: البروج المشيدة وهو الأقرب-، وأن يراد بها بروج النجم، ويكون استعمال لفظ المشيدة فيها على سبيل الاستعارة -لتكون دليلاً على معنى آخر- وثوب مبرّج: صوّرت عليه بروج، واعتبر حسنه، فقيل: تبرّجت المرأة أي: تشبّهت به في إظهار المحاسن، وقيل: ظهرت من برجها، أي: قصرها، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور:٦٠].

والبرج: سعة العين وحسنها تشبيها بالبرج في الأمرين[(١)(٢)]، فهي منازل ظاهرة الحسن كاملة الخلق عالية المكان.

ومناسبة القسم لما أقسم عليه: أن المقسم عليه تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود، ولما كانت الأخاديد خطوطًا مجعولة في الأرض مستعرة بالنار؛ أقسم على ما تضمنها بالسماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح فيها للناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجًا، وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار[(٣)].

فحينما خدوا الأخاديد موقدة بالنار، جعلوها كالسماء حينما تكون بادية البروج ليلاً يعاينها الناظرون.

ونقل ابن جرير أقوالاً ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: معنى ذلك: والسماء ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة[(٤)].

أي: ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها ، على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته[(٥)].

وهذه البروج هي في التحقيق: سموت تقابلها الشمس في فلكها مدة شهر كامل من أشهر السنة الشمسية يوقتون بها الأشهر والفصول بموقع الشمس نهارًا في المكان

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١١٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠١١، الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٥٥٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٣٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥١٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٨٣.

الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلًا[1].

فأقسم سبحانه بما فيه غيب وشهود، وهو السماء ذات البروج، فإن كواكبها مشهود نورها، مرئيّ ضوؤها، معروفة حركاتها في طلوعها وغروبها، وكذلك البروج نشاهدها وفيها غيب لا نعرفه بالحس، وهو حقيقة الكواكب وما أودع الله فيها من القوى وما فيها من عوالم لا نراها ولا ندرك حقيقتها[2].

فهو قسم عظيم من الله، ونحن لا نقسم إلا بالله، ولا نعلم من ذلك إلا ما علمنا من علم الله.

والقسم بالسماء بوصف ذات البروج يتضمن قسمًا بالأمرين معًا لتلتفت أفكار المتدبرين إلى ما في هذه المخلوقات وهذه الأحوال من دلالة على عظيم القدرة وسعة العلم الإلهي ؛ إذ خلقها على تلك المقادير المضبوطة لينتفع بها الناس في مواقيت الأشهر والفصل[3].

فهو قسم ومعجزة ونعمة ودليل كبير -لمن كان له قلب- على نعم الله وقدرته وحكمته.

رابعًا: السماء ذات الحبك:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات:٧-٩].

وهي ذات الطرائق ، فمن الناس من تصور منها الطرائق المحسوسة بالنجوم والمجرة، ومنهم من اعتبر ذلك بما فيه من الطرائق المعقولة المدركة بالبصيرة، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران:١٩١][4].

يقول تعالى ذكره: والسماء ذات الخلق الحسن وعنى بقوله: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧]: ذات الطرائق... وبنحو ذا قال أهل التأويل، وإن اختلفت ألفاظ قائليه فيه[5].

قال ابن عباس رضي الله عنه: ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء[6].

وهذه الحبك في معناها ومدلولها، وبيان خلقها وإعجازها سيأتي في آخر البحث بكلام أبين وأوسع.

ومناسبة هذا القسم للمقسم عليه في وصف السماء بأنها ذات حبك، أي طرائق

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٣٨.
(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٩٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٣٧.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢١٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٤٤، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٩٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٢، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١١٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥٣.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٧٣.

لأن المقسم عليه: إن قولهم مختلف طرائق قددًا؛ ولذلك وصف المقسم به ليكون إيماء إلى نوع جواب القسم[1].

خامسًا: السماء وما بناها:

جاء في القرآن الكريم الحديث عن بناء السماء، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات:٢٧].

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس:٥].

يقال: بنيت أبني بناء وبنية وبنى... ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس:٥].

والبنيان واحد لا جمع؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١١٠].

وقال بعضهم: بنيان جمع بنيانة، فهو مثل: شعير وشعيرة، وتمر وتمرة، ونخل ونخلة، وهذا النحو من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه[2].

يقول جل ثناؤه: والسماء ومن بناها، يعني: ومن خلقها، وبناؤه إياها: تصييره إياها للأرض سقفاً، وبنحوه قال أهل التأويل[3].

فبناء الأرض والسماء في غاية الإحكام حتى صارت السماء كأنها سقفاً ثابتاً للأرض.

فينظرون ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيبًا، ولا فروجًا، ولا خلالاً ولا إخلالاً، يقول تعالى مبينًا لقدرته العظيمة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفًا للأرض وما عليها ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ أي: بقوة وقدرة عظيمة، ويقول: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيها البشر ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿بَنَاهَا﴾ الله ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي: جرمها وصورتها، ﴿فَسَوَّاهَا﴾ بإحكام وإتقان يحير العقول، ويذهل الألباب، ويقول: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان[4].

فهو بناء ثابت مزين حسن مليح لا عيب فيه ولا خلل، وبناؤه بقوة وقدرة عظيمة، فهي أعظم من خلق الناس وأكرم، ولله في

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٤٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٤٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٦٠١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٥٠.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٨، ٩٥٧، ١٠٧٢، ١٠٩٢.

خلقه شئون، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

وكلاهما متلازم[١] -موصولة أو مصدية-، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان[٢].

ولذا جاء في السنة ما يبين قوتها وشدتها وقدرتها على حمل ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فقد روى أبو ذر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم؛ لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم على أوالي الصعدات تجأرون إلى الله)[٣].

فأما حقيقة السماء فلا ندريها ،وهذا الذي نراه فوقنا متماسكاً لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه، أما كيف هو مبني، وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولًا ولا آخرا؛ فذلك ما لا ندريه وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل[٤].

فبناء السماء بناء محكم متقن، جملها الله بالنجوم والكواكب التي هي بروج فيها، وجعل فيها طرائق لما فيها من مخلوقات عظيمة تسير فيها وفق نظام لطيف، ويرجع منها لما يحيي الأرض مرة بعد مرة، ليدل على أن السماء بما فيها أصل لحياة الأرض، وأن الحياة الحقيقية في السماء ولا تكون حياة في الأرض إلا بما يأتيها من السماء، فهي مصدرها في كل شيء والمصير إليها.

وفي الاستدلال بخلق السماء بهذه العظمة، دلالة عظيمة على قدرة الله العظيم في خلق الناس من العدم، كما قال عز وجل: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء:٩٩].

بل وعلى سهولة رجوعهم بعد الموت كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠٣٥.
(٢) تيسر الكريم الرحمن السعدي ص ١٠٩٢.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب لو تعلمون ما أعلم، ٤/ ٥٥٦، رقم ٢٣١٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩١٦.

أوصاف خاصة للسماء

للسماء أوصاف عديدة في القرآن الكريم، منها ما هو متعلق بذات السماء، ومنها أوصاف خارجة عنها، نوضحها فيما يأتي:

أولًا: أوصاف السماء الذاتية:

١. السماء بناء.

وذلك في قوله عز وجل: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢].

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر:٦٤].

فبناء السماء على الأرض كهيئة القبة وهي سقف على الأرض[(١)]، أي: سقفًا للأرض[(٢)].

وإنما ذكر الله عز وجل السماء والأرض فيما عدّد عليهم من نعمه التي أنعمها عليهم، لأن منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم، وبهما قوام دنياهم، فأعلمهم أنه الذي خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما هم فيه من النعم[(٣)]، فهي بناء محكم متقن، بني بقوة، ويمسكه الله سبحانه فهو القائم عليه ليعبد وحده.

فجعل لكم الأرض فراشًا تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع الانتفاع بها، وجعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم[(٤)].

٢. السماوات عددها سبع.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر هذا العدد في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون:١٧].

وقوله عز وجل: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١٢].

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

وقوله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ١٩٨، تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٧٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٧٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ١٩٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٣٤.

﴿طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣].

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح:١٥].

وجاء في التفصيل بأنها سبع سماوات مع ذكر ما فيها في حديث أنس رضي الله عنه لقصة المعراج أن رسول الله قال: (ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية... ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى...) الحديث[1].

وقد اقتنع الناس منذ القدم بأنها سبع سماوات[2].

وجاءت مضافة في القرآن الكريم بأوصاف مختلفة وبيانها كالآتي:

❁ سبع طرائق.

والطريق : السبيل الذى يطرق بالأرجل أي يضرب ،وأطباق السماء يقال لها طرائق، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون:١٧][3].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون:١٧]يعنى السموات كلّ سماء طريقة[4].

يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا فوقكم أيها الناس سبع سماوات بعضهن فوق بعض؛ والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة، وإنما قيل للسماوات السبع سبع طرائق، لأن بعضهن فوق بعض، فكل سماء منهن طريقة ، وبنحو ذا قال أهل التأويل[5].

فهي السماوات السبع كل سماء فوق سماء، وقيل لها طريقة لذلك ولأنها طرق للملائكة.

والطرائق: السموات، لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة: أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم[6].

❁ سبع طباق.

وهذا في قوله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله، ١/ ١٤٥، رقم ٢٥٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٠١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠٣.
(٤) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٣٢.
(٥) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٠٦.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧٩.

﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣].

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح:١٥] ، أي: بعضها فوق بعض ، والطباق: مصدر من قولهم: طابقت مطابقة وطباقا. وإنما عني بذلك: كيف خلق الله سبع سموات، سماء فوق سماء مطابقة[١]، أي: واحدة فوق واحدة... أي: فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة[٢].

وقد تضافرت الأدلة على أن السماوات بعضها فوق بعض بمسافات ولكل سعتها.

❁ سبع شداد.

كما في قوله عز وجل: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ:١٢].

يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات[٣].

وإنما تشير هذه الآية إلى أن هذه السبع الشداد متينة التكوين، قوية البناء، مشدودة بقوة تمنعها من التفكك والانثناء، وهو ما نراه ونعلمه من طبيعة الأفلاك والأجرام فيما نطلق عليه لفظ السماء فيدركه كل إنسان... كما تشير إلى أن بناء هذه السبع الشداد متناسق مع عالم الأرض والإنسان[٤].

٣. السماء سقف محفوظ.

وجاء ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء:٣٢].

والسقف طول في انحناء تشبيهاً بالسقف[٥]، أي عالياً محروساً أن ينال ، أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان[٦]، فكان محفوظًا من أن يقع ويسقط على الأرض، دليله قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥]. وقيل: محفوظًا بالنجوم من الشياطين، دليله قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الحجر:١٧] وقيل: محفوظاً من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه أحد بحيلة، وقيل: محفوظاً فلا يحتاج إلى عماد، وقال مجاهد: مرفوعاً، وقيل: محفوظاً من الشرك والمعاصي[٧].

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٥٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٤٩.
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٨٢.
وانظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٨٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٣٢، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٨٣.

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٠٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤١٥.
(٦) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٠١.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١١٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢١٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٠٩.

٤. السماء واسعة.

وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

والسعة تقال في الأمكنة وفي الحال وفي الفعل كالقدرة والجود ونحو ذلك... وقوله ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فإشارة إلى نحو قوله ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

ووسع الشيء اتسع والوسع الجدة والطاقة، ويقال ينفق على قدر وسعه، وأوسع فلان إذا كان له الغنى، وصار ذا سعة، وفرس وساع الخطو شديد العدو[١]، والوسع المراد سعة الباني سبحانه ووسع المبني.

لذو سعة بخلقها وخلق ما شئنا أن نخلقه وقدرة عليه...فأوسعها جلّ جلاله[٢]، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون أيضاً على عبادنا، بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها، فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات[٣].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٨٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٩٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٥٧. وانظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٧٨، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٦.

٥. السماء كانت دخانًا.

وورد ذلك في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١].

والدخان كالعثان المستصحب للهيب، قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، أي: هي مثل الدخان إشارة إلى أنه لا تماسك لها[٤].

وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات[٥].

٦. السماء مرفوعة بغير عمد.

وجاء هذا في قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد:٢].

وقوله عز وجل: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان:١٠].

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣١٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٥٢، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٦٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٧.

يقال عمدت الشيء إذا أسندته، وعمدت الحائط مثله، والعمود خشب تعتمد عليه الخيمة وجمعه عمد وعمد... والعمدة كل ما يعتمد عليه من مال وغيره وجمعها عمد، وقرئ (في عمد) والعميد السيد الذى يعمده الناس[1].

فنفى عنها ما تعتمد عليه لكمال البناء، وحكمة من بناها وقدرته وقوته على ذلك.

فهي مرفوعة بغير عمد نراها، كما قال ربنا جل ثناؤه، ولا خبر بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه[2].

ويخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا تدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية...

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى، وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق.

والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:٦٥] فعلى هذا يكون قوله: ترونها تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة[3]، فليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرئيت، وإنما استقرت واستمسكت، بقدرة الله تعالى[4].

والحقيقة الواردة في الآيتين في «الرعد» و «لقمان» حول السماء هو ذكر العمد، وذكر المفسرون تأويلين للآيات:

فمنهم من أثبت أن للسماوات أعمدة إلا أنها لا ترى، وجعل جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لـ ﴿عَمَدٍ﴾ والضمير يعود إلى عمد.

ومنهم من ذهب إلى أن ليس للسماوات عمد أصلًا، ويكون معنى الآية: الله الذي رفع السماوات كما ترونها، بغير عمد، وذلك بجعل جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ حالًا من السماوات ويعود الضمير إلى السماوات.

ويميل علماء الفلك المعاصرون إلى التأويل الأول فيقولون: إن الأجرام السماوية كلها قد بناها الخالق سبحانه وتعالى وجعل كل جرم فيه بمثابة لبنة من بناء شامخ، ورفع هذه الأجرام كلها بعضها فوق بعض

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٨٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٢٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٧٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٧.

بقوى هي نوع القوة الطاردة المركزية، كما ربطها في نفس الوقت برباط الجاذبية العالية، والجاذبية تتعادل مع القوى الطاردة المركزية الناجمة عن الدوران في مسارات شبه دائرية أو قطاعات ناقصة، وهي بمثابة الأعمدة المقامة بالفعل.

ورغم أننا لا نبصرها بأعيننا إلا أن ذلك لا يعني أن تلك الأعمدة غير موجودة بحال من الأحوال، فنحن نستطيع أن نتصورها في مجال كل جسم مادي وربما إذا منح شخص منا حاسة أخرى زيادة على ما لدينا من حواس يستطيع ذلك الشخص أن يرى تلك الأعمدة أو يحسبها تماماً كما ندرك بحواسنا العادية أيّ جسم مادي عادي[1].

والذي يظهر -والله أعلم- أن قول ابن كثير أنها بلا عمد هو الأقرب لدلالته على كمال العظمة، وكمال القدرة.

فلو كانت بعمد فهذا من إتقان صنع الله، ولو كانت بغير عمد فهو أقوى لتوافر الأدلة على كمال قدرة الله، والله أعلم بالصواب.

٧. السماء لها أبواب.

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف:٤٠].

وقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القمر:١١].

وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ:١٩].

وفي السماء قولان:

أحدهما: أنها السماء المعروفة، وهو المشهور.

والثاني: أنّ المعنى: لا تفتح لهم أبواب الجنة ولا يدخلونها، لأن الجنة في السماء، ذكره الزجاج[2].

وهو شامل للقولين فلا تفتح أبواب السماء لأعمالهم وأرواحهم ولا تفتح لهم أبواب الجنة.

وفي الآية الأولى ثلاث قراءات سبعيات(لا يفتح لهم أبواب السماء) وهي قراءة حمزة، والكسائي.(لا تفتح لهم أبواب السماء) وهي قراءة أبي عمرو . (لا تفتّح لهم أبواب السّماء) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وعاصم، وابن عامر[3] وهذه القراءات الثلاث معناها واحد... وفي عدم فتح أبواب السماء لهم أقوال متقاربة معروفة، لا يكذب بعضها بعضًا، وهي كلها حق، قال بعض العلماء: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ فيرفع لهم منها عملٌ صالح؛ لأن أعمالهم مردودة إلى

(١) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ١٧٢.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٥٦.

(٣) انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص ٢٢٤.

الله، كما قال الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠].

والكفار ليس عندهم عملٌ صالح يرفع كلمهم، وليس عندهم كلمٌ طيب، قالوا: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لترفع أعمالهم الصالحة إلى الله، وقال بعض العلماء: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لاستجابة دعواتهم؛ لأن دعواتهم مردودة ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد:١٤].

وقال بعض العلماء: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: لا تنزل إليهم البركات والرحمات من الله (جل وعلا) نازلة مفتحة لها أبواب السماء لكفرهم، وكل هذه الأقوال حق، وذهب جماهير من المفسرين أن معنى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ لأرواحهم عند الموت ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ والآية تشمل هذا كله[1].

٨. السماء قائمة بأمر الله.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم:٢٥].

فقوام السماء بما فيها وما هو من شأنها وكذلك الأرض بيد الله، ولذا قال عن نفسه ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

ومن آياته العظيمة :أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره فلم تتزلزلا ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض إذا هم يخرجون[2]، فقيام السماء والأرض بأمره، أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها[3].

٩. السماء والأرض خلقتا في ستة أيام.

وقد ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤][4].

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة -وفيه اجتمع الخلق

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٢٤٢.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٩٠، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٥٩٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٤٣٤.

(٤) وورد أن الله خلقها «في ستة أيام» في سورة يونس الآية ٣، وسورة هود الآية ٧، وسورة الفرقان الآية ٥٩، وسورة السجدة الآية ٤، وسورة ق الآية ٣٨، و سورة الحديد الآية ٤.

كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام، واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان ؟ أو كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع[1].

فهو سبحانه خلقهما والأرض في ستة أيام مع كل ما فيهما، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢].

وكل هذا الأمر العظيم لحكمة يعلمها وهو القادر ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]؛ ولذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣]

واليوم: من طلوع الشمس إلى غروبها، قيل: هذه الأيام من أيام الدنيا وقيل: من أيام الآخرة، وهذه الأيام الست أولها: الأحد، وآخرها: الجمعة، وهو سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة، يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والتأني في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لكون شيء عنده أجلاً، وفي آية أخرى : ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب[2].

ثانيًا: الأوصاف الخارجية للسماء:

وردت في القرآن الكريم أوصاف للسماء لكنها لا تتعلق بذاتها بل هي خارجة عنها وهي كالآتي:

١. للسماء بروج.

والبروج: القصور، الواحد: برج، وبه سمي بروج السماء لمنازلها المختصة بها.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج:١].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨] فيصح أن يراد بها بروج في الأرض، وأن يراد بها بروج النجم[3].

والمراد بها: السماء الدنيا ففيها منازل للشمس والقمر، وهي كواكب ينزلها الشمس والقمر، أي: وزينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها، وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: هي قصور في السماء[4]، لأن البروج والأبراج معروفة بعلوها وإحكامها.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٧٣٥.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٩٧.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١١٥.

(٤) جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٠٤.

٢. الكواكب زينة للسماء.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات:٦].

وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار:١-٢].

والكواكب: هي النجوم البادية، ولا يقال: لها كواكب إلا إذا بدت، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ [الأنعام:٧٦] وقال: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [الصافات:٦].

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار:٢]

ويقال: ذهبوا تحت كل كوكب: إذا تفرقوا، وكوكب العسكر: ما يلمع فيها من الحديد[١].

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبدل[٢]، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[٣] [الملك:٥].

والمراد التزيين في رأي العين، فإن الكواكب تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة[٤]، وأيًّا مّا كان فإقحام لفظ زينة تأكيد، والباء للسببية، أي زيّنا السماء بسبب زينة الكواكب فكأنه قيل: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ تزيينًا فكان ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ في قوّة: بالكواكب تزييناً، فقوله: ﴿بِزِينَةٍ﴾ مصدر مؤكد لفعل زيّنّا في المعنى ولكن حوّل التعليق فجعل «زينة» هو المتعلق ب «زيّنّا» ليفيد معنى التعليل ومعنى الإضافة في تركيب واحد على طريقة الإيجاز، لأنه قد علم أن الكواكب زينة من تعليقه بفعل «زيّنّا» من غير حاجة إلى إعادة «زينة» لولا ما قصد من معنى التعليل والتوكيد[٥]، فكما أن النجوم أمنة للسماء، فالكواكب زينة حين تبدوا للناظرين.

٣. للسماء سكان.

فالسماء جعلها الله عز وجل ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات:٧].

أي: وحفظنا السماء من كل شيطان متمرد عات يرمون بالشهب، لا يسمّعون إلى الملإ الأعلى يعني: إلى الملائكة والكتبة؛ لأنهم سكان السماء وذلك أن الشياطين يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة؛ فيخبرون به أولياءهم الإنس ويوهمون بذلك أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله من ذلك بهذه الشهب[٦].

وذكر الطبري عن قتادة، قال: «بلغنا أن

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٩٥.
(٢) انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص٣٦٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٥٧٣.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٨١.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٨٨.
(٦) لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٥.

جبرئيل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قصورها، ودوابها، وحجارتها، وشجرها وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة، دمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل»[1].

٤. للسماء حرس يحرسونها.

وذلك في قوله تعالى حاكياً عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن:٨].

والحرس، واحدهم حارس، وهو الرقيب، شديداً: أي قوياً[2]، فلما أخبر الله أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بين أنه حرس السماء عن استراق السمع بعد أن زينها بالكواكب[3]، ليخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق، وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز.

ولهذا قال الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن:٨] أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه[4].

ونقل الطبري عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن:٨] حتى بلغ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن:٩].

فلما وجدوا ذلك رجعوا إلى إبليس، فقالوا: منع منا السمع، فقال لهم: إن السماء لم تحرس قط إلا على أحد أمرين: إما لعذاب يريد الله أن ينزله على أهل الأرض بغتة، وإما نبي مرشد مصلح[5].

فحراس السماء هم الملائكة والنجوم تحرسها وترسل الشهب على من يسترق السمع.

ثالثًا: أمور أسندت للسماء:

هناك أمور وأفعال ذكرت مسندة إلى السماء، وكأنها هي من قامت بها وهي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٩٦.
(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٩٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٤٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٥٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٦٦.

كالآتي:

١. إنزال الماء.

ذكر الله عز وجل امتنانه بإنزال الماء من السماء في مواضع كثيرة، فالله (جل وعلا) ينزل الماء من السماء؛ لأن إنزال الماء من السماء فيه غرائب وعجائب، يجب على الإنسان تأملها[١].

وأعظم دليل على إنزال الماء من السماء، قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ [هود:٤٤] ومعلوم أن المعنى: أقلعي عن إنزال الماء[٢].

وذكر جل وعلا، في أول سورة الجاثية ستة براهين من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى ، وجاءت موضحة في آيات كثيرة جدًا كما هو معلوم ، الخامس منها هو: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به وإنبات الرزق فيها المذكور في قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [الجاثية:٥].

فقد جاء موضحًا أيضًا في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ﴾ وهو المطر النازل من السحاب، ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها... ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع، فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دره، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها: ما يعتبر به[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧﴾ إلى قوله: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

وإيضاح هذا البرهان باختصار : أن قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ وهذا أمر من الله تعالى لكل إنسان مكلف أن ينظر ويتأمل في طعامه كالخبز الذي يأكله، ويعيش به من

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ١٨، والآيات في هذا تصل إلى قرابة ٢٠ آية.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٦٠٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧٤.

خلق الماء الذي كان سببًا لنباته[1].

وإنما تعلق النظر بالطعام مع أن الاستدلال هو بأحوال تكوين الطعام، إجراءً للكلام على الإيجاز ويبينه ما في الجمل بعده من قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ إلى آخرها.

فالتقدير: فلينظر الإنسان إلى خلق طعامه وتهيئة الماء لإنمائه وشق الأرض وإنباته وإلى انتفاعه به وانتفاع مواشيه في بقاء حياتهم[2].

٢. إنزال البركات من السماء.

والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة[3].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير ابن عامر: (لفتحنا) بالتخفيف، وقرأه ابن عامر: (لفتّحنا عليهم) بالتشديد[4]، والبركات: الخيرات، وبركات السماء: ما ينزل منها من الأمطار[5]؛ لأرسل عليهم السّماء مدرارًا ولأنبت لهم من الأرض من رزقي ما يغنيهم[6]، كان ذلك دليلًا على حلول البركة، وليست العبرة بالنعمة ؛ إنما العبرة بالبركة في النعمة، ولذا لم يقل أضعفنا لهم النعمة ولكنه قال: باركنا لهم فيما خوّلنا[7]، ولا ينال ذلك إلا بالتقوى.

فلما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل يبتلون بالضراء موعظة وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكراً، ذكر أن أهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب[8].

٣. إنزال الرجز.

وأصل الرجز: الاضطراب... وقوله: ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ:٥].

فالرجز هاهنا كالزلزلة، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت:٣٤][9]، والرجز العذاب[10].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٨٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٣٠.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١١٩.
(٤) انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ٢٢٧.
(٥) العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٢٩٦.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٢٧.
(٧) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٥٥٣.
(٨) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٦.
(٩) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٤١.
(١٠) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٨.

وهو عذاب وغضب وموت فجأة وأوجاع وأسقام عذب الله بها بني إسرائيل لما بدلوا غير ما قيل لهم.

والرجز: العذاب، ويحتمل أن المراد به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فإنها رجز وعذاب[1].

ويمكن أن يقال: إن إضافته للسماء؛ لبيان أنه مما لا يمكن لأحد دفعه أو الهروب من وقوعه[2].

٤. المائدة التي أنزلت من السماء.

والميد: اضطراب الشيء العظيم كاضطراب الأرض ويقال: مادني يميدني، أي: أطعمني، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة:١١٤].

قيل: استدعوا طعاماً، وقيل: استدعوا علماً، وسماه مائدة من حيث إن العلم غذاء القلوب كما أن الطعام غذاء الأبدان[3].

وهذا الخبر يحكيه الله تعالى عن عيسى عليه السلام في طلب قومه منه مائدة من السماء.

واختلفت القراء[4] في قراءة قوله: (يستطيع ربك)، فقرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين: (هل تستطيع) بالتاء، (ربك) بالنصب، بمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك، وهل تستطيع أن تدعو ربك، أو هل تستطيع وترى أن تدعوه؟ وقالوا: لم يكن الحواريون شاكين أن الله تعالى ذكره قادر أن ينزل عليهم ذلك، وإنما قالوا لعيسى: هل تستطيع أنت ذلك؟[5].

والقصة كاملة:

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة:١١٢].

أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله، واستطاعته على ذلك. وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم.

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافياً للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، وعظهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئًا.

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤١.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٣٤٥.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٨٣.
(٤) انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص ٣٠٤.
(٥) جامع البيان، الطبري ٥/ ١٢٩.

ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة:١١٣] ، بالإيمان حين نرى الآيات العيانية، فيكون الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين، كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: نعلم صدق ما جئت به، أنه حق وصدق، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:١١٣].

فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك.

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك، فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ [المائدة:١١٤].

أي: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين.

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرًا لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمة، وفضله وإحسانه عليهم. ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: اجعلها لنا رزقًا، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة:١١٥].

لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عنادًا وظلمًا، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد، واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم -إن كفروا- بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويدل على ذلك، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى، ولا له وجود، ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله[1] ، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فنسوه.

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله:

(١) ظاهر القرآن يدل على أنه أنزلها استجابة لدعاء عيسى عليه السلام ولأنه طلب أن تكون آية ورزقاً والله ذو الفضل العظيم والله أعلم، والأصل أن الله أنزلها لكل ما جاء من رغبتهم في ذلك ودعاء نبيهم لذلك تلبية لرغبتهم.

﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال[1].

فهذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة فيقال: «سورة المائدة»[2]، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم[3].

وهذه المائدة نزلت من السماء جاهزة بكل ما فيها معجزة من الله لرسوله وإجابة لدعائه.

ولعلنا لا نستغرب عندما نجد القرآن الكريم يصرف أنظار قريش المطالبين بالآيات المادية وغيرها من المقترحات ويلفت أنظارهم إلى ما هو الأجدى والأليق والأرحم ، وكان في هذا الصرف رحمة بهم، فقد جرت سنّة الله سبحانه وتعالى في رسالاته إلى الناس أن القوم إن أجيبوا إلى مطالبهم من المعجزات المادية الباهرة القاهرة ثم نكصوا على أعقابهم فكفروا بعد ذلك، جرت سنّة الله أن يكون العذاب المستأصل حظّهم في الدنيا والعذاب المهين مصيرهم في الأخرى، وهذا ما يتجلى في الآيات التي تحكي مصائر الأمم والشعوب[4].

رابعًا: أحوال السماء عند قيام الساعة:

١ . تشققها بالغمام.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان:٢٥].

وقوله: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن:٣٧].

وقوله: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة:١٦].

وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١].

والتشقق: التفتح، قرأ عاصم والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وأبو عمرو، تشقق بتخفيف الشين، وأصله تتشقق، وقرأ الباقون، بتشديد الشين على الإدغام[5].

واختار القراءة الأولى أبو عبيد، واختار الثانية أبو حاتم، ومعنى تشققها بالغمام: أنها تتشقق عن الغمام، قال أبو علي الفارسي: تتشقق السماء وعليها غمام... وقيل: إن السماء تتشقق بالغمام الذي بينها وبين الناس، والمعنى: أنه يتشقق السحاب بتشقق

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٥.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٢٩٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٤٥.
(٤) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص٣١-٣٥.
(٥) انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص٣٢٨.

السماء، وقيل: إنها تتشقق لنزول الملائكة كما قال سبحانه بعد هذا: ونزّل الملائكة تنزيلاً ، وقيل: إن الباء في بالغمام سببية، أي: بسبب الغمام، يعني بسبب طلوعه منها كأنه الذي تتشقق به السماء، وقيل: إن الباء متعلقة بمحذوف، أي: ملتبسة بالغمام[(١)].

وإذا جاء يوم القيامة تصدعت السموات واختلت نظمها، وتبعثرت أجرامها وكواكبها عن مداراتها، واحمر لونها وأذيبت حتى صارت كأنها الزيت ونحوه مما يدّهن به[(٢)].

وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتتشقق ويتغير لونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها[(٣)].

فيخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها : انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء[(٤)].

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٨، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٩٦.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ١٢٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٤٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٣٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٠.

ولما علم الله أن قلوب أوليائه الذين يعقلون هذه الأوصاف عنه، وتتراءى لهم تلك الأهوال لا تتمالك؛ لطف بهم فنسب (الملك) إلى أعم اسم في الرحمة فقال (الرحمن) ليلاقي هذا الاسم تلك القلوب التي يحل بها الهول فيمازج تلك الأهوال، ولو كان بدله اسماً آخر من عزيز وجبار لتفطرت القلوب[(٥)].

٢. طيّها وانفطارها وانشقاقها.

أولًا: الطّيّ: ضد النشر: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧]

طويت الشيء طيًّا، وذلك كطي الدرج وعلى ذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾[(٦)].

ونقل الطبري أقوالًا ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: السجل في هذا الموضع الصحيفة، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، ولا

(٥) انظر: البرهان، الزركشي ١/ ٢٩٠.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٢٣.

يعرف لنبينا صلى الله عليه وسلم كاتب كان اسمه السجل، ولا في الملائكة ملك ذلك اسمه. فإن قال قائل: وكيف تطوى الصحيفة بالكتاب إن كان السجل صحيفة؟ قيل: ليس المعنى كذلك، وإنما معناه: يوم نطوي السماء كطي السجل على ما فيه من الكتاب، ثم جعل نطوي مصدراً، فقيل: (كطي السجل للكتاب) واللام في قوله (للكتاب) بمعنى: على، واختلف القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الأمصار، سوى أبي جعفر القارئ: (يوم نطوي السماء) بالنون. وقرأ ذلك أبو جعفر: (يوم تطوى السماء) بالتاء وضمها، على وجه ما لم يسم فاعله ، والصواب من القراءة في ذلك ما عليه قراء الأمصار، بالنون، لإجماع الحجة من القراء عليه، وشذوذ ما خالفه، وأما السجل، فإنه في قراءة جميعهم بتشديد اللام، وأما الكتاب، فإن قراء أهل المدينة، وبعض أهل الكوفة والبصرة قرءوه بالتوحيد: (كطي السجل للكتاب)، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة: (للكتب) على الجمع، وأولى القراءتين عندنا في ذلك بالصواب: قراءة من قرأه على التوحيد للكتاب لما ذكرنا من معناه، فإن المراد منه: كطي السجل على ما فيه مكتوب[1].

فيخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات على عظمها واتساعها كما يطوي الكاتب للسجل أي: الورقة المكتوب فيها، فتنثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها[2].

فالسماوات على سعتها وعظمها مطويات بيمينه فكأنها بعد أن كانت عظيمة تصبح لا شيء ؛ لأنها سوف تتبدل غير ما كانت.

٣. الانفطار.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ [الانفطار:١].

وأصل الفطر: الشق طولاً، يقال: فطر فلان كذا فطرًا، وأفطر هو فطورًا، وانفطر انفطارًا.

قال تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك:٣].

أي: اختلال ووهي فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد، وقد يكون على سبيل الصلاح قال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ۝١٨﴾ [المزمل:١٨][3].

يقول تعالى ذكره ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾: أي: السماء مثقلة بذلك اليوم متصدعة متشققة، وانفطرت: انشقت[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٣٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٣١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٤٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٢/ ٢٩١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠٠٠.

أي: إذا انشقت السماء وانفطرت، وانتثرت نجومها، وزال جمالها، أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها[1].

فهذا من الأحداث والأهوال التي ستكون عند قيام الساعة فيما يختص بالسماء.

والظاهر أن هذا الانفطار هو المعبر عنه بالانشقاق أيضًا في سورة الانشقاق[2].

٣. الانشقاق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق:١].

والشق: الخرم الواقع في الشيء يقال: شققته بنصفين قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾ [عبس:٢٦].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق:٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ [الحاقة:١٦].

وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾[3].

فهو شق غائر ليفصل بين الشيء بعضه عن بعض، ويحمل معنى الانفطار كذلك.

يقول تعالى ذكره: إذا السماء تصدعت وتقطعت في يوم القيامة فكانت أبوابًا[4].

وقد ذكر هذا الانشقاق في مواضع أخرى، حيث قال عز وجل: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن:٣٧].

وقال عز وجل: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾ [الحاقة:١٦].

وقال عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق:١].

فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب، أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به، كما يصعب القول عن هيئة الانشقاق التي تكون، وكل ما يستقر في الحس هو مشهد التغير العنيف في هيئة الكون المنظور، وانتهاء نظامه هذا المعهود، وانفراط عقده، الذي يمسك به في هذا النظام الدقيق[5].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٨١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٧١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٥٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠٠٧.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٤٦.

السماء وضرب الأمثال

وفائدة الأمثال: أنها تصور المعاني كتصور الأشخاص؛ فإن الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، بخلاف المعاني المعقولة فإنها مجردة عن الحس؛ ولذلك دقت ولا ينتظم مقصود التشبيه والتمثيل إلا بأن يكون المثل المضروب مجربًا مسلمًا عند السامع، وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب[1].

أولًا: المستحيل أو الشعور بالضيق:

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]

والصعود: الذهاب في المكان العالي، والصعود والحدور لمكان الصعود والانحدار، وهما بالذات واحد، وإنما يختلفان بحسب الاعتبار بمن يمر فيهما، فمتى كان المار صاعدًا يقال لمكانه: صعود، وإذا كان منحدراً يقال لمكانه: حدور، والصعد والصعيد والصعود في الأصل واحد، لكن الصعود والصعد يقال للعقبة، ويستعار لكل شاق ، وقوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] ، أي: يتصعد. وأما الإصعاد فقد قيل: هو الإبعاد في الأرض، سواء كان ذلك في صعود أو حدور، وأصله من الصعود، وهو الذهاب إلى الأمكنة المرتفعة[2].

وكلما ارتفع عن المكان المنخفض شعر بالضيق واشتدت عليه عملية التنفس.

وهذا مثل من الله تعالى ذكره، ضربه لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأن ذلك ليس في وسعه[3].

وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رجلًا من الأعراب من أهل البادية من مدلج: ما الحرجة؟ قال هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء. فقال عمر ، رضي الله عنه: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير[4].

فقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: يتكلف الصعود في جهة السماء، وطبعه يهبط إلى الأرض، فشبه للمبالغة في ضيق صدره، بمن يزاول أمراً

(١) انظر: البرهان، الزركشي ١/ ٣٠١، الاتقان، السيوطي ٢/ ٣٤٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٨٣، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٥١.

(٣) جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٣٩ .

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٩٦.

غير ممكن، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة، وتضيق عنه المقدرة، وقيل: معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبوًّا عن الحق، وتباعداً في الهرب منه[1].

فمن يقدر الله له الضلال -وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه- ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في قبوله، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية، من ضيق النفس، وكربة الصدر، والرهق المضني في التصعد إلى السماء[2].

وأثبت العلم الحديث أنه كلما كان الصعود قلت نسبة الهواء فيؤدي للاختناق والضيق.

ثانيًا: مثل الحياة الدنيا كماء أنزل من السماء:

وورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤].

وقوله عز وجل: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف:٤٥].

وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ معنى الآية التشبيه والتمثيل، أي صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء... وقالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء ؛ لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٤٩٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٠٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١٥.

الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر... ولذا ورد في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما أتاه)[1]، فأصبح، أي النبات، هشيماً أي: متكسراً من اليبس متفتتاً، يعني بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازاً لدلالة الكلام عليه[2].

فالحياة وما فيها مشبهة للناس بما ينزل من ماء السماء على تراب الأرض، فيحدث فيها اهتزاز للتغير إلى الأفضل فيزهوا ويغتر به محبوه ثم يصبح عند انقطاع الماء عنه قبل استوائه غير ما كان عليه من النضرة والبهاء، وقد يتغير قبل حصاده بسبب من الأسباب فلا ينتفع به.

فشبّه الحياة الدنيا بالماء المنزّل من السماء ينبت به النبات وتخضرّ الأرض وتظهر الثمار، ويوطّن أربابها عليها نفوسهم، فتصيبهم جائحة سماوية بغتة، وتصير كأن لم تكن[3]، فمن وطّن النّفس على الدنيا وبهجتها غرته بأمانيها، وخدعته بالأطماع فيها، ثم إنها تخفي الصّاب -أي: المرّ- في شرابها، والحنظل في عسلها، والسراب في مآربها تعد ولا تفي بعداتها، وتوفى آفاتها على خيراتها، نعمها مشوبة بنقمها، وبؤسها مصحوب بمأنوسها، وبلاؤها في ضمن عطائها؛ فالمغرور من اغترّ بها، والمغبون من انخدع فيها[4].

والتشبيه في الآيات المذكورة عند البلاغيين من التشبيه المركب، لأن وجه الشبه صورة منتزعة من أشياء، وهو كون كل من المشبه والمشبه به يمكث ما شاء الله، وهو في إقبال وكمال، ثم عما قليل يضمحل ويزول، والعلم عند الله تعالى[5].

فإذا كان النبات بعد نزول الماء قد اخضر وألبس الأرض حللاً وزادها جمالاً ثم ينتهي ذلك كأن لم يكن، فإن السماء مع ما فيها من زينة وبهاء ستنتهي يوماً كالنبات وتبدل شيئاً آخر.

ثالثًا: تمثيل الوحي بالماء المنزل من السماء:

ورد في القرآن الكريم أن الله عز وجل أنزل من السماء الماء، وذلك في مواطن كثيرة، ومن الآيات التي أشير بها إلى الوحي كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، ٢/ ٧٣٠، رقم ١٠٤٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٦٨.
(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٨٨.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٩٨.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٤٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٥٣.

﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد:١٧].

وهذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر، يقول تعالى ذكره: مثل الحق في ثباته والباطل في اضمحلاله مثل ماء أنزله الله من السماء إلى الأرض، يقول: فاحتملته الأودية بملئها، الكبير بكبره، والصغير بصغره، فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء زبداً عالياً فوق السيل، فهذا أحد مثلي الحق والباطل، فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل[1].

ولما ذكر الله عز وجل في سورة البقرة أنه أنزل من السماء ماء ليدلهم على عبوديته؛ أعقب ذلك بأنه نزّل على عبده الوحي المبارك؛ ليدل إنزال الماء من السماء لحياة الأرض، على إنزال الوحي من السماء لحياة العبودية الحقة، التي يضمن بها العباد سعادتهم في الدارين والله أعلم.

ويمكن أن يستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨].

فلما أمر الله جل وعلا ونهى في هذه الآية الكريمة، وبين عظائم آياته وبرهان عبادته وربوبيته أنه الرب وحده، والمعبود وحده، وبين أنه أنزل إلى هذه الخلائق كتاباً فصله على علم هدى ورحمة، بين هنا أن الناس الذين أنزل عليهم هذا الكتاب لهم شبه بعنصرهم الأول وهو الأرض، وشبه الوحي الذي أنزله على نبينا صلى الله عليه وسلم بالمطر.

فالوحي كثيراً ما يشبه بالمطر[2]، فكما أن المطر يحيي الله به الأرض بعد موتها وينبت به النباتات والزروع والثمار، وينعش به الحيوانات، ويهيئ به لبني آدم مصالحهم الدنيوية، فكذلك القرآن هو مطر أرض القلوب، إذا نزل مطر القرآن على أرض القلوب أثمرت القلوب ثمراتها الرائعة اليانعة...

وكل خصلة حسنة يثمرها مطر القرآن في قلب المؤمن؛ كالخشية من الله، والتوبة عند الزلات، والإنابة إليه، والسخاء والشجاعة والرضا بقضاء الله، والإيثار وعدم الشح، إلى غير ذلك من خصال الإسلام الكريمة

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٩٦.

(٢) ورد ذلك حديث أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى، والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

الجميلة[1].

فالوحي يحيي القلوب ويوقظها ويجعلها قريبة من ربها، فمن ابتعد عن الوحي كان فيه من آثار الموت بقدر ابتعاده وربما كان كالميت تماماً، وكلما كان الإنسان قريباً من الوحي كانت حياته على قدر قربه ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

رابعًا: تمثيل المشرك بمن يخر من السماء فتخطفه الطير:

وذلك في قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

ويجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيهًا مركبًا فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير، فتفرق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقًا.

فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة[2].

وهذا المثل لمن أشرك بالله تعالى، فهو يسقط من العلو الذي بوأه الله وهو عبوديته؛ فلما رفض العلو والكرامة سقط من مكانته فاختطفه الشركاء المضلون لدنياه وأخراه فتشتت وتتلاشى، ولو نجا منهم لسقط إلى قاع مظلم لا راحة ولا طمأنينة فيه.

فضرب الله للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سقط منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾، أي: تقطعه الطيور في الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه[3].

ولهذا جاء في حديث البراء: (وأما الفاجر فإذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا أتاه ملك الموت فيقعد عند رأسه وينزل الملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيقعدون منه مد البصر، فيقول ملك الموت: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سخط

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٤٨١، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٠٠، العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٤٣٠،

(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٥٠.

من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينقطع معها العروق والعصب كما يستخرج الصوف المبلول بالسفود ذي الشعب، قال: فيقومون إليه فلا يدعونه في يده طرفة عين فيصعدون بها إلى السماء فلا يمرون على جند من الملائكة إلا ، قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ قال: فيقولون: فلان بأقبح أسمائه، قال: فإذا انتهي به إلى السماء غلقت دونه أبواب السماوات، قال: ويقال اكتبوا كتابه في سجين، قال: ثم يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فيرمى بروحه حتى تقع في جسده، قال: ثم قرأ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ قال: فتأتيه الملائكة فيقولون: من ربك؟ قال: فيقول: لا أدري، فينادي مناد من السماء أن قد كذب فأفرشوه من النار وألبسوه من النار وأروه منزله من النار...) الحديث[1].

لمسات إعجازية في السماء

من الدلالات التي ذكرت في الآيات التي تحدثت عن السماء، آيات فيها لمسات إعجازية من حيث خلق السماء وما فيها ومدلولاتها وهي كالآتي:

أولًا: السماء وهي دخان:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١].

أي: هي مثل الدخان، إشارة إلى أنه لا تماسك لها[2].

أصل السماء هو ذلك الكائن المشبه بالدخان، أي أن السماء كونت من ذلك الدخان... فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض[3]، وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض[4]، و قد ثار على وجه الماء[5].

لما خلق تعالى الأجزاء التي لا تتجزأ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء، كانت مظلمة عديمة النور، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمساً وقمراً، وأحدث صفة الضوء فيها، فحينئذ صارت مستنيرة، فثبت أن تلك الأجزاء، حين قصد الله تعالى

(١) أخرجه مطولًا أحمد في مسنده، ٣٠/ ٥٠٣، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٦١٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٤٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٤٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٥٢، روح المعاني، الألوسي ٥/ ٥٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٧.

أن يخلق منها السماوات والشمس والقمر، كانت مظلمة؛ فصح تسميتها بالدخان، لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة، غير متواصلة، عديمة النور ثم قال: فهذا ما خطر بالبال في تفسير الدخان. والله أعلم بحقيقة الحال[1].

وفي الآيات الكريمة إشارة إلى حقائق كونية: منها : أن : أصل الكون المادي من الدخان، لم يصل العلم الحديث للآن إلى معرفة أصل الوجود المادي للكون على الرغم من توصل العلم إلى نجاحات كبيرة في المسائل التطبيقية والاستفادة من دراسة خصائص المادة واستخدام الطاقات الكونية المختلفة، وهذه الحقيقة لا يستطيع العلم البشري أن يصل إليها إلا من طريق الوحي من خالق السماوات والأرض، لأن وسائل البشر محدودة فلا يستطيع أن يخترق بوسائله المادية حجب غيب الماضي ليعرف تكوين الأجرام الكونية والسابق منها عن اللاحق[2].

فسبحان من يخلق من أصغر الأشياء؛ أكبر الأشياء وأعظمها.

ثانيًا: السماء ذات الحبك:

تقدم معنا الحديث حول تفسيرها، وأنها ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء.

فمعنى ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧]. ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض... ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ [الذاريات:٨] أي متخالف متناقض، قال ابن زيد: يتخرصون يقولون: هذا سحر ويقولون: إن هذا إلّا أساطير الأوّلين ، يؤفك أي يصرف عنه من أفك ، أي صرف عن الحق الصريح الصرف التام، إذ لا صرف أشد منه.

وقد ذكر في مناسبة المقسم به للمقسم عليه، هو تشبيه أقوالهم في اختلافها، وتنافي أغراضها، بالطرائق للسموات في تباعدها، واختلاف غاياتها[3].

والحبك: بضمتين جمع حباك ككتاب وكتب ومثال ومثل، أو جمع حبيكة مثل طريقة وطرق، وهي مشتقة من الحبك بفتح فسكون وهو إجادة النسج وإتقان الصنع، فيجوز أن يكون المراد بحبك السماء نجومها ، لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب المحبوك المتقن، وروي عن الحسن وسعيد بن جبير ، وقيل الحبك: طرائق المجرّة التي تبدو ليلًا في قبة الجو.

وقيل: طرائق السحاب، وفسر الحبك بإتقان الخلق، روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة، وهذا يقتضي أنهم جعلوا الحبك

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٩٠-٩١.
(٢) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص١٦٥-١٦٧.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٨٨.

مصدرًا أو اسم مصدر، ولعله من النادر، وإجراء هذا الوصف على السماء إدماج أدمج به الاستدلال على قدرة الله تعالى مع الامتنان بحسن المرأى[1].

وقرأ الجمهور: الحبك بضم الحاء والباء، وقرئ بضم الحاء وسكون الباء وبكسر الحاء وفتح الباء، وبكسر الحاء وضم الباء، قال ابن عطية: هي لغات، والمراد بالسماء هنا هي المعروفة، وقيل: المراد بها السحاب، والأول أولى[2].

وفيه للعلماء أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضًا: ذات الطرائق، ذات الخلق الحسن المحكم ،وعلى هذا القول فالحبك مصدر، لأن كل عمل أتقنه عامله وأحسن صنعه، وذات الشدة والزينة، والآية تشمل الجميع، فكل الأقوال حق[3].

وكأنه -والله أعلم-أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة، وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات[4].

فالقسم العظيم بالأمر العظيم على أمر عظيم، ذكره الله لنا وهو العلي العظيم.

وما يكاد القسم الأول ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسماء: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، فيقسم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب، كتنسيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات، وقد تكون هذه إحدى هيئات السحب في السماء حين تكون موشاة كالزرد مجعدة تجعد الماء والرمل إذا ضربته الريح، وقد يكون هذا وضعاً دائماً لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة المتناسقة، يقسم بالسماء المنسقة المحبوكة على أنهم في قول مختلف[5].

ثالثًا: سعة السماء:

وتقدم معنا في أوصاف السماء أنها واسعة ، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧]

الموسع: ذو الوسع والسعة، والمعنى: إنا لذو سعة بخلقها وخلق غيرها لا نعجز عن ذلك، وقيل: لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة، وقيل: إنا لموسعون الرزق بالمطر. قال الجوهري: وأوسع الرجل: صار ذا سعة وغنى[6].

فيكون قوله ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ حالًا مؤكدة أو تذييلًا إثباتًا لسعة قدرته كل شيء

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٤١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١١٠.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٣٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٧٤.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٦٧.
(٦)

فضلاً عن السماء أو لموسعون السماء أي: جاعلوها واسعة أو ما بينها وبين الأرض أو الرزق على خلقنا ؛ لقوله تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾، وفيه إشارة إلى أن وسعة البيت والرزق من تجليات الاسم الواسع[1].

وبالنظر في قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

نجد أن بناء الكون المادي المترامي الأطراف المشتمل على بلايين المجرات التي تحتوي كلّ مجرة منها بلايين الشموس والنجوم وما يتبع كل شمس أو نجم من كواكب وأقمار، وكل ذلك إلى جانب ما يعجّ به الفضاء من طاقات وإشعاعات مختلفة القدر والصفات، وقد اتسعت له مقدرة الخالق عزّ وجلّ، ولديه أكثر وأكثر يضاف إلى ذلك.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ السماء حين خلقنا الكون ابتداء على اتساع لا نهاية له، ولذلك فهو يتسع لكل المجرات مهما تباعدت عن بعضها بعضاً، ومن الوجهة العلمية لم يثبت حجم الكون على حال منذ راح العلماء يقيسون أبعاده. ولقد جعل العلماء للنجوم أقداراً بحسب درجات بريقها أو لمعانه، وعدد النجوم التي يمكن أن ترى في القبة السماوية وتلمع بدرجات متفاوتة القدر بالنسبة للعين المجردة لا تزيد عن نحو ستة آلاف نجم تقريباً[2].

وهي في أصلها واسعة الأرجاء فلا يعلمها إلا الله، كما ذكر ذلك جمع من المفسرين.

قال ابن القيم رحمه الله مبينًا شأن هذه الآية الكونية: «ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخباراً عن عظمها وسعتها، وإما إقساماً بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالًا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته»[3].

وقال: فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علواً كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ، ولا عمد تحتها وعلاقة فوقها ؛ بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما

(١) روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٠٣.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص١٧١.

(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٠٢.

وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى أن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد، وقال الأطباء: أن من كلّ بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجانة خضراء مملوءة ماء، فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك[1].

فهي في وسعها وعظيم سعتها تضع المسلم في إيمان متين وثبات على صراط الله المستقيم؛ ليتصل المرء بها ويتخذ فيها موطنا حسنا قبل الانتقال إليها.

رابعًا: السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما:

وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء:٣٠].

وهي: حقائق كونية في غاية الوضوح.

والرتق: الضم والالتحام، خلقة كان أم صنعة أي: منضمتين، والفتق: الفصل بين المتصلين، وهو ضد الرتق[2].

وهذا شروع في آياته الكونية، الدالة على وحدته في ألوهيته، التي عمي عنها المشركون، فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر، ومعنى قوله: كانتا رتقًا أي لا تمطر ولا تنبت ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي بالمطر والنبات، فالفتق والرتق استعارة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق:١١-١٢].

و(الرجع) لغة هو الماء و (الصدع) هو النبات؛ لأنه يصدع الأرض أي يشقها.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾﴾ [عبس:٢٤]. أي: كيف انفردنا في إحداثه وتهيئته ليقيم بنيته.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ [عبس:٢٥]. أي: من المزن بعد أن لم يكن.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ [عبس:٢٦].

أي: ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء، شققناها شقًّا مرئيًّا مشهودًا، كما تراه في الأرض بعد الريّ. أو شقًّا بالنبات[3].

ثم إن قوله تعالى: ﴿كَانَتَا﴾ يحتمل أن تكونا معًا رتقًا واحدًا بأن تكون السماوات والأرض جسمًا ملتئمًا متصلًا، ويحتمل أن تكون كل سماء رتقًا على حدتها، والأرض رتقًا على حدتها وكذلك الاحتمال في قوله تعالى: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

(١) المصدر السابق ١/ ٢١٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٤١.
(٣) انظر: محاسن التأويل ٧/ ١٩٦.
وذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس ٣/ ١٢١٣، وقال: رجحه الطبري، ومال إليه الشنقيطي في أضواء البيان ٤/ ١٤١.

وإنما لم يقل نحو: فصارتا فتقًا؛ لأن الرتق متمكن منهما أشدّ تمكن كما قلنا ليستدل به على عظيم القدرة في فتقهما، ولدلالة الفعل على حدثان الفتق إيماء إلى حدوث الموجودات كلها وأن ليس منها أزلي، والرتق يحتمل أن يراد به معان تنشأ على محتملاتها معان في الفتق.

فإن اعتبرنا الرؤية بصرية ، فالرتق المشاهد هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلل شيء بين أجزاء السماوات وبين أجزاء الأرض، والفتق :هو ما يشاهده الرائي من ضد ذلك حين يرى المطر نازلًا من السماء ويرى البرق يلعج منها والصواعق تسقط منها فذلك فتقها، وحين يرى انشقاق الأرض بماء المطر وانبثاق النبات والشجر منها بعد جفافها، وكل ذلك مشاهد مرئي دال على تصرف الخالق، وفي هذا المعنى جمع بين العبرة والمنة[1].

فكان هذا الرتق أمر دال على عظيم قدرة الله وإتقان خلقه للسماوات والأرض.

وقد يشير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها هنا: ﴿أَنَّ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠].

ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن، وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض، أو فتق السماوات عن الأرض، ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن، ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقاً للقرآن في نظريات البشر، وهو حقيقة مستيقنة! وقصارى ما يقال: إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال[2].

ولذا كان خلق الناس بما أودع الله فيهم من العظمة أمر مهول، وقد ذكّر الله به بقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١].

وأعظم من خلق الإنسان خلق السماوات والأرض وما أودع الله في السماوات من أسرار وفي الأرض من أغوار، ما يبهر العقول وتحار فيه الأبصار ، كما قال ربي القادر القهار: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧].

والقرآن الكريم يحث المسلم على التفكير في خلق السماء والأرض: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٥٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٧٦.

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١][1].

والله أعلم وعليه اعتمادنا وهو المستعان فهو حسبنا ونعم الوكيل.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، الجبال، الرياح، السحاب، الماء

(١) مباحث في علوم القرآن للقطان ص٢٧٩.

السماحة

عناصر الموضوع

مفهوم السماحة	٣٣٢
الألفاظ ذات الصلة	٣٣٣
السماحة في الدين	٣٣٥
السماحة مع المخالفين للدين	٣٥٥
سماحة الإسلام في العلاقات الاجتماعية	٣٥٩
السماحة في الخصومات	٣٦٥
جزاء أهل السماحة في الدنيا والآخرة	٣٦٨

مفهوم السماحة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س م ح) تدل على «سلاسة وسهولة. يقال: سمح له بالشيء. ورجل سمح، أي: جواد، وقوم سمحاء ومساميح. ويقال: سمح في سيره، إذا أسرع»[(١)].

فالسَماحُ والسَماحَةُ: الجود. وسَمَحَ به: أي جاء به. وسَمَحَ لي: أعطاني[(٢)].

ومعنى الحَنِيفِيَّة السَّمْحَةُ: ليس فيها ضيق ولا شدّة[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها الجرجاني بقوله: «السماحة هي بذل ما لا يجب تفضّلًا»[(٤)].

وعرفها الشيخ فالح الصغير بقوله: «تطبيق الأحكام الشرعية بصورة معتدلة، كما جاءت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، من غير تشدّد يحرّم الحلال، ولا تميّع يحلّل الحرام»[(٥)].

وهو تعريف جميل، ويحمل معاني قوية حاسمة لمدلول هذا المصطلح؛ لكنه -وإن كان عامًّا- إلا أن القارئ يستشعر من هذا التعريف أنه يختص بالأحكام الشرعية، وبجوانب تتعلق بالعبادات والمعاملات، غير أن البحث الذي نحن بصدده يتعلق بالسماحة كخلق تهذيبي للنفس، وبالتالي فإن هذا التعريف لم يظهر هذا الجانب بوضوح وجلاء.

ويمكن أن يقال في تعريف السماحة في الاصطلاح: التطبيق العملي لمنهج الإسلام، بما يضمن بيان مقاصد الدعوة إلى الله تعالى، التي تحث على الاعتدال من غير تشدّد يحرّم الحلال، ولا تميّع يحلل الحرام في شتى مناحي الدين الإسلامي.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٩.
(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ٣٧٦.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٢٠١.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٢١.
(٥) اليسر والسماحة في الإسلام ص٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ اليسر:

اليسر لغة:

تدل كلمة اليسر في اللغة على السهولة واللين والانقياد[١].

اليسر اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قيل: عمل فيه لين وسهولة وانقياد ، أو هو رفع المشقة والحرج عن المكلف بأمر من الأمور لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم[٢]، وقيل:«التخفيف في الأحكام الشرعية، في أصلها أو بسبب ما طرأ عليها».

الصلة بين اليسر والسماحة:

يشتركان في معنى السهولة والسلاسة ورفع الحرج والضيق والمشقة، وربما يكون اليسر من السماحة.

٢ العفو:

العفو لغة:

العفو مصدر عفا يعفو عفوًا، والعفو يطلق على معنيين أصليين: أحدهما: ترك الشيء، والآخر: طلبه [٣].

العفو اصطلاحًا:

هو التجافى عن الذنب، ومن ذلك قولهم في الدعاء: أسألك العفو والعافية . أي: أسألك ترك العقوبة، وأسألك السلامة [٤].

وقيل: كفّ الضّرر مع القدرة عليه، وكلّ من استحقّ عقوبة فتركها، فقد عفا[٥].

الصلة بين العفو والسماحة:

قيل: العفو هو إسقاط العقوبة بدون إسقاط الذنب. والمسامحة: هو إسقاط المؤاخذة واللوم بغض النظر عن إسقاط العقوبة عن المذنب؛ وذلك أن أصل المسامحة هو السماح،

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٢٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٤٩٩.
(٢) تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٤٨٤.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥٦، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٩٣٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٣٩.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٣، ٥٩٨.

أي: الجود، فالمسامح قد جاد على المذنب بأن ترك المؤاخذة.

٣ الصفح:

الصفح لغة:

يعني ثلاثة معانٍ، وهي: الجانب، والإعراض والترك، والعفو[١].

الصفح اصطلاحًا:

هو التجاوز عن المذنب تماماً بترك مؤاخذته وعقابه.

وقيل: «هو ترك التأنيب»[٢].

الصلة بين الصفح والسماحة:

أصل الصفح هو إبداء صفحة جميلة من الوجه ومنه قلب الصفحة أيضًا؛ لذا قيل: «الذي يصفح كأنه يولي بصفحة العنق»، إعراضًا عن الإساءة، فالصفح أعلى من العفو والمسامحة.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٣٩.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٥٧.

السماحة في الدين

أولًا: السماحة في الاعتقاد:

عرض القرآن الكريم مفهوم السماحة في الاعتقاد، عبر أروع جوانبها، وذلك على النحو الآتي:

١. ذكرٌ أمين لأقوال الكفار.

بما فيه مؤامرات مبيّتة على الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، ومن ثم الرد المطوّق لكافة ادّعاءاتهم، وكلّ هذا بأسلوب الرد الدعويّ، الذي ينير الطريق، ولا يقف عند الأحقاد.

ومثال هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِالَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٢-٧٦].

فإن هذه الآيات ذكرت مدلولات عظيمةً للسماحة في الاعتقاد، وذلك أن الآية الثانية والسبعين تذكر أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أول النهار، واكفروا به آخره؛ ليتم التشكيك بدعوة الإسلام.

ومن ثمّ -حسب أمانيّ اليهود- يرجع هؤلاء الموحدون عن إيمانهم، ونصرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يمارس أولئك اليهود أحقادهم الخفية، وذلك بأمرهم لأتباعهم ألّا يتأثروا بدعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما يكون الإيمان لمن تبع دينكم، فيأتي الرد الربانيّ بأن الهدى الحقيقي هو هدى الله تعالى ونحن عليه.

«فالمعنى أن علماء اليهود قالت لهم: لا تصدقوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أي لا إيمان لهم ولا حجة، فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمن والسلوى وفلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات، أي : أنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم»[1] حتى تكون لهم حجة عند الله تعالى.

فيكون الرد أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم مأمور من الله تعالى أن يقول

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١١٣.

لهم بأن الفضل والتكرم بيد الله تعالى، لا بيد غيره، والله واسع عليم، فله اختصاص الرحمة لمن يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم، ويشعر بذلك من يهتدي إلى الحق[1].

وتأمّلنا في تلك الألفاظ يجعلنا نعيش مع جمال أسلوب الدعوة مع المتآمرين، ثم يبين الله تعالى لنا منهجية الإنصاف في الحكم عليهم، فإن من أهل الكتاب، من يؤمّن في المال ولو بقنطار وما دونه؛ فهو يؤدّيه إلى صاحبه دون مماطلة، ومنهم -وهم الأكثرون- من إن أمّنته بدينار من المال؛ فإنه يبقى مماطلًا إلا إذا طالبت ولازمت، وألححت لاستخلاص حقك، وإن الذي جعلهم يجحدون الحقوق أنهم ظنّوا -كذبًا- أنّه لا حرج عليهم أن يفعلوا ذلك مع الأميين، -وهم العرب-، مدّعين أن الله أحلها لهم، فهم يعلمون علم اليقين بأنهم كذّابون في ادّعائهم[2].

ثم تستطرد هذه الآيات مبينةً سماحة الإسلام العظيم، وذلك ببيان أنه ليس الأمر كما قالوا، ولفظة (بلى) لمجرد نفي ما قبلها، وعلى هذا فإن من أوفى بعهده والتزاماته، فإن الله تعالى يحب المتقين، وهي صفة إيمانية تقرّب قلوب الحيارى منهم إلى الدين[3].

لا يجبر الإنسان على الإيمان شرط ألّا يكون محاربًا، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٥٦].

فإن هذه الآية الكريمة قد اختلف في تفسيرها[4].

وذكر ابن كثير بأنّ المعنى: «لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيّنٌ واضحٌ جليٌّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحدٌ على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا»[5].

وقد ذكرت كتب التفسير عددًا من الأحداث التي كانت سببًا لنزول هذه الآية، وكلها سليمة الدراية، لكننا سنذكر حدثًا واحدًا ذكره الواحدي، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة من نساء الأنصار تكون عندها مشكلة في الإنجاب، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٢٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٠.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٦١.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٩٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٢.

تهوده، فلما أجليت النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

الرخصة لمن أكره على الكفر شرط ألّا ينشرح الصدر به، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

حيث إنه لمّا بيّنت الآية السابقة الذين لا يؤمنون مطلقًا، بل إن من صفاتهم أنهم عريقون في الكذب ظاهرًا وباطنًا؛ تذكر هذه الآية الكريمة صنفًا من هؤلاء الكاذبين الكفار، فهم أشد خطرًا، سواء أكانوا مؤمنين بالفعل ثم كفروا، أو أنهم أقيمت الحجة عليهم عبر الأدلة الكثيرة الموجبة للإيمان، ولكن هذا الكافر جحد بالله تعالى، واستكبر على آياته الكونية والمتلوة، لكن سماحة الإسلام تتضح هنا، وذلك من خلال أن الذي كفر من لسانه خوفًا على حياته، فإنه معفوٌّ عنه، مع أولوية الأخذ بالعزيمة، إن كان في ذلك إغاظة لأعداء الله تعالى، ويشترط لمن أكره على الكفر ألّا يكون صدره منشرحًا بذلك، فإن من كان كذلك، فهو الكاذب، وعليه غضب من الله تعالى، ولهم عذاب عظيم[2].

«قال ابن عباس: نزلت في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا، وأمه سمية، وصهيبًا، وبلالًا وخبابًا، وسالمًا؛ فعذّبوهم، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين، وجيء قُبُلَها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، بأن عمارًا كفر، فقال: (كلا، إن عمارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه)، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه، وقال: (إن عادوا لك فعد لهم بما قلت)[3]، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[4].

٢. الدين يؤاخي بين المؤمنين.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٨٣.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١١/ ٢٥٨.

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أن هذا الحديث مرسل، ورجاله ثقات.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣١٢.
وورد موصولًا في المستدرك للحاكم عن محمد بن عمار عن أبيه رقم ٣٣٦٢ قال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٤) أسباب النزول، الواحدي ص٢٨١.

«أي: إنما المؤمنون إخوة في الدين؛ فأصلحوا بينهم إذا اقتتلوا؛ بأن تحملهم على حكم كتاب الله عز وجل»[1]، وإن الأسلوب هنا أسلوب حصريٌّ، يحصر ضابط أخوة الدين على المؤمنين، وإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض؛ لأنهم يتعاونون على جامع الخير، وينتهون عن جامع الشر، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

٣. وجوب إجارة المستجير.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

فقد ذكرت الآية الكريمة أنه إذا استجار أيٌّ من المشركين الذين أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بقتالهم، فإنه يؤمر بتأمينه، حتى يسمع كلام الله، ويقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، ويذكر له شيئًا من جوانب الدين وسماحته، ثم يبقى حتى يبلغ المكان الآمن، فهم لا يعلمون شيئًا عن الدين[2]، عن ابن عبّاسٍ، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، يسعى بذمّتهم أدناهم، ويردّ على أقصاهم)[3].

٤. وجوب استقامة العهد مع الذين عوهدوا من قبل المسلمين.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن من بقي ملتزمًا بعهده، -رغم نقض الآخرين كبني كنانة، وبني ضمرة يوم الحديبية-؛ فإن الدين يلزمنا أن نستقيم بالعهد مع من كان مستقيمًا بالعهد من المشركين، فإن الله تعالى يحب المتقين[4].

٥. شرح آيات القرآن الكريم أصول الاعتقاد.

حتى يبقى المنهج الإسلامي واضحًا لا يعتريه أيّ نقص أو اختلاف، فهو من عند

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٠٠١.

(٢) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٩/ ٣٥٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر، ٣/ ٨٠، رقم ٢٧٥١، وابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، ٢/ ٨٩٥، رقم ٢٦٨٣.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٣٧، رقم ٦٧١٢.

(٤) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص١٨٨.

عليم حكيم، ولذلك فقد تم الخلوص إلى نتيجة، وهي أن جوهر الاعتقاد سماحة، وصدق الله تعالى، حيث يقول: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ثانيًا: السماحة في التشريع:

إن الشريعة المقصودة، هي تلك الممارسة الإيمانية الصادقة للاعتقاد الرباني، وقد توسّع الخطاب القرآني في بيان سماحة الإسلام في كل تشريع من التشريعات الإسلامية، وهذه بعضها:

١. عدم تحميل النفس ما لا تطيق.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

حيث تبدأ هذه الآية بجملة استئنافية على الأرجح؛ لتقرر أن الله تعالى هو الذي يقول: بأنه لا يكلف الله تعالى نفسًا بما لا تطيق، فإن ثمرة التزام الصحابة بما لا يستطيعون أن الله تعالى صرف عنهم الحرج، ورفع عنهم ما لا يطيقون [(١)].

٢. آيات كثيرة تتحدث عن الرخص.

منها قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

حيث ذكر الإمام السيوطي نقلًا عن الإمام الشافعي أن هذه الآية لا تعني أن الحرام من المطعومات فقط في هذه الآية، وإنما تعني أن الكفار كانوا على المحادة والمضادة، كأن تقول لواحد: لا تأكل اليوم حلاوة، فيقول لك: لا آكل اليوم إلا حلاوة، وفي ذلك يقول إمام الحرمين: ولولا سبق الإمام الشافعي لما استطعنا أن نستجيز مخالفة الإمام مالك في جواز أكل الكلاب [(٢)].

وإن هذه الآية -كما آيات الرّخص- تذكر بوضوح عظمة السماحة التي تميّزت بها الشريعة السمحة، وذلك أن الشريعة لم تأت لتحريم كل شيء، وإنما لضبط المنفعة في الدنيا والآخرة، بما يكفل سعادة حقيقية دائمة للفرد والمجتمع.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٣٤، الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٩/ ٢٠٤.

(٢) انظر: الاتقان، السيوطي ١/ ١١٠.

٣. التدرج في التشريع.

وقد حفل القرآن الكريم بشواهد كثيرة للتدرج، بما يعزز مفهوم السماحة، ومدلولها من الناحية العملية، ومثال هذا آيات الخمر، حيث ذكرت الآيات الأربعة، وتوضيح ذلك:

أن الآية الأولى نزلت في مكة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧].

حيث بيّنت هذه الآية المكية أنّ السكر مبغضٌ إلى أهل الإيمان، ولكن الله تعالى أشار إلى ذلك؛ تركًا للزمان، فهو في هذه الأزمان كان محل عفو[١].

وقد جاءت الآية الثانية في المدينة في أول الهجرة؛ وهي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

حيث ذكرت هذه الآية المفاسد وتركت للخلق الحكم عليها؛ إذ كانت الخمر جزءًا لا يتجزأ من عاداتهم التي ألفوها[٢].

ثم جاءت الآية الثالثة؛ لتضع تطبيقًا عمليًّا تدريجيًّا لمنع الخمر، -إذ إن هذا بإلف عادتهم-، فقامت بحصر الأوقات، وتضييقها؛ لمنع الخمر وتعاطيها[٣].

وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وما إن تهيّأت النفوس، حتى جاء الخطاب القرآني الحاسم بمنع الخمر، وتحريم تعاطيها، بل ومعاقبة من يفعل ذلك في الدنيا قبل الآخرة، فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

عندها ما كان من المسلمين إلا أن تخلّصوا من الخمر التي في بيوتهم؛ فأضحت شوارع المدينة وديانًا من الخمر[٤].

وهذا التدرج، وكل أمثلته مما لم نذكره

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٢١٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ٩٣٨.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٢٥٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣.

دالٌّ على سماحة الإسلام في تشريعاته.

٤. رفع الحرج في التشريعات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ذكر الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى خمسين حكمًا فقهيًّا مستنبطًا من هذه الآية، جلّها يبين عظمة السماحة القرآنية[(١)].

وقد سبقت الإشارة أنّ السماحة تكون في كل تشريعٍ من التشريعات؛ حتى في القتال، فهو وإن بدا في ظاهره أنه قتال؛ إلا أنه لأجل الرحمة بالعموم، وهي مدلولٌ عظيمٌ لسماحة الإسلام.

ثالثًا: السماحة في الدعوة إلى الله:

١. الرحمة واللين في الدعوة.

إن سماحة الإسلام تقتضي أن يكون توجيه طاقات المسلمين إلى الدعوة إلى الله تعالى؛ حتى لا يبقى شقيٌّ ولا محروم من الدعوة في هذه الأرض، وبالتالي فإن الرحمة واللين في الدعوة يجب أن يكونا سمة الداعية، وقد حفل الكثير من الآيات القرآنية ببيان السماحة في الدعوة إلى الله تعالى، من خلال بيان الرحمة واللين في الدعوة إلى الله تعالى، وهذه أمثلة من ذلك:

أولًا: رحمة القلب الداعي إلى الله تعالى بالخلق جميعًا.

وقد شهد القرآن الكريم مواقف عظيمة للقلب الرحيم، المتمثل في النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها:

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

حيث تبدأ الآية بلام موطئة للقسم، وبـ(قد) التي تفيد التحقيق، وكل هذا لخطاب المؤمنين، بأنه جاءكم رسول من العرب، تعرفون نسبه وحسبه، فليس في قبيلة من قبائل العرب إلا وللرسول فيها نسب، والله تعالى شديد عليه إذا شقّ عليكم، ولكن حاشاه أن يكون كذلك، فهو حريص على هدايتكم من الضلال، وهو

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢٢.

بالمؤمنين كلهم رءوف رحيم[1]، ونلاحظ أن هذه الآية الكريمة بينت بشكل واضح جوانب عديدة من السماحة التي ملأت قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها أنه لا يملك إلا أن يكون شفوقًا عليكم، ومنها أن الله تعالى منحه اسمين، مليئين بالسماحة الدالة على كل خير.

بينت آيات عديدة أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم يحترق قلبه خوفًا على الناس جميعًا من غضب الله تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

حيث تبين هذه الآية الكريمة مدى استعداد النبي محمد صلى الله عليه وسلم للتضحية لأجل الدعوة إلى الله تعالى، لدرجة أنه قارب على هلاك نفسه، وقتلها على أثر عدم إيمان هؤلاء الكفار بهذا القرآن؛ حزنًا وغضبًا على كفرهم، وهذا الحزن أتى بعد وصول الكفار إلى أبشع أنواع التبجح بالكفر، والتكذيب للرسالة، وقد جاء في القرآن الكريم مثل هذا المدلول، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨][2]، وهذا يبين عظيم سماحته صلى الله عليه وسلم، فهو لا يبحث عن نفسه، إنما يبحث عن إنقاذ كل كافر من إنس وجان، والأخذ بأيديهم إلى رحمة الله تعالى.

أمر الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يحبس نفسه، ويقضي جل أوقاته الدعوية مع الداعين إلى الله تعالى بغض النظر عن أوضاعهم الاجتماعية، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية والتي قبلها، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: جاء المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وأهاليهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحّيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم -يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٨٤، تفسير السمرقندي ٢/ ١٠٠، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٦/ ١٩١٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٣٧.

يكن عليهم غيرها- جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والتي قبلها، والتي بعدها[1]، وعلى هذا فإن الآية تأمر رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم، بأن يحبس نفسه مع هؤلاء الفقراء الداعين إلى الله تعالى حبس ملازمة لهم، فهم الذين لا ينفكون عن الدعاء إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، يبتغون وجه الله تعالى، ولا تعد عيناك عنهم، أي: لا تعرض عنهم، ولو بأن تنتبه إلى غيرهم تريد زينة زائفة من هؤلاء المستكبرين الكفار[2]،

يقول ابن عاشور: «وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة، وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية؛ فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة، وجعلوا همهم الصور الظاهرة»[3].

ثم يذكر القرآن الكريم في آية قرآنية أخرى ما يحصّن هؤلاء المستضعفين، وبقائهم في الرعاية الشرعية، وذلك بأسلوب النهي عن طردهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

حيث تنهى هذه الآية الكريمة نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم، أن يطرد الفقراء المسلمين الداعين إلى الله تعالى صباح مساء مبتغين وجه الله تعالى عن مجالسته، فكلٌّ له حسابه عند الله تعالى، ولست من يحاسبهم، أو يحاسب عنهم، فإن طردتهم؛ فإنك ساعتها تكون من الظالمين[4].

ولا شكّ أن هذه الألفاظ قاسية على النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم لمجرد أن نفسه حدّثته بمجاملة سادة قريش طمعًا في الإسلام، فإن السماحة يجب أن تقتضي الرحمة بأولئك الضعفاء المساكين، الذين لا يدّخرون جهدًا في نصرة هذا الدين، وبالتالي فإن ضابط الرحمة في الدعوة كونه ليس مرتبطًا بردة فعل، وإنما تكون السماحة والرحمة سجية عند الداعية المسلم، سيما وأنها علامة على رحمة الإسلام، وبالتالي فإن الدعاة ليسوا محاسبين على النتيجة، شرط ألّا يدّخروا أي جهد قلبيًّا كان أو قوليًّا أو عمليًّا في ميدان الدعوة.

وعلى هذا فإن الالتزام بما يأمر الله تعالى من رحمة، ولين في القول أولى بكثير من الاجتهاد فيما لا يجوز الاجتهاد فيه، وصدق

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٩٧، لباب النقول، السيوطي ص١٣٠.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٥٧.

الله تعالى حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يكون كل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم مؤمنين، وهذا يوضحه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

حيث تذكر هذه الآية في معرض الرحمة بالرسول صلى الله عليه وسلم الرحيم، الذي يحرص على هداية كل مخلوق من إنس وجان، فإنه صلى الله عليه وسلم لو حرص وتهالكت نفسه لهداية الخلق؛ فإنه لا يكون مؤمنًا إلا القليل[(١)].

وهذا الجانب دالٌّ على معنىً عظيم من السماحة والرحمة في الدعوة إلى الله تعالى، فإن السواد الأعظم من الناس كفار، بل إن من المؤمنين خلقًا لا يفعلون ما يرضي الله تعالى، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذهم بما كسبوا، بل يؤخرهم إلى أجلٍ معلوم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

حيث إن هذه الآية تبين للناس -عمومًا- شيئًا من عظيم رحمة الله تعالى وفضله، فهي دعوة إلى أولئك الذين اغتروا بتأخير حساب الله تعالى، حتى حسبوه عجزًا، أو رضًا من الله تعالى بما هم فيه، وفحوى مقتضى الدعوة أن يرجعوا إلى الله تعالى، فإن الله تعالى يمنحكم أيها الطغاة كل فرصة في هذه الدنيا[(٢)] -حتى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر-؛ لعل الطغاة يرجعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

من رحمة الله تعالى أنه أنزل أمانين لهذه الأمة، وهما ما جاء في القرآن الكريم، حينما قال الكفار: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

عندها نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقد أخرج الشيخان «عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذاب أليم. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ

(١) انظر: الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ١٠/ ١٤٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣٣٩.

فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣-٣٤]»[1].

وعلى هذا فإن الله تعالى أنزل أمانين لهذه الأمة، فالأمان الأول: هو وجود الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم حيًّا، والأمان الآخر: هو الاستغفار.

من صفات الداعية الحق سيما الرسول صلى الله عليه وسلم أنه سمحٌ في رحمته ولين في قوله، سيما مع من أساء الأسلوب.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: فبرحمة من الله تعالى وفضله، كان اللين في القول منك لهم، رغم عدم الطاعة منهم، فلو كان الرسول صلى الله عليه وسلم فظًّا في القول غليظًا في القلب؛ لتركوه وحده، وما جاء إليه الناس، وبالتالي فإن الله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنهم، وأن يستغفر لهم الله تعالى، ثم أن يشاورهم في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة؛ فإن ذلك أطيب لأنفس القوم، وإذا وصلت إلى قرار بعد المشاورة؛ فامض به، وتوكّل على الله تعالى، فإن الله تعالى يحب المتوكلين عليه حق التوكل[2].

ثانيًا: القول اللين من الدعاة حتى مع رءوس الكفر.

فقد حفل القرآن الكريم بذكر هذا الجانب، عبر الحديث عن الأنبياء وخطابهم لقومهم، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

ورد أمر رباني لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام بالقول اللين مع فرعون لعله يتذكر أو يخشى، كما في قوله تعالى: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٢-٤٤].

حيث إنه بعد أن بينت الآية السابقة أن الله تعالى اصطنع سيدنا موسى عليه السلام لرسالته، تبين هذه الآيات المذكورة، أن الله تعالى أمر سيدنا موسى وأخاه هارون عليهما السلام بألّا يفترا أو يضعفا في حمل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك)، ٦/ ٦٢، رقم ٤٦٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)، ٤/ ٢١٥٤، رقم ٢٧٩٦.
وانظر: المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ١/ ٥٦٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٣٣٠.

الرسالة، أن يذهبا إلى فرعون، فقد تجاوز كلّ الحدود، فقولا له قولًا لطيفًا رقيقًا؛ لعله يرجع إلى الصواب والحق، أو يخشى من عقاب الله تعالى[1].

ورد في آيات كثيرة قول بعض الأنبياء لأقوامهم يا قوم إني أخاف عليكم، كما في قوله تعالى في حديثه عن قصة سيدنا نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ثم الرد من قبل سيدنا نوح عليه السلام على اتهاماتهم اللاذعة بمزيد من الحكمة، ولين الجانب، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠-٦٤].

حيث إن سيدنا نوحًا عليه السلام يرد على تلك الاتهامات الموجهة بأنه ليس به ضلالة (والضلالة أخص من الضلال)، ويبين بأساليب التوكيد أنه رسول من رب العالمين، يبلغ شريعة الله تعالى السمحة، وهو لقومه ناصح لا يدخر جهدًا، ولا وسيلة في هدايتهم، ويركز على ما يدور في خلجات صدورهم بقوله: هل تعجبتم أن تأتي رسالة الله تعالى على يد رجل منكم؛ ليحذركم ويخوفكم من عقاب الله تعالى، حتى تكون المحصلة رحمةً كبيرةً من الله تعالى[2].

وإن قصة سيدنا نوح عليه السلام وحالة السماحة والرحمة الدعوية في الخطاب، ومن ثم لين الجانب، هي نموذج قرآني من مخزون نماذجه -سيما في الحديث عن الأنبياء-، سيما سيدنا صالح عليه السلام، وسيدنا هود عليه السلام، وكل أنبياء الله عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

كما أن منبر السماحة الدعوية في الرحمة ولين الجانب مما ذكر في القرآن الكريم لم يقتصر فقط على الأنبياء، وإنما تعدّى إلى ذكر الدعاة الغيورين، ومثل ذلك قصة الرجل الصالح، الذي خلّد القرآن الكريم ذكر مسيرته الدعوية الغيورة على الدين في سورة يس، حيث جاء من أقصى المدينة يسعى في الخير شفقة منه على هؤلاء

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٠٤، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٣١.

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٢.

المكذبين بالرسل، فاستخدم أجمل الألفاظ وأطيبها، حرصًا منه على أن يعافوا من العقاب الرباني جزاء تكذيبهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٠-٢٧].

وهذه الآيات الكريمة تبين لنا نموذجًا عظيمًا لداعية إلى الله تعالى، هو حبيب النجار الذي آمن برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبينهما ستمائة سنة - ومثله في الإيمان تبّع الأكبر، وورقة بن نوفل-.

فلقد سمع هذا الداعية الغيور نبأ تكذيب القوم لرسلهم، فما كان منه إلا أن جهر بدعوته، بعد قطع مسافة من أقصى المدينة إلى حيث يسكن القوم، فقال محاكيًا لطريقة الرسل في تبليغهم: يا أهلي، ويا ربعي، إني أرشدكم إلى ما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم، فالأمر سهل ومليء بالسعادة التي لا تنتهي، وهو لا يعدو عن كونكم تلتزمون قلبًا وقولًا وعملًا باتباع كل ما جاء به المرسلون، فهؤلاء لا يطلبون منكم أيّ مالٍ، أو شهرةٍ، أو جاهٍ، ومع ذلك فهم مهتدون إلى الحق.

ثم يتساءل هذا الداعية الغيور سؤالًا تحريضيًّا على حسن الاتباع، بقوله: ولم لا أعبد الذي خلقني منذ الولادة على فطرة التوحيد، والمرجع والمصير كله إلى الله تعالى، فماذا سأردّ على سؤاله تعالى لي؟!

وهو أسلوب بالغ في الحكمة الدعوية؛ إذ إنه يتكلم عن نفسه، ثم يوجّه الإشارة إليه في العاقبة التي يمكن أن تحل عليهم، دونما فقد لسيطرته عليهم، عبر استفزاز كرامتهم، بالسباب والشتم وما إلى ذلك، فهو مجتهد بعد خلوص نيته، في أنجع الطرق التي تردّهم إلى دين الله تعالى.

وتلك هي السماحة والرحمة ولين القول في الدعوة إلى الله تعالى، ثم يستطرد هذا الداعية دعوته إليهم بسؤالٍ آخر افتراضيٍّ، وذلك بقوله: أأتخذ من دون الله تعالى آلهةً لا تضر ولا تنفع أعبدها، فإني أعلمكم أن الله جل جلاله إذا أراد بي ضرًّا؛ فلا تنفعني شفاعة هذه الآلهة شيئًا، ولا يستطيعون أن ينصروني، ولا حتى إنقاذي، وعندها فإني أكون من الضالين عن طريق الخير، وما ينفعني في الدنيا والآخرة.

ثم يجهر بالتمسك بالدين، وذلك بإعلان إيمانه بالله تعالى، حيث قال تلطفًا بهم

(بربكم)، وقال بعد ذلك فاسمعوا مقالتي الإيمانية هذه واستجيبوا لنداء الحق، وفي هذا تحدٍّ ضمنيٌّ بأنه متصلّب في دعوته، فماذا سيفعلون إلا ما كتب الله تعالى له، فما كان من القوم إلا أن قتلوه، فقيل له من قبل الله تعالى إكرامًا له : ادخل الجنة، فإذا بهذا الداعية الشفوق الرحيم الحنون يقول حال كونه خائفًا على قومه من العذاب: (يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين)[1].

وهناك موقف آخر لرحمة داعية ولينه في القول، وهي تلك القصة الرائعة لمؤمن آل فرعون، حيث جاء في سورة غافر- وتسمّى أيضًا سورة المؤمن نسبةً له-، حيث إنه غار على رسول الله موسى عليه السلام، عندما رأى ذلك التآمر الكبير من فرعون وقومه على قتل سيدنا موسى عليه السلام.

ففي تلك اللحظات الحرجة كان لا بدّ لهذا الداعية أن يتحرّك، فما عاد كتم الإيمان ينفع، وتوجّب عليه رحمه الله تعالى أن يصدع بالحق، فسلك أسلوبًا دعويًّا رائعًا مليئًا باللين والرحمة بهم، مع عدم المجاملة والخديعة لهم، وذلك كما يلي:

رغم أنه من آل فرعون، إلا أن مواجهته لأهله وقومه كانت في بداية الأمر بإعطائهم السبب الذي من أجله آمن هذا الداعية، وهو أن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم كان يقول ربي الله، وأنه صلى الله عليه وسلم قد جاء بكل الدلائل والبينات المادية والمعنوية الدالة على إثبات أحقية ما يقول، ومن عظيم إخلاص هذا الرجل أن الله تعالى علّمه فقه المناظرة.

وذلك أنه يخبر أن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم إن كان كاذبًا فلستم مؤاخذين على كذبه، وإن كان صادقًا فمن المؤكّد أنه سيصيبكم ببعض ما وعدكم، ثم ردّهم إلى الله تعالى، بقوله إن الله عز وجل لا يهدي ولا يوفّق المسرف الكذاب، وها نحن نرى أمره سديدًا، ومنهجه مستقيمًا، وبالتالي هي إشارة -بعد الحجة والبيان- إلى تصديقه[2].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

ثم يستطرد بذكر النصائح تلو النصائح، ومنها: استخدام لفظة (يا قوم)، وبيان قوتهم الحالية، وأنهم يوم أن يأذن الله تعالى لا حول لهم ولا قوة، ورغم إجرام فرعون

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٦٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤١.

وتجبّره إلا أنه يستمر في تذكيرهم بمن كان قبلهم من الأقوام الغابرة، وما حلّ بهم؛ لعلهم يرجعون عن الباطل، ثم تذكيرهم بيوم القيامة، واستخدام الألفاظ التي تجعل القلوب القاسية رحيمة[1].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر: ٢٩-٣٣].

ثم التذكير بما جاء به سيدنا يوسف عليه السلام من البينات، وبمجرد أن مات عليه السلام إذ أنتم تقولون لن يبعث الله من بعده رسولًا، ثم يبين العاقبة تلو العاقبة في الدنيا والآخرة على من لم يتبع الحق والهدى، ورغم أن فرعون ماضٍ في علوّه وتكبره الذي بلغ كل وصف، واستعلاؤه الذي لا يماثله استعلاء؛ إلا أن مؤمن آل فرعون يحثهم على اتباع الحق والإيمان، شفقة منه ورحمة عليهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٤-٣٨].

ثم يذكّر قومه بأن الدنيا زائلة، وأن الآخرة هي الباقية، وإن من رحمة الله تعالى وفضله، أنه لا يجزي بالسيئة إلا مثلها، ويجزي بالحسنة أضعاف الأضعاف، قال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [غافر: ٣٩-٤٠].

ثم يتحرك قلبه خوفًا عليهم وشفقة بهم، بتذكيره لهم قبل فوات الأوان، بأنه يدعوهم إلى النجاة من غضب الله، ويكون ردّهم

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٦.

بأنهم يدعونه إلى النار، ويكون هذا بدعوتهم له للكفر بالله تعالى، والإشراك به إلهًا آخر، رغم أن دعوته لهم إنما هي لله الذي من صفاته العزة والمغفرة، ولا شك أن دعوتهم إلى الشرك ليس فيها دعوة مستجابة، ولكن مردّنا جميعًا إلى الله، وإن من أسرف من خلال شركه بالله تعالى فهو صاحب النار[1]، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١-٤٣].

ثم يتوعّدهم وعيدًا يحمل في طياته نصحًا من مشفق عليهم، وذلك بقوله: ستذكرون قولي عند حلول العذاب، ثم فوّض أمره إلى الله تعالى بعد القيام بكل واجباته، معتقدًا هذا الداعية المجاهد اعتقادًا جازمًا بأن الله بصير بالعباد، وكانت النتيجة الحتمية أن الله تعالى حماه من مكرهم وكيدهم، وهم الذين ذاقوا الويلات جزاء كفرهم وتكذيبهم[2].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٤-٤٥].

وبعد، فقد خلص البحث مما تقدّم أن باب السماحة في الدعوة كله يحمل في طياته رحمة، وإن أعظم الواعظين بالرحمة في دعوتهم هم الأنبياء المرسلون، ثم الصالحون، فلا تحكمهم في دعوتهم ردة فعل، وإنما تبلغ رحمتهم حدًّا لا يوصف، سيما مع من يخالفهم أو يعلن الحرب عليهم، فلا يفقدون لين القول، ولا شفقة القلب مهما بلغ الخصم من حد السفه، والفساد، والطغيان، وصدق الله تعالى حيث يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٢. الصبر على الأذى.

لا شكّ أن الصبر على الأذى بنوعيه القولي والفعلي سمة الداعية الحق الذي يعيش مع الإسلام وسماحته في الدعوة، وبالتالي سيقف البحث عند بعض النماذج التي تدلل على روعة السماحة في صبر الداعية على أذى المعاندين لدعوة الحق، وهي كما يأتي:

أولًا: الصبر على الأذى القولي.

ويمكن تلخيص ذلك من خلال النقاط التالية:

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٥٩، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٣١.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٦٢، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢١٤.

جاء في سورة المزمل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على إيذاء كفار مكة بالقول اللاذع منهم، مع تسليته ببيان عاقبتهم في الآخرة إن لم يرجعوا عن طغيانهم، ومحاولات استفزازهم لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزّمل: ١٠-١٣].

فقد ذكرت هذه الآيات أنه لما اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم ربّه جل جلاله وكيلًا وحسيبًا؛ فإنه يتوجب عليه أن يحبس نفسه عن الضجر مما يقولون، كما أمر من الله تعالى؛ فهذا تمام التفويض بإصلاح أمره على نحوٍ أعظم من إصلاحه أمور نفسه، ثمّ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل الله تعالى أمرًا آخر، وهو أن يترك مخالطة أولئك الذين يتلسّنون عليه صلى الله عليه وسلم؛ فذلك هو الهجر الجميل، ومثله آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقد اختلف المفسرون في نسخ هذه الآية من عدمها، ويميل البحث إلى رأي من قال: إنها غير منسوخة، وإنها محمولة على مقتضيات مصلحة الدعوة بما يتلاءم مع روح السماحة.

ثم بيّن الله تعالى أنه لا حاجة بذلك القول الذي بدر من المكذبين من أهل التنعّم، ومهّلهم مدة قليلة إلى يوم بدر، فتحتمل كلمة (ذرني)، معنى: ارض بي يا محمد لعقابهم، وهذا يبين عظيم سماحة الإسلام مع المؤذين له، ثم ذكر ربنا جل جلاله كيفية عذابهم عنده فقال: إن لدينا في الآخرة ما يقابل تنعّمهم في الدنيا، فأولها- القيد الثقيل عليهم، وثانيها- الجحيم، وثالثها: الطعام الذي يغصّ الإنسان، وهو طعام الزقّوم والضريع، ورابعها: سائر أنواع العذاب[1].

وكلّ هذا الوعيد هو في الآخرة؛ لما يترتب على ذكره في الآية من بيان روعة السماحة، عبر الصبر على الأذى، ففي الآيات الكريمة توضيح لا تأويل فيه، بأنّ الله تعالى أمهلهم في الدنيا إلى غزوة بدر، وإلى الآخرة؛ لإعطائهم الفرصة الكافية للتوبة.

حاول أولئك المشركون التشكيك في الدين الإسلامي، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه لجأ إلى الله تعالى أن يبين الحق، وأن تمضي الدعوة على خير وجه، ولم يكن في بال الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو على قومه، أو

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٨٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤٥.

يدعو الله تعالى أن يهلكهم، وهذا كان عبر آيات عديدة.

منها قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

حيث جاء في سبب نزولها عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما-، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس، ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فتوجه نحو الكعبة».

وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم رجل، ثم خرج بعد ما صلى، فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد: أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه توجه نحو الكعبة؛ فتحرف القوم، حتى توجهوا نحو الكعبة»[1].

وإن سبب نزولها كافٍ لبيان عظيم السماحة التي حظيت بها شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم يشككون في تبعيته صلى الله عليه وسلم لربه جل جلاله، وذلك من خلال توجهه صلى الله عليه وسلم جهة بيت المقدس في القبلة، على اعتبار أنها هي قبلتهم، وكأنه صلى الله عليه وسلم يتبع لهم، فما كان من رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن دعا الله تعالى متوجهًا نحو السماء، بأن تكون القبلة نحو المسجد الحرام، وإذا باليهود يطعنون في ذلك، عبر سفهائهم من الناس، وهم مشركو العرب، من خلال قولهم ما الذي جعلهم يحوّلون قبلتهم التي كانوا عليها؟!

فتجيب الآية القرآنية في أروع معاني السماحة، دونما سبٍّ، أو قذف، بأنه لله تعالى ما في المشرق وما في المغرب، وأنه عز وجل يهدي إلى الاستقامة الحقة من يشاء من عباده، سواءٌ أكانت هداية إرشاد أم هداية توفيق، وبعد تشكيكهم بأنه لا أجر للصلاة التي أقامها المسلمون حال كونهم متجهين نحو بيت المقدس في أكثر من سبعة عشر شهرًا، بيّن الله تعالى أنه لا يضيع الصلاة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ١/ ٨٨، رقم ٣٩٩.

حيث سمّاها القرآن (إيمانكم)[1].

ثانيًا: الصبر على الأذى الفعلي:

بيّنت آيات عديدة جوانب من صبر الدعاة على الأذى الذي وقع فعلًا أو كاد أن يقع عليهم، وسنقف إن شاء الله على نموذج قرآنيٍّ منها؛ فقد جاء في سورة النحل، التخيير بين المماثلة في العقوبة لمن عاقب بعضًا من المسلمين، أو تسبب في إيذائهم، وبين حبس النفس عن تلك المماثلة في العقوبة، وذلك من خلال الصبر على ذلك، واحتساب الأجر من الله تعالى وحده، على أن يكون الصبر ناتجًا عن إرادة حقيقية ممن وقع عليه الأذى، أو أراد بذلك مصلحة دعوية مرجوة، فعندها يكون الصبر خيرًا وأعظم أجرًا.

ثم أكّدت الآيات أن الصبر مأمور به خير الدعاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن صبره ملتصق بحكمٍ دعوية، لا حصر لها، ثم يبين الله تعالى جانبًا قلبيًّا رحيمًا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الحزن العميق على أحوال أولئك المكذبين، ومآلهم في الدنيا والآخرة.

وقيل: الحزن على قتلى أحد.

ثم بيان الرحمة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم بألّا يضيق ذرعًا في أقواله وأفعاله وأحواله من المكر الذي يمارسه الأعداء المكذبون، الذي إن كان مكرهم لتزول منه الجبال[2].

والآيات هي: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧].

وعلى هذا تكون الآيات مدنية، وقال الكثيرون: إنها منسوخة بالآية التي بعدها[3].

والراجح أنها غير منسوخة، وإنما هي محمولةٌ على التخيير مع أفضلية الصبر، وبقاء مصلحة الدعوة ضمن الضوابط الدينية الدعوية مقياسًا صالحًا في التخيير بين مماثلة العقوبة، أو الصبر على تلك العقوبة.

٣. الإحسان إلى المسيء.

إن الإحسان إلى من يسيء إلى الداعية -سواء أكانت شخصية، أم قادحةً في دعوته ضمن الضوابط- سمة الأنبياء الصالحين، والأولياء المخلصين.

وتناولت آيات قصة ابني آدم بعض صور الإحسان إلى المسيء في طياتها، حينما

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٠٤، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ١٨٣.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ١٩٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن، العز بن عبد السلام ٢/ ٢٠٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٩٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٠١، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٠٧.

تقبّل الله تعالى قربان أحدهما، ولم يتقبّل من الآخر.

فبدل أن يبارك الآخر للذي تقبّل الله تعالى منه، ومن ثم يراجع حساباته مع ربه، إذ به يفكّر في القتل والاستئصال للآخر، الذي هو أخوه، فأقسم له أنه سيقتله بأساليب توكيد متنوعة، فإذ بهذا الطيب، يقول: إنما يتقبّل الله تعالى من المتقين الذين خافوه، وعملوا له حسابًا.

ثم يقول هذا الطيب الذي تقبل الله تعالى قربانه لذلك المجرم مقسمًا له: إن بسط إليه يده -كناية عن القتل مع سبق الإصرار والترصد-؛ فلن يماثل هذا الإجرام، والسبب عظيمٌ جدًّا، وهو الخوف من الله تعالى رب العالمين، فإنه يريد أن ينال هذا المجرم إثمه مع إثم ذات المجرم؛ فعندها يكون من أصحاب النار.

ثم يبين ذلك الطيب أن ذلك العقاب جزاء كل ظالم، فما كان من ذلك المجرم إلا أن قتله، رغم هذه الدعوة التي تظهر أروع معاني الإحسان إلى من يفكر في أسوأ معاني الإساءة، وهي القتل العمد، وهناك كان الخسران المبين[1].

والآيات هي: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠].

ولقد مرّ -في معرض الآيات السابقة- الحديث بالتلميح أو التصريح عن ذلك الإحسان إلى المسيء، الذي يعدّ جزءًا لا يتجزّأ من سماحة الإسلام الشاملة لجميع مناحي الدين، ولا عجب؛ فهي تطبيق عمليٌّ لرسالة الإسلام، بما يعزز حب الدين في قلوب الناس جميعًا.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧٨، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٢.

السماحة مع المخالفين للدين

أولًا: المفاصلة العقدية:

إن الإسلام يحمل في ثنايا روحه سماحةً حتى مع المخالفين للدين، ومن ذلك أن المفاصلة العقدية، وعدم المداهنة أو المجاملة لهم، تحمل في طياتها سماحة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

جاء في سبب نزول السورة عدة أقوال، وكلها سليمة الدراية؛ لأن المعنى حمّالٌ لها، وهي تناسب السياق.

وسنذكر إن شاء الله سببًا، وهو: «أنّ قريشًا قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: إن سرّك أن نتبع دينك عامًا، وترجع إلى ديننا عامًا؛ فنزلت هذه السورة»[1].

واختلف المفسرون في هذه الآيات، سيما الآية السادسة في نسخها من عدمه، والذي يترجّح أن هذه الآيات غير منسوخة، وإنما هي محمولة على المفاصلة العقدية.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وبالتالي فإن المعنى يكون: بأن السورة تبدأ بنداءٍ من الله تعالى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأجل أن يخاطب الكافرين، وإن كان في هذا الخطاب استهزاء ضمني؛ بما آلوا إليه من كفر، وبالتالي عاقبة وخيمة من جهة، إلا أن هذا الخطاب يحمل السماحة في إعطاء فرصة الخطاب الدعوي الرباني من جهة أخرى.

ثم إن فحوى رسالة الخطاب هو المفاصلة العقدية، وذلك من خلال أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يسلك عبادتهم ولا يقتدي بها، ثم يوجه الخطاب مباشرة لهم من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، بما أمر به من قبل الله تعالى، وذلك أن هؤلاء الكفار لا يعبدون ما يعبد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهم لا يقاتلون في الدنيا، طالما التزموا بالضوابط المتفق عليها، مع عدم رفع العقاب عنهم يوم القيامة.

ثم يرجع التذكير لهم؛ لقصد التفاتهم إلى الحق، بأنّ سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يعبد ما يعبدون، مهما كانت المدة، فذلكم ولاء وبراء، ليس بيده أن يتنازل، وليس من حقه أن يتعاطى في تلك القضية المفصلية، ثم تعيد الآية لأجل الترسيخ

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٩٩.

في القلوب والأذهان، بأنهم لا يريدون أن يعبدوا ما يعبد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تحمل الآية الأخيرة من السورة تهديدًا ضمنيًّا لهم، مع سماحة عظيمة عبر الإمهال؛ لأجل أن يتوبوا، فيقول الحق تبارك وتعالى: لكم شرككم الكفري، ولي توحيدي الإسلامي، وبالتالي فإن الكل سيقف بين يدي الله تعالى، فليحرص على حجته، وكيف سيرد على خالقه جل جلاله[1].

ثانيًا: البر والقسط:

عالج القرآن الكريم جوانب عظيمة، تدلل على عظيم الأخلاق التي دعا إليها الدين، ومن بين هذه الأخلاق التي عالجها البر والقسط.

فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد خصّ القرآن الكريم الأمر بالقسط مع المخالفين للدين، وذلك كما ورد في سورة الممتحنة الأمر الربانيّ بالبر والقسط لأهل الكفر، فقد قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، -٩].

فقد ذكرت الآيتان أن الله تعالى لا يحضنا على قتل المسالمين من الكفار من أهل مكة وغيرها، الذين لم يخرجونا من ديارنا، ونحن مطالبون تجاههم أن نبرّهم ونقسط إليهم، فعلينا أن نفرق بين المعتدي والمخرج من الديار، وبين المسالم، فذلك هو القسط الذي أمرنا الله تعالى به، فالمعتدي والظالم وجبت على المسلمين مماثلتهم بعداوتهم، والبار والمقسط وجبت مماثلتهم بالبر والقسط[2].

ونلاحظ في هاتين الآيتين أن الآية الأولى ذكرت المسالمين مقترنًا معها البر والقسط، وذكر في الآية الثانية المعتدين مقترنًا معها النهي عن توليهم، رغم أن التولي لهم منهيٌّ عنه مع المسالمين أيضًا؛ لأن البطش والظلم الذي قد يقع من المعتدي؛ يجعل إمكانية التولي لهم عند مرضى القلوب واردة.

وإن كلتا الآيتين تبينان عظيم سماحة

(١) انظر: الصحيح المسبور، حكمت بن بشير بن ياسين ٤/ ٦٧٦، أوضح التفاسير، محمد الخطيب ص٧٦٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٢٢، لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٥٧٢.

الإسلام العظيم، سيما مع المخالفين لدين الإسلام؛ مما يعزز في قلوبنا جميعًا وجوب الافتخار بهذا الدين.

الفرق بين السماحة والولاء مع المخالفين للدين:

أهل الحق عمومًا قائمون على تبليغ رسالة الإسلام، وتعليمه للناس كافة، وتطبيقه في شتى مجالات الحياة، وليس معنى هذا أن يستكين المؤمن إلى أولئك المرجفين أو الأفّاكين، أو أن يداهنهم، فإن السماحة تعني: الصبر على الأذى مع علم أهل الحق أن الله تعالى على نصرهم لقدير، وفي حال قوتهم؛ فإن العفو سلاحهم، مع وعيهم بضرورة هيبة الدعوة إلى الله تعالى، وسيركز البحث هنا على بيان الفرق بين السماحة والولاء مع المختلفين في الدين، وذلك فيما يأتي:

- سبقت الإشارة إلى أنه جاء في سورة آل عمران الحديث عن مساومة مكريّةٍ عرضها يهود خيبر على يهود المدينة، بأن يظهروا الإيمان بالقرآن أول النهار، ويكفروا آخره، مع طمأنة يهود خيبر ليهود المدينة؛ بأنه لم يؤت أحد من الخلق جميعًا مثل ما أوتي اليهود، وبالتالي فإن يهود خيبر أحاطوا ذلك المكر بشتى مقومات السلامة على حسب ترتيبهم من أن يتأثر أحد من اليهود المطلوب منهم أن يخادعوا المؤمنين بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ودعوته الحقّ، فلم يكن الرد القرآني مداهنة، ولا تنازلًا، وفي المقابل لم يكن الرد قاصمًا لكل جوانب الدعوة لهم، وإنما عالج تلك المساومة من خلال أن هذا القرآن هو هدىً من الله تعالى، مبيّنًا زيف ما يقولون، ثم بيّن الله تعالى عبر خطابه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن فضل الله -الذي هو الإسلام- إنما هو بيد الله تعالى، يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم[1]، وبالتالي فإن وضوح الرؤية -بين حال المخادعين، وحال المؤمنين- لم يمنع من دعوتهم إلى الله تعالى، رغم ما يمكرون من جهة، ولم يجعل السماحة تنجرّ إلى مسامحة الباطل ومداهنته من جهة أخرى، فالميزان الإيماني حسّاس، لا يقدّره إلا من أنار الله تعالى قلبه بالإيمان.
- جاء في مطلع سورة القلم البيان الواضح للخلق العظيم الذي تمتع به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد استغلّت الكفار ذلك بمحاولات جعله يلين لهم، فعندها يلينون، كونهم حققوا

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٢٩٥، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي ١/ ٢١٧.

ما يريدون، وذلك في الآيات التالية: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١-١١]. حيث تبدأ السورة بذكر النون الذي قيل عنه: الحوت الأعظم الذي على ظهره الأرضون السبع، وقيل: إنه من الحروف المقطعة التي استأثر الله تعالى بعلمه. ويقسم تعالى بالقلم الذي تكتب به الملائكة كتب الأعمال وما يؤمرون به، أو بالقلم الذي يكتب به البشر ما نزل من الكتب السماوية، وما وصلوا إليه من علوم، ثم يأتي جواب القسم من الله تعالى بأن سيدنا محمدًا ليس بنعمة ربه، -وهي الهداية إلى الإسلام- بمجنون، وهو ردٌّ ضمنيٌّ على كفار قريش، حينما رموه بالجنون، وتستكمل الآيات التسلية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك كونه له أجر غير منقطع، وأنه على خلق عظيم. ونلاحظ هنا أن أساليب التوكيد كثيرة؛ لزيادة طمأنة قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يبين الله تعالى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بأنه شتان بينك وبين أولئك الكفار البعداء، فستبصر يا محمد صلى الله عليه وسلم أنت وأمتك بأيكم الذي فتن؟، والجواب في الآية التي بعدها بأن ربك هو الأعلم بالذي ضل عن سبيله، وأن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وما دام الأمر قد وضح لك يا محمد صلى الله عليه وسلم ولأمتك؛ فلا تطع أولئك المكذبين من كفار قريش وغيرها، فهم قد ودّوا لو يلاينهم أو يداريهم؛ فعندها يميلون أيضًا إلى قوله ودينه، ولكن الدين لا يقبل التفاوض، ولا المداراة، فلا مجال للتغيير، أو التنازل عن الحق، فلا تطع يا محمد صلى الله عليه وسلم - والخطاب منسحب إلى أمته- كثير الحلف، كثير الإهانة من غيره، بأن يسودّ وجهه؛ فتكون عاقبته الذل والإهانة، فهو كثير الهمز، يعيب في شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم في غيبته، وهو يمشي بين الناس بالنميمة[1].

وهذه الآيات -كما كثير من النماذج القرآنية المماثلة- توضح لنا الدقة القرآنية في التعبير بما لا ينقص من قدر السماحة،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٤٥.

فهي منهج قرآني، لا انفكاك عنه، ومع ذلك فإن الولاء لله تعالى منضبط جدًّا، لا يستطيع أحدٌ أن يتقدم عليه إلا بما يرضي الله تعالى.

سماحة الإسلام في العلاقات الاجتماعية

سبقت الإشارة إلى أن سماحة الإسلام استوفت شتى المناحي، من بينها الاجتماعية، من خلال الحديث عن طبيعة العلاقة مع الوالدين، أو الآداب المرجوة من الأسرة، أو المجتمع، بما يظهر جانب السماحة في الإسلام، وسيدور الكلام هنا حول سماحة الإسلام في هذين الجانبين.

أولًا: سماحة الإسلام مع الأسرة:

وردت سماحة الإسلام في القرآن الكريم مع الأسرة عمومًا، إلا أنها أعطت مساحة بالدرجة الأولى للوالدين، وذلك في السياقات التالية:

١. في سياق الاقتضاء الرباني بوجوب عبادة الله تعالى وحده، وبالوالدين إحسانًا.

فقد ورد ذلك في سورة الإسراء، في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٥].

حيث تبين هذه الآيات الكريمة أروع

جوانب السماحة، فقد قضى ربّنا جل جلاله وأمر وألزم وأوجب ألّا يعبد أحدٌ إلا الله تعالى، وقرن الوالدين -قبل الأمر بالإحسان إليهما- ملتصقًا بذات الله تعالى؛ لأن الله تعالى هو الذي أوجد الإنسان، وهيّأ له السبب في وجوده، وهو الوالدان، وقد خص البر بالكبر أحدهما أو كليهما؛ لأنهما في تلك المرحلة العمرية بأمس الحاجة إلى المساعدة؛ وبالتالي فإن التشديد في هذه الآية في التقدير والتكريم للوالدين دالٌّ على عظيم السماحة، مع أولى الخلق بالرعاية والبر والإحسان.

إذ إنه لا يحق لأحد أن يتلفظ بأصغر ألفاظ التضجر، وهي أفٍّ، وما فوقها أولى بالنهي، وبالتالي فإنه ينبغي القول الكريم الطيب، وأن يتذلل وينكسر لهما، ويخفض الجناح، كناية عن الذل والخنوع، وأن يترحّم عليهما، كما ربياه حال كونه صغيرًا.

ثم ذكر أن الربّ جل جلاله هو الأعلم بما في النفوس، من اعتقاد الرحمة بهما، والحنان عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، فإن يكن هؤلاء الأولاد صادقين في نية البر للوالدين، فإن الله تعالى كان غفورًا للزلات، التي قد تصدر من الأولاد شرط الصلاح والتوبة[1].

ولفظة (قضى) بمعنى أمر، وبمعنى وصّى، كما ورد في القراءات التفسيرية لابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب رضي الله عنهم أجمعين، وكما ورد في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[العنكبوت: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾[الأحقاف: ١٥][2].

وتظهر روعة السماحة، في أهمية حفظ الفضل لمن كانا سبب وجود الإنسان، وهما الوالدان، اللذان أوضح القرآن الكريم كل جوانب البر لهما في كتابه، كما بينت هذه الآية والآيات الأخرى، التي ذكرنا شطرها في اللطيفة السابقة.

٢. في سياق بنود الميثاق، الذي أخذ على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن البند

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٣٧.

(٢) انظر: المصدر السابق.

الثاني من الميثاق هو الإحسان إلى الوالدين إحسانًا، وذلك بعد توحيد الله تعالى في ألوهيته، ومن الجميل في هذه الآية أن إعراب (إحسانًا) في هذه الآية أنها منصوبة على المصدرية، فهي مفعول مطلق للفعل المحذوف المقدّر بـ (تحسنوا)، المعطوف على الجملة (لا تعبدون إلا الله)، المضمر (أن) فيها، فيكون التقدير في الآية: (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بألّا تعبدوا إلا الله، وبأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا).

وفي سياق الآية حذف؛ لحكمٍ يعلمها الله تعالى، وقد جاء في بيان سبب ذكر الله تعالى، بعدها مباشرة، بأن الله تعالى هو الذي هيّأ الأسباب، وهي الوالدان[1].

٣. في سياق بيان المحرّمات.

جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

حيث جاء ذكر المحرمات التي حرّمها الله تعالى بصيغة النهي، في كل الجوانب المحرّمة المذكورة، إلا الوالدين، فإنها جاءت بالأمر بالإحسان إليهما، إذ لا يكفي أن يخبر به كعقوق محرّمة، بل ينبغي أن يبين حقهما بالكامل، عبر الإحسان إليهما، وليس مجرّد الأداء[2].

وأما باقي أفراد الأسرة، فقد ذكر القرآن الكريم الأمر بإعطائهم حقوقهم، ومن ذلك:

قوله تعالى في حق وأد البنات: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

حيث تذكر هاتان الآيتان الكريمتان خطر الوأد للبنات؛ فالموقف خاص بيوم القيامة، وبالتالي فإن التحذير من الوأد يأتي ببيان العاقبة الأخرويّة، ومن ثمّ يغلب على طابع السياق مخاطبة للضمير الإنساني.

وقد ذكر هذا التحذير في أكثر من موضع من القرآن الكريم، في سياقات متعددة، منها، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ولا تقتلوا أولادكم، سيما البنات بسبب الفقر؛ فإن الله تعالى تكفّل للآباء بالرزق في الكبر حالة الشيخوخة، وبالتالي للأولاد حالة الشباب؛ إذ إنه تكون البنت -بعد فضل الله تعالى سببًا لرزق الآباء[3]، كما جاء في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٣.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٩١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٧٧.

(٣) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي

سورة الإسراء بيان الكفالة الثانية للأولاد حالة الطفولة، إذ يكون الآباء شبابًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

فالنهي عن قتل الأولاد خشية الفاقة والفقر؛ فإن قتلهم كان إثمًا عظيمًا[١].

وجاء في حق الأقارب عمومًا، برفع الحرج عن إبداء زينة المرأة عند بعضهم: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فإن هذه الآية تبين جوانب من السماحة في العلاقة بين الأرحام؛ لأجل ألّا تشيع الرذيلة، وبالتالي إذا أمنت -عبر المحارم، وضمن الضوابط التي ذكرتها الآية وشرحتها السنة-؛ فعندها ما جعل الله علينا في الدين من حرج، فإن هذه الآية الكريمة عالجت الأمراض القلبية، والفعلية، وكافة أشكال المتاعب التي تنجم عن تلك المحظورات، بما يعزز السماحة في شتى مناحيها[٢].

ويمكن الوصول في خاتمة هذه الجزئية إلى نتيجة، وهي: أن القرآن الكريم عالج جانب السماحة مع الأسرة في شتى الجوانب، وترك للسنة النبوية شرح ما أجمل ذكره، ولأن دراستنا هذه تفسيرية قرآنية؛ فإننا اكتفينا بذكر ما أوضح القرآن ذكره، ومقاصده العامة، مع اليقين التام بأنه لم يخل جو السماحة في الأسرة، حتى في القسوة الظاهرة، فهي لأجل الرحمة.

ثانيًا: سماحة الإسلام مع المجتمع:

بيّن الله تعالى في كتابه أن المؤمنين الذين يحبّهم ويحبونه، من أخص خصوصياتهم أنهم أذلة على المؤمنين؛ لكنهم في نفس الوقت أعزة على الكافرين.

وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

٥/ ٢١٨.

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٢٧٨.

(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٦٠٧.

إن الله تعالى أنبأ في هذه الآية الكريمة عن قصة أبي بكر الصديق البطولية في حرب أهل الردة، فإن هذه الآية تفترض أنه إن ارتدّ أحدٌ عن الإسلام، -كالذين فرّقوا من المرتدين بين الصلاة والزكاة-؛ فإن الله تعالى سوف يأتي بقوم، أمثال أبي بكر الصديق، ومن تبعه بعد عزمه الأكيد، هؤلاء القوم يتمتعون بصفات، منها: أنهم أصفياء الصدور، ملتصقون بالله تعالى في شتى مناحي حياتهم.

وبالتالي فإن الله تعالى يحبهم، وتحصيل حاصل فإنهم يحبون الله عز وجل، وهم مع ذلك ليّنوا الجانب، في أقوالهم وهيئاتهم مع المؤمنين، وبالتالي يحافظون على سلامة المجتمع من التفكك، وتحصين الجبهة الداخلية للمؤمنين، وهم يتعالون عن الهفوات، التي قد تصدر من البعض.

وفي مقابل ذلك، فهم أشداء في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم على الكفار، فلا مداهنة ولا مجاملة لأولئك البعداء، ودليل ذلك أنهم يجاهدون في سبيل الله تعالى وحده، ولا يخافون لومة لائم من الناس عمومًا، وكل هذه الشمائل والصفات الخيّرة إنما هي بفضل من الله تعالى وحده، والله واسع عليم[1].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٧، تفسير الراغب ٤/ ٣٧٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٤٣.

وهذه الآية لا تتكلم عن جانبٍ حدث، أو سيحدث في حياته، وإنما تتكلم عن جانبٍ سيحدث بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فإن هذه الآية مدحٌ ضمنيٌّ لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومن ثم الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وجاء في لفظة (يرتدّ) قراءتان، هما (يرتدد) حيث قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي، و(يرتدّ) التي ذكرناها، حيث قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر[2].

وكلتاهما لغتان؛ حيث إنه من شدّد الدال وأدغمها؛ قرأ بها على لغة من لغات العرب، وكذلك من خفف الدال، ولم يدغمها، وحرّك الدّالين[3].

ويلاحظ أن هذه الآية فسّرت الرحمة المذكورة في آية الفتح بأنها الذلة، ففي قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

دليلٌ عمليٌّ على ضرورة أن يغلب على المجتمع المؤمن الرحمة فيما بينهم، والتي تعني الذلة، بأن يعفو بعضهم عن زلات

(٢) انظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد ص٢٤٥، المبسوط في القراءات العشر، ابن مهران الأصبهاني ص١٨٦.

(٣) انظر: معاني القراءات، الأزهري ١/ ٣٣٤، الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص١٣٢، الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي ٣/ ٢٣٢.

بعض، فهم فيما بينهم أولياء لبعضهم بعضًا.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وإن الرجولة الحقيقية كما تذكر الآية ليست في العزة على المؤمنين، بل في الذلة لهم، ومن ثمّ الشدة على الكفار، وعدم الخوف من لوم الناس لهم في جهادهم ضد الباطل، وبهذا تتجسّد السماحة بحقيقتها في المجتمع المسلم؛ إذ إن المؤمن يجتهد في أن تكون دعوته إلى ربه تعالى مشتملة على شتى معاني الحب والحنان والاحترام لكل أبناء المجتمع الإسلامي.

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٣].

فالقرآن الكريم منع الاستهزاء من المؤمنين لبعضهم بعضًا، ولا التنابز بالألقاب؛ فقد يكون ذلك موصلًا إلى الفسوق، ومنع كذلك الظن السوء بالمجتمع المسلم، مع ما يجره من تجسس، وغيبة.

وبالتالي فإن هذا كله يودي بحياة مجتمع الفضيلة، ولذلك فإن القرآن يستدرك ببيان أن معيار الأكرم هو الأتقى، وبالتالي لابدّ من التوحد بين أوساط المجتمع، فإن تقسيم المجتمع إلى شعوب وقبائل، لا يجمعه إلا الإيمان.

وعلى ذلك فإن جانب السماحة لا بد أن يسود هذا المجتمع؛ حتى يسود النظام الإسلامي الذي يستوفي شتى متطلباته عن طيب نفس من الجميع[1]، وهذا هو تحكيم الشريعة على حقيقتها.

لقد سطّر الإسلام أروع معاني إحسان الظن، والعفو عمّن أساء الظن، وليس أدلّ على ذلك من حادثة الإفك، وبالتالي فإن الله تعالى خلّد ذكر هذه القصة بتفصيلاتها في سورة النور، ومنها قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٩٧، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٢٦٣.

السماحة في الخصومات

أولًا: مقابلة الإساءة بالإحسان:

المجتمع المسلم متسامح فيما بينه بطبعه، ومن علامات السماحة، أنه يقابل الإساءة بالإحسان، وسيمثل هذا المطلب إن شاء الله نموذجًا قرآنيًّا يوضح معالم الإحسان في مقابل الإساءة، وذلك في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

حيث تبين هذه الآية أنه في سياق بناء المجتمع الإسلامي على أروع معاني إرساء الفضيلة، تبين هذه الآية الكريمة خلقًا عظيمًا، وهو العفو، فكما بينت الآية السابقة أن الكفار إن يدعوا من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يسمعوا، وهم ينظرون إليه صلى الله عليه وسلم، ولكنهم لا يبصرون الحق، وبالتالي عدم الالتزام في القلب، ولا في القول، ولا في العمل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته.

وتأتي هذه الآية الكريمة لتأمر النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم، على وجه الإلزام والإيجاب بالعفو، الذي هو من ألفاظ الأضداد، فهو محو سيئاتهم من ذاكرته صلى الله عليه وسلم، وفتح صفحة جديدة، وهو أيضًا العفو الذي هو بمعنى الفضل والزيادة، فالمقصود إذًا في هذه الآية الكريمة أن يأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الخير من حياة الناس في أخلاقهم وأعمالهم، في كافة أوساط المجتمع المسلم، وذلك بعد التصفية والتنقية، عليك أن تأمر بالمعروف كله، وحتى لا تتأثر نفسية الداعية سلبًا تجاه أهل السوء يجب الإعراض عن الجهلة، الذين يفسدون المجالس بسوء نية أو بسوء عملٍ، أو بكليهما[1].

ثانيًا: السماحة في الحقوق:

إن السماحة ما تركت مجالًا من المجالات إلا كانت الركن الأساس في روحه وجوهره، ومن ذلك الحقوق، وفيما يأتي ذكرٌ للسماحة في بعض الفروع الحقوقية:

١. القصاص.

من سماحة الإسلام أنه جعل القصاص حقًّا لمن وقع عليه الظلم بما يوجب حدًّا؛ لكنه ذكر ضابط القصاص، وهو ما يعني المماثلة في العقاب دون إسراف، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

فقد بينت الآية أنه لا يجوز قتل النفس

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ١٦٢، تفسير السمرقندي ١/ ٥٧٦.

عمومًا، فكلها حرّم الله قتلها إلا بحقها، وحق النفس في قتلها لا يكون إلا بإحدى ثلاث.

وهو ما ذكر في الحديث المتفق عليه، عن عبد اللّه، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (لا يحلّ دم امرئٍ مسلم، يشهد أن لا إله إلّا اللّه وأنّي رسول اللّه، إلّا بإحدى ثلاثٍ: النّفس بالنّفس، والثّيّب الزّاني، والمارق من الدّين التّارك للجماعة)[1].

وتبين الآية أيضًا أن الذي يقتل عمدًا من غير هذه المسوغات الثلاثة، فقد جعل الله تعالى له وليًّا، وهو ورثته مهما تعددت، وبالتالي يكون القاضي هو السلطان، يخير الأولياء بين القصاص من القاتل نفسه دون إسراف إلى غيره، أو الدية، وتسمى الدية في هذه الحالة عفوًا؛ لأنها محوٌ لحكم القتل الذي هو قصاص[2].

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فالعفو هنا ترك الدم، وبقاء الدية[3]، فالأمر حينها لأهل القاتل العمد بالأداء الحسن لهذه الدية، واتباع المعروف، أي: المطالبة بالدية من أهل المقتول[4].

٢. الدعاوي والقضاء.

قصة بني أبيرق، التي تدلل على عظيم سماحة الإسلام، وبقيت الآيات الاثنتا عشرة شاهدًا حيًّا على تلك السماحة، في أروع قسطٍ عرفه التاريخ.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٗا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس)، ٩/ ٥، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ما يباح به دم المسلم، ٣/ ١٣٠٢، رقم ١٦٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٤٠، أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٢٥٩.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٤٨.

(٤) انظر: المصدر السابق.

بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا
فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ
مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ
وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ
وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا
خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن
يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ
أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا
﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا
بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٠٥-١١٦].

عن قتادة بن النّعمان رضي الله عنه، أن بني أبيرقٍ بشرًا وبشيرًا ومبشّرًا، وكان أحدهم منافقًا يهجو بشعره أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ثمّ ينحله بعض العرب، ثمّ يقول: قال فلانٌ كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ذلك الشّعر قالوا: واللّه ما يقول هذا الشّعر إلّا هذا الخبيث، أو كما قال الرّجل، وقالوا: ابن الأبيرق قالها، قال: وكانوا أهل بيت حاجةٍ وفاقةٍ، في الجاهليّة والإسلام، وقد ابتاع رفاعة بن زيدٍ بضاعةً، فلمّا أصبح أتى رفاعة إلى قتادة بن النعمان، فقال: يا ابن أخي إنّه قد اعتدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا. قال: فتحسّسنا في الدّار وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرقٍ استوقدوا في هذه اللّيلة، ولا نرى فيما نرى إلّا على بعض طعامكم.

قال: وكان بنو أبيرقٍ قالوا ونحن نسأل في الدّار: واللّه ما نرى صاحبكم إلّا لبيد بن سهلٍ، رجلٌ منّا له صلاحٌ وإسلامٌ، فلمّا سمع لبيدٌ اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟

فواللّه ليخالطنّكم هذا السّيف أو لتبيّننّ هذه السّرقة، قالوا: إليك عنها أيّها الرّجل فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدّار حتّى لم نشكّ أنّهم أصحابها، فقال لي عمّي: يا ابن أخي لو أتيت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له.

قال قتادة: فأتيت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقلت: إنّ أهل بيتٍ منّا أهل جفاءٍ، عمدوا إلى عمّي رفاعة بن زيدٍ فنقبوا مشربةً له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردّوا علينا سلاحنا، فأمّا الطّعام فلا حاجة لنا فيه، فقال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (سآمر في ذلك).

فلمّا سمع بنو أبيرقٍ أتوا رجلًا منهم يقال له: أسير بن عروة فكلّموه في ذلك، فاجتمع في ذلك ناسٌ من أهل الدّار، فقالوا: يا رسول اللّه إنّ قتادة بن النّعمان وعمّه عمدا إلى أهل بيتٍ منّا أهل إسلامٍ وصلاحٍ،

يرمونهم بالسّرقة من غير بيّنةٍ ولا ثبتٍ، قال قتادة: فأتيت الرسول صلى الله عليه وسلم فكلّمته، فقال: (عمدت إلى أهل بيتٍ ذكر منهم إسلامٌ وصلاحٌ ترميهم بالسّرقة على غير ثبتٍ وبيّنةٍ).

قال: فرجعت، ولوددت أنّي خرجت من بعض مالي ولم أكلّم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في ذلك، فأتاني عمّي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال: اللّه المستعان، فلم يلبث أن نزل القرآن بهذه الآيات[1].

وقد حفل القرآن الكريم بذكر جوانب عديدة من السماحة في الخصومات، بما يعزز جانب الأخلاق الرفيعة التي حظيت بها دعوة الإسلام.

جزاء أهل السماحة في الدنيا والآخرة

باستعراض ما سبق يظهر أن روح السماحة كان في الجو العام للآيات القرآنية، وكان من الطبيعي أن يورث هذا الموضوع ثمرات لمن يلتزمون خط السماحة في دراستهم القرآنية، وفيما يأتي الحديث عن جزاء أهل السماحة في الدنيا والآخرة.

أولًا: الجزاء في الدنيا:

١. السمعة الطيبة، والمناقب الحسنة.

وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإن مفهوم المخالفة أن السمعة الطيبة والمناقب الحسنة، كانت بسبب سماحة الرسول صلى الله عليه وسلم، في تعامله مع المسلمين، رغم مخالفتهم لاجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم في قضية القتال داخل المدينة، أو خارجها يوم أحد، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم درسًا عمليًّا مؤلمًا بوجوب الالتزام بأمره صلى الله عليه وسلم، وعدم النزول عند آرائهم؛ لأنها النبوة، وما أن تكشّفت نتائج المعركة؛ حتى

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، ٥/ ٢٤٤، رقم ٣٠٣٦.
وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٢٦.

لان في القول، وأصبح يخفف عنهم، ويؤمر بالعفو عنهم والاستغفار، ومن ثمّ معاودة مشاورتهم؛ لكن إذا عقد العزم على القيام بالمهمة، فليقم بها، وليتوكل على الله تعالى وحده[1].

٢. دفع الأذى بجميع مناحيه عن أهل السماحة.

ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥].

فإن الصدع بالحق، والالتزام بما أُمر به النبي صلى الله عليه وسلم أكبر دليل على السماحة، فهم قد تجرؤوا في ارتكاب الباطل كثيرًا، والتبجح، ومع ذلك فالأمر للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بالانضباط العالي بتعاليم الحق، والبشرى له صلى الله عليه وسلم بأن الله تعالى كفاه المستهزئين، فذلك ثمرة من ثمرات السماحة التي تحلى بها خير الخلق، وحبيب الحق محمد صلى الله عليه وسلم[2].

٣. زيادة الإيمان في القلب.

فإن الصحابة رضي الله عنهم في حمراء الأسد حينما قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم، وهم كفار قريش، لم يضعف أملهم في الانتقام مما حدث في غزوة أحد، أو يداخلهم الرعب، وإنما لجأوا إلى الله تعالى، واكتفوا بالله تعالى حسيبًا ونصيرًا، فكانت النتيجة أنهم أصيبوا بالنعم الجمة، ولا يمسهم السوء، وأنهم هدوا إلى رضوان الله تعالى[3].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

الهداية إلى القول الحسن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣-٢٤].

٤. الوقاية من المكر الذي يحيكه الكفار.

كما في قصة مؤمن آل فرعون.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٠، الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١٩٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٣٩٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٣/ ٨١٧.

ثانيًا: الجزاء في الآخرة:

٤. الهداية إلى صراط الحميد، كما ذكرت الآية السابقة.

٥. الدخول في الجنة، كما سبقت الإشارة في قصة حبيب النجار.

٦. الرضا من الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

وغير ذلك من الفضائل التي تدلل على أن القرآن الكريم بيّن ثمرات أهل السماحة في الآخرة، كما بيّنها في الحياة الدنيا.

موضوعات ذات صلة:

الرحمة، العفو، اليسر

السمع

عناصر الموضوع

مفهوم السمع	٣٧٢
السمع في الاستعمال القرآني	٣٧٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٧٤
اقتران السمع والبصر	٣٧٧
السمع في حق الله عز وجل	٣٧٩
مسؤولية السمع	٣٨٠
أساليب ذكر السمع في القرآن الكريم	٣٨٣
مجالات السمع	٣٨٧

مفهوم السمع

أولًا: المعنى اللغوي:

السمع: مصدر سمع، والسمع: حِسّ الأذن[1]، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف: ١٩٥].

يقال: «سمعته وسمعت به، واستمعوه وتسامعوا به، واستمع إلى حديثه، وألقى إليه سمعه، وملأ مسمعيه ومسامعه وسامعته، وهو منّي بمرأى ومسمع. وسمّع به: نوّه به. وفعل كذا رياء وسمعة، وإنما يفعل هذا تسمعة وترئية، وذهب سمعه في الناس: صيته»[2].

والاستماع: الإصغاء بقصد الفهم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٠٤][3]، ومنه التسمّع: الإصغاء خفية؛ وهو مصدر تسمّع؛ أي: أصغى إليه خفيةً[4].

ويعتبر أحد الحواس الخمس المعروفة: السمع، البصر، الذوق، اللمس، الشم.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وقد جاء تعريفه في كتب الاصطلاح أنه: «قوة في الكائن الحي تدرك بها الأصوات بواسطة الأذن»[5].

وهذا على عمومه في الكائنات الحية، أما باعتبار تخصيص الإنسان فيمكن تعريفه بأنه: الحاسة التي وهبها الله للإنسان؛ ليتمكن بها من إدراك الكلام والأصوات.

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١/ ٥١١.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري١/ ٤٧٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٤) ٤ انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة أحمد مختار عبد الحميد عمر ٢/ ١١٠٨.
(٥) ٥ انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٢، التعريفات، الجرجاني، ص ١٦١.

السمع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سمع) في القرآن الكريم (١٨٥) مرة [(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٤	﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾ [الملك:٧]
الفعل المضارع	٦١	﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف:٨٠]
الفعل الأمر	١٣	﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ۝٢٥﴾ [يس:٢٥]
المصدر	٢٢	﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة:٩]
اسم الفاعل	٣	﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۝٢٢﴾ [فاطر:٢٢]
اسم المفعول	١	﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء:٤٦]
الصفة المشبهة	٤٧	﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١]
صيغة المبالغة	٤	﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢]

وجاء السمع في القرآن على ثلاثة أوجه [(٢)]:

الأول: سمع الصوت: ومنه قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

الثاني: سمع القلب وفهمه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١] يعني: لا يستطيعون سمعًا بقلوبهم وفهمًا للحق.

الثالث: الإجابة والقبول: ومنه قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:٣٨] يعني: مجيب الدعاء.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٥٨-٣٦١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب السين ص٦٣٤-٦٣٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ٢٦١-٢٦٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٢٥٧-٢٦٠، نزهة الأعين النواظر، ص٣٤٥-٣٤٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٢١-٢٢٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ البصر:

البصر لغة:

قوة في الكائن الحي تدرك المرئيات بواسطة العين[١].

البصر اصطلاحًا:

هو تلك القوة الربانية التي أوجدها الله في عيني الإنسان ليدرك بها ما حوله، وأودعها في قلبه وعقله ليميز بين الخبيث والطيب، ويختار لنفسه الطريق الصحيح.

الصلة بين السمع والبصر:

هناك فرقان بارزان بين السمع والبصر:

الأول: فرق في الآلة فهي في السمع: الأذن، وفي البصر: العين، وكلاهما يحتاج إلى العقل المدرك؛ ليدلا على الاصطلاح القرآني لهما، وبدونه تكون الدلالة فيهما على المعنى اللغوي فقط.

الثاني: في المدركات بهما؛ فالمدركات بالسمع الكلام والأصوات، والمدركات بالبصر الصور الهيئات.

٢ الاستماع:

الاستماع لغة:

سماع الكلام بقصد، والإقبال عليه؛ للاستفادة منه[٢].

الاستماع اصطلاحًا:

الإقبال بالسمع؛ للتفهم والاعتبار[٣].

الصلة بين السمع والاستماع:

في اللغة السمع يكون بدون قصد، بينما الاستماع مصحوبًا بقصد.

وقيل: السمع هو صفة موهوبة، والاستماع فعل مكتسب[٤].

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٤٦.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩، معجم الصواب اللغوي أحمد مختار عمر ١/ ١١٧.
(٤) انظر: المصادر السابقة.

٣ الإنصات:

الإنصات لغة:

يدل على السكوت والاستماع للحديث، يقال أنصت: إذا سكت سكوت مستمعٍ[١].

الإنصات اصطلاحًا:

هو سماع للكلام المؤدي إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما جاء في القرآن[٢].

الصلة بين السمع والإنصات:

يزيد الإنصات عن السمع؛ بكونه مصحوبًا بالنظر والاستدلال، زيادة على الفهم الأوليّ، فقد يفهم المرء الكلام فهمًا نافعًا بعد سماعه، لكنه إذا تأمله ونظر فيه؛ خرج منه بفوائد وأحكام زائدة.

٤ الإصغاء:

الإصغاء لغة:

والإصغاء: الإمالة[٣]، وكل شيء مال إلى شيء أو معه[٤]، ويقال: أصغى إليه برأسه وبأذنه: أمالها يسمع، والإناء: أماله؛ ليصب ما فيه[٥].

الإصغاء اصطلاحًا:

هو ميل القلب وهواه للكلام[٦].

الصلة بين السمع والإصغاء:

السمع هو القوة التي يسمع بها المرء الأصوات، من غير ميل سابق لمعناها، أما الإصغاء فهو استماع لما يهواه المرء.

وقيل: السمع: هو الصفة التي يستطيع المرء بها فهم الكلام النافع، وتدبره والانتفاع به، أما الإصغاء: فهو استماع كلام الباطل، والميل له ومحبته.

---

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٣٨.
(٣) العين، الفراهيدي ٤/ ٤٣٢.
(٤) كتاب الأفعال، ابن القطاع ٢/ ٢٥٦.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٥١٥.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٩.

٥ الصمم:

الصمم لغة:

الصمم آفة تمنع من السمع، وتضعفه، وأصله الصلابة، ومنه الحجر الأصم[١].

الصمم اصطلاحًا:

انعدام سماع الحق والخير والهدى على سبيل الاتباع والانتفاع[٢].

الصلة بين الصمم والسمع:

هي علاقة تناقض، فهو على النقيض من السمع لغة واصطلاحًا.

٦ الوقر:

الوقر لغة:

هو الثقل في الأذن، ويطلق على الثقل المحمول[٣]، «ويقال للذي يسمع بعض السمع، في أذنيه وقر»[٤].

الوقر اصطلاحًا:

ثقل عن فهم ما يتلى عليهم من القرآن، وما يدعوهم إليه النبي من الإيمان[٥] فهمًا ينفعهم.

الصلة بينه الوقر وبين السمع:

علاقة تضاد، فقد يجتمع للإنسان سمع ضعيف، وصمم ضعيف؛ فيكون سببه الوقر، وهو الثقل في الأذن، وفي الاصطلاح: يسمع الإنسان القرآن ويفهمه، لكن لا ينتفع به؛ فيكون بسبب ما جعله الله من الوقر في أذنه بسبب إعراضه.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٨٨، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٤٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٥١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٣٣١.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٢١٥، الصحاح، الجوهري ٢/ ٨٤٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣٢.

(٤) المخصص، ابن سيده ١/ ٩٢.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٠٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٠.

اقتران السمع والبصر

قرن الله عز وجل في القرآن ذكر السمع مع البصر المتعلقان بالإنسان في (٣٨) آية كريمة.

وقد قدم القرآن ذكر السمع على البصر في أكثر الآيات، مما يدل على الأهمية الكبرى للعمل الذي يقوم به السمع في حياة الإنسان تعلّمًا وتعليمًا.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون:٧٨].

وغيرها من مواضع.

وقد استنبط العلماء المعاصرون من تقديم السمع على البصر حِكَمًا عديدة، منها:

١. فضل السمع على البصر إذ تعتبر حاسة السمع أهم للإنسان من حاسة البصر؛ لأن الفرد الأعمى يعتبر معزولًا عن عالم الأشياء، أما الأصم فإنه يعتبر معزولًا عن عالم البشر[(١)].

٢. تأكيد الدور الذي تقوم به الأذن؛ إذ إن الاحساسات الصوتية التي يسمعها الإنسان بأذنيه تصل مستوى الوعي أحسن من تلك التي تصله عن غير طريقهما كالبصر مثلًا، والذاكرة السمعية أرسخ من الذاكرة البصرية[(٢)]، وما أجمل الوصف القرآني للدور الإيجابي الذي تقوم به الأذن في وعي المؤمن إذ يقول تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة:١٢].

٣. وفي تقديم السمع على البصر لمحة إعجازية طبية إذ ثبت علميا أن «جهاز السمع يتطور ويتكامل جنينيًّا قبل جهاز

(١) انظر: الإدراك الحسي البصري والسمعي، السيد علي سيد أحمد وفائقة محمد بدر، ص: ٢٥٣.

(٢) انظر: الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في السمع والبصر، صادق الهلالي، مجلة الإعجاز، ص: ٩-١٠.

البصر»[1]، فبعد تبصرنا في الحقائق العلمية التي عرفت حديثا في علوم الأجنة والتشريح والفيزولوجيا والطب اتضح لنا الإعجاز العلمي في الآيات الكريمة التي تقدم فيها السمع على البصر، وخلاصة ما قاله العلماء في هذا المجال: هو أن القرآن الكريم قدم حاسة السمع على حاسة البصر ليشير إلى حقيقة علمية تتعلق بزمن تكون حاسة كل منهما وتشكلها، فحاسة السمع تتكون وتتشكل قبل حاسة البصر حسب الآتي:

- جهاز السمع يتطور جنينيًّا قبل جهاز البصر، ويتكامل وينضج حتى يصل حجمه في الشهر الخامس من حياة الجنين الحجم الطبيعي له عند البالغين، بينما لا يتكامل نضوج العينين إلا عند السنة العاشرة من العمر.
- يبدأ الجنين بسماع الأصوات وهو في رحم أمه وفي الشهر الخامس من حياته الجنينية، ولكنه لا يبصر النور والصور إلا بعد ولادته.
- تتطور وتنضج كل المناطق والطرق السمعية العصبية قبل تطور ونضوج مثيلاتها البصرية بفترة طويلة نسبيًّا.

فكل الآيات التي تشير إلى خلق الإنسان ونشأته وذكر فيها السمع والبصر، قدم السمع على البصر؛ قد يكون -والله أعلم- الغاية منه إظهار هذا الإعجاز العلمي الذي لم نهتد لمعرفته إلا مؤخرًا بعد سبر غور الحقائق العلمية الحديثة التي أثبتت قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣][2].

ويلاحظ أيضًا أن القرآن الكريم يفصل عند كلامه عن السمع والبصر بين أداة الحس (العين والأذن)، وقوة الإدراك (السمع والبصر)، فعند كلامه عن أداة الحس العين والأذن يقدم العين على الأذن، وذلك لأن العين تقع أمام الأذن في صنعة الله في رأس الإنسان، وهما أداتان لنقل الإشارات الحسية السمعية والبصرية إلى حيث يتم إدراكها وفهمها داخل مراكز السمع والبصر في المخ.

فمثلًا يقول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ [المائدة:٤٥].

وأما إذا تكلم القرآن عن السمع والبصر

(١) انظر: المصدر السابق ص٧.

(٢) انظر: الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي، هيئة الإعجاز العلمي، جدة ١٤٢٧/ ٢٠٠٦، ط٣، ص: ١٧-٢٨.

كقوى مدركة فيقدم السمع، وذلك لأن مركز السمع يتقدم على مركز البصر داخل المخ البشري، وهنا موطن الإعجاز في تطابق الإخبار عن هذين الأمرين.

وخلاصة القول في الإعجاز المتعلق بآيات السمع والبصر: أن هذه الآيات «فصلت بين الأعضاء (العين والأذن)، وبين القوى المدركة (السمع والبصر) وفي صنعة الله ما يطابق ذلك، فهناك أعضاء حس لاستقبال المؤثرات الحسية، وهناك مراكز داخل المخ البشري تتم فيها عملية الإدراك والفهم لهذه المؤثرات الحسية.

وأيضًا من ناحية الترتيب نجد أن الحق سبحانه رتب الآيات : العين قبل الأذن، والسمع قبل البصر، في غالب القرآن وها هو العلم اليقيني قد أثبت أنه بينما تتقدم العين الأذن في رأس الإنسان، فإننا نجد عكس ذلك الترتيب بالنسبة للمراكز، فمركز السمع يتقدم مركز الإبصار في قشرة المخ البشري. إذن طابق كلام الله صنعة الله، إنه الإعجاز: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود:١]»[1].

السمع في حق الله عز وجل

من صفات الله تعالى وأسمائه السميع، وهذا الأمر من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، وقد دل على ذلك آيات كثيرة في القرآن الكريم، وقد ذكر الله تعالى هذا الاسم الكريم في القرآن الكريم ثمان وثلاثين مرة بصيغة فعيل منكرًا ومعرفًا: (سميع).

وذكر هذا الوصف بصيغة الماضي (سمع) والمضارع (يسمع) و (نسمع)، وصيغة التعجب (أسمع).

وقد جاء ذكر سمع الله تعالى مقترنًا بأمور هي:

١. اقترنت صفة السمع في معظم آيات القرآن بصفة العلم، بل تقدمت عليها[2]، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة:١٢٧].

٢. اقترنت أحيانًا صفة السمع بالبصر كما في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:١١].

٣. اقترنت صفة السمع بالقرب، كما

(١) انظر: الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي، هيئة الإعجاز العلمي، ص ٥١.

(٢) انظر: معجم كلمات القرآن العظيم، محمد عدنان سالم و محمد وهبي سليمان، ص ٦٠٧-٦٠٨.

في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾ [سبأ:٥٠].

ولعل اقتران صفة السمع بصفات البصر والعلم والقرب للدلالة على حضور هذه الصفة في كل آن وفي كل مكان، فكما أن الله تعالى يرى ويعلم كل شيء، وهو قريب من كل شيء، فهو كذلك يسمع كل شيء، سبحانه ما أعظم شأنه وما أجل سلطانه.

وقد ذكر الإمام البيهقي في كتابه الأسماء والصفات في: باب ما جاء في إثبات صفة السمع، أحاديثَ عديدة دالة على ثبوت صفة السمع لله تعالى[1].

ومنها: عن عائشة رضي الله عنها قالت: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١])[2].

مسؤولية السمع

إن الله تعالى وهبنا نعمًا كثيرة لا تحصى، ومنها نعمة السمع التي تستحق منا شكره عليها، ولكن قليلًا من الناس من يشكر الله على هذه النعم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [المؤمنون:٧٨].

وقد حملنا الله مسؤولية تجاه هذه النعمة التي سيسألنا عنها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦].

لذا فمسؤوليتنا تجاه السمع تكون بأن نستخدمه في الأمور النافعة لنا في دنيانا وأخرانا، وأن نصونه عما يضرنا في دنيانا وأخرانا.

أولًا: استخدام السمع في الأمور النافعة:

ومن ذلك:

- **استخدام السمع في التعلم والتدبر وأخذ العبرة.**

جعل الله السمع وسيلة أساسية في التعلم وتلقي العلوم، ولولاه لما استطاع الإنسان أن يتعلم العلم النافع. وجعل الله السمع أيضا وسيلة لإدراك عظمة الله وأخذ العبرة عبر إدراك آياته في الأنفس وفي الآفاق أو

(١) انظر: الأسماء والصفات، البيهقي، ص ٢٨٨-٢٩٢.

(٢) علقه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وكانه الله سميعًا بصيرًا)، ٩/ ١١٧، وأخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، ١/ ٦٧، رقم ١٨٨.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ١٧٥.

في التاريخ، فقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم:٢٣].

فالنوم ليلًا أو نهارًا هو من الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه، وطريقة معرفة كونه آية من آيات الله هو الاستماع لأهل العلم والاختصاص، ولا يتم ذلك إلا بحاسة السمع، وكذلك فمن لم يتأمل آيات الله في النوم فهو كالنائم الذي لا يسمع.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة:٢٦].

فقال: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لأن طريقة معرفة إهلاك القرون الأولى إنما وصل إليهم عن طريق السمع، وليس عن مجرد التفكير والاستنباط، فمن كانت له أذن واعية يتعظ ويهتدي.

* **حث المؤمنين على الاستماع للقرآن الكريم وطاعة أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.**

أي كتاب أجدر من كتاب الله تعالى بالاستماع إليه والتأمل فيه وتدبره والعمل به؟

ولا يكون ذلك إلا بالاستماع إلى آياته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ومدح الله المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨].

ومدح الله تعالى وفد النجاشي الذين استمعوا للقرآن وآمنوا به، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣].

وبالمقابل ذم الله تعالى الذين لا يستمعون للقرآن فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية:٧-٨].

وقال أيضًا: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء:٢].

وإن قسمًا من هؤلاء الكافرين ينهى عن الاستماع للقرآن، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت:٢٦].

ومن سمات المؤمنين أنهم بمجرد سماع أوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فإنهم يطيعون.

قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [التغابن:١٦].

وقال تعالى أيضا: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور:٥١].

خلافًا للكافرين الذين ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣].

ثانيًا: صيانة استخدام السمع في الأمور الضارة:

- **صيانة السمع عن الغيبة وإشاعة الأخبار الكاذبة.**

جعل الله عرض المسلم محرمًا على غيره من المسلمين، فلا يجوز قدح المؤمنين وذمهم وخصوصًا عند غيابهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢].

فمن سمع الغيبة يشترك مع المغتاب في أكل لحم أخيه ميتًا.

ومن باب الحفاظ على عرض المسلم أن لا يتكلم المرء بكل ما ينقل له عن المسلمين، بل عليه أن يتأكد ويتحرى قبل أن ينقل أي كلام، ولهذا قال الله تعالى معاتبًا الذين سمعوا حادثة الإفك وأشاعوها، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور:١٦].

وكذلك فإن المسلم عليه أن يتحرى كل ما ينقل إليه من الناس الفاسقين.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات:٦].

وقد مدح الله نبيه صلى الله عليه وسلم لما ذمه المنافقون بأنه يصدق كل ما يقال له، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ [التوبة:٦١].

فالمؤمن أذن خير ينقل الخير ولا ينقل الشر، ويتحرى في نقله.

- **صيانة السمع عن الاستماع للخائضين في ذم الدين الإسلامي.**

نهى الله تعالى المؤمنين أن يجلسوا في مجلس فيه كفر بالله وآياته، أو فيه استهزاء بأي شيء متعلق بالإسلام، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء:١٤٠].

فالمسلم يصون سمعه عن مجالسة المفسدين في الأرض الذين يذمون الإسلام والمسلمين بإعلامهم الكاذب، ويحبون

أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، ويذيعون الأخبار الكاذبة عنهم، ويخوفون المؤمنين من تطبيق أحكام الشريعة وغيرها، قال الله تعالى يذم المنافقين الذين يفشون أسرار المؤمنين لأعدائهم: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣].

ومن هؤلاء الأشرار ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان:٦] فيصد الناس عن دين الله وطاعته، وما يقرّب إليه من قراءة قرآن وذكر الله، وذلك بالغناء والاستماع له، وبكل ما كان من الحديث ملهيا عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه أو رسوله، فعن مجاهد: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال: الغناء والاستماع له وكل لهو.

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال: هؤلاء أهل الكفر، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان:٧].

فليس هكذا أهل الإسلام، فسمع المؤمن يشبه النحلة التي تقع على الزهور فتخرج منها عسلا صافيا فيه شفاء للناس، وأما المنافق والكافر فسمعه كالذباب لا يقع إلا على الأوساخ.

أساليب ذكر السمع في القرآن الكريم

تنّوعت أساليب القرآن الكريم في الحديث عن السمع، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أسلوب المدح:

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

فقد مدح الله تعالى أصحاب العقول والحجا، الذين يستمعون القول، ويفهمون ما سمعوه، ويستثمرون فهمهم في العمل الصالح، ويتبعون أرشده وأهداه، وأدله على توحيد الله والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القول الذي لا يدل على رشاد، ولا يهدي إلى سداد، فأولئك وفقهم الله للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن إصابة الحق ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع[1].

وجعل القرآن من صفة المؤمن الإجابة لحكم الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويتعرض للتعبير عن ذلك بقولهم: سمعنا وأطعنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(١) جامع البيان ٢٢/ ٢٤٥.

[النور: ٥١].

ومن صفات المؤمنين: التأثر والخشوع عند سماع القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

ثانيًا: أسلوب الذم:

ذم القرآن أولئك الذين لا يعملون بما سمعوه من حق، وجعلهم كالصمK بل في دركة أدنى من الحيوان ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

بل جعل القرآن من لا يؤمن بما سمع من الحق كالميتK قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠-٨١]، فالله تعالى يعلم نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأنه ليس بهادٍ عن الضلالة من أعماه الله عن الهدى والرشاد، وأمات قلبه، ولا يمكنه أن يسمع إلا من يصدق بآياته؛ فهم مسلمون مطيعون مستجيبون لما دعوتهم إليه[1].

وقال الواحدي: «إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه من التوحيد؛ كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، وكالصم الذين لا يسمعون، وما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان»[2].

ثالثًا: أسلوب الأمر:

أتى ذلك في آيات عديدة مثل قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ٩٣].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بني إسرائيل بالأخذ بما نزل في كتابهم بثبات وعزم وفاعلية، ثم أمرهم بالسمع الذي يفيد الطاعة المباشرة، واختلف السياق حينما تحدث القرآن عن المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالأسلوب نفسه فقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦] فالفرق هنا أن الأمر بالسمع جاء بعد الأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة.

وأما خطاب بني إسرائيل فكان الأمر فيه مشددًا ومؤكدًا بتذكيرهم بعهد الله عليهم بالأخذ بأوامر التوراة بقوة ونشاط وجد والاستماع والطاعة لما فيها من أوامر إلا أن بني إسرائيل تعنتوا في طاعة نبيهم موسى عليه السلام فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

(١) قال ابن جزيّ الغرناطي: «أكد عدم سماعهم بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾؛ لأن الأصم إذا أدبر وبعد عن الداعي، زاد صممه وعدم سماعه بالكلية».
انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزيّ ٢/ ١٠٧.

(٢) الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٨٤.

[البقرة: ٩٣].

ويأمر الله تعالى المؤمنين بالاستماع والإنصات إلى آيات الله عند ما تتلى عليهم؛ ليتدبروها، ويتفكروا بها؛ طمعًا في أن تتنزل عليهم رحمة الله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وكذلك يأمر الله تعالى الناس مؤمنهم وكافرهم أن يستمعوا المثل من أمثاله العجيبة، التي يضربها الله تعالى في القرآن؛ لإثبات وحدانيته وقدرته على الخلق والإبداع؛ فيؤمن به المؤمنون، وتقوم به الحجة على الكافرين، وليثبت لهم انتفاء ألوهية من سواه سبحانه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فالخلق كلهم ليسوا فقط عاجزين عن خلق ذباب، بل هم أضعف من ذلك، إن سلبهم الذباب شيئًا لا يستطيعون إرجاعه؛ لأنه تحلل بمجرد امتصاص الذباب له، فمن عجز عن فعل ذلك؛ فهو عاجز -من باب أولى- أن يخلق، فإن ثبت عجزه؛ ثبت أنه ليس بإله، فكيف له أن يدعي الألوهية من دون الله تعالى ؟! ومن هنا كان جديرًا بكل الناس أن يستمعوا لهذا المثل؛ ليعتبروا.

رابعًا: أسلوب النهي:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

فجاء النهي عن أن يكون المؤمن مثل أولئك الذين أنعم الله عليهم بنعمة السمع، بيد أنهم عطلوها؛ بعدم اتباعهم للحق؛ فكأنهم لا سمع لهم أصلًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣].

أما المؤمنون فمن صفاتهم سماع أوامر الله تعالى وطاعة تلك الأوامر؛ ولهذا مدح الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

خامسًا: أسلوب التوكيد:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أكد كلامه عن وسائل المعرفة الإنسانية السمع والبصر والفؤاد بـ(إن)، و(كل)، والجملة الاسمية؛ وذلك لتمكين المعنى في نفوس المخاطبين، وهو أن وسائل المعرفة والإدراك العظيمة هذه سيسأل عنها الإنسان يوم القيامة.

ونجد أسلوبًا آخر للتوكيد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

فقد أكد الجملة بضمير الشأن (هو)؛ ليفيد القصر والاختصاص بأنه تعالى وحده وهب الإنسان وسائل المعرفة «وإنما خص السمع والأبصار والأفئدة؛ لأنه يتعلق بها المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها، ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم، ومن لم يعملها فيما خلقت له؛ فهو بمنزلة عادمها، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها، وأن لا يجعل له ندّ ولا شريك»[1].

سادسًا: أسلوب الاستفهام الإنكاري:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

فهنا أنكر على المشركين عدم استثمارهم لنعمة السمع في إدراك الحقائق الكونية والتفكر فيها، ومعرفة السنن الإلهية؛ كي يتعظوا بها، ولا سيما أن حاسة السمع جاءت في سياق الحديث عن الليل الذي تستخدم فيه هذه الحاسة أكثر من غيرها من الحواس.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

فقد أنكر على الكافرين عدم أخذهم العبرة والعظة[2] بما سمعوه من قصص الأمم السابقة، التي أهلكها الله تعالى؛ لعصيانها وإنكارها رسالة الأنبياء عليهم السلام.

سابعًا: أسلوب القصر بـ(إنما):

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

فهنا استخدم أسلوب القصر بإنما؛ لحصر الاستجابة لأوامر الله تعالى في الذين يستفيدون من نعمة السمع حق الاستفادة، ويوظفونها في معرفة المعبود جل جلاله وعبادته كما شرع، أما الكفار الذين حرص النبي على هداهم؛ فلا وسيلة كي يستجيبوا ويؤمنوا به؛ لأنهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون؛ فهم موتى القلوب كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠].

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٩٨-١٩٩.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٢٣.

فكما أن الله تعالى هو وحده قادر على أن يبعث الموتى من قبورهم، فهو وحده تعالى قادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان، أما أنت يا محمد؛ فلا تقدر على ذلك.

وأما وجه تشبيه الكفرة بالموتى؛ فلأن حياة الروح بالعلم ومعرفة الخالق سبحانه وتعالى كما أن حياة الجسد بالروح[1].

ثامنًا: أسلوب النفي:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[الأعراف: ١٧٩].

نفى الحق سبحانه وتعالى عن أن يكون للكافرين سمع يرشدهم لمعرفة الحق، واتباعه، وجاءت صيغة الفعل بالمضارع للدلالة على تجدد هذا الأمر، وحدوثه عند هذا الصنف من الناس الذين ستروا نعمة الله بالكفر.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٠.

مجالات السمع

تعددت مجالات السمع في القرآن، وهذا ما سوف نبينه فيما يأتي:

١. ذكر السمع في مجال ذكر نعم الله على الإنسان.

فجعل الله له السمع والبصر والفؤاد؛ وذلك حتى يشكره هذا الإنسان، لا أن يكفره.

وتأتي أهمية سمع الإنسان في فهمه لأوامر الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا بين القرآن الكريم لنا نوعين من الناس:

النوع الأول: المؤمنون الذين يستمعون للقرآن وللنبي صلى الله عليه وسلم، ويتبعونهما فيما أمرا ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١].

وإذا ما استمع هؤلاء المؤمنون للقرآن يتلى؛ خشعوا، أو بكوا؛ ولهذا يكون جزاؤهم الجنة، حيث لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا ولا كذابًا، ولا يسمعون حسيس جهنم، وهم عنها مبعدون.

ومن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم إذا استمعوا لشيء نافع؛ يتبعونه ويطبقونه فورًا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[الزمر: ١٨].

وهم أيضًا أبعد ما يكونون عن سماع

الغيبة أو النميمة أو غيرها، مما حرمه الله تعالى، فآذانهم آذان واعية، تصغي للحق وتعمل به، قال الله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

وقال تعالى يمدح مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾[الجن: ١٣].

والنوع الثاني: الكفار والمنافقون والفاسقون، الذين يسمعون للقرآن وللنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعملون بما سمعوه، ويستهزئون بما سمعوه وبالنبي صلى الله عليه وسلم، وينهون غيرهم عن سماع هذا القرآن، ويأمرونهم بأن يلغوا فيه، ولهذا كان سمعهم نقمة عليهم؛ فشبههم الله تعالى بالدواب والموتى وأصحاب القبور.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وعاقبهم في الآخرة بسماعهم لزفير جهنم، وعندها يندمون؛ لأنهم لم يستفيدوا من أسماعهم، ولا تحين مندم.

٢. الأمر بالاستماع إلى آيات الله المتلوة وتدبرها.

قد أمر الله تعالى المؤمنين في كتابه العزيز بأن يتلوا القرآن حق تلاوته، وأن يستمعوا له وينصتوا، وهذا الاستماع هو استماع تدبر وفهم، يتبعه عمل وخشية من الله تعالى ومحبة له سبحانه وتعالى، ومن ثمّ ينتج عن ذلك أمة؛ تكون خير أمة أخرجت للناس، إنها أمة الشهادة ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأمة الحضارة؛ لأن الحضارة الحقيقية هي بالإنسان الصالح وبالعمل الصالح.

وقد حث الله المؤمنين في آيات كثيرة على تدبر القرآن، والتدبر يأتي بعد الاستماع، والتدبر هو: التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[1]، وأول الآيات الآمرة بالتدبر نزولاً قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ورقمها حسب النزول هو ثمان وثلاثون، ونشير إلى آيات أخرى حول موضوع التدبر دون ذكر نصها، وهي: المؤمنون: رقم نزولها: أربع وسبعون، رقم الآية: ثمان وستون، والنساء: رقم نزولها: اثنان وتسعون، ورقم الآية: اثنان وثمانون.

ومدح القرآن الكريم المؤمنين الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وهدى، ومدحهم أيضًا في أماكن عديدة أنهم تلين قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله، وتقشعر جلودهم من خشية الله، ويخرون للأذقان سجدًا يبكون، ويزيدهم خشوعًا.

هذه هي الصورة الرائعة التي يعرضها علينا القرآن الكريم عن طائفة السعداء الذين أنعم الله عليهم من ذرية آدم.

وفي المقابل يعرض علينا القرآن صورة

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبدالرحمن حبنكة ص ١٠.

المغضوب عليهم، وموقفهم المعادي للقرآن الكريم؛ فهم لا يستمعون لهذا القرآن، ويلغون فيه، ويستهزئون بآيات الله تعالى، ويجعلون القرآن عضين، ويقولون إنه أساطير الأولين؛ فهم لم يروا فيه الحقائق الناصعة، بل زادهم ضلالة وإثمًا وعمى؛ لأن قلوبهم مقفلة، لا يدخلها نور القرآن ولا هداه؛ بما كانوا يكسبون من أعمال فاحشة منكرة، وببغيهم وطغيانهم في الأرض؛ فأضلهم الله عن صراطه المستقيم، وأعمى أبصارهم عن نوره المبين، وأصم آذانهم عن سماع الحق والقرآن الكريم.

٣. الأمر بالاستماع إلى آيات الله الكونية (بمعنى تدبرها والاعتبار بها).

أما المجال الرئيس الآخر لاستخدام السمع بعد الاستماع لكتاب الله المسطور، والأمر بالعمل به واتباعه، والخشوع له عند سماعه، فهو توجيهه نحو الاستماع إلى آيات كتاب الله المنظور في الكون؛ لتدبرها، وأخذ العبرة منها[(١)].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

فالله الذي يستحق العبودية وحده، هو الذي له ما في السماوات والأرض، وهو الذي فصل بين الليل والنهار؛ لتسكنوا في الليل من عناء النهار، وإنما قال في الآية: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ «لأن المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج، ويتفكرون فيها؛ فيعتبرون بها ويتعظون، ولم يرد به الذين يسمعون بآذانهم، ثم يعرضون عن عبره وعظاته»[(٢)].

والقرآن الكريم قد حث المؤمنين في آيات كثيرة على التفكر في ملكوت الله تعالى، وفي الكون؛ وذلك لإدراك عظمة الخالق سبحانه، والإذعان لقدرته وسلطانه، وقد قدر العلماء عدد الآيات التي تتناول أمورًا علمية بألف وأربعمائة آية، من مجموع آي القرآن، البالغ عددها ستة آلاف ومائتي آية، أي ما يعادل عشرين بالمائة من مجموع الآيات القرآنية.

والقرآن الكريم مليء بآيات تحث المؤمنين على التفكر والتعلم، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وغيرها من آيات كثيرة تأمر باستخدام العقل؛ لاكتشاف قوانين الكون، وتسخيرها لمصلحة الإنسان.

٤. الأمر بالاستماع إلى قصص الماضين للاعتبار.

إن الله عز وجل قص علينا في كتابه العزيز أحسن القصص، وذكر كثيرًا من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٨٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٠.

القصص؛ لأخذ العبرة منها ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

فذكر الله لنا سننه في نصرة أنبيائه وعباده الصالحين، وتوفيقه لهم؛ فقص علينا أحسن القصص، كقصة يوسف وإخوته، وقصة موسى وقومه، وقصة داود وسليمان، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، وكذلك قص القرآن علينا قصص الأقوام التي عاقبها الله تعالى، بعد أن عصوا وعتوا عن كل ذكر؛ لنعتبر ونستقيم على شرعه.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ٦-١٣].

والاتعاظ بكل ما سبق إنما يكون بعد سماع ما حل بهذه الأقوام من عقوبة إلهية؛ ولهذا استخدم السمع؛ للاعتبار بالأحداث في معرض الكلام عن الأمم السابقة فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وذكر القرآن الكريم فقدان السمع لدى الأصنام، كدليل على أنهم ليسوا بآلهة فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤١-٤٢].

فقد نقض ألوهية الأوثان، وأنها لا تستحق العبادة؛ بكونها لا تسمع، ولا تبصر من يدعوها، وصفة السمع من أهم صفات الألوهية؛ فقد قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

والدعاء مخ العبادة؛ فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي؛ فأي منفعة في عبادته؟!، وإذا كانت لا تبصر بتقرب من تقرب إليها؛ فأي منفعة في ذلك التقرب؟![1]، والإله يجيب دعاء عباده ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

والأوثان لا تجيب أحدًا، ثم كيف يليق بالإنسان أن يعبد من هو دونه في الصفات؛ إذ إنه يسمع ويرى، وهذه الأوثان لا تسمع ولا ترى؟

وهكذا نرى كيف اهتم الإسلام بحاسة السمع التي هي آلة مهمة في معرفة الحقائق في كل من الكتابين كتاب الله المسطور (القرآن)، وكتاب الله المنظور (الكون).

موضوعات ذات صلة:

البصر، الرؤية، القرآن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٤٣.

السياسة

عناصر الموضوع

مفهوم السياسة	٨
الألفاظ ذات الصلة	١٠
قواعد السياسة في القرآن	١٢
مقاصد السياسة في القرآن	٢٧
سمات النظام السياسي في القرآن	٤٥
نماذج قرآنية من السياسة	٥٥
العلاقة السياسية بين الدول	٦٨

المجلد التاسع عشر

مفهوم السياسة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل كلمة سياسة مشتقة من الفعل ساس يسوس بمعنى: دبر أمور الناس، يقال: سست الرعية سياسة: أمرتهم ونهيتهم، وساس الأمر سياسة: قام به[(١)].

وسوسه القوم: جعلوه يسوسهم، وسوس الرجل أمور الناس: إذا ملك أمرهم.

والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه، وهي فعل السائس، يقال: يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته، وسوس له أمرًا، أي: روضه وذلله[(٢)].

وكلمة السياسة لم ترد في القرآن الكريم مطلقًا، وإنما ورد ما يدل عليها، كالملك، والتمكين والاستخلاف، حيث وردت هذه المفردات في سور المائدة والأعراف ويوسف والقصص وغيرها.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن نجيم رحمه الله: السياسة هي القانون الموضوع لرعاية الآداب، والمصالح، وانتظام الأحوال[(٣)].

وقيل: السياسة هي: استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل[(٤)].

وقيل هي: حياطة الرعية بما يصلحها لطفًا أو عنفًا[(٥)].

وقال البجيرمي: السياسة هي: إصلاح أمور الرعية، وتدبير أمورهم[(٦)].

وقال النبهاني: السياسة: رعاية شؤون الناس داخليًا وخارجيًا، وتعني نظام الحكم وجهاز الدولة، وتعني علاقة الناس وعلاقة الأمة بغيرها من الأمم، وهو ما اصطلح على تسميته بالسياسة الداخلية والخارجية[(٧)].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ١٠٧.
(٢) انظر: المصدر السابق ٦/ ٤٢٩-٤٣٠.
(٣) انظر: البحر الرائق ٥/ ٧٦.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص٥١٠، حاشية ابن عابدين ٤/ ١٥.
(٥) انظر: طلبة الطلبة ص٣٠٢.
(٦) انظر: حاشية البجيرمي على شرح منهج الطلاب ٢/ ١٧٨.
(٧) انظر: مفاهيم سياسية لحزب التحرير ص٥.

ويقول عبدالوهاب خلاف: إن علم السياسة الشرعية يبحث فيه عما تدبر به شؤون الدولة الإسلامية من القوانين والنظم التي تتفق مع أصول الإسلام[١].

وقد اختلفت التعريفات المعاصرة للسياسة، فعرفها المعجم القانوني بأنها: أصول أو فن إدارة الشئون العامة[٢].

وعرفها معجم اللغة العربية المعاصرة بعدة تعريفات بناء على المقصود منها، أشهرها التعريف لها بالمعنى العام أنها: (سلوك الحكومات والدول ومواقفها تجاه القضايا الداخلية والقضايا المتعلقة بالدول الأخرى)[٣].

(١) انظر: النظم الإسلامية، حسين الحاج ص٤٤.
(٢) انظر: موقع المعجم القانوني.
(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١١٣٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الملك:

الملك لغة:

الميم واللام والكاف أصلٌ صحيح يدل على قوةٍ في الشيء وصحة. يقال: أملك عجينه، أي: قوى عجنه وشده. وملكت الشيء: قويته[(١)].

وملك وأملك، وملك ملكًا وإملاكًا وتمليكًا: اشتقاق ذلك من الملك، وهو القوة والشدة. والمَلِك: هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور، وذلك يختص بسياسة الناطقين، ولهذا يقال: ملك الناس، ولا يقال: ملك الأشياء[(٢)].

والمَلِك: اسم لكل من يملك السياسة، إما في نفسه، وذلك وبالتمكين من زمام قواه وصرفها عن هواها، وإما في غيره، سواء تولى ذلك أو لم يتول، على ما تقدم[(٣)].

الملك اصطلاحًا:

هو حكم الناس وأمرهم ونهيهم وقيادتهم في أمورهم.

الصلة بين الملك والسياسة:

الملك فيه معنى السيطرة، والسياسة جزء منه لا تنفك عنه، بل إن الملك لا بد أن يتسم بالسياسة الحكيمة في أمور البلاد وشؤونها، ولو أن الملك لم يكن ملمًا بجوانب السياسة لم يكن موفقًا ولا مسددًا في ملكه، فالسياسة جزء من الملك، وكل ملك لا بد لقيامه من السياسة الشرعية.

٢ الحكم:

الحكم لغة:

مشتق من الفعل: حكم يحكم حكمًا، بمعنى قضى وفصل، والحكم: القضاء في الشيء بأنه كذا أو ليس بكذا سواءٌ لزم ذلك غيره أم لا[(٤)].

الحكم اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي؛ إذ الحكم في الاصطلاح: «القضاء بالشيء بأنه كذا أو

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٨١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٧٢، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٤/ ١٢٥.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٧٢.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٦٧، تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٥١٠.

ليس بكذا، سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه»[1].

الصلة بين الحُكم والسياسة:

الحكم يشمل عموم شؤون البلاد سواءً كان قضاءً أو غيره، فالحاكم يسوس أمور الناس وهو مسؤول عنهم، إلا أن العلاقة بين الحكم والسياسة، أن الحكم أخص من السياسة، والسياسة تشمله وغيره، ويمكن القول: إن كل حكم من السياسة، وليست كل سياسة حكمًا. والله أعلم.

٣ الإمامة:

الإمامة لغة:

مصدر: أم القوم وأم بهم بمعنى: تقدمهم، والإمام ما ائتم به من رئيسٍ وغيره، والجمع أيمةٌ[2].

الإمامة اصطلاحًا:

«رياسة عامة تتضمن حفظ مصالح العباد في الدارين»[3]. والإمامة ترادف مصطلح الخلافة، ويقال لولي أمر المسلمين العام: خليفة أو إمام، قال النووي: «يجوز أن يقال للإمام: الخليفة والإمام وأمير المؤمنين»[4].

الصلة بين الإمامة والسياسة:

لا شك أن الخلافة والولاية من أسس السياسة الشرعية، والخليفة والوالي لا بد أن يكون على دراية بالسياسة الشرعية؛ لتوقف أمور البلاد ومصالح العباد عليها. وعلى ذلك فالخلافة والولاية أعم من السياسة.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٢٦.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/ ٥٧٢.
(٣) الكليات، الكفوي ص٢٦٧.
(٤) روضة الطالبين، النووي ١٠/ ٤٩.

قواعد السياسة في القرآن

ذكر الله تعالى في كتابه قواعد السياسة الشرعية ومقوماتها، كالتشريع والعدل والشورى والأمانة والحرية والطاعة، ونتناول في هذا المبحث قواعد السياسة في النقاط الآتية:

أولًا: التشريع حق لله تعالى:

لما كان هذا الكون مخلوقًا مملوكًا لله تعالى، والملك الحقيقي يستلزم حق الانفراد بالتصرف، والبشر جزء من هذا الملك، لما كان الأمر كذلك: فإنه ليس من حق أي أحد غير الله أن يتصرف في ملك الله بشيء مهما يكن ذلك الشيء، إلا أن يأذن الله له بذلك التصرف[(١)].

وحيث إن الله هو خالقنا ورازقنا والمنعم علينا بجلائل النعم ودقائقها، فليس لنا أن نحكم لأنفسنا بالإباحة أو التحريم، إلا أن نعلم أن الله حكم لنا بها، وإلا كنا مشرعين على الله بغير علم ولا إذن منه[(٢)].

قال الله تعالى في حكاية قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

والمراد بالتشريع: هو ما شرعه الله لعباده من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ونظم الحياة في شعبها المختلفة، لتنظيم علاقة الناس بربهم، وعلاقاتهم بعضهم ببعض، وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة[(٣)].

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى: ١٣].

وأصل لفظة ﴿شَرَعَ﴾ أي: جعل طريقًا واسعة، وكثر إطلاقه على سن القوانين والأديان، فسمي الدين شريعة، فـ(شرع) هنا مستعار للتبيين[(٤)].

المقصود من ذلك أصول الديانة وأسس التشريع التي لا تختلف فيها الشرائع[(٥)].

فتبين هذه الآية أن الله أرسل الرسل، وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل، وبيان ما اختلف فيه الناس، وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم، ورد ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة، وأن من لم يتبع ذلك كان منافقًا، وأن من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالًا شقيًا معذبًا، وأن الذين فرقوا دينهم قد برئ

(١) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها ص٢٥٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ص٢٥٤.
(٣) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، مناع القطان ص١٣-١٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٥/١١٨.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ٦/٢٠٧، فتح القدير ٤/٧٥٤.

الله ورسوله منهم[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أي: يتصرف في خلقه بما يشاء من أمره، لا يشركه أحد كما لا يشركه أحد في خلقه[2]؛ لأن الخلق والأمر لله لا لغيره، وفي هذا تذكير من شأنه إيصالهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة[3].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

ويفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أنه لا يجوز التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد أوضح تعالى هذا المفهوم موبخًا للمتحاكمين إلى غير كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مبينًا أن الشيطان أضلهم ضلالًا بعيدًا عن الحق[4]، بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وأشار إلى أنه لا يؤمن أحد حتى يكفر بالطاغوت[5].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

قال ابن كثير: أي : هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة[6].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال مجاهد وغيره: نزلت فيمن أراد التحاكم إلى الطاغوت[7]. ورجحه الطبري، لأنه أشبه بنسق الآيات[8].

وهذا نص في تكفير من لم يرض بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم[9].

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٣٠٧.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٥٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٥٨.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٤٤.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٩٨.
(٧) انظر: البحر المحيط ٣/ ٢٩٦.
(٨) انظر: جامع البيان ٨/ ٥٢٤.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب ١/ ١٤٨٢.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

هذا إنكار من الله عز وجل، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل: غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

أي: لا تقدموا خلاف الكتاب والسنة[(٢)].

وهذه الآية أصل في ترك التعرض لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه والاقتداء به[(٣)].

ولا يخفى أن في ارتضاء حكم غير الله، رفض شريعة الله والتحاكم إليه، وقد سمى الله كل حكم يخالف حكمه بأنه حكم الجاهلية.

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ويحسن هنا الإشارة إلى سن القوانين الوضعية والأحكام العرفية والتحاكم إليها دون شرع الله، وهي مسألة الحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وهناك فرق بين حق التشريع وبين مخالفة تشريع الله أو حكم الله.

فأما الأول (والذي له تعلق بتوحيد الربوبية) فإن الشرك في الربوبية إما أن يكون شركًا أكبر، أو شركًا أصغر، فإن كان الأمر راجعًا إلى الجحود والاستحلال (أي: الاعتقاد) فإن صاحبه مشرك شركًا أكبر ولو وافق حكمه حكم الله، وأما ما كان دون الاعتقاد فيكون دون ذلك.

وأما مخالفة حكم الله المتعلق بتوحيد الألوهية فلا يكون شركًا[(٤)]، وإنما هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو آثم بصغيرته.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٤٦.
(٢) انظر: الوجيز، الواحدي ٢/ ١٠١٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٩٩.
(٤) هناك فرق بين صرف العبادة لغير الله، وبين مخالفة حكم الله وشرعه، فالأول يكون مشركًا شركًا أكبر، والثاني يأثم بفعله ويفسق، ولو عد شركًا للزم من ذلك التكفير بالذنوب والمعاصي، وهو أشد من قول الخوارج: في التكفير بالكبيرة، والله أعلم.

والفرق بين استحلال القلب والفعل، أن الاستحلال القلبي يكون صاحبه كافرًا، وأما الاستحلال العملي فيكون صاحبه فاسقًا.

والله تعالى ذكر أن الحكم بغير ما أنزل سبحانه منه ما يكون كفرًا، ومنه ما يكون ظلمًا، ومنه ما يكون فسقًا. والله أعلم.

ثانيًا: العدل:

العدل في اللغة: القصد في الأمور، وهو خلاف الجور، وهو أيضًا: ما قام في النفوس أنه مستقيم[1].

والمقصود فيه: المساواة بين الناس أو بين أفراد أمة، في تعيين الأشياء لمستحقها، وفي تمكين كل ذي حق من حقه، بدون تأخير، فهو مساواة في استحقاق الأشياء، وفي وسائل تمكينها بأيدي أربابها، فالأول هو العدل في تعيين الحقوق، والثاني هو العدل في التنفيذ.

فالعدل وسط بين طرفين هما: الإفراط في تخويل ذي الحق حقه، أي: بإعطائه أكثر من حقه، والتفريط في ذلك، أي: بالإجحاف له من حقه، وكلا الطرفين يسمى جورًا.

ويطلق لفظ العدل الذي هو التسوية، على تسوية نافعة يحصل بها الصلاح والأمن، ثم توسعوا في هذا الإطلاق حتى صار يطلق على إبلاغ الحق إلى ربه، ولو لم يحصل اعتداء ولا نزاع[2].

والعدل أشرف أوصاف الملك وأقوم لدولته ؛ لأنه يبعث على الطاعة ويدعو إلى الألفة ، وبه تصلح الأعمال وتنمو الأموال، وتنتعش الرعية وتكمل المزية، وقد أمر الله عز وجل به الخلق وحثهم عليه[3].

والعدل يدخل في جميع المعاملات، وهو حسن في الفطرة، لأنه كما يصد المعتدي عن اعتدائه، كذلك يصد غيره عن الاعتداء عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وإذ قد كان العدل بهذه الاعتبارات تجول في تحديده أفهام مخطئة، تعين أن تسن الشرائع لضبطه على حسب مدارك المشرعين ومصطلحات المشرع لهم، على أنها معظمها لم يسلم من تحريف لحقيقة العدل في بعض الأحوال، فإن بعض القوانين أسست بدافع الغضب والأنانية، فتضمنت أخطاء فاحشة ، مثل القوانين التي يمليها الثوار بدافع الغضب على من كانوا متولين الأمور قبلهم، وبعض القوانين المتفرعة عن تخيلات وأوهام، كقوانين أهل

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠٣٠، المصباح المنير، الفيومي ص٢٠٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٦٢-١٦٣.

(٣) انظر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك ١/ ٢٤٢.

الجاهلية والأمم العريقة في الوثنية[1].

وقد نصت آيات القرآن الكريم في غير موضع على بيان مكانة العدل وأهميته وآثاره على الفرد والمجتمع، وما يحققه من منافع دنيوية وأخروية، ومن ذلك ما يلي:

١. العدل أساس الحكم بين الناس.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أنه ما قامت السموات والأرض إلا بالعدل، فالعدل قوام الأمور وروحها، وبفقده تفسد الأمور كلها ويختل الميزان لكل شيء.

والحكم بالعدل من لازمه معرفة العدل في كل أمر من الأمور، فإن فهمت الأمة حقيقة العدل وعرفت حدوده وضعت كل شيء في موضعه، وكان المتولون للولايات هم الكمل من الرجال والأكفاء للأعمال، فجرت تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد، متجنبين للظلم والفساد، ترقت الأمة وصلحت أحوالها، وتمام ذلك في الآية الأخرى التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩][2].

ومعنى ﴿أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾: أي تحكموا بالإنصاف والسوية، إذا قضيتم بين من ينفذ عليه أمركم، أو يرضى بحكمكم، ولأن الحكم وظيفة الولاة، قيل: الخطاب لهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي: نعم شيئًا يعظكم به، أو نعم الشيء الذي يعظكم به. والمخصوص بالمدح محذوف، وهو المأمور به من أداء الأمانات، والعدل في الحكومات[3].

وقد اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية على أقوال.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: هو خطاب من الله لولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية. يدل على ذلك ما وعظ به الرعية في: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الراعي بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة[4].

وقد أجمع العلماء على أنه يجب على الحاكم أن يحكم بالعدل لهذه الآية، وقوله

(١) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ١٦٣.

(٢) انظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن ص١٠٧-١٠٨.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٠٥.

(٤) جامع البيان ٨/ ٤٩٢.

تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1] [ص: ٢٦].

وقد جمع في هذه الآية ما يتصل بالتكاليف فرضًا ونفلًا، وما يتصل بالأخلاق والآداب: عمومًا وخصوصًا[2].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ رواه ابن جرير[3].

٢. العدل قرين الصفات الحسنة.

ورد في القرآن ما يؤكد على ارتباط العدل بغيره من الصفات الحسنة ، كالإحسان إلى الخلق والعطف عليهم.

قال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

العدل: هو الإنصاف، والإحسان إلى الناس. وعن ابن عباس: العدل: التوحيد، والإحسان: أداء الفرائض. وقيل غير ذلك[4].

والإحسان: هو معاملة بالحسنى ممن لا يلزمه إلى من هو أهلها. والحسن: ما كان محبوبًا عند المعامل به، ولم يكن لازمًا لفاعله، وأعلاه ما كان في جانب الله تعالى[5].

وهو فوق العدل، وذاك أن العدل: هو أن يعطي ما عليه، ويأخذ ماله. والإحسان: أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له. فالإحسان زائد على العدل، فتحرى العدل واجب، وتحرى الإحسان ندب وتطوع.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

ولذلك عظم الله تعالى ثواب المحسنين، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١][6].

٣. ضرورة الصلح بين المتخاصمين بالعدل.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب ٦/ ٤٣٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٢/ ١٤١.
(٣) انظر: جامع البيان ١٧/ ٢٨٠.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٣٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ١٣/ ٢٠٥.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١١٩.

﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فجعل الفيء إلى أمر الله غاية للمقاتلة، أي: يستمر قتال الطائفة الباغية إلى غاية رجوعها إلى أمر الله، وأمر الله هو ما في الشريعة من العدل والكف عن الظلم، أي: حتى تقلع عن بغيها. وأتبع مفهوم الغاية ببيان ما تعامل به الطائفتان بعد أن تفي الباغية بقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ والباء للملابسة، والمجرور حال من ضمير ﴿فَأَصْلِحُوا﴾. والعدل: هو ما يقع التصالح عليه بالتراضي والإنصاف، وأن لا يضر بإحدى الطائفتين، فإن المتالف التي تلحق كلتا الطائفتين، قد تتفاوت تفاوتًا شديدًا فتجب مراعاة التعديل.

فيجب العدل في صورة الإصلاح، فلا يضيعوا بصورة الصلح منافع عن كلا الفريقين، إلا بقدر ما تقتضيه حقيقة الصلح من نزول عن بعض الحق بالمعروف. ثم أمر المسلمين بالعدل بقوله: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أمرًا عامًا، تذييلًا للأمر بالعدل الخاص في الصلح بين الفريقين، فشمل ذلك هذا الأمر العام أن يعدلوا في صورة ما إذا قاتلوا التي تبغي[(١)].

٤. العدل مطلوب مع العدو والصديق.

أمر الله تعالى المرء بالعدل في جميع أحواله، مع عدوه وصديقه، وأن لا يحمله البغض على الحيف والظلم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

قال الأمين الشنقيطي رحمه الله: فانظر: ما في هذه الآيات من مكارم الأخلاق، والأمر بأن تعامل من عصى الله فيك بأن تطيعه فيه[(٢)].

ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة، فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة، وهي بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا بمكة، فيصار فيها إلى ما هو مقرر بين الناس في أصول الشرائع، وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوة والتناصح، قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية[(٣)].

فنهاهم أولًا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدًا وتشديدًا، ثم استأنف، فذكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله: ﴿هُوَ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠١-٢٠٢.

(٢) انظر: أضواء البيان ٣/ ٥٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٠٥.

﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العدل أقرب إلى التقوى، وأدخل في مناسبتها، أو أقرب إلى التقوى لكونه لطفًا فيها. وفيه تنبيه عظيم على أن وجود العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله، إذا كان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين، الذين هم أولياؤه وأحباؤه؟[1].

٥. العدل صفة الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

أمر الله نبيه أن يؤمن بجميع الكتب المنزلة، وأن يعدل بين الناس كلهم، فيعطي كل ذي حق حقه، ويمنع كل مبطل عن باطله؛ فإن القسط والعدل في جميع أمور الدين والدنيا فيما جاء به، وهو المقصود بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥][2].

هذا ولو نظرنا إلى القوانين التي تحكم حياة الناس لوجدنا أن (أعلى القوانين هي الشرائع الإلهية، لمناسبتها لحال من شرعت لأجلهم، وأعظمها شريعة الإسلام، لابتنائها على أساس المصالح الخالصة أو الراجحة، وإعراضها عن أهواء الأمم والعوائد الضالة، فإنها لا تعبأ بالأنانية والهوى، ولا بعوائد الفساد، ولأنها لا تبنى على مصالح قبيلة خاصة، أو بلد خاص، بل تبنى على مصالح النوع البشري وتقويمه وهديه إلى سواء السبيل، ومن أجل هذا لم يزل الصالحون من القادة يدونون بيان الحقوق ؛ حفظًا للعدل بقدر الإمكان وخاصة الشرائع الإلهية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]. أي: العدل.

فمنها المنصوص عليه على لسان رسول البشرية، ومنها ما استنبطه علماء تلك الشريعة ، فهو مدرج فيها وملحق بها[3].

ثالثًا: الشورى:

الشورى من أسمى مبادئ الإسلام، حيث أمر به القرآن والسنة، وذلك نظرًا لما يحققه من عدالة وتوازن في أمور الحكم والسياسة وغيرهما، وقد عرفها الراغب الأصفهاني بأنها: استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض[4].

وقال ابن العربي أنها: الاجتماع على أمرٍ ليستشير كل واحد منهم صاحبه، ويستخرج ما عنده[5].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٤٧.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٢٩٤.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ١٦٣.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٧٠.
(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٣٨٩.

وعرفها بعض المعاصرين بأنها: تبادل الآراء في أمر من الأمور لمعرفة أصوبها وأصلحها، لأجل اعتماده والعمل به[1].

والمشترك في هذه التعريفات وغيرها، هو دورانها حول معنى تقليب وجهة النظر واستنباط الرأي لتحقيق غايات نافعة للأمة.

وخلاصة القول : إنها استطلاع للرأي من أهل الخبرة فيه، بهدف الوصول لأقرب الأمور للحق.

والشورى مشروعة في الشريعة الإسلامية على جهة الإجمال، في حق الحاكم، وفي حق عامة المسلمين، وهي أصل من أصول الحكم في الشريعة الإسلامية، وركن هام من أركان قيام الدولة الإسلامية، حيث اتفق العلماء على مشروعيتها، استنادًا إلى الأدلة القرآنية، وأدلة السنة النبوية القولية والفعلية، الدالة على مشروعيتها والدائرة بين الوجوب والاستحباب.

وأهم ما يجب على الإمام المشاورة في كل مالا نص فيه عن الله ورسوله، ولا إجماعًا صحيحًا يحتج به، أو ما فيه نص اجتهادي غير قطعي، ولا سيما أمور السياسة والحرب المبنية على أساس المصلحة العامة، وكذا طرق تنفيذ النصوص في هذه الأمور، إذ هي تختلف باختلاف الزمان والمكان. فهو ليس حاكماً مطلقاً كما يتوهم الكثيرون، بل مقيد بأدلة الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين العامة وبالمشاورة.

ولو لم يرد في الشورى إلا وصف للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقوله لرسوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] لكفى، فكيف وقد ثبتت في الأخبار والآثار قولًا وعملًا[2].

قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب. هذا ما لا خلاف فيه[3].

وفي قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال القرطبي في هذه الآية: أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر التي هي بتدريجٍ بليغٍ؛ وذلك أنه أمره بأن يعفو عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة؛ فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعة أيضًا، فإذا صاروا في هذه الدرجة صاروا أهلًا للاستشارة في الأمور[4].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

(١) انظر: مناهج الشريعة الإسلامية ص٢/ ١٢٨.

(٢) الخلافة ص٣٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٥٦٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٤٩.

والمشاورة هنا في شؤون الأمة ومصالحها، وقد ذكرها الله تعالى في معرض المدح والثناء، واشترطها في أمر العائلة فقال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فشرع بهاته الآيات المشاورة في مراتب المصالح كلها: وهي مصالح العائلة، ومصالح القبيلة أو البلد، ومصالح الأمة. وتدل هذه الآية على جلالة موقع المشورة، لذكرها مع الإيمان وإقامة الصلاة، كما تدل على أننا مأمورون بها[١].

والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].

لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، وإمضائهم على الطاعة لها، بعلمها أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها، لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم، كان ذلك عونًا لعدوهم عليهم، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم، وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها، ودخيلة في تقدير أمرهم، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم، وشدة مدافعتهم[٢].

وهذه الآية مكية، وقد نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة، مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظامًا سياسيًا للدولة، فهو طابع أساسي للأمة كلها[٣].

أسباب الشورى:

يمكن إجمال أسباب الشورى ودوافعها في ما يلي:

١. تطبيق الشورى امتثالا لأمر الله عز وجل.
٢. تطبيق الشورى تحقيقا لمصلحة الأمة الإسلامية.
٣. تطبيق الشورى للتقريب بينه وبين الصحابة الأجلاء.
٤. تطبيق الشورى للكشف عن رجاحة عقل صحابته الأجلاء وإبداء محاسنهم.
٥. تطبيق الشورى بهدف تأليف القلوب وغرس الاقتداء في نفوس أتباعه.
٦. تطبيق الشورى لاستخراج خبرات الغير في الوقائع المختلفة والاستفادة منها.

وأشير هنا إلى مسألتين من أهم مسائل

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٦٨-٢٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٢٩-١٣٠.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٦٠.

الشورى بإيجاز:

١. حكم الشورى في حق الحاكم.

اختلف العلماء في حكم الشورى في حق الحاكم، هل هي واجبة عليه أم سنة؟ على قولين:

القول الأول: أن الشورى في حق الحاكم واجبة عليه وجوبًا عينيًا، وقد كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم على الرغم من استغنائه عنها بالوحي.

وهو قول جمهور الفقهاء والأصوليين والمفسرين وغيرهم، ونصوصهم وافرة في هذا الصدد[(١)].

القول الثاني: أن الشورى في حق النبي فقط صلى الله عليه وسلم واجبة دون غيره من الحكام.

وهو مروي عن الحسن البصري وسفيان الثوري، وعللا ذلك بأنه إنما أمر بها ليقتدي به غيره وتشيع في أمته ، وذلك فيما لا وحي فيه[(٢)].

٢. حكم الشورى في حق عامة الناس.

لا تخلو أمور الناس من أن تكون أمورًا ذات أهمية كبيرة ، أو أمورًا دونها في الأهمية، وعلى كلٍ فقد ذكر الإمام النووي أن التشاور في الأمور المهمة مستحب في حق الأمة بإجماع العلماء[(٣)].

وتختلف أمور الناس حسب درجاتها وأهميتها من شخص لآخر، فقد يستشير المرء في أمور الزواج من حيث الإقدام على التزوج بامرأة معينة، أو تزويج ابنته لشخص معين، ومن ذلك الاستشارة في الإقدام على بعض الأعمال والوظائف، والتجارات ونحوها من أمور الناس.

وهنا يفرق بين أمرين: أولهما: أن طلب المشورة من الغير مستحبة، والثاني: أن تقديم المشورة ممن طلبت منه واجبة، وذلك في تقديري جريًا على أن إلقاء السلام على الغير سنة، ورده فرض، وجريًا على استحباب طلب النصيحة من الغير، ووجوب تقديمها ممن طلبت منه.

ويؤيد هذا ما روي عن جابر بن عبد الله مرفوعًا قال: (إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه)[(٤)].

رابعًا: الأمانة:

عن أبي هريرة قال: (بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسٍ يحدث القوم، جاءه

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٦٥، الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٦١، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٦٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ١٤٩.

(٣) شرح صحيح مسلم ٤/ ٦٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن، ٢/ ١٢٣٣، رقم٣٧٤٧. وصحح إسناده الحافظ في تغليق التعليق ٣/ ٢٥٣.

أعرابيٌ فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: (فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[1].

قال ابن الجوزي: «(إذا وسد الأمر إلى غير أهله) أي: أسندت الولاية والإمارة»[2].

فيجب على الإمام من النصح لرعيته كالذي يجب عليهم له، فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كلكم راعٍ فمسئولٌ عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسئولٌ عنهم)[3].

وعن معقل بن يسارٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من أميرٍ يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة)[4].

ولا شك أن أمانة الحكم والسياسة من أعظم الأمانات وأهمها، لتعلقها بقيام الدين، وتحكيم شرع الله تعالى وتنفيذه وحراسته، ورفع المظالم ورد الحقوق.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

وقد جمع لفظ الأمانة ليعم به كل ما يمكن أن يؤتمن الإنسان عليه[5]. باعتبار تعدد أنواعها وتعدد القائمين بالحفظ تنصيصا على العموم[6].

والأمانة: هي الشيء المؤتمن عليه، ومراعاتها القيام عليها لحفظها إلى أن تؤدى. والأمانة أيضًا المصدر، والمؤدى هو العين المؤتمن عليه، أو القول إن كان المؤتمن عليه لا المصدر[7].

«والأداء: الدفع والتوفية، ورد الشيء أو رد مثله فيما لا تقصد أعيانه، ومنه أداء الأمانة وأداء الدين ، أي : عدم جحده»[8].

والأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة، من أجلها: الولايات الكبيرة والصغيرة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه فأتم حديثه ثم أجاب السائل، ١/ ٣٣، رقم ٥٩.
(٢) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ١٠٠٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق ، وقوله : عبدي وأمتي، ٢/ ٩٠١، رقم ٢٤١٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، ١/ ٨٨، رقم ٣٨٣.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٥٧.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٤.
(٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣٦٧.
(٨) التحرير والتنوير ٢/ ٥٨٦.

والمتوسطة، الدينية والدنيوية. فقد أمر الله أن تؤدى الأمانات إلى أهلها بأن يجعل فيها الأكفاء لها، وكل ولاية لها أكفاء مخصوصون. فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطرق لصلاح جميع الأحوال، فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها، والمدبرين لها والعاملين عليها، فيجب تولية الأمثل فالأمثل : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة وضده بضده[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

«ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه عرض الأمانة، وهي التكاليف مع ما يتبعها من ثواب وعقاب على السماوات والأرض والجبال، وأنهن أبين أن يحملنها وأشفقن منها، أي: خفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك عذاب الله وسخطه، وهذا العرض والإباء، والإشفاق كله حق، وقد خلق الله للسماوات والأرض والجبال إدراكًا يعلمه هو جل وعلا، ونحن لا نعلمه، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها، وأبت وأشفقت، أي: خافت»[٢].

وقال تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

فالنصح والأمانة متلازمان، والنصح دليل على الأمانة، ولذلك قرنا في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١][٣].

خامسًا: الحرية:

الحرية في نظر الإسلام ضرورة من الضرورات الإنسانية، وتكليف شرعي واجب، سواء كانت هذه الحرية متعلقة برق العبودية، أو الاعتقاد والدين، أو غير ذلك. وهذا المبدأ الإسلامي ظاهر في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، إلا أن الإسلام قد وضع له ضوابطَ وشروطًا.

والناظر في مفهوم الحرية في الإسلام يجد له وضوحًا وتكاملًا وسماحة، لا تصل إليها مفاهيم الفلسفات التي تصدت للحرية، فالحرية في الإسلام هي: التحرر من قيود الوثنية، واستعباد الإنسان للإنسان، وحرية الكلمة، وحرية الضمير، وهو ما جمعته هذه الآية من القرآن: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ فهي حرية الاعتقاد والقول والتفكير. وكما دعا

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن ص١٠٧.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٢٥٨.

(٣) انظر: البحر المحيط ٥/ ٢٨٥.

الإسلام إلى تحرير الفكر دعا إلى تحرير الجسم، وذلك بمحاربة الرق[1].

والإسلام قد ضمن جميع الحريات للإنسان، ففي بقاء اليهود في الدولة الإسلامية إقرار لمبدأ حرية الاعتقاد والدين. والنبي صلى الله عليه وسلم قد جاور اليهود في المدينة وساكنهم وخالطهم وعاملهم، والأدلة على ذلك كثيرة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] دليل على جواز نكاح الكتابية بالشروط المعتبرة، فإن ذلك يتضمن إقرارًا لمبدأ الحرية الدينية.

والإسلام لا يكره أحدًا على عقيدة، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال ابن عاشور: «وتعقيب آية الكرسي بهذه الآية، بمناسبة أن ما اشتملت عليه الآية السابقة من دلائل الوحدانية وعظمة الخالق وتنزيهه عن الشوائب ما كفرت به الأمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر ولا إكراه، ومن شأنه أن يجعل دوامهم على الشرك بمحل السؤال: أيتركون عليه أم يكرهون على الإسلام، فكانت الجملة استئنافًا بيانيًا».

«ونفي الإكراه خبر في معنى النهي، والمراد: نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام، أي: لا تكرهوا أحدًا على اتباع الإسلام قسرًا، وجيء بنفي الجنس لقصد العموم نصًا، وهو دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه، لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر، وبالاختيار»[2].

كما أن اجتهاد العلماء واختلافهم على مر العصور، وفي جميع الفنون، ونبذهم للتقليد إقرار لمبدأ الحرية العلمية والفكرية.

والحرية السياسية واحدة من حريات الإسلام، وتقوم على الشورى، غير أن الإسلام يعطي للحرية ضوابطها وتحفظاتها التي تضمن حرية الغير. وحرية العقيدة حيث لا إكراه في الدين، تعني كفالة الإسلام لحرية عقائد أهل الكتاب، وهو بهذا يدعو إلى الحرية من قيود العبودية الفكرية والجسدية.

ويكفل الإسلام لأتباعه الحرية الاقتصادية كحرية التملك، وحرية التنقل (التبادل التجاري أو التجارة الدولية)، وحرية التعاقد، ولكن شريطة أن لايكون ذلك في شيء محرم، كالربا أو الاحتكار أو بيع الخمور ونحو ذلك.

(١) انظر: قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام، أنور الجندي ص١٧٦-١٧٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٤٩٩.

سادسًا: الطاعة:

قال الراغب الأصفهاني: الطوع: الانقياد، ويضاده الكره، قال تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]. ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. والطاعة مثله، لكن أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر، والارتسام فيما رسم، قال: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [النساء: ٨١]. ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٢١] أي: أطيعوا، وقد طاع له يطوع وأطاعه يطيعه، قال: ﴿وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٦]. وقوله في صفة جبريل عليه السلام: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١][(١)].

كما وردت لفظة «الطاعة» مقرونةً بلفظة أخرى هي: «السمع» فيقال: السمع والطاعة، وسمعنا وأطعنا، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥][(٢)].

والمراد بالطاعة هنا: الاستجابة والانقياد لما يأمر به وينهى عنه ولي الأمر، وذلك بامتثال الأمر والنهي دون منازعة ومعارضة، سواء أمر بما يوافق الطبع، أو لم يوافقه بشرط أن لا يأمر بمعصية[(٣)].

وقد وردت الآيات الآمرة بطاعة الله ورسوله في أربعة عشر موضعًا، منها ما يلي:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

«ولا شك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة في هذه الآيات ونحوها من نصوص الوحي، محصورة في العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم»[(٤)].

قال الإمام الطبري: فإذا كان معلوما أنه لا طاعة واجبة لأحد غير الله أو رسوله أو إمام عادل، وكان الله قد أمر بقوله: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩][(٥)].

ومن ضوابط الطاعة: الطاعة بالمعروف، قال الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله» ، وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون : قال أبو بكر وعمر، وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٠.
(٢) انظر: من قواعد النظام السياسي في القرآن ص٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٦١، مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٢٢٥.
(٤) أضواء البيان ٧/ ٣٠٤.
(٥) انظر: جامع البيان ٨/ ٥٠٣.

الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي سفيان، والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

وعن عدي بن حاتم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. فقلت له: (إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم)[(١)(٢)].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، ١٠ ٥/ ٢٧٨، رقم ٣٠٩٥.
قال الترمذي: حسن غريب.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ٨٦١، رقم ٣٢٩٣.

(٢) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ابن حسن ص١٣٤.

مقاصد السياسة في القرآن

ذكر الله عز وجل في كتابه المقاصد العامة للسياسة الشرعية، والتي حرص على إيضاحها والعناية بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ عليها قوام الشرع والدين، وهي المقاصد التي بعث من أجلها الرسل وأنزلت الكتب، وشرعت الشرائع، ونبين هذه المقاصد في النقاط الآتية:

أولًا: حراسة الدين:

وحراسة الدين تتم بأمرين[(٣)]:

الأول: حفظ الدين.

الثاني: تنفيذ أحكام الدين، وإقامة حدوده.

وذلك بغرض قطع الخصام بين المتنازعين، وصون محارم الله تعالى عن الانتهاك، وحفظ حقوق عباده من الإتلافِ والاستهلاك حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالمٌ، ولا يضعف مظلومٌ.

وأزيد الأمر إيضاحا فأقول: إن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا كما ذكره الماوردي[(٤)].

«وحفظ الدين يعني: إبقاء حقائقه ومعانيه ونشرها بين الناس كما بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار عليها صحابته

(٣) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته ٨/ ٤٦٦.
(٤) انظر: الأحكام السلطانية ص٣.

الكرام، ونقلوها إلى الناس من بعده، وعلى هذا لا يجوز أي تبديل أو تحريف في هذه الحقائق والمعاني ، لأن التحريف والتبديل يدخلان في نطاق الابتداع المذموم في دين الله، ولا يجوز التردد أبدًا في منع التبديل والتحريف بحجة حق الفرد في إبداء الرأي وحرية الفكر والاجتهاد»[(١)].

وقد أجمع سلف الأمة على وجوب حفظ الدين على أصوله المستقرة، فإن نجم مبتدعٌ، أو زاغ ذو شبهة عنه، أوضح له الحجة، وبين له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسًا من خللٍ، والأمة ممنوعة من زلل[(٢)].

ومن أعظم أصول الشريعة وقواعد الملة: حفظ الدين وصيانته والذب عنه، وسنة الله تعالى الصراع بين الحق والباطل، والإسلام والكفر، والمعروف والمنكر، وقد قيض الله في كل زمان بقايا من أهل العلم، يحيون كتاب الله، ويحمون دينه. وقوام الدين يكون بالعلم والجهاد في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

ونزلت هذه الآية في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف وغزوة حنين، أمر بالجهاد لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من البأس، وجدب من البلاد، وشدة من الحر، حين أخرقت النخل، وطابت الثمار، فعظم على الناس غزو الروم، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال، فلما كان ذلك من تثاقل الناس، أنزل هذه الآية[(٣)].

«ولايخفى ما في هذه الآية الكريمة من التشديد في الخروج إلى الجهاد على كل حال»[(٤)]، «فالضمير في ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ عام للذين استنفروا فتثاقلوا، وإنما استنفر القادرون، وكان الاستنفار على قدر حاجة الغزو، فلا يقتضي هذا الأمر توجه وجوب النفير على كل مسلم في كل غزوة، ولا على المسلم العاجز لعمى أو زمانة أو مرض، وإنما يجري العمل في كل غزوة على حسب ما يقتضيه حالها وما يصدر إليهم من نفير»[(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

ووجه الإضافة في قوله: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وكان القياس: حق الجهاد فيه،

(١) انظر: أصول الدعوة ص٢٢١.
(٢) انظر: الأحكام السلطانية ص٢٢.
(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٥١.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٤٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٠٣.

أو حق جهادكم فيه، كما قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾: أن الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصًا بالله، من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله، صحت إضافته إليه[1].

والآيات النازلة في القتال على ثلاثة أنواع:

أحدها: آيات أمرت بقتال الدفاع، كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٣٦].

وقوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١٩٤].

وهذا قتال ليس للإكراه على الإسلام، بل هو لدفع غائلة المشركين.

الثاني: آيات أمرت بقتال المشركين والكفار ولم تغي بغاية، فيجوز أن يكون إطلاقها مقيدًا بغاية آية: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وحينئذ فلا تعارضه آية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الثالث: ما غيي بغاية ، كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

والله أعلم[2].

وقال ابن عباس ومجاهد وغيره في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

معنى الآية: قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبهه، وقال قوم: المعنى: لا تعتدوا في القتال لغير وجه الله، كالحمية وكسب الذكر[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة، أنهم إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضًا عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين، وبهذا أمر

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ٥٠٠-٥٠١.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٤٨، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢١٣.

الله نبيه صلى الله عليه وسلم، فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩][(١)].

وفي الآية تحذير للمؤمنين من أعدائهم في الدين، وتجنيبهم أسباب الضعف فيه، فأقبل على تنبيههم إلى أن ذلك حرص على صلاحهم في ملازمة الدين والذب عنه، وأن الله لا يناله نفع من ذلك، وأنهم لو ارتد منهم فريق أو نفر، لم يضر الله شيئًا، وسيكون لهذا الدين أتباع وأنصار وإن صد عنه من صد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ [الزمر: ٧][(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

«والمقصد منه التحذير، لأنه لما ذكر حرص المشركين على رد المسلمين عن الإسلام، وعقبه باستبعاد أن يصدر ذلك من المسلمين، أعقبه بالتحذير منه، وجيء بصيغة ﴿يَرۡتَدِدۡ﴾ وهي صيغة مطاوعة، إشارة إلى أن رجوعهم عن الإسلام إن قدر حصوله، لا يكون إلا عن محاولة من المشركين، فإن من ذاق حلاوة الإيمان لا يسهل عليه رجوعه عنه، ومن عرف الحق لا يرجع عنه إلا بعناء، ولم يلاحظ المفعول الثاني هنا؛ إذ لا اعتبار بالدين المرجوع إليه، وإنما نيط الحكم بالارتداد عن الإسلام إلى أي دين، ومن يومئذ صار اسم الردة لقبًا شرعيًا على الخروج من دين الإسلام، وإن لم يكن في هذا الخروج رجوع إلى دين كان عليه هذا الخارج»[(٣)].

والثاني مما تتم به حراسة الدين: تنفيذ أحكام الدين.

وذلك بتنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين، حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالمٌ، ولا يضعف مظلومٌ[(٤)].

وإقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلافٍ واستهلاك[(٥)].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤١٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٣٤.
(٣) التحرير والتنوير ٢/ ٣١٤-٣١٥.
(٤) انظر: الأحكام السلطانية، الماوردي ص٢٢.
(٥) انظر: الأحكام السلطانية ص٢٢، غياث الأمم، الجويني ص١٦١.

ثانيًا: إصلاح حياة الناس:

من أسمى الغايات التي جاء بها القرآن الكريم إصلاح الأمة على جميع المستويات، سواءً كان إصلاحًا للكفار بدعوتهم إلى الإسلام والهدى، أو إصلاحًا للمؤمنين بتزكية نفوسهم وتقويم أخلاقهم. بل إن المهمة الأولى التي جاء بها الأنبياء هي إصلاح حياة الناس في جميع مناحي الحياة.

ولا شك أن القرآن قد جمع جوانب الإصلاح في حياة الناس على أكمل الوجوه، فمن ذلك:

١. الاستخلاف على الناس.

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قاله موسى لأخيه عند العزم على الصعود إلى الجبل للمناجاة، ومعنى ﴿ٱخْلُفْنِي﴾ أي: كن خلفًا عني وخليفة، وهو الذي يتولى عمل غيره عند فقده، فتنتهي تلك الخلافة عند حضور المستخلف، فالخلافة وكالة، وفعل (خلف) مشتق من الخلف بسكون اللام وهو ضد الأمام، لأن الخليفة يقوم بعمل من خلفه عند مغيبه، والغائب يجعل مكانه وراءه.

٢. إصلاح حياة الناس والبعد عن المفسدين.

قد جمع موسى عليه السلام وصيته ملاك السياسة بقوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإن سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح، وهو جعل الشيء صالحًا، فجميع تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره، فإن عادت بالصلاح عليه ويضده على غيره لم تعتبر صلاحًا، ولا تلبث أن تؤول فسادًا على من لاحت عنده صلاحًا، ثم إذا تردد فعل بين كونه خيرًا من جهة، وشرًا من جهة أخرى، وجب اعتبار أقوى حالتيه، فاعتبر بها إن تعذر العدول عنه إلى غيره مما هو أوفر صلاحًا، وإن استوى جهتاه ألغي إن أمكن إلغاؤه وإلا تخير، وهذا أمر لهارون جامع لما يتعين عليه عمله من أعماله في سياسة الأمة.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تحذير من الفساد بأبلغ صيغة، لأنها جامعة بين النهي والنهي عن فعل تنصرف صيغته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه، وبين تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين.

والاتباع أصله المشي على خلف ماش، وهو هنا مستعار للمشاركة في عمل المفسد، فإن الطريق مستعار للعمل المؤدي إلى الفساد، والمفسد من كان الفساد صفته، فلما تعلق النهي بسلوك طريق المفسدين،

كان تحذيرًا من كل ما يستروح منه مآل إلى فساد، لأن المفسدين قد يعملون عملًا لا فساد فيه، فنهي عن المشاركة في عمل من عرف بالفساد، لأن صدوره عن المعروف بالفساد كاف في توقع إفضائه إلى فساد ، ففي هذا النهي سد ذريعة الفساد، وسد ذرائع الفساد من أصول الاسلام، وقد عني بها مالك بن أنس وكررها في كتابه واشتهرت هذه القاعدة في أصول مذهبه.

فلا جرم أن كان قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ جامعًا للنهي عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد: وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعمل المفسد وإن لم يكن مما اعتاده، وتجنب الاقتراب من المفسد ومخالطته.

وقد أجرى الله على لسان رسوله موسى، أو أعلمه، ما يقتضي أن في رعية هارون مفسدين، وأنه يوشك إن سلكوا سبيل الفساد أن يسايرهم عليه، لما يعلم في نفس هارون من اللين في سياسته، والاحتياط من حدوث العصيان في قومه، كما حكى الله عنه في قوله: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٩٤].

فليست جملة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ مجرد تأكيد لمضمون جملة ﴿وَأَصْلِحْ﴾ تأكيدًا للشيء بنفي ضده مثل قوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١].

لأنها لو كان ذلك هو المقصد منها لجردت من حرف العطف، ولاقتصر على النهي عن الإفساد فقيل: وأصلح لا تفسد، نعم يحصل من معانيها ما فيه تأكيد لمضمون جملة ﴿وَأَصْلِحْ﴾[1].

٣. المهمة الأولى للرسل إصلاح حياة الناس.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومعنى ﴿وَأَصْلَحَ﴾: أي فعل الصلاح، وهو الطاعة لله فيما أمر ونهى، لأن الله ما أراد بشرعه إلا إصلاح الناس، كما حكى عن شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

ولما بين شعيب عليه السلام لقومه حقيقة عمله، وكان في بيانه ما يجر الثناء على نفسه، أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله فقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨].

فسمى إرادته الإصلاح توفيقًا، وجعله من الله لا يحصل في وقت إلا بالله، أي: بإرادته وهديه، فجملة ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿أُرِيدُ﴾.

والتوفيق: جعل الشيء وفقا لآخر، أي:

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٢٧٢.

طبقًا له، ولذلك عرفوه بأنه خلق القدرة والداعية إلى الطاعة[1].

وفي قول الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

يحتمل أنهم علموا ذلك من تسميته خليفة، لأن الخلافة تقتضي الإصلاح وقهر المستخلف عليه، وهو يستلزم أن يصدر منه فساد، إما في ذاته بمقتضى الشهوة، أو في غيره من السفك، أو لأنها مجلي الجلال كما أنها مجلي الجمال، ولكل آثار، والإفساد والسفك من آثار الجلال، وسكتوا عن آثار الجمال، إذ لا غرابة فيها، وهم على كل تقدير ما قدروا الله تعالى حق قدره، ولا يخل ذلك بهم ففوق كل ذي علم عليم[2].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢].

«في هذه الآية دليل على الحكم بالظن، لأنه إذا ظن قصد الفساد وجب السعي في الصلاح، وإذا تحقق الفساد لم يكن صلحًا، إنما يكون حكمًا بالدفع، وإبطالًا للفساد وحسمًا له»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ (يدل على وجوب الاصلاح عند التنازع بين المسلمين)[4].

ومحمل الإصلاح العدل كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

لم يبين هنا هل المراد بالناس المسلمون دون الكفار أو لا؟ لكنه أشار في مواضع أخر أن المراد بالناس المرغب في الإصلاح بينهم هنا، المسلمون خاصة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر، وكقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١][6].

قال ابن كثير رحمه الله نقلًا عن الرازي: النميمة على قسمين: تارة تكون على وجه التحريش بين الناس، وتفريق قلوب

(١) انظر: المصدر السابق ٦/ ١٠٨، ١١/ ٣١٦.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ٢٢٢.
(٣) الجامع أحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٨٢.
(٤) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ٣٨٢.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٦٨.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٠٧.

المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه. فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس، وائتلاف كلمة المسلمين، كما جاء في الحديث: (ليس الكذاب من ينم خيرًا)[1]، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث: (الحرب خدعةٌ)[2]، وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة، جاء إلى هؤلاء ونمى إليهم عن هؤلاء، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئًا آخر، ثم لأم بين ذلك، فتناكرت النفوس وافترقت[3].

وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق، ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها، لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها، والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خلص لذلك متمحضون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه[4].

٤. النهي عن الإفساد في الأرض.

نهى الله تعالى عن الإفساد في الأرض فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

أي: لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، أو بعد إصلاح أهلها[5].

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟﴾ لفظ عام يشمل دقيق الفساد وجليله، وكذلك الإصلاح عام، والمفسرون نصوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد، وإلى النبوءات والشرائع بالإصلاح[6].

«والفساد: خروج الشيء عن الحالة اللائقة به والصلاح مقابله، والفساد في الأرض هيج الحروب، والفتن المستتبعة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد، واختلال أمر المعاش والمعاد، والمراد بما نهوا عنه:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، ٢/ ٩٥٨، رقم ٢٥٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه، ٤/ ٢٠١١، رقم ٢٦٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب، ٣/ ١٣٦١، رقم ١٧٣٩.

(٣) انظر: مصنف عبدالرزاق، رقم ٩٧٣٧، ٥/ ٣٦٧، الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٦/ ١٠٦، إعلام الموقعين، ابن القيم ٣/ ٢٤٠.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٦٩.

(٥) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٢١.

(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٩٣.

ما يؤدي إلى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار، وإغرائهم عليهم، وغير ذلك من فنون الشرور»[1].

ومعنى الإفساد: هو ما ينبغي تركه مما هو مضرة، وأن الإصلاح ضده: وهو ما ينبغي فعله مما فعله منفعة، وإن جهل المعاني التي جعلها الله إفسادًا، والمعاني التي جعلها الله إصلاحًا[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

يحتمل أن تكون صيغة: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ مستعملة في التحريض على الصلح، أي: إصلاح أمرهما بالصلح وحسن المعاشرة، فنفي الجناح من الاستعارة التمليحية، فالمراد الصلح بمعنى: إصلاح ذات البين، والأشهر فيه أن يقال: الإصلاح. والمقصود الأمر بأسباب الصلح، وهي: الإغضاء عن الهفوات، ومقابلة الغلظة باللين، وهذا أنسب وأليق بما يرد بعده من قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠].

والتعريف في قوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ تعريف الجنس وليس تعريف العهد، لأن المقصود إثبات أن ماهية الصلح خير للناس، فهو تذييل للأمر بالصلح والترغيب فيه[3].

٥. مقاصد الإصلاح التي جاء بها القرآن.

المقاصد الأصلية التي جاء بها القرآن وبينها، والتي لها تعلق بالإصلاح، تبلغ بالاستقراء ثمانية أمور ، كما ذكرها ابن عاشور رحمه الله[4]:

الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقيدة الصحيح.

وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم، وليس هو من فعل الآلهة، ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة.

الثاني: تهذيب الأخلاق.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ولما سئلت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم قالت: كان خلقه القرآن[5].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٤٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٧٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٦٧.
(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ٣٧.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة

وفي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ بلاغًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بعثت لأتمم حسن الأخلاق)[1].

وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب، بله خاصة الصحابة.

الثالث: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعًا كليًا في الغالب، وجزئيًا في المهم. قال الشاطبي: لأنه على اختصاره جامع، والشريعة تمت بتمامه، ولا يكون جامعًا لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية[2].

الرابع: سياسة الأمة.

وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها، كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين.

وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار.

السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير.

وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول.

المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ١/ ٥١٢، رقم ٧٤٦.

(١) أخرجه مالك في الموطأ من رواية يحيى الليثي رقم ١٦٠٩، ٢/ ٩٠٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ١١٢.

(٢) انظر: الموافقات ٤/ ١٨١.

إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه، ومتحدي لأجله بمعناه.

كما أن من أهم ما يقوم به الإمام لتحقيق الإصلاح في حياة الناس ما يلي:

- حماية البيضة والذب عن الحريم، ليتصرف الناس في المعايش، وينتشروا في الأسفار آمنين، من تغرير بنفس أو مال.
- تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرفٍ ولا تقتيرٍ، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.
- استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة[1].

ثالثًا: حفظ وحدة الأمة:

إن من أعظم مقاصد السياسة التي جاء بها القرآن الكريم وحدة الأمة، ونبذ الفرقة والاختلاف، والنصوص القرآنية كثيرة في تجذير مفهوم الأمة في نفوس المسلمين، الذي لا تقف دونه الحدود والتضاريس، ومعيار وحدة الأمة هو الاعتصام بحبل الله تعالى، والتمسك بشرعه ودينه.

ويمكن إجمال عوامل وحدة الأمة التي أرشد إليها الكتاب العزيز فيما يلي: الاعتصام بدين الله تعالى ونبذ الفرقة، وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وذم الاختلاف والتفرق. كما سيأتي إن شاء الله.

قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

حيث أمر الله في هذه الآية بما فيه صلاح حال الناس في دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق ليكتسبوا باتحادهم قوة ونماء. والاعتصام افتعال من عصم، وهو طلب ما يعصم، أي: يمنع.

والحبل: ما يشد به للارتقاء، أو التدلي، أو للنجاة من غرق، أو نحوه، والكلام تمثيل لهيئة اجتماعهم والتفاتهم على دين الله ووصاياه وعهوده، بهيئة استمساك جماعة بحبل ألقي إليهم، منقذ لهم من غرق أو سقوط، وإضافة الحبل إلى الله قرينة هذا التمثيل[2].

والله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفرقة، فإن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة.

وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني: في دينكم كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٧٤.

(٢) انظر: المصدر السابق.

ويجوز أن يكون معناه: ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخوانًا؛ فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

نهى الله جل وعلا المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن التنازع، مبينًا أنه سبب الفشل، وذهاب القوة، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

أي: «إن هذه شريعتكم شريعة واحدة، ودينكم دين واحد، وربكم واحد، فلا تتفرقوا في الدين»[3]. «وقديمًا كان التحزب مسببًا لسقوط الأديان والأمم، وهو من دعوة الشيطان التي يلبس فيها الباطل في صورة الحق»[4].

وقد ذم الله سبحانه أهل التفرق والاختلاف في الكتاب، الذين يؤمن كل منهم ببعضه دون بعض، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢][5].

ووحدة الأمة تكون باجتماع الكلمة على الألفة والتناصر؛ ليكون للمسلمين يد على من سواهم[6].

رابعًا: تحقيق مقاصد الشريعة:

مقاصد الشريعة الإسلامية تنقسم إلى: عامة وخاصة، فالمقاصد العامة يقصد بها: المعاني والحكم الملحوظة للشارع في

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٠٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٠٢.
(٣) المصدر السابق ٧/ ٦١.
(٤) التحرير والتنوير ١٨/ ٦٠.
(٥) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٢٩٣.
(٦) انظر: الأحكام السلطانية ص٤٥.

جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظاتها في الكون في نوع خاص من أحكام الشريعة[1].

والمقاصد الخاصة: المراد بها الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة، كي لا يعود سعيهم في مصالحهم الخاصة بإبطال ما أسس لهم من تحصيل مصالحهم العامة إبطالًا عن غفلة، أو استنزال هوى، أو شهوة[2].

والمقاصد ذات تقسيمات متعددة لا يتسع المقام لذكرها، ويمكن الإشارة إليها بإيجاز، فأقول: إن المقاصد من حيث الحاجة إليها تشتمل على ثلاث أشياء: الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات.

ومن حيث المحل تجدها قسمين: مقاصد الشارع، ومقاصد المكلف، ومن حيث تعلقها بعموم الأمة وخصوصها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. مقاصد عامة: وهي التي تلاحظ في أغلب أبواب الشريعة.

٢. ومقاصد خاصة: وهي التي تتعلق بباب معين، وتشمل مقاصد العائلة، والتصرفات المالية، والعمل والعمال، والقضاء والشهادات والعقوبات، وعقود التبرعات. الخ.

٣. ومقاصد جزئية: والمراد بها علل الأحكام وأسرارها[3].

ولا جرم أن الله تعالى خص الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فيما حكاه خطابًا منه لموسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

ففي قوله: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة، فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس في سائر أحوالهم، وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (بعثت بالحنيفية السمحة)[4].

---

(١) انظر: مقاصد الشريعة، ابن عاشور ص٥١.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٥١، ١٤٦.

(٣) انظر: مقاصد الشريعة، ابن عاشور ص ٥١، مقاصد التشريع الإسلامي، نور الدين الخادمي مجلة العدل، عدد ٦ ربيع الآخر ١٤٢١هـ.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ٢٦٦، رقم

وما يتخيل من شدة في نحو القصاص والحدود، فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ فالقصاص والحدود شدة على الجناة ورحمة ببقية الناس.

وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمة، ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، وإجراء العدل بينهم في الأحكام، بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة.

هذا وإن أريد بلفظة: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة، فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به، إذ هو مخلوق لأجل الإنسان.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٦-٧].

وكل ما سبق ذكره من تقسيمات مقاصد وتفريعاتها المختلفة، تخدم جوانب الحياة المختلفة، سواء في مجال الضروريات أو الحاجيات أو التحسينات.

وأكتفي هنا بالإشارة إلى الضروريات الخمس، وما جاء في القرآن الكريم بشأنها من النصوص على هذا النحو:

الأول: حفظ الدين.

حيث شرع الله لإقامته العبادات، وشرع لحفظه الجهاد وعقوبة المرتد، وزجر من يفسد على الناس عقيدتهم[1].

الثاني: حفظ النفس.

شرع الله لإيجادها النكاح، وشرع لحفظها القصاص على من يعتدي عليها، وتحريم إلقاء النفس في التهلكة، ولزوم دفع الضرر عنها[2].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

٢٢٣٤٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٧/ ١٢٥.

(١) انظر: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان ص٤٢.
(٢) انظر: المصدر السابق.

في هذه الآية تنبيه على الحكمة في شرع القصاص، وإبانة الغرض منه، وخص أولي الألباب مع وجود المعنى في غيرهم؛ لأنهم المنتفعون به[1].

ومن علم أنه يقتل إذا قتل، يكون ذلك رادعًا له وزاجرًا عن القتل، ولو كان الاثنان لا يقتص منهما للواحد، لكان كل من أحب أن يقتل مسلمًا، أخذ واحدًا من أعوانه فقتله معه، فلم يكن هناك رادع عن القتل، وبذلك تضيع حكمة القصاص من أصلها، مع أن المتمالئين على القتل، يصدق على كل واحد منهم أنه قاتل فيقتل، ويدل له أن الجماعة لو قذفوا واحدًا لوجب حد القذف على جميعهم[2].

ولا شك أن هذا من أعدل الطرق وأقومها، ولذلك يشاهد في أقطار الدنيا قديمًا وحديثًا، قلة وقوع القتل في البلاد التي تحكم كتاب الله، لأن القصاص رادع عن جريمة القتل، كما ذكره الله في الآية[3].

وفيه ارتداع الناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت[4].

الثالث: حفظ العقل.

حيث شرع الله لحفظه تحريم الخمر وعقوبة شاربها، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

في هذه الآية دليل على وجوب اجتناب الخمر، وقد أخذ بعض العلماء منها أن الخمر نجسة العين، لأن الله تعالى قال: إنها ﴿رِجۡسٞ﴾، والرجس في كلام العرب: كل مستقذر تعافه النفس.

قالوا: ويدل لهذا مفهوم المخالفة في قوله تعالى في شراب أهل الجنة: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ لأن وصفه لشراب أهل الجنة بأنه طهور يفهم منه، أن خمر الدنيا ليست كذلك، والنزاع الفقهي في هذه المسألة شهير[5].

وقد بينت السنة حد شرب الخمر، وهو ثمانون جلدة مع الحرية وأربعون مع الرق[6].

الرابع: حفظ النسب.

شرع الله لإيجاده الزواج، وشرع لحفظه عقوبة الزنى، وحرمة إجهاض المرأة الحامل إلا لضرورة[7].

(١) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ١/ ٥٦.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤١٠.
(٣) انظر: أضواء البيان ٣/ ٣٢.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢/ ١٤٣.
(٥) انظر: أضواء البيان ١/ ٤٢٦.
(٦) انظر: زاد المستقنع، الحجاوي ص١٩٥.
(٧) انظر: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان ص٤٢.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

كما أوجب الله سبحانه العدة صيانة وحفظًا للأنساب.

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

الخامس: حفظ العرض.

حيث شرع الله لحفظه عقوبة الزنى والقذف، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

السادس: حفظ المال.

شرع الله لتحصيله أنواع المعاملات من بيع وشراء وشركة ونحو ذلك، وشرع لحفظه حرمة أكل مال الناس بالباطل، أو إتلافه والحجر على السفيه وتحريم الربا، وعقوبة السرقة[1].

قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

كما شرع الله تعالى حد الحرابة، وهو حد قطاع الطريق: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

وما تقدم ذكره من ضروريات الشريعة وكلياتها يصب في مصلحة الأمة من النواحي المختلفة، وخصوصًا الناحية السياسية، إذ إن ضبط هذه المصالح والحفاظ عليها هو تحقيق واضح لمقاصد الشريعة بتقسيماتها المختلفة، وأساس من أسس تماسك الأمة ووحدتها، وسلامة أفرادها ومجتمعاتها من العبث والإتلاف، واستبقاء لصورة الأمة قوية قلبًا وقالبًا أمام نفسها وأمام أعدائها.

(١) انظر: المصدر السابق.

خامسًا: دفع العدوان:

من أعظم المهام المنوطة بالإمام رعاية الأمة ودفع العدوان عنها، سواء كان العدوان على ثغور المسلمين، أو كف عدوان بعض المسلمين على المسلمين، ويكون ذلك بما يلي:

- تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرةٍ ينتهكون فيها محرمًا، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دمًا[(١)].
- جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم، أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله[(٢)].

والعدوان مصدر عدا، بمعنى: اعتدى، وهو نفي عام، أي: لا يؤخذ فرد فرد من أنواعه البتة إلا على من ظلم، ويراد بالعدوان الذي هو الظلم الجزاء[(٣)].

ومن واجبات السياسة في الإسلام دفع العدوان، سواء كان هذا العدوان على بلاد المسلمين، والذي هو جهاد الدفع، أو كان عدونًا من المسلمين بعضهم على بعض.

ومن أمثلة الأول قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

أي: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك، وقتال المؤمنين، فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: لا يقاتل إلا من قاتل. أو يكون تقديره : فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم، وهو الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك.

والمراد بالعدوان هاهنا: المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦][(٤)].

وقوله: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إنما ذلك على وجه المجازاة، والمعنى: افعلوا بهم مثل الذي فعلوا بكم، ولا تقاتلوا إلا من قاتلكم[(٥)].

وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

في هذه الآية نهي عن الاعتداء، وقد ذكر بعض المفسرين أن الاعتداء على ثلاثة أقوال: الأول: قتال من لم يقاتل. والثاني:

(١) انظر: الأحكام السلطانية، الماوردي ص٢٢، غياث الأمم، الجويني ص١٢٩.
(٢) انظر: الأحكام السلطانية ص٢٢.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٢٦.
(٥) انظر: جامع البيان ٣/ ٥٧٣-٥٧٤.

أنه قتل النساء والولدان. والثالث: أنه القتال على غير الدين[1]. ولا يمنع أن يكون اللفظ شاملًا للأقوال الثلاثة.

وقد يكون الاعتداء بتعدي حدود الله تعالى، فيجب على الإمام حمايتها ورعايتها، والشريعة جاءت بحماية حقوق الناس، ورعايتها لشؤونهم، أيًا كان هذا الاعتداء حتى بين الزوجين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١].

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بالنهي عن إمساك المرأة مضارة لها؛ لأجل الاعتداء عليها بأخذه ما أعطاها؛ لأنها إذا طال عليها الإضرار افتدت منه؛ ابتغاء السلامة من ضرره[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ [النساء: ١٤].

والتعدي هو: مجاوزة الحد الذي حده الله فيها، وقد جاء ذلك بعد أحكام المواريث، وذكر أنصباء الوارث، والنظر في أموال الأيتام، وبيان عدد ما يحل من الزوجات، فناسب أن يذكر عقيب هذا كله التعدي، الذي هو مجاوزة ما شرعه الله من هذه الأحكام إلى ما لم يشرعه، وجاء قوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ عقيب قوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢].

ثم وعد من أطاع بالجنة، وأوعد من عصا وتعدى حدوده بالنار[3]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

في هذه الآية نهي عن استحلال المحرمات، وذلك بالاعتداء على حقوق الناس، وهو أشد الاعتداء، أو على حقوق الله تعالى في أمره ونهيه دون حق الناس، كتناول الخنزير أو الميتة. ويعم الاعتداء في سياق النهي جميع جنسه مما كانت عليه الجاهلية من العدوان، وأعظمه الاعتداء على الضعفاء كالوأد، وأكل مال اليتيم، وعضل الأيامى، وغير ذلك[4].

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

«أي: من تجاوز شرع الله بعد القود، وأخذ الدية بقتل القاتل، بعد سقوط الدم، أو بقتل غير القاتل، وكانوا في الجاهلية يفعلون ذلك، ويقتلون بالواحد الاثنين والثلاثة والعشرة، وقيل: المعنى: من قتل بعد أخذ الدية، وقيل: بعد العفو، وقيل: من أخذ الدية بعد العفو عنها.

والأظهر القول الأول لتقدم العفو، وأخذ المال، والاعتداء وهو: تجاوز الحد، يشمل ذلك كله»[5].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٥١.
(٢) انظر: أضواء البيان ١/ ١٤٩.
(٣) انظر: البحر المحيط ٢/ ٦١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٥/ ١٩٢.
(٥) البحر المحيط ٢/ ١٧.

«وهذا تفريع عن حكم العفو؛ لأن العفو يقتضي شكر الله على أن أنجاه بشرع جواز العفو، وبأن سخر الولي للعفو، ومن الشكر ألا يعود إلى الجناية مرة أخرى، فإن عاد فله عذاب أليم، وقد فسر الجمهور العذاب الأليم بعذاب الآخرة»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

والعدوان هنا إما أن يكون أعم من الإثم، وإما أن يكون نوعًا آخر، وإما أن يكون العدوان في مجاوزة حدود المأمورات، واجبها ومستحبها، ومجاوزة حد المباح، وإما أن يكون في ذلك مجاوزة حد التحريم أيضًا؛ فإنها ثلاثة أمور: مأمور به، ومنهي عنه، ومباح[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٣٠].

في هذه الآية نهي عن أن يقتل الرجل غيره، فالضميران فيه على التوزيع، إذ قد علم أن أحدًا لا يقتل نفسه فينهى عن ذلك، وقتل الرجل نفسه داخل في النهي، لأن الله لم يبح للإنسان إتلاف نفسه كما أباح له صرف ماله[3].

(١) التحرير والتنوير ٢/ ١٤٢.
(٢) انظر: مجموع فتاوى، ابن تيمية ٣/ ١٩١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ١٠١.

سمات النظام السياسي في القرآن

يتسم النظام السياسي في القرآن الكريم بسمات عامة، تجعله في منزلة لا يصل إليها أي نظام سياسي آخر في الشرق أو الغرب، ومن أبرز هذه السمات ما يلي:

١. رباني.

مصدر الشريعة الإسلامية هو الله تعالى، فهي وحيه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم باللفظ والمعنى وهو القرآن، أو بالمعنى دون اللفظ وهو السنة، فهي بهذا الاعتبار تختلف اختلافًا جوهريًا عن جميع الشرائع الوضعية، لأن مصدر هذه الشرائع البشر، ومصدر الشريعة الإسلامية رب البشر.

وينبني على ذلك أن أحكام النظام السياسي في الإسلام معصومة من التناقض، فهي خالية من معاني الجور والنقص والهوى، لأن صانعها هو الله، والله له الكمال المطلق الذي هو لوازم ذاته، بخلاف القوانين الوضعية التي لا تنفك عن هذه المعاني؛ لأنها صادرة عن الإنسان، والإنسان لا يخلو من معاني الجهل والجور والنقص والهوى وما إلى ذلك.

وكذلك مما ينبني عليها أيضًا أن لأحكام النظام السياسي الإسلامي هيبة واحترامًا في نفوس المؤمنين بها حكامًا كانوا أو محكومين، لأنها صادرة عن الله، ومن ثم

فلها صفة الدين. وما له هذه الصفة من حقه أن يحترم ويطاع طاعة اختيارية تنبعث من النفس وتقوم على الإيمان، ولا يقسر عليها الإنسان قسرًا. وفي هذا أعظم ضمان لحسن تطبيق القانون الإسلامي من الجميع، وعدم الخروج عليه ، ولو مع القدرة على هذا الخروج[1].

والثوابت في هذه الشريعة من أظهر الأدلة على ربانيتها، وأنها من عند الله عز وجل، حيث إنها لا تقبل التعديل أو التبديل أو التغيير أو التعارض والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فالقرآن لا يشتمل على كلام يوجب الريبة في أنه من عند الحق رب العالمين، من كلام يناقض بعضه بعضًا، أو كلام يجافي الحقيقة والفضيلة، أو يأمر بارتكاب الشر والفساد، أو يصرف عن الأخلاق الفاضلة، وانتفاء ذلك عنه يقتضي أن ما يشتمل عليه القرآن إذا تدبر فيه المتدبر، وجده مفيدًا اليقين بأنه من عند الله[2].

وقال الفراء: أظن أن القرآن سمي من القرائن، وذلك أن الآيات يصدق بعضها بعضًا[3].

وحيث خلا هذا الكتاب عن التناقض علمنا أنه من عند الله[4].

وقال القرطبي: «إنه ليس من متكلم يتكلم كلامًا كثيرًا إلا وجد في كلامه اختلاف كثير؛ إما في الوصف واللفظ؛ وإما في جودة المعنى، وإما في التناقض، وإما في الكذب. فأنزل الله عز وجل القرآن وأمرهم بتدبره؛ لأنهم لا يجدون فيه اختلافًا في وصف ولا ردًا له في معنى، ولا تناقضًا ولا كذبًا فيما يخبرون به من الغيوب وما يسرون»[5].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

أوضحت هذه الآية أن المشرعين غير ما شرعه الله إنما تصف ألسنتهم الكذب، لأجل أن يفتروه على الله، وأنهم لا يفلحون، وأنهم يمتعون قليلًا ثم يعذبون العذاب الأليم، وذلك واضح في بعد صفاتهم من صفات من له أن يحلل ويحرم[6].

٢. أخلاقي.

أمر الله تعالى في كتابه بجملة من مكارم الأخلاق والفضائل والمحاسن، منها: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى،

(١) انظر: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان ص٣٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٢٢١.
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٢٧٨.
(٤) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ١٨٧.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥٣.

والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، والتفضل بالإحسان، والصفح والعفو، والوفاء بالعهد، وعدم نقض الميثاق، والصبر، والأمر بالعمل الصالح، والنهي عن الظلم، والآيات في ذلك أكثر من أن يستوعبها هذا المجال.

ونصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم، زادت على العشرين موضعًا[1].

قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

في هذه الآية أمر بمراعاة مكارم الأخلاق ومداراة الناس، والمعنى: استعمال العفو، وقبول ما سهل من أخلاق الناس، وترك الاستقصاء عليهم في المعاملات، وقبول العذر ونحوه[2]. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أثقل شيءٍ في ميزان المؤمن خلقٌ حسنٌ)[3]. وروى ابن عمر أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي المؤمنين أفضل؟ فقال: (أحسنهم خُلُقًا)[4].

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق، لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفوًا عن اعتداء ، فتدخل في: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، أو إغضاء عما لا يلائم فتدخل في: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، أو فعل خير واتسامًا بفضيلة فتدخل في: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾.

وهذا معنى قول جعفر بن محمد: في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها، وهي صالحة لأن يبين بعضها بعضًا، فان الأمر بأخذ العفو يتقيد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيد بأخذ العفو ، وذلك بأن يدعو الناس إلى الخير بلين ورفق[5].

فجعل الله تعالى أصل شريعته إكمال ما يحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم، ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكبر مظهر لما في شرعه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]. وأمره أن يقول: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

فكما جعل الله رسوله صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم، جعل شريعته لحمل الناس على التخلق بالخلق العظيم بمنتهى

(١) انظر: المصدر السابق ٨/ ٥٦٤.
(٢) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ١٤١.
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلقا بها كان من أهل المروءة التي هي شرط في قبول الشهادة على طريق الاختصار، ١٠/ ١٩٣، رقم ٢٠٥٧٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ١٤.
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ٢/ ١٤٢٣، رقم ٤٢٥٩.
وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الترغيب والترهيب ٣/ ١٦٤.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٤٠١.

الاستطاعة. وبهذا يزداد وضوحًا معنى التمكن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فهو متمكن منه الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية[١].

قال القرطبي: تضمنت هذه الآية قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة[٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

«لبيان ما في ذلك الأمر من الصلاح ترويضًا على التخلق بذلك الخلق الكريم، وهو أن تكون النفس مصدرًا للإحسان، ولما كانت الآثار الصالحة تدل على صلاح مثارها. وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالدفع بالتي هي أحسن، أردفه بذكر بعض محاسنه، وهو: أن يصير العدو كالصديق، وحسن ذلك ظاهر مقبول، فلا جرم أن يدل حسنه على حسن سببه»[٣].

وهذا من جملة حسن الأدب في الخدمة في حق صحبتك مع الله؛ تحلم مع عباده لأجله، ومن جملة حسن الخلق في الصحبة مع الخلق ألا تنتقم لنفسك، وأن تعفو عن خصمك[٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وهذه الشرائع من أصول الدين، التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتمالها على المصالح العامة، في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين[٥].

وقد أمر الله بالإحسان في آيات كثيرة

(١) انظر: المصدر السابق ٢٩/ ٦١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢١٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ٥٨.
(٤) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٧/ ١٤٣.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧.

منها: قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وحض الله في كتابه على العفو ، فقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

قال الأمين الشنقيطي: «فانظر: ما في هذه الآية من الحض على مكارم الأخلاق من الأمر بالعفو والنهي عن نسيان الفضل»[(١)].

«والعفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق؛ لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى ، لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة، أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد، لأن التقوى تقرب بمقدار قوة الوازع، والوازع شرعي وطبيعي، وفي القلب المفطور على الرأفة والسماحة لين يزعه عن المظالم والقساوة، فتكون التقوى أقرب إليه لكثرة أسبابها فيه»[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

وفي الحقوق العامة أوامر ونواهي، عبادات ومعاملات، جاءت آيات الوصايا العشر، التي قال عنها ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمة فليقرأ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فهذه الآية تعرف بالوصايا العشر، والتي هي جامعة لأبواب الخير، وموصدة لأبواب الشر، فصارت هذه السورة بحق جامعة لأصول الرسالة[(٣)]، حيث ذكر الله تعالى فيها مبادئ الأخلاق العامة التي يصلح بها المجتمع الإسلامي، والذي يبين أن النظام السياسي في الإسلام اهتم بجانب الأخلاق وحفظ الحقوق ورعايتها اهتمامًا ظاهرًا.

ومن ذلك: بر الوالدين، ورعاية حق الأولاد والإحسان إليهم، والنهي عن قتلهم خشية الفقر، والنهي عن الفواحش، والنهي

(١) انظر: أضواء البيان ٣/ ٥٠.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٤٤٣.
(٣) انظر: أضواء البيان ٩/ ٩٦.

عن قتل النفس المحرمة إلا بالحق.

٣. كامل وشامل.

تناول كتاب الله عز وجل قضايا الناس والمجتمعات، سواء كانت المتعلقة بالعبادات أو المعاملات أو المناكحات أو العلاقات السياسية أو القضايا الاجتماعية أو محاسن الاخلاق ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وبين ذلك في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فلا شك أن القرآن فيه بيان كل شيء، والسنة كلها تدخل في آية واحدة منه، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1] [الحشر: ٧].

والسنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيين الكتاب، فمن ثم كان تبيانًا لكل شيء[2].

والقرآن أنزله الله تعالى كتابًا لصلاح أمر الناس كافة، رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم.

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية.

فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد، لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر.

وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولًا من الصلاح الفردي، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، وهناك شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض، على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع.

وصار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة، كافيًا في هدي الأمة في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها،

(١) انظر: أضواء البيان ٢/ ٤٢٨.
(٢) انظر: الكشاف ٢/ ٥٨٦.

بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافيًا في كل وقت بما يحتاجه المسلمون[1].

والله عز وجل نص على بعض الأحكام، وأجمل القول في بعضها، وأحال على الأدلة في سائرها بقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

فبين النبي صلى الله عليه وسلم ما أجمله الله في كتابه، كما أمره، حيث يقول: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤].

فما أحل صلى الله عليه وسلم، أو حرم، ولم يوجد في القرآن نصًا، فهو مما بين من مجمل القرآن، أو علمه بما نصب من الأدلة فيه[2].

فما ترك القرآن شيئًا من أمر الدين إلا وقد دلنا عليه؛ إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة، يتلقى بيانها من الرسول صلى الله عليه وسلم، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب.

فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلًا وإما تأصيلًا.

وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[3] [المائدة: ٣].

وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات، وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد[4].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

وهذا الكمال والشمول للشريعة الإسلامية، يفيد الأمة في مجالات السياسة المختلفة من وجوه:

أولها: أن الشمول ينسحب أثره على مناحي الحياة السياسية في جميع مراحلها، بدءًا من ضوابط اختيار الحاكم، ومرورًا بمنهجه في الحكم، وانتهاء بحالات عزله

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٣٦ ٥/ ٣١.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٤٤٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٧٠-٢٧١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٧.

أو انعزاله.

وثانيها: أن الشمول ينفي عن الشريعة تهمة النقص والقصور التي يحاول أعداء الإسلام اتهام الشريعة بها، أو الترويج لها، لا سيما إذا استطاع المسلمون أن يبينوا أوجه الكمال والشمول هذه.

وثالثها: أن الشمول والكمال ينبئ عن ربانية مصادر الشريعة، وخلوصها من تهمة استفادتها من أي نظام آخر، سواء كان قانونيًا أو اقتصاديًا أو سياسيًا، فلم تتأثر الشريعة الإسلامية بشريعة فارس ولا الروم، ولا بحكم الصين أو الهند أو غير ذلك من الدول المحيطة بالدولة الإسلامية إبان نزول الوحي، أو إقامة الدولة في المدينة النبوية.

٤. محقق للمساواة.

جاءت الشريعة بمبدأ المساواة بين الناس بغض النظر عن اختلافهم في اللون أو الجنس أو اللغة، وجعلت أساس التفاضل بينهم العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا المبدأ جاءت به الشريعة في وقت كانت العصبية للجنس والقبيلة هي الأساس في المجتمع، وفي تمايز الناس وتفاضلهم.

والحكمة في جعله بني آدم شعوبًا وقبائل، هي التعارف فيما بينهم، فالتعارف هو العلة المشتملة على الحكمة، لقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾.

فيعرف بعضهم بعضًا، ويتميز بعضهم عن بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه، فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل[1].

والله تعالى قد علق محبته لخلقه على وصف التقوى والإيمان والإحسان، كقوله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

ونفى محبته من وصف الاعتداء والكفر والظلم، كقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

(١) انظر: أضواء البيان ٣/ ٤٥ ٧/ ٤١٧.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

إلى غير ذلك من الآيات.

٥. العالمية.

الشريعة الإسلامية عامة لجميع البشر في كل زمان ومكان.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وهي باقية لا يلحقها نسخ ولا تغيير ؛ لأن الناسخ يجب أن يكون بقوة المنسوخ أو أقوى منه، فلا ينسخ الشريعة وهي تشريع من الله إلا تشريع آخر من الله سبحانه، وحيث إن الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فلا يتصور أن ينسخها أو يغيرها شيء.

وعموم الشريعة وبقاؤها وعدم قابليتها للنسخ والتبديل كل ذلك يستلزم عقلًا أن تكون قواعدها وأحكامها على نحو يحقق مصالح الناس في كل عصر ومكان، ويفي بحاجاتهم ولا يضيق بها ولا يتخلف عن أي مستوى عال يبلغه المجتمع، وهذا كله متوفر في الشريعة الإسلامية ؛ لأن الله تعالى وهو العليم ؛ إذ جعلها عامة في المكان والزمان وخاتمة لجميع الشرائع، جعل الله قواعدها وأحكامها على نحو يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وهذا ما يدل عليه واقع الشريعة ومصادرها وطبيعة مبادئها وأحكامها وما ابتنت عليه هذه الأحكام، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والرحمة تتضمن رعاية مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى جميع الناس، وصرح بذلك في آيات كثيرة ، كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾.

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ

(١) انظر: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، عبدالكريم زيدان ص٣٩-٤٠.

﴿مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وقيد في موضع آخر: عموم رسالته ببلوغ هذا القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وصرح بشمول رسالته لأهل الكتاب مع العرب بقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

إلى غير ذلك من الآيات[(١)].

وهذه الآيات وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث[(٢)].

وما بعث نبيًا في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس[(٣)]، كما ثبت في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي وذكر منها: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس كافةً)[(٤)].

وهو ما يفيده العموم في كلمة (للناس) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

وقوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

هذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم للأسود والأحمر والجن والإنس، لدخول الجميع في قوله تعالى: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[(٥)].

قال الطيبي: مدار هذه السورة على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثًا إلى الناس كافة، ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولهذا جعل براعة استهلالها ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وذكر بدائع من صنعه تعالى، جمعًا بين الاستدلال والتذكير، وأعقب ذلك بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته ومقاومته الكافرين[(٦)].

ويظهر في رسالة النبي صلى الله عليه

(١) انظر: أضواء البيان ٢/ ٤١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٦.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٤٧٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، ١/ ١٢٨، رقم ٣٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، ٢/ ٦٣، رقم ١١٩١.
(٥) انظر: أضواء البيان ٦/ ٣.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ١٩/ ٦.

وسلم شمول البعثة في قوله: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وعموم الرحمة في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧].

هذا وعالمية الشريعة الإسلامية تمثل ثراء كبيرًا في مجال السياسة الداخلية والخارجية، وأبرز مظاهر هذا الثراء في تقديري ما يلي:

أولًا: أن عالمية الإسلام أعون للحاكم على تنفيذ تعاليم الشرع وتحكيم شرع الله عز وجل في دولته، مما لا يتأتى معه مجال للنقد أو الاعتراض من الدول غير الإسلامية.

ثانيًا: أن هذه السمة (العالمية) تفتح آفاقًا للتعاون المثمر بين الدول الإسلامية المختلفة، حيث يكون الهدف والتشريع واحدًا.

(١) انظر: روح المعاني ١/ ٥٤.

نماذج قرآنية من السياسة

جعل الله عز وجل كتابه العظيم دليلًا للسالكين وهداية للراغبين، قال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فمن تأمله وتدبره وعمل بما فيه وجد بغيته وضالته. وقد ذكر الله تعالى في كتابه نماذج سياسية من أنبياء الله تعالى وغيرهم، حتى تكون قصصهم عبرة لأولي الألباب، ومن هذه النماذج قصة نبي الله داود وسليمان ويوسف عليهم الصلاة والسلام، وكذلك قصة ذي القرنين، وملكة سبأ، وهو ما سأتناوله في النقاط الآتية:

أولًا: دواد وسليمان عليهما السلام:

جمع الله تعالى النبوة والحكم في بيت واحد لداود وسليمان عليهما السلام، وهذه نعمة كبيرة غير مسبوقة في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠].

فذكر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة أنه آتى داود منه فضلًا تفضل به عليه، وبين هذا الفضل الذي تفضل به على داود في آيات أخر، كقوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

آتى الله داود الملك الذي كان بيد طالوت والحكمة، أي: النبوة، ﴿وَعَلَّمَهُۥ

﴿مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به صلى الله عليه وسلم[1].

وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

وقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

بين الله سبحانه في هذه الآية وراثة سليمان لداود وتميزه بالنعم الأخرى واتساع ملكه، فورث من داود نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود عليه السلام تسعة عشر ابنًا، ولذا قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦][2].

وقد اتصف ملك داود وسليمان عليهما السلام بالقوة والعدل والحكمة، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وجند ونعمة، ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو فصل القضاء بين الناس بالحق وإصابته وفهمه[3].

وذكر الله عز وجل أنه أعطى داود ملكًا وسلطانًا لم يكن لآبائه، وفي ذلك إيماء إلى أن شأن محمد صلى الله عليه وسلم سيصير إلى العزة والسلطان، ولم يكن له سلف ولا جند، فقد كان حال النبي صلى الله عليه وسلم أشبه بحال داود عليه السلام.

وفي ذلك الإيماء إلى التحذير من الضجر في ذات الله تعالى، واتقاء مراعاة حظوظ النفس في سياسة الأمة، إبعاده لرسوله صلى الله عليه وسلم عن مهاوي الخطأ والزلل، وتأديبًا له في أول أمره وآخره، مما أن يتلقى بالعذل. وكان داود أيضًا قد صبر على ما لقيه من حسد «طالوت» ملك إسرائيل إياه على انتصاره على جالوت ملك فلسطين[4].

وقد حصلت بعض الوقائع في بني إسرائيل أبرزت ذكاء سليمان عليه السلام وحكمته، ومن ذلك ما يلي:

أولًا: واقعة الغنم التي نفشت في الحرث: قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٦٩.
(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ١٩٣.
(٣) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ٣٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٢٧.

مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

وكان داود ملكًا نبيًا يحكم بين الناس فوقعت هذه النازلة، وكان ابنه إذ ذاك قد كبر وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر، فتخاصم إليه رجل له زرع، دخلت حرثه غنم رجل فأفسدت عليه، فرأى داود دفعها إلى صاحب الحرث، فخرجا على سليمان، فشكى صاحب الغنم فجاء سليمان فقال: يا نبي الله، إني أرى ما هو أرفق بالجميع، أن يأخذ صاحب الغنم الحرث يقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان، ويأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمرافقها من لبن وصوف ونسل، فإذا عاد الحرث إلى حاله، صرف كل مال صاحبه إليه، فرجعت الغنم إلى ربها والحرث إلى ربه، فقال داود: وفقت يا بني وقضى بينهما بذلك[1].

وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحي، وأن سليمان أصاب، فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده، ولم يستوجب لومًا ولا ذمًا بعدم إصابته. كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ وأثنى عليهما في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فدل قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا﴾ على أنهما حكما فيها معًا، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحيًا لما ساغ الخلاف.

ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود، ولو كان حكمه فيها بوحي لكان مفهمًا إياها كما ترى، فقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا﴾ مع قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحي بل باجتهاد، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهيم الله إياه ذلك.

والقرينة الثانية: هي أن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع، لا أنه أنزل عليه فيها وحيًا جديدًا ناسخًا؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أليق بالأول من الثاني، كما ترى[2].

وقدم سليمان في الذكر على داود لتوفر علمه، وتأخر ذكر داود لتشريفه بذكر كتابه، وإبرازه في جملة مستقلة له بالذكر ولكتابه، فما فاته من التقديم اللفظي حصل به التضعيف من التشريف المعنوي[3].

وقد أوتي سليمان الحكمة، وسخر له أهل الصنائع والإبداع ، فاستكملت دولة إسرائيل في زمانه عظمة النظام والثروة

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣٠٦.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٧٠.

(٣) انظر: البحر المحيط ٣/ ٤١٣.

والحكمة والتجارة فكان في قصتهما مثل.

وكانت تلك القصة منتظمة في هذا السلك الشريف، سلك إيتاء الفرقان والهدى والرشد والإرشاد إلى الخير والحكم والعلم.

وكان في قصة داود وسليمان تنبيه على أصل الاجتهاد وعلى فقه القضاء، فلذلك خص داود وسليمان بشيء من تفصيل أخبارهما، أي: وآتينا داود وسليمان حكما وعلما إذ يحكمان إلى آخره، فـ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ متعلق بـ﴿ءَاتَيْنَا﴾ المحذوف، أي: كان وقت حكمهما في قضية الحرث مظهرًا من مظاهر حكمهما وعملهما.

وهذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي مراتب الترجيح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد، أو لم يهتد إلى المعارض؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ في معرض الثناء عليهما[1].

ثانيًا: واقعة المائة نعجة:

إذ تسور على داود محرابه رجلان متخاصمان، ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢].

فقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون من النعاج، وليس عندي إلا نعجة واحدة، فطمع فيها وقال: أعطنيها، وغلبني بحجته.

وسأله أن يعطيه نعجته، ولما رأى منه تمنعًا اشتد عليه بالكلام وهدده، فأظهر الخصم المشتكي أنه يحافظ على أواصر القرابة، فشكاه إلى الملك. وبهذا يتبين أن موضع هذا التحاكم طلب الإنصاف في معاملة القرابة؛ لئلا يفضي الخلاف بينهم إلى التواثب، فتنقطع أواصر المبرة والرحمة بينهم.

وقد علم داود من تساوقها للخصومة، ومن سكوت أحد الخصمين، أنهما متقاربان على ما وصفه الحاكي منهما، أو كان المدعى عليه قد اعترف، فحكم داود بأن سؤال الأخ أخاه نعجته ظلم؛ لأن السائل في غنى عنها، والمسؤول ليس له غيرها، فرغبة السائل فيما بيد أخيه من فرط الحرص على المال، واجتلاب النفع للنفس بدون اكتراث بنفع الآخر. وهذا ليس من شأن التحاب بين الأخوين، والإنصاف منهما فهو ظلم، وما كان من الحق أن يسأله ذلك، أعطاه أو منعه، ولأنه تطاول عليه في الخطاب، ولامه على عدم سماح نفسه بالنعجة، وهذا ظلم أيضًا[2].

فقال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٧/ ٨٥، ١٧/ ٨٧.

(٢) المصدر السابق ٢٣/ ١٣٥.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [ص: ٢٤].

قال ابن كثير رحمه الله: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا[1].

وفي قول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢].

تنبيه لسليمان بأن في مخلوقات الله ممالك وملوكًا تداني ملكه، أو تفوقه في بعض أحوال الملك، جعله الله مثلًا له، كما جعل علم الخضر مثلًا لموسى عليه السلام، لئلا يغتر بانتهاء الأمر إلى ما بلغه هو.

وفيه استدعاء لإقباله على ما سيلقى إليه، لأهمية هذا المطلع في الكلام، فإن معرفة أحوال الممالك والأمم من أهم ما يعنى به ملوك الصلاح، ليكونوا على استعداد بما يفاجئهم من تلقائها، ولتكون من دواعي الازدياد من العمل النافع للمملكة، بالاقتداء بالنافع من أحوال غيرها، والانقباض عما في أحوال المملكة من الخلل، بمشاهدة آثار مثله في غيرها[2].

وكان من منهج سليمان عليه السلام في حكمه فيما يتعلق بشأن ملكة سبأ مايلي:

- التثبت في قبول الأخبار، وهو قول سليمان للهدهد: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].
- دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان عليه السلام لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه، وإنما صار صدق الهدهد عذرا لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد، وقد قبل عمر رضي الله عنه عذر النعمان بن عدي ولم يعاقبه، ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة[3].
- ومن منهجه كذلك: إرساله الكتب والرسل لغير المسلمين ودعوتهم، قال تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [النمل: ٢٨].
- أمره بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريبًا حتى ترى مراجعتهم. وقال ابن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٦٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٩/ ٢٤٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٦.

زيد: أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه؛ أي: ألقه وارجع. ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨][(١)]. فأرسل سليمان عليه السلام الهدهد بكتابه ليلقيه إليها، فجمعت قومها وقالت ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾ [النمل: ٢٩-٣٠-٣١].

- ومن حكمة بلقيس كونها لم تذكر من ألقى إليها الكتاب، وما ذاك إلا لتعلم أصحابها أن لها اتصالًا إلى أمور لا يعلمون طريقها. وفي ذلك سياسة منها أورثت الحذر منها في أهل مملكتها وخواص مدبريها، وبهذا استحقت التقديم عليهم. وتأكيد الجملة للاعتناء بشأن الحكم[(٢)].
- وفي هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام، وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار[(٣)].

ولا يدل قوله: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ على جواز أن تكون المرأة ملكة ؛ لأن ذلك كان من فعل قوم بلقيس، وهم كفار، فلا حجة في ذلك[(٤)].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: (لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأةً)[(٥)].

وكذلك كان، فإنهم لم يستقم لهم أمر، والفلاح الفوز بالمطلوب والتدبير يحتاج إلى كمال الرأي، ونقص المرأة مانع، وفي الحديث دليل على أن المرأة لا تلي الإمارة ولا القضاء ولا عقد النكاح[(٦)].

ثانيًا: يوسف عليه السلام:

اصطفى الله تعالى نبيه يوسف للنبوة، وتعرض عليه السلام لمحن وابتلاءات عدة منذ صغره، وكان لهذه المحن أثرها في تكوين شخصيته وحنكته السياسية والإدارية، مما صار به بعد ذلك إلى تولي مقاليد الأمور في مصر ، فسار فيها على أطيب وجه وأحسنه.

وقد قال الله تعالى عن يوسف عليه السلام مبينًا صفاته التي اتصف بها: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي

(١) انظر: المصدر السابق ١٣/ ١٢٧.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٩/ ١٩٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٢٧.
(٤) انظر: البحر المحيط ٧/ ٦٤.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إى كسرى وقيصر ٤/ ١٦١٠، رقم ٤١٦٣.
(٦) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ١/ ٣٢٥.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

هذا إخبار عن اصطفاء يوسف عليه السلام للنبوة، ذكر هنا في ذكر مبدأ حلوله بمصر لمناسبة ذكر منة الله عليه بتمكينه في الأرض، وتعليمه تأويل الأحاديث.

والأشد: القوة. وفسر ببلوغه ما بين خمس وثلاثين سنة إلى أربعين.

وإنما جعل بلوغ الأشد علة، لأنه أقوى أطوار الإنسان وأجلى مظاهر مواهبه في الجسم والعقل، وهو الجانب الأهم، فجعل «الأشد» كأنه الغاية المقصودة من تطويره، والأشد: سن الفتوة واستجماع القوى.

والحكم والحكمة مترادفان، وهو: علم حقائق الأشياء والعمل بالصالح واجتناب ضده. وأريد به هنا النبوة ، كما في قوله تعالى في ذكر داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ والمراد بالعلم علم زائد على النبوة.

وتنكير ﴿وَعِلْمًا﴾ للنوعية، أو للتعظيم. والمراد: علم تعبير الرؤيا، كما سيأتي في قوله تعالى عنه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[1] [يوسف: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦].

ويكنى بالتمكين عن الإقدار وإطلاق التصرف، لأن صاحب المكان يتصرف في مكانه وبيته، ثم يطلق على التثبيت والتقوية والاستقلال بالأمر. ويقال: هو مكين بمعنى ممكن، فعيل بمعنى مفعول. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

فهو كناية، أو هو مجاز مرسل مرتب على المعنى الكنائي. والتمكين في الأرض تقوية التصرف في منافع الأرض والاستظهار بأسباب الدنيا، بأن يكون في منعة من العدو، وفي سعة في الرزق وفي حسن حال، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج: ٤١].

فمعنى مكنه: جعله متمكنًا، ومعنى مكن له: جعله متمكنًا لأجله، أي : رعيًا له، مثل حمده وحمد له[2].

ولما تبينت له براءة يوسف وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضًا صبره وعلو همته، عظمت عنده منزلته، وتيقن حسن خلاله[3].

قال ابن العربي في أحكامه: قوله: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: أي: متمكن مما أردت، أمين على ما ائتمنت عليه من شيء؛ أما أمانته فلظهور براءته، وأما مكانته فلثبوت عفته ونزاهته[4].

ولما فهم يوسف عليه السلام من الملك أنه عزم على تصريفه والاستعانة بنظره، قال:

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٢/ ٤٤، ١٧/ ١٤٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ٦/ ٢٠.

(٣) انظر: الجواهر الحسان ٢/ ٢٤٣.

(٤) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٨.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

لما في ذلك من مصالح العباد، وطلب يوسف للعمل إنما هي حسبة منه عليه السلام في رغبته في أن يقع العدل، وجائز أيضًا للمرء أن يثني على نفسه بالحق، إذا جهل أمره، و﴿خَزَائِنِ﴾: لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره[(١)].

فدلت الآية على جواز أن يطلب الإنسان عملًا يكون له أهلًا[(٢)].

وفي هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره، فلا يجوز ذلك.

قال الماوردي: فإن كان المولي ظالما فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين: أحدهما: جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف ولي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره. الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتقلد أعمالهم.

قال الماوردي: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه، كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد.

والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد في مصرفه، كأموال الفيء، فلا يجوز توليه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق.

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذًا للحكم بين متراضيين، وتوسطًا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز[(٣)].

ومن مقومات الحكم والسياسة التي يمكن أن نستخلصها من قصة نبي الله يوسف عليه السلام ما يلي:

أولًا: طلبه للإمارة حين وجد نفسه كفئًا لها، ولم يكن في عصره من هو مثله. وذلك أن الملك لما تبينت له براءة يوسف مما نسب إليه، وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضًا صبره وجلده، عظمت منزلته عنده وتيقن حسن خلاله، فقال: ﴿ائْتُونِي

(١) انظر: الجواهر الحسان ٢/ ٢٤٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٩/ ١٤١.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٥٠.

﴿بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾[1] [يوسف: ٥٤]، فقال يوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥].

أي: أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف، وصفا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك؛ ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا[2].

ثانيًا: أدار شؤون البلاد في المراحل الحرجة، وذلك بالادخار من الرخاء للشدة والعسر لليسر.

قال تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧-٤٩].

وذلك أن أرض مصر لا يبقى فيها الطعام عامين، فعلمهم حيلة يبقى بها من السنين المخصبة إلى السنين المجدبة، وهي أن يتركوه في سنبله غير مدروس، فإن الحبة إذا بقيت في غشائها انحفظت ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ أي: لا تدرسوا منه إلا ما يحتاج إلى الأكل خاصة[3].

وفي هذا دليل على أنه ينبغي للحاكم مراعاة الحالة الاقتصادية للناس والبلاد، والادخار في أيام الرخاء لأيام الشدة.

ثالثًا: تعامله في قضية الصواع بحكمة وذكاء في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٢].

إلى قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦].

وصواع الملك: إناء كان يشرب به ويكال به، ويقال له: الصاع، ويذكر ويؤنث[4].

وتعد هذه الآية أصل في الجعالة، وذلك أن يوسف عليه السلام أمر عماله أن يخبئوا الصاع في متاع أخيه، وفي ذلك أيضًا دليل على جواز الحيل المشروعة.

رابعًا: عفوه وصفحه في قضيته مع إخوته مع قدرته ومكانته، وتعامله معهم بالحكمة

(١) انظر: المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٤.
(٢) انظر: الكشاف ٢/ ٤٥٥.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٧٣٧.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٩٠.

واللين والكياسة. قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

رابعًا: ذو القرنين:

وهو رجل آتاه الله من القوة والملك ما جعله يجوب أقطار الأرض ويصل إلى مواقع غريبة، وقد اختلف المفسرون في شخصيته، فذهب بعضهم إلى أنه الإسكندر[(١)].

وقد بلغ ملكه إلى أقصى المغرب وإلى أقصى المشرق وإلى أقصى الشمال، بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال، وهذا الذي بلغه ملك هذا الرجل هو نهاية المعمور من الأرض، ومن بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر، فوجب القطع أن المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلفوس اليوناني المقدوني[(٢)].

ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به، إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه ؛ لأن ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص، وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة عبرة حكمية أو خلقية[(٣)].

قال الله تعالى عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

وقد آتاه الله من كل شيء يحتاج إليه في الوصول إلى أغراضه ﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقًا موصلًا إليه، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود، من علم أو قدرة أو آلة، فأراد بلوغ المغرب ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥].

يوصله إليه حتى بلغ، وكذلك أراد المشرق ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وأراد بلوغ السدين ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وأصل السبب الحبل، ثم توسع فيه حتى صار يطلق على ما يتوصل به إلى المقصود[(٤)].

وسياسة ذي القرنين تتمثل لنا من خلال قصته في سورة الكهف في الآتي:

أولًا: كان مثالًا للحاكم المجتهد والقائم بالعمل بنفسه لما يتطلبه الأمر، في الانتقال من موضع لآخر، بحثًا عن إسعاد الآخرين، وتتبعًا لأحوال الناس، واستثمارًا للقوة التي منحه الله تعالى إياها. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٨٥-٨٦].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٨٩-٩٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٢-٩٣].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ١٣٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣١.
(٢) انظر: المصادر السابقة.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ١٢١.
(٤) انظر: البحر المحيط ٦/ ١٥١.

ثانيًا: حرص على إنصاف المظلوم من الظالم، ومنع الفساد في الأرض، وذلك ببناء السد ليحجز يأجوج ومأجوج عن الناس، ولا يجعل لهم طريقًا إليهم.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

ثالثًا: أراد من قومه أن يكونوا متعاونين معه، وأشركهم في العمل واستعان بهم، فلم يجعلهم شعبًا متواكلًا يعتمد على قوة غيره، وذلك في قوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

رابعًا: اعترافه بنعمة الله عليه، وثناؤه عليه، بقوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥].

خامسًا: أنه بين معالم سياسته بوضوح في هؤلاء القوم ، وذلك في قوله: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦].

فكان الرد ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧].

فالله تعالى مَكَّنَه منهم وحَكَّمَه فيهم، وأظفره بهم، وخَيَّره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء مَنَّ أو فدى، فعرف عدله وإيمانه في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: من استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ قيل: بالقتل، وقيل: غير ذلك. وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديدًا بليغًا وجيعًا أليمًا. وفيه إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ أي: تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قال مجاهد: معروفًا[1].

فبين معالم سياسته في حكمهم أن من يستحق العقوبة يعاقب عقابًا دنيويًا، ولا يغنيه ذلك عن عقاب الآخرة.

خامسًا: ملكة سبأ:

ويظهر السياق القرآني أبرز ملامح السياسة عند ملكة سبأ في ما يلي:

- حكمة بلقيس في التعامل مع كتاب نبي الله سليمان.
- مشورتها مع كبار رجال مملكتها ورفض منطق القوة الغير متكافئة. قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]
- محاولتها رشوة نبي الله سليمان عليه السلام بالهدايا، ورفضه لذلك. قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٩٣.

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٥-٣٦]. حيث علمت أنه لا طاقة لها بمواجهة سليمان عليه السلام وعداوته وقتاله، كما علمت أن الهدايا تقع موقعًا بالغًا في قلوب الناس، فأرسلت إليه بهدايا من نفائس الأموال، من أجل أن يكف عنهم، وانتظرت رأيه في ذلك، فردها سليمان عليه السلام وقال: ما آتاني الله من الملك والحكم والنبوة والمال خيرٌ مما آتاكم، ولم يقبلها هداياها.

- رضوخها لدعوة نبي الله سليمان عليه السلام ودخولها في دينه. قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. وقال سبحانه من قول الهدهد عن ملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

وسبأ: هم حمير، وهم ملوك اليمن[(١)].

واسم ملكة سبأ: بلقيس بنت الشيرح، وقيل: شراحيل بن ذي حدن بن اليشرح بن الحرث بن قيس بن صفى بن سبأ بن يشخب بن يعرب بن قحطان. وكان أبو بلقيس الذي يسمى الشيرج، ويلقب بالهدهاد، ملكًا عظيم الشأن، وكان يملك أرض اليمن كلها[(٢)].

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من متاع الدنيا ما يحتاج إليه الملك المتمكن، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير تجلس عليه، عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ[(٣)].

وكان لها قصر عظيم، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحًا ومساءً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤].

ويمكننا استنباط معالم السياسة الرشيدة في النماذج القرآنية من خلال ما سبق فيما يلي:

١. اتصاف الملك بالقوة والعدل والحكمة.
٢. الحذر من مراعاة حظوظ النفس في سياسة الأمة.
٣. إن العلم والحكمة مطلبان مهمان، بهما يكون قوام الملك والسداد في السياسة ورعاية الأمة.
٤. كان في قصة نبي الله داود وسليمان عليهما السلام تنبيه على أصل الاجتهاد، وعلى فقه القضاء، وهي كذلك أصل في اختلاف الاجتهاد، والعمل بالراجح،

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٠١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٨٦-١٨٧.

وفي مراتب الاجتهاد، وعذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد.

٥. عدم الاغترار بالملك والسلطان، وذلك في قول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]. فهو تنبيه لسليمان بأن في مخلوقات الله تعالى ممالك وملوكًا تداني ملكه أو تفوقه في بعض أحوال الملك.

٦. إن معرفة أحوال الممالك والأمم من أهم ما يعنى به ملوك الصلاح، ليكونوا على استعداد بما يفاجئهم من تلقائها.

٧. ومن مقومات السياسة الرشيدة: التثبت في قبول الأخبار، فيجب على الإمام أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم.

٨. إرسال الكتب والرسل إلى غير المسلمين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٢٨]. وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وغيرهم.

٩. جواز طلب الإمارة لمن وجد نفسه كفئًا لها، ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا.

١٠. ينبغي للحاكم مراعاة الحالة الاقتصادية للناس والبلاد، والادخار في أيام الرخاء لأيام الشدة.

١١. جواز الحيل المشروعة للتوصل إلى الحق.

١٢. العفو والصفح مع القدرة والسلطان.

١٣. اجتهاد الحاكم في تتبع أحوال الناس، والقيام بما يحتاجونه ويطلبونه، ودفع الظلم عنهم.

١٤. الاعتراف بنعمة الله تعالى والثناء عليه، وأن الملك والتمكين بيد الله تعالى.

١٥. مشاورة أهل الحل والعقد فيما يتعلق بأمور الأمة ومصالح العباد.

١٦. إن الرشاوى سبب في فساد الدين والحكم والممالك.

العلاقة السياسية بين الدول

العلاقة السياسية بين الدول لها أهمية كبيرة في الإسلام، حيث أولاها عناية واضحة من خلال نصوص الكتاب والسنة، وقد اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بها في حياته، وسار على نهجه الخلفاء الراشدون من بعده.

وأشير هنا إلى هذه العلاقة على النحو الآتي:

أولًا: الدول الإسلامية:

بالنظر إلى العلاقة السياسية بين الدول الإسلامية نجد أنها تتمثل في بعض آيات الكتاب العزيز، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ﴾ [التوبة: ٧١].

هذه الموالاة: هي المؤازرة، والمعاونة، واتصال الأيدي[(١)].

والولاء والتوالي: أن يحصل شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولاية النصرة، والولاية تولي الأمر[(٢)].

ومقتضى هذه الولاية بين الدول الإسلامية، التعاون والتناصر على جميع المستويات، وفي شتى المجالات، سواء كان تعاونًا اقتصاديًا أو علميًا أو طبيًا أو غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

كما أن من مقتضى الولاية بين الدول الإسلامية، التناصر فيما بينهم، والتعاون العسكري والدفاعي عن بلدان المسلمين، فالمسلمون كالجسد الواحد، والجهاد إنما يجب -إذا داهم العدو المسلمين- على أهل تلك البلدة، فإن عجزوا فمن حولهم، وهكذا قال ابن قدامة: (ومن حضر الصف من أهل فرض الجهاد، أو حضر العدو بلده، تعين عليه)[(٣)].

فالجهاد فرض عين في موضعين:

أحدهما: إذا التقى الزحفان وهو حاضر.

والثاني: إذا نزل الكفار بلد المسلمين، تعين على أهله النفير إليهم.

هذا في أهل الناحية ومن بقربهم، أما البعيد على مسافة القصر، فلا يجب عليه،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦٣٦، الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ١١٢.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٣.

(٣) المقنع ص ٨٦.

إلا إذا لم يكن دونهم كفاية من المسلمين. فمفهوم قوله: (أو حضر العدو بلده) أنه لا يلزم البعيد. وهو صحيح، إلا أن تدعو حاجة لحضوره، كعدم كفاية الحاضرين للعدو، فيتعين أيضًا على البعيد[1].

وفي روضة الطالبين: الجهاد الذي هو فرض عين، إذا وطىء الكفار بلدة للمسلمين، أو أطلوا عليها ونزلوا بابها قاصدين ولم يدخلوا، صار الجهاد فرض عين، وعن ابن أبي هريرة وغيره أنه يبقى فرض كفاية، والصحيح الأول، فيتعين على أهل تلك البلدة الدفع بما أمكنهم[2].

وبهذا يتبين لنا أن علاقة المسلمين بعضهم ببعض تقوم على الولاء والنصرة والمعاونة، ومن صور التعاون المعاصرة التي حرصت عليها الدول الإسلامية: الدفاع المشترك، والتعاون السياسي والحربي، ونحو ذلك.

ثانيًا: الدول غير الإسلامية:

يمكن استنباط جوانب العلاقة السياسية بين الدول غير الإسلامية من خلال الآيات الآتية:

قال الله تعالى: ﴿۞ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أسس المعاهدات والمواثيق للدولة الإسلامية في علاقاتها سواء مع الدول الإسلامية الأخرى أو الدول غير الإسلامية، والمسلمون عاهدوا الله في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم عدة عهود:

أولها: عهد الإسلام.

ومنها: عهد المسلمين عندما يلاقون الرسول صلى الله عليه وسلم وهو البيعة، أن لا يشركوا بالله شيئًا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه في معروف، وهو عين العهد الذي ذكره القرآن في سورة الممتحنة عند ذكر بيعة النساء المؤمنات، كما ورد في الصحيح أنه كان يبايع المؤمنين على مثل ذلك.

ومنها: بيعة الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم في موسم الحج سنة ثلاث عشرة من البعثة قبل الهجرة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلًا التقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الموسم في العقبة، ومعهم العباس بن عبد المطلب، فبايعوا على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يمنعون نساءهم وأبناءهم، وعلى أنهم يأوونه إذا هاجر إليهم.

وقد تقدم هذه البيعة بيعتان:

(١) انظر: الإنصاف، المرداوي ١٠/ ١٥.
(٢) انظر: روضة الطالبين، النووي ١٠/ ٢١٤.

إحداهما: سنة إحدى عشرة من البعثة، بايعه نفر من الخزرج في موسم الحج.

والثانية: سنة اثنتي عشرة من البعثة، بايع اثنا عشر رجلًا من الخزرج في موسم الحج بالعقبة ليبلغوا الإسلام إلى قومهم.

ومن المواثيق: ميثاق بيعة الرضوان في الحديبية تحت الشجرة سنة ست من الهجرة، وفي كل ذلك واثقوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره[1].

وقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

فيه دليل على جواز التصدق على أهل الذمة دون أهل الحرب، ووجوب النفقة للأب الكافر الذمي، وأما الحربي فيجب قتله[2].

وفيه نص صريح على عدم النهي المذكور في خصوص من لم يعادوهم في الدين[3].

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

فقال الربيع بن أنس: أول آية نزلت في الإذن بالقتال في المدينة، وقال آخرون: نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، فإنه صلى الله عليه وسلم لما انصرف من صلح الحديبية إلى المدينة، حين صده المشركون عن البيت، صالحهم على أن يرجع عامه القابل، ويخلو له مكة ثلاثة أيام، فلما كان في العام القابل، تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي لهم قريش، وأن يصدوهم عن البيت ويقاتلونهم، وكره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالهم في الشهر الحرام في الحرم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ يعني: قريشًا الذين صالحوهم، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ فنبذوا في الحرم بالقتال[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

جيء في نهيهم عن البطر والرئاء بطريقة النهي عن التشبه بالمشركين، إدماجًا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم، وتكريهًا للمسلمين تلك الأحوال؛ لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها، وتنكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند آخرين، وذلك أبلغ في النهي، وأكشف لقبح المنهي عنه. فنهوا عن أن يشبهوا حال المشركين في

(١) انظر: التحرير والتنوير ٥/ ٥٤.
(٢) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ٤٠٩.
(٣) انظر: أضواء البيان ٨/ ٨١.
(٤) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ١/ ٨٠.

خروجهم لبدر إذ خرجوا بطرًا ورئاء الناس، لأن حق كل مسلم أن يريد بكل قول وعمل وجه الله، والجهاد من أعظم الأعمال الدينية[1].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦].

والمعاهدة في هذه الآية المسالمة وترك الحرب، وأجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة، وهي بعد تعم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة[2]. والقاعدة: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

أباح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم إذا توقع من أعدائه غائلة من مكر، أن ينبذ إليهم على سواء، حتى لا يقول المبطل: إنك نقضت العهد بنصب الحرب، ولم ينبذ إلى أهل مكة عهودهم، بل غزاهم نبذًا، لأنهم كانوا نقضوا العهد، لمعاونة هذيل على خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك جاء أبو سفيان إلى المدينة يسأل تجديد العهد بينه وبين قريش، فلم يجبه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، فلأجل ذلك لم يحتج إلى النبذ إليهم، إذ كانوا أظهروا نقض العهد بنصب الحرب لحلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم[3].

قال ابن كثير: أذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي: نقضًا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم، ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك[4].

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

أمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السلم، وأن يوافقوا من سأله منهم. والجنوح: الميل، وهو مشتق من جناح الطائر: لأن الطائر إذا أراد النزول مال بأحد جناحيه، وهو جناح جانبه الذي ينزل منه[5].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

قال ابن عباس: إن المشركين أخذوا في نقض عهودهم التي بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم، فأمر الله تعالى نبيه فيمن كان عهده أربعة أشهر، أن يقره إلى مضي

(١) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ١٢٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز ٢/ ٦٢١.
(٣) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ١٦٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ١٤٧.

هذه المدة، وذلك من يوم النحر إلى عشر من شهر ربيع الآخر، ومن كان له من العهد أكثر، أمر أن يحط إلى ذلك، ومن كان أقل، أمر أن يرجع به إلى هذا القدر، ومن لم يكن له عهد، أمر أن يجعل له خمسين ليلة من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم، إلا حي من بني كنانة، كان قد بقي من عهدهم تسعة أشهر، فأمر الله تعالى أن يتم عهدهم إلى مدتهم، وهو معنى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

لما كان طلب السلم والهدنة من العدو قد يكون خديعة حربية، ليغروا المسلمين بالمصالحة، ثم يأخذوهم على غرة، أيقظ الله رسوله لهذا الاحتمال، فأمره بأن يأخذ الأعداء على ظاهر حالهم، ويحملهم على الصدق، لأنه الخلق الإسلامي، وشأن أهل المروءة، ولا تكون الخديعة بمثل نكث العهد. فإذا بعث العدو كفرهم على ارتكاب مثل هذا التسفل، فإن الله تكفل للوفي بعهده، أن يقيه شر خيانة الخائنين. وهذا الأصل، وهو أخذ الناس بظواهرهم، شعبة من شعب دين الإسلام، قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ومن أحكام الجهاد عن المسلمين أن لا يخفر للعدو بعهد[2].

وفي الكلام تنويه بمعالي أخلاق المسلمين، وغض من أخلاق أهل الشرك، وأن سبب ذلك الغض الإشراك الذي يفسد الأخلاق، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] جعلوا قوما لا يعلمون دون أن يقال بأنهم لا يعلمون: للإشارة إلى أن نفي العلم مطرد فيهم، فيشير إلى أن سبب اطراده فيهم، هو نشأته عن الفكرة الجامعة لأشتاتهم، وهي عقيدة الإشراك.

والعلم في كلام العرب، بمعنى: العقل وأصالة الرأي، وأن عقيدة الشرك مضادة لذلك، أي: كيف يعبد ذو الرأي حجرًا صنعه وهو يعلم أنه لا يغني عنه[3].

وقال سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

والأسير في دار الإسلام لا يكون إلا مشركًا[4].

فإذا كان الإحسان إلى العدو الحربي الأسير حث عليه القرآن، وشرعه الإسلام، فإن غير الحربي من باب أولى وأحرى.

موضوعات ذات صلة:

الاقتصاد، التمكين، الجهاد، الحضارة، الحرية، الخلافة، الشورى، العدل

(١) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ١٧٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ١٥٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٠/ ٢٧.
(٤) انظر: أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ٤٢٨.

السَّيْر

عناصر الموضوع

مفهوم السير	٧٤
السير في الاستعمال القرآني	٧٥
الألفاظ ذات الصلة بالسير	٧٦
مجالات السير	٧٨
مقاصد السير	٨٥
أساليب الحث على السير للتأمل	١٠١
المخاطبون بالسير للتأمل	١١٠

مفهوم السير

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ي ر) تدل على مضي وجريان[1].

سير: السين والياء والراء أصلٌ يدل على مضيٍ وجريانٍ، يقال سار يسير سيرًا ومسيرًا وتسيارًا ومسيرةً وسيرورةً، وذلك يكون ليلًا ونهارًا، أما السرى فلا يكون إلا ليلًا. والسير الذهاب، وسار القوم يسيرون سيرًا، إذا امتد بهم السير في وجهةٍ توجهوا إليها. والسيرة: الضرب من السير، والسَيرة بالفتح: الكثير السير، والسِيرة بالكسر: السنة والطريقة[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي :

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي، لذلك عرفه المناوي بقوله: «السير: المضي في الأرض»[3].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٥٨٠.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ص ٥٢٧، لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٣٨٩- ٣٩٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٤١٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص ٤٩٧.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٤٢٠.

السير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سير) في القرآن الكريم (٢٧) مرة، يخص موضوع البحث منها (٢٦) موضعًا[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص:٢٩]
الفعل المضارع	١٠	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦]
الفعل الأمر	٧	﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]
المصدر	٢	﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ [سبأ:١٨]
صيغة المبالغة	٣	﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف:١٩]

وجاء السير في الاستعمال القرآني على وجهين[(٢)]:

الأول: المضي في الأرض، ويشمل السفر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩] أي: مضى بهم وسافر من مدين إلى مصر.

الثاني: المقيت والمبيت ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٨] أي: المقيت والمبيت، بمعنى: أنهم كانوا يقيلون ويبيتون ولا يخافون.

(١) ١ انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٧٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب السين ص٦٥٥-٦٥٦.

(٢) ٢ انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٧٨-٢٧٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٤٤-٢٤٥.

الألفاظ ذات الصلة بالسير

١ السعي:

السعي لغة:

وهو لفظ مشترك، يقال: سعى يسعى سعيًا: قصد ومشى وعدا ونم (من النميمة) وكسب[١].

السعي اصطلاحًا:

السعي: «عدوٌ دون الشد، سعى إذا عدا، وسعى إذا مشى»[٢].

الصلة بين السعي والسير:

كلاهما يدلان على المشي والحركة، إلا أن السعي في سرعة وقصد، والسير أوسع من ذلك.

٢ المشي:

المشي لغة:

أصل مادة (م ش ي) تدل على الحركة والنماء والزيادة[٣]، وجاء في اللسان: «المشي: معروف، مشى يمشي مشيًا، والاسم المشية»[٤].

المشي اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي، لذا عرفه الراغب بقوله: «المشي: الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة»[٥].

السعي لغة:

المشي والسير مترادفان.

٣ الضرب:

الضرب لغة:

قال ابن فارس: «الضاد والراء والباء أصل واحد، ثم يستعار ويحمل عليه. من ذلك

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١٢٩٥.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٣٨٥.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس،٢/ ٥١١.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٢٨١.
(٥) المفردات، الراغب، ص ٤٨٩.

ضربت ضربًا، إذا أوقعت بغيرك ضربًا، ويستعار منه ويشبه به الضرب في الأرض تجارة وغيرها من السفر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]. ويقولون : إن الإسراع إلى السير ضربٌ»[١].

الضرب اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي. قال الراغب: «الضرب في الأرض الذهاب فيها، هو ضربها بالأرجل»[٢].

الصلة بين الضرب والسير:

من معاني الضرب: السير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٤] يعني: إذا سرتم. وقوله في المزمل: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المزمل: ٢٠]. أي: يسيرون في الأرض[٣]. فالضرب في الأرض مرادفٌ للسير فيها.

٤ السياحة:

السياحة لغة:

تدل مادة (س ي ح) على معنى الذهاب في الأرض، جاء في القاموس المحيط: «ساح الماء يسيح سيحًا وسيحانًا: جرى على وجه الأرض، والسيح: الماء الجاري الظاهر، والسياحة بالكسر والسيوح والسيحان والسيح: الذهاب في الأرض»[٤].

السياحة اصطلاحًا:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن معناها اللغوي الدال على الذهاب في الأرض، والسير فيها.

الصلة بين السياحة والسير:

السياحة والسير مترادفان، وقد عبر القرآن الكريم عن الذهاب في الأرض بلفظ (السياحة) وبلفظ (السير)، فقال تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج:٤٦].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٦٦.
(٢) المفردات، ص ٣٠٣.
(٣) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص ٢٢٢.
(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٢٢٥.

مجالات السير

باستقراء الآيات الكريمة المتضمنة للسير في الأرض، نجد على أن آيات القرآن ركزت على مجالين حثت فيهما على السير في الأرض:

الأول: يشمل الجانب المادي من هذا الكون، وهو -بلا شك- الأوسع نطاقًا، ويعرف بالسنن الكونية؛ وتعني : نواميس الله سبحانه وتعالى في تسيير هذا الكون وعمارته.

الثاني: خاص بالإنسان؛ وهي السنن أو القواعد الاجتماعية التي تحكم الإنسان في علاقته بهذا الكون وخالقه، وتسمى السنن الاجتماعية.

وسيتم الحديث عنهما في النقاط الآتية:

أولًا: السنن الكونية:

وقد وردت الدعوة إلى السير في الأرض والنظر في السنن الكونية صريحة في موضع واحد، في قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

فالآيتان جاءتا اعتراضا في سياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه[(١)]؛ لتخاطب مشركي قريش وكل منكر لليوم الآخر مع وضوح دليله وسنوح سبيله، وفيهما دعوة إلى تأمل سنة الله في بدء الخلق ثم إعادته، وهو أمر مشهود مكرور يتجلى في «كيف يبدئ الله الثمار فتحيًا، ثم تفنى، ثم يعيدها أبدا، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا، وخلق من الولد ولدا، وكذلك سائر الحيوان ، أي: فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة»[(٢)].

وقد بدأ الخطاب بالاستفهام الإنكاري عن عدم الرؤية؛ «والرؤية يجوز أن تكون بصرية، والاستدلال بما هو مشاهد من تجدد المخلوقات في كل حين بالولادة ، وبروز النبات دليل واضح لكل ذي بصر ، ويجوز أن تكون الرؤية علمية متعدية إلى مفعولين: أنكر عليهم تركهم النظر والاستدلال الموصل إلى علم كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ؛ لأن أدلة بدء الخلق تفضي بالناظر إلى العلم بأن الله يعيد الخلق»[(٣)].

«وجيء ﴿يُبْدِئُ﴾ بصيغة المضارع لإفادة تجدد بدء الخلق كلما وجه الناظر بصره في

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٤٢، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٦/ ٦٣٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٣٥١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٢٨-٢٢٩.

المخلوقات، والجملة انتهت بقوله: ﴿يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾، وأما جملة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فهي مستأنفة ابتدائية، فليست معمولة لفعل ﴿يَرَوْا﴾؛ لأن إعادة الخلق بعد انعدامه ليست مرئية لهم ولا هم يظنونها ،فتعين أن تكون جملة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ مستقلة معترضة بين جملة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وجملة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾. و(ثم) للتراخي الرتبي؛ لأن أمر إعادة الخلق أهم وأرفع من بدئه ؛ لأنه غير مشاهد ، ولأنهم ينكرونه ولا ينكرون بدء الخلق»[1].

فالآية الأولى إشارة إلى العلم الحدسي الذي يتم من غير طلب، والاستفهام بـ(كيف) مستعمل في التنبيه ولفت النظر لا في طلب الإخبار، فمظاهر بدء الخلق وإعادته بادية في مشاهد الكون، لا تحتاج إلى تفكير عميق لاكتشافها، ولكن الألفة والعادة تبلد الحس وتصرف العقل عن التأمل، وإذ لم يحصل لهم ذلك العلم الحدسي، فقد دعوا إلى العلم الفكري في الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾، بمعنى «إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري ، فسيروا في الأرض، أي : سيروا فكركم في الأرض وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق»[2].

وفي الآية انتقال من الإنكار على جاحدي البعث من الاستدلال بما هو بمرأى منهم وفي أنفسهم، إلى الاستدلال بالنظر في كيفية بدء الخلق، «على كثرتهم وتفاوت هيآتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، ومساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم»[3].

وهذا الاستدلال لا يتم إلا بالسير في الأرض الذي «يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين ولم يملها القلب ، وإن الإنسان ليعيش في المكان الذي ألفه فلا يكاد ينتبه إلى شيء من مشاهده أو عجائبه؛ حتى إذا سافر وتنقل وساح استيقظ حسه وقلبه إلى كل مظهر في الأرض الجديدة، مما كان يمر على مثله أو أروع منه في موطنه دون التفات أو انتباه. وربما عاد إلى موطنه بحس جديد وروح جديد ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يهتم به قبل سفره وغيبته. وعادت مشاهد موطنه وعجائبها تنطق له بعد ما كان غافلا عن حديثها؛ أو كانت لا تفصح له بشيء ولا تناجيه»[4].

تلك حكمة الأمر بالسير في الأرض،

(١) المصدر السابق ٢٠/ ٢٢٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ٤٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٣٥٢.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٧٣٠.

وذلك أثرها في الكشف عن سنة الله في بدء الخلق؛ فالسير في الأرض وسيلةٌ جامعة لمختلف الدلائل ينسجم فيها الحس والعقل، وتتناغم فيها المشاهدة والتأمل، وبها يزول تبلد الحس، فيدرك المتأمل ألا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، ولا مبتدئا بالخلق سواه، وأن البعث حق ووقوعه لا ريب فيه.

هذا بعض ما ورد في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين، ولنا وقفة أخرى نستجلي من خلالها ما تضمنتا من دلائل التفكر في الخلق كمقصد من مقاصد السير في المبحث القادم.

ثانيًا: السنن الاجتماعية:

هذا المجال هو الأوفر حظًا في حديث القرآن الكريم عن السير في الأرض؛ إذ ورد في اثنتي عشرة آية، ولا عجب فإن صيغة: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في القرآن الكريم تأتي في سياق السنن الاجتماعية واقترنت بذكر الأمم السابقة، دون السنن الكونية، وهذا ما أشار إليه ابن تيمية بعد استعراضه للآيات التي ورد فيها لفظ «سنة» بقوله: «وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية، كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات»[1].

والسنن الاجتماعية مجالها الكتاب المنزل وما تضمن من أحكام وتشريعات وآيات ونذر، وخاصة تلك الخلاصة المركزة من القصص القرآني الذي يمثل أخبار الأمم السالفة وكيف كانت عاقبتها، ثم ما طلب من هذه الأمة أن تتعلمه من سير الذين خلوا من قبل، فتتجنب الأخطاء التي وقعوا فيها. أما منهج التعرف على السنن الاجتماعية فهو المنهج الاستقرائي المبني على النظر والتأمل، وقد أشارت إليه آيات كثيرة في القرآن الكريم، بلغت اثنتي عشرة آية[2].

وهو منهج مبني على السير في الأرض والنظر (بمعنى الاعتبار) كيف كانت عاقبة الذين خلوا من قبل، وقد جاءت هذه الدعوة بصيغة الاستفهام التوبيخي والتعجيبي في سبعة مواضع، أربعة منها بعبارة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وثلاثة بعبارة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وبصيغة الأمر: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في بقية الآيات.

وقد تضمنت تلك الآيات الكريمة دعوة صريحة إلى السير في الأرض، سواء أكان السير على حقيقته لما فيه من العون على

(١) جامع الرسائل، رسالة: لفظ السنة في القرآن، المجموعة الأولى، ابن تيمية، ص ٥٢.
(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، فؤاد عبد الباقي، مادة نظر، ص ٨٧٧.

الوقوف على آثار المتقدمين ومعاينتها، كما ذهب إلى ذلك رشيد رضا بقوله: «والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي»[1]، أو كان عن طريق مطالعة كتب التاريخ أو الاستماع إلى أخبار الذين خلوا من قبل.

كما أشار إلى ذلك ابن عاشور حين قال: «في الآية دلالة على أهمية علم التاريخ، لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها»[2].

ثم نقل عن ابن عرفة قوله: «السير في الأرض حسي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره»[3].

وقد حددت آيات السير نطاق النظر في السنن الاجتماعية وهو الأرض، والسبب أنها مسرح الحياة البشرية عليها عاشوا وعليها بنوا وشيدوا، وعليها تركوا آثارهم، فهي مستودع السنن الاجتماعية، وبالسير فيها والنظر إلى آثار الذين خلوا من قبل تحصل العبرة وتتقى أسباب مصارعهم.

ولما كان القصد من السير في الأرض هو النظر نظرة تأمل واعتبار بمصائر القرى الظالمة، وكيف كان عاقبتها حين عتت عن أمر ربها وكذبت رسله؛ فقد ناسب أن تساق كسنن اجتماعية تاريخية ثابتة ومطردة، لا تحابي أمة من الأمم، ولا يستثنى منها أحد، ولذلك جاء الوعيد شديدا لكل من سلك سبيل المكذبين والمجرمين، فتكررت الدعوة إلى النظر والاعتبار بالعاقبة في كل آيات السير -عدا آيتي العنكبوت والحج كما مر بنا- فجاءت على النحو الآتي: تكررت جملة: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في ستة مواضع هي: [يوسف: ١٠٩]، [الروم: ٤٢]، [فاطر: ٤٤]، [غافر: ٢١، ٨٢]، [محمد: ١٠].

وعبارة: ﴿فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ في موضعين هما: [آل عمران: ١٣٧]، [النحل: ٣٦].

وجملة: ﴿فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]. مرة واحدة.

وجاءت عبارة: ﴿فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾[الروم: ٤٢]. في موضع واحد.

فالسنة الاجتماعية العامة التي تدعو آيات السير للتبصر بها هي: الاعتبار بالمصير المشؤوم الذي آلت إليه الأمم الغابرة، والمعبر عنه بالعاقبة، وتعني آخر الشيء

(١) المنار، محمد رشيد رضا، ٤/ ١٤٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٩٧.
(٣) المصدر السابق.

ومآله، فقد كان مآلها التدمير وقطع الدابر حتى تكون آية وعبرة، ولم يبق منها سوى الآثار؛ من بيوت خاوية وبئر معطلة وقصر مشيد، ثم طلب من المخاطبين بتلك الآيات أن يتأملوا ويتفكروا ليعتبروا ويتعظوا بعاقبة أولئك الهالكين، فإن السعيد من اعتبر بغيره، والشقي من جعله الله عبرة لغيره، وتلك سنة الله في أخذ القرى وهي ظالمة، فما أغنت عنهم قوة أبدانهم ولا شدة حصونهم لما جاءهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فأصبحوا أثرا بعد عين.

اقتران السير في الأرض بالنظر:

لا ينتفع الإنسان بالسير في الأرض إلا بالنظر في سنن الله في الآفاق والأنفس، وهذا الارتباط بين السير والنظر يدركه كل من يستقرئ الآيات الكريمة التي ورد فيها لفظ السير، قد ذكر مقترنا بالنظر في كل المواضع بصيغ مختلفة.

فما حقيقة النظر الوارد في آيات السير في القرآن الكريم ؟ وما سر ارتباطه به ؟ هذا ما سيبينه هذا المطلب.

لمعرفة حقيقة النظر يحسن بنا بداية الوقوف على معناه اللغوي، فمادة: (ن ظ ر) أصلٌ صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد، هو تأمل الشيء ومعاينته، يقال: نظر إليه ينظر نظرًا، نظرت إلى كذا ، وكذا من نظر العين ونظر القلب، ويقال: نظرت إلى كذا، إذا مددت نظرك إليه، رأيته أو لم تره، ونظرت إذا رأيته وتدبرته، ونظرت في كذا: تأملته. والنظر حس العين، وتأمل الشيء بالعين، والفكر في شيء تقدره وتقيسه، والنظر تقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

أي: تأملوا، واستعمال النظر في البصر أكثر استعمالا عند العامة ، وفي البصيرة عند الخاصة[(١)].

فالمعنى اللغوي للفظ النظر يدل على نظر حسي يتم بالعين وهو المشاهدة، ونظر معنوي يتم بالقلب وهو التأمل، ومن أئمة اللغة من جمع بين المعاينة والتأمل، وذلك هو النظر المقصود في آيات السير.

أما المعنى الاصطلاحي للنظر، فقد عرفه الراغب بقوله: « النظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص ، وهو الروية»[(٢)].

وبين العسكري مدلول النظر بقوله:

(١) انظر: العين، الفراهيدي، ٤/ ٢٣٧، الصحاح، الجوهري، ٢/ ١١٤٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٥٦٧، لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢١٥ ، تاج العروس، الزبيدي، ١٤/ ٢٤٥.

(٢) المفردات، الأصفهاني، ص ٥١٨-٥١٩.

«النظر بالعين الإقبال بها حيال المرئي، ونظر القلب الإقبال إلى أحوال ما تطلب معرفته ، والنظر بالقلب نظر العلم من جهة الفكر والتأمل لأحوال الأشياء، ألا ترى أن الناظر على هذا الوجه لا بد أن يكون مفكرا؛ إذ المفكر على هذا الوجه سمي ناظرا، وهو معنى غير الناظر والمنظور إليه ، النظر لا يكون إلا مع فقد العلم، ومعلوم أنه لا يصح النظر في الشيء ليعلم إلا وهو مجهول»[1].

فما ذكر في القولين كتعريفٍ اصطلاحي للنظر لم يختلف كثيرًا عما ذكره أصحاب المعاجم اللغوية، وبذلك يتفق معنى النظر لغة واصطلاحًا.

أما معنى النظر -المرتبط بالسير- في استعمال القرآن الكريم، فله عدة وجوه، حددها بعضهم في ثلاثة هي: النظر بالعين، والإمهال والتأخير، والرحمة[2].

ويهمنا الأول منها، وأوصلها آخرون إلى أربعة أوجه هي ما ذكر آنفا، يضاف إليها معنى: التفكر والاعتبار[3]، وهي إضافة مهمة جدًا، وسعت من دائرة النظر لتشمل المعنيين الحسي والمعنوي.

فمعنى النظر المرتبط بالسير لم يتغير لغة واصطلاحا وفي استعمال القرآن الكريم، فقد بقي يدور حول معنيين متكاملين هما: الرؤية والمشاهدة بالعين، والتأمل والاعتبار بالقلب.

أما عن سر اقتران السير بالنظر، فإن المتأمل في سياق الآيات الكريمة يستطيع إدراك ذلك بوضوح، فقد جعل الله جل وعلا «النظر سببا عن السير في قوله: ﴿فَانظُرُوا﴾، فكأنه قيل: سيروا من أجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين»[4].

فالدعوة إلى السير ليست مقصودة لذاتها، بل هي مقرونة بهدف هو النظر والتأمل للعظة والاعتبار كما ذكرنا مرارًا، فمن سار في الأرض ومر على آثار الذين خلوا من قبل، ولم يقلب بصره فيها، ويتأمل ببصيرته ما فيها من آيات وعبر، فإنه لم يحقق الهدف من السير، وهذا ما حصل مع المشركين بمكة، إذ كان منهم تجار يجوبون الأرض بقوافلهم خاصة في رحلتي الشتاء والصيف، فكانوا يمرون في أسفارهم إلى الشام على ديار ثمود وقوم لوط، وفي أسفارهم إلى اليمن على ديار عاد، يمرون عليها وهم عن آياتها غافلون، فكانوا كما وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

فقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إشارة إلى أن

(١) الأشباه والنظائر، العسكري، ص ٤٨٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٠-٤٨١.
(٣) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٥٨٧، قاموس القرآن، الدامغاني، ص ٤٥٩.
(٤) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٢٧.

القوم رأوا تلك الآثار بأعينهم، وحين لم يروها رؤية اعتبار، عدوا ممن لم يرها ؛ إذ المقصود بالنظر الاعتبار وليس مجرد رؤية الآثار.

وقد أحسن مجاهد التعبير عن هذه الحقيقة حين قال: «لكل إنسان أربع أعين عينان في رأسه لدنياه وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه لم يضره عماه شيئا، ومن أبصرت عينا رأسه، وعميت عينا قلبه لم ينفعه نظره شيئا»[(١)].

فلا بد للنظر المرتبط بالسير أن يستند بداية إلى المشاهدة بحس العين، بشرط أن تكون رؤية تأمل واعتبار، أما الاستناد إلى مجرد سماع الأخبار - والتي لا تكون إلا ممن سار وعاين - أو التأمل العقلي الذي يعتمد على القراءة في كتب التاريخ التي دونها من شاهد الآثار، فكلاهما لا يحقق المعنى الدقيق للنظر، «فالمشاهدة تفيد من لم يقرأ علما وتقوي علم من قرأ التاريخ أو قص عليه»[(٢)].

فلا النظر مع الغفلة يجدي، ولا سماع الأخبار وحده يكفي، ولا التأمل العقلي دون سيرٍ يغني، فإذا سار المرء في الأرض ووقف على الآثار، وتأمل ما كان قد سمع من أخبار، وأصبح ما قرأه في كتب التاريخ حقيقة ماثلة للأبصار، يكون قد أخذ بالوجه الأكمل للاعتبار.

قد يقال: يمكن الاستغناء عن السير والسفر إذا توفرت الوسيلة التي تنقل المشاهد والآثار كأنها ماثلة للعيان، شأن البرامج العلمية التي تستخدم كاميرات متطورة جدا في التصوير، فتنقل مشاهد وصورا أكثر دقة، تصحبها تعليقات دقيقة وهادفة، فهذا قد يحقق الغرض من السير نسبيا، ومع ذلك يبقى للسير أهميته، إذ به يتحقق المقصود أكثر من غيره من الوسائل، وقد أشار ابن عاشور إلى ذلك حين بين الحكمة من أمر الله جل ثناؤه بالسير فقال: «وإنما أمر بالسير في الأرض لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحوياتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها، فيرى كثيرا من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولانا لم يكن يخطر له ببال حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه، لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائبا عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٤١٩-٤٢٠.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٩٧.

فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل ، فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة»[1].

تلك هي حقيقة النظر الوارد في آيات السير؛ إذ ليس مجرد رؤية بالبصر، بل هو نظر فكر واستدلال، وذلك هو سر ارتباطه به، إذ يمثل الهدف والمقصود، وإلا كان نظر غفلة وإهمال.

مقاصد السير

ليس السير مجرد مرور أو وقوف على الآثار، ولكن السير المعتبر ما كان ذا قصد، فما مقاصد السير في الأرض كما ورددت في كتاب الله تعالى؟

سنتحدث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: الاعتبار بمآل المؤمنين ومآل المكذبين:

١ . الاعتبار بمآل المؤمنين.

وقد ورد الاعتبار بمآل المؤمنين في قول الله جل ذكره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

قال الطبري: «يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾: قد مضت وسلفت مني في من كان قبلكم -يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به- من نحو قوم عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم من سلاف الأمم قبلكم ﴿سُنَنٌ﴾ يعني: مثلًا وسيرًا سرتها فيهم وفيمن كذبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهل التكذيب بهم، واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي، وأنزلت بساحتهم نقمتي،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٣٠.

فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرا»[1].

فالسنة الربانية الثابتة في قوله جل ذكره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾، هي ألا يمكن للمكذبين بالله ورسله، ولا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا، نعم قد ينتصرون في جولة من الجولات ، كما وقع في غزوة أحد، بسبب تخلي المؤمنين عن شرط من شروط النصر، أو لحكمة أرادها الله تعالى، ولكنه انتصار مؤقت، إذ سرعان ما تدور عليهم الدائرة، وتعود سنة الله إلى اطرادها، من أجل ذلك طلب من المؤمنين السير في الأرض والنظر في مآل المكذبين من الأمم السابقة وكيف دمر الله عليهم، فعفت منهم الديار ولم يبق منها سوى الآثار، وقد بدأت الآية بـ﴿قَدْ﴾ الدالة على تأكيد الخبر، وجيء بالفاء السببية في قوله: ﴿فَسِيرُوا﴾ ، وقيل : شرطية ، بمعنى إن شككتم فسيروا[2].

والتعبير بلفظ ﴿كَيْفَ﴾ للاستفهام الدال على تصوير الحال في صورة تدعو إلى العجب والاستغراب، أي: أن عاقبتهم التي انتهوا إليها من تدمير ديارهم، وتعفية آثارهم بعد أن طغوا وبغوا، تثير العجب، وفي إضمار تلك العاقبة تهويل لمصيرهم المشؤوم، وإظهار لبطش الله الشديد.

فمعنى الآية: «قد مضت من قبلكم أحوال للأمم، جارية على طريقة واحدة، هي عادة الله في الخلق، وهي أن قوة الظالمين وعتوهم على الضعفاء أمر زائل، والعاقبة للمتقين المحقين، ولذلك قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾؛ «أي: المكذبين برسل ربهم وأريد النظر في آثارهم ليحصل منه تحقق ما بلغ من أخبارهم، أو السؤال عن أسباب هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوة، وكيف طغوا على المستضعفين، فاستأصلهم الله أو لتطمئن نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدة عيان، فإن للعيان بديع معنى ؛ لأن المؤمنين بلغتهم أخبار المكذبين عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس، وكلهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم، وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم»[3].

فالسير في الأرض والوقوف على الديار والآثار، والتأمل في عاقبة المكذبين، يسكب في قلوب المؤمنين برد اليقين بصدق وعد الله تعالى ذكره بنصرهم والتمكين لهم، كما مكن للذين من قبلهم، ويذهب ما ظهر عليهم من انكسار نفسي من جراء نكسة أحد. وقد استغني بذكر عاقبة المكذبين عن ذكر مآل المؤمنين من الأمم السابقة،

(١) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٧٠.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ٢٦٠، فتح القدير، الشوكاني، ص ٢٤٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٩٧.

لأن التأمل في حال أحد الفريقين يكفي في معرفة حال الفريق الآخر[1]، فالمؤمنون - بلا شك - قد انتصروا ومكنوا في الأرض.

٢. الاعتبار بمآل المكذبين.

وقد ورد في ذلك آيات كثيرة، منها ما جاء صريحا، ومنها ما جاء تلميحا، فقد ورد الاعتبار بعاقبة المكذبين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ في ثلاثة مواضع هي: [آل عمران: ١٣٧]، [الأنعام: ١١]، [النحل: ٣٦].

اثنان منهما خطاب للكفار، وواحد خطاب للمؤمنين في آية آل عمران كما أسلفنا، «ولكن العمل بموجبه عام»، كما قال أبو السعود[2].

أما ما جاء تلميحًا، فقد ورد بصيغتين متقاربتين:

الأولى: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقد وردت هذه الصيغة في: [يوسف: ١٠٩]، [الروم: ٩]، [فاطر: ٤٤]، [غافر: ٢١، ٨٢]، [محمد: ١٠].

والثانية: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢].

وواضح أن الضمير في تلك الآيات عائد على الكفار والمشركين، سواء ضمير الغائب في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ في الآيات الست، أو ضمير المخاطب في آية سورة الروم، والمقصود واحد؛ هو دعوتهم إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة كفار ومشركي الأمم السابقة، والاعتبار بما آل إليه كفرهم بالله تعالى وتكذيبهم لرسله.

وقد ذكر الله جل وعلا نماذج من جرائم تلك الأمم الهالكة، وما أصابها بسبب ذلك، ليكون عبرة لكفار قريش وغيرهم، وزاجرا لهم ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويتوبون إلى ربهم، وأعظم جريمة وظلم اقترفته تلك الأمم الغابرة؛ الشرك بالله عز وجل واتخاذ طواغيت يعبدونها من دونه، نقرأ ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾. يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: إن كنتم أيها الناس غير مصدقي رسولنا فيما يخبركم به عن هؤلاء الأمم، الذين حل بهم ما حل من بأسنا، بكفرهم بالله وتكذيبهم رسوله، فسيروا في الأرض التي كانوا يسكنونها، والبلاد التي كانوا يعمرونها، فانظروا إلى آثار الله

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ١٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ٥٦٠.

فيهم، وآثار سخطه النازل بهم، كيف أعقبهم تكذيبهم رسل الله ما أعقبهم، فإنكم ترون حقيقة ذلك، وتعلمون به صحة الخبر الذي يخبركم به محمد صلى الله عليه وسلم»[1].

فقد ساق الله تعالى للكفار دليل العقل الذي يدركه كل ذي بصيرة، ولما لم يتبصروا به بسبب قسوة قلوبهم، أحالهم على الدليل المحسوس للبصر، فدعاهم إلى السير في الأرض للوقوف على مصارع الذين حقت عليهم الضلالة، عساهم يعتبرون أو يرعوون حين يرون آثارهم وديارهم وهي خاوية على عروشها، وإلا سيكون ذلك مصيرهم.

ومن نماذج الاعتبار بعاقبة المكذبين ما ورد في سورة الأنعام في قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١٠ - ١١].

فقد أشارت الآية الأولى إلى ما كان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من استهزاء وسخرية كفار قريش، ثم ذكرت أن ذلك دأب كفار الأمم السابقة مع أنبيائهم، تثبيتا وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وختمت بما حل بأولئك المستهزئين، وفي الآية الثانية تهديد ووعيد للمستهزئين من كفار قريش، إن لم يعتبروا بمآل من كان قبلهم، فقيل لهم: «جولوا في بلاد المكذبين رسلهم، الجاحدين آياتي من قبلهم، من ضربائهم وأشكالهم من الناس، ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول: ثم انظروا كيف أعقبهم تكذيبهم ذلك الهلاك والعطب، وخزي الدنيا وعارها، وما حل بهم من سخط الله عليهم بالبوار، وخراب الديار، وعفو الآثار، فاعتبروا به إن لم تنهكم حلومكم، ولم تزجركم حجج الله عليكم عما أنتم عليه مقيمون من التكذيب، فاحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحل بكم مثل الذي حل بهم»[2].

وقد وصفت الآيتان القوم بخلقين ذميمين هما: الاستهزاء والتكذيب، والواحد من هذين الخلقين كافٍ في استحقاق تلك العاقبة.

ثانيًا: النظر في عاقبة المجرمين:

ومن مقاصد السير في القرآن الكريم النظر في عاقبة المجرمين، قد ورد في آية سورة النمل.

وقد جاءت في سياق ذكر إنكار المشركين للبعث، فقال الله تعالى ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا

(١) جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٢١٦-٢١٧.

(٢) المصدر السابق، ٩/ ١٦٦-١٦٧.

﴿مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: ٦٧ - ٦٩].

فالآية الكريمة تدعو منكري البعث إلى الاتعاظ بحال المجرمين من الأمم السابقة، وتتوعدهم بأن يصيبهم مثل ما أصابهم، وقد جاء العطف في الأمر بالسير بالفاء التعقيبية، لأن المقام مقام استرشاد للاعتقاد والرجوع عن الغي والعناد وليس مجرد تهديد، وعظم المأمور بنظره بجعله أهلا للعناية به، والسؤال عنه فقال: ﴿كَيْفَ كَانَ﴾، فإنكم إن نظرتم ديارهم، وتأملتم أخبارهم حق التأمل أسرع بكم ذلك إلى التصديق، فنجوتم وإلا هلكتم[1].

هذا مجمل ما ورد صريحا في دعوة كفار قريش ومن شاكلهم للسير في الأرض للاعتبار بعاقبة المكذبين والمجرمين من الأمم الغابرة، خوطبوا به ليعلموا ما حل بالكفرة قبلهم، وليكون لهم رادعا وزاجرا عن التمادي في غيهم وطغيانهم، قبل أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم.

بقيت الإشارة إلى ما ورد من نصوص قرآنية تأمر بالسير في الأرض والاعتبار بالذين خلوا، دون وصفهم بالتكذيب أو الإجرام -وإن كانوا كذلك-، وإنما وصفوا بـ: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾، ففي سورة محمد صلى الله عليه وسلم وبخ الله جل ذكره الكافرين الذين سافروا وارتحلوا في بقاع شتى ورأوا ما حل بأقوام مثل عاد وثمود وسبأ وغيرهم، ولم يتعظوا ويعتبروا بعاقبتهم، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

فالآية الكريمة نزلت بالمدينة في أجواء قتال بين المسلمين والكافرين -بدليل تسمية السورة بسورة القتال- وكما دلت الآيات السابقة لهذه الآية، وفيها تحفيز وتحريض للمؤمنين وتوهين الكافرين، ثم أشارت إلى العذاب الذي سلطه على الذين كانوا من قبلهم، وقد عبر عما حل بهم بقوله: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، «والمعنى: دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم»[2].

وقد عدي فعل (دمر) بحرف الاستعلاء للمبالغة في قوة التدمير[3].

ثم توعد الله تعالى كفار مكة -وأمثالهم في كل مكان وزمان- السالكين لسيرة الهالكين بمثل تلك العواقب الوخيمة والعقوبات الأليمة، فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٤/ ٢٠٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٥/ ٥١٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٨٨.

«قال ابن عباس: يعني : لكفار قومك يا محمد صلى الله عليه وسلم، مثل ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف»[1].

وقد دمر الله على الكافرين مرات حتى انتصر الإسلام، «فاستأصل صناديدهم يوم بدر بالسيف، وسلط عليهم الريح يوم الخندق فهزمهم، وسلط عليهم الرعب والمذلة يوم فتح مكة، وكل ذلك مماثل لما سلطه على الأمم في الغاية منه وهو نصر الرسول صلى الله عليه وسلم ودينه، وقد جعل الله ما نصر به رسوله صلى الله عليه وسلم أعلى قيمة بكونه بيده وأيدي المؤمنين مباشرة بسيوفهم وذلك أنكى للعدو»[2].

وفي سور أخرى ذكر الله جل ثناؤه الاعتبار بعاقبة الذين من قبل، وبين أنهم أوتوا قوة وشدة وأثاروا الأرض وعمروها، ولكن ذلك لم يغن عنهم من الله شيئا، حين نزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، ليعلم كفار قريش أنهم أهون وأضعف من أولئك الجبارين، وسأسوق أمثلة توضح ما ذكرت.

ففي سورة فاطر ورد قوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

فقد جاءت هذه الآية بعد أن توعد الله تبارك وتعالى كفار قريش ومن شاكلهم أن يحل بهم عذابه وفق سنته التي لا تتبدل ولا تتحول، بسبب ما ادعوه، ثم أخلفوا الله ما وعدوه، فدعتهم إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين من قبلهم كعاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين، إذ كانوا يمرون بديارهم في أسفارهم، فقد كانوا أشد منهم قوة، وأطول أعمارا وأكثر أموالا وأقوى أبدانا، فلم يغن عنهم من الله شيئا حين كفروا بالله وكذبوا رسله، فليعتبر مشركو قريش بمآل أسلافهم، فإن الله جلت قدرته الذي أهلك أولئك - على قوتهم وبطشهم - لا يعجزه أن يهلك هؤلاء.

وإذا كانت سورة فاطر لم تصرح بطبيعة القوة التي أوتي الذين خلوا من قبل، فإن سورتي الروم وغافر بينتا ذلك، فقال تعالى في سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩].

وقال عز وجل في سورة غافر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

(١) فتح البيان، القنوجي، ١٣/ ٥٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٨٨.

﴿وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

ففي الآيتين إنذار للكفار بعواقب الأمم الذين كذبوا رسلهم من قبل كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن كانوا يمرون على ديارهم في أسفارهم إلى اليمن والشام في رحلتي الشتاء والصيف، فقد أضحت مساكنهم خرابا يبابا، رغم ما أوتوا من صلابة في الأجسام أمكنتهم من قلب الأرض بالحرث لزرع البذور وغيرها، أو حفرها لاستنباط المياه واستخراج المعادن[١].

وعمروها بفنون العمارات بتشييد المباني والحصون، وعلى الجملة فقد كانوا أقوى أجسامًا وأكثر تحصيلًا لأسباب العيش من كفار قريش الذين كانوا يسكنون واديًا غير ذي زرع، فما أثاروا الأرض ولا عمروها.

قال ابن كثير: «أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم -أيها المبعوث إليهم محمد صلوات الله وسلامه عليه- وأكثر أموالًا وأولادًا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعمارًا طوالًا، فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال»[٢].

وأختم حديثي عن الاعتبار بعاقبة الذين من قبل بما ورد في موضع آخر من سورة الروم في قوله جل جلاله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: ٤١- ٤٢].

ففي الآية الأولى بيان لشؤم الذنوب والمعاصي وما أحدثت من فساد في البر والبحر، وقد ذكر المفسرون أقوالا في بيان طبيعة ذلك الفساد، وهي في الجملة آفات وعقوبات يبتلى بها الناس، «كالجدب، والقحط، وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين والغاصة، ومحق البركات في كل شيء، وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار»[٣].

وكل ذلك بكسب أيديهم، وتلك الآفات جزء يسير مما يستحق الناس، ولو أذاقهم

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٠٥.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٨٢.
وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٧/ ٣١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٢٠

كل سوء عملوه ما ترك على ظهرها من دابة، فهو يصيبهم ببعض أعمالهم لعلهم ينيبوا إلى الحق ويرجعوا إلى التوبة ويتركوا معاصي الله، أما إذا لم يتعظوا بما أصابهم من فساد بما كسبت أيديهم، فإنه سيصيبهم فساد أعظم وأشد، كالذي أصاب الأمم التي أشركت، فجاءت الآية الأخيرة تحث على السير في الأرض للاعتبار بعاقبة الذين من قبل من الأمم التي يعرفها المخاطبون ووقفوا على آثارها وديارها، فقد أهلكها الله جلت قدرته ودمرها وتركها أثرا بعد عين، وسبب تلك العاقبة المفجعة هو شرك الأكثرين منهم، وفي ذلك تعريض بمشركي قريش وتحذير لهم أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبل.

ثالثًا: التفكر في الخلق:

حث القرآن الكريم على التفكر في الخلق في آيات كثيرة، وتعددت أساليب الدعوة إليه، فتكون أحيانًا من خلال التذكير بنعم الله وآلائه، وفي أحيان أخرى يأتي الحض على التفكر في معرض بيان الغاية التي من أجلها يضرب الله للناس الأمثال ويقص القصص ويلفت النظر إلى آيات الله المبثوثة في الآفاق والأنفس، وتارة أخرى يكون الأسلوب القرآني في الدعوة إلى التفكير عنيفا شديدا مقرونا في بعض الأحيان بالتهديد والوعيد، وهذه هي الآيات الموجهة لذوي القلوب القاسية الكافرة التي تحتاج لمثل هذا الأسلوب الصارم وفي مثل هذه الآيات تأتي الدعوة إلى التفكر بأسلوب الاستفهام الاستنكاري[(١)].

وفي معنى التفكر لغة قال ابن فارس: «فكر: الفاء والكاف والراء، تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبرا»[(٢)].

وفي اللسان: «الفكر بالفتح والفكر بالكسر: إعمال الخاطر في الشيء»[(٣)].

وفي القاموس: « الفكر بالكسر ويفتح: إعمال النظر في الشيء»[(٤)].

أما اصطلاحًا فقد عرفه الراغب بقوله: «الفكرة قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل ، وذلك للإنسان دون الحيوان»[(٥)].

وقال عنه الفراهي: «الفكر: هو النظر فيما وراء الشيء، وربما يسمى اعتبارا»[(٦)].

وعرفه أحد الباحثين بقوله: «التفكير في أبسط تعريف له عبارة عن سلسلة من النشاطات العقلية التي يقوم بها الدماغ

(١) انظر: التفكر من المشاهدة إلى الشهود، مالك بدري، ص ٦٣-٦٤.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣٢٨.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٦٥.
(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٤٥٨.
(٥) المفردات، الراغب، ص ٣٩٨.
(٦) مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي، ص ٣٠٢.

عندما يتعرض لمثير يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس الخمس»[1].

أما أهميته، فيكفي فيه أنه الملكة التي كرم الله تعالى بها بني آدم وفضلهم على كثير ممن خلق.

قال الغزالي: «إن الله تعالى خلق العقول، وكمل هداها بالوحي، وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته، والتفكر والاعتبار بما أودعه من العجائب في مصنوعاته»[2].

ولابن القيم كلام نفيس في التفكر وأهميته، ومما جاء فيه قوله: «فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكر، فإنه لابد من تفكر وعلم يكون نتيجةً للتفكر، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم ، فالفكر هو الذي ينقل من موت الغفلة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عليه، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور.

وبالجملة فأصل كل طاعة إنما هو الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب التفكر، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة، فيبذر فيها حب الأفكار الردية، فيتولد منها الإرادات والعزوم فيتولد منها العمل، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له وفيما أمر به وفيما هيئ له وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبذره موضعًا»[3].

وقد جاءت نصوص القرآن الكريم تأمر بالتفكر وتثني على المتفكرين ؛ لأن «التفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم»[4].

ومجال التفكر واسع يشمل الآيات المشهودة، فكل ما خلق الله عز وجل في السماوات؛ من شمس وقمر وكواكب، وفي الأرض؛ من بحار وأنهار وجبال وحيوان ونبات، وظواهر طبيعية كالسحاب والأمطار والرياح وغيرها.

أما عن ارتباط التفكر في الخلق بالسير كمقصد من مقاصده -وهو ما يعنينا في هذا البحث- فقد ذكر في موضعين:

أحدهما: في سورة العنكبوت في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

(١) تعليم التفكير، فتحي عبد الرحمن جروان، ص ٣٣.

(٢) الحكمة في مخلوقات الله، أبو حامد الغزالي، ص ١٤.

(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، ١/ ٥٤٥-٥٤٦.

(٤) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٤/ ٣٨٨.

﴿قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

والآيتان من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي ساقها القرآن الكريم لإقامة الحجة على منكري البعث، رغم أن كل ما في الوجود علويه وسفليه يشهد على قدرة الله جل ذكره على الإحياء بعد الموت، فجاءت الآية الأولى كلاما مستأنفا للإنكار على المكذبين بالبعث رغم وضوح دلائله، فلفتت أنظار أولئك الجاحدين إلى ما يرون من مظاهر البدء في الخلق وإعادته في الإنسان والحيوان والنبات بأسلوب محكم رصين، ففي الاستفهام الإنكاري عن عدم الرؤية تعجيب من أمرهم وتوبيخ لهم على بلادة حسهم، وفي الاستفهام بـ﴿كَيْفَ﴾ تنبيه ولفت نظر وليس طلب إخبار، بمعنى: ألم يتأملوا في هذا السؤال؟ أي: في الجواب عنه[1].

وفي مجيء الفعلين ﴿يُبْدِئُ﴾ و﴿يُعِيدُهُ﴾ بصيغة المضارع إفادة لتجدد بدء الخلق وإعادته حيثما وجه الناظر بصره في المخلوقات؛ ففي عالم الإنسان يرون «كيف يستأنف الله خلق الأشياء طفلًا صغيرًا، ثم غلامًا يافعًا، ثم رجلًا مجتمعًا، ثم كهلًا، ثم هو يعيده من بعد فنائه وبلاه، كما بدأه أول مرة خلقًا جديدًا، لا يتعذر عليه ذلك»[2].

واعتبر ذلك في عالمي الحيوان والنبات، وعلى الجملة فقد «أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة؛ الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في نفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون»[3].

فهذا مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه بلا ريب، فإذا كانت تلك قدرة الله تبارك وتعالى على الإبداء والإيجاد، فإن قدرته على الإعادة أيسر، ولذلك ناسب أن يأتي التعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: «سهل كما كان يسيرا عليه إبداؤه»[4].

وهذا كقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم جاءت الآية الثانية لتنقل المنكرين للبعث من عالم الأنفس إلى عالم الآفاق، لتقول لهم: إن كنتم في شك من قدرة الله جل وعلا على بدء الخلق وإعادته، ولم

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٢٩.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٧٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٧٠.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٧٦.

يكفكم الاستدلال بما هو بمرأى منكم، فدونكم الاستدلال بما هو بعيد عنكم من أحوال إيجاد المخلوقات وتعاقب الأمم، فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يحثهم على السير في الأرض للنظر كيف بدأ الخلق، فقال عز من قائل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾.

«أي: كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة، وطبائع متغايرة، وأخلاق شتى، فإن ترتيب النظر على السير في الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها، ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها، والتعبير عن الإعادة التي هي محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شئون الله تعالى حقيقة واسما من حيث إن كلًا منهما اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود، ولا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرية»[1].

ثم ختمت الآية ببيان كمال قدرة الخالق تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي «إن الله على إنشاء جميع خلقه بعد إفنائه، كهيئته قبل فنائه، وعلى غير ذلك مما يشاء فعله، قادر، لا يعجزه شيء أراده»[2].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٣٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٧٨.

الأنموذج الثاني الذي ذكر فيه التفكر في الخلق مقترنًا بالسير ورد في سورة الروم - وقد سبقت الإشارة إلى الآية الثانية منه - في قوله تباركت أسماؤه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٨-٩].

فالآية الأولى دعوة للمكذبين بالبعث إلى التفكر في أنفسهم، وقد ذكر المفسرون في المراد بـ: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ قولين، فذهب الطبري إلى أنها ذواتهم، فقال: «أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث يا محمد من قومك، في خلق الله إياهم، وأنه خلقهم ولم يكونوا شيئا، ثم صرفهم أحوالا وتارات، حتى صاروا رجالا؛ فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر أن يعيدهم بعد فنائهم خلقا جديدا»[3]، وذكر غيره أن العبارة تحتمل معنيين؛ أحدهما: أن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقهم ليستدلوا بذلك على الخالق المخترع، وهو ما ذكره الطبري، والثاني: أن تكون ظرفا للفكرة في خلق

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤٦٤.

السموات والأرض، كأنه قيل: أولم يحدثوا التفكر في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر[1].

ولا تعارض بين القولين، وأيًا ما كان المعنى، فالمنكرون للبعث لم يفكروا في ذواتهم ولا فيما حولهم، لم يفكروا في أنفسهم وهي أقرب شيء إليهم، ليروا عجائب قدرة الله عز وجل في خلقهم، كما في قوله جل جلاله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

وعلى هذا التفسير تكون جملة ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ «بدل اشتمال من قوله: ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾ إذ الكلام على حذف مضاف، تقديره: في دلالة أنفسهم، فإن دلالة ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾ تشتمل على دلالة خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق؛ لأن ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾ مشمولة لما في الأرض من الخلق ودالة على ما في الأرض، وكذلك خلق ما في الأرض دال على خلق أنفسهم»[2].

فمعنى الآية الكريمة: «أولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات، وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فتدبروا ما أودعها الله ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحسانا وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت»[3].

هذا بعض ما ذكره المفسرون في معنى الآية الكريمة إذا قصد بالتفكر في أنفسهم ذواتهم، أما إذا أريد به أن يحدثوا في أنفسهم التفكر في خلق السموات والأرض وما بينهما، فيكون معنى الآية ما ذكر ابن كثير: «يقول الله تعالى منبها على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلًا، بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة»[4].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٧/ ١١، الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٦٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٥٥، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٠٠، فتح البيان، القنوجي، ١٠/ ٢٢٩

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٥٢.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٦٦-٥٦٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٠٥.

وحين لم يتفكر المنكرون للبعث في آيات الله في الأنفس والآفاق، بسبب تبلد عقولهم وضيق أفقهم، نقلهم السياق إلى حوادث الزمان وعبر التاريخ لعلهم يتأملون سنة الله في إهلاك الظالمين، ويعتبرون بمصارع الغابرين، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩].

فقد دعي منكرو البعث في هذا المقام إلى السير، وهو مالم يطلب منهم في الآية السابقة ؛ إذ لا حاجة إلى السير بحضور النفس والسماء والأرض، ولذلك جاء الاستفهام تعجيبيًا من غفلتهم وعدم تفكرهم، وأريد به التقريع والتوبيخ.

أما الاستفهام في هذه الآية فلتقرير النفي، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أقعدوا في أماكنهم، ولم يسيروا في الأرض، والمعنى : أنهم ساروا في أقطار الأرض[1]، وشاهدوا في أسفارهم آثار وديار أقوام قد خلوا مثل: عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين، وهي أمم كانت ذات قوة وسطوة، لا تدانيها قوة قريش، أثاروا الأرض بالحرث واستخرجوا خيراتها ومدخراتها، وعمروها بالمباني والحصون والقصور المشيدة، أكثر مما عمرها المشركون في مكة، فقد كان السابقون أطول أعمارا وأقوى أجساما وأكثر تحصيلا لأسباب العيش، ومع ذلك لم تغن عنهم قوتهم من الله شيئا حين نزل بهم عذاب الله وبأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

رابعًا: ابتغاء الرزق:

من مقاصد السير كما حددته نصوص القرآن الكريم هو: ابتغاء الرزق، ومعنى الرزق لغة: العطاء وما ينتفع به مما يؤكل أو يلبس، وما يصل إلى الجوف ويتغذى به، وقد يسمى المطر رزقا؛ لأنه سبب الرزق[2].

«والأرزاق نوعان: ظاهرةٌ للأبدان كالأقوات، وباطنةٌ للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم»[3].

قال الراغب في بيان معنى الرزق: «الرزق يقال للعطاء الجاري تارة دنيويًا كان أم أخرويًا، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة، يقال: أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علمًا، والرازق

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٥٢.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ١/ ٤٠٤، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٨٨٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ٣٧٢.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ١١٥.

يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له، وهو الله تعالى»[1].

فالله جل وعلا هو الرازق والرزاق، وقد وصف سبحانه وتعالى ذاته بذلك في كتابه العزيز بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

وبين جل ثناؤه أنه وحده رازق كل دابة على وجه الأرض فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦].

وأكد جل جلاله أن جميع المخلوقات تفتقر إليه في رزقها ولا تستطيع تحمل ذلك، ولولاه ما رزقت، فقال جل ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾ [العنكبوت: ٦٠].

والله تبارك وتعالى مالك خزائن الرزق، فمنه وحده يطلب لا من غيره، كما قال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون اكتساب الرزق وفق سنة اتخاذ الأسباب، فألهم الحيوانات والطيور أن تتحرك وتتنقل من مكان إلى آخر، وزودها بغرائز وخلق لها أعضاء تمكنها من كسب قوتها، فإذا كانت تلك سنته تعالى في رزق البهائم والعجموات وهي مخلوقات ضعيفة، فإنها في حق الإنسان المكرم أولى، فقد اقتضت سنته في رزق العباد أن يصلهم بأسباب يباشرونها باختيارهم، ويسر لهم تلك الأسباب، ودلهم على مفاتيح الرزق.

منها: «السعي والضرب في الأرض ابتغاء الرزق».

وقد وردت آيات كريمة تحث على السعي في الأرض ابتغاء الرزق، منها قوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ١٥].

فالآية الكريمة تشير إلى نعمة الله عز وجل على خلقه في تسخير الأرض لهم، فعبر عن ذلك بلفظ: ﴿ذَلُولًا﴾، ثم أمرهم بالمشي في مناكبها، والمعنى: «سافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات»[2].

وقوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ يعني: وكلوا من رزق الله الذي أخرج لكم من مناكب الأرض، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ يعني: وإلى الله نشركم من قبوركم[3].

(١) المفردات، الراغب، ص ١٩٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٧٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ١٢٩.

هذا عن معنى الآية، أما الرزق الذي تمنحه الأرض الذلول وينتفع به الإنسان ويناله بالمشي في مناكبها، فيشمل كل ما أودع الله عز وجل فيها من خيرات ومدخرات وثروات على ظهرها وفي باطنها، فهي منحٌ وعطاءاتٌ سخرها الخالق سبحانه وتعالى للإنسان منةً منه وفضلًا.

ومن الآيات التي تحض على السعي في الأرض ابتغاء الرزق، ما ورد في ختام سورة المزمل في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فقد ذكرت الآية الكريمة أصحاب الأعذار الذين يشق عليهم قيام ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه ، وهم: المرضى، والضاربون في الأرض، والمجاهدون، فخفف الله عنهم، وكلفهم ما يطيقون، ليقرأوا في صلاة الليل ما تيسر من القرآن، فكانوا سببًا للتخفيف عن الأمة، ونسخ فرض قيام الليل، ويهمنا من هذه الفئات الثلاث؛ الفئة الثانية المذكورة في قوله جل ثناؤه: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، فهؤلاء يسافرون ويضربون في الأرض للتجارة وطلب المعاش، أو ابتغاء الرزق المعبر عنه بفضل الله، فهم لا يطيقون قيام الليل لما يعانون من المشقة في سعيهم وأسفارهم، وربما كان الليل فرصتهم لأخذ قسط من الراحة والنوم، والاستعداد للغد. والسفر والضرب في الأرض لكسب الرزق ليس مجرد تجارة وكسب، بل هو فضيلة وطاعة اقترن ذكرها في الآية الآنفة بالجهاد في سبيل الله وهو ذروة سنام الإسلام.

فقد «سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله»[(١)].

وقد بلغ من أهمية الضرب في الأرض للكسب ونفع الناس، أن أضحت مهنة شريفة تحظى بالتقدير، لذلك حض عليها النبي صلى الله عليه وسلم، فعن الزبير بن العوام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من يسأل الناس، أعطوه أو منعوه)[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الساعي على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢١/ ٣٤٩، وانظر: الكشاف، الزمخشري، ٦/ ٢٤٩، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/ ١٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم ١٤٧١.

الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار)[1].

ومن النماذج التي تحث على السير في الأرض ابتغاء الرزق، ما ورد في سورة الجمعة في قوله تعالى ذكره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

قال القرطبي: «يقول: إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم. ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ﴾ أي: من رزقه»[2].

وقال ابن كثير: «لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله ، وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: في حال بيعكم وشرائكم، وأخذكم وعطائكم، اذكروا الله ذكرا كثيرا، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة»[3].

هذا هو المنهج المتوازن الذي يقيمه القرآن الكريم حين يلبي مقتضيات الإنسان في الحياة الدنيا دون أن ينسى نصيبه من الآخرة، ففور انقضاء صلاة الجمعة، يأتي الإذن بالانتشار في الأرض لابتغاء الرزق، فلا رهبانية في الإسلام، ولا مجال للمكث في المساجد بدعوى الانقطاع للعبادة، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى قوما جلوسا في المسجد في غير وقت الصلاة، فكره منهم ذلك وقال: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني! فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة»[4].

وقد فقه عراك بن مالك رضي الله عنه هذا المعنى، فكان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد، فقال: «اللهم، أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين»[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم ٥٣٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب فضل الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم ٢٩٨٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ٤٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٢٢-١٢٣.

(٤) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٢/ ٦٤.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ، رقم ١٨٨٩٧، ١٠/ ٣٣٥٦.

أساليب الحث على السير للتأمل

تعددت وتنوعت أساليب القرآن الكريم في الحث على السير، ولم تكن نمطية، وسبب هذا التنوع تأكيد أهمية موضوع السير، وإثارة انتباه القارئ والسامع.

وسنحاول في هذا المبحث أن نبرز بعض تلك الأساليب في النقاط الآتية:

أولًا: الأمر بالسير:

الأسلوب الأول من أساليب القرآن الكريم في الحث على السير للتأمل هو: الأمر به، وقد تكرر ست مرات بصيغتين:

الأولى: بقوله جل ذكره: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في موضعين[1].

والثانية: بقوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في أربعة مواضع[2].

فآية آل عمران خطاب مباشر للمؤمنين تأمرهم بالسير، والفاء سببية، وقيل: شرطية، أي: إن شككتم فسيروا[3].

فقد طلب منهم أن يسيروا في الأرض ليروا نهاية المكذبين، فتطمئن قلوبهم لصدق وعد الله تعالى بنصر المؤمنين وإهلاك الكافرين، وليدركوا أن ما حصل في معركة أحد لم يكن سوى امتحان وتمحيص للصف لتمييز الخبيث من الطيب، وأن العاقبة للمتقين، أما بقية الآيات فخطاب للكفار والمشركين.

وقد اختلف المفسرون في الأمر بالسير؛ هل هو على سبيل الوجوب أم الإباحة؟

فذهب أكثرهم إلى أن الأمر للندب[4]، إذ المقصود الاعتبار لا السفر بحد ذاته، فإذا حصل بغير المسير في الأرض بسماع الأخبار أو قراءة كتب التاريخ، فقد تم المقصود، وإن كان في الوقوف على الآثار ومشاهدة الديار مزيد اعتبار، وذهب الزمخشري إلى التفريق بين الأمر بالسير والنظر : فقال: «معناه: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح»[5].

فالأمر الواجب -في تقدير الزمخشري- هو النظر وليس السير، فإذا حصل السفر لأي غرض، وجب النظر، والحق أن الأمر بالسير لا يقتضي الوجوب، لأن العبرة بالمقصود لا بالسير ذاته، فالمراد بالآيات؛

(١) ورد ذلك في: آل عمران: ١٣٧، والنحل: ٣٦.

(٢) ورد ذلك في: الأنعام: ١١، والنمل: ٦٩، والعنكبوت: ٢٠، والروم: ٤٢.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٥٦٠، فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٢٤٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٢٩، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٣٦٢، مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ١٣، البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٦٦.

(٥) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٢٨.

إن كنتم في شك مما قيل لكم، فسيروا في الأرض لتقفوا على الحقيقة ماثلة أمامكم ترونها رأي العين، ثم إن في المخاطبين من سار وعاين، وحين لم يتعظ كان كمن لم ير، كل ذلك يرجح أن يكون الأمر بالسير للندب لا الوجوب.

وليس بين ما ذكرنا والأحاديث النبوية الواردة في النهي عن دخول ديار الذين ظلموا أنفسهم تعارض، كما في الحديث الصحيح، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها عليهم أن يصيبكم ما أصابهم)[1].

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم على الحجر قال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين)، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي، وهو على الرحل[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس عام تبوك، نزل بهم الحجر، عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كان يشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، قال: (إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم)[3].

فاشتراط النبي صلى الله عليه وسلم البكاء عند دخول ديار الذين ظلموا أنفسهم؛ يعني: أن يدخل المسلم تلك الديار متفكرا ومتأملا، مما يهيجه على البكاء خشية أن يصيبه ما أصابهم، وذلك هو معنى الاعتبار، أما أن تتحول مساكن الذين ظلموا إلى مواقع للهو والترفيه، بله الإعجاب والتقديس، فهذا منهي عنه.

ثانيًا: الاستفهام الإنكاري والتقريري:

من أساليب الحث على السير للتأمل؛ الاستفهام؛ ويعرف بأنه: طلب المتكلم من مخاطبه أن يحصل في الذهن ما لم يكن حاصلًا عنده مما سأله عنه[4]، وهو ضربان:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم ٤٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكيا، رقم ٢٩٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر، رقم ٤٤١٩.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٥٩٨٤، ١٠/ ١٩١-١٩٢.

(٤) الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي، ٧/ ٤٣.

أحدهما: نفي.

والثاني: إثبات.

فالوارد للنفي يسمى استفهام إنكار، والوارد للإثبات يسمى استفهام تقرير، لأنه يطلب بالأول إنكار المخاطب، وبالثاني إقراره به[1].

وأدوات الاستفهام كثيرة على رأسها الهمزة، وهي الحرف الذي لا يزول عنه إلى غيره، وليس للاستفهام في الأصل غيره، كما ذكر سيبويه[2].

وتمتاز همزة الاستفهام بتقديمها على حروف العطف كالواو والفاء وثم، وكان القياس تأخيرها عن العاطف، إذ لا يجوز أن يؤخر العاطف عن شيء من هذه الأدوات؛ لأن أدوات الاستفهام جزء من جملة الاستفهام، والعاطف لا يقدم عليه جزء من المعطوف، وإنما خولف هذا في الهمزة؛ لأنها أصل أدوات الاستفهام، فأرادوا تقديمها تنبيها على أنها الأصل في الاستفهام، لأن الاستفهام له صدر الكلام[3].

ومما تمتاز به الهمزة عن بقية الأدوات إفادتها معاني بلاغية كثيرة؛ كالإنكار والتقرير والتحقير والتعظيم والتعجيب والتحضيض، ويأتي إفادتها معنيي الإنكار والتقرير في الصدارة.

وحين نستقرئ آيات السير نلاحظ أن أكثرها جاء بأسلوب الاستفهام، فمن مجموع ثلاث عشرة آية في السير نجد سبعًا منها مفتتحة بالاستفهام بالهمزة، يليها الفعل كما هو الأصل في حروف الاستفهام، وجاءت بصيغتين متقاربتين:

الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[4].

والثانية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[5].

وقد أفادت كلها المعنيين الأكثر ورودا وهما: الإنكار والتقرير، وإنكار الشيء يعني كراهته والنفور عن وقوعه، ويأتي الإنكار «لتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لايقدر عليه ، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته»[6].

ويكون الاستفهام الإنكاري بدخول

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٣٢٨.

(٢) الكتاب، سيبويه، ١/ ٩٩.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٣٥٠، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٣/ ١٤١-١٤٢.

(٤) ورد ذلك في: الروم: ٩، وفاطر: ٤٤، وغافر: ٢١.

(٥) ورد ذلك في: يوسف: ١٠٩، والحج: ٤٦، وغافر: ٨٢، ومحمد: ١٠.

(٦) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ١٥٢.

همزة الاستفهام على أداة نفي، و«يقتضي أن ما بعده واقع، وأن صاحبه ملوم»[1].

أما الاستفهام التقريري فهو: «حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ، وحقيقة استفهام التقرير أنه استفهام إنكار، والإنكار نفي، وقد دخل على المنفي، ونفي النفي إثبات»[2].

وسأذكر ثلاثة نماذج مما جاء من أسلوب الاستفهام الإنكاري والتقريري على سبيل التمثيل لا الحصر.

الأنموذج الأول: في قوله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩].

فالاستفهام في الآية إنكاري[3]، والغرض منه التوبيخ والتقريع[4]، ثم جاء العطف بالواو والفاء على مقدر يقتضيه المقام والسياق، تلاها لم، وهي حرف نفي وقلب وجزم، ويسيروا: فعل مضارع مجزوم بلم، والواو فاعل عائد على الكفار الذين عاندوا النبي صلى الله عليه وسلم واعترضوا على نبوته، فدعوا إلى السير في الأرض للاعتبار بعاقبة المكذبين للرسل، مع أن في المخاطبين من سار ورأى آثار الذين كانوا من قبل، وكيف خلت منهم الديار، وطواهم الزمان، ومن لم يسافر منهم سمع ممن رأى، فتواترت الأخبار عن أقوام كعاد وثمود وأهل مدين وقوم لوط، وكيف كانت نهايتهم، ولما كان مرورهم بتلك الديار أو سماعهم للأخبار لم يهز قلوبهم القاسية ، ولم يحدث فيها أي تأثير، استحقوا ذلك التوبيخ والتقريع.

الأنموذج الثاني: في قوله جل ثناؤه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الروم: ٩].

فقد افتتحت الآية بالاستفهام التقريري[5]، وجاء التقرير على النفي، «وأصلها: إما الإنكار بتنزيل المقر منزلة المنكر ليكون إقراره أشد لزوما له، وإما أن تكون للاستفهام فلما دخلت على النفي أفادت التقرير ؛ لأن إنكار النفي إثبات

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبدالخالق عضيمة، ٢/ ٦١٠.
(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٢/ ٣٣١-٣٣٣، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٣/ ٢٣٦-٢٣٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ٦٨.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٣٤٦.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٦٦، البحر المحيط، أبوحيان، ٧/ ١٥٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٥٣.

للمنفي»[1].

والمعنى: ونظروا إلى ما حل بمن كان قبلهم من المكذبين، وأن ذلك لم ينفعهم إذ لم يعتبروا ويتعظوا بما رأوا، ولا يعترض بأن في المخاطبين من لم يسر ؛ «لأن كافة من سار من الناس قد نقلت معارفهم إلى من لم يسر، فاستوت المعرفة وحصل اليقين للكل، وقامت الحجة»[2].

الأنموذج الثالث: ما جاء في سورة غافر في موضعين:

الأول: في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

والثاني: في قوله تعالى ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢].

فالاستفهام في الآية الأولى تقريري، وفي الثانية إنكاري ، على ما هو شائع في مثله من الاستفهام الداخل على نفي الماضي بحرف (لم)، والتقرير موجه للذين ساروا من قريش ونظروا آثار الأمم الذين أبادهم الله[3].

وفي تكرير الدعوة إلى السير في هذه السورة إنكار على القوم تركهم السير الذي يتوصل به الاعتبار بمصير الأمم الظالمة، وكيف استأصلها الله جلت قدرته رغم ما كانت تتمتع به من قوة وتمكين، يفتقر إليها المخاطبون في الآيتين.

وقد جاءت الدعوة في الآية الأولى عقب آيات التهديد والوعيد، وفي الآية الثانية عقب آيات الامتنان والاستدلال، وفي كلا الموضعين تذكير وتهديد ووعيد، وفي ذلك إشارة إلى أنهم إن لم يكونوا ممن تزعهم النعم عن كفران مسديها كشأن أهل النفوس الكريمة، فليكونوا ممن يردعهم الخوف من البطش كشأن أهل النفوس اللئيمة، فليضعوا أنفسهم حيث يختارون من الخطتين[4].

ثالثًا: أسلوب التلقين:

الأسلوب الثالث من أساليب الحث على السير هو التلقين، وهو لغة: من الفهم، لقنت الكلام بالكسر: فهمته وتلقنته: أخذته، والتلقين: كالتفهيم، وغلامٌ لقنٌ: سريع الفهم[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٣٦.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٧/ ١١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١١٩، ٢١٩.
(٤) انظر: المصدر السابق، ٢٤/ ٢١٩.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري، ٢/ ٩٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٤٨٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١٢٣١.

والمراد من أسلوب التلقين في آيات السير ما ورد مفتتحا بفعل ﴿قُلْ﴾ موجها للنبي صلى الله عليه وسلم يلقنه ربه تعالى حجته على خصومه، ويعلمه كيف يرد على تعنتهم وجحودهم، وقد تكرر هذا الأسلوب في أربعة مواضع بصيغة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في: [الأنعام: ١١]، [النمل: ٦٩]، [العنكبوت: ٢٠]، [الروم: ٤٢].

وفيه دليل على أنه لا دخل للنبي صلى الله عليه وسلم في صياغة اللفظ القرآني ، بل هو متبع للوحي يبلغه كما أمره به ربه جل ذكره، «ولتصدير الآيات السابقة بعبارة (قل) مغزى لطيف يفهمه العربي بالسليقة ، وهو توجيه الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وتعليمه ما ينبغي أن يقول، فهو لا ينطق عن هواه بل يتبع ما يوحى إليه، ولذلك تكررت عبارة (قل) أكثر من ثلاثمائة مرة في القرآن؛ ليكون القارئ على ذكر من أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لا دخل له في الوحي فلا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه، وإنما يلقى إليه الخطاب إلقاء فهو مخاطب لا متكلم، حاكٍ ما يسمعه، لا معبر عن شي يجول في نفسه»[(١)].

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه المسألة فيما روى البخاري عن زر بن حبيشٍ قال: سألت أبي بن كعبٍ عن المعوذتين فقال: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قيل لي فقلت، قال أبي: فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم)[(٢)].

وقد ذكر بعض المفسرين أن الخطاب في الآيات الأربع موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر آخرون أن الخطاب في آية العنكبوت موجه إلى إبراهيم عليه السلام ؛ لأن الآية جاءت في سياق محاججته لقومه[(٣)].

والراجح أنها اعتراض بين كلامين، وأنها أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما ذكر ابن عطية[(٤)].

وقد جاءت أقوال المفسرين متشابهة، فقال الطبري في تفسير آية الأنعام: «قل يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأنداد، المكذبين بك، الجاحدين حقيقة ما جئتهم به من عندي»[(٥)].

وقال القرطبي: «قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذبين»[(٦)].

وقال ابن كثير في تفسير آية النمل: «قل

(١) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، رقم ٤٩٧٦.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٣٤، الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٤٢.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٦٣٤.

(٥) جامع البيان، الطبري، ٩/ ١٦٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٢٩.

يا محمد لهؤلاء المكذبين بالرسل وما جاؤوهم به من أمر المعاد»[1].

وعلى هذا النحو سار أكثر المفسرين واكتفوا ببيان المخاطب بفعل (قل)، دون الإشارة إلى الحكمة من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتلقين المكذبين ذلك القول، وقلة منهم أشار إلى ذلك؛ مثل أبي السعود الذي ذكر أنه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم[2]، وابن عاشور الذي أشار إلى الحكمة بقوله: «وافتتاحها بالأمر بالقول لأنها واردة مورد المحاورة»[3]، وأبو زهرة الذي بين تلك الحكمة بقوله: « إن الله أمر نبيه أن يخاطبهم هو؛ لأنهم يستهزئون منه صلى الله عليه وسلم ، فكانت المجاوبة منه لهم»[4].

وأضيف إلى ذلك أنها إعراض عن للمشركين، فخطاب الله جل جلاله المباشر تشريفٌ لا يستحقونه، ورفعٌ لمقام النبي صلى الله عليه وسلم وتوكيدٌ لصدق نبوته ردًا على تكذيب المشركين له، وهي في مجملها تلقينٌ له صلى الله عليه وسلم ليأمر كفار قريش بالسير في الأرض والاعتبار بمصير المكذبين من الأمم الهالكة، وإقامةٌ للحجة عليهم قبل أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبل.

رابعًا: الثناء على المتأملين:

فقد ورد الثناء على المتأملين في قوله جل وعلا: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٣٨].

وقد سبقت الإشارة إلى أن آية السير في سورة آل عمران خطاب للمؤمنين عقب غزوة أحد، وأنها جاءت لتشد من عزائمهم بعد الذي ألم بهم، ولتبشرهم بسوء عاقبة عدوهم، جريا على سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين.

ثم جاءت الآية الثانية تثني عليهم حين خصتهم دون الناس بالتبصر والاهتداء بسنن الله جل ذكره في قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾، فسنن الله عز وجل بيان، أي: دلالة وحجة لإزالة الشبهة، وإيضاح وكشف للحقائق للناس كافة؛ مؤمنهم وكافرهم، تقيهم وفاجرهم، ولكن لا يستفيد ويعتبر منها إلا المتقون، فهي لهم هدًى، أي: دلالة على سبيل الحق، وموعظةٌ، أي: تذكرة للصواب والرشاد[5]، قال صاحب الكشاف: «هذا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٠٨.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ١٧٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/ ١٤٩.
(٤) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٤٤٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٧٥.

بيان للناس وإيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، يعني: حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم، والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم، وهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين»[1].

ففي الآية الكريمة مدح وثناء للمتقين؛ فهم وحدهم من يهتدي ويتعظ بسنن الله تعالى في أخذ المكذبين، حين يسيرون في الأرض، ويتأملون آثار القرى المدمرة، وكيف كان عاقبة الظالمين، فيتقون أسباب هلاكهم، «فالكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى. والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقي الذي يخفق لها ويتحرك بها، فالإيمان والتقوى هما اللذان يشرحان القلب للهدى والنور والموعظة والعبرة. وهما اللذان يزينان للقلب اختيار الهدى والنور والانتفاع بالموعظة والعبرة»[2].

هذا عن الثناء على المؤمنين المتأملين في سنن الله تعالى، المهتدين والمتعظين بما فيها من أسباب الهلاك أو التمكين.

خامسًا: ذم غير المتأملين:

وقد ورد ذلك في قوله جل ثناؤه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

فهذه طائفة الغافلين غير المتأملين من الكفار والمشركين الذين ذكرتهم هذه الآية وذمتهم أشد الذم، والسبب أنهم ساروا في الأرض ورأوا آثار وديار الأمم الهالكة كعاد وثمود وأهل مدين وقوم لوط، رأوا ذلك في أسفارهم، ومروا بهم بالليل والنهار، فما حرك فيهم ساكنا، ولا أحدث في قلوبهم هزة، ولا في عقولهم فكرة، فكانوا كالأنعام، بل أضل، فوبخهم الله عز وجل في الآية التي ذكرنا آنفًا.

فقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، يحتمل معنيين: إما أنهم لم يسافروا، فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا، أو أنهم سافروا ورأوا ذلك ولم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا، وكلا المعنيين صحيح، فالاستفهام تعجيبي بمن سافروا ورأوا وبمن لم يسافروا؛ وهؤلاء -بلا شك- سمعوا ما حكى من رأوا، وقد ذمت الآية الفريقين، فأنكرت على الذين سافروا ورأوا ولم يتعظوا، فنعت عليهم قلوبهم القاسية بقوله جل وعلا: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾، «وأطلقت القلوب على تقاسيم العقل على وجه المجاز المرسل؛ لأن القلب هو مفيض الدم- وهو مادة

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٦٣١.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١/ ٤٨٠.

الحياة - على الأعضاء الرئيسة وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل. ولذلك قال: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ وإنما آلة العقل هي الدماغ ، ولكن الكلام جرى أوله على متعارف أهل اللغة ، ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية ، فقال : «يعقلون بها ، فأشار إلى أن القلوب هي العقل»[1].

ومعنى الجملة أن القوم حين لم يعملوا عقولهم فيما رأوا أنزلوا منزلة من لا عقل له، وأما الذين لم يسافروا وسمعوا الأخبار ، ثم لم يتعظوا فنعت عليهم آذانهم الصماء في قوله جل ثناؤه: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، فهؤلاء أيضا نالهم الذم ؛ لأنهم لم يستفيدوا من آلة السمع، ولم يردعهم تواتر أخبار الأمم الهالكة، فلم يغن عنهم سمعهم شيئا حين عطلوا مهمتها وهي إدراك المسموعات، لكن حظ من سافر ورأى وسمع الأخبار من الذم أوفر، فليس من رأى كمن سمع.

ثم ختمت الآية الكريمة ببيان حقيقة العمى عند هؤلاء الغافلين، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، «أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر»[2].

فليس الخلل في جوارحهم وإنما هو في عقولهم، فما عميت عيونهم عن الإبصار، بل قلوبهم عن الاعتبار.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ٢٨٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٤٣٨.

المخاطبون بالسير للتأمل

أشرنا في المباحث السابقة إلى أهمية السير في القرآن، سواء من حيث مجالاته أو مقاصده أو أساليب الحث عليه، وبقي علينا أن نشير إلى الطوائف المعنية بخطاب السير للتأمل، لتكتمل عناصر الموضوع، وتتضح أهميته أكثر. فباستقراء الآيات الواردة في موضوع السير، نجد أنها خاطبت طائفتين: المؤمنون، والمكذبون، وسنحاول تتبع كل طائفة على حدة من خلال مطلبين.

أولًا: مخاطبة المؤمنين:

خوطب المؤمنون ودعوا إلى السير في الأرض في موضعين؛ الأول خطاب خاص بهم في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والثاني خطاب عام، والمؤمنون أولى به، في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠].

فآية سورة آل عمران خطاب صريح للمؤمنين نزلت تواسيهم بعدما أصابهم القرح يوم أحدٍ، وقد جاءت كالتوطئة لما سيأتي من عتاب وذكر لأسباب النكسة التي مني بها المؤمنون في تلك الغزوة، حين ظنوا أنهم ينتصرون لمجرد كونهم على حق وعدوهم على باطل، فأرشدهم الله جل وعلا أن للنصر والهزيمة سننًا ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، ولا تحابي أحدا، فقد كانت النكسة بسبب تخليهم عن أسباب النصر، حين خالفوا أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانشغلوا بالغنائم، وقد وصف الله جل ذكره ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فقد كانت الهزيمة مفاجأةً غير منتظرةٍ لدى كثير من المؤمنين الذين ظنوا أنهم منتصرون لا محالة، وحين وقعت، دهشوا لما صارت إليه الأمور، واستغربوا ما وقع، كل ذلك لأنهم لم يفقهوا بعد طبيعة السنن وجديتها وعدم محاباتها، وقد صور القرآن الكريم موقف الاستغراب في قوله جل ثناؤه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:

١٦٥].

إن تساؤل المؤمنين بقـــولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ يكشف عن أن أكثرهم كان يظن أن كونهم على دين الحق سببٌ كافٍ لغلبتهم أينما غزوا وظهورهم على الباطل كيفما كانوا، وربما دفعهم إلى هذا الظن ما شاهدوه يوم بدر من ظهورهم على عدوهم، ونزول الملائكة مددا لهم، وهو ظن يؤدي إلى إفساد أساس الدين القائم على السنن الجارية لا على خوارق العادة، وتعطيل سنة الله في النصر والهزيمة القائمة على أسبابها العادية.

كان جواب القرآن الكريم حاسمًا: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، فقد انطبقت عليهم سنة الله تعالى في العمل والجزاء، فكانت النتيجة أثرا طبيعيا للعمل، فأنفسهم هي التي أخلت بشروط النصر حين عصت أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي التي دفعتهم إلى الطمع في الغنيمة، وبالجملة فقد عرضوا أنفسهم لسنة الله تعالى التي لا تعرف محاباة ولا استثناءات، فانطبقت عليهم.

وبعد ذلك العتاب الشديد، جاء التوجيه السديد، فطمأن الله جل ثناؤه عباده المؤمنين بأن العاقبة لهم، وأن الدائرة على الكافرين المكذبين، ولكنه لم يسق ذلك في قالب وعظي مباشر، بل أرشدهم إلى عالم السنن التي تحكم أسباب النصر والهزيمة، وردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعا في الحياة، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث[1].

وتلك هي النقلة التي رفع القرآن الكريم المؤمنين إلى مستواها، فأصبحوا وحدهم قادرين على الاهتداء والاتعاظ بسنن الله تعالى، وهو المقصود بقوله جل وعلا: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾، فالإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ عائدة إلى ما سبق من قوله جل ثناؤه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وهو ما اختاره الطبري[2].

أما آية سورة العنكبوت، وإن جاءت في سياق محاججة منكري البعث، فإن ما دعت إليه من السير في الأرض للوقوف على دلائل قدرة الله تعالى في بدء الخلق وإعادته، مما يدعى إليه المؤمنون أيضًا ليزدادوا إيمانًا، ولتطمئن قلوبهم ، كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام، ثم إن هذه الآية الكريمة من الآيات التي تدعو إلى اكتشاف سنن الله في الآفاق والأنفس، ويتعين على المؤمنين فقهها والعمل بمقتضاها، إذا أرادوا أن يمكن

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٤٧٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٧٥.

لهم في الأرض.

إنها دعوة مفتوحة لكل من يريد أن يكتشف أسرار بدء الخلق؛ ومن إعجاز هذا النص أنه خطاب متجدد يستجيب لكل عصر، ويساير الاكتشافات العلمية، «ذلك أن المخاطبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هذا البحث العلمي الذي نشأ حديثا، فلم يكونوا بمستطيعين يومئذ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقة المقصودة به -لو كان ذلك هو المقصود- فلا بد أن القرآن كان يطلب منهم أمرا آخر داخلا في مقدورهم، يحصلون منه على ما ييسر لهم تصور النشأة الآخرة. ويكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة في النبات والحيوان والإنسان في كل مكان. ويكون السير في الأرض لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة، ودعوتها إلى التأمل والتدبر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظة من لحظات الليل والنهار»[1].

واليوم استطاع العلم الحديث أن يؤكد الكثير من معاني تلك الآية الكريمة، بما أتيح للإنسان من إمكانات علمية، جعلته يرتاد الآفاق برًا وبحرًا وجوًا؛ ليقف في رحلاته تلك على دلائل بدء الخلق في كثير من مظاهر الكون.

وهناك ملمح علمي آخر نستشفه من التعبير بالفعل الماضي في قول الله جل وعلا: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، وهو إشارة إلى إمكانية السير في الأرض والبحث للكشف عن كيفية بدء الخليقة على كوكب الأرض عبر الحفريات.

لقد تفاعل سلف هذه الأمة بإيجابية مع هذه الآية ومثيلاتها، ففقهوا معناها وعملوا بمقتضاها، فساروا في الأرض وضربوا في مناكبها متأملين ومكتشفين سنن الله في الآفاق والأنفس، فأبدعوا واخترعوا ونبغ منهم علماء في مختلف العلوم والفنون، وقدموا للبشرية أنموذجا راقيا من الحضارة شهد بتألقها الأعداء قبل الأصدقاء.

واليوم لا يخفى ما في واقع المسلمين من تقصير في تطبيق هذه الآية ومثيلاتها، حين ركنوا إلى الكسل والأماني، وقعدوا عن السير في الأرض والتأمل في سنن الآفاق والأنفس، وتركوا الساحة لغيرهم يكتشفون مكنونات الكون ويسخرون مدخراته في حياتهم، مما منحهم تفوقًا هائلًا في مجال التكنولوجيا والمعلوماتية، يقف المسلمون إزاءها مشدوهين، لا يسهمون فيها بشيء سوى الاستهلاك بطعم المذلة والمهانة أمام طغيان وجبروت العالم الغربي.

لقد كان المسلمون أحق بهذه الإنجازات انطلاقا من تعاليم كتابهم الذي فتح لهم آفاق

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٧٣٠.

السير في الأرض لاكتشاف سنن الله تعالى في الخلق، وتوجيهها الوجهة الإيمانية التي تسعد البشرية وتمنحها الحياة الطيبة.

ثانيًا: مخاطبة المكذبين:

يمثل خطاب المكذبين من الكفار والمشركين أغلب آيات السير، ويأتي إما مباشرا، أو غير مباشر -وهو الغالب- ويكون بضمير الغيبة مع الاستفهام الإنكاري،أو الخطاب بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كشف الله جل شأنه في تلك الآيات مخازي أولئك المكذبين، وهي تدور في مجملها حول جريمتين هما: تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، وإنكار البعث، وسأذكر كل جريمة على حدة.

أولًا: تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ورد في أربعة مواضع هي: [الأنعام: ١٠-١١]، [يوسف: ١٠٩]، [النحل: ٣٥-٣٦]، [الحج: ٤٢ - ٤٦].

خوطب فيها المكذبون خطابًا شديدًا فيه تهديد ووعيد بمصير مشؤوم ، كالذي طال المكذبين بالرسل من قبل، ولا يتسع المقام لذكرها جميعا، لذلك سأكتفي بعرض أنموذجين فقط.

الأنموذج الأول: نقرؤه في قول الله جلت قدرته: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٦].

فالمقطع تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما ناله من أذى المشركين، وحض له على الصبر على ما يلحقه منهم من السب والتكذيب، يقال له: «لست بأوحدي في التكذيب، فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم، وكفاك بهم أسوة »[(١)].

ثم ذكر ما أصاب أولئك المكذبين بعد الإملاء والاستدراج، فقد أحل الله تعالى بهم عقابه، فأبدلهم بالنعمة محنة، وبالحياة هلاكا، وبالعمارة خرابًا، وقد عرض المقطع مصارع الأقوام في مشهد شاخص مؤثر؛ قرًى مدمرةٌ خاويةٌ، وآبارٌ معطلةٌ مهجورةٌ، وقصورٌ مشيدةٌ خاليةٌ وموحشةٌ، وهي مشاهد تتحدث بالعبر وتنطق بالعظات، رآها وسمع عنها كفار قريش، ولكن لا عبرة ولا موعظة، ومن ثم يأتي السؤال في استنكار وتعجيب من عدم تأثير تلك المشاهد في نفوس أولئك المكذبين، ولكن إذا عرف

(١) الكشاف، الزمخشري،٤/ ٢٠٠.

السبب بطل العجب، فالقوم نزلوا إلى درك من البهيمية، فتعطلت آلات المعرفة لديهم، فلا القلوب تعي ولا الآذان تسمع، ولذلك يرون ولا يدركون، ويسمعون ولا يعتبرون.

الأنموذج الثاني: من خطاب المكذبين بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم يستوقفنا في سورة يوسف في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩].

فالآية الكريمة رد على اعتراض المشركين على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، واستغرابهم أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم بشرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤].

فبين الله جل ذكره أن إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام من البشر سنة إلهية قديمة، فهل كان الرسل السابقون أمثال: إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى عليهم السلام، ممن يقر المشركون بنبوتهم إلا بشرًا؟ فلماذا الاستغراب من بشرية خاتمهم صلى الله عليه وسلم؟

ثم توعدهم سبحانه وتعالى بالمصير المشئوم والعاقبة السيئة التي صار إليها الهالكون السابقون الذين اعترضوا على أنبيائهم، وقد رأوا بأعينهم آثارهم وبقايا ديارهم في رحلاتهم وأسفارهم، وهو المقصود بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

فقد ساروا ورأوا ولكنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا، إذ كان همهم الدنيا؛ بها شغفوا وعليها تهالكوا وفي ملذاتها انغمسوا، ونسوا حظهم من الآخرة، ولذلك جاءهم الوعيد في قوله جل ذكره: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وفيها أيضا وعدٌ للمؤمنين الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، وفي الالتفات إلى المشركين بالخطاب بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ زيادة توبيخ وتقريع، يقول: «أفلا يعقل هؤلاء المشركون بالله حقيقة ما نقول لهم، ونخبرهم به من سوء عاقبة الكفر، وغب ما يصير إليه حال أهله، مع ما قد عاينوا ورأوا وسمعوا مما حل بمن قبلهم من الأمم الكافرة المكذبة رسل ربها»[1].

ثانيًا: إنكار البعث: وقد ورد فيه ثلاثة نماذج هي:

الأنموذج الأول: في قول الله جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا

(١) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٨٢.

لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: ٦٧ - ٦٩].

قال ابن كثير: «يقول الله تعالى مخبرا عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاما ورفاتًا وترابا، ثم قال: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، وما نرى له حقيقة ولا وقوعًا. وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان، ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أخذه قوم عمن قبلهم، من قبلهم يتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيبا لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المكذبين بالرسل وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقم الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته»[1].

فإنكار هؤلاء المجرمين للبعث وصل حد التبجح، فما يخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم عن البعث والنشور - في اعتقادهم- حديث خرافة حكاه الأولون وسطروه وتلقفه من جاء بعدهم، ولم يقع منه شيء، ولما أمعن الذين كفروا في إنكارهم وعاندوا، أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحذرهم من عواقب إنكارهم؛ بأن يسيروا في الأرض ويعتبروا بمن كان قبلهم من المكذبين رسل الله، وكيف دمر الله عليهم، فخلت منهم الديار، وتعفت منهم الآثار، وتلك سنة الله في كل مجرم لايؤمن بالله واليوم الآخر.

الأنموذج الثاني: ورد في قول المولى تبارك وتعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٧ - ٩].

وقد سبق ذكر معاني التفكر في الخلق الواردة في هذه الآيات، فلا حاجة لتكراره، ويهمنا في هذا المقام الإشارة إلى أن المخاطبين بالسير في الأرض منكرون للبعث، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾، وقد أنكر الله جل وعلا عليهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٠٨.

غفلتهم، ووبخهم كما يتضح من الاستفهام الإنكاري الذي تكرر مرتين، ونعى عليهم تعاميهم عن أدلة قدرته على إعادة الخلق المبثوثة في آيات الآفاق والأنفس، أو سنته في أخذ الظالمين الذين رأوا آثارهم وديارهم، فلا هم تبصروا بالأولى، ولا هم اتعظوا بالثانية، فلم يعد ينتظرهم إلا المصير المشؤوم الذي طال أمما ظالمة قبلهم، كانت أقوى وأشد منهم، فما أغنى عنهم ذلك من الله شيئًا.

الأنموذج الثالث: ورد في قول الله جلت قدرته: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ١٨ - ٢١].

وليس المقصود بيان معاني هذا المقطع، وإنما سقته لبيان العلاقة بين الأمر بالسير وما سبقه من إنذار بيوم الأزفة، وتعني: يوم القيامة، وسميت بذلك لقربها وضيق وقتها[١].

فالآيات الثلاث الأولى تصوير لمشهد المكذبين يوم القيامة، وما يحيط بهم من كرب شديد حين تبلغ القلوب الحناجر، وقد يئسوا من شفيع يسعى لهم بعدم المؤاخذة بذنوبهم، ويئسوا أيضًا من استطاعة إخفاء شيء من نواياهم أو أدنى حركات أعمالهم على ربهم[٢]، يعرض عليهم هذا المشهد من يوم الحشر الذي يكذب به المشركون كأنه رأي العين.

ولما علم الله جل وعلا جحودهم وعنادهم، نقلهم من إنذارهم بعذاب الآخرة إلى موعظتهم وتحذيرهم من عذاب الدنيا كما حل بأمم أمثالهم، فخاطبهم في الآية الرابعة منكرًا وموبخًا: أولم يسر هؤلاء المقيمون على شركهم بالله، المكذبون رسوله من قريش، في البلاد، فيروا ما الذي كان خاتمة الأمم الذين كانوا من قبلهم، كانوا أشد منهم بطشًا، وأبقى في الأرض آثارًا، فلم تنفعهم شدة قواهم، وعظم أجسامهم، إذ جاءهم أمر الله، وأخذهم بما أجرموا من معاصيه واكتسبوا من الآثام، ولكنه أباد جمعهم، وصارت مساكنهم خاويةً منهم بما ظلموا، وما كان لهم من عذاب الله إذ جاءهم، من واقٍ يقيهم، فيدفعه عنهم[٣].

تلك أهم النماذج من آيات السير في

(١) انظر: المفردات، الراغب، ص ١٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١١٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٣٠٥.

القرآن الكريم التي خوطب بها المكذبون للنبي صلى الله عليه وسلم والمنكرون للبعث، حاولت أن أقف عند دلالاتها ومعانيها، وما تحمل من النذر لكل من يسلك هذا السبيل، فيحل عليه العذاب ، كما حل بالأمم التي كذبت رسلها، فجعلها الله عبرة لمن يعتبر.

موضوعات ذات صلة:

الأرض، البصر، التفكر، السعي، المشي

الشجر

عناصر الموضوع

مفهوم الشجر	١٢٠
الشجر في الاستعمال القرآني	١٢١
الألفاظ ذات الصلة	١٢٢
الشجر دليل الوحدانية والقدرة	١٢٤
منافع الشجر	١٢٩
الشجر والعبادة	١٣٨
الشجر والابتلاء	١٤١
الشجر في المثل القرآني	١٤٨
الشجر في الآخرة	١٥٣
لمسات إعجازية في الشجر	١٥٩

مفهوم الشجر

أولًا: المعنى اللغوي:

الشجر لغة: جمع شجرة، وهي في اللغة ما كان على ساق من نبات الأرض، قال ابن فارس: «الشين والجيم والراء أصلان متداخلان، يقرب بعضهما من بعض، ولا يخلو معناهما من تداخل الشيء بعضه في بعض، ومن علوٍ في شيءٍ وارتفاع؛ فالشجر معروفٌ، الواحدة شجرة، وهي لا تخلو من ارتفاعٍ وتداخل أغصان، ووادٍ شجر: كثير الشجر، ويقال: هذه الأرض أشجر من غيرها، أي: أكثر شجرًا. والشجر: كل نبتٍ له ساقٌ»[1].

وقيل أيضًا: «كل ما كان على ساق من نبات الأرض فهو شجر، أو كل ما تنبت الأرض فهو شجر، فعلى هذا الكلأ والعشب شجر، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾[الرحمن: ٦]: إن النجم ما ينجم من الأرض مما ليس له ساق، والشجر ما له ساق، كما هو المستفاد من العطف، نعم عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور، وما يشعره الشجر من الاختلاط حاصل في العشب والكلأ أيضا»[2].

ويطلق اسم الشجر على كل ما تنبته الأرض من المرعى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

أي: «ترعون مواشيكم السائمة في ذلك الشجر الذي هو المرعى، والعرب تقول: سامت المواشي، إذا رعت في المرعى الذي ينبته الله بالمطر، وأسامها صاحبها: أي رعاها فيه»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وأما تعريف الشجر في الاصطلاح فلا يخرج عن المعنى اللغوي في تعريفه.

ومما تقدم يمكن تعريف الشجر: بأنه كل ما ينبت على وجه الأرض من نبات له ساق صلب يقوم عليه، وتجنى ثماره، ويتصل بالأرض مع بروز ارتفاعه عنها وعلوه على غيره من النبات.

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٢٤٦.
(٢) الكليات، الكفوي، ص٥٢٣.
(٣) انظر: الأساليب والإطلاقات العربية، محمود المنياوي، ص٥٠.

الشجر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شجر) في الاستعمال القرآني(٢٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٢٦	﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]

وجاء الشجر في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو الشجر المعروف، وسمي بذلك لأنه لا يخلو من ارتفاعٍ وتداخل أغصان[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٧٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزرع:

الزرع لغةً:

من الفعل زرع، بمعنى: طرح البذر في الأرض، يقال: يزرعه زرعًا وزراعةً: بذره، والاسم الزرع، وجمعه زروع، والزرع: الإنبات، يقال: زرعه الله ، أي : أنبته[١].

الزرع اصطلاحًا:

نفس المعنى اللغوي؛ إذ الزرع في الاصطلاح يعني الإنبات، قال الراغب: «الزرع الإنبات، وحقيقة ذلك تكون بالأمور الإلهية دون البشرية، قال عز وجل ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤].

فنسب الحرث إليهم، ونفى عنهم الزرع، ونسبه إلى نفسه، وإذا نسب إلى العبد فلكونه فاعلا للأسباب التي هي سبب الزرع،كما تقول : أنبت كذا إذا كنت من أسباب نباته، والزرع في الأصل مصدر، وعبر به عن المزروع، ويقال: زرع الله ولدك، تشبيهًا، كما تقول: أنبته الله»[٢].

الصلة بين الزرع والشجر:

الزرع: ما ينبت على غير ساق، والشجر ما له ساق وأغصان، يبقى صيفا وشتاء[٣]، ويفرق أيضًا: بأن الزرع موسمي فله مواسم يزرع فيها، وأخرى يحصد فيها.

٢ النبات:

النبات لغة:

نبت: النون والباء والتاء أصل واحد يدل على نماءٍ في مزروع، يقال : نبت، وأنبتت الأرض، ونبت الشجر ، أي: غرسته، وكل ما أنبت الله في الأرض فهو نبتٌ والنبات فعله، ويجري مجرى اسمه، يقال: أنبت الله النبات إنباتًا ونحو ذلك[٤].

النبات اصطلاحًا:

«الحي النامي لا يملك فراق منشئه ويعيش بجذور ممتدة في الأرض أو في الماء وما

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٨٢٦
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٢.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٦٦.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٧٨، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٩٥.

أخرجته الأرض من شجر ونحوه، وأنبتت الأرض، أي : أخرجت النبات، والبقل نشأ وربا، ويقال: أنبت الله البقل، أخرجه من الأرض فهو منبوت، وأنبت الله الصبي نباتا حسنا»[1].

الصلة بين النبات والشجر:

النبات هو كل ما ينبت من الأرض بقدرة الله تعالى دون تدخل البشر، وبذلك يكون النبات أعم من الزرع والغرس والشجر، لأن ما بعد الإنبات يشترك العباد فيه بالغرس والسقي والحفظ وغيره.

النبات أعم من الشجر؛ إذ يشمل الزرع: وهو ما ينبت على غير ساق، والشجر ما له ساق وأغصان.

٣ الحرث:

الحرث لغةً:

مصدر حرث، بمعنى عمل في الأرض، وشقها، وأثارها، وأعدها للزراعة [2]، قال ابن منظور: «العمل في الأرض زرعًا كان أو غرسًا، وقد يكون الحرث نفس الزرع» [3].

الحرث اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي؛ إذ هو: «إلقاء البذر في الأرض، وتهيؤها للزرع، ويسمى المحروث حرثًا »[4].

الصلة بين الحرث والشجر:

من خلال ما سبق يتبين أن الحرث هو ما يقوم به الزارع في الأرض من عملٍ لإنبات النبات والحبوب والأشجار، ويطلق على ما يخرج من تلك الأرض التي حرثت، فالحرث عمل المزارع، أما الشجر فهو ما يحرثه المزارع من النبات مما له ساق وأغصان، والحرث بذلك أخص من الشجر؛ إذ الشجر يشمل الحرث، ويشمل غيره مما ينبته الله عز وجل.

والشجر أخص من وجه؛ إذ الحرث يشمل النبات والحبوب والأشجار.

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٩٢.
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦٤.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٨١٩.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١١٢.

الشجر دليل الوحدانية والقدرة

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تقرر وحدانية الله تعالى وتنزع عن المسلم كل الشبهات التي قد تطرأ على الأذهان ويثيرها بعض أعداء الإسلام بكل وسيلة لغرض تشكيك المسلم بعقيدته السليمة والتشويش عليه، وتثبت وجود الخالق الواحد الذي خلق الكون، ومن هذه الآيات آيات ذكر فيها الشجر ، وهي رد على كل من يدعي شريكًا للباري تعالى دون برهان أو دليل، وتثبت أيضًا قدرة الله تعالى على البعث والإعادة والنشور، وسيتبين ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: دليل الوحدانية:

من الآيات التي جاءت تقرر وحدانية الله تعالى في النفوس آيات الشجر ، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي: ما تقدرون أنتم أن تنبتوا شجرها، فمن هو دونكم أشد وأبعد، فكيف أشركتم في العبادة وتسمية الإلهية من هو دونكم في كل شيء؟!، وقوله تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي: لا إله مع الله[1].

والاستفهام في الآية الكريمة بمعنى الإنكار[2] أي: لا إله مع الله، وهذا يدل على عدم وجود المساواة بين الله تعالى وغيره في الإلوهية والوحدانية.

أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، أي: أإله مع الله يعبد، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضا أنه الخالق الرازق[3].

يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ١٢٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ٢٠/ ١٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٠٢.

الكريمة: «معناه : ما كنتم لتنبتوا، لأنه تعالى لم يحرم عليهم أن ينبتوا الشجر، إنما نفى عنهم أن يمكنهم إنباتها، فإنه تعالى هو القادر على إنبات الشجر»[1].

وإسناد الإنبات إليه سبحانه، لكيلا يظن أحد أن ذلك الإنبات من الأخذ بالأسباب والمسببات، وأنه فعل طبائع الأشياء، وبين الله تعالى أن ذلك الإنبات منه، وهو فوق الأسباب والمسببات، سبحانه بديع السماوات والأرض، والخالق لكل شيء[2].

وتأتي (كان) للمضي وللتوكيد ،وبمعنى القدرة ، كقوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾، أي ما قدرتم[3].

أما بالنسبة لإنبات الحدائق في الآية الكريمة ففيه إشارتان بيانيتان:

الأولى: أنه عبر بالإنبات للأشجار مع أنه في آيات أخريات كان يضيف الإنبات إلى الزرع ويعبر عن خلق الأشجار، بقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾[الأنعام: ٩٥].

وذكر الإنبات هنا بالنسبة للحدائق ذات الأشجار الوارفة الظلال؛ لبيان عظيم قدرته في أنه ينبت هذه الدوحات والأشجار العظام، ويتعهد من حال النبات، حتى يصير فيحاء ذات بهجة وزينة، ويسر الناظرين مرآها وثمرها اليانع، وقطوفها الدانية.

الثانية: هي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾، كان هنا: كان الناقصة، ونفيها معناها نفي الكينونة، أي: ليس في وجود ولا كيان، أن لكم، أي : في قدرتهم، أن تنبتوا شجرها، إنما ينبتها العزيز الرحيم، والخلاق العظيم[4].

وهذا يعني عجز الإنسان التام وعدم قدرته أن ينبت الأشجار مهما بلغ من العلم والمعرفة في فنون الزراعة وحرفتها، فعلى الرغم من قدرته على أن ينبت النبات بوضع البذر في الأرض مع العناية والمداراة إلا أن الإنبات لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى ؛ إذ هو القادر على ذلك.

وفي هذه الآية الكريمة أيضًا رد على شبهات بعض المشككين منها:

أولًا: في الرد على عبدة الأوثان، وأنه سبحانه وتعالى هو الخالق لأصول النعم وفروعها، فكيف تحسن عبادة ما لا منفعة منه البتة.

ثم إنه سبحانه وتعالى نبه على أن هذا الإنبات في الحدائق لا يقدر عليه إلا الله تعالى، لأن أحدنا لو قدر عليه لما احتاج إلى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة وإذا كان تعالى هو المختص بهذا الإنعام وجب أن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ١٧٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ١٠/ ٥٤٧١.
(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٤/ ٣١١.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٤٧١.

يخص بالعبادة[1].

وبالتأكيد أنه لا يخفى على عبدة الأوثان التي يصنعونها بأيدهم، أن هذه الأوثان عاجزة عن فعل أي شيء فكيف بإنبات الشجر.

ثانيًا: الرد على شبهة أن منبت الشجرة هو الإنسان.

«فإن الإنسان يقول: أنا الذي ألقي البذر في الأرض الحرة وأسقيها الماء وأسعى في تشميسها، وفاعل السبب فاعل للمسبب، فإذن أنا المنبت للشجرة، فلما كان هذا الاحتمال قائما، لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة إلى قوله: فأنبتنا، وقال: ما كان لكم أن تنبتوا شجرها؛ لأن الإنسان قد يأتي بالبذر والسقي والكرب والتشميس ثم لا يأتي على وفق مراده، والذي يقع على وفق مراده فإنه يكون جاهلا بطبعه ومقداره وكيفيته ، فكيف يكون فاعلا لها»[2].

وبهذا الكلام يتبين عجز الإنسان بل وانعدام قدرته على أن ينبت النبات مهما هيأ له من ظروف ملائمة من ماء وهواء وضوء وتربة صالحة للزراعة ، فيبقى الأمر متعلقًا بقدرة الله تعالى ، فهو القادر عليه وحده، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

ويتضح مما مضى أن الله تعالى هو المختص بالقدرة على خلق الأرض التي فيها هذا الشجر وغيره، واختصاص فعل الإنبات بذاته تعالى، فإنبات الشجر بأنواعه المختلفة والحدائق والبساتين المختلفة الأصناف والألوان، والثمار والروائح، كل ذلك لا يقدر عليه إلا قادر خالق ، وهو الله وحده، لذلك وجب أن يكون هو المختص بالإلوهية والوحدانية.

ثانيًا: دليل القدرة على البعث:

أنكر البعض البعث واستبعد إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم ، وهؤلاء عرض القرآن الكريم لأقوالهم ورد عليها بشكل قاطع يؤكد أن البعث والنشور من وقائع اليوم الآخر بكل يقين.

ولا شك أن التكذيب بالبعث كان من أكثر شبهات الكافرين وما زالت موجودة إلى وقتنا الحاضر حيث ما زال إلى الآن يوجد من لا يؤمنون ببعث أو نشور أو حساب، ولهذا فقد أطال القران الكريم في الرد على تلك الشبهات وإثبات مسألة البعث وترسيخها في النفوس بأساليب كثيرة ومتنوعة لإقامة الحجة على المخالفين، وفي هذا البحث لسنا بصدد بيان كل ما جاء به القرآن الكريم من دلائل تثبت وجود البعث

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٥٦٣.
(٢) المصدر السابق.

وترد على شبهات الكافرين، بل سنقتصر على بيان الدلائل المتعلقة بآيات الشجر التي ارتبط بعضها بقضية البعث والتي ساقها القرآن الكريم لبيان وحسم هذه القضية من الناحية العقلية.

وقد أعطى الله تعالى لنا شواهد ودلائل متنوعة وكثيرة في الدنيا تؤكد إمكان حصول البعث يوم القيامة ، ومن ذلك ما جاء متعلقًا بالنبات عامة من حيث إنباته وإحيائه وإظهاره للوجود، والشجر بصورة خاصة في آياته التي جاءت ترسخ مفهوم البعث في النفوس ، كما في الأدلة الآتية:

أولًا: إخراج النار المتوقدة من الشجر الأخضر.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠].

أي: «الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرًا نضرًا ذا ثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطبًا يابسًا، توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد ، لا يمنعه شيء»[(١)].

ولا شك أن إخراج النار من الشجر الأخضر فيه دليل على الإعادة والبعث.

قال الزركشي: «فعلم سبحانه كيفية الاستدلال برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلة الحدوث ، ثم زاد في الحجاج بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾، وهذا في غاية البيان في رد الشيء إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليهما»[(٢)].

فنبه سبحانه على وحدانيته ودلل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهد من إخراج النار من العود الندي الرطب.

ويتضح مما تقدم أن الشجر شاهدٌ من شواهد قدرة الله تعالى، وخلق النار وإيقادها من الشجر الأخضر فيه دليل واضح على البعث وقدرة الله تعالى على الإنشاء والإعادة، وأن القول بالبعث والمعاد وحصول الحشر والنشر غير مستبعد في العقول.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: ٧١-٧٢].

وجه الاستدلال: «أن النار صاعدة والشجرة هابطة، وأيضا النار لطيفة والشجرة كثيفة، وأيضا النار نورانية والشجرة ظلمانية، والنار حارة يابسة والشجرة باردة رطبة، فإذا أمسك الله تعالى في داخل تلك الشجرة الأجزاء النورانية النارية فقد جمع بقدرته بين هذه الأشياء المتنافرة، فإذا لم يعجز عن ذلك ، فكيف يعجز عن تركيب الحيوانات

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٩٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ٢/ ٢٧.

وتأليفها؟! والله تعالى ذكر هذه الدلالة في سورة يس فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠]»[(١)].

وقيل أيضًا: «ووجه دلالة النار على البعث أن النار تكمن في الشجر والحجر، ثم تظهر بالقدح، وتشب بالنفخ، فالحجر والشجر كالقبر، والقدح والنفخ كالنفخة في الصور»[(٢)].

ويبدو أن الكلام الأخير هو الأقرب في تشبيه خروج النار من الشجر الأخضر بالبعث والنشور، ويذكر الإمام الرازي في تفسيره لشجرة النار وجوهًا:

أحدها: أنها الشجرة التي توري النار منها بالزند، والزندة كالمرخ.

وثانيها: الشجرة التي تصلح لإيقاد النار كالحطب، فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار؛ لأن النار لا تتعلق بكل شيء كما تتعلق بالحطب.

وثالثها: أصول شعلها ووقود شجرتها ولولا كونها ذات شعل لما صلحت لإنضاج الأشياء والباقي ظاهر[(٣)].

وفي هذه الآية الكريمة تذكرة لنار القيامة فيجب على العاقل أن يخشى الله تعالى وعذابه إذا رأى النار الموقدة، وتذكرة بصحة البعث، لأن من قدر على إيداع النار في الشجر الأخضر لا يعجز عن إيداع الحرارة الغريزية في بدن الميت[(٤)].

ومما تقدم يتضح بيان قدرة الله تعالى على إيجاد المسببات من غير سبب ظاهر، كخلق النار من الشجر الأخضر الرطب، كما تقدم في الآيتين السابقتين، وإيجاد النار مختص بالله تعالى وحده، وتشبيه إيجاد النار المستخرجة بإيجاد الإنسان، كما خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وتشبيهها أيضا بالبعث والنشور، وكلها راجعة إلى قدرة الله تعالى وعظمته في إخراج الوجود من العدم، وقد ارتبطت الآيتان الكريمتان بدليل استخراج النار من الشجر الأخضر والاستدلال بها على البعث بعد الموت، فإن الله تعالى ألهم الناس استخراج النار من الشجر الأخضر على رغم التنافر بين خاصتيهما كما مضى سابقا.

ثانيًا: ومن أدلة البعث أيضا إحياء النبات.

وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث ورد في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

ومعنى الآية الكريمة: أي أفرأيتم البذر

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢/ ٣٥٥.
(٢) انظر: استخراج الجدال من القرآن الكريم، ابن الحنبلي، ١/ ٩٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٩/ ٤٢٣.
(٤) المصدر السابق.

الذي تجعلونه في الأرض بعد حرثها، أي : تحريكها وتسويتها أأنتم تزرعونه أي: تجعلونه زرعا، ثم تنمونه إلى أن يصير مدركا صالحا للأكل أم نحن الزارعون له، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره هو أن يقال: أنت يا ربنا الزارع المنبت، ونحن لا قدرة لنا على ذلك، فيقال لهم: كل عاقل يعلم أن من أنبت هذا السنبل من هذا البذر الذي تعفن في باطن الأرض قادر على أن يبعثكم بعد موتكم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

ومن خلال هاتين الآيتين يستدل أنه من قدر على إخراج النار من الشجر الأخضر، والشجرة الباسقة من بذرة صغيرة لا يعجزه عن جمع الأجزاء وتركيب الأعضاء بعد تفرقها وتفتتها، ولا أحد يقدر على فعل ذلك سوى الله تعالى عز وجل.

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/ ٥٣١.

منافع الشجر

خلق الله تعالى المخلوقات كلها لحكم ومنافع كثيرة ، ومنها الشجر ، فهو يكون غذاءً للإنسان والحيوان على السواء، أو دواءً ومن أغصانه نارًا وظلًا، ومن أخشابه سكنًا ومنافع كثيرة ، كالكتابة وغير ذلك، كما سيتبين من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الثمرة:

جاء في القرآن الكريم ذكر لعدد كبير من الأشجار وثمارها أمثال: «النخيل، والتين، والزيتون، والأعناب، والرطب، والرمان، والموز (الطلح)، والعدس، والبصل، والقثاء» وغيرها، بناءً على أن الشجر قد يطلق على ما له ساق وعلى ما ليس له ساق، كما مضى في التعريف اللغوي للشجر، وكلها لها منافع وفوائد ووظائف، حيث إن أبرز منافع الثمار كونها مصدرًا أساسيًا للغذاء ورزقًا مستمرًا يسد حاجات الإنسان والحيوان، وتعد بذلك قيمة غذائية أساسية من مقومات الحياة شأنها شأن الماء والهواء.

فالثمار لغة: جمع ثمر، والثمر: حمل الشجر، وثمر الشجر، وأثمر: صار فيه الثمر، والثامر: ما خرج ثمره، والمثمر: ما بلغ أن يجنى[2].

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٠٦، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٥٩.

واصطلاحًا: اسم لكل ما يستطعم من أحمال الشجر[1].

ولا فرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للثمار، والمعنى القريب لها هو كل ما خرج من الأشجار من أحمالها سواء أكان يؤكل أم لا يؤكل، وهي جزء منها، وديمومة بقائها، ويجمع على ثمار وأثمار وثمرات وثمر.

ويأتي لفظ الثمار في القرآن الكريم في آيات كثيرة ومتنوعة، في أربعة وعشرين موضعًا، ومعلوم أن هذه الثمار ترتبط مع الشجر؛ لأنها حملها وسبب بقائها، ومن هذه الآيات التي ورد ذكرها ما يأتي:

جاء ذكر الثمار بلفظ المفرد في آية واحدة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

وجاء ذكر الثمار بلفظ (ثمرات) غير المعرفة في أربعة مواضع منها ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ٦٧].

أي: وجعل لكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا[2].

وفي الآية دلالة على امتنان الله تعالى على عباده بثمار هاتين الشجرتين المباركتين التمر والزبيب كونهما رزقا حسنا.

وقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

قال الزمخشري: «النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في وادٍ يباب[3] ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوة إبراهيم، فجعله حرما آمنا ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بوادٍ غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد»[4].

وجاء ذكر الثمار بلفظ (الثمرات) معرفة في اثني عشر موضعا حسب ترتيب المصحف منها ما يأتي:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ

(١) الكليات، الكفوي ص٣٢٣.

(٢) تفسير يحيى بن سلام، ١/ ٧٢.

(٣) أي: خراب.
انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٤٥.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥٦٠.

فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦].

لقد ذكرت الثمرات في هذه الآيات معرفة، وإن كان في آيات أخرى قد جاء لفظ الثمرات غير معرف ، كما ذكرناها في سورة النحل والقصص وفاطر وفصلت، وكونها غير معرفة، لكونه يفيد التبعيض.

وجاء كذلك بلفظ الجمع بصيغة (ثمره) في أربعة مواضع منها ما يأتي:

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٤١].

ويتضح من الآيات السابقة أن لفظ الثمار جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة ومتنوعة ، وهي تدل على معنى واحد كونها تمثل أحمال الأشجار، وتعد الأشجار وثمارها أصل الحياة، فهي مستمرة ومتجددة، ومنافعها كثيرة ومتعددة ، فهي نعمة من الله تعالى على عباده حيث سخر كل الأشجار وثمارها لخدمة الإنسان من الغذاء والدواء وغيرها من المنافع، وزينة تتمتع بها الأبصار من حيث تنوع أشكالها وألوانها وروائحها في الدنيا والآخرة، إضافة إلى المنافع الأخرى التي سوف يأتي ذكرها لاحقًا، والثمار هي حصيلة الزرع، ولا يمكن أن يستمر الزرع في الحياة دون وجود الثمار، وتعد قيمة مادية ومعنوية لجهد الإنسان وعمله في الحياة، لذا ينبغي للمؤمن أن يراعي حق الله تعالى فيها بما أوجبه عليه من فرض الزكاة، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ويجدر بنا هنا أن نعطي مثالًا من القرآن الكريم في بيان منافع الشجر ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون:

٢٠].

فالشجرة المذكورة في الآية هي شجرة الزيتون بإجماع المفسرين[(١)].

ومعنى الآية الكريمة: وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التي تنبت في هذا الجبل بتلك البقعة المباركة، وتثمر زيتونًا تصنع منه الزيوت التي يدهن بها، وتتخذ إداما للآكلين[(٢)].

أي: «تنبت بنباتٍ وثمرٍ فيه الدهن، وهو الزيت، فجاء في هذه الآية إطلاق الدهن مرادًا به النبات والثمر الذي يوجد في داخله الدهن، وهذا من إطلاق الحال في الشيء وإرادة محله، إذ الذي ينبت هي الفروع والورق والثمرات التي يوجد فيها الدهن، وفائدة هذا المجاز الإيجاز، وتوجيه نظر المخاطبين لما في شجرة الزيتون من دهن عظيم النفع للناس، كي يولوا زيت الزيتون اهتمامًا خاصًا، ويشكروا نعمة الله عليهم به»[(٣)].

وقد أكدت السنة النبوية فوائد شجرة الزيتون بأحاديث كثيرة، منها ما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نعمة الزيتون حين قال عليه الصلاة والسلام: (كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة)[(٤)].

أي: إجعلوه إدامًا لخبزكم ولطعامكم، وادهنوا به أجسامكم.

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد علم ما بهذه الشجرة من فوائد جمة جعلت منها شجرة مباركة، لذلك أشاد بها وحث الناس عليها لما فيها من بركة في الغذاء والدواء.

وأما فوائد الزيتون من الناحية العلمية والطبية فسيأتي ذكرها لاحقًا إن شاء الله تعالى في المبحث الثامن في لمسات إعجازية في الشجر.

ثانيًا: إيقاد النار:

ذكرنا فيما مضى أن خلق النار وإيقادها من الشجر الأخضر فيه دليل الوحدانية والبعث، وفي هذا المطلب سنتطرق إلى ما يخص إحدى منافع الشجر كونه مصدرًا أساسيًا للحصول على النار التي لا تستغني

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢١، النكت والعيون، الماوردي، ٤/ ٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/ ١١٤، مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٤٦٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١٨، أوضح التفاسير، ١/ ٤١٣، أضواء البيان، ٥/ ٣٣٠.

(٢) تفسير المراغي، ١٨/ ١٥.

(٣) البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حبنكة، ٢/ ٢٧٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٠٥٥، ٢٥/ ٤٥١، والترمذي في سننه، أبواب الأطعمة، باب ما جاء في أكل الزيت، ٤/ ٢٨٥، رقم ١٨٥١.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٢٩، رقم ٤٤٩٨.

عنها البشرية إطلاقا، حيث ترتبط فائدتها في أغراض متعددة، منها الحصول على الطاقة، والدفء، والاستضاءة، والطهي، وما إلى ذلك، فكله يعتمد على النار التي مصدرها الشجر الأخضر.

وبذلك تعد نعمة وجود النار وإيقادها من الشجر من أبرز النعم التي من الله تعالى بها على عباده حين خلق لهم النار المتقدة من الشجر الأخضر الرطب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: ٨٠].

ومعنى ذلك أن القرآن الكريم قد ربط بين النار والشجر الأخضر وجعل منها إعجازًا علميًا قائمًا إلى يوم القيامة، ودعا البشرية إلى التفكر بخلق النار وإيقادها من الشجر الأخضر بقوله ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

يقول صاحب الظلال في تفسيره لهذه الآية: «والمشاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجيبة التي يمرون عليها غافلين، عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء، يحتك بعضه ببعض، فيولد نارا ثم يصير هو وقود النار بعد الاخضرار، والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها، ويحتفظ بها، وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة التي تولد النار عند الاحتكاك، كما تولد النار عند الاحتراق، هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزا في الحس ووضوحا، والخالق هو الذي أودع الشجر خصائصه هذه، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، غير أننا لا نرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحس الواعي، فلا تكشف لنا عن أسرارها المعجبة، ولا تدلنا على مبدع الوجود، ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها، ولعشنا معها في عبادة دائمة وتسبيح[1].

ويتضح مما مضى بيان عظمة الخالق في استخدام الشجر الأخضر للنار على الرغم من أن الشجر الأخضر يحوي على الماء الذي يطفئ النار، وهذا يعني أن الشجر بصفته نبات هو أصل النار والوقود، سواء أكان بصورة خشب أم زيت أم غاز إلى غير ذلك، وأن من أبرز منافع الشجر المتعددة الحصول على النار المتوقدة التي يستعملها الإنسان في الإنارة والطهي والتدفئة ونحو ذلك، فالنار عنصر أساسي في حياة الإنسان لا يستطيع الاستغناء عنها، فتشبه الماء والهواء من حيث حاجة الإنسان إليها.

ثالثًا: بناء السكن:

إن الشجر بصورة عامة له قيمة كبرى في حياة الإنسان منذ القدم وإلى وقتنا الحاضر،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٩٧٧.

فلم يستغن الإنسان عن الأشجار الكبيرة والصغيرة، وجذوعها وأخشابها في بناء المساكن على مر الزمان.

ونقتصر في هذا المطلب على ما جاء ذكره في القرآن الكريم حين ضرب الله تعالى لنا مثلًا في اتخاذ النحل من الشجر بيوتًا على سبيل الإلهام في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨].

ومعنى ذلك أن الله تعالى ألهم هذه المخلوقات القدرة العجيبة في دقة النظام والبناء ما يعجز عن فعله البشر، وفي ذلك حكم عظيمة في بيان ضعف الإنسان وعجزه أمام قدرة الله تعالى بإلهام تلك الحشرة الصغيرة التي ليس لها عقل بناء تلك البيوت المتناسقة والمتساوية الأضلاع دون كلل أو تعب خلافًا للإنسان.

قال الزمخشري: «الإيحاء إلى النحل: إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه»[(١)].

وقال ابن كثير: «المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها، بحيث لا يكون بينها خلل»[(٢)].

ثم فسر سبحانه ما أوحى به إليها بقوله: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، أي: اجعلي لك بيوتا فى الجبال تأوين إليها، أو في الشجر أو فيما يعرش الناس ويبنون من البيوت والسقف والكروم ونحوها[(٣)].

أي: تأخذ من فروع الأشجار بيوتا تصنع فيها ما يصنعه صاحب البيت فيه.

ويؤكد العلم الحديث أن بعض العلماء الذين كرسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات وقفوا على حقائق عجيبة وألفوا مئات الكتب التي أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل برية من النحل تسكن الجبال ، وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكنا بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار ، وتتخذ منها بيوتا تأوى إليها، ولما أراد الإنسان أن ينتفع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين أو الخشب يعيش فيها وهكذا تبين الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوى إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا[(٤)].

ويتضح مما مضى ومن خلال الآية

(١) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٨١.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ١٤/ ١٠٤.

(٤) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، ١/ ١٥١.

الكريمة فائدة الشجر من حيث اتخاذه سكنا للنحل بإلهام من الله تعالى، فلا يرى للنحل بيتًا في غير الجبال والأشجار ومما يعرش الناس لها ويبنون، واتخاذها لهذا السكن هو أمر من الله تعالى لها أن تسكن في هذه البيوت المتنوعة فكان انقيادها على وجه الخضوع والطاعة والامتثال.

رابعًا: الظل:

تحدث القرآن الكريم عن «الظل والظلال» في العديد من الآيات القرآنية في سور مختلفة بدلالات متنوعة جاءت بحسب موضوعاتها، ولسنا بصدد ذكر كل أنواع الظلال التي وردت في القرآن الكريم، بل سنحاول في هذا المحور أن نقتصر على توضيح منافع الشجر المرتبطة بالظل من خلال الآيات القرآنية المتعلقة بها.

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم منافع الشجر من حيث استعماله كظل يقي الناس من الحر في أحد عشر موضعًا تشمل الدنيا والآخرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧].

وفي قوله: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ قال الضحاك: يعني: ظلال أشجار الجنة[(١)].

ووصف بالظليل وصفا مشتقًا من اسم الموصوف للدلالة على بلوغه الغاية في جنسه[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَٰفِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٥٦].

أي: في ظلال الأشجار[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات: ٤١].

والمراد بالظلال: ظلال الشجر[(٤)].

وقيل: أي: تكاثف أشجار؛ إذ لا شمس يظل من حرها[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [النحل: ٨١].

أي: ومن نعمة الله عليكم أيها الناس أن جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالا تستظلون بها من شدة الحر، وهي جمع ظل[(٦)].

(١) تفسير السمرقندي، ١/ ٣١١.
(٢) التحرير والتنوير، ٥/ ٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٨٣.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٨٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٩/ ١٦٧.
(٥) انظر: تفسير الجلالين، ص٧٨٦.
(٦) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٦٩.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صير، بأن خلق لنا أشجارًا تظل الناس في الحرور، وفي الصحاري تجد الأشجار المظلة، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مِمَّا خَلَقَ﴾، ولم يذكر شيئا بعينه؛ لأن أنواع ما خلق وكان منه الظلال كثيرة، فالجنات تتفيأ ظلالها بالغدو والآصال ، والبيوت فيها ظلال، لمن يكون بجوارها، والغمام يكف وهج الشمس وحرارتها، وإن هذه الظلال نعمة من الله تعالى في أرض صحراوية جدباء لا ماء يرطب جوها، ولا نسيم عليل يطفئ حرها؛ ولذلك كانت من نعم الله التي أنعم بها على سكانها الذين آتاهم الله تعالى مع ذلك جلدًا وقوة احتمال، فكانت هذه نعمًا أنعم الله بها عليهم ليستطيعوا أن يعيشوا وأن ينعموا في خيراتها[1].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨].

والمعنى: «انظروا وفكروا فيما خلق من أشياء تتفيأ ظلاله، أي: لها فيء، ولهذا الفيء ظل، وتتداخل ظلاله، فالجبال لها فيء والأشجار لها فيء، وكل فيء له ظل، فتتفيؤ هذه الأفياء، ويكون ظلالًا، كما ترى الشجر المتداخل تتفيأ الظلال ذات اليمين وذات الشمال»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤].

فيتضح من الآيات السابقة أن الظل هو نعمة من نعم الله تعالى منحها للعباد راحة لهم في الدنيا ونعيم في الآخرة.

وقد صح من رواية الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه، يبلغ به أنه صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة شجرة، يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها، فاقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠][3].

ومعنى الحديث: قال ابن الجوزي رحمه الله: «يقال: إنها طوبى، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: وشاهد ذلك عند أحمد والطبراني وابن حبان، (يسير الراكب في ظلها) أي: في ناحيتها، وإلا فالظل في عرف أهل الدنيا ما يقي من حر الشمس وأذاها، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

وقد يقال: المراد بالظل هنا ما يقابل شعاع الشمس، ومنه ما بين ظهور الصبح إلى طلوع الشمس؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠] ويمكن أن يكون

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٢٣٦.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٤١٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ، رقم ٤٨٨١، ٦/ ١٤٦.

للشجرة من النور الباهر ما يكون لما تحته كالحجاب الساتر»[1].

إلى غير هذا من الأحاديث في هذا المعنى تبين فوائد الشجر من حيث الاستظلال به في الدنيا والآخرة.

خامسًا: الكتابة:

امتن الله تعالى على الإنسان حين علمه الكتابة وجعل من الشجر وسيلة من وسائل الكتابة حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

أي: لو أن سائر شجر الأرض؛ تحولت فروعه وأغصانه إلى أقلام يكتب بها، ﴿وَالْبَحْرُ﴾ الذي لا يحد حده، ولا يبلغ أمده، ﴿يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ تماثله في العمق والسعة والعظم وصارت مياه هذه البحار مجتمعة مدادًا تستمد منه هذه الأقلام وتكتب كلمات الله تعالى: لنفدت هذه الأبحر، ونضب ماؤها؛ و ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

وفي هذا يقول الإمام الرازي: «﴿مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾، وحد الشجرة، وجمع الأقلام، ولم يقل: ولو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام، ولا قال: ولو أن ما في الأرض من شجرة قلم إشارة إلى التكثير، يعني: ولو أن بعدد كل شجرة أقلاما[2].

وفضلا عما تقدم فدلالة الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر الشجر في هذا الموضع بوصفه الأقلام التي وظيفتها الكتابة، ومداده الماء هو تشبيه مجازي لكلمات الله تعالى التي لا تنفد.

وأما معنى الأقلام: فالقلم الذي يكتب به، والجمع أقلام وقلام[3]، وعادة ما يكون القلم مصنوع من خشب الأشجار وكذلك الألواح.

والألواح: جمع لوح كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب؛ قال الأزهري: اللوح صفيحة من صفائح الخشب[4].

وقد ذكر الله تعالى لفظ الألواح في القرآن الكريم على اختلاف مدلولاتها في مواضع من سورة الأعراف منها:

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

(١) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري، ٩/ ٣٥٧٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٢٨.

(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٩٠.

(٤) المصدر السابق، ٢/ ٥٨٤.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

٤- وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١٣].

والغرض من ذكر هذه الآيات الكريمة هو ارتباطها بمنافع الشجر الذي تعمل منه الأقلام والألواح التي لا يستغنى عنها في الكتابة وكذلك صناعة السفن ، فتعد بذلك نعمة من نعم الله تعالى التي امتن بها على عباده.

الشجر والعبادة

ذكر القرآن الكريم الشجر بأنه خلق من مخلوقات الله تعالى تعبده وتعظمه على وجه الانقياد والخضوع والطاعة، وتتمثل هذه العبادة بالسجود والتسبيح كبقية المخلوقات وهذا ما سوف نبينه من خلال النقاط الآتية:

أولًا: السجود والانقياد:

السجود: يطلق على وضع الوجه على الأرض بقصد التعظيم، ويطلق على الوقوع على الأرض مجازًا مرسلًا بعلاقة الإطلاق، أو استعارة ، ومنه قولهم: «نخلة ساجدة» إذا أمالها حملها، وسجود الشجر تطأطؤه بهبوب الرياح ودنو أغصانه للجانين لثماره والخابطين لورقه[1].

وقد ذكر سجود الشجر لله تعالى والانقياد له في موضعين في القرآن الكريم هما:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

فيخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده

(١) انظر: التحرير والتنوير، ٢٧/ ٢٣٦.

لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعا وكرهًا، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨].

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل[(١)].

قال ابن عاشور رحمه الله: «فالسجود له معنى حقيقي ، وهو وضع الجبهة على الأرض ومعنى مجازي ، وهو التعظيم، وقد استعمل فعل يسجد هنا في معنييه المذكورين لا محالة»[(٢)].

ويأتي السجود والانقياد أيضًا في الآية الكريمة بمعنى الخضوع والخشوع ، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

٢- قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن: ٦].

وسجودهما يحتمل وجوهًا:

أحدها: سجود خلقة؛ قد جعل الله تعالى في خلقة كل شيء دلالة السجود له والشهادة له بالوحدانية.

والثاني: سجود هذه الأشياء الموات: طاعتها له عن اضطرار وتسخير؛ نحو قوله تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والثالث: سجود حقيقة، يجعل الله في سرية هذه الأشياء معنى يسجدون به لله تعالى يعلمه هو، ولا يعلمه غيره؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال بعض الناس: سجودهما: هو تمييل ظلالهما؛ كقوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾[(٣)].

وفسر أكثر المفسرين[(٤)] كلمة النجم بمعنى النبات المجرد عن الساق، ومنهم من فسر النجم بالكواكب لا سيما مع تأكيد الإيهام بذكر الشمس والقمر، وأما الشجر ما كان له ساق وسجودهما هو طاعتهم المطلقة وخضوعهم وانقيادهم لله عز وجل، وسيرهم مع القوانين الكونية التي خلقها الله تعالى وعدم الخروج عنها على وجه الطاعة والتعظيم والانقياد لأمر الله تعالى.

وسواء أكان النجم نجم السماء أم كان نوعًا من النبات، فسجوده ليس كسجود الإنسان بوضع الرأس على التراب، بل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٤٠٣.

(٢) التحرير والتنوير، ١/ ٩٩.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٩/ ٤٦٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ١١، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٩/ ٤٦٣، النكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٤٢٤، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٢٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٨٩.

بمعنى التسليم والخضوع لله تعالى، وكل الكائنات خاضعة لله تعالى بالسجود له، ولكن كل بحسبه ولغته، لا ندرك كيفيتها، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥].

بل نؤمن بها كما جاء بها القرآن الكريم.

ثانيًا: التسبيح:

التسبيح في اللغة: هو التنزيه، تقول: سبحت الله تسبيحًا ، أي : نزهته تنزيها، وقيل: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف[1]، ولا يخرج معناه الاصطلاحي عن هذه المعاني.

ولا تقتصر عبادة التسبيح على الإنسان بل شملت جميع الموجودات ومنها الشجر، وذلك في عدد من الآيات، منها:

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغتكم، وهذا عام في النبات والجماد والحيوانات[2].

والمراد أنها تسبح له بلسان الحال، حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تنطلق بذلك، وكأنها تنزه الله عز وجل مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها[3].

وعن عكرمة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: الشجرة تسبح[4]، وقال قتادة رحمه الله: كل شيء فيه الروح يسبح، من شجر أو شيء فيه الروح[5].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

ودلالة الآية القرآنية واضحة في تقرير حقيقة التسبيح، وأن كل شيء في الوجود يسبح لله تعالى على وجه التقديس والتعظيم، وكل يسبح بطريقته ولغته التي لا يفهمها البشر ، بل نؤمن بها كما جاءت بالقرآن الكريم.

والملاحظ عدم تخصيص الشجر في هذه الآيات الكريمة إلا أنها تدخل في عموم المخلوقات والموجودات التي تسبح الله تعالى.

(١) انظر: لسان العرب، ٢/ ٤٧٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٧٩.
(٣) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦٧٠.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٥٥.
(٥) المصدر السابق، ١٧/ ٤٥٦.

الشجر والابتلاء

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم بعض الآيات جاء فيها لفظ الشجر مقرونًا بأحداث كبيرة ومتنوعة ارتبطت بالابتلاء، منها قصة آدم عليه السلام مع الشجرة التي نهي أن يقرب منها ، فأكل منها فصارت عليه محنة وابتلاءً، وقصة صاحب الجنتين، وأصحاب الجنة، وهذا ما سوف نبينه في النقاط الآتية:

أولًا :قصة آدم:

وهي أول قصة ابتلاء ارتبطت مع الشجر لأول إنسان خلقه الله تعالى ، ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: ١٩-٢٢].

وملخص قصة آدم عليه السلام التي يرويها أكثر المفسرين تتمثل في أن الله تعالى أمر آدم عليه السلام وزوجته حواء أن يسكنا الجنة ويأكلا من ثمارها، ويبتعدا عن شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأتى الشيطان إلى أدم عليه السلام وحواء، فقال لهما: هل أدلكما على شجرة إن أكلتما منها خلدتما فلم تموتا، وملكتما ملكًا لا ينقضي فيبلى، فحلف لهما على أنه ناصح لهما فيما ادعاه من الكذب.

فأكل آدم عليه السلام وحواء من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس، وخالفا أمر ربهما ، فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما، فأقبلا يشدان عليهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما، وناداهما ربهما قال لهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين، قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا ذنوبنا وترحمنا وتتجاوز عنا لنكونن من الخاسرين في العقوبة.

فتاب الله عليهما، وأوحى إليهما: أن اهبطوا من الجنة آدم وحواء وإبليس، بعضكم لبعض عدو، يكون إبليس لهما عدوًا، وهما لإبليس أعداء ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين إلى منتهى آجالكم وإبليس إلى النفخة الأولى، قال الله فيها تحيون، يعني : في الأرض، وفيها تموتون عند منتهى آجالكم ، ومنها تخرجون يوم القيامة[1].

والمتأمل في قصة آدم عليه السلام من

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢/ ٣٢، جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٨٨، أضواء البيان، ٤/ ١١٠.

خلال هذه الآيات القرآنية يجد ذكر الشجرة التي أخرجت آدم عليه السلام وزوجه من الجنة على وجه الابتلاء بعدم القرب والأكل منها.

فقوله تعالى المتكرر في سورة البقرة والأعراف: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، أي: اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم[1].

قال قتادة رحمه الله: «ابتلى الله آدم كما ابتلى، الملائكة قبله وكل شيء خلق مبتلى ولم يدع الله شيئا من خلقه إلا ابتلاه بالطاعة، فما زال البلاء بآدم حتى وقع فيما نهي عنه»[2].

يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «يعني به: ولا تأكلا من الشجرة؛ لأن قربانها إنما هو لقصد الأكل منها، فالنهي عن القربان أبلغ من النهي عن الأكل؛ لأن القرب من الشيء ينشىء داعية وميلا إليه»[3].

ويأتي في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: (من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه)[4].

ولم يعرض القرآن الكريم ماهية تلك الشجرة ونوعها التي أكل منها آدم عليه السلام وزوجه، ومع ذلك فقد اختلف أهل التفسير فيها على أقوال، فقد ورد عن علي وابن مسعود وسعيد بن جبير والسدي أنها الكرمة، وعن ابن عباس والحسن وجمهور المفسرين أنها الحنطة، وعن قتادة وابن جريج ونسبه ابن جريج إلى جمع من الصحابة أنها شجرة التين، ووقع في سفر التكوين من التوراة إبهامها وعبر عنها بشجرة معرفة الخير والشر.

وفي هذا يقول الإمام الطبري رحمه الله: «والصواب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم إذا علم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به»[5].

وعلى أية حال فمهما تعددت الأقوال في بيان نوع الشجرة وتعيينها تبقى مبهمة؛ لأن الله تعالى لم يذكر عنها شيئًا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة، فلا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٣٤.
(٢) الدر المنثور، السيوطي، ١/ ١٣٠.
(٣) التحرير والتنوير، ١/ ٤٣٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات، ٣/ ٥٣، رقم ٢٠٥١.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥٢١.

يوجد دليل على تحديد نوعها، ولا يترتب على تحديدها شيء؛ لذلك نؤمن بأنها شجرة من أشجار الجنة كان لها دور كبير في تغيير مسار حياة البشرية كافة حيث ابتلى الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام بها حين نهي عن القرب منها ، فدنا منها فصارت عليه ابتلاء ومحنة، فأخرج من تلك الجنة والنعيم لتكون تلك الشجرة سببًا لبداية حياة البشرية على وجه الأرض.

ثانيًا: قصة صاحب الجنتين:

ارتبط مفهوم الشجر مع قصة صاحب الجنتين من حيث كون الشجر أصبح ابتلاء وفتنة بعدما كان نعمة من الله تعالى على صاحبه، حيث إن صاحب الجنتين لم يشكر هذه النعمة ولم ينسبها إلى المنعم، وتمادى في غيه وظلمه، وتجرأ على الكفر بإنكاره البعث والساعة؛ لأنه يعيش في النعم الدنيوية ، ويريدها أن تدوم بصورة أبدية، كما جاءت القصة في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي: بين حالًا تكون فيها العبرة، وهي حال رجلين مختلفين طاعة وعصيانا، ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾، أي: جعل الله لأحدهما جنتين من كروم، وأحاطهما بنخل ، كفعل كبار الملاك الذين يجعلون مزارعهم ذات جنات وعيون ونخل يحوطها كأنه سور يطوف بها، فتكون مثمرة، ويكون سورها مثمرا لا يكون حديدًا ولا خشبًا، ولا بناءً ، بل يكون نخلًا حيًا مثمرًا يؤتي جناه، وجعلنا بينهما زرعًا، ينتج بقولًا وقمحًا، فحيثما نظرت إلى الجنتين وجدت طعامًا طيبًا، فاكهةً وتمرًا وغيرهما مما هو غذاء ومتعة.

و﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾، أي: ثمرها كاملًا موفورًا وبانتظام لم تتخلف سنة عن أخرى، بل آتت به رتيبا تباعا، ولم تظلم منه شيئا، أي: لم تنقص منه شيئا، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾، أي: شققنا خلالهما نهرًا يجري والماء موفور، لا تصاب الزروع بحرمان منه، ولا الأرض بجفاف، بل كل شيء ممهد[1].

وقوله: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به: المال، روي عن ابن عباس، ومجاهد،

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٢٨.

وقتادة، وقيل: الثمار، وهو أظهر هاهنا[1].

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: دخل الجنة في هذه الحال التي استولت عليه حال الغرور، وحال التعالي الكاذب وعدم المبالاة إلا بالساعة التي هو فيها، واندفع بها إلى الشرك، وهو بذلك الغرور والكبر وغمط الناس ظالم لنفسه، فظلمه لنفسه بهذا الذي هو محيط به، وقد أداه إلى الشرك كما ذكرنا ، وذلك ظلم عظيم، وقد أداه ذلك إلى أن يقول: ﴿مَّآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، فهو حكم بالحاضر على المستقبل، وذلك شأن المادي الذي يأسر الحاضر تفكيره، حتى لا يفكر إلا في محيطه، وقد أكد بقاءها بالنفي بـ (ما)، وبـ (أبدا)، وكأنه يحكم على الله، ويتحكم في المقادير وما هو بشيء، ثم يتطاول فينكر البعث، ويفتات في تقديره، فيقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦].

وينفي إيمانه بالساعة ويقول مستهينا غير عابئ كأن الأمر لا يوجب اهتمامه : ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، ويفرض أنه إذا جاءت الساعة ، فإنه سينال مثل ما ينال في الدنيا وأكثر منه، فيقول مغترًا: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ مرجعًا انقلب إليه، بدلا مما كنت فيه، وهو في هذا يقسم مطمئنًا، وهو بهذا يقيس الحال المقبلة على الحال الحاضرة، وكأن جنات الدنيا ممتدة إلى الآخرة ، بل تزيد عليها، وأن هذا أقصى درجات الغرور، فهو يفتات على ربه أو يقسم عليه، وليس من المقربين إليه الذين عادوا بما آتاهم من خير على المحتاجين من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل[2].

والمتأمل في قراءة هذه القصة يجد عدم ذكر لفظ الشجر في هذه الآيات الكريمة إلا أنها تدخل في عموم الجنتين التي جاء ذكرها في القصة، ويجد من خلال هذه الآيات القرآنية كيف يفعل الغرور والتكبر بصاحبه حينما يتمكن منه.

ويتضح مما تقدم علاقة الشجر بقصة صاحب الجنتين في كونه ابتلاء ومحنة للذي أوتي الجنتين والذي جحد وعصى وتمرد فكفر بنعمة الله تعالى وأنكرها ، فكان جزاءه أن الله تعالى قطع عنه تلك النعم، وصب عليه أنواع العذاب والحرمان.

ثالثًا: قصة أصحاب الجنة:

ذكر الله تعالى قصة أصحاب الجنة في سورة القلم حيث ضرب للمشركين مثلًا بحال أصحاب الجنة، كما ضرب مثل قريب منه في قصة صاحب الجنتين ، كما مضى ذكرها في المطلب السابق، فكلتاهما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٥٧.

(٢) زهرة التفاسير، ٩/ ٤٥٢٩-٤٥٣٠.

امتحان للمبتلى واختبار شكره لتلك النعم أو كفره بها، فالمثل يضرب لمن كفر بنعمة الله تعالى على سبيل العظة والاعتبار.

وأما أصحاب الجنة فهم الذين ابتلاهم الله بأن أنعم عليهم بجنة، وهي بستان فيها زروع وثمار وأشجار، ثم جحدوا وكفروا بتلك النعمة حين قرروا منع حق الفقير والمسكين من تلك الثمار، ولذلك أنزل الله تعالى على تلك الجنة صاعقة فأحرقتها، وتأتي القصة بسياقها من خلال الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [القلم: ١٧-٣٢].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمدًا صلى الله عليه وسلم إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: اختبرناهم، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه»[(١)].

وقال ابن عاشور: «فالبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير، فإن الله أمد أهل مكة بنعمة الأمن ونعمة الرزق وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلما أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم، فدعاهم وذكرهم بنعم الله، أعرضوا وطغوا ولم يتوجهوا إلى النظر في النعم السالفة ولا في النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم، ووجه المشابهة بين حالهم وحال أصحاب الجنة المذكورة هنا هو الإعراض عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته، وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النعيم والقحط بعد الخصب»[(٢)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلًا؛ لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: فيما حلفوا به»[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٩٦.
(٢) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٧٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٩٦.

ومعنى لا يستثنون: «أنهم لا يستثنون من الثمرة شيئًا للمساكين، أي : أقسموا ليصرمن جميع الثمر ولا يتركون منه شيئا، وهذا التعميم مستفاد مما في الصرم من معنى الخزن والانتفاع بالثمرة ، وإلا فإن الصرم لا ينافي إعطاء شيء من المجذوذ لمن يريدون»[1].

ولهذا حنثهم الله في أيمانهم، فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي: أصابتها آفة سماوية[2].

قال ابن عاشور: «ولم يعين جنس الطائف لظهور أنه من جنس ما يصيب الجنات من الهلاك، ولا يتعلق غرض بتعيين نوعه؛ لأن العبرة في الحاصل به»[3].

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، أي : كالليل الأسود، ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضًا ليذهبوا إلى الجذاذ، ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي: تريدون الصرام، ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحدًا كلامهم، أي: يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم، قال الله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي: قوة وشدة، ﴿قَادِرِينَ﴾ أي: عليها فيما يزعمون ويرومون، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله عز وجل قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة، لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطئوا الطريق؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها، ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: بل هذه هي، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب[4].

قال ابن عاشور: «﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ إضراب للانتقال إلى ما هو أهم بالنظر لحال تبييتهم إذ بيتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم ، فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم، ويحتمل: أن يكون الضلال حقيقيًا، أي : ضلال طريق الجنة، أي : قالوا: إنا أخطأنا الطريق في السير إلى جنتنا ؛ لأنهم توهموا أنهم شاهدوا جنة أخرى غير جنتهم التي عهدوها، قالوا ذلك تحيرًا في أمرهم»[5].

ويتبين من كلام المفسرين اعلاه ، ملخص قصة أصحاب الجنة ، وهي أن الله تعالى قد ابتلى أصحاب الجنة في يوم

(١) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٩٦.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٨١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٩٦.
(٥) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٨٦.

الحصاد، أي : في يوم جمع الثمار، حيث اتفقوا على أن يجمعوا ثمار هذه الجنة أو البستان في الصباح الباكر، ولا يتركوا من ثمارها شيئًا إلا جمعوه ، فأرسل الله تعالى عليها أثناء الليل وهم نائمون طائفًا من عنده فأحرقها، فأصبحت أشجارها وثمارها محترقة وهم لا يشعرون، فقاموا من نومهم متجهين ليباشروا حصاد تلك الثمار ، وهم يتحدثون بصوت خافت حتى لا ينتبه إليهم أحد، لأنهم قرروا أن يمنعوا حق الفقراء والمساكين في تلك الثمار، ونسوا أن الزكاة والصدقة تنمي المال وتمنعه من الزوال وتضع فيه البركة، ومع ذلك اعتقدوا أنهم ضلوا الطريق، فذهبوا إلى مكان آخر لكنهم فوجئوا بأنها هي الجنة نفسها فكان جزاؤهم أن حرموا من تلك النعم كلها نتيجة ظلمهم وأكلهم حق المساكين.

ويتضح مما مضى أن قصة أصحاب الجنة المذكورة في القرآن الكريم وارتباطها مع الشجر على سبيل الابتلاء والمحنة، حيث أعطت هذه القصة دروسًا في أخذ العبرة من أصحاب تلك الجنة التي حفت بالأشجار والثمار المتنوعة إلا أنهم جحدوا نعمة الله تعالى عليهم، بحرمانهم حق المساكين، مع نسيانهم أن الله تعالى هو المعطي ، وهو القادر على أن يسلب منهم كل النعم، فكان عقابهم الحرمان والهلاك والعذاب، وفي القصة تحذير عن فعلهم وعدم الاستهانة بنعم الله تعالى والحفاظ عليها وعدم التفريط بها، وذلك بالشكر والثناء على الله تعالى مع المسارعة إلى التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى.

الشجر في المثل القرآني

ذكر لنا القرآن الكريم أمثلة كثيرة في مواطن شتى لتوضيح معانٍ كثيرة من إنفاقٍ في سبيل الله وإيمانٍ به تعالى وغيرها، وتقريب هذه المعاني إلى النفوس كي يزداد المؤمن يقينا بها، ومن هذه الأمثلة ما كان المثل فيها هو الشجر، وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: الحث على الإنفاق في سبيل الله:

ضرب الله تعالى مثلًا للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال سعيد بن جبير: في طاعة الله، وقال مكحول: يعني به: الإنفاق في الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك، وعن عكرمة عن ابن عباس: الجهاد والحج، يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾، وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل، لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة»[(١)].

قال ابن عاشور: «مثل ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تشبيه حال جزائهم وبركتهم، والصلة مؤذنة بأن المراد خصوص حال إنفاقهم بتقدير مثل نفقة الدين، وقد شبه حال إعطاء النفقة ومصادفتها موقعها وما أعطي من الثواب لهم بحال حبة أنبتت سبع سنابل، أي: زرعت في أرض نقية وتراب طيب وأصابها الغيث فأنبتت سبع سنابل»[(٢)].

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف)[(٣)].

ومعنى الحديث أن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

«وقد ذكر الزمخشري وغيره: أن التشبيه ليس بين الذين ينفقون والحبة، بل بين

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٩١.
(٢) التحرير والتنوير، ٣/ ٤١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، ٢/ ٨٠٧، رقم ١١٥١.

الصدقة نفسها والحبة؛ فالكلام فيه مضاف محذوف مقدر في القول، وتقديره: مثل صدقة الذين ينفقون في سبيل الله، فقد شبه سبحانه الصدقة التي تنفق في سبيل الله بحبة تلقى في الأرض، فتخرج عودًا مستويًا قائمًا تتعلق به سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، أي: أنه يتولد عن هذه الحبة التي باركها خالق الحب والنوى سبعمائة حبة، وإسناد الإنبات إليها من حيث اتصاله بها، وأن تلك الحبات هي نماء متولد عنها، وفي الحقيقة إن المنبت هو الله سبحانه وتعالى»[1].

وتعطي الآية المتقدمة دروسًا في الإنفاق في سبيل الله وعدم البخل في المال، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويرتبط مفهوم الشجر بالإنفاق في سبيل الله من حيث كون السنابل نباتًا، وهي مثل ضربه الله تعالى لبيان هذا الإنفاق.

ومن الجدير بالذكر أن لفظ السنبلة ذكر في القرآن الكريم في مواضع منها:

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: ٤٣].

ثانيًا: الإيمان والهدى:

ضرب الله تعالى الشجرة المباركة مثالًا على نور إيمان المؤمن وهداه في قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

قال الواحدي: «بنوره وهداه يهتدي من في السماوات والأرض، ثم ضرب مثلا لذلك النور الذي يقذفه في قلب المؤمن حتى يهتدي به فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي الكوة غير النافذة، والمراد بها هاهنا الذي وسط القنديل، وقوله: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ يعني: السراج، ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ لأن النور في الزجاج وضوء النار أبين منه في كل شيء، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ﴾ لبياضه وصفائه، ﴿دُرِّىٌّ﴾ منسوب إلى أنه كالدر، ﴿يُوقَدُ﴾ أي: الزجاجة، والمعنى للمصباح، ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: من زيت شجرة، ﴿مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ ليست مما

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٣١٠، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ٩٧١.

يطلع عليها الشمس في وقت شروقها فقط، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أو عند الغروب ، والمعنى: ليس يسترها عن الشمس في وقت من النهار شيء فهو أنضر لها وأجود لزيتها ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ لصفائه دون السراج وهو قوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني: نور السراج ونور الزيت ، ثم قال عز من قائل: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾»[1].

فبعد بيان تفسير هذه الآية الكريمة يمكن بيان مفهوم الشجرة المباركة التي ذكرت في الآية الكريمة، وبعد أن شبه الله تعالى الزجاجة وفيها المصباح، بالكوكب الدري المتلألىء، عاد سبحانه وتعالى إلى المصباح، فأخبر أنه: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾، فما المراد من هذه الشجرة؟

اختلف في هذا على ستة أقوال:

الأول: أنها ليست من شجر الشرق دون الغرب، ولا من شجر الغرب دون الشرق؛ لأن الذي يختص بإحدى الجهتين كان أدنى زيتًا، وأضعف ضوءًا ولكنها ما بين الشرق والغرب، كالشام؛ لاجتماع الأمرين فيه؛ وهو قول مالك.

وفي رواية ابن وهب عنه قال: هو الشام، الشرق من هاهنا والغرب من هاهنا، ورأيته لابن شجرة أحد حذاق المفسرين.

الثاني: أنها ليست بشرقية تستر عن الشمس عند الغروب، ولا بغربية تستر عن الشمس وقت الطلوع؛ بل هي بارزة؛ وذلك أحسن لزيتها أيضا؛ قاله قتادة.

الثالث: أنها وسط الشجر، لا تنالها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت، وذلك أجود لزيتها: قاله عطية.

الرابع: أنها ليس في شجر الشرق ولا في شجر الغرب مثلها، قاله يحيى بن سلام.

الخامس: أنها من شجر الجنة لا من الدنيا، قاله الحسن.

السادس: أنها مؤمنة، ليست بنصرانية تصلي إلى الشرق، ولا يهودية تصلي إلى الغرب، وهو قول ابن عمر[2].

وعلى أية حال فأن جميع هذه الأقوال حسنة غير مردودة إلا أن أغلب المفسرين ذكروا أن هذه الشجرة هي هي شجرة الزيتون المباركة ضرب الله تعالى بها مثلا لنوره جل وعلا، ونور إيمان قلب المؤمن وهداه.

وأما وصفها مباركة:

وقيل : إنما وصفت بالبركة لأنها تثبت في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين، وقيل : بارك فيها سبعون نبيا منهم إبراهيم عليه السلام، زيتونة بدل من شجرة، وقال أبو علي: عطف بيان عليها ، وهو مبني على مذهب الكوفيين من تجويزهم عطف البيان في النكرات، وأما البصريون

(١) الوجيز، الواحدي، ص٧٦٤.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، ٣/ ٤٠٤.

فلا يجوزونه إلا في المعارف، وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة ثم الإبدال عنها أو بيانها تفخيم لشأنها[1].

وأما علاقة الشجر بهذه الآية الكريمة، كونه مثالًا للهدى والإيمان.

يقول أبو بكر ابن العربي: «فضرب مثلًا للهدى النور، وللقلب المشكاة، وللإيمان المصباح، وللصدر الزجاجة، ولصفاء الصدر وانشراحه الكوكب المضيء، وللاستضاءة سداد المعارف وصلاح الأعمال، وللإيقاد من الزيت الاستمداد من بحر المعارف، وللشجرة انقسام القلوب، والمعارف من أصل العلم الأول، على أغصان إلى أوراق إلى ثمار على اختلاف أنواع الشجر وصفات الأغصان واختلاف حال الثمار في الهيئات والطعوم، وإمكان الجني وتعذره، وحلوه ومره، إلى غير ذلك من معانٍ لا تبلغها القدرة البشرية، ولا تنتهي إليها العلوم الجزئية»[2].

ويتضح مما تقدم ارتباط شجرة الزيتون المباركة بضرب الأمثال في القرآن الكريم، وهي مثل للمؤمن في نور الإيمان والهدى في قلبه.

ثالثًا: كلمات الله تعالى:

ضرب الله تعالى مثلا في الشجر بوصفه أقلاما تكتب بها كلمات الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

قال ابن كثير: «ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلامًا، وجعل البحر مدادًا ومده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددا»[3].

قال الحسن البصري: «لو جعل شجر الأرض أقلامًا، وجعل البحر مدادًا، وقال الله: «إن من أمري كذا، ومن أمري كذا لنفد ما في البحور، وتكسرت الأقلام»[4].

وقد روي أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود، قال ابن إسحاق: حدثني ابن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة: يا محمد، أرأيت قولك: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا، فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء؟ فقال رسول

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٩/ ٣٦٠.
(٢) انظر: قانون التأويل، ابن العربي، ١/ ٤٧٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٤٨.
(٤) المصدر السابق.

الله صلى الله عليه وسلم: (إنها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم)، وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [لقمان: ٢٧][(١)].

قال الزركشي: «قال المفسرون: والغرض من ذلك الإعلام بكثرة كلماته وهي في نفسها غير متناهية وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى ، لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، وقال بعض المحققين: إن ما تضمنت الآية أن كلمات الله تعالى لم تكن لتنفد ، ولم تقتض الآية أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور ، وكما قال الخضر عليه السلام: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من ماء البحر حين غمس منقاره فيها»[(٢)].

قيل لابن عرفة: إن قلت: ما فائدة قوله: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾، ولو حذف لكان أبلغ، لأنه إذا كان جميع ما في الأرض من شجر، وحجر ومدر وعظام أقلامًا، وكتب بها كلمات الله تعالى فلم تنفد بنفود الأقلام، فأحرى أن لا تنفد حالة كتبها بالأقلام المصنوعة من الشجر فقط، والجواب: بأنه لو لم يقل ، من شجرة ، لزم منه المحال ؛ لأن الأرض فيها الجوهر والعرض فيلزم صيرورة العرض كلاما وهو محال، وكان يلزم عليه المحال، وهو نفود كلمات الله تعالى؛ لأن المحال قد يستلزم محالا، ورده ابن عرفة في مختصره المنطقي: بأنه لو استلزم المحال محالًا لما صدقت قضية تقدمها كاذب، مع أنه قد تصدق وقد تكذب، فإن قلت: هلا قال: ولو أن ما في الأرض من شجر أقلام، فالجواب: أن الشجر أقرب إلى الأقلام من الحجر[(٣)].

قال الرازي: فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾[الكهف: ١٠٩].

ولم يقل من شجر؟ قلنا: لأنه أراد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة إلا وقد بريت أقلامًا[(٤)].

ويتضح مما مضى ارتباط مفهوم الشجر بكلمات الله تعالى بوصفه أقلامًا يكتب بها كلمات الله تعالى الباقية التي لا تنفد، مع فرض شجر الأرض أقلامًا، والبحر ممدودًا بسبعة أبحر مدادًا، لا يقع نفاد الكلمات، وهذه صورة مقربة للأذهان بما يتناهى من الشجر والأقلام مع كلمات الله تعالى غير المتناهية، فلو جعلت الأشجار التي في الأرض أقلامًا لكتابة كلمات الله، وجعل مدادها البحر المتصل بمدار سبعة أبحر أخرى، فإن تلك الأقلام ومعها المداد تنفد

(١) المصدر السابق.
(٢) البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٥٤.
(٣) انظر: تفسير ابن عرفة، ٣/ ٢٧٦.
(٤) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي، ١/ ٤٠٥.

دون أن تنفد كلمات الله.

قال الزمخشري: «وجاء التعبير بالشجرة على الإفراد دون الجمع لإرادة تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلامًا»[1].

الشجر في الآخرة

أولًا: شجر نعيم:

لا شك أن في الجنة أشجارًا وثمارًا كثيرةً ومتنوعةً لا حصر لها، أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين حيث وصفها الله تعالى في القرآن الكريم بأنها نعيم دائم لأصحاب الجنة، كما جاء في الآيات القرآنية نذكر بعضًا منها كما يأتي:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [المرسلات: ٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾﴾ [النبأ: ٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٣].

وقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ [ص: ٥١].

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨].

وقد وردت في القرآن الكريم أسماء لبعض أشجار الجنة وأكدت ذلك السنة النبوية.

(١) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٠١.

ومنها ما يأتي:

١ . شجرة طوبى.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٩].

قال الزمخشري: «ومعنى (طوبى لك) أصبت خيرا وطيبا، ومحلها النصب أو الرفع، كقولك : طيبا لك، وطيب لك، وسلاما لك، وسلام لك»[(١)].

قال ابن عاشور: «وطوبى: مصدر من طاب طيبًا إذا حسن، وهي بوزن البشرى والزلفى، قلبت ياؤها واوا لمناسبة الضمة، أي : لهم الخير الكامل ؛ لأنهم اطمأنت قلوبهم بالذكر، فهم في طيب حال: في الدنيا بالاطمئنان، وفي الآخرة بالنعيم الدائم، وهو حسن المئاب ، وهو مرجعهم في آخر أمرهم»[(٢)].

وذكر الإمام الرازي في تفسير كلمة طوبى ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنها اسم شجرة في الجنة، فعن عتبة بن عبد السلمي، يقول: (جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن الحوض، وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة؟ قال: (نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى)، فذكر شيئا لا أدري ما هو؟ قال: أي شجر أرضنا تشبه؟ قال: (ليست تشبه شيئا من شجر أرضك)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أتيت الشام؟) فقال: لا، قال: (تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة، تنبت على ساق واحد، وينفرش أعلاها)، قال: ما عظم أصلها؟ قال: (لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك، ما أحطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرما)[(٣)].

وحكى أبو بكر الأصم رحمه الله: أن أصل هذه الشجرة في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي دار كل مؤمن منها غصن.

القول الثاني: وهو قول أهل اللغة أن طوبى مصدر من طاب، كبشرى وزلفى، ومعنى طوبى لك، أصبت طيبا، ثم اختلفوا على وجوه: قال ابن عباس رضي الله عنه: فرح وقرة عين لهم، وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقيل: غبطة لهم ،عن الضحاك. وقيل: حسنى لهم ، عن قتادة، وقيل: خير وكرامة ، عن أبي بكر الأصم، وقيل: العيش الطيب لهم ، عن الزجاج.

واعلم أن المعاني متقاربة والتفاوت يقرب من أن يكون في اللفظ، والحاصل أنه مبالغة في نيل الطيبات ويدخل فيه جميع اللذات، وتفسيره أن أطيب الأشياء في كل الأمور حاصل لهم.

(١) المصدر السابق ٢/ ٥٢٨.
(٢) التحرير والتنوير، ١٢/ ١٨٢.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٦٤٢، ٢٩/ ١٩١.

القول الثالث: إن هذه اللفظة ليست عربية، ثم اختلفوا : فقال بعضهم: طوبى اسم الجنة بالحبشية، وقيل: اسم الجنة بالهندية، وقيل: البستان بالهندية، وهذا القول ضعيف؛ لأنه ليس في القرآن إلا العربي لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر[(١)].

وعلى كلام الزمخشري تكون هذه الكلمة السامية تحية من الله تعالى لعباده المؤمنين، وتكون هذه التحية مقررة لهم بأن لهم السلام والاطمئنان، والطيب في إقامتهم في الجنة، بدليل ما جاء معطوفًا عليها، وهو قوله تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي: مآبٍ، ومرجع ونهاية ، هي حسنة في ذاتها، ليجتمع لها طيب الإقامة، وحسن الثواب، بل كلاهما من الثواب[(٢)].

ولا مانع من أن يكون لكلمة طوبى معنيان، الأول ما ذكره الزمخشري، والثاني ما جاء في السنة النبوية من أن طوبى شجرة في الجنة حسب ما جاء به حديث عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه كما مر ذكره.

٢. سدرة المنتهى.

جاء ذكرها في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣-١٥].

قال الإمام الطبري: والسدرة: شجرة النبق، وقيل لها سدرة : المنتهى في قول بعض أهل العلم من أهل التأويل، لأنه إليها ينتهي علم كل عالم[(٣)].

والمنتهى هي آخر شيء ومكانها عند جنة المأوى، حيث ينتهي إليها ما يصعد به من الأرض وما يهبط به من فوقها، وجاء في حديث المعراج المشهور لما عرج به جبريل إلى السماء ودخل السماء السابعة قال: «ثم رفعت إلي سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى»[(٤)].

وأما سبب تسميتها سدرة المنتهى كما جاء في حديث ابن مسعود، قال: (لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها)[(٥)].

جاء عن ابن عباس في تسمية سدرة المنتهى: «لأن علم الملائكة ينتهي إليها ،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩/ ٤١.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، ٨/ ٣٩٤٧.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٥١٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ٥/ ٥٢، رقم ٣٨٨٧.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، ١/ ١٥٧، رقم ١٧٣.

ولم يجاوزها أحد إلا رسول صلى الله عليه وسلم»[1].

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى بما ورد عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها كأنه قلال هجر، وورقها كأنه آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار نهران باطنان، ونهران ظاهران، فسألت جبريل، فقال: أما الباطنان: ففي الجنة، وأما الظاهران: النيل والفرات)[2].

٣. الظل الممدود.

قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٠].

وظل ممدود: لا يتقلص، بل منبسط لا ينسخه شيء، قال مجاهد: «هذا الظل من سدرها وطلحها»[3].

وذكر بعضهم في تفسير الظل الممدود على أنه شجرة في الجنة ، واعتمدوا في ذلك على ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، يبلغ به عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة شجرة، يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها، فاقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠][4].

وجاء عن ابن عباس في قوله ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ قال: «شجرة في الجنة على ساق يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون في أصلها ، فيشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله عز وجل ريحًا من الجنة ، فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا»[5].

ويتضح مما تقدم أن في الجنة أشجارًا كثيرة ومتنوعة أعدت للمؤمنين، ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم بأسمائها ، وأكدتها السنة النبوية بأحاديث كثيرة بينت صفاتها وأنواعها وثمارها.

ثانيًا: شجر عذاب:

كما أن لأهل الجنة شجر نعيمٍ، فإن لأهل النار أيضًا شجر عذابٍ، حيث ورد ذكر شجر العذاب كالشجرة الملعونة أو شجرة الزقوم في مواضع متفرقة في القرآن الكريم من خلال الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ٢/ ٢١٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١٠٩، رقم ٣٢٠٧.
(٣) البحر المحيط، ١٠/ ٨٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾، رقم ٤٨٨١، ٦/ ١٤٦.
(٥) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٢٣٧.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤﴾ [الواقعة: ٥١-٥٤].

وقال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٦٦﴾ [الصافات: ٦٢-٦٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد أن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم التي جعلت طعامًا للظالمين ، كما وصفها الله تعالى.

ويرى جمهور المفسرين[(١)] أن الشجرة الملعونة التي جاء ذكرها في سورة الإسراء والصافات والواقعة والدخان هي شجرة الزقوم نفسها.

قال ابن كثير: «وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله بقوله: هاتوا لنا تمرًا وزبدًا، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تزقموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا»[(٢)].

وذكر في الشجرة الملعونة أقوال:

منها: أنها شجرة الزقوم طعام الأثيم، وقال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك وسعيد بن جبير وطاووس وابن زيد: وكانت فتنتهم بها قول أبي جهل وأشياعه: النار تأكل الشجر فكيف تنبتها.

ومنها: هي الكشوث[(٣)] التي تلتوي على الشجر، قاله ابن عباس[(٤)].

فأما قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾، وقوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ [الغاشية: ٦].

وقولهم: كيف يكون في النار نبت وشجر، فإنه لا تعلق لهم فيه، إن كان كنى بذلك الضريع وشجرة الزقوم عن جوعهم، وأنهم لا يشبعون وعن شيء مشبهٍ لشجرةٍ تشبه رؤوس الشياطين في قبح منظرها، فليس هناك نبت ولا شجر، وإنما ذلك أمثال وتشبيه، وإذا كان أراد تعالى تحقيق

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٨٤، الوجيز، الواحدي، ١/ ٦٣٩، معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٤١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٢٨٢، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٢٦٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٩٢.

(٣) نبات مجتث مقطوع الأصل، وقيل: لا أصل له، وهو أصفر يتعلق بأطراف الشوك وأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. انظر: لسان العرب، ٢/ ١٨١.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٢٥٣.

نبتٍ وشجرٍ يخرج من النار، فإن ذلك غير مستحيل[1].

وأما قولهم ، إنه لا معنى لتمثيل طلع الشجرة برؤوس الشياطين ، من وجهين:

أحدهما: أن الشجرة لا طلع لها وإنما يكون الطلع دون الشجر.

والوجه الآخر: أننا لا نعرف رؤوس الشياطين، وليس هو ما تعرفه العرب، فيمثل لها به بعض الأشياء، فإنه باطل لأنه إنما أراد بقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا﴾ ثمرها لطلوعه كل سنةٍ ، ومنه سمي طلع النخل طلعًا عند أول خروجه، مأخوذٌ ذلك من طلوعه، فإذا تغيرت حاله وانتقل إلى حكم آخر سمي باسم آخر من بلحٍ وبسرٍ ورطب، فطلعها المراد به ثمرها الطالع، وأما الشياطين التي مثلها برؤوسها فإنها حياتٌ خفيفاتٌ الأجسام قبيحات المناظر والرؤوس[2].

قال الرازي: فإن قيل: كيف قال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾، وليس في القرآن لعن شجرة ما؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن.

الثاني: أن معناه : الملعون آكلوها ، وهم الكفرة.

الثالث: أن الملعونة بمعنى المذمومة ، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهي مذمومة في القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤﴾، وبقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

الرابع: أن العرب تقول لكل طعام مكروه أو ضار : ملعون، وفي القرآن الإخبار عن ضررها وكراهتها.

الخامس: أن اللعن في اللغة هو الطرد والإبعاد، فالملعون هو المطرود عن رحمة الله تعالى، المبعد عنها، وهذه الشجرة مطرودة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة؛ لأنها في قعر جهنم، وهذا الإبعاد والطرد مذكور في القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾، وقال ابن الأنباري: سميت ملعونة لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل[3].

وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم)[4].

وجاء في الحديث عنه رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ

(١) انظر: الانتصار للقرآن، القاضي أبو بكر الباقلاني، ٢/ ٥٩٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٥٩٩- ٦٠٠.

(٣) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ١/ ٢٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، ٨/ ١٢٥، رقم ٦٦١٣.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟)[1].

ويتضح مما مضى ارتباط الشجر بصنوف العذاب، وإذا كانت الأشجار ترتبط بالخير والبركة والرزق، فشجرة الزقوم ارتبطت بالشر والفتنة والكفر والعذاب الشديد، وعرفت بأنها الشجرة الملعونة الموجودة في جهنم، أعدها الله تعالى طعامًا للكافرين والظالمين في جهنم.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٥٨٥، ١/ ٣٣٨، والترمذي في سننه، أبواب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، ٤/ ٢٨٨، رقم ٢٥٨٥.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٣١، رقم ٥٢٥٠.

لمسات إعجازية في الشجر

قدم القرآن الكريم لنا وجوهًا كثيرة ومتنوعة الأساليب في الشجر من حيث الإعجاز البياني القائم على الفصاحة والبلاغة وبداعة النظم، والإعجاز العلمي الذي يرتبط مع العلم الحديث والتكنولوجيا وتطور منظومة الأبحاث العلمية وعلاقتها مع القرآن الكريم، وكذلك الإعجاز الطبي الذي يتعلق بصحة الإنسان وغذائه ودوائه وارتباطه مع بعض الأشجار والثمار التي ذكرها القرآن الكريم.

ومن هذه الآيات ما يأتي:

١. الإعجاز القرآني في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨].

وتبين هذه الآية الكريمة قدرة الله تعالى في مخلوقاته حين ألهم النحل إلهامًا غريزيًا أن تتخذ من الجبال والأشجار بيوتًا تأوي إليها، وهذه الحشرات منقادة لله تعالى وطائعة له.

ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها اتخاذ بيوتها مسدسة؛ فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل، وجاءت

بينهما فرج إلا الشكل المسدس فإنه إذا جمع إلى أمثاله (التسديس)، يحمي بعضها بعضًا عند الاتصال[1].

والأعجب من ذلك كله أن الإنسان لا يستطيع أن يبني بيتًا مثل بيوت النحل دون الاستعانة بعلوم الهندسة المعمارية والحسابات الرياضية، وبكل الأدوات والمعدات الحديثة، ومع ذلك فهو عاجز أن يبني بيتًا يشبه بيوت النحل من حيث النظام والدقة والانسجام وانعدام الخلل.

وجعلت كل بيت على قدرها، فإذا تشكل عند حركة النحلة بقدرة الله وعلمه، وملأته عسلا انتقلت إلى غيره بتسخير الله وتقديره وتذليله، إن تركت عسلت، وإن حملت اتبعت، وهي ذات جناح، ولكن القابض الباسط هو الذي سخرها ودبرها[2].

وتأتي اللمسة البيانية الأخرى في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

حيث يتساءل الإمام الرازي بقوله: فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾، ولم يقل: في الجبال، وفي الشجر، والاستعمال إنما هو بفي، يقال: اتخذ فلان بيتا في الجبل، أو في الصحراء ونحو ذلك؟

قلنا: «قال الزمخشري: إنما أتى بلفظة (من) لأنه أراد معنى البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل، وكل الشجر، ولا في كل مكان من الجبل والشجر، وأنا أقول: إنه إنما ذكره بلفظة (من) لأنه أراد كون البيت بعض الجبل وبعض الشجر، كما يشاهد ويرى من بناء بيوت النحل، لأنه متخذ من طين أو عيدان في الجبل والشجر، كما تتخذ الطيور، فلو أتى بلفظة (في) لم تدل على هذا المعنى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء: ١٤٩]»[3].

فيتبين مما تقدم حكمة الله تعالى في إلهام النحل اتخاذ مساكنها في الجبال والشجر.

٢. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

والإعجاز البياني في هذه الآية التي ارتبطت مع مفهوم الشجر من حيث كون عصا سليمان عليه السلام كانت من خشب الشجر، فلم يقل الله تعالى في الآية الكريمة (عصاه) بل عبر عنها بقوله تعالى: (منسأته)، والمنسأة: هي العصى، و(نسأ) في اللغة لها دلالتان:

(١) أحكام القرآن، ابن العربي، ٣/ ١٣٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ١/ ٢٥٨.

الأولى: (نسأ) البعير إذا جره وساقه، والمنسأة: هي عصى عظيمة تزجر بها الإبل لتسوقها.

والثانية: (نسأ) بمعنى أخر الشيء (النسيء).

فلماذا استعمل كلمة (منسأة) ولم يستعمل كلمة (عصى)؟

قيل: إن (المنسأة) لها معنيان هما: سوق الإبل والتأخير؛ وفي قصة سليمان عليه السلام كانت العصى تسوق الجن إلى العمل مع أن عليه السلام كان ميتًا إلى أن سقطت العصى وسقط سليمان عليه السلام ، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

فكما أن الراعي يسوق الإبل لتسير، فهذه المنسأة كانت تسوق الجن، والمنسأة كأنها مدة حكم سليمان عليه السلام ، فهي أخرت حكمه إلى أن سقط، فاستعمالها في قصة سليمان عليه السلام أفاد المعنيين واستعمالها من الجهتين اللغويتين في غاية البيان من جهة السوق ومن جهة التأخير.

أما في قصة موسى عليه السلام فاستعمل كلمة العصى في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٨].

ليهش بها على غنمه وبها رحمة بالحيوان فهي عكس الأولى، ولا يناسب استخدام كلمة منسأة[1].

وبهذا الكلام يتضح الفرق بين العصا والمنسأة واستعمالهما في القرآن الكريم، ومع كونهما عصى مصنوعة من خشب الأشجار إلا أنهما اختلفا في الاستعمال القرآني من حيث اللغة والبيان ، كما مضى ذكره.

٣. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨].

واللمسة البيانية في هذه الآية الكريمة:

ما ذكره الدكتور فاضل السامرائي بقوله: «ونلاحظ في القرآن أنه تعالى عندما يستعمل (من) يعطف عليها ما لا يعقل كما في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

أما عندما يستعمل (ما) فإنه يعطف عليها ما يعقل ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ وهو خط بياني لم

(١) انظر: لمسات بيانية، فاضل السامرائي، ١/ ٧٢٤.

يتخلف في القرآن أبدًا والحكمة البيانية منه الجمع[1].

٤. قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠].

والإعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة هو إخراج النار المتوقدة من الشجر الأخضر، التي فيها أيضًا دلالة على البعث والنشور.

والنظرة العلمية أن وراء هذه الآية حقائق علمية رائعة تدل على إعجاز القرآن العلمي في تقريره أن الشجر الأخضر هو مادة الوقود، أي: مادة الطاقة التي هي عصب الحياة الصناعية في عالمنا المعاصر، فقد دلت الأبحاث الجيولوجية على أن الفحم الحجري والبترول والغازات القابلة للاشتعال تستخرج كلها من باطن الأرض، وذلك لأن النباتات والأشجار والغابات التي نمت فوق سطح الأرض في قديم الأزمان الجيولوجية أتت عليها ظروف متعاقبة من اضطرابات وانكسارات وتقلبات في القشرة الأرضية جعلت تلك الغابات والأشجار تنطمر في باطن الأرض، وتتعرض بعد ذلك لضغوط قوية ولحرارة شديدة ، فتحولت من أشجار خضراء إلى فحم حجري وبترول وغازات ، وهي من مواد الطاقة التي تستخدم نارها وحرارتها في الطهي والإنارة والتدفئة وإدارة المصانع ، فسبحان الله القادر الذى هيأ لحياة الإنسان على سطح الأرض مواد نافعة من باطنها بعد أن تحولت من شجر أخضر إلى فحم أسود وبترول وغازات[2].

ويذكر الدكتور عبد الدائم الكحيل في موسوعته العلمية الإعجاز العلمي الحديث لهذه الآية الكريمة، فيقول: «وأن الذي هيأ الظروف للأشجار والنباتات بعدما فنيت واندثرت وغاصت في التراب وتفتت ،ولم يبق منها شيء يذكر، وأن الذي تركها لتتخمر وتتحول إلى نفط وغاز وفحم حجري، وهذه الأشياء نستطيع اليوم أن نستفيد منها في وقود التدفئة والصناعة والنقل، إن الذي خلق هذه الظروف والقوانين التي تضمن إعادة الحياة للشجر على شكل وقود قادر على أن يخلق ظروفًا جديدة تعيد الحياة للبشر بعد موتهم وقد فنوا.

وفي الوقت الحاضر توصل العلماء إلى اكتشاف جديد يؤكد وجود علاقة قوية بين تشكل العظام والشجر بطريقة لا تخطر على بال أحد من البشر، حيث توصل علماء إيطاليون من مركز أبحاث جامعة فلورنسا إلى اكتشاف طريقة لصناعة العظام من خشب بعض الأشجار ، وهذا ما يوفر مادة

(١) المصدر السابق، ١/ ٨٨٩.

(٢) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، ١/ ١٥٥.

جديدة لصناعة بدائل العظام المهشمة بسبب الحوادث أو السرطان.

ويعتمد الاكتشاف العلمي الجديد على تحويل الخشب إلى مادة صلبة قوية التحمل تحاكي إلى حد ما خواص العظام البشرية، وتقول الباحثة «أنا تامبيري» رئيسة مجموعة البحث: إن تصنيع العظم يتم بتسخين الخشب عدة مرات ومعالجته بضغط عالٍ مع تغيير التركيب الكيماوي له بإضافة الكالسيوم والفوسفات إليه ليصبح مادة قوية وشديدة التحمل يمكن لحمها بالعظام الحقيقية ، ثم يتم العمل على جعل بنيتها الداخلية مماثلة لعظام الإنسان، وإن تصنيع عظام من الشجر أمر حديث لم يكن لأحد علم به زمن نزول القرآن، وبما أن القرآن قد استخدم مثال الشجر في موضع إحياء العظام وهي رميم، فهذه إشارة خفية لوجود علاقة بين العظم والشجر، ولكن العظم الذي صنعه الله تعالى يتميز بنفخ الروح فيه على عكس العظم الذي صنعه البشر حيث لا روح فيه، وأن الله تعالى يستخدم الحقائق العلمية لإثبات صدق كتابه وصدق وعده، فهذا الذي أنكر إعادة خلق العظام، يحتاج لدليل علمي ليقتنع بأنه من الممكن تصنيع عظام من مادة الشجر على يد البشر، ومن البديهي أن الله أقدر وأعظم من عباده، فهو قادر على إعادة تصنيع أو خلق هذه العظام من جديد.

والأمر الآخر أن الله تبارك وتعالى أشار إلى أمر مهم ، وهو وجود طاقة في الشجر، هذه الطاقة على شكل نار أودعها الله في الأشجار، بقيت لآلاف السنين ، وبسبب العوامل الطبيعية تحولت هذه الأشجار لفحم حجري وغاز طبيعي وبترول، وهذه المكتشفات الجديدة أشار إليها القرآن إشارة خفية بكلمة: ﴿نَارًا﴾، لأننا لا نستفيد من هذه الثروات الطبيعية كالنفط والغاز إلا بعد حرقه وتحوله إلى نار، وبالتالي توليد الطاقة الميكانيكية والكهربائية من هذه النار، ولو قال تعالى: إن الشجر سيتحول إلى بترول، لم يفهم أحد خطاب القرآن، ولكن الله تعالى وضع كلمة ﴿نَارًا﴾ لتكون مناسبة لكل العصور ومهما تطور العلم ، فسبحان الله.

٥. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

الإعجاز البياني واللغوي في هذه الآية الكريمة استعمال الشجرة لدلالة على الكتابة بوصفها أقلاما، وهناك بعض الالتفاتات التي أشار إليها الإمام الرازي، والإمام السيوطي في هذه الآية الكريمة.

يقول الإمام الرازي: «فإن قيل: قوله

تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [لقمان: ٢٧] يطابقه وما في الأبحر من ماء مداد فكيف عدل عنه؟ قلنا: استغنى عن ذكر المداد بقوله تعالى: ﴿يَمُدُّهُ﴾ لأنه من قولك : مد الدواة وأمدها، فجعل البحر المحيط بمنزلة الدواة، والأبحر السبعة المملوءة مدادًا أبدًا صبًا لا ينقطع، فصار نظير ما ذكرتم ، ونظيره قول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ الآية، فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ ولم يقل : من شجر؟ قلنا: لأنه أراد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة إلا وقد بريت أقلامًا، فإن قيل: الكلمات جمع قلة والمقصود التعظيم والتفخيم، فكان جمع الكثرة وهو الكلم أشد مناسبة؟ قلنا: جمع القلة أبلغ فيما ذكرتم من المقصود، لأن جمع القلة إذا لم يغن بتلك الأقلام ، وذلك والمداد فكيف يغنى جمع الكثرة»[1].

ويشير الإمام السيوطي إلى هذه الآية الكريمة بقوله: «لم قال : من شجرة ، ولم يقل : من شجر ، باسم الجنس الذي يقتضي العموم؟ فالجواب: أنه أراد تفصيل الشجر إلى شجرة شجرة حتى لا يبقى منها واحدة، فإن قلت: لم قال: ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ ولم يقل : كلم الله، بجمع الكثرة؟ فالجواب: أن هذا أبلغ، لأنه إذا لم تنفد الكلمات مع أنها جمع قلةٍ فكيف ينفد الجمع الكثير»[2].

ويتضح من كلام الإماميين الجليلين الإعجاز اللغوي والبياني لهذه الآية الكريمة التي وصفت الشجر وصفًا دقيقًا كونه أقلامًا، حيث جاء الآية بلفظ شجرة حتى لا يبقى منها واحدة على وجه الأرض إلا بريت أقلامًا.

٦. قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

واللمسة البيانية في هذه الآية الفرق بين كلمتي (سنبلات) و(سنابل) في القرآن الكريم وكلاهما جمع؟ فالجواب: استخدمت كلمة سنابل جمع كثرة في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

والحديث في السورة عن مضاعفة ثواب المنفق في سبيل الله لذا ناسب السياق أن يؤتى بجمع الكثرة (سنابل)، أما كلمة

(١) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ١/ ٤٠٥-٤٠٦.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ٢/ ٤٠٣.

(سنبلات) كما وردت في سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: ٤٣].

فهي تدل على جمع قلة، والسياق في سورة يوسف في المنام وما رآه الملك فناسب أن يؤتى بجمع القلة (سنبلات)[١].

٧. قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠].

والإعجاز العلمي والطبي في هذه الآية يبين أن شجرة الزيتون من الأشجار الخشبية التي تعمر طويلًا لمدد تزيد على مئات السنين وتثمر أثمارًا مستمرة بغير جهد من الإنسان، كما تتميز بأنها دائمة الخضرة جميلة المنظر، وتفيد الأبحاث العلمية أن الزيتون يعد مادة غذائية جيدة، ففيه نسبة كبيرة من البروتين، كما يتميز بوجود الأملاح الكلسية والحديدية والفوسفاتية ، وهي مواد هامة وأساسية في غذاء الإنسان، وعلاوة على ذلك فإن الزيتون يحتوي على فيتامينات، ويستخرج من ثماره زيت الزيتون الذي يحتوي على نسبة عالية من الدهون السائلة التي تفيد الجهاز الهضمي عامة والكبد خاصة، ويفضل زيت الزيتون كافة أنواع الدهون الأخرى نباتية أو حيوانية ؛ لأنه لا يسبب أمراضا للدورة الدموية أو الشرايين كغيره من الدهون، كما أنه ملطف للجلد إذ يجعله ناعما مرنا، ولزيت الزيتون استعمالات أخرى كثيرة في الصناعة إذ يحضر منه بعض الصناعات ، ويدخل في تركيب أفضل أنواع الصابون، وتكمن أهمية الزيتون من ناحيتيه الغذائية والدوائية أن الله سبحانه يقسم به في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ١-٣]. للتنويه بشأن الزيتون وبركته وعظيم منفعته[٢].

ويتضح مما مضى علاقة الشجر وثماره في الإعجاز القرآني بكل أنواعه وما ذكرناه ما هو إلا شيء قليل ولا يتسع المقام لذكر الأمثلة العديدة في هذا المبحث وذلك خشية الإطالة، إلا أن الباحث في هذا الشأن يجد ثراء المكتبات بالكتب التي تناولت مسألة الإعجاز في القرآن الكريم، فضلًا عما هو موجود حاليًا من بحوث ودراسات حديثة تؤكد علاقة الأشجار وثمارها وارتباطها بحياة الإنسان وصحته وغذائه ودوائه من خلال ما جاء في القرآن الكريم.

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الأكل، الجنة، الماء، النبات

(١) انظر: لمسات بيانية، فاضل السامرائي ١/ ٦٣٧.

(٢) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، ١/ ١٦٤.

الشُّرْب

عناصر الموضوع

مفهوم الشرب	١٦٨
الشرب في الاستعمال القرآني	١٦٩
الألفاظ ذات الصلة	١٧٠
اقتران الشرب بالأكل	١٧٢
الشرب نعمة إلهية	١٧٤
أنواع الأشربة	١٨٢
الشرب والابتلاء	١٩١
أحكام تتعلق بالشرب	١٩٥
مشروبات أهل الجنة وصفة شربها	٢٠٠
مشروبات أهل النار وصفة شربها	٢٠٨
لمسات إعجازية في الشرب	٢١٤

مفهوم الشرب

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: « الشين والراء والباء أصل واحد منقاس مطرد، وهو الشرب المعروف، ثم يحمل عليه ما يقاربه مجازًا وتشبيهًا. تقول: شربت الماء أشربه شربًا، وهو المصدر. والشرب الاسم. والشرب: القوم الذين يشربون. والشرب: الحظ من الماء.

والمَشْرَب: الوجه الذي يشرب منه، ويكون موضعًا ويكون مصدرًا.

والإشراب: لون قد أشرب من لون، يقال: فيه شربة حمرةٍ. ويقال: أشرب فلان حب فلانٍ، إذا خالط قلبه، قال الله جل ثناؤه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]. قال المفسرون: حب العجل»[(١)].

يتبين مما سبق أن الشرب في اللغة يدور حول معنى واحد، وهو تناول كل مائع، ماء كان أو غيره.

قال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

وقال في صفة أهل النار: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي للشرب هو المعنى اللغوي، فالشرب: المائع الذي تشتفه الشفتان، وتبلغه إلى الحلق، فيبلع دون مضغ[(٢)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٦٧-٢٦٨.
وانظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٦٣.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١١٤.

الشرب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شرب) في القرآن الكريم (٣٩) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة:٢٤٩]
الفعل المضارع	٦	﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون:٣٣]
الفعل الأمر	٧	﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم:٢٦]
المصدر	١٥	﴿شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الواقعة:٥٥]
اسم الفاعل	٥	﴿نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل:٦٦]
اسم المكان	٣	﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠]

وجاء الشرب في القرآن على أربعة وجوه[(٢)]:

الأول: الشرب المعروف، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الثاني: الحظ والنصيب من الماء، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، يعني: حظهم ونصيبهم من الماء.

والثالث: موضع الشرب، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

والرابع: المخالطة وحب الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]. يعني: تمكن حب العجل من قلوبهم وخالطها.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٣٨-٢٤١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الخاء ص٤٧٩-٤٨٢.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٣٠٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٥٧، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٩٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجرع:

الجرع لغة:

هو البلع، أي: تناول الشيء وشربه ماء كان أو غيره.

الجرع اصطلاحًا:

يدل على قلة الشيء المشروب.

والتجرع: تكلف الجرع، وتناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار.

قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٧].

الصلة بين الجرع والشرب:

اللفظان يحملان المعنى نفسه من تناول الشيء وشربه، إلا أن الجرع يزيد عن الشرب في قلة الشيء المشروب، وأنه قد يحمل معنى التكلف، وقد يدل على تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار[(١)].

٢ النهل:

النهل لغة:

أول الشرب[(٢)].

النهل اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النهل والشرب:

الشرب والنهل يتفقان إذا كانا لمرة واحدة، ويلاحظ أن الشرب أعم من النهل، فالشرب قد يكون مرة ومرتين، وقد يحصل منه الري، أما النهل فلا يكون إلا لأول الشرب، ولا يحصل منه الري غالبًا.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٤٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٨٠ ، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢١١.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٦٤، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٨٠، الكليات، الكفوي ص٨٧٣.

٢ الأكل:

الأكل لغةً:

من أكل الطعام يأكله أكلًا، فهو آكلٌ، والإِكلة بالكسر: الحال التي يأكل عليها؛ متكئًا أو قاعدًا، يقال: إنه لحسن الإكلة، والأَكلة بالفتح: المرة الواحدة المشبعة، والأُكلة بالضم: اسم للقمة [(١)].

الأكل اصطلاحًا:

ليس هناك تعريفٌ اصطلاحيٌ للأكل يختلف عن تعريفه اللغوي، فالأكل معروف ولا يحتاج إلى تعريف، ويطلق لفظ الأكل ويراد به فعل الأكل، أي : تناول الطعام، وقد يطلق ويراد به الطعام نفسه.

الصلة بين الأكل والشرب:

كلاهما من الأطعمة، لكن غلب استعمال الشراب على السوائل، والأكل على ما يمضغ من الطعام.

٤ الطعام:

الطعام لغة:

الطعام اسمٌ جامعٌ لكل ما يؤكل، ويقال: طعم يطعم طعمًا؛ فهو طاعمٌ، إذا أكل، أو ذاق، وإذا استعمل هذا الفعل بمعنى الذواق جاز فيما يؤكل وفيما يشرب. وروي عن ابن عباس أنه قال في زمزم: (إنها طعام طعمٍ، وشفاء سقمٍ)[(٢)] أي: يشبع الإنسان إذا شرب ماءها، كما يشبع من الطعام، ويطعم: بمعنى يشبع، ويطلق الطعام عند الحجازيين على البر خاصة[(٣)].

الطعام اصطلاحًا:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الطعام والشرب:

الطعام أعم من الشرب، فإذا استعمل بمعنى الذواق جاز فيما يؤكل وفيما يشرب.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٠٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه، رقم ٢٤٧٣، بدون لفظ (وشفاء سقم)، وأخرجه البيهقي في السنن الصغير رقم ١٧٢٤٤/ ٣٥٢، باب دخول الكعبة والصلاة فيها، مرفوعًا من رواية أبي ذر الغفاري.

(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٦٣.

اقتران الشرب بالأكل

الأكل والشراب نعمتان عظيمتان من نعم الله تعالى على خلقه منةً وتفضلًا، فهو الذي خلقهم، وتكفل برزقهم، وامتن عليهم بكثير من النعم، التي منها نعمة الأكل والشرب، ومما نلاحظه في القرآن الكريم اقتران الشرب بالأكل في كثير من المواضع؛ كقول الله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

حتى في نعيم الجنة، قال الله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩].

وتتجلى الحكمة -والله أعلم- من اقتران الشرب بالأكل في القرآن، من ناحيتين:

- في بيان نعمة الله على عباده؛ حيث إن الأكل يحتاج إلى الماء لابتلاع الطعام وازدراده، ولأن الشراب إنما يكون تبعًا للمطعوم في حاجة الجسم إليه[١].
- النعمة لا تتم إلا عند الأكل والشرب، ألا ترى أن في البراري التي لا يوجد فيها الماء لا يأكل الإنسان شيئًا مخافة العطش[٢].

كما نلاحظ أنه في القرآن كله حيثما اجتمع الأكل والشرب قدم تعالى الأكل على الشرب حتى في نعيم الجنة.

وأما عن الحكمة في تقديم الأكل على الشرب، فيمكن بيانها كالأتي:

- العادة قاضية بأن الأكل قبل الشرب، ولذا قدم الأكل على الشرب حيث وقع[٣].
- البداءة بالأكل لأن قوام الجسد به، والاحتياج إلى الشرب حاصل عنه[٤].

وقد ورد تقديم الأكل على الشرب في حديث القرآن عن قصة مريم، في قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦].

وقد ذكر الإمام الرازي الحكمة من تقديم الأكل على الشرب في هذه الآية فقال: «قدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء؛ لكثرة ما سال منها من الدماء»[٥].

الشرب بين الحقيقة والمجاز:

من الآيات التي ورد فيها مادة الشرب قول الله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

وقد اختلف المفسرون في قوله:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٢٢.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ٢٧٢.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٥٦، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٤٠٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٢٨.

﴿وَأُشْرِبُوا﴾ هل المراد به المعنى الحقيقي للشرب، أم أن العرب تستعمل هذه اللفظة بمعنى آخر؟ على قولين:

الأول: أن الشرب في الآية على معناه الحقيقي، والمراد: أنهم شربوا الماء الذي ذري فيه سحالة[1] العجل.

وهذا القول روي عن السدي حيث قال: لما رجع موسى إلى قومه، أخذ العجل الذي وجدهم عاكفين عليه، فذبحه، ثم حرقه[2] بالمبرد، ثم ذراه في اليم، فلم يبق بحر يومئذ يجري إلا وقع فيه شيء منه. ثم قال لهم موسى: اشربوا منه، فشربوا منه، فمن كان يحبه خرج على شاربه الذهب. فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[3].

الثاني: أن الشرب في الآية ليس بمعناه الحقيقي، وإنما هذا أسلوب عند العرب، فمن عادتهم أنهم إذا أرادوا العبارة عن مخامرة حب أو بغض في القلب أن يستعيروا لها اسم الشراب[4].

والمقصود من الآية بيان أن حب العجل تداخل في قلوبهم، ورسخ فيها صورته؛ لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته، كما يتداخل الصبغ الثوب، والشراب أعماق البدن[5].

فالشرب في الآية على معناه المجازي، والأسلوب استعارة مكنية، شبه حب عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإشراب[6].

وهذه الاستعارة من فرائد الاستعارات يتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن[7].

والمعنى الراجح هو ما ذكره أصحاب القول الثاني، والقول الأول مردود عليه بما يأتي:

- أن قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ يبعد هذا القول جدًا؛ لأن الشراب الحقيقي لا يكون في القلب.
- ما قصه الله تعالى لنا في كتابه عما فعل موسى عليه السلام بالعجل يبعد ظاهر هذه الرواية[8].

(١) السحالة: ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما إذا سحلا، أي: بردا بالمبرد.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٤٠.
(٢) حرقه: برده بالمبرد.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٧٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٥٨.
(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٦٢.
(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي ١/ ٢٢٥.
(٦) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٢٠.
(٧) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٢٢٦.
(٨) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ٣٢٦، المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٢٠.

الشرب نعمة إلهية

نعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى، فقد امتن الله على عباده بكثير من النعم، ومن هذه النعم نعمة الشرب، قال تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام، وهو يخاطب قومه: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩].

فالذي يطعم ويسقي هو رب العالمين، لا غيره.

والحق أن نعمة الشرب تحفها نعم كثيرة، منها ما يتعلق بالشرب في حد ذاته، ومنها ما يتعلق بأصناف الشاربين، ومنها ما يتعلق بالأشربة وهذا بيانها:

أولًا: ما يتعلق بالشرب:

الشرب في ذاته نعمة إلهية، وهذه النعمة الإلهية تكتنفها نعمٌ أخرى عند التأمل، فإيجاد قدرة الشرب في الإنسان نعمة، وخلق الشراب وإيجادها نعمة، وتنوعها نعمة، والحصول عليها نعمة، واستساغتها نعمة والارتواء منها نعمة، والتلذذ بها نعمة؛ ولم يقف الأمر عند هذه النعم، بل خلق الله تعالى في جسم الإنسان أجهزة تعمل بإذن ربها، لا بإرادة من الإنسان، لتحول ما يشربه إلى عناصر يمتصها الدم؛ لينقل كل عنصر إلى الجزء الذي يحتاجه الجسم ولا يخطئ؛ ليتم بذلك تجدد قوة الجسم ونشاطه.

«وحتى تتضح أهمية نعمة الشرب، لابد أن نعلم أن نقص الماء في جسم الانسان يؤدي إلى الجفاف، ويساعد في تزايد نسبه الأملاح في الجسم، وتؤدي كذلك إلى الإصابة بالتعب والإرهاق الجسدي، والإصابة بالصداع، والماء ومركباته الكهربية وجزيئاته لها أهمية ضخمة في كل التفاعلات الحيوية التي تحدث داخل الخلية، وتلك الخواص هي التي تحدد كل الخواص البيولوجية للمواد العضوية الكيماوية الأخرى : مثل البروتينات والأحماض النووية وأغشية الخلايا والريبوسومات وغيرها من التراكيب.

وعلى ذلك فتغير نسب الماء قد يدمر كل التفاعلات الكيماوية، ومن ثم الوظائف الحيوية للخلية»[1].

ومن الآيات التي ورد فيها نعمة الشرب قول الله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

(١) التحديد القرآني لدور المياه في الحياة للدكتور/ إسلام محمد الشبراوي، مقال منشور على موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩].

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقوله: ﴿لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٩].

وغير ذلك من الآيات.

والملاحظ على الآيات التي ورد فيها نعمة الشرب ما يأتي:

١. أنها وردت في سياق الامتنان على الخلق بنعمة الشرب، وغيرها من النعم.

بل ورد في بعض الآيات التصريح بأن الشرب وغيره من نعم الله، وأن الخلق لا يستطيعون إحصاء نعم الله عليهم، ففي سورة النحل ذكر الله تعالى أصنافًا من النعم، حيث ذكر أصولها ومكملاتها، ففي أول السورة نعمة الوحي وإرسال الرسل داعية إلى التوحيد، ثم ذكر الله تعالى نعمته بخلق السموات والأرض، وخلقه الإنسان من نطفة، ونعمته بخلق الأنعام، ونعمة إنزال الماء وشربه، ونعمة إرساء الجبال، وشق الأنهار، وتمديد الطرق، وتزيين السماء بالنجوم، واهتداء الخلق بها، في نظم عجيب، وآيات باهرة، ختمها الله تعالى بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

فقد نص على المشرب في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ تنبيهًا على المنفعة العظيمة التي هي سبب الحياة[(١)].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

فبعد أن ذكر نعمته عليهم بتسخير الدواب والأنعام - شرع يذكر نعمته عليهم في إنزال المطر ونعمة الشرب فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: إن الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم هو الذي أنزل المطر من السماء عذبًا زلالًا تشربون منه[(٢)].

هذا الماء يذكر هنا نعمة من نعم الله فيه، وهو ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ فهي خصوصية الشراب التي تبرز في هذا المجال[(٣)].

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ٢٧٢.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١٤/ ٥٩.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٦٢.

٦٨-٦٩].

لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه[(١)].

وتخصيص هذا الوصف ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ بالذكر، مع كثرة منافع الماء؛ لأن الشرب أهم المقاصد التي من أجلها أنزل سبحانه الماء من السحاب، ولأن شرب الماء من أعظم النعم على الإنسان[(٢)].

فهذه الآيات السابقة تتجلى هداياتها في بيان عظيم نعمة الشرب التي امتن الله بها على عباده، وإنزال الماء الذي فيه وبه قوام حياتهم.

٢. أغلب الآيات التي ورد فيها نعمة الشرب آيات مكية.

قصد القرآن من ورائها بجانب الامتنان على العباد، الاستدلال بنعمة الشرب وغيرها على وحدانية الله، أو إثبات البعث، أو الاثنين معًا.

ومن ذلك قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٣٥.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٢٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٧٨.

[الواقعة: ٦٨-٦٩].

أي: أخبروني أيها الناس عن الماء العذب الذي تشربونه لإطفاء العطش، أأنتم أنزلتموه من السحاب، أم نحن المنزلون بقدرتنا دون غيرنا، فكيف لا تقرون بالتوحيد، وتصدقون بالبعث؟[(٣)].

وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾

ففي الآية نلحظ أن صيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر، أي: هو لا غيره. وهذا قصر على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن المخاطبين لا ينكرون ذلك، ولا يدعون له شريكًا في ذلك، ولكنهم لما عبدوا أصنامًا لم تنعم عليهم بذلك، كان حالهم كحال من يدعي أن الأصنام أنعمت عليهم بهذه النعم، فنزلوا منزلة من يدعي الشركة لله في الخلق، فكان القصر قصر إفراد تخريجًا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر[(٤)].

وذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته في نعمة الشرب، وأن هذه النعمة وما يكتنفها من نعم أعظم دليل على وحدانية الله، وقدرته على بعث المخلوقات للحساب والجزاء.

٣. ورد في بعض الآيات الأمر بالأكل

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٧/ ٢٦٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١١٣.

والشرب.

وذلك نحو قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[الأعراف: ٣١].

وسواء كان الأمر للوجوب أو للإباحة، ففي ذلك بيان نعمة الله على عباده؛ حيث أمرهم بما فيه منفعتهم، وأرشدهم إلى ما فيه وبه قوام حياتهم.

قال الشيخ الشعراوي عند تفسير هذه الآية: «والمأكل والمشرب من الأمور المباحة؛ لأن فيها مقومات الحياة»[(١)].

٤. النعمة الإلهية في الشرب لم تقتصر على البشر فقط، بل شملت أنعامهم، وزروعهم.

وهذا من رحمة الله بعباده، فالله أنزل الماء من السماء؛ ليسقى البشر، والزرع والغراس، والأعشاب التي يكون منها طعام الإنسان والحيوان، وكل ما يدب على ظهر الأرض.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾

ففي هذه الآية يخبرنا الله أن الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم هو الذي أنزل المطر من السماء عذبًا زلالًا تشربون منه، وتسقون أشجاركم ونباتكم التي تسيمون فيها أنعامكم، وفيها ترعى[(٢)].

فالآية استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله تعالى أدمج فيه امتنان بما يأتي به ذلك الماء العجيب من المنافع للناس من نعمة الشراب، ونعمة الطعام للحيوان الذي به قوام حياة الناس وللناس أنفسهم[(٣)].

وقوله: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: أن الماء لكم منه شراب، تشربونه وتدفعون به العطش، وعبر سبحانه بقوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ ليشمل شربه ريًا وسقيًا[(٤)].

وهذا الماء الذي أنعم الله علينا بشربه، ذكر العلماء عجائب خواصه وتكوينه، فهو سائل شفاف، وهو في نقائه لا لون له، ولا رائحة، ولا طعم، ويتركب جزيء الماء من ذرتين من ذرات غاز الهيدروجين، وذرة

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٧/ ٤١١٣.
والمقصود بكون الأكل والشرب من الأمور المباحة، بيان نعمة الله على عباده في الأكل والشرب، لا أن المقصود بالإباحة ترك الإنسان للأكل والشرب، فإن الأصوليين نصوا على أن المباح إذا أطلق فإنما هو بالنسبة إلى الجزء وليس إلى الكل، كالأكل والشرب فهما مباحان، فللمكلف أن يختار ما يأكل وما يشرب من المباحات، كما له أن يترك الأكل والشرب في بعض الأوقات، ولكن أصل الأكل والشرب مطلوب من حيث الجملة، لأن فيهما حياة الإنسان، وحفظ الحياة مطلوب من المكلف.
انظر: الوجيز في أصول الفقه، عبد الكريم زيدان ص٤٨.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٤/ ٥٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١١٣.

(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤١٣٩.

واحدة من ذرات غاز الأوكسجين، وترتبط هذه الذرات الثلاث مع بعضها البعض برابطتين تساهميتين تشكلان فيما بينهما زاوية قدرها (١٠٥ من الدرجات).

وقد جعل ذلك لجزيء الماء قطبين كهربيين يحمل أحدهما شحنتين موجبتين، ويحمل الآخر شحنة سالبة مكافئة، وهذه الخاصية وفرت للماء -بأمر الله- من الصفات الطبيعية والكيميائية ما جعل منه أقوى مذيب معروف، وبالتالي جعله من أهم ضرورات الحياة، فأجساد الكائنات الحية يغلب على تركيبها الماء الذي تتراوح نسبته في جسم الإنسان بين (٧١٪) في الإنسان البالغ و (٩٣٪) في الجنين ذي الأشهر المعدودة. والماء العادي يحتوي على مواد كثيرة مختلفة، لكن الهيدروجين والأكسجين يشكلان الجزء الأكبر من تركيبه.

ويتميز الماء بخواص فيزيائية وكيميائية تجعله أهم مادة في الطبيعة على الإطلاق، بالنسبة إلى جميع الكائنات الحية، ومن عجائب تكوين الماء في تركيبه أنه مؤلف من هيدروجين وأوكسجين، فالهيدروجين مادة مشتعلة، والأوكسجين مادة تساعد على الاحتراق، فالهيدروجين نار، والأوكسجين نار، ولما التقيا صارت الحياة، وصار الماء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢][1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

فالآيات بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته، وروائع أحكام رحمته، ونعمه الفائضة على الخلق، وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان[2].

والآيات تخبرنا أن الله هو الذي رحم عباده وأدر عليهم رزقه، بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وهو المطر، ومن بركته أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتًا، فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: نسقيكموه أنتم وأنعامكم[3].

وهنا يثور سؤال، وهو لم خص الإنسان والأنعام هاهنا بالذكر، دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء؟

الجواب: لأن الطير والوحش تبعد في

(١) انظر: المدخل إلى العلوم البيئية، سامح يحيى فرحان الغرايبة ص٢٤٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٢٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٤.

طلب الماء فلا يعوزها الشرب، بخلاف الأنعام لأنها قنية[1] الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها، فكأن الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام عليهم بسقيهم[2].

وأخر ذكر الإنسان عن النبات والحيوان لحاجته إليهما في حياته، ولأنهم إذا ظفروا بماء يسقى أرضهم ومواشيهم، لم يعدموا ما يكون منه سقياهم[3].

وفي تقديم الأنعام على الناس إشارة إلى أن رحمة الله تسرى في الكائنات كلها، وأنها ليست للناس وحدهم، وليس هذا فحسب، فإنه مع تقديم الأنعام على الناس، كان التعبير بـ«ما» التي هي لغير العقلاء، بدلا من «من» الذي للعقلاء، فقال تعالى: ﴿مِمَّا خَلَقْنَا﴾ بدلا «ممن خلقنا» وذلك لتوكيد المعنى المقصود هنا، وهو أن الأنعام لها عند الله وزنها وتقديرها، وأنها إذ كانت أقل حيلة من الإنسان، فقد كفل الله لها حاجتها، وقدم مطلوبها على مطلوب الإنسان[4].

فالآيات السابقة تبرز هداياتها في بيان بعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته، وروائع أحكام رحمته، وسابغ إحسانه، ونعمه الفائضة على الخلق، والمنافع الناجمة لهم ولأنعامهم وزروعهم من إنزال الماء الذي فيه سر الحياة، وأنه لولا هذا الماء الذي ينزل من السماء، ما كان للحياة أثر على هذه الأرض.

ثانيًا: أصناف الشاربين:

ذكر القرآن أثناء حديثه عن الشرب أصنافًا وأشخاصًا امتن الله عليهم بنعمة الشرب، وذكر القرآن لهؤلاء الأشخاص تكريم لهم، وبيان لعناية الله بهم.

وما يأتي بيان لأمثلة من هذه الأصناف والأشخاص؛ طلبًا للاختصار:

١. البشرية جميعًا.

فقد امتن الله في كتابه على البشرية جميعًا بنعمة الشرب، وكل الآيات التي تناولت الشرب في الدنيا في مقام الامتنان، هي نعمة على البشرية جميعًا، ومن هذه الآيات قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨] لتحيوا به أنفسكم، وتسكنوا به عطشكم[5].

٢. بنو إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

(١) قنية: ملكهم، وملازمة لهم.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٦٦.
(٣) تفسير المراغي ١٩/ ٢٤.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، لخطيب ١٠/ ٣٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٠.

فقد ذكر الله اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بنعمة من أجل نعمه على آبائهم، وهي إغاثتهم في التيه بالماء بعد أن اشتد بهم العطش، وهذه النعمة كانت نافعة لهم في دنياهم؛ لأنها أزالت عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا، وكانت نافعة لهم في دينهم؛ لأنها من أظهر الأدلة على وجود الله. وعلى قدرته وعلمه، ومن أقوى البراهين على صدق موسى عليه السلام في نبوته.

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش الشديد وهم في صحراء مجدبة، فتوسل إلينا نبيهم موسى عليه السلام في خشوع وتضرع أن أمدهم بالماء الذي يكفيهم، فأجبناه إلى ما طلب، إذ أوحينا إليه أن اضرب بعصاك الحجر، ففعل، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بمقدار عدد الأسباط، وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره، وقلنا لهم: تمتعوا بما من الله به عليكم من مأكول طيب ومشروب هنيء رزقكم الله إياه من غير تعب ولا مشقة[1].

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ كأنه أمر كل سبط أن لا يشرب إلا من جدول معين حسمًا لمادة التشاجر، فإن العادة في الرهط الواحد أن لا يقع بينهم من التنازع مثل ما يقع بين المختلفين. وهذا أيضًا من تمام النعمة عليهم[2].

وأما إضافة المشرب إليهم فلأنه تعالى لما أباح لكل سبط من الأسباط ذلك الماء، الذي ظهر من ذلك الشق الذي يأتيه، صار ذلك كالملك لهم. وجازت إضافته إليهم[3].

٣. مريم عليها السلام.

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾[مريم: ٢٤-٢٦].

فقد ذكر سبحانه جانبًا من إكرامه لمريم عليها السلام في تلك الساعات العصيبة من حياتها بعد ولادتها عيسى عليه السلام، مبينًا أن الله لم ينسك ولم يتركك، بل أجرى لك تحت قدميك جدولًا ساريًا- الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع، أو تدفق من مسيل ماء في الجبل- وهذه النخلة التي تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطبًا ، فهذا طعام وذاك شراب[4].

وفي تخصيص الرطب: لأن «الطعام الحلو مناسب للنفساء»[5]، والرطب والتمر من أجود طعام النفساء.

وقدم الأكل على الشرب لأن احتياج

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٤٣.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٢٩٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٣٠.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٠٧.

(٥) انظر: المصدر السابق.

النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء؛ لكثرة ما سال منها من الدماء[1].

وفرع على التسلية الأمر بالأكل والشرب؛ لأن الحزين قد لا يتفرغ لمثل ذلك، وأكد ذلك بالأمر الأخير[2].

٤. أيوب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤١-٤٢].

الآيات تخبرنا أن الله ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التي لا تتنافى مع منصب النبوة، وقد صبر أيوب على ذلك حتى ضرب به المثل في الصبر، وقد توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان، ولما عرف ربه منه صدقه وصبره، ونفوره من محاولات الشيطان، وتأذيه بها، أدركه برحمته، وأنهى ابتلاءه، وأعطاه من فضله الكثير من نعمه.

وقد أمره أن يضرب الأرض بقدمه، فتتفجر عين باردة، وقلنا له: هذا الماء النابع من العين إذا اغتسلت به وشربت منه ذهب كل مرض في داخل جسدك، ثم اغتسل به فيذهب ما كان في ظاهر بدنك، وتبرأ من الأمراض، ففعل ما أمرناه به، فبرئ بإذننا من كل داء[3].

وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل منه، وشرب[4]، وقد ذكر بعض التابعين أنه نبعت له حين ضرب برجله الأرض عينان، فشرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى[5].

فالآيات فيها بيان لنعمة الله على عبده أيوب عليه السلام باستجابة الدعاء، وإزالة ما به من الضر والمرض، وشفائه وسقيه من هذا الماء المبارك الذي أخرجه له من الأرض؛ جزاء لصبره على البلاء، وفي الآيات بيان أن من صبر على الضر فالله تعالى يثيبه ثوابًا عاجلًا وآجلًا.

ثالثًا: الأشربة:

فقد أنعم الله على عباده بالأشربة المباحة، وقد نص القرآن على عدد من الأشربة التي امتن الله بها على عباده، وهي: الماء، والألبان، والعسل؛ من باب التنبيه على أهميتها، وبيان نعمة الله على عباده. وسيأتي في المبحث الآتي تفصيل لذلك، فنقتصر على ما ذكرناه؛ لعدم التكرار.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٢٨.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٤٠٤.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٢١، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ١٦٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٩٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٠٧.

أنواع الأشربة

مشروبات مباحة:

امتن الله على عباده بالإباحة للأشياء، فسخر لهم ما في السماوات والأرض نعمة منه ورحمة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهذه قاعدة عظيمة، فإن الأصل في كل شيء الحل حتى يوجد من الشرع دليل يخرجه من الحل إلى الحرمة، وأن ما يخرج من الحل إلى حرمة أو كراهة مفصل في الكتاب والسنة، وهو محصور معدود يمكن أن تستقصى أفراده، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

ومن هذا المنطلق فقد أباح الله لعباده كل الأشربة، إلا ما حرمه عليهم بالقرآن والسنة، وهذه الأشربة المباحة لا عدد لها ولا حصر، والدليل على ذلك أنه قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

فلم يذكر ما الذي يشرب، والقاعدة تقول: إن حذف المتعلق يفيد العموم، فهذا يدل على أن جميع الأشربة مباحة إلا ما خصه الدليل بالتحريم.

قال الرازي: «قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مطلق يتناول الأوقات والأحوال، ويتناول جميع المطعومات والأشربة، فوجب أن يكون الأصل فيها هو الحل في كل الأوقات وفي كل المطعومات والأشربة إلا ما خصه الدليل المنفصل؛ لأن الأصل في المنافع الحل والإباحة»[1].

إلا أن القرآن نص على بعض الأشربة، من باب التنبيه على أهميتها، وبيان نعمة الله على عباده، وهذا بيانها:

١. الماء.

الماء أصل الحياة، وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله، فقد خلق الله الإنسان والدواب وجميع الكائنات الحية من الماء، كما قال في محكم كتابه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقد امتن الله على عباده بنعمة الماء وإنزاله من السماء، وجعله ينابيع في الأرض، يستخدمونه في أي وقت يشاءون لشربهم، وشرب أنعامهم وزروعهم، ولمنافعهم.

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٩.

أي: وسخرنا الرياح، رياح الرحمة تلقح السحاب، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواشيهم وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخرًا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته[1].

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلناه لكم سقيًا، وهو أبلغ من «سقينا كموه» لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدًا لهم ينتفعون به متى شاءوا[2].

وقال ربنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ [النحل: ١٠].

أي: أن الماء لكم منه شراب، تشربونه وتدفعون به العطش، وعبر سبحانه بقوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ ليشمل شربه ريًا وسقيا، ويشمل اتخاذه محلى بمادة من مواد الحلوى، وليشمل الشراب الذي يكون من النبات والكروم غير المتخمر، فإن الماء أصل ذلك كله[3].

وامتن الله على عباده في كتابه بأنه أنزل لهم من السماء ماء طهورًا عذبًا فراتًا، صالحًا للشرب، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

وقال: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]. أي: عذبًا سائغًا للشاربين.

ومن رحمة الله بعباده أنه لم يجعل ماء الشرب مالحًا، تكرهه النفوس، مع قدرته على ذلك، فامتن على عباده بهذه النعمة فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

فتخصيص هذا الوصف، وهو ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ بالذكر، مع كثرة منافع الماء، لأن شرب الماء من أعظم النعم على الإنسان[4].

وفي الآيات بيان لمظهر من مظاهر رحمته سبحانه، فلو نشاء أن نجعل هذا الماء النازل من المزن لشربكم، ماء جامعًا بين الملوحة والمرارة مكروهًا للنفوس، لا ينتفع به، لفعلنا، ولكنا لم نشأ ذلك رحمة بكم، وفضلًا منا عليكم.

فالآيات السابقة تتجلى هداياتها في بيان أن من نعم الله على الإنسان «نعمة الماء»، آية من آيات الله، خلق الله منه الكائنات، لا غنى للناس عنه؛ فهو سبب بقائهم، وأساس حياتهم، منه يشربون ويزرعون ويأكلون، وفيه منافع لهم ولأنعامهم.

والماء لم تنقص قيمته لا بتقدم الإنسانية ولا بتخلفها، بل لقد زادت أهميته ثم زادت،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٠.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٢.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤١٣٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٢٣.

حتى صاروا يتحدثون عن الأمن المائي والصراع على موارد المياه ومصادرها ومنابعها.

فإنه يعد القرن الجديد «الألفية الثالثة»، قرن الصراع على المياه، حيث أخذت مشكلات استثماره، تشغل حيزًا كبيرًا في الأحداث العالمية المعاصرة، بل وفي رسم المستقبل السياسي لكثير من دول العالم. ومن الملاحظ، أن الخريطة المائية تظهر خطوطا متشابكة للتداخل الدولي في أحواض أنهارها، وفي استثمار مواردها مما يترك علاج هذا الاستثمار، رهينًا بالعلاقات القائمة بين الدول ذات العلاقة، التي تقوم في الأساس على مبدأ القوة أولًا، ومدى الاحترام المتبادل للاتفاقيات القائمة بينها ثانيًا».

٢. ألبان الأنعام.

من النعم التي امتن الله بها على العباد نعمة شرب ألبان الأنعام على اختلافها ما بين إبل وبقر وغنم، وقد امتن الله على عباده بهذه النعمة في كتابه فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

فهذه حجة أخرى، ومنة من المنن الناشئة عن منافع خلق الأنعام، أدمج في منتها العبرة بما في دلالتها على بديع صنع الله، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبنًا خالصًا من الكدر سائغًا للشاربين، للذته، ولأنه يسقي ويغذي[(١)].

وقوله سبحانه: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ بيان لموطن العبرة، ومحل النعمة، ومظهر الدلالة على وحدانية الله تعالى وقدرته ورحمته.

وخلوصه: نزاهته مما اشتمل عليه البول والثفل[(٢)]، وسوغه للشاربين: سلامته مما يشتمل عليه الدم من المضار لمن شربه، فلذلك لا يسيغه الشارب ويتجهمه[(٣)(٤)].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

أي: أو لم يشاهد هؤلاء المشركون بالله أنا خلقنا لهم أنعامًا من الإبل والبقر والغنم يصرفونها كما شاءوا، فهي ذليلة منقادة لهم، وسخرنا لهم هذه الأنعام، فمنها ما يركبون

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٩٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٤.
(٢) الثفل: الكدر.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٨٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٩٩.
(٤) التجهم: حلاف البشاشة والطلاقة، والمراد: يتغير وجهه إذا أجبر على ذلك الشراب كرهًا له.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٩٠.

في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، ومنها ما ينحرون، فيأكلون لحومها، ولهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل منها، كالجلود والأصواف والأوبار والأشعار ولهم منها مشارب من ألبانها ونتاجها[(١)].

وقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ هو محل الامتنان، أي :لأجلهم؛ فإن جميع المنافع التي على الأرض خلقها الله لأجل انتفاع الإنسان بها؛ تكرمة له[(٢)].

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ بيان لفوائد أخرى غير الركوب والأكل؛ وذلك لأن من الحيوانات ما لا يركب كالغنم، فقال: ﴿مَنَافِعُ﴾ لتعمها، والمشارب كذلك عامة، إن قلنا: بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية، فإن من الجلود ما يتخذ أواني للشرب والأدوات من القرب وغيرها.

وإن قلنا: إن المراد: المشروب وهو الألبان والأسمان، فهي مختصة بالإناث، ولكن بسبب الذكور؛ فإن ذلك متوقف على الحمل، وهو بالذكور والإناث[(٣)].

وقوله: ﴿وَمَشَارِبُ﴾ مصدر بمعنى المفعول[(٤)]، والمراد به اللبن، وخص مع دخوله في المنافع؛ لشرفه واعتناء العرب به، وجمع باعتبار أصنافه، ولا ريب في تعددها، وتعميم المشارب للزبد والسمن

والجبن والأقط[(٥)] لا يصح إلا بالتغليب، أو التجوز؛ لأنها غير مشروبة[(٦)].

فالآيات فيها بيان لفضل الله على عباده في تذليل الأنعام لهم، وتسخيرها لمنافعهم المختلفة، وامتنان من الله على عباده بنعمة ألبان هذه الأنعام.

٣. العسل.

من الأشربة المباحة التي امتن الله بها على عباده شراب العسل الذي يخرج من النحل، فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩].

فالله يخبر عباده بأنه جعل لهم آية في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها ، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ، مختلف الألوان بحسب

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٣/ ٣٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٠٦.
(٤) هذا على أحد القولين في المراد بالمشارب، وإلا فما قبله يبين المعنيين.

(٥) الأقط: اللبن المجفف.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٩.
(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٥٠.

اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه[1].

فالآيات عطف عبرة على عبرة ، ومنة على منة، وغير أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى؛ إذ أودع في خلقة الحشرة الضعيفة هذه الصنعة العظيمة وجعل فيها هذه المنفعة[2].

وجملة ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا؛ لأن ما تقدم من الخبر عن إلهام النحل تلك الأعمال يثير في نفس السامع أن يسأل عن الغاية من هذا التكوين العجيب، فيكون مضمون جملة ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ بيانًا لما سأل عنه. وهو أيضًا موضع المنة كما كان تمام العبرة[3].

وجيء بالفعل المضارع ﴿يَخْرُجُ﴾ للدلالة على تجدد الخروج وتكرره[4].

وقد وصف الله العسل بهذه الصفات الثلاثة:

فالصفة الأولى: كونه شرابًا والأمر كذلك؛ لأنه تارة يشرب وحده، وتارة يتخذ منه الأشربة.

وعبر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومئ إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به، وهو محل المنة، وليرتب عليه جملة ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وسمي شرابًا لأنه مائع يشرب شربًا ولا يمضغ.

والصفة الثانية: قوله: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ والمعنى: أن منه أحمر وأبيض وأصفر، وغير ذلك من ألوان العسل، على حسب اختلاف مراعيها ومآكلها، وغير ذلك بما اقتضته حكمته سبحانه، ووصفه بـ ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ لأن له مدخلًا في العبرة؛ فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة[5].

والصفة الثالثة: قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وسيأتي الحديث عن هذه الصفة في المبحث الأخير.

والآيات السابقة تتجلى فيها قدرة الله في خلق النحلة الصغيرة وما يخرج من بطونها من عسل لذيذ، مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، وفي ذلك دليل على كمال عناية الله وتمام لطفه بعباده، وأنه لا ينبغي أن يحب غيره ويرجى سواه.

ثانيًا: مشروبات محرمة:

التحريم لم يأت في شريعة الإسلام

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٠٤.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٣٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٠٤، التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ١٨٩.

إلا لشيء كانت مفسدته خالصة أو غالبة، وجميع المحرمات لا تخلو من أن تكون على واحد من الوصفين، والله ما حرم شيئًا على عباده إلا وفي هذا التحريم مصلحة لهم؛ لذلك حرم عليهم بعض الأشربة لضررها وخبثها، وقد ذكر القرآن من هذه الأشربة المحرمة الخمر والدم.

١. الخمر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

هذه الآيات هي المرحلة الأخيرة التي مر بها تحريم الخمر، وتخبرنا الآيات أنه بعد أن نهى الله سبحانه فيما سلف عن تحريم ما أحل الله من الطيبات، وأمر بأكل ما رزق الله من الحلال الطيب، وكان من جملة الأمور المستطابة عند العرب الخمر والميسر، لا جرم أن بين عز اسمه أنهما غير داخلين فيما يحل، بل هما مما يحرم[(١)].

وقد وصف الله هذه الأقسام الأربعة بوصفين:

الأول: قوله: ﴿رِجۡسٞ﴾ والرجس في اللغة كل ما استقذر من عمل. فالرجس هو العمل الذي يكون قوي الدرجة كامل الرتبة في القبح.

الوصف الثاني: قوله: ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وهذا أيضًا مكمل لكونه رجسًا ،لأن الشيطان نجس خبيث والخبيث ، لا يدعو إلا إلى الخبيث[(٢)].

وقد ذكر الله في هذه الآيات نوعين من المفسدة في الخمر:

النوع الأول: ما يتعلق بالدنيا : وهو قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ فالظاهر فيمن يشرب الخمر أنه يشربها مع جماعة، ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم، فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الألفة والمحبة إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب إلى الضد؛ لأن الخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل، وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب، وتلك المنازعة ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش، وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء.

النوع الثاني: المفاسد المتعلقة بالدين، وهو قوله: ﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وشرب الخمر يمنع عن ذكر الله والصلاة؛ لأن شرب الخمور يورث الطرب واللذة

(١) انظر: تفسير المراغي ٧/ ٢٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٣.

الجسمانية، والنفس إذا استغرقت في اللذات الجسمانية غفلت عن ذكر الله تعالى[1].

والقرآن وإن كان قد ذكر نوعين من مفسدة الخمر، فقد ذكر الأهم، والخمر فيها مفاسد أخرى، ولها أضرار كثيرة، منها أضرار صحية، فهي تحدث أضرارًا جسيمة بأجهزة الجسم المختلفة، كالجهاز العصبي والدوري والهضمي والتناسلي والجلد والعظام و الأسنان وغيرها، ومنها أضرار اجتماعية، وأضرار أمنية، وأضرار اقتصادية تتعلق بالمتعاطي، وتتعلق باقتصاد الدول، مما يؤكد أن الله ما حرمها إلا لضررها.

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ والاستفهام هنا تقريري، فكأنه قيل له: أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما قد ظهر؟[2].

والآيات دالة على تحريم شرب الخمر من وجوه:

أحدها: تصدير الجملة بإنما، وذلك لأن هذه الكلمة للحصر، فكأنه تعالى قال: لا رجس ولا شيء من عمل الشيطان إلا هذه الأربعة.

وثانيها: أنه تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأوثان.

وثالثها: أنه تعالى أمر بالاجتناب، وظاهر الأمر للوجوب.

ورابعها: أنه قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحًا كان الارتكاب خيبة.

وخامسها: أنه شرح أنواع المفاسد المتولدة منها في الدنيا والدين، وهي وقوع التعادي والتباغض بين الخلق وحصول الإعراض عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة.

وسادسها: قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهو من أبلغ ما ينتهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيها من أنواع المفاسد والقبائح فهل أنتم منتهون مع هذه الصوارف؟ فالاستفهام في الآية خرج عن بابه إلى الأمر، أي: انتهوا.

وسابعها: أنه تعالى قال بعد ذلك: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

فظاهره أن المراد: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فيما تقدم ذكره من أمرهما بالاجتناب عن الخمر والميسر، وقوله ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي :احذروا عن مخالفتهما في هذه التكاليف.

وثامنها: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وهذا تهديد عظيم ووعيد شديد في حق من خالف في هذا التكليف وأعرض فيه عن حكم الله، وبيانه، يعني : أنكم إن توليتم فالحجة قد قامت عليكم والرسول قد خرج عن عهدة التبليغ والإعذار والإنذار، ولا شك أنه تهديد شديد، فصار كل واحد من هذه الوجوه

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: المصدر السابق.

الثمانية دليلًا قاهرًا وبرهانًا باهرًا في تحريم الخمر[1].

٢. الدم المسفوح.

ورد تحريم الدم في أربع آيات من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾[البقرة: ١٧٣].

وقوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[الأنعام: ١٤٥].

فالله يخبر عباده المؤمنين في الآية الأولى أنه حرم عليهم بعض الأطعمة وغيرها؛ لما لها من ضرر اعتقادي أو دنيوي عليهم، ومن هذه المحرمات الدم.

ونص الله على تحريمه لأن العرب كانت تأكل الدم، كانوا يأخذون المباعر[2] فيملأونها دمًا، ثم يشوونها بالنار ويأكلونها[3].

وقد ورد تحريم الدم مطلقًا في ثلاث آيات من القرآن، وورد في الآية الرابعة مقيدًا بالدم المسفوح في قوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾

والدم المسفوح: هو الدم الجاري المهراق من البهيمة بعد ذبحها، فعلى ذلك يحمل المطلق على المقيد، فيكون تحريم الدم مقيدًا بالدم المسفوح، وأما الدم المتبقي في أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيتها فلا شيء فيه[4].

وتتجلى حكمة تحريم الدم فيما يأتي:

- أن شربه يورث ضراوة في الإنسان، فتغلظ طباعه ويصير كالحيوان المفترس، وهذا منافٍ لمقصد الشريعة؛ لأنها جاءت لإتمام مكارم الأخلاق، وإبعاد الإنسان عن التهور والهمجية، ولذلك قيد في بعض الآيات بالمسفوح ، أي : المهراق؛ لأنه كثير، لو تناوله الإنسان اعتاده، ولو اعتاده أورثه ضراوة[5].
- الدم يعتبر مرتعًا صالحًا لتكاثر الجراثيم ونموها.
- لا يحتوي الدم على أي مادة غذائية، بل إنه عسر الهضم جدًا، حتى إنه إذا صب جزء منه في معدة الإنسان تقيأه مباشرة، أو خرج مع البراز دون هضم على صورة مادة سوداء.

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) المباعر: مكان البعر، والمراد هنا: أمعاء الإبل.
انظر: لسان العرب ٤/ ٧١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١١٨.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٤.

- يحتوي الدم على عناصر سامة، يأتي في مقدمتها غاز ثاني أكسيد الكربون، وهو غاز قاتل خانق، وهذا ما يفسر تحريم المختنق من الحيوان أيضًا، وذلك أن «المختنقة» إنما تموت عن طريقة تراكم هذا الغاز في دمائها ما يؤدي إلى نفاقها.

ولا شك، فإن تكرار شرب الدماء لمن اعتاد عليها، وهي مشبعة بهذا الغاز القاتل، مؤدٍ إلى أضرار صحية بالغة الخطورة قد تودي بحياة الإنسان.

وتتميمًا للفائدة أقول: من رحمة الله بعباده أن الله أحل تناول الأطعمة والأشربة المحرمة عند الضرورة؛ لأن التحريم كان بسبب المفاسد الناتجة من ذلك، والمعارضة لحفظ الضروريات الخمس، فالخمر يحل شربها دفعًا لهلاك النفس؛ لأن حفظ النفس ضروري، فكان لابد من تحصيله بإباحة المحرم، وإذا أباحه الله للضرورة فذلك بشرطين: غير باغ، أي: غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، ولا عادٍ، أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له، اضطرارًا، وذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

والآيات السابقة تتضح فيها رحمة الله بعباده؛ حيث نهاهم عما فيه مضرتهم في أبدانهم وعقولهم، حيث لم يحرم عليهم الخمر والدم إلا وفي هذا التحريم مصلحة لهم، وحفظ لأبدانهم وعقولهم.

فائدة مهمة:

كما ورد تقييد الدم بالمسفوح في القرآن، فقد ورد تقييده في السنة أيضًا، فأحل النبي صلى الله عليه وسلم من الدم الكبد والطحال، كما ورد في حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال)**[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٣٢١٨ ٢/ ١٠٣٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، رقم ٣٣١٣، ٤/ ٤٣١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٠٢، رقم ٢١٠.

الشرب والابتلاء

أقام الله الدنيا على الابتلاء، كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك: ٢].

والله له أن يبتلي عباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك، والابتلاء يكون بالخير والشر كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فالابتلاء يكون بالنعم أيضًا، وقد ابتلى الله بعض عباده ببعض النعم، ومن هذه النعم التي ابتلى الله بها بعض عباده نعمة الماء وشربه، وقد قص القرآن ذلك علينا من قصة بني إسرائيل، وقصة ثمود.

أولًا: بنو إسرائيل:

ورد ابتلاء بني إسرائيل بنعمة الماء وشربه في قوله: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة: ٢٤٩].

والآيات قبل ذلك تحكي قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام إذ طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا يقاتلون معه في سبيل الله، فأخبرهم نبيهم أنه قد يفرض عليهم القتال ولا يمتثلون، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلًا منهم، وأخبرهم نبيهم أن الله قد اختار طالوت ملكًا عليهم، وأقام لهم الأدلة -بعد جدالهم- العقلية والمادية على أحقية طالوت في الملك عليهم، وبعد أن قامت الأدلة أيقنوا بذلك، فخرج طالوت بجنوده لملاقاة العدو ويتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل ، إنه مقدم على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه جيش أمة غالبة فلابد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء، فلابد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره.

واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش؛ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، ويؤثر العافية وصحت فراسته ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان،

فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم، وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة[1].

وظاهر قول طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ أن ذلك بوحي إلى النبي وإخبار من النبي لطالوت، ويحتمل أن يكون هذا مما ألهم الله طالوت إليه، فجرب به جنده، وجعل الإلهام ابتلاء من الله لهم، وهذه النزعة واجب أن تقع من كل متولي حرب، فليس يحارب إلا بالجند المطيع[2].

وحكمة هذا الابتلاء وجهان:

الأول: كان مشهورًا من بني إسرائيل أنهم يخالفون الأنبياء والملوك مع ظهور الآيات الباهرة، فأراد الله تعالى إظهار علامة قبل لقاء العدو، يتميز بها من يصبر على الحرب ممن لا يصبر؛ لأن الرجوع قبل لقاء العدو لا يؤثر كتأثيره حال لقاء العدو، فلما كان هذا هو الصلاح قبل مقاتلة العدو لا جرم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾[3].

الثاني: أنه تعالى ابتلاهم ليتعودوا الصبر على الشدائد.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ فيه سد للذرائع؛ لأن أدنى الذوق يدخل في لفظ الطعم، فإذا وقع النهي عن الطعم فلا سبيل إلى وقوع الشرب ممن يتجنب الطعم. ولهذه المبالغات لم يأت الكلام «ومن لم يشرب منه»[4].

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ مفهومه أن من طعمه ليس منه؛ ليعلم السامعون أن المغترف غرفة بيده هو كمن لم يشرب منه شيئًا، وأنه ليس دون من لم يشرب في الولاء والقرب[5].

روي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما أن القوم شربوا على قدر يقينهم. فشرب الكفار شرب الهيم، وشرب العاصون دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفًا، وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئًا، وأخذ بعضهم الغرفة، فأما من شرب فلم يرو، بل برح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله، وكان أجلد ممن أخذ الغرفة[6].

ثانيًا: قوم ثمود:

أرسل الله صالحًا عليه السلام إلى قومه

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٦٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٣٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٥٠٩.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٣٤.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٩٧.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٤٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٣٤.

ثمود، فدعاهم صالح إلى عبادة الله وحده، وأن يطيعوه فيما بلغهم من رسالة ربهم فأبوا وكذبوا، وكانت البشرية جيلًا بعد جيل تطلب خارقة معجزة من الرسول تدل على أنه حقًا مرسل من الله: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وهكذا طلبت ثمود تلك الخارقة، اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وهو أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء صفتها كذا وكذا، فما كان منه إلا أن أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام، فصلى، ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء، على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم، وكفر أكثرهم[(١)]، ووصاهم صالح عليه السلام بأمرين:

الأول: قوله: ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

أي: لها حظ ونصيب من الماء، ولكم نصيب من الماء، فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموا على شربها[(٢)].

والثاني: قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

فابتلاهم الله بهذا الابتلاء، وأخبر في سورة القمر عن كيفية ذلك الابتلاء فقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٧ - ٢٨].

وقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ﴾ التعريف في الماء للعهد، أي ماء: القرية الذي يستقون منه، فإن لكل محلة ينزلها قوم ماء لسقياهم[(٣)].

وأخبر عن الماء بأنه قسمة، والمراد مقسوم، فهو من الإخبار بالمصدر للتأكيد والمبالغة[(٤)].

وضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائد إلى معلوم من المقام بعد ذكر الماء؛ إذ من المتعارف أن الماء يستقي منه أهل القرية لأنفسهم وماشيتهم، ولما ذكرت الناقة علم أنها لا تستغني عن الشرب، فغلب ضمير العقلاء على ضمير الناقة الواحدة، وإذ لم يكن للناقة مالك خاص أمر الله لها بنوبة في الماء[(٥)].

قال قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وشربهم في اليوم الذي لا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٢٥.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٥٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٩/ ٢٠٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٠٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

تشرب[1].

وقال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم فيشربون، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون[2]. فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئًا، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئًا[3].

وهذا مبدأ الفتنة، فإن الناقة كانت في يوم شربها تشرب ماء البئر كله، فشحوا بذلك وأضمروا منعها عن الماء، فأبلغهم صالح أن الله ينهاهم عن أن يمسوها بسوء[4].

وقد جعلت القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر؛ لأن حيوانات القوم كانت تنفر منها، ولا ترد الماء وهي عليه، فصعب ذلك عليهم[5].

والمحتضر بفتح الضاد، اسم مفعول من الحضور وهو ضد الغيبة. والمعنى: محتضر عنده ، فحذف المتعلق لظهوره. وهذا من جملة ما أمر رسولهم بأن ينبئهم به، أي : لا يحضر القوم في يوم شرب الناقة، وهي بإلهام الله لا تحضر في أيام شرب القوم[6].

فمكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر ترد الماء، وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شربًا وريًا، ولكن ثمود لم يصبروا على الابتلاء، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالؤوا على قتلها وعقرها، وأهلكهم الله بسبب عنادهم وكفرهم وعصيانهم، كما أخبر القرآن.

(١) انظر: الدر المنثور ٦/ ٣١٦ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٤٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٣٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٠٠.
(٥) تفسير المراغي ٢٧/ ٩١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٠٠.

أحكام تتعلق بالشرب

بعد تأمل لما ورد في حديث القرآن عن الشرب، نتلمس بعض الأحكام المتعلقة بالشرب، ومنها:

١. عدم التحليل والتحريم بالأهواء.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥-١١٧].

فالآية الأولى نصت على بعض المحرمات، ومنها تناول الدم، ثم تبين الآيات أن ذلك حد الحلال والحرام الذي شرعه الله في المطعومات، فلا تخالفوه اتباعًا لأوهام الوثنية، ولا تقولوا للكذب الذي تصفه ألسنتكم وتحكيه: هذا حلال وهذا حرام. فهذا حلال وهذا حرام حين تقولونها بلا نص هي الكذب عينه، الذي تفترونه على الله. فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله، فهما تشريع. والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر، وما يدعي أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر، والمفترون على الله لا يفلحون، وليس لهم إلا المتاع القليل في الدنيا، ومن ورائه العذاب الأليم، والخيبة والخسران[١].

وفي وصف ألسنتهم الكذب، مبالغة في وصف كلامهم بالكذب، حتى لكأن ماهية الكذب كانت مجهولة، فكشفت عنها ألسنتهم ووضحتها، ووصفتها، ونعتتها بالنعوت التي جلتها[٢].

والآية وإن كانت واردة في سياق تحريم بعض المطعومات والأشربة، إلا أنها عامة، كما قال ابن كثير: «ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم الله، أو حرم شيئًا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه»[٣].

فالآيات فيها بيان أن التحليل والتحريم حق لله، وليس لغيره، والذي يشرع بتحليل أو تحريم من نفسه مدع، ومفتر، وكذاب، وليس له إلا العذاب الأليم؛ جزاء تعديه على حق الله.

٢. الشكر.

نعم الله تعالى تترادف على عباده، وقيدها الشكر، وقد أمر الله عباده بالشكر وحضهم عليه في كثير من آيات القرآن، والمراد بالشكر: أن يواظب العبد على شكر

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٠٠.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٥٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٩.

ربه، وعلى المداومة على ما يرضيه، وعلى استعمال النعم فيما خلقت له.

ومن النعم التي يجب شكر الله عليها نعمة الشرب والأشربة التي أباحها الله لعباده، وقد ورد الحث على الشكر في غير آية من الآيات التي تحدثت عن نعمة الشرب.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

وهذه الآيات فيها عدد من النعم، فيها نعمة الماء وإنزاله من السحاب، ونعمة شربه، ونعمه كونه عذبًا فراتًا، لم يجعله الله ملحًا، فبعد أن عدد الله على عباده النعم في هذه الآيات، حثهم على الشكر فقال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلا شكرتم الله على هذه النعم الجليلة، التي هي ملاك حياتكم وحياة زروعكم، وحيواناتكم؟ وأخلصتم له العبادة والطاعة، ووضعتم نعمه في مواضعها؟ وكل نعمة من النعم المذكورة في الآيات تستحق الشكر بذاتها.

والملاحظ في هذه الآيات أن الله ذكر الشكر في الشرب، ولم يذكره في الطعام في الآيات السابقة في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٥].

وحكمة ذلك تتجلى فيما يأتي:

- أن في المأكول قال: ﴿تَحْرُثُونَ﴾ فأثبت لهم سعيًا فلم يقل: تشكرون، وقال في الماء: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ لا عمل لكم فيه أصلًا فهو محض النعمة فقال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.
- النعمة لا تتم إلا عند الأكل والشرب، ألا ترى أن في البراري التي لا يوجد فيها الماء لا يأكل الإنسان شيئا مخافة العطش، فلما ذكر المأكول أولًا وأتمه بذكر المشروب ثانيًا قال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ على هذه النعمة التامة[1].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في امتثال أوامر القرآن، فقد ورد أنه إذا شرب الماء قال: (الحمد لله الذي سقانا عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا)[2].

وفي ذلك تعليم لأمته أن تقتدي به في شكر نعمة الشرب وغيرها.

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٢٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٩٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء رقم ٨٩٩، ص٢٨٠، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٣٧، وهو مرسل.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ٤٤٢٢.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

فقد ذكر الله عباده في هذه الآيات بعدد من النعم من خلق الأنعام، وتمليكها لهم، وتسخيرها للركوب والأكل، وشرب ألبانها، وغير ذلك من المنافع، ثم حضهم على شكر هذه النعم وغيرها فقال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أفلا يشكرون هذه النعم التي توجب العبادة شكرًا، ولو شكرتم لزادكم من فضله، ولو كفرتم لسلبها منكم، فما قولكم؟ أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها؟[1].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استفهام تعجيبي لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم المتعددة[2].

وجيء بالفعل المضارع ﴿يَشْكُرُونَ﴾ المفيد للتجديد والاستمرار؛ لأن تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين[3].

يقول سيد قطب: «﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم، فإنه يحس لتوه أنه مغمور بفيض من نعم الله، فيض يتمثل في كل شيء حوله، وتصبح كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل قطعة من لحم، أو يشرب جرعة من لبن، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن،، لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته. ويطرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله، وكل ما يستخدمه من حي أو جامد في هذا الكون الكبير. وتعود حياته كلها تسبيحًا لله وحمدًا وعبادة آناء الليل وأطراف النهار ، ولكن الناس لا يشكرون»[4].

والآيات السابقة تتجلى هداياتها في بيان أن الشرب نعمة عظمى من نعم الله على خلقه، وأنه يجب مقابلة هذه النعم بالشكر والاعتراف بمنعمها، وتسخيرها في طاعته.

٣. عدم الإسراف.

نهى الله عباده عن الإسراف في كل أمور حياتهم، ومما ورد النهي فيه عن الإسراف موضوع الشرب، فقد قال تعالى آمرًا عباده بالأكل والشرب من الطيبات، ناهيًا عن الإسراف: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

والإسراف: تجاوز الحد المتعارف في الشيء[5]. والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي، والشره في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه في المآكل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام[6].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٠٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦٧.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٧٥.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٩٢.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٧.

وقد بغض الله تعالى الإسراف للناس ببيان أنه سبحانه لا يحبه ولا يرضاه لعباده فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ لأن الإسراف يؤدي إلى إضرار أبدانهم، وحرمان لغيرهم، وضياع لذوي الحاجة في الجماعة الإسلامية، كما قال ابن عباس: ما من مسرف إلا ووراءه حق مضيع. وقد أكد سبحانه وتعالى بغضه للإسراف بنفي المحبة، ومحبة الله مطلب المؤمنين[1].

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ هذا الأمر المقيد بما عطف عليه من النهي، إرشاد عال أيضًا فيه صلاح للبشر في دينهم ومعاشهم ومعادهم، لا يستغنون عنه في وقت من الأوقات، ولا عصر من الأعصار، وكل ما بلغوه من سعة العلم في الطب وغيره لم يغنهم عنه، بل هو يغني المهتدي به في أمره ونهيه عن معظم وصايا الطب لحفظ الصحة[2].

قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[3].

وقال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة[4].

والآية تظهر هدايتها في لفت أنظارنا إلى الترشيد وعدم الإسراف، وهكذا علمتنا سنة المصطفي صلى الله عليه وسلم قولًا وعملًا.

٤. عدم العتو والإفساد في الأرض.

أنعم الله على عباده بالنعم الكثيرة ليستعملوها في عمارة الأرض، وطاعة ربهم، ونهى الله عباده عن استغلال النعم في العتو والإفساد في الأرض، وقد ورد النهي عن ذلك أيضًا في حديث القرآن عن الشرب، فقال تعالى في قصة بني إسرائيل: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

فالآية تذكر حال بني إسرائيل، وما أنعم الله عليهم من النعم، ومنها نعمة الأكل والشرب، ثم نهاهم عن العتو والإفساد، أي: لا يكون شكركم على النعمة بالإفساد في الأرض، فتتحول النعم التي بين أيديكم إلى نقم، وتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

والنهي متوجه إلى بني إسرائيل خصوصًا؛ لأن النعمة إذا كثرت على أمثال

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٢٨١٨.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤١.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٢٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا في كتاب اللباس، ٧/ ١٤٠.

بني إسرائيل كانت مظنة الفساد[1].

والنهي وإن كان متوجهًا لبني إسرائيل، إلا أنه نهي للبشرية جميعًا؛ فإن النعمة قد تنسي العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع في الفساد.

والآية ترشدنا إلى أن حق النعمة مقابلتها بالشكر، وعدم تسخيرها في الفساد والإفساد، والبطر والتكبر.

٥. التفكر والاعتبار.

أمر الله عباده في آيات كثيرة بإعمال العقول والتفكر في نعم الله، للوصول إلى معرفة الله وعبادته، ومن النعم التي أمر الله عباده بالتفكر فيها نعمة الماء وشربه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١١].

في كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف ورحمته، حيث جعل فيه ماء غزيرًا، منه يشربون وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة[2].

فقد ختم الله الآية بالتفكر للحض على التفكر والتأمل في عظيم قدرته سبحانه؛ حتى يصل المتأمل إلى إخلاص العبادة له عز وجل.

وفي الآية تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بما في ذلك من دلالة على تفرد الله بالإلهية بأنهم قوم لا يتفكرون[3].

يقول سيد قطب: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تدبير الله لهذا الكون، ونواميسه المواتية لحياة البشر، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته، موافقة لفطرته، ملبية لحاجاته. وما هي بالمصادفة العابرة أن يخلق الإنسان في هذا الكوكب الأرضي، وأن تكون النسب بين هذا الكوكب وغيره من النجوم والكواكب هي هذه النسب، وأن تكون الظواهر الجوية والفلكية على ما هي عليه، ممكنة للإنسان من الحياة، ملبية هكذا لحاجاته على النحو الذي نراه.

والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار، وبين النواميس العليا للوجود، ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٢٤٨.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٣٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١١٥.

ووحدانية تدبيره. أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية في الصباح والمساء، في الصيف والشتاء، فلا توقظ تطلعهم، ولا تثير استطلاعهم، ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد»[1].

والآيات فيها حث على ضرورة التفكر والتأمل في نعمة الشرب، وما يكتنفها من النعم؛ وصولًا من وراء ذلك إلى وحدانية الخالق وعبادته، والإيمان بقدرته وإبداعه.

مشروبات أهل الجنة وصفة شربها

الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله لعباده المؤمنين، وقد أعد الله لهم فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأنواع النعيم في الجنة لا حصر لها ولا عدد، ومن هذا النعيم مشروبات أهل الجنة، وقد ذكر الله في كتابه عددًا من مشروبات أهل الجنة، وصفة شربهم، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: مشروبات أهل الجنة:

أخبرنا الله أن في الجنة أنهارًا، وعيونًا، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥].

ومن هذه الأنهار والعيون تأتي أشربة أهل الجنة، وهذه الأشربة لا حصر لها ولا عدد، فقد قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩].

فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثرتهما، وهذا ما يعبر عنه بأن حذف المتعلق يفيد العموم، وقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص: ٥١].

أي: بألوان متنوعة متكثرة من الفواكه،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٦٢.

وشراب كثير، فحذف «كثير» لدلالة الأول عليه[1]، وخص الشراب والفاكهة من بين ما يتنعم به فيها، لأن بلاد العرب قليلة الفواكه والأشربة، فالنفس إليها أشوق، وفي ذكرها أرغب، كما أن في ذلك إيماء إلى أن مطاعمهم وشربهم للتغذي والتفكه والتلذذ[2]. وتنوين ﴿وَشَرَابٍ﴾ هنا للتعظيم والتنويع.

وقد نص القرآن على بعض مشروبات أهل الجنة، وهذا بيانها:

١. الماء.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وسبب اختيار الأنهار من الأجناس الأربعة: لأن المشروب إما أن يشرب لطعمه فألذها: الحلو وهو متمثل بالعسل، والدسم متمثل باللبن، وإما لأمر غير عائد إلى الطعم: متمثلًا بالماء والخمر[3].

وهذه الأصناف المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه، ومن أعز ما يتيسر الحصول عليه، فكيف الكثير منها، فكيف إذا كان منها أنهار في الجنة. وتناول هذه الأصناف من التفكه الذي هو تنعم أهل اليسار والرفاهية[4].

ويبدأ الله بالماء في الآية التي تتحدث عن أنهار الجنة لأن أهل الدنيا لا يستغنون عنه بأي حال من الأحوال[5].

وبما أن الجنة لا تشابه الدنيا فقد ذكر الله تعالى صفة الماء في الجنة بقوله: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ يقال: أسن الماء، وأسن يأسن: إذا تغير ريحه تغيرًا منكرًا[6]، والمعنى: أي غير متغير، لا بوخم، ولا بريح منتنة، ولا بحرورة ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها وأطيبها ريحًا وألذها شربًا[7].

وقد قرأ ابن كثير: (غير أسن) والمقصود به: الإخبار به عن الحال، وقرأ الجمهور: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ يريد به أن يكون كذلك في المستقبل[8]، فالمراد من القراءتين بيان أن ماء الجنة لا يتغير لا في الحال ولا في المستقبل، وإنما هو ماء طيب لذيذ، تشتهيه النفوس.

وقد وصف الله الأنهار بأنها جارية،

(١) فتح البيان، القنوجي ١٢/ ٥٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٣/ ١٣٠.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٤٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٩٦.
(٥) روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ٤٨.
(٦) المفردات، الراغب ١/ ١٨.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٦/ ٤٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٣٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٦.
(٨) انظر: الحجة للقراء السبعة، الفارسي ٦/ ١٩١.

ومعلوم أن الماء الجاري لا يأسن، فالفائدة من قوله: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الماء الجاري وإن كان لا يأسن، فإنه إذا أخذ منه شيء وطال مكثه أسن، وماء الجنة لا يعرض له ذلك، ولو طال مكثه ما طال[1].

ووصف الله ماء الجنة بقوله: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣١].

أي: جارٍ في منازلهم، من غير أخدود، ولا يحتاجون فيه إلى جلب من الأماكن البعيدة، ولا الإدلاء في بئر[2].

٢. اللبن.

قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمد: ١٥].

ذكر اللبن بعد الماء لأنه يجرى مجرى المطعوم لكثير من العرب في غالب أوقاتهم[3]. وقد نفى الله عز وجل آفة اللبن، وهي فساده بتغير طعمه إلى الحموضة كما تتغير ألبان الدنيا؛ لأنهم كانوا إذا حلبوا وشربوا أبقوا ما استفضلوه إلى وقت آخر؛ لأنهم لا يحلبون إلا حلبة واحدة أو حلبتين في اليوم، فيقع في طعم اللبن تغير[4]. بل هو في غاية البياض، والحلاوة، والدسومة[5].

٣. الخمر.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

وذكرها بعد الماء واللبن لأنه إذا حصل الري والشبع تشوفت النفس لما يستلذ به[6].

وقال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ للإشعار بأنها لذيذة لجميع من يشربونها، بخلاف خمر الدنيا؛ فإن من الناس من ينفر منها ويعافها حتى ولو كان على غير دين الإسلام[7].

ونفى القرآن عن خمر الآخرة ما هو موجود في خمر الدنيا، فليس فيها حموضة ولا مرارة، ولم تدنسها الأرجل بالدوس، ولا الأيدي بالعصر، وليس في شربها ذهاب عقل ولا صداع ولا وجع بطن، ولا آفة من آفات الخمر، بل خمر الآخرة لذيذة لهم، طيبة الشرب، لا يتكرهها الشاربون بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب، وخمر الآخرة لمجرد الالتذاذ، وتفريح الطبع، وقد تكون سببًا في تقوية البدن، تعويضًا عن خمور الدنيا، وخمر الآخرة حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل[8]. قال تعالى:

(١) حادي الأرواح، ابن القيم ص٣٧٢.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٤٠٩.
(٣) تفسير المراغي ٢٦/ ٥٧.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٢٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٨١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٣.
(٦) تفسير المراغي ٢٦/ ٥٧.
(٧) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٢٣٠.
(٨) انظر: فتح البيان، القنوجي ١٣/ ٦٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٣، تفسير المراغي ٢٦/ ٥٧.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥-٤٧].

وقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩].

وقال: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣].

قال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله خمر الجنة، فنزهها عن هذه الخصال[١].

وقد أخبر الله أن خمر الجنة تمزج بالكافور فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٦].

والكأس في اللغة: هو الإناء الذي فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسم كأسًا، بل هو إناء، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر[٢].

والآية تخبرنا أن الأبرار وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم، واستعملوها بأعمال البر، أخبر أنهم ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور، أي: خلط به ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور في غاية اللذة قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا، فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة[٣]. وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يشقونها شقًا، كما يفجر الرجل النهر هاهنا وهاهنا إلى حيث يريد. وقال مجاهد: يقودونها حيث شاءوا، وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم[٤].

هذه أقوال تتعاضد على أن المراد بالكأس والشارب في الآية هي الخمر، لكن ما المانع أن يشمل الشراب غير الخمر؛ خاصة إذا كان الحديث عن نعيم أهل الجنة، فلهم أن يشربوا ما شاءوا مما أعده الله لهم؟!

وقد اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ هل هي اسم عين في الجنة أم أن ماء هذه العين ببرد الكافور أو ريحه أو طعمه؟

قال الحسن: «ببرد الكافور وطعم الزنجبيل»[٥]. وقال قتادة: «المقصود ريح الكافور»[٦]. وقال السدي: «كأن طعمه طعم الكافور»[٧]. وقال عطاء: «إن ماء

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢١١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٣.
(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ١٤/ ٤٦٠.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٠١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٩٦.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٧٥.
(٦) المصدر السابق.
(٧) المصدر السابق.

تلك العين يسمى كافورًا»[1]. وقد ذهب الرازي إلى: «أن ماء ها في بياض الكافور ورائحته وبرده، ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرته، فالمعنى من ذلك الشراب: يكون ممزوجًا بماء هذه العين»[2]. وجمع أبو السعود والألوسي بين هذه الآراء فقالا: ﴿كَافُورًا﴾ أي: ماء كافور، هو اسم عين في الجنة، ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده»[3].

وأخبر تارة أن الخمر تمزج بالزنجبيل، فقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧-١٨].

والمعنى أن أهل الجنة يسقون في الجنة كأسًا من الخمر ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزيج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته، وقال مقاتل : هو زنجبيل لا يشبه الدنيا، أي : يلذع الحلق فتصعب إساغته.

قلت: وكذلك ما في الجنان من الأشجار والثمار والقصور والنساء والحور والمأكولات والأشربة والملبوسات لا يشبه ما في الدنيا إلا في مجرد الاسم، لكن الله سبحانه وتعالى يرغب الناس ويطمعهم بأن يذكر لهم أحسن شيء وألذه وأطيبه مما يعرفونه في الدنيا لأجل أن يرغبوا ويسعوا فيما يوصلهم إلى هذا النعيم المقيم[4]. وسميت هذه العين سلسبيلًا، قيل: إنها سلسلة يصرفونها حيث شاءوا[5]. وقيل: لأنها تنسل عليهم في مجالسهم وغرفهم وطرقاتهم[6]. وقيل: لأنها سلسلة السبيل، أي : حديده جديدة الجدية تسيل في حلوقهم انسلالًا[7].

وقد تعاضدت كلمة المفسرين على أن المراد بالشراب هنا الخمر أيضًا ، لكن قد يشمل الشراب غير الخمر، كما سبق بيانه.

وعن حكمة مزج الخمر بالكافور في الآية الأولى، وبالزنجبيل في هذه الآية يقول ابن القيم: «فأخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المقربون صرفًا، إن شراب الأبرار يمزج منها؛ لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله، فأخلص شرابهم، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم»[8]. وقال ابن كثير: «فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار؛ ليعتدل الأمر»[9].

وقد يوهم أن شربهم من هذه الكأس الممزوجة بالكافور والمسك قد تؤثر

(١) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٠٠.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٠، روح المعاني، الألوسي ٢٩/ ٥٠.
(٤) فتح البيان، القنوجي ١٤/ ٤٧١.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٩/ ٥٠.
(٦) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٦٠.
(٧) تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة ٤/ ٨٠.
(٨) حادي الأرواح، ابن القيم ص٣٨٢.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٠.

في عقولهم، فقال واصفًا هذا الشراب ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

فهذا احتراس مما يوهمه شربهم من الكأس الممزوجة بالكافور والزنجبيل من أن يكون فيها ما في أمثالها المعروفة في الدنيا، ومن الغول وسوء القول والهذيان، فعبر عن ذلك بكون شرابهم طهورا بصيغة المبالغة في الطهارة، وهي النزاهة من الخبائث، أي : منزهًا عما في غيره من الخباثة والفساد، وللإشعار بأن هذا الشراب قد بلغ النهاية في الطهارة[١].

وأسند سقيه إلى ربهم إظهارًا لكرامتهم، أي: أمر هو بسقيهم ، كما يقال: أطعمهم رب الدار وسقاهم[٢].

وفي آية أخرى وصف الله شراب أهل الجنة من الخمر فقال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥-٢٦].

والرحيق: اسم للخمر الطيبة الصافية، الخالية من كل ما يكدر أو يذهب العقل. وهذه الخمر مختوم على إنائها بخاتم، بحيث لم تمسها يد قبل أيديهم. وهذه الخمر-أيضًا- من صفاتها أن شاربها يجد في نهاية شربها ما يشبه المسك في جودة الرائحة[٣].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٤٠٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٣٢٦.

الجمع بين موهم الاختلاف:

قال الله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥].

وقال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥].

والنهر لا يختم عليه، فكيف الجمع بين الآيتين؟ طريق الجمع بينهما أن المذكور في سورة المطففين في أوانٍ مختوم عليها؛ لشرفها ونفاستها، وهي غير تلك الخمر التي في الأنهار[٤].

٤ . العسل.

قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

في غاية الصفاء وحسن اللون، والطعم، والريح[٥]. والعسل يشوب أجزاؤه من الشمع والشوائب وغيرها ما هو موجود في عسل أهل الدنيا[٦].

وسبب ذكره في نهاية الحديث عن أنهار الجنة؛ لما فيه من الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم، فهو متأخر بالرتبة[٧].

قال ابن القيم: «ثم تأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل أشربة

(٤) انظر: فتح البيان، القنوجي ١٥/ ١٣٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٧.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٦/ ٤٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٦/ ٤٨.
(٧) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ٤٨، تفسير المراغي ٢٦/ ٥٧.

الناس، فهذا لشرابهم وطهورهم، وهذا لقوتهم، وهذا للذتهم وسرورهم، وهذا لمنفعتهم»[1].

والآيات التي تحدثت عن شراب أهل الجنة تتجلى هداياتها في بيان عظيم نعمة الله على أهل الجنة، وأن إيمانهم كان سببًا في نيلهم هذه المكانة العظمى، كما فيها تحفيز وتشويق النفوس لهذا النعيم.

ثانيًا: صفة شراب أهل الجنة:

كما ذكر القرآن أشربة أهل الجنة، وعدد أنواعًا منها، فقد ذكر أيضًا صفة شربهم؛ بيانًا لهذا النعيم، وتشويقًا للنفوس، وصفة شراب أهل الجنة هي:

١. شراب هنيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٧-١٩].

فتخبرنا الآيات بأن الذين اتقوا ربهم لهم جنات ونعيم، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ووقاهم عذاب الجحيم، فرزقهم المحبوب، ونجاهم من المرهوب؛ لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه ويأباه، ويقال لهم وهم في هذا النعيم: كلوا واشربوا مما تشتهيه أنفسكم، من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة، متهنئين بتلك المآكل والمشارب على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور[2].

والهنيء: كل ما لا يلحق فيه مشقة، ولا يعقب وخامة، ولا تنغيص فيه، ولا نكد، ولا كدر، ولا أذى[3].

وقوله: ﴿هَنِيئًا﴾ إشارة إلى خلو الأكل والشرب عما يكون فيها من المفاسد في الدنيا، منها: أن الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام.

ومنها: أنه يخاف النفاد فلا يسخو بالأكل، والكل منتفٍ في الجنة فلا مرض ولا انقطاع، فإن كل أحد عنده ما يفضل عنه. ولا إثم ولا تعب في تحصيله؛ فإن الإنسان في الدنيا ربما يترك لذة الأكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب أو المنة، أو ما فيه من قضاء الحاجة واستقذار ما فيه، فلا يتهنأ، وكل ذلك في الجنة منتفٍ.

ومنها: أنهم أمنوا من الموت، فلا يفوتهم هذا النعيم؛ فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص، وذلك منتفٍ في الجنة[4].

(١) انظر: حادي الأرواح، ابن القيم ص٣٧٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٦٥، روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٢.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٠٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٦٥.

فالملاحظ أن قوله: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ قد جمع كل أنواع اللذة والفرح والسرور والبهجة والحبور لأهل الجنة، وفوق ذلك أن هذا الطعام والشراب فيه تكريم لأهل الجنة ، فينادون هذا النداء العلوي ، ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا بذاته لذة ومتعة ونعيم يفوق كل نعيم.

٢. شراب لذيذ.

من أوصاف شراب أهل الجنة أنه لذيذ، وقد جاء هذا في وصف خمر الجنة، فقال ربنا: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦].

وقال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل هي حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل[(١)].

وقال: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص، فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر، فقال: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسرهم، ولأن الخمر كريهة الطعم، فقال: ﴿لَذَّةٍ﴾ أي: لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعم[(٢)].

وقد جاء وصف اللذة أيضًا مضمنًا في قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

فمن المفسرين من ذهب إلى تناوب الحروف، فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي : يشرب منها[(٣)]، ومنهم من ذهب إلى التضمين[(٤)]، فضمن ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يروى[(٥)]. والأولى أن يكون معنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يتلذذون بها؛ لأن أهل الجنة لا يظمؤون، وإنما ينشدون من الشرب المسرة، ويطلبون اللذة والاستمتاع. والله أعلم.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٤٦.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٧٠.
(٤) التضمين: أن يدل بكلمة واحدة على معنى كلمتين.أو إعطاء الشيء معنى الشيء. انظر: الإتقان للسيوطي ٣/ ١٣٦.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٢٦.

مشروبات أهل النار وصفة شربها

النار دار العقاب التي أعدها الله للكفار والعصاة، وقد أعد فيها من العذاب أنواعًا، ومن أنواع العذاب في جهنم شراب أهل النار، وقد ذكر القرآن أنواعًا من شراب أهل النار، ووصف شربهم، وفيما يأتي بيان ذلك.

أولًا: مشروبات أهل النار:

ذكر القرآن عددًا من أشربة أهل النار، منها:

١. الحميم.

وقد ذكره القرآن في عدة آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩-٢٠].

وقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

والحميم هو الماء الحار، الشديد الحرارة والغليان. فأهل النار يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم[(١)] الذي هو كالمهل، فإذا ملؤوا منه البطون يسلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم[(٢)]. وهذا الحميم قد وصفه الله بعدة أوصاف، وهي:

- يصهر البطون والجلود.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩-٢٠]. أي: يذيب ما في بطونهم، ويشوي جلودهم. قال ابن عباس: تسيل أمعاؤهم وتتناثر جلودهم. وقال أيضًا: يمشون وأمعاؤهم تتساقط وجلودهم، وقال: يسقون ماء إذا دخل في بطونهم أذابها، والجلود مع البطون[(٣)]. فهذا الحميم من شدته له أثر على ظاهر أهل النار وباطنهم.

- يقطع الأمعاء.

قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. فهذا الماء الحار يقطع أمعاءهم، أي: مصارينهم، فتخرج من أدبارهم لفرط حرارته[(٤)].

٢. الصديد.

قال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٦].

فالآيتان تخبرنا أن جهنم تنتظر هذا

(١) الزقوم: الزاء والقاف والميم أصيل يدل على جنس من الأكل، والزقوم طعام أهل النار. انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٦، جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٣.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٦٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٩٧، فتح البيان، القنوجي ٩/ ٢٩.

(٤) انظر: فتح البيان، القنوجي ١٣/ ٦٢.

الجبار العنيد، وتترصد له، وتتبعه حيث كان، بحيث لا يستطيع الفرار منها، أو الهرب عنها، ويلقى فيها من الأهوال ألوانًا وأشكالًا، ومن هذه الأهوال أنه يسقى من ماء مخصوص ليس كالمياه المعهودة، هو الصديد وهو ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم، وهو دم مختلط بقيح، يسيل من جلد الكافر ولحمه. وقال مجاهد: هو القيح والدم[(١)]. وقال محمد بن كعب القرظي: هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر[(٢)]. واشتقاقه من الصد، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته[(٣)].

وجعل الصديد ماء على التشبيه البليغ في الإسقاء؛ لأن شأن الماء أن يسقى. والمعنى: ويسقى صديدًا عوض الماء إن طلب الإسقاء[(٤)].

٣. المهل.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٥].

والمهل فيه أقوال: قال ابن عباس وابن مسعود: كل شيء أذبته من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المهل[(٥)].

وقال مجاهد: إنه الصديد والقيح. وقال سعيد بن جبير: إنه ضرب من القطران. قال ابن عباس وابن عمر: المهل ماء غليظ مثل دردي الزيت وعكره[(٦)].

وقال الضحاك: ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود، وشجرها أسود، وأهلها سود[(٧)].

قال الحسن: كان ابن مسعود على بيت المال لعمر بالكوفة، فأذاب يوما فضة مكسرة، فلما انماعت، قال: يدخل من بالباب، فدخلوا، فقال لهم: هذا أشبه ما رأينا في الدنيا بالمهل. قال مجاهد: ولو وقعت منها قطرة في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم[(٨)].

وقد ذكر القرطبي أن هذه الأقوال صحيحة ومرادة في معنى الآية[(٩)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٦١٨.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤١.
(٣) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ٩٧، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٧/ ١٦١، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٥٣٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢١١.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٥-٥٦.
(٦) انظر: المصدر السابق ٢١/ ٥٧.
(٧) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٦٧.
(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٧٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٩٤.
(٩) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٩٤.

واستغاثتهم يحتمل أن تكون لأنهم إذا طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل، ويحتمل أن يستغيثوا من حر جهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء[1].

وقوله: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ لأن المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة، وهذا يبلغ في احتراق الأجسام مبلغًا عظيمًا[2].

وقد ذكر الله لهذا المهل في القرآن أوصافًا، وهي:

- يشوي الوجوه.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فأهل النار حين يستغيثون من الظمأ لاحتراق أفئدتهم يغاثوا بماء كالمهل يشوي وجوهم ويذيبها من فرط حرارته.

- يغلي في البطون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٥].

والمعنى أن هذه الشجرة إذا طعمها الكافر في جهنم، صارت في جوفه تفعل كما يفعل المهل السخن من الإحراق والإفساد.

٤. الغساق.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

قال ابن عباس: غساق: الزمهرير[3].

قال محمد بن كعب: هو عصارة أهل النار. وقال السدي: الغساق الذي يسيل من دموع أهل النار يسقونه مع الحميم، وكذا قال ابن زيد[4].

وقال مجاهد ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده[5].

قال الربيع بن أنس: الغساق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه[6].

وقال: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤-٢٥].

أي: لا يذقون في جهنم بردًا يبرد حر السعير عنهم إلا الغساق، ولا شرابًا يرويهم من شدة العطش إلا الحميم، فهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة، أو ظل يمنع من نار، ولا يجدون شرابًا فيسكن عطشهم، ويزيل الحرقة من بواطنهم، ولكن يجدون الماء الحار المغلي، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق، وسائر الرطوبات المستقذرة.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٠.
(٢) المصدر السابق ٢١/ ٤٦٠.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٩٩.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٩٩.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٠٧.

والخلاصة: إنهم لا يذوقون فيها شرابًا إلا الحميم البالغ الغاية في السخونة، أو الصديد المنتن، ولا بردًا إلا الماء الحار المغلي[1].

يقول سيد قطب: «﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ثم يستثني فإذا الاستثناء أمر وأدهى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ إلا الماء الساخن يشوي الحلوق والبطون. فهذا هو البرد! وإلا الغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين ويسيل. فهذا هو الشراب!»[2].

٥. شراب من عين آنية.

قال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٤-٥].

أي: متناهية في الحر، والآني الذي قد انتهى حره، من الإيناء بمعنى التأخر، يقال: آناه يؤنيه إيناء، أي: أخره وحبسه[3].

والمعنى: إن أهل النار إذا عطشوا في تلك الدار وطلبوا ما يطفئ غلتهم، جيء لهم بشراب من هذه العين الآنية، بلغ من الحرارة غايتها، فهو لا يطفئ لهبًا، ولا ينقع غلة[4].

والقرآن لم يحدد نوع الشراب الذي يسقاه أهل النار من العين الآنية، فقد يكون ماء حميمًا، وقد يكون صديدًا، أو مهلًا، أو غير ذلك، وهذا من الأمور الغيبية، فنقف معه حيث وقف القرآن.

والآيات السابقة تبرز هداياتها في بيان شراب أهل النار وأوصافه؛ تفظيعًا لحالهم، وبيانًا لما هم فيه من شدة العذاب، وأن سبب دخولهم النار هو كفرهم برب العباد، كما تشير إلى تحذير الخلق من هذا المصير والجزاء.

ثانيًا: صفة شرب أهل النار:

وصف الله شرب أهل النار بوصفين، هما:

١. شرب الهيم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦].

فالآيات تخبرنا أن أهل النار بعد أكلهم شاربون بعد ذلك من ماء حار لغلبة العطش عليكم، ولكنه شرب لا يشفي الغليل، ومن ثم تشربون ولا ترتوون[5]، وشربكم لا يكون شربكم شربًا معتادًا بل شرب الهيم.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك: هو جمع أهيم، وهو الجمل الذي أصابه الهيام، بضم الهاء، وهو داء معطش يشرب معه الجمل حتى يموت أو يسقم سقمًا شديدًا.

(١) تفسير المراغي ٣٠/ ١٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٠٧.
(٣) فتح البيان، القنوجي ١٥/ ٢٠١.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ١٣٢.
(٥) تفسير المراغي ٢٧/ ١٤٣.

وقال قوم آخرون: هو جمع هائم وهائمة، وهذا أيضًا من هذا المعنى؛ لأن الجمل إذا أصابه ذلك الداء هام على وجهه وذهب، وقال سفيان الثوري وابن عباس: الهيم هنا الرمال التي لا تروى من الماء، وذلك أن الهيام بفتح الهاء هو الرمل الدق الغمر المتراكم[1].

أي: إن هذا الشراب الجهنمي يقبل عليه الذين أكلوا من هذا الطعام الزقومي، يقبلون عليه في سعار مجنون، أشبه بالإبل الهيم، أي : العطاش، التي حبست عن الماء أيامًا، فإذا وردت عليه عبت منه في نهم شديد، لتنقع غلتها، وتروي ظمأها.

وفي إقبال أهل هذا الطعام على هذا الشراب - إشارة إلى أن ما في بطونهم من لهيب، أشد من هذا الحميم، فهم يستشفون من داء بداء، ويستجيرون من بلاء ببلاء، ويطفئون النار بالنار![2].

وإعادة فعل (شاربون) لتأكيد تلك الصورة الفظيعة[3].

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ عطف على ﴿لَءَاكِلُونَ﴾ لإفادة تعقيب أكل الزقوم بشرب الهيم دون فترة ولا استراحة[4].

وإعادة ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ توكيد لفظي لنظيره، وفائدة هذا التوكيد زيادة تقرير ما في هذا الشرب من الأعجوبة ، وهي أنه مع كراهته يزدادون منه كما ترى الأهيم، فيزيدهم تقطيعًا لأمعائهم لإفادة التعجيب من حالهم تعجيبًا ثانيا بعد الأول، فإن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة أمر عجيب، وشربهم له كما تشرب الإبل الهيم في الإكثار أمر عجيب أيضًا، فكانتا صفتين مختلفتين[5].

وقوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ بيان لزيادة العذاب، أي : لا يكون أمركم أمر من شرب ماء حارًا منتنًا فيمسك عنه، بل يلزمكم أن تشربوا منه مثل ما تشرب الهيم، وهي الجمال التي أصابها العطش ، فتشرب ولا تروى، وهذا البيان في الشرب لزيادة العذاب[6].

وهذا العذاب وهذا الشراب ﴿نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ وفيه مبالغة بديعة؛ لأن النزل ما يعد للقادم عاجلًا إذا نزل، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة، فلما جعل هذا، مع أنه أمر مهول، كالنزل، دل على أن ما بعده لا يمكن لبشر تصوره[7].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٤٧.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٤/ ٧٢٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣١٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣١٠، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٧٣.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤١٤.
(٧) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٢٥.

والتعبير عما أعد لهم من عذاب بالنزل، على سبيل التهكم[1].

٢. التجرع وعدم الاستساغة.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧].

تخبرنا الآيات أن من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد تنتظره، ليسكنها مخلدًا فيها أبدًا، ويعرض عليها في الدنيا غدوا وعشيًا إلى يوم التناد. ثم بين شرابه فيها فقال: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي : ليس له في النار شراب إلا ماء يخرج من جوفه وقد خالطه القيح والدم، وخص بالذكر لأنه آلم أنواع العذاب، ثم ذكر ألمه من ذلك الشراب فقال: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي : يتحساه جرعة بعد جرعة، ولا يكاد يزدرده؛ من شدة كراهته، ورداءة طعمه ولونه، وريحه وحرارته[2].

والتجرع: التحسي، أي: يتحساه مرة بعد مرة، لا مرة واحدة؛ لمرارته وحرارته ونتنه وكراهته، وقيل: يكلف تجرعه ويقهر عليه، وقيل: إنه دال على المهلة، أي : يتناوله شيئًا فشيئًا[3].

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يقال: ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغًا إذا كان سهلًا، والمعنى: لا يقارب أن يسيغه ويبتلعه، فكيف يكون الإساغة؟ بل يغص به فيشربه جرعة بعد جرعة ، فيطول عذابه بالحرارة والعطش تارة، ويشربه على هذه الحالة أخرى، فإن السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولة وقبول نفس، ونفيه لا يوجب نفي ما ذكر جميعًا. وقيل: لا يكاد يدخله في جوفه، وعبر عنه بالإساغة لما أنها المعهودة في الأشربة، وقيل: إنه يسيغه بعد شدة وإبطاء[4].

وهو توكيد لشناعة هذا الصديد، وأنه لا يسوغه الشارب أبدًا، ولا يكون على أية درجة من درجات الإساغة ، وهذا أبلغ من أن يقال: «ولا يسيغه» ؛ لأن نفى الإساغة لا يقطع بأن تكون هناك درجة من درجات الإساغة في هذا الشراب، ولكن نظرًا لقلتها، فقد شملها النفي[5].

يقول سيد قطب: «يسقى من الصديد السائل من الجسوم. يسقاه بعنف فيتجرعه غصبًا وكرهًا، ولا يكاد يسيغه؛ لقذارته ومرارته، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات!»[6].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٢٥، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٧٣.
(٢) تفسير المراغي ١٣/ ١٣٨.
(٣) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ٩٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٧/ ١٦١.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٣.

لمسات إعجازية في الشرب

القرآن آية الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم التي تحدى بها البشر جميعًا، أن يأتوا بمثله في كل شيء، وقد اشتمل القرآن على وجوه كثيرة من الإعجاز، وفيه إشارات علمية مما لم يكن ليحيط به علم بشر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه، ثم يبقى الناس يكتشفون أسراره في الكون، والقرآن قد سبق به منذ دهر بعيد تصريحًا وتلويحًا، كان يتلوه على الناس نبي أمي، لم يدرس علوم الفضاء ولا البيئة ولا البحار ولا طبقات الأرض ولا الأجنة، لينبئ العالم أنه رسول رب العالمين، وأن هذا القرآن من علم الله الذي أحاط بكل شيء.

وقد أشار القرآن إلى بعض الإشارات العلمية في بعض الأشربة، وهذا بيانها:

أولًا: اللبن:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦].

هذه الآية اشتملت على بعض الإشارات الإعجازية العلمية في تكوين اللبن، وقيمته، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. مراحل تكوين اللبن من بين الفرث والدم.

الفرث: الطعام المتبقي في أمعاء الحيوان بعد هضمه. وأصل الفرث: التفتيت. يقال: فرثت كبده، أي: فتتها[(١)].

وقد فهم المفسرون من هذه الآية أن المقصود: نسقيكم من بين الفرث والدم الذي اشتملت عليه بطون الأنعام، لبنًا نافعًا لأبدانكم، خالصًا من رائحة الفرث، ومن لون الدم، مع أنه موجود بينهما سائغًا للشاربين بحيث يمر في الحلوق بسهولة ويسر، ويشعر شاربه بلذة وارتياح.

وقد استطاع العلماء حديثًا معرفة كيف يتكون اللبن في بطون الأنعام بعد اكتشاف أسرار الجهاز الهضمي، ومعرفة وظائف أعضائه، وبعد اكتشاف الدورة الدموية وعلاقتها بعملية امتصاص المواد الغذائية من الأمعاء ودخولها في الدم.

في هذه الآية الكريمة يلفت الله نظرنا إلى ظاهرة عجيبة تحمل لنا العبرة من قدرة الخالق، فاللبن الذي يعتبر من أهم الأغذية يخرج لنا من بطون الأنعام بصورة مدهشة.

مراحل تكون اللبن من بين الفرث والدم[(٢)]:

يتم تكوين اللبن في الأنعام بالتنسيق المحكم والتدرج الدقيق بين الجهاز

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٩٨.
(٢) انظر: إشارات إعجازية في تكوين لبن الأنعام، حامد عطية محمد ص٣١ وما بعدها، بحث منشور في موقع الهيئة العالمية للإعجاز.

الهضمي والجهاز الدوري والجهاز التناسلي عن طريق الغدد اللبنية في الضروع وغيرها من الأجهزة، حيث جعل الله لكل جهاز وظيفة وأعمالًا خاصة يقوم بها ليتكون - في نهاية المطاف - اللبن الخالص السائغ للشاربين.

ويمكن أن نجمل مراحل تكون اللبن كالآتي:

١. عملية الهضم في الكرش (تحول العلف إلى فرث).
٢. عملية استخلاص الأحماض الدهنية من بين الفرث.
٣. عملية استخلاص من بين الدم: ويتم تكوين اللبن بواسطة الغدد الثديية ،أو الضرع عن طريق عمليتين مهمتين:

- المرحلة الأولى: ترشيح بعض مكونات اللبن من مجرى الدم.
- المرحلة الثانية: تركيب مكونات اللبن الأخرى بواسطة التمثيل الغذائي الخلوي.

ويكفى أن نعلم أنه من أجل إنتاج لتر واحد من الحليب في ثدي الحيوان يجب أن يمر ما يقارب خمسمائة لتر من الدم خلال هذا العضو؛ كي يتم امتصاص المواد اللازمة من البروتينيات، والكربوهيدرات، والدهون، والعناصر والفيتامينات والهرمونات اللازمة لتكوين ذلك اللتر من اللبن.

وجه الإعجاز في تكوين اللبن:

ما كان أحد يعلم قبل اكتشاف أجهزة التشريح في القرنين الماضيين أسرار ما يجري في الجهاز الهضمي للحيوان، ووظائف ذلك الجهاز المعقد، وعلاقته بالدورة الدموية، ومراحل تكون اللبن في بطون الأنعام، فلما تكاملت صناعة الأجهزة والتجارب العلمية على مر قرون كثيرة عرف الإنسان أن مكونات اللبن تستخلص بعد هضم الطعام من بين الفرث، وتجري مع مجرى الدم لتصل إلى الغدد اللبنية في ضروع الإناث التي تقوم باستخلاص مكونات اللبن من بين الدم، دون أن يبقى أثر للفرث أو الدم في اللبن، وتضاف إليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن التي تجعله سائغًا للشاربين.

هذه الأسرار كانت محجوبة عن البشر فلم يكتشفوها إلا بعد رحلة طويلة من البحث والتجارب التي استغرقت قرونًا، لكن القرآن كشفها أمام قارئيه بأجمل عبارة وأوجز لفظ قبل ألف وأربعمائة عام[1]، وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها فضلًا على أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة.

والقرآن -وهو يعبر عن هذه الحقائق العلمية- يحمل أدلة الوحي من الله في خصائصه الأخرى لمن يدرك هذه

(١) انظر: المصدر السابق.

الخصائص ويقدرها، ولكن ورود حقيقة واحدة على هذا النحو الدقيق يفحم المجادلين المتعنتين.

٢. قيمة اللبن الغذائية.

امتن الله على عباده بأنواع الأشربة المباحة الكثيرة، وقد نص القرآن على بعض هذه الأشربة في سياق امتنان الله على عباده، وكون القرآن ينص على بعض الأشربة بعينها، فهذا يبين أهمية هذه الأشربة وفائدتها للإنسان، ومن هذه الأشربة: اللبن.

وقد أثبت العلم الحديث أن اللبن ذو قيمة غذائية مرتفعة، ويفي بالاحتياجات الغذائية في شكل ملائم ونسب متزنة، وأقرب إلى الكمال من أي غذاء آخر. والحقيقة أن اللبن أكمل الأغذية من الناحية البيولوجية، رغم أنه ينقصه قليل من العناصر الغذائية، ولكن رغم ذلك يعد أفضل من أي غذاء منفرد وحيد، ولا توجد أي مادة غذائية أخرى يمكن أن تقارن مع اللبن من حيث قيمته الغذائية المرتفعة؛ وذلك لاحتوائه على المواد الغذائية الأساسية الضرورية؛ التي لا يستغني عنها جسم الإنسان في جميع مراحل نموه وتطوره. فاللبن يعد من أفضل الأغذية للأطفال والناشئين، والبالغين والمسنين على السواء، فعلاوة على أنه ينفع الصغار في حياتهم ويكسبهم مناعة ضد كثير من الأمراض؛ فإنه أيضًا يفيد الكبار كثيرًا؛ لقيمته الغذائية المرتفعة.

القيمة الغذائية للبن:

يمد اللبن جسم الإنسان بمجموعة كبيرة جدا من العناصر والمركبات الغذائية الحيوية المهمة، ويمكن إيجاز ذلك في النقاط الآتية:

١. يعد اللبن موردًا مهمًا وجيدًا للبروتينات ذات القيمة الغذائية المرتفعة.
٢. توجد الأحماض الدهنية في اللبن بنسبة دقيقة جدا بحيث يسهل هضمها وتمثيلها في الجسم، ويحتوي دهن اللبن على كثير من المواد الحيوية المهمة.
٣. عدم وجود اللاكتوز إلا في اللبن فقط، ويمتاز سكر اللبن (اللاكتوز) عن غيره من الكربوهيدرات الأخرى بقدرته على التخمر الذي يعد ذا أهمية نافعة في التغذية، كما أنه يؤثر على غشاء المعدة المخاطي نظرًا لقلة ذوبانه.
٤. يعد اللبن مصدرًا مهمًا لكثير من الفيتامينات. وهي مواد تساعد على الاستفادة من الغذاء والوقاية من الأمراض.
٥. يكون الماء ما يقرب من (٨٥ ـ ٩٠) من ألبان الثدييات المختلفة، وبعض مكونات اللبن إما ذائبة في الماء،

مثل بعض الفيتامينات والأنزيمات واللاكتوز، أو على صورة معلقة بالماء مثل حبيبات الدهن أو جزيئات الكيزين. والماء له دور مهم وحيوي في حياة الإنسان حيث إن له وظائفه الفسيولوجية في الجسم الإنساني.

٦. يعتبر اللبن مصدرًا مهما من مصادر فيتامين (أ) الذي يعد مهما جدا في حياة الإنسان.

٧. يحتوي اللبن على نسبة لا بأس بها من فيتامين (د) وهذا الفيتامين يساعد على ترسب الكالسيوم والفوسفور في الجسم، أي : أنه يساعد على نمو العظام.

٨. يعد اللبن أحد المصادر الطبيعية الأساسية الغنية بالكالسيوم والفوسفور، وهما من الأملاح المعدنية الضرورية لجسم الإنسان؛ إذ إن هذه المعادن تدخل في تكوين الهيكل العظمي وتركيب الأسنان.

٩. يحتوي اللبن على كثير من الأنزيمات التي تساعد على هضم الطعام وامتصاصه[(١)].

هذا هو اللبن الذي أخرجه المولى بقدرته العظيمة من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، يجزئ الأصحاء ويكفيهم، ويقوي المرضى ويشفيهم ، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾

وجه الإعجاز:

ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أطعمه الله طعامًا، فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيرًا منه، ومن سقاه الله لبنًا، فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإني لا أعلم ما يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن)[(٢)].

وهذه الإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم يتجلى لنا منها بوضوح أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى قيمة اللبن الغذائية المتميزة في زمن لم يكن يدرك الناس وقتئذ تركيب اللبن، وما يحتوي عليه من عناصر ومركبات الغذاء الحيوية المهمة، التي لا تجتمع في شراب غيره. ثم لما تقدم العلم وتوفرت الأجهزة توصل العلماء

(١) انظر: الإعجاز العلمي في قيمة اللبن الغذائية علي أحمد علي الشحاتن ، مقال منشور على موقع الهيئة العالمية للإعجاز.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٩٧٨، ٢/ ٤٧٢، وأبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب ما يقول إذا شرب اللبن، رقم ٣٧٣٠، ٥/ ٥٦١، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما يقول إذا أكل طعامًا، رقم ٣٤٥٥، ٥/ ٥٠٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب اللبن، رقم ٣٣٢٢، ٤/ ٤٣٥ . وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤٥.

والباحثون إلى اكتشاف هذه المواد الغذائية التي يحتوي عليها اللبن من البروتينات والكربوهيدرات، والسكريات، والدهون، والمعادن والفيتامينات، وغير ذلك.

فمن أخبر محمدًا صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق في وقت كان يستحيل فيه على الإنسان أن يتوصل إلى ما توصل إليه اليوم؟ مما يدل دلالة قاطعة على أن محمدًا رسول الله، وأن ما أخبر به وذكره إنما هو بتعليم الله له: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

ثانيًا: العسل:

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

أخبر القرآن أن العسل فيه شفاء للناس، وجعل الشفاء مظروفًا في العسل على وجه الظرفية المجازية، وهي الملابسة؛ للدلالة على تمكن ملابسة الشفاء إياه[1].

وقد أثبت العلم الحديث ما أخبر به القرآن، من خلال مئات البحوث التي قام بها العلماء عبر التجارب، وتتجلى فوائد العسل فيما يأتي:

١. العسل عامل مهم لالتئام الجروح: فالعسل يمتلك خصائص مضادة للجراثيم في المختبر، كما أكد عدد من الدراسات السريرية أن استعمال العسل في علاج الجروح الملتهبة بشدة كان له الأثر الفعال في تطهير هذه الإنتانات الجرثومية والقضاء عليها، وعجل في شفاء الجروح.
٢. أهمية العسل في معالجة الحروق.
٣. استخدام العسل كضماد للجروح ،حيث يساعد في تنظيف الجروح، ولم يحدث أي تأثير جانبي لاستعماله في علاج تلك الجروح.
٤. العسل غني بمضادات الأكسدة، وهذه المضادات يمكن أن تزيد من مقاومة الجسم ضد الإجهاد.
٥. علاج أمراض الفم ، العسل يمكن أن يلعب دورًا في علاج أمراض اللثة، وتقرحات الفم، ومشكلات أخرى في الفم، وذلك بسبب خصائص العسل المضادة للجراثيم.
٦. العسل علاج لأمراض المعدة والأمعاء ، فالعسل فيه خاصية القضاء على الجراثيم التي تسبب التهابات المعدة والأمعاء.

وقد ورد هذا الأمر في السنة النبوية، فقد

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٠٩.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إن أخي استطلق بطنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اسقه عسلًا) فسقاه، ثم جاءه فقال: إني سقيته عسلًا فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: (اسقه عسلًا) فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صدق الله، وكذب بطن أخيك) فسقاه فبرأ)[1].

وجه الإعجاز في الشفاء بالعسل:

هذه الأسرار في الاستشفاء بالعسل كانت محجوبة عن البشر، فلم يكتشفوها إلا بعد رحلة طويلة من البحث والتجارب التي استغرقت قرونا، لكن القرآن كشفها أمام قارئيه بأجمل عبارة وأوجز لفظ قبل ألف وأربعمائة عام، ومن أخبر محمدًا صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق في وقت كان يستحيل فيه على الإنسان أن يتوصل إلى ما توصل إليه اليوم؟ فذلك دليل على صدق القرآن وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم، وسبحان من أودع في العسل هذا السر الإلهي ليكون إحدى الدلالات على عظمة الخالق عز وجل.

والحمد لله رب العالمين.

موضوعات ذات صلة:

الأكل، الأنهار، الخمر، الطعام، الماء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، رقم ٥٦٨٤، ٧/ ١٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب التداوي بالعسل، رقم ٢٢١٧، ٤/ ١٧٣٦.

الشر

عناصر الموضوع

مفهوم الشر	٢٢٢
الشر في الاستعمال القرآني	٢٢٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٢٤
حقيقة الشر	٢٢٦
ميادين الشر	٢٢٨
أنواع الشر	٢٣٧
التحصن من الشر	٢٤٠
موقف الإنسان إذا مسه الشر	٢٤٦
جزاء الأشرار	٢٤٩

مفهوم الشر

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الشين والراء أصل واحد يدل على الانتشار والتطاير»[1].

والشر خلاف الخير، وهو السوء والفساد، ومنه الشرر: وهو ما تطاير من النار ومفردها شررة، وشواء شرشار، أي: يتقاطر دسمًا[2]، ويقال: فلانٌ شَرَ فلانًا، أي: إذا عابه وشهره في الناس[3]، وشر الناس: بمعنى أكثرهم شرًا، وأصله أشر: على صيغة أفعل التفضيل ،حذفت منه الهمزة لكثرة الاستعمال، وعند التأنيث يقال: فلانة شرى، أي: أكثرهن شرًا، ورجل شرير، أي : كثير الشر ، والجمع أشرار[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للشر عن المعنى اللغوي فقد عبر العلماء عن اصطلاح الشر بقولهم: «هو عدم ملائمة الشيء الطبع»[5]، أي: أن الشر اسمٌ جامع للرذائل والخطايا، والسوء، والفساد، وكذلك المصائب والبلايا، كما جاء في معاجم اللغة.

(١) مقاييس اللغة، ٣/ ١٨٠.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٥٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ٤/ ٤٠٠.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٣٢.
(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٠٩، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي نكري ٢/ ١٥١.

الشر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (الشر) في القرآن الكريم(٣٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم (مفرد)	٢٩	﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء:٨٣]
اسم (جمع)	١	﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ [ص:٦٢]

وجاءت كلمة الشر في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو السوء، أو ما ينفر منه كل أحد[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٧٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٠٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ السّوء:

السّوء لغةً:

الشر والفساد وكل آفة، قال الكفوي في معناها: السوء جرى مجرى الشر، ويحمل معنى الشدّة والذنب والضر والفقر والزنا والشرك والهزيمة[١].

السوء اصطلاحًا:

كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والجارحة من فوات مالٍ وجاه وفقد حميم[٢].

الصلة بين الشر والسوء:

السوء والشر مترادفان إلى حد كبير؛ فالسوء تأتي بمعنى المنكرات والرذائل، وبمعنى البؤس وبمعنى المصائب والشدائد، وكل ذلك شرٌ بلا ريب. ولكن السوء أشد من الشر.

٢ المصيبة:

المصيبة لغةً:

تعني النائبة وكل أمر مكروه[٣]،وجاء في لسان العرب أنها تعني الشدة[٤].

المصيبة اصطلاحًا:

هي البلية وكل أمر مكروه[٥].

الصلة بين الشر والمصيبة:

الشر أعم و أشمل من المصيبة، فكل مصيبة شر، وليس كل شر مصيبة.

٣ الضّر:

الضّر لغة:

الشدة والضيق والنقصان يدخل في الشيء[٦].

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص٥٠٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٣٣.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٣٧٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٣٤.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: المصدر السابق ٤/ ٤٨٢.

الضر اصطلاحًا:

هي سوء الحال ، إما في النفس لقلة العلم والفضل والعفة ، وإما في البدن لعدم جارحة ونقص، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه [(١)]. (من باب والشيء بالشيء يذكر. أرى من الانسب هنا أن تتعرض للحديث بإيجاز عن الضر بفتح الضاد وما الفرق بينه وبين الضر بضم الضاد ففيه نكات ظريفة).

الصلة بين الشر والضر:

إن الشر دائمًا فيه الأذى والضرر، بينما الضر قد سيكون فيه خيرًا أحيانًا ، فشرب الدواء المر رجاء العافية ضرر يدخله الإنسان على نفسه وليس بشر.

٤ الخير:

الخير لغة:

الخير ضد الشر [(٢)].

الخير اصطلاحًا:

الخير ما يرغب فيه الكل ، كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع [(٣)].

الصلة بين الشر والخير:

مما سبق يتضح الفرق واضحٌ جليٌ بين الشر والخير؛ فالشر ضد الخير من كل الوجوه.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٨٢.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٢٣٨.
(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٣٤٨.

حقيقة الشر

كما أن لكل شيء حقيقة، فإن للشر حقيقة أيضًا من حيث علم الله بها، ومن حيث كونها حقيقة أو مظنونة، وفيما يلي بيان ذلك.

أولًا: علم الله بحقيقة الشر:

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم وحده كل شيء علمًا مطلقًا شاملًا ، وهذه حقيقة من شأنها أن تحدث في النفس رجة وهزة ، كما أنه يسكب في القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه.

وفي قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إثباتٌ لإحاطة علمه سبحانه وشموله للزمان والمكان للأشياء، وبيان لعجز المخلوقات ونقص علمهم إلا ما شاء الله أن يعلمه.

وإيمان المسلم بهذه الصفة لله عز وجل، واستحضارها في قلبه يجعله مراقبًا لربه دائمًا، مراعيًا لحدوده، سريع التوبة إليه إن أساء، وإدراكه لحقيقة نفسه ونعمة الله عليه فيما يعلمه إياه من الحقائق يجعله دائمًا شديد الشكر لله وبعيدًا عن الكبر والبطر[(١)].

والله تعالى وحده العالم بحقيقة الخير والشر ، قال عز وجل: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فكل إنسان -في تجاربه الخاصة- يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم، وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته، ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذًا من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه، وكم من محنة تجرعها الإنسان تكاد تتقطع لفظاعتها أوصاله ، ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل، إن الإنسان لا يعلم والله وحده يعلم، فماذا على الإنسان لو يستسلم؟ إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية لتؤمن وتسلم وتستسلم في أمر الغيب المخبوء بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف[(٢)].

ثانيًا: نسبية الشر:

١ . درجته ظنيته.

المقصود بنسبية الشر، ذلك أن الشر الموجود في هذا العالم ليس شرًا مطلقًا،

(١) انظر: الإيمان، محمد ياسين ص٢٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، قطب ١/ ٢١٩.

الشر المطلق ليس موجود إنما يوجد شر نسبي، أي: شر موظف للخير المطلق، يوجد فقر، آلام، هموم، أحزان، موت أقارب، هذه الشرور نسبية موظفة للخير المطلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١].

أي: لعلهم يتوبون إلى الله توبة صادقة فيسعدون بقربه ورحمته.

قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقد فصل الله تعالى هذا الشر في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

إذن يبتلينا الله بألوان الشرور ليختبرنا أنصبر أم نكفر، أنرضى أم نسخط، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فعليه السخط.

إذن هذا أمرٌ أساسي في العقيدة، يجب أن نعتقد اعتقادًا جازمًا أن الشر المطلق لا وجود له إطلاقًا، لكن هناك شرٌ نسبي، أي: بالنسبة للبشر، ولكنه في ذات الوقت موظف للخير المطلق.

٢. نماذج من القرآن الكريم من الشر المظنون.

- خروج المسلمين الذين خرجوا يوم بدر يطلبون عير قريش وتجارتها، ويرجون أن تكون الفئة التي وعدهم الله إياها هي فئة العير والتجارة، لا الفئة الحامية المقاتلة من قريش، ولكن الله جعل القافلة تفلت، ولقيهم المقاتلة من قريش، فكان النصر الذي دوى في الجزيرة العربية، ورفع راية الإسلام، فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذي أراده الله للمسلمين، أو أين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار الله لهم، والله يعلم، والناس لا يعلمون حقيقة الشر[1]؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].
- في قصة سيدنا موسى مع الخضر في سورة الكهف نرى كيف يمكن لأشياء هي شر في الظاهر أن تؤدي إلى خير كبير، حين قام الخضر بخرق السفينة وقتل الغلام، وإنشاء جدار بلا أجر، هذا كله شر في الظاهر ولكن في حقيقة الأمر ينطوي على خير عميم؛ قال الزحيلي: «إن الأحداث الثلاثة التي فعلها الخضر كانت من قبيل اختيار أهون الشرين، وأخف الضررين،

(١) انظر: في ظلال القرآن، قطب ١/ ٢١٧.

وتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، فهي وإن كانت مستنكرة في الظاهر، وحق لموسى عليه السلام إنكارها والاعتراض عليها، فهي خير في الحقيقة والواقع»[1].

ميادين الشر

إن للشر ميادين، من ولغ فيها ومضى في طريقها هلك إن لم يعاجل بالتوبة الصادقة، وفيما يلي سنلقي الضوء على بعضها للحذر من الوقوع في مسالكها.

أولًا: الكفر:

١ . الكافرون أكثر المخلوقات شرًا.

من أخطر ميادين الشر : الكفر، حيث يعد الكفر أساس كل شر، وقد وصف الله تعالى الكافرين بأنهم أكثر الناس شرًا بسبب كفرهم، وقد حذر الله تعالى عباده المؤمنين أن يسلكوا مسلكهم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٠-٢٣].

جاءت هذه الآيات بعد الحديث عن النصر المبين في غزوة بدر ليطلب الله عز وجل من المؤمنين مرشدًا إياهم للمداومة على طاعة الله وطاعة رسوله ؛ ليدوم له العز الذي حصل لهم ببدر ، ويحذرهم وينهاهم أن يكونوا كالكفار الذين سمعوا بآذانهم

(١) التفسير المنير ١٦/ ١٢.

دون قلوبهم ؛ لأن الغرض من السماع التدبر والاتعاظ، وإن شر الخلق وأسوأ الدواب التي تدب على وجه الأرض هم الصم البكم الذين لا يسمعون الحق ولا ينطقون به ، وهم الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر[1].

لطائف ودلالات من الآية:

- منتهى الإعجاز وقمة البلاغة في تشبيه الكفار بالبهائم، بل جعلهم الله شرًا منها، إذ إن الكافر لا يسمع الحق والبهائم لا تسمع، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقي أنه يضر والبهائم لا تضر ، فكيف لا يكون شرًا منها؟!.
- جاء بأسلوب التوكيد ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ للجملة الاسمية لتؤكد أن أخطر ميادين الشر هو الكفر والبعد عن الإيمان بالله تعالى.
- جاء تحذير المؤمنين من سلوك مسلك الكافرين في الإعراض عن كلام الله تعالى في آيات مدنية رغم أن الإيمان قد تغلغل في قلوبهم لم يكن ليدلل إلا على أن دوام هذا الإيمان في قلوبهم لا يكون إلا بلزوم طاعة الله ورسوله والتزام الأوامر واجتناب النواهي.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٤٤.

٢. التحذير من شر الكافرين على الإسلام والمسلمين.

لم يقتصر شر الكافرين على أنفسهم بكونهم غارقين في الضلال بعيدين عن الهدى ونور الحق والإيمان، ولكنهم حين يكيدون للإسلام والمسلمين ويتآمرون على القضاء عليهم يشكلون خطرًا عظيمًا، لذلك أمرنا الله بإعداد جميع وسائل القوة لدفع خطرهم والمحافظة على هيبة الإسلام والمسلمين من شرورهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

قال الطبري: إن شر ما دب على الأرض من خلق الله عند الله، الذين يصمون عن الحق لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويتعظوا به، وينكصون عنه إن نطقوا به : الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، فيستعملوا بهما أبدانهم»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ

(٢) جامع البيان ١٣/ ٤٥٩.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال: ٥٥-٦٠].

قال المفسرون في سبب نزول الآيات: قال ابن عباس نزلت في بني قريظة من اليهود حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد يهود بني قريظة ألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين فنقضوا العهد ومالؤوا الكفار يوم الخندق[(١)].

ونستدل من الآيات السابقة:

١. الاستعداد بما في الإمكان فريضة تصاحب فريضة الجهاد

٢. لا بد للسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان وتكمن أهمية هذه القوة في:

- أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها ، فلا يصدوا عنها ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.
- أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسلام» التي تحميها تلك القوة.
- أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي.
- أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية ،فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ومن ثم فالحاكمية لله وحده سبحانه[(٢)].

إذًا المسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما لا يستطيعون من أسباب القوة ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله.

ثانيًا: ترك الزكاة:

قال عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

لما بالغ الله تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات السابقة لهذه الآية، شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله ، وذكر الوعيد الشديد لمن بخل بماله[(٣)].

كما جاء في صحيح البخاري: (من آتاه الله مالًا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع - أي: ثعبانًا عظيمًا - له زبيبتان فيأخذ بلهزمتيه -يعني : شدقيه -ثم يقول له:

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٥/ ١٦٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٤٣.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ١٢٩.

(أنا مالك ، أنا كنزك) ثم تلا صلى الله عليه وسلم الآية)[1].

نموذج من القصص القرآني عن ترك الزكاة:

ما جاء في سورة القلم عن قصة أصحاب الجنة ، أي : البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ، حين منعوا الفقراء حقهم في الزكاة من ثمار بستانهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٧-٢٠].

قال المفسرون: كان لرجل مسلم بقرب صنعاء بستان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار ، وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء فأعطاهم نصيبًا وافرًا منه وأكرمهم غاية الإكرام ، فلما مات الأب ورثه أبناءه الثلاثة ، فقالوا : عيالنا كثير والمال قليل ، ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على ألا يعطوا أحدًا من الفقراء شيئًا، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح الباكر خفيةً عنهم، وحلفوا على ذلك، فأرسل الله تعالى نارًا على الحديقة ليلًا أحرقت الأشجار وأتلفت الثمار، فلما أصبحوا ذهبوا إلى حديقتهم فلم يروا فيها شجرًا ولا ثمرًا ، فظنوا أنهم (أخطأوا) الطريق، ثم تبين لهم أنها بستانهم وحديقتهم ، وعرفوا أن الله تعالى عاقبهم فيها بنيتهم السيئة، فندموا وتابوا بعد أن فات الأوان[2].

وقد ساق الله تعالى هذه القصة ليعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إلى التلف ، لأنه يبخل ببعض ماله عن دفع الزكاة في سبيل الله ، فيهلك كل ماله مصحوبًا بغضب الله، هذا عقاب في الدنيا، وعقاب الآخرة أشد وأخزى ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣].

وفي ذلك تقرير لسنة الله تعالى في خلقه ، وهي أن يبتليهم بالنعماء كما يبتليهم بالبأساء.

ثالثًا: ترك الجهاد:

من المؤكد أنه لا عزة ولا كرامة للأمة الإسلامية بلا جهاد في سبيل الله تعالى، وإذا تركت الجهاد غرقت في الذل والهوان.

قال الله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم ١٤٠٣، ٢/ ١٠٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٨٧.

المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام.

وإنما كان الجهاد كرهًا لأن فيه إخراج المال ومفارقة الأهل والوطن والتعرض لذهاب النفس[(١)].

فعسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة ، وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ، ومن مات مات شهيدًا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم[(٢)].

والله يعلم الخير والشر ، وأنتم لا تعلمونهما لأن الله يعلم الأشياء على ما هي عليه، والناس يشتبه عليهم العلم ، فيظنون الملائم نافعًا، والمنافر ضارًا[(٣)].

وردت الآية مع جملة تشريعات منظمة في السورة مثل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فعلاقة هذه الآية مع ما قبلها من الآيات هو أنه لما ذكر ما مس من تقدم من أتباع الرسل من البلايا، وأن دخول الجنة معروف بالصبر على ما يبتلى به المكلف، ثم ذكر الإنفاق على من ذكر ، فهو جهاد النفس بالمال ، انتقل إلى ما هو أعلى منه ، وهو الجهاد الذي يستقيم به الدين ، وفيه الصبر على المال والنفس[(٤)].

استخلص من هذه الآية هدايات ودلالات تتصل بعلم الله تعالى بحقيقة الشر:

١. الآية خطاب للمسلمين بتكليفهم بالجهاد في سبيل الله ، والكلام فيه تلطف من الله تعالى لرسوله والمؤمنين في قوله: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾. فالله تعالى غنيٌّ عن البيان والتعليل، لأنه يأمر فيطاع ، ولكن في بيان الحكمة تخفيف من مشقة التكليف، وفيه تعويد للمسلمين بتلقي الشريعة معللة مذللة.

٢. هناك إشارة إلى أن حكمة التكليف تعتمد المصالح ودرء المفاسد، ولا تعتمد ملائمة الطبع ومنافرته، إذ يكره الطبع شيئًا وفيه نفعه ، وقد يحب شيئًا وفيه هلاكه، وذلك باعتبار العواقب والغايات.

٣. قال الماوردي في كونه (كرهًا) تأويلان:

٤. أحدهما: وهو كره لكم قبل التعبد وأما بعده فلا.

٥. الثاني: وهو كره لكم

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٨٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٠٦.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٣٧٩.

في الطباع قبل الفرض وبعده، وإنما يحتمل بالتعبد[1].

٦. الشر المقصود في الآية أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون أخذ بلادكم وحاول قتلكم، فإما أن يأخذكم ويستبيح دماءكم وأموالكم، وإما أن تحتاجوا إلى قتالهم من غير إعداد آلة وسلاح، وهذا كله شر لكم[2].

٧. أن القتال في سبيل الله فريضة شاقة، ولكنها فريضة واجبة الأداء، وذلك لأن فيها خيرًا كثيرًا للفرد المسلم، وللجماعة المسلمة جمعاء لتحقيق الحق والخير والصلاح.

رابعًا: اقتراف الكبائر:

إن الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

- شر واقع به من غيره.
- ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب، ومنها الكبائر، وهو أعظم الشرين وأدومهما.

إن نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها تتمثل في أن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد والاتجاه، ونعني بذلك أنه بطبيعة تكوينه «من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه» مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء، وأن هذه القدرة كامنة في كيانه، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠].

ويعبر عنها بالهداية تارة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

أي: إلى طريقي الخير والشر، فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد، والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك. بالإضافة إلى هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة، هناك قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان، هي التي تتعلق وتناط بها التبعة ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: ٣٨].

فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها من الموبقات وتنمية استعداد الخير فيها، وتغليبه على استعداد الشر فيها فقد أفلح، أما من أظلم هذه القوة وأضعفها فقد خاب، ولو تساءلنا عن ماهية هذه القوة

(١) انظر: النكت والعيون ١/ ٢٧٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٨٥.

الواعية فهي تلك الإرادة المحدودة وحرية الاختيار والتي سقفها وإطارها العام هو المشيئة والإرادة الإلهية اللامحدودة. ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أنه لم يتركه لاستعداد فطرته الإلهامي ولا لإرادته المحدودة، بل أعانه بالرسالات التي تكشف له عن موحيات ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله، وتجلو عنه غواشي الهوى، فيبصر الحق في صورته الصحيحة، و يتضح له الطريق، فتتصرف قوته وإرادته الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه[1].

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

خامسًا: السحر:

يعد السحر من أكبر الكبائر ، وهو من الشرور التي تقع للإنسان من ظلم الغير له، لذا فإن التحصن من شر السحر يكون بحسن الالتجاء إلى الله تعالى ، كما جاء في سورة الفلق.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق: ١-٥].

فلا أحد يدفع الشرور عن النفوس إلا الله تبارك وتعالى، ومن مقاصد هذه السورة تعميق وتعزيز التوحيد في النفوس، وقد جاء في الحديث الصحيح عن سعد بن أبي وقاص، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من اصطبح سبع تمرات عجوة، لم يضره ذلك اليوم سم، ولا سحر)[2].

لطائف ودلالات في الآيات:

- اقترن الحاسد والساحر في السورة لأن مقصدهما الشر للناس ، كما أن الاستعاذة من هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين أيضًا ؛ إذ إن الشيطان يقارن الحاسد والساحر ويصاحبهما ويحادثهما، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان، أما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه.
- تنكير غاسق وحاسد وتعريف النفاثات؛ لأن كل نفاثة شريرة، فكل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب العجوة، ٧/ ٨٠، رقم ٥٤٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فضل تمر المدينة، ٢/ ١٦١٨، رقم ٢٠٤٧.

بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد محمود، وهو الحسد في الخيرات[1]، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الخير، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها بين الناس)[2].

سادسًا: الحسد:

الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل.

والحسد غير الغبطة؛ قال الزمخشري: «الغابط: هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه. والحاسد: هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه، فمن الغبطة قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص: ٧٩].

ومن الحسد: قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء: ٣٢]»[3].

وقال الخوارزمي: «وحقيقة الحسد أن يكون لواحد نعمة، فيحب زوال نعمته -وهذا حرام-؛ لأنه كراهية الله سبحانه، وهذا دليل خبث الباطن؛ لأن نعمته لا تكون لك ولا هي منتقلة إليك، فمحبة زوالها عن صاحبها لا تكون إلا من الخبث، أما الغبطة وهي أن تريد أن يكون لك مثل تيك النعمة والدولة والجاه، ولا تكره ذلك على صاحبه، فلا يكون حسدا بل غبطة ومنافسة»[4].

يكون الحسد شرًا حين يتمنى الحاسد زوال النعمة عن غيره، ولا يرضى بما قسمه الله له، ومن خطورة الحسد أنه يأكل حسنات الحاسد كما تأكل النار الحطب.

وقد جاءت الاستعاذة من شر الحاسد في الآية الخامسة من سورة الفلق ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، وعند تأمل الآية نجد تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يرتب عليه أذى بوجه ما لا بقلبه، ولا بلسانه، بل يجد في نفسه شيئًا من ذلك، ولكنه لا يعاجل أخاه إلا بما يحبه الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله، ولكنه يجاهد نفسه على دفع ذلك الشعور حياءً من الله وطاعة لله تعالى، بل ويلزم نفسه بالدعاء للمحسود ويتمنى زيادة الخير له، وهذا بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسد وترتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، وهذا كله شر حسد تمني زوال النعمة عن الغير،

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٩٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب لا حسد إلا في اثنتين، رقم ١٨٤٨، ٢/ ٢٠١.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٣٢.
(٤) مفيد العلوم ومبيد الهموم ص٢٣١.

فالمؤمن يغبط والمنافق يحسد[1].

تعتبر سورة الفلق من أكبر أدوية المحسود، فإنها تتضمن التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة ، فهو يستعيذ بولي النعم كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليه ، أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني ، فهو جل وعلا حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه.

سابعًا: نشر الأخبار الكاذبة:

من صور الشر أيضًا في المجتمع فيكون له ما له من تأثير سلبي ، ومثاله حادثة الإفك في القرآن الكريم، وسبب الإفك أن عائشة رضي الله عنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق سنة ست من الهجرة حين ضاع عقد لها، وقد توجهت لحاجتها فعادت في طلبه، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزله فرفع هودجها ، ولم يشعر بها أنها ليست فيه لخفتها وعادت فلم تر في المنزل أحدًا، فأدركها صفوان بن المعطل ، فحملها على راحلته وألحقها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتكلم فيها وفي صفوان من تكلم حيث أثار هذا الإفك ، رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وقدمت المدينة وانتشر الإفك وهي لا تعلم به ثم علمت، فأخذها من ذلك شيءٌ عظيم من الهم والحزن إلى أن أنزل الله براءتها بعد سبعة وثلاثين يومًا من قدوم المدينة[2]، في عشر آيات من سورة النور من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١] حتى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور: ٢٠].

هدايات قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

- الخير حقيقته: ما زاد نفعه على ضره، والشر: ما زاد ضره على نفعه. وإن خيرًا لا شر فيه هو الجنة، وشرًا لا خير فيه هو جهنم. فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير ؛ لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا وخيره هو الثواب الكثير في الآخرة، فالخطاب في الآية لعائشة وأهلها وصفوان رضي الله عنهم، لينبههم الله تعالى على أن الخير في هذه الحادثة أكبر من شرها[3].
- أتى بالإضراب (بل) لإبطال أن يحسبوه شرًا، وإثبات أنه خير لهم ؛ لأن فيه منافع

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٢٥٨.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٧٩.

(٣) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٨/ ١٦٩.

كثيرة، إذ تميز به المؤمنون الخلص من المنافقين، وتشرع لهم بسببه أحكام تردع أهل الفسق عن فسقهم، وتتبين منه براءة فضلائهم، ويزداد المنافقون غيظًا، ويصبحون محقرين مذمومين، ولا يفرحون بظنهم حزن المسلمين، فإنهم لما اختلقوا هذا الخبر ما أرادوا إلا أذى المسلمين. وقد عطف الخير على الشر بحرف (بل) في الآية فكان ما بعد(بل) جملة اسمية للدلالة على الثبات والدوام[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٨٣٨.

أنواع الشر

الشر حقيقة ما زاد ضره على نفعه، كما أن الخير ما زاد نفعه على ضره، وإن خيرًا لا شر فيه هو الجنة، وإن شرًا لا خير فيه هو جهنم، الشر نوعان: شرٌ دنيوي، وشرٌ أخروي، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: الشر الدنيوي:

إن الشر الدنيوي المتمثل في الأمراض والابتلاءات له فائدة عظيمة وحكم جليلة، يمن بها الله على من أحب من عباده، ومن هذه الحكم: تكفير السيئات ورفع الدرجات، والتمحيص والتنقية والتهيؤ لحمل أعباء الدعوة.

فقد ينزل الشر على العباد رفعًا للدرجات، أو وضعًا للآصار وتكفيرًا للخطايا والسيئات؛ فمما يكون لرفع درجات العباد، ويراد لهم الخير به : ما رواه البخاري في صحيحه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (من يرد الله به خيرًا يصب منه)[2]، أي: يبتليه بالمصائب والمحن ليرفع درجاته ويزيد في حسناته على ما يكون من صبره واحتسابه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في المرض رقم ٥٦٤٥، ٧/ ١١٥.

﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٧].

قال ابن القيم: «ليس المراد أن يعذب، ولكن يبتلى ليهذب، ليس العجب من أمر الخليل بذبح الولد، إنما العجب من مباشرة الذبح بيده، ولولا الاستغراق في حب الأمر لما هان مثل هذا المأمور، فلذلك جعلت آثارها مثابة للقلوب تحن إليها أعظم من حنين الطيور إلى أوكارها»[1].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قال الرازي: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة بمجرد تصديقكم الرسول قبل أن يبتليكم الله بالجهاد وتشديد المحنة، والله أعلم»[2].

ومما يكون لتكفير السيئات ما جاء في الحديث المتفق على صحته عند الشيخين أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها)[3].

قال الإمام المناوي شارحًا هذا الحديث في فيض القدير: (ما من مصيبة) أي: نازلة، وأصلها الرمي بالسهم، ثم استعيرت لما ذكر (إلا كفر الله بها عنه) ذنوبه، أي: محي خطيئاته بمقابلتها[4].

وقال الإمام الغزالي: قال عيسى عليه السلام: لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض عليه لما يرجوه من ذلك من كفارة خطاياه[5].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

قال الزحيلي: «والقصد من الابتلاء رفع الدرجات؛ لأن الأنبياء معصومون عن الذنوب والآثام، ويكون حصول المصيبة من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة»[6].

ثانيًا: الشر الأخروي:

١. الجزاء من جنس العمل.

إن الله تعالى عدل لا يظلم مثقال ذرة، جعل الجزاء من جنس العمل، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

(١) فيض القدير، المناوي ٤/ ٤٦٨.
(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب كفارة المرض، رقم ٥٦٤٠، ٧/ ١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٧٢، ٤/ ١٩٩٢.
(٤) انظر: فيض القدير ٥/ ٥٠١.
(٥) انظر: المصدر السابق ٤/ ٤٦٨.
(٦) التفسير المنير ٢٥/ ٧٦.

[الزلزلة: ٧-٨].

فمن يفعل مقدار ذرة من التراب خيرًا يجده في صحيفته يوم القيامة ويلق جزاءه، ومن يفعل من الشر مقدار ذرة من التراب يجده كذلك ويلق جزاءه عليه.

وقوله: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦﴾ [ص: ٥٥-٥٦].

إن للكافرين الذين كذبوا الرسل لشر منقلب يصيرون إليه في الآخرة، ثم فسر هذا المصير بقوله ﴿جَهَنَّمَ﴾ يذوقونها ويصلون سعيرها، قال الطبري: في الآية تقديم وتأخير، أي: هذا حميم وغساق فليذوقوه، والحميم هو الذي أغلى حتى انتهى حره، والغساق ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم، وعذاب آخر من مثل هذا العذاب المذكور كالزمهرير، والسموم وأكل الزقوم لهم منه أنواع وأصناف[(١)].

٢. شر أهوال يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧].

قال القرطبي: «استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض»[(٢)].

وقال ابن عباس: «يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منه عرق كالقطران يومًا تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، اليوم القمطرير أي: الشديد الصعب أو أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١﴾ [الإنسان: ١١].

دفع عنهم شره بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجوه وسرورًا في القلوب، والنضرة البياض والنقاء في وجوههم والحسن والبهاء[(٤)].

خوفهم اليوم مجاز عقلي جرى في تعليق اليوم بالخوف، لأنهم إنما يخافون ما يجري في ذلك اليوم من الحساب والجزاء على الأعمال السيئة بالعقاب.

وانتصب ﴿يَوۡمٗا﴾ على المفعول به لـ﴿وَيَخَافُونَ﴾ ولا يصح نصبه على الظرفية؛ لأن المراد بالخوف خوف في الدنيا من ذنوب تجر إليهم العقاب في ذلك اليوم، وليس المراد أنهم يخافون في ذلك اليوم فإنهم في ذلك اليوم آمنون، إنهم يخافون شر ذلك اليوم فيتجنبون ما يفضي بهم إلى شره من الأعمال المتوعد عليها بالعقاب، وصيغة ﴿وَيَخَافُونَ﴾ الفعل دالة على تجدد خوفهم شر ذلك اليوم[(٥)].

يخافون عذاب يوم هو يوم القيامة كانت

(١) انظر: جامع البيان ٢٣/ ١١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٢٨.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٣٦٢.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٧/ ٣٧٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٥٥.

شدائده وأهواله فاشية منتشرة في كل جهة وعامة على كل الناس إلا ما رحم الله، وإنما سميت الأهوال شرًا لكونها مضرة بمن تنزل عليه ولكونها صعبة عليه ، كما تسمى الأمراض وسائر الأمور المكروهة شرورًا[1].

كان شر ذلك اليوم فاشيًا في السماوات، فانشقت وتناثرت الكواكب، وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة وفي الأرض، فنسفت الجبال وغارت المياه ، وتكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء[2].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ٢٨٩.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٦٥.

التحصن من الشر

لقد بين الله لنا في كتابه العزيز وسنته المطهرة حقيقة الشر، كما بين لنا أسبابه ومسبباته، والتي أهمهما شياطين الإنس والجن بأشكالهم المختلفة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

فلقد ناصبت تلك الشياطين العداء للأنبياء، فضلًا عن أتباعهم ومن رحمة الله بنا؛ فقد بين لنا كيفية التحصن منهم ، ألا وهي الإيمان، والذكر والدعاء، وأخيرًا الصحبة الصالحة، وفيما يلي تفصيلًا لذلك:

أولًا: الإيمان:

إن الإيمان مصدر لاطمئنان القلب؛ فمن كان قلبه عامرًا بالإيمان فقد حصن نفسه من شر شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

فقد اقترنت الطمأنينة في القلب بالإيمان، حتى عند نزول البلاء والعذاب على عمار رضي الله عنه، فقد كان يعذب كي ينطق كلمة الكفر، وقد نطقها تحت

وطأة العذاب بلسانه، لكن قلبه كان مطمئنًا بالإيمان متحصنًا به من الزلل والانزلاق في وحل الشرك والكفر.

قال الزمخشري: «وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار، وأبواه -ياسر وسمية- وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم: عذبوا، فأما سمية فقد ربطت بين بعيرين وجيء في قبلها بحربة، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر ، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها، فقيل : يا رسول الله، إن عمارًا كفر، فقال: كلا، إن عمارًا مليء إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»[1].

لقد أخبرنا الله تعالى: أن من الجن والإنس شياطين يريدون أن يضلونا وأن يبعدونا عن صراط الله المستقيم، ويريدون أن يسببوا لنا الأذى النفسي والبدني، فهم يوسوسون، وينفثون سمومهم الكفرية بين بني آدم، ويرسلون عليهم أعوانهم ليؤذوهم وليلبسوا عليهم دينهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقد بين الله تعالى لنا في كتابه في آيات كثيرة عداوة إبليس لنا، وأنه حريص على إضلالنا وصرفنا عن صراط الله المستقيم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

فكل هذه الآيات تبين شدة عداوة الشيطان لبني آدم وخصوصًا عباد الله المؤمنين، فهو حريص على كل ما يضرهم من الكفر، والبدع، والمعاصي، وتعليق قلوبهم بغير الله، والاستعانة بغيره، وغير

(١) الكشاف ٢/ ٦٣٦.

ذلك مما يقدح في إيمانهم وعقيدتهم، ولكن الله تعالى رحمة بعباده المؤمنين أنار لهم الطريق بالبرهان الساطع والكلام الواضح المبين، فحذر العباد منه ومن أعوانه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

وقد أكدت الآيات أن الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون؛ قال السمعاني: «يعني: أن الشياطين يوالون الكفار»[(١)]، أي: بمفهوم المخالفة أن الإنسان الذي يتحصن بالإيمان يكون بعيدًا عن موالاة الشياطين.

وعلى الإنسان أن يؤمن بأن الله سبحانه لا يقدر شرًا محضًا ليس فيه خير، بل كل ما قدر وإن ظهر لنا أنه شر كله فإن من وراءه من الخير مالا يعلمه إلا الله ، كتكفير السيئات، ورفعة الدرجات وتمحيص المؤمنين وتبصيرهم بعيوبهم وكشف ما يخطط لهم، أو دفع شر أعظم مما حل بهم ، كحفظ دينهم ولو ذهب شيء من دنياهم، ونحو ذلك من المصالح التي لا تخطر على البال، وقد جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لربه (والشر ليس إليك)[(٢)].

وهذا إبليس أساس الشر في العالم خلقه الله سبحانه وقدر وجوده في الكون، ليختبر العباد ويعلم الصادق من الكاذب وغيرها من الحكم التي ظهر فيها الخير للعباد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثانيًا: الذكر والدعاء:

للذكر والدعاء أثرٌ عظيم في طمأنة القلوب، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

قال القشيري: «قوم اطمأنت قلوبهم بذكرهم الله، وفي الذكر وجدوا سلوتهم، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم، وقوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله ، فذكرهم الله سبحانه بلطفه، وأثبت الطمأنينة في قلوبهم على وجه التخصيص لهم»[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن من علامات أهل الإيمان، أنهم إذا ذكروا الله، أو ذكروا به، اطمأنت قلوبهم، واشتملت عليهم السكينة، وغشيهم الأمن والسلام[(٤)].

وقد ذكر ابن القيم في كتابه مائة فائدة للذكر صدرها بقهر الشيطان فقال: «وفي الذكر أكثر من مائة فائدة: إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره، والثانية: أنه

(١) تفسير القرآن ٢/ ١٧٦.
(٢) أخرج مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٢٠١، ١/ ٥٣٤.
(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٢٢٩.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ١٠٩.

يرضي الرحمن عز وجل، والثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب، والرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط»[1].

وقد جاء في كتاب السنن والمبتدعات: أن الذكر كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، فلا تهمه زعازع الدنيا ولا آفاتها بل ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ذلك لأن قلوبهم سكنت بذكره وآمنت بآياته وسننه، وعرفت نعمه فقدرتها وشكرتها؛ فقلوبهم عن ربهم راضية»[2].

ومن فوائده أيضًا: أنه يقوي القلب ويجرئه في مواجهة أعتى المواقف؛ ولذلك ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم في قتال فارس والروم مع أنهم أعظم أجسامًا وأقوى أسلحة وأكثر عددًا وعدة ثباتهم أمامهم، ومع الكفار الفيلة، ومعهم أنواع من المنجنيقات، وآلات الحرب لم يكن العرب يعرفونها أو يعرفون مثل عظمها، لكنهم ثبتوا بتحصنهم بذكر الله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

إن ذكر الله يجعل للعبد الذاكر صلوات عليه من ربه ورحمة وتحصينًا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣].

يقول المراغي: «أي: إن ربكم الذي تذكرونه الذكر الكثير وتسبحونه بكرة وأصيلا، هو الذي يرحمكم ويثنى عليكم في الملإ من عباده، وتستغفر لكم ملائكته، وفي هذا من التحريض على ذكره والتسبيح له مالا يخفى»[3].

والذكر والدعاء متلازمان، فلفظ الدعاء والدعوة في القرآن الكريم يتناول معنيين: الأول: دعاء العبادة، والآخر: دعاء المسألة.

ودعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه.

وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود بحق، أما دعاء العبادة فهو الذي يتضمن الثناء على الله بما هو أهله ويكون مصحوبا بالخوف والرجاء، والدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان، فالعبد يدعو للنفع أو دفع الضر دعاء المسألة ويدعو خوفًا

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٤١.
(٢) السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، محمد الحوامدي ص٣٢٠.
(٣) تفسير المراغي ٢٢/ ١٨.

ورجاءً دعاء العبادة؛ فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وقد ورد المعنيان جميعًا في قوله سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦][1].

ثالثًا: الصحبة الصالحة:

لقد حذر الإسلام من الصحبة السيئة، لاسيما رفقاء السوء، الذين يجاهرون بالمعاصي ، وحث على اختيار الصحبة الصالحة، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال الجزائري: « أي: الأحباء في الدنيا يوم إذ تأتي الساعة بعضهم لبعض عدو فتنقطع تلك الخلة والمودة وتصبح عداء؛ لأنها كانت على معصية الله تعالى وقوله ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي : الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه فإن مودتهم وخلتهم لا تنقطع ، لأنها كانت محبة في الله وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل»[2].

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨].

قال الزمخشري: «فكل من اتخذ من المضلين خليلًا كان لخليله اسم علم لا محالة»[3].

وقال المراغي: «أي: يا هلكتي احضري فهذا أوانك، ليتني لم أتخذ فلانا الذي أضلني وصرفني عن طريق الهدى خليلًا وصديقًا، ومن الأخلاء الشياطين، ولا فارق بين شياطين الإنس وشياطين الجن»[4].

فالصحبة الصالحة حصنٌ حصينٌ للمرء من الانزلاق في مزالق الشيطان وشروره، فلقد حثنا الله والنبي صلى الله عليه وسلم على اختيار وملازمة الصحبة الصالحة؛ فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو خير خلق الله على الإطلاق، يأمره الله بأن يلزم أصحابه.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

والرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٥/ ١٩٠٢.
(٢) أيسر التفاسير ٤/ ٦٥٤.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٧٧.
(٤) تفسير المراغي ١٩/ ٨.

معلم البشرية الخير، وهو الذي هداها الله عز وجل به، وهو الذي أرشدهم إلى طريق الصواب ، ومع ذلك فهو يحتاج إلى أن يصبر نفسه معهم، ولا يعني ذلك أنه لا يلتزم بدونهم، ولكن رفقة الصالحين مطلوبة ولو كانوا أقل منزلة، فالمرء يحتاج إلى أصحاب في الخير وإخوان في الله، ولو كان أفضل منهم.

ويدعو ابراهيم عليه الصلاة والسلام قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٨٣].

ويؤكد عليها يوسف عليه السلام قائلًا: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]؛ ذلك أن صحبة الصالحين نعيم في الدنيا والآخرة، وصحبة الظالمين والفاسقين والكافرين عذاب في الدنيا والآخرة، فصحبة أهل الفساد عذاب للإنسان، ومجرد النظر في وجوه الظلمة أو سماع كلامهم، أو النظر في وجوه الفسقة والفجرة يصيب الإنسان بالهم والكرب.

ومن فضل الصحبة الصالحة جلب المغفرة من الذنوب.

روى البخاري في صحيحه: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا ، والله ما رأوك؟ قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدًا وتحميدًا، وأكثر لك تسبيحًا، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة ، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا ، والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا ، والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم)[1].

(١) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، رقم ٦٤٠٨، ٨/ ٨٦.

موقف الإنسان إذا مسه الشر

الشر المقصود في هذا المبحث هو الشدائد والابتلاءات؛ لذا ينقسم الناس في موقفهم من الشدائد إلى قسمين: موقف مذموم وموقف محمود.

أولًا: الموقف المذموم:

١. الإنسان الكافر.

والموقف المذموم عند الشدائد يصدر عن الكافرين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣].

والإنسان الكافر إذا أصابته النعمة بطر وتكبر، وإن أصابته الشدة يئس وقنط، وكل إنسان يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال، فإن نفس الإنسان مشرقة صافية تسير في طريق الهدى صدرت منه أفعال كريمة فاضلة، وإن كانت نفسه فاجرة كافرة تتخبط في الضلال صدرت عنه أفعال سيئة شريرة، وسيجزي الله كل عامل بعمله[(١)].

قال الزمخشري: «وإذا أنعمنا على الإنسان بالصحة والسعة أعرض عن ذكر الله، كأنه مستغن عنه مستبد بنفسه ونأى بجانبه تأكيد للإعراض، لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأي بالجانب: أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار، لأن ذلك من عادة المستكبرين وإذا مسه الشر من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل كان يؤوسًا شديد اليأس من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»[(٢)].

٢. الإنسان الذي يعبد الله على حرف.

إذا أصابه الضر من مرض أو فقر أو نحوه دعا الله في جميع الحالات مضطجعًا أو قاعدًا أو قائمًا لكشف ذلك الضر عنه، فلما أزال الله ما به من ضر استمر على عصيانه، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وهو عتاب لمن يدعو الله عند الضر، ويغفل عنه عند العافية[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج: ١١].

قال الزمخشري: «﴿عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ على

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٦٩٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٩١.

طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة، كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحس بظفر وغنيمه قر واطمأن، وإلا فر وطار على وجهه، قالوا: نزلت في أعاريب قدموا المدينة، وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سريا، وولدت امرأته غلامًا سويا، وكثر ماله وماشيته قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيرا، واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شرا، وانقلب»[1].

وقال المراغي: « أي : فإن أصابه رخاء وسعة في العيش سكن واستبشر بهذا الخير والدين فعبد الله، وإن أصابه شر وبلاء في جسمه أو ضيق في معيشته ارتد ورجع إلى الكفر.

والثبات في الدين إنما يكون إذا كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الرب والخوف من عقابه، أما إذا كان المقصد منه الخير المعجل فإنه يظهر في السراء ويختفى لدى الضراء، وهذا هو النفاق بعينه كما يرشد إلى ذلك قوله في المنافقين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١].

(١) الكشاف ٣/ ١٤٦.

وخلاصة ذلك أن من الناس من ليس له ثبات في أمر دينه، بل هو متأرجح مضطرب مذبذب، يعبد الله على وجه التجربة انتظارا للنعمة، فإن أصابه خير بقي مؤمنا، وإن أصابه شر من سقم أو ضياع مال أو فقد ولد ترك دينه وارتد كافرًا[2].

ثانيًا: الموقف المحمود:

وهذا الموقف لا يصدر إلا من أهل الإيمان فهم يتلقون هذه الشدائد والابتلاءات بقلوب صابرة مطمئنة وعامرة بالإيمان بقضاء الله وقدره راضية عن الله تعالى، فالمؤمن يراقب نفسه ويوجهها إلى ما يحب الله ويرضى.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان على طبيعة تحب ما يسره وتهرب مما يكرهه، ثم تعبده بإنفاق ما يحب، والصبر على ما يكره[3].

قال السعدي: «وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع، وفسر الهلوع بأنه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له، من مال أو أهل أو

(٢) تفسير المراغي ١٧/ ٩٤
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٥١.

ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء، ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا»[1].

مواقف محمودة من القصص القرآني:

- **موقف إبراهيم عليه السلام.**

لقد ابتلي إبراهيم عليه السلام في أبيه الذي كان يصنع أصنامًا تعبد من دون الله، وابتلي في جسمه فقذف في النار، وابتلي إلى ذلك بابتلاء من نوع خاص، وهو تحميله أمانة الإمامة، حيث قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وابتلي في ولده و فلذة كبده فأمر بذبحه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٦].

فلقد ابتلى الله إبراهيم ابتلاءً شديدًا، أمره بأن يذبح ولده الحبيب، «وكان ذلك الولد عزيزا على أبيه لأنه فلذة كبده وإنسان عينه، وقد جاء من الله بعد الدعاء وبشارة الملائكة به ، فكان له مزيد فضل، وعلو كعب، ومع ذلك فقد صدع إبراهيم لأمر ربه»[2]، وقد كان هذا الابتلاء ابتلاءً بالشر والمكروه.

قال القرطبي: « قال أبو زيد: هذا من البلاء الذي نزل به في أن يذبح ابنه، قال: وهذا من البلاء المكروه»[3].

- **موقف يوسف عليه السلام.**

حين تعرض للعديد من الشدائد والابتلاءات ، فصبر على تآمر إخوته عليه وهو صغير ، فعانى الحرمان من حنان والده، وصبر على محاولة امرأة العزيز إغواءه بارتكاب الفاحشة، وصبره على السنوات التي قضاها في السجن.

قال الله تعالى على لسانه بعد أن اجتمع بأخيه الشقيق بعد فراق طويل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

- **موقف أيوب عليه السلام.**

ابتلي أيوب عليه السلام بأنواع البلاء فصبر، وكان قد أصيب في ماله وأهله وبدنه، أذهب ماله فصبر، ثم أهلك أولاده وهم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٨٧.

(٢) التفسير الواضح ٣/ ٢١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٠٦.

سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فصبر، ثم سلط البلاء والمرض جسمه فصبر، بقي في البلاء ثماني عشرة سنة، فمر عليه ملأ من قومه ذات يوم فقالوا: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم ، فعند ذلك تضرع إلى الله تعالى فكشف عنه ضره[1].

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وفي قصته عليه السلام عبرة لنا يا أهل فلسطين للصبر على المحن والابتلاءات، ولنا في نبينا صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حين بشرنا بقوله: (عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)[2].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٧٦١٠، ٨/ ٢٢٧.

جزاء الأشرار

الله عز وجل حكمٌ عدل جعل الجزاء من جنس العمل؛ إنه يمهل الظالم ولا يهمله حتى إذا أخذه لم يفلته ، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر، وفي هذا المبحث سنتناول شيئًا من جزاء الأشرار في الدنيا والآخرة.

أولًا: جزاء الأشرار في الدنيا:

ولنا في قصص الأنبياء مع أقوامهم العبرة في مصير الأشرار الذين ازداد طغيانهم وعقابهم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦-١٤].

حيث عددت الآيات أقوامًا عتاة متمردين جبارين خرجوا عن طاعة الله تعالى، كذبوا رسلهم، وجاوزوا الحد في الشر والظلم والطغيان، وأكثروا من المعاصي والآثام فأنزل الله عليهم ألوانًا شديدة من العذاب، فأهلكت عادٌ بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون وجنوده بالغرق.

وقوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١٣].

تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط وشدته حين يذكر الصب، حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية على هؤلاء الطغاة الأشرار، كما قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال القرطبي: «﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني: قوم لوط، والحاصب ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار، وتستعمل في كل عذاب، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني: ثمودا وأهل مدين، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: قارون، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قوم نوح وقوم فرعون، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر»[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ما أعظمه من مشهد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده، وملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: خلصوا أنفسكم من العذاب، وهاتوا أرواحكم وأخرجوها إلينا من أجسادكم، وفي ذلك معنى العنف في النسيان والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير إمهال وتنفيس فاليوم تجزون العذاب الذي به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد بافترائكم على الله وتكبركم على الإيمان بآيات الله تعالى[2].

ثانيًا: جزاء الأشرار في الآخرة:

وإذا كان ذلك حال عذابهم في الدنيا فما بال العذاب الذي ينتظرهم في الآخرة، لا شك أنه أشد وأخزى لقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣].

١. جزاء الأشرار في الحياة البرزخية (القبر).

القبر أول منازل الآخرة، فالقبر إما روضة من رياض الجنة على الصالحين، وإما حفرة من حفر النار على الأشرار الظالمين.

قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

جاءت هذه الآية بعد آية تصف ما نزل

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٣٤٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٦.

بفرعون وجماعته وهو أسوأ العذاب وهو الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة ثم بينا أن هذه النار يحرقون بها صباحًا ومساءًا، قال المفسرون: المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور ، بدليل قوله بعده: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي : ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا[1].

وجاء في الحديث الذي يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في الرجل، لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة فيراهما جميعًا ، وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت، ولا تليت، فيضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)[2].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، رقم ١٣٣٨، ٢/ ٩٠.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٦٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب يحشر الكافر على وجهه، رقم ٧١٨٩، ٨/ ١٣٥.

(٥) أوضح التفاسير، محمد بن الخطيب ١/ ٤٣٨.

٢. جزاء الأشرار يوم القيامة.

يحشر الأشرار يوم القيامة شر محشر، فهؤلاء الكفار المكذبين بالقرآن يسحبون ويجرون إلى النار على وجوههم ، وهم أضل طريقًا، وشر منزلًا ونصيرًا[3].

وفي الحديث الذي رواه أنس بن مالك: (أن رجلا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال: أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟)[4].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٣٤].

جاء في أوضح التفاسير: «يجرون عليها؛ وفي هذا منتهى الإذلال والتعذيب»[5]، كما توعد الله الأشرار بألوان من العذاب في نار جهنم في قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: ١٩].

قال الزمخشري: «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها،

ومعنى الخروج: ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع ،فهووا فيها سبعين خريفا وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، والحريق: الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك »[1].

موضوعات ذات صلة:

الخير، الضر

(١) الكشاف ٣/ ١٥٠.

الشرك

عناصر الموضوع

مفهوم الشرك	٢٥٤
الشرك في الاستعمال القرآني	٢٥٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٥٦
تنزيه الله تعالى عن الشركاء	٢٥٨
أنواع الشرك في القرآن	٢٦٦
مراتب الشرك	٢٧٨
أسباب الشرك	٢٨١
الرسل ومحاربة الشرك	٢٨٩
أساليب القرآن في محاجة المشركين	٢٩٢
أحكام تتعلق بالمشركين في القرآن	٢٩٥
عداوة المشركين للمسلمين	٣٠٢
الشرك في المثل القرآني	٣٠٧
الآثار المترتبة على الشرك	٣١٠

مفهوم الشرك

أولًا: المعنى اللغوي:

شرك: قال ابن فارس: «الشين والراء والكاف أصلان، أحدهما يدل على مقارنة وخلاف انفراد، والآخر يدل على امتداد واستقامة، فالأول الشركة، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلانا في الشيء، إذا صرت شريكه، وأشركت فلانا، إذا جعلته شريكا لك، قال الله جل ثناؤه في قصة موسى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢﴾ [طه: ٣٢].»[(١)]، وقد جاء بمعنى المخالطة[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه عبد المحسن قاسم بقوله هو: «دعوة غير الله معه»[(٣)]، أو هو: «مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله»[(٤)]، وقال ابو بكر الجزائري: هو ما ينافي التوحيد[(٥)]، وعرفه أ.د. سعد عاشور بأنه «اتخاذ الند مع الله تعالى سواء أكان هذا في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات، أي: جعل شريك مع الله في التوحيد»[(٦)]، ويغلب هذه التعريفات الصبغة العقدية الصرفة، ولكن من خلال النظر في سياق القرآني الذي جاءت فيها ألفاظ الشرك يمكن القول بأن الشرك هو: « أن يكون مع الله ندًا أو مثيلًا فيما يخص الله من معتقد، أو عبادة، أو طاعة ».

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي يتجه إلى المعنى الأول من المعاني اللغوية؛ إلا أنه يخص بجعل الشريك مع الله.

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٢٦٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٤٨.
(٣) تيسير الوصول شرح ثلاثة الأصول، ص ٤٩.
(٤) المصدر السابق، ص ٥٠.
(٥) انظر: عقيدة المؤمن، ص١٠٧.
(٦) التبيان شرح أركان الايمان، ص١٤٨.

الشرك في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شرك) في القرآن الكريم (١٦٩) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٦٣) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧٣]
الفعل المضارع	٥٢	﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج:٢٦]
المصدر	٥	﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]
الصفة المشبهة	٣	﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٣]
اسم	٣٦	﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٠]
اسم فاعل	٤٩	﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]

وجاء الشرك في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[(٢)]:

الأول: الإشراك بالله، وهو أن يعدل به غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]. أي: لا تعدلوا به شيئًا سواه.

الثاني: الشرك في الطاعة من غير عبادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]. أي: جعلا إبليس شريكًا مع الله سبحانه.

الثالث: الرياء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]. يعني: ولا يرائي.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الشين، ص٦٦١-٦٦٤.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان، ص٢٦-٢٧، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٨٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكفر:

الكفر لغة:

الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، وهو ضد الايمان، لأنه تغطية للحق[١].

الكفر اصطلاحًا:

«الجحود بالوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها»[٢].

الصلة بين الكفر والشرك:

« أن الكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب فمنها الشرك بالله»[٣]، فالشرك يتعلق بالله من ناحية التوحيد والعمل والطاعة، بينما الكفر يتعلق بالجحود والإنكار في نواحي الإيمان والنعم الإلهية، فبينهما عموم وخصوص، فكل مشرك كافر، وليس كل كافر مشرك.

٢ الإلحاد:

الإلحاد لغة:

قال ابن فارس: اللام والحاء والدال أصل يدل على ميل عن استقامة، يقال: ألحد الرجل، إذا مال عن طريقة الحق والإيمان [٤].

الإلحاد اصطلاحًا:

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»[٥].

الصلة بين الإلحاد والشرك:

ولما كان الشرك أن يجعل لله ندًا، والالحاد حيودًا عن الحق وانحرافًا عن المعتقد كان الشرك وجهًا من وجوه الإلحاد، فالإلحاد أعم وأشمل من الشرك.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩١.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩١.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٢٨.
(٤) انظر: مقاييس اللغة ٥/ ٢٣٦.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧٢.

٣ التوحيد:

التوحيد لغة:

من وحد يوحد توحيدًا، ووحد الشيء، أي : جعله واحدًا ونفى عنه التعدد[١]، وقال ابن فارس: الواو والحاء والدال: أصل واحد يدل على الانفراد[٢]، فالتوحيد نسبة الانفراد للشيء.

التوحيد اصطلاحًا:

عرفة الجرجاني بأنه « ثلاثة أشياء: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة»[٣]، وعرفة أبو بكر الجزائري بأنه: «نفي الكفء والمثل عن ذات الله وصفاته وأفعاله، ونفي الشريك في ربوبيته وعبادته عز وجل»[٤].

الصلة بين الشرك والتوحيد:

في ضوء ما سبق من تعريف الشرك والتوحيد في اللغة والاصطلاح يتبين أن التوحيد والشرك في مسألة ما نقيضان لا يجتمعان، فإن أشرك في المسألة فهو غير موحد بها، وإن وحد نفى عن نفسه الشرك بها.

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص١٠١٦.
(٢) مقاييس اللغة ٦/ ٩١.
(٣) التعريفات، ص٦٩.
(٤) عبادة المؤمن، ص٥٣.

تنزيه الله تعالى عن الشركاء

إن تنزيه الله عن الشرك واجب شرعي، بل وضرورة شرعية؛ فقد نزه الله نفسه عن الشرك، ونزهه جميع الرسل، كما نزهته الملائكة، وجميع المؤمنين من الثقلين، وقد تبرأ الله ممن أشرك به شيئًا، وفيما يلي تفصيل ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: تنزيه الله تعالى نفسه عن الشركاء:

لقد نزه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز نفسه عن الشركاء، وبين أنه الواحد الأحد، الذي يستحق من عباده الإيمان به، فهو المعبود الحق، الذي يجب أن نتوجه إليه بالعبادة، فلا يستحقها أحد غيره، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

١ . تنزيه الله تعالى نفسه عن الولد.

زعمت اليهود والنصارى أن الله سبحانه اتخذ لنفسه ولدًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

فرد الله عليهم في كتابه العزيز، مقيمًا الحجة عليهم، وداحضًا زعمهم الباطل في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١١٦].

قال الزمخشري: «فالله سبحانه نزه نفسه عن ذلك، فكل ما في السموات والأرض هو خالقه ومالكه، ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح كلٌّ له قانتون منقادون، لا يمتنع شيء منه تكوينه وتقديره ومشيئته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد، ويجوز أن يراد كل من جعلوه لله ولدًا له قانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم»[(١)].

فالله سبحانه أحد لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، فمن كان له زوجة فهو ليس بإله ولا يستحق العبادة، كذلك من كان له ولد، لذلك دعا الله سبحانه أهل الكتاب إلى الانتهاء عن قولهم : إن الله ثالث ثلاثة، وتوعدهم إن لم ينتهوا عن ذلك بالعقاب الشديد.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

(١) الكشاف ١/ ١٨٠.

﴿ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

فهذه الآية تبين حقيقة المسيح ابن مريم، أنه عبد الله رسوله، وأنه ابن مريم وليس ابنًا لله[1]، فالمسيح من جملة قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالجميع ملك لله، هو خالقهم ومدبر أمورهم، فكيف يكون ابنا لله؟![2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

قال البيضاوي: «وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه:

الأول: أنه من مبدعاته السموات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره، ولا نظير له فلا ولد.

الثاني: أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين، والله سبحانه وتعالى منزه عن المجانسة.

الثالث: أن الولد كفؤ الوالد، ولا كفؤ له لوجهين: الأول: أن كل ما عداه مخلوقه، فلا يكافئه. والثاني: أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكل المعلومات: ولا كذلك غيره بالإجماع»[3].

وزعم مشركو العرب أن الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧].

فرد أباطيلهم بقوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠].

قال ابن عطية: «هذا تعديد لقبح قول الكفار: الملائكة بنات الله، ورد عليهم من وجهين، أحدهما: نسبة النسل إلى الله تعالى عن ذلك، والآخر: أنهم نسبوا من النسل الأخس المكروه عندهم»[4].

٢. تنزيه الله نفسه عن الأنداد.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

وصف الله اليهود والنصارى بضرب من الشرك بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٤٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٢٤.
(٣) أنوار التنزيل ٢/ ١٧٦.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠١.

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ والأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم[1].

وقد نزه الله تعالى نفسه عن الشركاء في الأمر والنهي، فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ونفى سبحانه وجود الشريك بقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

ففي الآية دليل عقلي منطقي ينفي وجود الشريك أو المثيل لله، حيث نزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك، فلو قدر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فلا ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، وفي غاية الإتقان والتكامل، وهذا دليل على أن الإله واحد لا شريك له في ملكه، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والإله لا يكون عاجزا، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالًا ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الإله[2].

ويصدق ذلك قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٣].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣].

٣. تنزيه الله نفسه عن الشفعاء.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

فالآية توضح أن المشركين اتخذوا مع الله شركاء، وظنوا أنهم سيشفعون لهم في الآخرة، فبين سبحانه أن الشفاعة لا تكون إلا لمن يأذن له تعالى بالشفاعة، فهي ليست حقا لأحد، ولكنها عطاء ومنحة من الله تعالى ، لذلك يقول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا

(١) انظر: مفاتيح الغيب ، الرازي ١٦/ ٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٩١.

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥][1]، «فالشفاعة علاقة بين المشفوع والشفيع، فإذا كانت حقيقية فلا بد أن يعلم المشفوع بها»[2].

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والحقيقة التي لا تقبل الشك، أن الله واحد أحد منزه عن الشركاء والوسطاء، وهذا ما دلت عليه النصوص، وقد نزه الله نفسه عن الشركاء في كتابه العزيز في أكثر من آية ،وهذا بيان لها.

ثانيًا: تنزيه الملائكة الله تعالى عن الشركاء:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

فهذه الآية تبين أن الملائكة الكرام يتبرؤون يوم القيامة من المشركين، ومن عبادتهم إياهم، وينزهون الله تعالى أن يكون له شريك في العبادة، فلا موالاة بينهم وبين المشركين، بل إنهم كانوا يعبدون الشياطين الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وأكثر المشركين مصدقون للجن فيما يلقونه إليهم من الوساوس، ومنها الأمر بعبادة غير الله تعالى من الأصنام وغيرها[3].

ثالثًا: تنزيه الرسل الله سبحانه وتعالى عن الشركاء:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

ففي الآية الكريمة بيان لقبح ادعاءات النصارى، وبيان لركاكة ما ذهبوا إليه من وصف الله تعالى بما لا يليق به سبحانه وهو اتخاذ الزوجة والولد، وجعلوا من ذلك دينا، فهذا سر سؤاله تعالى لعيسى عليه السلام على رؤوس الأشهاد، ليقر عليه السلام بالعبودية لله تعالى، وأنه ما أمرهم إلا ليعبدوا الله تعالى، إلهًا واحدا لا شريك له[4].

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ١٠٩٨.
(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٥٣٨
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨١، التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٢٠٢.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٢٩٩.

ويقول محمد رشيد رضا: «إن عيسى عليه السلام بدأ جوابه بتنزيه الله عز وجل عن أن يكون معه إله، فأثبت بهذا أنه على علم يقيني ضروري بأن الله تعالى منزه في ذاته وصفاته عن أن يشارك في ألوهيته»[1].

وقد ورد أيضًا ما يبين أن المرسلين قد نزهوا الله عن أن يشاركه أحد في التصرف في ملكه أو التحكم عليه.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

فهذه الآية تشير إلى أن الرسول بشر، لا يأتي قومه إلا بالمعجزات التي يظهرها الله على يديه، وليس لأحد أن يحكم على الله تعالى، أو يتخير عليه[2].

قال الماتريدي: «وقوله عز وجل: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أمره أن ينزه ربه عن أن يكون لأحد الاحتكام عليه والحكم، والذي سألوه احتكام منهم على الله»[3].

(١) المنار ٧/ ٢٢١، ٢٢٢.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٧٧.
(٣) تأويلات أهل السنة ٧/ ١١٢

وقال ابن عاشور في التحرير: «ولما كان اقتراحهم اقتراح ملاجة وعناد أمره الله بأن يجيبهم بما يدل على التعجب من كلامهم بكلمة ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ التي تستعمل في التعجب، كما تقدم في طالع هذه السورة، ثم بالاستفهام الإنكاري، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصرا إضافيا، أي: لست ربا متصرفا أخلق ما يطلب مني»[4].

فالدعوة إلى الله وحده وتنزيهه عن الشرك هي أعظم ما بعث من أجله المرسلون.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

ففي الآية بيان للسبيل الذي يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي: الدعوة إلى الله على بصيرة، وتنزيه الله تعالى من الشركاء، والبراءة من المشركين[5].

قال ابن باديس: «وكان من سبيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه يدعو الخلق إلى الله، وينزهه عن كل ما نسبه إليه المبطلون وتخيله المتخيلون، وهو معنى قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾، فهو يدعوهم إلى الله الذي قد عرفوا وجوده بفطرتهم، وعرفوا أنه

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٢١٠، ٢١١.
(٥) انظر: تفسير ابن باديس، ص٣١٣.

هو خالق الكون وخالقهم، لا يسميه إلا بما سمى به نفسه، ولا يصفه إلا بما وصف به نفسه، ويعرفهم بآثار قدرته، ومواقع رحمته، ومظاهر حكمته، وآيات ربوبيته وألوهيته، ووحدانيته في جلاله وسلطانه، وينزهه عن المشابهة والمماثلة لشيء من مخلوقاته لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وهذا التنزيه- وإن كان داخلًا في الدعوة إلى الله - فإنه خصص بالذكر، لعظم شأنه؛ فإنه ما عرف الله من شبهه بخلقه، أو نسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو أشرك به سواه، وإن ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية، فمن أعظم وجوه الدعوة وألزمها، تنزيه الله تعالى عن الشبيه والشريك، وكل ما لا يليق»[1].

رابعًا: تنزيه المؤمنين الله عن الشركاء:

وقد نزه المؤمنون ربهم عز وجل عن الشركاء والأنداد، في معتقدهم وعبادتهم وولائهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهذه الآية الكريمة تناولت جوانب متعددة من الشرك التي وقع بها المشركون من أهل الكتاب، ونزه المؤمنون ربهم عنها، وبيانها فما يأتي:

١. ألا نعبد إلا الله.
٢. أن لا نشرك به شيئًا.
٣. أن لا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله.

وذكر هذه الثلاثة؛ لأن النصارى جمعوا بينها، فعبدوا غير الله ، وهو المسيح ابن مريم، وأشركوا به غيره، وذلك لأنهم يقولون :إنه ثالث ثلاثة، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، حيث كانوا يطيعونهم في التحليل والتحريم ومعصية الله، وكانوا يسجدون لأحبارهم، ولا معنى للربوبية إلا ذلك[2].

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو أهل الكتاب إلى ما هو عليه حال المؤمنين من توحيد الله عز وجل ونبذ الشركاء في هذه المسائل، فإن المؤمنين عبوديتهم خالصه لله تعالى لا يرجون من طاعتهم إلا ابتغاء وجهه الكريم، وينزهونه عن الشريك، ولا يطيعون في معصيته أحدًا، ولا يسجدون إلا لله.

وقال تبارك وتعالى على لسان عباده المؤمنين مبينًا إخلاص ولائهم لله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ

(١) نفس المصدر السابق، ص ٣١٧.

(٢) انظر: مفاتح الغيب، الرازي ٢/ ٢٥٢.

﴿مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١٨].

قيل : إن السؤال موجه في الآية لعزير والملائكة وعيسى ابن مريم من العقلاء[(١)].

ويدخل في هذا السياق كل من عبد من دون الله من المؤمنين والصالحين على على مدى الزمان، فهم يبرؤون إلى الله ممن اتخذهم أربابًا من دون الله، ويقررون بأن والولاء لا يكون إلا لله ولاء طاعة وعبودية وانقياد.

وقال تعالى في شأن المؤمنين من الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٢-٣].

ففي الآية دلالة على أعظم ما في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو: توحيد الله تعالى، ونبذ الشرك والمشركين، وقد آمنت الجن أن القرآن كلام الله، بسماعه مرة واحدة، في حين لم ينتفع كفار قريش، بسماعه مرات، مع كون الرسول صلى الله عليه وسلم منهم يتلوه عليهم بلسانهم، فالآية بينت أن الجن نفوا عن أنفسهم الإشراك بالله تعالى، ونزهوه تعالى عن اتخاذ الصاحبة والولد، وبذلك أثبتوا وحدانية الله وامتناع وجود شريك له ثم أثبتوا له القوة والعظمة، ونزهوه عن الحاجة والضعف باتخاذ الصاحبة والولد، شأن العباد الذين يتعاونون على أمور الحياة بالزوجة للسكن والألفة، وبالولد للمؤازرة والتكاثر والأنس[(٢)].

وقد جاء في الكتاب العزيز كثير من الآيات التي ينزه المؤمنون بها ربهم عن الشركاء والأنداد، وهذا بيانها:

قال تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وقال تعالى: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر: ٤٢].

خامسًا: براءة الله ورسله من المشركين:

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة: ٣].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٩٠.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ١٦١.

لما كان المشركون بالله المصرون على شركهم من أعدى أعداء الله ورسوله، تبرأ سبحانه منهم وأمر رسوله أيضا بالتبرؤ منهم، ومن عهودهم ومواثيقهم، وإن أكدوها وغلظوها، فهذه براءة وإسقاط ذمة، ورفع أمان من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لما كان بين المؤمنين والمشركين من عهود ومواثيق، فلا هدنة بعد اليوم، وصار الحكم إما السيف، أو الإسلام فإن تابوا ورجعوا عن الكفر والشرك إلى الايمان والتوحيد فهو خيرٌ لهم، وإن أعرضوا عن الإسلام والإيمان وأصروا على الشرك والطغيان، فليسوا بمعجزي الله ولا غالبين جنده.

وقد أثنى الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز على إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين لتبرئهم من المشركين من قومهم، وجعلهم قدوة حسنة ومثلًا يحتذى به في توحيدهم لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد أرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى التأسي بإبراهيم ومن آمن معه، وجعلهم قدوة لهم في سيرتهم العملية التي كانت من هداية الله تعالى لهم، وهي البراءة من قومهم معبوداتهم ما داموا عابدين لها، ولما كان وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار له وهو المشرك ليس من هذا الهدى، بل كان مسألة شاذة لها سبب خاص استثناها تعالى من التأسي به، فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[1].

روى البخاري في الصحيح بسنده قال: (لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أي عم، قل: لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله)، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣][2].

ففي الحديث بيان لنهي الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم من الاستغفار

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٩٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (ما كان للنبي والذين آمنوا)، رقم ٤٦٧٥، ٦/ ٩٦.

للمشركين مهما تكن قرابتهم.

أما استغفار إبراهيم لأبيه فكما يبين السياق القرآني في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

حيث دعا إبراهيم أباه للإيمان وترك الأوثان، فوعده أبوه بأن يسلم، فقال إبراهيم: لأستغفرن لك إن أسلمت، باعتبار أن هاء الضمير في ﴿إِيَّاهُ﴾ تعود على إبراهيم، وقيل : إن الهاء تعود إلى الأب على اعتبار أن إبراهيم وعد أباه أن يدعو له ربه ويستغفر له رجاء إسلامه، ويدل على المعنى الثاني قراءة الحسن (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها أباه)، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله بموته على الكفر تبرأ منه وكف عن الدعاء له والاستغفار[1].

وقد جاء في السياق القرآني العديد من الآيات الكريمة التي تبين براءة الله ورسوله ورسله أجمعين من المشركين، فبراءة الله ورسوله من المشركين تستوجب خذلانهم في الدنيا وهزيمتهم ومهانتهم، وعذابهم في الآخرة والانتقام منهم.

أنواع الشرك في القرآن

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بعبادته وتنزيهه عن كل الشركاء.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

كما أمرهم سبحانه وتعالى أن يجعلوا له في نفوسهم من التعظيم والتنزيه ما لا يجعلوا لسواه، فأبى أكثر الناس إلا كفورًا، فأشرك من أشرك وحاد من حاد، ونتناول في هذا المبحث بعضًا من المطالب التي بين القرآن الكريم فيها وقوع بعض الناس في أنواع من الشرك، وبيانها فيما يأتي:

أولًا: الشرك في الاعتقاد:

١ . شرك المحبة.

راعى القرآن الكريم الفطرة البشرية، واعترف بمكوناتها ونزعاتها ورغباتها، والحب أمر فطري مغروس في النفس البشرية ومجبولة عليه، كحب الولد والمال والنساء.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٩٥.

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ [آل عمران: ١٤].

لكنه مع ذلك بين أن هناك من المحبة ما هو أعظم وأفضل، وهي محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهي ثابتة في الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥][1].

وجاءت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن وحدانية الله تعالى، وتفرده بخلق السموات والأرض، وتسيير كل ما فيها في نظام واحد، يدل على قدرته ووحدانيته[2].

فمن كان هذا شأنه فهو الذي يستحق من عباده أن ينزهوه عن كل الشركاء والأنداد، في كل جانب من جوانب حياتهم، فلا يقدموا على محبته محبةً، فهو محبوب لذاته، ومحبوب لجميل عطائه وكريم إنعامه، لذا نرى السياق القرآني يعجب ممن يتخذون من أوثانهم وسادتهم التي يشركونها مع الله في الطاعة نظراء لله، فيجعلون لهذه الآلهة في قلوبهم نصيبًا من المحبة، كحب المؤمنين لله، ولكن حقيقة الأمر أن حب المؤمنين لله أشد وأصدق[3].

وقد توعد الله من ساوى بين الخالق والمخلوق في المحبة بالعذاب الأليم يوم القيامة، كما قضى بفسق من قدم محبة شيء من زينة الدنيا ومتاعها من مال وأهل وعشيرة وتجارة على حب الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

والذي نخلص إليه: أن الذين يعدلون أو يساوون في محبتهم لله تبارك وتعالى أي مخلوق، فقد أشركوه مع الله عز وجل، وأعطوه ما لا يستحقه من المحبة والإجلال[4].

(١) وقد ورد في السياق القرآني ثلاث آيات أخرى: آل عمران: ٣١، والمائدة: ٥٤، والتوبة، ٢٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٣٤.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٩٠.
(٤) انظر: مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية، الجبرين، ص٨٣.

٢. الخوف.

قال ابن فارس: «الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع، يقال: خفت الشيء خوفا وخيفة»[(١)].

وقال الأصفهاني: «حقيقة خوف الله امتثال أمره»[(٢)].

والخوف أمر فطري جبلت عليه النفس البشرية كما الحب، وأقر القرآني الكريم وجوده.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل: ١٠].

فالخوف عند توافر دواعيه، من فزع وحدوث خوارق وخلافه، مباح.

والخوف إذا اقترن معه التعظيم والخضوع والمحبة لغير الله، أو اقترن معه الاعتقاد بالنفع أو الضر من غير الله، أصبح خوفًا شركيًا مذمومًا[(٣)].

وذلك من مفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨].

وقد بين علماء التفسير أن المقصود من خشية الله في الآية هو عبادته وتعظيمه دون سواه[(٤)].

وقد ذم الله وعاب هذ الخوف إذا صرف لغيره، وأمر عباده المؤمنين بخشيته وقصر هذا الخوف لذاته سبحانه وتعالى والخضوع لسلطانه ،وبين ذلك في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١].

وأثنى الله على عباده الذين أظهروا خوفهم من الله، وتحملوا في سبيل ذلك مشاق وتبعات التكاليف.

قال تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨].

٣. التوكل على غير الله.

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعبادته والتوكل عليه في كتابه العزيز ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣].

أي: «قم بعبادته -وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه- وتوكل على الله في

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٣٠.
(٢) تفسير الأصفهاني ٣/ ٩٩٥.
(٣) انظر: مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية، الجبرين، ص٨١.
(٤) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ١٦٩.

ذلك»[1].

فجعل التوكل على الله وحده هو ما يعين على صحة القيام بالتكاليف.

كما أمر عباده المؤمنين بالتوكل عليه وجعله من تمام الإيمان، فقال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢].

أي: «إن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى ، واللام في المؤمنين للجنس، فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليًا، وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته»[2].

ونهى عز وجل عباده المؤمنين عن اتخاذ غيره وليًا، فقال: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ٢].

أي: «أن لا تتخذوا شريكا تلجؤون إليه، وقد عرف إطلاق الوكيل على الله في لغة بني إسرائيل»[3].

فجعل عز وجل الالتجاء إلى غيره سبحانه وتعالى اعتقادًا شركًا به، لذا نهى بني إسرائيل عن ذلك، والنهي هنا يشمل المؤمنين جميعًا، لأن ذلك من أصول العقيدة التي هي أصل التوحيد الذي شرعه الله للناس أجمعين.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٩٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٧٩.
(٣) التحرير والتنوير، بن عاشور ١٥/ ٢٥.

وقد جعل التوكل من شروط صحة الإيمان بالله ، فقال: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

أي: «إن التوكل الحق لا يكون إلا من قلب مذعن مؤمن بالله مخلص له، مجيب لما يأمر وينهى، ولذلك قرن التوكل بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[4].

وقد جاء الحديث عن التوكل في القرآن في قرابة سبعين آية من آياته في أربع وعشرين سورة مكية ومدنية، وذلك لمكانة هذه العبادة القلبية العظيمة وأثرها في حياة الأمة المسلمة.

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة لتبين أن التوكل على الله عز وجل هو السمة المميزة للمؤمنين الصادقين، فالله لا يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أو عباده المؤمنين بأمر إلا ما فيه من الخير والرشاد ما يصلح حالهم وما فيه تمام إيمانهم، ففي الآية الأولى قرن عز وجل بين العبادة والتوكل.

والذي نخلص إليه : أن التوكل الذي هو عمل قلبي يجعل الإنسان يعتقد أن الضر والنفع معقود بهذا الوكيل، وذلك لا يكون إلا لله.

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢١١٦.

٤. الرياء.

جعل سبحانه وتعالى الرياء في العمل إشراكًا به في العبادة ومنافيًا للتوحيد، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

فقوله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: من كان يرجو ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، أي: موافقًا لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل عند الله، لا بد أن يكون خالصا لله، صوابًا، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الحديث أن رجلًا قال: (يا رسول الله، إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني. فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا. حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1][2].

فقد جاء الرد من العليم الحكيم قرآنًا يتلى إلى يوم القامة، شافيًا لكل من يريد أن يعرف الرياء، فهو إشراك بالله عز وجل، فمن يرغب عن الشرك في العمل فعليه تجريد عمله من كل الأهواء، وإخلاص نيته عن كل الشركاء.

ولما كان الرياء نقيض الإخلاص، وقد عاب الله الرياء، فقد أمر المؤمنين بإخلاص العبودية له، وجعل أهل العلم إخلاص النية لله الأساس لكل عمل.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وفي معنى قوله عز وجل: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ أي: «موحدين لا يعبدون سواه حنفاء على دين إبراهيم»[3].

وقد حذر الله عز وجل عباده المؤمنين من الرياء، وجعله من أعمال المنافقين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

فهذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى، فما بالك بغيرها من سائر الأعمال، إنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها، ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾ فهذه صفة ظواهرهم، ثم ذكر تعالى صفة

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الجهاد رقم ٢٥٢٧، ٢/ ١٢٢.
وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٠٥.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٧٦.

بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية من الناس ومصانعة لهم[1].

وهذا هو معنى الإشراك بالله تعالى في الطاعة والنية.

وقد قرن الله تبارك وتعالى بين النفاق وعدم الإيمان بالله فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء: ٣٨].

٥. الطيرة.

التطير صفة أعداء الرسل في كل زمانٍ ومكانٍ، فهي لم تكن موجودةً قبل الإسلام فحسب؛ بل استمرت معهم بعد الإسلام إذ تطيروا من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته.

وهذا يفهم من قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨].

فكان إذا أصاب المنافقين الخصب، والنماء، وكثرة الأولاد، قالوا: هذا من عند الله، وإن أصابهم القحط، ونقص في الثمار والأولاد أو غير ذلك، نسبوا ذلك لسبب اتباعهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره، وهو جارٍ على المؤمن والكافر على السواء.

وقد ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]. أن الأعراب كانوا إذا ما آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فصحوا، وولدت نساؤهم الغلمان، وأنتجت بهائمهم، قالوا : ما أصابنا منذ دخلنا في هذا الدين إلا الخير، وإن أصابهم همٌ ووجعٌ، وحلت بهم الكروب، وسوس إليهم شيطانهم أنه ما أصابهم منذ دخولهم في دين محمد صلى الله عليه وسلم إلا الشر، فينقلبوا عن دينهم خاسرين[2].

ومما سبق يتضح أن القرآن الكريم ذم التطير، والمتطيرين، وجعل هذه الصفة ملازمةً لأعداء رسله وأتباعهم، تنفيرًا منها، وإظهارًا لخطورتها على عقيدة المؤمن، فالمؤمن الحق هو الذي يسلم أمره لربه ويحسن التوكل عليه، ويعلم أن كل ما أصابه من خيرٍ أو شر جارٍ بقضاء الله وقدره.

كما يلاحظ توافق الكافرين في موقفهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٨.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص٣٠٧.

من الرسل عليهم السلام، والتقائهم على التطير منهم، وذلك نظرًا للكفر الجامع بينهم، الأمر الذي جعلهم شركاء في الذم.

قال السعدي في حق المتطيرين: «فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم وأعمالهم، وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه، فهو داخلٌ في هذا الذم الوخيم»[(١)].

وتجدر الإشارة إلى أنه لا تعارض بين الآيات، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ [يس: ١٩].

بل كل منهما محققٌ للآخر ومتممٌ لمعناه، فقوله تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾، أي: أن الله هو المقدر لهذا الشيء وليس غيره سبحانه، فهي في بيان سبب حصول الشؤم لهم، فهو بسبب كفرهم ومعصيتهم[(٢)]، فالله قدر السوء والشر لهم بأعمالهم جزاءً عليها[(٣)].

ثم أخبر سبحانه وتعالى أن كل ما يجري على ذلك العبد من نعمةٍ أو مصيبةٍ من عنده تعالى[(٤)]، فقال: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة، حكم التطير، وكونه من الشرك، فقال صلى الله عليه وسلم: (الطيرة من الشرك)[(٥)].

وعلى هذا فإن قوله: (من الشرك)، دلالة على كونه من الشرك الأصغر، لأنه اعتمد على سببٍ لم يجعله الله تعالى سببًا، «إن كل إنسانٍ اعتمد على سببٍ لم يجعله الشرع سببًا، فإنه مشرك شركًا أصغر»[(٦)].

قال الطاهر بن عاشور: «التطير من شعار أهل الشرك لأنه مبني على نسبة المسببات لغير أسبابها، وذلك من مخترعات الذين وضعوا لهم ديانة الشرك وأوهامها»[(٧)].

أما إذا اعتقد أنها مؤثرة بذاتها، فهذا عين الشرك الأكبر المخرج من الملة[(٨)].

ثانيًا: الشرك في الأعمال:

١. الشرك في الطاعة.

تعد الطاعة من أعظم أنواع العبادات التي أمر الله بها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص١٨٨.
(٢) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٢/ ٧٩-١٠٠.
(٣) انظر: الحسنة والسيئة، ابن تيمية، ص ٣٩.
(٤) انظر: شفاء العليل، ابن القيم ٢/ ٣٣.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الطيرة، رقم ١٦١٤، ٤/ ١٦١. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٣٢، رقم ٣٩٦٠.
(٦) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ٢/ ٩٣.
(٧) التحرير والتنوير ٩/ ٦٦.
(٨) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ٢/ ٩٤.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

أي: أطيعوا الله تعالى فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وأطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو مبلغ عن ربه، وأطيعوا أولي الأمر من الأمراء والحكام، والعلماء، شرط أن يكونوا أمناء، لا يخالفون منهج الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[(١)].

وبين سبحانه وتعالى أن من أطاع أحدًا من خلقه، في تحليل ما حرم الله تعالى، أو تحريم ما أحل الله تعالى، فقد اتخذ من دون الله ربًا مشرعًا.

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

ففي الآية بيان للشرك في الطاعة، وذلك بطاعة الأحبار والرهبان، في تغيير شرع الله تعالى، وهذا من الشرك الأكبر، «فقد سماهم أربابًا وهم لا يعبدونهم، لكن من حيث تلقوا الحلال والحرام من جهتهم، وهو أمر لا يتلقى إلا من جهة الله عز وجل، ونحو هذا قال ابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وأبو العالية، وحكى الطبري أن عدي بن حاتم قال: جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب ذهب، فقال: يا عدي؛ اطرح هذا الصليب من عنقك، فسمعته يقرأ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فقلت: يا رسول الله، وكيف ولم نعبدهم؟ فقال أليس تستحلون ما أحلوا وتحرمون ما حرموا)، قلت: نعم. قال: (فذاك)[(٢)].

قال سليمان بن عبد الله: «فمن أطاع مخلوقًا في ذلك فقد عبده، إذ معنى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضي إفراد الله بالطاعة، وإفراد الرسول بالمتابعة»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال ابن كثير: «أي: حيث عدلتم، عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك»[(٤)].

وفرق أهل العلم بين شرك العبادة، وشرك الطاعة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا

(١) انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، الزحيلي ١/ ١٢٨.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٥.

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ص١١٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٥.

لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩٠-١٩١].

فقد جاء بسند صحيح عن قتادة أنه قال: «شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته»، وهذا دليل على التفريق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة، فالشرك في العبادة كفر أكبر مخرج من الملة، أما الشرك في الطاعة فله درجات يبدأ من المعصية والمحرم وينتهي بالشرك الأكبر[1].

٢. السحر.

لقد حرم الله تعالى السحر.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

فهذا إخبار عن اليهود الذين أخذوا بالسحر الذي تقولته الشياطين على عهد ملك سليمان، ونسبوه إلى سليمان عليه السلام بهتانًا وزورًا، ثم بين الله سبحانه وتعالى أن سليمان لم يكن ساحرا كما زعموا، ولكن الشياطين هم السحرة، وهم الذين كفروا بتعليمهم للناس السحر، ثم بين سبحانه وتعالى شيئًا من مقاصد الذين يتعلمون السحر، وهو تفريقهم بين المرء وزوجه، ولكن الله أخبر أنه لا يتم تأثير السحر إلا بإذنه، وأن من اعتاض بالسحر عن دين الله، فإنه ليس له في يوم القيامة نصيب ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون[2]، وهذا تحذير من السحر لأنه لا يتم إلا بالشرك، والشرك مناف للتوحيد[3].

وقد بين سبحانه وتعالى أن السحر باطل؛ لأنه يسبب الإفساد بين الناس ، ومن كان شأنه كذلك فمآله إلى زوال لا محالة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨٠-٨١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَاۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس: ٧٧].

أي: لا يظفر الساحر بالحاجة والغلبة،

(١) انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح آل الشيخ ٥٠١-٥٠٢.

(٢) انظر: الجديد في شرح كتاب التوحيد، محمد القرعاوي، ص٢١٩.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص٢٢٠.

لأنه باطل، والباطل لا يغلب الحق[1].

٣. الشرك في الدعاء.

هو الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل وإضافة الجود والكرم إليه[2].

ويمكن القول بأن شرك الدعاء هو: سؤال العبد غير الله؛ من الأنبياء، والأولياء، وغيرهم، فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل؛ ويدخل في ذلك الاستغاثة، والاستعانة، والاستعاذة، بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ من طلب رزق، أو شفاء مريض، أو إحياء ميت، أو غير ذلك؛ فقد أشرك مع الله غيره، سواء أكان ذلك الغير نبيا، أو وليا، أو جنيا، أو غير ذلك من المخلوقات[3].

والأدلة على كون دعاء غير الله تعالى شركًا كثيرة، منها:

قول الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

فالآية تؤكد عجز الأصنام، فهي لا تملك شيئًا ولو كان حقيرًا، وهو ما تشير إليه كلمة قطمير، أي: قشر النواة، فالمشركون كانوا يزعمون أن الأصنام تسمعهم، لذلك كانوا يدعونها ويتوجهون إليها: فنبههم القرآن إلى عجزها، بأنها لا تسمع، وعلى فرض أنها تسمعهم فإنها لا تستجيب لهم، قال ابن عاشور: «أي: ولو سمعوا على سبيل الفرض والتقدير ومجاراة مزاعمكم حين تدعونها فإنها لا تستجيب لدعوتكم، أي: لا ترد عليكم بقبول»[4].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل: ٥٣-٥٤].

قال ابن كثير: «لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه، وتسألونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به»[5].

والدعاء نوعان: دعاء العبادة والثناء، ودعاء المسألة والطلب، وهما متلازمان.

فدعاء العبادة والثناء: هو ما يقصد به العبد ثناء على الله تعالى بما هو أهله، تذللا له، وانكسارًا بين يديه، سبحانه وتعالى.

ودعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٧٣.
(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية، ص٣١٦.
(٣) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص١١٥.
(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٨٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٧٧.

من جلب نفع أو دفع ضر، إذ الذي يدعى لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر[1].

دعاء المسألة والطلب لا يعد كله شركًا، فالإنسان إما أن يدعو مخلوقًا حيًا بأمر يدركه وهذا جائز، كسؤال الفقير، وإما أن يدعو مخلوقا مطلقًا حيًا كان أو ميتًا فيما لا يقدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان! اجعل ما في بطن امرأتي ذكرا؛ فهذا شرك أكبر؛ لأن هذا من فعل الله عز وجل الذي لا يستطيعه البشر، ولا يقدرون عليه، وإما أن يدعو مخلوقًا لا يجيب بالوسائل الحسية المعلومة؛ كدعاء الأموات؛ فهذا شرك أكبر أيضا؛ لأن هذا لا يقدر عليه المدعو. ولا يقع مثل هذا النوع من الدعاء إلا إذا اعتقد الداعي في المدعو شيئا سريا يدبر به الأمور[2].

٤. نسبة النعم لغير الله تعالى.

إن من تمام التوحيد نسبة النعم إلى الله عزوجل، فمن نسب النعمة إلى غيره تعالى، فقد كفر ؛ لأنه جعل شريكًا مع الله في الإنعام[3].

قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

فالكفار يقرون بأنها كلها من الله تعالى، ثم ينكرونها بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم ، إنها بشفاعة آلهتنا، أو بترك الشكر عليها، أو يعرفونها في الشدة، وينكرونها في الرخاء، أو يعرفونها بقلوبهم، ويجحدونها بألسنتهم ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر[4].

وإنكار النعمة أن تنسب إلى غير الله، وأن يجعل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها، وهو الله جل جلاله، فالواجب على العبد أن يعلم أن كل النعم من الله جل وعلا، وأن كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلى الله جل وعلا، وأن إضافة النعم إلى غير الله نقص في كمال التوحيد، ونوع شرك بالله جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت: ٥٠].

أي: لئن أذقناه عافية من بعد سقم، أو غنى من بعد فقر؛ ليقولن: هذا لي، أي : هذا من

(١) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية، ص٣١٧.
(٢) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص ١١٧.
(٣) انظر: الجديد في شرح كتاب التوحيد، محمد القرعاوي، ص٣٥٩.
(٤) انظر: الوجيز، الواحدي، ص٦١٦، أوضح التفاسير، ابن الخطيب ١/ ٣٣٠.

حقي؛ استوجبته بتقواي وصلاحي، أو بقوتي واجتهادي. وهو في عداد المتكبرين[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ [القصص: ٧٨].

فهذه مقولة المغرور الذي ينسى مصدر النعمة، فقارون نسي من وهبه النعمة، وركن إلى السبب، وهو أن هذا الثراء والغنى إنما حصله من علمه وبجهده الخاص، فجاءه التهديد والوعيد من الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨][2].

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه، وأن لا يعبدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد[3].

فمن تحقيق التوحيد نسبة النعم لمسديها وواهبها، وهو الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: ١١].

(١) انظر: أوضح التفاسير، الخطيب ١/ ٥٨٩.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧١٢.
(٣) انظر: القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي، ص١٥٩.

مراتب الشرك

لقد حذر القرآن الكريم من الشرك أيًا كان نوعه، حمايةً لجناب التوحيد، وحرصًا على أهله، لأنه إما أن يخرج صاحبه من الإسلام ويحرمه نعمة التوحيد ويورده النار، وإما أن ينافي كماله، وقد ينتهي به إلى الخروج من الإسلام آخر الأمر[(١)].

وقد قسم أهل العقيدة الشرك إلى مرتبتين: شرك أكبر، وشرك أصغر (خفي)[(٢)].

وسنتناول ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الشرك الأكبر:

وهو «اتخاذ العبد غير الله من نبيٍ أو ولي أو جماد أو حيوان ندًا مساويًا لله ، يحبه كحبه ويخافه ويخشاه كخشيته إلخ»[(٣)].

وعرفه الدكتور عبد القادر صوفي فقال: «إثبات شريك لله عز وجل في خصائصه؛ فيجعل الإنسان ندًا لله في ربوبيته، أو في ألوهيته، أو في أسمائه وصفاته»[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

عرف ابن القيم الطاغوت بقوله: ما تجاوز به العبد حده: من معبود، أو متبوع، أو مطاع[(٥)].

وقد وصف الله تعالى الشرك بالظلم العظيم، فقال على لسان لقمان الحكيم: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

ففي الآية يوصي لقمان ولده الذي هو أشفق الناس عليه، وحقيقة أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا.

وينقسم الشرك الأكبر إلى أقسام[(٦)]، وبيانها فيما يأتي:

١ . شرك في الربوبية.

وهو أن يجعل لغير الله تعالى معه نصيبًا من الملك أو التدبير أو الخلق أو الرزق الاستقلالي[(٧)].

ويمكن القول بأنه نسبة أفعال الله تعالى لغيره من الخلق، حيًا كان أو ميتًا، كالرزق، التصرف في الكون، الإحياء، الإماتة إلخ،

(١) انظر: حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، محمد الغامدي، ص٢٧١.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبدالله ص٢٨.
(٣) مختصر معارج القبول، ص١٣٢.
(٤) المفيد في مهمات التوحيد، ص١١١.
(٥) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٤٨٢.
(٦) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص ١١٢.
(٧) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبدالله الجبرين، ص ١٥٢.

ومثاله أيضًا شرك النصارى بقولهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣][(١)].

٢. شرك في الأسماء والصفات.

وهو التسوية بين الله والخلق في شيء من الأسماء والصفات؛ بأن يجعل لله عز وجل ندا في أسمائه وصفاته؛ فيسميه بأسماء الله، أو يصفه بصفاته[(٢)]، كشرك الممثلة: وهو اعتقاد أن صفات الخالق تماثل صفات المخلوق، كمن يقول: يد الله كيدي، فهذا كله شرك.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

٣. الشرك الأكبر في الألوهية.

وهو أن يجعل العبد لله ندًا في العبادة، أو في التشريع[(٣)]، وهو على أنواع، منها:

١. شرك الدعاء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢. شرك الخوف، قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١].

٣. شرك الطاعة، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

٤. شرك المحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

٥. شرك الشفاعة، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]. قال الطبري: أي: كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله[(٤)].

٦. شرك النية، والإرادة والقصد: هو أن يريد العبد بعمله غير الله تعالى، كأن يعمل عملًا صالحًا يبتغي به الدنيا[(٥)]، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

(١) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر الصوفي، ص ١١٣.
(٢) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبدالله الجبرين، ص ١٥٥.
(٣) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر الصوفي، ص ١١٤.
(٤) انظر: جامع البيان ١٢/ ١٤٢.
(٥) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر الصوفي، ص ١١٣.

﴿وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥-١٦]. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من عمل عملًا يريد به الحياة الدنيا أعطاه جزاء عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة إلا النار[(١)].

ثانيًا: الشرك الأصغر:

عرفه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي بأنه: «كل وسيلة يتوسل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله، ويسير الرياء ونحو ذلك»[(٢)].

ويمكن القول: إن الشرك الأصغر كل ما ينافي كمال التوحيد قولًا كان، أو فعلًا، أو نيةً.

والدليل على وجود الشرك الأصغر: قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الزمخشري: «أي : أن لا يرائي بعمله، وأن لا يبتغي به إلا وجه ربه خالصا لا يخلط به غيره»[(٣)].

وبينت الآية شرطي العبادة المقبولة عند الله تعالى، وهما: الموافقة للشريعة، وعدم الإشراك بالله تعالى[(٤)].

قال العثيمين: «قال ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾ ليتبين لك أنه جل وعلا حقيق بأن لا يشرك به؛ لأنه الرب الخالق المالك المدبر لجميع المخلوقات»[(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

فالآية ليست دليلًا فقط على من عبد غير الله، بل تشمل الرياء، والطيرة، والحلف بغير الله، وتعليق التمائم .. إلخ[(٦)].

قال محمد أبو زهرة في أحد وجوه تفسيره للآية: «أنها تحمل على أن أكثر الناس تعتريهم حال إشراك مهما أخلصوا التوحيد لله تعالى، فالأوهام تسيطر على الناس ، وقد أدت بالوثنيين إلى عبادة الأوثان، ولكنها بالنسبة لمن جاء بعدهم أدت بهم إلى أوهام حول الأشخاص، لم يعبدوهم ولكن اعتقدوا فيهم قوى خفية ، والآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى الحرص على التوحيد، وتفويض الأمر إلى الله تعالى، وأن يبعدوا عن الأوهام المضلة، فلا يعتقدون في مخلوق أن فيه قوة تشفي، أو تنفع، فإن

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٧٤.
(٢) الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص ١٧٨.
(٣) الكشاف ٢/ ٧٥١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٣.
(٥) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة الكهف، ص ١٥٣.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٨.

الأوهام أدت إلى الشرك في جاهلية العرب وأدت النصارى إلى التثليث، ولا تزال الأوهام تسيطر عليهم حتى أدت بهم إلى عبادة الأحجار والصور والتماثيل»[1].

(١) زهرة التفاسير ٧/ ٣٨٧٠- ٣٨٧١.

أسباب الشرك

للانحراف عن عقيدة التوحيد أسباب كثيرة، تتعلق بتفكير الفرد والجماعة، أو طبيعة التربية التي نشأ عليها الفرد، حتى غدا لهذه التربية نوع من القداسة في نفسه، وفي هذا البحث سنقف على بعض هذه الأسباب التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: تعظيم المخلوقين:

دأب كثير من الناس على احترام وحب أصحاب المكانة من الناس، من مسؤولين، ورؤساء قبائل وعشائر، وحكام، وقادة عسكرين وخلافه، حتى غدا حبهم يملأ القلوب، وليس العيب هنا، ولكن بالغت فئة في هذا الحب، حتى غدا شكلًا من أشكال التبعية العمياء، التي قادت إلى نوع من التقديس والصد عن سبيل الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣٣].

وفي الآية الأولى يبين الله عز وجل موقف فئة من العصاة يوم القيامة؛ ممن حق عليهم العذاب من المشركين، وقد كانوا يعظمون السادة والكبراء من قومهم حتى أردوهم المهالك، فتمنوا يوم القيامة أن لو كانوا أطاعوا الله رسوله، ثم ينكسون رؤوسهم حسرة وندامة لطاعتهم السادة والكبراء، والأظهر أنهم الرؤساء في الشرك والضلالة، فأطاعوهم في معصية الله، فأضلهم هؤلاء السادة عن طريق التوحيد[1]، فصدوهم عن طريق الحق فوقعوا في الشرك.

والآية الثانية تصور لنا تصويرًا مؤثرًا بديعًا، ما يكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندم، ومن عداوة وبغضاء، ومن تهم يلقيها كل فريق على الآخر، بدون احترام من الأتباع لزعمائهم الذين كانوا يدينون لهم بالذلة والخضوع طواعيةً، بعد أن سقطت وزالت الهيبة الزائفة التي كان الزعماء يحيطون بها أنفسهم في الحياة الدنيا، وأصبح الجميع يوم الحساب في الذلة سواء[2].

ولما أنكر المستكبرون أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين، قال المستضعفون: ما كان الإجرام من جهتنا، بل من جهة مكركم بنا دائما، ليلا ونهارا، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد[3].

ثانيًا: التقليد:

ميز الله تعالى الإنسان بالفكر، ليعرف به الخير من الشر في الاعتقاد، والصدق من الكذب[4]، وأكرمه بالعلم والإرادة، ومنحه نعمة العقل، التي بها يقوى على الاختيار، والتمييز بين ما يضر وينفع، فأبى كثير من الناس إلا تعطيل هذه النعمة، ورفض هذه الكرامة، فحجروا على عقولهم، وأبوا إلا التقليد والتبعية العمياء للمورث من الأقدمين، آباء وقادة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقد ندد الله بهذا التقليد ، وجعل من يتشبثون به في درجة أحط من البهائم والأنعام، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فمن أغفل نعم الله وعطلها وعلى رأسها نعمة العقل والتفكير والتمييز ، فهو من اصحاب هذه الآية.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٤٩.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ٢٩٦.
(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٤٩٨.
(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٦٧.

وقد جاء تقليد المشركين في صور متعددة، بين منها القرآن ما يأتي:

١. التقليد في العبادة و الاعتقاد.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٣].

لما أنكر إبراهيم على أبيه وقومه قيامهم على هذه الأصنام والصور التي كانوا يعبدونها دون الله، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، فلم يجد القوم جوابًا إلا طريقة التقليد، التي توجب مزيد النكير، لأنه إذا كانوا على خطأ من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ أن آباءهم أيضا سلكوا هذا الطريق، فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: ٥٤].

فبين أن الباطل لا يصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به[(١)]، ولو كانت هذه الكثرة هم الآباء والأقدمون والأجداد، ومن لهم في النفس حب، لصلة أو قرابة.

٢. التقليد في الحكم والشرائع.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

ففي الآية بعد أن نهى الله المؤمنين عن اتباع آثار عدوه وعدوهم، أعلمهم وهو ربهم أن الشيطان لا يأمرهم إلا بما يضر أبدانهم وأرواحهم، ولا يرد لهم إلا إلى ما سيء الأفعال والأخلاق، وأفظع من ذلك أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، فيحرمون ويحللون ويشرعون باسم الله، والله في ذلك بريء، فلما قال لهم رسول الله، اتبعوا ما أنزل الله، قالوا: لا، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، ولو كان باطلًا، فهم يقلدون آباءهم ولو كان آباءهم لا يعقلون شيئًا من أمور الشرع والدين، ولا يهتدون إلى ما فيه الصلاح والخير[(٢)].

٣. التقليد في المعصية.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

تتناول الآية الكريمة الحديث عن قبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، ويزعمون أن الله أمرهم بذلك، فإذا فعلوا فعلة قبيحة ينكرها الشرع، قالوا: إنا وجدنا آباءنا هكذا يفعلون، نحن نقتدي بهم، وغير ذلك من التقليد الأعمى، الذي يرفضه الشرع، والأدهى من ذلك قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقل لهم: إن الله لا يأمر بالفحشاء أصلًا، وإنما الذي يأمركم بهذا هو

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٥٢.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٤٥.

الشيطان، وكيف تعتذرون باتباعكم آباءكم؟ وهل آباؤكم حجة في التشريع؟ وهل عملوا بوحي من الله وإرشاد؟ أم كانت أعمالهم بوسوسة الشيطان وزخرفته؟!! أم أنتم تقولون على الله ما لا تعلمون؟ فتشريع الله لا يكون إلا بوحي منه إلى رسوله[1]، وهذا هو الشرك بعينه.

ثالثًا: اتباع الهوى:

الهوى ما عشقته النفس، ومالت إليه من الحظوظ العاجلة، ويجري ذلك في المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، والجاه، ورفع المنزلة، فليجاهد العبد نفسه في ترك ذلك كله، حتى لا تحب إلا ما هو طاعة تقرب إلى الله[2].

وجاءت الشريعة الغراء تحث المؤمنين على الارتقاء بالنفس البشرية إلى أعلى الدرجات، والنأي بها عن سفاسف الأمور وحقيرها، لذلك كانت أوامرها السمحة، تحمل الإنسان على معالي الأمور وعظيمها، ولما كانت النفس تميل إلى الراحة والدعة، فقد ندد الله بمن أبى إلا مجاراة هوى نفسه والهبوط بها فقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣].

فجعل هوى نفسه مطاعًا، حتى غدا هواه إلهًا يعبد دون الله، ويشتهى فيطاع.

وقد جاء السياق القرآني منددًا باتباع الهوى لما له من أثر في حرف الناس عن عقيدة التوحيد وجادة الطريق، وبيان ذلك فيما يأتي:

- **الهوى يحمل على الشرك في العقيدة.**

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

فكل من استباح لنفسه كل ما تهواه، سواء كان مباحًا أو غير مباح، فكأنه يعبد هواه، كما يعبد الرجل إلهه[3]، فإن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله تعالى، فمن صرف ذلك لهواه فقد جعل للهوى ما هو من خصائص الله، فماذا بقي من الشرك؟!

قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

تتناول الآية التنديد بالمشركين لاتخاذهم أصنامًا تعبد دون الله، وجعلوا لها أسماء ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة، لكنها أماني وأهواء زعموها وتوهموا أنها حقيقة،

(١) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ١/ ٧٠٥.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٣١٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ٥/ ٣١١.

أو هو ادعاء مرده أهواؤهم[1]، فالذي حمل القوم على الشرك بالله هو اتباع الهوى.

- **الهوى يحمل على العدول عن شرع الله.**

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠].

تأتي هذه الآية الكريمة بعد سلسلة من الآيات التي دار فيها حوار مع الكفار حول مسائل تتعلق بما أحل الملأ من قريش وحرموا؛ من الأطعمة والأشربة وفق أهواؤهم، دون مستند من الله تعالى، والذي حمل على هذ التحليل والتحريم؛ ما إشربوه من هوى النفس، حتى غدت هذه الأهواء أوثانًا تعبد دون الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يشركون به ويجعلون له عديلًا[2]، أي: مثيلاً، وهذا هو عين الشرك، والذي حمل عليه هو اتباع الهوى في التحليل والتحريم، الذي هو من خصوصيات الله سبحانه وتعالى.

رابعًا: الكبر:

جاءت آيات القرآن الكريم تنفر من هذا الخلق الذميم، وتبين كبير جرم المتكبرين، ويمكن بيان مفاسد الكبر كما بينها القرآن الكريم ذلك فيما يأتي:

- **رفض عقيدة بالتوحيد.**

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦].

فالذي دفعهم للجدال والمراوغة، والصد عن سبيل الله هو ما ملأ صدورهم من كبر وتعالٍ على اتباع المرسلين، «والكبر الذي في صدورهم هو الاستكبار عن الإقرار بالتوحيد»[3].

- **الامتناع عن النطق بكلمة التوحيد.**

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥].

فهؤلاء المجرمون الذين يجحدون الله تعالى، ويعظمون أصنامهم الحجرية والفكرية على مدار الزمان وحتى يومنا هذا، ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله، وهي كلمة الحق، والعروة الوثقى، أصابهم الكبر، وعظم عليهم أن يتركوا أصنامهم[4]، وأفكارهم، وأسيادهم التي عظموها، فرفضوا الإقرار بكلمة الحق، وأبوا إلا البقاء على معتقداتهم، وحق عليهم

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٧٥.
(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٠٣.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٧.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٧١.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

فقلوبهم لا تنقاد إلا لأهل باطلهم، وما أشربوا من هوى أنفسهم.

- رفض التذلل والخضوع لله.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٧].

أي: كلما دعوتهم للإيمان الذي تترتب عليه المغفرة، قابلوا ذلك بالمبالغة في الكبر، وجعلوا أنفسهم أكبر من أن يأتمروا لواحد منهم، وتأكيد استكبروا بمفعوله المطلق للدلالة على تمكن الاستكبار[1].

فحملهم الكبر على التعالي على الله عز وجل والانقياد لدعوته، وتنوين ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ للتعظيم، أي : استكبارًا شديدًا لا يفله حد الدعوة.

- تكذيب المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧].

أي: «كلما جاء بني إسرائيل رسول من عند الله لا يجاريهم في أهوائهم استكبروا عليه وخالفوه وكذبوه أو قتلوه»[2].

ومما سبق يتضح لنا أن الكبر حاجب للإنسان عن صفاء العقيدة، وباب كبير من أبواب الصد عن عقيدة التوحيد.

خامسًا: الجهل بالله وأسمائه وصفاته:

جاء السياق القرآني الكريم بكثير من الآيات التي دعت الإنسان للتفكر في هذا الكون من حولنا، والتدبر في كتاب الله تعالى، ليصل إلى معرفة ربه وعبادته وحده بلا شريك.

ولكن كثيرًا من الناس جمدوا عقولهم، وأغلقوا قلوبهم عن وظيفتها الحقيقية، فلم تعرف ربها، وما قدرته حق قدره.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

والله سبحانه لم يترك عباده هملًا، بل عرفهم بأسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

أي: لله الأسماء الحسنى التي هي أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة، من

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٩٦.

(٢) التفسير الحديث، محمد عزت ٦/ ١٩٣.

تمجيد، وتقديس، وغير ذلك، فسموه بتلك الأسماء، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، أي: واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى، وبما لا يجوز عليه[1].

وقد بين القرآن الكريم الكثير من انحراف المشركين في أسماء الله تعالى وصفاته، ما حملهم على العدول عن عقيدة التوحيد والإشراك بالله تعالى، وبيان ذلك فيما يأتي:

❁ إنكار رسالة الرسل.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۗ قُلِ اللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

إن مدار القرآن على إثبات التوحيد والنبوة، فالله تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه أثبت التوحيد، وأبطل الشرك، ذكر بعده تقرير أمر النبوة، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حين أنكروا النبوة والرسالة، وكل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته[2]، لأن مقتضى ذلك أن الله ترك الناس هملًا، يفعلون ما يشاؤون، ثم بعد ذلك يعاقب المسيء.

❁ نسبة الولد لله.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

وهذه الآية مشيرة إلى العادلين بالله، والقائلين : إن الجن تعلم الغيب، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بجن الأودية في أسفارها ونحو هذا، أما الذين ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ﴾ فاليهود في ذكر عزير والنصارى في ذكر المسيح، وأما ذاكرو البنات فالعرب الذين قالوا للملائكة: بنات الله[3]، وما حملهم أن ينسبوا لله الأولاد والبنات إلا جهلهم بصفة وحدانية الله عز وجل.

❁ نسبة الفواحش لله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

لما سئل المشركون عن سبب ارتكابهم المعاصي الفاحشة -والتي منها الطواف

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٨٠.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢٧٤.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٢٩.

عرايا بالبيت- أجابوا بأنهم وجدوا عليها آباءهم، وأن الله أمرهم بذلك، وهم في ردهم الأولى صادقون وصادقون وإن كانوا غير محقين، وفي ردهم الثاني كاذبون، إذ كيف يأمر الله تعالى بها؟ والله لا يأمر بالفحشاء، بل يأمر بما فيه مصالح العباد، ثم قال تعالى ردا عليهم ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فادعاؤهم بأن الله أمر بهذه القبائح والفواحش يدل على جهلهم بأسماء الله وصفاته والتي منها «القدوس»، وهذا الإلحاد بأسمائه مرده الجهل.

سادسًا: إهمال العقل وعدم التفكير في آيات الله:

إن الله تعالى جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان وظيفة، لأجلها خلق، فإن عجز عن أداء دوره، كان سقيمًا مريضًا، والعقل إنما خلق للتفكر والتدبر، وقيادة البدن نحو معرفة الله، وإلزام الجوارح هديه، فإن ضل العقل عن معرفة ربه، كان سقيمًا وقاد صاحبه نحو الضلال والغواية.

لذلك فإننا نرى أن الكثير من الآيات الكريمة التي تعدد آيات الله ونعمه في هذا الكون، غالبًا ما يعقبها الآيات التي تدعو الناس إلى عقيدة التوحيد ، وتندد بالمشركين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٤-١٦٥].

فلما نهضت الأدلة على وحدانية الله، وسطعت البراهين، وزاحت العلل والشكوك، عاب من عبد سواه، وفزع إلى غيره، ولما حاد من حاد عن التوحيد وعبد سواه بسبب تعطيله لنعمة التفكر، عقب الآية الأولى بقوله ﴿يَعْقِلُونَ﴾، فهؤلاء ناس ضلت عقولهم، وفالت آراؤهم، ويتبرأ بعضهم من بعض يوم ينكشف حجاب الغفلة عن سرادق العظمة، ويتجلى الجبار في صفة النقمة، فمن الناس من عقل تلك الآيات ، فآمن بربه وفني في حبه، ومنهم وهم من لا يعقل ، وهم من اتخذوا الأنداد[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٩٢.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٣٠١.

لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٤].

فأهل الإيمان والتوحيد، يهديهم إيمانهم إلى الإقرار بوحدانية الله، والتصديق بما جاءت به المرسلون، فيقرون أن الله تعالى لم يخلق ذلك عبثًا- وحاشاه-، فيتوددون له بطلب الرحمة والمغفرة، وتكفير السيئات، بخلاف من يجادلون في الله بغير علم، ومن يجهلون أسماءه ويلحدون في ذلك.

الرسل ومحاربة الشرك

إن من أهم أصول شريعة الإسلام وشرائع الأنبياء السابقين القضاء على الشرك ومحاربته وتصفية معاقله وإنهاء وجوده وآثاره بين الناس.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧١-٧٣].

قال الزحيلي: «هذه حملة شديدة من الجدال والنقاش واللوم على الشرك والمشركين، والمعنى: قل أيها النبي في احتجاجك على المشركين: أنطيع رأيكم في أن نعبد من دون الله ما لا قدرة له على نفعنا ولا على ضرنا ؛ لأنها أصنام صماء جمادات لا حياة فيها ولا حركة، ثم نرد على أعقابنا إلى الشرك والكفر، بعد أن أنقذنا الله منه»[1].

(١) التفسير الوسيط ١/ ٥٦٩.

وتعتبر محاربة الشرك أساس دعوة الأنبياء في جميع عهود الرسالة السماوية؛ فالتوحيد في العبادة وتحطيم أغلال الشرك والوثنية كان من أهم التعاليم السماوية التي تحتل مكان الصدارة في رسالات الأنبياء عليهم السلام حتى كأن الأنبياء والرسل لم يبعثوا -أجمع- إلا لهدف واحد هو تثبيت دعائم التوحيد ومحاربة الشرك، لقد ذكر القرآن هذه الحقيقة بجلاء، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.

أولًا: على وجه الإجمال:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفي موضع آخر يصف القرآن الكريم التوحيد في العبادة بأنه الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية إذ يقول: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

فجميع الرسل كان أول وأهم ما دعوا إليه هو التوحيد، توحيد الله بالعبادة وتقواه وطاعته وطاعة رسله. يقول الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية: «اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل، ولهذا كان الصحيح أن أول واجبٍ يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك ،كما هي أقوال أرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان ، فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا»[1].

ثانيًا: على وجه التفصيل:

- **نوح عليه السلام.**

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

- **إبراهيم عليه السلام.**

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [العنكبوت: ١٦].

- **هود عليه السلام.**

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود: ٥٠].

(١) شرح الطحاوية ، ابن أبي العز ص٢١.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥].

۞ صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۖ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النمل: ٤٥].

۞ شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦].

۞ عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

۞ يعقوب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

۞ يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

۞ سيد البشر وخاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١-٦].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك،

فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا، فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس)[1].

هذه هي دعوة الأنبياء والتي بذلوا من أجلها الغالي والنفيس، وتعاقبوا عليها على مر التاريخ.

يقول سيد قطب رحمه الله: «﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله، ويتعاقب بها الرسل جميعًا على مدار التاريخ؛ فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها، فنسوها وضلوا عنها، وأشركوا مع الله آلهة أخرى - على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة - وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل، وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجي المؤمنين»[2].

أساليب القرآن في محاجة المشركين

المحاجة: وردت مادتها في القران الكريم في ثلاثة عشر موضعًا[3]، وهو قريب من الحوار والجدل ، وقد فسر الجدال بالتحاج ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [النساء: ١٠٧].

أي : لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم[4].

ولقد اتبع القرآن العديد من الأساليب لإثبات وحدانيته، ومن هذه الأساليب:

أولًا: أسلوب الإدراك الحسي:

قدم القرآن العديد من الأدلة الكونية التي تثبت وجود الله ووحدانيته وتكشف عجز آلهتهم وضعفها ، منها:

- دليل الخلق والإبداع.

لقد خلق الله هذا الكون وأبدع في خلقه، ومن إبداع خلق الله هو خلق الإنسان والسماوات، ويعتمد هذا الدليل على إثارة الفكر للتعرف على خالق الموجودات جميعها ، والاستدلال بذلك على وحدانيته تعالى، وهو أول دليل تلفت الآيات النظر إليه[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم ٧٣٧٢، ٩/ ١١٤.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٠٤.

(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم، عبد الباقي ١٩٣ - ١٩٤.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القران، القرطبي ٥/ ٣٧٨، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥١١.

(٥) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

فالخلق والإبداع دليل على وجود ووحدانية الله تعالى ، وهذه حقيقة لم ينكرها المشركون.

❁ دليل النظام الكوني.

إن النظام الكوني وما فيه من تقدير وإتقان، حجة أقامها القرآن الكريم في إثبات ألوهية الله وزيف ألوهية غيره؛ فوجود إله آخر مع الله تعالى أمر مستحيل عقلًا، وهناك أدلة كونية تفيد هذا.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال أيضًا: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

قال ابن عاشور: «وجملة ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تذييل أو اعتراض في آخر الكلام للتذكير والوعظ والتحذير، عقب قوله ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لأن إتقان الصنع أثر من آثار سعة العلم ، فالذي بعلمه أتقن كل شيء هو خبير بما يفعل الخلق ، فليحذروا أن يخالفوا عن أمره»[1].

❁ دليل العناية الإلهية.

لقد حف الله هذا الكون بالرعاية الإلهية الكاملة الشاملة لكل أفراده ولو انعدمت لاختلت توازناته وكان مصيره الفناء، ويسمى هذا الدليل دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بنا ضمن الآيات الكونية ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزاءه بحيث يكمل بعضها بعضًا وقدر كل شيء فيه تقديرًا، هو الله الواحد الأحد، ومن الآيات القرآنية التي ورد فيها دليل العناية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣١-٣٣][2].

ثانيًا: أسلوب البرهاني العقلي:

هذا الأسلوب يقوم على الاستدلال والتحليل والتركيب، ومن أبرز البراهين العقلية التي استخدمها القرآن هي البراهين البديهية.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

ملكاوي، ص ١٤٢.

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ٥١.

(٢) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي، ص ١٤٧.

وقال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٦].

فالاحتمالات العقلية التي تشير لها الآيات في قضية الخلق احتمالان ونتيجة:

١. أن العدم أوجدهم، وهو احتمال باطل.

٢. أن بعض المخلوقات خلقت بعضها الآخر، وهو احتمال باطل

النتيجة: هي أن يكون هناك خالق متصف بالكمال، وهو الله.

ثالثًا: أسلوب التحدي وكشف حقائق الآلهة الزائفة:

من خلال هذا الأسلوب استخدم القران أسلوب التحدي في كشف حقائق الآلهة المزعومة، ولقد تحدى القران الآلهة المزعومة أن يكون لها أثر في الخلق والإيجاد، فمثلًا لقد خلق الله الإنسان وأبدع في خلقه، فما هو خلق هذه الآلهة.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

ولقد تحدى الله تعالى من يشكون في نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن يأتوا بمثل القرآن، أو عشر سور، أو سورة، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨][1].

(١) انظر: المصدر السابق.

أحكام تتعلق بالمشركين في القرآن

لقد فرض الله أحكامًا على عباده المؤمنين تنظم حياتهم وشؤونهم مع من حولهم من المؤمنين وحتى المشركين، وفي هذا المبحث سيتناول الباحث أحكام التعامل مع المشركين في النكاح، والمعاملات المالية، والسلم والحرب، والبر والقسط، بل والاستغفار لهم.

أولًا: النكاح:

لقد حرم الله تعالى نكاح المشركات حيث قال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

ويقصد بالمشركة في هذه الآية الوثنية، قال الطبري: «إن الله تعالى ذكره عنى بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ من لم يكن من أهل الكتاب من المشركات، وأن الآية عام ظاهرها خاص باطنها، لم ينسخ منها شيء، وأن نساء أهل الكتاب غير داخلات فيها، وذلك أن الله تعالى ذكره أحل بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. للمؤمنين من نكاح محصناتهن، مثل الذي أباح لهم من نساء المؤمنات»[(١)].

وقال ابن كثير: «هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا من المشركات من عبدة الأوثان ، ثم إن كان عمومها مرادًا وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائدة: ٥]»[(٢)].

وعليه فنساء أهل الكتاب حل للمسلمين لما جاء القرآن بتخصيصهن من عموم المشركين والكفار، فيجوز التزوج بهن، ولكن بشرط أن تكون عفيفة، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: ٥].

روي عن الحسن والشعبي وإبراهيم والسدي أنهم العفائف[(٣)].

---

(١) جامع البيان ٤/ ٣٦٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٤.
(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص، ٣/ ٣٢٣.

ثانيًا: المعاملات المالية:

أمر الإسلام أتباعه أن يتعاملوا مع غير المسلمين معاملة قائمة على الرفق والسهولة والسماحة في جميع أمور الحياة وشؤونها؛ من البيع والشراء، والأجرة والكراء؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى)[١].

وهذا النص يشمل التعامل مع المسلم وغير المسلم، وفيه الحض على السماحة في المعاملة واستعمال مكارم الأخلاق، وترك المشاحنة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم[٢].

وعن عبدالرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما قال: (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء رجل مشرك مشعان طويل بغنم يسوقها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بيعًا أم عطية، أو قال: أم هبة؟ فقال: لا، بيع، فاشترى منه شاة)[٣].

وعند ابن قدامة: إذا ركب القوم في البحر، فاستقبلهم فيه تجار مشركون من أرض العدو ويريدون بلاد الإسلام، لم يعرضوا لهم، ولم يقاتلوهم، وكل من دخل بلاد المسلمين من أرض الحرب بتجارة بويع، ولم يسأل عن شيء[٤]، فلغير المسلمين حرية العمل والكسب، بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحساب أنفسهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين.

وكان صلى الله عليه وسلم يعامل مخالفيه من غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: (توفى النبي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين، يعني: صاعًا من شعير)[٥].

فقد قرر الفقهاء أن أهل الذمة، في البيوع والتجارات وسائر العقود والمعاملات المالية، كالمسلمين، ولم يستثنوا من ذلك إلا عقد الربا؛ فإنه محرم عليهم كالمسلمين، يتمتع الذميون بتمام حريتهم، في مباشرة التجارات والصناعات والحرف المختلفة، وهذا ما جرى عليه الأمر، ونطق به تاريخ المسلمين في شتى الأزمان[٦].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، رقم ٢٠٧٦، ٣/ ٥٧.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤/ ٣٠٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب، رقم ٢٢١٦، ٣/ ٨٠.
(٤) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٤٧.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٤١، رقم ٢٩١٦.
(٦) انظر: التعامل مع الآخر، إبراهيم المزيني، ص ١٠٩.

ويجوز الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين، قال ابن القيم: أما وقف المسلم عليه - على أهل الذمة - فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم، أو على أقاربه، وبني فلان ونحوه[1].

ثالثًا: السلم والحرب:

لقد حفلت نصوص القرآن ومواقف السيرة النبوية بما يدل على أن الإسلام يؤثر دائمًا السلام، حتى مع خصومه من المشركين، ومن أدلة ذلك أن القرآن الكريم أورد كلمة السلم بمشتقاتها مئة وأربعين مرةً، في حين ذكرت الحرب بمشتقاتها ست مرات فقط.

والفرق بين العددين هو الفرق بين نظرة الإسلام إلى كلا الأمرين، ومن ثم في ميل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كل منهما؛ ففي معظم أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبحث عن الطرق السلمية والهادئة للتعامل مع المخالفين له، ويحرص على تجنب الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

ويؤكد هذا النظرة العديد من الآيات التي أمرت بالسلم مع غير المسلمين إن أبدى هؤلاء الاستعداد والميل للصلح والسلام، فيقول الله تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٦١].

وفيما يلي تفصيل موقف المسلمين مع المشركين في السلم والحرب.

١. موقف الإسلام من غير المسلمين في حال السلم.

يقف الإسلام من غير المسلمين في حال السلم موقف الأمان، بل إنه لم ينه عن البر بهم ما داموا لم يقاتلوا المسلمين، وإنما ينهى عن البر بالذين قاتلوا المسلمين في دينهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، وظاهروا على إخراجهم.

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

قال الطبري: «فأذن الله للمؤمنين ببرهم والإحسان إليهم»[2].

ولقد دعا الإسلام إلى توثيق العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين بحل التزاور والمؤاكلة معهم ، وهي لا تكون إلا بين الأصدقاء والمتحابين.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ

(١) انظر: أحكام أهل الذمة ١/ ٦٠٣.

(٢) جامع البيان ٢٣/ ٣٢٢.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥].

ولقد عاش المسلمون مع النصارى واليهود في تسامح وأمن، يتمتع غير المسلمين في بلاد الإسلام بكافة الحقوق في التعليم، والعمل، والعبادة على أكمل وأتم وجه، وهذا هو الطريق الذي سلكه الإسلام لتنظيم حالة السلم[(١)].

ونهى القرآن الكريم عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

بل أمر بجمع الكلمة بينهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

كما أمر الإسلام بالوفاء بالعهد معهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤].

بل لو طلب المشرك من المسلم أن يجيره فعليه أن يجيره، بل ويبلغه مأمنه، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ٦].

قال النسفي: «وفيه دليل على أن المستأمن لا يؤذى ، وليس له الإقامة في دارنا ، ويمكن من العود»[(٢)].

٢. موقف الإسلام من غير المسلمين في الحرب.

إن الإسلام هو دين السلام، لا يأمر بالحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع والجهاد في سبيل الله، ومع مشروعية الجهاد في سبيل الله دفاعًا عن الدين والعقيدة والأرض والعرض، فإن الحرب في الإسلام لها حدود وضوابط، وللمسلمين أخلاقهم التي يتخلقون بها حتى في حربهم مع من يحاربهم من غير المسلمين.

فأمر الإسلام بالحفاظ على أموال الغير، وبترك الرهبان في صوامعهم دون التعرض لهم، ونهى الإسلام عن الخيانة والغدر والغلول، كما نهى عن التمثيل بالقتلى، وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعن حرق النخيل والزروع، وقطع الأشجار المثمرة.

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١٤.

(٢) مدارك التنزيل ١/ ٦٦٥.

وأوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسامة بن زيد عندما وجهه إلى الشام بالوفاء بالعهد وعدم الغدر أو التمثيل، وعاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرًا، ولا يمنعهم من أن يدقوا نواقيسهم أو أن يخرجوا صلبانهم في أيام أعيادهم[1].

ومن توجيهات الإسلام للمسلمين في الحرب:

- أن يكون القتال في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾ [البقرة: ٢٤٤].
- أن يكون القتال لمن يقاتلون المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].
- عدم الاعتداء، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠]. فالذين يعتدون على المسلمين ويقاتلونهم أمر المسلمون أن يقاتلوهم، ولكنه قتال عادل بمعنى ألا يمثلوا بأحد وبلا تعذيب، حيث قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة: ١٩٤]. أما الذين لا يقاتلون من غير المسلمين فكان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن قتالهم؛ فعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا)[2].

رابعًا: البر والقسط:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين ببر غير المسلمين والإحسان إليهم: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة: ٨].

أمر الله تعالى بالتعامل بالحسنى والمعروف والعدالة والإنصاف مع كل شخص لم يعاد المسلمين، أيًا ما كانت عقيدته، ومن هذه الآية أوجبت حقوق كثيرة

(١) انظر: الخراج، القاضي أبو يوسف، ص ١٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المغازي، باب وصية أمراء الجيش، رقم ٤٥٤٢، ٥/ ١٣٩.

لغير المسلمين على المسلمين[1].

وهي قاعدة عريضة في معاملة غير المسلمين، فهي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود، الصادر عن إله واحد، المتجه إلى إله واحد، المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي من وراء كل اختلاف وتنويع[2].

وقد أوجب الله على المسلمين بر الوالدين والإحسان إليهما ولو كانا مشركين.

قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال أيضًا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨].

قال ابن كثير: يقول تعالى آمرا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق.

ولهذا قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣][3].

كما أمر الإسلام المسلمين أن يؤتوا ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم ولو كانوا غير مسلمين.

قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: (قدمت علي أمي وهي مشركة، في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت علي وهي راغبة، أفأصلها، قال: نعم، صليها)[4]، وأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨][5].

ولقد بين القرآن الكريم أنه لا يصح ولا يجوز الاستغفار للمشركين بعد إصرارهم على الشرك وموتهم على ذلك، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ٣/ ٣.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٦٤.
(٤) مدارك التنزيل ١/ ٦٦٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٢٢.

﴿قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

قال الطبري: ما كان ينبغي للنبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كان المشركون الذين يستغفرون لهم ذوي قرابة لهم من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان، وتبين لهم أنهم من أهل النار، لأن الله قد قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله[(١)].

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: (لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: أي عم ، قل : لا إله إلا الله ،كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل؛ فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك؛ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣])[(٢)].

وفي رواية أخرى فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦][(٣)].

وهذا لا يتعارض مع استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

دل القرآن على أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه، قال تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٨٦].

وقال أيضًا: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال تعالى حكاية عنه في سورة مريم قال: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧].

وقال أيضا: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد ثبت أن الاستغفار للكافر لا يجوز. فكيف يجوز لإبراهيم ذلك؟؟.

أجاب الرازي عن هذه المسألة فقال: واعلم أنه تعالى أجاب عن هذا الإشكال أن فيه قولين: الأول: أن يكون الواعد أبا إبراهيم عليه السلام، والمعنى: أن أباه وعده

(١) انظر: جامع البيان ١٤/ ٥٠٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم ٤٦٧٥، ٦/ ٦٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)، رقم٤٧٧٢، ٦/ ١١٢.

أن يؤمن، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر له لأجل أن يحصل هذا المعنى، فلما تبين له أنه لا يؤمن وأنه عدو لله تبرأ منه، وترك ذلك الاستغفار. الثاني: أن يكون الواعد إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، والدليل على صحة هذا التأويل قراءة الحسن(وعدها أباه) بالباء[1].

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٦/ ١٥٩.

عداوة المشركين للمسلمين

إن عداوة المشركين والكفار واليهود للإسلام والمسلمين مستمرة إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢].

وعداوتهم تتمثل في كراهية الخير لهم، والصد عن الإسلام ومحاربته، وإيذاء المسلمين حيث كانوا وبشتى الطرق، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: كراهة الخير للمسلمين:

أخبر الله عن شدة عداوة الكفار للمسلمين بقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥].

قال ابن كثير: «يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم»[2].

قال البيضاوي: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نزلت تكذيبًا لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين، ويزعمون أنهم يودون لهم

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٥.

الخير»[1].

والكفار مهما عملوا فعداوتهم لا تنقطع، فهم وإن نطقت ألسنتهم بالموادعة، فإن قلوبهم تأبى إلا الغدر والكيد للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة: ٨].

قال المراغي: «كيف يكون للمشركين غير هؤلاء الذين جربتم وفاءهم عهد مشروع عند الله مرعى الوفاء وعند رسوله وحالهم المعروفة من أخلاقهم وأعمالهم أنهم إن يظهروا عليكم في القوة والغلب، لا يرقبوا الله ولا القرابة في نقض العهد والميثاق»[2].

ويلفتنا الشعراوي إلى نكتة عظيمة، فيقول: «نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل : كيف يكون للمشركين عهد، بل اكتفى بـ (كيف)، لأن غدرهم صار معروفا، وكانت «كيف» الأولى استفهاما عن أمر مضى»[3].

والمنافقون حالهم حال المشركين، فهم كفار بين المسلمين، فالبغضاء تبدو من أفواههم، والحقد يملأ قلوبهم، ولكن الله لهم بالمرصاد، كما قال سبحانه: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال الطبري: «إن تنالوا، أيها المؤمنون، سرورًا بظهوركم على عدوكم، وتتابع الناس في الدخول في دينكم، وتصديق نبيكم ومعاونتكم على أعدائكم يسؤهم، وإن تنلكم مساءة بإخفاق سرية لكم، أو بإصابة عدوٍ لكم منكم، أو اختلاف يكون بين جماعتكم، يفرحوا بها»[4].

ثانيًا: الصد عن الإسلام:

لقد تجلت عداوة المشركين للإسلام والمسلمين في الصد عن سبيل الله، وسبيل الله هنا بمعنى (اتباع الرسل)، فهؤلاء الكفار لا يكتفون برفض دعوة الرسل لهم ، ولكنهم يصرفون الناس عن اتباع ما جاءت به الرسل، وهذا الصد يكون بالرفض تارة ، وبالإكراه تارة ، وبالتهديد تارة ، وبالتشويه والتحريف تارة ، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾

(١) أنوار التنزيل ١/ ٩٩.
(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٦٢.
(٣) تفسير الشعراوي ٨/ ٤٩٠٠.
(٤) جامع البيان ٧/ ١٥٥.

[الأعراف: ٨٦].

ولما كان دأب هؤلاء هو التشهير بالدعوة والدعاة فقد رد عليهم القرآن بمثل ما فعلوا، فشهر الله تعالى بهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، وبين أنهم معادون لمولاهم ومعادون للحق ومعادون لأنفسهم في اعتراض دعوة الرسل وتنفير الناس منها، ولقد ذكر الله تعالى أمثال هؤلاء في غير موضع من القرآن، فهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩].

فكان جزاء هؤلاء من جنس عملهم ولبئس ما عملوا.

وهؤلاء المشركون ينفقون أموالهم في سبيل غاياتهم اللعينة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦].

قال الطبري: «إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين ليتقووا بها على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، ليصدوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله»[1].

ولايألوا المشركون جهدًا في سبيل صدهم عن سبيل الله أن يردوا من آمن عن إيمانه فضلًا عن منعه من دخول الدين.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

يقول ابن كثير: «يحذر تعالى عباده المؤمنين من سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم»[2].

ولقد توعد الله الصادين عن سبيله من المشركين والكفار بالعذاب الشديد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

قال الزمخشري: «الذين كفروا في أنفسهم، وحملوا غيرهم على الكفر: يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم. وقيل: في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت

(١) المصدر السابق ١٣/ ٥٢٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٨٢.

وعقارب أمثال البغال ، تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفا. وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدة برده إلى النار بما كانوا يفسدون بكونهم مفسدين الناس بصدهم عن سبيل الله»[1].

ثالثًا : إيذاء المسلمين:

لقد انتهج المشركون سياسة الإيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم، ولصحابته الكرام من بعده، ولمن تبعهم إلى يومنا هذا، بل لكل مسلم إلى قيام الساعة؛ فهذا هو ديدنهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فهذه الآية تدل بوضوح على ذلك؛ فهي بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها، أي: ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم السوء ويداومون على إيذائكم لكي يرجعوكم عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه، والتعبير بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ يفيد الدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع، وأنهم لن يكفوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم، و﴿حَتَّىٰ﴾ للتعليل ،أي: لا يزالون يقاتلونكم لكي يردوكم عن دينكم أو بمعنى إلى، أي: إلى أن يردوكم عن دينكم. والرد: الصرف عن الشيء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك: فغاية المشركين أن يؤذوا المسلمين بردهم بعد إيمانهم كافرين.

إن إيذاء المسلمين ورد فيه وعيد شديد وعقوبة أخروية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧-٥٨].

قال البيضاوي: «إن الذين يؤذون الله ورسوله يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصي، أو يؤذون رسول الله بكسر رباعيته وقولهم : شاعر مجنون ، ونحو ذلك»[2].

وقال ابن عاشور: «والمراد بالأذى: أذى القول بقرينة قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ لأن البهتان من أنواع الأقوال ، وذلك تحقير لأقوالهم، وأتبع ذلك التحقير بأنه إثم

(١) الكشاف ٢/ ٦٢٧.

(٢) أنوار التنزيل ٤/ ٢٣٨.

مبين. والمراد بالمبين: العظيم القوي، أي: جرما من أشد الجرم، وهو وعيد بالعقاب عليه»[1].

لقد آذى المشركون صحابة رسول الله، واعتدوا عليهم، وخاصةً من الفقراء والأرقاء، ومن لا نصير لهم، وفتنوهم وعذبوهم، ما بين محبوس ومعذب أو مطارد وملاحق، ومنهم من لقي الله شهيدًا.

عن عبد الله بن مسعود قال: (كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوا أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم أحد إلا وآتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد)[2].

عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: (مر بعمار بن ياسر وبأهله وهم يعذبون في الله، فقال: أبشروا آل ياسر، موعدكم الجنة)[3].

عن خباب بن الأرت قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة شديدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمرٌ وجهه فقال: إن كان من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[4].

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٠٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٨٢، رقم ٣٨٣٢، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد، ١/ ٥٣، رقم ١٥٠. وحسنه الألباني في التعليقات الحسان، ١٠/ ١٧٢.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، ٢/ ١٤١، رقم ١٥٠٨، والحاكم في المستدرك، ٣/ ٣٨٨. قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرّجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦١٢، ٤/ ٢٠١.

الشرك في المثل القرآني

ضرب الأمثال للناس أسلوب قرآني ، اعتمده القرآن لتقريب الحقائق، للتفريق بين ما هو حق فيتبعوه، وما هو باطل فيجتنبوه، وللتمييز بين ما هو خير فيتمسكوا به، وما هو شر فيبتعدوا عنه، فقد ذكر القرآن أمثال أهل الخير وأهل الشر، وأمثال أهل الحق وأهل الباطل، وأمثال أهل التوحيد وأهل الشرك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال أيضًا: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالأمثال جزءٌ من البيان الإلهي، تسهم في إبراز الحقائق الإيمانية من خلال أسلوبها المتميز الفعال في تشخيص الحقائق والإقناع، والفصل عند الاشتباه والخلاف، وخاصة قضايا الإيمان التي وقع فيها الخلاف؛ كالأصول التي ينبني عليها الإيمان بالله، وأسباب الهدى والضلال، وتوحيد الألوهية وما يضاده من الشرك، والبعث بعد الموت، وحقيقة الأنبياء والأولياء، وأن ليس لهم ولا فيهم من خصائص الألوهية شيء، وحال الدنيا وسرعة زوالها، وسوء عاقبة الاغترار بها، ونحو ذلك من القضايا الهامة[1].

ومن الأمثال القرآنية التي ضربها الله للناس مثالًا لأهل التوحيد وأهل الشرك، قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

ووجه التمثيل أن الله شبه حال المشرك الذي يعبد آلهة متعددة، بحال عبد له أكثر من سيد يخدمه ويطيعه، فكل واحد منهم يأمره بما لا يأمره به الآخر، فبعضهم يقول له: افعل، وبعضهم يقول له: لا تفعل؛ وبعضهم يقول له: أقبل، وبعضهم يقول له: لا تقبل؛ فهو حائر في أمرهم، لا يدري أيهم يرضي، فإن أرضى هذا أغضب ذاك، فهو لأجل هذه الحال يعيش في عذاب دائم، وتعب مستمر، أما مثل حال المؤمن الموحد فقد شبهه سبحانه بحال العبد الذي يعمل تحت إمرة سيد واحد، فلا أمر لأحد عليه إلا أمر ذلك السيد، ولا نهى ، لأحد عليه إلا نهي ذلك السيد، فهو مطيع له على كل حال، وهو ساع لكسب وده ونيل رضاه من غير ملال. ثم هو غير مشتت الهوى، ولا مبعثر القوى؛ لأن وجهته واحدة غير متعددة، ومقصوده واحد غير متناقض[2].

(١) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله الجربوع ١/ ١٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص

أراد الله من هذا المثل بيان حال من يعبد آلهة متعددة، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

فيبقى ذلك المشرك متحيرًا ضالًا، لا يدري أي هؤلاء الآلهة يعبد، يدعو هذا ثم يدعو ذاك، لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، فهو حائر مشتت القلب والذهن؛ بخلاف الموحد فهو في راحة تامة وطمأنينة كاملة. وهكذا سنة الحياة جارية على أن تعدد الرؤساء يفسد الأمر، ويشتت السعي.

قال الرازي: «وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد»[(١)].

إذ المقصود من ضرب هذا المثل إقامة الحجة على المشركين، وتعنيفهم لأجل مواقفهم الرافضة للاعتراف بالواحد الأحد، وكشف سوء حالتهم في الإشراك.

وضرب الله سبحانه وتعالى مثلًا آخر للتوحيد والشرك، فقد مثل التوحيد بالشجرة الطيبة، والشرك بالشجرة الخبيثة ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

شبه سبحانه وتعالى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بالشجرة الطيبة ، وهي النخلة الضاربة جذورها في أعماق التربة وفروعها مرتفعة في السماوات، والكلمة الخبيثة ، وهي الشرك ، كالشجرة الخبيثة ، وهي الحنظلة إذا استؤصلت، فلم يبق لها أثر ولا أصل في الأرض، وقد ورد عن ابن عباس، وبه قال جمهور المفسرين أن الكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله في قلب المؤمن، وأن الكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر[(٢)].

وفي هذا التشبيه حكم بليغة وأسرار كثيرة؛ لأن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر ، فكذلك شجرة الإيمان والتوحيد، ليطابق المشبه بالمشبه به، فشجرة التوحيد عروقها الثابتة: العلم والمعرفة واليقين، وساقها: الإخلاص لله، وفروعها: الأعمال الصالحة، وثمرها: الأخلاق الحميدة الزكية، فإذا كانت هذه

٧٢٤.

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٤٥١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩١.

الأمور مطابقة لأمر الله بأن يكون العلم موافقًا لمعلومه الذي أنزل الله به كتابه، وكان الاعتقاد مطابقًا لما أخبر الله به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله، وكان الإخلاص قائمًا في القلب، والأعمال موافقة للشرع، علم أن شجرة التوحيد في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإن كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فكما أن هذه الشجرة الخبيثة ليس لها أصل ثابت، ولا فرع ثابت، ولا فائدة فيها، فكذلك الشرك ليس له أصل يأخذ به المشرك ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملًا، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل في الأرض ولا فرع في السماء[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١].

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء وأن الذين اتخذوهم أولياء، أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتًا، وهو أوهن البيوت وأضعفها، ويفيد هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حيث اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ٨١].

وقال أيضًا: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢].

وقال أيضًا: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [يس: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٥].

وقال بعد أن ذكر هلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠١].

فهذه مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله ولياً يتعزز به ويتكثر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده[2].

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ١٦٧.

(٢) انظر: الأمثال في القرآن، ابن القيم، ص ١٣.

الآثار المترتبة على الشرك

إن التوحيد ما فطر الله عليه الإنسان السوي، وهو الذي يستقيم به الكون وحياة الإنسان، بينما الشرك الذي يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة في دنياه وآخرته، سواء أكان الواقع فيه فردًا أم جماعة، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: الآثار المترتبة على الشرك في الدنيا:

١. فقد الطمأنينة والأمن.

فالمشرك لا يتمتع بالطمأنينة التي يتمتع بها المؤمن؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]. فشركه أفقده طمأنينته.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

٢. العقوبة العاجلة في الدنيا.

فالمشرك قد تعجل له العقوبة في الدنيا؛ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

٣. الاضطراب والتشتت.

فالمشرك يضطرب بين المعبودات وتتشتت به الأهواء بينما الموحد يعرف من يعبد، والطريق إليه طريق واحد.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٤. القضاء على عزة النفس.

فالمشرك يذل لجميع طواغيت الأرض كلها؛ لأنه يعتقد أنه لا معتصم له إلا هم، فيذل ويخضع لمن لا يسمع ولا يرى، ولا يعقل، فيعبد غير الله، ويذل له، وهذا غاية الإهانة، أما العزة الحقيقة هي التي تستمد من الإيمان بالله الواحد.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

٥. الشرك أعظم الظلم والافتراء.

فمن أشرك فقد ظلم نفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

بل وافترى إثمًا عظيمًا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

٦. الانحراف عن غاية الخلق.

فقد خلق الله الإنس والجن للعبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

﴿لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦][1].

ثانيًا: الآثار المترتبة على الشرك في الآخرة:

٧. خسارة الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج: ١١].

٨. خسارة أهله مع نفسه.

قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١٥﴾ [الزمر: ١٥].

٩. براءة الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣].

١٠. الشرك الأكبر لا يغفره الله إذا مات صاحبه قبل التوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

١١. محبط لجميع الأعمال.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال أيضًا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥﴾ [الزمر: ٦٥].

١٢. يوجب النار لصاحبه ويحرم عليه الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

١٣. خلود صاحبه في النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: ٦][2].

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الإلحاد، الأوثان، التوحيد، الرياء، الضلال

(١) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله الجربوع ١/ ١٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٢٤.

شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

عناصر الموضوع

التعريف بشعيب عليه السلام	٣١٤
ذكر شعيب عليه السلام في القرآن	٣٢١
معجزة شعيب عليه السلام	٣٢٢
معالم دعوة شعيب عليه السلام	٣٢٥
موقف قوم شعيب عليه السلام منه	٣٣٢
عاقبة قوم شعيب عليه السلام	٣٣٧
الدروس المستفادة من قصة شعيب	٣٤٢

التعريف بشعيب عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

هو نبي الله شعيب عليه السلام، وشعيب تصغير شعب أو شعب بكسر الشين وفتحها[(١)].

وقيل: هو اسم مرتجل، وهو ابن نويلى أو نويب بن رعويل بن عيفا بن مدين : ومدين هو ابن إبراهيم عليه السلام[(٢)].

وقد اختلف المفسرون في الذي زوج ابنته موسى عليه السلام، فبينما يرى جمع أنه ليس هو شعيب النبي ، ويجزم ابن عاشور بأنه هو ، وأن موسى قد تزوج ابنته المسماة صفوره[(٣)].

وإلى مثله ذهب الدكتور عبد الكريم زيدان حيث قال: (أرسل الله تعالى رسوله شعيبا إلى مدين، ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

وقال: وهم أصحاب الأيكة، فدعاهم شعيب عليه السلام إلى عبادة الله وحده)[(٤)].

وهذا فيه نظر ؛ فإن موسى قد جاء بعد شعيب عليهما السلام بعشرات السنين[(٥)].

وقد فصل الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى هذه المسألة في رسالة خاصة بقصة شعيب عليه السلام، فبعد أن نقل الأقوال عن كتب التفسير وغيرها قال: فهذه كتب التفسير التي تروي بالأسانيد المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين لم يذكر فيها عن أحد أنه شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن نقلوا بالأسانيد الثابتة عن الحسن البصري أنه قال:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٤٨.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٤٠٧ ذكر أولاد إبراهيم الخليل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، ونقل عن محمد بن إسحاق أنه شعيب بن ميكيل بن يشجر، قال: واسمه في السريانية : يثرون.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٠.
وذهب إلى هذا الدكتور أحمد الكبيسي في كتابه القصص القرآني ص ١١١ حيث قال: إنه الابن الرابع لإبراهيم عليه السلام وقد تزوج مدين من ابنة لوط عليه السلام فكثر الله نسله.
وقد شكك الدكتور فضل عباس رحمه الله تعالى في كون مدين ابنا لإبراهيم عليه السلام، وقال ص ٤٥٤ في كتابه قصص القرآن: إن القضية تحتاج إلى تحقيق تأريخي، لذا فإني لا أستريح إلى ما رجحه صاحب المنار رحمه الله، لكني لا أجزم برأي؛ لأن الجزم يحتاج إلى تحقيق، وذكر بأن إبراهيم قد رزق إسماعيل وإسحاق عليهم السلام على كبر، فمتى تزوج هذه المرأة، وولدت له هذا العدد من الأولاد؟ أقول: وقد نقله رشيد رضا عن الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات كما سيأتي.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٤٠/ ٢/ ٨.

(٤) انظر: المستفاد ١/ ٢٣٧.

(٥) انظر: القصص القرآني، الخالدي ص ١١.

يقولون : إنه شعيب ، وليس بشعيب ، ولكنه سيد الماء يومئذٍ[1].

فالحسن يذكر أنه شعيب عمن لا يعرف ، ويرد عليهم ذلك ، ويقول : ليس هو شعيب، وإن كان الثعلبي قد ذكر أنه شعيب فلا يلتفت إلى قوله ؛ فإنه ينقل الغث والسمين[2].

فمن جزم بأنه شعيب النبي فقد قال : ما ليس له به علم وما لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ولا عمن يحتج بقوله من علماء المسلمين ،وخالف في ذلك ما ثبت عن ابن عباس والحسن البصري ، مع مخالفته أيضًا لأهل الكتابين، فإنهم متفقون على أنه ليس هو شعيب النبي، فإن ما في التوراة التي عند اليهود والإنجيل الذي عند النصارى أن اسمه يثرون، وليس لشعيب النبي عندهم ذكر في التوراة.

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن شعيبًا كان عربيًا، بل قد روي عن أبي ذر مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم رواه أبو حاتم وغيره: (أن شعيبًا كان عربيًا، وكذلك هود وصالح)[3].

وموسى كان عبرانيًا، فلم يكن يعرف لسانه، وظاهر القرآن يدل على مخاطبة موسى للمرأتين وأبيهما بغير ترجمان[4].

وذكر القرطبي أن اسم شعيب بالسريانية بيروت، ونقل أقوالا في نسبه، واختلافًا في اسم أبيه، وكذا فعل الشوكاني وغيرهما من المفسرين، ولسنا بحاجة إلى الوقوف عند هذا طويلًا، مع أن الكثيرين عدوه من ولد مدين بن إبراهيم عليهم السلام[5].

وبعد أن نقل رشيد رضا رحمه الله تعالى ما في الأسفار من أقوال في اسمه ونسبه قال: وأما علماؤنا فقال بعضهم كأبي عبيدة من حملة اللغة والبخاري من المحدثين والمؤرخين: إن مدين بلدٌ[6].

وإن قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ فيه حذف المضاف : إلى أهل مدين، وهو غلطٌ. وأما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٩/ ٢٩٦٥، رقم ١٨٣٣.

(٢) قال الثعلبي في الكشف والبيان ٧/ ٢٤٤: فقال مجاهد والضحاك والسدي والحسن: هو شعيب النبي صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه مطولاً من حديث أبي ذر رضي الله تعالى عنه، كتاب البر والإحسان، باب ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ ٢/ ٧٦-٧٧، رقم ٣٦١، بلفظ: (وأربعة من العرب هود وشعيب وصالح ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم).

(٤) انظر: جامع الرسائل ١/ ٦٣.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٤٧-٢٤٨.

(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٢٦٢-٢٦٣.

شعيبٌ فقد قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات: هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام[1].

وقيل: إن جده يشجر بن لاوى بن يعقوب عليهم السلام ،وقال الحافظ في الفتح: هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن لاوى بن يعقوب. كذا قال ابن إسحاق ، ولا يثبت.

وقيل: هو شعيب بن صفور بن عنقا بن ثابت بن مدين ، وكان مدين ممن آمن بإبراهيم لما أحرق.

وروى ابن حبان في حديث أبي ذرٍ الطويل: «أربعةٌ من العرب : هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ومحمدٌ». فعلى هذا هو من العرب الخلص[2].

ولا يترتب على هذا الخلاف كبير فائدة ولا عظيم أهمية، إذ لا تأثير لذلك على ما نحن بصدده من بيان هدايات هذه القصة.

وذكر بعض المفسرين في وصفه بالضعف في قوله تعالى حكاية عن قومه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١]: أنه كان ضرير البصر أعمى، أو أنه كان ناحل البدن، قال ابن عطية بعد أن نقل قول من قال بذلك: وهذا كله ضعيف، ولا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم: ﴿ضَعِيفًا﴾ أنه ضعيف الانتصار والقدرة، وأن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه[3].

وقد كان شعيب عليه السلام من المرسلين المؤيدين بالمعجزة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[4].

واختلف في معجزته؛ لأن الله تعالى لم يذكرها صراحة، لكنه قال على لسانه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فما هي هذه البينة؟ الظاهر أنها معجزة قامت بها الحجة عليهم لم يذكرها القرآن الكريم، كما أنه لم يذكر معجزة هود ونوح عليهم السلام.

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٤٦.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٦٧، فتح القدير ٢/ ٢٢٤ ، فقد نقل الشوكاني طرفا من تلك الأقوال.
(٣) انظر: المحرر الوجيز ٧/ ٣٨٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ١١/ ١٩٣، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، رقم ١٥٢.

ونبي الله شعيب هو خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد جاء ذلك في حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن محمد بن إسحاق قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة ـ إذا ذكر شعيبا قال: (ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، فيما يرادهم به)[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سمعت مالكا يقول: كان شعيب عليه الصلاة والسلام خطيب الأنبياء[2].

وهذه فضيلة مهمة لسيدنا شعيب عليه السلام، لاسيما في باب النصح الذي اتسمت به دعوته، ولا يخفى ما للخطيب المفوه من قدرة على إقناع المستمعين، وإقامة الحجة على المعاندين، بحيث لا يجدون فكاكا عن أحد الأمرين، إما الإيمان به وإجابته، وإما إلزامهم بصدق دعوته.

ثانيًا: قوم شعيب:

نجد في قصة شعيب عليه السلام التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم ذكر أهل مدين وأصحاب الأيكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧].

ونظرائها من الآيات.

فهل أهل مدين هم أصحاب الأيكة، أم هما قومان، وأن شعيبا عليه السلام قد أرسل إليهما؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين، فمنهم من يرى الأول ،ومنهم من يرى الثاني، ولكل دليله على ما ذهب إليه، وسنختصر القول في ذلك، إذ لا يترتب على هذا الخلاف كبير ثمرة في ما نحن بصدده من عرض قصة شعيب عليه السلام، وبيان دعوته وأمانته في تبليغ رسالة ربه، فهو قد صدق في النصح لقومه سواء كانوا أمة واحدة أم أمتين مختلفتين ، فنقول:

ذهب الإمام الطبري إلى أنهما أمتان ، وأن شعيبا أرسل إليهما ، فكفرتا ، فعذبهما الله تعالى بعذابين مختلفين، أهل مدين بالصيحة، وأصحاب الأيكة بالظلة[3]، كذا نقله ابن عطية

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره، رقم ١٤٨٦٩، عن ابن إسحاق.
(٢) أخرجه في تفسيره، رقم ٦٦٢، ١/ ٣٦٣.
(٣) انظر: جامع البيان ١٧/ ١٢٤، وفيه: ذكر لنا أنه سلط عليهم الحر سبعة أيام، لا يظللهم منه ظل، ولا

عن الطبري وسكت عنه، فكأنه ارتضاه[1].

ويستفاد من كلام الرازي أنه يقول بذلك، فإنه بعد أن بين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩] يعود إلى أصحاب مدين والأيكة ، لأن شعيبا كان مبعوثا إليهما ، قال: فإن قيل: هلا قال :أخوهم شعيب ، كما في سائر المواضع؟ جوابه: إن شعيبا لم يكن من أصحاب الأيكة[2].

وقال في تفسير سورة الشعراء: وروي أن شعيبا بعث إلى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة[3].

وبعد أن بين الألوسي معنى الأيكة وأنها الغيضة التي تنبت ناعم الشجر ، قال: وهي غيضة من ساحل البحر إلى مدين يسكنها طائفة، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام ، وكان أجنبيا منهم، ولذلك قيل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم، وقيل: الأيكة الشجر الملتف ، وكان شجرهم الدوم ، وهو المقل، وعلى القولين أصحاب الأيكة غير أهل مدين، ومن غريب النقل عن ابن عباس أنهم هم أصحاب مدين[4].

وانتصر لهذا ابن عاشور فبعد أن نقل بعض أقوال العلماء في ذلك قال: «والأظهر أن أهل الأيكة قبيلة غير مدين، فإن مدين هم أهل نسب شعيب ، وهم ذرية مدين بن إبراهيم من زوجه (قطورة)، سكن مدين في شرق بلد الخليل ، كما في التوراة ، فاقتضى ذلك أنه وجده بلدا مأهولا بقوم فهم إذن أصحاب الأيكة، فبنى مدين وبنوه المدينة، وتركوا البادية لأهلها، وهم سكان الغيضة»[5].

وذكر الدكتور أحمد الكبيسي تحت عنوان رسالة جديدة: «إن الله بعد أن أهلك مدين ونجا شعيبا عليه السلام أرسله مرة أخرى إلى أصحاب الأيكة، وكان غريبا عنهم ، لذا لم يقل تعالى ، أخوهم شعيب، وكانت أخلاقهم كأخلاق أهل مدين من تطفيف المكيال والميزان،

يمنعهم منه شيء، فبعث الله عليهم سحابة، فحلوا تحتها يلتمسون الروح فيها، فجعلها الله عليهم عذابا، بعث عليهم نارا فاضطرمت عليهم فأكلتهم، فذلك عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم.

(١) انظر: المحرر الوجيز ٨/ ٣٤٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب ١٩/ ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق السابق ٢٤/ ١٦٣.

(٤) انظر: روح المعاني ١٠/ ١١٦.

وما نقله عن ابن عباس أخرجه ابن جرير ١٧/ ١٢٤ من طريق حجاج عن ابن جريج قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ قال: قوم شعيب، قال ابن عباس: الأيكة ذات أكام وشجر كانوا عليها.فقوله من قوم شعيب ، من كلام ابن جريج ـ كما ترى ـ وليس من كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

(٥) التحرير والتنوير ١٩/ ١٨٣.

ويخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض»[1].

ويستفاد من كلام الشوكاني أنهما أمة واحدة، حيث قال في تفسير سورة الحجر: وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب ،وقد تقدم خبرهم، واقتصر الله سبحانه على وصفهم بالظلم، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق، ثم قال في عود الضمير ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ بعد أن ذكر قول الجمهور أنه يعود على قوم لوط وأصحاب الأيكة، وقيل: الضمير للأيكة ومدين ، لأن شعيبا كان ينسب إليهما[2].

وأيد هذا الدكتور صلاح الخالدي حيث قال: فالراجح أن شعيبا عليه السلام بعث إلى أهل مدين ، ومدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، وأن الله دمر مدين أصحاب الأيكة بعذاب واحد، هو الرجفة والصيحة والظلة[3].

ثم أيد ما ذهب إليه بالتفصيل الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وخلص منه إلى أنهما أمة واحدة، وأنها أهلكت بأنواع من العذاب[4].

ومما قال ابن كثير: وإنما لم يقل ههنا : أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة ، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا، ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين[5].

أقول: ولعل هذا هو الراجح في هذه المسألة، ويمكن أن نفصل ذلك بأنهما أمة واحدة غير أن بعضا منهم - وهم أهل مدين - كانوا يسكنون المدينة، وأن بعضا آخر - وهم أصحاب الأيكة - كانوا يسكنون الغيضة، ومما يرجح أنهما أمة واحدة أن الله تعالى قد ذكر عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين ـ كما يقول ابن كثير ـ من التطفيف في المكيال والميزان[6].

---

(١) انظر: القصص القرآني ١١٥.
(٢) انظر: فتح القدير ٣/ ١٤٠.
(٣) القصص القرآني ٢/ ٣٧.
(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص ١٩٣-١٩٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥٢.
(٦) انظر: المصدر السابق.

فنقرأ في سورة الأعراف قوله تعالى في نصيحة أهل مدين: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى في سورة الشعراء في نصيحة أصحاب الأيكة: ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

ومما يدل على أن أهل مدين هم أصحاب الأيكة : ما أخرجه الحاكم عن وهب بن منبهٍ قال: إن الله بعث شعيبًا إلى أهل مدين ، وهم أصحاب الأيكة ، فكانت الأيكة من الشجر الملتف، وكانوا أهل كفرٍ بالله وبخسٍ للناس في المكاييل والموازين، وإفسادٍ لأموالهم، وكان الله تعالى وسع عليهم في الرزق وبسط لهم في العيش ؛ استدراجًا منه لهم مع كفرهم به ، فقال لهم شعيبٌ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ فكان من قول شعيبٍ لقومه وجواب قومه له ما قد ذكر الله في كتابه.(١)

ونكتفي بهذا القدر فكما قلنا : إن الذي يهمنا هنا هو ما نستخلصه من الدروس والعبر والعظات من قصة شعيب عليه السلام وصدقه في نصح قومه، وذلك يتأتى من كونه عليه السلام مرسلا إلى أمة واحدة أو إلى أمتين، إذ الصدق والإخلاص حاصل في هذا وفي ذاك. والله تعالى أعلم.

[انظر: مدين: التعريف بمدين]

(١) أخرجه الحاكم رقم ٤٠٧٣، وسكت عنه الذهبي ٢/ ٦٢٠.

ذكر شعيب عليه السلام في القرآن

ورد ذكر (شعيب) عليه السلام في القرآن الكريم (١١) مرة في (٤) سور.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٨٥-٩٣
هود	٨٤-٩٥
الشعراء	١٧٧-١٩١
العنكبوت	٣٦-٣٧

معجزة شعيب عليه السلام

المعجزة كما عرفها العلماء: أمر خارق للعادة سالم من المعارضة ، يجريه الله تعالى على يد نبي من أنبيائه على سبيل التحدي[(١)].

وهي بمثابة قول الله تعالى: صدق عبدي فيما يبلغ عني.

وما من نبي من أنبياء الله تعالى إلا أيده الله تعالى بمعجزة، تظهر صدقه وتدل على نبوته، كما تقدم في قول النبي المصطفى صلى الله عليه و سلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر) الحديث[(٢)].

ولكنا وجدنا أن الله تبارك وتعالى قد قص علينا نبأ بعض الأنبياء عليهم السلام، ولم يذكر لنا معجزاتهم، من مثل: نوح وهود وشعيب عليهم السلام، والذي يهمنا أن نقف عنده في هذا البحث هو شعيب عليه السلام، فهل له معجزة؟ وما هي؟

لم نقرأ في قصته التي حكاها الله تعالى في كتابه الكريم على شيء من ذلك إلا قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فهل هذه البينة هي المعجزة؟ أم له معجزة لم يخبرنا الله تعالى بها؟

من العلماء من يرى أن البينة المذكورة هي المعجزة، ومن هؤلاء الإمام الكسائي فيما نقله القرطبي عنه[(٣)]، وابن عطية حيث قال: (والبينة إشارة إلى معجزته، وإن كنا نحن لم ينص لنا عليها)[(٤)].

وبذلك جزم الرازي حيث قال رحمه الله تعالى: (ويجب أن يكون المراد من البينة ههنا المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئًا لا نبيًّا)[(٥)].

بينما ذهب القرطبي ـ بعد ما نقل عن الكسائي ما تقدم ـ إلى أن الله تعالى لم يذكر له معجزة في القرآن.

وأما الطبري فيرى أن البينة علامة دالة على صدقه حيث قال: «يقول: قد جاءتكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه»[(٦)].

وإلى نحو هذا ذهب ابن عاشور، فذكر أنها حجة أقامها على بطلان ما هم عليه من الشرك وسوء الفعل، وعجزوا عن مجادلته فيها فقامت عليهم الحجة، فهي علامة على

(١) انظر: الإتقان ٤/ ٣، وانظر: كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ١١/ ١٩٣، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، رقم ١٥٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٤٨.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٧٤.
(٥) مفاتيح الغيب ١٤/ ١٨٠.
(٦) جامع البيان ١٢/ ٥٥٥.

صدق شعيب عليه السلام[1].

وللإمام الألوسي تفصيل في ذلك، فقد فسر البينة بالمعجزة، حيث قال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم، وقال: ولم تذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم السلام فيه، ثم بين غلط من ذهب إلى أن شعيبا لم تكن له معجزة وعلل ذلك بأن الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ لترتيب الأمر على مجيء البينة، وقال: واحتمال كونها عاطفة على (اعبدوا) بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس ، فكأنه قيل: قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بها والأخذ بما أمرتكم به، فأوفوا.. إلخ.

ودلل على ذلك بأنه لو ادعى مدع النبوة بغير معجزة لم تقبل منه، لأنها دعوى أمر غير ظاهر ، وفيه إلزام للغير ، ومثل ذلك لا يقبل من غير بينة، وقال: ومن الناس من زعم أن البينة نفس شعيب. ومنهم من زعم أن المراد بالبينة : الموعظة ، وأنها نفس ﴿فَأَوْفُوا﴾ إلخ ، وليس بشيء كما لا يخفى[2].

وقال القاسمي: «ولا يخفى أن البينة أعم من المعجزة بعرفهم، فكل من أبطلت شبهة ضلاله، وأظهرت له حجة الحق الذي يدعى إليه فقد جاءته البينة ؛ لأن حقيقة البينة كل ما بين الحق فاحفظه»[3].

وسكت عن هذا الدكتور فضل عباس حيث قال: «فقد جاءتهم المعجزة الدالة على صدقه عليه السلام، والقرآن لم يبين لنا نوع هذه الآية التي جاءتهم، فنسكت عما سكت عنه»[4].

وإلى مثله ذهب الدكتور عبدالكريم زيدان وقال: «وإن كنا جازمين بأن الله تعالى قد أيده بآية هي البينة التي دلت على أنه رسول من رب العالمين، وبها قامت الحجة على قومه»[5].

وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر) الحديث، وقد سبق الاستدلال به[6].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٢٤١.

(٢) انظر: روح المعاني ٤/ ٤١٣.
(٣) محاسن التأويل ٧/ ٢٠٦.
(٤) قصص القرآن الكريم ص ٤٥٥.
(٥) انظر: المستفاد ١/ ٢٣٨.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ١١/ ١٩٣، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، رقم ١٥٢.

والدكتور الخالدي فقد اكتفى بقوله: «﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ المراد بالبينة هنا الآية والدليل والبرهان، على أن شعيبا عليه السلام هو رسول الله إليهم، وأنه يجب عليهم اتباعه»[1].

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر المعجزة بعد ذكر البينة ، كما في قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

وفي قصة موسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ إلى أن قال: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف: ١٠٥-١٠٧].

أقول: ولعل الراجح في هذه المسألة، قول من قال: إن في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إشارة إلى معجزة شعيب عليه السلام، وأنها كانت آية ظاهرة لا لبس فيها و لا غموض، دالة بلا امتراء على صدق من جاء بها، والأولى أن نسكت عن الجزم بها ؛ لأن الله تعالى سكت عن ذكرها، ولم يكشف عنها في كتابه الكريم، فنجزم أن شعيبا عليه السلام قد أيده الله تعالى بمعجزة، والله تعالى أعلم بها.

وأما من قال: إن الحجة قامت عليهم بمجرد عجزهم عن مجادلته ففيه نظر، إذ لو كان ذلك كافيا في إثبات نبوته، لثبتت نبوة كثيرين، فكم من صاحب دعوى يعجز الآخرون عن مقارعة حجته!! والله تعالى أدرى بأسرار كلامه.

(١) القصص القرآني ٢/ ١٥.

معالم دعوة شعيب عليه السلام

أولًا: آفاق النصيحة في القرآن الكريم:

لا يخفى أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات: ٥٦].

ولما علم سبحانه وتعالى أن أمور الخلق لا تستقيم، وأن تلك العبادة لا تتحقق بدون أن يكون هناك تعليم منه وإرشاد، أرسل الرسل وأنزل الكتب، وبذلك قامت حجة الله على عباده.

ولفظ النصح ومشتقاته من الألفاظ الدائرة في الكتاب العزيز، فقد ورد على ألسنة جمع من خلق الله تعالى، من ذلك إحدى عشرة آية جاءت على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مما يدل على أهمية النصيحة في حياة كل أمة.

وقد كان من أولى مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام أن ينصحوا أممهم، ويدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، وقد ساروا جميعا في هذا الطريق غير مبالين بما أصابهم في سبيل ذلك من نكبات، وما اعترضهم من عقبات، مبلغين رسالات ربهم على أتم وجه وأكمله، حتى ختمت تلك الرسالات بمسك الختام، سيدنا ونبينا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، ذلك النبي الخاتم الذي جاء بالكتاب العظيم الخاتم، (فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم)[1].

وقد حكى الله تعالى لنا فيه نصح الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، فمن ذلك ما حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام في نصح قومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٢].

ومثله قول هود لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٨].

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي من حديث الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن ٥/ ١٧٢، رقم ٢٩٠٦.
والحديث وإن كان في سنده مقال، إلا أن الوصف صادق، وهو بتمامه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ألا إنها ستكون فتنة).فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن:٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) خذها إليك يا أعور.قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

وقول صالح: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقول شعيب: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ [الأعراف: ٩٣].

والنصيحة: من نصح ينصح نصحا ونصاحة ونصاحية، وهو ناصح ونصيح، والاسم النصيحة، فالنون والصاد والحاء ـ كما يقول ابن فارس ـ أصل يدل على الملائمة بين شيئين وإصلاح لهما، وهي خلاف الغش، ونصحت له ونصحته بمعنى[(١)].

وفي الصحاح: وهو باللام أفصح، قال الله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾[(٢)].

وقال الزجاج: وفي الكلام: نصحت لك أكثر من نصحتك[(٣)].

فأصل النصح في اللغة: الخلوص، فالنصيحة: كلمة يعبر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناه غيرها[(٤)].

وهي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد، والنصح: إخلاص العمل عن شوائب الفساد[(٥)].

قال الأصمعي: الناصح الخالص من العسل وغيره مثل الناصع، وكل شيء خلص فقد نصح[(٦)].

وقد كثرت أقوال العلماء في تعريفها وبيان حقيقتها، وخلاصة ذلك أنها: إرادة الخير للمنصوح والإخلاص في ذلك.

وإذا علمنا أن النصح يعني الإخلاص والصدق والنقاء وأنه نقيض الغش، كما تقدم في المعنى اللغوي، فقد كان الأنبياء عليهم السلام كلهم كذلك.

وقد حدثنا القرآن الكريم أنهم أخلصوا النصح لقومهم في آيات بينات واضحات، تقدم ذكر بعضها، فلم يكن شعيب عليه السلام بدعا من الرسل في ذلك، لقد بذل جهده في نصح قومه، لاسيما وأنه خطيب الأنبياء عليهم السلام، ولا يخفى ما للخطابة من ميزة في حسن العرض وجودة التعبير، مما يكون أثر بالغ في إيصال المقصد الأعظم من الرسالة.

فقد أدى المهمة التي أرسل من أجلها على أتم وجه وأكمله.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٠٠.
(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ٤١٠.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٤/ ١٣٨.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٦٣.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ٣٠٩.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٤١١.

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: ٤٨-٤٩].

وهكذا صنع شعيب عليه السلام مع قومه، كما أنهم كانوا فريقين تجاه دعوته، ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: ٨٧].

لقد اشتمل نصح شعيب عليه السلام لقومه على دروس متعددة، وفيه عبر وعظات متنوعة، تستفيد منها الأجيال على مر الدهور وتعاقب العصور، فقد كان نصحا صادقا، صادرا من مخلص مستجمع لما يجب أن يكون عليه الناصحون، ومن حكم الشعر[1]:

فما كُل ذي نُصْحٍ بمؤْتِيك نُصْحَهُ
ولا كل مُؤْتٍ نُصْحَه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند صاحب
فحق له من طاعةٍ بنصيب

فكان حريًا بقومه أن يسمعوا ويطيعوا، ولكن أغلبهم كان على خلاف ذلك، وهكذا هو شأن من لا يحبون الناصحين.

(١) انظر: ديوان أبي الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو بن سفيان ص٦.

ثانيًا: الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته.

إن الإيمان بالله تعالى وتوحيده وإفراده بالعبادة، مقصد مهم من مقاصد خلق الإنسان، ذاك أن الله تعالى هو الذي أنعم على هذا الإنسان وأخرجه بفضله من العدم، ولأهمية العبادة في حياة الإنسان، فقد توجه ربنا تبارك وتعالى بنداء جميع خلقه، وأمرهم بذلك بلا استثناء، فإنه بعد أن ذكر أصناف الناس في صدر سورة البقرة، أردف ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

«والإيمان لغة: التصديق، وشرعًا: تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه»[2].

«والإيمان بالله تعالى هو التصديق القاطع الجازم بوجود الله تعالى، كما أخبر سبحانه وتعالى به، واطمئنان القلب وسكون النفس إلى ذلك، بحيث لا يبقى في القلب أدنى مرض وظلمة، ولا في العقل أقل شبهة أو ريبة في وجود الله جل جلاله ووجوب الإيمان به سبحانه، فلو زالت الجبال من مواضعها ما زال إيمان المؤمن عن قلبه، ولو ضل الناس عن الإيمان به سبحانه ثبت هو

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١١٢.

على إيمانه»[1].

فقوله: «ما جاء به عن ربه»، ومثله «كما أخبر سبحانه وتعالى به»، يخرج ما كان عليه المشركون من الاعتراف بوجود الله وإشراكهم غيره معه ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

«والإيمان بالله عز وجل أساس مسائل العقيدة كلها، وعنه تتفرع بقية الأمور الاعتقادية التي يجب إنهاض العقل للتأمل فيها ، ثم الإيمان بها، وبتعبير آخر نقول: إن ما تراه من حقائق الكون كلها، إنما هو فيض عن حقيقة واحدة كبرى، ألا وهي ذات الله عز وجل، ومن المحال أن تدرك ما هية الحقائق المتفرعة الصغرى قبل أن تدرك منبعها وأصلها الأول، فكان لابد إذًا لكي تستطيع التعرف على الكون من أن تعرف خالقه أولًا»[2].

ومن هنا فإن الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وإفراده بالعبادة، كانت من أبرز مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهي سمة ظاهرة، وقدر مشترك بين جميع الأنبياء من لدن آدم إلى محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، فقد كانت هذه الدعوة من الألفاظ الدائرة في الكتاب العزيز على لسان الأنبياء جميعا، من ذلك قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] ونظائرها.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

ولدى تتبع ما جاء عن شعيب عليه السلام في الكتاب الكريم، نجد أن لنصح شعيب دعائم يقوم عليها، وهي جملة من الأوامر والنواهي، تنظم لقومه شؤون حياتهم في الدنيا على أمن وسلام وطمأنينة، وتكفل لهم سعادة ونجاة وفوزا في الحياة الآخرة، وإن من أهم تلك الدعائم: توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

وعند تأمل هذه الدعامة في قصة شعيب عليه السلام، نجد أنها جاءت متعددة متنوعة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، ففي سورتي الأعراف وهود وردت بلفظ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] و [هود: ٨٤].

وفي سورة الشعراء وردت بلفظ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾ [الشعراء: ١٧٧-١٧٩].

وفي سورة العنكبوت وردت بلفظ: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

ويلاحظ أن شعيبًا عليه السلام قد ابتدأ الدعوة بالإيمان ؛ لأن به صلاح الاعتقاد

(١) أركان الإيمان، وهبي غاوجي ص ١٣.
(٢) كبرى اليقينيات الكونية ص ٧٧.

والقلب، وإزالة الزيف من العقل[1]، وذلك أمر مهم لتلقي ما بعده.

وآيتا الأعراف وهود صريحتان في الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وتأتي الآيات في سورة الشعراء، مكملة لذلك بالدعوة إلى تحقيق التقوى والطاعة المطلقة لله ولرسوله شعيب عليه السلام، وذلك شامل للرسالة كلها، ذاك أن التقوى على مراتب أدناها اتقاء الشرك بالله، ثم امتثال الأوامر واجتناب النواهي[2].

وأما آية العنكبوت فنجد فيها التذكير باليوم الآخر: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

ذاك لأن العبادة هي سر وجود الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن ضيع سر وجوده فقد ضاع منه كل شيء، ومن حكم الشعر:

لكل شيء إذا ضيعته عوض
وليس لله إن ضيعت من عوض

وأمره إياهم بأن يرجوا اليوم الآخر يدل على أنهم لم يكونوا مؤمنين بالبعث، لأن المراد بالرجاء هنا: الترقب واعتقاد الوقوع في المستقبل[3]، ولأن عبادة الله تعالى يرجى منها الخير في الدارين[4]، فمن آمن بالبعث وباليوم الآخر صح رجاؤه[5].

ثالثًا: إقامة القسط في الكيل والميزان:

إن من أهم مقاصد رسالة شعيب عليه السلام ومن أبرز أهدافها بعد الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة: تصحيح ما كان عليه قومه من تطفيف الكيل والميزان، بل إن الدعوة إلى إقامة القسط في الكيل والميزان مما تميز به شعيب عليه السلام، وهو ظاهر في دعوته، بل هو أظهر شيء وأهمه بعد التوحيد كما ذكرنا.

وفي هذا يقول الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

ونظائرها من الآيات التي تحدثت عن قصة شعيب مع قومه.

لقد كان هذا الخلق السيء ديدن قوم شعيب، وقد كان ذلك أمرا مألوفا عندهم، لا يرون فيه بأسًا ولا غضاضة، به طبعوا، وعليه درجوا، ولذا فقد رفضوا دعوة شعيب هذه، وقابلوها بالإعراض والإنكار، فقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٤١.
(٢) انظر: دعائم السلوك الأمثل ص ٧١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٤٧.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٦٦.
(٥) انظر: المحرر الوجيز ١١/ ٣٨٨.

﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قالوه على طريق الاستهزاء، فهم ينكرون على شعيب منعه لهم عن التطفيف ؛ لأن تلك أموالهم فهم يفعلون بها ما يشاءون!

والبخس هو النقص في آلة الكيل والوزن، وهو جرم اجتماعي، ويكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه ـ كما يقول القرطبي ـ وكل ذلك من أكل المال بالباطل، وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل[1].

ودعامة إقامة القسط في الكيل والميزان دعامة هامة جدًا في تماسك النظام الاقتصادي، وإن الإخلال بها يؤدي إلى اضطراب في المجتمع، ويفقده الأمن والاستقرار، وبه تظهر الطبقية والاستبداد، وعن طريقه تؤكل أموال الناس بالباطل، ولذا فقد جاءت شريعتنا – وهي شريعة الكمال – آمرة بما أمر به شعيب عليه السلام، فقال تعالى في الوصايا العشر في أواخر سورة الأنعام: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والملاحظ أن هذه الوصية أدرجت ضمن وصايا عظيمة ، ابتدأها ربنا بالنهي عن الشرك والأمر ببر الوالدين، وبذلك تدرك موقع هذه الوصية ومدى خطورتها، ولا يخفى أن من أسباب عاصفة الأزمة الاقتصادية التي مرت بالناس هذه السنوات اختلال ميزان العدل الذي وضعه الله تعالى لعباده.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧-٩].

والأمر والنهي هنا شامل للبشرية جمعاء، ذاك أن رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم عامة شاملة، ولا شيء عند الله تعالى أقبح من الظلم ، ولذا فقد حرمه على نفسه سبحانه وتعالى ، كما في الحديث القدسي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا) الحديث[2].

لقد أوضح شعيب عليه السلام لقومه كيفية بناء الاقتصاد السليم، على أسس من الرزق الحلال، وترك المحرمات التي نهانا

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٤٨.

(٢) وهو حديث طويل، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم، ١٧/ ١٢٤-١٢٥، رقم ٢٥٧٧ ، عن أبي ذر رضي الله عنه.

الله عز وجل عنها، ومن ذلك نستفيد في بناء اقتصادنا العملي -كما يقول الدكتور نواف الحليسي- بأن نبتعد عن كل ما نهى الله تبارك وتعالى عنه على ضوء تاريخنا الاقتصادي من خلال قصة شعيب عليه السلام، وبذلك تتضح لنا القواعد الأساسية في حياتنا الاقتصادية[1].

وأعلمهم بأن قليل الحلال خير وأعظم بركة من كثير الحرام ، دل على هذا قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦].

فكم جر الحرام على أصحابه من نكبات وويلات، ومن يقف على بعض دواعي الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم هذه الأيام يدرك سر ذلك.

وإن نصح شعيب عليه السلام ليعد الدرس الأول في الاقتصاد التطبيقي من ناحية الوزن والكيل، الذي يؤثر في حياة الناس اليومية، وتعاملهم الاقتصادي والمالي والتجاري في مختلف المجالات التي تحتاج إلى إيفاء من الكيل والميزان، كي تستقيم المعاملات بين الناس[2].

رابعًا: النهي عن الفساد في الأرض:

لم يكن تطفيف الكيل والميزان هو الذنب الوحيد الذي كان عليه قوم شعيب عليه السلام بعد الشرك بالله، بل ثمة ذنوب أخرى لا تقل جرما عن ذنب التطفيف، لقد كان التطفيف والبخس والإفساد في الأرض، والصد عن سبيل الله أمورًا متلازمة، يقوم بها قوم شعيب عليه السلام، وكلها أمراض خطيرة، متى ما استشرت في قوم أفسدتهم، وألحقت الدمار بهم، ولذا فقد حذر شعيب الشفيق على قومه من مغبة ذلك، وبالغ في النصح لهم، وأمرهم بالكف عن هذه المساوئ.

قال تعالى على لسانه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

والفساد -كما يقول الراغب- خروج الشيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج عنه أو كثيرا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فسد فسادًا وفسودًا، وأفسده غيره[3].

فهي إذًا كلمة جامعة لصنوف الشر، فشملت الصد عن سبيل الله تعالى، والسلب

(١) انظر: المنهج الاقتصادي في المكاييل والموازين لنبي الله شعيب عليه السلام ص ١٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٠-٢١.

(٣) مفردات القرآن ص ٦٣٦.

وقطع الطريق، وأكل أموال الناس بالباطل، فقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ نهي عام عن دقيق الفساد وجليله ـ كما يقول ابن عطية ـ وكذلك الإصلاح عام[1]، فكل أعمالهم التي نهاهم شعيب عليه السلام عنها كانت من الفساد في الأرض، فهي شاملة لإفساد نظام المجتمع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وإفساد الأخلاق بارتكاب الفواحش، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام[2]، وكل ذلك مما يمقته الله ولا يحبه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط لحصول الخير والنفع الذي وعدوا به، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان[3]، ومن هنا ندرك سر ابتداء شعيب عليه السلام تبليغ رسالة ربه بالدعوة إلى الإيمان والتوحيد كما تقدم، كما هو شأن سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

موقف قوم شعيب عليه السلام منه

أولًا: التكذيب والاستهزاء:

لقد أخلص شعيب عليه السلام النصح لقومه كما تقدم، ومن أهم ذلك أن ذكرهم بنعم الله تعالى، وأمر هذه الدعامة عظيم، ذاك لأن الشكر سبب مهم في دوام النعم وازديادها ، كما أن الكفر سبب في انمحاقها واضمحلالها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد كان قوم شعيب عليه السلام في نعمة سابغة، لاسيما نعمة الأولاد الذين كثروا بهم بعد قلة، فخشي عليهم زوال تلك النعمة بما كانوا عليه من الاعوجاج والكفر والطغيان، فقال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ومن المعلوم أن الشكر ليس قولا باللسان، إنما يقوم على دعامتين هما: نسبة النعم إلى المنعم جل جلاله، والاجتهاد في استعمالها في طاعته.

فما كان من قومه بعد هذا النصح والتذكير إلا أن يقابلوه بالسخرية والاستهزاء، وتكذيبه فيما جاء به من ربه، بل واتهموه بالسحر، تلك التهمة التي لم يسلم منها نبي من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، قال

(١) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٧٤.
(٢) انظر: التفسير المنير ٨/ ٢٨٨.
(٣) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٧٤.

تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

ومن ذلك قول قوم شعيب له عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝١٨٦﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦].

وما كان من شعيب في الوقت نفسه إلا أن يقابل ذلك بالثبات على ما جاء به، والصبر على أذية قومه، وهذه سمة ظاهرة في حياة الأنبياء جميعا، وفي مقدمتهم أولو العزم من الرسل، وعلى رأسهم سيدنا النبي المصطفى صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، فقد شاءت حكمة الله تعالى أن تكون هذه الحياة دار ابتلاء، وأن الكفر لم يزل يصارع الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلم يكن شعيب عليه السلام بِدْعًا من الرسل في هذا، فلاقى من أذى قومه ما لاقى إخوانه الأنبياء عليهم السلام، وصبر كما صبروا.

قال تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

ويلاحظ هنا تفويض شعيب الأمر إلى الله، حيث قال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الأمر كله لله، إنه ليس ثمة خلود إلى الرجاء، ولكنه المزج بينه وبين الخوف، ثم يعلن عن اعتماده على الله تعالى وحده، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾، إنه التوكل الصادق، بعيدا عن العجب والغرور، إنه التعويل على فضل الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

هكذا كان شعيب عليه السلام وأتباعه، إنهم يعولون على فضل الله، غير متعلقين بشيء سواه.

ثم ما كان من شعيب عليه السلام بعد أن استنفذ كل ما يمكنه من وسائل النصح إلا أن يتوجه إلى الله تعالى ويصدق في اللجوء إليه ، ويطلب الإغاثة منه بأن يفصل بينه وبين قومه الذين أصروا على العناد ، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وذلك بعد أن تبجح قومه فقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾، ثم زاد

تعنتهم وبالغوا في التكذيب والاستهزاء حتى سألوا العذاب ، وقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧].

هنالك دعا شعيب عليه السلام ربه، فكان دعاء صادقا، اتسم بتفويض الأمر لله، ليقضي سبحانه وتعالى بما يشاء، وهذا ما وضحه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء: ١٨٨].

ذلك هو دعاء شعيب، لم يعرف أنه دعا بنزول عذاب معين، بل ولا حتى نزول العذاب، ولكنه أحال الأمر إلى العزيز الحكيم، فكان فتحا مبينا ونصرا عظيما له ولمن آمن به، حيث قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢].

وهكذا ينتصر الله تعالى للصادقين من عباده، كما قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

كما سيأتي توضيحه في المبحث الرابع إن شاء الله تعالى.

ومما ينبغي أن يذكر هنا: أن قوم شعيب عليه السلام لم يكونوا كلهم كذلك، بل إن منهم طائفة قد آمنت بشعيب عليه السلام، وصدقت في اتباعه، إلا أنهم كانوا قلة.

قال تعالى على لسان شعيب: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: ٨٧].

ثانيًا: الصد عن سبيل الله تعالى:

لم يكتف قوم شعيب عليه السلام بالتكذيب والاستهزاء، إنما عمدوا إلى مسلك خبيث آخر، ألا وهو الصد عن سبيل الله تعالى، والوقوف بوجه كل من أراد الإيمان بشعيب واتباعه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

لقد كان من بغي قوم شعيب ومزيد تعنتهم أن لم يكتفوا بتكذيب نبيهم شعيب عليه السلام والإعراض عن قبول ما جاءهم به عن ربهم، ولم يكتفوا بالضلال الذي كانوا عليه، ولكنهم عمدوا إلى إضلال الآخرين، بل ومنعهم من الإيمان بشعيب عليه السلام، وتهديدهم بالقتل إن هم فعلوا ذلك، وهذا غاية الظلم ونهاية الإجرام، وحين علم شعيب بذلك نهاهم عن ذلك البغي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ يعني :لا تجلسوا بكل طريق

-وهو الصراط- توعدون المؤمنين بالقتل.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وكانوا، فيما ذكر، يقعدون على طريق من قصد شعيبًا وأراده ليؤمن به، فيتوعدونه ويخوفونه، ويقولون: إنه كذاب[1]!

وذكر عدة آثار تدل على ذلك منها:

حدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد قال:حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ قال: كانوا يوعدون من أتى شعيبا وغشيه فأراد الإسلام[2].

وذكر ابن كثير أن شعيبا عليه السلام كان ينهاهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، بقوله ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾، أي :تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم، قال السدي وغيره: كانوا عشارين[3].

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾: أي : تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه.

قال ابن كثير: والأول أظهر، لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ وهو الطريق، أما المعنى الثاني فهو مستفاد من قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، أي: تصرفون من يريد الإيمان عن دين الله، وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة[4].

ثالثًا: همهم بإخراج شعيب عليه السلام ورجمه:

لقد دعا شعيب قومه إلى أعدل خطة، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة، نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى، وترك كل وما اعتنق من دين، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأعراف: ٨٧].

لكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت[5].

لذا لم يكتفوا بما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء بنبي الله شعيب عليه السلام، وإنما هموا بأمر خطير، وارتكاب أمر قبيح، ألا وهو إخراج شعيب ومن آمن به من قريتهم، لا لشيء إلا أنهم لم يعبدوا الأصنام مثلهم، وهذا ديدن أهل الكبر والطغيان

(١) انظر: جامع البيان ١٢/ ٥٥٦.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) قوله «عشارين»: جمع عشار، وهو الذي يأخذ العشر من أموال الناس، ويسمى الضريبة، وهي التي يأخذها الماكس بغير حق. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٢٣٨، ٥/ ٣٤٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٠. وانظر: التفسير المنير ٨/ ٢٩٣.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣١٨.

متى ما غلبوا في البرهان وقامت عليهم الحجة عمدوا إلى مثل هذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، ذاك أن وجود جماعة مسلمة في الأرض، لا تدين إلا لله، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه، ولا تحكم في حياتها شرعًا إلا شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجًا إلا منهجه، إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده[1].

فتعجب شعيب من صنيعهم وسألهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ العود في ملتكم التي أنقذنا الله منها؟ فقالوا له: نعم، فقال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ أي: قد اختلقنا على الله كذبًا إن دخلنا في دينكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ أي: بعد أن أكرمنا الله تعالى بالإسلام، وأنقذنا من ملتكم، يقال: معناه، كنا كاذبين مثلكم لو دخلنا في دينكم بعد إذ نجانا الله تعالى من ذلك[2].

وهذا هو إصرار الصادقين، وثبات الموقنين، وتمسكهم بالمبدأ الذي هم عليه حتى لو كلفهم ذلك التضحية بالنفس أو الوطن أو ما يملكون.

غير أن شعيبا عليه السلام وإن كان لا يشك في أنه كان على الحق، وخصومه على الباطل، إلا أنه فوض الأمر إلى الله تعالى، فقال: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

ثم إن قوم شعيب عليه السلام لم يكتفوا بهذا التهديد، وهو الإخراج من الأرض والإبعاد عن الوطن، إنما عمدوا إلى تهديد من نوع آخر هو أشد من هذا وأنكى، فبعد أن دعاهم إلى الاستغفار والتوبة، وذكرهم بعفو الله تعالى ورحمته ولطفه بهم إن تابوا وأنابوا ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠].

إنه يدعوهم ويذكرهم برفق ولين، ويحاورهم بلطف وهدوء، ولكنهم يقابلون ذلك بصلف وعناد، بعد هذا الرفق واللطف عمدوا إلى التهديد فـ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١].

وقد تقدم بيان المراد بالضعف بأنه كان ضعيف الانتصار والقدرة، وأما الرهط فهو جماعة الرجل، والرجم إما أن يراد به الرجم بالحجارة وهو الظاهر، وإما أن يراد به السب، وسواء أريد هذا أم ذاك، فهم غير عابئين بشعيب عليه السلام، وهذا ما دلت عليه فاصلة الآية: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٥٣٣.

أي: لست بذي منعة وعزة ومنزلة في نفوسنا[1].

ولكن الله تعالى الذي أرسل شعيبا قد تكفل بحفظه وحمايته، فلم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا مما هددوه به، حتى بلغ رسالة ربه على أتم وجه وأكمله.

وبعد هذا التعنت من قوم شعيب ما كان منه عليه السلام إلا أن يخوفهم مغبة ما هم عليه من الصلف والعناد، فيقول لهم بأسلوبه الهادئ الذي اتسم به: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ [هود: ٩٣].

فماذا كانت النتيجة؟

هذا ما نبينه في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

[انظر: مدين: موقف قوم مدين من رسولهم عليه السلام]

(١) انظر: المحرر الوجيز ٧/ ٣٨٥.

عاقبة قوم شعيب عليه السلام

أولًا: دعاء شعيب عليه السلام ربه عز وجل:

الدعاء سلاح ماض، وهو يمثل حاجة العبد إلى مولاه، وشدة فاقته إلى عونه ونصرته، ولأهمية الدعاء أمر به ربنا تبارك وتعالى، ووعد بإجابة الداعي حيث قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، وفي الوقت نفسه حذر من ترك الدعاء، وأوعد من كان كذلك بالعقاب الأليم، لما فيه من الإعراض عن الله تعالى، وإظهار الاستغناء عنه جل وعلا، وذلك مخالف للحقيقة، ومجانب للواقع، فقال تعالى في تمام الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

والمراد بالعبادة هنا الدعاء، فقد أخرج ابن جرير من طريقه عن السدي، إن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ قال: عن دعائي، ومعنى: ﴿دَاخِرِينَ﴾ قال: صاغرين[2].

وبما أن الرسل عليهم السلام هم صفوة الخلق، وأعرفهم بربهم تبارك وتعالى، فقد كان الدعاء ديدنهم في الرخاء والشدة، وفي السر والعلن، ومن جملة الدعاء الذي كانت الرسل تقوله : الدعاء على أقوامهم،ولكن

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره، ٢١/ ٤٠٨.

هذا السلاح ما كانوا يستعملونه إلا بعد أن يستنفذوا كل ما بوسعهم من النصح والإرشاد، والتحذير والإنذار، فيصدق فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وكذلك فعل شعيب عليه السلام، في دعائه على قومه، وقد ورد دعاء شعيب عليه السلام صراحة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

والملاحظ على دعاء شعيب عليه السلام أنه لم يصرح فيه بطلب نزول العذاب أو حلول سخط الله تعالى على قومه، بل اتسم بالتفويض والتوكل على الله جل في علاه، وقد ظهر هذا التفويض والتوكل على الله تعالى جليا أيضا فيما حكاه الله تعالى عنه من قوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الشعراء: ١١٢].

والملاحظ أن الدعاء الصريح جاء بعد ذكر من آمن من قومه ومن كفر، وموضع التفويض الأول جاء بعد ما حكاه الله تعالى من قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، والثاني[1] جاء بعد ما حكى الله تعالى من قول قومه: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧].

وبهذا يتسم دعاء شعيب عليه السلام بصدق اللجوء إلى الله تعالى، وتفويض الأمر إليه وحده جل في علاه.

ثم إنه لما فوض الأمر إلى ربه جل وعلا ليحكم بينه و بين قومه، ويقضي بالقضاء الفاصل، مع يقينه بأن الله تعالى عالم بما يعمل قومه، وما هم عليه من عبادة الأصنام، وفعل المنكرات، ومن أبشعها الصد عن سبيل الله جل في علاه، لما كان ذلك كذلك كان الجواب هو حكم الله العادل الذي لا يتخلف، وهو نصرة المظلومين وقمع الظالمين، فحل بقوم شعيب ما حل بمن سبقهم من الظالمين.

ثانيًا: إهلاك قوم شعيب عليه السلام:

بعد أن بلغ شعيب عليه السلام قومه

(١) يلاحظ أن قوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾، وقوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وإن لم يكن بصيغة الدعاء المعروفة، إلا أنه يفيد ذلك؛ لما فيه من التفويض ورد الأمر لله، وذلك غاية الدعاء، ومما يؤيد هذا أن الله تعالى قد انتصر له والله تعالى أعلم.
قال الألوسي رحمه الله تعالى في روح المعاني ١/ ٤١٥ عند قوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾: خطاب للكفار ووعيد لهم، وقال ١٠/ ١١٨ عند قوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: أي: هو تعالى أعلم بأعمالكم من الكفر والمعاصي، وبما تستوجبون عليها من العذاب، فسينزله عليكم حسبما تستوجبون في وقته المقدر له لا محالة.

رسالة ربه، وبذل جهده في نصحهم، واجتهد في تحذيرهم وتذكيرهم، وقال لهم على طريق الإشفاق عليهم والرفق بهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود: ٨٩].

وبعد أن أصروا على التكذيب والبغي والعناد، حل بهم ما حذرهم منه، وتحققت سنة الله تعالى فيهم، فأصابهم الله تعالى بثلاثة أنواع من العذاب، وهي التي أخبرنا الله تعالى بها في كتابه الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وهذا التنوع في العذاب (الرجفة والصيحة والظلة)، كان أحد أسباب اختلاف المفسرين رحمهم الله تعالى في كون أهل مدين وأصحاب الأيكة أمة أو أمتين، كما سبق بيانه، غير أن هذا التنوع لا يقتضي ذلك، إذ لا يمنع أن يتنوع العذاب على أمة واحدة، ولا مانع أن يكون كل ذلك في آن واحد.

وقد أثار الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى سؤالا وأجاب عنه فقال:

فإن قيل: الهلاك الذي أصاب قوم شعيبٍ ذكر تعالى في الأعراف أنه رجفةٌ، وذكر في هودٍ أنه صيحةٌ، وذكر في الشعراء أنه عذاب يوم الظلة.

فالجواب: ما قاله ابن كثيرٍ رحمه الله في تفسيره قال: وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهي سحابةٌ أظلتهم فيها شررٌ من نارٍ ولهبٍ ووهجٍ عظيمٍ، ثم جاءتهم صيحةٌ من السماء، ورجفةٌ من الأرض شديدةٌ من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام[1].

وأما ابن عاشور رحمه الله تعالى فقد فصل هذه الأنواع من العذاب حيث قال: «الرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظلة وهي السحابة، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾. وقد عبر عن الرجفة في سورة هود بالصيحة، فتعين أن تكون من نوع الأصوات المنشقة عن قالع ومقلوع، لا قارع ومقروع

(١) انظر: أضواء البيان ٢/ ٣٦.

وهو الزلزال، والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق، فتكون الرجفة الزلزال، والصيحة الصاعقة، كما يدل عليه: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾»[1].

وهذا توجيه حسن، ومنه نعلم أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين كما تقدم، وإلى مثله ذهب الدكتور عبد الكريم زيدان حيث قال: فاستحقوا بكفرهم وإصرارهم الهلاك، وكان هلاكهم بأنواع العذاب: بالصيحة، وبالرجفة، وبعذاب يوم الظلة، واستشهد بالآيات الكريمة ، ثم قال: وهكذا اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت أرواحهم وخمدت أجسامهم[2].

وبهذا العذاب المدمر يكون قوم شعيب قد باءوا بالخسران الذي وصموا به شعيب عليه السلام ومن آمن معه إذ قالوا ما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[الأعراف: ٩٠].

قال الله تعالى بعدها ردا عليهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٢].

ويلاحظ أن الله تعالى كرر قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾، وذلك لتعظيم المذلة لهم وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم، وأيضا فإنهم لما قالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، بَيَّنَ تعالى أن الذين لم يتبعوه وخالفوه هم الخاسرون[3].

ثالثًا: عدم تأسف شعيب على هلاك قومه:

بعد أن رأى شعيب عليه السلام ما حل بقومه، وما أصابهم من نقمة ربه تبارك وتعالى، لم يكترث بما نزل بهم، ولم يأسف عليهم، بل أعرض عنهم وتركهم ماضيا في سبيله ،وهو يقول ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهذه الآية لها دلالات عظيمة:

منها: أن شعيبًا عليه السلام قد أقام الحجة على قومه بتبليغ رسالة ربه، وأنه قد نصح لهم، وصبر على أذاهم وسخريتهم، وهذا النصح شأن كل رسول، فهو لابد أن يكون مبلغا فصيحا ناصحا عالما بالله لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات، ولذا

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١٣.
(٢) انظر: المستفاد ١/ ٢٤٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ١٤/ ١٩٠.

فإن نبينا صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا: (أيها الناس، إنكم مسئولون عني، فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم، ويقول: (اللهم اشهد، اللهم اشهد)[1].

وفي قوله: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ بالجمع لإفادة التجدد؛ لأن كل تبليغ يتضمن رسالة بما بلغه[2]، أو المراد ما أوحي إلي في الأوقات المتطاولة أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء من قبله[3].

ومن ذلك: أنه لا ينبغي التأسف على هلاك الظالمين، لأنهم جراثيم تنخر في قلب المجتمع وتهدد استقراره، لا يصح المجتمع ولا يصلح إلا باجتثاثهم، ولنتأمل موقع الحمد بعد هلاك الظالمين في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

فما أجمل ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام إذ يقول: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

وعدم الأسى عليهم بعد الإعذار بالنصح لهم، سمة بارزة من سمات المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

فليس من مهماتهم نتائج ذلك التبليغ، ولذا فهم بعد أن يؤدوا ما عليهم لا يتأسفون على ما حل بأقوامهم من العذاب والنكال، وهكذا كان شعيب مع قومه ، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة، سائرين إلى الله على هدي النبوة، يدعون إلى الله على بصيرة، محاسبين أنفسهم على ذلك، هل أدوا النصح كما ينبغي؟ غير ناظرين إلى نتائج ما تسفر عنه تلك الدعوة، إذ الأمر لله من قبل ومن بعد ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

كما قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٥٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ١٩٣.
(٣) انظر: الكشاف ٢/ ٨٦.

[القصص: ٥٦].

وقال له أيضا في الموضوع ذاته: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومعنى ﴿لَا تَهْدِي﴾: أي : لا تزرع الهداية في القلوب، ولا توصل إلى الإيمان المطلوب، ومعنى ﴿لَتَهْدِي﴾: أي : لتدل وترشد وتوضح الطريق، وبذلك يجمع ما بين الآيتين، ويزول ما قد يوهم التعارض بينهما.

[انظر: مدين: عاقبة قوم مدين]

الدروس المستفادة من قصة شعيب

وسنركز في هذا المبحث على طرف من تلك الفوائد والدرر التي اشتملت عليها هذه القصة المباركة، مراعين في ذلك ما تمس الحاجة إليه، لاسيما ما يحتاج إليه الدعاة والمرشدون ورجال التربية في أيامنا هذه، مما ينعكس على الأمة أمنا وسلاما ومحبة ووئاما، وذلك في نقاط معدودة على النحو الآتي:

١. أن التوحيد وتصحيح العقيدة أساس دعوة الأنبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام، غير أن ذلك ليس بمعزل عن واقع الحياة، ولذا فإن شعيبا عليه السلام لم يقتصر على دعوتهم إلى التوحيد فحسب، بل أمرهم بإيفاء الكيل والوزن، وذلك لتنظيم الجانب الاجتماعي والاقتصادي في حياة الناس، والعدول عن النظام الاقتصادي القائم على الظلم والجشع، فينبغي على الدعاة والمصلحين مراعاة ذلك والاهتمام به.

٢. يعد البيان الناصع، وجودة التعبير، وحسن المنطق، وجزالة الأسلوب، وأدب الحوار، من الأمور الهامة للدعاة إلى الله تعالى، لما في ذلك من أثر فاعل في إيصال كلمة الحق إلى الناس

بأحسن طريق، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود: ٨٨]. وبحسن مراجعة قومه سمي خطيب الأنبياء عليه وعلهم الصلاة والسلام.

٣. لقد كان الحرص على هداية الناس، وإيصالهم إلى الصراط المستقيم، وإصلاح أمورهم، واستقامة أحوالهم، من أهم مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام، وينبغي أن يتأسى بهم الدعاة المصلحون في كل عصر ومصر، وهكذا كان شعيب عليه السلام: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ [هود: ٨٨].

٤. أن قليل الحلال خير وأعظم بركة من كثير الحرام ، دل على هذا قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: ٨٦]. فكم جر الحرام على أصحابه من نكبات وويلات، وكم من دراهم قليلة من الحرام، أكلت كثيرا من دراهم الحلال !! ومن يقف على بعض دواعي الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم هذه الأيام يدرك سر ذلك.

٥. يعد نصح شعيب عليه السلام لقومه الدرس الأول في الاقتصاد التطبيقي من ناحية الوزن والكيل، الذي يؤثر في حياة الناس اليومية، وتعاملهم الاقتصادي والمالي والتجاري في مختلف المجالات التي تحتاج إلى إيفاء من الكيل والميزان، كي تستقيم المعاملات بين الناس[(١)].

٦. للصلاة أثر كبير في تغيير سلوك الإنسان إلى الأحسن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقد أدرك قوم شعيب ذلك ، ولذا فقد: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧]. حيث لاحظوا أن تأثير الصلاة على شعيب وأتباعه قد غيرت أوضاعهم، وأدت إلى التحرر من عبادة غير الله، وترك الغش في المكاييل والأوزان، فكان أن تهكموا عليه بهذا القول، ؛لأنهم في قرارة أنفسهم لا يريدون تغيير ما هم فيه[(٢)].

٧. (الشيء) في قوله تعالى: ﴿وَلَا

(١) انظر: المنهج الاقتصادي في المكاييل والموازين لنبي الله شعيب عليه السلام ص ٢٠-٢١.

(٢) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢٠٧.

﴿تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾[هود: ٨٥] يشمل الأنواع الحسية من كافة معاملات الناس التي تندرج تحت اسم المكاييل والأوزان، كما يشمل المعاني المعنوية من احترام الناس وتقديرهم حسب فضلهم ومعطياتهم وتضحياتهم للمجتمع، أو هضم حقوقهم المعنوية ، كالعلوم والمعرفة والمهارة بالصنائع بعدم الاعتراف بها، وعدم تنزيلهم المنزلة التي يستحقونها بموجبها[(١)].

٨. الهدف من تأكيد الوجوب بالإيفاء بالمكيال والميزان في المعاملات التجارية هو إقرار العدل حتى لا ينتشر الفساد ، وتعم الفوضى في البلاد، وتصل الأمور إلى الهاوية، ولذا فقد حذر شعيب عليه السلام قومه من الإفساد في الأرض والغش[(٢)].

٩. ينبغي الترفع عن مقابلة السفهاء بمثل سفاهتهم ، نلاحظ ذلك في الفرق الكبير بين خطاب قوم شعيب عليه السلام ورده عليهم، فتأمل حلمه وصبره ورده عليهم بعد طلبهم العذاب: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨﴾ [الشعراء: ١٨٨].

١٠. ذكر شعيب عليه السلام قومه بأنعم الله عليهم ، فقال لهم : واذكروا إذ كنتم قليلا في عددكم، فكثركم بالنسل والتوالد حتى صار عددكم كبيرا، و في هذا إشارة إلى أن الكثرة نعمة عظمية لما فيها من المهابة والعزة والقوة[(٣)].

١١. الإيمان الصادق لا يزيد أصحابه إلا قوة وإصرارا على الحق ، وكذلك كان شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه، وبه عرف الصادقون في كل زمان ومكان، على مر العصور وتعاقب الدهور.

١٢. من أهم ما يجب على الدعاة: أن يتحلوا بما يدعون إليه من الأخلاق والآداب، ويتصفوا بذلك، وهذا ما أعلن عنه شعيب عليه السلام بقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾، وهو أمر لا بد منه لحصول النفع للمدعو، والنجاة للداعي.

١٣. المسلم يتوكل على الله تعالى في كل شؤونه وأحواله، ويستعين به، ويصبر لأمره، ويدعو الله أن يثبته وينصره[(٤)].

١٤. إن النجاة في الصدق، وإن مآل الكاذب الفضيحة، وعاقبته وخيمة، وللتنبه على هذه الحقيقة قال شعيب

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٥٢٥، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٠٧.
(٢) انظر: أحسن القصص ص ٨٩.
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٣/ ٦٠.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٦١.

لقومه ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

١٥. الصد عن سبيل الله ظلم سافر، وخلل في الفكر لا يقل ضرره عن الخلل الاقتصادي، ولذا فإن شعيبا قد حذر قومه من عاقبة ذلك ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]. وقد شاهدنا في أيامنا هذه عاقبة أمثال هؤلاء سواء كانوا من أبناء جلدتنا أم من غيرنا.

١٦. مراعاة جناب الله تعالى أولى من كل شيء، وقد نبه شعيب عليه السلام قومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أتتركوني لأجل عشيرتي ولا تتركوني ولا تؤذونني؛ إعظاما لجناب الله تبارك وتعالى الذي أرسلني إليكم لتبليغكم رسالته؟[1]

١٧. الدعاء سلاح ماض، وقد استعمله الرسل عليهم السلام، ولكن بعد أن استنفذوا كل ما بوسعهم من النصح والإرشاد، فصدق فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وكذلك فعل شعيب عليه السلام، فقد دعا على قومه، ولكنه دعاء اتسم بالتفويض والتوكل على الله جل في علاه ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. فكان دعاءً متميزًا، لم يظهر فيه طلب نزول العذاب أو استعجاله.

١٨. لقد تحققت سنة الله في قوم شعيب عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢]

١٩. ينبغي عدم التأسف على هلاك الظالمين، لأنهم معاول هدم في المجتمع تهدد أمنه واستقراره، لا يصح المجتمع ولا يصلح مع استمرار فسادهم وبغيهم، ولنتأمل موقع الحمد بعد هلاك الظالمين في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥]. فما أجمل ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام إذ يقول: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ

(١) انظر: المستفاد ١/ ٢٤٦.

كَفِرِينَ ﴿٩٣﴾ [الأعراف: ٩٣].

موضوعات ذات صلة:

إبراهيم عليه السلام، صالح عليه السلام، موسى عليه السلام، هود عليه السلام، النبوة، نوح عليه السلام

الشَّفَاعَةُ

عناصر الموضوع

مفهوم الشفاعة	٣٤٨
الشفاعة في الاستعمال القرآني	٣٥٠
الألفاظ ذات الصلة	٣٥١
الشفاعة بين النفي والإثبات	٣٥٣
الشفاعة في الدنيا	٣٥٨
الشفاعة في الآخرة	٣٦٢

مفهوم الشفاعة

أولًا: المعنى اللغوي:

يقول ابن فارس رحمه الله: «الشين والفاء والعين أصل صحيح يدل على مقارنة الشيئين، والشفع خلاف الوتر»[(١)].

وهي مشتقة من الشفع الذي هو خلاف الوتر[(٢)]، يقال: شفع الشيء: ضم مثله إليه فجعل الوتر شفعًا[(٣)].

وقال الزبيدي رحمه الله: «الشفاعة وهي: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، وشفع إليه: في معنى طلب إليه، وقال الراغب: الشفع: ضم الشيء إلى مثله، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصرا له، وسائلا عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى مرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة، وقال غيره: الشفاعة: التجاوز عن الذنوب والجرائم، وقال ابن القطاع: الشفاعة: المطالبة بوسيلة أو ذمام، والشفعة، بضمتين: لغة في الشفعة في الدار والأرض»[(٤)].

فأصل كلمة الشفاعة تدل على ضم الشيء إلى مثله، وهي مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر. قال القرطبي: «فالشفاعة إذًا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك»[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن الأثير رحمه الله: «هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم»[(٦)]، والمشفع الذي يقبل الشفاعة، والمشفع الذي تقبل شفاعته[(٧)].

ويقول ابن عاشور رحمه الله: «الشفاعة: الوساطة في إيصال خيرٍ أو دفع شرٍ، سواءٌ كانت بطلبٍ من المنتفع أم لا»[(٨)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٠١.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٤٧.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٨٧.
(٤) تاج العروس، الزبيدي ٢١/ ٢٨٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٩٥.
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ١١٨٤، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٨٣.
(٧) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٨٣.
(٨) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ٥/ ١٤٣.

وقال القرطبي رحمه الله: «فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع، وإيصال المنفعة إلى المشفوع له»[1].

فالشفاعة إذا لا تختص بدرء المفاسد فقط، وإنما هي شاملة لدرء المفاسد وجلب المصالح، في الدنيا في الأمور المشروعة، أو أمور الآخرة.

والعلامة ابن عثيمين رحمه الله يعرفها بقوله: الشفاعة في الاصطلاح: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة[2].

جلب منفعة مثل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الجنة بدخولها، ودفع مضرة مثل لمن استحق النار أن لا يدخلها[3].

ويمكن القول بأن الشفاعة اصطلاحًا هي التجاوز عن الذنوب والجرائم بين طرفين من أجل إيصال الخير، ودفع الشر إظهارًا لمنزلة الشفيع عند المشفع، والله أعلم.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٩٥.
(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص ١٦٩.
(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٣٣٠.

الشفاعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شفع) في القرآن الكريم (٣١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٥	﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]
المصدر	١٣	﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]
اسم الفاعل	٢	﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠﴾ [الشعراء:١٠٠]
الصفة المشبهة	١٠	﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ [السجدة:٤]
اسم	١	﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر:٣]

الأصل في الشفع: ضم شيء إلى آخر، ومنه الشفاعة؛ لأن فيها انضمام واحدٍ إلى آخر ناصرًا له ومسائلًا عنه[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٣٣-٥٣٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب القاف ص٩٢٢-٩٢٥.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٧٨-٢٧٩، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٨٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٣٢٨-٣٢٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوساطة:

الوساطة لغة:

مأخوذة من وسط الشيء، أي: ما بين طرفيه، فالوسيط: المتوسط بين المتخاصمين أو المتعاملين، وجمعه وسطاء[(١)].

يظهر لنا جليًا تعريف الشفاعة أنها بمعنى الوساطة، لكنها تكون بمعنى الشفاعة في الدنيا، وتكون بمعنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء: ٨٥].

الوسيط قد يتوسط بأمر محمود فيه إحقاق حق، أو غير ذلك مما هو مشروع، فيكون بمعنى الشفاعة الحسنة ، ويثاب على فعله، وقد يتوسط في أمر محرم ، فهذا الفعل محرم، ويكون بمعنى الشفاعة السيئة.

الوساطة اصطلاحًا:

التوسط بين شخصين لقضاء حاجة، أو دفع مضرة.

الصلة بين الوساطة والشفاعة:

الشفاعة فيها يتوسط الشافع بين المستشفِع والمستشفَع، قال ابن عاشور رحمه الله: «والشفاعة: السعي والوساطة في حصول نفعٍ أو دفع ضرٍ، سواءٌ كانت الوساطة بطلبٍ من المنتفع بها أم كانت بمجرد سعي المتوسط، ويقال لطالب الشفاعة: مُسْتَشْفِعٌ، وهي مشتقةٌ من الشَّفْع؛ لأن الطالب أو التائب يأتي وحده ، فإذا لم يجد قبولًا ذهب فأتى بمن يتوسل به، فصار ذلك الثاني شافعًا للأول، أي: مصيره شفعًا»[(٢)].

٢ الوسيلة:

الوسيلة لغة:

الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسيل، و الوسائل، والتوسيل و التوسل واحد، يقال: وسل فلان إلى ربه وسيلة بالتشديد، و توسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل[(٣)].

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٣١.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٤٨٦.
(٣) مختار الصحاح، ابن منظور ١/ ٧٤٠.

الوسيلة اصطلاحًا:

عرفها ابن كثير بقوله: والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود[1].

الصلة بين التوسل والشفاعة:

الشفاعة في حقيقتها وسيلة يتوصل بها المستشفِع إلى رضا المستشفَع، فالشفاعة صورة من صور التوسل.

٣ الاستغاثة:

الاستغاثة لغة:

مصدر استغاث، وهو مأخوذ من الغوث بمعنى الإغاثة والنصرة عند الشدة[2].

الاستغاثة اصطلاحًا:

طلب الغوث في الشدائد والأزمات[3].

الصلة بين الاستغاثة والشفاعة:

الشفاعة والإغاثة يشتركان في أن كليهما معونة للطالب.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٠٣.
(٢) انظر: الصحاح ١/ ٢٨٩، مقاييس اللغة ٤/ ٤٠٠، لسان العرب ٦/ ٣٣١٢.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص١٥٩.

الشفاعة بين النفي والإثبات

وردت الشفاعة في القرآن الكريم في آيات كثيرة بعضها تنص على إثباتها وأخرى بنفيها، فالشفاعة التي أثبتها الله تبارك وتعالى لأهل الإسلام من أهل التوحيد ، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم سؤلًا في غاية الأهمية: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام: (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو من نفسه)[1].

فأصل وقوع الشفاعة هو تحقيق التوحيد، ورضى الرب تبارك وتعالى عن الشافع والمشفوع له والمشفوع فيه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «والشفاعة التي أثبتها الله ورسوله هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده، والتي نفاها الله هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم، ويفوز بها الموحدون»[2].

ويقول أبو جعفر الطبري رحمه الله: «من ذا الذي يشفع لمماليكه إن أراد عقوبتهم، إلا أن يخليه، ويأذن له بالشفاعة لهم، وإنما قال ذلك تعالى ذكره؛ لأن المشركين قالوا: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى! فقال الله تعالى ذكره لهم: لي ما في السموات وما في الأرض مع السموات والأرض ملكا، فلا ينبغي العبادة لغيري، فلا تعبدوا الأوثان التي تزعمون أنها تقربكم مني زلفى، فإنها لا تنفعكم عندي ولا تغني عنكم شيئا، ولا يشفع عندي أحد لأحد إلا بتخليتي إياه والشفاعة لمن يشفع له، من رسلي وأوليائي وأهل طاعتي»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فأما إذا أذن له في أن يشفع فشفع؛ لم يكن مستقلا بالشفاعة بل يكون مطيعا له ، أي: تابعا له في الشفاعة ،وتكون شفاعته مقبولة، ويكون الأمر كله للآمر المسئول، وقد ثبت بنص القرآن في غير آية: أن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ: ٢٣].

وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، رقم ٩٩.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٤٩.

(٣) جامع البيان ٥/ ٣٩٥.

وأمثال ذلك»[1].

فأهل السنة والجماعة يثبتون الشفاعة بشروطها ، وهي: إذن الله تبارك وتعالى للشافع أن يشفع، ورضا الله تبارك وتعالى عن المشفوع له أن يشفع فيه، ثم إن الله تبارك وتعالى لا يرضى أن يشفع إلا لأهل التوحيد والسنة.

فقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: (لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا)[2].

فدل هذا الحديث العظيم على إثبات الشفاعة لأهل التوحيد ، وإن كان من أصحاب الذنوب ، ولو كان من أهل الكبائر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة: إثبات الشفاعة لأهل الكبائر والقول بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وأيضا: فالأحاديث المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشفاعة: فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم ، وفيهم المؤمن والكافر ، وهذا فيه نوع شفاعة للكفار»[3].

بل ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع لعمه أبا طالب ، فأخرج إلى ضحضاح من نار ، كما ثبت في الصحيح أنه قال: (نعم، هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)[4].

وخالف أهل الحق والسنة طائفة من أهل البدع في إثبات الشفاعة، كالمعتزلة والخوارج والرافضة، واستندوا في نفيهم الشفاعة على بعض الآيات ،فهموها على غير مرادها ، وهي التي تنفي الشفاعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

وبقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وبقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين ،كما قال تعالى في نعتهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١١٨.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته، رقم ١٩٩.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١١٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم ٣٨٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم ٢٠٩.

إلى قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٢-٤٨].

فهؤلاء نفي عنهم نفع شفاعة الشافعين؛ لأنهم كانوا كفارًا.

والثاني: أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع.

فأنكر الله هذه الشفاعة، فقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وقال عن الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١]

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم ، وقالوا: استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم ، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا: نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله ، وصوروا تماثيلهم، فعبدوهم كذلك ، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها»[(١)].

وقال البيضاوي رحمه الله في قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]: «وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها مخصوصة بالكفار»[(٢)].

ويمكن الرد على نفاة الشفاعة الخوارج والمعتزلة بإيجاز بالآتي:

أولًا: الشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة الصحيحة المتواترة.

ثانيًا: إجماع سلف الأمة على إثبات الشفاعة، وتلقي أخبار الشفاعة بالقبول والإذعان، كما سيأتي في كلام القرطبي رحمه الله لاحقًا.

ثالثًا: أن أهل العلم جمعوا بين الآيات الواردة بإثبات الشفاعة والآيات الواردة بنفي الشفاعة بأن الآيات الواردة بنفي الشفاعة ، والشفيع المراد بالشفاعة للكفار[(٣)].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٤٩-١٥١.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٧٩.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٤٩، المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٣/ ٣٥، فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٤٢٦.

والشفاعة المنفية هي التي تطلب من الأصنام والأنداد والأموات الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًا.

قال القرطبي رحمه الله: «مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق ، وأنكرها المعتزلة وخلدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار في العذاب، والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين.... فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين ، وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ النفس الكافرة لا كل نفس»[1].

ثم إن ظاهر قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] العموم، أي: أن كل نفس يوم القيامة لا تنفعها شفاعة الشافعين، ولكن بالنظر إلى سياق الآيات يتبين أن المراد بالأنفس التي لا تنفعها الشفاعة هي الكافرة، التي أشركت وكفرت بخالقها تبارك وتعالى، والدليل على أن المراد من هذه الآية الكفار ما سبقها من آيات، والتي تبين أن المخاطب بها هم اليهود، قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال أبو جرير الطبري رحمه الله: «إن الله عز وجل خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها ؛ لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل، وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وسيشفع لنا عنده آباؤنا، فأخبرهم الله جل وعز أن نفسا لا تجزي عن نفس شيئا في القيامة، ولا يقبل منها شفاعة أحد فيها حتى يستوفى لكل ذي حق منها حقه»، عن عثمان بن عفان: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة)[2].

كما قال الله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] الآية، فآيسهم الله جل ذكره مما كانوا أطمعوا فيه أنفسهم من النجاة من عذاب الله مع تكذيبهم بما عرفوا من الحق وخلافهم أمر الله في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من عنده بشفاعة آبائهم وغيرهم من الناس كلهم، وأخبرهم

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٣٧٨-٣٧٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٢، بلفظ(لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء).

أنه غير نافعهم عنده إلا التوبة إليه من كفرهم والإنابة من ضلالهم، وجعل ما سن فيهم من ذلك إماما لكل من كان على مثل منهاجهم، لئلا يطمع ذو إلحاد في رحمة الله، وأن قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله عز وجل»[1].

ومن الآيات ما كان المخاطب بها المؤمنون والنفي فيها عامًا؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

إلا أن هذا العموم مخصوص بأدلة صحيحة صريحة في العصاة أصحاب الكبائر، منها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[2].

ويمكن أن يقال: إن الشفاعة المنفية هي الشفاعة التي لا يأذن الله فيها، أما التي يأذن الله بها، فهذه ليست منفية بل مثبتة.

أما قوله سبحانه: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم: ٨٧].

ففيها دليل على إثبات الشفاعة، وأنها ليست منفية بإطلاق، بل هي مشروطة بالإيمان، قال الإمام ابن جرير رحمه الله: «لا يملك هؤلاء الكافرون بربهم يا محمد، يوم يحشر الله المتقين إليه وفدًا الشفاعة، حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض عند الله، فيشفع بعضهم لبعض ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في الدنيا ﴿عَهْدًا﴾ بالإيمان به، وتصديق رسوله، والإقرار بما جاء به، والعمل بما أمر به»[3].

ومن الآيات ما تثبت الشفاعة وتشترط شرطين هما : إذن الله تبارك وتعالى عن الشافع ، والمشفوع فيه ، كما تقدم في الكلام السابق.

وأخبر الله تبارك وتعالى أن الكفار الذين يعبدون الأوثان والأحجار ويأملون أن يشفعوا لكم، بأن ما يعبدون لا يملكون الشفاعة أصلًا، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

والذي شهد بالحق هم أهل التوحيد.

وحكى الله تبارك وتعالى قول المشركين وهم في النار خالدون، كيف يتحسرون ويتندمون على ما فرطوا، فلا إيمان ينجيهم،

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٦٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الشفاعة، رقم ٤٧٣٩، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الشفاعة، رقم ٢٤٣٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم ٤٣١٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٧١٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٦٣٣.

ولا عمل يخلصهم، ولا شافع يشفع لهم، ولا صديق ينقذهم، فتقطعت بهم السبل، وأحاط بهم اليأس، فقال: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

فالشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، وما كان ظاهره النفي فإنه محمول على نفي الشفاعة للكفار والمشركين، وكذلك التي لا تتحقق فيها شروط الشفاعة ، وهي رضى الله للشافع بالشفاعة ورضى الله عن المشفوع له.

الشفاعة في الدنيا

الشفاعة في الدنيا على نوعين:

أولًا: شفاعة مباحة:

هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، فمثلًا: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الموقف أن يقضى بينهم ، هذه شفاعة بدفع مضرة، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها بجلب منفعة[1].

فهي باختصار: الشفاعة عند الآخرين لتخليص الحقوق أو دفع المظالم ودرئها، أو نحو ذلك من الحاجات المباحة.

وقد ورد في الشرع الحنيف ما يبين إباحة مثل هذا العمل وجوازه؛ كقوله تبارك وتعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ۝٨٥﴾ [النساء: ٨٥].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ أي: من سعى في أمر، فترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص ١٦٩.

عليه وسلم قال: (اشفعوا ، تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء)[1].

وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض.

وقال الحسن البصري: قال الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ ﴾ ولم يقل: من يشفع»[2].

وروي عن مجاهد في قوله: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ قال: «شفاعة بعض الناس لبعض»[3].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس»[4].

وبين الإمام ابن القيم رحمه الله أن كل من أعان غيره على أمر بقول أو فعل فقد صار شفيعًا له ، فقال: «وكل من أعان غيره على أمر بقوله، أو فعله فقد صار شفيعًا له، والشفاعة للمشفوع له هذا أصلها، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة فيصير له شفعًا في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل في حكم هذه الآية كل متعاونين على خير أو شر بقول أو عمل»[5].

وتستحب الشفاعة عند ولاة الأمور وغيرهم من أصحاب الحقوق المتوفرة فيهم الشروط.

وفي ذلك يقول الإمام النووي رحمه الله: «اعلم أنه تستحب الشفاعة إلى ولاة الأمر وغيرهم من أصحاب الحقوق والمستوفين لها، ما لم تكن شفاعةً في حدٍ، أو شفاعةً في أمرٍ لا يجوز تركه، كالشفاعة إلى ناظرٍ على طفل أو مجنونٍ أو وقفٍ أو نحو ذلك في ترك بعض الحقوق التي في ولايته، فهذه كلها شفاعةٌ محرمةٌ تحرم على الشافع، ويحرم على المشفوع إليه قبولها، ويحرم على غيرهما السعي فيها إذا علمها؛ ودلائل جميع ما ذكرته ظاهرةٌ في الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة، قال الله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء: ٨٥]»[6].

وقد جاء في السنة المطهرة ما يجوز وما لا يجوز من الشفاعة ، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع عند بريرة كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن زوج بريرة كان عبدا يقال له : مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ، ودموعه تسيل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، رقم ٦٠٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٦٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٨١.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٥٦.
(٥) روضة المحبين، ابن القيم ص ٣٧٧.
(٦) الأذكار، النووي، ص ٥٢١.

على لحيته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس: (يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثا)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو راجعته)، قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: (إنما أنا أشفع)، قالت: لا حاجة لي فيه)[١].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: (اشفعوا فلتؤجروا ، وليقض الله على لسان نبيه ما أحب)[٢].

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث: «فيه استحباب الشفاعة لأصحاب الحوائج المباحة سواء كانت الشفاعة إلى سلطان ووال ونحوهما ، أم إلى واحد من الناس ، وسواء كانت الشفاعة إلى سلطان في كف ظلم أو إسقاط تعزير أو في تخليص عطاء لمحتاج أو نحو ذلك»[٣].

ويقول عليه الصلاة والسلام كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ما شاء)[٤].

يستفاد منه فوائد ، منها : استشفاع الإمام والعالم والخليفة في حوائج الرعية، والساعي فيه مأجور وإن لم تنقض الحاجة[٥].

وكذلك تجوز الشفاعة في الحدود مالم تبلغ السلطان ، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تعافوا الحدود فيما بينكم ، فما بلغني من حد فقد وجب)[٦].

ولما روي عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: «اشفعوا في الحدود ما لم تبلغ السلطان ، فإذا بلغت السلطان فلا تشفعوا»[٧].

فصاحب الشفاعة الحسنة يثاب عليها ولو لم تقبل شفاعته، لأنه قد بذل ما في وسعه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة، رقم ٥٢٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، رقم ٢٦٢٧.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، النووي ١٦/ ١٧٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، رقم ١٤٣٢.

(٥) انظر: عمدة القاري، العيني ٢٠/ ٢٦٩.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان، رقم ٤٣٧٦، والنسائي في سننه، كتاب قطع السارق، باب ما يكون حرزا وما لا يكون، رقم ٤٨٨٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٩٥٤.

(٧) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، رقم ١٧٣٩٧.

ثانيًا: شفاعة محرمة:

الشفاعة المحرمة تشمل التوسل إلى الأضرحة والقبور والأصنام والأنداد وجعلهم وساطة بينهم وبين الله تبارك وتعالى، وهي أيضًا كل شفاعة أو وساطة في إبطال حق من الحقوق، أو إقرار باطل أو تعطيل حد من حدود الله تبارك وتعالى.

وقد ورد ما يفيد تحريمها في الشرع الحنيف، في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيدٍ، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتشفع في حدٍ من حدود الله)، ثم قام فاختطب، ثم قال: (إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها)[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي هذا الحديث من الفوائد منع الشفاعة في الحدود، وقد تقدمت في الترجمة الدلالة على تقييد المنع بما إذا انتهى ذلك إلى أولي الأمر، واختلف العلماء في ذلك ، فقال أبو عمر ابن عبد البر: لا أعلم خلافًا أن الشفاعة في ذوي الذنوب حسنة جميلة ما لم تبلغ السلطان، وأن على السلطان أن يقيمها إذا بلغته، وذكر الخطابي وغيره عن مالك أنه فرق بين من عرف بأذى الناس، ومن لم يعرف ، فقال: لا يشفع للأول مطلقًا سواء بلغ الإمام أم لا، وأما من لم يعرف بذلك فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام»[2].

وقال النووي رحمه الله مبينًا حكم الشفاعة في الحدود: «وأما الشفاعة في الحدود فحرام، وكذا الشفاعة في تتميم باطل، أو إبطال حق ونحو ذلك ، فهي حرام»[3].

وقال أيضًا: «وقد أجمع العلماء على تحريم الشفاعة في الحد بعد بلوغه إلى الإمام لهذه الأحاديث، وعلى أنه يحرم التشفيع فيه، فأما قبل بلوغه إلى الإمام فقد أجاز الشفاعة فيه أكثر العلماء إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب شر وأذى للناس، فإن كان لم يشفع فيه، وأما المعاصي التي لا حد فيها وواجبها التعزير فتجوز الشفاعة والتشفيع فيها سواء بلغت الإمام أم لا؛ لأنها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم ١٦٨٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٩٥.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١٧٨

أهون ثم الشفاعة فيها مستحبة إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب أذى ونحوه»[1].

وورد ما يدل على تحريمها إذا بلغ الحد إلى السلطان حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله)[2].

فمما سبق يتبين لنا عدم جواز الشفاعة في الحدود بعد بلوغ السلطان، وكذلك إبطال الحقوق، أو إقرار باطل، والله أعلم.

(١) المصدر السابق ١١/ ١٨٦.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، رقم ٣٥٩٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦١٩٦.

الشفاعة في الآخرة

أولًا: أنواع الشفاعة في الآخرة:

يوم القيامة يوم عصيب يشتد فيه البلاء بالخلق ويطول عليهم الوقوف فيه ، مع ما يحصل لهم من المعاناة من حر وأهوال وكربات، فيتجه الناس للبحث عمن يخلصهم فيأتون إلى أبيهم آدم عليه السلام فيعتذر ، ثم ينتقلون إلى نوح عليه السلام فيعتذر، ثم يأتون إلى إبراهيم عليه السلام فيعتذر، ثم موسى ، ثم عيسى عليهم السلام وكلاهما يعتذر، ثم بعد ذلك ينتقلون إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها ، أنا لها، فيشفع لأهل الموقف لفصل القضاء بينهم ، وذلك هو المقام المحمود الذي وعده ربه تبارك وتعالى في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

قال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم[3].

روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: المقام المحمود: مقام الشفاعة[4]، ونقل ابن كثير عن ابن عباس

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٣
(٤) المصدر السابق ١٥/ ٤٤.

أنه قال: « إن ربك سيبعثك مقاما محمودًا، وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة»[1].

وروى الإمام الطبري عن مجاهد والحسن بأن المراد بالمقام المحمود شفاعة محمد يوم القيامة[2].

وقال قتادة: «هي الشفاعة، يشفعه الله في أمته»[3].

وقال القرطبي رحمه الله: « اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال: الأول -وهو أصحها-: الشفاعة للناس يوم القيامة، قاله حذيفة بن اليمان، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها تقول: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود. وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم ، فيقولون له : اشفع لذريتك، فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم ، فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيؤتى موسى، فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته، فيؤتى عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فأوتى فأقول: أنا لها)[4] وذكر الحديث.

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ سئل عنها قال: (هي الشفاعة)[5].

إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهو الخاصة به صلى الله عليه وسلم، ولأجل ذلك قال: (أنا سيد ولد آدم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٢١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٤٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم ٧٥١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم ٣١٣٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٦٣٩.

ولا فخر)»[1][2].

وقال ابن بطال رحمه الله: «والجمهور على أن المراد بالمقام المحمود: الشفاعة، وبالغ الواحدي فنقل فيه الإجماع»[3]، ورجح ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر أقوال أئمة التفسير[4].

فالشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، وهي واقعة لمن أذن الله تبارك وتعالى له ورضي عنه وعن المشفوع له، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال القرطبي رحمه الله: «وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء في الشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن أكرمهم وشرفهم الله، ثم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قال ابن عطية: والذي يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار وهو بين المنزلتين، أو وصل، ولكن له أعمال صالحة»[5].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: (آتي تحت العرش، فأخر ساجدًا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع)، قال: (فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة)»[6][7].

ثم إن العلماء اختلفوا في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أقوال متعددة، فذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الواسطية أن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات، فقال رحمه الله: «أما الشفاعة الأولى؛ فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء؛ آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه، وأما الشفاعة الثانية؛ فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له، وأما الشفاعة الثالثة؛ فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم ٤٣٠٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٥٧١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٠٩-٣١٠.
(٣) نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١١/ ٤٢٦.
(٤) انظر: المصدر السابق ١١/ ٤٢٧
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٧٣
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، رقم ٤٤٧٦.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٧٩.

النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها، ويخرج الله من النار أقواما بغير شفاعة؛ بل بفضله ورحمته»[1].

وقال القرطبي رحمه الله: «إذا أثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فيشفع هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ليراحوا من هول موقفهم، فاعلم أن العلماء اختلفوا في شفاعاته وكم هي؟، فقال النقاش: لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكبائر، وقال ابن عطية في تفسيره: والمشهور أنهما شفاعتان فقط : العامة ، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار ، وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء ، بل يشفعون ويشفع العلماء.

قال القاضي عياض شفاعات نبينا صلى الله عليه و سلم يوم القيامة خمس شفاعات:

الأولى: العامة.

الثانية: إدخال قوم الجنة بغير حساب.

الثالثة: في قوم من أمته استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفعه فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم، و من شاء أن يشفع ويدخلون الجنة ، وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة ، وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح.

الرابعة: فيمن دخل النار من المذنبين، فيخرج بشفاعة نبينا وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم من المؤمنين.

الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها و ترفيعها. قال القاضي عياض: وهذه الشفاعة لا تنكرها المعتزلة ، و لا تنكر شفاعة الحشر الأول»[2].

وذكر ابن أبي العز الحنفي في شرحه على الطحاوية بأن الشفاعة ثمانية أنواع[3]، ومنها ما هو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، وذكر الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله أن الشفاعة ستة أنواع[4]، وكذلك الشيخ عمر الأشقر[5]، فإذا تقرر هذا فإن الشفاعة في الآخرة أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العامة.

وهي التي يتدافعها الأنبياء آدم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، كل واحد يحيل على الآخر إلى

(١) شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس ص ٢١٥.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٦٠٦-٦٠٧.

(٣) شرح العقدية الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص ١٣٢-٢٣٣.

(٤) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة ص ٧٥.

(٥) القيامة الكبرى، عمر الأشقر ص ١٨٩.

أن يصلوا إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كما تقدم الكلام عليها باختصار في بداية المطلب، وهي المقام المحمود الذي يحمده عليه الأولون والآخرون.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم ، فيقولون له: اشفع لذريتك، فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام ، فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بموسى عليه السلام ، فإنه كليم الله، فيؤتي موسى فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام ، فإنه روح الله وكلمته، فيؤتي عيسى فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فأوتى، فأقول: أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمينه الله ، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك، وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة، أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجدًا ، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك، وسل تعطه ، واشفع تشفع، فأقول: أمتي أمتي، فيقال لي : فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك ، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل)[1].

قال النووي رحمه الله: «والحكمة في أن الله تعالى ألهمهم سؤال آدم ومن بعده صلوات الله وسلامه عليهم في الابتداء ولم يلهموا سؤال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هي ، والله أعلم - إظهار فضيلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم لو سألوه ابتداء لكان يحتمل أن غيره يقدر على هذا ويحصله، وأما إذا سألوا غيره من رسل الله تعالى وأصفيائه فامتنعوا ، ثم سألوه فأجاب وحصل غرضهم فهو النهاية في ارتفاع المنزلة وكمال القرب وعظيم الإدلال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم ٧٥١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.

والأنس، وفيه تفضيله صلى الله عليه وسلم على جميع المخلوقين من الرسل والآدميين والملائكة، فإن هذا الأمر العظيم ، وهي الشفاعة العظمى لا يقدر على الإقدام عليه غيره صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، والله أعلم»[١].

فالحكمة من جعل الناس يترددون على غير النبي صلى الله عليه وسلم فيه بيان إظهار فضله عليه الصلاة والسلام، كما يقول السفاريني رحمه الله: «وحكمة إلهام الناس التردد إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم قبله، ولم يلهموا المجيء إليه من أول وهلة لإظهار فضله وشرفه صلى الله عليه وسلم»[٢].

النوع الثاني: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع ليدخلوا الجنة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وظهر لي بالتتبع شفاعة أخرى ، وهي الشفاعة فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة، أرجح الأقوال في أصحاب الأعراف أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم»[٣].

وقال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلونها»[٤].

النوع الثالث: شفاعته صلى الله عليه وسلم في قوم قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها[٥].

النوع الرابع: شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم[٦].

ودليل هذا النوع عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر)، فضج ناس من أهله، فقال: (لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون)، ثم قال: (اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه)[٧].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: دعا النبي صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ به، ثم

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٥٦.
(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني ٢/ ٢٠٨.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٤٢٨.
(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢٩.
(٥) انظر: المصدر السابق ص ٢٨٨، القيامة الكبرى، عمر الأشقر ص ١٨٩.
(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٢٢٩.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر، رقم ٩٢٠.

رفع يديه فقال: (اللهم اغفر لعبيد أبي عامر)، ورأيت بياض إبطيه، فقال: (اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس)[١].

قال القرطبي رحمه الله: «شفاعته صلى الله عليه وسلم في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها»[٢].

النوع الخامس: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب[٣].

ويستدل لهذا النوع بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ويدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب)، فقال رجل: يا رسول الله! أدع الله أن يجعلني منهم، قال: (اللهم اجعله منهم)، ثم قام آخر فقال: يا رسول الله! أدع الله أن يجعلني منهم، قال: (سبقك بها عكاشة)[٤].

ووجه الدلالة منه دعاؤه لعكاشة بن محصن أن يجعله من أولئك السبعين ألفًا فدعاؤه صلى الله عليه وسلم شفاعة له[٥].

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه[٦].

ودليله ما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه)[٧].

قال القرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع: «فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة»[٨].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «(لعله تنفعه شفاعتي) ظهر من حديث

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الوضوء، رقم ٦٣٨٣.
(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٦٠٨.
(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٢، شرح العقيدة الواسطية، سعيد بن وهف القحطاني ص ٤٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، رقم ٦٥٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم ٢١٦.
(٥) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص ٣٠٧.
(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٣.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم ٣٨٨٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم ٢١٠.
(٨) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٦٠٨.

العباس وقوع هذا الترجي، واستشكل قوله صلى الله عليه وسلم: (تنفعه شفاعتي) بقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

وأجيب بأنه خص ، ولذلك عدوه في خصائص النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: معنى المنفعة في الآية يخالف معنى المنفعة في الحديث والمراد بها في الآية الإخراج من النار، وفي الحديث المنفعة بالتخفيف»[1].

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

النوع السابع: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أن يؤذن لأهل الجنة في دخولها[2].

ومن أدلة هذا النوع ما جاء في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا)[3].**

وفي حديث آخر عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **(آتي باب الجنة يوم القيامة ، فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت؟ فأقول: محمد ، فيقول: بك أمرت ، لا أفتح لأحد قبلك)[4].**

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط، وقفوا على قنطرة فيقتص بعضهم من بعض، وهذا القصاص غير القصاص الذي يكون في عرصات القيامة، بل هو أخص يطهر الله سبحانه فيه القلوب، ويزيل ما فيها من أحقاد وضغائن، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، ولكنهم إذا أتوا إلى الجنة وجدوها مغلقة لا تفتح لهم الأبواب حتى يشفع لهم الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم.

النوع الثامن: الشفاعة في أهل الكبائر من هذه الأمة ممن دخل النار ، فيخرجون منها، ولكن هذا مقيد بأن يكون سالمًا من الشرك والكفر.

ودليل هذا النوع ما روي عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[5].**

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٤٣١.

(٢) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص ٣٠٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أول الناس يشفع في الجنة ،وأنا أكثر الأنبياء تبعا، رقم ١٩٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعا، رقم ١٩٧.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الشفاعة، رقم ٤٧٣٩، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الشفاعة، رقم ٢٤٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٧١٤.

وروي عنه رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود، قال النبي صلى الله عليه وسلم: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة)[1].

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة)[2].

والأحاديث في هذا كثيرة جدًا.

قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله: «إن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرت أنها لأهل الكبائر، وأنها لمن قد أدخل النار، من غير أهل النار والذين هم أهلها أهل الخلود فيها، بل لقوم من أهل التوحيد ارتكبوا ذنوبًا وخطايا ، فأدخلوا النار لتصيبهم سفعًا منها»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ثبت بالسنة المستفيضة بل المتواترة واتفاق الأمة: أن نبينا صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة، وأن الناس يستشفعون به، يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم، وأنه يشفع لهم. ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد»[4].

فالشفاعة فضل من الله ومنة على عباده، ولكن عليهم ألا يتكلوا فيقعوا في الذنوب والمعاصي، فرب عمل عملته سخط الله عليك به، ولم يرض عنك، نسأل الله أن يوفقنا لطاعته ورضاه.

ثانيًا: الشافعون في الآخرة:

كما تقدم أن الشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة، والإجماع، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، فكذلك دل القرآن على بعض أنواع الشفاعة، كما في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾، رقم ٧٤١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.

(٣) التوحيد، ٢/ ٦٥٩.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٠٨.

وجمهور المفسرين على أن هذه الشفاعة هي الشفاعة العظمى ، وهي خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهناك شفعاء آخرون دلت على شفاعتهم السنة النبوية ، وهم كالتالي:

١ . النبي صلى الله عليه وسلم.

والأدلة على شفاعته صلى الله عليه وسلم كثيرةٌ جدًا، فقد ثبت أيضًا في السنة النبوية أن سكنى المدينة والصبر على لأوائها وشظف العيش فيها سبب في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا)**[١].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها ، وقال: المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعها أحد رغبة عنه إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة)**[٢].

وفي رواية أن أبا سعيد مولى المهري جاء إلى أبي سعيد الخدري ليالي الحرة، فاستشاره في الجلاء من المدينة ، وشكا إليه أسعارها وكثرة عياله ، وأخبره أن لا صبر له على جهد المدينة ولأوائها، فقال له: ويحك لا آمرك بذلك ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(لا يصبر أحد على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة إذا كان مسلما)**[٣].

وثبت أن طلب الوسيلة للنبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان سبب في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة)**[٤].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها، رقم ١٣٧٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، رقم ١٣٦٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها، رقم ١٣٧٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء، رقم ٦١٤.

يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرًا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)[1].

والأدلة على شفاعته صلى الله عليه وسلم كثيرة جدًا قد تقدمت في المطالب السابقة فليرجع إليها.

٢. الملائكة.

والدليل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم-أو قال بخطاياهم-فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما، أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل)[2].

وعن عطاء بن يزيد، قال: كنت جالسا إلى أبي هريرة، وأبي سعيد ، فحدث أحدهما حديث الشفاعة والآخر منصت، قال: فتأتي الملائكة فتشفع وتشفع الرسل ، وذكر الصراط، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأكون أول من يجيز، فإذا فرغ الله عز وجل من القضاء بين خلقه وأخرج من النار من يريد أن يخرج أمر الله الملائكة والرسل أن تشفع، فيعرفون بعلاماتهم ، إن النار تأكل كل شيء من ابن آدم إلا موضع السجود، فيصب عليهم من ماء الجنة ، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل)[3].

٣. القرآن الكريم.

والدليل على شفاعة القرآن لأصحابه العاملين به ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (سورة من القرآن ثلاثون آية تشفع لصاحبها حتى يغفر له ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١])[4].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل الله له الوسيلة، رقم ٣٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، رقم ١٨٥.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب التطبيق، باب موضع السجود، رقم ١١٤٠.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في عدد الآي، رقم ١٤٠٠.
وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ١٢٦٥.

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (القرآن شافع مشفع ، وما حل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار)[1].

٤. الشهيد.

والدليل على أن الشهيد يشفع لأقاربه حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه)[2].

٥. الصيام.

وثبت في السنة أن الصيام يشفع لصاحبه يوم القيام، كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعني فيه)، قال: (فيشفعان)[3].

٦. المصلون على الجنازة إذا كانوا أكثر من أربعين.

ومن فضل الله تبارك وتعالى أنه جعل الصلاة على الجنازة سببًا في شفاعة المصلين للمصلى عليه إن بلغوا الأربعين، وفي بعض الروايات يبلغون مائة.

فقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من ميت تصلي عليه أمة من المسلمين ، يبلغون مائة ، كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه)[4].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان، فقال: يا كريب انظر: ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له، فأخبرته فقال: تقول : هم أربعون؟ قال: نعم، قال:

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم ١٠٤٥٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٠١٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في ثواب الشهيد، رقم ١٦٦٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، رقم ٢٧٩٩.
وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، رقم ٣٨٣٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٦٢٦، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ١٨٣٩.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٩٨٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من صلى عليه مائة شفعا فيه، رقم ٩٤٧.

أخرجوه ، فإني سمعت رسول الله عليه وسلم يقول: (ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه)[1].

فهذا بعض ما وقفت عليه مما دلت عليه النصوص في إثبات أنهم يشفعون في الآخرة، وشفاعتهم كلها مقيدة برضى الله تبارك وتعالى لهم بالشفاعة ورضاه عن المشفوع له، نسأل الله تبارك وتعالى رضاه والجنة.

ثالثًا: المشفوع لهم:

لقد ورد في كتاب الله تبارك وتعالى أن الشفاعة لها شروط أساسية ، منها رضا الله تبارك وتعالى لشافع أن يشفع، ومنها رضاه عن المشفوع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وقد ثبت في أحاديث كثيرة أن هناك من يشفع كالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره، كما تقدم في المطلب السابق، وهنا سيكون الحديث حول لمن تكون الشفاعة؟

وقد ثبت أن الشفاعة تكون يوم القيامة تكون لفضل القضاء وتخفيف هول الموقف، وكذلك تكون لأقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، وتكون كذلك لأهل المعاصي الذين دخلوا النار ولكنهم موحدون، فإنه لا يبقى في النار موحد، وإنما هي دار المشركين الكافرين، وتكون أيضًا لمن رضي الله عنه من أهل الكبائر، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كما في حديث أنس رضي الله عنه: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[2].

قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله: إن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرت أنها لأهل الكبائر،، وأنها لمن قد أدخل النار، من غير أهل النار والذين هم أهلها أهل الخلود فيها، بل لقوم من أهل التوحيد ارتكبوا ذنوبًا وخطايا فأدخلوا النار، لتصيبهم سفعًا منها»[3].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم ٩٤٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الشفاعة، رقم ٤٧٣٩، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الشفاعة، رقم ٢٤٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٧١٤.

(٣) التوحيد ٢/ ٦٥٩.

النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج قومٌ من النار بعد ما مسهم منها سفعٌ، فيدخلون الجنة، فيسميهم أهل الجنة: الجهنميين)[1].

فالشفاعة هي لأهل الكبائر الذي دخلوا النار أن يخرجوا منها ، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لكل نبي دعوة، فأريد إن شاء الله أن أختبي دعوتي، شفاعة لأمتي يوم القيامة)[2].

وعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الله أهل الجنة الجنة، يدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النار النار، ثم يقول: انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون منها حمما قد امتحشوا، فيلقون في نهر الحياة، أو الحيا، فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية؟)[3].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال :لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن ذرة من خير)[4].

فهذه الأحاديث دليل على خروج أهل الكبائر الموحدين الذين دخلوا النار بعد أن يعذبوا بقدر ذنوبهم، ويكون خروجهم بالشفاعة أو برحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى ، سواءً كانوا من أهل الكبائر أو دون ذلك من الذنوب التي هي دون الشرك، فالذنوب وإن عظمت غير الشرك لا توجب لصاحبها الخلود في النار.

قال ابن القيم رحمه الله في عصاة الموحدين من أهل الكبائر: «هؤلاء هم القسم الذين جاءت فيهم الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم يدخلون النار ، فيكونون فيها على مقدار أعمالهم: فمنهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ويلبثون فيها على قدر أعمالهم، ثم يخرجون منها، فينبتون على أنهار الجنة ، فيفيض عليهم أهل الجنة من الماء حتى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٥٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة: وما تشاءون إلا أن يشاء الله، رقم ٧٤٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته، رقم ١٩٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، رقم ١٨٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم ٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.

تنبت أجسادهم، ثم يدخلون الجنة، وهم الطبقة الذين يخرجون من النار بشفاعة الشافعين، وهم الذين يأمر الله سيد الشفعاء مرارًا أن يخرجهم من النار بما معهم من الإيمان»[1].

وقال الطحاوي رحمه الله: «وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون وإن كانوا غير تائبين»[2].

وكذلك ورد في الشرع كثير من الأعمال يحصل بسببها الشفاعة لأصحابها، نذكر بعض من ورد النص بالشفاعة له، فمنهم:

- أهل التوحيد المجانبين للشرك.
- أقارب الشهداء.
- صاحب القرآن العامل به.
- صاحب الصيام.
- من سكن المدينة وصبر على شدتها ولأوائها.
- من صلى على جنازته أكثر من أربعين.
- من التزم الدعاء بعد الأذان بطلب الوسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.
- وكل هذا لم يرد عليه دليل من القرآن الكريم، وإنما ثبت في السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ٣٨٥.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ٢/ ٥٢٤.

رابعًا: المشفوع فيه:

الشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع عند أهل السنة والجماعة ولم يخالفهم في ذلك إلا أهل البدع والضلال، وهي نائلة كل موحد لله تبارك وتعالى، ومن أذن الله له بالشفاعة، ولا يبقى في النار إلا الكفرة وأهل الشرك، فإن من أشرك بالله وكفر به فإنه مخلد في النار لا يخرج منها، بخلاف من كان موحدًا وإن كان من أصحاب الذنوب والمعاصي، فإنه يعذب في النار على قد معاصيه ثم يخرج إلى الجنة.

وقد أخبر الله تبارك وتعالى أهل الكفر وأنهم مخلدون، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧].

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: «وفي هذه الآية الدلالة على تكذيب الله الزاعمين أن عذاب الله أهل النار من أهل الكفر منقضٍ، وأنه إلى نهاية، ثم هو بعد ذلك فانٍ؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، ثم ختم الخبر عنهم بأنهم غير خارجين من النار، بغير استثناء منه وقتًا دون وقت. فذلك إلى غير حد ولا نهاية»[3].

وقال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى:

(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٩٩.

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ دليلٌ على خلود الكفار فيها وأنهم لا يخرجون منها، وهذا قول جماعة أهل السنة، لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[الأعراف: ٤٠]»[(١)].

فهذه الآية دليل على خلود الكفار في النار، وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص ، كما يقول الشوكاني رحمه الله[(٢)].

وقال ابن عادل الدمشقي: «احتج به على أن أصحاب الكبائر من أهل القبلة يخرجون من النار، فقالوا: لأن قوله: ﴿وَمَا هُم﴾ تخصيص لهم بعدم الخروج على سبيل الحصر؛ فوجب أن يكون عدم الخروج مخصوصا بهم، وهذه الآية الكريمة تكشف عن المراد بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الانفطار: ١٤-١٦].

فبين أن المراد بالفجار ها هنا الكفار؛ لدلالة هذه الآية الكريمة عليه ، والله أعلم»[(٣)].

قال الشنقيطي رحمه الله: «دل القرآن أن أصحاب النار هم الكفار ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٩].

والخلود لا خروج معه ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

وكقوله في سورة الهمزة: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الهمزة: ٣-٨] أي: مغلقةٌ عليهم»[(٤)].

فظهر بأن الكفرة وأهل الشرك مخلدون في النار أبد الآبدين، قد أغلقت عليهم ، ففيها يتقلبون ، ومن عذابها يتجرعون ويعذبون.

ثم إن للشفاعة أركانًا، فالمشفوع فيه أحد أركانها ، وهو المنتفع بها ، ولا بد من خلوها من الموانع الشرعية تدل بها الشفاعة، حتى تقبل فيه وهذا إن كان في الدنيا فمثل الشفاعة في الحدود إذا لم تبلغ السلطان أو كان في القصاص من القصاص إلى الدية، وإن كان في الآخرة فمثل الشفاعة في الذنوب والمعاصي مع خلو صاحبها عن الشرك والأكبر المحبط للأعمال.

ولا بد من توافر بعض شروط في المشفوع فيه حتى تقع له الشفاعة وينتفع بها

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٠٧.
(٢) فتح القدير ١/ ٢٥٦.
(٣) اللباب في علوم الكتاب ٣/ ١٥٠.
(٤) أضواء البيان ٨/ ٦٠.

وهي:

١. إذن الله تبارك وتعالى أن يشفع فيه ورضاه عنه.

فإذن الله تبارك وتعالى للشافع أن يشفع وللمشفوع أن يشفع له شرط أساسي في وقوع الشفاعة ، قال رب العزة والجلال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣].

قال القرطبي رحمه الله: «أي: أن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام، إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة ، وهم على غاية الفزع من الله»[(١)].

وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فلا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه، ورضاه سبحانه له بالشفاعة، ولا ينتفع أحد بشفاعة أحد إلا برضا الله تبارك وتعالى عنه.

٢. أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد.

فهذا شرط أساسي لقبول الشفاعة؛ وذلك لورود الأدلة الصريحة الصحيحة بذلك، فالشفاعة في يوم الآخرة لا تكون إلا لأهل التوحيد المؤمنين، لأن الله تبارك وتعالى لا يرضى عن المشركين الكافرين، فهؤلاء قد أخبر عنهم بأن الشفاعة لا تنفعهم ، فقال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

وكذلك الآيات التي تبين أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله ورضاه ، فالله سبحانه لا يرضى عن المشركين والكافرين ، ولا يأذن بالشفاعة لهم، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلا ، فأما من وافى الله كافرا يوم القيامة فإنه له النار لا محالة، خالدا فيها»[(٢)].

وقال القرطبي رحمه الله: «هذا دليل على صحة الشفاعة للمذنبين، وذلك أن قوما من أهل التوحيد عذبوا بذنوبهم، ثم شفع فيهم، فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة، فأخرجوا من النار، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم»[(٣)].

فهنا الشفاعة منفية عن الكافرين الذين لم يكونوا من أهل التوحيد، ولم يكونوا من

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٧٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٨٨.

أهل الأعمال الصالحة.

فالأصل في وقوع الشفاعة وتحققها هو التوحيد، ومخالفة المشركين، وهذه الشفاعة من أهم الأمور التي يتميز بها أهل التوحيد عن غيرهم، والله تبارك وتعالى لا يرضى عن المشركين ، وإنما رضاه لمن استقام على كتابه وسنة نبيه ووحده وأفرده بالعبادة وحده دون سواه.

خامسًا: آثار الشفاعة في الآخرة:

لا خلاف بين أهل السنة والجماعة على ثبوت الشفاعة في الآخرة، بل ووجوب الإيمان بها، وذلك لما تقدم من الآيات والأحاديث الواردة في إثبات ذلك، وبناء على ذلك فإن للشفاعة آثارًا وفوائد في الآخرة منها:

١. رحمة أرحم الراحمين.

ويدل على ذلك إذنه لمن شاء من خلقه بالشفاعة : النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة والمؤمنون والشهداء وغيرهم، وشفاعته هو سبحانه، كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وكما ثبت في الصحيحين في الحديث الطويل وفيه: (فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضةً من النار ، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط ، قد عادوا حممًا ، فيلقيهم في نهرٍ في أفواه الجنة، يقال له: نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل)[1].

إن كثيرًا من عصاة المؤمنين يغفر لهم قبل إدخالهم النار ، إما بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإما برحمة الله عزوجل على عباده المسلمين، فيخرج طائفة كثيرة من عصاة الموحدين لا يعلم عدتهم إلا الله تبارك وتعالى ، وذلك برحمته لا بشفاعة الشافعين.

وقد ثبت عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة)[2].

٢. كمال شفقة النبي صلى الله عليه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم ٨٠٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم في صحيحه، في حديث الشفاعة الطويل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم ١٨٣، واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم ٢٧٥٢.

وسلم.

في يوم القيام تظهر شفقة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته ورحمته بهم، وذلك عندما يرى الناس في ذلك اليوم العصيب حين يموج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتي الناس إلى آدم ، فيقولون له: اشفع لذريتك، ثم يأتون إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، ثم يوتى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها، فيستأذن على ربه فيؤذن له، فيقوم بين يديه ويحمده بمحامد يلهمه الله ، ثم يخر ساجدًا تحت العرش ويناجي ربه ، فيقال له كما ثبت في الصحيحين: (يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك، وسل تعطه ، واشفع تشفع، فيقول: رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة، أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجدًا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع، فأقول: أمتي أمتي، فيقال: لي فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود إلى ربي، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل)[1].

وفي هذا الحديث كذلك تتجلى أيضًا رحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى، وكمال شفقة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته، فيخرج الله تبارك وتعالى من النار من كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان، ثم يخرج من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ثم يخرج من كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان، فلا يبقى في النار إلا من كان مشركًا بالله عز وجل، وذلك فضل الله.

٣. رفع درجات بعض أهل الجنة.

ومن آثار الشفاعة في الآخرة أن بعض أهل الجنة ترتفع منازلهم، ودرجاتهم في الجنة، ذكرها ابن أبي العز في شرح الطحاوية كما تقدم.

٤. دخول قوم الجنة ، وقد استوجبوا دخول النار.

هذه الشفاعة يشفعها النبي صلى الله عليه وسلم ومن شاء الله تبارك وتعالى من المؤمنين.

وتقدم قول ابن أبي العز الحنفي رحمه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم ٧٥١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.

الله: «شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلونها»[(١)].

وأنه لا يبقى في النار موحد، وإنما هي دار الكفار والمشركين بالله عز وجل، كما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله ، وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة)[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ويخرج الله من النار أقواما بغير شفاعة؛ بل بفضله ورحمته، ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا، فينشئ الله لها أقواما فيدخلهم الجنة»[(٣)].

هذه آثار الشفاعة في الآخرة، وكلها من فضل الله وإكرامه على الخلق، وكلها بإذنه وتصرفه سبحانه، فهو رب كل شيء وخالقه، وكل شيء تحت تصرفه، إذا قال للشيء ، كن، كان كما أرد.

نسأل الله الإخلاص في القول والعمل وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل، ونسأله أن يمن علينا برحمته ويكرمنا بفضله وواسع مغفرة، والحمد لله رب العالمين.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التوحيد، محمد، الملائكة، النبوة

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٢٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم ٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم ١٩٣.
(٣) شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص٢١٥.

الشُّكر

عناصر الموضوع

مفهوم الشكر	٣٨٤
الشكر في الاستعمال القرآني	٣٨٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٨٦
اقتران الصبر والشكر	٣٨٨
أساليب القرآن في الحث على الشكر	٣٨٩
الشكر في حق الله تعالى	٣٩٢
أنواع الشكر	٣٩٧
العبد والشكر	٣٩٩
شكر المخلوق	٤٠٢
مجالات الشكر	٤٠٤
نماذج قرآنية في الشكر	٤١٢
ثمرات الشكر	٤١٧

مفهوم الشكر

أولًا: المعنى اللغوي:

الشكر: عرفان الإحسان ونشره، وحمد موليه، ويقال: شكره وشكر له، يشكره شكرًا، بالضم، وشكورًا، كقعودٍ، وشكرانًا، كعثمان، وحكى اللحياني: شكرت الله، وشكرت لله، وشكرت بالله، وكذلك شكرت نعمة الله، وشكرت بها، وباللام أفصحها، والشكور، كصبورٍ: الكثير الشكر، والجمع شكرٌ وشكورون، والمفعول مشكور[1].

فالشكر: الثناء على المحسن بذكر إحسانه[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «هو عبارة عن معروف يقابل النعمة، سواء كان باللسان أو باليد أو بالقلب»[3].

فالعبد يشكر الله، فيثني عليه بذكر إحسانه الذي هو نعمة، والله يشكر العبد، فيثني عليه بقبوله إحسانه الذي هو طاعته[4].

وقيل: الشكر: تصور النعمة وإظهارها، قيل: وهو مقلوب عن الكشر، أي: الكشف، ويضاده الكفر، وهو: نسيان النعمة وسترها، ودابة شكور: مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها.

فالشكر إذًا: عرفان الإحسان، والاعتراف بالنعمة، وأداء ما يترتب عليه، والقيام بحق مسديها[5].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٢٩٢، تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٠، أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٥١٦، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٢٣، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ٢/ ١٢٢٥.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص٥٣٥.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٦١.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٦١.

(٥) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٢٩٢، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٧٣٢، الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٠٢، المخصص، ابن سيده ٣/ ٤٢٤.

الشكر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شكر) في القرآن الكريم (٧٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:٤٠]
الفعل المضارع	٣٥	﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة:٥٢]
الفعل الأمر	٧	﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان:١٢]
المصدر	٣	﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣]
اسم الفاعل	١٤	﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة:١٥٨]
صيغة المبالغة	١٠	﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم:٥]
اسم المفعول	٢	﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩]

وجاء الشكر في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي الدال على الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الشين، ص٦٦٩-٦٧١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحمد:

الحمد لغة:

هو نقيض الذم[١].

الحمد اصطلاحًا:

الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه[٢].

الصلة بين الشكر والحمد:

الشكر يكون باللسان وغيره، أما الحمد فإنه لا يكون إلا باللسان، فالشكر من جهة ما يكون به أعم من الحمد، كما أن الشكر لا يكون إلا على النعم، وأما الحمد فإنه يكون على الصفات والأفعال والنعم[٣]، فالشكر من جهة ما يكون عليه أخص من الحمد، فبينهما عموم وخصوص ، كما قرره المحققون من أهل العلم[٤].

٢ الثناء:

الثناء لغة:

ذكر ما يشعر بالتعظيم [٥]، وهو الذكر بالخير والكلام الجميل، ويستعمل في الوصف بمدح أو ذم، فيقال : أثنى عليه خيرًا أو أثنى عليه شرًا، لكن غلب استعماله في الخير، وقد طار ثناء فلان، أي: ذهب وانتشر بين الناس[٦].

الثناء اصطلاحًا:

«هو الإتيان بما يشعر التعظيم مطلقًا، سواء كان باللسان أو بالجنان أو بالأركان؛ وسواء كان في مقابلة شيء أو لا» [٧].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٠٠.
(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٩٣.
(٣) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص٢٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ١/ ٣٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٢٨.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص٧٢.
(٦) انظر: شمس العلوم، نشوان الحميرى ٢/ ٨٩٥.
(٧) الكليات، الكفوي ص٣٢٤.

الصلة بين الشكر والثناء:

الشكر يكون مقرونًا بنعمة أو معروف، بينما الثناء ليس شرطًا أن يكون على نعمة أو معروف، وقد يكون بشرٍ، وإن جاء في تعريفه أنه الذكر الحسن والوصف الجميل، فهو كذلك باعتبار الغالب[1].

٣ النكران:

النكران لغة:

الجحود، وعدم الاعتراف بالشيء[2].

النكران اصطلاحًا:

جحد النعمة، وعدم الاعتراف بها[3].

الصلة بين الشكر والنكران:

علاقة تضاد، فشكر النعمة إظهارها وعرفانها والثناء على المنعم، بينما نكران النعمة هو جحودها وإنكارها وعدم الاعتراف بها.

(١) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٢٠١، التعريفات، الجرجاني ص١٢٨.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٥٢، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ٣/ ٢٢٨١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٧٣.

اقتران الصبر والشكر

قرن الله سبحانه وتعالى بين الصبر والشكر في أربعة مواضع من كتابه، وأخبر فيهن بأن آيات الله ينتفع بها أهل الصبر، وأهل الشكر.

من هذه الآيات: ما جاء في سياق بيان الغاية من إرسال موسى عليه السلام إلى قومه والتي منها أن يذكرهم بنعم الله عليهم وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين؛ ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

أي: ذكرهم تذكير عظة بأيام الله، وبأيام الله: أيام ظهور بطشه وغلبه من عصوا أمره، وتأييده المؤمنين على عدوهم؛ فإن ذلك كله مظهر من مظاهر عزة الله عز وجل.

ولكون الآيات مختلفة، بعضها آيات موعظة وزجر، وبعضها آيات منة وترغيب، جعلت متعلقة بـ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ إذ الصبر مناسب للزجر؛ لأن التخويف يبعث النفس على تحمل معاكسة هواها خيفة الوقوع في سوء العاقبة، والإنعام يبعث النفس على الشكر[1].

في الآية دلالة على أن الصبار والشكور ينتفعان بالتذكير والتنبيه ويتعظان به.

ومنها: ما أخبر سبحانه وتعالى فيها أن في جري السفن في البحر لدلالات لكل صبار عن محارم الله، شكور لنعمه، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١].

يخبر سبحانه وتعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت؛ ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾، أي: من قدرته، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أي: صبار في الضراء شكور في الرخاء[2]. ولما تقدم ذكر جري الفلك في البحر، وكان في ذلك ما لا يخفى على راكبه من الخوف، وتقدم ذكر النعمة، ناسب الختم بالصبر على ما يحذر، وبالشكر على ما أنعم به سبحانه وتعالى[3].

وفي الآية دلالة على أن آيات الله الكونية إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

ومنها: ما أخبر سبحانه وتعالى بها في سياق الحديث عن سبأ وما حل بهم، وما في ذلك من عبرة لكل صبار على المكاره

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ١٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣١٤.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٢٣.

والشدائد، شكور لنعم الله عز وجل.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

في الآية دلالة على أن قصص القرآن فيها آيات وعبرٌ لأهل الصبر وأهل الشكر.

ومنها: ما أخبر سبحانه وتعالى فيها بأن أحوال الفلك في البحر فيها عبرة لكل صبار شكور.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣].

جعل ذلك آية لكل صبار شكور؛ لأن في الحالتين خوفًا ونجاة، والخوف يدعو إلى الصبر، والنجاة تدعو إلى الشكر، وإنما جعل ذلك آية للمؤمنين؛ لأنهم الذين ينتفعون بتلك الآية فيعلمون أن الله منفرد بالألوهية ، بخلاف المشركين فإنها تمر بأعينهم فلا يعتبرون بها[1].

(١) التحرير والتنوير ٢٥/ ١٠٦.

أساليب القرآن في الحث على الشكر

تنوعت أساليب القرآن في الحث على الشكر على النحو الآتي:

أولًا: أسلوب الأمر:

١ . الأمر بالشكر بصيغة المفرد.

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أعطى العبد الصالح لقمان الحكمة، وهي الفقه في الدين وسلامة العقل والإصابة في القول، وأمره أن يشكره على نعمه عليه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾[لقمان: ١٢].

«أمره الله بشكره على ما هو محفوف به من نعم الله التي منها نعمة الاصطفاء لإعطائه الحكمة، وإعداده لذلك بقابليته لها، وهذا رأس الحكمة؛ لتضمنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل النظر في حقائق الأشياء، وقبل التصدي لإرشاد غيره، وأن أهم النظر في حقيقته هو الشعور بوجوده على حالة كاملة، والشعور بموجده ومفيض الكمال عليه، وذلك كله مقتضٍ لشكر موجده على ذلك»[2].

وفي الآية تنبيه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما، وعبادة الله والشكر له. وقال سبحانه وتعالى

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥٢.

حاثًا الإنسان على شكره عز وجل، وشكر والديه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

أي: «قلنا له أن اشكر لي ولوالديك. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية»[(١)].

٢. الأمر بالشكر بصيغة الجمع.

جاء الأمر بالشكر بصيغة الجمع، قال سبحانه وتعالى آمرًا المؤمنين بشكره: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وهو أمر، وليس بإباحة. قيل: ولا يمكن القول بوجوب الشكر؛ لأنه إما أن يكون بالقلب، أو باللسان، أو بالجوارح[(٢)].

وأخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه أن إبراهيم عليه السلام أمر قومه بعبادة الله وشكره على نعمه عليهم، قال عز وجل: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وأمر الله سبحانه وتعالى الأنبياء بشكره على نعمة النبوة والرسالة:

فأمر سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بشكره على ما آتاه من النبوة والرسالة، فقال سبحانه وتعالى لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وأمر سبحانه وتعالى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يكون من الشاكرين له على نعمه، فقال: ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

أي: على ما أنعم به عليك، من أن جعلك سيد ولد آدم[(٣)].

ثانيًا: أسلوب الترغيب:

وعد الله سبحانه وتعالى من ثبت على الإيمان وشكره على نعمة الإسلام، بأنه سيجزيه أحسن الجزاء؛ وذلك ترغيبًا للمؤمنين للاقتداء بهم في ثباتهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

أي: الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا[(٤)].

وهذا «وعد عظيم بالجزاء، وجاء بالسين التي هي في قول بعضهم: قرينة التفسير في الاستقبال، أي: لا يتأخر جزاء الله إياهم

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٦٤.
(٢) البحر المحيط ٢/ ١٠٩.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٤٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٢٦.

عنهم ، وظاهر هذا الجزاء أنه في الآخرة، وقيل: في الدنيا بالرزق، والتمكين في الأرض»[1].

ثالثًا: أسلوب المدح:

قال سبحانه وتعالى مادحًا إبراهيم عليه السلام؛ لشكره نعم الله عليه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

«مدح لإبراهيم عليه السلام ، وتعريض بذريته الذين أشركوا وكفروا نعمة الله، مقابل قوله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]»[2].

رابعًا: أسلوب الاستفهام:

أخبر سبحانه وتعالى أنه اختص داود عليه السلام بأن علمه صناعة الدروع، يعملها حلقًا متشابكة، تسهل حركة الجسم؛ لتحمي المحاربين من وقع السلاح فيهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

استفهام يتضمن الأمر، أي: اشكروا الله على ما أنعم به عليكم[3].

وكان العدول عن إيلاء (هل) الاستفهامية بجملة فعلية إلى الجملة الاسمية مع أن لـ (هل) مزيد اختصاص بالفعل، فلم يقل: فهل تشكرون، وعدل إلى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾؛ ليدل العدول عن الفعلية إلى الاسمية على ما تقتضيه الاسمية من معنى الثبات والاستمرار، أي: فهل تقرر شكركم وثبت؛ لأن تقرر الشكر هو الشأن في مقابلة هذه النعمة[4].

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٦٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٧.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٥٧.
(٤) التحرير والتنوير ١٧/ ١٢٢.

الشكر في حق الله تعالى

سمى الله تعالى نفسه بالشاكر والشكور، وقرن سبحانه وتعالى بين الشكر والعبادة؛ لارتباطهما ببعضهما ارتباطًا وثيقًا، وقرن بين الشكور والغفور، والشكور والحليم، والشاكر والعليم، وفي هذا المبحث نتناول الشكر في حقه عز وجل، واقتران أسماء الله (الشاكر، والشكور) ببعض أسمائه الحسنى:

أولًا: استحقاق الله للشكر:

يمتن الله سبحانه وتعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها؛ وعدم الغفلة عنها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

هذه النعم الجسيمة يقابلها وجوب شكر المنعم المتمثل بعبادته وحده دون غيره من الأنداد؛ ولذلك قرن سبحانه وتعالى في مواضع من كتابه بين الشكر والعبادة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

فالشكر في هذه الآية، هو العمل الصالح، وهنا لم يقل: (حلالًا)؛ لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة؛ ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله، لم يعبده وحده، كما أن من شكره، فقد عبده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضًا على أن أكل الطيب، سبب للعمل الصالح وقبوله. والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة[1].

وأمركم سبحانه وتعالى بالشكر له؛ لأنه الذي خلقها لكم، وسهل عليكم أسبابها، بأن تتبعوا سنته الحكيمة في طلب هذه الطيبات واستخراجها، وفي استعمالها فيما خلقت لأجله، وبالثناء عليه جل جلاله وعم نواله، واعتقاد أن هذه الطيبات من فضله وإحسانه، ليس لمن اتخذوا أندادًا له تأثير فيها.

ولذلك قال: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي: إن كنتم تخصونه بالعبادة، وتؤمنون بانفراده بالسلطة والتدبير، فاشكروا له خلق هذه النعم وإباحتها لكم، ولا تجعلوا له أندادًا تطلبون منهم الرزق أو ترجعون إليهم بالتحليل والتحريم؛ فإن ذلك له وحده، وإلا كنتم مشركين به كافرين لنعمه، كالذين من قبلكم، جهلوا معنى عبادة الله سبحانه وتعالى، فاتخذوا بينهم وبينه وسطاء في طلب الرزق، ورؤساء يشرعون لهم من الدين ما لم يشرعه، ويحلون لهم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١.

ويحرمون عليهم ما لم يشرعه لهم. ومن الشكر له سبحانه وتعالى استعمال القوى التي غذيت بتلك الطيبات في نفع أنفسكم وأمتكم وجنسكم[(١)].

فالآية توحي بأن الشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من العباد.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

يقول سبحانه وتعالى آمرا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك؛ فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له[(٢)].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

أي: فالتمسوا عند الله الرزق لا من عند أوثانكم، تدركوا ما تبتغون من ذلك، وذلوا له واشكروا له على رزقه إياكم، ونعمه التي أنعمها عليكم[(٣)].

فهذه الآيات ترشد إلى شكر الله؛ لأنه المتفضل على عباده بالنعم ابتداء دون طلب منهم، وهو المستحق لإفراده بالعبادة، لكن من الخلق من يعبد غيره، ويشكر غيره، كما جاء في الحديث الذي يستأنس به، عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله عز وجل: إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري)[(٤)].

ثانيًا: معنى اسم الله الشاكر والشكور:

الله سبحانه وتعالى هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكورًا.

ومعنى الشكر المضاف إليه سبحانه وتعالى، «الرضا بيسير الطاعة من العبد والقبول له، وإعظام الثواب عليه»[(٥)].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: «ومن أسمائه الشاكر والشكور، وهو الذي يشكر القليل من العمل الخالص النقي النافع، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملا، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة بغير عدٍ ولا حساب، ومن شكره أنه يجزي بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»[(٦)].

ثالثًا: اقتران اسم الله الغفور بالشكور:

اقترن اسم الله الغفور بالشكور في ثلاثة

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٧٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٧٥.
(٤) أخرجه البيهقي في الشعب ٢/ ١١/ ١، والطبراني في مسند الشاميين، ٢/ ٩٣/ ٩٧٤. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ٢٣٧١.
(٥) شأن الدعاء ص٦٥-٦٦.
(٦) الحق الواضح المبين ص٧٠.

مواضع:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠].

عن قتادة رحمه الله في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إنه غفور لذنوبهم، شكور لحسناتهم[١].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «فإن من صفاته الغفور الشكور، أي: الكثير المغفرة، والشديد الشكر.

فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين؛ فإن طاعة الله الحق التي هي بالقلب والعمل والخواطر لا يبلغ حق الوفاء بها إلا المعصوم، ولكن الله تجاوز عن الأمة فيما حدثت به أنفسها، وفيما همت به ولم تفعله، وفي اللمم، وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة. والشكر كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم فهو شكر بالعمل؛ لأن الذي يجازي على عمل المجزي بجزاء وافر، يدل جزاؤه على أنه حمد للفاعل فعله»[٢].

وقال السعدي رحمه الله: «غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات»[٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

«وصفوه سبحانه وتعالى بأنه يغفر الذنوب ويجازي على القليل من الأعمال الصالحة بالكثير من الثواب»[٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تذييل وتعليل؛ للزيادة لقصد تحقيقها بأن الله كثيرة مغفرته لمن يستحقها، كثير شكره للمتقربين إليه[٥].

رابعًا: اقتران اسم الله الشكور بالحليم:

اقترن اسم الله الشكور بالحليم في موضع واحد، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

قوله: ﴿حَلِيمٌ﴾، أي: لا يعجل بالعقوبة، بل يستر ويتجاوز عن الذنوب. ومجيء هذا التذييل هنا يشعر بالتوجيه في بعض نواحي إصلاح الأسرة، وهو أن يقبل كل من الزوجين عمل الآخر بشكر، ويقابل كل إساءة بحلم؛ ليتم معنى حسن العشرة؛ ولأن الإنفاق يستحق المقابلة بالشكر، والعداوة تقابل بالحلم[٦].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٦٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٠٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٩.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠.
(٥) التحرير والتنوير ٢٥/ ٨٥.
(٦) أضواء البيان ٨/ ٢٠٦.

خامسًا: اقتران اسم الله الشاكر بالعليم:

اقترن اسم الله الشاكر بالعليم في موضعين من كتابه:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

الشاكر والشكور، من أسماء الله سبحانه وتعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامتثل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطًا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق، ثم بعد ذلك، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملًا موفورًا، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده : أن من ترك شيئا لله أعاضه الله خيرا منه، ومن تقرب منه شبرا، تقرب منه ذراعا، ومن تقرب منه ذراعا، تقرب منه باعا، ومن أتاه يمشي، أتاه هرولة، ومن عامله، ربح عليه أضعافا مضاعفة. ومع أنه شاكر، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد، فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم[1].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

أي: مثيبًا موفيًا أجوركم. وأتى بصفة الشكر باسم الفاعل بلا مبالغة؛ ليدل على أنه يتقبل ولو أقل شيء من العمل وينميه، ﴿عَلِيمًا﴾ بشكركم وإيمانكم فيجازيكم. وفي قوله: ﴿عَلِيمًا﴾، تحذير وندب إلى الإخلاص لله سبحانه وتعالى. وقيل: الشكر من الله إدامة النعم على الشاكر[2].

سادسًا: من صور شكره سبحانه وتعالى لعبده:

فالله سبحانه وتعالى يشكر عبده بقوله، بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى، ويلقى له الشكر بين عباده، ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئًا رده عليه أضعافًا مضاعفة.

نماذج من شكره سبحانه وتعالى لعباده:

لما عقر سليمان عليه السلام الخيل غضبًا لله؛ إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى، أعاضه عنها متن الريح، قال سبحانه وتعالى واصفًا شغل سليمان عن ذكره، ثم عقره للخيل: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣١-٣٣].

ثم قال سبحانه وتعالى في تعويضه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦.

(٢) تفسير البحر المحيط ٤/ ١١٥.

لسليمان بتسخير الريح: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

وقد حقق لعباده هذا الوعد، ودانت لهم البلاد والعباد، وننتظر متعبدين أن يحقق الله ذلك للمؤمنين في هذا الزمان.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن، شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقها أعداؤه، شكر لهم ذلك، بأن أعاضهم منها طيرًا خضرًا أقر أرواحهم فيها، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه، روى أبو داود بسند حسن عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما أصيب إخوانكم بأحدٍ، جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ معلقةٍ في ظل العرش)[1].

ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم، فنالوا منهم وسبوهم، أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في سماواته وبين خلقه، فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

ومن شكره سبحانه وتعالى أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يرضيه بين الناس، فيشكره له، وينوه بذكره، ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثنى به عليه، ونوه بذكره بين عباده، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

وكذلك شكره لصاحب (يس) مقامه ودعوته إليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

فهذه من صور شكره لعباده، والصور كثيرة لا يتسع المجال لاستقصائها.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة، رقم ٢٥٢٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٢٤، رقم ٥٢٠٥.

أنواع الشكر

للشكر أنواع ثلاثة، هي: شكر العمل، وشكر الاعتراف، وشكر التحدث.

أولًا: شكر العمل بالطاعة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

أي: اعملوا بالطاعات في حال شكر منكم لله على هذه النعم، ويحتمل أن يكون نصبه على جهة المفعول، أي: اعملوا عملا هو الشكر، كأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي نفسها الشكر؛ إذ سدت مسده[١].

وفي الآية دلالة على أن الشكر يكون بالفعل، كما يكون بالقول والنية[٢]، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثةً
يدي ولساني والضمير المحجبا

قال أبو عبد الرحمن الحبلي: الصلاة شكر والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر الحمد. وعن ثابت البناني قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي[٣].

وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى)[٤].

ثانيًا: شكر القلب بالاعتراف:

قال السعدي: «الشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى وتلقيها افتقارًا إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى وصونها عن صرفها في المعصية»[٥].

ثالثًا: شكر باللسان بالتحدث بالنعمة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

أي: أخبر بما أنعم الله عليك؛ اعترافًا بفضله[٦]، فإن التحدث بنعمة الله، داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها؛ فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن[٧].

قال ابن القيم رحمه الله:

«في هذا التحديث قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٤٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، رقم ١٨٦، ١٨٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٦.
(٦) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٠٣.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٢٨.

وقول العبد: أنعم الله علي بكذا وكذا.

قال مقاتل: يعني: أشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة من الإيواء مع اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة. والتحدث بنعمة الله شكر، كما في حديث جابر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (من صنع إليه معروفٌ، فليجز به، فإن لم يجد ما يجزي به، فليثن عليه، فإنه إذا أثنى عليه، فقد شكره، وإن كتمه، فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط، كان كلابس ثوبين من زور)[1].

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها، والكاتم لها، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها. فهو متحلٍ بما لم يفعله، قال النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر: (من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله. التحدث بنعمة الله شكرٌ، وتركها كفرٌ)[2].

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية، هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة. وقال الزجاج: أي: بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله.

وقال الكلبي: هو القرآن، أمره أن يقرأه على الناس.

والصواب: أنه يعم النوعين، إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها، والتحدث بها، وإظهارها من شكرها»[3].

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب من صنع إليه معروف فليكافئه، رقم ٢١٥.
وصححه الألباني صحيح الأدب المفرد، ص٩٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٣٩٠، رقم ١٨٤٤٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٠١٤.

(٣) التفسير القيم، ابن القيم ص٥٧٤.

العبد والشكر

أخبر الله في كتابه أن الشكر من عباده قليل، وأن الشاكرين لنعمه قليل.

أولًا: الشكر قليل:

ورد في كتاب الله آيات تدل على أن الشكر قليل من العباد.

منها: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

يقول جل جلاله: ولقد وطأنا لكم -أيها الناس- في الأرض، وجعلناها لكم قرارا تستقرون فيها، ومهادا تمتهدونها، وفراشا تفترشونها، وجعلنا لكم فيها معايش تعيشون بها أيام حياتكم، من مطاعم ومشارب، نعمة مني عليكم وإحسانا مني إليكم، وأنتم قليل شكركم على هذه النعم التي أنعمتها عليكم لعبادتكم غيري، واتخاذكم إلها سواي[(١)].

والخطاب للمشركين خاصة؛ لأنهم الذين قل شكرهم لله سبحانه وتعالى؛ إذ اتخذوا معه آلهة. ووصف قليل يستعمل في معنى المعدوم، ويجوز أن يكون على حقيقته، أي: إن شكركم الله قليل؛ لأنهم لما عرفوا أنه ربهم فقد شكروه، ولكن أكثر أحوالهم هو الإعراض عن شكره، والإقبال على عبادة الأصنام وما يتبعها، ويجوز أن تكون القلة كناية عن العدم على طريقة الكلام المقتصد؛ استنزالا لتذكرهم[(٢)].

ومنها: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

يخبر سبحانه وتعالى بمننه على عباده الداعية لهم إلى شكره، والقيام بحقه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾؛ لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها في مصالحكم، ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ التي تدركون بها الأشياء، وتتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع، والأبصار، والعقول، بأن كنتم صمًا عميا بكما، ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟ أفلا تشكرون الذي من عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟! ولكنكم قليل شكركم، مع توالي النعم عليكم[(٣)].

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٧٣.

(٢) التحرير والتنوير ٨ ب/ ٣٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥٦.

ثانيًا: الشاكرون قليل:

قال سبحانه وتعالى مبينًا عداوة الشيطان للمؤمنين: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم، ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازما ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه، فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾، فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به[(١)].

ولقد ظن إبليس ظنًا غير يقين أنه سيضل بني آدم، وأنهم سيطيعونه في معصية الله، فصدق ظنه عليهم، فأطاعوه وعصوا ربهم إلا فريقًا من المؤمنين بالله، فإنهم ثبتوا على طاعة الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

ولقد اتبع كثير من الناس إبليس فأضلهم، فلا تجد أكثرهم شاكرين لنعمه الجمة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوباء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فرارًا من الموت، فلم ينجهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك، ولكن ذلك بفضله وإحسانه، وهو لا يزال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر[(٢)].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه لذو فضل على خلقه؛ بتركه معاجلة من افترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا وإمهاله إياه، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على تفضله عليهم بذلك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه تفضل على عباده بنعمة التوحيد والإيمان، ولكن أكثر

(١) المصدر السابق ص٢٨٤.

(٢) المصدر السابق ص٩٥١.

الناس لا يشكرون.

قال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده هو الذي جعل للناس الليل؛ ليسكنوا فيه، ويحققوا راحتهم، والنهار مضيئًا؛ ليصرفوا فيه أمور معاشهم، ولكن أكثرهم لا يشكرون.

قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

وذمه سبحانه وتعالى الأكثر غير الشاكر دلالة على مدح الأقل الشاكر، الذين قال مثنيًا عليهم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

أي: قلنا ذلك لآل داود فعمل منهم قليل، ولم يعمل كثير، وكان سليمان من أول الفئة القليلة، والشكور: الكثير الشكر. وإذ كان العمل شكرًا أفاد أن العاملين قليل[١].

وهذا هو واقع البشر؛ لأن توفيقه الشكر نعمة تستدعي شكرًا آخر لا نهاية له؛ ولذلك قيل: الشكور من يرى عجزه عن الشكر[٢].

فالشكر من العباد يكون «بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله، وأما الشكر الذي يناسب نعم الله فلا قدرة عليه، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها»[٣].

وقد سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردت قوله عز وجل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، فقال عمر رضي الله عنه: «كل الناس أعلم من عمر»[٤].

ثالثًا: منفعة الشكر عائدة إلى العبد:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠].

أي: «ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم، فكل متقرب إلى الله بعمل صالح يجب أن يستحضر أن عمله إنما هو لنفسه يرجو به ثواب الله ورضاه في الآخرة، ويرجو دوام التفضل من الله عليه في الدنيا، فالنفع حاصل له في الدارين[٥]؛ إذ صان نفسه عن كفران النعمة، وفعل ما هو واجب عليه من شكر نعمة الله عليه»[٦].

فالعبد عند شكره لربه «إنما هو محسن إلى نفسه بالشكر، لا أنه مكافئ به لنعم الرب،

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٦٤.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٩٩.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠.
(٥) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٧٢.
(٦) المحرر الوجيز ٨/ ٢٤١.

فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافئ نعمه أبدًا ولا أقلها ولا أدنى نعمة من نعمه، فإنه سبحانه وتعالى هو المنعم المتفضل الخالق للشكر والشاكر وما يشكر عليه»[1].

شكر المخلوق

الذي لا يشكر الناس لا يشكر الله، فشكر الإنسان على ما قدم له من إحسان سمت الصالحين، وعدم انتظار الشكر من المحسن إليه صفة الأبرار المتقين:

أولًا: شكر المحسن:

من أحق الناس بالشكر الوالدان؛ ولذلك قرن سبحانه وتعالى بين شكره وشكرهما في كتابه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وتوصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم، وفي وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا، ومعظمها في حالة الوأد، وهي حالة خاصة في ظروف خاصة؛ ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه، فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة، كما يريدها الله، وإن الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، في غير تأفف ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان! بل

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٢٥٢.

في نشاط وفرح وسرور، كأنهما هما اللذان يأخذان! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة، فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة؛ ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولى الذاهب في أدبار الحياة، بعد ما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة، وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما»[1].

وفي الآية دلالة على وجوب شكر الله على نعمة الإيمان، وشكر الوالدين على نعمة التربية.

وكل من أسدى من الخلق معروفًا استحق الشكر. روى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه)[2]، أي: من أحسن إليكم أي إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا فبالغوا في الدعاء له جهدكم حتى تحصل المثلية[3].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٨٨.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، باب عطية من سأل بالله، ٢/ ٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٠٢١.
(٣) فيض القدير، المناوي ٦/ ٥٥.

ثانيًا: عدم انتظار المحسن شكر من أحسن إليه:

أثنى الله على المؤمنين المحسنين إلى خلقه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

قال ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾: على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له[4]، وقال مجاهد رحمه الله في قوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾: إنهم لم يقولوا ذلك، لكن علمه الله منهم، فأثنى عليهم ليرغب في ذلك الراغبين[5]، ألا ترى أنهم كانوا يطعمون الأسارى، ولا يطمع من الأسارى المجازاة والشكر؛ ليعلم أنهم لم يقصدوا بها إلا وجه الله تعالى والتقرب إليه[6].

إن سبب ما فعله هؤلاء للمحتاجين «الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة، التي تتجه إلى الله تطلب رضاه، ولا تبتغي بها جزاء من الخلق ولا شكرًا، ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء، كما تتقي بها يومًا عبوسًا شديد العبوس، تتوقعه وتخشاه، وتتقيه بهذا الوقاء»[7].

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٢٨.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١٦٧.
(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٣٦٣.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٨٢.

مجالات الشكر

تنوعت مجالات الشكر في القرآن الكريم، ومنها:

أولًا: مجال الإيمان:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

يقول عز وجل: من أراد الآخرة وإياها طلب، ولها عمل عملها الذي هو طاعة الله وما يرضيه عنه، وهو مؤمن مصدق بثواب الله، وعظيم جزائه على سعيه لها، كان عملهم بطاعة الله مشكورا، وشكر الله إياهم على سعيهم ذلك حسن جزائه لهم على أعمالهم الصالحة، وتجاوزه لهم عن سيئها برحمته[(١)].

فالذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه لها على الإيمان، وليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى، فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية، ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه، فلا يكون عبدا لهذا المتاع.

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذموما مدحورا، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكورا يتلقى التكريم في الملأ الأعلى؛ جزاء السعي الكريم لهدف كريم، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء[(٢)].

وقد قرن سبحانه وتعالى الشكر بالإيمان وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

أي: ما يصنع الله -أيها المنافقون- بعذابكم، إن أنتم تبتم إلى الله ورجعتم إلى الحق الواجب لله عليكم، فشكرتموه على ما أنعم عليكم من نعمه في أنفسكم وأهاليكم وأولادكم، بالإنابة إلى توحيده والاعتصام به، وإخلاصكم أعمالكم لوجهه، وترك رياء الناس بها، وآمنتم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم فصدقتموه، وأقررتم بما جاءكم به من عنده، فعملتم به. يقول: لا حاجة بالله أن يجعلكم في الدرك الأسفل من النار إن أنتم أنبتم إلى طاعته وراجعتم العمل بما أمركم به وترك ما نهاكم عنه؛ لأنه لا يجتلب بعذابكم إلى نفسه نفعا، ولا يدفع عنها ضرا؛ وإنما عقوبته من عاقب من خلقه جزاء منه له على جراءته عليه وعلى خلافه أمره ونهيه، وكفرانه شكر نعمه عليه، فإن أنتم شكرتم

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٣٧.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٨.

له على نعمه وأطعتموه في أمره ونهيه، فلا حاجة به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكون منكم من طاعة له وشكر، بمجازاتكم على ذلك بما تقصر عنه أمانيكم فلم تبلغه آمالكم[1].

وفي الآية استفهام إنكاري بين الله لنا به أنه سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا من عباده تشفيًا منه ولا انتقامًا بالمعنى الذي يفهمه الناس من الانتقام بحسب استعمالهم إياه فيما بينهم، وإنما ذلك جزاء كفرهم بنعم الله عليهم بالحواس والعقل والوجدان والجوارح، باستعمالها في غير ما خلقت لأجله من الاهتداء بها إلى تكميل نفوسهم بالعلوم والفضائل والأعمال النافعة، وكفرهم بالله سبحانه وتعالى باتخاذ شركاء له، وإن سماهم بعضهم وسطاء وشفعاء.

فبكفرهم بالله سبحانه وتعالى وبنعمه عليهم في الآفاق وفي أنفسهم تفسد فطرتهم، وتتدنس أرواحهم فتهبط بهم في دركات الهاوية، ويكونون هم الجانين على أنفسهم، ولو شكروا وآمنوا فطهرت أرواحهم من دنس الشرك والوثنية، وظهرت آثار عقولهم وسائر قواهم بالأعمال الصالحة المصلحة لمعاشهم ومعادهم، لعرجت بهم تلك الأرواح القدسية إلى المقام الكريم، والرضوان الكبير في دار النعيم، وقدم الشكر هنا على الإيمان؛ لأن معرفة النعم والشكر عليها طريق إلى معرفة المنعم والإيمان به.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ يثيب المؤمنين الشاكرين المصلحين على حسب علمه بحالهم، لا أنه يعذبهم، بل يعطيهم أكثر مما يستحقون على شكرهم وإيمانهم[2].

«إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران، وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان، إنها ليست شهوة التعذيب، ولا رغبة التنكيل ولا التذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان، تعالى الله عن ذلك كله علوًا كبيرًا، فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان فهنالك الغفران والرضوان، وهناك شكر الله سبحانه وتعالى لعبده، وعلمه سبحانه وتعالى بعبده، وشكر الله سبحانه وتعالى للعبد، يلمس القلب لمسة رفيقة عميقة.

إنه معلوم أن الشكر من الله سبحانه وتعالى معناه الرضا، ومعناه ما يلازم الرضا من الثواب، ولكن التعبير بأن الله سبحانه وتعالى: (شاكر) تعبير عميق الإيحاء. وإذا كان الخالق المنشئ، المنعم المتفضل، الغني عن العالمين يشكر لعباده صلاحهم وإيمانهم وشكرهم وامتنانهم، وهو غني عنهم وعن إيمانهم وعن شكرهم وامتنانهم، إذا كان الخالق المنشئ، المنعم المتفضل، الغني عن العالمين يشكر، فماذا ينبغي للعباد المخلوقين المحدثين المغمورين بنعمة

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٢٤.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٣٨٦.

الله تجاه الخالق الرازق المنعم المتفضل الكريم؟! ألا إنها اللمسة الرفيقة العميقة التي ينتفض لها القلب ويخجل ويستجيب»[1].

في الآية دلالة على أن الإيمان بالله وصفاته أول درجات شكر العبد ربه.

المقابلة بين الشكر والكفر:

قسم الله سبحانه وتعالى عباده في كتابه إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقال نبيه سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِي مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان، فلم ينقلبوا على أعقابهم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

«فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره، وأحدهما محبوب له مرضٍ، والآخر مبغوض له مسخوط»[2].

ثانيًا: مجال الأحكام الشرعية:

أخبر سبحانه وتعالى أنه يريد بعباده اليسر والسهولة في شرائعه، ولا يريد بهم العسر والمشقة، ويريد منهم الشكر له على ما أنعم به عليهم من الهداية والتوفيق والتيسير في شرائعه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

يعني تعالى ذكره: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ ولتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق، وتيسير ما لو شاء عسر عليكم[3].

فغاية الصيام «أن يشعر الذين آمنوا بقيمة الهدى الذي يسره الله لهم، وهم يجدون هذا في أنفسهم في فترة الصيام أكثر من كل فترة، وهم مكفوفو القلوب عن التفكير في

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٦.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٦٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٢٢.

المعصية، ومكفوفو الجوارح عن إتيانها. وهم شاعرون بالهدى ملموسًا محسوسًا؛ ليكبروا الله على هذه الهداية؛ وليشكروه على هذه النعمة؛ ولتفيء قلوبهم إليه بهذه الطاعة»[1].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه يريد في أمر المؤمنين بالطهارة أن يحط بها عنهم أوزارهم، ويدخلون بها عليه، ويرفع به درجاتهم، لا أن يضيق عليهم بها؛ وأباح التيمم توسعةً عليهم، ورحمة بهم، إذ جعله بديلًا للماء في الطهارة، فكانت رخصة التيمم من تمام النعم التي تقتضي شكر المنعم بطاعته فيما أمر وفيما نهى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: ٦].

فالله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعنت الناس، ويحملهم على الحرج والمشقة بالتكاليف، إنما يريد أن يطهرهم، وأن ينعم عليهم بهذه الطهارة، وأن يقودهم إلى الشكر على النعمة؛ ليضاعفها لهم ويزيدهم منها. فهو الرفق والفضل والواقعية في هذا المنهج اليسير القويم[2].

وبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين حكم الأيمان والتحلل منها؛ ليشكروا له، وهذه عادة شرعه أن يكون بيانًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

أي: لا يؤاخذكم الله بالأيمان التي تحلفونها بلا قصد، كما يقول الرجل في كلامه بدون قصد : لا والله، وبلى والله، فلا مؤاخذة على مثل هذه بكفارة في الدنيا، ولا عقوبة في الآخرة، ولكن يؤاخذكم بما صممتم عليه من الأيمان وقصدتموه إذا أنتم حنثتم فيه، والذي يكفر عقد اليمين إذا نقض، أو إذا أريد نقضه بالحنث به هو إحدى هذه المبرات الثلاث على سبيل التخيير:

- إطعام عشرة مساكين، وجبة واحدة لكل منهم من الطعام الغالب الذي يأكله أهلوكم في بيوتكم.
- أو كسوة عشرة مساكين، وهي تختلف

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٧٢.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٥٠.

باختلاف البلاد والأزمنة.

❁ أو تحرير رقبة.

فمن لم يستطع واحدًا من الثلاثة المتقدمة فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات أو متفرقات، فإن عجز عن ذلك لمرض، صام عند القدرة، فإن لم يقدر يرجى له عفو الله ورحمته إذا صحت نيته وصدقت عزيمته، ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾، فلا تبذلوها في أتفه الأمور وأحقرها، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلا عن الأيمان الكاذبة، على هذا النحو الشافي الوافي ، يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام دينه؛ ليعدكم ويؤهلكم بذلك إلى شكر نعمه على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ويكون سببًا في المزيد من فضله وإحسانه[1].

وفي الآيات السابقة دلالة على أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله؛ ليزداد معرفة وعلما، ويزداد شكرا لله ومحبة له على ما شرع من الأحكام، التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

ثالثًا: مجال النعم:

أنعم الله على عباده بنعمة الأطعمة الحلال المستلذة؛ ليشكروه عليها، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأنعم على أهل مكة بجميع أنواع الثمار التي تجلب إليهم من مواطنها؛ ليشكروه عليها، فقال سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وسخر لهم البحر؛ ليأكلوا مما يصطادون من سمكه لحمًا طريًا، ويستخرجوا منه زينة يلبسونها ، كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما، وسخر لهم السفن العظيمة تشق وجه الماء تذهب وتجيء، ويركبونها؛ ليطلبوا رزق الله بالتجارة والربح فيها؛ ليشكروه على هذه النعم العظيمة، ولا يعبدوا غيره.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وأنعم سبحانه وتعالى على عباده بوسائل الإدراك من السمع والبصر والقلوب؛ لعلهم يشكرونه على تلك النعم، وبتلك النعم،

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٧.

ويفردونه سبحانه وتعالى بالعبادة، فقال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وسخر سبحانه وتعالى البدن؛ ليأكلوا منها ويطعموا منها الفقير الذي لم يسأل تعففا، والذي يسأل لحاجته؛ ويشكروا الله على هذه النعم الجليلة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

وجعل سبحانه وتعالى لعباده الليل ظلامًا؛ ليستقروا فيه وترتاح أبدانهم، وجعل النهار ضياء؛ ليطلبوا فيه معايشهم، وليشكروه على إنعامه وإفضاله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

وأنعم سبحانه وتعالى على عباده المجاهدين بنعمة النصر على المشركين مع قلة عددهم وعددهم ، فقال سبحانه وتعالى في معرض المن عليهم، وأن هذا النصر سبب لشكره سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

يقول سبحانه وتعالى: فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه؛ لتشكروه على ما من به عليكم من النصر على أعدائكم، وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضل عنه مخالفوكم[(١)].

وفي نسبة النصر إليه سبحانه وتعالى حض منه على اللجأ إليه وطلبه منه وحده سبحانه وتعالى؛ لأنه «لا ناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم، فإذا اتقوا وخافوا فليتقوا وليخافوا الله، الذي يملك النصر والهزيمة والذي يملك القوة وحده والسلطان، فلعل التقوى أن تقودهم إلى الشكر، وأن تجعله شكرًا وافيًا لائقًا بنعمة الله عليهم على كل حال»[(٢)].

وأخبر سبحانه وتعالى على رغبة الزوجين في الذرية الصالحة، صلاحًا في الخلقة وصلاحًا في الخلق؛ ليشكروه عليها، فإذا آتاهم الله الولد صالحًا سليمًا كما أراده، صرفاه عن الفطرة إلى الشرك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فنعم الله على عباده لا تحصى و لا تعد، وهي سبيل من سبل معرفة الله وتعظيمه وإفراده بالوحدانية والعبادة.

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٦.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٧٠.

رابعًا: مجال الشدائد:

لقن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: من ينقذكم من مخاوف ظلمات البر والبحر؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى الذي تدعونه في الشدائد متذللين جهرًا وسرًا؟ تقولون: لئن أنجانا ربنا من هذه المخاوف لنكونن من الشاكرين بعبادته عز وجل وحده لا شريك له، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه هو الذي يسير الناس في البر على الدواب وغيرها، وفي البحر في السفن، حتى إذا كانوا فيها وجرت بريح طيبة، وفرح ركاب السفن بالريح الطيبة، جاءت هذه السفن ريحٌ شديدة، وجاء الركاب الموج من كل مكان، وأيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم، أخلصوا الدعاء لله وحده، وتركوا ما كانوا يعبدون، وقالوا: لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نحن فيها، لنكونن من الشاكرين لك على نعمك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

خامسًا: الشكر والتفكر:

ينوع الله سبحانه وتعالى الحجج والبراهين ويضرب فيها الأمثال للشاكرين نعمه؛ لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها ويعملون بمقتضاها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

أي: والبلد الطيبة تربته، العذبة مشاربه، يخرج نباته -إذا أنزل الله الغيث وأرسل عليه الحيا- بإذنه طيبا ثمره في حينه ووقته، والذي خبث فردؤت تربته وملحت مشاربه لا يخرج نباته إلا عسرا في شدة، كذلك نبين آية بعد آية، وندلي بحجة بعد حجة، ونضرب مثلا بعد مثل، لقوم يشكرون الله على إنعامه عليهم بالهداية وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة، باتباعهم ما أمرهم باتباعه، وتجنبهم ما أمرهم بتجنبه من سبل الضلالة. وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالبلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه مثل للمؤمن، والذي خبث فلا يخرج نباته إلا نكدًا مثل للكافر[1].

وفي الآية دلالة على أن الشاكرين

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٥٨.

يتنفعون بالآيات الكونية الدالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى وقدرته وعظمته وتفرده بالتدبير.

والله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى معرفته بالنظر والتأمل في مصنوعاته في الكون:

ومن ذلك أنه سخر لعباده البحر؛ لتجري السفن فيه بأمره، وليبتغوا من فضله بأنواع التجارات والمكاسب؛ لعلهم يشكرونه على تسخيره البحر ويثنون عليه، ويهتدون إلى الصانع سبحانه وتعالى من خلال مصنوعاته، قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

وفي الآية دلالة على أن من حكم تسخير البحر للناس: حملهم على الاعتراف لله بالعبودية، ونبذهم إشراك غيره فيها، وشكره والثناء عليه.

ومنها: أنه سبحانه وتعالى بين لعباده ما منحهم في آيات الليل والنهار من المصالح والمنافع؛ كي يتفكروا فيهما ويستدلوا بهما على وحدانيته وقدرته الباهرة؛ فيشكرونه ويثنون عليه ويفردونه بالعبادة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٣].

ومن آياته الدالة على تفرده بالألوهية والتي انتفع بها الشاكرون، توجيه الرياح إلى بلد محتاج إلى المطر، فتحيا به البلاد والعباد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

أي: «من آياته أشياء يقضي كل عقل بأنها لا مشاركة للأوثان فيها، وهو ما في الريح من المنافع ، وذلك أنها بشرى بالمطر، ويذيق الله بها المطر، ويلقح بها الشجر، وغير ذلك، ويجري بها السفن في البحر، ويبتغي الناس بها فضل الله في التجارات في البحر، وفي ذرو الأطعمة، وغير ذلك»[1].

فالشكر والتفكر قرينان، فالتفكر يغذي الشكر؛ لأنه يمد الشاكرين بدلائل الوحدانية والقدرة الباهرة، فيشكرون الرب ويفردونه بالعبادة.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤١.

نماذج قرآنية في الشكر

أخبر سبحانه وتعالى في كتابه عن نماذج شكرت نعمه فأثنى عليها، وألقى في قلوب عباده المؤمنين الثناء عليهم، وأخبر عن الجاحدين نعمه وكيف سلبها منهم، وفي هذا المبحث نبين نماذج شاكرة لنعم الله، ونماذج غير شاكرة لنعمه؛ لنقتدي بالأولى، ونتجنب عاقبة الثانية:

أولًا: نماذج شاكرة:

أثنى الله سبحانه وتعالى على الرسل والأنبياء الشاكرين لنعمه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم في كتابه الكريم؛ ليقتدي بهم المؤمنون في شكرهم ويتابعونهم عليه، ومن هؤلاء:

١. نوح عليه السلام.

الذي أثنى الله عليه بأنه كان عبدًا شكورًا بقلبه ولسانه وجوارحه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

عن مجاهدٍ رحمه الله قال عن نوح عليه السلام: «لم يأكل شيئًا قط إلا حمد الله عز وجل، ولم يشرب شرابًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يمش مشيًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيءٍ قط إلا حمد الله عليه؛ فأثنى الله عز وجل عليه أنه كان عبدًا شكورًا»[(١)].

وفي هذا المعنى روى مسلم بسنده عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)[(٢)].

وفي الآية دلالة على أن من يعبد الله فقد شكره، ومن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته.

٢. إبراهيم عليه السلام.

أثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

كان عليه السلام يخلص الشكر لله فيما أنعم عليه، ولا يجعل معه في شكره في نعمه عليه شريكًا من الآلهة والأنداد وغير ذلك، كما يفعل مشركو قريش[(٣)].

وفي الآية أوثر صيغة جمع القلة؛ للإيذان بأنه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة، فكيف بالكثيرة؟![(٤)].

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٦/ ٢٥٦، رقم ٤١٣٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله سبحانه وتعالى بعد الأكل والشرب، ٢٧٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٩٣.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٤٩.

٣. موسى عليه السلام.

أمر سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يأخذ ما أعطاه من أمره ونهيه، وأن يتمسك به، وأن يعمل به، وأن يكون من الشاكرين له سبحانه وتعالى على ما آتاه من رسالته، واختصاصه بكلامه، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

«وأمر الله سبحانه وتعالى لموسى بأخذ ما آتاه، والشكر على الاصطفاء والعطاء، فهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغي أن تقابل به نعمة الله. والرسل صلوات الله وسلامه عليهم قدوة للناس، وللناس فيهم أسوة، وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر؛ استزادة من النعمة، وإصلاحًا للقلب، وتحرزًا من البطر، واتصالًا بالله»[١].

وقد قام عليه السلام لله مقامات عظيمة في مقابلة أعدى عدو له وهو فرعون، وصدع بأمره، وعالج أمتي القبط وبني إسرائيل أشد المعالجة، وتحمل في سبيل ذلك الأذى؛ وصبر عليه ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى، وكان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم يصبر نفسه بما حدث لأخيه موسى عليه السلام ويقول: (يرحم الله موسى؛ لقد أوذي بأكثر من هذا، فصبر)[٢].

٤. محمد صلى الله عليه وسلم.

أمر الله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعبادة ربه وحده لا شريك له، وأن يكون من الشاكرين لنعمه، قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، وقام بمقام الشكر حق القيام؛ ففي مقام العبادة قام بين يدي ربه حتى تورمت قدماه الشريفتان.

روى البخاري بسنده عن زيادٍ هو ابن علاقة أنه سمع المغيرة يقول: (قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر! قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا)[٣].

وأوصى معاذًا فيما رواه أبو داود عن معاذ بن جبلٍ، أن رسول صلى الله عليه وسلم أخذ بيده، وقال: (يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاةٍ تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك)[٤].

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام، رقم ٣٢٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي حتى تتورم قدماه، رقم ٤٤٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، باب الاستغفار،

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباسٍ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو: (رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى إلي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا)[1].

وفي تبليغ الرسالة: لما نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١-٤].

شمر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلا ونهارا، وسرا وجهارا، ولما نزل عليه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

فصدع بأمر الله ، لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس[2].

وفي هذا المعنى يقول سيد قطب رحمه الله: «إنه النداء العلوي الجليل، للأمر العظيم الثقيل، نذارة هذه البشرية وإيقاظها، وتخليصها من الشر في الدنيا، ومن النار في الآخرة، وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان، وهو واجب ثقيل شاق، حين يناط بفرد من البشر -مهما يكن نبيًا رسولا- فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصي من هذا الأمر، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، والإنذار هو أظهر ما في الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون، وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد، وهم لا ينقصون في ملكه شيئا حين يضلون، ولا يزيدون في ملكه شيئا حين يهتدون؛ غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة، ومن الشر الموبق في الدنيا، وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله»[3].

هذا غيض من فيض من شكره صلى الله عليه وسلم، وإلا فهو سيد الشاكرين.

ثانيًا: نماذج غير شاكرة:

هذان نموذجان لقرى غير شاكرة لأنعم الله، وبيان كيف سلب الله نعمه منهم:

١٥٢٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٩٦٩.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٤٥٢، رقم ١٩٩٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٤٨٥.

(٢) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٢.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٥٤.

١. قرية كانت آمنة.

أخبر سبحانه وتعالى عن بلدة كانت في أمان من الاعتداء، واطمئنان من ضيق العيش، يأتيها رزقها هنيئًا سهلا من كل جهة، فجحد أهلها نعم الله عليهم، وأشركوا به، ولم يشكروا له، فعاقبهم الله بالجوع، والخوف.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة رحمهم الله: «والقرية المضروب بها المثل مكة، كانت بهذه الصفة التي ذكر الله؛ لأنها كانت لا تغزى ولا يغير عليها أحد، وكانت الأرزاق تجلب إليها، وأنعم الله عليها برسوله، فكفروا بأنعم الله في ذلك وفي جملة الشرع والهداية، فأصابتهم السنون والخوف، وسرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزواته»[(١)].

«وإن من أشنع ما كانوا يصنعون تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه منهم، وذلك أظهر في معنى الإنعام عليهم والرفق بهم»[(٢)].

وفي الآية دلالة على أن عدم شكر نعم الله سبب لزوالها عن أهلها.

٢. قبيلة سبأ.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥-١٩].

سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها : (مأرب)، ومن نعم الله ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصوصًا، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾، أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آيَةٌ﴾، والآية هنا: ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٦.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٨.

ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم وادٍ عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا قد بنوا سدًا محكما، يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى وعدهم -إن شكروه- أن يغفر لهم ويرحمهم؛ ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة -الظاهر أنها قرى صنعاء، قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام- هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة، بحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، أي: سيرا مقدرا يعرفونه، ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾، أي: مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام، غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من الخوف، فأعرضوا عن المنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة، وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسرًا، ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بكفرهم بالله وبنعمته.

فعاقبهم الله سبحانه وتعالى بهذه النعمة، التي أطغتهم، فأبادها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر، الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾، أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعا ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، بدلوا تلك النعمة بما ذكر، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾، أي: وهل نجازي جزاء العقوبة

-بدليل السياق- إلا من كفر بالله وبطر النعمة؟! فلما أصابهم ما أصابهم، تفرقوا وتمزقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم، وأسمارًا للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبأ»، فكل أحد يتحدث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

صبار على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها ، بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله سبحانه وتعالى يقر بها ويعترف، ويثني على من أولاها، ويصرفها في طاعته، فهذا إذا سمع بقصتهم، وما جرى منهم وعليهم، عرف بذلك أن تلك العقوبة جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن من فعل مثلهم فعل به كما فعل بهم، وأن شكر الله سبحانه وتعالى حافظ للنعمة، دافع للنقمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق، كما رأى أنموذجه في دار الدنيا[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٧.

ثمرات الشكر

أطلق الله جزاء الشاكرين ولم يقيده، ففي سياق الحديث عن الذين ثبتوا على الإيمان حين أشاع الأعداء مقتل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، أي: الذين صبروا وقاتلوا واستشهدوا؛ لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام[2]، فهم الذين يعرفون مقدار النعمة التي منحها الله لعباده في إعطائهم هذا المنهج، فيشكرونها باتباع المنهج، ويشكرونها بالثناء على الله، ومن ثم يسعدون بالمنهج؛ فيكون هذا جزاء طيبًا على شكرهم، ثم يسعدون بجزاء الله لهم في الآخرة، وهو أكبر وأبقى[3].

وقد ذكر الطبري بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تفسير هذه الآية: (الشاكرون) الثابتون على دينهم، أبو بكر وأصحابه، وكان يقول: «أبو بكر أمير الشاكرين»، وهذه عبارة من علي بن أبي

(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٤٢.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٨٦.

طالب رضي الله عنه إنما هي إلى صدع أبي بكر رضي الله عنه بهذه الآية في يوم موت النبي صلى الله عليه وسلم وثبوته في ذلك الموطن، وثبوته في أمر الردة.

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قبض وشاع موته، هاج المنافقون وتكلموا، وهموا بالاجتماع والمكاشفة، أوقع الله سبحانه وتعالى في نفس عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبض ، فقام بخطبته المشهورة المخوفة للمنافقين برجوع النبي صلى الله عليه وسلم، ففت ذلك في أعضاد المنافقين وتفرقت كلمتهم، ثم جاء أبو بكر بعد أن نظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمع كلام عمر فقال له: «اسكت»، فاستمر عمر في كلامه، فتشهد أبو بكر فأصغى الناس إليه، فقال: «أما بعد فإنه من كان يعبد الله تعالى فإن الله حي لا يموت ، ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾»، وتلا الآية كلها.

فبكى الناس ولم يبق أحد إلا قرأ الآية، كأن الناس ما سمعوها قبل ذلك اليوم، قالت عائشة رضي الله عنها: «فنفع الله بخطبة عمر، ثم بخطبة أبي بكر»، فهذا من المواطن التي ظهر فيها شكر أبي بكر وشكر الناس بسببه[1].

وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله سبحانه وتعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فَقْدُ رئيسٍ ولو عَظُم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضًا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم هم سادات الشاكرين[2].

ووعد سبحانه وتعالى من طلب بعمله الجزاء منه في الآخرة أن يمنحه ما طلبه، ويؤتيه جزاءه وافرًا مع ما له في الدنيا من رزق مقسوم؛ لأنه شكر الله بطاعته وجهاده.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

أي: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب،

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥١٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٠.

ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقوله: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾، أي: سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم[(١)].

وليس المراد أن من أراد ثواب الدنيا وحظوظها يحرم من ثواب الآخرة وحظوظها؛ فإن الأدلة الشرعية دلت على أن إرادة خير الدنيا مقصد شرعي حسن، وهل جاءت الشريعة إلا لإصلاح الدنيا، والإعداد لحياة الآخرة الأبدية الكاملة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

أي: الغنيمة أو الشهادة، وجملة: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾، تذييل يعم الشاكرين ممن يريد ثواب الدنيا، ومن يريد ثواب الآخرة، ويعم الجزاء كل بحسبه[(٢)].

قال ابن فورك: وفيه إشارة إلى أنهم ينعمهم الله بنعيم الدنيا، ولا يقصرهم على نعيم الآخرة[(٣)].

أولًا: الثمرات الدنيوية:

١. الهداية إلى الحق.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض، ليقولوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس، من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟! أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير، لو كان ما صاروا إليه خيرًا لم يدعنا.

وقال في جوابهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، أي: أليس هو

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١١٣.

(٢) التحرير والتنوير ٤/ ١١٥.

(٣) البحر المحيط ٣/ ٣٦٧.

أعلم بالشاكرين له، بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

وكذلك ابتلى الله سبحانه وتعالى بعض عباده ببعض بتباين حظوظهم من الأرزاق والأخلاق، فجعل بعضهم غنيًا وبعضهم فقيرًا، وبعضهم قويًا وبعضهم ضعيفًا، فأحوج بعضهم إلى بعض اختبارًا منه لهم بذلك؛ ليقول الكافرون الأغنياء: أهؤلاء الضعفاء من الله عليهم بالهداية إلى الإسلام من بيننا؟! أليس الله سبحانه وتعالى بأعلم بمن يشكرون نعمته، فيوفقهم إلى الهداية لدينه؟[1].

في الآية دلالة على أن الله تعالى بحكمته يقيم العبد في مقامه الذي يليق به.

٢. حفظ النعم من الزوال.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٣-٥٤].

«يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه سبحانه وتعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا بسبب ذنب ارتكبه، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك ، بل كانوا هم الظالمين»[2].

فقد أزال الله عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقيها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرًا[3].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٣٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٤.

عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه؛ فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له[(١)].

فشكر النعم وثيقة تأمين إلهية تحفظ النعم من زوالها.

٣. زيادة النعم.

في سياق الحديث عن إنجاء المؤمنين مع موسى عليه السلام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال الربيع: أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله، وأوسع لهم من الرزق، وأظهرهم على العالم[(٢)].

قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾، أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها[(٣)].

وعن علي رضي الله عنه قال: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر معلق بالمزيد، وهما مقرونان جميعًا، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد»[(٤)].

«إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يشكر؛ لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة، هذه واحدة، والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة، بلا بطر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد، وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها، ويبارك فيها، ويرضي الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عونًا، ويصلح روابط المجتمع؛ فتنمو فيه الثروات في أمان، إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة، وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن -أدرك الأسباب أولم يدركها- فهو حق واقع؛ لأنه وعد الله»[(٥)].

٤. النجاة من الهلاك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤-٣٥].

أي: وكما أثبنا لوطا وآله، وأنعمنا عليه، فأنجيناهم من عذابنا بطاعتهم إيانا، كذلك

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٦٠٩.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١١٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٢.
(٤) انظر: الشكر، ابن أبي الدنيا ص١١.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٨٩.

نثيب من شكرنا على نعمتنا عليه، فأطاعنا وانتهى إلى أمرنا[1].

٥. الأمن من عذاب الله.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[النساء: ١٤٧].

ما يصنع الله -أيها المنافقون- بعذابكم، إن أنتم تبتم إلى الله، فشكرتموه على ما أنعم عليكم من نعمه في أنفسكم وأهاليكم وأولادكم، بالإنابة إلى توحيده والاعتصام به، وإخلاصكم أعمالكم لوجهه، وترك رياء الناس بها، وآمنتم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم فصدقتموه، وأقررتم بما جاءكم به من عنده ، فعملتم به. فلا حاجة بالله أن يجعلكم في الدرك الأسفل من النار إن أنتم أنبتم إلى طاعته، وعملتهم بما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه؛ لأنه لا يجتلب بعذابكم إلى نفسه نفعًا، ولا يدفع عنها ضرًا، وإنما عقوبته من عاقب من خلقه جزاءً منه على خلافه أمره ونهيه، وكفرانه شكر نعمه عليه، فإن أنتم شكرتم له على نعمه، وأطعتموه في أمره ونهيه، فلا حاجة به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكون منكم من طاعة له وشكر، بمجازاتكم على ذلك بما تقصر عنه أمانيكم فلم تبلغه آمالكم[2].

ثانيًا: الثمرات الأخروية:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

أي: ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ما وعده مع ما يجرى عليه من رزقه في دنياه[3].

ولما دخل أهل الجنة إلى منازلهم ورأوا نعيمها وما أعده الله لهم فيها، قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ «ثناء على الله، شكروا به نعمة السلامة، أثنوا عليه بالمغفرة؛ لما تجاوز عما اقترفوه من اللمم وحديث الأنفس، ونحو ذلك مما تجاوز الله عنه بالنسبة للمقتصدين والسابقين؛ ولما تجاوز عنه من تطويل العذاب وقبول الشفاعة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين أنفسهم، وأثنوا على الله بأنه شكور؛ لما رأوا من إفاضته الخيرات عليهم ومضاعفة الحسنات مما هو أكثر من صالحات أعمالهم»[4].

موضوعات ذات صلة:

الجزاء، الحمد، المدح

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٤٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ٧/ ٦٢٤.
(٣) المصدر السابق ٦/ ١٠٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣١٦.

الشك

عناصر الموضوع

مفهوم الشك	٤٢٤
الشك في الاستعمال القرآني	٤٢٥
الألفاظ ذات الصلة	٤٢٦
اقتران الشك بالريب	٤٢٩
الإيمان والشك	٤٣٠
من صور الشك	٤٣٢
أسباب الشك	٤٣٧
علاج الشك	٤٤٢
عاقبة الشك	٤٤٤

مفهوم الشك

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الشين والكاف أصل واحد مشتق بعضه من بعض، وهو يدل على التداخل، ومن هذا الباب الشك، الذي هو خلاف اليقين، إنما سمي بذلك لأن الشاك كأنه شك له الأمران في مشك واحد، وهو لا يتيقن واحدًا منهما»[(١)].

وقال ابن منظور: «الشك: نقيض اليقين، وجمعه شكوك، وقد شككت في كذا وتشككت، وشك في الأمر يشك شكًا، وشككه فيه غيره»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للشك عن معناه اللغوي، الذي يدور حول اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما[(٣)].

وعرفه الجرجاني بأنه: «التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك»[(٤)]. وذكر أيضًا في تعريفه: «أنه ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما»[(٥)].

وقال المناوي: «الشك: الوقوف بين النقيضين، وقيل: هو الوقوف بين المعنى ونقيضه، وضده: الاعتقاد»[(٦)].

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٧٣.
(٢) لسان العرب ١٠/ ٤٥١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٦٥.
(٤) التعريفات، ص١٢٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، ص٢٠٧.

الشك في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ش ك ك) في القرآن الكريم (١٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	١٥	﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل:٦٦]

وجاء الشك في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: التردد في أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، أو اعتدال النقيضين في النفس وتساويهما[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٨٦-٣٨٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الشين ص٦٧١.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٣٣٢-٣٣٣، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٨٥-٢٨٦، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الظن:

الظن لغةً:

الظاء والنون أصل صحيح يدل على معنيين مختلفين: يقين وشك، فأما اليقين فقول القائل: ظننت ظنًا، أي: أيقنت، والأصل الآخر: الشك، يقال: ظننت الشيء، إذا لم يتيقنه، ومن ذلك الظنة: التهمة. والجمع: الظنن [(١)].

الظن اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًا لم يتجاوز حد التوهم»[(٢)].

وقال الجرجاني: «هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين والشك، وقيل: الظن: أحد طرفي الشك بصفة الرجحان»[(٣)].

الصلة بين الظن والشك:

أن الشك استواء طرفي التجويز ، والظن رجحان أحد طرفي التجويز، والشاك يجوز كون ما شك فيه على إحدى الصفتين ، لأنه لا دليل هناك ولا أمارة، ولذلك كان الشاك لا يحتاج في طلب الشك إلى الظن والعلم، وغالبًا ما يطلبان بالنظر. ويجوز أن يقال: الظن قوة المعنى في النفس من غير بلوغ حال الثقة الثابتة، والشك ليس كذلك[(٤)].

٢ الريب:

الريب لغة:

الريب مأخوذة من مادة (ر ي ب) يدل على شك أو شك وخوف[(٥)].

الريب اصطلاحا:

قال ابن الأثير رحمه الله: «الريب هو الشك مع التهمة»[(٦)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٤٦٢، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢١٦٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٣٩.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص١٤٤.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٩٩.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٤٦٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٤٤١.
(٦) النهاية في غريب الأثر ٢/ ٢٨٦.

الصلة بين الشك والريب:

الريب يكون في علم القلب وفي عمله؛ بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم فقط.

ثم الشك سبب الريب، كأنه شك أولًا ، ثم أوقعه شكه في الريب، فالشك مبدأ الريب، كما أن العلم مبدأ اليقين، فيوصف الشك بالريب، والشك المريب أقوى ما يكون من الشك، وأشده إظلامًا، وإنما وصف الشك بالمريب للمبالغة فيه، ولتقوية معنى الشك[(١)].

٣ الوهم:

الوهم لغة:

وهم إلى الشيء بالفتح يهم وهمًا، إذا ذهب وهمه إليه وهو يريد غيره، ووهم يوهم وهمًا -بالتحريك- إذا غلط[(٢)].

الوهم اصطلاحًا:

هو الطرف المرجوح غير الجازم من المترددين، وهو أضعف من الظن ، وكثيرا ما يستعمل في الظن الفاسد[(٣)].

الصلة بين الوهم والشك:

الشك استواء الطرفين، أما إن كان أحد الطرفين راجحًا، والآخر مرجوحًا، فالمرجوح يسمى وهمًا، والراجح يسمى ظنًا[(٤)].

٤ الوسوسة:

الوسوسة لغة:

قال ابن منظور: «الوسوسة والوسواس: الصوت الخفي من ريح، والوسواس: صوت الحلي، والوسواس، بالفتح، الاسم ، مثل الزلزال والزلزال، والوسواس، بالكسر، المصدر. والوسواس، بالفتح: هو الشيطان، وكل ما حدثك ووسوس إليك، فهو اسم»[(٥)].

الوسوسة اصطلاحًا:

قال الكفوي: «الوسوسة: القول الخفي لقصد الإضلال من وسوس إليه ووسوس له،

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص٥٢٨.
(٢) الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٤٥، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٢٣٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٣.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص٩٤٣.
(٤) المصدر السابق ص٥٢٨.
(٥) لسان العرب، ٦/ ٢٥٤.

أي : فعل الوسوسة لأجله، وهي حديث النفس، والشيطان بما لا نفع فيه ولا خير»[1]، وقال الزبيدي: «الوسوسة: الكلام الخفي في اختلاط»[2]

الصلة بين الشك والوسوسة:

أن الشك ينشأ عن سبب معتبر معتد به، وأصل يبني عليه شكه بخلاف الوسوسة، فإن الموسوس يبني وسوسته من غير وجود أصل معتبر، وإنما تنشأ الوسوسة عن أوهام لا اعتبار لها.

والشك إذا كثر، وتكرر من الإنسان، فإنها تعد وسوسة.

والشك يزول بزوال سببه، وأما الوسوسة، فلا تزول إلا بجهد بالغ، ومشقة متناهية، وعزيمة قوية[3].

٥ المرية:

المرية لغة:

المرية: بالكسر والضم، الشك والجدل، والامتراء في الشيء: الشك فيه، وكذلك التماري، والمراء: المماراة والجدل، والمراء أيضًا: من الامتراء والشك[4].

المرية اصطلاحًا:

«الامتراء: طلب التشكك مع ظهور الدليل، أو هو ظهور تكلف المؤنة ، وهي محاولة مستخرج السوء من خبيئة المحاولة من امتراء ما في الضرع ، وهو استئصاله حلبا»[5].

الصلة بين الشك والامتراء

«أن الامتراء هو استخراج الشبه المشكلة، ثم كثر حتى سمي الشك مرية وامتراء ، وأصله المري ، وهو استخراج اللبن من الضرع ، مرى الناقة يمريها مريًا، ومنه ماراه مماره ومراء إذا استخرج ما عنده بالمناظرة ، وامترى امتراء إذا استخرج الشبه المشكله من غير حل لها»[6].

(١) الكليات ص٩٤١.
(٢) تاج العروس، ١٧/ ١٢.
(٣) انظر: الوسوسة وأحكامها في الفقه الإسلامي، الجدعاني ص ٨١- ٨٥.
(٤) لسان العرب ١٥/ ٢٧٨.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٦١.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص٩٩.

اقتران الشك بالريب

وردت لفظتا (الشك، والريب) في كتب الترادف ضمن الألفاظ المترادفة المختلفة في اللفظ، المتفقة في المعنى.

وعرفنا أن الشك: تردد الذهن بين أمرين، وأما الريب فهو شك مع تهمة.

فعند اقتران لفظتي الشك مع الريب فإن المعنى بناءً على ما سبق يكون: التردد مع التهمة.

وقد جمعت بعض الآيات بين الشك والريب في سياقٍ واحد.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

بعد أن دعا صالح عليه السلام قومه لعبادة الله وحده، وذكرهم بقدرة الله عز وجل ونعمه عليهم، فيأتي الرد من قومه بأنه خاب رجاؤنا فيك، وصرت في رأينا رجلًا مختل التفكير، ولن نترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا، وقالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فإننا لفي شك كبير وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه، وهو شك موقع في التهمة وسوء الظن[1].

وبنفس هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠].

فقوم موسى ترددوا وشكوا فيما جاءهم به موسى عليه السلام، وفي نفس الوقت تبع هذا الشك التهمة لما جاءهم به.

وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤].

تتحدث هذه الآية عن مصير المشركين وما يلاقونه يوم القيامة، وذلك لأنهم كانوا يشكون في أمر هذا الدين، وفي نفس الوقت كانوا يتهمونه بتهم باطلة.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٣.

الإيمان والشك

الإيمان والشك خطان متوازيان لا يمكن أن يلتقيان بحال من الأحوال، والمؤمن كلما ارتقى في سلم الإيمان زاد بعدًا عن الشك، فالعلاقة بين الإيمان والشك علاقة طردية، فإذا زاد الإيمان قل الشك، والعكس صحيح، وكما جاء في تعريف الشك سابقًا بأنه تردد بين شيئين، كالذي لا يجزم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يكذبه، ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه.

والإيمان لغة: مصدر آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن[(١)]، وأصل آمن أأمن بهمزتين لينت الثانية[(٢)]، وهو من الأمن ضد الخوف[(٣)].

قال الراغب: «أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف»[(٤)].

وقال شيخ الإسلام: «فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد»[(٥)].

والإيمان اصطلاحًا: «هو التصديق الجازم، والإقرار الكامل، والاعتراف التام؛ بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئنانًا ترى آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه»[(٦)].

والحديث عن الإيمان والشك يكون في النقاط الآتية:

أولًا: العلاقة بين الإيمان والشك:

من خلال تعريف كل من الإيمان والشك يتضح لنا أن معنى الإيمان على النقيض من معنى الشك، فالشك هو تردد بين نقيضين، أما الإيمان فهو تصديق جازم وإقرار كامل.

وقد ذكر علماء السنة أن من شروط لا إله إلا الله (اليقين المنافي للشك).

قال الشيخ حافظ حكمي: «بأن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن، فكيف إذا دخله الشك.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

فاشترط في الصدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا، أي: لم يشكوا، فأما المرتاب فهو من المنافقين - والعياذ

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٥١٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٣.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٥١٨.
وانظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٧١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥.
(٥) انظر: الصارم المسلول، ابن تيمية ص٥١٩.
(٦) الإيمان حقيقته وخوارمه، الأثري، ص ١٣.

بالله- الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

فاشترط في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقنًا بها قلبه غير شاك فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط»[(١)].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله موضحًا منزلة اليقين وأهميتها، ومعارضتها لكل شك وريب: «فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره، ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط ، ثم ذكر من تعريفات اليقين «المكاشفة، وهو على ثلاثة أوجه: مكاشفة في الأخبار، ومكاشفة بإظهار القدرة، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان، ومراد القوم بالمكاشفة: ظهور الشيء للقلب بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئي إلى العين، فلا يبقى معه شك ولا ريب أصلًا، وهذا نهاية الإيمان، وهو مقام الإحسان»[(٢)].

ثانيًا: كيف تحدث القرآن الكريم عن الإيمان والشك:

المتأمل للقرآن الكريم يلاحظ أن الله سبحانه وتعالى يؤكد على المسائل العقدية الكبرى التي يجب الإيمان واليقين بها بقوله: لا ريب فيه، فحينما حدثنا في بداية سورة البقرة عن القرآن قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

وعن قيام الساعة يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

ويقول أيضًا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

فهذه الآيات تؤكد على أهمية اليقين، وذم الشك والريب والتردد في أمور الدين والعقيدة ومسائل الإيمان، وأن نكون فيها جازمين ثابتين غير متزعزعين ولا متشككين.

وفي المقابل يقول الله جل وعلا عن حال أهل الإيمان واليقين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

(١) معارج القبول، ١/ ٣٧٨، ٣٧٩.
(٢) مدراج السالكين، ٢/ ٤١٣-٤١٥.

من صور الشك

تعددت وتنوعت صور الشك من قبل المشركين، فتارة يشكون في الله عز وجل، وتارة يشكون في الكتب السماوية ، وتارة يشكون في الرسل ورسالتهم ، وتارة أخرى يشكون في اليوم الآخر، هذا ما سنتعرف عليه من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الشك في الله جل جلاله:

أن الله تعالى عاب على المشركين شكهم في ربوبيته وألوهيته ، فقال سبحانه: ﴿رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: ٧-٩].

في هذه الآيات يخبر الله عز وجل بأنه رب السموات والأرض وما بينهما من سائر المخلوقات، وخالقها ومالكها وما فيها، بعد إثبات الربوبية لله أثبت الوحدانية، فهو الإله الواحد الذي لا إله غيره، وأثبت القدرة فهو المحيي والمميت، يحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء، ثم أكد الربوبية على البشر بالذات، فهو ربكم أيها المخاطبون ورب آبائكم وأجدادكم الأولين، ومدبر شئونهم، فهو المستحق للعبادة، دون غيره من الآلهة المزعومة[١].

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٢٦٧.

قال الإمام الألوسي رحمه الله: «قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ إضراب إبطالي، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه، وتنوين ﴿شَكٍّ﴾ للتعظيم، أي: في شك عظيم. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي: لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان، بل يقولونه مخلوطًا بهزء ولعب، وهذه الجملة خبر بعد خبر لهم، والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم، وإهمال أمرهم»[٢].

ففي هذه الآية ينفي الحق سبحانه إيقانهم بأن خالق السموات والأرض هو الله، لعدم جريهم على ما يقتضيه هذا الإيقان، لأنهم لو كانوا موقنين حقا بذلك، لأخلصوا لله تعالى العبادة والطاعة[٣].

وقد أغلظ ابن حزم رحمه الله تعالى على من انتحلوا مذهب الشك فقال: «والله ما سمع سامع قط بأدخل في الكفر من قول من أوجب الشك في الله تعالى وفي صحة النبوة فرضًا على كل متعلم لا نجاة له إلا به، ولا دين لأحد دونه، وإن اعتقاد صحة التوحيد لله تعالى وصحة النبوة باطل لا يحل، فحصل من كلامهم أن من لم يشك في الله تعالى ولا في صحة النبوة فهو كافر، ومن شك فيهما فهو محسن مؤد ما وجب عليه، وهذه فضيحة وحماقة[٤].

(٢) روح المعاني، ١٣/ ١١٥.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٦٣.

وبعد أن شك المشركون في الله عز وجل بقولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [إبراهيم: ٩].

جاءهم الجواب على ألسن رسله عليهم السلام بالاستفهام الإنكاري: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال البغوي رحمه الله تعالى: «هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه»[(١)]، وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «هذا استفهام إنكار، والمعنى: لا شك في الله، أي: في توحيده»[(٢)].

ثانيًا: الشك في الكتب السماوية:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾[الشورى: ١٤].

قال الزحيلي: «أي: وإن الجيل المتأخر من أهل الكتاب الذين توارثوا التوراة والإنجيل عمن سبقهم لفي شك من كتابهم ودينهم وإيمانهم، وهو شك مقلق موقع في الريب بشدة، لأنهم لم يتبعوا الحق، وإنما قلدوا رؤساء الدين المتأخرين الذين صوروا لهم الدين بصورة مغايرة لحقيقته الأولى، واتبعوا الآباء والأسلاف بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، ولذلك لم يؤمنوا برسالة خاتم الأنبياء، وأصبحوا مكذبين القرآن ومحمدا صلى الله عليه وسلم الذي صدق كتابهم في أصله الأول»[(٣)].

وعندما شك المشركون في القرآن الكريم جاءهم الرد من الله عز وجل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] يخبر تعالى أن ما أنزله على عبده ورسوله من قرآن يمثل كتابًا عظيمًا لا يحتمل الشك، ولا يتطرق إليه احتمال كونه غير وحي الله وكتابه، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

قال الإمام ابن كثير: «هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله تعالى الذي لا يشبهه شيء في ذاته ، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في أقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين»[(٤)].

ثالثًا: الشك في الرسل ورسالاتهم:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم

(١) معالم التنزيل ٣/ ٣٢.
(٢) زاد المسير، ٢/ ٥٠٦.
(٣) التفسير المنير، ٢٥/ ٤١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٦٨.

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦١-٦٢].

بعد أن دعا صالح عليه السلام قومه لعبادة الله وحده، وذكرهم بقدرة الله عز وجل ونعمه عليهم، فيأتي الرد من قومه بقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ قالوا : يا صالح ، لقد كنت فينا رجلًا فاضلًا نرجوك لمهمات الأمور فينا ، لعلمك وعقلك وصدقك، قبل أن تقول ما قلته، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك، وصرت في رأينا رجلا مختل التفكير، ثم ختموا ردهم عليه بقولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: لن نترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا، وإننا لفي شك كبير وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه، وهو شك موقع في التهمة وسوء الظن[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠].

يخبر الله عز وجل عن اختلاف قوم موسى عليه السلام في شأن التوراة التي أنزلها على نبيهم لهدايتهم، إذ منهم من آمن بها ، ومنهم من كفر بها، ثم يوضح الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وإن هؤلاء المختلفين في شأن الكتاب لفي شك منه، وهذا الشك قد أوقعهم في الريبة والتخبط والاضطراب، وهذا شأن المعرضين عن الحق، لا يجدون مجالا لنقده وإنكاره، فيحملهم عنادهم وجحودهم على التشكيك فيه، وتأويله تأويلا سقيما يدعو إلى الريبة والقلق[2].

قال الشيخ محمد الطنطاوي شيخ الأزهر: «وبعض المفسرين يرى عودة الضمير في قوله ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ إلى قوم موسى، وفي قوله ﴿مِّنْهُ﴾ إلى كتابهم التوراة، وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النبي صلى الله عليه وسلم والثاني إلى القرآن الكريم، والذي يبدو لنا أن الرأى الأول أظهر في معنى الآية، لأن الكلام في موسى عليه السلام وقومه الذين اختلفوا في شأن كتابهم التوراة اختلافًا كبيرًا، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول، وهذا لا يمنع أن بعض المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم كانوا في شك من القرآن، أوقعهم هذا الشك في الريبة والحيرة، فتكون الجملة الكريمة من باب التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما قاله بعض المشركين في

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ١٦٠.

شأن القرآن الكريم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولًا من قبل موسى، وهو يوسف عليه السلام كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القسط، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة، والجاه الدنيوي، ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي: يئستم فقلتم طامعين: لن يبعث الله من بعده رسولًا، وذلك لكفرهم وتكذيبهم»[2].

فالكلام في هذه الآية جاء على لسان مؤمن آل فرعون، يحذر قومه من الشك في دعوة موسى عليه السلام، كما فعل أجدادهم من قبل مع يوسف عليه السلام، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: فما زال آباؤكم في شك مما جاءهم به من البينات والهدى، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى عليه السلام[3].

(١) التفسير الوسيط، ٧/ ٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٤٣.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٣٦.

رابعًا: الشك في اليوم الآخر:

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

قال البغوي رحمه الله تعالى: «يعني: هم اليوم في شك من الساعة»[4].

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى: «فهذا الذي كانوا يشكون فيه في دار الدنيا، ويعمون عنه مما جاءتهم به الرسل، يعلمونه في الآخرة علمًا كاملًا لا يخالجه شك عند معاينتهم لما كانوا ينكرونه من البعث والجزاء»[5].

وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤].

قال الطبري رحمه الله تعالى: «إنهم كانوا قبل في الدنيا في شك من نزول العذاب الذي نزل بهم وعاينوه»[6].

والمعنى: لقد فعلنا بهم كما فعلنا في أمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية، إنهم كانوا جميعا في الدنيا في شك مغرق في الريبة في أمر إثبات البعث والجزاء في الآخرة[7].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا

(٤) معالم التنزيل ٣/ ٥١١.
(٥) أضواء البيان، ٦/ ١٢٢.
(٦) جامع البيان، ٢٠/ ٤٣٢.
(٧) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٢/ ٢١٦.

﴿أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

قال طنطاوي في هذه الآية: «وقال الكافرون المنكرون للبعث والحساب، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الإنكار والاستبعاد: أإذا كنا يا محمد، عظامًا بالية، ورفاتًا يشبه التراب في تفتته ودقته، أإنا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى، بحيث تعود إلينا أرواحنا، وتدب الحياة فينا ثانية، ونبعث على هيئة خلق جديد، غير الذي كنا عليه في الدنيا؟»[(١)].

وبنفس هذا المعنى في آيات عديدة منها، قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقوله تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

وقد أكد الحق سبحانه في غير موضع من القرآن الكريم نفي الشك في وقوع البعث والجزاء:

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

أي: فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم لجزاء يوم لا ريب في مجيئه وحصوله[(٢)].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] أي: الله الواحد الأحد الفرد الصمد والذي لا معبود بحق سواه، كتب على نفسه أنه ليبعثنكم من قبوركم وليحشرنكم إلى الحساب في يوم القيامة الذي لا شك في حصوله ووقوعه، فقررت الآية أن يوم الحساب آت لا شك فيه مهما أنكره الملحدون[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١].

أي: أن القيامة آتية لا ريب فيها، ولا شك في حصولها[(٤)].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

الشك في الوعد والوعيد:

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

في هذه الآية يأتي رد قوم هود على نبيهم

(١) التفسير الوسيط، ٨/ ٣٦٩.
(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٣٠١.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٩١.
(٤) انظر: المصدر السابق ص٤٧٣.

عليه السلام بعدما دعاهم لعبادة الله وحده، بالاستهزاء والإنكار: أجئتنا يا هود لأجل أن نعبد الله وحده، ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام ؟! إن هذا لن يكون منا أبدًا ، فأتنا بما تعدنا به من العذاب إن كنت من الصادقين فيما تخبر به، فهم استعجلوا العذاب ؛ لأنهم كانوا يشكوا في وقوعه[1].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

وفي قوله تعالى أيضًا: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

أي: لقد سئمنا مجادلتك لنا ومللناها، فأتنا بالعذاب الذي تتوعدنا به، إن كنت من الصادقين في دعواك النبوة، وفي وعيدك لنا بعقاب الله، فإننا مصرون على عبادة آلهتنا، وكارهون لما تدعونا إليه[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ٢٦.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٢٠٤.

أسباب الشك

الأسباب التي توقع الإنسان في الشك كثيرة ومتنوعة، ومن أهمها:

أولًا: الكفر:

الشك في الله عز وجل وفي اليوم الآخر وغيرها من صور الشك من أبرز أسبابها الكفر.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

في هذه الآية يتضح أن السبب وراء شك أولئك الأقوام بما جاءت به رسلهم هو الكفر، فبعد أن جاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات، وبالمعجزات الظاهرات، الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه، كان الجواب منهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

قال الجمل: «فإن قيل: إنهم أكدوا كفرهم بما أرسل به الرسل، ثم ذكروا بعد ذلك أنهم شاكون مرتابون في صحة قولهم فكيف ذلك؟ فالجواب: كأنهم قالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به أيها الرسل ، فإن لم نكن

كذلك، فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم، أو يقال: المراد بقولهم ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي: بالمعجزات والبينات، وبقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وهو الإيمان والتوحيد، أو يقال: إنهم كانوا فرقتين: إحداهما جزمت بالكفر، والأخرى شكت»[1].

والشك الذي وقع من قوم صالح عليه السلام إنما كان سببه الكفر، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

بعد أن دعا صالح عليه السلام قومه لعبادة الله وحده، وذكرهم بقدرة الله عز وجل ونعمه عليهم، فيأتي الرد منهم بالعناد والكفر، فقالوا: يا صالح لقد كنت فينا رجلًا فاضلًا نرجوك لمهمات الأمور فينا لعلمك وعقلك وصدقك، قبل أن تقول ما قلته، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك، وصرت في رأينا رجلا مختل التفكير، ثم ختموا ردهم عليه بقولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: لن نترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا، وإننا لفي شك كبير وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه[2].

(١) حاشية الجمل على الجلالين، ٢/ ٥١٦.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٣.

ثانيًا: النفاق:

النفاق من أبرز الأسباب المؤدية للشك.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

أي: إنما يستأذنك - يا محمد - في القعود عن الجهاد أولئك الذين من صفاتهم أنهم لا يؤمنون بالله إيمانا كاملًا، ولا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب إيمانا يقينيا، وبجانب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، رسخ الريب في قلوبهم فصاروا يشكون في صحة ما جئت به - أيها الرسول الكريم -، ويقفون من تعاليمك وتوجيهاتك، موقف المكذب المرتاب لا موقف المصدق المذعن، وأضاف الشك والارتياب إلى القلوب، لأنها محل المعرفة والإيمان[3].

قال طنطاوي: «وأوثرت صيغة الماضي (ارتابت) للدلالة على تحقق الريب وتوبيخهم، وأصل معنى التردد: الذهاب والمجيء. والمراد به هنا التحير على سبيل المجاز؛ لأن المتحير لا يستقر في مكان، ولا يثبت على حال، فهم في شكهم الذي حل بهم يتحيرون»[4].

وقال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٥٨.
(٤) التفسير الوسيط ٦/ ٣٠٦.

﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠].

تكشف هذه الآية عن حال المنافقين بعد أن فضح الله نواياهم بما أرادوه من بناء المسجد الذي سماه الله عز وجل بمسجد الضرار، والمعنى: لا يزال ما بناه هؤلاء المنافقون موضع ريبة وقلق في نفوسهم في كل وقت وحال إلا في وقت واحد، وهو وقت أن تتمزق قلوبهم بالموت ، فهم لا يزالون في قلق وحيرة، والسبب في أن هذا البناء كان مثار ريبتهم وقلقهم حتى بعد هدمه، أنهم بنوه بنية سيئة، ولتلك المقاصد الأربعة الخبيثة التي بينتها الآية الأولى، فكانوا يخشون أن يطلع الله نبيهم على مقاصدهم الذميمة، فهذه الخشية أورثتهم القلق والريبة، فلما أطلع الله تعالى نبيه على أغراضهم، وتم هدم مسجد الضرار، وانهار الجرف المتداعي المتساقط، استمر قلقهم وريبهم ؛ لأنهم لا يدرون بعد ذلك ماذا سيفعل المؤمنون بهم[(١)].

ثالثًا: الجهل:

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

الجهل هو أحد أسباب الوقوع في الشك، وهذا ما حدث لبني إسرائيل بعدما وقعت حادثة رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، فالذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب لفي شك دائم من حقيقة أمره، فهم في حيرة وتردد، ليس عندهم علم ثابت قطعي في شأنه، أو في شأن قتله، ولكنهم لا يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذي لا تثبت به حجة. ولا يقوم عليه برهان، وهذا الشك أساسه الجهل الذي وقع منهم، حين قالوا : إنه ابن الله، وادعوا أن في عيسى عنصرًا إلهيا مع العنصر الإنساني، وأن الذي ولدته مريم هو العنصر الإنساني، ثم أفاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهي، فالشك هنا أساسه وسببه جهل بني إسرائيل بما حدث لعيسى عليه السلام[(٢)].

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩].

صدر هذا الكلام من الكافرين نتيجة جهلهم بقدرة الله عز وجل وعظمته، فهؤلاء الكفار لم يكونوا موقنين بأن رب السموات والأرض وما بينهما هو الله، بل قالوا ما قالوا في ذلك على سبيل الشك واللعب[(٣)].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣١٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ١٨.

(٣) انظر: تفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٣٧٩.

رابعًا: الكبر:

يصرح المشركون أن السبب الحقيقي الذي حال بينهم وبين الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو الحقد والحسد والكبر، وإنكار أن يختص الله تعالى رسوله من بينهم بالرسالة، فقالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص: ٨].

والاستفهام للإنكار والنفي، أي: كيف يدعي محمد صلى الله عليه وسلم أنه قد أنزل عليه القرآن من بيننا، ونحن السادة الأغنياء العظماء، وهو دوننا في ذلك؟ إننا ننكر وننفي دعواه النبوة من بيننا[(١)].

قال الزمخشري: «أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٥-٣٧].

انتقل صاحب الجنتين من غرور إلى غرور أشد، فهذا الكافر لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن، بل سار به نحو جنته حتى دخلها ، وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وكبره، ثم ختم هذا الكافر محاورته لصاحبه بقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنة ومتحققة، فهو قد أنكر البعث وما يترتب عليه من حساب بعد إنكاره لفناء جنته، ثم أكد كلامه بجملة قسمية، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ أي: والله لئن رددت إلى ربي على سبيل الفرض والتقدير ، كما أخبرتني يا صاحبي بأن هناك بعثا وحسابا ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: من هذه الجنة منقلبًا أي: مرجعا وعاقبة، وكل هذا الكلام الذي صدر من صاحب الجنة الكافر ما صدر إلا نتيجة الكبر والغرور[(٣)].

خامسًا: وسوسة الشيطان:

يبين الحق عز وجل أن إغواء الشيطان ووسوسته من الأسباب التي أدت الشك.

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠-

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٤٣٥.
(٢) الكشاف، ٤/ ٧٤.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٥٧، الدر المصون، الحلبي، ٧/ ٤٨٨.

٢١].

قال طنطاوي: «لفظ ﴿صَدَّقَ﴾ قرأه بعض القراء السبعة بتشديد الدال المفتوحة، وقرأه البعض الآخر بفتح الدال بدون تشديد، والمعنى على القراءة بالتشديد: ولقد صدق عليهم إبليس ظنه في قدرته على إغوائهم، وحقق ما كان يريده منهم من الانصراف عن طاعة الله تعالى وشكره، فاتبعوا خطوات الشيطان، بسبب انغماسهم في الفسوق والعصيان، إلا فريقًا من المؤمنين، لم يستطع إبليس إغواءهم ، لأنهم أخلصوا عبادتهم لخالقهم عز وجل، واستمسكوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والمعنى على القراءة بالتخفيف: ولقد صدق إبليس في ظنه أنه إذا أغواهم اتبعوه، لأنه بمجرد أن زين لهم المعاصي أطاعوه، إلا فريقا من المؤمنين لم يطيعوه»[(١)].

ثم بين سبحانه أن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولأشباههم من بنى آدم، لم يكن عن قسر وإكراه، وإنما كان عن اختيار منهم ليتميز الخبيث من الطيب ، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي: وما كان لإبليس عليهم من سلطان قاهر يجعلهم لا يملكون دفعه، وإنما كان له عليهم الوسوسة التي يملكون صرفها ودفعها متى حسنت صلتهم بنا، ونحن ما أبحنا لإبليس الوسوسة لبنى آدم، إلا لنظهر في عالم الواقع حال من يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وحساب، ولنميزه عمن هو منها في شك وريب وإنكار[(٢)].

قال الشوكانى رحمه الله: «والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ منقطع أي: لا سلطان له عليهم، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم، وقيل: هو متصل مفرغ من أعم العلل، أي: ما كان له عليهم من تسلط بحال من الأحوال، ولا لعلة من العلل، إلا ليتميز من يؤمن ومن لا يؤمن، لأنه سبحانه قد علم ذلك علما أزليًا، وقال الفراء: إلا لنعلم ذلك عندكم. والأولى حمل العلم هنا على التمييز والإظهار»[(٣)].

(١) التفسير الوسيط، ١١/ ٢٧٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٣٠.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٧١.

علاج الشك

الشك هو داء خطير خصوصًا إذا ما أصاب المسلم، ولكن لكل داء دواء، وفيما يأتي أهم أدوية الشك:

أولًا: الثبات على الإيمان.

وستتعرف على أهم الوسائل التي تعين المسلم على الثبات على الإيمان، وبالتالي تبعده عن الشك، وفيما يلي بعض هذه الوسائل:

١. الإقبال على القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣].

أي: أنزلناه كذلك منجمًا ومفرقًا لحكمة عالية وهي تقوية قلبك وتثبيته؛ لأنه كالغيث كلما أنزل أحيا موات الأرض وازدهرت به ونزوله مرة بعد مرة أنفع من نزول الغيث دفعة واحدة[(١)].

فإذا كان القرآن الكريم مثبتًا للنبي صلى الله عليه وسلم، فكيف بنا نحن الضعاف ؟ كيف بنا نحن المقصرين ؟ إذًا القرآن الكريم، الإقبال عليه؛ تلاوةً، وحفظًا، وفهمًا، وتدبرًا، وتطبيقًا، هو أحد الوسائل الفعالة لثباتك على الإيمان وبالتالي البعد كل البعد عن الشك.

٢. التزام شرع الله عز وجل والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

في هذه الآية بيان للنتائج الطيبة التي تترتب على امتثال شرع الله عز وجل، أي: ولو ثبت أن هؤلاء الذين أمرناهم بطاعتنا ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ما أمرناهم به من اتباع لرسولنا صلى الله عليه وسلم وانقياد لحكمه؛ لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، فلو ثبت أنهم فعلوا ذلك لكان ما فعلوه خيرًا لهم في دنياهم وآخرتهم. ولكان أشد تثبيتًا لهم على الحق والصواب، وأمنع لهم من الشك والضلال[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والمعنى: يثبت الله تعالى الذين آمنوا بالقول الثابت، أي: الصادق الذي لا شك فيه، في الحياة الدنيا، بأن يجعلهم متمسكين بالحق، ثابتين عليه دون أن يصرفهم عن ذلك ترغيب أو ترهيب، ويثبتهم أيضا بعد

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٤٣٥.

(٢) الكشاف، ٤/ ٧٤.

مماتهم، بأن يوفقهم إلى الجواب السديد عند سؤالهم في القبر وعند سؤالهم في مواقف يوم القيامة[1].

٣. تدبر قصص الأنبياء.

ذكرنا سابقًا كيف قابلت الأقوام أنبياءهم بالكفر والجحود والشك فيهم وفي رسالتهم، فتدبر هذه القصص من الوسائل الفعالة على الثبات على الإيمان، فيبين سبحانه أهم الفوائد التي تعود على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلينا من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم.

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]

أي: وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك -أيها الرسول الكريم- وعلى أمتك، فالمقصود به تثبيت قلبك، وتقوية يقينك، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى في سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس[2].

ثانيًا: سؤال أهل العلم:

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

المراد بأهل الذكر في هذه الآية، علماء أهل الكتاب أي: لقد اقتضت حكمتنا أن يكون الرسول من البشر في كل زمان ومكان، فإن كنتم في شك من ذلك -أيها المكذبون- فاسألوا علماء أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، فسيبينون لكم أن الرسل جميعا كانوا من البشر ولم يكونوا من الملائكة، فمادامت قد بلغت بكم الجهالة أن تشكوا أن يكون الرسول بشرا فاسألوا أهل العلم في ذلك، فسيبينون لكم أن الرسل السابقين لم يكونوا إلا رجالًا[3].

وفي قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا يعلمون أن الرسل لا يكونون إلا من البشر، ولكنهم قصدوا بإنكار ذلك الجحود والمكابرة، والتمويه لتضليل الجهلاء، ولذا جيء في الشرط بحرف (إن) المفيد للشك، وجواب الشرط لهذه الجملة محذوف، دل عليه ما قبله. أي: إن كنتم لا تعلمون، فاسألوا أهل الذكر[4].

فيفهم من الآيات السابقة أن الرجوع إلى أهل العلم وسؤالهم عن الأمور التي ربما يعتريها الشك، هو السبيل الوحيد للابتعاد عن الشك وما يترتب عليه من عواقب وخيمة.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١٥٧، الدر المصون، الحلبي، ٧/ ٤٨٨.
(٢) التفسير الوسيط، ١١/ ٢٧٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٥/ ٩٤٨٦.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ١١٦.

عاقبة الشك

الشك له عواقب وخيمة تعود على صاحبة في الدنيا والآخرة، في هذا المبحث ستتعرف على أهم العواقب التي تنتج عن الشك.

١. الانغماس في الضلالة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

الكلام في هذه الآية جاء على لسان مؤمن آل فرعون، يحذر قومه من الشك في دعوة موسى عليه السلام كما فعل أجدادهم من قبل مع يوسف عليه السلام، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: فما زال آباؤكم في شك مما جاءهم به من البينات والهدى، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى عليه السلام[(١)].

ثم بين لهم عاقبة ومصير الذي يستمر في الشك في الأنبياء، الانغماس في الضلالة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: مثل ذلك الإضلال الفظيع، يضل الله تعالى من هو مسرف في ارتكاب الفسوق والعصيان، ومن هو مرتاب في دينه، شاك في صدق رسوله، لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه[(٢)].

٢. الوقوع في الاختلاف.

من عواقب الشك، الوقوع في الاختلاف لا سيما حول ما أنزل الله عز وجل، كما حدث الاختلاف حول التوراة التي أنزلها الله عز وجل على موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥]

أي: ولقد آتينا نبينا موسى عليه السلام كتابه التوراة ليكون هداية ونورًا لقومه، فاختلفوا في شأن هذا الكتاب، فمنهم من آمن به، ومنهم من صد عنه[(٣)].

٣. العذاب في الآخرة.

عواقب الشك لا تقتصر على الدنيا فقط بل إنها تمتد للآخرة، فمن عواقب الشك في الآخرة العذاب والفناء والهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

قال طنطاوي: «التدارك بمعنى الاضمحلال والفناء، وأصله التتابع

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٣٦.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي ص٩٤٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/٥٦٨.

والتلاحق، أي: بل تتابع علم هؤلاء المشركين بشئون البعث حتى اضمحل وفنى، ولم يبق لهم علم بشيء مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسبابه ومباديه من الدلائل، ومنهم من يرى أن التدارك هنا التكامل، فيكون المعنى: بل تكامل علمهم بشئون الآخرة، حين يعاينون ما أعد لهم فيها من عذاب، بعد أن كانوا ينكرون البعث والحساب في الدنيا، ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للقولين، على معنى أن المشركين اضمحل علمهم بالآخرة لكفرهم بها في الدنيا، فإذا ما بعثوا يوم القيامة وشاهدوا العذاب، أيقنوا بحقيقتها، وتكامل علمهم واستحكم بأن ما كانوا ينكرونه في الدنيا. قد صار حقيقة لا شك فيها، ولا مفر لهم من عذابها»[1].

قال الألوسي: « قوله: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ والمعنى: بل تتابع علمهم في شأن الآخرة، التي ما ذكر من البعث حال من أحوالها، حتى انقطع وفنى، ولم يبق لهم علم بشيء مما سيكون فيها قطعا، مع توفر أسبابه »[2].

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، الظن، النفاق، اليقين

(١) التفسير الوسيط، ١٠/ ٣٤٩.
(٢) روح المعاني، ١٠/ ٢٢٤.

الشمس

عناصر الموضوع

مفهوم الشمس	٨
الشمس في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
اقتران الشمس بالقمر في القرآن	١٢
الشمس من آيات الله العظيمة	١٤
أوصاف الشمس	٢٥
الشمس والعبادة	٢٨
عبادة الناس للشمس	٢٩
الشمس يوم القيامة	٣٢
لمسات إعجازية في الشمس	٣٦

مفهوم الشمس

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (ش م س) على تلونٍ وقلة استقرارٍ، وسميت الشمس بذلك؛ لأنها غير مستقرةٍ، فهي أبدًا متحركةٌ. ويقال: شَمُسَ يومنا، وأشمس، إذا اشتدت شمسه، والشموس من الدواب: الذي لا يكاد يستقر. يقال: شمس شماسًا[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «الشمس يقال للقرصة، وللضوء المنتشر عنها»[2].

وقيل: هو كوكب مضيء نهاري[3].

و(الشمس) عند الفلكيين: النجم الأقرب إلى الأرض، حيث تدور حوله مع سائر كواكب المجموعة الشمسية[4].

فالشمس: نجم مضيء في السماء يشع لنا حرارة وضياء.

وأصل مادتها في اللغة يدل على التلونِ وقلة الاستقرارِ، فالشمس سميت بذلك لحركتها الدائمة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢١٣.
(٢) المفردات ص ٤٦٤.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص١٢٩.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٩٤، المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، محمد محمود محمدين وطه عثمان الفراء، ص ٧٨.

الشمس في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شمس) في القرآن الكريم (٣٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم (معرفة)	٣١	﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير:١]
اسم (نكرة)	١	﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾ [الإنسان:١٣]

وجاءت الشمس في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو هذا النجم النهاري المضيء[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٨٧.
(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٩٠-٢٩١.

الألفاظ ذات الصلة

١ القمر:

القمر لغةً:

القاف والميم والراء أصل صحيح يدل على بياض في شيء، ثم يفرع منه. من ذلك القمر الذي في السماء، وضوءه القمراء، وسمي قمرًا؛ لبياضه[١].

القمر اصطلاحًا:

هو كوكب في السماء معتم.

وقيل: جرم سماوي صغير معتم يدور حول كوكب أكبر منه ويكون تابعًا له[٢].

الصلة بين القمر والشمس:

الشمس جسم مضيء، والقمر جسم معتم ونوره ليس نابع منه وإنما انعكاس عليه.

٢ النجم:

النجم لغة:

قال ابن فارس: «النون والجيم والميم أصل صحيح يدل على طلوع وظهور، ونجم النجم: طلع، ونجم السن والقرن: طلعا. والنجم: الثريا، اسم لها»[٣]. وفي الحديث: هذا إبان نجومه، أي: وقت ظهوره، يعني: النبي صلى الله عليه وسلم، يقال: نجم النبت ينجم إذا طلع، وكل ما طلع وظهر فقد نجم»[٤].

مما سبق يمكن تعريف النجم لغة: هو كل شيء يظهر.

النجم اصطلاحًا:

قال الكفوي: «كل طالع فهو نجم، يقال: نجم السن، والقرن، والنبت إذا طلعت»[٥].

وقيل: «أحد الأجرام السماوية المضيئة بذاتها، ومواضعها النسبية في السماء ثابتة، وهو عبارة عن جسم كروي ضخم ولامع ومتماسك بفعل الجاذبية»[٦].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٥.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٥٨
(٣) مقاييس اللغة ٥/ ٣٩٦.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٦٨.
(٥) الكليات ص ٨٨٧.
(٦) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٠٥.

وعرفها الجغرافيون بأنها: أجرام سماوية تضيء بذاتها، وتنبعث منها الطاقات الحرارية والضوئية نتيجة؛ ما يحدث فيها من تفاعلات نووية [١].

الصلة بين النجم والشمس:

الشمس: مضيئة في النهار، بينما النجم مضيء في الليل.

٣ الكوكب:

الكوكب لغةً:

من كب: الكاف والباء أصل صحيح يدل على جمع وتجمع، لا يشذ منه شيء، والكوكب يسمى كوكبًا من هذا القياس [٢].

والكوكب: واحد الكواكب، فالكوكب والكوكبة: النجم، وكوكب: اسم موضع [٣].

الكواكب اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «الكواكب: أجسام بسيطة مركوزة في الأفلاك، كالفص في الخاتم، مضيئة بذواتها، إلا القمر» [٤]، أو: «جرم سماوي يدور حول الشمس ويستضيء بضوئها، وأشهر الكواكب مرتبة على حسب قربها من الشمس: عطارد الزهرة الأرض المريخ المشتري زحل يورانس نبتون بلوتون» [٥].

الصلة بين الكوكب والشمس:

الشمس جرم سماوي مضيء، والكوكب جرم سماوي يدور حول الشمس ويستضيء بضوئها [٦].

---

(١) المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة ص ٦٦

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٢٤.

(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٦٧٠، شمس العلوم، نشوان الحميري ٩/ ٥٨٧٣، مختار الصحاح، الرازي ١/ ٢٧١، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٢١.

(٤) التعريفات ص ١٨٨.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩٣.

(٦) الشمس النجم الذي يهبنا الحياة ص ٣٦.

اقتران الشمس بالقمر في القرآن

اقترن ذكر الشمس بالقمر في أكثر المواضع لما بينهما من ترابط وتكامل، فالشمس هي محور المجموعة التي تنسب لها، والتي تضم مجموعة من الكواكب، تدور حولها مع تفاوت في سرعة الدوران واختلاف في مداراته، بينما القمر تابع للأرض، يدور حولها، ويعكس ضوء الشمس وجهه اللامع، فينير في المساء، والشمس آية النهار، والقمر آية الليل.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وبين تعالى كونهما مسخرين لمنافع الناس ومصالحهم، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢].

وأن حركتهما دائمة لا تتوقف إلى أن يأذن الله لهذا النظام بالزوال ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

فذكر تعالى أن الليل والنهار والشمس والقمر من خلق الله تعالى، مسخرةٌ بأمره من أجلنا، وأن الشمس والقمر يسبحان، واقتران الليل والنهار بهما واضح بين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس: ١-٤].

والليل والنهار له ارتباطٌ بالشمس، فهي آية النهار، الظلام يحل بغروب الشمس، ويسفر الصبح بشروق الشمس، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: ٥].

قال ابن القيم: «ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما وجرمهما ونورهما وحركتهما على نهج واحد لا ينيان ولا يفتران، ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمس القمر ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار، بل لكل حركة مقدرة ونهج معين لا يشركه فيه الآخر، كما أن له تأثيرًا ومنفعة لا يشركه فيها الآخر، وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر وأمر آمر وتدبير مدبر بهرت حكمته العقول، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل»[1].

وغالبًا ما يتقدم ذكر الشمس على القمر، لكونها آية أعظم، ونورها ذاتي، بخلاف القمر، فإن نوره قبسٌ من نورها وانعكاس

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ٢/ ١٦٥.

له، وهو تابع للأرض التي تتبعها مع غيرها من الكواكب، فكلاهما جزء من منظومة واحدة، خاضعان لسنن واحدة. ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

فجاء اقترانهما لبيان انتظام حركتهما ودوامها فلا تتوقف، بل تسير بحساب دقيق ونظام محكم لا يختل، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن: ٥].

كما جاء اقترانهما في سياق بيان مصيرهما عند نهاية الكون، حيث يلتحمان ويتحدان فيصيران كتلةً واحدة، قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة: ٩].

«إن حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط، والتغيير يتم ولكن بدرجة ضئيلة لا تظهر إلا على مدى قرون، وهذا القمر الذي يتبع في حركته الأرض يدور في فلك مقرر ومنضبط مع تفاوت يسير جدًا، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عامًا ونصف عام بدقة فائقة»[1].

ويرى البعض من «المفارقة السعيدة: أن قرصي القمر والشمس متساويان تقريبًا عندما ننظر إليهما من الأرض، إلا أن الشمس في الواقع أكبر من القمر وأبعد منه. وبفضل النسبة في بعد القمر والشمس عنا ونسبة قطر كل منهما، أمكن لكسوف الشمس أن يكون كليًا عندما يقع القمر بين الشمس والأرض في خطٍ مستقيم»[2].

والحق أن بعد الشمس والقمر عن الأرض وقطرهما وبالنسب التي ذكرنا، ليس من المفارقات السعيدة أو الصدف العجيبة، كما كتب أكثر الذين استقينا منهم المعلومات الفلكية أعلاه، بل بتقدير وتدبير من خالقها، لحكم كثيرة، أما التعبير بكلمات كالصدفة السعيدة أو العجيبة فقد آن لها في القرن العشرين أن تمحى من كتابات العلماء، ليحل محلها كلمة الخالق، ولكن الإنسان كان وسيظل كما وصفه ربه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦].

(١) انظر: الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان ص٦٥، الكون من الذرة إلى المجرة، حمادي العبيدي ص ٢١.

(٢) انظر: الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان ص٧٤.

الشمس من آيات الله العظيمة

الشمس آية من آيات الله وشاهدٌ يدل على قدرته ووحدانيته وتدبيره لملكه، تمدنا بالدفء والطاقة والضوء، ولها دورٌ أساسيٌ في عملية الإنبات والإثمار وإنضاجها، وبها نعرف الأوقات والأيام والشهور والسنين، وغير ذلك من منافعها التي لا يحصيها إلا خالقها ومسخرها جل وعلا.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس:٥].

فالشمس من آياته تعالى الشاهدة والناطقة، يجليها الله في الكون المنظور وفي كتابه المسطور لأهل العلم.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد:٢].

فهي آيةٌ جليةٌ واضحة، وشاهدٌ حسي على البعث.

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾ [النحل:١٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

فبينت الآيات الكريمة كون الشمس آيةً من آيات الله تدل على كمال قدرته وربوبيته لهذا العالم وتدبيره ولطفه، وتشهد بوحدانيته تعالى، وهذه الآيات إنما يعتبر بها وينتفع العقلاء والعلماء، وقد ساقها الله لمن يريد أن يستيقن، فآية الشمس من أعظم الآيات التي يجب أن تسترعي انتباهنا وتثير عقولنا وتلفت أنظارنا إلى عظمة الخالق ولطف تدبيره وحسن تقديره.

أما الجهال والمشككون والغافلون فلا يقفون على هذه الآيات ولا يستبصرونها. فالشمس تشرق كل صباح وتغرب كل مساء، حتى أصبحت عندهم أمرًا مألوفًا لا يسترعي انتباههم ولا تثير وجدانهم، بل تحجب أهواءهم شمس الحقيقة فلا يبصرونها في رابعة النهار.

فمن دلائل قدرته وشواهد عظمته: الليل والنهار، وما بينهما من تداخل وامتزاج واختلاف وائتلاف، وتفاضل وتكامل، الليل بظلامه ووحشته وسكونه ورهبته، ونجومه وأقماره وكواكبه، والنهار بجلائه وضيائه وشمسه وحركته، وللشمس منافعها العميمة، منها الحرارة والضياء وتحديد المواقيت، ومنافع أخرى كثيرة تدل على حكمة الله وتقديره وعظمة تدبيره.

تقول الحسابات: إن الشمس تبعد عن

الأرض ٩٢,٥ مليون من الأميال، ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاستحالت الحياة واحترقت الكائنات! ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءًا من مليوني جزء من حرارتها. وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا. ولو كان نجم الشعرى بضخامته وإشعاعه هو الذي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية، وذهبت بددًا!

وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض. فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه في بحار الأرض كافيًا لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها. وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لا يخطئ مقدار شعرة! وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في هذا الفضاء الشاسع الرهيب، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة، ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين! وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لا يختل مدار نجم بمقدار شعرة، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة»[1].

وصدق الله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥].

فالشمس لا تتخلف عن موعدها طرفة عين، والقمر له دورته الثابتة لا يتخلف عنها ومنازله لا يبرح فلكه ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٤٠].

قال الرازي: «أما الشمس فتفكر في طلوعها وغروبها، فلولا ذلك لبطل أمر العالم كله، فكيف كان الناس يسعون في معايشهم، ثم المنفعة في طلوع الشمس ظاهرة، ولكن تأمل النفع في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع احتياجهم إلى الهدوء والقرار لتحصيل الراحة وانبعاث القوة الهاضمة وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء على ما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

وأيضًا فلولا الغروب لكان الحرص يحملهم على المداومة على العمل على ما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: ١٠ - ١١].

والثالث: أنه لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بشروق الشمس عليها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان، ويهلك ما عليها من نبات على ما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥].

فصارت الشمس بحكمة الحق

(١) انظر: في ظلال القرآن ٧/ ٩٥.

سبحانه وتعالى تطلع في وقت وتغيب في وقت، بمنزلة سراج يدفع لأهل بيت بمقدار حاجتهم، ثم يرفع عنهم ليستقروا ويستريحوا، فصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم، هذا كله في طلوع الشمس وغروبها»[1].

ومن شواهد كون الشمس آية من آيات الله عز وجل ما يأتي:

أولًا: تسخير الشمس:

الصلة بين الحديث عن الكون وبيان إنعامه تعالى على عباده وعنايته واضحةٌ وثيقةٌ، فخلق الكون وتسخيره للإنسان من أعظم النعم، وفي القرآن آياتٌ عديدةٌ تقرر هذا المعنى وترسخه، قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]

و«التسخير: سياقة إلى الغرض المختص، فالمسخر: هو المقيض للفعل»[2].

وعرفه د. جبل في المعجم الاشتقاقي بقوله: «التسخير للآدميين هو إجراء الشيء على ما يوافقهم، وأن ينتفعوا به مختلف وجوه الانتفاع»[3].

فالشمس والقمر من جملة المخلوقات التي سخرها الله تعالى، طوعها لمصالحنا ومعاشنا.

قال الطبري: «﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يتعاقبان عليكم بالليل والنهار لصلاح أنفسكم ومعاشكم ﴿دَائِبَيْنِ﴾ في اختلافهما عليكم، وقيل: معناه: أنهما دائبان في طاعة الله»[4].

وفي سورة النحل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢-١٨].

يذكرنا الله تعالى بنعمه التي لا تحصى والتي من أعظمها خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار وغير ذلك من النعم المسخرة لمنافع الإنسان وتيسير عيشه، تلك النعم التي يغفل عنها كثير من الناس جحودًا ونكرانًا، أو ذهولًا ونسيانًا؛ لكونها مألوفةً دائمة، فلا يشعرون بها مع جلائها ودوامها.

قال الواحدي: «معنى تسخيرهن: تذليلهن لما يراد منها من طلوع وأفول وسير

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٦٣، ونحو ذلك ما ذكره ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن ٢/ ١٧١.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٢٠٣.

(٣) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل، ٢/ ٩٧٣.

(٤) جامع البيان ١٦/ ١٣.

ورجوع»[1].

وقال الماوردي: «﴿مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: مذللات بقدرته. والثاني: جاريات بحكمه[2].

فكلها تحت قهره وسلطانه وإرادته جل وعلا.

وهذه المنظومة الكونية الواحدة في صالح الإنسان، فكل ما في الكون مسخرٌ له، وكل ما في الكون له دوره في هذه المنظومة.

قال الجاحظ: «إذا تأملت في هذا العالم وجدته كالبيت المعد، فيه كل ما يحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منورة كالمصابيح والإنسان كمالك البيت المتصرف فيه، وضروب النبات مهيأة لمنافعه، وضروب الحيوانات مصرفة في مصالحه، فهذه جملة واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل وحكمة بالغة وقدرة غير متناهية، والله أعلم»[3].

والشمس والقمر يعملان بنظام دقيق مستمرٍ بلا خلل أو عطب أو توقفٍ. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ [إبراهيم:٣٣].

وهل هناك نظام بشري لا يعتريه الخلل؟ وهل يستطيع الإنسان أو الآلة أن تعمل بلا توقف؟ إن لكل جهاز صلاحيته التي لا تتجاوز سنوات معدودة، فكيف بهذين النيرين لا يتوقفان ولا يعطبان ولا ينحرفان قيد أنملة.

واختلاف الليل والنهار آية عظيمة ونعمة جليلة من نعم الله تعالى على الإنسان والكون.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

فالله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الليل سرمدًا، أو النهار سرمدًا، بل جعل الليل والنهار، ووصل بعضهما ببعض، ولم يجعل لأحدهما وجودًا بغير الآخر. وجعل ذلك رحمة منه سبحانه، بعباده، وإحسانًا إليهم[4].

ثانيًا: جريان الشمس:

بعيدًا عن نور الإيمان ونور العلم شاع الاعتقاد في عصور الانحطاط العلمي في

(١) التفسير البسيط ٩/ ١٧٤
(٢) النكت والعيون ٢/ ٢٣٠
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٣١٩.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٤/ ١٣٧.

أوروبا، أن الشمس ثابتة وأنها مركز الكون، بينما كان المسلمون على علم بحركة الشمس وجريانها في مدارها من كتاب الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

قال السعدي: وجريان الشمس «حركتها في فلكها المرسوم لها، وهي تقطع دورةً في هذا الفلك تمام السنة، وفي سرعة مذهلة»[(١)].

فلا تتعداه، ولا تقصر عنه، وليس لها تصرف في نفسها، ولا استعصاء على قدرة الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة، بأكمل تدبير، وأحسن نظام. ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي بعلمه، جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم[(٢)].

وقال القاسمي: «﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: ذلك الجري المتضمن للحكم والمصالح والمنافع، والمدهش نظام سيره وإحكامه بلا اختلال، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، المحيط علمًا بكل معلوم»[(٣)].

(١) انظر: المصدر السابق ١٢/ ٩٣٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٩٦.
(٣) محاسن التأويل ٨/ ١٨٤.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال: (مستقرها تحت العرش)[(٤)].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣].

بينت هذه الآيات حركة الشمس والقمر الدائمة، ودورانهما في مدارٍ يختلف أحدهما عن الآخر، وجريانهما الذي لا يتوقف إلا بانتهاء الأجل الذي قدره الله تعالى لعمر الدنيا.

«وحركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين في الخضم الفسيح.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، ٦/ ١٢٣، رقم ٤٨٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، ١/ ١٣٨، رقم ١٥٩.

فهي مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطًا سابحة في ذلك الفضاء المرهوب. وإن الإنسان ليتضاءل ويتضاءل، وهو ينظر إلى هذه الملايين التي لا تحصى من النجوم الدوارة، والكواكب السيارة، متناثرة في ذلك الفضاء، سابحة في ذلك الخضم، والفضاء من حولها فسيح، وأحجامها الضخمة تائهة في ذلك الفضاء الفسيح! والشمس تدور حول نفسها. وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها. ولكن عرف أخيرًا أنها ليست مستقرة في مكانها. إنما هي تجري. تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلًا في الثانية! والله - ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها- يقول: إنها تجري لمستقر لها. هذا المستقر الذي ستنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه. ولا يعلم موعده سواه. وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه. وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء، لا يسندها شيء، ندرك طرفًا من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[1].

وجريان الشمس حول محورها ودوران الأرض حولها واختلاف منازل الأرض من الشمس، يترتب عليه ظواهر عديدة منها، اختلاف الفصول وما في ذلك من المنافع، فلكل فصلٍ مزاياه وأهميته، والفصول الأربعة متتابعةٌ ومتكاملةٌ وتنوعها يعود بالمنفعة على الإنسان والحيوان والنبات.

ومن الحقائق العلمية التي توصل لها العلماء أن الشمس بمجموعتها التي تدور حولها، تجري جميعًا حول مركز مجرة «الطريق اللبني» بسرعة تبلغ ٢٥٠ كم في كل ثانية، أو ٠٠٠ ٩٠٠ كم في الساعة. وبالرغم من هذه السرعة الفائقة إلا أن النظام الشمسي يستغرق ٢٤٠ مليون سنة للدوران حول مجرة الطريق اللبني.

وشمسنا هذه -وهي تدور حول نفسها- تدور بنا أيضًا على الحاشية الخارجية للمجرة، وهي تتباعد عن هذه الحاشية الخارجية بمقدار اثني عشر ميلًا كل ثانية وهكذا جميع السيارات تسير إلى جانب أو آخر مع دورانها الخاص طبقًا لنظامها، فمنها ما يسير بسرعة ثمانية أميال في الثانية، ومنها ما يسير بسرعة ثلاثة وثلاثين ميلًا في الثانية، ومنها ما يسير بسرعة أربعة وثمانين ميلًا في الثانية. وجميع النجوم على هذا النحو تبتعد في كل ثانية بسرعة فائقة عن مكانها. هذه الحركة المدهشة تحدث طبقا لنظام وقواعد محكمة بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ولا

(١) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٦٩.

يحدث اختلاف في سرعتها[1].

ثالثًا: الشمس وحساب السنين:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: ٥].

ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه لحساب الشهور والأيام والساعات ونقصانها وزيادتها لم يعلم الناس بذلك، ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم، فالسنة تتحصل من اثني عشر شهرًا، والشهر من ثلاثين يومًا إن كان كاملًا، ومن تسع وعشرين يومًا إن كان ناقصًا، واليوم من ساعات معلومة هي أربع وعشرون ساعة لليل والنهار، وقد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف[2].

وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾ [الإسراء: ١٢].

قال الطبري: «ومن نعمته عليكم أيها الناس، مخالفته بين علامة الليل وعلامة النهار، بإظلامه علامة الليل، وإضاءته علامة النهار، لتسكنوا في هذا، وتتصرفوا في ابتغاء رزق الله الذي قدره لكم بفضله في هذا، ولتعلموا باختلافهما عدد السنين وانقضائها، وابتداء دخولها، وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها»[3].

فالمراد بالسنين هنا القمرية التي هي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يومًا، وثماني ساعات، وثمان وأربعون دقيقة، ولا مانع من أن تشمل جملة آية السنين والحساب السنة الشمسية التي هي ثلاثمائة وخمس وستون يومًا، وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة أيضا، والفرق بينهما عشرة أيام وإحدى عشرة ساعة ودقيقة واحدة[4].

فالقمر يدور حول الأرض في كل شهرٍ قمريٍ مرةً واحدةً، وحول نفسه في وقتٍ مساوٍ تمامًا لدورته حول الأرض، لذلك لا نرى من القمر إلا وجهًا واحدًا طوال الحياة، لأنه يدور حول الأرض، وحول نفسه في وقتٍ واحدٍ، ويستكمل دورته حول نفسه في تسعةٍ وعشرين يومًا، وثماني ساعات، ويستكمل دورته حول الأرض في تسعةٍ وعشرين يومًا وثماني ساعات. لكن الشيء الذي يلفت النظر أن القمر يقطع في كل يومٍ

(١) انظر: الإسلام يتحدى ص٦٤.
(٢) فتح البيان، القنوجي ٦/ ١٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٩٥.
(٤) انظر: بيان المعاني، عبدالقادر العاني ٣/ ٨.

من دائرة سيره من فلكه حول الأرض ثلاث عشرة درجةً، ويتأخر في شروقه عن اليوم السابق تسعًا وأربعين دقيقةً كل يومٍ، ولولا هذا التأخر لبدا القمر بدرًا طوال الحياة، ولكن تأخره تسعًا وأربعين دقيقةً عن شروقه السابق كل يومٍ هو الذي يرينا القمر في مراتب، من هلالٍ، إلى ربع، إلى بدر، إلى عرجونٍ، إلى غيابٍ كاملٍ[1].

رابعًا: القسم بالشمس:

القرآن الكريم آية مبصرةٌ وحجةٌ ظاهرةٌ ومعجزة باقية وحاضرة، تتجلى في كل وقت وحين، تشهد للحق وتبينه وتبدد سحائب الباطل وغيوم الضلال.

والقسم من أساليب القرآن في إقامة الحجة وتقريرها، والتنويه على آيات الله في الكون، فتارة يقسم الله تعالى بهذه الآيات الكونية العجيبة على صدق الآيات التنزيلية العظيمة، وتارة يلوح بالقسم ويبين أن الأمر أوضح وآكد من أن يحتاج لقسمٍ.

ومن الأقسام في القرآن القسم بالشمس وما يتبعها ويتعلق بها أو يتزامن معها من ظواهر وأجرام، والقسم بالسماء والأرض وبالنفس البشرية.

قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١ - ١٠].

فأقسم تعالى بالشمس وقت تألقها، وساعة شروقها، فتبدو في أبهى حللها وفي أجمل أحوالها، ففي الشتاء تبعث أشعتها بالنور والدفء، وفي الصيف قبل أن ترتفع تكون الساعات المبكرة في النهار من ألطفها نداوة وطراوة، ومن أرقها نسيمًا.

وأقسم تعالى بالقمر حين يتبعها وينوب عنها في السماء، سيما في الليلة الظلماء حين يكتمل البدر فيجلي ظلام الليل، وبالنهار إذا طلع فأشرقت له الدنى، وبالليل إذا أرخى سدوله، والسماء وما أعظم بناءها، وبالأرض وكيف بسطها ومدها ووسعها بقدر ما يلائم الحياة عليها.

كما أقسم بالنفس البشرية كيف سواها وأبدعها ربنا خلقةً وجبلها على هذه الفطرة السوية، وألهمها رشدها، وخيرها بين طريق الحق والغواية.

بهذه الخلائق وتلك الحقائق التي لا يماري فيها أحد أقسم الله عز وجل على حقيقة مؤكدة قد تغيب عن الأذهان أو يماحل فيها أهل الجحود والنكران بأن الفلاح لمن زكى نفسه فطهرها وارتقى بها وحملها على طاعة الرحمن، والخيبة

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، ٢/ ٢٤.

والخذلان على من ضيعها وأطلق لها العنان، وحملها على معصية الملك الديان، فدفنها في تربة المهلكات وغطها في أوحال الشهوات.

يقول صاحب الظلال: «يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها. ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى وأن يوجه إليها القلوب تتملاها، وتتدبر ماذا لها من قيمة، وماذا بها من دلالة، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم. وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها. بالشمس عامة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة»[1].

خامسًا: الشمس والظل:

الظل نعمة من الله تعالى تستروح إليه النفوس، فتفيء من وهج الشمس وحرها. تشرق الشمس بأشعتها، فيبدأ الظل في الانحسار شيئًا فشيئًا كلما ارتفعت الشمس حتى تتوسط الشمس كبد السماء فترى الظل أقل ما يكون، فإذا مالت جهة الغرب تبدأ الظلال في الزيادة إلى أن تصل إلى أقصاها عند الغروب، وتلك هي حركة الظل بالامتداد والانقباض.

إنها آيةٌ عظيمة جديرةٌ بالنظر والتأمل.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨].

فينتقل الظل من حال إلى حال، لكنه في جميع أحواله ساجدٌ لربه وقد جبل على طاعته.

قال الضحاك: إذا طلعت الشمس يسجد ظل كل شيء نحو المغرب، فإذا زالت الشمس سجد ظل كل شيء نحو المشرق حتى تغيب[2].

وقال ابن جزي: «معنى الآية: اعتبار بانتقال الظل، ويعني بقوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ الأجرام التي لها ظلال من الجبال والشجر والحيوان وغير ذلك، وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى وقت الزوال يكون ظلها إلى جهة، ومن الزوال إلى الليل إلى جهة أخرى، ثم يمتد الظل ويعم بالليل إلى طلوع الشمس، وقوله ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ من الفيء، وهو الظل الذي يرجع بعكس ما كان غدوة»[3].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦].

في الآية السابقة وجه الرؤية إلى

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٥.

(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٦٣٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٧٣.

تلك الظاهرة، وفي هاتين الآيتين دعوة لاستحضار عظمة الله وتدبيره لهذا الكون، فالأثر يدل على المؤثر، والفعل يدل على الفاعل، والصنعة تدل على الصانع، وهذا المشهد جدير بأن تتملى منه العين وترقبه بإمعان، فهو مشهد حسي يقرر تلك المشاهد والمرئيات الغيبية التي وردت في السورة الكريمة.

قال ابن عاشور: «قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: غير متزايد؛ لأنه لما كان مد الظل يشبه صورة التحرك أطلق على انتفاء الامتداد اسم السكون بأن يلازم مقدارًا واحدًا لا ينقص ولا يزيد، أي: لو شاء الله لجعل الأرض ثابتة في سمت واحد تجاه أشعة الشمس، فلا يختلف مقدار ظل الأجسام التي على الأرض وتلزم ظلالها حالة واحدة، فتنعدم فوائد عظيمة»[1].

«إن الباحثين يقولون بحسب ما يرى من الأسباب الظاهرة : إن وجود الشمس، وحركة الأرض حولها، هما السبب في حركة الظل. ولكن التعبير القرآني يقول لنا: إن إرادة الله هي التي حركت الظل ابتداءً، (ثم) جعلت الشمس دليلًا على الظل، فليست الأسباب الظاهرة هي الأصل، ولكنها تجيء تالية، بل تجيء على التراخي بلفظ (ثم)، بعد تقرير الله للأمر بمشيئته، التي تقول للشيء: كن فيكون، ثم نتحرك مع السياق حركة جديدة ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٤٦].

إن التعبير يصور حركة الظل الوئيدة التي تراها العين فلا تلتفت إليها، أو لا تلتفت إليها بكليتها، ولكن الخيال هنا مع التعبير القرآني لا يملك أن يفلت من أسر الصورة التي تصورها تلك الكلمات القلائل في إبداع معجز! إن الظل هنا لا يتحرك راجعًا من تلقاء نفسه، ولا من أثر الأسباب الظاهرة التي نعرفها. إننا مع السبب الحقيقي، ولكنا نقف مبهورين ننظر إلى الظل وهو يقفل راجعًا بعد ما امتد. لماذا ؟ لأن يدًا خفية هي التي تطويه في حركة وئيدة كحركة الظل. إنها يد الله!

وهكذا تجدنا مع الله مرة أخرى، نرقب ـ من حركة الظل ـ قدرته القادرة، ويده الخفية سبحانه التي لا تدركها الأبصار! على أن أروع ما في التعبير القرآني في الآية هو هذا اللفظ (إلينا): ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٤٦].

أتدري ماذا فعلت هذه اللفظة المفردة في كيان الصورة كله؟! هل تغيرت (معلوماتك) عن الظل حين قرأت هذه الآيات ؟ كلا!

إن (المعلومات) في ذاتها ليست جديدة. لقد كانت معلومة من قبل، ولكنه ذلك العلم الميت الساكن الذي لا يتحرك، ولكن القرآن

(١) التحرير والتنوير ١٩/ ٦٤ باختصار.

يحيي هذه المعلومات حين يعرضها في جوه الوجداني بطريقته المعجزة، فتنتقض حية كأنها ليست هي التي كنا نعرفها من قبل وما تغيرت هي! إنما نحن الذين تغيرنا! حين زال عن حسنا التبلد للتجربة المكرورة والنظر المكرور[1].

والظل نعمة من نعم الله تعالى الذي قال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١].

ولا يمكن أن يتساوى الظل مع الحرور، فالظل تستروح إليه النفس وتفيء إليه من حر الهاجرة طلبًا لنسمة باردة.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ [فاطر: ١٩ - ٢١].

فكما لا يستوي الأعمى والبصير لا تستوي الظلمات والنور ولا الظل ولا الحرور، فالظلال الوارفة التي يفيء الناس إليها من حر الرمضاء فيستروحون روحها اللطيفة ويتنسمون نسيمها البارد لا تستوي أبدًا مع شدة الحرارة بالليل ووهجها بالنهار.

وقد أجادت الشاعرة الأندلسية في التعبير عن ذلك بقولها[2]:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ
وقاه تضاعف النبت العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأٍ زلالًا
ألذ من المدامة للنديم
يروع حصاه حالية العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم
يصد الشمس أنى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم

(١) انظر: دراسات قرآنية، محمد قطب ص٢٢١.

(٢) الأبيات لحمدة العوفية، كما في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٤/ ٢٨٨.

أوصاف الشمس

ذكر الله تعالى للشمس ثلاثة أوصاف:

أولًا: الشمس سراج وهاج:

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١].

«والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة، فلذلك سماها سراجًا، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه؛ وهو أيضًا معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة. أما الباحث المتخصص في شئون الفلك فيفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلم، وإنما يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي شبهها بالسراج بالنسبة له؛ وهو أيضًا معنى صحيح تدل الآية عليه بلغتها وصياغتها، فأنت تقول: غرفة منيرة إذا انعكس عليها الضوء من سراج في وسطها، ولا تقول: قبس منير، إذ ينبعث النور من حقيقته وداخله، بل تقول قبس مضيء»[(١)].

وآيات الكون من الآيات الجلية والبراهين الساطعة التي استشهد بها أنبياء الله في دعواتهم لأقوامهم هذا أول المرسلين نوح عليه السلام، يخاطب قومه مبينًا لهم قدر الله تعالى وعظيم إنعامه وجميل ألطافه والذي يرون مظاهره وآثاره بأعينهم وكأنها لم تره من فرط الغفلة ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٥-١٦].

«وجعل الله الشمس سراجًا يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، والقمر ليس كذلك، إنما هو نور لم يبلغ قوة ضياء الشمس»[(٢)].

وفي سياق إقامة الأدلة الحسية على إمكان البعث يقول تعالى في سورة النبأ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ: ١٣].

فالشمس جرم متوهج يبعث بالحرارة والضياء وفق نظام دقيق من الأدلة الباهرة على قدرة الله تعالى وعنايته بخلقه، وبما يقرر أمر البعث الذي يشكك فيه الكفرة.

قال الراغب: السراج: الزاهر بفتيلة ودهن، ويعبر به عن كل مضيء»[(٣)].

ذلك أن المصباح يضيء بزيته، كذلك الشمس تضيء بما فيها من طاقات كامنة متجددة، وتفجيرات هائلة.

قال مقاتل: والوهج يجمع النور والحرارة[(٤)].

(١) من روائع القرآن، البوطي ص ١١٦.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦١٨.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٦.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٠٠.

وقال الزجاج: الوهاج: الوقاد[1]، وهو الذي وهج[2].

وقال الفيروزآبادي: «الوهج: حصول الضوء، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي: مضيئًا متوقدًا، وقد وهجت النار توهج، وتوهج الجوهر: تلألأ[3].

قرأ حمزة والكسائي: (سُرُجًا) على الجمع. وقرأ الباقون ﴿سِرَاجًا﴾ على التوحيد[4].

وهذا معنى آخر يستفاد من تعدد القراءات في الآية الكريمة، يدل على كثرة الشموس التي تضيء السماء، فالشمس نجم مضيء بذاته، حيث لمعان الشمس يعادل ضوء القمر وهو بدر ٤٠٠ ألف مرة، ويصل ضوء الشمس إلى الأرض بعد ٤٩٩ ثانية، وهي كرة ضخمة من الغازات المتوهجة ذات الكثافة الكبيرة، ويصل قطرها إلى حوالي ١,٣٩٣,٠٠٠ كم، أو ما يعدلها ١٠٩ مرة طول قطر الأرض، ولهذا فإن حجم الكرة الشمسية يزيد على حجم الكرة الأرضية بأكثر من مليون مرة[5].

وهذه الشمس التي نعدها اليوم وسيلة حياتنا تبلغ حرارة سطحها عشرة آلاف درجة فهرنهيت؛ والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ١٥٠ مليون كيلومتر، وهذا البون الهائل دائم لا يتغير أبدًا لزيادة أو نقص، وفي ذلك عبرة عظيمة لنا؛ لأنه لو نقص واقتربت الشمس من الأرض بمقدار النصف مثلًا من الفاصل الحالي فسوف يحترق الورق على الفور من حرارتها، ولو بعد هذا الفاصل فصار ضعف ما هو عليه الآن فإن البرودة الشديدة التي تنجم عن هذا البعد سوف تقضى على الحياة في الأرض، ولو أنه حل محل الشمس سيار آخر غير عادى يحمل حرارة تزيد على حرارة الشمس عشرة آلاف مرة فسوف يجعل من الأرض تنورًا رهيبًا.

ولقد جاءت سراجًا مفردة مرتين في سورة الفرقان وسورة نوح، وجاءت موصوفة بكونها وهاجًا في سورة النبأ، فالشمس في ذاتها سراج توقد وتضيء بذاتها، ووصفها بكونها وهاجًا لشدة ضوئها وحرارتها.

فحرارة سطح الشمس تبلغ ستة آلاف درجة مئوية، وحرارة جوفها تصل إلى ٢٠ مليون درجة مئوية. وألسنة اللهب ترتفع عن سطحها إلى نصف مليون كيلومتر ناثرة في الفضاء طاقة تساوي ٤٠٠، ١٦٧ حصان من كل متر مربع، لا يصل منها للأرض سوى جزء من مليون جزء[6].

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٧٢.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ١١٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٤١٢.
(٣) بصائر ذوي التمييز ٥/ ٢٨٧.
(٤) حجة القراءات ص ٥١٢.
(٥) المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة ص ٧٨.
(٦) النجوم في مسالكها، جيمس جينز، ترجمة

«إن هذه الشمس التي يصلنا منها ضوء ينير حياتنا ويدفئنا بلطف هي عبارة عن بئر سحيقة تملؤها سحب غازية حمراء اللون. وتتكون الشمس من ألسنة اللهب التي تكون على شكل خراطيم عملاقة قادمة من أعماق سحيقة مندفعة نحو الخارج بملايين الكيلومترات. لا شك في أن هذه الخراطيم النارية العملاقة خطيرة على حياة الإنسان، ولكن جميع أنواع الأشعة الخطيرة القادمة من الشمس يتم امتصاصها من قبل الغلاف الجوي للأرض ومجالها المغناطيسي قبل أن تصل إلينا، وهذا هو النظام المتقن لمجموعتنا الشمسية»[(١)].

يقول أحد الباحثين في الإعجاز العلمي: تبين للعلماء أن الشمس هي نجم من نجوم هذا الكون، وهي عبارة عن مصباح تعمل بالوقود النووي، حيث يتفاعل الهيدروجين وتندمج ذراته مع بعضها ثم تنتج ذرات الهليوم وتبث الطاقة والحرارة. ويقول العلماء، إن الشمس تصدر ألسنة من اللهب يبلغ طولها مئات الآلاف من الكيلو مترات، وتصدر كميات كبيرة من الطاقة والحرارة، وتحرق الشمس في كل ثانية أكثر من ٤ مليون طن من المادة، جميعها يتحول إلى حرارة وطاقة وإشعاعات بمختلف أنواعها.

ثانيًا: الشمس ضياء.

ذكر الله من أوصاف الشمس كونها ضياء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: ٥].

بينما الشمس تضيء بذاتها، بما يكمن فيها من طاقة متجددة نجد القمر جسمًا معتمًا مظلمًا يعكس ضياء الشمس ويبعث به نورًا يبدد ظلام الليالي الحالكة، وضوء الشمس مصحوبٌ بالحرارة والدفء، بينما ضوء القمر بلا حرارة.

قال العسكري: «الضوء: ما كان من ذات الشيء المضيء، والنور: ما كان مستفادًا من غيره»[(٢)].

وقال السمرقندي: «ويقال: جعل الشمس ضياء مع الحر، والقمر نورًا بلا حر»[(٣)].

دكتور أحمد الكرداني، نقلًا عن وجوه من الإعجاز القرآني، مصطفى الدباغ، نقلًا عن مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص ١٨١.

(١) الروعة في كل مكان، يحي هارون ص١٧.

(٢) الفروق اللغوية ص ٣٣٢.

(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ١٠٤.

الشمس والعبادة

أولًا: سجود الشمس لله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

فكل ما في الكون يسجد لله تعالى بكيفيات وهيئات متنوعة منها ما نراه ونشاهده ومنها ما يغيب عن حواسنا القاصرة.

عن أبي ذرٍ رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: لأبي ذرٍ حين غربت الشمس: (أتدري أين تذهب؟)، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد، فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨])[1].

قال ابن الجوزي: «ربما أشكل الأمر في هذا الحديث على من لم يتبحر في العلم، فقال: نحن نراها تغيب في الأرض، وقد أخبر القرآن أنها تغيب في عين حمئة، فإذا دارت تحت الأرض وصعدت، فأين هي من العرش؟ فالجواب: إن الأرضين السبع في ضرب المثال كقطب رحا، والعرش لعظم ذاته كالرحى، فأين سجدت الشمس سجدت تحت العرش، وذلك مستقرها[2].

ثانيًا: الشمس ومواقيت العبادات:

مواقيت العبادة موزعة على النهار وجزء من الليل، والشمس آلة تلك الأوقات.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٢-١١٥].

فأمر بالمحافظة على الصلوات ﴿طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾: الفجر والعصر، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: وأوقات من الليل تتقرب بها إلى الله، من أول الليل لقربها من النهار، كصلاة المغرب والعشاء، ومن آخره قريبًا من النهار.

وقال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨].

والدلوك: الغروب. وقيل: الدلوك زوال الشمس نصف النهار. وقيل: الدلوك من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، ٤/ ١٠٧، ٣١٩٩، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم ١٥٩.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، ١/ ٣٥٩.

وقت الزوال إلى الغروب. والغسق: سواد الليل وظلمته. وقيل: غسق الليل دخول أوله وقت صلاة العشاء[1].

قال ابن العربي: وفيه قولان: أحدهما: زالت عند كبد السماء؛ قاله عمر، وابن عمر، وأبو هريرة، وابن عباسٍ، وطائفةٌ سواهم من علماء التابعين وغيرهم. الثاني: أن الدلوك هو الغروب؛ قاله ابن مسعودٍ، وعليٌّ، وأبي بن كعبٍ، وروي عن ابن عباسٍ[2].

وعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، (أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله عن مواقيت الصلاة، فقال: (اشهد معنا الصلاة)، فأمر بلالًا فأذن بغلسٍ، فصلى الصبح حين طلع الفجر، ثم أمره بالظهر حين زالت الشمس عن بطن السماء، ثم أمره بالعصر والشمس مرتفعةٌ، ثم أمره بالمغرب حين وجبت الشمس، ثم أمره بالعشاء حين وقع الشفق، ثم أمره الغد فنور بالصبح، ثم أمره بالظهر فأبرد، ثم أمره بالعصر والشمس بيضاء نقيةٌ لم تخالطها صفرةٌ، ثم أمره بالمغرب قبل أن يقع الشفق، ثم أمره بالعشاء عند ذهاب ثلث الليل، أو بعضه فلما أصبح، قال: (أين السائل؟ ما بين ما رأيت وقتٌ)[3].

(١) قال العسكري: قيل: دلوكها: غروبها، وقيل: زوالها.
الوجوه والنظائر، العسكري ص ٢٨٩.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢٠٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلوات الخمس، ١/ ٤٢٩، رقم ٦١٣.

عبادة الناس للشمس

الشمس نجم متوسط الحجم والكتلة، وتوجد في الفضاء نجوم أكبر منه مئات، بل آلاف المرات، وقديما عرف الناس أهميتها في حياتهم، بينما وصل الجهل ببعض من الناس إلى أن عبدوها من دون الله، فشيدوا المعابد وقدموا النذور والقرابين وسجدوا لها من دون الله، وهذا من ضلالهم وتزيين الشيطان لهم، كما وقع من قوم سبأ الذين كانوا يسجدون للشمس، وأنكر عليهم هدهد سليمان عليه السلام هذا الضلال البين، ولقد نقض القرآن الكريم هذه الخرافات، كما سنبينه فيما يلي:

أولًا: عبادة قوم إبراهيم عليه السلام للشمس:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي

﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام:٧٥-٧٩].

أقام إبراهيم الحجة على قومه الذين عبدوا الأصنام وعبدوا الشمس والقمر والكواكب جهلًا منهم وضلالًا، فهذه الأجرام مع عظمتها وإنافتها وروعتها ومنافعها الجمة، فهناك من خلقها وأبدعها وسيرها، ولقد لفت إبراهيم عليه السلام أنظار قومه إلى كون تلك الأجرام العلوية حادثةً متنقلةً من حال إلى حال بما يتنافى مع طبيعة الإله الحق، فالكوكب في أول سطوعه يخلب الأنظار بنوره الأزهر لكنه سرعان ما يغيب ويضمحل أمام نور الصباح.

فبين إبراهيم عليه السلام نفوره من عبادة إله يغيب ويتلاشى، لأن الإله الحق لا يغيب ولا يتلاشى، كيف وهو رب كل شيء ومليكه ومدبره ومسيره!

فلما رأى القمر ساطعًا ينير ظلمة الليل البهيم، وقد تألق في السماء وبدا حسنه وسناؤه، تدرج مع قومه فقال على سبيل المجاراة لهم: هذا ربي! ليلفت أنظارهم لتلك الحجة التي سيلقمهم إياها حين يغيب نور القمر فيقول ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فقطع رجاءهم من القمر، الآفل وعلق القلوب والآمال بهداية الله تعالى التي ليس سواها هداية، ليكشف لقومه سبيل الهداية الأوحد الذي لا ثاني له، وأن الخلق جميعًا مفتقرون لهداية ربهم.

ثم كانت الحجة الثالثة حين طلع النهار وأشرقت الشمس بضيائها وسناها، وملأت الكون نورًا ودفئًا، فقال مجاريًا لقومه: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ مما سبقه من أجرام، فلما غربت وخيم الظلام أعلن براءته مما عليه قومه من شركٍ وضلال،٦٦ كما أعلن توحيده لله وعبادته له وحده.

قال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر الكواكب جرمًا، وأعظمها قوة، وفيه تأكيد لما رامه عليه الصلاة والسلام من إظهار النصفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر»[1].

ثانيًا: مملكة سبأ وعبادة الشمس:

قال الله تعالى في قصة سليمان عليه السلام والهدهد مع قوم سبأ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ

(١) محاسن التأويل ٤/ ٤٠٤.
وانظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٥٤.

﴿ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٦].

بعد أن وصف الهدهد ما عليه تلك المملكة من حضارة وازدهار، نعى ما هم عليه من ضلال بعبادتهم الشمس من دون الله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

شخص الهدهد أصل الداء، وهو تزيين الشيطان لهم هذه العبادة الغريبة وتلك الديانة العجيبة التي تدل على جهلٍ وحماقة، كيف يقدسون هذا الجرم السماوي ويتفننون في عبادته وإقامة المعابد وزخرفتها وتزيينها وإنشاد الأناشيد واختلاق الطقوس التي يؤدونها! إن هذا كله من وحي الشياطين، من أجل صد الناس عن سبيل التوحيد الذي لا سبيل غيره، أما الشمس فمع كبر حجمها وأهميتها في حياتنا لكنها ضئيلة بالمقارنة بغيرها من النجوم التي تكبرها آلاف المرات، فضلًا عن كونها جزءًا من مجرة تحيطها مجرات كثيرة، فما هي في ملك الله العظيم إلا كحلقة في فضاء.

ولذلك تأتي لفتة دقيقة من الهدهد يبين فيها عظمة عرش الرحمن جل وعلا، فما عرش بلقيس بالنسبة له! وما حجم الشمس مقابله! وما الشمس إلا نجمٌ من بين ملايين الشموس؛ فكان الأولى بهم أن يسجدوا لله تعالى الذي يخرج بقدرته ما في السموات وما في الأرض من كنوز وخبايا، من أمطار وأرزاق ونبات وأشجار ومعادن وخيرات.

وفي إخراج الخبء: أمارة على أنه من كلام الهدهد فهو يحط على الأرض وينقرها بمنقاره الطويل فيخرج طعامه «بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد تخفى على ذي الفراسة النظار بنور الله مخائل كل مختصٍ بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

فالشمس هذا النجم العظيم وما ينبثق عنها من منافع للكون آيةٌ من آيات الله، وما هي في هذا الكون الرحيب إلا كالكرة المعلقة في فضاء شاسع، ونجمٌ من ضمن مليارات النجوم التي أبدعها الخالق جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٢.

فالشمس جزء من مجموعة تابعة لمجرة، والمجرة واحدة من بلايين المجرات في الكون.

إن نظرة كثير من البشر إلى المخلوقات من حولها تتناقض بين نظرة ملؤها القهر والاستكبار والتسلط وبين الشعور بالمذلة والهوان، بين من يتكلم عن هذه المخلوقات بلغة القهر والتسلط والغرور والقسوة، وبين من سقط في عبادة هذه النعم وترك عبادة المنعم جل وعلا، فعبدوا الشمس والقمر والنجم والشجر والطير والحجر والوحش والبقر من دون الله، بين من ينظر لهذه المخلوقات بعين الازدراء والتحقير، وبين من ينظر إليها بعين التقديس والتعظيم، بينما كانت رسالة القرآن في بيان النظرة الصحيحة لهذه المخلوقات بعين الاعتبار والتقدير لدورها في الوجود، وأنها مربوبة لله منقادةٌ له جل وعلا فهو آخذ بناصيتها، ندرك من ذلك مدى ضلال من عبدوها من دون الله إعجابًا بمنافعها غافلين عن عبادة من خلقها وسخرها.

الشمس يوم القيامة

للقرآن الكريم حديثٌ مستفيضٌ عن نهاية العالم، بين فيه ما يجري للكون من أمورٍ عظامٍ وأهوالٍ جسامٍ، وأثر ذلك على الإنسان ذلك المخلوق الضعيف الذي سيرى بأم عينيه ما يجري للكون حوله من تغيراتٍ وزلازل وانفجارٍ ودمار يشيب من هوله الصغار.

حدثنا القرآن عن مصير الأرض والسماء والنجوم والكواكب والشمس والقمر، والجبال والبحار، وغيرها من الكائنات. مشاهد علوية ومشاهد أرضية، «ففي العالم العلوي: تنفطر السماء، وتنتثر الكواكب، وتتكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتنفرج السماء، وتتشقق، ويخسف القمر، ويجمع الشمس والقمر. وفي العالم الأرضي: تنفجر البحار، وتسير الجبال، وتكون كالعهن المنفوش، وتنسف نسفًا، وتدك دكًا»[1].

أولًا: حال الشمس عند قيام الساعة:

١. أجل الشمس.

يرتبط أجل الشمس بأجل الدنيا فهي من أسباب عمرانها وبقاء هذا العالم، فإذا قضى الله تعالى نهاية العالم، لحق بالشمس

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١/ ١٢٦.

ما يلحق غيرها من الفناء. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد:٢].

قال مقاتل: يعني: إلى يوم القيامة[(١)].

وقال الطبري: «يقول جل ثناؤه: كل ذلك يجري في السماء لأجلٍ مسمًى، أي: لوقت معلومٍ، وذلك إلى فناء الدنيا وقيام القيامة التي عندها تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنكدر النجوم»[(٢)].

٢. الخروج من المغرب.

من علامات القيامة الكبرى طلوع الشمس من مغربها؛ خرقًا لنواميس الكون وإيذانًا بانقضاء الدنيا وخراب الكون.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام:١٥٨]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها، لم تكن آمنت من قبل)[(٣)].

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام:١٥٨].

قال: «لا تزال التوبة مبسوطةً ما لم تطلع الشمس من مغربها»[(٤)].

٣. التكوير.

وفي القرآن الكريم سورة كاملة تسمى بسورة التكوير، تبدأ بهذا الحدث العظيم المرتقب وما يرافقه ويلاحقه من أحداث جسام وأهوال عظام: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١-١٤].

فالسورة في أولها حديث عن مشاهد القيامة وأهوالها التي تتجلى على كل مخلوق، على الشمس والنجوم والجبال والبهائم والوحوش وعلى البحار وعلى السماء، مع تحول الغيبيات إلى مشاهد

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٣٦٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤١١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، ٦/ ٥٨، ٤٦٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم ١٥٧، ١/ ١٣٧.
(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٦٩.

محسوسة، وانتقال الوعد والوعيد إلى حقائق واقعة، فالنفوس تتزاوج كلٌّ مع ما يشاكلها كما تتزاوج بمصيرها وعاقبتها التي لا تنفك عنها، والموءودة حان وقت القصاص لها وسؤال القاتل بتوبيخ: لماذا قتلها؟ بأي جريرة استحل دماءها! والصحف تتطاير لا تخطئ أصحابها، فسميت بسورة التكوير تنويهًا على هذا الحدث العظيم وتلك المشاهد المروعة والصور المتداخلة والأحداث المتعاقبة المتشابكة التي عرضتها السورة بأسلوبها الذي يهيج النفوس، ويزلزل أعماق القلوب ويخلع النفوس من واقعها، ليوقفها أمام هذه الأهوال العظام.

عن الحسن: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١].

يقول: «تكور حتى يذهب ضوؤها فلا يبقى لها ضوءٌ»[(١)].

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾: أذهب ضوءها[(٢)].

وعن مجاهد: اضمحلت وذهبت[(٣)].

وعن ربيع بن خثيم: ﴿كُوِّرَتْ﴾: رمي بها[(٤)].

ويجمع الطبري بين هذه الأقوال فيقول: «والتكوير في كلام العرب: جمع بعض الشيء إلى بعض، وذلك كتكوير العمامة، وهو لفها على الرأس، وكذلك قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إنما معناه: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل ذلك بها ذهب ضوءها»[(٥)].

ويقول سيد قطب: «إن تكوير الشمس قد يعني: برودتها. وانطفاء شعلتها، وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء. كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف. واستحالتها من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التي تبلغ ١٢٠٠٠ درجة، والتي تحول جميع المواد التي تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة ملتهبة استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض، وتكور لا ألسنة له ولا امتداد! قد يكون هذا، وقد يكون غيره أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه؟ فعلم ذلك عند الله.

وانكدار النجوم قد يكون معناه: انتثارها من هذا النظام الذي يربطها، وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها، والله أعلم ما هي النجوم التي يصيبها هذا الحادث؟ وهل هي طائفة من النجوم القريبة منا مجموعتنا الشمسية مثلًا، أو مجرتنا هذه التي تبلغ مئات الملايين

(١) تفسير مجاهد ص ٧٠٧.
(٢) تفسير عبد الرزاق ٣/ ٣٩٥.
(٣) انظر: جامع البيان ٢٤/ ٢٣٨.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

من النجوم أم هي النجوم جميعها؟ والتي لا يعلم عددها ومواضعها إلا الله. فوراء ما نرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءات لها لا نعرف لها عددًا ولا نهاية[1].

وفي تحليل أو لنقل تقريب علمي لهذه الظاهرة المرتقبة يقول أحد الباحثين في بيان مصير الشمس بين القرآن والعلم ومعنى قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ «يقول العلم: تتكون الشمس من ٧٠ ٪ من غاز الهيدروجين، و٢٧٪ من غاز الهيليوم، ويتم تحول الهيدروجين إلى هيليوم بالتدريج، إلى أن ينتهي فيتكور قلب الشمس (يتداخل في بعضه وينكمش) وتتوقف التفاعلات النووية، وتنتفخ الطبقة الخارجية للشمس ويزداد قطرها إلى درجة تصل فيها أن تبتلع الأرض».

ولا شك أن العلم الحديث يكاد يجمع على أن للشمس نهايةً وأنها تصير تدريجيًا، إلى هذه النهاية المرتقبة، ولكن النظريات والافتراضات العلمية لا يمكن أن تستوعب أو تنطبق على الحقائق الغيبية، وإن كانت لا تعارضها بل تقربها للأذهان.

ثانيًا: حال الشمس يوم القيامة:

تتعرض الشمس للتكوير حين تفقد طاقتها الكامنة المتجددة، فتتكور كما تكور العمامة وتفقد سيطرتها وجاذبيتها للأجرام الأخرى التي تدور حولها، فتختل تلك السنن الثابتة، وتتعطل تلك المنظومة لتؤذن باختلال نظام الكون.

ثم يلتحم بها القمر، قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ قال الواحدي: جمعا في ذهاب نورهما[2].

وقال السمعاني: «﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾: في الخسفة وإذهاب الضوء[3].

قال ابن عطية: واختلف المتأولون في معنى الجمع بينهما، فقال عطاء بن يسار: يجمعان فيقذفان في النار، وقيل: في البحر، فتصير نار الله العظمى، وقيل: يجمع الضوءان فيذهب بهما[4].

ويرى علماء الفلك أن القمر سيقترب من الشمس حتى ينجذب إليها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة التي تعد من مشاهد القيامة ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.

الجنة لا شمس فيها:

قال تعالى في سياق الحديث عن نعيم أهل الجنة: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾

فنعيم الجنة نعيم خالدٌ تامٌ ليس هناك ما يكدره أو ينغصه أو ينقصه، وأمور الآخرة لا تنقاس على أمور الدنيا، فللآخرة سننها

(١) في ظلال القرآن ٧/ ٤٦٩.

(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٣٩١.

(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٠٤.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٣.

ونواميسها التي تختلف عن سنن الحياة الدنيا، في الدنيا لا غنى عن الشمس، فهي إكسير الحياة ومصباح الوجود، أما في الآخرة فأهل الجنة ينعمون ويأكلون ويشربون دون حاجة لوهج الشمس وحرارتها التي تحرك الحياة.

في الدنيا يتضجر الناس من الحر ويتألمون من البرد الشديد، فينكد عليهم عيشهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (اشتكت النار إلى ربها، فقالت: رب قد أكل بعضي بعضًا فنفسني، قال: فأذن لها في كل عامٍ بنفسين، فأشد ما تجدون من البرد فهو زمهرير جهنم، وأشد ما تجدون من الحر فهو من حر جهنم)[1].

أما في الجنة فنعيم مقيم لا يعاني أهلها حر شمسٍ ولا يكابدون قسوة بردٍ، قال الله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: ١٣].

قال مقاتل: يعني: شمسًا يؤذيهم حرهم، ولا زمهريرًا يؤذيهم برده[2].

وقال ابن كثير: «ليس عندهم حرٌّ مزعجٌ ولا بردٌ مؤلمٌ، بل هي مزاجٌ واحدٌ دائمٌ سرمديٌّ لا يبغون عنها حولًا[3].

لمسات إعجازية في الشمس

بين القرآن الكريم كون الشمس جزءًا من المنظومة الكونية وأنها ليست مركزًا للكون، كما كان يتوهم، بل إنها تجري في مدارٍ محدد.

وبين القرآن الكريم أن مركز الشمس وحركتها إنما هو بحساب دقيق.

وأكد العلم الحديث ما قرره القرآن الكريم بنهاية هذا الكون واختلال منظومته.

وبين القرآن كون الشمس مصدر حرارة وضياء، بينما القمر يعكس نور الشمس، وقد اكتشف العلماء حديثًا بأن القمر جسمٌ معتمٌ، يعكس بأحد وجهيه ضوء الشمس.

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦].

يقول د. محي الدين عبد الغني عالم الفيزياء بجامعات النرويج: «الكلمة تحمل دلالة علمية رائعة، وهي انفلاق الضوء والذي يسمى في الفيزياء التحلل الضوئي، ويحدث عند سقوط الضوء على أحد أوجه المنشور الزجاجي فيتحلل (فينفلق) إلى ألوان (اللون هو ضوء ذو طول موجي مختلف عن الطول الموجي للون الآخر) ونفس الظاهرة تحدث عندما يسقط الضوء على وجه أسطوانة «سي دي»، ولكن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر، ١/ ١١٢، رقم ٥٣٧.
(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٤٠٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩٧.

توصف في الفيزياء بتشتت الضوء، وهو إنفلاق لمكونات الضوء الأبيض أيضًا».

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: ٥]

يقول د. محي الدين عبد الغني: تشير الآية إلى حقيقتين:

الحقيقة العلمية الأولى: الشمس منتجة للضوء فهي (ضياء) صانعة له، والقمر منير مجرد عاكس للضوء وينتج عنه نور.

الحقيقة العلمية الثانية: تتغير مواضع القمر برتابة معينة بحيث يمكننا الاعتماد عليها في الحساب وإحصاء عدد السنين، ومن هنا فإني أرى أن الاعتماد على الحساب في تحديد مواقيت الشهور هو نتيجة توجيه قرآني.

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: ٤].

بالرغم من كون الآية تحكي ما جاء في الرؤية إلا أنها تبين الفرق بين الشمس (نجم)، والكوكب: مثل الأرض يدور حول النجم وتابع له، والقمر وهو أقل وأضعف ضوءا من الشمس. وفي آية أخرى «والقمر إذا تلاها» أي: تبع الشمس، ليس فقط في التتابع الزمني ولكن تلو ارتباطي أي: تجاذب وإمساك، كما يتبع الرضيع الأم.

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٣﴾ [إبراهيم: ٣٣].

يقول د. محيي الدين: «في الآية دلالة استمرار السطوع نهارًا وليلًا، لا كما كان يظن أن للشمس غروبًا. فهذا ليس صحيح، الصحيح أننا نحن البشر الذين نغيب عنها، أما هي فهي دائبة الشروق والسطوع. وفي الآية الكريمة جمع بين الشمس والقمر من ناحية، والليل والنهار من ناحية أخرى، وربط بين الظواهر الطبيعية المنبثقة عن دوران الأرض أمام الشمس».

وقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨].

يقول د. محيي الدين: تلفت الآية الكريمة إلى ظاهرة تغير ضوء الشمس قوة وضعفا على مدار النهار، وهو نتيجة لاختلاف زاوية سقوط الأشعة؛ فالمعنى المحوري للدلوك: زوال غلظ الشيء (ارتفاعه أو صلابته) أو حدته (خشونته)، فدلوك الشمس بذهاب حدتها، أي: حرارتها قبل الغروب أو به.

ولما كانت الشمس تتغير حدتها في فترة محدودة، وهي النهار، ثم تقوى في اليوم التالي وهكذا، فيمكن استنباط أن الشمس نفسها لا تضعف، وأن ما يضعف هو حدة

ضوئها، وبذلك تدفع الإنسان إلى التفكر على أساس سليم يوصله إلى حقيقة دوران الأرض، وكذلك ميل سقوط الأشعة، وهذا الميل هو الذي يسبب اختلاف درجات الحرارة.

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ۝٩٠﴾ [الكهف: ٩٠].

يقول د. محيي الدين: قد يشير القرآن بالتعبير ﴿مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ إلى ظاهرة تسمي «شمس منتصف الليل». وهي ظاهرة تظهر لسكان المناطق الواقعة في شمال الكرة الأرضية فيما يسمى بالدائرة القطبية، وفيها تظهر الشمس فلا تغيب على مدار الساعة، أي: ٢٤ ساعة في اليوم ولمدد متفاوتة طولًا وقصرًا على حسب الوقت من شهور الصيف والمكان. ففي الدائرة القطبية يظهر قرص الشمس في شهور الصيف فلا تغيب لمدة ستة شهور، وفي الشتاء - الستة شهور الأخرى - يغيب قرص الشمس فلا يظهر.

موضوعات ذات صلة:

السماء، القمر، النجوم، النهار

الشَّهَادَةُ

عناصر الموضوع

مفهوم الشهادة	٤٠
الشهادة في الاستعمال القرآني	٤١
الألفاظ ذات الصلة	٤٢
الشهادة في حق الله	٤٤
الشهادة في الحدود	٥٢
الشهادة في الحقوق	٥٧
الشهادة يوم القيامة	٦٨
أحكام أداء الشهادة	٧٤
عقوبة كتم الشهادة وتزويرها	٨١

مفهوم الشهادة

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (ش هـ د) على حضورٍ وعلمٍ وإعلامٍ، يقال: شهد يشهد شهادةً. كما يقال: شهد فلانٌ عند القاضي، إذا بين وأعلم لمن الحق وعلى من هو[(١)].

و«الشهادة خبرٌ قاطعٌ تقول منه: شهد الرجل على كذا، وربما قالوا: شهد الرجل بسكون الهاء. فالشهادة: الإخبار بما شاهده. والشاهد: العالم الذي يبين ما يعلمه ويظهره. والمشاهدة المعاينة، وشهده شهودًا: أي حضره، فهو شاهدٌ، وقومٌ شهودٌ: أي حضورٌ»[(٢)].

قال الراغب الأصفهاني: «الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر أو البصيرة، وقد يقال للحضور مفردًا. قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام:٧٣]. أي: ما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدون بهما، ولكن الشهود بالحضور المجرد أولى والشهادة مع المشاهدة أولى»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الموصلي الشهادة: هي «الإخبار عن أمرٍ حضره الشهود وشاهدوه، إما معاينةً كالأفعال نحو القتل والزنا، أو سماعًا كالعقود والإقرارات»[(٤)].

وعرفها الرملي بأنها: «إخبار الشخص بحق على غيره بلفظٍ خاص»[(٥)].

وقال البهوتي: «الشهادة: الإخبار بما علمه الشاهد بلفظٍ خاصٍ، كشهدت أو أشهد»[(٦)].

فالشهادة إذن إخبارٌ عن علمٍ.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ص ٥٣٩.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٣٩.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٨.
(٤) الاختيار لتعليل المختار، الموصلي ٢/ ٤١٣.
(٥) نهاية المحتاج، الرملي ٨/ ٢٩٢.
(٦) شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ٥٧٥.

الشهادة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شهد) في القرآن الكريم (١٦٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٩	﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[البقرة:١٨٥]
الفعل المضارع	٢٤	﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾[النساء:١٦٦]
الفعل الأمر	١٠	﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾[المائدة:١١١]
اسم فاعل	٢١	﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾[الأحقاف:١٠]
اسم مفعول	٣	﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾[هود:١٠٣]
مصدر	٢٧	﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾[الطلاق:٢] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾[مريم:٣٧]
صيغة مبالغة	٥٦	﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾[آل عمران:٩٨]

وجاءت الشهادة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، الذي هو بمعنى: الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٨٨ - ٣٩٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٦٧-٢٦٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخبر:

الخبر لغة:

قال ابن فارس: الخاء والباء والراء أصلان: فالأول العلم، والثاني يدل على لينٍ ورخاوةٍ وغزرٍ[١].

الخبر اصطلاحًا:

هو الكلام المحتمل للصدق والكذب، والخبر: العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، وفي الاصطلاح القرآني: ما يعبر به عن واقعة معينة[٢].

والخبر يكون من المخبر الأول ومن يليه، ويكون بالصدق والكذب، سارًا كان أو غير سارٍ[٣].

الصلة بين الخبر والشهادة:

الخبر إما أن يكون عن خاص أو عام، فالخبر عن خاص منحصر في ثلاثة معاني: الإقرار والبينة والدعوى؛ لأنه إن كان بحق على المخبر فهو الإقرار، أو على غيره فهو الدعوى، أو لغيره فهو الشهادة[٤].

قال العز بن عبد السلام «إن كان ضارًا لقائله فهو الإقرار، وإن لم يكن ضارًا به، فإما أن يكون نافعًا له، أو لا، والأول هو الدعوى، والثاني الشهادة»[٥].

٢ العلم:

العلم لغةً:

نقيض الجهل، والمعرفة، واليقين، والعلامة: النسابة، وهو من العلم[٦]، ويقال: «علمت الشيء أعلمه علمًا: عرفته»[٧].

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٣٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٧٣، التعريفات، الجرجاني ص٩٦.
(٣) انظر: شأن الدعاء، الخطابي ص٦٣.
(٤) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٢/ ١١٦.
(٥) المنثور في القواعد، الزركشي ٢/ ١١٦.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٠٨٣، تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٤١٨
(٧) الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٩٠.

العلم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني: «العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ونقل عن الحكماء فقال: هو حصول صورة الشيء في العقل»[(١)].

وأنكر ابن العربي تعريف العلم لوضوحه وقال: «العلم أبين من أن يبين»[(٢)]، وأنكر على من تصدى لتعريف العلم.

الصلة بين العلم والشهادة:

العلم والشهادة في الأصل واحد، إلا أن الشهادة اختص بما كان بإخبار صحيح، والعلم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحدث منه أثر في نفس المتعلم، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦][(٣)]، ولعلاقة العلم بالشهادة فقد ذكرها الله تعالى مقترنة في أكثر من عشرين موضعًا في القرآن العظيم.

٣ الإقرار:

الإقرار لغةً:

«هو الاعتراف. يقال: أقر بالحق: إذا اعترف به، وقرره غيره بالحق حتى أقر به. وأقر الشيء أو الشخص في المكان: أثبته وجعله يستقر فيه»[(٤)].

الإقرار اصطلاحًا:

«إخبار عن ثبوت حق للغير على نفسه»[(٥)]، فيجمع كلاً من الإقرار والشهادة أنها إخبارات.

الصلة بين الشهادة والإقرار:

«أن الإخبار إن كان عن حق سابق على لغيره على غيره فهو الشهادة، وإما أن يكون للمخبر نفع فيه: لأنه إخبار بحق له فهو إقرار بالدعوى»[(٦)].

---

(١) التعريفات ص ١٩١.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٤١.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٠٩، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٤٤.
(٤) مختار الصحاح، الرازي ص ٣٤٩.
(٥) انظر: فتح القدير، ابن الهمام ٦/ ٢٨٠، الشرح الصغير ٣/ ٥٢٥، كشاف القناع، البهوتي ٦/ ٣٦٧.
(٦) انظر: المغني، ابن قدامة ١٢/ ٤، الشرح الكبير، ابن قدامة ١٢/ ٣.

الشهادة في حق الله

أكمل الشهادات شهادة الله عز وجل لنفسه أو لغيره، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:٩٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٤٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج:١٧].

ففي فالآيات السابقة يؤكد الله تعالى أن الشهادة له وحده سبحانه، المحتوية على كل جانب من جوانب الشهادة.

أولًا: الله عالم الغيب والشهادة:

الغيب يطلق على كل ما غاب عن الحواس، و كان مستورًا و محجوبًا عنها، تسمى الغابة غابةً لأنها تغيب ما فيها و تسترها عن الأنظار لكثافة أشجارها. و أغابت المرأة فهي مغيبة، إذا غاب زوجها[(١)].

وعن شمر: «يقال: سمعت صوتًا من وراء الغيب، أي، من موضع لا أراه»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف:١٠].

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٤٥٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٥٤.

الغيابة: بفتح الغين، أي: في قعره، سمي به لغيبوبته عن أعين الناظرين، و كل شيء غيب عنك، فهو غيابة[(٣)].

والغيب في القرآن الكريم ضد الشهود والحضور، وقد تكرر استعمال لفظ «الغيب» وبعض مشتقاته في القرآن الكريم أربعًا وخمسين مرة بالمعنى المذكور.

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:٩٤].

قال صاحب المنار: «الغيب هو ما حجب الله علمه عن الناس، بعدم تمكينهم من أسباب العلم به، لكونه مما لا تدركه مشاعرهم الظاهرة ولا الباطنة؛ كعالم الآخرة»[(٤)].

وعرف ابن عاشور الغيب فقال: «والغيب ما غاب عن علم الناس، بحيث لا سبيل لهم إلى علمه، وذلك يشمل الأعيان المغيبة، كالملائكة والجن، والأعراض الخفية، ومواقيت الأشياء»[(٥)].

والشهادة: ما شهدوه وأبصروه وعاينوه، فكل شيء يقع تحت حواسنا الخمس

(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢٢.
(٥) التحرير والتنوير ٦/ ٢٧٠.

أو تدركه حواسنا فهو عالم مشهود، كالمرئيات، والمسموعات، و المشمومات، والعالم الذي خلقه الله عز وجل ينقسم إلى عالم الغيب وعالم الشهادة.

وينقسم الغيب إلى ثلاث أقسام:

أولًا: الغيب المطلق:

وهو الذي ليس للإنسان سبيل إلى العلم به عبر وسائل إدراكه أو حواسه، وهو نوعان:

النوع الأول: ما أعلم الله تعالى الناس به، أو ببعضه عن طريق الوحي إلى الرسل الذين يبلغونه إلى الناس.

ومن أمثله ذلك: الشياطين والجن، وما جاء من أخبارهم نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن:١-٢][1].

النوع الثاني: ما استأثر الله تعالى بعلمه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب.

ومن أمثلته العلم بوقت قيام الساعة، والموت من حيث زمانه ومكانه وسببه، وبعض ما سمى الله تعالى به نفسه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٣٤﴾ [لقمان:٣٤].

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ١١٠.

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام:٥٩][2].

وقال صلى الله عليه وسلم في بعض دعائه: (اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك)[3].

ثانيًا: الغيب المقيد النسبي:

وهو ما كان غائبًا عن البعض مثل الحوادث التاريخية، فإنها غيب بالنسبة لمن لم يعلم بها، لذلك قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكر قصة آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران:٤٤].

ثالثًا: الغيب المقيد غير النسبي:

هو كل ما غاب عن الحس بسبب بعد الزمان (المستقبل) أو المكان أو غير ذلك حتى ينكشف ذلك الحجاب الزماني أو المكاني، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٢٤٧، رقم ٣٧١٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٨٣، رقم ١٩٩.

عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ:١٤].

وذلك في موت سيدنا سليمان عليه السلام[1].

وذكر العلماء أربعة مراتب اشتمل عليها علم الله تعالى مستنبطة من الآيات القرآنية وهي:

المرتبة الاولى: علمه بالشيء قبل كونه، وهو سر الله في خلقه، اختص الله به عن عباده.

وهذه المرتبة من العلم هي علم التقدير ومفتاح ما سيصير، ومن هم أهل الجنة؟ ومن هم أهل السعير؟ فكل أمور الغيب قدرها الله في الأزل، ومفتاحها عنده وحده، ولم يزل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان:٣٤].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

المرتبة الثانية: علمه بالشيء، وهو في اللوح المحفوظ بعد كتابته وقبل إنفاذ أمره ومشيئته.

فالله عز وجل كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، والمخلوقات في اللوح قبل إنشائها كلمات، وتنفيذ ما في اللوح من أحكام تضمنتها الكلمات مرهون بمشيئة الله في تحديد الأوقات التي تناسب أنواع الابتلاء في خلقه، وكل ذلك عن علمه بما في اللوح من حساب وتقدير.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد:٢٢].

المرتبة الثالثة: علمه بالشيء حال كونه وتنفيذه ووقت خلقه وتصنيعه، كما قال: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد:٨-٩].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ:٢].

المرتبة الرابعة: علمه بالشيء بعد كونه وتخليقه وإحاطته بالفعل بعد كسبه وتحقيقه.

فالله عز وجل بعد أن ذكر مراتب العلم السابقة في قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ

(١) انظر: أركان الإيمان، علي بن نايف الشحود ص١٢.

﴿وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩].

ذكر بعدها المرتبة الأخيرة فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام:٦٠].

وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة:٧٨][1].

ثانيًا: الشهادة على العباد برهم وفاجرهم:

شهادة الله على العباد برهم وفاجرهم شهادة على صدق الانسان وتقواه، أو كذبه وفسقه، وهذا يجعلنا نزداد مراقبة للذات، ومحاسبة للنفس، والتزامًا بالقيم، كما يجعل القلب يفرق بين الصدق والكذب، وبين الحق والباطل، فيسهم هذا الوعي في معرفة الحقائق.

صور شهادة الله في القرآن الكريم:

أولًا: شهادة الله على نبيه صلى الله عليه وسلم والعباد.

الله شهيد على أعمال النبي صلى الله عليه وسلم والعباد.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

أخبر الله سبحانه على شهادته على ما يجري في الضمائر، فذكر شهادة على أحوال العباد، وحال الرسول صلى الله عليه وسلم معهم ومجاهدته لهم، وتلاوة القرآن عليهم، وأنه تعالى شاهد على جميع أعمالهم، لا يخفى عليه جل شأنه شيء، ولا يغيب عنه عمل من الأعمال.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ خطابان للرسول صلى الله عليه وسلم: الأول: عام يشمل شئون الرسول صلى الله عليه وسلم. والثاني: خاص؛ لكنه مندرج تحت عموم الأول. وإنما خص من العموم؛ لأن القرآن الكريم هو أعظم شؤونه عليه الصلاة والسلام.

والمراد: أنه تعالى شاهد على أهل الأرض جميعهم بما كان منهم، وبما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع، يحصي عليهم أعمالهم؛ وكأنه قيل: «وما كنت وتكون في شأن، وما تلوت، وما تتلو فيه من قرآن، وما عملتم، وما تعملون من عمل؛ إذ أفضتم وتفيضون فيه، إلا كنا عليكم شهودًا».

وهناك خطاب عام للأمة كلها في كل شئونها وأعمالها، بعد خطاب رأسها وسيدها في أخص شئونه وأعلاها، فتذكرك الآية في

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٠٧.

أخصر الألفاظ وأقصرها بأفضل ما أتاك الله من هداية ونعمة، وتنتقل بك إلى كل عمل تعمله من شكر وكفر وإن كان كمثقال ذرة، فإن مجيء. (عمل) نكرة منفية يفيد العموم، ودخول (من) التبعيضية عليه يؤكد هذا العموم، فيشمل أدق الأعمال وأحقرها.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[الزلزلة:٧-٨].

فكان الله شاهدًا عليهم رقيبًا مطلعًا إذ يفيضون فيه[١].

ثانيًا: شهادة الله على أهل الكتاب.

فشهادة الله تعالى يوم القيامة على أهل الكتاب وعلى إيمانهم بالمسيح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾ [النساء:١٥٩].

قال السعدي: «الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار»[٢].

وقال الرازي: «قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: قبل موت عيسى، والمراد أن أهل الكتاب الذين يكونون موجودين في زمان نزوله لا بد وأن يؤمنوا به. ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قيل: يشهد على اليهود أنهم كذبوه وطعنوا فيه، وعلى النصارى أنهم أشركوا به، وكذلك كل نبي شاهد على أمته»[٣].

وجاء مصحف أبي بن كعب (قبل موتهم)، ففي هذه القراءة تقوية لعود الضمير على الكتابي، وقرأ الفياض بن غزوان (وإن من أهل الكتاب) بتشديد «إن» والضمير المستتر في (يكون) هو لعيسى عليه السلام في جل الأقوال[٤].

ثالثًا: شهادة الله على أهل النفاق.

وفي شهادة الله على أهل النفاق بين الله تعالى علاقة المنافقين مع الرسول صلى الله عليه وسلم إذ كانوا يدعون الايمان كذبًا.

والله تعالى فضحهم، فقال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون:١].

وشهد الله على المنافقين أنهم كانوا يحلفون للناس بأنهم إنما أرادوا الحسنى ببناء مسجد الضرار؛ ولكنهم كذبوا، والله شاهد على كذبهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٣٣٩، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٠٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٢١٣.
(٣) مفاتيح الغيب ١١/ ٢٦٣.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٣٤، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ١١٩.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة:١٠٧].

وشهد الله على علاقة المنافقين بالمؤمنين، وكذلك في علاقاتهم مع بعضهم ومع الكفار، فشهد على كذبهم، فقال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر:١١].

وشهادة الله على كذب المنافقين والفاسقين تتجلى في أنه يخذلهم في الدنيا، فلا تصح حساباتهم التي خدعوا الناس بها، وخدعوا أنفسهم، والله يفضحهم عاجلًا وآجلًا، وأن الله يلهم أهل التقوى من المؤمنين كذبهم، ولهم الفضيحة الكبرى يوم الفصل.

قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:١٣٠]، [الأعراف:٣٧].

كشف القرآن الكريم ما أخفاه المنافقون في صدورهم تجاه الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى في شأن بعض المنافقين: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [التوبة:٩٤].

ثالثًا: الشهادة على الوحي:

الوحي في اللغة هو الإعلام الخفي، وقد يضيف البعض قيدًا إلى ذلك، فيقول: هو الإعلام الخفي السريع[(١)].

واصطلاحًا: إعلام الله تعالى أنبياءه ورسله بشرع ليعملوا به ويبلغوه للناس، فنزلت شريعة التوراة على موسى، ونزل الإنجيل على عيسى، ونزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم[(٢)].

وقد يطلق لفظ الوحي ويراد به المنزل من السماء، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها: (أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟ قال: (كل ذاك يأتيني الملك، أحيانًا في مثل صلصلة الجرس، فيفصم عني، وقد وعيت ما قال، وهو أشده علي، ويتمثل لي الملك أحيانًا رجلًا، فيكلمني، فأعي ما يقول)[(٣)].

وكما في قول عائشة رضي الله عنها: (ولقد رأيته صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فينفصم عنه،

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ص ٦٥١، فتح الباري، ابن حجر ١/ ٩.
(٢) انظر: الوحي والإنسان، الجليند ص ٤٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١٢، رقم ٣٢١٥.

وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[1].

والله تبارك وتعالى يشهد على الوحي بأنه أنزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٦].

قال الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: إن يكفر بالذي أوحينا إليك يا محمد اليهود الذين سألوك أن تنزل عليهم كتابًا من السماء، وقالوا لك: «ما أنزل الله على بشر من شيء» فكذبوك، فقد كذبوا. ما الأمر كما قالوا: لكن الله يشهد بتنزيله إليك ما أنزل من كتابه ووحيه، أنزل ذلك إليك بعلم منه بأنك خيرته من خلقه، وصفيه من عباده، ويشهد لك بذلك ملائكته، فلا يحزنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾[2].

وعن عطاء بن السائب قال: «أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أي: بصدق ما جاءك وأوحي إليك وأنزل عليك، مع شهادة الله تعالى لك بذلك، وكفى بالله شهيدًا»[3].

ومستند جميع الأنبياء والمرسلين هو الوحي الذي نزل به الروح الأمين من رب العالمين.

وهذه شهادة رب العالمين: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣].

وقال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

فلا طريق لمعرفة عالم الغيب والتصديق به إلا عن طريق الخبر الصادق الذي يأتينا عن طريق الوحي، كما يكون عن طريق الآثار التي تدل عليه، والفطرة السليمة تتلقى معرفة ذلك بالتسليم والتصديق[4].

رابعًا: الشهادة على وحدانية الله:

شهادة الله تعالى على توحيده عبارة عن أنه خلق الدلائل الدالة على توحيده،

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب القرآن، باب ما جاء في القرآن ١/ ٢٠٢.
(٢) جامع البيان ٩/ ٤٠٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧٦.
(٤) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية ص ٣٨٧.

وجاءت شهادة الملائكة وأولي العلم عبارة عن إقرارهم بذلك.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨].

فالشاهد الحقيقي على توحيده هو الله تبارك وتعالى، وذلك لأنه تعالى هو الذي خلق الأشياء، وجعلها دلائل على توحيده، ولولا تلك الدلائل لما صحت الشهادة، ثم بعد ذلك جعل تلك الدلائل ووفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل، ولولا تلك الدلائل التي جعلها الله تعالى وهدى إليها، لعجزوا عن التوصل بها إلى معرفة التوحيد.

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام:١٩].

وقرأ ابن عباس ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بكسر (أنه) ثم قرأ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩].

بفتح إن، أي: شهد هو وملائكته وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام. والجمهور قرءوها بالكسر على الخبر، وكلا المعنيين صحيح [(١)].

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا عبدان بن أحمد، وعلي بن سعيدٍ الرازي، قالا: ثنا عمار بن عمر بن المختار، حدثني أبي، حدثني غالبٌ القطان قال: أتيت الكوفة في تجارةٍ، فنزلت قريبًا من الأعمش، فلما كان ليلةٌ أردت أن أنحدر، قام فتهجد من الليل، فمر بهذه الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي عند الله وديعةٌ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩].

قالها مرارًا، قلت: لقد سمع فيها شيئًا، فغدوت إليه فودعته، ثم قلت: يا أبا محمدٍ، إني سمعتك تردد هذه الآية، قال: أو ما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا عندك منذ شهرٍ لم تحدثني، قال: والله لأحدثنك بها إلى سنةٍ، فأقمت سنةً فكنت على بابه، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمدٍ، قد مضت السنة، قال: حدثني أبو وائلٍ، عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله عز وجل: عبدي عهد إلي، وأنا أحق من وفى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة)[(٢)].

(١) انظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، الشوكاني ١/ ٢٠٩.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٠/ ١٩٩، رقم ١٠٤٥٣.

الشهادة في الحدود

شرعت الحدود؛ زجرًا للنفوس عن ارتكاب المعاصي والتعدي على حرمات الله سبحانه، فتتحقق الطمأنينة في المجتمع ويشيع الأمن بين أفراده، ويسود الاستقرار، ويطيب العيش.

كما أن فيها تطهيرًا للعبد في الدنيا؛ لحديث عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فهو كفارته)[1].

والحدود: «عقوبة مقدرة شرعت لصيانة الأنساب والأعراض والعقول والأموال وتأمين السبل»[2].

وحدود الله: محارمه التي نهى عن ارتكابها وانتهاكها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

سميت بذلك؛ لأنها تمنع من الإقدام على الوقوع فيها.

وقد جاء في القرآن والسنة النبوية حدود لجرائم محددة تسمى جرائم الحدود، وهذه الجرائم هي:

الزنا واللواط، والقذف، والسرقة، والسكر، والحرابة، والردة؛ وفي هذا المبحث سنتكلم - إن شاء الله- على الشهادة على ثلاثة من الحدود:

أولًا: الشهادة على الزنا:

أجمع العلماء على أن جريمة الزنا تثبت بالشهادة أو الإقرار أو الحمل، واتفقوا على أن عدد الشهود في هذه الجريمة المنكرة أربعة شهود عدول، سواء أكان في رجم أم جلد، على حر أو عبد؛ لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء:١٥].

ولقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور:١٣].

وهذا العدد شرط في قبول الشهادة على الزناة لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور:٤].

ولما جاء عن سعد بن عبادة رضي الله عنه. قال: (يا رسول الله إن وجدت مع امرأتي رجلًا، أمهله حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال: نعم)[3].

ولأن الشهادات تتغلظ بتغليظ المشهود

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب الحدود كفاراتٌ لأهلها، ٣/ ١٣٣٣، رقم ١٧٠٩.

(٢) الموسوعة الجنائية الإسلامية المقارنة، سعود ابن عبد العالي بن البارودي، رقم ١٤٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، ٢/ ١١٣٥، رقم ١٤٩٨.

فيه، فلما كان الزنا من أغلظ الفواحش المحظورة وآخرها، كانت الشهادة فيه أغلظ: ليكون أستر للمحارم، وأنفى للمعرة، ولا يجوز أن تسمع فيه شهادة النساء.

ولأن الزنا لا يكون إلا من اثنين، فلزم أن يشهد على كل واحد منهما شاهدان؛ لأنه كالشهادة على فعلين[(١)].

أما الإقرار بالزنا فشرطه شاهدان لا أربعة، كغيره من الإقرارات، يعني: لو أقر شخص بأنه زنا، فإن إقراره هذا لا يثبت عليه عند القاضي إلا بشهادة عدلين عليه[(٢)].

ويجب أن يشهد الأربعة ويقولون: رأينا إيلاج الذكر في الفرج كالميل في المكحلة بالتفصيل؛ لأنه لا يكفي الإجمال في هذه الحالة[(٣)].

وإن شهد اثنان على رجل بأنه زنى بها في الكوفة، وشهد آخران بأنه زنى بها في البصرة مثلًا، فلا تقبل الشهادة، ولا يقام عليهما الحد بالإجماع، ويحد الشهود حد القذف[(٤)].

وإذا رأى الرجل زوجته تزني، ولا يجد أربعة شهداء يشهدون على ذلك، ولا يمكنه إقامة البينة، فقد شرع الله عز وجل اللعان حلًا لمشكلته، وإزالة الحرج عنه؛ لئلا يلحقه العار بزناها، ويفسد فراشه، ويلحقه ولد غيره.

واللعان: شهادات مؤكدات بأيمان من الجانبين، مقرونة بلعن من الزوج، وغضب من الزوجة[(٥)].

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧﴾ [النور:٦-٧].

وصفة اللعان: هو أن يأتي بأربعة أيمان، والخامسة اللعنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦﴾ [النور:٦].

فيأتي إلى الحاكم فيقذف زوجته فلانة بأنه رأى الفاحشة بعينه، وسمع بأذنه، ولم يكن له شهداء، فإذا لم يكن له شهداء، ولم يشهد بذلك إلا نفسه، ولم ينقل ذلك إلا عن رؤيته وعن سمعه، فهذا يشهد أربع شهادات، والخامسة اللعنة؛ فيقوم مقام الشهداء الأربعة[(٦)].

ثم يؤتى بالزوجة المتهمة المقذوفة فتشهد أربع شهادات على زوجها فلانًا قد كذب عليها في اتهامها بالزنا مع فلان، وفي

(١) انظر: مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٤٤١.
(٢) انظر: نهاية المحتاج، الرملي ٨/ ٣١٠.
(٣) انظر: تحفة المحتاج، الهيتمي ١٠/ ٣٤٦.
(٤) انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ٥/ ٣٩.
(٥) انظر: كشف القناع، البهوتي ٥/ ٣٩٠.
(٦) انظر: تفسير المراغي ١٦/ ٧٦، صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٢٩٩.

الخامسة تقول: أن غضب الله عليها إن كان صادقًا في تهمته.

قال تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨﴾ [النور:٨].

سبب كون اللعنة على الرجل والغضب على المرأة: لأن الغضب يكون على الجرم والإثم عن علم، وعن نية مبيتة وقصد سابق، فقد غضب الله على اليهود؛ لأنهم ضلوا عن علم ومعرفة سابقة، ومع علمهم بذلك حسدوا النبي صلى الله عليه وسلم، وحسدوا العرب أن تكون النبوءة فيهم، فكانوا مغضوبًا عليهم، ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٧]. بذلك يرتفع الحد عنها وعنه، فهي لا ترجم، وهو لا يجلد، ويفرق بينهما، فهذا حكم الله الواجب الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: الشهادة على السرقة:

السرقة كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن كل معصية أوجب الله تعالى فيها حدًا، فهي كبيرة من الكبائر، لذا حرم الله تعالى أكل أموال الناس بغير حق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة:١٨٨].

والذي يسرق آكل للمال بالباطل.

فبين سبحانه أنه لا يجوز الاعتداء على حق المرء المسلم، ولذا شرعت الحدود والعقوبات، حتى تكون زاجرًا عن المعصية، والوقيعة فيها.

لذلك أنزل الله تعالى حد السرقة، وبين حد السارق، فقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة:٣٨].

ولم يفرق في الحكم بين الشريف والوضيع، كما جاء في قصة المخزومية، خلافًا للعادة الجاهلية في استيفاء الحقوق على الضعفاء والمغلوبين والترك عن الشرفاء والمرموقين.

والسرقة إفساد في الأرض، قال إخوة يوسف عليه السلام لما اتهموا بسرقة صواع الملك ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ۝٧٣﴾ [يوسف:٧٣].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: في حجة الوداع وهو يخطب الناس: (إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه، رقم ٢٤٧٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا)[1].

والسرقة: أخذ المال على وجه الاختفاء من مالكه، أو نائبه[2].

فلو سرق الإنسان دخانًا، فليس هذا سرقة شرعًا؛ لأن هذا الدخان ليس له حرمة، وكذلك لو سرق خمرًا فإنها ليست بسرقة شرعًا؛ لأنه ليس بمال، فالمال هو العين المباحة النفع، وهذه عين محرمة[3].

والشهادة على السرقة تكون بشاهدي عدل، أو الإقرار، والعدل هو من استقام دينه، واستقامت مروءته، فهو ذو دين، وذو مروءة لم يفعل ما يخل بالدين، ولم يفعل ما يخل بالشرف والمروءة، فلا بد في الشهادة إذن أن يكون الشاهدان اثنين عدلين[4].

ولا تقبل شهادة النساء في السرقة؛ لأن الحدود لا يقبل فيها إلا الرجال، فإن شهد رجل وامرأتان فلا تقطع اليد، أو أربعون امرأة لا تقطع اليد، أو رجل واحد لا تقطع اليد، أو رجل فاسق ورجل عدل لا تقطع اليد، أو رجلان فاسقان لا تقطع اليد؛ لأنه لا بد من رجلين عدلين[5].

فلو أقر مرة واحدة، ثبت شهادته على نفسه، وقال: إني سرقت قطعت يده.

والدليل على ذلك أنه جيء بسارق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فأقر بأنه سرق فقال: (ما إخالك سرقت؟ قال: بلى يا رسول الله، فأمر بقطعه)[6].

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم له: (ما إخالك سرقت) أراد بذلك التثبت[7].

ثالثًا: الشهادة على رمي المحصنات:

القذف: الرمي بزنى أو لواط، أو شهادة بأحدهما ولم تكمل البينة، أو نفي نسب موجب للحد فيهما.

وقد حرمه الله تعالى في القرآن العظيم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤﴾ [النور:٤].

وجاء مع الأمر بجلد القاذف أمران نصت عليهما الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ونصت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء، رقم ١٦٧٩، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: حاشية اللبدي على نيل المآرب ٢/ ٤٠٢.

(٣) انظر: المعونة، القاضي عبدالوهاب ٣/ ١٥٥١، روضة الطالبين، النووي ٨/ ٢٢٥.

(٤) انظر: المهذب، الشيرازي ٣/ ٤٥٠، الإجماع، ابن المنذر ص٨٧.

(٥) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/ ٢٠٨، الإنصاف، المرداوي ٢/ ٧٨.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ٢٩٣، عن أبي أمية المخزومي.
وصححه ابن القطان، كما في تلخيص الحبير، ابن حجر ٤/ ١٢٥.

(٧) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/ ٢٠٨، الإنصاف، المرداوي ٢/ ٧٨.

الآية الكريمة على عدد الجلد، وهو ثمانون جلدة إذا قذف الرجل المحصنة العفيفة، وكذلك إذا قذف رجلًا أيضًا فإنه يجلد كذلك، إلا أن يأتي القاذف ببينة على صحة القذف، أي: يأتي بأربعة شهداء يشهدون على صحة قوله.

والقاذف ملعون في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور:٢٣].

قال ابن جرير الطبري: «نزلت هذه الآية في شأن عائشة، والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفه الله بها فيها»[١]. قال الطبري أيضًا: «يقول تعالى ذكره: والذين يشتمون العفائف من حرائر المسلمين، فيرمونهن بالزنا، ثم لم يأتوا على ما رموهن به من ذلك بأربعة شهداء عدول، يشهدون عليهن أنهم رأوهن يفعلن ذلك، فاجلدوا الذين رموهن بذلك ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا، وأولئك هم الذين خالفوا أمر الله وخرجوا من طاعته ففسقوا عنها»[٢].

قال الحافظ ابن كثيرٍ: «هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلًا فكذلك يجلد قاذفه أيضًا، ليس في هذا نزاعٌ بين العلماء. فأما إن أقام القاذف بينةً على صحة ما قاله، رد عنه الحد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور:٤].

فأوجب على القاذف إذا لم يقم بينةً على صحة ما قاله ثلاثة أحكامٍ: أحدها: أن يجلد ثمانين جلدةً، الثاني: أنه ترد شهادته دائمًا، الثالث: أن يكون فاسقًا ليس بعدلٍ، لا عند الله ولا عند الناس»[٣].

وعن سعيد بن زيدٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق)[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس، التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات)[٥].

قال الإمام النووي: «المحصنات

(١) جامع البيان، ١٩/ ١٤٠.
(٢) المصدر السابق ١٩/ ١٠٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٤.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم ٤٨٧٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٣٩، رقم ٢٢٠٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ٨٩.

الغافلات، فبكسر الصاد وفتحها قراءتان في السبع، قرأ الكسائي بالكسر والباقون بالفتح، والمراد بالمحصنات هنا العفائف، وبالغافلات الغافلات عن الفواحش وما قذفن به»[1].

والقذف الذي يوجب الحد هو الرمي بالزنا أو اللواط، أو ما يقتضيهما كالتشكيك في الأنساب، والطعن في الأمهات تصريحًا، لا تعريضًا و لا تلميحًا، إلا إن أقر المعرض بأن مراده هو القذف الصريح.

قال الإمام القرطبي «اتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنى كان قذفًا ورميًا موجبًا للحد، فإن عرض ولم يصرح فقال مالكٌ: هو قذفٌ. وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا يكون قذفًا حتى يقول أردت به القذف»[2].

وقال أيضًا: «للقذف شروط عند العلماء تسعة: شرطان في القاذف؛ وهما: العقل والبلوغ؛ لأنهما أصلا التكليف، إذ التكليف ساقط دونهما، وشرطان في الشيء المقذوف به، و هو: أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد، وهو الزنى واللواط، أو بنفيه من أبيه دون سائر المعاصي. وخمسة من المقذوف؛ وهي: العقل والبلوغ والإسلام والحرية والعفة عن الفاحشة التي رمي بها، كان عفيفًا من غيرها أم لا»[3].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٨٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ١٧٣.
(٣) المصدر السابق ١٢/ ١٧٤.

الشهادة في الحقوق

الحق: مفرد جمعه حقوق، وهو خلاف الباطل، والحقوق مجموعة من القواعد والنصوص التشريعية التي تنظم حياة الناس من حيث الأشخاص والأموال على سبيل الإلزام هو اختصاص يقرره الشرع أو السلطة الحاكمة[4].

أولًا: الإشهاد على البيع:

أمر الله تبارك وتعالى بالإشهاد على البيع فقال: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۖ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:٢٨٢].

والأمر هنا بالإشهاد للندب والإرشاد إلى ما فيه المصلحة والخير، كما قال جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، وليس للوجوب، وحمل الأمر على الندب؛ لأن الأمر في قول الله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، منسوخ، بقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣].

وقاله الشعبي والحسن البصري[5].

ومما يدلل على الندب حديث سويد بن قيس قال: (جلبت أنا ومخرفة العبدي بزًا

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٦٧.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧٢٥.

من هجر، فجاءنا النبي صلى الله عليه وسلم فساومنا بسراويل، وعندي وزان يزن بالأجر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للوزان: (زن وأرجح)[1].

وكذلك بالحديث الذي يرويه عم عمارة بن خزيمة أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من أعرابي فرسًا، فجحده الأعرابي حتى شهد له خزيمة بن ثابت وورد بعدة صيغ شهادة خزيمة[2].

من الملاحظ على هذه الأحاديث أن البيع تم، ولم يكن شهود على هذه العقود، فدل أن الأمر في الآية للندب وليس للوجوب.

قال الجصاص: «ولا خلاف بين فقهاء الأمصار أن الأمر بالكتابة والإشهاد والرهن المذكور جميعه في هذه الآية، ندب وإرشاد إلى ما لنا فيه الحظ والصلاح والاحتياط للدين والدنيا، وأن شيئًا منه غير واجب»[3].

وقد نقلت الأمة خلفًا عن سلف عقود المداينات والأشرية والبياعات في أمصارهم من غير إشهاد، مع علم فقهائهم بذلك من غير نكير منهم عليهم، ولو كان الإشهاد واجبًا لما تركوا النكير على تاركه مع علمهم به[4].

فلما لم ينقل عن الصحابة والتابعين الإشهاد بالنقل المستفيض ولا إظهار النكير على تاركه من العامة، ثبت بذلك أن الكتاب والإشهاد في الديوان والبياعات غير واجبين[5].

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة:٢٨٢] «أي: إذا كان البيع بالحاضر يدًا بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها»[6].

ثانيًا: الإشهاد على الدين:

أمر الله تعالى بتوثيق الديون، والإشهاد على ذلك، جاء ذلك في آية الدين التي هي أكبر آية في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البيوع، باب ما جاء في الرجحان في الوزن ٣/ ٥٩٨، رقم ١٣٠٥.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٨، رقم ٣٥٧٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب القضاء باليمين والشاهد، ٣/ ٤٦٠، رقم ٣٦٠٨.
وصححه، الألباني في الإرواء، ٥/ ١٢٧، رقم ١٢٨٦.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٢٠٦.

(٤) انظر: فقه السنة، سيد سابق ٣/ ٧٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧٢٦.

كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة:٢٨٢].

ذكرت الآية الدعوة إلى الإشهاد على الدين، لحفظ الحقوق ومنع الخلاف، ويجب على الشاهد قبل تحمل الشهادة، أن يعاين المشهود عليه حتى تكون شهادته في موطنها وعلى وجهها، ويلزم أن يكون آخذ الدين حاضرًا حتى يعرف الشاهد أنه قد أخذ الدين وأقر به، لأن آخذ القرض هو الذي يتحمله ويلزمه رده.

وابتدأ الله تعالى بذكر الإيمان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وهذا يعني أن مخالفة هذه الأحكام نقص في الإيمان، كأنه قال: لكمال إيمانكم افعلوا هذا؛ فإن لم تفعلوا فإيمانكم ناقص.

في الآية جواز الدين شرعًا. قال تعالى: ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ سواء كان هذا الدين ثمن مبيع، أو قرضًا، أو أجرة، أو صداقًا، أو عوض خلع، أو أي دين يكون.

وينقسم الدين إلى ثلاثة أقسام[1]:

القسم الأول: مؤجل بأجل مسمى، قال تعالى: ﴿بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

القسم الثاني: مؤجل بأجل مجهول.

الدين إلى أجل غير مسمى لا يصح؛ وأخذ هذا القسم من قوله تعالى: ﴿مُّسَمًّى﴾ مثل أن أقول لك: اشتريت منك هذه السلعة إلى قدوم زيد، وقدومه مجهول؛ لأن فيه غررًا؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من أسلف في شيءٍ ففي كيلٍ معلومٍ، ووزنٍ معلومٍ، إلى أجلٍ معلومٍ)[2].

والدين إلى أجل غير مسمى لا يكتب؛ لأنه عقد فاسد، والدين إلى أجل مسمى جائز بنص الآية[3].

القسم الثالث: غير مؤجل.

(١) انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ١/ ٥٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب السلم، باب السلم في وزن معلوم، رقم٢١٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب السلم، رقم ١٦٠٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٥/ ٣٢٣.

الدين إلى غير أجل جائز شرعًا، مثاله: أن أشتري منك هذه السلعة، ولا أعطيك ثمنها، ولا أعينه لك؛ فهذا دين غير مؤجل؛ وفي هذه الحال لك أن تطالبني بمجرد ما ينتهي العقد.

وذهب الجمهور إلى عدم وجوب كتابة الدين غير المؤجل؛ لقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾، وينبغي على هذا القول أن يستثنى من ذلك ما إذا كان الدائن متصرفًا لغيره كولي اليتيم، فإنه يجب عليه أن يكتب الدين الذي له لئلا يضيع حقه[1].

وأما الكاتب فيجب عليه أن يكتب بالعدل ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ بحيث لا يجحف مع الدائن، ولا مع المدين.

ومن صفات الشاهد أن يكون عدلًا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق:٢][2].

ولا يجوز للكاتب الامتناع أو المماطلة عن الكتابة وأن يكتب كما علمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾؛ ولهذا أكد هذا النهي بالأمر بالكتابة في قوله تعالى: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ وهذا ظاهر الآية، ويحتمل أن يقال: إن توقف ثبوت الحق على الكتابة كانت الكتابة واجبة على من طلبت منه؛ وإلا لم تجب[3].

وأما إن كان الذي له الحق سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يمل يقوم الولي في الإملال؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢]

ويستحب توثيق الدين حتى لا تكون عرضة للضياع، لكثرة النسيان، ووقوع المغالطات، والاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى. ويكون بإحدى هذه الطرق الثلاثة: الكتابة، والإشهاد، والرهن، إنما هو على سبيل الاستحباب والأفضل، وليس ذلك بواجب، وذهب بعض العلماء إلى وجوب كتابة الدين، ولكن أكثر العلماء على الاستحباب، وهو الراجح[4].

والشهادة على الدين تتحقق بشاهدين مسلمين من الرجال، فلا تصح هنا شهادة غير المسلمين ولا شهادة الصبيان، وكذلك لا تصح شهادة العبيد عند أكثر الفقهاء[5]، وتكون برجلين مرضيين عند المشهود له، والمشهود عليه؛ أو رجل، وامرأتان؛ والمرأة يغلب عليها العاطفة، فربما تضل وتحيد عن الشهادة فتقوم الأخرى فتذكرها، قال تعالى:

(١) انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ١/ ٥٤٧.
(٢) انظر: معين الحكام، الطرابلسي ص ١٢٥.
(٣) انظر: أدب القاضي، الماوردي ٢/ ٩٨.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٨٣.
(٥) انظر: كشف الأسرار، علاء الدين البخاري ٣/ ٥٢، معين الحكام، الطرابلسي ص ١٢٥.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ فلا يرد على ذلك من نبوغ بعض النساء، وغفلة بعض الرجال.

ولا يجوز للشهود الامتناع إذا دعوا للشهادة، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

حكم التوثيق بالشهادة:

جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة: وهو أن الإشهاد على الدين مندوب إليه وليس بواجب؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

قال الكيا الهراسي: «ومعلوم أن هذا الأمن لا يقع إلا بحسب الظن والتوهم لا على وجه الحقيقة، وذلك يدل على أن الشهادة إنما أمر بها لطمأنينة قلبه لا لحق الشرع، فإنها لو كانت لحق الشرع لما قال: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ولا ثقة بأمن العباد، إنما الاعتماد على ما يراه الشرع مصلحة، والله تعالى جعل توثيق الديون طرقًا منها: الكتاب، والرهن، والإشهاد، ولا خلاف بين علماء الأمصار أن الرهن مشروع بطريق الندب لا بطريق الوجوب، فيعلم من ذلك مثله في الإشهاد»[1].

فإذا لم تكتب الدين ولم تشهد عليه ولم تأخذ رهنًا فلا تأثم بذلك، والآية نفسها تدل على هذا ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ والائتمان يكون بعدم توثيق الدين بالكتابة أو الشهود أو الرهن، ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، ولهذا أمر الله في هذه الحال من عليه الحق أن يتقي الله ويؤدي أمانته ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾[2].

ثالثًا: الإشهاد على دفع مال اليتيم:

اتفق العلماء على الإشهاد على اليتيم إذا بلغ ورشد واراد الولي دفع المال اليه، عملًا بقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

الآية الكريمة تدفع بالأولياء، وتهيب بهم أن يلتزموا جانب الحيطة، والتدبير لأنفسهم بالإشهاد وإطلاع الغير على عملية تسليم المال إلى ذوي العلاقة، فرارًا مما قد يقع فيه من محذور الاتهام نتيجة إحسانه وأتعابه عليهم.

(١) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ١/ ٢٣٨.
وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٦٢، أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٨٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٨.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

والآية أمرٌ من الله تعالى لمن يتولى أمر الأيتام، يقتضي الإشهاد عند دفع المال إلى اليتيم الذي علم منه البلوغ والرشد، ويكون الإشهاد بأنهم قبضوها وتسلموها ممن تولى أمرهم، دفعًا للتهمة، وابتعادًا عن الخصومة[1].

و اختلف الفقهاء في حكم الإشهاد، هل هو واجب أم مستحب:

فالمالكية قالوا: الإشهاد واجب عند الدفع للأيتام [2]. وأما الحنفية [3]، والحنابلة[4]، قالوا: إن الإشهاد على دفع المال إلى اليتيم مستحب، إذا لم يكن الولي أبًا أو جدًا، فإذا كان كذلك فلا حاجة للإشهاد.

وجرى العرف والقانون في أيامنا أن تتولى المحاكم الشرعية توثيق وتسجيل أملاك المحجور عليهم من أيتام وغيرهم، وهذا في حالة كون من يتولى أمرهم وصيًا أو قاضيًا.

فالأولى والأفضل في هذه الحالة أن يقوم من يتولى أمر اليتيم بالإشهاد عند دفع المال، وأن يقوم تسجيل ذلك لدى المحكمة المختصة، ابتعادًا عن الخصومة والمنازعة، وتبرئة لساحته.

والملاحظ أن فاصلة الآية الكريمة بأمر بضرورة الإشهاد على عملية تسليم أموال اليتامى من قبل الأولياء، أو الأوصياء بقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

بمعنى: رقيبًا على أعمالكم ليحافظ كل فرد على ما هو مقرر في حقه، فكما كان التشريع يقف في جانب اليتيم يحذر الآخرين مغبة التجاوز عليه، ويشوقهم إلى مساعدته، والأخذ بيده، كذلك حذره من التطاول على من رعاه، وكفى به حسيبًا، ورقيبًا في كل صغيرة، وكبيرة، وهو المطلع على السرائر، ولا تخفى عليه خافية سواء من جانب الأولياء، أو بعد ذلك مما قد يتعقب عملية تسليم الأموال من اتهامات يوجهها اليتامى لأوليائهم.

قال البغوي: «هذا أمر إرشاد، ليس بواجب، أمر الولي بالإشهاد على دفع المال إلى اليتيم بعدما بلغ؛ لتزول عنه التهمة وتنقطع الخصومة، وكفى بالله حسيبًا محاسبًا ومجازيًا وشاهدًا»[5].

وقال الجصاص: «وفي هذه الآية دلالة على وجوب تسليم أموال اليتامى بعد البلوغ

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٢٩٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٤٦.
(٢) انظر: أسهل المدارك، الكشناوي ٢/ ٣.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٢٩٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٤٦.
(٤) انظر: كشاف القناع، البهوتي ٣/ ٤٤٣.
(٥) معالم التنزيل ٢/ ١٦٩.

وإيناس الرشد إليهم وإن لم يطالبوا بأدائها؛ لأن الأمر بدفعها مطلق متوعد على تركه غير مشروط فيه مطالبة الأيتام بأدائها، ويدل على أن من له عند غيره مال، فأراد دفعه إليه أنه مندوب على الإشهاد عليه، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾»[1].

وزوال الحجر عن الصغير وجواز دفع المال إليه بشيئين: بالبلوغ والرشد، فالبلوغ يكون بأحد أشياء أربعة، اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء، واثنان تختصان بالنساء، فما يشترك فيه الرجال والنساء أحدهما السن، والثاني الاحتلام، أما السن فإذا استكمل المولود خمس عشرة سنة حكم ببلوغه غلامًا كان أو جارية، فعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة، فردني، ثم عرضت عليه عام الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني، قال نافع: فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز، فقال: هذا فرق بين المقاتلة والذرية، وكتب أن يفرض لابن خمس عشرة سنة في المقاتلة، ومن لم يبلغها في الذرية. وهذا قول أكثر أهل العلم[2].

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: بلوغ الجارية باستكمال سبع عشرة، وبلوغ الغلام باستكمال ثماني عشرة سنة. وأما الاحتلام فنعني به نزول المني سواء كان بالاحتلام أو بالجماع، أو غيرهما، فإذا وجدت ذلك بعد استكمال تسع سنين من أيهما كان حكم ببلوغه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ في الجزية حين بعثه إلى اليمن: (خذ من كل حالم دينارًا)[3].

وأما الإنبات، وهو نبات الشعر الخشن حول الفرج[4] فهو بلوغ في أولاد المشركين، لما روي عن عطية القرظي قال: كنت من سبي قريظة، فكانوا ينظرون فمن أنبت الشعر قتل، ومن لم ينبت لم يقتل، فكنت ممن لم ينبت[5].

رابعًا: الإشهاد على الوصية:

الوصية: تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع، سواء أكان المملك عينًا أم منفعة[6].

(١) أحكام القرآن ٢/ ٦٤.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٦٥.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٤٨٠، معالم التنزيل البغوي ٢/ ١٦٦.
(٤) انظر: تحفة الإخوان، الشيخ عبدالعزيز بن باز ص١٦٠.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب في الغلام يصيب الحد، رقم ٤٤٠٤.
(٦) انظر: الدر المختار، ابن عابدين ٥/ ٤٥٧، حاشية الصاوي ٤/ ٥٧٩، مغني المحتاج،

قال الخطيب الشربيني: «الإيصاء يعم الوصية والوصاية لغةً، والتفرقة بينهما من اصطلاح الفقهاء، وهي تخصيص الوصية بالتبرع المضاف لما بعد الموت، والوصاية بالعهد إلى من يقوم على من بعده»[(١)].

والإسلام وجهة طرق الوصية التي كانت عند العرب في الجاهلية للتفاخر والمباهاة، ويتركون أقاربهم في الفقر والحاجة، فألزم أصحاب الأموال قبل تشريع الميراث بالوصية للوالدين والأقربين، فكانت الوصية في مبدأ الأمر واجبة بكل المال للوالدين والأقربين بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة:١٨٠].

قال السايس: «نسخت هذه الآية بالحديث المستفيض، وهو قوله: (ألا لا وصية لوارث) ولا ناسخ إلا السنة»[(٢)].

وقيل: إنها محكمة ولم يدخلها لا نسخ ولا تخصيص، وقال به أبو مسلم الأصفهاني ومحمد رشيد رضا[(٣)].

والراجح أنه لما نزلت آيات سورة النساء بتشريع المواريث تفصيلًا، أصبحت الوصية في الأقربين مقيدة بقيدين:

الأول: عدم كون الوصية للوارث إلا بإجازة الورثة، لقوله صلى الله عليه وسلم في خطبة عام حجة الوداع: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث)[(٤)]. وصارت الوصية مندوبة لغير الوارثين.

الثاني: تحديد مقدارها بالثلث؛ لقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص الذي أراد الإيصاء بثلثي ماله أو بشطره، إذ لا يرثه إلا ابنة له. فقال: (الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)[(٥)]. أما الزائد عن الثلث فهو من حق الورثة، لا ينفذ تصرف الموصى له إلا بموافقتهم ورضاهم[(٦)].

وذكر الله تعالى الوصية في آيات المواريث وقدمها على الدين؛ حتى لا يتهاون الناس في الوصية، مع أن الدين مقدم على الوصية في النفاذ، لقول علي رضي الله عنه: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:١١].

الشربيني ٣/ ٣٨.

(١) مغني المحتاج، الشربيني ٣/ ٣٩.

(٢) تفسير آيات الأحكام، السايس ١/ ٤١.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١١٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الوصايا، باب لا وصية لوارث ٤/ ٤٣٣، رقم ٢١٢٠. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في الإرواء، ٦/ ٨٧، رقم ١٦٥٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ٥/ ٦٨، رقم ٣٩٣٦.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٦٣، مناهل العرفان، الزرقاني ٢/ ١٨٤.

والنبي صلى الله عليه وسلم قضى أن الدين قبل الوصية[1].

والأفضل أن يجعل وصيته لأقاربه الذي لا يرثون إذا كانوا فقراء، باتفاق أهل العلم، لقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء:٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة:١٧٧]. فبدأ بهم.

ولقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب:٦] فسر بالوصية.

قال الطبري: «كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر، وعاقد أبو بكر رضي الله عنه مولًى فورثه. فأنزل الله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصيةً، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت. وذلك هو المعروف»[2].

واشترط الشافعية: لإثبات الوصية الكتابة مع الشهادة، هو أن يطلع الموصي الشهود على ما في الكتابة، فإن لم يطلعهم على ما في كتابه، لم تنعقد وصيته[3].

وإذا كان العاجز عن النطق عالمًا بالكتابة مثل الأخرس أو معتقل اللسان، فلا تنعقد وصيته إلا بالكتابة؛ لأن دلالتها على المقصود أدق وأحكم[4].

وتنعقد الوصية عند المالكية بالإشارة المفهمة حتى لو كان قادرًا على النطق[5].

فمن كتب وصية، ولم يشهد عليها، حكم بها ما لم يعلم رجوعه عنها، فتثبت الوصية ويقبل ما فيها بالخط الثابت أنه خط الموصي، بإقرار ورثته، أو ببينة تعرف خطه تشهد أنه خطه، وإن طال الزمن أو تغير حال الموصي، أو بأن عرف خطه وكان مشهور الخط؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين، إلا ووصيته مكتوبة عنده)[6].

ولم يذكر أمرًا زائدًا على الكتابة، فدل على الاكتفاء بها[7].

روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كانوا يكتبون في صدور وصاياهم: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أوصى به فلان أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الوصايا، باب ما جاء يبدأ بالدين قبل الوصية، ٤/ ٤٣٥ رقم ٢١٢٢.
وحسنه الألباني في الإرواء، ٦/ ١٠٧، رقم ١٦٦٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٧٥.
(٣) انظر: مغني المحتاج، الشربيني ٣/ ٣٩.
(٤) انظر: الفتاوى الهندية، نظام الدين البلخي وآخرون ٢/ ٣٤٧، رد المحتار، ابن عابدين ٣/ ٤٤٣.
(٥) انظر: الشرح الصغير، الصاوي ٤/ ٦٠١.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، ٣/ ١٢٤٩، رقم ١٦٢٧.
(٧) انظر: المغني، ابن قدامة ٦٩/ ٦.

الله يبعث من في القبور، وأوصى من ترك من أهله أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، أوصاهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢][(١)(٢)].

خامسًا: الإشهاد على الطلاق:

وضع الإسلام الحلول للإشكالات التي تتعرض لها الأسرة المسلمة، ومن ذلك أباح فسخ عقد النكاح بتشريع الطلاق، فمن حكمة الله تعالى أن شرع الإذن للرجل بالانفراد بالطلاق دون المرأة، لما في ذلك من المصلحة الظاهرة، فلو لم يأذن الله بذلك لكان الطلاق باطلًا كله، إلا أن يرضى الطرفان ! كما هو في سائر العقود.

وذهب جمهور أهل العلم إلى عدم اشتراط الإشهاد على الطلاق لوقوعه، بل وينقلون الإجماع على هذا كما فعل الشوكاني، وإن اختلفوا في استحبابه من عدمه.

وقال الشوكاني: «الإجماع على عدم وجوب الاشهاد في الطلاق»[(٣)].

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٤٣/ ٢٨٢.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الوصايا، باب كيف تكتب الوصية، ٩/ ٥٣، رقم ١٦٣١٩.
وصححه الالباني في إرواء الغليل، ٦/ ٨٤.
(٣) السيل الجرار، الشوكاني ص ٤٣٩.

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ أمرنا بالإشهاد على الطلاق، وقيل: على الرجعة، والظاهر رجوعه إلى الرجعة لا إلى الطلاق. ثم الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، وعند الشافعي واجب في الرجعة»[(٤)].

وذهب آخرون منهم ابن عباس وعمران بن حصين وعطاء و الضحاك و السدي وابن حزم ومن المعاصرين العلامة أحمد شاكر وغيرهم من العلماء إلى اشتراط وجوب الإشهاد في الطلاق[(٥)].

وعمدة القائلين بهذا القول هو قول الله عز وجل في سورة الطلاق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٥٧.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٤٥، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٢٣٢، المحلى، ابن حزم ١٠/ ٢٥١، نظام الطلاق في الإسلام، أحمد شاكر ص ٨٠.

﴿لَهُۥ مَخۡرَجٗا ٢﴾ [الطلاق ١-٢]

فقالوا: إن الأمر بالإشهاد في هذه الآية عائد على الطلاق والرجعة معًا، وقال غيرهم: بل هو عائد على الأمر بالرجعة، ومن ثم اختلفوا في دلالة هذا الأمر، فمن قائل: إنه للوجوب، أو للندب، أو للإرشاد[1].

وقال القنوجي: «﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾: على الرجعة، وقيل: على الطلاق، وقيل: عليهما قطعًا للتنازع وحسمًا لمادة الخصومة، والأمر للندب كما في قوله: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ﴾ [البقرة:٢٨٢]»[2].

ظاهر سياق الآيات أن الأمر عائد على الطلاق و الرجعة معًا، بل إن السورة بأكملها باسم الطلاق، فهي بيان لأحكامه و مسائله، ومن الممكن أن يكون الأمر بالإشهاد عائد على الأمرين معًا.

قال ابن عاشور: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ ظاهر وقوع هذا الأمر بعد ذكر الإمساك أو الفراق، أنه راجع إلى كليهما؛ لأن الإشهاد جعل تتمة للمأمور به في معنى الشرط للإمساك أو الفراق؛ لأن هذا العطف يشبه القيد وإن لم يكن قيدًا وشأن الشروط الواردة بعد جمل أن تعود إلى جميعها»[3].

و اختار كثير من المفسرين القول بأن الأمر بالإشهاد عائد على الطلاق و الرجعة[4].

فظهر بهذا أن الأمر بالإشهاد عائد على الطلاق والرجعة معًا، والأمر يقتضي الوجوب إلا إذا أتت قرينة تصرفه عن ظاهره إلى غيره.

قال الشيخ أحمد شاكر: «الظاهر من سياق الآيتين أن قوله تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ﴾ راجع إلى الطلاق وإلى الرجعة معًا، والأمر للوجوب؛ لأنه مدلوله الحقيقي، ولا ينصرف إلى غير الوجوب - كالندب- إلا بقرينة، ولا قرينة هنا تصرفه عن الوجوب. بل القرائن هنا تؤيد حمله على الوجوب؛ لأن الطلاق عمل استثنائي يقوم به الرجل -وهو أحد طرفي العقد- وحده. سواء أوافقته المرأة أم لا، كما أوضحنا ذلك مرارًا، وتترتب عليه حقوق للرجل قبل المرأة، وحقوق للمرأة قبل الرجل، وكذلك الرجعة، ويخشى فيهما الإنكار من أحدهما، فإشهاد الشهود يرفع احتمال الجحد، ويثبت لكل منهما حقه قبل الآخر. فمن أشهد على

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٤٦١.
(٢) نيل المرام، القنوجي ص٤٥١.
(٣) التحرير و التنوير ٢٨/ ٣٠٩.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٣٣٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٥٠، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٥٥، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٩٧، نظم الدرر، البقاعي ٢٠/ ١٤٨، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ١٩٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٦١، روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٣٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٩.

طلاقه فقد أتى بالطلاق على الوجه المأمور به، ومن أشهد على الرجعة فكذلك، ومن لم يفعل فقد تعدى حد الله الذي حده له فوقع عمله باطلًا لا يترتب عليه أي أثر من آثاره»[1].

واستدل القائلون بوجوب الإشهاد أيضًا بقول موقوف على عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق امرأته، ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: (طلقت لغير سنة وراجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد)[2].

والراجح قول من يقول: لا يقع أي طلاق إلا إذا كان بحضرة شاهدي عدل سامعين فاهمين تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ﴾ ظاهر في الوجوب كسائر الأوامر الواردة في الشرع، ولا يعدل عنه إلى غيره إلا بدليل.

(١) نظام الطلاق في الإسلام ص٨٠.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب الرجل يراجع ولا يشهد، ٣/ ٥١٠، رقم ٢١٨٦.
وصححه الألباني في الإرواء ٦/ ٢٩٩.

الشهادة يوم القيامة

أعد الله تعالى شهودًا على ابن ادم يوم الدين، ليشهدوا على كل صغيرة وكبيرة فعلها، فيشهد رب العزة، وتشهد الرسل، والملائكة، وتشهد نفس ابن آدم وأعضاؤه، وتشهد الأرض وما عليها، فلا يملك عصاة الجن والإنس يوم القيامة أمام هذه الشهادات المتوالية إلا الاستسلام والاعتراف، هذه بعض الشهادات.

أولًا: الشهادة على النفس:

أشهد الله تعالى الناس على أنفسهم منذ عالم الذر، وأخذ عليهم الميثاق بتوحيده، وأخذ منهم ميثاقًا غليظًا باجتناب الشرك، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢].

يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠] وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مولودٍ يولد على الفطرة -وفي روايةٍ:

على هذه الملة- فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)[1].

وعن عياض بن حمارٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم، عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم)[2].

والشهادة على النفس في هذه الآية هو إقرار، والإقرار سيد الأدلة؛ لأنك حين تشهد إنسانًا على غيره؛ فقد يغير الشاهد شهادته، ولكن الأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد الفطرة حتى لا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢] فحين يأتي يوم الحساب، لا داعي أن يقول: إني كنت غافلًا[3].

ويأتي على الناس لحظات يشهدون الحق ويعترفون به، فمن أنكره بعد ذلك اتباعًا لهواه فقد تمت عليه الحجة، فيضلله الله على علم ولا يهديه، قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران:٨٦].

وأهل الكتاب يشهدون على أنفسهم مع ذلك يصدون عن سبيل الله مع علمهم بصدق الرسول؛ فكانت شهادتهم حجة عليهم.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٩].

والمشركون يشهدون على أنفسهم بالكفر؛ لذلك منعهم الله من عمارة المساجد.

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة:١٧].

والانسان بطبعه كفور وهو شاهد على ذلك ويعترف به.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [العاديات:٦-٧].

قال محمد بن كعبٍ القرظي: «ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، فيكون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٤/ ٢٠٤٧، رقم ٢٦٥٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٤/ ٢١٩٧، رقم ٢٨٦٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٠٠.

تقديره: وإن الإنسان على كونه كنودًا لشهيدٌ، أي: بلسان حاله، أي: ظاهرٌ ذلك عليه في أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧][(١)].

وأقرب شيء إلى البشر جوارحه، فهي شاهدة عليه يوم القيامة؛ فيده التي يبطش بها ورجله التي يسعى بها وجلوده التي يلتذ بها، كلها ستشهد عليه يوم القيامة، فعلى الإنسان العاقل أن يعي مسؤوليته الكبيرة، ولا يكون طائشًا في تصرفاته، والله شهيد عليه، وكفى به شهيدًا.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور:٢٤].

لذلك استحقوا العذاب العظيم، ويكون كل شيء شاهدًا على ما أجرموا، وقد صور الله تعالى ذلك بأن ألسنتهم تشهد عليهم بما اخترصوا فيه، وأرجلهم تشهد بما سعوا فيه بالباطل، وأفسدوا به الناس، وأيديهم تشهد بما بطشوا، وما فعلوا من آثام، وشهادتهم منصبة على ما كانوا يعملون[(٢)].

والله يختم على أفواه المبررين، فلا ينطقون بما شاءوا، وانما تنطق ألسنتهم بالحق بغير إرادة منهم أو أنها لا تنطق، إلا بعد أن يأذن لها الله أن تنطق، ويدل الأفواه تنطق الأرجل والأيدي، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس:٦٥].

وحين ينطق أقرب الجوارح، فكيف يتهرب البشر من ذاته ومن أقرب الأعضاء إليه؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت:٢٢].

وهناك يرتاعون من شدة المفاجأة حيث طفقت مواضع الشهوة في أجسادهم تشهد عليهم فإذا بهم يخاطبونها، وهي لم تعد تأتمر بأوامرهم، لم نطقتم بمثل هذا ؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيءٍ. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت:٢١].

قال ابن عباسٍ: «إنهم -يعني: المشركين- إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا حتى نجحد. فيجحدون فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثًا»[(٣)].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٥٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٦٧.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠/ ٥١٧١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣.

وقال ابن جريرٍ الطبري: «إذا كان يوم القيامة، عرف الكافر بعمله، فيجحد ويخاصم، فيقال له: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك. فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك وعشيرتك. فيقول: كذبوا، فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يصمتهم الله، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم، ثم يدخلهم النار»[1].

ثانيًا: شهادة الرسول والمؤمنين على الأمم:

الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد على أمته.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقال الله تعالى لنبيه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨﴾ [الفتح:٨].

قال الشنقيطي: «بين تعالى أنه يبعثه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شاهدًا على أمته، وأنه مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين. قال تعالى في شهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أمته: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء:٤١]»[2].

فالرسول يشهد عليهم عند ربه، ويقبل الله شهادته وشفاعته، وعليهم أن يحترموه وأن يحذروا مخالفة أمره، فهو مبلغ اليهم رسالات الله، وأن عصيانه يقتضي عذابًا أليمًا في الدنيا، كما يقتضي عذابًا في يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولَۢا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمل:١٥-١٦].

«وتتجلى شهادة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة حيث يشهد لمن أطاعه فيرضى عنهم الله جل جلاله، ويشهد على من عصوه فيعذبون، قال الله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء:٤١].

يقول تعالى مخبرًا عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه: فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة وحين يجيء من كل أمة بشهيد، يعني: الأنبياء عليهم السلام؟

كما قال تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩﴾ [الزمر:٦٩][3].

وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل:٨٩].

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٠٥.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٣٩٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٠٦.

والفرق بين الشاهد والشهيد، الشاهد: هو القائد القائم عليهم، والشهيد: هو المسؤول دومًا عنهم، وهكذا كان عيسى عليه السلام شهيدًا على بني إسرائيل مادام بينهم، وقال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧].

وقيل: الشاهد بمعنى الحدوث. والشهيد بمعنى الثبوت. فإذا تحمل الشهادة فهو شاهد باعتبار حدوث تحمله، فإذا ثبت تحمله لها زمانين أو أكثر فهو شهيد[(١)].

والله جعل في كل أمة نبيًا شهيدًا، يبعث يوم القيامة ليشهد عليهم ولا يحق للمشهود عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ولا يقبل عتابهم.

وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النحل:٨٤].

والشهداء بعد الأنبياء هم علماء الأمة في كل جيل، فعلى الناس اتباعهم والأخذ بمنهجهم بما يوافق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن رفضوا أو اتبعوا الجبارين والطغاة والسلاطين الظلمة، فمصيرهم يوم القيامة بأن شهد عليهم العلماء بأنهم أشركوا بالله واتبعوا الطاغوت، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص:٧٤-٧٥].

والأمم لما تكذب رسلها وتقول كل أمة: ما جاءنا من نذير، فتأتي هذه الأمة: أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتشهد للرسل عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه، تشهد لهم بالبلاغ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وعن أبي سعيدٍ الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدعى نوحٌ يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذيرٍ، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]. فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣])[(٢)].

قال الخازن في تفسير قوله تعالى:

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٢٩، ١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، ٦/ ٢١، رقم ٤٤٨٧.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف:٦]: «يعني: نسأل الأمم الذين أرسلنا إليهم الرسل ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل، ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: ولنسألن الرسل الذي أرسلناهم إلى الأمم: هل بلغتم رسالاتنا وأديتم إلى الأمم ما أمرتم بتأديته إليهم أم قصرتم في ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية: يسأل الله تعالى الناس عما أجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا، وعنه أنه قال: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون.

وقال السدي: يسأل الأمم ماذا عملوا فيما جاءت به الرسل، ويسأل الرسل هل بلغوا ما أرسلوا به.

فإن قلت: قد أخبر عنهم في الآية الأولى بأنهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم في قوله ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فما فائدة هذا السؤال مع اعترافهم على أنفسهم بذلك؟

قلت: لما اعترفوا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم والتقصير، والمقصود من هذا التقريع والتوبيخ للكفار.

فإن قلت: فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليهم من الأمم؟

قلت: إذا كان يوم القيامة أنكر الكفار تبليغ الرسالة من الرسل، فقالوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فكان مسألة الرسل على وجه الاستشهاد بهم على من أرسلوا إليهم من الأمم أنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليه من الأمم، فتكون هذه المسألة كالتقريع والتوبيخ للكفار أيضًا؛ لأنهم أنكروا تبليغ الرسل، فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم»[1].

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢١٠.

أحكام أداء الشهادة

الشهادة أمر عظيم، وباب خطير، ولها جملة من الأحكام تتعلق بأدائها، ومن تلك الأحكام:

أولًا: شروط أداء الشهادة:

الشهادة تحملًا وأداءً يشترط لها شروط تتعلق بالشاهد وشروط تخص بعض الشهادات دون بعض، وهي كالتالي:

أولًا: شروط تتعلق بالشاهد. وهي:

١. التكليف.

من شروط الشاهد التكليف هو عندما يصبح الإنسان مكلفًا بتطبيق الأحكام الشرعية، ويراد بذلك: العقل، والبلوغ، فلا تقبل شهادة الصبي والمجنون.

واشتراط الشرع العقل ليتمكن الشاهد من فهم الحادثة وضبطها، والعقل آلة ذلك، والبلوغ من شروط الأداء لا من شروط التحمل[١].

والبلوغ من الشروط التي هي محل إجماع، فلا تقبل شهادة غير البالغ[٢].

قال النيسابوري: «أجمعت الأمة على أنه لا بد فيه من العقل والبلوغ، فلا حد على مجنون ولا على صبي؛ لأنهما ليسا من أهل التكليف»[٣].

٢. الإسلام.

فلا تقبل شهادة الكافر على المسلم. وكذا على غير المسلم.

فقد اتفق جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية، والحنابلة على أن الإسلام شرط لقبول الشهادة، فلا تقبل شهادة الكافر على المسلم. وكذا على غير المسلم[٤]. وأما الحنفية فقالوا: شهادة أهل الكفر بعضهم على بعض مقبولة إن كانوا من أهل الذمة[٥].

٣. الحرية.

فلا تقبل شهادة العبد.

فقد اتفق جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية على عدم قبول شهادة العبد، وأما الحنابلة يقبلون شهادة العبد، وكذا شهادة الأمة فيما تجوز فيه شهادة النساء، وسواء كان العبد رقيق الكل أو مبعضًا[٦].

٤. العدالة.

وهي محل اتفاق بين العلماء، فلا تقبل

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٦/ ٣٤٧٨.
(٢) انظر: الأم، الشافعي ٢/ ٢٥٥٢، بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٦٦، تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/ ٢١٢، المغني، ابن قدامة ١٢/ ٢٨، الإنصاف، المرداوي ١٢/ ٣٧.
(٣) غرائب القرآن ٥/ ١٤٦.
(٤) انظر: بلغة السالك، الصاوي ٢/ ٣٢٣، روضة الطالبين، النووي ٨/ ١٩٩، الشرح الكبير، ابن قدامة ١٢/ ٣٤.
(٥) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٦٦.
(٦) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٤/ ٣٠٥، اختلاف الفقهاء، الرازي ٣/ ٣٣٥.

شهادة الفاسق، ومن لا مروءة له[١].

٥. النطق.

فلا تقبل شهادة الأخرس.

قال الحنفية والحنابلة[٢]: لا تقبل شهادة الأخرس، ذلك أن الشهادة تختص بلفظ الشهادة، وهذا لا يمكن تحققه مع الأخرس أما المالكية والشافعية[٣]، فقالوا: إن فهمت إشارته جاز[٤].

٦. البصر.

فلا تقبل شهادة الأعمى.

لا تقبل شهادة الأعمى عند الحنفية[٥]، وأما عند الجمهور من المالكية والشافعية والحنابلة فقد أجازوا شهادته في الأقوال دون الأفعال، وأما أبو حنيفة ومحمد فلا يجيزان شهادة الأعمى بحال[٦].

٧. الضبط.

وحسن السماع، والفهم: فلا تقبل شهادة المغفل، والمعروف بكثرة الغلط والنسيان[٧].

ثانيًا: شروط تخص بعض الشهادات دون بعض:

١. الذكورية إذا تعلقت بالحدود والقصاص، حيث لا تقبل فيها شهادة الإناث.

٢. العدد في بعض أنواع الشهادات وهو على مراتب، فمنه ما يشترط فيه أربعة، كالشهادة على الزنا، ومنه ما يشترط فيه الاثنان، كالشهادة على السرقة والقتل. ومنه ما يشترط فيه الرجلان أو رجل وامرأتان، كما في المعاملات المالية.

٣. إقامة الدعوى إن كانت الشهادة في حقوق العباد، فإن كانت في حقوق الله تعالى فلا يجب إقامة الدعوى، كالشهادة على دخول هلال رمضان، وكذا حد الزنا[٨].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣٣٤، بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٦٦، الكافي، ابن عبدالبر ص٤٦١، الوجيز الغزالي ٢/ ٢٤٨، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ٥٨٩.

(٢) انظر: المبسوط، السرخسي ١٦/ ١٣٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ١٨٥.

(٣) انظر: مختصر اختلاف العلماء، الرازي ٣/ ٣٦٩، الكافي، ابن عبدالبر ص٤٦٤، الوجيز، الغزالي ٢/ ٢٥١، روضة الطالبين، النووي ٨/ ٢٣١.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٨٦، روضة الطالبين، النووي ٨/ ٢٣١.

(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٢١٦، مختصر اختلاف العلماء، الرازي ٣/ ٣٣٦.

(٦) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٢١٦،: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٩٠، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٤٤٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ١٨٥.

(٧) انظر: المبسوط، السرخسي ١٦/ ١١٣، المعونة، القاضي عبدالوهاب ٣/ ١٥٢٧، روضة الطالبين، النووي ٨/ ٢١٦، المبدع، ابن مفلح ٨/ ٣٠٤.

(٨) المهذب، الشيرازي ٣/ ٥٠، المبدع، ابن مفلح ٨/ ٣٣٠، الإجماع، ابن المنذر ص٨٧.

ثالثًا: كيفية أداء الشهادة:

يشترط في كيفية أداء الشهادة على الوجه الصحيح أربعة شروط:

الشرط الأول: اللفظ.

يعتبر في أداء الشهادة الإتيان بلفظها فيقول: أشهد بكذا، فإن قال: أعلم وأتيقن أو أحق ونحوه لم يعتد به؛ لأنها مشتقة من اللفظ، وإذا شهد بأرض أو دار، فلا بد من ذكر حدودها؛ لأنها لا تعلم إلا بذلك، وإن شهد بنكاح اشترط ذكر شروطه من الولي والشهود والإيجاب والقبول؛ لأن الناس يختلفون فيها، وإن شهد بالرضاع احتاج إلى وصفه وأنه ارتضع من ثديها أو من لبن حلب منه، وذكر عدد الرضعات وأنه في الحولين، ولو شهد أنه ابنها من الرضاع لم يكف؛ لاختلاف الناس فيما يصير به ابنًا[1].

قال ابن عادل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

«اختص هذا اللفظ في عرف الشرع بمن يخبر عن حقوق الناس بألفاظ مخصوصة على جهات مخصوصة»[2].

الشرط الثاني: حسن الأداء للشهادة.

فلو قال الشاهد: معي شهادة أو عندي شهادة أن فلانًا فعل كذا أو أقر بكذا لم يكن ذلك أداء صحيحًا.

فلا يجوز لأحد أن يشهد على الآخر، إلا إذا كان حسن الأداء بالشهادة، حتى لو رأى الخط، إلا أن يكون ذاكرًا لما يشهد به، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ [البقرة:٢٨٢].

فدل ذلك على أن الكتاب إنما أمر به ليتذكر به كيفية الشهادة، وأنها لا تقام إلا بعد حفظها وإتقانها.

وفيه الدلالة على أن الشاهد إذا قال: لا أذكر، ثم تذكر، يجوز له إقامة الشهادة[3].

الشرط الثالث: العدالة في الشهود.

وإن غلب في ظن الحاكم عدالتهم لا تصح شهادتهم وإن رضي الخصم بشهادة من ليس بعدل لا تقبل شهادته إلا أن يقول الخصم: صدق، فتؤخذ شهادته من باب الإقرار.

ونقل الشنقيطي عن ابن فرحون مراتب العدالة التي شملت أنواع الشهود قوة وضعفًا، وفيما تقبل شهاداتهم وفيما لا تقبل، وقال: إنها إحدى عشرة مرتبةً، وهي:

الأولى: الشاهد المبرز في العدالة العالم بما تصح به الشهادة، فتجوز شهادته في كل شيء، وتجريحه ولا يسأل عن كيفية علمه

(١) انظر: الهداية: المرغيناني ٣/ ١٢٩، الكافي، ابن قدامة ٤/ ٢٨٧.
(٢) اللباب في علوم الكتاب ٣/ ١٨.
(٣) انظر: أحكام القرآن، الكيا هراسي ١/ ٢٥٦.

بما شهد به من ذلك كله إذا أبهمه، ولا يقبل فيه التجريح إلا بالعداوة.

الثانية: المبرز في العدالة غير العالم بما تصح به الشهادة، فحكمه كالأول، إلا أنه يسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك.

الثالثة: الشاهد المعروف بالعدالة العالم بما تصح به الشهادة، فتجوز شهادته إلا في ستة مواضع على اختلاف في بعضها، وهي التزكية، شهادته لأخيه ولمولاه ولصديقه الملاطف ولشريكه في غير التجارة، وإذا زاد في شهادته أو نقص فيها، ويقبل فيها التجريح بالعداوة وغيرها، ولا يسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك.

الرابعة: المعروف بالعدالة غير العالم بما تصح به الشهادة، حكمه كذلك إلا أنه يسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك.

الخامسة: الشاهد المعروف بالعدالة إذا قذف قبل أن يحد فاختلف في قبول شهادته.

السادسة: الذي يتوسم فيه العدالة تجوز دون تزكية فيما يقع بين المسافرين في السفر من المعاملات، وفيما عدا ذلك لا بد من تزكيته، لأنه هو المعروف بمجهول الحال، والصحيح أن مثله لا بد من التحري عنه حتى ينكشف أمره.

السابعة: الذي لا يتوسم فيه العدالة ولا الجرحة فلا تجوز شهادته في موضع من المواضع دون تزكية، إلا أن شهادته تكون شبيهة في بعض المواضع عند بعض العلماء، فتوجب اليمين وتوجب الحميل وتوقيف الشيء على المدعى عليه.

الثامنة: الذي يستوسم فيه الجرحة فلا تجوز شهادته دون تزكية، ولا تكون شهادته شبهة توجب حكمًا.

التاسعة: الشاهد الذي ثبت عليه جرحة قديمة أو يعلمها الحاكم فيه، فلا تجوز شهادته دون تزكية، ولا تقبل فيه التزكية على الإطلاق، وإنما تقبل ممن علم بجرحته إذا شهد على توبته منها، ونزوعه منها، والمحدود في القذف بمنزلته على مذهب مالك؛ لأن تزكيته لا تجوز على الإطلاق، وإنما تجوز بمعرفة تزيده في الخير.

العاشرة: المقيم على الجرحة المشهود بها، فلا تجوز شهادته ولا تقبل التزكية فيه، وإن زكى، وإنما تقبل تزكيته فيما يستقبل إذا تاب.

الحادية عشر: شاهد الزور، فلا تصح شهادته وإن تاب وحسنت حاله، وفي رواية أبي زيد: إذا جاء تائبًا مقرًا على نفسه بشهادة الزور قبل أن تظهر عليه، وهو الأظهر»[1].

الشرط الرابع: حضور الخصم المدعى عليه عند أداء الشهادة أو حضور نائبه.

وإن لم يكن حاضرًا هو أو نائبه لم يصح

(١) انظر: أضواء البيان ٨/ ٣٠٢.

أداؤها، ويجوز للقاضي تحليفهم وتفريقهم.

والأصوب في الشهادة هو الوقوف أمام القاضي، ويذكروا له كيفية الواقعة، كما حدث مع أخوة يوسف، فقال الأخ المحتبس بمصر لإخوته: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يوسف:٨١][1].

قال الشربيني في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت:٢٠]. أي: النار التي كانوا بها يكذبون، فما زائدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور»[2].

رابعًا: موانع قبول الشهادة:

يمنع من الشهادة عدة أشخاص وهم:

١. **الطفل والصبي والمجنون والسكران:** لأن قولهم على أنفسهم لا يقبل، فعلى غيرهم من باب أولى[3]. والصبي لا تقبل شهادته لقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢]. فالله تعالى جعل الشهادة في الرجال وليس في الصبيان؛ ولأن الصبي ليس بمكلف، فهو أشبه بالمجنون.

٢. **من عرف بكثرة الغلط والغفلة:** لأنه لا تحصل الثقة بقوله؛ لاحتمال أن يكون من غلطه، وتقبل شهادته من يقبل ذلك منه؛ لأن أحدًا لا يسلم من الغلط[4].

٣. **الأخرس:** فلا تقبل شهادة الأخرس بالإشارة؛ لأنها محتملة، فلم تقبل، كإشارة الناطق وإنما قبلت في أحكامه المختصة به للضرورة، وهي ها هنا معدومة[5].

٤. **الكافر**[6]: لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق:٢]. وقال تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة:٢٨٢]. والكافر ليس بعدل ولا مرضي عنه ولا هو منا، ولكن تقبل شهادة أهل الكتاب في الوصية في السفر إذا لم يكن موجودًا غير المسلمين، ويستحلف مع شهادته لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة:١٠٦]. الآيات نزلت في تميم وعدي، وكانا نصرانيين، شهدا بوصية،

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ١٨٣.
(٢) السراج المنير ٣/ ٥١٢.
(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٥/ ١٤٦.
(٤) انظر: المغني، ابن قدامة ١٠/ ٨٣٧٨.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٨٦، روضة الطالبين، النووي ٨/ ٢٣١.
(٦) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٢٥٦.

فعن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم، فأوصى إليهما، فلما قدما بتركته فقد جامًا من فضة بالذهب، فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله ما كتمتماها ولا اطلعتما، ثم وجدوا الجام بمكة، فقيل: اشتريناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلفا بالله: لشهادتنا أحق من شهادتهما وأن الجام لصاحبهم، وأخذ الجام[1].

٥. **الفاسق:** فلا تقبل شهادة الفاسق، مثل المغني والرقاص والطفيلي والمتمسخر؛ لقول الله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق:٢][2]. وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة، ولا ذي غمر[3] على أخيه)[4]. أما الخيانة في الحديث فلا تختص بخيانة أمانات الناس، بل ذلك عام في كل من ترك شيئًا مما أمر الله به عباده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أو ارتكب ما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يكون عدلًا ولا تجوز شهادته؛ لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٧-٢٨]. قال السعدي: «ولما كان العبد ممتحنًا بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطاها، وترد لمن استودعها»[5].

٦. **الوالدان:** فلا تقبل شهادة والد وإن علا أو ولد وإن سفل؛ لأن الانسان يميل بطبعه إليهم. قال الشربيني: «الولد قطعة من الوالدين، قال صلى الله عليه

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٢٤.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣٣٤، الكافي، ابن عبدالبر ص٤٦١، الوجيز، الغزالي ٢/ ٢٤٨.
(٣) ذي غمر أي: حقد وضغن.قال الخطابي: «ذو الغمر فهو الذي بينه وبين المشهود عليه عداوة ظاهرة، فرد شهادته للتهمة»، معالم السنن، الخطابي ٤/ ١٦٩.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب من ترد شهادته، ٥/ ٤٥٣، رقم ٣٦٠١. وقوى إسناده ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٩٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٣١٩.

وسلم (فاطمة بضعة مني)[1]. وأيضًا شفقة الوالدين على الولد عظيمة، وإيصال الخير إلى الولد منهما أمر طبيعي، واحترازهما عن إيصال الضرر إليه أمر طبيعي»[2]. وقال الحسن والنخعي والشعبي وشريح ومالك والثوري والشافعي وابن حنبل: بجواز شهادة الوالدين والأخ، ويتأولون في ذلك قول الله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]. فلم يكن أحد يتهم في ذلك من السلف الصالح رضوان الله عليهم. ثم ظهرت من الناس أمور حملت الولاة على اتهامهم، فتركت شهادة من يتهم، وصار ذلك لا يجوز في الولد والوالد والأخ والزوج والزوجة[3].

٧. الزوجان: فلا تقبل شهادة أحد الزوجين لصاحبه؛ لأنه ينتفع بشهادته لتبسط كل واحد منهما في مال الآخر عادة واتساعه سعته وإضافة مال كل منهما إلى الآخر. قال عمر بن الخطاب لرجل قال له: (إن غلامي سرق مرآة امرأتي قال: غلامكم سرق مالكم لا قطع عليه)[4]؛ ولأنه إن كان الزوج الشاهد فهو يجر إلى نفسه نفعًا؛ لأن قيمة بضع المرآة المملوك له يزداد بيسارها وإن كان الشاهد المرأة فنفقتها تزداد بيساره، وعنه: أن شهادة أحدهما للآخر مقبولة لدخوله في العموم[5]. وقال مالك وأبو حنيفة: شهادة الزوج لزوجته لا تقبل؛ لتواصل منافع الأملاك بينهما، وهي محل الشهادة[6]. ولأنه يتهم في إرادة الضرر بعدوه. لذلك لا تقبل شهادة الرجل على زوجته بالزنا؛ لأنه يقر بعدواته لها؛ ولأنه دعوى جناية في حقه فلم تقبل؛ لأنه خصم، ولا تقبل شهادة المقطوع عليه الطريق على القاطع، ولا المقذوف على القاذف، لأنه عدو، فأما المتحاكمان على مال فلا يمنع ذلك قبول شهادة أحدهما على صاحبه؛ لأنه ليس بعدواة[7].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٧/ ٣٧، رقم ٥٢٣٠.
(٢) السراج المنير ٢/ ٢٩٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٥٢.
(٤) مصنف عبد الرزاق، كتاب اللقطة، باب الخيانة، ١٠/ ٢١٠، رقم ١٨٨٦٦.
(٥) انظر: العدة شرح العمدة، أبو محمد المقدسي، ص ٦٨٩.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٥٢.
(٧) انظر: الفتح الرباني، الجيلاني ٥/ ٢٢٠.

عقوبة كتم الشهادة وتزويرها

كتمان شهادة الحق من العلامات التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم، والتي ستكون بين يدي الساعة، ففي حديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن بين يدي الساعة شهادة الزور وكتمان شهادة الحق)[1].

وشهادة الزور هي الكذب المتعمد في الشهادة لإبطال الحق، وكذلك كتمان الشهادة لإبطال الحق، وهذه من العلامات التي تكون بين يدي الساعة التي وقعت الآن بمثل ما أخبر به الصادق المصدوق.

أولًا: عقوبة كتم الشهادة:

قال تعالى في كتمان شهادة الحق: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

فإذا دعي المريء إلى الشهادة فلابد أن يشهد بالحق الذي رآه بعينه والذي سمعه بأذنيه، ولا يشهد على غبش، ولا يقل: بلغني كذا أو سمعت عن فلان كذا وكذا[2].

وعن سعيد بن جبيرٍ في قول الله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ يعني: عند الحكام، يقول: من أشهد على حقٍ، فليقمها على وجهها، كيف كانت»[3].

وعن الربيع: «فلا يحل لأحدٍ أن يكتم شهادةً هي عنده، وإن كانت على نفسه أو الوالدين أو الأقربين»[4].

وكتمان الشهادة ظلم، وبخاصة عندما تكون الشهادة المفروضة حق الله، مثل: الشهادة بأركان الإيمان أو الإسلام.

قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة:١٤٠].

وكذلك كل من يكتم الشهادة على حقوق الناس المفروضة فهم آثم.

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة:٢٨٣].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ إلى الشهود يعني: إذا دعيتم إلى إقامتها وأدائها، وذلك لأن الشاهد متى امتنع عن إقامة الشهادة وكتمها فقد أبطل بذلك حق صاحب الحق؛ فلهذا نهى الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٤٠٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٦٤٧.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣١٠.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٥٧١.
(٤) جامع البيان، الطبري ٥/ ١٣٠.

تعالى عن كتمان الشهادة وبالغ في الوعيد عليه فقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ يعني: الشهادة فإنه آثم قلبه، أي: فاجر قلبه والآثم الفاجر، وإنما أضيف الإثم إلى القلب لأن الأفعال من الدواعي والصوارف إنما تحدث في القلب، فلما كان الأمر كذلك أضيف الإثم إلى القلب، قيل: ما أوعد الله على شيء كإيعاده عن كتمان الشهادة فإنه تعالى قال ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أراد به مسخ القلب ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يعني: من بيان الشهادة وكتمانها، ففيه وعيد وتحذير لمن كتم ولم يظهرها.

ويدخل في كتمان الشهادة ألا يقول ما عاين، بأن يمتنع عن الذهاب إلى مجلس القضاء مطلقًا، أو يذهب ويقول: لا أعلم؛ فإن ذلك فوق أنه كتمان كذب، أو يقول بعض ما يعلم. والأداء أن يقول كل ما يعلم حيث طلب إليه أن يقول، ولا يترك شيئًا مما يعلمه متصلًا بموضوع الشهادة[1].

قال الزمخشري في هذا المعنى: «كتمان الشهادة هو أن يضمرها، ولا يتكلم بها، فلما كان إثمًا مقترنًا بالقلب أسند إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ؛ ألا تراك إذا أردت التوكيد تقول: هذا مما أبصرته عيني، ومما سمعته أذني، ومما عرفه قلبي؛ ولأن القلب رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله؛ فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه، ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان، وليعلم أن القلب أصل متعلقه، ومعدن اقترافه، واللسان ترجمان عنه؛ ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح، وهي لها كالأصول التي تشع منها، ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب؛ فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب، فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب»[2].

﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ مرفوع بالفاعلية أو الابتداء، أي: يأثم قلبه أو قلبه آثم، وأسند الإثم إلى القلب لأن الكتمان فعل القلب، ففي الإسناد إليه تأكيد ومبالغة، كما يقال، رأيته بعيني وسمعته بأذني وحفظته بقلبي أو لأنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**ألا وإن في الجسد مضغةً: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**)[3][4].

وعن ابن عباسٍ قال: «ومن الكبائر: كتمان الشهادة؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢/ ١٠٨٠.

(٢) الكشاف ١/ ٣٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢.

(٤) انظر: التفسير المظهري ١/ ٤٣٦.

﴿يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾»[1].

وعن سعيد بن جبيرٍ في قول الله: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾: «يعني: الشهادة، لا يشهد بها إذا دعي لها، فإنه آثمٌ قلبه»[2].

وعن السدي في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ يقول: فاجرٌ قلبه[3].

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يعني: من كتمان الشهادة، وإقامتها عليهم عليمٌ وتهديد هذه الآية دليل على أن كتمان الشهادة حرام وأداؤها فريضة وإن لم يسأله المشهود له، وإذا كان المشهود له لا يعلم بشهادة الشاهد يجب على الشاهد أن يعلمه بأنه شاهد.

وقال آخرون: الشهادة من قبل أن يستشهد مذمومه؛ لحديث عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم أن بعدهم قومًا يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن)[4][5].

ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فالآية خاصة متصلة بالآية التي قبلها، وإنما نزلت في كتمان الشهادة، ومعنى الآية ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أيها الشهود من كتمان الشهادة أو تخفوه، أي: تخفوا الكتمان يحاسبكم به الله[6].

ثانيًا: عقوبة شهادة الزور:

شهادة الزور من أكبر الكبائر، وأعظم الذنوب، فهي سبب في أكل أموال الناس بالباطل، وسبب لإضاعة الحقوق، وسبب لإضلال الحكام والقضاة ليحكموا بغير الحق، فيجب اجتنابها.

والزور في اللغة: الكذب والباطل، وقيل: هو شهادة الباطل، يقال: رجلٌ زور، وقوم زور؛ أي: مموهٌ بكذب[7].

وشهادة الزور شرعًا: الشهادة بالكذب؛ ليتوصل بها إلى الباطل، من إتلاف نفس، أو أخذ مال، أو تحليل حرام، أو تحريم حلال، وقيل: أن يشهد المرء بما لا يعلم عامدًا ولو طابق الواقع. وقيل: هي الشهادة بالكذب[8].

وتعتبر شهادة الزور من أبشع الرذائل، وأشنع المعاصي، وأفحش الآثام، وأعظم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٣٠، تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٥٧١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٣٠.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٥٧١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، بابٌ لا يشهد على شهادة جورٍ إذا أشهد، ٣/ ١٧١، رقم ٢٦٥١.
(٥) انظر: التفسير المظهري ١/ ٤٣٦.
(٦) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣١٠.
(٧) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٨٦.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٥٥، حاشية الطحاوي ٣/ ٢٦٠، فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤١٢.

الموبقات، وأكبر الكبائر. ويكفي للدلالة على فظاعتها وخطورتها أن رب العزة سبحانه قرن النهي عنها بالنهي عن عبادة الأوثان في محكم القرآن[1].

قال الله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر). ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين-وجلس وكان متكئًا، فقال- ألا وقول الزور). قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[2].

فجلوسه عليه الصلاة والسلام بعد اتكائه يشعر باهتمامه الكبير بهذه الآفة الخطيرة، ويفيد تأكيد حرمتها، وعظم قبحها. وسبب اهتمامه عليه الصلاة والسلام المتزايد بها، هو: كونها أسهل وقوعًا على الناس، والتهاون بها أكثر، والحوامل عليها كثيرة، كالعداوة والحسد وغير ذلك[3].

وشاهد الزور خوان أثيم، وله عند الله العذاب الأليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء:١٠٧].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا إيمان لمن لا أمانة له).[4]

وشاهد الزور غشاش مكار كذاب، شاهد الزور إذا مات ولم يتب يعذب في النار بقدر جرمه وكذبه.

ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول: (من غشنا فليس منا)[5].

وعن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب كذابًا)[6].

وشاهد الزور يجني على نفسه أولًا، فيلبسها لباس الخزي والعار والذل والاحتقار، ويعرضها لعقاب الجبار.

ثانيًا: يجني على المشهود عليه بإلحاق

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٤١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم ٢٥١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الكبائر وأكبرها، رقم ٨٧.
(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٢٦٣.
(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، رقم ١٩٤.
وصححه الألباني في تعليقه على الإيمان لابن تيمية ص٢١.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من غشنا فليس منا)، رقم ١٠٢.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب، رقم ٢٦٠٧.

الضرر به، وقهره وغلبته بالباطل، وحرمانه من حقه، وإيغار صدره عليه، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]

ثالثًا: يجني على المشهود له بإعانته على الباطل والجور والعصيان، وربنا جل وعلا يقول ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

رابعًا: يجني أيضًا على المجتمع برمته، بحيث يسهم في إفساده وتخريبه وتهديد كيانه وإسقاطه من بين المجتمعات الراقية، ذلك أن أي مجتمع تنتشر وتتفشى فيه هذه الآفة الخطيرة وهذه الجريمة الشنيعة يكون عرضة للانحدار والسقوط[(١)].

وإذا أقر الإنسان أنه شهد زورًا عند القاضي فهو فاسق ترد شهادته، يفعل القاضي به ما يحقق المصلحة، بحسب الناس، وحجم القضية. فله أن يعزره بما يردعه بالضرب مثلًا، أو الحبس، أو التوبيخ، أو يشهر به في الأسواق أو بين قومه، ليعرفه الناس ويحذروه.

وأما إذا تسبب في القتل بشهادته، فقد ذهب الحنفية، والمالكية إلى أن الواجب هو الدية لا القصاص؛ لأن القتل بشهادة الزور قتلٌ بالسبب، والقتل تسببًا لا يساوي القتل مباشرة؛ فوجبت به الدية لا القصاص[(٢)].

وجاء عن الإمام مالك: «قلت: أرأيت القاضي إذا أخذ شاهد زور كيف يصنع به وما يصنع به؟ قال: قال مالك: يضربه، ويطوف به في المجالس»[(٣)].

وقال ابن جزي: «إذا عثر على شاهد الزور عوقب بالسجن والضرب، ويطاف به في المجالس»[(٤)].

وقال ابن العربي: «يسود وجهه، ولا تقبل شهادته؛ لأنه لا تعرف له توبة»[(٥)].

وعند الشافعية والحنابلة: يجب حد القذف على الشهودِ إذا شهدوا بالزنا، ويقام عليهم الحد، سواء تبين كذبهم قبل الاستيفاء أم بعده، ويحدون في الشهادة بالزنا حد القذف أولًا، ثم يقتلون إذا تبين كذبهم بعد استيفاء الحد بالرجم[(٦)].

ثالثًا: حكم توبة شاهد الزور:

ذهب الحنفية والشافعية، والحنابلة وأبو ثور[(٧)]، إلى أنه إذا تاب شاهد الزور، وأتت

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٤١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٥٥.

(٢) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٨٥، الشرح الصغير، الدردير ٤/ ٢٩٥.

(٣) المدونة ٤/ ٧٤.

(٤) القوانين الفقهية، ابن جزي ص ٢٢٧.

(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ٦/ ٩.

(٦) انظر: نهاية المحتاج، الرملي ٨/ ٢١١، المهذب، الشيرازي ص ٣٤١، المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٤٥.

(٧) انظر: العناية، البابرتي ٦/ ٨٤، روضة

على ذلك مدة، فظهر فيها توبته، وتبين صدقه فيها وعدالته قبلت شهادته؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ [آل عمران:٨٩].

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[(١)]. ولأنه تائب من ذنبه، فقبلت توبته كسائر التائبين.

ومدة ظهور التوبة عندهم سنة؛ لأنه لا تظهر صحة التوبة في مدة قريبة، فكان أولى المدد بالتقدير سنة؛ لأنه تمر فيها الفصول الأربعة التي تهيج فيها الطبائع، وتتغير فيها الأحوال[(٢)].

وقال البابرتي: «مدة ظهور التوبة عند بعض الحنفية ستة أشهر، ثم قال: والصحيح أنه مفوض إلى رأي القاضي»[(٣)].

وقال المالكية: إن كان ظاهر الصلاح حين شهد بالزور، لا تقبل له شهادة بعد ذلك؛ لاحتمال بقائه على الحالة التي كان عليها، وإن كان غير مظهر للصلاح حين الشهادة، ثم ظهر فيه الصلاح تقبل توبته[(٤)].

موضوعات ذات صلة:

الدَين، الزور، العدل

الطالبين، النووي ١١/ ٢٤٥، كشاف القناع، البهوتي ٦/ ٤٤٣.

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥٠.
وحسنه ابن حجر، كما في المقاصد الحسنة، السخاوي ص ٢٤٩.

(٢) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٠٢.

(٣) العناية، البابرتي ٦/ ٨٤.

(٤) انظر: الشرح الصغير، الدردير ٤/ ٢٦، الكافي، ابن عبد البر ٦/ ٢١٠.

الشُّورَى

عناصر الموضوع

مفهوم الشورى	٨٨
الشورى في الاستعمال القرآني	٨٩
الألفاظ ذات الصلة	٩٠
مكانة الشورى والحث عليها	٩٢
مشروعية الشورى	١٠٢
مجالات الشورى	١٢٣

مفهوم الشورى

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارسٍ: «الشين والواو والراء أصلان مطردان، والشورى مشتقة من مادة (شور) وشاوره واستشاره في الأمر مشاورة وشوارًا واستشارةً: طلب منه المشورة، أو طلب رأيه فيه، واشتار العسل، وشاره: اجتناه واستخرجه من خلاياه ومواضعه، وشار الفحل الناقة ونحوها: شمها لينظر أحائلٌ هي أم لاقحٌ. وهو مشتق من شور العسل، فكأن المستشير يأخذ الرأي من غيره، والشورى تدل على معنيين أصليين:

أحدهما: إبداء الشيء وإظهاره وعرضه.

والآخر: أخذ الشيء. والتشاور: استجماع الرأي، وهو تفاعل بين طرفين يفيد المشاركة. الشورى هي الاسم من تشاور القوم واشتوروا، والشورى هي التشاور، والأمر الذي يتشاور فيه»[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «المشاورة والمشورة: استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض»[(٢)].

وعرفها ابن العربي المالكي بأنها: «عرض الأمر على الخيرة حتى يعلم المراد منه»[(٣)].

وعرفها الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق بأنها: «استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه؛ للتوصل إلى أقرب الأمور للحق»[(٤)].

وقال الدكتور إسماعيل البدوي: «استخراج الصواب بعد التعرف على آراء الآخرين وإجالة النظر فيها»[(٥)].

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٢٢٦.
وانظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٣٧٢، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٣٤، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٤٣٨.

(٢) المفردات ص٤٦٩-٤٧٠.

(٣) أحكام القرآن ٤/ ٩١.

(٤) الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي ص١٤.

(٥) مبدأ الشورى في الشريعة الإسلامية ص٨.

الشورى في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شور) في القرآن الكريم (٣) مرات [(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
فعل الأمر	١	﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران:١٥٩]
المصدر	١	﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣]
اسم المصدر	١	﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨﴾ [الشورى:٣٨]

وجاءت الشورى في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: طلب رأي الغير في الأمر [(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٣٩١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الشين ص٦٧٦.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٢٢٦-٢٢٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١/ ٤٩٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٣٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الديمقراطية:

الديمقراطية لغة:

الديمقراطية (Democracy) كلمة مشتقة من لفظتين يونانيتين TheSans (الشعب) وTheSans (سلطة) ومعناها: الحكم الذي تكون فيه السلطة للشعب[١].

الديمقراطية اصطلاحًا:

حق الشعب المطلق في أن يشرع لجميع الأمور العامة بأغلبية أصوات نوابه[٢].

الصلة بينها وبين الشورى:

إن الديمقراطية مذهب فكري بشري، ويلتقي مع الشورى في طلب المستشير الرأي من أهل الرأي، وإبداء الرأي وعرضه على من يطلبه في موضوع معين.

ويختلفان في أصل النشأة، وفي مجال العمل ونطاقه، فالشورى أصلها رباني، وهي مقيدة بعدم مخالفة المشروعية، وأما في الديمقراطية فإن سلطة المجلس النيابي مطلقة غير مقيدة إلا بإرادة الشعب، وأهل الشورى في الإسلام يشترط فيهم صفات وشروط لا تلقي لها الديمقراطية بالًا، ولا تعيرها اهتمامًا؛ لأن منطلقاتها غير منطلقات الإسلام في ذلك[٣].

٢ الاستفتاء:

الاستفتاء لغة:

هو تصويت الشعب في مسألة من المسائل[٤].

الاستفتاء اصطلاحًا:

الاستفتاء هو عرض موضوع عام على الشعب؛ لأخذ رأيه فيه بالموافقة أو الرفض[٥].

واستخدمت كلمة الاستفتاء في البلاد العربية استخدامًا واسعًا، جعلها تشمل أيضًا عرض شخص واحد على الشعب؛ للموافقة على تنصيبه أو بقائه رئيسًا للدولة[٦].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب ص١٤٩.
(٢) منهاج الإسلام في الحكم، تعريب منصور محمد ماضي ص٤٧-٤٨.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٤٨.
(٤) انظر: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة ١/ ٧٢٣.
(٥) الاستفتاء الشعبي بين الأنظمة الوضعية والشريعة الإسلامية، ماجد راغب الحلو ص٩.
(٦) انظر: المصدر السابق ص٩-١٠.

الصلة بين الاستفتاء والشورى:

إن الشورى والاستفتاء يلتقيان في أنهما يتمثلان -بصفة عامة- في طلب الرأي من أهله في أمر من الأمور العامة.

ويختلفان في أمور ثلاثة:

أولها: من حيث أهل الرأي، فهم في الاستفتاء جميع الناخبين عادةً دون أي شرط، أما في الشورى فهم أهل الحل والعقد، أو أهل الشورى والاختيار بصفاتهم وشروطهم التي سيأتي الحديث عنها، فكأنهم الصفوة من الأمة.

ثانيهما: من حيث الموضوع، يشمل الاستفتاء أي موضوع عام يراد اتخاذ موقف بشأنه، أو قرار، أيًا كان موضوعه أو مجاله دون التقيد بأحكام سابقة أو قواعد لا يجوز المساس بها، أما الشورى فمجالها ونطاقها محدد فيما لا نص قاطع فيه، وفي الأمور المباحة والأمور التنظيمية.

وثالثها: من حيث حدود الرأي، فليس لصاحب الرأي في الاستفتاء عادة غير الموافقة أو الرفض دون مناقشة، وأما في الشورى فإن أهل الرأي لهم أن يبدوا آراءهم، وأن يناقشوا، وأن يبحثوا الموضوع بأكمله، ضمن القواعد والضوابط الشرعية[1].

٣ استطلاع الرأي:

استطلاع الرأي لغة:

هو بحثٌ لمعرفة اتجاهات الناس واعتقاداتهم وآرائهم[2].

استطلاع الرأي اصطلاحًا:

دراسة يتم إجراؤها بشكل علمي، وتهدف إلى معرفة آراء المواطنين تجاه إحدى القضايا الهامة، أو أحد الأحداث المطروحة على الساحة[3].

الصلة بين استطلاع الرأي والشورى:

يتفقان في أن كليهما استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض، ويختلفان في جوانب أخرى تتصل بأصل المبدأ، وبالأخلاقيات الناظمة له، والوسيلة التي يجري بها أيضًا.

(١) انظر: الاستفتاء الشعبي، ماجد راغب الحلو ص١٧١-١٧٥.
(٢) انظر: الموسوعة العربية العالمية ١/ ٧١٧.
(٣) انظر: المصدر السابق ١/ ٧١٨.

مكانة الشورى والحث عليها

تنوعت أساليب الحث على الشورى، ونتناولها فيما يأتي:

أولًا: صيغة الطلب:

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يشاور أصحابه رضوان الله عليهم، ففي أعقاب غزوة أحد، بعد أن أصيب المسلمون بما أصيبوا به، نزل الأمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما يطرأ عليهم من الشئون؛ ربطًا للقلوب وتقريرًا لما يجب أن يكون بين المؤمنين من حسن التضامن في سياسة الأمور، وتدبير الشئون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال شيخ المفسرين الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله: «إن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه ومكايد حربه؛ تألفًا منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي يؤمن عليه معها فتنة الشيطان، وتعريفًا منه أمته مأتى الأمور التي تحزبهم من بعده ومطلبها؛ ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعله، فأما النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله كان يعرفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه أو إلهامه إياه صواب ذلك، وأما أمته، فإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك، على تصادقٍ وتأخٍ للحق[(١)]، وإرادة جميعهم للصواب، من غير ميلٍ إلى هوىً، ولا حيدٍ عن هدى، فالله مسددهم وموفقهم»[(٢)].

وقال ابن عطية الأندلسي رحمه الله: «أمر الله تعالى رسوله بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ، وذلك أنه أمره بأن يعفو عليه السلام عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة وحقٍ، فإذا صاروا في هذه الدرجة، أمره أن يستغفر لهم فيما لله عليهم من تبعة، فإذا صاروا في هذه الدرجة كانوا أهلًا للاستشارة في الأمور، والشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجبٌ، هذا ما لا خلاف فيه»[(٣)].

وقال الشيخ العلامة ابن سعدي رحمه الله: «﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: الأمور

(١) توخي الأمر: تحراه وقصده ويممه، ثم تقلب واوه ألفًا فيقال: تأخيت الأمر.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٢٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٠-٣٤٧.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥.

التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره»[1].

ويرسم الأستاذ سيد قطب رحمه الله بقلمه البليغ صورةً لهذا الأمر ومقتضياته وبواعثه فيقول: «وبهذا النص الجازم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم حتى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يتولاه، وهو نصٌّ قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًا في أن الشورى مبدأ أساس، لا يقوم نظام الإسلام على أساسٍ سواه.

لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة! فقد كان من جرائها ظاهريًا وقوع خلل في وحدة الصف المسلم! اختلفت الآراء؛ فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون في المدينة محتمين بها، حتى إذا هاجمهم العدو قاتلوه على أفواه الأزقة، وتحمست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين.

وكان من جراء هذا الاختلاف ذلك الخلل في وحدة الصف؛ إذ عاد عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش، والعدو على الأبواب -وهو حدث ضخم وخلل مخيف- كذلك بدا أن الخطة التي نفذت لم تكن -في ظاهرها- أسلم الخطط من الناحية العسكرية؛ إذ إنها كانت مخالفة «للسوابق في الدفاع عن المدينة» -كما قال عبد الله بن أبي- وقد اتبع المسلمون عكسها في غزوة الأحزاب التالية، فبقوا فعلًا في المدينة، وأقاموا الخندق، ولم يخرجوا للقاء العدو، متفعين بالدرس الذي تلقوه في أحد! ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهل النتائج الخطيرة التي تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج.

فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة التي رآها، والتي يعرف مدى صدقها، وقد تأولها قتيلًا من أهل بيته، وقتلى من صحابته، وتأول المدينة درعًا حصينة، وكان من حقه أن يلغي ما استقر عليه الأمر نتيجةً للشورى، ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات؛ لأن إقرار المبدأ، وتعليم الجماعة، وتربية الأمة، أكبر من الخسائر الوقتية.

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة، أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف في أحرج الظروف، وأمام النتائج المريرة التي انتهت إليها المعركة! ولكن الإسلام كان ينشيء أمة، ويربيها، ويعدها لقيادة البشرية، وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة، أن تربى بالشورى، وأن تدرب على حمل التبعة، وأن تخطئ -مهما

(١) تيسير الكريم الرحمن ص١٥٤.

يكن الخطأ جسيمًا وذا نتائج مريرة- لتعرف كيف تصحح خطأها؟ وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها؟ فهي لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ، والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هي إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة»[1].

ثانيًا: صيغة الخبر:

جعل الله تعالى الشورى صفةً لازمة للمؤمنين في كل أمر من أمورهم الخاصة والعامة، فقال في السورة التي أعلى الله فيها مكانة فخصها بهذا الاسم (الشورى) إعلاءً لمكانتها، ورفعةً لمنزلتها، فهي السورة الوحيدة التي قررت الشورى عنصرًا من عناصر الشخصية الإيمانية الحقة[2]: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦-٣٩].

ففي هذه الآيات الكريمة جاءت كلمة «الشورى» والأمر بها وصفًا للذين آمنوا، في سياق رسم صورة مشرقة وضيئة للمؤمنين الذين تحققوا بالإيمان، وهذه صفاتهم التي مدحهم الله تعالى بها؛ لأنها تشكل عناصر الشخصية المؤمنة، وهي: الإيمان بالله تعالى، والتوكل على الله تعالى، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والعفو والصفح عن الناس، والاستجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم المبلغ عن ربه تبارك وتعالى، وإقامة الصلاة بحدودها وأوقاتها، وهي التي جعلها الله تعالى عنوان الإسلام والفارقة بين الإيمان والكفر، والشورى في كل أمورهم وشئونهم، يتشاورون فيها بينهم فلا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه، والإنفاق في سبيل الله، ورأسه الزكاة المفروضة، والقوة أو العزة التي تجعلهم قادرين على الانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا[3].

وقد جاءت صفة الشورى والتشاور في هذه الآيات الكريمة في جملة اسمية ضمن عدة صفات في جمل فعلية وصف بها رب العالمين عباده المؤمنين، فأفادت لزوم هذه الصفة لهم وثباتهم عليها[4].

وفي هذا يقول شهاب الدين الألوسي رحمه الله: «وجيء بالجملة اسميةً مع أن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٠٢ - ٥٠٣.
(٢) انظر: الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت ص٣٦٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٤٤-٥٤٩، معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٩٧-١٩٨، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥٠٢- ٥٠٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩-٤٠.
(٤) الشورى في ضوء القرآن والسنة، حسن ضياء الدين عتر ص٤٤.

المعطوف عليه جملة فعلية للدلالة على أن التشاور كان حالهم -أي: الأنصار[1]- المستمرة قبل الإسلام وبعده، وفي الآية مدحٌ للتشاور، لاسيما على القول بأن فيها الإخبار بالمصدر»[2].

والجملة الاسمية تحمل من الدلالات ما لا تحمله الجملة الفعلية، ومن ذلك دلالة التأكيد مثلًا، وهي ما أشار إليه ابن الأثير في حديثه عن الخطاب بالجملة الفعلية والاسمية والفرق بينهما حيث يقول: «وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضربٍ من التأكيد والمبالغة»[3].

ويظهر من شواهده التي ساقها أنه يقصد بدلالة التأكيد والمبالغة الجملة الاسمية وما فيها من مؤكدات[4].

وفي هذا إشارة إلى الوجوب؛ لأن الله تعالى في كثير من المواضع يجعل الواجب من الواجبات في الأحكام، أو الركن من أركان الإيمان صفةً لازمةً للمؤمنين، ويمدح فاعل هذا الواجب والمتصف بتلك الصفة، ويعده بالفوز والفلاح، كما تقدم آنفًا[5].

قال الإمام المفسر القرطبي رحمه الله: «فمدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب؛ وذلك في الآراء كثيرٌ، ولم يكن يشاورهم في الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام»[6].

(١) قال الضحاك بن مخلد الشيباني، والحسن البصري، وعبد الرحمن بن زيد: «الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم هم الأنصار رضوان الله عليهم».
انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٤٦، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٠٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٦٧.
ولكن النص يبقى على عمومه، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو معلوم مشهور، ويدخل في معناه الأنصار رضي الله عنهم دخولًا أوليًا فيما ذكره العلماء، ولذلك قال ابن عطية رحمه الله في الموضع نفسه: «والظاهر أن الله تعالى مدح كل من اتصف بهذه الصفة كائنًا من كان، وهل حصل الأنصار في هذه الصفة إلا بعد سبق المهاجرين لها رضي الله تعالى عن جميعهم بمنه؟».

(٢) روح المعاني ١٣/ ٤٦.

(٣) في المثل السائر ٢/ ٢٦٩.

(٤) بلاغة الحال في النظم القرآني، عويض حمود العطوي ص٩٣.

(٥) قارن برأي آخر مخالف للشيخ محمد عبده مفتي مصر، يذهب إلى أن الآية لا تفيد إلا أن الشورى من أوصاف المؤمنين، وأن آية سورة آل عمران -السابقة- أدل على وجوب الشورى.
انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٣٧، ورجح الشيخ رشيد أن مجيء النص بصيغة الخبر يؤكد كونه فرضًا حتمًا.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٣٧.

ثالثًا: اقتران الشورى بالصلاة والزكاة:

ومما يدل على مكانة الشورى وأهميتها اقترانها بصفاتٍ لازمة للمؤمنين، فمنها عبادات اعتقادية وقلبية، كالإيمان بالله تعالى والتوكل عليه، ومنها مباديء أخلاقية كاجتناب الكبائر من الذنوب والفواحش، وكالعفو عند الغضب، ومنها عباداتٌ ماليةٌ وبدنية، وهي من أركان الإسلام الواجبة، وقد توسطت الشورى هاتين العبادتين البدنية والمالية، فكانت واسطة العقد فيها.

ففي الآيات السابقة في سورة (الشورى) قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٦-٣٨].

وهذا يدل على أهميتها والحث عليها، فإذا كانت الصلاة لها أهميتها في الإسلام، وهي عبادة بدنية تالية لكلمة التوحيد، وإذا كانت الزكاة عبادة مالية لها مكانتها، فهي ركن أيضًا من أركان الإسلام وأحد مبانيه العظام، فالشورى -وقد توسطتهما- لها هذه المكانة والأهمية وهذا الوصف.

قال أبو بكر الرازي الجصاص رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يدل على جلالة موقع المشورة؛ لذكره لها مع الإيمان وإقامة الصلاة، ويدل على أنا مأمورون بها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

يدل ظاهره على أن الانتصار في هذا الموضع أفضل، ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله تعالى وإقامة الصلاة؟»[(١)].

وهذه الدلالة تسمى اصطلاحًا: دلالة الاقتران[(٢)]. وتعني: اجتماع شيئين أو أشياء في معنىً من المعاني، والمراد بها عند علماء أصول الفقه الذين يضعون قواعد استنباط الأحكام: أن يجمع الشارع بين شيئين في اللفظ فيشتركان في الحكم[(٣)].

والحكمة في مجيء الشورى بعد إقامة الصلاة وقبل إيتاء الزكاة تظهر في جملة أمور، نشير إلى أهمها:

أولًا: إن الصلاة أقوال وأفعال، والشورى كذلك أقوال تعقبها أفعال، أما الزكاة فهي

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٦٣.

(٢) الاقتران في اللغة العربية مأخوذ من مادة قرن، واقترن الشيء بالشيء: أي قاربه وداناه، كأنهما مقرونان في قرن، وهو الحبل، وقد اقترن الشيئان وتقارنا، وجاؤوا قرانى أي: مقترنين، فالاقتران في اللغة العربية: المصاحبة والتلازم، ومنه: اقتران الحكم بالعلة.
انظر: شمس العلوم، نشوان الحميري ٨/ ٥٤٦٦، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٣٦.

(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٥٨، دستور العلماء، القاضي أحمد نكري ٣/ ٤٧.

أفعال خالصة، فناسب أن تقترن الشورى بالصلاة؛ لمشاكلتها في صورتها، وأن تتقدم من أجل هذا على الزكاة.

وثانيًا: إن الصلاة يؤديها المؤمن منفردًا أو في جماعة، وهو في حال انفراده يؤديها على الصورة التي يراها، من حيث الطول والقصر في أفعالها، قيامًا وركوعًا وسجودًا، أما في حال أدائها في جماعة فإنه ليس له هذا الخيار، بعد أن يأخذ مكانه في الجماعة، وينتظم في عقدها، فهو والجماعة من وراء الإمام، الذي يجب أن يلزموا متابعته في كل حركاته وسكناته، والشورى صورة مقاربة للصلاة من هذا الوجه.

وثالثًا: إن الصلاة فريضة عامة تجب على كل مسلم ومسلمة وجوب عين، وكذلك التشاور بين المسلمين أمر ملزم لهم جميعًا، وحق يؤديه كل مسلم ومسلمة للجماعة الإسلامية، وإنه ليس لأحد أن يحول بين المسلم وبين أخذ مكانه بين الجماعة الإسلامية، وإبداء الرأي الذي يراه، في أي أمر يعرض لهم، كما أنه ليس لأحد أن يحول بين المسلم وبين أن يأخذ مكانه في صلاة الجماعة بين الصفوف المنتظمة في الصلاة، ففي تنكير الشورى دليل على إطلاقها وعمومها، وأنها ليست شورى على صفة خاصة معروفة بأهلها، فكل مسلم ومسلمة أهل للشورى، كما هو أهل للصلاة في جماعة.

ورابعًا: إن الصلاة يجب أن يسبقها من المسلم قبل الدخول فيها إعداد لها؛ وذلك بالتطهر، والوضوء، وكذلك الشورى، يجب أن تسبقها طهارة النفس من الهوى، وخلوها من الدخل.

وخامسًا: إن للصلاة وقتًا، فإذا جاء وقتها أذن المؤذن بها، ودعا المسلمين إليها، وكذلك للشورى وقتها، فإذا حزب المسلمين أمرٌ تنادوا به، واجتمعوا له، وتشاوروا فيه.

ذلك هو بعض السر في قرن المشورة بإقامة الصلاة، ووراء ذلك أسرار وأسرار لا تنتهي.

أما وصلها بالزكاة من طرفها الآخر فإنه يشير كذلك إلى أمور، منها:

أولًا: إن القرآن الكريم لم يعبر في هذا المقام عن الزكاة بلفظ الزكاة، بل جاء بها في هذا النظم الكريم: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

فجعلها إنفاقًا من رزق، وهذا الرزق من الله سبحانه وتعالى، وكذلك الشورى هي إنفاق من رزق، هو مما وهب الله من عقل، ومما رزق أهل العقل من علم ومعرفة، وهذا يعنى أن إبداء الرأي من ذوى الرأي أمر واجب عليهم، وهو الزكاة المطلوبة منهم في هذا المقام، لما آتاهم الله من فضله من

علم وحكمة وحسن تدبير.

وثانيًا: لم يقيد النص القرآني هنا الإنفاق بالشيء الذي ينفق منه من مال أو نحوه بل، جعله إنفاقًا مطلقًا، يشمل كل ما يرزقه الله الإنسان من خير، فسماه سبحانه رزقًا؛ ليشمل المال وغير المال، من رأي وعلم وفن، فلا يستبد المؤمن وحده برزق رزقه الله إياه، وفيه فضل وسعة لغيره من المسلمين.

وثالثًا: كذلك لم يقيد النص القرآني ما ينفق من هذا الرزق بحد محدود كالزكاة، بل جعله إنفاقًا مطلقًا؛ لأنه في مقام الشورى لا يكون الإنفاق بقدر محدود مما يملك الإنسان من علم ومما عنده من معرفة، بل إنه مطلوب منه في تلك الحال أن ينفق كل ما لديه، وأن يبذل كل ما عنده، غير ممسك بشيء من رأيه، أو محتجز شيئًا من جهده واجتهاده[1].

رابعًا: صيغة التخيير ورفع الإثم أو الجناح:

ألمحنا في مفتتح هذه النقاط إلى أن القرآن الكريم تنوعت أساليبه وأدلته في بيان الأحكام الشرعية، ومستوى مشروعيتها، وكان منها نفي الجناح ونفي الإثم، وقد تكرر هذا في أكثر من موضع في الكتاب الكريم[2].

وهذا الأسلوب نجده هنا في الشورى، حيث نفى الله تعالى عن الوالدين الجناح عند إرادة فصال المولود بعد مراضاة وبعد تشاور منهما في ذلك، أو تشاور مع غيرهما من أهل الخبرة في تحقق مصلحة الفصال للمولود أو عدمها، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وفي تفسير الآية الكريمة قال الإمام محيي السنة البغوي رحمه الله: «المطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي: سنتين، وذكر الكمال للتأكيد؛ لأن العرب قد تسمي بعض الحول حولًا، وبعض الشهر شهرًا ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أي: هذا منتهى الرضاعة، وليس فيها دون ذلك حدٌّ محدود، وإنما هو على مقدار صلاح الصبي وما

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٣/ ٦٧-٧١.

(٢) في سورة البقرة الآيات ١٠٣ و١٨٢ و٢٠٣ و٢٣٤ و٢٤٠ وفي سورة النساء الآيتان ٢٣ و١٢٨ وفي سورة الأحزاب الآية ٥١.

يعيش به ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ يعني: الأب ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ طعامهن ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ لباسهن ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: على قدر الميسرة ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ فينزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي: لا تلقيه المرأة إلى أبيه بعدما ألفها، تضاره بذلك.

وقيل: معناه: فتكره على إرضاعه إذا كرهت إرضاعه، وقبل الصبي من غيرها؛ لأن ذلك ليس بواجب عليها ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يضار الأب أم الصبي، فينزعه منها ويمنعها من إرضاعه.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ اختلفوا في هذا الوارث، فقال قوم: هو وارث الصبي، وقال بعضهم: هو من كان ذا رحم محرم من ورثة المولود، وقيل: ليس المراد منه النفقة، بل معناه: وعلى الوارث ترك المضارة ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ يعني: الوالدين ﴿فِصَالًا﴾ فطامًا قبل الحولين ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: اتفاق الوالدين ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ أي: يشاورون أهل العلم به حتى يخبروا أن الفطام في ذلك الوقت لا يضر بالولد، والمشاورة استخراج الرأي ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا حرج عليهما في الفطام قبل الحولين»[1].

وهذا التشاور بين الوالد والوالدة بشأن الطفل عند إرادة الانفصال -على أحد الأقوال- أو عند غيرها، وهذه المشاورة لأهل العلم والخبرة لئلا يلحق الولد الضرر بالفطام؛ إذ يبعد أن يتفق هؤلاء جميعًا على الضرر بالطفل، هذه المشاورة أكدها علماء التفسير رحمهم الله، فقال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: «ويحتمل في التشاور أن يكون أحدهما شاور الآخر، أو يكون أحدهما شاور غير الآخر لتجتمع الآراء على المصلحة في ذلك»[2].

وقال السمين الحلبي رحمه الله: «ويحتمل أن يكون التشاور من أحدهما مع غير الآخر لتتفق الآراء منهما ومن غيرهما على المصلحة»[3].

وقال الفخر الرازي رحمه الله: «دلت الآية على أن الفطام في أقل من حولين لا يجوز إلا عند رضا الوالدين وعند المشاورة مع أرباب التجارب؛ وذلك لأن الأم قد تمل من الرضاع فتحاول الفطام، والأب أيضًا قد يمل من إعطاء الأجرة على الإرضاع، فقد يحاول الفطام دفعًا لذلك، لكنهما قلما يتوافقان على الإضرار بالولد لغرض النفس، ثم بتقدير توافقهما اعتبر المشاورة مع غيرهما، وعند ذلك يبعد أن تحصل

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٧٧-٢٧٩ باختصار.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٢/ ٥٠٧.

(٣) الدر المصون، السمين الحلبي ٢/ ٤٢٧.

موافقة الكل على ما يكون فيه إضرار بالولد، فعند اتفاق الكل يدل على أن الفطام قبل الحولين لا يضره ألبته، فانظر إلى إحسان الله تعالى بهذا الطفل الصغير كم شرط في جواز إفطامه من الشرائط دفعًا للمضار عنه، ثم عند اجتماع كل هذه الشرائط لم يصرح بالإذن، بل قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ وهذا يدل على أن الإنسان كلما كان أكثر ضعفًا كانت رحمة الله معه أكثر، وعنايته به أشد»[1].

وأبان عن ذلك الإمام برهان الدين البقاعي رحمه الله فقال: «ولما بين أمد الرضاع وأمر النفقة صرح بما أفهمه الكلام من جواز الفطام قبل التمام، ولما بين ذلك نبه على أنه لا يجوز إلا مع المصلحة، فقال: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ ثم بين أن الأمر خطر يحتاج إلى تمام النظر بقوله: ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ أي: إدارةٍ للكلام في ذلك ليستخرج الرأي الذي ينبغي أن يعمل به».

قال الحرالي: «فأفصح بإشعار ما في قوله: ﴿أَن يُتِمَّ﴾ وأن الكفاية قد تقع بدون الحولين، فجعل ذلك لا يكون بريًا من المضارة إلا باجتماع إرادتهما وتراضيهما وتشاورهما لمن له تبصرةٌ؛ لئلا تجتمعا على نقص الرأي ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فيما نقصاه عن الحولين؛ لأنهما غير متهمين في أمره، واجتماع رأيهما فيه، ورأي من يستشيرانه قلما يخطئ».

وقال الحرالي: «فيه إشعار بأنها ثلاث رتب: رتبة تمامٍ فيها الخير والبركة، ورتبة كفايةٍ فيها رفع الجناح، وحالة مضارة فيها الجناح» انتهى. وقد أفهم تمام هذه العناية أن الإنسان كلما كان أضعف كانت رحمة الله له أكثر، وعنايته به أشد»[2].

وهذا المجال من مجالات الشورى، وهذا المستوى فيها بين الأبوين في العلاقات الأسرية ينطوي على دلالة أخرى، وهي أن تكون الشورى أكثر أهمية فيما هو أوسع وأعم من الدوائر والمجالات السياسية والحكم؛ ولذلك يقول الشيخ السيد محمد رشيد رضا رحمه الله: «إذا كان القرآن يرشدنا إلى المشاورة في أدنى أعمال تربية الولد، ولا يبيح لأحد والديه الاستبداد بذلك دون الآخر، فهل يبيح لرجل واحد أن يستبد في الأمة كلها، وأمر تربيتها، وإقامة العدل فيها أعسر، ورحمة الأمراء أو الملوك دون رحمة الوالدين بالولد وأنقص!»[3].

ولا نرى بأسًا بعد هذا البيان المستنير من علماء التفسير في أهمية الشورى والتشاور أن نختم بما يظهر الصلة الوثيقة بين الشورى وكل مجالات الحياة الاجتماعية

(١) مفاتح الغيب، الرازي ٦/ ٤٦٤.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٣٣٦-٣٣٧ باختصار.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣٢٨.

في الإسلام من خلال هذا المستوى، بقلم الأستاذ سيد قطب رحمه الله، حيث قال: «إن دستور الأسرة لابد أن يتضمن بيانًا عن تلك العلاقة التي لا تنفصم بين الزوجين بعد الطلاق، علاقة النسل الذي ساهم كلاهما فيه، وارتبط كلاهما به، فإذا تعذرت الحياة بين الوالدين، فإن الفراخ الزغب لابد لها من ضمانات دقيقة مفصلة، تستوفي كل حالة من الحالات:

إن على الوالدة المطلقة واجبًا تجاه طفلها الرضيع، واجبًا يفرضه الله عليها، ولا يتركها فيه لفطرتها وعاطفتها التي قد تفسدها الخلافات الزوجية، فيقع الغرم على هذا الصغير، إذن يكفله الله ويفرضه له في عنق أمه، فالله أولى بالناس من أنفسهم، وأبر منهم، وأرحم من والديهم، والله يفرض للمولود على أمه أن ترضعه حولين كاملين؛ لأنه سبحانه يعلم أن هذه الفترة هي المثلى من جميع الوجوه الصحية والنفسية للطفل ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وتثبت البحوث الصحية والنفسية اليوم أن فترة عامين ضرورية؛ لينمو الطفل نموًا سليمًا من الوجهتين الصحية والنفسية، ولكن نعمة الله على الجماعة المسلمة لم تنتظر بهم حتى يعلموا هذا من تجاربهم، فالرصيد الإنساني من ذخيرة الطفولة لم يكن ليترك يأكله الجهل كل هذا الأمد الطويل، والله رحيم بعباده، وبخاصة بهؤلاء الصغار الضعاف المحتاجين للعطف والرعاية.

وللوالدة في مقابل ما فرضه الله عليها حق على والد الطفل أن يرزقها ويكسوها بالمعروف والمحاسنة، فكلاهما شريك في التبعة، وكلاهما مسئول تجاه هذا الصغير الرضيع، هي تمده باللبن والحضانة، وأبوه يمدها بالغذاء والكساء؛ لترعاه، وكل منهما يؤدي واجبه في حدود طاقته: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ولا ينبغي أن يتخذ أحد الوالدين من الطفل سببًا لمضارة الآخر: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ فلا يستغل الأب عواطف الأم وحنانها ولهفتها على طفلها؛ ليهددها فيه أو تقبل رضاعة بلا مقابل، ولا تستغل هي عطف الأب على ابنه وحبه له؛ لتثقل كاهله بمطالبها.

والواجبات الملقاة على الوالد تنتقل في حالة وفاته إلى وارثه الراشد: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ فهو المكلف أن يرزق الأم المرضع ويكسوها بالمعروف والحسنى؛ تحقيقًا للتكافل العائلي الذي يتحقق طرفه بالإرث، ويتحقق طرفه الآخر باحتمال تبعات المورث، وهكذا لا يضيع الطفل إن مات والده، فحقه مكفول، وحق أمه في جميع الحالات.

وعند ما يستوفى هذا الاحتياط يعود إلى استكمال حالات الرضاعة ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فإذا شاء الوالد والوالدة، أو الوالدة والوارث أن يفطما الطفل قبل استيفاء العامين؛ لأنهما يريان مصلحة للطفل في ذلك الفطام لسبب صحي أو سواه فلا جناح عليهما، إذا تم هذا بالرضا بينهما، وبالتشاور في مصلحة الرضيع الموكول إليهما رعايته، المفروض عليهما حمايته»[1].

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٥٣-٢٥٤.

مشروعية الشورى

نتناول في هذه النقاط مشروعية الشورى:

أولًا: حكم الشورى:

اختلف العلماء في الحكم التكليفي للشورى وإجرائها، أي: هل يجب على ولي الأمر ورئيس الدولة أن يشاور أهل الشورى ويعرض عليهم القضية ليشيروا فيها بما يرون، ويأثم إن لم يفعل ذلك؛ لأن ترك الواجب يترتب عليه الإثم، أو أن ذلك ليس واجبًا عليه، بل هو مندوب لا يأثم بتركه كما هو شأن المندوبات؟ مع أنهم جميعهم استندوا إلى الأدلة السابقة نفسها، فمنهم من حملها على الوجوب، ومنهم من حملها على الندب والاستحباب، فكانوا بذلك فريقين على مذهبين، نشير إليهما في فقرتين، ونعقب عليهما بثالثة للترجيح، والله الموفق.

أولًا: المذهب الأول: وجوب الشورى:

وأصحاب هذا المذهب يقولون بوجوب الشورى على ولي الأمر (وهو الحاكم أو رئيس الدولة) إذ عليه أن يعرض المسائل الاجتهادية والقضايا العامة في أمور الدولة والحكم ونحوها من التصرفات على أهل الشورى، ولا يجوز أن يستبد بالأمر وأن يقطع فيه برأيه.

وهذا مذهب الجمهور من العلماء، فهو

مذهب المالكية، والراجح عند الشافعية والحنابلة والحنفية فيما تدل عليه عباراتهم، وهو ما رجحه كثير من العلماء المعاصرين الذين جعلوا الشورى من أسس نظام الحكم وقواعده[(١)].

أدلة المذهب:

ولأصحاب هذا المذهب جملة من الأدلة القرآنية والسنة النبوية، وينطوي فيها أيضًا جانب من القواعد الأصولية، نذكر فيما يأتي أهمها[(٢)]:

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يشاور أصحابه -رضوان الله عليهم-، ففي أعقاب غزوة أحد، بعد أن أصيب المسلمون بما أصيبوا به، نزل الأمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما يطرأ عليهم من الشئون؛ ربطًا للقلوب، وتقريرًا لما يجب أن يكون بين المؤمنين من حسن التضامن في سياسة الأمور، وتدبير الشئون.

والأمر للنبي صلى الله عليه وسلم هو أمرٌ لأمته أيضًا فيما لا يكون من خصائصه عليه الصلاة والسلام[(٣)]. والأصل أن الأمر يدل على وجوب المأمور به ما لم يكن هناك قرينة تخرجه عن الوجوب إلى غيره، كالندب أو الإباحة أو غيرهما، ولم يؤثر في النصوص والوقائع ما يدل على هذه الخصوصية.

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله: «أمر الله تعالى رسوله بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ؛ وذلك أنه أمره بأن يعفو عليه السلام عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة وحقٍ، فإذا صاروا في هذه الدرجة،

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٣٧، ١٦١-١٦٢، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٤٧٧، السياسة الشرعية، خلاف ص٥٨، التشريع الجنائي الإسلامي لعبد القادر عودة ١/ ٣٧-٣٨.

(٢) انظر: الشورى وأثرها في الديمقراطية الأنصاري ص٥٢-٧٩، مبدأ الشورى في الشريعة الإسلامية، البدوي ص٢٣-٢٨، مبدأ الشورى في الإسلام، المليجي ص٨٣، فقه الشورى والاستشارة، الشاوي ص٤٩، فقه الشوري، الغامدي ص٤٩-٥٣، الشورى في القرآن والسنة، حسن العتر ص١٥١-١٥٦، الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي، فتحي عبد الكريم ص٣٥٩-٣٦٤.

(٣) هذا القول منقول عن الإمام أبي حنيفة والإمام أحمد، وقال عامة الأصوليين من الشافعية والحنفية: إن الخطاب لا يتناول الأمة.
وانظر: أصول السرخسي ١/ ١٤، أصول الفقه، أبو بكر الجصاص ١/ ٨٥، العدة في أصول الفقه، أبو يعلى الفراء ١/ ٢١٨، ٢٢٤، البرهان في أصول الفقه، الجويني ١/ ٣٦٧، أصول الفقه، محمد أبو النور زهير ٢/ ٢٢٤-٢٢٥.

أمره أن يستغفر لهم فيما لله عليهم من تبعة، فإذا صاروا في هذه الدرجة كانوا أهلًا للاستشارة في الأمور، والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجبٌ، هذا ما لا خلاف فيه»[(١)].

وقال ابن خويز منداد: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ومشاورة وجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ومشاورة وجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها»[(٢)].

والاستدلال بالآية على الوجوب إنما يتم بعد تسليم أنها غير خاصة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما تقدم آنفًا، أو بعد تسليم أن الخطاب الخاص به يعم الأمة أو الأئمة حيث قال علماء الحنفية، وعلماء الحنابلة: إن خطاب الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم يعم الأمة، وحجتهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم له منصب الاقتداء به في كل شيء إلا بدليل صارف على الاختصاص به، وكل من هو كذلك يفهم من أمره شمول أتباعه؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم هو صاحب الشرع ومنه يوجد؛ ولأن الله تعالى قد أوجب عليهم اتباعه[(٣)].

وبناء على هذا الرأي الأصولي كان الخطاب في هذه الآية الكريمة موجهًا للرئيس الأعلى للدولة الإسلامية في كل زمان ومكان بوجوب مشاورة الأمة في أمورها العامة، وإثبات حقها في المشاركة السياسية في الدولة المسلمة، وجعله حقًا من الحقوق العامة التي تسمى حق الله، وهو غير قابل للإسقاط، واعتداء الحاكم عليه من أعظم المنكرات التي تقع من الحكام

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٥٠.
وقال العلامة الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٣/ ٢٦٨: واعترض ابن عرفة عليه قوله: «فعزله واجب» ولم يعترض كونها واجبة إلا أن ابن عطية ذكر ذلك جازمًا به، وابن عرفة اعترضه بالقياس على قول علماء الكلام العقيدة بعدم عزل الأمير إذا ظهر فسقه، يعني: ولا يزيد ترك الشورى على كونه ترك واجب فهو فسق، وقلت: من حفظ حجة على من لم يحفظ، وإن القياس فيه فارق معتبر، فإن الفسق مضرته قاصرة على النفس، وترك التشاور تعريض بمصالح المسلمين للخطر والفوات، ومحمل الأمر عند المالكية للوجوب، والأصل عندهم عدم الخصوصية في التشريع إلا لدليل.

(٢) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٥٠ بزيادة بعض الكلمات.

(٣) انظر: نيل الأوطار، الشوكاني ٧/ ٢٥٦، الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي ٢/ ١٧٩، العدة في أصول الفقه، أبو يعلى الفراء ١/ ٣٣٠-٣٣١، الوجيز في أصول الفقه، محمد صدقي البورنو ٢/ ٥٠.

لعظم مفسدتها وإضرارها بكيان المجتمع والدولة، وبآحاد الناس كذلك؛ لأن إهدار الشورى من الاستبداد المنهي عنه[1].

وقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٨-٣٩].

فقد جاءت صفة الشورى والتشاور في الآيات الكريمة في جملة اسمية ضمن عدة صفات في جمل فعلية وصف بها رب العالمين عباده المؤمنين، فأفادت لزوم هذه الصفة لهم، وثباتهم عليها[2].

وفي هذا يقول شهاب الدين الألوسي رحمه الله: «وجيء بالجملة اسميةً مع أن المعطوف عليه جملة فعلية للدلالة على أن التشاور كان حالهم -أي: الأنصار- المستمرة قبل الإسلام وبعده، وفي الآية مدحٌ للتشاور، لاسيما على القول بأن فيها الإخبار بالمصدر»[3].

والجملة الاسمية تحمل من الدلالات ما لا تحمله الجملة الفعلية، ومن ذلك دلالة التأكيد مثلًا، وهي ما أشار إليه الكاتب الأديب أبو الفتح ابن الأثير في حديثه عن الخطاب بالجملة الفعلية والاسمية، والفرق بينهما، حيث يقول: «وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضربٍ من التأكيد والمبالغة»[4]. ويظهر من شواهده التي ساقها أنه يقصد بدلالة التأكيد والمبالغة الجملة الاسمية، وما فيها من مؤكدات[5].

وفي هذا إشارة إلى الوجوب؛ لأن الله تعالى في كثير من المواضع يجعل الواجب من الواجبات في الأحكام، أو الركن من أركان الإيمان صفةً لازمةً للمؤمنين، ويمدح فاعل هذا الواجب والمتصف بتلك الصفة، ويعده بالفوز والفلاح، كما تقدم آنفًا.

قال محمد رشيد رضا: «فكلٌّ من النصين -في الآيتين الكريمتين- دالٌّ على وجوب كون حكومة المسلمين شورى، ومجيء النص في الذكر بصيغة الخبر يؤكد كونه فرضًا حتمًا، كما عهد نظير ذلك في الأساليب البليغة، والنص الذي قبله صريح في الوجوب، والضامن له الأمة المخاطبة بالتكاليف في أكثر النصوص»[6].

دلالة الاقتران: وفي الآية السابقة نفسها، في الدليل الثاني قرن الله تعالى الشورى مع الإيمان، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وجعلها متوسطة بين هذه الواجبات، فدل

(١) انظر: في الفقه السياسي، فريد عبد الخالق ص٥٣.
(٢) الشورى في ضوء القرآن والسنة، حسن ضياء الدين عتر ص٤٤.
(٣) روح المعاني ١٣/ ٤٦.
(٤) في المثل السائر ٢/ ٢٦٩.
(٥) بلاغة الحال في النظم القرآني، عويض حمود العطوي ص٩٣.
(٦) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٣٧.

ذلك على الوجوب؛ لاقترانها بواجبات أخرى.

وهذه الدلالة تسمى اصطلاحًا: دلالة الاقتران، وتعني: اجتماع شيئين، أو أشياء في معنىً من المعاني، والمراد بها عند علماء أصول الفقه الذين يضعون قواعد استنباط الأحكام: أن يجمع الشارع بين شيئين في اللفظ فيشتركان في الحكم.

وهذه الدلالة احتج بها جماعة من أهل العلم، منهم الإمام أبو يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة، والمزني، وابن أبي هريرة والصيرفي من الشافعية، وحكى ذلك أبو الوليد الباجي عن بعض المالكية، وقال: رأيت ابن نصرٍ الداوودي يستعملها كثيرًا.

وقد استدل بها الإمام مالك رحمه الله على سقوط الزكاة في الخيل بقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[النحل: ٨].

فقال: قرن الله تعالى بين الخيل والبغال والحمير، والبغال والحمير لا زكاة فيها إجماعًا، فكذلك الخيل، ويؤيد هذا أن العطف يقتضي المشاركة[١].

وفصل العلامة ابن قيم الجوزية في مدى قوة الاحتجاج بهذه الدلالة، فقال:

دلالة الاقتران تكون قوية إذا جمع المقترنين لفظٌ اشتركا في إطلاقه، وافترقا في تفصيله، كقوله صلى الله عليه وسلم: (حقٌّ على كل مسلمٍ أن يغتسل يوم الجمعة، ويستاك، ويمس من طيب بيته)[٢]؛ فقد اشترك الثلاثة في إطلاق الحق عليه، وإذا كان حقًا مستحبًا في اثنين منها كان في الثالث مستحبًا.

وقد تكون ضعيفة عند تعدد الجمل، واستقلال كل واحدةٍ منها بنفسها، كقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه)[٣]، فإن كل جملة مفيدةٌ لمعناها وحكمها وسببها وغايتها، منفردةٌ عن الجملة الأخرى، واشتراكهما في مجرد العطف لا يوجب اشتراكهما فيما وراء ذلك.

وقد يتساوى الضعف والقوة في الدلالة؛ وذلك حيث يكون العطف ظاهرًا في

(١) وأنكر جمهور علماء الأصول الاحتجاج بدلالة الاقتران، لأن الاقتران في النظم لا يستلزم الاقتران في الحكم.
وانظر: البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي ٨/ ١٠٩، ميزان الأصول، علاء الدين السمرقندي ص٤١٥، شرح الكوكب المنير، ابن النجار الفتوحي ٣/ ٢٥٩، الأشباه والنظائر، السبكي ٢/ ١٩٣-١٩٤، إرشاد الفحول، الشوكاني ٢/ ١٩٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، ٢/ ٥٨١، رقم ٨٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، ١/ ٥٧، رقم ٢٣٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد ١/ ٢٣٥، رقم ٢٨٢.

التسوية، وقصد المتكلم ظاهرًا في الفرق، فيتعارض ظاهر اللفظ وظاهر القصد، فإن غلب ظهور أحدهما اعتبر وإلا طلب الترجيح، والله أعلم[(١)].

وفي الآية الكريمة السابقة اقترنت الشورى بواجبات إيمانية وعبادات بدنية ومالية، فكان الاستدلال بها على الوجوب في غاية القوة، والله أعلم.

ومما يدل على الوجوب الأحاديث النبوية الشريفة في أهمية الشورى، والحث عليها، وفي بيان ثمراتها وفوائدها؛ فقد تواردت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، فقال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: **(لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما)**[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(المستشار مؤتمن)**[(٣)].

(١) انظر: بدائع الفوائد ٤/ ١٨٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٢٢٧، رقم ١٧٩٩٤.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٣/ ٥٩، رقم ١٠٠٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النوم، باب المشورة، ٤/ ٣٣٣، رقم ٥١٢٨، والترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب المستشار مؤتمن، ٦/ ٢٩٤، رقم ١٩٩١، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن، ٤/ ٦٨١، رقم ٣٧٤٦.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٣٦، رقم ٦٧٠٠.

وعقد الإمام البخاري رحمه الله بابًا للشورى صدره بقول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وأوجز بكلمات جامعات كثيرًا من التطبيقات للشورى في العهد النبوي والخلافة الراشدة، قال فيه: «شاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم، وقال: **(لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله)**[(٤)]، وشاور عليًا، وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة، فسمع منهما حتى نزل القرآن، فجلد الرامين، ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكن حكم بما أمره الله، وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم، ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة، فقال عمر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها،**

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٣/ ٩٩، رقم ١٤٧٨٧.

وحسابهم على الله)[1]. فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تابعه بعد عمر، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورةٍ؛ إذ كان عنده حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه)[2]. وكان القراء أصحاب مشورة عمر، كهولًا كانوا أو شبانًا، وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل»[3].

وفي كتب السنة مجموعةٌ كثيرة وفيرة من الأحاديث في الحث على الشورى، وبيان أثرها وحكمتها، ولكنها أقل مرتبةً مما أوردته آنفًا من الأحاديث الشريفة، فلا حاجة للاستكثار منها، وحسبنا هذه الأحاديث المقبولة في الاحتجاج[4].

ثانيًا: المذهب الثاني: الندب والاستحباب:

ويرى أصحابه أن الشورى ليست واجبة على ولي الأمر أو الحاكم ورئيس الدولة، وإنما هي مندوبة ومرغب فيها؛ تطييبًا للخواطر والنفوس، وتأليفًا للقلوب، فلا يأثم بتركها.

وهذا المذهب نقل عن الإمام الشافعي رحمه الله، وروي مثله عن بعض العلماء من السلف: قتادة بن دعامة السدوسي، والربيع بن أنس، والحسن البصري، ومحمد ابن إسحاق رحمهم الله[5].

أدلة المذهب:

استدل هذا الفريق بالآيات الكريمة التي استند إليها القائلون بالوجوب، ولكنهم حملوها على الندب والاستحباب، كما استدلوا بأدلة أخرى كالإباحة وعدم وجود الدليل الموجب، وهذه جملة أدلتهم:

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال الإمام الشافعي رحمه الله: إن هذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، ١/ ١٤- ٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ١/ ٥٣، رقم ٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، ٩/ ١٥، رقم ٦٩٢٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٣٤٢-٣٤٣.

(٤) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٨٩-٩٣.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٠-٣٤٧، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٢٣-١٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٥٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٠٩-٤١٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٩.

الأمر للاستحباب، ولتقتدي به الأمة، وهو عامٌّ للرسول وغيره، ولكنه كان تطييبًا لنفوس أصحابه ورفعًا لأقدارهم، وروي مثله عن قتادة، والربيع، ومقاتل، وابن إسحاق[1].

قال الفخر الرازي رحمه الله: «ظاهر الأمر للوجوب، فقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ يقتضي الوجوب. وحمل الشافعي رحمه الله ذلك على الندب فقال: هذا كقوله عليه الصلاة والسلام: (البكر تستأمر في نفسها)[2]. ولو أكرهها الأب على النكاح جاز، لكن الأولى ذلك؛ تطييبًا لنفسها، فكذا هاهنا»[3].

ونقل الحافظ ابن حجر العسقلاني عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال: «إنما يؤمر الحاكم بالمشورة لكون المشير ينبهه على ما يغفل عنه، ويدله على ما لا يستحضره من الدليل، لا ليقلد المشير فيما يقوله؛ فإن الله لم يجعل هذا لأحدٍ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم»[4].

وأشار أبو الحسن علي بن خلف بن بطال القرطبي رحمه الله إلى أقوال العلماء في الآية ودلالتها، فقال: «اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر الله نبيه أن يشاور أصحابه فيه:

فقالت طائفة: أمر الله أن يشاورهم في مكائد الحروب وعند لقاء العدو؛ تطييبًا لنفوسهم، وتألفًا لهم على دينهم، وليروا أنه يسمع منهم، ويستعين بهم، وإن كان الله قد أغناه عن رأيهم بوحيه، روي هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق.

وقال آخرون: إنما أمر بمشورتهم فيما لم يأته فيه وحي؛ ليبين لهم صواب الرأي، روي ذلك عن الحسن البصري والضحاك قالا: «ما أمر الله نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٣٦٨.
وانظر: التفسير البسيط، الواحدي ٦/ ١٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٥٠.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، رواية محمد بن الحسن، باب البكر تستأمر في نفسها رقم ٥٣٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤١٠.
قال الشافعي في كتاب الأم ٥/ ١٨: «ويشبه في دلالة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرق بين البكر والثيب، فجعل الثيب أحق بنفسها من وليها، وجعل البكر تستأذن في نفسها أن الولي الذي عني -والله تعالى أعلم- الأب خاصة، فجعل الأيم أحق بنفسها منه، فدل ذلك على أن أمره أن تستأذن البكر في نفسها أمر اختيارٍ لا فرض...، فإن قال قائل: وما يدل على أنه قد يؤمر بمشاورة البكر ولا أمر لها مع أبيها الذي أمر بمشاورتها؟ قيل: قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ولم يجعل الله لهم معه أمرًا، إنما فرض عليهم طاعته، ولكن في المشاورة استطابة أنفسهم، وأن يستن بها من ليس له على الناس ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والاستدلال بأن يأتي من بعض المشاورين بالخير قد غاب عن المستشير، وما أشبه هذا».

(٤) فتح الباري ١٣/ ٣٤٢.
وانظر: معرفة السنن والآثار، البيهقي ١٤/ ٢٢٨.

رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشورة من الفضل»، قال الحسن البصري: «وما شاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم»[1].

«وقال آخرون: إنما أمره الله بمشاورة أصحابه مع غناه عنهم بتدبيره تعالى له وسياسته إياه؛ ليستن به من بعده ويقتدوا به فيما ينزل بهم من النوازل، قال سفيان الثوري: وقد سن رسول الله الاستشارة في غير موضع، استشار أبا بكر وعمر في أسارى بدر، واستشار أصحابه في يوم الحديبية»[2].

والخلاصة أن الآية الكريمة فيها دلالة على الوجوب؛ لأنها بصيغة الأمر، والأمر يدل على الوجوب، ولكن القرينة صرفته عن الوجوب إلى الندب؛ لأن استشارة النبي عليه السلام لأصحابه كانت إكرامًا لهم، وتطييبًا لنفوسهم، والأحاديث التي وردت فيها لم تكن بصيغة تدل بوضعها على الوجوب والإلزام، والحكمة من مشاورة النبي للصحابة هي أن يستن بها من بعده من الحكام، وكل ذلك يصرف الأمر في الآية الكريمة عن الوجوب إلى الندب والاستحباب في رأي هذا الفريق من العلماء -رحمهم الله تعالى-.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٨-٣٩].

فإن هذا وصفٌ خبريٌّ لحال طائفة مخصوصة لا يدل على الوجوب، فأكثر ما يدل عليه أن هذا الشيء ممدوح في نفسه محمودٌ عند الله تعالى[3].

ونقل الإمام البيهقي عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ «قال: قال الحسن البصري: إن كان النبي عن مشاورتهم لغنيًا، ولكنه أراد أن يستن بذلك الحكام بعده، ثم قال: وإذا نزل بالحاكم أمرٌ يحتمل وجوهًا، أو مشكلٌ انبغى له أن يشاور من جمع العلم والأمانة»[4].

ومن الأدلة على أنها مندوبة وليست واجبة: أن الأصل هو الإباحة وعدم الوجوب إلا بدليل، وما ذكر من النصوص لا يدل على الوجوب، فبقيت المسألة على الأصل وهو الندب، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم ترك الشورى في مواضع منها: صلح الحديبية، وقتال بني قريظة، وغزوة تبوك، وكذلك الخلفاء الراشدون تركوا الشورى في بعض المسائل، فأبو بكر رضي

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ١٣٦، رقم ٢٥٨.
وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص١١٤، رقم ١٩٥.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٠/ ٣٩٧.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٣٧.

(٤) أحكام القرآن، الشافعي، جمع البيهقي ٢/ ١١٩.

الله عنه لم يشاور في إنفاذ جيش أسامة، ولم يشاور في حروب الردة، وقتال مانعي الزكاة، وكذلك في مواقف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يشاور فيها[1].

ثالثًا: المناقشة والترجيح:

والناظر في أدلة الفريقين يجد أدلة الفريق الأول قويةً تنهض في الدلالة على الوجوب، وقد تأيدت وجوه الدلالة فيها بالقواعد الأصولية والمقررات العقلية والفطرية ومقاصد الشريعة، وهي سالمة من الاعتراضات المؤثرة.

بينما أدلة المذهب الثاني لا تنهض للحجية في هذه المسألة؛ لأمور كثيرة منها:

أن ما ذكروه من قرائن لا تصلح لصرف الأدلة عن الوجوب، فتطييب النفوس بالشورى، يقتضي الوجوب لا الندب، فكيف تطيب نفوسهم إذا علموا أن ذلك ليس واجبًا، وأن رأيهم لا يجب الأخذ به في مجال الاختصاص؟ كما سيأتي في مسألة الإلزام بنتيجة الشورى أو عدم الإلزام.

كما أن تنوع أدلة القرآن الكريم ومناهجه في بيان الواجب، وعدم اقتصارها على صيغة الطلب المباشر -كما تقدم- ترد على القول بالندب، وعلى تأويلهم للنصوص الواردة في الشورى.

وأما الوقائع التي ذكروا أن النبي عليه الصلاة والسلام ترك فيها الشورى، كما تركها أيضًا الخلفاء في مواضع أخرى، فهي كلها مما لا يدخل في نطاق الشورى لوجود النص الموحى به فيها، فكان ذلك خارجًا عن نطاق الشورى ومجالها.

كما أن دليل الإباحة الأصلية هنا لا يفيدهم فيما ذهبوا إليه؛ لأن الأدلة النصية أخرجته عن الإباحة والبراءة الأصلية أو الندب إلى الطلب الدال على الوجوب للأدلة والوجوه المذكورة.

ولعل بعضهم يقيس سلطات الخليفة أي: رئيس الدولة على سلطة النبي صلى الله عليه وسلم، فيجعل الشورى ليست واجبة على النبي لأنه غنيٌّ عنها بالوحي، ثم يقيس عليها سلطة الخليفة، فلا تكون الشورى واجبة عليه، أو يقول: إن الخليفة يشترط فيه العلم والاجتهاد في الأحكام الشرعية؛ ولذلك لا يجب عليه تقليد غيره، فكذلك لا تجب عليه الشورى، وهذا القياس كله قياسٌ مع وجود فوارق كثيرة، فلا يصلح الاستدلال به.

وبذلك تبقى أدلة الوجوب قويةً سالمة عن الاعتراض، بينما أدلة الندب والاستحباب عليها اعتراضات قوية مؤثرة، والله أعلم[2].

(١) انظر: الشورى والديمقراطية، الأنصاري ص١٠٣.

(٢) انظر: الشورى والديمقراطية، عبد الحميد

ثانيًا: هل الشورى ملزمة أو مخيرة؟

وبعد أن انتهى البحث إلى أن الشورى دعامة من دعائم النظام الإسلامي، وواجب من واجبات ولي الأمر أو رئيس الدولة، فإنه ينبغي معرفة موجب الشورى والالتزام بالنتيجة التي تنتهي إليها المشاورة، هل هي ملزمة لرئيس الدولة، فيجب عليه الأخذ بها، والعمل بمقتضاها، والتقيد بما اتفق عليه أهل الشورى أو غالبيتهم، ويقال عندئذ: إنها ملزمة أم أنها غير ملزمة له، فيكون بالخيار بين أن يأخذ بها أو أن يتركها ويأخذ بما يراه، ويقال عندئذ: إنها معلمة غير ملزمة؟

ومن الجدير بالذكر هنا أنه ينبغي التفريق بين هذه المسألة في الإلزام وسابقتها في الوجوب، فهما قضيتان مختلفتان، فلا يجوز أن نسحب حكم إحداهما على الأخرى، كأن نقول: إن الشورى واجبة فتكون ملزمة؛ وذلك لأنها قد تكون واجبة الإجراء ليستطلع الآراء ويختار ما يراه أصلح، أو لا يرى فيها ما هو كذلك، فيأخذ برأيه ويعرض عن غيره؛ ولذلك لا يسوغ الخلط بينهما، وتجدر الإشارة هنا والتأكيد على أن الإلزام والالتزام يقتضي الوجوب، أما الوجوب فلا يقتضي الإلزام[1].

ولذلك نعرض أقوال العلماء في هذه المسألة، وهي لا تخرج عن قولين يمثلان مذهبين يقول أحدهما بالتخيير وعدم الإلزام، ويقول الثاني بالإلزام؛ وذلك في فقرتين، يتلوهما فقرة ثالثة لتحرير محل الخلاف والتعقيب فيها على الرأيين للتوفيق بينهما، وبالله التوفيق.

أولًا: المذهب الأول: عدم الإلزام بنتيجة الشورى:

ذهب فريق من العلماء إلى أن الشورى معلمة وليست ملزمة لولي الأمر أو رئيس الدولة الذي يطلب الرأي، ويستشير في الواقعة؛ فقد يأخذ برأي أهل الشورى إذا اتفقوا، وقد يخالفهم الرأي، فلا يجب عليه أن يأخذ برأيهم، ومن باب أولى إذا اختلفوا في الرأي ولم يتفقوا، فقد يأخذ هنا برأي بعضهم دون رأي الآخرين، وقد يترك آراء الجميع، ويأخذ برأي مخالف متى كانت الشروط متوفرة فيه، وأهمها العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل، والعدالة الجامعة لشروطها، والرأي المفضي إلى سياسة الرعية، وتدبير المصالح، وغيرها من الشروط[2].

وكأن المسألة مفروضةٌ في هذه الحال؛ إذ كانت القاعدة العامة والأصل المستمر في

(١) انظر: فقه الشورى والاستشارة، توفيق الشاوي ص١١٣-١١٦.

(٢) انظر: فقه الشورى، علي بن سعيد الغامدي ص١٨٣.

الأنصاري ص١٠١-١٠٨.

الولاية تتفق مع هذا التقييد.

وهذا القول يفهم من كلام الإمام أبي جعفر الطبري، ومما نقله عن قتادة بن دعامة السدوسي، والربيع بن أنس، والحسن البصري، ومحمد بن إسحاق، وهو أيضًا قول بعض المفسرين، وهو رأي الذين قالوا بعدم وجوب الشورى على الحاكم أو رئيس الدولة كما تقدم[1]. وقال به فريق من العلماء المعاصرين والباحثين[2].

أدلة المذهب:

استدل أصحاب هذا المذهب بجملة أدلة من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية، ومن وقائع السيرة، وأعمال الخلفاء الراشدين، وبأدلة من المعقول.

فمن القرآن الكريم: قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فقد أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يشاور أصحابه، فإذا صح عزمه على شيء فليتوكل على الله في إنفاذه لا على الشورى، وهذا يعني أنها غير ملزمة.

قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾: «فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك، وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكل فيما تأتي من أمورك وتدع، وتحاول أو تزاول، على ربك، فثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه، دون آراء سائر خلقه ومعونتهم؛ فإن الله يحب المتوكلين، وهم الراضون بقضائه، والمستسلمون لحكمه فيهم، وافق ذلك منهم هوًى أو خالفه»[3].

وقال الإمام القرطبي رحمه الله في ذلك: «والشورى مبنية على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف، وينظر أقربها قولًا إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلًا عليه؛ إذ هذه غاية الاجتهاد المطلوب، وبهذا أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية، قال قتادة: أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمضي فيه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٥-٣٤٦، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) ممن قال بذلك: الدكتور عبد الحميد متولي في كتابه مبادئ نظام الحكم ص ٢٤٥-٢٤٦، ويعقوب المليجي في مبدأ الشورى في الإسلام ص١١١-١١٢، ومحمد يوسف موسى نظام الحكم في الإسلام ص١١٤، وحسن هويدي، في الشورى في الإسلام ص ٨، ومحمود بابللي في الشورى في الإسلام ص٥٧.

(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٥.

ويتوكل على الله، لا على مشاورتهم»[1].

ومن السنة النبوية: قوله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر و عمر رضي الله عنهما: (لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما)[2]. ويفهم منه أن النبي عليه الصلاة والسلام يأخذ برأيهما ولو خالفا في الرأي أغلبية الصحابة، أي: فلا يلتزم برأي أغلبية الصحابة[3].

ومن وقائع السيرة النبوية: أن كثيرًا من وقائع الشورى في العهد النبوي تدل على أنها غير ملزمة في نتيجتها، فقد استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في أسرى بدرٍ ومال إلى رأي أبي بكر الصديق، وفي صلح الحديبية لم يأخذ بما رأوا في عقد الصلح، وفي شروطه، وفي بعض القضايا الأخرى، وكذلك في أمور عامة وفي أمور شخصية خاصة، لم يأخذ برأي أغلبيةٍ مثلًا في كثير من هذه المواطن، وإنما أخذ برأي بعضهم دون رأي الآخرين، وفي بعض المواطن أخذ برأي الأكثرية دون غيرها، وفي كل الأحوال أخذ عليه الصلاة والسلام بما رآه هو واطمأنت إليه نفسه[4].

ومن الوقائع في عهد الخلفاء الراشدين، أو من السوابق في ذلك: أن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم لم يتقيدوا بالشورى، ولا برأي الأغلبية[5].

فأبو بكر الصديق لم يأخذ برأي الذين أشاروا بعدم قتال مانعي الزكاة[6]، وفي عدم إنفاذ جيش أسامة بن زيد إلى الحرب في الشام لمواجهة التجمعات الرومانية التي تستهدف القضاء على الدين، فقد عارضه جماعة من الصحابة، ولكنه لم يأخذ برأيهم وأنفذ الجيش بقيادة أسامة -رضي الله عنهم جميعًا-[7]، وعمر بن الخطاب لم يأخذ برأي أهل الشورى أو الذين اعترضوا عليه في قسمة أرض السواد في العراق والشام[8]،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٥٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٢٢٧، رقم ١٧٩٩٤.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ٣/ ٥٩، رقم ١٠٠٨.

(٣) انظر: مبادئ نظام الحكم، عبد الحميد متولي ص٢٤٦، مبدأ الشورى، يعقوب المليجي ص١١٧، الشورى وأثرها في الديمقراطية، عبد الحميد الأنصاري ص١٢٢-١٢٦.

(٤) انظر: المصادر السابقة.

(٥) انظر: مبادئ نظام الحكم، عبد الحميد متولي ص٢٤٦-٢٤٧، مبدأ الشورى، يعقوب المليجي ص١٢٠، الشورى وأثرها في الديمقراطية، عبد الحميد الأنصاري ص١٤٤-١٦٣، مبدأ الشورى، إسماعيل البدوي ص٩٤-٩٦.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ٣/ ٢٦٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ١/ ٥١، رقم ٥٢.

(٧) انظر: السيرة النبوية، ابن كثير ٦/ ٦١٦-٦١٧، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، الكلاعي ٣/ ٨، أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٤٤.

(٨) انظر: الخراج، القاضي أبو يوسف ص٣٨-

وفي قضايا أخرى غيرها.

وعثمان بن عفان لم يأخذ بما أشار عليه بعض ولاته في استعمال الشدة مع أصحاب الإشاعات حول سياسته في أواخر عهده.

وعلي بن أبي طالبٍ لم يأخذ بمشورة الصحابة الذين أشاروا عليه بألا يعجل بعزل ولاة الأمصار بعد أن بويع بالخلافة، وذلك حتى يتم له الأمر ويستقر الحكم[1].

ومن الأدلة العقلية: أن رئيس الدولة أو الخليفة هو صاحب السلطة العامة والرياسة العليا في الدولة، فلا يصح أن يلزم برأي غيره ولو كانوا أكثرية؛ لأن الأكثرية لا تدل على صحة الرأي، وليست معيارًا في ذلك، والخليفة تجب له الطاعة، فلا يصح أن نلزمه هو بطاعة أهل الشورى[2].

الخلاصة: فهذه الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذه الأمثلة من أسلوب الخلفاء الراشدين، والأدلة العقلية والمنطقية تبين لنا -وفق مذهبهم- أن رأي أهل الشورى غير ملزم لرئيس الدولة في الإسلام، فإذا كان واجبًا عليه أن يستشير أهل الشورى والرأي في الأمور، فإنه ليس واجبًا عليه أن يستجيب لما أشاروا به عليه، بل له أن ينفذ ما استقر عزمه عليه دون أن يعني ذلك أنه متفرد يستبد في الأمر؛ لأنه كان مقيدًا بأحكام الشريعة، وكان يعطي الأمة الحق في مراقبته وتقويمه، مع شعوره بالمسؤولية أمام الله تعالى وأمام الأمة[3].

ثانيًا: المذهب الثاني: الإلزام بنتيجة الشورى:

ذهب فريق من علماء السلف وجمهور الباحثين المعاصرين إلى أن الشورى ملزمة لولي الأمر أو رئيس الدولة، فيجب عليه أن يأخذ بالنتيجة التي وصل إليها أهل الشورى باتفاقهم أو بأغلبيتهم، بعد تقليب وجوه الرأي، ومناقشة المسألة المعروضة من كل وجوهها، فإن العزم هو الأخذ بما أشار به أهل الشورى الذين يسمون كذلك «أهل الحل والعقد» فإذا عقدوا أمرًا واتفقوا عليه، أو اتفق الأغلبية، كان من الواجب الالتزام بذلك، فهي إذن ملزمة بعامة[4].

٤٤، المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا ١/ ١٧٩-١٨٣.

(١) انظر: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، محمد الخضري ١/ ٢٨٢، مبادئ نظام الحكم، عبد الحميد متولي ص٢٤٦- ٢٤٧، مبدأ الشورى، المليجي ص١٢٤-١٢٥.

(٢) انظر: الشورى في الإسلام، حسن هويدي ص١٩.

(٣) انظر: مبادئ نظام الحكم، عبد الحميد متولي ص٢٤٧، مبدأ الشورى، يعقوب المليجي ص١٢٦-١٢٧، مبدأ الشورى، إسماعيل البدوي ص٩٦.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٣٣٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٨، المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٣٧، ١٦١-١٦٢، الإسلام وأوضاعنا القانونية، عبد القادر عودة ص١٥٠-١٥١، الإسلام عقيدة وشريعة،

أدلة المذهب:

استدل أهل هذا الرأي بأدلة من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية، ومن الوقائع في السيرة النبوية، ومن عمل الخلفاء الراشدين، ومن العقل ومقاصد تشريع الشورى، وبعض هذه الأدلة النصية هي نفسها التي استدل بها أصحاب المذهب الأول، ولكن اختلفوا في وجه دلالتها والاستنباط منها، وكيفية العمل بها.

فمن القرآن الكريم: قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويستقيم على أمر الله ويتوكل على الله[١].

والمشاورة لها وقت معلوم، وهو وقت الدراسة والفحص، فإذا تمت المشاورة وجب الأخذ بالعزيمة في الأمر والإقدام على العمل[٢].

قال الإمام أبو بكر الرازي الجصاص: «وفي ذكر العزيمة عقيب المشاورة دلالة على أنها صدرت عن المشورة، وأنه لم يكن فيها نصٌّ قبلها»[٣].

وقال ابن عطية الأندلسي: «والشورى مبنية على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ويتخير، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه، عزم عليه، وأنفذه متوكلًا على الله؛ إذ هي غاية الاجتهاد المطلوب منه، وبهذا أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية»[٤].

فإذا تبين السداد فيما يجب أن يسلكه فعزم على تنفيذه، سواء كان على وفق بعض آراء أهل الشورى أم كان رأيًا آخر لاح له سداده، فليبادر ولا يتأخر وليتوكل على الله[٥].

ومن السنة النبوية: ما روي عن علي بن

محمود شلتوت ص٣٧٠، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، محمد أبو زهرة ص٢١٧، ومنهاج الإسلام في الحكم، محمد أسد ص٨٩-٩٨، الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي، عبد الرحمن عبد الخالق ص١٧٠، في النظام السياسي الإسلامي، محمد سليم العوا ص١٩٨-١٩٩، في الفقه السياسي الإسلامي، فريد عبد الخالق ص٦٨-٧٠، المشروعية في النظام الإسلامي، مصطفى كمال وصفي ص٥٧-٥٨، من فقه الدولة في الإسلام، يوسف القرضاوي ص١٤٦، خصائص التشريع الإسلامي، فتحي الدريني ص٤٧٧-٤٧٨، مبادئ نظام الحكم، فؤاد محمد النادي ص٢١١- ٢١٣، مبدأ الشورى في الشريعة الإسلامية، إسماعيل البدوي ص١١٧-١١٨.

(١) هذا قول قتادة فيما أخرجه عنه ابن المنذر في تفسيره ٢/ ٤٦٩، رقم ١١٢٢.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٤٧٨.
(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٣٣١.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٣٦.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٥١.

أبي طالب رضي الله عنه قال: (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزم في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فقال: (مشاورة أهل الرأي، ثم اتباعهم)[١].

وهذا تفسيرٌ من النبي صلى الله عليه وسلم للآية الكريمة يدل على وجوب الانتهاء إلى الرأي بعد الشورى.

وهو من أعلى أنواع التفسير وأجدره بالقبول؛ فإن السنة شارحة للقرآن وموضحة له؛ بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد ابن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن[٢].

ومن الوقائع والسوابق في السيرة النبوية: ما تقدم في تطبيقات الشورى في العهد النبوي، وفي الغزوات بخاصة. ففيها دلالة على أن الشورى ملزمة، وينبغي على رئيس الدولة أن يلتزم بنتيجتها، فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم المشاورة واجبةً قبل العمل، وكثيرًا ما كان يرى الرأي قبل الحرب، ويشير بعض أصحابه إلى رأي آخر، كما حدث في المنزل الذي اختاره للقتال في غزوة بدر، فنبهه بعض الصحابة إلى غيره، فعدل عنه بعد أن اقتنع.

وقرر في غزوة أحدٍ أن يبقى في المدينة، ورأى ذلك الرأي شيوخ المدينة، ولكن شبابها -وخصوصًا الذين لم يحضروا بدرًا- رأوا غير ذلك، وكانوا الكثرة، فنزل عند رأيهم، وإن كان رأيه غير رأيهم؛ لأنه يشير على نظام الشورى، ويربي الأمة عليه، ويبتدئ هو بفرض الخطأ في رأيه، ولا يفرض الصواب دائمًا.

والنبي صلى الله عليه وسلم في تدبير شؤون السياسة، وفي تنظيم الأمور الخاضعة للمباديء المقررة الثابتة النازلة بوحي من السماء كان يعمل الاستشارة دائمًا، لا على أنها تبرعٌ يتبرع به، بل على أنها واجبٌ عليه بصفته حاكمًا. وإن الشورى فوق أنها تعريف للصواب، هي تربية للأمة على الإدراك الصحيح في عامة الأمور، وهي التي تتفق مع النظام الحر السليم، وخيرٌ للجماعة أن تخطيء في رأيٍ تبديه وهي حرةٌ من أن تفرض عليها آراء صائبة، فإن صوابها يكون مقترنًا بإرهاقٍ نفسيٍ وضغطٍ للإرادة، وذلك أشد ضررًا في تكوين الأمم وفي حاضرها ومستقبلها[٣].

ومن الوقائع في عهد الخلافة الراشدة:

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٤، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٩١، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٤.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٦٣.

(٣) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، محمد أبو زهرة ص٢١٧-٢١٨.
وانظر: مبدأ الشورى في الشريعة، إسماعيل البدوي ص٩٧.

أن الخلفاء الراشدين بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، أقاموا دعائم الشورى، في أصل اختيار الحاكم، وفي تنظيم الأمور، كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم، وخصوصًا الأمور التي تكون أصلًا لنظام معين يريد اتباعه، ويرسم فيها منهاجًا، فإن الراشدين كانوا يستشيرون فيه.

وقد كانت الأمور في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه تسير بالشورى، فيما فيه مجال للرأي، وفيما التبست فيه الأمور، فإن الشورى كانت أساس حكمه، وعلى هذا النهج سار سائر الخلفاء الراشدين: عمر وعثمان وعليٌّ رضوان الله عليهم، وهم في كل ما تشاوروا فيه مع الصحابة كانوا يأخذون بما تنتهي إليه الشورى، سواء كانت النتيجة التي انتهوا إليها مما يراه الخليفة قبل الشورى أم كانت مخالفة واقتنع بما يراه أهل الشورى، وبخاصة عندما يتأيد رأي أهل الشورى بدليل، وهذا كله يدل على الالتزام بالشورى، ولولا أنها ملزمة ما التزموا بها[1].

ومن الأدلة العقلية: أن الشورى -وقد ألمحنا إلى وجوبها ابتداءً على الأرجح من الرأيين في حكمها- لا يكون لها معنًى ولا فائدةٌ إذا لم يؤخذ بها، أو برأي الأكثرية إن لم يكن هنالك اتفاق في الرأي، فوجوب الشورى على الأمة الإسلامية يقتضي التزام رأي الأكثرية، وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك عندما نزل على رأي الأكثرية في خروجه لغزوة أحد، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من التزم رأي الأكثرية، وأول من تجهز للخروج إلى أحد، وهو الرسول الموحى إليه، فغيره أولى بأن يكون ملزمًا بنتيجة الشورى[2].

كما أن المقصد من الشورى لا يتحقق ما لم تكن واجبةً ابتداءً وملزمة انتهاءً لرئيس الدولة في الأمور التي هي مجال للشورى؛ فإنه إن لم يلتزم برأي أهل الشورى -بعد بذل غاية جهدهم ونصحهم- كانت الشورى عبثًا، ومضيعة للوقت والجهد، ومناقضة للغاية والمقصد والحكمة من تشريعها والأمر بها، فيعود هذا عليها بالإبطال لها، وما كان كذلك فهو باطل[3].

وفي هذا قال الإمام المفسر الفقيه أبو

(١) انظر: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، محمد أبو زهرة ص ٢٢٢.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٣٧، ١٦١-١٦٢، الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبدالقادر عودة ص١٥٠-١٥١، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، محمد سليم العوا ص١٩١-١٩٢.

(٣) يقول الإمام أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله في الموافقات ٣/ ٢٧-٢٨: «كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له، فقد ناقض الشريعة، وكل ما ناقضها فعمله في المناقضة باطل، فمن ابتغى في التكاليف ما لم تشرع له فعمله باطل».
وانظر: القواعد الكبرى، العز بن عبد السلام ٢/ ٢٤٩.

بكر الرازي الجصاص- وهو يرد على من قال بأن الشورى لمجرد تطييب نفوس أهل الشورى-، وننقل النص بكامله لما فيه من فوائد وأحكام تتصل بهذه المسألة من وجوه متعددة، قال رحمه الله: «وغير جائزٍ أن يكون الأمر بالمشاورة على جهة تطييب نفوسهم، ورفع أقدارهم؛ ولتقتدي الأمة به في مثله؛ لأنه لو كان معلومًا عندهم أنهم إذا استفرغوا مجهودهم في استنباط ما استشيروا فيه وصواب الرأي فيما سئلوا عنه، ثم لم يكن ذلك معمولًا عليه، ولا متلقًى منه بالقبول بوجهٍ لم يكن في ذلك تطييبٌ لنفوسهم، ولا رفعٌ لأقدارهم، بل فيه إيحاشهم وإعلامهم بأن آراءهم غير مقبولة، ولا معول عليها، فهذا تأويل ساقط لا معنى له! فكيف يسوغ تأويل من تأوله لتقتدي به الأمة مع علم الأمة -عند هذا القائل- بأن هذه المشورة لم تفد شيئًا، ولم يعمل بشيء أشاروا به؟ فإن كان على الأمة الاقتداء به فيها فواجبٌ على الأمة أيضًا أن يكون تشاورهم فيما بينهم على هذا السبيل، وأن لا تنتج المشورة رأيًا صحيحًا ولا قولًا معمولًا؛ لأن مشاورتهم عند القائلين بهذه المقالة كانت على هذا الوجه، فإن كانت مشورة الأمة فيما بينها تنتج رأيًا صحيحًا، وقولًا معمولًا عليه فليس في ذلك اقتداء بالصحابة عند مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم».

ثم يقول: «وإذ قد بطل هذا فلابد من أن تكون لمشاورته إياهم فائدةٌ تستفاد منها، وأن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم معهم ضربٌ من الرأي والاجتهاد، فجائزٌ حينئذٍ أن توافق آراؤهم رأي النبي صلى الله عليه وسلم، وجائزٌ أن يوافق رأي بعضهم رأيه، وجائزٌ أن يخالف رأي جميعهم، فيعمل صلى الله عليه وسلم حينئذٍ برأيه، ويكون فيه دلالة على أنهم لم يكونوا معنفين في اجتهادهم، بل كانوا مأجورين فيه لفعلهم ما أمروا به، ويكون عليهم حينئذٍ ترك آرائهم واتباع رأي النبي صلى الله عليه وسلم»[1].

ثالثًا: تعقيب وترجيح:

وبعد عرض هذين المذهبين، وما استند إليه أصحابهما من أدلة متنوعة يحسن أن نذكر كلمات موجزة تعقيبًا على ذلك.

١. التفريق بين الحكم التكليفي للشورى وهو الوجوب على ما تقدم ترجيحه، وبين موجب الشورى وأثرها بعد القول بوجوبها ابتداءً، فهما مسألتان متباينتان، وإن كان بينهما صلة ما، ولكنهما متغايرتان وغير متلازمتين بإطلاق، فلا يلزم من القول بوجوب الشورى القول بالإلزام بنتيجتها، فقد ينفك هذا عن ذاك، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في أول هذه النقاط؛ ولذلك لا يصح

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٣٣٠-٣٣١.

القول بأن الشورى غير ملزمة؛ لأنها غير واجبة ابتداءً، على سبيل المثال.

٢. استدل أصحاب المذهبين بالأدلة النصية والوقائع من السيرة النبوية، ومن عهد الخلافة الراشدة، وهي في أصلها متفقة غالبًا، لكن كل فريقٍ حملها على غير محمل الآخر للاختلاف في بعض الروايات والألفاظ، وقد يكون في وجه الاستدلال ببعضها قياس مع الفارق، فمن ذا الذي يقول: إن النبي عليه السلام يجب عليه أن يلتزم بما قال به أصحابه في كل أمر يعرضه للشورى، كما يلتزم به خلفاؤه أو من بعده؟ وأما بعد عهد النبوة فإن المتأمل في الوقائع من العهد الراشدي يجد الخلفاء الراشدين قد عملوا بها والتزموا برأي أهل الشورى أو أكثرية أهلها.

٣. ولذلك فإن ما استند إليه أصحاب مذهب التخيير وعدم الإلزام من أن الكثرة لا عبرة فيها؛ لأن الأمر يناط بموافقة الدليل ولا عبرة للكثرة والقلة، إن هذا الكلام كله ليس على إطلاقه، فإن كانت الأدلة متوفرة فلا مجال للشورى إلا في فهم النص، وهذه قضية تخرج عن محل النزاع، وإن كانت الأدلة غير متوفرة، والقضية تعود إلى الاجتهاد والتدبير في الأمور العامة فلا ريب أن رأي الأكثرية ورأي الجماعة خير من رأي الفرد، وهي أبعد عن الخطأ، وأقرب إلى الصواب، وقد عمل فريق من علماء الحديث وعلماء الأصول بالترجيح بكثرة الرواة، وكثرة الأدلة[1].

٤. إن كثيرًا من أدلة القائلين بالتخيير وعدم الإلزام ليست منتجة لهذا القول، ولا تنهض للحجية والدلالة عليه؛ لأنها إما في أمور لا مجال للشورى فيها، أو لأنها مما يتصرف فيها النبي صلى الله عليه وسلم بما أنه مبلغ عن ربه تبارك وتعالى، لا بكونه حاكمًا ورئيسًا للدولة، أو لأن ما استندوا إليه منها كان رأيًا مخالفًا لرأي الأكثرية والجمهور من الصحابة.

٥. وأما الأدلة العقلية التي استدل بها القائلون بالتخيير وعدم الإلزام فليست على إطلاقها؛ لأن الخليفة أو الرئيس الذي تجب له الطاعة إنما تجب له هذه الطاعة وغيرها من الحقوق مقيدة بشروط وضوابط قال بها العلماء، كما هو معروف ومشهور، وعندما نلزمه بالشورى فإنما يكون ذلك إلزامًا

(١) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي ٤/٤٤٢-٤٤٥، تخريج الفروع على الأصول، الزنجاني ص٣٦٧-٣٧٧، إرشاد الفحول، الشوكاني ص٢٦٤-٢٦٥.

بأحكام مقررة، فلا يتنافى ذلك مع طاعته فيما تجب فيه الطاعة له.

٦. وأما ما يقال عن الخليفة أو ولي الأمر الذي تجب طاعته ولا يكون ملزمًا برأي أهل الشورى؛ لأنه هو نفسه من أهل الاجتهاد والعلم والنظر والتقوى، فإن هذا القول الجميل إنما يصح عندما ننظر إلى الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم فهم، الذين بلغوا الدرجة العليا في ذلك، وقد أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام باتباع سنتهم، ويصح كذلك عندما ننظر إلى الخلفاء في صدر الدولة الإسلامية، وقد كانوا أو كان كثير منهم يرحل في طلب العلم قبل الخلافة، ومنهم من له رواية للحديث وسماع، مع ما هم عليه من دين وصلاح وتقريب للعلماء، وتوفيق بين القواعد الفقهية النظرية والحياة العملية[1]. ولكن أين تجد في العصور المتأخرة وفي عصرنا هذا مثلًا من يستجمع تلك الصفات والمؤهلات أو بعضها، أو يقاربها ويدانيها! فيبقى الكلام نظريًا لا يتصل بالواقع، ويبقى الأمر بحاجة إلى ضمانة للالتزام بالرأي الأقوم، وهو رأي أهل الشورى بصفاتهم ومؤهلاتهم في النظام الإسلامي.

٧. ومن الجدير بالاهتمام أيضًا: التفريق بين الشورى في الأمور الشخصية الفردية التي تتصل بتصرفات الأفراد ورغباتهم وأمورهم الخاصة التي سماها بعض الباحثين استشارة، وبين الشورى في الأمور العامة التي تمس مصالح الأمة والجماعة المسلمة وكيانها، فإن الخطأ في الأولى أيسر وأقل أثرًا من الخطأ والانحراف في الثانية، والمصلحة التي تفوت بعدم الشورى في الأولى أقل من المصلحة التي تفوت في الثانية، فلئن جاز القول بعدم الإلزام في الأولى فلا يصح أن يقال ذلك في الثانية لما لها من أهمية؛ ولما يتحقق من آثار، والشريعة الإسلامية -كما قال العلماء- إنما جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإنها ترجح خير الخيرين، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما.

٨. وهذا التفريق بين أنواع الشورى ومجالاتها كان منطلقًا لبعض الباحثين للتفريق بين المصطلحات التي تطلق على عملية التشاور والأحكام المتعلقة بكل نوع منها، فقد ذهب الدكتور توفيق الشاوي إلى وجوب التفريق بين

(١) انظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي ص٢٦٣-٢٩٧.

أنواع ثلاثة من القرارات الناتجة عن «التشاور» وهي:

أولًا: المشورة الجماعية التي لابد من الالتجاء إليها للحصول على قرار جماعي ملزم في شأن من الشؤون المهمة للجماعة، وهي التي سماها «الشورى» بالمعنى الضيق أو المعنى الخاص، وهي الشورى الواجبة والملزمة.

ثانيًا: الاستشارة الحرة الاختيارية، أي: طلب الرأي والنصيحة من ذوي التجربة أو الخبرة، وهي اختيارية لمن طلبها، وتسفر عن رأي غير ملزم، وهي التي سماها «استشارة».

ثالثًا: طلب الفتوى الفقهية، وهي نوع من الاستشارة في أحكام الفقه، وهي مشورة اختيارية، لكن لها أحكام خاصة[1].

٩. ولعل هذا الرأي والاتجاه يجمع بين الرأيين، وعندئذٍ يحمل رأي القائلين بالإلزام على حالات محددة، هي «الشورى» ويحمل رأي القائلين بالتخيير، وعدم الإلزام على حالات مغايرة، وعندئذٍ يكون الخلاف يسيرًا، ويلتقي المذهبان.

١٠. وإن جاز لنا أن نضيف رأيًا في التقريب بين المذهبين -يعمل الأدلة كلها دون إهمال شيء منها- فيمكن أن أفرق بين حالتين حسب طريقة تنظيم الشورى والجهة التي تقدم الرأي، فإن الشورى قد تتناول الأمور الفردية والجماعية، والسياسية وغير السياسية، وأمور النظام التأسيسي وغير التأسيسي، ومن جهة أخرى قد تكون مبادرة فردية، وقد تكون عن طريق مجلس متخصص، وليست هذه النواحي والمجالات على مرتبة واحدة، ولا بمنزلة واحدة من حيث الإلزام بنتيجة الشورى وموجبها. فإن المصلحة قد تقتضي تكوين مجلس للشورى أو أكثر -كما تقدم-، ويكون اختصاص المجلس بحكم تكوينه والغاية من إنشائه تقديم الرأي والدراسات حيال قضية معينة دون أن يكون رأيه ملزمًا. وهنا يقال: إن رأيه استشاري. وعلى هذا يحمل ما تقدم من أمثلة في الشورى لم يأخذ فيها النبي صلى الله عليه وسلم برأي من استشارهم. ونجد في بعض الدول والأنظمة السياسية أمثلة لذلك. وعلى هذا يتنزل الرأي القائل بأن

(١) انظر: فقه الشورى والاستشارة ص١٠١-١٥٧، فقد أطال في ذلك واستقصى الحالات والتقسيمات، ووافقه على هذا الدكتور محمد سليم العوا، وأشار إلى كتاب الدكتور الشاوي، وهو يومذاك تحت الطبع.

الشورى معلمة غير ملزمة. وقد يكون من اختصاصه بحسب تكوينه تقديم الرأي حيال قضايا معينة تتسم بالأهمية والخطورة، ولا يجوز أن ينفرد رئيس الدولة بالبت فيها، وقد ينص النظام الأساس للدولة (الدستور) عليها وعلى عرضها على مجلس الشورى، فيكون رأي المجلس بالإجماع أو الأغلبية ملزمًا، وهنا يقال: إن الشورى ملزمة، ويجب على رئيس الدولة الالتزام بها؛ لأنها صدرت عن هيئة أو مجلس يكون رأيه أو قراره -بحكم النظام أو القانون الذي تسير عليه الدولة- ملزمًا لرئيس الدولة والحكومة، وعلى هذا يحمل ما تقدم من أمثلة أخذ بها النبي صلى الله عليه وسلم برأي من استشارهم، وكانوا أغلبية، أو ليس لرأيهم معارض، وهذا أيضًا نجد له أمثلة في بعض الدول والأنظمة السياسية المعاصرة، والله أعلم.

مجالات الشورى

تنوعت مجالات الشورى التي مارسها الرسول عليه السلام والصحابة، وسوف نتناول هذه المجالات فيما يأتي:

أولًا: في الغزوات:

في مجال الجهاد والغزوات يتسع نطاق العمل بالشورى، ونجد في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أمثلةً كثيرة وفيرة، تظهر فيها أهمية التشاور وإبداء الرأي؛ حيث يقود ذلك إلى اتخاذ القرار المناسب، ويترك أثره في العملية الحربية نصرًا وثقةً بالنفس واستقرارًا.

أ. ففي غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، شاور النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه، وتلقى منهم المشورة والرأي لما بادروا بعرضه ابتداءً قبيل المعركة، وفي أثنائها وسيرها، وفي نهايتها وآثارها:

١. قبل المعركة: استشار عليه الصلاة والسلام في خوض المعركة وفي مسير الاقتراب[1]. وكان ذلك لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر القافلة التجارية

(١) مسير الاقتراب: سير القوات المقاتلة من قاعدتها إلى موقع القتال، وكان سير الاقتراب من المدينة المنورة إلى بدر، وهي موقع وآبار على الطريق بين مكة والمدينة.
انظر: الشورى العسكرية ص٨٧٤.

المقبلة من الشام لقريش صحبة أبي سفيان، وهي العير التي خرجوا في طلبها لما خرجت من مكة، وكانوا نحو أربعين رجلًا، وفيها أموال عظيمة لقريش، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس للخروج إليها، وأمر من كان ظهره حاضرًا بالنهوض، ولم يحتفل لها احتفالًا بليغًا؛ لأنه خرج مسرعًا في قلة من العدد والعدة، فاستنصر أبو سفيان قريشًا، فنهضوا مسرعين إلى ذلك، وخرجوا من ديارهم، كما قال تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وأقبلت عصابة الكفر والشرك؛ ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خروج قريش استشار أصحابه، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثانيًا، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثًا، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم، فبادر سعد بن معاذٍ فقال: يا رسول الله! كأنك تعرض بنا؟ وكان إنما يعنيهم لأنهم بايعوه على أن يمنعوه ويدافعوا عنه وينصروه في ديارهم، فلما عزم على الخروج، استشارهم ليعلم ما عندهم، فقال له سعد: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًا عليها أن لا ينصروك إلا في ديارها! وإني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبعٌ لأمرك، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان[1] لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

وقال له المقداد بن الأسود: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومن بين يديك ومن خلفك.

فأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسر بما سمع من أصحابه، وقال: (سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، وإني قد رأيت مصارع القوم)، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر»[2].

وكان لهذه الشورى العسكرية أثرها العظيم في إبراز إرادة القتال في المسلمين، واستعدادهم للجهاد بقيادة واحدة لتحقيق هدف واحد، كما رفعت معنويات

(١) وقيل: برك، بكسر الباء، وسكون الراء وهي ناحية باليمن، وغمدان: بضم أوله وسكون ثانيه وآخره نون موضع وقصر فيها. وفي بعض الألفاظ: برك الغماد: بغين معجمة مثلثة كما في القاموس، وهو موضع في ساحل البحر، بينه وبين جدة عشرة أميال، وهو البندر القديم. انظر: معجم البلدان ١/ ٤٠٠ و٤/ ٢١٠، مراصد الاطلاع ١/ ١٨٧ و٢/ ٩٦٠، نيل الأوطار، الشوكاني ٨/ ٢٩.

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٥٣-١٥٦.

المسلمين بعد انكشاف نياتهم، ولم يبق لدى المهاجرين شكٌّ في نيات الأنصار، وموقفهم الإيماني البطولي الصادق، فازداد التلاحم بينهم، كما كان قد ازداد بعد الهجرة ارتباطًا ورسوخًا في الإسلام[1].

٢. في موقع النزول والقيادة: روى الواقدي: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار بعد ذلك حتى نزل عشيًا أدنى ماءٍ من مياه بدر إلى المدينة، فقال: (أشيروا علي في المنزل). فأشار عليه الحباب بن المنذر بن الجموح بغير ذلك الموضع، فقال: يا رسول الله! أنا عالمٌ بها وبقلبها[2]! إن رأيت أن نسير إلى قلب قد عرفناها، فهي كثيرة الماء عذبة، فننزل عليها، ونسبق القوم إليها ونغور[3] ما سواها من المياه)[4].

وقال محمد بن إسحاق: (إن الحباب ابن المنذر قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة). فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد أشرت بالرأي). فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماءٍ من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضًا على القليب الذي نزل عليه، فمليء ماء، ثم قذفوا فيه الآنية، قال ابن إسحاق: قال سعد بن معاذٍ رضي الله عنه: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا[5] تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرًا، ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشٌ فكان فيه)[6].

ويستوي في هذا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم طلب المشورة والرأي في

(١) انظر: الشورى العسكرية ص٨٧٦.
(٢) القلب: جمع قليب، وهي البئر القديمة، تذكر وتؤنث.
(٣) والتغوير: الدفن والطمس، وفي بعض الروايات: «نعور» بالعين المهملة، والتعوير هو إفسادها بإلقاء شيء فيها كالحجارة والتراب.
(٤) مغازي الواقدي ١/ ٥٣.
(٥) العريش: شبه الخيمة يستظل به.
(٦) المغازي، الواقدي ١/ ٥٣، السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٦٠٦-٦٠٧، زاد المعاد ٣/ ١٥٣.

النزول بذلك الموضع، أو أن الحباب رضي الله عنه ابتدأ بالرأي وتقديم المشورة، فإن النبي عليه الصلاة والسلام قد أخذ بتلك المشورة، وأثنى على صاحبها، كما أخذ برأي سعد بن معاذ في بناء العريش؛ ليكون مقر القيادة يقومون عليه بالحراسة، واختياره بتلك الطريقة والكيفية يؤدي إلى السيطرة على ساحة المعركة، ثم إلى السيطرة على القتال بيسر وسهولة، وأعلن عليه الصلاة والسلام أن الأمر شورى بينهم، فهو لا يقطع برأي في أمر الحرب وسيرها دونهم، وكان لهذا الموقف أثره الكبير في الانتصار في المعركة بعون الله وتأييده ونصره[1].

٣. بعد المعركة في شأن الأسرى وتقرير مصيرهم[2]: فقد انجلت معركة بدر عن كثير من الغنائم، وعن سبعين قتيلًا، وسبعين أسيرًا، فقام عليه الصلاة والسلام بتوزيع الغنائم، كما قسمها الله تعالى في سورة الأنفال، واستشار أصحابه في تقرير مصير الأسرى، ولم يستبد عليه السلام بذلك[3].

وهذا طرف من الروايات بهذا الشأن:

روى مسلمٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: (ما ترون في هؤلاء الأسارى؟) فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ترى يا ابن الخطاب؟) فقال: لا، والله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (وكان نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده.

قال: فهوي رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر: الرسول القائد، محمود شيث خطاب ص١٠٧، الشورى العسكرية له ص٨٧٧.

(٢) الأسير على وزن فعيل بمعنى المأسور، والأسر في اللغة العربية هو الحبس والإمساك، أو هو الشد بالقيد، مأخوذ من قولهم: أسرت القتب، بمعنى شددته، وتجمع كلمة أسير على أسارى وأساري وأسرى وأسراء، ويقال: أسير للرجل والمرأة، وعند الفقهاء: الأسرى هم الرجال المقاتلون من الكفار الذين ظفر بهم المسلمون في الحرب.
انظر: أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني، عثمان ضميرية ٢/١٢٠٧-١٢٠٨.

(٣) الأسير يقع تحت سلطة الدولة، وليس تحت سلطة الآسر، ويكون الإمام -رئيس الدولة- في هذا بين خيارات، وهي المن عليه بدون مقابل أو الفداء أو المبادلة بالأسرى من المسلمين أو القتل والاسترقاق قبل إلغاء الرق، ويختار منها ما هو أكثر تحقيقًا للمصلحة العامة للمسلمين، ولا يتصرف في هذا ولا يتخير الحكم فيهم بالهوى، وإنما الحكم فيهم على وجه الاجتهاد والمصلحة للمسلمين.
انظر: أصول العلاقات الدولية، عثمان ضميرية ٢/١٢٠٨-١٢٥١.

وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما! فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة) شجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]. فأحل الله الغنيمة لهم)[1].

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟) فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم، واستأن بهم؛ لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك، قربهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم نارًا، قال: فقال العباس: قطعت رحمك! قال: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئًا، قال: فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، قال: فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

أنتم عالةٌ فلا ينفلتن منهم أحدٌ إلا بفداء، أو ضربة عنق). قال عبد الله: فقلت: يا رسول الله إلا سهيل ابن بيضاء، فإني قد سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت رسول

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة، ٣/١٣٨٣، رقم ١٧٦٣.

الله، قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء في ذلك اليوم حتى قال: (إلا سهيل بن بيضاء). قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧][(١)].

ب. في معركة أحدٍ: في السنة الثالثة من الهجرة النبوية في شهر شوال كانت غزوة أحد؛ وذلك أن قريشًا أرادت الثأر لقتلاها واستعادة هيبتها التي اهتزت وسقطت في معركة بدر، كما أرادت تأمين طريقها التجاري إلى بلاد الشام، فبدأت بالاستعداد لمحاربة المسلمين، وجمعت قواتها، وسارت حتى وصلت إلى مشارف المدينة النبوية، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

وهنا بدأ عليه الصلاة والسلام باستشارة أصحابه في الموقف، وما الذي ينبغي فعله أمام هذا الخطر القائم القادم؟ وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أمام هذه المشورة صنفين:

الأول: متحمس للخروج لملاقاة العدو خارج المدينة، وبخاصة من فاتهم شرف الحضور في معركة بدر.

والثاني: رأى أن يبقى في المدينة متحصنًا مدافعًا عنها إذا دهمها الأعداء، فإن ذلك يقلل خسائر المسلمين، ويوقع الخسارة بالأعداء[(٢)].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة؟ فبادر جماعة من فضلاء الصحابة -ممن فاته الخروج يوم بدر- إلى الإشارة بالخروج إليهم، وألحوا عليه صلى الله عليه وسلم في ذلك، وأشار عبد الله بن أبي بن سلول بالمقام بالمدينة، وتابعه على ذلك بعض الصحابة»[(٣)].

ج. وفي غزوة الخندق: وكانت في سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين، وفيها تحالفت القوى اليهودية وأهل الشرك والوثنية من القبائل العربية، وتآمرت على الإسلام والمسلمين، وعلى نبيهم الكريم، وفي هذه الغزوة نذكر موقفين استشار فيهما النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه:

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ١٣٨، رقم ٣٦٣٢، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، تفسير سورة الأنفال، ٥/ ٢٧١، رقم ٣٠٨٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص٣٧٩.

(٢) انظر: دروس في السيرة النبوية وعبرها، أحمد محمد العليمي ص١٦٨.

(٣) الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص٣٨.

١. قبل المعركة: فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسير الأحزاب إليه، استشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندقٍ يحول بين العدو وبين المدينة، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فبادر إليه المسلمون، وعمل بنفسه فيه، وبادروا هجوم الكفار عليهم، وكان في حفره من آيات نبوته، وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به[١].

٢. وفي أثناء المعركة: نقضت قريظة العهد الذي بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر بني قريظة، ونقضهم للعهد، وأقام المشركون محاصرين رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرًا، ولم يكن بينهم قتالٌ لأجل ما حال الله به من الخندق بينهم وبين المسلمين؛ ولما طالت هذه الحال على المسلمين، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصالح عيينة بن حصنٍ، والحارث بن عوف رئيسي غطفان، على ثلث ثمار المدينة، وينصرفا بقومهما، وجرت المفاوضة على ذلك، وفي رواية أنهم كتبوا كتاب الصلح على ذلك، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، فاستشار السعدين (سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة) في ذلك، فقالا: (يا رسول الله؛ إن كان الله أمرك بهذا، فسمعًا وطاعة، وإن كان شيئًا تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أو بيعًا، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوب رأيهما، وقال: (إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة) فشق الصحيفة، وقال: (اذهبوا لا نعطيكم إلا السيف)[٢].

ثانيًا: في حادثة الإفك:

ونحن هنا أمام لون جديد من الشورى والمشاورة في العهد النبوي، فلئن كانت الأمثلة السابقة في النقطة الأولى تشير إلى الشورى في الأمور العامة وقت الحرب والتدبير العسكري، فإننا في هذه النقطة أمام مثال آخر يقع في مجال الأمور الشخصية والبيتية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، استشار فيه النبي عليه الصلاة والسلام

(١) زاد المعاد ٢/ ١٧٣.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ٧٣، والسيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٢٢٣، زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٤٦-٢٤٧، أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام الشيباني، عثمان ضميرية ١/ ٦٤٥-٦٤٦.

أقاربه وخاصته من الرجال والنساء، في فراق عائشة رضي الله عنها لما قال فيها أهل الإفك ما قالوا[1].

ثم استشار أصحابه بعامة في التصرف مع الذين أشاعوا قالة السوء، وحديث الإفك والبهتان.

قال الإمام البخاري رحمه الله في حديث عائشة: (فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة ابن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله، قالت عائشة رضي الله عنها: فأما أسامة ابن زيدٍ فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثيرٌ، وإن تسأل الجارية تصدقك.

قالت عائشة: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال: (أي بريرة! هل رأيت عليها من شيء يريبك؟) قالت بريرة: لا، والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرًا أغمصه -أعيبه- عليها أكثر من أنها جاريةٌ حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر يومئذٍ من عبد الله بن أبي بن سلول، فقال -وهو على المنبر-: (يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي).

فقام سعد بن معاذٍ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعدٍ: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد، فقال لسعد ابن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله صلى الله

(١) الإفك: أسوأ الكذب، سمي إفكًا لكونه مصروفًا عن الحق، من قولهم: أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه، وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح، وسمي الكلام الذي قيل عن عائشة رضي الله عنها إفكًا، وذلك لأنها كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف، فمن رماها بالسوء قلب الأمر عن وجهه.
انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٢٢، المفردات، الراغب ص٧٩.

عليه وسلم قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت عائشة: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح أبواي عندي -وقد بكيت ليلتين ويومًا لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع- يظنان أن البكاء فالق كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني، فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس، ثم قال: (أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئةً فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه).

قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال أبو بكر: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: فقلت -وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن-: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة -والله يعلم أني بريئة- لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر -والله يعلم أني منه بريئة- لتصدقني! والله ما أجد لكم مثلًا إلا قول أبي يوسف قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا حينئذٍ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فو الله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي، فكانت أول كلمة تكلم بها: (يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك، وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١-٢٠])[1].

ثالثًا: الاتصال الفردي بأهل الاختصاص:

وإذا كانت تلك الوقائع في مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه تنصب على الوقائع العسكرية والاجتماعية أو الشخصية الخاصة، شاور فيها من حضر منهم، أو استطلع آراء الجماعة في أمر من الأمور، أو رأي أفراد يمثلون الجماعة ويعبرون عن رأيها وموقفها.

ومن جهة أخرى: فيها ما هو مشاورة ابتداءً طلب فيها النبي عليه الصلاة والسلام منهم إبداء الرأي، وفيها ما هو قبول للرأي الذي أبداه بعضهم في قضية من القضايا قبل أن يطلب منهم ذلك، أو دون أن يطلبه فإن هذا المطلب يلمح إلى طريقة في الشورى تقوم على الاتصال ببعض الأفراد من أهل الرأي والشورى أو من أهل الاختصاص أو الدراية، ويمكن أن نلمح ذلك في تلك الوقائع نفسها، وفي وقائع أخرى غيرها.

ففي الوقائع السابقة نجد مثلًا لذلك في استشارة النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما في مفارقة أهله لما قال فيها أهل الإفك ما قالوا واستلبث الوحي، فأشار كل واحد منهما بما يرى، كما تقدم آنفًا، حيث أشار عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يفارقها ويأخذ غيرها، تلويحًا لا تصريحًا. وأشار عليه أسامة بن زيدٍ رضي الله عنه بإمساكها وألا يلتفت إلى كلام الأعداء، وسأل الجارية بريرة: (هل رأيت عليها من شيء يريبك؟) فقالت: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا أعيبه عليها أكثر من أنها جاريةٌ حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله[2].

وفي معركة بدر: تقدم من رواية الواقدي:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ٥/ ١١٦، رقم ٤١٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ٤/ ٢١٢٩، رقم ٢١٣٨.

(٢) سبق تخريجه في الحاشية السابقة.

(أن النبي صلى الله عليه وسلم سار حتى نزل عشيًا أدنى ماءٍ من مياه بدر إلى المدينة، فقال: (أشيروا علي في المنزل) فأشار عليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، أنا عالمٌ بها وبآبارها! إن رأيت أن نسير إلى آبارٍ قد عرفناها، فهي كثيرة الماء عذبة، فننزل عليها، ونسبق القوم إليها ونغور ما سواها من المياه، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه هذا)[1]، فإن الحباب صاحب علم ورأي في هذا الأمر، فهو من أهل الاختصاص فيه.

وفي غزوة الخندق: لما أراد عليه الصلاة والسلام أن يصالح قبيلة غطفان على الانصراف عن الأحزاب مقابل ثلث ثمار المدينة لذلك العام، استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما وهما سيدا الأوس والخزرج، فكانا يعبران عن رأي قومهما، ولم يأخذ عليه الصلاة والسلام رأي الأنصار جميعًا أو فردًا فردًا.

ففي كل هذه الأمثلة والوقائع استشار النبي صلى الله عليه وسلم أفرادًا من أهل الاختصاص، أو من خاصته صلى الله عليه وسلم، أو هم الذين يعنيهم الأمر مباشرة، في أنفسهم أو فيمن ينوبون عنه، فكان ذلك لونًا من ألوان الشورى وتطبيقاتها في عهد النبوة.

(١) المغازي، الواقدي ١/ ٥٣.

رابعًا: انتخاب نقباء ممثلين للمتشاور معهم:

قد تقتضي الشورى أن يؤخذ رأي ممثلين للأمة أو الجماعة، وتدعو لذلك مصلحة تحقيق الغاية من الشورى ومعرفة الرأي للقوم على الوجه الصحيح دون تأثيرات أو دون عوامل قد تجعل إبداء الرأي لا يعبر عن إرادة حرة، فيكون من الحكمة أن يؤخذ الرأي عن طريق ممثلين للجماعة، وهم العرفاء أو النقباء الذين تختارهم الجماعة ليمثلوها، فيستطلعون رأيها على الحقيقة، ثم ينقلونه لمن يطلب الشورى.

فقد أخرج الإمام البخاري عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، أن مروان والمسور بن مخرمة أخبراه: (أن النبي صلى الله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال: (إن معي من ترون، وأحب الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما المال وإما السبي، وقد كنت استأنيت بهم) وكان النبي صلى الله عليه وسلم انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن النبي صلى الله عليه وسلم غير رادٍ إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سبينا، فقام النبي صلى الله عليه وسلم في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد؛ فإن إخوانكم جاؤونا تائبين،

وإني رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل) فقال الناس: طيبنا ذلك، قال: (إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم) فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم طيبوا)[1].

والشورى في هذه الواقعة وبهذه الطريقة تدل على ما أومأنا إليه، كما تدل أيضًا على أن الشورى قد تتسع حتى تعم الأفراد لسعة الوقت ولكون الأمر يتعلق بحقٍ فردي، فلا بد من رضا كل فرد، وليس لولي الأمر أن يخرج شيئًا من يد أحد من أفراد الرعية إلا بحقه[2].

خامسًا: تعيين هيئة الشورى:

قد تتطور تلك التطبيقات التي ألمح البحث إليها، وقد تترقى الوسائل والأساليب أو الآليات تلبية لحاجة مستجدة أو تحقيقًا للمصلحة، فيكون هذا كله سببًا لتنظيم الشورى بإنشاء هيئة أو مجلس يمارس القيام بهذا المبدأ، ويسمى مثلًا «مجلس الشورى»[3].

ويمكن أن يدل على إنشاء هذا المجلس وتكوينه قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يفهم منه بطريق الإشارة إيجاد طائفة من الأمة تمثلها وتستشار في أمرها؛ لأن تنفيذ الأمر ومشاورة الأمة يستلزم ذلك[4]؛ إذ إن إعراب الأمة عن رأيها في كل حادثة أمرٌ غير ممكن، فينتقل الأمر إلى ممثلين عنها تختارهم لهذه الغاية[5].

وهذه الطائفة التي تمثل الأمة وتستشار في أمرها يمكن أن يطلق عليها «مجلس الشورى» أو «هيئة الشورى» أو غيرهما من الأسماء، ولم يكن هذا المجلس بصفته

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين ٤/ ٨٩، رقم ٣١٣١.

(٢) انظر: فقه الشورى، علي بن سعيد الغامدي ص١٩٢-١٩٣.

(٣) المجلس: مكان الجلوس، واستحدث مجمع اللغة العربية لها المعنى المعروف في عصرنا هذا فقال: «المجلس: الطائفة من الناس تخصص للنظر فيما يناط بها من أعمال، ومنه مجلس الشعب، ومجلس العموم، ومجلس الأعيان، والمجلس الحسبي. والجلسة: مرة الجلوس، وحصة من الوقت يجلس فيها جماعة مختصون للنظر في شأن من الشؤون، وهي مغلقة إذا لم يشهدها إلا أعضاؤها، ومفتوحة إذا شهدها معهم غيرهم، والجمع جلسات».
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٣٠.

(٤) علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف ص١٤٦.

(٥) انظر: الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عزالدين التميمي ص٦١-٦٢.

وتكوينه المعروف في عصرنا الحاضر، لم يكن بهذا الوضوح وهذه الصفة.

موضوعات ذات صلة:

الجهاد، الحكم، السياسة، العزم

الشيطان

عناصر الموضوع

مفهوم الشيطان	١٣٨
الشيطان في الاستعمال القرآني	١٣٩
الألفاظ ذات الصلة	١٤٠
خلق الشيطان	١٤٢
الشيطان والأنبياء	١٤٦
عداوة الشيطان للإنسان	١٥٧
وسائل الحفظ من الشيطان	١٦٦
عاقبة الشيطان في الدنيا والآخرة	١٧٥

مفهوم الشيطان

أولًا: المعنى اللغوي:

اختلف أهل اللغة في اشتقاق لفظ الشيطان على رأيين:

الرأي الأول: أن النون في لفظ الشيطان أصلية، وهو من مادة (شطن)، وهي تدل على البعد، ونوًى شطون، أي: بعيدة، ويقال: بئر شطون، أي: بعيدة القعر، وشطن عنه: بَعُدَ، وأشطنه: أبعده[1]، وسمي الشيطان بذلك؛ لبعده عن أمر ربه، وعن الحق وتمرده، فهو بعيد عن الخير، وبعيد عن طباع البشر، وعلى ذلك فكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان.

وقيل: الشطن: هو الحبل الطويل الشَّديد الفتل، والجمع أشطان، وشطنته إذا شددته بالحبل[2]، والشيطان على وزن فيعال، ووجه تسميته بذلك؛ لأنه يوقع الإنسان بحباله الطويلة، أو أنه طاله في الشر.

وقال ابن السكت: «الشطن مصدر شطنه يشطنه، إذا خالفه عن نيته ووجهه»[3].

الرأي الثاني: ذهب آخرون من أهل اللُّغَة: إلى أن النون في لفظ الشيطان زائدة، واشتقاقه من شاط يَشيط وتشيط، وشاط الشيء شيطًا وشياطة وشيطوطة: احترق، وشاطت القِدر شيطًا احترقت، وشاط الرجل إذا لفحته النارُ فأثرت فيه، وهلك واحترق[4]، وهذا المعنى يتناسب مع الشيطان، فالشيطان يحترق ويهلك إذا سمع صوت الحق، وذكر ابن كثير أن من العلماء من صحح الرأيين مع قولهم بأن الأول أصح[5].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لفظ الشيطان قد يراد به إبليس خاصة، كما في قصة آدم وإبليس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]. وقد يراد بالشيطان كل شرير مفسد داع للغي والفساد من الجن والإنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٨٤، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٣٧.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٦/ ٢٣٦.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١١/ ٢١٣، الصحاح، الجوهري ٥/ ٢١٤٤.
(٤) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٨٦٧، تهذيب اللغة، الأزهري ١١/ ٢١٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٥.

الشيطان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شطن) في القرآن الكريم(٨٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم (مفردًا)	٧٠	﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦]
الاسم (جمعًا)	١٨	﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢]

وجاءت كلمة (الشيطان) في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: المتمرد الطاغي من الجن والإنس والدواب[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٨٢- ٣٨٣.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٣٧٤، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٧١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ إبليس:

إبليس لغةً:

إبليس لعنه الله مشتق من «بلس»، وبلس من رحمة الله، أي: يئس وندم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢].

وسمي إبليس بذلك؛ لأنه يئس من رحمة الله، وأبلس الرجل: سكت، لذلك يقال للذي يسكت عند انقطاع حجته: قد أبلس، فالمبلس الساكت من الخوف أو الحزن، والإبلاس الحيرة، وسمي إبليس بهذا الاسم؛ لأنه لما أيس من رحمة الله أبلس يأسًا[١].

إبليس اصطلاحًا:

يمكن تعريف إبليس تعريفًا وصفيًا بأنه ذلك المخلوق من نار السموم، كان يعبد الله مع جملة الملائكة، فاغتر إبليس بنفسه، فاطلع الله على ذلك في قلبه، فخلق الله آدم من طين، ونفخ فيه، وأمر الملائكة الذين كان إبليس في معيتهم للسجود له، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر بحجة أنه خير منه، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وطلب من الله أن يمهله إلى يوم الدين؛ كي يغوي آدم وذريته، فلُعن وطُرد من السماء، وأصبح عدوًا لبني آدم إلى يوم البعث[٢].

الصلة بين إبليس والشيطان:

أن الشيطان إذا أطلق يراد به إبليس وذريته المخلوقين من النار.

٢ الجن:

الجن لغةً:

«الجن جماعة ولد الجان، وجمعهم: الجِنَّةُ، والجان، وإنما سمو جنًا؛ لأنهم استجنَوا عن الناس، فلا يُرون، والجان هو أبو الجن خلق من نار، ثم خلق منه نسله»[٣]، فالجان واحد الجن، وهو من الاجتنان، أي: التستر والاختفاء، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف: ٢٧][٤].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٠٠، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٢٨.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٢٦٥.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٤٤.

الجن اصطلاحًا:

يمكن التعريف بالجن على «أنهم نوع من الأرواح العاقلة، المريدة، المكلفة على نحو ما عليه الإنسان، مجردون عن المادة، مستترون عن الحواس، لا يُرون على طبيعتهم، ولا بصورتهم الحقيقية، ولهم قدرة على التشكل، ويأكلون، ويشربون، ويتناكحون، ولهم ذرية، محاسبون على أعمالهم في الآخرة»[(١)].

الصلة بين الشيطان والجن:

أن الشيطان هو الشرير من الجن؛ ولهذا يقال للإنسان إذا كان شريرًا شيطان، ولا يقال: جني؛ لأن قولك: شيطان يفيد الشر ولا يفيده قولك: جني، وإنما يفيد الاستتار؛ ولهذا يقال على الإطلاق: لعن الله الشيطان، ولا يقال: لعن الله الجني، والجني اسم الجنس والشيطان صفة[(٢)].

٣ الطاغوت:

الطاغوت لغة:

مشتق من «طغو» و«طغي»، وهو مجاوزة الحد في العصيان، وطغى البحر: هاجت أمواجه، وكل شيء جاوز المقدار والحد في العصيان فهو «طاغ»، «وأطغيته» جعلته «طاغيًا»، والطاغية: صيحة العذاب البغي والكفر، والطاغوت: الكهنة والشياطين، والطاغوت كل رأس في الضلال، كما ويطلق على الأصنام، والطاغوت يكون من الجن والإنس[(٣)].

الطاغوت اصطلاحًا:

أصل الجذر يدل على مجاوزة الحد، ونجد أن الطاغوت يحتل مرتبة هي أعلى من مجرد كونه متمردًا أو عاتيًا، كما هو حال الشيطان، بل هو في مرتبة تصل إلى قمة الكفر والطغيان، بحيث يجترئ على خصائص ألوهية الله سبحانه، حيث يدعو البشر لعبادته من دون الله، فالطاغوت هو كل ذي طغيان على الله، فعُبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبَده، وإما بطاعة ممن عبَده، إنسًا كان ذلك المعبود أو جانًا[(٤)].

الصلة بين الشيطان والطاغوت:

صلة عموم وخصوص، فالشيطان صورة من صور الطاغوت.

(١) الموسوعة العقدية، موقع الدرر السنية، ٨/ ٣٣٠.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٠٧.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤١٢، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣١٢.

خلق الشيطان

تحدث القرآن الكريم عن خلق الشيطان والغاية من خلقه وتمرده -لعنه الله- وخروجه الطاعة، وهذا ما سنتناوله بالبيان فيما يأتي:

أولًا: خلق الشيطان:

تقرر مما سبق أن الشيطان إذا أطلق فيراد به إبليس خاصة، واختلف علماء التفسير في إبليس هل هو من الملائكة أم من الجن إلى رأيين:

الرأي الأول: إنه كان من الملائكة، قاله ابن عباس[(١)]، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب[(٢)]، وابن جرير الطبري[(٣)].

وقال البغوي: هذا قول أكثر المفسرين؛ لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

فلولا أنه من الملائكة، لما توجه الأمر إليه بالسجود، ولو لم يتوجه الأمر بالسجود، لم يكن عاصيًا، ولما استحق الخزي والنكال[(٤)].

الرأي الثاني: إنه كان من الجن، ولم يكن من الملائكة، قاله الحسن وقتادة، واختاره الزمخشري[(٥)].

مستدلين بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خلق من نار، والملائكة من نور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة، ورد الزمخشري على المستدلين بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

فالأمر كان للملائكة خاصة، وإنما شمله الأمر، لأنه كان في صحبتهم، وكان يعبد الله معهم، فلما أُمِروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له، كان الجني الذي معهم أجدر بأن يتواضع[(٦)].

وجمهور العلماء على القول الأول، وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، أي: من الملائكة الذين هم خزنة الجنة[(٧)].

والصواب التفصيل في هذه المسألة، فإبليس كان من الملائكة بصورته، وكان يعبد الله معهم، وليس منهم بمادته وأصله؛ فأصله من نار، وأصل الملائكة من نور، فمن اعتبره من الملائكة فعلى كونه كان في صحبتهم في العبادة، ومن اعتبره من الجن

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٧٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ١٢٤.
(٣) انظر: جامع البيان ١/ ٥٠٨.
(٤) انظر: معالم التنزيل ١/ ١٠٤.
(٥) انظر: الكشاف ١/ ١٢٧.
(٦) انظر: المصدر السابق.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٤٢٨.

فعلى أصل خلقه[1].

وقيل: إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار، سموا: جنًا؛ لاستتارهم عن الأعين، فإبليس كان منهم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

وهو قولهم: الملائكة بنات الله، ولما أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية[2].

وبعد التفصيل السابق يمكن الخروج بخلاصة القول، وهو أن أصل خلق إبليس من نار، كما تقرر ذلك الآيات.

قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

قال ابن عباس في قوله: «﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ الحارة التي تقتل، وقال ابن مسعود: ﴿السَّمُومِ﴾ التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»[3].

ويدلل على ذلك أيضًا ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِف لكم)[4].

وطبيعة خلق الشيطان أنه لا يُرى، كما تُقرره الآيات الكريمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

يقول الزحيلي: «احذروا إبليس، فإنه هو وجنوده من الجن يرونكم وأنتم لا ترونهم، والضرر الناجم من العدو الذي لا يرى أخطر من العدو الظاهر المرئي»[5].

ومما جُبِل عليه الشيطان خاصة دون سائر الجن، قبح صورته، والتي تحمل في مضمونها قبح أفعاله، وقد شبه الله ثمار شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم برؤوس الشياطين، لما عُلِم من قبح صورهم وأشكالهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤- ٦٥].

وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر، وثبت في السنة أن الشيطان له قرنان.

فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا طلع حاجب الشمس فدَعوا الصلاة حتى تبرُز، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب، ولا تَحَيَنوا بصلاتكم

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٤٦.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٠٤.
(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ١٢٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، ٤/ ٢٢٩٤، رقم ٢٩٩٦.
(٥) التفسير المنير ٨/ ١٧٠.

طلوع الشمس ولا غروبها، فإنها تطلع بين قرني شيطان)[1].

ثانيًا: الغاية من خلق الشيطان:

خلق الله عز وجل الشيطان لحكم وفوائد قد تظهر للإنسان، وقد يخفى عنه بعضها، لكنه لم يخلق شيئًا عبثًا، تعالى عن ذلك سبحانه علوًا كثيرًا، فما الحكمة من خلق إبليس؟

تحدث العلماء في ذلك كثيرًا، وقد أجاد الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان ذلك في كتابه، فذكر من الحكم والفوائد من خلق إبليس وجنوده[2]:

أولًا: أن يكمل للأنبياء والمؤمنين والصالحين مراتب العبودية، وذلك بمجاهدة عدو الله وحزبه -الشيطان وذريته- وإغاظة أوليائه، والاستعاذة بالله منه، والالتجاء إليه أن يعيذهم من شره وكيده.

ثانيًا: خوف الملائكة والمؤمنين والصالحين من ذنوبهم، وذلك بعدما شاهدوا ما آل إليه حال إبليس، وما شاهدوه من سقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية، فالملائكة لما شاهدوا ذلك زاد خوفهم وخضوعهم لله عز وجل، ففي ذلك زيادة حرص وخوف وتذلل لخالق الكون.

ثالثًا: ابتلاء واختبار، فالغاية من خلق إبليس أن يمتحن الله به العباد، فيكون ابتلاءً، واختبارًا، وامتحانًا، فمن تبعه فيكون معه، ومن اتخذه عدوًا كما أمر الله دخل الجنة، فهذه من أهم الحكم؛ ليميز الخبيث من الطيب، ويجازي كلًا بعمله، بعد أن بين لهم الطريق الصواب.

رابعًا: أراد الله عز وجل من خلقه لإبليس أن يجعله عبرة لمن خالف أمره، وتكبر عن طاعته، وأصَر على معصيته، فكما جعل آدم أبا البشر عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصى أمره، ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، جعل هذا الأب -إبليس أبي الجن- عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه.

خامسًا: من الواضح أن خلْق الضدين من كمال حسن ضده، فالضد إنما يظهر حسنه بضده، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل.

سادسًا: أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها أحب أنواع العبودية إلى الله سبحانه، وهذه العبودية إنما تحقق بالجهاد وبذل النفس لله تعالى، وتقديم محبته على كل ما سواه، فالجهاد ذروة سنام العبودية وأحبها إلى الرب سبحانه، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٣/ ١١٩٣، رقم ٣٠٩٩.

(٢) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتنزيل ١/ ٢٣٧.

بمجاهدة النفس، وطاعة الله عز وجل.

سابعًا: إن في خلق من يعادي رسل الله، ويكذبهم، من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه.

ثامنًا: إن المادة التي خلق منها إبليس عليه لعنة الله عز وجل هي المادة النارية، وهذه المادة فيها الإحراق والعلو والفساد، كما وفيها الإشراق والإضاءة والنور، فأخرج منها سبحانه هذا، وهذا، كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والأحمر والأسود والأبيض، فأخرج ذلك منها كله حكمة باهرة، وقدرة قاهرة، وآية دالة على أنه ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

تاسعًا: إن خلق إبليس فيه من الدلالة الواضحة على حلمه، وصبره، وأناته، وسعة رحمته، وجوده، فاقتضى ذلك كله خلق من يشرك به، ويضاده في حكمه، ويجتهد في مخالفته، وهو بالمقابل يسوق إليه أنواع الطيبات، ويرزقه، ويعافيه، ويمكِن له من أسباب ما يتلذذ به من أصناف النعم، ويظهر بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءته، فلله الحمد على حلمه وصبره.

ثالثًا: تمرد الشيطان وخروجه عن الطاعة:

خلق الله إبليس وهو أكبر الشياطين، وكان يعبد الله مع جملة الملائكة، وكان بعلم الله يخفي نزعة التمرد، والقرآن يقص لنا كيف كانت بداية معصية الشيطان، فقد بيَن الله عز وجل الغاية من الخلق، فقال في كتابه العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فإن من مظاهر عبادة الله طاعة أوامره، ومخالفة أوامر الله تعالى هي المعصية والفسوق، وهي الطريق إلى الكفر والعياذ بالله، ومن هنا فإن العبادة هي طاعة المخلوق لأوامر خالقه، وإبليس عصى أوامر الله، أما كيف بدأ إبليس معصيته لله.

فقد بيَن ذلك في القرآن الكريم، فيقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

فكان بداية كفر إبليس، إذ رفض طاعة الله عز وجل، ورفض السجود لآدم، فكانت بداية التمرد والمعصية، وكان سبب رفضه السجود لآدم عليه السلام هو الاستكبار، وقد صرح اللعين بهذا المعنى، فقال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال أيضًا: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

[الإسراء: ٦١].

لذلك عاقب الله عز وجل إبليس على تمرده وعصيانه بالهبوط من ملكوت السموات إلى دركات الأرض.

يقول تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

أي: اهبط من الجنة، فليس لك أن تستكبر فيها عن طاعتي وأمري، قال الزجاج: إن إبليس طلب التكبر، فابتلاه الله تعالى بالذلة والصغار[(١)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢١٠.

الشيطان والأنبياء

ذكر القرآن الكريم موقف الشيطان من الأنبياء عليهم السلام، موقفه من آدم عليه السلام، وموقفه من يوسف عليه السلام، وموقفه من أيوب عليه السلام، وموقفه من موسى عليه السلام، وموقفه من الرسول الكريم عليه السلام.

أولًا: موقف الشيطان من آدم وحواء:

خلق الله عز وجل آدم، وكرّمه، ورفع من شأنه، وأمر الملائكة بعد خلقه بالسجود له، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

تعظيمًا وتشريفًا له، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى استكبارًا منه على آدم عليه السلام، فسأله الله عز وجل عن سبب امتناعه عن السجود.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فقال الله عز وجل له: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

أي: من الجنة[(٢)]، فطُرِد لعنه الله من الجنة، وكان هذا سببًا لكراهية إبليس لآدم

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٢٨.

وذريته، وعداوته لهم، فتوعد إبليس آدم وذريته من بعده بالعداوة والإغواء، كي تكون نهايتهم كنهايته جهنم، وبئس المصير، فقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وأمر الله عز وجل آدم وزوجه حواء أن يسكنا الجنة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وبين سبحانه الميزات التي سيحصل عليها آدم عليه السلام، فقال جل جلاله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨].

ففي الجنة طعام يكفيك، وكساء يسترك، وماء تجده دائمًا، لا يصيبك ظمأ، وليس فيها تعب، وكل ما فيها مباح لك عدا شجرة واحدة، لا تقترب منها، ولا تأكل ثمارها، كما وحذّره سبحانه وتعالى وحذر حواء من عدوهما إبليس، فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

وقتها استغل الشيطان هذا الأمر في الانتقام من آدم عليه السلام، وكانت بداية معصية آدم، فالشيطان حين أراد أن يغوي آدم وحواء بأن يأكلا من الشجرة، وأن يعصيا الله عز وجل، قال لآدم كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

فرغّبه إبليس في دوام الراحة بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ وفي انتظام المعيشة بقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه، إلا أن الله تعالى وقّف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

قرأها الجماعة ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: استزلهما، وأغواهما، وهو من قولك: زلّ في دينه إذا أخطأ، وعلى قراءة حمزة «فأزالهما»[2]: نحاهما، أي: بمعنى الزوال عن المكان، والخروج منه[3].

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وقول الحق سبحانه وتعالى «وسوس»

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢١٤.
(٢) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢١١.
(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ١٣٠.

يدل على أن الحديث دار همسًا بصوت خافت، والوسوسة إغراء بارتكاب الشر، والذي يتحدث ويأمر بالخير لا يهمه أن يكون حديثه بصوت عال، ولكن الحديث في الشر والغواية لا تتم إلا همسًا بصوت خافت[1].

واختلف في كيفية وسوسة الشيطان لآدم، فإبليس طرد من الجنة، وآدم داخل الجنة، فكيف وسوس إليه وهو خارج الجنة؟ وأجيب عن ذلك بعدة أمور منها:

١. كان إبليس يوسوس لآدم عليه السلام من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله تعالى له.

٢. أن آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة، وكان إبليس واقفًا من خارج الجنة على بابها، فيقرب أحدهما من الآخر، وتحصل الوسوسة هناك[2].

وهناك العديد من الروايات التي قد يتبادر إلى الذهن منها أن حواء هي من أغوت آدم، لكن الله عز وجل برّأ حواء من هذه التهمة، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.

فالشيطان هو الذي زين المعصية لآدم كما زينها لحواء، أي: أن الشيطان هو الذي قام بإغواء آدم وحواء، ولم تقم حواء بإغواء آدم على المعصية، فالغواية جاءت من الشيطان للاثنين معًا[3].

ولكن كيف استطاع الشيطان أن يخرج آدم وحواء من الجنة مع علم آدم بعداوة إبليس له قبل إغوائه، لعل السبب يرجع إلى أن إبليس لقيَ آدم مرارًا وتكرارًا، ورغّبه في الأكل من الشجرة بطرق كثيرة، وبالتكرار والمواظبة على الطلب أثّر كلامه على آدم عليه السلام[4].

وحلف لهما كما يروي القرآن الكريم: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

أي: أقسم لهما أنه يريد لهما النصح، وصدقا القسم، وصدقا الشيطان في أنه يريد لهما الخير، ولذلك عاتب الله سبحانه وتعالى آدم وحواء بأنهما صدقا قسم إبليس، مع أنه جل جلاله قد بين لهما أن إبليس عدو لهما لا يريد لهما الخير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وبذلك استطاع إبليس أن يقنع آدم أن الله قد منعه من الأكل من الشجرة؛ لأنه لا يريد له الخير، وذلك حتى نفطن إلى طريق

(١) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ٥/ ٢٧٥، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٩٤.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢١٧، لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٨.
(٣) انظر: عداوة الشيطان للإنسان، الشعراوي ١/ ٢٧.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢١٨.

إبليس في الغواية، فلا خير في خير يؤدي إلى النار والمعصية، ولا شر في شر يؤدي إلى رضوان الله والجنة.

ثانيًا: موقف الشيطان من يوسف عليه السلام:

الشيطان هو مدبر الفتن والمفاسد، كان له حضور واضح في مسيرة الأنبياء، ومن هؤلاء الأنبياء الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف عليه السلام، وقد ذُكر الشيطان في قصة يوسف عليه السلام ثلاث مرات:

أولًا: كان دور الشيطان في بداية قصة يوسف عليه السلام بارزًا، يرويه لنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥].

فقد فهم يعقوب عليه السلام من رؤيا[١] ابنه الصغير يوسف عليه السلام أنه سيكون له شأن عظيم في كِبره، وأن الله عز وجل سيصطفيه للرسالة، ويميزه على إخوته، فخاف عليه من حسد إخوته -والحسد هو مرض نفسي خطير- والذي يدفعهم عليه الشيطان، الذي يحرك النفوس الضعيفة، ويوغر الصدور، ويشعل نار العداوة والبغضاء بين الإخوة والأحبة، فعداوة الشيطان ظاهرة واضحة لما فعل بآدم عليه السلام وحواء، فلا يألوا جهدًا في إثارة الفتن بينهم حتى يحملهم على الكيد[٢]، لذلك أمر يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عليه السلام أن يكتم رؤياه عن أخوته؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي من الله عز وجل، فلا يحدثهم بها، وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥].

فكأن يوسف عليه السلام استغرب أن يصدر ذلك عن إخوته الناشئين في بيت النبوة، فبين له أنه ما حذره إلا من نزغ الشيطان في نفوس أخوته[٣]، الذي قال عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يلقي في أنفسكما شيئًا)[٤].

وقد حدث ما خشيه يعقوب عليه السلام، فتآمر الإخوة على يوسف، وكادوا يتفقون

(١) وقد جاء في القرآن الكريم أن يوسف رأى في منامه أحد عشر كوكبًا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر، فسجدوا له، وقال أهل التفسير أن النجوم في التأويل إخوته، وكانوا أحد عشر رجلًا، والشمس أبوه، والقمر أمه، وقيل: خالته؛ لأن أمه كانت قد توفيت. انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥١١.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٥٥، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٩٥.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٥٣، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥١٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢١٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه ٣/ ٥٠، رقم ٢٠٣٨.

على قتله؛ لتزول العقبة بينهم وبين أبيهم، ثم قرروا العدول عن قتله والاكتفاء بإبعاده.

قال المولى عز وجل: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

وهكذا كانت الغلبة لداعي الشر، وهي الخطوة الأولى في المخطط الشيطاني في إبعاد النبي يوسف عليه السلام، والانحراف به، والهجوم عليه بوساوس الشيطان لعنه الله.

ثم يوضع الفتى المبتلى يوسف عليه السلام في البئر بعد أن أجمعوا على التخلص منه، ثم يساق إلى سوق العبيد، ليستقر كعبد في قصر رئيس وزراء مصر، ويمر في محن عظام، من أبرزها إغراء امرأة العزيز، وكيد النسوة، ليوضع بعدها في السجن ظلمًا وبهتانًا على الرغم من ثبوت عفته وبراءته.

ثانيًا: يوضع سيدنا يوسف عليه السلام في السجن، وقد أوتيَ من العلم بتفسير الرؤيا ما لم يُؤت أحد في زمانه، ودخل السجن مع يوسف فتَيان.

قال أحدهما ليوسف عليه السلام: إني رأيت في المنام أني أعصر عنبًا ليصير خمرًا.

وقال الآخر: إني رأيت أني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه.

أخبرنا يا يوسف بتفسير ما رأينا، إنا نراك من الذين يحسنون في عبادتهم لله، ومعاملتهم لخلقه.

فكان تفسير يوسف عليه السلام للأول: بأنه يخرج من السجن، ويكون ساقي الخمر للملك، وأما الآخر الذي رأى أنه يحمل على رأسه خبزًا فإنه يُصْلب ويُترك، وتأكل الطير من رأسه[(١)].

ويأتي الأمل لسيدنا يوسف عليه السلام، بعدما فسر لأحد السجينين أنه سيكون مقربًا من الملك، فأوصاه بتذكيره بحاله وما حدث له، وعلمه بالرؤيا، لعله يفرج عنه، هنا يتدخل الشيطان مرة أخرى محاولًا الكيد بسيدنا يوسف، والبقاء به في السجن.

قال تعالى في ذلك: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

أي: أن الشيطان أنسى الساقي تذكير سيده بأمر يوسف عليه السلام، فبقي في السجن مظلومًا منسيًا[(٢)].

وقيل: إن المعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه وهو الله عز وجل، فعاقبه الله تعالى بإبقائه في السجن بضع سنين، فهو استحق هذا العقاب؛ لأنه توسل إلى

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٤، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٥، صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٤٧.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٢٥٨.

الملك لإخراجه، ولم يتوكل على الله عز وجل[1].

لكن الراجح القول الأول، فالناسي هو الناجي من السجن -الساقي- على رأي جمهور المفسرين[2].

وتدخل الشيطان في عملية النسيان مذكور في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقال أيضًا في قصة موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

وللإمام الرازي رأيٌ في تسبب الشيطان في النسيان حيث قال: «الشيطان يمكنه إلقاء الوسوسة، وأما النسيان فلا، لأنه عبارة عن إزالة العلم عن القلب، والشيطان لا قدرة له عليه، وإلا لكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بني آدم»[3].

ثالثًا: كانت قصة يوسف عليه السلام مليئة بالمحن والابتلاءات، وكان كيد الشيطان واضحًا في قصته، وعندما يجتمع يوسف عليه السلام بأهله في نهاية القصة يُرْجِع سبب محنته الأولى إلى الشيطان.

قال تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

هذا هو الشيطان بحضوره الماكر والذي يبوء بالخسران أمام فتى رباني تقي صابر ممسك بأطراف الإحسان جميعًا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

ثالثًا: موقف الشيطان من أيوب عليه السلام:

لقد كانت حياة الأنبياء دروسًا وعبرًا لأولي الأبصار، ابتلاهم الله عز وجل بأنواع الشدائد والبلايا، فصبروا على ذلك، فهذا نبي الله أيوب عليه السلام من ذرية يعقوب عليه السلام، اصطفاه الله عز وجل بالنبوة، وآتاه جملة عظيمة من الثروة في الأموال والأولاد، كان شاكرًا لأنعم الله، مواسيًا عباد الله، بَرًّا رحيمًا، لم يؤمن به سوى ثلاثة نفر[4].

وقد ابتلي نبي الله أيوب عليه السلام في جسده، وماله، وأهله، وسلم دينه ومعتقده،

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩١، الدر المصون، السمين الحلبي ٦/ ٥٠٠.
(٣) مفاتيح الغيب ١٨/ ٤٦٢.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٠٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٠٨.

فقد حصل لأيوب عليه السلام نوعان من المكروه.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

فالله عز وجل يخاطب في هذه الآية نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم قائلًا له: اذكر يا محمد صبر أيوب عليه السلام، فقد ابتلاه الله عز وجل بأنواع البلايا فصبر، فاصبر كما صبر، فقد أصيب أيوب بالنصب والعذاب، فالنصب: هو المشقة والعناء والأمراض، والعذاب: زوال الخيرات وحصول المكروهات بذهاب وهلاك ماله وولده[1].

وقد ظهر ذلك واضحًا من قول نبي الله أيوب عليه السلام، ونسب ما أصابه من بلاء إلى الشيطان، فالشيطان كان له دور في ذلك، ولأهل التفسير في هذا الموضع قولان:

القول الأول: إن الآلام والأسقام الحاصلة لأيوب عليه السلام إنما حصلت بفعل الشيطان، حيث قيل: إن إبليس لعنه الله سمع تجاوب ملائكة السموات بالصلاة على أيوب حين ذكر ربه وأثنى عليه، فأدرك إبليس الحسدُ والبغيُ، فسأل الله عز وجل أن يسلطه عليه ليفتنه عن دينه، فسلط على ماله دون جسده وعقله، فأذهب الله ماله كله، فشكر أيوب ربه عز وجل، ولم يغيره ذلك عن عبادة ربه سبحانه، وقال لله ما أعطى ولله ما أخذ، فسأل إبليس الله عز وجل أن يُسلطه على ولده، فأهلك ولده، فشكر أيوب ربه، ولم يغيره ذلك عن عبادة ربه تعالى.

فسأل إبليس الله أن يسلطه على جسده، فسلط عليه دون لسانه وقلبه وعقله، فجاءه وهو ساجد فنفخ في مِنْخره نفخة اشتعل منها جسده، فصار أمره إلى أن تناثر لحمه، فثبت أيوب عليه السلام سبع سنين، ولم يصبر عليه أحد إلا امرأته.

فجاء الشيطان إلى امرأته، وقال: لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هذا البلاء، فذكرت المرأة ذلك لزوجها، فحلف بالله: لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة، وقتها قال أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

فأجاب الله دعاءه، وأوحى إليه أن اركض برجلك، فأظهر الله من تحت رجله عينًا باردة طيبة، فاغتسل منها.

قال تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٢- ٤٣].

فأذهب الله عنه كل داء في ظاهره وباطنه، ورد عليه أهله وماله، ورفع الله عنه ما كان به

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ١٦٩، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٧٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٠٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٩٦.

من بلاء[1].

القول الثاني: إن الآلام والأسقام التي حصلت لأيوب عليه السلام إنما حصلت بفعل الله، والعذاب المضاف إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة، وإلقاء الخواطر الفاسدة، فالله عز وجل لا يسلط الشيطان على أنبيائه؛ ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره، فالشيطان لا يمكن أن يكون هو من قام بذلك، فلو جاز ذلك لظن بعض الناس أن حصول الموت، والحياة، والصحة، والمرض من الشيطان.

فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات، فقد حصل بفعل الشيطان، كما أن الشيطان لو قدر على ذلك فلمَ لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء؟ ولمَ لا يخرب دورهم؟ ولم لا يقتل أولادهم؟

وقد جاء في الكتاب العزيز أنه لا سلطان له على عباده إلا بالوسوسة فحسب[2].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[إبراهيم: ٢٢].

وإنما نسب نبي الله أيوب عليه السلام ما أصابه إلى الشيطان؛ لأنه أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من بلاء، ويغريه على الكراهية والجزع، فالتجأ إلى الله في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بتثبيته على الصبر على ما أصاب[3].

كما أن علة نبي الله أيوب عليه السلام كانت شديدة الألم، ثم طالت مدة تلك العلة، واستقذره الناس، ونفروا عن مجاورته، ولم يبق له شيء من الأموال البتة، وامرأته كانت تخدم الناس، وتحصِل له القوت، ثم بلغت نفرة الناس عنه إلى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم، ومن الاشتغال بخدمتهم[4].

والشيطان كان قد تعرض لأهله، ووسوس لهم، وطلب منه أن يشرك بالله، ويذكره النعم التي كانت والآفات التي حصلت، وكان يحاول دفع تلك الوساوس، فلما قويت تلك الوساوس في قلبه خاف وتضرع إلى الله، وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد، فكان يشتكي إلى الله فعل الشيطان، الذي كان

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٢٥٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٩٦.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٩٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٩٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٠٩.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٩٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٩٧.

أشد عليه من مرضه[1].

والرأي الثاني هو الراجح، على الرغم من ذكر الكثير من أهل التفسير للرأي الأول، وقد رد ابن العربي على من قال به، فما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة فقول باطل؛ لأنه أُهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السموات العلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فيقف موقف الخليل؟!

أما أنه طلب من الله أن يسلطه على أيوب عليه السلام فلا يصح؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون، فكيف يكلم من تولى إضلالهم؟! وأما قولهم: إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده، فذلك ممكن في القدرة، ولكنه بعيد في هذه القصة، وكذلك قولهم: إنه نفخ في جسده حين سلطه عليه، فهو أبعد، والباري سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقر له -لعنة الله عليه- عين بالتمكن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم[2].

رابعًا: موقف الشيطان من موسى عليه السلام:

لقد كان للشيطان دور مع سيدنا موسى عليه السلام توضحه لنا الآيات الكريمة.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

فيروى أن موسى عليه السلام بعدما بلغ أشده، -أي: من ثلاثين إلى أربعين سنة[3]- دخل المدينة التي كان يسكنها فرعون، وهي قرية على رأس فرسخين من مصر، وقال الضحاك: هي عين شمس[4]، في وقت غفلة أهلها، منتصف النهار وقت القيلولة، وقيل: ما بين المغرب والعشاء[5].

«وسبب دخول المدينة في ذلك الوقت أن موسى كان يسمى ابن فرعون، وكان يركب في مراكب فرعون، ويلبس لباسه، فركب فرعون يومًا وكان موسى غائبًا، فلما جاء قيل له: إن فرعون قد ركب، فركب موسى في أثره، فأدركه المقيل بأرض مَنْف، فدخلها وليس في أطرافها أحد، وقيل: كان لموسى شيعة من بني إسرائيل يسمعون منه،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٠٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٠٩.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٣.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٨٤.
(٥) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٦٠١.

ويقتدون به، فلما عرف ما هو عليه من الحق، رأى فُراق فرعون وقومه، فخالفهم في دينه، حتى أنكروا ذلك منه، وخافوه، وخافهم، فكان لا يدخل قرية إلا خائفًا مستخفيًا على حين غفلة من أهلها»[(١)].

فوجد فيها رجلين رجل من شيعته أي: من بني إسرائيل على دينه، ورجل آخر عدوه على غير دينه، يقال: إنه من القبط[(٢)]، وكانوا في حالة صراع، فطلب الرجل الذي من شيعة موسى النصرة منه ضد عدوه القبطي، فضربه موسى عليه السلام بكفه ضربة في صدره، فقتله، ولم يتعمد القتل، ثم ندم على قتله، وأرجع ذلك إلى وسوسة الشيطان.

قال القشيري: «فقد تمنى موسى أن لو دفعه عنه بأيسر مما دفعه، ولم ينسب القتل إلى الشيطان، ولكن دفعه عنه بالغلظة نسبه إلى الشيطان بأن حمله على تلك الحدة»[(٣)].

وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلمًا لنفسه واستغفر منه؛ لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل، فكان ذنبًا يستغفر منه، وعن ابن جريج أنه قال: ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر[(٤)]، ثم تاب موسى عليه السلام عما جرى على يده، واستغفر ربه، وأخبره الله عز وجل أنه غفر له.

ويعد بيان دور الشيطان في قتل الغلام على يد موسى عليه السلام يتأكد لنا عداوة الشيطان للإنسان بشكل عام، وخاصة الأنبياء؛ لأنهم أصحاب رسالة، فهم ألد أعداء الشياطين، فكلما اقترب العبد من ربه، ابتعد عن الشيطان، وبالتالي زادت العداوة بينهما، والأنبياء هم أقرب الناس مكانة من الله حيث العصمة، والمعجزة، والتأييد، والنصرة.

وقد بين الله تعالى أنه ما من نبي على مر الزمان بعثه الله إلا وكان له من الشياطين زمرة تناصبه العداء، وتمشي في طريق حربه والكيد له، شياطين من الجن، وشياطين من الإنس، يعملون سويًا على محاربة الحق.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام:١١٢].

خامسًا: موقف الشيطان من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

تبين لنا مما سبق موقف الشيطان من هؤلاء الأنبياء، فالشيطان أشد عداوة للأنبياء والرسل؛ لأنهم هم خاصة الله من خلقه، فهم حملة رسالة من الله عز وجل؛ ولقد

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٥٩.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٦٠١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٩٨.
(٣) لطائف الإشارات ٣/ ٥٧.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٩٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٣.

كان للشيطان موقفه العدائي من الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠].

فقد نزلت هذه الآية في شأن اجتماع قريش في دار الندوة، جاء في كتب التفسير أن نفرًا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، واعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعت بما اجتمعتم له، فأردت أن أحضر وأنصحكم، فسمحوا له بالدخول، فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، فوالله ليوشكن أن يواتيكم في أمركم بأمره، فقال أحدهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك، كما هلك من كان قبله من الشعراء، فقال عدو الله الشيخ النجدي: لا، والله ما هذا لكم برأي، فانظروا في غير هذا الرأي، فقال قائل: فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وأين وقع.

فقال الشيخ النجدي: لا، والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه القلوب بما تستمع من حديثه.

قالوا: صدق والله، فانظروا رأيًا غير هذا، فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره، قالوا: وما هذا؟

قال: تأخذوا من كل قبيلة غلامًا وسطًا شابًا مهدًا، ثم يعطى كل غلام منهم سيفًا صارمًا، ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها.

فقال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي القول، لا أرى غيره، فتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له، فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك في الخروج، وأمرهم بالهجرة[1].

فهذه الراوية تبين عِظم عداوة الشيطان -لعنه الله- للرسول صلى الله عليه وسلم.

ولقد قرر الله عز وجل في كتابه العزيز أن الشيطان له دور إغواء الرسل.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج:٥٢].

أي: إلا إذا تمنى زور في نفسه ما يهواه،

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٥٢، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٤٧، التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٧٩١.

ألقى الشيطان في أمنيته ما يوجب اشتغاله بالدنيا، فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يوسوس، ثم يثبت الله آياته الداعية إلى الاستغراق في أمر الآخرة، والله عليم بأحوال الناس، حكيم فيما يفعله بهم[1]، أما ما جاء في سبب نزول الآية من حديث الغرانيق فهو مردود عند المفسرين.

ولم يمل الشيطان من محاولة الوسوسة للرسول، وإشغاله عن طاعة ربه، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ جَعَلَ يَفْتِكُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ، لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، وَإِنَّ اللهَ أَمْكَنَنِي مِنْهُ فَذَعَتُّهُ، فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى تُصْبِحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ -أَوْ كُلُّكُمْ- ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]. فَرَدَّهُ اللهُ خَاسِئًا)[2].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٧٥.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، والتعوذ منه وجواز العمل القليل في الصلاة ١/ ٣٨٤، رقم ٥١٤.

عداوة الشيطان للإنسان

حدثنا القرآن الكريم عن عداوة الشيطان وعن وسائله في ذلك، وهذا ما سنبينه فيما يأتي:

أولًا: عداوة الشيطان للإنسان:

إن عداوة الشيطان للإنسان قديمة قدم الإنسان، منذ خَلْق آدم عليه السلام وحتى يومنا هذا، وإلى قيام الساعة، مصداقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

فالشيطان هو أكبر وأخطر عدو لبني آدم في هذه الحياة؛ لأنه منبع الشرور، والآثام، وهو القائد إلى الهلاك والخسران الدنيوي والأخروي، يدعو الناس إلى الكفر والشرك، وترك التوحيد، ويزين لهم البدع، ويسول لهم بالعصيان وترك أوامر الرحمن.

ولقد أكد الله عز وجل لنا عداوة الشيطان، وأمرنا أن نتخذه عدوًا، وبين لنا هدفه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

فالشيطان عدو لكم ظاهر العداوة، فعل بأبيكم ما فعل، وأنتم تعاملونه معاملة الحبيب، فاتخذوه عدوًا أي: فعادوه، في

عقائدكم، وعباداتكم، وفي كل أحوالكم[1].

وقوله تبارك و تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: اتخذوا يا بني آدم الشيطان عدوًا لكم؛ لأنه لا يدعو أتباعه إلى خير أبدًا، وإنما يدعوهم إلى الأعمال الفاسدة التي تجعلهم يوم القيامة من أهل النار[2].

فالله عز وجل أخبرنا أن الشيطان لنا عدو مبين، وقص علينا ما فعل بأبينا آدم عليه السلام.

إن الشيطان أظهر لنا عداوته بكل جرأة ووقاحة، واستكبار أمام الله عز وجل، فأبى السجود لآدم عليه السلام، وعصى أمر ربه، وأغوى آدم وحواء حتى أكلا من الشجرة التي نهاهما الله من الاقتراب منها، فأخرجهما من النعيم الذي كانا فيه، وتعهد بإغواء آدم وذريته، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨].

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

فإبليس طلب من الله عز وجل أن يُنْظِره إلى يوم القيامة حتى يضل بني آدم، ويجعل مصيرهم إلى جهنم وبئس المصير، كما جاء في قوله تعالى على لسان إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٩].

يقول سيد قطب في ظلال القرآن مبينًا سبب تحذير الله عز وجل من الشيطان عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]: «وهنا يبيح الله للناس جميعًا أن يأكلوا مما رزقهم في الأرض حلالًا طيبًا -إلا ما شرع لهم حرمته وهو مبيَن فيما بعد- وأن يتلقوا منه هو الأمر في الحِل والحُرمة، وألا يتبعوا الشيطان في شيء من هذا، لأنه عدوهم، ومِن ثم فهو لا يأمرهم بخير، وإنما يأمرهم بالسوء من التصور والفعل، ويأمرهم بأن يحللوا ويحرموا من عند أنفسهم، دون أمر من الله، مع الزعم بأن هذا الذي يقولون هو شريعة الله، والمطلوب هو أن يتلقى الناس ما يحل لهم وما يحرم من الجهة التي ترزقهم هذا الرزق، لا من إيحاء الشيطان الذي لا يوحي بخير؛ لأنه عدوٌ للناس بين

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣٢٣، البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٥١٨.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ٣٢٤.

العداوة، لا يأمرهم إلا بالسوء والفحشاء، والتجديف على الله والافتراء عليه دون تثبت ولا يقين»[1].

ويعاتب الله عز وجل كل من يتبع وساوسه، ويكون من أتباعه وأوليائه، فيقول جل جلاله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

«وقال بعض العلماء: وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول: إنما عاديت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم، فكيف يحسن بكم أن توالوه؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه»[2].

وقال عز وجل موبخًا من اتخذه وليًا من دونه تبارك وتعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: الواضعين للشيء في غير موضعه، وذلك بتركهم طاعة الله عز وجل، وأخذهم مقابل ذلك طاعة إبليس وذريته[3].

فالشيطان مجبول على عداوة بني آدم، قال ابن عاشور: «وتلك عداوة مودعة في جبلته، كعداوة الكلب للهِر؛ لأن جبلة الشيطان موكولة بإيقاع الناس في الفساد وأسوأ العواقب في قوالب محسّنة مزينة، وشواهد ذلك تظهر للإنسان في نفسه وفي الحوادث حيثما عثر عليها، وقد قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]»[4].

لذلك كله ينادي الله عز وجل عباده، وينهاهم عن الافتتان بفتنة الشيطان، فيقول تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وينهاهم عن الاستجابة لصد الشيطان، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢].

والصد هو العدول عن طاعة الله عز وجل فيما أمرنا به، أو نهانا عنه، إن الشيطان لكم عدو يدعوكم إلى ما فيه هلاككم، ويصدكم عن قصد السبيل، ليوردكم المهالك، مُبين قد أبان لكم عداوته، بامتناعه من السجود لأبيكم آدم، وإدلائه بالغرور حتى أخرجه من الجنة[5].

وسيلوم الله عز وجل المجرمين يوم القيامة على طاعتهم للشيطان، كما جاء في قوله عز وجل ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٥٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٣٤.
(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٢٧٩.
(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٦٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦٣٣.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

فهذا العهد جاء على ألسنة الرسل، أو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فقد أوصاهم الله عز وجل بعدم طاعة الشيطان فيما يُوسوس به إليهم، ويُزيِّنه لهم، فكان العهد بعدم طاعة الشيطان، وطاعة الله عز وجل، وفيه إشارة إلى جنايتهم على أنفسهم بعد النصح التام، فلا حجة بعد الإعذار، ولا ظلم بعد التذكير والإنذار[(١)].

قال الألوسي في تفسير الآية الكريمة: «والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم، عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها، ولوقوعها في مقابلة عبادته عز وجل، وجوز أن يراد بها عبادة غير الله تعالى من الآلهة الباطلة، وإضافتها إلى الشيطان؛ لأنه الآمر بها والمزين لها»[(٢)].

ثانيًا: وسائل الشيطان في عداوته للإنسان:

لقد بلغ الشيطان -عليه لعنة الله- مراده من أكثر الخلق، فاتَّبعه الأكثرون، وتركوا ما جاء به الرسل من دين الله الذي رضيه لهم، وتلطف الشيطان في السيطرة على الخلق، واتبع الأساليب المتنوعة في الحيل، والمكر، والخديعة، لبلوغ مراده، وأدخل الناس في الشرك بعدما زيَّن لهم أن مَنْ أقر لله وحده بالملك، والتدبير، والخلق فهو المسلم، ولو دعا غير الله ولاذَ بِحِماه.

قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

فقد تعددت وسائل الشيطان وأساليبه في تحقيق أهدافه بدافع العداوة والكراهية للإنسان، وتمثلت أهم وسائل الشيطان في عداوته لبني آدم بما يأتي:

١. التضليل.

إن من أهم الوسائل التي ينتهجها الشيطان لعنه الله لإغواء بني آدم هو التضليل، قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٧-١١٩].

والإضلال الصرف عن طريق الهداية إلى

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٥٧٩.
(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤٠.

طريق الغواية، والمراد به التزيين والوسوسة، بإلقاء الوسوسة في قلوب العباد، وتزيين الشهوات عندهم[1].

والإضلال الذي يتهجه الشيطان على مراتب، أعلاها: الوصول بالإنسان إلى الكفر بالخالق عز وجل، وهو أخطر أنواع الإضلال، المؤدي إلى الخلود في جهنم والعياذ بالله.

قال جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فإذا يئس الشيطان من عدم وقوع الإنسان في المرتبة الأولى لجأ إلى إيقاعه في الكبائر والفواحش، فإذا لم يجد سبيلًا إلى ذلك، فنراه يزين ويسهل للإنسان طريق الصغائر، واللمم، ويُلبسها لباسًا يبديها له في منظر المباحات، فإذا لم يستطع فيوقع الإنسان في البدع والضلالات، والتي تعتبر سببًا في حبوط الأعمال، وعدم قبولها، قال صلى الله عليه وسلم: (من أحدث في أمرنا ما ليس فيه فهو رد)[2].

ومن ثم يسلك الشيطان طريقًا أخرى، فإذا فشل في ذلك، فيدخل للمسلم من باب العبادة، فيشغله بالعبادة المفضولة عن الفاضلة، فهذا كله من مداخل الشيطان التي يجب على المسلم أن يحذر منها.

٢. التغرير بالأماني.

إن من مكائد الشيطان التي يستخدمها لإغواء المؤمن التغرير بطول الأمل، والحياة الدنيا، وتحسين الحرص عليها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢٠].

قوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، وهو إلقاء الأماني الباطلة في القلب، بطول البقاء في الدنيا ونعيمها ليؤثروها على الآخرة، أو بإدراك الجنة بالمعاصي، أو بتسويف التوبة وتأخيرها[3].

«وطلب الأماني يورث أمرين: الحرص والأمل، والحرص والأمل يستلزمان أكثر الأخلاق الذميمة، وهما كالأمرين اللازمين لجوهر الإنسان، قال صلى الله عليه وسلم: (يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ، وَيَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ

(١) انظر: التفسير المظهري، ٢/ ٢٣٨، فتح البيان القنوجي ٣/ ٢٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ٣/ ١٨٤، رقم ٢٦٩٧.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٩٨، لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٢٨.

عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ)[1].

والحرص يستلزم ركوب أهوال الدنيا وأهوال الدين، فإنه إذا اشتد حرصه على الشيء فقد لا يقدر على تحصيله إلا بمعصية الله وإيذاء الخلق، وإذا طال أمله نسي الآخرة، وصار غريقًا في الدنيا، فلا يكاد يقدم على التوبة، ولا يكاد يؤثر فيه الوعظ، فيصير قلبه كالحجارة أو أشد قسوة»[2].

وحذر سبحانه بعد ما بيّن سبل الشيطان من اتخاذه وليًا من دون الله، وذلك باتباع أوامره، وترك أوامر الرحمن، فمن فعل ذلك فقد خسر خسرانًا مبينًا؛ لأن طاعة الله تفيد المنافع الدائمة الخالصة عن شوائب الضرر، وطاعة الشيطان تفيد المنافع المنقطعة المشوبة بالغموم والأحزان والآلام الغالبة، والجمع بينهما محال عقلًا، فمن رغب في ولايته فقد فاته أشرف المطالب وأجلها بسبب أخس المطالب وأدونها، فهذا هو الخسار المطلق[3].

وختم بقوله ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾، فالشيطان يعدهم أباطيله بطول العمر، وبأنه لا قيامة ولا بعث ولا جزاء، فاجتهدوا في استيفاء اللذات الدنيوية، ويوهمهم الفقر حتى لا ينفقوا في الخير[4].

ثم ينطق مُصَدِر التغرير بالأماني وهو الشيطان بعد أن يحكم الله بين العباد، وقد أنطقه الله بذلك لإعلان الحق، وبأن لهم كسبًا في اختيار الانصياع إلى دعوة الضلال، دون دعوة الحق، كما يروي لنا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٣. التزيين.

والتزيين الذي يعمد إليه الشيطان لإغواء البشر نوعان:

النوع الأول: تزيين القبيح.

فمن مكائد الشيطان لإغواء الإنسان أنه يورده الموارد التي يخيِل إليه أن فيها منفعته، ثم يُصْدِرهُ المصادر التي فيها عَطَبه، ويتخلى عنه، ويُسْلمه، ويقف يشمت به، ويضحك منه، فيأمره بالسرقة، والزنا، والقتل، وأنواع الفواحش، ويزينها، ويحسِن له معودتها،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الأمل والأجل، ٢/ ٧٢٤، رقم ١٠٤٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٢٣.
(٣) انظر: المصدر السابق ١١/ ٢٢٤.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٩٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٢٤، لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٢٩.

ويخفي له عواقبها، ثم في النهاية يفر منه، ويبتعد عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨][(١)].

قال ابن القيم: «ومن مكايده: أنه يأمرك أن تلقى المساكين وذوى الحاجات بوجه عبوس، ولا تريهم بِشرًا ولا طلاقة، فيطمعوا فيك، ويتجرؤوا عليك، وتسقط هيبتك من قلوبهم، فيحرمك صالح أدعيتهم، وميل قلوبهم إليك، ومحبتهم لك فيأمرك بسوء الخلق، ومنع البِشر والطلاقة مع هؤلاء، وبحسن الخلق والبشر مع أولئك، ليفتح لك باب الشر، ويغلق عنك باب الخير»[(٢)].

وقد توعد إبليس -لعنه الله- بإغواء بني آدم من خلال التزيين، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

ومن التزيين الذي وعد به إبليس النظر المسموم، وهو من أخطر الأسلحة التي يستخدمها إبليس، المؤدية إلى وأعظم فتنة النساء، قال صلى الله عليه وسلم: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)[(٣)].

وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فأتى امرأته زينب وهي تَمْعَسُ مَنِيئَةً لها، فقضى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه فقال: (إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ)[(٤)].

فكل ما يقع من بني آدم من الكفر والقتل والعداوة والبغضاء، وانتشار الفواحش والزنا، وتبرج النساء، وشرب الخمور، وعبادة الأصنام، واقتراف الكبائر، فذلك كله يزينه الشيطان للإنسان؛ ليصد عن سبيل الله، ويفسد الناس، ويجرهم معه إلى نار جهنم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ١٠٨.
(٢) المصدر السابق ١/ ١٢٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقي من شؤم المرأة ٥/ ١٩٥٩، رقم ٤٨٠٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه، إلى أن يأتي امرأته أو جاريته فيواقعها، ٢/ ١٠٢١، رقم ١٤٠٣.
تمعس أي: تدلك، والمنيئة: هي الجِلد أول ما يوضع في الدباغ.

[المائدة: ٩٠-٩١].

النوع الثاني: تقبيح الحسن.

إن من باب تقبيح الشيطان للحسن أن الشيطان يعمد إلى صرف الإنسان عن المأمور به من فرائض وواجبات، فإن فشل فيعمد إلى صرفه عن النوافل والمستحبات، وأهم ما يحرص على فعله هو تفويت الصلاة على المسلم.

وفي ذلك قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: (يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ ثَلاَثَ عُقَدٍ، بِكُلِّ عُقْدَةٍ يَضْرِبُ عَلَيْكَ لَيْلًا طَوِيلًا، فَارْقُدْ فَارْقُدْ، وَقَالَ مَرَّةً: يَضْرِبُ عَلَيْهِ بِكُلِّ عُقْدَةٍ لَيْلًا طَوِيلًا، قَالَ: وَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ عز وجل انْحَلَتْ عُقْدَةٌ، فَإِذَا تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَتَانِ، فَإِذَا صَلَّى انْحَلَّتِ الْعُقَدُ، وَأَصْبَحَ طَيِّبَ النَّفْسِ نَشِيطًا، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ)[1].

فالشيطان يحاول أن يصرف المؤمن عن الصلاة وهو نائم، فيزين له الراحة، ويلهي الإنسان المستيقظ عن الصلاة، بحجة الربح والتجارة، ويخوفه من الفقر، والخسارة.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

«فالشيطان يخوف الرجل أولًا بالفقر، ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء، وهي البخل، وذلك لأن البخيل على صفة مذمومة عند كل أحد، فلا يستطيع الشيطان أن يحسِن له البخل إلا بتلك المقدمة، وهي التخويف من الفقر»[2].

ومن كيد عدو الله تعالى: أنه يخوِف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان.

وقد أخبرنا الله سبحانه عنه بهذا فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٥][3].

٤. الإنساء.

إن الشيطان يعمل دومًا لإيقاع أعدائه، ويُبعدهم عما أمرهم الله به، عله يُفَوِّتُ عليهم خيرًا أراده الله لهم، أو يوقعهم في شَرٍ كرهه الله لهم، فالنسيان المذموم يكون من الشيطان بالتسويف والتأجيل، وإلهاء العبد، وإشغاله عن الطاعة والعبادة.

قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

«وعلامة استحواذ الشيطان على العبد أن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل الليل، ٢/ ٥٢، رقم ١١٤٢.

(٢) لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٠٤.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ١١١.

يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والمشارب والملابس، ويشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل لبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها»[1].

وقد وقع كثير من الناس في هذه الخطوة الشيطانية، فأحبوا الدنيا وعملوا لها، وتركوا في المقابل العمل لآخرتهم، وقد بين الحق سبحانه أن هذا التسويف والإملاء هو من فعل الشيطان.

قال عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

«فذلك الشيطان يمليهم ويقول لهم: في آجالكم فسحة، فتمتعوا برياستكم ثم في آخر الأمر تؤمنون»[2]، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: ومد لهم الشيطان في الأماني والآمال[3].

فيجب على الإنسان أن يحذر كل الحذر من هذه الوسيلة التي قد تنطلي على الكثير من الناس، وأن يكون دائم التيقظ، ولا ينزلق وراء مُلهيات الدنيا التي تؤدي إلى الخسران المبين.

٥. النزغ والمس.

إن الشيطان قد يتسلط على الإنسان، فيُثير غضبه، وهذا من أوجه عداوته للإنسان.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ونزغ بينهم نزغًا: أغرى، والنزغ: الكلام الذي يغري بين الناس، ونزغ الشيطان: وساوسه ونخسه في القلب بما يسول للإنسان من المعاصي، يعني: يلقي في قلبه ما يفسده على أصحابه[4].

وقد وضّح الإمام الطبري المراد بالنزغ فقال: «وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدُك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجاراتهم، فاستعذ بالله، يقول: فاستجر بالله من نزغه»[5].

وقد بينا عند حديثنا عن موقف الشيطان من نبي الله يوسف عليه السلام، كيف كان للشيطان دور في إثارة البغضاء بين الأخوة من خلال النزغ.

أما مس الشيطان للإنسان فنوعان: مس نفسي، ومس جسدي، أما المس النفسي فهو كما حدث مع نبي الله أيوب عليه السلام، حتى دعا ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

وقد تحدثنا عن ذلك في موضعه، أما

(١) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٥٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨٢/ ٥٦.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٤٥٤.
(٥) جامع البيان ١٣/ ٣٣٢.

المس الجسدي فهو ثابت في كتابه العزيز، فمن أوجه عداوة الشيطان للإنسان أن يعمد إلى التسلط على جسد الإنسان، وهو المس.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾[البقرة: ٢٧٥].

أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا[(١)].

وقد فصل الرازي معنى التخبط وعلاقته بالمس، حيث يقول: «التخبط معناه: الضرب على غير استواء، ويقال للرجل الذي يتصرف في أمر، ولا يهتدي فيه: إنه يخبِط خبط عشواء، وتخبَطه الشيطان: إذا مسه بخبل أو جنون؛ لأنه كالضرب على غير استواء، وتسمى إصابة الشيطان بالخبل والجنون خبطة، ويقال: به خبطة من جنون، والمس: الجنون، يقال: مُسَ الرجل فهو ممسوس أي: به مَس، وأصله من المس باليد، كأن الشيطان يمَس الإنسان فيجنُه، ثم سمي الجنون مسًا، كما أن الشيطان يتخبطه ويطؤه برجله فيخبله، فسمي الجنون خبطة، فالتخبط بالرِجلِ والمسُ باليد»[(٢)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧٠٨.
(٢) مفاتيح الغيب ٧/ ٧٤.

وسائل الحفظ من الشيطان

أشار القرآن الكريم إلى مجموعة من الوسائل التي إن فعلها العبد حُفِظَ من الشيطان بإذن الله تعالى، وسنبين هذه الوسائل فيما يأتي:

أولًا: اللجوء إلى الله بالاستعاذة والدعاء:

إن من حكمة الله عز وجل دائمًا ألا يبين لنا الداء إلا ومعه الدواء، حتى تقوم الحجة على العباد، فلا يأتيه آت يوم التناد فيقول: ما أتانا من نذير.

وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه العزيز طرق النجاة من الشيطان، فالله عز وجل لا يؤخر لنا بيان الوسيلة للنجاة من وساوس الشيطان، ومن أهم هذه الوسائل للوقاية من الشيطان ووسوسته اللجوء إلى الله عز وجل بالاستعاذة والدعاء بأن يحصنه من هذا الخطر العظيم.

والاستعاذة هي اللجوء والاستجارة بالله عز وجل، كما قال الطبري: «أستجيرُ بالله دون غيره من سائر خلقه من الشيطان أن يضرَني في ديني، أو يصدَني عن حق يلزَمُني لرَبي»[(٣)].

وقد ربط المولى عز وجل الاستعاذة بالوسواس الخناس، فأينما وجد الإنسان

(٣) جامع البيان ١/ ١١١.

وسوسته لجأ إلى الله عز وجل بذكره والتحصن به، فالشيطان والرحمن لا يجتمعان في نفس الإنسان، كما بينت ذلك سورة الناس التي تسمى هي والفلق بالمعوذتين.

وقد جاءت «مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، الذي من فتنته وشره أنه يوسوس في صدور الناس، فيحسن لهم الشر، ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشِط إرادتهم لفعله، ويقبح لهم الخير ويثبِطهم عنه، ويريهم إياه في صورة غير صورته، وهو دائمًا بهذه الحال يوسوس ويخنس، أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه واستعان على دفعه، فينبغي له أن يستعين و يستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم»[1].

وقد جاء الأمر بالاستعاذة واللجوء إلى الله عز وجل كلما نزغ الشيطان الإنسان بوسوسته.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وكذا في سورة فصلت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣٧.

والمراد بالنزغ الوسوسة التي تحملك على خلاف ما أمرت به كَاعْتِراء غضب، ومقابلة سفيه، حينها استعذْ بالله والتجئ إليه، إنه سميع عليم يسمع استعاذتك، ويعلم ما فيه صلاح أمرك[2].

فالاستعاذة عند تحريك النفس مشروعة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان، ذهب عنه ما يجد)[3].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

يقول السعدي: «ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطًا ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب تذكر من أي باب أُتِيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئًا

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٢٩٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ٤/ ١٢٤، رقم ٣٢٨٢.

حسيرًا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه»[1].

فهذه الآيات جميعها جاءت بأسلوب الشرط «إما-إذا» والذي يفيد وجوب وقوع الجواب لوقوع الفعل، فمتى نزغ الشيطان الإنسان ووسوس إليه، يجب على الإنسان أن يلجأ إلى الله عز وجل، ويتحصن به؛ لتزول تلك الوساوس.

وجاءت آيات الذكر الحكيم لترشدنا إلى الاستمرار في اللجوء إلى الله عز وجل كلما أحس بالنزغ.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فالمتأمل لهذه الآيات -التي جاءت على صيغة المضارع- يجد أنها تفيد الاستمرارية في حدوث الفعل، وهو الاستعاذة، فالاستعاذة مطلوبة دومًا لطرد وساوس الشيطان، ومن خلال تتبع الآيات نجد أن الاستعاذة مشروعة في عدة مواطن منها:

١. عند تلاوة القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

والاستعاذة قبل القراءة لنفي وساوس الشيطان عند القراءة.

٢. عند الغضب.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

٣. الاستعاذة عند تكاثر الوساوس على العبد.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٤. عند ولادة المولود.

يقول تعالى على لسان مريم بنت عمران رضي الله عنها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

ثانيًا: مقاومة أسلحة الشيطان:

إن الشيطان للإنسان عدو مبين، وقد بيّن لنا المولى عز وجل عداوته في العديد من الآيات القرآنية.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

لذلك وجب على الإنسان أن يجد ويجتهد في محاربته، والتصدي لأسلحته، ومقاومتها، وذلك من خلال عدة أمور بينها لنا القرآن الكريم، وهي:

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣١٣.

١. ذكر الله عز وجل، والمداومة عليه.

فإذا أحس الإنسان في نفسه غفلة عن ذكر الله، فالشيطان يوسوس لابن آدم، فإذا ذكر الله عز وجل خنس وابتعد عنه. المبادرة إلى التوبة، فإذا وقع الإنسان في معصية أو ذنب تاب واستغفر، فهذا يغيظ الشيطان ويهدم عمله.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالشيطان يحرص أن يوقع الإنسان في المعصية، ومنها الكذب والإفك العظيم، وقد بين الحق سبحانه أن الشيطان ينجذب لهؤلاء الذين يتصفون بالإفك المبين والإثم الكبير، وأصحاب المعاصي؛ فيصبح لهم عونًا وسندًا.

يقول تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣].

والأفاك: هو الكذاب صاحب الإثم، والأثيم: الفاجر، يعني به: كهنة الكفار يلقون بآذانهم إلى السمع من السماء لكلام الملائكة، فيسمعون كلمة الحق فيزيدون عليها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء[(١)].

كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سأل أناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال: (إنهم ليسوا بشيء)، فقالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقًا؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا (يَحْفَظُهَا) الْجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ (الزُّجَاجَةِ) فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ)[(٢)].

٢. المسارعة إلى فعل الخيرات، والأعمال الصالحة، واجتناب المحرمات، ومجاهدة النفس على ذلك.

فإذا جاهد الإنسان نفسه، واستعان بالله على شيطانه، نصره الله عز وجل على شيطانه، وحماه من وساوسه.

قال المولى عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٣. عدم مخالطة رفقاء السوء، ومجالس المعصية.

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٧٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، ٦/ ٢٧٤٨، رقم ٧١٢٢.

فمن الوسائل التي يلجأ إليها الشيطان رفقاء السوء، فهو سلاح ذو أهمية عظيمة، فالرفقاء لهم دور كبير في التأثير على الإنسان، وهذا ما يصوره لنا الحق سبحانه في مشهد واقعٍ لا محالة، تدور أحداثه يوم المحشر بين عبد بئيس وبين شيطان من شياطين الإنس -إن كان هذا العبد إنسيًا- أو الجن -إن كان هذا العبد جنيًا-.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وهذه الآيات نزلت في عقبة بن أبي مُعَيْط، وفلانًا الذي أضله عن الذكر هو «أمية ابن خلف أو أخوه أبي بن خلف»[(١)].

وبناء على ذلك فكل ظالم أطاع خليله في الكفر حتى مات على ذلك يجري له مثل ما جرى لابن أبي معيط، فهذا هو الدور لأخلاء السوء الذين يصدون عن الطريق المستقيم، بوسوسة من الشيطان، وفي النهاية يتخلى عنه وتكون نهايته الخذلان، كما بين لنا القرآن الكريم في العديد من المواضع.

قال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

وقال أيضًا: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

وبعد استعراض الآيات التي تبين خطر رفيق السوء يجدر بنا التنبيه على هذا السلاح في زمن تتكاثر فيه الفتن، وينتشر أعداء الله في كل مكان، محاولين جذب الشاب المؤمن؛ ليخرجوا به عن جادة الطريق، في مقابل ضعف المؤمنين وتشتت قواهم، لذلك وجب علينا أن نتخير لأبنائنا الرفيق الحسن.

٤. ملازمة جماعة المؤمنين.

فإذا كان المسلم مع الجماعة المسلمة، كان أبعد من الشيطان، فإذا انفرد برأي أو موقف، كان فريسة لوساوس الشيطان.

كما جاء عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس، إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا فقال: (أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ، أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٥.

حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ)[1].

فسلاح الرفقة المؤمنة، واجتناب قرناء السوء، من أهم الأسلحة كي يكون المسلم حمًى لأهل الإيمان من براثن الأشرار، فالمرء بإخوانه يتقوَى، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، فنوصي هنا كل عبد مؤمن بالله، كافر بالشيطان أن لا ينأى بنفسه عن إخوانه، فيسيح في طرائق إخوان الشياطين، بل عليه أن يعتصب ويعتصم بهم، فالوَحدة قوة والتفرق ضعف.

ثالثًا: اتباع هدايات القرآن:

لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى ما فيه سعادة الإنسان في الدنيا، ونجاته في الآخرة، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

فقد بين سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن القرآن فيه هداية البشرية لما فيه الخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى الطريق الصواب، وهو الإيمان بالله عز وجل وتوحيده، فالقرآن نور من استضاء بنوره، فخرج من جهله، وطرد وساوس الشيطان من نفسه[2]، فمن اتبع هدايات القرآن فقد وصل إلى الطريق الأكثر استقامة وسلامًا، ونعم بالأمن الإيماني، هذا في الدنيا، ولو كان وحده لكان كافيًا، لكنه تعالى يبشرنا بما هو أعظم منه، وهو النعيم في الآخرة.

وقد جاء الوعد من الله عز وجل بذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقال أيضًا: ويقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وفي المقابل قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

قال الشعراوي: «فكما أن الحق تبارك وتعالى جمع لعباده الصالحين السائرين على منهجه خيري الدنيا والآخرة، ففي المقابل جمع لأعدائه المعرضين عن منهجه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، لا ظُلْمًا منه،

(١) أخرجه الترمذي، باب ما جاء في لزوم الجماعة ٤/ ٤٦٥، رقم ٢١٦٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٨، رقم ٢٥٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٩٢، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤١٥١، لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٣٨.

فهو سبحانه مُنَزَّه عن الظلم والجَوْر، بل عَدْلًا وقِسطًا بما نَسُوا آيات الله وانصرفوا عنها»[1].

فهذا بيان من الحق سبحانه لطريقين لا ثالث لهما: إما طريق هدى الله، أو طريق إبليس الذي أخرج أبوي البشر من الجنة حيث لا شقاء ولا تعب ولا ضلال.

ويبين ابن كثير هذا الشقاء المذكور في الآية فيقول: «﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: خالف أمري وما أنزلت على رسولي، أعرِضُ عنه وأتناساه، وله معيشةٌ ضنكٌ في الدنيا؛ فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيقٌ حرجٌ لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبه يتردد، فهذا من ضنك المعيشة»[2].

رابعًا: عدم اتباع خطوات الشيطان:

بعد أن بين لنا المولى عز وجل العداوة الكائنة بين الشيطان وآدم وذريته، ووضح لنا الوسائل والطرق التي ينتهجها الشيطان في غواية بني آدم وذريته، والانتقام منهم، نهانا بعد ذلك عن اتباع خطوات الشيطان ومكائده التي توقع العباد في حباله.

وقد جاء هذا التعبير القرآني ﴿خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ﴾ في العديد من الآيات التي تنهانا عن اتباع خطوات الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥٓ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقد تحدث أهل التفسير في معنى هذا التعبير القرآني، منهم الألوسي في تفسيره حيث قال: «﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: آثاره كما حكي عن الخليل- أو أعماله- كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه- أو خطاياه- كما نقل عن مجاهد- وحاصل المعنى: لا تعتقدوا به وتستنوا بسنته، فتحرموا الحلال وتحللوا الحرام»[3].

وأما ابن عاشور فقد بين معنى خطوات الشيطان بقوله: «واتباع الخطوات استعارة تمثيلية، أصلها أن السائر إذا رأى آثار خطوات السائرين تبع ذلك المسلك علمًا منه بأنه ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب، فشبه المقتدي الذي لا دليل له سوى المقتدى به وهو يظن مسلكه موصلًا، بالذي يتبع خطوات السائرين»[4].

وفصل القول في معنى اتباع الخطوات،

(١) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٣٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٢٢.
(٣) روح المعاني ١/ ٤٣٦.
(٤) التحرير والتنوير ٢/ ١٠٣.

وخلاصته: أن إتباع الخطوات يكون بالاقتداء، والاقتداء بالشيطان يكون بإرسال النفس على العمل بما يوسوسه لها من الخواطر الشريرة[1].

إذن وبناء على ما سبق فالذي ينقاد لوساوس الشيطان وغوايته، والمنجرف في دروبه وأهوائه هو متبع له، كما أن خطوات الشيطان سلسلة مترابطة متداخلة، تبدأ بالوسوسة، فالتسويل، والتزيين بالتحسين تارة والتخويف تارة أخرى، ثم تتوالى الخطوات حتى يحصل الزلل، فيقع الإنسان في المعصية والعياذ بالله.

ومن خلال تتبع آيات الذكر الحكيم التي تنهى عن اتباع خطوات الشيطان، يمكننا استنباط الخطوات التي من يسلكها يكون قد سلك طريق الشيطان واتبع خطواته:

١. أكل الحرام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

«كأنه قيل لمن أبيح له الأكل على الوصف المذكور: احذر أن تتعداه إلى ما يدعوك إليه الشيطان، وزجر المكلف بهذا الكلام عن تخطي الحلال إلى الشبه، كما زجره عن تخطيه إلى الحرام؛ لأن الشيطان إنما يلقي إلى المرء ما يجري مجرى الشبهة، فيزين بذلك ما لا يحل له، فزجر الله تعالى عن ذلك، ثم بين العلة في هذا التحذير، وهو كونه عدوًا مبينًا أي: متظاهر بالعداوة»[2].

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

٢. البخل والإسراف والرياء في الإنفاق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ [النساء: ٣٨].

٣. الدعوة إلى الارتداد عن الدين والكفر بالله عز وجل.

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

فالكفر قد يصل إليه الإنسان وهو في غفلة من أمره، وقال تعالى في بيان خطوات الشيطان التي يزينها ليصل إلى مبتغاه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٨٦.

فعبادة الشمس من أصناف الكفر التي يزين لها الشيطان[1].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

فالشيطان يمليهم ويقول لهم: في آجالكم فسحة، فتمتعوا برياستكم، ثم في آخر الأمر تؤمنون[2].

٤. التحاكم إلى غير شرع الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

فكل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت[3]، وكل من تحاكم للطاغوت فقد سار في خطوات الشيطان.

٥. الخوض والحديث والجدال في آيات الله من غير بصيرة ولا هدى.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

فالمقصود أن هناك صنفًا من الناس يخاصم ويتكلم في دين الله بلا حجة ولا علم، -قيل: نزلت في النضر بن الحارث، وأصحابه- فيعمل بما يوسوس ويسول له الشيطان، ويجوز أن يكون المقصود شياطين الإنس، وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر، بوسوسة من إبليس لعنه الله، وقد يكون المراد إبليس وجنوده، وسمي بالمريد؛ لأنه تجرد من الخير للشر[4].

فكل ما ورد يعدُّ من خطوات الشيطان التي حذرنا ونهانا الله عز وجل من اتباعها، وبيَن لنا عاقبة السير وراء خطوات الشيطان في كل ما يوسوس به.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٨١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٥٦.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٤، تفسير المراغي ٥/ ٧٥.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٠٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٠٢.

عاقبة الشيطان في الدنيا والآخرة

لقد خصَّ الله تعالى إبليس أبا الشياطين بعقوبة دنيوية تختلف عن بقية الشياطين، إذ هو أصل كل شر ومبدؤه، فقد ضرب الله عليه اللعنة والغضب مُذْ رفض السجود لما خلق الله بيديه استكبارًا، إلى أن يلقى الله يوم القيامة مدحورًا فيدخل النار خالدًا فيها.

وهذا ما وضحته كثير من الآيات القرآنية في سياق الحديث عن إبليس وآدم.

فكانت عقوبته في الدنيا اللعن والطرد من الجنة، وقيل: من المنزلة التي كان فيها في الملأ الأعلى[1].

وقد اتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥].

«قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السموات والأرض، فإن قلت: إن حرف «إلى» لانتهاء الغاية فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين الذي هو يوم القيامة؟ قلت: لا بل يزداد عذابًا إلى اللعنة التي عليه، كأنه قال تعالى: وإن عليك اللعنة فقط إلى يوم الدين، ثم تزداد معها بعد ذلك عذابًا دائمًا مستمرًا لا انقطاع له»[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٤.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٥٦.

وهناك العديد من الآيات التي تثبت اللعنة على إبليس لعنه الله.

أما بقية شياطين الجن والإنس ومن تبعهم في الدنيا، فقد توعدهم الله بعواقب تصيبهم جزاء جُرمهم، مع أن باب التوبة مفتوحٌ لهم أجمعين إلى أن تخرج أرواحهم من أجسادهم، ومن تلك العواقب، الشقاء وخسران الدنيا، أما الخسران الذي يجنيه الشيطان وأتباعه فيقرره تعالى في غير آية.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

ويقول أيضًا: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

ويفسر البغوي هذا الخسران في الدنيا بأنه الذل حيث يقول: «أي: هم في جملة من يلحقهم الذل في الدنيا والآخرة»[3].

أما جزاؤه في الآخرة فالخلود في النار وبئس المصير.

يقول تعالى مخاطبًا إبليس: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

«فهذا قسم من الله جل ثناؤه أقسم أنه من اتبَع من بني آدم عدو الله إبليس وأطاعه وصدقه ظنه عليه، أن يملأ من جميعهم

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥٠.

يعني: من كفرة بني آدم تُبَّاعِ إبليس، ومن إبليس وذريته جهنم»[1].

وقد ورد هذا التحذير الرباني في غير موضع في كتابه تعالى، فمن ذلك: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣].

وقد نفَر القرآن من اتِباع الشيطان مبينًا أن هذا الاتباع إنما يقود إلى خاتمة بئيسة.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

ويصور لنا الحق سبحانه مشهد دخول إبليس وأوليائه في جهنم، وندمهم إذ لا ينفع الندم.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩٤-١٠٢].

أي: طُرحوا في جهنم بعضهم على بعض، والغاوون: هم الآلهة والعابدون، وجنود إبليس: كل من كان من أتباعه من ذريته كان أو من ذرية آدم[2].

موضوعات ذات صلة:

آدم عليه السلام، الاتباع، الاستكبار، الإنسان، الجن

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٤٥.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٢٨.

صالح عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بصالح عليه السلام	١٧٨
ذكر صالح عليه السلام في القرآن الكريم	١٨١
دعوة صالح عليه السلام	١٨٢
معجزة صالح عليه السلام	١٨٧
نجاة صالح عليه السلام	١٩٦
الدروس المستفادة من قصته عليه السلام	١٩٨

التعريف بصالح عليه السلام

أولًا: اسمه و نسبه عليه السلام:

هو صالح بن عبد الله بن ملسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح [(١)]، وقيل: صالح بن عبيد بن أنيف بن ماشخ بن جادر بن جاثر بن ثمود قاله: مقاتل، وقيل: صالح بن كانوه، قاله الربيع: وقيل: صالح بن عبيد بن يوسف بن شالخ بن عبيد بن جاثر بن ثمود، قاله مجاهد: قال مجاهد: كان بينه وبين ثمود مائة سنة وكان في قومه بقايا من قوم عاد على طولهم وهيئاتهم [(٢)].

أرسله الله تعالى إلى قومه ثمود، وهي قبيلة مشهورة، من العرب العاربة البائدة [(٣)]، سموا باسم جدهم ثمود أخي جديس من ذرية سام بن نوح، ويرى آخرون أن ثمود ابن عابرٍ، أو جاثر أو جاثر بن إرم بن سام بن نوح [(٤)]، وعمروا الأرض بعد عاد، كما بين ذلك القرآن حيث يقول حاكيًا عن صالح يخاطب قومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف:٧٤] [(٥)].

وديار ثمود بالحجر بين تبوك والمدينة [(٦)]، في وادي القرى بين بلاد الشام والحجاز [(٧)]، ولهذا عرف قومه بأصحاب الحجر [(٨)]، قال سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر:٨٠].

وتعرف الآن بمدائن صالح عليه السلام، وموقعها في شمال مدينة العلا، على بعد ٣٦٥ كيلو متر من المدينة المنورة عن طريق خيبر.

وجاء في الأثر: عن نوف الشامي: (أن صالحًا النبي صلى الله عليه وسلم من العرب لما

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ١/ ١٣٠-١٣١.
(٢) عمدة القاري، العيني ٣٣/ ٢٧٠.
(٣) انظر: تاريخ الطبري، ١/ ١٣٣، تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٢٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٨، البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٥٢٤.
(٥) انظر: قصص القرآن، فؤاد عبدالغفار، ص ١٧١.
(٦) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٤٥.
(٧) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ٢/ ٢٥٥، مروج الذهب، المسعودي، ١/ ٤٢.
(٨) الحجر: كل ممنوع فهو حجر محجور، والحجر كل بناء بنيته و حجرت عليه من الأرض فهو حجر، ومنه سمي حطيم البيت حجرًا.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٠٢.

أهلك الله عادا، وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها، فاستخلفوا في الأرض فانتشروا، ثم عتوا على أمر الله، فلما ظهر فسادهم وعبدوا غير الله بعث الله إليهم صالحًا، وكانوا قومًا عربًا وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم موضعًا، وكانت منازلهم الحجر إلى قرع - وهو وادي القرى ثمانية عشر ميلًا فيما بين الحجر إلى الحجاز - فبعثه الله إليهم غلامًا شابًا فدعاهم إلى الله حتى شمط [(١)] وكبر، ولا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فهلكت عاد وثمود ومن كان منهم من تلك الأمم، وكانوا من ولد لاوذ بن سام بن نوح، ولم يكن بين نوح وإبراهيم نبي قبله، يعني: قبل إبراهيم إلا هود وصالح)[(٢)].

ثانيًا: زمان سيدنا صالح عليه السلام:

وظاهر سياق القرآن أن ثمود كانوا بعد عاد، كما صرح بذلك الترتيب في سورة الأعراف، وعلى هذا فهم قبل إبراهيم عليه السلام، وقد ورثت ثمود قوم عاد، كما ورثت عاد قوم نوح، وهذا الترتيب لهؤلاء الأقوام ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود:٨٩].

وقد وجدت بالحجاز أطلال، مدينة قديمة على بعد خمسة وأربعين ميلًا إلى الشمال الغربي من تبوك، ويظهر أن منشأ ثمود هو جنوب الجزيرة العربية، إلا أن مجموعة كبيرة منها انتقلت إلى الشمال في تاريخ مبكر واستقرت في منطقة الحجر. ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ أي: بعد هلاكهم، وكانت ديار عاد بحضرموت جنوب الجزيرة العربية، وديار ثمود بالحجر شمال الجزيرة بمنطقة الحجر، يقول تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء:١٤٩].

تتخذون من سهولها قصورًا تسكنونها في الصيف، وتنحتون من الجبال بيوتًا تسكنونها في الشتاء [(٣)].

ثالثًا: مكانة سيدنا صالح عليه السلام في قومه:

كان صالح عليه السلام معروفًا بالحكمة والنقاء وأفعال الخير، مرجوًا لدى قومه قبل أن

---

(١) شمط: هو مخالطة البياض شعر الرأس، وهو بياض اللحية.
ومنه امرأة شمطاء أي: وخط رأسها الشيب. ولا يقال للمرأة: شيباء، ولكن يقال لها: شمطاء.
انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ٣٣٥، تاج العروس، الزبيدي، ١/ ٤٨٩٩.
(٢) أخرجه، الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ٢/ ٦١٦، رقم ٤٠٦٥.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١/ ٤٧٧.

يوحي الله إليه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

أي: قالوا: مؤملين برجاء خيرك؛ لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك، ثم خاب رجاؤنا فيك[1]. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟!. ما كنا نتوقع منك أن تعيب آلهتنا التي وجدنا آبائنا عاكفين عليها.

وهكذا يعجب القوم مما يدعوهم إليه. ويستنكرون ما هو واجب وحق، ويدهشون أن يدعوهم أخوهم صالحُ عليه السلام إلى عبادة الله وحده. وذلك لأن آباءهم كانوا يعبدون هذه الآلهة. فهم قوم يشركون بالله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون، وقد دعاهم صالح عليه السلام إلى الإيمان بالله وإلى عبادة الله وحده لا شريك له بأسلوب جميل وحسن تأن، وطلب منهم أن يخلعوا عبادة الأصنام والأنداد، ولا يشركوا بربهم شيئًا، فآمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال.

(١) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٧٩.

ذكر صالح عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر صالح عليه السلام في القرآن الكريم (٢٦) مرة، في (٢٢) سورة.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٧٣-٧٩
هود	٦١-٦٨
الشعراء	١٤٢-١٥٩
النمل	٤٥-٥٣

دعوة صالح عليه السلام

أولًا: معالم دعوته عليه السلام:

تتفق دعوة الرسل لأقوامهم في أصلها، وهو توحيد الله جل وعلا بالعبادة، فهم جميعًا، متفقون في ذلك.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

أما شرائعهم فإنها تختلف؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

وفي الحديث المتفق عليه: (أن الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد). وفي رواية البخاري: (أولاد علات)[(١)].

ومعنى الحديث: أن الرسل متفقون في أصول الدين، وعبر عن ذلك بأنهم أولاد علات، وأولاد العلات الإخوة من الأب، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل: الشرب بعد الشرب، فأولاد العلات الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى، وفي بعض الروايات: أمهاتهم شتى ودينهم واحد، فكنى عن توحيد دينهم باشتراكهم في الأبوة، فأصل الدين الذي هو التوحيد واحد وإن اختلفت فروع الشرائع[(٢)].

وكان صالح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله، ويبين لهم نعم الله الكثيرة، وأنه يجب شكره وحمده عليها، فقالوا له: يا صالح ما أنت إلا بشر مثلنا، بل وذلك خطاب كل الأمم المكذبة لرسلهم الذين بعثوا إليهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس:١٥].

أي: كان هذا احتجاجهم في رد الرسالات يحتجون على الرسل فيقولون: إن الرسل في العادة إنما يجيئون من عند المرسل، وأنتم نشأتم بين أظهرنا لم تأتونا من عند أحد في الظاهر، ولا نرى لك خصوصية لا في الخلقة ولا في القدرة والمال وغيره وإذا كنت تدعي أنك رسول الله، فلابد أن تأتينا بمعجزة وآية.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وكان رد الرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:١١].

وقد أسس الله سبحانه وتعالى دعوة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، ٤/ ١٧٦، رقم ٣٤٤٣. ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل عيسى عليه السلام، ٤/ ١٨٣٧، رقم ٢٣٦٥.

(٢) انظر فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٨٩.

أنبيائه على منهج التوحيد وجعله مناط الدعوة، ووضح ذلك في خطابه لهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

وإذا كان الخطاب في الآيات السابقة ورد مجملًا، فقد ورد تفصيله في الآيات الآتية.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون:٢٣].

ويقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٥٠].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٨٤].

ويقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

فلما دعاهم لعبادة الله وترك الأوثان، وألح عليهم بالوعيد والعذاب الشديد. فهو هو هنا يذكر قومه، ويدعوهم مترفقًا بهم منوهًا بنعم الله عليهم وأفضاله من الإنشاء في الأرض بوراثتها وإعمارها، وبما هيأ لهم من سبل المهارة والقوة البدنية، ومما ملكهم من أساليب الفنون في البناء والزراعة والسقي، فهذه دعوة هادئة جميلة من هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

فقد قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم﴾ أي: هو خلقكم سبحانه من هذه الأرض، فقد كنتم ترابًا فأنشأكم منها وفوقها.

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ أي: جعلكم تعمرون هذه الديار.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: عاملوا ربكم بما أنعم عليكم بأن تحسنوا عبادته، وأن تستغفروه سبحانه.

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي: إن ربنا العظيم سبحانه قريب منا، فإذا استغفرناه غفر لنا، وهو مجيب يستجيب الدعاء، فادعوا ربكم يستجب لكم.

وكذلك يذكرهم تذكير الرفيق الشفيق فيقول لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

يقول الخازن: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ يعني: أن الله أهلك عادًا، وجعلكم تخلفونهم في الأرض وتعمرونها، ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ يعني: وأسكنكم

﴿فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ يعني: تبنون القصور من سهولة الأرض؛ لأن القصور إنما تبنى من اللبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ يعني: وتشقون بيوتًا من الجبال[1].

وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء.

وهذا يدل على أنهم كانوا متمتعين مترهفين.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تسيروا في الأرض مفسدين فيها، والعثو أشد الفساد[2].

وقيل: أراد به عقر الناقة.

وقيل: هو على ظاهره، فيدخل فيه النهي عن جميع أنواع الفساد.

وفيه وجهان:

أحدهما: أنه السعي في الباطل.

والثاني: أنه الفعل المؤدي لضير فاعله.

وفي الإفساد الشديد وجهان أيضًا:

أحدهما: لا تعملوا فيها بالمعاصي.

والثاني: لا تدعوا إلى عبادة غير الله[3].

فسيدنا صالح عليه السلام يذكرهم وراثتهم لقوم عاد وما مكنهم الله فيه من البناء، ففي هذه الآية ذكرهم بوجوب إفراد الله تعالى بالعبادة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣].

ويأتي ردهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأعراف:٧٥].

طلبوا منه أن يخرج لهم آية في عيدهم، دالة على صدقه عنادًا ونفاقًا، فآتاهم الله الناقة آية بينة، فأصروا على عنادهم، بل استمروا في غيهم حتى يؤمنوا به ويصدقون رسالته، فدعا الله فأخرج لهم الناقة مع فصيلها بالأوصاف التي طلبوها من صخرة[4].

---

(١) لباب التاويل، الخازن، ٢/ ٢٢١.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ١/ ١٤٢.

(٣) النكت و العيون، الماوردي ٢/ ٢٣٦.

(٤) خروج الناقة بهذه الصفة، وطلبهم لها ذكرها الخازن: ٤/ ٢٢٠، وأبو السعود: ٣/ ٢٤١، وصاحب أضواء البيان ٧/ ١٨ وغيرهم.
والمعجزة التي أوتيها سيدنا صالح عليه السلام، تناسب ما مهر فيه قوم صالح، فقد كان لهم ولع بالنحت بالصخور، فعملوا لمنازلهم واجهات من الصخور لازالت تحكي تمكنهم وعظمة فنهم في النحت، ولذلك كان طلبهم

وكانت مميزة بكثرة لبنها وشكلها رغم أنها آية من الله وحجة ظاهرة، أصروا على عنادهم، وعتوا من أمر ربهم وتجرؤوا على انتهاك حرمة الله فعقروا الناقة، فحق عليهم الهلاك، وحقت عليهم كلمة العذاب. و لما عقروا الناقة وعدهم سيدنا صالح بالهلاك بعد ثلاث أيام، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

وقد ذاقوا مرارة الترقب والانتظار خلال تلك الأيام، فلما اكتملت الأيام الموعودة آتاهم العذاب صبيحة يوم نحس، فأخذتهم رجفة شديدة زلزلت بهم الأرض، وصاعقة محرقة من فوقهم، وصيحة واحدة مفزعة قطعت نياط قلوبهم وتركتهم أجسادًا بلا أرواح، وبقيت مساكنهم وديارهم عبرة على من الأيام و العصور [1].

ثانيًا: أساليب دعوته عليه السلام:

١. أسلوب الترغيب.

كان صالح عليه السلام يخاطب قومه بأخلاق الداعي الكريمة، وآدابه الرفيعة ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

أن يخرج لهم ناقة من الصخر. فأخرجها لهم بأجمل ما يكون، فهي ليست صخرة جامدة، ولكنها ناقة على هيئة كاملة تسير بينهم مع فصيلها.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٠٨.

ويجادلهم في موضع الجدال، مؤكدًا على أن عبادة الله هي الحق، والطريق المستقيم.

ولكن قومه تمادوا في كفرهم، وأخذوا يدبرون له المكائد والحيل حتى لا يؤمن به أكثر الناس، وحينما كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله، ويبين لهم نعم الله الكثيرة، وأنه يجب شكره وحمده عليها، فقالوا له: يا صالح ما أنت إلا بشر مثلنا.

بل وذلك خطاب كل الأمم المكذبة لرسلهم الذين بعثوا إليهم: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[يس:١٥].

أي: كان هذا احتجاجهم في رد الرسالات يحتجون على الرسل فيقولون: إن الرسل في الشاهد إنما يجيئون من عند المرسل، وأنتم نشأتم بين أظهرنا لم تأتونا من عند أحد في الظاهر، ولا نرى لك خصوصية لا في الخلقة ولا في القدرة والمال وغيره، وإذا كنت تدعي أنك رسول الله، فلابد أن تأتينا بمعجزة وآية.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وكان رد الرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١].

٢. أسلوب الترهيب.

إن التدرج في الدعوة والتؤدة في الترغيب فضلًا عن الترهيب من أوليات المنهج السليم لدى الدعاة، وكان هذا شان الرسل والأنبياء مع أقوامهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[فاطر:٤٣].

أي: سنة الله في الأولين أنهم إذا كذبوا رسلهم أهلكهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

ومن سنة الله تعالى في عباده أن من اقترح آية على الأنبياء وأتوه بها فلم يؤمن؛ عجل الله هلاكه.

أما منهج نبي الله صالح عليه السلام في أسلوب دعوته، فلا يختلف عن منهج وأسلوب أخويه نوح وهود عليهما السلام.

فقد دعا قومه إلى إفراد الله وحده بالعبادة دون سواه، وكان منهجه في دعوته لما بعثه الله رسولًا إلى قومه، دعاهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة وطرح عبادة الأوثان، وكان أسلوبه رقيقًا مهذبًا، لكن الكثير منهم رفض هذه الدعوة فآذوه، وهموا بقتله، وعقروا الناقة التي جعلها الله آية على صدقه، وقد كان حذرهم من قتلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَاۖ فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١﴾ [هود:٦١].

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: فاسألوه أن يغفر لكم ما أشركتم وما أجرمتم، ثم توبوا وارجعوا إليه كلما وقع منكم ذنب أو خطأ[1].

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ أي: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملًا قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة لله، وترك ما كنا نعبده من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد. ولهذا قالوا: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ [هود:٦٢-٦٣].

وهذا تلطف منه لهم في العبارة، ولين جانب، وحسن تأن في الدعوة لهم إلى الخير، أي: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم، وأدعوكم إليه، ماذا عذركم عند الله، وماذا يخلصكم من بين يديه، وأنتم تطلبون مني أن أترك دعائكم إلى طاعته. وأنا لا يمكنني هذا؛ لأنه واجب علي، ولو تركته لما قدر أحد منكم، ولا من غيركم، أن يجيرني منه ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم. أو أي: غير أن تجعلوني خاسرًا

(١) المنار، محمد رشيد رضا، ١٢/ ١٠١.

بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى، أو فما تزيدونني بما تقولون غير أن أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم: إنكم الخاسرون، فالزيادة، على معناه، والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من إنكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة السلام على بينة من ربه وإيتائه النبوة [(١)].

وقالوا له أيضًا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:١٥٣].

أي: من المسحورين، يعنون مسحورًا لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. و المراد بالمسحرين المسحورين المخدوعين [(٢)].

وقولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:١٥٤].

سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به وعينوا الآية التي يجب أن يخرجها لهم أمام أعينهم [(٣)].

معجزة صالح عليه السلام

أولًا: خروج الناقة:

سأل قوم ثمود سيدنا صالح عليه السلام معجزة يخرجها لهم يريدونها، فقال لهم صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم، أتؤمنون بي وتصدقونني وتعبدون الله الذي خلقكم؟

فقالوا له: نعم، وعاهدوه على ذلك، فقام صالح عليه السلام، وصلى لله تعالى، ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا.

وكانت الآية التي أوتيها سيدنا صالح عليه السلام هي الناقة.

يقول تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وكانت الناقة بطلب من قومه ولم يأت بها من تلقاء نفسه؛ كما جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٤].

و كذلك جاء في الحديث ما يصدق رأي طلبهم الناقة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: (لا تسألوا الآيات، وقد سألها قوم صالح، فكانت أي ناقة ترد من

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٦٥.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ١٢٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٣٠٤٠.

هذا الفج[1]، و تصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها)[2].

وذُكِرَ أن قوم صالح هم الذين حددوا نوع الآية أن تكون ناقة، وكيفية خروجها وشكلها وأن تخرج أمام أعينهم من الصخرة في قبيلتهم[3].

وذكر ابن عطية عن بعضهم: أنه جاء بها من تلقاء نفسه من غير طلب[4].

والرأي الأول هو الأرجح والأصوب؛ لما ظاهره من نص الآية والحديث.

وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ يقتضي أن الناقة كانت حاضرة عند قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ لأنها الآية نفسها، والبينة: الحجة على صدق الدعوى، فهي ترادف الآية.

وقد عبر بها عن الآية في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة:١].

و﴿هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى الناقة التي جعلها الله آية لصدق صالح عليه السلام، ولما كانت الناقة هي البينة كانت جملة: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ منزلة من التي قبلها منزلة عطف البيان[5].

لقد تكررت كلمة (الناقة) في القرآن سبع مرات في القرآن الكريم، في سياق قصة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام. في دلالات ومعان مختلفة ليس فيه تكرار، كما توضحه الآيات أدناه:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾ [الأعراف:٧٣].

أي: آيةٌ ومعجزةٌ ظاهرة شاهدةٌ بنبوتي[6]، والبينة: الحجة على صدق الدعوى[7].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾ [الأعراف:٧٧].

يقول أبو السعود: أي: نحروها، أسند العقر إلى الكل مع أن المباشر بعضهم للملابسة، أو لأن ذلك لما كان برضاهم، فكأنه فعله كلهم، وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه بحيث أصابت غائلته الكل ما لا

(١) الفج: هو الطريق الواسع بين جبلين. انظر: مختار الصحاح ص ٤٠١.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٢٩٦، و الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، ٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٤٨.
وحسنه ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٨٠.
(٣) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٢٨٣.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٩/ ٣٤٩، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٣٨.
(٤) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٤٢١.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٨.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٤.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٨.

يخفى[1].

إنها خرجت من حجرٍ، وفي هذا أعظم الآيات، ويقال: إنها كانت ترد الماء لا ترد الماء معها دابةٌ، فإذا كان يوم لا ترد، وردت الواردة كلها، وفي هذا أعظم آية[2].

وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود:٦٤].

يقول: دعوها ترتع في أرض الحجر ولا تمسوها بسوء، و لا تعقروها، فيأخذكم عذاب أليم، وهو ما عذبوا به[3].

يقول ابن عاشور: لأنهم إذا مسها أحد بسوء، عن رضى من البقية، فقد دل ذلك على خلعهم حرمة الله تعالى، وحنقهم على رسوله عليه السلام[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء:٥٩].

أي: آية مفيدة للبصيرة والحجة على صدق رسولهم[5].

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥﴾ [الشعراء:١٥٥].

هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرض ثمود، ترعى الشجر وتشرب الماء.

وكانت ترد الماء غِبًا، فإذا كان يوم ورودها وضعت رأسها في بئر في الحجر، يقال لها: بئر الناقة، فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها، فلا تدع قطرة، ثم ترفع رأسها فتتفحج لهم، فيحلبون ما شاؤوا من لبنها فيشربون ويدخرون، حتى يملؤوا أوانيهم كلها. ثم تصدر الناقة من غير الفج الذي وردت منه، ولا تقدر أن تصدر من حيث وردت، حتى إذا كان من الغد، كان يوم ثمود فيشربوا ما شاء الله من الماء ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة، فهم على ذلك في سعة ودعة.

وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم، فتهبط إلى بطن الوادي فتكون في حره وجدبه، وإذا كان الشتاء فتشتو الناقة في بطن الوادي؛ فتهرب المواشي إلى ظهره، فتكون في البرد والجدب.

فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله بهم والبلاء الاختبار، فكبر ذلك عليهم، فعتوا عن أمر ربهم، وحملهم ذلك على عقر[6].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٢٤٣.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٣/ ٥٩.
(٣) تفسير السمرقندي، ١/ ٥٤٤.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٩.
(٥) المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٣٧١.
(٦) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٢٢.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر:٢٧].

أي: باعثوها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا، وذلك أنهم تعنتوا على صالح، فسألوه أن يخرج لهم من صخرة حمراء ناقة عشراء، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً﴾ أي: محنةً واختبارًا ﴿لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي: فانتظر ما هم صانعون ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أي: على أذاهم ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أي: أخبرهم ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الناقة وبينهم، لها يوم ولهم يوم[1].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس:١٣].

أي: ذروا ناقة الله ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ ولا تذودوها عنها في نوبتها[2].

وقد جعل الله عز وجل الناقة آية مبصرة لثمود.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر:٨١].

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه آتى أصحاب الحجر آياته فكانوا عنها معرضين. والإعراض: الصدود عن الشيء والإضراب عنه[3] وعدم الالتفات إليه؛ كأنه مشتق من العرض ـ بالضم ـ وهو الجانب؛ لأن المعرض لا يولي وجهه بل يثني عطفه ملتفتًا صادًا[4].

ولم يبين جل وعلا هنا شيئًا من تلك الآيات التي آتاهم، ولا كيفية إعراضهم عنها، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر، فبين أن من أعظم الآيات التي آتاهم: تلك الناقة التي أخرجها الله لهم، بل قال بعض العلماء: إن في الناقة المذكورة آيات جمة: كخروجها عشراء وبراء جوفاء من صخرة صماء، وسرعة ولادتها عند خروجها، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعًا، وكثرة شربها؛ كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥].

وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر:٢٨][5].

روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: (لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) المصدر السابق، ٤/ ٢٢٠.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٢٠.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١/ ٧٦.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ١٦٧.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١١٧.

بالحجر قال: (لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله عز وجل)، قيل: من هو يا رسول الله: قال: (هو أبو رغال؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابهم)[1].

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على آية الأعراف عند قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ فيقول: «والسياق هنا -لأنه يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة ولعاقبة الإيمان بها وعاقبة التكذيب- لا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة، بل يعلن وجودها عقب الدعوة، وكذلك لا يذكر تفصيلًا عن الناقة أكثر من أنها بينة من ربهم، وأنها ناقة الله، ومن هذا الإسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية، أو أنها أخرجت لهم إخراجًا غير عادي؛ مما يجعلها بينة من ربهم، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى، ويجعلها آية على صدق نبوته.ولا نزيد على هذا شيئًا مما لا يرد ذكره من أمرها في هذا المصدر المستيقن، وفيما جاء في هذه الإشارة كفاية عن كل تفصيل آخر»[2].

ثانيًا: موقف قوم صالح عليه السلام من الناقة:

كان موقف ثمود من معجزة رسولهم وآياته هو الإعراض والتكذيب، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر:٨٠-٨١].

وقد دلت الآيات على تكذيبهم وإعراضهم عن الآيات التي أظهرها الله تعالى لهم؛ تصديقًا لنبيه عليه السلام، دلالة على عظمته ووحدانيته. وقد أوتي سيدنا صالح عليه السلام الناقة آية، وقد جمعت باعتبار ما احتوت عليه من آيات متعددة في إظهارها، قال ابن الجوزي: (والمراد بالآيات الناقة، قال ابن عباس: كان فيها آيات، خروجها من الصخرة ودنو نتاجها عند خروجها، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعًا)[3].

والأولى عدم تخصيص الآيات بالناقة فقط، بل تحمل على الناقة وغيرها، وهو ما جنح إليه بعض المفسرين.

قال الطبري في تفسير الآية: «يقول: وأريناهم أدلتنا وحججنا على حقيقة ما بعثنا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٢/ ١٦٠، رقم ١٤١٦٠.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٩/ ٣١٨، رقم ٤٣٣٤.

(٢) في الظلال، سيد قطب، ٣/ ٢٤٤.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٣٠١.

به إليهم رسولنا صالحًا»[1].

وهذه الآيات يدخل فيها الناقة دخولًا أوليًا لأنها ذكرت في القرآن الكريم، ولكن عدم ذكر غيرها لا يدل على أنها هي الآية الوحيدة التي أعطيت لسيدنا صالح عليه السلام، حتى يضطر لحمل الآيات على الناقة فقط، فهذه الآيات تشتمل على الحجج والبراهين الكونية الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته، ولا شك أن صالحًا عليه السلام قد ذكّر قومه بهذه البراهين والآيات، وقد تكون الآيات التي كذبوا بها غير هذه الآيات[2].

قال البيضاوي: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر:٨١] يعني: آيات الكتاب المنزل على نبيهم أو معجزاته المتضمنة في الناقة من سقيها وشربها وغيره، أو ما نصب لهم من الأدلة[3].

وبعد أن أخرج الله لهم الناقة بالكيفية التي طلبوها طلب منهم صالح عليه السلام الوفاء بعهدهم و مواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم في أمور منها:

أولًا: الإيمان بالله جل جلاله ونبذ عبادة الأوثان والتصديق برسالة صالح.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣].

فاقتران الدعوة إلى التوحيد بالإشارة إلى الناقة يدل على أنه طلب منهم الإيمان عقب مجيئها.

ثانيًا: تقسيم الماء بينهم وبين الناقة، فلقوم صالح عليه السلام يوم وللناقة يوم، في يومهم لا ترد الناقة الماء، فيأخذون ما يكفيهم ويكفي بهائمهم، وفي يوم الناقة لا يردون الماء.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء:١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر:٢٨].

كما حذرهم صالح عليه السلام من نقص حصة الناقة من الماء، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس:١٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ولا تعتدوا عليها يوم سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٥٣١.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٧٧، روح المعاني، الألوسي، ١٠/ ٦٠.
(٣) أنوار التنزيل، ١/ ٥٣٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٢.

ثالثًا: أن لا تمس الناقة بأي سوء، وقد حذرهم من مساس الناقة بسوء تحذيرًا صارمًا واضحًا، ونبههم بأنه يستدعي العذاب العاجل.

قال تعالى حكاية عن سيدنا صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣].

فقد اقتصر النهي في هذه الآيات عن مس الناقة بسوء، فلم ينههم عن عقرها أو قتلها.

وفي ذلك لطيفة عبر عنها ابن عاشور بقوله: «وأنيط النهي بالمس بالسوء؛ لأن المس يصدق على أقل اتصال شيء بالجسم، فكل ما ينالها مما يراد منه السوء فهو منهي عنه»[(١)].

وقد كان خروج الناقة ابتلاء لثمود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر:٢٧].

فهي ابتلاء لثمود أيؤمنون بصالح عليه السلام كما وعدوه بذلك، أم ينكصون ويكفرون؟

وكان الابتلاء عدم مساسهم بالناقة بسوء وتقسيم الشرب بينهم. أما صالح عليه السلام، فقد أمر أن ينتظر، يرتقب ما يؤول إليه أمرهم بعد هذا الامتحان، وأن يصبر عليهم حتى يأتي الفرج من الله. إلا أن قوم ثمود خسروا الامتحان و نكثوا العهد و أصروا على الكفر والتكذيب وبذلك حكموا على أنفسهم باستحقاق العذاب، وكذلك عتوا في الضلال والعناد وضاقوا ذرعًا بالناقة ويوم شربها، وكبر عليهم رؤيتها تجوب، وديانهم وحقولهم شاهدة على قدرة الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الشعراء: ١٥٧-١٥٨].

والربط بين عقر الناقة وهلاك القوم (بالفاء) في هذه الآيات كلها يدل دلالة واضحة على أن عقرها كان السبب المباشر لهلاكهم[(٢)].

والعقر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف[(٣)].

وأطلق العقر مكان النحر من باب إطلاق

(١) انظر: التحرير و التنوير، ابن عاشور، ٩/ ٢٩١.

(٢) انظر: أسباب هلاك الأمم، سعيد بابا سيلا، ٤٠٣.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٣٠٣٥.

اسم المسبب على السبب[1].

وعلى الرغم من استجابة سيدنا صالح عليه السلام لقومه في إخراج الناقة من الصخرة، وتحذيره لهم، فإنهم كانوا قومًا مفسدين، فلم يستجيبوا لنداء الله تعالى ولا لتحذير رسوله فعقروا هذه الناقة.

ويأتي البيان الإلهي ليصف هذا التعدي على حدود الله وعاقبة ذلك. لنتأمل الآيات الثلاث الآتية:

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

فهذه الآية تحدثت عن وعد صالح عليه السلام لهم بالعذاب جزاء فعلتهم.

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الشعراء:١٥٧].

ثم تأتي هذه الآية لتعبر عن ندمهم لأنهم أدركوا أن العذاب واقع لا محالة.

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس:١٤].

وفي هذه الآية الثالثة جاء التصريح بوقوع العذاب مباشرة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾. إذن جاء التدرج الزمني للأحداث عبر الآيات الثلاث من الوعد بالعذاب إلى اقتراب هذا العذاب حيث لا ينفع الندم، وأخيرًا وقوع هذا العذاب.

ومع أن هذه الآيات متباعدة من حيث النزول ومن حيث الترتيب في القرآن، فقد جاءت متناسقة ومتدرجة، وتعبر تعبيرًا دقيقًا عن حقيقة هذه القصة.

وقد أسند العقر إلى قوم صالح عليه السلام جميعًا مع أن الذي باشره شخص واحد منهم، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس:١١-١٢].

وذلك لأنهم كلهم كانوا متواطئين على عقرها راضين به.

قال الطبري رحمه الله: «عن رضا جميعهم قتلها قاتلها وعقرها من عقرها، ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم»[2].

وقد سعى في قتل الناقة تسعة رجال من ثمود كانوا يحرضون من قتلها يدفعونه دفعًا.

قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر:٢٩].

وبهذا فالقبيلة مشتركة في قتلها جميعًا لا ذلك الرجل العارم[3]، ولا التسعة

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٦٥.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٥/ ١٤.
وانظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٧٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٣، مفاتيح الغيب ٧/ ١٧٢.

(٣) العارم: هو الشرير المفسد الخبيث، وقيل: القوى الشرس.
انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٨٨،

المفسدون.

قال الطبري رحمه الله تعالى: إن الذي عقر الناقة أشقى ثمود يسمى قدار بن سالف، وكان أحد التسعة المفسدين الذين قال تعالى فيهم [1]: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل:٤٨].

و قد جاءت صفته في الحديث الصحيح الذي ذكره الإمام البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: (خطب رسول الله صلى الله عليه و سلم، فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ انبعث لها رجل عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة)[2] الذي ظن أن منعته في قومه تحميه من العذاب الموعود به على عقر الناقة.

فكانت جريمته هذه والتي مالأه عليها قومه سببًا في إنزال الهلاك بهم، فآتاهم الله سبحانه وتعالى بعذاب الصيحة، فهي صيحة واحدة قطعت نياط قلوبهم، و تركتهم أجسادًا هامدة.

أما ولد الناقة فيقال: إنهم ذبحوه مع أمه .

وقال آخرون: إنه دخل في صخرة، فغاب فيها، والله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وبلغ الخبر صالحًا، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود:٦٥].

[انظر: ثمود: موقف قوم ثمود من رسولهم عليه السلام]

النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٢٣.

(١) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٥٦١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾، ٦/ ١٦٩، رقم، ٤٩٤٢.ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، ٤/ ٢١٩١، رقم ٢٨٥٥.

نجاة صالح عليه السلام

أولًا: سيدنا صالح عليه السلام يطلب من قومه الاستغفار والتوبة:

يقول تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۖ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١] فإن ما خصكم الله تعال من فنون الإحسان داعٍ إلى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح [(١)].

فللاستغفار آثارٌ عقديةٌ وثمارٌ إيمانيةٌ جليلةٌ: منها: إنابة العبد إلى ربه، واعترافه بذنبه وإقراره بـ(أن له ربًا يغفر الذنوب)، وتنشأ فيه تربية الخشوع والخضوع في نفسه، ويذوق به حلاوة تلذذه بالتذلل بين يدي ربه.

ويعتبر بسر وجوده والإنشاء من الأرض، فيعلم أن وجوده من وجود خلق أبيه آدم عليه السلام من الأرض؛ لأن إنشاءه إنشاء لنسله، وإنما ذكر تعلق خلقهم بالأرض لأنهم كانوا أهل غرس وزرع، كما قال في: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء ١٤٦ - ١٤٨].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٦٣.

ولأنهم كانوا ينحتون من جبال الأرض بيوتًا، ويبنون في الأرض قصورًا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف:٧٤].

فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض، فلأجل منافعهم في الأرض قيدت نعمة الخلق بأنها من الأرض التي أنشئوا منها، ولذلك عطف عليه: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

ثانيًا: قوم صالح يسعون في قتل رسولهم:

بعد عقر قوم ثمود للناقة، عزم أولئك النفر التسعة على قتل صالح وسعوا في تنفيذ ذلك فجاءوه ليلًا ليفتكوا به، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم حجارة فقتلتهم قبل قومهم. فأحبط الله بذلك مخططات القوم الكافرين وخدعتهم، وأنقذ صالحًا من بين يدي من أرادوا به سوءًا [(٢)].

وبقي قومه على إعراضهم وعدم رغبتهم في الاستجابة له، أخبرهم بما سيصيبهم من هلاك خلال ثلاثة أيام: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

(٢) التفسير القرآني للقرآن الكريم، عبد الكريم الخطيب ١/ ٧٧.

وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة الثلاث، ووجوههم كانت مصفرة، كما وعدهم صالح عليه السلام.

وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة، ووجوه كانت محمرة.

وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة.

فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب ومع الشروق، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت الأنفس في ساعة واحدة[1]، لم تبق منهم باقية.

يقول تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:٦٧-٦٨].

فصاروا صرعى لا أرواح فيهم. ولم يفلت منهم أحدًا، لا صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى؛ إلا جارية واحدة كانت مقعدة، اسمها: كلبة ابنة السلق[2].

وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب أسرعت تسعى إلى قومها، فأتت حيًا من الأحياء، فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت[3].

ثالثًا: نجاة سيدنا صالح عليه السلام من غدر قومه:

أما إنجاء الله تعالى نبيه صالحًا، ومن آمن به وإهلاكه ثمود، فقد أوضحه جل وعلا في مواضع من كتابه؛ كقوله في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:٦٦-٦٨].

وآيات سورة هود هذه، قد بينت أيضًا التدمير المجمل في آية سورة النمل هذه، فالتدمير المذكور في قوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل:٥١].

بينت آية سورة هود أنه الإهلاك بالصيحة، في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: وهم موتى.

وأما كونه جعل إهلاكه إياهم آية، فقد أوضحه أيضًا في غير هذا الموضع؛ كقوله

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٧٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ٤٤٢.

تعالى فيهم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الشعراء: ١٥٧-١٥٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل:٥١] يعني: أهلكناهم، أي: التسعة.

قال ابن عباس: أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتت التسعة دار صالح شاهرين سلاحهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة وهم يرون الحجارة ولا يرون الملائكة، فقتلتهم وأهلك الله جميع القوم بالصيحة وقومهم أجمعين، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بظلمهم وكفرهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي قدرتنا وأنجينا الذين آمنوا[1].

الدروس المستفادة من قصته عليه السلام

١. إن الهدف من قصص الأنبياء وأممهم في القرآن الكريم، جاء من أجل العظة والعبرة.

التي يجب أن يتلمسها الإنسان في أخبار الأمم الماضية، وأن يتدبر ويتمعن في نتائجها. قد لفت الله عز وجل أنظار البشر لأعمال وآثار الماضين منهم، بهدف التأمل والاتعاظ بما حل بتلك الأقوام من كوارث أصابتهم، وما نزل عليهم من العذاب، بسبب جحودهم وإعراضهم عن الإيمان وتكذيب رسلهم.

٢. تقوى الله تعالى هي وصية الرسل الكرام.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٤].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الشعراء:١٦٠-١٦١].

وهي وصية السلف الصالح رضوان الله عليهم، فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في خطبته: «أما بعد، فإني

(١) لباب التاويل، الخازن، ٣/ ٣٥٠.

أوصيكم بتقوى الله»، ولما حضرته الوفاة، وعهد إلى عمر رضي الله عنه دعاه فوصاه بوصيته قائلًا: (اتق الله يا عمر..)، وكتب عمر رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله: «أما بعد فإني، أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنه من اتقاه وقاه، واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك».

٣. إن من تولوا السعي في عقر الناقة من قوم صالح تسعة، ولكن الله أهلك بسببهم خمسة آلاف بيت.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥٠-٥١].

وذلك لأن بقية القوم راضون على فعلهم وسكتوا عنهم، ولم يأخذوا على أيديهم.

٤. الصراع بين الحق والباطل لا ينتهي إلا بانتهاء الباطل.

وأن العمل بمعاصي الله تعالى هو الفساد في الأرض، والعمل بطاعته هو الإصلاح في الأرض.

٥. بيان قدرة الله في إهلاك الأمم العاتية والشعوب الظالمة.

وهو ما أنكره أهل مكة. كما يجب التحذير من عذاب الله ونقمته، فإنه تعالى بالمرصاد فليحذر المنحرفون عن سبيل الله والحاكمون بغير شرعه والعاملون بغير هداه أن يصب عليهم سوط عذاب.

٦. في ذكر قصص الأمم السابقة تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه إذ كذبت قبل قريش ثمود وغيرها من الأمم، كأصحاب مدين وقوم لوط وفرعون.

٧. في ذكر قصص الأمم المهلكة عبرة وعظة للدعاة في تحمل الأذى ودعاوى المدعوين وتكذيبهم، وأن معية الله تعالى في وعده ووعيده لا يتخلفان عن نصرة الحق، بإهلاك المكذبين أو انتصار الدعاة.

٨. بقاء بيوت الظالمين خاوية، لتكون آية وعبرة للمعتبرين.

ويجب أن تكون زيارتها سببًا في استحضار سبب الهلاك والتدمير الذي حاق بهم بسبب تكذيبهم وظلمهم لأنفسهم، وعلى المسلم أن يكون دائم الوعي بسنن الله في هلاك الأمم ليتجنبها.

موضوعات ذات صلة:

ثمود، شعيب عليه السلام، عاد، مدين، هود عليه السلام، نوح عليه السلام

الصَّبْر

عناصر الموضوع

مفهوم الصبر في القرآن	٢٠٢
الصبر في الاستعمال القرآني	٢٠٣
الالفاظ ذات الصلة	٢٠٤
الأسلوب القرآني في الحث على الصبر	٢٠٦
مجالات الصبر ومظاهره	٢٤٢
ثمرات الصبر	٢٥٤

مفهوم الصبر في القرآن

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل الصَبْر في اللغة الحَبْس، وكل من حَبَس شيئًا فقد صَبَرَه، والمَصبُورة التي نُهِي عنها هي المَحْبُوسَة على المَوْت، وكل ذي روح يُصْبَر حيًا، ثم يُرْمَى حتى يُقْتَل فقد قُتِل صبرًا[(١)].

قال ابن فارس: «الصبر: الصاد والباء والراء أصولٌ ثلاثة: الأول: الحبس، والثاني: أعالي الشيء، والثالث: جنس من الحجارة، وقد اشتق الصبر المراد هنا من المعنى الأول، وهو الحبس، يقال: صبرت نفسي على ذلك الأمر، أي: حبستها»[(٢)].

وقال الراغب: «الصبر: الإمساك في ضيق، يقال: صبرت الدابة بمعنى حبستها بلا علف»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه»[(٤)].

وقيل: «هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش»[(٥)].

وقال الجرجاني: «هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله إلا إلى الله»[(٦)].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٣٧.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٢٩.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٦٥.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٦٥.
(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٥٦.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص١٧٢.

الصبر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ص ب ر) في القرآن الكريم (١٠٣) مرات [(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٢	﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل:٤٢]
الفعل المضارع	١١	﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:٢٥]
فعل الأمر	٢٩	﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف:١٢٨]
المصدر	١٥	﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٨]
اسم الفاعل	٢٢	﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف:٦٩]
صيغة المبالغة	٤	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم:٥]

وجاء الصبر في القرآن على وجهين [(٢)]:

الأول: حبس النفس: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. وهو الأعم في القرآن.

الثاني: الجرأة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]. يعني: فما أجرأهم على النار.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٩٩-٤٠١.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٠١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحلم:

الحلم لغة:

الأَناة، والتثبُّت فِي الأُمور[١].

الحلم اصطلاحًا:

ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب[٢].

الصلة بَين الصَبْر والحلم:

أَن الْحلم هُوَ الْإِمْهَال بِتَأْخِير الْعقَاب الْمُسْتَحق والحلم من الله تعالى من العصاة فِي الدُنْيَا فعل يُنَافِي تَعْجِيل الْعقُوبَة من النِعْمَة والعافية، وَلَا يَصح الْحلم إِلَّا مِمَن يقدر على الْعقُوبَة، وَمَا يجْرِي مجْراهَا من التَأْدِيب بِالضَرْبِ[٣]. أما الصبر فهو حبس النفس عن الجزع والتسخط.

٢ الاحتمال:

الاحتمال لغة:

الِاحْتِمَالُ الْغَضَبُ. يُقَالُ احْتُمِلَ، إِذَا غَضِبَ. واحْتَمَلَهُ الْغَضَبُ، وَأَقَلَهُ الْغَضَبُ، وَذَلِكَ إِذَا أَزْعَجَهُ[٤].

الاحتمال اصطلاحًا:

إتعاب الْبدن فِي الْحَسَنَات[٥].

الصلة بَين الصَبْر وَالِاحْتِمَال:

أَن الِاحْتِمَال للشَيْء يُفِيد كظم الغيظ فِيهِ، وَالصَبْر على الشدَة يُفِيد حبس النَفس عن الْمُقَابلَة عَلَيْهِ بالْقَوْل وَالْفِعْل،

وَالصَبْر عَن الشَيْء يُفِيد حبس النَفس عَن فعله[٦].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٤٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٠٠.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٠٦.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص١٢.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٠٠.

٣ الجزع:

الجزع لغة:

الْجَزَعُ: نَقِيضُ الصَبْرِ، وَهُوَ انْقِطَاعُ الْمُنَةِ عَنْ حَمْلِ مَا نَزَلَ[١].

الجزع اصطلاحًا:

والجزع إِظْهَار مَا يلْحق الْمُصَاب من المضض[٢].

الصلة بين الصبر والجزع:

الصبر حبس النفس لمصادفة المكروه، وصبر الرجل: حبس نفسه عن إظهار الجزع، والجزع إظهار ما يلحق المصاب من المضض والغم[٣].

٤ السخط:

السخط لغة:

الْكَرَاهِيَةُ لِلشَيْءِ، وَعَدَمُ الرِضَا بِهِ[٤].

السخط اصطلاحًا:

الغضب الشديد المقتضي للعقوبة[٥].

الصلة بين الصبر والسخط:

الصبر: هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله، أما السخط فهو الغضب الشديد المقتضي للعقوبة، ولا يكون إلا من الكبير على الصغير، يقال: سخط الأمير على الحاجب، ولا يقال: سخط الحاجب على الأمير، والسخط إذا عديته بنفسه؛ فهو خلاف الرضا[٦].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس١/ ٤٥٣.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٠١.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٠٠.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣١٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٢.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص٣٨٦.

الأسلوب القرآني في الحث على الصبر

أولًا: أسلوب الطلب:

ورد الصبر في القرآن بأساليب متنوعة فتارة يكون بأسلوب الأمر الصريح للنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنين، وتارة يكون بالنهي عن ضد الصبر:

١. الأمر بالصبر.

ورد في آيات متعددة منها قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال الحسن البصري رحمه الله: «أمروا أن يصبروا على دينهم، الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضراءَ، ولا لشِدَة ولا لرِخَاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، وكذلك قال غير واحد من علماء السلف»[(١)]، وقال أبو حيان: «ختم الله تعالى هذه السورة بهذه الوصاية، التي جمعت الظهور في الدنيا على العدو، والفوز بنعيم الآخرة، فأمره تعالى بالصبر والمصابرة والرباط، فقيل: اصبروا وصابروا بمعنى واحد للتأكيد، وقال الحسن، وقتادة، والضحاك، وابن جريج: اصبروا على طاعة الله في تكاليفه، وصابروا أعداء الله في الجهاد، ورابطوا في الثغور في سبيل الله، أي: ارتبطوا الخيل كما يرتبطها أعداؤكم، وقال أبي، ومحمد بن كعب القرظي: هي مصابرة وعد الله بالنصر، أي: لا تسأموا وانتظروا الفرج، وقيل: رابطوا، استعدوا للجهاد كما قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]»[(٢)].

وقال البغوي رحمه الله: «قال الحسن: اصبروا على دينكم، ولا تدعوه لشدة ولا رخاء، وقال قتادة: اصبروا على طاعة الله، وقال الضحاك ومقاتل بن سليمان: على أمر الله، وقال مقاتل بن حيان: على أداء فرائض الله تعالى، وقال زيد بن أسلم: على الجهاد، وقال الكلبي: على البلاء، وصابروا يعني: الكفارَ، ورابطوا يعني: المشركين، قال أبو عبيدة: أي: داوموا واثبتوا، والربطُ الشَدُ، وأصل الرباط أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم، ثم قيل: لكل مقيم في ثغر يدفعُ عمن وراءه، وإن لم يكن له مركب»[(٣)].

والصبر يدخل تحته أنواع: الصبر على مشقة النظر والاستدلال على الطاعات، وعلى الاحتراز عن المنهيات، وعلى شدائد الدنيا من الفقر، والقحط والخوف، وأما

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٩٥.

(٢) البحر المحيط ٣/ ١٥٦ بتصرف يسير.

(٣) معالم التنزيل ٢/ ١٥٦.

المصابرة فهي تحمل المكاره الواقعة بينه وبين غيره، كتحمل الأخلاق الرديئة من أهله وجيرانه، وترك الانتقام، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وإيثار الغير على نفسه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقوله: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] من الجناس اللفظي[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

قال الإمام البغوي رحمه الله في قوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٧]: «بتعذيب المكذبين وإنجاء المصدقين»[(٢)].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وحكم الله أريد به حكم في الدنيا، بإظهار أثر غضبه على أحد الفريقين، ورضاه على الذين خالفوهم؛ فيظهر المحق من المبطل، وهذا صدر عن ثقة شعيب عليه السلام بأن الله سيحكم بينه وبين قومه، استنادًا لوعد الله إياه بالنَّصْر على قومه، أو لعلمه بسنة الله في رسله ومَن كذبهم، بإخبار الله تعالى إياه بذلك، ولولا ذلك؛ لجاز أن يتأخر الحكم بين الفريقين إلى يوم الحساب، وليس هو المراد من كلامه؛ لأنه لا يناسب قوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ إذا كان خطابًا للفريقين، فإن كان خطابًا للمؤمنين خاصة؛ صح إرادة الحُكمين جميعًا، وأدْخَل نفسه في المحكوم بينهم بضمير المشاركة؛ لأن الحكم المتعلق بالفريق الذين آمنوا به يعتبر شاملًا له؛ لأنه مؤمن برسالة نفسه، وجملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ تذييل بالثناء على الله؛ بأن حكمه عَدْل محض، لا يحتمل الظلم عَمدًا ولا خطأ، وغيره من الحاكمين يقع منه أحد الأمرين أو كلاهما»[(٣)].

وقال صاحب اللباب: «قوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ يجوز أن يكون الضمير للمؤمنين من قومه، وأن يكون للكافرين منهم، وأن يكون للفريقين، وهذا هو الظاهر أمر المؤمنين بالصبر ليحصل لهم الظفر والغلبة، والكافرون مأمورون به لينصر الله عليهم المؤمنين لقوله: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ [الطور: ٣١]. أو على سبيل التنازل معهم أي: اصبروا؛ فستعلمون من ينتصر، ومن يغلب مع علمه بأن الغلبة له»[(٤)].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي الحنبلي ٦/ ١٣٥.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٥٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٤٥٥.
وانظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٤٨، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٤٨.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي الحنبلي ٩/ ٢١٤.

والشوكاني رحمه الله يرى أن هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم، وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر، وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين ومثله قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢][(١)].

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

يخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية بأن نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام خاطب قومه بهذا الخطاب؛ تطمينًا لقلوبهم، وتعليمًا لهم بنصر الله إياهم؛ لأنه علم ذلك بوحي الله إليه حين توعده فرعون، قال أبو حيان رحمه الله: «لما توعدهم فرعون جزعوا وتضجروا؛ فسكنهم موسى عليه السلام وأمرهم بالاستعانة بالله وبالصبر، وسلاهم، ووعدهم النصر، وذكرهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط، وتوريثهم أرضهم وديارهم، ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾»[(٢)].

وقال التستري: «أمرهم أن يستعينوا بالله على أمر الله؛ فيقهروا ما فيها، ويستولوا عليها وعلى مخالفتها، وأن يصبروا على ذلك تأدبًا»[(٣)].

قال الماوردي رحمه الله: «قوله عز وجل: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه أمرهم بذلك؛ تسلية لهم من وعيد فرعون، كما يقول من نالته شدة: استعنت بالله.

والثاني: أنه موعد منه بأن الله سيعينهم على فرعون إن استعانوا به.

ثم قال: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: واصبروا على ما أنتم فيه من الشدة طمعًا في ثواب الله.

والثاني: أنه أمرهم بالصبر انتظارًا لنصر الله»[(٤)].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: أطيعوا أيها المؤمنون ربكم ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تخالفوهما في شيء، ولا تختلفوا؛ فتفرقوا، وتختلف قلوبكم ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ يقول: فتضعفوا وتجبنوا، ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾، وإنما يراد به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم؛ فتضعفوا

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٢٧.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٦٧.
(٣) تفسير التستري، ١/ ٦٧.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٤٩.

ويدخلكم الوهن والخلل، ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ مع نبي الله صلى الله عليه وسلم عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنه وتتركوه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، يقول: اصبروا فإني معكم»[1].

وقال القرطبي رحمه الله: «بأن هذا أمر بالصبر، وهو محمود في كل المواطن وخاصة موطن الحرب، كما قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥]»[2].

وفي هذه الآية تعليم من الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥][3].

وثبت عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: (يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم؛ فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[4].

وقال ابن كثير رحمه الله: «فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا، ولا ينكلوا، ولا يَجْبُنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال، ولا ينسوه، بل يستعينوا به، ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا؛ فيختلفوا؛ فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم، وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة، والائتمار بأمر الله، وامتثال ما أرشدهم إليه، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم»[5].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

هذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يتمسك بما أنزل الله عليه، وأوحاه إليه، ويصبر على مخالفة من خالفه من الناس؛ حتى يفتح الله بينه وبينهم، وهو سبحانه خير الفاتحين بعدله وحكمته[6].

وقال القرطبي رحمه الله: «معناه اصبر

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥٧٥، بتصرف يسير.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٤، بتصرف يسير.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، رقم ٢٨٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، رقم ١٧٤٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٢.
(٦) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٠١.

على الطاعة وعن المعصية»[1].

وحكم الله في هذه الآية لم يبينه، وقد بينه في آيات كثيرة، قال الشنقيطي رحمه الله: «لم يبين هنا ما حكم الله به بين نبيه وبين أعدائه، وقد بين في آيات كثيرة أنه حكم بنصره عليهم، وإظهار دينه على كل دين، كقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إلى آخر السورة.

وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] إلى آخرها.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ الآية [الرعد: ٤١].

إلى غير ذلك من الآيات»[2].

وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بإخوانك المرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]»[3].

والأمر بالصبر للنبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية على القيام بأمر الله، وتبليغ الرسالة، وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح عليه الصلاة والسلام، ووعده بأن عاقبة الصبر هي النصر في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة، وهي أمر لأتباعه صلى الله عليه وسلم خاصة الدعاة إلى الله عز وجل، فإن عليهم أن يقوموا بواجب الدعوة إلى الله عز وجل وتبليغ دينه والعاقبة للمتقين.

قال ابن عطية رحمه الله في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾: «أي: فاجتهد في التبليغ، وجِدَّ في الرسالة، واصبر على الشدائد، واعلم أن العاقبة لك، كما كانت لنوح في هذه القصة»[4].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: واصبر، يا محمد، على ما تلقى من مشركي قومك من الأذى في الله والمكروه؛

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٨٩، بتصرف يسير.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٦٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢٨.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٩٤.

رجاءَ جزيل ثواب الله على ذلك، فإن الله لا يضيع ثوابَ عمل من أحسن؛ فأطاع الله، واتبع أمره؛ فيذهب به، بل يوَفره أحوجَ ما يكون إليه»[1].

وقال البيضاوي رحمه الله: «﴿وَٱصْبِرْ﴾ على الطاعات وعن المعاصي، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عدول عن الضمير؛ ليكون كالبرهان على المقصود، ودليلًا على أن الصلاة والصبر إحسان، وإيماء بأنه لا يعتد بهما دون الإخلاص»[2].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم، بأحسن ما كانوا يعملون، وفي هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله، كلما ونت وفترت»[3].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدر ذلك، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي: غم ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: مما يجهدون أنفسهم في عداوتك، وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومُظْفِرك بهم»[4].

وقال البغوي رحمه الله في قوله: «﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بمعونة الله وتوفيقه، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ في إعراضهم عنك، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: فيما فعلوا من الأفاعيل»[5].

وصرح الله تبارك وتعالى بالأمر بالصبر في هذه الآية لرسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أولى الناس به لزيادة علمه بالله ووثوقه عليه»[6].

ويقول ابن سعدي رحمه الله: «أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولًا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئًا، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي: شدة وحرج ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فإن مكرهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين»[7].

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٢٦.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٥١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٩١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦١٥.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥٤.
(٦) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٤٥، البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٩٦.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥٢.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشيًا من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، يقال: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢].

وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٢٨]»[(١)].

وقال الشنقيطي رحمه الله: «أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة: أن يصبر نفسه، أي: يحبسها مع المؤمنين الذي يدعون ربهم أول النهار وآخره، مخلصين له، لا يريدون بدعائهم إلا رضاه جل وعلا، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين كعمار، وصهيب، وبلال، وابن مسعود ونحوهم، لما أراد صناديد الكفار من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطردهم عنه، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين، وأن الله كما أمره هنا بأن يصبر نفسه معهم أمره بألا يطردهم، وأنه إذا رآهم يسلم عليهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]»[(٢)].

وقال الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال الطبري رحمه الله: «وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ يقول: فالزم طاعته، وذل لأمره ونهيه ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ يقول: واصبر نفسك على النفوذ لأمره ونهيه، والعمل بطاعته؛ تفز برضاه عنك، فإنه الإله الذي لا مثل له، ولا عدل، ولا شبيه في جوده وكرمه وفضله»[(٣)].

وقال القرطبي رحمه الله في قوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾: «أي: لطاعته، ولا تحزن لتأخير الوحي عنك، بل اشتغل بما أمرت به، وأصل اصطبر: اصتبر؛ فثقل الجمع بين التاء والصاد؛ لاختلافهما؛ فأبدل من التاء

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٢.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٢٦.

طاء»[1].

وقال ابن عاشور: «والخطاب في ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم، والاصطبار: شدة الصبر على الأمر الشاق؛ لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل، وكان الشأن أن يعدى الاصطبار بحرف على كما قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾[طه: ١٣٢].

ولكنه عدي هنا باللام؛ لتضمينه معنى الثبات، أي اثبت للعبادة؛ لأن العبادة مراتب كثيرة من مجاهدة النفس، وقد يغلب بعضها بعض النفوس؛ فتستطيع الصبر على بعض العبادات دون بعض منها، قال النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة العشاء: (هي أثقل صلاة على المنافقين)[2]، فلذلك لما أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلها، وفيها أصناف جمة تحتاج إلى ثبات العزيمة، نزل القائم بالعبادة منزلة المغالب لنفسه؛ فعدي الفعل باللام كما يقال: اثبت لعداتك»[3].

وقال السمرقندي رحمه الله: «﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ أي: أطعه، ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ يعني: احبس نفسك على عبادته»[4].

وقال البغوي رحمه الله: «أي: اصبر على أمره ونهيه»[5].

وقال القشيري: بأن الاصطبار نهاية الصبر، وأن من صبر ظفر، ومن لازم وصل[6].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: اصبر نفسك عليها وجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها، بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتهيات»[7].

وقال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

يقول الطبري رحمه الله: «يقول جل ثناؤه لنبيه: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله من قومك لك إنك ساحر، وإنك مجنون وشاعر ونحو ذلك من القول»[8].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٣٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم ٦٥١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٦٤.
(٤) تفسير السمرقندي، ٢/ ٣٨٢.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٤٤.
(٦) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ١٥.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٨.
(٨) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٠٠.
وقال رحمه الله في موضع آخر ٢٢/ ٣٧٦: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (فَاصْبِرْ) يا محمد على ما يقول هؤلاء

وقال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أمره بالصبر على ما يقوله المشركون، أي: هَوِنْ أمرهم عليك، وقيل: معناه: فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم: إن الله استراح يوم السبت»[1].

وقال أبو حيان رحمه الله: «أمره تعالى بالصبر على ما يقول مشركو قريش، وهم الذين عاد الضمير عليهم في ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [طه: ١٢٨].

وكانوا يقولون أشياء قبيحة مما نص الله عنهم في كتابه، فأمره تعالى بالصبر على أذاهم والاحتمال لما يصدر من سوء أخلاقهم، وأمره بالتسبيح والحمد لله، و﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع الحال، أي وأنت حامد لربك»[2].

قال ابن سعدي رحمه الله: «هذا تسلية للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم، ولزومه لهم؛ لأن الله جعل العقوبات سببًا وناشئًا عن الذنوب، ملازمًا لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبّان وقتها، ولعلهم يراجعون أمر الله؛ فيتوبَ عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحقَ عليهم الكلمة، ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه، في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس وغروبها، وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك؛ ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم؛ فيخف حينئذ عليك الصبر»[3].

وقال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

يقول الطبري رحمه الله: «قوله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأْمُرْ﴾ يا محمد ﴿أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ يقول: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ يقول: لا نسألك مالًا، بل نكلفك عملًا ببدنك، نؤتيك عليه أجرًا عظيمًا، وثوابًا جزيلًا يقول: ﴿نَّحْنُ

اليهود، وما يفترون على الله، ويكذبون عليه، فإن الله لهم بالمِرصاد».

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٤، بتصرف يسير.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٦/ ٢١٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١٦.

﴿نَرْزُقُكَ﴾ نحن نعطيك المال ونُكْسِبُكَهُ، ولا نسألُكَه، وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يقول: والعاقبة الصالحة -مِن عملِ كلِ عاملٍ- لأهل التقوى والخشية من الله، دون من لا يخاف له عقابًا، ولا يرجو له ثوابًا»[1].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: اسْتَنْقِذْهم من عذاب الله؛ بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]»[2].

وقد ورد الثناء على إسماعيل عليه الصلاة والسلام لأمره أهله بالصلاة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن ينذر عشيرته وقرابته، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وأمر سبحانه بوقاية النفس والأهل من نار جهنم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ الآية [التحريم: ٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملا فتأكلهم النار يوم القيامة»[3].

وقال البغوي رحمه الله: «﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي اصبر على الصلاة؛ فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر»[4].

وقال السمرقندي رحمه الله في قوله: «يعني: اصبر على ما أصابك فيها من الشدة»[5].

وقد تقدم كلام ابن عاشور رحمه الله على الآية كما في قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ في سورة مريم.

قال ابن سعدي رحمه الله: «﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإن ذلك شاق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائمًا، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: رزقك علينا قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية،

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٠٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٢٧.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٤٠.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٣٠٤.
(٥) تفسير السمرقندي، ٢/ ٤١٨.

وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ التي هي فعل المأمور، وترك المنهي، فمن قام بها، كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]»[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

قال الطبري رحمه الله: «وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فاصبر يا محمد لأمر ربك، وانفذ لما أرسلك به من الرسالة، وبلِغ قومك ومن أمرت بإبلاغه ما أنزل إليك، وأيقن بحقيقة وعد الله الذي وعدك من نصرتك، ونصرة من صدقك وآمن بك، على من كذبك، وأنكر ما جئته به من عند ربك، وإن وعد الله حق لا خلف له، وهو منجز له ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يقول: وسله غفران ذنوبك، وعفوه لك عنها، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقول: وصل بالشكر منك لربك ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ وذلك من زوال الشمس إلى الليل ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وذلك من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وقد وجه قوم الإبكار إلى أنه من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى، وخروج وقت الضحى، والمعروف عند العرب القول الأول»[(٢)].

وقال رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فاصبر يا محمد على ما يجادلك به هؤلاء المشركون في آيات الله التي أنزلناها عليك، وعلى تكذيبهم إياك، فإن الله منجِز لك فيهم ما وعدك من الظفر عليهم، والعلو عليهم، وإحلال العقاب بهم، كسنتنا في موسى بن عمران ومن كذبه ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾، يقول جل ثناؤه: فإما نرينك يا محمد في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين، من العذاب والنقمة أن يحل بهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن يَحِلَّ ذلك بهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يقول: فإلينا مصيرك ومصيرهم؛ فنحكم عند ذلك بينك وبينهم بالحق بتخليدنا هم في النار، وأكرمناك بجوارنا في جنات النعيم»[(٣)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٠٣.

(٣) المصدر السابق ٢١/ ٤١٨.

لك ما وعدك من نصره إياك، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة»[1].

وقال القرطبي رحمه الله في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: «أي: اصبر على أذاهم فإن الله ينصرك ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يستفزنك عن دينك، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته يقال: استخف فلان فلانا أي: استجهله حتى حمله على اتباعه في الغي، وهو في موضع جزم بالنهي، أكد بالنون الثقيلة؛ فبني على الفتح، كما يبنى الشيئان إذا ضم أحدهما إلى الآخر»[2].

وحذف متعلق الأمر بالصبر لدلالة المقام عليه، أي اصبر على تعنتهم، وجملة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ تعليل للأمر بالصبر، وهو تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم بتحقيق وعد الله من الانتقام من المكذبين ومن نصر الرسول عليه الصلاة والسلام، والحق: مصدر حَقَّ يَحِق بمعنى ثبت، فالحق: الثابت الذي لا ريب فيه ولا مبالغة، والاستخفاف: مبالغة في جعله خفيفًا، فالسين والتاء للتقوية مثلها في نحو: استجاب واستمسك، وهو ضد الصبر.

والمعنى: لا يحملنك على ترك الصبر، والخفة مستعارة لحالة الجزع وظهور آثار الغضب»[3].

وقال الشوكاني رحمه الله: «ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على الأذى فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل؛ إن وعد الله الذي وعد به رسله حق لا خلف فيه، ولا شك في وقوعه كما في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]»[4].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

قال الطبري رحمه الله: «﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقول: واصبر على ما أصابك من الناس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر، ولا يصدنك عن ذلك ما نالك منهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يقول: إن ذلك مما أمر الله به من الأمور عزما منه»[5].

وقال القرطبي رحمه الله في هذه الآية ثلاث مسائل: «الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٤٩، بتصرف.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٨٤، بتصرف يسير.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧٠٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٤٢.

﴿عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًا على تغيير المنكر -وإن نالك ضرر-، فهو إشعار بأن المغير يؤذى أحيانًا، وهذا القدر على جهة الندب والقوة في ذات الله، وأما على اللزوم، فلا، وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل، وهذا قول حسن؛ لأنه يعم، الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره، وقيل: إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من عزم الأمور، أي: مما عزمه الله، وأمر به، قاله ابن جريج، ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، وقول ابن جريج أصوب»[1].

وقال البغوي رحمه الله: «﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يعني من الأذى، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يريد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى فيهما، من الأمور الواجبة التي أمر الله بها، أو من الأمور التي يُعْزم عليها لوجوبها»[2].

وقال الماوردي في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾: «يحتمل وجهين:

أحدهما: على ما أصابك من الأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثاني: على ما أصابك من البلوى في نفسك أو مالك.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: ما أمر الله به من الأمور.

الثاني: من ضبط الأمور، قاله المفضل.

الثالث: من قطع الأمور»[3].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

قال البغوي رحمه الله: «أي: انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب، يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتكم، أي: اثبتوا على عبادة آلهتكم، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: لأمر يراد بنا، وذلك أن عمر لما أسلم وحصل للمسلمين قوة بمكانه قالوا: إن هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لشيء يراد بنا»[4].

وقال الماوردي رحمه الله في قوله: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾: «فيه وجهان:

أحدهما: اتركوه واعبدوا آلهتكم.

الثاني: امضوا على أمركم في المعاندة، واصبروا على آلهتكم في العبادة، والعرب تقول: امش على هذا الأمر، أي: امض عليه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٦٨-٦٩، بتصرف يسير.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٩.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣٨.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٧٢.
وانظر: لباب التأويل، الخازن ٦/ ٤٢.

والزمه»[1].

وقال القاسمي رحمه الله في هذه الآية: «﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي: الأشراف من قريش يحضون بعضهم على التمسك بالوثنية، ويتواصون بالصبر على طغيانهم قائلين: ﴿أَنِ امْشُوا﴾ أي: في طريق آبائكم: ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي: عبادتها مهما سمعتم من تسفيه أحلامنا، وتفنيد مزاعمنا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر؛ أي: يراد منا إمضاؤه وتنفيذه لا محالة؛ أي: يريده محمد من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، لا قول يقال من طرف اللسان، أو المعنى: إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد منا، أي: بنا، فلا انفكاك لنا عنه، وما لنا إلا الاعتصام عليه بالصبر»[2].

وقال ابن سعدي رحمه الله في قوله: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ «أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدنكم عن عبادتها صاد»[3].

وقال الله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

وقال في آية أخرى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: اصبر يا محمد على ما يقول مشركو قومك لك مما تكره قيلهم لك، فإنا ممتحنوك بالمكاره امتحاننا سائر رسلنا قبلك، ثم جاعلو العلو والرفعة والظَّفَر لك على من كذبك وشاقك، سنتنا في الرسل الذين أرسلناهم إلى عبادنا قبلك، فمنهم عبدنا أيوب وداود بن إيشا، فاذكره ذا الأيد، ويعني بقوله: ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ ذا القوة والبطش الشديد في ذات الله والصبر على طاعته»[4].

وقال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ لما ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم، وسلاه بكل ما تقدم ذكره، ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء؛ ليتسلى بصبر من صبر منهم، وليعلم أن له في الآخرة أضعاف ما أُعْطَيه داود وغيره من الأنبياء، وقيل: المعنى اصبر على قولهم، واذكر لهم أقاصيص الأنبياء، لتكون برهانًا على صحة نبوتك»[5].

أمر الله تبارك وتعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدي في الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم وإكرام لداود، حيث أمر الله

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٧٩.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢٤٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٧٠٩.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٦٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٥٨.

أفضل الخلق محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق»[1].

وقال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، وضرب له المثل بالرسل أولي العزم، ويجوز أن تكون الفاء فصيحة، والتقدير: فإذا علمت ما كان من الأمم السابقة وعلمت كيف انتقمنا منهم وانتصرنا برسلنا فاصبر كما صبروا[2].

وقال الخازن رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ يعني اصبر على أذاهم، لا تستعجل بنزول العذاب عليهم؛ فإنه نازل بهم لا محالة كأنه صلى الله عليه وسلم ضجر بعض الضجر؛ فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم، فأمره الله تعالى بالصبر وترك الاستعجال، ثم أخبر بقرب العذاب، فقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ يعني من العذاب في الآخرة ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ يعني في الدنيا، ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ يعني أنتهم إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم»[3].

والفاء في قوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ الفصيحة؛ لأنها جواب شرط مقدر، أي: إذا كانت عاقبة الكفار ما ذكر؛ فاصبر على أذاهم، واصبر فعل أمر مبني على السكون، وفاعله مستتر تقديره أنت، وكما صبر في محل نصب مفعول مطلق، أو حال، وأولو العزم فاعل صبر، ومن الرسل حال[4].

وقال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآن، وهذا الدين، وامض لما أمرك به ربك، ولا يثنيك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم إياك، وأذاهم لك»[5].

وقال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى ممتنًا على رسوله صلى الله عليه وسلم بما نزله عليه من القرآن العظيم تنزيلًا: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: كما أكرمتُكَ بما أنزلتُ عليك، فاصبر على قضائه وقَدَره، واعلم أنه سَيُدَبرك بحسن تدبيره، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ١٦١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٥٦.
(٣) لباب التأويل، الخازن٦/ ١٧١.
(٤) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش ٩/ ١٩٤.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٦٢.

﴿كَفُورًا﴾ أي: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صَدك عما أنزل إليك، بل بَلِغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله؛ فإن الله يعصمك من الناس، فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر بقلبه»[1].

وقال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربك، والحكم هنا القضاء، وقيل: فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة، وقال ابن بحر: فاصبر لنصر ربك، قال قتادة: أي: لا تعجل ولا تغاضب، فلا بد من نصرك، وقيل: إنه منسوخ بآية السيف»[2].

وقال الخازن رحمه الله في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: «أي: لعبادته فهي من الحكمة المحضة، وقيل: معناه فاصبر لحكم ربك في تأخير الإذن في القتال، وقيل: هو عام في جميع التكاليف، أي: فاصبر لحكم ربك في كل ما حكم الله به، سواء كان تكليفًا خاصًا كالعبادات والطاعات، أو عامًا متعلقًا بالغير كالتبليغ، وأداء الرسالة وتحمل المشاق وغير ذلك»[3].

وقال الرازي رحمه الله: «ثم إنه تعالى لما بالغ في تزييف طريقة الكفار، وفي زجرهم عما هم عليه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وفيه وجهان: الأول: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ في إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم، والثاني: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ في أن أوجب عليك التبليغ والوحي، وأداء الرسالة وتحمل ما يحصل بسبب ذلك من الأذى والمحنة»[4].

قال ابن سعدي رحمه الله في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: «أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يقابل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره»[5].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

قال القرطبي رحمه الله في قوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾: «أي: اصبر على أذاهم، وأصل الطاء في اصطبر تاء؛ فتحولت طاء؛ لتكون موافقة للصاد في الإطباق»[6].

وقال ابن كثير رحمه الله: «ثم قال آمرا لعبده ورسوله صالح: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أي: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم؛ فإن العاقبة لك، والنصر لك في الدنيا والآخرة»[7].

وقال ابن القيم رحمه الله: «الاصطبار وهو التلذذ بالبلوى، والاستبشار باختيار

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٥٣.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٧/ ١٩٤.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٨٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٨١.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٤٠.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٧٩.

المولى، وهذا هو الصبر على الله، وهو صبر العارفين، فيقال: الاصطبار افتعال من الصبر، كالاكتساب والاتخاذ، وهو مُشْعِر بزيادة المعنى على الصبر، كأنه صار سجية وملكة، فإن هذا البناء مؤذن بالاتخاذ والاكتساب.

قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ فالاصطبار أبلغ من الصبر، كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب؛ ولهذا كان في العمل الذي يكون على صاحبه، والكسب فيما له، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] تنبيهًا على أن الثواب يحصل لها بأدنى سعي وكسب، وأن العقاب إنما هو باكتسابها وتصرفها، وما تعانيه، وإذا علم هذا؛ فالتلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار الله سبحانه لا يخص الاصطبار، بل يكون مع الصبر، ومع التصبر ولكن لما كان الاصطبار أبلغ من الصبر وأقوى؛ كان بهذا التلذذ والاستبشار أولى والله أعلم»[(١)].

وقال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «والاصطبار: الصبر القوي، وهو كالارتقاب أيضًا أقوى دلالة من الصبر، أي: اصبر صبرًا لا يعتريه ملل ولا ضجر، أي: اصبر على تكذيبهم ولا تيأس من النصر عليهم، وحذف متعلق ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ ،ليعم كل حال تستدعي الضجر، والتقديرُ: واصطبر على أذاهم، وعلى ما تجده في نفسك من انتظار النصر»[(٢)].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «أي: اصبر على دعوتك إياهم، وارتقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟»[(٣)].

وقال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥].

قال الطبري رحمه الله في قوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾: «يعني: صبرًا لا جزع فيه، يقول له: اصبر على أذى هؤلاء المشركين لك، ولا يثنيك ما تلقى منهم من المكروه عن تبليغ ما أمرك ربك أن تبلغهم من الرسالة»[(٤)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «قوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعادًا لوقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]»[(٥)].

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: على أذى قومك، والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله، وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى من هو، والمعنى متقارب[(٦)]، وقيل:

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص٤٠٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٠٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٠٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٤.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٨٤.

بأن الأمر بالصبر في الآية قبل أن يؤمر بالقتال»[1].

وقال الثعالبي رحمه الله: «والصبرُ الجميلُ الذي لا يَلْحَقُه عَيْبٌ ولا شَكٌّ ولا قِلَّةُ رِضى، ولا غيرُ ذلك، والأمْرُ بالصبرِ الجميلِ مُحْكَمٌ في كل حالة، أعني: لاَ نَسْخَ فيه»[2].

وقال الماوردي رحمه الله: «﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ فيه أربعة تأويلات:

أحدها: أنه الصبر الذي ليس فيه جزع، قاله مجاهد.

الثاني: أنه الصبر الذي لا بثَّ فيه ولا شكوى.

الثالث: أنه الانتظار من غير استعجال، قاله ابن بحر.

الرابع: أنه المجاملة في الظاهر، قاله الحسن.

وفيما أُمر بالصبر عليه قولان:

أحدهما: أُمر بالصبر على ما قذفه المشركون من أنه مجنون، وأنه ساحر، وأنه شاعر، قاله الحسن.

الثاني: أنه أُمر بالصبر على كفرهم، وذلك قبل أن يفرض جهادهم، قاله ابن زيد»[3].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبرًا جميلًا لا تَضَجُّرَ فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم؛ فإن في الصبر على ذلك خيرًا كثيرًا»[4].

وقال الله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل، قاله مجاهد، وقال إبراهيم النخعي: اصبر عطيتك لله تعالى»[5].

وقال القرطبي رحمه الله: «أي: ولسيدك ومالكك فاصبر على أداء فرائضه وعبادته، وقال مجاهد: على ما أوذيت، وقال ابن زيد: حملت أمرا عظيمًا، محاربة العرب والعجم؛ فاصبر عليه لله، وقيل: فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى، وقيل: فاصبر على البلوى؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه، وقيل: على أوامره ونواهيه، وقيل: على فراق الأهل والأوطان»[6].

ويقول الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «ويعدى فعل الصبر إلى اسم الذي يتحمله الصابر بحرف «على»، يقال: صبر على

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٢١، لباب التأويل، الخازن ٧/ ١٥٠.
(٢) الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٤٨٣.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٩١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٨٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، بن كثير ٨/ ٢٦٤.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦٩.

الأذى، ويتضمن معنى الخضوع للشيء الشاق؛ فيعدى إلى اسم ما يتحمله الصابر باللام، ومناسبة المقام ترجح إحدى التعديتين، فلا يقال: اصبر على الله، ويقال: اصبر على حكم الله، أو لحكم الله، فيجوز أن تكون اللام في قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ لتعدية فعل الصبر على تقدير مضاف، أي اصبر لأمره وتكاليف وحيه، كما قال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

فيناسب نداءه بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]؛ لأنه تدثر من شدة وقع رؤية الملك، وترك ذكر المضاف لتذهب النفس إلى كل ما هو من شأن المضاف إليه مما يتعلق بالمخاطب.

ويجوز أن تكون اللام للتعليل، وحذف متعلق فعل الصبر، أي: اصبر لأجل ربك على كل ما يشق عليك.

وتقديم ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ على ﴿فَٱصْبِرْ﴾، للاهتمام بالأمور التي يصبر لأجلها مع الرعاية على الفاصلة، وجعل بعضهم اللام في ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ لام التعليل، أي: اصبر على أذاهم لأجله، فيكون في معنى: إنه يصبر توكلًا على أن الله يتولى جزاءهم، وهذا مبني على أن سبب نزول السورة ما لحق بالنبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين»[1].

وقال الماوردي رحمه الله في قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾: «أما قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ ففيه ثلاثة أوجه:

أحدها: لأمر ربك.

الثاني: لوعد ربك.

الثالث: لوجه ربك.

وفي قوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ سبعة تأويلات:

أحدها: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على ما لاقيت من الأذى والمكروه قاله مجاهد.

الثاني: على محاربة العرب ثم العجم، قاله ابن زيد.

الثالث: على الحق، فلا يكن أحد أفضل عندك فيه من أحد، قاله السدي.

الرابع: فاصْبِرْ على عطيتك لله، قاله إبراهيم.

الخامس: فاصْبِرْ على الوعظ لوجه الله، قاله عطاء.

السادس: على انتظام ثواب عملك من الله تعالى، وهو معنى قول ابن شجرة.

السابع: على ما أمرك الله من أداء الرسالة، وتعليم الدين، حكاه ابن عيسى»[2].

وقال السمرقندي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ يعني: اصبر على أمر ربك، قال إبراهيم النخعي: اصبر لعظمة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١٣٨.

ربك، وقال مقاتل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ يعني يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم؛ ليصبر على أذاهم، ويقال: فاصبر نفسك في عبادة ربك ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]. يعني اصبر فعن قريب ينفخ في الصور»[(١)].

وقال الشوكاني رحمه الله في قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾: «أي: لوجه ربك فاصبر على طاعته وفرائضه، والمعنى: لأجل ربك وثوابه، وقال مقاتل ومجاهد: اصبر على الأذى والتكذيب، وقال ابن زيد: حملت أمرًا عظيمًا، فحاربتك العرب والعجم؛ فاصبر عليه لله، وقيل: اصبر تحت موارده القضاء لله، وقيل: فاصبر على البلوى، وقيل: على الأوامر والنواهي»[(٢)].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى؛ فامتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر ربه، وبادر إليه؛ فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة على الناس بعد منة الله، من غير أن يطلب منهم على ذلك جزاء ولا شكورًا، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين»[(٣)].

فالأمر بالصبر في القرآن يأتي بصيغة المفرد و بصيغة الجمع، والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، فنصبر لأمر الله لنا، ونصبر لوعد الله لنا، ونصبر مخلصين بصبرنا لله تبارك وتعالى، نصبر على فعل الطاعة وعن اجتناب المعاصي والسيئات، وعلى أقدار الله تبارك وتعالى، وعلى كل بلاء؛ لننال ما وُعد الصابرين من الثواب العظيم.

٢. النهي عن ضد الصبر.

فكما أن الله تبارك وتعالى أمر بالصبر في القرآن فإنه نهى عن ضده، ومن ذلك فإنه تبارك وتعالى نهى عن الجبن عند مواجهة الأعداء، ومقارعتهم في ساحة الوغى، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

بمعنى: أنكم إذا تقاربتم، فثبتوا واصبروا وإياكم أن تفروا، ثم قال متوعدًا من لم يصبر وفرّ من الزحف بالنار فقال بعدها: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ

(١) تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٩٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٥٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٩٥.

﴿اللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وتكفل لهم سبحانه بالنصر والتثبيت قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ونهى سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن الاستعجال بعد أن أمره بالصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فدل على أن الاستعجال هو ضد الصبر.

ونهى سبحانه وتعالى عن الجزع والهلع عند إصابة الإنسان بالشر كما في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠].

وقال ابن منظور رحمه الله مبينًا معنى الجزع: «الجَزُوع ضد الصَّبُورِ على الشرِ، والجَزَعُ نَقِيضُ الصَّبْرِ، جَزِعَ بالكسر يَجْزَعُ جَزَعًا فهو جازع، وجَزِعٌ وجَزُعٌ وجَزُوعٌ، وقيل: إذا كثر منه الجَزَعُ فهو جَزُوعٌ وجُزاعٌ»[(١)].

وفي مختار الصحاح: والجَزَعُ ضد الصبر[(٢)].

وقال الزبيدي رحمه الله مبينًا معنى الهلوع: «وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩].

واختلف في تفسير الهلوع فقيل: هو من يجزع ويفزع من الشر، وقيل: هو الذي يحرص، ويشح على المال، وقال معمر والحسن: هو الشره، أو الضجور، قاله الفراء، قال: وصفته كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠-٢١].

فهذه صفته، وقيل: هو الذي لا يصبر على المصائب، وقال ابن بَرِي: قال أبو العباس المبرد: رجل هلوع: إذا كان لا يصبر على خير ولا شر؛ حتى يفعل في كل واحد منهما غير الحق، وأورد الآية»[(٣)].

ومما يضاد الصبر وينافيه الغضب كما في قوله تعالى عن يونس عليه السلام عندما خرج مفارقًا لقومه غاضبًا عليهم: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقال ناهيًا عن فعل مثل فعله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

وقال الشنقيطي رحمه الله: «وآية القلم المذكورة تدل على أن نبي الله يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عجل بالذهاب، ومغاضبة قومه، ولم يصبر الصبر اللازم بدليل قوله مخاطبًا نبينا صلى الله عليه وسلم فيها: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ

(١) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٤٧.
وانظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ٢٢١.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص١١٩.
(٣) تاج العروس، الزَّبيدي ٢٢/ ٤٠٥-٤٠٦، وانظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٧٤.

﴿لِلْمَوْتِ﴾ الآية، فإن أمره لنبينا صلى الله عليه وسلم بالصبر ونهيه إياه أن يكون كصاحب الحوت دليل على أن صاحب الحوت لم يصبر كما ينبغي»[1].

فالصبر في القرآن الكريم إما أن يأتي بالأمر بالصريح للمفرد أو للجمع، فاصبر أو فاصبروا، أو يأتي بالنهي عن ضد الصبر، كالنهي عن الاستعجال أو الهلع والجزع، ذلك لأن الصبر هو حبس النفس، والاستعجال والهلع والجزع ينافي ذلك، والنهي عند ضد الصبر هو أمر بالصبر.

ثانيًا: الثناء على الصابرين:

إن أي عمل أو خلق لا يخلو صاحبه من أمرين: إما أن يمدح ويثنى عليه، إن كان عمله أو خلقه يستحق الثناء والمدح، وذلك بأن يكون حسنًا، أو يذم ويقبح، وما ذلك إلا لسوء عمله أو سوء خلقه، وخلق الصبر من الأخلاق النبيلة الفاضلة التي يستحق المتخلق بها الثناء عليه ومدحه في الحياة الدنيا بين الناس.

بل وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليهم في كتابه الكريم ومدحهم في آيات متعددة تتلى إلى يوم القيامة، فمن ذلك:

الثناء عليهم بصبرهم في حال الفقر وحين البأس وحال المرض:

أثنى الله عليهم كما في قوله تعالى: ﴿وَالصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿وَالصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: في حال الفقر، وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام، وهو الضراء، ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: في حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومُرة الهمداني، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك، والضحاك، وغيرهم.

وإنما نُصِبَ ﴿وَالصَّٰبِرِينَ﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال؛ لشدته وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صَدَقوا في إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات»[2].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٤٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٨.

﴿وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٦-١٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿الصَّابِرِينَ﴾ أَيْ: فِي قِيَامِهِمْ بِالطَّاعَاتِ، وَتَرْكِهِمُ الْمُحَرَّمَاتِ»(١).

وقال الماوردي رحمه الله: «قوله عز وجل: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: الصابرين عما نهوا عنه من المعاصي.

والثاني: يعني في المصائب.

والثالث: الصائمين.

ويحتمل رابعًا: الصابرين عما زُين للناس من حب الشهوات»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

يأمر الله تبارك وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يبشر المخبتين، والمخبتون: هم المطمئنون الراضون بقضاء الله وقدره، والمستسلمون له تعالى(٣).

ثم أثنى عليهم بذكر أوصافهم وجعل من صفاتهم أنهم صابرون على ما أصابهم من المصائب والأقدار المؤلمة، وعلى طاعة الله تبارك وتعالى، وعن معصية الله تعالى.

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٣.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٧٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٢٤.

الثناء عليهم بصبرهم على البلاء:

أثنى الله تبارك وتعالى عليهم على الصبر على البلاء، وبشرهم ببشرى فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

ثم قال مبينًا مالهم: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وأثنى الله تبارك وتعالى على نبيه أيوب عليه السلام على صبره على ما ابتلاه الله تبارك وتعالى كما في قوله سبحانه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

الثناء عليهم بصبرهم على الأذى، والشدائد:

قال الله تبارك وتعالى في وصفهم عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: صبروا على الأذى من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة»(٤).

ويقول الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، وآتيناهم الثواب الذي ذكرناه، الذين صبروا

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٧٣.

في الله على ما نابهم في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: وبالله يثقون في أمورهم، و إليه يستندون في نوائب الأمور التي تنوبهم»[1].

وقال الخازن: «﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الشدائد، ولم يتركوا دينهم لشدةٍ لحقتهم، وقيل: صبروا على الهجرة ومفارقة الأوطان، وعلى أذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصي، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون على الله في جميع أمورهم»[2].

ويقول ابن سعدي رحمه الله: «ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابه، لا على أنفسهم، وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم؛ فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحدًا شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله»[3].

فعلى الإنسان أن يتحلى بهذا الخلق العظيم؛ ليكون داخلًا في هذا الثناء العظيم من رب كريم، صبر على طاعة الله تبارك وتعالى وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

ثالثًا: بيان العاقبة الحسنة للصابرين:

إن المتأمل في الكون يلحظ أن لكل شيء نهاية، ولكل شيء عاقبة، والعاقبة قد تكون حسنة مُسرة لصاحبها، وقد تكون سيئة مُحزنة لصاحبها، وفيما يلي سنذكر -بعون الله لنا- العاقبة الحسنة للصابرين، والإنسان في هذه الحياة معَرض للبِلَى والمصائب والمحن، فإن صبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى المكارة والأقدار؛ فإن عاقبة الصبر تكون حسنة، والصبر صعب لا يستطيع الإنسان عليه إلا بمجاهدة نفسه عليه، والطلب من الله تبارك وتعالى التوفيق له والإعانة.

ومن ذلك: قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

يخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية بأن من صبر واتقى الله تبارك وتعالى؛ فإن عاقبة ذلك عدم مقدرة عدوهم الإضرار بهم، وأخبرهم بأنه بما يعملون محيط، ومن أصدق من الله قيلًا، ومن أصدق من الله حديثًا.

(١) جامع البيان، ١٧/ ٢٠٧.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٥/ ١٩٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٠.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعز أنصارهم؛ ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنَة -أي: جَدْب-أو أُديل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد؛ فَرِح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيْدِ الفُجار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه»[1].

ثم قال تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى للمؤمنين عند مَقْدمهم المدينَة قبل وقعة بدر، مسليًا لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وآمرًا لهم بالصبر والصفح والعفو؛ حتى يفرج الله، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾»[2].

وقد قيل: «الصبر مفتاح الفرج».

وأخبر الله أن العُسر يعقبه يُسر كما في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥].

ثم أكد ذلك بأداة التوكيد «إن» فقال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦].

قال الشنقيطي رحمه الله: «ذكر في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين سيبتلون في أموالهم وأنفسهم، وسيسمعون الأذى الكثير من أهل الكتاب والمشركين، وأنهم إن صبروا على ذلك البلاء والأذى واتقوا الله؛ فإن صبرهم وتقاهم ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، أي: من الأمور التي ينبغي العزم والتصميم عليها لوجوبها.

وقد بين في موضع آخر أن من جملة هذا البلاء: الخوف والجوع وأن البلاء في الأنفس والأموال هو النقص فيها، وأوضح فيه نتيجة الصبر المشار إليها هنا بقوله: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، وذلك الموضع هو قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٠٩.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٧٩.

وبقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

ويدخل في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ الصبر عند الصدمة الأولى، بل فسره بخصوص ذلك بعض العلماء، ويدل على دخوله فيه قوله قبله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وبين في موضع آخر أن خصلة الصبر لا يعطاها إلا صاحب حظ عظيم، وبخت كبير، وهو قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وبين في موضع آخر أن جزاء الصبر لا حساب له، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]»[(١)].

ومنها: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر، كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين»[(٢)].

ومنها: قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١].

بيَن الله سبحانه في هذه الآية عاقبة الصابرين في الشدائد والمكاره، والعاملين لصالحات في الرخاء والعافية بأن لهم مغفرة من الله بما يصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في الرخاء[(٣)].

وقد قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كما في حديث: (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولاسقم ولاحزن، حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته)[(٤)].

وحديث: (فصبر كان خيرًا له)[(٥)].

ومنها: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «إن الخير من عواقب الأمور لمن اتقى الله، فأدَى فرائضه، واجتنب معاصيه، فهم

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٢.

(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٠٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، ٤/ ١٩٩٢، رقم ٣٥٧٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ٤/ ٢٢٩٥، رقم ٢٩٩٩.

الفائزون بما يؤمِلون من النعيم في الآخرة، والظفر في الدنيا بالطلبة، كما كانت عاقبة نوح إذ صبر لأمر الله، أنْ نجّاه من الهلكة مع من آمن به، وأعطاه في الآخرة ما أعطاه من الكرامة، وغرّق المكذبين به فأهلكهم جميعهم»[1].

ومنها: قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

أخبر الله تبارك وتعالى أن من يتق فعل ما حرم الله عليه، ويصبر على المصائب والأقدار والطاعات؛ فإن هذا من الإحسان وأن الله لا يضيع أجر المحسنين.

ومنها: قوله تبارك وتعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

قال ابن سعدي رحمه الله: «أي: حلت عليكم السلامة، والتحية من الله، وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب، ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان الغالية، ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾»[2].

وأخبر سبحانه أنه تعالى يغفر لمن ابتلاه فصبر، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠].

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله: «أي: ثم إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه؛ لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله؛ طلبًا لمرضاة الله، وفتن على دينه؛ ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله؛ ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس، فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم، واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة»[3].

ومنها: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقال الشنقيطي رحمه الله: «الأمر في قوله: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ للجواز، والله لا يأمر إلا بحسن؛ فدل ذلك على أن الانتقام حسن، ولكن الله بين أن العفو والصبر خير منه وأحسن في قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾».

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٥٦
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١٦.
(٣) المصدر السابق ص٤٥٠.

وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، كقوله تعالى في إباحة الانتقام: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

مع أنه بين أن الصبر والغفران خير منه، في قوله بعده: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

وكقوله في جواز الانتقام: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

مع أنه أشار إلى أن العفو خير منه»[1].

ومنها: قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١].

قال ابن كثير رحمه الله: «أخبر عما جازى به أولياءه، وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين من النار»[2].

فبسبب صبرهم في هذه الحياة الدنيا على أذى الكفار لهم، وسخريتهم بهم، وبصبرهم على طاعة الله، وامتثال أمره تعالى، واجتناب نهيه؛ جازاهم الله بأن جعلهم في يوم القيامة من الفائزين.

ومنها: قوله تبارك وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان: ٧٥].

اسم الاسم الإشارة في ﴿أُولَٰئِكَ﴾ عائد إلى عباد الله المؤمنين، أصحاب الصفات المتقدمة، وأخبر أنهم سيجزون الغرفة، وهي الجنة؛ بسبب صبرهم في هذه الحياة على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله ويبتدرون فيها بالتحية والسلام والإكرام، من قِبل ملائكة الرحمن ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

ومنها: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤].

أخبر الله في هذه الآية بأنه تعالى يُعطي الصابرين يوم القيامة أجرهم مرتين، وهذه الآية في أهل الكتاب، فهم يؤتون أجرهم بإيمانهم بالرسول الأول، وإيمانهم بالرسول الثاني، وما ذلك إلا بسبب صبرهم على اتباع الحق، ثم إن الله تبارك وتعالى تفضل على المؤمنين من هذه الأمة مثل ذلك كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

(١) أضواء البيان، ٦/ ٣٥٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٩٩.

وزادهم على ذلك بقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

رابعًا: من خلال عرض القصص القرآني:

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم واجهوا في سبيل دعوتهم ألوان الأذى، تكذيبًا واستهزاءً وسخريةً، أوذوا بالقول والفعل، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[الأنعام: ٣٤].

أي: أن الأنبياء قبلك أوذوا؛ فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل الذي وعدهم، ثم أمره بالصبر كما في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد صبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على أذى قومه وتكذيبهم، فاتهمه كفار قريش بالتكذيب ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

وقال عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

وتقول أمنا عائشة رضي الله عنها كما في البخاري للنبي صلى الله عليه وسلم: «هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت؛ فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[1] فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت؛ فإذا فيها جبريل؛ فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم؛ فناداني ملك الجبال؛ فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[2]؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا)»[3].

ووضع سلا الجزور[4] على ظهره وهو

(١) قال القاضي عياض: «قرن الثعالب هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكة وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل»، شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ١٥٥.

(٢) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: الأخشبين هما جبلا مَكَّة قعيقعان»، فتح الباري، ابن حجر ١/ ٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم ٣٠٥٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين، رقم ١٧٩٥.

(٤) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قَوْله: الْجَزُور بِفَتْح أَوله هُوَ مَا يجزر من الْإِبِل أَي

ساجد بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك فصبر على كل ما لاقى حتى مكنه الله سبحانه وتعالى.

ولقد ضرب الله تبارك وتعالى لنا في كتابه الكريم نماذج رائعة جدًا تجسدت فيها حقيقة الصبر، ذكروا بصبرهم في القرآن؛ ليقتدي بهم الصابرون، النموذج الأول عن لون من ألوان الصبر وهو الصبر على طاعة الله عز وجل، ومن ذلك صبر إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلى الله حتى أنه صبر صبرًا قويًا، وعانى من التكذيب والرفض والضرب والإبعاد، فهُدد بالإلقاء في النار؛ حتى قذف فيها، فقال الله مخبرًا عن ذلك: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٦٩].

فما كان منه إلا أن قال: حسبنا الله ونعم الوكيل كما روى ذلك البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾»[1].

ومن ذلك صبره على ترك زوجته هاجر وولده إسماعيل عليه السلام في مكة، وهي أرض لا أنيس فيها، ولا ماء فيها، ولا صديق ولا قريب، ويرجع من عندهم ويقول حاكيًا ذلك: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وعن سعيد بن جبير قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ

يذبح وَالْجمع جزائر وجزر» فتح الباري، ابن حجر ١/ ٩٨.

وقال النووي رحمه الله: «قال العلماء: الجزور بفتح الجيم وهي البعير، قال القاضي: وفرق هنا بين البدنة والجزور، لأن البدنة والهدي ما ابتدي إهداؤه عند الإحرام، والجزور ما اشتري بعد ذلك لينحر مكانها»، شرح النووي على صحيح مسلم ٩/ ٦٨.

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران، رقم ٤٢٨٧.

مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ)[1].

وفعلًا لم يضيعهم رب العالمين تبارك وتعالى، رغم أنه تركهم في وادٍ لا زرع فيه، ولا ماء، ولا مرعى، ولا أكل.

ثم بعد ذلك رأى في منامه أنه يذبح ولده إسماعيل عليه السلام ورؤيا الأنبياء حق وصدق كما في قول رب العزة والجلال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٩٩-١١١].

ثم إن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بدأ بتنفيذ ما رأى، وعرض ذلك على ولده إسماعيل عليه السلام؛ فلم يقابل ذلك بالرفض، وإنما قابل ذلك بالتسليم والاستسلام لأبيه -عليهما الصلاة والسلام-، ولأمر الله طواعية واختيارًا، وكان إسماعيل عليه السلام هو الابن الوحيد لإبراهيم عليه السلام حينئذ، ولم يأته إلا بعد أن طال عمره، ثم إن تعلق الأب بابنه لا يوصف، لكن تعلقه بالله تبارك وتعالى أعظم، وطاعته لله فوق كل ذلك، فلم يتأول إبراهيم عليه السلام الرؤيا لصالحه، ولكن بادر بالامتثال، وعرض على ابنه ما رأى عرضًا في غاية الإيجاز والسهولة.

ومع ذلك يتضمن هذا العرض أمرًا في غاية الخطورة، وكانت الإجابة من هذا الابن الصابر على هذا البلاء قوية جدًا دالة على قوة إيمانه وامتثاله لربه تبارك وتعالى فقال مخاطبًا أباه بجملتين حسم بهما الموفق، الجملة الأولى: أمر أباه بامتثال أمر الله له بالذبح، والجملة الثانية: وعد أباه بالصبر على تنفيذ ما يريد أباه، فقال كما أخبر الله عنه: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: «وإنما أعلم ابنه بذلك؛ ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي،

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، ٤/ ١٤٢، رقم ٣٣٦٤.

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله وسلامه عليه- فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى إبراهيم على الذبح، والولد شهادة الموت، وقيل: أسلما يعني استسلمًا وانقادًا، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى، وإسماعيل طاعة لله ولأبيه»[1].

وقال رحمه الله: «المقصود من شرعه أولًا -أي: من الذبح- إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أي: الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلمًا لأمر الله تعالى منقادًا لطاعته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]»[2].

وقال ابن عاشور في قوله: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾: «والمراد: أنه صدق ما رآه، إلى حدِ إمرار السكين على رقبة ابنه، فلما ناداه جبريل بأن لا يذبحه؛ كان ذلك الخطابُ نسخًا لما في الرؤيا من إيقاع الذبح، وذلك جاء من قِبل الله، لا من تقصير إبراهيم، فإبراهيم صدَق الرؤيا إلى أن نهاه الله عن إكمال مِثالها، فأُطلق على تصديقه أكثرَها أنه صدَقها، وجُعِل ذبح الكبش تأويلًا لذبح الولد الواقع في الرؤيا، وجملة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إن تعليل لجملة: ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾؛ لأن نداء الله إياه ترفيع لشأنه؛ فكان ذلك النداء جزاء على إحسانه»[3].

والنموذج الثاني من أبرز الأمثلة وأشدها وضوحًا على الصبر عن معصية الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم صبر نبي الله يوسف عليه الصلاة السلام على مراودة امرأة العزيز، لقد كان الصبر شعارًا ودثارًا له عليه السلام في محنته التي ابتلي بها اضطرارًا واختيارًا، كشف عن هذا حين عثر إخوته عليه، فقال الله سبحانه على لسانه: ﴿أَأَنتَ لَأَنتَ يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

فأعرض عن كل هذه الفتن والإغراءات وخرج من الفتنة بإيمانه وصبره، قال ابن القيم رحمه الله: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٥٤.

الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضًا ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة.

فإنه كان شابًا، وداعية الشباب إليها قوية، وعزبًا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبًا، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا، والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟، وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية»[1].

فضحى عليه الصلاة والسلام بدنياه من أجل دينه، وبحريته من أجل عقيدته، وفضل السجن على ما دُعي إليه، فقال كما أخبر الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

وحين أفرج عنه عليه السلام وخرج من السجن واستدعي لمقابلة الملك، طلب منه التحقيق في قضيته حتى تظهر براءته على الملأ كما في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

وحدث ذلك فعلًا واعترفت امرأة العزيز فـ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

فازداد إعجاب الملك به، فقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

وحين عرفه أخوته قال لهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠].

وبعد ذلك أُتي بأبيه إلى مصر فكان ذلك عاقبة الصبر، أخرج من السجن، وظهرت براءته، وأُتي بأبيه إلى مصر.

النموذج الثالث من أبرز الأمثلة وأشدها وضوحًا على الصبر على أقدار الله المؤلمة

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٥٦.

صبر نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام، حين أُصيب بضر عظيم في بدنه وأهله وماله فصبر، فخلد الله ذكره في القرآن، فقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١-٤٤].

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام، وما أصابه من البلاء العظيم، في ماله وولده وجسده، فصبر على هذا البلاء العظيم، حتى أن الله أثنى عليه فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ثم إن الله يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وأشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل[1].

فذكر الله سبحانه وتعالى له من ألوان التكريم وأوسمة الشرف؛ لعظيم صبره:

أولًا: تكريمه عليه الصلاة والسلام بتخليد ذكره ومباهاة الله به عند رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: تكريمه بقوله: ﴿عَبْدَنَآ﴾ حيث أضاف إليه العبودية، وهي من أشرف أوصاف الإنسان التي يتحلى بها.

ثالثًا: عندما استجاب الله تبارك وتعالى نداءه وكشف ضره وهب له أهله ومثلهم معهم، قال الحسن وقتادة في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾: «أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم»[2].

رابعًا: جعل الله سبحانه له عليه الصلاة والسلام مخرجًا من مأزق الحنث من يمين حلفه على امرأته.

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: به على صبره وثباته، وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لذوي العقول؛ ليعلموا أن عاقبةَ الصبر الفرجُ والمخرجُ والراحة»[3].

وقد ذكر الله تعالى صبره في مواطن متعددة كما في الآيات المتقدمة، وكان نداء أيوب عليه السلام في ضرائه في غاية اللطف والأدب، حيث قال سبحانه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فكانت الإجابة في آية

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٤٥/ ١٠، رقم ٢٧٠٧٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٣٠، رقم ٩٩٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٧٥.
(٣) المصدر السابق.

التمام والكمال، فنادى ربه، ولم يسأله شيئًا بعينه من الأهل والعافية، فذكر ربه بما هو أهله، وبما اتصف به؛ فاستجاب له دعاءه؛ فكشف عنه الضر، ورد عليه الأهل، ومثلهم معهم، وجعله ذكرى للعابدين، وإماما من الصابرين.

ومكث أيوب عليه الصلاة والسلام صابرًا مدة طويلة من الزمان، لم يدع ربه في كشف ما به، حتى شمت به قوم؛ فتألم لذلك، ودعا ربه حينئذ، واختلف في المدة التي صبر فيها على البلاء على أقوال متعددة أصحها، كما قال القرطبي رحمه الله بعد أن ذكر عدة أقوال: «وأصح من هذا -والله أعلم- ثماني عشرة سنة، رواه ابن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم»[1].

وقد دل على هذا ما رواه الإمام البزار في مسنده من طريق ابن شهاب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن نبي الله أيوب صلى الله عليه وسلم لبث في بلائه ثماني عشرة سنة؛ فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: قد أصابه منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به فلما رأى حاله لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم مني أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تبارك وتعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهة أن يذكران الله إلا في حق، وكان يخرج إلى الحاجة فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلما ذات يوم أبطأت عليه وأوحي إلى أيوب في مكانه أن ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ قال: فاستبطأته؛ فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما كان فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله صلى الله عليه وسلم هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أحدًا أشبه به منك إذا كان صحيحًا قال: فإني أنا هو قال: وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير فبعث الله تبارك وتعالى سحابتين، فلما كانت أحدهما على أندر القمح؛ أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (بينما أيوب

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه البزار في مسنده رقم ٦٣٣٣، وأبو يعلى في مسنده، رقم ٣٦١٧، وابن حبان في صحيحه، رقم ٣٨٩٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٧.

يغتسل عريانًا، خرَ عليه رجل جراد من ذهب؛ فجعل يحثي في ثوبه؛ فناداه ربه: يا أيوب: ألم أكن أغنيتك عما ترى، قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك)[1].

الصبر ليس كلمة تقال، أو شعورًا عابرًا يطرق قلب المسلم، فلا يستقر فيه، بل إن الصبر سلوك يربي المرء، وينقله من مرتبة السخط إلى منزلة الرضا، ومن السخط من البلاء إلى الرضا بالقضاء، ومن مرتبة الجزع إلى منزلة الاطمئنان، فلا يختلف الباطن عن الظاهر، والصبر مكانه القلب، وترجمانه اللسان، ومرآته الجوارح، والصبر الذي لا يقر في القلب ليس صبرًا حقيقيًا، والصبر الذي لا يترجمه اللسان بالحمد، والشكر لله في جميع الأحوال ليس صبرًا حقيقيًا، والصبر الذي لا يظهر صافيًا من خلال الجوارح كلها لا يعدو أن يكون صبرًا مزيفًا.

وقد تطرقنا في هذا المبحث لشيء من قصص الصبر الواردة في القرآن الكريم؛ لنسير على ما كانوا عليه، فقد صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وضربوا أروع الأمثلة، وقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد امتثل نبينا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الصابرين، وقال الله لنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فعلى كل مسلم أن يكون مقتديًا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب الغسل، باب من اغتسل عريانًا وحده في الخلوة، ١/ ٦٤، رقم ٢٧٩.

مجالات الصبر ومظاهره

أولًا: الصبر على طاعة الله:

إن الصبر على طاعة الله تبارك وتعالى من أعظم مجالات الصبر؛ لذلك هو أشد أنواع الصبر على النفوس، وجاءت صيغة الأمر بالصبر على الطاعة مغايرة لغيرها، فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فجاء بصيغة الافتعال «اصْطَبِرْ» الدالة على المبالغة في الفعل، والعلماء يقولون: بأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وما ذاك إلا لمشقة مجاهدة النفوس على القيام بحق العبودية في كل الأحوال، عن سفيانَ الثَّوري، قال: «ما عالجتُ شيئًا أشدَ عليَ من نيَّتي؛ لأنها تتقلَّبُ عليَ»[1].

ثم إن الصبر صبران كما يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: صبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثوابًا؛ لأنه المقصود، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين، الصبر لله بما أحب، وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره -وإن نازعت إليه الأهواء-، فمن كان هكذا؛ فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم-إن شاء الله-، وقال سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل، وهو مُتَجَلد لا يرى منه إلا الصبر[2].

والصبر على الطاعة له ثلاثة أحوال:

الأول: قبل الطاعة:

وذلك بتصحيح النية والصبر على شوائب الرياء، وعقد العزم على الوفاء وذلك يظهر في سر تقديم الصبر على العمل الصالح في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١].

قال الإمام الرازي رحمه الله: «قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ المراد منه: أن يكون عند البلاء من الصابرين، وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المراد منه: أن يكون عند الراحة والخير من الشاكرين، ثم بين حالهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فجمع لهم بين هذين المطلوبين.

أحدهما: زوال العقاب والخلاص منه، وهو المراد من قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾

والثاني: الفوز بالثواب وهو المراد من

(١) انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي ١/ ٣١٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٤٤٦، بتصرف.

قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾»[1]، ومن الأدلة على ذلك حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات الحديث)[2].

الثاني: وقت أداء الطاعة:

بأن لا يغفل عن الله تبارك وتعالى فيها، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابها وسننها، كما في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٩]. صبروا إلى تمام العمل.

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله: «﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على عبادة الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في ذلك، فصبرهم على عبادة الله؛ يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك، وتوكلهم، يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل- وإن كان داخلًا في الصبر-؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به»[3].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ١٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ١، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنية، رقم ١٩٠٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣٤.

الثالث: بعد إكمالها:

بأن يصبر على عدم إفشائها وإظهارها والإعجاب بها، وترك ما يبطلها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

قال عطاء: بالشك والنفاق، وقال الكلبي: بالرياء والسمعة، وقال الحسن: بالمعاصي والكبائر[4].

قال الله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [محمد: ٣٣].

فيقوم للصلوات الخمس، ويقوم لصلاة الفجر، ويترك النوم، ويقوم لصلاة الليل، ويترك النوم، والزكاة والصدقات تحتاج إلى صبر، وتعويد لها على البذل والإنفاق، وعدم المن على الفقراء، أو الأذى لهم، والحج يحتاج إلى صبر في تحمل المشاق، وإنفاق الأموال، وصبر وتحمل لما يلقاه الإنسان من الأذى في الزحام، والصيام يحتاج إلى صبر في تحمل الجوع والعطش كل ذلك تعبدًا لله تبارك وتعالى، وقد سمي شهر رمضان بشهر الصبر، لما يحتاج إليه من

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٩٠.

الصبر، ثم إن الذي يسلك في طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فإنه يأتي الناس بما لا يشتهون ولا يألفونه؛ فلذلك يقاومون الدعوة والدعاة بكل ما أوتوا من قوة، وقد يوصلون الأذى بالداعية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، فإعراضهم عن الدعوة يحتاج إلى صبر.

وهذا نوح عليه الصلاة والسلام مكث يدعوا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوا قومه ليلًا كما حكى ذلك رب العزة والجلال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥-٧].

ثم ما يحيكه المغرضون من مؤامرات الكيد التي تؤذي الداعية في أهله ونفسه وماله تحتاج إلى صبر على ذلك، كما قال الله سبحانه مؤكدًا: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقد أجمع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على رد أذى أقوامهم بالصبر كما حكى الله عنهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وسحرة فرعون لما وقر الإيمان في قلوبهم قابلوا تهديد فرعون لهم بالقتل والصلب بقولهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥-١٢٦].

ثم إن الدعاة والعلماء هم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين يقومون بتبليغ دعوة الأنبياء للناس، وتبيين دين الله تبارك وتعالى، ومن قام بهذا؛ فسيتعرض للابتلاء والأذى والسخرية، فعليه أن يصبر، ويكون مقتديًا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثم إن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر ومصابرة فيصبر على الجراح وعلى الآلام وعلى ملاقاة الأعداء والتحام الصفوف، فالصبر ثم شرط للنصر، والفرار كبيرة.

وقد أثنى الله تعالى على الصابرين في ساعة القتال، فقال في آية البر: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. أي: الفقر، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: المرض، ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله

العافية؛ فإذا لقيتموهم؛ فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)، ثم قال: (اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم)[1].

قال الإمام النووي رحمه الله: «فهذا حث على الصبر في القتال، وهو آكد أركانه، وقد جمع الله سبحانه آداب القتال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٧].

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)، فمعناه ثواب الله، والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله، ومشي المجاهدين في سبيل الله؛ فاحضروا فيه بصدق واثبتوا»[2].

وعندما تضطرب أمور المعركة، وتتطاير الرؤوس، ويسمع دوي الانفجارات، تكون الحاجة إلى الصبر أعظم وأشد، فالجنة تحت ظلال السيوف، والفرار من الزحف من أكبر الكبائر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

والله مع الصابرين، ويحب الصابرين، فإن للمجاهد في سبيل الله إحدى الحسنيين، إما أن ينصره الله على العدو، ويرجع بالأجر والغنيمة، أو الشهادة في سبيل الله وثواب ذلك الجنة، وأعظم بها من منزلة ورفعة.

ثانيًا: الصبر عن معصية الله:

فمن المعلوم أن النفس البشرية قد جُبلت على حب الراحة والشهوات، والتفلت من القيود، والجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات، وقد هذب الله تبارك وتعالى النفس البشرية، وما خلق فيها من الغريزة الإنسانية، بهذا الدين الحنيف، فالإنسان عندما يتجنب ما حرم الله تبارك وتعالى عنه، والنفس تنازعه، وتميل إلى الشهوات المحرَمة، فهو يصبر على حبسها عن المحرمات، ويمسكها عنها، فالنفس أمارة بالسوء قال الله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، رقم ٢٨٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، رقم ١٧٤٢.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ١٢/ ٤٦.

[يوسف: ٥٣].

وشياطين الإنس والجن يدعون الإنسان إلى الشهوات والمحرمات ويرغِبونه ويحسنون له القبائح، فيحبس نفسه عن محارم الله، والصبر عن معصية الله كقصة يوسف عليه الصلاة والسلام مع امرأة العزيز؛ حيث دعته إلى نفسها ومع ذلك صبر وحبس نفسه عن معصية الله، ولجأ إلى الله عندما هددته بالحبس والسجن، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

وقد تقدم الإشارة إلى هذا في ما سبق: من خلال عرض القصص القرآني.

وهذا النوع من أنواع الصبر من أشدها؛ فالإنسان قد يصبر على الضراء والبلاء، لكن هذا النوع لا يصبر عنه إلا القليل، والصبرُ على الطاعات وعنِ المحرَماتِ أفضلُ من الصَبرِ على الأقدار المؤلمة، صرح بذلك السَلفُ، منهم: سعيدُ بنُ جبير، وميمون بن مهران كما قال ابن رجب رحمه الله [(١)].

والمؤمن مطالب بأن لا يطلق لنفسه العنان في الجري وراء شهواتها؛ لئلا يخرجه ذلك إلى البطر والطغيان وإهمال حق الله تبارك وتعالى فيما آتاه وبسط له حتى في الأمور المباحة إذا تسببت في التقصير.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

ويمكن للإنسان إذا أخذ بهذه الأمور أن تكون عونًا له على هذا النوع من أنواع الصبر وهي:

أولًا: أن يعلم أن الله تبارك وتعالى أوجده في هذه الحياة، واستخلفه فيها؛ ليقوم بعبادته، وابتلاه بالخير والشر، وأنه إليه راجع، فعليه أن يصبر والحياة قصيرة قال الله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ثانيًا: أن لا يركن إليها، ولا يغتر بها، فالجنة حفت بالمكاره والنار حفت بالشهوات.

ثالثًا: أن لا يتطلع إلى ما عند الآخرين من متاع الدنيا، وأن يعلم أن ما عند الله خير وأبقى قال الله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وعلى الإنسان أن يعلم أنما هم فيه من الدنيا ظل زائل، وعارية مستردة، ولا يبالي

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ص٢١٩.

بالمظاهر التي يتبجح بها الطغاة، والأثرياء، لقد قال الذين يريدون الحياة الدنيا لما رأوا قارون خرج على قومه في زينته: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص: ٧٩].

فقال أهل العلم والإيمان فقالوا: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

قال الطبري رحمه الله: «﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ يعني بذلك: الذين صبروا عن طلب زينة الحياة الدنيا، وآثروا ما عند الله من جزيل ثوابه على صالحات الأعمال على لذات الدنيا وشهواتها؛ فجدوا في طاعة الله، ورفضوا الحياة الدنيا»[(١)].

وقال السدي: «وما يلقى الجنة إلا الصابرون»[(٢)].

وقال مقاتل: «لا يؤتاها، يعني الأعمال الصالحة، وقال الكلبي: لا يعطاها في الآخرة، وقيل: لا يؤتى هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ إلا الصابرون على طاعة الله، وعن زينة الدنيا»[(٣)].

رابعًا: أن يصبر على أداء حق الله تبارك وتعالى فيها، وذلك بحبس نفسه عن المحرمات، ولا يمكن نفسه من كل ما تريده؛ فإنها قد توقعه في الحرام، فإن احترز كل الاحتراز؛ أوقعته في المكروه.

والصبر عن المعاصي التي انتشرت وعمت؛ حتى أصبح التحرز منها أمرًا صعبًا، فالمعاصي في البيوت والأسواق، والمدارس، والعمل، وفي الهواتف والشاشات، والجرائد والكتب، ولربما بعض المساجد لا تخلو من المنكرات، فيحتاج الإنسان إلى أن يتحلى بالصبر على هذه المعاصي؛ لينال رضا الله تبارك وتعالى، ويتذكر عظم الأجر الذي أعده الله تبارك وتعالى للصابرين.

ثالثًا: الصبر على الشدائد والبلاء:

إن العيش في الحياة الدنيا لا يخلو من كدر ومنغصات، وشدائد ومكاره ومصائب، فلا أحد يخلو من هذا، فما من راحة إلا ويعقبها تعب، وما من لذة إلا ويتبعها منغص، وما من فرحة إلا ويتبعها حزن، والإنسان يمر في هذه الحياة للشدائد والمكاره والمحن، لكن عليه أن يلجأ إلى الله ويصبر، وإن الله مع الصابرين بنصره وتأييده، وقد تعرض السحرة الذين سجدوا لله تبارك وتعالى عندما جمعهم فرعون، وألقوا عصيهم، وألقى موسى عليه الصلاة والسلام عصاه؛ فتحولت حية تسعى؛ فالتقمت ما صنعوا،

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٢٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٥.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٢٢٣.

وتهددهم فرعون، وتوعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ فصبروا على هذا البلاء، وطلبوا العون من الله، وقالوا كما أخبر عنهم ربهم تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣-١٢٦].

قال أبو حيان رحمه الله: «لما أوعدهم بالقطع والصلب؛ سألوا الله تعالى أن يرزقهم الصبر على ما يحل بهم -إن حل-، وليس في هذا السؤال ما يدل على وقوع هذا الموعد بهم، خلافًا لمن قال يدل على ذلك، ولا في قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ دليل على أنه لم يحلَ بهم الموعود خلافًا لمن قال يدل على ذلك؛ لأنهم سألوا الله أن يكون توفيهم من جهته، لا بهذا القطع والقتل وتقدم الكلام على جملة ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ سألوا الموت على الإسلام، وهو الانقياد إلى دين الله وما أمر به»[1].

وقال الخازن رحمه الله: «﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: اصبب علينا صبرًا كاملًا تامًا؛ ولهذا أتى بلفظ التنكير، يعني: صبرًا وأي صبر عظيم ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ يعني: واقبضنا على دين الإسلام، وهو دين خليلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء»[2].

عن مجاهد: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، قال: كانوا أول النهار سحرة، وآخره شهداء»[3].

وقال موسى عليه السلام لقومه آمرًا لهم أن يستعينوا بالله وتعالى ويصبروا على أذى فرعون لهم: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

يخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أن نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام حث قومه على الاستعانة على فرعون وقومه بالله العظيم، والصبر على أذى فرعون وقومه لبني إسرائيل؛ لأنه لا سبيل لهم مع فرعون وجنوده وقوته وكبريائه إلا الصبر والاستعانة بالله، ووعدهم أن العاقبة العظيمة التي يرضاها الله هي للمتقين.

وقال سبحانه حاكيًا عن رسله عليهم الصلاة والسلام حين صبروا على تكذيب

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٤/ ٢٩٦.

(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٧٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٦.

قومهم لهم وأذيتهم لهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

قال ابن سعدي رحمه الله: «أي: ولنستمِرنَّ على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى؛ فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى؛ احتسابا للأجر ونصحًا لكم؛ لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير»[(١)].

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله قومه له: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال الله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: من تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: صلاة العصر»[(٢)].

أمرُ الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور به، والصلاة داخلة في التسبيح المذكور[(٣)].

قال ابن سعدي رحمه الله: «﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم والْهَ بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات، فإن ذكر الله تعالى، مُسَلٍ للنفس، مؤنس لها، مهون للصبر»[(٤)].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين، وقال السدي: الوجلين، وقال عمرو بن أوس: المخبتون: الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا، وقال الثوري: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له»[(٥)].

وقال الشنقيطي رحمه الله: «أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبشر المخبتين أي: المتواضعين لله المطمئنين الذين من صفتهم: أنهم إذا سمعوا ذكر الله، وجلت قلوبهم أي: خافت من الله جل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير ٥/ ٣٢٥.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٣٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٠٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، بن كثير ٥/ ٤٢٤، بتصرف يسير.

وعلا، وأن يبشر الصابرين على ما أصابهم من الأذى، ومتعلق التبشير محذوف؛ لدلالة المقام عليه أي: بشرهم بثواب الله وجنته»[1].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده، ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خوفًا وتعظيمًا، فتركوا لذلك المحرمات؛ لخوفهم ووجلهم من الله وحده، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من البأساء والضراء، وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسبين ثوابه، مرتقبين أجر»[2].

وأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأمره بالصبر على ما يصيبه من أذى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله: «يقول: واصبر على ما أصابك من الناس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر، ولا يصدنك عن ذلك ما نالك منهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يقول: إن ذلك مما أمر الله به من الأمور عزما منه»[3].

وقال ابن كثير رحمه الله: «علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى؛ فأمره بالصبر، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور»[4].

وقال الماوردي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: على ما أصابك من الأذى في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

الثاني: على ما أصابك من البلوى في نفسك أو مالك»[5].

فأبشر أيها الصابر المحتسب بالأجر العظيم من الله، واعلم أن بعد العسر يسرًا، وبعد الشدة يأتي الفرج ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالله تبارك وتعالى يبتلي عباده في هذه الدار بأنواع البلايا والمحن، فتارة يبتليه بالمرض، وتارة يبتليه بالغنى، وتارة يبتليه بموت قريب أو حبيب، قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٥٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٣٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٤٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣٨.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣٨.

﴿قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أخبر تعالى أنه يبتلي عباده المؤمنين أي: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢].

فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف، وقال هاهنا: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أي: بقليل من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ أي: ذهاب بعضها ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: لا تُغِل الحدائق والمزارع كعادتها»[(١)].

فعلى الإنسان إن أصابه مرض أو أصابته مصيبة في ماله أو ولده أو في قريبه؛ فإنه يصبر ولا يجزع ويسلم لأمر الله تبارك وتعالى، فإن رضي بذلك؛ فإنه ينال أعظم الأجر عند الله تعالى، وإن تسخط ولم يصبر؛ فاته الأجر العظيم، فعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمرَه كله خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إنْ أصابتْه سرَاء شكر، فكانَ خيرًا لهُ، وإنْ أصابتْه ضرَاء صبرَ، فكانَ خيرًا له)[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يزالُ البلاء بالمؤمن والمؤمنةِ في نفسه وولدِهِ ومَالِهِ حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئةٌ)[(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهُم، فمنْ رضي؛ فلهُ الرّضى، ومنْ سخط؛ فلهُ السَخط)[(٤)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٢٩٩٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٢٨٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٦.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢١١٠.

فصبر؛ عوضته منهما الجنة)، يريد عينيه»[1].

قال ابن بطال رحمه الله: «هذا الحديث أيضًا حجة في أن الصبر على البلاء ثوابه الجنة، ونعمة البصر على العبد -وإن كانت من أجل الله تعالى- فعوض الله عليها الجنة أفضل من نعمتها في الدنيا؛ لنفاذ مدة الالتذاذ بالبصر في الدنيا، وبقاء مدة الالتذاذ به في الجنة، فمن ابتلى من المؤمنين بذهاب بصره في الدنيا فلم يفعل ذلك به لسخط منه عليه، وإنما أراد تعالى الإحسان إليه إما بدفع مكروه عنه يكون سببه نظر عينيه لا صبر له على عقابه في الآخرة، أو ليكفر عنه ذنوبًا سلفت لا يكفرها عنه إلا بأخذ أعظم جوارحه في الدنيا؛ ليلقى ربه طاهرًا من ذنوبه، أو ليبلغ به من الأجر إلى درجة لم يكن يبلغها بعمله، وكذلك جميع أنواع البلاء، فقد أخبر عليه السلام أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه[2]»[3].

قال ابن القيم رحمه الله: «فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن أظهر معاني الصبر: حبس النفس على المكرمة وأنه من أصعب المنازل على العامة وأوحشها في طريق المحبة، وإنما كان صعبًا على العامة؛ لأن العامي مبتدئ في الطريق، وليس له دربة في السلوك، وليس له تهذيب المرتاض بقطع المنازل، فإذا أصابته المحن؛ أدركه الجزع، وصعب عليه احتمال البلاء، وعز عليه وجدان الصبر؛ لأنه ليس في أهل الرياضة؛ فيكون مستوطنًا للصبر، ولا من أهل المحبة؛ فيلتذ بالبلاء في رضا محبوبه»[4].

وأثنى الله تبارك وتعالى على الصابرين على ما ابتلاهم به من السراء والضراء، وحين البأس، وأخبر بأن من كان كذلك فهو من الصادقين كما في قول رب العزة والجلال: ﴿وَالصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سبحانه: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال ربنا تبارك وتعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم مسليًا له واعدًا له بالنصر والعاقبة الحسنة: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب فضل من ذهب بصره، رقم ٥٣٢٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٤٨١. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٨١٥.

(٣) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٣٧٧.

(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٦١.

﴿أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ونبي الله يعقوب صلى الله عليه وسلم حين ألقوا بأخيهم في الجُب وأتوا أباهم يبكون ويزعمون الذئب أكل يوسف عليه السلام قال كما أخبر الله عنه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

المراد به: الصبر الذي لا جزع فيه ولا شكوى[١].

وقال ابن جريج عن مجاهد: «أي: لا أشكو ذلك إلى أحد»[٢].

وقال مجاهد أيضًا: «الصبر الجميل: الذي لا جزع فيه»[٣].

وقال أبو حيان رحمه الله: «أتجمل لكم في صبري؛ فلا أعاشركم على كآبة الوجه، وعبوس الجبين، بل على ما كنت عليه معكم، وقال الثوري: من الصبر أنْ لا تحدث بما يوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تبكي نفسك»[٤].

وقال ابن القيم رحمه الله: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: « الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه»[٥].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقيل: الصبر لله غناء، وبالله تعالى بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاء، والصبر على الطلب عنوان الظفر، وفي المحن عنوان الفرج»[٦].

فيا من ابتليت فأبشر، فقد قال رب العزة والجلال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، والبشرى من الله، نسأل الله من فضله.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٥٢.
(٢) المصدر السابق ٩/ ٢٤٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٥.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٩٠.
(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٦٠.
(٦) المصدر السابق.

ثمرات الصبر

أولًا: ثمرات الصبر في الدنيا:

إن الصبر خلق عظيم؛ لذا جعل الله تبارك وتعالى ثمرات في الدنيا والآخرة لمن تخلق بهذا الخلق النبيل، وفيما يلي نعرض لبعض من ثماره في الدنيا فمنها:

١. محبة الله تبارك وتعالى ومحبة الناس.

وأخبر سبحانه في كتابه بأنه يحب الصابرين كما في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانًا فأحبه؛ فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه؛ فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في أهل الأرض)[1].

فالصبر بجميع أنواعه من أهم الأسباب التي ينال بها العبد محبة الله تبارك وتعالى ومحبة الناس.

٢. معية الله تبارك وتعالى.

وأخبر سبحانه في كتابه أنه مع الصابرين، وهي معية نصر وتأييد وتوفيق، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقال ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

وابن القيم رحمه الله يقول: «فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة، وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى، وبقوله اهتدى المهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٠٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، رقم ٢٦٣٧.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾»[1].

ومن كان الله معه؛ فلا يضره شيء، ولا يناله أذى، من كان الله معه؛ كفاه ما أهمه، ونصره على عدوه، وسدده ووفقه لطاعته، ولا نجاح في الدنيا ولا نصر ولا تمكين إلا بالصبر، ولا فلاح في الآخرة ولا فوز ولا نجاة إلا بالصبر.

٣. الصبر شرط أساسي في الإمامة في الدين والتمكين في الأرض.

أخبر الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم، وبين أن الإمامة في الدين متعلقة بالصبر واليقين، كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله بأنه سمع ذلك من شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «إنما تنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين»[2].

٤. النصر على الأعداء.

فقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه بأن النصر والمدد معلق على الصبر وعلى تقوى الله جل وعلا، فقال سبحانه: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

ومن الأدلة التي تؤكد أن النصر مع الصبر كثرة الآيات والأحاديث التي تأمر بالصبر عند لقاء العدو، منها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

والصبر والتقوى سبب في المدد بالملائكة من عند الله، كما في قوله: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وجَعلَ سبحانه وتعالى الإمَامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين، كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ومن الأمثلة على ذلك أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حينما امتحن المحنة العظيمة في فتنة القول بخلق القرآن؛ فصبر على ذلك البلاء، وصابر، وثبت على الحق؛ فأورثه الله الإمامة في الدين، وأصبح إمامًا لأهل السنة والجماعة.

(١) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٣.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٥٤.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يا غلام، أو يا غليم، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟)، فقلت: بلى، فقال: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدة، وإذا سألت؛ فاسأل الله، وإذا استعنت؛ فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء، لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا)[1].

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «فقوله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ النصر مع الصبر) يشمل النصرَ في الجهادين: جهادُ العدوِ الظاهر، وجهادُ العدوِ الباطن، فمن صبرَ فيهما؛ نُصِرَ وظفر بعدوِه، ومن لم يصبر فيهما وجَزِعَ؛ قُهِرَ وصار أسيرًا لعدوه، أو قتيلًا له»[2].

٥. الانتفاع بآيات الله والاتعاظ بها.

وأخبر سبحانه بأن الذين ينتفعون بآيات الله ويتعظون بها هم أهل الصبر، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل صَبَّار، أي: في الضراء، شكور، أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتُلِي صَبَر، وإذا أعطي شكر»[3].

وقال رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، -عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام-، لعبرةً وَدَلالةً لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم»[4].

وقال البغوي رحمه الله: «الصبار: الكثير الصبر، والشكور: الكثير الشكر، وأراد: لكل مؤمن، لأن الصبر والشكر من خصال

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٨٠٣، والترمذي في سننه، رقم ٢٥١٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٩٥٧.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ص١٩٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٧٨.

(٤) المصدر السابق ٦/ ٥١٢.

المؤمنين»[1].

قال ابن سعدي رحمه الله: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في أيام الله على العباد ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة»[2].

ثانيًا: ثمرات الصبر في الآخرة:

لعظم فضل خلق الصبر جعل الله تبارك وتعالى له ثمرات متعددة في الدنيا والآخرة، وقد تقدم ثماره في الدنيا، ومن ثماره في الآخرة ما يلي:

١. صلاة الله ورحمته وبركاته على الصابرين.

أخبر الله سبحانه في كتابه الكريم بأنه سيبتلي عباده بأنواع من البلاء، فسيبتليهم بالخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات، والناس أمام هذا البلاء قسمين: منهم من تذمر وتململ وتضجر من هذا البلاء؛ فهذا سيحرم خيرًا كثيرًا، ومنهم من صبر على هذا البلاء، وقابل ذلك بالشكر لله والاسترجاع فينال برضوان الله تبارك وتعالى وينال ثوابه سبحانه، ولا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله، أو نفسه، أو ولده، أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء.

وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أخبر تعالى أنه يبتلي عباده المؤمنين أي: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف، وقال هاهنا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أي: بقليل من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ أي: ذهاب بعضها ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: لا تُغِل الحدائق والمزارع كعادتها، كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به

(١) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٣٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢١.

عباده، فمن صبر أثابه الله ومن قنط أحل الله به عقابه، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، وقد حكى بعضُ المفسرين أن المراد من الخوف هاهنا: خوف الله، وبالجوع: صيام رمضان، ونقص الأموال: الزكاة، والأنفس: الأمراض، والثمرات: الأولاد، وفي هذا نظر، والله أعلم.

ثم بيَّنَ تعالى مَنِ الصابرون الذين شكرهم، قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: تسلَّوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرَّة يوم القيامة؛ فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ثناء من الله عليهم ورحمة»[1].

٢. يوفيهم الله أجرهم بغير حساب.

من المعلوم أن الله تبارك وتعالى يضاعف الأجور والحسنات الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، وهذا يشمل الصبر، ولكن الصبر يزيد على ذلك بأن الله تبارك وتعالى أخبر في كتابه الكريم أن الصابرين يوفيهم أجرهم بغير حساب، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٧.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفًا.

وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك.

وقال السدي: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني: في الجنة»[2].

وقال الماوردي رحمه الله بأن في هذه الآية أربعة أوجه:

أحدها: يعني بغير مَنٍ عليهم ولا متابعة، قاله السدي.

الثاني: لا يحسب لهم ثواب عملهم فقط ولكن يزدادون على ذلك، قاله ابن جريج.

الثالث: لا يعطونه مقدرًا لكن جزافًا.

الرابع: واسعًا بغير تضييق.

وحكي عن علي كرم الله وجهه قال: كل أجر يكال كيلًا ويوزن وزنًا إلا أجر الصابرين فإنه يحثى حثوًا»[3].

وقال الشوكاني رحمه الله: «أي يوفيهم الله أجرهم في مقابلة صبرهم بغير حساب: أي بما لا يقدر على حصره حاصر، ولا يستطيع حسبانه حاسب، قال عطاء: بما لا يهتدي إليه عقل ولا وصف، وقال مقاتل: أجرهم الجنة وأرزاقهم فيها بغير حساب،

(٢) المصدر السابق ٧/ ٨٩.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١١٩، بتصرف يسير.

والحاصل أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له؛ لأن كل شيء يدخل تحت الحساب فهو مُتَنَاهٍ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه، وهذه فضيلة عظيمة، ومثوبة جليلة تقتضي أن على كل راغب في ثواب الله، وطامع فيما عنده من الخير أن يتوفر على الصبر، ويزم نفسه بزمامه، ويقيدها بقيده فإن الجزع لا يرد قضاء، قد نزل ولا يجلب خيرًا قد سلب، ولا يدفع مكروهًا قد وقع، وإذا تصور العاقل هذا حق تصوره وتعقله حق تعقله علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم، وغير الصابر قد نزل به القضاء، شاء أم أبى، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقدر قدره ولا يبلغ مداه، فضم إلى مصيبته مصيبة أخرى، ولم يظفر بغير الجزع»[1].

وأخبر سبحانه بأن المؤمنين يؤتون أجرهم مرتين جزاء صبرهم، كما في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول، ثم بالثاني يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثاني؛ ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على اتباع الحق؛ فإنَّ تجشُّم مثل هذا شديد على النفوس»[2].

وهذا عام في جميع أنواع الصبر كما قال ابن سعدي رحمه الله: «هذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور»[3].

٣. الفوز بالجنة والنجاة من النار.

لقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم بأن عاقبة الصبر في الآخرة الفوز بالجنة، التي هي مطلب كل مسلم، وغاية كل مؤمن بالله في آيات متعددة ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

ففي هذه الآية يبين الله تبارك وتعالى أنه لا يُوفق للأعمال الصالحة إلا الذين صبروا، الذين هم أصحاب الحظ العظيم الذي هو الجنة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «الذين أعد الله لهم الجنة»[4].

وقال قتادة: «الحظ العظيم»: الجنة، أي:

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢٠.

(٤) جامع البيان، ٢١/ ٤٧٣.

ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة»[1].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان؟ فإذا صبر الإنسان نفسه، وامتثل أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله، لا يفيده شيئًا، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه، ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، وهان عليه الأمر، وفعل ذلك، متلذذًا مستحليًا له، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق»[2].

وأخبر سبحانه بأن الصابرين يفوزون بالجنة في يوم القيامة جزاء صبرهم، كما في قوله: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين من النار»[3].

وقال الإمام الشنقيطي رحمه الله: «قوله: ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾، أي: بسبب صبرهم في دار الدنيا، على أذى الكفار الذين اتخذوهم سخريا، وعلى غير ذلك من امتثال أمر الله، واجتناب نهيه، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن أولئك المستضعفين الذين كان الكفار يستهزئون بهم، جزاهم الله يوم القيامة الفوز بجنته، ورضوانه، جاء مبينًا في مواضع أخر مع بيان أنهم يوم القيامة يهزؤون بالكفار، ويضحكون منهم، والكفار في النار، والعياذ بالله، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦]»[4].

وقال الله تعالى مبينًا أن الجنة ينالها الصابرون جزاء صبرهم: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

وقال قتادة: «وجزاهم بما صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصيته ومحارمه، جنةً وحريرًا»[5].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: بسبب

(١) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٧٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٩٩.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٦١.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٠١.

صبرهم أعطاهم ونَولهم وبوأهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: منزلًا رحبًا، وعيشًا رَغَدًا، ولباسًا حَسَنًا، وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن سليمان الدارَاني قال: قرئ على أبي سليمان الداراني سورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ فلما بلغ القارئ إلى قوله: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ قال: بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا»[1].

وقال البغوي رحمه الله: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعة الله واجتناب معصيته، وقال الضحاك: تاب على الفقر، وقال عطاء: على الجوع، ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ قال الحسن: أدخلهم الله الجنة وألبسهم الحرير»[2].

٤. دخول الملائكة عليهم في الجنة والسلام عليهم.

وأخبر سبحانه وتعالى أن الملائكة تدخل عليهم؛ فتهنئهم بدخول الجنة جزاء صبرهم في هذه الحياة كما في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا، وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها؛ تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام»[3].

وقال: «لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهي الجنة، قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسُدِي: سميت بذلك لارتفاعها.

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي: يُبْتَدَرُون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام، وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار»[4].

ويقول الشنقيطي رحمه الله: «والبشارة عند الموت، وعند دخول الجنة من باب واحد؛ لأنها بشارة بالخير بعد الانتقال إلى الآخرة»[5].

ويقول الماوردي رحمه الله: «قوله عز وجل: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ فيه ستة تأويلات:

أحدها: معناه بما صبرتم على أمر الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩٠.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥١.
(٤) المصدر السابق ٦/ ١٣٣.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٣.

تعالى، قاله سعيد بن جبير.

الثاني: بما صبرتم على الفقر في الدنيا، قاله أبو عمران الجوني.

الثالث: بما صبرتم على الجهاد في سبيل الله، وهو مأثور عن عبد الله بن عمر.

الرابع: بما صبرتم عن فضول الدنيا، قاله الحسن، وهو معنى قول الفضيل بن عياض.

السادس: بما صبرتم عما تحبونه حين فقدتموه، قاله ابن زيد.

ويحتمل سابعًا: بما صبرتم على عدم اتباع الشهوات.

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: فنعم عقبى الجنة عن الدنيا، قاله أبو عمران الجوني.

الثاني: فنعم عقبى الجنة من النار، وهو مأثور»[1].

فيفوزون بالمطلوب المحبوب لدى كل مؤمن بالله، وهو كما قال الله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وإذا فاز بهذا المطلوب فقد نجا من المرهوب وهو أنه زحزح عن النار، ودخل الجنة دار الأبرار[2].

موضوعات ذات صلة:

الابتلاء، الأذى، الثبات، الدعوة، الرضا، العبادة، العزم، النبوة

(١) النكت والعيون، الماوردي٣/ ١٠٩.
(٢) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٦٨.

الصحابة

عناصر الموضوع

مفهوم الصحابة	٢٦٤
مكانة الصحابة	٢٦٦
صحابة لهم مكانة خاصة	٢٧٥
نماذج قرآنية لمواقف الصحابة	٢٨٣
منزلة أهل البيت رضي الله عنهم	٣٠٧
واجب المؤمنين تجاه الصحابة الكرام	٣١٨

مفهوم الصحابة

أولًا: المعنى اللغوي:

الصحابي مشتق من الصحبة، والصحابة مصدر قولك: صاحبك الله وأحسن صحابتك.

ومادة (صحب) تأتي لمعان، منها:

- الملازمة: كل شيء لازم شيئًا فقد استصحبه»[1]. وكذا كل شيء لاءم شيئًا[2]..
- المعاشرة قال ابن منظور: «صحبه يصحبه صحبة بالضم وصحابة بالفتح، وصاحبه: عاشره، والصحب: جمع الصاحب مثل راكب وركب، والأصحاب: جماعة الصحب، مثل فرخ وأفراخ، والصاحب: المعاشر»[3].
- الانقياد: «أصحبت أي: انقدت له»[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يعرف المحدثون الصحابي بأنه: «من لقي النبي مؤمنًا به، ومات على الإسلام، ولو تخللت ردة، في الأصح»[5].

قال ابن كثير: «هذا قول جمهور العلماء خلفًا وسلفًا، وقد نص على أن مجرد الرؤية كاف في إطلاق الصحبة: البخاري وأبو زرعة، وغير واحد ممن صنف في أسماء الصحابة، كابن عبد البر، وابن مندة وأبي موسى المديني، وابن الأثير»[6].

ويرى الفقهاء والأصوليون أنه «اسم لمن اختص بالنبي عليه السلام، وطالت صحبته معه على طريق التتبع له والأخذ منه»[7].

قال الشوكاني: «والحق ما ذهب إليه الجمهور، وإن كانت اللغة تقتضي أن الصاحب هو من كثرت ملازمته؛ فقد ورد ما يدل على إثبات الفضيلة لمن لم يحصل له منه إلا مجرد اللقاء

(١) تهذيباللغة، الأزهري ٤/ ١٥٣.
(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ١٦١.
(٣) لسان العرب ١/ ٥١٩.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٥٣.
(٥) انظر: اختصار علوم الحديث، ابن كثير ص١٧٤، نزهة النظر، ابن حجر ص ١٤٠..
(٦) اختصار علوم الحديث ص١٧٤.
(٧) كشف الأسرار ٣/ ٣٨٤.

القليل أو الرؤية ولو مرة»[1]. يضاف لذلك:

١. شرف منزلة النبي صلى الله عليه وسلم، وعلو قدره، وأن لصحبته عليه الصلاة والسلام مزية عن صحبة غيره.

٢. أن المحدثين حين عرفوا الصحابي بالمعنى الاصطلاحي اعتمادًا على المعنى اللغوي، أخذوا المعنى اللغوي بمعناه العام الشامل لطول الصحبة وقصرها، ولم يقصروه على بعض أفراده، وهو طول الصحبة دون قصرها، كما فعل أهل الأصول الذين راعوا بعض أفراد التعريف، وهو طول الصحبة، ولا شك أن مراعاة المعنى اللغوي بجميع أفراده أولى من قصره على بعضها.

٣. إن كثيرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم تطل صحبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد اتفق أهل الحديث الذين ترجموا للصحابة على عدهم فيهم إلى غير ذلك[2].

٤. أما ما يتعلق بما ماذكره أنس رضي الله عنه، فإنه إنما نفى الصحبة الخاصة، وهذا لا ينافي ما اصطلح عليه الجمهور من الاكتفاء باللقاء؛ لما مر من شرف هذا اللقاء ومزيته، ولذا ورد في الحديث عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يأتى على الناس زمانٌ يغزو فئامٌ من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم، ثم يغزو فئامٌ من الناس فيقال لهم:فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون نعم. فيفتح لهم، ثم يغزو فئامٌ من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون نعم. فيفتح لهم)[3].

ويدل على رجحان الأول قصة الأشعث ابن قيس؛ فإنه كان ممن ارتد، وأتي به إلى أبي بكرٍ الصديق أسيرًا، فعاد إلى الإسلام، فقبل منه ذلك، وزوجه أخته، ولم يتخلف أحد عن ذكره في الصحابة، ولا عن تخريج أحاديثه في المسانيد وغيرها[4].

---

(١) إرشاد الفحول، ص٣٤٢.

(٢) انظر: صحابة رسول الله في الكتاب والسنة ص٧١-٧٤.

(٣) اختصار علوم الحديث، ابن كثير ص١٧٥.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم ٢٥٣٢.

(٤) نزهة النظر، ابن حجر ص١٤٠-١٤١.

مكانة الصحابة

أولًا: ذكر أوصافهم في الكتب السماوية السابقة:

ذكر الله سبحانه وتعالى صفة الصحابة رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

يقول الإمام الطبري: «﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ﴾ يقول: هذه الصفة التي وصفت لكم من صفة أتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذين معه صفتهم في التوراة ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ وصفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه وإنما مثلهم بالزرع المشطئ؛ لأنهم ابتدءوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمي»[1].

وقال ابن كثير: «وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: شده ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي: شب وطال ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي: فكذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع»[2].

وليس بنا حاجة -بعد خبر الله تعالى- أن نرجع إلى التوراة أو الإنجيل لمعرفة تفاصيل ذلك، وقد أخبرنا الله تعالى أنهم قد حرفوا كتبهم[3].

(١) جامع البيان ١١/ ٣٧٢ بتصرف يسير.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٣٦-٢٦٣٧.
(٣) ذكر ابن عاشور ما وصفه مما يصلح لتطبيق هذه الآية، فقال: «والذي وقفنا عليه في التوراة مما يصلح لتطبيق هذه الآية هو البشارة الرمزية التي في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية من قول موسى عليه السلام: جاء الرب من سينا، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم، فأحب الشعب جميع قديسيه، وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك. فإن جبل فاران هو حيال الحجاز. وقوله: فأحب الشعب جميع قديسيه يشير إليه قوله: (رحماء بينهم)، وقوله: (قديسيه) يفيد معنى (تراهم ركعًا سجدًا)، ومعنى (سيماهم في وجوههم من أثر السجود). وقوله في التوراة: (جالسون عند قدمك)

ثانيًا: الشهادة لهم بحقيقة الإيمان:

لقد شهد القرآن الكريم للصحابة رضي الله عنهم بالإيمان في مواضع كثيرة، بل إننا لنجزم أن كل آية صدرت بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهم أول المخاطبين بها، وقد ناهزت هذه الآيات ثمانين موضعًا، وإننا لنلحظ هذا الوصف العظيم حتى في باب العتاب وتصحيح الأخطاء، من مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة:١].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١].

فضلًا عن تلك الآيات التي تثني عليهم، وتأخذ بأيديهم في مدارج الطاعات؛ ليرتقوا إلى أعلى الدرجات، فتوجههم آمرة ناهية، وهي كثيرة..

من الآيات التي نصت على إيمانهم:

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال:٦٢].

في الآية ثناء عظيم على الصحابة رضي الله عنهم من وجهين:

الأول: وصفهم بالإيمان.

والآخر: امتنان الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه أيده بهم.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال:٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال:٧٤-٧٥].

يبين الله تعالى ما للصحابة رضي الله عنهم من الجزاء يوم القيامة، فبين أولًا أنهم هم المؤمنون حقًا، ثم ذكر أنه سيجازيهم

يفيد معنى قوله تعالى: (يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا)، ويكون قوله تعالى: (ذلك) إشارة إلى ما ذكر من الوصف، (ومثلهم في الأنجيل كزرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) ابتداء كلام مبتدأ. ويكون الوقف على قوله: (في التوراة)، والتشبيه في قوله: (كزرع) خبره، وهو المثل. وهذا هو الظاهر من سياق الآية، فيكون مشيرًا إلى نحو قوله في إنجيل متى الإصحاح ١٣ فقرة ٣: (هو ذا الزارع قد خرج ليزرع (يعني عيسى عليه السلام) وفيما هو يزرع، سقط بعض على الطريق، فجاءت الطيور وأكلته. إلى أن قال: وسقط الآخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمره بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين. قال فقرة، ثم قال: وأما المزروع على الأرض الجيدة، فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم، وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعض مائة وبعض ستين وآخر ثلاثين وهذا يتضمن نماء الإيمان في قلوبهم، وبأنهم يدعون الناس إلى الدين حتى يكثر المؤمنون، كما تنبت الحبة مائة سنبلة، وكما تنبت من النواة الشجرة العظيمة». التحرير والتنوير٢٦/ ٢٠٧.

بالمغفرة والصفح عن ذنوبهم إن كانت، ووعدهم بالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، وأن من يسير على نهجهم فهو معهم في الآخرة[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة:٢٠].

يقول الطبري: «وهذا قضاء من الله بين فرق المفتخرين الذين افتخر أحدهم بالسقاية، والآخر بالسدانة، والآخر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله. يقول تعالى ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله، وصدقوا بتوحيده من المشركين ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ دور قومهم ﴿وَجَٰهَدُوا۟﴾ المشركين في دين الله ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾، وأرفع منزلة عنده، من سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام، وهم بالله مشركون ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾، يقول: وهؤلاء الذين وصفنا صفتهم، أنهم آمنوا وهاجروا وجاهدوا ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، بالجنة، الناجون من النار»[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩].

وإذا كانت الآية السابقة في مدح المهاجرين، فإن هذه الآية في الثناء على الأنصار، أي:«سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم»[3].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨].

قال ابن عاشور: «وفي صلة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ إيذان بأن سبب انتفاء الخزي عنهم هو إيمانهم، ومعية المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم صحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم»[4].

مما يلفت الانتباه أن أغلب الآيات التي مرت تصف جميع الصحابة بالإيمان، فقوله تعالى:﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢] في شأن من شارك في بدر[5].

وإذا كان لا بد من وقفة عند الآيات التي مرت، فلتكن عند قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

(١) انظر تفسير القرآن العظيم٢/ ٢٦٥.
(٢) جامع البيان٦/ ٣٣٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢١٠.
(٤) التحرير والتنوير٢٨/ ٣٧٠.
(٥) انظر منزلة الصحابة في القرآن ص١١.

[الفتح:١٨-١٩] يقول ابن كثير: «يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفًا وأربعمائة»[(١)].

ولا يخفى على المتأمل سبب اختيار هذه الآية، وذلك:

- أنها عنت جمًا غفيرًا من الصحابة رضي الله عنهم.
- أنها نصت على إيمانهم؛ بل رسوخهم في الإيمان[(٢)].
- إخبار الله تعالى بما في قلوبهم.

وهذا أمر خفي لا يطلع عليه إلا الله تعالى، وهي منقبة أظهرها الله تعالى لهؤلاء الكرام؛ تدل على صدقهم وإخلاصهم، يقول الطبري: «فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك»[(٣)].

- أنهم قد حازوا رضا الله تعالى.

يقول الألوسي عن تلك المبايعة: «استوجبت رضا الله تعالى الذي لا يعادله شيء، ويستتبع ما لا يكاد يخطر على بال، وصح برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: (أنتم خير أهل الأرض)»[(٤)].

ويقول السعدي: «يخبر تعالى بفضله ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم تلك المبايعة التي بيضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة»[(٥)].

والآيات في هذا المقام كثيرة.

وقبل أن أختم هذا المطلب أود أن أبين أن الآيات الكريمة قد أكدت هذا المعنى في مناسبات شتى،-أعني: الشهادة لهم بحقيقة الإيمان-ولولا خشية التكرار لذكرتها في مواضعها، ولكني سأشير إلى طرف منها:

ففيما ما يتعلق بغزوة بدر:

يقول تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٤-١٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣٣.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٠٣.
(٣) جامع البيان١١/ ٣٥٠.
(٤) روح المعاني١٣/ ٢٦١.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم٤١٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم١٨٥٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٩٤٤.

قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال:١١-١٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال:١٧].

تأمل قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، و﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، و﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تدرك عظم منزلة هؤلاء الصحب الكرام رضي الله عنهم.

وفيما يتعلق بغزوة أحد، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران:١٢١].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢].

«وقد قال فيهم الله تعالى بعدما ندبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعقب المشركين بعد انتهاء معركة أحد: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٤][1].

أما في غزوة الأحزاب فقد صدرت الآيات بالنداء لأهل الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب:٩].

ووصفهم بالإيمان، بل بكماله، ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب:١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢].

ثالثًا: صادقون متقون:

كان للتربية التي تلقاها الصحابة رضي الله عنهم من النبي صلى الله عليه وسلم الأثر الكبير في غرس القيم والأخلاق في نفوسهم، فلقد كان صلى الله عليه وسلم

(١) منزلة الصحابة في القرآن ص١٤.

يغذوهم بإرشاداته وبسلوكه، فلا غرو أن تأثروا به عليه الصلاة والسلام،

ولا نعني بالصدق ما يتعلق بالأقوال فقط، وإنما صدق القوم في أعمالهم، وفي نياتهم، فلما أسلموا، أسلموا قيادهم لله رب العالمين، فصدقوا في ذلك، فإذا ما دعوا لأمر سارعوا إلى تنفيذه، فقدموا أنفسهم رخيصة في سبيل الثبات على الدين يوم كانوا بمكة، يعذبون أشد العذاب، ثم تركوا مكة، موطنهم، وتركوا أهاليهم، والغالي والنفيس يوم دعا داعي الهجرة، ولم يلتفتوا إلى أي حظ من حظوظ الدنيا، ولا يكاد ينقضي العجب حينما يتأمل المرء في ترك قرشي مكة المكرمة، وما تعني له وللعرب، ثم يمضي إلى الحبشة، يحمل معه دينه، إن هذا بحق عين الصدق في المواقف، ثم صدقوا في جهادهم، فبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وفي هذا يقول تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٣].

قال الطبري: «أوفوا بما عاهدوه عليه من الصبر على البأساء والضراء، وحين البأس»[1].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر:٨].

«هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين»[2].

ولنضرب مثلًا يبين صدق الصحابة رضي الله عنهم:

❁ موقف أنس بن النضر رضي الله عنه.

أخرج الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: (غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال:يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني: أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني: المشركين، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾

(١) جامع البيان ١٠/ ٢٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٠.

إلى آخر الآية)[1].

قال ابن حجر: «وفيه فضيلة ظاهرة لأنس بن النضر، وما كان عليه من صحة الإيمان، وكثرة التوقي والتورع وقوة اليقين»[2].

رابعًا: نفي الخزي عنهم يوم القيامة وإثبات الكرامة لهم:

لما كان للصحابة الكرام هذا الشرف العظيم، وهو صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ونصرته، وما قاموا به من جهد عظيم في سبيل الله تعالى، فقد وعدهم الله تعالى على ذلك أحسن الوعد.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم:٨].

يقول ابن عاشور: «انتفاء الخزي يومئذ، يستلزم الكرامة إذ لا واسطة بينهما، وفي صلة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ إيذان بأن سبب انتفاء الخزي عنهم هو: إيمانهم وفي هذه الآية دليل على المغفرة لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم»[3].

وقال البقاعي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾: «وهم الصحابة رضي الله عنهم إن كان المراد المعية في مطلق الزمان، وسابقوهم إن كان المراد بالوصف أو زمان مخصوص كبدر وبيعة الرضوان»[4].

والحقيقة أن الكرامة الحقيقية في اصطفاء الله تعالى هذا الجيل ليكون في صحبة سيد ولد آدم، رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاتم النبيين، ولعلنا نلحظ هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات:٧].

وما يوحي به التقديم؛ فيكم لا في غيركم، ويا له من شرف عظيم؛ إذ اختارهم رب العالمين ليقوموا بهذا الأمر العظيم: مشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم في حمل عبء نشر الرسالة، ولقد قاموا بها خير قيام، حتى استحقوا وصف: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠].

قال ابن كثير بعد أن ذكر الأقوال في المراد بهذه الآية: «الصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله عز وجل: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) رقم ٢٨٠٥.
(٢) فتح الباري ٦/ ١٠٠.
(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٧٠ بحذف يسير.
(٤) نظم الدرر ٨/ ٥٤.

﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: خيارًا ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]».

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم، لم يعطه نبيًا قبله ولا رسولًا من الرسل؛ فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه»[(١)].

خامسًا: الوعد لهم جميعًا بالحسنى:

لاشك أن الصحابة رضي الله عنهم يتفاوتون في الفضل، فهم ليسوا على درجة واحدة، وهذا مما دل عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠].

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو سعيد الخدري: (لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٣٦، بحذف يسير.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذًا خليلًا، رقم ٣٦٧٣.

والذي نود تأكيده، أن الجميع قد وعدوا الجنة بنص الآية التي قررت تفاضلهم، يقول تعالى في الآية نفسها: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قال القرطبي مبينًا المراد من الآية: «المتقدمون المتناهون السابقون، والمتأخرون اللاحقون، وعدهم الله جميعًا الجنة مع تفاوت الدرجات»[(٣)].

والنص على أن الجميع وعدوا الحسنى؛ «لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم متوهم ذمه، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه مع تفضيل الأول عليه»[(٤)].

يقول ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ احتراس من أن يتوهم متوهم أن اسم التفضيل مسلوب المفاضلة للمبالغة، مثل ما في قول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣].

أي: حبيب إلي دون ما يدعونني إليه من المعصية، وعبر بـ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لبيان أن الدرجة هي درجة الحسنى؛ ليكون للاحتراس معنى زائد على التأكيد وهو ما فيه من البيان، والحسنى: لقب قرآني إسلامي يدل على خيرات الآخرة.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٤١.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٧٧١.

وهذه الآية أصل في تفاضل أهل الفضل فيما فضلوا فيه، وأن الفضل ثابت للذين أسلموا بعد الفتح من أهل مكة وغيرهم. وبئس ما يقوله بعض المؤرخين من عبارات تؤذن بتنقيص من أسلموا بعد الفتح من قريش مثل كلمة «الطلقاء»، وإنما ذلك من أجل حزازات في النفوس قبلية أو حزبية، والله يقول: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحجرات:١١]»[(١)].

والذي يعنينا هنا أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعًا قد وعدوا بالجنة.

سادسًا: الرضوان من الله تعالى:

إن غاية ما يرجوه المسلم: رضا الله سبحانه وتعالى، ولقد بشر الله تعالى الصحابة رضي الله عنهم بذلك، وحازوا هذا الفضل وهم في دار الدنيا.

قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨].

ولبيان من هم، وكم عددهم؟ أذكر ما أخرجه الإمام البخاري بسنده (عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة، والحديبية: بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا)[(٢)].

يقول ابن كثير عن هذه الآية الكريمة: «يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء والسمع والطاعة»[(٣)].

وقل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠].

يقول الطبري: «والذين سبقوا الناس أولًا إلى الإيمان بالله ورسوله ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾، الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه، من أهل الكفر بالله ورسوله ﴿وَٱلَّذِينَ

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٧٥-٣٧٦، بحذف يسير.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦١، بحذف يسير.

﴿اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾، يقول: والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طلب رضا الله ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾»[1].

ويقول ابن كثير: «يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم، قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار: من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية».

ثم يعقب على هذا بقوله: «فيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه»[2].

فهذه الآيات، ومثلها كثير، تدل على رفعة شأن الصحابة، وأنهم نالوا أعلى ما يمكن أن يتطلع إليه بشر، وهو رضى رب العالمين.

(١) جامع البيان٦/ ٤٥٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم٢/ ١٣٣.

صحابة لهم مكانة خاصة

إذا كان الصحابة الكرام قد نالوا شرف الصحبة بالتقائهم بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فإنهم ولا شك يتفاوتون في الفضل، فهناك من بادر وأسلم يوم كان الإسلام غريبًا، والناس يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤذونه، وهناك من تأخر إسلامه، وبين هذين مراتب لا يعلمها إلا الله تعالى، وهذا ما صرحت به الآية الكريمة: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠].

قال ابن حجر: «لا خفاء برجحان رتبة من لازمه صلى الله عليه وسلم، وقاتل معه، أو قتل تحت رايته، على من لم يلازمه، أو لم يحضر معه مشهدًا، وعلى من كلمه يسيرًا، أو ماشاه قليلًا، أو رآه على بعد، أو في حال الطفولية، وإن كان شرف الصحبة حاصلًا للجميع»[3].

وسنتناول هذا الأمر في النقاط الآتية:

أولًا: السابقون من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم:

خص الله تعالى المهاجرين والأنصار بشرف عظيم.

(٣) نزهة النظر ص١٤٢.

يقول سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠].

وقد اختلف العلماء في المراد بالسابقين على أقوال،[١] من أهمها:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما:هم الذين صلوا إلى القبلتين وشهدوا بدرًا.

الثاني: عن الشعبي: أنهم الذين بايعوا بيعة الرضوان.

قال الرازي: «والصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة، وفي النصرة، والذي يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين ولم يبين أنهم سابقون في ماذا فبقي اللفظ مجملًا، إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارًا، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصارًا وهو الهجرة والنصرة، فوجب أن يكون المراد منه السابقون الأولون في الهجرة والنصرة إزالة للإجمال عن اللفظ، وأيضًا فالسبق إلى الهجرة طاعة عظيمة من حيث إن الهجرة فعل شاق على النفس، ومخالف للطبع، فمن أقدم عليه أولًا صار قدوة لغيره من هذه الطاعة، وكان ذلك مقويًا لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام، وسببًا لزوال الوحشة عن خاطره، وكذلك السبق في النصرة، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة، فلا شك أن الذين سبقوا إلى النصرة والخدمة، فازوا بمنصب عظيم»[٢].

الثالث: يتناول جميع الصحابة؛ لأن جملة الصحابة موصوفون بكونهم سابقين أولين بالنسبة إلى سائر المسلمين، وكلمة «من» في قوله: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ ليست للتبعيض، بل للتبيين، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠].

وذهب إلى هذا كثير من الناس[٣].

وفي أمر المهاجرين يقول ابن كثير: «فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهًا، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة»[٤].

ونلحظ في هذه الآية الآتي: الإتيان بالفعل الماضي في ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ..﴾ ولا شك أن هذا يقتضي تحقق هذا الأمر فيهم، وأنه لن يتغير، ولأنه غير مقيد بزمن، ولارتباطه بعلة قد ثبتت، وهي الهجرة والنصرة، يقول

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٧٠ - ٣٧١.

(٢) مفاتيح الغيب١٦/ ١٦٨-١٦٩.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٨٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٨١.

الرازي -مناقشًا من يتناول إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالطعن-: «قوله: لم قلتم: إنه بقي موصوفًا بهذه الصفة بعد إقدامه على طلب الإمامة؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ يتناول جميع الأحوال والأوقات، بدليل أنه لا وقت ولا حال إلا ويصح استثناؤه منه؛ فيقال رضي الله عنهم إلا في وقت طلب الإمامة، ومقتضى الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل تحت اللفظ.

أو نقول: إنا بينا أنه تعالى وصفهم بكونهم سابقين مهاجرين، وذلك يقتضي أن المراد كونهم سابقين في الهجرة، ثم لما وصفهم بهذا الوصف أثبت لهم ما يوجب التعظيم، وهو قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ والسبق في الهجرة وصف مناسب للتعظيم، وذكر الحكم عقيب الوصف المناسب، يدل على كون ذلك الحكم معللًا بذلك الوصف، فدل هذا على أن التعظيم الحاصل من قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ معلل بكونهم سابقين في الهجرة، والعلة ما دامت موجودة، وجب ترتب المعلول عليها، وكونهم سابقين في الهجرة وصف دائم في جميع مدة وجودهم، فوجب أن يكون ذلك الرضوان حاصلًا في جميع مدة وجودهم.

أو نقول: إنه تعالى قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وذلك يقتضي أنه تعالى قد أعد تلك الجنات، وعينها لهم، وذلك يقتضي بقاءهم على تلك الصفة التي لأجلها صاروا مستحقين لتلك الجنات، وليس لأحد أن يقول: المراد أنه تعالى أعدها لهم لو بقوا على صفة الإيمان، لأنا نقول: هذا زيادة إضمار، وهو خلاف الظاهر. وأيضًا فعلى هذا التقدير: لا يبقى بين هؤلاء المذكورين في هذا المدح، وبين سائر الفرق فرق؛ لأنه تعالى أعد لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهار ولفرعون وهامان وأبي جهل وأبي لهب، لو صاروا مؤمنين.

ومعلوم أنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام في معرض المدح العظيم والثناء الكامل، وحمله على ما ذكروه يوجب بطلان هذا المدح والثناء، فسقط هذا السؤال. فظهر أن هذه الآية دالة على فضل أبي بكر، وعلى صحة القول بإمامته قطعًا»[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ قيد هذا الوصف بكونهم محسنين، في حين خلا وصف المهاجرين والأنصار من ذلك، وفي هذا يقول ابن عاشور: «وإنما قيد هذا الفريق خاصة؛ لأن السابقين الأولين ما بعثهم على الإيمان إلا الإخلاص، فهم محسنون، وأما الذين اتبعوهم فمن بينهم من آمن اعتزازًا بالمسلمين حين صاروا

(١) مفاتيح الغيب ١٦/ ١٧١.

أكثر أهل المدينة، فمنهم من آمن وفي إيمانه ضعف وتردد، مثل المؤلفة قلوبهم، فربما نزل بهم إلى النفاق، وربما ارتقى بهم إلى الإيمان الكامل»[1].

وقال البخاري: «باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ثم أورد هذه الآية: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر:٨].

وقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

قالت عائشة وأبو سعيد وابن عباس رضي الله عنهم: وكان أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار»[2].

ثم أورد حديثًا بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه قال: (قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما)[3].

ثم قال: «باب مناقب الأنصار، وأورد هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر:٩].

ثم أورد حديثًا بسنده «عن غيلان بن جرير قال:(قلت لأنس:أرأيت اسم الأنصار كنتم تسمون به، أم سماكم الله؟ قال:بل سمانا الله)[4].

ثم أورد تحت باب حب الأنصار من الإيمان، حديث البراء رضي الله عنه قال:(سمعت النبي صلى الله عليه وسلم أو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله)[5].

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار)[6].

ثانيًا: المؤمنون من أهل الكتاب رضي الله عنهم:

أهل الكتاب يراد بهم اليهود والنصارى، وقد أكثر القرآن الكريم من ذكرهم، وميزهم عن المشركين، وهذا من العدل الرباني، ولعل في إطلاق هذا اللقب عليهم، ما يبين

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ١٨.
(٢) علقه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب المهاجرين وفضلهم.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم٣٦٥٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار، رقم ٣٧٧٦.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار، رقم٣٧٨٣.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار، رقم٣٧٨٤.

السبب في ذلك، وفيه لوم لهم، على عدم المسارعة إلى الإيمان، فقد عادى أكثرهم الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم وكادوا له، ومع ذلك فقد أسلم منهم نفر قليل، كان للقرآن إشادة بهم، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٥]

قال ابن العربي: «وقد اتفق المفسرون أنها نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب، وعليه يدل ظاهر القرآن ومفتتح الكلام نفي المساواة بين من أسلم منهم وبين من بقي منهم على الكفر، إلا أنه روي عن ابن مسعود أن معناه نفي المساواة بين أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد روي عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الله بن سلام ومن أسلم معه من أهل الكتاب»[1].

وقال ابن كثير: «والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم.

ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي: قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله، فهي قائمة، يعني: مستقيمة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يقومون الليل ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لا يضيع عند الله، بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي: «لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملًا»[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن

(١) أحكام القرآن ١/ ٣٨٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٤٤-٥٤٥.

قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص:٥٢-٥٥].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٢-٨٣].

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ من قبل هذا القرآن، كنا مسلمين، أي: موحدين مخلصين لله مستجيبين له.

قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم الثاني، ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس.

وقد ورد في الصحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة، فأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها فتزوجها)[1].

وقال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ

(١) تفسير القرآن العظيم٣/ ٢١٢٨-٢١٢٩، بحذف يسير.
والحديث في أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب فضل من أسلم من أهل الكتاب، رقم٣٠١١.

﴿الْمُحْسِنِينَ ۝٨٥﴾ [المائدة:٨٢-٨٥].

يقول الطبري: «إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أن ذلك إنما كان منهم لأن منهم أهل اجتهاد في العبادة، وترهب في الديارات والصوامع، وأن منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحق إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه؛ لأنهم أهل دين واجتهاد فيه، ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد دربوا بقتل الأنبياء والرسل، ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه»[1].

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ صدقنا لما سمعنا ما أنزلته إلى نبيك محمد صلى الله عليه وسلم من كتابك، وأقررنا به أنه من عندك، وأنه الحق لا شك فيه. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الذين يشهدون لأنبيائك يوم القيامة، أنهم قد بلغوا أممهم رسالاتك[2].

إلى غير ذلك من الآيات.

نستخلص من الآيات التي تحدثت عن مؤمني أهل الكتاب الآتي:

١. أن أهل الكتاب ليسوا على طبيعة واحدة -كما يظن- بل منهم من يرجى فيه الخير، فيدخل في الإسلام.

٢. أن النصارى أقرب لقبول الحق من اليهود، وقد بينت الآيات سبب ذلك، وقد يقال: إن أكثر من أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود، والجواب: أن مرد ذلك وجود اليهود في المدينة، ورؤيتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وأحواله، وإننا لنجد مصداق ما أخبر به القرآن الكريم في عصرنا هذا من كثرة دخول النصارى في الإسلام.

٣. وصف القرآن الكريم من آمن منهم بأوصاف تدل على صدقهم وإخلاصهم، من ذلك:

- أنهم يتلون آيات الله تعالى في صلواتهم آناء الله وأطراف النهار.
- أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، وما أنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وما أنزل من الكتب.

(١) جامع البيان٥/ ٦.

(٢) جامع البيان٥/ ٦-٨ بتصرف يسير.

- أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات.
- أنهم خاشعون متذللون بين يدي الله تعالى، بحيث يخرون للأذقان سجدًا، وتفيض أعينهم من الدمع، ويبكون من الخشوع إذا تليت عليهم آيات القرآن الكريم؛ لمعرفتهم الحق.
- لا يشترون بآيات الله تعالى ثمنًا قليلًا، ولا يكتمون شيئًا مما بأيديهم من البشارة بالرسول صلى الله عليه وسلم.
- يدعون الله تعالى أن يكتبهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع أصحابه رضي الله عنهم.
- يدرءون بالحسنة السيئة، وينفقون مما رزقهم الله تعالى.
- يعرضون عن اللغو، ولا يقابلون الجاهلين بالمثل.

ثم وعدهم الله عز وجل بأمور كثيرة، منها:

١. لن يضيع الله تعالى شيئًا مما قدموه من الأعمال الصالحة، بل يجازيهم عليها بأحسن الجزاء.
٢. سيؤتيهم الله عز وجل أجرهم مرتين.
٣. سيثيبهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها[1].

ولقد سبقت الإشارة إلى ذكر أسماء بعض من أسلم، كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية رضي الله عنهم.

(١) فضائل الصحابة في القرآن الكريم ص١٨٤، بتصرف يسير.

نماذج قرآنية لمواقف الصحابة

ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع المواقف في الالتزام بأوامر الله تعالى وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، والأمثلة كثيرة، سنقتصر على بعضها:

أولًا: الإذعان والتسليم:

إن من حقائق هذا الدين ومسلماته، أن الداخل فيه لا بد أن يسلم وجهه لله سبحانه وتعالى، وقد أرشد القرآن الكريم لذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٥].

يقول الشنقيطي: «معنى إسلام وجهه لله: إطاعته وإذعانه، وانقياده لله تعالى بامتثال أمره، واجتناب نهيه»[(١)].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولقد كان للصحابة رضي الله عنهم فضل السبق في هذا الأمر، كما هو الشأن في كل خير، ولنضرب بعض الأمثلة:

ما وقع من امتثال أمر الله تعالى في يوم حمراء الأسد:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٥].

يقول ابن كثير: «هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين، كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم، ندموا، لم لا تمموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم؛ ليرعبهم ويريهم أن بهم قوة وجلدًا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم»[(٢)].

ولذلك امتدحهم الله عز وجل، فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: (لما

(١) أضواء البيان١/ ٣٣٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم١/ ٥٨٦.

نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة:٢٨٤].

(قال:فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير). قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾، فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: نعم)[1].

فأنت ترى حسن امتثال الصحابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمرهم بأن يقولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، وقد استجاب الله تعالى لهم لصدقهم.

هذا فيما يتعلق بأمر جماعتهم، أما أفرادهم، فأذكر هذه الحادثة فقط؛ لئلا يطول المقام، أخرج الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخلٍ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقةٌ لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بخٍ،

(١) صحيح مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، رقم١٩٩.

ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين). فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[1].

ثانيًا: الهجرة:

لقد كانت الهجرة برهانًا واضحًا على صدق إيمان الصحابة رضي الله عنهم، فهي ترك للأوطان والأهل وللمال، إلى مستقبل - في عرف الناس - مجهول، ولكن الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه يهون كل عسير، ويجعل من رضاه عز وجل غاية تستحق بذل كل غال ونفيس، وهذا ما فعله الصحابة في الهجرتين: إلى الحبشة، وإلى المدينة، لقد كان أمر هذا الدين أعظم في أنفسهم من كل شيء.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران:١٩٥].

يقول ابن كثير: «﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أي: تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران، ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ أي: ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي: إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة:١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج:٨]»[2].

آيات في هجرة الصحابة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:٢١٨].

يقول الطبري: «والذين تحولوا من سلطان أهل الشرك هجرةً لهم، وخوف فتنتهم على أديانهم، وحاربوهم في دين الله ليدخلوهم فيه وفيما يرضي الله ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾، أي: يطمعون أن يرحمهم الله فيدخلهم جنته بفضل رحمته إياهم. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾، أي: ساتر ذنوب عباده بعفوه عنها، متفضل عليهم بالرحمة»[3].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم ١٤٦١.

(٢) تفسير القرآن العظيم١/ ٦٠٤-٦٠٥.

(٣) جامع البيان٢/ ٣٦٨.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران:١٩٥].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ قومهم من أهل الكفر وعشيرتهم في الله، إلى إخوانهم من أهل الإيمان بالله، والتصديق برسوله، ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ وهم المهاجرون الذين أخرجهم مشركو قريش من ديارهم بمكة، ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾، يعني: وأوذوا في طاعتهم ربهم، وعبادتهم إياه مخلصين له الدين، وذلك هو«سبيل الله» التي آذى فيها المشركون من أهل مكة المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم من أهلها»[1].

وعدهم الله تعالى على ذلك، العفو والمغفرة، وأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، والآية تشمل من هاجر إلى الحبشة، ومن هاجر إلى المدينة.

وقال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠].

هذا تحريض على الهجرة، ووعد بالأجر العظيم عليها: الأجر الدنيوي والأخروي.

ولذا استجاب الصحابة لنداء ربهم، فتركوا كل شيء لنيل رضاه، فاستحقوا بذلك ثناءه عز وجل، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:٢١٨].

تزكية لقلوبهم، ووعد لهم بالمغفرة، وبيان لسبب خروجهم، ووصفهم بالصدق، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر:٨].

وأنهم ما أخرجوا إلا لإيمانهم بالله عز وجل: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج:٤٠].

وذكر جزاءهم، في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل:٤١-٤٢].

وما في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران:١٩٥] التي مر ذكرها قريبًا.

هذا فيما يتعلق بمجموعهم، أما إذا تحدثنا عن أفرادهم، فلا ريب أن سيدهم في ذلك الصديق رضي الله عنه، الذي سجل القرآن الكريم موقفه العظيم من رسول الله تعالى، يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ

(١) المصدر السابق ٣/ ٥٥٦.

لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

يقول الطبري: «وإنما عنى جل ثناؤه بقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾، رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر رضي الله عنه، لأنهما كانا اللذين خرجا هاربين من قريش إذ هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختفيا في الغار»(١).

قال الإمام البخاري: «باب مناقب المهاجرين وفضلهم، منهم أبو بكرٍ عبد الله بن أبي قحافة التيمي رضي الله عنه، وقول الله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر:٨].

وقال الله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة:٤٠].

قالت عائشة وأبو سعيد وابن عباسٍ رضي الله عنهم: وكان أبو بكرٍ مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار»(٢).

ثم أورد بسنده عن البراء قال: (اشترى أبو بكرٍ رضي الله عنه من عازبٍ رحلًا بثلاثة عشر درهمًا، فقال أبو بكر لعازبٍ: مر البراء فليحمل إلي رحلي، فقال عازبٌ: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم، حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم، قال: ارتحلنا من مكة فأحيينا أو سرينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظلٍ فآوي إليه، فإذا صخرةٌ أتيتها، فنظرت بقية ظلٍ لها، فسويته ثم فرشت للنبي صلى الله عليه وسلم فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله، فاضطجع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم انطلقت أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحدًا، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ قال: لرجلٍ من قريش سماه، فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبنٍ؟ قال: نعم، قلت: فهل أنت حالبٌ لنا؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال هكذا ضرب إحدى كفيه بالأخرى، فحلب لي كثبةً من لبن، وقد جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوةً على فمها خرقةٌ فصببت على اللبن حتى برد أسفله،

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٧٤.
(٢) علقه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب المهاجرين وفضلهم.

فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله، قال: بلى، فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحدٌ منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾)[1].

ثم أورد حديثًا آخر بسنده عن أبي بكرٍ رضي الله عنه، قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال: (ما ظنك يا أبا بكرٍ باثنين الله ثالثهما)[2].

ثالثًا: غزوة بدر:

ارتباط غزوة بدر بالصحابة وثيق، ذلك أنها من المعالم البارزة في حياتهم التي نالوا بها شرفًا عظيمًا، حتى إنه لينسب إليها من اشترك فيها فيقال:بدريٌّ، ولم تحظ غزوة أخرى بهذا الشرف. وثمة مقام آخر، أخرج الإمام البخاري بسنده عن معاذ بن رفاعة بن رافعٍ الزرقي عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: (جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:ما تعدون أهل بدرٍ فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين) أو كلمةً نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة)[3].

ولقد وثق القرآن الكريم أحداث هذه الغزوة في سورة الأنفال، حتى لقد سماها ابن عباس رضي الله عنهما سورة بدر.

وذكر طرفًا منها في سورة آل عمران، ويظهر فضل الله تعالى على الصحابة في هذه الغزوة، في أمور متعددة، نذكر منها:

١. نصر الله تعالى لهم رغم قلة عددهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران:١٢٣].

قال ابن كثير: «أي: يوم بدر، وكان في جمعة وافق السابع عشر من رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، فيهم فرسان وسبعون بعيرًا، والباقون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب المهاجرين.وفضلهم، رقم٣٦٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب المهاجرين.وفضلهم، رقم٣٦٥٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا، رقم٣٩٩٢.

وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله.

ولهذا قال تعالى ممتنًا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: قليل عددكم؛ ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعدد»[1].

٢. إمداد الله تعالى لهم بالملائكة.

قال عز وجل وجل: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٤-١٢٥].

ولمعرفة منزلة الصحابة رضي الله عنهم تأمل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران:١٢٦].

أي: «وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطييبًا لقلوبكم وتطمينًا، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم»[2].

٣. النعاس.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال:١١].

«يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أمانًا أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم»[3].

٤. إنزال الماء من السماء.

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

وهذه منة أخرى، أنعمها الله تعالى عليهم وهم محتاجون إليها، وهي أنه تعالى أنزل عليهم المطر، وإسناده هذا الإنزال إليه عز وجل؛ للتنبيه على أنه أكرمهم به، ليثبت أقدامهم، ويذهب عنهم وساوس الشيطان، فطهرهم بالمطر ظاهرًا وباطنًا[4].

٥. إيحاء الله تعالى للملائكة بتثبيت المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال:١٢].

«وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى وتقدس

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٤٨-٥٤٩.
(٢) المصدر السابق ١/ ٥٥١.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٣.
(٤) انظر المصدر السابق، ٢/ ٢١٤، التحرير والتنوير ٩/ ٢٧٩.

وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا»[1].

٦. مشاركة الملائكة في القتال مع الصحابة، ولا شك أن هذا شرف عظيم.

وهذا الشرف يدرك من النقطة السابقة.

٧. إلقاء الرعب في قلوب الكفار.

قال تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾. أي: «سأرعب قلوب الذين كفروا بي، أيها المؤمنون منكم، وأملؤها فرقًا حتى ينهزموا عنكم»[2].

ولا شك أن في إسناد إلقاء الرعب إلى الله تعالى ما فيه، من تكريم للمؤمنين، ومن بيان عظم الرعب الذي ألقاه الله جل جلاله.

أما مواقف الصحابة في هذه الغزوة، فنتحدث عنها على قسمين:

الأول: فيما يتعلق بمجموع الصحابة، فيكفي أن الله تعالى وصفهم بالإيمان في معرض امتنانه عليهم-وقد ذكرنا قبل قليل الآيات الدالة على ذلك-ولا شك أن هذه أعظم تزكية من رب العالمين، ولذا استحقوا أن ينصرهم الله عز وجل مع قلتهم، ولنتأمل هذا الحوار بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، أخرج مسلم في صحيحه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: (فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله، والذى نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا-قال-فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا)[3].

أما كراهية فريق من الصحابة للقتال، فهذا راجع لأمور، وقبل بيانها، لنتأمل قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال:٥-٦].

بالتأمل يظهر الآتي:

- أن الكارهين لذلك فريق من الصحابة، لا كلهم.
- أن الله عز وجل وصف هذا الفريق بالمؤمنين، فلا ينبغي تجاوز هذا الوصف الذي يتضمن ثناء عظيمًا.

أما لماذا كره بعضهم؛ فلأنهم ما خرجوا ابتداء للقتال، وإنما للتعرض لقافلة قريش، وكان حراسها أربعين شخصًا، فاستعدادهم

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٢١٥.
(٢) جامع البيان٦/ ١٩٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، رقم١٧٧٩.

النفسي والمادي كان لمثل هذا العدد، أما النفير، فالأمر يختلف، فهم أمام ألف فارس، خرجوا للقتال لا لحراسة قافلة.

يقول السعدي: «كثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم.

وكذلك الذين عاتبهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقيض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم»[1].

الثاني: وأما على المستوى الفردي، فالأمثلة على إخلاصهم وشجاعتهم وحبهم للرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة جدًا، نذكر منها:

❁ ما يدل على عظيم تصديقهم وإيمانهم.

أخرج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: (فقال:رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض). قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: (نعم). قال: بخ بخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يحملك على قولك بخ بخ؟). قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: (فإنك من أهلها). فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر. ثم قاتلهم حتى قتل[2].

❁ همة شباب الصحابة وإيمانهم وشجاعتهم.

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: (إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن فكأني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه: يا عم! أرني أبا جهل. فقلت: يا ابن أخي وما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، فقال لي الآخر سرًا من صاحبه مثله، قال: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما، اليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه. وهما ابنا عفراء).[3]

❁ موقف المقداد الأسود رضي الله عنه.

أخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: (شهدت من المقداد الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة:٢٤]، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك؛ فرأيت النبي

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم ١٩٠١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، رقم٣٩٨٨.

صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره، يعني قوله[1].

رابعًا: غزوة أحد:

تميز حديث القرآن الكريم عن غزوة أحد بالآتي[2]:

١. تذكير الصحابة رضي الله عنهم بالسنن.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

هذه تسلية من الله تعالى للمؤمنين، والمعنى: «قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، والدائرة على الكافرين.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

وفيه بشرى أن العاقبة ستكون لهم، وما عليهم ليتأكدوا سوى السير في الأرض.

٢. دعوة الصحابة رضي الله عنه للعلو الإيماني.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

في هذه الآية الكريمة رفع لهمة الصحابة، وإعلاء لشأنهم، وتأمل الخطاب الرباني: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، ومن كان هذا شأنه، لا يمكن أن يضعف أو يحزن، ثم يهيجهم لذلك ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن عاشور: «التعليق بالشرط في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قصد به تهييج غيرتهم على الإيمان، إذ قد علم الله أنهم مؤمنون، ولكنهم لما لاح عليهم الوهن والحزن من الغلبة، كانوا بمنزلة من ضعف يقينه فقيل لهم: إن علمتم من أنفسكم الإيمان. وجيء بإن الشرطية التي من شأنها عدم تحقيق شرطها، إتمامًا لهذا المقصد»[4].

٣. ثناء عظيم على الصحابة رضي الله عنهم.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: «وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه؛ لأنه قال لموسى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٨].

وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾.

وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى، فهو سبحانه العلي، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنتُمُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: (إذ تستغيثون ربكم)، رقم ٣٩٥٢.

(٢) انظر السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي الصلابي ٢/ ٨٢٤-٨٤٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٥٩.

(٤) التحرير والتنوير ٤/ ٩٩.

﴿الْأَعْلَوْنَ﴾»[1].

٤. الرفق في معالجة الأخطاء.

يلاحظ في هذه الغزوة أن الله تعالى قد ترفق في عتابهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢].

وتأمل ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، ثم لم يقل عز وجل: والله ذو فضل عليكم، وإنما على المؤمنين، ليعلم أن وصف الإيمان ثابت لهم، بل حازوا كماله رضي الله عنهم. والله أعلم.

٥. ضرب المثل بالمجاهدين السابقين.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

قال أبو حيان: «لما كان من المؤمنين ما كان يوم أحد، وعتب عليهم الله ما صدر منهم في الآيات التي تقدمت، أخبرهم بأن الأمم السالفة قتلت أنبياء لهم كثيرون، أو قتل ربيون كثير معهم، فلم يلحقهم ما لحقكم من الوهن والضعف، ولا ثناهم عن القتال فجعهم بقتل أنبيائهم، أو قتل ربييهم، بل مضوا قدمًا في نصرة دينهم، صابرين على ما حل بهم. وقتل نبي أو أتباعه من أعظم المصاب، فكذلك كان ينبغي لكم التأسي بمن مضى من صالحي الأمم السابقة، هذا وأنتم خير الأمم، ونبيكم خير الأنبياء. وفي هذه الجملة من العتب لمن فر عن النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى»[2].

٦. أثر المعاصي في الهزيمة.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢].

«﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ حتى إذا جبنتم وضعفتم ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يقول: واختلفتم في أمر الله، يقول: وعصيتم

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢١٧.

(٢) البحر المحيط ٣/ ٧٧.

وخالفتم نبيكم، فتركتم أمره وما عهد إليكم. وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أمرهم صلى الله عليه وسلم بلزوم مركزهم ومقعدهم من فم الشعب بأحد»[1].

هذه المعصية من بعض الصحابة، -وكانت اجتهادًا منهم رضي الله عنهم وظنًا أن المعركة قد حسم أمرها-، كان لها أثر عظيم في الهزيمة، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم، ولكنه درس عملي لهم، ولكل من يأتي بعدهم ينبههم إلى خطر المعاصي.

٧. خطورة إيثار الدنيا على الآخرة.

يقول تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

عاتبهم ربهم، وهو يرقى بهم نحو الكمال. ولقد حدد موطن الخطأ، وخصص ولم يعمم، ﴿مِنكُم﴾، وهذا التخصيص لم يكن بذكر أسماء من يريد الدنيا، ثم تأمل بعدها ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾؛ ليعلم أن القصد من ذكرها أن تتلافى مستقبلًا.

٨. الشهادة اصطفاء.

غير الإسلام كثيرًا من المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك، فلئن كان القتل يعد خسارة عند قوم، فهو عند الله تعالى اصطفاء، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران:١٤٠].

ويعزز هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [آل عمران:١٦٩])[2].

مواقف بطولية للصحابة رضي الله عنهم في هذه الغزوة:

- مصعب بن عمير.

قال خباب بن الأرت رضي الله عنه: (هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، ومنا من مضى أو ذهب لم يأكل من أجره شيئًا، كان منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد، لم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطي

(١) جامع البيان ٣/ ٤٧١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٣٨٨، ٤/ ١٢٣-١٢٤.

بها رجلاه خرج رأسه، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: (غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجله الإذخر-أو قال: ألقوا على رجليه من الإذخر)، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها)[1].

❁ أم سليط رضي الله عنها.

وللصحابيات دورهن، ففي صحيح البخاري: (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم مروطًا بين نساء من نساء أهل المدينة، فبقي منها مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عندك، يريدون أم كلثوم بنت علي، فقال عمر: أم سليط أحق به. وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد)[2].

خامسًا: غزوة الأحزاب:

حدثت غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة، وقد نزلت سورة تحمل اسمها، ويكفي في وصف ماحدث فيها للصحابة الكرام، قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

ولم يحصل اقتتال يذكر، لكن هذه الغزوة كانت ممحصة للصف المؤمن، فنجم النفاق، وأظهر المنافقون ما كانوا يخفون، وقد قص الله من أنبائهم.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب:١٢-١٥].

وهذا من ثمار هذه الغزوة، ويستحسن أن لا تترك هذه السانحة لنبين باختصار قضية النفاق:

النفاق يعني: تمكن الحق وغلبة أهله، وأن المنافقين من الذلة لدرجة العجز عن إعلان ما يعتقدون.

إن الله تعالى وعد المؤمنين أن يكشف لهم حقيقة المنافقين، فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

وقال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، رقم ٤٠٤٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ذكر أم سليط، رقم ٤٠٧١.

﴿قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد:٢٩].

وقد كشفت غزوة الأحزاب أمرهم، فتباينت المواقف، موقف المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢].

وموقف المنافقين: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب:١٢].

ولنتأمل هذه الآيات: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب:١٣-٢٠].

إن هذا الإطناب في الحديث عنهم له مغزى عظيم، وهكذا صارت المحن تفضح المنافقين شيئًا فشيئًا، حتى قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة:١٢٦][1].

إذن فأمر الصحابة معروف، وأمر المنافقين مكشوف، ولا يقع اللبس إلا لمن في قلبه مرض يمنعه من التمييز.

يتلخص حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة في الآتي:

١. تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب:٩].

٢. بيان ما أصاب المسلمين بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة.

قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾

(١) انظر الصحابة في القرآن ص٣١-٣٤.

[الأحزاب:١٠].

٣. الكشف عن المنافقين.

وقد مر قبل قليل ذكر كثير من الآيات الدالة على ذلك.

٤. بيان صلابة موقف المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢].

٥. حض المؤمنين على التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١].

٦. مدح بعض المؤمنين على مواقفهم.

قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٣].

٧. بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم.

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥].

٨. امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة، وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر.

حيث ألقى سبحانه الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب:٢٦-٢٧][1].

من مواقف الصحابة رضي الله عنهم:

تعددت مواقف الصحابة، ففيما يتعلق بمجموعهم، فالكل يشارك في حفر الخندق، والكل أصابه من الجوع ما أصابه، والكل مستعد لتنفيذ ما يوجه إليه من أوامر، وهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب:١٠].

ولنستعرض بعض النصوص التي توضح هذا:

أخرج الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: (اللهم إن العيش

(١) انظر السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث علي الصلابي٢/ ٩٦٢-٩٦٣.

عيش الآخرة. فاغفر للأنصار والمهاجرة). فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا

على الجهاد ما بقينا أبدًا)[1].

وفي رواية عنه رضي الله عنه: (قال: يؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخةٍ، توضع بين يدي القوم، والقوم جياعٌ، وهي بشعةٌ في الحلق ولها ريحٌ منتنٌ)[2].

أخرج البخاري بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: (لما حفر الخندق رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم خمصًا شديدًا، فانكفأت إلى امرأتي فقلت: هل عندك شيءٌ؟ فإني رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصًا شديدًا، فأخرجت إلي جرابًا فيه صاعٌ من شعيرٍ، ولنا بهيمةٌ داجنٌ، فذبحتها وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغي وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم وبمن معه، فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمةً لنا وطحنا صاعًا من شعيرٍ كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك. فصاح النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا أهل الخندق إن جابرًا قد صنع سؤرًا فحي هلًا بكم) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء)، فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقدم الناس، حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلت. فأخرجت له عجينًا، فبصق فيه، وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: ادع خابزةً فلتخبز معي، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حت تركوه، وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجننا ليخبز كما هو)[3].

أما الآن، فلنستعرض المواقف الفردية للصحابة، ونكتفي بواحد منها[4].

موقف للزبير بن العوام:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: (من يأتينا بخبر القوم؟). فقال الزبير: أنا. ثم قال: (من يأتينا بخبر القوم؟).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب، رقم ٤٠٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب، رقم ٤١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب، رقم ٤١٠٢.

(٤) مواقف الصحابة في هذه الغزوة وفي غيرها كثيرة، منها: موقف علي رضي الله عنه وقتله لعمرو بن عبد ودٍ، وموقف حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وإنما اقتصرت على ما ذكر، للحفاظ على قرآنية الموضوع، ولأنه في صحيح البخاري.

فقال الزبير: أنا. ثم قال: (من يأتينا بخبر القوم؟). فقال الزبير: أنا. ثم قال: (إن لكل نبي حواريًا، وأن حواري الزبير)[1].

سادسًا: بيعة الرضوان:

يقول تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح:١٨-١٩].

يقول الطبري: «لقد رضي الله يا محمد عن المؤمنين ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني: بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله بالحديبية، حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفروا..، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة. وكان سبب هذه البيعة ما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالته إلى الملإ من قريش، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء، فظن أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم على ما وصفت، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان، وكان الذين بايعوه هذه البيعة فيما ذكر في قول بعضهم: ألفًا وأربع مئة، وفي قول بعضهم: ألفًا وخمس مئة، وفي قول بعضهم: ألفًا وثلاث مئة»[2].

كيف تلقى الصحابة رضي الله عنهم هذه الآية، وهم يعلمون أنهم المقصودون، لقد رضي الله تعالى عنهم، وقد أكد هذا الرضا بثلاثة مؤكدات، ثم عبر عنه بالماضي، دلالة على تحقق الأمر، ثم وصفهم بالمؤمنين، ثم بين علمه تعالى بما في قلوبهم من الصدق. واستحقوا مع هذه البشرى من الله تعالى، بشارة من الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (لا يدخل النار -إن شاء الله- من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها)[3].

وقد أخرج البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية: (أنتم خير أهل الأرض)، وكنا ألفًا وأربع مائةٍ، ولو كنت أبصر اليوم، لأريتكم مكان الشجرة[4].

وهل هناك شرف أعظم من أن يجعل الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب، رقم ٤١١٣.

(٢) جامع البيان ١١/ ٣٤٧. بحذف يسير.
قال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٢٠: والجمع بين هذا الاختلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة، رقم ٢٤٩٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٥٤.

تعالى مبايعة هؤلاء الكرام رضي الله عنهم للرسول، صلى الله عليه وسلم مبايعة له عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

أما قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ فهو تحذير من نكث هذه البيعة وتفظيع له؛ لأن الشرط يتعلق بالمستقبل، ولم ينكث أحد ممن بايع؛ لأن سبب المبايعة قد انعدم بالصلح الواقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة وأن هذه الآية نزلت فيما بين ساعة البيعة وبين انعقاد الهدنة وحصل أجر الإيفاء بالنية عدمه لو نزل ما عاهدوا الله علي[(١)].

قال جابر رضي الله عنه: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على الموت، وعلى ألا نفر، فما نكث أحد منا البيعة، إلا جد بن قيس المنافق، اختبأ تحت إبط بعيره، ولم يسر مع قومه)[(٢)].

سابعًا: غزوة حنين:

هذه الغزوة كانت بعد فتح مكة، في السنة الثامنة للهجرة، قوامها اثنا عشر ألفًا، ولقد صدرت الآيات التي تتحدث عن هذه الغزوة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة:٢٥].

تذكيرًا بما سلف من نصر الله تعالى لهم، ومنها ما حصل في غزوة بدر، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، وهو واد بين مكة والطائف، قاتل عليه نبي الله عليه السلام هوازن وثقيفًا بعد فتح مكة ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ وذلك أنهم قالوا: لن نغلب اليوم من قلة وكانوا اثني عشر ألفًا ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ لم تدفع عنكم شيئًا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها وسعتها ضاقت عليكم، فلم تجدوا فيها موضعًا يصلح لفراركم، وهو قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ انهزمتم، أعلمهم الله تعالى أنهم ليسوا يغلبون بكثرتهم إنما يغلبون بنصر الله ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ يعني الأمنة والطمأنينة ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر وسبي الأولاد ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ فيهديه إلى الإسلام ولا يؤاخذه بما سلف ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بمن آمن[(٣)].

يتضح من حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة الآتي:

١. ربط الصحابة بالله تعالى، وأن النصر من عنده عز وجل، من خلال مواقف

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ١٦٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش، رقم١٨٥٦.
(٣) انظر الوسيط، الواحدي ١/ ٤٨٧-٤٨٨.

سبقت، وهم يعرفونها.

٢. التنبيه على موضع الخطأ، وهو ههنا الإعجاب بالكثرة.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ولم يقل الله تعالى: فلم تغن من عدوكم شيئًا، وإنما من الله، وهنا ربط القلوب بما يرضي الله، فالنصر من عنده وحده.

قال ابن كثير: «نبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئًا، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم»[(١)].

٣. المؤاخذة على الخطأ، لا يعفى منها أحد، فهؤلاء الصحابة الكرام، ومعهم سيد ولد آدم، ومع ذلك، فقد أصابهم ما أصابهم، ولنستحضر ما حصل في غزوة أحد، ولنكن من الأخطاء على حذر.

٤. عدم اليأس من رحمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، أنزلها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين.

قال الشوكاني:«هم الذين لم ينهزموا، وقيل:الذين انهزموا، والظاهر جميع من حضر منهم؛ لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا»[(٢)].

٥. إكرام الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة بإنزال الملائكة عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ «هم الملائكة، وقد اختلف في عددهم على أقوال: قيل:خمسة آلاف، وقيل: ثمانية آلاف، وقيل: ستة عشر ألفًا، وقيل: غير ذلك، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوة. واختلفوا أيضًا: هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا؟»[(٣)]. والعلم عند الله تعالى.

مواقف للصحابة في هذه الغزوة:

في صحيح مسلم بسنده عن العباس، قال: (شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنينٍ، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو

(١) تفسير القرآن العظيم٢/ ١٨١، وفيه تفصيل لهذه الغزوة.

(٢) فتح القدير٢/ ٣٥٠.

(٣) المصدر السابق.

سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أي عباس! ناد أصحاب السمرة). فقال عباس-وكان رجلًا صيتًا-فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج! يا بني الحارث بن الخزرج! فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا حين حمي الوطيس). قال: ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصياتٍ فرمى بهن وجوه الكفار. ثم قال: (انهزموا ورب محمدٍ). قال: فذهبت أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلًا وأمرهم مدبرًا)[1].

ثامنًا: غزوة تبوك:

نزل معظم سورة التوبة في شأن هذه الغزوة، ولذا فإنه من المناسب أن نذكر اختصارًا لها، يقول ابن كثير: «ولما أنزل الله عز وجل على رسوله ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة:٢٩].

ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد، وأعلمهم بغزو الروم، وذلك في رجب من سنة تسع، وكان لا يريد غزوة إلا ورى بغيرها، إلا غزوته هذه، فإنه صرح لهم بها؛ ليتأهبوا لشدة عدوهم وكثرته، وذلك حين طابت الثمار، وكان ذلك في سنة مجدبة، فتأهب المسلمون لذلك، وأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه على هذا الجيش-وهو جيش العسرة-مالًا جزيلًا، فقيل: ألف دينار، وقال بعضهم: إنه حمل على ألف بعير ومائة فرس وجهزها أتم جهاز، حتى لم يفقدوا عقالًا ولا خطامًا رضي الله عنه.

ونهض صلى الله عليه وسلم في نحو من ثلاثين ألفًا، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة، وقيل: سباع بن عرفطة، وقيل: علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، والصحيح أن عليًا كان خليفة له على النساء والذرية، وقد خرج معه عبد الله بن أبي رأس النفاق، ثم رجع في أثناء الطريق.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم١٧٧٥.

وتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء والذرية ومن عذره الله من الرجال، ممن لا يجد ظهرًا يركبه، أو نفقة تكفيه، فمنهم البكاؤون وكانوا سبعة وتخلف منافقون كفرًا وعنادًا، وكانوا نحو الثمانين رجلًا، وتخلف عصاة، مثل مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، ثم تاب الله عليهم بعد قدومه صلى الله عليه وسلم بخمسين ليلة.

فسار صلى الله عليه وسلم فمر في طريقه بالحجر، فأمرهم أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا أن يكونوا بكائين، وأن لا يشربوا إلا من بئر الناقة، وما كانوا عجنوا به من غيره فليطعموه للإبل، وجازها صلى الله عليه وسلم مقنعًا، فبلغ صلى الله عليه وسلم تبوك وفيها عين تبض بشيء من ماء قليل، فكثرت ببركته مع ما شوهد من بركة دعائه في هذه الغزوة، من تكثير الطعام الذي كان حاصل الجيش جميعه منه مقدار العنز الباركة، فدعا الله عز وجل، فأكلوا منه وملؤوا كل وعاء كان في ذلك الجيش، وكذا لما عطشوا دعا الله تعالى فجاءت سحابة فأمطرت فشربوا حتى رووا واحتملوا.

ولما انتهى إلى هناك، لم يلق غزوًا، ورأى أن دخولهم إلى أرض الشام بهذه السنة يشق عليهم، فعزم على الرجوع وصالح صلى الله عليه وسلم يحنة بن رؤبة صاحب أيلة، وبعث خالدًا إلى أكيدر دومة، فجيء به فصالحه أيضًا ورده. ثم رجع صلى الله عليه وسلم، وكان رجوعه من هذه الغزاة في رمضان من سنة تسع، وأنزل فيها عامة سورة التوبة، وعاتب الله عز وجل من تخلف عنه صلى الله عليه وسلم، فقال عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]»[1].

نتسطيع أن نستخلص بعض الدروس مما سبق:

لا تزال الفتن تميز الخبيث من الطيب، فهذه الغزوة، التي سميت بالعسرة، بكل ما تحمله من معان، وقد وقعت في وقت طابت فيه الثمار، والحر شديد، والشقة بعيدة، فلن يثبت أمام هذا كله إلا المؤمنون، وهذا ما حدث، فلقد انقسم الناس إلى ثلاثة أصناف:

- المؤمنون، وهم الغالبية، وقدروا بثلاثين ألفًا.
- العصاة، وهم نفر قليل، سنذكر في المواقف حديث أحدهم.
- المنافقون، وقد تولت سورة التوبة فضحهم، وبيان صفاتهم.

فيما يتعلق بالمؤمنين يكفي أن يشار إلى قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

(١) الفصول في سيرة الرسول، ابن كثير ص ٢١٠-٢١٣ بحذف يسير.

مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة:٨٨-٨٩].

ويتأكد هنا ما سبق بيانه أن وصف الإيمان قد لازم الصحابة رضي الله عنهم، فما غيروا وما بدلوا تبديلًا رضي الله عنهم. وتأمل كيف يقرنهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وينص على أنهم معه، ثم وعدهم الله تعالى بالخيرات، وهي تتناول منافع الدارين؛ لإطلاق اللفظ، ووصفهم بالفلاح، بل هم الكاملون فيه، ثم وعدهم الجنة، مبينًا أن ذلك الأمر العالي المكانة، هو الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله[1].

شهد الله تعالى للصحابة رضي الله عنهم باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في ساعة العسرة، والتقييد بالعسرة يدل على أنهم كانوا صادقين في إيمانهم وحبهم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم. يقول تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧]، وافتتاح الآية بمؤكدات ثلاثة، والإتيان بالفعل الماضي، دلالة على تحقق هذه التوبة، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم، وتقديمه ههنا، لبيان عظم منزلتها.[2]

أما المنافقون، فقد فضحتهم سورة التوبة، حتى سميت بالفاضحة، ومن الآيات التي أشارت إلى بعض أفعالهم الذميمة:

قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة:٤٢].

قال الطبري: «وكانت جماعة من أصحابه قد استأذنوه في التخلف عنه حين خرج إلى تبوك، فأذن لهم: لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك، والمستأذنيك في ترك الخروج معك إلى مغزاك الذي استنفرتهم إليه، ﴿عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ يقول: غنيمة حاضرة ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾، يقول: وموضعًا قريبًا سهلًا ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾، ونفروا معك إليهما، ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفرًا شاقًا عليهم، لأنك استنهضتهم في وقت الحر، وزمان القيظ وحين الحاجة إلى الكن.

﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ يقول تعالى ذكره: وسيحلف لك، يا محمد، هؤلاء المستأذنون في ترك الخروج معك، اعتذارًا منهم

(١) انظر فضائل الصحابة في القرآن الكريم ص١٥٠-١٥١.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١١/ ٤٨.

إليك بالباطل، لتقبل منهم عذرهم، وتأذن لهم في التخلف عنك، بالله كاذبين ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، يقول: لو أطقنا الخروج معكم بوجود السعة والمراكب والظهور وما لا بد للمسافر والغازي منه، وصحة البدن والقوى، لخرجنا معكم إلى عدوكم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول: يوجبون لأنفسهم، بحلفهم بالله كاذبين، الهلاك والعطب؛ لأنهم يورثونها سخط الله، ويكسبونها أليم عقابه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، في حلفهم بالله»[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤٩].

وقوله جل جلاله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة:٥٨].

إلى غير ذلك من الآيات.

وأما العصاة، فسنذكر حديث كعب بن مالك رضي الله عنه[2]، ولطوله سنختصره في الآتي:

تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه عن غزوة تبوك من غير عذر، ولقد حاول اللحاق بالرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، لكنه لم (يفعل، قال كعب: (وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك»، ثم عند عودة الرسول صلى الله عليه وسلم أجمع على أن يقول الصدق، وطفق المخلفون يعتذرون ويحلفون، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، أما كعب فيصف حاله: (فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: (تعالى) فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي:(ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك) فقلت: بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذرٍ ولقد أعطيت جدلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدقٍ تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك)، وقد (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين

(١) جامع البيان٦/ ٣٧٩-٣٨٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم٤٤١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب ابن مالك وصاحبيه، رقم٢٧٦٩.

من تخلف عنه، فاجتنبا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً). وأن ملك غسان دعاه بقوله: (أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعةٍ، فالحق بنا نواسك). يقول كعب: (فقلت لما قرأتها:وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها) ثم لما مضت أربعون، طلب منهم أن يعتزلوا نساءهم، يقول كعب: «فقلت:أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر».ثم نزلت توبتهم بعد مضي خمسين ليلة.

في هذه الحادثة دروس كثيرة، منها:

١. الصحابة رضي الله عنهم ليسوا معصومين من الخطأ، ولكنهم يبادرون إلى التوبة.

٢. عظم صدق الصحابة رغم ما نالهم من الأذى، ويكفي الوصف القرآني لحالهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة:١١٨].

٣. رسوخ إيمانهم مع ما تعرضوا له من الفتن، يقول ابن حجر معلقًا على خطاب ملك غسان، وما فعله كعب رضي الله عنه:«ودل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله، وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض، قد يضعف عن احتمال ذلك، وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولا سيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة وأحرق الكتاب ومنع الجواب، هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة، ولا سيما بعد الاستدعاء والحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال، ولا سيما والذي استدعاه قريبه ونسيبه، ومع ذلك فغلب عليه دينه وقوي عنده يقينه، ورجح ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دعي إليه من الراحة والنعيم، حبًا في الله ورسوله»[1].

٤. سرعة امتثالهم لأوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، تأمل قوله لما طلب منه أن يعتزل امرأته: «فقلت:أطلقها أم ماذا أفعل».

(١) فتح الباري ٨/ ٤٦٢.

ونكتفي بحديث كعب بن مالك رضي الله عنه في بيان مواقف الصحابة رضي الله عنهم.

منزلة أهل البيت رضي الله عنهم

أولًا: زوجات النبي صلى الله عليه وسلم:

نزلت آيات كريمة تبين فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ولو لم ينزل إلا قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

لكفاهن فخرًا، كيف وقد قرنهن الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأضافهن إليه، قال القرطبي: «شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي: في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات»[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ

(١) الجامع لأحكام القرآن١٤/ ١٢٣.

مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٢٨-٣٤].

تتحدث هذه الآيات في بدايتها عن التخيير، وقد ورد في صحيح البخاري ما يوضحه، (قالت عائشة: فأنزلت آية التخيير، فبدأ بي أول امرأةٍ فقال: (إني ذاكرٌ لك أمرًا، ولا عليك أن لا تعجلي، حتى تستأمري أبويك). قالت: قد أعلم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقك. ثم قال: (إن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾) قلت: أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نساءه. فقلن مثل ما قالت عائشة)[1].

قال ابن كثير: «هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب:٣٠-٣١].

يقول الله تعالى واعظًا نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخر، واستقر أمرهن تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهي النشوز وسوء الخلق، وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥].

فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظًا؛ صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها، رقم ٢٤٦٨.

﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾.

قال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ قال: في الدنيا والآخرة، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ سهلًا هينًا، ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ويستجب ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى العليين، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

وقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطبًا لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ دغل ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ قال ابن زيد: قولًا حسنًا جميلًا معروفًا في الخير، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم.

﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن وهن تفلات)[1]. وفي رواية (وبيوتهن خير لهن)[2].

﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾

قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: إذا خرجتن من بيوتكن، وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج، فنهى الله تعالى عن

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء ١/ ٢١٠، رقم ٥٦٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٤٢، رقم ٧٤٥٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٩/ ٣٣٧، رقم ٥٤٦٨، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء، ١/ ١٥٥، رقم ٥٦٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٤٢، رقم ٧٤٥٨.

ذلك.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ والتبرج: أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده، فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نهاهن أولًا عن الشر، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة، وهي: عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي: الإحسان إلى المخلوقين ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في أهل البيت ههنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح.

وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة. وقال عكرمة: من شاء باهلته أنها نزلت في شأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن، فصحيح، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففيه نظر؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك».

ثم قال ابن كثير: «ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم داخلات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؛ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في بيوتكن من الكتاب والسنة، قاله قتادة وغير واحد، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة؛ فإنه لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه.»[1].

وقال ابن العربي في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٢١.

﴿كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ «يعني: في الفضل والشرف، فإنهن وإن كن من الآدميات، فلسن كإحداهن، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان من البشر جبلة، فليس منهم فضيلة ومنزلة، وشرف المنزلة لا يحتمل العثرات، فإن من يقتدى به، وترفع منزلته على المنازل جدير بأن يرتفع فعله على الأفعال، ويربو حاله على الأحوال»[1].

ولنذكر شيئًا مما ورد في فضل بعضهن:

❁ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

أخرج الإمام البخاري عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة).[2] قال ابن حجر: «خير نسائها، أي: نساء زمانها»[3].

يكفي في فضلها حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: (أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيتٍ في الجنة من قصبٍ، لا صخب فيه ولا نصب)[4].

❁ عائشة رضي الله عنها.

لقد أنزل الله تعالى في شأن عائشة رضي الله عنها قرآنًا يتلى، يظهر براءتها مما رماها به أهل الإفك، ولنترك عائشة الصديقة تحكي ذلك، تقول في حديث طويل نجتزئ منه الآتي: (وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيًا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحدٌ من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ، فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمةٍ تكلم بها أن قال لي: (يا عائشة احمدي الله؛ فقد برأك الله). فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[النور:١١] الآيات)[5].

(١) أحكام القرآن/ ٥٦٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها، رقم٣٨١٥.
(٣) فتح الباري ٧/ ٥١٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها، رقم ٣٨٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، رقم٢٦٦١.

يقول الزمخشري: «ومعنى كونه خيرًا لهم: أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم؛ لأنه كان بلاء مبينًا ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة، بما هو تعظيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها»[1].

وقال ابن كثير: «﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم، باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢]»[2].

وللزمخشري كلام نفيس حول هذا، يقول: «ولو فليت القرآن كله، وفتشت عما أوعد به من العصاة، لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة. كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[النور:٢٥].

فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر»[3].

❁ زينب بنت جحش رضي الله عنها.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب:٣٧]

ولن نطيل في شرح هذه الآية، لأن المراد ذكر فضلها رضي الله عنها، والشاهد من الآية الكريمة، قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، وأن آية الحجاب نزلت بسببها، ففي صحيح

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٧٠.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٢٧-٢٢٨ بحذف يسير.

البخاري عن أنس رضي الله عنه: نزلت آية الحجاب في زينب بنت جحش، وأطعم عليها يومئذ خبزًا ولحمًا، وكانت تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت تقول: (إن الله أنكحني في السماء)[1]. وفي رواية: (زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات)[2].

ومما له صلة بهذا الحديث مما يدل على فضلها، قول أنس رضي الله عنه: (ما أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأةٍ من نسائه أكثر أو أفضل مما أولم على زينب. فقال ثابتٌ البناني: بما أولم قال: أطعمهم خبزًا ولحمًا حتى تركوه)[3].

آيات العتاب في حق أزواج النبي صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم:١-٥].

قبل البدء في تناول هذه الآيات لا بد أن نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم غير معصومين، وأنهم بشر، يقع منهم الذنب، ولكنهم يسارعون إلى التوبة، وفي الآيات التي معنا حصل ما يحصل بين الضرائر من الغيرة، والله تعالى يريد للصحابة أرفع المقامات، وبخاصة أن الأمر يتعلق بزوجات النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

ومن أفضل من تناول بيان هذه الآيات مع الإيجاز: الشيخ السعدي رحمه الله تعالى، يقول: «هذا عتاب من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حين حرم على نفسه سريته «مارية» أو شرب العسل[4]، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله تعالى هذه الآيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الآيات ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، رقم٧٤٢١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، رقم٧٤٢٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، رقم١٤٢٨.

(٤) اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات، وقد رجح د.خالد المزيني، بعد مناقشة مستفيضة، أنها في تحريم الرسول صلى الله عليه وسلم جاريته، لصحة سنده، وتصريحه بالنزول، وموافقته لسياق القرآن، واختيار جمهور السلف من المفسرين له.
انظر: المحرر في أسباب نزول القرآن ٢/ ١٠٣٩.

﴿أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾.

قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي صلى الله عليه وسلم حديثًا، وأمر أن لا تخبر به أحدًا، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها صلى الله عليه وسلم ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمًا منه صلى الله عليه وسلم، وحلمًا، فـ ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟

﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه صلى الله عليه وسلم: عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سببًا لتحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت، أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه، وأن لا يشققن عليه.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ تعاونا على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين؛ حيث جعل الباري نفسه الكريمة، وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضًا، بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًا إليكن، فإنه سيلقى ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن، دينًا وجمالًا، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.القنوت هو: دوام الطاعة واستمرارها.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع صلى الله عليه وسلم، فيما يحب.

فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان هذا الوصف

منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله صلى الله عليه وسلم إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه، دل على أنهن خير النساء وأكملهن[1].

وما أروع الاستنباط الأخير، الذي يغني عن كل تعليق.

ثانيًا: قرابة النبي صلى الله عليه وسلم:

قال الإمام البخاري: «باب مناقب قرابة رسول صلى الله عليه وسلم، ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وسلم. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (فاطمة سيدة نساء أهل الجنة).

ثم أورد أثرًا عن أبي بكرٍ رضي الله عنه قال: (ارقبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته)[2].

وأردفه بحديث للنبي صلى الله عليه وسلم (فاطمة بضعةٌ مني، فمن أغضبها أغضبني)[3].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص١٠٣٥ بحذف يسير.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم٣٧١١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٧١٢.

ولما كان هذا الموضوع من المواضيع المتشعبة التي كثر فيها الكلام، وكان من الحكمة أن يبدأ الباحث بما انتهى إليه الآخرون، فإني سأعتمد في هذه النقطة على ما كتبه الأستاذ منصور بن حمد العيدي في رسالته (آيات آل البيت في القرآن الكريم)، وقد توصل إلى نتائج طيبة، أقتصر منها على ما يتعلق بالبحث:

١. مفهوم آل البيت في القرآن الكريم صادق على كل مؤمني بني هاشم إضافة إلى أمهات المؤمنين رضي الله عنهن

٢. أمهات المؤمنين هن أكثر آل البيت ذكرًا في القرآن الكريم، سواء في جانب الفضائل أو جانب الأحكام.

٣. لم يخص أحد من آل البيت بأحكام في القرآن غير أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن.

٤. لا يوجد دليل قرآني يدل على وجوب محبة آل البيت على جهة الاستقلال، أما تبعًا للنبي صلى الله عليه وسلم، فموجود.

٥. لا توجد فضيلة خاصة في آية من القرآن لعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم سوى في آية المباهلة، وما عدا ذلك مما جاء في الأخبار لا يصح

قطعًا.

٦. لا يوجد دليل قرآني على عصمة أحد من آل البيت، أو على استحقاق أحد منهم للخلافة، أو على أنهم مغفور الذنوب.

٧. أن القرآن الكريم يثبت حقًا ماليًا لأهل البيت، يتمثل في جزء من خمس غنائم الجهاد والفيء فقط.

٨. القرآن الكريم يحث آل البيت على التحلي بأعلى درجات التقوى وعند ذلك يضاعف أجرهم[(١)].

نستخلص مما سبق أن الآية الوحيدة التي تخص آل البيت - إذا استثنينا أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ، هي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران:٦١].

هذا ما قاله د. العيدي، ولكننا نضيف إليها قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩].

وهي وإن لم تكن واردة بخصوص آل البيت، لكنها تتضمن فضلًا لعلي رضي الله عنه.

فيما يتعلق بآية المباهلة، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (لما نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال: (اللهم هؤلاء أهلي)[(٢)].

وفي صحيح البخاري عن حذيفة قال: (جاء العاقب والسيد - صاحبا نجران - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال: (لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين). فاستشرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (قم يا أبا عبيدة بن الجراح)، فلما قام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا أمين هذه الأمة)[(٣)].

قال الزمخشري: «وخص الأبناء والنساء؛ لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب؛ لتمنعهم من الهرب،

(١) آيات آل البيت في القرآن الكريم، ص٤٩٧-٤٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم٢٤٠٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم٤٣٨٠.

ويسمون الذادة عنها بأرواحهم: حماة الحقائق.

وقدمهم في الذكر على الأنفس؛ لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك»[1].

قال تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [الحج:١٩].

في صحيح البخاري: (عن علي رضي الله عنه قال: فينا نزلت هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾[2]. وكان أبو ذر رضي الله عنه يقسم قسمًا أن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ نزلت في الذين برزوا في يوم بدرٍ: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة)[3].

قال ابن كثير بعد أن ذكر الأقوال فيمن نزلت هذه الآية: «وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل، الكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن»[4].

وقال تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب:٣٣].

قد مر أن هذه الآيات نزلت في زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وهي تشمل آل النبي صلى الله عليه وسلم كلهم، قال ابن كثير - بعد أن ذكر قول من قال: إنها في زوجات النبي صلى الله عليه وسلم خاصة: «فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن، فصحيح، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن، ففيه نظر، فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك».

ثم أورد عدة أحاديث، ومن جملتها حديث الكساء، وفيه: «قالت عائشة رضي الله عنها: خرج النبي صلى الله عليه وسلم ذات غداة وعليه مرطٌ مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله معه، ثم

(١) الكشاف١/ ٣٩٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم٣٩٦٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم ٣٩٦٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٩١.

جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي رضي الله عنه فأدخله معه، ثم قال صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وقال الشنقيطي: «الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ولعلي وفاطمة والحسن والحسين، رضي الله عنهم كلهم»[2].

ولا شك أن فيها فضيلة عظيمة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٤٥.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، رقم٢٤٢٤.

(٢) أضواء البيان ٦/ ٣٧٩.

واجب المؤمنين تجاه الصحابة الكرام

بعد أن بينا مكانة الصحابة رضي الله عنهم من حيث قوة إيمانهم وصبرهم على الأذى، وهجرتهم، وما تعنيه من ترك للأهل والوطن، والأموال، ثم جهادهم بالنفس والمال، بذلوا كل ذلك وأكثر؛ لينصروا دين الله عز وجل، فما واجبنا نحن الذين جئنا من بعدهم، ووجدنا أمر الدين ميسرًا، ما موقفنا من هؤلاء النفر الذين اصطفاهم الله تعالى لصحبة خيرة خلقه، وأفضل رسله عليه وعليهم الصلاة والسلام، ما موقفنا منهم، نوجز هذا الأمر في نقاط:

الأولى: «اعتقاد إمامتهم في الدين»[3]، وأنهم خير القرون، مصداقًا، لقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران:١١٠].

قال ابن كثير بعد أن ذكر قول ابن عباس رضي الله عنهما: «هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة «والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى

(٣) منزلة الصحابة في القرآن ص٤٧.

الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[1]، والآيات في خيريتهم كثيرة، ومنها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ولا شك أن الصحابة أول الداخلين في ذلك.

أما الأحاديث فمنها: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[2].

وفي اعتقاد إمامتهم يعقد الآجري بابًا فيقول: «باب الحث على التمسك بكتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسنة أصحابه رضي الله عنهم، وترك البدع، وترك النظر والجدال فيما يخالف فيه الكتاب والسنة، وقول الصحابة رضي الله عنهم»[3].

الثانية: «اتباعهم بإحسان:

فقد أثنى الله عز وجل على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وعلى كل من اتبعهم بإحسان، فجعل اتباعهم بإحسان سبيلًا إلى مرضاته، قال تعالى: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠]، وتوعد بالنار وسوء المصير من اتبع سبيلًا غير سبيلهم، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥]

الثالثة: الثناء والترضي عليهم والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر:١٠]

الرابعة: عدم اعتقاد العصمة لأحد منهم:

لا عصمة لأحد بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك لا يقدح في إمامتهم، والشهادة لهم بحقيقة الإيمان»[4].

وأود أن أنبه هنا إلى أننا ينبغي أن نقف من الصحابة موقف الاعتدال، فبعض الناس يتوقع عصمتهم من الخطأ، فلا يقبل فكرة أن الصحابة قد يذنبون، وهذا خطأ، وفريق آخر يتلمس أخطاءهم، ويبرزها، ويضخمها، والمنهج الحق، أنهم - مع ما لهم من مكانة قد سبق بيانها - بشر، غير معصومين، قد يقعون في الخطأ، ولكنهم لا يصرون عليه، بل يبادرون للتوبة منه.

(١) تفسير القرآن العظيم١/ ٥٣٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم٢٦٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، رقم٢٥٣٣.
(٣) الشريعة ص١٧٠.
(٤) منزلة الصحابة في القرآن ص٤٨-٤٩.

وسنورد بعض النصوص حول واجبنا نحوهم:

قال صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبًا، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حب الأنصار آية الإيمان، وبغضهم آية النفاق)[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يبغض الأنصار رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر)[3].

قال أبو زرعة: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحاب رسول الله، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة»[4].

وقال المزني: «ويقال: بفضل خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو أفضل الخلق وأخيرهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ونثني بعده بالفاروق، وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهما وزيرا رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعاه في قبره، ونثلث بذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم بذي الفضل والتقى علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، ثم الباقين من العشرة الذين أوجب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة، ونخلص لكل رجل منهم من المحبة بقدر الذي أوجب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من التفضيل، ثم لسائر أصحابه من بعدهم رضي الله عنهم أجمعين، ويقال بفضلهم، ويذكرون بمحاسن أفعالهم، ونمسك عن الخوض فيما شجر بينهم، فهم خيار أهل الأرض بعد نبيهم، ارتضاهم الله عز وجل لنبيه، وخلقهم أنصارًا لدينه، فهم أئمة الدين، وأعلام المسلمين، رضي الله عنهم أجمعين»[5].

وقال ابن بطة تحت عنوان فضائل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذًا خليلًا)، رقم ٣٦٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، رقم ٢٥٤٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق، رقم١٢٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق، رقم ١٣٠.

(٤) الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي ١/ ١٨٨.

(٥) إسماعيل بن يحيى المزني، ورسالته شرح السنة، ص٨٦-٨٧.

الصحابة: «ويشهد لجميع المهاجرين والأنصار بالجنة والرضوان والتوبة والرحمة من الله، ويستقر علمك، وتوقن بقلبك، أن رجلًا رأى النبي صلى الله عليه وسلم، وشاهده وآمن به واتبعه ولو ساعة من نهارٍ، أفضل ممن لم يره ولم يشاهده، ولو أتى بأعمال الجنة أجمعين، ثم الترحم على جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صغيرهم وكبيرهم وأولهم وآخرهم، وذكر محاسنهم ونشر فضائلهم، والاقتداء بهديهم والاقتفاء لآثارهم، وأن الحق في كل ما قالوه والصواب فيما فعلوه»[1].

ثم قال تحت عنوان: النهي عن الخوض في أحداث الفتنة الكبرى: «فقد شهدوا المشاهد معه، وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم، وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم، وفرض ذلك على لسان نبيه، وهو يعلم ما سيكون منهم، وأنهم سيقتتلون، وأنما فضلوا على سائر الخلق؛ لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم، وكل ما شجر بينهم مغفور لهم، ولا ينظر في كتاب صفين، والجمل، ووقعة الدار، وسائر المنازعات التي جرت بينهم، ولا تكتبه لنفسك ولا لغيرك، ولا تروه عن أحدٍ، ولا تقرأه على غيرك، ولا تسمعه ممن يرويه. فعلى ذلك اتفق سادات علماء هذه الأمة من النهي عما وصفناه»[2].

وقال الطحاوي تحت عنوان: حب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: «ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

ونثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولًا لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلًا له وتقديمًا على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون. وأن العشرة الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله الحق وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين

(١) الشرح والإبانة ص٢٩٠- ٢٩٢.

(٢) الشرح والإبانة ص٢٩٤-٢٩٦.

من كل رجس، فقد برئ من النفاق[1].

وقال الخطيب البغدادي: «عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن».

ثم ذكر الآيات والأحاديث الدالة على ذلك، ثم قال: «وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له، فهو على هذه الصفة إلا أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية والخروج من باب التأويل، فيحكم بسقوط العدالة، وقد برأهم الله من ذلك ورفع أقدارهم عنده، على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه، لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين.

هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء.

وذهبت طائفة من أهل البدع إلى أن حال الصحابة كانت مرضية إلى وقت الحروب التي ظهرت بينهم وسفك بعضهم دماء بعض، فصار أهل تلك الحروب ساقطي العدالة، ولما اختلطوا بأهل النزاهة وجب البحث عن أمور الرواة منهم، وليس في أهل الدين والمتحققين بالعلم من يصرف إليهم جرمًا لا يحتمل نوعًا من التأويل وضربًا من الاجتهاد، فهم بمثابة المخالفين من الفقهاء المجتهدين في تأويل الأحكام لإشكال الأمر والتباسه، ويجب أن يكونوا على الأصل الذي قدمناه من حال العدالة والرضا إذ لم يثبت ما يزيل ذلك عنهم»[2].

فهذه بعض النصوص الواردة في واجب المسلمين نحو صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، الأخوة، الصحبة، القدوة

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٩-٣٠.

(٢) الكفاية في علم الرواية ١/ ١٨٠-١٨٧.

الصُّحبة

عناصر الموضوع

مفهوم الصحبة	٣٢٤
الصحبة في الاستعمال القرآني	٣٢٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٦
أنواع الصحبة في القرآن	٣٢٩
أسباب الصحبة	٣٣٧
حقوق الصحبة	٣٣٩
آثار الصحبة في الدنيا	٣٤٢
عاقبة الصحبة في الآخرة	٣٤٨

مفهوم الصحبة

أولًا: المعنى اللغوي:

الصاد والحاء والباء أصلٌ واحدٌ يدل على مقارنة شيءٍ ومقاربته، ومن ذلك الصاحب[(١)]، ويجمع بالصحب، والصحبان والصحبة والصحاب، والأصحاب: جماعة الصحب[(٢)]، ومن الباب: أصحب فلانٌ إذا انقاد، وأصحب الرجل إذا بلغ ابنه مبلغ الرجال، فصار مثله، فكأنه صاحبه، واستصحب الرجل: دعاه إلى الصحبة، ولازمه، وكل ما لازم شيئًا فقد استصحبه[(٣)]، لذلك يطلق مجازًا على من اعتنق مذهبًا أو رأيًا فيقال: أصحاب أبي حنيفة، وأصحاب الشافعي[(٤)]، والصحبة- بالضم-: المعاشرة، صحبه صحبة وصحابة وصحابة، وصاحبه: عاشره، والصاحب: المعاشر[(٥)]، وكذا: المرافق، ومالك الشيء، والقائم على الشيء، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ [المدثر:٣١][(٦)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي لا يختلف كثيرًا عن المعنى اللغوي، فقد قال الراغب: «الصاحب: الملازم، إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا، ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن وهو الأصل والأكثر، أو بالعناية والهمة، ولا يقال في العرف إلا لمن كثرت ملازمته»[(٧)].

وعرفها ابن عاشور بأنها: «الملازمة في أحوال التجمع والانفراد للمؤانسة والموافقة، ومنه قيل للزوج: صاحبة، وللمسافر مع غيره صاحب، وقد يتوسعون في إطلاقه على المخالط في أحوال كثيرة، ولو في الشر»[(٨)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٣٥.
(٢) العين، الفراهيدي ٣/ ١٢٤.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٣٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٢٠.
(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٣٣٣، المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية ١/ ٥٠٧.
(٥) انظر: المخصص، ابن سيده ٣/ ٤٢٩، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥١٩.
(٦) انظر: المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية ١/ ٥٠٧.
(٧) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٧٥.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٥٧.

الصحبة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (صحب) في القرآن الكريم (١٠٦) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف:٧٦]
فعل الأمر	١	﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]
اسم الفاعل	١٠٣	﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ [النساء:٣٦]

وجاءت الصحبة في القرآن الكريم بمعناها اللغوي الدال على الملازمة[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٨٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٠٣-٣٠٤، نزهة الأعين النظائر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٩٢-٣٩٣، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، (٣/ ٣٨٦-٣٨٧)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، (٢/ ٣٢٠-٣٢١).

الألفاظ ذات الصلة

١ الرفقة:

الرفقة لغة:

الرفقة: الصحبة في السفر أو غيره، يقال: رافق الرجل صاحبه، ورفيقك:الذي يرافقك، وقيل:هو الصاحب في السفر خاصة[١].

وسمي الصاحب رفيقًا؛ لارتفاقك به وبصحبته، ويقال للجماعة في السفر: رفقة؛ لارتفاق بعضهم ببعض[٢].

الرفقة اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الرفقة اصطلاحًا عن معناها اللغوي، والرفقة تقال للقوم ما داموا منضمين في مجلس واحد ومسير واحد، فإذا تفرقوا ذهب عنهم اسم الرفقة، ولم يذهب عنهم اسم الرفيق[٣].

الصلة بين الرفقة والصحبة:

الرفقة أخص من الصحبة، والصحبة أعم، ففي لفظ (الرفيق) معنى الرفق والرحمة، بخلاف الصحبة؛ فقد يوجد الرفق فيها، وقد يوجد العذاب كما هو مع أصحاب النار.

٢ الصداقة:

الصداقة لغة:

الصداقة: مصدر الصديق، وهو مشتق من صدق المودة والنصيحة، والجمع صدقاء وصدقانٌ وأصدقاء وأصادق[٤].

والصديق: الصاحب الصادق في المودة[٥]، وإنما سمي الصديق صديقًا لصدقه[٦].

الصداقة اصطلاحًا:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، ولذا عرفها المناوي بأنها: «صدق

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٢٠.
(٢) الوسيط، الواحدي ٢/ ٧٨.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٢٠.
(٤) انظر: المصدر السابق ١٠/ ١٩٤.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٠٢.
(٦) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٦١.

الاعتقاد في المودة، وذلك يختص بالإنسان دون غيره»[١].

الصلة بين الصداقة والصحبة:

الصداقة أخص من الصحبة، فهي تختص بالإنسان دون غيره، فكل صديق صاحب، وليس كل صاحب صديقًا.

٣ الأخوة:

الأخوة لغة:

الأخ: «المشارك آخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما أو من الرضاع. ويستعار في كل مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدين، أو في صنعة، أو في معاملة أو في مودة، وفي غير ذلك من المناسبات»[٢].

وأكثر ما يستعمل الإخوان في الأصدقاء، والإخوةُ في الولادة[٣].

الأخوة اصطلاحًا:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، الذي يشمل أخوة النسب والصداقة والمشاركة في قبيلة أو دين أو صنعة وغير ذلك.

الصلة بين الأخوة والصحبة:

كل واحد منهما أخص من الآخر من جهة وأعم من جهة أخرى، فهناك أخ ليس بصاحب، وهناك صاحب ليس بأخ، وإذا قابلت بينهما فالأخ أعلى[٤].

٤ القرين:

القرين لغة:

القرين: المقارن والمصاحب، والزوج، والبعير المقرون بآخر، والأسير، والجمع: قرناء[٥]، والقرين يكون في الخير والشر، وكل إنسان معه قرين، فقرينه من الملائكة يأمره بالخير ويحثه عليه، وقرينه من الشياطين يأمره بالشر ويحثه عليه[٦].

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٣.
(٢) المفردات ص ٦٨.
(٣) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٦٤.
(٤) انظر: معجم المناهي اللفظية، بكر أبو زيد ص ٥٦.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٣١.
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الجزري ٤/ ٥٤.

القرين اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين القرين والصحبة:

الصحبة تفيد انتفاع أحد الصاحبين بالآخر غالبًا، ولهذا يستعمل في الآدميين خاصةً، فيقال: (صحب زيد عمرًا)، و(صحبه عمرو)، ولا يقال: (صحب النجم النجم)، أو (الكون الكون) والمقارنة: تفيد قيام أحد القرينين مع الآخر، ويجري على طريقته وإن لم ينفعه، ومن ثم قيل: (قران النجوم)، وقيل للبعيرين يشد أحدهما إلى الآخر بحبل: (قرينان)[1].

٥ العشرة:

العشرة لغة:

العِشرة: اسم من المعاشرة وهي المخالطة[2]، والعشير: الصاحب والزوج[3]، والعرب تسمى الزوج:عشيرًا؛ لأجل المخالطة[4]، والعشيرة: أهل الرجل الذين يتكثر بهم[5].

الرفقة اصطلاحًا:

لا يختلف معنى العشرة اصطلاحًا عن معناها اللغوي.

الصلة بين العشرة والصحبة:

العشرة ترادف مفهوم الصحبة، فكلاهما يدل على المعاشرة والمخالطة، إلا إن العشرة تعتبر من معاني الصحبة، فلفظ الصحبة إذن أعم من لفظ العشرة، فكل صحبة عشرة، وليس كل عشرة صحبة.

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٠٨.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٤٧، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٤٢.
(٣) مجمل اللغة، ابن فارس ص ٦٧٠.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤٢٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٦٧.

أنواع الصحبة في القرآن

حث الله تعالى في محكم التنزيل على ملازمة أهل الصلاح والإيمان، ونهى عن ملازمة أهل الغفلة والضلال، حيث قال جل وعلا: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

وفي هذا المبحث سوف نذكر نوعين من الصحبة في كتاب الله عز وجل.

أولًا: الصحبة الصالحة:

أشار القرآن الكريم لهذا النوع من الصحبة، وسوف نذكر منها ما يأتي:

١. صحبة موسى عليه السلام للخضر.

ذكر الله تعالى رحلة موسى عليه السلام وملازمته للخضر في محكم التنزيل، ولم يذكر أسباب تلك الرحلة، إلا أن السنة النبوية أوضحت أن سبب الرحلة كان عتاب الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى عليه السلام عندما سئل هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال:لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك الخ[(١)].

والتقى موسى عليه السلام بالخضر في ذلك المكان بعد رحلة طويلة وشاقة، فكان ما قص الله من نبأهما في محكم التنزيل.

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٥-٦٦].

إلى قوله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢].

وسوف نذكر بعضًا من الفوائد والعبر من صحبة موسى عليه السلام للخضر، منها:

- أن ما فعله موسى عليه السلام، وهو من جلة الأنبياء من طلب العلم، والرحلة في ذلك، ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه[(٢)].
- كان سؤال موسى عليه السلام للخضر في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].
- سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ في حسن الأدب[(٣)]،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله، رقم ١٢٢.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٠١.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وهذا بلا ريب تعليم لآداب الصحبة أنها تكون باتفاق النفوس، وتلاقي القلوب، والاستفهام لبيان إرادة الإتباع في أبلغ أدب[1].

- أن العلم الذي يعلمه الله للعبد نوعان: علم مكتسب، يدركه العبد بطلبه وجده، وعلم إلهي لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده، لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]. فالخضر أعطي من هذا النوع الحظ الأوفر[2].
- في قوله تعالى على لسان الخضر لموسى عليه السلام: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]. قالوا: إن هذا من أدب الصحبة[3]، فلا ينبغي للعبد أن يفارق صاحبه في حال من الأحوال ويترك صحبته، بل يفي له بذلك حتى لا يجد للصبر محلًا، وأن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة[4].

٢. صحبة أهل الكهف.

وهم مجموعة من الشباب، لجؤوا إلى غار في الجبل، فرارًا بدينهم من أقوامهم، الذين كانوا يعبدون الأصنام، وحدثت لهم بهذا الغار الأعاجيب، وقد ذكر الله قصتهم باختصار في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾ [الكهف:٩-١٢].

ثم بدأ بتفصيلها بعد هذا الإجمال في أربع عشرة آية بعد ذلك.

قال السعدي عنهم: «هم فتية وفقهم الله، وألهمهم الإيمان، وعرفوا ربهم، وأنكروا ما عليه قومهم، من عبادة الأوثان، وقاموا بين أظهرهم معلنين فيما بينهم عقيدتهم، خائفين من سطوة قومهم فقالوا: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:١٤].

فلما اتفقوا على هذا الأمر، وعرفوا أنهم لا يمكنهم إظهار ذلك لقومهم سألوا الله أن يسهل أمرهم فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:١٠].

فأووا إلى غار يسره الله غاية التيسير، واسع الفجوة فناموا في كهفهم بحفظ الله ورعايته ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا»[5].

١١/ ١٧.

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٥٩.
(٢) تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٢٥٦.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٦٦.
(٤) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٢٥٩
(٥) المصدر السابق ص٢٨٧.

فهؤلاء فتية ضحوا في سبيل عقيدتهم وفروا بدينهم من سعة الحياة إلى ضيق الكهف؛ ليكونوا مثلًا لكل أهل عقيدة، ودليلًا على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويخلد ذكراهم إلى قيام الساعة[(١)].

وقد ذكر السعدي فوائد وعبر من هذه القصة منها:

- أن من أوى إلى الله أواه الله، ولطف به، وجعله سببًا لهداية الضالين؛ فإن الله لطف بهم في هذه النومة الطويلة إبقاء على إيمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقتلهم، وجعل هذه النومة من آياته التي يستدل بها على كمال قدرة الله، وتنوع إحسانه، وليعلم العباد أن وعد الله حق.
- الحث والتحرز والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان الذي يدرأ عن الإنسان الشر[(٢)].
- أن الملازم لأهل الفضل لا بد أن يناله شيء من ذكر جميل وشأن عظيم[(٣)]، فقد نال كلبهم ذلك الذكر والشأن في صحبتهم، قال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨]. قال ابن كثير: «وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن»[(٤)]، وهذا الذكر والشأن قد خلص إلى كلب لازم أهل الفضل، فما بال من لازمهم واقتدى بصلاحهم؟![(٥)].

٣. صحبة أبي بكر الصديق لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

صحب أبو بكر الصديق رضي الله عنه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم منذ إسلامه إلى وفاته، ولم يفارقه أبدًا، وشارك معه في غزواته، وبذل نفسه وماله في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وهاجر مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ولم يتركه أبدًا طيلة حياته، ونال بذلك شرف الصحبة معه في الغار، حيث قال جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

قال السعدي: «وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٨٦٥.
(٢) تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٢٨٨-٢٨٩.
(٣) انظر: غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، حازم خنفر ص ٢٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٤.
(٥) انظر: غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، حازم خنفر ص ٢٥.

أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم كافرًا، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى -إذا نزل بالعبد- أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة»[1].

٤. صحبة يوسف عليه السلام للفتيين في السجن.

دخل يوسف عليه السلام السجن، وكان في جملة من دخل معه فتيان، فلما رأيا من فضله وإحسانه في السجن طلبا منه تأويل رؤياهما.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزٗا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف:٣٦].

قال أبو حيان: «ومع تدل على الصحبة واستحداثها، فدل على أنهم سجنوا الثلاثة في ساعة واحدة، ولما دخل يوسف السجن استمال الناس بحسن حديثه وفضله ونبله، وكان يسلي حزينهم، ويعود مريضهم، ويسأل لفقيرهم، ويندبهم إلى الخير، فأحبه الفتيان ولزماه»[2].

وتوسما من يوسف عليه السلام كمال العقل والفهم فظنا أنه يحسن تعبير الرؤيا، ولذلك قالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

فانتهز الفرصة ودعاهما إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك ما سواه من عبادة الأصنام قبل تأويل رؤياهما، وهذه طبيعة المؤمن أن يكون حريصًا على دعوة وهداية الآخرين إلى الخير والصلاح، وقدم قبل الدعوة ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٞ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٣٧][4].

فناداهما باسم الصحبة في المكان الشاق الذي تخلص فيه المودة وتتمخض فيه النصيحة؛ ليقبلا عليه ويقبلا مقالته، وقد ضرب لهما مثلًا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح.

قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٨.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٧٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٦٩.

(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٦٣.

﴿٤٠﴾[يوسف:٣٩-٤٠][(١)].

فأورد الدليل على بطلان ملة قومهما بقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ﴾ فأبرز ذلك في صورة الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام، وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك إلى أن يصل إلى الإذعان بالحق[(٢)].

فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما -بذلك- الحجة، ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما[(٣)]، وجعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببًا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه[(٤)].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٧٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٧٨.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٧٨.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٠.

٥. صحبة الأخيار المداومين على عبادة الله تعالى.

حث الله تعالى على ملازمة الأخيار من عباده، المداومين على ذكره، حيث قال جل وعلا: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨].

يقول السعدي في تفسير هذه الآية: «يأمر تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وغيره أسوته، في الأوامر والنواهي أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى»[(٥)].

والتعبير عنهم بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنهم أحرياء بذلك؛ لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة[(٦)].

فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل، واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٥.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥.

فليستمسك بغرزه[1].

٦. صحبة الوالدين.

أعظم صحبة للإنسان هي صحبة الوالدين، وهي صحبة صالحة يرضي بها الإنسان ربه، ويسعد بها في دنياه، ويرجو بها حسن الثواب في الآخرة، وقد أمر الله تعالى ببر الوالدين والإحسان إليهما، وقرن طاعته بطاعتهما بعده مباشرة.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

ومفهوم الإحسان إلى الوالدين كما ذكر القرطبي: «معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتثال أمرهما، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما، وصلة أهل ودهما[2]، وبرهما وحفظهما وصيانتهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما»[3].

والأمر بالإحسان يتضمن النهي عن الإساءة، إذ هو نهي عن الإساءة، وأمر بفضل العاطفة والمواساة والقرب، وإحسان الصحبة[4].

وفي الآية دليل واضح على عظم صحبة الوالدين بالإحسان إليهما، فقد أتى بعد حق الله جل وعلا الذي هو من أعلى الحقوق وأعظمها، قال ابن كثير: «وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]»[5].

ومما يدل كذلك على عظم صحبة الوالدين، وأنها من آكد حقوق المخلوقين، ما جاء في الحديث الصحيح، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أبوك)[6].

بل إن الله تعالى أمر بصحبتهما وإن كانا كافرين، ولكن بما يرتضيه الشرع.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥].

(١) الوابل الصيب، ابن القيم ص ٤١ بتصرف واختصار.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٣.
(٣) المصدر السابق ٧/ ١٣٢.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٧٢٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣١٦.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم ٥٩٧١.

قال المراغي: «أي وصاحبهما في أمور الدنيا صحبة يرتضيها الدين، ويقتضيها الكرم والمروءة، بإطعامهما وكسوتهما، وعدم جفائهما وعيادتهما إذا مرضا، ومواراتهما في القبر إذا ماتا»[1].

وذكر ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾؛ لتهوين أمر الصحبة، والإشارة إلى أنها في أيام قلائل وشيكة الانقضاء فلا يضر تحمل مشقتها؛ لقلة أيامها وسرعة انصرامها[2].

وفي الآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وإلانة القول، والدعاء إلى الإسلام برفق[3].

ثانيًا: الصحبة السيئة:

وقد أشار القرآن الكريم إلى نماذج، منها:

١. صحبة الشيطان.

ذم الله تعالى صحبة الشيطان باتباع خطواته ووسواسه وتزيينه للشر، حيث قال جل وعلا: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨].

والقرين: المقارن، أي الصاحب والخليل، وهو فعيل من الإقران[4].

قال طرفة بن العبد[5]:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

وفي معنى الآية يقول الخازن: «من يكن الشيطان صاحبه وخليله فبئس الصاحب وبئس الخليل الشيطان، وإنما اتصل الكلام هنا بذكر الشيطان تقريعًا لهم على طاعة الشيطان»[6].

فهو الذي حملهم على صنيعهم القبيح، وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها، بأن سول لهم وأملى لهم، وقارنهم فحسن لهم القبائح[7].

وفي الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء في سيرته، وأن الواجب اختيار القرين الصالح على قرين السوء[8].

٢. صحبة أهل الدنيا المنهمكون في ملذاتها الغافلون عن ذكره جل وعلا.

أمر الله تعالى رسوله الكريم بملازمة المؤمنين الصادقين، وحذر من الانصراف عنهم إلى صحبة أهل الدنيا المنشغلون بها الغافلون عن ذكره، ونهاه عن طاعتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

(١) تفسير المراغي ٢١/ ٨٣.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٨٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٦٥.
(٤) المصدر السابق ٥/ ١٩٤.
(٥) انظر: ديوان طرفة بن العبد ص ٣٢.
(٦) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٧٥ .
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٠٣.
(٨) تفسير المراغي ٥/ ٤٠.

[الكهف:٢٨].

قال الخازن في تفسير هذه الآية: «﴿وَلَا تَعْدُ﴾ أي: لا تصرف ولا تجاوز ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: جعلنا قلبه غافلًا عن ذكرنا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: في طلب الشهوات ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ ضياعًا ضيع أمره وعطل أيامه»[١].

والآية الكريمة تسوق للناس توجيهًا حكيمًا في بيان القيم الحقيقية للناس، وهي أنها تتمثل في الإيمان والتقوى، لا في الغنى والجاه[٢]، وأن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وزخرف الحياة من اللباس والطعام[٣].

وقد أمر الله تعالى في موضع آخر بالإعراض عن المتولي عن ذكره، القاصر نظره على الحياة الدنيا، حيث قال جل وعلا: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم:٢٩].

قال أبو حيان في هذه الآية: «فأمر صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن من هذه حاله، ثم ذكر سبب التولي عن الذكر، وهو حصر إرادته في الحياة الدنيا؛ فالتولي عن الذكر سبب للإعراض عنهم، وإيثار الدنيا سبب التولي عن الذكر، وذلك إشارة إلى تعلقهم بالدنيا وتحصيلها»[٤].

وفي الآية تحذير من مخالطة الغافلين والصحبة لهم، فإن صحبتهم سم قاتل، والجلوس معهم تضييع وبطالة، إلا أن يستولي نور من يصحبهم على ظلمتهم، فيجرهم إلى الله، فهذا جلوسه معهم كمال[٥].

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٦٣.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥٠٩.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٥/ ١٤٣.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ١٩.
(٥) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥٠٩.

أسباب الصحبة

إن الإنسان اجتماعي بطبعه، ميال إلى الاجتماع بالناس والاستئناس بهم، فعندما يتخذ صاحبًا له لا بد أن يكون هناك رابطٌ بينهما هو الذي أدى إلى اجتماعهما وصحبتهما، فالإنسان إنما يجالس ويخالط من هو في جنسه الذي يتفق مع ميوله وأفكاره، فإذا ما حصل الاتفاق لا بد أن يؤثر أحد في الآخر، فالمخالطة والصحبة إذًا لا تخلو من رابط، وهو ما يسمى بالسبب أو الدافع الذي أدى إلى تلك الصحبة، فلو لم يكن هناك سبب أو دافع بينهما، لما استأنس كل منهما بصاحبه.

وسوف نذكر في هذا المبحث أسباب الصحبة، وهي على وجهين[1]:

أولًا: ما كان اضطراريًا:

وهي أسباب مكتسبة من غير قصد واختيار بسبب المماثلة والاتفاق بين الصاحبين في أمور شتى[2]، كصحبة يوسف عليه السلام للفتيين في السجن، فقد كانت من غير قصد واختيار، وسببها المماثلة أو الموافقة في الأحوال، قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف:٣٩].

«وعبر عنهما بوصف الصحبة في السجن دون اسميهما إما لجهل اسميهما عنده إذ كانا قد دخلا السجن معه في تلك الساعة قبل أن تطول المعاشرة بينهما وبينه، وإما للإيذان بما حدث من الصلة بينهما وهي صلة المماثلة في الضراء الإلف في الوحشة، فإن الموافقة في الأحوال صلة تقوم مقام صلة القرابة أو تفوقها»[3].

ثانيًا: ما كان عن قصد واختيار:

وهي أسباب مكتسبة بقصد ونية بسبب الرغبة والحاجة[4]، كصحبة موسى عليه السلام للعبد الصالح ورغبته في التزود من العلم الذي وهبه الله إياه، قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف:٦٦].

قال الشعراوي: «ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأب على أن عبدًا من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾، وفي هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم، وجاء

(١) انظر: أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٦١.
(٢) انظر:غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، حازم خنفر ص ٣١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٧٤.
(٤) انظر:غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، حازم خنفر ص ٣٢.

القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم»[1].

وكحاجته كذلك لأخيه هارون عليه السلام في صحبته لتبليغ دينه جل وعلا، قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤].

قال ابن كثير: «أي: وزيرًا ومعينًا ومقويًا لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل؛ لأن خبر اثنين أنجع في النفوس من خبر واحد؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾»[2].

فوهب الله تعالى لموسى أخاه هارون عليهما السلام رحمةً بموسى؛ لأن هارون كان معينًا لأخيه ومساندًا له في مسألة الدعوة، وهذه لم تحدث مع نبي آخر أن يجعل الله له معينًا في حمل هذه المهمة[3].

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم:٥٣].

ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه، من موسى على هارون، عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبيًا ورسولًا معه إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩][4].

وفي سؤاله من ربه يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء:١٣].

«وكأن موسى أذن له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة، بل طلب من يعينه، ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر، ويخاف من نفسه تقصيرًا، أن يأخذ من يستعين به عليه، ولا يلحقه في ذلك لوم»[5].

(١) تفسير الشعراوي ٧/ ٤٤٥٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٣٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ١٥/ ٩١٢١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٩٢.

حقوق الصحبة

اعلم أن لقوام الصحبة حقوقًا، فبقدر تأديتها أو الإخلال بها تدوم تلك الصحبة أو تنخرم، فعلى المؤمن أن يحفظ لصاحبه حق صحبته وحسن عشرته، فلا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له، وسوف يكون حديثنا في هذا المبحث عن حقوق الصحبة، ومن تلك الحقوق ما يأتي:

أولًا: الإحسان للصاحب:

أمر الله جل وعلا بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب، ومن تلك الحقوق حق الصاحب وذلك بالإحسان إليه.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء:٣٦].

قال النيسابوري: «﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ وهو الذي حصل بجنبك إما رفيقًا في سفر، وإما جارًا ملاصقًا، وإما شريكًا في تعلم أو حرفة، وإما قاعدًا إلى جنبك في مجلس، أو في مسجد أو غير ذلك من أدنى صحبة اتفقت بينك وبينه، فعليك أن تراعي ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان، وقيل: الصاحب بالجنب المرأة؛ فإنها تكون معك وتضطجع إلى جنبك»[1].

وأما السعدي فيقول في تفسير هذه الآية: «﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل الصاحب مطلقًا، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة»[2].

ومن الإحسان إلى الصاحب الذي يكون بجنبك، ألا تؤذيه بمنظر كريه أو ريح كريهة، وأن تحافظ على الحياء في مجلسك، فلا تجعل نعلك يحف بثيابه أو بحيث يؤذيه، وأن تعاونه إن كان محتاجًا إلى معاونتك.

ثانيًا: النصح والإرشاد:

فمن حقوق الصحبة نصح الصديق لصديقه بإرشاده للحق، كما فعل يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن حين دعاهما إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك ما سواه من عبادة الأصنام.

قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف:٣٩-٤٠].

فناداهما باسم الصحبة في المكان

(١) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٤١٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٨.

الشاق الذي تخلص فيه المودة وتتمخض فيه النصيحة؛ ليقبلا عليه ويقبلا مقالته، وقد ضرب لهما مثلًا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، وقد تحدثنا عن ذلك في صحبة يوسف عليه السلام للفتيين في السجن ونكتفي بما ذكرناه[1].

وأما في وصفه للأصنام (بالتفرق)، ووصف الله تعالى بـ(الوحدة) و(القهر) تلطف حسن، وأخذ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته[2].

ثالثًا: الإعانة بالنفس والمال في قضاء الحاجات:

فمن حقوق الصحبة بذل المال والنفس للصاحب عند حاجته وافتقاره، كما بذل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم نفسه وماله في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وقد ذكرنا ذلك في صحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم ووقوفه معه في أصعب المواقف والشدائد[3].

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٦٧٧-١٦٧٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٤٥.
(٣) انظر: غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، حازم خنفر ص ٨٤.

ومنها ملاحقة الكفار لهم وهم في الغار، حيث أخبر الله جل وعلا عن ذلك الموقف ونصرته لهم بقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

فنال بذلك شرف الصحبة وهو معه في الغار، بقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

قال الخازن: «وفي هذا دليل على فضل أبي بكر الصديق، ومنها أن الله سبحانه وتعالى نص على صحبة أبي بكر دون غيره بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ﴾.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره، ومنها إنزال السكينة على أبي بكر واختصاصه بها دليل على فضله، والله أعلم»[4].

وفي الآية كما ذكر بعض المفسرين عتاب من الله عز وجل لأهل الأرض جميعًا غير

(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٦٥.

أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه[1].

ومما يدل على بذله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾ [الليل:١٧-٢١].

قال ابن كثير: «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقًا تقيًا كريمًا جوادًا بذالًا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم»[2].

ومن باب الفائدة، فقد ذكر ابن الجوزي ثلاث مراتب في بذل المال للصاحب وإعانته: أهونها: المساهمة في المال، وأوسطها المواساة، وأعلاها تقديم الأخ في المال على النفس[3].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٤٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٦٠، فتح البيان، القنوجي ٥/ ٣٠٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٢٢.
(٣) انظر: التبصرة، ابن الجوزي ٢/ ٢٧٧، غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، لحازم خنفر ص ٨٦.

رابعًا: العفو عن زلات وهفوات الصاحب:

وأما العفو عن الزلات؛ فذلك بأن يقيل عثرات أخيه، ويعفو عن زلاته، وأن يلتمس له أعذارًا، وأن لا يعترض على هناته دون روية؛ فإن ذلك قد يبعث على القطيعة والهجران[4].

وقد أرشد الله عز وجل إلى ذلك، حيث قال جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

قال أبو الطيب: «أي ادفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر، والإغضاء عن الهفوات، والاحتمال للمكروهات»[5].

قال ابن عباس: أمر الله تعالى بالصبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم، كأنه ولي حميم[6].

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، يقول البغوي: «يعني إذا فعلت ذلك خضع لك عدوك

(٤) غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة، لحازم خنفر ص ٩١.
(٥) فتح البيان، القنوجي ١٢/ ٢٥٢.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٧١.

وصار الذي بينك وبينه عداوة، كأنه ولي حميم، كالصديق القريب»[1].

فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك، كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا، فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك وترك خطابك، فطيب له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة[2].

آثار الصحبة في الدنيا

إن للصحبة أثرًا عميقًا في شخصية المرء وأخلاقه وسلوكه، والصاحب يكتسب صفات صاحبه بالتأثر والاقتداء، فالإنسان اجتماعي بالطبع، ولا بد أن يخالط الناس ويكون له منهم أخلاء وأصدقاء، فإن كانوا أصحاب سوء تأثر بهم وبأخلاقهم السيئة، وإن كانوا أصحاب خير وصلاح تأثر بأخلاقهم الحميدة، وأعمالهم المرضية لله عز وجل، وكانوا له عونًا على طاعة المولى جل علا.

قال عليه الصلاة والسلام: (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)[3].

وصدق الشاعر حيث قال[4]:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وسوف يكون حديثنا في هذا المبحث عن آثار الصحبة الصالحة والسيئة في الدنيا، وذلك في النقاط الآتية:

(١) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٣٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٩.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٣/ ٣٩٤، رقم ٨٠٢٨، وأبو داوود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجلس، ٤/ ٢٥٩، رقم ٤٨٣٣، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، ٤/ ٥٨٩، رقم ٢٣٧٨.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٤، رقم ٣٥٤٥.
(٤) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي ٢/ ١٧٩.

أولًا: آثار الصحبة الصالحة:

اعلم أن للأخوة الصالحة أثرًا عظيمًا في سلوك المؤمن، فإذا أراد الله تعالى بالعبد خيرًا قيض له صحبةً من الأخيار، وهيأ له من الإخوان من يعينه على صلاح نفسه، فلا يلبث أن يبلغ قدرهم أو يبرز عليهم، ومن آثار تلك الصحبة في الدنيا:

١. الإعانة على طاعة الله وذكره جل وعلا.

فالصحبة الصالحة خير معين على طاعة الله وذكره، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ يقول: وأوصى بعضهم بعضًا بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه، من أمره واجتناب ما نهى عنه فيه، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ يقول: وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على العمل بطاعة الله»[١].

وفي جعل التواصي بالصبر قرينًا للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه إن الله مع الصابرين، وأيضًا التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق، ومزيد شرفه عليها، وارتفاع طبقته عنها[٢]، وكرر الفعل لاختلاف المفعولين[٣].

وعندما بعث الله تعالى موسى عليه السلام بالرسالة، سأل ربه أن يعينه بأخيه، ويقويه به فيما حمله من الرسالة والقيام بها.

قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢﴾ [طه:٢٩-٣٢].

ثم ذكر العلة في ذلك، حيث قال جل وعلا: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾ [طه:٣٣-٣٤].

يقول السعدي: «علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله؛ فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل، وغيره من أنواع العبادات»[٤].

فهذه هي العلة في مشاركة هارون لأخيه في مهمته، لا طلبًا لراحة نفسه، وإنما لتتضافر جهودهما في طاعة الله، وتسبيحه وذكره[٥].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٩٠.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٠١.
(٣) فتح البيان، القنوجي ١٥/ ٣٧٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٤.
(٥) تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٢٦٤.

٢. الثبات على الحق في الشدائد.

إن الثبات على الحق، والصبر على المحن والبلاء، يجعل الإنسان في راحة وطمأنينة دائمًا، ويشعر بمعية الله جل وعلا، وقد ذكر الله تعالى في محكم التنزيل موقف موسى عليه السلام، مع أصحابه عندما خرجوا، وطاردهم فرعون وجنوده.

قال تعالى واصفًا ذلك الموقف: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

قال القرطبي: «لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿كَلَّآ﴾ أي: لم يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ أي: بالنصر على العدو ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيدلني على طريق النجاة»[1].

فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش مالا طاقة لهم به بين الله سبحانه له طريق الهداية، فأمره بضرب البحر، وبه نجا بنو إسرائيل، وهلك عدوهم[2]، وإسناد المعية إلى الرب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ على معنى مصاحبة لطف الله به وعنايته بتقدير أسباب نجاته من عدوه، وذلك أن موسى واثق بأن الله منجيه لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥].

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:٥٢].

واقتصر موسى على نفسه في قوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾؛ لأنهم لم يكونوا عالمين بما ضمن الله له من معية العناية، فإذا علموا ذلك علموا أن هدايته تنفعهم؛ لأنه قائدهم والمرسل لفائدتهم، ووجه اقتصاره على نفسه أيضًا أن طريق نجاتهم بعد أن أدركهم فرعون وجنده لا يحصل إلا بفعل يقطع دابر العدو، وهذا الفعل خارق للعادة فلا يقع إلا على يد الرسول[3].

٣. غرس الثقة بالله تعالى.

فالصحبة الصالحة تغرس الثقة بالله في النفوس، وقد ذكر الله لنا موقف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عندما كان في الغار، والكفار على بابه، وهو يطمئن صاحبه وهو واثق بنصره تعالى.

قال جل وعلا: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

يقول الطبري: «إذ يقول رسول الله لصاحبه أبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾، وذلك

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٠٦.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٣٥.

أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما، فجزع من ذلك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحزن)، لأن الله معنا والله ناصرنا، فلن يعلم المشركون بنا ولن يصلوا إلينا»[(١)].

فمن كان في طاعة الله، مستعينًا بالله، واثقًا بوعد الله، راجيًا ثواب الله، فإن الله معه، ومن كان الله معه فلا خوف عليه[(٢)].

٤. بركة المجالسة والذكر الحسن.

فمرافقة الصالحين ينال منها الإنسان الثناء والذكر الحسن، ألم تر إلى كلب أصحاب الكهف، فقد ذكر في القرآن الكريم، لأنه سار مع الصالحين، حيث قال جل وعلا: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨].

يقول القرطبي: «إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته، ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين»[(٣)].

فإن من جالسهم تشمله بركة مجالستهم، ويعمه الخير الحاصل لهم، وإن لم يكن عمله بالغًا مبلغهم؛ كما دل على ذلك ما جاء في الحديث الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله، تنادوا: هلموا إلى حاجتكم)، وفي آخر الحديث:(فيقول الله: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم)[(٤)].

ثانيًا: آثار الصحبة السيئة:

فمرافقة أهل السوء داء، وتورث الشر والضياع في الدنيا، فالصحبة متى كانت سيئة كانت عائقة للإنسان عن الخير والطاعات، لما لها من تأثير كبير على الإنسان، ومن تلك الآثار ما يأتي:

١. حب الدنيا والحرص عليها.

فالصحبة السيئة تجعل الإنسان حريصًا على الدنيا منشغلًا عن الآخرة، لذلك أمر الله جل علا بالإعراض عنهم.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم:٢٩-٣٠].

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٥٨.
(٢) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٢٣٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٧١-٣٧٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، رقم ٦٤٠٨.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ أي: وإنما أكثر همه، ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه»[(١)].

والحياة الدنيا وصفها بالدنيا من الدنو وهو القرب، وذلك لانحطاط مرتبتها، ولسبقها على الآخرة[(٢)].

وجملة ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ اعتراض وهو استئناف بياني بين به سبب جهلهم بوجود الحياة الآخرة؛ لأنه لغرابته مما يسأل عنه السائل، وفيه تحقير لهم وازدراء بهم بقصور معلوماتهم[(٣)].

وقد نبه أبو حامد إلى خطر صحبته، حيث قال: «وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا، ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة»[(٤)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٥٩.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، من سورة الحجرات إلى الحديد ص ٢٢٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١١٨.
(٤) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٢/ ١٧٣.

٢. الغفلة واتباع الأهواء.

فصحبة الغافلين المتبعين لأهوائهم تعين على الغفلة واتباع الهوى، لذلك نهى الله تعالى عن طاعتهم؛ لأن طاعتهم تدعو إلى الاقتداء بهم، قال جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف:٢٨].

أي: جعلنا قلبه غافلًا عن ذكرنا منشغلًا عن الدين وعبادة ربه بالدنيا.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: مراده في طلب الشهوات فلا تكن مطيعًا له ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه[(٥)].

٣. الضياع والخسران في الدنيا.

وصحبة الغافلين المتبعين لأهوائهم كذلك تورث الخسارة والضياع في الدنيا، لذلك قال تعالى بعد ما نهى عن طاعتهم: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

قال ابن كثير: «﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع»[(٦)].

ويقول السعدي: «﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطًا﴾ أي: ضائعة معطلة، فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو

(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٤.

إلا لما هو متصف به»[1].

فهو مهمل مضيع مسرف في كل أحواله[2]، ضائعًا تمضي الأيام والليالي، ولا ينتفع بشيء، وفي هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنزع البركة من أعماله وأوقاته، حتى يكون أمره فرطًا عليه، تجده يبقى الساعات الطويلة، ولم يحصل شيئًا، ولكن لو كان أمره مع الله لحصلت له البركة في جميع أعماله[3].

٤. الانحراف والضلال.

فالصحبة السيئة تصرف الإنسان عن الطاعة إلى المعصية وتزين له فعل المنكرات.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

قال الخازن: «﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ أي نسبب له شيطانًا ونضمه إليه ونسلطه عليه ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ يعني لا يفارقه يزين له العمى ويخيل إليه أنه على الهدى»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

يقول الطبري: «وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ يقول تعالى ذكره: وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله، عن سبيل الحق، فيزينون لهم الضلالة، ويكرهون إليهم الإيمان بالله، والعمل بطاعته ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يقول: ويظن المشركون بالله بتحسين الشياطين لهم ما هم عليه من الضلالة، أنهم على الحق والصواب»[5].

وبنحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت:٢٥].

وتفسير أمور الدنيا في هذا الآية بـ ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ لحضورها عندهم، كالشيء الذي بين يديك تقلبه كيف تشاء، والآخرة بـ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، لعدم مشاهدتها، كالشيء الذي خلفك، أو لكونها ستلحق بهم، وقد يعكس فيجعل ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة؛ لأنها مستقبلة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، الدنيا لمضيها وتركها[6].

٥. سوء الذكر.

فمرافقة الصالحين كما ذكرنا ينال منها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٥.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٢٣.
(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة الكهف ص ٦٢.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٠٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦٠٥.
(٦) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي ٨/ ٣٣٥.

الإنسان الثناء والذكر الحسن، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، لذلك ذكر كلب أصحاب الكهف في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨].

لأنه جالس الصالحين، أما مرافقة أهل الشر والفساد فليس منها إلا سوء الذكر، لأن صحبتهم تورث الشر وتزينه له بأنه هو الحق والصواب، فبئس الصاحب إذا كان من أهل الفساد وبئس القرين، لذلك ذم الله تعالى صحبتهم في محكم التنزيل، حيث قال جل وعلا: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨].

عاقبة الصحبة في الآخرة

تحدثنا في المبحث السابق عن آثار الصحبة في الدنيا، وبينا أن الصحبة الصالحة تورث الخير والبركة لمن لازم أهل الصلاح، والصحبة السيئة تورث الشر والضياع لمن لازم أهل السوء والفساد، أما في الآخرة فلها عواقبها ونتائجها بحسب ملازمة الشخص.

وسوف يكون حديثنا في هذا المبحث عن عواقب تلك الصحبة في الآخرة، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: عاقبة الصحبة الصالحة:

فمن لازم أهل الاستقامة والصلاح في الدنيا كانت العاقبة في الآخرة كالآتي:

١ . دوام تلك الصحبة والمودة.

فمن كانت صحبته في الله تعالى، وفي سبيله، فإنها دائمة بدوامه.

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف:٦٧].

والأخلاء: جمع خليل، وهو الصاحب الملازم، قيل: إنه مشتق من التخلل؛ لأنه كالمتخلل لصاحبه والممتزج به[(١)].

قال السعدي في هذه الآية: «﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصي، فإن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٥٢.

محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله»[1].

لذلك استثنى المتقين؛ لأن النفع دخل على بعضهم من بعض[2].

يقول الشوكاني: «ثم استثنى المتقين فقال: إلا المتقين فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة، لأنهم وجدوا تلك الخلة التي كانت بينهم من أسباب الخير والثواب، فبقيت خلتهم على حالها»[3].

فكل منهم يعين بعضهم بعضًا على الطاعة، فالواحد منهم يقول لصاحبه: كنت تعينني على الطاعة، كنت توجهني وتذكرني إن غفلت، فيزداد الحب بينهما[4]، والآية تدل على حصول الخلة وثبوتها، وهي محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله تعالى، لذلك أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم[5]، والله أعلم.

٢. النجاة من فزع ذلك اليوم.

يقول الله جل وعلا لعباده المتقين المتحابين في الله عز وجل المجتمعين على طاعته: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨﴾ [الزخرف:٦٨].

قال المراغي: «يقال لهم تشريفًا لهم وتسكينًا لروعهم مما يرون من الأهوال: يا عباد لا تخافوا من عقابي، فإني قد أمنتكم منه برضاي عنكم، ولا تحزنوا على فراق الدنيا، فإن الذي تقدمون عليه خير لكم مما فارقتموه منها»[6].

ويقول السعدي في هذه الآية: «أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب»[7].

فالمحبة الصادقة الصافية في الله تعالى ينتج عنها ذهاب الفزع والخوف والحزن يوم القيامة، يقول الشوكاني: «يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة -أي: قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾- فيذهب عند ذلك خوفهم، ويرتفع حزنهم»[8].

وجاء في الحديث الصحيح عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله ذكر منهم: (ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه)[9].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٩.
(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٦٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤٤.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ٤/ ٢٢٣٥.
(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي ٧/ ١١٧.
(٦) تفسير المراغي ٢٥/ ١٠٧-١٠٨ بتصرف واختصار.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٩.
(٨) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤٤.
(٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المسجد، رقم ٦٦٠.

٣. البشرى بدخول الجنة.

يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله جل وعلا على سبيل البشرى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ [الزخرف:٧٠][(١)].

يقول السعدي في تفسير هذه الآية: «﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ التي هي دار القرار ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ أي: من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبر الألسن عن وصفه»[(٢)].

٤. شفاعة الصاحب.

ورد في محكم التنزيل آيات تدل على أن المؤمن يشفع لصاحبه يوم القيامة، ومن تلك الآيات، قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١].

قال قتادة في هذه الآية: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحًا نفع، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع[(٣)].

ويقول النسفي في تفسير هذه الآية: «﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ كما نرى لهم أصدقاء، إذ لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام الذي يهمه ما يهمك، أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص، وجمع الشافع ووحد الصديق؛ لكثرة الشفعاء في العادة، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك فقليل»[(٤)].

ولفظة (الشفيع) تقتضي رفعة مكانة عند المشفوع عنده، ولفظة الصديق تقتضي شدة مساهمة ونصرة، وهو فعيل من صدق الود من أبنية المبالغة، ونفي الشفعاء والصديق يحتمل أن يكون نفيًا لوجودهم إذ ذاك، وهم موجودون للمؤمنين، إذ تشفع الملائكة وتتصادق المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف:٦٧][(٥)].

وقد ذكر الرازي تفسيرًا لهذه الآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

يقول الرازي: «وقوله: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ لما ذكر خلودهم بين تحقيقه؛ وذلك؛ لأن المعذب لا يخلصه من العذاب إلا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه، ولا ولي لهم يشفع ولا نصير يدفع»[(٦)].

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٥/ ١٠٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٩.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٧١.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٧٠.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٨٥.

وفي ذلك ما حدث به النبي صلى الله عليه وسلم عن المؤمنين بعد اجتيازهم للصراط، فقال:(حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فو الذي نفسي بيده ما منكم من أحدٍ بأشد مناشدةً لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون! فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه)[1].

ثانيًا: عاقبة الصحبة السيئة:

ومن لازم أهل الشر والفساد في الدنيا كانت العاقبة في الآخرة كالآتي:

١. العداوة والبغضاء.

فكل صداقة في غير الله تعالى تنقلب يوم القيامة عداوة؛ لأن الصداقة الزائفة، والمحبة المبنية على تحصيل المصالح الدنيوية وجلب المنافع العاجلة، الحب فيها مصطنع مزيف، إذا هبت عليها رياح المصلحة فرقتها ومزقتها؛ لأنها لم تبن على أساسٍ راسخ ولا أصلٍ ثابت.

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف:٦٧].

قال الشوكاني: «أي: الأخلاء في الدنيا المتحابون فيها يوم تأتيهم الساعة بعضهم لبعض عدو، أي: يعادي بعضهم بعضًا، لأنها قد انقطعت بينهم العلائق، واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسبابًا للعذاب فصاروا أعداء»[2].

وإنما يعادي الخليل خليله يوم القيامة؛ لأن الضرر دخل عليه من صحبته، وقد ذكرنا ذلك، ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٥]»[3].

فأخلاء الباطل، وصحبة السوء الذين يجتمعون على معصية الله عليهم أن يحذروا هذا اللقاء[4].

٢. الحسرة والندم.

أخبر الله جل علا عن ندم الظالم الذي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم ٣٠٢.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣٧.

(٤) تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٣٧٢.

فارق الحق، وأطاع خليله وقرينه السيء، الذي كان سببًا في هلاكه وبعده عن الحق، وكان كذلك سببًا في حصول الندم والحسرة له يوم القيامة.

يقول جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ويوم يعض الظالم نفسه المشرك بربه على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ يقول جل ثناؤه مخبرًا عن هذا النادم على ما سلف منه في الدنيا، من معصية ربه في طاعة خليله: لقد أضلني عن الإيمان بالقرآن، وهو الذكر، بعد إذ جاءني من عند الله، فصدني عنه، يقول الله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ يقول: مسلمًا لما ينزل به من البلاء غير منقذه ولا منجيه»[1].

وذكر ابن عباس سبب نزول هذه الآية: أن أبي بن خلف كان يحضر النبي صلى الله عليه وسلم، فزجره عقبة بن أبي معيط، فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم ذكر في هذه الآية: أن ﴿الظَّالِمُ﴾ هو عقبة، و﴿فُلَانًا خَلِيلًا﴾ هو أبي بن خلف[2].

والمراد بالظالم كل ظالم يرد ذلك المكان وينزل المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[3].

والمقصود كذلك من الآية ذكر هول يوم القيامة بتندم الظالم وتمنيه أنه لم يكن أطاع خليله الذي كان يأمره بالظلم، وما من ظالم إلا وله في الغالب خليل خاص به يعبر عنه بفلان، والظاهر أن الظالم يعض على يديه فعل النادم المتفجع[4].

وفي هذه الآية تنبيهٌ لكل إنسان على تجنب قرين السوء، يقول الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة تدل على أن قرين السوء قد يدخل قرينه النار، والتحذير من قرين السوء مشهور معروف»[5].

٣. التلهف والتأسف على فقد الشفيع.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١].

قال ابن عطية: «ثم قالوا ذلك على جهة التلهف والتأسف حين رأوا شفاعة الملائكة والأنبياء والعلماء نافعة في أهل

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٨٤.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٠١.

(٥) أضواء البيان، للشنقيطي ٦/ ٤٧.

الإيمان عمومًا، وشفاعة الصديق في صديقه خاصة ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾، وفي هذه اللفظة منبهة على محل الصديق من المرء»[1].

وفي هذه الآية يقول المراغي: «وقد أرادوا بهذا الإخبار إظهار اللهفة والحسرة على فقد الشفيع والصديق النافع، وقد نفوا أولًا أن يكون لهم من ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته، ثم ترقوا ونفوا أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلصهم، والخلاصة: أن الأمر قد بلغ من الهول ما لا يستطيع أحد أن ينفع فيه أدنى نفع»[2].

فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحًا[3]، لقوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢﴾ [الشعراء:١٠٢].

٤. طريق إلى النار.

فكما أن الصحبة الصالحة طريق إلى الجنة، فالصحبة السيئة طريق إلى النار.

قال تعالى: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

قال ابن عباس: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ نظراؤهم وأتباعهم في الظلم[4].

وقال الواحدي: «قال جماعة المفسرين: أشباههم وأمثالهم، وأتباعهم ونظراءهم وضرباءهم، وعلى هذا القول يحمل الذين ظلموا على القادة والرؤساء وأزواجهم أتباعهم ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ دلوهم عليها، أي: اذهبوا بهم إلى الجحيم»[5].

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى عن صاحب من أهل الإيمان، وقرين كان شريك له، وما كان بينهما من الصحبة، وما نتيجة هذا الصحبة لو أنه أطاع صاحبه وشريكه.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات:٥١-٥٧].

فالمؤمن في هذه الآية لم يطع صاحبه وصديقه الملازم له، فكان من الفائزين، ولو صدقه لكان من الهالكين، وقد أقسم هذا الصاحب المؤمن كما في هذه الآيات على ذلك ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾.

يقول الشنقيطي: «وقد بين جل وعلا في هذه الآيات أن رجلًا من أهل الجنة أقسم بالله أن قرينه كاد يرديه أي يهلكه بعذاب

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٣٦.
(٢) تفسير المراغي ١٩/ ٧٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٧.
(٥) الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٢٣.

النار، ولكن لطف الله به فتداركه برحمته وإنعامه فهداه وأنقذه من النار[1].

والشاهد من هذه الآية: أن قرين السوء قد يكون سببًا في هلاك صاحبه ودخوله نار جهنم، والعياذ بالله.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، الأخوة، الصحابة، القدوة

(١) أضواء البيان، للشنقيطي ٦/ ٤٧ بتصرف يسير.

الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

عناصر الموضوع

مفهوم الصد عن سبيل الله	٣٥٦
الصد عن سبيل الله في الاستعمال القرآني	٣٥٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٥٨
دوافع الصد عن سبيل الله ووسائله	٣٦٠
مظاهر الصد عن سبيل الله تعالى	٣٦٧
علاج القرآن للصد عن سبيل الله	٣٧٥
جزاء الصد عن سبيل الله وآثاره	٣٨١

مفهوم الصد عن سبيل الله

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «صد: الصاد والدال معظم بابه يئول إلى إعراضٍ وعدولٍ، فالصد: الإعراض، يقال: صد يصد، وهو ميلٌ إلى أحد الجانبين، ثم تقول: صددت فلانًا عن الأمر، إذا عدلته عنه»[(١)].

فـ«الصد: هو العدول عن الشيء عن قلى، يستعمل لازمًا بمعنى الانصراف والامتناع ومتعديًا بمعنى الصرف والمنع الذي عنه الانصراف والامتناع»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن معناه اللغوي، فالصد في المعنى الاصطلاحي: المنع بالإغراء الصارف عن الأمر[(٣)].

قال الراغب: «يكون انصرافًا عن الشيء وامتناعًا عنه، وقد يكون صرفًا ومنعًا»[(٤)].

فالصد عن سبيل الله: الإعراض والعدول والصرف والمنع عن طريق معرفة الله الصحيحة، وعبادته القويمة التي ترضيه.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٨٢.
(٢) الكليات، الكفوي ١/ ٢٩. بتصرف.
(٣) التوقيف على مهمات التعريف ١/ ٢١٣.
(٤) المفردات، الراغب ص٢٧٥. بتصرف.

الصد عن سبيل الله في الاستعمال القرآني

وردت مادة (صدد) في القرآن الكريم (٤٣) مرة، يخص موضوع البحث منها (٣٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء:٥٥]
الفعل المضارع	١٧	﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران:٩٩]
المصدر	٣	﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ﴾ [البقرة:٢١٧]

وجاء الصد في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الإعراض: ومنه قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] أي: يعرضون.

الثاني: المنع: ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥] أي: يمنعون الناس من الإيمان.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الصاد، ص٦٩١-٦٩٢.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٠٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ المنع:

المنع لغة:

المنع: أن تحول بين الرجل وبين الشيء الذي يريده[١].

المنع اصطلاحًا:

المنع ما لأجله يتعذر الفعل على القادر[٢].

الصلة بين الصد والمنع:

إن الصد: هو المنع عن قصد الشيء خاصة، والمنع: يكون في ذلك وغيره، ألا ترى أنه يقال: منع الحائط عن الميل، ولا يقال: صده عن الميل؛ لأن الحائط لا قصد له، ويقولون: صدني عن لقائك، يريد عن قصد لقائك[٣].

٢ الحصر:

الحصر لغة:

هو الجمع والحبس والمنع[٤].

الحصر اصطلاحًا:

الحبس مع التضييق[٥].

الصلة بين الصد والحصر:

هما بمعنى المنع، لكن اصطلح الفقهاء بتسمية الممنوع عن الحج بالمرض محصورًا، والممنوع بالعدو مصدودًا[٦].

(١) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٤٣.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص١١٢.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص٣١١.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٧٢.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٩٠.
(٦) انظر: المصدر السابق.

٣ الإعراض:

الإعراض لغة:

أعرض عنه إعراضًا: صد، وولاه ظهره[(١)].

الإعراض اصطلاحًا:

الانصراف عن شيءٍ[(٢)].

الصلة بين الصد والإعراض:

الصد: الإعراض وفيه صرف ودفع، أما الإعراض فيكون انصرافًا عن الشيء دون صرف ودفع.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٨/ ٤٠٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٥.

دوافع الصد عن سبيل الله ووسائله

للصد عن سبيل الله في القرآن دوافع ووسائل نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الكفر والمعتقدات الباطلة:

من دوافع الصد عن سبيل الله الكفر، قال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣].

قال ابن عاشور رحمه الله: «أي: صدها معبودها من دون الله، وما كانت تعبده هو الشمس، وفي ذكر فعل الكون (كانت) مرتين في ما كانت تعبد، وإنها كانت من قومٍ كافرين دلالةٌ على تمكنها من عبادة الشمس، وكان ذلك التمكن بسبب الانحدار من سلالة المشركين، فالشرك منطبعٌ في نفسها بالوراثة، فالكفر قد أحاط بها بتغلغله في نفسها، وبنشأتها عليه، وبكونها بين قومٍ كافرين، فمن أين يخلص إليها الهدى والإيمان؟»[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧].

أي: «من الشرك والتكذيب»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «قرأ أهل الكوفة (وصد) على البناء للمفعول، حملًا على (زين)، وقرأه الباقون (وصد) بفتح الصاد، ويحتمل معنيين:

أحدهما: أعرض، فيكون لازمًا.

والثاني: يكون صد ومنع غيره، فيكون متعديًا، والقراءتان كالآيتين لا يتناقضان»[3].

ومن دوافع الصد عن سبيل الله: المعتقدات الباطلة، قال تعالى على لسان من صدهم تقليد الآباء في المعتقدات الباطلة عن عبادة الله في ردهم على دعوة الرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وهذا الاعتقاد الباطل قاله المعرضون عن دعوة الأنبياء، قالته ثمود لصالح عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

وقال أصحاب مدين لشعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود: ٨٧].

وقالت عاد لهود عليه السلام: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وقد «أخذ بعض أهل العلم من هذه

(١) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٧٥.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٦٤.
(٣) التفسير القيم، ابن القيم ص٤٦٣.

الآيات الكريمات منع التقليد الأعمى»[1].

وجاء هذا المعنى في وصف رسالة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم على لسان أبي سفيان بن حرب في سؤال هرقل له، فيما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال هرقل: (فماذا يأمركم به؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا)[2].

وتلك هي الآفة التي تسلطت على عقول كثير من ذي العقول فأفسدتها، وأضلتها عن سواء السبيل، وهذا من شأنه أن يدعو الإنسان إلى طلب التحرر من موروثات الآباء والأجداد، وأن يعيد بناء عقله -متى بلغ الرشد- على البحث والنظر، فما رآه صالحًا قبله، وما وجده فاسدًا دفعه وتخلى عنه.

ثانيًا: تزيين الشيطان الأعمال السيئة لهم:

قال تعالى محذرًا عباده من الشيطان وعداوته: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الزخرف: ٦٢].

«يقول جل ثناؤه: ولا يعدلنكم الشيطان عن طاعتي فيما آمركم وأنهاكم، فتخالفوه إلى غيره، وتجوروا عن الصراط المستقيم فتضلوا، إن الشيطان لكم عدوٌّ يدعوكم إلى ما فيه هلاككم، ويصدكم عن قصد السبيل؛ ليوردكم المهالك، مبينٌ قد أبان لكم عداوته، بامتناعه من السجود لأبيكم آدم، وإدلائه بالغرور حتى أخرجه من الجنة حسدًا وبغيًا»[3].

قال سيد قطب رحمه الله: «والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم، ومنذ المعركة الأولى في الجنة، وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدوًا يقف له بالمرصاد، عن عمد وقصد، وسابق إنذار وإصرار، ثم لا يأخذ حذره، ثم يزيد فيصبح تابعًا لهذا العدو الصريح!

وقد أقام الإسلام الإنسان في هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طوال حياته على هذه الأرض، ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر ما لا يخطر كذلك على قلب بشر؛ وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة التي تجعل من الإنسان إنسانًا، وتجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطبائع والطباع! والتي تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٤٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام والنبوة، ٤/ ٤٥، رقم ٢٩٤١.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٣٥.

عدوه الشيطان، فينتصر على الشر والخبث والرجس، ويثبت في الأرض قوائم الخير والنصح والطهر»[1].

وجعل الله للمعرض عن ذكره شيطانًا قرينًا يغويه جزاء على إعراضه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

أي: «وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله، عن سبيل الحق، فيزينون لهم الضلالة، ويكرهون إليهم الإيمان بالله، والعمل بطاعته ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يقول: ويظن المشركون بالله بتحسين الشياطين لهم ما هم عليه من الضلالة، أنهم على الحق والصواب»[2].

وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين، أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ثم لا يدعه يفيق، أو يتبين الضلال فيثوب، إنما يوهمه أنه سائر في الطريق القاصد القويم! حتى يصطدم بالمصير الأليم.

ومن صور تزيين الشيطان: الأعمال السيئة:

- تحسينه للأعمال القبيحة التي قامت بها الأمم الهالكة؛ حتى أعجبوا بها.

قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

فقد كانت لهؤلاء: «عقول، وكانت أمامهم دلائل الهدى، ولكن الشيطان استهواهم، وزين لهم أعمالهم، وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع»[3].

- وتحسينه لقوة قريش في نفسها؛ حتى خرجت بطرًا ورياءً؛ ليمنعوا الناس عن الدخول في دين الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

قال البغوي رحمه الله: «نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدرٍ، ولهم بغيٌ وفخرٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم هذه قريشٌ قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك، وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني). قالوا: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريشٍ: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم فقد نجاها

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦٠٥.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣٥.

الله فارجعوا، فقال أبو جهلٍ: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا -وكان موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوقٌ كل عامٍ- فنقيم ثلاثًا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فوافوها، فسقوا كئوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأمرهم بإخلاص النية، والحسبة في نصر دينه، ومؤازرة نبيه صلى الله عليه وسلم»[1].

وقال صاحب المنار رحمه الله: «امتثلوا ما أمرتم به من الفضائل، وانتهوا عما نهيتم من الرذائل، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة وغيرها من الأماكن التي استنفرهم منها أبو سفيان بطرين بما أوتوا من قوةٍ ونعمٍ لم يستحقوها، أو كفروا نعمة الله -مرائين للناس بها؛ ليعجبوا بهم، ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة والمنعة، ويصدون عن سبيل الله، أي: والحال أنهم يصدون بخروجهم عن سبيل الله -وهو الإسلام- بحمل الناس على عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم، والإعراض عن تبليغ دعوته، وتعذيب من أجابها إذا لم يكن له من يمنعهم ويحميهم من قرابةٍ، أو حلفٍ أو جوارٍ، والله بما يعملون محيطٌ، علمًا وسلطانًا، فهو يجازيهم عليه في الدنيا والآخرة بمقتضى سنته في ترتيب الجزاء على صفات النفس»[2].

إن ورثة الأنبياء عندما يخرجون للقتال في سبيل الله يخرجون لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

يخرجون لحماية حرمات الناس لا لانتهاكها، ولحماية كراماتهم لا لإذلالهم، ولحماية حرياتهم لا لاستعبادهم.

يخرجون لا للتبطر بنعمة القوة باستخدامها ضد الناس، بل يستخدمونها في حماية الناس، وصون حياتهم.

يخرجون متجردين من حظوظ أنفسهم، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد، وفي إقامة منهجه في الحياة، وفي إعلاء كلمته في الأرض، وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه.

ثالثًا: النفاق والتظاهر بالإيمان لحماية مصالحهم:

أخبر سبحانه وتعالى أن المنافقين هم العدو الحقيقي للمسلمين، وحذر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين منهم، فقال:

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٦٦.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٢٥.

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

قال ابن القيم رحمه الله: «هذا اللفظ يقتضي الحصر؛ أي: لا عدو إلا هم؛ ولكن لم يرد هاهنا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم -بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا، وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم- أنهم ليسوا بأعدائهم؛ بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة، وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم، المعاشرين لهم، وهم في الباطن على خلاف دينهم -أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة، وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساء، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر؛ فلهذا قيل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

لا على معنى: أنه لا عدو لكم سواهم؛ بل على معنى: أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين»[(١)].

وقال تعالى عن إعراضهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجلٍ من الأنصار، ورجلٍ من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمدٌ، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف، وقيل: في جماعةٍ من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامةٌ لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ها هنا.

ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي: يعرضون عنك إعراضًا كالمستكبرين عن ذلك[(٢)].

والحامل لهم على هذا الصدود هو اتباع شهواتهم، وألفتهم للباطل[(٣)].

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «يا سبحان الله! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ١/ ٥٩٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٤٦.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ١٨٥.

نفسه! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري، وإلا ما كان نفاقًا.

إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به، وإلى من آمن به، فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه، ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية، فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية، ويكشف عن النفاق، وينبيء عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله سبحانه أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله، ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله، بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودًا!»[1].

وقال تعالى عن المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم التي أقسموها سترة ووقاية لهم من المؤاخذة والعذاب، ومنعوا أنفسهم، ومنعوا الناس عن طريق الله المستقيم: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[المنافقون: ٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[المجادلة: ١٤-١٦].

«أي: جعلوا تصديقهم جنةً من القتل، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل، ولم تؤمن قلوبهم، فمنعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط، وتهوين أمر المسلمين، وتضعيف شوكتهم، وقيل: المعنى: فصدوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام»[2].

ويوحي قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾[المنافقون: ٢].

بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم، أو عرف عنهم كيد أو تدبير، أو نقلت عنهم مقالة سوء في المسلمين، كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها؛ ليواصلوا كيدهم، ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم.

رابعًا: الشهوات من المطاعم والمشارب:

قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ٩].

عن مجاهدٍ رحمه الله قال: «أبو سفيان بن حربٍ أطعم حلفاءه، وترك حلفاء محمدٍ

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٤.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٣٠.

صلى الله عليه وسلم»[1].

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «روي أن أبا سفيان لما أراد حمل قريشٍ وحلفائها على نقض عهد الحديبية صنع لهم طعامًا استمالهم به، فأجابوه إليه، فهو المراد بالثمن القليل»[2].

وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[النساء: ١٦٠].

أي: «فبسبب ظلمٍ عظيمٍ حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، لا بسبب شيء آخر، كما زعموا أنها كانت محرمةً على من قبلهم، والطيبات المذكورة هي ما نصه الله سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وبصدهم أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهو اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وتحريفهم، وقتلهم الأنبياء، وما صدر منهم من الذنوب المعروفة، وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ مفعولٌ للفعل المذكور، أي: بصدهم ناسًا كثيرًا، أو صفة مصدر محذوف، أي: صدًا كثيرًا»[3].

خامسًا: كراهية الموت والتشبث بالحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

أي: «الذين يختارون الحياة الدنيا ومتاعها، ومعاصي الله فيها على طاعة الله، وما يقربهم إلى رضاه، من الأعمال النافعة في الآخرة، ويمنعون من أراد الإيمان بالله، واتباع رسوله على ما جاء به من عند الله من الإيمان به واتباعه»[4].

يقول سيد قطب رحمه الله: «فأما الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة فلا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض، ومن الكسب الحرام، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم، لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله، وفي ظل الاستقامة على هداه، ومن ثم يصدون عن سبيل الله، يصدون أنفسهم ويصدون الناس، ويبغونها عوجًا لا استقامة فيها ولا عدالة، وحين يفلحون في صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها، فعندئذٍ فقط يملكون أن يظلموا، وأن يطغوا، وأن يغشوا، وأن

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٦٠.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٦٨.
(٣) فتح القدير ١/ ٦١٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥٩١.

يخدعوا، وأن يغروا الناس بالفساد، فيتم لهم الحصول على ما يبغونه من الاستئثار بخيرات الأرض، والكسب الحرام، والمتاع المرذول، والكبرياء في الأرض، وتعبيد الناس بلا مقاومة ولا استنكار.

إن منهج الإيمان ضمانة للحياة، وضمانة للأحياء من أثرة الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، واستئثارهم بخيرات هذه الحياة»[1].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٨٧.

مظاهر الصد عن سبيل الله تعالى

بين القرآن الكريم مظاهر الصد عن سبيل الله تعالى، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: التشكيك بالنبوات:

قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام ناصحًا قومه: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٨٦].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون من أتى عليهم أن شعيبًا عليه السلام كذابٌ، فلا يفتنكم عن دينكم»[2].

فنهاهم شعيب عن ثلاثة أمور:

١. قطع الطريق على المارة لأخذ الأموال.
٢. والصد عن دين الله.
٣. وطلب جعل سبيل الله المستقيمة معوجة مائلة بالأكاذيب والضلالات، وتشويه الحقائق، والشبهات والشكوك الملقاة منكم.

والمراد من الآية أن شعيبًا منع القوم من أن يمنعوا الناس من قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاث[3].

ولقد زعم المشركون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس أهلًا لإنزال هذا

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣١٣.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ٢٩٤.

القرآن عليه، لقلة ماله، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

أي: «من إحدى القريتين، وهما مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ يعنون بعظمه كثرة ماله وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وعظيم مكة الذي يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعبٍ، وفي مرة بن كعبٍ يجتمع نسبه بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد منافٍ، وعظيم الطائف هو عروة بن مسعودٍ، وقيل: حبيب بن عمرو بن عميرٍ، وقيل: هو كنانة بن عبد ياليل، وقيل غير ذلك، وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]»[1].

هكذا أهل السوء والضلال يحرصون دائمًا على أن يكون الناس جميعًا على شاكلتهم؛ حتى لا يظهر سوؤهم، ولا ينكشف ضلالهم، وهكذا الشر دائمًا موكل بالخير، يريد أن يشوه معالمه، ويفسد طبيعته؛ ليتوازى معه على كفتي ميزان.

ولكن الله بالغ أمره، فما كان قائمًا على الشر والفساد، مستنبتًا في منابت الضلال، فلا بقاء له، وما كان قائمًا على الحق والخير، مغروسًا في مغارس الهدى والنور، فهو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ثانيًا: السخرية بأهل الإيمان:

قال تعالى في ذم صفات المنافقين أنهم يسخرون من أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

روى البخاري بسنده عن أبي مسعودٍ رضي الله عنه قال: (لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجلٌ فتصدق بشيءٍ كثيرٍ، فقالوا: مرائي، وجاء رجلٌ فتصدق بصاعٍ، فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾[2].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، ٢/ ١٠٩، رقم ١٤١٥.

قال السعدي رحمه الله: «جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير:

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالًا يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ١٩].

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفرًا بالله تعالى، وبغضًا للدين.

ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير فإنه الذي ينبغي إعانته، وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالًا كثيرًا بأنه مراء غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي شر أكبر من هذا؟!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: «الله غني عن صدقة هذا» كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله -وإن كان غنيًا عنهم- فهم فقراء إليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧].

وفي هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بين؛ ولهذا كان جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم»[(١)].

ثالثًا: منع إقامة الشعائر:

قال تعالى في ذكر السبب الموجب لعذاب المشركين: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٣٤].

«أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، أي: الذي بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه، والطواف به»[(٢)].

«فقد كانوا يؤذون من طاف أو صلى فيه منهم إذا لم يكن له منهم أو من غيرهم من الأقوياء من يمنعه ويحميه، وقد وضعوا على ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم فرث الجزور وهو ساجدٌ، فلم يتجرأ أحدٌ على رميه عنه إلا بنته فاطمة رضي الله عنها، ومنعوا أبا بكرٍ من الصلاة، وقراءة القرآن فيه، فبنى لنفسه مسجدًا كان يصلي فيه، ويجهر بالقرآن، فصدوه عن الصلاة فيه أيضًا؛ لأن النساء والأولاد كانوا يجتمعون لسماع قراءته المؤثرة، فخافوا عليهم أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٤٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٥.

يهتدوا إلى الإسلام»[1].

قال ابن عاشور رحمه الله: «كان الصد عن المسجد الحرام جريمةً عظيمةً يستحق فاعلوه عذاب الدنيا قبيل عذاب الآخرة؛ لأنه يؤول إلى الصد عن التوحيد؛ لأن ذلك المسجد بناه مؤسسه ليكون علمًا على توحيد الله، ومأوًى للموحدين، فصدهم المسلمين عنه لأنهم آمنوا بإلهٍ واحدٍ، صرفٌ له عن كونه علمًا على التوحيد»[2].

رابعًا: منع الهجرة:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[البقرة: ٢٠٧].

روى ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن المسيب، (أن صهيبًا أقبل مهاجرًا نحو النبي صلى الله عليه وسلم، فتبعه نفرٌ من قريش مشركون، فنزل وانتثل[3] كنانته، فقال: يا معشر قريشٍ، قد علمتم أني أرماكم رجلًا بسهمٍ، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرميكم بكل سهمٍ في كنانتي، ثم أضربكم بسيفي، ما بقي في يدي منه شيءٌ، ثم شأنكم بعد، وقال: إن شئتم دللتكم على مالي بمكة، وتخلون سبيلي؟ قالوا: فدلنا على مالك بمكة ونخلي عنك، فتعاهدوا على ذلك، فدلهم، وأنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

فلما رأى رسول الله صهيبًا، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ربح البيع يا أبا يحيى، ربح البيع يا أبا يحيى، ربح البيع يا أبا يحيى)[4].

وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره رواية أخرى عن أبي عثمان النهدي، عن صهيبٍ، قال: (لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت لي قريشٌ: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك، والله لا يكون ذلك أبدًا، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي، فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (ربح صهيبٌ، ربح صهيبٌ) مرتين[5].

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٥٤٦.
(٢) التحرير والتنوير ٩/ ٣٣٦.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٣٦٩، رقم ١٩٤٠.
والمرفوع منه أخرجه أيضًا الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٣١، رقم ٧٢٩٦، والحاكم في المستدرك ٣/ ٤٥٢، رقم ٥٧٠٦.

(٤) نثل: يقال: نثلت كنانتي نثلاً إذا استخرجت ما فيها من النبل.
انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص ٨٥٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٢١.
وأخرج نحوه ابن حبان في صحيحه،

قال ابن عاشور رحمه الله: «والذي لا يشح بنفسه في نصرة الحق ينبيء خلقه عن إيثار الحق، والخير على الباطل والفساد»[1].

قال صاحب التفسير المنير حفظه الله: «دل التعبير القرآني الموجز: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

على حقيقة ثابتة، وهي أن وجود فئة المخلصين بين الناس رحمة عامة للعباد، لا خاصة بهم، فكثيرًا ما ينتفع الناس بعمل المصلحين من دونهم؛ إذ تظهر ثمرات إصلاحهم من بعدهم، وعلى من يبذل نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى في نفع عباده ألا يتهور ويلقي بنفسه في التهلكة، بل عليه أن يكون حكيمًا يقدر الأمور بقدرها؛ إذ ليس المقصود بهذا الشراء: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١].

إهانة النفس ولا إذلالها، وإنما المراد دفع الشر، وفعل الخير العام، رأفة بالعباد، وإيثارًا للمصلحة العامة»[2].

وقال تعالى في ذم المشركين الذين منعوا المسلمين من الهجرة في سبيل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

«وذلك بالمنع من الهجرة والجهاد؛ لأنهم كانوا يأبون ذلك»[3].

وقال الخازن رحمه الله: «أي: بالمنع من الهجرة والجهاد والإسلام»[4].

خامسًا: التخويف من الجهاد:

قال تعالى في ذم صفات المنافقين أنهم يخوفون المؤمنين من الجهاد في سبيل الله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢].

عن قتادة رحمه الله: «عن الجهاد والغزو في سبيل الله»[5].

وقال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم استنفرهم إلى غزوة تبوك في حرٍ شديدٍ، فقال المنافقون بعضهم لبعضٍ: لا تنفروا في الحر، فقال الله لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: قل لهم يا محمد: نار جهنم التي

١٥/ ٥٥٧، رقم ٧٠٨٢، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة ص١٦٦.

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٢٧٤.

(٢) التفسير المنير ٢/ ٢٣١.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢١٦.

(٤) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٥٣.

(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢٠.

أعدها الله لمن خالف أمره، وعصى رسوله، أشد حرًا من هذا الحر الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه، يقول: الذي هو أشد حرًا أحرى أن يحذر ويتقى من الذي هو أقلهما أذًى[1].

لقد قام المنافقون بصرف الناس عن الجهاد، وخوفوهم بعد الشقة، وحذروهم بأس الروم.

قال سيد قطب رحمه الله: «وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال.

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، وطراوة الإرادة، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات، ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك؛ لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف، والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال»[2].

سادسًا: النهي عن الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى في ذم صفات المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون: ٥-٧].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «لا تطعموا محمدًا وأصحابه؛ حتى تصيبهم مجاعةٌ، فيتركوا نبيهم»[3].

فهم يصدون عن سبيل الله بالأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف.

قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[التوبة: ٦٧].

«ومن المعروف الذي ينهون عنه الجهاد، وبذل المال في سبيل الله للقتال وغير القتال»[4].

قوله تعالى على لسان المنافقين:

(١) المصدر السابق ١١/ ٦٠٣.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٥٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦٦٠.
(٤) المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٦٠.

﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ قولة تجلى فيها خبث الطبع، وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان؛ ذلك أنهم لخسة مشاعرهم، يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة، كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين، إنها خطة قريش، وهي تقاطع بني هاشم في الشعب؛ لينفضوا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسلموه للمشركين، وهي خطة المنافقين -كما تحكيها هذه الآية- لينفض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه تحت وطأة الضيق والجوع.

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين؛ ليموتوا جوعًا، أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة.

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله، وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع، ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق.

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان من قديم الزمان إلى هذا الزمان، ناسين الحقيقة اليسيرة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون: ٧].

ومن خزائن الله في السموات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم، فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين!»[(١)].

وما الحصار المفروض على فلسطين -وكذلك على البلاد المسلمة الفقيرة- إلا تنفيذٌ وتحقيقٌ لهذه الوسيلة الخسيسة، والتي يراد بها تركيع المؤمنين المجاهدين، وصرف الشعب الفلسطيني عن التعاون مع المجاهدين، وتثبيطهم عن مجالدة العدو الصهيوني.

سابعًا: الصد عن المساجد:

قال تعالى في ذم صفات المنافقين والتي استخدموها في صد الناس عن طريق الحق: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[التوبة: ١٠٧].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «هم أناسٌ من الأنصار ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامرٍ: ابنوا مسجدكم، واستعدوا بما استطعتم من قوةٍ ومن سلاحٍ، فإني ذاهبٌ

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٧٩.

إلى قيصر ملك الروم فآتي بجندٍ من الروم، فأخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله فيه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[التوبة: ١٠٩]»[(١)].

«هذا المسجد -مسجد الضرار- الذي اتخذ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مكيدة للإسلام والمسلمين، لا يراد به إلا الإضرار بالمسلمين، وإلا الكفر بالله، وإلا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة، الكائدين لها في الظلام، وإلا التعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين».

هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين تتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام، وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها؛ لتتترس وراءها، وهي ترمي هذا الدين! وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق! وتتخذ في صور شتى كثيرة.

ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها، وبيان حقيقتها للناس، وما تخفيه وراءها، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٦٧٥.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧١١.

علاج القرآن للصد عن سبيل الله

أرشد القرآن الكريم إلى كيفية علاج الصد عن سبيل الله تعالى، وسوف نتناوله بالبيان فيما يأتي:

أولًا: دحض شبه الصادين عن سبيل الله:

قال تعالى في دحض شبهة المشركين التي عيروا بها المؤمنين في قتلهم ابن الحضرمي في الأشهر الحرم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا﴾[البقرة: ٢١٧].

روى الطبراني بسنده عن جندب بن عبد الله: (عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه بعث رهطًا، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة، فلما ذهب لينطلق بكى صبابة[1] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس فبعث عليهم عبد الله بن جحش مكانه، وكتب له كتابًا، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: (لا تكرهن أحدًا من أصحابك على المسير معك). فلما قرأ الكتاب استرجع، ثم قال: سمعٌ وطاعةٌ لله ورسوله، فخبرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان، ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجبٍ أو جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية، فقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزرًا فليس لهم أجرٌ، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٨][2].

قال السعدي رحمه الله: «الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا، وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ؛ لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة لعموم الأمر بالقتال مطلقًا؛ ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم بل أكبر مزاياها تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو في قتال الابتداء، وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم

(١) الصبابة: بالفتح رقة الشوق وحرارته، والصبابة بالضم بقية الماء في الإناء. انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٧٢.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب ما جاء في نسخ العفو عن المشركين، ونسخ النهي عن القتال حتى يقاتلوا، والنهي عن القتال في الشهر الحرام ٩/ ٢٠، رقم ١٧٧٤٥، والطبراني في المعجم الكبير، ٢/ ١٦٢، رقم ١٦٧٠.

كما يجوز في البلد الحرام».

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل لسرية عبد الله بن جحش، وقتلهم عمرو بن الحضرمي، وأخذهم أمواله، وكان ذلك -على ما قيل- في شهر رجب عيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم، وكانوا في تعييرهم ظالمين؛ إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، والتي منها:

- صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله، وفتنتهم من آمن به، وسعيهم في ردهم عن دينهم، وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام، والبلد الحرام الذي هو بمجرده كافٍ في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام؟!
- إخراج أهل المسجد الحرام وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ لأنهم أحق به من المشركين، وهم عماره على الحقيقة، فأخرجوهم منه ولم يمكنوهم من الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد، فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة، في تعييرهم المؤمنين[1].

وقال سيد قطب في وصف هؤلاء -وأمثالهم في كل جيل-: «هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون، لا يقيمون للمقدسات وزنًا، ولا يتحرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة، يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين، ويؤذونهم أشد الإيذاء، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام! ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات، ويرفعون أصواتهم: انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام! فكيف يواجههم الإسلام؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة؟

إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح، ولا يتورعون عن سلاح! كلا إن الإسلام لا يصنع هذا؛ لأنه يريد مواجهة الواقع لدفعه ورفعه، يريد أن يزيل البغي والشر، وأن يقلم أظافر الباطل والضلال، ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة، ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة، وهم في مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة!

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٧.

الحرمات، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان!»[1].

إن هؤلاء الذين حكى عنهم القرآن نراهم بأعيننا صباحًا ومساءً في وسائل الإعلام المأجورة لمحاربة كل ما هو إسلامي، يسلطون الضوء على بعض الأخطاء من المسلمين، ويغمضون أعينهم عن صدهم عن سبيل الله بكل وسيلة خسيسة.

ألا فليتعظ هؤلاء مما فعل بأسلافهم، فإنهم ليسوا بمنأى من عقاب الله، وليطمئن المؤمنون المخلصون إلى وعد الله لهم بالنصر، ووعيد الله للمجرمين بالعذاب المهين.

ثانيًا: التحذير من مكائد الشيطان وتزيينه:

أخبر سبحانه في كتابه أن الشيطان توعد بني آدم بتزيين المعاصي والشهوات لهم وإضلالهم عن الطريق المستقيم، قال تعالى على لسان الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

أي: «بسبب ما أغويتني وأضللتني لأزينن لذرية آدم عليه السلام في الأرض، أي: أحبب إليهم المعاصي، وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إليها إزعاجًا، ولأغوينهم أجمعين، أي: كما أغويتني وقدرت علي ذلك ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]»[2].

وقال تعالى محذرًا المؤمنين من وساوس الشيطان وعداوته: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢].

أي: لا تغتروا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين، فإن شرائع الأنبياء لم تختلف في التوحيد، ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنةٍ أو نارٍ[3]، إن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة من عهد أبيكم آدم عليه السلام.

لقد حدد الشيطان مكان المعركة وعدته فيها، فمكان المعركة بين الإنسان والشيطان الأرض، وعدته فيها التزيين، تزيين القبيح وتجميله، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه.

ألا فليفطن الناس إلى عدة الشيطان؛ وليحذروا كلما وجدوا في أمر تزيينًا، وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتهاء، فقد يكون

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٥٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٠٧.

الشيطان هناك.

ثم حدد -لعنه الله- الفائزين عليه في هذه المعركة، إنهم المخلصون الذين أخلصهم الله لنفسه، واصطفاهم لطاعته، وأرادهم لجنته.

ثالثًا: التحذير من النفاق وبيان عوراته:

قال تعالى محذرًا عباده المؤمنين في سياق الحديث عن المنافقين ووسائلهم في الصد عن سبيل الله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

«يقول الله جل ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم: هم العدو يا محمد فاحذرهم، فإن ألسنتهم إذا لقوكم معكم، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عينٌ لأعدائكم عليكم»[(١)].

رابعًا: الاستعداد للموت بالإيمان وإحسان العمل:

إن الغافل عن الآخرة وحسابها يسعى في الدنيا سعي الوحوش في البرية، فيصرف نفسه عن الطريق المستقيم الآمن من الهلكة في الدنيا والآخرة؛ وكذلك يصرف غيره؛ لأنه لا يحب الخير لنفسه ولا لغيره، أما إذا تمكن حب الآخرة، من القلب كان حريصًا على كل ما يثقل موازينه في الآخرة، ويرفع درجاته في الجنة، فيفعل الخيرات، ويعاون غيره على فعلها.

ولقد قرن سبحانه بين الصد عن سبيل الله والكفر بالآخرة في مواضع من كتابه؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة أحد، ويستيقن أنه راجع إلى ربه ثم يصد عن سبيل الله، ويحيد عن نهجه وشرعه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٩].

وقد تكررت في الآية الثانية (هم) «واختصت هذه الآية على نظيرها في الأعراف بزيادة ﴿هُمْ﴾ في قوله: ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وهو توكيدٌ يفيد تقوي الحكم؛ لأن المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وتقريره؛ إشعارًا بما يترقبهم من العقاب المناسب»[(٢)].

فإذا آمن العبد بالآخرة، واستيقن أنه راجع إلى ربه، أعد لذلك العمل الصالح المقبول الذي ينجيه بين يدي مولاه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦٥٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٢/ ٣٤.

قال ابن القيم رحمه الله في شروط العمل الصالح المقبول: «قال الفضيل بن عياض رحمه الله: هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا.

فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مرادًا به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم»[1].

خامسًا: بيان عاقبة الصادين عن سبيل الله:

قرن سبحانه بين الصد عن سبيل الله والفساد، فكل صاد عن سبيل الله مفسد في الأرض.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾[النحل: ٨٨].

وأمرنا الله عز وجل أن ننظر لنتأمل عاقبة المفسدين -ومنهم الصادين عن سبيل الله- وما حل بهم من الخزي والنكال، وأيضًا وجه أنظار وعقول المفسدين؛ ليعتبروا بما حدث للمفسدين من الأمم السابقة؛ حتى يكون رادعًا لهم عن العصيان والفساد.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[النمل: ١٤].

ومن سنة الأنبياء: بيان عاقبة المفسدين، قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام ناصحًا قومه من عاقبة الفساد، ومنه الصد عن سبيل الله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

أي: «وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عتوا على ربهم، وعصوا رسله من المثلات والنقمات، وكيف وجدوا عقبى عصيانهم إياه، ألم يهلك بعضهم غرقًا بالطوفان، وبعضهم رجمًا بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟»[2]؛ «لأنهم إذا عرفوا أن عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الخزي والنكال احترزوا عن الفساد

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٨٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣١٦.

والعصيان وأطاعوا»[1].

و«المراد بالمفسدين الذين أفسدوا أنفسهم بعقيدة الشرك، وبأعمال الضلال، وأفسدوا المجتمع بمخالفة الشرائع، وأفسدوا الناس بإمدادهم بالضلال، وصدهم عن الهدى»[2].

وبعد أن بين لهم شعيب عاقبة الصادين المفسدين هل ارتدعوا؟

يحكي لنا القرآن العذاب الذي وقع بقوم شعيب؛ لإعراضهم عن دعوته، وتكذيبهم لرسالته، وصدهم من آمن منهم عن طريقه ومنهجه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابةٌ أظلتهم فيها شررٌ من نارٍ ولهب، ووهج عظيمٍ، ثم جاءتهم صيحةٌ من السماء، ورجفةٌ من الأرض شديدةٌ من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد»[3].

فهؤلاء الصادون عن سبيل الله هلكوا ولم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء، ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء، وذهبوا غير مأسوف عليهم، فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه، وهو مؤمن بربه، وهم به كافرون! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه!

فما أكثر هؤلاء الذين حكى عنهم القرآن في هذا العصر، وننتظر من الله عز وجل المنتقم -بعد الأخذ بأسباب التدافع- أن ينزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، ونحن من ذلك على يقين.

فعلى الدعاة والمصلحين الاستنان بسنة الأنبياء في بيان ما حل بالمفسدين -ومنهم الصادين عن سبيل الله- من الخزي والنكال والهلاك والدمار؛ لعلهم يرتدعون خوفًا مما حل بمن سبقهم، أو يطيعون ربهم ويعودون إليه تائبين.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٢٤٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٤٩.

جزاء الصد عن سبيل الله وآثاره

أوضح القرآن الكريم من خلال آياته جزاء الصادين عن سبيل الله تعالى في الدنيا والآخرة، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الجزاء الدنيوي:

استحق الصادون عن سبيل الله العذاب، كما حكى الله عنهم في القرآن الكريم، ووصف العذاب بأكثر من وصف، فمرة بالأليم، وأخرى بالعظيم، وثالثة بالمهين، وغيرها من العذاب المضاعف:

ففي العذاب الأليم: قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[الأنفال: ٣٤].

وهذا تسجيل للعذاب العام عليهم، وهو عذاب عاجل في الدنيا، وينتظرهم العذاب الآجل يوم القيامة.

وفي العذاب العظيم: قال تعالى: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النحل: ٩٤] أي: كبير شديد، ونكر لإفادة أنه عظيم أبلغ العظم، لا يعرف مقداره.

وفي العذاب المهين: قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[المجادلة: ١٦] أي: يهينهم ويخزيهم.

وأما مضاعفة العذاب: فذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[النحل: ٨٨].

ثم بين تعالى أن هذا العذاب بعد حشرهم إلى جهنم، قال سبحانه: ﴿لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[الأنفال: ٣٦].

وبين سبحانه أن الذهاب إلى جهنم للتسعير في نارها، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[النساء: ٥٥].

ومن أنواع الجزاء الدنيوي التي حكته الآيات:

١. المصائب والكوارث.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النحل: ٩٤].

السوء: ما يسوءهم من قتلٍ، ونهبٍ، وأسرٍ، وجلاءٍ، وغير ذلك مما يسوء[(١)].

وأيضًا السوء: ما يؤلم، والمراد به: ذوق السوء في الدنيا من معاملتهم معاملة الناكثين عن الدين، أو الخائنين عهودهم[(٢)].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٥٩١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٦٩.

قال ابن كثير رحمه الله: «حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلًا، أي: خديعةً ومكرًا لئلا تزل قدمٌ بعد ثبوتها، مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده، ثم غدر به لم يبق له وثوقٌ بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام»[1].

«واتخاذ الأيمان غشًا وخداعًا يزعزع العقيدة في الضمير، ويشوه صورتها في ضمائر الآخرين، فالذي يقسم وهو يعلم أنه خادع في قسمه، لا يمكن أن تثبت له عقيدة، ولا أن تثبت له قدم على صراطها، وهو في الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل، ومن ثم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيئ الذي يضربه للمؤمنين بالله.

ولقد دخلت في الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم، ومن صدقهم في وعدهم، ومن إخلاصهم في أيمانهم، ومن نظافتهم في معاملاتهم، فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التي نشأت عن تمسكهم بعهودهم.

ولقد ترك القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين أثرًا قويًا، وطابعًا عامًا في هذه الناحية ظل هو طابع التعامل الإسلامي الفردي والدولي المتميز»[2].

روى الترمذي بسنده عن سليم بن عامرٍ، قال: (كان بين معاوية وبين أهل الروم عهدٌ، وكان يسير في بلادهم، حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم، فإذا رجلٌ على دابةٍ أو على فرسٍ، وهو يقول: الله أكبر، وفاءٌ لا غدرٌ، وإذا هو عمرو بن عبسة، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من كان بينه وبين قومٍ عهدٌ فلا يحلن عهدًا، ولا يشدنه حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواءٍ) قال: فرجع معاوية بالناس)[3].

وإنما كره عمرو بن عبسة ذلك لأنه إذا هادنهم إلى مدةٍ وهو مقيمٌ في وطنه، فقد صارت مدة مسيره بعد انقضاء المدة المضروبة كالمشروط مع المدة في أن

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥١٥.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٢٢٩، رقم ١٧٠١٥، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه، ٣/ ٨٣، رقم ٢٧٥٩، والترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الغدر، ٣/ ١٩٥، رقم ١٥٨٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ٢٤٦٤.

يغزوهم فيها، فإذا سار إليهم في أيام الهدنة كان إيقاعه قبل الوقت الذي يتوقعونه فعد ذلك عمرٌو غدرًا، وأما إن نقض أهل الهدنة بأن ظهرت منهم خيانةٌ فله أن يسير إليهم على غفلةٍ منهم[1].

٢. الضلال والبعد عن الحق.

قرن سبحانه وتعالى بين الكفر وضلال الأعمال في كتابه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ٨].

وقرن بين الصد عن سبيله وضلال الأعمال، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ١].

قال أبو جعفرٍ رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: الذين جحدوا توحيد الله، وعبدوا غيره، وصدوا من أراد عبادته، والإقرار بوحدانيته، وتصديق نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم عن الذي أراد من الإسلام والإقرار والتصديق جعل الله أعمالهم ضلالًا على غير هدًى وغير رشادٍ؛ لأنها عملت في سبيل الشيطان، وهي على غير استقامةٍ»[2].

وانظر إلى التصوير الفني في الآية كما يصوره سيد قطب رحمه الله قال: «وإضلال الأعمال الذي يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، سواء صدوا هم أم صدوا وصدوا غيرهم، يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها، ولكن هذا المعنى يتمثل في حركة، فإذا بنا نرى هذه الأعمال شاردة ضالة، ونلمح عاقبة هذا الشرود والضلال، فإذا هي الهلاك والضياع، وهي حركة تخلع ظل الحياة على الأعمال، فكأنما هي شخوص حية أضلت وأهلكت، وتعمق المعنى وتلقي ظلاله، ظلال معركة تشرد فيها الأعمال عن القوم، والقوم عن الأعمال حتى تنتهي إلى الضلال والهلاك! وهذه الأعمال التي أضلت ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التي يأملون من ورائها الخير، والتي يبدو على ظاهرها الصلاح، فلا قيمة لعمل صالح من غير إيمان، فهذا الصلاح شكلي لا يعبر عن حقيقة وراءه.

والعبرة بالباعث الذي يصدر عنه العمل لا بشكل العمل، وقد يكون الباعث طيبًا، ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون فلتة عارضة أو نزوة طارئة، لا يتصل بمنهج ثابت واضح في الضمير، متصل بخط سير الحياة العريض، ولا بناموس الوجود الأصيل، فلابد من الإيمان؛ ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها، وتتأثر به في كل انفعالاتها، وحينئذٍ يكون للعمل الصالح معناه، ويكون له هدفه، ويكون له اطراده، وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يربط أجزاء هذا الكون كله في الناموس،

(١) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٦/ ٢٥٦٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٠.

ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة وأثرًا في كيان هذا الوجود، وفي قيامه بدوره، وانتهائه إلى غايته»[1].

٣. التضييق في الطيبات والمباحات.

فبسبب صد اليهود أنفسهم وغيرهم عن دين الله القويم حرم الله عليهم طيبات من المأكل كانت حلالًا لهم.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[النساء: ١٦٠].

قال ابن كثير رحمه الله: «الجميع من الأطعمة كانت حلالًا لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها.

ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرةً في التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]»[2].

٤. إنفاق الأموال هدرًا، وانقلابها حسرة وغلبة.

إنه لمن دواعي الهم والغم أن ينفق الإنسان ماله لهدف من الأهداف، ثم يكون الفشل بضياع المال دون تحقيق الغاية، ومما يزيد الأمر مرارة أن ينقلب هذا الإنفاق حسرة عليهم، ليس ذلك فحسب، بل تكون الهزيمة والغلبة عليهم أيضًا، بالإضافة إلى العذاب الأخروي، وهو الحشر إلى جهنم؛ ليذوقوا العذاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[الأنفال: ٣٦].

عن سعيد بن جبيرٍ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[الأنفال: ٣٦] قال: نزلت في أبي سفيان بن حربٍ استأجر يوم أحدٍ ألفين من الأحابيش[3] من بني كنانة، فقاتل بهم النبي صلى الله عليه وسلم[4].

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين؛ ليتقووا بها على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به؛ ليصدوا المؤمنين

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٦٧.
(٣) الأحابيش: هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشًا، والتحبش: التجمع، وقيل: حالفوا قريشًا تحت جبلٍ يسمى حبشيًا، فسموا بذلك.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٣٣٠.
(٤) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي ص٩٩.

بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله، فسينفقون أموالهم في ذلك (ثم تكون) نفقتهم تلك حسرة، يقول: تصير ندامةً عليهم؛ لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأملون، ويطمعون فيه من إطفاء نور الله، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله؛ لأن الله معلي كلمته، وجاعلٌ كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به وبرسوله إلى جهنم، فيعذبون فيها، فأعظم بها حسرةً وندامةً لمن عاش منهم ومن هلك، أما الحي فحرب ماله[1] وذهب باطلًا في غير دركٍ نفعٍ ورجع مغلوبًا مقهورًا محزونًا مسلوبًا، وأما الهالك تاب فقتل وسلب وعجل به إلى نار الله يخلد فيها، نعوذ بالله من غضبه»[2].

«والكفار في هذا الزمان ينفقون القناطير المقنطرة من الأموال للصد عن الإسلام، وفتنة الضعفاء من العوام، بجهادٍ سلمي، أعم من الجهاد الحربي، وهو الدعوة إلى أديانهم، والتوسل إلى نشرها بتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم، ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم، والمسلمون مواتون، يرسلون أولادهم إليهم ولا يبالون ما يعملون»[3].

«إن المعركة لن تكف، وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة، ولن يتركوا أولياء هذا الدين في أمن، وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية، وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان، ثم لإعلاء راية الله حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت.

والله سبحانه ينذر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله بأنها ستعود عليهم بالحسرة.

إنهم سينفقونها لتضيع في النهاية، وليغلبوا هم، وينتصر الحق في هذه الدنيا، وسيحشرون في الآخرة إلى جهنم، فتتم الحسرة الكبرى.

إن هذا المال الذي ينفق يؤلب الباطل، ويملي له في العدوان فيقابله الحق بالكفاح والجهاد، وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة، وفي هذا الاحتكاك المرير تنكشف الطباع، ويتميز الحق من الباطل، كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل -حتى بين الصفوف التي تقف ابتداء تحت راية الحق قبل التجربة والابتلاء- ويظهر الصامدون الصابرون المثابرون الذين يستحقون نصر الله؛ لأنهم أهل لحمل أماناته، والقيام عليها، وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والمحنة»[4].

٥. كيد الصادين عن سبيل الله في

(١) أي: سلب ماله.
(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ١٧٠.
(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٥٥٠.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٠٧.

خسران وهلاك.

وهذه حقيقة حتمية، قررها رب العالمين بفضله ورحمته للمؤمنين؛ ولولا ذلك لصرف الناس وصدوا عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾[غافر: ٣٧].

و(التباب): الخسران، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وبه فسر مجاهد وقتادة رحمهما الله، وتب فرعون ظاهر؛ لأنه خسر ماله في الصرح وغيره، وخسر ملكه، وخسر نفسه وخلد في جهنم[(١)].

ولتأكيد هذه الحقيقة جاءت أدوات الحصر (ما - إلا) بمعنى: أنه لن يعدو كيد فرعون إلا أن يكون في هلاك وخسارة وضياع، دون تحقيق الهدف والغاية التي أراد من صد المؤمنين عن إيمانهم بربهم ونبيهم موسى عليه السلام.

وهذه الحقيقة الحتمية تسلية وتسرية للمؤمنين العاملين للتمكين للإسلام في واقع الحياة؛ لأن ما يفعله الطغاة والمستبدون لصرفهم عن طريق الإيمان في خسران وضياع، ولن يتحقق لهؤلاء غاية، ولن ترفع لهم راية، طالما وجد المؤمنون المستحقون لنصر الله.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٦٠.

ثانيًا: الجزاء الأخروي:

١. مضاعفة السيئات ومحق الحسنات.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾[النحل: ٨٨].

أي: عذابًا على كفرهم، وعذابًا على صدهم الناس عن اتباع الحق، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[الأنعام: ٢٦].

أي: ينهون الناس عن اتباعه، ويبتعدون هم منه أيضًا، وهذا دليلٌ على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

عن عبد الله رضي الله عنه في قول الله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية أنه قال: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهار تحت العرش، يعذبون ببعضها في الليل، وببعضها في النهار[(٢)].

وقد زيد لهم العذاب؛ لأنهم زادوا على كفرهم صد غيرهم عن الإيمان، فهم في الحقيقة ازدادوا كفرًا على كفرٍ، وأيضًا

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥١٠.

أتباعهم إنما اقتدوا بهم في الكفر، فوجب أن يحصل لهم مثل عقاب أتباعهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[العنكبوت: ١٣].

ولقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري بسنده عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيءٌ)[(١)].

٢. عدم المغفرة لهم إذا ماتوا على الكفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤].

قال السعدي رحمه الله: «هذه الآية والتي في البقرة قوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[البقرة: ٢١٧].

مقيدتان لكل نص مطلق فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَصَدُّوا﴾ الخلق ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل وتزيينه ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لم يتوبوا منه ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لا بشفاعة ولا بغيرها؛ لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة: أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به، والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حيًا متمكنًا من التوبة»[(٢)].

وما تضمنته الآية الكريمة أن من مات على الكفر لن يغفر الله له؛ لأن النار وجبت له بموته على الكفر، جاء موضحًا في آياتٍ أخر من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[البقرة: ١٦١-١٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، ٢/ ٧٠٤، رقم ١٠١٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٠.

فالفرصة متاحة فقط للمغفرة في هذه الدنيا، وباب التوبة يظل مفتوحًا للكافر حتى يغرغر، فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة، فقد ذهبت الفرصة التي لا تعود، روى الترمذي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[1].

٣. العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [المجادلة: ١٦].

قال الرازي رحمه الله: «فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ الحسن: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ بكسر الهمزة، قال ابن جني: هذا على حذف المضاف، أي: اتخذوا ظهار إيمانهم جنةً عن ظهور نفاقهم وكيدهم للمسلمين، أو جنةً عن أن يقتلهم المسلمون، فلما أمنوا من القتل اشتغلوا بصد الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات في القلوب، وتقبيح حال الإسلام.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي: عذاب الآخرة»[2].

وقال الشنقيطي رحمه الله: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جنةً، والأيمان جمع يمينٍ، وهي الحلف، والجنة هي الترس الذي يتقي به المقاتل وقع السلاح، والمعنى: أنهم جعلوا الأيمان الكاذبة، وهي حلفهم للمسلمين إنهم معهم، وإنهم مخلصون في باطن الأمر ترسًا لهم يتقون به الشر الذي ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم، وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الظاهر أنه من (صد) المتعدية، وأن المفعول محذوفٌ، أي: فصدوا غيرهم ممن أطاعهم؛ لأن صدودهم في أنفسهم دل عليه قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد»[3].

فعذاب المهانة جزاء الاستهانة بالأيمان التي اتخذوها على أنفسهم، وجزاء الاستهانة بالمنهج الإلهي وبما جاء به.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

موضوعات ذات صلة:

الابتلاء، الأذى، الإعراض، الباطل، الفتنة، الضلال

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٠/ ٣٠٠، رقم ٦١٦٠، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، ٥/ ٤٣٨، رقم ٣٥٣٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥٣.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٣٨٦، رقم ١٩٠٣.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٤٩٧.

(٣) أضواء البيان ٧/ ٥٥٣.

الصدق

عناصر الموضوع

مفهوم الصدق	٣٩٠
الصدق في الاستعمال القرآني	٣٩١
الألفاظ ذات الصلة	٣٩٢
مكانة الصدق	٣٩٣
حقيقة الصدق وميادينه	٤٠٧
آثار الصدق وثمراته	٤١٤

مفهوم الصدق

أولًا: المعنى اللغوي:

الصدق لغة: أصل الكلمة، الصاد والدال والقاف أصل الكلمة وهي تدل على قوة الشيء في القول وغيره، والصدق: هو خلاف الكذب، وسمي بالصدق لقوته في نفسه، فالصادق يثق بما يقول ويقوى في نفسه؛ لأنه يعلم أنه يتكلم الحق، بعكس الكذب فإنه لا قوة له؛ لأنه باطل، ونفس الكاذب مطربة؛ لأنه يعلم أنه جانب الصواب وترك الحق إلى الباطل، وأصل هذا من قولهم: شيءٌ صدق، أي صلب، ورمح صدق، أي مستو يصيب الهدف من غير أن يخطئه، والصدق هو الكامل من كل شيء، والصدق: مطابقة الحكم للواقع، ومطابقة القول والضمير والمخبر عنه معًا، وصدقني ـ بفتح الصاد والدال المخففة ـ فلان: أي قال لي الصدق، وكل ما ينسب إلى الصلاح والخير يضاف إلى الصدق، لذلك يقال: رجل صدق؛ أي رجل ذو صلاح، وخمار صدق أو ثوب صدق؛ أي ثوب ذو جودة، والصداقة مصدر صدق، أي أنه صدقه المودة والنصيحة.

والصديق: هو الرجل الكثير الصدق، وأطلق هذا اللقب على أبي بكر الصديق؛ لأنه صدق النبي صلى الله عليه وسلم ولم تكن له كبوة في الإسلام[1].

ثانيًا: الصدق اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

قال الماوردي: «الصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، والكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، والصدق والكذب يدخلان الأخبار الماضية، كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلية»[2].

(١) انظر: لسان العرب، ٣/ ٤٢٠-٤٢١، تاج العروس، الزبيدي، ٥/ ٢٦.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص٣٢٢.

الصدق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (صدق) في القرآن الكريم (١٥٥) مرة[١]، يخص موضوع البحث منها (١٣٠) مرة.

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٢	﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس:٥٢]
الفعل المضارع	٣	﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الواقعة:٥٧]
المصدر	١٦	﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠]
اسم الفاعل	٨١	﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم:٥٤] ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ [الحديد:١٨]
الصفة المشبهة	٢	﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء١٠٠-١٠١]
صيغة المبالغة	٦	﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ [يوسف:٤٦]

وجاء الصدق في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: مطابقة الخبر للواقع بحسب اعتقاد المتكلم، والإخبار عن الشيء على ما هو به، نقيض الكذب، ويكون في الأقوال والأفعال والأحوال[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٠٤-٤٠٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الصاد ص٦٩٣-٦٩٦.

(٢) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب، ٢/ ٣١٠-٣١١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكذب:

الكذب لغة:

مادة كذب: الكاف والذال والباء: أصلٌ صحيحٌ يدل على خلاف الصدق[١].

الكذب اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «هو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع؛ سواء بالقول، أو بالإشارة، أو بالسكوت»[٢].

الصلة بين الكذب والصدق:

بينهما علاقة تضاد، فالصدق مطابقة الكلام لواقع الحال، والكذب خلافه.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٦٨، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٢٨.
(٢) التعريفات ص٧٤.

مكانة الصدق

إن الصدق من أعظم الأخلاق التي أمر بها القرآن الكريم، وهذا الخلق العظيم إذا اتصف به إنسان حسنت أخلاقه؛ لأنه من الصفات التي تقوم عليها كثيرٌ من الأخلاق.

والصدق مطلب أساسٌ في حياة المؤمن، وهو رأس الفضائل والأخلاق، وعنوان الصلاح والفضل، أثنى الله عز وجل على من اتصف به، فصار له خلقًا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩].

وبالصدق يتميز أهل النفاق عن أهل الإيمان، وسكان الجنان عن أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلًا إلا أرداه وصرعه، ومن اعتمده سما قدره، وعلت مكانته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته وظهرت حجته، وهو أساس بناء الدين وعمود فسطاط اليقين، ودرجة تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين[(١)].

إن الإسلام جاء بقواعد وأركان، وحث على فضائل الأعمال، وكان يهدف وراء ذلك إلى إعداد مجتمع إسلامي فاضل، يقوم على حسن الخلق والاحترام والتعايش، من خلال إيجاد الفرد المسلم الرباني الذي يلتزم حدود ما أنزل الله على رسوله، ويعطي كل ذي حق حقه، ويسلم الناس من لسانه ويده.

وصدقًا، فقد أحدث الإسلام في بدايته تغييرًا جذريًا للنفوس والعقول، فأنشأ ذلك الجيل، وبحق كان خير أمة أخرجت للناس، حيث إنهم تربوا على مائدة القرآن وبين يدي معلم وصفه أعداؤه قبل أصدقائه بالصادق الأمين، فأنشأ ذلك الجيل الفريد الذي يملأ الأرض عدلًا ونورًا، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[(٢)].

لذلك فنحن في أمس الحاجة إلى التسلح بفضيلة الصدق، ونحن تتجاذبنا التيارات الفكرية الهابطة التي تعمل على انحطاط منظومة القيم والأخلاق والمثل العليا التي جاء بها هذا الدين، ليعيد للإنسان كرامته وإنسانيته، ويغرس فينا القيم الفاضلة والأخلاق الحسنة.

قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم:١].

وهل هناك ظلمة أعظم من ظلمة الكذب والاستبداد والجهل والفساد والرذيلة.

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٢٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٥١٢، رقم ٨٩٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٦٤، رقم ٢٣٤٩.

وبذلك تبرز أهمية الصدق؛ لأنه واحد من أهم الفضائل والقيم التي حث عليها الإسلام أتباعه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩].

وجاء في الحديث الشريف عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا)[1].

ومن أبرز فضائل الصدق:

أولًا: إسناد الصدق إلى الله تعالى:

لقد وصف الله تعالى ذاته القدسية بالصدق في آيات كثيرة، وتمثل ذلك في جانبين رئيسيين:

١. قوله صدق.

فكل ما نزل به الوحي، وأخبر به عن الخالق عز وجل من أمور الدنيا والآخرة هو الصدق الذي لا ريب فيه.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧].

يقول إمام المفسرين في تفسيره «ومن أصدق من الله حديثًا، يعني بذلك: واعلموا حقيقة ما أخبركم من الخبر؛ فإني جامعكم إلى يوم القيامة للجزاء والعرض والحساب والثواب والعقاب يقينًا، فلا تشكوا في صحته، ولا تمتروا في حقيقته، فإن تولي الصدق الذي لا كذب فيه، ووعدي الصدق الذي لا خلف له، ويقول: وأي ناطق أصدق من الله تعالى حديثًا؟ وذلك أن الكاذب إنما يكذب ليجتلب بكذبه إلى نفسه نفعًا أو يدفع به عنها ضرًا، والله تعالى ذكره خالق الضر والنفع فغير جائز ومحال أن يكون منه كذب»[2].

والقرآن الكريم هو كلام الله تعالى ذكره وكل ما جاء في القرآن الكريم هو الحق والصدق، فقد نزل مصدقًا لنفسه ولغيره من الكتب السماوية المنزلة قبله.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

وشهد الله سبحانه وتعالى على صدق كلامه، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: (يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)، ٨/ ٢٥، رقم ٦٠٩٤.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٥/ ٢٢٦-٢٢٧.

﴿قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران:٩٥].

٢. صدقه في الوعد والوعيد.

إن التصديق بوعد الله ووعيده ثابت في الكتاب والسنة النبوية، ومن مستلزمات الإيمان بالله والغيب واليوم الآخر والملائكة والنبيين، وقد أقسم الله تعالى في عدة آيات على تحقيق ما يوعد به الناس.

قال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾ [الذاريات:١-٦].

وأقسم الحق تبارك وتعالى في مطلع سورة المرسلات بأن ما وعد به فهو واقع.

قال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [المرسلات:١-٧].

كما أقسم الحق تبارك وتعالى في مطلع سورة الطور فقال: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾ [الطور:١-٧].

وقد تحقق وعد الله ووعيده في الدنيا في القرون الماضية، فكم من أمة حقق الله لها العز بسبب الطاعة.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

وكم من الأمم أهلكها الله بسبب ذنوبهم.

إن كل ما وعد الله به أنبياءه، وعباده الصالحين، كالنصر على الأعداء والغلبة وغيرها قد تحقق، فقد جاء في شأن رسله قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

وتحقق وعد الله سبحانه وتعالى في نصر المؤمنين يوم بدر، قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:١٠].

ومن أمثلة ذلك: صدق وعده عز وجل بفتح مكة ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧].

ووعد الله بنصر المؤمنين العاملين بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

وتحقق نصره في غزوات ومعارك كثيرة للمؤمنين.

وجاء عن صدق وعده يوم الأحزاب

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢].

وقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر:٧٤].

كما أن وعيد الله تحقق عندما أخذ الظالمين أخذ عزيز مقتدر، إما بالريح العقيم، قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات:٤١].

وإما بالصاعقة كما حدث لقوم ثمود، حيث قال تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات:٤٣-٤٤].

وكذلك أخذ الله قوم فرعون بكفرهم فتم إغراقهم في اليم وهو مليم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر:٤١-٤٢].

وكذلك أخذ الله سبحانه وتعالى سائر الأقوام التي كذبت المرسلين، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام:١٤٦].

ثانيًا: التزام معية الصادقين:

إن الصدق رأس لكل فضيلة، وهو أجمل خلق حميد إذا اتصف به الإنسان يزداد هيبة ووقارًا، وإن الصدق ضرورة لتحقيق النظام، وكل معاني الخير في هذا العالم، فبه تحفظ الحقوق، وتصان النفوس، ويتم النظام ويعيش الناس آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، فهو عنوان الإسلام وميزان الإيمان، وأساس الدين وخصلة حميدة في حق من اتصف بها، وقد أمر الله عباده بلزوم الصدق وصحبة الصادقين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩].

أي: أصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل الله لكم فرجًا في أموركم ومخرجًا[(١)].

وعن عبد الله بن عمر: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقال الضحاك: «مع أبي بكر وعمر وأصحابهما»، وقال الحسن البصري: «إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة غير الصادقة»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٢٣٠.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩].

قال الشوكاني في تفسيرها: «ومن يطع الله والرسول كلام مستأنف لبيان فضل الطاعة لله والرسول، من أولئك المطيعين، فهم مع الذين أنعم الله عليهم بدخول الجنة والوصول إلى ما أعد الله لهم، والصديق المبالغ في الصدق كما تفيده الصيغة، وقيل هم الفضلاء أتباع الأنبياء، والشهداء: من ثبت لهم الشهادة، والصالحين: هم أصل الأعمال الصالحة»[1].

ثم ذيل الآية الكريمة بقوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ هذا هو الرفيق الذي يجب أن تعض عليه بالنواجذ، هذا الرفيق الذي يجب أن تلازمه؛ لأن أثر تعامل المؤمنين الصادقين يأثر تأثيرًا طيبًا من خلال تعلم البعض من البعض خلال الصدق والورع والزهد والاستقامة والتقوى، فإذا المجتمع مجتمع مؤمن، فاحرص أن تكون علاقاتك ومجالسك وندواتك في أفراحك مع المؤمنين الذين صدقوا الله.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة:١١٩].

«أي ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة، ولو كذبوا لختم الله على أفواههم، ونطقت به جوارحهم فافتضحوا»[2].

لقد اقتضت حكمة الله في خلقه أن جعل الإنسان ميالًا بطبعه إلى مخالطة الآخرين ومجالستهم ومصاحبتهم، وهذه الصحبة لها أثرها الفعال في مصير الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، فإن المرء يتأثر بجليسه، ويصطبغ بصبغته فكرًا ومعتقدًا وسلوكًا وعملًا، فقد أخبر الحق تبارك وتعالى عن ندم الظالم يوم القيامة وتأسفه على مصاحبته للمنحرفين؛ لأنهم كانوا سببًا في انحرافه وإضلاله.

قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

يوم القيامة تشتد حسرات الظالم، وتتصاعد زفراته وهو يقول يا ليتني لم أصاحب هذا الذي أضلني عن الذكر، يعني القرآن أو مواعظ الرسول؛ لأنه أوقعه في الضلال، فهو كالشيطان يعده ويمنيه في الدنيا، ما يسبب له الحسرة في الآخرة[3].

وقال عليه السلام: (إنما مثل الجليس

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٧٢.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٢٣.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ١٢/ ٢٥٨.

الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحًا طيبةً، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة)[1].

فأوضح عليه السلام أن الجليس له تأثير على جليسه سلبًا أو إيجابًا بحسب صلاحه وفساده، حيث شبه الجليس الصالح بحامل المسك وهو على أدنى الأحوال أن تجد منه الرائحة الطيبة المؤثرة على نفسك وبدنك وثيابك، أما الجليس السوء فهو إما أن يحرق ثيابك أو تجد منه رائحة منتنة تسبب له غصة وعاهة في رئتيك؛ فيسبب لك الضرر بمجالسته.

وببركة مجالسة الصالحين فإن الله يغفر لهم ولجليسهم وإن لم يكن منهم، حيث جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لله ملائكةً يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: تقول يعني الملائكة يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال فيقول الله: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: فيقول ملكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم إنما جاء لحاجةٍ، وفي لفظ: فيهم فلانٌ عبدٌ خطاءٌ إنما مر فجلس معهم، قال: فيقول: هم الجلساء لا يشقى جليسهم)[2].

فلنحرص على مصاحبة من وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥].

لقد أعد الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الحميدة والمناقب الجليلة التي هي ما بين اعتقادات وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، وما بين أفعال الخير وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، وبالإسلام والإيمان والإحسان، فجزاهم على أعمالهم بالمغفرة من الذنوب والأجر العظيم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا منهم،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، ٤/ ٢٠٢٦، رقم ٢٦٢٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الدعوات باب فضل ذكر الله سبحانه وتعالى، ٨/ ٨٦، رقم ٦٤٠٨.

إنه سميع مجيب الدعاء[1].

ثالثًا: الصدق صفة الأنبياء والصالحين:

١. الصدق صفة الأنبياء.

إن أعظم صفات الرسل الصدق؛ لأنهم المبلغون عن الله وحيه، والمرسلون بشرعه إلى خلقه، وكيف لا يتصفون بالصدق؟ فلزم أن يكون الصدق ملازمًا لهم في الأفعال والأقوال، وهذا ما حكاه الله سبحانه وتعالى عنهم في عدة مواضع من القرآن الكريم، كقوله جل جلاله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

وذكر في حق إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم:٤١].

وأيضًا قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء:٨٣-٨٤].

ووصف الحق سبحانه وتعالى إسماعيل عليه السلام بالصدق في الوعد، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم:٥٤].

وجاء في حق إدريس عليه السلام، قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم:٥٦].

ونزل بشأن إسحق ويعقوب عليهما السلام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم:٤٩-٥٠].

ونزلت آيات توضح صدق يوسف عليه السلام، فقال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف:٤٦].

وآية أخرى يؤيد الله نبيه يوسف بدليل يؤكد على صدقه، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف:٢٧].

ووصفه بالصدق باعتراف امرأة العزيز، حيث جاء حكاية في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

الصدق في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالًا وقدوة في صفة الصدق، وكان معروفًا بالصدق في قومه قبل البعثة، فلقبوه بالصادق الأمين، واشتهر بهذا اللقب وعرف به بين أقرانه، وبعد البعثة المباركة كان تصديق الوحي له مدعاة؛ لأن يطلق عليه أصحابه «الصادق الأمين» وصدق الله عز وجل إذ قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ

(١) انظر: تفسير تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٦٤.

﴿١﴾ [النجم:٢-٤].

وأكبر من هذا كله شهادة رب العالمين على صدقه صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر:٣٣].

والذي جاء بالصدق هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والذي شهد لما جاء به هو الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات، وأيد ذلك ابن عاشور في تفسيره شارحًا لهذه الآية: «الذي جاء بالصدق هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والصدق هو القرآن»[(١)].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائمًا يحث المسلمين على الصدق في أقوالهم وأفعالهم، ويوجه خطابه للمسلمين قائلًا: (اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم)[(٢)].

وكان صلى الله عليه وسلم يغرس في نفوس أصحابه الصدق ويربيهم عليه، وأكبر دليل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك؛ فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة)[(٣)].

صدق رسول الله في الحرب:

لننظر إلى موقفه قبيل غزوة بدر، التي خرجت فيها قريش لتقضي على المسلمين، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ ليتعرفا على أخبار المشركين، فوقفا على شيخ من العرب، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أخبرتنا أخبرناك) قال: ذاك بذاك؟ قال: (نعم)، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نحن من ماء) ثم انصرف عنه، قال يقول الشيخ: من ماءٍ؛ أمن ماء العراق[(٤)].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ٨٦.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٤١٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٣٤، رقم ١٠١٨.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، الباب باب، ٤/ ٦٦٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٣٧، رقم ٣٣٧٨.
(٤) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٦١٥،

صدق رسول الله في الفكاهة:

لقد اتصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدق في كل أفعاله وأقواله، حتى في مزاحه ومفاكهاته صلى الله عليه وسلم، التي يظن البعض أن الكذب فيها مباح، فعن أنس بن مالك، أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فاستحمله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنا حاملوك على ولد ناقة)، قال: يا رسول الله ما أصنع بولد ناقة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وهل تلد الإبل إلا النوق)[1].

فكانت هذه الفكاهة من النبي صلى الله عليه وسلم مع رجل من عامة المسلمين من باب تقارب النفوس، وزيادة المحبة، لكنه صلى الله عليه وسلم كان صادقًا ولم يستعمل إلا الصدق.

٢. الصدق صفة الصالحين.

إن الله تعالى وصف عباده المؤمنين بصفات عديدة وخصال حميدة، ومن أعظمها: صفة الصدق.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩].

وهذا الأمر جاء بعد قصة الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك، وأوضحت الآيات كيف نفعهم صدقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول القرطبي في تفسيره: «هذا الأمر بالكون مع الصادقين حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق، وذهب بهم عن منازل المنافقين، قال مطروف: سمعت مالك بن أنس يقول: قلما كان رجل صادقًا لا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف وقال حق من فهم عن الله وعقل عنه أن يلازم الصدق في الأقوال والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار»[2].

ويقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩]: «أي: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من الصادقين وتنجوا عن المهالك، ويجعل الله لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا»[3].

إن للصدق أثرًا كبيرًا على الصادقين، فظهر منهم العجائب في صدقهم، فأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أصدق الناس إيمانًا وأصدقهم يقينًا، فظهر عليهم الصدق في كل أحوالهم، فهذا أبو بكر

السيرة النبوية، ابن كثير، ٢/ ٣٩٦.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في المزاح، رقم ٤٩٩٨، ٧/ ٣٤٨.
وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، رقم ٢٦٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ١٨٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٥٢٢.

الصديق رضي الله عنه صدق النبي في حادثة الإسراء والمعراج، حيث جاء نفرٌ من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: إن صاحبك يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد في ليلة واحدة، ونحن نضرب أكباد الأبل شهرًا ذهابًا وإيابًا، فقال: أهو قال ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: إن كان قد قال ذلك فقد صدق، إني أصدقه على أعظم من ذلك، إني أصدقه أنه يأتيه خبر السماء، وسمي بالصديق[1].

ووصف الله سبحانه وتعالى الصحابة بالصدق، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر:٨].

وأوضح صلى الله عليه وسلم أن التاجر عندما يتحلى بالصدق يكون ذلك في أسباب الفلاح، والفوز يوم القيامة، حيث جاء عن رفاعة عن أبيه (أن النبي خرج على المصلى فرأى الناس يتبايعون، فقال: يا معشر التجار! فاستجابوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: (إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارًا، إلا من اتقى الله وبر وصدق)[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق، والحياء، وحسن الخلق، والشكر»[3].

فلنصدق الله في إيماننا، ولنصدق الله في إخلاصنا، ولنصدق الله في سائر أعمالنا، فلا منجى من عذاب الله إلا الصدق الذي نلتزم به، ونخالف المنافقين الذين كذبت ألسنتهم وكذبت قلوبهم، فالمؤمن صادق في قوله وفعله وفي تصرفاته.

رابعًا: دعاء الصالحين يجعلهم من الصادقين:

إن لنا الأسوة الحسنة في خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في التضرع إلى الله بطلب الدعاء، حيث جاء حكاية عنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء:٨٣-٨٥].

ويتضمن دعاؤه في هذه الآيات ما يلي:

- طلب الحكمة.

قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي: أعطني معرفة به، بحدودك وأحكامك، علمًا أعرف الحلال والحرام، لأحكم به بين الناس، وامنحني الحكمة التي أعرف بها

(١) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام، ص١٠٢، فقه السيرة، البوطي، ص١٤٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التجارات، باب التوقي في التجارة، ٣/ ٥١٧، رقم ١٢١٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين، ٤/ ٣٨٧.

القيم الصحيحة من القيم الباطلة الزائفة[1].

❁ طلب اللحاق بالصالحين.

قال تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يقولها إبراهيم عليه السلام الأواه الحليم، أي: اجعلني من الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عند الاحتضار: (اللهم في الرفيق الأعلى) قالها ثلاثًا[2].

وهذا هو مطلب وسؤال رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم: (اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين)[3].

إنه الحرص من الأنبياء على اللحاق بالصالحين الصادقين، وبالتوفيق إلى العمل الصالح الذي يلحق صاحبه بركب المخلصين الصالحين الصادقين.

❁ طلب الذكرى الحسنة بعد وفاته.

قال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ يعني: الثناء الحسن بين الناس، والذكر بالخير والقول الطيب والصدق بين الأمم الآتية من بعدي، قال ابن عاشور: «وهذا يتضمن سؤال الدوام والختام على الكمال وطلب نشر الثناء عليه، وهذا ما تتغذى به الروح من بعد موته؛ لأن الثناء عليه يستدعي دعاء الناس له، والصلاة والتسليم جزاء على ما عرفوه من زكاء نفسه»[4].

وقد استجاب الله عز وجل له وحقق دعوته، وجعل له لسان صدق في الآخرين وبعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

❁ طلب جنة النعيم.

قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أي: من السعداء في الآخرة الذين يستحقون ميراث جنات الخلد.

وقد أجاب الله تعالى دعوته، فرفع منزلته، وفي هذا حث للعباد على الجد في الدعاء الذي يحقق الخير في الدنيا والآخرة للمؤمنين المخلصين الصادقين مع الله عز وجل ومع الناس ومع أنفسهم، وجاء في شأن المهاجرين قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر:٨].

إن الصدق فضيلة وصف الله عز وجل بها المهاجرين، عندما خرجوا من ديارهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٣٦٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ١٠٥، التفسير الواضح، ١٩/ ٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ووفاته، ٦/ ١٠، رقم ٤٤٣٧.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤/ ٢٤٧، رقم ١٥٤٩٢.
وصححه الألباني في صحيحه الأدب المفرد، ١/ ٢٤٣، رقم ٦٩٩.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٣١٨.

وأموالهم لنصرة الله ورسوله، فكانوا مخلصين لله، مبتغين مرضاته ورضوانه فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي في إيمانهم وجهادهم[1].

فهم الصادقون أهل الإيمان واليقين والمجاهدة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

إن الصادق مستجاب الدعاء بإذن الله تعالى، وأجره محقق، وإن عجز العبد عن العمل الذي نواه بصدق، حيث جاء عن سهل بن أمامة عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه)[2].

والصادق تحصل له البركة في بيعه وشرائه، حيث أخرج البخاري عن حكيم ابن حزام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما)[3].

خامسًا: الثناء على أهل الصدق ووصفهم بالتقوى ومحبة الله:

وصف الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بصفات عديدة وخصال حميدة، من أعظمها صفة الصدق.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب:٢٣-٢٤].

فهم أهل صدق ووفاء للعهود والمواثيق التي يبرموها مع الآخرين، وقبل ذلك أهل وفاء مع الله في أدائهم للتكاليف والشرائع التي كلفوا بتطبيقها، ولقد حث الإسلام على الوفاء بالعهود والعقود، فالموفون بعهدهم، هم الصادقون الذين يقومون بأداء الواجب.

ويكفي أهل الصدق فضلًا، أن الله جعل لهم الجزاء العظيم بجنات تجري من تحتها الأنهار.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة:١١٩].

فجعل الله سبحانه وتعالى أنه لا ينفع العبد وينجيه من العذاب يوم القيامة إلا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩/ ١٥٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة، ٣/ ١٥١٧، رقم ١٩٠٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع باب ما يمحق الكذب، ٣/ ٥٩، رقم ٢٠٨٢.

صدقه، فهو الذي يحقق رضا الله ويدخل صاحبه الجنة.

بل إن منازل أهل الصدق من أعلى المنازل وأعظمها حتى ظن البعض أنها منازل الأنبياء عليهما السلام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩].

وجاء عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: (اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم)[1].

إن الصدق هو الطريق الأقوى المؤدي إلى رضوان الله تعالى: فمن سلكه كان من الناجين، ومن حاد عنه وانحرف كان من المنقطعين الهالكين، وبين الله سبحانه وتعالى أن المتقين هم الذين صدقوا الله فصدقهم، فدرجتهم تالية لدرجة النبوة، التي هي أرفع الدرجات، وما نال الصادقون هذه الدرجة العالية والإنعام العظيم إلا بطاعتهم لله ورسوله في كل الأوامر والنواهي.

والصدق المساوي للتقوى، هو الصدق في الأقوال، بأن تكون أقواله مساوية للحقيقة والواقع، والصدق في الأعمال والأفعال هو استواء الأفعال على الأمر والنهي لله ولرسوله، والصدق في الأحوال هو استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص لله، حيث جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابًا)[2].

وحكم الله سبحانه وتعالى في ختام آية البر بعد أن ذكر خصاله التي يريدها من المؤمن، أن من فعل هذه الخصال فإنه الصادق والتقي، فقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَۖ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٤١٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٣٤، رقم ١٠١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: (يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)، ٨/ ٢٥، رقم ٦٠٩٤.

﴿ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

إن هذه الآية الكريمة حاويةٌ لجميع الكمالات البشرية تصريحًا أو تلميحًا، ومع كثرة الخصال المذكورة فيها، إلا أننا نستطيع أن نجمعها في خصال ثلاث هي: البر في العقيدة، والبر في الأخلاق، والبر في العمل، وختمت الآية بالإشارة إلى أن من جمع هذه الخصال، هم الذين صدقوا في الدين واتباع الحق، وتحري البر، ثم كرر لفظ الإشارة، للتنويه بشأن من جمع هذه الخصال، فجاء بالضمير (هم) بين اسم الإشارة والمتقين؛ لبيان أن من جمع هذه الخصال تنحصر التقوى فيهم، فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

فالصدق في الإيمان وفي الإسلام، والصدق في الأخلاق، يحقق التقوى لنا على الدوام، ندعو الله أن نكون من الصادقين لننال التقوى، وإذا تحققت التقوى في النفوس، فهي عامل أساس في إيجاد محبة الله؛ لأن الله يحب المتقين الصادقين العاملين بمنهج الله سبحانه وتعالى[1].

قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤].

وقال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

وأوضح الحق تبارك وتعالى أنه يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب المقسطين ويحب المحسنين.

قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٨].

وفضيلة الصدق تجمع هذه الفضائل؛ لأن من اتصف بالصدق، كان من الذين استقاموا، واتقوا، وأحسنوا، وتابوا، وتطهروا، وأقسطوا أي: عدلوا إذا حكموا في أي قضية، إذًا فالصدق يورث محبة ومعية الله تعالى للصادقين؛ فمن أراد أن يكون الله معه ويحبه، فليلزم الصدق في جميع أحواله؛ فإن الله تعالى مع الصادقين، وإن الله تعالى يحب الصادقين المتقين.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٦٤.

حقيقة الصدق وميادينه

إن الصدق خلق عظيم، وهو من أهم أخلاق المسلم وخاصة الداعية إلى الله تعالى وهو أساس يقوم عليه الإسلام العظيم.

يقول ابن القيم رحمه الله: «هو منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه يتميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلًا إلا أراده وصرعه»[(١)].

وكثيرة هي الآيات الآمرة بالتحلي بالصدق والمرغبة فيه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩].

يقول الإمام الألوسي رحمه الله: «وفي الآية ما لا يخفى من مدح الصدق»[(٢)].

ومن الآيات المرغبة بفضيلة الصدق قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد:٢١].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله: «والصادقون هم المعتصمون بالصدق والإخلاص في جهادهم إذا جاهدوا، وفي عهودهم إذا عاهدوا، وفي أقوالهم ووعودهم إذا حدثوا ووعدوا وفي توبتهم إذا أذنبوا أو قصروا»[(٣)].

يتضح من ذلك أن الصدق يدخل في ميادين كثيرة نذكر منها النقاط الآتية:

أولًا: صدق النية والإرادة:

ينبغي على الإنسان حينما يقوم بأي عمل في هذه الحياة، أن يعقد النية مع الله، وأن يكون صادقًا في ابتغاء مرضات الله تبارك وتعالى لكي يكون عمله مقبولًا وله ثماره الطيبة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة:٥].

وأوضح صلى الله عليه وسلم أن الصدق في النية هو الأساس لقبول الأعمال، عن أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[(٤)].

(١) مدارج السالكين، ٢/ ٢٤.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٤/ ٤٣.
(٣) المنار، محمد رشيد رضا، ١١/ ٥٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة،

وهذا الصدق له متعلق بالإخلاص، بمعنى أنه لا يكون له باعث للعمل إلا رضا الله سبحانه وتعالى، وصدق النية يجدد مقاصد المكلفين من أي عمل يقومون به، فإن انحرفت عن هذا المقصد إلى حظ من حظوظ النفس بطل صدق النية، ويرشد إلى ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثةٌ: رجلٌ استشهد أتي به فعرفه نعمة فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت في سبيلك حتى استشهدت، قال: كذبت إنما أردت أن يقال فلانٌ جريء، فقد قيل: فأمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجلٌ تعلم العلم وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وقرأت القرآن وعلمته فيك، قال: كذبت إنما أردت أن يقال فلان عالم وفلان قارئ فقد قيل، فأمر به فسحب على وجهه إلى النار، ورجلٌ أتاه الله من أنواع المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ فقال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيه لك، قال: كذبت إنما أردت أن يقال فلان جوادٌ فقد قيل فأمر فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)[1].

ثانيًا: صدق الظاهر مع الباطن:

إن الصدق يعني مطابقة الظاهر للباطن، والأفعال للأقوال، بحيث توافق الأفعال الأقوال، فيعيش المسلم توافقًا كاملًا في حركاته وسكناته، فلا يبطن غير ما يظهر، ولا يخبر بغير ما وقع، ولا يقول ما لا يفعل، وإذا وافق الظاهر للباطن عند الإنسان، يكون تحلى بأعظم الصفات وأرفع الأخلاق، فيعيش مرتاح الضمير هادئ النفس؛ لأن الكذب يجعل النفس في اضطراب وعدم راحة، وإن المنافق الذي يخالف ظاهره عن باطنه، فيظهر الإيمان ويبطن الكفر، فهذا عين التملق والنفاق، وكذب بين ظاهره وباطنه، وكذلك يدخل في ذلك ذو الوجهين، وهو شر الناس في ميزان الشرع، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه)[2].

ونقل ابن حجر العسقلاني في شرحه عن القرطبي قوله في ذي الوجهين: «إنما كان ذو الوجهين شر الناس؛ لأن حاله حال المنافق، إذ هو متملق بالباطل، وبالكذب، مدخلٌ للفساد بين الناس»، ونقل عن النووي قوله: «هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها، فيظهر

باب إنما الأعمال بالنيات، ٣/ ١٥١٥، رقم ١٥٥.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء، ٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب ما يكره من ثناء السلطان وإذا خرج قال غير ذلك، ٩/ ٧١، رقم ٧١٧٩.

لها أنه منها ومخالف لضدها، وصنيعه نفاق محض وكذب وخداع وتحيل على الاطلاع على أسرار الطائفتين»[1].

فالمسلم صادق الحال لا يظهر خلاف ما يبطنه، ولا يتظاهر بما ليس فيه من التقوى والإخلاص، فهو في سكينة وراحة نفسية، بعكس المنافق الذي يعيش في فزع واضطراب في حياته.

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤].

ثالثًا: الصدق في القول:

الصدق في الأقوال يستوجب من المسلم أن يحفظ لسانه، فلا يتكلم إلا بصدق ولا ينطق إلا الحق، فأحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه، ونهى الله تبارك وتعالى عن مخالفة القول للعمل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٢-٣].

وأمر سبحانه وتعالى بالقول السديد النابع من تحلي المؤمن بتقوى الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ [الأحزاب:٧٠].

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٠/ ٤٧٥.

ونهى الحق تبارك وتعالى عن تتبع الناس في قفاهم لمعرفة أسرارهم ومن ثم إذاعتها بين الناس.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦].

والصدق في القول مطلوب وأوجب في الشهادات والتزكيات ونقل الأخبار، حتى لو كانت الشهادة على النفس أو أقرب المقربين لنا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥].

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن شهادة الزور من أكبر الكبائر، عن أبي بكرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) -ثلاثًا- قلنا: بلى، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس).وكان متكئًا فجلس، وقال: (ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!!)[2].

كما أن على المسلم أن يتحرى الصدق في نقل الأخبار، فيتطلب من الناقل اجتناب الظنون والأوهام، ولا يجوز التعاطي مع الأخبار الكاذبة وترويجها في المجتمع

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، ٣/ ١٧٢، رقم ٢٦٥٤.

المسلم، خوفًا من إحداث الفتن.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات:٦].

فالمسلم إذا أخبر فلا يخبر إلا بما هو مطابق للواقع، فإن الكذب آية المنافق وعلامة له، قال صلى الله عليه وسلم: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[(١)].

أما بالنسبة إلى الكذب فإنه محرم، ويتفاوت في القبح والإثم، وأشنع صوره: الكذب على الله والرسول؛ لأنه افتراء في الدين، وتجرؤ عظيم على الله، ولذلك كان من صفات النبي صلى الله عليه وسلم صفة الصدق في تبليغ ما أمره الله بتبليغه وفي سائر شئون حياته.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٤].

ونظير ذلك الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار)[(٢)].

والأصل في الكذب عدم الجواز، ولكن توجد حالات جاء الشرع بجواز الكذب فيها تحقيقًا للمصلحة العظيمة أو دفعًا للمضرة، فمن تلك الحالات: أن يتوسط إنسان للإصلاح بين فريقين متخاصمين، إذا لم يمكنه أن يصلح إلا بشيء منه؛ لحديث النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيمني خيرًا أو يقول خيرًا)[(٣)].

ومن تلك الحاجات: حديث الرجل لامرأته، في الأمور التي تشد أواصر الوفاق والمودة بينهما وما قد يصاحب ذلك الكلام من المبالغات، كما جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل الكذب إلا في ثلاث يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس)[(٤)].

رابعًا: الصدق في الفعل:

إن الصدق في العمل والالتزام به من أخلاق المؤمنين الصادقين.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ١/ ١٦، رقم ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة، ٢/ ٨٠، رقم ١٢٩١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، ٣/ ١٨٣، رقم ٢٦٩٢.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في إصلاح ذات البين، ٤/ ٣٣١، رقم ١٩٣٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٨٦، رقم ٧٧٢٣.

﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأحزاب:٢٣].

إن الآية صريحة في بيان صدق الأفعال والالتزام الحاصل من الصحابة رضوان الله عليهم في جميع أعمالهم؛ حيث إنهم كانوا يصبغونها بمقتضى العلم الشرعي، وكان لهم الأسوة الحسنة في شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود:٨٨].

وأنكر الله سبحانه وتعالى على من خالف فعله ما عنده من النصوص الشرعية.

قال تعالى: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة:٤٤].

والصدق يكون في إتقان العمل الذي يقوم به المسلم، بأداء الأعمال والحقوق إلى أصحابها كاملة، فلا بخس ولا غش ولا خداع ولا ظلم، بل يؤدي عمله على خير وجه، فيحسن إلى نفسه فلا يلحقه تبعه من عمله، ويحسن إلى الآخرين بتوفيتهم حقوقهم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه)[1].

إن الصدق في الأعمال لا يتحقق إلا بثمن، ولا يصير خلقًا للإنسان إلا بتضحية ومجاهدة شاقة، إنه خلق لا يتحمله إلا المخلصون المتجردون لله تعالى من كل حظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة:٢٠٧].

الصدق في الأفعال يقتضي أن يكون المسلم مطيعًا لربه، ممتثلًا لأوامره، ومجتنبًا لنهيه في السراء والضراء، آخذًا بتعاليم القرآن الكريم، ومقتديًا بسنة رسوله الكريم، وأشار صاحب خلق المسلم فقال: «العمل الصادق هو العمل الذي لا ريبة فيه؛ لأنه وليد اليقين، ولا هوى معه؛ لأنه قرين الإخلاص، ولا عوج عليه؛ لأنه نبع من الحق»[2].

فعلينا بالصدق في القول والعمل؛ ففيه النجاة والفرج من كل كرب مبين، وهذا الباب واسع فهو يشمل كل معاملات الناس وعلاقاتهم، وقد أصل له قول النبي صلى الله عليه وسلم حينما رأى صبرة طعام فأعجبته، وحينما أدخل يده فيها وجد فيها بللًا فنهى صاحب الطعام عن ذلك الغش بأسلوب فيه من الحدة[3].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللًا، فقال:

(١) المعجم الأوسط، ١/ ٢٧٥، رقم ٨٩٧.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي، ص٤٥.

(٣) انظر: من توجيهات الإسلام، ص١٩١.

(ما هذا يا صاحب الطعام) قال: أصابته السماء يا رسول الله! قال: (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس من غش فليس مني)[1].

ويؤخذ من الحديث أن من غش واحدًا من المسلمين يعتبر غاشًا للأمة وللمجتمع، لأن المؤمنين كالجسد الواحد، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات:١١].

فالذي يلمز الناس في أعراضهم كأنما يلمز نفسه؛ لأن المؤمنين أخوة في العقيدة والإيمان، تجمعهم آصرة واحدة في دين الله[2].

خلاصة القول: إن الصدق قيمة أساسية في كل معاملات الناس، بل الدارس لفقه المعاملات يجد أن أي معاملة يغيب فيها الصدق تحظر ولا يعمل بها، لتغييبها لحقوق الناس، ومن هذا الوجه، حرمت جملة من البيوع كالنجش والغرر، وبيع المجهور، وتلقي الركبان وغيرها من البيوع التي تتضمن نوعًا من الخديعة، وفقدان المصداقية.

خامسًا: الصدق في الوعد:

إن الصدق في الوعد وفي العهد من الفضائل الخلقية التي يتحلى بها المؤمنون، ويشترك الوعد والعهد بأن كلًا منهما، إخبار بأمر يجب على المخبر أن يفعله، ويفترقان بأن العهد يزيد على الوعد بالتوثيق الذي يقدمه صاحب العهد، ومن أيمان مؤكدة، ويعاهد كلٌ من الفريقين المتعاهدين صاحبه بما سيفعل.

وأمر الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود والمواثيق في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة:١٧٧].

ثم أوضح أن الإنسان يسأل يوم القيامة عن العهد، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

وهو وصية الله للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢].

ووصف القرآن الكريم الذين يوفون بالعهد بأحسن الصفات، فقال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

ثم أوضح أن محبة الله واقعة في حق المتقين الذين يوفون بالعهود وما أبرموه مع الآخرين، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي من غشنا فلس منا، ١/ ٩٩، رقم ١٠٢.
(٢) انظر: تفسير محاسن التأويل، ٣/ ٤٦٥.

﴿بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾ [آل عمران:٧٦].

وحذر تبارك وتعالى من نقض العهد والميثاق؛ لأنه يؤدي إلى سوء السلوك والأخلاق.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٢٧﴾ [البقرة:٢٧].

وإخلاف العهد ونقضه، ينحط بصاحبه إلى أسوأ البشر أخلاقًا، وبخاصة إذا كان العهد مع الله، فإن المتصف بتلك الصفة ينتقل من مجتمع الصادقين المتقين إلى تجمع المخادعين الكاذبين من المنافقين.

قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة:٧٧].

ويوحي تفسير الآيات السابقة، بأن الوفاء بالعهد هو جزء لا يتجزأ عن الإيمان بالعقيدة الإسلامية، لذلك فالمسلم يلتزم بالعهد سواء كان مبرمًا مع عدو أو صديق، ولا يجوز التلاعب به، فليس العهد من باب مصلحة المعاهد متى شاء أوفى به، ومتى شاء نقضه على حسب المصلحة، وإنما العهد يتعلق بالتعامل مع الله، فينبغي الوفاء به متى أبرمه الإنسان دون النظر إلى من عقد معهم العهد، طالما هم يستقيمون على العهد، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

والوفاء بالعهد يعتبر من مبادئ الإسلام الأخلاقية في التعامل، فهو أولًا تعامل مع الخالق عز وجل وطلب لمرضاته، واجتناب سخطه، وأوضح صاحب الظلال ذلك فقال: «إن الباعث الأخلاقي ليس هو المصلحة، وليس هو عرف الجماعة، ولا مقتضيات ظروفها القائمة، وإنما ينبغي أن نستمد القيم والمقاييس من الله بمعرفة ما يرضيه عن الأخلاق والتطلع إلى رضاه والشعور بتقواه»[(١)].

ونستطيع القول مما سبق، أن الإسلام حريصٌ على بناء الشخصية الإسلامية العادلة السوية التي تلتزم وتنفذ ما تعقده من معاهدات ومواثيق التزامًا كاملًا مهما كانت الصعاب؛ لأن المسلمين عند شروطهم وعهودهم التي يقطعونها على أنفسهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

(١) في ظلال القرآن، ١/ ٤١٨.

آثار الصدق وثمراته

لقد كان الصدق ضرورة من ضرورات المجتمع الإسلامي، وفضيلة من فضائل السلوك البشري ذات النفع العظيم للمجتمعات الإنسانية وسبب بناء حضارتها، وأمر الإسلام بالصدق.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد:٢١].

والصدق يشمل الصدق مع الله بإخلاص العبادة لله، والصدق مع النفس بإقامتها على شرع الله، والصدق مع الناس في الكلام والوعود والمعاملات في البيع والشراء والشهادة والنكاح فلا تدليس ولا غش ولا تزوير، ولا إخفاء للمعلومات، وهكذا حتى يكون ظاهر الإنسان كباطنه وفي سره علانيته، فحينئذ تظهر آثار الصدق على الصادقين، فظهر في الرعيل الأول العجائب من صدقهم، فأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أصدق الناس إيمانًا وأصدقهم يقينًا، وظهر الصدق عليهم في جميع أحوالهم، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقب الصديق؛ لأنه كان أسرع الناس في تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسبقهم في تأييده، فكان أفضل الصحابة رضي الله عنه.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر:٣٣].

جاء في تفسيرها أنها إخبار عن الفائزين من عباد الله، وهم الصادقون في كل ما يخبرون به، والمصدقون بما أوجب الله تعالى التصديق به، ويدخل في هذا الفريق دخولًا أوليًا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق ثم سائر الصحابة والمؤمنين إلى يوم الدين[1].

ويتضح لكل ذي عقل وبصيرة، أن للصدق فوائد جليلة وثمرات عظيمة وعديدة يجنيها الصادق بصدقه، ويسعد بهذا الخلق العظيم في الدنيا والآخرة، جعلتها في النقاط الآتية:

أولًا: آثار الصدق الدنيوية:

١. الصدق دليل على الإيمان والتقوى.

إن الاتصاف بفضيلة الصدق يعد صفة من صفات المؤمنين المتقين، فقد أخبر الله تعالى عن أهل البر وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم من الإيمان والإسلام والصدقة

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٤/ ٤٨٧.

والصبر ثم وصفهم بأنهم أهل الصدق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

جاء في تفسيرها ليس فعل الخير وعمل الصالح محصورًا في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق أو المغرب، ولكن البر الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر، وأخذ النص القرآني يعدد صفاتهم التي تتبع الإيمان، إعطاء المال على محبته للمحتاجين وتفقد اليتامى ومساعدة ابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله وأهله، وإعطاء السائل وتخليص الأسرى والأرقاء بالفداء، والمحافظة على إقامة الصلاة وإخراج الزكاة لمستحقيها، ويوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود، ووصفهم بأنهم صابرون أمام الشدائد وحين القتال في سبيل الله وذيل النص القرآني ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى، وفي الآية ثناء على الأبرار وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيرات حسان في الدنيا والآخرة[1].

٢. الصدق دليل على البراءة من النفاق.

لقد قسم الله تعالى الناس إلى صادق ومنافق، فقال تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢٤].

فالإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما يطرد الآخر، ومن هنا كان الاستمساك بالصدق في كل شأن من شئون الحياة، وتحريه في كل قضية، وإبرازه في كل حكم بين الناس، فالصدق دعامة أساسية في خلق المسلم، وصفة ثابتة في سلوكه، وكذلك قام المجتمع الإسلامي على محاربة الظنون، ونبذ الإشاعات الكاذبة التي تحرق الأواصر الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، وهذا الذي تسعى وتتحرك إليه حركة النفاق لأحداث الشرخ في المجتمع والفرقة بين الناس، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ١١٧، ١١٨.

صلى الله عليه وسلم: (لا يبلغني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر)[1].

٣. الصدق يورث الطمأنينة، والراحة النفسية.

إن المنهج القرآني يغرس فضيلة الصدق في نفوس أبناء المجتمع الإسلامي إلى جانب الفضائل التي دعا إليها، لينقل الناس إلى المستوى الرفيع في عالم القيم العليا والأخلاق الفاضلة، فيحدث الطمأنينة والراحة النفسية في نفوس الصادقين بصدقهم، وهذه النقلة الواسعة تفوق ما تصوره الفلاسفة وأصحاب المدن الفاضلة؛ لأن الذي وضع هذا المنهج الرباني هو الله سبحانه العليم الخبير بالنفس الإنسانية وشعابها المتعددة، فوضح منهجه الرباني متناسقًا مع فطرة الإنسان، لكي يتحرر من الماديات، ويسمو في عالم الروح والأخلاق والمحافظة على فضيلة الصدق التي توجد النفس السوية المطمأنة[2].

قال صلى الله عليه وسلم: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة)[3].

فالصدق طمأنينة في النفس، والكذب اضطراب في النفس وريبة، والصدق دليل القوة والثقة بالنفسب، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمه)[4].

٤. الصدق منجاة من الشدائد.

إن الصدق في النية والقول والعمل، يجعل العمل صالحًا، والعمل الصالح له من الثمار الدنيوية كما أن له من الأجر العظيم في الآخرة، ولنا الموعظة الحسنة في حديث الثلاثة الذين أغلق عليهم الغار أنه قال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه صدق فيه فتوسل أحدهم بعفته، وآخر بأمانته، وآخر ببره بوالديه ففرج الله عنهم[5].

فهؤلاء الرجال الثلاثة دعوا الله بأصدق أعمالهم وأخلصها لله في أحلك الظروف

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في رفع الحديث من المجلس، ٤/ ٢٦٥، رقم ٤٨٦٠.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ٦٣٢٢.

(٢) انظر: منهج القرآن في تربية المجتمع، ص٢٢٩.

(٣) سبق تخرجه.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٣٣، رقم ٦٦٥٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٣٦١، رقم ٧٣٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ٤/ ١٧٤، رقم ٣٤٦٥.

عندما أغلق عليهم باب الكهف، وكادوا يشرفون على الموت، فأنجاهم الله تبارك وتعالى بصالح أعمالهم.

وكذلك ظهرت النجاة بالصدق في قصة الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، عندما خاض المنافقون في عرضها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه) فنزلت براءتها من فوق سبع سموات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور:١١].

ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن في ذلك[1].

وأعجب من ذلك قصة إبراهيم الخليل عليه السلام حين صدق الله في تنفيذ الرؤيا بذبح ولده فلذة كبده، فإنه لما صدق مع الله، وشرع في تنفيذ الأمر، كان الفرج وكانت العطايا والخيرات من الله تعالى للمخلصين الصادقين، وصور القرآن الكريم هذه الحادثة.

قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٧].

حصول البركة في البيع والشراء: إن من فوائد الصدق؛ أنه بركة في الرزق وسبب في نماء المال وكثرة الرزق -بإذن الله- حيث جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: (البيعان بالخيار، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما)[2].

فالبيعان يعني البائع والمشتري، لهما الخيار، ويسمى خيار المجلس في البيع قبل أن يفترقا، فإن صدقا كل منهما صدق الآخر، فإن الله عز وجل يبارك للبائع في المال الذي أخذه، وللمشتري في السلعة التي اشتراها من ماله الحلال الطيب، ولو افترضنا أن كلًا منهما كذب على الآخر، فإنه تمحق بركة بيعهما كما أرشد إليه الحديث بمفهوم المخالفة.

وجاءت السنة النبوية توضح وتأمر بالعمل والسعي والبيع والشراء لتحصيل الأرزاق، وأن الله تعالى يبارك في التجارة إذا كانت قائمة على الصدق وفيما أحل الله سبحانه وتعالى، قال صلى الله عليه وسلم: (لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمةٍ من حطب على ظهره فيبيعها،

(١) انظر: فقه السيرة، البوطي، ص٢٨٠- ٢٨١.

(٢) سبق تخريجه.

فيكف الله بها وجهه خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)[1].

ثانيًا: الآثار الأخروية للصدق:

١. الفوز بمرتبة الصديقية التي تلي مرتبة النبوة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩].

٢. الصدق ينجي العبد من أهوال يوم القيامة.

فقد أخبر الله تعالى أنه لا ينفع العبد وينجيه من العذاب إلا صدقه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم في يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة:١١٩].

٣. الصدق يورث منازل الأبرار والشهداء.

الصدق يورث منازل الشهداء والصالحين ويجعله بعد منزلة النبيين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩].

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه)[2].

٤. دخول الجنة.

إن من أعظم ثمار الصدق أنه يهدي إلى البر ثم إلى الجنة، كما جاء في حديث ابن مسعود، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا)[3].

وجاء عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب بيع الحطب والكلأ، ٣/ ١١٣، رقم ٢٣٧٣.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة، ٣/ ١٥١٧، رقم ١٩٠٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)، ٨/ ٢٥، رقم ٦٠٩٤.

وكفوا أيديكم)[1].

فيجب علينا نحن معشر المسلمين التحلي بالصدق، فإن الصدق طريق إلى كل خير في الدنيا، وطريق إلى الفوز والفلاح في الآخرة، كما أنه طريق إلى تحقيق الأمن في المجتمع والمحبة داخل الأسرة المسلمة، وطريق إلى تحقيق الاستقرار والنماء الاجتماعي، والأخلاقي والاقتصادي في المجتمع المسلم، وهو طريق إلى السعادة في الدارين.

ولنحذر من آفة الكذب؛ لأن الكذب طريق إلى كل شر وبلاء، وفتنة واقتتال ومرض يضعف الأمة، كما أنه طريق إلى الشقاء والتعاسة في الدارين، ومن عهده الناس بالكذب مرة واحدة سقطت مكانته بينهم، وقلت الثقة بحديثه.

وقبل الختام نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الصادقين، ويحشرنا في زمرة الصديقين، وأن يرزق ألسنتنا قول الصدق في كل حين.

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، التقوى، الزور، الكذب، الوفاء

(١) سبق تخريجه.

الصراط

عناصر الموضوع

مفهوم الصراط	٨
الصراط في الاستعمال القرآني	١٠
الألفاظ ذات الصلة	١٢
الله الهادي إلى الصراط المستقيم	١٤
حقيقة الصراط المستقيم	٢١
الصراط في المثل القرآني	٢٦
الهداية إلى الصراط المستقيم	٣١
الإعراض عن الصراط المستقيم	٤٣

المجلد الحادي والعشرون

مفهوم الصراط

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل الصراط بالسين؛ لأنه من السرط، والصاد لغة، قال الفراء: وهي بالصاد لغة قريش الأولين التي جاء بها الكتاب، قال وعامة العرب تجعلها سينًا[١].

والصراط، بالكسر: الطريق، وجسر ممدود على متن جهنم[٢].

قال الراغب: السراط: الطريق المستسهل، أصله من: سرطت الطعام وزردته: ابتلعته، فقيل: سراطٌ، تصورًا أن يبتلعه سالكه، أو يبتلع سالكه[٣].

والأصل الذي تفيده كلمة الصراط في اللغة هو البلع، ففي لسان العرب: سرط الطعام سراطًا: بلعه، وانسرط الشيء في حلقه سار فيه سيرًا سهلًا، وسراط وسراطي إذا كان قاطعًا يمر في الضريبة، كأنه يسترط كل شيء يلتهمه، وإنما قيل للطريق الواضح: صراط؛ لأنه كأنه يسترط المارة لكثرة سلوكهم فيه[٤].

والمستقيم لغة: المستوي القويم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء، يقال: طريق مستقيم. كما يطلق على العادل الذي لا ميل فيه عن الحق. فيقال: ميزان مستقيم[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الصراط من السبيل: ما لا التواء فيه ولا اعوجاج، بل على جهة القصد، فهو أخص من السبيل الأخص من الطريق[٦].

وعرفه بعضهم بأنه: الطريق مستقيمًا كان أو غيره، ويطلق على الجسر الممدود على متن جهنم، يعبره أهل الجنة على حسب أعمالهم[٧].

والمستقيم اصطلاحًا: المستوي، والمراد به طريق الحق، وهي الملة الحنيفية السمحة

(١) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣١٣.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٦٧٥
(٣) المفردات ص ٤٠٧.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣١٣.
(٥) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية ٢/ ٤٥٣.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٥.
(٧) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي نكري ٢/ ١٧٤.

المتوسطة بين الإفراط والتفريط[١].

وقال ابن عاشور: المستقيم اسم فاعل، استقام مطاوع قومته فاستقام، والمستقيم الذي لا عوج فيه ولا تعاريج، وأحسن الطرق الذي يكون مستقيما وهو الجادة؛ لأنه باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره، فلا يضل فيه سالكه، ولا يتردد ولا يتحير. والمستقيم مستعار للحق البين الذي لا تخلطه شبهة باطل فهو كالطريق الذي لا تتخلله بنيات[٢]

فتبين أن الصراط المستقيم هو: الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه[٣]. وهو المعارف الصالحات كلها من اعتقاد وعمل[٤].

وفائدة وصف الصراط في الفاتحة بالمستقيم هو: أن الصراط يطلق على ما فيه صعود أو هبوط، والمستقيم ما لا ميل فيه إلى جهة من الجهات الأربع[٥].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٩١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ١٧٠.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ١٩١.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٥.

الصراط في الاستعمال القرآني

وردت لفظة (الصراط) في القرآن الكريم (٤٥) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٤٥	﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥١]

وجاء (الصراط المستقيم) في القرآن الكريم تعبيرًا عن منهج الإسلام المتمثل بعبادة الله تعالى وحده.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥١]. أي: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، وهذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، عز وجل، وحده[(٢)].

وتعبدنا الله تعالى بدعائه في كل ركعة من الصلاة أن يهدينا لهذا المنهج القويم، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

ولم تأت كلمة الصراط بغير هذا المعنى إلا في آيتين، واستعمل (الصراط) فيهما بمعنى: الطريق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٦].

وهو خطاب موجه من النبي شعيب إلى قومه، فنهاهم عن رذائل كانوا متلبسين بها فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص٤١٢-٤١٤، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧٠٣-٧٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣٧.

تهددون من آمن بي بالقتل، وتخيفونه بأنواع الأذى، وتلصقون بي - وأنا نبيكم - التهم التي أنا بريء منها، بأن تقولوا لمن يريد الإيمان برسالتي: إن شعيبا كذاب وإنه يريد أن يفتنكم عن دينكم[1].

وقد روي عن ابن عباس أن بلادهم كانت خصبة، وكان الناس يمتارون منهم، فكانوا يقعدون على الطريق، ويخوفون الناس أن يأتوا شعيبا، ويقولون لهم: إنه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يس: ٦٦].

والمعنى: لو نشاء لأعميناهم وتركناهم عميًا يترددون، وكيف يبصرون الطريق حينئذ؟[3].

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣٢١.
(٢) تفسير المراغي ٨/ ٢١١.
(٣) التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٥١٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الطريق:

الطريق لغة:

الطريق: السبيل، يذكر ويؤنث، تقول: الطريق الأعظم، والطريق العظمى، والجمع أطرقة وطرق. وطرقات: جمع الجمع.

وطريقة الرجل: مذهبه. يقال: ما زال فلان على طريقة واحدة، أي: حالة واحدة[١].

الطريق اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين الصراط والطريق:

الطريق أعم، فمنه السهل ومنه الصعب، ومنه المستقيم ومنه المعوج، وأما الصراط فهو طريق سهل لا اعوجاج فيه[٢].

٢ السبيل:

السبيل لغة:

الطريق وما وضح منه يذكر ويؤنث، وسبيل الله: طريق الهدى الذي دعا إليه[٣].

السبيل اصطلاحًا:

السبيل: طريق الجادة السائلة عليه الظاهر لكل سالك منهجه، فهو أخص من الطريق، فإنه كل ما يطرق الطارق معتادًا كان أو غيره، وسبيل الله: طريقه التي أمر بسلوكها، واشتقاقه من الجريان من قولك سبل السحاب مطر، والستر أرسله وطوله فسمي الطريق سبيلًا؛ لكثرة الجريان فيه بالمشي[٤].

الصلة بين الصراط والسبيل:

الصراط طريق سهل، والسبيل: اسم يقع على ما يقع عليه الطريق، وعلى ما لا يقع عليه الطريق، تقول: سبيل الله، وطريق الله.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٤/ ١٥١٣، مختار الصحاح، الرازي ص ١٨٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٢٧٣.

(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٩٨.

(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٤١، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٥٠٦.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٠.

والفرق بينهما كالفرق بين الصراط والطريق.

٣ العوج:

العوج في اللغة:

العين والواو والجيم أصل صحيح يدل على ميلٍ في الشيء أو ميلٍ، وفروعه ترجع إليه[١].

والعَوَج، بالتحريك: مصدر قولك: عَوِجَ الشيء بالكسر فهو أعوج. والاسم العِوَج بكسر العين. قال ابن السكيت: وكل ما كان ينتصب كالحائط والعود قيل فيه عَوَجٌ بالفتح، والعِوَج بالكسر ما كان في أرض أو دين أو معاشٍ، يقال: في دينه عِوَج[٢].

والعِوَج: الانعطاف فيما كان قائما فمال، كالرمح والحائط.

والعوج في الأرض ألا تستوي. وفي التنزيل: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٧].

وعَوَج الطريق وعِوَجُه: زيغه.

وعِوَج الدين والخلق: فساده وميله، على المثل[٣].

العوج في الاصطلاح:

وهو بفتح العين مختص بكل شيء مرئي كالأجسام، وبالكسر فيما ليس بمرئي، كالرأي والقول. وقيل: الكسر يقال فيهما معا، والأول أكثر[٤].

وقال الكفوي: هو في المحسوسات عدم الاستقامة الحسية، وفي غيرها: عدم كونها على ما ينبغي[٥].

الصلة بين العوج والاستقامة:

الاستقامة ضد العوج، فالعلاقة بينهما ضدية.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٧٩.
(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ٣٣١.
(٣) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٢٨٢.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٣١٥.
(٥) الكليات ص ١٥١.

الله الهادي إلى الصراط المستقيم

من أسماء الله الحسنى: الهادي، فهو الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبة إليه منقادة لأمره[1].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١].

أي: وكفى ربك -أيها الرسول الكريم- هاديا يهدى عباده إلى ما تقتضيه حكمته ومشيئته، وكفى به سبحانه نصيرا لمن يريد أن ينصره على كل من عاداه[2].

وأجل محصول يحصل عليه العبد: أن يهديه الله إلى الصراط المستقيم، وهذه أكبر نعمة ينعم بها الهادي سبحانه على من يشاء من عباده، ولذلك كان وجوبا على العبد أن يسأل ربه الهداية في كل ركعة من صلاته ويردد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والعبد مضطر دائما إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم، فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء؛ فإنه لا نجاة من العذاب، ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم، وإما من الضالين، وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله، وأما سؤال من يقول: فقد هداهم، فلا حاجة بهم إلى السؤال وجواب من أجابه بأن المطلوب دوامها كلام من لم يعرف حقيقة الأسباب، وما أمر الله به؛ فإن الصراط المستقيم أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نهي عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت، وما نهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور، فهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم»[3].

ومعنى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦] أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط. فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٩.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٩٣.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، ابن قاسم ١٤/ ٣٧-٣٨.

والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علمًا وعملًا.

فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك[1].

قال الرازي: «اعلم أن أهل الهندسة قالوا: الخط المستقيم هو أقصر خط يصل بين نقطتين، فالحاصل أن الخط المستقيم أقصر من جميع الخطوط المعوجة، فكأن العبد يقول: اهدنا الصراط المستقيم لوجوه:

الأول: أنه أقرب الخطوط وأقصرها، وأنا عاجز فلا يليق بضعفي إلا الطريق المستقيم.

الثاني: أن المستقيم واحد وما عداه معوجة وبعضها يشبه بعضا في الاعوجاج فيشتبه الطريق علي، أما المستقيم فلا يشابهه غيره فكان أبعد عن الخوف والآفات وأقرب إلى الأمان.

الثالث: الطريق المستقيم يوصل إلى المقصود، والمعوج لا يوصل إليه.

والرابع: المستقيم لا يتغير، والمعوج يتغير، فلهذه الأسباب سأل الصراط المستقيم، والله أعلم»[2].

وقد أرشدنا الله إلى طلب الهداية منه، ليكون عونا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا بعد أن نبذل ما نستطيع من الجهد في معرفة أحكام الشريعة، ونكلف أنفسنا الجري على سننها، لنحصل على خيري الدنيا والآخرة[3].

والهداية هنا هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق.

وللهداية مرتبة أخرى -وهي آخر مراتبها- وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها. فمن هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يحبو حبوا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩.
(٢) مفاتيح الغيب ١/ ٢٢٠.
(٣) تفسير المراغي ١/ ٣٦.

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة جزاء وفاقا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦].

أي: إن ربي على طريق الحق، يجازي المحسن من خلقه بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحدًا منهم شيئًا، ولا يقبل منهم إلا الإسلام والإيمان به[2].

ولقد هدى الله تعالى رسله عليهم الصلاة والسلام وثبتهم على الصراط المستقيم، فعلى هذا الصراط المستقيم أقام الله نبيه الكريم من أول خطوه في الحياة[3]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

فأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم: الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصا إمام الحنفاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشركين[4].

وفي قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي﴾ دليل على أن الهداية لا تحصل إلا بالله تعالى[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ١-٢].

والمعنى: يثبتك على الصراط المستقيم، ويزيدك هداية على هداية، ويهدى بك الخلق إلى الحق[6].

والاستقامة على الصراط المستقيم وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه، ما لم يكن حاصلًا قبل[7].

وقال ابن عاشور: «ومعنى ويهديك صراطا مستقيما: يزيدك هديا لم يسبق وذلك بالتوسيع في بيان الشريعة والتعريف بما لم يسبق تعريفه به منها، فالهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبي صلى الله عليه وسلم من وقت بعثته، ولكنها تزداد بزيادة بيان الشريعة، وبسعة بلاد الإسلام، وكثرة

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ١٣-١٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٦٤.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٤/ ٣٥٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٩٠.
(٦) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٤١٨.
(٧) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٣٨٥.

المسلمين مما يدعو إلى سلوك طرائق كثيرة في إرشادهم وسياستهم وحماية أوطانهم، ودفع أعدائهم، فهذه الهداية متجمعة من الثبات على ما سبق هديه إليه، ومن الهداية إلى ما لم يسبق إليه وكل ذلك من الهداية»[1].

وقد امتن الله سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم بالفتح المبين والفتح لا يكون إلا لمن هو على صراط الله، ولعل المراد بهذا الخطاب هو أمته[2].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٨].

ومعنى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وسددناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوج، وذلك دين الله الذي لا عوج فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله ربنا لأنبيائه، وأمر به عباده[3].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: ذلك الهدى إلى صراط مستقيم الذي اهتدى إليه أولئك الأخيار هو هدى الله الذي يهدى به من يشاء هدايته من عباده وهم المستعدون لذلك.

وفي قوله: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ من الإبهام ما يبعث النفوس على طلب هدى الله تعالى والتعرض لنفحاته[4].

وأخبر سبحانه وتعالى عن هدايته لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ [الصافات: ١١٨].

أي: دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعا، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة، وتشبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح[5].

وقال الشوكاني: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: القيم لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام فإنه الطريق الموصلة إلى المطلوب[6].

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٤٨.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٤٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥١٣.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ١٢٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٥٢.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٦٩.

وإذا أراد الله بعبده خيرا أمده بنور التحقيق، وأيده بحسن العصمة، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل فلا يظله غمام الريب، وينجلي عنه غطاء الغفلة، فلا تأثير لضباب الغداة في شعاع الشمس عند متوع النهار، وهذا معنى قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٤][1].

فيهديهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات[2].

وهدى الله تعالى عباده المؤمنين إلى الصراط المستقيم، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ أي: بالكتاب المبين من اتبع رضوانه من كان مطلوبه من طلب الدين اتباع الدين الذي يرتضيه الله تعالى، فأما من كان مطلوبه من دينه تقرير ما ألفه ونشأ عليه وأخذه من أسلافه مع ترك النظر والاستدلال، فمن كان كذلك فهو غير متبع رضوان الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي: طرق السلامة، ثم قال: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وذلك أن الكفر يتحير فيه صاحبه كما يتحير في الظلام، ويهتدي بالإيمان إلى طرق الجنة كما يهتدي بالنور، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بتوفيقه، والباء تتعلق بالاتباع أي: اتبع رضوانه بإذنه، ولا يجوز أن تتعلق بالهداية ولا بالإخراج؛ لأنه لا معنى له، فدل ذلك على أنه لا يتبع رضوان الله إلا من أراد الله منه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الدين الحق، لأن الحق واحد لذاته، ومتفق من جميع جهاته، وأما الباطل ففيه كثرة، وكلها معوجة[3].

وهذه الهداية عين الهداية إلى سبل

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٥٥٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٤٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٢٧.

السلام، وإنما عطفت عليها؛ تنزيلا للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي[1].

والله تعالى يهدي من يشاء إلى الطريق الذي لا عوج فيه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤٦].

أي: لقد أنزلنا أيها الناس علامات واضحات دالات على طريق الحق وسبيل الرشاد ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقول: والله يرشد من يشاء من خلقه بتوفيقه، فيهديه إلى دين الإسلام، وهو الصراط المستقيم والطريق القاصد الذي لا اعوجاج فيه[2].

فعمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه[3].

قال سيد قطب: «فآيات الله مبينة كاشفة تجلو نور الله، وتكشف عن ينابيع هداه. وتحدد الخير والشر، والطيب والخبيث، وتبين منهج الإسلام في الحياة كاملا دقيقا لا لبس فيه ولا غموض وتحدد أحكام الله في الأرض بلا شبهة ولا إبهام. فإذا تحاكم الناس إليها فإنما يتحاكمون إلى شريعة واضحة مضبوطة، لا يخشى منها صاحب حق على حقه ولا يلتبس فيها حق بباطل، ولا حلال بحرام.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والمشيئة مطلقة لا يقيدها قيد. غير أن الله سبحانه قد جعل للهدى طريقا، من وجه نفسه إليه وجد فيه هدى الله ونوره، فاتصل به، وسار على الدرب، حتى يصل- بمشيئة الله- ومن حاد عنه وأعرض فقد النور الهادي ولج في طريق الضلال حسب مشيئة الله في الهدى والضلال»[4].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩] أي: من تعلقت مشيئة الله تعالى بإضلاله يضلله، كما أضل هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى، فلم يستعملوا أسماعهم، ولا أفواههم، ولا عقولهم في آيات الله تعالى على أحقية ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما إضلاله إياهم اقتضاء سننه في عقول البشر وغرائزهم وأخلاقهم أن يعرض المستكبر عن دعوة من يراه دونه واتباع من يراه مثله، وإن ظهر له الحق معه.

﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: ومن يشأ أن يجعله على طريق يرضاه،

(١) روح المعاني، الألوسي ٣/ ٢٧٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧١.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٥.

وهو الإسلام، يجعله عليه، ويهده إليه، ويمته عليه، فلا يضل من مشى إليه، ولا يزل من ثبت قدمه عليه[1].

وقال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢].

فالمشرق لله والمغرب لله، فكل متجه فهو إليه في أي اتجاه، فالجهات والأماكن لا فضل لها في ذاتها. إنما يفضلها ويخصصها اختيار الله وتوجيهه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فإذا اختار لعباده وجهة، واختار لهم قبلة، فهي إذن المختارة، وعن طريقها يسيرون إلى صراط مستقيم[2].

قال ابن عاشور: قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إيماء إلى قبلة الإسلام، والمراد بالصراط المستقيم هنا وسيلة الخير وما يوصل إليه فيشمل ذلك كل هدي إلى خير، ومنه الهدي إلى استقبال أفضل جهة[3].

وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]

فالله تعالى يسدد من يشاء من خلقه ويرشده إلى الطريق القويم على الحق الذي لا اعوجاج فيه، كما هدى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، لما اختلف الذين أوتوا الكتاب فيه بغيًا بينهم، فسددهم لإصابة الحق والصواب فيه[4].

والخلاصة أن الله تعالى رسم حدود الصراط المستقيم وبين معالمه وتولى أمر الهداية إليه بواسطة الذين اصطفاهم واجتباهم من الأنبياء والمرسلين وورثتهم من العلماء العاملين.

(١) مراح لبيد، محمد الجاوي ١/ ٣١٨.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٣٠.
(٣) التحرير والتنوير ٢/ ١٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٨٦.

حقيقة الصراط المستقيم

المتأمل في آيات القرآن الكريم، يجد أن كلمة الصراط المستقيم قد وسعت كل شيء أحبه الله لعباده، فالداخل في الإسلام يقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].

وراسخ القدم فيه يقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، والنبيون والشهداء والصالحون كلهم يقولون: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

فالواجب على كل عبد أن يقول ويقرأ في صلاته: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وهذا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب، والمعنى: دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك[(١)].

وقد بين الله تعالى حقيقة الصراط المستقيم في آيات عديدة من كتابه، فقال في سورة الأنعام: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ [الأنعام: ١٢٦].

أي: هذا الذي بينا طريق ربك، والذي ارتضاه لنفسه دينا وجعله مستقيما لا عوج فيه، وهو الإسلام[(٢)].

قال ابن الجوزي: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه القرآن، قاله ابن مسعود.

والثاني: التوحيد، قاله ابن عباس.

والثالث: ما هو عليه من الدين، قاله عطاء[(٣)].

وقال ابن عاشور: والإشارة بهذا إلى حاضر في الذهن وهو دين الإسلام، ويجوز أن تكون الإشارة إلى حاضر في الحس وهو القرآن[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فيه قولان:

أحدهما: القرآن.

والثاني: الشرع وسمي ذلك صراطًا[(٥)].

وقال ابن عاشور: «والإشارة إلى الإسلام: أي: وأن الإسلام صراطي، فالإشارة إلى حاضر في أذهان المخاطبين من أثر تكرر نزول القرآن وسماع أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام، بحيث عرفه الناس وتبينوه، فنزل منزلة المشاهد، فاستعمل فيه اسم الإشارة الموضوع لتعيين ذات بطريق المشاهدة مع الإشارة، ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع التشريعات

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٤٧.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ١٨٩.
(٣) زاد المسير ٢/ ٧٦.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٦٢.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ١٨٨.

والمواعظ التي تقدمت في هذه السورة، لأنها صارت كالشيء الحاضر المشاهد»[1].

وبين النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة الصراط المستقيم في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (خط رسول الله صلى الله عليه وسلم، خطا بيده، ثم قال: (هذا سبيل الله مستقيما)، قال: ثم خط عن يمينه، وشماله، ثم قال: (هذه السبل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه) ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣][2].

فوحد لفظ الصراط، وجمع السبل المخالفة له، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله[3].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

قال ابن عاشور: قوله: ﴿إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾ متصل بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الذي بينه بقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢].

فزاده بيانًا بقوله هذا: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ليبين أن هذا الدين إنما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بهدي من الله، وأنه جعله دينا قيما على قواعد ملة إبراهيم عليه السلام، إلا أنه زائد عليه بما تضمنه من نعمة الله عليه؛ إذ هداه إلى ذلك الصراط الذي هو سبيل النجاة. وافتتح الخبر بحرف التأكيد؛ لأن الخطاب للمشركين المكذبين[4].

وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

فكشفت هذه الآية عن حقيقة الكتاب الذي دلت الآيات السابقة على أنه صراط الله المستقيم وخاصيته في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، بتوفيق الله وهدايته حيث الانطلاق إلى رحاب المعية الإلهية بكل ما فيها من عزة وكرامة وحمد وثناء وشكر وولاء.

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٧٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٧/ ٤٣٦، رقم ٤٤٣٧.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان رقم ٦.
(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٧-٣٨.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ١٩٧-١٩٨.

وقد أخرج صلى الله عليه وسلم أمته من ظلمات عديدة إلى أنوار متعددة: أولها: ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإيمان والإسلام، ثم من ظلمة الجهل والتقليد إلى نور العلم والتحقيق، ثم من ظلمة الذنوب والمعاصي إلى نور التوبة والاستقامة، ثم من ظلمة الغفلة والبطالة إلى نور اليقظة والمجاهدة، ثم من ظلمة الحظوظ والشهوات إلى نور الزهد والعفة، ثم من ظلمة رؤية الأسباب، والوقوف مع العوائد، إلى نور شهود المسبب، وخرق العوائد، ثم من ظلمة الوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات إلى نور شهود المعبود، ثم من ظلمة الوقوف مع حس الأكوان الظاهرة إلى شهود أسرار المعاني الباطنة، فيغيب عن الأكوان بشهود المكون[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [الحجر: ٤١-٤٢].

أي: هذا الطريق الذي سلكه أهل الإخلاص في عبوديتهم هو طريق وارد علي، وموصل إلى جواري، لا سبيل لك على أهله؛ لأنه مستقيم لا عوج فيه[2].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣﴾ [الزخرف: ٤٣]

والمعنى: فتمسك يا محمد بما يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومنهاج سديد، وذلك هو دين الله الذي أمر به، وهو الإسلام[3].

وقد لخص الماوردي رحمه الله أقوال المفسرين في المراد بالصراط المستقيم في أربعة أقاويل:

أحدها: أنه كتاب الله تعالى، وهو قول علي وعبد الله، ويروى نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والثاني: أنه الإسلام، وهو قول جابر بن عبد الله، ومحمد بن الحنفية.

والثالث: أنه الطريق الهادي إلى دين الله تعالى، الذي لا عوج فيه، وهو قول ابن عباس.

والرابع: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخيار أهل بيته وأصحابه، وهو قول الحسن البصري وأبي العالية الرياحي[4].

والمتأمل في الأقوال المتعددة التي أوردها المفسرون للصراط المستقيم يجد: أن اختلافهم في تعريف الصراط اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فتفسير بعض أهل العلم للصراط المستقيم بالقرآن والبعض الآخر بالإسلام قولان متفقان؛ لأن دين

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٤٢.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٨٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦١٠.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٩.

الإسلام هو اتباع القرآن، حيث نبه أحدهما على وصف غير الوصف الآخر.

وبعد أن نقل الإمام ابن كثير رحمه الله قول الإمام الطبري: «أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه»[(١)].

قال: ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول[(٢)].

وقال رحمه الله: وقيل: هو الإسلام ونسبه إلى ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، ثم أورد عن مجاهد تفسيره للصراط بأنه الحق، ثم قال: وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم، ونسب إلى أبي العالية تفسيره للصراط المستقيم بأنه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه من بعده، وأنه ذكر ذلك للحسن فقال: صدق أبو العالية ونصح.

ثم عقب على هذا الذي أورده من الأقوال بقوله: وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم، واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا، ولله الحمد.

ثم يتبع ابن كثير ذلك برأي الإمام الطبري رحمه الله الذي رجح فيه من الأقوال بأنه التوفيق للثبات على ما ارتضاه الله ووفق له من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين مع بيانه لوجه كونه جامعا لغيره حيث قال: فقد وفق للإسلام[(٣)].

وتابع الإمام القرطبي ابن جرير في الترجيح بالمراد بالصراط المستقيم، بأنه صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ونسبه إلى جمهور المفسرين وعقب عليه بقوله: «وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «المراد بالصراط المستقيم المعارف الصالحات كلها من اعتقاد وعمل بأن يوفقهم إلى الحق والتمييز بينه وبين الضلال على مقادير استعداد النفوس وسعة مجال العقول النيرة والأفعال الصالحة، بحيث لا يعتريهم زيغ وشبهات في دينهم وهذا أولى ليكون الدعاء طلب تحصيل ما ليس بحاصل وقت الطلب، وإن المرء بحاجة إلى هذه الهداية في جميع

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ١٧٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٩.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١/ ١٧١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٤٩.

شؤونه كلها حتى في الدوام على ما هو متلبس به من الخير للوقاية من التقصير فيه أو الزيغ عنه. والهداية إلى الإسلام لا تقصر على ابتداء اتباعه وتقلده بل هي مستمرة باستمرار تشريعاته وأحكامه بالنص أو الاستنباط»[1].

وقال ابن القيم: فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته وحقيقته شيء واحد، وهو طريق الله الذي نصه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلا لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول.

وهذا معنى قول بعض العارفين: «إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبته، وحسن معاملته».

وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين.

ونكتة ذلك وعقده: أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته. الأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول الله، وهذا هو الهادي، ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل له، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها[2].

فتبين مما سبق: أن الصراط المستقيم هو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وعبادته تتضمن كمال الحب مع كمال الذل له سبحانه، فكل ما تتقرب به، وكل فعل يفعله العبد يرجو به ثوابا، وكل ترك يتركه يخاف من تركه عقابا، فإن هذا داخل في معنى الصراط المستقيم.

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٩١.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٤٠.

الصراط في المثل القرآني

جعل الله تعالى فهم أمثال القرآن الكريم واستيعابها والإحاطة بأسرارها منوطا بأهل العلم، فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وخير الدروس ما ضرب له الأمثال وبينت بها الحكم وقرب إلى الناس بما يقع تحت حسهم، وما يكون في متناول عقولهم.

والتمثيل ألطف ذريعةٍ إلى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلةٍ إلى تفهيم الجاهل الغبي وقمع سورة الجامح الآبي، كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازٌ لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداءٌ للمنكر في صورة المعروف وإظهارٌ للوحشي في هيئة المألوف[1].

ومن هذه الأمثال التي ضربها الله تعالى في كتابه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦].

فهذا مثل ضربه الله سبحانه لنفسه ولما يعبدون من دونه، فالصنم الذي يعبدون من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له راض به آمر لعباده به، محب لأهله لا يأمر بسواه، بل ينزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشرعه عدل كله وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه[2].

قال الطبري: وهذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه والآلهة التي تعبد من دونه، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يعني: بذلك الصنم أنه لا يسمع شيئا، ولا ينطق، لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاس مصنوع لا يقدر على نفع لمن خدمه، ولا دفع ضر عنه وهو كلٌّ على مولاه، يقول: وهو عيال على ابن عمه وحلفائه وأهل ولايته، فكذلك الصنم كل على من يعبده، يحتاج أن يحمله، ويضعه ويخدمه، كالأبكم من الناس الذي لا يقدر على شيء، فهو كَلٌّ على أوليائه من بني أعمامه وغيرهم ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٥٠.

(٢) الأمثال في القرآن ص ٢٢-٢٣.

﴿بِخَيْرٍ﴾ يقول: حيثما يوجهه لا يأت بخير؛ لأنه لا يفهم ما يقال له، ولا يقدر أن يعبر عن نفسه ما يريد، فهو لا يفهم، ولا يفهم عنه، فكذلك الصنم، لا يعقل ما يقال له، فيأتمر لأمر من أمره، ولا ينطق فيأمر وينهي.

يقول الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، يعني: هل يستوي هذا الأبكم الكَلّ على مولاه الذي لا يأتي بخير حيث توجه ومن هو ناطق متكلم يأمر بالحق، ويدعو إليه وهو الله الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، يقول: لا يستوي هو تعالى ذكره، والصنم الذي صفته ما وصف.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وهو مع أمره بالعدل، على طريق من الحق في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يعوج عن الحق ولا يزول عنه[1].

ففي هذه الآية يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذي لا يدري شيئا ولا يعود بخير. والرجل القوي المتكلم الآمر بالعدل، العامل المستقيم على طريق الخير ولا يسوي عاقل بين هذا وذاك. فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف، الهادي إلى الصراط المستقيم؟[2].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٢.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٤.

وهناك قول آخر: وهو أن هذا مثل للمؤمن والكافر، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[3].

فالمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر، فهو باعتبار حرمانه من عبودية الله وطاعته كالعبد الذليل الفقير العاجز. والمراد بقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو المؤمن، فإنه مشتغل بالتعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، فأبان تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى[4].

وعن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبده، وفي قوله: ﴿مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال: هو عثمان بن عفان، قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأتي بخير، ذاك مولى عثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما[5].

(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٣.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ١٨٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٤.
وانظر: أسباب النزول، الواحدي ص ٢٨٠، الصحيح المسند من أسباب النزول، الوادعي ص ١٢٤.

والراجح -والله أعلم- أن هذا المثل ضربه الله تعالى لنفسه والآلهة التي تعبد من دونه؛ لأن ما قبل هذه الآية وما بعدها إنما ورد في إثبات التوحيد، وفي الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى أولى[(١)].

وبذلك نرى أن هذه الآية قد ساقت مثلا لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله تعالى الخلاق العليم، الرزاق الكريم، وبين تلك المعبودات الباطلة التي أشركها الضالون في العبادة مع الله عز وجل[(٢)].

وفي هذا المثل بيان لضلالة المشركين وبطلان عبادة الأصنام؛ لأن شأن الإله المعبود أن يكون مالكا قادرا على التصرف في الأشياء، وعلى نفع غيره ممن يعبدونه، وعلى الأمر بالخير والعدل، والتزام منهج الاستقامة والقسط في سيرته وسلوكه.

ومن الأمثلة القرآنية التي ورد فيها الصراط: قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

وهذه استعارة تمثيلية وهو مثل للمؤمن والكافر، فالكافر أعمى لا يهتدي إلى الطريق بل يمشي متعسفًا فلا يزال يتعثر وينكب على وجهه، والمؤمن صحيح البصر يمشي في طريق واضحة مستقيمة سالما من العثور والخرور على وجهه. وهكذا تتجلى طريقة القرآن في التجسيد[(٣)].

ولعل الاكتفاء بما في الكب من الدلالة على حال المسلك للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستأهل أن يسمى طريقًا، كمشي المتعسف في مكان متعاد غير مستو[(٤)].

قال ابن كثير: وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبا على وجهه، أي: يمشي منحنيا لا مستويا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾، أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة.

هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سويا على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم، ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٤٧.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٠٢.
(٣) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش ١٠/ ١٥٩.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٣١.

[الصافات: ٢٢-٢٦][(١)].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلا قال: يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: (أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)[(٢)].

فهذا المكب على وجهه هو المشرك الذي يمشى على وجهه في النار يوم القيامة، والذي يمشى سويا هو الموحد الذي يحشر على قدميه إلى الجنة[(٣)].

فأي الرجلين أهدى؟ من كان تائها في الضلال، غارقًا في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلا والباطل حقًا؟ ومن كان عالمًا بالحق، مؤثرًا له، عاملا به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال[(٤)].

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد لفتت أنظار الناس إلى التفكر والاعتبار، ووبخت المشركين على جهالاتهم وطغيانهم، وساقت مثالا واضحا للمؤمن والكافر، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة[(٥)].

وهذا المثل غرضه إقامة الحجة وإقناع المخاطبين، وتربيتهم على التفكير السليم والمنطقي، وقد زودهم الله بعقل يتيح لهم ما لم يُتَحْ لغيرهم من الحيوانات والمخلوقات.

ولقد قرب النبي صلى الله عليه وسلم معنى الصراط المستقيم بضرب المثل، فعن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم)[(٦)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٨١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الفرقان، باب قوله: ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا﴾، ٦/ ١٠٩، رقم ٤٧٦٠.
(٣) تفسير المراغي ٢٩/ ٢١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧٧.
(٥) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٢٦
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/ ١٨١، ١٧٦٣٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع،

فضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثل الإسلام في هذا الحديث بصراط مستقيم، وهو الطريق السهل الواسع، الموصل سالكه إلى مطلوبه، وهو مع هذا مستقيم، لا عوج فيه، فيقتضي ذلك قربه وسهولته، وعلى جنبتي الصراط يمنة ويسرة سوران، وهما حدود الله، وكما أن السور يمنع من كان داخله من تعديه ومجاوزته، فكذلك الإسلام يمنع من دخله من الخروج عن حدوده ومجاوزتها، وليس وراء ما حد الله من المأذون فيه إلا ما نهى عنه[1].

وإنما ضرب المثل بذلك زيادة في التوضيح والتقريب، ليصير المعقول محسوسا، والمتخيل متحققا، فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد، ليساعد فيه الوهم العقل، فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة الوهم؛ لأن طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية، وفشت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء.

قال المناوي: سر هذا الحديث أنه أقام الصراط معنى للإسلام، وأقام الداعي معنى للكتاب والداعي الآخر معنى للعظة في قلب كل مؤمن، فأنت على الصراط الدائم، وهو الإسلام، وسامع النداء القائم وهو القرآن، فإن أنت أقمت حركاتك وسكناتك بمدبرك وخالقك بسقوط من سواه أقامك إليه به وقمت به إليه بسقوطك عنك، فحينئذ يكشف لك اسمه الأعظم الذي لا يخيب من قصده به[2].

٢/ ٧٢١، رقم ٣٨٨٧.

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ١٦١.

(٢) فيض القدير ٤/ ٢٥٤.

الهداية إلى الصراط المستقيم

أولًا: الداعون إلى الصراط المستقيم:

خلق الله الإنسان، وأسكنه في الأرض، ولم يتركه سدىً، بل أوجد له ما يحتاجه من طعام وشراب ولباس، وأنزل عليه في مختلف العصور منهجًا يسير على هديه، وصلاح البشرية وسعادتها في كل زمان ومكان، إنما يكون باتباع منهج الله وطرح ما سواه.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولا يمكن أن يتحقق اتباع منهج الله إلا بالدعوة إليه، ولذلك فقد دعا الله إلى اتباع صراطه، فرسم حدود الصراط المستقيم وبين معالمه وتولى أمر الهداية إليه، بواسطة الذين اصطفاهم واجتباهم من الأنبياء والمرسلين وورثتهم من العلماء العاملين.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

يقول الطبري: يهدي من يشاء من خلقه فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله جل ثناؤه سببًا للوصول إلى رضاه، وطريقًا لمن ركبه وسلك فيه إلى جنانه وكرامته[(١)].

فدعاهم إلى دار السلام، وفي الحقيقة دعاهم إلى ما يوجب لهم الوصول إلى دار السلام وهو اعتناق أوامره والانتهاء عن زواجره[(٢)]، وعَمَّ سبحانه بالدعوة لإظهار الحجة، وخَصَّ بالهداية استغناء عن الخلق[(٣)].

والقرآن الكريم هو الداعي على رأس الصراط المستقيم، فعن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله،وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله،والداعي من فوق الصراط:واعظ الله في قلب كل مسلم)[(٤)].

وأرسل الله تعالى أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام للدعوة إلى الصراط

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٩.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٩٠.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤١٧.
(٤) سبق تخريجه قريبًا.

المستقيم، والهداية إليه.

يقول الله تعالى عن دعوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلى الصراط المستقيم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣].

أي: وإنك يا محمد لتدعو هؤلاء المشركين من قومك إلى دين الإسلام، وهو الطريق القاصد والصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه[١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وهذه الهداية يراد بها الدعوة والإرشاد إلى طريق الخير، والمعنى: وإنك لتهدى بذلك النور من تشاء هدايته إلى الحق القويم.

ثم فسر هذا الصراط بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣].

أي: هذا الطريق هو الطريق الذي شرعه الله مالك السموات والأرض والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه[٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف: ٦١].

أي: وإن القرآن ليعلمكم بقيام الساعة، ويخبركم عنها وعن أهوالها، فلا تشكن فيها واتبعوا هداي، فهذا الذي أدعوكم إليه هو الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه وهو الموصل إلى الحق[٣].

وأخبر الله تعالى عن طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعوته لأبيه إلى الصراط السوي، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣].

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لأبيه: يا أبت إني قد آتاني الله من العلم ما لم يؤتك فاتبعني: يقول: فاقبل مني نصيحتي ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ يقول: أبصرك هدى الطريق المستوي الذي لا تضل فيه إن لزمته، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه[٤].

فأمره باتباعه لما ترجح عليه جانبه في كون الحق معه، وإن كان أكبر منه سنا، وبين أن الخلاص في اتباع أهل الحق، وأن الهلاك في الابتداع والتطوح في مغاليط الطرق[٥].»

ولم يسم إبراهيم عليه السلام أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرف

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٩.
(٢) تفسير المراغي ٢٥/ ٦٥.
(٣) المصدر السابق ٢٥/ ١٠٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٠٣-٢٠٤.
(٥) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٤٣١.

بالطريق، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه مع خلوه عن النفع مستلزم للضر[1].

وهذا داوود عليه السلام كان مرشدًا لأتباعه إلى الطريق الصحيح، قال تعالى عن وصف قومه له: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: ٢٢].

أي: اهدنا إلى وسط طريق الحق بزجر الباغي عما سلكه من طريق الجور وإرشاده إلى منهاج العدل[2].

والمقصود من هذا: أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك، فسيقصان عليه نبأهما بالحق، فلم يشمئز نبي الله داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما[3].

والمتأمل في آيات الهداية إلى الصراط المستقيم يجد أن فعل الهداية قد يعدى بنفسه، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

وقد يُعَدى بإلى كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد يُعَدَى باللام كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

والفرق بين التعدية بالحرف والتعدية من دون حرف: أن التعدية بالحرف تقال إذا لم يكن فيه ذلك فيصل بالهداية إليه، وإن التعدية من دون حرف تقال لمن يكون فيه ولمن لا يكون فيه، فتقول: هديته إلى الطريق وهديته للطريق لمن لا يكون في الطريق فتوصله إليه، وتقول: «هديته الطريق» لمن كان فيه فتبصره به وتبينه له، وتقوله أيضًا لمن لا يكون فيه فتوصله إليه.

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

وأبوه ليس في الصراط، بل هو بعيد عنه.

وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

والمنافقون ليسوا على الصراط.

وقال على لسان رسل الله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]. وهم في الصراط.

وقال مخاطبًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]. وهو سالك للصراط.

فتعدية الفعل بنفسه تقال لمن كان فيه أي

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٢٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١١.

في الصراط ولمن لم يكن فيه.

أما التعدية باللام وإلى فتكون لمن لم يكن فيه، وذلك نحو قوله تعالى على لسان الخصمين اللذين جاءا داود، عليه السلام، ليحكم بينهما: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: ٢٢].

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥]. أي: يوصل إليه[1].

ومن خلال ما تقدم تبين أهمية الدعوة إلى الصراط المستقيم، فقد تولاها الله تعالى بنفسه، فهو الذي يدعو عباده إلى طاعته وتقواه التي هي طريق الجنة، وينهاهم عن معصيته ومخالفة أمره التي هي طريق النار والعذاب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

ولذلك أرسل سبحانه وتعالى الرسل وأنزل الكتب التي فيها الأوامر الصريحة بتوحيده وتقواه وطاعته، كما أنه سبحانه وتعالى نصب الأدلة والبراهين من مخلوقاته وآياته على أنه الرب الخالق المدبر المتصرف في هذا الكون، والإله الحق الذي يجب أن تصرف جميع أنواع العبادة له سبحانه دون ما سواه. ودعا إلى الصراط المستقيم الأنبياء والمرسلون الذين هم خيار الخلق وأشرف العباد، فإن الله تعالى اصطفى من عباده خيارهم ليكلفهم بالدعوة إلى صراطه المستقيم وتبليغ دينه كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فهي وظيفة هؤلاء الأخيار الأطهار المصطفين من عباد الله، ويأتي في مقدمتهم فضلا ومكانة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: صفات المهتدين:

إن الهداية صفةٌ سامية، وعزة شامخة، ومنقبة عظيمه، وسعادة أبدية، لا ينالها إلا الشرفاء، ولا يوصف بها إلا الأتقياء، ولا يسعى إلى تحقيقها إلا الموحدون، ولا ينالها إلا الموفقون، ولا يحافظ عليها إلا الصابرون، ولا يخسرها إلا المحرومون،

(١) لمسات بيانية، فاضل السامرائي ص ٤٨-٤٩.

ولا يحجب عنها إلا المبعدون، وصفهم الله تعالى بصفات عديدة في كتابه الكريم، ومن أبرز هذه الصفات، ما يلي:

١. التمسك بالكتاب والسنة.

من صفات المهتدين على صراط الله المستقيم: اعتصامهم بالله تعالى وبكتابه، وتمسكهم به، قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠١].

أي: ومن يستمسك بدين الله وكتابه ورسوله، فقد حصل له الهدى إلى الصراط المستقيم لا محالة، كما تقول إذا جئت فلانا فقد أفلحت، إذ هو حينئذ لا تخفى عليه المهالك، ولا تروج لديه الشبهات[١].

فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد[٢].

وفي هذا إشارة إلى أن التمسك بدين الله وبكتابه كفيل بأن يبعد المسلمين الذين لم يشاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم عما يبيته لهم أعداؤهم من مكر وخداع[٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥].

أي: طريقًا واضحًا قَصْدًا قوامًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات[٤].

وهذا الصراط المستقيم لا يهدى إليه إلا الاعتصام بالقرآن الكريم واتباع سنة سيد المرسلين، والمراد أنه يوقفهم ويثبتهم على تلك الهداية إلى الصراط المستقيم[٥].

فالآية واضحة الدلالة على أن خصوصية الهداية إلى الصراط المستقيم يبلغ بها درجة الصالحين ومنازل المقربين لمن توفر فيه شرط الإيمان بالله والاعتصام به.

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم

(١) تفسير المراغي ٤/ ١٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٨٦.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ١٩٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٨١.
(٥) تفسير المراغي ٦/ ٣٧.

﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة[1].

فبينت هذه الآية أن الهداية التي خص الله بها أحبابه إنما جاءت نتيجة لاتباعهم سبل مراضاته بالإيمان به ورسوله وبما أنزل عليه من كلامه والعمل بما فيه، ولم تأت الهداية التي خص الله بها المهتدين إلا ثمرة من ثمار ما قدموا من شروط الأهلية لذلك.

٢. شكر النعم.

من صفات أهل الهداية: شكرهم للنعم التي يمن الله تعالى بها عليهم، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٢١﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير هاديًا مهتديًا.

﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي: مديمًا لطاعة ربه، مخلصًا له الدين.

﴿حَنِيفًا﴾ مقبلًا على الله بالمحبة، والإنابة والعبودية معرضا عمن سواه.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها.

فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين.

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في علمه وعمله فعلم بالحق وآثره على غيره[2].

فعلم أن الإيمان بالله والشكر لنعمه وطاعة العبد لربه وعبادته من أعظم المؤهلات لاصطفائه بهذه الهداية الخاصة.

٣. الإخبات لله سبحانه.

من صفات المهتدين على الصراط المستقيم عدم الاعتراض لأمر الله تعالى والانقياد لحكمه والإذعان لشرعه.

قال الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٤﴾ [الحج: ٥٤].

فقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: يصدقوه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥١.

وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات[1].

فهذه بعض صفات أهل الاستقامة على الصراط المستقيم ذكرها الله تعالى في كتابه للعمل بها والسير على منهج أهلها من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ثالثًا: ثمرات الهداية إلى الصراط المستقيم:

من أعظم النعم التي امتن الله تعالى على عباده المؤمنين: نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم، وهذه النعمة لها ثمار يانعة، ولا يستطيع أحد أن يحيط بها، ولكن يكفينا هنا أن نشير إلى بعض ما تضمنته آيات الكتاب المبين والتي قد كشفت عن صنوف الثمار التي يتلقاها، ومن ذلك ما يلي:

١. ثمرات الهداية إلى الصراط المستقيم في الدنيا.

- **الهداية إلى الحق.**

فالإيمان يورث أهله هداية الدلالة والبيان، وهداية التوفيق والإلهام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤].

فإذا أراد الله بعبده خيرا أمده بنور التحقيق، وأيده بحسن العصمة، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل فلا يظله غمام الريب، وينجلي عنه غطاء الغفلة، فلا تأثير لضباب الغداة في شعاع الشمس عند متوع النهار[2].

فهداية الدلالة والبيان تتضمن تعليم المؤمن ما لا يعلم من الحق المجمل والمفصل، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أي: واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو سبحانه الذي يعلمكم ما يصلح لكم[3].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

أي: فصلًا بين الحق والباطل، ليظهر به حقكم، ويخفي به باطل من خالفكم[4].

أما هداية التوفيق والإلهام فتتضمن الإلهام للحق، والتوفيق لاتباعه، والثبات عليه إلى الممات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: ١٧].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٤٦.

(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٥٥٥.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٦٥١.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٩٠.

والمراد أنه زادهم إيمانا وعلما وبصيرة في الدين وآتاهم تقواهم أي: ألهمهم إياها وأعانهم عليها[1].

والله تعالى يسدد عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه، فقال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والمعنى: «والله يسدد من يشاء من خلقه، ويرشده إلى الطريق القويم على الحق الذي لا اعوجاج فيه، كما هدى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، لما اختلف الذين أوتوا الكتاب فيه بغيًا بينهم، فسددهم لإصابة الحق والصواب فيه.

وفي هذه الآية البيان الواضح على صحة ما قاله أهل الحق: من أن كل نعمة على العباد في دينهم أو دنياهم، فمن الله جل وعز.

فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؟ أهداهم للحق، أم هداهم للاختلاف؟ فإن كان هداهم للاختلاف فإنما أضلهم! وإن كان هداهم للحق، فيكف قيل: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؟

قيل: إن ذلك على غير الوجه الذي ذهبت إليه، وإنما معنى ذلك: فهدى الله الذين آمنوا للحق فيما اختلف فيه من كتاب الله الذين أوتوه، فكفر بتبديله بعضهم، وثبت على الحق والصواب فيه بعضهم- وهم أهل التوراة الذين بدلوها-فهدى الله مما للحق بدلوا وحرفوا، الذين آمنوا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم[2].

ويقول جل ثناؤه: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٤].

فهداهم ربهم في الدنيا إلى طريق الرب الحميد، وطريقه: دينه دين الإسلام الذي شرعه لخلقه وأمرهم أن يسلكوه[3].

فتبين أن أحق الناس بالهداية هم أهل الإيمان وهذه الثمرة من أعظم وأجل الثمار التي يجنيها المؤمن في هذه الحياة.

❁ الحياة الطيبة.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

يقول ابن كثير: «هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا؛ وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله»، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٨٦.

(٣) المصدر السابق ١٨/ ٥٩٥.

عمله في الدار الآخرة والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت»[1].

فشرط الحياة الطيبة لكل ذكر وأنثى الإيمان والعمل الصالح.

❁ السعة في الرزق.

قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

أي: يسرنا لهم خير السماء والأرض كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها قيل: المراد بخير السماء: المطر، وخير الأرض: النبات، والأولى حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٦].

❁ الولاية.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فهو النصير والمعين للمهتدين على الصراط المستقيم، يتولاهم بعونه، ولا يكلهم إلى غيره سبحانه يقول ابن جرير في معنى الآية: «نصيرهم وظهيرهم ويتولاهم بعونه وتوفيقه»[3].

❁ النصر على الأعداء.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

قال الشوكاني: «هذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، وفيه تشريف للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين»[4].

❁ التمكين والاستخلاف في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

فمن الثمار العظيمة التي تحصل لأهل الاستقامة على الصراط المستقيم: التمكين لهم، فالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم وجعلهم أئمة الناس والولاة عليهم،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٢٤.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦٥.

وخضوع البلاد لهم لمن أعظم ثمار الإيمان؛ لأن به تصلح البلاد ويحصل الأمن للناس.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

وهذا الوعد عام يعم جميع الأمة بشرط الإيمان والعمل الصالح.

قال الشوكاني: «وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم في الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم وهو وعد يعم جميع الأمة، وقيل هو خاص بالصحابة ولا وجه لذلك فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم، بل ويمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله فقد أطاع الله ورسوله»[(١)].

فهذه جملة من ثمار الاستقامة على الصراط المستقيم في الحياة الدنيا، ومن ضعفت استقامته لم تتحقق له هذه الثمار، كما هو مشاهد اليوم في حال المسلمين، ويوم يستقيم المسلمون على الصراط المستقيم، ويجددون إيمانهم ويثبتونه سيجنون هذه الثمار العظيمة إلى جانب ما ينتظرهم من الفوز العظيم في الدار الآخرة.

٢. ثمرات الهداية إلى الصراط المستقيم في الآخرة.

- **تحقيق الأمن.**

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «فإن الطاعة حصن الله الأعظم، من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمانا، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيرًا بالعطب، يحسب أن كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصد إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»[(٢)].

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا، وهو الواقع[(٣)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٥.

(٢) الجواب الكافي ص ٧٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٧٧.

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

والمعنى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا﴾ بكل صدق وإخلاص: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ربنا الله تعالى وحده، لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته.

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: ثم ثبتوا على هذا القول، وعملوا بما يقتضيه هذا القول من طاعة الله تعالى في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر، ومن اقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم في كل أحواله.

وتنزل الملائكة عليهم بهذه البشارات يشمل ما يكون في حياتهم عن طريق إلهامهم بما يشرح صدورهم، ويطمئن نفوسهم، كما يشمل تبشيرهم بما يسرهم عند موتهم وعند بعثهم[1].

- النور الذي يكشف الطريق الموصلة إلى الجنة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: ١٢].

يقول ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم، كما قال عبدالله ابن مسعود في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة[2].

وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك، حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه)[3].

فهذا النور دليل لهم في طريقهم إلى الجنة، بسبب استقامتهم على صراط الله المستقيم في الحياة الدنيا.

- دخول الجنة.

أهل الصراط المستقيم يكرمهم الله تعالى بجنته، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥].

وفي الهداية المذكورة في الآية قولان:

أحدهما: أن يعطيهم في الدنيا ما يؤديهم إلى نعيم الآخرة، وهذا قول الحسن.

والثاني: هو الأخذ بهم في الآخرة إلى طريق الجنة، وهو قول بعض المفسرين

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٣٤٩-٣٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٧٨.

البصريين[1].

❁ الدخول في معية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن دخل في معية هؤلاء وفي كنفهم نال ما نالوه من الحظ عند الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

فلما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريدا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩][2].

وهذه الصحبة لهذا الرهط العلوي، إنما هي من فضل الله. فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها، إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم[3].

وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين، كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وإنه لا يجوز، بل المراد كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان؛ لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضا، وإذا أرادوا الزيارة والتلاقي قدروا عليه، فهذا هو المراد من هذه المعية[4].

وكان سبب نزول هذه الآية ما أخرجه الطبراني، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيك، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩][5].

(١) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٤٧-٥٤٨.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٤٥.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٩٩.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٣٣.
(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ١/ ١٥٢، رقم ٤٧٧، والصغير ١/ ٥٣، رقم ٥٢، وذكره الواحدي في أسباب النزول، ص ١٦٦.
وصححه الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ص ٧٠.

ولا شك أن هذه الميزة من أعظم ما توجهت به إرادة المحبين للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها من أعز المطالب، ويدل على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: (سل) فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: (أو غير ذلك) قلت: هو ذاك. قال: (فأعني على نفسك بكثرة السجود)[1].

فهذه نماذج من الثمار التي وعد الله بها أهل الاستقامة على الصراط المستقيم، والمقصود هنا ذكر طرف من هذا النعيم الذي ينعم به أهل الاستقامة في الحياة الآخرة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، ١/ ٣٥٣، رقم ٤٨٩.

الإعراض عن الصراط المستقيم

أولًا: الصادون عن الصراط المستقيم:

لم يكتف أعداء الصراط المستقيم برفض الدعوة إليه، بل سعوا جاهدين إلى صد الناس عن اتباع ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهذا الصد يكون بالرفض تارة، وبالإكراه تارة أخرى، وتارة بالتهديد، وتارة بالتشويه والتحريف، ولما كان دأب هؤلاء هو التشهير بالدعاة، فقد رد الله تعالى عليهم بمثل ما فعلوا، فشهر الله بهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، وبين أنهم معادون للحق ومعادون لأنفسهم في اعتراض دعوة الرسول عليهم الصلاة والسلام وتنفير الناس منها، ومن هؤلاء:

١. إبليس.

أخبر الله تعالى عن إبليس بتوعده وتعهده ببذل غاية جهده في إضلال بني آدم، والترصد لهم، كما يترصد قطاع الطرق للسائرين فيها، فيصدهم، ويحاول بكل وسيلة أن يصرفهم عن الصراط المستقيم، ولن يتكاسل عن العمل على إفسادهم وإضلالهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

﴿شَكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

أي: كما أغويتني. قال ابن عباس: كما أضللتني. وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي.

وقال بعض النحاة: الباء هاهنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

قال مجاهد: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني: الحق.

وقال محمد بن سوقة، عن عون بن عبد الله: يعني طريق مكة.

قال ابن جرير: والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك كله[1].

فالله تعالى خلق في نفس إبليس مقدرة على إغواء الناس بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وإنه جعله باقيا متصرفا بقواه الشريرة إلى يوم البعث، فأحس إبليس أنه سيكون داعية إلى الضلال والكفر، بجبلة قلبه الله إليها قلبا وهو من المسخ النفساني، وإنه فاعل ذلك لا محالة مع علمه بأن ما يصدر عنه هو ضلال وفساد، فصدور ذلك منه كصدور النهش من الحية، وكتحرك الأجفان عند مرور شيء على العين، وإن كان صاحب العين لا يريد تحريكهما.

وإضافة الصراط إلى اسم الجلالة على تقدير اللام، أي: الصراط الذي هو لك أي الذي جعلته طريقا لك، والطريق لله هو العمل الذي يحصل به ما يرضي الله بامتثال أمره، وهو فعل الخيرات، وترك السيئات، فالكلام تمثيل هيئة العازمين على فعل الخير، وعزمهم عليه، وتعرض الشيطان لهم بالمنع من فعله، بهيئة الساعي في طريق إلى مقصد ينفعه وسعيه إذا اعترضه في طريقه قاطع طريق منعه من المرور فيه[2].

وهذا الكلام يدل على أن إبليس علم أن الله خلق البشر للصلاح والنفع، وأنه أودع فيهم معرفة الكمال، وأعانهم على بلوغه بالإرشاد، فلذلك سميت أعمال الخير، في حكاية كلام إبليس، صراطا مستقيما، وأضافه إلى ضمير الجلالة، لأن الله دعا إليه وارد من الناس سلوكه، ولذلك أيضا ألزم لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم.

وبهذا الاعتبار كان إبليس عدوا لبني آدم؛ لأنه يطلب منهم ما لم يخلقوا لأجله وما هو مناف للفطرة التي فطر الله عليها البشر،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٤٦-٤٧.

فالعداوة متأصلة وجبلية بين طبع الشيطان وفطرة الإنسان السالمة من التغيير[1].

وقد اتخذ إبليس مسلك التخويف من أعداء الله للصد عن صراط الله المستقيم، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه النسائي عن سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال، فعصاه فجاهد)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فمن فعل ذلك كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقًا على الله أن يدخله الجنة)[2].

وذكر الله تعالى توعد إبليس وتعهده، ورد الله تعالى عليه في سورة الحجر، فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

معنى قوله: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: مرجعكم كلكم إلي، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤][3].

قال المراغي: أي: قال هذا طريق مرجعه إلي، فأجازي كل امرئ بعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، كما يقول القائل لمن يتوعده ويتهدده: طريقك علي. وأنا على طريقك: أي: لا مهرب لك مني، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾. وهذا رد لما جاء في كلام إبليس حيث قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧][4].

فالصراط هو الذي يسلكه عباد الله المخلصون، وليس لإبليس سلطان على

(١) المصدر السابق ٨/ ٤٨.
(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، ٦/ ٢١، رقم ٣١٣٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ١١٨٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٥.
(٤) تفسير المراغي ١٤/ ٢٣.

أحد ممن سلك هذا السبيل، واستقام على هذا الصراط؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أوجب على نفسه حراسة المستقيمين عليه، من كيد الشيطان وإغوائه[1].

فكأنه سبحانه يقول في الرد على إبليس الذي اعترف بعجزه عن إغواء المخلصين من عباد الله: يا إبليس، إن عدم قدرتك على إغواء عبادي المخلصين منهج قويم من مناهجي التي اقتضتها حكمتي وعدالتي ورحمتي، وسنة من سنني التي آليت على نفسي أن ألتزم بها مع خلقي. إن عبادي المخلصين لا قوة ولا قدرة لك على إغوائهم؛ لأنهم حتى إذا مسهم طائف منك. أسرعوا بالتوبة الصادقة إلي، فقبلتها منهم. وغفرت لهم زلتهم، ولكنك تستطيع إغواء أتباعك الذين استحوذت عليهم فانقادوا لك[2].

٢. الكافرون.

الكفار هم ممن أغواهم الشيطان عن صراط الله المستقيم، فانتهجوا نهجه، فجعلوا من أنفسهم حواجز مانعة عن وصول الدين القويم إلى الناس.

ولقد عنى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من صد هؤلاء عن صراط الله المستقيم، فهذا نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام يعظ قومه ويأمرهم بترك الصد عن صراط الله المستقيم، وعدم الاعتراض لدعوته فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٦].

قال ابن كثير: نهاهم شعيب عليه السلام، عن قطع الطريق الحسي والمعنوي[3].

والمعنى: ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة تهددون من آمن بي بالقتل، وتخيفونه بأنواع الأذى، وتلصقون بي وأنا نبيكم التهم التي أنا بريء منها، بأن تقولوا لمن يريد الإيمان برسالتي: إن شعيبًا كذاب وإنه يريد أن يفتنكم عن دينكم.

وقوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به، وتطلبون لطريقه العوج بإلقاء الشبه أو بوصفها بما ينقصها، مع أنها هي الطريق المستقيم الذي هو أبعد ما يكون عن شائبة الاعوجاج[4].

فإن قيل: صراط الحق واحد، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٧/ ٢٣٨.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٤٥-٤٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٧.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣٢١.

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فكيف قيل بكل صراط؟.

الجواب: صراط الحق واحد ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة فكانوا إذا رأوا واحدا يشرع في شيء منه منعوه وصدوه[(١)].

وهذا هو نفس السلوك الذي اتخذه كفار قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم فقد نصبوا له العداء وحذروا منه وقعدوا بكل صراط يوعدون ويهددون من آمن به، بل بلغ بهم الأمر أن منعوا المؤمنين عن المسجد الحرام وصدوهم عنه، فكانوا يعتقدون أنهم أهل المسجد، وأولى به من المؤمنين، ولذلك كانوا يصدون عن سبيل الله، ويصدون عن المسجد الحرام أيضًا.

قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقد كان ذلك في صلح الحديبية لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه من المدينة إلى مكة قاصدين العمرة ومصطحبين الهدي، فصدهم كفار مكة عن بلوغ المسجد الحرام وصدوا الهدي أيضًا أن يذبح في مكانه قربة لله تعالى.

٣. أهل الكتاب.

من طبيعة الكفرة من أهل الكتاب: الصد عن الصراط المستقيم، وغرضهم: ابتغاء سبيل الله معوجة: وقد جاءت الآيات صريحة في بيان هذه الغاية من الصد، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩].

أي: لأي سبب تصرفون من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم واتبعه عن الإيمان الذي يرقى عقل المؤمن بما فيه من طلب النظر في الكون، وترقى روحه بتزكيتها بالأخلاق الطيبة، والأعمال الصالحة، وتكذبون بذلك كفرا وعنادا، وكبرا وحسدا، وتلقون الشبهات الباطلة في قلوب الضعفاء من المسلمين بغيا وكيدا للنبي صلى الله عليه وسلم، تبغون لأهل دين الله ولمن هو على سبيل الحق عوجا وضلالا، وزيغا عن الاستقامة على الهدى والمحجة، وأنتم عارفون بتقدم البشارة به، عالمون بصدق نبوته، ومن كان كذلك فلا يليق به الإصرار على الباطل والضلال والإضلال[(٢)].

فسبيل الله هو الطريق المستقيم. وما عداه عوج غير مستقيم، وحين يصد الناس عن سبيل الله وحين يصد المؤمنون عن منهج الله، فإن الأمور كلها تفقد استقامتها، والموازين كلها تفقد سلامتها، ولا يكون في

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٥/ ١٠٧.

(٢) تفسير المراغي ٤/ ١٣.

الأرض إلا العوج الذي لا يستقيم»[1].

وفي هذه الآية دليل على شدة حرمة صرف الناس عن الحق والمعروف بأنواع الحيل وضروب الكذب والخداع.

❁ المنافقون.

يسلك المنافقون نفس مسلك أعداء الدين من الكفرة المشركين، فيحاولون بشتى الطرق الصد عن صراط الله المستقيم، قال الله تعالى عن حالهم إن دعو إلى تحكيم شرع الله ودينه، ليكون هو الحكم الفصل في الخصومات: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١].

فهذا هو حال المنافقين لا يريدون لدين الله السمو والمرجعية والسيادة والحكم الفصل، ولذلك أكد الله وقوع فعل الصد حقيقة لا مجازًا بالمصدر فقال: ﴿صُدُودًا﴾، والمعنى أعرضوا إعراضًا لا رجعة فيه، وانصرفوا انصرافًا لا عودة فيه، وهذا نابع من عداوتهم لدين الله، ولذلك يجعلون مهمتهم أن يصرفوا أنفسهم والناس من حولهم عن هذا الدين القويم، فقاتلهم الله أنى يؤفكون.

ثانيًا: صفات المعرضين:

بين الله صفات المعرضين عن الصراط المستقيم، الصادين عنه؛ من أجل أن يتميزوا ويعرفوا ويحذر كيدهم ومكرهم، ويتقي شرهم، فمن هذه الصفات:

١ . العدول عن الصراط المستقيم.

من صفات المعرضين عن الصراط المستقيم: الكفر بالله واليوم الآخر، فهم لا يصدقون بالبعث بعد الموت، وقيام الساعة ومجازاة الله عباده في الآخرة عادلون عن محجة الحق وعن قصد السبيل وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣-٧٤].

فسبب تنكبهم وابتعادهم عن دين الإسلام هو عدم إيمانهم بالآخرة، فالقلب الذي لا يعمره الإيمان بلقاء الله والجزاء يوم القيامة صاحبه ضد كل خير ومعروف ولا يؤمل منه بسبب كفره بالآخرة.

قال ابن عاشور: نزه سبحانه الإسلام عما وسموه به من الأباطيل، والتنزيه بإثبات ضد ذلك وهو أنه صراط مستقيم، أي: طريق لا التواء فيه ولا عقبات، فالكلام تعريض بالذين اعتقدوا خلاف ذلك.

وإطلاق الصراط المستقيم عليه من

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٣٧.

حيث إنه موصل إلى ما يتطلبه كل عاقل من النجاة وحصول الخير، فكما أن السائر إلى طلبته لا يبلغها إلا بطريق، ولا يكون بلوغه مضمونا ميسورا إلا إذا كان الطريق مستقيمًا فالنبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى الإسلام دعاهم إلى السير في طريق موصل بلا عناء.

والتأكيد بـ «إن» واللام باعتبار أنه مسوق للتعريض بالمنكرين على ما دعاهم إليه النبي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك التوكيد في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾.

والتعبير فيه بالموصول وصلته إظهار في مقام الإضمار حيث عدل عن أن يقول: وإنهم عن الصراط لناكبون. والغرض منه ما تنبئ به الصلة من سبب تنكبهم عن الصراط المستقيم أن سببه عدم إيمانهم بالآخرة.

والتعريف في الصراط للجنس، أي: هم ناكبون عن الصراط من حيث هو حيث لم يتطلبوا طريق نجاة فهم ناكبون عن الطريق بله الطريق المستقيم؛ ولذلك لم يكن التعريف في قوله: ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ للعهد بالصراط المذكور؛ لأن تعريف الجنس أتم في نسبتهم إلى الضلال بقرينة أنهم لا يؤمنون بالآخرة التي هي غاية العامل من عمله فهم إذن ناكبون عن كل صراط موصل إذ لا همة لهم في الوصول[1].

وفي معنى قوله: ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ تأويلات:

أحدها: لعادلون، قاله ابن عباس.

الثاني: لحائدون، قاله قتادة.

الثالث: لتاركون، قاله الحسن.

الرابع: لمعرضون، قاله الكلبي، ومعانيها متقاربة[2].

وهذا تهديد للمشركين، بأنهم إذا هم لم يسيروا على هذا الصراط المستقيم الذي يدعوهم إليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يكن أمامهم إلا طرق الضلال، يركبونها إلى حيث تهوي بهم في قرار الجحيم[3].

٢. التيه في الضلال والغواية.

من صفات المعرضين عن الصراط المستقيم أنهم تائهين في غيهم وضلاهم، وحال من يعرض عن صراط الله المستقيم كمن يمشي في طريق وهو يتعثر في كل ساعة ويخر على وجهه في كل خطوة لتوعر طريقه واختلاف أجزائه انخفاضًا وارتفاعًا.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

فهو غارق في الكفر قد انتكس قلبه،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٩٨-٩٩.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٦٣.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١١٦٢.

فصار الحق عنده باطلا والباطل حقًا، فهو في غاية الضلال البعيد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾ [إبراهيم: ٣].

وهذا أقصى مراتب الضلال هو الذي وصفه الله تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبة في غاية البعد عن طريق الحق، فإن شرط الضدين أن يكونا في غاية التباعد، مثل السواد والبياض، فكذا هاهنا الضلال الذي يكون واقعا على هذا الوجه يكون في غاية البعد عن الحق فإنه لا يعقل ضلال أقوى وأكمل من هذا الضلال[1].

٣. الكسب الحرام.

فالمال نعمة من نعم الله على العبد، وجعل الله طرقًا مشروعة لكسبه وإنفاقه، وحرم أكل الأموال بالباطل، ونهى عن البخل به وعدم الإنفاق منه في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤﴾ [التوبة: ٣٤]

وفي ذلك تنبيه للمؤمنين حتى يتجنبوا تلك الصفات، ولذلك وجه الخطاب إليهم، والمعنى: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بوحدانية ربهم، إن كثيرًا من العلماء والقراء من بني إسرائيل من اليهود والنصارى، يأخذون الرشى في أحكامهم، ويحرفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتبًا ثم يقولون: «هذه من عند الله»، ويأخذون بها ثمنًا قليلا من سفلتهم، ويصدون عن سبيل الله فيمنعون من أراد الدخول في الإسلام الدخول فيه، بنهيهم إياهم عنه[2].

٤. الحلف بالأيمان الكاذبة.

إن هذه الصفة ملازمة للمنافقين المعرضين عن الصراط المستقيم، فقد وصفهم الله تعالى بذلك في أكثر من موضع في كتابه.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون: ٢].

أي: أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وتستروا بالأيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم أنهم صادقون وبهذه الوسيلة صدوا كثيرا من الناس عن سبيل الله بتثبيط من لقوا عن الدخول فى الإسلام بتحقير شأنه في نظرهم[3].

والآية دليل على ارتكابهم جرمين

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٦١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٦.

(٣) تفسير المراغي ٢٨/ ٢٣.

كبيرين: الحلف بالأيمان الكاذبة، والصد عن الدخول في الإسلام والجهاد في سبيل الله، مما استوجب وصف أفعالهم بالقبح[1].

٥. البطر والرياء.

وهاتان صفتان اتصف بهما كفار قريش حيث خرجوا يوم بدر بعد أن سلمت عيرهم قاصدين البطر بهذا الخروج والسمعة بين الناس، مليئة نفوسهم بالغرور والصد عن سبيل الله، فتمت المواجهة بينهم وبين المؤمنين وكان النصر والغلبة للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، وهذا هو مصير كل صاد عن سبيل الله معرضا عن الحق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٤٧].

أي: عليكم أن تمتثلوا ما أمرتم به وتنتهوا عما نهيتم عنه، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة وغيرها من الأماكن، بطرين بما أوتوا من قوة ونعم لا يستحقونها، مرائين الناس بها ليعجبوا بها ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة.

وهم بخروجهم يصدون عن سبيل الله وهو الإسلام بحملهم الناس على عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم، والإعراض عن تبليغ دعوته، وتعذيب من أجابها إذا لم يكن لهم من يمنعهم ويحميهم من قرابة أو حلف أو جوار[2].

وهكذا نرى مجموعة من هذه الصفات للمعرضين عن الصراط المستقيم، حتى يعرفوا من خلالها، فيحذر كيدهم ومكرهم وعداؤهم.

ثالثًا: جزاء المعرضين:

مما لا شك فيه أن المعرضين عن الصراط المستقيم قد ناصبوا الله ودينه ورسوله والمؤمنين العداء في الدنيا والآخرة، حيث انطلقوا من أسباب كفرية مفسدة، واتصفوا بصفات كفرية مهلكة، وكانت لهم وسائل وغايات مجرمة، فلا بد أن تكون عاقبة أمرهم خسرًا، وتنقلب غاياتهم غلبة عليهم وحسرة، ويذوقوا السوء والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة بسبب ما قدمت أيديهم من ظلم وفتنة، وسنقف على وعيد الله بهم من خلال الآيات نفسها المتعلقة بجريمة الإعراض، وذلك فيما يلي:

١. ضنك المعيشة وعدم الهناء.

قال ابن القيم: في معنى قول الله تعالى في آخر سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ٢١٦.

(٢) تفسير المراغي ١٠/ ١٢.

﴿أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]: أخبر الله أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى بأن له معيشة ضنكا. أي: عذاب القبر، وهذا عذاب البرزخ، وكذلك يترك في العذاب وينسى فيه كما ترك العمل بالآيات.

وهذا عذاب دار البوار، وله الضنك والضيق في الحياة الدنيا كذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

فأخبر سبحانه في هذه الآية أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين، وضلاله به، إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطانًا يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتد. حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه. وعاين هلاكه وإفلاسه، قال: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة، وهؤلاء لا عذر لهم يوم القيامة لأن ضلالهم منشؤه الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو ظن أنه مهتد فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل فإنما أتي من تفريطه وإعراضه[1].

٢. استحقاقهم العذاب.

فقد توعد الله المعرضين عن سبيل الله حيث تهددهم الله بذلك في أكثر من آية.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: ٣٤].

والمعنى: وأي شيء يمنع من عذاب مشركي قريش بعد خروجك -يا محمد- وخروج المؤمنين المستضعفين من بين أظهرهم؟ إنه لا مانع أبدًا من وقع العذاب عليهم وقد وجد مقتضية منهم، حيث اجترحوا من المنكرات والسيئات ما يجعلهم مستحقين للعقاب الشديد[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل: ٩٤].

فقوله: ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: بما فتنتم من أراد الإيمان بالله ورسوله عن الإيمان ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٣.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٩٢.

الآخرة، وذلك نار جهنم[1].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ [المجادلة: ١٦].

والجنة: الوقاية والسترة، من جن، إذا استتر، أي: وقاية من شعور المسلمين بهم ليتمكنوا من صد كثير ممن يريد الدخول في الإسلام عن الدخول فيه؛ لأنهم يختلقون أكذوبات ينسبونها إلى الإسلام والمسلمين[2].

والله تعالى يضاعف العذاب للصادين عن دينه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

يقول تعالى ذكره: الذين جحدوا يا محمد نبوتك وكذبوك فيما جئتهم به من عند ربك، وصدوا عن الإيمان بالله وبرسوله، ومن أراده زدناهم عذابًا يوم القيامة في جهنم فوق العذاب الذي هم فيه قبل أن يزادوه[3].

وتوعدهم الله تعالى بالسعير، فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٥].

أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله[4].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٤٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٧٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٣٦.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يس: ٦٦].

أي: ولو نشاء لعاقبناهم على كفرهم، فطمسنا على أعينهم، فصيرناهم عميا لا يبصرون طريقا، ولا يهتدون إلى شيء.

وإجمال المراد: لو شئنا لأذهبنا أحداقهم، فلو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذي اعتادوا سلوكه لم يستطيعوا ذلك[5].

٣. حبوط الأعمال.

ضلال الأعمال هو انحرافها عن صراط الله المستقيم، وسيرها في طريق آخر لا يرضي الله، وإنما يرضي النفس الأمارة بالسوء، ويرضي الشيطان، وهذا مدعاة لخسران العمل وحبوطه.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

ولذلك حكم الله بضلال الأعمال على ما يفعله الصادون عن سبيل الله تعالى.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد: ١].

أي: الذين جحدوا توحيد الله وآياته،

(٥) تفسير المراغي ٢٣/ ٢٨.

وعبدوا غيره، وصدوا غيرهم عن دين الإسلام، بنهيهم عن الدخول فيه، وهم كفار قريش، أبطل الله ثواب أعمالهم وأحبطها وجعلها ضائعة، ولم يجعل لها ثوابًا ولا جزاء في الآخرة.

فكل ما يسمونه مكارم الأخلاق، كصلة الرحم، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وعمارة المسجد الحرام بالسقاية والخدمة للحجاج، وإجارة المستجير، لا يقبل مع الكفر والصد[1].

وحكم الله تعالى على هذه الأعمال الضالة الصادرة عن المعرضين بالحبوط وهو الضياع وعدم الانتفاع بها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [محمد: ٣٢].

فأخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئا، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات[2].

٤. حمل الأوزار في يوم القيامة والخلود في النار.

بين الله تعالى جزاء المعرضين عن القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ [طه: ٩٩-١٠٣].

أي: كما قصصنا عليك نبأ بني إسرائيل في خبر العجل وعبادتهم له، كذلك نقص عليك أخبار الأمم السابقة، كما وقعت، من غير زيادة ولا نقصان، لتكون عبرة وعظة، وذات فائدة في فهم ظروف الأحداث الجديدة، وأحوال الأمة في معاداة رسولها. وقد أعطيناك من عندنا ذكرا، وهو القرآن المجيد، لتتذكر به على الدوام، ولأنه لم يعط نبي من الأنبياء قبلك مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر المتقدمين غيره، وفيه صلاح الدين والدنيا والآخرة، ويكون المراد من كلمة «الذكر» القرآن.

وكل من كذب بالقرآن وأعرض عن اتباعه، فلم يؤمن به، ولا عمل بشرائعه وأحكامه، وابتغى الهدى في غيره، فإن هذا

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٢٢.

المعرض يتحمل إثما عظيما، ويتعرض لعقوبة ثقيلة يوم القيامة، بسبب إعراضه عن كتاب الله، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

والإعراض عن القرآن يشمل كل من بلغه هذا الكتاب، من العرب والعجم من أهل الكتاب وغيرهم من الوثنيين والماديين، وأصحاب النحلات والملل، والمذاهب الفاسدة، والعقائد الباطلة.

ويكون أولئك المعرضون عن القرآن خالدين ماكثين على الدوام في الجزاء الأخروي، وهو النار لا محيد لهم عنه، وبئس الحمل الذي حملوه حملهم من الأوزار والأثقال، جزاء إعراضهم[١].

موضوعات ذات صلة:

الاستقامة، الإسلام، الإيمان، الضلال، الهداية

(١) التفسير الوسيط للزحيلي ٢/ ١٥٤٧.

صفات الله عز وجل

عناصر الموضوع

مفهوم صفات الله عز وجل	٥٨
صفات الله في الاستعمال القرآني	٥٩
الألفاظ ذات الصلة	٦٠
منهج السلف في الإيمان بصفات الله	٦٣
أنواع صفات الله تعالى	٦٧
دلائل إثبات صفات الكمال لله تعالى	٧٩
طريقة القرآن في عرض صفات الله	٨٥
الصفات المنفية عن الله تعالى	٩٢
ثمرات الإيمان بصفات الله تعالى	٩٤

مفهوم صفات الله عز وجل

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الصفة: الأمارة اللازمة للشيء»[(١)]، وقال: «النعت: وصفك الشيء بما فيه من حسن»[(٢)]؛ لأن الصفة: مصدر وصفت الشيء أصفه وصفًا، وصفة، مثل: وعد، وعدًا، وعدة[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات وهي الأمارة اللازمة بذات الموصوف الذي يعرف بها»[(٤)]، «وهي ما وقع الوصف مشتقًا منها، وهو دالٌّ عليها، وذلك مثل العلم والقدرة ونحوه»[(٥)].

«فإذا قيل: إن الله بكل شيء عليم، وهو رحمن رحيم، وعلى كل شيء قدير، فالمعاني القائمة بالرب تعالى التي دل عليها هذا الكلام، من العلم، والرحمة والقدرة، هي الصفات المقصودة، وإنكار ذلك مكابرة، أو عناد وضلال، وإلحاد»[(٦)].

«وقد نص الأئمة على أن صفاته داخلة في مسمى أسمائه، فلا يقال: إن علمه وقدرته زائدة عليه. ومن قال من أهل السنة: إن الصفات، زائدة على الذات، فمراده: أنها زائدة على ما أثبته أهل التعطيل، الذين أثبتوا ذاتًا مجردة عن الصفات؛ لأنه ليس في الوجود ذات مجردة عن الصفات، كما لا يمكن وجود صفات بلا ذات تقوم بها، فتخيل وجود أحدهما دون الآخر من الهوس»[(٧)].

والخلاصة: أن صفات الله هي التي تقوم بذاته، فهي نعوت الكمال القائمة بالذات الإلهية كالعلم والحكمة والسمع والبصر والكلام... إلخ.

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٤٤٨.
(٢) المصدر السابق ٦/ ١١٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص ١٣٣.
(٥) الكليات، الكفوي ص٥٤٦ ويعنى بالوصف هنا الاسم؛ فالعلم صفة، والعالم وصف دال عليها، والقدرة صفة، والقادر وصف دال عليها.
(٦) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبدالله الغنيمان ١/ ٦٢.
(٧) المصدر السابق ١/ ٢٢٦.

صفات الله في الاستعمال القرآني

لم ترد «صفات الله» كمركب إضافي في الاستعمال القرآني، ولكن تحدث القرآن عن صفات الله عز وجل من خلال:

أولًا: الحديث عن ألفاظ ذات صلة بصفات الله تعالى.

كحديث القرآن عن أسماء الله تعالى الحسنى بما تتضمنه من صفات الكمال التي تليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى مثل: الحي، القيوم، الرحيم، الودود، العزيز، السميع، القدير، العليم، البصير.

ثانيًا: الحديث عن أنواع صفات الله تعالى:

فقد تحدث القرآن الكريم عن صفات الله تعالى في كثير من آياته، وهي تنقسم إلى:

١. **الصفات الذاتية:** كالحياة، والعلم، والقدرة، والعزة، والسمع، والبصر، والقوة.
٢. **الصفات الفعلية:** كالاستواء على العرش، والخلق، والرزق، والإتيان والمجيء لفصل القضاء يوم القيامة، والغضب، والرضا، والمحبة، والكره، والقبض، والبسط، وغير ذلك من أفعال الرب تبارك وتعالي.
٣. **الصفات المقابلة أو السلبية:** كالنوم، والموت، والضلال، والنسيان، والعجز، والتعب، والظلم، والبخل، والفقر، وغير ذلك مما تحدث عنه القرآن.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأسماء:

الاسم لغة:

مشتق من السمو والعلو[١].

وهو اللفظ الموضوع لمعنًى تعيينًا أو تمييزًا، وقيل: هو العلامة توضع على الشيء يعرف بها[٢].

الحسنى لغة:

حسنى على وزن «فعلى» تأنيث أفعل التفضيل، فحسنى تأنيث أحسن، ككبرى تأنيث أكبر، وصغرى تأنيث أصغر، ولذلك يخطئ من يقول: «إنها تأنيث حسن»؛ لأن تأنيث «حسن» «حسنة»، ومن أجل ذلك لا يصح أن نقول: «إن أسماء الله حسنة»، والصواب هو أن نقول: «إن أسماء الله حسنى» كما وصفها الله بذلك[٣].

الأسماء الحسنى اصطلاحًا:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها»[٤].

وقيل: أسماء الله تعالى الحسنى: هي التي تسمى بها سبحانه، واستأثر بها لنفسه جل وعلا[٥].

الصلة بين صفات الله والأسماء الحسنى:

أسماء الله الحسنى هي الأصل الذي يؤخذ منها الصفات العلى، ومن هنا فالعلاقة ذات صلة كبيرة إذ مبناها على الأصل وفرعه، وقد قال ابن القيم رحمه الله: « إثبات صفات الكمال الذي أثبته لنفسه وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل وأن ما وصف الله به فهو الذي يوصف به لا ما وصفه به الخلق »[٦]. ولعل هذا مما يبين لنا العلاقة بين الاسم والصفة.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٨٣.
(٢) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، التميمي ص ٢٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ص ٣٠.
(٤) شرح العقيدة الأصفهانية ص٣١.
(٥) مفهوم الأسماء والصفات، سعيد ندى، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ٤٥، ص٧٩.
(٦) الصواعق المرسلة ١/ ١٥٤.

ومن أهم ما يبين هذه الصلة الكبيرة بين الأسماء والصفات ما يلي:

أولًا: «إن أهل السنة يؤمنون بأن كل اسم من أسماء الله يدل على معنى الذي نسميه «الصفة» فلذلك كان لزامًا على من يؤمن بأسماء الله تعالى أن يراعي الأمور التالية:

١. الإيمان بثبوت ذلك الاسم لله عز وجل.

٢. الإيمان بما دل عليه الاسم من المعنى أي «الصفة».

٣. الإيمان بما يتعلق به من الآثار والحكم والمقتضى.

مثال ذلك: «السميع»: اسم من أسماء الله الحسنى، فلابد من الإيمان به من:

- إثبات اسم «السميع» باعتباره اسمًا من أسماء الله الحسنى.
- إثبات «السمع» صفة له.
- إثبات الحكم «أي الفعل» وهو أن الله يسمع السر والنجوى.
- إثبات المقتضى والأثر: وهو وجوب خشية الله ومراقبته وخوفه والحياء.

منه عز وجل»[(١)].

وكذلك الصفات: «فأهل السنة يرون أنه لزامًا على من أراد إثبات الصفات والإيمان بأنها صفات كمال تثبت لله حقيقة أن يراعي الأمور التالية:

١. إثبات تلك الصفة فلا يعاملها بالنفي والإنكار.

٢. أن لا يتعدى بها اسمها الخاص الذي سماها الله به، بل يحترم الاسم كما يحترم الصفة، فلا يعطل الصفة ولا يغير اسمها ويعيرها اسمًا آخر، كما تسمي المعطلة سمعه وبصره وكلامه «أعراضا» ويسمون وجهه ويديه وقدمه « جوارح و أبعاضًا »ويسمون علوه على خلقه واستواءه على عرشه «تحيزًا».

٣. عدم تشبيهها بما في المخلوق، فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

٤. اليأس من إدراك كنهها وكيفياتها، فالعقل قد يئس من تعرف كنه الصفة وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول أهل السنة: «بلا كيف »، أي: بلا كيف يعقله البشر، فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك.

٥. تحقيق المقتضى والأثر لتلك الصفات، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها

(١) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، التميمي ص ٣٥.

ومقتضياتها -أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها- فعلم العبد بتفرد الرب بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، يثمر له عبودية « التوكل»، وعلم العبد بجلاله الله وعظمته وعزه، يثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة»[1].

ثانيًا: إن أسماء الله مشتقة من صفاته:

وترجع أسماء الله الحسنى من حيث معانيها إلى أحد الأمور التالية:

١. صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

٢. ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق، والرازق، والبارئ، والمصور.

٣. ما يرجع إلى التنزيه المحض: ولا بد من تضمنه ثبوتًا إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس، والسلام، والأحد.

٤. ما دل على جملة أوصاف عديدة ولم يختص بصفة معينة بل هو دال على معنى مفرد نحو: المجيد، العظيم، الصمد.[2]

(١) المصدر السابق ص ٣٦

(٢) الصفات الإلهية تعريفها أقسامها، التميمي ١٧-١٨.

منهج السلف في الإيمان بصفات الله

لقد فهم السلف الصالح آيات الصفات فهمًا صحيحًا، حيث آمنوا بها إيمانًا يقينيًا، وذلك بإثباتها إثباتًا يثبت به اللفظ ومعناه اللائق به، ونفيها نفيًا يستوجب ضده، وهو الكمال المنفي من هذا السلب، فالواجب في أسمائه الحسنى وصفاته العليا أن تثبت على ما جاء به الكتاب والسنة على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، فلا ينفى منها اسم ولا ينفى من معانيها صفة ولا تشبه بصفات المخلوقين.

أولًا: بيان طريق أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته مع أمثلة توضح تلك الطريقة:

أهل السنة والجماعة طريقتهم في أسماء الله وصفاته أنهم يعتبرون أن ما ثبت من أسماء الله وصفاته في كتاب الله أو فيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو حق على حقيقته يراد به ظاهره ولا يحتاج إلى تحريف المحرفين وذلك لأن تحريف المحرفين مبني على سوء فهم، أو سوء قصد حيث ظنوا أنهم إذا أثبتوا تلك النصوص، أو تلك الأسماء والصفات على ظاهرها ظنوا أن ذلك إثبات للتمثيل، ولهذا صاروا يحرفون الكلم عن مواضعه، وقد يكونون ممن لم يفهموا هذا الفهم ولكن لهم سوء قصد في تفريق هذه الأمة الإسلامية شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون.

ولهذا كانت طريقتهم أن أسماء الله وصفاته توقيفية لا يمكن لأحد أن يسمي الله بما لم يسم به نفسه، أو أن يصف الله بما لم يصف به نفسه.

فإن أي إنسان يقول: إن من أسماء الله كذا، أو ليس من أسماء الله، أو أن من صفات الله كذا، أو ليس من صفات الله بلا دليل أنه لاشك قول على الله بلا علم[1].

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣٣].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: تجعلوا له شريكًا في عبادته، وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك، مما لا علم لكم به»[2].

ثم إن طريقتهم في أسماء الله تعالى أن ما سمى الله به نفسه. فإن كان من الأسماء المتعدية فإنهم يرون من شرط تحقيق الإيمان به ما يلي:

(١) انظر معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، التميمي ص ٣٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٠٩.

١. أن يؤمن المرء بذلك الاسم اسمًا له عز وجل.
٢. أن يؤمن بما دل عليه من الصفة سواء كانت الدلالة تضمنًا أو التزامًا.
٣. أن يؤمن بأثر ذلك الاسم الذي كان مما دل عليه الاسم من الصفة[(١)].

وهنا أضرب أمثلة:

من أسماء الله تعالى: «البصير» وقد ورد في آيات كثير منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ومن صفاته: البصر: قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة:١].

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله سبب نزول هذه الآية فقال: «عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقًا فقال: وقال الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة، فذكره»[(٢)].

ويجب على طريق أهل السنة والجماعة أن يثبت هذا الاسم من أسماء الله فيدعى الله به ويعبد به فيقال مثلًا عبد البصير ويقال يا بصير يا عليم وما أشبه، وكذلك أيضًا يثبت ما دل عليه هذا الاسم من الصفة وهي البصر فنثبت لله بصرًا عامًا شاملًا لا يخفى عليه أي شيء وإن ضعف، كما نثبت أيضًا أثر هذه الصفة وهي أن الله تبارك وتعالى يبصر كل شيء وبهذا ننتفع انتفاعًا كبيرًا من أسماء الله وصفاته لأنه يلزم من هذه الأمور الثلاثة التي أثبتناها في الاسم إذا كان متعديًا أن نتعبد الله به فنحقق قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

قال ابن سعدي رحمه الله تعالى: «ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلًا: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف، ونحو ذلك»[(٣)].

ومن أسمائه «الحي».

فإن الحي من أسماء الله عز وجل،

(١) انظر معتقد أهل السنة والجماعة ص ٣٦، الصفات الإلهية تعريفها، أقسامها، التميمي ١٧-١٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٤.

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا، رقم ٧٣٨٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٠.

نثبته اسمًا لله فنقول من أسماء الله تعالى: «الحي» وندعو الله به فنقول: «يا حي، يا قيوم» وهو متضمن لصفة الحياة الكاملة المطلقة وقد ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝٥٨﴾ [الفرقان:٥٨].

«وإنما قال: ﴿عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، لأن من توكل على الحي الذي يموت فإذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعًا، وأما الله تعالى فهو حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه».(١)

ونؤمن بما دل عليه من صفة، سواء كان ذلك تضمنًا أو التزامًا، وهي الحياة الكاملة التي تتضمن كل ما يكون من صفات الكمال في الحي من علم، وقدرة، وسمع، وبصر، وكلام وغير ذلك، فعلى هذا نقول إذا كان الاسم من أسماء الله غير متعد فإن تحقيق الإيمان به يكون بأمرين:

أحدهما: إثباته اسمًا من أسماء الله.

والثاني: إثبات ما دل عليه من الصفة على وجه الكمال اللائق بالله تبارك وتعالى.(٢)

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «اعلموا أن مبحث آيات الصفات دل القرآن العظيم أنه يتركز على ثلاثة أسس من جاء بها كلها فقد وافق الصواب وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي صلي الله عليه وسلم، وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخل بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضل. وكل هذه الأسس الثلاثة يدل عليها قرآن عظيم.

أحد هذه الأسس الثلاثة هو تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين. وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص:٤].

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

الثاني من هذه الأسس: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠].

والإيمان بما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيلزم كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وينزه ربه جل وعلا عن أن تشبه صفته صفة المخلوقين. وحيث أخل بأحد هذين الأصلين وقع في هوة ضلال، لأن

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٤/ ٥٥٤.
(٢) انظر معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات ص ٣٦، الصفات الإلهية تعريفها أقسامها ص ١٧-١٨.

من تنطع بين يدي رب السموات والأرض وتجرأ على الله بهذه الجرأة العظيمة ونفى عن ربه وصفا أثبته لنفسه فهذا مجنون فالله جل وعلا يثبت لنفسه صفات كمال وجلال فكيف يليق لمسكين جاهل أن يتقدم بين يدي رب السموات والأرض ويقول هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك ويلزمه من النقص كذا وكذا، فأنا أؤوله وألغيه وآتي ببدله من تلقاء نفسي من غير استناد إلى الكتاب أو السنة. سبحانك هذا بهتان عظيم!

ومن ظن أن صفة خالق السموات والأرض تشبه شيئا من صفات الخلق فهذا مجنون جاهل، ملحد ضال، ومن آمن بصفات ربه جل وعلا منزها ربه عن تشبيه صفاته بصفات الخلق فهو مؤمن منزه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل. وهذا التحقيق هو مضمون قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فهذه الآية فيها تعليم عظيم يحل جميع الإشكالات ويجيب عن جميع الأسئلة حول الموضوع. ذلك لأن الله قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

ومعلوم أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فكأن الله يشير للخلق ألا ينفوا عنه سمعه وبصره بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر وأن ذلك تشبيه بل عليهم أن يثبتوا له صفة سمعه وبصره على أساس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

فالله جل وعلا له صفات لائقة بكماله وجلاله والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم وكل هذا حق ثابت لا شك فيه. إلا أن صفة رب السموات والأرض أعلى وأكمل من أن تشبه صفات المخلوقين، فمن نفي عن الله وصفا أثبته لنفسه فقد جعل نفسه أعلم بالله من الله سبحانك هذا بهتان عظيم!

ومن ظن أن صفة ربه تشبه شيئًا من صفة الخلق فهذا مجنون ضال ملحد لا عقل له يدخل في قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨].

ومن يسوى رب العالمين بغيره فهو مجنون»[1].

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، محمد الأمين الشنقيطي ١-٤.

أنواع صفات الله تعالى

أولًا: الصفات الذاتية:

هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، فضابطها: هي التي لا تنفك عن الذات. أو: التي لم يزل ولا يزال الله متصفًا بها. أو: الملازمة لذات الله تعالى. وضابط هذه الصفات: هي ما قام بالذات الإلهية مما يميزها عن غيرها، ووردت به نصوص الكتاب والسنة[1].

كالعلم والقدرة والسمع والبصر والعزة والحكمة والعلو والعظمة. ومنها الصفات الخبرية: كالوجه واليدين والعينين. وتأمل اسم الله الأحد المتضمن صفة الأحدية، فهذه الصفة تدل على الكمال المطلق؛ كما تدل على نفي صفة الولادة والتولد، وإن ورد ذلك في آية أخرى وهي قوله في سورة الإخلاص: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص:٣].

وقوله في سورة الجن: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣].

وصفة النفس كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

فهي تدل على الكمال المطلق، ولنضرب أمثلة على هذه الصفات الذاتية والتي منها:

١. الوجه.

قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن:٢٧].

«يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨].

وكقوله إخبارًا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٩].

قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذو العظمة والكبرياء»[2].

٢. اليدان.

قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥].

(١) الصفات الإلهية تعريفها أقسامها، التميمي ص ١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٩٤ بتصرف.

«إن لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع. مفردًا، ومثنًى، ومجموعًا.

فالمفرد: كقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١].

والمثنى كقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾

والمجموع كقوله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس:٧١].

فحيث ذكر اليد مثناة. أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد، وعدى الفعل بالباء إليهما، وقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾. وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها، ولم يعد الفعل بالباء.

فهذه ثلاثة فروق: فلا يحتمل ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ من المجاز ما يحتمله عملت أيدينا فإن كل أحد يفهم من قوله: عملت أيدينا ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: فبما كسبت أيديكم وأما قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء؟! فكيف إذا ثنيت؟!

وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، والمراد الإضافة إليه كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج:١٠].

﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وأما إذا أضيف إليه الفعل، ثم عدي بالباء إلى اليد مفردة أو مثناة، فهو مما باشرته يده»[(١)].

٣. العينان.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

«أي اصبر على أذاهم ولا تبال بهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا والله يعصمك من الناس.

وقوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر:١٣-١٤].

وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾: أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصارًا لنوح عليه السلام» كبرياء[(٢)].

ثانيًا: الصفات الفعلية:

هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، وضابطها: هي التي تنفك عن الذات.كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا.. إلخ.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية، لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية، لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء، كما في

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤٥٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٠٧، ٤٤٢.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته «فإعادته للأموات، فرد من أفراد آثار خلقه، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء. ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي:في الحال من غير تمانع»[1].

ومن الصفات الفعلية:

- صفات العفو والمغفرة والرحمة والعزة والقدرة.

قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٩].

«وقد بين تعالى في هذه الآية أن العفو مع القدرة من صفاته تعالى، وكفى بذلك حثًا عليه، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢] دليل على أن العفو والصفح على المسيء المسلم من موجبات غفران الذنوب، والجزاء من جنس العمل، ولذا لما نزلت قال أبو بكر: بلى والله نحب أن يغفر لنا ربنا، ورجع للإنفاق على مسطح، ومفعول «أن يغفر الله» محذوف للعلم به، أي: يغفر لكم ذنوبكم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

«أخبر تعالى بأن العزة كلها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

والمقصود من هذا التهييج طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد»[3].

صفة الرحمة والعلم: قال تعالى ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: «ويعني بقوله: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء من خلقك، فعلمت كل شيء، فلم يخف عليك شيء، ورحمت خلقك، ووسعتهم برحمتك»[4].

وقد جمع الدليلين العلم والرحمة معًا في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾»[5].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠٠.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٨٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٥.
(٤) جامع البيان ٢١/ ٣٥٥.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٦٩.

❁ صفة المحبة.

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]: « إثبات المحبة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ وهي محبة حقيقية على ظاهرها؛ وليس المراد بها الثواب؛ ولا إرادة الثواب خلافًا للأشاعرة، وغيرهم من أهل التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنى لا يكون بمثابته؛ فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة؛ وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين؛ وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص، ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين؛ فقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم: (أن أحدًا -وهو حصى- جبلٌ يحبنا ونحبه)[1]؛ والإنسان يجد أن دابته تحبه، وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنت إليه،وأتت إليه؛ وكذلك غيره من المواشي؛ والإنسان يجد أنه يحب نوعا من ماله أكثر من النوع الآخر»[2].

❁ صفة الاستواء على عرشه.

ذكرت في سبعة مواضع «أنه جل وعلا وصف نفسه بالاستواء على العرش، ووصف غيره بالاستواء على بعض المخلوقات، فتمدح جل وعلا في سبع آيات من كتابه باستوائه على عرشه، ولم يذكر صفة الاستواء إلا مقرونة بغيرها من صفات الكمال، والجلال، القاضية بعظمته وجلاله جل وعلا، وأنه الرب وحده، المستحق لأن يعبد وحده

وقد علمت مما تقدم أنه لا إشكال في ذلك، وأن للخالق جل وعلا استواء لائقًا بكماله وجلاله، وللمخلوق أيضا استواء مناسبًا لحاله، وبين استواء الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق على نحو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير كما تقدم إيضاحه»[3].

«ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله تعالى وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥].

كيف استوى؟ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ».

هذا هو اللفظ المشهور عنه واللفظ الذي نقل عنه بالسند قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب،

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٢/ ٣٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه، ٥/ ١٠٣، رقم ٤٠٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل المدينة، ٢/ ٩٩٣، رقم ١٣٦٥.

(٣) أضواء البيان ٢/ ٢٨-٢٩ بتصرف وحذف.

والسؤال عنه بدعة[1].

وهذا اللفظ أدق من اللفظ الذي سقناه قبل، لأن كلمة «الكيف غير معقول» تدل على أنه إذا انتفى عنه الدليلان النقلي والعقلي فإنه لا يمكن التكلم به.

هذه الصفة من صفات الله لم يرد اسم من أسماء الله مشتق منه فلم يرد من أسمائه المستوى، ولكننا نقول: إنه استوى على العرش ونؤمن بهذه الصفة على الوجه اللائق به ونعلم أن معنى الاستواء هو العلو، فهو علو خاص بالعرش، ليس العلو المطلق على جميع المخلوقات، بل هو علو خاص ولهذا نقول في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

أي: علا واستقر على وجه يليق بجلاله وعظمته، وليس كاستواء الإنسان على البعير والكرسي مثلًا؛ لأن استواء الإنسان على البعير والكرسي استواء مفتقر إلى مكانه الذي يستوي عليه، أما استواء الله جل ذكره فإنه ليس استواء مفتقر، بل إن الله تبارك وتعالى غني عن كل شيء، كل شيء مفتقر إلى الله، والله تبارك وتعالى غني عنه.

ومن زعم أنه بحاجة إلى عرش يقله فقد أساء بربه عز وجل فهو سبحانه وتعالى غير مفتقر إلى شيء من مخلوقاته، بل جميع مخلوقاته مفتقرة إليه.

فاعلم أنه لا يجوز أبدًا أن يتخيل كيفية ذات الله، أو كيفية صفة من صفاته، واعلم أنك إن تخيلت أو حاولت التخيل فإنك لابد أن تقع في أحد محذورين: إما التحريف والتعطيل، وإما التمثيل والتشبيه.

ولهذا يجب علينا أن لا نتخيل أي شيء من كيفية صفات الله عز وجل، لا أقول لا تثبتوا المعنى يجب أن يثبت، لكن تخيل كيفية تلك الصفة لا يمكن أن تتخيلها وعلى أي مقياس تقيس هذا التخيل.

لا يمكن أبدًا أن تتخيل كيفية صفات الله عز وجل لا بالتقدير ولا بالقول يجب عليك أن تتجنب هذا لأنك تحاول ما لا يمكن الوصول إليه بل تحاول ما يخشى أن يوقعك في أمر عظيم لا تستطيع الخلاص منه إلا بسلوك التمثيل والتعطيل وذلك لأن الرب جلت عظمته لا يمكن لأحد أن يتخيله على كيفية معينة لأنه إن فعل ذلك فقد قفا ما ليس له به علم وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

وإن تخيله على وصف مقارب بمثيل فقد مثل الله والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وبهذا نعلم أن من أنكر صفات الله أنكرها لأنه تخيل أولًا، ثم قالوا: هذا التخيل يلزم منه التمثيل ثم حرفوا!!

(١) انظر الحلية، أبو نعيم ٦/ ٣٢٥-٣٢٦.

ولهذا نقول: إن كل معطل ومنكر للصفات فإنه ممثل سبق تمثيله تعطيله، مثل أولًا وعطل ثانيًا ولو أنه قدر الله حق قدره ولم يتعرض لتخيل صفاته سبحانه ما احتاج إلى هذا الإنكار وإلى هذا التعطيل»[1].

❁ صفة النزول.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢٢].

قال ابن كثير: «﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلى الله عليه وسلم، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم حتى تنتهي النوبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: (أنا لها، أنا لها).[2]، فيذهب فيشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء فيشفعه الله في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة «سبحان» فيجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا»[3].

وقال ابن القيم: «المجيء والإتيان والذهاب والهبوط هذه من أنواع الفعل اللازم القائم به، كما أن الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والقبض، والبسط أنواع الفعل المتعدي وهو سبحانه موصوف بالنوعين وقد يجمعهما كقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤]»[4].

وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها، ولكننا نعلم علم اليقين أنه سبحانه لا يشاء شيئًا إلا وهو موافق للحكمة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان:٣٠][5].

الفرق بين القسمين:

أن الصفات الذاتية لا تنفك عن الذات، أما الصفات الفعلية يمكن أن تنفك عن الذات على معنى أن الله إذا شاء لم يفعلها.

ولكن مع ذلك فإن كلا النوعين يجتمعان في أنهما صفات لله تعالى أزلًا وأبدًا لم يزل ولا يزال متصفًا بهما ماضيًا ومستقبلًا لائقان بجلال الله عز وجل[6].

و«صفات الله عز وجل ذاتية وفعلية، والصفات الفعلية متعلقة بأفعاله، وأفعاله لا

(١) انظر منهاج أهل السنة والجماعة في العقيدة والعمل، ابن عثيمين ٨-١٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ٩/ ١٤٦ رقم ٧٥١٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٩٩.
(٤) مختصر الصواعق ٢/ ٢٥٤.
(٥) القواعد المثلى، ابن عثيمين ٢٣-٢٥.
(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ص١٧٢.

منتهى لها»[1].

و«معاني صفات الله عز وجل الثابتة بالكتاب أو السنة معلومة، وتفسر على الحقيقة، لا مجاز ولا استعارة فيها البتة، أما الكيفية؛ فمجهولة»[2].

ثالثًا: صفات مقابلة:

وفي الآيات والأحاديث، نجد أفعالًا لربنا سبحانه وتعالى وهي كما يلي بحسب التتبع:

أفعال: الخداع، المكر، الكيد، الاستهزاء، اللعن، الغضب، الاستخلاف، الإغراق، السخرية، السخط، النسيان، التدمير، النزول، الفرح، الضحك. فهل يمكن أن نشتق من هذه الأفعال-وأمثالها- أسماء لله تعالى فنسميه جل وعلا بالأسماء الآتية؟: الخادع أو المخادع، الماكر، الكايد، المستهزئ، اللاعن، الغاضب، المستخلف، المغرق، الساخر، الساخط، الناسي، المدمر، النازل الفرح، الضاحك؟ لا ينبغي أن نسمي الله بهذه الأسماء، ونقرنها بالأسماء الحسنى كالرحمن، والرحيم، والغفور، والودود، واللطيف، والعلي، والكبير، والسميع، والبصير، ونحو ذلك مما سمى الله تعالى به نفسه من أسمى وأجل وأعظم الأسماء، ولا أن نصف الله بها على سبيل الإطلاق، بل نصفه بها بقيودها وأحوالها وضوابطها التي استخدمت فيها.

ولنضرب أمثلة من القرآن الكريم تبين ذلك:

قال تعالى في المنافقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة:٩].

فإنه ذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨﴾ [البقرة:٨].

فكان هذا القول منهم كذبًا وظلمًا في حق التوحيد والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه.

«وقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾ [المجادلة:١٨].

ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة:٩].

يقول: وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

(١) القواعد المثلى، ابن عثيمين ص٣٠.
(٢) انظر التدمرية، ابن تيمية ص ٤٣-٤٤.

﴿الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]»[1].

وقال تعالى حيث ذكر بعض مكر اليهود بقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران:٥٤].

«قال تعالى مخبرًا عن ملأ بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى، عليه السلام، وإرادته بالسوء والصلب، حين تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافرًا، فأنهوا إليه أن هاهنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك، ويفند الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زانية حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله من بينهم، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، عليه السلام، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك. وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعنادا للحق ملازما لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾»[2].

وبين بعض مكر قوم صالح بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل:٥٠-٥١].

«﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله على وجه الخفية حتى من قومهم خوفا من أوليائه ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بنصر نبينا صالح عليه السلام وتيسير أمره وإهلاك قومه المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾»[3].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزخرف:٥٥].

«قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿آسَفُونَا﴾ أسخطونا. وقال الضحاك، عنه: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضًا، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وغيرهم من المفسرين»[4].

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق:١٥-١٦].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٠٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣٢.

«قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ نسبة هذا الفعل له تعالى، قالوا: إنه من باب المقابلة كقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٤-١٥].

وقد اتفق السلف أنه لا ينسب إلى الله تعالى على سبيل الإطلاق، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم، وإنما يطلق في مقابل فعل العباد؛ لأنه في غير المقابلة لا يليق بالله تعالى، وفي معرض المقابلة فهو في غاية العلم والحكمة والقدرة، والكيد أصله المعاجلة للشيء بقوة[(١)].

ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله، عز وجل بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك.

قال: وبنحو ما قلنا فيه روي الخبر عن ابن عباس: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان، حدثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ قال: يسخر بهم للنقمة منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال السدي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة قالوا: يمدهم: يملي لهم. وقال مجاهد: يزيدهم.

قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام:١١٠]»[(٢)].

وصفة النسيان كما في قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وقوله ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف:٥١].

أي: نعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وقال: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه:١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية:٣٤].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله «وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر»[(٣)].

والسبب في أنه لا ينبغي ولا يشرع لنا

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٨/ ٤٩٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٤. وانظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٣٠٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٤.

أن نسمي الله سبحانه بمثل تلك الأسماء كالخادع وما ماثل ذلك أمران:

الأول: أنه لم يرد بها النص في الكتاب أو السنة.

الثاني: أن هذه الأسماء -كالخادع أو المخادع، والماكر، والكايد، والمستهزئ، والغاضب، والناسي، والمدمر وما ماثلها- ليست ممدوحة على إطلاقها، بل تمدح في مواضع، وتذم في مواضع أخرى، ومن ثم لا يجوز أن تطلق أفعالها على الله مطلقًا، فلا ينبغي أن يقال بإطلاق: الماكر، المخادع، المستهزئ، الكائد.

وغر هذا الجاهل أنه سبحانه وتعالى أطلق على نفسه هذه الأفعال، فاشتق له منها أسماء، وأسماؤه كلها حسنى، فأدخلها في الأسماء الحسنى، وأدخلها وقرنها بالرحيم، الودود، الحكيم، الكريم. وهذا جهل عظيم.

فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقًا، بل تمدح في موضع وتذم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله مطلقًا، فلا يقال: إنه تعالى يمكر ويخادع يستهزئ ويكيد.

وكذلك بطريق الأولى لا يشتق له منها أسماء يسمى بها، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى المريد، ولا المتكلم، ولا الفاعل، ولا الصانع، لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم، وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها كالحليم، والحكيم، والعزيز، والفعال لما يريد، فكيف يكون منها الماكر، المخادع، المستهزئ؟

ثم يلزم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الحسنى: الداعي، والآتي، والجائي، والذاهب، والقادم، والرائد، والناسي، والقاسم، والساخط، والغضبان، واللاعن، إلى أضعاف أضعاف ذلك من الأسماء التي أطلقت على نفسه أفعالها في القرآن. وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل.

والمقصود أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد، والمكر، والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه؟!(١).

وقال ابن القيم في موضع آخر: «والصواب أن معانيها- «أي: معاني هذه الألفاظ» تنقسم إلى محمود، ومذموم، فالمذموم، منها: يرجع إلى الظلم والكذب، فما يذم منها إنما يذم لكونه متضمنًا للكذب، أو الظلم، أو لهما جميعًا. وهذا هو الذي ذمه الله تعالى»(٢).

ثم قال: «فعلم أنه لا يجوز ذم هذه الأفعال على الإطلاق، كما لا تمدح على الإطلاق، والمكر والكيد والخداع لا يذم

(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة، البعلي ٢/ ٣٢-٣٤.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٤-٣٥.

من جهة العلم، ولا من جهة القدرة، فإن العلم والقدرة من صفات الكمال، وإنما يذم من جهة سوء القصد، وفساد الإرادة، وهو أن الماكر المخادع يجور، ويظلم بفعل ما ليس له فعله، أو ترك ما يجب عليه فعله»[1].

وقال البغوي: «وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يسم به، ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وجملته: أن أسماء الله تعالى على التوقيف فإنه يسمى جوادًا ولا يسمى سخيا، وإن كان في معنى الجواد، ويسمى رحيما ولا يسمى رفيقا، ويسمى عالما ولا يسمى عاقلا وقال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

وقال عز من قائل: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران:٥٤].

ولا يقال في الدعاء: يا مخادع، يا مكار، بل يدعى بأسمائه التي ورد بها التوقيف على وجه التعظيم، فيقال: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا عزيز، يا كريم، ونحو ذلك ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠] في الآخرة»[2].

وقال ابن تيمية: «ولهذا سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء، فكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، ولم يلزم من اتفاق الاسمين تماثل مسماهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص، لا اتفاقهما، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص، فضلا عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص.

فقد سمى الله نفسه حيًا، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وسمى بعض عباده حيًا، فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الروم:١٩].

وليس هذا الحي مثل هذا الحي، لأن قوله ﴿ٱلْحَيُّ﴾ اسم لله مختص به، وقوله ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ اسم للحي المخلوق مختص به يتفقان إذا أطلقا وجردا عن التخصيص، ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج، ولكن العقل يفهم من المطلق قدرًا مشتركا بين المسميين، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق، والمخلوق عن الخالق، ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته، يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق،

(١) المصدر السابق.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٠٧.

وما دل عليه بالإضافة والاختصاص، المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى.

وكذلك سمى الله نفسه عليمًا حليمًا، وسمى بعض عباده عليمًا، فقال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:٢٨] يعني إسحاق، وسمى آخر حليمًا، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات:١٠١] يعني إسماعيل، وليس العليم كالعليم، ولا الحليم كالحليم»[1].

والخلاصة أن الصفات الواردة في كتاب الله منها ما اشتق من أسماء الله الواردة في القرآن وقد بينا تلك الأسماء مثل «الله» يتضمن صفة الألوهية و«الرب» يتضمن صفة الربوبية و«السميع» يتضمن صفة السمع و«العليم» يتضمن صفة العلم، وهكذا في باقي الأسماء، وأما الصفات غير المشتقة من تلك الأسماء فقد ذكرناها بأدلتها. فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقًا، بل تمدح في موضع وتذم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله مطلقًا، فلا يقال إنه تعالى يمكر ويخادع يستهزئ ويكيد، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات، بمعنى أنه لا يجوز أن تجعل أفعالًا مطلقًا يتصف به الله تبارك وتعالى، بل تقيد بضوابطها وأحوالها.

والمقصود أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد، والمكر، والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه؟!

(١) التدمرية ص٢١-٢٤.

دلائل إثبات صفات الكمال لله تعالى

أولًا: الأدلة الفطرية:

أما دلالة الفطرة على وجود الله الذي يدخل فيه الإيمان بأسمائه وصفاته فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سابق تفكير أوتعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.)[1].

فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقًا به مدينًا له، لكن يعرض لها ما يفسدها، ومعرفة الحق تقتضي محبته ومعرفة الباطل تقتضي بغضه بما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل «فإن كل أحد يرجع إلى فطرته وغريزته عرف خالقه، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

وهذه المعرفة هي التي أخبر الله تعالى بوجودها في الكفار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت:٦٥].

فحين ظهرت لهم حال الضرورة وانقطعوا عن أسباب الخلق، ولم يبق لهم تعلق بأحد، ظهرت منهم المعرفة الغريزية»[2].

ففي آية لقمان اعتراف منهم بأن الذي خلق ذلك هو الله وحده، وفي آية العنكبوت قادتهم فطرتهم في حالة الضرورة إلى دعوتهم الله تعالى دون سواه، وهذه هي المعرفة الغريزية.

ففي نفس كل مخلوق من العبر والحكمة والرحمة وغير ذلك ما يدل على خالقه وهو الله تبارك وتعالى وأنه واحد صمد، المتصف بصفات الكمال المطلق من الحكمة والرحمة والخبرة والعلم.. إلخ.

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الذي شرعه الله لك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنازة، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨.

(٢) الحجة في بيان المحجة، الأصبهاني ٢/ ٤١.

من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره»[1].

وقال ابن سعدي: «يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامة دينه فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة. وشرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة، ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها»[2].

ومما يدل على دلالة الفطرة أيضًا: قوله صلى الله عليه وسلم للجارية: (أين الله؟) قالت: في السماء. قال: (من أنا؟) قالت: رسول الله. قال: (أعتقها فإنها مؤمنة)[3].

«ولقد أودع الله في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته وأنه الموصوف بكل كمال المنزه عن كل عيب ونقص»[4].

وهذا هو الشاهد من دلالة الفطرة على إثبات صفات الله عز وجل، فإن الفطرة السليمة تثبت إلهًا كاملًا لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ولا يكون كاملًا إلا إذا اتصف بكل صفة كمال وتنزه عن كل صفة نقص، وكل صاحب فطرة قويمة يقر من داخله أن إثبات الصفات كمال، ونفيها نقص، فالذي ليس له صفات إما معدوم وإما ناقص، والله منزه عن ذلك وهذه المعرفة لا يترتب عليها كفر ولا إيمان ولا تتفاوت في ذاتها فهي معرفة عامة ولا يترتب عليها ثواب وعقاب ولكنها نافعة فيها لو تركت بدون معارضة خارجية لأنها تقود إلى الإيمان كذا لو تبعها نظر شرعي في ملكوت الله واتباع لشرع الله تعالى فإنها بذلك تكون وسيلة للهداية.

وقد روى البيهقي عن الإمام الشافعي أنه قال: « فأما فرض الله تعالى على القلب: فالإقرار والمعرفة، والعقد والرضا والتسليم بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له »[5].

وقال أبو بكر الخلال: «أخبرني

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣١٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٤١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، ١/ ٣٨١، رقم ٥٣٧.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٤٦٧.
(٥) مناقب الشافعي ١/ ٣٨٧- ٣٩٣.

عبدالملك بن عبد الحميد قال: قال ـ أي أحمد ـ: والذي نقول: كل مولود يولد على الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها. قلت: فما الفطرة الأولى: هي الدين ؟قال: نعم»[1].

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم عن علم الله تعالى)[2].

فالفطرة تبع للوحي في دلالتها على الصفات، وليست دليلًا مستقلًا عنه.

ثانيًا: الأدلة النقلية (الكتاب والسنة):

فقد دلت الأدلة القرآنية والحديثية الكثيرة على إثبات صفات الله عز وجل، فالوحي: «هو الطريق الوحيد المأمون العاقبة، الموصل للحقيقة، المعرف بالله عز وجل فيما يتعلق بوجوده وربوبيته وبألوهيته وبأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ هو كلام الله عن نفسه وكلام أنبيائه الذين هم أعرف الخلق به، فهو الأسلم والأحكم والأبين والأفضل. فاتباع الوحي: قرآن وسنة، هو اتباع الصراط المستقيم، وبغير طريق الوحي لا تكون معرفة الله صحيحة صافية تبعث الإيمان في القلب وتشيد أركانه لأن معرفة أسماء الله وصفاته من أعظم الغيبيات التي أمرنا بالإيمان بها ولا أحد أعلم بالله من الله ولا أحد أعلم به سبحانه من خلقه كرسوله صلى الله عليه وسلم »[3].

و قد قال الحافظ ابن كثير في رسالته في العقائد: « فإذا نطق الكتاب العزيز ووردت الأخبار الصحيحة بإثبات السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعظمة والمشيئة والإرادة والقول والكلام و الرضى والسخط والحب والبغض والفرح والضحك: وجب اعتقاد حقيقته، من غير تشبيه بشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، والانتهاء إلى ما قاله الله سبحانه وتعالى ورسوله من غير إضافة ولا زيادة عليه، ولا تكييف له، ولا تشبيه، ولا تحريف، ولا تبديل، ولا تغيير، وإزالة لفظه عما تعرفه العرب وتصرفه عليه، والإمساك عما سوى ذلك»[4].

ومن الأدلة الواردة في السور القرآنية: سورة الفاتحة والإخلاص والفلق والناس

(١) انظر: كتاب السنة ص٨٨١.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، ٥/ ٢٦، رقم ٢٦٤٢.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٣/ ٦٤، رقم ١٠٧٧.

(٣) تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز الكردي ص١٩٥- ٢٠٤.
(٤) انظر: علاقة الإثبات والتفويض، معطي رضا نعسان ص ٥١.

إلخ، وهذا أمر متواتر يعرفه العالم والمتعلم، وقد اتخذت دلالة لقرآن الكريم في تقرير هذا المعنى في هذا الباب جميع أنواع الدلالات وهي دلالة المطابقة والتضمن والالتزام.

ثالثًا: الأدلة العقلية:

الله سبحانه قد زود العباد بنوافذ المعرفة من الحواس المختلفة، لينظروا في آياته المبثوثة في كل جزء من صنعته التي هي أدلة متنوعة عليه ومناسبة لكل مستويات الإفهام والحفظ من الفهم والتعقل والإدراك وصاحب العقل الصحيح يفكر في الكون حوله فيعرف أن كل موجود لا بد له من خالق أوجده، وهذا الخالق لا بد أن يكون عظيمًا قويًا عالمًا حكيمًا، وينظر ويفكر في النفس البشرية وما أودع الله فيها من الأسرار وما حوته من بدائع الخلق في أجهزتها المختلفة فيستدل بها على الخالق الباريء المصور وعلى بعض صفاته سبحانه وتعالى.

ويفكر ويتأمل في نعم الله المتوالية على الأكوان التي لا يستطيع أحد إحصاءها إلا ربها وخالقها، فيستدل بها على المنعم المعطي الرزاق.

ويدله كل جمال وكمال لا نقص فيه، منحه الله عز وجل لمخلوقاته، على أن موجده ومانحه سبحانه وتعالى أولى به، فيثبت له الجمال المطلق والكمال المطلق وينزهه عن كل نقص وعيب وهذا هو ما يسمى بقياس الأولى، وهو القياس العقلي الصحيح الذي يستخدم للوصول لمعرفة أسماء الله وصفاته، إذ هو قياس عقلي قرآني. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية:١٧].

قال ابن عادل: «لما ذكر الله تعالى أمر الدارين تعجب الكفار من ذلك، فكذبوا وأنكروا، فذكرهم الله صنعته، وقدرته، وأنه تعالى قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض، وذكر الإبل أولًا؛ لأنها كثيرة في بلاد العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم تعالى على عظيم من خلقه، قد ذلله للصغير من خلقه يقوده وينيخه وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الأحمال، وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره، فأراهم عظيمًا من خلقه، يدلهم بذلك على توحيده، وعظيم قدرته تعالى»[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٢-٤٤].

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٢٩.

«ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة: التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئا كثيرًا بحيث من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكًا ولا ريبًا.

ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا فقال: ﴿قُل﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: على موجب زعمهم وافترائهم ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لاتخذوا سبيلًا إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه إلهًا مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟!

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لطلبوا السبيل وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، أما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يعبدون من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شيء فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟!

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به واتخاذ الأنداد معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فعلا قدره وعظم وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن يكون معه آلهة فقد ضل من قال ذلك ضلالًا مبينًا وظلم ظلمًا كبيرًا»[1].

فهذا هو مجال العقل في الدلالة على إثبات الصفات فهو يعمل تفكيره في المخلوقات وآثارها لكي يستدل على وجود خالقها الذي لاشك أنه متصف بكل صفات الكمال المطلق المنزه عن كل صفات النقص، وهذا هي المعرفة العامة الإجمالية.

أما الإدراك التفصيلي المتعلق بكنه حقيقة الربوبية وعظمة الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وكيفية ذلك فإنه لايستطيعها مهما فكر وتدبر قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

«وقوله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ يقول تعالى ذكره: ولا يحيط خلقه به علما. ومعنى الكلام: أنه محيط بعباده علمًا، ولا يحيط عباده به علمًا»[2]، «فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم»[3].

«ومعلوم أن العقل لا مدخل له في باب صفات الله تعالى؛ لأنها فوق مستويات العقول ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولا يحيطون به علمًا سبحانه وتعالى»[4].

أي: على جهة التفصيل المستقل عن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٧٦.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٧٤.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ١٧.

الوحي.

وقد حذر السلف الصالح رحمهم الله ومنهم الإمام الطحاوي من عاقبة إعمال العقل فيما هو ليس من اختصاصه فقال: «من رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقتنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة وصحيح الإيمان»[(١)].

وهكذا فلا يمكن أن يكون العقل وحده طريقًا لمعرفة أسماء الله وصفاته بل ينبغي أن يكون خلف الوحي مسلمًا له، كما لم تكن الفطرة وحدها طريقًا لذلك، وإن كان يدلان على الواحد الأحد وعلى أن له الكمال المطلق من جهة عامة.

وقال ابن أبي العز الحنفي: «ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل معرفين وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين ولمن خالفهم منذرين وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها»[(٢)].

وتأمل قوله: «ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل».

ولا إشكال في معرفة ذلك على الإجمال وهذا واضح في كلام علمائنا رحمهم الله.

وقال الشاطبي: «إن الله جعل للعقول في إدراكها حدًا تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلًا إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون»[(٣)].

وهذا يبين حدود العقل في المعرفة العامة للصفات وهو متاح للعقل أن يتحرى فيه، وغير متاح له في غير ذلك على جهة التفصيل.

«والعقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال»[(٤)].

والخلاصة: أن الأدلة العقلية السليمة والقويمة تدل دلالة واضحة على إثبات الصفات لله تبارك وتعالى على وجه الكمال وذلك بالنظر والتفكر في المخلوقات وآثارها فيدرك أن الله هو العليم الحكيم الخالق وأن من صفاته العلم والحكمة والخلق.. إلخ.

وأما على جهة التفصيل فإن ذلك مختص

(١) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ص١٨٤.
(٢) المصدر السابق ص ٦.
(٣) الاعتصام، الشاطبي ٢/٣١٨.
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٩.

بالوحي فقط لأن الأسماء والصفات توقيفية، والعقل الصحيح الصريح في هذه الحالة يكون تابعًا للوحي ومؤيدًا له.

طريقة القرآن في عرض صفات الله

«فهذا القرآن عمدته ومقصوده الإخبار عن صفات الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وأفعاله وأنواع حمده والثناء عليه والإنباء عن عظمته وعزته وحكمته وأنواع صنعته والتقدم إلى عباده بأمره ونهيه»[1].

ومن الأساليب البارزة عند تأمل طريقة القرآن في التعريف بالله وأسمائه وصفاته على سبيل الإجمال ما يلي:

١ . الحديث عن الأسماء والصفات مباشرة.

ومما تحدث عنه القرآن من أسماء الله وصفاته: اسم الله الدال على ألوهيته سبحانه وتعالى، والدال على جميع أسمائه وصفاته فقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢].

كما تحدث عن كمال حياته وقيامه على كل شيء فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وتحدث عن وحدانيته وكماله كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه:٨].

وقال ابن القيم: «هذا القرآن من أوله لآخره إنما يدعو الناس إلى النظر في صفات

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص١٢٨.

الله وأسمائه وأفعاله»[1].

ومراده رحمه الله بذلك دلالة المطابقة والالتزام والتضمن.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩].

قال ابن سعدي: «أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ فخلقها وأحكمها، وأتقنها، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وكثيرًا ما يقرن بين خلقه للخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية»[2].

وقال أبو جعفر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥]:

والله يختص من يشاء بنبوته ورسالته فيرسله إلى من يشاء من خلقه، فيتفضل بالإيمان على من أحب فيهديه له، واختصاصه إياهم بها إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه، وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه وهدايته من هدى من عباده رحمة منه له ليصيره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة واستحقاقه بها ثناءه، وكل ذلك رحمة من الله له، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥].

خبر من الله عن أن كل خير ناله عباده في دينهم فإنه من عنده ابتداءً وتفضلًا منه عليهم غير استحقاق منهم ذلك عليه»[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

قال البغوي رحمه الله تعالى: «قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يا أيها الناس خطاب أهل مكة، و يا أيها الذين آمنوا خطاب أهل المدينة وهو هاهنا عام إلا من حيث إنه لا يدخله الصغار والمجانين ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي بساطًا وقيل: منامًا، وقيل: وطاء، أي: ذللها ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها، والجعل هاهنا بمعنى الخلق ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وسقفًا مرفوعًا. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ألوان الثمرات وأنواع النبات ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ طعاما لكم وعلفا لدوابكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي أمثالا تعبدونهم كعبادة الله.

قال أبو عبيدة: الند الضد، وهو من الأضداد، والله تعالى بريء من المثل

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٣٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٨.
(٣) جامع البيان ١/ ٥٤٦.

والضد. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه واحد خالق هذه الأشياء»[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣].

«ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع جميع النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى»[2].

بل تجد حديث القرآن عن بعض الصفات حديثًا مفصلًا وعلى سبيل المثال: صفة الاستواء حيث إنه جل وعلا وصف نفسه بالاستواء على العرش، ووصف غيره بالاستواء على بعض المخلوقات، فتمدح جل وعلا في سبع آيات من كتابه باستوائه على عرشه، ولم يذكر صفة الاستواء إلا مقرونة بغيرها من صفات الكمال والجلال، القاضية بعظمته وجلاله جل وعلا، وأنه الرب وحده، المستحق لأن يعبد وحده، وبحسب ترتيب المصحف الكريم إليك هذه المواضع:

الموضع الأول: في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

الموضع الثاني: قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس:٣].

الموضع الثالث: قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢].

الموضع الرابع: قوله تعالى في سورة طه: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]

الموضع الخامس: قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩].

الموضع السادس: قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة:٤]

الموضع السابع: قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤].

٢. ذكر مفعولات الرب سبحانه وتعالى وآياته.

فمن خلالها يتعرف على أسمائه وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم: «وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه وتعالى في كتابه عباده إلى التفكر فيه، أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧١-٧٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨.

وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته»[1].

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ [النبأ:٦-١٦].

«لما حكى الله تعالى عنهم إنكار البعث والحشر، وأراد إقامة الدلائل على صحة الحشر قدم لذلك مقدمة في بيان كونه تعالى قادرًا على جميع الممكنات عالمًا بجميع المعلومات؛ لأنه إذا ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث، فأثبت هذين الأصلين بأن عدد أنواعًا من مخلوقاته المتقنة المحكمة؛ فإن هذه الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم، وإذا ثبت هذان الأصلان، وثبت أن الأجسام متساوية في قبول الصفات والأعراض ثبت لا محالة كونه قادرًا على تخريب الدنيا بسماواتها وكواكبها وأرضها، وعلى إيجاد عالم الآخرة، فهذا وجه النظم.»[2].

٣. التذكير بنعم الله عز وجل.

معرفة النعمة سبيل معرفة المنعم والهبات دالة على الوهاب والعطايا دالة على المعطي سبحانه وتعالى، لذا فقد ذكر القرآن كثيرًا بنعم الله مجملة تارة، ومفصلة تارة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٨﴾ [النحل:١٨].

قال القاسمي: «ثم نبه سبحانه وتعالى على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لا يحصى، إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور، بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨].

أي: لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلًا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: حيث يتجاوز عن التقصير في أداء شكرها، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم. ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها. قاله الزمخشري.

ولحظ ابن جرير أن مغفرته تعالى ورحمته لهم، إذا تابوا وأنابوا. أي فيتجاوز عن تقصيرهم بشكرها الحقيقي، ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته»[3].

فالعارف يسير إلى الله بين مشاهدة

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٧.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٩٥.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٦٠.

المنة ومطالعة عيب النفس، فمشاهدة المنة توجب له المحبة الحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس توجب له الذل والانكسار والتوبة.

٤. تعريف العباد بأنفسهم وأصل خلقتهم وضعفهم وفقرهم.

فمن عرف نفسه عرف ربه.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

«يخاطب تعالى جميع الناس ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

- فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا.
- فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها، لما استعدوا لأي عمل كان.
- فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.
- فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.
- فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير.
- فقراء إليه، في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك، لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم وأحوالهم.
- فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه، لم يتعلموا، ولولا توفيقه، لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال ونعوت وجلال.

ومن غناه تعالى أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه، لأنها حسنى، وأوصافه، لكونها عليا، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي

أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه الغني في حمده.»[1].

«﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى فضل الله والفقير المحتاج، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الغني عن خلقه المحمود في إحسانه إليهم»[2].

«فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجئ إلى الله سبحانه وتعالى والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها كمشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين لا يمكنه أن يسير إلا بهما»[3].

٥. مخاطبة عقول العباد بالأدلة الواضحة التي تبين لهم صفات المعبود الحق.

كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

«من لابتداء الغاية، أي: أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع والشكل العجيب من غير محدث ومقدر، وقيل: أم خلقوا من أجل لا شيء من عبادة وجزاء، فمن للسببية.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله تعالى ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض»[4].

فإن زعم الإنسان أنه خلق من غير شيء كان في ذلك مناقضة لقانون السببية الذي يربط بين مسببات وأسبابها والنتائج بمقدماتها والظواهر بعللها، فلا يوجد خلق بلا خالق.

ونتأمل طريقة القرآن الكريم في إبطال الشرك بكافة أنواعه على سبيل الإيجاز في الأمور الآتية:

١. بيان عجز الشركاء عن الخلق: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل:١٧].

٢. عجز الشركاء عن التصرف في الكون بالنفع والضر والإحياء والإماتة ونحو ذلك: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢].

٣. إبطال الشركة أو الشراكة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة فمن باب أولى إبطال الشركة أو الشراكة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد لله ولم يبق إلا الرب وحده لا شريك له.

٤. غنى الله عن كل شيء ومنه غناه عن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨٧.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٤١٧.
(٣) الوابل الصيب، ابن القيم ص١١.
(٤) روح البيان، الألوسي ٩/ ٢٠٢.

الصاحبة والولد إبطالًا لما قيل في حقه اتخذ الله ولدًا وأن الملائكة بناته تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

٦. تصحيح التصورات الخاطئة عن الله وأسمائه وصفاته.

وفي هذا الصدد نذكر على سبيل المثال: الرد على اليهود الذين لم يقدروا الله حق قدره فقالوا فيما يحكيه عنهم القرآن: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤].

فصحح هذه التصور الفاسد بقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

«قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة: إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالًا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا به كف الله عنهم ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة، أي: محبوسة مقبوضة عن الرزق نسبوه إلى البخل، تعالى الله عن ذلك. قيل: إنما قال هذه المقالة فنحاص، فلما لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله فيها. وقال الحسن: معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذبنا إلا ما تبر به قسمه قدر ما عبد آباؤنا العجل. والأول أولى لقوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمسكت أيديهم عن الخيرات. وقال الزجاج: أجابهم الله تعالى فقال: أنا الجواد وهم البخلاء وأيديهم هي المغلولة الممسكة. وقيل: هو من الغل في النار يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر:٧١].

﴿وَلُعِنُوا۟﴾ عذبوا، ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ فمن لعنهم أنهم مسخوا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلة والمسكنة في الدنيا وفي الآخرة بالنار، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ويد الله صفة من صفاته كالسمع، والبصر والوجه. وقال جل ذكره: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (كلتا يديه يمين) والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم. وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: «أمروها كما جاءت بلا كيف»[(١)].

كذلك سبب نزول سورة الإخلاص: فعن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص:١-٢] إلى آخر السورة[(٢)].

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٧٦-٧٧.
والحديث جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، ٣/١٤٥٨، رقم ١٨٢٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة الإخلاص، رقم ٣٣٦٤.
وحسنه الألباني في ضعيف سنن الترمذي رقم

«ولأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جوابًا لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: صف لنا ربك، أمن ذهب أم من نحاس أم من صفر؟ فقال الله جل وعز ردًا عليهم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ففي «هو» دلالة على موضع الرد ومكان الجواب»[1].

«وفي هذه السورة لما سألوا عن حقيقة الله ونسبه جاء الجواب بصفاته؛ لأن ما يسألون عنه إنما يكون في المخلوقات لا في الخالق سبحانه، وفي الممكن لا في الواجب الوجود لذاته، سبحان من لا يدرك كنهه غيره»[2].

الصفات المنفية عن الله تعالى

صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

١. صفات ثبوتية.

٢. صفات سلبية.

وهذا التقسيم هو مأخوذ من آيات الصفات وأحاديثها، فنجدها إما أن تثبت وإما أن تنفي أو العكس.

فالصفات الثبوتية: ما أثبت الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة، والعلم، والقدرة، والاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والوجه، واليدين، ونحو ذلك، فيجب إثباتها لله تعالى حقيقة على الوجه اللائق به.

والصفات السلبية: ما نفاها الله سبحانه عن نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلها صفات نقص في حقه، كالموت، والنوم، والجهل، والنسيان، والعجز، والتعب، فيجب نفيها عن الله تعالى لما سبق مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل، وذلك لأن ما نفاه الله تعالى عن نفسه فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده لا لمجرد نفيه، لأن النفي ليس بكمال إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال، وذلك لأن النفي عدم، والعدم ليس بشيء فضلًا

٦٦٦.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٨٥.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٥٦.

عن أن يكون كمالًا، ولأن النفي قد يكون لعدم قابلية المحل له فلا يكون كمالًا، كما لو قلت: الجدار لا يظلم. وقد يكون للعجز عن القيام به فيكون نقصًا.

وعلى ذلك أمثلة:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨].

فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٩].

نفي الظلم عنه يتضمن كمال عدله.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤].

فنفي العجز عنه يتضمن كمال علمه وقدرته، ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾؛ لأن العجز سببه: إما الجهل بأسباب الإيجاد، وإما قصور القدرة عنه، فلكمال علم الله تعالى وقدرته لم يكن ليعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

وبهذا المثال علمنا أن الصفة السلبية قد تتضمن أكثر من كمال.

والصفات الثبوتية صفات مدح وكمال فكلما كثرت وتنوعت دلالاتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية كما هو معلوم.

أما الصفات السلبية فلم تذكر غالبًا إلا في الأحوال التالية:

الأولى: بيان عموم كماله.

قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص:٣-٤].

«وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ يقول: ليس بفان، لأنه لا شيء يلد إلا هو فان بائد ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ يقول: وليس بمحدث لم يكن فكان، لأن كل مولود فإنما وجد بعد أن لم يكن، وحدث بعد أن كان غير موجود، ولكنه تعالى ذكره قديم لم يزل، ودائم لم يبد، ولا يزول ولا يفنى. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولم يكن له شبيه ولا مثل. وقال آخرون: معنى ذلك، أنه لم يكن له صاحبة»[1].

الثانية: نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون.

قال تعالى: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم:٩١-٩٢]. «وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدًا، كقول النصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزير ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم

(١) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٩٣.

علوًا كبيرًا»[1].

«فلشناعة هذه الفرية قدم ذكرها، ثم الرد على عدم إمكانها بقوله: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم:٩٢-٩٣]»[2].

الثالثة: دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعين.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾ [الإسراء:١١١].

«أمر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة الناس على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «لأن أمر القدوة أمر لأتباعه كما قدمنا» أن يقولوا: «الحمد لله» أي: كل ثناء جميل لائق بكماله وجلاله، ثابت له، مبينًا أنه منزه عن الأولاد والشركاء والعزة بالأولياء، سبحانه وتعالى عن ذلك كله علوًا كبيرًا»[3].

وكما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝١٦﴾ [الأنبياء:١٦].

«ما خلقناهما إلا بالحق أي الاستدلال على خالقهما، لعبادته وطاعته ولكن أكثرهم لا يعلمون أي حكمة خلقها، فيعرضون عنه»[4].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠١.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٥٣.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٨٩.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٢١.

ثمرات الإيمان بصفات الله تعالى

القرآن الكريم كلام الله عز وجل كتاب هداية وإرشاد، بين الله سبحانه وتعالى فيه أمور الدين أعظم بيان ومنها أمور الإيمان والتوحيد ولاسيما ما يتعلق بأسماء الله وصفاته وكذلك السنة النبوية الصحيحة.

فمن تدبر القرآن العظيم وجد أن الله سبحانه تعالى: قد تجلى فيه بأسمائه وصفاته متعرفًا إلى عباده بصفاته ألوهيته وصفات ربوبيته وصفات كماله وجلاله، وتأمل العبد في آياته يجعله « يعرف ربًا قد اجتمعت له صفات الكمال والجلال، منزه عن المثال برئ من النقائص والعيوب، وله كل اسم حسن وكل وصف كمال فعال لما يريد، فوق كل شيء ومع كل شيء وقادر على كل شيء ومقيم لكل شيء»[5].

قال ابن القيم: « فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه وجمع الفكر على معاني آياته فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فهذا القرآن عمدته ومقصوده الإخبار عن صفات الرب سبحانه وأسمائه وأفعاله

(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٤٥١.

وأنواع حمده والثناء عليه والإنباء عن عظمته وعزته وحكمته وأنواع صنعته والتقدم إلى عباده بأمره ونهيه »[1].

«فلو طهرت منا القلوب وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم وتتلاشى عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته»[2].

فاعتقاد المسلم بأسماء الله وصفاته الاعتقاد الجازم المثمر لأعمال القلوب والجوارح يؤثر في نظرته للحياة وعلاقته بربه تبارك وتعالى أيما تأثير ويحل له قضايا الوجود الكبرى كالهدف من وجوده وكالمبدأ والمعاد والجنة والنار وغير ذلك من القضايا والأمور العظيمة، ويبدد من داخل الإنسان الشك والحيرة والقلق ويكسبه اليقين والسعادة والفوز في الدنيا والآخرة.

ومن أهم ثمرات الأسماء والصفات الأمور الآتية:

١ . معرفة أسماء الله وصفاته تجلب أعظم الأثر في تحقيق العبودية لله رب العالمين.

إذ أن معرفة العبد بها واستحضاره لمعانيها وتفكره في آثارها تجعله موصولًا دائمًا بمعبوده الحق سبحانه وتعالى محبًا له راجيًا قربه وعطاءه، خائفًا غضبه وعذابه، متوكلًا مستعينًا منيبًا.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠].

قال القرطبي: « قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي اطلبوا منه بأسمائه، فيطلب بكل اسم ما يليق به، تقول يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رازق ارزقني، يا هادي اهدني، يا فتاح افتح لي، يا تواب تب علي، هكذا. فإن دعوت باسم عام قلت: يا مالك ارحمني، يا عزيز احكم لي، يا لطيف ارزقني. وإن دعوت بالأعم الأعظم فقلت: يا الله، فهو متضمن لكل اسم. ولا تقول: يا رزاق اهدني، إلا أن تريد يا رزاق ارزقني الخير. قال ابن العربي: وهكذا، رتب دعاءك تكن من المخلصين»[3].

وقال العز بن عبد السلام: « فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة و المحبة

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ١٨٢.
(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ١٧١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٢٧.

والتوكل وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات»[1].

وقد علق الله النجاة يوم القيامة على صلاح القلب وسلامته من الشرك فقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

قال ابن كثير: «ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: سالم من الدنس والشرك وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ حيي يشهد أن لا إله إلا الله»[2].

فصلاح سائر الجسد وسلامته متعلق به دل عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[3].

كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القلب هو محل نظر الله عز وجل بقوله: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[4].

ويتضمن هذا البيان ندبًا إلى الاهتمام بما يصل القلب ويحقق عبوديته ويزينه ويجمله، ورأس هذا معرفة الله وصفاته واعتقاد وحدانيته وإلهيته التي تبعث على طاعته عز وجل وإفراده بالعبادة الباطنة منها والظاهرة.

وتأمل على سبيل المثال: اسم الله الحيي الذي معناه كثير الحياء، وحياؤه سبحانه و تعالى وصف يليق بجلاله وعظمته ومن أثره ما يرى العبد من إكرام ربه له وإجابته دعوته وإعطائه سؤله.

العبد الراجي لربه متعلق الأمل ببره وجوده وكرمه، عابد له بأسمائه: الحليم الغفور الكريم القريب المجيب والشكور الودود ونحوها، فإذا استحضر العبد أن ربه قريب منه يجيب دعوته ويشكر سعيه، وإن أقبل عليه قبله وإن استغفره غفر له فإنه ولا شك يحبه ويرجو أن يكون محبوبًا عنده فيدفعه ذلك إلى تحقيق عبوديته له بأنواع الطاعات والعبادات التي ترضيه عنه[5].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: بكتاب الله وكلامه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

«في (ذكر الله) هاهنا قولان:

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن

(١) شجرة المعارف والأحوال، العز بن عبدالسلام ص١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٤٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه، رقم ٥٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله رقم ٢٥٦٤.
(٥) انظر: تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات ٣٩٢-٣٩٣.

إليه قلبه، ويسكن. فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله. ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه. فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين، إذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه، واطمأنت. ويروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه، يسكن إليه قلبه، ويطمئن.

والقول الثاني: أن ذكر الله هاهنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله به طمأنينة قلوب المؤمنين. فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين.

ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن. فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه. والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام. فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به. وهذا القول هو المختار»[1].

فطمأنينة القلوب الصحيحة والفطر السليمة وسكونها إليه من أعظم الآيات، إذ يستحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل ومتى انفتح الباب للعبد انتفع بمطالعة تاريخ العالم وأحوال الأمم ومجريات الخلق[2].

فلا بد للعبد من تدبر ما ورد في باب أسماء الله تعالى وصفاته وينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه من القرآن والسنة والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لفظة الأمر، فإن الله تعالى لما أخبر بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]. وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

واستدل طوائف من السلف على أن الأمر غير مخلوق، بل هو كلامه وصفة من صفاته بهذه الآية وغيرها، صار كثير من الناس يطرد ذلك في لفظ الأمر حيث ورد فيجعله صفة طردًا للدلالة، ويجعل دلالته على غير الصفة تارة وعلى متعلقها أخرى: فإن الرحمة صفة لله ويسمى ما خلق رحمة، والقدر من صفات الله تعالى ويسمى المقدور قدرة، ويسمى تعلقها بالمقدور قدرة، والخلق من صفات الله تعالى ويسمى خلقًا، والعلم من صفات الله ويسمى المعلوم أو المتعلق علمًا فتارة يراد الصفة وتارة يراد متعلقها وتارة يراد نفس المتعلق.

والأمر مصدر فالمأمور به يسمى أمرًا ومن هذا الباب سمي عيسى صلى الله عليه وسلم كلمة، لأنه مفعول بالكلمة وكائن بالكلمة وهذا هو الجواب عن سؤال الجهمية لما

(١) التفسير القيم، ابن القيم ٣٣٦-٣٣٧.
(٢) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٤٧١ و ١/ ٤٢٥.

قالوا: عيسى كلمة الله فهو مخلوق والقرآن إذا كان كلام الله لم يكن إلا مخلوقًا، فإن عيسى ليس هو نفس كلمة الله، وإنما سمي بذلك لأنه خلق بالكلمة على خلاف سنة المخلوقين فخرقت فيه العادة وقيل له: كن فكان، والقرآن نفس كلام الله.

فمن تدبر ما ورد في باب أسماء الله وصفاته، وأن دلالة ذلك في بعض المواضيع على ذات الله أو بعض صفاته لا يوجب أن يكون ذلك هو مدلول اللفظ حيث ورد حتى يكون ذلك طردًا للمثبت ونقضًا للمنافي، بل ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه القرآن والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقًا ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب، وطرد الدليل ونقضه فهو نافع في كل علم خبري أو إنشائي وفي كل استدلال أو معارضته من الكتاب والسنة وفي سائر أدلة الخلق»[1].

ولا شك في من تدبر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا التدبر الشرعي أثمر عنده حقيقة التعبد المطلق لله رب العالمين وعدم الإشراك به، وبضدها تتميز الأشياء فالشرك ومظاهره وأسبابه وأنواعه في جميع أبواب العقيدة والتوحيد يبطله ويقضي عليه التوحيد الخالص الحي في قلب المؤمن وسلوكه.

٢. اعتقاد المسلم أن الحياة نعمة ورحمة من الله المنعم عز وجل فتتأثر حياته بالسعي في شكرها وأداء حق الله تعالى في هذه النعمة.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:١-٣].

«وقد ذكر تعالى نعمتين عظيمتين:

الأولى: إيجاد الإنسان من العدم بعد أن لم يكن شيئا مذكورًا، وهذه نعمة عظمى لا كسب للعبد فيها.

والثانية: الهداية بالبيان والإرشاد إلى سبيل الحق والسعادة، وهذه نعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب، ولا كسب للعبد فيها أيضا. وقد قال العلماء: هناك ثلاث نعم لا كسب للعبد فيها:

الأولى: وجوده بعد العدم.

الثانية: نعمة الإيمان.

الثالثة: دخول الجنة»[2].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۝١٤٧﴾ [النساء:١٤٧].

«أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ١٧-١٩.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٧٩.

ورحمته وإحسانه فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر عليم يعطي المتحملين لأجله الأثقال، الدائبين في الأعمال، جزيل الثواب وواسع الإحسان، ومن ترك شيئا لله أعطاه الله خيرا منه، ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأي شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه»[1].

وقال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨٠-٨١].

قال ابن كثير: «يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضا ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر ﴿أَثَٰثًا﴾ أي: تتخذون منه أثاثا، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالًا وتجارة. وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ قال قتادة: يعني: الشجر.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي: حصونًا ومعاقل، كما ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون عونًا لكم على طاعته وعبادته.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هكذا فسره الجمهور، وقرؤوه بكسر اللام من

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١٢.

(تسلِمون) أي: من الإسلام. وقال قتادة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هذه السورة تسمى سورة النعم»[1].

وقال ابن القيم: «فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف رب بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل، فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا ولا يقدر على شيء ولا يملك شيئًا ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة. بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلى بارئه وفاطره فلما أسبغ عليه نعمته وأفاض عليه من رحمته وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا وجعل له السمع والبصر والفؤاد وعلمه وأقدره وصرفه وحركه»[2].

ألا يوجب ذلك وغيره عبادته وشكره ومحبته وطلب رضاه والبعد عن سخطه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[يونس:٦٢-٦٤].

«ما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم. وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب، رتبه الله في الدنيا والآخرة، على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك، فلم

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٩١.
(٢) طريق الهجرتين ص٢٣-٢٤.

يقيده.»[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله تعالى الخلق كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده العرش: إن رحمتي تغلب غضبي)[2].

وآثار رحمته مبثوثة في الكون والحياة وفي الخلق والأمر، فهو الذي عمت رحمته خلقه في جميع الأقطار، خلقهم وأنعم عليهم بالحياة والحواس والنعم العامة المتنوعة في أنفسهم التي لا يحصيها العد.

وبواسع رحمته وعظيم فضله عرفناه بأسمائه وصفاته وأفعاله حتى عرفنا أنه ربنا ومولانا، فأنواع النعم وصنوف الإحسان وخيرات الدنيا والآخرة كلها من آثار رحمته[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: (أحبو الله لما يغذوكم به من نعمه)[4].

وأخبر صلى الله عليه وسلم: (أن حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه فإن لم يقتصر عليها فثلث بطنه لطعامه وثلثه لشرابه وثلثه لنفسه)[5].

وليتأمل العبد هذا الدعاء وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي)[6].

فإن معناه: ألتزم بالمنة بحق النعمة والاعتراف بالتقصير في شكرها واحتمال اللائمة فيه[7].

٣. طلب المسلم الهداية من الله تعالى إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخر.

لماذا يطلب المسلم الهادية في الدنيا ؟ يطلبها لتحقيق العبودية لله تعالى. ولماذا يطلبها في الآخرة ؟ ليمر على الصراط ويدخل الجنة بفضل الله، قال ابن القيم: « فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، هدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله (ويحذركم الله نفسه)، رقم ٧٤٠٤.
(٣) تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات ص ٣٧٤-٣٧٥.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ٥/ ٦٦٤، رقم ٣٧٨٩.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١/ ٢٧، رقم ١٧٦.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ماجاء في كراهية كثرة الأكل، ٤/ ٥٩٠، رقم ٢٣٨٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٩٠، رقم ٥٦٧٤.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، رقم ٦٣٠٦.
(٧) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٣٤٨.

ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط.

فلينظر العبد الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم. فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر:٤١].

﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤].

فإن طريق الحق تأخذ علوًا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير وطريق الضلال تأخذ سفلًا هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ مجيبًا لإبليس الذي قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ولا طريق لي عليهم.

فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط؛ لأنه صراط علي، لا سبيل لإبليس

سبحانه على صراط مستقيم، وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم، فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

وأفعاله كلها مصالح وحكم ورحمة وعدل وخير.

وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي هو ربي فلا يسلمني ولا يضيعني، وهو ربكم فلا يسلطكم علي ولا يمكنكم مني فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئًا بدون مشيئته. لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة، ولو سلطكم علي فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة.

فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدرية والمجوسية والقدرية الجبرية نفاة الحكم والمصالح والتعليل والله الموفق سبحانه»[1].

٤. ارتباط آثار معرفة أسماء الله وصفاته في النفس والكون والحياة الدنيا والآخرة.

ومشهد الأسماء والصفات من أجل المشاهد، والمطلع على هذا المشهد يعرف أن الوجود متعلق خلقًا وأمرًا بالأسماء الحسنى والصفات العلى ومرتبطًا بها و إن كل ما في العالم بما فيه، إنما هو من بعض آثارها ومقتضياتها.

وقد دل على هذا المعنى وغيره سورة الفاتحة وسورة الإخلاص وسورة الفلق والناس وغير ذلك من سور القرآن العظيم.

ودل على ذلك وغيره سنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضائك)[2].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها)[3].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه وعرشه على الماء وبيده الأخرى الفيض أو القبض يرفع ويخفض)[4].

وغير ذلك من الأحاديث.

قال ابن القيم: «وتأمل ارتباط الأمر بهذه

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٤- ٤٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند ابن مسعود. وصححه أحمد شاكر رقم ٣٧١٢ و ٤٣١٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب ما يقول عند النوم، ٤/ ٢٠٨٤، رقم ٢٧١٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء)، رقم ٧٤١٩.

الأسماء الثلاثة وهي: الله، الرب، الرحمن، كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب وكيف جمعت الخلق وفرقتهم فلها الجمع ولها الفرق.

فاسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء وأقروا له طوعًا بأنه الله الذي لا إله إلا هو الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والخشية والرحمة والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقتهم كما أن الربوبية هي التي جمعتهم فالدين و الشرع والأمر والنهي مظهره، وقيامه من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك وهو مالك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى»[1].

وانتظام العالم: العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسر من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء:٢٢].

«فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم وفي الأمر تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديره: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال وغايتها أيضًا مقتضى حمده ومجده كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته فالله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة والآيات الباهرة. وظهور أسماء الله وصفاته في هذه الحياة وفي النفس البشرية وفي الكون كله واضح، لا يحتاج إلى دليل إلا أن الاهتداء إلى تلك الآثار أو الانتباه لها يتوقف على توقيف الله تعالى بل إن التوقيف نفسه من آثار رحمته التي وسعت كل شيء. فلو فكر الإنسان في هذا الكون الفسيح وفي نفسه لرجع من هذه الجولة الفكرية بعجائب واستفاد منها فوائد ما كان يحلم بها ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أمورًا تعجز عن التعبير عنها.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى

(١) مدارج السالكين ١/ ٥٨ -٥٩ ..

﴿ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦][1].

وجوهر هذا التوحيد: إخلاص الدين كله لله وحقيقته: « أن تفنى بعبادة الله عما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وكذلك بمولاته وسؤاله والاستغناء به والتوكل عليه ورجائه ودعائه و التفويض إليه والتحاكم إليه والملجأ إليه والرغبة فيما عنده »[2].

وعندما يحقق المكلفون أنفسهم معنى التوحيد؛ فإنهم بذلك يتواءمون مع الناموس العام للخلق، ويتناسق موقفهم في الكون مع بقية الخلائق المسخرة المنقادة له طوعًا أو كرها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨].

فالأرض بطبقاتها والسماوات بطبقاتها وما فيها وما عليها من خلق الله تعالى وحده، فهذه الحقيقة لا يستطيع أن يماري فيها أحد، مؤمنًا كان أو كافرًا، تحدى القرآن العباد وما قد يعبدون من دون الله أن يدلوا على شيء واحد مشاهد في الكون هو من خلق أحد غير الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف:٤][3].

٥. الرؤيا الصحيحة لمعرفة أصل خلق الإنسان وعداوته مع إبليس عليه لعنة الله وفق مقتضى عدل الله ورحمته وحكمته وخبرته تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة:٣٤-٣٧].

ومن العبر الواردة في هذه الآيات: الاعتبار بحال أبوي الإنسان والجن، وبيان فضل آدم و إفضال الله عليه، وعداوة إبليس له.

قال أبو جعفر: « وتأويل قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ

(١) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين، علي المصراتي ص ١٢٩-١٣٢ بتصرف.
(٢) مدارج السالكين ٣/ ٤٨٣.
(٣) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، عبدالعزيز مصطفى كامل ١/ ٤٥ - ٥٠ بتصرف.

﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أن الله جل ثناؤه هو التواب على من تاب إليه -من عباده المذنبين- من ذنوبه، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه. وقد ذكرنا أن معنى التوبة من العبد إلى ربه، إنابته إلى طاعته، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يسخطه من الأمور التي كان عليها مقيمًا مما يكرهه ربه. فكذلك توبة الله على عبده، هو أن يرزقه ذلك، ويؤوب له من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه.

وأما قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ فإنه يعني أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة. ورحمته إياه، إقالة عثرته، وصفحه عن عقوبة جرمه»[1].

ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، ولذلك كان من الحكم في إخراج آدم من الجنة تحقق اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها: كالغفور والرحيم والتواب والعفو والخافض والرافع.. إلخ.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فمنهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك السهل والحزن والطيب والخبيث)[2].

ولا شك أن هذه المعرفة والرؤية الصحيحة لأصل خلق الإنسان تجعله يعرف طبيعة بشريته وبشرية من حوله وكيف يتعامل معهم ومع عدوه بميزان الشرع. قال ابن القيم: «وقد قيل إن طرد إبليس ولعنه، إنما كان بسبب التأويل فإنه عارض النص لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود فإنه قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢].

وصار إمامًا لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة وكذلك خروج آدم من الجنة إنما كان بسبب التأويل فهو صلى الله عليه وسلم لم يقصد بالأكل معصية الرب والتجرؤ على مخالفة نهيه وأن يكون ظالمًا مستحقًا للشقاء بخروجه من الجنة هذا لم يقصده أبو البشر قطعًا والصواب إن آدم صلوات الله وسلامه عليه لما قاسمه عدو الله أنه ناصح وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التأكيد:

أحدها: القسم.

الثاني: الإتيان بالجملة إسمية لا فعلية.

الثالث: تصديرها بأداة التأكيد.

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٥٤٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة البقرة، رقم ٢٩٥٥.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٣٦.

الرابع: الإتيان بلام التأكيد في الخبر.

الخامس: الإتيان به اسم فاعل لا فعلًا دالًا على الحدث.

السادس: تقديم المعمول على العامل «فيه» فظن آدم صدقه وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة»[1].

وقال ابن سعدي: «ولما علم الخبيث - أي إبليس - أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم وكان جازمًا ببذل مجهوده على إغوائهم ظن وصدق ظنه فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم وهو يريد صدهم عنه وعدم قيامهم به.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله؛ لنأخذ حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا بالطريق التي يأتي منها ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة»[2].

وقال ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل:٩٩].

والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم: لا من جهة الحجة ولا من جهة القدرة

وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين فقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر:٣٩-٤٢].

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٨٢-٨٣].

فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله عز وجل وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته فهو وليهم وسلطانه، والجميع بقضاء من أزمة الأمور بيده ومردها إليه وله الحجة البالغة فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولكن أبت حكمته وحمده وملكه إلا ذلك.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧][3].

وقال ابن القيم: «فإن الله سبحانه وتعالى

(١) الصواعق المرسلة ١/ ٣٧٠ -٣٧٣ بتصرف واختصار.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٧.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ١٧٠ - ١٧٤ بتصرف.

خلق هذا الآدمي واختاره من بين سائر البرية، وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان والتوحيد والإخلاص والمحبة وجعل ثوابه إذا أقدم عليه أكمل الثواب وأفضله وهو النظر إلى وجهه والفوز برضوانه، وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه فهو يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه فتميل نفسه معه فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد.

فاقتضت رحمة ربه العزيز الحكيم به أن أعانه بجند آخر وأمده بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه فأرسل إليه رسول وأنزل عليه كتابه وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان فهذا يلم به مرة وهذا مرة والمنصور من نصره الله عز وجل.

وجعل له مقابل نفسه الأمارة نفسًا مطمئنة فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة وهو الغالب عليه منهما، وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نورًا وبصيرة وعقلًا يرده عن الذهاب مع الهوى، فهو يطيع الناصح مرة ويمشي خلف دليل الهوى مرة فلما أن بلي العبد بما بلي به أعين بالعساكر والعدد والحصون»[1].

فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذا الأمر وعلى مقتضى إيمانه بأسماء الله وصفاته فإنه معين له في الخلاص من عدوه وحزبه والموصل له إلى مرضاة ربه عز وجل.

٦. الإيمان بالقضاء والقدر وفق المنهج الشرعي على مقتضى معرفة الأسماء والصفات.

فما يصيبه من خير ونعمة في الحياة الدنيا وفي الآخرة فبفضل الله ورحمته وعفوه وما يصيبه من شر وضر فبعدل الله وحكمته وخبرته عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

قال البغوي: «أي: ما خلقناه فمقدور ومكتوب في اللوح المحفوظ، قال الحسن: قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له»[2].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

«وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون»[3].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه

(١) صحيح الوابل الصيب ص ٣٧- ٣٨ بتصرف.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٤٣٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٨٧.

قال: (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول: (والله لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا إذا أرادو فتنة أبينا)[(١)].

قال ابن الجوزي: «من ذاق طعم المعرفة وجد طعم المحبة، فالرضا من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفته سبحانه رضيت بقضائه»[(٢)].

وقال ابن القيم: «فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة فمقام إثبات القدر والإيمان به وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها.

وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ولبس جلباب الشرك بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسله»[(٣)].

وقال ابن تيمية: «وأما أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علمًا وكل شيء أحصاه في كتاب مبين. ويتضمن هذا الأصل من إثبات علم الله وقدرته ومشيئته ووحدانيته وربوبيته وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه ما هو من أصول الإيمان. ومع هذا لا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات»[(٤)].

وقال الخطابي: «أن الله سبحانه قد لطف بعباده فعلل طباعهم البشرية بوضع هذه الأسباب؛ ليأنسوا بها فيخفف عنهم ثقل الامتحان الذي تعبدهم به، وليتصرفوا بذلك بين الرجاء والخوف، وليستخرج منهم وظيفتي الشكر والصبر في طوري السراء والضراء والشدة والرخاء، ومن وراء ذلك علم الله تعالى فيهم ولله عاقبة الأمور وهو العليم الحكيم»[(٥)].

وقال ابن القيم: « والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها. وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما آتاه؛ لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد:٢٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث البراء، باب حفر الخندق، رقم ٢٨٣٧.
(٢) صيد الخاطر ص ١٠٢.
(٣) طريق الهجرتين ص ١٥١.
(٤) التدمرية ص ٢٠٩- ٢١٠.
(٥) شأن الدعاء ص ١٢.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن:١١].

قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها»[1].

٧. تحقيق الأعمال من خلال الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته.

أي: لا يكفي التصديق بالأسماء والصفات بل لابد من العمل بالتكاليف الشرعية، ولاسيما أن كثيرًا منها ارتبط مباشرة بذكر بعض هذه الأسماء، وبعضها ارتبط ببعض هذه الصفات، وخاصة في سورة الفاتحة.

قال ابن القيم رحمه الله: «الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته نحو قولك: الله عز وجل يسمع أصوات عباده ويرى حركاته، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم وهو على كل شيء قدير، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته ونحو ذلك.

وأفضل هذا النوع: الثناء عليه بما أثنى به على نفسه وبما أثنى به عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل. وهذا النوع أيضًا ثلاثة أنواع: حمدٌ وثناءٌ ومجدٌ.

فالحمد لله: الإخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى مع محبته والرضا به فلا يكون المحب الساكت حامدًا ولا المثني بلا محبة حامدًا حتى تجتمع له المحبة والثناء، فإن كرر المحامد شيئًا بعد شيءٍ كانت ثناء فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجدًا.

وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع في أول الفاتحة فإذا العبد قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: أثنى علي عبدي وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي[2].

ومن الذكر: ذكر أمره ونهيه وأحكامه، وهو أيضًا نوعان:

أحدهما: ذكره بذلك إخبار عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا وأحب كذا وأسخط كذا ورضي كذا.

والثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه عند نهيه فيهرب منه فذكر أمره ونهيه شيء وذكره

(١) الروح ص ٢٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، ١/ ٢٩٦، رقم ٣٩٥.

عند أمره ونهيه شيء آخر، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه.

فائدة: فهذا الذكر من الفقه الأكبر وما دونه أفضل الذكر إذا صحت فيه النية، ومن ذكره سبحانه وتعالى ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده، وهذا أيضًا من أجل أنواع الذكر فهذه خمسة أنواع وهي تكون بالقلب واللسان تارة وذلك أفضل الذكر، وبالقلب وحده تارة وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة وهي الدرجة الثالثة، فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ويهيج المحبة ويثير الحياء ويبعث على المخافة ويدعو إلى المراقبة ويزع -أي: يمنع ويحبس- عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار وإن أثمر شيئًا منها فثمرة ضعيفة»[1].

٨. تحقيق العلاقة الاستقرائية بين أقسام التوحيد لتحصل السعادة الشرعية في الدنيا والآخرة.

فشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات وهي الأصول الثلاثة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أنزل إليهم قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد:١٩].

قال ابن كثير: «هذا إخبار: بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه آمرًا بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾»[2].

وقال البخاري: «باب العلم قبل القول والعمل»[3].

«فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، ويوجب ذلك ويقتضيه وهكذا توحيد الأسماء والصفات يستلزم تخصيص الله بالعبادة وإفراده بها؛ لأنه سبحانه هو الكامل في ذاته وفي أسمائه وصفاته وهو المنعم على عباده فهو المستحق لأن يعبدوه ويطيعوا أمره وينتهوا عن نهيه»[4].

وتأمل سورة الإخلاص-التي هي صفة الرحمن- فقد دلت على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الذات، والصفات وذلك على سبيل المطابقة وعلى توحيد الربوبية وذلك على طريق التضمن. وتوحيد العبادة بالالتزام، إن دلالة الشيء على كل معناه

(١) صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ١٥٤-١٥٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣١٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٨٨.

(٤) تحفة الإخوان، ابن باز ص ٣٢.

يسمى مطابقة ودلالته على بعضه يسمى تضمنًا وعلى ما يلزم من جهة الخارج يسمى التزامًا»[1].

قال حافظ بن أحمد الحكمي: « هل جميع أنواع التوحيد متلازمة فيما بينها كلها ما ينافي نوعًا منها ؟ قال نعم هي متلازمة فمن أشرك في نوع منها فهو مشرك في البقية مثال ذلك دعاء غير الله وسؤاله ما لا يقدر عليه إلا الله فدعاؤه إياه عبادة بل مخ العبادة وصرفها لغير الله من دون الله، فهذا شرك في الإلهية، وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو رفع شر معتقدًا أنه قادر على قضاء ذلك، فهذا شرك في الربوبية حيث أنه متصرف مع الله في ملكوته، ثم إنه لم يدعه هذا الدعاء من دون الله إلا مع اعتقاده أنه يسمعه على البعد والقرب في أي وقت كان في أي مكان ويصرحون بذلك وهو شرك في الأسماء والصفات حيث أثبت له سمعًا محيطًا بجميع المسموعات فلا يحجبه قرب ولا بعد فاستلزم هذا الشرك في الإلهية الشرك في الربوبية والأسماء والصفات»[2].

وقال ابن القيم: «فاشتملت أي: سورة الفاتحة على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها ومدارها عليها وهي: « الله، الرب، الرحمن» وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة.

فـ« إياك نعبد » مبني على الإلهية. و« إياك نستعين » على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة فهو المحمود في إلهيته وربوبيته ورحمته، والثناء والمجد كمالان لمجده»[3].

وقال أيضًا: « فعلم أنه اسمه (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال والأسماء الحسنى تفصيل وتبين لصفات الإلهية التي اشتقت منها اسم الله، واسم (الله) دل على كونه مألوهًا معبدًا، وتألهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد»[4].

وقال الشافعي رحمه الله: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر»[5].

والإيمان والتوحيد معناهما واحد عند الإطلاق كما أن الإيمان والأسماء أيضًا

(١) مقدمة ابن باز على كتاب التنبيهات اللطيفة لابن سعدي ص ١٣.
(٢) أعلام السنة المنشورة، حافظ حكمي ص ٧٣.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٣١.
(٤) المصدر السابق ١/ ٥٦.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٠٩.

معناهما واحد عند الإطلاق ولفظة التوحيد وردت في حديث جابر عن أبيه: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بكبشين أملحين عظيمين أقرنين، فأضجع أحدهما وقال: بسم الله الله أكبر، اللهم عن محمد وأمته، من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ)[1].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: (اعبدوا ربكم): وحدوا ربكم.

قال ابن جرير: «والذي أراد-إن شاء الله-وحدوا: أي أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه»[2].

ويتأمل العبد في هذا الصدد مظاهر الوحدانية لله عز وجل التي لا يمكن أن يجزأها ويؤمن ببعضها دون البعض الآخر بل يفرد ربه تبارك وتعالى بها في جميع مظاهرها وأنواعها وبذلك تحقق العبودية له.

ومن فوائد الإيمان بالأسماء الحسنى والصفات العلى لله عز وجل:

١. أن هذا العلم -وهو العلم المتعلق بالله تعالى- أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

٢. أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له وهذا عين سعادة العبد ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه في فهم معانيها.

٣. أن الله خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه فهذا هو الغاية المطلوبة منهم فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضيعه إهمال لما خلق به، وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة أن يكون جاهلًا بربه معرضًا عن معرفته.

٤. أن أحد أركان الإيمان بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله وليس الإيمان بمجرد قوله: « آمنت بالله » من غير معرفة بربه بل حقيقة الإيمان أن يعرف الرب الذي يؤمن به ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين.

٥. أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها حتى أن العارف به حق المعرفة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته فالأفعال دائرة بين العدل والفضل والحكمة، وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند جابر، رقم ١٤٨٣٧.
قال الألباني: إسناده حسن رجاله ثقات رجال مسلم غير ابن عقيل فيه كلام لا ينزل به حديثه عن رتبة الحسن.
انظر: إرواء الغليل، رقم ١١٣٨.

(٢) جامع البيان ١/ ١٨٤.

ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حق وصدق وأوامره ونواهيه عدل وحكمة، وهذا العلم من أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه[1].

هذه الثمرات والفوائد العلمية العقدية الفكرية يجب أن ترتكز في ضمير المؤمن لكي تقوده إلى عمل مستمر ومثمر يتمثل في عمله الصالح المنطلق من مفهوم الأسماء والصفات، فتصلح إيمانه وتصلح عمله معًا.

لأن هذا المفهوم الكبير المتمثل في الركن الأول من أركان الإيمان الستة له علاقته الوطيدة بجميع أحكام العقيدة والشريعة، ولذا جاءت هذه الثمار والفوائد بهذه الطريقة العلمية المتخصصة. والله أعلم وأحكم.

موضوعات ذات صلة:

أسماء الله، الإلحاد، الألوهية، الإيمان، التوحيد

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، المقدمة.

الصلاة

عناصر الموضوع

مفهوم الصلاة	١١٦
الصلاة في الاستعمال القرآني	١١٧
الألفاظ ذات الصلة	١١٩
الصلاة والمخلوقات	١٢٠
مقاصد الصلاة	١٢٢
اقتران الصلاة بالأعمال الصالحة	١٢٥
أساليب القرآن في الحث على الصلاة	١٢٦
أحوال الناس مع الصلاة في القرآن	١٣٠
الصلوات المذكورة في القرآن	١٣٦
فوائد الصلاة	١٤٥

مفهوم الصلاة

أولًا: المعنى اللغوي:

اختلف في جذر الصلاة، فمن علماء اللغة من رجح كون الكلمة منحدرة من الجذر « ص ل ي» وهي بمعنى الصلي بالنار، يقال:صليت العود بالنار إذا ليته؛ لأن المصلي يلين بالخشوع[1]، ومنهم من رجح انحدارها من الجذر « ص ل و» لأن جمعها الصلوات، والتثنية منها صلوان[2]، وكلا الجذرين اشتركا في إدراج المعنى العام للصلاة، والصلاة من الله تعالى: الرحمة والثناء، وتأتي من المخلوقات بمعنى الاستغفار والدعاء[3].

قال الزجاج:الأصل في الصلاة اللزوم. يقال:قد صلي واصطلى إذا لزم، والصلاة لزوم ما فرض الله تعالى، والصلاة:واحدة الصلوات المفروضة، وهو اسمٌ يوضع موضع المصدر، أقول:صليت صلاةً ولا أقول:تصليةً، وهي العبادة المخصوصة، ولأن أصلها الدعاء فسميت ببعض أجزائها، وقيل:أصلها في اللغة التعظيم، وسميت الصلاة المخصوصة صلاةً لما فيها من تعظيم الرب تعالى[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفت الصلاة بأنها: «عبارة عن أركان مخصوصة، وأذكار معلومة، بشرائط محصورة في أوقات مقدرة، وقد عرفها أهل الفقه أيضًا بأنها: «أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة»[5].

والمتأمل في التعريفين اللغوي والاصطلاحي يجد تناغمًا بينهما؛ فالصلاة المفروضة تجتمع فيها أغلب المعاني اللغوية، فهي دعاء واستغفار وتعظيم لله تعالى، وتقتضي التزامًا ونظامًا، وأثرها في تليين القلب وتقويم السلوك واضح وثابت في النصوص الشرعية.

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ص٣٤٦.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٧/ ١٥٢.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٧٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٤٦٥.
(٥) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١/ ٣٥٨.

الصلاة في الاستعمال القرآني

وردت مادة «صلو» في القرآن الكريم (٩٩) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ [القيامة:٣١]
الفعل المضارع	٦	﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران:٣٩]
الفعل الأمر	٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب:٥٦]
المصدر	٨٣	﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]
اسم الفاعل	٣	﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر:٤٣]
اسم مكان	١	﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]

وجاءت الصلاة في القرآن على أربعة وجوه[(٢)]:

أحدها: بمعناها اللغوي وهو الدعاء والاستغفار: ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣]. يعني:ادع واستغفر لهم.

الثاني: بمعنى المغفرة والرحمة: ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص٤١٢-٤١٤، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧٠٣-٧٠٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٩٤-٢٩٥، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٩٤-٣٩٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٤٣٧-٤٣٨، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٣٤٩-٣٥١.

[الأحزاب:٤٣].

والثالث: الصلاة بمعناها الشرعي: ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء:٧٨]. **وهي الغالب في الاستعمال القرآني.**

الرابع: موضع الصلاة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ﴾ [الحج:٤٠]. **يعني: بيوت الصلاة ومواضعها.**

الألفاظ ذات الصلة

١ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة «د ع و» التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوى[(١)].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربه حاجته.

الصلة بين الدعاء والصلاة:

المفردتان متقاربتان في المعنى، فالصلاة أصلها دعاء وابتهال إلى الله ليغفر الذنوب، وفريضة الصلاة تتضمن الدعاء في تفاصيلها ولا تقوم دونه.

٢ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه[(٢)].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل:هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»[(٣)].

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»[(٤)].

الصلة بين العبادة والصلاة:

العبادة أعم من الصلاة، فالصلاة نوع من أنواع العبادات التي شرعها الله تعالى.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٤٤٨.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٣٤.
(٤) المفردات ص ٣١٨.

الصلاة والمخلوقات

كل المخلوقات في هذا الكون عباد لله عز وجل، وإن اختلفت طرائق عباداتهم.

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور:٤١].

وقد ذكر بعض العلماء أن الصلاة بمفهومها الاصطلاحي المعروف هي لبني آدم، أما التسبيح الذي هو التنزيه والتعظيم فلسائر الخلق[(١)].

وذكر الثعلبي تأويلين آخرين للآية بعيدًا عن تصنيف الصلاة للبشر والتسبيح لمن سواهم، أحدهما: أن كل مصل ومسبح قد علم الله صلاته وتسبيحه، والثاني: أن كل مسبح ومصل منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه الذي كلفه الله، وقد علم كل منهم صلاة الله من تسبيحه، وعلى هذا فالصلاة والتسبيح غير مقصورين على أحد[(٢)].

وقد نقل الماوردي قولًا آخر، وهو احتمال أن يكون المقصود في الآية الطير على وجه الخصوص وأن ضرب أجنحتها صلاة وأن أصواتها تسبيح، وأنه قد تكون للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود[(٣)].

قال الشوكاني: «وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك، أن صدور هذا التسبيح هو عن علم علمها الله ذلك وألهمها إليه، لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية، وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه وعظيم شأنه، كونه جعلها مسبحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له»[(٤)].

وقال المراغي: « إن كل مصل ومسبح يعلم ما يجب عليه من الصلاة والتسبيح اللذين كلف بهما، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها، انظر إلى النحل كيف تبنى بيوتها السداسية الأشكال التي لا يتمكن من بنائها فطاحل المهندسين إلا بدقيق الآلات، وإلى العنكبوت كيف تفعل الحيل اللطيفة لاصطياد الذباب»[(٥)].

وقد ثبت سجود جميع المخلوقات لله تعالى، قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨].

وقد ذهب علماء التفسير إلى أن جميع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩٩، الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٢٩.
(٢) انظر: الكشف والبيان ٧/ ١١٢.
(٣) انظر: النكت والعيون ٤/ ١١٢.
(٤) فتح القدير ٤/ ٤٨.
(٥) تفسير المراغي ١٨/ ١١٦.

مخلوقات الله من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، تسجد لله تبارك وتعالى، وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ [الحج:١٨].

إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مسخرة له عز وجل[(١)].

ومذهب أهل السنة أن لله علمًا في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره، ولها صلاة وتسبيح وخشية كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

فيجب على المرء الإيمان بذلك وأن يكل علمه إلى الله تعالى[(٢)].

وفي الحديث الصحيح عن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن)[(٣)].

وقد وصف سيد قطب تناغم المخلوقات في كل الكون واجتماعها على العبادة والتسبيح وهي متجهة جميعًا إلى الله تعالى، ثم قال: «والإنسان وحده هو الذي يغفل عن تسبيح ربه وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة!»[(٤)].

فالحق سبحانه وتعالى حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقهر من المخلوقات جميعًا لله يأتي الكلام عامًا لكل الأجناس بدون استثناء، إلا عندما يكون الكلام عن الناس فيوصف بالعبادة بعض الناس فقط! والأجدر أن يكون الإنسان هو المدرك الأكبر لفضل الله وعظمته فهو المميز بنعمة العقل دون غيره[(٥)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٠٣.
(٢) انظر: جامع الرسائل، ابن تيمية ١/ ٤٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ٤/ ١٧٨٢، رقم ٢٢٧٧.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٢.
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٦٠٨.

مقاصد الصلاة

الصلاة هي أحب الأعمال إلى الله، وقد ورد في فضلها نصوص كثيرة، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: (أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين، قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني)[1].

ولعل من أسباب أهمية الصلاة ما تتضمنه من مقاصد شرعية عظيمة، ومن تلك المقاصد ما يأتي[2]:

١. تحقيق مبدأ الامتثال والانقياد في نفس المصلي.

وتعويده على الطاعة والتعبد والانتظام في منهج التكليف والاستخلاف، وتجديد العهد بالله تعالى في كل صلاة، وهذا المبدأ هو أساس معنى الإسلام، فالإسلام قائم على الاستسلام لله والخضوع له وحده لا شريك له والانقياد له بالطاعة، والإنسان بطبيعته بحاجة إلى أن ينقاد إلى إله يلجأ إليه ويتذلل له، والله تعالى هو الإله الحق المستحق للعبادة وهو المتفضل علينا بسائر النعم، وفي فرض الصلاة تمرين للنفس على النظام والالتزام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء:١٠٣].

أي: هي مفروضة علينا حسب الأوقات التي حددها الشارع الحكيم[3]، ولا يخفى ما في التزام النظام من استقرار نفسي و رقي سلوكي.

٢. إصلاح النفس وتهذيبها، وتخليصها من الفواحش والمنكرات والهواجس والأوهام.

وهذه هي نتيجة الإخلاص والالتزام والخشوع في أداء الصلاة، فإن أقامها المؤمن باطمئنان وسكينة وتذكرٍ للرب العظيم الذي يقف بين يديه فسينتفع بثمراتها لا محالة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

والمعنى أن الصلوات الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب، كما جاء عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول: ذلك يبقي من درنه، قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها ١/ ١١٢، رقم ٥٢٧.

(٢) انظر: علم المقاصد الشرعية، نور الدين الخادمي ١/ ١٧١.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣٣٨.

الله به الخطايا)[1].

وذكر القرطبي في تفسيره أن ما يتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي[2].

وذكر ابن عاشور أن أقوال الصلاة وأفعالها تعمل كمذكرات بالله تعالى وتكون للمصلي كالواعظ المذكر بالله تعالى إذ ينهى سامعه عن ارتكاب ما لا يرضي الله[3].

قال ابن تيمية: «نفس فعل الطاعات يتضمن ترك المعاصي ونفس ترك المعاصي يتضمن فعل الطاعات ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فالصلاة تضمنت شيئين أحدهما نهيها عن الذنوب والثاني تضمنها ذكر الله»[4].

٣. انشراح الصدر وطمأنة القلب وإراحة البال.

وهذه ثمرة عظيمة من ثمرات الصلاة، فالإنسان المؤدي للصلاة في أوقاتها ويراعي شروطها وأركانها يستنير قلبه وتنفرج أساريره ويطمئن قلبه، ويتعطش لها إذا ما أجبرته الظروف للتأخر عنها، فتتكدر نفسه ولا يهدأ إلا بها، وصدق رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حينما قال لبلال رضي الله عنه: (يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها)[5].

كما شرعت الطهارة والصلاة للغضبان والمصاب والمكروب وغيرهم، فقد قال المولى تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

أي: تسكن وتستأنس قلوب المؤمنين بتذكر الله في القلب وذكره على اللسان، وهذا ما يتحصل للمؤمن حين يصلي[6]، فالأساس في الصلاة هو الذكر، ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه:١٤].

وقد استخدم القرآن الكريم الأداة «ألا» للتنبيه على أهمية ذكر الله والإغراء على ذلك الذكر الجالب للطمأنينة[7].

وقد ذكر الشعراوي في تفسيره للآية: «أن الاطمئنان مستوعب لكل القلوب؛ فكل إنسان له زاوية يضطرب فيها قلبه؛ وما أن يذكر الله حتى يجد الاطمئنان ويتثبت قلبه»[8].

وفي السجود له سبحانه قرب وأنس، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة ١/ ١١٢، رقم ٥٢٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٣٤٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٥٩.
(٤) الزهد والورع والعبادة ص١٨١.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة ٤/ ٢٩٦، رقم ٤٩٨٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٠٧، رقم ٧٨٩٢.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٣٢.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٤٧٨.
(٨) تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٣٢٧.

[العلق:١٩].

وهذا القرب الحاصل في الصلاة قد لا يحصل في غيرها، فالسجود استكانة واطمئنان والتجاء يقتضي إلطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لرغباتهم[(١)].

٤. تحقيق الآثار الاجتماعية والإنسانية وتنميتها؛ كالأخوة والمساواة والتضامن.

ونفي الفرقة والتمييز المبني على اختلاف الجنس أو اللون أو الغنى أو الجاه أو المحسوبية أو ما شابه ذلك؛ فكل الناس موقوفون أما الخالق الكريم، يرجون رحمته ويخشون عذابه، وتجمعهم للصلاة فرصة عظيمة للتآلف والتضامن، فيتبادلون السلام والسؤال عن بعضهم بعضًا، كما يتشاورون في أمورهم الاجتماعية والحياتية، وقيام المسلم للصلاة بين يدي خالقه يساهم في توفير الإشباع الذاتي لحاجة الانتماء الاجتماعي؛ من خلال إحساسه بالانتماء إلى العقيدة الدينية ومشاركته ملايين المسلمين في أداء الفريضة، وهذا مما يساعد في زوال أمراض الشعور بالنقص، والتي قد تتولد لدى الفرد نتيجة مهنة بسيطة أو طبقة متدنية، وهذا يساهم في رفع الشعور بالمساواة لدى الفرد، فيشعر الفقير أنه كالغني، والقوي أنه كالضعيف، وتزال الحواجز الدنيوية البغيضة التي تفرق بين أبناء الأمة، الأمر الذي يزيد من تقبل الأدنى لذاته ورضاه عن واقعه، كما يشعر المصلي بأنه واحد من ملايين من البشر قد اتجهوا نحو مكان واحد لعبادة رب واحد وأداء عمل واحد هو الصلاة، وهذا الشعور يقوي عنده الإحساس بالقوة والعزة.

والصلاة لها آثار إيجابية على المسلم، فهي الجالبة لتوفيق الله عز وجل في أمور الدراسة والعمل والزواج وكل ما يهم الإنسان، وهي المتسببة الأولى في رضا الوالدين، وصحبة الصلاة والمسجد خير صحبة، فهم حفظة القرآن والمتخلقون بالخلق الحميد، الذين يدلون على فعل الخير، ليسوا كصحبة السوء الذين يدفعون بأصحابهم إلى فعل القبائح والبعد عن الخير والفلاح.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٨٤.

اقتران الصلاة بالأعمال الصالحة

اقترنت الصلاة ببعض أعمال البر، ومن تلك الأعمال: الزكاة.

إن أغلب آيات الأمر بالزكاة جاءت بعد الأمر بالصلاة في نفس الآية.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨].

وقد أرجع بعض العلماء هذا الارتباط إلى أهمية هاتين الفريضتين، فهما من أعظم الفرائض التي حث الإسلام على أدائها، حيث إن الصلاة هي الركن الثاني في الإسلام بعد الشهادتين، والزكاة هي الركن الثالث، كما أن الصلاة حق الله والزكاة حق العباد وحق الله، والصلاة هي العبادة البدنية والمعنوية، والزكاة عبادة مالية ومعنوية[1].

ولعل الصلاة والزكاة تشتركان في مفهوم التحرر من العبودية؛ فالصلاة تحرر من العبودية للمخلوقات والمصالح إلى عبودية الله رب الأرباب، والزكاة تحرر من عبودية المال والشهوات، هذه العبودية التي تستذل النفوس، وتنكس الرؤوس، فيتحرر الإنسان بها من الحرص الذي يذل أعناق الرجال[2].

واقترنت الصلاة بالصبر في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥].

وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج:٣٥].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد:٢٢].

وهذا الاقتران يدلل على أهمية الأمرين، ويلاحظ في الآيات التي قرنت الصلاة بالصبر ذكر الصبر قبل الصلاة ولعل ذلك ترتيب منطقي؛ فالصلاة تحتاج إلى صبر ومجاهدة للنفس، فحسن أن يأتي ذكر الصبر قبلها، والله أعلم.

قال الأصفهاني: «والصلاة أرفع منزلة من الصبر، لأنها تجمع ضروبًا من الصبر، إذ هي حبس الحواس على العبادة، وحبس الخواطر والأفكار على الطاعة، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]. وخصها برد الضمير إليها دون

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي. ١٠/ ١٣٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥٨.

الصبر»[1].

لكن بعض العلماء أرجع السبب في رد الضمير إلى الصلاة كون الصلاة أعم من الصبر، فهي تتضمن الصبر والخشوع والتذلل وغير ذلك من لوازم الصلاة[2].

أساليب القرآن في الحث على الصلاة

الصلاة عمود الدين، وثاني أركان الإسلام، وأول ما يحاسب عليه المرء يوم القيامة، وقد تنوعت الأساليب القرآنية في الحث على إقامتها والالتزام بها، وخاطب الله تعالى عباده بأسلوب الأمر تارة، وبأسلوب الثناء تارة، وبأسلوب الذم للتاركين تارة، كما سيأتي:

أولًا: أسلوب الأمر:

جاء الخطاب القرآني الداعي إلي إقامة الصلاة بصيغة الأمر مرات كثيرة، من ذلك استخدام فعل الأمر في قول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

وقوله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠].

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب:٣٣].

وكذلك أتى الأمر بالصلاة بصيغة الإخبار بأن الفعل مكتوب على المخاطبين[3].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٧٧.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٤٣.
(٣) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، مناع القطان ١/ ٦٢.

﴿الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

وكذلك أتى الأمر عن طريق أسلوب المضارع المقرون بلام الأمر، تأمل قول الله تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء:١٠٢].

والأمر بكافة صيغه الواردة يقتضي وجوب المأمور به، والمبادرة بفعله فورًا، ومن الأدلة على أن الأمر يقتضي الوجوب قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

ووجه الدلالة أن الله حذر المخالفين عن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن تصيبهم فتنة، أي زيغ، أو يصيبهم عذاب أليم، والتحذير بمثل ذلك لا يكون إلا على ترك، وقد قال الله عز وجل في شأن الصلاة على وجه الخصوص: ﴿۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم:٥٩].

والغي لمن أضاع الصلاة دلالة على وجوبها، ومن الأدلة على أن الأمر للفور قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

والمأمورات الشرعية خير، والأمر بالاستباق إليها دليل على وجوب المبادرة إلا إذا جاء دليل يصرفها عن ذلك[(١)].

(١) انظر: الأصول من علم الأصول، ابن عثيمين ١/ ٢٣.

ثانيًا: أسلوب الثناء على المقيمين لها والآمرين بها:

أثنى القرآن الكريم على المقيمين للصلاة في كثير من المواضع ووعدهم بالأجر الكبير؛ ليحث على إقامتها والالتزام بها، من ذلك قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٣-٤].

فقد وصف الله تعالى المقيمين للصلاة المنفقين من مال الله بأنهم هم المؤمنون الذين لا شك في إيمانهم كشك المنافقين، أولئك لهم الجنة يرتقونها بأعمالهم، والرزق الكريم الذي أعده الله لهم فيها[(٢)].

وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [لقمان:٤-٥].

واستخدم المولى تبارك وتعالى في هذه الآية محفزًا حسيًا يفهمه البشر، فقد وصف تعالى المصلين المزكين المؤمنين بوجود اليوم الآخر بأنهم على رشاد، ثم استخدم كلمة «المفلحون» في وصفهم، فالبشر يعون تمامًا فكرة الزراعة المبنية على البذر والتكاثر والحصاد، فاستدل بالأمر المشهود على الأمر الغيبي، كأنه تعالى يعدهم إذا

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٨٩.

فعلوا تلك الأوامر أنه سيبارك في طاعتهم التي هي بذرهم، وسيجزل لهم الحصاد بفضله وكرمه عز وجل[(١)].

وامتدحهم المولى أيضًا عندما وصفهم بالخشية، ثم نعتهم بالمزكين لأنفسهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِۚ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [فاطر:١٨].

والتزكية تعني التطهير، فالمقيم للصلاة يطهر نفسه بتلك الصلاة من شوائب الأعمال؛ حتى ينال وصف الخاشين لله تعالى، وقد وصفت الصلاة بأنها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال، وأن صاحبها سيرى أثرها يوم القيامة عندما تصير النفوس إلى الله راجية رحمته وثوابه عز وجل[(٢)].

كما أثنى المولى على المقيمين للصلاة في وقت كسب أرزاقهم، ووصفهم بالرجال الذي يخافون العقاب، ووعدهم بجزاء أحسن من عملهم، وزيادة من الفضل والرزق[(٣)].

قال تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨﴾ [النور:٣٧-٣٨].

وأكد تعالى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد التوبة تقتضي الأخوة في الدين، وهذا ثناء عظيم ووعد بحياة جديدة طاهرة للتائب يساند فيها المسلم أخاه المسلم.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة:١١].

ثالثًا: ذم المضيعين لها:

ذم الله تعالى تضييع الصلاة والتهاون في أدائها، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون:٤-٥].

فقد توعد الله تعالى الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها ويغفلون عنها بسبب لهوهم في الحياة الدنيا بالويل[(٤)] وهو العذاب الأليم أو وادٍ في جهنم، وهذه هي قمة الذم لمن يفرط في صلاته، ولعل العاقل يشمئز من هذا الوصف فيراجع نفسه ويعود لرشده، فيقيم الصلاة في وقتها ولا يهملها[(٥)].

وقد ذمهم الحق مرة أخرى عندما وصفهم بتضييعها، وقد ذكر تضييع الصلاة ثم أعقبه باتباع الشهوات، فهذا ما يتبع

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ١٣٣.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ٢٠/ ٢٨٥.
(٣) انظر: مختصر معالم التنزيل، البغوي، عبد الله الزيد ٥/ ٦٥٤.
(٤) انظر: تفسير ابن فورك ٣/ ٢٨٢.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٦٥.

تضييعها عادةً، ثم توعدهم الله تعالى بالغي، وهو الشرود والضلال، وعاقبة الشرود الضياع والهلاك[1].

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم:٥٩].

ثم فصل المولى عز وجل في الوصف الذميم لتاركي الصلاة، تأمل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء:١٤٢].

فوصفهم بادئ ذي بدء بالنفاق الممقوت؛ فهم يقيمون الصلاة تظاهرًا أمام الناس ليخدعوا المسلمين وليشاهدهم الناس وينخدعوا بهم، وفي الصلاة التي يراؤون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها، بل يقولون المطلوب قوله جهرًا فقط، كأن يتمتموا بالفاتحة وبعض القرآن ولكنهم في أثناء الركوع والسجود لا يسبحون باسم الله تعالى[2].

وتأكيدًا على الذم، قرر المولى عز وجل أن الشيطان هو المسؤول عن الصد عن ذكر الله والصلاة، وفي هذا تشنيع على المتمسك بتغييب عقله اللاهث وراء الشيطان وإغوائه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة:٩١].

وعندما ذم الله تعالى أعتى ظلمة الجاهلية - أبا جهل- وصفه بتكذيب كلام الله والإعراض عن الصلاة، قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢﴾ [القيامة:٣١-٣٢].

ولعل اقتران ترك الصلاة مع التكذيب بالله فيه من التشنيع ما يكفي، فضلًا عن أن من وصف به هو أبو جهل! فالأصل أن يتجنب كل ذي لبٍ التشبه بعمل ذلك الكافر[3].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٥٦٥.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٧٤١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٨١.

أحوال الناس مع الصلاة في القرآن

ذكر القرآن الكريم حالات للناس مع الصلاة، ومن تلك الحالات ما يأتي:

أولًا: المقيمون للصلاة:

إقامة الصلاة هي ما يأمر به الدين، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء:٧٨].

وقال على لسان عبده لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧].

وامتدح عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤١].

وكذلك وصفهم بإقامتها في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال:٢-٣].

فقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الحصر، أي أن هؤلاء المذكورة أوصافهم هم المؤمنون بحق، وغيرهم -ممن لا يتصف بوجل القلب وزيادة الإيمان بتلاوة القرآن والتوكل و إقامة الصلاة والإنفاق- ليسوا بمؤمنين حقًا.

ويؤكد هذا المفهوم ما ورد بعد ذلك بآية، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٤].

ومن لا يؤمن بحق فهو غير مؤمن أصلًا، يقول تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

أي من لم يتبع الحق فهو بالتأكيد اتبع ما يخالفه[1]، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الآية تعني أن من اتصف بتلك الأوصاف هو المؤمن كامل الإيمان، بينما من لم يتصف بها هو المؤمن ناقص الإيمان، فلا ينتفي عنه الإيمان بالجملة[2]، والله تعالى أعلى وأعلم.

وإقامة الصلاة تعني أداءها بشكل كامل، متممًا أركانها وفرائضها وشروطها مع الخضوع والخشوع لله تعالى، مع استحضار الخشية والرجاء لله تعالى[3].

وهذه هي الصلاة التي تحقق آثارها المذكورة في قوله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٥٠، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٧٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٩.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٢٤٨.

﴿الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

قال ابن عباس: «في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد إلا بعدًا»[(١)].

ولأهمية الصلاة لم يسقطها الشرع عن المكلف أبدًا، فإن لم يستطع الإنسان تأديتها واقفًا، فقاعدًا، وإن أنهكه المرض عليه أن يؤديها بما بقي لديه من حواس، ولأهميتها أيضا نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمقٍ في حياته، وهي قد أخذت أهميتها في التشريع على قدر أهميتها في التكليف؛ فكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحي إلا الصلاة، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى عندما أمر عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بها أثناء رحلة الإسراء والمعراج[(٢)].

ولم يأمر الله تعالى بالصلاة ولم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة، نحو قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان:١٧].

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ﴾ [النساء:١٦٢].

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ [الأنفال:٣].

ولم يقل: «المصلي» إلا في معرض وصف المنافقين، تأمل قوله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ [الماعون:٤-٥].

وذلك تنبيه أن المصلين المؤدين تأديةً مجردة عن الخشوع والإذعان والرجاء كثير والمقيمين لها قليل[(٣)].

ثانيًا: التاركون للصلاة:

ذكر القرآن الكريم صنفًا آخر من الناس، وهم الذين يتركون إقامة الصلاة، قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝﴾ [القيامة:٣١-٣٢].

والمقصود بالآية الكريمة رأس الكفر أبو جهل، فلم يصدق بكتاب الله، ولم يصل له صلاة، وما كان منه إلا التكذيب بالقرآن والرسالة النبوية، والإدبار عن طاعة ربه تبارك وتعالى[(٤)].

وقد توعد المولى عز وجل أبا جهل ومن على شاكلته بالعقاب المنتظر يوم القيامة، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝﴾ [القيامة:٣٦].

أي: هل يظن الجاهل أن الله سيتركه دون بعث أو حساب؟![(٥)].

وقد ذكر القرآن الكريم من اتخذ الصلاة هزوا ولعبًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٢١.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٧٢٥.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٨١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٢٢.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١١٣.

﴿الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة:٥٨].

وذكر في سبب نزول الآية أن منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قال اليهود والمنافقون: قد قاموا لا قاموا، وصلوا لا صلوا، ويضحكون على طريق الاستهزاء، فأنزل الله هذه الآية[1].

فهؤلاء الضالون اتخذوا من الصلاة -على ما لها من العظمة والجد- هزؤا، فيتعمدون الضحك والسخرية، وعلى شاكلتهم بعض الشباب الفاسد الذي ترك الصلاة واستهزأ بمن يصلي، وبين سبحانه أن سبب ذلك عدم انتفاعهم بعقولهم فكأنهم لا عقول لهم، وذلك لأن تأمل مستلزمات الصلاة من التطهر لها وحسن التزين مع التخلي عن الدنيا والإقبال على المولى جل وعلا، والتحلي بالقراءة لأعظم الكلام، والخشوع والخضوع لمالك الملك بمجرده كافٍ في اعتقاد حسنها وعظمتها وهيبتها وكمالها[2].

وقد ذكر المولى عز وجل أن جيلًا ظهر بعد ذرية الأنبياء الصالحة، كانوا من العاصين فضيعوا الصلاة ولم يؤدوها واتبعوا شهواتهم الدنيوية، وتوعدهم بالعذاب الشديد، أو هو واد في جهنم، تأمل قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم:٥٩].

وقد ورد في معنى إضاعة الصلاة عدة تأويلات، فقد تكون إضاعتها بتركها وهذا هو الأشهر، أو جحدها، أو تضييع مواقيتها[3].

ويلاحظ أن إضاعة الصلاة هي مدخل اتباع الشهوات، كيف لا وهي الناهية عن الفحشاء والمنكر الرادعة عن كل قبيح!

وصور لنا المولى عز وجل موقف العذاب في نار جهنم للضالين، وبدأ أسباب العذاب بترك الصلاة ثم أورد عدم الإطعام، والخوض والتكذيب بيوم الدين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظمة الصلاة ومنزلتها عند الله تعالى فقد ذكرها قبل كل شيء.

قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر:٤٢-٤٣].

والصلاة المقصودة هنا هي الصلوات المفروضة، وسقر اسم من أسماء نار جهنم، قال بشأنها رب العزة ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ [المدثر:٢٨].

قال الواحدي: «إن سقر لإحدى الأمور العظام»[4].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٧.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٦/ ١٩٦.
(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٥٢٦.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٦٢.

ولا تخفى ملاءمة العقاب لأهمية المأمور به.

ولعل مما يشير أيضًا إلى أهمية الصلاة، ذم القرآن الآمر بتركها الناهي عن إقامتها، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق:٩-١٠].

وفي الآية تعجبٌ من تغطرس أبي جهل وجراءته على ربه العظيم، فالله يأمرنا بالصلاة وهذا الفرعون ينهى رسول الله عنها![1]، فكان الرد الرباني متوعدًا ذلك الكافر بالعذاب، وآمرًا نبيه الكريم والمؤمنين بالتقرب والصلاة، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾ [العلق:١٩].

ثالثًا: الساهون عن الصلاة:

يعد السهو في الصلاة سببًا رئيسًا لاستحقاق العذاب يوم القيامة، قال المولى عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٤-٧].

وقد توعدت الآيات من يلهو عن إقامة الصلاة وهم المنافقون ومن على شاكلتهم، يؤخرون أداءها حتى يضيع وقتها، وهم في أدائهم للصلاة مراؤون حتى يشكرهم الناس، ومن خصالهم أيضًا منعهم لأدوات المنزل الأساسية التي قد يحتاجها جيرانهم كالماء والنار وغير ذلك[2].

والساهي عن الصلاة غير مبالٍ فيها لا يكترث أصلى أم لم يصل[3].

وقد ذكر الطبري أن الساهين هم المنافقون يتركون الصلاة في السر، ويصلون في العلانية، والمنافق إن صلاها لوقتها لم يرج ثوابها، وإن تركها لم يخش عقابها، فصلاته لا روح فيها ولا إقبال، وهي وبالٌ عليه، والويل الذي توعدهم به الله تعالى هو الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم[4].

وقد امتدح الله عز وجل في المقابل من لا يسهو عن وقت الصلاة مهما بلغت مشاغله الدنيوية، قال تعالى: ﴿رِّجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ [النور:٣٧-٣٨].

وهذا وصف المؤمنين المخلصين الذين لا تشغلهم معاملاتهم الرابحة من بيع وشراء عن إقامة الصلاة، رغم ما تقتضيه التجارة من تركيز عقلي وتعامل اجتماعي مع صنوف الناس، ورغم ما تستثيره من حب للدنيا

(١) التفسير الوجيز ١/ ١١٥١.

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٨٧١.

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٣/ ٤٦٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٣٠-٦٣٢، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٥/ ١٦٦.

وأرباحها، كل هذا لا يمنع المسلم الحق من إقامة الصلاة وتأدية الزكاة، فعلاقتهم بالله أولى وأوثق، وهو سبحانه العالم بهم المتفضل عليهم، يعدهم بأحسن مما عملوا، وبزيادة من الرزق، فهو الرزاق الذي لا حدود لكرمه[1].

والمولى عز وجل إذ يطلب من عباده صلاة مخلصة فهو لا يريد منهم شيئا لذاته سبحانه- فهو الغني عنهم- إنما يريد صلاح أنفسهم، وتقويم اعوجاجهم، وتطهير قلوبهم وسعادة حياتهم، يحب لهم حياة رفيعة قائمة على الشعور الصادق، والتآلف في الله، ونظافة القلب والسلوك[2].

رابعًا: المتكاسلون عن الصلاة:

جاء ذكر المتكاسلين في القيام إلى الصلاة في معرض الحديث عن صفات المنافقين، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

فالمنافقون يتثاقلون إلى الصلاة، لا يرون أنها حق عليهم[3]، ويكونون متقاعسين، كما ترى من يفعل شيئًا على كره لا عن طيب نفس[4].

قال التستري ذاكرًا عقاب الله على فعل أولئك المنافقين: «يسرع لهم الجزاء على إظهار الإيمان وإضمار الكفر بترك العصمة والتوفيق، وتمديد الأموال والبنين، والإطراق على عاجل الدنيا، وخاتمتهم النار»[5].

وفي قول آخر عن عقاب الله لهم: إنهم على الصراط يعطون نورًا كما يعطي المؤمنين، فإذا مضوا على الصراط، يسلبهم ربنا ذلك النور[6].

ويبقى المؤمنون ينظرون بنورهم، فينادون المؤمنين: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد:١٣-١٥].

ولا يقبل الله عز وجل ما ينفق هؤلاء المنافقون؛ لأنهم كفروا به تعالى ولم يقيموا الصلاة، ولم ينفقوا إلا وهم كارهون، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٠٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٨٥.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٤١٦.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٧٩.
(٥) تفسير التستري ١/ ٥٥.
(٦) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٤٠٤.

﴿الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

فهؤلاء المنافقون لم يكونوا ليصلوا لولا مخافتهم مذمة المؤمنين، فكانوا إذا أمنوا وضمنوا عدم رؤيتهم من المؤمنين تركوها ولم يقيموها[(١)].

وكان إتيانهم إلى الصلاة إتيان المتكاسل المتذمر المستاء منها، الذي لا يؤمن بوجوبها ولا بالثواب المترتب عليها ولا بالعقاب المترتب على تركها[(٢)]، على خلاف المؤمن الذي تتوق نفسه إلى مناجاة خالقه ولا ينتظر من صلاته شكرًا من البشر.

قال القشيري: «من أطاع من حيث العادة- من غير أن تحمله عليها لوعة الإرادة- لم يجد لطاعته راحة وزيادة، ويقال: من لاحظ الخلق في الجهر من أعماله، وركن إلى الكسل في السر من أحواله فقد وسم بالخذلان، وختم بالحرمان، وهذه هي أمارة الفرقة والقطيعة»[(٣)].

قال سيد قطب عن فعل المنافقين ومن على شاكلتهم: «فهم يأتونها مظهرًا بلا حقيقة، ولا يقيمونها إقامة واستقامة، يأتونها كسالى؛ لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير، إنما يدفعون إليها دفعًا، فيحسون أنهم عليها مسخرون! وكذلك ينفقون ما ينفقون كارهين مكرهين، وما كان الله ليقبل هذه الحركات الظاهرة التي لا تحدو إليها عقيدة، ولا يصاحبها شعور دافع، فالباعث هو عمدة العمل والنية هي مقياسه الصحيح، ولقد كان هؤلاء المنفقون وهم كارهون ذوي مال وذوي أولاد، وذوي جاه في قومهم وشرف، ولكن هذا كله ليس بشيء عند الله، وكذلك يجب ألا يكون شيئًا عند الرسول والمؤمنين، فما هي بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنؤوا بها، إنما هي الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها»[(٤)].

ولعل على المسلم الفطن أن يتأمل صلاته جيدًا، ويسأل نفسه: هل أقبل على الله تعالى بكل جوارحي؟ أو أصليها مشغولًا في ملاذ الدنيا؟ هل أذهب لملاقاة ربي في الصلاة بنشاط واجتهاد كما أذهب إلى مقابلة مديري في العمل؟ أو أذهب ذهاب الكسالى المتذمرين؟ هل أقيمها أم أنا من المؤدين؟ هل أتركها وأسهو عنها أم أنا من الملتزمين؟ هل أصلي صلاة المؤمنين؟ أم هي صلاة المنافقين؟

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٩٩.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٣٧.
(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٣٥.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٥.

الصلوات المذكورة في القرآن

خص الله تعالى بعض الصلوات بالذكر في القرآن الكريم، من تلك الصلوات ما يأتي:

أولًا: الصلوات الخمس:

الصلوات الخمس هن فرض الله تعالى على عباده، وعماد هذا الدين، وقد جاء في الصحيح (أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس، يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وصيام رمضان قال: هل علي غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال: وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلح إن صدق)[1].

وقد ذكرت الصلوات المفروضة في القرآن الكريم في أكثر من موضع، من ذلك قول المولى عز وجل: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨].

وفي الآية أمر بالمحافظة على إقامة تلك الصلوات، وقد ذكر الطبري أن المقصود بالصلاة الوسطى هي صلاة العصر[2]، وتخصيصها لأنها في وقت راحة الناس وقد يغفل عنها أو يسهو عن وقتها بعض الناس، أو لفضلها[3].

وقيل: هي صلاة الصبح؛ لأن القنوت المذكور في آخر الآية لا يكون إلا في صلاة الصبح[4]، أو هي صلاة الظهر، لكن الأظهر أنها صلاة العصر؛ لأن قبلها صلاتي نهار وبعدها صلاتي ليل؛ لذلك وصفت بالوسطى[5].

وقد نص القرآن الكريم على صلاة العشاء والفجر في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [النور:٥٨].

وجاء الأمر بإقامة الصلاة لدلوك الشمس وغسق الليل والفجر في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام ١/ ١٨، رقم ٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٦٩.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٩٤.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٠٩.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٥٦.

[الإسراء:٧٨].

وفي دلوك الشمس تأويلان:

الأول: أن دلوكها هو غروبها فتكون الصلاة المقصودة هي صلاة المغرب.

والثاني: زوالها فتكون المقصودة هي صلاة الظهر.

وفي غسق الليل تأويلان، أنها صلاة المغرب، أو صلاة العشاء[(١)].

ولا يلزم كثير من الترجيح في هذا الجانب؛ فالمؤمن يحافظ على جميع الصلوات، ويجتهد في استرضاء المولى عز وجل بإخلاص التوجه إليه في كل الفرائض، فكلها طاعة وبركة وبأدائها دون انتقاص يحصل الرضا والغفران ودخول الجنان.

ثانيًا: صلاة الجمعة:

ليوم الجمعة وصلاتها خصوصية وفضل عظيم، وقد أمر الله عباده بالامتناع عن البيع والشراء والانشغال بالدنيا إذا بدأت صلاة الجمعة وذلك حتى انتهائها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة:٩-١٠].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٦٢-٢٦٣.

وفي الآية نادى الله عباده بصفة الإيمان، لتحريك الإخلاص في قلوبهم، ولتحريضهم على المسارعة إلى صلاة الجمعة، إذ يلزم المؤمن القوي أن يكون مطيعا لما يأمره خالقه به، والنداء الوارد هو الأذان الخاص بصلاة الجمعة، والسعي المأمور به في الآية هو الاجتهاد في الذهاب إلى الصلاة دون إفراط في السرعة[(٢)]؛ لحديث النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي قتادة، قال: (بينما نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة؟ قال: فلا تفعلوا إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا)[(٣)].

وصلاة الجمعة هي الصلاة التي يجتمع فيها المسلمون كل أسبوع ليشهدوا خطبتها، ويستنيروا ببركتها، ولعظمتها ومكانتها أقسم بها المولى عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ [البروج:٣].

فالشاهد -على الراجح- هو يوم الجمعة، والمشهود هو يوم عرفة[(٤)].

قال الشنقيطي: «ففي كل منهما نداء، وأذان الحج صلاة وسعي وإتيان وذكر لله،

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٣٨٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب قول الرجل فاتتنا الصلاة ١/ ١٢٩، رقم ٦٣٥.

(٤) انظر: تفسير الشافعي ٣/ ١٤٣٤.

ثم انتشار وإفاضة مما يربط الجمعة بالحج في الشكل وإن اختلف الحجم، وفي الكيف وإن تفاوتت التفاصيل، وفي المباحث والأحكام كثرة وتنويع من متفق عليه ومختلف فيه، مما يجعل مباحث الجمعة لا تقل أهمية عن مباحث الحج، وتتطلب عناية بها كالعناية به»[1].

وقد أمر الله تعالى بترك البيع في وقت صلاة الجمعة، والبيع هو صفقة سريعة رابحة محببة إلى قلب البائع، وخص البيع دون الشراء؛ لأن البائع يبيع راغبًا منتظرًا للمال أما المشتري فقد يشتري وهو كاره، ومن السهل أن يؤجل الشراء، فالحق سبحانه حينما يأمرنا بترك البيع -على سرعة إتمامه غالبًا- فترك غيره من الأعمال أولى[2].

ثالثًا: صلاة الجماعة:

أمر القرآن الكريم بصلاة الجماعة في عدة مواضع، منها قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢].

فقد تحدثت الآية الكريمة عن صلاة الخوف، وتضمنت أمرا مباشرا بتأدية صلاة الجماعة مع النبي صلى الله عليه وسلم، فقد جاء الأمر له عليه السلام بالصلاة مع فئة من المجاهدين، بحيث يكون باقي الجيش في حراستهم، وبعد الانتهاء يأتي من كان في الحراسة للصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك يعني أهمية صلاة الجماعة، ففي أمر الله بإقامة الجماعة في حال الخوف دليل على أن ذلك في حال الأمن أوجب[3].

وقد استدل بعض العلماء على وجوب صلاة الجماعة بقول المولى عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

فقد ذكرها ابن عثيمين في فوائد الآية، ولكنه أشار إلى أن الآية قد لا تدل على الجماعة؛ لأنها وردت في قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٣].

وصلاة الجماعة غير واجبة في حق المرأة[4].

ومما يدل على وجوب صلاة الجماعة ما جاء في الحديث عن أبي هريرة، قال: (أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل أعمى، فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله صلى الله

(١) أضواء البيان ٨/ ١٢٠.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٣٩٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٦٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ١/ ١٥٦.

عليه وسلم أن يرخص له، فيصلي في بيته، فرخص له، فلما ولى، دعاه، فقال: هل تسمع النداء بالصلاة؟ قال: نعم، قال: فأجب)[1]، وهذا شأن الأعمى، فما بالنا بالبصير!

رابعًا: الصلاة على الميت:

من الدلالات القرآنية على صلاة الميت قول المولى عز وجل: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة:٨٣-٨٤].

فقد تحدثت الآيات الكريمة عن المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم للقتال، وأمر الله نبيه عليه السلام ألا يصلي على من مات منهم وألا يتولى وضعه في القبر أو تكفينه[2]، وبمفهوم المخالفة هناك دلالة على لزوم الصلاة على المسلم، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥].

يعني: أن الكفار محجوبون، فدل على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون، فذلك مثله، وقد وردت أدلة من السنة على صلاة الميت وأجمع عليها الأئمة.[3].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء)[4].

خامسًا: صلاة الخوف:

وردت صلاة الخوف في قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:١٠٢].

ومعنى الآية: إذا كنت بحضرة العدو وحضرت الصلاة فلتقم فئة من المؤمنين للصلاة معك، وليأخذوا سلاحهم معهم، أو

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء ١/ ٤٥٢، رقم ٦٥٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٠٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٢١.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت ٣/ ٢١٠، رقم ٣١٩٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٧٦، رقم ٦٦٩.

وليأخذ أسلحتهم من بقي بإزاء العدو، فإذا صلوا ركعة فلينصرفوا إلى موضع العدو، وليقفوا هناك ولتأت الفئة التي لم تصل، وكانوا بإزاء العدو فليصلوا معك ركعة أخرى، ولم يذكر في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة ولكن ذكر في الخبر عن عبد الله بن عمر وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم حين صلى صلاة الخوف صلى بالطائفة الأولى ركعة، وبالطائفة الأخرى ركعة كما ذكر في الآية، ثم جاءت الطائفة الأولى وذهبت هذه الطائفة إلى موضع العدو، حتى قضت الطائفة الأولى الركعة الأخرى وسلموا، ثم جاءت الطائفة الأخرى، وقضوا الركعة الأولى وسلموا، حتى صارت لكل طائفة ركعتان، وهذا اختيار الجمهور في صلاة الخوف[1].

واختلف أهل العلم في الأمر بصلاة الخوف هل خص به النبي صلى الله عليه وسلم؟ على قولين: أحدهما: أنه خاص له وليس لغيره من أمته أن يصلي في الخوف كصلاته؛ لأن المشركين عزموا على الإيقاع بالمسلمين إذا اشتغلوا بصلاتهم، فاطلع الله نبيه على سرائرهم وأمره بالتحرز منهم، والقول الثاني: أن ذلك عام للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره من أمته إذا كان على مثل حاله في خوفه؛ لأن ذكر السبب الذي هو الخوف يوجب حمله عليه متى وجد كما فعل الصحابة بعده حين خافوا وهو قول الجمهور[2].

سادسًا: صلاة السفر:

ذكرت صلاة السفر في مواضع عدة من القرآن الكريم، من ذلك قول المولى عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء:٤٣].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة:٦].

والآيات فيها دلالة صريحة على وجوب

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣٣٣.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٢٤.

أداء الصلاة في حالة السفر، سواء توضأ بالماء حال وجوده، أو تيمم بالتراب، ولا يعفى من الصلاة أحد يعقل، وإنما يتاح للمسافر أن يقصر الصلاة تخفيفًا عنه؛ لأن السفر مظنة المشقة.

قال السرخسي: «والقصر في السفر في الظهر والعصر والعشاء؛ لأن القصر عبارة عن سقوط شطر الصلاة، وفي هذه الصلاة بعد سقوط الشطر تبقى صلاته كاملة بخلاف الفجر، فإن بعد سقوط الشطر منها لا يبقى إلا ركعة وهي لا تكون صلاة تامة، وكذلك في المغرب بعد سقوط شطر منها لا تبقى صلاة تامة؛ فلهذا لم يدخلها القصر، والسنن والتطوع لا يدخلها القصر»[(١)].

سابعًا: صلاة المريض:

أمر المولى عز وجل بإقامة الصلاة في حال المرض الذي لا يزول معه العقل، أما ما كان معه زوال العقل أو الإغماء فلا صلاة فيه، بدلالة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يكبر)[(٢)].

ودل على وجوب إقامة الصلاة للمريض قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ [المائدة:٦].

وقد أجمع أهل العلم على أن من لا يستطيع القيام له أن يصلي جالسًا، فإن عجز عن الصلاة جالسًا فإنه يصلي على جنبه مستقبل القبلة بوجهه، والمستحب أن يكون على جنبه الأيمن، فإن عجز عن الصلاة على جنبه صلى مستلقيًا؛ لقوله صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين: (صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب)[(٣)].

ومن قدر على القيام وعجز عن الركوع أو السجود لم يسقط عنه القيام، بل يصلي قائمًا فيومئ بالركوع ثم يجلس ويومئ بالسجود؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦].

ومن لم يقدر على الإيماء برأسه كفاه النية والقول، ولا تسقط عنه الصلاة ما دام عقله ثابتًا بأي حال من الأحوال، ومتى قدر

(١) المبسوط ١/ ٢٤٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًا ٤/ ١٣٩، رقم ٤٣٩٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٥٩، رقم ٣٥١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب ٢/ ٤٨، رقم ١١١٧.

المريض في أثناء الصلاة على ما كان عاجزًا عنه من قيام أو قعود أو ركوع أو سجود أو إيماء، انتقل إليه وبنى على ما مضى من صلاته، ولا يجوز ترك الصلاة بأي حال من الأحوال، بل يجب على المكلف أن يحرص على الصلاة أيام مرضه أكثر من حرصه عليها أيام صحته، فعليه أن يؤديها في وقتها حسب استطاعته، فإن شق عليه ذلك فليجمع، فإذا تركها عامدًا وهو عاقل عالم بالحكم الشرعي مكلف يقوى على أدائها ولو إيماءً فهو عالم، وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى كفره بذلك؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)[1].

ثامنًا: صلاة الضحى:

أشار المولى تبارك وتعالى إلى صلاة الضحى في عدة آيات، لما لها من فضل عظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص:١٨].

والمقصود بالآية هو نبي الله داوود عليه السلام حيث إن الله تعالى سخر الجبال يسبحن معه بالعشي، وذلك من وقت العصر إلى الليل، والإشراق وذلك بالغداة وقت الضحى[2].

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: طلبت صلاة الضحى في القرآن فوجدتها ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨][3].

وقد ذكر الطبري في تفسيره أن الموعودين بالمغفرة في قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٥].

هم التائبون أو من يصلون الضحى، فهم الأوابون[4].

وصلاة الضحى سنة مؤكدة عن النبي صلى الله عليه وسلم، بين فضلها في قوله عليه السلام: (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى)[5].

وقد وصانا بها كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/ ٨٨، رقم ٨٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٣.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٧/ ١٥١.

(٤) انظر: جامع البيان ١٧/ ٤٢٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى ١/ ٤٩٨، رقم ٧٢٠.

ونوم على وتر)[1].

تاسعًا: الركعتان بعد المغرب:

ذكرت ركعتا المغرب في قول المولى عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق:٣٩-٤٠].

قال مقاتل: «﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق:٤٠]. يعني: الركعتين بعد صلاة المغرب، وقتهما ما لم يغب الشفق»[2]، وقد قال بذلك كثير من المفسرين[3].

وفي الوقت بعد صلاة المغرب إلى العشاء بركة كبيرة يجب أن يستغلها الإنسان في الطاعات وصلة الأرحام والجلوس في حلقات الذكر وتحفيظ القرآن الكريم والاجتماع بالأسرة وتذكر الله تعالى وتسبيحه إتباعا لأمر الله تعالى وطمعًا في تحصيل مثوبته عز وجل.

عاشرًا: ركعتا الطواف:

ورد ذكر ركعتي الطواف في قول المولى عز وجل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥].

والمعنى: اتخذوا من مقام إبراهيم مكانًا تصلون فيه بعد طوافكم[4].

قال ابن عاشور: «اتخاذ مقام إبراهيم مصلى كان من عهد إبراهيم عليه السلام ولما جاء الإسلام بقي الأمر على ذلك إلى أن كان عام حجة الوداع أو عام الفتح دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام ومعه عمر بن الخطاب ثم سنت الصلاة عند المقام في طواف القدوم»[5].

«وجمهور أهل العلم على أن ركعتي الطواف لا يشترط في صحة صلاتهما أن تكون خلف المقام، بل لو صلاهما في أي موضع غيره صح ذلك»[6]، قال ابن عادل: «وليس للصلاة تعلق بالحرم، ولا بسائر المواضع إلا بهذا الموضع»[7].

الحادي عشر: صلاة العيد:

جاء ذكر صلاة العيد في قول الله عز وجل: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر:٢].

فالصلاة المذكورة قبل النحر كما قال قتادة: «هي صلاة الأضحى»[8].

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينحر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب صلاة الضحى في الحضر ٢/ ٥٨، رقم ١١٧٨.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ١١٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٧٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٥، التفسير الوجيز، الواحدي ١/ ١٠٢٥.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٧٨.
(٥) التحرير والتنوير ١/ ٧١١.
(٦) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤١٠.
(٧) اللباب في علوم الكتاب ٢/ ٤٦٤.
(٨) تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٣/ ٤٦٦.

يوم الأضحى قبل الصلاة، فأمره الله تعالى أن ينحر بعدها[1]، وهذا جمع عظيم بين العبادة البدنية القلبية والعبادة المالية[2].

وصلاة العيد سنة مؤكدة عن النبي صلى الله عليه وسلم يخرج لها الصغير والكبير والمرأة والرجل، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لتخرج العواتق ذوات الخدور - أو العواتق وذوات الخدور -، والحُيَّض فيشهدن الخير ودعوة المسلمين، ويعتزل الحُيَّض المصلى)[3].

ولصلاة العيد ونحره خصوصية عظيمة؛ فقد ذكرا بعد ذكر الله تعالى لنهر الكوثر الذي أعده الله للمؤمنين، وقد من الله تعالى بفضله ثم أمر بالصلاة والنحر، تحفيزًا وحثًا لهم على الطاعة.

قال الرازي: «قال أولا: إنا أعطيناك، ثم قال ثانيا: فصل لربك وانحر، وهذا يدل على أن إعطاءه للتوفيق والإرشاد سابق على طاعاتنا، وكيف لا يكون كذلك وإعطاؤه إيانا صفته وطاعتنا له صفتنا، وصفة الخلق لا تكون مؤثرة في صفة الخالق إنما المؤثر هو صفة الخالق في صفة الخلق»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر:٢] تأكيدٌ وتنبيهٌ على ضرورة إخلاص الصلاة لله تعالى، وكذلك النحر وسائر العمل، وأمر لذوي الألباب بالبعد عن الرياء والتصنع والتظاهر، فهو وحده عز وجل العالم بما في قلوب عباده المجازي لهم بما يستحقون.

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٢/ ٨٤٦٩.
(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٧٧٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ٢/ ١٦٠، رقم ١٦٥٢.
(٤) مفاتيح الغيب ٣٢/ ٣١٢.

فوائد الصلاة

الصلاة هي عمود الدين؛ لذلك أمر الله تعالى في كثير من المواضع بإقامتها، فمن ذلك قوله جل وعلا: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨].

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل: (أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين، قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله)[1].

وقد أمرنا بالصلاة طاعة لله تعالى وانقيادًا لأوامره، ثم تهذيبًا لنفوسنا وراحة لأبداننا، وقد أقول: إن لم يكن من وراء الصلاة منفعة بشرية غير تكميل أركان الإسلام العظيم لكفتنا للامتثال والمحافظة عليها. ولعل مما نعرف من فوائد الصلاة ما يأتي:

١. الراحة والطمأنينة.

راحة نفسية روحية: يقول المولى عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

وكان صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة متضرعًا إلى المولى تبارك وتعالى، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها)[2].

والإنسان بفطرته يحتاج لإله يلوذ إليه ويتضرع إليه، وهذا ما يتحقق في الصلاة فيجلب لصاحبه الراحة والسكينة ويصرف عنه التوتر والقلق والتعب النفسي، والعلاقة الوثيقة بالمولى تعالى أثناء الصلاة والمناجاة تمنح الإنسان طاقة قوية وثقةً بالسند الرباني العظيم، فيقوى توكله على الله تعالى وكيل المؤمنين في هذه الدنيا، ويستشعر عزة وقوة تتأتى باجتماع المسلمين على إمام واحد في الصلاة، يتساوى بعضهم مع بعض في مناجاة الملك لا فرق بين الغني والفقير ولا القوي والضعيف، ولا يخفى ما في الصلاة من تربية للنفس وتعويد على الصبر والالتزام، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢].

هذا الصبر الذي يكسب المسلم معية الله عز وجل وثوابه للصابرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

راحة بدنية صحية: في حركات الصلاة والوضوء فائدة صحية عظيمة أثبتتها كثير من الدراسات الطبية، من تلك الفوائد:

- الصلاة هي رياضة جسمية وعقلية بسيطة وخفيفة لا تتعب الجسم ولا العضلات ولا القلب ولا تضر بأعضاء البدن، بل على العكس فهي تنشط الجسم فتنشط

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها ١/ ١١٢، رقم ٥٢٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة ٤/ ٢٩٦، رقم ٤٩٨٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٠٧، رقم ٧٨٩٢.

الجسم وتخلص الشخص من الخمول والكسل والإرهاق، والجميع يستطيع أن يؤديها مهما كان سنه وحاله.

- من فوائد الصلاة العظيمة أن الله جعل فيها الركوع والسجود اللذان يعملان على تقوية الاوعية الدموية وتنشيط الدورة الدموية ويريحان القلب ويحسنان من التروية الدماغية للمخ مما يقلل من نوبات الصداع ويجعلان الجسم يقوم بوظائفه على أكمل وجه وبالتالي، فإن الدم يصل إلى جميع أعضاء الجسم وخاصة المخ.
- تساعد الصلاة على تمرين المفاصل والعضلات، وتحمي المصلي من مرض دوالي الساقين، وتحمي الجسم من الترهلات وتقوي عضلات البطن وتزيد حركة الأمعاء مما يمنع حالات الإمساك وتقوي إفراز المرارة، والمشي إلى المسجد يقي الجسم من أمراض القلب والسمنة ويقوي العمود الفقري.
- عند الاستيقاظ لصلاة الفجر يكون غاز الأوزون في أعلى نسبة له في الجو وهو المنشط للجهاز العصبي وللأعمال العضلية والذهنية، والأوزون يعالج تليف الكبد والرئة، ويعالج أمراض الكبد الوبائية وتصلب الأوعية الدموية وانسداد الشرايين، ويعالج الربو والحساسية.
- الطهارة للصلاة تقاوم الكثير من الامراض كأمراض الأذن والتهاب اللوزتين والأمراض الجلدية، والاستنشاق في الأنف يطهر الانف من الميكروبات، والمسواك يطهر الفم والأسنان.

٢. تكفير الخطايا وتطهير الذنوب.

- الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي المعين على فعل الخير، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]. والمعنى أن الصلوات الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب، قال ابن فورك: «وذلك أن فيها التكبير، والتسبيح والقراءة، وصنوف العبادة، وكل ذلك يدعو إلى شكله، ويصرف عن ضده»[(١)].
- الصلاة تكفر الذنوب والآثام، وفي الحديث كما جاء عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول: ذلك يبقي من درنه، قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله به الخطايا)[(٢)].

(١) تفسير ابن فورك ١/ ٣٩٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت

٣. تحصيل الثواب الجزيل من الله تعالى.

بالصلاة يتحقق الفلاح في الدنيا والآخرة، وقد ذكر الله تعالى الخشوع في الصلاة كأول صفة من صفات المؤمنين الفالحين.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

والمفلحون «هم الذين أدركوا البغية ووجدوا النعيم المقيم»[(١)].

والصلاة نور في القلب والوجه، ولصلاة الجماعة خصوصًا أجرٌ عظيم، وفي الحديث عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صلاة الجميع تزيد على صلاته في بيته، وصلاته في سوقه، خمسًا وعشرين درجةً، فإن أحدكم إذا توضأ فأحسن، وأتى المسجد، لا يريد إلا الصلاة، لم يخط خطوةً إلا رفعه الله بها درجةً، وحط عنه خطيئةً، حتى يدخل المسجد، وإذا دخل المسجد، كان في صلاةٍ ما كانت تحبسه، وتصلي -يعني عليه الملائكة - ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يحدث فيه)[(٢)].

والتزام المساجد خير كبير، والمحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها يكسب المسلم معية الله عز وجل وثوابه للصابرين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣].

فالصلاة سبب لسعادة الدنيا والآخرة ونجاة من شقاء الدنيا والآخرة.

موضوعات ذات صلة:

الحج، الركوع، الزكاة، السجود، الصبر، الصيام، الطهارة، العبادة، المسجد

الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة ١/ ١١٢، رقم ٥٢٨.

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مسجد السوق ١/ ١٠٣، رقم ٤٧٧.

الصلاح

عناصر الموضوع

مفهوم الصلاح	١٥٠
الصلاح في الاستعمال القرآني	١٥١
الألفاظ ذات الصلة	١٥٢
أنواع الصلاح	١٥٤
صلاح الخلق	١٥٨
صلاح الأعمال	١٦٨
جزاء الصلاح في الدنيا والآخرة	١٧٣

مفهوم الصلاح

أولًا: المعنى اللغوي:

الصلاح لغة: ضد الفساد، يقال: أصلح الشيء بعد فساده، أي: أقامه، وأصلح الدابة، إذا أحسن إليها[١]. قال ابن فارس: «صلح» الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد، يقال: صلح الشيء يصلح صلاحًا»[٢].

والصلاح والفساد، يختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل الصلاح في القرآن تارة بالفساد، وأخرى بالسوء[٣].

وقال ابن سيده: «الصلاح ضد الطلاح، صلح يصلح ويصلح صلاحًا وصلوحًا، فهو صالح وصليح، والجمع صلحاء، وصلوح، والصالح هو: الذي يؤدي إلى الله عز وجل ما افترض عليه، ويؤدي إلى الناس حقوقهم، أي القائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد[٤]، وقيل الصالح: المستقيم الحال في نفسه»[٥].

والمصلح هو: المقيم على الإيمان المؤدي فرائضه اعتقادًا وعملًا[٦].

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر المفسرون عدة تعريفات للصلاح منها ما يأتي:

أولًا: الصلاح عند الإمام أبي جعفر الطبري: لفظ عام يشمل الصلاح في استواء الخلق، والصلاح في الدين، والصلاح في العقل والتدبير[٧].

ثانيًا: عرف السمعاني الصلاح بقوله: «الصلاح هو الاستقامة على ما توجبه الشريعة»[٨].

ثالثًا: عرفه الزمخشري بقوله: «هو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة»[٩].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥١٦، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٧.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٣٠٣.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢١٨.
(٤) المحكم والمحيط الأعظم ٣/ ١٥٢.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٦١.
(٦) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ١٥٢.
(٧) جامع البيان ١٣/ ٣٠٨.
(٨) تفسير السمعاني ٣/ ٤٧٨.
(٩) الكشاف ١/ ٦٢.

الصلاح في الاستعمال القرآني

وردت مادة «صلح» في القرآن الكريم (١٨٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٦٨) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ [الرعد:٢٣]
اسم الفاعل	١٣٦	﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦]

وجاء الصلاح في الاستعمال القرآني على أربعة أوجه[(٢)]:

الأول: الإيمان: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ [الرعد:٢٣] يعني: ومن آمن من آبائهم.

الثاني: حسن المنزلة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف:٩] يعني: تحسن منزلتكم عند أبيكم.

الثالث: تسوية الخلق: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا۟ ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠] يعني: سوي الخلق في صورة الإنس.

الرابع: الطاعة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء:٢٢٧] يعني: الطاعات التي أطاعوا الله عز وجل.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الصاد، ص٦٩٩-٧٠٣.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٩٩-٣٠٠، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٩٧-٣٩٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإصلاح:

الإصلاح في اللغة:

خلاف الإفساد[١].

الإصلاح اصطلاحًا:

التغيير إلى استقامة الحال[٢].

وقيل: هو «إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من الفساد»[٣].

الصلة بين الصلاح والإصلاح:

أن الصلاح قاصر على الشخص نفسه، والإصلاح متعدي إلى الغير، بحيث يشمل إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر، وإصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفوس ويغذي الأرواح ويقوم الإرادة ويفيد الفرد والمجموع منها، وإصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم وتنفيرهم من رذائلها في قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط[٤].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٤٢.
(٢) انظر: التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٥١.
(٣) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٢١٥.
(٤) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني ٢/ ٣٥١.

٢ الصلح:

الصلح لغة:

الصلح بالضم هو السلم-بكسر السين وفتحها-من تصالح القوم بينهما، والصلح أيضًا:اسم جماعةٍ متصالحين، يقال:هم لنا صلحٌ:أي مصالحون[١].

الصلح اصطلاحًا:

عبارة عن عقد وضع لرفع المنازعة بالتراضي[٢].

الصلة بين الصلاح والصلح:

أن الصلح سبب للصلاح والاستقامة؛ لأن القيام بالصلح بين الناس من أخلاق الصالحين.

٣ الفساد:

الفساد لغة هو:

خروج الشيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج عنه أو كثيرًا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة[٣].

الفساد اصطلاحًا:

كلمة عامة تتناول كل ما هو خلاف الصلاح من المعاصي والهلاك قحط المطر وقلة النبات القتل السحر وغيرها[٤].

الصلة بين الصلاح والفساد:

أن الفساد ضد الصلاح ونقيضه.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٨.
(٢) انظر: أنيس الفقهاء، القونوي ص٩١.
(٣) انظر: المفردات، الراغب ص٦٣٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٣٥.
(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ص ١١٥.

أنواع الصلاح

الصلاح في القرآن الكريم يأتي على نوعين هما:

أولًا: صلاح الخلق:

وصلاح الخلق على قسمين:

١. الصلاح المادي.

وهو استواء الخلق والعقل كما قال تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠].

قال أبو جعفر الطبري: « ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، يقول: نادى آدم وحواء ربهما وقالا يا ربنا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، واختلف أهل التأويل في معنى الصلاح الذي أقسم آدم وحواء عليهما السلام أنه إن آتاهما صالحًا في حمل حواء: ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فقال بعضهم: ذلك هو أن يكون الحمل غلامًا، وقال آخرون: بل هو أن يكون المولود بشرًا سويًا مثلهما، ولا يكون بهيمة، فقد أشفقا أن لا يكون إنسانًا».

ثم قال أبو جعفر: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء، صالحًا ليكونان لله من الشاكرين»[(١)].

وفي هذه الآية اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ هل يعود إلى آدم وحواء، أم يعود إلى غيرهما، على أقوال، والراجح أن الضمير يرجع إلى ذرية بني آدم، ممن جاء بعده جعلا لله شركاء من الآلهة والأوثان حين رزقهما ما رزقهما من الولد[(٢)].

قال الإمام الرازي: « قال الإمام القفال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك. فلما آتاهما الله ولدا صالحا سويا، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما، لأنهم تارة

(١) جامع البيان ١٣/ ٣٠٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣١٤.

ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، ثم قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله عن ذلك الشرك، وهذا جواب في غاية الصحة والسداد»[1].

ومن الصلاح المادي في القرآن ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ جعلناها صالحة للولادة بعد العقار أي: بعد عقرها، أو حسنة وكانت سيئة الخلق[2].

«قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين: إنها كانت عاقرًا فجعلت ولودًا، وقال ابن عباس وعطاء: كانت سيئة الخلق، طويلة اللسان، فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخلق. قلت: ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولودا»[3].

وعموم اللفظ يتناول جميع الإصلاح[4].

قال الراغب الأصفهاني: «وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحًا، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح، قال تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد:٢].

قال تعالى: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [الأحزاب:٧١].

وقال تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ [الأحقاف:١٥] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

أي: المفسد يضاد الله في فعله، فإنه يفسد والله تعالى يتحرى في جميع أفعاله الصلاح، فهو إذا لا يصلح عمله»[5].

٢. الصلاح المعنوي.

والمراد به الإيمان والاستقامة على الدين، وهذا الصلاح قد يكون في جماعات وأمم، وقد يكون في أفراد، على ما يأتي:

الأول: فمن الصلاح المعنوي الذي يكون في جماعات وأمم، قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝١٦٨﴾ [الأعراف:١٦٨].

(١) مفاتيح الغيب ١٥/ ٤٢٧.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤١٨.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٦.
(٤) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ٩٩.
(٥) المفردات ص٤٨٩.

أي: فرقًا متباينين في أقطار الأرض فقل أرض لا يكون منهم فيها شرذمة، وهذا حالهم في كل مكان تحت الصغار والذلة سواء كان أهل تلك الأرض مسلمين أم كفارًا ومنهم منحطون عن الصالحين وهم الكفرة، وذلك إشارة إلى الصلاح أي ومنهم قوم دون أهل الصلاح؛ لأنه لا يعتدل التقسيم إلا على هذا التقدير[1].

«يذكر تعالى أنه فرق بني إسرائيل في الأرض أممًا أي طوائف وفرقًا كما قال: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء:١٠٤].

منهم الصالحون ومنهم دون ذلك أي فيهم الصالح وغير ذلك»[2]، وجعل كل فرقة منهم في قطر من أقطارها، بحث لا تخلو ناحية منها، منهم، تكملة لإدبارهم، حتى لا تكون لهم شوكة منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، أي من ينحط عن درجة الصلاح، لكفر أو فسق[3].

وقال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤].

فقد بين الله تعالى في الآية أن أهل الكتاب ليسوا سواء بل إن منهم أمة أهل الإيمان، ومنهم أمة أهل الكفر، فهم غير متساوين، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد، والخير والشر[4].

الثاني: وقد يكون الصلاح المعنوي في أفراد وصفهم الله بذلك، قال تعالى في يحيى عليه السلام: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩].

والصالح الذي يؤدي لله ما افترض عليه، وإلى الناس حقوقهم[5].

وقال سبحانه في عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦] يعني أنه من العباد الصالحين مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وغيرهم من الأنبياء وإنما ختم أوصاف عيسى عليه السلام بكونه من الصالحين بعد ما وصفه بالأوصاف العظيمة؛ لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات؛ لأنه لا يسمى المرء صالحًا حتى يكون مواظبًا على النهج الأصلح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله، فلما وصفه

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٥/ ٢٠٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٨.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢١٤
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١١٨.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٧٩.

الله تعالى بكونه وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين وأنه يكلم الناس في المهد وكهلًا أردفه بقوله ومن الصالحين ليكمل له أعلى الدرجات وأشرف المقامات[1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:٨٥].

والآيات الواردة في وصف الأنبياء بالصلاح كثيرة وما ذكرناه هو على سبيل المثال لا الحصر.

وقال تعالى في وصف الأفراد من غير النبيين: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٨٢].

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في ذريته والدويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية[2]

أما صلاح الجن فإنه من الصلاح المعنوي، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن:١١]

«يقول تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير ذلك ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي منا المؤمن، ومنا الكافر»[3].

والمعنى كما قال القرطبي: «أي لم يكن كل الجن كفارا بل كانوا مختلفين: منهم كفار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء»[4].

ثانيًا: صلاح الأعمال:

إن صلاح الأعمال يكون فى إخلاصها لله سبحانه وتعالى، فالعمل الصالح هو ما أريد به وجه الله تعالى وينتظم جميع أنواعه من الصلاة والزكاة وغيرهما[5]، كما يكون العمل صالحًا، بالمتابعة على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد جمع الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٤-١٢٥][6].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٤٦.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٤.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٥.
(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٢٩٠.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٣.

صلاح الخلق

أولًا: صلاح الأنبياء عليهم السلام:

وصف الله سبحانه وتعالى الأنبياء عليهم السلام بالصلاح، فقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة:١٣٠].

وقال في يحيى عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران:٣٩].

وقال في عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦].

وقال سبحانه في زكريا وإلياس عليهم السلام مع السابقين: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:٨٥].

وقال في لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء:٧٤-٧٥].

وقال في إسماعيل عليه السلام: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦].

وقال في يونس عليه السلام: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم:٤٨-٥٠].

ويمكن بيان الحكمة من وصفهم بالصلاح فيما يأتي:

أولًا: تعظيم صفة الصلاح، وتعظيم للموصوف بها، قال الزمخشري مبينًا الحكمة من وصف الأنبياء عليهم السلام بالصلاح: «واعلم أن الصفة قد تذكر للعظم في نفسها ولينوه بها إذا وصف بها عظيم القدر، كما يكون تنويها بقدر موصوفها. فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة، قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها، وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء بالصلاح في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات:١١٢] وأمثاله، تنويهًا بمقدار الصلاح إذ جعل صفة الأنبياء، وبعثًا لآحاد الناس على الدأب في تحصيل صفته»[(١)].

وقال الرازي: «والمعنى وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله

(١) الكشاف ١/ ٦٣٦.

تعالى ورضيهم، واعلم أن الوصف بذلك غاية المدح ويدل عليه القرآن والمعقول، أما القرآن، فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال: بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء:٨٦]وذكر حكاية عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤].

وأما المعقول فهو أن الصلاح ضد الفساد، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك في العقائد، أو في الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون، فقد حصل الصلاح، فكان الصلاح دالًا على أكمل الدرجات»[(١)].

ثانيًا: خص الأنبياء بذكر الصلاح؛ لأنه لا يتخلل صلاحهم خلاف ذلك، وقال الزجاج: الصالح هو الذي يؤدي ما افترض عليه وإلى الناس حقوقهم.

ثالثًا: ومن الحكمة أيضًا أن الصلاح والإصلاح هو الغاية للنبوة؛ لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق، كما أن وصفهم بالصلاح فيه بيان بأنهم من المستعدين لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة[(٢)].

رابعًا: ووصف الأنبياء عليهم السلام بالصلاح يدل على أن الصلاح درجة عالية لا ينالها إلا أهل الاجتباء[(٣)].

وذكرها للتنويه بشأن الصلاح، فإن الأنبياء معدودون في زمرة أهله، وإلا فإن كل نبي لا بد أن يكون صالحًا، والنبوة أعظم أحوال الصلاح[(٤)]، وفي ذلك إيماء إلى أن الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات[(٥)].

خامسًا: أن الصلاح وصف للأنبياء عليهم السلام، ومن دونهم؛ فيوصف النبي بأنه صالح، ويوصف متبع الرسول بأنه صالح[(٦)].

والصلاح على إطلاقه هو أكمل صفة وأتمها يمكن أن يظفر بها إنسان حتى الأنبياء فهي الكمال الإنساني في أعلى مراتبه وأشرف منازله، ولهذا كان من دعوات الأنبياء عليهم السلام أن يكونوا من عباد الله الصالحين.

كما قال الله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ

(١) مفاتيح الغيب ٨/ ٣٣٤.

(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٤٧٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٠/ ١٢٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٦٢.
(٥) انظر: المصدر السابق ٢٩/ ١٠٧.
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٢/ ٧١.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٩].

وقال تعالى على لسان إبراهيم، وهو يطلب الولد الصالح: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات:١٠٠].

وقال سبحانه في وصف عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦]ومعنى هذا أن الصلاح صفة ملازمة له، قبل النبوة ومع النبوة، فلو لم يكن نبيا من الأنبياء لكان صالحا من عباد الله الصالحين[(١)].

أما الحكمة من طلب الذرية الصالحة:

الحكمة من الدعاء بطلب الصالحين في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات:١٠٠]؛ لأن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء:٨٣].

وطلبه للولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات:١٠٠]؛ وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد[(٢)].

والمعنى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة يعني الولد لأن لفظ الهبة على الإطلاق خاص به[(٣)]، ولقوله تعالى سأل إبراهيم رب هب لي من الصالحين [الصافات:١٠٠].

وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤].

هكذا الواجب أن يطلب الولد، لا ما يطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم[(٤)].

لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحًا فإن صلاح الأبناء قرة عين للآباء، ومن صلاحهم برهم بوالديهم[(٥)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:١٥].

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: واجعل الصلاح ساريًا في ذريتي راسخًا فيهم، أو: اجعل ذريتي موقعا للصلاح دائمًا فيهم، إني تبت إليك من كل ذنب، وإني من المسلمين

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٤٤٠.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٤٥.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٩٩.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣١٠.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٤٨.

الذين أخلصوا لك أنفسهم، وانقادوا إليك بكليتهم[1].

وفي الآية إشارة لرغبة المؤمن في أن يتصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه، والذرية الصالحة أمل العبد الصالح، وهي آثر عنده من الكنوز والذخائر، وأروح لقلبه من كل زينة الحياة. والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة في طاعة الله[2].

ولأن في صلاح الولد الإحسان إلى الوالدين في المشاهدة والغيبة وبجميع وسائل الإحسان الذي غايته حصول النفع لهما، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٤].

وأن الله لما أمر بالدعاء للأبوين وعد بإجابته على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لقوله: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[3].

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٣٣٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم ١٦٣١ ٣/ ١٢٥٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثانيًا: أسباب صلاح الخلق:

١. الاصطفاء الإلهي.

إن من أسباب صلاح الخلق الاصطفاء الإلهي، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة:١٣٠]

والاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه صالحًا، والاصطفاء ضربان، أحدهما في الآخرة والأخر في الدنيا، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته لخصوصيته فيه[4].

والاصطفاء: الاختيار بإخراج الصفوة من العباد والصالح من بني آدم: هو المؤدي حقوق الله عليه[5].

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خالف إبراهيم فيما سن لمن بعده، فهو لله مخالف، وإعلام منه خلقه أن من خالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فهو لإبراهيم مخالف. وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه اصطفاه لخلته، وجعله للناس إمامًا، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة، ففي ذلك أوضح البيان من الله تعالى ذكره عن أن من خالفه فهو لله عدو لمخالفته الإمام

(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٧.
(٥) انظر: تفسير ابن فورك ٢/ ١٧١.

الذي نصبه الله لعباده[1].

وبسبب الصلاح اصطفى الله تعالى من ذكرهم وآباءهم وإخوانهم وذريتهم في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧].

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم:٤٨-٥٠].

وهذا الاصطفاء هو بمشيئة الله تعالى واختياره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

والمعنى: أن الله يصطفي إليه من يشاء من خلقه، ويختار لنفسه وولايته من أحب، ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم من الحق من أقبل إلى طاعته، وراجع التوبة من معاصيه[2].

قال الشنقيطي: «وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبي من خلقه من يشاء اجتباءه، وقد بين في مواضع أخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج:٧٧-٧٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢].

وبين في موضع آخر أن منهم آدم، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه:١٢٢].

وذكر أن منهم إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين»[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٩١.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢١/ ٥١٤.
(٣) أضواء البيان ٧/ ٦٣.

٢. المسارعة في الخيرات.

إن من أسباب صلاح الخلق المسارعة في الخيرات، فقد ذكر سبحانه أن من أسباب صلاح بعض أهل الكتاب وغيرهم هو المسارعة في الخيرات.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٤].

قال ابن باديس: «ذكر الله تعالى في الآية الكريمة الأعمال، ثم حكم لأهلها بأنهم من الصالحين، فأفادنا أن الأعمال هي دلائل الصلاح، وأن الصلاح لا يكون إلا بها، ولا يستحقه إلا أهلها، ثم إن العباد يتفاوتون في درجات الصلاح على حسب تفاوتهم في الأعمال، ويكون لنا أن نقضي بتفاوتهم في الظاهر بحسب ما نشاهد. ولكن ليس لنا أن نقضي بين أهل الأعمال الصالحة في تفاوتهم عند الله في الباطن؟ فندعي أن هذا أعلى درجة في صلاحه عند الله تعالى من هذا، لأن الأعمال قسمان: أعمال الجوارح، وأعمال القلوب، وهذه أصل لأعمال الجوارح»[(١)].

والمسارعة في الخيرات سبب لصلاح الذرية والأزواج، ماديًّا ومعنويًّا، خَلْقًا وخُلُقًا، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يروى أنها كانت عقيمًا فجعلها الله عز وجل ولودًا، ويروى أنه كان في خلقها سوء فأصلح الله ذلك وحسن خلقها[(٢)].

٣. الدعاء.

إن من أسباب صلاح الخلق الدعاء، فقد أرشد الله تعالى الإنسان إلى ذلك في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:١٥].

ففي الآية إرشاد بالدعاء بصلاح الذرية، وإرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها[(٣)].

وروي: أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق وأبيه أبي قحافة عثمان بن عمرو، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الآية نزلت في

(١) انظر: تفسير ابن باديس ص٧٥.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠٣.

(٣) أضواء البيان ٧/ ٢٥٩.

أبي بكر رضي الله عنه أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أسلم أبواه غيره أوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده، وكان أبو بكر صحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبي صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة في تجارة إلى الشام، فلما بلغ أربعين سنة، ونبئ النبي صلى الله عليه وسلم آمن به ودعا ربه فقال رب أوزعني، ألهمني، أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي، بالهداية والإيمان، وأن أعمل صالحًا ترضاه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: وأجابه الله عز وجل فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، ولم يرد أبو بكر رضي الله عنه شيئًا من الخير إلا أعانه الله عليه، ودعا أيضا فقال: وأصلح لي في ذريتي، فأجابه الله فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعا فأدرك أبو قحافة النبي صلى الله عليه وسلم وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عبد الرحمن أبو عتيق كلهم أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة. قوله: إني تبت إليك وإني من المسلمين[1].

و لما كان الدعاء سببًا في صلاح الخلق كان من سنة الأنبياء عليهم السلام، فقد قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء:٧٨-٨٣].

والمعنى في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ أي كمالًا في العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورئاسة الخلق. وألحقني بالصالحين ووفقني للكمال في العمل لأنتظم به في عداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره[2].

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٩]

فقد دعا سليمان ربه بأن يوفقه؛ لأن يعمل صالحًا، وأن يدخله في عباده الصالحين في الجنة[3] مما يدل على أن الدعاء سبب في صلاح الخلق.

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿ ۞

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ١٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٥.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٤٢.

(٣) انظر: تفسير السمعاني ٤/ ٨٧.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١].

يقول: وألحقني بصالح آبائي إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك[(١)]، أو ألحقني بالصالحين قال: يعني أهل الجنة[(٢)].

وفي الآية إشارة إلى أن الدعاء سبب في صلاح الخلق الذي هو سبب للحوق الصالحين في الجنة.

٤. التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

إن من أسباب الصلاح التواصي بالحق بين الناس، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣].

والحق الذي ذكر الله بالتواصي به هو كتاب الله تعالى، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ يقول: وأوصى بعضهم بعضا بالصبر على العمل بطاعة الله[(٣)].

فأما الصبر فلأنه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تخلق به المؤمن صدرت عنها الحسنات والفضائل بسهولة[(٤)].

ثالثًا: مظاهر صلاح الخلق:

١. تحري أكل الطيبات.

إن من مظاهر صلاح الخلق تحري أكل الطيبات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١].

فقد أمر الله كل نبى فى زمانه بأن يأكل من المال الحلال مالذ وطاب، وأن يعمل صالح الأعمال، ليكون ذلك جزاء ما أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة.

وهذا الأمر، وإن كان موجهًا إلى الأنبياء، فإن أممهم تبع لهم، وكأنه يقول: أيها المسلمون فى جميع الأقطار، كلوا من الطيبات أي من الحلال الصافي القوام، والحلال ما لا يعصى الله فيه، والصافي ما لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل واعملوا صالح الأعمال[(٥)].

والمراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه. وقيل: هو الأكل المعتاد[(٦)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيها

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٧٨.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٩٠.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٢٨.
(٥) تفسير المراغي ١٨/ ٢٩.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٥.

الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟)[1].

وفي تقديم أكل الطيبات على العمل الصالح إيماء إلى أن العمل الصالح لا يتقبل إلا إذا سبق بأكل المال الحلال.

ثم علل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي إني بأعمالكم عليم، لا يخفى على شيء منها، وأنا مجازيكم بجميعها، وموفيكم أجوركم، وثوابكم عليها، فخذوا في صالح الأعمال، واجتهدوا قدر طاقتكم فيها، شكرًا لربكم على ما أنعم به عليكم، وفي هذا تحذير من مخالفتهم ما أمروا به، وإذا قيل للأنبياء ذلك فما أجدر أممهم أن تأخذ حذرها، وترعوي عن غيها، وتخشى بأس الله وشديد عقابه[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم ١٠١٥، ٢/ ٧٠٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ٢٩.

٢. الصدقات.

إن من مظاهر الصلاح الصدقات بكل أنواعها، وذلك لارتباط العمل الصالح بها، سواء أكان ذلك في الصدقات الواجبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:٢٧٧]

فقد وعد سبحانه الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة بالأجر العظيم، والرحمة والرضوان، والأمن يوم الفزع الأكبر ذلك لأنهم استقاموا على الصراط المستقيم، وجاءتهم الموعظة فاستمعوا إليها، وامتثلوا لها، وانتهوا عما نهوا عنه من منكرات كانوا يأتونها وهم جاهلون، و«إيتاء الزكاة» هنا له آثاره في التحريض على البذل والإنفاق على ذوي الحاجات، حتى لا تضطرهم الحاجة إلى التعامل بالربا[3].

أو كان ذلك في صدقات التطوع والتي منها الصدقات في الجهاد، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٣٥٩.

مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة:١٢٠-١٢١].

فقد بينت الآية ارتباط صدقات التطوع في الجهاد بالعمل الصالح، مما يدل على ان الصدقات من مظاهر الصلاح.

وقد بين الله تعالى أن غير المتصدقين من المؤمنين قد أخلوا بسبب رئيس من أسباب الصلاح حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون:١٠].

فقد ذكر الله المؤمنين بما في الإنفاق من الخير بأن عليهم أن يكثروا منه ما داموا مقتدرين قبل الفوت، أي قبل تعذر الإنفاق والإتيان بالأعمال الصالحة، وذلك حين يحس المرء بحالة تؤذن بقرب الموت ويغلب على قواه فيسأل الله أن يؤخر موته ويشفيه ليأتي بكثير مما فرط فيه من الحسنات طمعا أن يستجاب له فإن كان في أجله تأخير فلعل الله أن يستجيب له، فإن لم يكن في الأجل تأخير أو لم يقدر الله له الاستجابة فإنه خير كثير[1].

كما بين تعالى أن البخل بالإنفاق من أعمال المنافقين، قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

أي: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله مالا وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به والإنفاق فى سبيل الله: كإعداد العدة للجهاد وبذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها بما يرقى بها فى مختلف شئونها.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي فلما رزقهم وأعطاهم ما طلبوا بخلوا بما آتاهم وأمسكوه فلم يتصدقوا منه بشيء، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة وإصلاح حالهم وحال أمتهم كما عاهدوا الله عليه، ولم يكن ذلك التولي عارضا طارئا، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة بحافز نفسي ملك عليهم أمرهم ومنعهم عن التصدق، بحيث إذا ذكروا بما يجب عليهم لا يذكرون، وإذا دعوا لا يستجيبون[2].

[انظر: الإصلاح: الإصلاح في الأخلاق]

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٥٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٦٨.

صلاح الأعمال

أولًا: اقتران الإيمان بالعمل الصالح:

يقترن العمل الصالح بالإيمان في القرآن الكريم في خمس وسبعين مرة، مع الوعد والبشرى بأن من يعمل صالحا وهو مؤمن، فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا، ولا كفران لسعيه، له جزاء الحسنى، وحياة طيبة.

وقد أخبر الله تعالى عن الذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات، وقليل ما هم، بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن لهم الدرجات العلى، وأن لهم أجرهم عند ربهم، وأن لهم أجر كريم، وعظيم وكبير، وغير منون، ولهم مغفرة ورزق كريم، وليستخلفنهم الله في الأرض، ويزيدهم من فضله، وسيجعل لهم الرحمن ودًا، وهو خير البرية، وأصحاب الجنة، طوبى لهم وحسن مآب[1].

ومن هذه الآيات التي اقترن فيها العمل الصالح بالإيمان قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة:٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:٢٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران:٥٧].

وغيرها من الآيات الكثير.

وتظهر الحكمة من اقتران العمل الصالح بالإيمان فيما يأتي:

أولًا: أنه لابد مع الإيمان من العمل الصالح؛ فمجرد الإيمان لا ينفع العبد حتى يقوم بواجبه، أي واجب الإيمان: وهو العمل الصالح.

ثانيًا: أن العمل لا يفيد حتى يكون صالحًا؛ والصلاح أن ينبني العمل على أمرين: الإخلاص لله عز وجل، وضده الشرك؛ والمتابعة، وضدها البدعة؛ فمن أخلص لله في شيء، ولكنه أتى بعمل مبتدع لم يقبل منه؛ ومن أتى بعمل مشروع لكن خلطه بالشرك لم يقبل منه؛ وأدلة هذا معروفة[2].

(١) انظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة بنت الشاطئ ٢/ ٨٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ٣٨١.

ثالثًا: الإيمان أفرد وحده في آيات كثيرة، وقرن مع العمل الصالح في آيات كثيرة، فالآيات التي أفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة، ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره، وهو عند السلف: قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح.

والآيات التي قرن الإيمان فيها بالعمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٧].

يفسر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة، والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية[١].

رابعًا: أن عامة ذكر الإيمان في القرآن مقرونة بالأعمال الصالحة تنبيهًا إلى أن جملة الاعتقاد والمقال لا اعتداد بها ما لم يضامها الأعمال الصالحة، إذ الاعتقاد كالأس، والعمل كالبناء، ولا غناء في أس بلا بناء، كما لا ثبات لبناء بلا أس[٢].

خامسًا: أن الأعمال الصالحة من تمام الإيمان، ومن لم يأت بذلك فإنه يقال له مؤمن على المجاز[٣].

سادسًا: أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فلو دل الإيمان على العمل الصالح لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكرارًا، وإن كان يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة[٤]؛ لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح، وأما الكافر فهو في الدركات بمجرد كفره فلو قال: والذين كفروا وعملوا السيئات في العذاب محضرون، لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع، فإن قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور في القسمين، فنقول: له منزلة بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة، بل هو في الأول في العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور، وفي الآخرة هو في الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد[٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس:٩] دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية

(١) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، السعدي ص٤٨.
(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٤٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٠٨.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٨٤.
(٥) انظر: المصدر السابق ٢٥/ ٨٥.

والتوفيق والنور يوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور[1].

وبهذا يتبين أن الإيمان هو الاعتقاد فقط، أما الأعمال الصالحات والإيمان فكل منهما غير الآخر ولكن الجمع بينهما شرط لاستحقاق البشارة بالجنات[2].

ثانيًا: أسباب صلاح الأعمال:

إن أسباب العمل الصالح تتمثل في: الإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن الآيات التي جمعت بين ذلك قوله تعالى:. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٤-١٢٥].

فالآيتان تبينان شرطا العمل الصالح اللذان لا يصح عمل عامل بدونهما، وهما الإخلاص والمتابعة فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد الإخلاص كان منافقا وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالًا جاهلًا، ومتى جمعهما كان عمله من أعمال المؤمنين ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف:١٦][3].

وكل عمل لا يقوم على أسباب العمل الصالح يكون يوم القيامة لا قيمة له ولا وزن، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

قال ابن كثير: «هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ قال مجاهد والثوري ﴿وَقَدِمْنَا﴾ أي: عمدنا، وكذا قال السدي، وبعضهم يقول: أتينا عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة، وكذا روي من غير هذا الوجه

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٣٠.
(٢) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي ١/ ٣٣٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٣.

عن علي وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم، وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدهم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال: هو الماء المهراق. وقال أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال: الهباء رهج الدواب، وروي مثله عن ابن عباس أيضًا والضحاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]

إن العمل لا يكون صحيحًا مقبولًا عند الله إلا إذا توفرت فيه ثلاثة شروط على وجه الإجمال، دل عليها الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول: أن يكون العامل مؤمنًا موحدًا.

الشرط الثاني: الإخلاص وهو أن يقصد بعمله وجه الله عز وجل.

الشرط الثالث: المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو أن يعمل مهتديا بشريعة النبي صلى الله عليه وسلم من دون غلو أو ابتداع[2].

والدليل على وجوب المتابعة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

قال ابن المنذر: «جعل الله اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم علما لحبه، وكذب من خالفها، ثم جعل على كل قول دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا قال العبد قولا حسنا، وعمل عملا حسنا رفع الله قوله بعمله، وإذا قال العبد قولا حسنا، وعمل عملا حسنا رفع الله قوله بعمله، وإذا قال العبد قولا حسنا، وعمل عملا سيئا رد الله القول على العمل، وذلك في كتابه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠]»[3].

ثالثًا: تمني القيام بالعمل الصالح بعد الموت:

بين الله تعالى أن من لا يعمل صالحًا يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيعمل صالحًا، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر:٣٧]

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٩٣.

(٢) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، الجربوع ٢/ ٥٤١.

(٣) تفسير ابن المنذر ١/ ١٦٩.

فهم يستغيثون ربهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾، أي أخرجنا إلى الدنيا فنؤمن بدل الكفر ونطيع بدل المعصية، فوبخهم الله فقال: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[1].

قال الماوردي: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ فيه خمسة تأويلات:

أحدها: أنه البلوغ، قاله الحسن لأنه أول زمان التذكر.

الثاني: ثماني عشرة سنة.

الثالث: أربعون سنة، قاله ابن عباس ومسروق.

الرابع: ستون سنة، قاله علي بن أبي طالب مرفوعًا.

الخامس: سبعون سنة؛ لأنه آخر زمان التذكر، وما بعده هرم.

قوله عز وجل: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن زيد.

الثاني: الشيب، حكاه الفراء والطبري.

الثالث: الحمى.

الرابع: موت الأهل والأقارب.

ويحتمل خامسًا: أنه كمال العقل[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة:١٢].

«يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عز وجل، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم، أي من الحياء والخجل يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨].

وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك:١٠]، وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله»[3].

ولا يقتصر تمني من لا يعمل صالحًا على ذلك في الآخرة بل يتمنى قبل ذلك عند حضور الموت، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٧١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢٣.

أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون:١٠-١١][1].

ولما تمنى أن يرجع ليعمل رد الله عليه ذلك بقوله: كلا إنها كلمة هو قائلها فجاء بكلمة الردع والزجر، والضمير في «إنها» يرجع إلى قوله: رب ارجعون أي: إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة، وليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، أو المعنى: أنه أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء، كما في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. وقيل: إن الضمير في ﴿قَآئِلُهَا﴾ يرجع إلى الله، أي: لا خلف في خبره[2].

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٢٩.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٨٩.

جزاء الصلاح في الدنيا والآخرة

بين الله تعالى في كتابه الكريم الجزاء على الصلاح، وأنه يكون في الدنيا للصالحين، ويكون كذلك في الآخرة بسبب صلاحهم.

أولًا: جزاء الصلاح في الدنيا:

إن جزاء الصلاح في الدنيا يتمثل في وراثة الأرض، وصلاح الأولاد، وولاية الله تعالى، والنجاة من المجرمين، والاصطفاء الإلهي، والتوفيق للهداية للحق والصواب، والمودة والمحبة في قلوب الخلق، وفضل الله تعالى على الصالحين، والخروج من الظلمات إلى النور، والخيرية بين الخلق، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. وراثة الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

يقول تعالى مخبرًا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ

﴿خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾[(١)].

وقد اختلف المفسرون في معنى الأرض المذكورة في الآية، على أقوال، والراجح من هذه الأقوال: إن الأرض هي الدنيا[(٢)]، ورجح هذا القول الإمام الزجاج[(٣)]؛ وذلك لما مضى في السورة ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأممهم، وختم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربها ومقدماتها، وأحوال الخلق يوم القيامة جاء في هذه الآية ذكر الأمة التي جاءت بعد تلك الأمم كلها، وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما كانت هذه الآية في أمة محمد؛ لأنه لما تكلم على الأمم الخالية لم يسبق الكلام إلا عليها؛ فخوطبت بما قضاه الله وكتبه من إرث الصالحين الأرض.

ولأن المخاطبين بهذه الآية المكية هم المؤمنون بالله، الموحدون له، المتبعون لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم المصدق لجميع الرسل صلوات الله عليهم، وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم الصالحون الموجودون يوم ذاك على وجه الأرض، فكانت الآية إعلامًا بما كتبه الله لهم، ووعدًا بإرثهم الأرض[(٤)].

٢. صلاح الأولاد.

ذكر الله سبحانه وتعالى أن من جزاء الصلاح في الدنيا صلاح الأولاد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٨٢].

فقد أخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قال: حفظا بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاح[(٥)].

وعن ابن عباس أيضا قال: إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في ذريته والدويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية[(٦)]، وبهذه الروايات يتبين أن صلاح الأولاد ثمرة وجزاء لصلاح الآباء في الدنيا.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٣٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٩٢.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٥٠، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٤٩.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠٧.

(٤) انظر: تفسير ابن باديس ص٣٤٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٩١، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥.

٣. ولاية الله تعالى.

ثبتت ولاية الله تعالى للصالحين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦].

والمعنى: أن الله تعالى هو حسبي وكافي، وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٤-٥٦].

وكقول الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء:٧٥-٧٨].

وكقوله لأبيه وقومه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨][1].

قال الخازن: «إن وليي الله يعني: أن الذي يتولى حفظي وينصرني عليكم هو الله الذي نزل الكتاب، يعني القرآن، والمعنى كما أيدني بإنزال القرآن علي، كذلك يتولى حفظي وينصرني، وهو يتولى الصالحين يعني يتولاهم بنصره وحفظه، فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشر، قال ابن عباس: يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيئًا ولا يعصونه وفي هذا مدح للصالحين لأن من تولاه الله يحفظه فلا يضره شيء»[2].

وقال الشعراوي في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ «أي أنه لا يجعل الولاية خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم، بل يقول لكل واحد من أتباعه: كن صالحًا في أي وقت، أمام أي عدو، ستجد الله وهو يتولاك بالنصر، وساعة يعمم الله الحكم؛ فهو ينشر الطمأنينة الإيمانية في قلوب أتباعه صلى الله عليه وسلم، وكل من يحمل من أمر دعوته صلى الله عليه وسلم شيئًا ما سوف يكون له هذا التأييد، وهو سبحانه الذي جعل رسوله مبلغًا عنه هذا المنهج، وهو سبحانه يتولى الصالحين لعمارة الكون؛ لأن الله قد جعل الإنسان خليفة ليصلح في الكون، وأول مراتب الإصلاح أن يبقى الصالح على صلاحه، أو أن يزيده

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٧٩.

(٢) انظر: لباب التأويل ٢/ ٢٨٣.

صلاحًا إن أمكن»[1].

٤. النجاة من المجرمين.

إن الله تعالى ينجي الصالحين من المجرمين ومكرهم وتآمرهم كما نجى الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٢].

والمعنى: ونجينا إبراهيم ولوطًا من أعدائهما نمرود وقومه من أرض العراق ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي أرض الشام، فارق صلوات الله عليه قومه ودينهم وهاجر إلى الشام[2].

وكما نجى الله تعالى نبيه لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء:٧٤-٧٥].

والمعنى: ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث يعني: قرية سدوم وأراد أهلها وأراد بالخبائث إتيان الذكور في أدبارهم، وكانوا يتضارطون في مجالسهم مع أشياء أخرى كانوا يعلمونها من المنكرات إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا قيل: أراد بالرحمة النبوة وقيل أراد بها الثواب إنه من الصالحين أي الأنبياء[3].

كما نجى الله تعالى نبيه موسى عليه السلام وبني إسرائيل من فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٠-٨٢].

كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف:١٤١-١٤٢].

فهذه الآيات الكريمة وغيرها مما هي في معناها فيها تذكير لبني إسرائيل بنعمة من أجل نعم الله عليهم، حيث أنجاهم سبحانه ممن أراد لهم السوء، وعمل على قتلهم

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٥٣٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٦٨.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٣٢

وإبادتهم واستئصال شأفتهم، وفي ذلك ما يدعوهم إلى الاجتهاد في شكر الله عز وجل لو كانوا ممن يحسنون شكر النعم[1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس:١٠٣].

قال أبو جعفر: «يقول تعالى ذكره: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك: انتظروا مثل أيام الذين خلوا من قبلكم من الأمم السالفة الذين هلكوا بعذاب الله، فإن ذلك إذا جاء لم يهلك به سواهم، ومن كان على مثل الذي هم عليه من تكذيبك، ثم ننجي هناك رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم ومن آمن به وصدقه واتبعه على دينه، كما فعلنا قبل ذلك برسلنا الذين أهلكنا أممهم، فأنجيناهم ومن آمن به معهم من عذابنا حين حق على أممهم ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: كما فعلنا بالماضين من رسلنا فأنجيناها والمؤمنين معها وأهلكنا أممها، كذلك نفعل بك، يا محمد، وبالمؤمنين، فننجيك وننجي المؤمنين بك، حقا علينا غير شك»[2].

والنجاة للصالحين تكون من أعدائهم، ومن مكاره الدنيا والآخرة، وشدائدهما ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج:٣٨]

فإنه -بحسب ما مع العبد من الإيمان- تحصل له النجاة من المكاره[3].

٥. الاصطفاء الإلهي.

إن الاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه صالحًا، والاصطفاء ضربان، أحدهما في الآخرة والآخر في الدنيا، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته لخصوصيته فيه[4]، والاصطفاء: الاختيار بإخراج الصفوة من العباد والصالح من بني آدم: هو المؤدي حقوق الله عليه[5].

وبسبب الصلاح اصطفى الله تعالى من ذكرهم وآباءهم وإخوانهم وذريتهم في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٢٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢١٦.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٧٥.
(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٧
(٥) انظر: تفسير ابن فورك ٢/ ١٧١

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم:٤٨-٥٠].

وهذا الاصطفاء هو بمشيئة الله تعالى واختياره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

والمعنى: أن الله يصطفي إليه من يشاء من خلقه، ويختار لنفسه وولايته من أحب، ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه عليه صلى الله عليه وسلم من الحق من أقبل إلى طاعته، وراجع التوبة من معاصيه[(١)].

٦. التوفيق للهداية للحق والصواب.

من الجزاء على الصلاح في الدنيا التوفيق للهداية للحق والصواب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس:٩].

والهداية هي: الإرشاد على المقصد النافع والدلالة عليه، فمعنى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ يرشدهم إلى ما فيه خيرهم، والمقصود الإرشاد التكويني، أي يخلق في نفوسهم المعرفة بالأعمال النافعة وتسهيل الإكثار

منها، وأما الإرشاد الذي هو الدلالة بالقول والتعليم فالله يخاطب به المؤمنين والكافرين.

وفي تكوين هدايتهم إلى الخيرات بجعل الله تعالى، بأن يجعل الله للإيمان نورًا يوضع في عقل المؤمن، ولذلك النور أشعة نورانية تتصل بين نفس المؤمن وبين عوالم القدس فتكون سببًا مغناطيسيًا لانفعال النفس بالتوجه إلى الخير والكمال لا يزال يزداد يومًا فيومًا، ولذلك يقترب من الإدراك الصحيح المحفوظ من الضلال بمقدار مراتب الإيمان والعمل الصالح[(٢)].

والهداية هي التسديد والمعنى: يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد المؤدي إلى الثواب ولذا جعل ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيانًا له وتفسيرًا إذ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، أو يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة[(٣)].

٧. المودة والمحبة في قلوب الخلق.

ومن الجزاء على الصلاح في الدنيا أن الله تعالى يجعل المودة والمحبة في قلوب الخلق للصالحين بسبب صلاحهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٠١.

(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٨.

[مريم:٩٦].

أي: حبًا يحبهم ويحببهم إلى عباده المؤمنين من أهل السموات والأرضين[١].

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، - وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة-، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير وجه[٢]، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)[٣].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض)[٤].

ومودة الناس تكسب بأسباب متعارفة بينهم منها القرابة، ومنها الصداقة، ومنها صنائع المعروف، ومآثر الإحسان، أما هذا الود الذي وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فسببه جعل من الله له في قلوب العباد لهم، دون تردد منهم، ولا توقف على تلك الأسباب، فيودهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة، ولا وصل إليه منهم معروف، فهذا نوع من الود خاص يكرمهم الله به، وينعم عليهم به الرحمن من جملة نعمه التي يحدثها ويجددها لهم، زيادة على ما يقتضيه الإيمان والعمل الصالح وهما سبب لإكرامات كثيرة من الله تعالى، هذا الجعل للود منها[٥].

٨. فضل الله.

إن من جزاء العمل الصالح في الدنيا أن الله تعالى يتفضل على الذين آمنوا وعملوا الصالحات بنعمه ورزقه زيادة على ما

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٣٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٩، ٤/ ١١١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه لعباده، رقم ٢٦٣٧، ٤/ ٢٠٣٠.
(٥) انظر: تفسير ابن باديس ص٣٤٠.

يطلبوه منه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الشورى:٢٦].

قال الإمام ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ يقول تعالى ذكره: ويزيد الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع إجابته إياهم دعاءهم، وإعطائه إياهم مسألتهم من فضله على مسألتهم إياه، بأن يعطيهم ما لم يسألوه. وقيل: إن ذلك الفضل الذي ضمن جل ثناؤه أن يزيد هموه، هو أن يشفعهم في إخوان إخوانهم إذا هم شفعوا في إخوانهم، فشفعوا فيهم[(١)].

٩. الخروج من الظلمات إلى النور.

إن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب كي يخرج الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به وأطاعوه من الظلمات إلى النور، يعني من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمة الباطل إلى ضياء الحق، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الباطل إلى الحق، وما أشبه ذلك، قال تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق:١١][(٢)].

قال ابن كثير: «﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي في حال كونها بينة واضحة جلية ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورًا لما يحصل به من الهدى كما سماه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]»[(٣)].

١٠ الخيرية بين الخلق.

إن الخيرية بين الخلق جزاء للعمل الصالح قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة:٧].

يعني أنهم بسبب أعمالهم الصالحة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٨، النكت والعيون ٦/ ٣٦، تفسير السمعاني ٥/ ٤٦٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٧٧.

واجتنابهم الشرك استحقوا هذا الاسم[1].

والمعنى: «إن الذين آمنوا أي بالله ورسوله محمد، صلى الله عليه وسلم وعملوا الصالحات، أي من بذل النفس في سبيل الجهاد للحق، وبذل المال في أعمال البر، مع القيام بفرائض العبادات، والإخلاص في سائر ضروب المعاملات؛ لأن إذعانهم الصحيح، ووجدانهم لذة معرفة الحق، ملكت الحق قيادهم، فعملوا الأعمال الصالحة، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أي أفضل الخليقة؛ لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه، قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التي شرفهم الله بها، وبالعمل الصالح، قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله قوام الوجود الإنساني، وهدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هدوا إليه من الخير والسعادة فمن يكون أفضل منهم؟»[2].

ثانيًا: جزاء الصلاح في الآخرة:

يتمثل جزاء الصلاح في الآخرة في مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، والجنة ونعيمها، والدرجات العليا، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم، ورضا الله ورؤية وجهه الكريم، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

١. مغفرة الذنوب وتكفير السيئات.

ذكر الله تعالى في آيات كثيرات أن جزاء العمل الصالح في الآخرة هو مغفرة الذنوب وتكفير السيئات. منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾ [محمد:٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه:٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ [الفرقان:٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾ [المائدة:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾ [العنكبوت:٧].

وغيرها من الآيات.

والمراد بالغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب[3]، والمراد بتكفير السيئات: سترها بالإيمان والعمل الصالح، والمراد إزالها ولم يؤاخذهم بها[4].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤٥٦.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٥٢٤.
(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ٦٠٩.
(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٩٥.

٢. الجنة و نعيمها.

بين الله تعالى في آيات كثيرات أنه سيدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة وأن لهم فيها نعيم دائم وأزواج مطهرة وظلال وارف، منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء:٥٧].

والجنات، يعني: بساتين تجري من تحتها الأنهار، وهم خالدون، أي باقون فيها أبدًا بغير نهاية ولا انقطاع، دائما ذلك لهم فيها أبدًا، ولهم في تلك الجنات أزواج مطهرة، يعني: بريئات من الأدناس والريب والحيض والغائط والبول والحبل والبصاق، وسائر ما يكون في نساء أهل الدنيا﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي وندخلهم ظلًا كنينًا، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة:٣٠].

وكما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة:٣٠])[(١)(٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج:٢٣].

والأساور جمع أسورة، وأسورة واحدها سوار، وفيه ثلاث لغات: ضم السين وكسرها وإسوار، قال المفسرون: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ، وفي فاطر: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر:٣٣].

وقال في سورة الإنسان: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء)[(٣)(٤)].

وفي الجملة إن الله تعالى يهب للذين آمنوا وعملوا الصالحات نعمًا كثيرة، وتنعيمًا عظيمًا في الجنة، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٥٢، ٤/ ١١٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٨٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم ٢٥٠، ١/ ٢١٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٨.

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج:٥٦]:والنعيم:النعمة الكثيرة، وتنعم:تناول ما فيه النعمة وطيب العيش، يقال:نعمه تنعيما فتنعم. أي:جعله في نعمة. أي:لين عيش وخصب[١].

٣. الدرجات العليا.

بين الله تعالى أن الدرجات العلى هي جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه:٧٥].

أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات[٢].

وهذه الدرجات العليا هي جنات الفردوس على أحد المعاني الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف:١٠٧].

قال الإمام الماوردي: « في ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ خمسة أقاويل:

أحدها: أن الفردوس وسط الجنة وأطيب موضع فيها، قاله قتادة.

الثاني: أنه أعلى الجنة وأحسنها، رواه ضمرة مرفوعًا.

الثالث: أنه البستان بالرومية، قاله مجاهد.

الرابع: أنه البستان الذي جمع محاسن كل بستان، قاله الزجاج.

الخامس: أنه البستان الذي فيه الأعناب، قاله كعب»[٣].

قال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها. وقال أبو أمامة الباهلي: الفردوس سرة الجنة. وقال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس، فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر[٤].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها)، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: (إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه - فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)[٥].

والدرجات العليا هي الغرفات المذكورة

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٨١٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٦٩.
(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٤٨.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٦٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي، رقم ٢٧٩٠، ٤/ ١٦.

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ:٣٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت:٥٨].

والغرفة في اللغة: العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية[1].

٤. مرافقة الذين أنعم الله عليهم.

أخبر الله تعالى أن مرافقة الذين أنعم الله عليهم من جزاء الصلاح في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩].

والمعنى: ومن يطع الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضى بحكمهما، والانتهاء إلى أمرهما، والانزجار عما نهيا عنه من معصية الله، فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه، وفي الآخرة إذا دخل الجنة والصديقين وهم جمع صديق، والصالحين، وهم جمع صالح، وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته، وحسن، هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم، رفقاء في الجنة[2].

والآية تدل على أن مرتبة الصلاح مرتبة عظيمة جامعة لجميع المراتب؛ لأن الصالح إذا ترقى من مقامه يسمى شهيدا ثم صديقا ثم نبيًا[3].

٥. رضا الله ورؤية وجهه الكريم.

ثبت رضا الله تعالى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧-٨].

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما أطاعوه في الدنيا، وعملوا لخلاصهم من عقابه في ذلك ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من الثواب يومئذ، على طاعتهم ربهم في الدنيا، وجزاهم عليها من الكرامة[4].

وهذا الرضا هو بسبب عملهم الصالح جزاءلهم قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٨].

ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٨٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٣٠.

(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٤/ ٣٢٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٤٢.

النعيم المقيم، ورضوا عنه فيما منحهم من الفضل العميم[1].

أما النظر إلى وجهه الكريم فيدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦].

قال الإمام ابن كثير: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف»[2].

والزيادة هي النظر إلى وجه الله في قول أبي بكر الصديق، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة، وابن عباس رضي الله عنهم، وقتادة، والضحاك، ونحو ذلك فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: (تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦])[3][4].

موضوعات ذات صلة:

الإصلاح، التغيير، الدعوة، الدفع، الفساد، النصيحة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٩

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم ١٨١، ١/ ١٦٣.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٤.

الصيام

عناصر الموضوع

مفهوم الصيام	١٨٨
الصيام في الاستعمال القرآني	١٩٠
الألفاظ ذات الصلة	١٩١
الصيام عبادة قديمة	١٩٣
أنواع الصيام وحكمه	١٩٥
حكم الصيام ومقاصده	٢٠٣
أعذار الفطر	٢٠٧
الصيام والأعمال الصالحة	٢١٢
مبطلات الصيام	٢١٦
فوائد الصيام	٢١٩
جزاء الصائمين	٢٢٢
الإعجاز التشريعي في الصيام	٢٢٥

مفهوم الصيام

أولًا: المعنى اللغوي:

مصدر صام يصوم صومًا، ويطلق على الإمساك[1] عن أي فعل أو قول كان[2]، وقيل: «الإمساك عن الشيء والترك له. وقيل للصائم: صائم؛ لإمساكه عن المطعم والمشرب والمنكح. وقيل للصامت: صائم، لإمساكه عن الكلام. وقيل للفرس: صائم، لإمساكه عن العلف مع قيامه»[3].

وقال ابن فارس رحمه الله: «الصاد والواو والميم أصلٌ يدل على إمساكٍ وركودٍ في مكان. من ذلك صوم الصائم، هو إمساكه عن مطعمه ومشربه وسائر ما منعه. ويكون الإمساك عن الكلام صومًا، قالوا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾[مريم: ٢٦].

إنه الإمساك عن الكلام والصمت»[4].

وقال ابن منظور رحمه الله: «الصوم: ترك الطعام والشراب والنكاح والكلام، صام يصوم صومًا وصيامًا واصطام، ورجلٌ صائمٌ وصومٌ من قومٍ صوامٍ وصيامٍ وصومٍ، بالتشديد، وصيم، قلبوا الواو لقربها من الطرف؛ وصيمٍ؛ عن سيبويه، كسروا لمكان الياء، وصيامٍ وصيامى، الأخير نادرٌ، وصومٍ وهو اسمٌ للجمع، وقيل: هو جمع صائمٍ»[5].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عبارة عن إمساكٍ مخصوصٍ، وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النية[6].

وعرفه الحافظ ابن كثير رحمه الله بقوله: «هو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية

---

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٣٥٢، التعريفات، الجرجاني ص ١٣٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٥٢٩، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ٢١٨-٢١٩.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٥٢٩.

(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ١٨٢.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٥٢.
وانظر: المصباح المنير، الفيومي ص٣٥٢.

(٥) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٥٠.

(٦) التعريفات، الجرجاني ص ١٣٦.
وانظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ٢١٨-٢١٩.

خالصة لله عز وجل »[1].

فالصيام يكون بالإمساك عن جميع المفطرات من أكل وشرب وجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ﴾[البقرة: ١٨٧].

فالصلة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي للصيام أنه في اللغة أعم فهو بمعنى الإمساك عن أي قول أو فعل، أو هو بمعنى الترك، وهو في الاصطلاح بمعنى الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وكذلك هو ترك الأكل والشرب والنكاح من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية، فبينهما عموم وخصوص، فاللغة أعم من الاصطلاح.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٩٧.

الصيام في الاستعمال القرآني

وردت مادة «صوم» في القرآن الكريم (١٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤﴾ [البقرة:١٨٤]
المصدر	١٠	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]
اسم الفاعل	٢	﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]

وجاء الصيام في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الصيام الشرعي المعروف: ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

الثاني: الصمت: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] أي: سكوتًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الصاد، ص٧٠٨.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٨٦-٣٨٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٤٥٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه[١].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»[٢].

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»[٣].

الصلة بين العبادة والصيام:

العبادة أعم من الصيام، فالصيام نوع من أنواع العبادات التي شرعها الله تعالى.

٢ الإمساك:

الإمساك لغة:

أصل الإمساك حبس النفس عن الفعل ومنه المساك وهو مكان يمسك الماء أي يحبسه، والجمع مسكٌ، والمسكة السوار سمي بذلك لأنه يلزم المعصم فهو كالمحبوس فيه، ونقيض الاستمساك الاسترسال، ونقيض الإمساك الإرسال»[٤]. والإمساك عن الكلام هو السكوت، فالسكوت إمساك عن قولة الحق والباطل[٥].

وأيضًا الإمساك يطلق على البخل، فيقال: رجل مسيك يعني بخيل، وفيه إمساكٌ ومسكةٌ بالضم وبضمتين، وكسحاب وسحابةٍ وكتابٍ وكتابةٍ: بخلٌ[٦].

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/١٤٤٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٣٤.
(٣) المفردات ص ٣١٨.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص ٥١٧.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٥٠٩.
(٦) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩٥٣.
وانظر: الكليات، الكفوي ص ٢٤٢.

الإمساك اصطلاحًا:

لا يخرج عن أحد معانيه اللغوية.

الصلة بين الإمساك والصيام:

أن الإمساك أعم من الصيام، والصيام أخص، وهو الإمساك عن المفطرات من أكل، وشرب، وجماع، وغير ذلك.

الصيام عبادة قديمة

إن الله تبارك وتعالى فرض الصوم على هذه الأمة كما فرضه على الأمم من قبل؛ لما فيه من الثواب العظيم والأجر الكبير، ولأن الله جعله سببًا في حصول التقوى فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فأخبر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنون بأنه فرض عليهم الصيام وأوجبه كما فرضه على الأمم السابقة[١].

قال ابن سعدي رحمه الله: «يخبر تعالى بما من به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة؛ لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تنشيط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة، التي اختصيتم بها»[٢].

وقال أبو زهرة رحمه الله: «كتب بمعنى فرض؛ لأنه قرره الله تعالى، وكتبه حتى صار مكتوبًا على المؤمنين، وقد أكد سبحانه الفرضية بقوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمُ﴾، وبأنه شريعة النبيين أجمعين؛ ولذا قال تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ وأنه سبيل لتقوى النفس؛ ولذا قال: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ﴾ وذكر أنه أيامًا معدودات معروفة القدر، مبينة الابتداء والانتهاء»[٣].

والمراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، قيل: بأنهم أهل الكتاب، وقيل: بأنهم النصارى، وقيل: بأنهم جميع الناس[٤]، ولكن الآية عامة فتشمل جميع الأمم السابقة.

ثم إن أهل العلم اختلفوا في المعنى الذي وقع فيه التشبيه بين صومنا وصوم من قبلنا، فقال بعضهم كما قال الطبري رحمه الله: «الذين أخبرنا الله عن الصوم الذي فرضه علينا أنه كمثل الذي كان عليهم هم النصارى، وقالوا: التشبيه الذي شبه من أجله أحدهما بصاحبه هو اتفاقهما في الوقت والمقدار الذي هو لازم لنا اليوم فرضه.

وقال آخرون: بل التشبيه إنما هو من أجل أن صومهم كان من العشاء الآخرة إلى العشاء الآخرة، وذلك كان فرض الله جل ثناؤه على المؤمنين في أول ما افترض عليهم الصوم. ووافق قائلو هذا القول القائلي القول الأول أن الذين عنى الله جل ثناؤه بقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٣-١٥٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٥٥٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٣-١٥٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٧، اللباب في علوم الكتاب ٣/ ٢٥٤-٢٥٦.

﴿قَبْلِكُمْ﴾ النصارى»[1].

وقال الماوردي رحمه الله: «واختلفوا في موضع التشبيه بين صومنا، وصوم الذين من قبلنا، على قولين:

أحدهما: أن التشبيه في حكم الصوم وصفته، لا في عدده؛ لأن اليهود يصومون من العتمة إلى العتمة، ولا يأكلون بعد النوم شيئًا، وكان المسلمون على ذلك في أول الإسلام، لا يأكلون بعد النوم شيئًا حتى كان من شأن عمر بن الخطاب وأبي قيس بن صرمة ما كان، فأجل الله تعالى لهم الأكل والشرب، وهذا قول الربيع بن أنس، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (بين صومنا وصوم أهل الكتاب أكلة السحر)[2].

والقول الثاني: أن التشبيه في عدد الصوم، وفيه قولان:

أحدهما: أن النصارى كان الله فرض عليهم صيام ثلاثين يومًا كما فرض علينا، فكان ربما وقع في القيظ، فجعلوه في الفصل بين الشتاء والصيف، ثم كفروه بصوم عشرين يومًا زائدة؛ ليكون تمحيصًا لذنوبهم وتكفيرًا لتبديلهم، وهذا قول الشعبي.

والثاني: أنهم اليهود كان عليهم صيام ثلاثة أيام من كل يوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، فكان على ذلك سبعة عشر شهرًا إلى أن نسخ بصوم رمضان، قال ابن عباس: كان أول ما نسخ شأن القبلة والصيام الأول»[3].

ثم إنه حصل في صيام الإسلام ما يخالف صيام أهل الكتاب في قيود ماهية الصيام وكيفيتها، ولم يكن صيامنا مماثلًا لصيامهم تمام المماثلة، والتشبيه في أصل فرض ماهية الصوم لا في الكيفيات، والتشبيه يكتفى فيه ببعض وجوه المشابهة وهو وجه الشبه المراد في القصد، وليس المقصود من هذا التشبيه الحوالة في صفة الصوم على ما كان عليه عند الأمم السابقة، ولكن فيهم أغراضًا ثلاثة تضمنها التشبيه:

أحدها: الاهتمام بهذه العبادة، والتنويه بها؛ لأنها شرعها الله قبل الإسلام لمن كانوا قبل المسلمين، وشرعها للمسلمين، وذلك يقتضي اطراد صلاحها ووفرة ثوابها، وإنهاض همم المسلمين لتلقي هذه العبادة؛ كي لا يتميز بها من كان قبلهم،...

والغرض الثاني: أن في التشبيه بالسابقين تهوينًا على المكلفين بهذه العبادة أن يستثقلوا هذا الصوم فإن في الاقتداء بالغير أسوة في المصاعب.

والغرض الثالث: إثارة العزائم للقيام

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٣-١٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه، واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر، رقم ١٠٩٦.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٣٦.

بهذه الفريضة؛ حتى لا يكونوا مقصرين في قبول هذا الفرض بل ليأخذوه بقوة تفوق ما أدى به الأمم السابقة[1].

فالصيام عبادة قديمة فرضها الله سبحانه على هذه الأمة كما فرضه على الأمم السابقة، أخبرنا الله بهذا؛ لتشحذ الهمم وتنشط للعبادة؛ لتنال الغاية العظمى من الصيام وهي تقوى الله جل جلاله.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٥٦-١٥٧، بتصرف.

أنواع الصيام وحكمه

إن الله سبحانه وتعالى شرع هذا الدين للناس وهو الغني عنهم، لا تنفعه عبادة العابدين، ولا تضره معصية العاصين، شرع لعباده عبادة الصيام، والصيام أنواع كسائر العبادات، فمنه الواجب ومنه المندوب المستحب، والواجب منه ما هو واجب بأمر لله بفعله من المكلف كصوم رمضان، أو ما أوجبه على نفسه بالنذر؛ لأن النذر يجب الوفاء به، ومنه ما هو مندوب مستحب فعله، وسيأتي فيما يأتي بيان كل نوع على حدة.

أولًا: صوم رمضان:

صيام شهر رمضان فرض من الله تبارك وتعالى على عباده، ودليله من الكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب قول الرب تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٣].

إلى قوله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

يعني: فرض عليكم مثل الذي فرض على الذين من قبلكم. وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن صوم رمضان أحد أركانه الخمسة التي بني عليها كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما: (بني الإسلام على خمس، على أن يعبد الله، ويكفر بما دونه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)[1].

ثم اختلف أهل التأويل في الذين عنى الله بقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وفي المعنى الذي وقع فيه التشبيه بين فرض صومنا، وصوم الذين من قبلنا، فقال بعضهم: الذين أخبرنا الله عن الصوم الذي فرضه علينا أنه كمثل الذي كان عليهم هم النصارى، وقالوا: التشبيه الذي شبه من أجله أحدهما بصاحبه هو اتفاقهما في الوقت والمقدار الذي هو لازم لنا اليوم فرضه[2].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الأمة وآمرًا لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل، لما فيه من زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك»[3].

فصيام شهر رمضان المبارك ثابت في القرآن وكذلك في السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وأخبر سبحانه بأنه فرضه علينا كما فرضه على الأمم السابقة؛ تنشيطًا لهذه الأمة ودعوة لها للمسابقة والمنافسة للأمم السابقة، وبين سبحانه الغاية من فريضة الصيام وهو حصول التقوى فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ثانيًا: صوم الكفارات:

تقدم أن الصيام هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع، يعني الإمساك عن جميع المفطرات، والكفارات هنا جمع كفارة، قال الكاساني رحمه الله: «الكفارات المعهودة في الشرع خمسة أنواع: كفارة اليمين، وكفارة الحلق، وكفارة القتل، وكفارة الظهار، وكفارة الإفطار، وكلها واجبة إلا أن أربعة منها عرف وجوبها بالكتاب العزيز، وواحدة منها عرف وجوبها بالسنة، أما الأربعة التي عرف وجوبها بالكتاب العزيز فكفارة اليمين، وكفارة الحلق، وكفارة القتل، وكفارة الظهار. والكفارة في عرف

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، رقم ٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس، رقم ١٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٧.

الشرع اسم للواجب»[1]، أي: ما أوجبه الله تعالى على من أتى شيئًا منهيًا عنه، أو قصر في مأمور به.

وسميت الكفارة بهذا الاسم؛ لأنها تكفر الذنوب وتسترها، فالحكمة من الكفارة تكفير للذنوب والسيئات التي تقع من العبد، والكفارات أنواع، هي:

١. كفارة القتل الخطأ.

لشناعة القتل جعل الله تبارك وتعالى للقاتل عقوبة رادعة، فمن قتل عمدًا قتل قصاصًا، ومن قتل خطًا فإنه يلزمه الدية والكفارة، والكفارة هنا مغلظة هي تحرير رقبة مؤمنة مع الدية إلا أن يعفو فإن الدية تسقط لكن الكفارة لابد أن يأتي بها، فإن لم يستطع تحرير الرقبة فإن عليه أن يصوم شهرين متتابعين.

قال رب العزة مبينًا ذلك: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «وقوله: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ وصف الشهران بأنهما متتابعان والمقصود تتابع أيامهما؛ لأن تتابع الأيام يستلزم توالي الشهرين»[2].

وقال صاحب كتاب اللباب رحمه الله: «الكفارة تكون بإعتاق رقبةٍ مؤمنةٍ سواء كان المقتول مسلمًا أو معاهدًا، رجلًا أو امرأةً، حرًا كان أو عبدًا، وتكون في مال القاتل.

قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ مفعوله محذوفٌ: أي: فمن لم يجد رقبة، وهي بمعنى وجدان الضال، فلذلك تعدت لواحدٍ، وقوله: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ ارتفاعه على أحد الأوجه المذكورة في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، أي: فعليه صيام، أو: فيجب عليه صيام، أو فواجبه صيام»[3].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم.

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ٥/ ٩٥

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٦٢.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ٦/ ٥٦٨، بتصرف يسير.

﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ»[1].

فكفارة قتل الخطأ تحرير رقبة مؤمنة فإن لم يستطع فصيام شهرين متتابعين، ومن قطع التتابع لعذر كمرض أو حيض أو نفاس فإنه يستأنف ولا يعيد، بخلاف من قطع من غير عذر فإنه يجب عليه أن يعيد من جديد.

٢. كفارة من لم يجد الهدي في الحج، ومن أحصر أو حلق رأسه.

بين الله تبارك وتعالى أن من أحرم بالحج أو العمرة فأحصر فلا يتحلل حتى ينحر هديه ومن لم يجد الهدي فإنه يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده، وكذلك من كان به أذىً في رأسه أو مرضًا فإن له أن يحلق رأسه ويفتدي فقال سبحانه: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: فمن لم يجد هديًا فليصم ثلاثة أيام في الحج، أي: في أيام المناسك، قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، قاله عطاء. أو من حين يحرم، قاله ابن عباس وغيره، لقوله: ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾ ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد. وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبله يومين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والسدي، وعطاء، وطاوس، والحكم، والحسن، وحماد، وإبراهيم، وأبو جعفر الباقر، والربيع، ومقاتل بن حيان. وقال العوفي، عن ابن عباس: إذا لم يجد هديًا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله.

فلو لم يصمها أو بعضها قبل يوم العيد فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء، وهما للإمام الشافعي أيضًا، القديم منهما: أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخاري: لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لا يجد الهدي. وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ﴾، وقد روي عن علي أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق. وبهذا يقول عبيد بن عمير الليثي وعكرمة، والحسن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٣.

البصري، وعروة بن الزبير؛ وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ والجديد من القولين: أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق، لما رواه مسلم عن نبيشة الهذلي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله)[1].

وقوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: إذا رجعتم في الطريق، ولهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق.

والقول الثاني: إذا رجعتم إلى أوطانكم؛ وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إذا رجع إلى أهله، وحكى الإجماع على ذلك أبو جعفر ابن جرير»[2].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدي أو ثمنه ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ «منى» ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع، والثامن، والتاسع، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله»[3].

٣. كفارة من قتل صيدًا متعمدًا وهو محرم في الحرم.

قال الله تبارك وتعالى مبينًا ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ [المائدة: ٩٥].

يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ الذي بينت لكم، وهو صيد البر دون صيد البحر ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ يقول: وأنتم محرمون بحج أو عمرة، والحرم: جمع حرام، والذكر والأنثى فيه بلفظ واحد، تقول: هذا رجل حرام، وهذه امرأة حرام، فإذا قيل محرم، قيل للمرأة محرمة. والإحرام: هو الدخول فيه، يقال: أحرم القوم: إذا دخلوا في الشهر الحرام، أو في الحرم. فتأويل الكلام: لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة.

وقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ فإن هذا إعلام من الله تعالى ذكره عباده حكم القاتل من المحرمين الصيد الذي نهاه عن قتله متعمدًا ثم اختلف أهل التأويل في صفة العمد الذي أوجب الله على صاحبه به الكفارة والجزاء في قتله الصيد، فقال بعضهم: هو العمد لقتل الصيد مع نسيان قاتله إحرامه في حال قتله، وقال: إن قتله وهو ذاكر إحرامه متعمدًا قتله فلا حكم عليه وأمره إلى الله، قالوا: وهذا أجل أمرًا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق، رقم ١١٤١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٣٨-٥٣٩، بتصرف.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٠.

من أن يحكم عليه أو يكون له كفارة[1].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد رحمهم الله، لظاهر الآية «أو» فإنها للتخيير. والقول الآخر: أنها على الترتيب.

فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد[2] المقتول عند مالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وحماد، وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجودًا، ثم يشترى به طعام ويتصدق به، فيصرف لكل مسكين مد[3] منه عند الشافعي، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: يطعم كل مسكين مدين، وهو قول مجاهد.

وقال أحمد: مد من حنطة، أو مدان من غيره، فإن لم يجد، أو قلنا بالتخيير صام عن إطعام كل مسكين يومًا.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يومًا، كما في جزاء المترفه بالحلق ونحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقًا بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، والفرق ثلاثة آصع»[4].

فمن قتل الصيد متعمدًا فعليه جزاء مثل ما قتل من النعم، قال ابن سعدي رحمه الله: «﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابلة المثل من النعم، طعامًا يطعم المساكين.

قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره. ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يومًا»[5].

٤. كفارة اليمين.

من حلف على شيء فحنث فيها لزمته الكفارة، وكفارة اليمين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، خيرهم بين هذين الأمرين الإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة، فمن لم يستطع فعليه أن يصوم ثلاثة أيام،

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٦٧٣.
(٢) يعني: يثمن.
(٣) المد اختلفوا فيه، فقيل: المد رطل وثلث بالعراقي، وبه يقول الشافعي وفقهاء الحجاز. وقيل: هو رطلان، وبه يقول أبو حنيفة وفقهاء العراق، وقال بعضهم: وخالف بعض الحنيفة، فقال: المد رطلان.
انظر: عمدة القاري، العيني ٣/ ٩٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩٤.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٤.

كما قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع. وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فرقي فيها من الأدنى إلى الأعلى. فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾[1].

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله: «﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه، فبان بخلاف ذلك. ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ أي: كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٧٦.

وذلك الإطعام ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة. ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع، فمتى فعل واحدًا من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واحدًا من هذه الثلاثة ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ تكفرها وتمحوها وتمنع من الإثم»[2].

فهذه الآية دالة على جواز الصيام عند العجز عن الإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة ولا يشترط تتابع الصيام؛ لأنه لا دليل على التتابع.

٥. كفارة الظهار.

الظهار الأصل فيه قول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي[3].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٤٢.

(٣) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٣/ ٢٢٩، بداية المبتدي ص ٨١، الكافي في فقه أهل المدينة، ابن عبد البر ٢/ ٦٠٣، البيان والتحصيل، ابن رشد ٥/ ١٧١، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن شد ٣/ ١٢٣، المجموع شرح المهذب، النووي ١٧/ ٣٤٤، الكافي في فقه الإمام أحمد، ابن قدامة ٢/ ٣٢٢، و ٣/ ١٦٥، المغني، ابن قدامة ٧/ ٤١٤.

كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها: أنت علي كظهر أمي، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياسًا على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقًا، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم. هكذا قال غير واحد من السلف»[1].

وقال البغوي رحمه الله: «وصورة الظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي»[2].

والظهار هذا سماه الله تبارك وتعالى زورًا؛ وذلك لأنه شبه زوجته بأمه كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ [المجادلة: ٢].

ثم بين الله تبارك وتعالى ما يلزم من ظاهر من زوجته ثم أراد أن يعود إليها من الكفارة، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٣-٤].

الظهار قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، سمي ظهارًا؛ لأنه قصد تحريم ظهرها عليه، وقيل: لأنه قد جعلها عليه كظهر أمه، وقد كان في الجاهلية طلاقًا ثلاثًا لا رجعة فيه ولا إباحة بعده فنسخه الله إلى ما استقر عليه الشرع من وجوب الكفارة فيه بالعود[3].

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: فمن لم يجد منكم ممن ظاهر من امرأته رقبة يحررها، فعليه صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا؛ والشهران المتتابعان هما اللذان لا فصل بينهما بإفطار في نهار شيء منهما إلا من عذر، فإنه إذا كان الإفطار بالعذر ففيه اختلاف بين أهل العلم، فقال بعضهم: إذا كان إفطاره لعذر فزال العذر بنى على ما مضى من الصوم. وقال آخرون: بل يستأنف؛ لأن من أفطر بعذر أو غير عذر لم يتابع صوم شهرين»[4].

وقال: «وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ يقول جل ثناؤه: هذا الذي فرضت على من ظاهر منكم ما فرضت في حال القدرة على الرقبة، ثم خففت عنه مع العجز بالصوم، ومع فقد الاستطاعة على الصوم بالإطعام، وإنما فعلته؛ كي تقر الناس

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٧.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٧٣.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣١٧.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٨٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٦٢.

بتوحيد الله ورسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويصدقوا بذلك، ويعملوا به، وينتهوا عن قول الزور والكذب»[1].

ثالثًا: صوم التطوع:

إن من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن شرع لهم بعد كل فريضة نافلة من جنسها؛ لتكون جابرة لما يعتريها من النقص والقصور، ومن ذلك الصيام، فقد شرع الله تبارك وتعالى بعد فريضة صيام رمضان نوافل متعددة، لكن لم يرد في كتاب الله تعالى ما يدل على نوافل الصيام صراحة، وإنما يدخل ذلك ضمن فعل الخيرات، ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقال حاثًا على المسارعة والمسابقة إلى فعل الخيرات: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقال الله تبارك وتعالى آمرًا لنا بأخذ ما أتانا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٤٦٥.

حكم الصيام ومقاصده

إن الله تبارك وتعالى من أسمائه الحكيم سبحانه، فلا يخلق ولا يشرع ولا يأمر بشيء إلا لحكم عظيمة علمها من علمها وجهلها من جهلها، ومن ذلك أن الله تبارك وتعالى شرع فريضة الصيام، لحكم ومقاصد عظيمة فيما يلي نعرض لبعض هذه الحكم، التي ذكر الله سبحانه بعضها في كتابه، وبعضها ورد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضها تستنبط استنباطًا، فمنها:

أولًا: حصول التقوى:

أبان الله تبارك وتعالى في كتابه العظيم هذه الحكمة وهذا المقصد في كتابه الكريم فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالتقوى غاية ومقصد عظيم من مقاصد الصيام، هي أن يستشعر العبد عظمة الله تبارك وتعالى ومراقبته لنا في كل أحوالنا، حركاتنا وسكناتنا، في خلواتنا وبين الناس؛ لنرتقي في مفهوم العبادات، فمن المصيبة أن تتحول العبادات إلى عادات فلا نحس بها ولا تثمر فينا الخشية من الله ولا التقوى، وربما يكون نصيب العبد من صومه الجوع والعطش والعياذ بالله؛ لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم محذرًا: (رب صائم ليس له

من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[1].

قال البغوي رحمه الله في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: «يعني بالصوم؛ لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات، وقيل: لعلكم تحذرون عن الشهوات من الأكل والشرب والجماع»[2].

وقال الخطيب رحمه الله: «فقد كان الصوم مفروضًا على من تقدمنا من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بسبب هذا الصيام ﴿تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، وتخشون غضبه، وتعملون بأوامره؛ ومن هذا يعلم أن الصيام يبعث على الإيمان الصادق، ويرقق القلب، ويصفي النفس، ويعين على خشية الله تعالى؛ ولذا استعان به الأنبياء في تحقيق مآربهم، والأولياء في تهذيب نفوسهم، والخاصة في شفاء قلوبهم، والعامة في شفاء جسومهم»[3].

فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فالصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع وغير ذلك مما تميل إليها نفسه، متقربًا بذلك إلى الله، راجيًا بتركها، ثوابه، فهذا من التقوى، فالتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية، ولو تلك التي تهجس في البال، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله، ووزنها في ميزانه.

فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم. وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها. ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفًا وضيئًا يتجهون إليه عن طريق الصيام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فالصيام يدرب الإنسان على مراقبة الله تعالى، وترك ما تهوى نفسه، مع قدرته عليه، ويضيق مجاري الشيطان؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام، يضعف نفوذه، وتقل المعاصي، وتكثر الطاعات التي هي من خصال التقوى.

فالصوم عبادة يتقرب بها العبد لربه بترك محبوباته، وقمع شهواته، فيضبط نفسه بالتقوى ومراقبة الله سبحانه وتعالى في كل مكان وزمان، قال العلامة ابن القيم رحمه الله كلامًا طيبًا عن الصيام: «فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارًا لمحبة الله ومرضاته، وهو سرٌّ بين

(١) أخرجه وأحمد في مسنده، رقم ٩٦٨٥، وابن ماجه في سننه، أبواب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، رقم ١٦٩٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٤٨٨.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٦.
(٣) أوضح التفاسير، الخطيب ٣٣.

العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشرٌ، وذلك حقيقة الصوم»[1].

وإن الناظر في كتاب الله يلحظ ما أعده الله لهم من الأجر العظيم والثواب الكبير، ودعانا للمسارعة فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤].

وقال: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا﴾ [النبأ: ٣١-٣٣] الآيات.

ثانيًا: تزكية النفس وإبعادها عن الشهوات:

من مقاصد هذه العبادة الجليلة أن فيه تزكية للنفس وتهذيب لها وتنقية من الرذيلة؛ فبالصيام يضيق مجاري الشيطان في جسد الإنسان، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)[2]؛ لهذا حث النبي صلى الله عليه وسلم وأرشد الذي لم يستطع الزواج على الصوم كما ثبت في الصحيحين: (يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[3]، فالجوع يكسر الشهوة ويكبح جماحها، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في الصحيحين: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)، ثم بين مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم؛ لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات»[4].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٢٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب هل يدرأ المعتكف عن نفسه، رقم ٢٠٣٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة، رقم ١٩٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، رقم ١٤٠٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٧.

﴿ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»[1].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم؛ فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فتسكن بالصيام وساوس الشيطان، وتنكسر سورة الشهوة والغضب، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم «الصوم وجاء» لقطعه عن شهوة النكاح»[2].

فالصوم يسكن النفس الأمارة بالسوء، ويهذبها فالإنسان عندما يكون صائمًا يكون في بعدٍ من تأثير الشيطان عليه بسبب أن الصوم يضيق على الشيطان مجاري الدم فيه فيضعف تأثيره عليه، ويكون الصيام وقاية للعبد من النار؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (الصيام جنة)[3].

ثالثًا: تذكر المساكين والمحتاجين:

من مقاصد وحكم هذه العبادة الجليلة أن العبد يحس بالجوع والتعب؛ ليتذكر حال إخوانه الفقراء والمحتاجين الذين يقاسون ويعانون مرارة الجوع والحرمان.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها[4]

قال العلامة ابن الهمام رحمه الله: «كونه -أي: الصيام- موجبًا للرحمة والعطف على المساكين فإنه لما ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات ذكر من هذا في عموم الأوقات فتسارع إليه الرقة عليه»[5].

وقال ابن رجب رحمه الله: «وسئل بعض السلف: لم شرع الصيام؟ قال: ليذوق الغني طعم الجوع فلا ينسى الجائع»[6].

فإذا أحس بالجوع عرف ما يعاني الفقراء والمساكين فعطف عليهم وواساهم وأحسن إليهم.

فهذا بعض ما تيسر قوله من حكم الصيام، وأولها وأعظمها تقوى الله عز وجل، وتزكية النفس وتهذيبها، وتذكر المساكين والمحتاجين، وغير ذلك.

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٢٨.
(٢) لطائف المعارف، ابن رجب الحنبلي ص ١٥٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب فضل الصوم، رقم ١٨٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم ١١٥١.
(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير ١/ ١٥٧.
(٥) فتح القدير، ابن الهمام ٢/ ٣٠١.
(٦) لطائف المعارف، ابن رجب ص ١٦٨.

أعذار الفطر

الله تبارك وتعالى خلق الخلق، وهو أعلم بهم وبما يمرون به من أحوال، من صحة ومرض، يسبب له عدم الاستطاعة للعبادة، أو يسبب له الوقوع في مشقة، ففرض عليهم الصيام، وهو -كما تقدم- الإمساك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وبما أن الإنسان قد يقع في عذر يمنعه من الصيام، فسيتناول البحث بالحديث أعذار الفطر في الأسطر التالية، وهي كالتالي:

أولًا: أصحاب الأعذار في الفطر:

- المسافر والمريض.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى فرض على عباده صيام رمضان فمن كان مسافرًا أو مريضًا فيجوز أن يفطر ويصوم فيما بعد، والسفر هو قطع المسافة يقال ذلك إذا خرج للارتحال أو لقصد موضع فوق مسافة العدوى[1]؛ لأن العرب لا يسمون مسافة العدوى سفرًا وقال بعض المصنفين: «أقل السفر يوم»[2].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: « ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر؛ لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر، وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام، فقد كان مخيرًا بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أفطر، وأطعم عن كل يوم مسكينًا، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، ومقاتل ابن حيان، وغيرهم من السلف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ »[3].

وقال البغوي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أباح الفطر لعذر المرض والسفر وأعاد هذا الكلام؛ ليعلم أن هذا الحكم ثابت في الناسخ ثبوته في المنسوخ.

واختلفوا في المرض الذي يبيح الفطر،

(١) الفقهاء يقولون: مسافة العدوى وكأنهم استعاروها من هذه العدوى؛ لأن صاحبها يصل فيها الذهاب والعود بعدو واحد لما فيه من القوة والجلادة.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٩٨، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ١٩.

(٢) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٧٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٨.

فذهب أهل الظاهر إلى أن ما يطلق عليه اسم المرض يبيح الفطر وهو قول ابن سيرين، قال طريف بن تمام العطاردي: دخلت على محمد بن سيرين في رمضان، وهو يأكل فقال: إنه وجعت أصبعي هذه، وقال الحسن وإبراهيم النخعي: هو المرض الذي تجوز معه الصلاة قاعدًا، و ذهب الأكثرون إلى أنه مرض يخاف معه من الصوم زيادة علة غير محتملة، وفي الجملة أنه إذا أجهده الصوم أفطر، وإن لم يجهده فهو كالصحيح.

وأما السفر، فالفطر فيه مباح والصوم جائز عند عامة أهل العلم إلا ما روي عن ابن عباس وأبي هريرة وعروة بن الزبير وعلي بن الحسين أنهم قالوا: لا يجوز الصوم في السفر ومن صام فعليه القضاء، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس من البر الصوم في السفر)[1]، وذلك عند الآخرين في حق من يجهده الصوم فالأولى له أن يفطر، والدليل عليه حديث: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأى زحامًا، ورجلًا قد ظلل عليه، فقال ما هذا؟ قالوا هذا صائم، فقال: (ليس من البر الصوم في السفر).

واختلفوا في السفر الذي يبيح الفطر، فقال قوم: مسيرة يوم، وذهب جماعة إلى مسيرة يومين، وهو قول الشافعي رحمه الله، وذهب جماعة إلى مسيرة ثلاثة أيام، وهو قول سفيان الثوري، وأصحاب الرأي»[2].

وقال القرطبي رحمه الله: «اختلف العلماء في السفر الذي يجوز فيه الفطر والقصر، بعد إجماعهم على سفر الطاعة كالحج والجهاد، ويتصل بهذين سفر صلة الرحم، وطلب المعاش الضروري. أما سفر التجارات والمباحات فمختلف فيه بالمنع والإجازة، والقول بالجواز أرجح»[3].

فمن رحمة الله تبارك وتعالى خفف على المسافر والمريض فأباح لهم الفطر في رمضان؛ لكونهما مظنة المشقة.

❁ كبير السن.

وخفف الله سبحانه وتعالى عن الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصيام يفطر، ويتصدق عن كل يوم مسكينًا، كما أخبر الله بذلك، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الآية: «هو الشيخ الكبير كان يطيق صوم شهر رمضان وهو شاب فكبر، وهو لا يستطيع صومه فليتصدق على مسكين واحد لكل يوم أفطره، حين يفطر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن ظلل عليه واشتد الحر: ليس من البر الصوم في السفر، رقم ١٩٤٦.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٩-٢٠٠، بتصرف يسير.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٧٧.

وحين يتسحر»[1].

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله في الآية: «هو الكبير الذي كان يصوم فكبر وعجز عنه، وهي الحامل التي ليس عليها الصيام. فعلى كل واحد منهما طعام مسكين مد من حنطة لكل يوم حتى يمضي رمضان»، وقرأ ذلك آخرون: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وقالوا: «إنه الشيخ الكبير والمرأة العجوز اللذان قد كبرا عن الصوم، فهما يكلفان الصوم ولا يطيقانه، فلهما أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم أفطراه مسكينًا، وقالوا: الآية ثابتة الحكم منذ أنزلت لم تنسخ، وأنكروا قول من قال: إنها منسوخة»[2]، وكان ابن عباس رضي الله عنه: يقرؤها: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ ويقول: «هو الشيخ الكبير يفطر، ويطعم عنه»[3].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه؛ لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينًا إذا كان ذا جدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما: لا يجب عليه إطعام؛ لأنه ضعيف عنه لسنه، فلم يجب عليه فدية كالصبي؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهو أحد قولي الشافعي. والثاني -وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء-: أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخاري فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس -بعد أن كبر عامًا أو عامين- كل يوم مسكينًا خبزًا ولحمًا، وأفطر»[4].

❁ **الحامل والمرضع.**

يباح للحامل والمرضع الإفطار إذا خافتا على أنفسهما أو على الولد، سواء أكان الولد ولد المرضعة أم لا، أي نسبًا أو رضاعًا، وسواء أكانت أمًا أم مستأجرة، وكان الخوف نقصان العقل أو الهلاك أو المرض، والخوف المعتبر: ما كان مستندًا لغلبة الظن بتجربة سابقة، أو إخبار طبيب مسلم حاذق عدل.

ودليل الجواز لهما: القياس على المريض والمسافر، وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة، وعن الحبلى والمرضع الصوم)[5].

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٧١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٧٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠٠.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الرخصة في الإفطار للحبلى والمرضع،

ويحرم الصوم إن خافت الحامل، أو المرضع على نفسها أو ولدها الهلاك.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ومما يلتحق بهذا المعنى: الحامل والمرضع، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان، وقيل: يفديان فقط، ولا قضاء. وقيل: يجب القضاء بلا فدية. وقيل: يفطران، ولا فدية ولا قضاء»[1].

- من لحقه الجوع والعطش الذي يخشي الهلاك بسببه.

فالذي لحق به الجوع والعطش وهو صائم الذي يخشى الهلاك بسبب ذلك فله أن يفطر ويمكن أن يستدل على ذلك بقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ويقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

- الحائض والنفساء.

يحرم على الحائض والنفساء أن تصوم، فمن أصابها الحيض أو النفاس فإن عليها أن تفطر أيام إصابتها بذلك حتى تطهر ثم تصوم، وتقضي بعد ذلك، عن معاذة، قالت: (سألت عائشة رضي الله عنها فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة. ؟ فقالت: أحرورية أنت؟ قلت: لست بحرورية، ولكني أسأل، قالت: (كان يصيبنا ذلك، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة)[2].

روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كنا نحيض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نطهر، فيأمرنا بقضاء الصيام، ولا يأمرنا بقضاء الصلاة)، وقال: «والعمل على هذا عند أهل العلم لا نعلم بينهم اختلافًا، أن الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة»[3]، والنفساء تقاس على الحائض.

ثانيًا: التيسير في الصيام وحكمه:

إن الله تبارك وتعالى شرع هذا الدين ويسره للناس وهو العالم بأحوالهم، فراعى المسافر والمريض، ومن كان في بدنه ما يشق معه الصيام، فأباح لهم الفطر في نهار رمضان وقضاؤه في أيام أخر؛ لأنه يريد اليسر بعباده،

رقم ٧١٥، والنسائي في سننه، كتاب الصوم، باب وضع الصيام عن الحبلى والمرضع، رقم ٢٣١٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٧٥، رقم ١٨٣٠.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم ٣٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في قضاء الحائض الصيام دون الصلاة، رقم ٧٨٧.

فقد قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه، أو يؤذيه أو كان على سفر أي في حال سفر -فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه بعدة ما أفطره في السفر من الأيام؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي: إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر، مع تحتمه في حق المقيم الصحيح، تيسيرًا عليكم ورحمة بكم»[1].

وقال البغوي رحمه الله: « قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ بإباحة الفطر في المرض والسفر ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ قرأ أبو جعفر: العسر واليسر ونحوهما بضم السين، وقرأ الآخرون بالسكون. وقال الشعبي: ما خير رجل بين أمرين فاختار أيسرهما إلا كان ذلك أحبهما إلى الله عز وجل: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ قرأ أبو بكر بتشديد الميم، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهو الاختيار لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

والواو في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ واو النسق، واللام لام كي، تقديره: ويريد لكي تكملوا العدة، أي: لتكملوا عدة أيام الشهر بقضاء ما أفطرتم في مرضكم وسفركم، وقال عطاء: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: عدد أيام الشهر»[2].

قضاء الصوم:

ثم إن الله تبارك وتعالى فرض على من أفطر في رمضان لعذر ما أن يقضيه فيما بعد، فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وتقديره: من كان مريضًا، أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر، قال ابن قدامة المقدسي رحمه الله: «ويلزم المسافر، والحائض، والمريض القضاء، إذا أفطروا، بغير خلاف؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾»[3].

وقال ابن بطال رحمه الله: «اختلف الناس في الحوامل والمراضع، فقال بعض العلماء: إذا ضعفن عن الصيام، وخافت على نفسها وولدها أفطرت، وأطعمت عن كل يوم مسكينًا، فإذا فطمت ولدها قضته، وهو قول مجاهد، وبه قال الشافعي وأحمد. وقال آخرون: عليهما الإطعام ولا قضاء، وهو قول ابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن جبير. وقال آخرون: عليهما القضاء ولا إطعام عليهما، وجعلوهما بمنزلة المريض، وهو قول عطاء، والنخعي، والحسن، والزهري، وربيعة، والأوزاعي، وأبي حنيفة، والثوري،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠٣.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٠١.

(٣) المغني، ابن قدامة ٣/ ١٤٦.

وروى ابن عبد الحكم عن مالك مثله، ذكره ابن القصار، وهو قول أشهب. وفرقة رابعة فرقت بين الحبلى، والمرضع، فقال في الحبلى: هي بمنزلة المريض تفطر وتقضى ولا إطعام عليها، والمرضع تفطر وتطعم وتقضى، هذا قول مالك في المدونة، وهو قول الليث. قال أبو عبيد: وكل هؤلاء إنما تأولوا قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ فمن أوجب القضاء والإطعام معًا ذهب إلى أن الله حكم في تارك الصوم من عذر بحكمين، فجعل الفدية في آية والقضاء في أخرى، فلما لم يجد ذكر الحامل والمرضع مسمى في واحدة منهما جمعهما جميعًا عليهما احتياطًا لهما وأخذًا»[1].

(١) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٤/ ٩٣، بتصرف يسير.

الصيام والأعمال الصالحة

إن المتأمل في العبادات يدرك حكمة الله تبارك وتعالى ووحدانيته، فهو الخالق وحده وهو المشرع، ولأنه واحد جعل العبادات مترابطة، والصيام من جملة العبادات، فقد جعله الله تبارك وتعالى مرتبطًا بعبادات عدة، نقف مع كل عبادة على حدة على النحو التالي:

١ . الصيام والصلاة.

الصيام والصلاة عبادتان عظيمتان، وهما ركنان من أركان الإسلام، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث جبريل عليه السلام وسأله عن الإسلام: (**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا**)[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء**

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم ٨.

الزكاة، والحج، وصوم رمضان)[1].

والصيام والصلاة كلاهما عبادات مكفرات لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر)[2]، وشرع الاجتماع في صلاة التراويح في شهر رمضان المبارك، شهر الصيام.

٢. الصيام وقراءة القرآن:

شهر الصيام، هو شهر القرآن، وكان نزول القرآن في رمضان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقد كان جبريل عليه السلام ينزل فيدارس النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في رمضان، عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، يلقاه كل ليلة يدارسه القرآن، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل، أجود من الريح المرسلة)[3].

فقد كان السلف الكرام رحمهم الله يكثرون من قراءة القرآن في شهر القرآن، فكان البعض منهم يختم القرآن كل يوم ختمة، والبعض يختم القرآن في رمضان ستين مرة، ولا زال الناس يقبلون على قراءة القرآن في شهر رمضان إلى يومنا هذا.

٣. الصيام والاعتكاف:

الاعتكاف يطلق على الاحتباس على الشيء[4].

وقال ابن الأثير: «هو الإقامة على الشيء، وبالمكان ولزومهما، يقال: عكف يعكف ويعكف عكوفًا فهو عاكف، واعتكف يعتكف اعتكافًا فهو معتكف. ومنه قيل لمن لازم المسجد وأقام على العبادة فيه: عاكف ومعتكف»[5].

وقال الجرجاني رحمه الله: «الاعتكاف:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، رقم ٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، رقم ١٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، رقم ٢٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكون في رمضان، رقم ١٩٠٢.

(٤) مختار الصحاح، الرازي ص ٢١٦.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٢٨٤.

هو في اللغة المقام والاحتباس، وفي الشرع: لبث صائم في مسجد جماعةٍ بنية»[1].

وقد ذكر الله تبارك وتعالى الاعتكاف في الآيات التي ذكر الصيام فيها في سورة البقرة، ونهى عن مباشرة النساء حال كونهم عاكفين في المساجد، وهذا دليل على كون الاعتكاف في المسجد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي: لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداءً بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم، وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام»[2].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله تعالى، وانقطاعًا إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في المسجد»[3].

وقد اعتكف النبي صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر من رمضان عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم: (أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده)[4]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يومًا)[5].

٤ . الصيام والصدقة.

الصيام والصدقة بينهما ارتباط، فرمضان شهر الجود والكرم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة)[6].

قال النووي رحمه الله: «وفي هذا الحديث فوائد منها بيان عظم جوده صلى الله

(١) التعريفات، الجرجاني ص ٣١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥١٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر، والاعتكاف في المساجد كلها، رقم ٢٠٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب اعتكاف العشر الأواخر من رمضان، رقم ١١٧٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان، رقم ٢٠٤٤.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٥٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة، رقم ٢٣٠٨.

عليه وسلم ومنها استحباب إكثار الجود في رمضان»[1].

وقال القسطلاني رحمه الله: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس «أسخاهم» بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان»؛ لأنه شهر يتضاعف فيه ثواب الصدقة و«ما» مصدرية، أي: أجود أكوانه يكون في رمضان»[2].

وشرعت صدقة الفطر في شهر الصيام عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: (فرض النبي صلى الله عليه وسلم صدقة رمضان على الحر والعبد، والذكر والأنثى صاعًا من تمر، أو صاعًا من شعير) قال: (فعدل الناس به نصف صاع من بر)[3].

وعنه رضي الله عنهما، قال: (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعًا من تمر، أو صاعًا من شعير على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة)[4].

فظهر بهذا أن شهر الصيام شهر مسارعة للخيرات، ومن ذلك فعل الصدقات، وخير السباقين والمسارعين رسول الهدى صلى الله عليه وسلم فقد كان أجود الناس في رمضان.

٥. الصيام وقيام الليل.

إن قيام الليل مستحب في كل وقت، ويتأكد استحبابه في شهر الصيام، شهر رمضان، وذلك بصلاة التراويح، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه)[5].

٦. الصيام والدعاء.

إن الدعاء عبادة من أعظم العبادات، بل لا تجد عبادةً إلا والدعاء له النصيب الأوفر فيها، ولقد قال رب العزة والجلال في كتابه الكريم في وسط آيات الصيام في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهذا فيه إشارة عظيمة لأهمية الدعاء

(١) شرح النووي على مسلم ١٥/ ٦٩.
(٢) إرشاد الساري، القسطلاني ٣/ ٣٥٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر على الحر والمملوك، رقم ١٥١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، رقم ٩٨٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فرض صدقة الفطر، رقم ١٥٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، رقم ٩٨٤.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان، رقم ٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان، وهو التراويح، رقم ٧٥٩.

ومكانته وقت الصيام، ويمكن أن يستدل لذلك بما روي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يرد دعاؤهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام يوم القيامة، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين)[1].

والشاهد في الحديث: (والصائم حتى يفطر).

فيمكن أن يقال ملخصًا: إن الدعاء عبادة عظمى، داخل في كل عبادة، فلا تخلو عبادة من العبادات من دعاء، وفق الله الجميع لرضاه وتقواه، والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم ٩٧٤٣. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ١٣٥٨.

مبطلات الصيام

إن الله تبارك وتعالى بين لنا في كتابه الكريم أغلب الأحكام، وبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم ووضح ما أجمل في القرآن؛ ففي الكتاب والسنة بيان جميع الأحكام.

وقد قال الله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال سبحانه آمرًا بأخذ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ومما بينه في كتابه الكريم وبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم في سنته مبطلات الصيام، والمبطلات:

منها: ما يبطل الصوم عامة:

فيبطل الصوم عامة إذا انتفى شرط من شروطه سواء كان شرط وجوب كالإسلام، أو شرط صحة كالطهارة من الحيض أو النفاس، فلو ارتد إنسان وهو صائم بطل صومه إجماعًا، ويلزمه القضاء إن رجع إلى الإسلام، وكذلك لو طرأ الحيض أو النفاس على امرأة وهي صائمة بطل صومها وعليها القضاء وقت الطهارة، ويبطل الصوم كذلك بعمل ما ينافيه كالأكل والشرب والجماع، أو تناول ما كان مغذيًا من الإبر الطبية وغيرها، ولا بد أن يكون

الصائم ذاكرًا مختارًا فيما يتناوله.

لكن لو أكل الصائم شيئًا، أو شرب ناسيًا فلا شيء عليه، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نسي وهو صائم، فأكل أو شرب، فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه)[1].

ومنها: ما يبطل الصوم ويوجب القضاء فقط:

يبطل الصوم ويوجب القضاء فقط دون الكفارة، كالأكل أو الشرب، أكل ما لا يؤكل عادة، أو شرب ما لا يشرب عادة، أو تناول أي شيء عامدًا عن طريق الفم، أو كمن فرط فأكل أو شرب أو جامع ظنًا منه أن الفجر لم يطلع والفجر قد طلع، أو أفطر قبل غروب الشمس ظانًا غروبها، وكذلك من أخرج منيه من غير جماع كمن استمنى أو قبل أو كرر النظر فأنزل، أو مساحقة امرأتين إذا أنزلت، فمن وقع في شيء من ذلك فقد بطل صومه وعليه القضاء والتوبة إلى الله تبارك وتعالى.

ومنها: ما يبطل الصوم ويوجب القضاء والكفارة:

ويبطل الصيام ويوجب القضاء والكفارة الجماع في قبلٍ أو دبرٍ أنزل أو لم ينزل، والكفارة هي عتق رقبة، فمن لم يجد فصوم شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا، وقد ثبت أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: (بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم، إذ جاءه رجلٌ، فقال: يا رسول الله، هلكت. قال: (ما لك؟) قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل تجد رقبة تعتقها؟)، قال: لا، قال: (فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين)، قال: لا، فقال: (فهل تجد إطعام ستين مسكينا). قال: لا، قال: فمكث النبي صلى الله عليه وسلم، فبينا نحن على ذلك أتي النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيها تمر -والعرق المكتل- قال: (أين السائل؟) فقال: أنا، قال: (خذها، فتصدق به)، فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها -يريد الحرتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه، ثم قال: (أطعمه أهلك)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسيا، رقم ١٩٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب أكل الناسي وشربه وجماعه لا يفطر، رقم ١١٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان، ولم يكن له شيء، فتصدق عليه فليكفر، رقم ١٩٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم، ووجوب الكفارة الكبرى فيه وبيانها، وأنها تجب على الموسر والمعسر وتثبت في ذمة المعسر حتى يستطيع، رقم ١١١١.

فظهر بهذا أن الصيام له مبطلات منها ما يوجب القضاء فقط، ومنها ما يوجب القضاء والكفارة، فعلى الإنسان المسلم أن يكون مراقبًا لله تبارك وتعالى حتى يأتي بصومه كما ينبغي، وعمومًا فمن الناس من لا يقع في شيء من مبطلات الصوم المتقدمة، لكنه يجرح صومه بالكلام في أعراض الناس، والغيبة، والنميمة، والسباب، والشتم، وقول الزور وقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[1].

قال ابن بطال رحمه الله: «قال المهلب: فيه دليل أن حكم الصيام الإمساك عن الرفث وقول الزور، كما يمسك عن الطعام والشراب، وإن لم يمسك عن ذلك فقد تنقص صيامه وتعرض لسخط ربه، وترك قبوله منه. وقال غيره: وليس معناه أن يؤمر بأن يدع صيامه إذا لم يدع قول الزور، وإنما معناه التحذير من قول الزور»[2].

وقال ابن الأمير الصنعاني رحمه الله: «الحديث دليل على تحريم الكذب والعمل به وتحريم السفه على الصائم وهما محرمان على غير الصائم أيضًا إلا أن التحريم في حقه آكد، كتأكد تحريم الزنا من الشيخ، والخيلاء من الفقير، والمراد من قوله: (فليس لله حاجة) أي: إرادة، بيان عظم ارتكاب ما ذكر، وأن صيامه كلا صيام، ولا معنى لاعتبار المفهوم هنا فإن الله لا يحتاج إلى أحد هو الغني سبحانه ذكره ابن بطال، وقيل: هو كناية عن عدم القبول، كما يقول المغضب لمن رد شيئًا عليه: لا حيلة لي في كذا، وقيل: إن معناه أن ثواب الصيام لا يقاوم في حكم الموازنة ما يستحق من العقاب لما ذكر»[3]، والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصوم، رقم ١٩٠٣.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٤/ ٢٣.

(٣) سبل السلام، الصنعاني ١/ ٥٦٧.

فوائد الصيام

إن من حكمة الله سبحانه أنه لا يشرع شيئًا من العبادات إلا لمصلحة الإنسان، وإن هذا الدين الإسلامي دين مبني بعد إفراد الله بالعبادة على الحكمة العظيمة، والخير الكثير، فشرع الله تبارك وتعالى أحكام هذا الدين لفوائد مرجوة، ومقاصد جليلة، فإن لهذه الشريعة الإسلامية تكاليف سامية المقاصد، نبيلة الفوائد، بديعة الأسرار، نذكر شيئًا من فوائدها:

١. أن الصوم سبب في دخول الجنة.

وأن الله سبحانه أعد للصائمين بابًا في الجنة لا يدخل منه أحد غيرهم، وأنه يشفع لأصحابه، وأن الله سبحانه أعد للصائمين أجرًا عظيمًا، كما سيأتي بعد جزاء الصائمين.

٢. أن الصيام يمنع أو يخفف المنكرات، ويعلم الالتزام بفعل الخيرات.

فالصائم يترك كليًا أو وقت صيامه الدخان، والقات والشمة، فالصائم تراه قارئًا للقرآن، غاضًا بصره عن الحرام، مؤديًا للصلاة في المسجد مع المسلمين، متقربًا لله تعالى بأنواع القربات، يتصدق ويحسن للفقراء والمساكين والمحتاجين؛ لأنه شعر بشيء مما هو واقع بهم وهو الجوع، متنفلًا لله بصلاة التراويح، والقيام، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: « قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام، وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء!»[1].

٣. في الصيام جملة من الفوائد الصحية.

فبما أن الصيام هو الإمساك عن الطعام والشراب، فعندما يمسك الإنسان فترة من الوقت عن الأكل والشرب فإن الجهاز الهضمي يرتاح وقتًا لا بأس به، ويأخذ فترة للتخلص من الفضلات التي به، وكذلك يتخلص الجسم من السموم، والدهون الموجودة في الجسم، فالجسم البشري يتعرض لكثير من المواد الضارة والسموم التي قد تتراكم في أنسجته، وهذه السموم تأتي للجسم عبر الغذاء الذي يتناوله بكثرة، وتذكر بعض المراجع الطبية أن جميع الأطعمة تقريبًا في هذا الزمان تحتوي على كميات قليلة من المواد السامة، وهذه المواد تضاف إلى الطعام في أثناء إعداده، أو حفظه كالنكهات، والألوان، ومضادات الأكسدة، والمواد الحافظة، والإضافات الكيميائية للنبات أو الحيوان. هذا بالإضافة إلى

(١) لطائف المعارف ابن رجب ص ١٥٥.

السموم التي نستنشقها مع الهواء من عوادم السيارات، وغازات المصانع، وسموم الأدوية التي يتناولها الناس بغير ضابط، إلى غير ذلك من سموم الكائنات الدقيقة التي تقطن أجسامنا بأعداد تفوق الوصف والحصر، وأخيرًا مخلفات الاحتراق الداخلي للخلايا والتي تسبح في الدم كغاز ثاني أكسيد الكربون، واليوريا، والكرياتين، والأمونيا، والكبريتات، وحمض اليوريك، ومخلفات الغذاء المهضوم، والغازات السامة التي تنتج من تخمره وتعفنه مثل الأندول، والسكاتول، والفينول[1].

وعلاج مرض البول السكري في مراحله الأولى، وخاصة عند السمنة يكون بالصيام والحمية عن المواد السكرية والنشوية، وعفونة الأمعاء، وتخمراتها يعالج بالصيام.

ومرض ضغط الدم يفيد فيه الصيام بالإقلال من الملح، والدسم الذي يحوي الكولسترول الذي يسبب تصلب الشرايين.

وعسر الهضم يعالج بالحمية، وبتنظيم وجبات الطعام، وعدم إدخال الطعام على الطعام، وهذا موجود في الصيام. وللاستفادة من الصيام ينبغي ألا يسرف الإنسان في الأكل في الفطور، أو السحور، وأن يتبع الحديث النبوي: (ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيماتٌ يقمن صلبه، فإن كان ولا محالة فاعلا فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه)[2]، وحتى يكون خفيفًا نشيطًا فيقدر على أعمال العبادة من صلوات التراويح إلى التهجد... إلخ[3].

٤. يعلم الناس الصبر.

الصبر بجميع أنواعه، صبر على طاعة الله تبارك وتعالى بترك الشهوات، الأكل والشرب والجماع وغيرها طلبًا لمرضاة الرب عز وجل، والنفس كما هو معلوم تحب مثل هذه الأشياء فيلزمها تركها ويصبر على ذلك، وصبر عن معصية الله يلزم نفسه الإمساك عن جميع المفطرات؛ لأن ترك الإمساك معصية لرب الأرض والسماوات، وصبر على أقدار الله فالله سبحانه قدر هذا الإمساك وجعله عبادة من العبادات فلابد من الرضا بما قدر، والعمل بما أراد سبحانه، فظهر بهذا أن الصوم يعد مدرسةً لتعليم الصبر.

٥. الصوم يعد مدرسة لتعليم النظام

(١) انظر: رحلة الإيمان في جسم الإنسان، د.حامد محمد حامد ١٩٩١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم ٢٣٨٠، وأحمد في المسند، رقم ١٧١٨٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٦٧٤.

(٣) انظر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ٧/ ٣٠٦.

والالتزام بالمواعيد.

وذلك لأن الصيام لا بد له من تبييت النية من الليل، ثم الإمساك من طلوع الفجر إلى وقت الغروب، فلا يفطر الإنسان إلا وقت غروب الشمس.

٦. يعلم الصوم أهمية وحدة المسلمين واجتماعها.

وذلك أن المسلمين في جميع أنحاء المعمورة يجب عليهم صيام شهر واحد هو رمضان، وكلهم يمسكون من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، نظام دقيق من خالق حكيم سبحانه وتعالى.

وقد ذكر الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله فوائد متعددة للصيام نذكرها مختصرة:

فمنها: كسر النفس فإن الشبع، والري، ومباشرة النساء تحمل النفس على الأشر والبطر والغفلة.

ومنها: تخلي القلب للفكر والذكر؛ فإن تناول هذه الشهوات قد يقسي القلب ويعميه، ويحول بين العبد وبين الذكر والفكر، وتستدعي الغفلة. وخلو الباطن من الطعام والشراب ينور القلب ويوجب رقته ويزيل قسوته، ويخليه للذكر والفكر.

ومنها: أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه بإقداره له على ما منعه كثيرًا من الفقراء من فضول الطعام والشراب والنكاح؛ فإنه بامتناعه من ذلك في وقت مخصوص، وحصول المشقة له بذلك يتذكر به من منع من ذلك على الإطلاق فيوجب له ذلك شكر نعمة الله عليه بالغنى، ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج ومواساته بما يمكن من ذلك.

ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم؛ فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان وتنكسر سورة الشهوة والغضب[1].

وكل هذه الفوائد مصداقًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

نسأل الله أن يوفقنا لإخلاص العمل لوجهه الكريم.

(١) لطائف المعارف ابن رجب ص ١٥٥.

جزاء الصائمين

إن الله تبارك وتعالى كريم جواد يعطي على القليل الكثير، يضاعف الأجر لعباده، يعمل العبد العبادة فيثيبه رب العالمين الأجر الكبير، فالحسنة بعشر أمثالها ثم تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم؛ فإنه له سبحانه ويجزي عليه بالأجر العظيم.

وذكر الله جل وعلا جزاء الصائمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فالله سبحانه وتعالى جمع أصحاب هؤلاء الصفات ثم قال في آخر الآية: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: هيأ لهم منه لذنوبهم مغفرة وأجرًا عظيمًا وهو الجنة»[(١)].

والماوردي رحمه الله يقول: «﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لعملهم، قاله ابن جبير»[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢١.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٠٤.

وقال السعدي رحمه الله: «﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي، ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم بـ «المغفرة» لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم»[(٣)].

لعظم هذه العبادة جعلها له سبحانه، ويجازي عبده بها، بخلاف غيرها من العبادات؛ فإن كل عمل ابن آدم له إلا الصيام كما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل إني امرؤ صائم)[(٤)].

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم ١٩٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم ١١٥١.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي)، (للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه)[١].

يعني: أن الصوم أحب العبادات إلي، والمقدم عندي؛ لأنه قال: (الصيام لي)، فأضافه إلى نفسه وكفى به فضلًا على سائر العبادات[٢].

وبين النبي صلى الله عليه وسلم حين طلب منه أن يرشد إلى أمر يؤخذ عنه، فأرشد إلى الصيام، وقال: (فإنه لا مثل له)، وفي رواية (لا عدل له)، كما ثبت عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: مرني بأمر آخذه عنك، قال: (عليك بالصوم؛ فإنه لا مثل له)[٣].

وفي رواية: (عليك بالصوم؛ فإنه لا عدل له)[٤].

قال المناوي رحمه الله: «عليك بالصوم أي: الزمه، فإنه لا مثل له أي: لأنه يقوي القلب والفطنة، ويزيد في الذكاء والزكاء ومكارم الأخلاق»[٥].

وقال رحمه الله: «وإذا صام المرء اعتاد قلة الأكل والشرب، وانقمعت شهواته، وانقلعت مواد الذنوب من أصلها، ودخل في الخير من كل وجه وأحاطت به الحسنات من كل جهة»[٦].

ثم إن الله سبحانه وتعالى يجازي الصائمين بالدخول من باب خاصٍ بهم في الجنة لا يدخل معهم غيرهم، باب يقال له: الريان كما ثبت في الصحيحين من حديث سهل رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (إن في الجنة بابًا يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد)[٧].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم ١١٥١.
(٢) عمدة القاري، العيني ١٠/ ٢٦٠.
(٣) أخرجه النسائي، كتاب الصيام، باب وجوب الصيام، رقم ٢٢٢٠، وأحمد في المسند، رقم ٢٢٢٧٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٠٤٣.
(٤) أخرجه النسائي، كتاب الصيام، باب وجوب الصيام، رقم ٢٢٢٢، وأحمد في المسند، رقم ٢٢١٤٩.
(٥) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ٢/ ١٣٧.
(٦) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٤/ ٣٣٠.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم،

قال النووي: «وفي هذا الحديث فضيلة الصيام، وكرامة الصائمين»[1].

وقال المناوي رحمه الله: «(إن في الجنة بابًا يقال له: الريان) بفتح الراء وشد المثناة التحتية فعلان من الري وهو باب يسقى منه الصائم شرابًا طهورا (يدخل منه) إلى الجنة، (الصائمون يوم القيامة) يعني الذين يكثرون الصوم في الدنيا (لا يدخل منه أحد غيرهم) كرر نفي دخول غيرهم تأكيدًا، (يقال) أي: تقول الملائكة بأمر الله تعالى في الموقف (أين الصائمون) المكثرون للصيام (فيقومون) أي: فينهضون إلى المنادي، فيقال لهم: ادخلوا الجنة (فيدخلون منه فإذا دخلوا) منه أي: دخل آخرهم (أغلق) بالبناء المفعول (فلم يدخل منه) بعد ذلك (أحد) عطف على أحد، أي: لم يدخل منه غير من دخل، ولا يعارضه أن جمعًا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلون من أيها شاءوا؛ لإمكان صرف مشيئة غير مكثري الصوم عن دخول باب الريان»[2].

وثبت في السنة أن الصيام يشفع لصاحبه يوم القيام كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعني فيه)، قال: (فيشفعان)[3].

فهذا بعض ما ورد في جزاء الصائمين، فحري بكل أحد أن يتعب نفسه في مرضاة ربه، ويكابد النهار ويجوع ويعطش؛ ليحصل على ما تفضل الله به على عباده الصائمين. وفق الله الجميع لطاعته ورضاه.

باب الريان للصائمين، رقم ١٨٩٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم ١١٥٢.

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ٨/ ٣٢.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ١/ ٣٢٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٦٦٢٦، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ١٨٣٩.
قال المنذري في الترغيب والترهيب: «أخرجه أحمد والطبراني في الكبير، ورجاله محتج بهم في الصحيح»، وأخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع وغيره بإسناد حسن والحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم»، انظر: الترغيب والترهيب، لعبد العظيم بن عبد القوي المنذري ٢/ ٥٠، رقم ١٤٥٥، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: «حسن صحيح»، رقم ٩٨٤.

الإعجاز التشريعي في الصيام

إن كتاب الله تبارك وتعالى جاء بشرائع الهدى لإصلاح الخلق، وإقامتهم على طريق الحق والفلاح، فلم تسم شريعة من الشرائع أن تبلغ ما في شريعة القرآن من: إحكام، ويسر، ودقة، ذلك أنها شريعة الله تبارك وتعالى التي تنطلق في تكاليفها من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده، ومراعاة مصالحهم وقدراتهم البشرية، قال جل وعلا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

فمن مظاهر التيسير ورفع الحرج عن هذه الأمة، أنه راعى للمسافر مكانته فأباح له الفطر في رمضان، والقضاء في وقت آخر، وكذلك المريض، وأباح للمرضع والحامل الفطر والقضاء فيما بعد، فكتاب الله سبحانه معجز في نظمه وبلاغته، معجز في تشريعه، معجز في كل شيء.

فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فالصوم خير لنا في دنيانا وأخرانا، خير لنا في صحتنا، وشفاء كثير من الأمراض، فصحة الأبدان من الأمراض والأسقام من عاجل ذلك الخير، ولأهمية الصيام وأثره في الطب يطلب الأطباء من المريض أحيانًا الصيام لإجراء فحص، أو لإجراء جراحة، وهناك فرق بين الصيام الشرعي والصيام الطبي، فالصيام الشرعي تقدم أنه الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية، أما بالنسبة للصيام الطبي فهو: الامتناع الكلي أو الجزئي عن تناول المأكولات والمشروبات معًا، أو عن تناول المأكولات فقط لفترة من الزمن طالت أم قصرت[1].

قال الشيخ محمد راتب النابلسي حفظه الله: «رأى العلماء أن في الصوم وقايةً وعلاجًا من أمراضٍ كثيرةٍ، فبعض الأمراض المستعصية قد يكون علاجها في الصوم؛ كالتهاب المعدة الحاد، وإقياء الحمل العنيد، وبعض أنواع داء السكري، وارتفاع التوتر الشرياني، والقصور الكلوي الحابس للملح، وخناق الصدر، والالتهابات الهضمية المزمنة، وحصيات المرارة، وبعض الأمراض الجلدية. الصوم علاجٌ لبعض الأمراض، ولكنه إذا طبق كما شرعه النبي عليه الصلاة والسلام فهو وقايةٌ من أمراضٍ كثيرةٍ. ثم إن في الصيام -كما يقرر

(١) انظر: التداوي بالصوم، شيلتون ١٩٨٧.

الأطباء- صحةً نفسيةً، وإن في الصيام رفعًا لمستوى النفس، وتعويدًا لها على الحرية من كل قيدٍ، وكل عادة رفعًا لمستوى النفس، وأفضل عادة ألا يتعود الإنسان أي عادةٍ، هذا الذي يدمن التدخين، كيف استطاع أن يقلع عنه في رمضان، إذًا في الإمكان أن يقلع عنه، وأكبر شاهدٍ على ذلك شهر الصيام.

إذًا الإنسان يقوي إرادته بالصيام، والإنسان بالصيام ينمي إخلاصه، إن الصيام عبادة الإخلاص، وإن الصيام أيضًا ينمي مشاعر الإنسان، فقد يكون الطعام والشراب متوفرًا، ولا يستطيع الإنسان أن يأكل أو يشرب منه شيئًا»[1].

وقد يكون من أوجه الإعجاز التشريعي في الصيام أن الله سبحانه شرع هذه العبادة وهو يعلم باستطاعة الناس له، فشرع لهم ما يستطيعون وكلفهم به، ويستحيل أن يكلف الله تبارك وتعالى عباده مالا طاقة لهم به، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال الإمام الرازي رحمه الله: «الله تعالى أوجب الصوم على سبيل السهولة واليسر فإنه ما أوجبه إلا في مدة قليلة من السنة ثم ذلك القليل ما أوجبه على المريض ولا على المسافر وكل ذلك رعاية لمعنى اليسر والسهولة»[2].

ومن هذا اليسر والسهولة أنه راعى أصحاب الأعذار، فأباح لهم الفطر والقضاء في أيام أخر، كل هذا رحمة بهم.

يضاف إلى ذلك أن الكفارات ومنها الصيام أخذت طابع العقاب، وذلك لمخالفة الإنسان أوامر الرحمن، ولكنها مع ذلك يؤديها الإنسان عبادةً لله تبارك وتعالى، فهي عقوبة زاجرة وجابرة، صيام شهرين متتابعين في كفارة قتل الخطأ والوقاع، وصيام ثلاثة أيام في كفارة اليمين، والصيام في بقية الكفارات فيه كلفة ومشقة على الإنسان؛ كونه عقوبة له على ما اقترف من الإثم، ومع ذلك عبادة يؤديها الإنسان، فيعيش أيام الصيام ويكون وقت أداء الكفارة بمثابة محطة يقف فيها الإنسان، فتتولد له الكثير من معاني الندم والتوبة، والله تبارك وتعالى أعلم.

ومن أوجه الإعجاز التشريعي للصيام ما يلي[3]:

١ . التخلص من السموم.

يتعرض الجسم البشري لكثير من المواد الضارة والسموم التي قد تتراكم في أنسجته، وهذه السموم تأتي للجسم عبر الغذاء الذي

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي ١/ ٧٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٥٨.

(٣) نقلاً من موقع جامعة الإيمان بالجمهورية اليمنية: بحث بعنوان: « من أوجه الإعجاز العلمي في الصيام».

يتناوله بكثرة، وتذكر بعض المراجع الطبية أن جميع الأطعمة تقريبًا في هذا الزمان تحتوي على كميات قليلة من المواد السامة، وهذه المواد تضاف إلى الطعام في أثناء إعداده، أو حفظه كالنكهات، والألوان، ومضادات الأكسدة، والمواد الحافظة، والإضافات الكيميائية للنبات أو الحيوان. هذا بالإضافة إلى السموم التي نستنشقها مع الهواء من عوادم السيارات، وغازات المصانع، وسموم الأدوية التي يتناولها الناس بغير ضابط، إلى غير ذلك من سموم الكائنات الدقيقة التي تقطن أجسامنا بأعداد تفوق الوصف والحصر، وأخيرًا مخلفات الاحتراق الداخلي للخلايا والتي تسبح في الدم كغاز ثاني أكسيد الكربون، واليوريا، والكرياتين، والأمونيا، والكبريتات، وحمض اليوريك، ومخلفات الغذاء المهضوم، والغازات السامة التي تنتج من تخمره وتعفنه مثل الأندول، والسكاتول، والفينول[1].

كل هذه السموم جعل الله سبحانه للجسم منها فرجًا ومخرجًا حيث يقوم الكبد وهو الجهاز الرئيس بتنظيف الجسم من السموم، غير أن للكبد جهدًا وطاقة محدودة وقد يعتري خلاياه بعض الخلل لأسباب مرضية أو لأسباب خلقية كتقدم السن، فيترسب جزء من هذه المواد السامة في أنسجة الجسم، وخصوصًا في المخازن الدهنية، وفي الصيام تتحول كميات هائلة من الشحوم المختزنة في الجسم إلى الكبد حتى تؤكسد وينتفع بها وتستخرج منها السموم الذائبة فيها وتزال سميتها ويتخلص منها مع نفايات الجسد.

وبما أن عمليات الهدم في الكبد في أثناء الصيام تغلب عمليات البناء في التمثيل الغذائي فإن فرصة طرح السموم المتراكمة في خلايا الجسم تزداد خلال هذه الفترة ويزداد أيضًا نشاط الخلايا الكبدية في إزالة سمية كثير من المواد السامة وهكذا يعتبر الصيام شهادة صحية لأجهزة الجسم بالسلامة.

يقول الدكتور «ماك فادون» -وهو من الأطباء العالميين الذين اهتموا بدراسة الصوم وأثره-: «إن كل إنسان يحتاج إلى الصوم وإن لم يكن مريضًا؛ لأن سموم الأغذية والأدوية تجتمع في الجسم فتجعله كالمريض وتثقله فيقل نشاطه، فإذا صام الإنسان تخلص من أعباء هذه السموم وشعر بنشاط وقوة لا عهد له بهما من قبل»[2].

٢. التخلص من الشحوم.

ترتبط السمنة بالإفراط في تناول الطعام

(١) رحلة الإيمان في جسم الإنسان، د.حامد محمد حامد ١٩٩١.

(٢) الصوم والصحة، نجيب الكيلاني ١٩٧٨.

وخصوصًا الأطعمة الغنية بالدهون هذا بالإضافة إلى أن وسائل الحياة المريحة، والسمنة مشكلة واسعة الانتشار، وقد وجد أن السمنة تقترن بزيادة خطر الأمراض القلبية الوعائية مثل قصور القلب والسكتة القلبية، ومرض الشريان التاجي، ومرض انسداد الشرايين المحيطة بالقلب.

والصيام الشرعي الإسلامي يعد النموذج الفريد للوقاية والعلاج من السمنة في آن واحد، حيث يمثل الأكل المعتدل والامتناع عنه مع النشاط والحركة عاملين مؤثرين في تخفيف الوزن، وذلك بزيادة معدل استقلاب الغذاء بعد وجبة السحور وتحريك الدهن المختزن لأكسدته في إنتاج الطاقة اللازمة بعد منتصف النهار.

وبهذا يحدث الصيام الشرعي المتمثل في الحفاظ على وجبة السحور، والاعتدال في الأكل، والحركة والنشاط في أثناء الصيام نظامًا غذائيًا ناجحًا في علاج السمنة.

٣. تجدد الخلايا.

اقتضت حكمة الله تعالى أن يحدث التغيير والتبديل في كل شيء وفق سنة ثابتة، فقد اقتضت هذه السنة في جسم الإنسان أن تتبدل محتوى خلاياه على الأقل كل ستة أشهر، وبعض الأنسجة تتجدد خلاياها في فترات قصيرة تعد بالأيام والأسابيع؛ فتهرم تلك الخلايا ثم تموت، وتنشأ أخرى جديدة تواصل مسيرة الحياة حتى يأتي أجل الإنسان.

إن عدد الخلايا التي تموت في الثانية الواحدة في جسم الإنسان يصل إلى ١٢٥ مليون خلية وأكثر من هذا العدد يتجدد يوميًا في سن النمو، ومثله في وسط العمر، ثم يقل عدد الخلايا المتجددة مع تقدم السن[١].

وبما أن الأحماض الأمينية هي التي تشكل البنية الأساسية في الخلايا ففي الصيام الشرعي الإسلامي تتجمع هذه الأحماض القادمة من الغذاء مع الأحماض الناتجة من عملية الهدم في مجمع الأحماض الأمينية في الكبد، ويحدث فيها تحول داخلي واسع النطاق؛ ليتم إعادة توزيعها بعد عملية التحول الداخلي ودمجها في جزيئات أخرى، ويصنع منها كل أنواع البروتينات الخلوية وبروتينات البلازما والهرمونات، وغير ذلك من المركبات الحيوية، وهذا يتيح لبنات جديدة للخلايا ويرفع كفاءتها الوظيفية مما يعود على الجسم البشري بالصحة والنماء والعافية.

٤. مقاومة الشيخوخة.

كشفت مجلة الطبيعة البريطانية[٢] عن

(١) يولد الطفل وعدد خلاياه تقارب ٩ مليار خلية.

(٢) مجلة الطبيعة البريطانية السبت الموافق ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٠م.

دراسة علمية تفيد أن التجويع المخطط أو الجزئي -الصيام- يؤدي إلى تنشيط الجينات المسئولة عن إفراز هرمونات تساعد الخلايا في مواجهة زحف الشيخوخة على الإنسان وتزيد من حيوية ونشاط الجسم، وأكدت نتائج هذه الدراسة أن عملية التمثيل الغذائي، وهضم الطعام تنتج مواد سامة تتلف الخلايا، وأن الإقلال من كمية الطعام والإكثار من الحركة لحرق الطاقة يحسن من الوضع الصحي ويوقف عملية الهدم، وبالتالي تزيد من إمكانية رفع متوسط العمر، وأوضحت الدراسة أن الصيام الجزئي عن الطعام والتجويع المخطط قد يؤدي إلى رد فعل يجعل الخلايا تقاوم الموت وتعيش فترة أطول، وأضافت الدراسة أن مفتاح الصحة يتمثل في الحد من الطعام «الجوع الجزئي أو المخطط» في نظام غذائي مدى الحياة بقدر الإمكان مما يؤثر إيجابيًا، ويساعد على مقاومة الشيخوخة.

فالله تبارك وتعالى أنزل إلينا كتابه وأخبرنا فيه أننا إذا صمنا فالصيام خير لنا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فالصيام خير لنا في صحتنا وخير لنا في ديننا، وخير لنا في آخرتنا.

ولم يعرف الأطباء فوائد الصيام إلا قبل فترة قصيرة، بعد أن تقدمت البحوث وتوفرت الأجهزة الدقيقة في كشف الكثير من أسرار جسم الإنسان، بينما النبي صلى الله عليه وسلم أنزل عليه القرآن الكريم يخبره بأن الصوم خير للناس، ومن تتبع سنن الرسول صلى الله عليه وسلم في الصيام يجدها تحقق حكمًا طبية دقيقة لا يعرفها إلا أهل الاختصاص والدراسات العلمية الحديثة، فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر بتقديم الفطور وتأخير السحور؛ لتنحصر مدة الصيام التي لا يصحبها ضرر على الصائم، ونهى صلى الله عليه وسلم عن الوصال الذي يسبب ضررًا على الصائمين، وندب أن يكون الفطور بتمر؛ لأن التمر يتميز بالسكر سهل الامتصاص، ويمكن الجسم من إعداد الجهاز الهضمي لاستقبال الطعام والتعامل معه بيسر وسهولة.

فمن الذي أعلم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق والأسرار العظيمة؟!

علمه ربه تبارك وتعالى القائل: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

موضوعات ذات صلة:

التقوى، الحج، الزكاة، الصبر، الصلاة، العبادة

الضر

عناصر الموضوع

مفهوم الضر	٢٣٢
الضر في الاستعمال القرآني	٢٣٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٣٤
الأساليب القرآنية في عرض الضر	٢٣٦
وسائل دفع الضر	٢٤١
آثار نزول الضر	٢٤٧

مفهوم الضر

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: الضاد والراء ثلاثة أصول، الأول: خلاف النفع، والثاني: اجتماع الشيء، والثالث: القوة[1]، والضر -بالفتح-: مصدر ضررته ضرًا، ضد النفع[2]، والضر -بالضم-: اسم ما يضر، وهو عدم الخير، وهو كل ما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال، أي: ما كان من سوء الحال والفقر والشدة والبلاء في البدن[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الضر: سوء الحال، إما في نفس؛ لقلة العلم والفضل والعفة، وإما في بدنه؛ لعدم جارحة ونقص، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤]. فهو محتمل لثلاثتها، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ﴾[يونس: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾[يونس: ١٢]. يقال: ضَر ضُرًا: جلب إليه ضُرًا.

وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]. ينبههم على قلة ما ينالهم من جهتهم، ويؤمنهم من ضرر يلحقهم نحو: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[آل عمران: ١٢٠]، و﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِم شَيْئًا﴾[المجادلة: ١٠]، ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ﴾[البقرة: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[البقرة: ١٠٢]، وقال: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾ [الحج: ١٢]، وقوله: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ [الحج: ١٣].

فالأول يعني به الضر والنفع اللذان بالقصد والارادة؛ تنبيهًا أنه لا يقصد في ذلك ضرًا ولا نفعًا؛ لكونه جمادًا، وفي الثاني يريد ما يتولد من الاستعانة به ومن عبادته، لا ما يكون منه بقصده»[4].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٦٦٣

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ١١٩

(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٣/ ٢١٠٨، الصحاح، الجوهري ٢/ ٦١٩، المخصص، ابن سيده، ٣/ ٧٠، لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٤٤.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٣-٥٠٤.

الضر في الاستعمال القرآني

ورد الجذر «ض ر ر» في القرآن الكريم (٧٤)، وتكرر لفظ «الضر» (٦٦) مرة [(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢٢	﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة:٣٩]
المصدر	٢٩	﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ [يونس:١٢]
اسم مصدر	٩	﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧]
اسم	١	﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ [النساء:٩٥]
اسم فاعل من الثلاثي	٢	﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]
مصدر من الرباعي	٢	﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة:٢٣١]
اسم فاعل من الرباعي	١	﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء:١٢]

وجاء الضر في القرآن بمعناه في اللغة وهو: سوء الحال إما في النفس، أو البدن، أو المال[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤١٩-٤٢٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ البؤس:

البؤس لغة:

الباء والهمزة والسين أصلٌ واحدٌ: وهو الشدة وما ضارعها. فالبأس: الشدة في الحرب. ورجلٌ ذو بأسٍ وبئيسٌ أي: شجاعٌ. والبؤس: الشدة في العيش. والمبتئس: المفتعل من الكراهة والحزن[١]، قال تعالى: ﴿وَالصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧].

والبؤس هو والبأس: الشدة، والقوة، والضرر، والمكروب، لكن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في الشكاية والتنكيل أكثر[٢].

وقيل: البأساء والبؤس والضراء: الزمانة في الجسد[٣]، وقيل: البأساء: الفقر والشدة، والضراء: المرض والزمانة[٤].

البؤس اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين البؤس والضر:

قيل: البؤس اسم بمعنى الشدة وهو الفقر والمسكنة، ومنه يقال: فلان في بؤس وشدة، وأما الضراء فالأقرب فيه أنه ورود المضار عليه من الآلام والأوجاع وضروب الخوف، وقيل: البأساء عبارة عن تضييق جهات الخير والمنفعة عليه، والضراء عبارة عن انفتاح جهات الشر والآفة والألم عليه[٥].

٢ الأذى:

الأذى لغة:

أذي: الهمزة والذال والياء أصلٌ واحدٌ: وهو الشيء تتكرهه ولا تقر عليه[٦]، والأذى قد يكون بالكلام أو بالفعل، قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٢٨.
(٢) الكليات، الكفوي ١/ ٢٤٩.
(٣) تفسير الصنعاني، ١/ ٦٦
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٢٤٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٣٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٩٤، وفتح القدير: الشوكاني، ١/ ١٧٣.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦/ ١٧-١٨.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٧٨.

﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالألسنة[١].

الأذى اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الضر والأذى:

الأذى: هو الألم الخفيف وهو لا يبلغ حد الضر[٢].

٣ السراء:

السراء لغة:

اليسر، والضراء: العسر، وقيل: كثرة المال وقلته[٣]، وقيل: السراء: الرخاء، والضراء: الشدة، وقيل: السراء في الحياة، والضراء بعد الموت[٤].

السراء اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الضراء والسراء:

علاقة تضاد، فالضراء ضد السراء.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٩٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٩٢.
(٣) البسيط، الواحدي ١/ ٢٣٢.
(٤) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٨١

الأساليب القرآنية في عرض الضر

عرض القرآن الكريم الضر في ثلاث صور مختلفة، وهي:

أولًا: نفي إلحاق الضر بالله تعالى:

الله تعالى منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق[1].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦-١٧٧].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢] وغيرها.

ومجمل أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أن من يريد ضر الله تعالى، فما ضر إلا نفسه، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، بأن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة من ثوابه، وخذلهم فلم يوفقهم لما وفق إليه أولياءه[2]؛ لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع[3]، وأنه غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين[4]. وقيل: هذا تهديد معناه: هم يظنون الشقاق مع الرسول، وهم به يشاقونه، وليس كذلك، بل الشقاق مع الله، فإن محمدًا رسول الله، ما عليه إلا البلاغ، فإن ضروا ضروا الرسل، لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق[5].

وبعضهم أول الآية ردًا وإنكارًا؛ لظن الخوف[6]، والكلام على حذف مضاف، والمراد أولياء الله مثلًا؛ للقرينة العقلية عليه، وفي حذف ذلك وتعليق نفي الضرر به تعالى تشريف للمؤمنين، وإيذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه وتعالى، وفي ذلك مبالغة في التسلية[7]، وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧].

يعني: إن لم تؤمنوا به فلا تنقصون من ملكه شيئًا، ويقال: إهلاككم لا ينقصه شيئًا،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٨.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٥٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٥٢، وتفسير السمعاني، ١/ ٣٦٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٢٦، والبحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٧٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٥٠.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٢.

(٦) انظر: المصدر السابق ٩/ ٨٥.

(٧) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٣٣.

إن ربي على كل شيء حفيظ[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

أي: لا تضروا الله بترك امتثال أمره بالنفير شيئًا أو لا تضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بترك نصرته والنفير معه شيئًا، ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم[2].

والكناية -في قول الحسن- راجعة إلى الله تعالى، أي: لا تضروا الله؛ لأنه غني عن العالمين، وفي قول الباقين يعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أي: لا تضروا الرسول؛ لأن الله عصمه من الناس، ولأنه تعالى لا يخذله إن تثاقلتم عنه[3].

روى مسلم بسنده عن أبي ذرٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)[4].

ثانيًا: نفي إلحاق الضرر من المخلوق للمخلوق:

الله تعالى متولٍ أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون، وليعتمدوا عليه وحده في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، وليثقوا به في تحصيل مطالبهم، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول، غير مدرك لما أمل[5].

وأنه لن يصيبنا خير ولا شر، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدة ولا رخاء، إلا ما هو مقدر علينا مكتوب عند الله، وكونه مكتوب عند الله يدل على كونه معلومًا عند الله مقضيًا به عنده، فإن ما سواه ممكن، والممكن لا يترجح إلا بترجيح الواجب، والممكنات بأسرها منتهية إلى قضائه وقدره[6].

لذا ورد نفي إلحاق الضر من المخلوق للمخلوق في آيات كثيرة، وبين الله فيها أن النفع والضر لا يحصلان إلا بمشيئته[7].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء:

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ١٢، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٦٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٥٩، روح المعاني، الألوسي، ١٠/ ٩٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٩.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦٩.
(٧) المصدر السابق ١٥/ ٦٨.

١١٣] دليلٌ على ذلك، لذا قيل: وما يضرك هؤلاء الذين هموا لك أن يزيلوك عن الحق في أمر هذا الخائن من قومه وعشيرته من شيء؛ لأن الله مثبتك ومسددك في أمورك، ومبين لك أمر من سعوا في إضلالك عن الحق في أمره، ففاضحه وإياهم، فأنت يا محمد صلى الله عليه وسلم حفظت الله فحفظك وسددك[(١)].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

قيل هو: عيسى بن مريم، أي: لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب، ولأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبأقدار الله وتمكينه، فكأنه لا يملك منه شيئًا، وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرًا ولا نفعًا، وصفة الرب أن يكون قادرًا على كل شيء لا يخرج مقدر على قدرته[(٢)].

وهذا دليل آخر على فساد قول النصارى، وهو يحتمل أنواعًا من الحجة، أن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، وكانوا أنصاره وصحابته يحبونه، فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلهًا؟![(٣)].

فإذا كان هذا عيسى بن مريم الذي وصفه قومه بالألوهية والربوبية وغيرها من الأوصاف، ما استطاع دفع الضرر عن نفسه، ولا عن غيره، فغيره أعجز من أن يلحق ضررًا بغيره، إلا بإذنه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

قيل: هذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع والضار هو الحق تعالى[(٤)].

بعد أن تبين لنا نفي إلحاق الضرر من المخلوق للمخلوق إلا بإذن الله، فلابد من الإرشاد إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار بالإتيان بالأسباب التي تدفع الضر عن المخلوقين، والتي سيأتي بيانها -إن شاء الله-؛ لأن المنفي عنه هو استطاعة المخلوق للضر، وليس نفي وقوع الضر، فوقوعه ثابت بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٢٧٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٩٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥٢-٥٣.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٧/ ١٣٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٧٥.

﴿يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠][1].

وفي الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما، فقال: (يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك فلن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[2].

ثالثًا: النهي عن إلحاق الضرر في التعامل:

١. والد المولود ووالدته.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾[البقرة: ٢٣٣].

قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره، وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ أي: بأن تدفعه عنها؛ لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالبا، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه، فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها، ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضرارا بها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله مجاهد والشعبي والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنابلة إلى وجوب نفقة

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٣٤٦، المحرر الوجيز في الكتاب العزيز، ابن عطية ١/ ٤٩٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٦٧، رقم ٢٥١٦.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣١٧، رقم ٧٩٥٧.

الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف[1]، ومن هدايات الآية: أنه عبر عن الوالد بالمولود له؛ إيماء إلى أنه الحقيق بهذا الحكم؛ لأن منافع الولد منجزة إليه، وهو لاحق به ومعتز به في القبيلة، حسب مصطلح الأمم، فهو الأجدر بإعاشته، وتقويم وسائلها[2]، وفي الآية دلالة على: «على وجوب نفقة الأقارب المعسرين، على القريب الوارث الموسر»[3].

٢. الكاتب والشهود.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

قال الطبري رحمه الله: «معنى ذلك: ولا يضار كاتب ولا شهيد، بمعنى: ولا يضارهما من استكتب هذا أو استشهد هذا بأن يأبى على هذا إلا أن يكتب له، وهو مشغول بأمر نفسه، ويأبى على هذا إلا أن يجيب إلى الشهادة وهو غير فارغ، وإنما قلنا هذا القول؛ لأن الخطاب من الله عز وجل في هذه الآية من مبتدئها إلى انقضائها على وجه افعلوا أو لا تفعلوا، إنما هو خطاب لأهل الحقوق والمكتوب بينهم الكتاب والمشهود لهم أو عليهم بالذي تداينوه بينهم من الديون، فأما ما كان من أمر أو نهي فيها لغيرهم، فإنما هو على وجه الأمر والنهي للغائب غير المخاطب كقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وكقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وما أشبه ذلك، فالواجب إذا كان المأمورون فيها مخاطبين بقوله: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾[البقرة: ٢٨٢].

أشبه منه بأن يكون مردودا على الكاتب والشهيد، ومع ذلك إن الكاتب والشهيد لو كانا هما المنهيين عن الضرار لقيل: وإن يفعلا فإنه فسوق بهما، لأنهما اثنان، وإنما غير مخاطبين بقوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ بل النهي بقوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ نهي للغائب غير المخاطب، فتوجيه الكلام إلى ما كان نظيرا لما في سياق الآية، أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلا عنه»[4].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «نهي عن المضارة، وهي تحتمل أن يكون الكاتب والشهيد مصدرًا للإضرار، أو أن يكون المكتوب له والمشهود له مصدرًا للإضرار؛ لأن (يضار) يحتمل البناء للمعلوم وللمجهول، ولعل اختيار هذه المادة هنا مقصود؛ لاحتمالها حكمين؛ ليكون الكلام موجهًا فيحمل على كلا معنييه؛ لعدم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٤١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ٥/ ١١٧.

تنافيهما، وهذا من وجه الإعجاز.

والمضارة: إدخال الضر بأن يوقع المتعاقدان الشاهدين والكاتب في الحرام والخسارة، أو ما يجر إلى العقوبة، وأن يوقع الشاهدان أحد المتعاقدين في إشاعة حق أو تعب في الإجابة إلى الشهادة. وقد أخذ فقهاؤنا من هذه الآية أحكامًا كثيرة تتفرع عن الإضرار؛ منها ركوب الشاهد من المسافة البعيدة، ومنها ترك استفساره بعد المدة الطويلة التي هي مظنة النسيان، ومنها استفساره استفسارًا يوقعه في الاضطراب، ويؤخذ منها أنه ينبغي لولاة الأمور جعل جانب من مال بيت المال لدفع مصاريف انتقال الشهود وإقامتهم في غير بلدهم وتعويض ما سينالهم من ذلك الانتقال من الخسائر المالية في إضاعة عائلاتهم، إعانة على إقامة العدل بقدر الطاقة والسعة»[1] والآية تدل على النهي عن مضارة الكاتب والشهود.

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣١٢.

وسائل دفع الضر

هناك عدة وسائل لدفع الضر في القرآن الكريم، منها:

أولًا: الالتجاء إلى الله تعالى:

يخبرنا الله تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[النحل: ٥٢].

قال ابن عباس ومجاهد: أي: دائمًا، وقيل: واجبًا، قيل: خالصًا، أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر: ٣].

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[النحل: ٥٣].

وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم، وعلموا أن كل ما يتقلبون فيه من نعمة منه سبحانه، ثم أخبر سبحانه عن طبيعة الإنسان من حيث هو، إذا مسه الضر، من مرض، أو مصيبة اجتهد في الدعاء، وسأل الله في

جميع أحواله؛ قائمًا وقاعدًا ومضجعًا، وفائدة ذكر هذه الأحوال: أن المضرور لا يزال داعيًا، ولا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها[1]، وألح في الدعاء؛ ليكشف عنه ضره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ قال ابن عباس: يريد الأسقام والأمراض والحاجة، ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ ترفعون أصواتكم إليه بالاستغاثة، يقال: جأر يجأر جئورًا [2]، ويقال: جأر الرجل إلى الله، أي: تضرع بالدعاء[3]، قال الأعشى:[4]

فطافت ثلاثًا بين يومٍ وليلةٍ وكان النكير أن تضيف وتجأرا

فذكر الله تعالى: أن الإنسان في وقت الكرب، يبتهل إلى ربه بالدعاء في جميع أحواله، فإذا فرج الله كربه، أعرض عن ذكر ربه ونسي ما كان فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣][5].

كل هذه الآيات تشير إلى لجوء الإنسان وقت الضر إلى إله واحد، أحد صمد، ولعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا هو. حتى المشركون الذين عبدوا من دون الله أصنامًا، يتوجهون إليها وقت الرخاء، إذا أصابهم الضر نسوا ما كانوا يعبدون من قبل، ورجعوا إلى الفطرة السليمة، وتضرعوا إليه تعالى؛ لعلمهم أنها لا تنفع ولا تضر، حتى فرعون الذي طغى وتجبر حين توسط البحر وعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١٧، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٢٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٢١، زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٤٥٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١١٤.
(٤) انظر: أدب الكاتب، ابن قتيبة الدينوري، ١/ ٢١٧.
ومنهم من نسبه للنابغة الجعدي، انظر: شرح أدب الكاتب، الجواليقي ١/ ٩٩.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ١٥٢، تفسير السمعاني ٢/ ٣٦٩.

﴿الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٩٠].

وكان من قبل يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[القصص: ٣٨].

وقال تعالى عنه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فوجب على الإنسان أن يكون مشغولًا بالمنعم وقت النعمة، وملتجئًا إليه في كل أوقاته.

قال القرطبي: «وهذه الحالة التي ذكرها الله تعالى لا تختص بأهل الكفر، بل تتفق لكثير من المسلمين، تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل، عند نزول ما يكرهون، وتضرعوا لرفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من المكروه، ومما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر، كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الإنسان»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧].

نموذجًا للالتجاء إلى الله وقت الشدة والضر، أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة، فذهب هاربًا فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني منكم إلا أن تدعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن، فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه[(٢)]، وهكذا الإنسان حتى الكافر، إذا ضاقت به الحيل، ولم يجد منفذًا، لجأ إلى المنفذ الحقيقي، الذي لا ينسد.

ثانيًا: اتخاذ الأسباب الواقية:

من وسائل دفع الضر:

١ . اتخاذ الأسباب الواقية قبل وقوع الضرر.

فالوقاية خير من العلاج، فكل من رزقه الله تعالى الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من قوله تعالى:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٢٩.

(٢) صححه ابن الملقن في البدر المنير ٩/ ١٥٣، وعبدالحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى ٥٤٩.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٢].

هذه الآية في وصف حال غير المؤمن، أما فالمؤمن فإنه يعرف الله في السراء والضراء، ولا تنقطع صلته بالله على أي حال كان، كما قال صلى الله عليه وسلم: (عجبًا لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن)[(١)].

فمن كان في وقت النعمة مشغولًا بالمنعم، لزم أن يكون وقت البلاء مشغولًا بالمبتلي. وإذا كان المنعم والمبتلي واحدًا كان نظره أبدًا على مطلوب واحد، وكان مطلوبه منزهًا عن التغيير مقدسًا عن التبدل، ومن كان كذلك وقت البلاء، وفي وقت النعماء، غرقًا في بحر السعادات، واصلًا إلى أقصى الكمالات[(٢)].

ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية، حتى يكون مجاب الدعوة وقت المحنة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء عند الرخاء)[(٣)].

٢. التقوى والصبر والتوكل.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

في الآية الأولى يرشدهم الله تعالى إلى السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل على الله كفاه، ثم شرع في ذكر قصة غزوة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتميز بين المؤمنين والمنافقين وبيان الصابرين[(٤)].

وقيل: فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر -وهي الصبر والتقوى- فلن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خيرٌ، رقم ٢٩٩٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٤١-٤٣.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، ٥/ ٤٦٢، رقم ٣٣٨٢.
قال الترمذي: غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٧٨، رقم ٦٢٩٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٦٨، المحرر الوجيز، ١/ ٤٩٨.

يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم؛ لأن محيط بهم علمه وقدرته، فلا منفذ لهم، ولا يخفى عليهم منهم شيء[1].

٣. الرضا بقضاء الله وقدره.

ومثاله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر[2].

إلا أن هناك من يرى أن الشكوى تقدح في الصبر، فبين العلماء أن الشكوى مع الرضا بقضاء الله لا تقدح في الصبر، وفي ذلك قيل: أليس أن الشكوى تقدح في كون أيوب صابرًا؛ لأنه قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ الآية؟.

الجواب: قال سفيان بن عيينه رحمه الله: «من شكا إلى الله تعالى فإنه لا يعد جزعًا إذا كان في شكواه راضيًا بقضاء الله؛ إذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء، ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]»[3].

واعلم أن المؤمن إذا ابتلي ببلية ومحنة وجب عليه أن يكون راضيًا بقضاء الله غير معترض بالقلب واللسان عليه، وإنما وجب عليه ذلك؛ لأن الله تعالى مالك على الإطلاق، وملك بالاستحقاق، فله أن يفعل في ملكه ما يشاء، كما يشاء، ولأنه تعالى حكيم على الإطلاق منزه عن فعل الباطل والعبث، فكل ما فعله فهو حكمة وصواب، وإذا كان كذلك فحينئذ يعلم أنه تعالى إن أبقى عليه تلك المحبة فهو عدل، وإن أزالها فهو فضل، فحينئذ عليه الصبر والسكوت وترك الغلق والاضطراب[4].

٤. إصلاح النفوس.

بفعل الخيرات ولزوم الشرع بما فيه من جهاد وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، والاستقامة على الدين، وطاعة الله وغيرها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

ذكر السمرقندي: من أسباب دفع الضر، ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: سئل عن هذه الآية فقال: إذا رأيتم شحًا مطاعًا وهوىً متبعًا ودنيا مؤثرةً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليكم بخويصة أنفسكم. وروى عمر بن جابر اللخمي عن أبي أمية قال:

(١) انظر: فتح القدير: الشوكاني، ٢/ ٨٤-٨٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٤١-٤٣.
(٤) المصدر السابق ٢٢/ ١٨١.

سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يا أبا ثعلبة ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحًا مطاعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، فإن من بعدكم أياما الصابر المتمسك يومئذ بمثل الذي أنتم عليه له كأجر خمسين عاملًا. قالوا يا رسول الله: كأجر خمسين عاملًا منهم؟ قال: لا بل كأجر خمسين عاملًا منكم)[1].

وقيل: حفظ النفس من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب[2].

وقيل: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم، فإنكم إذا أصلحتم لا يضركم من ضل عن الصراط، ولم يهتد إلى الدين القويم، إنما يضر نفسه، ولا يتم هدى الإنسان إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3].

وقال ابن زيد: معنى الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ في الاستقامة على الدين ولا يضركم ضلال الأسلاف إذا اهتديتم[4].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يقول: إذا ما أطاعني العبد فيما أمرته من الحلال والحرام فلا يضره من ضل إذا عمل بما أمرته به. وأخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس الآية: ما لم يكن سيفًا أو سوطًا[5].

ثالثًا: المصالحة والتفاهم:

وذلك بمصانعة أهل الدنيا لدنياهم، وتحب أهل الأخرة لآخرتهم، وتخفي ذنبك بينك وبين ربك فإنك إن فعلت ذلك فلا يضرك من ضل إذا اهتديت. وذلك بأن تحب من أحب الله من أحمر وأبيض، وأن تجتنب الغيب[6].

وقيل: اشتغال الإنسان بخاصة نفسه وتركه العرض لمعائب الناس والبحث عن أحوالهم، فإنهم لا يسألون عن حاله، فلا يسأل عن حالهم، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

(١) أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٣، رقم ٤٣٤١، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، ٥/ ٢٥٧، رقم ٣٠٥٨.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١٣٤٦، رقم ٢٣٤٤.
وانظر: تفسير السمر قندي، ١/ ٤٤٥-٤٤٥، معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٧٢.

(٢) البسيط، الواحدي ١/ ٣٣٨-٣٣٩، تفسير الجلالين، ص١٥٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٦.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥٠.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٢٥-١٢٢٨.

(٦) الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٢١٨.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[الأنعام: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الاسراء: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[فاطر: ١٨][1].

ومن صور المصالحة والتفاهم في الإسلام، والتي كانت سببًا لدفع الضر ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما وصل المدينة بالمصالحة مع اليهود وإبرام العهود، حتى يأمن المسلمين شرهم، واستطاع بذلك دفع ضرهم وأذاهم عن المسلمين.

آثار نزول الضر

لحوق الضرر بالإنسان له آثار ونتائج، منها:

أولًا: الإخلاص لله تعالى عند اشتداد الضر:

عند اشتداد الضر على الإنسان مسلمًا كان أو كافر، فإنه يعود إلى الله وحده كاشف الضر، فينيب ويتضرع إلى الله تعالى، وقد بين الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾[الاسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة، فذهب هاربًا، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٤٤.

وأرضاه[1].

ومعنى الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة، فأما في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علمًا لا يقدر على مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها[2].

وفي معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة، منها: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[يونس: ٢٢].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[الأنعام: ٦٣].

إلى غير ذلك من الآيات[3].

وقصة فرعون مع شدة كفره يعترف بالله ساعة الضر والهلاك ويرجع إلى فطرته، فالرجوع إلى الله تعالى من سائر الناس ساعة الكرب والشدة دليل على ما هو كامن في نفوسهم من الفطرة التي فطرهم الله عليها[4].

وخص الله الشدة في البحر بالذكر؛ لأن اليأس عند وقوع الشدة فيه أغلب. وهذه الحالة عند اشتداد الضر يستدل بها في إثبات وجود الله تعالى، ونفي الشركاء عنه تعالى، وقد ذكر الإمام الألوسي في تفسيره: «من اللطائف أن بعض الناس قال لبعض الأئمة: أثبت لي وجود الله تعالى ولا تذكر لي الجوهر والعرض. فقال: هل ركبت البحر؟ قال نعم، قال: فهل عصفت الريح؟ قال: نعم، قال: هل أشرفت بك السفينة على الغرق؟ قال: نعم، قال: يئست من نفع من في السفينة ونحوهم من المخلوقين لك وإنجائهم مما أنت فيه إياك، قال: نعم، قال: ذلك هو الله عز وجل فاستحسن ذلك»[5].

ثانيًا: بيان عجز الآلهة المزعومة عند اللجوء إليها حال الضر:

إن ما تم ذكره -سابقًا- من أن الكفار حينما يشتد عليهم الضر ينسوا آلهتهم ولا يرجعون إليها بل يرجعون إلى الإله الحق، الذي يملك النفع والضر، دليل واضح في إثبات عجز الآلهة المزعومة عن دفع ضر أو جلب نفع. وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على ذلك:

منها: ما ذكر مقارنة بين القادر الذي يخلق من العدم ثم يعيد الخلق من بعد فنائه، وبين العاجز وهو الآلهة التي يعبدونها،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٩٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٤٣.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٧١-١٧٢.
(٤) تفسير السمعاني ٣/ ٢٦١.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ١١٥.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[يونس: ٣٤].

ومنها: ما وضح الله فيه ثلاث احتمالات لإثبات عجز الآلهة.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾[الطور: ٣٥-٣٧].

والاحتمال الرابع هو أن يكون هناك خالق غير هذه المخلوقات وأن يتصف هذا الخالق بصفات لا تشبه صفات المخلوق وهو الاحتمال الصحيح.

وكذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام استطاع أن يثبت قدرة الله تعالى بإثبات عجز غيره ممن أدعى الألوهية، في ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨].

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تدل على عجز الآلهة عند اللجوء إليها في كشف الضر وبيان حقيقتها، وبطلان ألوهيتها[(١)].

فصفات الآلهة الضعف والعجز، وهي غير قادرة على الخلق، ولا تستطيع نصر نفسها ولا عابديها، لا تجيب ولا تستجيب، ولا تضر ولا تنفع، فاقدة كل الحواس، لا تملك من أمر نفسها شيئًا، كما صورها لنا سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾[الصافات: ٩١-٩٣].

وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣-٧٦].

انظر كيف استطاع سيدنا إبراهيم عليه السلام إثبات عجز الآلهة وإقامة الحجة على عابديها. كما ستتبرأ من عابديها يوم القيامة، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦].

وقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: فاطر/ ١٣-١٤.

(١) منها: المائدة / ٧٦ و الرعد / ١٦ و طه / ٨٩ و الفرقان / ٣ و النمل / ٦٤ و المؤمنون ٩١-٩٢ و الحج / ٧٣-٧٤ و النحل / ٢٠-٢١ و

١٤].

فتستحيل الألوهية لمن يتصف بهذه الصفات.

ثالثًا: المشرك يزداد طغيانًا بعد كشف الضر عنه، والمؤمن يزداد إيمانًا:

هذا إخبار عن طبيعة الإنسان، وأنه إذا مسه ضر من مرض أو مصيبة اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، ألح ليكشف الله عنه ضره. فلما كشف الضر عنه استمر في غفلته معرضًا عن ربه وكأنه ما جاءه ضر، فكشفه الله عنه[١].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

مر طاغيًا على ترك الشكر؛ لنسيانه ما دعا الله فيه وما صنع به، كما زين لهذا الكافر الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء[٢].

ذم الله تعالى من هذه صفته وطريقته فقال: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وهذه صفات الكافر في الغالب، كما ذكر ابن الجوزي: «الكافر يدعو عند البلاء ويعرض عند الرخاء، كذلك المسرفون وهم المجاوزون الحد في الكفر والمعصية في عملهم»[٣].

وقيل: يراد به المشركون الذين يرون أن للأصنام أفعالًا من الشفاء وجلب الخير ودفع الضر، فهم إذا شفاهم الله عظموا أصنامهم وأضافوا ذلك الشفاء لها[٤].

إلا أن الله استثنى من هذه الصفات الذميمة من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد من عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠-١١][٥].

قال الفراء: هذا استثناء منقطع معناه: لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم إن نالتهم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا، أولئك لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير هو الجنة[٦].

فالمؤمن يزداد إيمانًا بكشف الضر عنه، أما الكافر فيزداد طغيانًا وكفرًا، ومن ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عجبًا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضراء فصبر كان

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٩.
(٢) انظر: البسيط الواحدي، ١/ ٤٩١، معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٣٤٦.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٣.
(٤) المحرر الوجيز: ابن عطية ٣/ ٤٠١.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ١٥٢.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٧٥.

خيرًا له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له)[1].

قال الألوسي: «فذا فسره الزمخشري بقوله: إلا الذين آمنوا فإن عادتهم إذا أتتهم رحمة أن يشكروا، وإذا زالت عنهم نعمة أن يصبروا، فلذا حسنت الكناية به عن الإيمان. ودلالة «صبروا» على أن العمل الصالح شكر؛ لأنه ورد في الأثر الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، ودلالة «عملوا» على أن الصبر إيمان؛ لأنهما ضميمتان في الأكثر، أي: الإيمان والعمل: آمنوا وعملوا، فغير مطابق لما نحن فيه أن يراد وجه آخر، كأنه قيل: إلا المؤمن الصالح الصابر الشاكر»[2].

إلا أن بعض المفسرين يرى أن هذه الحالة التي ذكرها الله للداعي لا تختص بأهل الكفر وحدهم بل تتفق لكثير من المسلمين، كما نرى في أنفسنا، ونرى غيرنا، تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم، فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من مكروه، وهذا مما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر كما يشعر لفظ الناس ولفظ الإنسان[3]، وإن لم يغفلوا نهائيًا كما يغفل الكافر، إلا أنهم يقل اجتهادهم بالدعاء، كما ذكر الله تعالى، أن الإنسان وقت الكرب يبتهل بالدعاء في جميع أحواله، فإذا فرج الله كربه، أعرض عن ذكر ربه، ونسي ما كان فيه، كأنه لم يكن قط. وفيه مواضع كثيرة في القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

فكل هذه الآيات تشير إلى أن فطرة

(١) سبق تخريجه.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣١٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٢٩.

الإنسان مؤمنًا كان أو كافر عند اشتداد الضر يلجأ إلى الله تعالى، وإذا كشف الضر عنه ازداد طغيانًا وكفرًا، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنهم يزدادوا إيمانًا، خير مثال لهم قدوتنا وحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، كان يصلي حتى تتفطر قدماه شكرًا لله تعالى على نعمه[1].

موضوعات ذات صلة:

الابتلاء، الأذى، الخير، الشر، الفتنة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)، ٦/ ١٣٥، رقم ٤٨٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، ٤/ ٢١٧١،رقم ٢٨١٩.

الضعف

عناصر الموضوع

مفهوم الضعف	٢٥٤
الضعف في الاستعمال القرآني	٢٥٥
ألفاظ ذات الصلة	٢٥٦
أنواع الضعف	٢٥٧
مراعاة الضعف في الأحكام الشرعية	٢٦٢
حقوق الضعفاء بين الرعاية والنصرة	٢٦٤
الاستضعاف	٢٨٣

مفهوم الضعف

أولًا: المعنى اللغوي:

مصدر قولهم: ضعف يضعف، وهو مأخوذٌ من مادة «ض ع ف» التي تدل على خلاف القوة، يقال منه: ضَعُف فهو ضعيفٌ، والضَعْف بفتح الضاد لغة تميم، وبضمها لغة قريش، وقيل: الضُعف -بالضم- في الجسد، والضَعف -بالفتح- في الرأي والعقل[(١)].

ويقول الراغب الأصفهاني: والضعف قد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال[(٢)].

والضُعفة: ضعف الفؤاد وقلة الفطنة، ورجل مضعوفٌ ومبهوتٌ إذا كان في عقله ضعفٌ.

وأضعف الرجل: ضعفت دابته يقال هو ضعيفٌ مضعف: فالضعيف في بدنه والمضعف في دابته، وضعفه السير: أي أضعفه[(٣)]. ففي حديث خيبر: (من كان مضعفًا فليرجع)[(٤)]، أي: من كان دابته ضعيفةً[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الضعف وهن القوة حسًا أو معنى، وهو من فعل الله تعالى، كما أن القوة من فعل الله، تقول: خلقه الله ضعيفًا، أو خلقه قويًا، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٢٨].

ويكون الضعف في النفس، وفي البدن، وفي الحال. وقيل: الضعف في العقل والرأي، وبالضم في الجسم، وبالكسر بمعنى المثل[(٦)].

يقول ابن القيم: فإنه -أي الإنسان- ضعيف البنية ضعيف القوة ضعيف الإرادة ضعيف العلم ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور، فبالاضطرار لابد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين، فالهلاك أقرب إليه من نفسه[(٧)].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن معناه اللغوي، فكلاهما يدل على خلاف القوة.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٠٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٠٧.
(٣) لسان العرب ٥/ ٥٠٤.
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ٨/ ١٩٢، رقم ٧٧٩٢.
(٥) انظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ٢/ ٣٤٠.
(٦) موسوعة نضرة النعيم ١٠/ ٤٧٨٧.
(٧) طريق الهجرتين ص١٨٥.

الضعف في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ض ع ف) الدالة على الضعف في القرآن الكريم (٣٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج:٧٣]
الفعل المضارع	٢	﴿وَصَرَفَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القصص:٤]
اسم المفعول	٥	﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٢٦]
اسم تفضيل	٢	﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤﴾ [الجن:٢٤]
مصدر	٤	﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم:٥٤]
صفة مشبهة	٩	﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء:٢٨]

وجاء (الضعف) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو خلاف القوة[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٤٢٠- ٤٢١.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٦٢، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٩٥، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٠٣.

ألفاظ ذات الصلة

١ الوهن:

الوهن لغة:

مأخوذ من مادة «و هـ ن» التي تدل على الضعف. تقول منه: وهن الشيء يهن وهنًا: ضعف، وأوهنته أنا «أي أضعفته». والوهن: الضعف في العمل وفي الأشياء، وكذلك في العظم ونحوه[١].

الوهن اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي الدال على الضعف، سواء في العمل أو الأشياء.

٢ الاستكانة:

الاستكانة لغة:

مأخوذة من مادة «س ك ن» التي تدل على الخضوع والذلة، ويقال: استكان فلان، إذا خضع[٢].

الاستكانة اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي الدال على الاستسلام والخضوع والذل.

الصلة بين الضعف، والوهن، والاستكانة:

فرق الرازي بينها بأن الوهن: ضعف القلب أو الجبن، والضعف: مطلقٌ شاملٌ لكافة أنواع الضعف البدني والمادي. والاستكانة: التظاهر بالعجز[٣].

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ٢٣٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٩٧٠.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٢٥.

أنواع الضعف

يتحدث هذا العنوان عن أنواع الضعف عند الإنسان، وهو نوعان:

أولًا: الضعف الطبيعي:

كل عباد الله ضعفاء ضعفًا ذاتيًا وهو ضعف طبيعي، لقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٢٨].

والمراد بضعف الإنسان الطبيعي ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه ضعيف في أصل الخلقة. قال الحسن: هو أنه خلق من ماء مهين.

والثاني: أنه قلة الصبر على النساء.

والثالث: أنه ضعف العزم عن قهر الهوى[(١)]، فإن هواه يستميله، وشهوته وغضبه يستخفانه، وهذا أشد الضعف[(٢)].

وقال مجاهد وغيره: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه، وضعف عزمه وهمته[(٣)].

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله: «وذلك لرحمته التامة، وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك أن يخفف الله تعالى عنه ما يضعف عنه، وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته»[(٤)].

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض مظاهر هذا الضعف، والتي منها:

١. ضعف في أصل الخلقة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

إن الله تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون، ذلك لأن لعنصرى الصلصال والحمإ المسنون في خلق الإنسان وفي حياته بعد ذلك دورًا لا يمكن إغفاله، فالصلصال لا يتماسك كثيرًا، بل سرعان ما يتحطم ويتفتت، فهو هش لأنه الطين الذي جففته الشمس، فهو لا يملك خاصية المحافظة على ذاته، فسرعان ما يتفتت، فليس في شدته كالفخار الذي سوته النار، والحمأ المسنون: الطين الذي اشتد سواده وتغيرت رائحته تغيرًا مكروهًا والمسنون المصور. هاتان خصيصتان: عدم التماسك وعدم الاحتفاظ بخاصية الصلاح وطروء الفساد والتغير، وهما ملازمتان للإنسان، إلا إذا تداركه الله بعفوه ورحمته، فإنه حين ذلك يكون قويًا بعيدًا عن أن يطرأ

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٣٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٠.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٥.

عليه فساد[1].

٢. ضعف أمام الشهوات.

فالإنسان يميل بفطرته إلى حب الشهوات كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[آل عمران: ١٤].

ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه الشهوات، وهو جزء من تكوينه الأصيل، وهذا ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو[2].

والإنسان بطبعه خلق خلقًا لا يتمالك. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، وينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك)[3].

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض الصفات البشرية الدالة على الضعف، ومنها:

١. ظلوم كفار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤].

هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالمٌ متجرئ على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، كفار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله، فشكر نعمه، وعرف حق ربه، وقام به[4].

وقال تعالى في موضع آخر واصفًا الإنسان بأنه جهول: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢].

وهذا دليل على كثرة الظلم والجهالة، لا ينفك الإنسان من التخلق منها رغم كل ما وصل إليه وما سيصل إليه من حضارة وتقدم.

٢. عجول.

لقد وصف القرآن الكريم الإنسان بأنه عجول.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾[الإسراء: ١١].

والعجل هو العجلة والتسرع والسبق إلى مخاطر الأمور من غير تفكير، وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[الأنبياء: ٣٧].

هذا التعبير فيه تأكيد في عجلته، وكأنه يكون من عجلة، وهذا كناية عن استعجاله للأمور، وفيه مجاز بتشبيه في عجلته وكونها طبعًا له غير منفصل عن ذاته بأنه خلق منها طبعًا له لا تنفصل عنه[5].

فالعجلة في طبعه وتكوينه وهو يمد ببصره دائمًا إلى ما وراء اللحظة الحاضرة

(١) قصص القرآن الكريم، فضل عباس ص ١١٣.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، رقم ٣٦١١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٤٧٠.
(٥) زهرة التفاسير ٩/ ٤٨٦٤.

يريد ليتناوله بيده، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله، ويريد أن يستحضر ما يوعد به ولو كان في ذلك ضرره وإيذاؤه.

٣. يؤوس قنوط.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩].

هذه هي طبيعة الإنسان يؤوس من الخير، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه، مع أنها كانت هبة من الله تعالى له[(١)].

٤. هلوع.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩].

الهلع قلة إمساك النفس عن اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه. والهلع طبيعة كامنة فيه مع خلقه تظهر عند ابتداء شعوره بالنافع والضار فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعها البشرية. والهلع صفة غير محمودة فوصف الإنسان هنا بها لوم عليه في تقصيره عن التخلق بدفع آثارها[(٢)].

ثانيًا: ضعف طارئ:

الضعف الطارئ هو الضعف الكسبي، أي ما يكتسبه العبد من أعمال وأقوال تدل على هذا الضعف.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خيرٌ)[(٣)].

فالتفاوت في ضعف المؤمنين وقوتهم هو بسبب قبول أسباب ضعف الإيمان أو قبول أسباب قوته، فإذا سعى المؤمن في إزالة ضعفه بمقتضى الأسباب المزيلة له، توصل إلى إزالة الضعف الذي يضر به، وهو الكسبي، ولا يضره الضعف الطبيعي الوهبي، لأن ما يصل به إلى درجة الكمال هو الإقبال على ما يتحقق به كمال إيمانه. والضعف الطارئ في المؤمنين يكون على قسمين: ديني، ودنيوي.

وعموم الضعف في المؤمنين يرجع إلى ضعف في الدين وهو المعنوي، وضعف في أمور الدنيا وهو الحسي، ومن المؤمنين من يجتمع فيه الضعفان. فأما الضعف في الدين فأصنافه اثنان: فقراء طالحون وأغنياء طاغون، فهؤلاء فقراء في الدين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٩ بتصرف.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز، رقم ٢٦٦٤.

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وأما الضعفاء في الدنيا فاثنان أيضًا: فقراء صالحون وفقراء فاسدون، والفقراء المنحرفون اجتمع فيهم الضعفان أيضًا، فعن حارثة بن وهب رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر)[(١)].

قال الحافظ ابن حجر: «والمراد بالضعيف: من نفسه ضعيفة، لتواضعه وضعف حاله في الدنيا، والمستضعف: المحتقر، لخموله في الدنيا»[(٢)].

فالحديث دل على الضعف الحسي والمعنوي الممدوحين، فالضعف في الدين إذا كان بمعنى التواضع فهو ممدوح، والضعف الحسي إذا أجبر بالقوة الإيمانية فهو ممدوح. ومن الأدلة العامة في القرآن الكريم على الضعف الطارئ من حيث المعنى: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

أي: على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، فهو في قلق واضطراب فيه لا في سكون وطمأنينة، فمثله مثل الذي يكون على طرف من العسكر إن أحس بغنيمة قر وسكن، وإن كانت هزيمة فر وهام على وجهه، وهذا هو النفاق بعينه كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى في المنافقين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله.

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض مظاهر الضعف الطارئ، والتي منها:

١ . الجهل.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى على لسان نبي الله لوط عليه السلام: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب عتل بعد ذلك زنيم، رقم ٤٩١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة الجنة، باب أهل الجنة وأهل النار وعلاماتهم في الدنيا، رقم ٢٨٥٣.

(٢) فتح الباري ٨/ ٧٢٧.

٥٥].

فالجهل ضارب أطنابه على كثير من الناس، وهو فيهم بحسب قلة إقبالهم على علم الشريعة وكثرته، يقول ابن القيم رحمه الله: «أما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاءة والشح والبخل»[(١)].

٢. تمكن الشهوات والشبهات من القلوب.

قد ذكر الله تعالى هذين المرضين في كتابه، أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب، ففي قوله في حق المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾[المدثر: ٣١].

وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج: ٥٣].

فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة، وأما مرض الشهوة، ففي قوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[الأحزاب: ٣٢].

أي: لا تلن في الكلام، فيطمع الذي في قلبه فجور وزنا»[(٢)].

وقال ابن بطة: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات، مثل السفنجة، فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرًا للشبهات»[(٣)].

٣. السقوط في الفتن.

والفتنة ما يقع به اضطراب الأحوال، ومرجها وتشتت البال وهي تظهر الضعف الكامن في باطن العبد، فإذا وقعت الفتنة في أي مجتمع إيماني لا تخرج ولا تنتهي إلا بنصيبها من المؤمنين، فمنهم من تنسفه، ومنهم من تزلزله، ومنهم من تضعفه في سيره إلى الله وتمسكه بدينه.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أي: تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك

(١) المصدر السابق ١/ ٣٨٢- ٣٨٣.

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٧.

(٣) الإبانة، ابن بطة، كتاب الإيمان ١/ ٣٩٠.

ولست بالظالم لهم في تقديرك، وتهدي من تشاء ولست بالمحابي لهم في توفيقك، فأمرهم دائر بين العدل والفضل[1].

مراعاة الضعف في الأحكام الشرعية

الناظر إلى الأحكام الشرعية يجد أنها جاءت في حدود الوسع وعدم المشقة، وليس فيها تضيق ولا حرج ولها أسباب منها اختيارية كالسفر والجهل والإكراه، ومنها أسباب اضطراريه وهي ما تحصل للإنسان رغمًا عنه كالمرض والنسيان.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

هكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكاليف التي يفرضها الله عليه في خلافته للأرض، وفي ابتلائه في أثناء الخلافة، وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف ويطمئن إلى رحمة الله وعدله في هذا كله، فلا يتبرم بتكاليفه، ولا يضيق بها صدرًا، ولا يستثقلها كذلك، وهو يؤمن أن الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته، ولو لم تكن في طاقته ما فرضها عليه. فهناك أوامر ونواهي، ولكنها في حدود الوسع وعدم المشقة وليس فيها تضييق وعسر وإحراج، لقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾

(١) تفسير المراغي ٣/ ٢٨٢.

[المائدة: ٦].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

هذا الكلام يفيد النفي المؤكد بأنه ليس في الدين حرج، والمعنى: ما كان من أمر الله تعالى في عباده أن يجعل الدين عليهم فيه مشقة مجهدة أو ضيق وحرج. ومثل ذلك الآيات التي جاءت تنفي الحرج عن فئة معينة، كقوله تعالى في سورتي النور والفتح: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

ولهذا التخفيف ومراعاة الضعف في الأحكام الشرعية أسباب تنقسم إلى قسمين:

١. أسباب اختيارية: وهي التي ينشئها الإنسان باختياره كالسفر المبيح للإفطار، وقصر الصلاة، وجمعها، فإن الإنسان مخير في إنشائه، إن شاء سافر، وإن شاء لم يسافر، إلى غير ذلك من الأمور التي ذكرت في كتب الفقه ولا يتسع المقام هنا للحديث عنها.

٢. أسباب اضطرارية: وهي ما تحصل للإنسان رغمًا عنه، دون أن يكون له دخل في اختيارها، أو يحدثها بنفسه كالمرض والنسيان، وسنكتفي فيما يأتي بذكر طائفة محدودة مما أورده العلماء من التيسيرات سواء كانت في العبادات أو في غيرها: ففي حالة المرض نجد أن الشرع راعى التخفيف في كثير من العبادات منها:

- **التيسيرات في الطهارة:** رخص له في التيمم بالتراب من أجل الصلاة عند الخوف على النفس أو العضو، أو زيادة المرض أو بطء شفائه، أو حدوث شيء قبيح في عضو ظاهر، ومن ذلك تجويز المسح على الجبيرة، أو ما يغطي الجروح[1].
- **التيسيرات في الصلاة:** طلب من المريض أداءها بالكيفية التي يستطيعها، قاعدًا أو مضطجعًا أو مومئًا وجوز له التخلف عما فيه مشقة عليه، كالتخلف عن الجمعة والجماعة، مع حصول الفضيلة، والجمع بين الصلاتين.
- **التيسيرات في الصوم:** أباح له الفطر في رمضان، والخروج من المعتكف، والانتقال من الصوم إلى الإطعام في كفارتي الظهار والإفطار المتعمد في نهار رمضان، وأجاز لمن كان فيه عجز دائم كالشيخ الهرم ترك الصيام مع وجوب الفدية عليه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ

(١) الأشباه والنظائر، السيوطي ص٨٥.

طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[البقرة: ١٨٤].

- **التيسيرات في الحج:** رخص له في الاستنابة فيه، أو في بعض أفعاله كرمي الجمار، وإباحة محظورات الإحرام، كلبس الثياب، أو حلق الرأس مثلًا، مع الفدية، والتحلل على رأي، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[البقرة: ١٩٦].

- **التيسير فيما عدا العبادات:** وفيما عدا العبادات أبيح ما تدعوا إليه الضرورة أو الحاجة، مما به المحافظة على نفسه[(١)]. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٧٣].

- **التيسير في السهو والنسيان:** فهما عذران شرعيان، يسقطان المؤاخذة في بعض الحالات، رحمة بالناس ورفعًا للحرج والمشقة عنهم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(١) انظر: المصدر السابق ص٨٥.

حقوق الضعفاء بين الرعاية والنصرة

حرص الشرع الحنيف على رعاية الضعفاء والمحتاجين والدفاع عنهم ونصرتهم، سواء كانت هذه الرعاية والنصرة معنوية أو حسية، فأوصى بالصغير ورعايته من قبل أن يخرج إلى الحياة الدنيا، كما أقر أن لليتيم حقوق يجب أن تراعى، منها: الإحسان إليه، والاهتمام به من الناحية النفسية، والاجتماعية، والمالية. بل نالت اليتيمة في القرآن الكريم رعاية خاصة. فكما عالجت مشكلة اليتامى الصغيرات من الناحيتين المادية والاجتماعية شأنها في ذلك شأن اليتامى الذكور.

عالجت أيضًا مشكلة اليتيمات إذا بلغن سن الزواج. بل للنساء على وجه العموم حق الرعاية والنصرة، وللوالدين كذلك حق الرعاية والإحسان.

وأما أصحاب الضعف الطارئ كالفقراء والمساكين وغيرهم من المحتاجين لأسباب بدنية (أولو الضرر) هؤلاء ينبغي العناية بهم واحترامهم ورعايتهم؛ فدعا سبحانه وتعالى إلى مجالستهم والإحسان إليهم، والإنفاق عليهم.

بل فرض على المخالفين لأحكامه الشرعية أن يدفعوا جزءًا من مالهم عند كل مخالفة لأحكام الشريعة ككفارة عن تلك

المخالفة وحدد الشرع مسؤلية المسلم نحو هؤلاء الضعفاء فأوجب نصرتهم وعدم خذلانهم.

أولًا: رعاية الضعفاء والمحتاجين:

لقد كفل دين الإسلام جميع الحقوق لأتباعه عامة، وللضعفاء منهم خاصة، فأوجب وحث على رعاية هذه الحقوق:

١. رعاية أصحاب الضعف الطبيعي:

أولًا: رعاية حقوق الأطفال:

لما كانت مرحلة الطفولة من المراحل المهمة والأساسية في بناء شخصية الفرد إيجابًا أو سلبًا، وفقًا لما يلاقيه من اهتمام جاء الإسلام ليقرر أن لهؤلاء الأطفال حقوقًا وواجبات لابد من رعايتها والاهتمام بها، ولا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها. وهذه الحقوق التى كفلها الإسلام متعددة الجوانب:

فمنها: حقه قبل ولادته؛ لأن الدور الأكبر في رعاية وتنشئة الطفل تنشئة سليمة يتمثل في دور الوالدين، فقد حرص الإسلام على أن تنشأ الأسرة في الأساس بزوج تقي وزوجة صالحة.

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[النور: ٣٢].

ومنها: الاستبشار بالمولود عند ولادته، وذلك على نحو ما جاء في قوله تعالى عن بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

ومنها أيضًا بشارة زوجه: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١].

وقوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران: ٣٩].

وهذه البشارة للذكر والأنثى على السواء من غير تفرقة بينهما: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

ومنها: إتمام الرضاعة، والرضاعة عملية لها أثرها البعيد في التكوين الجسدي والانفعالي والاجتماعي في حياة الإنسان وليدًا ثم طفلًا، فكان على الأم أن ترضع طفلها حولين كاملين، وجعل ذلك حقًا من حقوق الطفل.

قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

ثانيًا: رعاية اليتيم:

واليتم نوعان:

١. **اليتيم الحقيقي:** ويطلق على كل من مات أبوه، ذكرًا كان أو أنثى وهو دون سن البلوغ، وبقى يتيمًا حتى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتيم.

٢. **اليتيم الحكمي:** هو الذي فقد معيله وحاميه وراعيه، ويمكن أن يقاس عليه الأطفال الذين لهم آباء على قيد الحياة لكنهم في حكم الأموات، ويمكن اعتبار أولادهم في حكم الأيتام، وفي المجتمع نماذج كثيرة من هذه الأصناف كاللقطاء، وأبناء المعاقين، والأطفال المتشردين «أبناء الشوارع»، فهم في حكم الأيتام من الناحية الفعلية، وهم بحاجة إلى الرعاية والمساعدة والنفقة كالأيتام الحقيقين.

وقد تعرضت الآيات في القرآن الكريم لبيان حقوق اليتيم ومن تدبرها وجدها مقسمة إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الإحسان إلى اليتيم والوصية به:

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾[النساء:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان:٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٢٢٠].

ورعاية اليتيم لا تقتصر على الشريعة الخاتمة بل كانت في الشرائع السابقة لشرعنا، فمن جملة بنود الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل: الإحسان إلى اليتامى.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[البقرة: ٨٣].

الثاني: الاهتمام باليتيم من الناحية النفسية والاجتماعية:

فأوصى له من يبادله العطف والحنان، والتربية الصالحة ليكون فردًا صالحًا لا تؤثر على نفسيته حياة اليتم. ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نشأ يتيمًا بين الله تعالى له بأنه قد أنعم عليه وكفله وأغناه، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٦ – ٩].

وهذه الآيات الكريمة يستنبط منها ما يحتاجه اليتيم في الحياة الاجتماعية:

- المسكن الذي يأوي إليه.
- التربية الصالحة بما تشتمل عليه من تأديب وتعليم حتى لا يقع فريسة

الضلال.

- والمال الذي ينفق عليه منه.
- المعاملة الحسنة والرفق به، وعدم إهانته وقد ذم الله تعالى أولئك الذين يهينون اليتيم ولا يكرمونه، فقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣]. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾[الفجر:١٧]

الثالث: الاهتمام باليتيم من الناحية المالية:

١. إذا كان اليتيم فقيرًا فقد شرع له موارد كثيرة يأخذ منها المال، منها: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾[البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢١٥].

وفرض الله تعالى لهم نصيبًا من الخمس مما يحصل عليه المسلمون من الغنائم التي غنموها من قتال الكفار، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١].

وفرض لهم نصيبًا من الفيء؛ وهو كل مال أخذ من الكفار من غير قتال.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[الحشر:٧].

بالإضافة إلى ما يستحقه من أموال الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٦٠].

فاليتيم الفقير يدخل في هذه الآية.

٢. أما إذا كان اليتيم غنيًا فقد حذر الله سبحانه وتعالى من أكل مال اليتامى، أو التهاون فيه، أو التضييع له.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[النساء: ٢].

ويدعو سبحانه وتعالى القومة على اليتامى، من أولياء وأوصياء أن يضعوهم دائمًا تحت التجربة والاختبار، لسياسة أموالهم، وتدبيرها بأنفسهم، وذلك بأن يشركوهم معهم في بعض التصرفات، ويطلعوهم على طرق الأخذ والعطاء بين الناس، فقال تعال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء:٦].

تحذيرًا للأولياء والأوصياء على اليتامى، من أن ينزع بهم الطمع في مال اليتيم إلى استغلاله والمبادرة باجتناء ثمرته لهم، قبل أن يخرج من أيديهم إلى أصحابه اليتامى، عند رشدهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:٦].

وحذر الله تعالى أشد الحذر من أكل أموال اليتامى بالباطل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠].

ونالت اليتيمة في القرآن الكريم رعاية خاصة: فالشريعة الإسلامية قد أولت يتامى النساء عناية كبيرة، فكما عالجت مشكلة اليتامى الصغيرات من الناحيتين المادية والاجتماعية -كما سبق بيانه- شأنها في ذلك شأن اليتامى الذكور، عالجت أيضًا مشكلة اليتيمات إذا بلغن سن الزواج، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾[النساء:٣].

والمعنى: أما وقد خفتم أيها الأوصياء على اليتامى، أن تأكلوا أموالهم بالباطل، تريدون بهذا مرضاة الله، فإن من تمام هذا الأمر أن تخافوا ظلم اليتيمات في أنفسهن، بعد أن خفتم ظلمهن في مالهن فإن كنتم على خوف من ظلمهن وتريدون أن تجنبوا أنفسكم هذا الموقف، فدعوهن لشأنهن ولا تتزوجوهن وهن في أيديكم، لا يملكون من أمرهن شيئًا، وإن لكم في غيرهن من النساء ما تشاءون مثنى وثلاث ورباع، ففي هذه التوسعة لكم في زواج أكثر من واحدة نعمة من نعم الله عليكم، ومن شكر هذه النعمة ألا تطمع أعينكم إلى اليتيمات، وما في الزواج بهن من حرج.

وعن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ قالت: ياابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن، إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة رضى الله عنها: وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾، وقوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من

النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن، إذا كن قليلات المال والجمال[1].

ومن ذلك يتضح أن اليتيمة كغيرها من النساء لها الحرية الكاملة في اختيار ما تشاء من الأزواج، ولا تمنع مهرها أو شيئًا منه كسائر النساء، إلا إذا كان ذلك عن رغبتها وإرادتها، ولا يجوز للولي أو غيره إكراهها على شيءٍ من ذلك.

ثالثًا: رعاية حقوق النساء:

إن من استقرأ كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يدرك مقاصد الإسلام في رعايته للمرأة، وعنايته واهتمامه بكافة قضاياها وعامة شئونها، وفي تقديمه الحلول الصحيحة، والمعالجات الناجحة لكافة مشاكلها الحياتية والفكرية والنفسية أن المرأة بين يدي الإسلام قسيمة الرجل، لها ما لها من الحقوق، وعليها أيضًا من الواجبات ما يلائم تكوينها وفطرتها، وذلك ما أجمله الله عز وجل في قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٢٨].

تلك هي درجة الرعاية والحياطة، ولا يتجاوزها إلى قهر النفس، وجحود الحق. وكما قرن الله سبحانه بينهما في شئون الحياة، كذلك ساوى بينهما في الإنسانية، والموالاة، وتكاليف الإيمان، وحسن المثوبة، وإدخار الأجر، وارتقاء الدرجات العلى في الجنة»[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ويقرر الإسلام الأهلية الكاملة في تصرفاتها متى بلغت الرشد، فليس لأحد أن يجبرها على ما تكره، ولا أن يكرهها على ما لا تريد، ولا أن يتصرف بغير إذنها فيما تملك، ويضفي عليها من معاني الرعاية والتكريم في كل أدوار حياتها ما هي جديرة به مستحقة له.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى)، رقم ٤٥٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى)، وقوله: (يستفتونك في النساء)، رقم ٣٠١٨.

(٢) المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، محمد المقدم ص٧٥.

﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾[النساء:١٩].

ومن أعظم حقوقها على زوجها: المعاشرة بالمعروف، ولقد كفى وشفى في الأمر بحسن المعاشرة آية جليلة جامعة، فمن ذا الذي يستمع قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩].

ثم يجفوا امرأته، أو يتسخطها بعد ذلك؟ ولقد شبه الله تعالى حسن القيام على الزوجة بحسن القيام على الوالدين، فقال تعالى في حق الوالدين: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾[لقمان:١٥].

وقال تعالى في حق الزوجات: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

قال القرطبي: أي على ما أمر الله به من حسن المعاشرة، والخطاب للجميع، إذ لكل أحدٍ عشرة، زوجًا كان أو وليًا، ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج. وذلك توفيه حقها من المهر والنفقة، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقًا في القول ولا فظًّا ولا غليظًا ولا مظهرًا ميلًا إلى غيرها، وقال ابن كثير رحمه الله في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيآتكم بحسب قدرتكم، كما تحب منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾[البقرة: ٢٢٨][1].

بل جبر خاطر المطلقة بشيء من المال تخفيفًا عن أحزانها، فقال تعالى: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢٤].

وحفظ لها حقها في التعليم، كي تكون على مستوى يجعلها تصوغ لبنات المجتمع على أكمل وجه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[التحريم: ٦].

جاء عن علي رضي الله عنه في تفسيرها: «أدبوهم، وعلموهم»[2].

وقال تعالى مخاطبًا أمهات المؤمنين رضي الله عنهن: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٤].

رابعًا: حقوق الوالدين ومراعاتهن عند الكبر:

قد كثرت وصايا القرآن الكريم والأحاديث النبوية بالأبوين كليهما إن وجدا، أو بأحدهما إن بقي منفردًا وفارقه الآخر، وذلك في حياتهما وبعد مماتهما:

- **أداء حقهما في حياتهم:**

قال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ

(١) انظر: المصدر السابق ص٣٩٥-٣٦٠.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٨٣.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣].

فإذا كان الوحدانية برًا بالخالق، فإن الإحسان إلى الوالدين برٌّ بمن جعلهم الله سببًا ماديًا في وجود الولد. والوصية بهما هي الإحسان إليهما.

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣].

وإن الأمر بالإحسان يتضمن النهي عن الإساءة. يقول صاحب تفسير المنار: «ولو لم يرد في التنزيل إلا قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ولو غير مكرر لكفى في الدلالة على عظم عناية الشرع بأمر الوالدين بما تدل عليه الصيغة والتعدية فكيف وقد قرنه بعبادته وجعله ثانيها في الوصايا وأكده بما أكده به في سورة الإسراء كما قرن شكرهما بشكره في وصية سورة لقمان فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤].

ذلك كله بأن حق الوالدين على الولد أكبر من جميع حقوق الخلق عليهم، فمن قصر في بر والديه والإحسان بهما كان فاسد الفطرة مضياعًا للحقوق كلها فلا يرجى منه خير لأحد»[(١)].

وعلى ذلك تتفق الآيات القرآنية على واجب رعاية الوالدين والإحسان إليهما، وتحريم عقوقهما، والإلزام ببرهما، وترك إغضابهما وإيذائهما، والتضييق عليهما، ولا نجد ترغيبًا في أمر خلقي في القرآن الكريم أكثر من الترغيب في بر الوالدين والأمر به، والتحذير من العقوق، الذي يأتي دائمًا بعد الأمر بعبادة الله وتحريم الشرك.

وتوالت الأحاديث النبوية الكثيرة في تأكيد الأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما، فعن أبي عبدالرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: (الصلاة على وقتها)، قلت: ثم أي؟ قال: (بر الوالدين) قلت: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)[(٢)].

فبر الوالدين أفضل حقوق الناس، وأداء فريضة الصلاة في وقتها أفضل حقوق الله، وتقدمت منزلة بر الوالدين في هذا الحديث الشريف على منزلة الجهاد في سبيل الله، الذي هو ذروة سنام الإسلام. ولضعف الأم جعلها الشرع في الترتيب بينها وبين الأب مقدمة في البر بمراتب ثلاث، والأب بعدها في المرتبة الرابعة.

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٤٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب البر والصلة، رقم ٥٩٧٠.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ - أي صحبتي- قال: (أمك)، قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثمن من؟ قال: (أبوك)[1].

والحاجة إلى الإحسان للأبوين أشد في حال الكبر والعجز أو الضعف من أي وقت آخر.

قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

قال القرطبي رحمه الله: «خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلا عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه، فذلك خص هذه الحالة بالذكر، وأيضًا: فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة، ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه، وتنتفخ أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر، وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة وهو السالم عن كل عيب»[2].

ولا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد[3].

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وعن أسماء قالت: (قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم مع أبيها، فاستفيت النبي صلى الله عليه وسلم: إن أمي قدمت وهي راغبة[4] أفأصلها؟ قال: نعم صلي أمك)[5].

وجاءت السنة النبوية مؤكدة تحريم العقوق، فعن أبي بكرة بن الحارث رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب البر والصلة، رقم ٥٩٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب في بر الوالدين وأيهما أحق بحسن الصحبة، رقم ٢٥٤٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٥٧٧.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٥٧٦.

(٤) راغبة: أي طامعة في برى تسألني شيئًا. انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٢/ ٢٣٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم ٣١٨٣.

وسلم: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا؟ قلنا: بلى يارسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين. وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[1].

فجاء العقوق في ترتيب الجرائم بعد الشرك بالله عز وجل فكما أن بر الوالدين جاء بعد الأمر بالتوحيد في أعمال البر، فكذلك ففي المقابل جاء النهي عن العقوق وبيان خطره بعد النهي عن الشرك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف: من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة)[2].

أي: التصق بالرغام وهو التراب، وهو دعاء عليه بالذل والفقر، ودليل على أن عقوق الوالدين أو إيذاءهما أو ضربهما من الكبائر الموجبة لدخول النار.

❁ حقوق في الدنيا ومستمرة بعد الممات:

قد جعل الإسلام البر والإحسان إلى الوالدين موصولًا بعد مماتهم أيضًا وهذا لعظم حقهما، فمن ذلك: الاستغفار للوالدين وطلب الرحمة لهما في حياتهما وبعد الممات، فهذا نبي الله نوح عليه السلام يدعو ربه قائلًا: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[نوح: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[الإسراء: ٢٤].

فأمر الله عز وجل الأبناء بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك وترفق بهما كما رفقا بك[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: أو ولد صالح يدعو له)[4].

❁ حقوق بعد الممات:

ومن ذلك: أداء الدين الذي عليهما، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: (نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء)[5].

ومن ذلك: الصدقة الجارية، فالصدقة

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم ٥٩٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أكبر الكبائر الإشراك بالله، رقم ٨٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة، رقم ٢٥٥١.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٥٨٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوقف، باب ما يلحق الإنسان ثوابه بعده، رقم ١٦٣١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت والرجل يحج عن المرأة، رقم ١٨٥٢.

عن الميت يصل ثوابها إليه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلًا[1] قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أمه توفيت أينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: (نعم)، قال: فإني لي مخرافًا، فأنا أشهدك أني قد تصدقت به عنها[2].

ومن ذلك: الصوم عنهما، فيجوز الصيام عنهما إذا ماتا وعليهما صيام، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يارسول الله، إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: (أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدي ذلك عنها؟) قالت: نعم، قال: (فصومي عن أمك)[3].

ومن ذلك: الحج والعمرة عن الوالدين، فيستحب الحج والعمرة عن الوالدين إذا ماتا أو كانا كبيرين لا يستطيعان الحج، فعن أبي رزين أنه قال: يارسول الله، إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن، قال: (احجج عن أبيك واعتمر)[4].

(١) في بعض الروايات عند البخاري رقم ٢٧٦٢: أن هذا الرجل هو سعد بن عبادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضًا ولم يبين الحدود فهو جائز، رقم ٢٧٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم ١٩٥٢.

(٤) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب المناسك، باب الرجل يحج عنه غيره، ٢/ ١٦٢، رقم ١٨١٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٩٩، رقم ١٨٨.

٢. حقوق أصحاب الضعف الطارئ:

أولًا: الفقراء والمساكين وغيرهم من المحتاجين:

الفقير من لا مال له ولا كسب يقع موقعًا من حاجته، من الفقار كأنه أصيب فقاره، والمسكين من له مال أو كسب لا يكفيه، من السكون كأن العجز أسكنه[5].

وهؤلاء الفقراء والمساكين ومن شابههم من المحتاجين كالسائل وابن السبيل والغارمين طائفة من الناس ينبغي العناية بهم واحترامهم ورعايتهم، حتى لا يتحولوا عالة على الناس أو ضررًا على الأمة أو تنشأ عقدة في نفوسهم، كما ينبغي أن يشعروا أنهم مثل غيرهم من الأفراد، لذا توالت الوصايا القرآنية والنبوية في حقهم: فبين سبحانه وتعالى أن هذه الرعاية لهؤلاء الفقراء والمساكين تقوم على أن المال مال الله، وأن العباد مستخلفون فيه، أعطاه الله لهم.

قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[الحديد:٧].

وذكر سبحانه وتعالى أنه هو الذي يبسط الرزق على من يشاء ويضيق على من يشاء:

(٥) التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٦١٢.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ: ٣٦].

لذا يجب عليهم الالتزام بأوامر وتوجيهات المالك الأصلي للمال الموزع للأرزاق بعلمه وقدرته. فدعا سبحانه وتعالى إلى الجلوس معهم ورعايتهم وملاطفتهم، فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف: ٢٨].

وفرض الله عز وجل الزكاة وفاء بحاجات المحتاجين، وتحقيقًا لمصالح المجتمع، والزكاة مورد مالي ضخم حيث تعتبر من أهم موارد الدخل للفقراء والمساكين والمحتاجين من أصحاب الديون وغيرهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[الذاريات: ١٩].

ومن شأن اعتبار ذلك حقًا وليس منة أن لا يحس الفقراء والمساكين بالعار عندما يأخذون الصدقات من الأغنياء لأنهم بنص القرآن يأخذون حقهم مثل الشريك يأخذ حقه في الربح من شركه. وكذلك عند قسمة الميراث إذا حضر القسمة الأقارب والفقراء والمساكين الذين لا حظ لهم في الميراث ولا مال لهم، فطيب خاطرهم بجزءٍ من المال أو جزءٍ التركة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[النساء: ٨].

ولم يكتف التشريع القرآني بفرض حقوق مالية للفقراء والمساكين في أموال الأغنياء فحسب، بل فرض على المخالفين لأحكامه الشرعية أن يدفعوا جزءًا من مالهم عند كل مخالفة لأحكام الشريعة حدد لها كفارة تكفيرًا عن تلك المخالفة، من ذلك:كفارة اليمين.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾[المائدة:٨٩].

ومنها: كفارة الظهار، قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[المجادلة:٤].

ومنها: كفارة التمتع في الحج، قال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[البقرة: ١٩٦].

ومنها: كفارة قتل الصيد في الحج، قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ

﴿صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾[المائدة: ٩٥].

وشرع تبارك وتعالى الفدية لمن لم يتمكن من العباد المكلفين من القيام ببعض ما افترض الله عليهم أو لمن لا يتمكن من أدائه على الوجه الأكمل، فقد أباح لهم الفطر ورخصة لهم مقابل فدية.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٤].

وشرع لهم الأضاحي والهدى فقال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[الحج: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾[الحج: ٣٦].

أي: الفقير الذي لا يسأل تقنعًا، وتعففًا، والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيهما[1].

وشرع لهم الحقوق التطوعية من الأموال، كالصدقات في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:٢٧١].

وفي الغنيمة للفقراء والمساكين، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١].

وفي الفيء في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[الحشر:٧].

وفي النفقات والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٥].

وجعل من أسباب المغفرة، الإنفاق على الضعفاء من اليتامى والمساكين، فقال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[البلد:١١-١٨].

وذكر تعالى أنه يسلط عقوبته في الحياة الدنيا على من منع إعطاء حق المساكين والفقراء، فقال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٨٥.

﴿٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ٢٤ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[القلم:١٧-٢٧].

وقد ذم الكفار لاتصافهم بترك إطعام المسكين ترهيبًا لمن يحذو حذوهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[الحاقة: ٣٣-٣٤].

وذكر أن من ترك الإنفاق عليهم والاهتمام بإطعامهم، من أوصاف أهل النار، فقال تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[المدثر: ٣٩-٤٤].

ثانيًا: الضعفاء لأسباب بدنية (أولوا الضرر):

لا شك أن منزلة ذوي الاحتياجات الخاصة من مبادئ الإسلام كسائر ما ينزل بساحة الفرد أو الجماعة من المسلمين من إبتلاء، وبمقتضى العقيدة الإسلامية ينبغي استقباله على أنه قدر الله عز وجل المكتوب في الأزل لا راد له إلا هو.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقد أولى الإسلام ذوي الاحتياجات الخاصة عناية فائقة، وراعي ظروفهم واعتني بشئونهم، وأوجب عليهم من العطف واللطف مالم يفعله مع غيرهم، فجعل لهم أسس لمعاملتهم، وطرق الإنفاق عليهم، كما يتجلى ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية، نذكر منها:

- **على المستوى النفسي:**

فقد اهتم الإسلام بهذا الجانب اهتمامًا كبيرًا فحفظ لهم هذا الاعتبار الأدبي في أحكام الشرع ما ورد من النهي عن السخرية من الآخرين والتنابز بالألقاب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾[الحجرات: ١١].

والتنابز بالألقاب: هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعم الله تعالى بنهيه ذلك ولم يخصص به بعض الألقاب دون بعض، فغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه، أو صفة يكرهها[1].

ولا شك أن مناداة صاحب الاحتياجات الخاصة بها من أكره الأشياء إلى قلبه.

- **على المستوى البدني:**

(١) سيول النفحات في تفسير سورة الحجرات، محمد ضيف الله ص٦٦.

لقد وضع الإسلام عن ذوي الاحتياجات الخاصة كثيرًا من التكاليف وخفف عنهم في أخرى، كما دلت على ذلك أحكام كثيرة وشواهد عديدة، كسبب نزول قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥].

فعن سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٩٥].

فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي قال: يارسول الله، والله لو استطيع الجهاد لجاهدت-وكان أعمى- فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾[1].

ومعنى الآية الكريمة: لا يعتدل المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الإيمان بالله وبرسوله، المؤثرون الدعة والخفض والقعود في منازلهم على مقاساة حزونة الأسفار والسير في الأرض، ومشقة ملاقاة أعداء الله بجهادهم في ذات الله، وقتالهم في طاعة الله، إلا أهل العذر منهم بذهاب أبصارهم، وغير ذلك من العلل التي لا سبيل لأهلها - للضرر الذي بهم- إلى قتالهم وجهادهم في سبيل الله[2].

وخفف الشارع الحكيم عليهم من بعض التكاليف الشرعية بما يوافق حالهم ويناسب ضعفهم ويتماشى مع إعاقتهم أو إصابتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

ومعنى الآية: ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلة في تكوينهم، أو لشيخوخة تقعدهم، ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد، ولا على المعدمين الذين لا يجدون ما يتزودون به ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة في الميدان، وقلوبهم مخلصة لله ورسوله، لا يغشون ولا يخدعون، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه-دون القتال- من حراسة أو صيانة أو قيام على النساء والذرية في دار الإسلام، أو أعمال أخرى تعود

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (لا يستوي القاعدون من المؤمنين)، رقم ٤٥٩٢.

(٢) التسهيل لتأويل التنزيل، سورة النساء، مصطفى بن العدوي ٢/ ٢١٨.

بالنفع على المسلمين. ليس عليهم جناح، وهم يحسنون بقدر ما يستطيعون. وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[الفتح: ١٧].

فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد، والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ.

❁ وعلى المستوى الاجتماعي:

وكفى بهذه المكانة الاجتماعية لذوي الاحتياجات الخاصة من خلال حدث مهم سجله القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾[عبس: ١-١٠].

سبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ويتعلم منه، وهو عبدالله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم رجل من الأغنياء، وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على هداية الخلق، فمال صلى الله عليه وسلم، وأصغى إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغنى، وطمعًا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف[1].

ومن المستوى الاجتماعي أيضًا: الدمج والانسجام في المجتمع، فقد حرص الإسلام على الانسجام الاجتماعي من جهة ودمج ذوي الاحتياجات الخاصة في النسيج الاجتماعي.

وهذا ما أكد عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١].

والمعنى: أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى، لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك ولا مع الأعرج، لأنه لا يتمكن من الجلوس، فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك. قال الضحاك: كانوا قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذرًا وتعززًا ولئلا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٥٤.

الآية[1].

❁ على المستوى المادي:

فلهم في أموال القادرين حق معلوم يحقق لهم كفايتهم فيكفل لهم مستوى العيش الكريم بتوفير الغذاء والكساء والمسكن والدواء.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[المعارج: ٢٤-٢٥].

ثانيًا: نصرة الضعفاء والمحتاجين:

النصرة في الدين من الإيمان بالله عز وجل، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠].

ونصرة الضعفاء والمحتاجين من الإيمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

بل عقد الله تعالى بينهم وبين هؤلاء الضعفاء عقد موالاة ومحبة فقال: ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢].

والولاية هي المحبة والمودة والمناصرة، فلقد اهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بالضعفاء من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وذوي الاحتياجات الخاصة، وحدد الدين الإسلامي مسئولية المسلم نحو مجتمعه وأكد على كرامة الفرد واحترامه وإعطاء كل ذي حق حقه، وأوجب نصرته وعدم خذلانه، لأن ترك النصرة والإعانة شيء شنيع، فلابد من نصرة المسلم للمسلم، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا)[2].

والمعنى: إذا كان مظلومًا أن تأخذ له بحقه، وإذا كان ظالمًا أن تأخذ له من نفسه، وأن تأخذ على يديه، والنصرة هي الإعانة.

وقد أمر الشارع الحكيم بنصرة الضعفاء والمحتاجين وإعطائهم حقوقهم ويكون ذلك بأمور:

منها: الدفاع عنهم وعدم تركهم مع من يؤذيهم: لقوله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا -ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه)[3].

أي: لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه، وهذا أخص من ترك الظلم، وقد يكون واجبًا وقد يكون مندوبًا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الظلم، باب لينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، رقم ٢٥٨٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم ٢٤٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، رقم ٢٥٦٤.

بحسب اختلاف الأحوال[1].

ويتجلى رقى الإسلام ونصرته للضعفاء في الحفاظ على كرامة الخادم وعدم إهانته وتوفير مقومات الحياة الكريمة له، وتوفير كل أشكال الحماية لهم من الذين قد يدفعهم المال أو المنصب أو السلطان إلى ظلم عباد الله والإساءة إليهم.

وقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في التعامل معهم واحترام مشاعرهم، وهذا أنس رضي الله عنه يحدثنا عن رحمته وشفقته بالخدم، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا. فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت حتى أمر على صبيانٍ وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: ياأنيس أذهبت حيث أمرتك؟ قلت: نعم، أنا أذهب يارسول الله. قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيءٍ صنعته: لم فعلت كذا وكذا؟ أو لشيءٍ تركته: هلا فعلت كذا وكذا)[2].

ومنها: ستر عيوبهم وقضاء حوائجهم وتنفيس كرباتهم: بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجزاء من جنس العمل فذكر فضل إعانة المؤمن أخاه المؤمن في الدنيا، وكذلك فضل تفريج كربه، وستر عيبه.

قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[النساء: ٨٥].

والشفاعة الحسنة: أن توصل الخير إلى الغير، وأن تسعى في قضاء حوائجهم دون أن يأخذوا ما ليس بحقهم، أو أن يعتدوا على حق الغير.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يستر عبدٌ عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة)[3].

وعنه أيضًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نفس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥/١٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب استخدام اليتيم في السفر والحضر إذا كان صلاحًا له، رقم ٢٧٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل النبي صلى الله عليه وسلم باب كان النبي صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقًا، رقم ٢٣٠٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب الستر على العبد، رقم ٢٥٩٠.

العبد ما كان العبد في عون أخيه)[1].

ومنها: تفعيل دور وسائل الإعلام في رعاية الضعفاء والمحتاجين ونشر قضياهم، والدعوة لنصرتهم وإعانتهم وذلك من خلال توجيه الناس بعدم التحقير والتقليل من شأنهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم)[2].

والقيام بذكر قضاياهم وإشهار حقوقهم وتبيين المظالم التي وقعت عليهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨].

وما كان النبي صلى الله عليه وسلم يترك أحدًا من أصحابه قريبًا أو بعيدًا إلا ونصره، روي البخاري بسنده، أن أنس ابن مالك حدث (أن الربيع وهي ابنة النضر-وهي عمة أنس- كسرت ثنية جارية، فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الأرش فأبوا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلا القصاص، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص.

فقال أنس بن النضر: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أنس كتاب الله القصاص).

فرضي القوم فعفوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره)[3].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب الاجتماع على تلاوة كتاب الله، رقم ٢٦٩٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، رقم ٢٥٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب السن بالسن، رقم ٦٨٩٤.

الاستضعاف

أولًا: أسباب الاستضعاف:

١. قلة العدد.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الأنفال: ٢٦].

صور الله سبحانه وتعالى الحال فقال: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ أي: عدد قليل فإن الإسلام إذ نشأ كان عدد المسلمين قليلًا، وكان المشركون يستذلونهم، ويستضعفونهم، ويؤذونهم، مرة بالسخرية والاستهزاء، ومرة بالضرب والأذى، ومرة بوضع الحجر المحمي على ظهورهم، حتى كانوا يضطروهم إلى أن ينطقوا بكلمة الكفر، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، ولم يسلم النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى، حتى إنه ليرمي عليه فرث الجزور وهو يصلي، ومع هذا الاستضعاف في الأرض غير مستقرين في أنفسهم وأموالهم فهم في خوف وفزع واضطراب، ولذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾.

والتخطف معناه: سلبهم أو سلب أموالهم سريعًا من غير تلبث، والتخطف هو موضع الخوف، ولا يكون معه استقرار أبدًا، فلا يأمن التاجر، ولا العامل، ولا الزارع، لا على ماله، ولا على نفسه[(١)].

وجاء ذلك في أقوال بعض التابعين، فقد روي عن قتادة السدوسي في هذه الآية أنه قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا، وأشقاها عيشًا، وأجوعها بطونًا، وأعراها جلودًا، وأبينها ضلالًا، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات منهم زوي في النار. يؤكلون، ولا يأكلون، والله ما نعلم من حاضر أهل يومئذ من كانوا شرًا منزلًا منهم حتى جاء الإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم ملوكًا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمة، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله[(٢)].

وفي هذه الآية من العبرة: التي يجب على المؤمنين أن يتذكروها أنه أورث من اهتدى بهديه سعادة الدنيا وبسطة السلطان ومكن لأهله في الأرض وأنالهم ما لم يكونوا يرجونه لولا هدى الدين، وأورثهم في الآخرة فوزًا ورضوانًا من ربهم وروحًا وريحانًا وجنة نعيم هذا حين كانوا يعملون بهديه فلما أعرضوا عنه ونأوا بجانبهم عاقبهم الله بما جرت به سننه في الأرض

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣١٠٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣٠.

فأضاعوا ملكهم وسلط عليهم أعداءهم، فليعتبر المسلمون بما حل بهم، وليرجعوا إلى تاريخ أسلافهم، وليستضيئوا بنورهم وليثوبوا إلى رشدهم، لعله يعيد إليهم تراثهم الغابر وعزهم الماضي: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف:١٢٨][1].

وبسبب جهل المسلمين بدينهم وبعدهم عنه، يمروا هذه الأيام بمرحلة استضعاف رهيبة غير معهودة في سالف عصورهم، فقد تسلط عليهم الأعداء في جميع المجالات، ولم يعد لهم هيبة في أعين أعدائهم، وما ذلك إلا بسبب الذنوب والمعاصي التي طغت على المجتمعات الإسلامية فأورثتها المذلة أمام الأعداء، وعدم العمل بالشريعة الإسلامية وتحكيمها على مستوى الفرد والمجتمع.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أو من قلة يارسول الله؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يارسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)[2].

٢. الاختلاف والتفرق.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[الشورى: ١٣-١٥].

أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرقة، وأخبرهم أنهم ينبغي لهم أن لا يغتروا بما أنزل الله عليهم من الكتاب. فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيًا وعدوانًا منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف فاحذروا أيها المسلمون أن

(١) تفسير المراغي ٣/ ٣٤٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٣٣١، رقم ٨٧١٣، وأبوداود في سننه، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، ٤/ ١١١، رقم ٤٢٩٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٦٤٧، رقم ٩٥٨.

تكونوا مثلهم[1].

فالإسلام أمر بالوحدة والالتئام ومنع التفرق والانقسام لأن التفرق والانقسام يؤدي إلى التصدع والانفصام لذلك فهو يرفض التحزب والانشطار في قلب الأمة المحمدية الواحدة. ولهذا فقد ذم الله عز وجل الفرقة ونهى عنها في أكثر من موضع في كتابه؛ لأنها سببًا في تمزيق وحدة الأمة المسلمة فيستضعفها أعدائها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[الأنعام: ١٥٩].

فنجد أن المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا أهل الكتاب والمراد بجعل الرسول صلى الله عليه وسلم بريئًا منهم تحذير أمته من مثل فعلهم ليعلم أن من فعل فعلهم من هذه الأمة فالرسول صلى الله عليه وسلم برئ منهم بالأولى، فهذه الآية «عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه قد برأ رسوله مما هم فيه»[2].

كما أن الاختلاف والتنازع مدعاة للفشل وهو الخيبة والنكول عن إمضاء الأمر وأكبر أسبابه الضعف والجبن، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال: ٤٦].

وأما قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فمعناه تذهب قوتكم وترتخي أعصاب شدتكم فيظهر عدوكم عليكم. والريح في اللغة الهواء المتحرك وهي مؤنثة وقد تذكر بمعنى الهواء وتستعار للقوة والغلبة إذ لا يوجد في الأجسام أقوى منها فإنها تهيج البحار وتقتلع أكبر الأشجار وتهدم الدور والقلاع.

وقال الأخفش وغيره تستعار للدولة لشبهها بها في نفوذ أمرها. ويقولون هبت «رياح فلان» إذا دالت له الدولة وجرى أمره على ما يريد كما يقولون ركدت ريحه أو رياحه إذا ضعف أمره وولت دولته[3].

وبين سبحانه وتعالى أن الاختلاف والتفرق سببًا في تسليط الأقوياء على الضعفاء، فقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

أي: وفرقهم فرقًا مختلفة، وأحزابًا متعددة، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء، كيلا يتفقوا على أمر ولا يجمعوا على رأي، ويشتغل بعضهم بالكيد لبعض، وبذا يلين

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٧٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٧٧.

(٣) المصدر السابق ١٠/ ٢٠.

له قيادهم، ولا يصعب عليه خضوعهم واستسلامهم، وتلك هي سياسة الدول الكبرى في العصر الحاضر، وذلك هو دستورها في حكمها لمستعمراتها، وقد نقش حكامها في صدورهم ذلك الدستور الذي ساروا عليه «فرق تسد» وطالما أجدى عليهم في سياسة تلك البلاد، التي يعمها الجهل ويطغى على أهلها حب الظهور. ويرضون بالنفاية والقشور[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣].

فالإسلام يأمر باتحاد وإتفاق كل قوم تضمهم أرض وتحكمهم الشريعة على الخير والمصلحة فيها، وإن اختلفت أديانهم وأجناسهم، ويأمر مع ذلك باتفاق أوسع، وهو الاعتصام بحبل الله بين جميع الأقوام والأجناس لتتحقق بذلك الأخوة في الله، ولذلك قال بعد الأمر بالاعتصام والاجتماع والنهي عن التفرق: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران: ١٠٣].

يشير إلى ما كان عليه المؤمنون في عصر التنزيل من أخوة الإيمان التي بها قاسم الأنصار والمهاجرين أموالهم وديارهم وبها كانوا يؤثرون بعضهم بعضًا بالشيء على نفسه، وهو في خصاصة وحاجة شديدة إلى ذلك الشيء. بعدما كان بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء وتسافك الدماء ما هو معروف في جملته، ومنها أن الحروب تطاولت بين الأوس والخزرج مئة وعشرين سنة حتى أطفأها الإسلام، وألف الله بين قلوبهم برسوله صلى الله عليه وسلم. فصاروا بهذه الألفة أسعد الناس، ثم صاروا سادات الأرض وأنقذهم بذلك من النار فكانوا به سعداء الدارين والفائزين بالحسنيين[2].

والتفرق والاختلاف قسمان:

الأول: هو الخلاف في الفهم والرأي ولا مفر منه لأنه مما فطر عليه البشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

فاستواء الناس في العقول والأفهام مما لا سبيل إليه ولا مطمع فيه إذ هو من قبيل الحب والبغض، فالأخوة الأشقاء في البيت الواحد تختلف أفهامهم في الشيء، كما يختلف حبهم له وميلهم إليه.

الثاني: هو الافتراق في الدين وذهاب أهله مذاهب تجعلهم شيعًا تتحكم فيهم الأهواء، وهو أشد الأشياء ضررًا في البشر

(١) تفسير المراغي ٧/ ١١٨.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٩٨٥.

لأنه يطمس أعلام الهداية التي يلجأ إليها في إزالة المضار التي في النوع الأول من الخلاف. هذا النوع من الخلاف هو الذي ذلت به الأمم بعد عزها، وهوت بعد رفعتها وضعفت بعد قوتها كما حصل من الفرق الإسلامية[1].

ولافتراق هذه الأمة في دينها وما تبعه من ضعفها في دنياها أربعة أسباب كلية:

١. السياسية والتنازع على الملك.
٢. عصبية الجنس والنسب.
٣. عصبية المذاهب في الأصول والفروع.
٤. القول في دين الله بالرأي.

وهناك سبب خامس قد دخل في كل منها وهو دسائس أعداء هذا الدين وكيدهم له.

٣. الضعف المعنوي.

عموم الضعف في المؤمنين يرجع إلى ضعف الدين وهو الضعف المعنوي، الذي يجعل صاحبه يرضى بالذل والقعود، يفر من حياة العز والكبرياء ويقبل حياة الذل والخنوع، ولقد وصفهم سبحانه وتعالى في كتابه بأنهم ظالمي أنفسهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

فهذا هو الجواب على السؤال السابق: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين. ولاحظ أن المستضعفين لا يعتذرون يومئذ إلى الملائكة بـ «الضعف»، وإنما يعتذرون بالاستضعاف. والسبب واضح، فلم يجعل الله تعالى في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ضعيفًا وقويًا، وإنما الإنسان هو الذي يأذن للآخرين أن يستدرجوه إلى الضعف، ويسلبوه إرادته وقوته وصموده وكفاءاته وإمكاناته، فيكون مستضعفًا. ليس في النظام الاجتماعي ضعف وقوة، ولكن في هذا النظام استضعافًا واستكبارًا، وأحدهما يستدعي الآخر. من كل ذلك تحولوا إلى كتلة عائمة تطيع وتتبع من غير نقاش ولا مراجعة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى حكاية عن فرعون وقومه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وهكذا نجد أن الاستكبار يؤدي إلى الاستضعاف، والاستضعاف يؤدي إلى الاستكبار. وهؤلاء المستضعفون عذابهم كبير وأليم لأن جريمتهم هي تمكين المجرمين من أنفسهم ومن المؤمنين، ولولا رضوخهم للظلم لم يتمكن الظالمون من ظلم المستضعفين واستضعافهم وإذلالهم.

وهذا وصف آخر للمستضعفين حال تخاذلهم عند لقاء العدو بحجة الضعف، فقال تعالى حكاية عن بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٩٨٦- ٩٨٧.

﴿فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢].

والمعنى: أن موسى عليه السلام لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة أمرهم بدخولها مستعدين لقتال من يقاتلهم من أهلها وأنهم لما غلب عليهم من الضعف والذل باضطهاد المصرين لهم وظلمهم إياهم، أبوا وتمردوا واعتذروا بضعفهم وقوة أهل تلك البلاد[(١)].

ومن هذا يتضح لنا: «أن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد، وتساس بالظلم والاضطهاد، تفسد أخلاقها، وتذل نفوسها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة، وتألف الخضوع، وتأنس بالمهانة والخنوع، وإذا طال عليها أمد الظلم، تصير هذه الأخلاق موروثة مكتسبة، حتى تكون كالغرائز الفطرية، والطبائع الخلقية، وهذا شأن البشر في كل ما يألفونه ويجرون عليه من خير وشر، وإيمان وكفر»[(٢)].

وهذا الضعف المعنوي يخالف القضايا التي حرص الإسلام على تأصيلها في نفوس المسلمين أينما كانوا وهي القوة المعنوية حيث وجه الإسلام المسلمين إلى ضرورة أن يبقوا محافظين على هذا الأمر، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

٤. الرق.

الأصل في الإنسان الحرية، وكان وقوع الرق في التاريخ البشري خروجًا عن هذه القاعدة، وكان لأحوال عارضة وقعت نتيجةً لكثير من التقلبات التي تعرض لها الإنسان من حروب سواء كانت عادلة أو ظالمة، أو كوارث طبيعية، أو عدوان من الإنسان على الإنسان، أو استغلال لحالة ضعف يمر بها، وإذا نظرنا في أسباب الرق في البيئات التي ظهرت فيها في صور من الظلم المباشر كبيع الحر أو قهر إنسان للتغلب عليه، أو استغلال حالة ضعف يمر بها كدينٍ يرهقه، ويعجز عن الوفاء به، أو جريمة يرتكبها كسرقة أو قتل إذا لم يقتل، أو يلتقط التقاطًا فيقع تحت حكم غيره: إما أن يرمه، أو يسترقه لنفسه، أو يبيعه لغيره.

وقد كشف القرآن الكريم عن بعض هذه الأساليب من خلال ما جرى ليوسف عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ١٩-٢٠].

وما أجراه على أخيه في الظاهر حسب

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٤٦.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٢٤٩.

القوانين التي كانت سائدة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[يوسف: ٢١].

وما أجراه على أخيه في الظاهر حسب القوانين التي كانت سائدة: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يوسف: ٧٥][1].

وأيضًا ما حدث لسلمان الفارسي رضي الله عنه حين شغل الرق حينًا من الزمن، فقد كان مولى أحد الوجهاء، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأشار عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يكاتب سيده، فكاتبه على ثلاثمائة نخلة يغرسها له وأربعين أوقية من ذهب.

ومن هذه المعاني السابقة يتبين أن الرق حالة حكمية تضرب على الرقيق فتحول بينه وبين كمال أهليته لا إزالة أصلها، أي يلحق بها نقص حيث يصبح بذاته مملوكًا لسيده، فلا يملك ولا يمارس لنفسه أيًا مما يتعلق به حق من الاسترقاق الجماعي. وذلك ما يحرمه الإسلام حين يقرر مبادئ المساواة، ويحرم الظلم بكل صوره[2].

٥. الفقر والحاجة.

عوامل استضعاف الإنسان الأساسية هي: الفقر والجهل والمرض زائدًا الغربة- التي يعبر عنها القرآن الكريم بابن السبيل- فهذه العوامل تتكاتف على المستضعف وتجعله في إطار الضعف ليأتي المستكبر فيستضعفه ويكرس استضعافه ويحاول أن يبقيه في حالة الاستضعاف.

ولعل استضعاف الفقر (الاستضعاف المالي) هو أهم عامل من عوامل الاستضعاف، وهذا ما حدثتنا السيرة عنه، «بأن الذين دخلوا في الإسلام، في الفترة المكية كان معظمهم خليطًا من الفقراء والضعفاء والأرقاء، وهذه الظاهرة هي الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء في فترتها الأولى، فكان هؤلاء المستضعفون يعتبرون أن الأنبياء هم طوق النجاة لهم.

ألم تر إلى قوم نوح عليه السلام كيف كانوا يعيرونه بأن أتباعه الذين من حوله ليسوا إلا من أراذل الناس ودهمائهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾[هود: ٢٧].

وإلى فرعون وشيعته كيف كانوا يرون اتباع موسى عليه السلام أذلاء مستضعفين. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤].

حتى قال عنهم بعد أن تحدث عن هلاك فرعون وأشياعه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا

(١) الرق قضية إنسانية وعلاج قرآني، أحمد البشايرة ص١١٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ص١٣٠-١٣١.

﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[الأعراف: ١٣٧][(١)].

والفقر والحاجة في الحق ليس عذرًا لأن من أخلد إلى السكون، وقعد عن نصرة الدين، وعذر نفسه بأنه فقير ضعيف ليس له حول ولا قوة، ففي الحقيقة غير معذور لأنه تنازل عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازل عن حريته الشخصية في الاعتقاد والاتجاه، وجعل نفسه تبعًا للمستكبرين والطغاة، ودان لغير الله من عبيده واختارهم على الدينونة لله. والضعف ليس عذرًا، بل هو الجريمة، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والقوة المادية -كائنة ما كانت- لا تملك أن تستعبد إنسانًا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أما الضمير، أما الروح. أما العقل فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال.

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعًا للمستكبرين في العقيدة وفي التفكير، وفي السلوك؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة. فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهًا أو مالًا أو منصبًا أو مقامًا كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفًا يلحق صفة الضعف بالضعفاء إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان[(٢)].

ولذلك انتهى الضعفاء والطغاة المستكبرون إلى عذاب الله على سواء.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

وللأسف نجد الآن بسبب الفقر والضيق والعوز من يترك دينه ويتنصر لأجل مال أو وظيفة أو زواج، وفي الحقيقة-كما سبق وقلنا- هذا ليس عذرًا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٦. الضعف الطبيعي.

وهذا الضعف لا يأتي في إطار التجاذب بين المستضعفين والمستكبرين، كقوله

(١) فقه السيرة النبوية، البوطي ص٧٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٦.

تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[التوبة:٩١].

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[النساء: ٩].

فالآيات الأربع تتناول حالات الضعف الناتج عن صغر السن «الذرية» أو ضعف البدن أو العقل «بالسفه» أو كبر السن وهي كلها حالات ضعف لا تجري عليها سنن وقوانين الاستضعاف، لأن الاستضعاف إنما هو وضع اجتماعي بالأساس ناتج عن ظروف ضعف يمكن أن تكون طارئة أو يمكن العمل على إزالتها بالعمل والجهد والعرق والكفاح والإصلاح.

أما هذه الحالات من الضعف فقد لا يطرأ عليها تغيير -اللهم إلا في حالة الذرية التي يرجى لها مع السنين أن تكبر- فهي ليست في حاجة إلى أن تستضعف في الأساس.

وقد استثنى الله عز وجل أولئك الوعيد لأنهم أصحاب استضعاف حقيقي، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٩٧-٩٨].

ففي الآية الأولى تحدث عن المستضعفين الغير معذورين، لأنه كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذين يعتزون بهم، فهم بحبهم لبلادهم، وإخلادهم إلى أرضهم، وسكونهم إلى أهليهم ومعارفهم، ضعفاء في الحق لا مستضعفون.

ثم قال تعالى في الآية الثانية: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، دل الوعيد في الآية السابقة مع الاستثناء في هذه الآية على أن أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم وعدم الفرار به هجرة إلى الله ورسوله غير صادقين في اعتذارهم فإن الاستضعاف الحقيقي عذر صحيح ولذلك استثنى أهله من الوعيد بهذه الآية.

وقرن الرجال بالنساء والولدان فيها يشعر بأن المراد بالرجال الشيوخ الضعفاء والعجزة الذين هم كمن ذكر معهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً

﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي قد ضاقت بهم الحيل كلها، وعميت عليهم الطرق جميعها فلم يهتدوا طريقًا منها، إما للزمانة والمرض، وأما للفقر والجهل بمسالك الأرض[1].

وذكر سبحانه وتعالى أصحاب الاستضعاف الحقيقي في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة: ٢٧٣].

أي: منعوا من الكسب الذي يطلبه صاحبه مجاهدًا في طلبه. والإحصار هو التشديد في التضيق بالمنع من الحركة والسير والعمل؛ والمنع يكون لعجزٍ مطلق بمرض أو شيخوخة أو صغر أو غير ذلك.

ثانيًا: وسائل مقاومة الاستضعاف:

١ . الوحدة.

إذا كانت الفرقة هي طريق الاستضعاف والانحطاط، فإن الوحدة هي سبيل القوة والارتقاء. وإن اتحاد الأمة الإسلامية على أسس من ديننا العظيم أمل كل المسلمين الصادقين في كل مكان، ذلك أن الإسلام هو الذي جعل من العرب المتناحرين أخوة في دين الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

كما أن الإسلام بعقيدته الصحيحة وعبادته الصادقة، وأخلاقه الرفيعة، صهر الأمم والشعوب والحضارات التي دخلت فيه وجعل منهم أمة واحدة مترابطة ترابط الجسد الواحد لا فرق بين الفارسي ولا البربري، ولا الرومي ولا العربي، ولا بين الفقير والغني إلا بالتقوى.

وأصبحت أمة الإسلام أمة واحدة في عقيدتها ومنهجها.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[المؤمنون: ٥٢].

هذه دعوة إلى الإخاء الإنساني، وإلى إزالة هذه السدود التي تعزل المجتمعات الإنسانية بعضها عن بعض، وخاصةً إذا كانوا جميعًا يتجهون إلى الله، ويؤمنون به، فوجهتهم جميعًا هي الله، وإن كان لكلٍ وجهة هو موليها، وكذلك ينبغي أن تكون وجهتهم جميعًا هي الإنسانية، وإن كان لكل إنسان لونه، ووطنه، وجنسه[2].

ومن أهم الأسباب في تحقيق الوحدة أن يجتمع المسلمون على أصول ثابتة:

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٢٥٦.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ١١٤٤.

❁ وحدة العقيدة.

لا يمكن أن تقوم وحدة للمسلمين ما لم تجمعهم عقيدة واحدة، والعقيدة تشكل أساسًا مهمًا في البناء الفردي والاجتماعي وهي التي تصلح لجمع شتات المسلمين،قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢]

❁ تحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين.

فإن من الأصول العظيمة التي تحقق وحدة المسلمين، تحقيق الأخوة في أواسطهم[(١)].

إن الأخوة منحة من الله عز وجل يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وحزبه.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٢].

إن النبي صلى الله عليه وسلم اعتمد على معاني الأخوة وعمل على تحقيقها وجعلها من الوسائل المهمة في بناء المجتمع الإسلامي وإن أهمية هذا الأساس تظهر في تحقيق مبادئ العدالة والمساواة بين الأفراد، ولا يتم ذلك ما لم تقم على أساس من التآخي والمحبة فيما بينهم. ولذلك جعل النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الأخوة مسئولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الأخوة، وكانت هذه المسئولية محققة فيما بينهم على خير وجه، لقد كانت رابطة الأخوة بين الصحابة الكرام من أسباب قوتهم ونصرة الله لهم. إن التحابب بين المسلمين والحرص على روابط الأخوة المستمدة من الإيمان والعقيدة سر قوة الأمة، ومفتاح نجاحها[(٢)].

٢. الصبر والثبات.

الصبر هو زاد المؤمنين وعتادهم في مسيرتهم إلى الله، وبلوغ مرضاته، وبغير الصبر وتوطين النفس على ما تكره، لا يستقيم خطو الإنسان أبدًا على طريق الحق والخير، إذ كان ذلك الطريق دائمًا موحشًا، تعترض سالكه الحواجز والمزالق والعثرات!

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ٢٠٠].

هذه الآية الكريمة دعوة خالصة للصبر، تغري المسلمين به، وتحرضهم عليه، وتفتح لهم طريق النجاح والفلاح بيده!

فالصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله، هن اللائي يمكن من أن يضع قدميه على طريق النجاح والفلاح، وأن يقطع هذا

(١) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، علي الصلابي ص٣٠٨.

(٢) فقه السيرة النبوية، البوطي ص٢٠١.

الطريق إلى غايته، فيظفر برضا الله، ويفوز برضوانه. والصبر هو القوة التي يلقى بها المرء المكاره والشدائد، فيحتملها في إصرار وعزم، وفي غير وهن أو ضعف، فذلك هو الصبر الذي يدعوا إليه الإسلام ويزكيه[1].

فقد أمر الله تعالى في هذه الآية بأمور أربعة: الصبر، والمصابرة، والمرابطة، والتقوى.

والصبر: معناه ضبط النفس عن أهوائها، وتحمل المكاره راضيًا غير ساخط، والقيام بالطاعات على وجهها، وتجنب المعاصي، وتحمل آثار الهزيمة، والعمل على النهوض بعد الكبوة، وتحمل أذى الأعداء وسخريتهم.

والمصابرة هي المغالبة بالصبر، وهي تكون في الجهاد مع الأعداء في الملحمة، أو في المجادلة، أو في أي مغالبة على أي لون كانت، والمرابطة هي القيام على الثغور الإسلامية لحمايتها من الأعداء، فهي استعداد ودفاع وحماية للديار الإسلامية[2].

وقد نصر الله عز وجل المؤمنون الصابرون من بني إسرائيل لما ثبتوا أمام عدوهم فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٥٠-٢٥١].

ابتدءوا بالدعاء بالصبر؛ لأن الصبر هو عدة القتال الأولى وبه ضبط النفس فلا تفزع. والدعاء الثاني: أن يمنحهم ربهم الثبات في الزحف وعدم الفرار في النزال، والدعاء الثالث: إجابته هو تحقيق لثمرة الصبر والثبات.

بل بالصبر والثبات جعل منهم أئمة يهدون بأمر الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٣-٢٤].

٣. المدافعة حسب الاستطاعة.

اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى إجراء سنة المدافعة والصراع بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١].

والمعنى: أن ما فطر الله عز وجل عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضًا عن الحق

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١/ ٦٨٠.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٥٦٠.

والمصلحة، وهو المانع من فساد الأرض، أي: هو سبب بقاء الحق وبقاء الصلاح. ويعزز ذلك قوله تعالى في بيان حكمة الإذن للمسلمين بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

فهذا إرشاد إلى تنازع البقاء والدفاع عن الحق، وأنه ينتهي ببقاء الأمثل، وحفظ الأفضل[(١)].

فبين سبحانه أن سنته في خلقه أن يدفع الخير والشر، وأن تكون المدافعة بينهما مستمرة، حتى لا تفسد الأرض، فإنه إن غلب الشر كان الخراب والدمار، لذا قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[البقرة: ٢٥١].

وهذا التدافع هو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)[(٢)].

وبالتدافع يتحقق الخير للبشرية، وبه يتحقق السلام العالمي؛ لأنه أزال كل طاغوت يعبد من دون الله، ويستضعف الناس.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

٤. الهجرة.

كشف القرآن الكريم في آيات متعددة أن الهجرة مما أمر به الله أنبياءه وجعلها لهم سنة من سننهم، وتمكينًا لأهلهم وأقوامهم من المؤمنين في الأرض، فهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من بلده مكة المكرمة إلى المدينة كانت جريًا على سنة الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه، فإن دعوتهم كانت تعوق من جانب أعدائهم ويضطهدون من قومهم، ويؤذون إيذاء قد يصل إلى حد الإعتداء على حياتهم كما حدث للنبيين الكريمين زكريا ويحيى عليهما السلام فيضطرون للهجرة طلبًا للسلامة وتبليغًا لرسالة ربهم.

والهجرة في نظر القرآن الكريم انتصار، لأنها فرار إلى الله القوي العزيز، حتى لو أدى ذلك إلى الموت.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣٤٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، ٣/ ١٥٢٤، رقم ١٩٢٣.

﴿حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

إن المتدبر في هذه الآية الكريمة يجد أن القرآن الكريم يهتم بالهجرة، حيث أنه يعالج مخاوف النفس المتنوعة، وهي تواجه مخاطر الهجرة، في مثل تلك الظروف التي كانت قائمة، والتي قد تتكرر بذاتها أو بما يشابهها من المخاوف في كل حين[(١)].

وتظهر أيضًا منزلة الهجرة من الإيمان حين تكون رمزًا لحقيقة الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فكرر الموصول «الذين» هنا للإشارة إلى أن الهجرة وحدها عمل زائد على الإيمان يستحق وحده الثواب لأنه ترك للمال والأهل، وطلب للعزة وإعزاز الدين، بدل البقاء في الذلة والرضا بحياة المستضعفين.

وقد أمر الله عز وجل بالهجرة عند الاستضعاف، ونهي عن البقاء تحت نير غير المسلمين، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠][(٢)].

وهذا تحريضٌ على الهجرة، وترغيبٌ في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، عن أبي ضمرة بن العيص الزرقي الذي كان مصاب البصر وكان بمكة، فلما نزلت ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ فقلت: إني لغنيٌّ وإني لذو حيلة، فتجهز يريد النبي صلى الله عليه وسلم، فأدركه الموت بالتنعيم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[(٣)].

فبالرغم من إصابة بصره «قال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة،

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي جزولي ص٧٥.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ٦٩٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٢.

فحملوه على سرير، متوجهًا إلى المدينة، وكان شيخًا كبيرًا، فمات بالتنعيم، ولما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله، ويقول: اللهم هذه لك وهذه لرسولك صلى الله عليه وسلم، أبايعك على ما بايع عليه رسولك»[1].

فهؤلاء هم الصادقون في إيمانهم، إذ قد فعلوا ما يدل على الإخلاص فيه والرغبة الصادقة من نيل المغفرة والكرامة عند ربهم.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

فهم قد أخرجوا من ديارهم وهي العزيزة على النفوس، المحببة إلى القلوب، «وما فعلوا ذلك إلا لإعلاء منار الدين ورفعة شأنه، وذيوع ذكره فحق لهم من ربهم النعيم المقيم، وجزيل الثواب بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال وعظيم الخلال»[2].

ثالثًا: عاقبة الاستضعاف:

إن الواجب الشرعي يحتم علينا أن نتدبر القرآن العظيم في قصص الأنبياء، نجد أن عاقبة الاستضعاف التمكين.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

إنه مشهد النبي موسى عليه السلام مع قومه، يحدثهم بقلب النبي ولغته، ومعرفته بحقيقة ربه، وبسنته وقدره، فيوصيهم باحتمال الفتنة، والصبر على البلية، والاستعانة بالله عليها، ويعرفهم بحقيقة الواقع الكوني، فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة لمن يتقون الله ولا يخشون أحدًا سواه[3].

فنجد أن موسى عليه السلام أمر قومه بشيئين، وبشرهم بشيئين:

- أما اللذان أمر موسى عليه السلام بهما فهما: الاستعانة بالله تعالى، والصبر على بلاء الله، وإنما أمرهم بذلك لأنه ليس للمستضعفين «إلا ملاذ واحد، وهو الملاذ الحصين الأمين، وإلا وليٌّ واحد وهو الولي القوي المتين، وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي قدره بحكمته

(١) أسباب النزول، الواحدي ص١٨١.
(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٢٨.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٥٥.

وعلمه وألا يعجلوا، فهم لا يطلعون الغيب، ولا يعلمون الخير»[1]، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

❁ وأما اللذان بشر بهما، فالأول: وراثة الأرض وهذا إطماع من موسى قومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه، وذلك معنى الإرث: وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف.

والثاني: قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: العاقبة الحسنى والمصير الأفضل لكل من اتقى الله تعالى وخافه، سواء في الدنيا أو الآخرة، أما في الدنيا فهو الفتح والنصر على الأعداء، وأما في الآخرة فهو نعيم الجنة[2].

إن الأرض لله، وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها، والله يورثها من يشاء من عباده -وفق سنته وحكمته- فلا ينظر المستضعفون إلى شيء من ظواهر الأمور التي تخيل للناظرين أن الطاغوت مكين في الأرض غير مزحزح عنها، فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها. وإن العاقبة للمتقين طال الزمن أم قصر، فلا يخالج قلوب المستضعفين قلق على المصير، ولا يخايل لهم تقلب الذين كفروا في البلاد، فيحسبونهم باقين[3].

وتم الوعد الحق، وأورثهم الله جل جلاله مشارق الأرض ومغاربها المباركة بما صبروا.

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

فجدير بالمؤمنين بالله تعالى ورسله أن يتفكروا في وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بما أمرهم تعالى به على ألسنتهم، وأن لا يستعظموا في هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم»[4].

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

(١) المصدر السابق.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٥٨.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٥.
(٤) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٧٦.

﴿فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور: ٥٥].

ولعل في قصة موسى عليه السلام في سورة القصص ما يبين للمسلم كيف تتدخل قدرة الله تعالى في نصر المستضعفين.

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[القصص: ٥-٦].

فكان الضعف علامة على التمكين، «فذكر سبحانه ما أكرم به هذه الأمة وما أتاح لها من السلطان الديني والدنيوي، فتأسست لهم دولة عظيمة في بلاد الشام، وصاروا يتصرفون في أرض مصر كما شاؤوا وخلاصة الأمر:

- إن فرعون علا في الأرض.
- استضعف حزبًا من أحزاب مصر.
- قتل الأبناء.
- استحيا النساء.
- إنه كان من المفسدين

وقد قابل سبحانه هذه الخمسة بخمسة مثلها تكرمه لبني إسرائيل:

- إنه مَنَّ عليهم بإنقاذهم من بطش فرعون وجبروته.
- إنه جعلهم أئمة مقدمين في الدارين.
- إنه ورثهم أرض الشام.
- إنه مكن لهم في أرض الشام ومصر.
- إنه أرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من ذهاب ملكهم على أيديهم.

وانظر إلى الدولتين الفارسية والرومية، وما كان لهما من مجد بازخ، وملك واسع، كيف دالت دولتهما، وذهب ريحهما بظلم أهلهما، وتقسم ملكهما، ثم قامت بعدهما الدولة العربية وعاشت ما شاء الله أن تعيش، ثم قام بعدها بنوا عثمان، وملكوا أكثر مما كان بيد الأمة العربية، ثم هرمت دولتهم وشاخت واستولت عليها ممالك أوربا: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ٢٦][1].

موضوعات ذات صلة:

الذل، العزم، المرض، الوهن

(١) تفسير المراغي ٧/ ١١٩-١٢٠.

الضلال

عناصر الموضوع

مفهوم الضلال	٣٠٢
الضلال في الاستعمال القرآني	٣٠٤
الألفاظ ذات الصلة	٣٠٥
الضلال والهداية بيد الله تعالى	٣٠٨
شراء الضلالة	٣١٢
الضلال المبين والبعيد	٣١٤
أنواع الضلال	٣١٧
أسباب الضلال	٣٢٠
مجالات الضلال	٣٢٦
مظاهر الضلال	٣٣١
آثار الضلال في الدنيا والآخرة	٣٣٦
علاج الضلال	٣٣٨

مفهوم الضلال

أولًا: المعنى اللغوي:

الضاد واللام أصل يدل على ضياع الشيء، وذهابه في غير حقه، يقال: ضَلَّ اللبن في الماء، بمعنى: استهلك وضاع، وأضل الميت، إذا دفن، وكأنه شيء قد ضاع، يقال: ضَلَلْت أَضِلُّ وأَضَلُّ، لغتان، وضَلَلْتُ أَضِلُّ وأَضَلُّ، وهما لغتان أيضًا، والضَّلَال والضَّلَالة بمعنىً واحدٍ، ورجلٌ ضِلِّيلٌ ومُضَلِّلٌ، إذا كان صاحب ضلالٍ وباطلٍ[(١)].

وكل جائرٍ عن القصد فهو ضالٌ، وما كان ضد الهدى والرشاد فهو ضلالٌ وضلالةٌ[(٢)]، وكل حيادةٍ عن طريق الحق فهو ضلالٌ أيضًا، والنسيان من الضلال[(٣)].

وأما قولهم: الضالة، فإنها لا تقع إلا على الحيوان ذكرًا كان أو أنثى، وأما الأمتعة من غير الحيوان، فلا يقال لها ضالة، ولكنها تسمى لقطة[(٤)].

إن مادة ضل جاءت في اللغة على معانٍ متعددة، منها: ضاع، ومات، وصار ترابًا وعظامًا، وخفي وغاب، ونسي[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

إن الضلال والضلالة مصطلحان متقاربان، لكنهما يختلفان في نقاط، أهمها[(٦)]:

إن الضلالة والضلال يشتركان في أن كليهما يعني فقد ما يوصل إلى المطلوب، إلا أن الضلال يختص بأنه خطأ الشيء في مكانه دون الاهتداء إليه.

والضلالة بمعنى الهلاك والإضاعة، والضلال بمعنى الضياع والعدول عن الطريق المستقيم.

وعلى هذا فإن الضلالة أعم من الضلال، لكن الضلال أخص وأدق في طبيعة تشخيص أمراض الأمة، كما أنه محل هذه الدراسة، ومن ثم فقد فطن العلماء للفرق بينهما، وهذه

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ١٥٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ١٥٣، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٩٠.
(٣) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٥٨،
(٤) انظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، الأزهري ص١٧٧.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠٢٤.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي ص٥٧٦.

بعض تعريفاتهم لمصطلح الضلال، وذلك فيما يأتي:

عرفه السيوطي رحمه الله بأنه: «اعتقاد الباطل حقًا، أو الكذب صدقًا، أو القبح جميلًا، وبالعكس» [(١)].

وعرفه الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى بأنه: «العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية» [(٢)].

وعرفه الجرجاني والمناوي رحمهما الله تعالى بأنه: «فقدان ما يوصل إلى المطلوب» [(٣)].

وذكر البعض تعريفًا له بأنه: كل عدول عن النهج عمدًا أو سهوًا قليلًا كان أو كثيرًا [(٤)].

وبالنظر إلى التعريفات السابقة لمصطلح الضلال يتبين أن التعريف الأخير هو الراجح؛ لموافقته المعنى اللغوي من جهة، ولاشتماله على جميع المعاني المتفرعة من مادة ضل في القرآن الكريم من جهة أخرى، والله أعلم.

(١) مقاليد العلوم، السيوطي ص٢٠٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٩.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص١٣٨، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٢٣.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٢٣.

الضلال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ض ل ل) في القرآن الكريم(١٩١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥٨	﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة:٧٧]
الفعل المضارع	٥٩	﴿هَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [النساء:١١٣]
المصدر	٤٨	﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]
اسم الفاعل	١٧	﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾ [الشعراء:٨٦]
أفعل التفضيل	٩	﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان:٤٤]

وجاء الضلال في القرآن الكريم على ثلاثة وجوه[(٢)]:

الأول: الضلال بمعناه اللغوي الذي هو ضد الهدى، وهو الحيرة والضياع والبعد عن الصواب، ويدخل فيه الغواية والخطأ والخسران وغير ذلك: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾ [يس:٦٢]. يعني: أغوى.

الثاني: الإبطال: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾ [محمد:١]. يعني: أبطلها.

الثالث: الجهل أو النسيان: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢] يعني: تنسى.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢١-٤٢٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الضاد ص٧١٤-٧١٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣١٠-٣١٢، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٤٠٦-٤٠٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٤٨١-٤٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الغي:

الغي لغةً:

الإمعان في الضلال، قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

فهو غاوٍ، وغويٌّ وغيان، وأغواه أضله وأغراه[١].

الغي اصطلاحًا:

«سوء التصرف في الشيء، وإجراؤه على ما يسوء عاقبته»[٢].

الصلة بين الغي والضلال:

الضلال أوسع دلالةً، إذ إنه يعني: أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، سواء أكان حكمًا أو عملًا، والغواية: أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم.

٢ الكفر:

الكفر لغة:

الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، وهو ضد الإيمان، لأنه تغطية للحق[٣].

الكفر اصطلاحًا:

«الجحود بالوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها»[٤].

وقيل: هو تغطية الحق بالباطل، بما يكون نقيض الإيمان[٥].

الصلة بين الكفر والضلال:

الضلال أوسع مضمونًا من الكفر؛ إذ إن الكفر يعني الجانب العمد من العدول عن المنهج، بما يكون نقيضًا للإيمان.

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٦٧.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٥٥.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩١.
(٥) انظر: مقاليد العلوم، السيوطي ص٧٤.

٣ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: «أشرك بالله: كفر أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك»[١]، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه[٢].

الصلة بين الشرك والضلال:

الشرك والضلال يتفقان أن كونهما عدولٌ عن المنهج، لكن الضلال أعم كونه يشمل العدول سهوًا أو عمدًا، وأن الضلال العمد أعم من الشرك؛ إذ إن من الضلال ما لا يخرج من الدين، ومنه ما يخرج.

٤ الهلاك:

الهلاك لغةً:

الموت، يقال: هلك هلاكًا، وهلكًا، وتهلوكًا وهلوكًا، واستهلك المال: أنفقه وأنفذه، وأهلكه: باعه، والمهلكة: المفازة[٣].

الهلاك اصطلاحًا:

«تداعي الشيء إلى أن يبطل ويفنى»[٤].

الصلة بين الهلاك والضلال:

الضلال أعم وأشمل من كون أن الهلاك يعني النفاذ والموت والإنفاق والبيع، فقد لا يترتب على فعله حكم شرعي، وقد يترتب، أما الضلال فهو جانب له علاقة بالقلب أولًا من كونه يترتب عليه حكم شرعي غالبًا.

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.
(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٥٨.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٤٤.

٥ الحق:

الحق لغة:

هو نقيض الباطل وخلافه، وهو مصدر من حق الشيء إذا ثبت وكان واجبا[١]، ولا يصح إنكاره، يقول ابن فارس: يدل على إحكام الشيء وصحته[٢].

الحق اصطلاحًا:

هو الحكم المطابق للواقع في الأقوال والعقائد والأديان، ويقابله الباطل[٣].

الصلة بين الحق والضلال:

الحق هو ضد الباطل، الذي أعم من الضلال، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير بتغير زمان أو مكان.

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٦، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٤٣.
(٢) مقاييس اللغة ٢/ ١٥-١٧ بتصرف.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٨٩.

الضلال والهداية بيد الله تعالى

من الأمور المسلم بها أن الضلال والهداية بيد الله تعالى؛ فلا يضل أحدٌ إلا بعلمه، ولا يهتدي أحدٌ إلا بإذنه، وسوف يتم تناول هذا -إن شاء الله تعالى- بالتفصيل فيما يلي:

أولًا: الضلال والهداية بمشيئة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

أي: مثلهم في جهلهم، وقلة علمهم، وعدم فهمهم، كمثل أصم، وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلماتٍ لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه، ولهذا فهو المتصرف في خلقه بما يشاء[(١)].

وقوله: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده؛ لينفذ فيه عدله، وقوله: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين الإسلام؛ لينفذ فيه فضله، والمشيئة راجعة إلى الكاذبين، فمنهم من يضله ومنهم من يهديه[(٢)].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أي: فمن يرد الله تعالى أن يكتب له الهداية التوفيقية فضلًا عن الإرشادية يشرح صدره، فيوسع قلبه لقبول الإيمان، والخير، وذلك أن الإنسان إذا اعتقد في عملٍ من الأعمال أن نفعه زائد، وخيره راجح، مال بطبعه إليه، وقويت رغبته فيه، فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر، والشرح نورٌ يقذفه الله تعالى في قلب العبد، فيعرف بذلك النور الحق، فيقبله وينشرح صدره له.

وأما من يريد الله تعالى أن يكتب له الضلالة فإنه يجعل صدره ضيقًا؛ حتى لا يدخله الإيمان، فليس للخير فيه منفذ[(٣)].

وقد وردت آية أخرى قريبة من هذا المعنى، وهي قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)[(٤)]، ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٢٢.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٥٤-١٥٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ١/ ٢٥، رقم ٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب

وتنويره[1].

وقد وضع القرآن الكريم عدة معالم في هذا الموضوع، منها:

١. لا هادي لمن أضله الله تعالى.

قد ورد معنى كون الهداية والإضلال بيده سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

قال الإمام الرازي: «فالمقصود تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أن الذين سبق لهم حكم الله بالإيمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين، ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال، واستحال أن يوجد من يصرفهم عن ذلك الضلال»[2].

ثم تبين هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الضالين الذين أضلهم الله تعالى سيسحبون يوم القيامة على وجوههم، أو يمشون بها، فكما مشوا في الدنيا على أقدامهم سيمشون يوم القيامة على وجوههم[3].

ثم تأتي الفاصلة القرآنية في هذه الآية لتبين عاقبة الضالين بأنهم «كلما أكلت لحومهم، فسكن لهبها، بدلوا أجسادًا أخر، ثم صارت ملتهبةً أكثر مما كانت»[4].

وإن هذه الآية الكريمة حالها كحال الآيات المكية، تبين أن الهداية هنا هداية إلى الإيمان، والضلال فهو استحباب الكفر على الإيمان، ولذلك فإن سحب الولاية المذكور في الآية يأتي في سياق أن الكافرين الضالين إذا اختاروا الضلالة سوف يكتب لهم الغواية، وسيستدرجون إلى مزيد من الذنوب؛ حتى يأخذهم الله تعالى للعذاب الأليم، يضاف إلى أن مبدأ النصرة لهم من دون الله تعالى محالٌ في حقهم.

٢. عِلْم الله تعالى بالضالين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧].

فقد بينت الآية السابقة أن الرسول صلى الله عليه وسلم إن يطع أكثر أهل الأرض من كفار قريش فيما يدعونه إلى ملة آبائهم؛ فإن أكثر أهل الأرض كانوا كفارًا، وإن هؤلاء الكفار ما يتبعون إلا الظن في أكل الميتة واستحلالها، وما هم إلا كاذبون في استحلالهم الميتة[5].

الزكاة، باب النهي عن المسألة ٢/ ٧١٨، رقم ١٠٣٧.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨١.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤١١.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٦٧.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٤٥٥.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٧٧.

وتأتي هذه الآية لتبين أن الله تعالى الذي هو رب كل شيءٍ، هو أعلم من يضل عن سبيل الله الذي هو الدين[1].

فهو يعلم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم على الهدى، وأن المشركين ضلوا عن سبيله، وفي هذا بشارةٌ للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أنك على الصراط المستقيم، أما المشركون فهم الذين عدلوا عن الصراط المستقيم عمدًا وإمعانًا في الضلال[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧].

أي: إن الله تعالى الذي هو ربك يا محمد صلى الله عليه وسلم هو أعلم بمن عدل عن طريق الحق وهو أعلم أيضًا بالمهتدين الذين يتبعون ذلك الحق.

والمقصود أن الله تعالى يبين بأنه هو الأعلم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وأنه المهتدي وأن قومه هم الضالون[3].

٣. الإضلال بعد إقامة الحجة بالرسل وورثتهم.

قد ورد ذكر الإضلال بعد إقامة الحجة جليًا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

فالمعنى: لست يا محمد صلى الله عليه وسلم ببدعٍ من الرسل، وإنما أرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، على عادتنا في رسلنا، في أن نبعثهم بألسنة القوم الذين أرسلوا إليهم؛ ليقع البيان والعبارة المتمكنة، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يطلب منه أن يبلغ ويبين، ولم يكلف أن يهدي ويضل، بل إن ذلك بيد الله تعالى، ينفذ فيه سابق قضائه، وله في ذلك العزة التي لا تعارض[4].

وإن من لطفه تعالى أنه يرسل إلى خلقه رسلًا منهم بلغاتهم؛ ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم[5]، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لم يبعث الله عز وجل نبيًا إلا بلغة قومه)[6].

وقد أفردت كلمة «لسان» رغم إضافته إلى القوم؛ لأن المراد اللغة، وهي اسم جنس

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٧٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٩٤.
(٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٢/ ٧٦٢٣.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٢٣.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٧٧.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، ٣٥/ ٣٢٣، رقم ٢١٤١٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٢٢، رقم ٥١٩٧.

يقع على القليل والكثير[1].

وثمة سؤال يتم طرحه، وهو: كيف تذكر هذه الآية أنه ما من رسولٍ إلا ويبعث بلغة قومه، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى كافة الخلق، مع اختلاف لغاتهم؟ وجواب ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث من العرب بلسانهم، والناس تبعٌ لهم[2].

ثانيًا: نسبة الضلال إلى الإنسان:

قد ورد ذكر نسب الضلال إلى الإنسان جليًا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

أي: قل يا محمد صلى الله عليه وسلم إن عدلت عن الطريق الواضحة، فإن إثم ضلالتي وعدولي عن المنهج يكون على نفسي[3]، فإن ما تدينت به من الدين إن كان ضلالًا -كما تقولون- فإنما وبال ضلالي يعود إلى نفسي، فكيف أختار الوبال على نفسي، مع أنه لا جنون بي، ولا منفعة دنيوية تعود إلي؟!

وإن كان هذا هدايةً، فليس من قبل نفسي، ولا من عند أحدٍ من أهل هذا البلد؛ لأن ظاهر الأمر أني أميٌّ ما كتبت ولا قرأت، فلا يمكن أن يكون هذا القرآن إلا مستقىً من الله تعالى وحيًا فلزم، بل وجب عليكم أن تتبعوني، فتهتدوا كما اهتديت[4].

إن الرد القرآني في هذه الآية الكريمة على الكفار -الذين زعموا أنه صلى الله عليه وسلم غير صادق في دعوى الرسالة، وأنه على ضلال- كان قاطعًا بأنه على هدىً، بقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

وانتقل هنا إلى متاركة جدالهم، وتركهم وشأنهم؛ لقلة جدوى مراجعتهم، وصيغة القصر هنا لتبين أن الضلال المفروض على نفسي لا عليكم؛ لأنهم كانوا يحاولون أن يقلعوه عما دعاهم إليه، ولم يقتصروا على صدودهم[5].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٤٠.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٠.
(٣) انظر: فتح البيان، القنوجي ١١/ ٢١٠.
(٤) انظر: التفسير المظهري، ٨/ ٣٨.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٣٩.

شراء الضلالة

ورد شراء الضلالة في موضعين من القرآن الكريم، وهما:

الأول: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

حيث إن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن المنافقين وصفاتهم؛ حتى حكم عليهم بأنهم أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى، فيكونون بذلك قد استبدلوا الكفر بالإيمان؛ لأن استبدالهم الضلالة بالهدى كان استحبابًا فيه، ومثل هؤلاء المنافقين في الوصف القرآني قوم ثمود؛ حيث قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وتأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن النتيجة عند الله تعالى أن صفقتهم في هذه البيعة كانت خاسرة، ومن ثم فإنهم لم يكونوا راشدين في صنيعهم ذلك[(١)]؛ إذ إنهم أضاعوا ما سعوا له، ولم يعرفوا ما يوصل إلى خير الآخرة، ولا ما يضر المسلمين، وهذا نداءٌ عليهم بسفه الرأي، وهو العلة لعدم ربح التجارة، حيث شبه سوء تصرفهم بسوء تصرف من يريد الربح، فيقع في الخسران[(٢)].

قال السمرقندي رحمه الله: «وفي الآية دليل أن الشراء قد يكون بالمعنى دون اللفظ وهو المبادلة؛ لأن الله تعالى سمى استبدالهم الضلالة بالهدى شراء، ولم يكن هنالك لفظ شراء»[(٣)]؛ ولذلك فإن الربح قد أسند إلى التجارة على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، وهو من الإسناد المجازي[(٤)].

الثاني: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥].

حيث وردت هذه الآية في معرض الحديث عن اليهود عامة، وعلمائهم خاصة، فقد بينت الآية السابقة أن هناك وعيدًا شديدًا لمن كتم ما أنزل تعالى على رسله من العلم الذي أخذ الله تعالى الميثاق على أهله أن يبينوه ولا يكتموه، فيكونون يبتغون بذلك تحصيل المال، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي، ونبذ أمر الله تعالى فإن هذا المال الذي يأخذونه نارٌ في بطونهم؛ لأنه اكتسابٌ حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرمات، وليس الأمر كذلك فحسب، بل يسخط الله تعالى عليهم، ويعرض عنهم يوم القيامة، ولا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٩٨.
(٣) تفسير السمرقندي ١/ ٣٠.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٤.

وفوق كل هذا أعد الله لهم عذابًا كثير الألم[1].

وتبين هذه الآية الكريمة جرأة اليهود في استهانتهم بعذاب النار، الذي أعده الله تعالى لهم، وفي ذلك يقول الإمام الرازي -رحمه الله تعالى-: «اعلم أنه تعالى لما وصف علماء اليهود بكتمان الحق وعظم في الوعيد عليه، وصف ذلك الجرم؛ ليعلم أن ذلك العقاب إنما عظم لهذا الجرم العظيم، واعلم أن الفعل إما أن يعتبر حاله في الدنيا أو في الآخرة، أما في الدنيا فأحسن الأشياء الاهتداء والعلم، وأقبح الأشياء الضلال والجهل، فلما تركوا الهدى والعلم في الدنيا، ورضوا بالضلال والجهل، فلا شك أنهم في نهاية الخيانة في الدنيا، وأما في الآخرة فأحسن الأشياء المغفرة، وأخسرها العذاب، فلما تركوا المغفرة ورضوا بالعذاب، فلا شك أنهم في نهاية الخسارة في الآخرة.

وإذا كانت صفتهم على ما ذكرناه، كانوا لا محالة أعظم الناس خسارًا في الدنيا وفي الآخرة، وإنما حكم تعالى عليهم بأنهم اشتروا العذاب بالمغفرة لأنهم لما كانوا عالمين بما هو الحق، وكانوا عالمين بأن في إظهاره وإزالة الشبهة عنه أعظم الثواب، وفي إخفائه وإلقائه الشبهة فيه أعظم العقاب، فلما أقدموا على إخفاء ذلك الحق كانوا بائعين للمغفرة بالعذاب لا محالة»[2].

ثم تأتي الفاصلة القرآنية باستفهام توبيخي، يعني: ما الذي أصبرهم، وأي شيء صبرهم على النار؛ حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل، ويحتمل أن يكون الاستفهام للتعجب والتقرير بأن الراضي بموجب الشيء لابد أن يكون راضيًا بمعلومه ولازمه، إذا علم ذلك اللزوم، فلما أقدموا على ما يوجب النار، ويقتضي عذاب الله تعالى مع علمهم بهذه العاقبة المنتظرة صاروا كالراضين بعذاب الله تعالى، والصابرين عليه[3].

إن ما بدر من علماء اليهود بهذه الصفقة الغبية أشبه بكونها «صفقة يدفعون فيها الهدى، ويقبضون الضلالة، ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب، فما أخسرها من صفقة وأغباها! ويا لسوء ما ابتاعوا وما اختاروا! وإنها لحقيقة، فقد كان الهدى مبذولًا لهم فتركوه وأخذوا الضلالة، وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب»[4].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٠٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٠٦.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥٨.

الضلال المبين والبعيد

وصف الله تعالى في القرآن الكريم الضلال بأنه بعيدٌ تارةً، وبأنه مبين تارةً أخرى، وسيتم الوقوف إن شاء الله تعالى هنا على هذه المواضع كما وردت في السياق القرآني؛ لتجلية ما في ذلك من حكمٍ وأسرار أطلعنا الله تعالى عليها، وذلك فيما يأتي:

أولًا: وصف الضلال بالمبين:

وقد ورد ذلك في ستة عشر موضعًا، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

أتتنسك لصنمٍ تعبده من دون الله؟! إني أراك وكل السالكين مسلكك تائهين لا تهتدون أين تسلكون، بل أنتم في حيرة وجهلٍ، وأمركم في الجهالة والضلال، وهذا بينٌ واضحٌ لكل ذي عقلٍ سليم[(١)].

كما وصف قوم نوحٍ نوحًا عليه السلام بالضلال بالمبين في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

والقوم هنا هم قوم نوح عليه السلام، والمعنى: إنا لنراك يا نوح في دعوتك إيانا قد صرت من الضالين التائهين عن طريق الحق، وهكذا حال الفجار، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢][(٢)].

كما وصفت امرأة العزيز بالضلال بالمبين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠].

إن هذا القول جاء على لسان نسوةٍ وصفًا لامرأة العزيز على حبها ليوسف عليه السلام، وتعلق قلبها به، لكن الله تعالى عصمه منها[(٣)].

كما وُصِفَ أبو يوسف بالضلال المبين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

والمقصود بالضلال هنا الذهاب عن وجه التدبير في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه[(٤)].

كما وصف الكافرين بالضلال المبين في قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

والضلال هنا هو ضلال عن طريق الجنة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٤٣٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٧.

(٤) انظر: المصدر السابق ٩/ ١٣٠.

بخلاف المؤمنين[1].

كما وصف قوم إبراهيم عليه السلام بالضلال المبين في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

الضلال هو العدول عن المنهج عدولًا ظاهرًا لا يخفى على عاقل[2].

كما وصف جنود إبليس بالضلال المبين في قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧].

الضلال هنا هو الخطأ البين[3].

ويتبين -بعد الرجوع إلى تفسير بعض النماذج القرآنية التي وصفت الضلال بالمبين- الملاحظات الآتية:

الملاحظة الأولى: إن السواد الأعظم من الآيات التي وصفت الضلال بالمبين مكيةٌ؛ حيث بلغ عدد المكيات منها أربع عشرة آية، في مقابل آيتين مدنيتين.

الملاحظة الثانية: إن الضلال المبين الذي ورد في المواضع التي ذكر فيها تحتمل المعاني الآتية:

١. البين الواضح لكل ذي عقلٍ سليم.
٢. الخطأ البين.
٣. الظاهر الذي لا يخفى على عاقل.
٤. الخسران الظاهر.
٥. الغواية الظاهرة.
٦. الضلال الظاهر الواضح.
٧. لا شبهة فيه.
٨. ذهابٌ عن الحق.

ولا شك أن جميعها تدور حول المعنى العام للضلال، الذي هو عدول عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا، مما يبين أن الضلال له وجوه متعددة، متفرعة عن المعنى العام له؛ لتعالج الموقف المناسب بمعنىً يختص به.

ثانيًا: وصف الضلال البعيد:

وقد ورد ذلك في سبعة مواضع، منها:

وصف الله تعالى الكافرين بالضلال البعيد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧].

أي: إن الذين كفروا بالله تعالى صدوا عن سبيله قد بعدوا عن المنهج بعدًا عظيمًا شاسعًا[4].

كما وصف الله تعالى الكافرين أيضًا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

الضلال هنا هو عدولٌ عن طريق الحق، وقيل: يجوز أن يراد بالضلال البعيد، أي: ذي بعدٍ، أو فيه بعدٌ؛ لأن الضال يبعد عن

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٨٨.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٠٨.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٦٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧٦.

الطريق[1].

كما وصف الله تعالى قرين السوء بالضلال البعيد في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

الضلال ثابت للإنسان الضال بالأصالة ملازم لتكوينه، والبعيد مستعارٌ للبالغ في قوة النوع حدًا لا يبلغ إليه إدراك العاقل بسهولة، كما لا تبلغ سير السائر إلى المكان البعيد إلا بمشقة أو بعيد الزمان، أي: قديم أصيل، والمعنى: إن تمكن الضلال منه يدل على أنه ليس فيه بتابع لما يمليه غيره عليه[2].

ويتضح هنا أن مصطلح الضلال البعيد في المواضع السابقة التي ذكر فيها يعني أحد خمسة احتمالات:

- إما أي ذي بعدٍ عن الحق والطريق المستقيم.
- وإما أنه ضلال قديم أصيل.
- وإما البعد عن الصواب.
- وإما الخروج عن الهدى والبعد عن القصد.
- وإما البعد عن الحق بعدًا عظيمًا.

ويتضح أيضًا أن للضلال البعيد أسبابًا، منها: استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، والصد عن سبيل الله تعالى والكفر به، والشرك بالله، والتحاكم إلى الطاغوت، والكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والدعاء من دون الله تعالى ما لا ينفع ولا يضر.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٣١٤.

أنواع الضلال

ورد في القرآن الكريم ما يبين أن الضلال منه ما كان عن عمدٍ يحاسب عليه المرء عند الله تعالى، ومنه ما كان عن جهلٍ ونسيان، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

أولًا: ضلال التعمد:

وقد أخذ هذا الموضوع مساحةً في الخطاب القرآني، ومن أمثلته:

١. ضلال قوم نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح: ٢٧].

أي: إنك إن تتركهم دون أن تهلكهم، فأبقيت أحدًا منهم حيًا، سيدعون عباد الله تعالى المؤمنين إلى الضلال، ولا يلدوا إلا كفرةً فجرةً من أمثالهم، وهذا تعليلٌ لدعائه عليهم جميعًا بالهلاك[(١)].

فسيدنا نوحٌ صلى الله عليه وسلم عرف أن قومه لن يؤمنوا، بل سيزدادون في الكفر، من خلال أمرين: الأول: النص القرآني، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[هود: ٣٦].

والآخر: الاستقراء؛ فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، تعرف على طباعهم وجربهم، حيث كان القوم يتوارثون عمليات التضليل، والتكذيب لنبي الله نوح صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، أي: أنهم يكونون في علمك كذلك، أو أنهم سيصيرون كذلك، ولا شك أن هذا الطلب من نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم يحمل معنىً عظيمًا في الرحمة بذرية القوم التي ستأتي تباعًا إن لم ينالوا عقابهم؛ حتى لا تحاسب هذه الذرية على ممارسات التضليل[(٢)].

٢. حرص أهل الكتاب على التضليل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[آل عمران: ٦٩].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن فريقًا من أهل الكتاب كانوا يتمنون إضلال المؤمنين، وفتنتهم عن دينهم، بإلقاء الشبه التي توهن الاعتقاد[(٣)]، والحال أن وبال ضلال هؤلاء المضلين عائدٌ عليهم، وأما نفس الضلال فمحالٌ؛ لأنهم يضلون المؤمنين بالانتقال من الإيمان إلى الكفر، وهم لا يعرفون الإيمان قط[(٤)].

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٤٦، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ١٢٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٥٩.

(٣) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص٨١.

(٤) انظر: تفسير ابن عرفة ١/ ٣٧١.

٣. الوصف بالضلال لمن أمعن في الكفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠].

ومقصود هذه الآية فيه «أربعة تأويلات:

أحدها: أنهم اليهود كفروا بالمسيح، ثم ازدادوا كفرًا لمحمد، لن تقبل توبتهم عند موتهم، وهذا قول قتادة.

الثاني: أنهم أهل الكتاب لن تقبل توبتهم؛ لذنوبٍ ارتكبوها مع الإقامة على كفرهم، وهذا قول أبي العالية.

الثالث: أنهم قومٌ ارتدوا ثم عزموا على إظهار التوبة على طريق التورية، فأطلع الله نبيه على سريرتهم، وهذا قول ابن عباس.

الرابع: أنهم اليهود والنصارى كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفرًا إلى حضور آجالهم، وهذا قول الحسن»[(١)].

والذي يترجح من خلال السياق القرآني أن رأي الحسن هو الأقرب إلى الصواب؛ ولذلك وصفوا بعد كل ما صدر منهم بأنهم هم الضالون[(٢)] الذين عدلوا عن المنهج الحق عمدًا وظلمًا.

(١) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٠٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٣٠٢.

ثانيًا: ضلال الجهل والنسيان:

ورد ضلال الجهل والنسيان في القرآن الكريم من خلال جوانب عديدة، منها:

١. الضلال في حق النبي صلى الله عليه وسلم معناه الجهل بالأحكام الشرعية.

قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

ويترجح أن الضلال هنا يعني أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم كان ضالًا جاهلًا عن علم الشرائع والأحكام في دين الله تعالى، فهداه الله تعالى إلى ذلك.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢][(٣)].

٢. تعليم الله للمؤمنين شرائعهم حتى لا يضلوا.

قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

إن الله تعالى يذكر في هذه الآية الكريمة سبب تولي القرآن الكريم لبيان أحكام الميراث، وهو ألا يذهب الناس إلى طرقٍ

(٣) انظر: غاية الأماني، شهاب الدين الشافعي ص٤٠٤.

ضالةٍ بأمور، منها إهمال الميراث جملةً، وألا يعطوا أحدًا من الورثة شيئًا، وجعل الحرية للمورث يوصي بماله لمن يشاء من غير قيد، وفي ذلك ضلالٌ أي ضلالٍ، إذ يترك ورثته ضياعًا، ويعطي المال غيرهم، وحرمان من يشاء المورث وإعطاء من يشاء، وفي ذلك إثارة للبغضاء والعداوة[(١)].

وتأتي هذه الآية الكريمة في فاصلتها لتبين أنه تعالى يبين أحكامه التي يحتاجونها، ويشرحها فضلًا منه وإحسانًا؛ لكي يهتدوا ببيانه، ويعملوا بأحكامه، ولأن لا يضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلهم وعدم علمهم[(٢)].

ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[(٣)].

٣. الشعور بالضلال عند الصدمة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: ٢٦].

فإن هذه الآية جاءت في معرض الحديث عن ابتلاء أصحاب الجنة، حيث اجتهدوا في اجتماعاتهم السرية على أن يمنعوا الفقراء من حقهم في خيرات جنتهم، وتعاهدوا فيما بينهم أن يأتوا صباح اليوم التالي لمؤامرتهم، فيقطفوا جميع الثمار ويبيعوها أو يدخروها؛ حتى لا ينتفع الفقراء من هذا الخير، فأحرقت بأمر الله تعالى ليلًا، فلما رأوها في اليوم التالي قالوا: إنا لضالون عن الطريق، من قوة الصدمة، كأنهم لما رأوا جنتهم محترقة سبق إلى ذهنهم أنها ليست هي، وأنهم ضلوا الطريق، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: بل نحن من حرم خيرها؛ لشؤم عزمنا على البخل، وبسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها، ولخساستنا وخباثة نفوسنا، وبعدما بان لهم ذلك، قال أعدلهم رأيًا وعقلًا على وجه التقريع والتشنيع لإخوانه: ألم أقل لكم وقت مشاورتكم على حرمان الفقراء هلا تذكرون الله تعالى بالخير، ولم لا تشكرون نعمه بالإنفاق على الفقراء[(٤)].

٤. ضلال المرأة بنسيانها.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢٠٠١.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢١٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر ٢/ ٩٧٥، رقم ١٣٣٧.
(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٣٣٨، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٢٥.

٢٨٢].

ووجه قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾، أنه لما كان الضلال سبب الإذكار، وهو متقدم عليه صار لتعلق كل واحدٍ منهما بالآخر، أي: فتذكرها إن ضلت[(١)].

٥. ضلال المسلمين عن معرفة أحكام الدين قبل الإسلام.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾[البقرة: ١٩٨].

أي: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده، فما دام الأمر كذلك فاذكروا الله تعالى بتوحيده وتعظيمه كما ذكركم بالهداية، وما كنتم من قبله إلا من الضالين، والضلال هنا بمعنى الجهل بالمعارف الحقيقية[(٢)].

وإن الشاهد هنا هو فاصلة الآية التي تطلب من المسلمين أن يذكروا الله تعالى؛ لهدايته لهم الإرشادية لأحكام الدين بعد هدايته التوفيقية للإسلام.

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥٩٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٦٣، الوجيز، الواحدي ص١٥٧.

أسباب الضلال

ورد في القرآن الكريم ما يبين أسباب الضلالة، ومنها:

أولًا: مخالفة أمر الله تعالى ومعصيته:

ورد الحديث عن مخالفة أمر الله ومعصيته واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فقد وردت هذه الآية بعد الآية التي سميت آية النساء؛ لما ثبت أن أم عمارة الأنصارية أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية[(٣)].

وتأتي هذه الآية لتبين أنه ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى رسول الله أن يختار رأيًا غير ما قضاه الله ورسوله[(٤)].

ولما كان الإيمان قد يدعى كذبًا لخفاء

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأحزاب ٥/ ٢٠٧، رقم ٣٢١١.
وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، ٧/ ٢١١.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٤.

به، قال: ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ أي: عبد الله بن جحش وزيد، ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، أي: زينب بنت جحش وغيرها، فعلق الأمر بالإيمان؛ إعلامًا بأن من اعترض غير مؤمن، وإن أظهر الإيمان بلسانه[1].

والخيرة هنا تعني أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا آراءهم واختيارهم تبعًا لرأيه عليه السلام، واختياره، والمقصود هنا كل مؤمن وكل مؤمنة؛ لوقوع ذلك في سياق النفي[2].

إن هذه الآية تبين أن من يعص الله ورسوله في أمر من الأمور، ويعمل برأيه، فخالف الكتاب والسنة، فقد ضل طريق الحق، وعدل عن الصراط المستقيم؛ فهو بين الانحراف عن سنن الصواب[3].

ثانيًا: عدم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لقد برز عدم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واضحًا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

تأتي هذه الآية في معرض الحديث عن المنافقين، بأنهم أقسموا بالله طاقة ما قدروا، لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا، فيقول الله تعالى لهم: لا تقسموا، فإن الأولى بكم من إيمانكم أن تطيعوا الطاعة المعروفة، والقول المعروف، بإخلاص القلب، ولا حاجة إلى اليمين، والمعنى: قد عرفت طاعتكم، وهي الكذب والتكذيب، أي: المعروف منكم الكذب دون الإخلاص، فالله تعالى خبير بما تعملون من طاعتكم بالقول، ومخالفتكم بالفعل[4].

لأن طاعة الله وطاعة الرسول بإخلاص الطاعة، وترك النفاق، فإن تولوا فإنما على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ما حمل من تبليغ الرسالة، وعليهم ما حملوا من الطاعة له، ثم يأتي هذا الشرط وهو إن تطيعوا رسولكم صلى الله عليه وسلم تهتدوا، وما على الرسول إلا التبليغ المبين[5].

وقد سبقت الإشارة إلى أن الهداية تأتي في مقابل الضلالة بكل جوانبها، ومن ثم فإن الاستدلال بهذه الآية يكون من باب المخالفة.

وقد كان بعض السلف يقول: من أَمَّرَ السنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة،

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ٣٥٤.
(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ١٧٧.
(٣) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي ٢/ ٢٥٤.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٦.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٦

ومن أمر البدعة والهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[1].

ثالثًا: اتباع الهوى:

لقد ورد اتباع الهوى في آيات عديدة، منها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

أي: قل إني صرفت وزجرت بما نصب لي من الأدلة وأنزل علي من الآيات في أمر التوحيد عن عبادة ما تعبدون من دون الله تعالى، أو ما تسمونها آلهة، وتأتي ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ تأكيدًا لقطع أطماعهم، وإشارة إلى علة الامتناع عن متابعتهم، واستجهالًا لهم، وبيانًا لمبدأ ضلالهم، فإن المطلوب لمن تحرى الحق أن يتبع الحجة ولا يقلد[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

أي: وإن كثيرًا من الكافرين ليعدلون عن المنهج المستقيم، متسلحين بما تهواه أنفسهم من تحيل الميتة وتحريمها بغير علم يعتمدونها في ذلك، ثم تأتي الفاصلة القرآنية ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾، أي: بالمتجاوزين حدودهم، الذين تسلحوا بالهوى[3].

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

أي: يا داود صلى الله عليه وسلم إنا جعلناك خليفةً في الأرض لتدبر الناس بأمرٍ نافذ الحكم فيهم، حيث يأمر الله تعالى أن يحكم بين الناس بالعدل، وألا يميل مع ما يشتهي إذا خالف أمر الله تعالى، فيضله ذلك الهوى عن دين الله تعالى وطريقه جل جلاله، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن الذين تركوا الإيمان بيوم الحساب، فضلوا عن هذا الدين لهم عذابٌ شديدٌ يوم القيامة[4].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أي: إنما يأتمر بهواه فمهما رآه حسنًا فعله، ومهما رآه قبيحًا تركه، فيكون بذلك

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٠٣.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٦٤.
(٣) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص١٨٣.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٩.

قد استحق إضلال الله تعالى له على علم منه، بأنه يضله لعلمه أنه يستحق ذلك، أو أنه يضله الله بعد بلوغ العلم إليه، ولا شك أن الثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس[1].

رابعًا: اتباع الشيطان:

لقد ورد اتباع الشيطان واضحًا في آياتٍ عديدة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣، ٤].

حيث جاءت هذه الآيات إثر بيان عظيم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانًا لحال بعض المنكرين لها، حيث بينت أن بعض الناس من يجادل في شأن الله تعالى، ويقول فيه ما لا خير فيه من الأباطيل ملابسًا بغير علمٍ، أي: دون دليلٍ من القرآن الكريم أو من السنة النبوية، ويتبع فيما يتعاطاه من المجادلة، أو في كل ما يأتي، وما يذر من الأمور الباطلة، التي من جملتها اتباع كل عاتٍ متمرد متجرد للفساد، والمراد هنا إما رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم إلى الكفر؛ فهم شياطين الإنس، وإما إبليس وجنوده؛ فهم شياطين الجن[2].

وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص: ١٥].

إن هذه الآية تبين أن نبينا موسى صلى الله عليه وسلم بعد أن بلغ أشده واستوى وأوتي من الحكم والعلم الشيء الكثير -وأن هذا جزاء كل محسن في طاعته- قد دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، إما وقت مقولته، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾، أي: يتخاصمان ويتضاربان، ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ من بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ﴾ من القبط، ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾؛ لأنه قد اشتهر وعلم الناس أنه من بني إسرائيل.

واستغاثته لموسى صلى الله عليه وسلم دليل على أنه صلى الله عليه وسلم بلغ مبلغًا يخاف منه، ويرجى من بيت المملكة والسلطان، فوكز الذي من عدوه استجابةً لاستغاثة الإسرائيلي، فأماته من تلك الوكزة؛ لشدتها وقوة موسى صلى الله عليه وسلم، فندم موسى عليه السلام لما جرى منه، وقال هذا من تزيين الشيطان، بوسوسته، فلذلك أجريت ما أجريت، بسبب عداوته البينة،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٦٨.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٩٢.

وحرصه على الإضلال[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

أي: ألم تر يا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن والتوراة، ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن؛ لتأكيد العجيب من حالهم، وتشديد التوبيخ والاستقباح؛ لبيان كمال المباينة بين دعواهم المقتضية حتمًا للتحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين ما صدر عنهم من مخالفة الأمر المحتوم، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الداعي إلى الطغيان، بالحكم على خلاف المنزل إليك، والمنزل على من قبلك، فيعصون الله تعالى، ويطيعون الشيطان، ويريد الشيطان جنًا كان أو إنسًا أن يضلهم ضلالًا بعيدًا عن الحق والهدى[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

أي: لأحرفنهم عن دين الله تعالى إلى دين شرعه لهم إبليس كهيئة البحائر والسوائب[3]، وقيل: لأضلنهم عن الحق، ولأمنينهم الأماني الباطلة، كطول الحياة، وألا بعث ولا عقاب، ومعنى ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: يشقون آذان الأنعام؛ لتحريم ما أحل الله تعالى[4].

خامسًا: اتباع الكبراء والرؤساء:

قد برز اتباع الكبراء والرؤساء واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

تبين هذه الآية الكريمة أن الكبراء والسادة هم الذين لقنوا الكافرين الأتباع، والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر؛ لتقوية الاعتذار، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة، وقد قرئ «سادة»؛ و«سادات» على جمع الجمع -كما ورد عن ابن عامر الشامي-؛ للدلالة على الكثرة، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين اعتراف الأتباع بأن الكبراء والسادة الذين هم رؤساؤهم في الشرك والشر، صرفوهم عن طريق الإسلام والتوحيد، بما زينوه لهم من الكفر والشرك، ولا شك أن حال الأتباع حينما قالوا كانت معاناة، وقسوة، وشدة في العذاب في النار[5].

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أن الكفار

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٣.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ١٩٣.
(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٦٨٨.
(٤) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٥٦٢.
(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٢٤٤، التفسير المظهري ٧/ ٣٨٦، الصحيح المسبور، حكمت ياسين ٤/ ١٤٦.

ينادون الله تعالى بصفة الربوبية؛ لأنهم يتحننون إليه، ويتوسلون إليه تعالى؛ لعل هذه الغمة تذهب عنهم، وتبين هذه الآية الكريمة أن الأتباع يقولون عن السادات والكبراء بأنهم أضلوهم السبيل؛ ليبينوا أنهم كانوا الحريصين على الإسلام، لكن قادة الكفر قد نصبوا المصائد والفخوخ والمشانق؛ حتى يحرفوهم عن الحق.

سادسًا: اتباع الآباء:

وقد ورد اتباع الآباء واضحًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الصافات: ٦٦-٦٩].

حيث إن الآية التاسعة والستين جاءت تعليلًا بما جازى الله تعالى الكافرين به من العذاب، وإبداءً للمناسبة، بينه وبين جرمهم، فإن جرمهم كان تلقيًا لما وجدوا عليه آباءهم من الشرك وشعبه، بدون نظر ولا اختيار لما يختاره العقل، فكان جزاؤهم أنهم يطعمون طعامًا مؤلمًا، ويسقون شرابًا قذرًا، بدون اختيارٍ منهم، كما تلقوا دين آبائهم تقليدًا واعتباطًا[1].

فإن أولئك القوم وجدوا آباءهم على ضلالة، فهم على آثار آبائهم يسرعون، ولقد ضل عن قصد السبيل قبلهم من الأمم الخالية[2].

وبعد كل ما تقدم من بيان تقليدهم لآبائهم في الكفر، يتضح أنهم عريقون في الضلالة، وهم في الوقت ذاته مقلدون، لا يفكرون ولا يتدبرون، بل يطيرون معجلين يقفون خطى آبائهم الضالين غير ناظرين، ولا متعقلين، وقد كان ضلالهم بعد الإنذار والتحذير، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢-٧٣][3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٢٦.

(٢) انظر: الموسوعة القرآنية، الأبياري ١١/ ٥٠، أوضح التفاسير، محمد الخطيب ص٥٤٧.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٩١.

مجالات الضلال

ويقصد بمجالات الضلال هنا تلك الجوانب التي يقع فيها انحراف وضلال، وهي:

أولًا: العقائد:

ستتناول هنا بيان ضلال الكافرين عن اتباع الدين، في أصوله ومعتقداته؛ حيث إن القرآن الكريم بين ضلالهم من خلال جوانب عديدة، منها:

١. ضلالهم بالكفر بكل الدين مجمله ومفصله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والضلال هنا بعدٌ عن الحق، وقد جاء في رأس هذه الآية أمرٌ للمؤمنين بأن يؤمنوا بالله تعالى، أي: يثبتوا على الإيمان، كأن تقول للرجل الواقف: اثبت واقفًا، وقال البعض: هو خطابٌ للمنافقين، الذين آمنوا باللسان أن يؤمنوا بالقلب، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه خطابٌ لأهل الكتاب، أي: أنهم كما آمنوا بموسى وعيسى -عليهما السلام-، يؤمرون في هذه الآية بأن يؤمنوا بمحمد، والكتاب الذي نزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبل، أي: كل الكتب المنزلة من قبل القرآن[(١)].

٢. الضلال بعبادة غير الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف جل ثناؤه صفته عند رجوع موسى صلى الله عليه وسلم إليهم، واستسلموا لموسى صلى الله عليه وسلم، وحكمه فيهم، ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله تعالى، وكفروا بربهم، عندها قالوا تائبين إلى الله تعالى، منيبين إليه من كفرهم به: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٢)].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن بني إسرائيل الذين اجتازوا البحر مع نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم، ونجوا بفضل الله تعالى من فرعون وقومه، قد ضلوا حينما أخرج لهم السامري عجلًا جسدًا له خوارٌ، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، وبعد تلبسهم

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٤٩٠، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٤١٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١١٩.

بعبادته أرادوا أن يرجعوا إلى الله تعالى تائبين منيبين، وقبل أن يقبل الله تعالى توبتهم رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا؛ لأن الله تعالى كان قد أخبره أن قومه قد فتنوا، وأن السامري قد أضلهم؛ فكان حال رجوعه حال غضبٍ وأسف، فلا تنفع بني إسرائيل الشرائع ما داموا قد كفروا بالعقائد؛ ولذلك ألقى الألواح وفعل ما فعل بأخيه هارون، إذ إنه أوصاه قبل أن يذهب إلى ربه أن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين، فابتدره أخوه هارون صلى الله عليه وسلم قائلًا له: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وعندها استغفر موسى صلى الله عليه وسلم له ولأخيه هارون صلى الله عليه وسلم وطلب أن يدخلا في رحمة الله تعالى.

وقد ورد في آياتٍ أخرى أنه ليس هنالك أضل ممن يدعو من دون الله تعالى من لا ينتصر ولا يستجيب، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

والمراد: ليس هناك أضل ممن يقف أمام الأصنام والأوثان، ويطلب منهم الرزق والخير، وما شابه؛ لأنهم لا يمكن أن يستجيبوا له إلى يوم القيامة، فهم لا يسمعون، ولا يفهمون؛ إذ إنهم غافلون[1].

وقد وردت آية أخرى في السياق نفسه تبين أن الذي يختار الكفر بعد إيمانه فهو ضالٌ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

حيث قيل في معنى هذه الآية: إنه من يتبدل الشدة بالرخاء فقد عدل عن السبيل[2]، وقيل: من يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عما لا يعنيه بعد وضوح الحق فقد ضل سواء السبيل[3]، والراجح أن الكفر هنا ما هو مخرجٌ من الملة، وإن كان السياق القرآني حمالًا للمعاني السابقة.

٣. ضلال الكافرين في يأسهم من رحمة الله.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

حيث إن نبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين طلب من ضيوفه الملائكة بعدما بشروه بغلامٍ عليم -وهو النبي إسحاق صلى الله عليه وسلم - أن يبينوا له بأي شيء يبشرون؟ فقالوا له: بشرناك بالصدق، فلا تكن من اليائسين من رحمة الله تعالى، فأجابهم بسؤال فيه دهشة واستغراب، ومن

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ٢٠٤.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٩٣.

ييأس من رحمة ربه إلا الضالون الجاهلون الذين خسروا الدنيا والآخرة؟! حيث إن القنوط من رحمة الله تعالى كبيرةٌ، سيما إذا كان من جهة الولد[1].

٤. حكم الله تعالى على الضالين بأنهم لن يهتدوا.

قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

أي: إن تحرص يا محمد صلى الله عليه وسلم على هدى هؤلاء المشركين على الإيمان بالله تعالى، واتباع الحق، فإن من أضله الله تعالى لا هادي له، فلا تجهد نفسك في أمره، وبلغه ما أرسلت به؛ لتتم الحجة، ثم إنهم ما لهم من ناصرٍ ينصرهم من الله تعالى إذا أراد عقوبتهم[2].

٥. المفاصلة العقدية بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

أي: هذا الدين كله الالتزام به هو الحق، وليس هؤلاء الذين جعلتموهم معه شركاء، فماذا بعد عبادة الله تعالى الحق إلا الضلال الذي هو عبادة الشيطان، فكيف تصرف عقولكم إلى عبادة من لا يرزق ولا يحيي ولا يميت؟![3].

ثانيًا: الأحكام الشرعية:

نتناول هنا بيان ضلال المضلين في الأحكام الشرعية، التي تعتبر المفصل للعقائد، التي سبق ذكر بعضها، ومن هذه الأحكام الشرعية: العبادات، والمعاملات.

وسيتم الوقوف على كل واحدٍ من هذين التفرعين، بما يعالج هذا الموضوع -إن شاء الله تعالى-.

أما العبادات: فقد وردت آية توضح ضلال المتمسكين بغير الله تعالى، وهم يظنون أن هذا خيرٌ لهم عند الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

أي: ومن شأن المعبود القدرة على النفع والضر، وليس هذا متوفرًا لدى الأوثان، التي هي جمادٌ لا تقدر على فعل أي شيء، فهلا تخبرون الله تعالى بكونهم شفعاء عنده، وهذا إنباء بما ليس بمعلوم الله تعالى، فإن قيل: كيف أنبأوا الله بما لا يعلم؟

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٥٨، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٠٢.
(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص٤٩٧.

فالجواب هو أن هذا تهكمٌ بهم، وبما ادعوه من الحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأنه الذي أنبأوا به باطل؛ فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه[1].

وأما المعاملات: فقد ورد ذلك في آياتٍ تبين أن العلاقة بين الإنسان وربه ليست علاقة ضلال؛ لأن الله تعالى يبين الحق من الباطل؛ فإما أن يشكر الإنسان فيهتدي، وإما أن يكفر فيضل، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٥].

هذه الآية من تتمة ما تقدم من تأكيد مباينة المشركين، والبراءة منهم، وترك الاستغفار؛ وذلك لأنهم حقت عليهم الكلمة، حيث قامت عليهم الحجة بإبلاغ الرسول إليهم ما يتقون، ودلالته إياهم على الصراط السوي، فضلوا عنه فأضلهم الله، فاستحقوا عقابه، إنه تعالى عليمٌ بجميع الأشياء[2].

وليس من قبيل العادة في القرآن الكريم أن يصف الله تعالى المشركين بأنهم ضالون عن طريق الحق، وأن أحكامه تجري عليهم بعد أن هداهم للإسلام؛ حتى يبين لهم بالوحي صريحًا أو دلالةً ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين، فلا ينزجر أحدٌ عما نهي عنه قبل إنزال الشرائع الحقة؛ لأنه لا يسمى ما صدر عنهم ضلالًا، ولا يؤاخذون به، فكأنه تسليةٌ للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك، وفيه دليلٌ على أن الغافل غير مكلف بما لا يستند بمعرفته العقل[3].

ثم وردت آية أخرى في سياق الضلال في المعاملات، تبين العلاقة بين الناس بعضهم لبعض، بين فريق المؤمنين المهتدين، وبين فريق الكافرين الضالين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

أي: الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها، واحفظوها من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب، فواجبٌ عليكم أنفسكم[4].

والضلال هنا ليس ضلال الكفر، ولكن في الضلال عن الحق في الإسلام؛ لأن من المسلمين من يقصرون فيجب دعوتهم إلى الحق، وإذا لم يلتزموا فعندها لا يضر من دعاهم هذه الضلالة التي هم فيها[5].

وقد وردت آية كريمة تبين أن المشركين حينما أقيمت عليهم الحجة بأمرهم بالإنفاق

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٤.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٥١٧.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم أبو السعود ٤/ ١٠٨.
(٤) انظر: المصدر السابق ٣/ ٨٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٤٨.
(٥) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٥١.

في سبيل الله تعالى توطئةً لأمرهم بالإسلام إذا بهم يقلبون الحق ضلالًا، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

فإن هذه الآية تأتي في سياق الحديث عن المشركين الذين من الكفر ما بلغوا؛ حيث تبين أنهم إذا قيل لهم من قبل المؤمنين الداعين إلى الله تعالى: أنفقوا مما منحكم الله تعالى من الرزق، وهذا لإقامة الحجة عليهم؛ لبيان ضلالهم؛ إذ إنه ليس بعد الكفر ذنب، حينها يردون على المؤمنين بقولهم: إذا لم يشأ الله أن يطعمهم لم نطعمهم؟ ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن المشركين وصلوا إلى عمىً عن الحقيقة؛ حتى قلبوا الموازين فقالوا للمؤمنين: ما أنتم إلا غارقون في الضلال البائن بينونةً واضحةً[(١)].

ثالثًا: الأخلاق:

ورد في القرآن الكريم ما يبين أن أهل الضلال لازمهم صفة البعد الكامل عن الأخلاق، كما أن القرآن الكريم بين أن الدعاة استخدموا مصطلح الضلالة في دعوتهم لأقوامهم، وسيتم الوقوف -إن شاء الله تعالى- هنا على بعض النماذج القرآنية لكل نقطة من النقطتين السابقتين، وذلك فيما يأتي:

١. استهزاء أهل الضلال بالرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

حيث يبين الله تعالى في هاتين الآيتين أن المشركين إذا رأوا النبي صلى الله عليه وسلم لا يتخذونه إلا هزوًا، متسائلين سؤالًا فيه عدم تقدير، أهذا الذي بعث الله رسولًا، ثم يتمادون في قلة أدبهم، وبشاعة ألفاظهم، وزيادة تعديهم على حدود الإنسانية، بقولهم: لقد كاد محمد صلى الله عليه وسلم أن يصرفنا عن طريق الحق، وعن عبادتنا، ولكننا حبسنا أنفسنا على عبادتها، ويبين الله تعالى أنهم سوف يعلمون حين يرون العذاب -وكانت يوم بدر- من أضل دينًا؟ أهم أم محمد صلى الله عليه وسلم[(٢)]، ويجوز أن يكون العذاب في الآخرة عند الله تعالى[(٣)].

٢. استخدام مصطلح الضلال في دعوة

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٤٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٢٦١.

الدعاة لأقوامهم.

وقد ورد ذلك في حق نبي الله تعالى موسى صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

أي: «قال موسى لفرعون: فعلت تلك الفعلة التي فعلت، أي: قتلت تلك النفس التي قتلت إذًا وأنا من الضالين. يقول: وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي بتحريم قتله علي»[(١)].

ولا شك أن هذا المصطلح يحمل بين جنباته تأدبًا عظيمًا من النبي موسى صلى الله عليه وسلم؛ إذ إنه حسم النقاش بكونه فعل تلك الفعلة، وكان من الجاهلين عن معرفة ذلك الحكم، فهو يبين أن عذره فيما فعل كونه جاهلًا، ولم تأته الرسالة بعد.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين أن العبد الصالح الذي انتصر للرسل الثلاثة الذين كذبهم قومهم، قال لقومه: إن اتخذت آلهةً من دون الله تعالى إني إذًا لمن المنحرفين عن المنهج، والكافرين بالله، حيث قال تعالى: ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٤].

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٤٠.

مظاهر الضلال

إن الضلال بكل جوانب معناه الشامل تتحدد له مظاهر، يحكم من خلالها على أن هذا المظهر دالٌّ على الضلال، وسيتم هنا -إن شاء الله تعالى- توضيح لكل مظهرٍ على حدة، من خلال الآتي:

أولًا: الشرك بالله تعالى:

إن الشرك بالله تعالى من الأمور التي يصل من خلالها الإنسان إلى الضلال الكبير، ويمكن توضيح هذه الظاهرة من خلال ما يأتي:

١. تفضيل الحياة الدنيا على الآخرة، والصد عن سبيل الله يؤدي إلى الضلال.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

إن كفار قريش وأمثالهم ممن هم على طريقتهم نفسها قد جعلوا لله تعالى أمثالًا في العبادة، أو في التسمية، وكل هذا لأجل الإضلال عن طريق الحق[(٢)].

وإن الإضلال عن سبيل الله يعني الإضلال عن التوحيد، حيث يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم على

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٧٣.

سبيل التوبيخ بأن يتمتعوا بشهواتهم وعبادة الأوثان، والأمر يحمل معنى التهديد أيضًا إيذانًا بأن المهدد عليه كالمطلوب للإفضاء إلى المهدد به، وأن الأمرين كائنان لا محالة، ولذلك علله بقوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، وأن المخاطب لانهماكه فيه كالمأمور به من أمر المطاع[1].

٢. الإشراك بالله تعالى ضلالٌ بعيد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

هذه الآية تعقيب على الآية السابقة؛ للإشارة إلى أن المراد باتباع غير سبيل المؤمنين اتباع سبيل الكفر، من شرك وغيره، فعقبه بالتحذير من الشرك[2].

ومعنى الآية إذًا: فقد سلك غير طريق الحق، وضل عن الهدى، وبعد عن الصواب، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة، وفاتته سعادة الدارين[3]، وإن كل ذنبٍ قابلٌ للغفران إلا الإشراك بالله تعالى، وعبادة غيره، ومعاندة رسول الله الحق، فإن الله تعالى من شأنه المغفرة إلا أن يشرك في عبادته، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[4].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٠٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٤.
(٤) انظر: المنتخب، لجنة من علماء الأزهر ص١٣٠.

ثانيًا: عبادة الأصنام والأوثان:

وقد برز ذلك واضحًا في آياتٍ، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

أي: اذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين تبين لك بالحجج بطلان شركهم، حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر منكرًا عليه وعلى قومه شركهم وعائبًا عليهم جميعًا عبادة الأصنام دون الله تعالى، ثم قال له: إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام في ضلال عن الصراط المستقيم؛ فهو ضلالٌ بينٌ لا شبهة فيه للهدى[5].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

وهذا دعاءٌ من نبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم لله تعالى أن يجعل مكة المكرمة بلدًا آمنًا، وأن يباعده الله تعالى وبنيه عن عبادة الأصنام، ثم تعلل الآية الثانية بأن هذه الأصنام أضلت عن الطريق المستقيم كثيرًا من الناس، وتأتي الفاصلة القرآنية لتدلل على تأدب نبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم في الطلب من الله تعالى لصالح بنيه، حيث

(٥) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٦٨.

يقول: من اتبع منهجي التوحيدي لله فهو مني، ومن عصاني بضلاله أو إضلاله عن الدين فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم[(١)].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

أي: في ضلال بين واضحٍ، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك وترك التوحيد، أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح البين لأي أحد[(٢)].

ثالثًا: الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم:

ورد في القرآن الكريم ما يبين أن الكفار بلغوا من ضلالهم ما جعلهم يستهزئون برسلهم، وهناك نموذجان من هذا الاستهزاء:

١. الاستهزاء بنبي الله نوح صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأعراف: ٦٠].

حيث رد الكفار - وهم أشراف القوم ورؤساؤهم، حيث سموا بالملأ؛ لما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأي؛ أو لأنهم يملؤون العيون أبهة- على نبيهم نوح صلى الله عليه وسلم، حينما دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وبين لهم خوفه وشفقته عليهم من العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي؛ لاستكبارهم وعدم انقيادهم له، وقدحهم فيه أعظم قدحٍ، ونسبوه إلى الضلال الذي هو عدول عن الطريق، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، حتى جعلوه ضلالًا مبينًا واضحًا لكل أحد[(٣)].

٢. دفع شبهة الضلال والإغواء عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

فبعد أن أقسم الله تعالى بالقرآن الذي نزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وعبر عنه بالنجم يبين في هذه الآية أن النبي محمدًا الذي أنزل عليه القرآن، والذي هو من قريش التي تعرف نسبه، وشرفه فهو ليس بضالٍ ولا بمجنون، وليس بغويٍ يعتقد باطلًا، بل هو رشيد مرشد، دالٌ على الله تعالى، لم يتكلم بالقرآن عن هوى نفسه، ولا عن رأيه أصلًا، فما القرآن إلا وحيٌ من الله تعالى، يجدد إيحاؤه إليه صلى الله عليه وسلم وقتًا بعد وقت[(٤)].

ولا شك أنهم قصدوا الاستهزاء بالرسول

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٣٤، ١٣٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٢٩٢.
(٤) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي ٢/ ٤٦٣.

صلى الله عليه وسلم، لكن هذه الآية جاءت لتدفع هذا الاستهزاء.

وقد سبقت الإشارة إلى آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

حيث يقول المشركون إذا رأوك رأي العين فيتخذونك مهزوءًا به: هل هذا الذي بعثه الله رسولًا؟! فقد قارب أن يضلنا عن عبادة الله، ولو لم نصبر عليها لصرفنا عنها، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين أنه سوف يعلم المشركون حين يأتيهم عذاب الله تعالى من أخطأ طريقًا[(١)].

رابعًا: تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله:

وقد ورد ذلك جليًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

فبعد أن بينت الآيات السابقة بعض أحكام الأشهر الحرم، وأنها أربعة، يوم خلق الله تعالى السماوات والأرض، وأن الله تعالى معيته مع المتقين، تبين هذه الآية الكريمة بأسلوب الحصر أن تأخير المحرم إلى صفر زيادة مبالغة في الكفر والإثم[(٢)]؛ فإن هذا التأخير عدولٌ عن المنهج الحق، من قبل الكافرين، حيث يحلونه إذا قاتلوا فيه، ويحرموا مكانه صفرًا، وأما إذا لم يقاتلوا فيه حرموه[(٣)].

وكأنهم يستهزئون بهذه الأشهر الحرم؛ فإن الذي التزموا به فقط هو موافقة عدة هذه الأشهر، وهي أنها أربعة خلال العام، فالمصيبة أنهم أحلوا ما حرم الله تعالى، وقد زين لهم عملهم السيئ، ثم تأتي الفاصلة لتقرير أن الله تعالى لا يكتب الهداية التوفيقية للقوم الذين وصلوا إلى مرحلة الكفر الخارج عن الملة، والمقصود هنا كفار قريش، رغم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

خامسًا: القتل:

لقد برز ضلال القتل واضحًا في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

فقد بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٤٧.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٧.

(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص٤٦٣.

أن كفار قريش وغيرهم ممن سار على نفس طريقتهم قد خسروا؛ لأنهم وأدوا بناتهم، وحرموا البحيرة بعقولهم، فقتلوا الأولاد سفهًا في الرأي خوف الفقر، وحجروا على أنفسهم في أموالهم، ولم يخشوا في ذلك الفقر، فأبان ذلك عن تناقض آرائهم، وكان من العرب من تقتل الولد سفهًا بغير حجة منهم في قتلهم، وهم ربيعة ومضر، وكانوا يقتلون لأجل الحمية، ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله[1].

وتأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن من فعل هذا قد ضل عن طريق الحق والرشاد، وما كان مهتديًا إلى طريق الصواب[2].

سادسًا: موالاة الأعداء:

لقد عالج القرآن الكريم هذا المظهر الذي هو علامةٌ دالةٌ على ضلال كل من وقع في شركه، وذلك من خلال الآتي:

١. دفع شبهة الموالاة للادعاء في حق الله.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

أي: وما كنت متخذ المضلين أعوانًا[3].

وفي هذا بيان لقبح ما اقترفوه من ادعاء باطل.

٢. اعتراف الكافرين بأن المجرمين هم من أضلهم.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٩].

أي: وما دعانا إلى الضلال إلا المجرمون الأوائل ممن سبقنا[4].

٣. نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن طاعة أكثر أهل الأرض.

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

إن أهل الله تعالى قليلون عددًا، وإن كانوا كثيرين وزنًا وخطرًا، وأما الأعداء ففيهم كثرة، فإن لاحظتهم يا محمد صلى الله عليه وسلم فتنوك، وإن صاحبتهم منعوك عن الحق وقلبوك[5]؛ لأن المشركين كانوا يدعون إلى عبادة الأوثان فما يتبعون بعبادتهم الأوثان إلا ادعاء آلهة بظن منهم[6]، وإن ما كان من ظنٍ في القرآن الكريم فهو يقين[7].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٩٦-٩٧.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٦٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٦٩.
(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ص٧٩٢.
(٥) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٤٩٦.
(٦) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٩٣.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم

آثار الضلال في الدنيا والآخرة

إن للضلال آثارًا عظيمة تحل بكل ضالٍ في الدنيا والآخرة؛ إذ إن الله تعالى قد يمهلهم، لكنه قطعًا لا يهملهم، ويمكن تقسيم هذه الآثار إلى:

أولًا: آثار الضلال في الدنيا:

بالنظر في آيات القرآن الكريم التي أوردت موضوع الضلال يمكن الخروج بمعرفة آثار الضلال في الدنيا، ومن خلال جوانب، أهمها:

١. الضال يضيق صدره، ولا يتسع للهداية.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أي: شديد الضيق، كأنما يصعد في السماء؛ لشدته وثقله عليه[١].

٢. العذاب الأليم في الدنيا.

ومثال هذا ما لحق بقوم نوح صلى الله عليه وسلم وغيره من الغرق، وغير ذلك من العذابات؛ فقد قال الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

أي: «فكذب نوحًا قومه إذ أخبرهم أنه لله رسولٌ إليهم، يأمرهم بخلع الأنداد، والإقرار بوحدانية الله، والعمل بطاعته، وخالفوا أمر ربهم، ولجوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به»[٢].

٣. الضالون من الإنس يوبخهم القرآن بأن الأنعام أعلى منهم شأنًا في الهداية.

قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

أي: «أخطأ طريقًا»[٣].

٤. الختم على سمع وقلب الضال، وكذلك الغشاوة على بصره.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أي: أفرأيت الكافر الذي اتخذ دينه ما يهواه، وعدله الله عن المنهج المستقيم على ما سبق في علمه قبل أن يخلقه أنه ضالٌ[٤].

٥. الضال بغير علم يكون في الدنيا أسوأ الظالمين.

٤/ ١٣٧٥.

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص٣٧٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٢٦٢.

(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ص٩٩١.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

فإن الله تعالى بين أنه يوجد أظلم ممن كذب على الله تعالى، وافترى بتحريم شيء لم يحرمه الله تعالى؛ لأجل أن يضل الناس بجهلٍ، أو افتراء عليه جاهلًا بصدور التحريم[(١)].

٦. تمكن الشيطان من الضالين.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

فإن من جعل الشيطان وليًا له من دون الله تعالى فشأنه أن يضله ذلك الشيطان عن طريق الجنة، أو طريق الحق[(٢)].

٧. ضلال الأعمال للكافرين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨].

وضلال الأعمال هنا: جعلها على غير هدىً واستقامة[(٣)]، وذلك من خلال إبطالها؛ لأنها كانت في طاعة الشيطان[(٤)].

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي ٤/ ٢٦١.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٩٣.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٦٩.
(٤) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ص٥٠٧.

ثانيًا: آثار الضلال في الآخرة:

من آثار الضلال في الآخرة:

١. اعتراف الشيطان القرين بضلال من كان معه.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

أي: «قال شيطانه الذي كان معه في الدنيا: ربنا ما أضللته، ولكن كان في طريق بعيدٍ عن سبيل الهدى»[(٥)].

٢. العمى عن الهدى إلى الجنة يوم القيامة، ومن ثم دخول النار.

قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

أي: «من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله تعالى الدالة على وجوده وعلمه وقدرته، فلم يؤمن به، ولم يعبده فهو في الآخرة أشد عمىً وأضل سبيلًا»[(٦)].

٣. يحشر الضالون يوم القيامة عميًا وصمًا وبكمًا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ

(٥) المصدر السابق ص٥١٩.
(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢١٥.

﴿سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

فإن الإضلال هنا يعني: العدول عن المنهج؛ لفساد الطبع[١].

علاج الضلال

إن القرآن الكريم قد بين أن هذا المرض الخطير الذي يوصل مرتكبه إلى الخروج من الملة له علاج، لكنه يحتاج إلى صدقٍ في الطلب من الله تعالى لأن ينجيه من ذلك المرض، ويمكن تلخيص العلاج القرآني لهذا الضلال، من خلال الآتي:

١. عدم اتباع الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

والخطاب للجميع فإن الكل لولا فضل الله لاتبع الشيطان إلا القليل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم[٢].

٢. الرجوع إلى الله تعالى بصدق التوبة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص٤٢٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٣/ ١٠١٧.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

فإن إخلاص التوحيد، ونبذ كل أثر للشرك في العبادة لله تعالى، والتنزه عن قتل النفوس التي حرم الله تعالى، والبعد عن الزنى الذي عليه إثم عظيم في الدنيا والآخرة إلا التائبين إلى الله تعالى عن الذنوب، الذين صدقوا في إيمانهم، وأتبعوا ذلك بالطاعات، والأعمال الصالحات، فهؤلاء يجعل الله لهم مكان السيئات الحسنات، فيثابون عليها أجزل الثواب، وهكذا مضى أمر الله تعالى، فإن من تاب من إثمه، وظهر أثر ذلك في إقباله على الطاعة، واجتنابه المعصية، فهو الذي يقبل الله توبته، وبها يرجع إلى ربه بعد نفاره[(١)].

٣. ذكر الله تعالى كثيرًا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

حيث «أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره، بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير، وكل ما هو ذكر لله تعالى»[(٢)].

٤. طاعة الله تعالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

«أي: أطيعوا طاعة من صميم قلوبكم، لا من ظاهر أقوالكم، وذكر الرسول مع الله؛ للإشارة إلى التلازم بينهما، وإلى أن طاعة الرسول واجبة على الأمة؛ لكيلا يتململ اليهود، والمنافقون من إجابة الرسول، زاعمين في نفوسهم الفاسدة الفصل بين طاعة الله وطاعة رسوله، فيعصون الرسول، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، والخطاب للمنافقين ومن في قلوبهم مرض»[(٣)].

٥. اتباع سبيل المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فإن سبيل المؤمنين هو دين الله تعالى[(٤)].

موضوعات ذات صلة:

الاستقامة، الصد عن سبيل الله، الغلو، الفساد، الكفر، الهداية

(١) انظر: المصدر السابق ص٥٤٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٣٠.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٢١٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٤٠٦.

الطاعة

عناصر الموضوع

مفهوم الطاعة	٣٤٢
الطاعة في الاستعمال القرآني	٣٤٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٤
الأساليب القرآنية في الحث على الطاعة	٣٤٦
أنواع الطاعة المحمودة	٣٥٦
عاقبة الطاعة	٣٧١

مفهوم الطاعة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الطاء والواو والعين أصل صحيح واحد، يدل على الإصحاب والانقياد، يقال: طاعه يطوعه إذا انقاد معه، ومضى لأمره، وأطاعه بمعنى طاع له، ويقال لمن وافق غيره: قد طاوعه»[(١)].

وقال الليث: «الطوع: نقيض الكره، لتفعلنه طوعًا أو كرهًا، وطائعًا أو كارهًا، وطاع له إذا انقاد له، فإذا مضى لأمره فقد أطاعه، وإذا وافقه فقد طاوعه، قال: والطاعة: اسم من أطاعه إطاعة، والطواعية: اسم لما يكون مصدر المطاوعة، يقال: طاوعت المرأة زوجها طواعية»[(٢)].

يتبين مما سبق أن المعنى اللغوي للطاعة يدل على الاصطحاب و الانقياد وموافقة الغير.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لم يبتعد المعنى الاصطلاحي للطاعة عن معناها اللغوي كثيرًا، بل دار في فلكها، فحول معاني الانقياد والامتثال واتباع الأمر واجتناب النهي يدور المعنى.

قال ابن عطية: «الطاعة: هي موافقة الأمر الجاري عند المأمور مع مراد الأمر»[(٣)].

وقال السيوطي: «الطاعة: امتثال أمر بات على حكم الواقعة»[(٤)].

ولخص ذلك كله الطاهر ابن عاشور بقوله: «الطاعة: امتثال الأمر والنهي»[(٥)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣١.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٦٦.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٠٧.
(٤) مقاليد العلوم، السيوطي ص٧٥.
(٥) التحرير والتنوير ٩/ ٣٠٣.

الطاعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طوع) في القرآن الكريم (١٣٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (٧٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٤	﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]
الفعل المضارع	٢٩	﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف:٢٨]
فعل الأمر	٢١	﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران:٣٢]
المصدر	٧	﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد:٢١]
اسم الفاعل	١	﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١]
اسم المفعول	١	﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير:٢٠-٢١]

وجاءت الطاعة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الانقياد، لكن أكثر ما يقال في الائتمار فيما أمر[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الطاء، ص٧٢٣-٧٢٦.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٥١٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ العبادة:

العبادة لغة:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه[(١)].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب،

وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل[(٢)].

الصلة بين الطاعة و العبادة:

إن العبادة هي غاية الخضوع ولا تستحق إلا بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يعبد غير الله تعالى، ولا تكون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود، والطاعة هي ذلك الفعل الواقع على حسب ما أراده المريد متى كان المريد أعلى رتبة ممن يفعل ذلك، وتكون للخالق والمخلوق، والعبادة لا تكون إلا للخالق[(٣)].

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٤٤٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٣٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٢٢١.

٢ التطوع:

التطوع لغة:

الطاء والواو والعين أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدل على الإصحاب والانقياد. يقال: طاعه يطوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره [١].

التطوع اصطلاحًا:

التطوع في الأصل: تكلف الطاعة، وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم كالتنفل [٢].

الصلة بين الطاعة والتطوع:

أصلهما من الطوع: الذي هو من الانقياد، والفرق بينهما أن الطاعة موافقة الإرادة في الفريضة، والنافلة والتطوع: التبرع بالنافلة خاصة [٣].

٣ العصيان:

العصيان لغة:

الخروج عن الطاعة [٤].

العصيان اصطلاحًا:

هو ترك الانقياد [٥].

الصلة بين الطاعة والعصيان:

العصيان ضد الطاعة، وهو الامتناع عن الانقياد، وترك أمر الله تعالى، والخروج عن طريق الحق، ويقابله الطاعة التي هي امتثال الأمر والنهي [٦].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٠.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٣٥.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٥٨.
(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٥١.
(٦) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٠٦.

الأساليب القرآنية في الحث على الطاعة

تنوعت أساليب القرآن في الحث على الطاعة، وفيما يأتي بيان لها:

أولًا: أسلوب الطلب (الأمر):

تنوعت أساليب القرآن في الحث على الطاعة، فتارة تأتي بصيغة الأمر، ويشمل ذلك استخدام اللفظ نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى على لسان أكثر من رسول لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨-١١٠-١٢٦-١٣١-١٤٤-١٦٣-١٧٩]. [آل عمران: ٥٠]. [الزخرف: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية[1].

ثانيًا: أسلوب النهي عن ضده:

تأكدت معاني الآيات الآمرة بطاعة الله ورسوله بذكر الآيات الناهية عن المعصية، والإعراض والتولي أيضًا، وهذا كله ضد الطاعة، وهذا النهي يأتي أحيانًا مذكورًا مع أوامر الطاعة؛ وذلك لتأكيد المعنى، والتحذير من المخالفة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

إن الله عز وجل بعد أن أمر بطاعته وطاعة نبيه بين أن إعراض المعرض عن ذلك لن يضر به إلا نفسه، فقد أقيمت الحجج، وانتهت الأعذار، وأدى النبي رسالته، وبلغ ما أمر به.

قال الألوسي: «﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم، ولم تعملوا بما أمرتم به ﴿فَاعْلَمُوا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٣.

﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ولم يأل جهدًا في ذلك فقامت عليكم الحجة، وانتهت الأعذار، وانقطعت العلل، ولم يبق بعد ذلك إلا العقاب، وفي هذا -كما قال الطبرسي وغيره- من التهديد وشدة الوعيد ما لا يخفى»[1].

وقال ابن عاشور: «﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ تفريع عن «أطيعوا» «واحذروا» والتولي هنا استعارة للعصيان، شبه العصيان بالإعراض والرجوع عن الموضع الذي كان به العاصي، بجامع المقاطعة والمفارقة، وكذلك يطلق عليه الإدبار، ففي حديث ابن صياد (ولئن أدبرت ليعقرنك الله)[2]، أي: أعرضت عن الإسلام»[3].

وهذا الأسلوب، أي: أسلوب الجمع بين الأمر بالطاعة، والتحذير والنهي عن التولي والإعراض؛ له أثر بالغ في توكيد المعنى عن المستمع؛ ولذا نجده قد تكرر في أكثر من آية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وجاءت آيات أخرى تتوعد العصاة بالعذاب والخسران، وفي هذا نهي ضمني عن معصية الله ورسوله؛ لأنه طريق هلاك وضلال، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

هذه الآية جاءت بعد ذكر بعض أحكام الفرائض والمواريث؛ ولذلك ربط كثير من العلماء بينها وبين ما قبلها، فقال الطبري: «﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في العمل بما أمراه به من قسمة المواريث على ما أمراه بقسمة ذلك بينهم وغير ذلك من فرائض الله، مخالفًا أمرهما إلى ما نهياه عنه ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ يقول: ويتجاوز فصول طاعته التي جعلها تعالى فاصلة بينها وبين

(١) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٤/ ٢٠٣، رقم ٣٦٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ٤/ ١٧٨٠، رقم ٢٢٧٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣١.

معصيته، إلى ما نهاه عنه من قسمة تركات موتاهم بين ورثتهم وغير ذلك من حدوده؛ يدخله نارًا باقيًا فيها أبدًا، لا يموت ولا يخرج منها أبدًا، وله عذاب مذلٌ من عُذِّبَ به، مخزٍ له»[(١)].

وقال ابن الجوزي: «ومن يعص الله فلم يرض بقسمه يدخله نارًا، فإن قيل: كيف قطع للعاصي بالخلود؟ فالجواب: أنه إذا رد حكم الله، وكفر به؛ كان كافرًا مخلدًا في النار»[(٢)].

وليس المراد بهذا أن يقتصر العقاب المذكور على من عصى الله ورسوله في أمر المواريث فحسب، بل الآية جاءت عامة لتشمل كل معصية لله ورسوله في شتى الحدود والأوامر.

يقول الأصفهاني: «كما وصف في مراعاة الحدود ثواب مراعيها، وصف في تضييعها عقاب متعديها، وأطلق القول فيهما ليكون عامًا في ذلك وفي غيره من الحدود التي بينها، وذكر في العذاب الهوان، كما ذكر في غيره الخزي، لما عرف من عادة كثير من الناس أن تقل مبالاتهم بالشدائد ما لم يضامها الهوان، حتى قالوا: المنية ولا الدنية، والنار ولا العار، فبين أنه يجمع لهم الأمران»[(٣)].

ومثل هذا التوعد بالعذاب على المعصية والمخالفة العامة نجده في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن عطية: «أمرهم بالحذر من عذاب الله ونقمته إذا خالفوا عن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ معناه: يقع خلافهم بعد أمره، وهذا كما تقول: كان المطر عن ريح، و«عن» هي لما عدا الشيء، و«الفتنة» في هذا الموضع الإخبار بالرزايا في الدنيا، وبالعذاب الأليم في الآخرة، ولا بد للمنافقين من أحد هذين ملكًا وخلفًا»[(٤)].

وبين الله عز وجل أيضًا أن أوامره وأوامر نبيه من الأمور التي لا اختيار للمسلم فيها، بل يقبلها وينقاد إليها؛ لأن فيها مصلحة العبد في الدنيا والآخرة، حتى وإن جهل الحكمة من هذه الأوامر، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٧١-٧٢.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٨١.
(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١١٣٩.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٩٨.

قال الطبري: «لم يكن لمؤمن بالله ورسوله، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيعصوهما، ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا أو نهيا ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي: فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدي والرشاد»[1].

وفي سبب نزول هذه الآية خاصة، يذكر أهل التفسير سببين:

أحدهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق يخطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فقالت: لا أرضاه، ولست بناكحته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بلى فانكحيه، فإني قد رضيته لك) فأبت، فنزلت هذه الآية، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والجمهور.

وذكر بعض المفسرين أن عبد الله بن جحش أخا زينب كره ذلك كما كرهته زينب، فلما نزلت الآية رضيا وسلما[2].

لكن حتى إن صح سبب النزول المذكور فيبقى أن الآية عامة في جميع الأمور؛ وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ها هنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣][3].

ووردت آيات أخرى في ذم هؤلاء المتخلفين المعرضين عن طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾[النور: ٤٧-٥٠].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولًا بألسنتهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾».

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٧١.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٦٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢٣.

وإذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٩].

أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله: ﴿مُذْعِنِينَ﴾ وإذا كانت الحكومة عليهم أعرضوا ودعوا إلى غير الحق، وأحبوا أن يتحاكموا إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم ليروج باطلهم، فإذعانهم أولًا لم يكن عن اعتقاد منهم أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواهم؛ ولهذا لما خالف الحق قصدهم عدلوا عنه إلى غيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ [النور: ٥٠].

يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأيًا ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم، وما هو عليه منطو من هذه الصفات.

وقوله: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].

أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك[1].

ثالثًا: الثناء على المطيعين:

الثناء على أصحاب بعض الأعمال أو المواقف من الأشياء التي لها أبلغ الأثر في نفوس هؤلاء العاملين، ترفع معنوياتهم، تحفزهم، تشجعهم، تعينهم على مواصلة عملهم؛ لذلك كان الثناء وسيلة تربوية، استخدمت في القرآن والسنة.

وممن أثنى الله عليهم في كتابه: المطيعون، فلقد وردت آيات عديدة في كتاب الله عز وجل تثني عليهم وتمدحهم، وتنعتهم بأحسن الصفات، فتارة تنعتهم بالإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وسبب نزول هذه الآية: أنه لما نزلت

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٤.

على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤].

اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألستهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

«قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم»[1].

فكان في هذا ثناء من الله عز وجل عليهم، وعلى طاعتهم وانقيادهم، وشهادة لهم من الله بالإيمان، وكفى بها شهادة، وكان هذا كله ثمرة لانقيادهم وطاعتهم لأمر نبيهم صلى الله عليه وسلم.

وفي آية أخرى ذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات، فكان من صفاتهم أنهم مطيعون لله ولرسوله، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وتارة نجد الآيات تنعت المطيعين بالفائزين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه)، ١/ ١١٥، رقم ١٢٥.

قال الطبري: «﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمره ونهاه، ويسلم لحكمهما له وعليه، ويخف عاقبة معصية الله ويحذره، ويتق عذاب الله بطاعته إياه في أمره ونهيه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين يفعلون ذلك ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ برضا الله عنهم يوم القيامة، وأمنهم من عذابه»[1].

ومثل هذا المعنى نجده في قوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وتارة نجد الآيات تنعت المطيعين بالمفلحين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

قال الطبري: « المنجحون المدركون طلباتهم، بفعلهم ذلك، المخلدون في جنات الله»[2].

وتارة ينعت الله طاعة المطيعين بالخيرية والصواب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء: ٤٦].

قال الطبري: «ولو أن هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم قالوا لنبي الله: سمعنا يا محمد قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئتنا به من عند الله، واسمع منا، وانظرنا ما نقول، وانتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا، لكان ذلك خيرًا لهم عند الله، «وأقوم» أي: وأعدل وأصوب في القول»[3].

رابعًا: بيان عاقبة المطيعين:

لأجل أن يتم الثبوت والتحسن في الاستجابات التي يقوم بها الفرد، لا بد من توفر عامل أطلق علماء النفس عليه عامل الجزاء، فالاستجابات إذا لم تؤد إلى نوعٍ من الترضية، أو الجزاء، أو الإشباع فإن الفرد لا يحاول تكرارها.

ولقد فطر الله الإنسان على حب المثوبة، وما فيها من لذة ونعيم؛ ولذا فإنه يرغب في ذلك، ويعمل من أجل تحقيقه، كما فطره أيضًا على بغض العقاب، وما يترتب عليه من ألم وشقاء؛ لذا فإنه يرهبه، وينفر منه.

ولهذا عني القرآن الكريم والسنة النبوية بالترغيب والترهيب، والثواب والعقاب كأسلوب مهم من أساليب التربية.

ويمتاز أسلوب الترغيب والترهيب، والثواب والعقاب في القرآن الكريم والسنة النبوية عن غيره من أساليب الثواب والعقاب في المناهج التربوية الأخرى

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٨/ ٤٣٦.

-بأنه يعتمد على الإقناع والبرهان، ويكون مصحوبًا بتصوير فني رائع للثواب المرغب فيه، المتمثل في الجنة، وكذلك للعقاب المنتظر، المتمثل في جهنم أعاذنا الله منها- كما يعتمد الترغيب والترهيب في القرآن والسنة أيضًا على إثارة الانفعالات، وتربية العواطف الربانية؛ كعاطفة الخوف من الله تعالى، والتذلل والخشوع له سبحانه والطمع في رحمته، والأمل في ثوابه[1].

ومما يزيد من دافع الطاعة عند المؤمن: الثواب العاجل الذي يلقاه في الدنيا قبل الثواب الآجل في الآخرة، ففي الدنيا ينال المطيعون:

١. الهداية وإصابة للحق.

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وهذا نراه جليًا في حال هؤلاء الذين زينوا ظاهرهم وتعاملاتهم بطاعة الله ورسوله، وعمروا أسرارهم بمراقبة ربهم؛ فتراهم من أكثر الناس توفيقًا وسدادًا، وإصابة للحق، على اختلاف الأحوال والوقائع.

قال ابن الجوزي: «﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿تَهْتَدُوا﴾ وكان بعض السلف يقول: من أمر السنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمر البدعة والهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾»[2].

وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وإن تطيعوا -أيها الناس- رسول الله -فيما يأمركم وينهاكم- ترشدوا وتصيبوا الحق في أموركم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يقول: وغير واجب على من أرسله الله إلى قوم برسالة إلا أن يبلغهم رسالته بلاغًا يبين لهم ذلك البلاغ عما أراد الله به، فليس على محمد -أيها الناس- إلا أداء رسالة الله إليكم، وعليكم الطاعة، وإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم تصيبون، وإن عصيتموه بأنفسكم فتوبقون»[3].

وقال أبو السعود: «﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ أي: فيما أمركم به من الطاعة ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأصلي الموصل إلى كل خير، والمنجي من كل شر»[4].

٢. النصر في الدنيا على الأعداء، والغنيمة والخير الكثير.

كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦].

(١) أصول التربية الإسلامية، عبد الرحمن النحلاوي، ص ٢٣٠.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٠٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٧.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٨٩.

ذهب جمعٌ من المفسرين إلى أن الأجر الحسن المذكور في الآية هو: الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة[1].

وعلى هذا يكون الأجر الحسن هنا من الثواب العاجل والآجل.

وقد رأينا في واقعنا كيف ينصر الله المسلمين ويظهرهم على أعدائهم، إذا ما اعتصموا بربهم، واتبعوا سنة نبيهم، ولو كانوا أقل عددًا وعتادًا منهم، ومثال ذلك ظهر جليًا في عبور المصريين، واقتحامهم لحاجز خط برليف اليهودي الصهيوني، يوم عبروا صائمين، وبأصوات كالرعد مكبرين: الله أكبر، الله أكبر، لقد طلبوا النصر من الله، وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة -كما أمر الله- فحقق الله لهم وعده، فأرهبوا عدو الله وعدوهم، على الرغم من قلة عددهم وعتادهم.

٣. نزول الرحمات، وتحقق الأمن والأمان.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وهذه الرحمة عامة تشمل الدنيا قبل الآخرة، فهي أيضًا من الثواب العاجل والآجل.

قال ابن عاشور: «﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من رحمته الأمن، وفي الآخرة بالدرجات العلى»[2].

وقال الطبري: «وأقيموا -أيها الناس- الصلاة بحدودها، فلا تضيعوها، وآتوا الزكاة التي فرضها الله عليكم أهلها، وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم ونهاكم؛ كي يرحمكم ربكم، فينجيكم من عذابه»[3].

أما المعصية وهجر الطاعة فإنها سبب لنزول العذاب على أصحابها؛ ولذا نرى المصائب والكوارث والحوادث تكثر في تلك البلاد التي تنتشر فيها المعاصي، وتقل فيها الطاعات، ويستهان فيها بأوامر الله ورسوله.

وأما في الآخرة: فالثمرة أعظم وأكبر؛ لأن هذا ثواب باقٍ لا يحول ولا يزول، ومن هذا الثواب المذكور:

- **المطيعون يأخذون أجورهم كاملة يوم القيامة، بلا نقص ولا ظلم.**

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤].

قال الطبري: «إن تطيعوا الله ورسوله أيها القوم، فتأتمروا لأمره وأمر رسوله، وتعملوا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٧٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٢٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٠٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٨٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢١٠.

بما فرض عليكم، وتنتهوا عما نهاكم عنه ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤].

أي: لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئًا، ولا ينقصكم من ثوابها شيئًا»[١].

- يثيب الله - عز وجل بمنه وفضله- المطيعين الجنة خالدين فيها أبدًا.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

- ينزل الله عز وجل المطيعين المنازل العالية، والدرجات الرفيعة في الجنة.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قال ابن الجوزي: «في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم، فرآه رسول الله يومًا فعرف الحزن في وجهه، فقال: (يا ثوبان، ما غير وجهك؟) قال: ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك، فأذكر الآخرة، فأخاف أن لا أراك هناك، فنزلت هذه الآية»[٢].

والثاني: أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: ما ينبغي أن نفارقك في الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا، فنزلت هذه الآية.

والثالث: أن رجلًا من الأنصار جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محزون، فقال: (ما لي أراك محزونًا؟) فقال: يا رسول الله غدًا ترفع مع الأنبياء، فلا نصل إليك، فنزلت هذه الآية»[٣].

ولا يعني هذا قصر تلك الدرجة على هؤلاء الأصحاب فحسب، بل هي عامة -بإذن الله وفضله- في كل من حقق الشرط المذكور في أول الآية.

يقول الطبري: «ومن يطع الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضا بحكمهما، والانتهاء إلى أمرهما، والانزجار عما نهيا عنه من معصية الله؛ فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه، وفي الآخرة إذا دخل

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٣١٦-٣١٧.

(٢) أخرج نحوه الطبراني في الأوسط ١/ ١٥٢، رقم ٤٧٧ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ١٠٤٤، رقم ٢٩٣٣.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٣٠ بتصرف يسير.

الجنة»[1].

وقال ابن كثير: «من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقًا للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم»[2].

وكل هذه الآيات وما سبقها من ثناء على المطيعين لله ورسله تبين كذب الكافرين الذين وعدوا أتباعهم بالخسران إن أطاعوا المرسلين؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤].

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٣٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٥٣.

أنواع الطاعة المحمودة

بين القرآن الكريم أنواع الطاعة المطلوبة من المؤمن الامتثال لها، وفيما يأتي بيان لها:

أولًا: الطاعة لله ولرسوله:

طاعة الله عز وجل طاعة مطلقة، فكل أوامر الله عز وجل يجب تنفيذها بقدر الاستطاعة، بدون قيد أو شرط أو تردد؛ لأنها أهم أنواع الطاعات، وأصل كل الطاعات، أمر الله بها عباده، ورتب على هذا الأمر الثواب العظيم لمن أطاع، والعقاب الأليم لمن عصى، وجعل الطاعة سمة من سمات المؤمنين لا تنفك عنهم كما مر بنا آنفًا.

وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك طاعة مطلقة؛ لأنه مبلغ عن الله، وطاعته طاعة لله عز وجل، وكذلك كل الرسل عليهم السلام.

والدليل على أن طاعة الرسول مطلقة؛ لأنها من طاعة الله:

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى[3].

ويؤكد هذا المعنى قوله عليه الصلاة

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٦٣.

والسلام: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله)[1].

وكذلك أقر النبي صلى الله عليه وسلم خطيبًا قام عنده فقال: (من يطع الله ورسوله فقد رشد)[2].

كذلك من الأدلة على أن طاعة الرسول من طاعة الله:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

قال ابن عطية: «هذا تنبيه على جلالة الرسل، أي: فأنت يا محمد منهم، تجب طاعتك، وتتعين إجابة الدعوة إليك، و﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ معناه بأمر الله، وحسنت العبارة بالإذن؛ إذ بنفس الإرسال تجب طاعته، وإن لم ينص أمر بذلك، والمعنى: وما أرسلنا بأمر الله أي بشريعته وعبادته من رسول إلا ليطاع»[3].

وقال ابن الجوزي: «قال الزجاج: «من» دخلت للتوكيد، والمعنى: وما أرسلنا رسولًا إلا ليطاع، وفي قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى: الأمر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الإذن نفسه، قاله مجاهد. وقال الزجاج: المعنى: إلا ليطاع بأن الله أذن له في ذلك»[4].

وقال ابن كثير: «﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أي: فرضت طاعته على من أرسله إليهم»[5].

وقال أبو السعود: «وما أرسلنا رسولًا من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى في طاعته، وأمره المرسل إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه؛ لأنه مؤدٍ عنه تعالى، فطاعته طاعة الله تعالى، ومعصيته معصيته تعالى، من يطع الرسول فقد أطاع الله، أو بتيسير الله تعالى وتوفيقه في طاعته»[6].

ومن هنا نعلم أن مما يدخل في باب الطاعة المطلقة: طاعة الأمم السابقة لرسلهم، فكل رسول بعث إلى قومه أمرهم بطاعته؛ وذلك لأن فيها هدايتهم وفلاحهم؛ ولأنها طاعة لله عز وجل في الأصل.

ولذا نقرأ في مواطن شتى من كتاب الله عز وجل، في ثنايا الحديث عن قصص الأنبياء والمرسلين، دعوتهم قومهم لطاعتهم، وقرنهم هذا الأمر بتقوى الله عز وجل، وكأن المعنى: أنهم إذا اتقوا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)، ٩/ ٦١، رقم ٧١٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٦٦، رقم ١٨٣٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ٢/ ٥٩٤، رقم ٨٧٠.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٧٤ بتصرف يسير.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٢٧، رقم ٤٢٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٧.

(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٩٦.

الله تعالى كان من لوازم ذلك اتباع رسله وطاعتهم، ومن ذلك:

- قول نوح عليه السلام لقومه -وهو أول رسول لأهل الأرض-: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨-١١٠].
- وقول الله على لسانه أيضًا: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢-٣].
- وقول هود عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٦-١٣١].
- وقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٤٥ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝١٤٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٤-١٥٠].
- وقول لوط عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٦٣].
- وقول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٩].
- وقول عيسى عليه السلام لقومه: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠]. ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣].
- وقال تعالى عن هارون عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠].

المخاطبون بأمر الطاعة لله ورسوله:

وردت الآيات الكثيرة في القرآن الكريم تحث الناس جميعهم، مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم، على طاعة الله ورسوله، ومن الآيات التي خاطبت عند نزولها الكافرين -وإن كانت العبرة بعموم اللفظ فتشمل الجميع- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

فلقد ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآية أقوالًا، ومردها جميعًا أنها تخاطب غير المسلمين، فنجد ابن الجوزي يقول: «في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه: إن محمدًا يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا

أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى ابن مريم، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس.

والثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا اليهود إلى الإسلام، فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أشد حبًا لله مما تدعونا إليه، فنزلت ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١]. هذا قول مقاتل.

والثالث: أنها نزلت في نصارى نجران، قاله أبو سليمان الدمشقي»[١].

واختار الإمام الطبري السبب الثالث؛ فقال: «يعني بذلك جل ثناؤه: قل -يا محمد- لهؤلاء الوفد من نصارى نجران: أطيعوا الله والرسول محمدًا، فإنكم قد علمتم يقينًا أنه رسولي إلى خلقي، ابتعثته بالحق، تجدونه مكتوبًا عندكم في الإنجيل، فإن تولوا فاستدبروا عما دعوتهم إليه من ذلك، وأعرضوا عنه، فأعلمهم أن الله لا يحب من كفر بجحد ما عرف من الحق، وأنكره بعد علمه، وأنهم منهم، بجحودهم نبوتك، وإنكارهم الحق الذي أنت عليه، بعد علمهم بصحة أمرك، وحقيقة نبوتك»[٢].

ومع ترجيح أي الأقوال في سبب نزول الآية فإن العبرة بعموم لفظها، فإن هذا «أمر لكل أحد من خاصٍ وعامٍ»[٣].

وقال أبو السعود: «﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أي: في جميع الأوامر والنواهي، فيدخل في ذلك الطاعة في أتباعه عليه الصلاة والسلام دخولًا أوليًا، وإيثار الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الإطاعة والإشعار بعلتها؛ فإن الإطاعة المأمور بها إطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث إنه رسول الله لا من حيث ذاته، ولا ريب في أن عنوان الرسالة من موجبات الإطاعة ودواعيها»[٤].

ومن الآيات أيضًا التي خاطبت غير المسلمين -حال نزولها- بطاعة الله ورسوله قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

قال ابن عطية: «﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ الآية مخاطبة لأولئك المنافقين وغيرهم من الكفار، وكل من يتعتى عن أمر محمد عليه السلام»[٥].

وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المقسمين بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣]. وغيرهم من أمتك ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أيها القوم فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فإن طاعته طاعة لله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يقول: فإن تعرضوا وتدبروا عما أمركم به

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٧٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٢٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٥.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٩٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو نهاكم عنه، وتأبوا أن تذعنوا لحكمه لكم وعليكم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ يقول: فإنما عليه فعل ما أمر بفعله من تبليغ رسالة الله إليكم على ما كلفه من التبليغ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ يقول: وعليكم -أيها الناس- أن تفعلوا ما ألزمكم، وأوجب عليكم من اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، والانتهاء إلى طاعته فيما أمركم ونهاكم»[1].

وقال ابن عاشور: «ويختلف معنى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بين معاني الأمر بإيجاد الطاعة المفقودة، أو إيهام طلب الدوام على الطاعة على حسب زعمهم»[2].

ومن الآيات التي بينت أن الأوامر بهذه الطاعة المطلوبة شاملة للرجال والنساء على حد سواء؛ قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

كذلك وردت آيات تأمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ابتداء، والنساء بعدهن تبع لهن بالطاعة في أمور خاصة وأمور عامة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال الطبري: «﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراكن ونهياكن»[3]. يعني من الأمور السابق ذكرها في هذه الآية والتي قبلها، فلقد نهاهن الله تعالى عن الخضوع واللين بالقول، وأمرهن بقول المعروف، ثم أمرهن بالتوقر والسكون في بيوتهن وأن لا يخرجن[4]، وألا يظهرن محاسنهن، وأمرهن بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم أردف هذه الأوامر والنواهي بالأمر العام بطاعة الله ورسوله، فيدخل فيه ابتداء ما ذكر[5].

قال ابن كثير: «نهاهن أولًا عن الشر، ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين، ثم قال: ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص»[6].

وهذه الأوامر والنواهي وإن كان المخاطب بها ابتداء نساء النبي صلى الله عليه وسلم؛ إلا أنها لا تتوقف عليهن وحدهن، فهي آداب أمر الله تعالى بها نساء

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٨٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٦٢.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٦١.
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٣.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤١٠.

النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك[1].

فدلت هذه الآيات بمجموعها على أن المخاطب بالطاعة هم جميع البشر، مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم.

ميادين طاعة الله ورسوله:

تنوعت الأوامر بالطاعة الموجهة للمؤمنين، فتارة تأتي بأمور معينة محددة، وتارة تأتي مطلقة عامة في شتى الأمور، والأصل أن طاعة الله ورسوله -كما بينا- طاعة مطلقة في كل شيء جاء الأمر به، طالما وجدت الاستطاعة عند المكلف.

ومن الأمور الخاصة التي ورد الأمر بالطاعة فيها:

١. الأمر بالامتناع عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وهو أمر عام في القديم والحديث.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

هذه الآية ربطها كثير من المفسرين بالآيتين اللتين قبلها مباشرة، وهما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

قال الطبري: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في اجتنابكم ذلك، واتباعكم أمره فيما أمركم به من الانزجار عما زجركم عنه من هذه المعاني التي بينها لكم في هذه الآية وغيرها، وخالفوا الشيطان في أمره إياكم بمعصية الله في ذلك وفي غيره، فإنه إنما يبغي لكم العداوة والبغضاء بينكم بالخمر والميسر»[2].

وقال القرطبي: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ تأكيد للتحريم، وتشديد في الوعيد، وامتثال للأمر، وكف عن المنهي عنه، وحسن عطف ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ لما كان في الكلام المتقدم معنى «انتهوا»، وكرر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ذكر الرسول تأكيدًا»[3].

وليس المقصد بهذا الكلام أن يقتصر أمر الطاعة على أمر اجتناب الخمر والميسر

(١) المصدر السابق ٦/ ٤٠٨.
وإن كان الحكم يختلف في حقهن عن باقي النساء، فقد قال ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٢/ ١٠: «هذا أمر خصصن به، وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرًا لهن، وتقوية في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبي صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة...، وهذا الحكم وجوب على أمهات المؤمنين، وهو كمال لسائر النساء».

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٧٤-٥٧٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٩٣.

السابق لتلك الآية، وإنما يراد ما هو أعم وأوسع من ذلك، وهو مطلق الطاعة لله ولرسوله، ويدخل ابتداء في ذلك: الطاعة في هذا الاجتناب المذكور.

قال الألوسي: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ عطف على «اجتنبوه» أي: أطيعوهما في جميع ما أمرا به ونهيا عنه، ويدخل فيه أمرهما ونهيهما في الخمر والميسر دخولًا أوليًا ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي: مخالفتهما في ذلك وهذا مؤكد للأمر الأول، وجوز أن يكون المراد أطيعوا فيما أمرا واحذروا عما نهيا فلا تأكيد، وجوز أيضًا أن لا يقدر متعلق للحذر، أي: وكونوا حاذرين خاشين، وأمروا بذلك؛ لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة، وعمل كل حسنة»[1].

وقال ابن عاشور: «عطفت جملة ﴿وَأَطِيعُوا﴾ على جملة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهي كالتذييل؛ لأن طاعة الله ورسوله تعم ترك الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وتعم غير ذلك من وجوه الامتثال والاجتناب، وكرر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ اهتمامًا بالأمر بالطاعة، وعطف ﴿وَاحْذَرُوا﴾ على ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي: وكونوا على حذر، وحذف مفعول ﴿وَاحْذَرُوا﴾ لينزل الفعل منزلة اللازم؛ لأن القصد التلبس بالحذر في أمور الدين، أي: الحذر من الوقوع فيما يأباه الله ورسوله؛ وذلك أبلغ من أن يقال: واحذروهما؛ لأن الفعل اللازم يقرب معناه من معنى أفعال السجايا؛ ولذلك يجيء اسم الفاعل منه على زنة فعل كفرح ونهم»[2].

٢. الأمر بالتصرف في الأنفال والغنائم كما حدد الله في كتابه، وسن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

قال الطبري: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ معناه: وانتهوا أيها القوم الطالبون الأنفال إلى أمر الله وأمر رسوله فيما أفاء الله عليكم، فقد بين لكم وجوهه وسبله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: إن كنتم مصدقين رسول الله فيما آتاكم به من عند ربكم»[3].

وقال ابن عطية: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لفظ عام، وسببه الأمر بالوقوف عند ما ينفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغنائم، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: كاملي الإيمان، كما تقول لرجل: إن كنت رجلًا فافعل كذا»[4].

وقال ابن الجوزي: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ

(١) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٨٥.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٠٠.

﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: اقبلوا ما أمرتم به في الغنائم وغيرها»[1].

وكما ذكرنا في الأمر السابق أن العبرة بعموم الآيات يظل قائمًا، مع التأكيد على خصوص السبب، نقول هذا هنا أيضًا.

قال البيضاوي: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك، أو إن كنتم كاملي الإيمان، فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والانتهاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان»[2].

وأيضا ورد الأمر بالتأكيد على نفس المعنى، وهو: الالتزام بما جاء في الكتاب والسنة بأمر الغنائم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

قال ابن عطية: «الخطاب للمؤمنين المصدقين، جدد عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهوا عن التولي عنه، وهذا قول الجمهور، ويكون هذا متناصرًا مع قول من يقول: إن الخطاب بقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ [الأنفال: ١٩] هو للمؤمنين، فيجيء الكلام من نمط واحد في معناه. وأما على قول من يقول إن المخاطبة بـ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ هي للكفار؛ فيرى أن هذه الآية إنما نزلت بسبب اختلافهم في النفل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفاخرهم بقتل الكفار، والنكاية فيهم»[3].

٣. الأمر بالثبات والالتزام بما أمر الله به ورسوله عند ملاقاة الأعداء، والصبر على قتالهم.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال ابن كثير: «فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا، ولا ينكلوا، ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال، ولا ينسوه، بل يستعينوا به، ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا، فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم»[4].

وقال ابن عاشور: «فأما طاعة الله ورسوله فتشمل اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين، مثل الغنائم، وكذلك ما يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من آراء الحرب، كقوله للرماة يوم أحد: (لا تبرحوا

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٨٨.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٩.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥١٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٢.

من مكانكم، ولو تخطفنا الطير)»[1][2].

وقال أبو السعود: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما تأتون، وما تذرون، فيندرج فيه ما أمروا به ها هنا اندراجًا أوليًا»[3].

وقال ابن عطية: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية: استمرار على الوصية لهم، والأخذ على أيديهم في اختلافهم في أمر بدر وتنازعهم و﴿فَتَفْشَلُوا﴾ نصب بالفاء في جواب النهي، قال أبو حاتم: « في كتاب عن إبراهيم «فتفشلوا» بكسر الشين! وهذا غير معروف»، وقرأ جمهور الناس ﴿وَتَذْهَبَ﴾ بالتاء من فوق، ونصب الباء، وقرأ هبيرة عن حفص عن عاصم «وتذهب ريحكم» بالتاء، وجزم الباء، وقرأ عيسى بن عمر «ويذهب» بالياء من تحت، وبجزم «يذهب» وقرأ أبو حيوة «ويذهب» بالياء من تحت، ونصب الباء، ورواها أبان وعصمة عن عاصم»[4].

وكذلك في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

قال الطبري: «وقد قيل إن ذلك معاتبة من الله عز وجل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خالفوا أمره يوم أحد، فأخلوا بمراكزهم التي أمروا بالثبات عليها»[5].

ولأن الأوامر في القرآن والسنة كثيرة لا تحصى وردت الآيات العامة المطلقة التي تحض على طاعة الله ورسوله في كل أمر، كما في قوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

فعلى المؤمنين الطاعة في شتى مجالات حياتهم، فيما ورد عن الشارع فيه أمر أو نهي، ليس فقط في أداء عباداتهم، بل حتى في تجاراتهم، في تعاملاتهم، في حال حربهم وسلمهم، في نشاطهم وكسلهم، وأن يعلنوا انقيادهم وإذعانهم لما أمروا به.

قال ابن كثير: «أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر.

قال الزهري: «من الله الرسالة، وعلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، ٤/ ٦٥، رقم ٣٠٣٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٠.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٥.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٣٦.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٦٢.
(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٠٦.

الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»[1]»[2].

وأما إن أعرضوا عن ذلك: فلن يضر هذا الرسول الذي بلغ عن ربه، وإنما سيضر من أعرض وخالف النور الذي أتي به إليه.

قال أبو السعود: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ كرر الأمر للتأكيد، والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية، وتوضيح مورد التولي في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن إطاعة الرسول، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ تعليل للجواب المحذوف، أي: فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ المبين، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه»[3].

وقال ابن عاشور: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ عطف على جملة ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١].

لأنها تضمنت أن المؤمنين متهيئون لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما يدعوانهم إليه من مصالح الأعمال، كما يدل عليه تذييل الكلام بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن:١١].

ولأن طلب الطاعة فرع عن تحقق الإيمان كما في حديث معاذ: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له: (إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فأول ما تدعوهم إليه، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة)»[4]، وتفريع ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ تحذير من عصيان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتولي مستعار للعصيان، وعدم قبول دعوة الرسول.

ووصف البلاغ بـ﴿الْمُبِينُ﴾ أي: الواضح عذر للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ادعى ما أمر به على الوجه الأكمل قطعًا للمعذر عن عدم امتثال ما أمر به»[5].

وقد يكون هذا الإعراض عن الطاعة أيضًا، والولوج في بحار الكبائر والمعاصي: سببًا في بطلان العمل؛ لذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

قال الطبري: «﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في أمرهما ونهيهما ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ يقول: ولا تبطلوا بمعصيتكم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا عن الزهري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك)، ٩/ ١٥٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٣٨.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٥٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ٢/ ١١٩، رقم ١٤٥٨ واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه، ١/ ٥٠، رقم ١٩.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٨٠.

إياهما، وكفركم بربكم ثواب أعمالكم، فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح»[1].

وقال ابن الجوزي: «﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ﴾ اختلفوا في مبطلها على أربعة أقوال: أحدها: المعاصي والكبائر، قاله الحسن، والثاني: الشك والنفاق، قاله عطاء، والثالث: الرياء والسمعة، قاله ابن السائب، والرابع: بالمن»[2].

وأما القرطبي فقد ربط بين هذه الآية والتي قبلها فقال: «لما بين حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره والرسول في سننه ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: حسناتكم بالمعاصي، قاله الحسن، وقال الزهري: بالكبائر، ابن جريج: بالرياء والسمعة، وقال مقاتل والثمالي: بالمن، وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات، والمعاصي تخرج عن الإيمان»[3].

بقي هنا أخيرًا أن نقول: إن الأوامر التي يجب الطاعة فيها للرسول صلى الله عليه وسلم هي «ما أمر به ونهى عنه من أحكام الدين، وأما ما ليس داخلًا تحت التشريع فطاعة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه طاعة انتصاح وأدب، ألا ترى أن بريرة لم تطع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مراجعة زوجها مغيث لما علمت أن أمره إياها ليس بعزم»[4] [5].

ثانيًا: الطاعة في غير معصية الله:

مر بنا فيما سبق أن طاعة الله عز وجل ورسوله طاعة مطلقة، وهناك طاعات أخرى دل عليها الكتاب العزيز، خاصة بأصناف معينة من الناس، إلا أن هذا النوع من الطاعة ليس مطلقًا كسابقه، بل هي مقيدة بقيد مهم، ألا وهو: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف)[6].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٨٧.
(٢) زاد المسير ٤/ ١٢٢.
وانظر: لباب النقول، السيوطي، ص ٨٣٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٥٤.

(٤) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة، ٧/ ٤٨، رقم ٥٢٨٣ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن زوج بريرة كان عبدًا يقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس: يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثا؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو راجعته قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: إنما أنا أشفع قالت: لا حاجة لي فيه.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٢٦-١٢٧.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، ٩/ ٨٨، رقم ٧٢٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية،

ومن أنواع هذه الطاعات المقيدة ما يلي:

١. طاعة أولياء الأمور.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

اختلف أهل العلم في المراد بأولي الأمر المذكورين في الآية، هل هم الولاة والأمراء أم العلماء والفقهاء أم غير ذلك؟

فرجح جماعة -ومنهم الطبري- أنهم الولاة والأمراء، فقال بعد أن ذكر الخلاف في ذلك: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان لله طاعة، وللمسلمين مصلحة»[(١)].

وقال ابن عطية: «أمر بطاعته عز وجل، وهي امتثال أوامره ونواهيه، وطاعة رسوله، وطاعة الأمراء على قول الجمهور»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «وتشمل طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة أمرائه في حياته؛ لقوله: (ومن أطاع أميري فقد أطاعني)[(٣)]، وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لمساواتهم لأمرائه الغائبين عنه في الغزوات والسرايا في حكم الغيبة عن شخصه»[(٤)].

ورجح آخرون -ويبدو أن هذا هو الأقوى والأرجح- وهو: أن المراد بأولي الأمر: الأمراء والعلماء.

قال ابن القيم: «وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد في أولي الأمر، وعنه فيهم روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء.

والثانية: أنهم الأمراء.

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعًا، فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، فإن العلماء ولاته حفظًا وبيانًا وذبًا عنه وردًا على من ألحد فيه وزاغ عنه، وقد وكلهم الله بذلك، فقال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فيالها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم، وكون الناس تبعًا لهم،

وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٦٩، رقم ١٨٤٠.

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٠٢.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)، ٩/ ٦١، رقم ٧١٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٦٦، رقم ١٨٣٥.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٠.

والأمراء ولاته قيامًا وعناية وجهادًا وإلزامًا للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه، وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لها ورعية»[1].

وقد يغفل بعض الناس عن أهمية طاعة العلماء، ويقللون من خطر الخروج عن مشورتهم، فنجد كثيرًا من يتحدث عن وجوب طاعة الأمراء، وأهميته في تحقق الجماعة، واستتباب الأمن في المجتمع، وهذا حق، ولكنهم يغفلون عن أهمية طاعة العلماء، وحاجة الأمة كلها رؤساء وأمراء وعامة إليهم.

إن الخروج عن طاعة العلماء الربانيين، وترك مشورتهم مفسد للدنيا والآخرة، ولا يعني هذا تقديسهم أو التعصب لأقوال الرجال، ليس هذا إطلاقًا، بل متى ما عارض قولهم قول الله ورسوله رد، ولم يقبل، فقولهم معتبر، ورأيهم متبع؛ لأنهم يتبعون ما جاء من ربهم، ويبينونه للناس، فالله عز وجل جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدع، وأطلقوا عقال الفتنة.

أما أولو الأمر من الأمراء فطاعتهم واجبة ما دام أنهم يحكمون بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩].

فلم يقل: وأطيعوا أولي الأمر، بل عطف طاعتهم على طاعة الرسول؛ إذ أنه لا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

فطاعة أولي الأمر إذًا ليست طاعة مفردة مستقلة، بل طاعتهم طاعة مستثناة فيما لهم وعليهم، واجبة لهم ما دام أنهم يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**)[2].

٢. طاعة الوالدين.

(١) زاد المهاجر إلى ربه، ابن قيم الجوزية ص٤١-٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية، ٩/ ٦٣، رقم ٧١٤٤ ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ٣/ ١٤٦٩، رقم ١٨٣٩.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

ذكر كثير من أهل التفسير أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص؛ وذلك أنه قال عن نفسه: «أنزلت في أربع آيات» -فذكر قصة- فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر؟ والله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أموت أو تكفر، قال: «فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها» فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[1].

وقال ابن عطية بعد أن ذكر قصة سعد وغيرها: «ولا مرية أنها نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة يشقى بجهاد أبويه في شأن الإسلام أو الهجرة، فكان القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأبوين في مثل هذا؛ لعظم الأمر، وكثرة الخطر فيه مع الله تعالى، ثم إنه لما كان بر الوالدين وطاعتهما من الأمر الذي قررته الشريعة وأكدت فيه، وكان من القوي عندهم الملتزم؛ قدم الله تعالى النهي عن طاعتهما، وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ على معنى أنا لا نخل ببر الوالدين، لكنا لا نسلطه على طاعة الله لا سيما في معنى الإيمان»[2].

وقال في موطن آخر: «وجملة هذا الباب: أن طاعة الوالدين لا تراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، وتستحسن في ترك الطاعات الندب»[3].

وقال ابن عاشور: «والمقصود من الآية هو قوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ إلى آخره، وإنما افتتحت بـ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ لأنه كالمقدمة للمقصود؛ ليعلم أن الوصاية بالإحسان إلى الوالدين لا تقتضي طاعتهما في السوء ونحوه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[4].

ولقصد تقرير حكم الإحسان للوالدين

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة العنكبوت ٥/ ٣٤١، رقم ٣١٨٩.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ١٠/ ١١٠.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٠٧-٣٠٨.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٣٤٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٣٣٣، رقم ١٠٩٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٥٠، رقم ٧٥٢٠.

في كل حال إلا في حال الإشراك، حتى لا يلتبس على المسلمين وجه الجمع بين الأمر بالإحسان للوالدين وبين الأمر بعصيانهما إذا أمرا بالشرك»[1].

٣. طاعة المرأة لزوجها.

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

قال الطبري: «﴿قَانِتَاتٌ﴾ يعني: مطيعات لله ولأزواجهن»[2].

وقال القرطبي: «﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ هذا كله خبر، ومقصوده الأمر بطاعة الزوج والقيام بحقه في ماله، وفي نفسها في حال غيبة الزوج، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك)[3]، قال: وتلا هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إلى آخر الآية»[4].

وقال ابن كثير: «المرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المبغضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه؛ فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال، فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها»[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢١٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٩٤.
(٣) أخرجه الطيالسي ٤/ ٨٧، رقم ٢٤٤٤، والنسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب طاعة المرأة زوجها، ٨/ ١٨٤، رقم ٨٩١٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٢٤، رقم ٣٢٩٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٧٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٤.

عاقبة الطاعة

أوضح القرآن عاقبة الطاعة في الدنيا والآخرة، وفيما يأتي بيان لها:

أولًا: عاقبة طاعة الله ورسوله:

طاعة الله ورسوله نبتة طيبة مباركة، تؤتي أكلها في الدنيا قبل الآخرة، فيحصل المؤمن جزاء عاجلًا قبل الجزاء الآجل، ففي الدنيا ينال الطائعون:

١. الهداية وإصابة للحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

٢. النصر في الدنيا على الأعداء، والغنيمة والخير الكثير، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦].

٣. نزول الرحمات، وتحقق الأمن والأمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وأما في الآخرة: فالثمرة أعظم وأكبر؛ لأن هذا ثواب باقٍ، لا يحول ولا يزول، ومن هذا الثواب المذكور:

١. المطيعون يأخذون أجورهم كاملة يوم القيامة، بلا نقص ولا ظلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤].

٢. يثيب الله عز وجل بمنه وفضله المطيعين الجنة، خالدين فيها أبدًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ١٧].

٣. ينزل الله عز وجل المطيعين المنازل العالية، والدرجات الرفيعة في الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ثانيًا: عاقبة طاعة الإنسان لإبليس:

الله عز وجل هو الخالق لهذا الكون، وهو الأعلم بما يصلح عباده، وما يفسدهم، وما ينفعهم وما يضرهم؛ ولذا فقد حذرهم تبارك وتعالى مما فيه ضرر أو هلاك أو شقاء لهم، وبين لهم العواقب، وقص عليهم القصص، كل ذلك حتى يمتثلوا أمره، ويحذروا مما حذرهم منه.

ومما حذر الله منه عباده: أن يتبعوا إبليس، أو خطواته، أو يتخذوه وليًا من دون الله؛ لأنه في الأصل عدو لهم، وعداوته

قديمة منذ خلق أبيهم آدم عليه السلام، يوم رفض السجود له، وأعلن عن حسده وبغضه، ونيته في إفساد ذريته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١-٦٢].

ويقسم إبليس على ما ينتويه من شر للعباد، فيقول: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

ويبين خطته وطريقه الذي سيسلكه، فقال لربه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وقال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨-١١٩].

وبين الله عز وجل لنا أن له أعوانًا من بني الإنس، يستخدمهم أيضًا لإغواء الناس وإضلالهم؛ فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ولهذا وصفه الله عز وجل بأنه عدو ظاهر، لا تخفى عداوته، وأمرنا أن نعتبره كذلك؛ فلا ننقاد له؛ ولا نتبع خطواته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وقال: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا

﴿مُّبِينًا﴾ [الإسراء:٥٣].

وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١].

وقال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩].

وقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢].

وحتى يكون العباد على حذر أكبر من ذلك العدو بين الله عز وجل لهم عاقبة اتباعه في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا:

- يضل العباد عن طريق الحق، ويوقعهم في الشرك والضلال.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

قال الطبري: «﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد بقلبك فتعلم ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ أنهم صدقوا بما أنزل إليك من الكتاب، وإلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قلبك من الكتب ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا﴾ في خصومتهم ﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ يعني إلى: من يعظمونه ويصدرون عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ يقول: وقد أمرهم الله أن يكذبوا بما جاءهم به الطاغوت الذي يتحاكمون إليه، فتركوا أمر الله، واتبعوا أمر الشيطان ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ يعني: أن الشيطان يريد أن يصد هؤلاء المتحاكمين إلى الطاغوت عن سبيل الحق والهدى، فيضلهم عنها ضلالًا بعيدًا، يعني: فيجور بهم عنها جورًا شديدًا»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣-٤].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ذامًا لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضًا عما أنزل الله على أنبيائه، متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٠٧.

رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رءوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء؛ ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: علم صحيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعني الشيطان، كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلده ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق»[1].

بل إن الشيطان قد يعيد الإنسان إلى الضلال والكفر مرة أخرى، بعد أن تبين له طريق الحق والهدى والرشاد، ويزين هذا الباطل لأتباعه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:٢٥].

قال الطبري: «إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفارًا بالله من بعد ما تبين لهم الحق وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجة، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادًا لأمر الله تعالى؛ الشيطان زين لهم ارتدادهم على أدبارهم، من بعد ما تبين لهم الهدى»[2].

- **يوقع أتباعه في الفواحش والموبقات، والبدع والمنكرات، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة.**

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩٠-٩١].

قال الطبري: «أي: إن شربكم الخمر، وقماركم على الجزر، وذبحكم للأنصاب، واستقسامكم بالأزلام، إثم ونتنٌ من تزيين الشيطان لكم، ودعائه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم، بل هو مما يسخطه لكم»[3].

وقال أيضًا: «إنما يريد لكم الشيطان شرب الخمر والمياسرة بالقداح، ويحسن ذلك لكم، إرادةً منه أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في شربكم الخمر، ومياسرتكم بالقداح؛ ليعادي بعضكم بعضًا، ويبغض بعضكم إلى بعض، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوة الإسلام، ويصرفكم بغلبة هذه الخمر بسكرها إياكم عليكم، وباشتغالكم بهذا الميسر، عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي فرضها عليكم ربكم»[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٩٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٨٠-١٨١ بتصرف يسير.
(٣) المصدر السابق ١٠/ ٥٦٤.
(٤) المصدر السابق ١٠/ ٥٦٥.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

قال ابن كثير: «أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر، وكل مبتدع أيضًا»[(١)].

ومثل هذا المعنى يتأكد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور:٢١].

وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة:٢٦٨].

قال الطبري: «الشيطان يعدكم أيها الناس بأدائكم الصدقة والزكاة الواجبة عليكم في أموالكم أن تفتقروا، ويأمركم بالفحشاء، يعني: ويأمركم بمعاصي الله عز وجل، وترك طاعته»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

قال القرطبي: «أي: غلب الشيطان واستعلى عليهم بوسوسته في الدنيا، وقيل: قوي عليهم ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك، والوجهان محتملان هنا ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طائفته ورهطه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في بيعهم؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدى بالضلالة»[(٣)].

❁ يوقع العداوة بين المسلمين، ويثير الفتن والشكوك والحروب والنزاعات بينهم.

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال الطبري: «أي: قل -يا محمد- لعبادي يقل بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة، فإن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضًا، ينزغ بينهم، يفسد بينهم، يهيج بينهم الشر، فإن الشيطان كان لآدم وذريته عدوًا، قد أبان لهم عداوته بما أظهر لآدم من الحسد، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة»[(٤)].

وهذا المعنى فطن إليه نبي الله يعقوب عليه السلام، فخشي على أبنائه من الشيطان أن يوقعهم في البغض والعداوة بينهم وبين يوسف؛ ولذا نصحه ألا يقص رؤياه الطيبة عليهم، فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٣٠٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٦٩ بتصرف يسير.

﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

قال الطبري: «يقول يعقوب عليه السلام لابنه يوسف: يا بني لا تقصص رؤياك هذه على إخوتك، فيحسدوك ويبغوك الغوائل، ويناصبوك العداوة، ويطيعوا فيك الشيطان؛ فإن الشيطان لآدم وبنيه عدو، قد أبان لهم عداوته وأظهرها، فاحذر الشيطان أن يغري إخوتك بك بالحسد منهم لك، إن أنت قصصت عليهم رؤياك»[(١)].

ولهذا المعنى أيضًا نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان، وأن النجوى من فعل الشيطان ليدخل الحزن على بعض المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

أي: إنما النجوى -وهي المسارة- حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا من تسويل الشيطان وتزيينه ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليسوءهم، وليس ذلك بضارهم شيئًا إلا بإذن الله، ومن أحس من ذلك شيئًا فليتوكل على الله، ويفوض جميع شئونه إلى عونه، ويستعيذ به من الشيطان ومن كل شر، فهو الذي سلط الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحانًا ولو شاء لصرفه عنه[(٢)].

ولهذا وردت السنة بالنهي عن التناجي، حيث يكون في ذلك تأذٍ على مؤمن، فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه)[(٣)].

قال القرطبي: «أي: يقع في نفسه ما يحزن لأجله؛ وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلًا ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان، وأحاديث النفس»[(٤)].

وهذه الخصومات والمشاحنات هو ما يسعى إليه إبليس بين المسلمين لإفساد العلاقات بينهم.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم)[(٥)].

أي: الإيقاع بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن ونحوها.

---

(١) المصدر السابق ١٥/ ٥٥٨ بتصرف يسير.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة، ٨/ ٦٥، رقم ٦٢٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، ٤/ ١٧١٨، رقم ٢١٨٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، ٤/ ٢١٦٦، رقم ٢٨١٢.

وأما في الآخرة:

فعاقبة اتباعه: الخسران المبين، والعذاب الأليم، ودخول جهنم وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢١].

قال الطبري: «ومن يتبع الشيطان فيطيعه في معصية الله وخلاف أمره، ويواليه فيتخذه وليًا لنفسه ونصيرًا من دون الله: فقد هلك هلاكًا، وبخس نفسه حظها فأوبقها بخسًا مبينًا، يبين عن عطبه وهلاكه؛ لأن الشيطان لا يملك له نصرًا من الله إذا عاقبه على معصيته إياه في خلافه أمره، بل يخذله عند حاجته إليه، وإنما حاله معه ما دام حيًا ممهلًا بالعقوبة، كما وصفه الله جل ثناؤه بقوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: يعد الشيطان المريد أولياءه أن يكون لهم نصيرًا ممن أرادهم بسوء، وظهيرًا لهم عليه، يمنعهم منه، ويدافع عنهم، ويمنيهم الظفر على من حاول مكروههم، والفلج عليهم[1]، وما يعد الشيطان أولياءه الذين اتخذوه وليًا من دون الله ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ يعني: إلا باطلًا.

فهؤلاء الذين اتخذوا الشيطان وليًا من دون الله مصيرهم الذين يصيرون إليه جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: لا يجدون عن جهنم -إذا صيرهم الله إليها يوم القيامة- معدلًا يعدلون إليه»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ الذي نهيتكم أيها الناس أن تغتروا بغروره إياكم بالله ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يقول: فأنزلوه من أنفسكم منزلة العدو منكم، واحذروه بطاعة الله، واستغشاكم إياه حذركم من عدوكم الذي تخافون غائلته على أنفسكم، فلا تطيعوه، ولا تتبعوا خطواته، فإنه إنما يدعو حزبه، يعني: شيعته ومن أطاعه، إلى طاعته والقبول منه، والكفر بالله ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يقول: ليكونوا من المخلدين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها»[3].

وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ

(١) الفلج: بفتحتين، الظفر والفوز والعلو على الخصم، يقال: فلج الرجل على خصمه وأفلج إذا ظهر عليه.
انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٤٨٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٢٤-٢٢٦ بتصرف.

(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٤٣٩-٤٤٠.

عَقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

قال الطبري: «فكان عقبى أمر الشيطان والإنسان الذي أطاعه فكفر بالله أنهما خالدان في النار، ماكثان فيها أبدًا ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول: وذلك ثواب اليهود من النضير والمنافقين الذين وعدوهم النصرة، وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به؛ أنهم في النار مخلدون»[1].

وتزداد حسرة أتباع الشيطان حينما يجتمعون به في الآخرة في جهنم، فيقوم خطيبًا فيهم، كما أخبر الله عز وجل في كتابه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال ابن كثير: «بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، قام فيهم إبليس -لعنه الله- حينئذٍ خطيبًا ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم، وغبنًا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدًا حقًا، وخبرًا صدقًا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ اليوم ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

قال قتادة: أي بسبب ما أشركتمون من قبل، وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكًا لله عز وجل.

وهذا الذي قال هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقال: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ

(١) المصدر السابق ٢٣/ ٢٩٧.

﴿عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[١].

ثالثًا: عاقبة طاعة الأتباع للمتبوعين:

أهل الباطل والضلال في تلك الحياة ينقادون لمن يماثلهم، ويطاوعون من يشابههم، ويظاهرهم على باطلهم ومعصيتهم، وقد سجل الله عز وجل ذلك عنهم في كتابه؛ فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦].

قال القرطبي: «إن المنافقين واليهود قالوا: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم مشركون ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: في مخالفة محمد، والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه، وتوهين أمره في السر، وهم إنما قالوا ذلك سرًا، فأخبر الله نبيه»[٢].

وقد يكون تظاهرهم مع إخوانهم من أهل الباطل بالقول فقط، ويتخلفون حال الفعل؛ لما في قلوبهم من جبن وخوف ومحبة للدنيا، وليس محبة أو طاعة لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى الذين نافقوا بعثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للحرب أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، ولئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم، وأجليتم عنها لنخرجن معكم، فنجلي عن منازلنا وديارنا معكم، ولا نطيع أحدًا سألنا خذلانكم، وترك نصرتكم، ولكنا نكون معكم، وإن قاتلكم محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه لننصرنكم معشر النضير عليهم.

والله يشهد إن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النضير النصرة على محمد صلى الله عليه وسلم لكاذبون في وعدهم إياهم ما وعدوهم من ذلك»[٣].

وهذا الصنف من الناس -السابق ذكره- له عقل يميز به، ورأي ينفرد به؛ وليس له سيد أو كبير يقوده، بل قد يكون هو قائدًا لمن وراءه.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٩-٤٩٠ بتصرف يسير.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٥٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٩٠-٢٩١ بتصرف.

وهناك صنف آخر من الناس في تلك الحياة أبى إلا أن يعيش متبوعًا، يترك عقله وناصيته بيد غيره، يحركه كيفما شاء، ويوجهه أينما أراد، ويا ليته فعل ذلك مع أقوام مهتدين راشدين، يأخذون بيده لطريق الحق والنجاة لكانت العاقبة أنفع له وأنجح، لكنه فعل ذلك مع أقوام ظالمين ضالين، ضلوا وأضلوا؛ فكانت عاقبة اتباعهم الخسران، والعذاب الأليم.

وتزداد حسرة هؤلاء المتبعين حينما يجتمعون بأسيادهم وكبرائهم في النار، فيرون أنهم لا يغنون عنهم من عذاب الله شيئًا، بل يرون من اتبعوهم يتبرؤون منهم، وعندها: يعضون أصابع الندم على ما قدموه في حياتهم من ولاء وطاعة لهم، ويودون أن لو عادوا إلى الدنيا ليتبرؤوا من كبرائهم كما تبرؤوا منهم في الآخرة، وحينما ييأسون من هذه الأماني؛ يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يضاعف العذاب لمن كانوا سببًا في غوايتهم وضلالهم.

هذه المواقف والمشاعر نقلها لنا القرآن الكريم في غير موضع وآية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

قال القرطبي: «يعني: السادة والرؤساء تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر، وقال طائفة: هم الشياطين المضلون تبرؤوا من الإنس، وقيل: هو عام في كل متبوع ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يعني التابعين والمتبوعين، قيل: بتيقنهم له عند المعاينة في الدنيا، وقيل: عند العرض والمسألة في الآخرة، قلت: كلاهما حاصل، فهم يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان، وفي الآخرة يذوقون أليم العذاب والنكال ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي: الوصلات التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من رحم وغيره.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: قال الأتباع: لو رددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحًا، ونتبرأ منهم ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ والتبرؤ الانفصال ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أراهم الله العذاب كذلك يريهم الله أعمالهم ﴿حَسَرَاتٍ﴾ والحسرة: أعلا درجات الندامة على شيء فائت ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ دليل على خلود الكفار فيها، وأنهم لا يخرجون منها»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٠٦ بتصرف.

وقال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

قال الطبري: «وظهر هؤلاء الذين كفروا بالله يوم القيامة من قبورهم، فصاروا بالبراز من الأرض ﴿جَمِيعًا﴾ يعني كلهم، ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: فقال التباع منهم للمتبوعين، وهم الذين كانوا يستكبرون في الدنيا عن إخلاص العبادة لله، واتباع الرسل الذين أرسلوا إليهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أنهم كانوا أتباعهم في الدنيا يأتمرون لما يأمرونهم به من عبادة الأوثان، والكفر بالله، وينتهون عما نهوهم عنه من اتباع رسل الله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ يعنون: فهل أنتم دافعون عنا اليوم من عذاب الله من شيء؟

فقالت القادة على الكفر بالله لتباعها: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: لو بين الله لنا شيئًا ندفع به عذابه عنا اليوم؛ ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ أي: لبينا ذلك لكم حتى تدفعوا العذاب عن أنفسكم؛ ولكنا قد جزعنا من العذاب، فلم ينفعنا جزعنا منه وصبرنا عليه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: ما لهم من مراغ يروغون عنه»[1].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

قال ابن كثير: «يوم يسحب الكافرون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله، وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وقال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله، وأطاعوا الرسول في الدنيا.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ أي: اتبعنا السادة، وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٥٧-٥٥٨ بتصرف يسير.

الرسل، واعتقدنا أن عندهم شيئًا، وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾»[1].

وقال ابن عاشور: «والمعنى: يوم تقلب ملائكة العذاب وجوههم في النار بغير اختيار منهم، أو يجعل الله ذلك التقلب في وجوههم لتنال النار جميع الوجه، كما يقلب الشواء على المشوى لينضج على سواء، ولو كان لفح النار مقتصرًا على أحد جانبي الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة.

وحرف «يا» في قوله: ﴿يَا لَيْتَنَا﴾ للتنبيه لقصد إسماع من يرثى لحالهم، مثل ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ [الأنعام: ٣١].

والتمني هنا كناية عن التندم على ما فات، وكذلك نحو: يا حسرتنا، أي: أن الحسرة غير مجدية، وقد علموا يومئذٍ أن ما كان يأمرهم به النبي صلى الله عليه وسلم هو تبليغ عن مراد الله منهم، وأنهم إذ عصوه فقد عصوا الله تعالى، فتمنوا يومئذٍ أن لا يكونوا عصوا الرسول المبلغ عن الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

جيء بهذه الجملة في صيغة الماضي؛ لأن هذا القول كان متقدمًا على قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ فذلك التمني نشأ لهم وقت أن مسهم العذاب، وهذا التنصل والدعاء اعتذروا به حين مشاهدة العذاب، وحشرهم مع رؤسائهم إلى جهنم.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فدل على أن ذلك قبل أن يمسهم العذاب، بل حين رصفوا ونسقوا قبل أن يصب عليهم العذاب، ويطلق إليهم حر النار.

والسادة: عظماء القوم والقبائل مثل الملوك، والكبراء: جمع كبير، وهو عظيم العشيرة، وهم دون السادة؛ ولذلك قوبل قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ بقولهم: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾.

وجملة ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ خبر مستعمل في الشكاية والتذمر، وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم وكبرائهم، فالمقصود الإفضاء إلى جملة ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ومقصود من هذا الخبر أيضًا الاعتذار والتنصل من تبعة ضلالهم بأنهم مغرورون مخدوعون، وهذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم الله به

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٣-٤٨٤ بتصرف يسير.

من الحقيقة؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾.

فيتجه عليهم أن يقال لهم: لماذا أطعتموهم حتى يغروكم؟! وهذا شأن الدهماء أن يسودوا عليهم من يعجبون بأضغاث أحلامه، ويغرون بمعسول كلامه، ويسيرون على وقع أقدامه، حتى إذا اجتنوا ثمار أكمامه، وذاقوا مرارة طعمه، وحرارة أوامه[1]، عادوا عليه باللائمة، وهم الأحقاء بملامه.

وتقديم قولهم: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ اهتمام بما فيه من تعليل لمضمون قولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾ لأن كبراءهم ما تأتى لهم إضلالهم إلا بتسبب طاعتهم العمياء إياهم، واشتغالهم بطاعتهم عن النظر والاستدلال فيما يدعونهم إليه من فساد، ووخامة مغبة، وبتسبب وضعهم أقوال سادتهم وكبرائهم موضع الترجيح على ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

قال الطبري: «يقول تعالى: وإذ يتخاصمون في النار، وعنى بذلك: إذ يتخاصم الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنذارهم من مشركي قومه في النار، فيقول الضعفاء منهم، وهم المتبعون على الشرك بالله ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تقول لرؤسائهم الذين اتبعوهم على الضلالة: إنا كنا لكم في الدنيا تبعًا على الكفر بالله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ اليوم ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يعنون: حظًّا فتخففوه عنا، فقد كنا نسارع في محبتكم في الدنيا، ومن قبلكم أتينا، لولا أنتم لكنا في الدنيا مؤمنين، فلم يصبنا اليوم هذا البلاء.

فأجابهم المتبوعون بما أخبر الله عنهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم الرؤساء المتبوعون على الضلالة في الدنيا: إنا أيها القوم وأنتم كلنا في هذه النار مخلدون، لا خلاص لنا منها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ بفصل قضائه، فأسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون، ولا هم مما فيه من النعيم منتقلون»[3].

(١) أوم: الأوام، كغراب: العطش، أو حره، يقال: في جوفه أوامٌ وأوارٌ، وهو حرارة العطش. انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٢٥٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١١٦-١١٨ بتصرف.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٩٨-٣٩٩ بتصرف يسير.

ولهذه الآيات التي سبقت وغيرها والتي تبين عاقبة ومغبة اتباع أهل الباطل والكفر، وتبرأهم ممن تبعوهم؛ حذر الله نبيه وأصحابه والمؤمنين من طاعتهم، أو الانقياد إليهم؛ وذلك في غير آية من كتابه الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وبين الله عز وجل لهم أن عاقبة اتباع هؤلاء وأمثالهم، ستئول بهم إلى كفر وضلال وخسران، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وهذا خلاف لما يزعمه أهل النفاق، الذين يقعدون عن طاعة الله ورسوله، من أن طاعتهم تؤول بأتباعهم لخير، كما قالوا في يوم أحد، فيما نقله الله عنهم في كتابه: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

قال الطبري: «فمعنى الآية: وليعلم الله المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مع المسلمين في حربهم المشركين بأحد يوم أحد فقتلوا هنالك من عشائرهم وقومهم ﴿وَقَعَدُوا﴾ هم عن القتال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أي: لو أطاعنا من قتل بأحد من إخواننا وعشائرنا ﴿مَا قُتِلُوا﴾ أي: ما قتلوا هنالك.

قال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء القائلين هذه المقالة من المنافقين ﴿فَادْرَءُوا﴾ يعني: فادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴾ فأنتم لا محالة ميتون»[1].

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، الأمر، العبادة، محمد، النبوة

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٨٢ بتصرف يسير.

الطَّبْعُ

عناصر الموضوع

مفهوم الطبع	٣٨٨
الطبع في الاستعمال القرآني	٣٩٠
الألفاظ ذات الصلة	٣٩١
أسباب الطبع	٣٩٧
طرق تجنب الطبع	٤١٠
نتائج الطبع على القلوب	٤٢٨

مفهوم الطبع

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ط ب ع) تدل على معنيين:

الأول: نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها.

والثاني: طبع الإنسان وسجيته، أي: ما طبع عليه الإنسان في مأكله ومشربه، وسهولة أخلاقه وحزونتها، وعسرها ويسرها، وشدته ورخاوته، وبخله وسخائه[(١)].

وقيل: إنّ أصل الطبع: الصدأ، والوسخ، والدنس، يكثر على السيف وغيره، ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرهما من المقابح[(٢)].

وقال الراغب: «الطبع: أن تصوّر الشيء بصورة مّا، كطبع السّكّة، وطبع الدّراهم، وهو أعم من الختم وأخص من النقش، ومنه قوله تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣].

وبه اعتبر الطّبع والطبيعة التي هي السجية، فإن ذلك هو نقش النفس بصورة مّا، إمّا من حيث الخلقة، وإمّا من حيث العادة، وهو فيما ينقش به من حيث الخلقة أغلب»[(٣)].

وأما مادة (ق ل ب) فتدل على معنيين:

الأول: خالص شيء وشريفه.

الثاني: رد شيء من جهة إلى جهة.

فمن الأول: قلب الإنسان، سمي بذلك؛ لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه. وخالص كل شيء وأشرفه قلبه.

ومن الثاني: قَلَبْتُ الثوب قَلْبًا. وقلبت الشيء: كَبَبْتُه، وقَلَّبْتُه بيدي تقليبًا[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الطبع اصطلاحًا: أثرٌ يثبت على الشيء بعد إحكام غلقه وسده، ويكون لازمًا له، لكيلا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء[(٥)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٨٣، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٣٢.
(٢) انظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة ٢/ ١٢٥، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٢٢.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥١٥.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٤٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٧.
(٥) انظر: مفردات القرآن، الفراهي ص٣٤٩.

و(الطَّبَعُ) بتحريك الباء: الدنس، وقد حمل بعضهم قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨]. على ذلك، ومعناه: دنّسه، ومن ذلك أيضًا: طبع الله على قلب الكافر؛ كأنه ختم عليه حتى لا يصل إليه هدى ولا نور، فلا يوفق لخير[(١)].

قال ابن عاشور: «الطبع: إحكام الغلق بجعل طين ونحوه على سد المغلوق بحيث لا ينفذ إليه مستخرج ما فيه إلا بعد إزالة ذلك الشيء المطبوع به، وقد يَسِمُون على ذلك الغلق بِسِمَة تترك رَسْمًا في ذلك المجعول، وتسمى الآلة الواسمة طابَعًا- بفتح الباء-»[(٢)].

والطبع: أثر يثبت في المطبوع ويلزمه فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم؛ ولهذا قيل: طبع الدرهم طبعًا، وهو الأثر الذي يؤثره فلا يزول عنه[(٣)].

والقلب اصطلاحًا: هو محل النفس والعقل والعلم والفهم والعزم. وسمي قلبًا لتقلبه في الأشياء بالخواطر والعزوم والاعتقادات والإرادات[(٤)].

وعرفه الجرجاني فقال: «هو لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، ويسميها الحكيم: النفس الناطقة، والروح باطنه، والنفس الحيوانية مركبة، وهي المدرك، والعالم من الإنسان، والمخاطب، والمطالب، والمعاتب»[(٥)].

والطبع على القلوب: «كناية عن بلوغها مستوى من القسوة وجفاف عواطف الخير، فهي لا تتأثر ببيان، ولا تستجيب لموعظة. فكأنها بيوت مقفلة مطبوع عليها، أو قطعة من المعدن قد علاها الصدأ فغشاها»[(٦)].

وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (من ترك ثلاث جمع تهاونًا بها، طبع الله على قلبه)[(٧)]، أي: ختم عليه وغشاه ومنعه ألطافه[(٨)].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٣، مقاييس اللغة ٣/ ٤٣٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٤٩٥.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ١٧ - ١٨.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص٧٣.
(٤) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٤٨٢.
(٥) انظر: التعريفات ص١٧٨.
(٦) صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٨٨.
(٧) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤/ ٢٥٥، رقم ١٥٤٩٨، وأبو داود في سننه، ٢/ ٢٨٥، رقم ١٠٥٢، والترمذي في سننه، ١/ ٦٣٠، رقم ٥٠٠.
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٤/ ٢١٨، رقم ٩٦٥.
(٨) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٣/ ١١٢.

الطبع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طبع) في القرآن (١١) مرة [١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون:٣]
الفعل المضارع	٥	﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر:٣٥]

وجاء الطبع في القرآن بمعنى إحكام الإغلاق مع الختم [٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٥، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧١٩.

(٢) التحرير والتنوير ٦/ ١٧ - ١٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الختم:

الختم لغة:

الخاء والتاء والميم أصل واحد، وهو بلوغ آخر الشيء، وكثيرًا ما يفسر الختم بالطبع؛ لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره[١]. وقيل: الختم: هو التأثير في الطين ونحوه[٢].

الختم اصطلاحًا:

قال الكفوي: الختم في الاصطلاح: «قريب من (الكتم) لفظًا لتوافقهما في العين واللام، وكذا معنى؛ لأن الختم على الشيء يستلزم كتم ما فيه»[٣]. والختم: أصله في الحسيات، ومنه ختم الكتاب بالطين لتأمين إيصاله دون فض، واستعمل بتوسع في الختم المعنوي، ومنه الختم على القلوب[٤].

الصلة بين الختم والطبع:

لم يفرق اللغويون بين الختم والطبع، قال ابن منظور: الختم على القلب: أي: أن لا يفهم شيئًا ولا يخرج منه شيء كأنه طبع. وفي التنزيل العزيز: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]؛ هو كقوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨]. فلا تعقل ولا تعي شيئًا[٥]، وقال الدامغاني: إنّ ختم كطبع[٦].

وقال الزجاج: معنى ختم في اللغة وطبع معنى واحد، وهو التغطية على الشيء، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء[٧].

وفرّق العسكري بين الختم والطبع بقوله: «إن الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه، فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم، ولهذا قيل: طبع الدرهم طبعًا، وهو الأثر الذي يؤثره فلا يزول عنه، كذلك أيضًا قيل: طبع الإنسان؛ لأنه ثابت غير زائل. وقيل: طبع

(١) انظر: مقاييس اللغة ٢/ ٢٤٥.
(٢) انظر: تاج العروس ٢١/ ٤٣٩.
(٣) الكليات، الكفوي ص٤٣١.
(٤) قواعد التدبر الأمثل، عبد الرحمن حبنكة ص٤٦١.
(٥) انظر: لسان العرب ١٢/ ١٦٣.
(٦) الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٠٦.
(٧) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٨٢.

فلان على هذا الخلق إذا كان لا يزول عنه»[1].

وفرّق ابن القيم بين الختم والطبع فقال: قلت: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجيّة وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق[2]، وبهذا يشير إلى أن الطبع أشد من الختم.

٢ الران:

الران لغة:

يقال: «الرّان والرّين» وهما لغتان، ويرجع معناه إلى الغلبة والرسوخ، قال أبو عبيدة: «﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾: غلب على قلبه»[3].

وقيل: إنّ أصل الرين: الطبع والتغطية، يقال: ران الذنب على قلبه يرين رينا وريونا: غلب عليه وغطاه[4]، وإلى ذلك ذهب الزجاج[5].

الران اصطلاحًا:

هو الطبع والدنس والصدأ، يغشى القلب ويغطيه من توالي الذنوب وكثرتها، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين:١٤].

وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ذكر فيه (الران)، ومعنى الآية: أي صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشر[6]. وقال الحسن ومجاهد: «هو الذنب على الذنب، حتى تحيط الذنوب بالقلب، وتغشاه فيموت القلب»[7].

الصلة بين الران والطبع:

قال مجاهد: الرين أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله[8].

وقال ابن الأثير: كانوا يرون أن الطبع هو الرين[9]. وقال أبو معاذ النحوي: الرين: أن

(١) الفروق اللغوية ص٧٣.
(٢) التفسير القيم ص١١٥.
(٣) انظر: مجاز القرآن ٢/ ٢٨٩.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٢٩١، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١٩٢.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٩٩.
(٦) المفردات، الراغب ص٣٧٣.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٨٨.
(٨) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/ ١٢٢.
(٩) المصدر السابق ٣/ ١١٢.

يسود القلب من الذنوب. والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، وهو الختم. قال: والإقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب[١].

وقال الزجاج: «يقال: ران على قلبه الذنب يرن رينا، إذ غشي على قلبه». قال: «والرين، كالصدأ يغشى القلب»[٢].

قال ابن القيم: «وأما الرين والران: فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها»[٣].

وقيل: إن الختم والطبع والرين ألفاظ تجري على شيء واحد، وهو: تغطية الشيء والحيلولة بينه وبين ما من شأنه أن يدخله ويمسه[٤]. وإلى ذلك ذهب بعض اللغويين، قال ابن منظور: إنّ معنى «ران» في الآية: أي غلب وطبع وختم، وبنحوه قال ابن الأثير[٥].

٣ الأكنة:

الأكنة لغة:

من الكنّ: وهو وقاء كل شيء وستره، والجمع أكنانٌ، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١].

والأكنّة جمع (أكنان): مفردها: كنان، وتعني: الأغطية. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[الأنعام: ٢٥][٦].

الأكنة على القلوب اصطلاحًا:

هي غطاء محكم على القلب يمنع الفهم ويحجب الهداية، وهي بهذا المعنى تتشابه مع معنى الطبع على القلوب. وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]. أي: في غلف، أي: ما تدعونا إليه لا يصل إلى قلوبنا لأنها في أغطية[٧].

وقال الراغب: في معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].أي: في غفلة من هذا. وقيل: معناه: قلوبنا أوعية للعلم. وقيل: معناه: قلوبنا مغطاة[٨].

(١) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٥٦٤.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٩٩.
(٣) التفسير القيم ١/ ٥٦٤.
(٤) المنار، رشيد رضا ١/ ١٢١.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٢/ ٢٩١، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١٩٢.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢١٨٨، تاج العروس ٣٦/ ٦٣.
(٧) انظر: معاني القرآن، النحاس ٦/ ٢٤٢.
(٨) المفردات ص٦١٢.

الصلة بين الأكنة والطبع:

قال الراغب: إنّ الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل، أو ارتكاب محظور، ولا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق، يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي، وكأنما يختم بذلك على قلبه، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾[النحل: ١٠٨].

وعلى هذا النحو استعارة الكنّ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾[الأنعام: ٢٥]. فجعل معنى الأكنة يقوم مقام الختم والطبع[(١)].

٤ الغلف:

الغلف لغة:

قال ابن فارس: إن مفردة غلف تدل على غشاوة وغشيان شيء لشيء، وقلب أغلف: كأنما أغشي غلافًا، فهو لا يعي شيئًا. قال الله تعالى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾[النساء: ١٥٥].

وقرأت: (غلف)، أي: أوعية للعلم. والقياس في ذلك كله واحد[(٢)]. وقيل في معنى: «غلف، أي: صم[(٣)]. وقيل أيضًا في تفسيرها: أي: في غطاء محجوبة عما تقول»[(٤)].

الغلف اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي، من حيث إنه غشاء وغطاء يحجب القلب عن الإيمان. وتتفق دلالة الغلف مع دلالة الأكنة ويتشاركان المعاني نفسها، إلا إن بينهما فرقًا دقيقًا، وهو أن معنى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾[الأنعام: ٢٥]. أي: مجموعة أغطية وأستار، واحدًا تلو الآخر حتى يحجب عنها الفهم والهداية والإيمان؛ بدلالة صيغة الجمع، وأما (غلف) وورودها بالصيغة نفسها، فتعني: أن هذه القلوب غطيت وأغشيت بأغلفة، وكأن القلب صار غلاف لنفسه، ولذا نجد الجملة مع الغلف استغنت عن حرف الجر، بعكس الأكنة حيث عديت بحرف الجر.

الصلة بين الغلف والطبع:

وجه التشابه في المعنى في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ مع قوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، فهما يشتركان في المعنى من حيث عدم الانتفاع بالآيات والنذر؛ لإحاطة هذه القلوب بأغلفة

(١) انظر: المصدر السابق ص٢٧٥.
(٢) مقاييس اللغة ٤/ ٣٩٠.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٧١.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص٦٧٣.

وأغطية تمنع من وصول الإيمان، فقلوبهم لا تفقه علمًا، ولا تعي حقًّا، ويتفارقان من حيث الشدة، فالطبع أشد أثرًا في القلب من الأكنة والغلف.

ومن دلائل تقارب المعاني بين الغلف والطبع اقترانهما في سياق واحد كما في قوله تعالى في وصف قلوب الكفار: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[النساء: ١٥٥].

فذكر المفسرون فيه وجهين: أحدهما: أن (غلفًا) جمع غلاف، والمعنى على هذا أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، أي: أوعية للعلم، فلا حاجة بنا إلى علم سوى ما عندنا، فكذبوا الأنبياء بهذا القول. والثاني: أن (غلفًا) جمع أغلف وهو المتغطي بالغلاف، أي: بالغطاء، والمعنى على هذا أنهم قالوا: قلوبنا في أغطية، فهي لا تفقه ما تقولون[١]، فكان الجواب من الله تعالى بقوله: ﴿بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥]. فجاء بلفظ الطبع كنتيجة وعقاب وخاتمة، فهي ليست مغلفة بطبعها. إنما كفرهم جَرَّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان، إلا قليلًا، ممن لم يستحق بفعله، أن يطبع الله على قلبه[٢].

٥ الأقفال:

الأقفال لغة:

جمع قفل، قال ابن فارس: القاف والفاء واللام أصل صحيح يدل على صلابة وشدة في شيء، ومنه القفل: سمي بذلك؛ لأن فيه شدًّا وشدة. يقال: أقفلت الباب فهو مقفل[٣]، ثم عبّر عن كلّ مانع للإنسان من تعاطي فعل، فيقال: فلان مقفلٌ عن كذا. وقيل للبخيل: مقفل اليدين، كما يقال: مغلول اليدين[٤].

الأقفال اصطلاحًا:

لفظ يستعار لمنع وصول الحق والإيمان إلى قلوب الكفرة والمنافقين المخبر عنهم بالختم. قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

والمقتفل من الناس: الذي لا يخرج من بين يديه خيرًا[٥].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥٩.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٠١.
(٣) انظر: مقاييس اللغة ٥/ ١١٢.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٦٨٠.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٣٤.

الصلة بين الأقفال والطبع:

الأقفال أشد أنواع الطبع على القلوب، قال مجاهد لما ذكر الرين والطبع قال: والإقفال أشد ذلك كله[1]. والأقفال: تحول بين القلوب وبين القرآن وبينها وبين النور، فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور[2]. ويستلزم لإزالة هذه الأقفال تدبر القرآن الكريم فهو يزيل الغشاوة ويفتح النوافذ لدخول الإيمان، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وفي مقام الألفاظ ذات الصلة بالطبع على القلوب يقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة واصفًا الطبع والختم والران والأكنة والغلف والأقفال: «إنّ من فطرة الإنسان إذا هو عاند وأصر على الباطل بعد معرفة الحق المبين، وأعلن تكذيبه وكفره بالحق، أن يصاب قلبه بالصمم، وأن يتبلد حسه تجاه الحق والخير، فإذا ألقي عليه الهدى أعرض عنه، ولم يستمع إليه، ولم يدرك جوانب الحق فيه، ولم يتحرك وجدانه وضميره بعاطفة إيجابية نحو الخير، ويكون كالصخر الأصم الذي لا يقبل ندى معرفة، ولا يندى بعاطفة، فإذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى من القسوة وجفاف عواطف الخير، فإنه يكون مغلف القلب، مسدود المنافذ، محجوبًا بحجاب غليظ، حتى يكون بمثابة البيت الذي أغلق بابه، وضرب عليه بالأقفال، ثم ختمت الأقفال بطابع الطين أو الشمع، إشعارًا بوصولها إلى غاية إقفالها أو بمثابة المعدن الذي يعلوه الصدأ حتى يغشيه تغشية تامة، ويحجبه حجبًا كاملًا، وهذا هو الران الذي يغشّي قلوب الكافرين المكذبين»[3].

(١) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٣/ ١١٢.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٩٧.
(٣) انظر: صراع مع الملاحدة ص٣٨٨.

أسباب الطبع

إن للطبع على القلوب أسبابًا كثيرة ومتنوعة قد يغفل عنها الإنسان، وقد ذكرها القرآن الكريم وبينها ووضحها مقرونة بالطبع والختم وما شابههما من المعاني، فالإنسان حين يعرض عن منهج الله والحق ويقترف الذنوب والمعاصي فسيمرض قلبه ويصيبه العمى والفساد، وتنكت فيه نكتة بعد نكتة، عندئذ يغلف ويحجب عن الهدى فلا يدرك الحق ولا يبصره، فيكون القلب منكوسًا مغلقًا لا تنفعه الآيات والنذر؛ لذا فإن معرفة أسباب الطبع في ضوء القرآن الكريم مهمة جدًّا للمسلم من أجل الحفاظ على قلبه السليم من أن يصيبه الران ويطبع عليه فيموت هذا القلب عن الوعي والسماع والفهم. ومن بين هذه الأسباب الكفر والنفاق، والعناد والتكبر والعدوان والجبروت، واتباع الهوى والشهوات، وعدم الانتفاع بآيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، وسنعرض لها في المطالب الآتية.

أولًا: الكفر والنفاق:

لا شك أن من أهم أسباب الطبع على القلوب (الكفر والنفاق) والعياذ بالله، فهما الداء العقيم والشر المستطير، وإذا داوم عليهما الإنسان ختم على قلبه بالكفر والنفاق فلا يعي حقًّا، ولا يهتدي طريقًا، ولذلك لما ذكر الله تعالى في أوائل سورة البقرة صفات المؤمنين أتبعهم بصفات الكافرين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

فكان جزاء كفرهم بالله تعالى وبآياته أن قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]. أي: ختم الله على قلوبهم بالكفر[(١)].

ثم إن الكافر لا يرعوي عن ضلالته لما سبق من شقاوته، وقد حكم الحقّ سبحانه بأن لا يفارق قلوب أعدائه ما فيها من الجهالة والضلالة، ولا يدخلها شيء من البصيرة والهداية. وقد وردت آية سورة البقرة ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، فكان أن طبع الله على قلوبهم مجازاة لهم بكفرهم[(٢)].

قال الرازي في مناسبة الآية: إنه لما بين الله تعالى في الآية الأولى أنهم لا يؤمنون أخبر في هذه الآية بالسبب الذي لأجله لم يؤمنوا، وهو الختم، فكان الختم مانعًا لهم من الإيمان، والختم عبارة عن حصول الداعية القوية للكفر المانعة من حصول الإيمان، فعند حصول الداعية الراسخة القوية للكفر، صار القلب كالمطبوع على

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ٤١.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠.

الكفر، وقال الحسن: الطبع عبارة عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحد الذي كأنه مات عن الإيمان، فكما أن الإيمان حياة القلب فالكفر موته[1].

وقد وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: الختم، والطبع، والضيق، والمرض، والرين، والموت، والقساوة، والانصراف، والحمية، والإنكار.

وفيما يأتي بعض الأمثلة:

فقال في الإنكار: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وقال في الحمية: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

وقال في الانصراف: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وقال في القساوة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال في الموت: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال في الرين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقال في المرض: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال في الضيق: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال في الطبع: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وقال: ﴿بَل طَّبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال في الختم: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧][2].

فكل هذه النصوص القرآنية تدل على أن قلوب الكفار المعاندين، والمنافقين المكذبين في حجب عن البصيرة ومعرفة الحق والهداية، وذلك بسبب تماديهم في الكفر والغي واستغراقهم للذنوب والمعاصي، وهذه النتيجة من سنن الله الكونية التي حذر منها الناس، فقال: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وعقوبة الطبع إنما هو معنى يخلقه الله تعالى في القلب فيمنع من الإيمان به، ودليله قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الحجر: ١٢-١٣].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢/ ٢٩١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٨٦.

[الأنعام: ٢٥]. أي: لئلا يفقهوه[١].

وجعل الراغب ثلاثة ذنوب للإنسان يقابلها ثلاث عقوبات في الدنيا، ومنها: الضلال، وهو أن يسبق إلى اعتقاد مذهب باطل، وأعظمه الكفر، فلا يكون تلفت منه بوجه إلى الحق، وذلك يورثه هيئة تمرنه على استحسانه المعاصي، واستقباحه الطاعات، وهو المعبر عنه بالطبع والختم في قوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية:٢٣].

و﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨].

وبالأقفال في قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. إلى غير ذلك[٢].

والكفر الذي يوجب الختم هو: عبارة عن جحود ما صرّح به الكتاب المنزل أنه من عند الله، أو جحود الكتاب نفسه، أو النبي الذي جاء به[٣].

وبالجملة: إذا جحد ما علم من الدين بالضرورة بعدما بلغت الجاحد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بلاغًا صحيحًا، وعرضت عليه الأدلة على صحتها لينظر فيها فأعرض عن شيء من ذلك وجحده عنادًا أو تساهلًا أو استهزاءً فقد كفر، فيكون عقوبته الختم، وهذا التعبير مثل لمن تمكن الكفر في قلوبهم حتى فقدوا الدواعي والأسباب التي تعطفهم إلى النظر والفكر في أدلة الإيمان ومحاسنه، فلا يدخلها غير ما رسخ فيها[٤].

وقد أشار القرآن إلى الأسباب الباعثة على كفر الكافرين والتي يتولدّ عنها الطبع على قلوبهم ضمن سنن الله الثابتة، وهي ثلاثة أسباب:

السبب الأول: النفسية العدوانية، وفي الإشارة إلى هذا السبب يقول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

السبب الثاني: النفسية الجاهلة المنساقة مع الهوى، والتي لا تريد أن تعلم الحق خشية أن تنغص عليها المعرفة ما هي فيه من استغراق في الفجور، وفي الإشارة إلى هذا السبب يقول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

السبب الثالث: النفسية المستكبرة الجبارة، وهذا أخطر الأسباب، ولذلك يكون الطبع بسببه عل كل قلب متكبّرٍ جبار، وفي الإشارة إلى هذا السبب يقول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]. أي: لا يقتصر على الطبع على بعض قلبه، بل يكون عليه جميعًا[٥].

(١) المصدر السابق ١/ ٨٧.
(٢) انظر: المفردات ص٢٧٥.
(٣) انظر: المنار، رشيد رضا ١/ ١١٨.
(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ١١٨-١٢٠.
(٥) انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٩٠-٣٩١.

وأسند الله تعالى الختم والطبع على قلوبهم وعلى سمعهم إليه؛ لأنه بيان لسنته تعالى في أمثالهم، وعبّر عنه بالماضي للدلالة على أنه أمر قد فرغ منه، وهو لا يدل على أنهم مجبورون على الكفر، ولا على منع الله تعالى إياهم منه بالقهر، وإنما هو تمثيل لسنته تعالى في تأثير تمرنهم على الكفر وأعماله في قلوبهم بأنه استحوذ عليها وملك أمرها حتى لم يعد فيها استعداد لغيره، كما تقدم مثله عن الراغب، ويوضح ما قلناه قوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣].

وقوله عن اليهود في سورة النساء: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

فذكر أن الطبع على قلوبهم إنما هو بسبب كفرهم وتلك المعاصي التي أسندها إليهم، وقوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فذكر من فعله المسند إليه: أنه اتخذ إلهه هواه، ومن صار هواه معبوده لا يفيد معه شيء[(١)].

قال ابن القيم في حكم الطبع: «ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم، فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت، ثم يعافي عبده ويهديه كما يعاقب بالعذاب كذلك»[(٢)].

وقال رحمه الله في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]: «فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم فلم يقبلوا ما بيّنه لهم ولم يعملوا. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا من بعد هذا البيان»[(٣)].

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت

(١) المنار ١/ ١٢٠-١٢١.
(٢) شفاء العليل ص٩١.
(٣) التفسير القيم ص٤٥.

عنك شكوك كثيرة وشبهات في هذا الباب وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فالأول: كفر عناد، والثاني: كفر طبع[١].

وقال صاحب المنار في قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: كان كفرهم الشديد وما له من الأثر القبيح في أخلاقهم وأعمالهم، سببًا للطبع على قلوبهم، أي: جعلها كالسكة المطبوعة - الدراهم مثلًا- في قسوتها، وتكيفها بطبعة خاصة لا تقبل غيرها من النقوش، فهم بجمودهم على ذلك الكفر التقليدي، ولوازمه لا ينظرون في شيء آخر نظر استدلال واعتبار، ولا يتأملون فيه تأمل الإخلاص والاستبصار، وإنما النظر والتأمل من الأمور الممكنة التي ينالها كسبهم، ويصل إليها اختيارهم، ولكنهم لا يختارون إلا ما ألفوا وتعودوا[٢].

وقال سيد قطب في تفسيره للآية: إنما هم كفرهم جرّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان، إلا قليلًا، ممن لم يستحق بفعله، أن يطبع الله على قلبه. أي: أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه[٣].

ومن أسباب الطبع على القلوب: النفاق، والنفاق: وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]. أي: الخارجون من الشرع، وجعل الله المنافقين شرًّا من الكافرين. فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥][٤].

وقال الجرجاني: النفاق: «إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب»[٥].

وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

ومثله في سورتهم، وقال سبحانه: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

أي: فهم بهذا الطبع لا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاظ، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١] ما يراد منها؛ لأن قلوبهم قد

(١) المصدر السابق.
(٢) المنار، رشيد رضا ٦/ ١٥.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨١٩.
(٥) التعريفات ٢٤٥.

ملئت بما يشغلهم عنها من آراء وأفكار وشهوات ملّكت عليها أمرها، حتى صرفتهم عن غيرها فجعلتهم من الأخسرين أعمالًا ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٤][1].

إذًا النفاق والكفر صنوان كلاهما سبب للطبع، وعبّر بالطبع عمّا خلق في قلوبهم من الريب والشك وختم عليهم به من الكفر والمصير إلى النار[2].

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٣]: «هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر. أي: أقرّوا باللسان ثم كفروا بالقلب»[3].

فالمنافقون عرفوا الإيمان، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر. وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه، أو تذوق، أو حياة، وإلا فمن ذا الذي يذوق ويعرف، ويطلع على التصور الإيماني للوجود، وعلى التذوق الإيماني للحياة، ويتنفس في جو الإيمان الذكي، ويحيا في نور الإيمان الوضيء، ويتفيأ ظلال الإيمان الندية.

ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوي المجدب الكنود؟ من ذا الذي يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود، الذي لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد[4].

وكان سبب الطبع على قلوب المنافقين إقدامهم على الأعمال السيئة المتعجب من سوئها، وهو استخفافهم بالأيمان ومراجعتهم الكفر مرة بعد أخرى، فرسخ الكفر في نفوسهم فتجرّأت أنفسهم على الجرائم وضريت بها، حتى صارت قلوبهم كالمطبوع عليها أن لا يخلص إليها الخير[5].

قال ابن القيم في سياق حديثه عن المنافقين: «واعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم، فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر. وبيّنها لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فإنهم لما ردّوا الحق ورغبوا عنه عوقبوا بالطبع والرين وسلب العقل والفهم»[6].

«وإنما كانت عاقبة هذه الطبقة في الدرك الأسفل من النار؛ لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن

(١) المنار، رشيد رضا ٩/ ٢٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣١٢.
(٣) الجامع لحكام القرآن ١٨/ ١٢٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٧٤.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٣٧.
(٦) مفتاح دار السعادة ص١٠١.

كان البعداء متصدين لحرب المسلمين»[1].

ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

وقال تعالى في الكفار ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]: فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر، ثم عمي وعرف، ثم تجاهل وأقرّ، ثم أنكر وآمن، ثم كفر، ومن كان هكذا كان أشد كفرًا وأخبث قلبًا وأعتى على الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل من النار[2].

ومن أسباب النفاق الذي يوجب الطبع على القلوب: عدم تدبر آيات الله تعالى، والإعراض عنها والكفر بها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

والسياق يتحدث عن المنافقين، والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق، وإضافة الأقفال إلى القلوب للتنبيه على أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب، ومعنى الآية أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشرك؛ لأن الله سبحانه قد طبع عليها، والمراد بهذه القلوب قلوب هؤلاء المخاطبين، وهم المنافقون الذين قعدوا عن القتال[3].

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ١/ ٤٠٣-٤٠٤.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٦.

ثانيًا: العناد والكبر:

ومن أسباب الطبع على القلوب، العناد والتكبر والتكذيب وعدم الإيمان بالله والرسول والطغيان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم رُّسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

قال ابن عطية: «إنهم بادروا رسلهم بالتكذيب كلما جاء رسول ثم لجّوا في الكفر وتمادوا فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم، وقال بعض العلماء: عقوبة التكذيب الطبع على القلوب. ثم ابتدأ بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ أي كفعلنا هذا، و﴿الْمُعْتَدِينَ﴾ هم الذين تجاوزوا طورهم واجترحوا ما لا يجوز لهم وهي هاهنا في الكفر[4].

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]: «يقول تعالى ذكره: كما طبعنا على قلوب أولئك فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبلون من أنبياء الله نصيحتهم، ولا يستجيبون لدعائهم إيّاهم إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوب واكتسبوا من الآثام، كذلك نطبع على قلوب من اعتدى على ربّه، فتجاوز ما أمره به من توحيده، وخالف ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصيتهم ربّهم من

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٣.

هؤلاء الآخرين من بعدهم»[1].

وقال الشنقيطي: إن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم: أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، كالختم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك إنما جعلها عليهم جزاء وفاقًا لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل، والإعراض عن آيات الله باختيارهم، فأزاغ الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك[2].

ومعنى الاعتداء في الآية: أي أنهم لم ينظروا في آيات الله تعالى، وكفروا بما نزل إليهم من منهج، فهم أصحاب السبب في الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض. وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه[3].

وترتب على إعراضهم عن الإيمان عنادًا واستكبارًا الطبع على القلوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

أي: مثل ذلك الختم وحجب الخير والحق يختم الله على قلوب الجهلة الذين لا يتعلمون ولا يعلمون حقيقة الآيات البينات في القرآن المجيد، لسوء استعدادهم، وإصرارهم على تقليد الأسلاف، واعتقاد الخرافات[4].

وفسر الاعتداء في الآية: أنه الظلم مع العناد والمجاوزة عن الحد الذي جعل[5]. وقيل: معناه: الشرك ومجاوزة الحلال إلى الحرام[6].

وأما السبب الآخر للطبع على القلوب فهو «الكبر»، قال تعالى واصفا المتكبر والجبار والمجادل بالباطل: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين، فكذلك يطبع على قلب كل متكبر جبار، فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بغير حق، وقرئ بتنوين قلب، فما بعده صفته. ووصف القلب بالتكبر والتجبر؛ لأنه منبعهما[7].

قال الطبري في معنى الطبع على القلب المتكبر: «كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر على الله أن يوحده، ويصدّق رسله. (جبار) يعني: متعظم عن اتباع الحقّ»[8].

(١) جامع البيان ١٥/ ١٥٤.
(٢) انظر: أضواء البيان ٣/ ٣١١.
(٣) تفسير الشعراوي ١٠/ ٦١٢١.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ١٢٢.
(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٧١.
(٦) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٢٦٨.
(٧) الوسيط للقرآن، نخبة من علماء الازهر ٨/ ٦٣٧.
(٨) جامع البيان ٢١/ ٣٨٤.

وقال الماتريدي: ويطبع الله على كل من تعود التكبر والتجبر على الآيات والرسل[1].

قال الزمخشري: وقرئ: «قلبٍ»[2]، بالتنوين. ووصف القلب بالتكبر والتجبر، لأنه مركزهما ومنبعهما، ونحوه قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[البقرة: ٢٨٣].

وإن كان الآثم هو الجملة. ويجوز أن يكون على حذف المضاف. أي: على كل ذي قلب متكبر، تجعل الصفة لصاحب القلب[3]. وقيل: أي: بمثل هذا الطبع والختم على قلب المتكبرين والجبارين، من فرعون وقومه- يطبع الله على قلب كل متكبر جبار من أهل الشرك، الذين يلقون محمدًا بالشك والارتياب والتكذيب[4].

وقيل في معنى الآية: ويتجبرون على الضعفاء بالإذلال والتسخير، والإهانة والقتل بغير حق.

قال الشعبي وغيره: لا يكون الإنسان جبارًا حتى يقتل نفسين. وقال قتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق. وقال مقاتل: «متكبِّرٍ» عن قبول التوحيد جبّارٍ في غير حق. فهو في الأول يعادي الله، وفي الثاني يقسو على خلق الله[5].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)[6].

ثالثًا: اتباع الهوى والشهوات:

ومن الأسباب التي توجب الطبع والختم على القلب اتباع الهوى والشهوات والشبهات. فالهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة، والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء. وإن وقع الهوى في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء، ومخالفة السنة. فما قارن الهوى شيئًا إلا أفسده، وهو يسري في القلب والأعضاء سريان السم في القلب والأعضاء[7].

والهوى: هو ميل النفس إلى الشهوة. وسمي بذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية[8]. ولم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه.

والهوى قسمان: الأول: هوى الشبهات، والثاني: هوى الشهوات، فأما القسم الأول فهو أشد القسمين خطرًا؛ إذ ربما ترتّب عليه الخروج من الإسلام، وصاحبه بعيد عن

(١) تأويلات أهل السنة، ٩/ ٢٨.
(٢) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر:٣٥].
(٣) الكشاف ٤/ ١٦٧.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ١٢٣٤.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١١٨.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، ١/ ٩٣، رقم ٩١.
(٧) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٤/ ٣٠٩٥.
(٨) انظر: المفردات، الراغب ٨٤٩.

التوبة؛ لأنه يعتقد أنه على صواب وهو ليس كذلك. وقد أخبر سبحانه وتعالى أن اتباع الهوى يضل عن سبيله فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦][1].

وأخبر سبحانه وتعالى في موضع آخر أنه باتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

وجعل الله سبحانه وتعالى متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن فقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقال سبحانه في موضع آخر ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه، وقال أيضًا: المنافق عبد هواه لا يهوى شيئًا إلا فعله[2].

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]: «ومعنى ذلك: أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوى شيئًا إلا ركبه، لأنه لا يؤمن بالله، ولا يحرّم ما حرّم، ولا يحلّل ما حلل، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به[3]. وقيل: أي: هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه»[4].

فهذا فريق من الناس قد اتخذ إلهه هواه، فهو يعبد أهواء نفسه، فيطيعها في أوامرها ونواهيها، ويسارع في تحقيق مطالبها وشهواتها، ولو كان في ذلك أذاه وضرّه وهلاكه، ومن اتخذ إلهه هواه فقد ضل سواء السبيل، ومن ضل بجنوحه واتباعه أهواء نفسه أضلّه الله، فحكم عليه بالضلال حكمًا مبينًا على علم بواقع حالة الضال، وإذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى من الضلال واتباع الهوى قسا قلبه، وران عليه ما كسب من إثم، فحجب عن إدراك الحقائق الدينية الربانية، وغلّف بغلاف شامل، وختم على هذا الغلاف، وكان شأن أدوات المعرفة لديه كشأن قلبه، فيختم على سمعه أيضًا، فلا يستمع إلى نصيحة، ولا يتقبل موعظة من مواعظ الهداية الربانية، ويجعل على بصره غشاوة، فلا يرى آيات علم الله وحكمته وعدله المنبثّة في الوجود[5].

قال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى؛

(١) انظر: روضة المحبين، ابن القيم ص ٤٠٢.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٤٧٥-٤٧٦.
(٣) جامع البيان ٢٢/ ٧٥.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٩١.
(٥) انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٩٢- ٣٩٣.

لأنه يهوي بصاحبه في النار[1]. وقال ابن عباس: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه[2]، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وثبت في الحديث الصحيح عن حذيفة بن اليمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلب أُشْرِبها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًّا؛ كالكوز مجخيًّا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه)[3].

وروي عن شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)[4].

إن التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ يرسم نموذجًا عجيبًا للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب وحين تتعبد هواها، وتخضع له، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها. وتقيمه إلها قاهرًا لها، مستوليًّا عليها، تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول. يرسم هذه الصورة ويعجّب منها في استنكار شديد: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾.

أفرأيته؟ إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب! وهو يستحق من الله أن يضله، فلا يتداركه برحمة الهدى. فما أبقى في قلبه مكانًا للهدى وهو يتعبد هواه المريض! ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

على علم من الله باستحقاقه للضلالة. أو

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٤١٩.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٦٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ١/ ١٢٨، رقم ١٤٤.
وذكر الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه لقوله: (كالكوز مجخيا) أي: قُلِبَ ونُكِّسَ حتى لا يعلق به خير ولا حكمة.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٥٠، رقم ١٧١٢٣، والترمذي في سننه، ٤/ ٢١٩، رقم ٢٤٥٩.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ١١/ ٤٩٩، رقم ٥٣١٩.

على علم منه بالحق، لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذه إلهًا يطاع. وهذا يقتضي إضلال الله له والإملاء له في عماه ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

فانطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعة للهوى طاعته العبادة والتسليم ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣][1].

وجملة القول: إنّ من سننه تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله، ويستمرّ على ذلك ويدمنه الزمن الطويل، تضعف إرادته في هواه حتى تذوب وتفنى فيه، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلب، والصمم والعمى والبكم[2].

رابعًا: عدم الانتفاع بآيات الله في الآفاق:

ومن أسباب الطبع على القلوب عدم الانتفاع بآيات الله تعالى. سواء كانت هذه الآيات منظورة في الكون الفسيح أو مسطورة في القرآن الكريم كقصص الأمم السالفة. وقد أرشد الله تعالى الناس إلى التأمل والتفكر والتدبر ليقيم الحجة على خلقه بآياته الكونية -الأفقية والنفسية-، لذا نجده سبحانه وتعالى في كتابه الكريم يكثر من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وكيفية تبدل الضياء بالظلام وبالعكس، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وأمر بالنظر في ملكوت السماء والأرض وبالتفكر فيهما.

وإن من أعظم أسباب الضلال عدم تدبر القرآن وترك التفكر في حال الرسول وعدم النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

إنّ القلب محل التدبر والتفكر بآيات الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

أي: بل على قلوب أقفال تمنع من التدبر والتفكر، وبه يتدبر آيات الله الكونية الخلقية في الآفاق وفي الأنفس، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فبيّن سبحانه وتعالى أن المعتبر في الانتفاع بالآيات الخلقية والكونية في

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٣٠.
(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٥٢٩.

الأنفس والآفاق عقل القلوب وإبصارها.

قال الطبري: أفلم يسيروا هؤلاء المكذّبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد، فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذّبي رسل الله الذين خلوا من قبلهم، كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكّروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سنة الله فيمن كفر وعبد غيره وكذّب رسله، فينيبوا من عتوّهم وكفرهم، ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحقّ ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ حجج الله على خلقه وقدرته على ما بيّنا ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يقول: أو آذان تصغي لسماع الحقّ فتعي[1].

وذكر الزمخشري لطيفة في هذه الآية حيث قال: قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها. واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف، ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار، كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: «الذي بين فكيك» تقرير لما ادّعيته للسانه وتثبيت؛ لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة وسهوًا، بل تعمدنا ذلك تعمدًا[2].

لقد أظهر الله تعالى اليأس من إيمانهم، لأن القلوب قد عميت، فلا تبصر الدلائل الكونية، ولا البراهين العقلية فقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦][3].

ومما يؤكد ضرورة العناية بالقلب أنه هو المطية التي يقطع بها العبد سفر الآخرة، فإن السير إلى الله تعالى سير القلوب لا سير الأبدان. يقول الحافظ ابن رجب: الاعتبار بلين القلوب وتقواها وتطهيرها عن الآثام فسفر الدنيا ينقطع بسير الأبدان وسفر الآخرة ينقطع بسير القلوب. وقال بعض العارفين: إن سير القلوب أبلغ من سير الأبدان. كم من واصل ببدنه إلى البيت وقلبه منقطع عن رب البيت، وكم من قاعد على فراشه في بيته وقلبه متصل بالمحل الأعلى[4].

فمجرّد سماع القصص، ورؤية الآثار، والعلم بالأمم الخالية التي عوقبت لإعراضها، لا خير يرجى من ذاك ما لم يكن معه عبرة توصل إلى التوبة والتقوى؛ لذا بيّن تعالى أنّ العمى الضّارّ هو عمى البصيرة؛ لأنّها قوة فقه العبر، والنفاذ إلى المغزى،

(١) جامع البيان ١٨/ ٦٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٢.

(٣) تفسير المراغي ١٧/ ١٢٣.

(٤) انظر: لطائف المعارف، ابن رجب ص٢٥١.

والتيقّن من الحق، والطمأنينة بالمعاينة القلبيّة؛ لذا بعدها يكون التذكر؛ لقوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

فالتبصّر آلة البصر، والتذكرة آلة الذكر، وهما للعبد المنيب التائب، فيبصر مواقع الآيات، ومحال العبر؛ فيزول عنه العمى والغفلة فيتذكر؛ لأنّ التبصّر يوجب حصول صورة المدلول بعد الغفلة عنها، فيتذكّر فيكون من أولي الألباب، وهم أعلى من أولي الأبصار؛ لذا قيل: إن الله يحب ذا البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

ومما تقدم نخلص إلى أنّ البصيرة خصّت بالعبرة، واللّبّ خصّ بالتذكّر، فالبصيرة نورٌ في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فأمر بالسياحة في الأرض، وتأمّل آثار الأمم الغابرة، وما حلّ بها بعد أن عمرت في الأرض قرونًا، فذكر ما يتكامل به الاعتبار؛ لأنّ الرؤية لها حظٌّ عظيم في الاعتبار، مع الاستماع لقصص من مضى، ولكن لا يكمل الأمر إلاّ بالتدبّر بالقلب، «وعقل ذلك؛ بأن يعقل التّوحيد بما حصل له من الاستبصار والاعتبار»[1].

طرق تجنب الطبع

من المعلوم أن قلب المرء هو منطلق أعماله، فبصلاحه تصلح الأعمال عند الله وتزكو، وبفساده تفسد ولا ينتفع بها، ومن ثم فإن من فقه المرء ورجاحة عقله أن يحرص على سلامة قلبه ويجنبه دنس الشرك والآثام والذنوب، ولابد للمسلم أن يسلك الطرق التي تجنبه الطبع على القلوب لا سيما عندما تشرئب الفتن ويعظم الجهل بدين الله. وسنتحدث في المطالب الآتية عن أهم طرق تجنب الطبع والختم على القلوب، ومنها: الاستجابة لدواعي الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم. ومعرفة الله تعالى والبصيرة في الدين. والانتفاع بآيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، ومن ثم الاعتبار بالمصائب والمحن والشدائد فهي تمحص قلب المؤمن وتميز الخبيث من الطيب، لذلك ينبغي للمسلم أن يعرف هذه الطرق والوسائل كي يتجنب الطبع على قلبه.

أولًا: الاستجابة لدواعي الحق:

إن من أسباب شفاء القلوب من مرضها وتجنب الختم والطبع عليها الاستجابة لأوامر الله تعالى وما أنزله الله في كتابه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي، ١/ ٥٢٦.

﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

فذكر الله تعالى وقراءة القرآن الكريم وتدبره والعمل بمقتضاه، تنجي القلب من قسوته وتجنبه الطبع والران الذي يصيبه.

قال ابن القيم رحمه الله: القرآن حياة القلوب، وشفاء لما في الصدور، فبالجملة لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر، والتفكر، وهذا الذي يورث المحبة والشوق، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والرضى، والتفويض، والشكر، والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب، وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب، وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها[(١)].

وقال الحافظ ابن رجب: وفي الآية إشارة إلى أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها بوابل القطر فهو قادر على إحياء القلوب الميتة القاسية بالذكر، عسى لمحة من لمحات عطفه ونفحة من نفحات لطفه وقد صلح من القلوب كل ما فسد[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال الطبري: أي: استجيبوا للحق الذي جاءكم من الله عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى أملك لقلوب عباده من أنفسهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئًا من إيمان أو كفر، أو أن يعي به شيئًا، أو أن يفهم، إلا بإذنه ومشيئته. وذلك أن «الحول بين الشيء والشيء»، إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه إدراكه سبيلٌ[(٣)].

وقيل في معنى الآية: إنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية. فهو بينه وبين قلبه. قال ابن القيم: وكان هذا أنسب بالسياق؛ لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه. فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه[(٤)].

قال ابن القيم: إنّ الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٧.
(٢) انظر: لطائف المعارف ص٣١٧.
(٣) جامع البيان ١٣/ ٤٧١.
(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٣٠١.

الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول والتي تتمثل بالإسلام والإيمان والقرآن والجهاد في سبيل الله[1]. فمن استجاب فاز ونجا، ومن ترك الاستجابة عاقبه الله تعالى بأن يحول بينه وبين قلبه فلا يقدر على الاستجابة بعد ذلك، فيطبع ويختم على قلبه[2].

قال سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]: ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة. ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فيفصل بينه وبين قلبه ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه، ويصرفه كيف شاء، ويقلبه كما يريد. وصاحبه لا يملك منه شيئًا وهو قلبه الذي بين جنبيه! إنها صورة رهيبة حقًّا يتمثلها القلب في النص القرآني، ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب، ووصف هذا الإيقاع في العصب والحس! إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة، والحذر الدائم، والاحتياط الدائم. اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته والحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقا والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس.. والتعلق الدائم بالله سبحانه مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته، أو غفلة من غفلاته، أو دفعة من دفعاته.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رسول الله المعصوم يكثر من دعاء ربه: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[3]. فكيف بالناس، وهم غير مرسلين ولا معصومين؟! إنها صورة تهز القلب حقًّا ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات، ناظرًا إلى قلبه الذي بين جنبيه، وهو في قبضة القاهر الجبار وهو لا يملك منه شيئًا، وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير! صورة يعرضها على الذين آمنوا وهو يناديهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ليقول لهم: إن الله قادر على أن يقهركم على الهدى- لو كان يريد- وعلى الاستجابة التي يدعوكم إليها هذه الدعوة، ولكنّه سبحانه يكرمكم فيدعوكم لتستجيبوا عن طواعية تنالون عليها الأجر وعن إرادة

(١) انظر: الفوائد ص٨٨-٨٩.
(٢) انظر: شفاء العليل، ابن القيم ص٣١.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ١٦٠، رقم ١٢١٠٧.
وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٥/ ١٢٦، رقم ٢٠٩١.

تعلو بها إنسانيتكم وترتفع إلى مستوى الأمانة التي ناطها الله بهذا الخلق المسمى بالإنسان. أمانة الهداية المختارة وأمانة الخلافة الواعية، وأمانة الإرادة المتصرفة عن قصد ومعرفة[1].

ثانيًا: معرفة الله والبصيرة في الدين:

أما السبب الثاني من أسباب شفاء القلوب وصلاحها وحياتها وصحتها وتجنب الطبع أو الختم عليها هو أن يستقرّ فيها معرفة الله تعالى وعظمته، ومحبته وخشيته والإنابة إليه. قال سعيد بن إسماعيل رحمه الله: «صلاح القلب من أربع خصال: التواضع لله، والفقر إلى الله، والخوف من الله، والرجاء لله»[2].

ومعرفة الله سبحانه وتعالى تكون بالقلب والعقل معًا، فالتفكر في مخلوقات الله يكون بالعقل، ثم ينتقل من دائرة العقل إلى دائرة اليقين بالقلب، وقد قرنت الآيات القرآنية التفكر في خلق السماوات والأرض - وهذا يكون بالعقل - بالتوجه القلبي لذكر الله وعبادته فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة»[3].

ولمعرفة الله عزوجل دور كبير في إخضاع القلب له سبحانه؛ لأنه بقدر المعرفة تكون العبودية، فنحن نحتاج لمعرفة الله عز وجل لتزداد خشيتنا له، وخوفنا منه، ورجاؤنا فيه، وتوكلنا عليه وغير ذلك من ألوان العبودية، وقد سأل موسى عليه السلام ربه: «يا رب أي عبادك أخشى لك؟ فقال: أعلمهم بي»[4].

وما أنزل القرآن الكريم وما بعث الرّسل إلا لشيء واحد كل شيء يندرج فيه، ألا وهو أن يعرّف بالرب تبارك وتعالى وأعظم التعريف برب العالمين جل جلاله توحيده، فما توحيده إلا ناجم عن المعرفة الحقة به، وقال أحمد بن عاصم: «من كان بالله أعرف كان من الله أخوف»[5]. فأصل الدين معرفة الله؛ لأنك إذا عرفت الله، ثم عرفت أمره

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٩٥.
(٢) انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم ١/ ٢٤٤.
(٣) الفوائد ١/ ٢٠.
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٧٥.
(٥) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ٨/ ٣٤٥٤.

فإنك تتفانى في طاعته.

فالقلوب إذا لم يحركها معرفة الله عز وجل وتعظيمه، فإنّ العطب سيتمكن منها، والطبع والران سيكسوها، يقول ابن رجب رحمه الله: «فلا صلاح للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، وتمتلئ من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد، وهو معنى (لا اله إلا الله)، فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تألهه وتعرفه وتحبه وتخشاه هو الله وحده لا شريك له»[1].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه)[2]. والمراد باستقامة إيمانه: استقامة أعمال جوارحه، فإن أعمال جوارحه لا تستقيم إلا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب: أن يكون ممتلئًا من محبة الله، ومحبة طاعته، وكراهة معصيته[3].

يقول ابن القيم: «فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الأرواح؟ وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فرح ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه»[4].

فمن أعظم وسائل علاج القلب وصحته وسلامته من الأمراض: أن يمتلئ قلب الإنسان بمحبة الله.

يقول ابن القيم رحمه الله: فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا ينعم ولا يتلذذ ولا يسكن، إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها، ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقةً وقلقًا حتى يظفر بما خلق له، وهي له: من كون الله وحده نهاية مراده، وغاية مطالبه، وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألّهه لما سواه وعبوديته له[5].

فالمسلم لا بد أن يعبد الله على بصيرة؛ لأنها تقوده إلى الفهم الثاقب الصحيح في دين الله كونها أساس السعادة ومنبع الخير، وتكمن أهمية البصيرة في دين الله عزوجل باكتساب الثقة في النفس والطمأنينة وانشراح الصدر.

ولأهمية البصيرة في الدين فقد جعلها ابن القيم رحمه الله المنزلة الثانية من منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيث يقول:

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ١/ ٢١١.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٤٣، رقم ١٣٠٤٨.
قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف علي بن مسعدة الباهلي.
(٣) انظر: جامع العلوم والحكم ١/ ٢١١.
(٤) الجواب الكافي، ص٢٣٣.
(٥) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٩٨.

«فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل، كأنه يشاهده رأي العين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم، وهذا معنى قول بعض العارفين: البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به»[1].

ولقد ذكر الله عز وجل البصيرة في كتابه العزيز بل وربطها بمقام الدعوة الذي هو من أجل المقامات حيث قال عزوجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

جاء في لسان العرب: البصيرة الحجة والاستبصار من الشيء. والبصر نفاذ في القلب، وبصر القلب نظره وخاطره، والبصيرة هي عقيدة القلب[2].

وقال الراغب الأصفهاني: يقال لقوة القلب المدركة: بصيرة وبصر، وجمع البصر أبصار، وجمع البصيرة بصائر، ومنه ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: معرفة وتحقق[3].

وذكر الكفوي رحمه الله أن البصيرة: «قوة في القلب تدرك بها المعقولات، وقوة القلب المدركة بصيرة»[4].

وقال القرطبي: أي: «على يقين وحق»[5].

وقال البيضاوي: «أي: بيان وحجة واضحة غير عمياء»[6].

وقال الإمام البغوي: «البصيرة هي المعرفة التي تميز بها الحق والباطل»[7].

وقال الإمام البقاعي ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: «حجة واضحة من أمري، بنظري الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وترك التقليد الدال على الغباوة والجمود، لأن البصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل دينًا ودنيا بحيث يكون كأنه يبصر المعنى بالعين»[8].

فالبصيرة هي الدليل الواضح من غير لبس فيه، الذي يعصم الإنسان من الزلل والشطط والانحراف، ويهديه الى جادة الصواب ويصحح سلوكه، والبصيرة هي الدين والبيان، وهي العلم الذي تميز به الحق والباطل، بل هي النور الذي يبصر به القلب والحجة التي تدرك بها الحقائق العملية.

والبصيرة فعلها ووظيفتها التبصر، وهذه درجة قبل التذكر، فهي نور في القلب يبصر به، فيقوم في قلبه شواهد الحق ويرى حقيقة ما يبلغه ويخبر به عن طريق الرسل، فالبصيرة هي ما يخلصك من الحيرة، فمن

(١) انظر: مدارج السالكين ١/ ١٤٣.
(٢) انظر: لسان العرب، ٤/ ٦٥.
(٣) انظر: المفردات ص١٢٧.
(٤) الكليات ص٢٤٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٧٤.
(٦) أنوار التنزيل ٣/ ١٧٨.
(٧) معالم التنزيل ٤/ ٢٨٢.
(٨) نظم الدرر ١٠/ ٢٤٢.

عرفها ورزقها وذاقها فإنه يسير في حياته على هدى من ربه ويقين، من غير شك ولا شبهة ولا اضطراب.

فهناك بصر وبصيرة، وهناك رؤية عينية ورؤية قلبية، فقد يمر الإنسان ببصره على كثير من الآيات والدلائل على القدرة الإلهية ولا يحسّ بها ولا يدرك حقيقتها؛ لأن بصيرته مظلمة، ولأن قلبه أعمى، وقد تنكشف الحقائق فيراها أمامه جلية واضحة، يراها بقلبه، يراها ببصيرته، التي في أعماق نفسه، فيدرك أبعادها ويفهم دقائقها فيعرف ما ورائها من حكمة.

والبصيرة في الدين من أعظم ما يرزق به المتقي، حيث تكون له بصيرة وفرقان يفرّق به بين الحق والباطل وأن يكون له نورًا يضيء دربه فيحذر الشر ويرجو الخير.

وختامًا يمكن القول: إن معرفة الله والبصيرة في الدين هي خير دواء للقلوب من أمراضها؛ لأنها تجعل القلب دائم الحضور مع الله، حتى يصبح القلب حيًّا أبيض يشعّ النور من جنباته؛ لأن البصيرة في الدين هي الرؤية الإيمانية التي تضيء القلوب بنور الإيمان، فيرى الوجود بعين البصيرة لا بعين البصر، لأن القلب البصير أصبح يعقل ويدرك فتتكشف أمامه الحقائق كما يسلط النور على الأشياء فتتضح وسط الظلمة.

ثالثًا: لزوم التقوى والعمل الصالح:

ومن أوجه التقوى: تنزيه القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى، ألا ترى في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

فالملاحظ هنا أن الله تعالى ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلم بهذا أن حقيقة التقوى بمعنى غير الطاعة والخشية، وهي تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق منك مثله[(١)].

وأما المعنى الاصطلاحي للتقوى فقد عرفها العلماء بتعاريف عديدة فمن ذلك قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وأما التقوى: فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به، إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالناهي وخوفًا من وعيده»[(٢)]. وقال الإمام ابن عطية: التقوى: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية[(٣)].

ومما قيل في حقيقة التقوى: ما قاله طلق بن حبيب: «التقوى عمل بطاعة الله، على نور من الله، رجاء رحمة الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، خيفة عذاب

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٥٨.
(٢) الرسالة التبوكية ١/ ١٣.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ١/ ٢٣٠.

الله»[1].

قال الحافظ الذهبي معلقًا على قول طلق: في التقوى: «أبدع وأوجز، فلا تقوى إلا بعمل، ولا عمل إلا بتروٍّ من العلم والإتباع، ولا ينفع ذلك إلا بالإخلاص لله، لا ليقال: فلان تارك للمعاصي بنور الفقه، إذ المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها، ويكون الترك خوفًا من الله، لا ليمدح بتركها، فمن دوام على هذه الوصية فقد فاز»[2].

وسأل عمر بن الخطاب أبي بن كعب رضي الله عنهما عن التقوى فقال: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فما عملت؟ قال: شمّرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى[3].

وخير لباس يتزود به العبد الصالح لمرحلة الآخرة هو التقوى والعمل الصالح، مما يؤكد هذا الكلام قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فبعد أن تمنن الله عز وجل على عباده بأن جعل لهم من اللباس والريش، ما يستر به العورات، دلّهم على أفضل لباس، وهو ما يواري عورات الظاهر والباطن ويتجمل به وهو لباس التقوى[4]. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾: «هو العمل الصالح»[5]. وقيل: السمت الحسن في الوجه[6]. وقيل: ما علمه الله عزوجل وهدي به، وقيل: ستر العورة للصلاة، التي هي التقوى. وقيل: الحياء[7].

وقد جمع الإمام الطبري رحمه الله بين هذه المعاني جميعًا وعلّل ذلك بقوله: «لأن من اتقى الله كان به مؤمنًا، وبما أمره به عاملًا، ومنه خائفًا، وله مراقبًا، ومن أن يرى عندما يكرهه مستحيًا، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديه، ورئيت عليه بهجة الإيمان ونوره»[8].

والتقوى كما ذكر القرآن الكريم أصلها في القلب، وثمرتها على الجوارح بأداء الفرائض والنوافل واجتناب المحرمات، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح؛ لأن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه[9]. قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٤٧٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠١.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٣٢، منهج القرآن في تربية الرجال، عبد الرحمن عميرة ص٩٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٧٥.
(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢١٤.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١١٠.
(٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢١٤.
(٨) جامع البيان ١٢/ ٣٧١.
(٩) انظر: الفوائد، ابن القيم ص١٤١.

﴿ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

يقول سيد قطب: «إن التقوى زاد القلوب والأرواح منه تقتات، وبه تتقوى وترف وتشرف، وعليه تستند في الوصول والنجاة وأولوا الألباب هم أول من يدرك التوجيه إلى التقوى وخير من ينتفع بهذا الزاد»[(١)].

والتقوى للقلب كجهاز المناعة للبدن، فكلاهما يدرك ويواجه أسباب المرض، وتنشأ التقوى من الإيمان بالله وخشيته والعلم بما أنزله من أحكام وحدود، فبالتقوى يدرك القلب إلقاءات الشيطان بسرعة، فإذا همّ بالذنب أو أصابه تذكر وعد الله ووعيده، وأبصر غواية الشيطان، فيستغفر الله من قريب، وبهذا يقي نفسه التعرض لسخط الله وعقابه، أما غير التقي فيترك الفتنة تدمر قلبه كما تدمر الجراثيم عضوًا في الجسد لضعف جهاز المناعة[(٢)]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فإذا ما طاف الشيطان بالمس للذين اتقوا تذكروا خالق الشيطان وخالقهم، وتذكروا منهج الله الذي يصادم شهواتهم، وتذكروا إن عين الله تراهم ولا تغفل عنهم[(٣)].

فالتقوى تجعل القلب نورًا لكشف الشبهات، ويزيل الوساوس والأوهام، ويثبّت الأقدام على الطريق الشائك الطويل، بل إنها لتجعل قلب المؤمن مرجعًا عند التباس الأمور، واضطراب الموازين والأفهام، وهي تجعل في قلب المؤمن فرقانًا يكشف له معالم الطريق إلى الله، ولا يعرف هذه الحقيقة إلا من ذاقها وأخلص في التعامل معها، وغمرت مخافة الله وتقواه فؤاده[(٤)].

والتقوى تفتح مغاليق القلوب، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وهداية القرآن لا تكون بغير ذوي النفوس التقية، والقلوب الزكية تتوقى الضلالة، وتتجنب سبل الغواية، وبالتقوى يكون الفرقان بين الحق والباطل، وبها العرفان الذي تتجلى به الأمور، والنور الذي يشرح به الصدور.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

فالتقوى هي فرقان القلب و(الفرقان)

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٩٧.
(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٨٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٥٣٨.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٩٩.

هو: «النصر؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل»[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فُرْقَانًا﴾: «مخرجًا، وزاد مجاهد في الدنيا والآخرة»[2].

وحقيقة التقوى أنها حالة قلبية، تقوم على خشية الله ومراقبته، وتعظيم أمره ونهيه، تبعث صاحبها على فعل ما يحب الله ويرضى، والمسارعة فيه، واجتناب ما يسخطه والبعد عنه، ومحلها القلب، والقلب يضخّ آثارها على سائر الجوارح والأعضاء، كما يضخّ الدم من القلب، فينشر في سائر الجسد، فتعمل أجهزته، وتحيا به خلاياه[3].

قال أبو حاتم: «العاقل يدبر أحواله بصحة الورع، ويمضي لسانه بلزوم التقوى؛ لأن ذلك أول شعب العقل، وليس إليه سبيل إلا بصلاح القلب»[4].

واعتبر القرآن الكريم القلب مركزًا لسلسلة من الإلهامات والإلقاءات الإلهية، حيث إن كل إنسان وفي أي مستوى محافظ على طهارته القلبية، وعامل منقذ لها، فإن هذا المركز سيكون طريقًا للخلاص من جميع الأمراض ولا سيما الطبع على القلوب.

وكما أن القلب يتعرض للأمراض والعلل، فإن هذا القلب يحصل له من الأحوال الإيمانية، والمقامات التعبدية، من الصفحات المحمودة مثل: اللين، والإخبات، والخشوع، والإخلاص، والحب، والتقوى، والثبات، والخوف والرجاء والإنابة، والنتيجة سلامة القلب التي قال عنها الخالق سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

فالحياة الإيمانية صفة قلب صاحبه أبيض.

فالتقوى هي الدواء لكل الأمراض التي يصاب بها القلب كالجهل والنفاق والحقد والتكبر وغير ذلك، والتقوى هي العلاج الوحيد الواقي من هذه الأمراض، فهي تزيد مرآة القلب جلاءً وإشراقًا، ونورًا وضياءً حتى يتلألأ[5].

فالواجب على العاقل أن لا ينسى تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذي يورث القساوة له عليه؛ لأنه بصلاح الملك تصلح الجنود، وبفساده تفسد الجنود، فإذا اهتم بإحدى الخصلتين تجنب أقربها عن هواه، وتوخى أبعدها من الردى، فلا بد من إصلاح السرائر، وترك إفساد الضمائر، والواجب على العاقل الاهتمام بإصلاح سريرته، والقيام بحراسة

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٥٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٥٢
(٣) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٦/ ٨٧.
(٤) روضة العقلاء، ابن حبان ص٣٠.
(٥) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١٢

قلبه عند إقباله وإدباره، وحركته وسكونه، لأن تكدر الأوقات، وتنقص اللذات، لا يكون إلا عند فساده[1].

قال مالك بن دينار رحمه الله: إن القلب إن لم يكن فيه حزن خرب، كما يخرب البيت إذا لم يكن فيه ساكن، وإنّ قلوب الأبرار تغلي بأعمال البر، وإن قلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور، والله يرى همومكم، فأنظروا ما همومكم ؟ رحمكم الله[2].

والمتأمل لآيات القران الكريم يجد أن الله عز وجل ربط عدم السماع بالطبع بالذنوب، فقال تعالى ﴿أَوَلَمْ نَشَأْ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨].

وخلاصة المقال: إن القلب إذا زاد نوره بالتقوى والعمل الصالح ينيب إلى الله، ويحب الطاعات ويكره المعاصي، وبالإيمان وبتقوى الله وامتثال أوامره في كل حال يزيد نور القلب، وبالكفر والمعاصي يزيد ظلام القلب والطبع عليه[3]؛ لأن التقوى هي التي تحبب الوازع الديني في النفس، فلا يحتاج صاحبها بعد ذلك إلى رقيب أو حسيب، فهي كالحاجز للمسلم من كل شر وسوء، والدافعة إلى كل خير.

رابعًا: الانتفاع بآيات الله في الآفاق والأنفس:

ومن الأسباب الأخرى التي تؤدي إلى شفاء القلوب من أمراضها وتمنع الطبع عليها الانتفاع بآيات الله في الآفاق والأنفس، إذ إن التفكر في مخلوقات الله تعالى والتدبر والتأمل في كتاب الكون المفتوح، وتتبع قدرة الله المبدعة وهي تحرّك هذا الكون، وتقلب صفحاته من شأنه أن يجعل القلب دائم الصلة بالله، فيملؤه بالخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والاستسلام لله عز وجل.

إن التفكر والانتفاع بآيات الله في الآفاق والأنفس ومعرفة الله عزوجل، إنما ينشأ من توجيه القلب إلى الله تعالى وإيقاظه لرؤية آلائه، أمام هذا الخلق الهائل العجيب، من خلال رؤية مخلوقاته، وعجائب قدرته وبديع صنعه، ورؤية آثار رحمته ومظاهر قدرته، وقوته وبطشه في إهلاك الظالمين على مرّ القرون والأزمان[4].

وآيات الله في الآفاق والأنفس، تعدّ بابًا واسعًا من أبواب الإيمان الحق بالله تعالى، وطريقًا إلى خشيته وطاعته، فالباحث في العلم يوقن، والمتأمل في الكون يشعر حينما

(١) انظر: أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية ص٤٢.
(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٢٤
(٣) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ١/ ٣.
(٤) انظر: المصدر السابق ٣/ ٣١.

يقرأ آيات القرآن الكريم المتعلقة بخلق الكون والإنسان، يوقن بأن القرآن الكريم مستحيل أن يأتي به بشر، ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن القرآن الكريم يدعونا إلى التأمل والتدبر والنظر في آيات الله تعالى في عالم الطبيعة والخلق -آفاق الكون وأغوار النفس- ويعد هذا النظر والتفكر جديرًا بأهل الفكر والألباب وأصحاب الضمائر الحية والقلوب السليمة، وكثيرًا ما تأتي اللفتات الكريمة في القرآن الكريم إلى آيات الله وعظيم صنعه، وكريم لطفه وإحسانه، ثم تذيل هذه الآيات بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون:٨٠]، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وشفاء القلوب من الطبع عليها إنما يكون بتحصين القلوب بالإيمان واليقين من خلال تفكر الإنسان بآيات الله في الآفاق والأنفس والانتفاع بها، فالإيمان هو الذي يفتح القلوب لتلقي الأصداء، والأضواء، ورؤية النعيم والآلاء، يقول الإمام ابن القيم: كلما قوي الإيمان وازداد نوره في القلب، أحسّ المرء بانشراح في صدره، وتضائل شعوره بالضيق، فإذا ما استمرّ النور في دخول القلب، ازدادت مساحة الإيمان فيه، وشيئًا فشيئًا تصبح مساحة الإيمان في القلب أكثر فأكثر اتساعًا من غيرها، فيحدث حدث مهم ومادي يشعر به المرء في لحظة سعيدة من لحظات عمره، ألا وهو شعوره بتحرك قلبه في صدره حركة سريعة ومضطربة، وهذا ما يسمى بولادة القلب الحي أو الولادة الثانية[(١)].

فالإيمان له آثار ايجابية في حياة الإنسان، والقلب إذا استنار بنور الإيمان انعكست آثار ذلك على الإنسان، فترى الطمأنينة تملأ قلبه، وهذا الإيمان يجعل الإنسان في رقابة على نفسه من داخله.

إن تأمل آيات الله في الآفاق والأنفس يوقظ القلوب، ويفتح مغاليقها، ويوجه القلب إلى تعظيم مبدع هذا الكون.

(١) انظر: شفاء العليل ١٠٧.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٥].

إنّ آيات الله في الكون لا تتجلى عن حقيقتها إلا للقلوب الذاكرة العابدة، فالذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، هم الذين تنفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية في خلق السماوات والأرض، بخلاف الكثير من الناس الذين يمّرون على آيات الله تعالى، وهم عنها غافلون، فلا قلب يعقل، ولا عين تبصر، ولا آذان تسمع، ولا فؤاد يهتز، ولا ضمير ينيب.

قال تعالى عن هذا الصنف من الناس: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أما أصحاب القلوب السليمة من الأمراض فهي تحيا مع آيات الله بآذان صاغية، وعيون راعية، وقلوب واعية.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

فهو ينظر إليها بعقله، وينتفع بهديها ويستضيء بنورها، فهو ينظر الى آيات الله على أنها ناطقة بوجود الله ووحدانيته، بل هي أبلغ بيان ينطق بصفات الله تعالى وعظيم آلائه.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته ومدحهم؛ لأن تفكّرهم فيها أوصلهم إلى شهادته بأنه تعالى لم يخلقهم باطلًا بل أحدث في قلوبهم مزيدًا من الخشية والإنابة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

والمعنى: تدبروا أيها الناس واعتبروا، فيما أنشأته فخلقته من السماوات والأرض، لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم، وفيما عقّبت بينه من الليل والنهار، فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم، تتصرفون في هذا لمعاشكم، وتسكنون في هذا لراحة أجسامكم، معتبر ومدكر، وآيات واعظات، لمن كان منكم ذا لب وعقل[1].

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب، والأرواح

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٧٣.

من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام، والجواب على شبهات المبطلين، عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد، والإلهية، والكبرياء، والجلال، فذكر هذه الآيات»[(١)].

فالتفكر يذهب الغفلة ويحدث في القلب الخشية، كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة، إذ إن التفكر في أمر الله هو من عمل القلوب[(٢)].

وما أحسن ما قاله الزمخشري في وصف أولي الألباب بقوله: «الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر»[(٣)].

والقرآن الكريم يوجه القلوب والأنظار توجيهًا مكررًا مؤكدًا إلى هذا الكتاب المفتوح الذي لا تفتأ صفحاته تقلب، فتبتدي في كل صفحة آية موصية، تستجيش في الفطرة السلمية إحساسًا بالحق المستمر في صفحات هذا الكتاب، وأولوا الإدراك الصحيح هم الذين يتفكرون بآيات الله وينتفعون بها ولا يقيمون الحواجز، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، فهم يتوجهون الى الله بقلوبهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فتتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه[(٤)].

وأولوا الألباب هم الذين ينظرون ويستفيدون ويهتدون ويستحضرون عظمة الله ويتذاكرون حكمته وفضله وجليل نعمه في جميع أحوالهم، وهم الذين لا يغفلون عن الله تعالى في عامة أوقاتهم؛ لأن قلوبهم مطمئنة بذكره تعالى ومراقبته، وخص الخالق سبحانه وتعالى في هذه الآيات أولي الألباب، وهم أصحاب العقول، لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم وقلوبهم لا بأبصارهم[(٥)].

كما أن في خلق الله تعالى للإنسان آية للمتوسمين، وعبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين.

يقول سبحانه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

أي: أفلا تنظرون نظر من يعتبر في اختلاف الألسنة والألوان، والتفاوت في العقول والإفهام، واختلاف الأعضاء، وتعدد وظائف كل منها على وجه يحتار فيه اللب، ويدهش منه العقل[(٦)].

يقول سيد قطب: «وهذا المخلوق

(١) مفاتيح الغيب ٩/ ٤٥٨.
(٢) انظر: الكشاف ١/ ٤٥٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٥٢.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٤٤.
(٥) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١٦٢.
(٦) انظر: المصدر السابق ٢٦/ ١٨٠.

الإنساني هو العجيبة الكبرى في الأرض، ولكنه يغفل عن قيمته وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين»[1].

والنص القرآني يريد أن يوقظ القلب البشري للتأمل والتدبر واستجلاء العجائب، غير أنه لا يدرك هذه العجائب إلا القلب العامر باليقين، فلمسة اليقين هي التي تحيي القلوب[2].

يقول ابن القيم: «لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوّره وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكّر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية وسطعت له أنوار اليقين واضمحلّت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل، فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه، مرشدة إليه»[3].

فلا بد للمسلم صاحب القلب الحي أن يتأمل في آيات الله في الأفاق والأنفس وأن ينتفع بها؛ لأن الله تعالى فضّله عن باقي خلقه بنعمة القلب والعقل، والسمع والبصر، والفؤاد، فالإنسان الحي هو من أحيا قلبه بالتدبر والتفكر والانتفاع من ذلك؛ لأن في ذلك شفاء للقلوب المريضة.

إذ ليس الهدف من نزول القرآن الكريم التلاوة والتلفظ باللسان، بل لكي تكون آياته منبعًا للفكر والتدبر وسببًا ليقظة الوجدان.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وتدبر القرآن الكريم هو تحديق نظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، إذ إن قلب المتدبر للقرآن، يتتابه تطلّع وتشرّق، كما يتتاب المريض شعور بالبحث عن العلاج، أو كما يتتاب الحائر شعور بالبحث عن الدلالة والهداية.

خامسًا: الاعتبار بالمصائب والمحن:

ومن أسباب شفاء القلوب من مرضها وتجنب الطبع عليها هو الاعتبار بالمصائب والمحن التي تمرّ بها القلوب عند الشدائد، إذ إنّ للقلوب أهمية عظيمة عند الشدائد والمحن، وينبغي للمسلم أن تكون تصرفاته صحيحة غير طائشة، بل يجب أن تكون منضبطة بنور شريعة الإسلام، ولابد لنور القلوب أن يشعشع في قلوب المسلمين أوقات الشدائد.

فالمؤمن الذي يريد أن يتجنب الطبع على قلبه لا بد له أن يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٧٩.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٣٧٩.
(٣) التبيان في أقسام القرآن ص٣٠٣.

وعلى تقديرها ووقوعها يرضى بها؛ لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، فعند وقوعها لا يستعظمها، بل تكون له عبرة يتعظ بها، بخلاف الجاهل فإنه يكون غافلًا عن تلك المعارف فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه، بخلاف قلب المؤمن الذي يكون دائمًا منشرحًا بنور معرفة الله تعالى، والقلب إذا كان مملوءًا من هذه المعارف، لم يتّسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا، وسيكون قلبه سليمًا من جميع أمراض القلوب، أما قلب الجاهل فإنه خال من معرفة الله تعالى، فلا جرم يصير مملوءًا من الأحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا.

والقلوب السليمة حينما تسمع القصص وترى أثار الأمم الخالية التي عاقبها الله تعالى لإعراضها، حتمًا ستكون هذه المشاهد عبرة لها وموعظة، قال تعالى واصفًا هذه القلوب السليمة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن زيد في تفسير قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلب يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله بها من عصاه من الأمم[١]. وبين ابن أبي زمنين أن الخطاب هنا هو خاص بقلب المؤمن[٢]. الذي صرف قلبه إلى التفهم، فهو في حضور دائم مع الله ولا يغفل عنه طرفة عين.

وقال السمرقندي في تفسيره للآية: «أي: لمن كان له عقل؛ لأن محل العقل هو القلب»[٣]. فكنى بالقلب؛ لأنه موضعه.

وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: «لمن كان له قلب واع؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له»[٤].

قال يحيى بن معاذ: القلب قلبان، قلب محشّ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة[٥].

وفسر الرازي قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ بأن المراد: قلب موصوف بالوعي، أي: لمن كان له قلبًا سليمًا أدرك الحقائق وتفكر كما ينبغي، فكأنه تعالى قال: إن في ذلك لذكرى وعبرة لمن يصلح أن يقال: له قلب، وحينئذ فمن لا يتذكّر ولا يتعظ لا قلب له أصلًا، كما في قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨].

حيث لم تكن آذانهم وألسنتهم وأعينهم مفيدة لما يطلب منها، كذلك من لا يتذكر كأنه لا قلب له، كالجمادات لها صور وليس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٧٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز ٤/ ٢٧٨
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٣٨.
(٤) الكشاف ٤/ ٣٩١.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٣.

لها قلوب للذكر ولا لسان للشكر[1].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ لطيفة حيث أتى الخالق عزوجل بـ (أو) لتقسيم المتذكر إلى تال وسامع، أو إلى فقيه ومتعلم، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده، وقاصر محتاج للتعلم، فيتذكر إذا أقبل بكليته، وأزال الموانع بأسرها، وفي تنكير (قلب) وإبهامه، تفخيم وإشعار بأنّ كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر، فهو ليس بقلب[2].

فالمانع من التأثير والاعتبار هو سهو القلب وغيبته عن تعقل، وصاحب القلب الحي لا يمكن أن يتأثر بأي مرض من أمراض القلوب، بل سيكون هو القلب الناجي من جميع الأمراض لا سيما الطبع؛ لأنه قلب حي ذكي زكي، إذا ورد عليه شيء من آيات الله تذكر بها وانتفع فارتفع؛ لأنه يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]. أي: حي القلب واعيه[3].

ولما كان القلب هو محل الإيمان والكفر، ومركز الهداية والضلال، فإنه يتعرض للمواقف الكبيرة التي تظهر حقيقته؛ لأن الله تعالى يمتحن هذه القلوب ليقيم الحجة على أصحابها، يمتحنها بالابتلاء والاختبار والفتنة، وهذا قانون إلهي واضح قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

والقتال والجهاد في سبيل الله نوع من أنواع الامتحان والابتلاء، وفي معركة أحد عندما خالف الرماة الأوامر طلبًا للغنيمة، تحّول النصر إلى هزيمة، فتسرّب اليأس إلى قلوب المنافقين، بينما ثبت المؤمنون في الميدان إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم، هذا الاختبار كشف عن صدق المؤمنين وكذب المنافقين، وهنا بدأ التشكيك من قبل المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وهذا هو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص لله وللعقيدة حينما تصطدم في موقعة من المواقع بالهزيمة، وحينما تعاني آلام الهزيمة، وهنا يجيئهم التصحيح العميق للأمر كله، أمر الحياة والموت، ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء[4].

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢٨ / ١٥٠.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٣٦٩، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٣٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٨.
(٤) انظر: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، محمد الجوزو، ص٢٢٦-٢٢٧.

﴿اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيَبْتَلِيَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال ابن الجوزي في الآية: «إبانة ما في القلوب من الاعتقاد لله ولرسوله وللمؤمنين»[١].

فليس كالمحنة محك يكشف ما في الصدور ويصهر ما في القلوب، فينفي عنها الزيف والرياء، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء[٢].

وجعل الابتلاء وهو الامتحان والاختبار بالسراء والضراء للصدور، أما التمحّيص فهو التطهير والتصفية[٣]. فالابتلاء يكون سببًا في تمحيص ما في القلوب، وذاك أن الابتلاء لا يكون إلا للظاهر، أما التمحيص فللباطن، فهو كالتزكية والتطهير[٤].

فالقلوب هي محلّ الابتلاء والتمحيص، ومحل الأقوال والأعمال، ولهذه القلوب شأنًا عظيمًا عند الله تبارك وتعالى، كيف لا والقلب هو الذي إذا كان حيًّا، فإن الجسد يحيا، وإذا مات مات الجسد.

ولمّا كان القلب هو المخاطب وهو السعيد وهو الشقي، فلا سعادة للعبد ولا لذّة ولا قرب من الله تعالى ولا مناجاة، ولا شفاء من جميع أمراض القلوب إلا بصلاح قلبه، فصلاح القلوب هو الذي ينجيها من الطبع عليها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته»[٥]. فقلب المؤمن عبارة عن مصباح يضيء.

يقول تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

يقول ابن مسعود رضي الله عنه لرجل: «داو قلبك، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم»[٦].

فالمؤمن في قلبه مصباح يضيء ويجعله يميز بين الشبهات والدلائل الواضحات، وبين الهدى والضلال، بل إن هذا المصباح عبارة عن فرقان يفرق بين الحق والباطل، فقلب المؤمن يدفع الفتن والشهوات لسلامته وصفائه، فيزداد إشراقه وبياضه، وتزداد مناعته من الذنوب والمعاصي والشهوات والشبهات، وبالتالي يكون سليمًا صحيحًا من جميع الأمراض لا سيما الطبع على القلوب.

(١) زاد المسير ١/ ٣٣٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٦.
(٣) الكليات، الكفوي ١/ ٣٤.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٧٦١.
(٥) أمراض القلوب وشفاؤها ٨.
(٦) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٣٣٩.

نتائج الطبع على القلوب

للطبع على القلوب نتائج وخيمة ذكرها الله تعالى في كتابه، وهذه العقوبة إنما هي نتيجة لأعمال الإنسان بعد إنذاره وتحذيره، ومعلوم أن قلب الإنسان ينال من الطبع على قلبه بقدر تلوثه بالذنوب والمعاصي، وعلى هذا الأساس فإن الموانع والحجب التي تضرب على القلب تعطل حواس الإنسان كالسمع والبصر، فتمنعه من الإدراك؛ لأن الطبع على القلوب يقترن به الطبع على الاسماع والأبصار؛ لأنها أهم منافذ القلوب، وكأن الله تعالى بهذا الطبع سد عنهم طرق هذه الحواس، فغدوا لا ينتفعون بها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وكذلك ينتج عن طبع القلوب البقاء على الكفر وعدم الإيمان بالله تعالى، ومن نتائجه أيضًا الجهل وعدم الفهم والعلم، واتباع الهوى والشهوات والإصرار على المنكرات.

أولًا: تعطيل وسائل المعرفة:

إن من أفظع النتائج السلبية والوخيمة التي تحصل بعد الطبع على القلوب هو تعطيل وسائل المعرفة والإدراك من السمع والبصر وغير ذلك، والقرآن الكريم حينما يتحدث عن القلب يصفه بأنه المنظم لكل السلوك البشري والمتحكم بكل تصرفات الإنسان، بل هو المتحكم بكل وسائل الإدراك الأخرى.

فالإبصار لا يتم إلا عن طريقه، والسمع لا يكون إلا بعد إذنه، والتعقل والتفقه لا يكتمل إلا بكون القلب حاضرًا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والمعنى أن لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم - والعياذ بالله- من خلقه لهم قلوب لا يتفكرّون بها في آيات الله ولا يتدبرون بها أدلته الوحدانية، ووصفهم بأنهم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لإعراضهم عن الحق، وتركهم التدبر، فهم لهم ﴿أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي: لهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته فيتأملونها ويتفكروا فيها، فيعملوا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك بالله ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ آيات الله، فيعتبروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها[1].

فالآية القرآنية الكريمة تشير إلى أن وسائل المعرفة من السمع والبصر وغير ذلك قد تعطلّت؛ لأنهم انشغلوا بما استحوذ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٧٨.

عليهم من شهواتهم، فصارت عقولهم لا تفكّر في شيء غيره، وتخطط للحصول على الشهوة، وكذلك العيون لا ترى، إلا ما يستهويها، وكذلك الآذان، وكل منهم يرى، غير مراد الرؤية ويسمع غير مراد السمع.

والفرق بين فقه القلوب ورؤية العين وسماع الآذان، أن فقه القلب هو فهم القضايا التي تنتهي إليها الإدراكات، إذ إن لكل وسيلة إدراكًا، وهي من المحسات، وبعد أن تتكون المحسات يمتلك الإنسان خميرة علمية في قلبه وتنضج لتصير قضية عقلية منتهية ومسلمًا بها، فكل الحواس إذن تربي المعاني عند الإنسان، وحين تربي المعاني في النفس الإنسانية تتكون القضايا التي تستقر في القلب[1]، لذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

قال ابن كثير بعد أن ذكر منّة الله تعالى على عباده بإيجادهم: ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح[2].

فالقلوب توصل إلى عملية التفقه والتعقل، والأعين عن طريقها تصل إلى الإبصار، والأذن أول خطوة للوصول إلى عملية السمع، ولهذا نجد أن الخالق سبحانه وتعالى نفى عن الكفار السمع والبصر والعقل، لعدم انتفاعهم بها كما قال سبحانه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

فهم يسمعون ويبصرون بالحواس الظاهرة، وبها قامت عليهم الحجة، ولا يسمعون ولا يبصرون بالحواس الباطنة، التي هي سماع القلب، التي هي روح حاسة السمع، والتي هي حظ القلب، ولو سمعوه من هذه الجهة لحصلت لهم الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة[3].

قال شيخ الإسلام: «والقلب الحي المنّور، فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل، والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر»[4].

ومن المعلوم أن الإدراك قواه ثلاثة هي: السمع والبصر والفؤاد، وكلها من شأن النفس المدركة بالقلب. لذا قال الإمام الغزالي: (اعلم أن محل العلم هو

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٧/ ٤٤٧٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٩٠
(٣) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٥/ ٢٧.
(٤) أمراض القلوب وشفاؤها ٩.

القلب)[1].

ورأى كذا لما يعلم بالقلب ولا يرى بالعين، ولكنهم خصوه بما يراه القلب بعد فكر وتأمل، وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأدلة[2]. فالتعقل والسمع في الحقيقة من شأن القلب الذي هو النفس المدركة.

يقول شيخ الإسلام: «فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب، وإنما سائر الأعضاء حجبته له ترسل إليه الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، فمدار الأمر على القلب»[3]. وتأثر القلب بما يراه ويسمعه أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمه؛ لأن هذه الثلاثة هي أهم طرق العلم وهي السمع والبصر والعقل[4]، يقول ابن القيم: «فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر، بل أصل فسادهما من فساده»[5].

نستنتج من ذلك أن فهم المسموع أو المرئي إنما يكون بالقلب، والخطاب الإلهي موجه لفهمه، ومعجزاته المخلوقة جعلت مبصرة، ليفهم وجه الاستدلال منها، لذا كان كل إثبات أو مدح للسمع أو البصر إنما هو لإدراك الغاية من المسموع والمبصر، وإلا صارت هذه القوى لا تتجاوز درجة الإحساس والشعور، وهذا نصيب البهائم، فهي ذات سمع وبصر وقلب لكن لم تمنح الفؤاد، وهو من القلب.

فتأمل تشبيه الخالق سبحانه وتعالى للكفار بالأنعام بأن لكل واحد منهم قلبًا وأذنًا وعينًا، غير أنها معطّلة عن الفقه والسمع والبصر، فقلب البهيمة ينقصه فؤاد، وقلب الكافر يلزمه إعماله ليكتمل، فهؤلاء الكفار أبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص، ولكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم[6]. فالسمع والبصر والفؤاد محتوى ضمن كل هو القلب.

فالقلب هو المدخل الوحيد إلى مراكز الإدراك في العقل البشري؛ لأن القلب له أكثر من مهمة يقوم بها، فبالإضافة إلى مهمته كعضو إحساس تابع لمركزه في الدماغ، فإنه أيضًا متحكم في كل وسائل الإدراك الأخرى، فالإبصار لا يتم إلا عن طريقه، والسمع لا يكون إلا بعد إذنه، والتفقه والتعقل لا يكتمل إلا بكون القلب حاضرًا، لذلك يقول الحق سبحانه واصفًا أهمية القلب في كل عمليات الإدراك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١٣.
(٢) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٥٣.
(٣) الفتاوى الكبرى، ٥/ ٥٠.
(٤) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٥/ ٢٧.
(٥) مفتاح دار السعادة ص٤٦٧.
(٦) انظر: القلوب وآفاتها، صلاح الدين علي ص٦٠

﴿يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: «لا يسمعون موعظة ولا تذكيرًا، سماع منتفع بها»[(١)].

فالطبع على القلوب لا يستعمل إلا في الشر، والمراد أن هذه القلوب وصلت من الفساد إلى حالة لا تقبل معها خيرًا، كالهدى والإيمان والعلم النافع الذي هو فقه الأمور ولبابها، وإنما يحصل الطبع بالإصرار على الشرور والمعاصي[(٢)].

يقول الشعراوي: وجعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار؛ لأن القلوب وعاء اليقين الإيماني، فحين يملأ إنسان وعاء اليقين بالكفر، فهذا يعني: أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده[(٣)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

هذه الآية من سورة الحج تشير بصورة واضحة وجلية إلى حقيقة مفادها أن القلب يمثل المدخل إلى العقول بكل معانيه وخاصة مراكز الإدراك (السمع والأبصار والأفئدة) فالقلب هو المدخل الوحيد إلى مراكز الإدراك في العقل البشري.

يقول ابن عطية في تفسيره لهذه الآية: «وهذه الآية تقتضي أن العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالًا بالقلب يوجب فساد العقل متى اختلّ الدماغ»[(٤)]. وفي قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ لفظ مبالغة كأنه قال: ليس العمى عمى العين، وإنما العمى حق العمى عمى القلب[(٥)]. ويبيّن القاسمي أنّ المعنى ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم بإتباع الهوى والانهماك في الغفلة[(٦)].

والله تعالى جعل العمى للعين عدم إدراك المرئيات واستقبال الصور، والجهل عمى القلب، أي فقدان لبصيرته، ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: الإدراك التام إنما يكون بالقلب، وتعطله بعمى القلب، والعمى لا يطلق إلا على البصر، فكانت الأبصار في (أولي الأبصار) فهي إحدى قوى القلب لرؤية الحق وفهم الحجة، فالعمى هنا أصاب بصيرة القلب.

ثم لما كان التعقل والسمع في الحقيقة من شأن القلب، أي: النفس المدركة، وهو الذي يبعث الإنسان إلى متابعة ما يعقله أو يسمعه من ناصحه، عدّ الله تعالى إدراك

(١) جامع البيان ١٢/ ٥٨.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٢٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ٧/ ٤٢٦٤.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٢٧.
(٥) المصدر السابق ٤/ ١٢٧.
(٦) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٥١.

القلب رؤية له ومشاهدة، ومن لا يعقل ولا يسمع أعمى القلب[1]، كأنه قال تعالى: لا عمى في أبصارهم فإنهم يرون بها، لكنّ العمى في قلوبهم[2]، فأبصارهم وإن كانت سالمة لا عمى بها، ولكن العمى الحقيقي هو عمى القلوب، فعمى الأبصار ليس بشيء إذ قيس بعمى القلوب والبصائر[3].

فالقلب هو العاقل والمدبر والمتفقه والعالم والسامع والمبصر، فهو الذي يدرك ما يتلقى من الحواس، وتعطّله تعطل للحواس، فالأذن تنقل المسموعات له، وخاصية السمع، بمعنى: إدراك المسموع وفهمه هي بالقلب، والعين تنقل المرئيات للقلب، وخاصية التبصر، بمعنى: إدراك المرئي وفهمه هي بالقلب، فمهمة القلب التعقل والتدبر والتفكر والسمع، والبصيرة والنظر والتأمل والفهم، بل هو النفس المدركة.

فمن الحقائق المطلقة التي ذكرها القرآن الكريم وأكدها في كثير من آياته أن القلب هو مركز العاطفة، والتفكر، والتعقل، والذاكرة، والقرآن الكريم دقيق في كلماته فقال: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

فالذي يفهم ويعقل هو القلب وليس الدماغ، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهو يخاطب فينا مركز الإدراك والفهم وهو القلب، وليس الدماغ؛ لأن القلب هو مركز الإيمان والعقيدة، والفهم والإدراك، فالقلب هو مناط المسؤولية، والذي يحرم نعمة الفهم والإدراك هو الذي يطبع الله على قلبه[4].

لذلك يمكن القول: إن الطبع على القلوب يقترن به الطبع على الأسماع والأبصار؛ لأنها أهم منافذ القلوب إلى مواد المعارف التي تأتي من خارج كيان الإنسان[5].

ولذلك قال الله تعالى في شأن من شرح بالكفر صدرًا في سورة النحل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٨ - ١٠٩].

فالخالق عز وجل صرف عنهم طريق الهدى وكأنه بهذا الطبع سدّ عنهم طرق هذه الحواس، حتى لا ينتفعوا بها في اعتبار وتأمل[6]. فهو أغلقها عن قبول الحق،

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين أحمد درويش ٧/ ٥٩٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٣٣.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٧/ ١٢٣.
(٤) انظر: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، محمد الجوزو، ص ١٧٨-١٨٨.
(٥) انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص ٣٩٠.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٢٥.

ذلك لأن القلب هو الوعاء الذي تصبّ فيه الحواس التي هي وسائل الإدراكات المعلومية، وأهمها السمع والبصر، فبالسمع تسمع الوحي والتبليغ من الله، وبالبصر ترى دلائل قدرة الله في كونه وعجيب صنعه مما يلفتك إلى قدرة الله، ويدعوك للإيمان به سبحانه، فإذا ما انحرفت هذه الحواس عمّا أراده الله منها، وبدل أن تمد القلب بدلائل الإيمان تعطّلت وظيفتها[1].

ثانيًا: عدم الإيمان:

ومن نتائج الطبع على القلوب هو عدم الإيمان بالله تعالى والبقاء على الكفر، فالختم، والطبع، والغشاوة، والقفل، هي عقوبات للكفار والمنافقين في الدنيا، وقعت عليهم بسبب سوء أعمالهم وعدم قبولهم الحق، وهذه العقوبات لم يفعلها الله تعالى بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان، ودعاه إليه، وإنما عاقبه الله بها بعد تكرار الدعوة منه للكفار، وتكرار الإعراض منهم، والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع الله على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك.

يقول محمد التويجري: «والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان منهم اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية»[2].

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

فأوضح الله تعالى في هذا النص القرآني أن من سنن كونه الطبع على قلوب الكافرين، فهو نتيجة تحصل بسبب ما يكسب الكافرون بكفرهم وجحودهم من ذنوب، وبسبب طول الأمل عليهم وهم مكذبون[3].

قال الطبري: هذه القرى التي ذكرت لك يا محمد أمرها وأمر أهلها يعني: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب نقص عليك من أنبائها، فنخبرك عنها وعن أخبار أهلها، وما كان من أمرهم وأمر رسل الله التي أرسلت اليهم، لتعلم أنّا ننصر رسلنا والذين أمنوا في الحياة الدنيا على أعدائنا وأهل الكفر بنا، ويعلم مكذبوك من قومك ما عاقبة أمر من كذّب رسل الله، فيرتدعوا عن تكذيبك، كما طبع الله على قلوب هؤلاء الذين كفروا بربهم وعصوا رسله من هذه الامم التي قصصنا عليك نبأهم يا محمد، في هذه السورة، حتى جاءهم بأس الله فهلكوا به، كذلك يطبع الله على قلوب

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٣/ ٨١٤.

(٢) موسوعة فقه القلوب ٤/ ٦٣.

(٣) انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٨٨.

الكافرين، الذين كتب عليهم أنهم لا يؤمنون أبدًا من قومك[1].

قال ابن عباس والسدي: يعني: فما كان هؤلاء الكفار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذّبوا من قبل، يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم، فأقرّوا باللسان وأضمروا التكذيب، فقد كان في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون بالرسل، بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم؛ لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب والإبعاد عن الهدى[2].

وصيغة ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ تفيد مبالغة النفي بلام الجحود الدالة على أن حصول الإيمان كان منافيًا لحالهم من التصلّب في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر[3].

فهؤلاء الكفار كان ينقصهم القلب المفتوح، والحس المرهف والتوجه إلى الهدى، كان ينقصهم الفطرة الحية التي تستقبل وتنفعل، فلما لم يوجهوا قلوبهم إلى موجبات الهدى ودلائل الإيمان طبع الله على قلوبهم وأغلقها، فما عادت تتلقى ولا تنفعل ولا تستجيب[4].

إن اللجاج في الكفر والإصرار عليه هو الذي حجب عنهم النور الإلهي، ولم يوفقهم الله إلى الإيمان بسبب أنهم كذبوا من قبل فكان تكذيبهم سببًا لأن يمنعوا الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

أي: كما طبع الله على قلوب الأمم الخالية التي أهلكها، كذلك يطبع على قلوب الكفار الذين كتب عليهم أن لا يؤمنوا من قومك يا محمد صلى الله عليه وسلم[5].

قال الرازي: «أي: إن لم نهلكهم بالعقاب نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ولا يتعظون ولا ينزجرون»[6]. وهذا الطبع على القلوب ليس قهرًا منه تعالى، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه في قلوبهم[7].

وبيّن صاحب المنار أن مثل هذا الذي وصف من عناد هؤلاء وإصرارهم على ضلالهم، وعدم تأثير الدلائل والبينات في عقولهم، يكون الطبع على قلوب الذين صار الكفر صفة لازمة لهم، بحسب سنة الله تعالى في أخلاق البشر وشؤونهم، وذلك بأن يأنسوا بالكفر وأعماله، حتى تستحوذ

(١) جامع البيان ١٢/ ٧.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٥٣.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٣٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٠.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٣٤٢
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٥٥.
(٦) مفاتيح الغيب ١٤/ ٣٢٣.
(٧) انظر: تفسير الشعراوي ٧/ ٤٢٦٦.

أوهامه على أفكارهم، ويملأ حب شهواته جوانب قلوبهم، ويصير وجدانًا تقليديًا لهم، لا يقبلون فيه بحثًا ولا يسمعون فيه نقدًا، فيكون كالسّكّة التي طبعت في أثناء لين معدنها بصهره وإذابته ثم جمدت، فلا تقبل نقشًا ولا شكلًا آخر[1].

وفي نص آخر بين الله تبارك وتعالى أن سبب الطبع على قلوب اليهود إنما هو بكفرهم، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وهذه الآية القرآنية الكريمة تسجل على اليهود أولًا: نقضهم للمواثيق، ثم تسجّل عليهم ثانيًا: كفرهم بآيات الله، وتسجل عليهم ثالثًا: قتلهم الأنبياء بغير حق (فقد قتلوا زكريا ويحيى) وغيرهما من رسل الله، ولا شك أن قتل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدل على شناعة جريمة قتلهم وعلى توغلهم في الجحود والعناد والفجور، وسجّل عليهم، رابعًا: قولهم قلوبنا غلف، يعني: عليها غشاوة وأغطية، عما تدعونا إليه، فلا نفقه ما تقول ولا نعقله، فكان العقاب على هذه الجرائم العظيمة أن طبع الله على قلوب هؤلاء اليهود[2].

وقد ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَل طَّبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. والطبع معناه: إحكام الغلق على الشيء وختمه بحيث لا ينفذ إليه شيء آخر، والمعنى: أن هؤلاء القائلين إن قلوبهم غلف كاذبون فيما يقولون، وتخليهم عن مسؤولية الكفر ليس صحيحًا؛ لأن كفرهم ليس سببه أن قلوبهم قد خلقت مغطّاه بأغطية تحجب عنها الحق - كما يزعمون - بل الحق أن الله تعالى ختم عليها، وطمس معالم الحق فيها، بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة[3].

فكلما تكاثرت الذنوب طبع على القلوب، وليس الطبع على القلوب مرضًا عاديًا، بل هو من مضاعفات الأمراض الخطيرة كالكفر والنفاق والشرك وغيرها، يقول ابن تيمية رحمه الله: «والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعمل النافع»[4]. ويقول ابن القيم: «إن الله عاقب الكفار بأمور تمنعهم من الإيمان وذكر منها: الختم والطبع والأكنة»[5].

وقد خان اليهود الأمانة، ونقضوا العهود، وأفسدوا في الأرض، فطبع الله على قلوبهم.

يقول ابن القيم: «إن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٣٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٦٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥٨.
(٣) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٣/ ٣٧٦.
(٤) مجموع الفتاوى ١٤/ ٥٢.
(٥) شفاء العليل ص٩٣.

اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع، والمعنى لم نخلق قلوبًا لا تعي، ولا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها»[1].

إن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سببًا لطبع الله على قلوبهم ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ حتى صارت غلفًا، والغلف جمع أغلف، وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه، ولا ريب أن القلب إذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست[2].

فهو سبحانه قد خلق القلوب على الفطرة، بحيث تتمكن من اختيار الخير والشر، إلا أن هؤلاء اليهود قد أعرشوا عن الخير إلى الشر، واختاروا الكفر على الإيمان نتيجة انقيادهم لأهوائهم وشهواتهم، فالله تعالى طبع على قلبوهم بسبب إيثارهم سبيل الغي على سبيل الهدى والرشد، فصاروا لا يؤمنون إلا قليلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: أن هذا إيمانهم لا قيمة له عند الله تعالى؛ لأن الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم، يعدّه الإسلام كفرًا بالكل، فلا يؤمنون إلا قليلًا هم عدد قليل كعبد الله بن سلام وأشباهه[3].

يمكن أن نستنتج مما سبق أن هذه العقوبة إنما وقعت في حق أقوام مخصوصين معاندين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبةً منه لهم في الدنيا وبهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، وبعضهم بخسف ديارهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، كما أن هذه القلوب التي عاقبها بالطبع عليها هي ليست قلوب مغلقه بطبعها، وإنما هم بكفرهم جرّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته.

ثالثًا: عدم العلم والفقه:

لا شك أن الجهل وعدم العلم شر محض على الإنسان، وآثاره وخيمة، ونتائجه خطيرة، فما عبد غير الله تعالى إلا بسبب الجهل وعدم العلم، ذلك أن الجهل يعني: خلو النفس من العلم، فعندما ينتشر الجهل ويغيب الإيمان عن القلوب يصبح الجهل هو المتحكم بالنفس والمتسيّد عليها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ

(1) المصدر السابق ص٩٣

(2) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ص٩٩-١٠٠

(3) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٣٩١.

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٨ - ٥٩].

هذه الآية أكدت على أن الله تعالى ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل حكيم، من شأنه أن يهدي القلوب إلى الحق، ويرشد النفوس إلى ما يسعدها، فتارة يضرب المثل بآيات الأفاق والأنفس، وتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالأمر والنهي، وتارة بالبشرى والإنذار، وتارة بالاستدلال، ورغم هذا البيان، فإن فريقًا من الجاهلين والغافلين يجحدون بآيات الله تعالى، ويقولون على سبيل التطاول والتبجح: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾، يقول الكفار: ما أنتم معشر المؤمنين إلا متّبعون للباطل بما يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم [(١)].

والحقيقة إن هذا القول الذي صدر منهم إنما هو بسبب جهلهم وبعدهم عن الحق، وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله أن الجهل نوعان: الأول: عدم معرفة الحق، والثاني: عدم العمل بموجبه ومقتضاه، وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب، فكما أن العلم يوجب نورًا، وأنسًا، فالجهل يوجب ظلمة ويوقع وحشة[(٢)]. وهذه الآية تشمل الأمرين كلاهما.

ثم يعقّب الخالق سبحانه على هذا التطاول والغرور في القول من قبل هؤلاء الجهلة بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وهذا دليل على أن أسوأ أحوال الإنسان عندما يطبع على قلبه لكثرة جهله، فيصبح لا يفهم ولا يعقل شيئًا، فيختم الله على قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به يا محمد من عند الله من هذه العبر والعظات والآيات البينات فلا يفقهون عن الله حجة، ولا يفهمون عنه ما يتلو عليهم من آي كتابه؛ فهم لذلك في طغيانهم يترددون[(٣)].

ونبه الخالق سبحانه على كثرة المطبوع عليهم بجمع الكثرة فقال: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. أي: لا يجددون -أي: لعدم القابلية- العلم بأن لا يطلبوا علم ما يجهلونه مما حققه هذا الكتاب من علوم الدنيا والآخرة رضًى منهم بما عندهم من جهالات سموها دلالات، وضلالات ظنوها هدايات وكمالات[(٤)].

يقول ابن عاشور: «والطبع على القلب: تصيّره غير قابل لفهم الأمور الدينية وهو الختم»[(٥)].

فهم لجهلهم وكفرهم طبع الله على

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٤٩، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٦٠.
(٢) انظر: مدارج السالكين ١/ ٤٦٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٠، تفسير المراغي ٢١/ ٦٨.
(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ١٣٦.
(٥) التحرير والتنوير ٢١/ ١٣٤.

قلوبهم فلا يدخلها خير؛ لأنها قلوب جاهلة، قلوب مشمئزة من ذكر الله، قلوب مقفلة لا يخترقها التدبر ولا التفهم، وهي قلوب زائفة منحرفة، بل هي قلوب عمياء، أصبحت لا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلًا والباطل حقًّا[1].

والآية في الحقيقة تشير إلى أسوأ أنواع الجهل وهو الجهل (المركب) الجهل الذي يحسبه صاحبه علمًا، ولا يصغي لمن أراد إيقاظه من غفلة الجهل هذه[2]. فالخالق سبحانه طبع على قلوب هؤلاء الجهلة الذين لا يطلبون العلم، ويصرّون على خرافات اعتقدوها. يقول الدكتور وهبة الزحيلي: «فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحق»[3]. فهذا الصنف من الناس لا يعلمون ولا يعملون على إزالة جهلهم، لتوهمهم أنهم ليسوا بجهلاء، وهذا أسوأ أنواع الجهل؛ لأنه جهل مركب، إذ إن صاحبه يجهل أنه جاهل.

ولا بد من الإشارة إلا أن الطبع على قلوب هؤلاء لا يكون إلا بعد استنفاذ كل وسائل الدعوة، فإن لم يستجيبوا فلا أمل في هدايتهم ولا جدوى من سماعهم يقول الشعراوي: فإذا قلت: إذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم لا يعلمون، فلماذا يطبع على قلوبهم؟ ولماذا يحاسبهم؟ فأجاب بقوله: «لأن عدم العمل نتيجة تقصيرهم، فالحق سبحانه أقام لهم الأدلة والآيات الكونية الدالة على وجوده تعالى، فلم ينظروا في هذه الآيات، ولم يستدلّوا بالأدلة على وجود الخالق القادر سبحانه، وضرورة البلاغ عن الله، إذن: فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم»[4].

هكذا هم أهل الكفر يكذّبون بكل آية، ولا يكتفون بالتكذيب، بل يتطاولون على أهل العلم الصحيح، فيقولون عنهم: إنهم مبطلون، فهؤلاء الذين لا يعلمون، مطموسو القلوب، لا تتفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله، متطاولون على أهل العلم والهدى، ومن ثم يستحقّون أن يطمس الله على بصيرتهم، وأن يطبع على قلوبهم، لما يعلمه سبحانه وتعالى عن تلك البصائر وهذه القلوب[5].

ويمكن أن نستنتج مما سبق أن هذه الآية القرآنية فيها دليل على وجوب طلب العلم الشرعي الذي هو معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ لأن من عرف ربه حق المعرفة رقّ قلبه، ومن جهل حق ربه قسا قلبه، ولا يكون القلب قاسيًا إلا إذا كان صاحبه من أجهل العباد بالله عز وجل، وكلما عظم الجهل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٤٥.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٦١.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ١٢٢.
(٤) تفسير الشعراوي ١٩/ ١١٥٥٦.
(٥) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٧٨.

بالله وبحقوقه كان العبد أكثر جرأة على حدود الله ومحارمه، وكلّما وجد الشخص يديم التفكير في ملكوت الله، ويتذكر نعم الله عليه وجد في قلبه رقة، والخالق سبحانه طبع على قلوب هؤلاء الجهال بسبب معارضة الحق ومعاندته، فهم بسبب جهلهم فقدوا العلم النافع الذي يرشد إلى الحق ويجنب الباطل؛ لأن ذنوبهم غطّت القلوب وغشيتها حتى ذهب النور عنها فبقت في ظلمة، فالجهل هو العقبة التي تحول بين المسلمين وبين كمالهم وسعادتهم؛ لأن جميع الجرائم في المجتمع إنما تكون ناتجة عن ظلمة القلوب وعدم البصيرة لجهل أصحابها.

رابعًا: الاستمرار والإصرار على إتباع الهوى:

ومن نتائج الطبع على القلوب هو الاستمرار والإصرار على إتباع الهوى، و(الهوى) هو محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه[1]، فهو دافع داخل الإنسان يحركه الى ما يحب ويشتهي. قال تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠].

أي: عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل[2].

لذلك فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبته، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة، فكلما ضعف نور الإيمان في القلب كلما كانت الغلبة للهوى[3].

وأخبر الله سبحانه وتعالى أن باتباع الهوى يطبع الله على قلوب العباد بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٦].

فقد ذمّ الخالق سبحانه في هذه الآية الذين اتبعوا أهوائهم؛ لأنهم لا يستفيدون مما يسمعون، ولا يتأثرون بموعظة، ولا يعون أو يعقلون ما يرشدون به. يقول الطبري: ومن هؤلاء الكفار يا محمد ﴿مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ وهو المنافق، يستمع ما تقول فلا يعيه ولا يفهمه، تهاونًا منه بما تتلو عليه من كتاب ربك، تغافلًا عما تقوله، وتدعو إليه من الإيمان[4].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٧٢.
(٢) انظر: تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ص٧٩١.
(٣) انظر: مدار السالكين، ابن القيم ١/ ٤٤٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٦٩.

فالخالق سبحانه ذكر بأن هؤلاء يستمعون القرآن الذي هو غاية الإعجاز والبلاغة والبيان، ولكن يحال بينهم وبين سماعه، فإذا خرجوا بعد سماعه، يقولون لمن أوتي العلم ﴿مَاذَا قَالَ مَانِفًا﴾ كأنهم ما سمعوا أصلًا، والذي حال بينهم وبين الفهم ما ذكره الله عنهم أنهم اتبعوا أهواءهم، فطبع الله على قلوبهم، وطمس على معرفتهم حيث اتبعوا أهواءهم، فلم يستفيدوا، فالهوى هو الذي أعماهم وأصمهم، وفي ذلك دلالة واضحة على أن الهوى مانع من موانع الانتفاع بالقرآن.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦].

أي: أولئك المنافقون الذين هذه صفتهم هم القوم الذين ختم الله على قلوبهم، فلم يؤمنوا، ولم يهتدوا إلى الحق، واتبعوا شهواتهم، وأهواءهم في الكفر والعناد، بسبب استحبابهم الضلالة على الهداية، فهم لما تركوا اتباع الحق أمات الله قلوبهم فلم تفهم ولم تعقل، فعند ذلك اتبعوا أهواءهم في الباطل، فصاروا لا يعقلون حقًّا، ولا يفهمون حديثًا[١].

قال السعدي: «أي: ختم على قلوبهم، وسدّ أبواب الخير التي تصل إليه بسبب إتباعهم أهواءهم التي لا يهوون فيها إلا الباطل»[٢].

وجيء باسم الإشارة (أولئك) بعد ذكر صفاتهم تشهيرًا بهم، وجيء بالموصول وصلتيه خبرًا عن اسم الإشارة، لإفادة أن هؤلاء المتميزين بهذه الصفات، هم أشخاص الفريق المتقرر بين الناس، أنهم فريق مطبوع على قلوبهم؛ لأنه قد تقرر عند المسلمين أن الذين صمموا على الكفر هم قد طبع الله على قلوبهم، وأنهم متبعون لأهوائهم[٣]. وهذا الصنف من الناس لا يهتدون ولا يؤمنون مهما أنذروا بالآيات القرآنية، وشاهدوا من الآيات الكونية، ومهما سمعوا وعاينوا من المعجزات النبوية الواضحة[٤].

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: «وأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق»[٥].

يقول ابن تيمية: «واتباع الهوى يصّد عن التصديق بالحق واتباع ما أوجبه العلم به، وهذه حال عامة المكذبين مثل مكذبي محمد صلى الله عليه وسلم وموسى صلى الله عليه وسلم وغيرهما، فإنهم علموا صدقهما علمًا يقينيًّا لما ظهر من آيات الصدق ودلائله الكثيرة، لكن اتباع الهوى

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٤٤، التفسير المنير، الزحيلي ٦/ ١٠٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٧٨٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٠١.
(٤) انظر: الإبانة، العكبري ١/ ١٨٩.
(٥) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ص٤٢.

صد عن الحق»[١].

والهوى حينما يغلب على القلب ويقهره فلا ينتفع القلب بفائدة قط، بل يصبح كريشة في مهب الرياح أينما ذهبت انكفأت معها، وتدور المعركة بين القلب والهوى، فكلما قوي القلب انقهر الهوى، وحينما يضعف القلب يستأسر الهوى ولا يرجى منه نفع أو فائدة[٢].

قال ابن الجوزي: «اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذّة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحثّ على نيل الشهوات عاجلًا، وإن كانت سببًا للألم والأذى في العاجل، ومنع لذات في الأجل، فأما العاقل فانه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألمًا، وشهوة تورث ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل وذمًّا للهوى»[٣].

فكلما قوي القلب ودفع الهوى عند أول محنة صقل وثبت وعظم فيه الإيمان وبدأ شعاعه فيه يدب، وفي حال ضعف القلب وهجوم الهوى وانتصاره على القلب تكون الظلمة ويقع السواد حتى يسقط القلب بالكلية، يقول ابن القيم: «فإن العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، والهوى والمعصية رياح عاصفة تطفيء ذلك النور ولا بد أن تضعفه»[٤].

وإن من أعظم أضرار الهوى حينما يتمكن من القلب أن يهوي بصاحبه في لجج الفتن، فلا يرى حقًا إلا ما وافق هواه، ولا يرى باطلًا إلا ما ينكر هواه.

يقول ابن القيم: «فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة»[٥].

ويقول في موضع آخر: «أن اتّباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان»[٦].

ومن كل ما تقدم يمكن أن نستنتج أن الاستمرار على اتباع الهوى يفسد القلب، ويطمس نوره، ويعمي بصره، ويحول بينه وبين السلامة، وأن الأمة التي يتبع فيها الهوى، يشيع فيها الحمق والقصور العقلي، كما تبين لنا أن الطبع على القلوب هو نتيجة حاصلة من إتباع الهوى، فالذي يهوي ويتبع الهوى، يضع على عينيه غشاوة، وفي أذنه وقر، فإذا سدّت الآذان، وغشيت العين، أصبح القلب مغلقًا مطبوعًا عليه، فلا فهم صحيح ولا قصد حسن.

موضوعات ذات صلة:

التفكر، الغفلة، القلب، الكفر، المرض

(١) النبوات، ٢/ ٦٥٨.
(٢) انظر: القلوب وآفاتها، صلاح الدين علي ٩٢.
(٣) ذم الهوى، ص١٢.
(٤) إعلام الموقعين ٤/ ١٧٢.
(٥) الفوائد ص١٠١.
(٦) روضة المحبين ص٤٧٩.

الطَّعَام

عناصر الموضوع

مفهوم الطّعام	٨
الطعام في الاستعمال القرآني	٩
ألفاظ ذات صلة	١٠
الله تعالى هو المطعم لخلقه	١٢
الرسل بشر يأكلون الطعام	١٧
أنواع الأطعمة في القرآن الكريم	٢١
الإطعام في القرآن الكريم	٢٩
طعام الآخرة	٣٨
الطعام وعبادة التفكر	٤٥

المجلد الثاني والعشرون

مفهوم الطّعام

أولًا: المعنى اللّغوي:

لفظ الطّعام مصدر مشتق من مادة (طعم)، بمعنى أكل، قال ابن فارس: «الطاء والعين والميم أصلٌ مطّردٌ منقاسٌ في تذوّق الشّيء، يقال: طعمت الشيء طعمًا، والطّعام هو المأكول» [(١)]، فالطعام اسم جامع لكل ما يؤكل، ويأتي الطعام مجازًا بمعنى الشبع؛ يقال: ما يطعم آكل هذا الطّعام، أي: ما يشبع، ويقال: إنّ هذا الطّعام طعمٌ، أي: يطعم من أكله، أي: يشبع، وفي الحديث عن أبي ذرٍ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال في زمزم: (إنّها طعام طعمٍ) [(٢)]، أي: يشبع الإنسان إذا شرب ماءها، كما يشبع من الطّعام [(٣)]، وقال الراغب: «إنّه يغذيّ بخلاف سائر المياه» [(٤)]، وقد يطلق لفظ (الطعام) ويراد به صنفًا معينًا دون غيره، كالبر مثلًا؛ فإنّ أهل الحجاز إذا أطلقوا لفظ (الطعام) عنوا به البرّ خاصّةً [(٥)].

والخلاصة أنّ الطعام في اللغة يطلق على كلّ ما يؤكل ويتغذّى عليه مما خلقه الله عز وجل.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للطعام عن معناه اللغوي؛ إذ الطعام في الاصطلاح يطلق على: كلّ ما يتناول من الغذاء [(٦)].

وكلّ شيء يأكله الإنسان أو غير الإنسان يسمى طعامًا، فالطعام «اسم لكل ما يؤكل ويطعم» [(٧)]؛ فلا يختص لفظ الطعام بأصناف معيّنة مما يؤكل؛ بل كلّ ما يؤكل فهو طعام، سواء كان مما أحلّه الله عز وجل لعباده أو مما لم يحلّه لهم.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤١٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه، رقم ٦٥١٣، ٧/ ١٥٢.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٢٥.
(٤) المفردات ص٣٠٤.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٦٧٣.
(٦) انظر: المفردات، الراغب ص٣٠٤.
(٧) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٣٩١.

الطعام في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طعم) في القرآن (٤٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش:٤]
الفعل المضارع	١٢	﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان:٨]
فعل الأمر	٢	﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ [الحج:٢٨]
المصدر	٢٨	﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾ [البلد:١٤]
اسم الفاعل	١	﴿طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام:١٤٥]

وجاء الطعام في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: كل ما يطعم منه، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش:٤].

الثاني: السمك، ومنه قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦].

الثالث: الذبائح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة:٥] أي: ذبائحهم.

الرابع: الشراب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة:٢٤٩] أي: ومن لم يشربه.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٢) انظر: والوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ١٩٤- ١٩، نزهة الأعين، ابن الجوزي ص ٤١٢-٤١٣، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٢٢-٣٢٣.

ألفاظ ذات صلة

١ الأكل:

الأكل لغةً:

من أكل الطعام يأكله أكلًا، فهو آكلٌ، والإكلة -بالكسر- الحال التي يأكل عليها؛ متكئًا أو قاعدًا، يقال: إنه لحسن الإكلة، والأكلة - بالفتح - المرة الواحدة المشبعة، والأكلة -بالضم- اسم للّقمة [(١)].

الأكل اصطلاحًا:

ليس هناك تعريفٌ اصطلاحيٌ للأكل يختلف عن تعريفه اللغوي، فالأكل معروف ولا يحتاج إلى تعريف، ويطلق لفظ الأكل ويراد به فعل الأكل، أي: تناول الطعام، وقد يطلق ويراد به الطعام نفسه.

الصّلة بين الأكل والطعام:

يغلب استعمال لفظ الأكل في التعبير عن عمليّة الأكل، وقد يستعمل للدلالة على ما يؤكل، أمّا الطعام فيراد به دائمًا ما يؤكل؛ لذا يقال: تناولت طعامي، ويندر أن يقال: تناولت أكلي.

٢ الغذاء:

الغذاء لغة:

من الفعل غذا بمعنى: نما، والغذاء كل ما يتغذّى به، وقيل: ما يكون به نماء الجسم وقوامه؛ من الطّعام والشّراب واللّبن، وقيل: اللّبن غذاء الصغير وتحفة الكبير [(٢)].

الغذاء اصطلاحًا:

يعرّف علماء التغذية الغذاء بأنّه: «موادٌّ تؤخذ عن طريق الفم؛ للإبقاء على الحياة والنمو، حيث تمد الجسم بالطاقة، وتبني الأنسجة، وتعوض التالف منها» [(٣)].

الصّلة بين الغذاء والطعام:

من خلال التعريفات السابقة يظهر أنّ الغذاء والطعام لهما نفس المعنى، ولا يكاد يظهر

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٠٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٣٢٢٣.
(٣) معجم الصناعات الغذائية والتغذية، محمد فهمي صديق ص٢٠٧.

فرق بين اللفظين؛ إلا أنّ لفظ الغذاء فيه تركيز على معنى التغذية والنمو المستفاد من تناول الغذاء، أمّا لفظ الطعام ففيه تركيز على الطعم الذي يجده الإنسان عند تناول طعامه، ولفظ الطعام أعمّ من لفظ الغذاء.

٣ الشراب:

الشراب لغة:

مشتق من الفعل: شرب، يقال: شربت الماء أشربه شربًا، والشّرب الاسم، وكذا الشّراب، والشّرب: الحظّ من الماء[١].

الشراب اصطلاحًا:

المعنى الاصطلاحي للشراب نفس المعنى اللغوي؛ إذ الشراب في الاصطلاح من الشّرب، والشرب «تناول كل مائع؛ ماء كان أو غيره»[٢]، فالشراب كل مائع يشرب؛ سواء كان ماءً أو غير الماء.

الصّلة بين الشراب والطعام:

الفرق بين الشراب والطعام ظاهرٌ بيّنٌ؛ إذ الشراب ما كان مائعًا كالماء، ويتناوله الإنسان شربًا، أمّا الطعام فيشمل كل ما يتناول من الأكل، فهو بذلك قد يطلق على الشراب أيضًا.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٦٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٧.

الله تعالى هو المطعم لخلقه

لقد خلق الله عز وجل الخلق، وتكفّل سبحانه برزقهم والعناية بهم؛ فهو وحده سبحانه يطعمهم ويسقيهم، وهو سبحانه يرزقهم ويهديهم، لم يخلق سبحانه الخلق لحاجةٍ لهم، ولم يرد منهم أن ينفعوه بشيءٍ؛ فهو سبحانه وتعالى الغنيّ عن خلقه؛ فالخلق خلقه، والملك ملكه، والكلّ تحت سلطانه وحكمه، قال عز وجل: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ – ١٧].

وهو سبحانه الواحد الأحد، الفرد الصمد، كلّ الخلق محتاج إليه، وهو غير محتاج لأحد.

ولقد أخبر الله سبحانه عن غاية خلقه للعباد، وبيّن أنّه ما يريد منهم رزقًا ولا طعامًا؛ وإنّما خلقهم سبحانه لعبادته وطاعته، قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

فعبادة الله هي الغاية العظمى لخلق الجنّ والإنس؛ فما خلقوا إلا ليستجيبوا لربّهم، وليذعنوا له سبحانه بالطاعة والعبادة؛ وذلك من خلال طاعة رسله، والتزام أمره، واجتناب نهيه، والخضوع لشرعه عز وجل[1].

أولًا: تنزيه الله تعالى عن الحاجة للطعام:

إنّ الله عز وجل ليس محتاجًا من عباده أن يطعموه، أو أن يرزقوه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وليس محتاجًا من عباده أن يرزقوا خلقه؛ بل ليس محتاجًا إليهم ليرزقوا أنفسهم؛ فهو سبحانه قد تكفّل برزقهم ومعاشهم، ويرزق الخلق أجمعين، وهو سبحانه الغني الحميد، والخلق كلهم فقراء إليه[2]؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابّة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، وهو سبحانه ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحدٌ، ومن قوته سبحانه أنّه أوصل رزقه إلى جميع خلقه[3].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٥٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٤٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٣.

إنّ من كملت صفاته، وكمل غناه عن خلقه، وعظم ملكه وسلطانه هو وحده من يجب أن يتّخذه العباد وليًّا؛ ولا يتّخذ وليٌّ سواه؛ فهو سبحانه الخالق الرازق، فاطر السماوات والأرض، يسدي لعباده النفع، ويدفع عنهم الضّر، وهو غير محتاج لغيره، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

فلا ينبغي للعبد أن يتّخذ وليًّا إلا الله وحده لا شريك له؛ فإنّه فاطر السموات والأرض؛ خلقهما وأبدعهما على غير مثال سبق، وهو سبحانه ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهو من يطعم الخلق ويرزقهم، وهو الرزاق المتفضّل على الخلق أجمعين، وهو سبحانه منزّه عن الطعام والشراب؛ فلا يحتاج لطعام ولا لشراب، ولا يحتاج لأحدٍ من خلقه، ومن كانت هذه صفاته فهو الإله الحقّ، الذي لا إله غيره، ولا معبود بحقٍ سواه [(١)].

ولقد ردّ الله عز وجل على الضالين المفترين الذين اتخذوا عيسى عليه السلام وأمّه إلهين من دون الله عز وجل بأنهما كانا محتاجين إلى الطعام والشراب، وكيف لمن كان محتاجًا لطعامه فقيرًا لغيره أن يكون إلهًا يعبد؟! قال الله عز وجل: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

قال البغوي: «أي: كانا يعيشان بالطعام والغذاء كسائر الآدميين، فكيف يكون إلهًا من لا يقيمه إلا أكل الطعام؟!» [(٢)].

وإنّ حقيقة رزق الله عز وجل لعباده وإطعامه لهم حقيقة لا ينكرها أيّ عاقل، ولا يستطيع أن يتجاهلها حتى المشرك الكافر؛ فالمشركون يقرون بأنّ الخالق الرازق هو الله سبحانه، قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦١ – ٦٣].

فسبحان من يرزق العباد ويطعمهم، وسبحان من تنزّه عن الحاجة للطعام والشراب، وسبحان الغني عن كل العباد.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٥.

(٢) معالم التنزيل ٣/ ٨٣.

وجل بمجرد رأيه وتشهّيه»[1].

ولقد قرن الله تعالى القول عليه سبحانه في التحليل والتحريم بلا علم بالشرك به فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال الشيخ الفوزان: «وكذلك التحليل والتحريم حق لله تعالى، لا يجوز لأحدٍ أن يشاركه فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فجعل سبحانه طاعة الشياطين وأوليائهم في تحليل ما حرّم الله شركًا»[2].

وعلى هذا فلا ينبغي للعباد أن يحللوا أو يحرموا إلا بما جاء في شرع الله عز وجل، فالحلال ما أحله الله عز وجل، والحرام ما حرّمه الله تعالى، وليس لأحد في هذا الأمر من شيء، حتى النبي صلى الله عليه وسلم قال عن نفسه حين أكل الصحابة رضي الله عنهم من الثوم عام فتح خيبر وكانوا جياعًا ثم راحوا إلى المسجد فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئًا فلا يقربنا في المسجد)، فقال الناس: حرّمت، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا أيها الناس إنّه ليس بي تحريم ما أحل الله لي؛ ولكنها شجرةٌ أكره ريحها)[3].

ولقد أبطل الله عز وجل ما افتراه المشركون على الله عز وجل من تحريم بعض أصناف الأنعام التي أحلها الله عز وجل، وما ذلك إلا افتراءً وكذبًا منهم على الله سبحانه، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وهذه الآية الكريمة ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه هؤلاء المشركون الجاهلون من تحريم ما أحلّ الله عز وجل؛ حيث كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها -أي: شقوها-، وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيت فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لألهتهم، وإن ولدتهما قالوا: وصلت الأنثى أخاها؛ فلا يذبح لها الذكر، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره، ولم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٦٤.
(٢) كتاب التوحيد ص١٢٤.
(٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهى من أكل ثومًا أو بصلًا أو كراثًا أو نحوها عن حضور المسجد، رقم ١٢٨٤، ٢/ ٨٠.

يمنعوه من ماء ولا مرعى، وقالوا: قد حمي ظهره، وكلّ ذلك ما أنزل الله به من سلطان، وما هو إلا افتراء على الله عز وجل، وما هو إلا من أهوائهم ورغباتهم، يجعلون من أنفسهم مشرعين من دون الله عز وجل [(١)].

إنّ الإله الحق الذي يطعم عباده ويرزقهم هو وحده من يحلل لهم ما يشاء، ويحرّم عليهم ما يشاء، ومن ادعى تحليلًا أو تحريمًا من غير هدًى من الله عز وجل فقد افترى على الله الكذب، وحمّل نفسه إثمًا مبينًا.

الرسل بشر يأكلون الطعام

إنّ الله عز وجل قد أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، يدعونهم إلى عبادة ربّهم، مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٥].

وكان من حكمة الله عز وجل ورحمته بعباده أن اصطفى هؤلاء الرسل والأنبياء من بين البشر، ولم يجعلهم من الملائكة أو خلقًا آخر؛ وذلك لأنّ الرّسول إذا كان من جنس من أرسل إليهم كان أقدر على حمل الرسالة، وأعلم بحال المرسل إليهم، وكان أدعى لقبول دعوته، وهذا أمر بدهي واضح، لا يحتاج إلى حجة وبرهان، وهذا ما يقتضيه العقل، وتوجبه الفطرة؛ بل إنّ من حكمة الله عز وجل أن يبعث الرسول من نفس القوم المرسل إليهم، يعرفهم ويعرفونه؛ يعرف حالهم، ويعرفون حسبه ونسبه وخلقه وصدقه، ليكون أدعى إلى إيمانهم به، وأسرع لاستجابتهم له.

فكلّ من بعث الله عز وجل من الرسل والأنبياء كانوا رجالًا من البشر، قال الله عز

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ١١٦.

وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وكانوا جميعًا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويسعون في قضاء حوائجهم كغيرهم من البشر، قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وهذا كلّه لا ينقص من قدرهم، ولا يقلل من شأنهم، ولا يخدش رسالتهم التي بعثهم الله عز وجل بها؛ إذ الرّسل والأنبياء بشر كسائر البشر، إلا أنّ الله عز وجل قد اصطفاهم بإنزال وحيه عليهم، وبتكليفهم بحمل رسالته، وتبليغ دعوته.

ولقد أنكر الله عز وجل على الكافرين المعاندين -من مشركي مكة- حينما عجبوا من كون الرسول المرسل إليهم بشر مثلهم، وأنكروا أن يرسل الله عز وجل إليهم محمدًا وهو بشرٌ يأكل الطعام كما يأكلون، ويمشي في الأسواق للبيع والشراء وابتغاء المعاش كما يمشون[1]، وليس لهؤلاء المكذبين في دعواهم تلك من حجّةٍ أو دليل، وما أرادوا بذلك إلا أن يلبسوا الحق بالباطل، ويضلوا العباد عن الصراط المستقيم، قال الله عز وجل مخبرًا عن أولئك المكذبين الجاحدين: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

فهؤلاء المشركون المكذبون الذين كفروا بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وكذبوا بها، وجحدوها مع علمهم بصدقه فيما يخبر به عن ربّه عز وجل اعتمدوا في تكذيبهم هذا على شبهة واهية، وهي كون النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم بشرًا مثلهم؛ يأكل الطعام، ويمشي في الطرق والأسواق كما يمشي سائر الناس؛ يطلب المعيشة، فهو ليس بملك ولا بملك؛ لأنّ الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبذّل في الأسواق، فعجب -أولئك المكذبون- أن يكون الرسول مساويًا للبشر، لا يتميز عليهم بشيء[2].

وشبهتهم تلك مردودة عليهم، إذ لا يقبلها عقل، ولا يرتضيها منطق؛ فما العجيب في كون الرسول بشرًا؟!، وإنّما جعله الله بشرًا ليكون قريبًا ممن أرسل إليهم، مجانسًا لهم، ولم يجعله الله عز وجل ملكًا من الملوك المتكبرين، الذين يمتنعون من المشي في الأسواق؛ لأنّ ذلك من فعل الجبابرة، ولأنّه أمر بدعائهم فاحتاج أن يمشي بينهم يبلغهم دعوة ربهم عز وجل[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٢٨٧.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٧٣.

ولقد بيّن الله عز وجل أنّ هذا القول الباطل من أولئك المكذبين قد سبقهم به إخوانهم الذين سبقوهم بالكفر والتكذيب ممن كذبوا رسل الله عز وجل على مر العصور؛ فقد قالت عاد عن نبيّهم هود عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣- ٣٤]، وقالت ثمود عن نبيّهم صالح عليه السلام: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

وقال فرعون وقومه عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

ولذا قال الله عز وجل مخاطبًا كفار قريش: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:٥-٦].

فهذا ديدن المكذبين المعاندين، يثيرون الشّبه والأباطيل، ويجعلون منها سببًا يحرمهم من الإيمان بالله عز وجل وبرسله، ويصدّون بها الناس عن سبيل الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

ولقد ردّ الله عز وجل على تلك الشبهة الباطلة، وكذّب من قال بها، «وبيّن سبحانه أنّ الرسل يأكلون، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ويولد لهم، وأنّهم من جملة البشر؛ إلا أنّه فضلهم بوحيه ورسالته، وأنّه سبحانه لو أرسل للبشر ملكًا لجعله رجلًا، وأنّه لو كانت في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لنزّل عليهم ملكًا رسولًا؛ لأنّ المرسل من جنس المرسل إليهم»[1]، وقد جاء بيان ذلك في كثير من آيات الكتاب العزيز؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَٰقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: ٧ - ٨].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[الرعد: ٣٨].

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[يوسف: ١٠٩].

وقد أمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يصدع أمام قومه بأنّه بشرٌ مثلهم، ليس غريبًا عنهم، وما يميّزه عنهم أنّ الله عز وجل قد أوحى إليه، واصطفاه ليكون

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٨.

مرسلًا إليهم -والبشرية لا تنافي الرسالة-، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وأخبر سبحانه وتعالى أنّ الرسل السابقين قد قالوا مثل ذلك لأقوامهم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

فهذه من سنّة الله عز وجل، أن يبعث الرسول من جنس المرسل إليهم، وما ينبغي أن يقال: لم لم يبعث الله عز وجل ملكًا رسولًا؟، إذ كيف للبشر أن يستفيدوا من ملك يغايرهم في أصل الخلقة؟، ويخالفهم في الحقيقة والصفات؟ قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

«فلو كان في الأرض ملائكة يسكنوها مطمئنين لكان الرسول إليهم من الملائكة؛ ليقع الإفهام، وأمّا البشر فلو بعث إليهم ملكٌ لنفرت طبائعهم من رؤيته، ولم تحتمله أبصارهم، ولا تجلدت له قلوبهم»[1].

ولقد ردّ الله عز وجل على الذين غالوا في عيسى عليه السلام، وقالوا بأنّه إله من دون الله عز وجل، وبيّن سبحانه أنّ عيسى عليه السلام ما هو إلا بشر اصطفاه الله عز وجل بالرسالة، له صفات البشر؛ يأكل الطعام، ويبتغي المعاش، وهذا حال الرسل أجمعين، ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]؛ وبهذا فإنّ أكل الرسل عليهم السّلام للطعام ليس نقصًا فيهم ولا عيبًا؛ بل هذه طبيعتهم كغيرهم من البشر، ولا يعتبر أكلهم للطعام متناقضًا مع كونهم رسلٌ من الله عز وجل.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٧٩.

أنواع الأطعمة في القرآن الكريم

لقد ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز أصنافًا عديدةً من الأطعمة؛ حيث ذكر سبحانه أصنافًا من الفاكهة؛ كالأعناب، والرمان، والنخيل، والتين، والثمرات، وذكر سبحانه الحبّ، والزيتون، والأبّ[1]، والعسل، واللّبن، وأصنافًا من اللحوم، كلحوم الطير، والأنعام، ولحوم ما أخرج من البحر، وغير ذلك من الأطعمة.

ومن تأمل فيما ذكر من الأطعمة في كتاب الله عز وجل يجد أنّ الله عز وجل قد ذكر تلك الأطعمة إمّا على سبيل تعداد نعمه سبحانه على عباده، والتنبيه على منافع بعض الأطعمة، ودعوة الإنسان إلى التفكر والتأمل كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وإمّا على سبيل بيان قدرة الله عز وجل في خلقه وبديع صنعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وإمّا على سبيل التشريع، وبيان ما أباح سبحانه لعباده، وما حرّم عليهم من الأطعمة، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وإمّا على سبيل بيان طعام أهل الجنّة، وما أعد الله عز وجل لهم من نعيم مقيم، وذلك كثيرٌ في القرآن المجيد، منه قول الله سبحانه: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٣٣].

وقوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة: ٢٠- ٢١].

ونقف في هذا المبحث بإذن الله تعالى على أنواع الأطعمة في القرآن الكريم من حيث الحلّ والحرمة، والتعرف على شيء من حكمة الباري سبحانه في التحليل والتحريم.

(١) الأب هو كل ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس.
انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ٢٥٢

أولًا: الأطعمة المباحة:

إنّ من رحمة الله عز وجل بعباده، وعظيم فضله عليهم أن خلق لهم أصنافًا متنوعةً من الأطعمة والأغذية والأشربة؛ فمنها الجامد ومنها اللّين، ومنها الحلو ومنها المالح، ومنها الحار ومنها البارد، ومنها ما ينبت في الصيف ومنها ما ينبت في الشتاء، ومنها غير ذلك؛ ولم يجعل سبحانه طعام العباد شيئًا واحدًا؛ تسأم منه النفوس، وتملّه الأجساد.

ومن كرمه سبحانه أن جعل عامّة ما خلق لعباده من الطعام حلالًا طيبًا، ولم يحرّم عليهم إلا قليلًا من ذلك، وجعل سبحانه كلّ ما كان طيبًا رزقًا حلالًا للعباد، وأمر سبحانه عباده أن يأكلوا منه، ويشكروا ربّهم عليه.

قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وهذا الأمر قد أمر الله عز وجل به من قبل رسله عليهم السلام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

والطيبات يراد بها: كلّ ما أحلّ الله عز وجل لعباده من الطعام والشراب، فطاب بتحليل الله عز وجل له[1]، والطيبات أيضًا هي ما يستطاب ويستلذ من مباحات المأكل والفواكه[2].

فما أعظم نعم الله عز وجل على العباد؛ إذ أباح لهم الطيبات؛ يأكلون منها، ويستلذون بطعمها وريحها، وتتقوى أجسامهم بالتغذي عليها، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤].

قال الفخر الرازي: «واعلم أنّ الطيب في اللغة هو المستلذ، والحلال المأذون فيه يسمى أيضًا طيبًا تشبيهًا بما هو مستلذ؛ لأنّهما اجتمعا في انتفاء المضرة؛ فلا يمكن أن يكون المراد بالطيبات هاهنا المحللات، وإلا لصار تقدير الآية: قل أحلّ لكم المحللات، ومعلومٌ أنّ هذا ركيك؛ فوجب حمل الطيبات على المستلذ المشتهى، فصار التقدير: أحلّ لكم كلّ ما يستلذ ويشتهى»، ثم قال: «ثم اعلم أنّ العبرة في الاستلذاذ والاستطابة بأهل المروءة والأخلاق الجميلة»[3].

وقد امتنّ الله عز وجل على عباده بأن أحلّ لهم الطيبات، وذلك في سياق تذكير العباد بعظيم نعم الله عز وجل عليهم، وسعة رحمته بهم، وجزيل عطائه لهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٣١٧.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٨/ ٤٠.

(٣) مفاتيح الغيب ١١/ ٢٩٠.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٦٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦١ – ٦٤].

يقول السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: «وهذا شامل لكل طيب؛ من مأكل، ومشرب، ومنكح، وملبس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسّرها الله عز وجل لعباده، ويسر لهم أسبابها»[1].

فالطعام الحلال هو كل طعام طيب، أحلّه الله عز وجل لعباده، وغالب الأطعمة طيبة محللة، ولا ينبغي أن يقال عن طعام: إنّه حرام إلا إذا ثبت تحريمه في كتال الله عز وجل، أو في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والقاعدة في ذلك أنّ الأصل في الأطعمة الحل إلا ما ثبتت حرمته.

وقد ذكر الله عز وجل أنّ من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنّه يحلّ لمن اتبعه الطيبات، ويحرّم عليهم الخبائث، فقال تعالى مادحًا من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، ومبيّنًا بعض أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فمما جاء به هذا النبي الكريم أنّه يحلّ الطيبات.

ولما أحلّ الله عز وجل لعباده الطيبات؛ فإنّه سبحانه نهاهم أن يحرّموا على أنفسهم شيئًا من تلك الطيبات التي أحلّها سبحانه وتعالى لهم؛ فإنّ الله عز وجل أراد من عباده أن يتمتعوا بنعمه، وأن يأكلوا مما أحلّه لهم، ولا ينبغي أن يحرّم العبد على نفسه شيئًا أحلّه الله عز وجل له، فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٨٧ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧– ٨٨].

فليس لأحد من المسلمين أن يتعدّ حدود الله عز وجل، بتحريم شيء على نفسه مما أحل الله لعباده المؤمنين من طيبات المطاعم والملابس والمناكح، ولا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده، وإنّما الفضل والبر في فعل ما ندب الله عز وجل عباده إليه، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنه لأمته، واتبعه على منهاجه

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٤١.

الأئمة الراشدون[(١)].

ويفهم من هاتين الآيتين أنّ الأكل من الحلال، والتلذذ بالطيبات لا يتنافي مع تقوى الله عز وجل؛ بل العبد التقي ينعم بما أحلّ الله له، ويشكر المنعم سبحانه على عطائه ونعمه، وليس من التقوى تحريم الطيبات، وهجر المباحات، وقد أكل النبي صلى الله عليه وسلم ثريد اللحم ومدحه، وكان يحب الحلوى، ويحب الطيب، ويتزوج النساء[(٢)].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: في هذه الآية وما شابهها، والأحاديث الواردة في معناها ردٌّ على غلاة المتزهدين، وعلى كل أهل البطالة من المتصوفين؛ إذ كل فريقٍ منهم قد عدل عن طريقه، وحاد عن تحقيقه»[(٣)].

فالعبد التقي ينعم بما أحلّ الله من الطيبات، ولا يعتدي بالإسراف أو التقتير، ولا يتعدّى الحلال إلى الحرام، ولا يحرّم ما أحل الله سبحانه وتعالى[(٤)].

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[(٥)].

ومن نعمته سبحانه على عباده أنّه أباح لهم التمتع بالحلال الطيب من الأطعمة وغيرها، قال الصنعاني: «في هذه الأحاديث دلالة أنّ الله تعالى يحب من العبد إظهار نعمته في مأكله وملبسه؛ فإنّه شكر للنعمة فعليّ، ولأنّه إذا رآه المحتاج في هيئة حسنة قصده ليتصدق عليه»[(٦)].

ثانيًا: الأطعمة المحرّمة:

لقد حرّم الله عز وجل بعض الأطعمة وبعض الأشربة على عباده، ولا شكّ أنّ لهذا التحريم حكمًا عظيمةً أرادها الله عز وجل؛ قد يظهر للعباد بعضها، ويخفى عليهم بعضها الآخر، والله عز وجل يحل ما يشاء، ويحرّم ما يشاء، والعبد يسمع ويطيع مولاه، ولا يتجاوز حدوده، فالعبد عبدٌ، والرّب ربٌّ.

وإنّ من رحمة الله عز وجل بعباده أن جعل الأطعمة المحرمة قليلةً محصورةً، يسهل على العباد معرفتها، ويسهل عليهم تجنبها، ولا يتضررون بالامتناع عنها؛ بل الخير كلّه في التزام أمر الله عز وجل، وعدم مجاوزة حدوده؛ فإنّه سبحانه يشرع لعباده ما يصلحهم، وهو سبحانه أعلم بما ينفعهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٢٢.
(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٦٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٦٢.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٧٤.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، رقم ٢٨١٩، ٤/ ٥١٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
والحديث صححه الألباني في غاية المرام، رقم ٧٥.
(٦) سبل السلام ٢/ ٨٦.

وقد بيّن الله عز وجل المحرمات من الأطعمة منذ العهد المكي، حيث أنزل الله عز وجل قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فهذه الآية المكية جاءت في سياق الردّ على المشركين الذين كانوا يحرّمون على أنفسهم بعض الأطعمة، ويفترون على الله عز وجل الكذب بأنّه قد حرّمها، قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

ثمّ جاءت هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ﴾ لتبين أنّ الحرام ليس ما حرّمه أولئك الجهال على أنفسهم، ونسبوا التحريم إلى الله كذبًا وافتراءً عليه؛ وإنّما الحرام ما حرّم الله عز وجل، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم[(١)].

فالمحرمات الواردة في هذه الآية ليست جميع المحرمات؛ لأنّ هذه الآية مكيّة، وقد نزل بعدها تحريم بعض الأطعمة في العهد المدني؛ كما في سورة المائدة، في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقد ورد في السّنة تحريم بعض الأطعمة أيضًا؛ كلحوم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير.

والحصر الوارد في آية الأنعام محمول على أنّه لم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرّمٌ غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة «المائدة» بالمدينة. وزيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة والخمر وغير ذلك، وكذلك فقد حرّم الله عز وجل على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أكل كلّ ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وعلى هذا فلا تعارض بين الآيتين، وليست آية الأنعام منسوخة بآية المائدة -وقد ذهب بعض المفسرين إلى القول بذلك-؛ بل كلتا الآيتين محكمتين[(٢)].

ونلاحظ في الأطعمة المحرّمة أنّها إمّا محرمة لذاتها؛ كلحم الخنزير، والدم المسفوح، وكل ذي ناب من السباع وغيرها، وهذه المحرمات مستقذرة في ذاتها، وإمّا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٤، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١١٥، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٤٣.

أن تكون تلك الأطعمة في الأصل حلالًا، ثم عرض عليها ما جعلها محرّمة؛ كالميتة، والمنخنقة، والموقوذة..، فهذه المحرمات إنّما حرّمت لما طرأ عليها من الموت دون تذكية شرعية.

ثالثًا: حكمة التحليل والتحريم:

إنّ ممّا لا شك فيه أنّ تحليل الله عز وجل لكثيرٍ من الأطعمة، وتحريمه لبعضها ينطوي على كثيرٍ من الحكم التي أرادها الله عز وجل؛ وقد يظهر للعباد بعض هذه الحكم، ويخفى عليهم بعضها، والذي يجب أن يقال أولًا: إنّ الله عز وجل يتصرّف في ملكه كيف شاء، ويشرع لعباده ما يريد، وهو سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ولا ينبغي للعبد أن يقول: لم أحلّ الله هذا الطعام وحرّم ذاك؟ بل الواجب على العبد أن يسلم لأمر الله عز وجل وهو مطمئن البال، واثق بربّه العليم الحكيم سبحانه وتعالى، وبعد ذلك إن ظهر له شيء من حكم التحليل والتحريم فحسن، وإن لم يظهر له فإنّه لا يعترض على أمر الله عز وجل؛ بل يسلّم ويطيع.

والمسلم يعلم أولًا أنّ الله عز وجل يبتلي العباد ويختبرهم؛ يبتليهم بما شرع لهم من الأحكام، وبما فرض عليهم من الواجبات، يبتليهم بالحلال والحرام، يبتليهم بالأوامر والنواهي ليميز سبحانه المطيع من غيره، وليعلم الله -وهو سبحانه أعلم بعباده- من يسلّم ويستجيب لربّه ممن يعترض وينقلب على عقبيه، وقد أخبر الله عز وجل بهذه الحكمة من التشريع في الآيات التي أمر فيها المؤمنين بتحويل قبلتهم إلى المسجد الحرام، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال السعدي عن هذه الآية: «دلّت الآية على أنّه لا يعترض على أحكام الله عز وجل إلا سفيهٌ جاهلٌ معاندٌ؛ وأمّا الرشيد المؤمن العاقل فيتلقى أحكام ربّه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]»[1].

ولا شكّ بأنّ فيما أحلّ الله عز وجل لعباده منافع جمّة، ومصالح عظيمة؛ ففي تغذي الإنسان على الطعام الحلال سلامة بدنه، وقوام صلبه، واستقامة صحته، ووفرة قوته، وتقويه على القيام بما أمره الله عز

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٠.

وجل من العبادة وعمارة الأرض.

وبتغذي الإنسان بالأطعمة الحلال يشعر العبد بنعم الله الوفيرة عليه، ويتلذذه بالطيبات تزيد محبته لمن خلق تلك الطيبات، وأحلّها للعباد، ولا شكّ بأنّ المؤمن كلما ازداد شعورًا بنعمة الله عز وجل عليه زاد لربّه شكرًا، وامتلأ قلبه محبّة للمنعم سبحانه وتعالى، وازداد علمًا ومعرفة بفضل الله عز وجل عليه، ولا شك أنّ ذلك كله من مقاصد الدين.

وإنّ الله عز وجل ما خلق الطيبات ليحرّمها على العباد؛ وما خلقها ليتخذها العباد وسيلة للمعصية والفساد؛ بل خلقها سبحانه ليتنعموا بها، ولتكون وسيلة يصلون بها إلى مرضاة ربّهم جل وعلا، وتحصيل النعيم الأكبر بالفوز بدار النعيم في الآخرة.

هذه بعض الحكم من تحليل الطيبات؛ أمّا عن حكم تحريم الخبائث فلا شكّ بأنّ في تحريم الله عز وجل لتلك الأطعمة المحرّمة نفعٌ للعباد، ومصلحة عظيمة لهم؛ فإنّ تلك الأطعمة المحرّمة إنّما هي ممّا تأباه الفطر السليمة، وتستقذره النفوس الرشيدة، ولا يمكن لعبدٍ عاقلٍ أن يجد في تلك المحرمات أمرًا طيبًا، أو فائدة مرجوّة؛ فالحرام ضررٌ محض، وفي اجتنابه السلامة والمعافاة.

ومن الحكم التفصيليّة لتحريم بعض الأطعمة والأشربة:

أولًا: الحفاظ على العقل الذي به تتم عبادة الله عز وجل، وعمارة الأرض؛ وذلك بتحريم كلّ ما يعطل العقل كالخمر والمسكرات والمخدرات.

ثانيًا: الحفاظ على النفس؛ وذلك بتحريم كلّ ما يحدث الضرر بها، أو يشكّل خطرًا عليها.

ثالثًا: حفظ المال بعدم إضاعته فيما لا نفع فيه.

رابعًا: الوقاية من الأمراض الناتجة عن تلك الأطعمة المحرمة؛ كالدم المسفوح الذي يعد أنسب مكان لانتشار الجراثيم ونموها.

خامسًا: من حكم تحريم لحم الخنزير أنّه قد اكتشف أنّ له قابلية كبرى لجميع الأمراض الميكروبية المعدية؛ أمّا الميتة فينحبس الدم فيها في الشرايين، مما يؤدي إلى التعفن وتجمع الجراثيم والميكروبات الضارة والسامة.

وهناك حكمٌ خاصة بتحريم أصناف معينة من الأطعمة ذكرها العلماء، ولا زال العلماء يكتشفون في الأطعمة المحرمة أضرارًا وأمراضًا خطيرة، وكلما اكتشفوا شيئًا علموا عظمة شرع الله عز وجل في تحريم تلك الخبائث.

والعبد المؤمن لا ينتظر العلماء وأهل

الطب ليكشفوا له عن أسرار التحريم؛ لأنّه يعلم أنّ ذاك التحريم إنّما هو من عند العليم الحكيم، ولا يشرع لعباده إلا الشرع الحكيم، الذي فيه استقامة الحياة، والسعادة والسرور، يقول الشيخ القرضاوي: «وليس من اللازم أن يكون المسلم على علمٍ تفصيليٍّ بالخبث أو الضرر الذي حرّم الله من أجله شيئًا من الأشياء، وقد لا ينكشف خبث الشيء في عصره، ويتجلى في عصر لاحق، وعلى المؤمن أن يقول دائمًا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ألا ترى أنّ الله حرّم لحم الخنزير فلم يفهم المسلم من علة لتحريمه غير أنّه مستقذر، ثم تقدم الزمن فكشف العلم فيه من الديدان والجراثيم القاتلة ما فيه، ولو لم يكشف العلم شيئًا في الخنزير، أو كشف ما هو أكثر من ذلك فإنّ المسلم سيظل على عقيدته بأنّه رجس»[(١)].

ولا بدّ من الإشارة -أخيرًا- إلى أنّ من رحمة الله عز وجل، وعظيم كرمه على عباده أنّه سبحانه إذا حرّم على العباد شيئًا عوضهم خيرًا منه، وأبدلهم ما هو أجلّ وأنفع[(٢)]، فيعلم العبد أنّ الله عز وجل ما يريد أن يحرم عباده؛ وإنّما شرع لهم ما تستقيم به حياتهم، وتسعد به أنفسهم، وفي الحلال كفاية للعباد عن الحرام، قال ابن القيم: «فما حرّم الله على عباده شيئًا إلا عوضهم خيرًا منه؛ كما حرّم عليهم الاستقسام بالأزلام، وعوضهم منه دعاء الاستخارة، وحرّم عليهم الرّبا، وعوضهم منه التجارة الرابحة..، وحرّم عليهم الحرير، وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة؛ من الصوف والكتان والقطن، وحرّم عليهم الزنا واللواط، وأعاضهم منهما بالنكاح والتسري بصنوف النساء الحسان، وحرّم عليهم شرب المسكر، وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن..، وحرّم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات، ومن تلمّح هذا وتأمّله هان عليه ترك الهوى المردي، واعتاض عنه بالنافع المجدي، وعرف حكمة الله ورحمته وتمام نعمته على عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه، وفيما أباحه لهم، وأنّه لم يأمرهم بما أمرهم به حاجةً منه إليهم، ولا نهاهم عنه بخلًا منه تعالى عليهم؛ بل أمرهم بما أمرهم إحسانًا منه ورحمةً، ونهاهم عمّا نهاهم عنه صيانةً لهم وحميةً»[(٣)].

[انظر: الأكل: أنواع المأكولات من حيث الطيب والخبث]

(١) الحلال والحرام في الإسلام ص٢٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ص٣٠.
(٣) روضة المحبين، ابن القيم ص١١.

الإطعام في القرآن الكريم

إنّ الحديث عن الإطعام ممّا لا ينبغي أن يغفل عنه في سياق الحديث عن الطعام في كتاب الله عز وجل؛ فلقد ذكر الإطعام في القرآن الكريم -مكيّه ومدنيّه- مرارًا، وبيّن الله عز وجل قيمة الإطعام وأهميته، وبيّن فضل المطعمين، وأنواع الإطعام، وفي ذلك تنبيه على أهمية الإطعام في دين الله عز وجل.

ومن تأمّل في الآيات التي تحدّثت عن الإطعام يجد أنّ الإطعام له مكانةٌ عظيمةٌ في الإسلام، فهو شعيرةٌ من شعائر الدين، وقربةٌ من أجلّ القربات إلى العلي الكبير، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حينما سأله رجلٌ: أيّ الإسلام خير؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)[1].

لقد أخبر القرآن الكريم بأنّ إطعام الطعام للمساكين والفقراء والأسرى المحتاجين من خصال عباد الله المخلصين، فقال عز وجل مادحًا لهم، ومبينًا لفضلهم: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٦ - ٩].

وكيف لا يكون للإطعام تلك المكانة الرفيعة في دين الله عز وجل ؟! وقد جعله الله سبحانه من الأمور التي بها يجوز العبد العقبة الكبرى يوم القيامة، فهو سبب للنجاة، وموصل للفلاح، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾ [البلد: ١١ - ١٨].

وإنّ ممّا يدلّ على أهمية الإطعام في الإسلام أنّ القرآن الكريم أخبر بأنّ عدم إطعام الفقراء والمساكين سيكون سببًا للوقوع في عذاب الله عز وجل يوم القيامة، قال الله عز وجل مخبرًا عن أصحاب النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٤].

بل إنّ الله عز وجل قد ذمّ الذي لا يحضّ على طعام المسكين، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

فقد قرن الله عز وجل عدم الحضّ على طعام المسكين مع الكفر بالله، والتكذيب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، رقم ١٦٩، ١/ ٤٧، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

بالدين، والتهاون في الصلاة، ولا شكّ بأنّ في ذلك تشنيع على الذي لا يحضّ على طعام المسكين، فلا هو يطعم، ولا هو يحضّ غيره على الإطعام.

ولقد أكّد النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية الإطعام، وعظيم أجره عند الله عز وجل، وقد قرنه مع فضائل الأعمال، فقال صلى الله عليه وسلم: (أيّها النّاس؛ أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[1]

وحذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من البخل بالطعام والشراب عن الفقراء والمساكين؛ من الأقارب والجيران وغيرهم، وبيّن أنّ ذلك ليس من شيم الإيمان، ولا من أخلاق الإسلام، فقال صلى الله عليه وسلم: (ليس المؤمن الذي يشبع و جاره جائع إلى جنبه)[2].

وفي النقاط الآتية بإذن الله تعالى بيان لأصناف المطعمين، وأنواع الإطعام وشروطه.

أولًا: أصناف المُطْعَمين:

لقد بيّن الله عز وجل أنّ في المجتمع أصنافًا من الناس يستحقون الإطعام، ويقدمون على غيرهم في ذلك؛ لأنّهم أشدّ حاجة للطعام، بسبب ما ابتلاهم الله عز وجل من فقرٍ أو يتمٍ أو حاجةٍ، ومعلومٌ أنّ العمل الصالح يكونُ أعظم إذا ما كان نفعه أكبر.

ومن تتبع آيات الكتاب العزيز يجد أنّ الله عز وجل وجّه المطعمين إلى توجيه إطعامهم إلى الأصناف الآتين من الناس:

١ . المساكين.

وهم أكثر من أمر الله عز وجل بإطعامهم في القرآن الكريم، وأغلب الآيات التي ذكرت الإطعام إنّما جعلته للمساكين، والمساكين جمع مسكين، والمسكين هو الذي لا شيء له، وقيل: هو الذي له بعض الشيء؛ ولكن لا يسدّ حاجته، ولا يكفيه[3]، وقد اختلف أهل اللغة والمفسرون والفقهاء في تحديد الفرق بين المسكين والفقير، ومن منهم أشدّ حاجة، فقال البعض:

(١) أخرجه الترمذي في سننه، رقم ٢٤٨٥، ٤/ ٢٦٤، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في الصحيحة، رقم ٥٦٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب البيوع، رقم ٢١٢٦، ٢/ ١٢، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه الطبراني في الكبير عن أنس رضي الله عنه، بلفظ (ما آمن بي من بات شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه)، رقم ٧٥١، ١/ ٢٥٩.
والحديث صححه الألباني في الصحيحة، رقم ١٤٩.

(٣) انظر: معاني القرآن، النحاس ٤/ ٢٧٤، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣٨٥.

هما مترادفان[1]، وقال بعضهم: الفقير أشدّ حاجة، وقال آخرون: المسكين أشدّ حاجة[2]، والذي يعنينا هنا أنّ المسكين هو من كان في عوز وحاجة، ويدخل الفقير في هذه الصفة.

ولعلّ الحكمة في الإكثار من الوصية بإطعام المساكين أنّ هذا النوع من الناس في حاجة شديدة إلى العناية والرعاية؛ لأنّهم -في الغالب- يفضلون الاكتفاء بالقليل على إراقة ماء وجوههم بالسؤال، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن المسكين: (ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان؛ ولكنّ المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن به فيتصدّق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس)[3][4].

وقد أخبر الله عز وجل أنّ في إطعام هؤلاء المساكين منفعة كبيرة للعبد يوم القيامة؛ إذ بهذا العمل الصالح تقتحم العقبة، وتنال الجنة، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

والمسكين ذو المتربة هو صاحب الفقر الشديد؛ كأنّه لصق بالتراب لشدّة حاجته، وقال ابن عباس رضي الله عنه: هو المطروح في التراب لايقيه شيء[5].

وقد جعل الله عز وجل للمساكين حظًّا وافرًا من الإطعام، إذ إنّ كثيرًا من الكفارات إنّما هي طعامٌ يصرف للمساكين، ففي كفارة اليمين أمر الله عز وجل بإطعام عشرة مساكين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

ومن ظاهر من زوجته، ولم يستطع تحرير رقبة ولا صيام ستين يومًا فعليه إطعام ستين مسكينًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٣- ٤].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٤٤٨.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٦٧، وقد فصل القرطبي القول في المسألة، فذكر تسعة أقوال لأهل اللغة والمفسرين والفقهاء انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٦٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: (لا يسألون الناس إلحافًا)، رقم ١٤٧٩، ٢/ ١٢٥.
(٤) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١/ ٣٦٣.
(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٩/ ١٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ٣٦١.

وكذلك فقد جعل الله عز وجل فدية الإفطار في رمضان بسبب كبر سنٍّ، أو مرضٍ لا يرجى برؤه فدية طعام مسكين، قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ومن قتل صيد البر وهو محرم فعليه كفارة طعام مساكين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٩٥].

٢. اليتامى.

ولا يخفى حال اليتيم من ضعف وعوز، وفقدان للمعيل؛ فكانت الوصية باليتامى عظيمة في كتاب الله عز وجل، ومن الوصية بهم أنّ الله عز وجل حثّ على إطعامهم ورعايتهم؛ بل وجعل ذلك من عظيم القربات، وأجلّ الطاعات، قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

فإطعام اليتامى في أيام المجاعات من خير ما تجتاز به العقبة، وتنال به الرحمة، وإنّما خص الإطعام في يوم المسغبة والمجاعة لأنّ الحاجة إليه أشدّ، ويكون الطعام في مثل تلك الأوقات عزيزًا، قال الفخر الرازي: «واعلم أنّ إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس، وأوجب للأجر»[(١)].

ولا شكّ بأنّ في إطعام اليتامى مصلحة عظيمة للمجتمع، وخير كبير للأمة، إذ في إطعامه سدٌّ لحاجته، ومواساة لحاله، ومن ثمّ صلاح لأمره، قال ابن عاشور: «ووجه تخصيصه بالإطعام أنّه مظنة قلة الشبع؛ لصغر سنّه، وضعف عمله، وفقد من يعوله، ولحيائه من التعرض لطلب ما يحتاجه؛ فلذلك رغّب في إطعامه، وإن لم يصل حدّ المسكنة»[(٢)].

٣. الأسرى.

ولقد ذكر الله عز وجل إطعامهم رفقًا بحالهم، فالأسير محبوس، ممنوع من أهله وماله، وهو في ضعف وحاجة، فكان في إطعامه الفضل والطاعة، وقد مدح الله عز وجل من يطعمون الأسرى بقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٦ - ٨].

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في المراد

(١) مفاتيح الغيب ٣١/ ١٦٩.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٥٨.

بالأسرى في الآية؛ فقالوا: هو الأسير المشرك، وقالوا: المحبوس بحق من المسلمين، وقالوا: هو العبد؛ إذ هو أسير عند سيده، وقالوا: المرأة؛ فهي أسيرة عن زوجها، وقد رجح القرطبي أنّ جميع من ذكروا داخلون في الآية [(١)].

والراجح -والله أعلم- أنّ المعنيين في الآية الأسرى المحبوسين؛ من المسلمين والمشركين؛ أمّا العبيد عند أسيادهم، والنساء عند أزواجهنّ فهم ليسوا بأسرى على الحقيقة، وقد جاء الحثّ على إطعامهم والإحسان إليهم -في غير هذه الآية- في نصوصٍ كثيرةٍ من الشرع الحكيم.

٤. البائس الفقير.

لقد أمر الله عز وجل بإطعام هذا الصّنف من الناس من بهيمة الأنعام التي تذبح أو تنحر تقربًا إلى الله عز وجل من الهدي والأضاحي، قال الله عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

والمراد بالبائس الفقير في الآية: من كان شديد الفقر، عظيم الحاجة، وقد وصفه الله بالفقير بعد وصفه بالبائس لمزيد إيضاح وبيان[(٢)].

٥. القانع والمعتر.

وقد أمر الله عز وجل بإطعامهم من البدن التي تذبح هديًا أو أضحية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

وللمفسرين أقوال كثيرة في معنى القانع والمعتر:

منها: أنّ القانع هو الذي يسأل الناس، والمعتر هو الذي لا يسأل.

ومنها: أنّ القانع هو المتعفف، والمعتر هو السائل.

ومنها: أنّ القانع هو السائل، والمعتر هو الذي يعتريك ولا يسأل.

وغير ذلك من أقوال[(٣)].

والجامع بين تلك الأقوال جميعًا أنّ القانع والمعتر من أصناف الناس الفقراء في المجتمع، ولا شكّ بأنّ الشرع قد أوصى بالعناية بهم وإطعامهم.

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٤٣٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٢٩.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٦٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٣٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٤٣٣.

فهؤلاء هم الذين حثّ القرآن الكريم على إطعامهم، ورغّب في ذلك ترغيبًا عظيمًا؛ بل أوجب إطعامهم في الكفارات والفدية، ولا شكّ بأنّ في ذلك تنبيهٌ على فضل الإطعام وأهميته.

ثانيًا: شروط الإطعام:

إنّ الإطعام عبادة لله عز وجل، يتقرب بها العبد لربّه سبحانه وتعالى، ومن المعلوم أنّ لأيّ عبادة من العبادات التي ينال بها رضا الله عز وجل شرطين:

الأول: الإخلاص لله عز وجل.

والثاني: مطابقة العمل لشرع الله عز وجل، وموافقته لما في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه)[1].

وقد بيّن الله عز وجل أنّ الإطعام الذي ينال صاحبه الأجر والمثوبة هو ما كان خالصًا لوجهه الكريم، ولم يكن فيه شرك أو رياء، فلقد مدح الله عز وجل من يطعمون المساكين واليتامى ابتغاء وجه الله عز وجل، لا يطعمونهم طلبًا للشكر والثناء من الناس، قال الله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

وإنّما يريدون بهذا العمل الصالح وجه الله عز وجل، وابتغاء مرضاته، فهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، مؤمنون بالجزاء في الآخرة، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٠].

ولمّا كانت نيتهم خالصة، وأعمالهم صافية، كان لهم الثواب الجزيل، والأجر الكريم، ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ [الإنسان: ١١ – ١٤].

ومعلوم أنّ العمل الصالح لا بدّ أن يكون مقرونًا بالإيمان؛ إذ العمل الصالح من غير المؤمن لا ينفع، ولا يقبل الله عز وجل من الكافرين عملًا صالحًا، وكثيرًا ما قرن الله عز وجل بين الإيمان والعمل الصالح في كتابه العزيز[2]، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

---

(١) أخرجه النسائي في سننه، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، رقم ٣١٤٠، ٦/ ٣٣٢.
وصححه الألباني في الصحيحة، رقم ٥٢.

(٢) ورد قول الله عز وجل: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في القرآن الكريم خمسين مرة.
انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص٤١١- ٤١٢.

ولمّا بيّن الله عز وجل أنّ إطعام اليتامى والمساكين في أيام الجوع والشدة من أفضل الأعمال الصالحات، فقال سبحانه: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦]. أتبع ذلك ببيان أنّ تلك الصالحات لا تنفع العبد إذا لم يكن معها إيمان بالله عز وجل. قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧ - ١٨].

قال البغوي: «بيّن أنّ هذه القرب إنّما تنفع مع الإيمان»[(١)].

ثالثًا: أنواع الإطعام:

لقد ذكر القرآن الكريم أصنافًا من الإطعام، فذكر الإطعام المطلق للفقراء والمساكين والأسرى، وذكر الإطعام من الهدي والأضاحي، وذكر الإطعام في الفدية والكفارات، وذكر الإطعام ضيافة، وفيما يأتي بيان أنواع الإطعام في القرآن الكريم:

١. الإطعام المطلق.

والمراد بذلك الإطعام في أيّ وقت، ولأيّ صنف من أصناف الناس الذين سبقت الإشارة إليهم في المطلب الأول من هذا المبحث؛ بل ويدخل في ذلك أيضًا إطعام ذوي القربى، والجيران، والأصحاب، وحتى الزوجة والأهل، فقد ورد في الشرع الحنيف ما يدلّ على فضل ذلك جميعًا.

ولا شكّ أنّ هذا الإطعام المطلق مراتب ودرجات؛ فكلّما كانت حاجة المطعم للطعام أشدّ، كان ذلك الإطعام أفضل وأجلّ، وقد مدح الله المطعمين في وقت الجوع والمسغبة، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-٩]. فمعنى على حبّه: أي في حال محبتهم لهذا الطعام وشهوتهم له[(٢)].

وهذا النوع من الإطعام -الإطعام المطلق- قد ذمّ الله عز وجل الممتنعين عنه، وأخبر سبحانه أنّ الامتناع عنه سبب من أسباب الوقوع في العذاب يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤١ - ٤٤].

وذمّ الله عز وجل من لا يحضّ على هذا الإطعام فقال سبحانه: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧ - ١٨].

٢. الإطعام في الكفارات.

وهو إطعام واجب على من وجب عليه ذلك، كمن حنث في يمينه ولم يشأ أن يعتق

(١) معالم التنزيل ٨/ ٤٤٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ٢٠٩.

رقبة، أو أن يكسو عشرة مساكين، فهذا يجب عليه أن يطعم عشرة مساكين إلا أن يكون عاجزًا عن ذلك فعليه صيام ثلاثة أيام.

قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾[المائدة: ٨٩].

وغير ذلك من الكفارات، وقد أشرنا إلى ذلك في المطلب الأول من هذا المبحث.

٣. الإطعام في الفدية.

وقد جعل الله عز وجل هذا النوع من الإطعام واجبًا أيضًا، فمن أفطر في رمضان لكبر سنٍّ أو مرض لا يرجى برؤه، وجب عليه إخراج الفدية؛ طعام مسكين عن كلّ يوم أفطره.

قال الله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[البقرة: ١٨٤].

وكذلك الحال فيمن أحرم بالحج، ثمّ أحصر وأصبح مريضًا أو به أذى من رأسه جاز له أن يحلق رأسه قبل أن يذبح الهدي، ووجبت عليه الفدية: صيام أو صدقة أو نسك، قال الله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[البقرة: ١٩٦].

والمراد بالصدقة في الآية: إطعام ستّة مساكين[(١)].

٤. الإطعام ضيافة.

فإنّ من شعائر الإسلام إكرام الضيف، ومن أهم صور الإكرام تقديم الطعام والشراب، وقد أخبر الله عز وجل عن كرم ضيافة إبراهيم عليه السلام لضيفه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٦٩- ٧٠].

لقد ظنّ إبراهيم عليه السلام أنّ رسل الله عز وجل من الملائكة الكرام ضيفان من البشر، فما كان منه إلا الإسراع في إكرامهم، والتعجل في إعداد الطعام لهم، وقد ذكر الله عز وجل ذلك في كتابه مدحًا لإبراهيم الخليل عليه السلام، وبيانًا لمناقبه وفضله، وحثًّا للعباد على التأسي به، والسير على خلقه.

ويؤخذ من قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه هؤلاء أشياء كثيرة من آداب الضيافة؛ منها: تعجيل القرى والطعام، ومنها: أن يقدم

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٧٧.

للضيف أحسن الموجود، ومنها: تقريب الطعام إلى الضيف، ومنها: ملاطفته بالكلام بغاية الرفق[1].

وفي مقابل مدح إبراهيم عليه السلام في إكرامه لضيف، أخبر الله عز وجل عن قرية تخلق أهلها باللؤم والبخل وسوء معاملة الضيفان، وبلغ بهم الحدّ في البخل أن طلب منهم عابرا سبيل -موسى عليه السلام والرجل الصالح- أن يطعموهما فأبوا ويخلوا، قال الله عز وجل مخبرًا عن حال موسى عليه السلام والعبد الصالح مع أهل تلك القرية: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: ٧٧].

لقد بلغ البخل واللؤم بأهل تلك القرية أن منعوا طعامهم عن عابر السبيل، وقد طلب منهم عابر السبيل الطعام فأبوا، مع أنّ الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم عليه السلام، وهي من العادات الفاضلة المتعارف عليها بين الناس[2].

وقد أكّد النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية إكرام الضيف، وبيّن عليه السلام أنّ ذلك من الإيمان؛ ولا ينفك إكرام الضيف عن المؤمنين، قال صلى الله عليه وسلم: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)**[3].

وفي ختام ذلك المبحث تبيّن مدى اهتمام القرآن الكريم بفضيلة إطعام الطعام، وأنّ تلك الفضيلة يشترط لها الإخلاص لله عز وجل، وأن تكون مقرونة بالإيمان -كغيرها من الأعمال الصالحة-، وبيّن القرآن أصناف المطعمين، وأكّد على حقّ المساكين واليتامى، وبيّن أنّ الإطعام له أنواع وصور متعددة، وكلّما كان الطعام المقدم محتاجًا إليه، كان جزاؤه أعظم.

والناس اليوم يحتاجون إلى تلك الشعائر الربانية، وتلك الرحمات الإلاهية، من إطعام الطعام، والسعي على المساكين والأيتام، فكم من بيوت لا يجد أهلها كسرة خبز، وكم من دول يموت شعبها جوعًا، وكم من طفل بات باكيًا لم تجد أمّه ما تسد به رمقه، وفي جانب آخر من حياة الناس نرى أكوامًا من الطعام قد ألقيت، وأصنافًا من الخيرات قد أتلفت، والله المستعان.

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٨٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحثّ على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا من الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم ١٨٢، ١/ ٤٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

طعام الآخرة

إنّ المتتبع لآيات القرآن الكريم التي تحدّثت عن الطعام يجد أنّ كثيرًا من هذه الآيات قد تحدّثت عن طعام الآخرة؛ حيث يخبر الله عز وجل في آيات عدّة من كتابه العزيز عن طعام أهل الجنة، ويصف لعباده ما أعدّ للمتقين منهم من طعام ناعم، وأكلٍ دائم، ويخبر سبحانه عن طعام أهل النار، ويصف لعباده ما أعدّ للمجرمين من طعام أثيم، وشراب من حميم.

أولًا: طعام أهل الجنة:

لقد أخبر الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه العزيز عمّا أعدّ لعباده المتقين من نعيم مقيم في الجنّة، وأخبر سبحانه عن ظلال الجنة وأنهارها، وأخبر عن أشجارها وثمارها، وأسهب سبحانه في الحديث عن تنعّم أهل الجنة بما فيها من أصناف النعيم؛ فأخبر سبحانه عن طعامهم وشرابهم، وأخبر عن مساكنهم وبيوتهم، وأخبر عن أزواجهم وخدمهم، وأخبر عن لباسهم وحليّهم، وأخبر حتى عن كؤوسهم وصحافهم، وفي هذا كلّه ترغيب للعباد في جنّة الرحمن، وتشويق لهم للدار الآخرة، وتحفيز لهم على الجد والاجتهاد في الطاعة والعبادة لنيل ذلك الجزاء العظيم، والفوز بذلك الفوز الكبير.

فمن إخبار الله عز وجل عن طعام الجنّة أنّه سبحانه ذكر دوام ذلك الطعام، وأنّه لا ينقطع، ولا يمنع؛ بل هو يسير المنال، قريبٌ ممن اشتهاه.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [الرعد: ٣٥].

ومعنى دوام طعام أهل الجنة في هذه الآية: أنّه لا ينقطع أبدًا، ولا تنقطع لذته؛ فلا تزيد بجوع، ولا تملّ من شبع [(١)].

وقد قال سبحانه عن فاكهة الجنة: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢- ٣٣].

فثمار الجنة وفاكهتها دائمة؛ لا تنقطع في حين دون حين، ولا تمنع بالحيطان والنواطير، ولا تنقطع إذا جنيت ولا تمنع من أحد إذا أريدت؛ إنّما هي مطلقة لمن أرادها، قريبة لمن اشتهاها [(٢)].

قال ابن كثير: «أي: لا تنقطع شتاءً ولا صيفًا؛ بل أُكُلُها دائمٌ مستمرٌ أبدًا، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء، وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بعدٌ» [(٣)].

وهذا الحال لطعام الجنّة وفاكهتها على خلاف ثمار الدنيا التي تنقطع وتمنع؛ فحتى

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيّان ٥/ ٣٨٦.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١٤١.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١٣/ ٣٧٠.

ملوك الدنيا وأغنياؤها قد يشتهون ثمرًا، ويجدون قيمته، ولكنّهم قد لا يحصلون عليه؛ لأنّه في غير وقته، أو لأنّه بعيد مكانه، وقد يشتهون طعامًا أو شرابًا موجودًا؛ ولكنه يحتاج إلى وقتٍ في صنعه وإعداده؛ فلا يأتيهم في وقت مرادهم؛ فتنقطع شهوتهم أثناء انتظاره، ولا شكّ بأنّ أعظم لذة بالطعام والشراب في وقت اشتهائه وطلبه.

ولقد أخبر الله عز وجل عن ثمار الجنّة وقطوفها، فبيّن سبحانه أنّ قطوفها دانية مذللة لأهلها في كل وقت ومكان، وشرابها جاهز على الدوام، وعيونها تتفجر في الحال، كي لا يظنن ظانٌّ أنّ ثمار الجنة في الحصول عليها كثمار الدنيا، تحتاج إلى من يجلبها من سوقها، أو يصعد شجرها ليقطفها؛ بل هي ثمار لصاحبها تأتيه حيث كان، وتدنو منه متى أراد، وما عليه إلا أن يشتهيها لينالها.

قال الله عز وجل: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٢- ٢٣].

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «أي: قريبة، يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره»[(١)].

إنّها ثمار في رؤوس أشجارها؛ ولكنها مذللة لأصحابها؛ يقطفونها يانعة ناضجة متى اشتهوها.

قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

قال مجاهد رحمه الله: «إن قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت له حتى ينالها، فذلك قوله: ﴿تَذْلِيلًا﴾»[(٢)].

لقد أخبر الله عز وجل أنّ لأهل الجنّة فيها ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب، وأصناف الأطعمة والفواكه.

قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠- ٢١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: ٤١ – ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقد أباح الله عز وجل لأهل الجنّة أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤][(٣)].

ولا شكّ بأنّ أعظم شيء في الطعام والشراب لذته، وكلما كان طيبًا شهيًّا عظم الفرح به، وزاد التلذذ بأكله، وأقبل الآكل والشارب عليه؛ ولذا يعطى أهل الجنة قوةً

(١) انظر: المصدر السابق ١٤/ ١١٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٠٣، الدر المنثور،السيوطي ٨/ ٣٧٤.

(٣) انظر: الجنة والنار، عمر الأشقر ص٢٢٩.

عظيمةً لتكمل لذتهم بما يجدون من مآكلها ومشاربها؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ الرّجل من أهل الجنّة ليعطي قوّة مائة رجلٍ في الأكل والشّرب والجماع والشّهوة، فقال رجلٌ من اليهود: إن الذي يأكل ويشرب تكون منه الحاجة، فقال: يفيض من جلده عرقٌ فإذا بطنه قد ضمر)[1].

لقد أخبر الله عز وجل أنّ ثمار الجنّة كثيرة عظيمة، فقال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣].

ومن كثرة ثمار الجنة يظنّ أهلها -كلما رزقوا منها رزقًا- أنّهم قد رأوها من قبل، فإذا هي أنواعٌ جديدةٌ متشابهةٌ في شكلها ولونها، مختلفةٌ في طعمها وريحها.

قال الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[البقرة: ٢٥][2].

وعلى كثرة ثمار الجنة وفاكهتها إلا أنّها لا تشبه ما في الدنيا من ثمار، وليس بين ثمار الجنّة وثمار الدنيا من الشبه إلا في الاسم، أمّا الحقيقة والطعم والرائحة فثمار الجنة تعظم ثمار الدنيا بما لا يعلمه إلا الله عز وجل.

قال ابن القيم بعد أن ذكر الآيات والأحاديث في طعام الجنّة: «قد تضمنت هذه النصوص أنّ لهم فيها الخبز واللحم والفاكهة والحلوى وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر؛ وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء؛ وأمّا المسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر»[3].

ومن خصائص ثمار الجنة أنّ لكلّ فاكهةٍ منها نوعين ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

وذلك من جميع أصناف الفواكه، كلّ صنف له لذة ولون ليس للنوع الآخر، أو يكون فيها من كل نوع ما يؤكل رطبًا وما يؤكل يابسًا؛ كالعنب والزبيب، والرطب والتمر، ونحو ذلك[4].

وأكثر شيءٍ ينغّص على أهل الدنيا عيشهم القلة بعد الجدة، وفقد الشيء بعد نيله، واشتهاء الشيء مع عدم القدرة عليه، ومن الناس من يشتهي طعامًا فيأكل من الطعام ما يضره؛ لمرض فيه، ومنهم من يرى الطعام فيحبس نفسه عنه وإن كان يشتهيه؛ خوفًا من عاقبته، ومن الناس من يسرف في مأكله فيضر نفسه، ويحبس نفسه.. وأمّا أهل الجنة فيتنعمون بأنواع المآكل والمشارب وهم آمنون من كل هذا التنغيص.

(١) أخرجه الدارمي في سننه، باب في أهل الجنة ونعيمها، رقم ٢٨٦٧، ٣/ ١٨٦٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٢١.
(٣) حادي الأرواح ص١٣٠.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١٢٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٧٩.

قال الله عز وجل عنهم: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

فهم آمنون من فقدها وقلتها، وآمنون من ضررها وعاقبتها، وآمنون من حبس نفوسهم عنها لعلة من العلل؛ فالجنة ليس فيها مرض ولا قلة، ولا فقر ولا ضرر على أهلها مما يأكلون ويشربون[(١)].

ومن تمام نعمة الله عز وجل على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم أنّ سبحانه جعل تصريف الطعام والشراب في الجنّة ليس كما هو في الدنيا؛ فليس في تصريفه شيء من الأذى أو الخبث؛ بل هو جشاء ورشح يفيض مسكًا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يأكل أهل الجنّة فيها ويشربون، ولا يتغوّطون ولا يمتخطون ولا يبولون، ولكن طعامهم ذاك جشاءٌ كرشح المسك)[(٢)].

إنّ كلّ هذا النعيم من الطعام والشراب جعله الله عز وجل لأهل الجنة؛ يتنعمون به، ويتلذذون به، وليس طعامهم هذا وشرابه عن شعور بالجوع أو العطش؛ بل هو نعيم وسرور ما بعده سرور، قال القرطبي في التذكرة: «نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دفع ألم اعتراهم؛ فليس أكلهم عن جوع، ولا شربهم عن ظمأ، ولا تطيبهم عن نتن؛ وإنّما هي لذاتٌ متواليةٌ، ونعمٌ متتابعةٌ، ألا ترى قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩].

وحكمة ذلك أنّ الله تعالى عرفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله عز وجل»[(٣)].

ثانيًا: طعام أهل النار:

وكما أخبر الله سبحانه عن نعيم الجنّة وطعامها؛ فإنّه سبحانه قد أخبر عن عذاب النار وأهوالها، وبيّن سبحانه ما فيها من سموم وحميم، وطعام الأثيم، وخزي وعذاب أليم؛ ليكون العباد على بيّنة، وليجنّب العقّال منهم أنفسهم عن ذلك العذاب قبل أن يأتي وقت لا ينفع فيه الندم.

لقد بيّنت آيات الكتاب العزيز أنّ لأهل النار أصنافًا من العذاب؛ فلا يقتصر عذابهم على حرّها وإحراقها؛ بل فيها مع ذلك الإحراق عذاب الحسرة والندم، وعذاب السلاسل والأغلال، وعذاب الصّراخ والفزع، وألم الجوع والعطش، وعذاب الريح الخبيثة والنتن، وأصنافًا غير ذلك من

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًا، رقم ٧٣٣٣، ٨/ ١٤٧.

(٣) التذكرة ص٤٧٥.

العذاب المهين.

فأمّا طعام أهل النار فقد أخبر الله عز وجل بأنّه ليس لهم طعام إلا الضريع، فقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦].

وفي موضع آخر من الكتاب العزيز أخبر سبحانه أنّه ليس لأهل النار طعام غير الغسلين، فقال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ – ٣٧].

فهذا هو طعامهم: الغسلين والضريع، وليس لهم طعام سوى ذلك.

والمتأمل في هاتين الآيتين الكريمتين يجد أنّ كلّ آية منهما حصرت طعام أهل النار بنوع من الطعام غير النوع الآخر؛ فذكرت الآية الأولى أنّ الكافر لا طعام له يوم القيامة إلا من ضريع، وذكرت الآية الثانية أنّ الكافر لا طعام له يوم القيامة إلا من غسلين، وهذا الحصر في كلا الآيتين قد يفهم منه البعض أنّ فيه تعارضًا وتناقضًا؛ وقد جمع المفسرون بين الآيتين بما لا يبقي تعارضًا؛ ولكن قبل بيان ذلك لا بدّ من بيان معنى الضريع، ومعنى الغسلين.

فأصل الغسلين في اللغة: ما يخرج من الثوب ونحوه بالغسل؛ ثمّ استعمل في كل جرح غسل فخرج منه شيء، فهو غسلين، واستعمل القرآن لفظ الغسلين في كل ما يسيل من جلود أهل النار؛ كالقيح والصديد وغيرهما، كأنه يغسل عنهم[1].

وللمفسرين أقوال متعددة في المقصود بالغسلين في القرآن الكريم؛ والمنقول عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه: الصديد والدم والماء يسيل من لحوم أهل النّار، والمنقول عن قتادة أنّ الغسلين: شر الطعام وأخبثه وأبشعه[2].

أمّا الضريع: فهو نبت يقال له: الشبرق، ويسمّيه أهل الحجاز: الضريع إذا يبس، وهو نبات ذو شوك، لا تقربه دابّة إذا يبس، وهذا المعنى في الضريع مروي عن ابن عباس رضي الله عنه، وعن عكرمة، وعن مجاهد وقتادة، وقال بعض المفسرين: الضريع شوك من النار[3].

وعلى ضوء معنى الغسلين ومعنى الضريع يتبين أنّهما ليسا شيئًا واحدًا، وأنهما ليسا اسمين لمسمى واحد؛ بل هما شيئان مختلفان، وقد جمع المفسرون بين الآيتين بما بعدة أقوال:

الأول: أنّ العذاب يوم القيامة ألوان وأشكال، والمعذبون طبقات ودرجات؛

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٢٤، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٢٥٧.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٣٥٤، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٢٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٨٤، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٤٠٨.

فمنهم من لا طعام له إلا من غسلين، ومنهم من لا طعام له إلا من ضريع؛ يرشد لهذا التنوع في العذاب قوله تعالى في وصف النار: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]؛ فكلّ باب من هذه الأبواب اختص بفريق من أهل الكفر، وكل باب من هذه الأبواب داخله مغاير لما في داخل الباب الآخر، فإذا تعددت الأبواب، وتنوعت المقامات دلّ ذلك على تنوع أنواع العذاب والطعام.

وبحسب هذا التوجيه، يكون كل نوع من الطعام مخصصًا لفريق من أهل النار؛ ففريق يكون طعامه الغسلين، وفريق آخر يكون طعامه الضريع، وفريق ثالث يكون طعامه الزقوم، وهكذا؛ فغاية ما في الأمر أنّ كلّ آيةٍ تحدثت عن نوع من الطعام المخصص لهذا الفريق أو ذاك[(١)].

الثاني: أنّ المعنى في الآيتين أنّهم لا طعام لهم أصلًا؛ لأنّ الضريع لا يصدق عليه اسم الطعام، ولا تأكله البهائم -فضلًا عن الآدميين-، وكذلك الغسلين ليس من الطعام في شيء؛ فمن طعامه الضريع لا طعام له، ومن طعامه الغسلين كذلك، ويكون التعبير بهذا الأسلوب من باب المبالغة. ومنه قولهم: فلان لا ظل له إلا الشمس، ومرادهم. لا ظل له أصلًا[(٢)].

الثالث: أن تحمل الآيتان على حالتين، حالة يكون فيها طعامهم الضريع دون غيره، وحالة ثانية يكون طعامهم الغسلين، ولا شيء غيره. ويستنبط هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

أي: تارة يعذّبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وعلى هذا يكون طعامهم الضريع في وقت، وفي وقت آخر يكون طعامهم الغسلين، والله أعلم.

وقد وصف الله عز وجل طعام الضريع الذي أعدّه سبحانه لأهل الجنّة بأنه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧].

وذلك لبيان أنّ ذلك الطعام كلّه ضرر، لا نفع فيه أبدًا؛ «فلا يعود على آكليه بسمنٍ يصلح بعض ما التفح من أجسادهم، ولا يغني عنهم دفع ألم الجوع»[(٣)].

وهناك طعام ثالث لأهل النار، وهو شجرة الزقوم، وقد أخبر الله عز وجل عنها في غير موضع من كتابه العزيز، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٣١.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣٠/ ١١٣، دفع إيهام الاضطراب، الشنقيطي ص٢٤٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٩٧.

﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

إنّها لشجرة شنيعة المنظر، فظيعة المظهر، مرّة المذاق، وهي شجرة خلقها الله في نار جهنم، وسمّاها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغلت في بطونهم كما يغلي المهل، وهو النحاس المذاب [1]، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن شدّة مرارة تلك الشجرة فقال: (ولو أنّ قطرةً من الزقوم قطرت؛ لأمرّت على أهل الأرض عيشهم؛ فكيف من ليس لهم طعام إلا الزقوم؟!) [2].

وكل طعامٍ يأكله أهل النار يجمع عليهم مرارة الطعام وغصته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢ - ١٣].

والغصة هي التي يعلق بها الطعام في الحلق؛ فلا يسهل عليه دخوله إلى الجوف، ولا يسهل خروجه عنه للتخلص منه، وفي هذا غاية الألم وغاية العذاب [3].

والخلاصة أنّه لا طعام لأهل النار إلا الضريع والغسلين والزقوم، وكلّ ذلك ما هو إلا عذاب فوق العذاب، ليس فيه من خصال الطعام الطيّب شيء؛ فيا قبح طعم ما يأكلون! ويا بشاعة ما يطعمون؛ لا تستسيغه أذواقهم، ولا تقبله ألسنتهم، ومن شدّة ما هم فيه من آلام الجوع ومرارة الطعم يتمنّون الموت فلا يموتون، بل يزدادون عذابًا فوق عذابهم، قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦ - ١٧].

نعوذ بالله العظيم من النار وما فيها من طعام ذي غصة وعذاب أليم.

وبعد الحديث عن طعام أهل الجنّة وطعام أهل النّار فإنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ إخبار الله عز وجل عن ذلك في سياق الحديث عن نعيم الجنّة وعذاب النّار فيه أعظم النفع للعباد؛ إذ فيه الترغيب العظيم في نعيم الجنّة، والتنفير الشديد من عذاب النّار، وإذا ما علم العبد ما أعدّ الله سبحانه

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٤٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٧٣٥، ١/ ٣٠٠.
والحديث ضعفه الألباني في الضعيفة، رقم ٦٧٨٢، ١٤/ ٦٣٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ١٦٩.

لعباده الطائعين من النعيم، وعلم ما أعدّ الله عز وجل للعصاة من العذاب الأليم فإنّه سيسعى سعيًا حثيثًا للفوز بذلك النعيم، وللنجاة من ذلك العذاب الأليم.

الطعام وعبادة التفكر

إنّ التفكر في خلق الله عز وجل، وفي آياته وآلائه عبادة قلبية عظيمة؛ يزيد بها الإيمان، وينشرح بها الصدر، وتطمئن بها النفس، ويستنير بها القلب، ولقد حثّ الله عز وجل عباده بأن ينظروا في آياته، ويتفكروا في خلقه، وذلك في مواضع عديدة من الكتاب العزيز، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ – ٨].

ولقد مدح الله عز وجل عباده الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

وختمت آيات عديدة من كتاب الله عز وجل بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وقد ذم الله عز وجل من لا يعتبر بمخلوقاته وآياته الدالّة على ربوبيته وألوهيته، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فالتفكر في آيات الله عز وجل مستحبٌّ، مندوبٌ إليه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «النظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر والاعتبار مأمور به مندوب إليه»[(١)]، والتفكر في آيات الله عز وجل «من أفضل أعمال القلب وأنفعها»[(٢)].

وآيات الله عز وجل مبثوثة في مخلوقاته؛ في أرضه وسمائه؛ فالكون كلّه كتاب مفتوح، جعله الله تبارك وتعالى دليلًا قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا على وحدانيته وعظمته، يقف العاقل فيه على صنع الله ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

والذي ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قال الله عز وجل منبهًا عباده إلى بعض آياته وعظيم مخلوقاته: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وإنّ في الطعام الذي خلقه الله عز وجل، وجعله غذاءً نافعًا للإنسان لآياتٍ باهراتٍ تدلّ على عظمة الخالق سبحانه، وبديع صنعه، وعظيم فضله على عباده، والعبد المؤمن كلّما أكل طعامًا أذهب جوعه، وأقام صلبه، وأمدّه بالقوة والنشاط زاد شعوره بعظيم نعم الله عز وجل عليه، وكلّما تأمّل في أصناف الأطعمة، وألوان الطيبات التي أحلّها الله عز وجل لعباده زاد يقينه بالله، وزادت معرفته لربّه، وازدادت خشيته ومهابته للخالق بديع السماوات والأرض.

ولقد أمر الله عز وجل الإنسان أمرًا صريحًا بأن يتفكر ويتأمل في طعامه؛ ليصل بهذا التفكر إلى الإيمان الراسخ بعظمة الخالق وألوهيته، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ – ٣٢].

فليتأمل الإنسان أولًا في الماء النازل من السماء، من الذي خلقه وأنزله؟ وهل يقدر أحدٌ غير الله أن ينزله إلى الأرض على هذا الوجه الذي يحصل به النفع؛ رشًّا صغيرًا رقيقًا حتى تروى به تدريجًا، من غير أن يحصل به هدم ولا غرق، وهل يقدر أحدٌ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٤٣.
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٨٣.

غير الله أن يشق الأرض، ويخرج منها النبات؟ وهل يقدر أحدٌ غير الله أن يخرج السنابل والثمار من ذلك النبات؟ وهل يقدر أحد غير الله أن ينمي حبّه وينقله من طور إلى طور حتى ينضج ويكون صالحًا للغذاء والقوت؟ ومن يقدر على إنبات الثمار والعنب والزيتون والنخيل؟ ومن خلق الحدائق وجعل فيها أصناف الفواكه؟ لا يقدر على شيء من ذلك إلا الله، الواحد الأحد، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩][1].

ولينظر الإنسان إلى الحبّة إذا وضعت في الأرض؛ ينشق أعلاها وأسفلها؛ فيخرج من أعلاها النبتة الصاعدة، ويخرج من أسفلها الجذور الضاربة في الأرض، والحبّة واحدة، والتربة واحدة، والماء واحد.

فمن الذي سيّرها؟ ومن الذي يرعاها ؟

ومن الذي جعل منها غذاءً للإنسان والدّواب ؟

إنّه الله عز وجل ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣- ٥٤].

ومن عجيب آيات الله عز وجل في خلق الطعام والغذاء أنّه سبحانه يخرج من التربة الواحدة، والتي تسقى بماء واحد، يخرج منها سبحانه أصناف الثمار، وألوان الطعام، فلينظر الإنسان وليتأمل فيما يخرج من قطع الأرض المتجاورة، ليرى زروعًا مختلفةً، وزهورًا يانعةً، وفاكهةً كثيرةً متنوعةً، وثمارًا عديدة، ولكلّ صنف منها طعمٌ مختلفٌ، ولونٌ متباينٌ، وحجمٌ متفاوتٌ، ولكلّ صنف منها خصائصه ومنافعه وفوائده، فسبحان من أبدعها، وسبحان من يرعاها.

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤][2].

إنّ من تأمّل في تلك الآيات، وتفكّر في تلك الجنات وتنوع ثمارها وأكلها علم بأنّ لها صانعًا حكيمًا، قادرًا مدبرًا، لا يعجزه شيء، ولا تخفى عليه خافيه، له سبحانه آياتٌ بيناتٌ في خلقه تدلّ على ربوبيته

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٢٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٨٢.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٧،

وقدرته، وتشهد بوحدانيته[1].

ومن آيات القرآن الكريم التي تدعو العباد للتفكر فيما خلق الله عز وجل لهم من خيرات وطيبات قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٥ – ٦٧].

إنّها آياتٌ عظيمةٌ من آيات الله عز وجل؛ يخرج سبحانه اللبن الخالص، ناصع البياض، طيّب الرائحة من بين الفرث والدم؛ فليس عليه لون الدم، ولا رائحة الفرث؛ بل هو خالصٌ من الكدر، سائغٌ للشاربين، يروى من العطش، ويشبع من الجوع، ويشهد بعظمة الخالق سبحانه[2].

إنّ الطعام الذي يأكله الإنسان مليء بالآيات والعبر؛ فلو تأمل الإنسان في تنوع الأطعمة واختلافها لوجد منها الرطب ومنها اليابس، ومنها الحلو ومنها المالح، ومنها ما ينبت صيفًا ومنها ما ينبت شتاءً، ومنها الكبير ومنها الصغير، ومنها اللين ومنها القاسي، ومنها ما يؤكل نيًا ومنها ما يحتاج للطبخ، ومنها ما يؤكل للغذاء ومنها ما يؤكل للتفكه، ومنها ما يناسب الإنسان في الصيف فينبته الله عز وجل صيفًا، ومنها ما يحتاجه الإنسان في الشتاء فينبته الله عز وجل شتاءً، فسبحان الخالق ما أعظمه، وما أعظم منّه وفضله على عباده، ولا يسع المؤمن حين يتأمل في تلك الآيات البيّنات إلا أن يقول كما قال ربّ العالمين: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

موضوعات ذات صلة:

الأكل، الحلال، الحرام، الحيوان، الخبيث، الشرب، الطير، الطيبات

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٠٣.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٣.

الطُّغيان

عناصر الموضوع

مفهوم الطغيان	٥٠
الطغيان في الاستعمال القرآني	٥١
الألفاظ ذات الصلة	٥٢
التحذير من الطغيان	٥٤
أسباب الطغيان	٦٠
مظاهر الطغيان وآثاره	٧٢
أساليب الطغاة	٧٨
جزاء أهل الطغيان	٨٨

مفهوم الطغيان

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الطّاء والغين والحرف المعتلّ أصلٌ صحيحٌ منقاسٌ، وهو مجاوزة الحدّ في العصيان. يقال: هو طاغٍ. وطغى السّيل، إذا جاء بماءٍ كثيرٍ»[(١)]. والطاغوت الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال، يكون واحدًا والجمع الطواغيت[(٢)]. «والطاغية: الجبار العنيد»[(٣)]. وقيل: الذي لا يبالي بما أتى، يأكل الناس ويقهرهم، لا يثنيه تحرّج ولا فرق[(٤)]. وقيل: «الأحمق المستكبر الظّالم»[(٥)].

والخلاصة: أن كل شيء جاوز الحد فقد طغى، ذكر ذلك أبو منصور الثعالبي، ونسب ذلك إلى أئمة اللغة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الطغيان: مجاوزة الحد في العصيان»[(٦)].

وقال القرطبي: «الطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه؛ وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى»[(٧)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله»[(٨)].

والواقع أن الطغيان في الشرع يقوم على أساس معناه في اللغة، فيراد به تجاوز الإنسان حدّه وقدره، وحدّ الإنسان هو ما حدّ الله له من حدود لا يجوز أن يتجاوزها.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤١٢.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص١٩١.
(٣) العين، الفراهيدي ٤/ ٤٣٥.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٥٤.
(٥) تهذيب اللغة ٨/ ١٥٤.
(٦) التعريفات ص١٤١.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٢٤٥.
(٨) إعلام الموقعين ١/ ٤٠.

الطغيان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طغى) في الاستعمال القرآني(٣٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾ [النازعات:٣٧]
الفعل المضارع	٥	﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾ [طه:٤٥]
اسم فاعل	٧	﴿أَوَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات:٥٣]
اسم تفضيل	١	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم:٥٢]
مصدر	١٠	﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٤]
الاسم	٨	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٧٦]

وجاء (الطغيان) في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الضلالة والعصيان، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ [البقرة:١٥] يعني: في ضلالتهم.

وقال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه:٢٤] يعني: إنه عصى الله عز وجل.

الثاني: الارتفاع والكثرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة:١١] يعني: لمّا ارتفع وكثر.

الثالث: الظلم، قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨﴾ [الرحمن:٨]. يعني: لا تظلموا.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٦، ٤٢٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص٢١٤. الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٢٣- ٣٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ البغي:

البغي لغة:

مصدر بغى يبغي بغيًا إذا تعدى وظلم.[١].

البغي اصطلاحًا:

طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى، تجاوزه أم لم يتجاوزه[٢].

الصلة بين الطغيان والبغي:

الطغيان: هو تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل. والبغي: طلب تجاوز قدر الاستحقاق، تجاوزه أو لم يتجاوزه، وهو ضربان: أحدهما محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشّبه[٣].

٢ العدوان:

العدوان لغة:

التعدّي في الأمر، وتجاوز ما ينبغي له أن يقتصر عليه[٤].

العدوان اصطلاحًا:

التّجاوز ومنافاة الالتئام، والإخلال بالعدالة في المعاملة[٥].

الصلة بين الطغيان العدوان:

الطغيان: هو تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل، والعدوان: تجاوز المقدار المأمور بالانتهاء إليه والوقوف عنده.

٣ العتو:

العتو لغة:

التجبّر والتكبّر[٦].

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٧٧ .
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٣٦ .
(٣) الكليات، ص٥٨٤.
(٤) العين، الفراهيدي ٢/ ٢١٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٥٣.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٨ .

العتو اصطلاحًا:

عبارة عن الإباء والعصيان[1]، ومجاوزة الحد فيه بحيث لا يتأثر معه القلب بالموعظة ولا يقبل النصيحة.

الصلة بين الطغيان والعتو:

قال العسكري: «أن الطغيان مجاوزة الحد في المكروه مع غلبة وقهر، يقال: طغى الماء إذا جاوز الحد في الظلم، والعتو: المبالغة في المكروه، فهو دون الطغيان»[2].

(١) مفاتح الغيب، الرازي ٤/ ٤٥٤.
(٢) الفروق اللغوية ص٢٣٠.

التحذير من الطغيان

تنوعت أساليب القرآن في التحذير من الطغيان، وسنتناولها فيما يأتي:

أولًا: النهي الصريح:

ورد النهي الصريح في كتاب الله محذّرًا من ارتكاب الطغيان، فقال تعالى آمرًا نبيّه وأهل الإيمان بالاستقامة على الدين، ونهاهم عن الظلم والطغيان، فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢-١١٣].

«فأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة؛ وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء»[(١)].

قال سيد رحمه الله: «وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهيًا عن القصور والتقصير، إنما كان نهيًا عن الطغيان والمجاوزة؛ وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرّج، قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحوّل هذا الدين من يسر إلى عسر، والله يريد دينه كما أنزله، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير، وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة لإمساك النفوس على الصراط، بلا انحراف إلى الغلو، أو الإهمال على السواء»[(٢)].

وأمر الله سبحانه عباده بأكل الحلال الطيب، ونهاهم عن الطغيان بالسرف والبطر، فقال سبحانه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

أي: ولا تطغوا في رزقي بالإخلال بشكره وتعدي حدودي فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على المعاصي، ومنع الحقوق الواجبة فيه، فينزل عليكم غضبي، وتجب عليكم عقوبتي[(٣)].

وقال ابن كثير: «أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به»[(٤)].

ونهى عن الطغيان في الميزان، فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٤.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣١.

(٣) تفسير المراغي ١٦/ ١٣٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٠٨.

﴿تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

وقد اختلف علماء التفسير في معنى الميزان، فقيل: هو العدل، وقيل: المراد آلة الوزن التي يتوصّل بها إلى الإنصاف والانتصاف، وقيل: الميزان هو القرآن؛ لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، وقيل: إن الميزان هو الحكم[(١)].

وليس هناك تعارض بين هذه الأقوال، ولا مانع أنه يعم الجميع، فالمطلوب من الإنسان ألا يطغى سواء في آلة الوزن، أو في تجاوز حدود الله، أو في ظلم الناس.

ثانيًا: التعليل بسوء المصير:

من أساليب القرآن الكريم في التحذير من الطغيان: ذكر الوعيد الشديد بسوء مصير الطغاة في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالى مبينًا مصير الطغاة: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥].

«وهم الذين تمرّدوا على ربهم، فعصوا أمره مع إحسانه إليهم، لشر مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا؛ لأن مصيرهم إلى جهنم، وإليها منقلبهم بعد وفاتهم، فبئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم جهنم»[(٢)].

والمراد بالطاغين هنا: «عظماء أهل الشرك؛ لأنهم تكبروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بكبر واستهزاء، وحكموا على عامة قومهم بالابتعاد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين وعن سماع القرآن، وهم: أبو جهل وأمية ابن خلف، وعتبة ابن ربيعة، والوليد بن عتبة، والعاصي بن وائل وأضرابهم»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٢].

أي: أنّها كانت في حكم الله تعالى وقضائه موضع رصدٍ يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذّبوهم فيها[(٤)]. والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم[(٥)].

ولما كان من صور الطغيان الطغيان بالظلم بيّن الله مصيرهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وأخبر سبحانه أنه لا يغفل عما يفعله الطغاة الظلمة من الظلم والطغيان، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٥٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٧٧.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٩٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٧٧.

أي: «لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجّلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعده عليهم عدًّا»[(١)].

قال سيد رحمه الله: «ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتّعون، ويسمع بوعيد الله، ثم لا يراه واقعًا بهم في هذه الحياة الدنيا، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة التي لا إمهال بعدها، ولا فكاك منها، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك، ثم يرسم مشهدًا للقوم في زحمة الهول، مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء، ولا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة، ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكًا، يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب، فلا يطرف ولا يرتد إليهم، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية، لا تضم شيئًا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه، فهي هواء خواء»[(٢)].

وقال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، إنما نؤخّرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله[(٣)].

«فيا ويل من يعدّ الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه، ويتتبعها ليحاسبه الحساب العسير، إن الذي يحسّ أن رئيسه في الأرض يتتبع أعماله وأخطاءه يفزع ويخاف ويعيش في قلق وحسبان، فكيف بالله المنتقم الجبار؟!»[(٤)].

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][(٥)].

وحينما يتسلل الإحباط واليأس في نفس المؤمن وهو يرى ما عليه الطغاة وأهل الكفر من التمكين في الأرض، وما يملكونه من القوة والهيمنة، فليتذكر قول الله سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

«وهذه الآية المقصود منها التسلية

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٥.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٦٢.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك)، ٦/ ٧٤، رقم ٤٦٨٦.

عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعّمهم فيها، وتقلّبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلًا، ويعذّبون عليه طويلًا، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه»[1].

ويسلّي الله نبيه صلى الله عليه وسلم، ويبيّن له مصير الطغاة المجرمين، فيقول سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

فهذا الوعيد الشديد بذكر مصير أهل الفسق والطغيان يجعل من الإنسان المسلم شخصية خائفة من ربها تبارك وتعالى، مجتنبًا كل الأسباب الموصلة إلى الطغيان؛ لأن الله قد حذّر منه، وذكر مصير أهله.

ثالثًا: الحث على الاعتبار بالسابقين:

يقصّ الله تبارك وتعالى علينا قصص الطغاة، وما حلّ بهم النكال والعذاب لا لأجل التسلية، وإنما لأجل أخذ العبرة من هذه القصص، وحتى لا نقع في طغيانهم وضلالهم، وسأتناول شيئًا من قصص الأمم السابقة التي طغت وتكبّرت على الخالق والخلق:

فالطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية، فينسون قوة الله وجبروته، ولكن الله لهم بالمرصاد.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

«فربك راصد لهم، ومسجّل لأعمالهم، فلما أن كثر الفساد، وزاد صبّ عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصّبّ، حيث يجتمع الألم اللاذع، والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد»[2].

وذكر الله سبحانه إهلاك الأمم السابقة بسبب طغيانهم وعتوهم، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥٢].

فأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، وكانوا هم أشد ظلمًا لأنفسهم، وأعظم كفرًا بربهم، وأشد طغيانًا وتمردًا على الله من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٠٤.

طغيانهم أكثر طغيانًا من غيرهم من الأمم[1].

وكان عاقبتهم: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١-١٢].

وأخبر تبارك وتعالى عن مصير الطغاة المكذّبين بأنبيائهم، فقال سبحانه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

«هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال وأسباب البقاء والغلبة، قد أخذهم الله جميعًا بعد ما فتنوا الناس وآذوهم طويلًا.

فعاد أخذهم حاصب، وهو الريح الصرصر التي تتطاير معها حصباء الأرض، فتضربهم وتقتلهم، وثمود أخذتهم الصيحة، وقارون خسف به وبداره الأرض، وفرعون وهامان غرقًا في اليم، ذهبوا جميعًا مأخوذين بظلمهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾»[2].

وذكر لنا تبارك وتعالى طغيان قوم صالح عليه السلام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ۖ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

قال الطبري: «الطاغية طغيانهم الذي طغوا في معاصي الله، وخلاف كتاب الله»[3].

وقصّ الله علينا قصة أصحاب الجنة لما طغوا وتغطرسوا على عباد الله الضعفاء، ومنعوهم حقهم من الصدقات، ولم يشكروا الله تعالى على نعمه عليهم، جاء العذاب، ونزعت النعمة.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ۝٢٢ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٥-٢٧٣٦.

(٣) جامع البيان ٢٣/ ٢٠٨.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٣].

فالله تبارك وتعالى يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الغابرين، وسنته في الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم[1].

ولما طغى قوم عاد وتكبروا، وقالوا لنبيهم استهزاء واستهتارًا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

وقال تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٣٨ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص ٣٨-٤٠].

ويصف لنا ربنا -جل جلاله- هذا الطاغية المتجبر، وإذلاله لموسى عليه السلام ولقومه، وعدم مبالاته بهم، فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦].

فكانت النتيجة: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٥٧-٦٢].

فهذه القصص وغيرها في كتاب الله تبارك وتعالى لم يقصها الله علينا إلا لأخذ العظة والعبرة منها، فنبتعد عن الطغيان وصفات الطغاة.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٦٦.

أسباب الطغيان

لوقوع الطغيان من الإنسان أسباب نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الحسد:

مما يوقع الإنسان في الطغيان فيتجاوز الحدود: إصابته بداء الحسد، فهو الداء العضال -إن أصاب الإنسان- وهو «مذموم وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب...، ويقال: الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فأما في السماء فحسد إبليس لآدم، وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل»[1].

ومن هنا فقد ذمّه الله تعالى في كتابه في غير موضع، فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال القرطبي: «وهذا هو الحسد بعينه، وهو الذي ذمّه الله تعالى»[2].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

«فنهى الله سبحانه المؤمنين عن التمني؛ لأن فيه تعلق البال، ونسيان الأجل، والمراد النهي عن الحسد: وهو تمني زوال نعمة الغير، وصيرورتها إليه، أو لا تصير إليه»[3].

وورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسّسوا، ولا تجسّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[4].

فالحسد الداء الذي يحرق قلب صاحبه إذا ما رأى لله على غيره منّة، أو أسبغ عليه نعمة؛ فيدفعه ذلك إلى ممارسة الطغيان، وهذا كان سبب طغيان اليهود، ورفضهم قبول رسالة النبي مع أنه مكتوب عندهم في التوراة، فقد أنكر الله عليهم حسدهم لرسوله على الرسالة، وحسدهم لأصحابه على الإيمان، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٥١.
(٢) المصدر السابق ٥/ ١٦٣.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٤٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ٨/ ١٩، رقم ٦٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، ٤/ ١٩٨٥، رقم ٢٥٦٣.

﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال السعدي رحمه الله: «وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله»(١).

ولاشك أن ذلك ناتج عن الحقد والحسد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

قال الطبري رحمه الله: «يعني بالطغيان: الغلو في إنكار ما قد علموا صحته من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والتمادي في ذلك»(٢).

«فبسبب من الحقد والحسد، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله، سيزيد الكثيرون منهم طغيانًا وكفرًا؛ لأنهم وقد أبوا الإيمان لابد أن يشتطوا في الجانب المقابل، ولابد أن يزيدوا تبجّحًا ونكرًا، وطغيانًا وكفرًا، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للمؤمنين، ووبالًا على المنكرين»(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص١٨٢.
(٢) جامع البيان، ١٠/ ٤٥٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٢٩.

والخلاصة: أن الحسد يدفع بصاحبه إلى الطغيان، وتجاوز الحدود، وقد يصل به الأمر إلى الكفر بالله سبحانه، وتكذيب الرسالة، كما فعل اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: العجب والغرور:

العجب والغرور هو آفة الطغاة في عتوّهم وتجبّرهم وعدم قبولهم الحق والانصياع له؛ ولذلك قال الله عز وجل ذاكرًا حال قوم عاد لما طغوا وتكبّروا على ربهم، ثم على نبيهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

«أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله»(٤).

قال سيد رحمه الله: «إن الحق أن يخضع العباد لله، وألا يستكبروا في الأرض، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله، فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق، استكبروا واغتروا ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، وينسون: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ إنها بديهة أولية، إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة؛ لأنه

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٩.

هو الذي مكّن لهم في هذا القدر المحدود من القوة، ولكن الطغاة لا يذكرون: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[فصلت: ١٥]»[١].

«ويبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زخرفه وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]»[٢].

ولم يكتف بهذا العجب، بل زاد عليه احتقارًا لموسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

يقول تعالى مخبرًا عن قول فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه، وتمام خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ لا شيء له من الملك والأموال مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟[٣].

ويستعرض قارون ملكه وقوته أمام الجماهير المنبهرين بزينة الحياة الدنيا، ويخرج على قومه في أبّهة، يقول سبحانه مبيّنًا ما كان عليه من العجب والغرور: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[القصص: ٧٩].

«أي: فخرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمّلٍ باهر من مراكب وخدم وحشم، مريدًا بذلك التعالي على الناس، وإظهار العظمة؛ وذلك من الصفات البغيضة، والافتخار الممقوت، والخيلاء المذمومة لدى عقلاء الناس من جرّاء أنها تقوّض كيان المجتمع، وتفسد نظمه، وتفرّق شمل الأمة، وتقسمها طبقات، وفي ذلك تخاذلها، وطمع العدو في امتلاك ناصيتها»[٤].

ثالثًا: العناد والكبر:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: العناد، فالطاغية يعرف تمام المعرفة أنه على باطل، غير أنه يترك الحق ويكابر عنادًا وكبرًا وعلوًّا، وقد قصّ الله سبحانه علينا في كتابه ما يدل على هذه الحقيقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٧.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣١٩٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦١٧.
(٤) تفسير المراغي ٢٠/ ٩٧-٩٨.

«أي: تيقّنوا أنها من عند الله، وأنها ليست سحرًا، ولكنهم كفروا بها، وتكبّروا أن يؤمنوا بموسى، وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين»[(١)].

وفي تفسير المنار: «أي: عاندوا موسى عليه السلام عنادًا بإظهار الكفر بها في الظاهر مع استيقانها في الباطن، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء في الأرض»[(٢)].

وبيّن تبارك وتعالى أن التخويف للطغاة لا يزيدهم إلا طغيانًا على طغيانهم، وعنادًا على عنادهم، وكبرًا على كبرهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

«أي: نخوّفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغيانًا متجاوزًا للحد، متماديًا غاية التمادي، فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، وهو عذاب الاستئصال، ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة»[(٣)].

وأخبر سبحانه أن كفار قريش لم يكونوا يكذّبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣].

«بمعنى: أنهم لا يكذبونك علمًا، بل يعلمون أنك صادق، ولكنهم يكذبونك قولًا، عنادًا وحسدًا»[(٤)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي ومقاتل: هذا في المعاندين الذين عرفوا صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه غير كاذب فيما يقول، ولكنهم عاندوا وجحدوا[(٥)].

وإن من أبرز الشخصيات التي تمثّل هذا الكبر والعلو شخصية الطاغية فرعون، فقد مارس كل صنوف الطغيان بحق قومه، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

«أي: تكبّر وتجبّر وطغى»[(٦)].

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص ٣٩].

«المراد بالأرض: أرض مصر، والاستكبار: التعظيم بغير استحقاق، بل بالعدوان؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات»[(٧)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٦٣.
(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٤٧١.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٣١.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٦٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٠.
(٧) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٠٠.

رابعًا: الرفاهية والإسراف في الشهوات:

لم يرد الإسراف في القرآن الكريم إلا على سبيل الذم، فقد نهانا المولى سبحانه عن الإسراف، وأخبرنا أنه لا يحب المسرفين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

[الأعراف: ٣١].

وأمرنا سبحانه بعصيان أمر المسرفين، فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

فأهل الإسراف في بعد عن الهداية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وفي قرب من الضلال ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ومن كان هذا حاله فمصيره إلى العذاب في الدنيا ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

والنار في الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[غافر: ٤٣].

والإسراف صفة ملازمة للطغاة، ومسلكهم في الحياة دليل شاهد، وهو ملازم للعلو؛ ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

قال الطبري: «وإنه لمن المتجاوزين الحق إلى الباطل؛ وذلك كفره بالله، وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وادعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حلها»[(١)].

وقال الألوسي: «أي: المتجاوز الحد في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية، واسترق أسباط الأنبياء عليهم السلام»[(٢)]. «ومن هذه حالته لا يزعه عن إلحاق الضر بأضداده وازع»[(٣)].

«أي: مسرف في أمره، سخيف الرأي على نفسه»[(٤)].

ويقول جل وعلا: ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

وقد أخبر تبارك وتعالى عن صفات الطغاة من أهل النار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[الواقعة: ٤٥].

أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذّات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل[(٥)]. فالترف والتنعّم هو السبب الذي أقحمهم ابتداء في الطغيان والاستكبار، ومن ثمّ إلى نار جهنم، وبئس المصير.

---

(١) جامع البيان، ١٥/ ١٦٧.
(٢) روح المعاني، ٦/ ١٥٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٦٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٥٥.
(٥) المصدر السابق ٧/ ٥٣٨.

وذكر تبارك وتعالى أن من صفات الطغاة المستكبرين الاستمتاع بالحياة الدنيا ولذتها دون النظر إلى أمور الآخرة، والعمل لها، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

«فقد كانوا يملكون الطيبات إذن، ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا، فلم يدّخروا للآخرة منها شيئًا، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابًا، استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع، غير ناظرين فيها للآخرة، ولا شاكرين لله نعمته، ولا متورّعين فيها عن فاحش أو حرام، ومن ثمّ كانت لهم دنيا، ولم تكن لهم آخرة، واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله! ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ وكل عبد يستكبر في الأرض فإنما يستكبر بغير حق، فالكبرياء لله وحده، وليست لأحد من عباده في كثير أو قليل، وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار في الأرض، فجزاء الاستكبار الهوان، وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضًا، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين»[1].

خامسًا: الاستغناء:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: الغنى، قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما بسطت الدنيا لعبد إلا طغى كائنًا من كان، ثم تلا قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧].

فأخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى، وكثر ماله[2].

وكان سبب نزول هذه الآية ما رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفّرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا) قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٤-٣٢٦٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٧.

﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾[1].

«والمعنى: أن ما قاله أبو جهل ناشئ عن طغيانه بسبب غناه كشأن الإنسان، والتعريف في الإنسان للجنس، أي: من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي: أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه...، والطغيان: التعاظم والكبر، والاستغناء: شدة الغنى، فالسين والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل مثل استجاب واستقر.

و﴿أَن رَّءَاهُ﴾ متعلق بـ(يطغى) بحذف لام التعليل؛ لأن حذف الجار مع (أن) كثير شائع، والتقدير: إن الإنسان ليطغى لرؤيته نفسه مستغنيًا.

وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدّث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقًا حيث لا وازع يزعه من دين، أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم؛ لأن له ما يدفع به الاعتداء من لأمة سلاح وخدم وأعوان وعفاة ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء فهو في عزة عند نفسه.

فقد بيّنت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبّهت على الحذر من تغلغلها في النفس»[2].

ومن أبرز قصص القرآن التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالمال، قصة قارون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

«هكذا تبدأ القصة فتعيّن اسم بطلها (قارون) وتحدّد قومه (قوم موسى) وتقرّر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (كلا إن الإنسان ليطغى)، ٤/ ٢١٥٤، رقم ٢٧٩٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٤٤-٤٤٥.

مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالًا كثيرًا، يصوّر كثرته بأنه كنوز، والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول، وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال، من أجل هذا بغى قارون على قومه، ولا يذكر فيم كان البغي ليدعه مجهولًا يشمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم، كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان، وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال»[1].

ومن أبرز قصص الطغيان في القرآن قصة صاحب الجنتين.

قال سبحانه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦].

فهما جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر، إنه المنظر البهيج، والحيوية الدافقة، والمتاع والمال.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ ويختار التعبير كلمة ﴿تَظْلِم﴾ في معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر.

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحسّ بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور؛ وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه؛ وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا، أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا، فلابد أن يكون جنابه ملحوظًا في الآخرة!

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٤٤٢.

﴿مُنقَلَبًا﴾[الكهف: ٣٥-٣٦].

«إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض، فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!»[1].

ومن القصص التي تبيّن أن الاستغناء سبب من أسباب الطغيان قصة أصحاب الجنة ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾[القلم: ١٧-٣٢].

ومن القصص التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالقوة الجسدية قصة عاد:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[فصلت: ١٥].

يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ قوم هود ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على ربهم وتجبّروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تكبرًا وعتوًّا بغير ما أذن الله لهم به ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ وأعطاهم ما أعطاهم من عظم الخلق، وشدة البطش ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيحذروا عقابه، ويتقوا سطوته لكفرهم به، وتكذيبهم رسله، يقول: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكانوا بأدلتنا وحججنا عليهم يجحدون[2].

سادسًا: الأولاد:

حذّر الله تبارك وتعالى في كتابه من فتنة المال والولد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التغابن: ١٥].

فهذا تحذير من الله للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذه وصفه، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده وحذّرهم أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي، ورغّبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب

(١) المصدر السابق ٥/ ٦٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٤.

العالية، والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية[1].

وأخبر تبارك وتعالى أن الولد قد يكون سببًا في الكفر، فقال: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

قال الألوسي: «فخفنا خوفًا شديدًا أن يغشى الوالدين المؤمنين لو بقي حيًّا طغيانًا مجاوزة للحدود الإلهية، وكفرًا بالله تعالى؛ وذلك بأن يحملهما حبه على متابعته، كما روي عن ابن جبير، ولعل عطف الكفر على الطغيان لتفظيع أمره، ولعل ذكر الطغيان مع أن ظاهر السياق الاقتصار على الكفر ليتأتى هذا التفظيع، أو ليكون المعنى: فخشينا أن يدنس إيمانهما أولًا، ويزيله آخرًا، ويلتزم على هذا القول بأن ذلك أشنع وأقبح من إزالته بدون سابقية تدنيس، وفسّر بعض شراح البخاري الخشية بالعلم، فقال: أي: علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر، فيجيبانه، ويدخلان معه في دينه لفرط حبهما إياه، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما طغيانًا عليهما، وكفرًا لنعمتهما عليه من تربيتهما إياه، وكونهما سببًا لوجوده بسبب عقوقه، وسوء صنيعه، فيلحقهما شر وبلاء، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما ويقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر»[2].

وقال القرطبي: «والمعنى: أن يلقيهما حبه في اتباعه، فيضلا، ويتدينا بدينه»[3].

وقال ابن كثير: «أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب»[4].

وقال سيد رحمه الله: «فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغٍ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزًا وتحققًا، فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه، فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبدلهما الله خلفًا خيرًا منه، وأرحم بوالديه، ولو كان الأمر موكولًا إلى العلم البشري الظاهر لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعًا، وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٨.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٣٣-٣٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٨٥.

يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس، ولا أن يرتب على هذا العلم حكمًا غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة، ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد»[1].

سابعًا: الاستخفاف وغفلة الناس:

يمارس الطغاة على مر العصور وسيلة الاستخفاف بالجماهير.

يقول تبارك وتعالى عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[الزخرف: ٥٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له»[2].

وقال الشوكاني رحمه الله: «أي: حملهم على خفة الجهل والسفه بقوله، وكيده وغروره، فأطاعوه فيما أمرهم به، وقبلوا قوله، وكذّبوا موسى»[3].

وقال سيد رحمه الله: «واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولًا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين، وذات الشمال مطمئنين! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح، ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾»[4].

وقد بلغ بفرعون من الخفة والاستخفاف بقومه أن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

«قالها الطاغية مخدوعًا بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها، فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها، وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانًا، إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها فيجر! وتحني له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم.

فالطاغية -وهو فرد- لا يمكن أن يكون

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٣٢.
(٣) فتح القدير، ٤/ ٦٤١.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٤.

أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزّتها وحريتها، وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئًا! وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها، وتؤمن به، وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرًّا ولا رشدًا! فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذّلة ومن خواء القلب من الإيمان ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وما كان ليقولها أبدًا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء، وإن يسلبه الذباب شيئًا لا يستنقذ من الذباب شيئًا!»[1].

يقول الكواكبي رحمه الله: «فالعوام هم قوت المستبدّ وقوّته، بهم عليهم يصول، وبهم على غيرهم يطول، يأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم ببعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه: إنه كريم، وإذا قتل ولم يمثّل يعتبرونه رحيمًا، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب، وإن نقم عليه منهم بعض الأباة، قاتلوهم كأنهم بغاة، والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل»[2].

«والطغيان لا يخشى شيئًا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية»[3].

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٨١٥.

(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٤٣.

مظاهر الطغيان وآثاره

للطغيان مظاهر وآثار نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الضلال والعمى:

أهل الطغيان «يدعهم الله سبحانه يخبطون على غير هدى، في طريق لا يعرفون غايته، واليد الجبارة تتلقفهم في نهايته، كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ، غافلة عن المقبض المكين، وهذا هو الاستهزاء الرعيب، لا كاستهزائهم الهزيل الصغير»[(١)].

قال الله سبحانه عن أهل النفاق والطغيان: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ قال: يزيدهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يلعبون ويترددون في الضلالة[(٢)].

«والصواب: يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]»[(٣)].

«ومن يكتب الله عليه الضلال -وفق سنته تلك- يظل في طغيانه عن الحق، وعماه عنه أبدًا ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وما في تركهم في عماهم من ظلم، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم، وهم الذين عطّلوا قلوبهم وجوارحهم، وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق، وأسرار الوجود، وشهادة الأشياء -التي يوجههم إليها في الآية السابقة- وحيثما امتد البصر في هذا الكون وجد عجيبة، وحيثما فتحت العين وقعت على آية، وحيثما التفت الإنسان إلى نفسه أو إلى ما يحيط به لمس الإعجاز في تكوينه، وفيما حوله من شيء، فإذا عمه -أي: عمي- عن هذا كله ترك في عماه، وإذا طغى بعد هذا كله وتجاوز الحق ترك في طغيانه حتى يسلمه إلى البوار»[(٤)].

وقال عز وجل: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

«يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج الله والفكر فيها لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبروا وتدبروا، فأبصروا رشدهم، ولكن الله أضلهم، فلا يبصرون رشدًا، ولا يهتدون سبيلًا، ومن أضله عن الرشاد فلا هادي له، ولكن الله يدعهم في تماديهم في كفرهم وتمردهم في شركهم يترددون؛ ليستوجبوا الغاية التي كتبها الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٥.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ١٦٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٠٧.

لهم من عقوبته، وأليم نكاله»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

والمعنى: فنترك الذين لا يرجون لقاءنا فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه، متحيّرين لا يهتدون سبيلًا للخروج منه[2].

ثانيًا: محاربة الحق، وتكذيب الأنبياء والدعاة:

مجرد ما يسمع أهل الطغيان الرسالة الربانية حتى يهرعوا لاستخدام الحجة التي طالما استخدمها من قبلهم، وهي اتهام الدعاة المخلصين بالكذب والدجل؛ ليبرّروا لأنفسهم قمعهم ومحاربتهم وقتلهم.

وليس غريبًا أن يتعرّض الأنبياء الصّادقون، أصحاب المنهج الرباني السليم للتكذيب والمعاداة، يقول سيد قطب رحمه الله: «فأمّا الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحد منهم...، وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر، وأن يسلك طريقه إلى الهلاك، كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك! إن مصارع المكذبين -كما يعرضها هذا القصص- تجري على سنة لا تتبدل: نسيان لآيات الله، وانحراف عن طريقه، إنذار من الله للغافلين على يد رسول، استكبار عن العبودية لله وحده، والخضوع لرب العالمين، اغترار بالرخاء، واستهزاء بالإنذار، واستعجال للعذاب، طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين، ثبات من المؤمنين، ومفاصلة على العقيدة، ثم المصرع الذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ!»[3].

وقد بلغ بأهل الطغيان والباطل في محاربة الحق أن أوصى بعضهم بعضًا بعدم السماع لهذا القرآن، واقترحوا وسيلة لمحاربة كتاب الله، وهي التشويش واللغو.

قال سبحانه وبحمده: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

«أي: لا تسمعوه ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: عارضوه باللّغو، وهو الكلام الخالي عن فائدة، وكان الكفّار يوصي بعضهم بعضًا: إذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارفعوا أصواتكم حتى تلبّسوا عليهم قولهم، وقال مجاهد: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ فيه بالمكاء والصفير والتخليط من القول على رسول الله صلى

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٩١.
(٢) انظر: المنار، رشيد رضا ١١/ ٢٥٦.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٠٦.

الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فيسكتون»[1].

وقريبًا من هذا المعنى قوله جل وعلا على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وقال عن قوم عاد: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقال عن قوم شعيب: ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وقال عن أصحاب القرية: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وقال عن قوم ثمود: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

فرغم اختلاف هؤلاء الأقوام واختلاف الأنبياء إلا أنّ الموقف واحد، هو التكذيب والرفض الواضح للدّعوة، رغم ما حمله كلّ نبي من الأنبياء لأدلة تثبت صدق دعوته وربانيتها.

والخلاصة: أن أهل الطغيان يتهمون دعاة الإصلاح بالكذب والدجل، وأن دعوتهم وإن كانت في خارجها صالحة فإنها في باطنها خبيثة باطلة.

ثالثًا: إيثار الدنيا على الآخرة:

من أبرز مظاهر الطغيان نسيان الدار الآخرة، وإيثار الدنيا عليها، فيشعر الطاغية أنه خالد مخلّد في هذه الحياة، وينسى الآخرة والبعث والنشور والجنة والنار، يقول تبارك وتعالى مذكّرًا بمصير الطغاة الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

فإذا اجتمع الغنى مع نسيان الآخرة، وإيثار الحياة الدنيا، فإن الثمرة لهذا الاجتماع المشئوم هو الطغيان، قال سيد رحمه الله: «والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٥٠.

وضميره، فإذا أهمل حساب الآخرة، أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعدّ طاغيًا وباغيًا، ومتجاوزًا للمدى»[1].

وليس معنى هذا أن الإسلام يرفض الحياة الدنيا بالكلية، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الحياة أن تصبح بمتاعها ولذاتها وشهواتها وإمكاناتها إلهًا معبودًا من دون الله؛ لهذا ذمّ الله من قدم الحياة الدنيا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وانظر إلى سحرة فرعون حين دخل قلوبهم الإيمان كيف نظروا إلى قومه وملكه وجنده ودنياه، وقد هدّدهم بما هدّدهم، فـ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه (٧٢-٧٣)].

فالمطلوب من المسلم أن يحرّر إرادته، فلا يصبح ويمسي مجرد مريد للحياة الدنيا.

يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ويقول عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقد أمر الله بالإعراض عمن طغى وتعلّق بهذه الحياة وآثرها على الحياة الباقية، فقال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

قال سيد رحمه الله: «هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله، ولم يؤمن بالآخرة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا موجّه ابتداء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث في السورة عن أساطيرهم وأوهامهم، وعدم إيمانهم بالآخرة.

وهو موجّه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من يتولى عن ذكر الله، ويعرض عن الإيمان به، ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها، لا ينظر إلى شيء وراءها، ولا يؤمن بالآخرة، ولا يحسب حسابها، ويرى أن حياة

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٨.

الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده، لا غاية بعدها، ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبّر أمره، ويحاسبه على عمله، بعد رحلة الأرض المحدودة، وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة في زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية.

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله -فضلًا على أن يعامل أو يعايش- من يعرض عن ذكر الله، وينفي الآخرة من حسابه؛ لأن لكل منهما منهجًا في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته، ولا في نقطة واحدة من نقاطه، وجميع مقاييس الحياة، وجميع قيمها، وجميع أهدافها، تختلف في تصور كل منهما، فلا يمكن إذن أن يتعاونا في الحياة أي تعاون، ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض، مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها، وغاية هذا النشاط، وما دام التعاون والمشاركة متعذرين، فما داعي الاهتمام والاحتفال؟ إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله، ولا يريدون إلا الحياة الدنيا، وينفق طاقته التي وهبه الله إياها في غير موضعها.

على أن للإعراض اتجاهًا آخر هو التهوين من شأن هذه الفئة، فئة الذين لا يؤمنون بالله، ولا يبتغون شيئًا وراء الحياة الدنيا، فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة، قاصرون عن إدراكها، واقفون وراء الأسوار، أسوار الحياة الدنيا»[1].

والخلاصة: أن إيثار الحياة الدنيا أساس كل بلوى، فعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى، والطغيان على أوامر الله تعالى، وعباد الله الصالحين.

رابعًا: الإفساد في الأرض:

إن الهدف الأسمى والأبرز للطاغية هو أن يحافظ على منصبه، دون أن ينازعه أو يعترض على حكمه أحد، وهو لذلك يدرك تمامًا أن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق إلا في بيئة فاسدة، فالطغيان كالفيروس لا ينمو ولا يتكاثر إلا في البيئات العفنة.

فـ«الحكام الطغاة كالحشرات القذرة، لا تعيش أبدًا في جو نظيف، ولا تنصب شباكها للصيد والنهب إلا حيث الغفلة السائدة، والجهالة القاتمة»[2].

يقول الكواكبي رحمه الله: «لا يخفى على المستبدّ أن لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تتخبط في ظلامة جهل وتيه عماء، فلو كان المستبد طيرًا لكان خفاشًا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٠.
(٢) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص٨٢.

ولو كان وحشًا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل»[1].

فالطاغية لا يرضى إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها، فلا يترك شيئًا روحانيًّا له في أعصاب الناس أثر من الوقار[2].

وكأن بين الطاغية وبين الرذيلة عهد وميثاق: أن يقوم هو بحمايتها مقابل أن تعرف له صنيعه فتحميه[3].

«فالطاغية في نسبته إلى رعيته كالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء، يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم»[4].

ومن هنا نفهم سر وصف القرآن الكريم للطغاة بالمفسدين.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ٦-١٢].

فالفساد نتيجة طبيعة ومباشرة للطغيان، يقول سيد رحمه الله معلّقًا على الآيات السابقة: «هؤلاء هم ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه؛ لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكانًا في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

عند ما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد»[5].

وقد وصف تبارك وتعالى رأس الطغيان -فرعون- في أكثر من آية بأنه من المفسدين.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

أي: «إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله من لا يستحق منه القتل، واستعباده من ليس له استعباده، وتجبّره في الأرض على أهلها،

(١) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٠.
(٢) انظر: وحي القلم، الرافعي ٢/ ٢١٨.
(٣) وحي القلم ٢/ ٢٣٧.
(٤) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٠.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤.

وتكبره على عبادة ربه»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

أي: كنت من المفسدين في الأرض بضلالك عن الحق، وإضلالك لغيرك[2].

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

«يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان عاقبة هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض، يعني: فرعون وملأه؛ إذ ظلموا بآيات الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان عاقبتهم أنهم أغرقوا جميعًا في البحر»[3].

أساليب الطغاة

للطغاة في محاربة الحق أساليب نتناولها فيما يأتي:

أولًا: إلباس الحق بالباطل:

من طبائع الطغاة وأساليبهم إلباس الحق بالباطل، وقلب الحقائق الواضحة الجلية وضوح الشمس في رابعة النهار، وقد أوضح القرآن الكريم هذه الصفة فيهم إيضاحًا كافيًا شافيًا.

فنرى الطغاة يحيلون الحق باطلًا، والباطل حقًّا، وإذا بالرسول المرسل ساحر، وإذا بالمجرم الظالم الطاغية إمام عادل.

قال تبارك وتعالى مبيّنًا حقيقة هؤلاء القوم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَاۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٦-٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠١].

«فكلمة الحق، وتوحيد الله، والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني، ولا أن يرفع

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٧.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٣.

أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية!»[1].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فجعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات[2].

وهذه الوسيلة قد استخدمها الطغاة.

قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد قال الطاغية فرعون لقومه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فأراد قتل موسى تحت مبرر الخوف على تبديل الدين، والخوف على البلاد من الفساد والدمار الذي سيحدثه موسى -بزعمه- «أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟

إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان، واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين»[3].

«وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]»[4].

ثانيًا: تعليل ما هم عليه من الغنى والجاه لأسباب ذاتية:

من طبيعة الطاغية أن ينسب النعم التي امتن الله بها عليه إلى أسباب ذاتية، فيزعم أنه حصل عليها بحذقه وذكائه، وورثها كابر عن كابر.

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

قال سيد رحمه الله: «إنما أوتيت هذا المال استحقاقًا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله، فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٥٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٧٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣٦.

في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حصّلت هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص؟

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويعميه الثراء.

وهو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابًا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه! والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها، ولا يهوّن من شأن الجهد الفردي أو يلغيه، ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجًا معينًا للتصرف في الملكية الفردية -كما يفرض منهجًا لتحصيلها وتنميتها- وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف، ولا في إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال، ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته، وطرق إنفاقه والاستمتاع به، وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات.

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم، وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم، وفي بطر ذميم.

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية، ردًّا على قولته الفاجرة المغرورة: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٨].

فإن كان ذا قوة وذا مال فقد أهلك الله من قبله أجيالًا كانت أشد منه قوة، وأكثر مالًا، وكان عليه أن يعلم هذا، فهذا هو العلم المنجي، فليعلم؛ وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد!»[1].

وأخبر تبارك وتعالى عن فرعون أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف:٥١].

فأخبر سبحانه عن فرعون وطغيانه وعناده أنه نادى في قومه متبجّحًا مفتخرًا مغرورًا بملك مصر وتصرفه فيها: أليس لي ملك مصر لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني فيه مخالف، وهذه الأنهار تجري من تحتي، أنهار النيل وفروعه، وهي تجري من تحت قصري، أو بين يدي في جناني، أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، وما يظنّ فرعون

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٢.

أن تبيد هذه أبدًا، وما قد مكّن له من الدنيا استدراجًا من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده، وحول منه وقوة، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة، وهذا أشدّ الوهم من فرعون؛ إذ خيّل إليه أن ما قاله حجة مقنعة لقومه، وهذا هو حال الطغاة المجرمين.

ثالثًا: كل من خالفهم فهو على الباطل:

قد يظهر الطاغية حرصه على المشورة في الأمور، ويستشير ملأه المقربين منه؛ لتمام معرفته أنهم لن يخالفوا له رأي، فهذا فرعون يستشير قومه في قتل موسى، وهو الذي قتل في بني إسرائيل وأثخن، قال الله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ولم يخطر على باله على الإطلاق أن أحدًا سيعترض عليه في قتل موسى، فلسان حاله: أنا لم أجعلكم في هذه المنزلة، وأمنحكم هذه الرتبة لتعترضوا علي، بل لتأمّنوا على ما أقول، أنسيتم أني ربكم الأعلى؟

فاعترض عليه أحد الحاضرين ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

فلما سمع فرعون هذا الكلام أفصح عما في نفسه من غطرسة، ولسان حاله: من ليس معنا فهو عدونا، من خالفني فهو على باطل.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإذا تأملنا هذه الكلمات التي قالها فرعون وجدناها تدل دلالة واضحة على الفكر الإقصائي الذي كان يحمله الطاغية فرعون ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ فلا ينبغي أن يرى الناس إلا ما رآه، ولا يمكن لهم أن يفكروا إلا بتفكيره، ولا نظر إلا نظره، فهو على الصواب وغيره على الخطأ، وهو المبصر، وهم العميان.

ولا هداية إلا ما يراه هو، كلامه رشاد، وكلام غيره غي، هو كل شيء، وغيره لا شيء، يقول سيد رحمه الله: «إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابًا، وأعتقده نافعًا، وإنه لهو الصواب والرشد بلاشك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيًا؟ وإلا فلم كانوا طغاة؟»[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٠.

ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: «رأى أن يستخفّ قومه فيتابعوه؛ ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به، مستيقنًا له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله لكان الشر أهون؛ ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال»[(١)].

«فالطاغية يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها من النطق بالحق والتعدي لمطالبته»[(٢)].

«إنه يعدم إرادة الناس، ويجهز عليها، ويدمر حرية الإنسان التي هي أهم جزء من كرامته»[(٣)].

«فالحاكم المجرم يريد جوًّا يسوده الصمت الرهيب؛ لأنه يدري أن الأفواه لو نطقت فستفضح خبأه، وتكشف سره، وهنا الطامة الكبرى؛ لذلك من خصائص الاستبداد السياسي في كل زمان ومكان كرهه الشديد لحرية النقد والتوجيه»[(٤)].

رابعًا: الاستهزاء:

من وسائل الطغاة الاستهزاء، واحتقار الصالحين، وقد حكى الله تبارك وتعالى لنا في كتابه ما كان عليه أهل الطغيان من استهزاء بالأنبياء المرسلين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧].

فعلى هذا النحو الذي تلقّى به المكذّبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم، يتلقّى المكذّبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به[(٥)].

وقال جل في علاه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٦ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٤٧].

واستهزأ قوم نوح عليه السلام به: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾ [هود: ٣٨].

واستهزأت عاد بهود عليه السلام ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٣٧.
(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٣٣.
(٣) فرعون والطغيان السياسي، أحمد بهجت ص٨.
(٤) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص١٤٦.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٢٩.

وقالوا لنبيهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

واستهزؤوا بشعيب عليه السلام ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

واحتقر فرعون موسى عليه السلام ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وقال عن قوم موسى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٦].

والمتأمل يدرك أن فرعون كاذب في دعواه؛ إذ لو كان الأمر كذلك فلم جمع لهم خيله ورجله، يقول سيد قطب رحمه الله: «ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون، وبقوة موسى ومن معه، وعظم خطرهم، حتى ليحتاج الملك الإله -بزعمه!- إلى التعبئة العامة، ولابد إذن من التهوين من شأن المؤمنين ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم، والاحتشاد لهم، وهم شرذمة قليلون!»[1].

وقد احتقر كفار قريش نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واستبعدوا أن تكون الرسالة نزلت على رجل مثله، واقترحوا أن تكون الرسالة ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«والواقع أن السخرية والاستهزاء من أمضى أدوات النفوذ والتأثير على الآخرين؛ ذلك أنها من أشد الأمور إيلامًا لأصحاب المروءة، فتحجزهم عن كثير من المواقف تحاشيًا أن يقعوا في مثار سخرية أو موضع استخفاف؛ ولذلك نبّه الله الرسل والمصلحين على استغلال خصوم الدعوات الإلهية لهذه السلطة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١٠-١١]»[2].

خامسًا: اتهام المصلحين بالتهم الكاذبة، والتحريض عليهم:

الملاحظ على الطاغية قيامه بحملة تحريضية كاذبة واسعة النطاق ضد المصلحين، فهذا فرعون وقومه اتهموا موسى عليه السلام بسعيه إلى الاستيلاء على الأرض والوطن، قال سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٥٩٨.

(٢) مآلات الخطاب المدني، إبراهيم السكران ص١٦٣.

«أي: تيقّنوا أنها من عند الله، وأنها ليست سحرًا، ولكنهم كفروا بها، وتكبّروا أن يؤمنوا بموسى، وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين»[(١)].

وفي تفسير المنار: «أي: عاندوا موسى عليه السلام عنادًا بإظهار الكفر بها في الظاهر مع استيقانها في الباطن، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء في الأرض»[(٢)].

وبيّن تبارك وتعالى أن التخويف للطغاة لا يزيدهم إلا طغيانًا على طغيانهم، وعنادًا على عنادهم، وكبرًا على كبرهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

«أي: نخوّفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغيانًا متجاوزًا للحد، متماديًا غاية التمادي، فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، وهو عذاب الاستئصال، ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة»[(٣)].

وأخبر سبحانه أن كفار قريش لم يكونوا يكذّبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣].

«بمعنى: أنهم لا يكذبونك علمًا، بل يعلمون أنك صادق، ولكنهم يكذبونك قولًا، عنادًا وحسدًا»[(٤)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي ومقاتل: هذا في المعاندين الذين عرفوا صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه غير كاذب فيما يقول، ولكنهم عاندوا وجحدوا[(٥)].

وإن من أبرز الشخصيات التي تمثّل هذا الكبر والعلو شخصية الطاغية فرعون، فقد مارس كل صنوف الطغيان بحق قومه، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

«أي: تكبّر وتجبّر وطغى»[(٦)].

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص ٣٩].

«المراد بالأرض: أرض مصر، والاستكبار: التعظيم بغير استحقاق، بل بالعدوان؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات»[(٧)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٦٣.
(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٤٧١.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٣١.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٦٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٠.
(٧) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٠٠.

رابعًا: الرفاهية والإسراف في الشهوات:

لم يرد الإسراف في القرآن الكريم إلا على سبيل الذم، فقد نهانا المولى سبحانه عن الإسراف، وأخبرنا أنه لا يحب المسرفين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

[الأعراف: ٣١].

وأمرنا سبحانه بعصيان أمر المسرفين، فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

فأهل الإسراف في بعد عن الهداية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وفي قرب من الضلال ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ومن كان هذا حاله فمصيره إلى العذاب في الدنيا ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

والنار في الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[غافر: ٤٣].

والإسراف صفة ملازمة للطغاة، ومسلكهم في الحياة دليل شاهد، وهو ملازم للعلو؛ ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

قال الطبري: «وإنه لمن المتجاوزين الحق إلى الباطل؛ وذلك كفره بالله، وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وادعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حلها»[(١)].

وقال الألوسي: «أي: المتجاوز الحد في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية، واسترق أسباط الأنبياء عليهم السلام»[(٢)]. «ومن هذه حالته لا يزعه عن إلحاق الضر بأضداده وازع»[(٣)].

«أي: مسرف في أمره، سخيف الرأي على نفسه»[(٤)].

ويقول جل وعلا: ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

وقد أخبر تبارك وتعالى عن صفات الطغاة من أهل النار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[الواقعة: ٤٥].

أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذّات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل[(٥)]. فالترف والتنعّم هو السبب الذي أقحمهم ابتداء في الطغيان والاستكبار، ومن ثمّ إلى نار جهنم، وبئس المصير.

---

(١) جامع البيان، ١٥/ ١٦٧.
(٢) روح المعاني، ٦/ ١٥٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٦٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٥٥.
(٥) المصدر السابق ٧/ ٥٣٨.

وذكر تبارك وتعالى أن من صفات الطغاة المستكبرين الاستمتاع بالحياة الدنيا ولذتها دون النظر إلى أمور الآخرة، والعمل لها، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

«فقد كانوا يملكون الطيبات إذن، ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا، فلم يدّخروا للآخرة منها شيئًا، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابًا، استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع، غير ناظرين فيها للآخرة، ولا شاكرين لله نعمته، ولا متورّعين فيها عن فاحش أو حرام، ومن ثمّ كانت لهم دنيا، ولم تكن لهم آخرة، واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله! ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ وكل عبد يستكبر في الأرض فإنما يستكبر بغير حق، فالكبرياء لله وحده، وليست لأحد من عباده في كثير أو قليل، وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار في الأرض، فجزاء الاستكبار الهوان، وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضًا، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين»[1].

خامسًا: الاستغناء:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: الغنى، قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما بسطت الدنيا لعبد إلا طغى كائنًا من كان، ثم تلا قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧].

فأخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى، وكثر ماله[2].

وكان سبب نزول هذه الآية ما رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفّرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا) قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٤-٣٢٦٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٧.

﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾[1].

«والمعنى: أن ما قاله أبو جهل ناشئ عن طغيانه بسبب غناه كشأن الإنسان، والتعريف في الإنسان للجنس، أي: من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي: أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه...، والطغيان: التعاظم والكبر، والاستغناء: شدة الغنى، فالسين والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل مثل استجاب واستقر.

و﴿أَن رَّءَاهُ﴾ متعلق بـ(يطغى) بحذف لام التعليل؛ لأن حذف الجار مع (أن) كثير شائع، والتقدير: إن الإنسان ليطغى لرؤيته نفسه مستغنيًا.

وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدّث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقًا حيث لا وازع يزعه من دين، أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم؛ لأن له ما يدفع به الاعتداء من لأمة سلاح وخدم وأعوان وعفاة ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء فهو في عزة عند نفسه.

فقد بيّنت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبّهت على الحذر من تغلغلها في النفس»[2].

ومن أبرز قصص القرآن التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالمال، قصة قارون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

«هكذا تبدأ القصة فتعيّن اسم بطلها (قارون) وتحدّد قومه (قوم موسى) وتقرّر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (كلا إن الإنسان ليطغى)، ٤/ ٢١٥٤، رقم ٢٧٩٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٤٤-٤٤٥.

مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالًا كثيرًا، يصوّر كثرته بأنه كنوز، والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول، وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال، من أجل هذا بغى قارون على قومه، ولا يذكر فيم كان البغي ليدعه مجهولًا يشمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم، كما يصنع

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦].

فهما جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر، إنه المنظر البهيج، والحيوية الدافقة، والمتاع والمال.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ ويختار التعبير كلمة ﴿تَظْلِم﴾ في معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر.

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحسّ بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ

﴿مُنقَلَبًا﴾[الكهف: ٣٥-٣٦].

«إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض، فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!»[1].

ومن القصص التي تبيّن أن الاستغناء سبب من أسباب الطغيان قصة أصحاب الجنة ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾[القلم: ١٧-٣٢].

ومن القصص التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالقوة الجسدية قصة عاد:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[فصلت: ١٥].

يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ قوم هود ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على ربهم وتجبّروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تكبرًا وعتوًّا بغير ما أذن الله لهم به ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ وأعطاهم ما أعطاهم من عظم الخلق، وشدة البطش ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيحذروا عقابه، ويتقوا سطوته لكفرهم به، وتكذيبهم رسله، يقول: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكانوا بأدلتنا وحججنا عليهم يجحدون[2].

سادسًا: الأولاد:

حذّر الله تبارك وتعالى في كتابه من فتنة المال والولد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التغابن: ١٥].

فهذا تحذير من الله للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذه وصفه، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده وحذّرهم أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي، ورغّبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب

(١) المصدر السابق ٥/ ٦٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٤.

العالية، والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية[1].

وأخبر تبارك وتعالى أن الولد قد يكون سببًا في الكفر، فقال: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

قال الألوسي: «فخفنا خوفًا شديدًا أن يغشى الوالدين المؤمنين لو بقي حيًّا طغيانًا مجاوزة للحدود الإلهية، وكفرًا بالله تعالى؛ وذلك بأن يحملهما حبه على متابعته، كما روي عن ابن جبير، ولعل عطف الكفر على الطغيان لتفظيع أمره، ولعل ذكر الطغيان مع أن ظاهر السياق الاقتصار على الكفر ليتأتى هذا التفظيع، أو ليكون المعنى: فخشينا أن يدنس إيمانهما أولًا، ويزيله آخرًا، ويلتزم على هذا القول بأن ذلك أشنع وأقبح من إزالته بدون سابقية تدنيس، وفسّر بعض شراح البخاري الخشية بالعلم، فقال: أي: علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر، فيجيبانه، ويدخلان معه في دينه لفرط حبهما إياه، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما طغيانًا عليهما، وكفرًا لنعمتهما عليه من تربيتهما إياه، وكونهما سببًا لوجوده بسبب عقوقه، وسوء صنيعه، فيلحقهما شر وبلاء، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما ويقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر»[2].

وقال القرطبي: «والمعنى: أن يلقيهما حبه في اتباعه، فيضلا، ويتدينا بدينه»[3].

وقال ابن كثير: «أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب»[4].

وقال سيد رحمه الله: «فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغٍ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزًا وتحققًا، فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه، فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبدلهما الله خلفًا خيرًا منه، وأرحم بوالديه، ولو كان الأمر موكولًا إلى العلم البشري الظاهر لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعًا، وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٨.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٣٣-٣٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٨٥.

يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس، ولا أن يرتب على هذا العلم حكمًا غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة، ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد»[1].

سابعًا: الاستخفاف وغفلة الناس:

يمارس الطغاة على مر العصور وسيلة الاستخفاف بالجماهير.

يقول تبارك وتعالى عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[الزخرف: ٥٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له»[2].

وقال الشوكاني رحمه الله: «أي: حملهم على خفة الجهل والسفه بقوله، وكيده وغروره، فأطاعوه فيما أمرهم به، وقبلوا قوله، وكذّبوا موسى»[3].

وقال سيد رحمه الله: «واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولًا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين، وذات الشمال مطمئنين! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح، ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾»[4].

وقد بلغ بفرعون من الخفة والاستخفاف بقومه أن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

«قالها الطاغية مخدوعًا بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها، فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها، وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانًا، إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها فيجر! وتحني له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم.

فالطاغية -وهو فرد- لا يمكن أن يكون

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٣٢.
(٣) فتح القدير، ٤/ ٦٤١.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٤.

أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزّتها وحريتها، وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئًا! وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها، وتؤمن به، وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرًّا ولا رشدًا! فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذّلة ومن خواء القلب من الإيمان ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وما كان ليقولها أبدًا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء، وإن يسلبه الذباب شيئًا لا يستنقذ من الذباب شيئًا!»[1].

يقول الكواكبي رحمه الله: «فالعوام هم قوت المستبدّ وقوّته، بهم عليهم يصول، وبهم على غيرهم يطول، يأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم ببعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه: إنه كريم، وإذا قتل ولم يمثّل يعتبرونه رحيمًا، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب، وإن نقم عليه منهم بعض الأباة، قاتلوهم كأنهم بغاة، والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل»[2].

«والطغيان لا يخشى شيئًا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية»[3].

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٨١٥.

(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٤٣.

مظاهر الطغيان وآثاره

للطغيان مظاهر وآثار نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الضلال والعمى:

أهل الطغيان «يدعهم الله سبحانه يخبطون على غير هدى، في طريق لا يعرفون غايته، واليد الجبارة تتلقفهم في نهايته، كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ، غافلة عن المقبض المكين، وهذا هو الاستهزاء الرعيب، لا كاستهزائهم الهزيل الصغير»[(١)].

قال الله سبحانه عن أهل النفاق والطغيان: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ قال: يزيدهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يلعبون ويترددون في الضلالة[(٢)].

«والصواب: يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]»[(٣)].

«ومن يكتب الله عليه الضلال -وفق سنته تلك- يظل في طغيانه عن الحق، وعماه عنه أبدًا ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وما في تركهم في عماهم من ظلم، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم، وهم الذين عطّلوا قلوبهم وجوارحهم، وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق، وأسرار الوجود، وشهادة الأشياء -التي يوجههم إليها في الآية السابقة- وحيثما امتد البصر في هذا الكون وجد عجيبة، وحيثما فتحت العين وقعت على آية، وحيثما التفت الإنسان إلى نفسه أو إلى ما يحيط به لمس الإعجاز في تكوينه، وفيما حوله من شيء، فإذا عمه -أي: عمي- عن هذا كله ترك في عماه، وإذا طغى بعد هذا كله وتجاوز الحق ترك في طغيانه حتى يسلمه إلى البوار»[(٤)].

وقال عز وجل: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

«يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج الله والفكر فيها لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبروا وتدبروا، فأبصروا رشدهم، ولكن الله أضلهم، فلا يبصرون رشدًا، ولا يهتدون سبيلًا، ومن أضله عن الرشاد فلا هادي له، ولكن الله يدعهم في تماديهم في كفرهم وتمردهم في شركهم يترددون؛ ليستوجبوا الغاية التي كتبها الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٥.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ١٦٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٠٧.

لهم من عقوبته، وأليم نكاله»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

والمعنى: فنترك الذين لا يرجون لقاءنا فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه، متحيّرين لا يهتدون سبيلًا للخروج منه[2].

ثانيًا: محاربة الحق، وتكذيب الأنبياء والدعاة:

مجرد ما يسمع أهل الطغيان الرسالة الربانية حتى يهرعوا لاستخدام الحجة التي طالما استخدمها من قبلهم، وهي اتهام الدعاة المخلصين بالكذب والدجل؛ ليبرّروا لأنفسهم قمعهم ومحاربتهم وقتلهم.

وليس غريبًا أن يتعرّض الأنبياء الصّادقون، أصحاب المنهج الرباني السليم للتكذيب والمعاداة، يقول سيد قطب رحمه الله: «فأمّا الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحد منهم...، وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر، وأن يسلك طريقه إلى الهلاك، كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك! إن مصارع المكذبين -كما يعرضها هذا القصص- تجري على سنة لا تتبدل: نسيان لآيات الله، وانحراف عن طريقه، إنذار من الله للغافلين على يد رسول، استكبار عن العبودية لله وحده، والخضوع لرب العالمين، اغترار بالرخاء، واستهزاء بالإنذار، واستعجال للعذاب، طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين، ثبات من المؤمنين، ومفاصلة على العقيدة، ثم المصرع الذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ!»[3].

وقد بلغ بأهل الطغيان والباطل في محاربة الحق أن أوصى بعضهم بعضًا بعدم السماع لهذا القرآن، واقترحوا وسيلة لمحاربة كتاب الله، وهي التشويش واللغو.

قال سبحانه وبحمده: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

«أي: لا تسمعوه ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: عارضوه باللّغو، وهو الكلام الخالي عن فائدة، وكان الكفّار يوصي بعضهم بعضًا: إذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارفعوا أصواتكم حتى تلبّسوا عليهم قولهم، وقال مجاهد: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ فيه بالمكاء والصفير والتخليط من القول على رسول الله صلى

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٩١.
(٢) انظر: المنار، رشيد رضا ١١/ ٢٥٦.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٠٦.

الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فيسكتون»[1].

وقريبًا من هذا المعنى قوله جل وعلا على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وقال عن قوم عاد: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقال عن قوم شعيب: ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وقال عن أصحاب القرية: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وقال عن قوم ثمود: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

فرغم اختلاف هؤلاء الأقوام واختلاف الأنبياء إلا أنّ الموقف واحد، هو التكذيب والرفض الواضح للدّعوة، رغم ما حمله كلّ نبي من الأنبياء لأدلة تثبت صدق دعوته وربانيتها.

والخلاصة: أن أهل الطغيان يتهمون دعاة الإصلاح بالكذب والدجل، وأن دعوتهم وإن كانت في خارجها صالحة فإنها في باطنها خبيثة باطلة.

ثالثًا: إيثار الدنيا على الآخرة:

من أبرز مظاهر الطغيان نسيان الدار الآخرة، وإيثار الدنيا عليها، فيشعر الطاغية أنه خالد مخلّد في هذه الحياة، وينسى الآخرة والبعث والنشور والجنة والنار، يقول تبارك وتعالى مذكّرًا بمصير الطغاة الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

فإذا اجتمع الغنى مع نسيان الآخرة، وإيثار الحياة الدنيا، فإن الثمرة لهذا الاجتماع المشئوم هو الطغيان، قال سيد رحمه الله: «والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٥٠.

وضميره، فإذا أهمل حساب الآخرة، أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعدّ طاغيًا وباغيًا، ومتجاوزًا للمدى»[1].

وليس معنى هذا أن الإسلام يرفض الحياة الدنيا بالكلية، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الحياة أن تصبح بمتاعها ولذاتها وشهواتها وإمكاناتها إلهًا معبودًا من دون الله؛ لهذا ذمّ الله من قدم الحياة الدنيا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وانظر إلى سحرة فرعون حين دخل قلوبهم الإيمان كيف نظروا إلى قومه وملكه وجنده ودنياه، وقد هدّدهم بما هدّدهم، فـ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه (٧٢-٧٣)].

فالمطلوب من المسلم أن يحرّر إرادته، فلا يصبح ويمسي مجرد مريد للحياة الدنيا.

يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ويقول عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقد أمر الله بالإعراض عمن طغى وتعلّق بهذه الحياة وآثرها على الحياة الباقية، فقال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

قال سيد رحمه الله: «هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله، ولم يؤمن بالآخرة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا موجّه ابتداء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث في السورة عن أساطيرهم وأوهامهم، وعدم إيمانهم بالآخرة.

وهو موجّه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من يتولى عن ذكر الله، ويعرض عن الإيمان به، ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها، لا ينظر إلى شيء وراءها، ولا يؤمن بالآخرة، ولا يحسب حسابها، ويرى أن حياة

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٨.

الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده، لا غاية بعدها، ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبّر أمره، ويحاسبه على عمله، بعد رحلة الأرض المحدودة، وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة في زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية.

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله -فضلًا على أن يعامل أو يعايش- من يعرض عن ذكر الله، وينفي الآخرة من حسابه؛ لأن لكل منهما منهجًا في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته، ولا في نقطة واحدة من نقاطه، وجميع مقاييس الحياة، وجميع قيمها، وجميع أهدافها، تختلف في تصور كل منهما، فلا يمكن إذن أن يتعاونا في الحياة أي تعاون، ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض، مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها، وغاية هذا النشاط، وما دام التعاون والمشاركة متعذرين، فما داعي الاهتمام والاحتفال؟ إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله، ولا يريدون إلا الحياة الدنيا، وينفق طاقته التي وهبه الله إياها في غير موضعها.

على أن للإعراض اتجاهًا آخر هو التهوين من شأن هذه الفئة، فئة الذين لا يؤمنون بالله، ولا يبتغون شيئًا وراء الحياة الدنيا، فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة، قاصرون عن إدراكها، واقفون وراء الأسوار، أسوار الحياة الدنيا»[1].

والخلاصة: أن إيثار الحياة الدنيا أساس كل بلوى، فعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى، والطغيان على أوامر الله تعالى، وعباد الله الصالحين.

رابعًا: الإفساد في الأرض:

إن الهدف الأسمى والأبرز للطاغية هو أن يحافظ على منصبه، دون أن ينازعه أو يعترض على حكمه أحد، وهو لذلك يدرك تمامًا أن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق إلا في بيئة فاسدة، فالطغيان كالفيروس لا ينمو ولا يتكاثر إلا في البيئات العفنة.

فـ«الحكام الطغاة كالحشرات القذرة، لا تعيش أبدًا في جو نظيف، ولا تنصب شباكها للصيد والنهب إلا حيث الغفلة السائدة، والجهالة القاتمة»[2].

يقول الكواكبي رحمه الله: «لا يخفى على المستبدّ أن لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تتخبط في ظلامة جهل وتيه عماء، فلو كان المستبد طيرًا لكان خفاشًا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٠.
(٢) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص٨٢.

ولو كان وحشًا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل»[1].

فالطاغية لا يرضى إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها، فلا يترك شيئًا روحانيًّا له في أعصاب الناس أثر من الوقار[2].

وكأن بين الطاغية وبين الرذيلة عهد وميثاق: أن يقوم هو بحمايتها مقابل أن تعرف له صنيعه فتحميه[3].

«فالطاغية في نسبته إلى رعيته كالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء، يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم»[4].

ومن هنا نفهم سر وصف القرآن الكريم للطغاة بالمفسدين.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ٦-١٢].

فالفساد نتيجة طبيعة ومباشرة للطغيان، يقول سيد رحمه الله معلّقًا على الآيات السابقة: «هؤلاء هم ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه؛ لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكانًا في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

عند ما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد»[5].

وقد وصف تبارك وتعالى رأس الطغيان -فرعون- في أكثر من آية بأنه من المفسدين.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

أي: «إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله من لا يستحق منه القتل، واستعباده من ليس له استعباده، وتجبّره في الأرض على أهلها،

(١) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٠.
(٢) انظر: وحي القلم، الرافعي ٢/ ٢١٨.
(٣) وحي القلم ٢/ ٢٣٧.
(٤) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٠.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤.

وتكبره على عبادة ربه»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

أي: كنت من المفسدين في الأرض بضلالك عن الحق، وإضلالك لغيرك[2].

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

«يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان عاقبة هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض، يعني: فرعون وملأه؛ إذ ظلموا بآيات الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان عاقبتهم أنهم أغرقوا جميعًا في البحر»[3].

أساليب الطغاة

للطغاة في محاربة الحق أساليب نتناولها فيما يأتي:

أولًا: إلباس الحق بالباطل:

من طبائع الطغاة وأساليبهم إلباس الحق بالباطل، وقلب الحقائق الواضحة الجلية وضوح الشمس في رابعة النهار، وقد أوضح القرآن الكريم هذه الصفة فيهم إيضاحًا كافيًا شافيًا.

فنرى الطغاة يحيلون الحق باطلًا، والباطل حقًّا، وإذا بالرسول المرسل ساحر، وإذا بالمجرم الظالم الطاغية إمام عادل.

قال تبارك وتعالى مبيّنًا حقيقة هؤلاء القوم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَاۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٦-٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠١].

«فكلمة الحق، وتوحيد الله، والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني، ولا أن يرفع

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٧.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٣.

أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية!»[1].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فجعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات[2].

وهذه الوسيلة قد استخدمها الطغاة.

قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد قال الطاغية فرعون لقومه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فأراد قتل موسى تحت مبرر الخوف على تبديل الدين، والخوف على البلاد من الفساد والدمار الذي سيحدثه موسى -بزعمه- «أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟

إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان، واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين»[3].

«وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]»[4].

ثانيًا: تعليل ما هم عليه من الغنى والجاه لأسباب ذاتية:

من طبيعة الطاغية أن ينسب النعم التي امتن الله بها عليه إلى أسباب ذاتية، فيزعم أنه حصل عليها بحذقه وذكائه، وورثها كابر عن كابر.

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

قال سيد رحمه الله: «إنما أوتيت هذا المال استحقاقًا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله، فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٥٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٧٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣٦.

في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حصّلت هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص؟

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويعميه الثراء.

وهو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابًا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه! والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها، ولا يهوّن من شأن الجهد الفردي أو يلغيه، ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجًا معينًا للتصرف في الملكية الفردية -كما يفرض منهجًا لتحصيلها وتنميتها- وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف، ولا في إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال، ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته، وطرق إنفاقه والاستمتاع به، وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات.

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم، وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم، وفي بطر ذميم.

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية، ردًّا على قولته الفاجرة المغرورة: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٨].

فإن كان ذا قوة وذا مال فقد أهلك الله من قبله أجيالًا كانت أشد منه قوة، وأكثر مالًا، وكان عليه أن يعلم هذا، فهذا هو العلم المنجي، فليعلم؛ وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد!»[1].

وأخبر تبارك وتعالى عن فرعون أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف:٥١].

فأخبر سبحانه عن فرعون وطغيانه وعناده أنه نادى في قومه متبجّحًا مفتخرًا مغرورًا بملك مصر وتصرفه فيها: أليس لي ملك مصر لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني فيه مخالف، وهذه الأنهار تجري من تحتي، أنهار النيل وفروعه، وهي تجري من تحت قصري، أو بين يدي في جناني، أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، وما يظنّ فرعون

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٢.

أن تبيد هذه أبدًا، وما قد مكّن له من الدنيا استدراجًا من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده، وحول منه وقوة، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة، وهذا أشدّ الوهم من فرعون؛ إذ خيّل إليه أن ما قاله حجة مقنعة لقومه، وهذا هو حال الطغاة المجرمين.

ثالثًا: كل من خالفهم فهو على الباطل:

قد يظهر الطاغية حرصه على المشورة في الأمور، ويستشير ملأه المقربين منه؛ لتمام معرفته أنهم لن يخالفوا له رأي، فهذا فرعون يستشير قومه في قتل موسى، وهو الذي قتل في بني إسرائيل وأثخن، قال الله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ولم يخطر على باله على الإطلاق أن أحدًا سيعترض عليه في قتل موسى، فلسان حاله: أنا لم أجعلكم في هذه المنزلة، وأمنحكم هذه الرتبة لتعترضوا علي، بل لتأمّنوا على ما أقول، أنسيتم أني ربكم الأعلى؟

فاعترض عليه أحد الحاضرين ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

فلما سمع فرعون هذا الكلام أفصح عما في نفسه من غطرسة، ولسان حاله: من ليس معنا فهو عدونا، من خالفني فهو على باطل.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإذا تأملنا هذه الكلمات التي قالها فرعون وجدناها تدل دلالة واضحة على الفكر الإقصائي الذي كان يحمله الطاغية فرعون ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ فلا ينبغي أن يرى الناس إلا ما رآه، ولا يمكن لهم أن يفكروا إلا بتفكيره، ولا نظر إلا نظره، فهو على الصواب وغيره على الخطأ، وهو المبصر، وهم العميان.

ولا هداية إلا ما يراه هو، كلامه رشاد، وكلام غيره غي، هو كل شيء، وغيره لا شيء، يقول سيد رحمه الله: «إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابًا، وأعتقده نافعًا، وإنه لهو الصواب والرشد بلاشك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيًا؟ وإلا فلم كانوا طغاة؟»[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٠.

ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: «رأى أن يستخفّ قومه فيتابعوه؛ ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به، مستيقنًا له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله لكان الشر أهون؛ ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال»[(١)].

«فالطاغية يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها من النطق بالحق والتعدي لمطالبته»[(٢)].

«إنه يعدم إرادة الناس، ويجهز عليها، ويدمر حرية الإنسان التي هي أهم جزء من كرامته»[(٣)].

«فالحاكم المجرم يريد جوًّا يسوده الصمت الرهيب؛ لأنه يدري أن الأفواه لو نطقت فستفضح خبأه، وتكشف سره، وهنا الطامة الكبرى؛ لذلك من خصائص الاستبداد السياسي في كل زمان ومكان كرهه الشديد لحرية النقد والتوجيه»[(٤)].

رابعًا: الاستهزاء:

من وسائل الطغاة الاستهزاء، واحتقار الصالحين، وقد حكى الله تبارك وتعالى لنا في كتابه ما كان عليه أهل الطغيان من استهزاء بالأنبياء المرسلين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧].

فعلى هذا النحو الذي تلقّى به المكذّبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم، يتلقّى المكذّبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به[(٥)].

وقال جل في علاه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٦ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٤٧].

واستهزأ قوم نوح عليه السلام به: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾ [هود: ٣٨].

واستهزأت عاد بهود عليه السلام ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٣٧.
(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٣٣.
(٣) فرعون والطغيان السياسي، أحمد بهجت ص٨.
(٤) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص١٤٦.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٢٩.

وقالوا لنبيهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

واستهزؤوا بشعيب عليه السلام ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

واحتقر فرعون موسى عليه السلام ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وقال عن قوم موسى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٦].

والمتأمل يدرك أن فرعون كاذب في دعواه؛ إذ لو كان الأمر كذلك فلم جمع لهم خيله ورجله، يقول سيد قطب رحمه الله: «ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون، وبقوة موسى ومن معه، وعظم خطرهم، حتى ليحتاج الملك الإله -بزعمه!- إلى التعبئة العامة، ولابد إذن من التهوين من شأن المؤمنين ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم، والاحتشاد لهم، وهم شرذمة قليلون!»[1].

وقد احتقر كفار قريش نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واستبعدوا أن تكون الرسالة نزلت على رجل مثله، واقترحوا أن تكون الرسالة ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«والواقع أن السخرية والاستهزاء من أمضى أدوات النفوذ والتأثير على الآخرين؛ ذلك أنها من أشد الأمور إيلامًا لأصحاب المروءة، فتحجزهم عن كثير من المواقف تحاشيًا أن يقعوا في مثار سخرية أو موضع استخفاف؛ ولذلك نبّه الله الرسل والمصلحين على استغلال خصوم الدعوات الإلهية لهذه السلطة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١٠-١١]»[2].

خامسًا: اتهام المصلحين بالتهم الكاذبة، والتحريض عليهم:

الملاحظ على الطاغية قيامه بحملة تحريضية كاذبة واسعة النطاق ضد المصلحين، فهذا فرعون وقومه اتهموا موسى عليه السلام بسعيه إلى الاستيلاء على الأرض والوطن، قال سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٥٩٨.

(٢) مآلات الخطاب المدني، إبراهيم السكران ص١٦٣.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠].

وقال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

فهم «يصرّحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة، إنها الخروج من الأرض، إنها ذهاب السلطان، إنها إبطال شرعية الحكم، أو محاولة قلب نظام الحكم بالتعبير العصري الحديث»[(١)].

كما أن الطاغية يسعى جاهدًا إلى اتهام كل مصلح بالتآمر على البلاد والعباد، قال سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

«أي: إن هذا الصنيع الذي صنعتموه أنتم وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس إلا مكرًا مكرتموه في المدينة؛ بما أظهرتم من المعارضة والرغبة في الغلب عليه، مع إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته، زاد في سورة طه ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

فأجمعتم كيدكم لنا في هذه المدينة؛ لأجل أن تخرجوا منها أهلها المصريين بسحركم -وهو ما كان اتهم به موسى وحده- ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والكبرياء»[(٢)].

كما أن الطاغية يحرص غاية الحرص على إظهار المخالفين له بمظهر الحريصين على النفوذ والسلطة.

قال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٧-٧٨].

وهذه الوسيلة التي استخدمها فرعون للتشكيك في دعوة موسى عليه السلام استخدمتها قريش لصرف الناس عن دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

أي: «إن هذا القول الذي يقول محمد، ويدعونا إليه، من قول لا إله إلا الله، شيء يريده منا محمد يطلب به الاستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعًا، ولسنا مجيبيه إلى ذلك»[(٣)].

سادسًا: الترغيب:

قد يستعمل الطاغية أسلوب الإغواء ويمارسه على ضعاف النفوس؛ وذلك أن الطاغية يملك المال والمنصب والجاه،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤٨.

(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٦٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٥٢.

فيغريهم بالمال الوفير، وقد بيّن لنا القرآن الكريم كيف استخدم الطغاة هذه الوسيلة.

قال سبحانه: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣- ١١٤].

فأكّد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم، ووعدهم مع الأجر القربى منه؛ زيادة في الإغراء، وتشجيعًا على بذل غاية الجهد[(١)].

وربما سعى الطغاة جاهدين لشغل الناس بأمور تافهة، وقضايا جانبية، وقد أشار القرآن الكريم إلى استخدام الطغاة لهذا الأسلوب في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

كما أن الطاغية يدرك تمامًا أن الضغط على الناس يولّد الانفجار، فيسعى جاهدًا إلى طريقة لينفّس بها عن الناس، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوسيلة في قوله سبحانه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

«يعني: يوم عيد كان لهم، أو سوق كانوا يتزينون فيه»[(٢)].

فرغم جبروت فرعون وطغيانه إلا أنه جعل للناس يوم عيد يتفرغون فيه من أشاغلهم، ويلبسون أجمل ثيابهم، وفيه يلهون ويمرحون «والجماهير دائمًا تتجمع لمثل هذه الأمور، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس»[(٣)].

وقد يلجأ الطاغية إلى التواضع للناس، فهذا فرعون الطاغية يستشير الناس في أمر فرعون، فيقول: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

«فيبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهًا، فيطلب أمرهم ومشورتهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون! وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذٍ يلينون في القول بعد التجبر.

ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى، ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٢٣.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٤.

جبابرة مستبدون ظالمون!»[1].

الترهيب:

من أبرز وسائل الطغاة وتضليلهم على الناس: إرهاب كل من تسوّل له نفسه المساس بمناصبهم، فيحاول الطاغية أن يظهر بمظهر القوة، ويعرض بضعف خصومه، يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

قال سيد رحمه الله: «وهو الشعور الكاذب الذي يحسّه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، وينسون ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ الأحقاف[2].

وقال تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

أي: «لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة»[3].

وقد يمارس الطاغية أساليب قهرية أخرى، يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

«فالطغيان لا يخشى شيئًا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزّون الضمائر الغافية، ومن ثمّ ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عند ما يمس بقوله هذا أوتار القلوب، فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عند ما يسقط في أيديهم، وتخذلهم البراهين ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

هذه هي الحجة، وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين، فليس السجن عليه ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد! غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه، وكيف وهو رسول الله؟»[4].

ولما لم يستجب يوسف عليه السلام لنزوات امرأة العزيز أودع في سجون الطغاة عددًا من السنين، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

وأول ما فكّر فيه طغاة مكة بالمكر بنبينا

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٣.

محمد صلى الله عليه وسلم هو السجن، يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ويلجأ الطغاة إلى التعذيب إن لم ينفع السجن والتهديد، قال سبحانه: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

ويقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢].

«أي: صاحب أوتاد أربعة يشد إليها من أراد تعذيبه الأخفاش»[1].

وقد يلجأ الطغاة لوسيلة القتل، قال سبحانه وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥].

وهناك وسيلة قديمة استخدمها معظم طغاة الأرض ضد أهل الحق والدعوة، ألا وهي النفي من الأرض والإقصاء، يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

والخلاصة: أن الطاغية لا يتحرج من ارتكاب أشد الجرائم وحشية، وأشنعها بربرية، وأبعدها عن كل معاني الإنسانية، وعن الخلق والشرف والضمير[2].

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٤٣٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٤٠.

جزاء أهل الطغيان

بيّن القرآن الكريم جزاء أهل الطغيان في الدنيا والآخرة، ونتناولها فيما يأتي:

أولًا: جزاء أهل الطغيان في الدنيا:

إن الشر مهما استعلى وطغى وبغى فلابد له من نهاية مريرة، والطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية، فينسون قوة الله وجبروته، فيهلكهم الله عز وجل، ويهيئ الله المستضعفين المعتدى عليهم أن يسحقوا هذا الباطل الأشر، كما حكى الله عن بني إسرائيل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

يقول سيد رحمه الله: «إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدّون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة، فهم لم يكونوا يؤدّون هذه الضريبة إلا ذُلًّا واستكانة وخوفًا، فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى، واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس، يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب، فأما عند ذلك فقد تدخّلت يد القدرة لإدارة المعركة، وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب»[1].

والله سبحانه يهيّئ الأسباب لإهلاك الطاغية، وهكذا كانت نهاية فرعون ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٣-١٤].

وهذا هو مصير الطغاة.

ويقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٨].

وبيّن تبارك وتعالى أن هذا الإهلاك كان على سبيل الانتقام، فقال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ويصف هذا الانتقام فيقول تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦].

أي: أخذًا شديدًا[2].

ثم يبيّن لنا كيفية هذا الأخذ والإهلاك، فيقول تبارك وتعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ويقول: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٩٣.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

وذكر تبارك وتعالى ما ترتّب على هذا الإهلاك من صنوف العذاب، منها: أن الله سبحانه دمّر ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون، قال تبارك وتعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولًا، وبالذات ما له تعلّق بظلم بني إسرائيل والكيد لموسى عليه السلام...، ومنها الصرح الذي أمر هامان ببنائه ليرقى به إلى السماء فيطّلع إلى إله موسى، والثاني: كالمكايد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة؛ لإبطال آياته، أو التشكيك فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ [طه: ٦٩]»[(١)].

ثم إن الله تبارك وتعالى حرمهم من النعمة والكنوز والمقام الكريم ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨].

وورّث تلك النعمة والكنوز والمقام الكريم لأعدائهم ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

وجعلهم الله أئمة يدعون إلى النار، يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «أي: جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتّبعهم حتى يكون عقابهم أكثر»[(٢)].

وقد جعلهم الله عز وجل محلًّا للعن في الدنيا، قال تبارك وتعال: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

أي: «وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزيًا وغضبًا منا عليهم، فختمنا لهم فيها بالهلاك والبوار والثناء السيئ»[(٣)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم، كذلك ويوم القيامة هم من المقبوحين»[(٤)].

وقد انتقم الله من الأمم المكذبة بأنبيائهم، قال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ

(١) المنار ٩/ ٨٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٢٨٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٣٨.

﴿أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والقرآن الكريم يزخر بالآيات البيّنات التي تتحدث عن المصير الثابت للطغاة المتجبرين بالهلاك المحتوم في الدنيا، والخزي الدائم يوم القيامة، وجزاء لما اقترفته أيديهم الآثمة من ظلم وطغيان، والله لا يحب الظالمين، ونهاية قارون التي سجّلها القرآن خير شاهد على ذلك؛ وذلك إنه عندما يبلغ الظلم والطغيان مداه، وتبلغ الفتة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس، تتدخّل القدرة الإلهية الجبارة لتضع حدًّا للفتنة، وتقرر النهاية المحتومة للظلم والطغيان ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

فهذا مصير أهل الطغيان في الدنيا، أما عقابهم في الآخرة فهو أشد وأنكى وأعظم من عقاب الدنيا.

ثانيًا: جزاء أهل الطغيان في الآخرة:

أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط وفرعون وجنوده كما كان يأخذ المكذّبين والطغاة، ولكن الجزاء الأخير سيكون عنده سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١٠-١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

فقد يعذّب الله تبارك وتعالى الطاغية في الدنيا، وقد يمهله، أما في الآخرة فلا إمهال، فعذاب الطغاة متحقق الحصول، قال سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٥-٥٧].

قال الرازي في تفسيره: «اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين وصف بعده عقاب الطاغين؛ ليكون الوعيد مذكورًا عقيب الوعد، والترهيب عقيب الترغيب.

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعًا، فالأول: مرجعهم ومآبهم، فقال: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥].

وهذا في مقابلة قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩].

فبيّن تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال

المتقين»[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ۝٢٢ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٣].

والمآب: المرجع، يقال: آب يؤوب إذا رجع[2].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: إن جهنم كانت ذات رصد لأهلها الذين كانوا يكذّبون في الدنيا بها وبالمعاد إلى الله في الآخرة، ولغيرهم من المصدّقين بها، ومعنى الكلام: إن جهنم كانت ذات ارتقاب ترقب من يجتازها وترصدهم»[3].

فالطغاة في حقوق الله وفي حقوق العباد هم أهل النار والعياذ بالله؛ ولهذا قال: ﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

«والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره، فإذا أهمل حساب الآخرة، أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعدّ طاغيًا وباغيًا، ومتجاوزًا للمدى»[5].

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الظلم، فرعون، الفساد، الفتنة، القتل

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٤٠٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٤٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٥٨.
(٤) تفسير جزء عم، ابن عثيمين ص٣٠.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٨.

الطلاق

عناصر الموضوع

مفهوم الطلاق	٩٤
الطلاق في الاستعمال القرآني	٩٥
الألفاظ ذات الصلة	٩٦
أنواع الطلاق	٩٨
الأحكام المتعلقة بالطلاق	١٠٥
حقوق المطلقة	١٠٨
موضوعات لها صلة بالطلاق	١١٨
منهج القرآن في تقرير أحكام الطلاق	١٢٥
التدابير الوقائية من الطلاق	١٣١
شبهات حول الطلاق	١٣٩

مفهوم الطلاق

أولًا: المعنى اللغوي:

الطلاق لغة: الحلّ ورفع القيد، وهو اسمٌ مصدره التّطليق، ويستعمل استعمال المصدر، وأصله: طلقت المرأة تطلق فهي طالقٌ بدون هاءٍ، وروي بالهاء (طالقةٌ) إذا بانت من زوجها، والطالق من الإبل: الّتي طلقت في المرعى، وقيل: هي الّتي لا قيد عليها، ونعجةٌ طالق: مخلّاة ترعى وحدها، وحبسوه في السّجن طلقًا، أي: بغير قيدٍ ولا كبل. وأطلقه، فهو مطلق وطليق، والجمع طلقاء، والطّلقاء: الأسراء العتقاء. والطّليق: الأسير الّذي أطلق عنه إساره وخلّي سبيله. وطلاق النّساء لمعنيين:

أحدهما: حلّ عقدة النّكاح.

والآخر: بمعنى التّخلية والإرسال[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف كثيرًا معنى الطلاق اصطلاحًا عن معناه اللغوي إلا أن له في الاصطلاح الشرعي شروطًا وأحكامًا وصورًا يميزها عما كانت عليه في الجاهلية، ويعرّف الفقهاء الطّلاق بأنه: رفع قيد النّكاح في الحال أو المآل، بلفظٍ مخصوصٍ، أو ما يقوم مقامه[2].

(١) انظر: المحيط في اللغة، الصاحب ابن عباد ٥ / ٣٢٥، لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٢٢٥، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٩٣.

(٢) الدر المختار، ابن عابدين ٣/ ٢٢٦، وانظر: الشرح الكبير، الدسوقي ٢/ ٣٤٧، المغني، ابن قدامة ٧/ ٢٩٦، مغني المحتاج، الشربيني ٣/ ٢٧٩، الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢٩/ ٥.

الطلاق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طلق) في القرآن (١٤) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩	﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٠]
فعل الأمر	١	﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١]
المصدر	٢	﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٧﴾ [البقرة:٢٢٧]
اسم المفعول	٢	﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة:٢٢٨]

وجاء الطلاق في القرآن بمعناه الشرعي المعروف، وهو: حل عقدة النكاح، وفيه معناه اللغوي أيضًا -وهو التخلية من الوثاق-؛ لأنه تخليةٌ للمرأة من وثاق الزوج[(٢)]. ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٢٧-٤٢٨، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧٢١-٧٢٢.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٥١٤، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٤١٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ السراح :

السراح لغةً:

قال ابن فارس: «السين والراء والحاء أصلٌ مطّرد واحد، وهو يدلّ على الانطلاق. يقال منه: أمر سريح، إذا لم يكن فيه تعويق ولا مطل، ثمّ يحمل على هذا السّراح وهو الطّلاق؛ يقال: سرّحت المرأة»[١].

السراح اصطلاحًا:

هو «إطلاق الشي على وجه لا يتهيأ للعود»[٢].

الصلة بين السراح والطلاق:

إذا كان الطلاق هو رفع قيد النكاح، وإنهاء العلاقة الزوجية بين الزوجين على وجه لا يتوقع أن يعودا إلى ما كانا عليه سابقًا، فإنه -على هذا المعنى- يرادف معنى السراح.

٢ الفراق:

الفراق لغةً:

مادة (فرق) تدلّ على تمييز وتزييلٍ بين شيئين. ومنه: فرق الشعر. يقال: فرقته فرقًا. والفرق: القطيع من الغنم. والفرق: الفلق من الشّيء إذا انفلق[٣].

الفراق اصطلاحًا:

يعني: إنهاء العلاقة الزّوجيّة بين الزّوجين بحكم القاضي بناءً على طلب أحدهما لسببٍ، كالشّقاق والضّرر وعدم الإنفاق، أو بدون طلبٍ من أحدٍ حفظًا لحقّ الشّرع، كما إذا ارتدّ أحد الزّوجين...[٤].

الصلة بين الفراق والطلاق:

بما أن الطلاق هو رفع قيد النكاح، فإنه في ذات الوقت يعني: انفصال كل من الزوجين عن بعضهما البعض، فهو يرادف الفراق على هذا المعنى.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٢٢.
(٢) التوقيف، المناوي ص٩٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ٤/ ٣٩٢.
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٩/ ٧.

٣ النكاح:

النكاح لغةً:

يقصد به الضم والجمع، وهو مأخوذ من نكحه الدّواء إذا خامره وغلبه، أو من تناكح الأشجار، إذا انضمّ بعضها إلى بعض، أو من نكح المطر الأرض، إذا اختلط في ثراها[١].

النكاح اصطلاحًا:

هو «عقد يرد على تمليك منفعة البضع قصدًا»[٢].

الصلة بين النكاح والطلاق:

العلاقة بينهما واضحة، وهي متمثلة في التقابل، فالطلاق يقصد به التفريق بين الزوجين، والنكاح يقصد به الجمع بينهما.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٢٤٠.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ٢٤٦.

أنواع الطلاق

ينقسم الطلاق إلى نوعين: من جهة وقته، ومن جهة عدده، وسوف نتناولهما فيما يأتي:

أولًا: أنواعه من جهة وقته:

١ . الطلاق السني والطلاق البدعي.

شرع الإسلام الطلاق وقرنه بأحكامٍ وآدابٍ يهدف من خلالها إلى إنقاذ سفينة الحياة الزوجية، ورأب صدعها قبل فوات الأوان، وقيادتها إلى شاطئ الأمان، ومن تلك التشريعات الحكيمة: مشروعية الطلاق السّنّي، وهو أن يطلّق زوجته في طهر لم يجامعها فيه، والهدف من ذلك منح الزوجين فرصةً للمصالحة والمراجعة، كذلك من فوائد الطلاق السّنّيّ تقصير مدة العدة؛ تيسيرًا على المرأة، ورحمة بها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ [الطلاق: ١].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما أنّه طلّق امرأته وهي حائضٌ على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فسأل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (مره فليراجعها، ثمّ ليمسكها حتّى تطهر، ثمّ تحيض، ثمّ تطهر، ثمّ إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلّق قبل أن يمسّ، فتلك العدّة الّتي أمر اللّه أن تطلّق لها النّساء)[١].

قال مجاهد: أي: طاهرًا من غير جماع؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (ليراجعها، ثمّ يمسكها حتّى تطهر، ثمّ تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلّقها فليطلّقها طاهرًا قبل أن يمسّها، فتلك العدّة كما أمر اللّه عز وجل)[٢].

وقال الخازن: «أي: لزمان عدتهن وهو الطهر؛ لأنها تعتد بذلك الطهر من عدتها، وتحصل في العدة عقيب الطلاق، فلا يطول عليها زمان العدة»[٣].

وإنما نهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتضارّ؛ ولأن حالة الحيض قد تكون سببًا في نفور الزوج، فيتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهرًا، ولعل الزوج إذا تمهّل حتى يتحرّى السنة في تطليق زوجته فلربّما تنقشع سحابة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب إذا طلقت الحائض تعتد بذلك الطلاق، ٧/ ٤١، رقم ٥٢٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها، ٢/ ١٠٩٣، رقم ١٤٧١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الطلاق، ٦/ ١٥٥، رقم ٤٩٠٨.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٦/ ١١٧.

الهجر والخصام، وتشرق شمس الصفا والوئام، هذا ويراعي الإسلام حالة المرأة النفسية والعضوية في فترة حيضها، فيرجع الرجل عزمه على الطلاق لحين طهرها؛ لعلها تعود إلى حالتها وطبيعتها بعد انقضاء الحيض.

٢. الطلاق قبل الدخول.

يتضمّن حديث القرآن عن الطلاق قبل الدخول أمرين، كلاهما يفصح عن رحمة الإسلام بالمرأة، وتخفيفه عنها:

أولهما: أن المرأة لا تعتدّ منه.

وثانيهما: أن لها الحق في نصف المهر أو في المتعة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فليس على المطلقة قبل الدخول بها عدة؛ لأن الغرض من العدة استبراء الرحم.

وللمطلقة قبل الدخول حقوق مالية.

قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٦-٢٣٧].

رفع الله تعالى الحرج عن الرجل إذا طلق المرأة قبل الدخول، ولم يسمّ مهرًا، فلا يجب عليه مهرٌ، لكن إذا طلّقها قبل الدّخول وقد فرض لها مهرًا فلها نصف هذا المهر المسمّى.

والمطلقات أربع:

١. مطلقةٌ مدخولٌ بها مفروضٌ لها، فلها حقّها كاملًا في المهر، ولا يجوز للزوج أن يأخذ مما آتاها شيئًا، وعليها العدة.

٢. ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها فلها مهر المثل.

٣. ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها، وهي المذكورة بقوله سبحانه هنا: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ فلها نصف المهر المسمّى.

٤. ومطلقة غير مفروض لها، ولا مدخول بها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

والمراد بالفريضة هنا: تسمية المهر، فلا مهر لها، بل المتعة، ولا عدّة عليها، وتسمية

المهر بالفريضة تعظيمًا له، وتشديدًا على أدائه فهو حقٌّ للزوجة، يجب على زوجها الوفاء به.

وقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن شيئًا يكون متاعًا لهنّ، وظاهر الأمر الوجوب، وبه قال عليٌّ وابن عمر والحسن البصريّ وسعيدُ بن جبير والزهري وقتادة والضحاك، ومن أدلة الوجوب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

وقال مالك وأبو عبيد والقاضي شريح وغيرهم: إن المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لا واجبة؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين، ويجاب عنه بأن ذلك لا ينافي الوجوب، بل هو تأكيد له[1].

والمتعة هنا على حساب حال الزوج يسارًا أو إعسارًا، قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: أن الوفاء بذلك، والقيام به شأن أهل التقوى والإحسان، وكل مسلم يجب عليه أن يتقي الله سبحانه، وأن يراعي الإحسان.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾

﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ أي: المطلقات، فيتنازلن عن حقّهن في المهر أو عن جزء منه ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: الزوج، بأن يمنحها المهر كلّه.

﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ الخطاب هنا للرجال وللنساء، ترغيبٌ للجميع في العفو والتسامح، فتقوى الله تعالى درجاتٌ، هناك التقي وهناك الأتقى، والناس يتفاوتون في القرب من تقوى الله تعالى، فإذا كان العادل يتحرّى التقوى فإن العفو أعظم درجةً في التقوى، وإن العفوّ أقرب إلى التقوى، وكون عفو الزوج أقرب للتقوى من حيث إنه كسر قلب مطلقته، فيجبرها بدفع جميع الصداق لها؛ إذ كان قد فاتها منه صحبته، فلا يفوتها منه نحلته؛ إذ لا شيء أصعب على النساء من الطلاق، فإذا بذل لها جميع المهر لم تيأس من ردّها إليه، واستشعرت من نفسها أنه مرغوب فيها، فانجبرت بذلك[2].

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾ والمعنى: أن الزوجين لا ينسيان التفضّل من كل واحد منهما على الآخر، ومن جملة ذلك أن تتفضل المرأة بالعفو عن النصف، أو يتفضل

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٤٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٣٩.

الرجل عليها بإكمال المهر[1].

وقد تضمّنت هذه الآيات أحكامًا منها:

١. جواز طلاق المرأة قبل الدخول بها، والفرض لها، مع مراعاة حقها في المتعة.

٢. المتعة تقدّر على الرجال بحسب اليسار أو الإعسار.

٣. للمرأة المطلقة قبل الدخول بها نصف المهر المسمّى لها إلا أن تتنازل عنه، أو عن جزء منه، أو يتنازل الزوج عنه كلّه، فيوفّيها المهر كاملًا، وهذا هو الأقرب للتقوى.

٤. الترغيب في مراعاة الفضل والإحسان ومراقبة المولى عز وجل، في هذه الأحوال خاصةً، وفي سائر الأحوال.

٥. المتعة واجبةٌ لكل مطلّقة لم يسمّ لها مهر، ومندوبةٌ لغيرها من المطلقات.

٦. المطلّقة قبل الدخول لها نصف المهر إذا كان المهر مذكورًا.

ثانيًا: أنواعه من جهة عدده:

وهو نوعان: طلاق رجعي، وطلاق بائن.

١. الطلاق الرجعي.

الطلاق الرجعي: «هو: ما يجوز معه للزّوج ردّ زوجته في عدّتها من غير استئناف عقدٍ»[2].

ورد الحديث عن الطلاق الرجعي أحكامه وآدابه في سورة البقرة، وفي سورة الطلاق.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال تعالى في سورة الطلاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ۝١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ [الطلاق: ١-٢].

عدده:

في سورة البقرة بيّن تعالى عدده، فقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي: مرة بعد مرة، وهو الطلاق الرّجعيّ، حيث يمكن للزوج إرجاع زوجته ما دامت في العدة، فإذا انقضت عدّتها لا ترجع إليه إلا بعقدٍ جديد

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٤٢.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٩/ ٢٩.
وانظر: حاشية ابن عابدين ٣/ ٢٩٣، وحاشية الدسوقي ٢/ ٣٨٥، ومغني المحتاج، الشربيني ٣/ ٣٩٦، والمغني، ابن قدامة ٧/ ٤١٧.

ومهر جديد وبرضاها ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ إمساكٌ بمعروف إذا راجعها، أي: بما هو معروفٌ عند الناس من حسن العشرة، أو تسريحٌ بإحسان إذا لم يرغب في إرجاعها، فيفارقها ويوفّيها حقّها، فهذا من الإحسان الذي أمر الله به.

حقّ الرجل في إرجاع زوجته التي طلّقها مرة أو مرتين:

للزوج أن يراجع زوجته في مدة عدتها، فإذا انتهت العدة سقط حقّه في مراجعتها، وله أن ينكحها بعقد ومهر جديدين، والأمر إليها إن شاءت قبلته أو ردّته، قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ إما أن يمسكها ويراجعها بالمعروف، وإما أن يفارقها ويسرّحها بإحسان.

قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ وبعولتهن: أي أزواجهن، وإنما عبّر بالبعولة لأنها من التبعّل وهو حسن المعاشرة، وباعل الرجل أهله لاعبها، وكذلك سمي الزوج بعلًا لأنه قيّمٌ على زوجته مسئول عنها ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في خلال مدة العدة، وهذا خاصٌّ بالطلاق الرجعيّ، أما إذا طلّقها ثلاثًا فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: بالمراجعة، أي: إصلاح حاله معها وحالها معه.

فإذا اتفق الزوجان على استئناف الحياة الزوجية فلابدّ من مراعاة الحقوق الزوجية، ومعرفة كلّ زوجٍ بما له وما عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: لهنّ من الحقوق الزوجية كما عليهن من الواجبات ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ بقوامة الرجل على زوجته، وإنفاقه عليها، ولزوم طاعته.

وجاء الحديث عن الطلاق الرجعي في سورة الطلاق.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: فإذا شارفت المطلقة المعتدة على انقضاء عدتها، وقاربت ذلك، فالخيار للزوج فيها إن شاء أن يمسكها بمعروف، أو يفارقها بإحسان ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فراجعوهنّ إلى عصمة النكاح مع الإحسان في صحبتهن كما أمر الله، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن.

٢. الطلاق البائن.

إذا طلّق الزوج زوجته الطلقة الثالثة فقد بانت منه، وحرمت عليه، فلا تحلّ له إلا إذا نكحت غيره نكاحًا شرعيًّا، والنكاح هنا بمعنى العقد والدخول، فلا يكفي العقد عليها، بل لابدّ من الدخول بها.

قال تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رجلًا طلّق امرأته ثلاثًا فتزوجت، فطلّق، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم: أتحلّ للأوّل؟ قال: (لا حتّى يذوق عسيلتها، كما ذاق الأوّل)[1].

فإذا طلّقت المرأة ثلاثًا، ثم تزوجت بآخر، ثم طلّقها بعد دخوله بها فإنها تحلّ للزوج الأول إذا عقد عليها، على أن يستأنفا حياتهما الجديدة على أسسٍ متينةٍ، فكما أن الخوف من عدم إقامة حدود الله في الحياة الزوجية يعطي للمرأة الحقّ في الخلع وللرجل الحقّ في الطلاق، فإنه إن ظنّا إمكان المعاشرة والاستمتاع مع رعاية الحقوق والواجبات فيجوز لهما الرجوع ما لم تكن متزوجة بغيره، أي: إن طلّق الرجل زوجته طلقة ثالثة فقد بانت منه وحرم عليه مراجعتها إلا إذا تزوجت زواجًا شرعيًّا من غيره وطلّقت منه.

قال الإمام القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠] شرط، قال طاووس: إن ظنا أن كل واحد منهما يحسن عشرة صاحبه، وقيل: حدود الله فرائضه؛ أي: إذا علما أنه يكون بينهما الصلاح بالنكاح الثاني، فمتى علم الزوج أنه يعجز عن نفقة زوجته أو صداقها أو شيء من حقوقها الواجبة عليه، فلا يحل له أن يتزوجها حتى يبيّن لها، أو يعلم من نفسه القدرة على أداء حقوقها، وكذلك لو كانت به علةٌ تمنعه من الاستمتاع كان عليه أن يبيّن؛ كيلا يغر المرأة من نفسه.

وكذلك لا يجوز أن يغرها بنسب يدّعيه ولا مال له ولا صناعة يذكرها وهو كاذب فيها.

وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج، أو كان بها علة تمنع الاستمتاع من جنون أو جذام أو برص لم يجز لها أن تغره، وعليها أن تبيّن له ما بها من ذلك، كما يجب على بائع السلعة أن يبيّن ما بسلعته من العيوب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب من أجاز طلاق الثلاث، ٧/ ٤٣، رقم٥٢٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثًا لمطلقها حتى تنكح زوجًا غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها، ٢/ ١٠٥٧، رقم ١٤٣٣.

ومتى وجد أحد الزوجين بصاحبه عيبًا فله الرد، فإن كان العيب بالرجل فلها الصداق إن كان دخل بها، وإن لم يدخل بها فلها نصفه، وإن كان العيب بالمرأة ردّها الزوج، وأخذ ما كان أعطاها من الصداق»[1].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ والإشارة إليها تنبيهٌ لها وتنويهٌ وتعظيمٌ لشأنها، وإضافتها لله تعالى لأنها شرعه، وفي الإضافة أيضًا تعظيمٌ لها ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: يعلمون ما أمرهم الله تعالى به، وفي هذا تنويهٌ بشرف العلم ومكانة العلماء، وتوجيهٌ لمعرفة الحكم من التشريعات ومقاصدها.

حكم المطلقة ثلاثًا، ومتى تحلّ للزوج الأول:

المطلقة ثلاثًا تحرم على زوجها الأول حتى تتزوج بزوج آخر، وهي التي يسمّيها الفقهاء (بائنة بينونة كبرى)، وذلك لأن الله تعالى ذكر الطلاق وبيّن أنه مرتان، ثم ذكر حكم الخلع وأعقبه بقوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ فدلّ على أن المراد به: الطلاق الثالث، والنكاح في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ المراد به: الوطء لا العقد، فلا تحلّ للزوج الأول حتى يطأها الزوج الثاني.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ١٥٣.

حرمة وبطلان نكاح المحلّل:

المحلّل -بكسر اللام- هو الذي يتزوج المطلّقة ثلاثًا بقصد أن يحلّها للزوج الأول، وقد سمّاه صلى الله عليه وسلم بالتيس المستعار، ففي الحديث: (ألا أخبركم بالتّيس المستعار؟)، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: (هو المحلّل، لعن اللّه المحلّل، والمحلّل له)[2].

قال السيد رشيد رضا: «ألا فليعلم كلّ مسلم أنّ الآية صريحةٌ في أنّ النّكاح الّذي تحلّ به المطلّقة ثلاثًا هو ما كان زواجًا صحيحًا عن رغبةٍ، وقد حصل به مقصود النّكاح لذاته، فمن تزوّج بامرأةٍ مطلّقةٍ ثلاثًا بقصد إحلالها للأوّل كان زواجه صوريًّا غير صحيح، ولا تحلّ به المرأة للأوّل، بل هو معصيةٌ لعن الشّارع فاعلها، وهو لا يلعن من فعل فعلًا مشروعًا ولا مكروهًا فقط، بل المشهور عند جمهور العلماء أنّ اللّعن إنّما يكون على كبائر المعاصي، فإن عادت إليه كانت حرامًا، ومثال ذلك مثال من طهّر الدّم بالبول؛ وهو رجسٌ على رجس، وبهذا قال مالكٌ وأحمد والثّوريّ وأهل الظّاهر وخلائق غيرهم من أهل الحديث والفقه»[3].

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب المحلل والمحلل له، ٣/ ١١٦، رقم ١٩٣٤. وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٠٧، رقم ٢٥٩٦.

(٣) المنار ٢/ ٣١٢.

الأحكام المتعلقة بالطلاق

للطلاق أحكام، نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الإشهاد على الرجعة والطلاق:

قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: وأشهدوا عند الطلاق أو الرجعة شخصين من أهل العدالة والاستقامة ممن تثقون في دينهما وأمانتهما، والإشهاد ليس شرطًا لصحة الفراق أو الرجعة، بل هو مندوب «احتياطًا لهما، ونفيًا للتّهمة عنهما إذا علم الطّلاق ولم يعلم الرّجعة، أو لم يعلم الطّلاق والفراق، فلا يؤمن التجاحد بينهما»[1].

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي: اشهدوا بالحقّ دون تحيّزٍ لأحدٍ، مبتغين بذلك وجه الله تعالى.

ثانيًا: عدّة المطلّقات:

جعل الله تعالى للمطلقة عدةً شرعيةً، وبيّن مقدارها في كتابه، فعدة الحامل وضع الحمل، وعدة الحائل ثلاثة قروء، فإن كانت صغيرة لم تحض أو يائسة لم تعد تحيض فعدتها ثلاثة أشهر، والحكمة من ذلك استبراء رحمها، ومنح الزوج فرصة لمراجعتها إذا كان الطلاق مرة أو مرتين، وتهيئتها نفسيًّا وعضويًّا، لحياة زوجية جديدة إن كانت مطلقة ثلاثًا، أو إذا كانت رجعيةً ولم يرغب الزوج في استرجاعها.

١. الحث على إحصاء العدة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١].

قال ابن العربي رحمه الله: «والصّحيح أنّ المخاطب بهذا اللّفظ الأزواج؛ لأنّ الضّمائر كلّها من ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ ﴿وَأَحْصُوا﴾ و﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ على نظام واحدٍ يرجع إلى الأزواج، ولكنّ الزّوجات داخلةٌ فيه بالإلحاق بالزّوج؛ لأنّ الزّوج يحصي ليراجع، وينفق أو يقطع، وليسكن أو يخرج، وليلحق نسبه أو يقطع، وهذه كلّها أمورٌ مشتركةٌ بينه وبين المرأة، وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك، وكذلك الحاكم يفتقر إلى الإحصاء للعدّة للفتوى عليها وفصل الخصومة عند المنازعة فيها؛ وهذه فوائد الإحصاء المأمور به»[2].

٢. عدة المطلقة الحائل.

قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣٥٠.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ٣٧٨.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

واللام في المطلقات لام الاستغراق، فتشمل جميع المطلقات، لكن يستثنى من ذلك الحامل، فعدّتها بوضع الحمل، أما اليائسة والتي لم تحض فعدّتها ثلاثة أشهر.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

ومعنى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ أي: ينتظرن، واللفظ ينمّ عن حرص الإسلام على اختصار هذه المدّة إلى أقلّ زمنٍ يمكن أن يؤدّى فيه الغرض من إيجاب هذه المدّة، لاستبراء الرّحم، وتهيئة نفس المرأة لحياةٍ زوجيّةٍ جديدة، وكذلك إعطاء الزوج مهلةً لمراجعة زوجته، إذا كان قد طلّقها مرةً أو مرتين، أما الثالثة فلا رجعة منها إلا بعد أن تنكح زوجًا غيره، وفي اختصار المدّة على المرأة رحمةٌ بها، وتخفيفٌ عليها، ومراعاةٌ لطبيعتها.

وجملة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ جملةٌ خبريةٌ في لفظها، طلبيةٌ في معناها؛ وذلك لتأكيد الأمر وتقريره.

والقرء: هو مدّة الطهر، وقيل: الحيضة، قال أبو عمرو بن العلاء: من العرب من يسمّي الحيض قرءًا، ومنهم من يسمّي الطّهر قرءًا، ومنهم من يجمعهما جميعًا، فيسمّي الحيض مع الطّهر قرءًا، وينبغي أن يعلم أن القرء في الأصل: الوقت، يقال: هبّت الرياح لقرئها ولقارئها، أي: لوقتها، فيقال للحيض: قرء، وللطهر: قرء؛ لأن كل واحد منهما له وقت معلوم، وقد أطلقته العرب تارة على الأطهار، وتارة على الحيض.

وفي اللسان: «والقرء والقرء الحيض والطّهر ضدّ؛ وذلك أنّ القرء الوقت؛ فقد يكون للحيض والطّهر، قال أبو عبيد: القرء يصلح للحيض والطهر، قال: وأظنّه من أقرأت النّجوم إذا غابت، والجمع أقراء، وفي الحديث: (دعي الصلاة أيام أقرائك)»[(١)] [(٢)].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ ولا يحلّ للمطلقات أن يكتمن الحيض أو الحمل إن وجد بقصد الإضرار بالزوج، كأن تقول: حضت، وهي لم تحض؛ لتذهب بحق الزوج من الارتجاع، أو تنفي الحيض وهي قد حاضت لتلزمه بالنفقة، وكذلك الحمل ربّما تكتمه لتقطع حقّه من الارتجاع، وربما تدّعيه لتوجب عليه النفقة، ونحو ذلك مما يضرّ بالزوج ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن من تؤمن بالله واليوم

(١) أخرجه الدارقطني في السنن، ١/ ٣٩٤، رقم ٨٢٢، والبيهقي في السنن الصغرى، ٣/ ١٥١، رقم ٢١٦٢.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٢٨.

الآخر لا تخالف شرع الله تعالى.

٣. عدة اليائسة، والتي لم تحض، والحامل.

قال تعالى: ﴿وَالَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

وهذه الآية متصلة بما قبلها من حيث بيان ما يتعلق بالطلاق من أحكام العدة، فضلًا عما ورد في هذا الشأن في سورة البقرة فهي متممةٌ لما ورد هناك، كما ترشد الآيات إلى بعض حقوق المطلقات.

وقد ورد في سبب النزول: عن أبيّ بن كعبٍ رضي الله عنه أنّ ناسًا من أهل المدينة لمّا أنزلت الآية الّتي في البقرة في عدّة النّساء، قالوا: لقد بقي من عدّة النّساء مدّةٌ لم تذكر في القرآن: الصّغار والكبار اللائي قد انقطع عنهم الحيض، وذوات الحمل، فأنزل اللّه الّتي في سورة النّساء القصرى: ﴿وَالَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ إلى آخر الآية[1].

بيّن تعالى عدة المرأة التي يئست من المحيض لكبر سنها؛ وكذلك من رابها الأمر من البالغات مبلغ اليأس، وقد نزل الدم فلا تدري أهو دم حيض أم استحاضة؟ وكذلك من لا تحيض إما لعدم بلوغها أو لطبيعةٍ فيها: فعدتهن ثلاثة أشهر ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ أما الحامل فعدتها تنتهي بوضع الحمل سواء كانت مطلقة أو مات عنها زوجها ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ فالحامل سواءً كانت مطلقةً أو متوفّى عنها زوجها عدتها بوضع الحمل.

وفي الصحيحين من حديث سبيعة بنت الحارث الأسلميّة أنّها كانت تحت سعد بن خولة، وهو من بني عامر بن لؤي، وكان ممّن شهد بدرًا، فتوفّي عنها في حجّة الوداع وهي حاملٌ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلمّا تعلّت من نفاسها تجمّلت للخطّاب، فدخل عليها أبو السّنابل بن بعكك -رجلٌ من بني عبد الدّار- فقال لها: ما لي أراك تجمّلت للخطّاب، ترجّين النّكاح، فإنّك واللّه ما أنت بناكحٍ حتّى تمرّ عليك أربعة أشهرٍ وعشرٌ، قالت سبيعة: فلمّا قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت، وأتيت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك، فأفتاني بأنّي قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتّزوّج إن بدا لي[2].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ١٠/ ٣٣٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، ٥/ ٨٠، رقم ٣٩٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل، ٢/ ١١٢٢، رقم ١٤٨٤.

وفي رواية لمسلم بسنده عن أمّ سلمة قالت: إنّ سبيعة الأسلميّة نفست بعد وفاة زوجها بليالٍ، وإنّها ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها أن تتزوّج[1].

وهذا من تيسير الإسلام ورحمته بالمطلقة والأرملة أن شرع لها الزواج بعد انقضاء عدتها التي قدّر لها هذه المدة اليسيرة؛ رحمةً بها، ورعايةً لها.

٤ . عدة المطلقة قبل الدخول.

ليس على المطلقة قبل الدخول عدة؛ إذ الغرض من العدة استبراء الرحم، وزوجها لم يدخل بها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

حقوق المطلقة

للمطلقة حقوق بيّنها الوحي، نذكرها فيما يأتي:

أولًا: حق المطلقة في مؤخّر الصداق:

نهى الله عز وجل عن ظلم المرأة وهضم حقوقها، وحرمانها من صداقها؛ ففي ذلك كفرانٌ للعشرة، ونسيان للمودة، ونقض لذلك الميثاق الغليظ الذي أخذه الرجل على نفسه حين عقد بها أن يحسن معاشرتها، وأن يتقي الله فيها، وأن تدوم الألفة بينهما، لكن إذا تبين للرجل بعد الصبر والتجمل استحالة العشرة مع زوجته، وأخفق في تقويمها ولم يكن بدٌّ من الفراق فعليه أن يوفيّها حقّها في الصداق، وأن يسرّحها بمعروف.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [النساء: ٢٠-٢١].

وهكذا تخاطب الآية الكريمة المشاعر والوجدان، وتذكّر الرجل بكلّ لحظة سعادةٍ عاشها مع زوجته، أفضى إليها وأفضت إليه، يذكّر القرآن بأوقات الصّفا التي مرّت وبقيت ذكرياتٍ جميلةٍ، ألا تستحقّ أن يوفي لتلك

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل، ٢/ ١١٢٢، رقم ١٤٨٥.

المرأة حقّها، ألا يدور في ذاكرته إلا مشاهد النكد مع تلك الزوجة التي كرهها! إن أيّ حياةٍ زوجيةٍ لا يمكن أن تخلو من أوقات ممتعةٍ، فضلًا عن قيامها على مبدأ أساس: إمساكٌ بمعروف، أو تسريح بإحسانٍ، من هنا كان التذكير بهذه الذكريات الجميلة، والليالي الطيّبة التي جمعت بين الزوجين علّ تذكّرها يرقق قلب الزوج، وصدق من قال[1]:

أجل بيننا رسل الذكريات
وماضٍ يطيف ودمعٌ يجود

يقول القشيري رحمه الله: «يعلّمهم حسن العهد، ونعت الكرم في العشرة، فيقول: لا تجمع الفرقة، واسترداد المال عليها، فإن ذلك ترك الكرم؛ فإن خوّلت واحدة مالًا كثيرًا ثم جفوتها بالفراق، فما آتيتها يسيرٌ في جنب ما أذقتها من الفراق، قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ يعني: أن للصحبة السالفة حرمةً أكيدةً، فقفوا عند مراعاة الذّمام، وأوفوا بموجب الميثاق»[2].

وقال البيضاوي: «﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

إنكار لاسترداد المهر والحال أنه وصل إليها بالملامسة، ودخل بها، وتقرر المهر ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ عهدًا وثيقًا، وهو حق الصحبة والممازجة، أو ما أوثق الله عليهم في شأنهن بقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أو ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله)»[3].

وقال صاحب الظلال: «ويدع الفعل ﴿أَفْضَىٰ﴾ بلا مفعول محدد، يدع اللفظ مطلقًا يشع كل معانيه، ويلقي كل ظلاله، ويسكب كل إيحاءاته، ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتصورات والأسرار والهموم والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب، يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتهما فترة من الزمان.

وفي كل اختلاجة حبٍّ إفضاء، وفي كل نظرة ودٍّ إفضاء، وفي كل لمسة جسم إفضاء، وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء، وفي كل تفكر في حاضر أو مستقبل إفضاء، وفي كل شوق إلى خلف إفضاء، وفي كل التقاء في وليد إفضاء.

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه

(١) البيت لأحمد شوقي في ديوانه ٢/ ٦٠.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٣٢٣.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٦٦.

ذلك التعبير الموحي العجيب ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير، ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد من صور الماضي، وذكريات العشرة في لحظة الفراق الأسيف! ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عاملًا آخر من لون آخر ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾»[1].

ثانيًا: حق المطلقة في المتعة:

ومن الحقوق المترتّبة على الطّلاق متعة المطلقة. قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٢٤١ - ٢٤٢].

فلكلّ مطلّقةٍ متعةٌ على كلّ تقيٍّ؛ جبرًا لخاطرها، وتسليةً لفؤادها، وهذه المتعة واجبةٌ على من طلّقت قبل الدخول بها إن لم يسمّ لها مهرًا، ومندوبةٌ لمن طلّقت قبل أو بعد الدخول إن سمّي لها المهر.

ثالثًا: حق المطلقة الرجعية في البقاء ببيت الزوجية:

للمطلقة الحقّ في البقاء ببيت الزوجية، وليس للزوج أو لغيره إخراجها منه؛ حتى تنقضي عدتها، والحكمة من بقائها في بيت الزوجية حرص الإسلام على التأليف بين الزوجين، فضلًا عن حقها في السكنى؛ لأن الزوجية لا تزال قائمة بالنسبة للرجعية ما لم تنقض عدتها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

وقوله: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضي عدتهن، إلا إذا قارفت المطلقة عملًا قبيحًا كالزنا، فتخرج لإقامة الحد عليها، فنهى الله سبحانه وتعالى أن يخرج الرجل المرأة المطلّقة من المسكن الذي طلّقها فيه، ونهاها هي أن تخرج باختيارها، فلا يجوز لها المبيت خارجًا عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهارًا إلا لضرورة؛ وذلك لحفظ النسب، وصيانة المرأة، أما الفاحشة التي تبيح خروج المعتدة فقيل: إنها الزنا، فتخرج لإقامة الحد عليها، وقيل: إنه سوء الكلام مع الأصهار، وبذاءة اللسان، فتخرج ويسقط حقها من السكنى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٦.

«الفاحشة المبينة بذاءتها على أهل زوجها، فيحلّ إخراجها لسوء خلقها»[1].

وأضاف البيوت إليهنّ وهي لأزواجهنّ لتأكيد النهي، وبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى في مدّة العدّة[2].

ولا يجوز للمرأة أن تخرج ما لم تنقض عدتها، فإن خرجت لغير ضرورة أثمت، فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدمًا أو غرقًا جاز لها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إذا كان لها حاجة ضرورية من بيع غزل أو شراء قطن جاز لها الخروج نهارًا ولا يجوز ليلًا، يدل على ذلك أن رجالًا استشهدوا بأحد، فقالت نساؤهم: نستوحش في بيوتنا، فأذن لهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتحدثن عند إحداهنّ، فإذا كان وقت النوم تأوي كلّ امرأةٍ إلى بيتها، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (تحدثن عند إحداكن ما بدا لكن، فإذا أردتن النوم فلتؤب كل امرأة منكن إلى بيتها)[3].

وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالة جابر وقد كان طلّقها زوجها أن تخرج لجذاذ نخلها.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٥٠.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٦/ ١١٨.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، ٧/ ٣٦، رقم ١٢٠٧٧، والبيهقي في السنن الكبرى، ٧/ ٧١٧، رقم ١٥٥١٢.
وضعفه الألباني في الضعيفة، ١٢/ ٢٠٦، رقم ٥٥٩٧.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: طلّقت خالتي، فأرادت أن تجدّ نخلها، فزجرها رجلٌ أن تخرج، فأتت النّبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: (بلى، فجدّي نخلك، فإنّك عسى أن تصدّقي، أو تفعلي معروفًا)[4].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: وهذه الأحكام هي شرائع الله ومحارمه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: ومن يخرج عن هذه الأحكام، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب، وأضرّ بها حيث فوّت على نفسه إمكان إرجاع زوجته إليه، وأضرّ بها، وأخلّ ببعض حقوقها.

وفي هذا تشديدٌ لكل من يتعدى حدود الله تعالى التي حدّها في أمر الطلاق من ذلك طلاق المرأة في حيضها، أو في طهر جامعها فيه، وإخراجها من بيتها بغير حقٍّ وفي غير ذلك من المخالفات التي نهت عنها الشريعة، فتلك حدود الله لا يتجاوزها ولا يتعدّاها إلا من ظلم نفسه فعرّضها لسخط الله تعالى، وأوردها موارد الهلاك.

أما من يقيم حدود الله، ويمتثل لأوامر الله، ويجتنب ما نهى عنه، فإنه يتعرض

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب جواز خروج المعتدة البائن، والمتوفى عنها زوجها في النهار لحاجتها، ٢/ ١١٢١، رقم ١٤٨٣.

لرحمة الله، ويحظى بلطف الله، وينال ثمرة تقواه واستقامته.

رابعًا: الحكمة من بقاء المطلقة في بيت الزوجية:

قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

لعلّ الله يحدث في قلبه ما يغيّر حاله، ويرغّبه في إبقاء زوجته وتقرّ عينه بها، ويصلح الله بالها، ولعلّ اجتماعهما تحت سقف واحد يؤلّف القلبين، وقد قيل[(١)]:

وأقرب ما يكون الشوق يومًا
إذا دنت الخيام من الخيام

فالأمر الذي يحدثه الله: أن يقلّب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه؛ فيراجعها، وتهبّ نسائم المودّة من جديد، وترجع طيور الحب للتغريد، في هذا البيت السعيد.

قال صاحب الظلال: «والحكمة من إبقاء المطلقة في بيت الزوج هي إتاحة الفرصة للرجعة، واستثارة عواطف المودة، وذكريات الحياة المشتركة، حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين؛ فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين! فأما حين ترتكس في حمأة الزنا، وهي في بيته! أو تؤذي أهله، أو تنشز عليه، فلا محل لاستحياء المشاعر الطيبة، واستجاشة المودة الدفينة، ولا حاجة إلى استبقائها في فترة العدة، فإن قربها منه حينذاك يقطع الوشائج ولا يستحييها!»[(٢)].

خامسًا: حق المطلقة البائن في إرضاع ولدها:

قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

الرضاعة حقٌّ للولد، والإرضاع حقٌّ للأم، فللمطلقة إرضاع ولدها حولين كاملين إذا أرادت ذلك باختيارها ما لم يتمكّن الأب من استئجار مرضع، وتجب النفقة على الوالد مدة إرضاعها الولد، قال القرطبي: «ولما ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق ذكر الولد؛ لأن الزوجين قد يفترقان وثمّ ولد، فالآية إذا في المطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن»[(٣)].

(١) البيت في ديوان الصبابة، ابن أبي حجلة ص٩.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ١٦٠.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ أمرٌ جاء بصيغة الخبر للمبالغة في تقريره، وهذا الأمر للندب والاستحباب وليس للوجوب؛ لأن الإرضاع ليس واجبًا على المرأة، كما قال الفقهاء، إلا إذا لم يتمكّن الأب من استئجار ظئرٍ، أي: امرأةٍ ترضع ولده في مقابل أجر، أو لم يقبل ثدي غير أمه، والتعبير عنهن بلفظ (الوالدات) دون قوله: والمطلقات لبيان حقوقهن كأمهات ولاستعطافهن نحو الأولاد، فحصول الطلاق لهن لا ينبغي أن يحرمهن من عاطفة الأمومة، ولا يحرم الأبناء من حقوقهن المشروعة، قال السدي والضحاك وغيرهما: أي: هن أحقّ برضاع أولادهن من الأجنبيات لأنهن أحنى وأرقّ، وانتزاع الولد الصغير إضرار به وبها، وهذا يدل على أن الولد وإن فطم فالأمّ أحق بحضانته ما لم تتزوج؛ لفرط حنوّها وشفقتها[1].

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي: عامين على التمام ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ لبيان أن الرضاعة ليست واجبة على المرأة إلا إذا عجز الزوج عن استئجار ظئر، أي: مرضع، فتعيّن على الأم إرضاع ولدها ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المطلقة لها الحق في الأجرة لإرضاعها ولدها كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

وإنما عطف الكسوة على الرزق لئلا يتوهّم أن الرزق قاصر على الطعام والشراب، وهذا من مراعاة حق المرأة وإكرامها، والعدول عن قوله: (وعلى الوالد) إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ فيه لطيفة، وهي أن الأولاد يتبعون الأب ويلتحقون بنسبه دون الأم، وهذا مما يحفّزهم على العناية بالمولود، والتّعبير بالمولود له مقابل التّعبير بالوالدات إشارةٌ إلى أن المسئولية مشتركةٌ بين الوالدين؛ وكذلك في التعبير بالمولود له ترقيقٌ لقلب الوالد على ولده الذي قد يهمله نكايةً في أمه التي طلّقها، أو يجافيه كراهيةً لها، فهذا الولد الّذي يرضعنه ينسب إليه، ويحفظ سلسلة نسبه، فعليه أن ينفق عليهنّ ما يكفيهنّ حاجات المعاش من الطّعام واللّباس ليقمن بذلك حقّ القيام.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا يكلّف الوالد فوق طاقته، ولا تكلّف الوالدة فوق طاقتها، كأن يطالب الرجل بالزيادة في الأجرة، وهو معسرٌ، أو يضيّق على الأم مع يسار الأب.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ فلا ضرر ولا ضرار؛ لا يكلّف الرجل بما لا يطيق من نفقةٍ، ولا تكلّف المرأة بإرضاع ولدها وهي لا تقوى على ذلك، أو بدون الوفاء بحقها في النفقة، أو

(١) المصدر السابق ٣/ ١٦٠.

ببخس هذا الحق أو التقتير، ولا تمتنع الأم عن إرضاع ولدها نكايةً وإضرارًا بأبيه الذي طلقها؛ كذلك لا يحرم الأب الأم من حقها في إرضاع ولدها؛ حتى لا تستفيد بالنفقة.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ الوارث هو القائم مقام الوالد، عليه مثل ذلك من الواجبات، حتى وإن لم يترك الأب مالًا؛ لأن الغرم بالغنم ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الفصال والفصل: الفطام ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: قبل الحولين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: في فصله؛ وذلك أن الله سبحانه لما جعل مدة الرضاع حولين بيّن أن فطامهما هو الفطام، وفصالهما هو الفصال ليس لأحد عنه منزع، إلا أن يتفق الأبوان على أقل من ذلك العدد من غير مضارة بالولد؛ فذلك جائز بهذا البيان، إن استقرّ أمرهما على الفصال قبل نهاية الحولين، وتراضيا على ذلك فلا حرج في ذلك، ما لم يترتب على ذلك ضررٌ للطفل، فينبغي مراعاة حق الولد، وإن أدى ذلك إلى تشاور المطلقة مع من طلّقها في شأن الولد؛ لأنهما مسئولان عنه، حريصان على صلاحه.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا﴾ أي: تطلبوا لهم من يرضعهم في حالة امتناع الأم عن الإرضاع أو مطالبتها بنفقةٍ باهظةٍ إرهاقًا للأب، أو عدم تمكّنها، فيضطرّ الأب إلى أن يستأجر لهم من ترضعه، وتسمى المرضعة المستأجرة ظئرًا ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: سلّمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما أرضعن إلى وقت إرادة الاسترضاع، وسلّمتم الأجرة إلى المرضعة الظئر.

وقيل: الخطاب للوالدين، والمعنى: سلّمتم ما أتيتم من إرادة الاسترضاع، أي: سلّم كل واحد من الأبوين ورضي، وكان ذلك على اتفاق منهما وقصد خير وإرادة معروف من الأمر.

والخطاب للرجال، أي: ما آتيتم من النفقة، أو للرجال وللنساء معًا، أي: سلّم كلّ واحدٍ للآخر.

وقيل: المعنى: إذا سلّمتم لمن أردتم استرضاعها أجرها، فيكون المعنى: إذا سلمتم ما أردتم إيتاءه، أي: إعطاءه إلى المرضعات بالمعروف، أي: بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات من دون مماطلة لهنّ، أو حطّ بعض ما هو لهنّ من ذلك، فإن عدم توفير أجرهنّ يبعثهنّ على التساهل بأمر الصبيّ، والتفريط في شأنه[1].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٣٢.

سادسًا: النفقة للبائن الحامل، والأجرة للمرضع البائن:

قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٦- ٧].

يجب للمعتدة من طلاق رجعيٍّ النفقة والسكنى، أما المطلقة طلاقًا بائنًا فإن كانت حاملًا فلها النفقة والسكنى؛ حتى تضع الحمل، فإذا أرضعت ولدها استحقت الأجر على ذلك، وهذا من رحمة الإسلام بها، فالمرضع تحتاج إلى رعاية صحية وغذائية؛ لذا أوجب الله تعالى على الرجل إعطاء الأجرة لمطلقته على إرضاعها لولدهما؛ رعايةً لحقّها وحقّ الطفل.

كما أمر الله الآباء والأمهات بالتشاور في شئون الأولاد بما هو أصلح لهم في أمورهم الصحية، والخلقية، والتربوية، والتعليمية، وغيرها؛ من باب التناصح والتعاون على الخير.

قال تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: وليأمر كلٌّ منهما صاحبه بالخير، من المسامحة والرفق والإحسان، قال الخازن: «﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف، وقيل: يتراضى الأب والأم على أجرٍ مسمى، والخطاب للزوجين جميعًا أمرهم أن يأتوا بالمعروف، وما هو الأحسن ولا يقصدوا الضرار، وقيل: المعروف هاهنا أن لا يقصّر الرجل في حق المرأة ونفقتها، ولا المرأة في حق الولد وإرضاعه»[1].

أما إذا لم يحصل وئامٌ واتفاقٌ بين الأبوين في تحديد الأجرة، فليس للأب إكراه الأم على الإرضاع إن أبت، بل يستأجر مرضعة أخرى، فإن لم يجد أو عجز عن إعطاء الأجرة لزم الأمّ إرضاع ولدها؛ حفاظًا على حقه في الحياة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: في حق الولد وأجرة الرضاع، فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها، وأبت الأم أن ترضعه، فليس له إكراهها على إرضاعه، بل يستأجر للصبي مرضعًا غير أمه.

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي: فليستأجر لولده مرضعةً غيرها، وهو خبرٌ بمعنى الأمر، أي: فليسترضع لولده مرضعةً أخرى «إلا أن لا يقبل المولود غير أمه فتجبر حينئذٍ على إرضاعه بأجرة مثلها، ومثل الزوج في حالهما وغناهما»[2].

(١) لباب التأويل، الخازن ٦/ ١٢٠.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/ ٣٧٣.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٦٩.

قال أبو حيان: «وفيه عتابٌ للأم لطيفٌ كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها: سيقضيها غيرك، تريد أنها لن تبقى غير مقضية، وأنت ملوم»[1].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

بيانٌ لقدر الإنفاق، والمعنى: لينفق الأب على قدر وسعه وطاقته، فلا يكلّف ما لا يطيق، ولا يضيّع الولد أو الأم، بل لابدّ من الاعتدال والموازنة بين الحقوق.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي: ومن ضيّق عليه رزقه فكان دون الكفاية ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: فلينفق على مقدار طاقته، وعلى قدر ما آتاه الله من المال ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي: لا يكلّف الله أحدًا إلا بقدر طاقته واستطاعته، فلا يكلّف الفقير مثل ما يكلف الغني، قال أبو السعود: «وفيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكد ذلك الوعد بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي: سيجعل الله بعد الضيق الغنى، وبعد الشدة السعة والرخاء، وفيه بشارةٌ للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم»[2].

سابعًا: حق المطلقة في الزواج، وحرمة عضلها:

للمطلقة الرجعية بعد انقضاء عدتها الحق في الرجوع لزوجها إن شاء ذلك، بعقد جديد، ومهر جديد، ولها الحق في الزواج بغيره، أما البائن فلها أن تتزوج بعد انقضاء عدتها، ولا يجوز عضل المرأة، أي: منعها من الزواج سواء كان هذا العضل من جهة الزوج أو من جهة وليها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣١].

فنهى تعالى في هاتين الآيتين عن عضل الزوجة سواءً كان من قبل الزوج الذي يتعمّد إمساكها للإضرار بها وتعطيلها عن حقّها بإطالة مدة اعتدادها، أو من قبل وليّها الذي قد يعضلها عن الرجوع لزوجها الأول بعد انقضاء عدتها، أو يعضلها عن الزواج بغيره لشيءٍ في نفسه.

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن عضل المرأة إذا انقضت عدّتها أن تتزوج، أو شارفت على الانقضاء أن ترجع إلى زوجها إذا كان الطلاق رجعيًّا، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾

(١) البحر المحيط، ١٠/ ٢٠٥.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٦٣.

أي: أشرفن على أن يبنّ بانقضاء العدة ولم يرد حقيقة انقضاء العدة؛ لأن العدة إذا انقضت لم يكن للزوج إمساكها، فالبلوغ ها هنا بلوغ مقاربة، يقال: بلغ المدينة إذا قرب منها وإذا دخلها، والمراجعة بالمعروف أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء، والتسريح بالمعروف: أي: تركهن حتى تنقضي عدتهن.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ أي: لا تقصدوا بالرجعة المضارة بتطويل المدة عليهن ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: أضرّ بنفسه بمخالفة أمر الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ بمخالفة شرعه، والاستهانة به، أو الاستهزاء والاستخفاف أو التلاعب.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «هو أن الرجل كان يطلّق امرأته ثم يقول: كنت لاعبًا، ويعتق ويقول: مثل ذلك، وينكح ويقول مثل ذلك»[(١)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثٌ جدّهنّ جدٌّ، وهزلهنّ جدٌّ، النّكاح والطّلاق والرّجعة)[(٢)].

وصور العضل من الزوج متعددة: منها أن يجحد الطلاق، أو يدّعي رجعةً في العدة، أو يتوعّد من يتزوّجها، أو يسيء القول فيها؛ لينفّر الناس عنها، فنهوا عن العضل مطلقًا بأيّ سببٍ كان مما ذكرناه ومن غيره.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وقد ورد في سبب النزول عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ نزلت في الرّجل يطلّق امرأته تطليقةً، أو تطليقتين فتنقضي عدّتها، ثمّ يبدو له في تزويجها وأن يراجعها، وتريد المرأة فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى اللّه سبحانه أن يمنعوها»[(٣)].

وعن معقل بن يسارٍ رضي الله عنه أنّها نزلت فيه: قال: «زوّجت أختًا لي من رجلٍ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ٤٢٥.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب في الطلاق على الهزل، ٣/ ١١٨، والترمذي في سننه، كتاب الطلاق، باب ما جاء في الجد والهزل في الطلاق، ٢/ ٤٨١، رقم ١١٨٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب من طلق أو نكح أو راجع لاعبًا، ١/ ٦٥٨، رقم ٢٠٣٩.
قال: «هذا حديث حسن غريب».
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٨١، رقم ٣٠٢٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٩١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤١٥.

فطلّقها، حتّى إذا انقضت عدّتها جاء يخطبها، فقلت له: زوّجتك وأكرمتك فطلّقتها، ثمّ جئت تخطبها، لا واللّه لا تعود إليك أبدًا، وكان رجلًا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أنّ ترجع إليه، فأنزل اللّه هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول اللّه، قال: فزوّجها إيّاه»[1].

نهى الله تعالى عن منع الوليّ للمرأة المطلّقة إذا انقضت عدّتها من العودة إلى زوجها إذا تراضيا بالمعروف، أو الزواج بغيره، فإن المؤمن حقًّا يجتنب ما نهى الله عنه، ويمتثل ما أمر الله تعالى به، ويقدم حكم الله على هواه، فهوتعالى أعلم بما يصلح عباده في عاجلهم وآجلهم، وقد شرع لهم ما فيه صلاحهم وخيرهم.

موضوعات لها صلة بالطلاق

تحدث القرآن عن أمور لها صلة بالطلاق، نبيّنها فيما يأتي:

أولًا: الخلع:

من الحقوق التي قرّرها الإسلام للمرأة من أجل إنهاء عقدة النكاح إذا خافت من عدم الوفاء بحقوق الزوج الذي لا تطيق البقاء معه؛ سيّما إذا امتلأ قلبها بغضًا له، أو نفورًا منه؛ بسبب دمامة خلقةٍ، أو ضعفٍ أو عجزٍ ونحوه، أو بسبب سوء خلقٍ، فتضطرّ الزوجة إلى المخالعة، أو بسبب عضل الرجل لزوجته، بحيث يكرهها ولا يريد أن يطلّقها، فيجعلها كالمعلّقة، فتفتدي نفسها بمالها، وإن كان يحرم عليه فعل ذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ٣/ ٣٧٩، رقم ٥١٣٠.

[البقرة: ٢٢٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس رضي الله عنهما أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام![(١)] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتردّين عليه حديقته؟) قالت: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقبل الحديقة وطلّقها تطليقةً)[(٢)].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيّما امرأةٍ سألت زوجها طلاقًا في غير ما بأسٍ، فحرامٌ عليها رائحة الجنّة)[(٣)].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ الخطاب للأزواج، أي: لا يحل لهم أن يأخذوا مما دفعوه إلى نسائهم من المهر شيئًا على وجه المضارّة لهن «وخصّ ما دفعوه إليهن بعدم حلّ الأخذ منه مع كونه لا يحلّ للأزواج أن يأخذوا شيئًا من أموالهن التي يملكنها من غير المهر؛ لكون ذلك هو الذي تتعلق به نفس الزوج، وتتطلع لأخذه دون ما عداه مما هو في ملكها، على أنه إذا كان أخذ ما دفعه إليها لا يحل له كان ما عداه ممنوعًا منه بالأولى»[(٤)].

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ يخاف الزوج أو تخاف الزوجة من التقصير في الحقوق الشرعية الواجبة، فإن خاف الزوجان أو أحدهما، واستشعر القاضي ذلك ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: خاف الحاكم أو الولي أو القاضي أو من يتوسّط بين الزوجين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: لا جناح على الرجل في الأخذ، وعلى المرأة فيما أعطت بأن تفتدي نفسها من ذلك النكاح ببذل شيء من المال يرضى به الزوج، فيطلقها لأجله، وهذا هو الخلع، وقد ذهب الجمهور إلى جواز ذلك للزوج، وأنه يحل له الأخذ.

قال البغوي: «تخاف المرأة أن تعصي الله

---

(١) قال السندي: «قوله: (أكره الكفر في الإسلام) أي: أخلاق الكفر في حال الإسلام، أو أكره الرجوع إلى الكفر بعد الدخول في الإسلام، وعدم الموافقة مع الزوج، وشدة العداوة في البين قد يفضي إلى ذلك، فلذلك أريد الخلع».
انظر: حاشية السندي على النسائي ٦/ ١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيفية الطلاق فيه، ٣/ ٤١٨، رقم ٥٢٧٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب في الخلع، ٢/ ٢٣٥، رقم ٢٢٢٨، والترمذي في سننه، أبواب الطلاق واللعان، باب ما جاء في المختلعات، ٢/ ٤٨٤، رقم ١١٨٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب كراهية الخلع للمرأة، ١/ ٦٦٢، ٢٠٥٥.
قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ».
وصححه الألباني صحيح الجامع ١/ ٥٢٦، رقم ٢٧٠٦.

(٤) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٩.

في أمر زوجها، ويخاف الزوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها، فنهى الله الرجل أن يأخذ من امرأته شيئًا مما آتاها إلا أن يكون النشوز من قبلها، فقالت: لا أطيع لك أمرًا، ولا أطأ لك مضجعًا ونحو ذلك»[1].

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ ما سبق من أحكام الطلاق والعدة والخلع وغيرها ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: فلا تضيّعوها، ولا تنتهكوها، ولا تتجاوزوها.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ زجرٌ لمن يتجاوز ما حدّه الله تعالى، ويضيّع فرائضه، وينتهك محارمه، فهو ظالمٌ من جملة الظالمين، ظلم نفسه، وظلم غيره.

ثانيًا: الإيلاء:

الإيلاء: حلف الرجل أن لا يطأ زوجته، وقد كان الرجل في الجاهلية إذا غضب من زوجته حلف أن لا يطأها السنة والسنتين، أو أن لا يطأها الدهر كله، فتبقى كالمعلقة، فلا هي زوجة تتمتع بحقوقها الزوجية، ولا هي مطلقة تنكح زوجًا غيره، وجاء الإسلام ليرفع الظلم عن المرأة، ويضع حدًّا لهذا الأمر، فجعل للإيلاء مهلةً نهايتها أربعة أشهر، فإما أن يعود لزوجته، وإما أن يطلّقها، فلا تبقى معلقةً.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٢٦-٢٢٧].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان إيلاء أهل الجاهليّة السّنة والسّنتين وأكثر من ذلك، فوقّت اللّه أربعة أشهرٍ، فمن كان إيلاؤه أقلّ من أربعة أشهرٍ فليس بإيلاءٍ».

وقال سعيد بن المسيّب: «كان الإيلاء من ضرار أهل الجاهليّة، كان الرّجل لا يريد المرأة، ولا يحبّ أن يتزوّجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبدًا، وكان يتركها كذلك لا أيّمًا، ولا ذات بعلٍ، فجعل اللّه تعالى الأجل الّذي يعلم به ما عند الرّجل في المرأة أربعة أشهرٍ، وأنزل اللّه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ الآية»[2].

فإن اللّه سميع لإيلائهم وطلاقهم، عليم بنياتهم، وبما ارتكبوه مما يحرم أو يحلّ، فليراقبوه فيما يفعلون، فإن أرادوا إيذاء النساء ومضارتهن، فهو يتولى عقابهم، وإن كان لهم عذر شرعي مثل حملهن على إقامة حدود اللّه، فاللّه يغفر لهم[3].

«والحكمة في موقف الشّريعة الإسلاميّة من الإيلاء: أنّ هجر الزّوجة قد يكون من وسائل تأديبها، كما إذا أهملت في شأن بيتها، أو معاملة زوجها، أو غير ذلك من

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٦٩.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٦٨.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٣١٣.

الأمور الّتي تستدعي هجرها، علّها تثوب إلى رشدها، ويستقيم حالها، فيحتاج الرّجل في مثل هذه الحالات إلى الإيلاء، يقوّي به عزمه على ترك قربان زوجته؛ تأديبًا لها، ورغبةً في إصلاحها، أو لغير ذلك من الأغراض المشروعة؛ فلهذا لم تبطل الشّريعة الإسلاميّة الإيلاء جملةً، بل أبقته مشروعًا في أصله؛ ليمكن الالتجاء إليه عند الحاجة»[1].

فالتأديب بالهجر ينبغي ألا يتجاوز هذه المدة، فالمرأة ينفد صبرها عن هجر بعلها هذه المدة، ولا تستطيع أن تصبر أكثر منها.

«عن عبد اللّه بن دينار قال: خرج عمر بن الخطّاب من اللّيل فسمع امرأة تقول[2]:

تطاول هذا اللّيل واسودّ جانبه
وأرّقني أن لا ضجيع ألاعبه
فو اللّه لولا اللّه أنّي أراقبه
لحرّك من هذا السّرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستّة أشهر أو أربعة أشهر، فقال عمر: لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك»[3].

ثالثًا: الظهار:

هو مأخوذ من الظهر، والظهر من كل شيء خلاف البطن، وظاهر الرجل امرأته مظاهرة وظهارًا، قال لها: أنت علي كظهر ذات رحم[4].

والظهار في الاصطلاح: هو أن يشبّه امرأته أو عضوًا منها بمن تحرم عليه، ولو إلى أمد، أو بعضو منها[5].

وكان الظهار في الجاهلية أمرًا شائعًا من الأمور التي ابتدعها أهل الجاهلية، ودرجوا عليها، وألـفوها حتى صارت عندهم شرعًا، فكان الرجل منهم إذا كره زوجته أو غضب عليها قال لها: أنت عليّ كظهر أمي؛ فتصير محرمة عليه، وحدث في عهد الإسلام أن ظاهر أوس بن الصامت رضي الله عنه من زوجته خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها، ثم بدا له بعد ذلك أن يواقعها فلم تمكّنه من نفسها، وذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستفتيه في هذا الأمر، وتجادله في هذا الشأن، فأنزل الله عز وجل في ذلك قرآنًا يتلى.

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية ٧/ ٢٢٢.
(٢) البيتان في: الأوائل، العسكري ص ٤١٥، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٤١.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٣٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٢٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٢.

عليه وسلم، وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني، وانقطع له ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت عائشة: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الخ الآيات[1].

وروى الإمام أبو داود في السنن عن خويلة[2] بنت مالك بن ثعلبة قالت: ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشكو إليه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلني فيه، ويقول: (اتق الله، فإنه ابن عمك) فما برحت حتى نزل القرآن ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآيات، فقال صلى الله عليه وسلم: (يعتق رقبة). قلت: لا يجد، فقال: (فيصوم شهرين متتابعين). قلت: يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: (فليطعم ستين مسكينًا). قلت: ما عنده من شيء يتصدق به، قالت: فَأُتِيَ ساعتئذٍ بِعَرَق من تمر، قلت: يا رسول الله، فإني أعينه بعرق آخر، قال: (قد أحسنت، اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكينًا، وارجعي إلى ابن عمك)[3].

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ سمع الله تعالى قول تلك المرأة التي جاءت تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر زوجها الذي ظاهر منها ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ تبث شكواها إلى الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: يسمع ذلك الحوار الذي دار بين خولة بنت ثعلبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سميع لكل مسموع، بصير بكل مبصر، فعلى المؤمن أن يراقب الله عز وجل في معاملته لزوجته وفي جميع معاملاته.

حرمة الظهار:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

أي: لا تعتبر المرأة بقوله: أنت علي كظهر أمي، أو كأمي، أو مثل أمي، أو ما أشبه

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب الظهار، ١/ ٦٦٦، رقم ٢٠٦٣ والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المجادلة، ٢/ ٥٢٣، رقم ٣٧٩١.
وصححه الألباني بشواهده في إرواء الغليل ٧/ ١٧٥.

(٢) خويلة تصغير خولة.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب الظهار، ٢/ ٢٦٦، رقم ٢٢١٤.
وصححه الألباني بشواهده في إرواء الغليل ٧/ ١٧٥.

ذلك لا تصير أمه بذلك، إنما أمه التي ولدته.

قال ابن عاشور: «توبيخًا لهم على صنيعهم، أي: هو مع كونه لا يوجب تحريم المرأة هو قول منكر، أي: قبيح لما فيه من تعريض حرمة الأم بتخيلات شنيعة تخطر بمخيلة السامع عندما يسمع قول المظاهر: أنت علي كظهر أمي، وهي حالة يستلزمها ذكر الظهر في قوله: كظهر أمي»[1].

كما قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

دل هذا على تحريم الظهار؛ لأنه قول منكر وزور.

قال ابن حجر: «واستدل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ على أن الظهار حرام»[2].

وقال الإمام ابن القيم: «والظهار حرام، لا يجوز الإقدام عليه؛ لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور، وكلاهما حرام، والفرق بين جهة كونه منكرًا وجهة كونه زورًا أن قوله: أنت علي كظهر أمي، يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاء تحريمها، فهو يتضمن إخبارًا وإنشاء، فهو خبر زور وإنشاء منكر، فإن الزور هو الباطل بخلاف الحق الثابت، والمنكر بخلاف المعروف، وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وفيه إشعار بقيام سبب الإثم الذي لولا عفو الله ومغفرته لأخذ به»[3].

كفارة الظهار:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٣-٤].

بيّن المولى عز وجل في هاتين الآيتين الكريمتين كفارة الظهار لمن أراد أن يرجع عما قال، ويعود إلى معاشرة زوجته بعد أن ظاهر منها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ فالعود هنا هو الرجوع عن مقولة الظهار ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ عتق رقبة سليمة من العيوب صغيرة كانت أو كبيرة ذكرًا أو أنثى ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أي: من قبل حدوث أي مسيس بينهما من جماع أو تقبيل أو أي وجه من وجوه الاستمتاع،

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ٧/ ٥٨٥.

(٢) فتح الباري ٩/ ٣٤٢.

(٣) زاد المعاد ٤/ ٨٢.

وهذا هو مذهب جمهور الفقهاء الحنفية والمالكية والحنابلة، وقال الشافعي في أحد قوليه: المحرم على المظاهر هو الوطء فقط[1]؛ لأن المسيس كناية عن الجماع ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تزجرون حتى تتركوا الظهار لحرمته؛ ولعظم كفارته.

قال صاحب الظلال: «﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ فالكفارة تذكرة وعظة بعدم العودة إلى الظهار الذي لا يقوم على حق ولا معروف ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ خبير بحقيقته، وخبير بوقوعه، وخبير بنيتكم فيه، وهذا التعقيب يجيء قبل إتمام الحكم لإيقاظ القلوب، وتربية النفوس، وتنبيهها إلى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخفيه»[2].

قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أي: من لم يتمكن من عتق رقبة فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن عجز عن صيام الشهرين فعليه أن يطعم ستين مسكينًا ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: ذلك المشار إليه من تحريم الظهار وكفارته ﴿لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فمن لوازم الإيمان ومقتضياته أن تلتزموا بهذه الأحكام ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ فلا تعتدوها ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأنهم كفروا بالله، وانتهكوا محارمه، وتعدوا حدوده.

قال ابن عاشور: «الإشارة إلى ما ذكر من الأحكام، أي: ذلك المذكور لتؤمنوا بالله ورسوله، أي: لتؤمنوا إيمانًا كاملًا بالامتثال لما أمركم الله ورسوله، فلا تشوبوا أعمال الإيمان بأعمال أهل الجاهلية، وهذا زيادة في تشنيع الظهار، وتحذير للمسلمين من إيقاعه فيما بعد، أو ذلك النقل من حرج الفراق بسبب قول الظهار إلى الرخصة في عدم الاعتداد به، وفي الإخلاص منه بالكفارة، لتيسير الإيمان عليكم»[3].

وفي موقف الإسلام من الظهار: حجة ساطعة، ودلالة واضحة على تكريم الإسلام للمرأة، وصيانته وحمايته لحقوقها، وحرصه على إصلاح واستقرار الأسرة المسلمة.

وفي هذه الكفارة ما يعود بالفائدة على الفرد والمجتمع، فعتق الرقبة هو سبيل إلى تحرير الرقيق، وللإسلام موقف فريد، ومنهج رشيد في تحرير العبيد من خلال تجفيف منابع الاسترقاق، وفتح الأبواب على مصاريعها للعتق عن طريق الكفارات والقربات.

وفي صوم شهرين متتابعين تهذيب

(١) انظر: العناية شرح الهداية، البابرتي ٤/ ٢٤٨، المبسوط، السرخسي ٦/ ٢٣٠، البيان والتحصيل، ابن رشد ٥/ ١٧٧، المجموع شرح المهذب، النووي ١٧/ ٣٦٦، الكافي في فقه الإمام أحمد، ابن قدامة ٣/ ١٦٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٠٦-٣٥٠٧.

(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٠.

للأخلاق، وتقويم للسلوك، ورياضة للنفوس، وتزكية لها، وسمو بالأرواح، فالصوم تأديب بالجوع، وخشوع للمولى وخضوع، وكل عبادة لها حكمة، والصوم ظاهره العذاب، وباطنه فيه الرحمة، يعلم الصبر، ويعين على خصال البر، ويقدح زناد التأمل والفكر، وينشرح به الصدر، وفى إطعام ستين مسكينًا لفتة كريمة إلى الرحمة بالمساكين، والإحساس بمعاناتهم، ومعايشة أحوالهم، وفي هذا إرهاف للحس، وترقيق للمشاعر، وتطبيب للقلوب، وتزكية للنفوس، وهكذا نجد في الكفارة حكمًا رائعة، وثمرات يانعة للنفس والمجتمع، وهي مع شدتها وثقلها إلا أنها رحمة للناس ولطف بهم، وزجر عن الوقوع في هذا المنكر الزور.

منهج القرآن في تقرير أحكام الطلاق

تربية المسلم تربية راشدة، فعليه تدور الأحكام الشرعية، والقرآن كلّه كتاب تربيةٍ وتهذيبٍ وتزكيةٍ وتقويمٍ، وفي ثنايا الحديث عن أحكام الطلاق نلمس هذه اللطائف التربوية من ترسيخٍ للإيمان، وتهذيبٍ للنفوس، وتزكية لها، وتحليق بها في أجواء الفضيلة، ومن تغذية للعقول، وتوعيةٍ لها، وتبصرةٍ للقلوب، وغرسٍ للقيم.

١. الهدف من وجود الأسرة المسلمة إقامة حدود الله؛ وذلك مؤشر بقائها، وغاية وجودها، ومنارة مسارها.

تأمل في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة ٢٢٩-٢٣٠].

حيث يتكرر الحديث عن حدود الله تعالى في ستّ مراتٍ؛ لبيان الأساس الذي قام عليه البناء الأسري، والحصن الذي يحميه، بل والغاية من وجوده، وهو إقامة

حدود الله تعالى التي حذّر من تعدّيها، فلا يتعداها إلا ظالمٌ، وتأتي الآية التالية لتقرر هذا الأصل الشرعي، والمقصد السامي، وهو إقامة حدود الله تعالى التي هي أساس قيام الأسرة، وهدفٌ من أهداف الزواج، والله تعالى يبيّنها لأهل العلم حتى يمتثلوا لها، ويدعوا غيرهم إلى مراعاتها.

٢. مجيء القرآن بقواعد رشيدة للحياة الزوجية السعيدة، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فللزوجة حقوق كما أن عليها واجبات، وللرجال على النساء درجة ليس تعاليًا على النساء، بل لتنظيم الحياة الزوجية التي لابد لها من قيّم وقائد.

وقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقوله جل وعلا: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

أثر الإيمان بالله واليوم الآخر في امتثال ما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، تأمل أهمية الإيمان ودوره في السلوك والمعاملات في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

فالمرأة المؤمنة لا تخادع ولا تخفي الحقائق، وتلك أخلاق المؤمنة الصالحة صريحةٌ وواضحة وصادقةٌ وناصحة، كما ندرك أثر الإيمان بالله واليوم الآخر في الامتثال لأوامر الله، واجتناب ما نهى عنه الله، وأن هذا الطريق أزكى وأطهر، فلا يزيده التمسك به إلا سموًّا وارتقاء ورفعةً وانتصارًا على حظ النفس والتقاليد الجاهلية، وفي تقرير علمه تعالى مع نفي العلم عن الخلق ما يزيد المؤمنين يقينًا وتسليمًا لحكم الله تعالى، وتجرّدًا من الأهواء والآراء.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

٣. استحضار أسماء الله الحسنى، له أثر في المسارعة إلى امتثال أوامره، والفيء إلى شرائعه.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فالعزة

لمن اتبع شرع الله، وبعزته تعالى حكم، وهو الحكيم في أقداره وسننه وأحكامه، ومن تمسّك بشرعه الحكيم نال العزّة في الدارين.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وفيها تسليةٌ وبشرى لكل من قدّم عملًا صالحًا، وإن لم ينل جزاءه في الدنيا فإنه لن يضيع عند خالقه جل وعلا، فهوتعالى بصير بأعمال عباده، وإن غفل عنها الغافلون، وإن تجاهلها الناس، أو تنكّروا لفاعلها.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٣١].

يأمر الله عباده بتقواه، وأن يعلموا علم اليقين أنه العليم بما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، العليم بسرائرهم، وما تنطوي عليه نفوسهم، العليم بحاضرهم ومستقبلهم، العليم بأعمالهم وأقوالهم، وفي الآية دعوةٌ إلى اليقين بأحكام الله تعالى وسننه في عباده وأقداره، وفيها دعوة لمراقبته تعالى، فلابد من أن نؤمن ونوقن ونسلّم بإحاطة علمه تعالى بكل شيء، وهذا يزيدنا إيمانًا وتسليمًا لأحكام الله تعالى وأقداره.

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

أي: كثير الفضل واسع الرحمة، يعطي ويمنع، ويفرّق ويجمع، بعلمه تعالى وحكمته، وناسب هنا ذكر السعة، تقريرًا لما تقدّم من توسعته، قال الرازي: «... فهو تعالى واسع الرزق، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع القدرة، واسع العلم، فلو ذكر تعالى أنه واسعٌ في كذا لاختصّ ذلك بذلك المذكور، ولكنه لما ذكر الواسع، وما أضافه إلى شيء معينٍ، دلّ على أنه واسعٌ في جميع الكمالات»(١).

وناسب ذكر وصف الحكمة لبيان أنه تعالى حكيم في سعته وفضله على عباده، حكيم في أحكامه وأقداره، وفي الآية وعدٌ من الله تعالى بإغناء كلٍّ من الزوجين إذا تفرقا من سعته؛ حتى لا يلتفت كل منهما لغير الله، ولا تعتلج في قلبه همومٌ على مستقبله، ولا حزنٌ وحسرةٌ على ماضيه، وكذلك وصف الحكمة فيه ما يوحي بالرضا والتسليم بأقدار الله تعالى، فهي صادرةٌ عن حكمةٍ بالغةٍ، فهذه السعة التي وعد الله به عباده سعةٌ قائمةٌ على حكمته تعالى، وفي الآية الكريمة تسليةٌ لكل من ابتلي بالفراق، بأن فرج الله قريبٌ، وفضله واسعٌ.

وقال سبحانه في ختام سورة الطلاق: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

فالإيمان بقدر الله تعالى وعلمه التام

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٦٩.

يزيد المؤمن يقينًا وثباتًا على الحق، وحرصًا على تحقيق مراد الله تعالى، فهو تعالى القادر على كل شيء، وهو العليم بما يصلح عباده في عاجلهم وآجلهم، في معاشهم ومعادهم.

٤. التسليم لأقدار الله تعالى وحكمه وأحكامه ومراعاة سننه في عباده.

قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

٥. استحضار نعم الله تعالى على عباده، والتي من أجلها نعمة الهداية، وما أنزل الله عليهم من الكتاب والسنة لصلاحهم وإرشادهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

تذكيرٌ بنعم الله التي لا تحصى، والتي من أجلّها ما أنزله في كتابه وسنة نبيه من مواعظ يسعد من ينتفع بها، ويرشد من يتبصّرها، وقال تعالى في سورة الطلاق: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ فهذه التشريعات الربانية التي اشتمل عليها القرآن يتلوها المؤمن دائمًا ويستحضر معانيها ومقاصدها ﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [الطلاق: ١١].

أي: هذا الوحي يتلوه عليكم رسول الله، آياتٌ من عند الله، واضحاتٌ جلياتٌ، تبيّن الحلال والحرام، وتفرّق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ليخرج المؤمنين المتقين من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم.

٦. العدل ضرورة شرعية، والإحسان والفضل من أخلاق الكرام في الرضا والغضب؛ سيّما في أداء حق المطلقة ترضيةً لخاطرها، وجبرا لفؤادها.

٧. الترغيب في العمل الصالح، واختيار

ما هو أزكى وأطهر.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

٨. تقوى الله تعالى، والتوكل عليه، واليقين بما عنده خير ما يواجه به العبد ما يعتريه من هموم، وما يعترضه من مشكلات وأزمات، وللتقوى أثرها في حياة المسلم ومعاملاته وسلوكه؛ والأتقياء أوفى الناس وأحرصهم على أداء الحقوق، من هنا تأتي أهمية التقوى في الامتثال لشرع الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة: ٢٤١].

وتكرر الحثّ على التقوى في سورة الطلاق، في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

٩. الصلاة هي زاد المؤمن وسلواه وملاذه.

قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ورود الحديث عن الصلاة في سياق الحديث عن أحكام الطلاق؛ لبيان أن الإسلام منهاجٌ كامل، وتشريعٌ شاملٌ، فكما يجب الالتزام بما سبق من أحكام؛ كذلك يجب المحافظة على الصلاة.

والذي يؤدي حقّ العباد لابدّ من باب أولى أن يؤدّي حقّ الله تعالى، فإنه أعظم الحقوق، كذلك لما كانت المشكلات الزوجيّة والأزمات الأسرية ممّا قد يشغل الإنسان عن غاية وجوده ذكّره المولى بتلك الغاية الكبرى، ألا وهي عبادته تعالى التي من أجلها خلقنا، فلا ينبغي أن يشغلنا شاغلٌ عن تلك الغاية؛ لذا جاء التذكير بالصلاة في هذا السياق.

كذلك فإن الصلاة ترويحٌ للنفوس، وتطبيبٌ للقلوب، وزادٌ للأرواح إلى ظلالها يفيء أهل الإيمان، وفي رياضها يستروحون، وعلى أبواب المساجد يخلعون همومهم، فعلى المؤمن أن يستعين بالصلاة على مواجهة مشكلاته، ويفيء إلى ظلالها من بيداء همومه ورمضاء أزماته.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والصلاة قرّةٌ للعيون، وتربيةٌ للنفوس، وتهذيبٌ لها، وتزكيةٌ للقلوب، وخليقٌ بمن

يحافظ عليها أن يحافظ على حقوق العباد، وأن تظهر ثمرات الصلاة.

حاجة المشكلات الزوجية إلى تعقّلٍ، وقد بيّن الله لنا من الآيات ما يهدينا إلى ذلك، ثم مسك الختام دعوة إلى التدبر في آيات الله، وشكر الله تعالى على هذا البيان، وأنه دعوة إلى التعقّل والنظر، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ففي الختام دعوةٌ إلى التفكّر والنظر في آيات الله تعالى الشرعية والكونية؛ ليزداد المؤمن تقوى لله تعالى، بالمبادرة إلى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومراقبته تعالى، ويزيد تبصّرًا بما حوله، ووعيًا بحاضره، وحكمةً في مواجهة مشكلاته، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ فالموعظة إنما ينتفع بها، ويمتثل لها أصحاب الإيمان الراسخ والعقول النيّرة.

النظر في أحوال الأمم الهالكة، والوقوف على أسباب هلاكها، والتي في مقدمتها التمرد والعصيان، والحذر من عاقبة تعطيل شرع الله تعالى، ومجاوزة حدوده، فكم عطّلت كثيرٌ من أحكام الإسلام في كثير من البلدان بسبب كيد الأعداء وجهل الأبناء، فضيّعت الحقوق، واختلت الموازين، وسلب الأمن، وتأججت الصراعات، وطالت النزاعات، وتعطّلت المصالح، وتفكّكت الأسر، وانفرط عقد المجتمع، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ٩-١٠].

وفي الآيات دعوةٌ إلى الاعتبار بأحوال ومصير الأمم والشعوب الناكبة عن منهج الله، المعطّلة لشرائع الله تعالى.

السعادة الأبدية في الإيمان، والعمل الصالح ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

استحضار عظمة الله تعالى وقدرته، وسعة ملكه وتدبيره لهذا الكون، وإحاطة علمه، فإن هذا يزيد العبد إيمانًا ويقينًا واطمئنانًا وتسليمًا لله تعالى في هذه الأزمات ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

التدابير الوقائية من الطلاق

تتحدث هذه السطور عن حكمة مشروعية الطلاق، والتدابير الواقية من الطلاق، والتدابير الواقية من العجلة في الطلاق:

أولًا: حكمة مشروعية الطلاق:

الطلاق كما أشرنا آنفًا دواءٌ مرٌّ، أو بمثابة جراحةٍ مؤلمة؛ لما يترتّب عليه من حرقةٍ وفرقةٍ، وشتاتٍ وحرمانٍ، وانفراط عقد الأسرة، فيحرم الولد من التربية في المحضن الطبيعيّ، وتحرم البنت من رعاية أبيها، أو من حنان أمّها، أو منهما معًا، لكنّ الإسلام أجازه مع ما فيه من ضرر إذا سدّت الأبواب، وانقطعت الأسباب، وأخفقت المساعي، واستحالت العشرة، وهنا يصبح ضرورة لا مفرّ منها، واختيارًا لا بديل له، وهو بلا شكٍّ اختيارٌ لأخفّ الضررين؛ إذ إجبار متنافرين على التآلف والعشرة، وإرغام المرأة على العيش مع زوجٍ تبغضه، أو إرغام الرجل على البقاء مع امرأةٍ يبغضها أمرٌ يتنافى مع حقّ الإنسان في حياةٍ طيّبة، ويتعارض مع الحرية التي وهبها الله للعباد، فأخرجهم من بطون أمهاتهم أحرارًا، وقد قيل[1]:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى
عدوًّا له ما من صداقته بدٌّ

فكيف بمن يؤاكله ويضاجعه ويقتسم معه اللقمة والشّربة، ويلتحف معه في ثوب واحد، ويظلّهما سقفٌ واحدٌ! ويغلق عليهما بابٌ واحدٌ، كيف تستقيم حياتهما مع ما بينهما من تنافرٍ وتضادٍّ! إن إمساك المرأة ضرارًا وقهرها وقسرها على حياةٍ لا ترتضيها، وعلى قرينٍ لا تطيق عشرته أشدّ ضررًا من تسريحها.

لقد حرص الإسلام على منع الطلاق بأن دعا إلى حسن الاختيار والتكافؤ، ومعرفة مقاصد الزواج وأحكامه، وحقوق الزوجين وواجباتهما؛ ذلك أن كثيرًا من حالات الطلاق إنما تقع بسبب الجهل بذلك، أو الغفلة عنه، أو التقصير فيه، كما أمر بالمبادرة إلى رأب الصدع، وإزالة أسباب الشقاق، وتجنب الوقوع في النشوز بالإصلاح والوعظ، وربما يصل الأمر لحد التأديب، ولكن برفق ولطف، وليس بعنف.

والحياة الأسرية لا قيمة لها، ولا ثمرة من ورائها إن قامت على الشحناء والبغضاء والتنافر والتمرّد، أو فقدان الثقة بين الطرفين، بل تحتاج لمشاعر صادقة وقلوب مؤتلفة، تحتاج لجوٍّ هادئ، وعشٍّ دافئ، وبيتٍ هانئ؛ كي تنتج وتخرج جيلًا سويًّا، وهل ينبت الزرع ويستوي على عوده إذا كان في أرضٍ عاصفة!

ويمنح الشرع فرصةً تلو فرصة للزوجين

(١) البيت للمتنبي في ديوانه ١/ ٣٨٨.

النافرين؛ لعل الأيام تجمع بينهما، ومصلحة الأسرة والأولاد توحّد بينهما وتؤلف القلوب، ومن ثمّ كان الطلاق الرجعيّ لعل الطائرين يؤوبان إلى عشّهما ويثوبان إلى رشدهما، ويحدبان على صغارهما، ويستأنفان حياتهما الزوجية بحبٍّ وصفاء، فترفرف السعادة على البيت من جديد.

لقد وضع الإسلام حدًّا للفوضى التي كانت سائدةً في المجتمعات الجاهلية، وأوقف الظلم الذي كان على المرأة أن تتجرّعه إن نفر منها زوجها أو رغب عنها، فيذرها معلقةً، أو تبقى الحياة الزوجية متأرجحةً بسبب الطلاق الذي لا حدّ له، حيث كان للرجل أن يطلّق متى شاء وكيفما شاء، وأن يراجع حيث شاء، وتبقى المرأة هي الضحية لهذا الظلم الاجتماعي، وقد نزل القرآن ليصحح هذه الأوضاع، وليزيح هذه الحواجز، وليعيد للمرأة كرامتها وحريّتها، ويرفع عنها الظلم، ويضع عنها كلّ ما يثقل كاهلها ويرهقها من أغلال وآصار الجاهلية التي تهيض جناحها، وتكسر قلبها، وتنكّد حياتها، وتذوي عودها، وتذهب نضارتها، وتأكل شبابها.

من هنا كان الطلاق حمايةً لحق المرأة، وهو أيضًا حماية للرجل، وصيانة للأسرة؛ لئلا تقوم على أنقاضٍ متهالكةٍ، بل الهدم قد يكون مقدمةً للبناء الراسخ، والفراق قد يفضي إلى وصالٍ.

والحادثات وإن أصابك بؤسها
فهي التي تنبيك كيف نعيمها[1]

ثانيًا: التدابير الواقية من الطلاق:

من أهم التدابير الواقية للحياة الزوجية حسن الاختيار، فإذا بني الزواج على أسس متينة، ولبنات صالحة متناسقة، كان ذلك أرجى لدوامه، وأوثق لعراه، كذلك فهم الزوجين لمقاصد الزواج وأهدافه السامية، وفي القرآن آياتٌ كثيرةٌ تبيّن مباهج الزواج وثمراته، ومقاصده السامية، وأهدافه النبيلة، وضرورة معرفة الرجل بطبيعة المرأة، ومعرفة المرأة بطبيعة الرجل، فإن فهم الآخر من أسباب الانسجام والتآلف بين الزوجين، والتغاضي عن الهفوات، والصبر والتجمّل.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

إذ قد تجتمع في الزوجة كثير من خصال الخير خلا خصلة واحدة، لا تقدح في دينها ولا في عرضها وشرفها، خصلة يتأذى منها زوجها، ولا يجد سبيلًا إلي إصلاحها وتقويمها، ففي هذه الحالة يدعوه الإسلام إلى الصبر على تلك الزوجة والإحسان إليها ونصحها؛ لعلها تستجيب.

(١) البيت لأبي تمام في ديوانه ٢/ ١٣٨.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يفرك[1] مؤمنٌ مؤمنةً؛ إن كره منها خلقًا رضي منها آخر، أو قال: غيره)[2].

قال أبو السعود: «﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ خطاب للذين يسيئون العشرة معهن، والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروءة، والمراد هاهنا: النصفة في المبيت والنفقة والإجمال في المقال، ونحو ذلك، ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيرًا كثيرًا ليس فيما تحبونه...، وجعل الله فيه خيرًا كثيرًا فإن النفس ربما تكره ما هو أصلح في الدين وأحمد عاقبة وأدنى إلى الخير، وتحب ما هو بخلافه، فليكن نظركم إلى ما فيه خير وصلاح دون ما تهوى أنفسكم»[3].

قال ابن عاشور: «أعقب النهي عن إكراه النساء والإضرار بهن بالأمر بحسن المعاشرة معهن، فهذا اعتراض فيه معنى التذييل لما تقدم من النهي؛ لأن حسن المعاشرة جامع لنفي الإضرار والإكراه، وزائد بمعاني إحسان الصحبة»[4].

(١) الفرك البغض.
انظر: غريب الحديث، القاسم بن سلام ٤/ ٩١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، ٢/ ١٠٩١، رقم ١٤٦٩.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٥٨.
(٤) التحرير والتنوير، ٤/ ٧١.

وجهل طبيعة الآخر من أسباب النفور والشقاق، ومن أسباب دوام العشرة الوفاء بحقوق الزوجين، والمحبة والتفاهم بين الزوجين، والانسجام بينهما، وقيام كلٍّ بدوره المنوط به، فالرجل قيّمٌ على أهله، وللمرأة دورها العظيم كزوجة وأم، ومعالجة النشوز، والسعي إلى الإصلاح بين الزوجين.

قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال سبحانه: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤-٣٥].

فحماية الحياة الزوجية يقع نصيبٌ منها على عاتق المجتمع، فعلى المجتمع أن يكون عونًا للزوجين، داعمًا لهما.

أعطى الشرع الحنيف الحق للزوج في تأديب زوجته إذا أخلّت أو قصّرت في

حقوقه على نحو يعتبر نشوزًا منها، ويجب على الزوج التدرج في استعمال وسائل التأديب حيث يبدأ أولًا بوعظ زوجته، فإن لم ينفع معها الوعظ تحوّل إلى الوسيلة الثانية، وهي هجرها في المضاجع؛ وذلك بأن يوليها ظهره عند نومه، أو يهجر مضجعها فينام بعيدًا عنها[1]، فإن لم ينفع معها الهجر لجأ إلى الوسيلة الثالثة وهي الضرب.

قال الإمام الرازي: «الذي يدل عليه نص الآية أنه تعالى ابتدأ بالوعظ، ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع، ثم ترقى منه إلى الضرب؛ وذلك تنبيه يجري مجرى التصريح في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق»[2].

على أن الزوج لا يتعجّل في اللجوء إلى وسيلة الضرب، بل يصبر على زوجته، ويتحمّل تقصيرها، ويكرّر المحاولة في إصلاحها بالوعظ وإلا فبالهجر، فإذا عيل صبره ولم يعد يتحمّل شططها، ورأى أن الضرب قد يأتي بالإصلاح المنشود باشر وسيلة الضرب كعلاج لها، وليس كانتقام منها؛ لأن بعض النساء قد لا ينفع معهن إلا الضرب.

أما عن صفة الضرب فإنه يكون غير مبرح، أي: غير شديد شائن، قال الإمام النووي: «الضرب المبرح هو الشديد الشاق»[3].

وسئل ابن عباس عن الضرب غير المبرح، فقال: «بالسواك ونحوه»[4].

وعلى الزوج أن يتقي ضرب الوجه، ويجتنب ضرب البطن وغيره من المواضع المخوفة.

وفي صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم!)[5].

وضرب الزوجة الناشز: القصد منه زجرها وتأديبها حين لا يجدي معها النصح «ولا يحل استعمال هذه الرخصة إذا عرف أنها لا تنفع في تهذيبها وزجرها عما هي عليه»[6].

كما شرع الإسلام علاجًا حاسمًا لنشوز

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٩٠.
وانظر: الأم، الإمام الشافعي ٥/ ١١٤، بدائع الصنائع، لكاساني ٢/ ٣٣٤، المغني، ابن قدامة ٧/ ٤٦.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٠/ ٧٢.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم ٨/ ١٨٤.
وليس المراد بالفاحشة المبينة هنا: الزنا؛ لأن حد الزنا للمرأة المحصنة هو الرجم، وإنما المراد بالفاحشة المبينة هنا أن يدخلن من يكرهه أزواجهن أو أن يعصين أزواجهن.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ٧١٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يكره من ضرب النساء، ٧/ ٣٢، رقم ٥٢٠٤.

(٦) الخلافات الزوجية، مجدي الشهاوي ص٨٦.

الزوجة، فلقد وضع علاجًا حاسمًا لنشوز الزوج، قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

والخوف لا يكون إلا بظهور بوادر وأمارات تنذر بعاقبة ما يخاف الإنسان من أجله، فخوف المرأة هنا من بعلها مبني على بوادر قد تؤدي إلى نشوز عنها، وترفّع وسوء عشرة وعدم لين في قول، أو رقة في سلوك، وقد يرافقه عبوس وتقطيب وتغيّر في المعاملة، وقد يتطور إلى عدم مؤانستها ومعاشرتها.

أما في حال الإعراض وهو أخف درجة من النشوز فتبدو أعراضه بالسكوت عن الخير والشر والجفوة والتذمر من الصغائر مع تجاهل وعدم مبالاة، فإذا ظهرت هذه العوارض على بنية الحياة الزوجية، وأفلست المرأة في إصلاح ذات البين من قبلها بطريقتها غير المباشرة فبإمكانها أن تضع حدًّا لهذه المعاناة بالمصارحة والمصالحة بينها وبين زوجها، لاسيما إذا لمست بحاستها الأنثوية أن زوجها قد لوى عنان فرسه منصرفًا عنها، أو أنها لم يعد لها في قلبه متسع[(١)].

فالزوجة العاقلة هي التي تستشعر دائمًا مدى قرب زوجها وحبه لها، فإذا حدث فإنها تبادر بمعالجة الأمور بحكمة وروية، والزوج العاقل الكريم يقدر لزوجته حرصها على استرجاع المودة والوصل «فيسمو عنده قدرها، ويرى فيها نفسًا وفيّة، وروحًا نقية»[(٢)].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية[(٣)].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رجلًا سأله عن هذه الآية، فقال: «هي المرأة تكون عند الرجل فتنبو عيناه عنها من دمامتها، أو فقرها أو كبرها، أو سوء خلقها وتكره فراقه؟ فإن وضعت له من مهرها شيئًا حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج»[(٤)].

---

(١) انظر: الخلافات الزوجية، رعد الحيالي ص٧٧-٧٨.

(٢) انظر: الأسرة في الإسلام، مصطفى عبدالواحد ص١٠١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب إذا حلله من ظلمه فلا رجوع فيه، ٣/ ١٣٠، رقم ٢٤٥٠.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وقوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح من الرجل وامرأته في مال أو وطء أو غير ذلك[1]، والإسلام يدعو إلى بذل كل الجهود لتثبيت دعائم الحياة الزوجية وتقوية عراها؛ لأن رابطة الزوجية من أعظم الروابط وأحقها بالحفظ، وميثاقها أغلظ المواثيق، وأجدرها بالوفاء[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ فالشح طبيعة وجبلّة في الإنسان، قال ابن جبير: «هو شحّ المرأة بالنفقة من زوجها وبقسمه لها أيامها»، وقال ابن زيد: «الشح هنا منه ومنها»، وقال ابن عطية: «وهذا أحسن؛ فإن الغالب على المرأة الشح بنصيبها من زوجها، والغالب على الزوج الشح بنصيبه من الشابة»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إن تحسنوا وتتقوا في عشرة النساء بإقامتكم عليهن مع كراهيتكم لصحبتهن، واتقاء ظلمهن فهو أفضل لكم[4]، ثم بيّن الله تعالى أن الميل القلبي أمر لا يؤاخذ عليه الإنسان؛ لأنه لا يملكه، وإنما يؤاخذ على الميل الحسي الذي يقع باختياره؛ كميله إلى إحدى نسائه وتفضيلها على غيرها في النفقة، أو في المعاشرة، فهذا لا يجوز.

«فالإحسان والتقوى هما مناط الأمر في النهاية، ولن يضيع منهما شيءٌ على صاحبه، فإن الله خبيرٌ بما تعمله كل نفس؛ خبيرٌ ببواعثه وكوامنه، والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى؛ والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل، هتافٌ مؤثر، ونداءٌ مستجابٌ، بل هو وحده الهتاف المؤثّر والنداء المستجاب»[5].

قال الإمام القرطبي: «وهذا خطاب للأزواج...، أي: إن تحسنوا وتتّقوا في عشرة النّساء بإقامتكم عليهنّ مع كراهيتكم لصحبتهنّ، واتّقاء ظلمهنّ، فهو أفضل لكم»[6].

وفي حاشية زاده: «وإن تحسنوا بإمساكهنّ بمعروفٍ وحسن المعاشرة، مع عدم موافقتهن لطباعكم، وتتّقوا ظلمهن بالنشوز والإعراض، فالله تعالى يثيبكم عليه»[7].

«ولا يخفى ما في خطاب الأزواج بطريق

٥/ ٤٠٤.

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٠٦.
(٢) بناء الأسرة المسلمة، خالد العك ص٣١٤.
(٣) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٢٢٩.
(٤) المصدر السابق ٥/ ٤٠٧.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٢٥٢.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٠٧.
(٧) حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ٢/ ٤٥٠.

الالتفات، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان، ولفظ التقوى المنبئ عن كون النشوز والإعراض مما يتوقّى منه، وترتيب الوعد الكريم على ذلك، من لطف الاستمالة والترغيب في حسن المعاملة»[1].

وفي الآية بيانٌ لحرص الإسلام على حماية الأسرة المسلمة، وحلّ مشكلاتها، ولـمّ شملها، وتنقية أجواء البيت المسلم؛ ليؤدي رسالته المنوطة به، وحثٌّ على إحسان العشرة والتضحية والإيثار والصبر والإحسان.

وقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

لأن الأمر ليس بمقدوركم ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ وفي هذا ظلم لها، وهضم لحقها، وجرح لكرامتها، والواجب على ذلك الزوج الظالم أن يراجع نفسه، ويتقي الله في امرأته التي أهملها ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلابد أن يحرص الزوجان على الصلح لما فيه من الاستقرار العائلي، لاسيما إذا كان لهما أولاد.

مرحلة الشقاق بين الزوجين:

في حالة عجز الرجل عن علاج نشوز زوجته، أو فشل الزوجة في علاج نشوز زوجها، فالحل الحاسم هنا هو اللجوء إلى التحكيم العادل بينهما عن طريق حكمين عدلين من أهل الزوج والزوجة، يجتهدان في الإصلاح بينهما، وتقويم المعوجّ منهما، قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

مفترق الطريق:

وإذا تعسّرت السبل، وغلّقت الأبواب، وباءت كل محاولات الصلح بالفشل، حينئذٍ فلا سبيل إلا الفراق، قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

إذا استحالت العشرة، وتعذّر الوفاق، فلا بأس بالفراق ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ بطلاقٍ أو خلعٍ ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ من فضله وإحسانه، بأن يعوّض الزوج بزوجة صالحة توافقه، ويعوّض الزوجة بزوجٍ صالحٍ يحسن صحبتها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة ﴿حَكِيمًا﴾ يعطي ويمنع، ويفرّق ويجمع، بعلمه تعالى وحكمته.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٣٩.

وناسب هنا ذكر السعة، تقريرًا لما تقدّم من توسعته، قال الرازي: «فهو تعالى واسع الرزق، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع القدرة، واسع العلم، فلو ذكر تعالى أنه واسعٌ في كذا لاختصّ ذلك بذلك المذكور، ولكنه لما ذكر الواسع وما أضافه إلى شيء معينٍ، دلّ على أنه واسعٌ في جميع الكمالات»[(١)].

وناسب ذكر وصف الحكمة، لبيان أنه تعالى حكيم في سعته وفضله على عباده، حكيم في أحكامه وأقداره، قال الإمام القرطبي: «وإن لم يصطلحا بل تفرقا، فليحسنا ظنهما بالله، فقد يقيّض للرجل امرأة تقرّ بها عينه، وللمرأة من يوسّع عليها»[(٢)].

وفي الآية وعدٌ من الله تعالى بإغناء كلٍّ من الزوجين إذا تفرقا من سعته؛ حتى لا يلتفت كل منهما لغير الله، ولا تعتلج في قلبه همومٌ على مستقبله، ولا حزنٌ وحسرةٌ على ماضيه، وكذلك وصف الحكمة فيه ما يوحي بالرضا والتسليم بأقدار الله تعالى فهي صادرةٌ عن حكمةٍ بالغةٍ، فهذه السعة التي وعد الله به عباده سعةٌ قائمةٌ على حكمته تعالى، وتسليةٌ لكل من ابتلي بالفراق، بأن فرج الله قريبٌ، وفضله واسعٌ.

ومن مآثر حضارتنا الإسلامية الزاخرة بالمآثر والمفاخر والقيم الرائعة: أنه كانت هناك أوقاف لعلاج بعض مشكلات الأسرة، منها أوقاف لسكن الأيامى من النساء اللاتي لا مأوى لهن، حيث تخصص لهن دار يشرف عليها نسوة فضليات يقمن برعاية الأيامى، من هذه الدور: دار الدقة التي كانت بمدينة مرّاكش، وكانت ملجأً للنساء اللاتي يقع نفور بينهن وبين بعولتهن، فكن يقمن في هذه الدار إلى أن يزول الخلاف الزوجي، وكان على رأس هذه الدار مرشدة تعالج أسباب الغضب، وتهيئ نفوس الزوجات لعودة العلاقة الطيبة بينهن وبين أزواجهن[(٣)].

ثالثًا: التدابير الواقية من العجلة في الطلاق:

إذا كان الطلاق مشروعًا عند استحالة الحياة الزوجية ووصولها إلى طريقٍ مسدودٍ، وتباين الطباع، وتنافر النفوس، واحتدام المشكلات، وتعذّر الحلول، فإن الإسلام يدعو إلى التريّث في اتخاذ القرار، وينهى عن العجلة؛ ذلك أن التسرّع في الطلاق زلزالٌ مفاجئٌ يهدم بنيان الأسرة، ويشتت أفرادها، من هنا شرع الرّجعة في الطلاق، فجعل الطلاق مرتين، مرة بعد

(١) مفاتيح الغيب، ١١/ ٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٤٠٨.
(٣) انظر: مجلة رسالة الإسلام السنة الثانية ص٤٢٧، مجلة منار الإسلام السنة الرابعة والعشرين، عدد ٧، ص٨٣.

مرة، كما رغّب في الطلاق السّني، وهو أن يطلّق الزوج زوجته في طهر لم يجامعها فيه، وشرع العدّة في الطلاق الرجعي، وأمر ببقاء المرأة في بيت الزوجية، كلّ هذه التدابير مدعاةٌ لعودة المودة والرحمة والسكن.

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنّان كلّ الظّنّ أن لا تلاقيا[1]

(١) البيت لمجنون ليلى في ديوانه ص١٢٢.

شبهات حول الطلاق

مما يشغب به أعداء الإسلام ويرددونه: أن في الإسلام يطلّق الرجل المرأة متى شاء، وليس لها الحق في إنهاء حياتها الزوجية، وأن الطلاق ضرر كبير على المرأة والأطفال، وهدم لأركان البيت.

وقصدهم الطعن في شريعة الرحمن، وصرف الناس عنها لقوانين وضعية جائرة لا تحقّق مصلحة المرأة ولا الرجل ولا البيت، وصدّ الناس عن سبيل الله.

ولاشك أن الطلاق قد يترتب عليه أضرار، لكن بقاء الحياة الزوجية بين زوجين متنافرين متباغضين كارثة كبرى، والإسلام لم يبتدع الطلاق، بل كان معروفًا ومألوفًا في كثير من التشريعات والنظم والأديان والمذاهب ولا يزال، ففي اليهودية نجد ما يدل في العهد القديم على إباحته بلا سبب منصف.

ففي العهد القديم سفر التثنية: «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فلم تجد نعمة من عينيه؛ لأنه وجد فيها عيبًا، فله أن يطلّقها، ويخرجها من بيته»[2].

بل نجد نصوصًا تبيح بيع المرأة، حيث أعطت اليهودية المحرفة للأب سلطة مطلقة على جميع أولاده، فأتاحت له حق بيع

(٢) سفر التثنية ٢٤/ ١.

إحدى بناته إذا احتاج إلى المال.

وقديمًا في اليونان: إلى جانب احتقار المرأة وازدرائها واعتبارها رجسًا من عمل الشيطان، فلقد كانت العذارى من النساء يقدّمن قرابين في المعابد، أما البنت فإنها تابعة لأبيها، يحق له أن يبيعها أو يهبها لمن يشاء، وكذلك الزوجة تعد مملوكةً لزوجها، وكان من حق الزوج أن يطلّق زوجته، ويطردها من بيته متى شاء.

وعند الرومان: كان من حق الأب أن يبيع أي فرد من أفراد أسرته، وكان باب الطلاق مفتوحًا على مصراعيه.

أما الهنود: فلم يكن للمرأة عندهم الحق في طلب الطلاق مهما كانت الأسباب، أما الرجل فكان من حقه أن يتزوج بما شاء من النساء.

وفي الصين: لم يكن يسمح للبنت برؤية من سيتزوجها إلا في ليلة الزفاف، وللزوج الحق في بيع زوجته متى شاء كما تباع الإماء، وما كان للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها مهما كان السبب، أما الرجل فله أن يطلّقها بأي سبب[1].

أما الفرس فقد جعلت المزدكية المال والنساء كُلًّا مباحًا، فهتكت الأعراض، واختلطت الأنساب، وعمت الفوضى في المجتمع[2].

بينما لم يرد في الإنجيل نصٌّ صريحٌ في تحريم الطلاق، بل جاء نصٌّ موهمٌ ليس صريحًا لكنه حمّل ما لا يحتمل، وأوقع فهمه الخاطئ، وتفسيره المنحرف النصارى في عنت شديد، وشقاء ونكد؛ إذ ليس من حق الرجل أن يطلّق زوجته، ولا من حق المرأة أن تطلب الطلاق، فتعيش مقهورة مكبوتة في بيت لا تطيقه، وزوج لا ترغبه، ولربما يصل بها الأمر إلى الجنون أو الانتحار، الأمر الذي دفع بعض النصارى إلى التخلي عن هذا الدين الذي يقيّد الحريات، وينتقلوا لدين آخر، أو يقلّصوا دور الدين، ويفصلوه عن الحياة، كما حدث في العلمانية، أو ينسلخوا من الأديان، حتى انتشر الإلحاد في الغرب بسبب فساد النصرانية وتناقضاتها وإفلاسها وعنتها وجمودها وإفلاسها، ومجافاتها للواقع، أو يبتدعوا مذهبًا جديدًا كما وقع في أوروبا حيث ظهرت البروتستانتية كحركة معارضة ومناهضة لكثير من تعاليم الكنيسة، وكان من نتائجها إباحة الطلاق لا بسبب الزنا فحسب، بل بسبب استحالة العشرة بين الزوجين، كذلك لما نشبت الثورة الفرنسية أباحت الكاثوليكية في فرنسا الطلاق، وفي مصر على سبيل المثال لا يزال كثير من

(١) انظر: قصة الحضارة، ديورانت ٤/ ٢٧٤.

(٢) انظر: الملل والنحل، لشهرستاني ١/ ٨٦، مركز المرأة في الشريعة اليهودية، محمد عاشور ص٩٥.

الأزواج النصارى يعيشون منفصلين عازبين تحت سقف واحد؛ لأن الكنيسة تحرّم الطلاق إلا في حالة الزنا، وربما كاد الرجل لزوجته ودسّ لها ليدبّر فضيحةً حتى يخلص منها، ومن غرائب القوانين في الغرب أنه في عام ١٩٢٣م صدر تعديل يسمح للزوجة بطلب الطلاق لخيانة الزوج ولو لمرة واحدة، وأصبح ممكنًا للزوج الذي يرغب في الانفصال عن زوجته أن يقيم ليلة بفندق مع امرأة أخرى مسجلًا ذلك في فاتورة الفندق، أو أن يصوّر نفسه في وضع مخلٍّ مع عاهرة، ويرسل بالصورة إلى زوجته نكايةً فيها، وجرحًا لمشاعرها، وتخلّصًا منها!

ولقد ثار النصارى على الكنيسة، وطالبوا بتغيير هذه التشريعات الجائرة، ولم تسمع لهم الكنيسة، بل تدخلت الدولة في عهد النظام المخلوع لحل هذه المشكلة المزمنة، وسنت قوانين جديدة للنصارى تعتق الأزواج من ربقة النظام الكنسي وتعنته، واستعانت ببعض النصارى في سن هذه القوانين، ثم قدّموها للكنيسة لتطبّقها على رعاياها؛ رفعًا للحرج عنهم، فضرب رؤساء الكنيسة بها عرض الحائط، بل هددوا وتوعدوا من ينفّذ هذا القانون من القساوسة بالعزل.

لقد شرع الإسلام الطلاق لأنه تشريع واقعي متوازن، يلبي حاجة النفس البشرية، ويوازن بين المصالح ويقدّمها على المفاسد، وجعل الطلاق بيد الرجل على أن يمنح المرأة حقها بالمعروف، ويسرّحها بإحسان، فأحاط الطلاق بتشريعات حكيمة، وآداب قويمة، وقيم سامية، بينما كان الأمريكان يعزفون عن الطلاق لغلاء تكاليفه، والآن اتجه العالم الغربي بأسره إلى إباحة الطلاق، بل في دول الشرق التي كانت تحرّمه وتجرّمه كالصين واليابان والهندوس والبوذيين في الهند.

كما جعل للمرأة حق إنهاء الحياة الزوجية بالخلع، أو فسخ العقد إذا اختل فيه شيء، أو كان الزوج مصابًا بما يحول بين المعاشرة، ويحرم المرأة من حقوقها، وهناك أيضًا حق التفريق بين الزوجين، ولها ضوابطها كما في كتب الفقه.

موضوعات ذات صلة:

الأسرة، الحدود، النساء، النكاح

الطهارة

عناصر الموضوع

مفهوم الطهارة	١٤٤
الطهارة في الاستعمال القرآني	١٤٥
الألفاظ ذات الصلة	١٤٦
الحث على الطهارة	١٤٨
أنواع الطهارة	١٦١
آثار الطهارة	١٨٢

مفهوم الطهارة

أولًا: المعنى اللغوي:

الطهارة لغة:

النظافة، والتنزّه عن الأدناس[1]، قال ابن فارس: «الطاء والهاء والراء أصل واحد يدل على نقاءٍ وزوال دنس، ومن ذلك الطّهر خلاف الدنس، والتّطهّر: التنزّه عن الذم، وكل قبيح»[2].

والطّهر بالضم: نقيض النجاسة[3]، والمرأة طاهرٌ من الحيض، وطاهرةٌ من النجاسة ومن العيوب[4].

ممّا سبق يظهر أنّ الطهارة في اللغة إما أن تكون حسية؛ كالطهارة من النجاسة، وإما أن تكون معنوية؛ كالطهارة من العيوب.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هي «رفع ما يمنع الصلاة من حدث أو نجاسة، بالماء أو رفع حكمه بالتراب»[5]، وعرّفها الدكتور وهبة الزحيلي بأنها: «النظافة من النجاسة حقيقية كانت وهي الخبث، أو حكمية وهي الحدث»[6]، وبالرجوع إلى كتب الفقه نجد تعريفاتٍ أخرى، وكلها متقاربة في المعنى، وتدور حول محور واحد وهو: رفع الحدث، وإزالة الخبث[7].

العلاقة بين التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي:

الطهارة اصطلاحًا لها معنى خاص يختلف عن المعنى اللغوي، ويشتركان في إزالة الخبث، إلا أن رفع الحدث مما اختص به الطهارة اصطلاحًا.

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات، النووي ٣/ ١١٨.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٤٢٨.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٨٩.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٥٥.
(٥) المغني، ابن قدامة ١/ ١٢.
(٦) الفقه الإسلامي وأدلته ١/ ٢٠١.
(٧) انظر: المجموع، النووي ١/ ١١، فتح باب العناية، الهروي ١/ ٤١.

الطهارة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طهر) في القرآن الكريم (٣١) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران:٤٢]
الفعل المضارع	٩	﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:٤١]
فعل الأمر	٤	﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦]
اسم فاعل	٣	﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران:٥٥]
اسم مفعول	٦	﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة:٢٥]
اسم تفضيل	٤	﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨]
مصدر	١	﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٣]
صيغة المبالغة	٢	﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان:٤٨]

وذكر أصحاب الوجوه والنظائر عشرة أوجه للطهارة في القرآن[٢]، وزاد بعضهم ثلاثة أوجه أخرى[٣]، لكن كل هذه الأوجه في الأغلب لا تخرج عن معنى الطهارة في اللغة الذي هو النقاء وزوال الدنس، والتنزه عن كل قبيح[٤]، وهي ضربان: حسية، ومعنوية[٥].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٨-٤٢٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص٦٩- ٧١، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣١٨-٣١٩.
(٣) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٤١٩- ٤٢٢.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٢٨.
(٥) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ١٠٦٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الرجس:

الرجس لغةً:

الراء والجيم والسين أصلٌ يدلّ على اختلاطٍ، ومنه: الرّجس: القذر؛ لأنّه لطخٌ وخلط[١].

الرجس اصطلاحًا:

«هو النتن والقذر، قال الفارابي: كل شيء يستقذر فهو رجس، وقيل: الرجس: النجس»[٢].

الصلة بين الرجس والطهارة:

إذا كان الرجس هو الشيء الذي خالطه القذر، والطهارة هي إزالة هذا القذر، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد.

٢ النجس:

النجس لغةً:

النّجس: الشّيء القذر من النّاس ومن كل شيء قذرته، ورجل نجسٌ، وقوم أنجاسٌ[٣].

النجس اصطلاحًا:

هو «صفة حكمية توجب لموصوفها منع استباحة الصلاة ونحوها»[٤].

الصلة بين النجس والطهارة:

إذا كان النجس وصفًا يمنع أداء العبادة على الوجه المطلوب، والطهارة هي إزالة ذلك النجس وتلك القذارة حتى يمكن أداء العبادة على الوجه المطلوب، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٠٧.
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، ١٩/ ١٢.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٠/ ٣١٣.
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية، ٨/ ٥٦.

٣ الخبث:

الخبث لغةً:

الخبيث ضد الطيب، وخبث خبثًا وخباثةً وخباثيةً، وهو النجس[١].

الخبث اصطلاحًا:

هو «العين المستقذرة شرعًا، أي: النجاسة الحقيقية»[٢].

الصلة بين الخبث والطهارة:

الخبث نجاسة حسية، وإزالة هذه النجاسة ورفع هذا الخبث يسمى طهارة، إذن فالعلاقة بينهما علاقة تقابل وتضاد.

٤ الطّيّب:

الطيب لغةً:

الطيب خلاف الخبيث، إلا أنه قد تتسع معانيه حسب ما يضاف إلى الطيب، فمثلًا يقال: أرضٌ طيبة للتي تصلح للنبات، وريحٌ طيبة إذا كانت لينة، وطعمةٌ طيبة إذا كانت حلالًا[٣]، ويقال: شيء طيب إذا كان طاهرًا نظيفًا[٤]، وماء طيب إذا كان عذبًا أو طاهرًا[٥].

الطيب اصطلاحًا:

«ما تستلذّه الحواسّ، وما تستلذّه النّفس، والطّعام الطّيّب في الشّرع: ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، ومن المكان الّذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طيّبًا عاجلًا وآجلًا لا يستوخم، وإلا فإنه -وإن كان طيّبًا عاجلًا- لم يطب آجلًا»[٦].

الصلة بين الطيب والطهارة:

الطيب صورة من صور الطهارة، فالطيب طاهرٌ، سواء كان طيبه حسيًّا أو معنويًّا.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ١/ ١٦٨.
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، ١٦/ ٤٧.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣٥، مختار الصحاح، الجوهري ص١٧٣، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٢٨١.
(٤) المغرب، المطرزي، ص ٢٩٦.
(٥) تاج العروس، الزبيدي، ٢/ ١٩١.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٢٧.

الحث على الطهارة

تنوّعت أساليب القرآن الكريم في الحثّ على الطهارة، وبيان منزلتها، بين الأسلوب المباشر كالأمر الصريح، وغير المباشر كالثّناء على أصحاب الطهارة، وذكر محبة الله تعالى للمتطهرين، وضرب أمثلة ممّن اتصف بالطهارة، مثل: أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن، وزوجات أهل الجنّة.

أولًا: الأمر الصريح:

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

يأمر الله تبارك وتعالى نبيّه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم بأخذ الصدقات وجمعها؛ تطهيرًا للأموال، وتزكية للنفوس، وهذا أمر صريحٌ من الله تعالى في فعل ما هو مطهّرٌ لهذه الأموال التي بين أيدينا، بل ويطهّر النّفس من أن تتعلّق بهذا العرض الزائل.

قال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

وهذه الآية نزلت في الصحابي أبي لبابة، ونفرٍ معه رضي الله عنهم، كانوا قد تخلّفوا عن غزوة تبوك، وهم الذين قال الله فيهم في الآية السابقة للآية التي بين أيدينا: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

المراد بالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمل السيّئ: اعترافهم بذنوبهم، وتوبتهم منها، والآخر السيئ هو تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين خرج غازيًا، وتركهم الجهاد مع المسلمين، وكانوا قد ربطوا أنفسهم بسواري المسجد النبوي عند عودة النبي صلى الله عليه وسلم من الغزوة، وقالوا: لا نطلق أنفسنا حتى يأمر الله تعالى فينا، فنزلت الآية، فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: جاؤوا بأموالهم -يعني: أبا لبابة وأصحابه- حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدّق بها عنا، واستغفر لنا! قال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا! فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾.

وهنا يتبادر إلى الذّهن سؤال: إذا كان هذا هو سبب نزول الآية فهل يكون الأمر بأخذ الصدقة خاصًّا فيمن نزلت فيهم الآية؟

الجواب: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعليه تحمل الآية على عمومها، فيكون الخطاب موجّها للنبي صلى الله عليه وسلم بأخذ الصّدقة منهم ومن غيرهم، بل ويشمل كل إمام للمسلمين

من بعده عليه الصلاة والسلام[1].

ومعنى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ أي: تطهّرهم، ولكن ما الحكمة من ذكرها مباشرة بعد قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾؟

يقول الرازي رحمه الله: «واعلم أن التزكية لما كانت معطوفة على التطهير وجب حصول المغايرة، فقيل: التزكية مبالغة في التطهير، وقيل: التزكية بمعنى الإنماء، والمعنى: أنه تعالى يجعل النقصان الحاصل بسبب إخراج قدر الزكاة سببًا للإنماء، وقيل: الصدقة تطهّرهم عن نجاسة الذنب والمعصية، والرسول عليه السلام يزكّيهم ويعظّم شأنهم، ويثني عليهم عند إخراجها إلى الفقراء»[2].

وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

هذا أمر مباشر صريح في تطهير الثياب، ولكن ما المراد بالثياب في الآية؟ وما المقصود بتطهيرها؟

الثياب في اللغة تطلق ويراد بها: حقيقة الثياب، وهي الملابس التي نرتديها، وتطلق ويراد منها المعنى المجازي، كما في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فالمراد منها في الآية: الأهل[3]، والطهارة -كما مرّ معنا- تطلق على الحقيقة والمجاز، وعليه تنوّعت أقوال المفسرين في المقصود بقوله سبحانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤][4].

وخلاصة ما ذكروه أنها تحتمل الوجهين المجازي والحقيقي؛ المجازي بتطهير النفس من المعاصي وسيء الأخلاق، والحقيقي بتطهير الثياب من النجاسات[5].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

والمقصود من تطهير البيت في الآية: تطهيره من الأصنام، وعبادة الأوثان فيه، ومن الشرك بالله.

وقيل: تطهيره من الكفار، وقيل: تطهيره من النجاسات وطواف الجنب والحائض وكل خبيث[6].

قال الألوسي رحمه الله: «المراد بالطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية»[7].

---

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ١١/ ٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٥٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٠٩-٢١٠.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤٢-٤٥.
(٥) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٢٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٠٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٩٧.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٦٨٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٧٧.
(٧) روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٣٦.

ومن حكمة هذا التطهير: تعظيم بيت الله الحرام، وتهيئته ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ وهم ضيوف الرحمن، الزائرون له من حجاج ومعتمرين، والمقيمون فيه من أهله، أو غيرهم ممن يعتكف في المسجد، أو المجاورين له[1]، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المصلّين: لأن الركوع والسجود هيئات المصلي، وفي سورة الحج: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦][2].

وهل يفهم من هذه الخطاب شمول جميع بيوت الله تعالى في الأمر بتطهيرها وتنزيهها؟

قال القرطبي رحمه الله: «لما قال الله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى، فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة، وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها، أو لكونها أعظم حرمة»[3].

ومن هذه الآية نستنتج:

أمر الله تبارك وتعالى بتطهير البيت الحرام من النجاسات والآفات، حسيةً كانت أو معنويّة، ومن دخول الكفار إليه، ومن كل مظاهر الشرك.

والأمر وإن كان لإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فإنه يشمل من يأتي بعدهما.

ولا يقتصر الأمر على البيت الحرام، بل يتعداه ليشمل جميع بيوت الله تبارك وتعالى، فعلى المسلم التأسّي بأبي البشر وابنه عليهما الصلاة والسلام وأن يحرص على تطهير بيوت الله تعالى ورعايتها.

وإنّ أعظم ما يكون به معنى الرعاية الحقيقية لبيوت الله تبارك وتعالى، هو عمارتها بما هي غايته، وهو إقامة الصلاة وذكر الله جل وعلا.

قال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

وهذا المعنى يتجسّد فيه مقصد الإسلام من تزكية النفس وتطهيرها، وزيادة الإيمان وصفاء القلب، وبه يبني الإنسان حصنًا متينًا يردعه بإذن الله تعالى من ارتكاب الفواحش واقتراف الآثام، فيعيش طاهرًا عفيفًا، نقيًّا تقيًّا.

ثانيًا: محبة الله تعالى للمتطهرين:

ذكر الله تعالى حبّه لعباده المتطهرين صراحة في موضعين.

قال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٨٤.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٩٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٤٠٥-٤٠٦.

﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

السّياق هنا حول طهارة المرأة من الحيض، وإتيانها من حيث أحل الله تعالى، ولاشك أنّ هذا من الطهارة الحسيّة، ولكن حين يكون التعقيب بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ نجد أن المسألة امتدت للبعد المعنوي، وهذا من أظهر الدلائل على وجود رابط وثيق بين الطهارتين: الحسية والمعنوية، فلا تكاد تنفك إحداهما عن الأخرى، فما الرابط بينهما في هذا الموضع؟

نهى الله سبحانه وتعالى عن إتيان النساء وقت الحيض، والمقصود أن الجماع في هذا الوقت محرّم، فعن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي عليه الصلاة والسلام، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

إلى آخر الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اصنعوا كل شيء إلا النكاح)[١].

وفي الآية أمرٌ بإتيان النّساء من حيث أمر الله تعالى، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: يعني الفرج[٢]. وليس أحدٌ معصومًا من الخطأ، والوقوع في ذلك وارد، ففتح الله تبارك وتعالى برحمته وفضله باب التوبة، بل رغّب فيه، وجعل التوابين صنفًا ممن يحبهم سبحانه.

وحتى لا يسوّل لأحد أن يقول: أعصي ثم أتوب؛ فالله تعالى يحب التوابين!، جاء التعقيب: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فلاشك أن منزلة الطهارة على أصلها، أرفع من أن يتلطّخ المرء بالذنب، ثم لا يدري: أيدرك التوبة، أم تسبقه المنيّة؟ وإن قدّمها -أي: التوبة- فهو لا يدري أتقبل منه أم ترد؟ ومع هذا، فلا يأس مع الرحمة الواسعة من الإله الكريم؛ لأنه غفور حليم، يحب ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ وهي من صيغ المبالغة، وفيها معنى تكرر التوبة لتكرر الذنب[٣]، ويحب سبحانه ﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ المتنزّهين عن الأقذار الحسية والمعنوية، فيدخل فيها المتطهّرون من الجنابة والأحداث، ويدخل فيها التطهّر بالتوبة من الذنب، سواءٌ كان هذا الذنب من إتيان النساء في أدبارهن، أو إتيانهن حال الحيض[٤].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها، ١/ ٢٤٦، رقم ٣٠٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٥١.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٩٣، التفسير الواضح، محمد حجازي ٢/ ١٣٢.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: «وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث...، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة، والصفات القبيحة، والأفعال الخسيسة»[1].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨].

سورة التوبة من السور الفاضحة للمنافقين[2]، وهنا يفضح الله تعالى سرًّا من أسرارهم، ويكشف لرسوله صلى الله عليه وسلم حقيقة المسجد الذي بنوه؛ ذلك أنّ رجلًا من الخزرج يسمى أبا عامر الرّاهب، قد حمل في نفسه كل الحقد والكراهية للإسلام، وساءه قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرًا من مكة إلى المدينة، فوصل به الأمر أن كان في صف قريشٍ يوم أحد، وبعدها رحل مستنصرًا بهرقل ملك الروم فوعده بالنّصر، وبدأ يراسل المنافقين في المدينة، وأمرهم ببناء مسجدٍ يكون لهم مقرًا لتجمعهم، ومرصدًا يرصدون به أخبار المسلمين وتحركاتهم، وحتى يثبتوا شرعية مسجدهم -وليس له من اسم (المسجد) أدنى نصيب-، دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة فيه[3].

ففضحهم الله تعالى من فوق سبع سماوات، وكشف خبثهم ومكرهم، ونهى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذهب إليهم، فما مسجدهم إلا رجسٌ ونجس، ومرتع لثلّة من الخبثاء -حاشا للمساجد أن تكون بؤرًا لدنس قومٍ كهؤلاء-، ثمّ يأتي الالتفات إلى منارة المتقين، ومورد المتطهرين، إنّه المسجد الذي أسّس على التقوى من أوّل يوم، قيل: هو مسجد قباء، وقيل: المسجد النبوي[4].

وعلى أية حال فكلاهما بني على تقوى الله تعالى، بل انظر إلى المفهوم الأوسع.

يقول ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

«دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٦٧-٣٦٨.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥١٩.

والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات»[1].

والمتأمّل في سياق الآية، ربّما يظنّ من الوهلة الأولى أن المراد بالطهارة هنا: هو طهارة القلب والنّفس؛ فالسياق يدور حول التحذير من مرتعٍ للمنافقين، والالتفات إلى ما هو خير منه، حيث المؤمنون الطاهرون، ولكنه التداخل الذي لا ينفك، من ارتباط الطهارة الحسية بالمعنوية.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نزلت هذه الآية في أهل قباء) ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال: (كانوا يستنجون بالماء، فنزلت هذه الآية فيهم)[2].

وهذا لا يعني أن الطهارة المعنوية غير مرادة في الآية، بل دلالة السياق، والمعنى من حيث اللغة يحتمل الوجهين، قال أبو العالية: «إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهّرون من الذنوب»[3].

«ومن المعلوم أن من أحب شيئًا لابد أن يسعى له، ويجتهد فيما يحب، فلابد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ، والأحداث؛ ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله»[4] عليه الصلاة والسلام.

ومعنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء؛ فلذلك أحبهم الله وأحسن إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه[5].

ثالثًا: الثناء على أصحاب الطهارة:

أثنى الله تبارك وتعالى على رسله وأنبيائه، فهم دعاة الطهارة، وقدوة الناس فيها، فهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أطهر خلق الله تعالى، أثنى الله سبحانه وتعالى على خلقه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وأرسله الله سبحانه طاهرًا ومطهرًا، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٠.
(٢) أخرجه أبو داود في صحيحه، كتاب الطهارة، باب في الاستنجاء بالماء، ١/ ١١، رقم ٤٤، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، سورة التوبة، ٥/ ٢٨٠، رقم ٣١٠٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة وسننها، باب الاستنجاء بالماء، ١/ ١٢٨، رقم ٣٥٧.
قال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».
وصححه الألباني في إرواء الغليل ١/ ٨٤-٤٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٠.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٢.
(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢١٠.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: ١٦٤].

وقدّم سبحانه التزكية على التعليم لبيان أهميتها، والمقصود: «يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين طاهرين مما كان فيهم من دنس الجاهلية، أو من خبائث الاعتقادات»[(١)].

والصحابة الكرام رضي الله عنهم هم أكثر النّاس اطلاعًا على سنّته صلى الله عليه وسلم، وهم أكثر حرصًا على اتباعها، وقد ذكر الله تعالى كثيرًا من صفاتهم في كتابه، وأقف هنا مع آيتين كريمتين تبيّنان ما في قلوبهم رضي الله عنهم من الطهارة والسّلامة.

يقول جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٩-١٠].

يذكر لنا الله تبارك وتعالى حال قلوب الأنصار الذين تبوؤا المدينة وسكنوها من قبل إخوانهم المهاجرين الذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم أموال الفيء، الذي امتن الله به عليهم من أموال بني النضير بعد أن أجلوهم من المدينة؛ وذلك إثر غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، ونقضهم ميثاقه[(٢)].

وهم مع صفاء قلوبهم على إخوانهم المهاجرين، يؤثرونهم على أنفسهم مع ما بهم من الحاجة، والإيثار كما يقول القرطبي رحمه الله: «هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، ورغبة في الحظوظ الدينية؛ وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة»[(٣)].

يقول حجازي رحمه الله: «وهذا بلاشك يدل على صفاء النفس من أكدار المادة والدنيا، ويدل على قوة الروح، ومبلغ العزوف عنها، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لا غير، فالشح داء عضال لا يصدر عنه خير، وهو سبب الكثير من الجرائم»[(٤)].

ثم يعرّج الله تبارك وتعالى على الذين جاؤوا من بعد هؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وهم التابعون لهم بإحسان،

(١) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٨/ ٤٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ١٨.

(٤) التفسير الواضح، ٢٨/ ١٩.

يتبعون آثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، ويدعون لهم في السر والعلانية[1].

ويؤكدون على معنى الطهارة القلبية من الحسد والغلّ تجاه إخوانهم المؤمنين، فمن دعائهم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا يدل على صفاء قلوبهم، وشدة حبهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا صدّيق الأمة: أبو بكر رضي الله عنه، أوّل من آمن من الرجال، وأول من صدّق حبيبه صلى الله عليه وسلم بخبر الإسراء والمعراج، جاد بنفسه قبل ماله، فاستحق ثناء ربّه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٤-٢١].

يقول ابن عطية رحمه الله: «ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بـ ﴿الْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم هي تتناول كل من دخل في هذه الصفات»[2].

وأثنى الله تعالى على أهل قباء، فقاله سبحانه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨].

يقول ابن العربي رحمه الله: «هذا ثناء من الله تعالى على من أحب الطهارة، وآثر النظافة، وهي مروءة آدمية، ووظيفة شرعية»[3].

ويثني الله تعالى على كل من يسعى لتزكية نفسه وتطهيرها من دنس المعاصي، ورذائل الأخلاق، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

يقول السعدي رحمه الله: «قد فاز وربح من طهّر نفسه، ونقّاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق»[4].

رابعًا: وصف زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالطهارة:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

هذه الآية العظيمة تتجلى فيها عناية الله سبحانه ببيت حبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، وحتى نفهم ما في هذه الآية من المعاني العظيمة، والحكم الجليلة، لابد من تسليط الضوء على السياق الذي وردت فيه.

يقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٣.
(٢) المحرر الوجيز، ٥/ ٤٩٢.
(٣) أحكام القرآن، ٢/ ٤٥٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص٩٢١.

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٣٤].

وبعد هذا الخطاب والتوجيه بكل ما حواه من التشريف والتكليف، تتجلى حكمته، وتأتي ثمرته: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إنها العناية الخاصة من الله تعالى ببيت حبيبه صلى الله عليه وسلم، يتولى سبحانه أن يذهب كل ما من شأنه أن يخدش بطهارة هذا البيت وأهله الكرام، ويريد تعالى أن يطهّرهم تطهيرًا.

والرجس: «اسم يقع على الإثم، وعلى العذاب، وعلى النجاسات والنقائص، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت»[(١)]، وفيه صورة بيانية؛ إذ «استعار للذنوب: الرجس، وللتقوى الطهر؛ لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها، ويتدنس كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وأما المحسنات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر، وفي هذه الاستعارة ما ينفّر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده، ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به»[(٢)].

والمراد بأهل البيت: أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين[(٣)].

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خرج النبي صلى الله عليه وسلم غداة وعليه مرطٌ مرحلٌ[(٤)] من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٤.
(٢) الكشاف، الزمخشري ص٨٥٥.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٦٣.
(٤) هو كساء عليه صور رحال الإبل.
انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٨/ ١٩٧-١٩٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ تأتي هذه الآية ختامًا لما تقدم من الأوامر الإلهية لحفظ بيت النبوة وتطهيره؛ لينطلق منه النور، ويرسل شعاعه في العالمين، ينقل لهم ما نزل فيه من القرآن الكريم، وما نطق به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من الحكمة، وهي: ما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام دين الله، ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة[1]، «وهذا التذكير يجيء كذلك في ختام الخطاب الذي بدأ بتخيير نساء النبي صلى الله عليه وسلم بين متاع الحياة الدنيا وزينتها، وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة، فتبدو جزالة النعمة التي ميّزهن الله بها؛ وضآلة الحياة الدنيا بمتاعها كله وزينتها»[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ «إن الله كان ذا لطف بكن؛ إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة، خبيرًا بكن؛ إذ اختاركن لرسوله أزواجًا»[3].

وفي صورة أخرى من صور العناية الإلهية ببيت النبوة يأتي الأمر الإلهي للصحابة الكرام رضي الله عنهم: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

والمتاع: عام في جميع ما يمكن أن يطلب على عرف السكنى والمجاورة من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا[4].

و«تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم»[5].

«وفي هذا أدب لكل مؤمن، وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له، والمكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه»[6].

وما أحوجنا في هذا الزمن إلى الالتزام بهذه التعاليم السمحة، والأخلاق الراقية، وما فساد كثير من بيوت المسلمين اليوم إلا بسبب إهمال المرأة لأسرتها، وعدم اهتمامها ببيتها، بل أصبحت العناية بالتزين للخروج إلى السوق والعمل يشغل كثيرًا من النساء على حساب العناية بالزوج والتزين له، وأصبح كثير من الرجال تلاحق أنظاره المتبرجات من النساء، ولا يكتف بما أحل الله تعالى له في زوجته، فانعكست المفاهيم، وضاع كثير من البيوت، وتشتّت

فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٨٣، رقم ٢٤٢٤.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٦٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٢.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٩٦.

(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٦٧.

(٦) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٨٩.

الأسر، وغدت العيادات النفسية، ودور الشعوذة والدجل تعجّ بالتائهين الباحثين عن علاج لمشكلاتهم الأسرية، ولو أنهم عادوا إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام، لاستقرّت أوضاعهم، وعاشوا في سعادة وهناء، وطهارة ونقاء.

خامسًا: وصف نساء أهل الجنة بالطهاة:

الحور العين نعيمٌ أعدّه الله تعالى لأهل الجنة، وذكره في وصف الجنة ونعيمها في أكثر من موضعٍ في القرآن الكريم، وبيّن عددًا من صفاتهنّ وسماتهنّ، ومنها: طهارتهنّ، ووصفهنّ بالطهارة صراحةً جاء في مواضع ثلاثة:

١. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

٢. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

٣. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

عند تأمّل الآيات السابقة يلاحظ أن هذه الزوجات الطاهرات هنّ مكافأة وجزاء لأهل الطهارة في الدنيا المتقين؛ الذين رضوا بالله ربًّا، واستقاموا على عمل الصالحات، فاستحقوا بإذن ربهم زوجات طاهرات؛ جزاء لهم أن حفظوا عهود ربهم ومواثيقه عليهم، فالتزموا بالطهارة ظاهرًا وباطنًا، وبتأمل السياق لكل آية أجد أنّ لها جوها الذي يميزها، ومعطياتها التي تتفق مع حال المخاطبين وأحوالهم.

ففي سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقبل هذه الآية ذكر تعالى حال الكافرين، وقال عن مصيرهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

«لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من

الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة»[1].

«وهكذا جرت العادة في القرآن -غالبًا- متى جرى ذكر الكفار وما لهم أعقب بالمؤمنين وما لهم وبالعكس؛ لتكون الموعظة جامعة بين الوعيد والوعد واللطف والعنف؛ لأن من الناس من لا يجذبه التخويف ويجذبه اللطف، ومنهم من هو بالعكس»[2].

والبشارة: أصلها الخبر بما يسر المخبر به[3]، وسمّيت بذلك لما يظهر من أثر على البشرة بتغيرها[4].

وعند تأمّل هذه الآية نجد فيها: «ذكر المُبَشِّر والمُبَشَّر والمُبَشَّر به، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمُبَشِّر: هو الرسول صلى الله عليه وسلم ومن قام مقامه من أمته، والمُبَشَّر: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمُبَشَّر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة، إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة، على يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب»[5].

وفي آية آل عمران نجد موازنة وتفاضلًا بين أمرين، بين ما في الدنيا من شهوات زائلة فانية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وبين النعيم الدائم في جنات الخلود: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

«وفي هذه الآية تسلية عن زخارف الدنيا، وتقوية لنفوس تاركها، وتشريف الالتفات من الغيبة إلى الخطاب؛ ولما قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ﴾ فأفرد، جاء ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ فأفرد اسم الإشارة»[6].

وفي سورة النساء يأتي السياق بذكر أحوال أهل النار أعاذنا الله منها وما يلاقونه من أشد العذاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ١١٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٢٢٥.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٧٥.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٣٩٩.

وكعادة القرآن في الوعد والوعيد يأتي بعد ذكر هذه الحال المخزية لمن تنجّست قلوبهم بدنس الكفر بالله عز وجل، ذكر مآل المؤمنين الطاهرين ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[النساء: ٥٧].

روي عن بعض السلف أنّ معنى ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من النجاسات والقذارات الحسية، و«لكن ظاهر اللفظ يقتضي أنهن مطهرات من كل ما يشين؛ لأن من طهّره الله تعالى ووصفه بالتطهير كان في غاية النظافة والوضاءة»[(١)]. فلفظ ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أبلغ من طاهرة[(٢)].

وجاء وصف نساء أهل الجنة بالطهارة عمومًا، حتى يكون المعنى شاملًا جامعًا لما يتناوله من معان الطهارة «فلم يقل: (مطهّرة من العيب الفلاني) ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهّرات الأخلاق، مطهّرات الخلق، مطهّرات اللسان، مطهّرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعّل، والأدب القولي والفعلي، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهّرات الخلق أيضًا، بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهّرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح»[(٣)].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ١١٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٠٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦-٤٧.

أنواع الطهارة

أولًا: الطهارة المعنوية:

الأصل أن تكون البداية مع المحسوسات؛ لأنها الطريق المؤدي لمعرفة الماديات وإدراكها، ولكن لما كانت الطهارة المعنوية هي الأصل، والطهارة الحسية فرعٌ منها بدأت بها، وهنا سأسلّط الضوء على الجوانب التي يشملها معنى الطهارة المعنوية:

١. الطهارة من الشرك.

إن أعظم نجاسة يتلطخ بها المرء هي الإشراك بربه وقد خلقه ورزقه؛ ولذلك استحق المشركون بأن يصفهم الله تعالى بـ(النّجس) فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

«لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس؛ ولأنهم لا يتطهّرون، ولا يغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها»[(١)].

يقول سيد رحمه الله: «يجسّم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم، فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس، يستقذره الحس، ويتطهر منه المتطهرون! وهو النجس المعنوي لا الحسي في الحقيقة، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها، إنما هي طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم»[(٢)].

ومع وجود الآيات والشواهد الدالة على وحدانية الله جل وعلا، نجد أكثر الناس أبى إلا كفورًا؛ ولذا حذرنا المولى تبارك وتعالى من الكفر والشرك أشد الحذر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فوصف الله تعالى الشرك: بالإثم العظيم، وفي موضع آخر وصفه بالضلال البعيد: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

ولذا كان الشرك من أعظم الموبقات، وأكبر الخطيئات التي تؤدي بصاحبها إلى الهلكات، ومنه حذرنا حبيبنا الرحيم بنا محمد صلى الله عليه وسلم، وجعله من السبع الموبقات المهلكات، وما ذاك إلا لخطورته وشناعته.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات)، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال

(١) الكشاف، الزمخشري ص٤٢٩.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٦١٨.

اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[1].

يقول ابن القيم رحمه الله: «فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلّظة، ونجاسة مخفّفة، فالمغلّظة الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل، والمخفّفة الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به، وخوفه، ورجائه»[2].

وبيّن لنا الله تبارك وتعالى خطورة الشرك على الأعمال الصالحة، كيف أنه يمحقها، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

ولذلك لا يقبل من أحدٍ عملًا مهما كان فيه من منفعة وإحسان إلا أن يكون لوجه الله تعالى خالصًا، من قلبٍ لا يشرك بالله أحدًا ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠].

وهذا لقمان الحكيم يوصي فلذة كبده، ويعطيه خلاصة الحكم والدروس، وعلى رأسها عبادة الله وحده لا شريك له، فيبدأ وصاياه ويستهلّها بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

و«وجه كونه عظيمًا أنه لا أفظع وأبشع ممن سوّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوّى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمن له الأمر كله، وسوّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه...، وهل أعظم ظلمًا ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخس المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئًا، فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا»[3].

وهذا نبي الله عيسى ابن مريم الطاهر ابن الطاهرة عليه السلام يتولى الله تعالى تطهيره وتخليصه من دنس الكفر والكافرين: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

يقول ابن عطية رحمه الله: «حقيقة التطهير إنما هي من دنس ونحوه، واستعمل ذلك في السب والدعاوى والآثام وخلطة الأشرار ومعاشرتهم، تشبيهًا لذلك كله بالأدناس، فطهّر الله العظيم عيسى من دعاوى الكفرة ومعاشرتهم القبيحة له»[4].

٢. الطهارة من المعاصي.

الراجح من عقيدة المسلمين أن الإيمان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، ٨/ ١٧٥، رقم ٦٨٥٧ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٩٢، رقم ٨٩.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٥٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤٨.

(٤) المحرر الوجيز، ١/ ٤٤٤.

يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية[1].

والعاقل يدرك هذا المعنى، فتعظم في نفسه المعاصي، وتشتدّ عنده حرمتها، ولو كانت في أعين الغافلين هيّنةً صغيرة؛ لأن الصغيرة مع الصغيرة كبيرة، والذنوب تأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون ما المفلس؟) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار)[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب، وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقوله تعالى في حق اللوطية: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقالت اللوطية: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فأقرّوا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخباث الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهّرون من ذلك باجتنابهم له، وقال تعالى في حق الزناة: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦][3].

وفي سورة الإسراء يوجّه الله تبارك وتعالى مجموعة من الوصايا لعباده[4]، بدأها بإفراده سبحانه بالعبادة، وأردف مع التوحيد الوصية بالوالدين إحسانًا، وتوالت التعليمات والوصايا، وكان منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فلم يكتف الشارع بالأمر بترك الزنا فقط، أو تحريمه فحسب، بل منعنا الله تبارك وتعالى من مجرد الاقتراب منه.

يقول السعدي رحمه الله: «والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: (من حام حول الحمى يوشك

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العزّ ٢/ ٥١١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨١.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٥٣-٥٤.

(٤) من الآية ٢٢ إلى ٣٩.

أن يقع فيه)[1].

ووصف الله الزنا بأنه ﴿فَٰحِشَةً﴾ أي: إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد»[2].

يقول حجازي رحمه الله: «الزنا عادة تتنافى مع مبادئ الإنسانية الأولى، لم يقرّه شرع أبدًا، ولم يؤيده قانون، فيه هتك الأعراض، واختلاط الأنساب، وقضاء على الحرمات، وتقويض[3] دعائم الاجتماع والعمران، وما شاع الزنا في قوم إلا ابتلاهم الله بالأمراض والأوجاع، وسلّط عليهم الفقر والذل والهوان»[4].

ولشدة عظم هذه الكبيرة عند الله تبارك وتعالى جعل الاقتراب منها منهيًّا عنه، سواء كان نظرًا أو خلوة، أو مصافحة، أو غيرها، ولو التزم أفراد المجتمع بهذه التعاليم الإلهية لطهرت بيوتهم، ولأمنوا على أعراضهم، فالزنا جريمة متعدية، وقد سبك الإمام الشافعي رحمه الله درًّا من شعره في التحذير منه، فقال[5]:

عفوا تعف نساؤكم في المحرم
وتجنبوا ما لا يليق بمسلم
إن الزنا دين فإن أقرضته
كان الزنا من أهل بيتك فاعلم

ومن الذنوب الكبيرة التي لها أثر عظيم في فساد النفوس وتلويثها: اللواط، وهي فعلة شاذة، حتى الحيوانات العجماوات التي لا عقل لها ولا حس لم يذكر فيها أن نزا فحل على آخر، ولكنّها النفوس المريضة من بني البشر، وها هم قوم لوط عليه الصلاة والسلام بعد أن استفحل فيهم الأمر واستهانوا به، صار عندهم عادة طبيعية، بل أكثر من ذلك!

فقد جرّموا نبي الله فيهم عليه السلام وآله الأطهار، وليت شعري بأي جريمة رموهم؟

إنها جريمة الطهارة! ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ضاعت عقولهم، وسلبت قلوبهم، فقلبوا الموازين، وتركوا ما أحل الله لهم من النساء، وفعلوا فعلتهم النكراء، فاستحقوا أن خسف الله بهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٥٧.

(٣) التقويض نقض من غير هدم، وقولهم: قاض البناء هدمه.
انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٨٦.

(٤) التفسير الواضح، ١٥/ ٢٣.

(٥) ديوان الإمام الشافعي ص١٠٣.

عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

ويهدد الله القوي العزيز، كل من تسوّل له نفسه بتلك الجريمة البشعة، فيقول محذّرًا ومتوعّدًا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

٣. الطهارة من أمراض القلوب.

القلب وسلامته من الآفات والأمراض مطلب مهم، وغاية تسمو لها أرواح المؤمنين؛ لأنهم يدركون مدى أهمية تطهيره مما يشوبه من الأدناس والأرجاس، فبصلاحه صلاح النفس، وتفسد بفساده، قال صلى الله عليه وسلم: (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[(١)].

وقد بيّن الله تبارك وتعالى ما ينجّي العبد يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فالقلب السليم الطاهر هو من يأتي يوم القيامة فائزًا.

وأمراض القلوب يدخل فيها الشرك والشهوات (المعاصي) وقد تقدم ذكرها، وهنا أقف على أنواع أخرى منها قد تعرّض لها القرآن الكريم، وبيّن لنا مدى خطرها على طهارة القلب وسلامته، وهي: النفاق والهوى والكبر والحسد والغلّ.

حذرنا الله تبارك وتعالى من مرض النفاق، وتوعّد المنافقين بالعذاب الشديد، فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وخطورة المنافق أشد من خطر الكافر؛ لأنه يخفي عداوته، فيفسد في صفوف المسلمين، وينشر بينهم سمّه وخبثه، ولذا كان جزاؤهم أنهم ﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

ومن الأمراض الخطيرة على القلب اتباع الهوى، فالله جل وعلا أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ووضع الأدلة والبراهين الدالة على الحق المبين، فيدركه الإنسان عقلًا ونقلًا، وأما إن صدّ عنه واتّبع هواه.

فقد توعّده الله جل في علاه ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وضرب الله تعالى لنا مثلًا فيمن جاءه الحق وعرفه، ولكنه أبى إلا أن يصد عنه ويتبع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩.

هواه، فكان له مثل السوء: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥- ١٧٦].

وفي المقابل بيّن الله تعالى جزاء المتقين، الذين لا يستجيبون لهوى نفوسهم إيثارًا لرضا ربهم، فقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠-٤١].

ومن الأمراض التي تدنس القلب: الكبر، فقد خلق الله جل وعلا البشرية من ماء مهين، ولم يجعل لهم ما بأيديهم من نعمه عليهم، من المال والبنين، وغيرها، إلا لينفع بعضهم بعضًا: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[الزخرف: ٣٢].

فليست هذه النّعم للتفاوت والتفاضل؛ لأن معيار التفاوت هو المسارعة في الخيرات، والتزود بالطاعات ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا قارون لما تكبّر على خلق الله، وتطاول على خالقه ومولاه، جعله الله عبرة وعظة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

ومن خطورة هذا المرض: أن يعمي البصيرة، فيرى الإنسان أمامه الشواهد والدلائل، ولكنه لكبره يعرض عنها ويدبر ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ومن حسرة أهل النار يوم القيامة أعاذنا الله منها يوم أن يروا العذاب قد أحاط بهم، فيندموا على ما فات من خبيث أعمالهم، ويقول قائلهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩].

فهذا الشحّ الذي لطّخ قلوبهم، حملهم على أن تكبّروا على خلق الله، فلم تنفعهم تلك الأموال، بل دنست قلوبهم، وجعلتهم يتسلطون على الناس بغير حق، فاستحقوا العذاب من ربهم.

ومن أمراض القلوب الحسد، وهو داء خطير، وشرٌّ مستطير، به قتل الأخ أخاه، كما في قصة قابيل وهابيل، وبسببه عاند اليهود، فلم يؤمنوا بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، مع إيقانهم بصدق نبوته، بل لشدة حسدهم أرادوا أن يصدوا المسلمين عن دينهم ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وأما المؤمنون الطاهرون، فيسألون الله تبارك وتعالى أن ينزّههم عن هذا النجس فيقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ثانيًا: الطهارة الحسية:

١. الطهارة من النجاسات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

هذه الآية وإن كان الراجح فيها أن النجاسة المرادة هي نجاسة الباطن بالشرك، إلا أن فيها معنى النجاسة الحسية؛ ذلك أن المشركين بعيدون عن شرع الله تعالى، وأحكام دينه المقتضية من عباده البعد عن النجاسات والتطهر منها، كما هو حال المسلمين مع الوضوء والاغتسال والاستنجاء وغيرها من الأمور التي يتحصّل بها التحرز من النجاسات والتطهر منها، وبهذا يصح أن يكون المراد بنجاسة المشركين هذا المعنى الحسيّ تبعًا على أن الأصل هو نجاستهم المعنوية.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

في هذه الآية، يأمر الله تبارك وتعالى حبيبه وصفيّه محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم، بتطهير الثياب، والمراد: تطهيرها حسًّا ومعنًى، وقد كان المشركون لا يتطهّرون، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتطهّر، وأن يطهّر ثيابه[(١)].

وقال بعضهم: المراد بالثياب: الجسم، وتنظيفه يكون عن النجاسة، وهو آكد وقت الصلاة، ومندوب في غيرها، والدليل على أنه التنظّف للصلاة قوله تعالى في الآية السابقة لها: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣].

وقيل: المراد بتنظيف الثياب: تقصيرها حتى لا تقع على النجاسات[(٢)].

يقول ابن القيم رحمه الله: «الآية تعم هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظًا؛ فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة...، والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها»[(٣)].

ويؤكّد هذا المعنى الشيخ السعدي رحمه الله بقوله: «وإذا كان مأمورًا بتطهير

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٠٩.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤٢-٤٥، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ١٣٢.
(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٥٠.

الظاهر فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن»[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما النجاسات التي أمرنا الله تعالى بالتطهر منها؟

النّجاسة: ضد الطهارة، وهي ضربان: ضرب يدرك بالحاسة، وضرب يدرك بالبصيرة، والثاني وصف الله تعالى به المشركين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

ونحن في هذا الباب يعنينا المعنى الحسيّ، ويشمل: الخبث والحدث، أمّا الخبث فهو العين المستقذرة، ويتعلّق: بالبدن والثوب والمكان، ومن أمثلته: البول والغائط، وأمّا الحدث: فهو وصف شرعي يحل في الأعضاء يزيل الطهارة، وهو نوعان: حدث أصغر وأكبر، وطهارة الأول: الوضوء، والثاني: الغسل، وعند تعذر استعمال الماء يستبدلان بالتيمم[2].

ومن مرادفات النجاسة: الرجس، وهو الشيء القذر[3].

قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

الميتة: يراد بها الحيوان الذي فارقته الحياة بغير ذبح شرعي[4].

والدّم المسفوح: هو الجاري الذي يسيل ويتدفّق من عروق المذبوح[5].

ويستثنى منه ما كان في اللحم والعروق، وكذلك الكبد والطحال، وقد اتفق العلماء على نجاسة الدّم[6].

وأما لحم الخنزير فهو معروف، ولا زال كثير من غير المسلمين يحرصون على أكله مع ما توصّلوا إليه بأنفسهم من نجاسته وقذره، وخطره على الصحة، فبيّنت الآية نجاسة كلٍّ من: الميتة والدّم ولحم الخنزير[7].

ومن الأمور التي جاء في القرآن الكريم وصفها بالرجس: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

قال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

ما هذه الأمور التي ذكرتها الآية؟ وما

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٩٥.
(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ١/ ٢٠١.
(٣) المفردات، الراغب ص١١٨.
(٤) الوسيط، الزحيلي ١/ ٦٢٠.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٧٧، الوسيط، الزحيلي ١/ ٦٢٠.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٤٧.
(٧) انظر: أحكام الإزالة في الفقه الإسلامي، فاطمة الفارس ص١١٤- ١١٨.

مدى نجاستها؟

بداية الخمر معروفة، والميسر هو: القمار، والأنصاب: حجارة كانت توضع عند الكعبة المشرفة، وكان المشركون يذبحون عندها قرابينهم، والأزلام، مثل: السّهام، وهي ثلاثة، مكتوب على الأول: نعم، وعلى الثاني: لا، والثالث لا كتابة عليه، وكانت توضع عند الأصنام أو الكهّان، وكانوا يستقسمون -يستهمون- بها عند إرادة فعل شيء أو سفر أو غيره، فكانوا يتفاءلون أو يتشاءمون بناءً على ما يظهر لهم منها، فبيّن الله تبارك وتعالى أنها: رجس، أي: نجس، ونجاستها معنوية؛ لما فيها من الإثم، وأمّا الخمر فهي نجس حسًّا ومعنى[1].

وعلاقة ذكر هذه الآية في هذا الباب: هي نجاسة الخمر، وأمّا بقية الأمور الواردة في الآية مع الخمر -المقصود شربها- فهي من المحرّمات التي من تلطخ بها يتلوث ويتنجس قلبه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

فهذه المحرّمات من شأنها أن تحول بين مقترفها وبين ذكر الله تعالى والصلاة، اللذين هم من أهم أسباب تطهير القلب والنّفس.

٢. التطهر من الجنابة.

قد ورد في القرآن الكريم معنى التطهر من الجنابة في ثلاثة مواضع، بإشارة مباشرة، وأمر صريح، وإشارة غير مباشرة:

أما الإشارة المباشرة ففي سورة النساء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

ينبّه الله تعالى عباده المؤمنين على التطهر من الجنابة بالاغتسال، أو التيمّم لمن تعذر عليه الغسل، وفي سورة المائدة، جاء الأمر مباشرًا صريحًا: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

فهذا أمر صريح مباشر بالتطهر من الجنابة.

أما الإشارة غير المباشرة، ففي سورة الأنفال، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٤٧-١٤٨، الوسيط، الزحيلي ١/ ٤٩٥-٤٩٦.

يتحدّث الله تعالى عن ما امتن به على أوليائه المؤمنين في غزوة بدر، وقد كان الكفار من قريش سبقوا إلى موضع الماء، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ والنصب[1]، فأنزل الله تعالى عليهم المطر، «لأنهم كانوا أصبحوا يومئذٍ مجنبين على غير ماء؛ فلما أنزل الله عليهم الماء اغتسلوا وتطهروا، وكان الشيطان قد وسوس إليهم بما حزنهم به من إصباحهم مجنبين على غير ماء، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر؛ فذلك ربطه على قلوبهم، وتقويته أسبابهم، وتثبيته بذلك المطر أقدامهم؛ لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة هشّاء فلبّدها المطر، حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها، توطئة من الله عز وجل لنبيه عليه السلام وأوليائه أسباب التمكن من عدوهم والظفر بهم»[2].

وأمّا عن الحكمة من الاغتسال من الجنابة، يقول ابن القيم رحمه الله: الغسل من المني من أعظم محاسن الشريعة، وما اشتملت عليه من الرحمة والحكمة والمصلحة، فإن المني يخرج من جميع البدن؛ ولهذا سماه الله سبحانه وتعالى ﴿سُلَالَةٍ﴾[3] لأنه يسيل من جميع البدن، وأيضًا فإن الجنابة توجب ثقلًا وكسلًا، والغسل يحدث له نشاطًا وخفة، وقد صرح أفاضل الأطباء بأن الاغتسال بعد الجماع يعيد إلى البدن قوته، ويخلف عليه ما تحلل منه، وأنه من أنفع شيء للبدن والروح، وتركه مضر، ويكفي شهادة العقل والفطرة بحسنه، وبالله التوفيق[4].

٣. التطهر من الحيض.

وصف الله تعالى الحيض بأنه: ﴿أَذًى﴾ لنتن ريحه وقذره ونجاسته[5].

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢].

قال قتادة: «فكان أهل الجاهلية لا تساكنهم حائض في بيت، ولا تؤاكلهم في إناء، فأنزل الله تعالى ذكره في ذلك، فحرّم فرجها ما دامت حائضًا، وأحل ما سوى ذلك: أن تصبغ لك رأسك، وتؤاكلك من طعامك، وأن تضاجعك في فراشك، إذا كان

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٨-٢٧٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٣٢.
(٣) قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[السجدة:٨].
(٤) إعلام الموقعين، ابن القيم ٢/ ٧٧.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٦٩.

عليها إزار محتجزة[1] به دونك»[2].

والمقصود بالأذى أي: الشيء يستقذر منه، ويؤذي من يقربه نفرةً منه وكراهةً له[3] ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ المقصود الغسل ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من المأتى الذي حلّله لكم وهو القبل[4].

ويلحق بالحيض النفاس في وجوب التطهّر منه، وهو ما يخرج من المرأة بعد الولادة، وإن كان القرآن الكريم لم يذكره؛ ولكنه ألحق بالحيض في الاغتسال منه؛ إذ إنه -أي: النفاس- دم حيض مجتمع[5].

ثالثًا: وسائل التطهير الحسية والمعنوية:

١. الماء.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾:

من أعظم نعم الله تبارك وتعالى علينا: نعمة الماء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

وصف الله تعالى الماء بأنه طهور على وزن (فعول) من صيغ المبالغة، أي: فهو طاهرٌ في نفسه، مطهّرٌ لغيره[6]، قال تعالى: عن المؤمنين في غزوة بدر: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

يقول أبو السعود رحمه الله: «ووصف الماء به إشعار بتمام النعمة فيه، وتتميم للنعمة فيما بعده؛ فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهّروها فبواطنهم أحق بذلك وأولى»[7].

إذن فالماء لا يقتصر في كونه سببًا في طهارة الظاهر فحسب، بل هو سبب مهم في طهارة الباطن كذلك.

قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

وصف الماء النازل من السماء بالبركة يفتح أمامنا آفاقًا كبيرة في سرّ هذه النعمة، فالبركة في اللغة: تعني النّماء والزيادة والسعادة[8].

يقول أبو حيّان الأندلسي رحمه الله: «﴿مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي: كثير المنفعة»[9].

فالمطر كما نعلم سببٌ في سعادة

(١) احتجز بإزاره شده على وسطه، والحجزة معقد الإزار، وحجزه منعه، وكفه. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٤٥٧.
(٢) أخرجه الطبري في تفسير ٢/ ٤٦٨.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ١٢٩.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ١١٥.
(٥) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ١/ ٤٥٨.
(٦) انظر: الكشاف، الزمخشري ص٧٤٨.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢١١.
(٨) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٨٣٩.
(٩) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٥٣١.

الكبار قبل الصغار، وبه يحيي الله تعالى الأرض، فتخرج بركاتها بإذن ربها، بل فيه شفاء بإذن الله تعالى، ومما يؤيد أنه سبب في طهارة الباطن الآية المتقدمة من سورة الأنفال: ﴿مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يقول السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

«يطهّر من الحدث والخبث، ويطهّر من الغش والأدناس، وفيه بركة، من بركته أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتًا، فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها، مما يأكل الناس والأنعام»[(١)].

بعد هذه الوقفة مع الماء في كونه سببًا في الطهارة يأتي الحديث عن طرائق التطهر به التي ذكرها القرآن الكريم، وهي: الوضوء والاغتسال.

- الوضوء.

والقرآن الكريم ذكر الوضوء في موضع واحد، وهو قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين، يأمرهم سبحانه بالوضوء للصلاة ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ والمراد: إذا أردتم الصلاة، وليس المقصود الوضوء عند القيام في الصلاة[(٢)]، والأمر بالوضوء عند القيام للصلاة واجب على المحدث، ومندوب للمتوضئ[(٣)].

ثم بدأ تبارك وتعالى يشرح كيفيته النية، وقد دلّ عليها قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وقد نصّ النبي صلى الله عليه وسلم على وجوب النية في كل عمل، وكونها شرطًا لقبوله.

في الحديث المتفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[(٤)].

ثم قال تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ والغسل: إسالة الماء على الشيء لإزالة ما عليه من وسخ وغيره[(٥)]، وحدّ الوجه: طولًا: من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٨٠.

(٣) الوسيط، الزحيلي ١/ ٤٣٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدأ الوحي، باب كيف كان بدأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٦، رقم ١، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنية)، ٣/ ١٥١٥، رقم ١٩٠٧.

(٥) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٨١.

اللحيين -أسفل الذقن-، وعرضًا: من الأذن إلى الأذن الأخرى[1].

ثم غسل اليدين إلى المرفقين، قال تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ فعطف الأيدي على غسل الوجه، فدل على أن فرضهما الغسل، ثم قال سبحانه: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ والمراد: مسح الرأس دون الوجه؛ لأنه قيّد الوجه بالغسل أولًا، ثم ذكر مسح الرأس؛ فدلّ على أنه -أي: الوجه- غير داخل في المسح، واختلف العلماء في المقدار الواجب في مسح الرأس، وخلافهم راجع إلى معنى حرف الجر (الباء) في قوله تعالى: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ هل هي للتبعيض أم مؤكدة أم زائدة؟

والإجماع على أن من مسح رأسه كله فقد أحسن وفعل ما يلزمه[2].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ والمراد: غسلهما؛ لأنها منصوبة، فصارت معطوفة على المنصوب قبلها، وهو غسل الوجه واليدين، ولابدّ في هذه الأركان من الترتيب؛ بدليل أن الآية ذكرتها مرتبة، حتى أنها جعلت الممسوح -وهو الرأس- بين المغسول، فدل على وجوب الترتيب[3].

وهذه الأمور التي ذكرتها الآية هي فرائض الوضوء، ولا يصح الإخلال بها أو بأحدها، وهناك سنن بيّنتها السنة، ويمكن تلخيصها في حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو يعلّمنا كيف كان حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم يتوضأ، روى البخاري ومسلم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعا بوضوء فتوضأ فغسل كفّيه ثلاث مرات، ثم مضمض واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاث مرات، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات، ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك، ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قام فركع ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه)[4].

هذا الحديث يبيّن لنا مدى حرص الصحابة الكرام رضي الله عنهم على السنة، وأنهم كانوا يحرصون عليها أشد الحرص؛

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٥.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٧.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثًا ثلاثًا، ١/ ٤٣، رقم ١٥٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، ١/ ٢٠٤، رقم ٢٢٦.

لأنها سنة، بينما نحن اليوم يفرّط الكثير منّا فيها، ويتهاون بها لأنها سنّة!

والحديث كذلك يبرز مدى صلة الطهارة الحسية بالمعنوية، وعمق الترابط بينهما، فمن وسائل الطهارة المعنوية أداء ما افترض الله تعالى، وأعظم هذه الفرائض بعد الشهادتين الصلاة، والتي من شروطها الوضوء، الذي هو مع كونه طهارة حسية فهو طهارة معنوية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا توضأ العبد المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء أو نحو هذا، و إذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًّا من الذنوب)[1].

❁ الغسل.

قدّ بيّن القرآن الكريم أنه يجب التطهر من الجنابة.

قال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

والطهارة من الجنابة تكون بالاغتسال.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣].

ولم يبيّن القرآن كيفية الغسل، وبيّنته السنّة، وهو: إفاضة الماء على جميع البدن على وجه مخصوص.

٢. الصعيد الطاهر.

وقد شرع الله تعالى لنا في بعض الأحوال الانتقال من التطهّر بالماء -وهو الأصل- إلى التطهّر بالتراب، أو الصعيد سواءٌ كان ترابًا أو حجارة، أو سبخة ونحوه[2].

وهذه مزيّة اختصّ الله تعالى بها أمة حبيبه محمدٍ صلى الله عليه وسلم، حيث قال عليه الصلاة والسلام: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي) وذكر منها: (وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا)[3].

قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: اقصدوا الصعيد الطيب[4]، وفي الشرع: القصد إلى الصعيد الطيب لمسح الوجه، واليدين منه بنية استباحة الصلاة عند عدم الماء، أو العجز عن استعماله[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء، ١/ ٢١٥، رقم ٢٤٤.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا)، ١/ ٩٥، رقم ٤٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢١.

(٤) مختار الصحاح، الرازي ص٦٣٤.

(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣١.

وذكر الله تعالى التيمّم في سورة المائدة بعد أن ذكر الوضوء والغسل.

فقال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وذكر التيمم كذلك في سور النساء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

والآيتان السابقتان بيّنتا موجبات التيمم وكيفيته، ويمكن اختصارها فيما يأتي:

مسوّغات التيمّم:

١. المرض، يباح التيمّم للمريض الذي يخاف إن استعمل الماء زيادة المرض، أو تأخر الشفاء، وتيمم الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه لما خاف أن يهلك من شدة البرد، وأقرّه رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)].

٢. السفر، والمقصود: السفر الذي لا يجد فيه صاحبه الماء، وكذلك المقيم الذي لا يجد الماء فإنه يتيمّم، وإنما خصّ سبحانه السفر بالذكر لأنه الغالب في عدم الماء، بخلاف المقيم فإنه من النادر أن يفقده[(٢)].

٣. ووجود ناقض للوضوء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ المقصود بالغائط: ما انخفض من الأرض، وكان الناس يذهبون لقضاء الحاجة في هذه الأماكن المنخفضة لأجل الستر فلا يراهم أحد، ويراد به في الآية الكناية عن كل الأحداث التي تنقض الطهارة الصغرى، كزوال العقل، والخارج من السبيلين[(٣)].

٤. ملامسة النساء: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ بعد أن ذكر الله تعالى الغائط، وأن المراد منه الطهارة من الحدث الأصغر، ذكر الطهارة من الحدث الأكبر: ملامسة النساء، ويراد به الجماع، وهذا من لطافة القرآن الكريم وعنايته باختيار الألفاظ، ويدخل فيه كل ما يلزم منه الغسل، وهو الحدث الأكبر، من الجماع، والتطهّر

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٣٠.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٦١.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٣٢-١٣٣.

من الحيض، وكذا النفاس[1].

والشرط المبيح للتيمّم في كل ما تقدّم، هو: فقد الماء، أو تعذّر استعماله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ والمقصود انعدام الماء، بعد طلبه والسعي في الحصول عليه، أو كان عنده، ولكن يتعذّر عليه استعماله لمرض أو خطر يهدّده، كوجود حيوان مفترس عند مصدر الماء، أو غيرها من الموانع، فعندها ينتقل من الوضوء أو الغسل إلى التيمّم[2].

وصفته كما قال عز وجل: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ وفسّرته السنة النبوية.

فعن عمار بن ياسر رضي الله عنهما أنه قال: أجنبت فلم أصب الماء، فتمعّكت[3] في الصعيد وصلّيت، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (إنما كان يكفيك هكذا)، وضرب النبي صلى الله عليه وسلم بكفّيه الأرض، ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفّيه[4].

ثم ختم الله تعالى الكلام حول الوضوء والغسل والتيمم بقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

فليس المقصود من هذه التشريعات هو العنت والحرج على عباد الله تعالى، ولكن هي نعمة من الله تبارك وتعالى؛ ليطهّر بها الأرواح والنفوس، فتلتزم بأوامره وشرعه، وتحافظ على طهارة ظاهرها؛ فتكتمل فيها صورة الطهارة حسًّا ومعنى، فهذه الطهارة الحسية هي مقدّمات للوقوف بين يدي الله جل وعلا في الصلاة، حيث تسمو فيها الروح، وهي تعرج إلى بارئها، فكان لزامًا على هذا العبد وهو في موقفه العظيم بين يدي خالقه أن يكون طاهر الأعضاء والجوارح، احترامًا وتقديرًا وتقديسًا لوقوفه بين يدي مولاه.

«وقد شرع الإسلام الوضوء والغسل للمؤمن ليكون مظهرًا دالًّا على طهارة الظاهر، كما دعا إلى اجتناب المعاصي والآثام ليكون عنوانًا على طهارة الباطن، فالوضوء والغسل إنما يقصد منهما النظافة وهي «طهارة حسية» تعوّد الإنسان على حياة الطهر في النفس والخلق والدين...، إن الإسلام دين الطهارة وطهارة الظاهر فرع، وطهارة الباطن أصل، وطهارة الظاهر شرط

(١) انظر: المصدر السابق ٥/ ١٣٤-١٣٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣١.
(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٦٣.
(٣) يعني: تقلّب.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ٢/ ٥٨٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، باب المتيمم هل ينفخ فيهما، ١/ ٧٥، رقم ٣٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب التيمم، ١/ ٢٨٠، رقم ٣٦٨.

لصحة الصلاة، كما أن طهارة الباطن شرط لدخول الجنة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وهما جميعًا سبب لمحبة الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]»[(١)].

وبهذا يتأكّد لنا معنى الرباط الوشيج بين الطهارة المادية والحسية، ويتأكّد لنا أن الأصل في الطهارة هو طهارة النفس، ومن ثم تكون طهارة الظاهر ثمرة لتلك الشجرة الطيبة.

٣. الإيمان والتقوى.

التقوى: خشية الله تعالى، وهي ثمرة العبادات التي شرعها الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ولذلك قال سبحانه وهو يذكر شرائع الحج والهدي: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

ومن الأمثلة على أن التقوى هي الهدف من وراء العبادات، ما ذكره الرازي رحمه الله وهو يتحدث عن سورة النساء، فيقول: «اعلم أن هذه السورة مشتملة على أنواع كثيرة من التكاليف؛ وذلك لأنه تعالى أمر الناس في أول هذه السورة بالتعطف على الأولاد والنساء والأيتام، والرأفة بهم، وإيصال حقوقهم إليهم، وحفظ أموالهم عليهم؛ وبهذا المعنى ختمت السورة...، وذكر في أثناء هذه السورة أنواعًا أخر من التكاليف، وهي الأمر بالطهارة والصلاة وقتال المشركين؛ ولما كانت هذه التكاليف شاقة على النفوس لثقلها على الطباع لاجرم افتتح السورة بالعلة التي لأجلها يجب حمل هذه التكاليف الشاقة، وهي تقوى الرب الذي خلقنا، والإله الذي أوجدنا»[(٢)].

ومن النماذج العملية التي ذكرها الله تعالى في القرآن قصة يوسف عليه السلام الذي نشأ على الإخلاص لربّه، وتربى على خشيته تعالى، فبنى في نفسه قاعدة صلبة حفظته بحفظه لربه من الوقوع في نتن الفاحشة وخبثها.

قال سبحانه: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

يوسف عليه السلام أمام هذه المحنة العظيمة أحاطت به الدواعي الكثيرة التي تغري الشاب الغريب، الممتلئ قوة واندفاعًا، وهو في حضرة امرأة العزيز، وقد تهيّأت له بالجمال، وغلّقت الأبواب، بابًا

(١) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٨٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٢.

وراء باب، ودعته لنفسها بلسان الحال قبل المقال، ولكنه قال بكل ثقة: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾.

يقول السعدي رحمه الله: «والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما منّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر»[1].

ولذا جعل الله تبارك وتعالى التقوى شعار الطاهرين، الذين يحبّهم ويرضى عنهم، ويتقبّل منهم أعمالهم.

قال سبحانه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

«ولما كان من شأن الأساس أن تطلب له صلابة الأرض لدوامه جعلت التقوى في القصد الذي بني له أحد المسجدين، فشبّهت التقوى بما يرتكز عليه الأساس»[2].

فإذا ما تحقّقت التقوى في قلب المؤمن، كان عمله صالحًا متقبلًا، وعاش طاهرًا نقيًّا، فالتقوى تحثه على التزام طاعة ربه، وخشيته جلا وعلا، وترك ما يكدر صفو إيمانه، من التلطخ برجس المعاصي ونتنها، فيعيش ملتزمًا بصراط الله المستقيم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٤. إخراج الزكاة والصدقات.

ومن العبادات التي افترضها الله تعالى علينا: الزكاة، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة:١٠٣].

ولا يقتصر أثر الزكاة على تطهير المال ونمائه فحسب، بل لها أثر عظيم في تربية النفس وتزكيتها، وتطهيرها من الذنوب والشّح؛ فنفس الغني تطهر من البخل، ونفس الفقير تطهر من الحسد، وتكسبه القناعة والرضا[3]، ولذلك حثّ الله تبارك وتعالى عباده على تأدية الزكاة، والتطوّع بالصدقات، وقد أثنى سبحانه وتعالى على ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل:١٨].

فيحرص المؤمن على إخراج ماله في سبيله سبحانه، رجاء أن يطهّره الله بذلك من أمراض القلوب وأدرانها، وأن ينقيّه مما كان منه من الخطأ أو التقصير.

وأمر الله سبحانه بتقديم الصدقات عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومخاطبته، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٩٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٥٤.
(٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة باحثين ٣/ ٢٦٧- ٢٦٨.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢].

يقول الشيخ محمد علي الصابوني: «أمر تعالى عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاته عليه الصلاة والسلام لأمرٍ من الأمور أن يتصدّقوا قبل هذه المناجاة تعظيمًا لشأن الرسول صلى الله عليه وسلم ونفعًا للفقراء، وتمييزًا بين المؤمن المخلص، والمنافق المراوغ؛ فإن ذلك أزكى للنفوس، وأطهر للقلوب، وأكرم عند الله تعالى، فإذا لم يتيسر للمؤمن الصدقة فلا بأس عليه ولا حرج»[(١)].

ومن حكمة الله تعالى في ندبه للصدقة عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم: تطهير قلوب المؤمنين، وتزكية نفوسهم «لما فيه من تعويدها على عدم الاكتراث بالمال، وإضعاف علاقة حبّه المدنّس لها، وفيه إشارة إلى أن في ذلك إعداد النفس لمزيد الاستفاضة من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند المناجاة»[(٢)].

فالصدقة هنا تطهّر القلب من الأدناس «التي من جملتها ترك احترام الرسول صلى الله عليه وسلم والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صلى الله عليه وسلم صار هذا ميزانًا لمن كان حريصًا على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول»[(٣)] صلى الله عليه وسلم.

وفي المقابل حرّم الله جلّ وعزّ الربا لشدة خطره وضرره على المجتمع، وكونه سببًا رئيسًا في تلويث القلوب بالأحقاد والحسد والغل، يقول الشيخ محمد علي الصابوني: «الصدقة عطاء وسماحة، وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل...، والربا شحّ وقذارة ودنس وجشع وأثرة وأنانية...، فلا عجب إذًا أن يعده الإسلام أعظم المنكرات والجرائم الاجتماعية والدينية، وأن يعلن على المرابين الحرب ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وذلك للأضرار الفادحة والمساوئ التي تترتب عليه»[(٤)].

٥. اتباع دين الله تعالى وأحكام شرعه.

من أعظم ما يطهّر النفس: اتباع أوامر الله تعالى، والتزام شرعه، والمسارعة في الأعمال الصالحة؛ لأنها «أهم وسائل التزكية العملية التي يعيش المسلم حياته معها، وبقدر ما يكثر منها يكون مزكّيًا لنفسه، بشرط أن يأتي بها على وجهها الذي شرعه

(١) تفسير آيات الأحكام ٢/ ٣٩٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٢٢٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٤٧.
(٤) تفسير آيات الأحكام ١/ ٢٨٠ بتصرف يسير.

الله، ويخلص فيها لله»[1].

وأول أمر ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وهذا نداء عام لجميع الناس، فهو للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بأن يعبدوا الله وحده لا شريك له، والعبادة هنا تعني: توحيده تعالى، والتزام شرائع دينه[2].

وأعظم شرائع الدين بعد الشهادتين: الصلاة، وقد حثّ الله تبارك وتعالى عليها في مواضع عدّة، وأوصانا بها حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم، وما ذلك إلا لعظم منزلتها وقدرها، وهذه الصلاة لها روحٌ، كما أن للجسد روحًا يموت بدونها، وروح الصلاة الخشوع، وهي التي ميّز الله بها المؤمنين، وأثنى عليهم بها، فقال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

ومن حقّق الخشوع في الصلاة جنا ثمرتها، وتحقق له ما أراد الله منها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «تنهى من كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش؛ لأن شغله بها يقطعه عن الشغل بالمنكر؛ ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: من لم يطع صلاته لم يزدد من الله إلا بعدًا؛ وذلك أن طاعته لها إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها مزدجر عن الفحشاء والمنكر»[3].

ومن العبادات التي تطهّر النفس: الصوم، وهو عبادة جليلة، فيه تربّية النفس على العفو والتسامح، وقد بيّن الله تعالى الحكمة من افتراضه صوم شهر رمضان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ومن شرائع الله: الحج، وهو عبادة عظيمة، من أدّاها كما أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، رجع منها وقد طهّر من ذنوبه وخطاياه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه)[4].

والحج يربّي النفس على التواضع

(١) التزكية على منهج النبوة، معاذ سعيد حوى ص٢٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/١٦٨.
(٣) جامع البيان، ٢٠/١٦٧.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب قول الله تعالى: (الحج أشهر معلومات)، ٣/١١، رقم ١٨١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، ٢/٩٨٣، رقم ١٣٥٠.

والمساواة والعفو، ويطهر النّفس من أمراضها.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والرفث هو الفحش والقول القبيح، وقيل: هو جماع المرأة ومقدماته، والفسوق: المعاصي[(١)]، ولاشك أنّ الابتعاد عن هذه الأمور من أعظم ما يتطهر به القلب.

وفي سورة البقرة بعد أن ذكر الله تعالى جملة من أحكام الطلاق والعدّة قال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

يقول حجازي رحمه الله: «ذلك أزكى لكم وأطهر من دنس الوقوع في المحرم، وهو أزكى نظام وأطهره»[(٢)].

وفي سورة الأحزاب ذكر الله تعالى آية الحجاب، وبيّن فيها أدب زيارة النبي صلى الله عليه وسلم في بيته، وفرض فيها الحجاب على أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وبيّن لنا الحكمة في ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وهكذا في سائر العبادات، إذا ما التزم المسلم بها، وأخلص لربّه تعالى فيها، فإنها تؤتي أكلها في تطهير النفس والقلب، وبهذا يتبين لنا مدى أهمية التزام شرع الله تعالى في تطهير النفس وصفائها.

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٢٦.
(٢) التفسير الواضح، ٢/ ١٤١.

آثار الطهارة

أولًا: محبة الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

المتطهر يحبه الله تعالى، ومن أحبّه الله عاش في ظلال رحمته، يقول حجازي رحمه الله: «أما محبة الله لهم فهذا شيء هو أعلم به إلا أنا نعرف من الحديث أن الله يحب من عباده الصالحين الموفّقين إلى الخير»[(١)].

وذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنّه)[(٢)].

ولهذه المحبة أثرها البالغ في نفس المؤمن؛ لأنه ما وصل إلى هذه المنزلة إلا بعد أن ترقّى في تطهير روحه، فسما بها في طاعة ربه، وتنزّه عمّا يلوث قلبه ونفسه وجسده ومحيطه من النجاسات الحسية والمعنوية، فعرفه الناس بتقواه وصدقه، فكتب له الله تعالى حبّهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانًا فأحبّه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبّوه. فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض)[(٣)].

فمحبّة الله تعالى -كما بيّن الحديث الشريف- تجلب محبة الخلق، والإنسان متى ما كان محبوبًا عند الله تعالى وعند الناس كان في سعادة وهناء، فمحبة الله تعالى تعني له حفظ الله سبحانه له وتوفيقه إيّاه، ومحبة الخلق تعني له حسن العشرة معهم.

ثانيًا: صحة العبادة:

من أعظم أركان الدّين، وأرفعها منزلة وقدرًا: الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

(١) التفسير الواضح، ١١/ ١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، ٤/ ٢٠٣٠، رقم ٢٦٣٧.

وقد أجمع العلماء على وجوب الطهارة لها[1]، «والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفًا على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر؛ وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفًا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيّب طاهر، فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب»[2].

فالطهارة شرط للصلاة وغيرها من العبادات كالطّواف ومسّ المصحف الشريف، وهذا يجعل للطهارة منزلة عظيمة في الإسلام؛ إذ إنها شرط لأول أركان الدين بعد الشهادتين، والمسلم يصلي في اليوم والليلة خمس صلوات مكتوبات فضلًا عن الرواتب والمستحبات؛ وذلك يجعله على طهارة مستمرة، وهذه الطهارة لأداء الصلاة لا يقتصر أثرها في رفع الحدث وإزالة الخبث فحسب، بل ترتقي لتكون سببًا بإذن الله تعالى في محو الذنوب، وتكفير الخطايا. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء)، قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: (فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا)[3].

يبيّن لنا الحديث مدى أهمية الصلاة، وأثرها في طهارة الباطن والظّاهر، فالوضوء للصلاة سبب في النّقاء من الأدران، وهي: الأوساخ[4].

والصلاة تلو الصلاة سبب في النّقاء ممّا يتلوّث به الإنسان من أدران الخطايا.

ثالثًا: شكر النعمة ودوامها عليه:

من أعظم نعم الله تعالى على عباده: نعمة المال، وهو من ضروريات الحياة، ومن حصلت له هذه النعمة فعليه أن يشكر الله جل وعلا عليها؛ حتى تزيد وتدوم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن الأمور التي أوجبها الله تعالى علينا في المال: الزكاة، كما ندبنا الشّرع الحنيف إلى الصدقة، وهذه من أوجه الإنفاق التي لها أكبر الأثر في حصول البركة، وتزكية النفس.

قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

الخطاب موجّه لأشرف الخلق محمد

(١) الإجماع، ابن المنذر ص٢٩.
(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيّم ١/ ٥١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، ١/ ١١٢، رقم ٥٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، ١/ ٤٦٢، رقم ٦٦٧.
(٤) مختار الصّحاح، الرازي ص١٩٣.

عليه السلام: «خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم من دنس البخل، وشحّ النفس، ولؤم الطبع، وقسوة القلب، وتزكيهم بها حتى تنمو نفوسهم على حب الخير، وتزرع في قلوبهم شجر العطف على الفقير والضعيف والمحتاج، بهذا تنمو النفس وترتفع»[(١)].

ومن أهم مقاصد الدّين: السمو بالنفس، والارتقاء بالإنسان في مراتب الإيمان، وهذا لا يكون مع نفس متعلّقة بحطام الدنيا الزائل، وديننا الحنيف يحثنا على الكسب الطّيب، إلا أنه حذّرنا أشد الحذر من أن تدخل شهوة المال شغاف قلوبنا، بل جعله وسيلة لتيسير أمور الحياة، وحتى يعيش المؤمن هذه المعاني شرع الله تعالى الصدقة والزكاة، فالزكاة: طهارة ونماء، والصدقة: دليل على صدق الإيمان، وتوافق الظاهر مع الباطن[(٢)].

وانظر وتأمّل في الآية الموالية للآية المتقدّمة، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

«التوبة تغسل الذنب وتمحوه، وتجدّد العهد وتقويه، ولذلك جاءت بعد الأمر بأخذ الصدقة لبيان السبب في الجملة»[(٣)].

فمجرد إخراج المال دون قلب مخلص، ولا نية صادقة لا يرقى إلى تزكية النفس والسمو بها، بل لابد معه من توبة نصوح، وإيمان وخضوع لله رب العالمين، حينها تكون الصدقة معراجًا للنفس للسمو بها في آفاق الطهارة القلبية والروحية.

وفي مقابل إخراج الزكاة وإنفاق المال في أوجه الخير فإن منعه سبب رئيسٌ في زوال النعمة، ونزول النقمة، فكم من أموال محقت، وتجارة كسدت؛ لمّا منع أصحابها حق الله تعالى فيها؛ ولك أن تتأمّل وأنت تتلو سورة (القلم) حين تصل إلى قصة أصحاب الجنّة التي أنعم الله عليهم بها بالخيرات والثمرات، ولكنهم حين أصاب قلوبهم مرض الشحّ، وبيّتوا النية على أن يحصدوا ثمارهم في الصباح الباكر احترازًا من أن يراهم الفقراء والمساكين؛ ليحرموهم منها من أيّ حظٍّ أو نصيب، فإذا بالجزاء يدركهم قبل أن يدركوا مرادهم، ويقطفوا ثمارهم، فبينما هم يمكرون إذ بطائف من ربك يمرّ على جنتهم وهم نائمون ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠].

أي: كالليل الأسود[(٤)]، والله تبارك وتعالى حين يقصّ علينا أنباءهم، يريد أن نتعظ ونتدبر، فالأيام دول، وقد عشنا قبل سنوات قليلة الأزمة المالية العالمية؛ وما

(١) التفسير الواضح، حجازي ١١/ ٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١١٨.
(٣) التفسير الواضح، حجازي ١١/ ١١.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٤٩.

ذاك إلا لمنع الزكاة والصدقات، والتعامل بالربا والجهر بالمحرمات، فمرضت القلوب، وتدنست بالذنوب، فجاء من ربك العذاب، ويتوب الله على من تاب.

رابعًا: جنّات النّعيم في الآخرة:

إن غاية ما يطلبه العارف بالله هو الوصول إلى رضاه جل وعلا، فبرضاه تهنأ بمحبته لك، وتفوز بجنته، فيضاعف لك الحسنات، ويمحو عنك السيئات، والطهارة بمفهومها الشامل تصل بالمؤمن إلى كل ذلك.

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان)[1].

والمقصود بالطهور هو: «أن يتطهر الإنسان طهارة حسية ومعنوية من كل ما فيه أذى»[2].

يقول ابن رجب رحمه الله: «إن خصال الإيمان من الأعمال والأقوال كلها تطهر القلب وتزكيه، وأما الطهارة بالماء فهي تختصّ بتطهير الجسد وتنظيفه، فصارت خصال الإيمان قسمين: أحدهما يطهّر الظاهر، والآخر يطهّر الباطن، فهما نصفان بهذا الاعتبار»[3].

وأوّل ما يحرص عليه المؤمن هو طهارة باطنه من الشرك ومن النفاق، ومن كل ما يخدش الإيمان من أمراض القلب والنّفس؛ لأنه يعلم عظم جرم الإشراك بالله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ويعلم عاقبة المنافقين ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وحينئذٍ يحرص كل الحرص على تحقيق التوحيد الخالص لربه، ويسعى في عمل الصالحات لينال أعلى الدرجات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

بل كلما ترقّى المؤمن في درجات الإيمان صار قلبه أكثر نقاءً وصفاءً، فيكون حاله كحال عباد الرحمن الذين ذكر الله تبارك وتعالى صفاتهم في أواخر سورة الفرقان، وبيّن منزلتهم العالية، وكما وصفهم سبحانه -كذلك- في مستهلّ سورة المؤمنين، وذكر جزاءهم العظيم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

وبحرص المؤمن على طاعة الله تبارك وتعالى، واجتناب معاصيه يصل إلى رضاه سبحانه، فما غاية الأوامر والنواهي إلا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، ١/ ٢٠٣، رقم ٢٢٣.
(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١/ ١٨٨.
(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص٤٩٦.

اختبار من الربّ لعباده؛ ليمحّصهم وينقّيهم، فيختبرهم بالأعمال والتكاليف ليظهر صدقهم، وليصلوا إلى مراد الله تعالى من تلك العبادات وهو التقوى.

قال سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

يقول الشيخ محمد علي الصابوني: «فلا شيء من هذا يصل إلى الله أو يرضيه، وإنما يرضيه جل وعلا امتثال الأوامر منكم وطاعته وتقواه، فلا يظن أحد أنه ينال ثواب الله باللحم يقطّعه وينشره، وإنما ينال ذلك بتقوى الله»[1].

يقول ابن القيم رحمه الله: «حرّم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين؛ ولهذا يقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

فالجنّة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاساته دخلها بغير معوّق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النّار من تلك النّجاسة، ثم يخرج منها»[2].

والحرص على الطهارة كما هو سبب مهم في نيل رضا الله تعالى وضمان دخول جناته سبحانه وبحمده هو بالإضافة إلى ذلك رفعة للدرجات، وسبب لمحو الخطايا والسيئات.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة)[3].

في هذا الحديث ربط عجيب بين مفهوم الطهارة الحسيّة والمعنويّة؛ فالمسلم وهو يمرّر الماء على أعضائه بنية الوضوء، ثمّ يذهب إلى المسجد، فإنّه في ذلك ينقّى بإذن ربّه من الأوساخ الظاهرة، والأدران الباطنة.

موضوعات ذات صلة:

الصلاة، مكة

(١) تفسير آيات الأحكام ١/ ٤٣٧.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٥١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، ١/ ٤٦٢، رقم ٦٦٦.

الطيبات

عناصر الموضوع

مفهوم الطيبات	١٨٨
الطّيّبات في الاستعمال القرآني	١٨٩
الألفاظ ذات الصلة	١٩٠
الحث على ابتغاء الطيب	١٩٢
صور الطيبات المعنوية	٢٠٠
صور الطيبات الحسية	٢٠٧
آثار ابتغاء الطيبات المعنوية	٢٢١
آثار ابتغاء الطيبات الحسية	٢٢٣

مفهوم الطيبات

أولًا: المعنى اللغوي:

الطيب خلاف الخبيث، إلا أنه قد تتسع معانيه، فيقال: أرضٌ طيبة للتي تصلح للنبات، وريحٌ طيبة إذا كانت لينة ليست بشديدة، وطعمةٌ طيبة إذا كانت حلالًا، وامرأةٌ طيبة إذا كانت حصانًا عفيفة، وكلمةٌ طيبة إذا لم يكن فيها مكروه، وبلدةٌ طيبة، أي: آمنة كثيرة الخير، ونكهةٌ طيبة إذا لم يكن فيها نتن، وإن لم يكن فيها ريح طيبة كرائحة العود وغيرها، وطعامٌ طيب للذي يستلذ الآكل طعمه، والكلمة الطيبة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله[1].

والطّيّب: الحلال. والطيب: ما يتطيب به، وقد تطيب بالشيء، وطيب الثوب وطابه، والطيب من كل شيء: أفضله، واستطبناهم: سألناهم ماء عذبًا[2].

وبهذا يتضح أن كلمة الطيب ليس لها معنى ثابت في الاصطلاح اللغوي، وإنما هي على حسب السياق الذي ترد فيه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يوجد هناك تعريف اصطلاحي خاص بالطيب، ولكن تختلف دلالته الاصطلاحية بحسب المضاف إلى الطيب، فمثلًا الرزق الطيب هو الحلال[3]. وأصل الطّيّب: «ما تستلذّه الحواسّ، وما تستلذّه النّفس، والطّعام الطّيّب في الشّرع: ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، ومن المكان الّذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طيّبًا عاجلًا وآجلًا لا يستوخم، وإلا فإنه -وإن كان طيّبًا عاجلًا- لم يطب آجلًا»[4].

«وقال الحسن: الحلال الطّيّب: هو ما لا يسأل عنه يوم القيامة، وقال ابن عبّاسٍ: الحلال الّذي لا تبعة فيه في الدّنيا، ولا وبال في الآخرة، وقيل: الحلال ما يجوّزه المفتي، والطّيّب ما يشهد له القلب بالحلّ»[5].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ١٧٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣٥، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٢٨١.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٤٨، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٦٣.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٩٠.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٢٧.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٠٠.

الطّيّبات في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طيب) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(٥٠) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣]
المصدر	١	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد:٢٩]
الصفة المشبهة	٤٦	﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء:٢]

وقد أطلقت الطّيّبات في الاستعمال القرآني على عدة أمور، منها[(٢)]:

الأول: الذكر والدعاء: ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠].

الثاني: الرزق: ومنه قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الإسراء:٧٠]. يعني: جميع رزق بني آدم: الخبز والعسل والسمن، ونحوه من أطايب الطعام، وجعل رزقهم أطيب من رزق البهائم والدواب والطير.

الثالث: الحلال: ومنه قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠].وقد كانت لهم حلالًا في التوراة.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٧٢٧-٧٢٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٢٠-٣٢٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤١٨-٤١٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخبائث:

الخبائث لغةً:

جمع خبيث، قال ابن فارس: «الخاء والباء والثاء أصلٌ واحد يدلّ على خلاف الطّيّب. يقال خبيثٌ، أي ليس بطيّب. وأخبث، إذا كان أصحابه خبثاء. ومن ذلك التعوّذ من الخبيث المخبث. فالخبيث في نفسه، والمخبث الذي أصحابه وأعوانه خبثاء»[١].

الخبائث اصطلاحًا:

قال الراغب: «الخبث والخبيث: ما يكره رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا»[٢].

الصلة بين الخبائث والطيبات:

لا شك أن العلاقة بينهما علاقة تضاد، فالطيب خلاف الخبيث، والخبيث خلاف الطيب.

٢ الحلال:

الحلال لغةً:

الحلال ضد الحرام، وهو من: حلّ يحلّ حِلًّا، بالكسر. وأحلّه الله، وحلّله، واستحلّه: اتّخذه حلالًا، أو سأله أن يحلّه له[٣].

الحلال اصطلاحًا:

هو ما أطلق الشرع فعله، أو هو كل شيء لا يعاقب عليه باستعماله[٤].

الصلة بين الحلال والطيبات:

الطيب: ما هو طيب في ظاهر الشرع سواء كان طيبًا في الواقع أم لا، والحلال: ما هو حلال وطيب في الواقع لم تعرضه النجاسة والخباثة قطعًا، ولم تتناوله أيدي المتغلبة أصلًا[٥].

---

(١) مقاييس اللغة، ٢/ ١٩٤.
(٢) المفردات، ص٢٧٢.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٨٦.
(٤) التعريفات، الجرجاني، ص٩٢.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري، ص١٦٩.

٢ المحرمات:

المحرمات لغةً:

الحرام لغةً: الحرام من حرم، فالحاء والراء والميم أصل واحد، وجمع الحرام حرم، والحرام ضد الحلال، والحرام هو المنع والتشديد[١].

المحرمات اصطلاحًا:

الحرام: هو ما طلب الشارع من المكلف تركه على وجه الإلزام، بحيث يعاقب فاعله ويثاب تاركه[٢].

الصلة بين المحرمات والطيبات:

واضحٌ أن هناك فرقًا شاسعًا بينهما، فكل منهما ضد الآخر.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥.
(٢) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف ص١١٣.

الحث على ابتغاء الطيب

تنوعت أساليب القرآن على الحث على ابتغاء الطيب، وهذا ما سنتناوله فيما يأتي:

أولًا: أسلوب الطلب:

جاء الأمر في القرآن بابتغاء الطيبات في الحياة الدنيا، وأكد ربنا سبحانه وتعالى على ذلك في مواضع:

جاء الأمر بابتغاء الصعيد الطيب للتيمم.

فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ففي آية سورة النساء، يعني سبحانه: وإن كنتم جرحى أو بكم قروح أو كسر، أو علة لا تقدرون معها على الاغتسال من الجنابة، وأنتم مقيمون غير مسافرين، أو إن كنتم مسافرين وأنتم أصحاء جنب، أو جاء أحد منكم من الغائط، قد قضى حاجته وهو مسافر صحيح، أو لامستم النساء (وهو مختلف في تأويله بين الجماع أو مجرد اللمس) فطلبتم الماء لتتطهروا به فلم تجدوه بثمن ولا غير ثمن، فاقصدوا صعيدًا طيبًا لتتيمموا به. والصعيد: «هو وجه الأرض الخالية من النبات والغروس والبناء، المستوية»[1].

وقد أمر الله في آخر الآية بشكره على تصييره الصعيد طيبًا، وعلى نعمه.

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. فإنّه يقول: ويريد ربّكم مع تطهيركم من ذنوبكم بطاعتكم إيّاه فيما فرض عليكم من الوضوء والغسل إذا قمتم إلى الصّلاة بالماء إن وجدتموه، وتيمّمكم إذا لم تجدوه، أن يتمّ نعمته عليكم بإباحته لكم التّيمّم، وتصييره لكم الصّعيد الطّيّب طهورًا، رخصةً منه لكم في ذلك مع سائر نعمه الّتي أنعم بها عليكم أيّها المؤمنون ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

يقول: تشكرون اللّه على نعمه الّتي أنعمها عليكم بطاعتكم إيّاه فيما أمركم ونهاكم»[2].

وجاء الأمر بأكل الطيب من الرزق.

أمر الله الرسل بذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٠٨.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٢١٨.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وأمر الله المؤمنين بذلك، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩].

إن الله ينادي الذين آمنوا بالصفة التي تربطهم به سبحانه، وتوحي إليهم أن يتلقوا منه الشرائع، وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام، ويذكرهم بما رزقهم، فهو وحده الرازق، ويبيح لهم الطيبات مما رزقهم فيشعرهم أنه لم يمنع عنهم طيبًا من الطيبات، وأنه إذا حرم عليهم شيئًا فلأنه غير طيب، لا لأنه يريد أن يحرمهم، ويضيق عليهم -وهو الذي أفاض عليهم الرزق ابتداء- ويوجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك، فيوحي إليهم بأن الشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من العباد، كل أولئك في آية واحدة قليلة الكلمات[1].

يقول الرازي: «قوله: لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ اللّه لكم يحتمل وجوهًا:

أحدها: لا تعتقدوا تحريم ما أحلّ اللّه تعالى لكم.

وثانيها: لا تظهروا باللّسان تحريم ما أحلّه اللّه لكم.

وثالثها: لا تجتنبوا عنها اجتنابًا شبيه الاجتناب من المحرّمات، فهذه الوجوه الثّلاثة محمولةٌ على الاعتقاد والقول والعمل.

ورابعها: لا تحرّموا على غيركم بالفتوى.

وخامسها: لا تلتزموا تحريمها بنذرٍ أو يمينٍ، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

وسادسها: أن يخلط المغصوب بالمملوك خلطًا لا يمكنه التّمييز، وحينئذٍ يحرم الكلّ، فذلك الخلط سببٌ لتحريم ما كان حلالًا له، وكذلك القول فيما إذا خلط النّجس بالطّاهر.

والآية محتملةٌ لكلّ هذه الوجوه، ولا يبعد حملها على الكلّ واللّه أعلم»[2].

وأمر الله بني إسرائيل بذلك، فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥٦.

(٢) مفاتيح الغيب ١٢/ ٤١٧.

وقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨١].

وأمر الله الناس جميعًا بذلك، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

والمراد بالطّيّب هنا: ما تستطيبه النّفوس بالإدراك المستقيم السّليم من الشّذوذ، وهي النّفوس الّتي تشتهي الملائم الكامل أو الرّاجح بحيث لا يعود تناوله بضرٍّ جثمانيٍّ أو روحانيٍّ، وسيأتي معنى الطّيّب لغةً عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤].

وفي هذا الوصف معنًى عظيمٌ من الإيماء إلى قاعدة الحلال والحرام؛ فلذلك قال علماؤنا: «إنّ حكم الأشياء الّتي لم ينصّ الشّرع فيها بشيءٍ إن أصل المضارّ منها التّحريم، وأصل المنافع الحلّ، وهذا بالنّظر إلى ذات الشّيء، بقطع النّظر عن عوارضه، كتعلّق حقّ الغير به الموجب تحريمه؛ إذ التّحريم حينئذٍ حكمٌ للعارض لا للمعروض»[1].

كما جاء الأمر بإلقاء التحية الطيبة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

يأمر سبحانه وتعالى إذا دخلتم بيوتًا، وهو عام يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان فليسلم بعضكم على بعض (وهذا هو المشهور في تفسيرها) ثم مدح هذا السلام، فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي: سلامكم بقولكم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت (تحية من عند الله) قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم (مباركة) لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة (طيبة) لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٠٢.

وجلب مودة[1].

ثانيًا: الثناء على الطيبين:

جاء الثناء من الله عز وجل في قرآنه على عباده الطيبين، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣١-٣٢].

يقول تعالى ذكره: كذلك يجزي الله المتقين الذين تقبض أرواحهم ملائكة الله، وهم طيبون بتطييب الله إياهم بنظافة الإيمان، وطهر الإسلام في حال حياتهم وحال مماتهم.

فالملائكة تقبض أرواح هؤلاء، وهي تقول لهم: سلام عليكم صيروا إلى الجنة، بشارة من الله تبشرهم بها الملائكة.

وفي معنى طيّبين ستة أقوال:

أحدها: مؤمنين.

والثاني: طاهرين من الشرك.

والثالث: زاكية أفعالهم وأقوالهم.

والرابع: أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم، بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط.

والخامس: طيبة أنفسهم بالموت، ثقة بالثواب.

والسادس: طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله.

والآية هنا تحتمل كل هذه المعاني[2].

هذا حال الطيبين عند مماتهم، أما عن حالهم في الآخرة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وسيق الذين اتقوا ربهم بتوحيده، والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفدًا على النجائب إلى الجنة زمرًا، فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله، حتى إذا وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة، والمنازل الأنيقة، وهبّ عليهم ريحها ونسيمها، وآن خلودها ونعيمها، وفتحت لهم أبوابها فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها، وقال لهم خزنتها تهنئة لهم وترحيبًا: سلام عليكم من كل آفة وشر حال، طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته، فبسبب طيبكم ادخلوها خالدين؛ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون[3].

وفي قوله تعالى: ﴿طِبْتُمْ﴾ خمسة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٧٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٩٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٥٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٠١.

(٣) تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣٠.

أقوال:

أحدها: أنهم إذا انتهوا إلى باب الجنة وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فلا يبقى في بطونهم أذى ولا قذى إلا خرج، ويغتسلون من الأخرى، فلا تغبر جلودهم، ولا تشعث أشعارهم أبدًا، حتى إذا انتهوا إلى باب الجنة، قال لهم عند ذلك خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ رواه عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه [1].

والثاني: طاب لكم المقام، قاله ابن عباس.

والثالث: طبتم بطاعة الله، قاله مجاهد.

والرابع: أنهم طيبوا قبل دخول الجنة بالمغفرة، واقتص من بعضهم لبعض، فلما هذبوا قالت لهم الخزنة: طبتم، قاله قتادة.

والخامس: كنتم طيبين في الدنيا، قاله الزجاج.

وفي هذه الآية أيضًا كل هذه المعاني محتملة [2].

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد، ١/ ٥٠٨، رقم ١٤٥٠، والطبري في تفسيره، ٢١/ ٣٣٩، والبيهقي في البعث والنشور، ص ١٧١، رقم ٢٤٦ عن عاصم بن ضمرة عن علي.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٨.

ثالثًا: امتنان الله على عباده بالطيبات:

امتن الله عز وجل على عباده في القرآن أن رزقهم بالطيبات، وأحلها لهم:

امتن الله على الناس جميعًا بذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

يقول الرازي: «قوله: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وذلك؛ لأنّ الأغذية، إمّا حيوانيّةٌ، وإمّا نباتيّةٌ، وكلا القسمين إنّما يتغذّى الإنسان منه بألطف أنواعها، وأشرف أقسامها بعد التّنقية التّامّة، والطّبخ الكامل، والنّضج البالغ؛ وذلك ممّا لا يحصل إلّا للإنسان» [3].

وقال ابن كثير: «أي: من زروعٍ وثمارٍ، ولحومٍ وألبانٍ، من سائر أنواع الطّعوم والألوان، المشتهاة اللّذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرّفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، ممّا يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/ ٣٧٥.

من أقطار الأقاليم والنّواحي»[1].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

وامتن الله عز وجل على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦].

قال الطاهر: «وأمّا رزقهم من الطّيّبات فبأن يسّر لهم امتلاك بلاد الشّام الّتي تفيض لبنًا وعسلًا كما في التّوراة في وعد إبراهيم والّتي تجبى إليها ثمرات الأرضين المجاورة لها، وترد عليها سلع الأمم المقابلة لها على سواحل البحر، فتزخر مراسيها بمختلف الطّعام واللّباس والفواكه والثّمار والزّخارف؛ وذلك بحسن موقع البلاد من بين المشرق برًّا والمغرب بحرًا، والطّيّبات: هي الّتي تطيب عند النّاس، وتحسن طعمًا ومنظرًا ونفعًا وزينةً»[2].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي الطيبات أربعة أقوال:

أحدها: أنها الحلال، والمعنى: يحل لهم الحلال.

والثاني: أنها ما كانت العرب تستطيبه.

والثالث: أنها الشحوم المحرمة على بني إسرائيل.

والرابع: ما كانت العرب تحرمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام[3].

يقول الإمام ابن القيم: «﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ فهذا صريح في أن الحلال كان طيبًا قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه، ولم يستفد طيب هذا وخبث هذا من نفس التحليل والتحريم لوجهين اثنين:

أحدهما: أن هذا علم من أعلام نبوته التي احتج الله بها على أهل الكتاب، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٩٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٣٤٥.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٦٠.

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾

فلو كان الطيب والخبيث إنما استفيد من التحريم والتحليل لم يكن في ذلك دليل، فإنه بمنزلة أن يقال: يحل لهم ما يحل، ويحرم عليهم ما يحرم، وهذا أيضًا باطل، فإنه لا فائدة فيه وهو الوجه الثاني.

فثبت أنه أحل ما هو طيب في نفسه قبل الحل، فكساه بإحلاله طيبًا آخر، فصار منشأ طيبه من الوجهين معًا»[1].

ونقل ابن كثير أن بعض العلماء قال: «كلّ ما أحلّ اللّه تعالى فهو طيّبٌ نافعٌ في البدن والدّين، وكلّ ما حرّمه فهو خبيثٌ ضارٌّ في البدن والدّين»[2].

وقد بين الله الواجب علينا تجاه الطيبات التي امتن بها علينا.

أمر الله سبحانه وتعالى الصحابة أن يقابلوا فضله عليهم بالطيبات، بأن يحققوا شكرها، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

المقصود بالطيبات في هذه الآية قولان:

أحدهما: أنها الغنائم التي أحلها لهم، قاله السدي.

والثاني: أنها الخيرات التي مكنهم منها، ذكره الماوردي[3].

وذكر أنه امتن عليهم بهذه النعم لشكره والقيام بعبادته.

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يقول: «وأطعمكم غنيمتهم حلالًا طيبًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: لكي تشكروا على ما رزقكم، وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم»[4].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فمن ذا الذي يتأمل هذه النقلة البعيدة، ثم لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القوية الغنية، صوت الرسول الأمين الكريم، ثم من ذا الذي لا يشكر الله على إيوائه ونصره وآلائه، وهذا المشهد وذلك معروضان عليه، ولكل منهما إيقاعه وإيحاؤه؟

على أن القوم إنما كانوا يعيشون هذا المشهد وذاك كانوا يذكرون بما يعرفون من حالهم في ماضيهم وحاضرهم، ومن ثم كان لهذا القرآن في حسهم ذلك المذاق[5].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن

(١) التفسير القيم ص٢٨٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٨٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٠٢.
(٤) جامع البيان، ١١/ ١١٧.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٩٧.

﴿كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢].

قال الطبري: «﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

يعني: أطعموا من حلال الرّزق الّذي أحللناه لكم، فطاب لكم بتحليلي إيّاه لكم ممّا كنتم تحرّمون أنتم ولم أكن حرّمته عليكم من المطاعم والمشارب.

﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ يقول: وأثنوا على اللّه بما هو أهله منكم على النّعم الّتي رزقكم، وطيّبها لكم.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يقول: إن كنتم منقادين لأمره، سامعين مطيعين، فكلوا ممّا أباح لكم أكله وحلّله وطيّبه لكم، ودعوا في تحريمه خطوات الشّيطان»[1].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: فكلوا أيّها النّاس ممّا رزقكم اللّه من بهائم الأنعام الّتي أحلّها لكم حلالًا طيّبًا مذكّاةً غير محرّمةٍ عليكم.

﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ يقول: واشكروا اللّه على نعمه الّتي أنعم بها عليكم في تحليله ما أحلّ لكم من ذلك، وعلى غير ذلك من نعمه.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يقول: إن كنتم تعبدون اللّه، فتطيعونه فيما يأمركم وينهاكم»[2].

والشكر يكون بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله[3].

وإظهار اسم الجلالة في قوله: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ مع أنّ مقتضى الظّاهر الإضمار؛ لزيادة التّذكير[4].

(١) جامع البيان، ٣/ ٥٣.

(٢) المصدر السابق ١٤/ ٣٨٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥١.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٩.

صور الطيبات المعنوية

ذكر القرآن الكريم صورًا للطيبات المعنوية نبينها فيما يأتي:

أولًا: الاعتقاد:

أخبر سبحانه وتعالى أنه يختبر العباد ليتبين طيب القلب والاعتقاد من خبيثه، فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

يقول تعالى ذكره: يحشر اللّه هؤلاء الّذين كفروا بربّهم، وينفقون أموالهم للصّدّ عن سبيل اللّه إلى جهنّم؛ ليفرّق بينهم وهم أهل الخبث، كما قال وسمّاهم ﴿الْخَبِيثَ﴾ وبين المؤمنين باللّه وبرسوله، وهم الطّيّبون، كما سمّاهم جلّ ثناؤه، فميّز جلّ ثناؤه بينهم بأن أسكن أهل الإيمان به وبرسوله جنّاته، وأنزل أهل الكفر ناره[1].

ويقول الرازي: «ليميز اللّه الخبيث من الطّيّب، وفيه قولان:

القول الأول: ليميز اللّه الفريق الخبيث من الكفّار من الفريق الطّيّب من المؤمنين، فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعضٍ، فيركمه جميعًا، وهو عبارةٌ عن الجمع والضّمّ حتّى يتراكموا، كقوله تعالى: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن (١٩)].

يعني: لفرط ازدحامهم، فقوله: (أولئك) إشارةٌ إلى الفريق الخبيث.

والقول الثاني: المراد بالخبيث: نفقة الكافر على عداوة محمّدٍ، وبالطّيّب: نفقة المؤمن في جهاد الكفّار، كإنفاق أبي بكرٍ وعثمان في نصرة الرّسول عليه الصلاة والسلام، فيضمّ تعالى تلك الأمور الخبيثة بعضها إلى بعضٍ، فيلقيها في جهنّم، ويعذّبهم بها، كقوله تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]»[2].

وفي آية أخرى يشير سبحانه إلى أنه وإن لم يفتضح ويتميز هؤلاء الذين يحملون خبيث الاعتقاد في الدنيا، ففي الآخرة لا بد أن يميز الله الخبيث من الطيب بأن يحشر هؤلاء الكافرون إلى النار ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧].

وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: «ليميز أهل السعادة من أهل الشقاء»، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال السدي، ومقاتل: «يميز

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ١٧٥.

(٢) مفاتيح الغيب ١٥/ ٤٨٢.

المؤمن من الكافر»، والثاني: «ليميز العمل الطيب من العمل الخبيث»، قاله أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، والثالث «ليميز الإنفاق الطيب في سبيله، من الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان»، قاله ابن زيد والزجاج[1].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فيميز أهل السّعادة من أهل الشّقاء، وقال السّدّي: يميز المؤمن من الكافر، وهذا يحتمل أن يكون هذا التّمييز في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾[يونس: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤].

وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

ويحتمل أن يكون هذا التّمييز في الدّنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون (اللّام) معلّلةً لما جعل اللّه للكفّار من مالٍ ينفقون في الصّدّ عن سبيل اللّه، أي: إنّما أقدرناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنّكول عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾[آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[آل عمران (١٧٩)].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٢].

ونظيرتها في براءة أيضًا.

فمعنى الآية على هذا: إنّما ابتليناكم بالكفّار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك؛ ليتميّز الخبيث من الطّيّب، فيجعل الخبيث بعضه على بعضٍ ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ أي: يجمعه كلّه، وهو جمع الشّيء بعضه على بعضٍ، كما قال تعالى في السّحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣].

أي: متراكمًا متراكبًا ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدّنيا والآخرة[2].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٤.

ثانيًا: الأعمال:

أكد سبحانه أنه مهما ارتفع خبيث الأعمال، ومهما كثر فلا بد أن يخزيه الله، ويتميز أهل العمل الطيب.

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿قُل﴾ للناس محذرًا عن الشر، ومرغبًا في الخير ﴿لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ من كل شيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئًا، بل يضره في دينه ودنياه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فأمر أولي الألباب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب، وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران، وفاتته الأرباح[1].

وقال في الظلال: «ثم تختم الفقرة بميزان يقيمه الله للقيم؛ ليزن به المسلم ويحكم، ميزان يرجح فيه الطيب، ويشيل الخبيث؛ كي لا يخدع الخبيث المسلم بكثرته في أي وقت، وفي أي حال! ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

إن المناسبة الحاضرة لذكر الخبيث والطيب في هذا السياق، هي مناسبة تفصيل الحرام والحلال في الصيد والطعام، والحرام خبيث، والحلال طيب، ولا يستوي الخبيث والطيب، ولو كانت كثرة الخبيث تغر وتعجب، ففي الطيب متاع بلا معقبات من ندم أو تلف، وبلا عقابيل[2] من ألم أو مرض، وما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيب مثلها على اعتدالٍ، وأمن من العاقبة في الدنيا والآخرة، والعقل حين يتخلص من الهوى بمخالطة التقوى له ورقاقة القلب له، يختار الطيب على الخبيث، فينتهي الأمر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾»[3].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٥.

(٢) العقبول: الشّديد من الأمور، وبقيّة العلّة، والعداوة والعشق، وما يخرج على الشّفة على أثر الحمى، جمعه عقابيل، والعقابيل الدّواهي.
انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٦١٣.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٨٣.

ثالثًا: الأقوال:

ضرب الله عز وجل مثلًا للأقوال الطيبة والأقوال الخبيثة، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

يقول سبحانه: ألم تر كيف ضرب الله مثلًا كلمة طيبة، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها، كشجرة طيبة، وهي النخلة، أصلها ثابت في الأرض، وفرعها منتشر في السماء، وهي كثيرة النفع دائمًا، تؤتي ثمرتها كل حين بإذن ربها، فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علمًا واعتقادًا، وفرعها من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، في السماء دائمًا يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن، وينفع غيره، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ما أمرهم به، ونهاهم عنه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفروعها، فقال: ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة المأكل والمطعم، وهي: شجرة الحنظل ونحوها، اجتثت هذه الشجرة من فوق الأرض ما لها من ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة فهي ثمرة خبيثة؛ كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث، يستضر به صاحبه، ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره[1].

قال الإمام ابن القيم: «شبه سبحانه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مُرْضٍ لله فهو ثمرة هذه الكلمة».

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلا الله، كشجرة طيبة وهو المؤمن، أصلها ثابت قول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، وفرعها في السّماء يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء».

وقال الربيع بن أنس: «كلمة طيبة: هذا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٤.

مثل الإيمان، فإن الإيمان: الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه، وفرعها في السماء: خشية الله، والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين».

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة إلهيته التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفي تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللًا غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلًا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى.

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلمًا كثيرًا طيبًا، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملًا صالحًا كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفًا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا، ومتصفًا بموجبها، قائمًا قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته.

فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت[1].

هذه هي صفة المؤمن كما بينها رب العالمين، والذي بين لنا في آية أخرى أنه يهدي هذا المؤمن دومًا إلى كل قول طيب، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

وجائز أن يكون هذا في الدنيا والآخرة،

(١) التفسير القيم ص٣٤٠.

أما في الدنيا هو قول التوحيد، وشهادة الإخلاص، وأمّا في الآخرة كقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

فهو القول الطيب الذي هدوا إليه.

وقال بعضهم: «قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هو القرآن ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الإسلام وشرائعه».

وقال قتادة: «ألهموا التسبيح والتحميد كما ألهموا النفس».

وقال: «﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هو كل قول حسن»[1].

قال الإمام ابن كثير: «وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ كقوله: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

فهدوا إلى المكان الّذي يسمعون فيه الكلام الطّيّب ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

لا كما يهان أهل النّار بالكلام الّذي يروّعون به، ويقرّعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].

وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى المكان الّذي يحمدون فيه ربّهم، على ما أحسن إليهم، وأنعم به، وأسداه إليهم، كما جاء في الصّحيح أنّهم: (يلهمون التّسبيح والتّحميد، كما تلهمون النّفس)[2].

وقد قال بعض المفسّرين في قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: القرآن، وقيل: لا إله إلّا اللّه، وقيل: الأذكار المشروعة ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: الطّريق المستقيم في الدّنيا، وكلّ هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم»[3].

وهذا القول الطيب الذي يهدي الله المؤمنين إليه هو الذي يرفع إلى الله عز وجل، ويقبله، ويثني على صاحبه.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

يقول تعالى ذكره: إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه عليه ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٠٠، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٤٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًا، ٤/ ٢١٨٠، رقم ٢٨٣٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٠٨.

﴿يَرْفَعُهُ﴾ يقول: ويرفع ذكر العبد ربه إليه عمله الصالح، وهو العمل بطاعته، وأداء فرائضه، والانتهاء إلى ما أمر به.

وفي قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُهُ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إلى الكلم الطّيّب، فالمعنى: «والعمل الصالح يرفع الكلم الطّيّب»، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك.

وكان الحسن يقول: «يعرض القول على الفعل، فإن وافق القول الفعل قبل، وإن خالف ردّ».

والثاني: «أنها ترجع إلى العمل الصالح، فالمعنى: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطّيّب»، فهو عكس القول الأول، وبه قال أبو صالح، وشهر بن حوشب.

فإذا قلنا: إن الكلم الطّيّب هو التوحيد، كانت فائدة هذا القول أنه لا يقبل عملٌ صالح إلا من موحّد.

والثالث: أنها ترجع إلى الله عز وجل.

فالمعنى: «والعمل الصالح يرفعه الله إليه»، أي: يقبله، قاله قتادة[1].

وورد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

قال: «الكلام الطّيّب: ذكر اللّه، والعمل الصّالح: أداء فرائضه؛ فمن ذكر اللّه سبحانه في أداء فرائضه، حمل عليه ذكر اللّه فصعد به إلى اللّه، ومن ذكر اللّه ولم يؤدّ فرائضه، ردّ كلامه على عمله، فكان أولى به»[2].

يقول الرازي رحمه الله: «قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ تقريرٌ لبيان العزّة؛ وذلك لأنّ الكفّار كانوا يقولون: نحن لا نعبد من لا نراه، ولا نحضر عنده؛ لأنّ البعد من الملك ذلّةٌ، فقال تعالى: إن كنتم لا تصلون إليه فهو يسمع كلامكم، ويقبل الطّيّب، فمن قبل كلامه، وصعد إليه فهو عزيزٌ، ومن ردّ كلامه في وجهه فهو ذليلٌ، وأمّا هذه الأصنام لا يتبيّن عندها الذّليل من العزيز؛ إذ لا علم لها، فكلّ أحدٍ يمسها، وكذلك يرى عملكم، فمن عمل صالحًا رفعه إليه، ومن عمل سيّئًا ردّه عليه، فالعزيز من الّذي عمله لوجهه، والذّليل من يدفع الّذي عمله في وجهه، وأمّا هذه الأصنام فلا تعلم شيئًا، فلا عزيز يرفع عندها، ولا ذليل، فلا عزّة بها، بل عليها ذلّةٌ؛ وذلك لأنّ ذلّة السّيّد ذلّةٌ للعبد، ومن كان معبوده وربّه وإلهه حجارةً أو خشبًا ماذا يكون هو؟!

وفي قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وجوهٌ، أحدها: كلمة لا إله إلّا اللّه هي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٤٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٠٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٣٩.

الطّيّبة، وثانيها: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلّا اللّه، واللّه أكبر طيّبٌ، ثالثها: هذه الكلمات الأربع، وخامسةٌ وهي تبارك اللّه، والمختار: أنّ كلّ كلام هو ذكر اللّه، أو هو للّه كالنّصيحة والعلم فهو إليه يصعد[1].

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٦٦.

صور الطيبات الحسية

ذكر القرآن الكريم صورًا للطيبات الحسية نبينها فيما يأتي:

أولًا: المطعومات:

لقد بَيَّنَ الحق سبحانه وتعالى أنه أحل لنا من المطعومات الطيبات فقط، فقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٤-٥].

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ من الأطعمة؟ ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبائث منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[الأعراف: ١٥٧].

أصل معنى الطيب معنى الطهارة والزكاء، والوقع الحسن في النفس عاجلًا وآجلًا، فالشيء المستلذ إذا كان وخمًا لا يسمى طيبًا؛ لأنه يعقب ألمًا أو ضرًّا؛ ولذلك كان طيب كل شيء: أن يكون من أحسن نوعه وأنفعه.

والطيبات هنا هي الحلال، وكل حرام فليس بطيب. وقيل: ما التذه آكله وشاربه، ولم يكن عليه فيه ضرر في الدنيا، ولا في الآخرة. وقيل: الطيبات الذبائح؛ لأنها طابت بالتذكية[1].

لذلك بَيَّنَ سبحانه أن من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم أنه يحل للناس الطيبات بأمر من ربه جل وعلا ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[الأعراف: ١٥٧].

ولهذا نهانا ربنا سبحانه وتعالى أن نحرم على أنفسنا هذه الطيبات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[المائدة: ٨٧].

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله بالكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حرامًا خبيثًا، فإن هذا من الاعتداء.

والله قد نهى عن الاعتداء فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك.

والآية تردّ على المتقشفة؛ لأنه نهانا ألا نأكل طيبات ما أحل اللّه لنا، وهم يحرمون ذلك، ثم لا فرق بين تحريم ما أحل اللّه لنا من الطيبات، وتحليل ما حرم الله علينا من الخبائث، ثم يلزمهم أن يحرموا على أنفسهم التناول من الخبز والماء، وهما من أطيب الطيبات، ألا ترى أن المرء قد يمل ويسأم من غيرهما من الطيبات إذا كثر ذلك، ولا يمل ألبتّة من الخبز والماء، دل أنهما من أطيب الطيبات، إلا أن يمتنعوا من التناول من غيرهما، إيثارًا منهم غيرهم على أنفسهم لما يلحق القوم من المئونة في غيرهما من الطيبات، ولا يلحق في الخبز

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/٦٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/١١١، تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢١.

والماء؛ لأنهما موجودان، يجدهما كل أحد ولا يجد غيرهما من الطيبات، إلا من تصل مؤنة عظيمة، فإن كان تركهم التناول منها لهذا الوجه فإنه لا بأس[1].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: يا أيّها الّذين صدقوا اللّه ورسوله، وأقرّوا بما جاءهم به نبيّهم صلى الله عليه وسلم أنّه حقٌّ من عند اللّه ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

يعني بالطّيّبات: اللّذيذات الّتي تشتهيها النّفوس، وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إيّاها، كالّذي فعله القسّيسون والرّهبان، فحرّموا على أنفسهم النّساء والمطاعم الطّيّبة، والمشارب اللّذيذة، وحبس في الصّوامع بعضهم أنفسهم، وساح في الأرض بعضهم.

يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيّها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حدّ اللّه الّذي حدّ لكم فيما أحلّ لكم، وفيما حرّم عليكم، فتجاوزوا حدّه الّذي حدّه، فتخالفوا بذلك طاعته، فإنّ اللّه لا يحبّ من اعتدى حدّه الّذي حدّه لخلقه فيما أحلّ لهم وحرّم عليهم»[2].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

يقول تعالى منكرًا على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكل ومشرب بجميع أنواعه، أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيّق عليهم ما وسعّه الله؟

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لا تبعة عليهم فيها.

ومفهوم الآية: أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التنعم بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها[3].

ولهذا أمر الله عز وجل بالأكل من الطيبات:

أمر الله الرسل بذلك، فقال تعالى:

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٥٧٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٢.
(٢) جامع البيان ٨/ ٦٠٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وأمر الله المؤمنين بذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨].

وأمر الله بني إسرائيل بذلك، فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨١].

وأمر الله الناس جميعًا بذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ١٦٨].

يبين الله تعالى هنا أنه الرازق لعباده، وأنه هو الذي يشرع لهم الحلال والحرام، وهذا فرع عن وحدانية الألوهية -كما أسلفنا- فالجهة التي تخلق وترزق هي التي تشرع فتحرم وتحلل، وهكذا يرتبط التشريع بالعقيدة بلا فكاك.

وهنا يبيح الله للناس جميعًا أن يأكلوا مما رزقهم في الأرض حلالًا طيبًا -إلا ما شرع عليهم حرمته وهو المبين فيما بعد- وأن يتلقوا منه هو الأمر في الحل والحرمة، وألا يتبعوا الشيطان في شيء من هذا؛ لأنه عدوهم، ومن ثم فهو لا يأمرهم بخير، إنما يأمرهم بالسوء من التصور والفعل، ويأمرهم بأن يحللوا ويحرموا من عند أنفسهم، دون أمر من الله، مع الزعم بأن هذا الذي يقولونه هو شريعة الله، كما كان اليهود مثلًا يصنعون، وكما كان مشركو قريش يدعون.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

وهذا الأمر بالإباحة والحل لما في الأرض -إلا المحظور القليل الذي ينص عليه القرآن نصًّا- يمثل طلاقة هذه العقيدة، وتجاوبها مع فطرة الكون، وفطرة الناس،

فالله خلق ما في الأرض للإنسان، ومن ثم جعله له حلالًا، لا يقيده إلا أمر خاص بالحظر، وإلا تجاوز دائرة الاعتدال والقصد.

ولكن الأمر في عمومه أمر طلاقة واستمتاع بطيبات الحياة، واستجابة للفطرة بلا كزازة[1] ولا حرج ولا تضييق، كل أولئك بشرط واحد هو أن يتلقى الناس ما يحل لهم وما يحرم عليهم من الجهة التي ترزقهم هذا الرزق، لا من إيحاء الشيطان الذي لا يوحي بخير؛ لأنه عدو للناس بين العداوة، لا يأمرهم إلا بالسوء وبالفحشاء، وإلا بالتجديف على الله، والافتراء عليه، دون تثبت ولا يقين[2].

وقال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤].

في المقابل: يبين سبحانه أن هذه الطيبات حرمها الله عز وجل على بني إسرائيل بسبب ظلمهم وطغيانهم ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠].

يخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات التي كانت حلالًا عليهم، وهذا تحريم عقوبة بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصدهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم[3].

ثانيًا: الأموال:

جاء الحديث عن الأموال الطيبة في مواضع من القرآن:

أمر الله عز وجل الصحابة أن يتمتعوا بالأموال التي غنموها، والتي أحلها الله عز وجل، وجعلها طيبة لهم بعد أن كانت محرمة على الأمم السابقة.

فقال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٩].

يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أهل بدر: فكلوا أيها المؤمنون مما غنمتم من أموال المشركين حلالًا بإحلاله لكم طيبًا، وخافوا الله أن تعودوا، أن تفعلوا في دينكم شيئًا بعد هذه من قبل أن يعهد فيه إليكم، كما فعلتم في أخذ الفداء، وأكل الغنيمة، وأخذتموهما من قبل أن يحلا لكم، إن الله غفور رحيم.

قال بعضهم: «قوله: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾

(١) الكزازة والكزاز اليبس والانقباض. انظر: المحكم، ابن سيده ٦/ ٦٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢١٣.

واحد، كل حلال طيب، وكل حرام خبيث، وإنما يطيب إذا حل، ويخبث إذا حرم، ولكن يحتمل قوله: ﴿حَلَٰلًا﴾ بالشرع، ﴿طَيِّبًا﴾ في الطبع، وكذلك الحرام هو حرام بالشرع، وخبيث بالطبع، وإنما يتكلم بالحل والحرمة من جهة الشرع، والطيب والخبيث بالطبع.

والطيب: هو الذي يتلذذ به ولا تبعة فيه؛ لأن خوف التبعة ينغص عليه، ويذهب بطيبه ولذته. وجائز ما ذكر من الطيب -ها هنا- لما أن أهل الشرك كانوا يأخذون الأموال ويجمعونها من وجه لا يحل، وبأسباب فاسدة، فيكرهون التناول منها إذا غنموها لتلك الأسباب الفاسدة، فطيب قلوبهم بقوله: ﴿طَيِّبًا﴾[1].

هذا عن الغنائم، كذلك مهر المرأة إذا تنازلت عنه يكون مالًا طيبًا ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

لما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويهضمونهن حقوقهن، خصوصًا الصداق الذي يكون شيئًا كثيرًا، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة، أمرهم وحثهم على إيتاء النساء مهورهن عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تماطلوهن أو تبخسوا منه شيئًا.

فإن طبن لكم عن شيء من الصداق بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيره، أو المعاوضة عنه فلا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة[2].

هذا عن المال الطيب الذي يتحصل عليه الإنسان من طريق حلال، ومن هذه الطرق الحلال: الغنائم، وتنازل المرأة عن مهرها.

في المقابل يحذرنا سبحانه من المال الخبيث، وهو الذي يتحصل عليه الإنسان من طريق حرام، ومن ذلك: أكل مال اليتيم ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

أمر الرؤوف الرحيم عباده أن يحسنوا إلى اليتامى، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا كاملة موفرة، وأن لا يتبدلوا الخبيث الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق بالطيب، وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة، ولا تأكلوا أموالهم مع أموالكم.

ففيه تنبيهٌ لقبح أكل مالهم بهذه الحالة التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله، فمن تجرّأ على هذه الحالة فقد أتى إثمًا عظيمًا، ووزرًا جسيمًا.

ومن استبدال الخبيث بالطيب: أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٧٢، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٢٦٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٣.

(٣) المصدر السابق.

هذا عن ما يحصل عليه الإنسان من مال طيب وخبيث.

أما ما يخرجه الإنسان من مال صدقة لله عز وجل، فقد نهانا الله سبحانه أن نختار أخبث ما عندنا لنخرجه، وأمرنا أن نتصدق من أطيب الأموال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[البقرة: ٢٦٧].

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض، فكما منّ عليكم بتسهيل تحصيله، فأنفقوا منه شكرًا لله، وأداءً لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيرًا لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه، ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فهو غني عنكم، ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة، والخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره لأنها قوت القلوب، وحياة النفوس، ونعيم الأرواح.

وفي المراد بالطيب ها هنا قولان:

أحدهما: «أنه الجيّد الأنفس»، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: «أنه الحلال»، قاله أبو معقل في آخرين[1].

ثالثًا: الأزواج:

أساس اختيار الرجل لزوجته أن تكون المرأة من الطيبات، وأساس قبول المرأة للرجل أن يكون الرجل من الطيبين.

قال تعالى: ﴿لِّلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[النور: ٢٦].

في معنى الخبيث والطيب أربعة أقوال:

أحدها: الكلمات الخبيثات لا يتكلم بها إلا الخبيث من الرجال والنساء، والكلمات الطيبات لا يتكلم بها إلا الطيبون من الرجال والنساء.

والثاني: الكلمات الخبيثات إنما تلصق بالخبيثين من الرجال والنساء، فأما الطيبات والطيبون فلا يصلح أن يقال في حقهم إلا الطيبات.

والثالث: الخبيثات من الأعمال للخبيثين من الناس، والخبيثون من الناس للخبيثات من الأعمال، وكذلك الطيبات.

والرابع: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والطيبات من النساء للطيبين

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٤١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١١٥.

من الرجال[1].

والآية تحتمل كل هذه المعاني، لكن الآية واردة في وسط سياق تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، فأقرب المعاني: هو أن يكون حديث الآية عن الطيب والخبيث من الرجال والنساء.

والمقصود بالطيبات من النساء: هي صاحبة الدين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (تنكح النساء لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك)[2].

يقول الطاهر: «والمراد بالخبث: خبث الصّفات الإنسانيّة كالفواحش، وكذلك المراد بالطّيّب: زكاء الصّفات الإنسانيّة من الفضائل المعروفة في البشر، فليس الكفر من الخبث، ولكنّه من متمّماته، وكذلك الإيمان من مكمّلات الطّيّب؛ فلذلك لم يكن كفر امرأة نوح وامرأة لوط ناقصًا لعموم قوله: ﴿لِّلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ فإنّ المراد بقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠].

أنّهما خانتا زوجيهما بإبطان الكفر، ويدلّ لذلك مقابلة حالهما بحال امرأة فرعون ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]»[3].

وقد أحل الله عز وجل للرجال أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء، فيجمعوا بين اثنين أو ثلاثة أو أربعة في وقت واحد إذا استطاعوا العدل بينهن.

قال عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحقهن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا ما طاب لكم، ووقع عليهن اختياركم من ذوات الدين.

وفي هذه الآية: أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل وقد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها؛ ليكون على بصيرة من أمره[4].

رابعًا: المسكن:

امتن الله عز وجل على أهل سبأ؛ لأنه رزقهم البلدة الطيبة، والمسكن الطيب.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ٧/ ٧، رقم ٥٠٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، ٢/ ١٠٨٦، رقم ١٤٦٦.

(٣) التحرير والتنوير ١٨/ ١٩٥.

(٤) تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٣.

﴿ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

يقول تعالى ذكره: لقد كان لولد سبأ في مسكنهم علامة بينة، وحجة واضحة على أنه لا رب لهم إلا الذي أنعم عليهم النعم التي كانوا فيها، حيث آتاهم الله عز وجل بستانين كانا بين جبلين، عن يمين من أتاهما وشماله، ثم أمرهم سبحانه: كلوا من رزق ربكم الذي يرزقكم من هاتين الجنتين من زروعهما وأثمارهما، واشكروا له على ما أنعم به عليكم من رزقه ذلك.

ثم ابتدأ الخبر عن البلدة فقال: هذه بلدة طيبة، ورب غفور لذنوبكم إن أنتم أطعتموه.

يحتمل ما ذكر من طيبها: هو سعتها، وكثرة ريعها ومياهها وألوان ثمارها وفواكهها، وقيل: غير سبخة، وقيل: طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها، وقيل: طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم[(١)].

ولقد ضرب الله عز وجل المثل في الدنيا بالمسكن الطيب والبلدة الطيبة.

قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

يقول سبحانه: والبلد الطيب، أي: طيب التربة والمادة إذا نزل عليه مطر يخرج نباته الذي هو مستعد له بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله بذلك[(٢)].

هذا عن المسكن الطيب في الدنيا، أما في الآخرة فقد بشر الله عز وجل أهل الإيمان بالمساكن الطيبة في الجنة.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

والمساكن الطيبة الواردة في الآيتين تفسر بأنها مساكن قد زخرفت وحسنت، وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفًا في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٨٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.

فهذه المساكن الأنيقة التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح؛ لأنها في جنات عدن، أي: إقامة لا يظعنون عنها، ولا يتحولون منها[1].

قال ابن كثير: «﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٧٢].

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنّعيم المقيم في ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: حسنة البناء، طيّبة القرار.

كما قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (جنّتان من ذهبٍ آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من فضّةٍ آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلّا رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدنٍ)[2].

وبه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (إنّ للمؤمن في الجنّة لخيمة من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوّفة، طولها ستّون ميلًا في السّماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضًا)[3].

وفي الصّحيحين أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (من آمن باللّه ورسوله، وأقام الصّلاة، وصام رمضان، فإنّ حقًّا على اللّه أن يدخله الجنّة، هاجر في سبيل اللّه، أو جلس في أرضه الّتي ولد فيها).

قالوا: يا رسول اللّه، أفلا نخبر النّاس؟

قال: (إنّ في الجنّة مائة درجةٍ، أعدّها اللّه للمجاهدين في سبيله، بين كلّ درجتين كما بين السّماء والأرض، فإذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس، فإنّه أعلى الجنّة، وأوسط الجنّة، ومنه تفجّر أنهار الجنّة، وفوقه عرش الرّحمن)[4]»[5].

خامسًا: الذرية:

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ

(١) انظر المصدر السابق ص٣٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ومن دونهما جنتان)، ٦/ ١٤٥، رقم ٤٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، ١/ ١٦٣، رقم ١٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (حور مقصورات في الخيام)، ٦/ ١٤٥، رقم ٤٨٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين، ٤/ ٢١٨٢، رقم ٢٨٣٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال هذه سبيلي وهذا سبيلي، ٤/ ١٦، رقم ٢٧٩٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٧٥.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

عند رؤية زكريا ما رأى عند مريم من رزق الله الذي رزقها، وفضله الذي آتاها من غير تسبب أحد من الآدميين في ذلك لها، ومعاينته عندها الثمرة الرطبة التي لا تكون في حين رؤيته إياها عندها في الأرض؛ طمع بالولد، مع كبر سنه، من المرأة العاقر فرجا أن يرزقه الله منها الولد، مع الحال التي هما بها، كما رزق مريم على تخليها من الناس ما رزقها من ثمرة الصيف في الشتاء، وثمرة الشتاء في الصيف، وإن لم يكن مثله مما جرت بوجوده في مثل ذلك الحين العادات في الأرض، بل المعروف في الناس غير ذلك، كما أن ولادة العاقر غير الأمر الجارية به العادات في الناس، فرغب إلى الله جل ثناؤه في الولد، وسأله الذرية الطيبة، وهي المباركة طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم[1].

من الآباء من أرّقهم عصيان وضياع أبناءهم، فتجدهم يبذلون الغالي والنفيس في سبيل استصلاحهم ودلالتهم على طرق الهدى، ومنهم من يتمنى أن يرزقه الله ذرية طيبة يأنس بهم في حياته، ويجتمع بهم في الجنة بعد مماته.

وحسبي من هذه اللفتة أن أشير إلى مفتاح عظيم من مفاتيح صلاح الذرية التي استعان بها الأنبياء بربهم لصلاح ذرياتهم: هو الدعاء، فزكريا عليه السلام يقول كما في كتاب ربنا عز وجل: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وإبراهيم عليه السلام كان يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

فاستجاب الله دعاءه ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

وكان يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

والتجأ إلى الله تعالى في موضع آخر في كتابه ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وهذا منطلق لكل أب بأن يجعل أمر الدعاء لذريته ملازمًا له قبل الولادة أو بعدها؛ اقتداء بأنبياء الله.

إن من الأوصاف التي وصف الله بها عباده في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

إن على الآباء أن يمسكوا بزمام الدعاء لذريتهم اقتداء بأنبيائهم، وأن يتفطنوا لخطورة الدعاء عليهم، فبعض الآباء

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٥٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٩.

والأمهات يدعون على أبناءهم باللعنة والمرض وعدم التوفيق، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم)[1].

سادسًا: الريح:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[يونس: ٢٢].

في الآية التي قبلها ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ثم يذكر حالة تؤيد ذلك، وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال: هو الذي يسيركم في البر والبحر بما يسر لكم من الأسباب المسيرة لكم فيها، وهداكم إليها. حتى إذا كنتم في السفن البحرية، وجرين بهم بريح طيبة موافقة لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة.

وفرحوا بها، واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح عاصف شديدة الهبوب، وجاءهم الموج من كل مكان، وعرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذٍ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين، ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، فلما أنجاهم نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق، فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوها في الشدة؟!

والطيب: الموصوف بالطيب الشديد، وأصل معنى الطيب: الملاءمة فيما يراد من الشيء، ويقال: طاب له المقام في مكان كذا، ومنه سمي الشيء الذي له ريح وعرف طيبًا.

وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التي تسير بالهواء المتجمّع في أشرعتها، وإذا كان التقدم في صناعة السفن قد تعدّى الشراع، وانتقل إلى البخار، ثم الكهرباء، فإن كلمة الحق سبحانه: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء، خصوصًا وأن كلمة (الريح) قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت: من هواء، أو محرك يسير بأية طاقة[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، ٤/ ٢٣٠٤، رقم ٣٠٠٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣٧، تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦١، تفسير الشعراوي ١٠/ ٥٨٥١.

سابعًا: الحياة:

بشر الله عز وجل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

يقول تعالى ذكره: من عمل بطاعة الله، وأوفى بعهود الله إذا عاهد من ذكر أو أنثى من بني آدم، وهو مصدّق بثواب الله الذي وعد أهل طاعته على الطاعة، وبوعيد أهل معصيته على المعصية، فلنحيينه حياة طيبة، ويجزيهم أجرهم في الآخرة بأحسن ما كانوا يعملون[(١)].

قال الطبري رحمه الله: «فلنحيينه حياة طيبة بالقناعة؛ وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نصبه، ولم يتكدّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها، وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها.

وإنما كان ذلك أولى التأويلات في ذلك بالآية؛ لأن الله تعالى ذكره أوعد قومًا قبلها على معصيتهم إياه إن عصوه أذاقهم السوء في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٤].

فهذا لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، فهذا لهم في الآخرة، ثم أتبع ذلك لمن أوفى بعهد الله وأطاعه»[(٢)].

إن الحياة الطيبة مطلب عظيم، وغاية نبيلة، بل هي مطلب كل الناس وغايتهم التي عنها يبحثون، وخلفها يركضون، وفي سبيلها يضحون ويبذلون، فما من إنسان في هذه الحياة إلا وتراه يسعى ويكدح ويضني نفسه ويجهدها كل ذلك بحثًا عن الحياة الطيبة، وطمعًا في الحصول عليها، والناس جميعًا على ذلك متفقون؛ ولكنهم يختلفون في سبل هذه الحياة الطيبة، وفي نوعها ومسالكها؛ وتبعًا لذلك فإنهم يختلفون في الوسائل والسبل التي توصلهم إلى هذه الحياة إن وصلوا إليها.

مختلفون على كافة مستوياتهم كانوا أممًا أو شعوبًا، أو مجتمعات صغيرة أو كبيرة، بل حتى الأسرة الواحدة تجد فيها ألوانًا شتى في فهم معنى الحياة الطيبة.

وللناس في كل زمان أفهام حول هذه الحياة الطيبة، وهم تبعًا لذلك أصناف، فمنهم من يرى الحياة الطيبة في كثرة المال وسعة الرزق، ومنهم من يراها في الولد أو في المنصب أو في الجاه.

لكن الله تعالى -ومن أصدق من الله حديثًا- قد حدد لنا مفهوم الحياة الطيبة،

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٩.

(٢) جامع البيان، ١٧/ ٢٩١.

وسبيلها في كتابه الكريم، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

حياة طيبة في الدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، وحياة طيبة في الآخرة، وهي معنى قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فهذه الحياة الطيبة أساسها وقوامها على أمرين اثنين، أمرين عظيمين جليلين يسيرين على من يسرهما الله عليه:

الأمر الأول: الإيمان بالله تبارك وتعالى.

والأمر الثاني: عمل الصالحات وفق ما شرعه الله تبارك وتعالى، وما جاء عن رسوله [(١)]. ولله در من قال [(٢)]:

يا متعب الجسم كم تسعى لخدمته
أتعبت جسمك فيما فيه خسران
أقبل على الروح واستكمل فضائلها
فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

وقد يظن بعض الناس أن الحياة الطيبة في كثرة الأموال والأولاد والتفاخر بالمناصب والرتب؛ ولذا فهو يحاول الحصول على هذه الأشياء بما شرع وبما لم يشرع.

إن السعادة أن تعيش
لفكرة الحق التليد
لعقيدة كبرى تحل
قضية الكون العتيد
هذي العقيدة للسعيد
هي الأساس هي العمود
من عاش يحملها ويهتف
باسمها فهو السعيد [(٣)]

فالحياة الطيبة هي التي يحقق المرء فيها السعادة الحقيقية، والتي يمثلها قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدّنيا بحذافيرها) [(٤)].

وما السعادة في الدنيا لذي أمل
إنّ السعيد الذي ينجو من النار [(٥)]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ٤/ ٢٢٩٥، رقم ٢٩٩٩.

(٢) البيتان لأبي الفتح البستي في ديوانه ص٨٣.

(٣) هذه أبيات من قصيدة السعادة، ليوسف القرضاوي، من ديوانه نفحات ولفحات ص١٠٥.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب منه، ٤/ ١٥٢، رقم ٢٣٤٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، ٢/ ١٣٨٧، رقم ٤١٤١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤٢.

(٥) البيت لجحدر بن معاوية العكلي.
انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، محمد بن المبارك البغداي ص ١١٣.

آثار ابتغاء الطيبات المعنوية

بين لنا ربنا سبحانه في القرآن بعضًا من آثار ابتغاء الطيبات المعنوية، ومن ذلك:

١. ابتغاء الطيبات سبب في القبول.

قال سبحانه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

جائز أن يكون هذا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: هو قول التوحيد، وشهادة الإخلاص.

وأمّا في الآخرة كقوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

فهو القول الطيب الذي هدوا إليه. و﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هو كل قول حسن[(١)].

وهذا القول الطيب الذي يهدي الله المؤمنين إليه هو الذي يرفع إلى الله عز وجل، ويقبله ويثني على صاحبه.

ويشير ربنا سبحانه وتعالى إلى هذا المعنى في آية أخرى، فيقول جل ثناؤه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٤٠٣.

٢. ابتغاء الطيبات سبب في الثبات والتوفيق.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

يقول سبحانه: ألم تر كيف ضرب الله مثلًا كلمة طيبة (وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها) كشجرة طيبة (وهي النخلة) أصلها ثابت في الأرض، وفرعها منتشر في السماء، وهي كثيرة النفع دائمًا، تؤتي ثمرتها كل حين بإذن ربها، فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علمًا واعتقادًا، وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة في السماء دائمًا يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ما أمرهم به ونهاهم عنه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها، في قلب المؤمن[(٢)].

هذه هي صفة المؤمن الذي يبتغي الطيب ضرب الله عز وجل له مثلًا بالشجرة الثابتة

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٤.

الأركان والأصول.

معادلةٌ ربّانية يسيرة إن حقّقها العبد تحقّقت له الحياة الطيبة، هذه المعادلة هي وعده عز وجل بالحياة الطيبة لمن عمل صالحًا وهو مؤمن.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فالآية الكريمة ذكرت طرفي المعادلة:

الطرف الأول: العمل الصالح والإيمان ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[النحل: ٩٧].

والطرف الثاني: الحياة الطيبة في الدنيا، بالإضافة إلى الجزاء الأخروي ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فالطرف الأول شرط لتحقّق الطرف الثاني، يقول ابن القيم في المدارج: «وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته.

فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧]»[1].

قال الشنقيطي في الأضواء في سياق تعليقه على الآية: «وفي الآية الكريمة قرينة تدلّ على أن المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيّبة، وتلك القرينة هي أنّنا لو قدّرنا أن المراد بالحياة الطيبة حياته في الجنة في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

صار قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

تكرارًا معه؛ لأنّ تلك الحياة الطيبة هي أجر عملهم، بخلاف ما لو قدّرنا أنها في الحياة الدنيا فإنه يصير المعنى: فلنحيينه في الدنيا حياة طيّبة، ولنجزينّه في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، وهو واضح»[2].

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٤٣.

(٢) أضواء البيان ٢/ ٤٤١.

آثار ابتغاء الطيبات الحسية

بين ربنا سبحانه وتعالى أن ابتغاء الطيبات سبب في المغفرة في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة.

قال سبحانه: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

وقد سبق ذكر شيء من الآثار في المطلب السابق، ونقول:

إن الآثار الحسية والمعنوية لطلب الطيبات كثيرة معروفة، وهي متداخلة أيضًا.

يقول سيد قطب: «العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض.

لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها.

وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية:

فيها الاتصال بالله، والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه.

وفيها الصحة والهدوء، والرضا والبركة، وسكن البيوت، ومودات القلوب.

وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير، وآثاره في الحياة.

وليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله»[1].

موضوعات ذات صلة:

الأكل، الحرام، الحلال، الخبيث، الشرب، الطعام

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٣.

الطير

عناصر الموضوع

مفهوم الطير	٢٢٦
الطير في الاستعمال القرآني	٢٢٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٢٨
الطير آية من آيات الله تعالى	٢٣٠
الطير في القصص القرآني	٢٣٦
الطير في المثل القرآني	٢٤٨
الطير والتشاؤم	٢٥٠
الطير في الجنة	٢٥٣

مفهوم الطير

أولًا: المعنى اللغوي:

الطّاء والياء والرّاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على خفّة الشّيء في الهواء،ثمّ يستعار ذلك في غيره وفي كلّ سرعةٍ، ومن ذلك الطّير: جمع طائرٍ، ثمّ يقال لكلّ من خفّ: قد طار[1]، والطيران: حركة ذي الجناح في الهواء بجناحه[2]، والطير: اسمٌ لجماعة ما يطير، مؤنّثٌ، والواحد طائرٌ، والأنثى طائرةٌ، وهي قليلةٌ، وقلّما يقولون طائرةً للأنثى[3]، وطائر الإنسان: عمله الذّي قلّده كما في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء:١٣].

والطّائر: من الزّجر في التّشؤّم والتّسعّد، وزجر فلانٌ الطّير فقال: كذا وكذا، أو صنع كذا وكذا، جامع لكلّ ما يسنح لك من الطّير وغيره[4]، وجمع الطير طيور وأطيار، مثل فرخ وفروخ وأفراخ[5].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكرنا في المعنى اللغوي أن الطير جمع طائر، والمعنى الاصطلاحي ليس ببعيد عن المعنى اللغوي، قال الراغب: «والطائر كل ذي جناح يسبح في الهواء»[6]، وعرفه ابن عاشور بأنه:«الحيوان الذي يرتفع في الجو بعمل جناحيه»[7].

والخلاصة في القول: أن الطير اسم لكل ذي جناح يسبح في الهواء.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣٥-٤٣٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٠٨
(٣) المصدر السابق ٤/ ٥٠٨
(٤) العين،، الفراهيدي ٧/ ٤٤٧
(٥) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٩٤
(٦) المفردات، الراغب الاصفهاني ص ٥٢٨
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٤٩

الطير في الاستعمال القرآني

وورد الجذر (ط ي ر) في القرآن (٢٩) مرة، والذي يخص منها الطير (٢١) مرة[(١)].
والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	١	﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام:٣٨]
اسم	٢٠	﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة:٢٦٠]

وجاء الطير في القرآن بمعناه في اللغة وهو: كل ذي جناح يسبح في الهواء[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٣٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٢٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الدابة:

الدابة لغة:

كل ما دب على وجه الأرض، وقد غلب على ما يركب من الحيوان، وفي العرف يطلق على الخيل والحمار والبغل[(١)].

الدابة اصطلاحًا:

الحي الذي من شأنه الدبيب، وقيل: كل حيوان في الأرض، وإخراج البعض الطير من الدواب رد بالسماع، ولا يخرج المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي له[(٢)].

الصلة بين لفظ الدابة والطير:

الغالب في الطير أنه يسبح في الهواء، والدابة تمشي على الأرض، فتشمل الطير؛ لأن الطير يمشي إذا نزل[(٣)]، وهناك طيور لا تسبح في الهواء.

٢ الحيوان:

الحيوان لغة:

اسم يقع على كل شيء حي، ووصف الله عز وجل الدار الآخرة بأنها الحيوان، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]؛ أي: هي الحياة، والمعنى: أن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حيا فيها لا يموت، فمن أدخل الجنة حيي فيها حياة طيبة، ومن دخل النار فإنه لا يموت فيها ولا يحيى[(٤)].

الحيوان اصطلاحًا:

كل ذي روح من المخلوقات غير العاقلة[(٥)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٦٩-٣٧٠، الكليات، الكفوي ص ٤٣٨، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٣٩٢.

(٢) انظر: التوقيف، المناوي ص ١٦٣، موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور ص ١٨١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٩٧.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢١٤.

(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس ص ١٩٠.

الصلة بين الحيوان والطير:

الحيوان:كلّ ذي روح ناطقًا كان، أو غير ناطق مأخوذ من الحياة، والطير له روح، فيكون الطير صنفًا من أصناف الحيوان، ولما سئل النبي صلى الله عليه وسلم: (وإنّ لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال:في كلّ ذات كبدٍ رطبةٍ أجرٌ)[1]، فالطير من البهائم التي فيها الأجر، وتشمل كل حي من الحيوان، والطير.

٣ الحشرات:

الحشرات لغةً:

الحَشَرة واحدة الحشرات، وهي صغار دوّاب الأرض[2].

الحشرات اصطلاحًا:

صغار دواب الأرض وهوامها، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي له[3].

وعند علماء الحيوان:هي كل كائن يقطع في خلقه ثلاثة أطوار، يكون بيضة فدودة ففراشة، وهي الهامة من هوام الأرض؛ كالخنافس، والعقارب، وتطلق أيضًا على الدابة الصغيرة من دواب الأرض كالفئران والضباب[4].

الصلة بين الحشرات، والطير:

أن الحشرات منها ما تطير كالذباب والجراد، ومنها ما لا تطير كالفأر والعقرب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب الآبار على الطرق إذا لم يتأذ منها، رقم ٢٤٦٦.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٨٢.
(٣) انظر: التوقيف، المناوي ص ١٤١.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٩٧.

الطير آية من آيات الله تعالى

أرشد الله تعالى عباده إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة الدالة على قدرته وعجائب صنعته من المخلوقات، حيث قال جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

ومن هذه المخلوقات: الطير ذلك المخلوق الضعيف، فخلق هذا الطير، وتسخيره في جو السماء، وتسبيحه - وإن كنا لا نفقه ذلك - لدلالة واضحة على كمال قدرته، وآية من آياته جل وعلا على بديع صنعه تبارك وتعالى، بل أن هذا المخلوق قد يكون جندًا من جنوده يرسله الله لإهلاك الظالمين، كما حصل لأصحاب الفيل، وسوف نتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل في النقاط الآتية:

أولًا: الإبداع الإلهي في خلق الطير:

لفت الله تعالى نظر العباد، وخاصة المعرضين المكذبين بآياته إلى خلقه، وكمال قدرته في الطير وتحليقه في جو السماء.

قال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك:١٩].

قال السمرقندي في هذه الآية: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾؟يعني: أولم يعتبروا في خلق الله تعالى كيف خلق الطيور؟ ﴿فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ يعني: باسطات أجنحتها في الهواء، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ يعني: ويضممن أجنحتهن ويضربن بها، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ يعني: ما يحفظهن في الهواء عند القبض والبسط، ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعني: عالمًا بصلاح كل شيء»[(١)].

وفي هذا أكبر آية على قدرة الله تعالى، إذ أمسكها في الهواء على ثقلها وضخامة أبدانها[(٢)].

قال أهل المعاني: وإنما قيل ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ دون «قابضات» على نحو «صافات»؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في كل منهما مد الأطراف وبسطها، والقبض طارئ على البسط لأجل الإعانة، فالمعنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض في بعض الأوقات، كما يكون من السابح[(٣)]، ولذلك قالوا: إن الهواء للطير بمنزلة الماء للسابح، فهو يسبح في الهواء بجناحيه، كما يسبح الإنسان في الماء بأطرافه[(٤)].

فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه

(١) تفسير السمرقندي ٣/ ٤٧٧ .
(٢) الوسيط، الواحدي ٤/ ٣٣٠ .
(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٣٢٩ .
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٢ .

الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته[1].

وقد أكد الله تعالى على قدرته وعلمه، وسعة إحاطته بمخلوقاته، وإبداعه في الخلق.

قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨].

قال السعدي في تفسير هذه الآية: «أي: جميع الحيوانات، الأرضية والهوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها، كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا، كما كانت نافذة فيكم»[2].

والمعنى: إنه لا يوجد نوع من أنواع الأحياء التي تدب على الأرض، ولا من أنواع الطير التي تسبح في الهواء إلا وهي أمم مماثلة لكم في أن الله خلقهم وتكفل بأرزاقهم.

والغرض من ذكر ذلك، كما قال الزمخشري: «للدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان»[3].

وإنما خص ما في الأرض بذكر دون ما في السماء، وإن كان ما في السماء مخلوقًا؛ لأن الاحتجاج بالشاهد أظهر وأولى مما لا يشهد، وإنما ذكر الجناح في قوله تعالى: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾؛ للتوكيد»[4].

ولتوجيه الأنظار إلى الإبداع في الخلق مع جمال التكوين والقدرة، وفي ذلك بيان لقدرة الله تعالى[5]، وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ولو كان غير معتدل لكان يميل، فأعلمنا أن الطيران بالجناحين[6].

ثانيًا: تسخير الطير:

حث الله جل وعلا عباده إلى النظر في حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، وجعل أجسادهن وخلقتهن في حالة مستعدة للطيران، وهذا يدل على كمال قدرته وعظمته.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧٧.
(٢) المصدر السابق ص ٢٥٥ .
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢١ .
(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ١١٠ .
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٤٩١.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤١٩ .

﴿ٱللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل:٧٩].

قال ابن كثير: «نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، في جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك:١٩].

وقال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾»[1]، وجمع الآيات؛ لأن في الطير دلائل مختلفة: من خلقة الهواء، وخلقة أجساد الطير مناسبة للطيران في الهواء، وخلق الإلهام للطير بأن يسبح في الجو، وبأن لا يسقط إلى الأرض إلا بإرادته، وخصت الآيات بالمؤمنين؛ لأنهم بالإيمان قد ألفوا إعمال تفكيرهم في الاستدلال على حقائق الأشياء، بخلاف أهل الكفر، فإن الكفر مطبوع على النفرة من الاقتداء بالناصحين، وعلى مكابرة الحق[2].

ففي الآية دلالة واضحة ومظهر من مظاهر قدرة الله ووحدانيته، حيث جعل الطير قادرًا على التحليق والطيران في الجو - ما بين السماء والأرض- وهي مذللة لأمر الله تعالى، ما يمسكها إلا الله تعالى، وتلك علامات وعبر ودلالات على القدرة الإلهية، فلولا خلق الطير على وضع يمكنه الطيران، وخلق الجو على حالة يمكن الطيران فيه، لما أمكن ذلك[3].

وقال تعالى في هذه الآية: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل:٧٩].

وقال في موضع آخر: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الملك:١٩].

والحكمة في ذلك؛ لأن التسخير في جو السماء محض الإلهية، وأما صافات وقابضات فكان إلهامها كيفية البسط والقبض على الوجه المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن[4].

ثالثًا: تسبيح الطير:

ذكر الله جل وعلا تسبيح الطير في أكثر من موضع في محكم كتابه، ومن ذلك ما أنعم الله تعالى به على داوود عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩٠ .
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٣٦.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ١٩٥ .
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٩٣، غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٣٢٩ .

قال الطبري: «يسبحن معه إذا سبح»[1]، وقدمت الجبال على الطير؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد، والطير حيوان ناطق[2].

وقال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه سخر الجبال، أي: ذللها، وسخر الطير تسبح مع داود، وما ذكره جل وعلا من تسخيره الطير والجبال تسبح مع نبيه داود بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ۝١٩﴾ [ص:١٨-١٩].

وتسبيح الجبال والطير مع داود تسبيح حقيقي؛ لأن الله جل وعلا يجعل لها إدراكات تسبح بها، يعلمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها،كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

والتسبيح: هو تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وفي قوله تعالى:﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾مؤكد لقوله تعالى:﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾والموجب لهذا التأكيد: أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة، مظنة لأن يكذّب به الكفرة الجهلة[3].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ [النور:٤١].

قال ابن كثير في هذه الآية: «يخبر تعالى أنه يسبحه من في السموات والأرض، حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقوله: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة؛ ولهذا قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل، ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾»[4]، أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جمع بين علمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء[5].

وخص الطير بالذكر مع دخولها تحت من في السموات والأرض؛ لعدم استمرار

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٧٩.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٦٨، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤١٥.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣١-٢٣٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٠.

استقرارها في الأرض، وكثرة لبثها في الهواء، وهو ليس من السماء ولا من الأرض، ولما فيها من الصنعة البديعة التي تقدر بها تارة على الطيران، وتارة على المشي بخلاف غيرها من الحيوانات، وذكر حالة من حالات الطير، وهي كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها، أن هذه الحالة هي أغرب أحوالها، فإن استقرارها في الهواء مسبحة من دون تحريك لأجنحتها، ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله الذي أتقن كل شيء[1].

وفي قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يقول أبو الطيب: «وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علّمها الله ذلك؛ وألهمها إليه لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية، وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه؛ وعظم شأنه من كونه جعلها مسبحة له، عالمة بما يصدر منها، غير جاهلة له»[2].

رابعًا: الطير من جنود الله تعالى:

أخبر الله جل وعلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ما جرى لأصحاب الفيل الذين قدموا من اليمن يريدون هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، وكان رئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم، فأرسل الله عليهم جندًا من جنوده، فأبادهم، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم[3].

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل:٣].

قال الطبري: «وأرسل عليهم ربك طيرًا متفرقة، يتبع بعضها بعضًا من نواح شتَّى، وهي جماع لا واحد لها -أي: الأبابيل- مثل الشماطيط والعباديد ونحو ذلك»[4].

وقال الزجاج في معنى الآية: «جماعات من هاهنا وجماعات من هاهنا، والمعنى: أرسل اللّه عليهم هذا الطير بهذه الحجارة من كل جانب»[5].

وقد ورد تفسير كلمة الأبابيل بعبارات متعددة عن السلف منها ما ذكرناه آنفًا، وهذه الأقوال كما قال النحاس متفقة، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام، يقال: فلان يؤبل على فلان، أي يعظم عليه ويكثر، وهو مشتق من الإبل، وهو من الجمع الذي لا واحد له[6].

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿طَيْرًا﴾ على التنكير؟

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٧-٤٨ .
(٢) فتح البيان، القنوجي ٩/ ٢٤١ .
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٠٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٨٣ .
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٠٥ .
(٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٦٣ .
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٠٥ .

والجواب كما قال الرازي: «إما للتحقير، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر، أو للتفخيم كأنه يقول: طيرًا وأي طير ترمي بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل»[(١)].

وقال أبو حيان: والظاهر أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، يذكر نعمته عليه، إذ كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد عليه السلام، وإرهاصًا بنبوته، إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكأن الله تعالى يقول له قد علمت ما فعل ربك بهؤلاء الذين قصدوا حرمه، ضلل كيدهم وأهلكهم بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[(٢)]، وهذه آيةٌ باهرةٌ دالةٌ على شرف الكعبة[(٣)].

وفي الآية رد على الملحدين الذين ذكروا في العذاب الذي أهلك الله به الأمم؛ كالزّلازل، والرياح، والصواعق، والخسف، أعذارًا ضعيفة، أما هذه الواقعة، فلا يجري فيها تلك الأعذار، وليس في شيء من الطّبائع والحيل أن يعهد طير معها حجارة، فيقصد قومًا دون قوم فيقتلهم، ولا يمكن أن يقال: إنه كسائر الأحاديث الضعيفة؛ لأنه لم يكن بين عام الفيل، ومبعث الرسول إلا نيفًا وأربعين سنة، ويوم تلا رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم هذه الآية، كان قد بقي جمع شاهدوا تلك الواقعة، فلا يجري فيها تلك الأعذار، ولو كان النقل ضعيفًا لكذبوه، فعلمنا أنه لا سبيل للطّعن فيها[(٤)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٩١ .
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٥٤٣-٥٤٤ .
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٤٠٢ .
(٤) انظر: المصدر السابق ٢٠/ ٥٠٠-٥٠١ .

الطير في القصص القرآني

القصص في القرآن الكريم من أصدق القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

وذلك لتمام مطابقتها على الواقع، وأحسن القصص؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف:٣].

وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى، وأنفع القصص؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق، وقد ذكر الله جل وعلا من القصص في كتابه الكريم قصص الطير سواء مع بعض أنبيائه عليهم السلام، أو مع ابني آدم عليه السلام، وسوف نتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل، مع بيان أهم الدروس والعبر من هذه القصص.

أولًا: قصة ابني آدم مع الغراب:

أخبر الله جل وعلا في محكم كتابه ما جرى بين ابني آدم لصلبه، وهما هابيل وقابيل، وهو قول جمهور العلماء[1]، وكيف عدا أحدهما على الآخر، فقتله بغيًا عليه وحسدًا له، فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة[2]، فقيض الله جل وعلا غرابًا لتعليم القاتل كيف يدفن أخاه.

قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة:٣١].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: «﴿فَبَعَثَ﴾ أي: أرسل ﴿اللَّهُ غُرَابًا﴾ فجاء ﴿يَبْحَثُ﴾ أي: يحفر بمنقاره ورجله متعمقًا في الأرض، قال القتيبيّ: هذا من الاختصار، ومعناه: بعث غرابًا يبحث التراب على غراب ميت ﴿لِيُرِيَهُ﴾ الضمير إمّا لله تعالى أو للغراب، والظاهر للقاتل أخاه ﴿كَيْفَ يُوَارِي﴾ أي: يستر في التراب ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: جسده الميت، وسمّي سوأة؛ لأنه مما يسوء ناظره، ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ﴾ كلمة جزع وتحسّر، والويل الهلكة، ﴿أَعَجَزْتُ﴾ أي: أضعفت عن الحيلة ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ﴾ أي: الذي هو من أخسّ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨١-٨٢، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٢، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٧١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨١-٨٢.

الحيوانات، والاستفهام للتعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾ أي: أغطي ﴿سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ﴾ أي: صار ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ أي: على حيرته في مواراته حيث لم يدفنه حين قتله، فصار أجهل من الحيوانات العجم وأضلّ منها وأدنى»[1]، قيل: لم يكن ندمه ندم توبة، بل ندم لفقده لا على قتله، وقيل غير ذلك[2].

وقال الألوسي: «والغراب: طائر معروف، قيل: والحكمة في كونه المبعوث دون غيره من الحيوان: كونه يتشاءم به في الفراق والاغتراب، وذلك مناسب لهذه القصة»[3].

وروى السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة: أن الله تعالى بعث غرابين أخوين، فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثى عليه، فلما رآه قال: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾[4]، وهو قول أكثر المفسرين[5].

قال الراغب: «فتنبه قابيل لدفن أخيه، ووجه ذلك: أنه ما من صنعة يتعاطاها الإنسان بالتعلم إلا وقد سخر الله لمثل ذلك الصنعة حيوانًا يتعاطاه، وجعل الله تعالى ذلك سببًا لتعلم الناس ذلك منه، فمن الحيوان ما يسبح، ومنها ما يمشي، ومن عادة الغراب دفن الأشياء، فلما رأى قابيل ذلك تنبه لما يجب أن يفعل، فاستصغر نفسه لقصوره عن معرفة ما اهتدى إليه الغراب، فأخذ يتحسر، ويتولول وندم ندمًا لا يثنيه»[6].

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنه قال: جاء غراب إلى غراب ميت فحثى عليه من التراب حتى واراه، فقال الذي قتل أخاه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾[7].

قال أبو زهرة: «وقد فهم بعض المفسرين من الآية أنه لم يكن ثمة غراب قد مات، أو قتله صاحبه، ولكنه رأى الغراب يبحث في الأرض عن شيء من الأشياء ليدفنه؛ لأن من عادة الغربان حفر الأرض لدفن الأشياء، فلما رأى قاتل أخيه الغراب يحفر الأرض اهتدى إلى حفر الحفرة التي ألقى فيها جثة أخيه القتيل.

والحق أن الآية الكريمة نصت على أن الغراب قد أخذ يبحث في الأرض، حتى حفر حفرة، دفن فيها شيئًا أو طيرًا ميتًا، ولم تتعرض لكون المدفون طيرًا أو غير طير، ولا

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١١١.
(٢) فتح البيان، القنوجي ٣/ ٤٠١.
(٣) روح المعاني، ٣/ ٢٨٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٢٥.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢١٣٢.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٣٢٩.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٢٦.

لكون الطير مات بقتل الدافن، أو مات بسبب آخر، والآية الكريمة بينة واضحة المقصد من غير فرض واحد من هذه الفروض بعينه، والفرض الواحد الذي يقتضيه بيان الغرض، والمغزى: هو أن نفرض أن الغراب أخذ يحفر في الأرض، حتى أتم حفرة وضع فيها شيئًا، فعلم القاتل الجهول أن ذلك هو الطريق لدفن أخيه»[1].

وفي الآية دلالة على أن الندم إذا لم يكن لقبح المعصية، لم يكن توبة، والآية أصل في دفن الميت[2]، والله أعلم.

ثانيًا: قصة إبراهيم عليه السلام وإحياء الطير:

سأل إبراهيم عليه السلام ربه جل وعلا أن يريه كيف يحيي الموتى، فأجابه الله تعالى لما طلب، فكان هذا المشهد الذي حدثنا به الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:٢٦٠].

ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم عليه السلام ربه جل وعلا أسبابًا منها:

وهو قول أكثر المفسرين: أنه رأى جيفة بساحل البحر تتناولها السباع والطير ودواب البحر، ففكر كيف يجتمع ما قد تفرق من تلك الجيفة، وتطلعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه ربه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠][3]، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك وابن عباس[4].

وقال آخرون: بل كان سبب مسألته ربه ذلك: المناظرة والمحاجة التي جرت بينه وبين نمرود في ذلك، قاله ابن إسحاق[5]، قال ابن كثير: لما قال إبراهيم عليه السلام لنمرود ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[6].

وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكًّا في إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه[7].

فاستجاب الله تعالى لإبراهيم عليه

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢١٣١-٢١٣٢.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١١٢ .
(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ١/ ٣٧٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٨٥-٤٨٦، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٢/ ٥٠٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٨٦-٤٨٧ .
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٩.
(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٩٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٢٣ .

السلام لما طلب له، حيث أمره الله جل وعلا أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحهن، ثم يخلط بين لحومهن وريشهن ودمائهن، وهو قول قتادة[1]، وإنما خص الطير؛ لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان والطير[2].

وجمهور المفسرين على أن الله أمر إبراهيم خليله بأن يذبح تلك الطيور ويقطع أجزاءها ويضع على كل مرتفع من الأرض جزءًا من تلك الأشلاء المتقطعة، ثم يدعوها فتكون طيرًا بإذن الله ويجيء إليه سعيًا، وعلى هذا النحو يكون ذلك العمل الحسي تقريبًا لمعنى الإحياء، وإن لم يكن بيانًا كاملًا للكيفية؛ لأن الكيفية عند الله العليم الخبير علمها، ويكون ذلك إظهارًا للإحياء بمظهر حسي، وإن لم يكن فيه بيان الكيفية[3].

قال السعدي في تفسير الآية: «﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمهن، واذبحهن، ومزقهن ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ففعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات على أكمل ما يكون من الحياة، وخص الطيور بذلك؛ لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن، وأيضًا أزال في هذا كل وهمٍ ربما يعرض للنفوس المبطلة، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعًا، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهرًا علنًا، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاهن عنه كثيرًا، لئلا يظن أن يكون عاملا حيلة من الحيل، وأيضًا أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات، فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته، وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمام عدله وفضله»[4].

وجيء بمن للتبعيض في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ للدلالة على أن الأربعة مختلفة الأنواع، والظاهر أن حكمة التعدد والاختلاف زيادة في تحقق أن الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون بعض، فلذلك عددت الأنواع، وفائدة الأمر بإدنائها في قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ حتى يتأمل أحوالها ويعلم بعد إحيائها أنها لم ينتقل جزء منها عن موضعه[5]، والله أعلم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٠٣ .
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥٧ .
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ٩٦٦ .
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥٦ .
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٣٩-٤٠ .

وناهيك بالقصة دليلًا على فضل الخليل، ويُمْن الضراعة في الدعاء، وحسن الأدب في السؤال، حيث أراه الله تعالى ما سأل في الحال على أيسر ما يكون من الوجوه[1].

ثالثًا: يوسف عليه السلام وتأويل رؤيا الطير:

ذكر الله عز وجل ما جرى بين يوسف عليه السلام والفتيان اللذين كانا معه في السجن، حيث قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾ [يوسف:٣٦].

قال قتادة: وكان الفتيان غلامين من غلمان ملك مصر الأكبر، أحدهما صاحب شرابه، والآخر صاحب طعامه[2].

وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن، تآلفا به وأحباه[3]، فسمياه محسنًا لذلك، وهذا تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4]، وهو قول الضحاك وقتادة، وأولى بالصواب عند الطبري[5].

ثم إنهما رأيا منامًا، فرأى الساقي أنه يعصر خمرًا - يعني عنبًا - وقال الآخر - وهو الخباز -: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ والمشهور عند الأكثرين أنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره[6].

وفي قوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ قال الماتريدي: وسمى التعبير تأويلًا؛ لأن التأويل: هو الإخبار عن العواقب؛ لذلك سموه تأويلًا، ثم خرج تأويل الذي كان خبازًا على ما ذكر، وهو إنما كان يخبز للناس، فلما رأى أنه حمل الخبز على رأسه، وأنه يأكل الطير علم أنه يخرج من الأمر الذي كان فيه، وخروجه يكون بهلاكه؛ لأنه كان من قبل يخبز للناس، فصار يخبز لغيرهم، فاستدل بذلك على خروجه من أمره وعمله، لكنه أخبر أنه يصلب؛ لأنه كان قائمًا منتصبًا، فأول على ما كان من أمره، والله أعلم[7].

وكلام الماتريدي في هذه الآية يعتبر

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٥٧ .
(٢) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٩٤-٩٥ .
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٨.
(٤) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٢٣٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٩٨-١٠٠ .
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٨.
(٧) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٢٣٩.

تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ [يوسف:٤١].

وفي هذه الآية يقول السعدي: «عبر عن الخبز الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل، تتمكن الطيور من أكله»[(١)].

وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾: «لما تأول لهما الرؤيا قال الذي أنبأه بأنه يصلب أنه لم ير شيئًا، فأعلمه أن ذلك واقع به وإن لم ير، كما أعلمهما بخبر ما يأتيهما من الطعام»[(٢)]، بقوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧].

وذكر ذلك بعض أهل التأويل، كما قال الماتريدي، ثم رد على ذلك بقوله: لكن هذا لا يعلم: قالا ذلك أم لم يقولا، سوى أن فيه أنه عبّر رؤياهما، وكان ما عبّر لهما، وقد علم ذلك بتعليم من الله إياه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف:٣٧][(٣)]، والتعبير عنه بـ(الأمر)، وعن طلب تأويله بـ(الاستفتاء) تهويلًا لأمره، وتفخيما لشأنه، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة الحكم، المبهمة الجواب[(٤)].

رابعًا: داود عليه السلام والطير:

أخبر الله جل وعلا بما أنعم على عبده ورسوله داود عليه السلام، وبما أتاه من الفضل العظيم، ومن ذلك تسبيح الطير معه إذا سبح، حيث قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠﴾ [سبأ:١٠].

قال الزجاج: «﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ معناه رجعي معه، يقال: آب يؤوب، إذا رجع، ومعنى رجّعي معه: سبّحي معه ورجّعي التسبيح معه.

(والطيرَ) (والطيرُ)، فالرفع من جهتين:

إحداهما: أن يكون نسقًا على ما في ﴿أَوِّبِي﴾، والمعنى ﴿يَا جِبَالُ﴾ رجّعي التسبيح أنت ﴿وَالطَّيْرَ﴾.

ويجوز أن يكون مرفوعًا عل البدل، والمعنى: يا جبال ويا أيها الطير ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾»[(٥)].

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ قال: سبحي معه، قال: والطير أيضًا[(٦)].

والخلاصة في المعنى: أن الله أمر الطير تسبح مع داود عليه السلام إذا سبح.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩٨ .
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١١١ .
(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٢٤٢ .
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٧٨ .
(٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٤٣ .
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٥٨ .

وأما ابن كثير فيقول في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود، صلوات الله وسلامه عليه، مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته»[1]، ثم قال لأبي موسى: (لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود)[2].

والتأويب في اللغة: هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها، فمعنى قوله تعالى: ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: رجعي معه مسبحة معه، والله أعلم[3].

وفي هذا الأسلوب الذي نظمت عليه الآية من الفخامة، وجلالة الخالق، وعظم شأن داود، مع وفرة المعاني، وإيجاز الألفاظ، ما لا يخفى من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا، إشعارًا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته سبحانه وتعالى[4].

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَٰقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص:١٨-١٩].

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: مجموعة إليه، تسبّح الله معه ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: ترجع إلى داود، أي: كلٌّ لداود أوّابٌ أي: رجّاعٌ إلى طاعته وأمره، والمعنى: كلٌّ له مطيع بالتسبيح معه، هذا قول الجمهور، والثاني: أنها ترجع إلى الله تعالى، فالمعنى: كلٌّ مسبّحٌ لله»[5].

وقال ابن كثير في هذه الآية: «كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه إذا مر به الطير، وهو سابح في الهواء، لا تستطيع الذهاب، بل تقف في الهواء وتسبح معه، ولهذا قال: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: محبوسة في الهواء، ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع يسبح تبعًا له»[6].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم ٢٣٦ .
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩٧.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٣٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٥٦ .
(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٦٤.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٧-

خامسًا: الطير من جند سليمان عليه السلام:

ورث سليمان عليه السلام أباه في علمه ونبوته وملكه، وزاده الله ملكًا عظيمًا لم يحصل لأحد قبله ولا بعده، فقد سخر الله له الريح تجري بأمره، والجن والشياطين يعملون له من الأعمال ما يشاء، ومن الجنود الإنس والجن والطير،وقد وصف الله تعالى جنوده وهم منتظمون في سيرهم واجتماعهم بتدبير عجيب ونظام غريب، ومن تلك الجنود المنتظمة الطير.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل:١٧].

قال الطبري: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير في مسير لهم، فهم يوزعون، واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: فهم يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، قال ابن عباس: جعل على كل صنف من يرد أولاها على أخراها، لئلا يتقدموا في المسير، كما تصنع الملوك، وهذا القول أولى بالصواب، وذلك أن الوازع في كلام العرب هو الكاف، يقال منه: وزع فلان فلانًا عن الظلم: إذا كفه عنه، وإنما قيل للذين يدفعون الناس عن الولاة والأمراء: وزعة؛ لكفهم إياهم عنه[1].

فكأن سليمان عليه السلام لا يدعهم أن يتشروا ويتفرقوا، ولكن يسيرهم مجموعين على كل صنف منهم وزعة من النقباء ترد أولهم على آخرهم، لئلا يتقدموا في المسير، وذلك من سيرة الملوك وأمراء العساكر: أن يسيروا جنودهم مجموعة غير منتشرة ولا متفرقة[2].

وقال السعدي: «جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بني آدم، ومن الجن والشياطين ومن الطيور، فهم منتظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم، قد استعد لذلك وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره لا تقدر على عصيانه ولا تتمرد عنه»[3].

وفي الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض، إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم[4].

وأما ابن عاشور فيقول: وفي الآية بيان للجنود فهي ثلاثة أصناف: صنف الجن... وصنف الإنس... وصنف الطير، وهو

٥٨.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٣٨-٤٣٩.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ١٠٥، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٤٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٢ باختصار.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٦٨.

من تمام الجند، لتوجيه الأخبار وتلقيها، وتوجيه الرسائل إلى قواده وأمرائه، واقتصر على الجن والطير لغرابة كونهما من الجنود، فلذلك لم يذكر الخيل وهي من الجيش، وفي قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ إشارة إلى أن جمع الجنود وتدريبها من واجبات الملوك؛ ليكون الجنود متعهدين لأحوالهم وحاجاتهم، وليشعروا بما ينقصهم، ويتذكروا ما قد ينسونه عند تشوش الأذهان عند القتال وعند النفير[1].

ومن حسن نظامه عليه السلام وحزمه: أنه يتفقد الجنود بنفسه، حتى أنه تفقد الطير لينظر هل هي ملازمة لمراكزها وأماكنها أم لا، فقال تعالى مخبرًا عن ذلك: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝٢٠﴾ [النمل:٢٠].

قال الماتريدي مبينًا السبب في ذلك: «وتفقده الطير لما كان عليه حفظهم جميعًا، ومنعه إياهم عن الانتشار في الأرض والتفرق، لما على كل ملك وأمير حفظ رعيته وحاشيته، والتفقد عن أحوالهم وأسبابهم»[2].

وقال السعدي: «والشاهد من الآية أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه، وكمال فطنته حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به، لكونه خفيًّا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم كان غائبًا من غير إذني ولا أمري؟»[3].

وهذا يدل على عظيم منزلة الهدهد، وأن غيبة غيره كانت بأمره عليه السلام[4].

وفي الآية: استحباب تفقد الملك أحوال رعيته، وأخذ منه بعضهم: تفقد الإخوان[5].

سادسًا: عيسى عليه السلام وخلق الطير:

أجرى الله عز وجل على يد عيسى عليه السلام الكثير من المعجزات والآيات الدالة على صدق رسالته، وأنه رسول الله تعالى إلى بني إسرائيل، وقد أخبر الله جل وعلا في محكم كتابه عن هذه الآيات، ومنها خلق الطير حيث كان يصنع من الطين شكلًا على هيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا حيًّا بإذنه سبحانه وتعالى.

قال جل شأنه حكاية عن عيسى عليه السلام مخاطبًا قومه: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٤٩].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٤٠.
(٢) تأويلات أهل السنة، ٨/ ١٠٨ باختصار.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٠٣ باختصار.
(٤) نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٤٩.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٤٩٥.

قال البيضاوي: «﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم﴾ أي: أقدر لكم وأصور شيئًا مثل صورة الطير، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف، أي: في ذلك الشيء المماثل ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيصير حيًّا طيَّارًا بأمر الله، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه»[1].

وفي الآية دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه، أجراه على يد عيسى عليه السلام[2].

وقال ابن كثير في هذه الآية: كان عليه السلام يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه، فيطير عيانًا بإذن الله عز وجل، الذي جعل هذا معجزة يدل على أن الله أرسله[3].

وأما أبو زهرة فقال في هذه الآية: «فهنا أعمال ثلاثة: اثنان منها لعيسى عليه السلام، والثالث لله تعالى جل جلاله وعظمت قدرته، أما اللذان لعيسى فهما: تصوير الطين كهيئة الطير، والنفخ فيه، وأما الثالث الذي هو من عمل الله تعالى وحده، فهو خلق الحياة في هذه الصورة التي صورها عيسى عليه السلام؛ ولذلك قال: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره وإعلامه، والكون كله بأمره سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

وهذا يدل على أنه لم يكن في عيسى ألوهية، ولا أي معنى من معانيها»[4].

وقد أكد الله جل وعلا هذه المعجزة في موضع آخر في كتابه الكريم، مخاطبًا عيسى عليه السلام، في معرض التذكير بنعمه التي أنعمها عليه، حيث قال جل شأنه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيرًا ذا روح بإذن الله وخلقه»[5].

وهذه المعجزة باهرة قاطعة في أن الخالق لهذا الكون لا تحكمه الأسباب، إذ إن الناس يجدون أسباب الخلق هو التوالد بأن تحمل الأنثى من ذكر، وتلد، ثم يكون الحي من بعد ذلك، فيكون من خرق الأسباب أن يكون الحي بإجراء الحياة على يد مخلوق لله تعالى، فقد أذن لعيسى عليه السلام أن يصور من الطين كهيئة الطير، فمعنى (خلق) هنا: هو تصويره جسدًا من الطين، وجعله على شكل طائر، ثم نفخ فيه بإذنه سبحانه، فيكون طيرًا بإذن الله تعالى، وذكرت كلمة

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨ باختصار.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٩٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٤ بتصرف يسير.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٢٣٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٢٢٣.

﴿بِإِذْنِي﴾ عند تصوير شكل الطير، وعندما صار طيرًا؛ للإشارة إلى أن كل ذلك من عند الله، وأنه الخالق، وليس عيسى هو الخالق، ولكنه سبحانه وتعالى أجرى الخلق على يديه[1].

سابعًا: دروس من قصص الطير في القرآن:

ذكرنا في المطالب السابقة قصص الطير مع بعض الأنبياء عليهم السلام، ومع ابني آدم عليه السلام، ومما لا شك فيه أن القصص في القرآن الكريم حقائق ووقائع ثابتة، ومن فوائدها أخذ الدروس والعبر، فمن الدروس والعبر من قصص الطير ما يأتي:

١. أن الطير جند من جنود الله تعالى.

قد يرسلها الله لإهلاك الظالمين المعتدين، كما حصل لأصحاب الفيل عندما أرادوا هدم الكعبة، فأرسل الله عليهم أضعف جنوده وهو الطير، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل:٣].

أو قد تكون مسخرة لأنبياء الله عليهم السلام معجزة لهم وتصديقًا لرسالاتهم، ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن داود عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

وأخبر عن سليمان عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾ [النمل:١٧].

٢. تعلم الإنسان من غيره من المخلوقات، ولو كان ممن هو أدنى منه[2].

وهذا دليل على عجز الإنسان وضعفه مهما كانت قوته وسلطانه وجبروته وبطشه، ومن ذلك: قصة الغراب مع ابني آدم، حيث بعث الله خلقًا من مخلوقاته وهو الغراب ليظهر للإنسان ضعفه ويعلمه كيف يدفن أمواته[3].

قال جل وعلا: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة:٣١].

فشاءت حكمة الله أن تضع القاتل أمام عجزه، فبالرغم من جبروته وقتله لأخيه إلا أنه عاجز عن أن يواري سوأته، عاجز عن أن يكون كالغراب في أمة الطير[4]، وكأن ربنا عزّ وجلّ يعلّمنا أيضًا الأدب وعدم

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٣٩٧ .

(٢) انظر: التربية الإسلامية، محمد منير مرسي ص ١٣٨ .

(٣) انظر: التربية في عصور ما قبل الإسلام وبعده، عباس محجوب ص ١٠٣ .

(٤) انظر: مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، علي أحمد مدكور ص ٢٤٦ .

الغرور[1].

ولذلك تحسر القاتل وتعجب وأظهر عجزه قائلًا: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١].

فكأنه يتحسر على ما أصبح فيه، وأن الغراب أعقل منه، وأكثر منه خبرة، وكأنه لم يقلها إلا بعد أن مرّ بمعنى نفسيّ شديد قاسٍ على وجدانه[2]، وكلّما كان المقرّع به أسفل كانت الموعظة في ذلك أبلغ[3]، فالله هو الذي أودع فيه هذه الغريزة، ليعلم الإنسان وليأخذ منه العظات والعبر، وليكون وسيلة أيضًا لبيان أحكام شرعية تتعلق بحماية الإنسان في الأرض[4].

ومن ذلك أيضًا: قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع الهدهد، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢].

هذا هو الهدهد، وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له: لقد عرفت ما لم تعرفه أنت، وكأن هذا القول قد جاء ليعلمنا حسن الأدب مع من هو دوننا، فهو يهب لمن دوننا ما يعلّمه لنا، وهكذا يتعلم الإنسان ممن هو دونه، وممن سخره الله له، وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى خبرًا لا بد أن يبلغه للأعلى، فتتحقق سيولة المعلومات، التي يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب[5].

٣. مكانة العلم وشرفه.

ويتجلى ذلك أيضًا من قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام، فالهدهد مع أنه في نهاية الضعف، ومع أنه كان في موقف المعاتبة، حيث توعده سليمان عليه السلام لغيابه بدون علم، ولما كان ملكه مبنيًا على كمال العدل استثنى بقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾ [النمل:٢١].

فلولا أن العلم أشرف الأشياء، وإلا فمن أين للهدهد أن يتكلم في مجلس سليمان بمثل هذا الكلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢].

ولذلك يرى الرجل الساقط إذا تعلم العلم صار نافذ القول عند السلاطين، وما ذاك إلا ببركة العلم[6].

٤. الحيوانات تعرف ربها وتسبّحه وتوحّده.

(١) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٢٩٢ .
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٣٠٨٤، و ١٤/ ٨٩٣٣ .
(٣) انظر: جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف ص ١٣٣ .
(٤) انظر: التربية في عصور ما قبل الإسلام وبعده، عباس محجوب ص ١٠٣ .
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ٩/ ٥٦٧٤-٥٦٧٥ .
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٤٠٧، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٢٤٢ .

وتحب المؤمنين وتدين لربها بذلك، وتبغض الكفار المكذبين، ويتجلى ذلك فيما حكاه الله عن الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل:٢٢-٢٦].

ففي هذه المدة القصيرة جاء الهدهد بهذه المعلومات العظيمة، أخبر سليمان عن ملك الديار اليمانية، وأن ملكتهم امرأة، وأنها قد أعطيت من كل شيء يحتاج الملك إليه، وأن لها عرشًا عظيمًا، ومع فهمه لملكهم وقوتهم فهم أيضًا دينهم، وأنهم مشركون يعبدون الشمس، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار[1].

الطير في المثل القرآني

أشاد الله سبحانه وتعالى بالأمثال في محكم كتابه الكريم، مبينًا أنه اشتمل على كل مثل من الحق يحتاجه الناس، وأن السبيل قد استبان بتلك الأمثال، وما بقي على الناس إلا أن يتفكروا بها ويتذكروا.

قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف:٥٤].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وقد بين جل وعلا أنه ضرب للناس أمثالهم التي يتعرفون بها على الهدى والضلال، والخير والشر، والحق والباطل، وما آل إليه أهلها من العواقب الحميدة، أو النهايات الوخيمة.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾ [محمد:٣].

وقد ذكر الله الطير في المثل القرآني ليبين حال المشرك بالله في بعده عن الهدى وهلاكه، بالذي يهوي من السماء فتتخطفه الطير من كل جانب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ

(١) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٢٤٢-٢٤٣.

﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج:٣١].

قال الزجاج في هذه الآية: «وهذا مثل ضربه الله للكافر في بعده عن الحق، فأعلم اللّه أن بعد من أشرك به من الحق، كبعد من خرّ من السماء، فذهبت به الطير أو هوت به الريح في مكانٍ سحيق، أي: بعيدٍ»[1].

ولنستمع إلى ابن القيم وهو يصور لنا حال هذا المشرك الذي ارتكس في أوحال الوثنية، حيث قال رحمة الله في كلامه لبيان هذا المشهد في هذه الآية: فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيها مركبًا، ويكون قد شبه من أشرك بالله برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكًا لا يرجى معه نجاة، فحاله كحال من سقط من السماء فاختطفته الطير في الهواء ومزقته في حواصلها، أو عصفت به الريح فسقط في مكان عميق، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثَّل بالممثَّل به، فيكون قد شبه التوحيد في علوه وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك التوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين لما يجده من التضييق والشدة، وشبه الشياطين التي تؤزه وتتقاسم قلبه بالطير التي تتقاسم لحمه، وشبه هواه الذي ألقاه في التهلكة بالريح التي هوت به في مكان سحيق[2].

وقال السعدي في تفسير هذه الآية: «﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة، ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبليات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه»[3].

وذكر ابن عاشور أن الكافرين في هذه الآية قسمان: «قسم شركه ذبذبة وشك، فهذا مشبه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه، وقسم مصمم على الكفر مستقر فيه، فهو مشبه بمن ألقته الريح في واد سحيق، وهو إيماء إلى أن من المشركين من شركه

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٥ .

(٢) إعلام الموقعين، ١/ ١٣٨- ١٣٩ بتصرف واختصار.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٣٨ .

لا يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير، ومنهم من شركه قد يخلص منه بالتوبة، إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول»[1].

والخلاصة في القول: إن الطير في هذا المثل شبهت بالشياطين التي تتخطف المشرك بالله من كل جانب، فتسلبه دينه ودنياه، فهو هالك لا محالة.

الطير والتشاؤم

أخبر الله جل وعلا في محكم كتابه الكريم عن المكذبين لرسل الله ورسالاته المعرضين عن آياته، أنهم كانوا إذا أصابهم الخير والخصب والسعة في الأموال والأولاد، قالوا هذا من عند الله، أو نحن أحق بها، وإن أصابهم الفقر والمرض والجدب تطيروا وتشاءموا برسل الله وأنبيائه، ومن ذلك ماحكاه الله عن قوم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال جل وعلا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء:٧٨].

وكانت العرب أكثر الناس طيرة، وكانت إذا أرادت سفرًا نفرت طائرًا، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت، وإن طار شمالًا رجعت وتشاءمت[2]، والتشاؤم دأب الكفرة من قبل، حيث كانوا يتطيرون ويتشاءمون بالأنبياء والرسل عليهم السلام، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن قوم صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل:٤٧].

قال الماتريدي في هذه الآية: «أي:

(١) التحرير والتنوير، ١٧/ ٢٥٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢١٤ .

تشاءمنا منك وبمن معك، ولم يزل الكفرة يقولون لرسل اللّه عليهم السلام ولمن آمن منهم: اطيرنا بكم، إذا أصابتهم الشدة والبلاء يتطيرون بهم ويتشاءمون، ويقولون: إنما أصابنا هذا بشؤمكم، وإذا أصابهم رخاء وسعة قالوا: هذا لنا بنا ومن أنفسنا، وهو ما قال موسى، حيث قال: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ [الأعراف:١٣١].

وكذلك قال أهل مكة لرسول اللّه، حيث قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء:٧٨].

كانوا يتطيرون برسول اللّه ويتشاءمون بما يصيبهم من الشدة، وما ينزل بهم من البلاء، فأخبر اللّه رسوله، وأمره أن يقول لهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٨]»[(١)].

قال أبو السعود: «فأمر النبيّ صلّى الله عليه وسلم بأن يردّ زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق ويلقمهم الحجر ببيان إسناد الكلّ إليه تعالى على الإجمال؛ إذ لا يجترئون على معارضة أمر الله عزّ وجلّ حيث قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: كلّ واحدةٍ من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقًا وإيجادًا من غير أن يكون لي مدخل في وقوع شيء منهما بوجهٍ من الوجوه كما تزعمون، بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلًا، ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلي بها عقوبةً»[(٢)].

وسمى التشاؤم تَطَيُّرًا؛ لأنه من قبل كان من دأبهم أنهم إذا خرجوا مسافرين فمروا بطائر زجروه، أي: رموه بحجر ونحوه، فإن مرّ سانحًا بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسره تيمنوا به، وإن مر بارحًا بأن مر من المياسر إلى الميامن تشاءموا منه[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ قال البغوي: «أي ما يصيبكم من الخير والشر عند الله بأمره وهو مكتوب عليكم، سمي طائرًا لسرعة نزوله بالإنسان، فإنه لا شيء أسرع من قضاء محتوم، وقيل: طائركم، أي: عملكم عند الله، سمي طائرًا؛ لسرعة صعوده إلى السماء»[(٤)].

ثم بين الله تعالى سبب نزول الشر عليهم حيث قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

قال الشوكاني في هذه الآية: «أي: تمتحنون، وتختبرون... فأضرب عن ذكر الطائر إلى ما هو السبب الداعي إليه»[(٥)].

وأخبر الله جل وعلا كذلك عن قوم فرعون، فقد تشاءموا بموسى عليه السلام ومن معه.

قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا

(١) تأويلات أهل السنة، ٨/ ١٢١-١٢٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٢/ ٢٠٥.

(٣) انظر: تفسير المراغي ١٩/ ١٤٧.

(٤) معالم التنزيل، ٣/ ٥٠٩ باختصار.

(٥) فتح القدير، ٤/ ١٦٥.

﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۚ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١].

قال البغوي: «﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾، جدب وبلاء ورأوا ما يكرهون، ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ يتشاءموا، ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، وقالوا: ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم، فهذا من شؤم موسى وقومه»[1].

وهذا دليل على جهلهم وعنادهم.

قال أبو السعود: «وهذا كما ترى شاهدٌ بكمال قساوة قلوبهم، ونهاية جهلهم وغباوتهم، فإن الشدائد ترقّق القلوب، وتلين العرائك لا سيما بعد مشاهدة الآيات، وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيءٌ منها، بل ازدادوا عتوًّا وعنادًا»[2].

فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قال السعدي: «أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك»[3].

ثم بين الله جل وعلا سبب تشاؤمهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم؛ للإشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشرّ من جهة الله تعالى، أو يعلمون أن ما أصابهم من المصائب والبلايا ليس إلا بما كسبت أيديهم، ولكن لا يعلمون بمقتضاه عنادًا واستكبارًا[4].

وكذلك أخبر الله تعالى عن أصحاب القرية حيث تشاءموا كذلك برسلهم، قال جل شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ [يس:١٨-١٩].

قال النسفي: «تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا بشؤم هذا وبركة ذلك»[5]، ودل هذا القول منهم على أنه قد نزل شيء من العذاب، والشدة حتى تشاءموا بهم ذلك، ولم يزل عادة الكفرة التطير بالرسل عند نزول البلاء بهم[6].

ولما ضاقت بهؤلاء المكذبين الحيل، وأعيتهم الحجج، لم يكتفوا بما قالوا، بل لجئوا إلى التهديد والوعيد ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

قال الطبري: لئن لم تنتهوا عما ذكرتم من أنكم أرسلتم إلينا بالبراءة من آلهتنا، والنهي عن عبادتنا لنرجمنكم، قيل: لنرجمنكم بالحجارة، قاله قتادة، وفي قوله تعالى:

(١) معالم التنزيل، ٢/ ٢٢٢ .
(٢) إرشاد العقل السليم، ٣/ ٢٦٤ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٠١ .
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٦٤ .
(٥) مدارك التنزيل، ٣/ ١٠٠ .
(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٥١٠ .

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: ولينالنكم منا عذاب موجع[1].

فأجاب الرسل عليهم دفعًا لما زعموه من التشاؤم بهم بقولهم: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

قال المراغي: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي قالوا لهم سبب شؤمكم من أفعالكم، لا من قبلنا كما تزعمون، فأنتم أشركتم بالله، وارتكبتم المعاصي، أما نحن فلا شؤم من قبلنا، فإنا لا ندعو إلا إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، وفي ذلك منتهى اليمن والبركة، ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: أمن جرّاء أنا ذكرناكم، وأمرناكم بعبادة الله، تقابلوننا بمثل هذا الوعيد؟ بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف ومجاوزة الحد في الطغيان، ومن ثم جاءكم الشؤم، ولا دخل لرسل الله في ذلك، فقد جعلتم أسباب السعادة أسبابًا للشقاء، ولا يخفى ما في ذلك من شديد التوبيخ، وعظيم التهديد والتنبيه إلى سوء صنيعهم بحرمانهم من الخيرات[2].

[انظر بحث التشاؤم: التشاؤم بالطيور]

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٠٢ .
(٢) تفسير المراغي ٢٢/ ١٥٢-١٥٣ بتصرف واختصار.

الطير في الجنة

الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله تعالى به عنها، وما أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم يحير العقل ويذهله؛ لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه.

يقول الله عز وجل: (أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[3].

وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب.

قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١].

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها ما يشتهون، ومن ذلك لحوم الطير.

قال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة:٢١].

قال الطبري: «من الطير الذي تشتهيه نفوسهم»[4].

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٤، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٠٥ .

والاشتهاء: مصدر اشتهى، وهو افتعال من الشهوة التي هي: محبة نيل شيء مرغوب فيه من محسوسات ومعنويات، وجعل الاشتهاء للحم الطير؛ لأنه أعلق بالطعام، فلذة كسر الشهية بالطعام لذة زائدة على لذة حسن طعمه[(١)].

قال الماتريدي: «إن أهل الجنة إنما يتناولون ما يتناولون على الشهوة، لا على الحاجة وسد الجوع، وهو كما ذكر جل وعلا: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١]»[(٢)].

فيطوف الغلمان على أهل الجنة بألوان من المطاعم المختلفة، فيختارون منها ما تميل إليه نفوسهم، وبأنواع من لحوم الطير مما لذّ وطاب، فيأخذون منها ما يشتهون، وفيه يرغبون[(٣)].

وأما السعدي فيقول في تفسير هذه الآية: «أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، وإن شاءوا مشويًّا، أو طبيخًا، أو غير ذلك»[(٤)].

وذكر لحم الطير؛ لأن لحوم الطير أنعم اللحوم وألذها[(٥)].

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم: أن في الجنة طيرًا أعناقها كأعناق الجزر، فقال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكلتها أنعم منها[(٦)].

والجزر: جمع جزور، وهو البعير[(٧)].

موضوعات ذات صلة

التشاؤم، الحشرات، الحيوان، الطيبات

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٩٥.
(٢) تأويلات أهل السنة، ٩/ ٤٩١.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٧/ ١٣٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٣٣.
(٥) تفسير الحجرات، الحديد، ابن عثيمين ص ٣٣٤.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٣٣٠٦، والترمذي في سننه، رقم ٢٥٤٢، والنسائي في سننه، رقم ١١٦٣٩، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
قال الترمذي: حديث حسن.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٥١٤.
(٧) تحفة الأحوذي، المباركفوري ٧/ ٢١٢.

الظِّلُّ

عناصر الموضوع

مفهوم الظل	٢٥٦
الظل في الاستعمال القرآني	٢٥٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٥٨
الظل آية ونعمة	٢٥٩
الحكمة من الظل	٢٦٣
دلالة الظل على قدرة الله وعظمته	٢٨٣

المجلد الثاني والعشرون

مفهوم الظل

أولًا: المعنى اللغوي:

الظاء واللام أصلٌ واحد، يدلّ على ستر شيءٍ لشيءٍ، وهو الذي يسمى الظل، والجمع: ظلالٌ وظلولٌ وأظلالٌ وأظلّةٌ وظللٌ، والظل: ضوء شعاع الشمس إذا استتر عنك بحاجز، فاستتار شعاع الشمس ظلٌ، وظلٌّ ظليل: دائمٌ، ومن المجاز أن يقال: بتنا في ظل الليل، وأتانا في ظل الليل، أي: سواده، وظللت أعمل كذا بالكسر ظلولًا، إذا عملته بالنهار دون الليل، وإنما قيل ذلك؛ لأن ذلك شيءٌ يخص به النهار، وذلك أن الشيء يكون له ظلٌّ نهارًا، ولا يقال ظلّ يفعل كذا ليلًا؛ لأن الليل نفسه ظل، قال الخليل: لا تقول العرب «ظلّ» إلا لعملٍ يكون بالنهار[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّف الجرجاني: «الظل: ما نسخته الشمس، وهو من الطلوع إلى الزوال»[2].

وذكر المفسرون «أن الظلّ: هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهو يحدث على وجه الأرض منبسطًا فيما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، ثم إن الشمس تنسخه وتزيله شيئًا فشيئًا إلى الزوال، ثم هو ينسخ ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب، ويسمى فيئًا»[3]، وهذه الحالة أطيب الأحوال؛ لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع، وينفر عنها الحس، وأما الضوء الخالص: وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري، وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية، فإذن أطيب الأحوال هو الظل؛ ولذلك وصف الجنة به، فقال عز وجل: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]»[4].

فالعلاقة بين المعنيين: أن المعنى الاصطلاحي أخص من المعنى اللغوي؛ فاللغوي ستر شيء لشيء، بخلاف المعنى الاصطلاحي فهو خاص بستر ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦١، أساس البلاغة، الزمخشري ٢/ ٨٤، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٠٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ١٣٢٧.
(٢) التعريفات ١/ ١٨٦.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٣٣٥.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٦٤.

الظل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ظ ل ل) في القرآن الكريم(٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة:٥٧]
الاسم	٢٠	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان:٤٥]
صيغة المبالغة	٢	﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النساء:٥٧]

وجاء (الظّل) في القرآن بمعناه اللغوي، وهو الذي يدل على ستر شيء لشيء[٢]، ولم يخرج عن المعنى اللغوي.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ [النحل:٨١].

أي: جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالًا تستظلون بها من شدة الحر[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٣٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٢٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الظلمة:

الظلمة لغةً:

الظّلمة: ضدّ النّور، وجمع (الظّلمة): ظُلَم، وظُلَماتٌ، وظُلُماتٌ، وظُلْماتٌ، بضمّ اللّام وفتحها وسكونها. وقد أظلم اللّيل، والظّلماء: الظّلمة، وربّما وصف بها، يقال: ليلةٌ ظلماء، أي: مظلمةٌ[١].

الظلمة اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «الظلمة: عدم الضوء فيما من شأنه أن يكون مضيئًا»[٢].

الصلة بين الظلمة والظل:

قال الكفوي: «الظل: هو ما يحصل من الهواء المضيء بالذّات كالشّمس، أو بالغير كالقمر، والظل في الحقيقة إنّما هو في ظلّ شعاع الشّمس دون الشعاع، فإذا لم يكن ضوء فهو ظلمة وليس بظل»[٣]. والظل يكون بالليل والنهار[٤]، أما الظلمة فليست إلا في الليل.

٢ الحر:

الحر لغةً:

خلاف البرد، يقال هذا يومٌ ذو حرٍّ، ويومٌ حارٌّ، والحرور: الريح الحارّة في النهار واللّيل[٥].

الحر اصطلاحًا:

عرّف المناوي الحرارة بقوله: «الحرارة: كيفية شأنها تفريق المؤتلفات، وجمع المتشكلات»[٦].

الصلة بين الحر والظل:

يتفق كل منهما في أنهما يكونان في الليل والنهار، ولكنهما يختلفان في درجة الحرارة، فالحر شديد الحرارة، والظل بارد، فهما ضدان.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٩٧.
(٢) التعريفات ص١٤٤.
(٣) الكليات ص٥٩٥.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٤٠.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤.
(٦) التوقيف ص١٣٧.

الظل آية ونعمة

بيّن سبحانه وتعالى أن الظل من النعم العظيمة، والمنافع الجليلة، والآيات الكبرى.

قال جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

فهذه الآية وردت في سورة النحل التي تسمى سورة النّعم[(١)]، فعدّد الله في هذه الآية من نعمه ما شرح فيها، فمنها الظلال تقي من حر الشمس الذي لا تحتمله الأبدان، ولا يبقى معه ولا دونه الإنسان، من شجر وحجر وغمام، ومن جملتها الجبال[(٢)].

ففي الآية امتنان بنعمة الإلهام إلى التوقي من أضرار الحرّ والقرّ في حالة الانتقال، وأعقبت به المنة بذلك في حال الإقامة والسكنى، وبنعمة خلق الأشياء التي يكون بها ذلك التوقي باستعمال الموجود، وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس؛ إذ خلق الله الظلال صالحة للتوقي من حر الشمس، وخلق الكهوف في الجبال ليمكن اللجأ إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لاتخاذ الدروع للقتال[(٣)].

وفي الآية بيان نعمة الله تبارك وتعالى بما هيّأه لعباده من الظل؛ فإن الظل عن الحر من نعم الله على العباد.

ولهذا ذكره الله عز وجل ممتنًا به على بني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧][(٤)].

وتظهر فائدة نعمة (الظل) أكثر في البلاد الحارة والبلاد الصحراوية، وخاصة في حالة السفر، يقول صاحب اللباب: «واعلم أن بلاد العرب شديدة الحرّ، وحاجتهم إلى الظلّ ودفع الحرّ شديدة؛ فلهذا ذكر الله تعالى هذه المعاني في معرض النّعمة العظيمة»[(٥)].

والقرآن إنما أنزل على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١].

وما جعل من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال[(٦)].

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٢٦٩، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٩٣.
(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٥/ ٢١٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٢٣٨٠.
(٤) تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين ٣/ ١٣٨.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٧٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩١.

فهذه نعمٌ عدّدها الله عليهم بحسب أحوالهم وبلادهم، وأنها الأشياء المباشرة لهم؛ لأن بلادهم من الحرارة، وقهر الشمس بحيث للظل غناء عظيم، ونفع ظاهر[(١)].

وأيضًا البلاد المعتدلة، والأوقات المعتدلة نادرة جدًا، والغالب إما غلبة الحر، أو غلبة البرد، وعلى كل التقديرات فلابد للإنسان من مسكن يأوي إليه، فكان الإنعام بتحصيله عظيمًا[(٢)].

وأما تفسير الظلال في هذه الآية بأنه ظلال أوليائه، كما قال الألوسي: «وأنه يستظل بهم المريدون من شدة حر الهجران، ويأوون إليهم من قهر الطغيان»[(٣)]؛ لأنهم ظلال الله في أرضه، كما قيل: السلطان ظل الله في أرضه، يأوي إليه كل مظلوم، فهو تفسير غير صحيح، وليس عليه أثرة من علم، ولم يقل به أهل التأويل، بل يقول الطبري في تفسير الظلال في هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: ومن نعمة الله عليكم أيها الناس: أن جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالًا تستظلون بها من شدة الحر، وهي جمع ظل، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[(٤)].

والمراد بقوله: ﴿ظِلَٰلًا﴾ يدخل فيه ظلال الغمام، وظلال البيوت، وظلال الشجر، وظلال الجبال، وكل شيء له ظل من حائط وسقف وشجر وجبل، وغير ذلك[(٥)].

وإن اختلفت عبارات المفسرين في المراد بالظل هنا في هذه الآية إلا أنها ترجع إلى معنى واحد؛ فنلحظ أن كل واحد منهم ذكر عبارة تختلف عن عبارة الآخر؛ إلا أن ذلك من باب التمثيل لا التضاد؛ لأن الله قال: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ ولم يذكر شيئًا بعينه؛ لأن أنواع ما خلق وكان منه الظلال كثيرة، فالجنات تتفيأ ظلالها بالغدو والآصال، والبيوت فيها ظلال، لمن يكون بجوارها، والغمام يكفّ وهج الشمس وحرارتها، والسحاب تظلل.

فالظلال يعم جميع ما يظل من العرش والفساطيط والسقوف مما يصطنعه الآدميون[(٦)].

وقد يقول قائل: إن هذه ظواهر طبيعية فما النعمة فيها؟ ونقول في الجواب عن ذلك: إنها نعم كبيرة تغمر الناس، ولا يحسّون بها، ولكن إذا حرموها يعرفون مقدار الإنعام، فهذه (الظلال) نعمة من الله تعالى يشعر بها أكثر أصحاب المناطق الصحراوية التي لا ماء يرطّب جوها، ولا نسيم عليل يطفيء

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٨٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٤٤.
(٣) روح المعاني، ١٠/ ٢٧١.
(٤) جامع البيان، ١٧/ ٢٦٩.
(٥) انظر: زاد المسير ٤/ ٤٧٧.
(٦) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٣/ ٣٩٤.

حرها؛ ولذلك كانت من نعم الله التي أنعم بها على سكانها الذين آتاهم الله تعالى مع ذلك جلدًا، وقوة احتمال؛ فكانت هذه نعمًا أنعم الله بها عليهم ليستطيعوا أن يعيشوا، وأن ينعموا في خيراتها.

ولنعلم أن هناك فرقًا بين الظلال والأكنان؛ فإن الظلال يكون بالشجر ونحوه مما يظل ولا يكنّ، بخلاف ما في الجبال من الغيران فإنه يظل ويكنّ.

فقال: ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١]؛ لأن الجبل يكنّ الإنسان من فوقه ويمينه ويساره وأسفل منه، ليس مقصودها الاستظلال، بخلاف الظلال فإن مقصودها الاستظلال؛ ولهذا قرن بهذه ما في السرابيل من منفعة الوقاية، فجمع في هذه الآية بين وقاية اللباس المنتقل مع البدن، ووقاية الظلال الثابتة على الأرض[(١)].

فهذا في الأمكنة.

ثم قال في اللباس: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾[النحل: ٨١].

واللباس والمساكن كلاهما تقي الناس ما يؤذيهم من حر وبرد وعدو، وكلاهما تسترهم عن أعين الناظرين[(٢)].

ومما يدل على أن الظل من النعم العظيمة: أن الله تعالى نفى التساوي بين الظل والحرور، فجعل الظل نعمة قارنها الله عز وجل بالفرق بين العمى والإبصار، وبين الظلام والنور، حيث قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢١].

فأخبر تعالى في هذه الآية أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾ فاقد البصر ﴿وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ فكما أنه من المتقرر عندكم الذي لا يقبل الشك أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى[(٣)].

وهو مثل ضربه الله للمؤمنين، وهم الأحياء، وللكافرين، وهم الأموات[(٤)].

فكما لا يتساوى المكان الظليل مع المكان الشديد الحرارة كذلك لا يستوي أصحاب الجنة وأصحاب النار.

والحرور بمنزلة السموم، وهي الرياح الحارة، والحرور تكون بالنهار وبالليل، والسموم لا تكون إلا بالنهار[(٥)].

وأعيدت (لا) في ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٤٢.
(٥) زاد المسير ٦/ ٤٨٣.

تأكيدًا لنفي الاستواء؛ لأن الاستواء لا يكتفي بواحد، أو تكون (لا) مؤسسة غير مؤكدة.

وكرّرت كلمة النفي بين الظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء الأموات، ولم تكرر بين الأعمى والبصير؛ وذلك لأن التكرير للتأكيد، والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة، فالظلمة تنافي النور وتضاده، والعمى والبصر كذلك، أما الأعمى والبصير ليس كذلك، بل الشخص الواحد قد يكون بصيرًا، وهو بعينه يصير أعمى، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية؛ لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد، فلما كانت المنافاة هناك أتم، أكد بالتكرار[1].

وأفرد (الظل)، وجمع (الحر) فقال: (الحرور)؛ لأن الظل هو شيء واحد يضاد أنواع الحر: من السموم، ومن حر النار، ومن تصاعد الأبخرة من الأرض الكبريتية، إلى غير ذلك مما يتوهج به الجو، ويسخن به الهواء؛ فلذلك حسن إفراد الصيغة -يعني إفراد الظل-، وتخصيص الحرور بهذه الصيغة.

ومما يدل أيضًا على أن الظل من النعم الجليلة: أن الله تعالى جعل الظل ليستروح فيه بعد النصب والتعب، كما حدث مع نبي الله موسى عليه السلام بعد أن سقى للفتاتين.

قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

أي: بعد أن سقى موسى عليه السلام للمرأتين ماشيتهما، تولى، أي: رجع إلى ظل الشجرة التي كان جالسًا تحتها، فاستظلّ بها.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ دلالة على أنه سقى لهما في شمس وحر[2]. وفيه: دليل جواز الاستراحة في الدنيا، بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة[3].

وقوله: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ إلى ظل شجرة، وذكر أنها سمرة[4]. وقيل: هو ظل جدار لا سقف له.

وعن عبد الله مسعود رضي الله عنه قال: «حششت على جمل ليلتين حتى صبّحت مدين، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى، فإذا شجرة خضراء ترف، فأهوى إليها جملي -وكان جائعًا- فأخذها جملي فعالجها ساعة، ثم لفظها، فدعوت الله لموسى عليه السلام، ثم انصرفت».

وفي رواية: «أنه ذهب إلى الشجرة التي كلّم الله منها لموسى»[5].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦٥.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٢/ ٧٢.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٣٢.
(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٧.

وعلى كلٍّ فقد آوى موسى عليه السلام «إلى الظل المادي البليل بجسمه، وآوى إلى الظل العريض الممدود، ظل الله الكريم المنان، بروحه وقلبه»[1].

وكذا جعل الله من نعمه على بني إسرائيل أنه سخّر لهم السحاب ليظلهم، ووفّر لهم أشهى المأكولات، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فلما عصوا ربهم، رفع الجبل من فوقهم، فبدا لهم كأنه ظلة.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١].

الحكمة من الظل

سبق وقلنا: إن الظل نعمة من نعم الله، يتقى بها من الحر، وهذه إحدى الحكم العظيمة من خلق الظل، والظلال.

أولًا: الظل والعبادة:

من المعلوم أن الله تعالى فرض على عباده خمس صلوات في اليوم والليلة، مؤقتة بأوقات اقتضتها حكمة الله تعالى؛ ليكون العبد على صلة بربه تعالى في هذه الصلوات مدة هذه الأوقات كلها، فهي للقلب بمنزلة الماء للشجرة، تسقى به وقتًا فوقتًا، لا دفعة واحدة، ثم ينقطع عنها.

ومن الحكمة أيضًا في تفريق هذه الصلوات في تلك الأوقات: أن لا يحصل الملل والثقل على العبد إذا أداها كلها في وقت واحد، فتبارك الله تعالى أحكم الحاكمين.

ونجد أن الله تعالى ربط بعض هذه الصلوات بحركة الظل، فيتم تحديد أوقات الظهرين، وأوقات فضيلتهما بقياس الظل الحادث بعد الزوال.

فقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أوقات الصلوات بقوله: (وقت الظهر إذا زالت الشمس، وكان ظل الرجل كطوله، ما لم يحضر العصر، ووقت العصر ما لم تصفر

(١) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٤١٩.

الشمس)[1].

يقول ابن القيم: «وفي دلالة الشمس على الظلال ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضى من اليوم، وما بقي منه، وفي تحركه وانتقاله ما يبرد به ما أصابه من حر الشمس، وينفع الحيوانات والشجر والنبات، فهو من آيات الله الدالة عليه»[2].

هكذا يربط النبي صلى الله عليه وسلم هذين الوقتين بحركة الظل، فبيّن أن ابتداء وقت الظهر: هو من زوال الشمس، والمقصود زوالها عن وسط السماء إلى جهة الغرب، وأما نهايته: فهو إلى أن يصير ظل كل شيء مثله -أي: طوله- بعد الظل الذي زالت عليه الشمس.

وأما ابتداء وقت العصر، فيكون بانتهاء وقت الظهر، أي: عند مصير ظل كل شيء مثله، وأما نهاية وقت العصر، فله وقتان:

وقت اختيار: وهو من أول وقت العصر إلى اصفرار الشمس؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ووقت العصر ما لم تصفر الشمس)[3]، أي: ما لم تكن صفراء، وتحديده بالساعة يختلف باختلاف الفصول.

وقت اضطرار: وهو من اصفرار الشمس إلى غروب الشمس؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر)[4].

والزوال: هو ميل الشمس عن كبد السماء بعد انتصاف النهار، وعلامته: زيادة الظل بعد تناهي نقصانه، وذلك أن ظل الشخص يكون في أول النهار طويلًا ممتدًا، فكلما ارتفعت الشمس نقص، فإذا انتصف النهار وقف الظل، فإذا زالت الشمس عاد الظل إلى الزيادة، فإذا أردت أن تعلم هل زالت، فانصب عصًا أو غيرها في الشمس على أرض مستوية، وعلّم على طرف ظلها، ثم راقبه، فإن نقص الظل علمت أن الشمس لم تزل، ولا تزال تراقبه حتى يزيد، فمتى زاد علمت الزوال حينئذٍ.

ويختلف قدر ما يزول عليه الشمس من الظل باختلاف الأزمان والبلاد، فأقصر ما يكون الظل عند الزوال في الصيف عند تناهي طول النهار، وأطول ما يكون في الشتاء عند تناهي قصر النهار[5].

وقد أشار الله تعالى لأوقات الصلوات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب أوقات الصلوات الخمس، رقم ٦١٢.
(٢) التفسير القيم، ٢/ ٦٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب أوقات الصلوات الخمس، رقم ٦١٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك من الفجر ركعة، رقم ٥٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد باب من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك تلك الصلاة، رقم ٦٠٨.
(٥) انظر: المجموع ٣/ ٢٤.

في مواضع من القرآن، منها قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

فأشار بقوله: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ وهو زوالها عن كبد السماء على التحقيق إلى صلاة الظهر والعصر، وأشار بقوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ -وهو ظلامه- إلى صلاة المغرب والعشاء، وأشار بقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ إلى صلاة الصبح، وعبّر عنها بالقرآن بمعنى القراءة؛ لأنها ركن فيها من التعبير عن الشيء باسم بعضه.

وهذا البيان أوضحته السنة إيضاحًا كليًّا، ومن الآيات التي أشير فيها إلى أوقات الصلاة -كما قاله جماعة من العلماء- قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨].

قالوا: المراد بالتسبيح في هذه الآية الصلاة، وأشار بقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى صلاة المغرب والعشاء، وبقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى صلاة الصبح، وبقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ إلى صلاة العصر بقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إلى صلاة الظهر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤].

وأقرب الأقوال في الآية: أنه أشار بطرفي النهار إلى صلاة الصبح أوله، وصلاة الظهر والعصر آخره، أي: في النصف الأخير منه، وأشار بزلفٍ من الليل إلى صلاة المغرب والعشاء[(١)].

وكان الصحابة أيضًا يدللون على استعجالهم في صلاة الجمعة بالظل؛ فقد جاء في صحيح البخاري عن إياس بن سلمة بن الأكوع، قال: حدّثني أبي وكان من أصحاب الشجرة، قال: (كنا نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم الجمعة، ثم ننصرف وليس للحيطان ظل نستظل فيه)[(٢)].

فقوله: (وليس للحيطان ظل) أي: يصلح لأن يستظل فيه، وهو دليل التعجيل بصلاة الجمعة أول الوقت.

وقيل: يحتمل أن تكون الحيطان في ذلك الوقت ليس لها علو ولا رف تقتضي الظل في أول الزوال، أو يكون خبر ابن سلمة عن حيطان معتدلة إلى الجنوب من دور المدينة وغيرها[(٣)].

والمقصود: أننا نجد أن بعض العبادات ارتبطت بحركة الظل، في تحديد دخولها وخروجها، وهذا من الحكم والمنافع للظل

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ١١٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب صلاة الجمعة حين تزول الشمس، رقم ٨٦٠.
(٣) المنتقى شرح الموطأ، الباجي ١/ ١٣.

والظلال.

ثانيًا: الظل وتشبيه الدنيا به:

الدنيا سريعة الفناء، قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيرًا عنيفًا، ومرتحلة ارتحالًا سريعًا، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضائها؛ ولهذا مثّلت بالظل؛ فإنه متحرك ساكن، متحرك في الحقيقة، ساكن الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل البصيرة الباطنة، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد:

أحلام نوم أو كظل زائل
إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما يتمثل كثيرًا بقوله:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها
إن اغترارًا بظل زائل حمق

ويقال: إن أعرابيًّا نزل بقوم فقدّموا إليه طعامًا فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة لهم، فنام هناك، فاقتلعوا الخيمة، فأصابته الشمس فانتبه، فقام وهو يقول:

ألا إنما الدنيا كظل ثنية
ولابد يومًا أن ظلك زائل

وقال آخر[1]:

وإن امرأ قد عاش سبعين حجة
ولم يتزود للمعاد لجاهل
ودنياك ظل، فاترك الحرص بعدما
علمت؛ فإن الظل لابد زائل

وقال آخر:

وما دنياك إلا مثل فيءٍ
أظلك ثم آذن بالزوال

وقال آخر:

إنما الدنيا كظلٍّ زائلٍ
أو كضيفٍ بات ليلًا فارتحل

وقيل: مثل الدنيا مثل الظل، إن طلبته تباعد، وإن تركته تتابع.

وفي الحديث: (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب قال في ظل شجرة في يوم حار، ثم راح وتركها)[2][3].

ثالثًا: إتيان الله في ظلل من الغمام والملائكة:

أخبر الله تعالى أنه يأتي يوم القيامة في ظلل من الغمام والملائكة، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ١/ ٣٠٨.

(٢) أخرجه أحمد، رقم ٣٧٠٩، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب منه، رقم ٢٣٧٧، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم ٤١٠٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٤٣٩ و ٤٤٠.

(٣) بصائر ذوى التمييز، الفيروزآبادي ١/ ١٠٧٠.

﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، والمعنى: ما ينتظر هؤلاء المعاندون الكافرون بعد قيام الأدلة البينة إلا أن يأتيهم الله عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه في ظلل من السحاب يوم القيامة؛ ليفصل بينهم بالقضاء العادل، وأن تأتي الملائكة، وحينئذٍ يقضي الله تعالى فيهم قضاءه، وإليه وحده ترجع أمور الخلائق جميعها.

والاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ بمعنى النفي، و﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى: ينتظرون، أي: ما ينتظر هؤلاء المكذّبون الذين زلوا بعد ما جاءتهم البينات؟! سائقًا له في أسلوب الإنكار، وصيغة الغيبة مجردة عن الافتعال؛ تنبيهًا على أنهم في غاية البعد عن مواطن الرأفة والاستحقاق بمظهر الكبر والنقمة بإعراض الله عن خطابهم، وإقباله من عذابهم على ما لم يكن في حسابهم.

و﴿يَنظُرُونَ﴾ إن عدّيت بـ (إلى) فهي للنظر بالعين؛ وإن لم تعدّ فهي بمعنى الانتظار.

وإتيان الله في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ من الصفات الاختيارية التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، فتثبت على وجه يليق بجلال الله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف[1].

فوصف الله تعالى هنا بالإتيان في ظلل من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات أخر، ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه، أو صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقول في جميع ذلك من جنس واحد، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها: فهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، والقول في صفاته كالقول في ذاته، والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه ؟ أو كيف يأتي؟ فليقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال: لا أعلم كيفية ذاته! فليقل له: وكذلك لا تعلم كيفية صفاته!

فإن العلم بكيفية الصفة ينبع من العلم بكيفية الموصوف، وقد أطلق غير واحدٍ ممن حكى إجماع السلف منهم الخطابي: مذهب السلف أن صفاته تعالى تجري على ظاهرها، مع نفي الكيفية والتشبيه عنها[2].

يقول شيخ الإسلام: «وكذلك ما ورد من نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام، ومن نزوله إلى الأرض لما خلقها، ومن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص٩٤.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٢٠.

نزوله لتكليم موسى عليه السلام وغير ذلك، كله من باب واحد، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨][1].

فمثل هذا من صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه يمرّ كما جاء ويؤمن بها، ويعتقد أنه حق، وأنه لا يشبه شيئًا من صفات المخلوقين، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا[2].

فيكون معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

أي: يأتيهم الله نفسه، هذا ظاهر الآية، ويجب المصير إليه؛ لأن كل فعل أضافه الله إليه فهو له نفسه، ولا يعدل عن هذا الظاهر إلا بدليل من عند الله.

ولأهل البدع في هذه الآية وجوهًا وتأويلات كلها باطلة، وهي خلاف منهج السلف في تفسير هذه الآية، أعرضنا عن ذكرها.

والمعنى الحق لها: هو إثبات إتيان الله عز وجل في ظلل من الغمام يوم القيامة للفصل بين عباده، وهو إتيان حقيقي يليق بجلاله، لا تعلم كيفيته، ولا يسأل عنها، كسائر صفاته، وما ذهب إليه أهل التعطيل من أن المراد بإتيان الله: إتيان أمره، فتحريف للكلم عن مواضعه، وصرف للكلام عن ظاهره بلا دليل، إلا ما زعموه دليلًا عقليًّا، وهو في الحقيقة وهمي، وليس عقليًّا؛ فنحن نقول: الذي نسب فعل الإتيان إليه هو الله عز وجل، وهو أعلم بنفسه، وهو يريد أن يبيّن لعباده، كما قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦].

وإذا كان يريد أن يبيّن، وهو أعلم بنفسه، وليس في كلامه عيٌّ، وعجز عن التعبير بما أراد، وليس في كلامه نقص في البلاغة، إذًا فكلامه في غاية ما يكون من العلم، وغاية ما يكون من إرادة الهدى، وغاية ما يكون من الفصاحة والبلاغة، وغاية ما يكون من الصدق، فهل بعد ذلك يمكن أن نقول: إنه لا يراد به ظاهره؟! كلا، لا يمكن هذا إلا إذا قال الله هو عن نفسه أنه لم يرد ظاهره. إذًا المراد إتيان الله نفسه، ولا يعارض ذلك أن الله قد يضيف الإتيان إلى أمره، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

ومثل قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣]؛ لأننا نقول: إن هذا من أمور الغيب، والصفات توقيفية، فنتوقف فيها

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٤/ ١٧٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشوكاني ٧/ ١٥٢.

على ما ورد، فالإتيان الذي أضافه الله إلى نفسه يكون المراد به إتيانه بنفسه، والإتيان الذي أضافه الله إلى أمره، يكون المراد به إتيان أمره؛ لأنه ليس لنا أن نقول على الله ما لا نعلم، بل علينا أن نتوقف فيما ورد على حسب ما ورد.

ومن احتج بنفي الظل عن الله تعالى بحجة أن إثبات الظل يلزم منه علو الشمس على الله تعالى، فقد أخطأ من جهتين:

الأولى: خطؤه على لغة العرب، وحصره الظل فقط بأثر الشمس للشاخص القائم، والظل في لغة العرب والقرآن يأتي لمعانٍ منها ما ذكرناه: وهو كل ما يكون فوقنا ويسترنا.

والثاني: توهّمه أن إثبات الظل لله تعالى يلزم منه تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو في الحقيقة غير لازم.

فإثبات الظل بهذا المعني -أي: بمعنى أنه يكون فوقنا- لا يخالف فيه أحد من أهل السنة والجماعة، فمن لوازم إثبات علو الله على خلقه إثبات فوقية الله تعالى، وهذا يكون عامًا لجميع الخلق، فالله تعالى فوق خلقه بذاته مستوٍ على عرشه، فهو بهذا المعنى يظلّهم ولا شك.

فالله تعالى بهذا المعنى العام يظلّ العرش وغيره، فهوتعالى مستوٍ على العرش، بائن من خلقه، لا يخرج عن ظله شيء، فالشمس تحت الله ولا شك، ومن قال بأنها فوق الله تعالى فهو كافر.

والظّلل في قوله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]: جمع (ظلّة)، كظلم جمع ظلمة، والغمام: اسم جنس جمعي لغمامة، وهي السحاب الرقيق، وسمي بذلك لأنه يغم، أي: يستر.

فالظلة: هي ما يستر من الشمس أو غيره، فهي في غاية الإظلام والهول والمهابة؛ لما لها من الكثافة التي تغم على الرائي ما فيها، وتدمّر ما أتت عليه إلى غير ذلك من أنواع المجد الذي لا يقدره حق قدره إلا الله.

و(الغمام) قالوا: إنه السحاب الأبيض الرقيق، لكن ليس كسحاب الدنيا، فالاسم هو الاسم، ولكن الحقيقة غير الحقيقة؛ لأن المسميات في الآخرة، وإن شاركت المسميات في الدنيا في الاسم، إلا أنها تختلف، مثلما تختلف الدنيا عن الآخرة.

وفي تنكير (ظلل) إثبات عظمة الله عز وجل؛ لأنها تدل على أنها ظلل عظيمة وكثيرة؛ ولهذا جاء في سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

يعني: تثور ثورانًا بهذا الغمام العظيم من كل جانب، كل هذا مقدمة لمجيء الجبار سبحانه وتعالى، وهذا يفيد عظمة الباري سبحانه وتعالى .

وفي قوله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾

[البقرة: ٢١٠].

إشكال؛ لاقتضائه الظرفية، وهي مستحيلة على الله تعالى.

لكن قد أجاب على هذا الإشكال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله، حيث قال: «قوله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

(في) معناها (مع)، يعني: يأتي مصاحبًا لهذه الظلل، وإنما أخرجناها عن الأصل الذي هو الظرفية؛ لأنا لو أخذناها على أنها للظرفية صارت هذه الظلل محيطة بالله عز وجل، والله أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، ونظير ذلك أن نقول: جاء فلان في الجماعة الفلانية، أي: معهم، وإن كان هذا التنظير ليس من كل وجه؛ لأن فلانًا يمكن أن تحيط به الجماعة؛ ولكن الله لا يمكن أن يحيط به الظلل، وهذا الغمام يأتي مقدمة بين يدي مجيء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

فالسماء تشقق لا تنشق، كأنها تنبعث من كل جانب.

وقيل: إن (في) بمعنى الباء، أي: يأتيهم بظلل من الغمام، وهي ظلل تحمل العذاب من الصواعق، أو الريح العاصفة، أو نحو ذلك، فتكون كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢].

وهذا قول باطل؛ لمخالفته ظاهر الآية.

فيكون في قوله: ﴿مِّنَ الْغَمَامِ﴾ وجهان:

الأول: أنه متعلقٌ بمحذوف؛ لأنه صفةٌ لـ(ظلل) التقدير: ظللٍ كائنةٍ من الغمام، و(من) على هذا للتبعيض.

والثاني: أنها متعلقةٌ بـ(يأتيهم)، وهي على هذا لابتداء الغاية، أي: من ناحية الغمام[(١)].

وتجلي الملائكة في ظلل من الغمام أمر مألوف، منه ما في الصحيح عن البراء رضي الله عنه قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين، فتغشّته سحابة فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال: (تلك السكينة تنزلت بالقرآن)[(٢)].

وعن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده؛ إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبًا منها، فأشفق أن تصيبه،

(١) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ١/ ٧٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف، رقم ٤٧٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، رقم ١٨٩٢.

فلما اجترّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدّث النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير)، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: (وتدري ما ذاك؟) قال: لا، قال: (تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم)[(١)(٢)].

وإسناد الإتيان إلى الملائكة؛ لأنهم الذين يأتون بأمر الله أو عذابه، وهم الموكل إليهم تنفيذ قضائه، فإسناد الإتيان إليهم حقيقة[(٣)].

ومتى يكون مجيء الملائكة؟ الظاهر أنه يوم القيامة، أو عند الموت[(٤)].

رابعًا: التظليل على بني إسرائيل في الصحراء:

لما ذكر الله تعالى ما دفعه عن بني إسرائيل من النّقم، شرع يذكّرهم أيضًا بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وورد ذلك في موضعين:

الأول: في سورة البقرة، حيث قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

والثاني: في سورة الأعراف حيث قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وهذا التظليل من النعم على بني إسرائيل، والمعنى: جعلنا الغمام ظلة عليكم من حرّ الشمس.

وهذا هو الإنعام السابع الذي ذكره الله تعالى، وقد ذكر الله تعالى هذه الآية بهذه الألفاظ في سورة الأعراف، وظاهر هذه الآية يدل على أن هذا الإظلال كان بعد أن بعثهم[(٥)].

قال السعدي: «هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل...، ثم ذكر نعمته عليكم في التيه والبرية الخالية من الظلال، وسعة الأرزاق، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ [البقرة: ٥٧].

وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، رقم ٤٧٣٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٤٥.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٥٧٧.
(٤) انظر: زاد المسير ١/ ٢٢٦.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ١١٧.

وغير ذلك»[1].

وذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم...، فعوقبوا في ذلك الفحص أربعين سنة يتيهون في خمسة فراسخ أو ستة، روي أنهم كانوا يمشون النهار كله، وينزلون للمبيت، فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس[2].

وجاء في تفسير ابن كثير: «أنه لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما ها هنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ فكان يسقط على الشجر الزنجبيل، والسلوى، وهو طائر يشبه السماني أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سمينًا ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب، فأين الظل؟ فظلّل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا ينخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]»[3].

والظاهر أن الخطاب في قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ لجميعهم...، وقيل: الذين ظللوا بالغمام بعض بني إسرائيل، وكان الله تعالى قد أجرى العادة فيهم أن من عبد الله ثلاثين سنة، لا يحدث فيها ذنبًا أظلته الغمامة، وكان فيهم جماعة يسمون أصحاب غمائم؛ فامتن الله تعالى لكونهم فيهم من له هذه الكرامة الظاهرة، والنعمة الباهرة[4]. والأول أصوب.

وإنما خاطب الموجودين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧].

وأراد به آباءهم، وهم قوم موسى عليه السلام، ولكن لما كان ذلك منّةً على الآباء الذين هم أصلٌ، صار كأنه واقع على الأبناء[5].

ومعنى قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ أي: جعلناه ظلًّا عليكم، وكان ذلك في التيه حين تاهوا...، وما كان عندهم ماء ولا مأوى؛ ولكن الله تعالى رحمهم، فظلّل عليهم الغمام.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٠٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٧٢.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١/ ٣٢٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٩١.

فيكون ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ مفعول على إسقاط حرف الجر، أي: بالغمام، كما تقول: ظللت على فلان بالرداء، أو مفعول به لا على إسقاط الحرف، ويكون المعنى: جعلناه عليكم ظللًا، فعلى هذا الوجه الثاني يكون فعل فيه، بجعل الشيء بمعنى ما صيغ منه، كقولهم: عدّلت زيدًا، أي جعلته عدلًا، فكذلك هذا معناه: جعلنا الغمام عليكم ظلة، وعلى الوجه الأول تكون (فعل) فيه بمعنى (أفعل)، فيكون التضعيف أصله للتعدية، ثم ضمن معنى فعلٍ يعدّى بـ (على)، فكان الأصل: وظللناكم، أي أظللناكم بالغمام...، ثم ضمن (ظلل) معنى كلل أو شبهه، مما يمكن تعديته بـ (على)، فعداه بـ (على)[1].

يقول في التبيان: «أي: جعلناه ظلًا، وليس كقولك: ظللت زيدًا بظل؛ لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الغمام مستورًا بظل آخر»[2].

و﴿الْغَمَامَ﴾: هو ما غمّ السماء فغطّاها من سحاب وقتام، وكلّ مغطٍّ فهو غمام، ومنه: غمّ الهلال، أي: غطاه الغيم، فهو اسم جنس جمعي للغمامة، واسم الجنس الجمعي هو الذي يفرق بينه وبين مفرده بالتاء المربوطة، أو ياء النسب، مثل: روم ورومي، فتكاثف الغمام في الصحراء حتى صار كمظلة تظلهم أينما ساروا، فلا يحسون بوهج الحر يلفح وجوههم.

قال ابن عثيمين في تفسيره: «الغمام: هو السحاب الرقيق الأبيض.

وقيل: السحاب مطلقًا.

وقيل: السحاب البارد الذي يكون به الجو باردًا، ويتولد منه رطوبة، فيبرد الجو، وهذا هو الظاهر»[3].

خامسًا: رفع الجبل فوق بني إسرائيل كأنه ظلة:

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه رفع فوق بني إسرائيل الجبل كأنه ظلة، فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

ونظيره: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣ -٩٣].

ونظيره أيضًا: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام، رفع الله على رءوسهم جبلًا ثم ألزموا، فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رءوسهم خشية أن يسقط عليهم[4].

(١) إعراب القرآن، ابن سيده ١/ ١٦٤.
(٢) التبيان في إعراب القرآن، العكبري ١/ ٦٥.
(٣) تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين ٣/ ١٣٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٤٦.

والمعنى: واذكر -أيها الرسول- إذ رفعنا الجبل فوق بني إسرائيل كأنه سحابة تظلّهم، وأيقنوا أنه واقع بهم إن لم يقبلوا أحكام التوراة.

و﴿نَتَقْنَا﴾: النتق: الفصل والقلع، والجبل: الطور، والناتق الرافع، والناتق الباسط، والناتق الفاتق، وامرأة ناتق ومنتاق: كثيرة الولد، وأخذ ذلك من نتق السقاء، وهو نفضه حتى تقتلع الزبدة منه، ونتقنا الجبل: قلعه من أصله[1].

ويأتي النتق بمعنى: الرفع، فيكون معنى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ أي: رفعناه، وهو كقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

وعن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم[2].

والتشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي: كهيئة الغمام، وجملة: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ حال من ﴿الْجَبَلَ﴾ في محل نصب[3].

وهذه آية أظهرها الله لهم تخويفًا لهم؛ لتكون مذكرة لهم، فيعقب ذلك أخذ العهد عليهم بعزيمة العمل بالتوراة، فكان رفع الطور معجزة لموسى عليه السلام؛ تصديقًا له فيما سيبلّغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة[4].

وقد ذكر الله في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام...، منها هذه، وهي: إظلال الجبل ﴿فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١][5].

وقد قيل: إنما رفع الله تعالى الجبل فوقهم؛ إظلالًا لهم من الشمس؛ جزاءً لعهدهم، وكرامة لهم، ولا يخفى أن هذا خرق لإجماع المفسرين، وليس له مستند أصلًا[6].

وفي هذه الآية من الفوائد: عتوّ بني إسرائيل، حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم، فحينئذٍ آمنوا، وهذا الإيمان في الحقيقة يشبه إيمان المكره الذي قيل له: إما أن تؤمن أو تقتل.

وبيان قوة الله عز وجل وقدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١].

فلا أحد من الخلق يستطيع أن يحمل ذلك الجبل، ويجعله ظلة لا يسقط عليهم إلا الله عز وجل؛ فالأحجار العظيمة الثقيلة الكبيرة أمسكها الله تعالى بقدرته.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٣٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٩٩.
(٣) مشكل إعراب القرآن، الخراط ١/ ١٧٣.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ١٦٦٩.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٤٣.
(٦) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٩٦.

سادسًا: انتقام الله من قوم شعيب بعذاب يوم الظلة:

بيّن الله تعالى أنه لما ظلم قوم شعيب عليه السلام، وكذّبوا رسولهم، وطفّفوا الكيل، وبخسوا الناس أشياءهم، انتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة، وبيّن أن عذاب يوم الظلة عذابٌ عظيم، والظلة: سحابة أظلتهم فأضرمها الله عليهم نارًا، فأحرقتهم.

فقال تعالى في قوم شعيب عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

فإن قيل: الهلاك الذي أصاب قوم شعيب عليه السلام ذكر الله تعالى في (الأعراف) أنه رجفة، وذكر في (هود) أنه صيحة، وذكر في (الشعراء) أنه عذاب يوم الظلة.

فالجواب: ما قاله ابن كثير رحمه الله في تفسيره، حيث قال: «وقد اجتمع عليهم ذلك كله، أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام منه»[(١)].

وقد وصف المفسرون عذاب يوم الظلة بأوصاف مختلفة، فيقول ابن عجيبة: «وذلك بأن سلّط عليهم الحر سبعة أيام بلياليها، فأخذ بأنفاسهم، فلم ينفعهم ظل ولا ماء ولا شرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة، وجدوا فيها بردًا ونسيمًا، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا جميعًا، وقيل: رفع لهم جبل، فاجتمعوا تحته، فوقع عليهم، وهو الظلة، وقيل: لما ساروا إلى السحابة صيح بهم فهلكوا.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: في الشدة والهول، وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة»[(٢)].

وقال السعدي: «أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين؛ لظلها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا كرّة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا العمل، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون»[(٣)].

إلا أننا نجد أن الله تعالى لم يذكر كيفية عذاب يوم الظلة، حتى إن ابن عباس قال: من حدّثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب، وذكر في حديثها تطويلات[(٤)].

وفي إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها إيذان بأن لهم يومئذٍ عذابًا آخر غير

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٩.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٤٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٥٩٧.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤٢٨.

عذاب الظلة[1].

سابعًا: تشبيه موج البحر بالظلل:

شبّه الله تعالى موج البحر الذي يغشي المشركين بـ(الظلل)، فأخبر تعالى من حال المشركين أنهم إذا ركبوا السفن وعلتهم الأمواج من حولهم كالسحب والجبال، أصابهم الخوف والذعر من الغرق، ففزعوا إلى الله، وأخلصوا دعاءهم له، فلما نجاهم إلى البر فمنهم متوسط، لم يقم بشكر الله على وجه الكمال، ومنهم كافر بنعمة الله جاحد لها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: إذا غشي المشركين موج، وهم على ظهر السفينة، فخافوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: دعوا الله وحده، ولم يذكروا آلهتهم.

والغشي والغشيان: الإحاطة من كل جانب، مأخوذ من الغشاء، بمعنى: الغطاء، فيقال: غشا الظلام المكان، إذا حل به[2].

وأصل الموج: الحركة والازدحام، ومنه قولهم: ماج البحر: إذا اضطرب وارتفع ماؤه[3].

وشبّه الموج وهو واحد بالظلل وهي جمع؛ لأن الموج يأتي شيء منه بعد شيء، ويركب بعضه بعضًا كهيئة الظلل[4].

قال الشوكاني: «شبّه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل أو سحاب أو غيرهما، وإنما شبّه الموج وهو واحد بالظلل وهي جمع؛ لأن الموت يأتي شيئًا بعد شيء، ويركب بعضه بعضًا، وقيل: إن الموج في معنى الجمع؛ لأنه مصدر، وأصل الموج الحركة والازدحام، ومنه يقال: ماج البحر، وماج الناس»[5].

وقوله: ﴿كَالظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال، وقيل: كالسحاب، والظّلل: جمع ظلة، كغرفة وغرف، وهي ما أظل غيره من سحاب أو جبل أو غيرهما، وشبّه الموج بها في كثرتها وارتفاعها، كقول النابغة في صفة بحر[6]:

يماشيهن أخضر ذو ظلال
على حافاته فلق الدنان

وفي تشبيه الموج بالظل وجهان:

أحدهما: لسواده.

الثاني: لعظمه[7].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى أنه هو الذي سخّر البحر لتجري فيه

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٦٣.
(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٣٣٧٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٥٦.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٤٨.
(٦) الكشف والبيان، الثعلبي ١١/ ٥٣.
(٧) النكت والعيون ٣/ ٣٤٢.

الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت؛ ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: من قدرته، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء، شكور في الرخاء.

ثم قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال والغمام، ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧].

وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]»[1].

ثامنًا: الظل الظليل في الجنة:

وصف الله تعالى ظل الجنة بأنه ظليل، فقال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

ووصفه في آية أخرى بأنه دائم، فقال: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

ووصفه في آية أخرى بأنه ممدود، فقال: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وبيّن في موضع آخر أنها ظلال متعددة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

وذكر في موضع أنهم في تلك الظلال متكئون مع أزواجهم على الأرائك، فقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦].

فإن قلت: إذا لم يكن في الجنة شمس تؤذي بحرها، فما فائدة وصفها بالظل الظليل؟ وأيضًا يرى في الدنيا أن المواضع التي يدوم الظل فيها، ولا يصل نور الشمس إليها يكون هواؤها عفنًا فاسدًا، فما معنى وصف هواء الجنة بذلك؟

والجواب نقول: إن الواجب على المؤمن التصديق بوجود ظل في الجنة -كما أثبتت الآيات السابقة-، ولو لم يكن ثمة شمس ولا حر؛ لأن عالم الآخرة -ومنه الجنة- عالم غيبي، لا يعرف حقيقة ما فيه، ولا يتشابه مع ما في الدنيا إلا بالأسماء فقط، وقد ورد أن: (في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، واقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠])[2]. في هذا الحديث رد على من يقول: إن الأشجار في الجنة لا ظل لها.

وقد سئل السبكي عن الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولًا إذا تراءت له شجرة يقول: (يا رب أدنني من هذه لأستظل في

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٥١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٠٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها، رقم ٢٨٢٦.

ظلها...) الحديث[1]، فمن أي شيء يستظل والشمس قد كوّرت؟

فأجاب بقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وبقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]؛ إذ لا يلزم من تكوير الشمس عدم الظل؛ لأنه مخلوق لله تعالى، وليس بعدم، بل أمر وجودي له نفع بإذن الله تعالى في الأبدان وغيرها، فليس الظل عدم الشمس كما قد يتوهم[2].

أخبر الله عن ظل الجنة بأنه ظليل، فقال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

أي: وندخلهم ظلًا كثيفًا ممتدًا في الجنة، فوصف في هذه الآية الكريمة ظل الجنة بأنه ظليل، والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل؛ للتأكيد[3].

دوام ظل الجنة:

قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] أي: ما يؤكل فيها دائم لا يفنى، وظلها دائم لا ينسخ، و﴿وَظِلُّهَا﴾ مبتدأ محذوف الخبر، وحذف منه الخبر بدليل الخبر السابق ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾، وفيه من البلاغة الإيجاز بالحذف.

يقول الطبري: «يعني: ما يؤكل فيها، يقول: هو دائم لأهلها، لا ينقطع عنهم، ولا يزول ولا يبيد، ولكنه ثابتٌ إلى غير نهاية، وظلها أيضًا دائم؛ لأنه لا شمس فيها»[4].

ومشهد الظل الدائم، والثمر الدائم، مشهد تطمئن له النفس وتستريح.

الظل الممدود في الجنة:

قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

أي: لا نهاية له؛ لأن الجنة ليس فيها شمس، بل هي ظل، وصفها بعض السلف بأنها كالنور الذي يكون قرب طلوع الشمس، تجد الأرض مملوءة نورًا، ولكن لا تشاهد شمسًا، فهو ظل ممدود في المساحة والزمن.

قال الطبري: «وهم في ظل دائم لا تنسخه الشمس فتذهبه...، وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثار، وقال به أهل العلم»[5].

فيكون معنى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: لا نهاية له؛ لأن الجنة ليس فيها شمس، بل هي ظل، وكل ما لا انقطاع له فإنه ممدود، فالعرب تقول للدهر الطويل والعمر الطويل، وللشيء الذي لا ينقطع: ممدود[6]، كما قال لبيد[7]:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم ٤٨١.
(٢) السراج المنير، الشربيني ١/ ٤٤٦٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٩٦٩.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٧٢.
(٥) جامع البيان، ٢٣/ ١١٤.
(٦) الكشف والبيان، الثعلبي ١٣/ ١٠١.
(٧) البيت للبيد نسبه إليه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٥٠.

غلب البقاء وكنت غير مغلّب
دهرٌ طويلٌ دائم ممدود

وقيل الظل الممدود: المستوعب للزمان والمكان، فهو دائم الاستمداد، كما بين الإسفار وطلوع الشمس، لا فناء له، ولا نهاية[(١)].

وظاهر الآثار يقتضي أنه ظل الأشجار؛ فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠])[(٢)][(٣)].

ظلال المتقين في الجنة:

أخبر سبحانه أن المتقين في الجنة في ظلال، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

والمراد بالظلال: ظلال الأشجار، وظلال القصور[(٤)].

قال السعدي: «﴿فِي ظِلَالٍ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية»[(٥)].

وفي قوله: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ هذه قراءة العامة، وقرأ الأعمش والزهري وطلحة والأعرج: ﴿ظُلَلٍ﴾ جمع ظلّة، يعني في الجنة[(٦)].

الظلل التي تظل المؤمنين وأزواجهم في الجنة:

أخبر سبحانه أن المؤمنين وأزواجهم متنعمون بالجلوس على الأسرّة المزيّنة، تحت الظلال الوارفة، فقال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦].

قال الطبري: «واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأه بعضهم: ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ بمعنى: جمع ظلّة، كما تجمع الحلة حللًا، وقرأه آخرون: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾، وإذا قريء ذلك كذلك كان له وجهان:

أحدهما: أن يكون مرادًا به: جمع الظّلل الذي هو بمعنى الكنّ، فيكون معنى الكلمة حينئذٍ: هم وأزواجهم في كنّ لا يضحون لشمس كما يضحى لها أهل الدنيا؛ لأنه لا شمس فيها.

والآخر: أن يكون مرادًا به جمع ظلّة، فيكون وجه جمعها كذلك نظير جمعهم الخلة في الكثرة: الخلال، والقلّة: قلال»[(٧)].

وعلى القراءتين فالمراد: الفرش والستور

(١) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٣٢٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٠٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها، رقم ٢٨٢٦.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٢٠/ ٢٢٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٦٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص٩٠٥.
(٦) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٧٧.
(٧) جامع البيان، ٢٠/ ٥٣٨.

التي تظللهم كالخيام والحجال[1].

وفي قوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ وجهان:

أحدهما: وأزواجهم في الدنيا من وافقهم على إيمانهم.

الثاني: أزواجهم اللاتي زوّجهم الله تعالى بهن في الجنة من الحور العين.

والمراد: أزواجهم المؤمنات، فأطلق حملًا على المقيد، في قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

وذكر الأزواج إبلاغ في الوعيد والإنذار؛ لئلا يحسبوا أن النساء المشركات لا تبعة عليهن[2].

وقوله: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: في ظلال النعيم.

الثاني: في ظلال تسترهم من نظر العيون إليهم[3].

وفسّر الظلال -جمع ظلة- بالملابس ونحوها من الأشياء التي تظل كالستور[4].

دنو الظلال في الجنة:

قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ [الإنسان: ١٤].

والضمير في ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ عائد إلى ﴿جَنَّةً﴾[5] أي: قريبة إليهم أغصانها[6]، وقربت منهم ظلال أشجارها[7].

وإذا دنت الظلال، ودنت القطوف، فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال[8].

فدنو الظلال: قربها منه، وإذ لم يعهد وصف الظل بالقرب يظهر أن دنو الظلال كناية عن تدلي الأدواح التي من شأنها أن تظلل الجنات في معتاد الدنيا، ولكن الجنة لا شمس فيها فيستظل من حرها، فتعين أن تركيب: (دانية عليهم ظلالها) مثل يطلق على تدلي أفنان الجنة؛ لأن الظل المظلل للشخص لا يتفاوت بدنو ولا بعد، وقد يكون (ظلالها) مجازًا مرسلًا عن الأفنان بعلاقة اللزوم، والمعنى: أن أدواح الجنة قريبة من مجالسهم، وذلك مما يزيدها بهجة وحسنًا[9].

قال صاحب روح البيان: «فتكون (دانية) من الدنو بمعنى القرب، إما بحسب الجانب، أو بحسب السمك، والضمير إلى الجنة، أو أشجارها، ومعناه: إن ظلال الأشجار في الجنة قربت من الأبرار من جوانبهم، حتى صارت الأشجار بمنزلة المظلة عليهم، وإن

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٣٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٥٥٨.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٤٩.
(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٣/ ٣٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٥٨.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩١.
(٧) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٠٣.
(٨) في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ٤١٧.
(٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٥٨.

كان لا شمس فيها مؤذية لتظلهم منها، ففيه بيان لزيادة نعيمهم، وكمال راحتهم، فإن الظل في الدنيا للراحة»[1].

تاسعًا: الظل من يحموم، والظل الذي لا يغني من اللهب:

وصف الله تعالى ظل أهل النار بقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣].

وهو دخان جهنم الأسود، الذي لا يقي حرًا، ولا يدفع عطشًا، ولا يجد المستظل به مما يشتهيه لراحته سوى شرر النار الهائل.

وتنوعت عبارات المفسرين في هذا الظل الذي هو من يحموم، فقال ابن كثير: «﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ قال ابن عباس: ظل الدخان، وكذا قال مجاهد وعكرمة وأبو صالح وقتادة والسدي وغيرهم»[2].

وقال السعدي: «﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: لهب نار، يختلط بدخان»[3].

قال في روح البيان: «ووصف اليحموم بأنه: دخان أسود بهيم، فإن اليحموم الدخان والأسود من كل شيء، كما في القاموس، تقول العرب: أسود يحموم، إذا كان شديد السود، قال الضحاك: النار سوداء، وأهلها سود، وكل شيء فيها أسود؛ ولذا لا يكون في الجنة الأسود إلا الخال، وأشفار العين، والحاجب»[4].

وقد وصفه الله بأنه: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ يعني: ليس باردًا يقيهم الحر، ولا كريم حسن المنظر يتنعمون به ويستريحون فيه، فهو لا بارد كما هو الشأن في الظل، ولا كريم، أي: حسن المظهر؛ لأنه دخان كريه منظره، حار مخبره، نسأل الله العافية.

«وفي الأمور الثلاثة إشارة إلى كونهم في العذاب دائمًا؛ لأنهم إن تعرّضوا لمهب الهواء أصابهم السّموم، وإن استكنّوا كما يفعله الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان في الكنّ يكون في ظل من يحموم، وإن أراد التبرّد بالماء من حرّ السموم يكون الماء من حميم، فلا انفكاك له من العذاب».

أو يقال: إن السموم يعذّبه فيعطش، وتلتهب نار السموم في أحشائه، فيشرب الماء، فيقطع أمعاءه، فيريد الاستظلال بظل، فيكون ذلك الظل ظل اليحموم، وذكر السموم دون الحميم ودون النار تنبيهًا بالأدنى على الأعلى، كأنه قيل: أبرد الأشياء في الدنيا حار عندهم، فكيف أحرها؟!»[5].

وكذا قال ابن كثير في قوله: «﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾: أي: ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر، كما قال الحسن وقتادة: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ١٠/ ٢٠٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٣٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٣٤.
(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ٩/ ٢٦٧.
(٥) اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٩٠.

أي: ولا كريم المنظر، وقال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم»[1].

وقال السعدي: «﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: لا برد فيه ولا كرم، والمقصود: أن هناك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لضده»[2].

وتأمل كيف سماه ظِلًّا ثم نفى عنه وصفة البرد والكرم! يعني: لا بارد المنزل، ولا كريم المنظر؛ وذلك لأن فائدة الظل ترجع إلى أمرين:

أحدهما: دفع الحر.

والثاني: حسن المنظر، وكون الإنسان فيه مكرمًا.

وظل أهل النار بخلاف هذا؛ لأنهم في ظل من دخان أسود حار[3]، فتسميته ظلاً هنا على التشبيه التهكمي.

قال ابن عاشور: «ولتحقيق معنى التهكم وصف هذا الظل بما يفيد نفي البرد عنه، ونفي الكرم فبرد الظل ما يحصل في مكانه من دفع حرارة الشمس، وكرم الظل ما فيه من الصفات الحسنة في الظلال، مثل سلامته من هبوب السموم عليه، وسلامة الموضع الذي يظله من الحشرات والأوساخ، وسلامة أرضه من الحجارة ونحو ذلك؛ إذ الكريم من كل نوع هو الجامع لأكثر محاسن نوعه...، فوصف ظل اليحموم بوصف خاص، وهو انتفاء البرودة عنه، وأُتبِعَ بوصف عام وهو انتفاء كرامة الظلال عنه، ففي الصفة بنفي محاسن الظلال تذكير للسامعين بما حرم منه أصحاب الشمال، عسى أن يحذروا أسباب الوقوع في الحرمان، ولإفادة هذا التذكير عدل عن وصف الظل بالحرارة والمضرة إلى وصفه بنفي البرد، ونفي الكرم»[4].

وهذا الظل ناتج من دخان جهنم، يعذّبون به؛ لأنه وصف الظل بأنه ﴿مِّن يَحْمُومٍ﴾؛ للإشعار بأنه ظل دخان لهب جهنم، والدخان الكثيف له ظل؛ لأنه بكثافته يحجب ضوء الشمس، وإنما ذكر من الدخان ظله لمقابلته بالظل الممدود المعد لأصحاب اليمين، في قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: لا ظل لأصحاب الشمال سوى ظل اليحموم، وهذا من قبيل التهكم[5].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٣٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٣٤.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٦/ ٤١.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ٤٢٧١.
(٥) المصدر السابق.

دلالة الظل على قدرة الله وعظمته

ورد ذكر الظل والظلال في العديد من الآيات القرآنية على أنه نعمة على قوم، ونقمة على آخرين، ولعل في التدبر في ظاهرة الظل والظلال -كإحدى الظواهر اليومية التي يراها الإنسان في كل بقعة من بقاع الأرض- إدراكٌ لبعض جوانب قدرة الله وعظمته سبحانه وتعالى وإليك بيان ذلك.

أولًا: سجود الظلال بالغدو والآصال:

بيّن سبحانه وتعالى أن هذا الكون كله خاضع له، وأنه يسجد له أهل السموات والأرض طوعًا وكرهًا، وتسجد له ظلالهم بالغدو والآصال.

فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء؛ ولهذا يسجد له كل شيء طوعًا من المؤمنين، وكرهًا من المشركين، ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ﴾ أي: البكر، ﴿وَالْآصَالِ﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار»[(١)].

وقال السعدي: «﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]»[(٢)].

وقال ابن الأنباري: «لا يبعد أن يخلق تعالى للظلال عقولًا وأفهامًا تسجد بها، وتخشع كما جعل للجبال أفهامًا حتى اشتغلت بتسبيح الله، وظهر اسم التجلي فيها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]»[(٣)].

وقيل: سجودها ميلها بقدرة الله أول النهار إلى جهة المغرب، وآخره إلى جهة المشرق، وادعى من قال هذا أن الظل لا حقيقة له؛ لأنه خيال، فلا يمكن منه الإدراك.

قال في اللباب: «وقيل: المراد من سجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب، وطولها بسبب انحطاط الشمس، وقصرها بسبب ارتفاع الشمس، وهي منقادة مستسلمة في طولها، وقصرها وميلها من جانب إلى جانب، وإنما خص الغدو والآصال بالذكر؛ لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين»[(٤)].

وذكر الرازي القولين، ثم قال: «وإنما خصص الغدو والآصال بالذكر؛ لأن الظلال

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٤٤٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٤١٥.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ٤١١.
(٤) المصدر السابق.

إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين»[1].

والصواب القول: إن الله جل وعلا قادر على كل شيء، فهو قادر على أن يخلق للظل إدراكًا يسجد به لله تعالى سجودًا حقيقيًّا، والقاعدة المقررة عند علماء الأصول: هي حمل نصوص الوحي على ظواهرها، إلا بدليل من كتاب أو سنة.

وحاصل القولين السابقين أمران:

أحدهما: أن السجود شرعي، وعليه فهو في أهل السموات والأرض من العام المخصوص.

والثاني: أن السجود لغوي بمعنى الانقياد والذل والخضوع، وعليه فهو باقٍ على عمومه.

والمقرر في الأصول: أن النص إن دار بين الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية حمل على الشرعية، وهو التحقيق، خلافًا لمن قال بتقديم اللغوية، ولمن قال: يصير اللفظ مجملًا لاحتمال هذا وذاك، وعقد هذه المسألة صاحب (مراقي السعود) بقوله:

واللفظ محمول على الشرعي، إن لم يكن فمطلق العرفي[2].

وإليك بعض عبارات المفسرين في سجود الظل:

قال الطبري: «وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

قال: وذلك هو فيئه بالعشي...، وقال ابن عباس: يسجد ظل الكافر حين يفيء عن يمينه وشماله»[3]. وعن مجاهد: «﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

قال: ظل المؤمن يسجد طوعًا، وهو طائع لله، وظل الكافر يسجد كرهًا، وهو كاره»[4].

وقال الشوكاني: «﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ وظلالهم جمع ظل، والمراد به ظل الإنسان الذي يتبعه، جعل ساجدًا بسجوده حيث صار لازمًا له لا ينفك عنه...، فظل المؤمن يسجد لله طوعًا، وظل الكافر يسجد لله كرهًا، وخص الغدو والآصال بالذكر؛ لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما، وهما ظرف للسجود المقدر: أي ويسجد ظلالهم في هذين الوقتين...، وجاء بـ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تغليبًا للعقلاء على غيرهم، ولكون سجود غيرهم تبعًا لسجودهم، ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم (لله) على الفعل من الاختصاص، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم، ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله

(١) مفاتيح الغيب، ٩/ ١٦٢.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٧٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٦٣٠.

في الأمور التي يقرون على أنفسهم بأنها من الله، كالخلق والحياة والموت ونحو ذلك»[1].

«والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ يعود على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: والله تعالى يخضع له من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا، ويخضع له أيضًا بالغدو والآصال ظلال من له ظل منهم؛ لأن هذه الظلال لازمة لأصحابها، والكل تحت قهره ومشيئته في الامتداد والتقلص والحركة والسكون»[2].

ثانيًا: تفيؤ الظلال عن اليمين والشمائل سجدًا لله:

أخبر تعالى أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال -أي: بكرة وعشيًّا- فإنه ساجد بظله لله تعالى.

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى في الآية السابقة عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين، وذات الشمال، أي: بكرة وعشيًا، فإنه ساجد بظله لله تعالى...، إذا زالت الشمس سجد كلّ شيء لله عز وجل، وقوله: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: صاغرون»[3].

وقيل أيضًا: سجود كل شيء فيه، فالجبال: سجودها فيها، وقيل: أمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم[4].

ومعنى قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي: تتميّل[5]. وتميل وتدور من جانب إلى جانب، فهي في أول النهار على حال، ثم تتقلص، ثم تعود في آخر النهار إلى حال أخرى سجدًا لله، فميلانها ودورانها: سجودها لله عز وجل، ويقال للظل بالعشي: فيء؛ لأنه فاء، أي: رجع من المغرب إلى المشرق، فالفيء الرجوع، والسجود الميل، ويقال: سجدت النخلة إذا مالت[6].

ثالثًا: مد الظل، ثم جعل الشمس عليه دليلًا:

أخبر تعالى أنه بسط الظل ومدّه، وأنه جعله متحركًا تبعًا لحركة الشمس، ولو شاء لجعله ساكنًا لا يتحرك.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ

(١) فتح القدير ٣/ ١٠٥.
(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٢٣٧٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٧٥.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢١٦.
(٦) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٢.

﴿ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥].

فقوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرسول، أي: تنظر إلى صنيع ربك جلَّ جلاله. ويجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين، ويجوز أن تكون من العلم[١].

﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك وسعة رحمته أنه مدّ على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس[٢].

أي: بسطه حتى عمّ الأرض، وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس، في قول الجمهور؛ لأنه ظل ممدود، لا شمس معه ولا ظلمة، فهو شبيه بظل الجنة، وقيل: مدّ ظل الأشياء الشاخصة أول النهار من شجر، أو مدر، أو إنسان، ثم قبضها وردها إلى المشرق[٣].

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «من ها هنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾...، وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[٤].

وقال الحسن وغيره: «مدّ الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

وقيل: هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها، والأول أصح، والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة؛ فإن فيها يجد المريض راحة والمسافر وكل ذي علة، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد، وتطيب نفوس الأحياء فيها، وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب.

وقال أبو العالية: نهار الجنة هكذا، وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر»[٥].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: ثابتًا على حاله في الطول والامتداد، لا يقصر ولا يطول.

فمعنى جعله ساكنًا، أي: جعله دائمًا لا يزول، ممدود لا تذهبه الشمس، ولا تنقصه[٦]. فسكونه إما بسكون المظهر له والدليل عليه، وإما بسبب آخر[٧].

وقال ابن كثير في معنى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾: «أي: دائمًا لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: ٧١-٧٢]»[٨].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٤.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٠١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ١١٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٧.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٧٥.
(٧) التفسير القيم، ابن القيم ٢/ ٦٤.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ١١٣.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: علامة على وجوده؛ إذ لولا الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بأضدادها؛ إذ بضوئها يعرف، والمعنى: ثم جعلنا الشمس علامة يستدلّ بأحوالها على أحواله، ثم تقلّص الظل يسيرًا يسيرًا، فكلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصانه، وذلك من الأدلة على قدرة الله وعظمته، وأنه وحده المستحق للعبادة دون سواه.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده، وقال قتادة والسدي: دليلًا يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله»[1].

وقال القرطبي رحمه الله: «أي: دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به، أي: أتبعناها إياه، فالشمس دليل، أي: حجة وبرهان، وهو الذي يكشف المشكل ويوضحه، ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس؛ لأنه في معنى الاسم، كما يقال: الشمس برهان، والشمس حق»[2].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٦].

يعني: الظل، يريد ذلك الظل الممدود.

(١) المصدر السابق.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٧.

وقوله: ﴿إِلَيْنَا﴾ أي: إلى حيث إرادتنا[3].

و﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: يسيرًا قبضه علينا، وكل أمر ربنا عليه يسير[4].

وقيل: ﴿يَسِيرًا﴾ أي: سريعًا[5].

وقيل: أي: أزلناه بضوء الشمس على مهل، جزءًا فجزءًا حتى ينتهي.

فحسب سنته تعالى ففي خفاء كامل، وسرعة تامة، يقبض الظل نهائيًّا، ويحل محله الظلام الحالك[6].

وعن قتادة: «﴿يَسِيرًا﴾ خفيًا، أي: إذا غابت الشمس قبض الظل قبضًا خفيًا، كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزء من الظلمة، وليس يزول دفعة واحدة»[7].

فيكون معنى: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: على مهل قليلًا قليلًا، حسب ارتفاع دليله، وعلى حسب مصالح المخلوقات ومرافقها[8].

والقبض: جمع المنبسط من الشيء، معناه: أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزءًا فجزءًا، ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: خفيًّا[9].

وتوالي الظل والشمس على الخلق الذي

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٠١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٧.
(٥) المصدر السابق.
(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٦٢٠.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٧.
(٨) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٠١.
(٩) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٨٦.

يشاهدونه عيانًا، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار، وتعاقبهما وتعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك من أدل دليل على قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود المحبوب المعظم، ذو الجلال والإكرام[1].

يقول ابن القيم وهو يبين دلالة قدرة الله تعالى في هذه الآية: «ثم أخبر أنه قبضه بعد بسطه قبضًا يسيرًا، وهو شيء بعد شيء لم يقبضه جملة، فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته، وكمال حكمته، فندب الرب سبحانه عباده إلى رؤية صنعته وقدرته وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته، ولو شاء لجعله لاصقًا بأصل ما هو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره، فلم ينتفع به أحد، فإن كان الانتفاع به تابعًا لمدّه وبسطه، وتحوله من مكان إلى مكان، ففي مدّه وبسطه، ثم قبضه شيئًا فشيئًا من المصالح والمنافع ما لا يخفى ولا يحصى، فلو كان ساكنًا دائمًا، أو قبض دفعة واحدة لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس، فمدّ الظل وقبضه شيئًا فشيئًا لازم لحركة الشمس على ما قدّرت عليه من مصالح العالم...

وفي الآية وجه آخر: وهو أنه سبحانه مدّ الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة، ودحا الأرض تحتها، فألقت القبة ظلها عليها، فلو شاء سبحانه لجعله ساكنًا مستقرًا في تلك الحال، ثم خلق الشمس ونصبها دليلًا على ذلك الظل، فهو يتبعها في حركتها، يزيد بها، وينقص ويمتد ويتقلص، فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله.

وفيها وجه آخر: وهو أن يكون المراد: قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظلال، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه.

وقوله تعالى: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ كأنه يشعر بذلك، وقوله: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يشبه قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

وقوله: ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾ بصيغة الماضي لا ينافي ذلك، كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

والوجه في الآية هو الأول»[2].

وللرازي في هذا كلام ماتع، ننقله كما جاء، يقول: «ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئًا سوى الجسم وسوى اللون، ونقول: الظل ليس أمرًا ثالثًا، ولا يعرف به إلا إذا طلعت الشمس، ووقع ضوؤها على الجسم زال ذلك الظل، فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجودًا وماهية؛ لأن الأشياء

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٤.

(٢) التفسير القيم، ٢/ ٦٤.

إنما تعرف بأضدادها، فلولا الشمس لما عرف الظل، ولولا الظلمة لما عرف النور، فكأنه سبحانه وتعالى لما طلع الشمس على الأرض وزال الظل، فحينئذٍ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون.

فلهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: خلقنا الظل أولًا بما فيه من المنافع واللذات، ثم إنا هدينا العقول إلى معرفة وجوده، بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلًا على وجود هذه النعمة ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أي: أزلنا الظل لا دفعة، بل يسيرًا يسيرًا، فإنّ كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب.

ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة، بل يسيرًا يسيرًا فكذا زوال الإظلال لا يكون دفعة، بل يسيرًا يسيرًا، ولأن قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح، ولكن قبضها يسيرًا يسيرًا يفيد معه أنواع مصالح العالم، والمراد بالقبض: الإزالة والإعدام، هذا أحد التأويلين»[1].

ووقت قبض الظل: إما عند طلوع الشمس يقبض الظل، وتجمع أجزاؤه المنبسطة بتسليط الشمس عليه حتى تنسخه شيئًا فشيئًا، أو يكون عند غروب الشمس تقبض أجزاء الظل بعد غروبها، ويخلف كل جزء منه جزءًا من الظلام[2].

رابعًا: ظل أهل النار:

تقدم معنا صفات ظل أهل الجنة، وهنا يذكر سبحانه وتعالى صفات ظل أهل النار، فيقول: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣-٤٤].

ويقول: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠-٣١].

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

أما الآية الأولى فقد سبق الكلام عليها.

وأما الآية الثانية فمعناها: أنه يقال للكفار المكذّبين: سيروا إلى عذاب جهنم الذي كنتم به تكذبون في الدنيا، سيروا فاستظلوا بدخان جهنم الذي يتفرع منه ثلاث قطع، لا يظل ذلك الظل من حر ذلك اليوم، ولا يدفع من حر اللهب شيئًا.

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى مخاطبًا للكفار المكذّبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠].

يعني: لهب النار إذا ارتفع وصعد

(١) مفاتيح الغيب، ٢٤/ ٤٦٥.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٩٣.

معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب، ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي: ظل الدخان المقابل للهب، لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب، يعني: ولا يقيهم حر اللهب»[1].

فيقال لهم: ﴿انطَلِقُوا﴾ أي: سيروا، وهذا خطاب للمكذّبين في يوم الحشر، فهو مقول قول محذوف، دل عليه صيغة الخطاب بالانطلاق، دون وجود مخاطب يؤمر به الآن، والضمير المقدر مع القول المحذوف عائد إلى المكذبين، أي: يقال للمكذبين، والأمر بانطلاقهم مستعمل في التسخير؛ لأنهم تنطلق بهم ملائكة العذاب قسرًا[2].

والمراد بالظل: دخان جهنم، وسمي بذلك لشدة كثافته[3]، كقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣].

أو سمي هذا الدخان العظيم الخانق بالظل على سبيل التهكم بهم؛ إذ هم في هذه الحالة يكونون في حاجة شديدة إلى ظل يأوون إلى برده.

وأفرد ﴿ظِلٍّ﴾ هنا؛ لأنه جعل لهم ذلك الدخان في مكان واحد ليكونوا متراصين تحته؛ لأن ذلك التراص يزيدهم ألمًا[4].

ووصف الظل هنا بأنه ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ أي: من دخان جهنم، وكذلك شأن الدخان العظيم. فيقال لهم: كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب، كما يكون أولياء الله تعالى في ظل عرشه.

وقيل: يخرج عنق من النار فيتشعب ثلاث شعب على رءوسهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم[5].

أو شعبة منه عن اليمين، وشعبة عن اليسار، وشعبة من فوق، قال الفخر: «وأقول: هذا غير مستبعد؛ لأن الغضب عن يمينه، والشهوة عن شماله، والقوة الشيطانية في دماغه، ومنبع جميع الآفات الصادرة عن الإنسان في عقائده وفي أعماله ليس إلا هذه الثلاثة»[6].

وقيل: إن هذه الآية في عبدة الصليب؛ لأنهم على ثلاث شعب، فيقال لهم: انطلقوا إليه.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ نفي عنه أن يظلهم، كما يظل العرش المؤمنين، ونفي أيضًا أن يمنع عنهم اللهب[7].

والشّعب: اسم جمع شعبة، وهي الفريق من الشيء والطائفة منه، أي: ذي ثلاث طوائف، وأريد بها طوائف من الدخان، فإن النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من

(١) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٩٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٧٦.
(٣) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٤٤١٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٧٧.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٦/ ٢٠٦.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٧٧.
(٧) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٢٧٠.

طرفيها ووسطها لشدة انضغاطه في خروجه منها[1].

وهو كقوله: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

والسرادق: الدخان، دخان النار، فأحاط بهم سرادقها، ثم تفرّق فكان ثلاث شعب، شعبة ها هنا، وشعبة ها هنا، وشعبة ها هنا[2].

ويحتمل في ﴿ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ ما ذكره بعد ذلك، وهو أنه غير ظليل، وأنه لا يغني من اللهب، وبأنه يرمي بشرر[3]، فتكون الثلاث الشعب هو ما فسّره الله: ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ أي ثلاث صفات.

وقيل: إن الشّعب الثلاث من الضّريع، والزّقّوم، والغسلين[4]، أو شعبة من النار، وشعبة من الدخان، وشعبة من الزمهرير[5].

ومعنى قوله: ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ أي: ليس كالظلّ الذي يقي حر الشمس، وهذا تهكم بهم، وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين، وأنه لا يمنع حر الشمس[6]، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٧٧.
(٢) الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٣٨٤.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٧٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) غرائب التفسير، النيسابوري ٢/ ١٢٩٤.
(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٧٠.

وقوله: ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي: وغير مغنٍ عن حر اللهب شيئًا؛ لعدم البرودة فيه. والإغناء: جعل الغير غنيًّا، أي: غير محتاج في ذلك الغرض، وتعديته بـ﴿مِنَ﴾ على معنى البدلية، أو لتضمينه معنى: يبعد، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

وبذلك سلب عن هذا الظل خصائص الظلال؛ لأن شأن الظل أن ينفس عن الذي يأوي إليه ألم الحر[7].

أما هذا فهو ظل الدخان اللافح الخانق، ظل ساخن لا روح فيه ولا برد.

فيكون سبحانه وتعالى قد وصف هذا الظل بصفات ثلاث:

الصفة الأولى: قوله: ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾.

والصفة الثانية: لذلك الظل قوله: ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾، المعنى: أن ذلك الظل لا يمنع حر الشمس.

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾، يقال: أغن عني وجهك، أي: أبعده؛ لأن الغني عن الشيء يباعده، كما أن المحتاج يقاربه[8].

وأشار الشنقيطي وهو يتحدث عما حواه القرآن من العلوم، إلى لطيفة من هذه الآية، حيث قال: «وأما الهندسة: ففي قوله:

(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٧٧.
(٨) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٢٦٥.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠-٣١].

فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له»[(١)].

وهكذا يقول السيوطي في قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾: «الآية فيها عنوان علم الهندسة؛ فإن الشكل المثلث أول الأشكال، وإذا نصب في الشمس على أي ضلع من أضلاعه لا يكون له ظل لتحديد رءوس زواياه، فأمر الله تعالى أهل جهنم بالانطلاق إلى ظل هذا الشكل؛ تهكمًا بهم»[(٢)].

وأما ظلل أهل النار التي من فوقهم ومن تحتهم، فقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

أخبر تعالى في هذه الآية بأن لأولئك الخاسرين يوم القيامة في جهنم من فوقهم قطع عذاب من النار، كهيئة الظّلل المبنية، ومن تحتهم كذلك، ذلك العذاب الموصوف يخوّف الله به عباده؛ ليحذروه، يا عباد فاتقوني، بامتثال أوامري، واجتناب معاصيّ، وهو كقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾[الأعراف: ٤١].

وكقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وهذا يقابل ما أعده الله للمؤمنين، حيث قال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر: ٢٠].

وهذه موعظة من الله بالغة، منطوية على غاية اللطف والرحمة، جعلنا الله من أهلها بمنّه وكرمه.

فجعل للمتقين غرف موصوفة بأنها فوقها غرف، وجعلت للمشركين ظلل من النار، وعطف عليها أن من تحتهم ظللًا؛ للإشارة إلى أن المتقين متنعمون بالتنقل في تلك الغرف، وإلى أن المشركين محبوسون في مكانهم، وأن الظلل من النار من فوقهم، ومن تحتهم لتتظاهر الظلل بتوجيه لفح النار إليهم من جميع جهاتهم[(٣)].

و﴿لَهُم﴾ في قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ خبر الظلل، والضمير للخاسرين، و﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ حال من ﴿ظُلَلٞ﴾.

والظّلل: جمع ظلّة، كغرف جمع غرفة، وهي سحابة تظل كهيئة الصفة، أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم، كهيئة الظلل المبنية من النار.

والمعنى: للخاسرين ظلل من النار كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض، حال كون تلك الظل من فوقهم، والمراد: طباق وسرادقات من النار ودخانها، وسمى النار ظلة؛ لغلظها

(١) أضواء البيان ١٧/ ٢٠٧.
(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٥٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٦٨٠.

وكثافتها.

وفيه: إشعار بشدة حالهم في النار، وتهكم بهم؛ لأن الظلة إنما هي الاستظلال والتبرد، فإذا كانت من النار نفسها، كانت أحر، ومن تحتها أغمّ.

ويكون قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفة لـ﴿ظُلَلٌ﴾، والمراد: أن النار محيطة بهم من جميع الجوانب[1]. وتسمية النار بالظّل مجاز، من حيث إنها محيطةٌ بهم من كل جانب...، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥][2].

قال النيسابوري: «أي: أطباق من النار من ظلل الآخرين، فإن لجهنم دركات، كما أن للجنة درجات، وقال المفسرون: سمَّى النار ظلة بغلظها وكثافتها؛ ولأنها تمنع من النظر إلى ما فوقهم، فصارت محيطة بهم من جميع الجوانب، حائلة من النظر إلى شيء آخر»[3].

وقوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ قال في التبيان: «لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل، فالظلل التي فوقهم لهم، والتي تحتهم لغيرهم، ممن تحتهم؛ لأن الظلل إنما تكون من فوق»[4].

وقال الخازن: «فإن قلت: الظلة ما فوق الإنسان، فكيف سمي ما تحته بالظلة؟! قلت: فيه وجوه:

الأول: أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر.

الثاني: أن الذي تحته من النار يكون ظلة لآخر تحته في النار؛ لأنها دركات.

الثالث: أن الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الإيذاء والحرارة سميت باسمها؛ لأجل المماثلة والمشابهة»[5].

ويكون على هذا تسميتها ظللًا من باب المشاكلة، وقيل: هي ظلل لمن تحتهم في طبقة أخرى من طبقات النار، ولا يطرد في أهل الطبقة الأخيرة من هؤلاء الخاسرين؛ إلا أن يقال: إن للشياطين ونحوهم مما لا ذكر لهم هنا، وقيل: إن ما تحتهم يلتهب ويتصاعد منه شيء حتى يكون ظلة، فسمّي ظلة باعتبار ما آل إليه أخيرًا، وليس بذاك، والمراد أن النار محيطة بهم، ذلك العذاب الفظيع[6].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، السحاب، الشمس، القمر

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ١٧٠.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٧٠.
(٣) غرائب التفسير، النيسابوري ٦/ ٣٩٩.
(٤) التبيان تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٣٦٢.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٥/ ٣٠٨.
(٦) روح المعاني، الألوسي ٢٣/ ٢٥١.

الظلم

عناصر الموضوع

مفهوم الظلم	٢٩٦
الظلم في الاستعمال القرآني	٢٩٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٨
تنزيه الله سبحانه عن الظلم	٣٠٠
الظلم طبيعة إنسانية	٣٠٢
أنواع الظلم	٣٠٤
أسباب الظلم	٣٠٩
سبل الوقاية من الظلم وطرق العلاج	٣١٣
آثار الظلم وعاقبته في الدنيا	٣١٧
عاقبة الظلم في الآخرة	٣٢٢

مفهوم الظلم

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الظلم مشتق من ظلم يظلم مظلمة بفتح اللام وكسرها، وأصله وضع الشيء في غير موضعه»[(١)].

وقيل: هو الجور ومجاوزة الحد والميل عن القصد، والظّلمة: المانعون أهل الحقوق حقوقهم[(٢)].

ومن المجاز (ظلم الأرض) إذا حفرها في غير موضع حفرها، و(ظلم البعير) إذا نحره من غير داء، و(ظلم الوادي ظلمًا) إذا بلغ الماء منه موضعًا لم يكن بلغه قبل، ولا ناله فيما خلا.

و(الظلمة) ذهاب النور، ومن المجاز أيضًا (شعرٌ مظلم) أي حالك شديد السواد، و(نبتٌ مظلم) يضرب إلى السواد من خضرته[(٣)].

فالظلم: الميل عن القصد، ووضع الشيء في غير موضعه الذي يختص به، سواء بزيادة أو نقص، أو بعدول عن وقته وزمانه، حسيًّا كان أو معنويًّا[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عبّر المفسرون عن الظلم في القرآن بمعانٍ متعددة: منها جعل العبادة في غير موضعها اللائق بها، يعني جعلها لغير الله سبحانه، أو التوجه بالعبادة لغير الله سبحانه، ومنها معاملة العباد بغير ما أنزل الله سبحانه، وعدم إعطائهم حقوقهم أو غير ذلك، وإذا تبيّن لك هذا فيمكن الوقوف على تعريف عام يشمل ما سبق هو أن الظلم يعني: الميل عن الصواب ووضع الشيء في غير موضعه الذي يختص به سواء بزيادة أو نقص أو بعدول عن وقته وزمانه حسيًّا كان أو معنويًّا بقصد أو بدون قصد[(٥)]، فمن حاد عن طريق الحق لابد وأن يكون قلبه حالكًا شديد السواد، وقد ذهب نور الإيمان منه؛ لأنه خالف شرع الله سبحانه، وفعل غير ما أراد الله عز وجل. فالمعنى اللغوي والاصطلاحي متفقان تمامًا.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤٦٩.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٧٧، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٧٣.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٣/ ٣٢.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ٣٢٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٨٣.

الظلم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ظ ل م) في القرآن (٣١٥) مرة، يخص موضوع البحث منها (٢٨٩) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦٥	﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١]
الفعل المضارع	٤٥	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس:٤٤]
المصدر	٢٠	﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]
اسم الفاعل	١٣٥	﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧]
صيغة المبالغة	٧	﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤]
اسم المفعول	١	﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء:٣٣]
أفعل التفضيل	١٦	﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم:٥٢]

وورد الظلم في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: وضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ويستعمل في الذنب الكبير؛ كالشرك، والذنب الصغير؛ كصغائر الذنوب[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٣٤-٤٣٩، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧٢٩-٧٣٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٢٦-٣٢٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٢٦-٤٢٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٥٤٠-٥٤٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ البغي:

البغي لغة:

مصدر بغى يبغي بغيًا، إذا تعدى وظلم[١].

البغي اصطلاحًا:

طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى، تجاوزه أم لم يتجاوزه[٢].

الصلة بين الظلم والبغي:

يلاحظ هنا أن القاسم المشترك بين الظلم والبغي هو تجاوز الحد، لكن الظلم دائمًا مذموم، أما البغي فقد يكون محمودًا، وقد يكون مذمومًا، وغالب الاستعمال القرآني لهذه المفردة على النوع الثاني، وهو المعنى القريب من معنى الظلم[٣].

٢ الطغيان:

الطغيان لغة:

تجاوز الحدّ في العصيان[٤].

الطغيان اصطلاحًا:

قال القرطبي: «الطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه؛ وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى»[٥].

الصلة بين الظلم والطغيان:

أن الظّلم ضررٌ لا يستحق ولا يعقب عوضًا سواء كان من سلطان أو حاكم أو غيرهما، وأصله نقصان الحق، أما الطغيان فهو مجاوزة الحد في المكروه مع غلبة وقهر[٦].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٧٧
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١٣٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٧٤.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤١٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٤٥.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٢٣٠.

٣ الجور:

الجور لغة:

الجيم والواو والرّاء أصلٌ واحدٌ، وهو الميل عن الطّريق[١].

الجور اصطلاحًا:

قال السيوطي: الجور: الخروج عن الوسط بزيادة أو نقصان[٢]، وقال بعضهم: الجائر من الناس هو الذي يمنع من التزام ما يأمر به الشرع[٣].

الصلة بين الظّلم والجور:

الجور خلاف الاستقامة في الحكم، تقول: جار الحاكم في حكمه والسّلطان في سيرته إذا فارق الاستقامة في ذلك، والظّلم ضرر لا يستحق، ولا يعقب عوضًا، سواء كان من سلطان أو حاكم أو غيرهما، وأصل الظّلم نقصان الحق، والجور العدول عن الحق، و نقيض الظّلم الإنصاف، وهو إعطاء الحق على التّمام، ونقيض الجور العدل، وهو العدول بالفعل إلى الحق[٤].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٩٢.
(٢) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص ٢٠٧.
(٣) انظر: الموسوعة القرآنية، إبراهيم الإبياري ٨/ ١١٦.
(٤) انظر: معجم الفروق اللغوية، العسكري ٤٩٣.

تنزيه الله سبحانه عن الظلم

نزّه الله سبحانه نفسه عن الظلم في العديد من الآيات القرآنية -المكي منها والمدني-، ونفى أن يظلم سبحانه أحدًا، فكل ما نسب إلى الله سبحانه فهو خير، وإيجاد الله سبحانه للعقوبة على الذنب الذي يقترفه الإنسان لا يعدّ ظلمًا له، بل ذلك عدلٌ منه سبحانه، وقد تبرأ الله عن الظلم بأكثر من صيغة، ومن هذه الصيغ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وردت في خمسة مواضع من القرآن الكريم، ثلاث منها مكية، واثنتان مدنيتان، ومن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١].

قال الإمام القاسمي عند تفسيره لها: «ذلك إشارة إلى ما ذكر من الضرب والعذاب بما قدّمت أيديكم، أي: ما كسبتم من الكفر والمعاصي، وأن الله ليس بظلام للعبيد، أي: بأن يأخذهم بلا جرم، فإن قيل ما سر التعبير بـ(ظلام) بالمبالغة مع أن نفي نفس الظلم أبلغ من نفي كثرته، ونفي الكثرة لا ينفي أصله، بل ربما يشعر بوجوده، وبرجوع النفي للقيد.

وأجيب بأجوبة:

منها: أنه نفي لأصل الظلم وكثرته، باعتبار آحاد من ظلم، كأنه قيل: ظالمٌ لفلان ولفلان وهلم جرًّا، فلما جمع هؤلاء عدل إلى (ظلام) لذلك، أي لكثرة الكمية فيه.

ومنها: أنه إذا انتفى الظلم الكثير انتفى الظلم القليل، لأن من يظلم، يظلم للانتفاع بالظلم، فإذا ترك كثيره مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضرر كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركًا.

ومنها: أن (ظلامًا) للنسب أي لا ينسب إليه الظلم أصلًا.

ومنها: أن كل صفة له تعالى في أكمل المراتب، فلو كان تعالى ظالمًا، كان ظلامًا، فنفى اللازم لنفي الملزوم.

ومنها: أن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذّب بمثله ظلامًا بليغ الظلم متفاقمه.

فالمراد تنزيهه تعالى، وهو جدير بالمبالغة.

وأيضًا لو عذّب تعالى عبيده بدون استحقاق وسبب لكان ظلمًا عظيمًا لصدوره عن العدل الرحيم. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول: (إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا)»[(١)(٢)].

يتبين مما سبق أن جميع الأجوبة السابقة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧، ٤/ ١٩٩٤.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٣٠٩.

تتناسب مع السر وراء التعبير بـ(ظلَّام) بالمبالغة.

ومن الصيغ التي ورد فيها نفي الظلم عن الله سبحانه في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ حيث إنها وردت في ثلاثة مواضع، ومن الأمثلة ما ورد عند قوله تعالى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

قال الطبري: «وما أهلك الله هذه الأحزاب من هذه الأمم ظلمًا منه بغير جرمٍ اجترموه بينهم وبينه؛ لأنه لا يريد ظلم عباده ولا يشاؤه، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم وخلافهم أمره»[(١)].

كما ورد نفي الظلم عن الله سبحانه في القرآن الكريم بصيغة (وما ظلمهم الله) قال الزحيلي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

«أي: إن ما وقع بهم من العذاب لم يكن بظلم من الله؛ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فعوقبوا وجوزوا بسوء عملهم، وأحاط بهم العذاب الأليم بما كانوا به يستهزءون أي يسخرون من الرسل حيث توعدوهم بعقاب الله»[(٢)].

وورد نفي الظلم عن الله سبحانه في القرآن الكريم بصيغة ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وقال الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

«وقوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يقول جل ثناؤه: فما أهلك الله هذه الأمم التي ذكر أنه أهلكها إلا بإجرامها وظلمها أنفسها، واستحقاقها من الله عظيم العقاب، لا ظلمًا من الله لهم، ولا وضعًا منه جل ثناؤه عقوبة من غير من هو لها أهل؛ لأن الله حكيم لا خلل في تدبيره، ولا خطأ في تقديره، ولكن القوم الذين أهلكهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله وتكذيبهم رسله، حتى أسخطوا عليهم ربهم فحقت عليهم كلمة العذاب فعذبوا»[(٣)].

يتضح من الأمثلة السابقة أن الله سبحانه قد نفى الظلم عن نفسه بأكثر من صيغة، وهذا يدل على أن الله سبحانه عدلٌ لا يظلم

(١) جامع البيان ٢١/ ٣٧٩.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ١٣٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٤٦.

أحدًا من مخلوقاته.

قال ابن القيم: «وقد اتفق أهل الأرض والسماوات على أن الله عدلٌ لا يظلم أحدًا حتى أعداءه المشركين الجاحدين لصفات كماله، فإنهم مقرون له بالعدل، ومنزهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم معترفون بعدله كما قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ١١].

وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

فهو سبحانه قد حرّم الظلم على نفسه، وأخبر أنه لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون»[1].

الظلم طبيعة إنسانية

كرّم الله سبحانه الإنسان على كثير من مخلوقاته، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وخلقه سبحانه في أحسن صورة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وميّزه بالعقل، وهداه إلى اختيار طريق الخير أو الشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

كما يمتاز الإنسان عن غيره من المخلوقات بالطبيعة الهادية له إلى الخير والتوحيد، فهو مؤمن بالله بطبيعته التي خلق عليها، وعهد الله سبحانه إليه قبل أن يخلق بشرًا سويًّا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فاتجاهه وميوله الداخلية تتجه إلى الإيمان والتوحيد بالله عز وجل.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص٢٣١.

ورغم كل هذا فقد ذكر الله سبحانه في القرآن الكريم طبائع ذميمة تتنافى مع طبيعة الإنسان التي فطر الله الناس عليها، والتي منها الظلم الذي أكد القرآن الكريم وجوده في الطبيعة الإنسانية.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

يقول الطبري: «إن الإنسان الذي بدّل نعمة الله كفرًا لظلوم، أي: لشاكر غير من أنعم عليه، فهو بذلك من فعله واضع الشكر في غير موضعه، وذلك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم، واستحق عليه إخلاص العبادة له فعبد غيره، وجعل له أندادًا ليضل عن سبيله، وذلك ظلمه»[(١)].

وقال السعدي في تفسيره للآية نفسها: «أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصي مقصّر في حقوق ربه، كفارٌ لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها إلا من هداه الله فشكر نعمه وعرف حق ربه وقام به»[(٢)].

كما ورد في القرآن الكريم سبع آيات ختمت فاصلتها بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقال السعدي عند تفسيره لأحد هذه الفواصل القرآنية: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

أي: «وما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ منعوها حقها التي هي بصدده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي فضروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعوها»[(٣)].

يتبين مما سبق: أن الظلم طبيعة في النفس البشرية، قد يظهر ويترعرع إذا وجد بيئة شيطانية ملائمة له، وقد ينقلب هذا الظلم إلى عدل إذا حدث العكس، وهو وجود بيئة إيمانية تطبق تعاليم الإسلام، وتسير على خطى الرسول صلى الله عليه وسلم، وحاكم يعين المظلوم على استرداد حقه من الظالم، وقد أكد ذلك أبو بكر رضي الله عنه بقوله: «ألا إن القوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق، والضعيف عندي قوي حتى آخذ له الحق»[(٤)].

ويقول ابن خلدون في هذا السياق: «إن الطبيعة البشرية قد فطرت على الظلم

(١) جامع البيان ١٧/ ١٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٤٢٦.
(٣) المصدر السابق ٦٣١.
(٤) أخرجه البيهقي في سننه، جماع أبواب تفريق ما أخذ من أربعة أخماس الفيء، باب ما يكون للوالي، رقم ١٣٠٠٩، ٦/ ٥٧٤.

والعدوان، فيحاول كلٌّ أن يعتدي على أخيه، وأن ينتزع منه ما في يده، فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة والهرج وسفك الدماء؛ ولذلك استحال بقاء الجماعة فوضى دون حاكم يدفع بعضهم عن بعض، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع، وهو واحدٌ منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحدٌ إلى غيره بعدوان»[1].

(١) تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٣٥.

أنواع الظلم

حذّر الشارع من الظلم ونهى عنه أشد النهي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)[2].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا)[3].

وللظلم أنواع كثيرة في واقع الناس، وحقيقتها تعود إلى نوعين:

الأول: ظلم النفس:

فالإنسان يظلم نفسه، ويضع الأمور في غير موضعها، وله صور كثيرة، منها:

١. ظلم الشرك.

فالشرك بالله أشد الظلم وأخطره؛ لأنه تجاوز للحد مع الله تعالى، إذ أمر الله الإنسان بتوحيده، لكن المشرك يتخذ معه شريكًا، وفي ذلك إرجاع الفضل لغير صاحبه، ولأنه يؤدي بصاحبه إلى الخلود في جهنم إن مات على الشرك، فيكون قد ظلم نفسه وأوردها المهالك؛ لذلك ابتدأ لقمان الحكيم وصاياه لابنه بعدم الشرك بالله؛ لأنه

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٨، ٤/ ١٩٩٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧، ٤/ ١٩٩٤.

رأس كل فتنة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

يقوم الشرك على مجرد التعقب للهوى، وتغليب المصلحة الفانية على الأخرى الباقية، ولا يقوم على أي دليل مقنع، وهو ظلم للنفس وللآخرين معًا، كما أنه انتقاص لحق الله سبحانه في التوحيد، وعدم تنزيهه عن مشابهة الخلق في حاجتهم إلى الشريك والمعين، لذلك توعّد الله سبحانه هؤلاء بشديد العقاب في الدنيا والآخرة.

فقال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

فالشرك أعظم أنواع الظلم، ولهذا كان جزاء صاحبه أن يخلد في النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومن الشرك: التقرّب إلى الموتى وأصحاب القبور من الأولياء والصالحين وغيرهم، وذلك بدعائهم والاستغاثة بهم، والذبح والنذر لهم، والطواف بقبورهم، والحلف بهم تعظيمًا لهم، واعتقاد النفع والضر فيهم، وأن لهم تصرفًا في هذا الكون، وقدرة على الدفع والرفع والضر والنفع والعطاء والمنع.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦][1].

٢. ظلم الكفر.

الكفر ظلمٌ أكبر يخرج من الملة، ويوجب الخلود في النار، ويحبط جميع الأعمال، ولا يغفره الله سبحانه إلا بالتوبة.

قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

٣. ظلم النفاق.

النفاق الأكبر مخرج من الملة، وهو الذي يتعلق بالاعتقاد؛ كأن يبطن الكفر ويظهر الإيمان، أو أن يأتي الشخص بمكفّرٍ من المكفرات كاستهزائه بالشريعة أو استهزائه بالرسول صلى الله عليه وسلم، أو استهزائه بالصحابة رضي الله عنهم، فهذا نفاق أكبر يخرج صاحبه من دين الإسلام وإن صلى وصام، وزعم أنه مسلم.

ومما يؤكد هذا النوع قوله تعالى:

(١) انظر: بيان حقيقة التوحيد، صالح الفوزان ص٤٥.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة: ٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١][(١)].

٤. ظلم التعدي على حدود الله، واقتراف الكبائر.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومن ذلك: الصد عن مساجد الله سبحانه أن يذكر فيها اسمه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

ومن ذلك أيضًا كتم الشهادة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وكذلك الكذب على الله تعالى.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ومعناه: اختلاق القول على الله تعالى، وتقوّل الأقوال عنه بإيرادها ابتداءً، أو بالتبديل والتحريف فيها[(٢)].

الثاني: ظلم الغير:

وله صور كثيرة ومتنوعة، وهي منتشرة بصورة كبيرة في مجتمعاتنا، وقد عرض القرآن الكريم لنماذج متعددة، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. ظلم العباد بعضهم لبعض.

ويندرج تحته عدة أمور، منها:

الغيبة والنميمة والسباب والشتم والاحتقار والتنابز بالألقاب والاستهزاء والقذف ونحو ذلك مما تناولته سورة الحجرات.

وشهادة الزور، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر.. ألا وقول الزور)[(٣)].

وقتل النفس بغير حق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣].

أخذ أرض الغير أو شيء منها بغير وجه

(١) انظر: المصدر السابق ص٢٥.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ٩٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في الكبائر، رقم ٨٧، ١/ ٩١.

حق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين)[1].

وأكل أموال الناس بالباطل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩].

والتعامل بالربا، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

والغش في المعاملات، كما قال صلى الله عليه وسلم: (من غشنا فليس منا)[2].

ومماطلة من له حق عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مطل الغنى ظلم)[3][4].

٢. الظلم الواقع بين الأرحام.

عقوق الوالدين: يعدّ عقوق الوالدين من صور الظلم الاجتماعي، وقد أمر الإسلام بالإحسان إلى الوالدين، فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

لكن هناك من يخالف شرع الله ويعقّ والديه، وقد ظهر العقوق بأشكال متنوعة، منها: أن يسبّ الرجل والديه، وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)، قيل: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: (يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه)[5].

ومن صوره: منع النفقة عن الآباء، رغم حاجة الآباء إلى النفقة مع قدرة الأبناء، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم قال، قال صلى الله عليه وسلم: (أنت ومالك لأبيك)[6].

ومنه: ميل الوالد لبعض أولاده، ويكون ذلك بعدم العدل بينهم في الهدية والعطية؛ وبالتالي فإن هذا يؤدي إلى العقوق، وكراهية بعضهم لبعض، ودافع للعداوة بين الإخوة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا، رقم ١٦١٠، ٣/ ١٢٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، رقم ١٠١، ١/ ٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة، رقم ٢٢٨٧، ٣/ ٩٤.

(٤) انظر: مفاتح الغيب، الرازي ١/ ٢٢٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، رقم ٥٩٧٣، ٨/ ٣.

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب مال الرجل من مال والده، رقم ٢٢٩٢، ٢/ ٧٦٩.
وصححه الألباني صحيح وضعيف سنن ابن ماجة ٥/ ٢٩١، رقم ٢٢٩١.

وقد روي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أمه بنت رواحة سألت أباه بعض الموهوبة من ماله لابنها، فالتوى بها سنة، ثم بدا له، فقالت: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما وهبت لابني، فأخذ أبي بيدي وأنا غلام فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: إن أم هذا بنت رواحة أعجبها أن أشهدك على الذي وهبت لابنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا بشير ألك ولد سوى هذا؟ قال: نعم، فقال: أكلهم وهبت له مثل هذا؟ قال: لا، قال: فلا تشهدني إذًا فإني لا أشهد على جور)[1].

وأكل حقوق النساء في الميراث، فقد جاء الإسلام ليبطل ما فيه ظلم وجور من توريث الأبناء دون البنات في الجاهلية، وحدد لكل مستحق من التركة حقه.

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[النساء: ١١].

والمتأمل في الواقع يجد أن أكثر ذلك الظلم يقع على الأخوات من أقرب الناس إليهن، وهم إخوتهن، وكثيرًا ما نسمع ونرى من المشاكل التي أدت إلى قطع الأرحام والعداوات بين الأقارب، والتي كان سببها تعطيل قسمة الفرائض والجور فيها، وقسمتها على غير ما أمر الله سبحانه.

ومنه أيضًا قطيعة الرحم، وقد فشى في مجتمعات المسلمين، ومن أخطرها من لا يعرف الناس قرابته بصلة، ولا بمال ولا بأي شيء، تمضي الشهور وربما الأعوام وما قام بزيارتهم، ولا تودد إليهم بصلة أو هدية، ولا دفع عنهم حاجة أو أذية، بل ربما أساء إليهم بالقول أو الفعل أو بهما معًا، وقد قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة قاطع)[2][3].

والحاصل أن الظلم الاجتماعي له صورٌ متعددة ذكرنا بعضًا منها، والواجب على المسلم أن يحاسب نفسه، ويتأمل تعاملاته مع أقربائه وجيرانه وزملائه، ويجب أن يعلم أن حبه لأحد لا يقتضي الغلو والمبالغة فيه وعدم نصحه، كما أن بغضه أو عدم ارتياحه لأحدٍ لا يسوّغ له ظلمه، أو التعدي عليه، أو ترك ما يجب له من التكريم والصلة، وهذا هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وأمر به الشرع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٨].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب العدل بين الأولاد في العطاء، رقم ١٦٢٣،٣/ ١٢٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم ٥٩٨٤، ٨/ ٥.

(٣) انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ٢/ ٧٣٢.

أسباب الظلم

للظلم أسباب كثيرة ومتعددة، تؤدي إليه، وتوقع الإنسان به، وبيان هذه الأسباب متمثلة في المطالب الآتية:

أولًا: الكفر:

إن الكفر بنعم الله سبحانه وجحودها من أبرز أسباب الظلم، وقد أكد ذلك القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال الطبري في تفسيرها: «فإنه يعني تعالى ذكره بذلك والجاحدون لله المكذبون به وبرسله هم الظالمون، يقول: هم الواضعون جحودهم في غير موضعه، والفاعلون غير ما لهم فعله، والقائلون ما ليس لهم قوله»[(١)].

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون؛ لأن معنى الآية أن كل كافر ظالم، وليس كل ظالم كافرًا.

ولو قال: (الظالمون هم الكافرون) لكان قد حكم على كل ظالم -وهو من يضع الشيء في غير موضعه- بالكفر[(٢)].

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٨٤.
(٢) انظر: الوسيط، الزحيلي ١/ ١٤٥.

ثانيًا: اتباع الهوى واتباع الظن:

الظلم ليس وليد نفسه، بل له منابع وأسباب، ومن هذه الأسباب: تسلّط الأهواء والغرائز على الظالمين حكامًا أو محكومين، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩].

ومعنى الآية: أن أولئك الظالمين اتبعوا أهواءهم جهلًا منهم لحق الله عليهم، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته، ولو قلّبوا وجوه الرأي، واستعملوا الفكر والتدبر لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق، ووصلوا إلى الرشد، ولكن أنى لهم ذلك[(٣)].

ثالثًا: الاستكبار والترف:

من الناس من ينعم الله سبحانه عليه بالنعم الكثيرة، ولكنه لا يدرك قدرها، فيستخدمها في غير ما خلقت له، ومثال ذلك: نعمة الصحة والمال، فيتكبّر ويتجبّر، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ٧].

ومعنى ذلك: أن أمر هذا الإنسان عجيب، فإنه متى أحس من نفسه قدرة وثروة خرج من الحد الذي يجب أن يكون عليه، واستكبر عن الخشوع لربه، وتطاول بأذى الناس، وعدّ نفسه فوقهم جميعًا، وقد كان من حقه أن يكون وإياهم أعضاء

(٣) انظر: تفسير المراغي ٢١/ ٤٤.

أسرة واحدة، يتعاونون في السراء والضراء، ويحب الخير لهم كما يحبه لنفسه[1].

ومن الأمثلة التي ساقها القرآن الكريم عن أولئك الذين طغوا بسبب النعم: قصة النمرود بن كنعان، الذي أعطاه الله الملك ثم بعد ذلك ادعى الربوبية.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكذلك فرعون الذي آتاه الله الملك والسلطان فكان ذلك سببًا لادعاء الربوبية.

قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ١٧-٢٤].

رابعًا: الحسد:

إن الحسد من الأسباب المؤدية إلى الظلم، فهو الذي أخرج إبليس -لعنه الله- من رحمة ربه، حيث حسد آدم على مكانته عند ربه، فامتنع عن السجود تكبرًا وعصيانًا لأمر الله سبحانه عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا إلا إبليس استكبر.

وقال الله عنه: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وبالحسد سفك أول دم حرام على وجه الأرض، حيث حسد ابن آدم قابيل أخاه هابيل؛ لأن الله سبحانه تقبّل قربان هابيل الذي قدمه؛ لأنه طيب، ومن نفس طيبة، أما قابيل فلم يقبل منه؛ لأنه أسوأ حالة، ولم يجد بها إلا مكرهًا، وكانت علامة القبول نزول نار فتحرق المقبول، وتترك الذي لم يقبل، فحسد قابيل أخاه فقتله، فأصبح من الخاسرين، وكان عليه وعلى الشيطان كفلٌ من يقتل ظلمًا إلى يوم القيامة[2].

خامسًا: الولاء للأعداء:

حذر القرآن الكريم من موالاة الظالمين ومساندتهم بأي صورة كانت.

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومعنى الآية: أنه يجب عليكم أيها المؤمنون ألا تستندوا إلى الذين ظلموا، وهم المشركون وغيرهم، فتجعلوهم ركنًا لكم تعتمدون عليه، فتقرونهم على ظلمهم، وتوالوهم في شئونكم الحربية وأعمالكم الدينية، فإن الظالمين بعضهم أولياء بعض، وخلاصة ذلك لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم رضيتم على أعمالهم، فإن فعلتم ذلك أصابتكم النار التي هي جزاء الظالمين، بسبب ركونكم إليهم، والاغترار بهم،

(١) انظر: المصدر السابق ٣٠/ ٢٠٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٠٦.

والاعتماد عليهم، والركون إلى الظلم وأهله ظلم[1].

كما أكد القرآن على عدم موالاة الكافرين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء، تفشون إليهم أسراركم، وتطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المكث بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، يقول: إن اختاروا الكفر بالله، على التصديق به والإقرار بتوحيده ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾ يقول: ومن يتخذهم منكم بطانة من دون المؤمنين، ويؤثر المقام معهم على الهجرة إلى رسول الله ودار الإسلام ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يقول: فالذين يفعلون ذلك منكم، هم الذين خالفوا أمر الله، فوضعوا الولاية في غير موضعها، وعصوا الله في أمره»[2].

كما حذّر القرآن الكريم من موالاة اليهود والنصارى؛ لأن في موالاتهم نصرة لهم على الدين وأهله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

سادسًا: ترك التوبة:

إن من يفعل المعاصي ويستمر في فعلها دون الرجوع إلى الله سبحانه والإنابة إليه، يستمرئ هذه المعاصي، ويزيد فيها حتى تصبح ديدنه، فلا زاجر له ولا رادع، ويكون قد ظلم نفسه وغيره؛ لأن التوبة تعتبر رادعًا للظالم عن ظلمه، وقد حذّر القرآن الكريم من عدم التوبة للعاصي، ووسم من يفعل ذلك بالظلم، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

ومعنى ذلك: أن من لم يتب من شروره ومعاصيه فهو ظالم؛ لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأنه رضي لها عقوبة الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك، فكان ظلمه شديدًا جدًّا؛ لذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم، كأنه لا ظالم غيرهم، لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا[3].

فالتوبة واجبة من كل ذنب، وكل من تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله سبحانه يقبل

(١) انظر: تفسير المراغي ١٢/ ٩٣.
(٢) جامع البيان ١٤/ ١٧٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٥٠.

توبته، قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وقد وردت هذه الفاصلة القرآنية بعد الحديث عن عقوبة السارق، وبيّنت أن من تاب من بعد سرقته، وأناب إلى الله سبحانه، ورجع عن فعلته، ورد أموال الناس، وأصلح نفسه، وزكاها بأعمال التقوى والبر، وكانت توبته بنية صادقة، مع العزم على ترك العود، فإن الله يقبل توبته، فلا يعذبه في الآخرة[١].

سابعًا: اتباع الشهوات:

إن حرمات الله سبحانه هي جميع ما حرّم الله سبحانه من حقوق الخالق وحقوق المخلوقين من أشخاص وأزمان وأمكنة، وقد حذّرنا الله سبحانه في أكثر من آية من انتهاك حرماته والتعدي عليها، وجعل ذلك من أكبر الكبائر، واعتبر كل من ينتهك حرمات الله سبحانه ظالمًا، قال تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

قال الطبري في تفسيرها: «يعني تعالى ذكره تلك معالم فصوله بين ما أحل لكم وما حرم عليكم أيها الناس، فلا تعتدوا ما أحل لكم من الأمور التي بينها وفصّلها لكم من الحلال إلى ما حرم عليكم، فتتجاوزوا طاعته إلى معصيته»[٢].

ومما يؤدي إلى انتهاك حرمات الله سبحانه اتباع الشهوات قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٢٧].

فمتّبعو الشهوات هم الفسقة الذين يدورون مع شهوات أنفسهم وينهمكون فيها، فكأنها أمرتهم باتباعها فامتثلوا أمرها، فلا يبالون بما قطعوا من وشائج الأرحام، ولا بما أزالوا من أواصر القرابة، فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة، أما اللذين يفعلون ما يأمر به الدين فليس غرضهم إلا امتثال أوامره، لا اتباع شهواتهم، ولا الجري وراء لذاتهم[٣]، لذا لابد من تقوى الله سبحانه والابتعاد عن انتهاك حرماته؛ لأن ذلك من أسباب الظلم المؤدية إلى نار جهنم.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٦/ ١٨٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ٥٨٣.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٥/ ١٤.

سبل الوقاية من الظلم وطرق العلاج

أولًا: سبل الوقاية من الظلم:

إن الوقاية من الظلم لها سبل متعددة، تؤدي إلى تحقق هذه الوقاية، فإن أخذنا بها اتقينا الظلم، ومن هذه السبل ما يأتي:

١. إشاعة العدل في كل شيء.

يعدّ العدل من العوامل الرئيسة والآداب السامية التي تؤدي إلى الوقاية من الظلم والطغيان، وذلك بنشر العدل بين الناس وعدم التفريق بينهم، فالمظلوم أو المقهور إن لم يستطع نيل حقه بالطرق المشروعة فقد يعلن عن غضبه بقيامه برد الظلم بمثله، ومن هنا ينتشر الظلم المضاد، لذلك كان أمر الله سبحانه بالعدل صريحًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

قال ابن كثير: «فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم بل الزموا العدل على أي حال»[(١)].

٢. صيانة الروابط الاجتماعية من عوامل البغضاء والشحناء.

تحتل الروابط الاجتماعية مكانة مهمة في الإسلام، ولهذا سعى الإسلام إلى العمل على صيانتها، ومعالجة العوامل التي تهدد تماسكها وترابطها، وتقود إلى الشقاق والمنازعات والعداوة والبغضاء، ومن أهم هذه العوامل التي تؤثر سلبًا في العلاقات الاجتماعية: الإشاعة، وهي بث الأخبار بقصد الإفساد بشكل مباشر أو غير مباشر، ولهذا وضع الإسلام منهاجًا خاصًّا لتلقي الأخبار، وذلك لأن الشائعات تفسد بين القلوب، وتحدث الفوضى، وقد تكون سببًا في حدوث كوارث ونكبات في المجتمع بين أفراده.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].

قال الشوكاني: «والمراد من التبين التعرف والتفحص والتبصر في الأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر»[(٢)].

٣. التحكم في الغضب الذي يدفع الناس إلى الظلم.

وجّه الإسلام إلى عدم الغضب، والبعد عن أسبابه، لما له من آثار سلبية على علاقة

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٣٣.
(٢) فتح القدير ٥/ ٧١.

الناس بعضهم ببعض، ولما يسببه من شحناء وبغض قد يكون سببًا في انتشار الظلم في المجتمع، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فمن أجاب داعي الغيظ وتوجه بعزيمة إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال، ولا يكتفي بالحق، بل يتجاوزه إلى البغي، ومن ثم كان من التقوى كظمه[(١)].

٤. الإنكار على الظالم ومنعه من الظلم.

إذا كان الظلم سببًا في هلاك الأمة، فمن الواجب شرعًا الإنكار على الظالم، ومنعه من الظلم، وعدم السكوت عن ظلمه.

عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا ظالمًا فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[(٢)].

أي: إذا لم تمنعوه من ظلمه مع القدرة على منعه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه، ومن الواضح أن الظالم يجب منعه من الظلم والإنكار عليه، ويشمل ذلك الحاكم وغيره من الظلمة.

٥. عدم الركون إلى الظالمين.

وهذا سبيل من سبل الوقاية من الوقوع في الظلم، أو شيوعه وانتشاره، وما يترتب على ذلك من العقاب أو الهلاك بالأمة، وهو عدم الركون إلى الذين ظلموا بأي نوع من أنواع الركون إليهم، حتى يعجزوا أو يضعفوا عن ارتكاب الظلم، لا سيما الحكام الظلمة؛ لأنهم لا يرتكبون المظالم إلا بأعوانهم، وبسكوت أهل الحق عنهم، أو بركونهم إليهم.

قال تعالى محذِّرًا من الركون إلى الذين ظلموا: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومعنى الآية: لا تميلوا إلى قول هؤلاء الذين كفروا بالله فتقبلوا منهم، وترضوا أعمالهم، فتمسكم النار بفعلكم ذلك[(٣)].

وقال الزمخشري: «والنهي متناول للانحطاط في هواهم والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم في مجالسهم، وزيارتهم ومهادنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم،

(١) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٧١.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم ٣٠٥٧، ٥/ ٢٥٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٠٠.

وذكرهم بما فيه تعظيم لهم»[1].

٦. عدم إعانة الظالم على ظلمه.

إن أعوان الظالم هم ظلمة مثله، فلا يجوز إعانة الظالم؛ لأنه إذا كان الركون بجميع أشكاله وأنواعه لا يجوز، فما يكون فيه إعانة للظالم أولى أن لا يجوز، والواقع أن الحاكم الظالم إنما يتمكن من ظلمه بمعاونة أعوانه وأتباعه، وليس بنفسه فقط، فالمعاونة له بأي شكل من أشكالها لا تجوز، لأنها تقوية له ومساعدة له لتنفيذ ظلمه، ولهذا إذا نزل العذاب بالحاكم الظالم نزل بأعوانه أيضًا، لأنهم مثله ظالمون، كما حصل لفرعون وأعوانه.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

أي جمعنا فرعون وجنوده من القبط فألقيناهم جميعًا في البحر[2].

ثانيًا: طرق علاج الظلم:

إن علاج الظلم له طرق ووسائل متعددة، تؤدي إلى علاجه، فإن أخذنا بها فقد عالجنا هذا المرض العضال، ومن هذه الطرق والوسائل ما يأتي:

(١) الكشاف ٣/ ٤٣٥.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٠/ ٦١.
وانظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص١٢٠.

١. معايشة القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وذلك لأن القرآن أسهب في الحديث عن الظلم والظالمين، وبيّن جرائمهم وعواقب هذه الجرائم، وكذلك سنة رسولنا صلى الله عليه وسلم، وحسبنا أن الرسل والرسالات كانت من أجل رفع الظلم عن المظلومين، أو مداوة الظالمين أو تخويفهم عاقبة ظلمهم، وإقامة الحجة عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

معنى ذلك: أن كثيرًا من أهل القرى أهلكناهم بكفرهم بالله وتكذيبهم رسله، ثم أنشأنا بعد إهلاكهم أممًا أخرى سواهم[3].

٢. التوبة النصوح.

وذلك بالإقلاع الفوري عن الظلم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم: ٨].

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٤٣.

وقد أمر الله سبحانه بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات، والفوز والفلاح حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه ويتمتعون بروحه وراحته، والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله[1].

وشروط التوبة أربعة:

١. الإقلاع عن الذنب.
٢. الندم على ما مضى.
٣. العزم على ألا يعود إليه.
٤. رد الحقوق إلى أهلها[2].

٣. التذكير بعواقب وآثار الظلم وأخذ العبرة والعظة.

إن تذكير الظالمين بعواقب وآثار الظلم قد يؤدي إلى رجوعهم عن ظلمهم، وقد حث القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ومعنى الآية: أن الله سبحانه أمر بني إسرائيل أن يعظّموه ويحترموه ولا يصيدوا يوم السبت صيدًا فابتلاهم الله وامتحنهم، وانقسموا في ذلك ثلاث فرق، معظمهم اعتدوا وتجرؤوا على مخالفة أمر الله تعالى، وفرقة أنكرت عليهم ونهتهم عن ذلك، وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم، وقالوا لهم: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيحة، بل استمر في اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله إما بإهلاك أو عذاب شديد، فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم لنعذر فيهم، ولعلهم يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نيأس من هدايتهم، فربما أثر فيهم هذا الوعظ واللوم، وهذا هو المقصود الأعظم من إنكار المنكر، ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي[3].

٤. تربية ملكة المراقبة لله في السر والعلن.

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

والمراد: أن الذي يخاف ربه، ويقوم على أوامره فيترك ما نهى عنه، ويفعل ما يؤمر، له جنتان من ذهب، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات[4].

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٤.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٧٧.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٣٠٦ ص
(٤) انظر: المصدر السابق ص ٨٣١.

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

٥. الدعاء.

وهو أهم علاجٍ في رفع الظلم، وهو الباب الواسع الذي لا يقفل، فلا بد للمظلوم أن يلتجئ إلى الله بالدعاء والدعوة على الظالم؛ إذ ليس بينها وبين الله سبحانه حجاب، وقد وعد الله سبحانه له بنصرها عاجلًا أو آجلًا.

قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

يقول ابن كثير في تفسير الآية: «أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك»[(١)].

فالدعاء سلاح يقصم به الله ظهر المتجبّرين، ويزلزل به عروش المتعالين، وينسف به صولة المتطاولين، ولكن إذا تأخرت إجابة دعوة المظلوم فما هي إلا فرصة متاحة للظالم لكي يراجع نفسه، ويحاسبها على فعلته هذه، حتى يعيد للمظلوم حقه، ويعتذر إليه عما بدر منه، ويتوب إلى الله من هذا العمل.

آثار الظلم وعاقبته في الدنيا

إن للظلم آثارًا وعواقب تعصف بالمجتمع، وتجلب له ما يسؤوه في جميع الميادين، وتظهر تلك الآثار السلبية من خلال ما يأتي:

أولًا: ذهاب الأمن.

حيث إن الظالم يعيش ليله ونهاره بخوف وقلق دائم خوفًا من انتقام المظلومين، فيعمل على تأمين نفسه خوفًا من بطشهم، وهو جاهل بأن العدل هو الذي يجلب الأمن لا الظلم، وقد أكد ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقد جاء لفظ (بظلم) نكرة في سياق النفي بـ(لم) وفي ذلك دلالة على أنها تعم جميع أنواع الظلم، فكل من كان مبتعدًا عن الظلم فله نصيب من هذه العاقبة، وهي الأمن والاهتداء، فإذا كان العبد ممن يخلط ظلمًا بصلاحٍ وعدلٍ، كان الأمن عنده في داخله، أو في مجتمعه بقدر انتفاء الظلم، ولهذا كلما كثرت الكبائر والخبث ومخالفة دين الله سبحانه، كلما انتزع الأمن من العباد[(٢)].

ثانيًا: الجدب والقحط.

وهذا ما بيّنته سورة النحل عند قوله

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٧٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧ ٣٣٣.

تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَٰقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

يقول الزحيلي: «ذكر الله صفة قرية للعبرة، كانت بأهلها آمنة من العدو، مطمئنة لا يزعجها خوف، يأتيها رزقها الوافر رغدًا: أي: هنيئًا سهلًا واسعًا من سائر البلاد، فكفر أهلها بنعم الله، (أي: جحدوا) بها، فعمهم الله بالخوف والجوع، وبدلوا بأمنهم خوفًا، وبغناهم فقرًا، وبسرورهم ألمًا وحزنًا، وذاقوا مرارة العيش بعد سعته بسبب أفعالهم المنكرة، وجاءهم رسولٌ من جنسهم فكذبوه فيما أخبرهم به، مع أنه رسولٌ إليهم، مبلّغ عن ربه بأن يعبدوه ويطيعوه، ويشكروه على النعمة، وتمادوا في كفرهم وعنادهم، فعذّبوا بعذاب الاستئصال الشامل حال كونهم ظالمين أنفسهم بالكفر وتكذيب الرسل، متلبسين بالظلم وهو الكفر والمعاصي، وما ظلمهم الله أبدًا»[1].

ثالثًا: الحرمان من الهداية والفلاح واستحقاق اللعنة.

بيّن القرآن أن الظالمين لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تتخلّف سنة الله عنهم، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

ومعنى الآية: أن الله سبحانه لا يرشد للصواب، ويوفق للإيمان قومًا جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد تصديقهم إياه، وإقرارهم بما جاء به من عند ربه، وبعد أن أقروا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى خلقه حقًّا، وجاءهم الحجج من عند الله والدلائل بصحة ذلك، والله لا يوفق للحق والصواب كل الظلمة، الذين بدّلوا الحق إلى الباطل، فاختاروا الكفر على الإيمان[2].

رابعًا: تحريم الطيبات.

إن حياة الظالمين تنقلب من السعة والطمأنينة، والأمن إلى الضيق والخوف، والهلع والجزع والقلق، ولم يحدث هذا إلا بسبب ظلمهم، وقد بيّن القرآن الكريم نماذج للاعتبار.

ومن ذلك: ما حصل مع اليهود حيث قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا

(١) التفسير المنير ١٤/ ٢٥١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٧٦.

﴿أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

والمعنى: أنه بسبب ظلمهم استحقوا تحريم طيبات كانت محللة لهم ولمن قبلهم، عقوبة وتربية لهم، لعلهم يرجعون عن ظلمهم، وأبهم الظلم الذي كان سببًا في العقوبة ليعلم أن أي نوعٍ فيه يكون سببًا للعقاب في الدنيا قبل الآخرة، والعقاب إما دنيوي: كالتكاليف الشاقة زمن التشريع، والجزاء الوارد في الكتب على الجرائم كالحد والتعزير، وما اقتضته السنن التي سنها الله في نظم الاجتماع من كون الظلم سببًا لضعف الأمم وفساد عمرانها، واستيلاء الأمم الأخرى عليها، وعذاب أخروي من العذاب في النار[1].

خامسًا: خراب البيوت.

إن الله سبحانه يخرّب بيوت الظالمين وديارهم بسبب ظلمهم.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٢].

فبسبب ظلمهم أنفسهم أنزل الله العذاب بهم، فأصبحت مساكنهم خالية، وفي هذا العقاب عبرة وموعظة لأناسٍ أهل معرفة وعلم، يعلمون بسنة الله في خلقه، وبأن النتائج مرتبطة بالأسباب، فالويل كل الويل لمن كفر بالله وكذب رسله، ولم يقلع عن طغيانه وعناده وكفره[2].

ومن خراب البيوت أيضًا: أن يسلّط الله سبحانه على الظالمين من يظلمهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

ومعنى ذلك: أن الله يسلّط بعضهم على بعض، يسلّط ظالمًا على ظالمٍ سابق فيهلكه ويذلّه، وهذا تهديد للظالم إذا لم يمتنع عن ظلمه بأن يسلّط الله عليه ظالمًا آخر، ويدخل في هذه الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الناس[3].

سادسًا: سقوط دولة الظلم.

قصّ القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم العديد من قصص الأمم السابقة التي خالفت أنبياءها، فظلمتهم وظلمت نفسها، فما كان من الله سبحانه إلا أن انتقم منهم، وأهلكهم بسبب أفعالهم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ

(١) انظر: تفسير المراغي ٦/ ١٧.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٩/ ٣٢٠.

(٣) انظر: المصدر السابق ٨/ ٤٦.

﴿لَمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢]

ومن النماذج القرآنية التي تدلّل على ذلك: ما حصل لقوم نوح وعادٍ وثمود وقوم لوط وشعيب وفرعون وجنوده، وغير ذلك من النماذج التي بيّنت أن دولة الظلم إلى زوال، وسنعرض لبعض هذه النماذج بشيء من البيان، وهي كما يأتي:

- قوم نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩-١٥].

ذكر الله سبحانه حال المكذّبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم ولا تجدي عنهم شيئًا، ونوحٍ عليه السلام هو أول رسول بعثه الله سبحانه إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه وعبادته، فلم يزدهم هذا الدعاء إلا عنادًا واستكبارًا، وقدحًا في نبيهم، وانصرفوا عما جاء به، واعتبروه جهلًا وضلالًا لا يصدر إلا عن المجانين، وعنّفه قومه وزجروه وآذوه، وهذا حال جميع الرسل مع أقوامهم، فعند ذلك دعا نوح عليه السلام ربه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، حيث التقى ماء السماء الذي كان ينزل بشكل خارق للعادة مع الماء المتفجر عيونًا من الأرض، ونجى الله نوحًا عليه السلام ومن آمن معه، ومن حملهم معه من أصناف المخلوقات برعايته سبحانه، ولقد ترك الله سبحانه قصة نوح عليه السلام مع قومه آية، يتذكر بها المتذكرون على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعذاب شديد[1].

- قوم لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣٥.

لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٥].

بيّن القرآن الكريم ما حصل مع هؤلاء القوم الذين خالفوا السنن الإلهية، فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، فأنكر عليهم نبيهم لوط عليه السلام ذلك موبخًا لهم: أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت الغاية في القبح والفحش، ما عملها أحد قبلكم في أي زمان، بل هي من مبتدعاتكم في الفساد، فأنتم فيها أسوة وقدوة فتبوءون بإثمها وإثم من اتبعكم فيها إلى يوم القيامة.

وكل ذلك لأن ما اجترحوه من السيئات مخالف لمقتضيات الفطرة، فلما جاء عذاب الله سبحانه أمطر عليهم حجارة من طين متحجر، يرسل بعضه إثر بعض، ليرجموا رجم الزناة، وهذا يتناسب مع فعلتهم التي فعلوها، فالجزاء من جنس العمل، وهذه الحجارة يستحقها هؤلاء بسبب ظلمهم ومخالفتهم لفطرة الله التي فطر الناس عليها[1].

❁ قصة صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٨].

أرسل الله سبحانه صالحًا عليه السلام إلى ثمود، ومعه حجة واضحة على صدق نبوته، وهي ناقة الله سبحانه التي خلقها لتكون علامة على صدق رسالة صالح عليه السلام، وهي حجة على قومه إن حفظوها وأطلقوا لها رعيها وسقياها حفظوا، وإن غدروا بها أهلكوا، ولذا قال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: بضرب ولا بطرد ولا بشيء من الأذى إكرامًا لآية الله سبحانه، ولو أصابها سوء سيأخذكم عذاب أليم في

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٢٥.

الدارين، لجرأتكم على آيات الله، فرفضوا الانصياع لصالح عليه السلام، ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أي نحروها، واستكبروا عن امتثال أوامره، وهو عبادته وحده، وعدم مس الناقة بسوء، وزادوا في الاستهزاء، وطلبوا من صالح عليه السلام أن يأتيهم بما وعدهم من العذاب جزاء عقر الناقة، فأخذتهم الصيحة التي يحصل منها الزلزلة الشديدة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، ساقطين على وجوههم، هامدين لا يتحركون، ميتين بسبب ما فعلوه من قتل الناقة، وهذه الصيحة والزلزلة التي حدثت لهم من آثار الريح المرسلة التي كانت رحمة، فانقلبت عذابًا، وهكذا يكون جزاء الظالمين[1].

عاقبة الظلم في الآخرة

إن الظلم ينعكس على نفس الظالم، حيث إنه يسبّب له ولأتباعه العديد من العقوبات الأخروية، ومن هذه العقوبات ما يأتي:

١. الكرب والهوان عند سكرات الموت.

فقد بيّن الله سبحانه صورة الظالمين، وما يحل بهم عند سكرات الموت من كرب وهوان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

يقول السعدي: «لما ذم الله الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار ويوم القيامة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي شدائده وأهواله الفظيعة وكربه الشنيعة لرأيت أمرًا هائلًا، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لأولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم، وقلقها وتعصيها للخروج من الأبدان ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٢٥.

أي العذاب الشديد الذي يهينكم ويذلكم، والجزاء من جنس العمل»[1].

٢. المهانة والذلة يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١].

والمعنى: لو ترى أيها الرسول فظاعة حالهم يوم القيامة، وما هم فيه من مهانة وذلة، يحاور بعضهم بعضًا، ويتلاومون على ما كان بينهم من سوء الأعمال، والسبب الذي أوقعهم في هذا النكال والوبال، لرأيت العجب العاجب، والمنظر المخزي للظالمين وأتباعهم[2].

٣. العذاب المستمر المقيم بلا انقطاع ولا توقف.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا العذاب في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

قال السعدي: «أي في سوائه ووسطه منغمرين لا يخرجون منه أبدًا»[3].

٤. منع الافتداء من العذاب.

وقد بيّن الله سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨].

والمعنى: أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم لو أن لهم ما في الدنيا من أموالها وزينتها ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ مضاعفًا ليقبل ذلك منهم عوضًا من أنفسهم، لفدوا بذلك كله أنفسهم عوضًا من عذاب الله الذي أعده لهم، ولم يكونوا قبل ذلك يحتسبون أنه أعده لهم[4].

٥. تمني الرجوع إلى الدنيا من شدة العذاب.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

والمعنى: أن هؤلاء الظالمين لما رأوا منظر العذاب فظيعًا صعبًا شنيعًا أظهروا الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: هل لنا من طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، فنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن حدوثه[5].

٦. اقتطاع حق المظلوم من الظالم.

إن الله سبحانه يقتص للمظلوم من

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٦٤.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٢/ ٨٥
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٠٢.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦١.

الظالم يوم القيامة، وقد أكد ذلك ما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها من قبل أن يؤخذ من حسناته، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه)[1] .

يقول ابن حجر: «يقتص للمظلوم من الظالم حتى يأخذ منه بقدر حقه، وهذا متفق عليه»[2].

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الإنصاف، البخس، الطغيان، العدل، العفو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم ٦٥٣٤، ٨/ ١١١.

(٢) فتح الباري ٨/ ١١١.

الظُّلمات

عناصر الموضوع

مفهوم الظلمات	٣٢٦
الظّلمات في الاستعمال القرآني	٣٢٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٨
أنواع الظلمات	٣٣٠
وسائل النجاة من الظلمات الحسية	٣٣٨
وسائل النجاة من الظلمات المعنوية	٣٤١
عاقبة البقاء في الظلمات	٣٤٨

مفهوم الظلمات

أولًا: المعنى اللغوي:

ظلم: الظّاء واللّام والميم أصلان صحيحان، أحدهما: خلاف الضّياء والنّور، والآخر- وضع الشّيء غير موضعه تعدّيًا، فالأول: الظّلمة، والجمع ظلماتٌ، والظّلام: اسم الظّلمة، وقد أظلم المكان إظلامًا، والأصل الآخر: ظلمه يظلمه ظلمًا، والأصل الثاني: وضع الشّيء في غير موضعه.

والظّلمة: ضدّ النّور، وضمّ اللّام لغةٌ، وجمع الظّلمة: ظُلَمٌ وظُلُماتٌ وظُلَماتٌ وظُلُماتٌ، بضمّ اللّام وفتحها وسكونها، وقد (أظلم) اللّيل، والظّلماء: الظّلمة، وربّما وصف بها، يقال: ليلةٌ ظلماء، أي: مظلمةٌ، وأظلم القوم دخلوا في الظّلام[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الظلمة: عدم الضوء فيما من شأنه أن يكون مضيئًا»[2]، والظلمة هي: «ما يظلم عليك من الأفق، أو المكان، أو الأمر»[3].

وبالتأمل يلحظ أنه يوجد تلازم وصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦٨، مختار الصحاح، الرازي١/ ١٩٧.
(٢) التعريفات ص١٤٤.
(٣) تفسير غريب القرآن، كاملة الكواري ص٤٥٧.

الظّلمات في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ظلم) في القرآن على صيغ متعددة، بلغت(٣١٥) مرة، يخص موضوع البحث منها(٢٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة:٢٠]
اسم الفاعل	٢	﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس:٢٧]
الجمع	٢٣	﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة:١٧]

وجاءت الظّلمات في الاستعمال القرآني على أربعة أوجه[٢]:

الأول: أهوال البر والبحر، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٦٣].يعني: أهوال البرّ والبحر.

الثاني: الظّلمات المعروفة، وهي ضد النور، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر:٦]. يعني: ظلمة البطن والرّحم والمشيمة.

الثالث: الشرك، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. يعني: من الشرك إلى الإيمان.

الرابع: الليل، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]. يعني: جعل الليل والنهار.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٧٢٩-٧٣٥.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٧٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٢٣-٤٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ النور:

النور لغةً:

قال ابن فارس: «النون والواو والراء أصلٌ صحيح يدلّ على إضاءةٍ واضطراب وقلّة ثبات، منه النور والنار، سمّيا بذلك من طريقة الإضاءة، ولأنّ ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة»[١].

النور اصطلاحًا:

قال الراغب: «النّور: الضّوء المنتشر الذي يعين على الإبصار»[٢].

الصلة بين النور والظلمات:

هما ضدان فلا يجتمعان، فالنور ضوء يعين على رؤية الأشياء، والظلمة ليس فيها كذلك، كما أن النور واحد لا يتعدد، والظلمات كثيرة ومتعددة.

٢ الضياء:

الضياء لغةً:

هو جمع ضوء كسوط وسياط، أو مصدر ضاء ضياءً كقام قيامًا، والضَّوء والضُّوء بالضّمّ، وضاءت النّار تضوء ضَوءًا وضُوءًا، وأضاءت غيرها، فالفعل يكون لازمًا ومتعديًا[٣].

الضياء اصطلاحًا:

هو: «اسم لهذه الكيفيّة إذا كانت كاملة تامّة قويّة»[٤]، وقال الراغب: «الضّوء: ما انتشر من الأجسام النّيّرة»[٥].

الصلة بين الضياء والظلمات:

هما ضدان فلا يجتمعان، فالضياء شدة الإنارة، والظلمات شدة العتمة.

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٢٩٤.
(٢) المفردات ص٨٢٧.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٨٦.
(٤) الكليات، الكفوي ص٥٧٨.
(٥) المفردات ص٥١٤.

٣ الليل:

الليل لغةً:

هو ضدّ النّهار وخلافه[١]، وهو الظلام الذي يحلّ فيه[٢]، وتبتدئ فترته الزّمنيّة من غروب الشمس إلى طلوعها.

الليل اصطلاحًا:

هو «من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق»[٣].

الصلة بين الليل والظلمات:

هناك علاقة اقتران بين الظلمة والليل، فالظلام مقترن بالليل، كالضياء مقترن بالنهار.

(١) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٣١٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٢٥، لسان لعرب، ابن منظور، ٨/ ١٧٨.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٣١٨، لسان لعرب، ابن منظور ٨/ ١٧٨.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٢٠.

أنواع الظلمات

تنقسم الظلمات إلى ظلمات حسية وظلمات معنوية، نتناول بيانها فيما يأتي:

أولًا: الظلمة الحسية:

١ . ظلمات البر والبحر.

قال عز وجل الهادي للسّير في الظّلمات بما خلق في الإنسان من المدارك، وبما خلق في السماء والأرض من دلائل: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

أي: بما خلق من الدّلائل السّماويّة والأرضيّة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧][(١)].

«والناس -ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن- يسلكون فجاج البر والبحر في أسفارهم، ويسبرون أسرار البر والبحر في تجاربهم، ويهتدون، فمن يهديهم؟ من أودع كيانهم تلك القوى المدركة؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات وبالمعالم؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون، وطاقاتهم بأسراره؟ من جعل لآذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للانتفاع بكل المدركات، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات؟ من؟ أإله مع الله؟»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ظلمات الأرض بطونها، وقيل: الصّخرة الّتي هي أسفل الأرضين السّابعة[(٣)]. «أي: في الأمكنة المظلمة»، وقيل: «في بطن الأرض»[(٤)].

«وقيل: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملكٌ موكّلٌ، يأتي اللّه بعلمها، رطوبتها إذا رطبت، ويبوستها إذا يبست»[(٥)].

وقيل: «وما تسقط من حبّةٍ بفعل فاعلٍ مختارٍ في ظلمات الأرض كالحبّ الّذي يلقيه الزّرّاع في بطون الأرض يسترونه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٥٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٥.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٤٠.
(٥) جامع البيان، الطبري ٥/ ٢١١.

بالتّراب فيحتجب عن نور النّهار، والّذي تذهب به النّمل وغيرها من الحشرات في قراها وجحورها»[1].

وقيل: «وفي ظلمات الأرض صفةٌ لـ(حبّةٍ) أي: ولا حبّةٍ من بذور النّبت مظروفةٍ في طبقات الأرض إلى أبعد عمقٍ يمكن»[2].

وقد عبر بـ(في الظّلمات) الدّالّة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسّسه فيه.

وقال تعالى للمشركين: أعبادة ما تشركون بالله خير أم الذي يرشدكم في ظلمات البر والبحر إذا ضللتم فأظلمت عليكم السبل؟! قال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

وقال تعالى آمرًا رسوله: قل أيها الرسول للمشركين: من تدعون إذا أخطأتم الطّريق وخفتم الهلاك؟ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[الأنعام: ٦٣].

روى الطبري بسنده عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: «يقول: إذا أضلّ الرّجل الطّريق دعا اللّه ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]»[3].

وظلمات البرّ والبحر يراد به: شدائدهما، فهو لفظ عام يستغرق ما كان من الشدائد بظلمة حقيقية، وما كان بغير ظلمة، والعرب تقول: عام أسود، ويوم مظلم، ويوم ذو كواكب ونحو هذا، يريدون به الشدة، قال قتادة رحمه الله: «المعنى من كرب البر والبحر»[4].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ ظلمة اللّيل الّتي يلتبس فيها الطّريق للسّائر، والّتي يخشى فيها العدوّ للسّائر وللقاطن، أي: ما يحصل في ظلمات البرّ من الآفات.

و(ظلمات البحر) يخشى فيها الغرق والضّلال والعدوّ، وقيل: أطلقت الظّلمات مجازًا على المخاوف الحاصلة في البرّ والبحر، كما يقال: يومٌ مظلمٌ إذا حصلت فيه شدائد»[5].

فحيثما «وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا في أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين، إن الفطرة تتعرى حينئذٍ من الركام، فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها، حقيقة الألوهية الواحدة، وتتجه إلى الله الحق بلا شريك؛ لأنها تدرك حينئذٍ سخافة فكرة الشرك، وتدرك انعدام الشريك»[6].

(١) المنار، رشيد رضا ٧/ ٣٨١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٧٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٩٥.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٠٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٨١.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٢٤.

٢. ظلمات البطون.

قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ «يعني بالظلمات الثلاث: بطن أمه، والرحم، والمشيمة»[١].

قال سيد قطب رحمه الله عن الظلمات الثلاث: «ظلمة الكيس الذي يغلّف الجنين، وظلمة الرحم الذي يستقر فيه هذا الكيس، وظلمة البطن الذي تستقر فيه الرحم، والله يخلق هذه الخلية الصغيرة خلقًا من بعد خلق، وعين الله ترعى هذه الخليقة وتودعها القدرة على النمو، والقدرة على التطور، والقدرة على الارتقاء، والقدرة على السير في تمثيل خطوات النفس البشرية كما قدّر لها بارئها.

وتتبّع هذه الرحلة القصيرة الزمن، البعيدة الآماد، وتأمّل هذه التغيرات والأطوار، وتدبّر تلك الخصائص العجيبة التي تقود خطى هذه الخلية الضعيفة في رحلتها العجيبة، في تلك الظلمات، وراء علم الإنسان وقدرته وبصره.

هذا كله من شأنه أن يقود القلب البشري إلى رؤية يد الخالق المبدع، رؤيتها بآثارها الحية الواضحة الشاخصة، والإيمان بالوحدانية الظاهرة الأثر في طريقة الخلق والنشأة، فكيف يصرف قلب عن رؤية هذه الحقيقة؟»[٢].

ظلمات البطون في العلم الحديث:

يقول العلماء: «يحاط الجنين في داخل الرحم بمجموعة من الأغشية هي من الداخل إلى الخارج كما يلي: غشاء السلي أو الرهل (amnion)، والغشاء المشيمي (chorion)، والغشاء الساقط (decidua)، وهذه الأغشية الثلاثة تحيط بالجنين إحاطة كاملة، فتجعله في ظلمة شاملة هي الظلمة الأولى، ويحيط بأغشية الجنين جدار الرحم، وهو جدار سميك يتكون من ثلاث طبقات تحدث الظلمة الكاملة الثانية حول الجنين وأغشيته.

والرحم المحتوي على الجنين وأغشيته في ظلمتين متتاليتين، يقع في وسط الحوض، ويحاط إحاطة كاملة بالبدن المكون من كل من البطن والظهر، وكلاهما يحدث الظلمة الثالثة»[٣].

ظلمات بطن الحوت: قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٥٨.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤٠.

(٣) الموقع الشخصي للدكتور زغلول النجار: www.elnaggarzr.com.

﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: «معترفًا بذنبه، تائبًا من خطيئته»[(١)]، وعن قتادة رحمه الله قال: «ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل»[(٢)].

روى الترمذي بسنده عن سعدٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النّون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنّه لم يدع بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطّ إلّا استجاب اللّه له)[(٣)].

٣. ظلمات السحاب.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يعني بالظلمات: الأعمال، وبالبحر اللجّي: قلب الإنسان، قال: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾، قال: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر»[(٤)].

ونور الله هدى في القلب، وتفتح في البصيرة، واتصال في الفطرة بنواميس الله في السماوات والأرض، والتقاء بها على الله نور السماوات والأرض.

فمن لم يتصل بهذا النور فهو في ظلمة لا انكشاف لها، وفي مخالفة لا أمن فيها، وفي ضلال لا رجعة منه، ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب؛ لأنه لا عمل بغير عقيدة، ولا صلاح بغير إيمان، إن هدى الله هو الهدى، وإن نور الله هو النور[(٥)].

قال ابن القيم رحمه الله: «ذكر سبحانه للكافرين مثلين: مثلًا بالسّراب، ومثلًا بالظّلمات المتراكمة؛ وذلك لأنّ المعرضين عن الهدى والحقّ نوعان...، النّوع الثّاني: أصحابٌ مثل الظّلمات المتراكمة، وهم الّذين عرفوا الحقّ والهدى، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضّلال، فتراكمت عليهم ظلمة الطّبع، وظلمة النّفوس، وظلمة الجهل، حيث لم يعملوا بعلمهم، فصاروا جاهلين، وظلمة اتّباع الغيّ والهوى، فحالهم كحال من كان في بحرٍ لجّيٍّ لا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٦/ ٣٨٤.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/ ٥١٧.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب منه، ٥/ ٤٠٩، رقم ٣٥٠٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٦٣٧، رقم ٣٣٨٣.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ١٩٨.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢١.

ساحل له، وقد غشيه موجٌ، ومن فوق ذلك الموج موجٌ، ومن فوقه سحابٌ مظلمٌ، فهو في ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السّحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظّلمات الّتي لم يخرجه اللّه منها إلى نور الإيمان.

وهم أيضًا أصحاب العلم الّذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة؛ ولهذا مثّل لحالم في تلاطم أمواج الشّكوك والشّبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنّها أمواجٌ متراكمةٌ من فوقها سحابٌ مظلمٌ، وهكذا أمواج الشّكوك والشّبه في قلوبهم المظلمة الّتي قد تراكمت عليها سحب الغيّ والهوى والباطل.

وأخبر سبحانه أنّ الموجب لذلك أنّه لم يجعل لهم نورًا، بل تركهم على الظّلمة الّتي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النّور؛ فإنّه سبحانه وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور»[1].

وفي هذا المعنى روى عبد اللّه بن عمر أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ اللّه خلق خلقه في ظلمةٍ، وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النّور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ؛ فلذلك أقول: جفّ القلم على علم اللّه)[2].

(١) إعلام الموقعين ١/ ١٢٢.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، ٤/ ٣٢٣، رقم ٢٦٤٢.

٤. ظلمة الليل.

أقسم سبحانه وتعالى بالليل عندما يغطي الأرض فيكون ما عليها مظلمًا، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١].

وأقسم بالليل إذا سكن بالخلق، واشتد ظلامه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢].

ولقّن سبحانه وتعالى بـ(قل) التلقينية الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول للناس: أخبروني -أيها الناس- إن جعل الله عليكم الليل دائمًا إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بضياء تستضيئون به؟ أفلا تسمعون سماع فهم وقبول؟

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

ثانيًا: الظلمات المعنوية:

العبد إذا سدّ أمام أذنه وعينه وقلبه أنوار الهدى، عاش في ظلمات الكفر والنفاق والجهل.

١. ظلمة الكفر والنفاق.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ

وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٣٧، رقم ١٠١.

نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[البقرة: ١٧].

هذه الآيات نزلت في المنافقين، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفأ ورأى ما حوله، فاتّقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، فبقي في ظلمة خائفًا متحيّرًا؛ فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أمنوا على أموالهم، وأولادهم، وناكحوا المؤمنين، ووارثوهم، وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف»[(١)].

شبّه سبحانه وتعالى في الآية «أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا؛ لتضيء لهم، وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم وما يضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق، فأوقدوا النار تضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا، وعرفوا طفئت عنهم تلك الأنوار، وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سدّت عليهم أبواب الهدى الثلاث، فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب، مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم شيئًا، ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها، وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، نزّلوا منزلة من لا سمع له، ولا بصر، ولا عقل، والقولان متلازمان»[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ حذف مفعول ﴿يُبْصِرُونَ﴾ إيذانًا بالعموم، أي: لا يبصرون مسلكًا من مسالك الهداية، ولا يرون طريقًا من طرقها؛ لأنّه صرف عنايته عنهم بتركهم سنّته، وإهمالهم هدايته، ووكلهم إلى أنفسهم.

وقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

فشبّه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم من النور والحياة بنصيب أصحاب الصيّب، وهو المطر الذي يصوب، أي: ينزل من علو إلى سفل، فشبّه الهدى الذي هدى به عباده بـ (الصيب)؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وشبّه نصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك، مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد، والشجر والدواب، فإن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٣.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص١٢٠.

الانتفاع بذلك الصيب.

فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق، ولوازم ذلك: من برد شديد، وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يئول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب، وهذه حال أكثر الخلق إلا من صفت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق، والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام، ومعاداة من يخاف معاداته لم يقدم عليه؛ لأنه لم يشهد ما يئول إليه من العواقب الحميدة، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون.

وحال هؤلاء حال الضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول إلا من بلغ مبلغ الرجال العقلاء الألبّاء، وأدرك الحق علمًا وعملًا ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب، وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود»[1].

وتأمل قول سيد قطب في تصوير مشهد هؤلاء رحمه الله: «إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء.

صيِّبٌ من السماء هاطل غزير ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ﴾[البقرة: ١٩].

قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾[البقرة: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾[البقرة: ٢٠].

أي: وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون! وهم مفزعون: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾[البقرة: ١٩].

إن الحركة التي تغمر المشهد كله من الصيب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة التي تقف عند ما يخيم الظلام، إن هذه الحركة في المشهد لترسم -عن طريق التأثر الإيحائي- حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون، بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين، بين ما يقولونه لحظة، ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدى ونور، وما يفيئون إليه من

(١) المصدر السابق ص١٢٤.

ضلال وظلام، فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية، ويجسم صورة شعورية.

وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس، وعندما يتم استعراض الصور الثلاث يرتد السياق في السورة نداء للناس كافة، وأمرًا للبشرية جمعاء أن تختار الصورة الكريمة المستقيمة، الصورة النقية الخالصة، الصورة العاملة النافعة، الصورة المهتدية المفلحة»[1].

وفي الآية: أن لضرب الأمثال شأنًا في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتّى تريك المتخيّل في صورة المحقّق، والمتوهّم في معرض المتيقّن، والغائب كالمشاهد، فليكثر منه العلماء والمربون.

٢. ظلمة الجهل.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام: ٣٩].

أي: مثلهم في جهلهم، وقلّة علمهم، وعدم فهمهم، كمثل أصمّ، وهو الّذي لا يسمع، أبكم وهو الّذي لا يتكلّم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق؟ أو يخرج مما هو فيه؟[2].

«إن الذين كذّبوا بآيات الله هذه المبثوثة في صفحات الوجود، وآياته الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن إنما كذبوا؛ لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطّلة، إنهم صُمٌّ لا يسمعون، بُكْمٌ لا يتكلمون، غارقون في الظلمات لا يبصرون! إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثماني المادي، فإن لهم عيونًا وآذانًا وأفواهًا، ولكن إدراكهم معطل، فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل! وإنه لكذلك فهذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها، لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك! وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته، فلم يعد صالحًا لحياة الهدى، ولم يعد أهلًا لذلك المستوى الراقي من الحياة»[3].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٢٨.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٠٨١.

وسائل النجاة من الظلمات الحسية

بيّن القرآن وسائل النجاة من الظلمات الحسية، وسوف نتناولها بالشرح فيما يأتي:

أولًا: ضوء النهار:

أقسم سبحانه وتعالى بالشمس ونهارها، وإشراقها ضحى، وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى، في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش، وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها، فالشمس في الضحى في أروق أوقاتها وأصفاها، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١].

وابتدئ بالشّمس لمناسبة المقام إيماءً للتّنويه بالإسلام؛ لأنّ هديه كنور الشّمس لا يترك للضّلال مسلكًا، وفيه إشارةٌ إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشّمس في الأفق[1].

وقد أخبر سبحانه أنه جعل الشمس مصباحًا مضيئًا يستضيء به أهل الأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وأخبر سبحانه على نفوذ مشيئته، وكمال قدرته في إزالة الضياء الذي طبّق الأرض فيبدله ظلامًا، وكذلك يزيل الظلمة التي عمتهم وشملتهم فتطلع الشمس فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومصالحهم، فقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

وفي الآيات تنبيه على عظم خلق الشمس، وكثرة منافعها الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم يستحق أن يعظّم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي جعل الشمس مضيئة نهارًا، والقمر منيرًا ليلًا.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

قال العلماء: «عند مرور ضوء الشمس في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض يتعرض للعديد من عمليات الامتصاص والتشتت والانعكاس على كل من هباءات الغبار، وقطيرات الماء وبخاره، وجزيئات الهواء الموجودة بتركيز عالٍ نسبيًا في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض، فيظهر بهذا اللون الأبيض المبهج الذي يميز فترة النهار، كذلك يتعرض ضوء الشمس للعديد من عمليات التشتت والانعكاس عندما يسقط على سطح القمر المكسو

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٦٧.

بالعديد من الطبقات الزجاجية الرقيقة والناتجة عن ارتطام النيازك بهذا السطح، والانصهار الجزئي للصخور على سطح القمر، بفعل ذلك الارتطام، فالقمر-غيره من أجرام مجموعتنا الشمسية- هي أجسام معتمة باردة لا ضوء لها، ولكنها يمكن أن ترى لقدرتها على عكس أشعة الشمس فيبدو منيرًا[١].

ثانيًا: النجوم:

أخبر سبحانه أنه جعل للناس النجوم علامات، يعرفون بها الطرق ليلًا إذا ضلوا بسبب الظلمة الشديدة في البر والبحر، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

قال بعض السّلف رحمه الله: «من اعتقد في هذه النّجوم غير ثلاثٍ فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه: أنّ اللّه جعلها زينةً للسّماء، ورجومًا للشّياطين، ويهتدى بها في الظلمات البرّ والبحر»[٢].

روى البغوي في سننه عن عمر رضي الله عنه أنّه قال: «تعلّموا من النّجوم ما تعرفون به القبلة والطّريق، ثمّ أمسكوا»[٣].

(١) السماء في القرآن الكريم، زغلول النجار ص٣٩٥-٥٠٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٧٣.
(٣) شرح السنة، البغوي ١٢/ ١٨٣.

قال ابن رجب رحمه الله: «والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرّم، قليله وكثيره»[٤].

وروى أحمد بن حنبل بسنده عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (ما اقتبس رجلٌ علمًا من النّجوم، إلا اقتبس بها شعبةً من السّحر، ما زاد زاد)[٥].

«فالاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها، كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم، فالاهتداء هو الاهتداء في الظلمات الحسية الواقعية، وفي ظلمات العقل والضمير، والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسي، ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى، وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم»[٦].

ودلت الآية على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالّها الذي يسمى علم التسيير،

(٤) فيض القدير ٣/ ٢٥٦.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٤٥٤، رقم٢٠٠٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٧٩٣.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٥٩.

فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

وأخبر سبحانه أنه خلق للإنسان النجوم؛ ليهتدي بها بالليل في البراري أو في البحار، قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

قال العلماء: «يقع النجم القطبي على امتداد محور دوران الأرض حول نفسها تمامًا، وبذلك يحدد لنا اتجاه الشمال الحقيقي، ويتعامد على هذا الاتجاه يمينًا شرق الأرض ويسارًا غربها، أي: اتجاه الشرق الحقيقي والغرب الحقيقي بالنسبة للأرض ككوكب، ويتضح من ذلك جانب من جوانب الحكمة الإلهية المبدعة بخلق هذه العلاقة حتى يبقى النجم القطبي بمثابة البوصلة الكونية المعلقة في السماء الدنيا؛ لإرشاد أهل الأرض إلى الاتجاهات الأربعة الأصلية»[١].

ثالثًا: الدعاء والالتجاء إلى الله:

بيّن سبحانه وتعالى للناس في كتابه أنهم إذا ادلهمت بهم الخطوب في البر والبحر لجأوا إليه مخلصين في الدعاء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

عن قتادة رحمه الله قال: «إذا مسّهم الضّرّ في البحر أخلصوا له الدّعاء»[٢].

ومعنى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ممحضين له العبادة في دعائهم[٣].

وكان صلى الله عليه وسلم يعلّم الصحابة اللجأ إلى ربهم؛ ليخرجهم من الظلمات بأنواعها، روى أبو داود في سننه بسنده عن عبد الله رضي الله عنه قال: «وكان يعلّمنا كلماتٍ ولم يكن يعلّمناهنّ كما يعلّمنا التّشهّد: (اللّهمّ ألّف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السّلام، ونجّنا من الظّلمات إلى النّور)»[٤].

وأخبر سبحانه أنه يرحم عباده المؤمنين، ويثني عليهم، وتدعو لهم ملائكته؛ ليخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الإيمان والهداية.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: «لمّا

(١) الأرض في القرآن الكريم، زغلول النجار ص٤٨٧-٥٠٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٤٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣٨.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الركوع والسجود، باب التشهد، ١/ ٢٥٤، رقم ٩٦٩. وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود رقم ١٧٢.

نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[الأحزاب: ٥٦].

قال المهاجرون والأنصار: هذا لك يا رسول الله خاصة، وليس لنا فيه شيء، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية».

وهذه نعمةٌ من اللّه تعالى على هذه الأمّة من أكبر النّعم، ودليلٌ على فضلها على سائر الأمم، والصّلاة من اللّه على العبد: هي رحمته له وبركته لديه، وصلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين، واستغفارهم لهم، كما قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧][(١)].

ونور الله واحد متصل شامل وما عداه ظلمات تتعدد وتختلف، وما يخرج الناس من نور الله إلا ليعيشوا في ظلمة من الظلمات، أو في الظلمات مجتمعة، وما ينقذهم من الظلام إلا نور الله الذي يشرق في قلوبهم، ويغمر أرواحهم، ويهديهم إلى فطرتهم، وهي فطرة هذا الوجود، ورحمة الله بهم، وصلاة الملائكة ودعاؤها لهم، هي التي تخرجهم من الظلمات إلى النور حين تتفتح قلوبهم للإيمان[(٢)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٩٨.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٢.

وسائل النجاة من الظلمات المعنوية

بيّن القرآن الكريم وسائل النجاة من الظلمات المعنوية، وسوف نتحدث عنها فيما يأتي:

أولًا: الإيمان بالله عز وجل وطاعته:

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ١٢٢].

هذا مثلٌ ضربه اللّه تعالى للمؤمن الّذي كان ميتًا، أي: في الضّلالة هالكًا حائرًا، فأحياه اللّه، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له، ووفّقه لاتّباع رسله، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: يهتدي كيف يسلك! وكيف يتصرّف به!

والنّور: هو القرآن، كما رواه العوفيّ، وابن أبي طلحة عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه، وقال السّدّيّ: «الإسلام»، والكلّ صحيحٌ. ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: الجهالات والأهواء والضّلالات المتفرّقة. ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذٍ، ولا مخلصٍ ممّا هو فيه[(٣)].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور، وهم

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٦.

في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل، فضلوا ولم يهتدوا للطريق، وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها، ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي بنوره، فهم يقتبسون فيه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم[1].

«فالأول: هو المؤمن، استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره، والآخر: هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته، والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يبالغ في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعل النور في لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله، وخلفه وأمامه، حتى يقول: (واجعلني نورًا)[2]، فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور في ذراته الظاهرة والباطنة، وأن يجعله محيطًا به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته وجملته نورًا»[3].

وكان صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده فيما روي عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: (اللهمّ اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، واجعل لي نورًا) أو قال: (واجعلني نورًا)[4].

وقد ضرب سبحانه وتعالى النور في قلب عبده مثلًا لا يعقله إلا العالمون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: «مثل هداه في قلب المؤمن كما يكاد الزّيت الصّافي يضيء قبل أن تمسّه النّار، فإذا مسّته النّار ازداد ضوءًا على ضوءٍ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدًى على

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٣٠١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ١/ ٥٢٨، رقم ٧٦٣.
(٣) الوابل الصيب، ابن القيم ص٥٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ١/ ٥٢٨، رقم ٧٦٣.

هدًى»[1].

«وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم، ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل ثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر.

فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا»[2].

وفي هذا المعنى ورد عن عبد اللّه رضي الله عنه: «فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، قال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النّخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه حتّى يكون آخر ذلك من يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرّةً، ويطفئ مرّةً، فإذا أضاء قدمه، وإذا طفئ قام، فيمرّ ويمرّون على الصّراط، والصّراط كحدّ السّيف، دحض مزلّةٍ، فيقال: انجوا على قدر نوركم، فمنهم من يمرّ كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمرّ كالطّرف، ومنهم من يمرّ كالرّيح، ومنهم من يمرّ كشدّ الرّجل، ويرمل رملًا، فيمرّون على قدر أعمالهم حتّى يمرّ الّذي نوره على إبهام قدمه»[3].

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن نور فقراء المهاجرين يوم القيامة، روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، كنّا عند رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يومًا آخر حين طلعت الشّمس، فقال: (سيأتي ناسٌ من أمّتي يوم القيامة، نورهم كضوء الشّمس) قلنا: ومن أولئك يا رسول اللّه؟ قال: (فقراء المهاجرين الّذين يتّقى بهم المكاره، يموت أحدهم، وحاجته في صدره، يحشرون من أقطار الأرض)[4].

«إن هذه العقيدة تنشيء في القلب حياة بعد الموت، وتطلق فيه نورًا بعد الظلمات، حياة يعيد بها تذوّق كل شيء، وتصوّر كل شيء، وتقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة، ونورًا يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديدًا كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي نوّره الإيمان، إن الإيمان اتصال، واستمداد، واستجابة،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٠٣.
(٢) الوابل الصيب، ابن القيم ص٥٧.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة مريم، ٢/ ٤٠٨، رقم ٣٤٢٤.
قال الحاكم: «على شرط البخاري ومسلم».
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٣٠، رقم ٦٦٥٠.
قال محقق المسند: حديث حسن لغيره.

فهو حياة، وإن الإيمان تَفَتُّحٌ ورؤية، وإدراك واستقامة، فهو نور بكل مقومات النور، وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة، وظل ممدود، ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فتتكشف له حقائق الوجود، وحقائق الحياة، وحقائق الناس، وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وتجري في عالم الناس.

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضوح في كل شأن، وفي كل أمر، وفي كل حدث، يجد الوضوح في نفسه، وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته، ويجد الوضوح فيما يجري حوله سواء من سنة الله النافذة، أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة!

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه!

ويجد الراحة في باله وحاله ومآله!

ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها، وفي استقبال الأحداث واستدبارها!

ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة، وفي كل حين!»[1].

ثانيًا: اتباع الرسول وطاعة أمره:

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾[المائدة: ١٥].

يعني بالنور: محمدًا صلى الله عليه وسلم الذي أنار الله به الحقّ، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به يبيّن الحق[2].

وأخبر سبحانه وتعالى أن الذين يتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم ويطيعونه هم المفلحون، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

أي: آمنوا بمحمّدٍ صلى الله عليه وسلم واتّبعوه فيما جاء به من الشّرائع، وعظّموه ووقّروه، ومنعوه من عدوّه، وقاموا بنصره على من يعاديه، واتّبعوا القرآن المنزّل إليه مع اتّباعه بالعمل بسنّته ممّا يأمر به، وينهى عنه، أولئك هم الفائزون بالخير والفلاح لا غيرهم من الأمم[3].

قال ابن القيم رحمه الله: «إن الخارجين عن طاعة الرسل يتقلّبون في عشر ظلمات:

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٠١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٤٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٨٨.

ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة المخرج، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار، فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاث.

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلّبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة ونبيها صلى الله عليه وسلم من النور ما ليس لأمة غيرها، ولنبيّها صلى الله عليه وسلم من النور ما ليس لنبي غيره»[1].

ثالثًا: اتباع شرع الله وكتابه المنزل:

سمّى سبحانه وتعالى وحيه وأمره الذي أنزله على رسوله روحًا؛ لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، وسمّاه نورًا لما يحصل به من الهدى، واستنارة القلوب والفرقان بين الحقّ والباطل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال جل وعلا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فأحياه سبحانه وتعالى بروحه الّذي هو وحيه وهو روح الإيمان والعلم، وجعل له نورًا يمشي به بين أهل الظّلمة كما يمشي الرّجل بالسّراج المضيء في الظّلمة.

وأخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل كتابه على رسوله لغاية ومقصد إخراج البشر من الضلال والغيّ إلى الهدى والنور، وهو الإسلام بتوفيق من الله، قال تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

أي: بالكتاب، وهو القرآن، أي: بدعائك إليه، من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وهذا على التّمثيل؛ لأنّ الكفر بمنزلة الظّلمة، والإسلام بمنزلة النّور، وقيل: من البدعة إلى السّنّة، ومن الشّكّ إلى اليقين، والمعنى متقاربٌ. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتوفيقه إيّاهم، ولطفه بهم، والباء في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقة بـ﴿لِتُخْرِجَ﴾ وأضيف الفعل إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه الدّاعي والمنذر الهادي[2].

فالمقصد من إنزال الكتاب: إخراج البشرية من الظلمات، ظلمات الوهم والخرافة، وظلمات الأوضاع والتقاليد، وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة، وفي اضطراب التصورات والقيم والموازين؛ لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور، النور الذي يكشف هذه الظلمات،

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٣٨.

يكشفها في عالم الضمير، وفي دنيا التفكير، ثم يكشفها في واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد.

والإيمان بالله نور يشرق في القلب، فيشرق به هذا الكيان البشري، والإيمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق واضحة إلى الله، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب، غبش الأوهام، وضباب الخرافات، أو غبش الشهوات، وضباب الأطماع، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار.

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة، فإذا الناس كلهم عباد متساوون، تربط بينهم آصرتهم في الله، وتتمحض دينونتهم له دون سواه، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة، وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة، معرفة الناموس المسير لهذا الكون وما فيه ومن فيه، فإذا هم في سلام مع الكون وما فيه ومن فيه.

والإيمان بالله نور، نور العدل، ونور الحرية، ونور المعرفة، ونور الأنس بجوار الله، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء، ذلك الاطمئنان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور من إدراك الحكمة في البلاء[1].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

أي: «حججًا واضحاتٍ، ودلائل باهراتٍ، وبراهين قاطعاتٍ؛ ليخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادّة إلى نور الهدى واليقين والإيمان»[2].

وقال تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

يعني: من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة الشّبهة إلى نور الحجّة، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم[3].

وعن غاية إرسال موسى عليه السلام بالآيات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: «من الضّلالة إلى الهدى»[4].

يخبر تعالى أنه أرسل موسى عليه السلام بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٨٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٦٥.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٩٤.

رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه[1].

وقد حثّ صلى الله عليه وسلم على كتاب الله ورغّب فيه، فقال: (أمّا بعد: ألا أيّها النّاس فإنّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربّي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين: أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنّور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به)[2].

وفي هذا المعنى ورد عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنّه سمع خطبة عمر رضي الله عنه الآخرة حين جلس على المنبر، وذلك الغد من يوم توفّي النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فتشهّد وأبو بكرٍ رضي الله عنه صامتٌ لا يتكلّم، قال: «كنت أرجو أن يعيش رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حتّى يدبرنا، -يريد بذلك- أن يكون آخرهم، فإن يك محمّدٌ صلى الله عليه وسلم قد مات، فإنّ اللّه تعالى قد جعل بين أظهركم نورًا تهتدون به، هدى اللّه محمّدًا صلى الله عليه وسلم»[3].

والمقصود بالنور الذي قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو القرآن العظيم؛ لأن فيه الهدى والنور، فمن عمل بما فيه كان على الصراط المستقيم وعلى الحق المبين[4].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ٤/ ١٨٧٣، رقم ٢٤٠٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف ٩/ ٨١، رقم ٧٢١٩.
(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٢٠٩، إرشاد الساري، القسطلاني ١٥/ ١٨٠.

عاقبة البقاء في الظلمات

وضّح القرآن الكريم عاقبة البقاء في الظلمات؛ ليتجنبها العباد، وسوف نبيّنها فيما يأتي:

أولًا: تعطيل الطاقات البشرية:

أخبر عز وجل أن الإنسان مسئول عما استعمل فيه سمعه وبصره وفؤاده، فإذا استعملها في الخير نال الثواب، وإذا استعملها في الشر نال العقاب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالعلوم مستفادة من هذه الحواس، فإنّ الإنسان إذا سمع شيئًا ورآه فإنّه يرويه ويخبر عنه، وإلى العلوم التي تعتمد على التفكير أشار بذكر الفؤاد.

فهذه الكلمات القليلة -في الآيات- تقيم منهجًا كاملًا للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثًا جدًّا، ويضيف إليه استقامة القلب، ومراقبة الله، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة!

فالتثبت من كل خبر، ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم[(١)].

لكن يوجد صنف من الناس عطّلوا هذه الحواس التي تستعمل في اقتباس العلوم النافعة، فأصبحوا كأنهم كائنات ميّتة، وإن بدت حيّة في صورة الأحياء، وأظلمت قلوبهم وعقولهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام: ٣٩].

أي: مثلهم في جهلهم، وقلّة علمهم، وعدم فهمهم كمثل أصمّ، وهو الّذي لا يسمع، أبكم وهو الّذي لا يتكلّم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فالآية «استعارةٌ عن عدم الانتفاع الذّهنيّ بهذه الحواسّ»[(٢)].

إن الذين كذّبوا بآيات الله هذه المبثوثة في صفحات الوجود، وآياته الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن إنما كذّبوا لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطّلة، إنهم صم لا يسمعون، بكم لا يتكلمون، غارقون في الظلمات لا يبصرون!

إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثماني المادي، فإن لهم عيونًا وآذانًا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٧.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٠٥.

وأفواهًا، ولكن إدراكهم معطل، فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل!

وإنه لكذلك فهذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك!

وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته، فلم يعد صالحًا لحياة الهدى، ولم يعد أهلًا لذلك المستوى الراقي من الحياة[1].

إن ترقي الحياة يحتاج ابداعات وانطلاقات أصحاب العقول النيرة والفطر السليمة؛ لكي يوظّفوها في صناعة الحياة، صناعة تعود بالمخلوق الضعيف إلى الخالق العظيم، صناعة تترقى بحواس الإنسان، وترقّي هي حواس الإنسان، أما إذا كانت حواس الإدراك معطّلة فقد تعطلت الطاقات التي أودعها الله فيها، والقدرات التي وهبها الله إياها، وعاش الناس في ظلمات منغمسين فيها، فلا تجد تطورًا في الطب ينقذ الإنسان من أمراض فتاكة، ولا تجد تطورًا في اقتصاد ينقذ الإنسان من جوع قاتل، ولا تجد تطورًا في الحياة يحفظ إنسانية الإنسان المكرّم عند خالقه سبحانه.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٠٨١.

ثانيًا: عدم الإفادة من المدّخرات الكونية:

إن الله أودع في الكون مدّخرات مسخّرة للإنسان بقدرته وتدبيره، فيها عبرة لمن ينظر إليها بالقلب المفتوح، والحس البصير، ويتدبر ما وراءها من حكمة ومن تقدير، ومن منافع للناس لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وقد كثر ورود لفظ سخّر في القرآن؛ ليتنبه لها الإنسان وليتفكر فيها؛ فيعود بعد التفكر والتدبر؛ ليقول بقلبه قبل لسانه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ثم يوظّف هذه المدخرات في مصالح العباد.

ففي تسخير الفلك لتسير في البحر بأمره عز وجل؛ لمنافعكم أيها الناس، وذلّل لكم الأنهار؛ لسقياكم، وسقيا دوابكم وزروعكم وسائر منافعكم.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وفي تسخير الشمس والقمر والليل والنهار؛ لتتحقق المصالح بهما، وذلّل لكم الليل؛ لتسكنوا فيه وتستريحوا، والنهار؛ لتبتغوا من فضله، وتدبّروا معايشكم.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وفي تسخير البحر؛ لتأكلوا مما تصطادون من سمكه لحمًا طريًا، وتستخرجوا منه زينة تلبسونها كاللؤلؤ والمرجان، وترى السفن العظيمة تشق وجه الماء تذهب وتجيء، وتركبونها لتطلبوا رزق الله بالتجارة والربح فيها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وهذا التسخير لغاية ذكر نعمه، وحمده عليها.

قال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

ثالثًا: عدم استواء الأعمى والبصير، ولا الظلمات والنور في الفطر السليمة:

فهل يستوي البصير الذي يرى بالنور الذي ألهمه الله إياه، فتكشفت له حكمة ربه في المدّخرات الكونية، واستعملها في منافع الخلق، كمن في الجهل منغمس فيه؟

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

«يقول تعالى ذكره: وهل تستوي الظّلمات الّتي لا ترى فيها المحجّة فتسلك، ولا يرى فيها السّبيل فيركب، والنّور الّذي يبصر به الأشياء ويجلو ضوءه الظّلام؟ يقول: إنّ هذين لا شكّ لغير مستويين، فكذلك الكفر باللّه، إنّما صاحبه منه في حيرةٍ يضرب أبدًا في غمرةٍ لا يرجع منه إلى حقيقةٍ، والإيمان باللّه صاحبه منه في ضياءٍ يعمل على علمٍ بربّه، ومعرفةٍ منه بأنّ له مثيبًا يثيبه على إحسانه، ومعاقبًا يعاقبه على إساءته، ورازقًا يرزقه، ونافعًا ينفعه»[1].

وبنظرة فاحصة لحال الغرب الذين اتّجهوا إلى تحصيل المعارف عن الكون والإنسان فاستكشفوا الأرض وباطنها، والفضاء وأرجاءه، والبحار وأعماقها، ووقفوا على سنن التسخير والقوانين التي أودعها الله في الطبيعة، وبرّزوا في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطبّ والهندسة وغيرها، وفجّروا الذرّة، وغاصوا في أسرار الخلايا والجينات، ودرسوا خبايا جسم

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٩٤.

الإنسان وخفاياه، ووسّعوا نطاق العلوم الإنسانية والاجتماعية، وأحدثوا اكتشافات واختراعات مذهلة بهرت العقول، وغيّرت مجرى حياة البشر في جميع الميادين، لكن نتج عن هذا التفوّق العلمي مشكلتان أساسيّتان:

الأولى: استخدام هذا العلم فيما يهلك الإنسان والبشرية والحياة، كالأسلحة الفتّاكة والتصرّف الجنوني في الخلايا والجينات لتغيير خلق الله، فنتج عن ذلك أمراض غريبة كجنون البقر، وانفلونزا الطيور، وانفلونزا الخنازير، تنذر بالمزيد ممّا يهدّد النوع البشري والكون كلّه.

الثانية: الغرور والغطرسة، حتى توهم بعض هؤلاء أنه مستقل بنفسه غير محتاج إلى الله سبحانه وتعالى، أو إلى دين يقوده ويوجهه.

إنّ الغرب ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

فهو شديد الافتخار والاغترار بإنجازاته، وهي إنجازات لا ينكرها أحد، ولا يكابر فيها، بل امتدّ نفعها إلى البشريّة كلّها، لكن المشكلة تكمن في غرور الغربيّين بذلك حتّى أنساهم خالقهم وحدود آدميّتهم، ومال بهم إلى الاستخفاف بالله والدين والغيب؛ لاعتقادهم أنّ العلم الّذي يمتلكون ناصيته يغنيهم عن كلّ ذلك؛ لأنّه -في نظرهم- يجيب عن كلّ الأسئلة، ويحلّ جميع المشكلات، فلا يترك موضعًا لدين ولا وحي ولا نبوّة، وذلك هو الاستغناء الممقوت الذي لا يفسد العلاقة بالله فحسب، بل يلقي بظلاله على البشريّة في هذه الحياة، فالغرب أبدع في الماديات، وأفلس في الروحيات، وعظّم من شأن العقل، وأهمل القلب، واعتنى بجسم الإنسان طبيًّا ورياضيًّا ومعيشيًّا وجماليًّا إلى حدّ الإسراف، وأهال التراب على الروح، بل ازدراها وقلّل من شأنها، ووضعها في خانة الأوهام، فجلب الشقاء لنفسه وكان قدوةً سيّئةً للبلدان والشعوب، وقد أضحت بلاد الازدهار هي مرتع الانتحار، وانتشرت هناك العيادات النفسية، وتكاثرت بشكل عجيب عساها تخلّص الإنسان من نفسه بعد سيطرة الأمراض النفسية والقلق والاضطرابات والانهيارات العصبيّة عليه رغم علمه وثرائه، ورغد عيشه.

قال سيّد قطب رحمه الله: «العلم -بغير إيمان- فتنة، فتنة تعمي وتطغي؛ ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهريّ يوحي بالغرور؛ إذ يحسب صاحبه أنه يتحكّم بعلمه هذا في قوى ضخمة، ويملك مقدّرات عظيمةً، فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها!

وينسى الآماد الهائلة التي يجهلها، وهي

موجودة في هذا الكون، ولا سلطان له عليها، بل لا إحاطة له بها، بل لا معرفة له بغير أطرافها القريبة؛ وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته، ويستخفّه علمه، وينسى جهله، ولو قاس ما يجهل إلى ما يعلم، وما يقدر عليه في هذا الكون إلى ما يعجز حتّى عن إدراك سرّه لطامن من كبريائه، وخفّف من فرحه الذي يستخفّه»[1].

ونحن لا ننكر وجود علماء قادتهم المعرفة إلى الإيمان؛ لاتصافهم بالتجرّد والتواضع، لكنّهم قلّة نوعية، بينما تتمادى الأغلبية في خطّ عام ينحو منحى الغرور والاستغناء: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحجّ: ٤٦].

إنّ الحلّ يكمن في بديل تنتجه الأمّة الشاهدة يعيد للعلم وجهه الحقيقي، يسير بمعيّة الإيمان، فيكتسب التواضع والخشوع؛ لينفع ولا يضرّ، ويوفّر سعادة الدنيا والآخرة معًا.

قال سيد قطب رحمه الله: «ولو اتصلت العلوم الكونية التي تبحث في تصميم الكون، وفي نواميسه وسننه، وفي قواه ومدخراته، وفي أسراره وطاقاته بتذكر خالق هذا الكون وذكره، والشعور بجلاله وفضله؛ لتحوّلت من فورها إلى عبادة لخالق هذا الكون وصلاة، ولاستقامت الحياة -بهذه العلوم- واتجهت إلى الله.

ولكن الاتجاه المادي الكافر يقطع ما بين الكون وخالقه، ويقطع ما بين العلوم الكونية والحقيقة الأزلية الأبدية، ومن هنا يتحول العلم -أجمل هبة من الله للإنسان- لعنة تطارد الإنسان، وتحيل حياته إلى جحيم منكرة، وإلى حياة قلقة مهددة، وإلى خواء روحي يطارد الإنسان كالمارد الجبار!

إن الذين يكتفون بظاهر من الحياة الدنيا، ويصلون إلى أسرار بعض القوى الكونية بدون الاتصال بخالق الكون يدمّرون الحياة، ويدمّرون أنفسهم بما يصلون إليه من هذه الأسرار، ويحوّلون حياتهم إلى جحيم نكد، وإلى قلق خانق، ثم ينتهون إلى غضب الله وعذابه في نهاية المطاف»[2].

رابعًا: التخلف عن ركب الحضارة:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

فمن أراد الانتفاع بعقله فيما ينفعه وينفع الخلق فعليه بالتأمل والتفكر في آيات الله المسطورة في كتابه، وآيات الله المبثوثة في كونه فهما مفتاحا التحضر في الدنيا والسعادة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٠١.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٥٤٥.

في الآخرة؛ لأن ظلمات العقل وفساده أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن.

فإذا قرأ أو استمع ثم تفكر في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

علم أنه من معرفة اللّيالي تعرف الأشهر، ومن معرفة الأشهر تعرف السّنة، وفي ذلك رفقٌ بالنّاس في ضبط أمورهم وأسفارهم ومعاملات أموالهم وهو أصل الحضارة، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أنّ معرّفة ضبط التّاريخ نعمةٌ أنعم اللّه بها على البشر[١].

وإذا قرأ أو استمع ثم تفكر في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

علم أن ذلك من معجزات القرآن الغيبيّة العلميّة، وأنّها إيماءٌ إلى أنّ اللّه سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير[٢].

ويعلم أيضًا أن اللّه ألهم النّاس لاختراعها، فهو سبحانه وتعالى الّذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذّكاء والعلم، وبما تدرّجوا في سلّم الحضارة، واقتباس بعضهم من بعضٍ إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقةٌ للّه تعالى؛ لأنّ الكلّ من نعمته[٣].

وإذا قرأ أو استمع ثم تفكر في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

علم نعمة الإلهام إلى اتّخاذ المساكن، وذلك أصل حفظ النّوع من غوائل حوادث الجوّ من شدّة بردٍ أو حرٍّ، ومن غوائل السّباع والهوام، وهي أيضًا أصل الحضارة والتّمدّن؛ لأنّ البلدان ومنازل القبائل تتقوّم من اجتماع البيوت، وأيضًا تتقوّم من مجتمع الحلل والخيام[٤].

وإذا قرأ أو استمع ثم تفكر في قصة داود عليه السلام اعتبر بما بلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة، وحفظ الله لملكه؛ لأنه كان كثير الرجوع إلى ما يرضي الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

وإذا قرأ أو استمع ثم تفكر في قصة سبأ اعتبر بما بلغ ملكها من عظمة الحضارة،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٩٦.
(٢) المصدر السابق ١٤/ ١١١.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ١٤/ ٢٣٧.

لكنها عوقبت بزوالها؛ لأنهم كفروا نعمة الله عليهم، فمن لم يشكر النّعم فقد تعرّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥-١٩].

فقد أتم الله عليهم النعمة بتوطيد أسس الحضارة باقتراب المدن، وتيسير الأسفار، فلمّا تمّت النّعمة بطروها، فحلّت بهم أسباب سلبها عز وجل عنهم.

ومن ذلك يتضح أن الظلمات تسد منافذ التفكر والتأمل في العقول، فلا يعترف الباحث في مدخرات الكون بالخالق، فيحرم إلهامه له بما ينفعه وينفع الخلق.

وهو عند إيمانه بالله وخروجه من الظلمات الكثيفة يلهمه الله الابتكارات والاختراعات النافعة للبشر؛ لترتقي بحياتهم إلى الكمال الإنساني الذي قدره الله لهم متعبّد لله بأجل العبادات؛ لأن الله أثنى على أصحاب العقول النيرة، والفطر المستقيمة في كتابه في أكثر من ستة عشر موضعًا، تارة بأولي الألباب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وتارة بأولي النهى، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

وتارة بذي حجر، قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].

خامسًا: التعاسة في الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

قال ابن القيم رحمه الله: «وفسّرت المعيشة الضّنك بعذاب القبر، والصّحيح أنّها في الدّنيا وفي البرزخ، فإنّ من أعرض عن ذكره الّذي أنزله، فله من ضيق الصّدر،

ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدّة الحرص والتّعب على الدّنيا، والتّحسّر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام الّتي في خلال ذلك ما لا يشعر به القلب؛ لسكرته، وانغماسه في السّكر، فهو لا يصحو ساعةً إلّا أحسّ وشعر بهذا الألم، فبادر إلى إزالته بسكرٍ ثانٍ، فهو هكذا مدّة حياته، وأيّ عيشةٍ أضيق من هذه لو كان للقلب شعورٌ؟»[1].

فمن اتبع هدى الله «فهو في أمان من الضلال والشقاء، والشقاء ثمرة الضلال، ولو كان صاحبه غارقًا في المتاع، فهذا المتاع ذاته شقوة، شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة، وما من متاع حرام إلا وله غصة تعقبه، وعقابيل[2] تتبعه، وما يضل الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف، لا يستقر ولا يتوازن في خطاه، والشقاء قرين التخبط، ولو كان في المرتع الممرع!

ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء، ومن اتبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض، وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود، حتى يثوب إليه في اليوم الموعود»[3].

سادسًا: العذاب في الحياة الآخرة:

أخبر سبحانه عن مصير من أعرض عن النور الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم أن له عذاب البرزخ الذي هو أول منازل الآخرة، وعذاب دار البوار في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[طه: ١٢٤-١٢٦].

أي: تترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا.

ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فهذا في البرزخ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

فهذا في القيامة الكبرى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام: ٩٣].

فقول الملائكة: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٢٣.

(٢) يقال العقبول، والجمع عقابيل، وهو باقي المرض في الجسم، يقال: بفلان عقابيل من مرضه إذا كانت به بقيّة منه.
انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ١١٢٧، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٤٢١.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٥٥.

﴿ٱلْهُونِ﴾ المراد به: عذاب البرزخ الّذي أوله يوم القبض والموت، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

فهذه الإذاقة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة.

فهذا مصير من أعرض عن نور الله إلى ظلمات الضلال.

وروى مسلم بسنده عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: كنت قائمًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء حبرٌ من أحبار اليهود فقال: السّلام عليك يا محمّد، فدفعته دفعةً كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله، فقال اليهوديّ: إنّما ندعوه باسمه الّذي سمّاه به أهله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ اسمي محمّدٌ الّذي سمّاني به أهلي) فقال اليهوديّ: جئت أسألك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أينفعك شيءٌ إن حدّثتك؟) قال: أسمع بأذنيّ، فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعودٍ معه، فقال: (سل)، فقال اليهوديّ: أين يكون النّاس يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هم في الظّلمة دون الجسر)[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اتقوا الظلم، فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة)[2].

ظاهر الحديث: «أن الظالم يعاقب يوم القيامة بأن يكون في ظلمات متوالية، يوم يكون المؤمنون في نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، حين يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

فيقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]»[3].

موضوعات ذات صلة:

الكفر، الليل، النور

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما، ١/ ٢٥٢، رقم٣١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٦، رقم ٢٥٧٨.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي ٦/ ٥٥٦.

الظن

عناصر الموضوع

مفهوم الظن	٣٥٨
الظن في الاستعمال القرآني	٣٦٠
الألفاظ ذات الصلة	٣٦١
أنواع الظن	٣٦٥
الظن اليقيني	٣٧٤
أوهام مظنونة	٣٨٠
غلبة الظن في الأحكام الشرعية	٣٩٢
آثار الظن	٣٩٤

مفهوم الظن

المعنى اللغوي:

الظن لغةً: الظاء والنون أصل صحيح يدل على معنيين مختلفين: يقين وشك، فأما اليقين فقول القائل: ظننت ظنًا، أي: أيقنت، والأصل الآخر: الشك، يقال: ظننت الشيء، إذا لم يتيقنه، ومن ذلك الظنة: التهمة. والجمع: الظنن [(١)].

وبعض أهل اللغة لا يرتضي جعل اليقين المطلق من معاني مادة الظن وإنما يقيده بأنه اليقين الذي لم يتيقن عيانًا ويسمى يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم [(٢)]، فقد يوقع الظن موقع اليقين في الأمور المتحققة، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس، لا تقول العرب في رجل مرئي حاضر: أظن هذا إنسانًا، وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد، كقوله تعالى: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾[الكهف:٥٣] [(٣)].

كما نجد أن في بعض المعاجم اللغوية كلمات تعود إلى مادة (ظن) غير الشك واليقين، ففي تهذيب اللغة:« الظنون من النساء التي لها شرف تتزوج وإنما سميت ظنونًا لأن الولد يرتجى منها» [(٤)].

وبالنظر إلى جميع المفردات اللغوية التي ترجع إلى مادة ظن نجد أنها ترجع إلى التخمين والحدس [(٥)]

المعنى الاصطلاحي:

هناك تعاريف عديدة للظن عند علماء التفسير في ثنايا تفسيرهم لآيات الظن، بينها عوامل مشتركة وإن كان فيها اختلاف في بعض الألفاظ [(٦)]. فمنهم من عرفه بأنه: تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح على الآخر. وقيل: الظن ميل النفس إلى أحد معتقدين متخالفين، دون أن يكون ميلها بحجة، ولا برهان [(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦٢، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢١٦٠.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٧٢.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٣٨.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ١٤ / ٣٦٤.
(٥) القطع والظن عند الأصوليين، سعد الشثري ١/ ٨١.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣١٧.
(٧) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٥٦.

ويذكر ابن عطية أن الظن قاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه [1].

وكثر إطلاقه في القرآن على الاعتقاد الباطل كقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام:١١٦].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٣٨.

الظن في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ظنن) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(٩٦) مرة [(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الإفراد	٢٦	﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن:٧]
التثنية	١٥	﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين:٤]
الجمع	٢١	﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم:٢٨]
الصفة المشبهة	١	﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦]

وورد الظن في القرآن على ثلاثة أوجه [(٢)]:

الأول: الشك والحسبان: ومنه قوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. يعني: ما نشك إلا شكًّا ولسنا على يقين من قيام الساعة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ [الانشقاق: ١٤]. أي: حسب أن لن يرجع بعد موته لشكه في البعث.

الثاني: اليقين: ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. يعني: يوقنون.

الثالث: التهمة: ومنه قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. يعني: تتهمون الاتهامات الباطلة السيئة.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٣٩-٤٤٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الطاء ص٧٣٥-٧٣٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٣٣، الوجوه والنظائر، العسكري، ص٣٣٢-٣٣٣، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، ٣/ ٥٤٥-٥٤٧، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٤٢٤-٤٢٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشك:

الشك لغة:

قال ابن فارس رحمه الله في معنى الشك في اللغة: «الشين والكاف أصل واحد مشتق بعضه من بعض وهو يدل على التداخل، ومن هذا الباب الشك الذي هو خلاف اليقين، إنما سمي بذلك لأن الشاك كأنه شك له الأمران في مشك واحد وهو لا يتيقن واحدًا منهما، فمن ذلك اشتقاق الشك [(١)].

الشك اصطلاحًا:

هو اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما [(٢)]. وقال الجرجاني رحمه الله: «الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، وقيل: الشك ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن، فإذا طرحه فهو غالب الظن وهو بمنزلة اليقين » [(٣)].

الصلة بين الشك والظن:

أن الظن شك مع ميل إلى أحد معتقديه [(٤)]؛ فالنسبة بين الشك والظن هي نسبة العموم والخصوص المطلق، العموم في طرف الشك، والخصوص في طرف الظن، فالشك يساوي عدم القطع، إذ كل علم غير قطعي فهو مشوب بالشك، أمّا الظن فلا يطلق إلا بشأن العلم غير القطعي المستند إلى أمارة. لذا بوسعنا أن نسمّي كلّ ظن شكًا، ولكن ليس كل شكٍ بظن.

٢ اليقين:

اليقين لغة:

هو العلم و زوال الشك. يقال منه: يقنت الأمر يقنًا، وأيقنت، واستيقنت، وتيقّنت، كلّه بمعنًى. وأنا على يقين منه. وإنّما صارت الياء واوًا في قولك: موقنٌ؛ للضمة قبلها. وإذا

(١) مقاييس اللغة ١/ ٥٢٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٦٥.
(٣) التعريفات ص ١٦٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٧٦. وانظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي ١/ ١٦١؛ فتح القدير، الشوكاني ١/ ٧٩.

صغّرته رددته إلى الأصل وقلت: مييقنٌ. وربّما عبّروا عن الظنّ باليقين، وباليقين عن الظنّ[١].

اليقين اصطلاحًا:

هو العلم بالشيء عن نظر و استدلال، أو بعد شك سابق. ولا يكون شك إلا في أمر ذي نظر؛ فيكون أخص من الإيمان ومن العلم[٢]. وقيل: هو العلم الذي لا يقبل الاحتمال. وقد يطلق على الظن القوي إطلاقًا عرفيًا؛ حيث لا يخطر بالبال أنّه ظن، ويشتبه بالعلم الجازم فيكون مرادفًا للإيمان والعلم[٣].

الصلة بين اليقين والظن:

إن ثمّة صلة بين الظن واليقين تحسن الإشارة إليها في هذا الموضع، فإطلاق الظن في كلام العرب على معنى اليقين كثير، وقد ورد ذلك في كتاب الله، والعرب تطلق الظن بمعنى اليقين ومعنى الشك[٤] أيضًا، فبعض الظن يطلق مرادًا به اليقين، وأما اليقين فلا يطلق على الظن.

٣ الحسبان:

الحسبان لغة:

بكسر الحاء بمعنى الظن[٥]. وحسب بكسر السين: ظن، مضارعه بالفتح والكسر، وحسب بالفتح من العدد ومضارعه بالضم، ومنه الحساب والحسبان...[٦].

الحسبان اصطلاحًا:

أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه، ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك[٧]. وقيل: «هو قوة أحد النقيضين على الآخر كالظن، بخلاف الشك فهو: الوقوف بينهما، والعلم فهو القطع على أحدهما[٨].

الصلة بين الحسبان والظن:

(١) الصحاح، الجوهري ٢/ ٣٠٠، واانظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٤٥٧.
(٢) قيل: ولذلك لا يوصف الباري سبحانه، بأنه متيقن. ولا يقال: تيقنت أن السماء فوقي. فكل يقين علم، وليس كل علم يقينًا. انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٧٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٣٧.
(٤) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي ص ١٧.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ص٢٦٣.
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١٨.
(٧) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ١٥٤.
(٨) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٥٠.

الظّن ضرب من الاعتقاد، وقد يكون حسبان لكن ليس باعتقاد. قال أبو هلال: «أصل الحسبان من الحساب، تقول: أحسبه بالظّن قد مات. كما تقول: أعدّه قد مات. ثمّ كثر حتى سمي الظّن: حسبانًا على جهة التّوسع، وصار كالحقيقة بعد كثرة الاستعمال»[(١)]. وقد فسرت آيات الحسبان بالظن في القرآن، كما جاء التجوز عن الظن بالحسبان في بعض الآيات؛ مما يشير إلى أن هناك صلة بين المعنيين.

٤ العلم:

العلم لغة:

العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، من ذلك العلامة، وهي معروفة، والعلم: الراية، والجمع: أعلام، والعلم: نقيض الجهل، وتعلمت الشيء: أخذته، وتعلمت أي: علمت[(٢)].

العلم اصطلاحًا:

الاعتقاد الراجح المانع من النقيض.

وقيل: إدراك الشيء بحقيقته[(٣)].

الصلة بين العلم والظن:

العلم والظن يشتركان في كون كل واحد منهما اعتقادًا راجحًا، إلا أنّ العلم راجح مانع من النقيض، والظن راجح غير مانع من النقيض. فلمّا اشتبها من هذا الوجه؛ صح إطلاق اسم أحدهما على الآخر[(٤)]. والعرب تستعمل الظن في موضع العلم فيما كان من علم أدرك من جهة الخبر أو من غير وجه المشاهدة والمعاينة، فأما ما كان من علم أدرك من وجه المشاهدة والمعاينة فإنها لا تستعمل فيه الظن.

٥ الوهم:

الوهم لغة:

وهم إلى الشيء بالفتح يهم وهمًا، إذا ذهب وهمه إليه وهو يريد غيره، ووهم يوهم وهمًا - بالتحريك - إذا غلط[(٥)].

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ١/ ٣٤٣.
(٢) انظر: مقاييس االلغة، ابن فارس ٤/ ١٠٩، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٦٢٤.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٥٠٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٧.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٤٥، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٢٣٤؛ لسان

الوهم اصطلاحًا:

هو الطرف المرجوح غير الجازم من المترددين، وهو أضعف من الظّنّ وكثيرا ما يستعمل في الظّنّ الفاسد [1].

الصلة بين الوهم والظن:

الوهم أضعف من الظن بل وأضعف من الشك، كما جاء ذلك في تعريف ابن جزي رحمه الله حيث قال: «الظن: ترجيح أحد الاحتمالين، وقد يقال الظن بمعنى الشك، وبمعنى الوهم الذي هو أضعف من الشك [2].

العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٣.

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص٩٤٣؛ مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦٢، ٦٣.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٦٣.

أنواع الظن

تختلف الظنون في القرآن الكريم مابين حسن وآخر سيئ، فالظن مصدر يقع على الكثرة مع إفراد لفظه، لكن المصادر قد تجمع إذا اختلفت ضروبها، فقوله تعالى: ﴿الظُّنُونَا﴾ يدل على اختلاف الظنون، وقد أشار إلى ذلك المعنى غير واحد من المفسرين عند تفسيرهم لقوله سبحانه: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠﴾ [الأحزاب:١٠][1].

أخرج الطبري عن قتادة قال:« الظن ظنّان: فظن منج، وظن مرد قال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. قال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة:٢٠] وهذا الظن المنجي ظنًا يقينًا، وقال ها هنا: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت:٢٣] هذا ظن مرد[2].

وهذا في ذات الله، أما ما كان من ظن بين الناس، فقد قال سبحانه: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ ولم يقل: اجتنبوا الظن كله؛ لأن الظن ينقسم إلى قسمين؛ القسم الأول: ظن خير بالإنسان، وهذا مطلوب أن تظن بإخوانك خيرًا ماداموا أهلًا لذلك، وهو المسلم الذي ظاهره العدالة، فإن هذا يظن به خيرًا، ويثنى عليه بما ظهر لنا من إسلامه وأعماله. القسم الثاني: ظن السوء، وهذا يحرم بالنسبة لمسلم ظاهره العدالة، فإنه لا يحل أن يظن به ظن السوء[3].

مما سبق يتبن أن الظنون تتنوع، وفيما يلي بيان لها:

أولًا: الظن الحسن:

ليس أريح لقلب العبد في هذه الحياة،

(١) فقد ظن المؤمنون النصر، وظن المنافقون أن يستأصل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته.
انظر: معالم التنزيل، البغوي ص١٠٣١؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٩٣؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٥٣؛ فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٢٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١٠.

(٣) كما صرح بذلك العلماء، فقالوا رحمهم الله: «يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة. أما ظن السوء بمن قامت القرينة على أنه أهل لذلك، فهذا لا حرج على الإنسان أن يظن السوء به، ولهذا من الأمثال المضروبة السائرة: احترسوا من النّاس بسوء الظّنّ، ولكن هذا ليس على إطلاقه، كما هو معلوم، وإنما المراد: احترسوا من الناس الذين هم أهل لظن السوء فلا تثقوا بهم، والإنسان لابد أن يقع في قلبه شيء من الظن بأحد من الناس لقرائن تحتف بذلك، إما لظهور علامة في وجهه، بحيث يظهر من وجهه العبوس والكراهية في مقابلتك وما أشبه ذلك، أو من أحواله التي يعرفها الإنسان منه أو من أقواله التي تصدر منه فيظن به ظن السوء، فهذه إذا قامت القرينة على وجوده فلا حرج على الإنسان أن يظن به ظن السوء. انظر: تفسير سورة الحجرات، ابن عثيمين ص ٣٢،٣٤.

ولا أسعد لنفسه من حسن الظن؛ فبه يسلم من أذى الخواطر المقلقة التي تؤذي النفس، وتكدر البال، وتتعب الجسد. ومن خلال تعريف الظن وهو: ترجيح أحد الاحتمالين، نستطيع أن نعرّف حسن الظن بأنه: ترجيح لاحتمال الخير على احتمال الشر، سواء أكان ذلك في ذات الله أم بين الناس.

إن حسن الظن بالله عبادة قلبية جليلة؛ تتحقق بظن ما يليق به سبحانه، وما تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العلى، مما يؤثر في حياة المؤمن على الوجه الذي يرضي الله عز وجل.

ولحسن الظن بالله متعلقان:

الأول: بالنسبة لما يفعله سبحانه في هذا الكون فيجب حسن الظن بالله عز وجل فيما يفعله في هذا الكون، وأن ما فعله إنما هو لحكمة بالغة، قد تصل العقول إليها وقد لا تصل، وبهذا تتبين عظمة الله وحكمته في تقديره، فلا يظن أن الله إذا فعل شيئا في الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوادث والنكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغيرفهذا واقع كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[الأحزاب:١٧].

الثاني: متعلق بالنسبة لما يفعله سبحانه بالإنسان فيجب أن يظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد السبب الذي يوجب الظن الحسن، وهو أن يعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص و الظن بأن الله يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لن يقبل منه، وكذلك إذا تاب الإنسان من الذنب، فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه. وأما إن كان الإنسان مفرطا في الواجبات فاعلا للمحرمات، وظن بالله ظنا حسنا فهذا هو ظن المتهاون المتهالك في الأماني الباطلة، بل هو من سوء الظن بالله إذ إن حكمة الله تأبى مثل ذلك [(١)].

تحسين الظن بالله تعالى أن يظن العبد أن الله فارج همه، وكاشف غمه، وذلك بتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله وعفوه، وما وعد به أهل التوحيد. قال النووي رحمه الله: « قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى: أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه [(٢)].

وقد أمرنا سبحانه بإحسان الظن، فقد أخرج الثعلبي عن فضيل بن عياض في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢] أي: محسنون بربكم الظن [(٣)].

وجاء في معنى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٢/ ٢٧٩.
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/ ٢١٠.
(٣) الكشف والبيان ١/ ٢٤٦.

﴿الْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥] أحسنوا بالله الظن[١].

ولا شك أن لفظ الآية عام يتناول كل ما ذكر في تفسير هذه الآية والمخصّص يفتقر إلى دليل[٢].

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (يقول اللّه تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خيرٍ منهم، وإن تقرّب إليّ بشبرٍ تقرّبت إليه ذراعًا، وإن تقرّب إليّ ذراعًا تقرّبت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً)[٣].

وفي الحديث النبوي الصحيح، عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاثة أيام يقول: (لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يحسن الظّنّ باللّه عزّ وجلّ)[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (حسن الظّنّ من حسن العبادة)[٥].

وكان السلف الصالح يكثرون من سؤال الله حسن الظن أمثال عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير[٦].

فحسن الظن بالله زاد المؤمن في طريقه

---

(١) وهو قول عكرمة. كما في: تفسير القرآن، الثوري ١/ ٥٩؛ تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٣٣٣؛ الدر المنثور، السيوطي؛ ١/ ٢٠٨؛ جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٠٦.

(٢) الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ١٥١. وقال الثعالبي: قيل في معنى ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾: أحسنوا في أعمالكم بامتثال الطاعات، روي ذلك عن بعض الصحابة، وقيل المعنى: وأحسنوا في الإنفاق في سبيل الله وفي الصدقات، قاله زيد بن أسلم.

(٣) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم ٧٤٠٥؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم ٢٦٧٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث رقم ٢٨٧٧، ٤/ ٢٢٠٥.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن الظن حديث رقم ٤٩٩٣، ١٤/ ٣٢٩، والترمذي في الدعوات كما في تحفة الأحوذي، رقم ٣٨٤٣ من طريق شتير بن نهار عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعند أبي داود قال: سمير.
وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه.
وصحّحه ابن حبان ٦٣١، والحاكم ٤/ ٢٤١.
لكن شتير هذا ذكره البخاري وابن أبي حاتم ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا، وجهله الدارقطني كما في سؤالات البرقاني رقم ٢١٢. وقال الذهبي في الميزان ٢/ ٢٣٤: نكرة؛ ولذا ضعف الألباني الحديث في الضعيفة، رقم ٣١٥٠.

(٦) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ٤/ ٣٢٥ مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٢٧٢؛ المعجم الكبير، الطبراني ٨/ ٦٥؛ حسن الظن بالله، ابن أبي الدنيا ص٤٥.

إلى ربه، وفي سلوكه مدارج السالكين إلى رب العالمين، فهو شحنة إيمانية يتعلق بها القلب بالرب.

ومن صور حسن الظن بالله التوكل عليه والثقة به سبحانه، فإذا عظمت ثقة الإنسان بربه، كانت له قوة معنوية تدفع عنه عوامل اليأس والقنوط، وهو من أعظم الأسباب التي يتحقق بها المطلوب و يندفع بها المكروه وتقضى الحاجات، وكلما تمكنت معاني التوكل من القلوب تحقق المقصود أتم تحقيق، و هذا حال جميع الأنبياء والمرسلين. فإبراهيم عليه السلام لما قذف في النار، روي أنه أتاه جبريل فقال: ألك حاجة؟ قال: «أمّا إليك فلا»[1]. فكانت النار بردًا و سلامًا عليه، ومن المعلوم أنّ جبريل كان بمقدوره أن يطفئ النار بإذنه سبحانه، ولكن ما تعلق قلب إبراهيم عليه السلام بمخلوق في جلب النفع و دفع الضر، بل قال بعزة الواثق بالله:«حسبنا الله ونعم الوكيل[2]، فجاء الأمر الإلهي:﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾[الأنبياء:٦٩].

والله يفعل و يقدّر ما يشاء؛ ولذلك يجب التوكل عليه سبحانه وحسن الظن به. ونفس الكلمة ردّدها الصحابة الكرام يوم حمراء الأسد، وذلك حينما أبلغهم الركب المارّ بهم بما قال أبو سفيان من أنه سيجمع الكرّة ليستأصل الرسول وأصحابه[3]. وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤].

إنّ أمر الله نافذ على أية حال، غير أن المتوكل على الله المحسن الظن به يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا. فالعبد إذا توكل على الله في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك، فإن الله كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له[4]. وهذا ما لمحناه في قصة يعقوب عليه السلام وفقده الطويل ليوسف، وأمله الكبير في لقاءه حين يقول لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، رقم ٤١٩٧، ٤/ ١٦٦٢.
(٣) الرحيق المختوم، المباركفوري ص٢٧٩.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٩.

فلم ييأس من روح الله، بل أحسن الظن وعلّق كل ثقته به سبحانه في أنه سيردهم له، ويقر عينه بالاجتماع بهم، على الرغم مما يتعرض له من المصائب المتتالية[1].

وموسى عليه السلام لما خرج من المدينة هائمًا على وجهه، فاتفق أن كان مسيره في طريق يؤدي إلى أرض مدين حينئذ قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القصص:٢٢].

توكل على الله فكفاه وكفّاه، فأبعده عن شر فرعون وما كان يهم به من قتل، ويسّر له أسباب رزقه. قال ابن عباس رضي الله عنه: (خرج موسى ولا علم له بالطريق إلا حسن ظن بربه)[2].

وتجلى أيضًا حسن الظن لدى موسى عليه السلام لمّا جاءه فرعون وجنوده، وأجمعوا كيدهم وبغيهم وظلمهم وعدوانهم فأسقط في يد ضعفاء النفوس، و قال بعض من مع موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾ [الشعراء:٦١].

لا محالة هالكون، سيدركنا فرعون؛ قلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظًا وحنقًا، ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه؛ لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة، وإن كان لا يدري كيف تكون فهي لابد كائنة. والله هو الذي يوجهه ويرعاه ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء:٦٢] فانفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون، ومضت آية في الزمان، تتحدث عنها القرون، فهل آمن بها الكثيرون ؟[3].

وها هو القرآن الكريم يقصّ علينا أنّ ذا النون يونس عليه السلام كان قوي الثقة بأن الله لن يضيق عليه في شدته، فحقق الله ما أمّله، ونجاه من همه، وأزال غمه. ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء:٨٧].

ونبينا صلوات ربي وسلامه عليه خير من أحسن الظن بربه في موقف من أصعب المواقف. وفي ذلك يقول سبحانه عنه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ [التوبة:٤٠].

(١) المصدر السابق ص٣٥٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٧٣.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٥٩٨؛ تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧.

هذا الموقف آية من آيات الله، اثنان أعزلان يتحديان قريشًا بكاملها بعددها وعددها، فيخرجان تحت ظلال السيوف، ويدخلان الغار في سدفة الليل، ويأتي الطلب على فم الغار، بقلوب حانقة، وسيوف مصلتة، وآذان مرهفة، حتى يقول الصديق رضي الله عنه: (يا رسول اللّه لو أنّ أحدهم رفع قدمه رآنا. فيقول صلى الله عليه وسلم وهو في غاية الطمأنينة ومنتهى السكينة: (ما ظنّك باثنين اللّه ثالثهما) [(١)].

وكما أنه يجب إحسان الظن بالخالق فكذلك الخلق، فلابد من حمل المسلم على الصلاح -حيث الأصل-، وأن لا يظن به إلا خيرًا، وأن يحمل ما يصدر منه على أحسن الوجوه، وإن بدا ضعفها، تغليبًا لجانب الخير على جانب الشر.

والله سبحانه وجّه عباده لهذا الخلق حين قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور:١٢].

فالمعنى أنه كان ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا ذلك الأمر على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد في حقهم، فهو في حق عائشة أبعد؛ لفضلها[(٢)]. وروي أن هذا النظر وقع لأبي أيوب الأنصاري فقال لزوجته: أكنت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك، وإنما هذا كذب، وإفك باطل [(٣)].

لقد أوجب الإسلام على المسلم أن يحسن الظن بإخوانه المسلمين، فلا يحل لأحد منهم أن يتهم غيره بفحش، أو ينسب إليه فجورًا، أو يسند إليه الإخلال بالواجب، أو النقص في الدين أو المروءة، أو أي فعل من شأنه أن ينقص من قدره، أو يحطّ من مكانته. بل قد أمر الله بالتثبت، ونهى عن تصديق الوهم، والأخذ بالحدس والظن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات:٦].

فالأصل في الإنسان العاقل أن يبني أحكامه ومواقفه على العلم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ثاني اثنين إذ هما في الغار) رقم ٤٢٩٥، ٤/ ١٧١٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ١٧٨. فإن قيل: لم قال: ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾ بلفظ الخطاب ثم عدل إلى لفظ الغيبة، في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقل: (ظننتم)؟ فالجواب: أن ذلك التفات، قصد به المبالغة في التوبيخ، والتصريح بالإيمان الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شرًا. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٦١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٥٦.

ثانيًا: الظن السيئ:

من خلال تعريف الظن وهو ترجيح أحد الاحتمالين، نستطيع أن نعرف سوء الظن بأنه: اعتقاد جانب الشر، وترجيحه على جانب الخير في ما يحتمل الأمرين معًا[1].

وقيل: هو الاتهام بغير دليل. أو كما قال البعض: هو غيبة القلب، يحدث نفسه عن أخيه بما ليس فيه. أو هو: حمل التصرفات، قولًا وفعلًا، على محامل السوء والشكوك[2].

وسوء الظن بالله أبلغ في الذنب من اليأس والقنوط، وكلاهما كبيرة، وذلك لأنه يأس وقنوط وزيادة؛ لتجويزه على الله تعالى أشياء لا تليق بكرمه وجوده، فهو أعظم إثمًا وجرمًا[3].

قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالذي يظن به جل وعلا أنه يفعل الأشياء لا عن حكمة، فإنه قد ظن به ظن النقص، وهو ظنّ السوء الذي ظنّه أهل الجاهلية. وهو أيضًا ظن المنافقين: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح:٦].

سوء الظن بالله هو ظن ما لا يليق به تعالى وبحكمته، و بوعده الصادق. فمن ظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، فذلك ظن السوء[4].

فظنّ السّوء آفة الآفات، وأصل البليّات، فما كفر كافر ولا أشرك مشرك ولا ابتدع مبتدع بدعة في العقائد كالقدرية، والجبرية، والخوارج، والمرجئة، وغيرها إلا وأصل ذلك ظنّ السّوء. وكل هذا من ظلم النفس الذي هو صورة من صور سوء الظن فملكة سبأ حينما رأت الصرح حسبته لجة؛ فظنت أن سليمان يريد أن يغرقها، ثم لما بان لها أنه صرح ممرد من قوارير، علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل:٤٤].

فهي تعني بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ

(١) موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم، مجموعة مؤلفين، ١٠/ ٤٦٥٢.

(٢) تصنيف الناس بين الظن واليقين، بكر أبو زيد ص٣٢.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ١/ ٢٢٩.

(٤) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٢٩.

﴿نَفْسِي﴾ الظن الذي ظنت بسليمان عليه السلام[1].

إن سوء الظن بالمسلمين كبيرة من كبائر الذنوب، فهو محرم بنص قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات:١٢].

وسبب تحريمه: أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لنا أن تعتقد في غيرنا سوءًا إلا إذا انكشف لنا بعيان لا يقبل التأويل[2]. ثم إننا نلحظ أنه عز وجل قال: ﴿اجْتَنِبُوا﴾ بلفظ الأمر، ولم يقل:(لا تظنوا) بلفظ النهي، مع أن اجتناب المنهي أشد من فعل المأمور، لقوله صلى الله عليه وسلم: « إذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدعوه[3].

والنهي عند الأكثرين للتحريم بخلاف الأمر؛ فإن فيه خلافا. فالجواب: أنه لو قيل: لا تظنوا كان النهي عاما في جميع الظن، والمراد إنما هو بعض الظنون، فأتى فيه بلفظ الأمر وفي ضمنه النهي، لأن مادة الاجتناب تدل عليه، وعلق النهي بأكثر الظن لا بجميعه.

وتتضح حرمة سوء الظن بمقياسها الكبير بالدم والعرض والمال مما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث تثبت ذلك، فعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول: (ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والّذي نفس محمّدٍ بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند اللّه حرمةً منك، ماله ودمه وأن نظنّ به إلاّ خيرًا)[4].

فالحديث نص على اقتران ظن السوء بالاعتداء على الآخرين بالدم والمال والعرض، مع أن سوء الظن هو جريمة معنوية، بخلاف الدم والمال والعرض فهم جريمة مادية.فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو البيّنة، فإذا لم يكن كذلك، وخطر لك وسواس سوء الظن، فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

وقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٩٦.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢١٣.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١٥٠.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ٦/ ٢٦٥٨، الحديث رقم ٦٨٥٨، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الله تعالى، والإمام مسلم في صحيحه ٢/ ٩٧٥ الحديث رقم ١٣٣٧، باب فرض الحج مرة في العمر.

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن، باب حرمة دم المؤمن، حديث رقم ٣٩٣٢؛ وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ٣٤٢٠؛ و صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم ٢٤٤١.

وسلم من هذا النوع من الظن، فقال: (إيّاكم والظّنّ فإنّ الظّنّ أكذب الحديث)[1].

لا شك أن الكذب كبيرة من الكبائر، والرسول صلى الله عليه وسلم جعل الظن من أكذب الكذب وأكبره؛ لأن من ظن ظنّ السوء حملته نفسه على أن لا يرى إلا السوء، ولا يحمل القول ولا يرى في الفعل إلا جانب السوء، فيكون قد جمع من المساوئ ما هو أعظم من الكذب. وأمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان، فينفر عنه نفورًا ما ويستثقله، ويفتر عن مراعاته، وتفقده، وإكرامه، والاغتمام بسببه. فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه، فلا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل ولا في القلب ولا في الجوارح. أما في القلب: فبتغيره إلى النفرة والكراهة، وأما في الجوارح: فبالعمل بموجبه.

وفي التاريخ الإسلامي نجد أنّ حادثة الإفك ما هي إلا سوء الظن، حيث ظن المنافقون وغيرهم الظنون السيئة في عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنة خليله رضي الله عنهما، والتي عظمها سبحانه وجعلها من البهتان العظيم؛ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[النور:١٦].

إن المنافقين لمّا فشلوا في محاولاتهم التخذيلية، وخابت آمالهم في هزيمة المسلمين عبر صراعهم مع الوثنين واليهود، تحولوا إلى حلقة جديدة من سلسلة الإيذاءات والمحن التي نالها منهم المسلمون، وذلك من خلال أسلوب التخريب الداخلي بنشر الإشاعات المغرضة الهدّامة، التي من شأنها أن تزلزل بنيان المجتمع الإسلامي وتشل حركته. ولكن حادث الإفك كان خيرًا في الآجل والعاجل؛ من حيث فوائده العظيمة، وصدق الله إذ قال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النور:١١].

فمن فوائده: أن الله أراد أن يضرب بوقوعه المثل للمؤمنين بأن الاتهام الكاذب (سوء الظن) لم يبرأ منه سيد البشر وأفضل الناس، والمؤمن قد يبتلى بشيء من سوء ظن أو إشاعة تمس دينه، أو عرضه؛ فلا يتسرع في مواجهة مثل هذه الحوادث، بل يجب على من ابتلي بشيء من ذلك؛ أن يتجمّل بالصبر، ويتصرّف بحكمة وروية، فالمنافقون موجودون إلى وقتنا الحالي، وصفاتهم مازالت وستبقى كما بيّنها لنا

(١) سبق تخريجه.
ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: « إيّاكم والظّنّ » أي احذروا اتّباع الظن، أو احذروا سوء الظن. والظن: تهمة تقع في القلب بلا دليل. وليس المراد ترك العمل بالظن الذي تناط به الأحكام غالبًا، بل المراد ترك تحقيق الظن الذي يضر بالمظنون به.
انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داوود، عبد العظيم آبادي ١٠/ ٤٤٥.

القرآن الكريم. وهذا لا يعني أن نتمنّى وقوع الشر طمعًا أن يتولّد منه الخير، ولكن إن وقع فتفاؤلنا يغرينا أن نتحسس في طوايا المحن منحًا، فالفأل الحسن منعة لنا بإذن الله من أن يغلبنا التشاؤم فنستسلم للشر. على أنه ينبغي أن لا نفرط في التفاؤل فيؤول بنا إلى أن نهوّن من غوائل الشر و نهمل مواجهته، فيصبح التفاؤل نفسه شرًا لنا لأننا أفرطنا فيه. ومن حادثة الإفك علم الناس من هم المنافقون الذين يعملون على خلخلة المجتمع المسلم، والعمل على هز أركانه ؟! كما علم المسلمون كيف يواجهون مثل هذه الإشاعات؟! وعلموا أن الله يدافع عن الذين آمنوا، ويفضح كل خوان كفورٍ. فسوء الظن أمره خطير، وخطره على المسلمين أعظم منه على المنافقين أنفسهم. وحسبنا أن نعلم أن مصيبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهزائمها في هذه الأيام جاءت من منافقيها الذين تسللوا داخل صفوفها، فأفسدوا تراثها، وأعملوا معاولهم في عقيدتها، حتى إذا نخرت دوحة الأمة من داخلها؛ يسر على العدو الخارجي من الصهاينة كسرها في سهولة [1].

الظن اليقيني

قد يعبر بالظن عن اليقين؛ لأن في الظن طرفًا منه [2]. ولعل هذا الطرف هو الرجحان. فبين الظن و اليقين- قدرًا مشتركًا وهو: الرجحان وتأكد الاعتقاد، فيتجوّز بالظن عن اليقين.

فالظن يقع موقع اليقين في الأمور المحققة، وعندما نتتبع الآيات التي ورد فيها الظن بمعنى اليقين في كتاب الله نجد أنه في معناه أقوى من اليقين فهو علم مالم يعاين؛ بدليل أن ما بعده لا يحتمل الشك أبدًا أو تشوبه ريبة في صحته؛ لأنه من ثوابت العقيدة التي لا مجال فيها للشك والارتياب.

وقد ذكر القرآن صورًا لهذا الظن اليقيني منها:

أولًا: ملاقاة الله:

في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[البقرة:٤٦].

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾[البقرة:٢٤٩].

نلحظ ورود فعل الظن فيها جزءًا من سياق الحديث عن عقيدة البعث واستقرارها في نفوس المؤمنين، وهذه الأمور متعلقة بالآخرة، وكما جاء عن مجاهد رحمه الله: إن ظن الآخرة يقين، بينما ظن الدنيا

(١) من لطائف التفسير بتصرف، أحمد فرح عقيلان ١/ ٥٢.

(٢) بحر العلوم، السمرقندي ١/ ٧٦.

شك [1]. كما نلحظ أن مفعول الظن في هذه الآيات، يحدّد دلالة اللفظ نفسه، فالمدح الذي استحقه أولئك الظانون أنهم ملاقوا الله لم يستحق لهم إلا بموجب هذا المفعول، فهو الذي ضمهم إلى فئة دون الأخرى أو بعبارة أدق (هو الذي حدد الفئة التي سيضمون إليها) ولو أنهم ظنوا أنهم (غير مبعوثين) مثلًا، لما كان تصنيفهم على ما هو عليه الآن في هذه الآيات، ولضمّوا بالوصف أو غيره من أدوات اللغة إلى الفئة المذمومة لا المحمودة [2]. والقراءات في هذه الآية تؤكد هذا الظن اليقيني، حيث قرئت ﴿يَظُنُّونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٦].

يعلمون أنه لا بد من لقاء الجزاء؛ فيعملون على حسب ذلك. وأما من لم يوقن بالجزاء، ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة فثقلت عليه كالمنافقين والمرائين بأعمالهم [3].

وقد فسّر الظن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن:١٢].

كذلك على معنى اليقين للأسباب السابقة نفسها؛ إذ وردت الآية - بما فيها لفظ الظن - في سياق حديث الجن الصالحين عن إيمانهم، جاعلين جزءًا من هذا الإيمان ظنهّم أنهم لن يعجزوا الله في الأرض ولن يعجزوه هربًا. ولو أنّ فاعل الظن كان من الجن غير الصالحين، أو أن المفعول كان ذا دلالة متنافية مع مفهوم الإيمان الصحيح في الإسلام، أو كلاهما معًا؛ لفسّر الظن على غير معنى اليقين كما في مواضعه الأخرى من السورة نفسها [4].

ثانيًا: ملاقاة الحساب:

إن المؤمن يوقن ويعلم أن الموت ليس نهاية المطاف؛ بل بعده أمور جسام وهو على يقين أن الله يبعث هذه الأجساد من قبورها للعرض والحساب في يوم القيامة، فبعد مجيء الربّ تبارك وتعالى لفصل القضاء تعطى الكتب فمن آخذ كتابه بيمينه، ومن آخذ كتابه بشماله فأما من أوتي كتابه الذي ضم حسناته بيمينه فيقول في فرح عظيم خذوا كتابي فاقرؤه، ويعلل لسلامة كتابه من السيئات فيقول: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١٨/ ٢٣٥.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى العوا ص١٠٥.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٢؛ وانظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٦٣.
(٤) وهي: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، ﴿وَأَنَّهُم ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى العوا. بتصرف يسير ص١٠٥.

﴿حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة:٢٠]، أي علمت أني ملاقٍ حسابية لا محالة [(١)]، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة:٢٠].

يقول: أيقنت. ويكون المعنى: أنه ما نجا إلا بخوفه من يوم الحساب، لأنه تيقن أن الله يحاسبه، فعمل للآخرة [(٢)].

قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين. ومن الكافر فهو شك.

ثالثًا: وقوع العذاب يوم القيامة:

في يوم القيامة تنكشف الحقائق، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم في ذلك شك، كما قال تعالى عنهم أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

وقال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠].

وقال: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق: ٢٢] [(٣)].

ومن الآيات التي ورد فيها ظن وقوع العذاب يوم القيامة: قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣].

وقوله سبحانه: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ [القيامة:٢٥]، وقوله: ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٤٨﴾ [فصلت: ٤٨].

عندما نقرأ الآيات في سياقاتها نجد أنّ السياق الموضوعي للآيات واحد يتضمّن وصفًا لأحداث في وقوعها، ووصفًا لأحوال الأشخاص حاضري هذه الأحداث في أثناء وقوعها كذلك.

ففي الآية الأولى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف:٥٣] رؤية عينية ترتب عليها الظن، فالفعل (رأى) متعد لواحد (النار)، وترتب على الرؤية هذا الظن بموجب دلالة الفاء الرابطة بين الجملتين، وسابق على الرؤية يأس يقيني من نجدة الشركاء والآلهة التي آمنوا بها من دون الله الواحد ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ ثم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢﴾ [الكهف:٥٢].

فلا يمكن مع الرؤية العينية، والإدراك العقلي السابق على الرؤية واللاحق بها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، لا يمكن مع نظرتحقق هذين الأمرين أن يكون (ظنّ) الكافرين مجرد شك، وأين إذن يكون اليقين بعد الرؤية العينية ؟! فالظن هنا إذن (معنى وفعلًا) له قوة الرؤية العينية المصاحبة

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٤/ ٥٤٣.
(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٢٩٩؛ معالم التنزيل، البغوي ص ١٣٤٤.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ١٩.

لإدراك عقلي وتأكيدها، ألا وهو اليقين التام.

وفي الآية الثالثة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت:٤٨] لدينا الإدراك العقلي نفسه، بعد تخلي الشركاء تخليًا إراديًا مقصودًا ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ [فصلت: ٤٧].

ثم تأكيد لهذا التخلي بجملة تعقيبية لا تدع مجالًا للشك أو الاحتمال، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ بما في ذلك الفعل الماضي من قطعية المضي وحتمية الانقضاء، لتكون النتيجة بعد ذلك، اكتمال هذا الإدراك العقلي وتيقنه، أنه: (ما من محيص)[1].

قال الشنقيطي رحمه الله: «الظن هنا بمعنى اليقين؛ لأن الكفار يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، وشاهدوا الحقائق، علموا في ذلك الوقت أنهم ليس لهم من محيص، أي ليس لهم مفر ولا ملجأ»[2].

وقال البغوي في قوله تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة:٢٥]: «تستيقن أن يعمل بها عظيمة من العذاب، والفاقرة: الداهية العظيمة، والأمر الشديد يكسر فقار الظهر. قال سعيد بن المسيب: قاصمة الظهر. قال ابن زيد: هي دخول النار. وقال الكلبي: هي أن تحجب عن رؤية الرب عز وجل[3].

رابعًا: حصول الهلاك:

إذا تتبعنا الآيات التي جاء فيها ظن الهلاك وجدنا أن الظن فيها يقينيًا كما في قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧١].

فبنو إسرائيل لما رأوا الجبل فوقهم أيقنوا أنه سيقع عليهم؛ لأن الجبل لا يثبت في الجو، ولأنهم كانوا يوعدون به، وإنما أطلق الظن؛ لأنه لم يقع متعلقة وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها؛ فرفع الله الطور فوقهم[4]. وكذلك الحال في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

لقد ظهرت علامات الهلاك دفعة واحدة ثم إنه قد أحاط بهم وأحدق من كل جانب، يقول الرازي: رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «واعلم أن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود،

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى العوا ص١٠٦.
(٢) أضواء البيان ٧/ ٩٣.
(٣) معالم التنزيل ص ١٣٦٧.
(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٢٩٩؛ تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ابن الجوزي ص١٩٢.

حصل له الفرح التام والمسرة القوية، ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة؛ فأولها: أن تجيئهم الرياح العاصفة الشديدة. وثانيها: أن تأتيهم الأمواج العظيمة من كل جانب. وثالثها: أن يغلب على ظنونهم أن الهلاك واقع، وأن النجاة ليست متوقعة، ولا شك أن الانتقال من تلك الأحوال الطيبة الموافقة إلى هذه الأحوال القاهرة الشديدة يوجب الخوف العظيم، والرعب الشديد، وأيضا مشاهدة هذه الأحوال والأهوال في البحر مختصة بإيجاب مزيد الرعب، والخوف"[1].

وإنما كان ظن الهلاك يقينيًا في هذه الآيات لأمور منها: ماقرّره الزركشي من أن كل ظن يتصل به أن المشددة فهو يقين[2]، وما يحيط بهذا الظن من دلائل تنبئ عن تحقق وقوع هذا الهلاك.

خامسًا: اللجوء إلى الله:

من الآيات التي تبيّن هذا المعنى، قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ٢٤﴾ [ص:٢٤].[3]، وقوله جل جلاله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٧-١١٨].

إن لفظ الظن في هذه الآيات ورد في أمر من الأمور الثابتة في عقيدة المسلم مما يؤكد أنه ظن يقيني، ثم لو تأملنا سياق الآيات لوجدنا أن أشخاص القصتين من عباد الله الصالحين الذين يقعون فيما يقع فيه العبد الصالح من ذنب أو تفريط، ويهيئ الله لهم برحمته أن يروا من الآيات ما ينبههم إلى ذنبهم، فيتوبون عنه وتقبل توبتهم. كما نجد أن الموضوع الأساسي للقصتين هو قبول التوبة إذ يقول سبحانه في قصة الثلاثة: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة:١١٧-١١٨].

ويقول في قصة داود عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ٢٤ فَغَفَرۡنَا

(١) التفسير الكبير ١٧/ ٧٠.
(٢) انظر: ص٦-٧ من هذا البحث.
(٣) قال الشنقيطي رحمه الله واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة، مما لا يليق بمنصب داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معول عليه، وما جاء منه مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح منه شيء. أضواء البيان ٧/ ١٦،١٧.

﴿لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ٢٥﴾ [ص:٢٤-٢٥] فالظن في القصتين وقع على أمر صحيح، ودليل هذا قبول التوبة؛ وإلا كيف تقع التوبة على أمر لم يقع، فقد كان الظن إذن ظنًا بما هو حق.

ففي قوله تعالى في قصة داود: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ دليل على صدق ظن داود عليه السلام، وعمله من استغفار وركوع وإنابة دليل على استقرار هذا الظن في نفسه بما يقربه إلى اليقين. ولو أن الظن هنا بمعنى الحسبان؛ لورد في السياق تصديق هذا الظن وتأكيده، أو نفيه وتبرئة النبي عليه السلام منه، بدلًا من ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾، الذي هو استجابة لعمله (الاستغفار) المبني على إدراكه الفتنة وتيقنه منها، اللذين عبر عنهما بلفظ (ظن). وفي آية التوبة يكون قبول الله توبتهم، دليلًا على صدق التوبة وتمكنها من نفوسهم، وأنهم قد تابوا حقًا، أي أن ظنهم ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ ليس شكًا بل يقينًا وعملًا، اقتضى لهم المغفرة كما وعد الله سبحانه كل تائب صادق من عباده [1].

سادسًا: لحظة الفراق (الموت):

في قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ٢٨﴾ [القيامة:٢٨].

فسر الظن بمعنى اليقين؛ لأنه إن كانت الروح قد بلغت التراقي واستبعد وجود الراقي، فلا بد أن الإنسان في هذه الحال قد أدرك بل علم واستيقن أنها آخر ساعة وهي ساعة الفراق، فتضافر الجملتين ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ٢٧﴾ [القيامة: ٢٦-٢٧] واستحال النجاة، يجعلنا كل هذا نميل إلى وجاهة معنى اليقين هنا في لفظ الظن، وهي ساعة لا يخطئها إنسان، إذ يكون أقرب إلى الآخرة فيها منه إلى الدنيا [2].

وقال المفسرون: «المراد أنه أيقن بمفارقته الدنيا، ولعله إنما سمي اليقين ههنا بالظن، لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقا ببدنه، فإنه يطمع في الحياة؛ لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة على ما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ٢٠﴾ [القيامة: ٢٠] ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم [3].

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى العوا ص١١٢.

(٢) المصدر السابق ص١٠٧.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٢٣١.

أوهام مظنونة

إن الطريق إلى المعرفة الصحيحة هو العلم الراسخ، فهو كالإيمان الذي يفتح القلب للنور، أما العلم السطحي واتباع الظنون فإنهما يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة. والبشر حينما يتركون هدي ربهم، سيجدون أنفسهم منغمسين في ظنون لا تغني عن الحق شيئًا.

فالاعتقادات التي لم يقم عليها أي دليل، هي ظنون مجردة من العلم، قائمة على الهوى، مخالفة للشرع، وكلها أوهام؛ وفيما يلي صورًا منها في القرآن:

أولًا: عدم قيام الساعة:

الحياة في نظر المشركين هي ما يرونه في الدنيا رأي العين، جيل يموت وجيل يحيا وفي ظاهر الأمر لا تمتد إليهم يد بالموت، إنما هي الأيام تمضي، والدهر ينطوي فإذا هم أموات، فالدهر إذن هو الذي ينهي آجالهم، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون[1] ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩].

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧].

وقد ظن الجن كما ظنت الإنس أن الله لن يبعث أحدًا، على قول من قال إن المقصود في قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾[الجن:٧] هو البعث بعد الموت. يظنون ظنًا غامضًا واهيًا، لا يقوم على تدبر، ولا يستند إلى علم، ولا يدل على إدراك لحقائق الأمور، ولا ينظرون إلى ما وراء ظاهرتي الحياة والموت من سر يشهد بإرادة أخرى غير إرادة الإنسان، وبسبب آخر غير مرور الأيام[2].

إن المشركين لا يؤمنون ببعث ولا نشور، بل هم في شك ووهم وعمى من ذلك، ويعدونه من الأساطير والسحر، لعظمه واستحالته في تصورهم وما هذا إلا لجهلهم وسفههم. يقول الله مخبرًا عن حالهم بأسلوب بديع يبين لنا اضطرابهم في هذا الأمر: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل:٦٦ – ٦٨].

ويقول عز وجل: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٣٢.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٢٣٢.

[هود:٧].

وقد رد الله عليهم ظنهم وزعمهم الباطل بأن هذا يسيرٌ عليه سبحانه: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ [التغابن:٧].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾ [القيامة:٣-٤].

بل قد نزّه نفسه سبحانه عما يترتب على هذا الوهم والظن من العبث في الخلق؛ فقال عز وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝١١٦﴾[المؤمنون:١١٥، ١١٦].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾: « أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثًا، بلا قصد، ولا إرادة منكم، ولا حكمة لنا. وقيل: للعبث. أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم، لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي:لا تعودون في الدار الآخرة. كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٢٦] يعني هملًا»[(١)].

فمن ظن بالله أن يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله ولا ينـزل عليهم كتبه بل يتركهم هملًا كالأنعام فقد ظن به ظن السوء[(٢)]. قال ابن القيم رحمه الله واصفًا هذا الظن: «من ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء[(٣)].

وقد أنكر سبحانه على من وهم وشك في ذلك؛ فالبعث من أمور العقيدة الغيبية ويحتاج إلى يقين؛ قال سبحانه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ [المطففين: ٤-٥].

ومجيء الآيات بأسلوب الاستفهام الاستنكاري دليل على أن ظنهم في منتهى السوء الذي قد يوصل للكفر، بل عدّه سبحانه من الاستكبار حيث قال: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩﴾ [القصص:٣٩].

وهو من ظلم النفس كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف:٣٦-٣٥].

ففي قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٦٠.

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٣٠.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٦٢.

قال الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب، دخل جنته-وهي بستانه-وهو ظالم لنفسه، وظلمه نفسه: كفره بالبعث، وشكّه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه[1].

ثانيًا: دوام الدنيا ونعيمها:

هذه الدنيا التي يستغرق فيها بعض الناس، ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع، ظانين دوامها؛ لا أمن فيها ولا اطمئنان، ولا ثبات فيها ولا استقرار، ولا يملك الناس من أمرها شيئًا إلا بمقدار. وقد ضرب سبحانه المثل لحالها بسرعة تقضيها وزوال نعيمها؛ فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس:الآية٢٤].

وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم؛ اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها[2].

لقد بين الله لنا حقيقة الدنيا، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال وهي نافعة لمن أعمل فكره وعقله وهداه الله، وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان، بل يتعلق بأوهام ظانًا دوام هذه الدنيا، وأن نعيمها لن يزول.

ويظلم نفسه بهذا الظن كما أخبر سبحانه عنه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾ [الكهف: ٣٦].

فصاحب البستان قد ظلم نفسه؛ وذلك لسوء ظنه بالله تعالى وشكه في إبادة جنته(بستانه)، وقيام الساعة[3].

(١) جامع البيان ١٥/ ٢٤٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤٦.

ثانيًا: الشك في قدرة الله [1]:

إن الإيمان بكمال الله وقدرته على كل شيء من أمور العقيدة التي لا بد أن تبنى على اليقين، فهذا الخلق العظيم يحمل دلالة طلاقة قدرة الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. إلا أن بعض الناس قد ساقهم كبرياؤهم و ظنونهم السيئة إلى التعالي على الله والشك في قدرته سبحانه حتى على أنفسهم وهذا ما يفيده قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [البلد:٥].

فالإنسان في نفسه وقوته يظن أن لن يقدر عليه أحد، لأنه في عنفوان شبابه وقوته وكبريائه وغطرسته، فيقول لا أحد يقدر علي، أنا أعمل ما شئت، ومنه قوله تعالى في قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

حتى الرب عز وجل يظنون أنه لا يقدر عليهم، وهذا لا شك بالنسبة للكافر، أما المؤمن فإنه يعلم أن الله قادر عليه، وأنه على كل شيء قدير فيخاف منه [2].

وكذلك الحال في يهود بني النضير حينما ظنوا أن حصونهم ستمنعهم من الله، فالمسلمون ظنوا عدم خروجهم من ديارهم، لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها، وهذا حسبان في محله. لكنهم هم تمادوا في ظنهم فأعجبوا بحصونهم وقوتها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا ينالون بها، ولا يقدر عليها

---

(١) أثيرت شبهة حول القرآن يتهم النبي يونس بأنه شك في قدرة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]. والجواب عن هذه الشبهة: أن القارئ لن يجد كتابًا عند أمة من الأمم يعظم الأنبياء كما عظمهم القرآن الكريم، فهو الكتاب الوحيد الذي ينزه الأنبياء عن الكبائر والنقائص، فضلًا عن الكفر والشرك بالله تعالى، فقد فضل الله يونس مع إخوانه الأنبياء على العالمين: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٦] وإنما أتي القائل لهذه الشبهة من سوء فهمه للآية، فليس مقصودها أن يونس ظن أنه معجز الله بهربه، بل المعنى أنه ظن أن الله لن يقدر عليه، أي لن يضيق عليه ويلومه في ترك قومه حين لم يستجيبوا لدعوته، فهي كقول الله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]: أي ضيّق عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس رضي الله عنه وعن غيره من التابعين. وحفاظًا على منزلة يونس بن متى في قلوب المؤمنين؛ نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيل المرء نفسه على هذا النبي الكريم بقوله: (لا ينبغي لعبد أن يقول إنه خير من يونس بن متى). أخرجه البخاري رقم ٣٣٩٦، وفي رواية: (من قال: أنا خير من يونس بن متى؛ فقد كذب). أخرجه البخاري رقم ٤٦٠٤، فثبت بذلك براءة القرآن من فرية الإساءة إلى يونس عليه السلام.
انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص٤٠٨.

(٢) تفسير القرآن الكريم، جزء عم، ابن عثيمين ص٢١٧.

أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

ومن الشك في قدرة الله الظن بأن الله محتاج إلى الولد أو الشريك، يقول ابن القيم رحمه الله «ومن ظن بأن لله سبحانه ولدًا أو شريكًا أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه فيدعونهم ويحبونهم كحبه، ويخافونهم كخوفه فقد ظن به أقبح الظن وأسواه»[1].

لقد نزّه الله نفسه عن الولد وبيّن أنّه في غنى، فقال عز وجل: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس:٦٨].

ففي قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهًا لذاته العلية عن مستوى هذا الظن أو الفهم أو التصوّر، فهو الغني بكل معاني الغنى عن كل ما يخطر وما لا يخطر على البال مما يقتضي وجود الولد. والمقتضيات هي التي تسمح بوجود المقتضيات، فلا يوجد شيء عبثًا بلا حاجة ولا حكمة ولا غاية. له ما في السماوات وما في الأرض فكل شيء ملكه، ولا حاجة به سبحانه لأن يملك شيئًا بمساعدة الولد، فالولد إذن عبث، تعالى الله عن العبث![2].

ثم إنّ الشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله والشك في قدرته سبحانه؛ فلما واجه إبراهيم عليه السلام الصّابئين[3] المشركين من قومه، ذكّرهم بما أوقعهم في شركهم، وهو ظن السّوء بربّ العالمين.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات ٨٥-٨٧].

يقول ابن القيم رحمه الله في تقرير ذلك: «كل شرك في العالم فأصله التعطيل، فإنه

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٠٤.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٨٠٦.

(٣) الصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون. فالأولون هم الذين أثنى الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢]. أما المشركون فهم الذي كانوا يعبدون الكواكب. الرد على المنطقيين، شيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٨٨.

لولا تعطيل كلامه سبحانه أو بعضه وظن السوء به ما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات:٨٦-٨٧].

أي: فما ظنكم به أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟ أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بهم كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على الاستقلال بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاسٍ فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟»[(١)].

إنّ المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم... ؛ وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك، وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، أولا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم، أو لا يكفي عبده وحده،... أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا؛ وهذا أصل شرك الخلق[(٢)].

ثالثًا: عدم نصر الله لأنبيائه وأوليائه:

لا يتمّ للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله وتصديقه بكل ما أخبر به، وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين وإحقاق الحق وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان، وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان. وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية النافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله، ونفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده[(٣)].

ففي غزوة أحد لما حصل ما حصل من هزيمة المسلمين، وكان من المنافقين من انخذل من الجيش فرحوا بذلك أشدّ الفرح، وظنوا أنه لا قائمة للإسلام بعد ذلك: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران:١٥٤].

عن ابن جريج قال: «قيل لعبد الله بن أبي: قتل بنو الخزرج؟ قال: وهل لنا من

(١) مدارج السالكين ٣/ ٣٤٧.
(٢) انظر: إغاثة اللهفان ١/ ٦٢.
(٣) القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي ص١٢٢.

الأمر من شيء [1]. وقال الزّبير رضي الله عنه: «لقد رأيتني مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حين اشتدّ الخوف علينا، أرسل اللّه علينا النّوم، فما منّا من رجلٍ إلا ذقنه في صدره، قال: فواللّه إنّي لأسمع قول معتّب بن قشيرٍ، ما أسمعه إلا كالحلم: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا ها هنا، فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل اللّه: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ لقول معتّبٍ» [2].

فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر ورد الأمر كله إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لما ذمّوا عليه، ولما حسن الرد عليه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية.

ولهذا قال غير واحد من المفسرين: «إن ظنهم الباطل ها هنا هو التكذيب بالقدر وظنهم أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبعًا لهم يسمعون منهم؛ لما أصابهم القتل ولكان النصر والظفر لهم، فأكذبهم الله عز وجل في هذا الظن الباطل، الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء فكذّبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ولا حكمة له فيه [3].

قال الطبري رحمه الله: «يعني بذلك جل ثناؤه وطائفة منكم أيها المؤمنون قد أهمتهم أنفسهم. يقول: هم المنافقون لا همّ لهم غير أنفسهم، فهم من حذر القتل على أنفسهم وخوف المنية عليها في شغل قد طار عن أعينهم الكرى [4]، يظنون بالله

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبدالرحمن آل الشيخ ص٦٨٠.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٢٣٠؛ جامع البيان، الطبري ٤/ ١٤٣؛ لباب النقول، السيوطي ص٥٩؛ الصحيح من أسباب النزول، عصام الحميدان ص٩٧؛ الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل الوادعي ص٥٠.

(٣) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٢٩.

(٤) الكرى هو النعاس، فلقد جعل الله النعاس يغشى المؤمنين المقاتلين في غزوة بدر ليزيل شعورهم بالخوف، وأحد ليزيل شعورهم بالغم، حيث قال سبحانه عن تثبيت المؤمنين في بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١]، فالأمنة هي شعور المجاهد بالأمان والطمأنينة أثناء خوض المعركة، لكن أسباب الخوف ما زالت موجودة لأنه على أرض المعركة. أما الأمن فهو الطمأنينة بعد زوال سبب الخوف. فسبحان منزل هذا الكتاب المعجز بألفاظه.
انظر: لطائف قرآنية، صلاح الخالدي

الظنون الكاذبة ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله؛ شكًا في أمر الله وتكذيبًا لنبيه صلى الله عليه وسلم ومحسبة منهم أن الله خاذلٌ نبيه، ومعلٍ عليه أهل الكفر به»[1].

فالمقصود بـ ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ المنافقين. وهم: معتّب بن قشير[2] وأصحابه، وكانوا خرجوا طمعًا في الغنيمة، وخوف المؤمنين؛ فلم يغشهم النعاس. وجعلوا يتأسفون على الحضور، ويقولون الأقاويل[3].

ثم لما كانت غزوة الخندق عاود المنافقين ظنّهم السيئ وقالوا مقولاتهم المرجفة: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ۝١٢﴾ [الأحزاب: ١٠-١٢].

قال الحسن رحمه الله: «ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون[4]. لقد ظهر نفاق المنافقين؛ لأن ظنهم السيئ هداهم إلى أن دعوة الإسلام على مشارف الانتهاء والاضمحلال، وأخذوا يشككون في وعد الله ورسوله، حتى قال قائلهم: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط!»[5]. وخيب الله ظنهم، فحفظ المؤمنين، ورد الكافرين على أعقابهم لم ينالوا خيرًا ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ۝٢٥﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ويتواصل الظن السيئ مع المنافقين؛ لأن قلوبهم قد مردت على النفاق، فتكون غزوة الحديبية التي ما خرج فيها مع المؤمنين أحد من المنافقين؛ لأنهم لا يحبون أن يراهم المشركون متلبسين بأعمال المسلمين، مظاهرين لهم، وكانوا يحسبون أن المشركين يدافعون المسلمين عن مكة، وأن النصر سيكون للمشركين.

لقد ظنوا أن الله تعالى لم يعد رسوله صلى الله عليه وسلم بالفتح، ولا أمره

ص١٠٣.

(١) جامع البيان ٤/ ١٤١.

(٢) بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد التاء فوقها نقطتان، معتب بن قشير بن مليل بن زيد بن العطاف بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف الأنصاري. شهد بدرًا وأحدًا، وكان قد شهد العقبة. يقال: إنه كان منافقًا وإنه الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. وقيل: إنه تاب. انظر: الاستيعاب، ابن عبد البر ٣/ ١٤٢٩؛ الإصابة، ابن حجر ٦/ ١٣٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٤٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٣٥.

(٥) المصدر السابق ٣/ ٧٣٥.

بالخروج إلى العمرة، ومن ثم لن ينصر لقلة أتباعه وقوة أعدائه؛ فسجل القرآن عليهم هذا الظن السيئ، وجعل عليهم دائرة السوء ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح:٦].

وتمادى بهم ظنهم السيئ، وامتلأت به قلوبهم، وزينه لهم شياطينهم؛ حتى اعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يرجع من الحديبية سالمًا، وهذا هو شأن العقول الواهية، والنفوس الهاوية أن لا تأخذ من الصورة التي تتصور بها الحوادث إلا الصورة التي تلوح لها في بادئ الرأي والتي تهواها وتحبها[1].

وما أحقر المنافقين: يعيشون بين المؤمنين، وينعمون بحمايتهم، وتبادل المنافع معهم، وهم يودون لهم الشر والهلاك. تخلفوا عن الحديبية ثم جاؤوا بأعذار كاذبة، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم؛ لكن القرآن كان أسرع في تنزله؛ إذ راحت آياته تفضحهم وتبين مخازيهم: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢].

إنهم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وظنوا أن أهل مكة سيقتلون محمدًا وصحبه، ويستأصلون شأفتهم، ويبيدون خضراءهم؛ فلا يرجع منهم مخبر حتى كانوا يقولون: إن محمدًا وأصحابه أكلة رأسٍ لا يرجعون. وذلك كناية عن القلة، أي: يشبعهم رأس بعير من قلتهم، فما هم بالنسبة لقريش والأحابيش وكنانة ومن في حلفهم؟! [2]. هكذا ظنوا وتمنوا ولكن الله خيب ظنهم، ونكس أمانيهم فعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية سالمًا مظفرًا، وقد فات المنافقين شرف صحبته، وفضل بيعة الرضوان.

وفي قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص:٥٧].

يخبر تعالى أنّ المكذبين من قريش وأهل مكة يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعناك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة. وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن بالله

(١) التحرير والتنوير، بن عاشور ٢٦/ ١٥٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٣٥؛ التحرير والتنوير، بن عاشور ٢٦/ ١٥٣.

تعالى، وأنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق [(١)]. ولقد نهى سبحانه عن هذا الظن والحسبان فقال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧].

ورد على من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، وأن دينه سيضمحل بقوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج:١٥].

وهذه الآية الكريمة فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأييس الكافرين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم [(٢)].

قال ابن كثير رحمه الله: «من ظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه؛ فإن الله ناصره لا محالة، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر:٥١-٥٢] [(٣)].

إن الظن السيئ بالله هو نتاج قلب فاسد جاهل به سبحانه وأسمائه وصفاته، خالٍ من ذكر الله وتعظيمه. وهكذا كان حال المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتعلقون بأي شيء فيه إضعاف للحق، وإرجاف بين المؤمنين؛ رجاء أن يزول هذا الحق الذي لا يريدونه، وتكررت منهم الظنون السيئة في مواقف كثيرة، سجل القرآن منها ظنونهم في أحدٍ والأحزاب والحديبية، واستمر المنافقون منذ ذلك الوقت إلى اليوم على هذا المنهج الفاسد، تدفعهم إليه قلوبهم المريضة.

ومع بالغ الأسف فإن كثيرًا من المسلمين يقعون في الظن الفاسد الذي هو من خصال المنافقين من حيث لا يعلمون، فقد ينظر بعض المسلمين إلى أحوال الأمة الإسلامية، وما أصابها من الضعف والهوان؛ فيصيبه اليأس من صلاح أحوالها؛ فيقعد عن العلم والدعوة، ويتخلف عن الخير والصلاح. يظن ظنًّا سيئًا أنه لا صلاح يرجى، ولا خير ينتظر. ويبصر البعض الآخر الكفار وما يملكون من أسلحة متطورة، وصناعة متقدمة، وقوة ضاربة، ويقارن ذلك بأحوال المسلمين، الذين يقتلون ويشردون ويمنعون أبسط الحقوق الضرورية للعيش على الأرض!! فلربما يقدح الشيطان في قلوبهم أن تلك القوة عند الكفار دليل على

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢١.
(٢) المصدر السابق ص٥٣٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢١١.

الحق، وأن ذلك الضعف عند المسلمين دليل على الباطل، فيطلقون لأنفسهم العنان في هذه الأوهام الفاسدة، والظنون السيئة؛ حتى ربما خرجوا من الإسلام وهم لا يشعرون.

ثالثًا: عدم علم الله لما يسرون:

قد أنكر الله في كتابه من ظن ذلك الظن، فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠].

ويقول عز من قائل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت:٢٢].

وسبب نزول الآية كما ذكر ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفرٍ: قرشيّان وثقفيٌّ أو ثقفيّان وقرشيٌّ، قليلٌ فقه قلوبهم، كثيرٌ شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون اللّه يسمع ما نقول؟ وقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا! وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل اللّه عزّ وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت:٢٢][1].

أي: الخفيات من أعمالكم، وهذا الظن كفر وجهل بالله وسوء معتقد يؤدي إلى تكذيب الرسل والشك في علم الإله[2].

يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك: «من ظن أنه سبحانه لا سمع له ولا بصر، ولا علم له ولا إرادة، وأنه لم يكلم أحدًا من الخلق ولا يتكلم أبدًا، وأنه ليس فوق سماواته على عرشه بائنًا من خلقه، أي بلا كيف، وكما وصف الله به نفسه، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه[3].

رابعًا: كذب الرسل:

إنّ من أسس العقيدة الإسلامية الإيمان بجميع الرسل والأنبياء عليهم السلام وبما جاؤا به من عند الله، فالمؤمنون يعتقدون إيمانًا راسخًا ثابتًا لا يتزعزع بالرسل والأنبياء عليهم السلام. وقد وصف القرآن الكريم إيمان المؤمنين حيث قال سبحانه: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فما من نبي دعا قومه إلى الله إلا وجاءهم ببينّة على صدقه في دعواه من حجة عقلية

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، رقم ٤٨١٦، ١٦/ ٨٧؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الصفات، رقم ٢٧٧٥، ص٢١٤١.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٧٢.
(٣) انظر: زاد المعاد ٣/ ٢٣٢.

وآية كونية. فمن شكّ أو ظنّ في صدق الرسل وبما جاؤوا به فقد أساء الظن بالله وبرسله إساءة تورده الهلاك في الدنيا والآخرة[1].

ولا يخفى ما حلّ بالأقوام السابقة من العذاب العظيم حينما أساءوا الظن برسلهم وشكوا بهم فكذبوهم. فمن قوم نوح عليه السلام من كذب وشك فيما فضّله الله به عليهم، يقول الله عز وجل مخبرًا عنهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود:٢٧].

وقال سبحانه عن قوم هود: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف:٦٦].

قد تشابهت أقوال قوم هود وأقوال قوم نوح في تكذيب الرّسل؛ لأنّ ضلالة المكذّبين متّحدة، وشبهاتهم متّحدة، كما قال عز وجل: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨].

فكأنّهم لقّن بعضهم بعضًا كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات:٥٣][2]. وقال سبحانه عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

ونجد أن قوم شعيب عليه السلام عندما دعاهم إلى الله ظنوه كاذبًا، ولم يقفوا عند ذلك بل طلبوا بأنفسهم العذاب إن كان صادقًا، فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٧].

وقوم موسى عليه السلام اختلفوا وشكّوا فيما جاءهم به ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود:١١٠].

ثمّ إنّ فرعون ظنّ أنه حين دانت له البلاد، وذلّ له العباد، استحق ما ليس له فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، وأراه الآيات العظام على يد موسى عليه السلام فكذب وعصى، وقال في حق موسى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:٣٧].

وفي آية أخرى أراد أن يحقق ظنه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ١٧٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥ / ٣٤٨.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: ٣٨].

كذب موسى، وادّعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج، ولكن العجب من هؤلاء الملأ، الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المدبرون لشئونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم[1].

غلبة الظن في الأحكام الشرعية

كثير من المسائل الفقهية ظنية: إما لخفاء الدليل، أو خفاء الدلالة؛ فليس كل مسألة في الفقه يقول بها الإنسان على سبيل اليقين أبدًا، بل بعضها يقين وبعضها ظن، والظن إذا تعذر اليقين مما أحل الله، ومن نعمة الله أنه إذا تعذر اليقين رجعنا إلى غلبة الظن، فليس كل ظن منكرًا، لكن الظن الذي ليس له أصل يبنى عليه منكر. فهؤلاء الذين سموا الملائكة تسمية الأنثى لا علم لهم بذلك بل هو ظن مبني على وهم، وربما يكون مبنيًا على أهواء، يعني لم يطرأ على بالهم أنهم إناث، ولكن تبعوا آباءهم، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ٢٨﴾ [النجم: ٢٨].

أي: هذا الظن المبني على الوهم لا على القرائن لا يغني من الحق شيئًا، أي لا يفيد شيئًا من الحق، لأنه وهم باطل، والوهم الباطل لا يمكن أن يفيد[2].

إن مسائل الشريعة التي لا يمكن الوصول فيها إلى درجة اليقين؛ لا بد فيها من الاستناد إلى الظن الغالب. والمقصود بالظن الغالب هنا هو الظن الذي يغلب الظنون الأخرى، فالظّن ضربٌ من أفعال القلوب، يحدث عند بعض الأمارات، وهو رجحان أحد طرفي

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦٦.

(٢) تفسير القرآن [جزء الذاريات]، ابن عثيمين ص٢٢٣.

التّجوّز، وإذا حدث عند أمارات غلبت وزادت بعض الزيادة، فظنّ صاحبه بعض ما تقتضيه تلك الأمارات، سمي ذلك: غلبة الظّن [(١)].

وهذا المعنى هو المصطلح عليه عند علماء أصول الدين وأصول الفقه. وهو العلم المستند إلى دليل راجح مع احتمال الخطأ احتمالًا ضعيفًا. وهذا الظن هو مناط التكليف بفروع الشريعة.

وغلبة الظن تنزل منزلة اليقين والعلم في الأحكام الشرعية، قال الشاطبي: «الحكم بغلبة الظن أصل في الأحكام» [(٢)] بل عدّ الجصّاص الاقتصار على غالب الظن وإجراء الحكم عليه واجب [(٣)].

وإنما أجري الظن مجرى العلم؛ لأنّ الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام؛ ولأنّ ما يدرك بالاجتهاد قلّما يخلو عن الوسواس والخواطر وهي تفضي إلى الظنون؛ فجاز إطلاق لفظ الظن عليها؛ لما لا يخلو عنه [(٤)].

والمشهور من مذهب مالك أن الغالب مساوٍ للمحقق في الحكم [(٥)]. وقد دل على ذلك قوله تعالى في شأن المهاجرات: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة:١٠].

ومعلوم أنه لا سبيل إلى العلم اليقيني بإيمانهن، وإنما المقصود حصول غلبة الظن بأنهن مؤمنات، وقد سمى الله حصول هذه الغلبة علمًا، وفي الصحيح من حديث أم سلمة مرفوعًا: « عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنّه سمع خصومةً بباب حجرته فخرج إليهم، فقال: (إنّما أنا بشرٌ وإنّه يأتيني الخصم، فلعلّ بعضكم أن يكون أبلغ من بعضٍ، فأحسب أنّه صادقٌ فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحقّ مسلم، فإنّما هي قطعةٌ من النّار فليأخذها، أو ليتركها) [(٦)]. فقوله: فأحسب أنه صادق دليل على العمل بالظن الغالب.

قال البيضاوي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٣٠] « إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما حدده الله وشرعه من حقوق الزوجية. وتفسير الظن بالعلم هاهنا غير سديد؛ لأن عواقب الأمور (غيب) تظن ولا تعلم؛ ولأنه لا يقال: علمت أن يقوم زيد؛ لأن (أن الناصبة) للتوقع، وهو ينافي العلم [(٧)].

ولعل البيضاوي أراد غلبة الظن بقوله:

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ١/ ٣٤٣.
(٢) الاعتصام ٢/ ١٤.
(٣) أحكام القرآن ٣/ ٥٣٩.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ٤/ ٢٧٥.
(٥) القواعد، المقري ١/ ١٤١.
(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام « باب من قضي له بحقّ أخيه فلا يأخذه.. حديث رقم ٦٦٧٢.
(٧) أنوار التنزيل ١/ ٥٢٠.

(في ظنهما) والذي هو دون العلم والله أعلم.

آثار الظن

أولًا: آثار حسن الظن:

١. المبادرة بالتوبة إلى الله.

إذا أحسن العبد ظنه بربه؛ فإنه يسعى للمبادرة إلى طلب عفوه، ورحمته، ورجائه، ومغفرته، ليطرق بعد ذلك العبد باب ربه منطرحًا بين يديه، راجيًا مغفرته، تائبًا من معصيته مستحضرًا قول النّبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ اللّه عزّ وجلّ يبسط يده باللّيل ليتوب مسيء النّهار، ويبسط يده بالنّهار ليتوب مسيء اللّيل حتّى تطلع الشّمس من مغربها)[(١)].

حسن الظن بالله من أقوى ما يدفع به القنوط؛ فالمؤمن حين يصيبه الغم والهم من ذنب اقترفه، يعلم بحسن ظنه أنه لا يغفر الذنوب إلا الله فيبادر بالتوبة، وهذا ماحصل للثلاثة الذين خلفوا؛ إذ يقول سبحانه عنهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة:١١٨].

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، حديث رقم ٤٩٥٤.

﴿الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ جاءت هذه الجمل في كنف(إذا) في غاية الحسن والترتيب.ذكر أولًا: ضيق الأرض عليهم وهو كناية عن استيحاشهم، ونبوة الناس عن كلامهم. وثانيًا: وضاقت عليهم أنفسهم وهو كناية عن تواتر الهم والغم على قلوبهم، حتى لم يكن فيها شيء من الانشراح والاتساع. فذكر أولًا ضيق المحل، ثم ثانيًا ضيق الحال فيه؛ لأنه قد يضيق المحل وتكون النفس منشرحة...ثم ثالثًا: لما يئسوا من الخلق علقوا أمورهم بالله وانقطعوا إليه، وعلموا أنه لا يخلص من الشدة ولا يفرجها إلا هو تعالى [(١)].

ولاشك أن نبي الله داود عليه السلام كان حسن الظن بالله تعالى حينما أيقن أنه سبحانه سيغفر له ذنبه، فبادر عليه السلام في الإنابة له والاستغفار، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص:٢٤].

٢. حسن العمل.

إنّ من أحسن الظن أحسن العمل. فنبي الله إبراهيم عليه السلام قد لاقى ما لاقى من أبيه ومع ذلك قال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم:٤٧].

فقد أحسن الظن والعمل مع والده بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ فلم ييأس منه ويتركه. وأحسن الظن بربه حينما قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: لطيفًا، يجيب الدعاء. قال الحسن البصري رحمه الله: «إنّ المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل» [(٢)].

ونلحظ هذا الأثر في قوله سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

ومن أحسن الظن بربه فأيقن صدق وعده، وتمام أمره، وما أخبر به من نصرة الدين والتمكين في الأرض للمؤمنين؛ اجتهد في العمل لهذا الدين العظيم، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله بماله ونفسه [(٣)]. فالعبد إنّما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه.

٣. الشعور بالطمأنينة.

إنّ المؤمن حين يحسن الظن بربه لا يزال قلبه مطمئنًا ونفسه آمنة تغمرها سعادة الرضا بقضاء الله وقدره وخضوعه لربه سبحانه. فها هم المؤمنون بعد غزوة أحد أخذهم

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١١٣.

(٢) انظر: معاني القرآن، الفراء ٣/ ٦٩؛ جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١٠؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٥٠؛ فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٥٢.

(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٤/ ٩٦.

نوم مريح، وغلبهم نعاس هانئ ولذيذ، وهم في عدة الحرب، في الوقت الذي كان فيه المنافقون وضعاف الإيمان والجبناء يعانون من كابوس الأوهام والوساوس طوال الليل، ولم يذوقوا لذة النوم، فكانوا-من حيث لا يشعرون ولا يقصدون- يحرسون المؤمنين الحقيقيين الذين كانوا يستريحون في تلك النومة الطارئة اللذيذة -إن صح التعبير-، وإلى هذا كلّه يشير الكتاب العزيز في الآية الحاضرة إذ يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[آل عمران:١٥٤].

أجل، إنّ المنافقين والجبناء وضعاف النفوس والإيمان لم يزرهم النوم ولا حتى النعاس في تلك الليلة خوفًا على نفوسهم، وعلى أرواحهم، وجريًا وراء الوساوس الشيطانية، والمخاوف التي هي من طبيعة ولوازم النفاق وضعف اليقين ووهن الإيمان، بينما المؤمنون الصادقون يستريحون في ذلك النعاس اللذيذ، وتلك النومة الطارئة الهانئة، وهذا هو أحد آثار حسن الظن وثماره المهمة البارزة، فإن المؤمن يحظى بالراحة والطمأنينة حتّى في هذه الدنيا، على العكس من غير المؤمنين من الكفار أو المنافقين أو ضعاف الإيمان، فإنهم محرومون من الطمأنينة والراحة اللذيذة تلك.

وها هي هاجر زوج إبراهيم عليه السلام عندما تركها ووليدها إسماعيل في الصحراء لا أنيس ولا جليس، وقليل من الزاد ثم ولى عنها، نادته:لمن تتركنا هنا. فلم يرد عليها فقالت: آللّه الّذي أمرك بهذا؟، قال: نعم، فقالت: إذن لا يضيّعنا[1].

أحسنت الظن بالله فاطمأنت، فكان ما كان من أمر زمزم والبيت الحرام. فالعبد إذا أحسن الظن بالله فإنّ الاطمئنان والسكينة تعمران قلبه، وتنفيان كل دواعي الخوف والوجل من المخاليق الضعفاء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن أن يملكوا شيئًا من ذلك لغيرهم، ويبقى مطمئنًا إلى حسن اختيار الله له، يستشرف رحمة ربه وخيره في كل ما يقضيه الله عليه؛ ولو ظهر في هذا المقضي من الشر والألم ما ظهر، فمن يدري؟! فلعل في طيات المحنة منحة ونعمة.

٤. النجاة من الشدائد.

لن يجد المؤمن في أوقات الشدة مثل حسن الظن بالله؛ ينير له طريق الأمل والثبات والغلبة، فالذي يحسن الظن بربه- وخاصة في الملمات- يعلم أنه سبحانه لن يضيعه مهما طال الوقت، و بذلك لن يكون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، رقم ٣١١٣.

أمامه إلا الصبر ليظفر بالنصر. فهاهي الفئة التي آمنت مع طالوت أحسنت الظن بالله؛ فصبرت وأيقنت بأن الله معها؛ ففرج الله كربتها وانتصرت على عدوها: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

فثمرة حسن الظن بالله تجلّت في قوله سبحانه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة:٢٥١].

ويعقوب عليه السلام عندما اشتدت عليه الكربة قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾[يوسف:٨٣].

وإنما قال يعقوب هذه المقالة؛ لأنه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته؛ علم أن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا عن قريب؛ فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل؛ لأنه إذا اشتد البلاء وعظم؛ كان أسرع إلى الفرج[1].

ونبي الله يونس عليه السلام كان حسن الظن بالله، وهو في أحلك أوقات الحرج والضيق، فكان له من حسن ظنه مخرج من ضيقه، ونجاة من حرجه، ويسر من عسره، وفرج من كربته، ونور في ظلمته، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧].

لقد ظلّ يونس في بطن الحوت بعض الوقت، وظن أن الله لن يضيق عليه فيه، ولا مانع من عروض هذا الظن للكل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه[2]، ظلّ يسبح الله ويدعوه أن ينجيه من هذا الكرب، فاستجاب له الله ونجّاه ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

حيث أمر الله الحوت أن يقذفه على الساحل، ثم أنبت عليه شجرة ذات أوراق عريضة تظلله وتستره وتقيه حرارة الشمس[3].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٥٢٩.

(٣) إذا قيل: ما الفائدة في إنبات شجرة اليقطين عليه دون غيرها؟ فالجواب: أن يونس -عليه السلام- خرج من بطن الحوت ضعيفًا مريضًا وهزيلًا في بدنه وجلده، فأدنى شيء يمر به يؤذيه. وفي ورق اليقطين خاصية وهي أنه إذا ترك على شيء لم يقربه ذباب، فأنبته الله على يونس ليغطيه ورقها ويمنع الذباب ريحه أن يسقط عليه فيؤذيه. وفي إنبات القرع عليه حكم كثيرة منها: أن ورقه في غاية النعومة،

قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات:١٤٥-١٤٦].

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنّ الذي تصيبه مصيبة أو شر ثم يدعو بدعاء يونس عليه السلام، يفرّج الله عنه، فقال صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النّون إذ دعا وهو في بطن الحوت، لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين. فإنّه لم يدع بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطّ إلاّ استجاب اللّه له) [(١)]. كلمات بسيطة أولها توحيد، وأوسطها تسبيح، وآخرها استغفار.قال بعض الصالحين: «استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عز وجل في كشفها؛ فإن ذلك أقرب إلى الفرج» [(٢)]. إنّ حسن ظن المؤمن بالله ويقينه بأن الله يدفع عنه ما يخطر بباله من الخواطر الشيطانية التي تثبّطه عن التقوى؛ يحقق وعد الله إياه بأن يجعل له مخرجًا. والمتأمل في قصة نبي الله يوسف عليه السلام يجد أثر ذلك واضحًا فلقد أحسن الظن بالله في أنه سيخلصه من الشر الذي أراد به أخوته إلى خير عميم حين قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠].

فمن أحسن الظن بربه؛ وتوكل عليه حق توكله؛ جعل الله له في كل أمره يسرًا، ومن كل كرب فرجًا ومخرجًا. ولقد بيّن سبحانه ذلك الأثر جليًا في حق رسله- وهم أحسن عباده ظنًا به-حين قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف:١١٠] [(٣)].

وأهمية تظليل ورقه عليه؛ لكبره ونعومته، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره ومطبوخًا وبقشره وببذره أيضًا، وقد ثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يأكل منه.

(١) أخرجه الترمذي في السنن، باب ما جاء في عقد التّسبيح باليد حديث رقم ٣٥٠٥، ٥/ ٥٢٩؛ والنسائي في السنن الكبرى، باب ذكر دعوة ذي النون، حديث رقم ١٠٤٩٢، ٦/ ١٦٨. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. ووافقه الذهبي. انظر: المستدرك على الصحيحين ٢/ ٦٣٧.

(٢) الفرج بعد الشدة، التنوخي ١/ ٧٦.

(٣) في قوله تعالى: ﴿كُذِبُوا۟﴾ قراءتان بالتشديد وبالتخفيف: قرأ أهل الكوفة وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي ﴿كُذِبُوا۟﴾ بالتخفيف من قولك: كذبتك الحديث: أي لم أصدقك. وفي التنزيل: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٩٠]، أي لم يصدقوا مع الله ورسوله. وفيها وجهان من التفسير: أحدهما:حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وظنّ قومهم أن الرسل قد كذبوا، بمعنى أخلفوا ما وعدوه من النصر، جاء الرسل نصرنا، فجعل الضمير في ظنوا للقوم، وجعل الظن موافقًا لفظه ومعناه. الوجه الآخر: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبتهم فيما أخبروهم به

آثار سوء الظن:

١. الوقوع في العقوبة والإثم.

إن سوء الظن بالله قد يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله، ولا شك أن سوء الظن بالناس في حقيقته إيذاء للمظنون بهم، ويشتد الأمر سوءًا إذا كان المساء بهم الظن ممن لهم شأن ونفع لمجتمعهم؛ لأنه بذلك قد يحرم نفسه وغيره من الانتفاع به، إضافة إلى وقوعه في الإثم والعقوبة. ثم إنه قد يؤدي سوء الظن بصاحبه حين يريد أن يتحقق أو يتأكد من صحة ما ظن أن يقع في سلسلة طويلة من المعاصي والسيئات من غيبة وتجسس ونحوه. والله يقول: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

فالإثم هو الذنب الذي يستحق فاعله العقوبة عليه، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي[1].

ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٨].

ولا يخفى ما حل بالأقوام السابقة من العذاب، حين ظنوا برسلهم وشكوا فيما جاؤهم به فكان عقابهم كما قال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

لقد كذب كل هؤلاء الأقوام رسلهم الكرام وظنوا بهم سوءًا، فوجب العقاب الإلهي لهم، جزاء وفاقا.

وأخبر سبحانه عن أصحاب الإفك، أن لكل منهم ما اكتسب من الإثم: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١].

وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حد النبي صلى الله عليه وسلم منهم جماعة[2].

٢. التنافر والتدابر بين أفراد المجتمع.

بعض الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة

من أنهم إن لم يؤمنوا بهم نزل بهم العذاب. وقرأ أهل الحجاز والبصرة والشام وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر (كذّبوا) بالتشديد. وفي التنزيل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ [الأنعام:٣٤]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ [سبأ:٤٥]، وجعلوا الضمير في ظنوا للرسل، والظن بمعنى اليقين. والأولى أن يجعل الضمير للرسل فيكون الفعلان للرسل، ويصير كلامًا واحدًا. ومعنى الآية: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وأيقنوا أن قد كذبوهم جاءهم نصرنا، أي جاء الرسل نصرنا.
انظر: حجة القراءات. ابن زنجلة ص٣٦٦.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٥.
(٢) المصدر السابق ص٥١٢.

المفرطة والمكائد والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذرًا من اعتداء مظنون ظنًا باطلًا، كما قالوا: (خذ اللص قبل أن يأخذك)[1].

فالانسياق وراء الظنون والشكوك له آثار مدمرة على المجتمعات، فهي تعمل على توهين الصف المسلم بنشر الإشاعات، وأحيانًا تكون هذه الإشاعات موجهة إلى رموز الخير ممن لهم في النفوس مكانة وتقدير؛ فتحدث البلبلة، والشقاق، وعندها يرقص الشيطان؛ فرحًا على أشلاء وحدتنا؛ وتضعف الثقة في أهل الدعوة وأهل الإصلاح والتوجيه.

وصدق الشاعر[2] إذ قال:

فلا تتبع الظنّ إنّ الظنون
تريك من الأمر ما لم يكن

وهذا يدل على أن الظان لن يكتفي بما في نفسه من الحديث والخطرات بل سيتبعها بالتجسس والغيبة؛ ولذلك يقول سبحانه بعد الأمر باجتناب الظن والتحذير منه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ فقد اشتملت الآية الكريمة على الأمر باجتناب الظن باجتناب أثره، ثم النهي عن طلب تحقيق ذلك الظن بقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ثم النهي عن ذكر ما عسى أن يكون المتجسس قد وقف عليه ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾، فهذه ثلاثة مترتبه: ظنّ، فعلم من طريق التجسس، فاغتاب[3]. كذلك من حكم بشرّ على غيره بمجرد الظن، حمله الشيطان على احتقاره، وعدم القيام بحقوقه والتواني في إكرامه، بل وإطالة اللسان في عرضه. وكل ذلك من شأنه الفرقة والتنافر بين أفراد المجتمع؛ لذا نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتبع النهي عن الظن والتحذير منه بقوله: (وكونوا عباد اللّه إخوانا) في حديث: (إيّاكم والظّنّ؛ فإنّ الظّنّ أكذب الحديث. ولا تحسّسوا، ولا تجسّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد اللّه إخوانا)[4].

٣. الخسارة.

بالخسارة من وقع في الأوهام والظنون السيئة؛ لقد أردتهم تلك الظنون وجعلتهم يخسرون كل شيء حتى أنفسهم، وسوف يخسرون منازلهم في الجنة يرثها عنهم المؤمنون، ويرثون هم المؤمنين منازلهم في النار ذلك هو الخسران المبين. ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٥.
(٢) ديوان ابن مقبل ص ١٤٣.
(٣) تفسير آيات الأحكام، السايس ص٧١٣.
(٤) سبق تخريجه ص٢٠.

﴿ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣].

قال ابن كثير رحمه الله: « هذا الظن الفاسد -وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون- هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم[1]؛ لأنكم من أجل هذا الظن؛ اجترأتم على محارم الله فقدمتم عليها، وركبتم ما نهاكم الله عنه؛ فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة[2]. ثم إن الله تعالى بيّن أن الكفار الذي أضلّهم قرناؤهم من الشياطين يظنون أنهم على هدى، فهم يحسبون أشد الضلال أحسن الهدى، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

وبيّن سبحانه أنهم بسبب ذلك الظن هم أخسر الناس أعمالًا في قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤][3].

٤. الوقوع في الهاوية والعذاب الشديد.

من أعظم الذنوب عند الله: إساءة الظن به؛ ولهذا توعد الله سبحانه الظانّين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦].

فدائرة السوء[4] والعذاب تحيط بهم من كل جانب في الدنيا والآخرة، إضافة إلى غضب الله، ولعنته، واستحقاق جهنم.

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٩٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٣.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٨.
(٤) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (دائرة السوء) بالضم. والفرق بينه وبين(السوء)بالفتح، على ما في الصحاح: أن المفتوح مصدر، والمضموم اسم مصدر بمعنى المساءة. وقال غير واحد: هما لغتان بمعنى كالكره والكره عند الكسائي. وكلاهما في الأصل مصدر، غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه، والمضموم جرى مجرى الشر. ولما كانت الدائرة هنا محمودة وأضيفت إلى المفتوح في قراءة الأكثر تعيّن على هذا أن يقال: إن ذاك على تأويل أنها مذمومة بالنسبة إلى من دارت عليه من المنافقين والمشركين. واستعمالها في المكروه أكثر، وهي مصدر بزنة اسم الفاعل أو اسم فاعل، وإضافتها على ما قال الطيبي من إضافة الموصوف إلى الصفة للبيان على المبالغة. وفي [الكشف]: الإضافة بمعنى [من] على نحو: دائرة ذهب. فتدبّر. والكلام إما إخبار عن وقوع السوء بهم، أو دعاء عليهم. انظر: الكشاف، الزمخشري ٦/ ٣٤١؛ روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ٩٥؛ تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٦.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ [الانشقاق: ١٠ – ١٤].

وقعت هذه الجملة ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ موقع التعليل لمضمون جملة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾.وحرف(إنّ) فيها مغنٍ عن فاء التعليل، فالمعنى: يصلى سعيرًا لأنه ظن أن لن يحور، أي لن يرجع إلى الحياة بعد الموت، أي لأنه يكذّب بالبعث[1].

والله هدّد الكفار على ظنهم السيئ بالويل من النار، فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧﴾ [ص:٢٧].

وقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾ [يونس: ٦٠].

موضوعات ذات صلة:

الشك، العلم، اليقين

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٠٠.

فهرس المحتويات

الطّعام ٧

مفهوم الطّعام ٨

الطعام في الاستعمال القرآني ٩

ألفاظ ذات صلة ١٠

الله تعالى هو المطعم لخلقه ١٢

الرسل بشر يأكلون الطعام ١٧

أنواع الأطعمة في القرآن الكريم ٢١

الإطعام في القرآن الكريم ٢٩

طعام الآخرة ٣٨

الطعام وعبادة التفكر ٤٥

الطغيان ٤٩

مفهوم الطغيان ٥٠

الطغيان في الاستعمال القرآني ٥١

الألفاظ ذات الصلة ٥٢

التحذير من الطغيان ٥٤

أسباب الطغيان ٦٠

مظاهر الطغيان وآثاره ٧٢

أساليب الطغاة ٧٨

جزاء أهل الطغيان ٨٨

الطلاق ٩٣

مفهوم الطلاق ٩٤

الطلاق في الاستعمال القرآني ٩٥

الألفاظ ذات الصلة ٩٦

أنواع الطلاق ٩٨

الأحكام المتعلقة بالطلاق ١٠٥

حقوق المطلقة ١٠٨

موضوعات لها صلة بالطلاق ١١٨

منهج القرآن في تقرير أحكام الطلاق . ١٢٥

التدابير الوقائية من الطلاق ١٣١

شبهات حول الطلاق ١٣٩

الطهارة ١٤٣

مفهوم الطهارة ١٤٤

الطهارة في الاستعمال القرآني ١٤٥

الألفاظ ذات الصلة ١٤٦

الحث على الطهارة ١٤٨

أنواع الطهارة ١٦١

آثار الطهارة ١٨٢

الطيبات ١٨٧

مفهوم الطيب ١٨٨

الطّيّبات في الاستعمال القرآني ١٨٩

الألفاظ ذات الصلة ١٩٠

الحث على ابتغاء الطيب ١٩٢

صور الطيبات المعنوية ٢٠٠

صور الطيبات الحسية ٢٠٧
آثار ابتغاء الطيبات المعنوية..... ٢٢١
آثار ابتغاء الطيبات الحسية ٢٢٣
الطير ٢٢٥
مفهوم الطير ٢٢٦
الطير في الاستعمال القرآني..... ٢٢٧
الألفاظ ذات الصلة ٢٢٨
الطير آية من آيات الله تعالى ٢٣٠
الطير في القصص القرآني..... ٢٣٦
الطير في المثل القرآني..... ٢٤٨
الطير والتشاؤم ٢٥٠
الطير في الجنة ٢٥٣
الظّل ٢٥٥
مفهوم الظل ٢٥٦
الظل في الاستعمال القرآني..... ٢٥٧
الألفاظ ذات الصلة ٢٥٨
الظل آية ونعمة ٢٥٩
الحكمة من الظل ٢٦٣
دلالة الظل على قدرة الله وعظمته.... ٢٨٣
الظّـلم ٢٩٥
مفهوم الظلم..... ٢٩٦
الظلم في الاستعمال القرآني ٢٩٧
الألفاظ ذات الصلة ٢٩٨
تنزيه الله سبحانه عن الظلم ٣٠٠
الظلم طبيعة إنسانية..... ٣٠٢
أنواع الظلم..... ٣٠٤
أسباب الظلم ٣٠٩
سبل الوقاية من الظلم وطرق العلاج . ٣١٣
آثار الظلم وعاقبته في الدنيا ٣١٧
عاقبة الظلم في الآخرة..... ٣٢٢
الظلمات ٣٢٥
مفهوم الظلمات ٣٢٦
الظّلمات في الاستعمال القرآني..... ٣٢٧
الألفاظ ذات الصلة ٣٢٨
أنواع الظلمات ٣٣٠
وسائل النجاة من الظلمات الحسية... ٣٣٨
وسائل النجاة من الظلمات المعنوية.. ٣٤١
عاقبة البقاء في الظلمات..... ٣٤٨
الظن ٣٥٧
مفهوم الظن ٣٥٨
الظن في الاستعمال القرآني..... ٣٦٠
الألفاظ ذات الصلة ٣٦١
أنواع الظن ٣٦٥
الظن اليقيني ٣٧٤

أوهام مظنونة ٣٨٠
غلبة الظن في الأحكام الشرعية ٣٩٢
آثار الظن ٣٩٤
فهرس المحتويات ٤٠٣

عاد

عناصر الموضوع

التعريف بعاد	٨
عاد في القرآن	١١
رسول الله إلى عاد ورسالته	١٢
موقفهم من رسولهم ومعجزاته	٢٢
نعم الله عليهم وموقفهم منها	٢٨
عاقبة عاد	٣٢
اقتران عاد وفرعون في القرآن	٣٧
العبر والدروس من قصة عاد	٤٠

التعريف بعاد

ذكر الله سبحانه وتعالى الكثير من القصص القرآنية في كتابه العزيز، يتحدث في هذه القصص عن أقوام وأمم سابقة، كيف الحال معهم من حيث: عبادة الله عز وجل، وموقفهم من الأنبياء المرسلة إليهم، وما هو الجزاء الذي يستحقونه نتيجة أفعالهم ؟ كل ذلك لحكمة يقضيها الله سبحانه وتعالى، ومن الأقوام الذين قص الله خبرهم قوم عاد.

أولًا: التسمية:

هذه القبيلة ينسبون إلى جدهم عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، قال ابن إسحاق مبينًا ذلك: « عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح »[(١)].

وقال الطبري: « وكان ممن طغا وعتا على الله عز و جل بعد نوح، فأرسل الله إليهم رسولًا فكذبوه وتمادوا في غيهم، فأهلكهم الله هذان الحيان من إرم بن سام بن نوح أحدهما: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وهي عاد الأولى »[(٢)].

ولكن هل هما عادان أم عاد واحدة ؟

ذكر أهل العلم في ذلك قولين:

القول الأول: إنها عاد واحدة، وقد نسب الألوسي هذا القول إلى الجمهور فقال: « ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم:٥٠] أي: القدماء؛ لأنهم أولى الأمم هلاكًا بعد قوم نوح، كما قاله ابن زيد والجمهور »[(٣)].

القول الثاني: إنهما عادان، وقد نقله الطبري عن ابن إسحاق، وقال به ابن كثير[(٤)].

وسبب اختلافهم يرجع إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم:٥٠].

فمن فهم من لفظة الأولى أن هناك أخرى جعلهما عادين، أما أصحاب القول الأول فقد فهموا من هذا الوصف أنها أولى باعتبار هلاكها فهي أولى الأمم هلاكًا بعد قوم نوح، وأول العرب ذكرًا، وأول العرب البائدة، أو إن الأولى بمعنى القديمة[(٥)].

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ١١٤.
(٢) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ١٣٣.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ٧٠.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٣، أنوار التنويل وأسرار التأويل، البيضاوي ٥/ ٢٦٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٨٨.

ثم إن أصحاب القول الثاني اختلفوا في تسمية عاد الأولى والأخرى على قولين:

أحدهما: إن عادًا الأولى عاد بن إرم، وهم الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية، وعادًا الآخرة قوم هود.

الثاني: إن عادًا الأولى قوم هود والآخرة قوم كانوا بحضرموت [(١)]. والله أعلم.

ثانيًا: المكان:

تحدث القرآن الكريم عن مكان وجودهم وسكناهم، وقد سميت سورة من سور القرآن الكريم باسم المكان الذي سكنوه وهو الأحقاف.

فالأحقاف اسم المنطقة التي سكنها قوم عاد، وهم قوم نبي الله هود عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١].

وقبل أن نقوم بتحديد مكان منطقة الأحقاف، لا بد من معرفة معنى الأحقاف كما ذكر في تفاسير القرآن، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره «أن الأحقاف جمع حقف وهو: الجبل من الرمل» [(٢)].

أما الماوردي فقد عرفها تعريفًا دقيقًا في تفسيره فقال: «الأحقاف هي ما استطال واعوج من الرمل العظيم ولا يبلغ أن يكون جبلا» [(٣)].

أما مكان الأحقاف التي هي ديار عاد فقد اختلف المفسرون في ذلك على أقوال يجمعها ما قاله الحافظ ابن كثير: « وكانوا عربًا يسكنون الأحقاف - وهى جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضر موت، بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر، واسم واديهم مغيث» [(٤)].

وعلى العموم فالمقصود من القصة أخذ العظة والعبرة مما حدث لهؤلاء القوم، وتحديد المكان ليس فيه مزيد عبرة سوى النظر في عاقبة الظالمين، وما أحسن قول الإمام الطبري بعد أن استعرض تلك الأقوال ثم قال: « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أن الله تبارك وتعالى أخبر أن عادا أنذرهم أخوهم هود بالأحقاف، والأحقاف ما وصفت من الرمال المستطيلة المشرفة، وجائز أن يكون ذلك جبلًا بالشام، وجائز أن يكون واديًا بين عمان وحضرموت، وجائز أن يكون الشحر، وليس في العلم به أداء فرض، ولا في الجهل

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٠٥، زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٨٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٦٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٨٥.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢.
(٤) قصص الأنبياء ١/ ١٢٠

به تضييع واجب، وأين كان فصفته ما وصفنا من أنهم كانوا قوما منازلهم الرمال المستعلية المستطيلة»[1].

ثالثًا: الزمان:

ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

زمان قوم عاد، فهم كانوا من ذرية نوح عليه السلام، وبعده في الزمان.

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «واذكروا ما حل بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم، وكفروا بربهم، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها، يعني في الأرض، ﴿مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: من بعد إهلاكهم»[2].

وقال ابن كثير: « وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف:٦٩]»[3].

[انظر: هود: التعريف بهود عليه السلام وقومه]

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٢٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥.

عاد في القرآن

ورد ذكر (عاد) في القرآن الكريم (٢٤) مرة، في (١٨) سورة.

وأما قصتهم فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٦٥-٧٢
هود	٥٠-٦٠
الشعراء	١٢٣-١٤٠
فصلت	١٥-١٦
الأحقاف	٢١-٢٦
الذاريات	٤١-٤٢
القمر	١٨-٢١
الحاقة	٦-٨

رسول الله إلى عاد ورسالته

أولًا: اسم نبيهم ونسبه:

ذكر الله تعالى أن نبي الله هودًا عليه السلام أخ لقبيلة عاد، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف:٦٥].

إلا أن المفسرين اختلفوا في هذه الأخوة على قولين:

القول الأول: إنها أخوة نسب، وإن هودًا من قبيلة عاد، وممن صرح بذلك ونص عليه الإمام البغوي فقال: «أي: وأرسلنا إلى عاد -وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهي عاد الأولى - «أخاهم» في النسب لا في الدين »[(١)].

وعلى هذا فالأخوة هنا مطلق القرابة كما يقال: يا أخا العرب؛ إذ إن هودا من بني عاد[(٢)].

القول الثاني: إنه ليس من قبيلة عاد، أما إطلاق الأخوة عليه فلأنه بشر مثلهم، أو لكون الجميع من ولد آدم عليه السلام، وممن قال بذلك ابن إسحاق والزجاج.

يقول ابن الجوزي: « المعنى: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، قال الزجاج: وإنما قيل أخوهم؛ لأنه بشر مثلهم من ولد أبيهم آدم»[(٣)].

وبناء على هذا الخلاف ذكر في نسبه عليه السلام قولان:

القول الأول: إنه هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام. وهذا على قول من جعل الأخوة أخوة النسب.

القول الثاني: إنه هود بن شالخ بن أرفحشذ بن سام بن نوح عليه السلام[(٤)]. وعليه لا قرابة بينه وبين عاد.

فأما اسم نبيهم عليه السلام فقد ذكر أهل العلم قولين في ذلك:

الأول: إن اسمه هود كما سبق.

والثاني: إن اسمه عابر.

يقول الإمام الطبري: « فأما عاد فإن الله عز و جل أرسل إليهم هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، ومن أهل الأنساب من يزعم أن هودًا هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح»[(٥)].

والذي يظهر أن الراجح هو أن اسمه هود كما نص عليه في غير ما آية من كتاب الله تعالى، وأنه من قبيلة عاد، وأن نسبه

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٤٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٤٢٣.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٢٢.
(٤) البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٢٠، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٧.
(٥) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ١٣٣، وانظر: الأنساب، السمعاني ١/ ٢٥.

هو ما يلتقي فيه مع عاد، وذلك لظاهر الآية السابقة، والله أعلم.

وكان هود عليه السلام أشبه الناس بآدم، وقد تحدث القرآن كثيرًا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام، ويعتبر هود عليه السلام من أوسطهم بيتًا، وأكرمهم حسبًا، وأعزهم رهطًا، وذلك ليمنع من سفاهة قومه حتى يبلغهم رسالات الله، و نصح لهم هود بكل جهده وآتاهم بالحق من ربه[1].

[انظر: هود: نسب هود عليه السلام]

ثانيًا: رسالة هود عليه السلام:

أما رسالة النبي هود عليه السلام إلى قومه، مثل رسالة أي نبي من الأنبياء إلى أقوامهم، وذلك بدعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك؛ لكي لا يتخبطوا في بحر من الظلمات، وتحذيرهم وإنذارهم من غضبه وسخطه وعقابه، وتبشيرهم بجنته ورضوانه، والسمع والطاعة لأنبيائه، وهذا هو العهد والميثاق الذي أخذه على أنبيائه جميعًا بتبليغه للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

ومجمل رسالة النبي هود عليه السلام ما ورد عن يحيى بن يعلى قال: «قال هود لقومه حين أظهروا عبادة الأوثان: يا قوم، إني بعثة الله إليكم، وزعيمه فيكم، فاتقوه بطاعته، وأطيعوه بتقواه، فإن المطيع لله يأخذ لنفسه من نفسه بطاعة الله للرضا، وإن العاصي لله يأخذ لنفسه من نفسه بمعصية الله للسخط، وإنكم من أهل الأرض، والأرض تحتاج إلى السماء، والسماء تستغني بما فيها، فأطيعوه تستطيبوا حياتكم، وتأمنوا ما بعدها، وإن الأرض العريضة تضيق عن التعرض لسخط الله»[2].

ولهذا بعثه الله فيهم عليه السلام لكي لا يكون لهم حجة علي الله يوم القيامة.

وأصول رسالة هود عليه السلام ثلاثة:

الأصل الأول: الدعوة للتوحيد وترك عبادة الأصنام.

لم يبعث الله تعالى رسولا إلا دعا قومه إلى عبادة الله وحده.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٨٤، الأعلام، الزركلي ٨/ ١٠١، معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي ١/ ٢٤١، التيجان في ملوك حمير، عبد الملك الحميري ١/ ٣٣٨.

(٢) تاريخ دمشق، ابن عساكر ٧٤/ ٨٣.

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

قال الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه بعث في كل أمة رسولًا بعبادة الله وحده، واجتناب عبادة ما سواه. وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»، لأنها مركبة من نفي وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه»[(١)].

وقوم عاد كانوا عبادًا للأصنام مشركين بالله تعالى، إذ كانت لهم ثلاثة أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، قال ابن إسحاق: « كانت منازل عاد وجماعتهم، حين بعث الله فيهم هودًا، الأحقاف كانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله: صنم يقال له: «صداء»، وصنم يقال له: «صمود»، وصنم يقال له: «الهباء»» [(٢)]. فكان أول ما دعا إليه قومه وهو إفراد الله تعالى بالعبادة وحده قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٦٥].

قال البغوي: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف:٦٥]: وحدوا الله»[(٣)].

وقال ابن كثير: « يقول تعالى ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:٦٥]. آمرًا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهيًا لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة »[(٤)].

وفي آية أخرى بين الله تعالى على لسان قوم عاد ما أمرهم به رسولهم عليه السلام فقال: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠].

يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: قالت عاد له: أجئتنا تتوعدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين، كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعة خالصًا، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آباؤنا يعبدونها، ونتبرأ منها؟ فلسنا فاعلي ذلك، ولا نحن متبعوك على ما تدعونا إليه»[(٥)].

فتضمنت هذه الآية أمرين:

الأول: الأمر بعبادة الله تعالى وحده.

والثاني: ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من الأصنام، فهم وإن كانوا قالوا ذلك استبعادا فهو بيان لما دعاهم إليه عليه السلام.

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٧، تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ١٣٣.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٨٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٢٠.

الأصل الثاني: الإيمان برسالة هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٢٤ - ١٢٦].

فهو يصف نفسه بالرسالة والأمانة وهذا يقتضي طاعته، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من ربي يأمركم بطاعته، ويحذركم على كفركم بأسه، ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه ورسالته، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته والانتهاء إلى ما يأمركم وينهاكم، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من اتقاء الله وتحذيركم سطوته»[1].

وقال السعدي: «﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:١٢٥].

أي: أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني، رتب على ذلك قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٢٦]أي: أدوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقي، بطاعتي فيما آمركم به، وأنهاكم عنه، فهذا موجب، لأن تتبعوني وتطيعوني»[2].

وقال تعالى أيضًا مبينا هذا الأصل: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٦١-٦٢].

فهو عليه السلام رسول إليهم مبلغ لهم ما أرسل به إليهم، قال الطبري: « ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤديها إليكم كما أمرني أن أؤديها»[3].

وقال ابن كثير: « وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة»[4].

فظهر مما سبق أنه رسول إليهم ناصح لهم وأمين وهذا يقتضي أن يؤمنوا برسالته ويطيعوه.

الأصل الثالث: الإيمان بالبعث.

قال تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون:٣٥ - ٣٧].

ففي هذه الآيات الكريمات يبين الله تعالى لنا كفر عاد بالبعث من بعد الموت فهم يستبعدون ذلك أولًا، ثم ينفونه ثانية.

قال الطبري: « ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾: أي بعيد ما توعدون أيه القوم، من أنكم بعد موتكم ومصيركم ترابا وعظاما مخرجون أحياءً من قبوركم، يقولون: ذلك غير كائن وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يقول: ما

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٧٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٤.

حياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يقول: تموت الأحياء منا فلا تحيا، ويحدث آخرون منا فيولدون أحياء ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يقول: قالوا: وما نحن بمبعوثين بعد الممات»[1].

إلا أنه قد يقول قائل: إن هذه الآيات من سورة المؤمنون اختلف بالمقصود بها على قولين:

القول الأول: إنهم ثمود، ونبيهم صالح عليه السلام.

قال الطبري: « يقول تعالى ذكره: وقالت الأشراف من قوم الرسول الذي أرسلنا بعد نوح، وعنى بالرسول في هذا الموضع: صالحًا، وبقومه: ثمود»[2].

وقال السعدي: «قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون:٣١].

الظاهر أنهم ثمود قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم»[3].

واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون:٤١]

قال ابن عاشور: « والأظهر أن المراد به هنا ثمود لأنه الذي يناسبه قوله في آخر القصة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾: [المؤمنون:٤١]؛ لأن ثمود أهلكوا بالصاعقة، ولقوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤٠].

مع قوله في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٨٣].

فكان هلاكهم في الصباح. ولعل تخصيصهم بالذكر هنا دون عاد خلافًا لما تكرر في غير هذه الآية لأن العبرة بحالهم أظهر لبقاء آثار ديارهم بالحجر كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨][4].

القول الثاني: إنهم قوم عاد، ونبيهم هود عليه السلام.

قال البغوي: «﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٣٢].

يعني: هودا وقومه. وقيل: صالحا وقومه. والأول أظهر»[5].

وقال ابن الجوزي: « ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ يعني عادًا ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وهو هود هذا قول الأكثرين، وقال أبو سليمان الدمشقي: هم ثمود والرسول صالح»[6].

واستدل أصحاب هذا القول بما هو معهود في القرآن الكريم من ذكر قصة عاد بعد ذكر قوم نوح.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٠-٣١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٥١.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٤٣٤.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤١٦.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٤٧١.

قال أبو السعود: « ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم عاد حسبما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعليه أكثر المفسرين وهو الأوفق لما هو المعهود في سائر السور الكريمة من إيراد قصتهم إثر قصة قوم نوح»[1].

والذي يظهر أن الراجح هو القول الثاني؛ لما ذكروه من سياق القرآن الكريم، وأما استدلال الأولين بهلاكهم بالصيحة فلا يمنع أن يجتمع عليهم الريح والصيحة؛ قال ابن كثير: «والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة»[2].

ثم إن الصيحة ليست مختصة بهم حتى تكون دليلا لإخراج السياق عن ظاهره، فقد أهلك الله بها أقواما غير ثمود، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

ففي هذه الآية بيان أن هلاك قوم شعيب بالصيحة، وقوم لوط أهلكوا بالصيحة.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر:٧٣].

وأصحاب القرية المذكورون في سورة يس أهلكوا بها.

قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس:٢٩].

ثم كان مما دعاهم إليه زيادة على توحيد الله تعالى والإيمان برسوله وبالبعث أن دعاهم إلى ما يلي:

١. الاستغفار والتوبة.

قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:٥٢].

والاستغفار هو طلب مغفرة الذنوب وسترها فلا يجازى بها، والتوبة هي الندم على ما فات والعزم على عدم الرجوع إلى الذنب مستقبلا قال ابن كثير: « ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه»[3].

ولا يتنافى هذا مع من قال: إن الاستغفار هنا هو الإيمان والتوحيد.

قال الطبري: « والاستغفار: هو الإيمان بالله في هذا الموضع، لأن هودًا صلى الله عليه وسلم إنما دعا قومه إلى توحيد الله ليغفر لهم ذنوبهم، كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح:٣-٤]»[4]؛ وذلك لأن طلب المغفرة من الشرك يكون بالإيمان والتوحيد، والله أعلم.

٢. أنكر عليهم العبث.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٣٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٠٠
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٥٨.

قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨].

فما هو الريع الذي يتخذونه مكانا لبنائهم؟

ذكر المفسرون في ذلك ستة أقوال في معناها، يجمعها كلها أن الريع المكان المرتفع عند الطرق المشهورة يتخذ مكانا لبنائهم.

قال ابن كثير: «اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة»[(١)].

أما نوع البناء الذي وصف بأنه آية فالقول الجامع لأقوال المفسرين إنه بناء ظاهر مشهور إذ الآية هي العلامة والدلالة ولا يكون البناء آية إلا إذا كان ظاهرًا مشهورًا[(٢)].

وأما عبثهم فاختلف في تعيينه على قولين:

أحدها: اللهو واللعب، قاله عطية.

الثاني: أنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم[(٣)].

ومما سبق في تفسير هذه الآية أن نبيهم عليه السلام نهاهم عن العبث واللعب في بناء ما لا يحتاجون إليه، أما إذا كان البناء مما لهم به حاجة فلا يمكن أن ينهاهم عنه؛ قال ابن كثير: «أي وإنما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة»[(٤)].

٣. أنكر عليهم اتخاذ المصانع.

قال تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩].

وفي معنى المصانع يقول الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصورًا وحصونًا مشيدة، وجائز أن يكون كان مآخذ للماء، ولا خبر يقطع العذر بأي ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل. فالصواب أن يقال فيه، ما قال الله: إنهم كانوا يتخذون مصانع»[(٥)].

ولكن من الملاحظ أن نبيهم عليه السلام ينهاهم عن هذه الأبنية حينما تتعلق بها قلوبهم على أمر مذموم، فبناؤهم لهذه المصانع لكي يخلدوا فيها، وهذا أمر محال ولهذا جاءهم استنكار نبيهم.

قال ابن كثير: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٧٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١٨١، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٢٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٧٦.

﴿تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩] أي: لكي تقيموا فيها أبدًا وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم»[(١)].

٤. أنكر عليهم أيضًا تجبرهم على الناس.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠].

فالبطش هو: الضرب عند الغضب بسوط أو سيف، والجبارين جمع جبار، والجبار: الشديد في غير الحق، الذي يقتل ويضرب على الغضب، فالمعنى: إذا بطشتم كان بطشكم في حالة التجبر، أي الإفراط في الأذى وهو ظلم.

قال تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:١٩].

وشأن العقاب أن يكون له حد مناسب للذنب المعاقب عليه بلا إفراط ولا تفريط، فالإفراط في البطش استخفاف بحقوق الخلق[(٢)].

وسبب إنكارهم يبينه الإمام ابن الجوزي بقوله: «وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صدر عن ظلم إذ لو ضربوا بالسيف أو بالسوط في حق ما ليموا»[(٣)].

ثالثًا: أسلوبه في دعوة قومه:

لابد لهذا النبي الكريم من أسلوب في دعوته قومه ليتم بذلك بلاغه على أكمل وجه، وإن المتأمل في دعوته عليه السلام لقومه يجد أن له أسلوبا واضحا سلكه حينما عرض عليهم دعوته يتمثل فيما يلي:

١. تخويفهم عذاب الله.

ذكر الله تعالى عنه هذا في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٣٥].

فقد بين لهم عليه السلام أن عاقبة تكذيبهم العذاب العظيم.

قال الشوكاني: « ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء:١٣٥] إن كفرتم وأصررتم على ما أنتم فيه ولم تشكروا هذه النعم والمراد بالعذاب العظيم الدنيوي والأخروي»[(٤)].

وقال البيضاوي: « ثم أوعدهم فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنه كما قدر على الإنعام قدر على الانتقام»[(٥)].

والثانية: قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف:٢١].

قال ابن عاشور: «وجملة ﴿إِنِّي أَخَافُ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٧٥، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٢٣.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ١٣٦
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٨.
(٥) أنوار التنويل، البيضاوي ٤/ ٢٤٨.

﴿عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعليل للنهي في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، أي إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم بسبب شرككم»[1].

وقال السعدي: «فأمرهم بعبادة الله الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد وخوفهم -إن لم يطيعوه- العذاب الشديد، فلم تفد فيهم تلك الدعوة»[2].

٢. تذكير نعم الله عليهم.

والتذكير بنعمة الله تعالى طريق من طرق مواعظ الرسل[3].

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

قال ابن كثير: «أي: واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ أي: زاد طولكم على الناس.

﴿بَصْطَةً﴾ أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم؛ كقوله في قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[البقرة:٢٤٧].

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: نعمة ومننه عليكم لعلكم تفلحون»[4].

وقال أبو السعود: « فاذكروا آلاء الله التي أنعم بها عليكم من فنون النعماء التي هذه من جملتها وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير وتعميم إثر تخصيص لعلكم تفلحون كي يؤديكم ذلك إلى الشكر المؤدي إلى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب»[5].

وزاد ذلك إيضاحًا في سورة الشعراء فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٣٢ - ١٣٤].

قال ابن عاشور: « وقد جاء في ذكر النعمة بالإجمال الذي يهيىء السامعين لتلقي ما يرد بعده فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:١٣٢].

ثم فصل بقوله: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء:١٣٣] وأعيد فعل ﴿أَمَدَّكُمْ﴾ في جملة التفصيل لزيادة الاهتمام بذلك الإمداد فهو للتوكيد اللفظي »[6].

٤. استعطافهم بإلانة القول لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥].

فهو عليه السلام يناديهم بـ(يا قوم)؛ ليبين لهم أنهم هم أولى من يحرص على نجاته إذ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٤٤٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٥١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٤.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٩.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٧٦.

هم قومه، وأقاربه ثم يستعطفهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: مستخدما أداة العرض؛ وفي هذا من لطف الخطاب، والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى[1].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف إلى التقى والإيمان»[2].

وقال أبو السعود: «قال مستعطفا لهم ومستميلا لقلوبهم مع ما سمع منهم ما سمع من الكلمة الشنعاء الموجبة لتغليظ القول والمشافهة بالسوء يا قوم ليس بي سفاهة أي شيء منها ولا شائبة من شوائبها»[3].

٥. الشدة في الخطاب لهم.

يبين ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود:٥٠].

فجملة ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ توبيخ وإنكار، أي: ما أنتم إلا كاذبون في ادعاء إلهية غير الله تعالى[4].

قال الطبري: «يقول: ما أنتم في إشراككم معه الآلهة والأوثان إلا أهل فرية مكذبون»[5].

ويبينه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:٥٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٥٧.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٨٤.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٨
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣٠.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٥٧

يقول الطبري: « يقول: ولا تدبروا عما أدعوكم إليه من توحيد الله، والبراءة من الأوثان والأصنام ﴿مُجْرِمِينَ﴾، يعني: كافرين بالله»[6].

فحاصل أسلوبه في دعوته لهم هو الجمع بين الترغيب والترهيب والشدة واللين إذ لكل مقام مقال، ولكن لم ينفع معهم ذلك، قال ابن كثير: «فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم»[7].

ويحسن بنا في نهاية هذا المبحث أن نذكر بعضا من هدايات الآيات الكريمة التي ذكرت فيه؛ فمن ذلك:

- كون هود عليه السلام من قبيلة عاد وأخ لهم نسباً، فهذا أدعى لأن تعرف صفاته وأخلاقه التي تبعث على تصديق قومه له لهم.
- أهمية الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والإيمان بالرسل وبالبعث، وهذا الأصول تنتظم أركان الإيمان الأخرى.
- من الله تعالى على رسوله هود عليه السلام وغيره من الرسل بصفات كانت دليل صدق على دعواهم النبوة من أهمها كونه ناصحًا أمينًا.
- من كان مستغفرًا عما سلف من ذنوبه، عازمًا على عدم العودة لارتكاب

(٦) المصدر السابق ١٥/ ٣٦٠.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤١٦.

المعصية في مستقبل الأيام يسر الله له رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه.

- شدة خوف الأنبياء على أقوامهم يدعوهم إلى بذل الجهد في محاولة استجابة الدعوة.
- إبداء مشاعر الداعية لمدعويه كالمحبة لهم وخوفه عليهم من العذاب، وتذكيره إياهم بنعمة الله تعالى، مدعاة لقبول ما يدعو إليه ممن أراد الله به خيرًا.
- تنوع الخطاب في الدعوة لينا وشدة وترغيبًا وترهيبًا يراعى فيه مقتضى حال المدعو وطبيعته، فمن الناس من يستجيب إذا ألنت له في الخطاب، ومنهم من تكون الشدة والقسوة رادعًا له[1].

[انظر: هود: عناصر رسالة هود عليه السلام وأسلوبه في الدعوة إلى الله]

موقفهم من رسولهم ومعجزاته

حال قوم عاد كحال الأقوام التي سبقتها والتي جاءت بعدها من حيث تكذيب أنبيائهم ورسولهم، وجحودهم، وكفرهم بالله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق:١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص:١٢-١٤].

«أخبرنا الله في القرآن عن قصة قوم عاد، وكفرهم بالله، وتكذيبهم نبيهم هودًا عليه السلام وقد ذكرت قصتهم بالتفصيل في سور: الأعراف وهودٍ والشعراء وفصلت والقمر وغيرها»[2].

ونبين موقفهم من نبيهم إن شاء الله على النحو الآتي:

قوم عاد كانت لهم أصنام يعبدونها دون الله تسمى «صداء، وبغاء، وصمود» فبعث الله إليهم نبيه هودًا عليه السلام برسالاته وداعيًا إلى عبادته، فبلغهم الرسالة ونصح

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٣، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/٥٥٢، وغيرهما من كتب التفسير

(٢) القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د صلاح الخالدي ١/١٦٠.

لهم ما استطاع، وكان أمينًا في نصحه لهم، لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾ [الشعراء:١٢٥-١٢٦].

فردوا نصيحته وطرحوا قوله، وكرهوا ما جاءهم به، وتمثل ذلك في صور، وهي:

١. الكفر بالله.

وما كان رد قومه على دعوته إلا أنهم كفروا بالله، لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:٦٠].

والمعنى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ «فهذه شهادةٌ مؤكدةٌ عليهم بالكفر، أي: كفروا نعمه عليهم بجحودهم بآياته وتكذيبهم لرسله كبرًا وعنادًا، يقال: كفره وكفر به، وشكره وشكر له، ومعنى مادة الكفر في الأصل التغطية.

و﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي: دعاءٌ عليهم بالهلاك والبعد من الرحمة حكايةً لبدئه، وتسجيلًا لدوامه، كرر ألا المنبهة لما بعدها تعظيمًا لأمره، وكرر اسمهم ووصفهم بـ قوم هودٍ ليفيد السامع بالتكرير تقرير استحقاقهم للعنة والإبعاد وسببه، أنهم ليس لهم شبهة عذرٍ لرد الدعوة المعقبة للحرمان مما كانوا فيه من خيرٍ ونعمةٍ، والانتهاء إلى ضده من شقاءٍ ونقمةٍ»[(١)].

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ « أي بنعمة ربهم، يقال: كفرته وكفرت به مثل شكرته وشكرت له، ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي: لا زالوا مبعدين من رحمة الله، والبعد الهلاك والتباعد عن الخير، يقال: بعد يبعد بعدًا إذا تأخر وتباعد، وبعد يبعد بعدًا إذا هلك، والمبالغة في التنصيص والتكرير بعبارتين مختلفتين تدل على تقوية التأكيد ونهاية التحقيق، وقد تقدم أن العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك»[(٢)].

على الرغم من أن هودًا عليه السلام الذي جاء بعد نوح عليه السلام دعا قومه فأعرضوا عنه، كما كانت دعوة نوح، ولقي منهم ما لقي نوح من قومه من تكذيب وتسفيه، ولكنه مضى معهم كما مضى نوح مع قومه ناصحًا، متلطفًا، يلقى السيئة بالحسنة، والشر بالخير، وهم مع هذا لا يزدادون إلا عنادًا وإصرارًا على ما هم فيه من عمى وضلال.

وتجيء الخاتمة التي لا تختلف أبدا نجاة للمؤمنين، وهلاك للمكذبين المعاندين[(٣)].

وهذا أكبر دليل على إصرارهم على الكفر بالله تعالى.

٢. الجحود والاستنكار.

لم يقتصر ردهم بالكفر على دعوة نبيهم، وإنما قابلوها بالجحود والاستنكار، وهذا ما ذكره الله في كتابه العزيز: ﴿قَالُوا

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ١٠٠.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد القنوجي ٦/ ٢٠٤.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٤٢٠.

﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾ [هود:٥٣].

والمعنى: «قالوا: يا هود أي قالوا لنبيهم: ما جئتنا بحجة وبرهان على ما تدعيه أنك رسول من عند الله، ولن نترك عبادة آلهتنا بمجرد قولك: اتركوهم، وما نحن لك بمصدقين، وما نظن إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب شتمك لها ونهيك عن عبادتها وعيبك لها.

فكان جوابهم متضمنا أربعة أشياء كلها عناد وحماقة واستكبار، وهي المطالبة بالبينة والإصرار على عبادة الآلهة، مع أنهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى، وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر، وعدم التصديق برسالة هود مما يدل على الإصرار والتقليد والجحود، وإفساد عقله، وجعله مجنونًا بواسطة الآلهة»[1].

فرغم كل ذلك من دعوتهم لعبادة الله، والاستغفار والتوبة إليه وإتيانهم بالمعجزات إلا أنهم أنكروا ذلك وقالوا ما جئتنا ببينة، كما ذكر في الآية السابقة، وهذا ما بينه الزحيلي في تفسيره: قال لهم: (استغفروا ربكم) من الشرك، (ثم توبوا إليه) أخلصوا التوبة من المعاصي والكفر بالله، وارجعوا إليه بالطاعة، أي: اطلبوا المغفرة من الله بالإيمان، ثم توسلوا إليها بالتوبة، ثم لا يكون التبري من الآخرين إلا بالإيمان بالله والرغبة فيما عنده، (يرسل السماء) الغيث، وكانوا قد منعوه واشتدت حاجتهم إليه؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع، و(يزدكم قوة إلى قوتكم) أي: يزدكم قوة مع قوتكم بالمال والولد، أو يضاعف قوتكم بالتناسل والأموال، (ولا تتولوا مجرمين) مشركين.

فكان ردهم: (ما جئتنا ببينة) ببرهان على قولك، وبحجة تدل على صحة دعواك، وهذا لفرط عنادهم، وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات، (وما نحن بتاركي آلهتنا) وعبادتها، صادرين عن قولك أو لقولك، (وما نحن لك بمؤمنين) إقناطٌ له من الإجابة والتصديق.

(إن نقول) ما نقول في شأنك، (اعتراك) أي: أصابك بعض آلهتنا بسوء بجنون، لسبك إياها وصدك عنها، فأنت تهذي وتتكلم بالخرافات[2].

وما يدلل على جحودهم بآيات الله وعدم إيمانهم بها، قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾ [هود:٥٩] أي: «تلك الآية فيها إجابة عن سؤال هو: ماذا كان من أهل تلك الديار حتى حل بهم هذا المسخ ؟ فكان

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٢/ ٩١.
وانظر: التيجان في ملوك حمير، عبد الملك الحميري ١/ ٣٣٨.

(٢) انظر: التفسير المنير ١٢/ ٨٨.

الجواب: «جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد» ! والجبار العنيد هو كل رأس من رؤوس الكفرة والمشركين الذين يتولون كبر الحرب التي يعلنها أعداء الله على رسل الله.

وفي قوله: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ ما يسأل عنه:

كيف جاء النظم القرآني محدثا عن أنهم عصوا رسل الله مع أنهم لم يعصوا إلا رسولهم هودًا الذي أرسل إليهم؟

والجواب: أن رسل الله على طريق واحد، يقومون على أداء رسالة واحدة هي الدعوة إلى الله سبحانه والإيمان به وبكتبه ورسله، واليوم الآخر.

فهم من جهة بمنزلة رسول واحد، يتجدد مع الزمن في صورة من ظهر منهم من الرسل، وهم من جهة أخرى رسل كثيرون يجيء بعضهم إثر بعض في صورة رسول؛ إذ لا يختلف أحد منهم عن صاحبه في مفهوم الرسول وفى مضمون رسالته ومحتواها، فهم رسل في رسول، وهم رسول في رسل!»[1].

٣. التكذيب بالرسل.

هذا ما صدر عنهم التكذيب بالأنبياء والرسل وبكل ما جاؤوا به، مثلهم مثل الأقوام التي سبقتها لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء:١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق:١٢-١٤].

والمعنى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ وسم الفعل بالتاء إشارة إلى هوانهم في جنب هذا المجد ولما كان هؤلاء الأحزاب المذكورون لقوتهم وكثرتهم كأنهم أهل المجد قاطبة قد استغرقوا زمانها ومكانها، ﴿كُلٌّ﴾ أي من هذه الفرق ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي كلهم قاموا بتكذيب رسولهم، فإن الكل متساوون فيما يوجب الإيمان من إظهار العجز والدعاء إلى الله، ﴿فَحَقَّ﴾ فتسبب عن تكذيبهم لهم أنه ثبت عليهم ووجب ﴿وَعِيدِ﴾ أي: الذي كانوا يكذبون به عند إنذارهم لهم إياه، فعجلنا لهم منه في الدنيا ما حكمنا به عليهم في الأزل فأهلكناهم إهلاكًا عامًا كإهلاك نفس واحدة على أنحاء مختلفة كما هو مشهور عند من له بأمثاله عناية، وأتبعناه ما هو في البرزخ، وأخرنا ما هو في القيامة إلى البعث، بإهلاكنا لهم على تنائي ديارهم وتباعد أعصارهم وكثرة أعدادهم، إن لنا الإحاطة البالغة فتسل بإخوانك المرسلين وتأس بهم، ولتحذر قومك ما حل بمن

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١١٥٩.

كذبهم إن أصروا[1].

٤. الاستكبار بغير حق.

ومن شدة افترائهم قالوا: من أشد منا قوة ؟! مما جعلهم يتكبرون في الأرض بغير حق، لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت:١٥].

والمعنى: «فأما عادٌ فاستكبروا على عباد الله في الأرض التي هي محل الاختبارات الإلهية بغير الحق، أي بلا إطاعة وانقياد وسابقة دين ونبي يرشدهم إلى طريق الحق، وهم من شدة تعنتهم وبطرهم قد قالوا على سبيل الشرف والمباهات: من أشد على وجه الأرض منا قوةً وأكثر عددًا وعددًا، وأتم بسطة واستيلاء؟! وإنما قالوا هذه حين تخويف الرسل إياهم بإلمام العذاب عليهم، وهم قد كانوا أعظم الناس جسامة وأوفرهم قوة وقدرة، لذلك اغتروا بما عندهم من الثروة والرياسة، فكذبوا الرسل وقالوا لهم: نحن ندفع العذاب الذي ادعيتم نزوله أيها الكاذبون المفترون بوفور حولنا وقوتنا. أيغترون على قوتهم وجسامتهم وينكرون كمال قدرة الله وشدة انتقامه، ولم يروا ولم يعلموا أن الله العزيز القدير الذي خلقهم وأظهرهم من كتم العدم، ولم يكونوا شيئًا مذكورا؟! هو سبحانه بعلو شأنه وبكمالات أسمائه وصفاته أشد منهم قوةً، وأتم حولا وقدرة، وأحكم بطشًا وانتقامًا، ولكن قد كانوا بآياتنا يجحدون وينكرون بحسب الظاهر عنادًا ومكابرة واغترارًا بما معهم من الثروة والجسامة بعدما تمادوا على غيهم وأصروا على عتوهم وضلالهم»[2].

ولم يتوقفوا عند هذا الحد وإنما ازدادوا في طغيانهم إلى أن قالوا لنبيهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الشعراء:١٣٦].

أي: لما سمعوا منه ما سمعوا من العظة والتذكير والنصيحة على طريق المبالغة قالوا من نهاية استكبارهم واستنكافهم وشدة إنكارهم: سواءٌ علينا يا هود أوعظت بما وعظت أم لم تكن أنت من الواعظين المذكرين، أي: وعظك وعدمه سواءٌ عندنا لا نبالي بشيءٍ منه، ولا نلتفت إلى ما تقوله، إذ نحن ما نسمع منك خرافاتك، ولا نمتثل بها، ولا نترك لأجلها وأجلك أخلاق أسلافنا التي قد كانوا عليها[3].

وقيل: «فقالوا معاندين للحق مكذبين

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٨/ ٤١.

(٢) الفواتح الإلهية، نعمة الله النخجواني ٢/ ٢٧٥

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٢٩، الفواتح الإلهية، نعمة الله النخجواني ٢/ ٤٨، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي ١/ ٢٥٢.

لنبيهم بعدما ذكرهم بنعم الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أي: الجميع على حد سواء، وهذا غاية العتو، فإن قومًا بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب وجودها وعدمها عندهم على حدٍ سواء لقوم انتهى ظلمهم واشتد شقاؤهم وانقطع الرجاء من هدايتهم»[1].

وكل ما وجده نبيهم هود عليه السلام منهم كما ذكرنا سابقا، إلا أنه أوضح لهم أنه متوكل على الله سبحانه وتعالى ولن يضروه بشيء، وهذا ما بينه أبو حيان في تفسيره: «مجاهرة هودٍ عليه السلام لهم بالبراءة من أديانهم وحضه إياهم على كيده هم وأصنامهم معجزةٌ لهودٍ، أو حرض جماعتهم عليه مع انفراده وقوتهم وكثرتهم فلم يقدروا على نيله بسوءٍ، ثم ذكر توكله على الله معلمًا أنه ربه وربهم، ومنبهًا على أنه من حيث هو ربكم يجب عليكم أن لا تعبدوا إلا إياه، ومفوضًا أمره إليه تعالى ثقةً بحفظه وإنجاز موعوده، ووعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الغيث وتضاعف القوة بالتناسل شرط أن لا يتولوا ولا يعرضوا عما يدعوهم إليه، إلا أنهم مصرين على إجرامهم»[2].

ولهذا لم يؤمن منهم إلا القليل فكانت لهم النجاة في الدنيا والآخرة.

ويستفاد من ذلك: أن قوم هود عليه السلام تفننوا في كيفية صد دعوة نبيهم بمختلف الطرق والوسائل، مما يدلل على عنادهم وإصرارهم على الكفر.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٩٥.

(٢) البحر المحيط في التفسير ٦/ ١٦٨.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٣٨.

نعم الله عليهم وموقفهم منها

سبق أن ذكرنا أن نبي الله هود عليه السلام حينما دعا قومه ذكرهم نعم الله عليهم، وفي هذا المبحث نذكر هذه النعم ثم نبين موقفهم من تلك النعم.

أولًا: نعم الله على عاد:

فلقد عدد الله تعالى في كتابه نعمه عليهم، وبيانها كما يلي:

١. نعمة القوة.

ذكرها الله سبحانه على لسان هود عليه السلام في قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢].

وللمفسرين في بيان هذه القوة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الولد وولد الولد، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: يزدكم شدة إلى شدتكم، قاله مجاهد وابن زيد.

والثالث: خصبا إلى خصبكم، قاله الضحاك[١]. ولا مانع من أن يكون المراد كل ذلك.

وجاء ذكرها أيضًا في سورة فصلت عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

قال الشوكاني: «﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وكانوا ذوي أجسام طوال وقوة شديدة»[٢].

وبين أبو السعود شيئًا من تلك القوة فقال: «وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من جبل فيقتلعها بيده»[٣]، فهذه قوة في أجسادهم، والسابقة زيادة عليها كما هو ظاهر الآيتين.

٢. الخلافة في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

فهذه الخلافة نعمة أنعمها الله تعالى على قوم عاد، قال ابن كثير: «أي: واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه»[٤].

وقال القرطبي: «من عليهم بأن جعلهم سكان الأرض بعد قوم نوح»[٥].

قال أبو السعود: «اذكروا وقت جعله تعالى إياكم خلفاء من بعد قوم نوح أي: في مساكنهم أو في الأرض بأن جعلكم ملوكا، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٧٣١

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٧٢٦.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٨.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦١٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٦.

من رمل عالج إلى شحر عمان »[1].

وقال ابن عاشور: «والمعنى: اذكروا الوقت الذي ظهرت فيه خلافتكم عن قوم نوح في تعمير الأرض والهيمنة على الأمم، فإن عادا كانوا ذوي قوة ونعمة عظيمة»[2].

فظهر من هذه النقولات أنهم خلفوا قوم نوح في مساكنهم، ومكن الله لهم في الأرض ملكا وتعميرا وهيمنة على من سواهم من الأمم.

٣. بسطة الخلق.

قال تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف:٦٩].

وقد ذكر المفسرون أن المراد بالبسطة إما القوة أو بسطة البدن وطول الجسم[3].

والصحيح أن المراد بالبسطة طول الجسم، قال ابن كثير: «أي: زاد طولكم على الناس بسطة أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم»[4].

وقد نقل البغوي وغيره أقوالا تبين هذا الطول، قال البغوي: «طولا وقوة، قال الكلبي والسدي: كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع، وقامة القصير منهم ستون ذراعا. وقال أبو حمزة الثمالي: سبعون ذراعا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ثمانون ذراعا.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٤٢٦.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٤.

وقال مقاتل: كان طول كل رجل اثني عشر ذراعا. وقال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة، وكان عين الرجل تفرخ فيها الضباع، وكذلك مناخرهم»[5].

وفي هذه الأقوال أقوال مبالغة، فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعًا فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن)[6]. ففي هذا الحديث دليل على أن كل قول فيه زيادة على ستين ذراعا غير صحيح، أما ما دونها فهو محتمل، قال رشيد رضا: « وفي التفسير المأثور روايات إسرائيلية الأصل في المبالغة في طولهم وقوتهم لا يعتمد عليها ولا يحتج بشيء منها، ولكن نص على قوتهم وجبروتهم في سورة هود والشعراء وفصلت»[7].

٤. الأنعام والبنين.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٣].

وقدم الأنعام على البنين للطيفة ذكرها ابن

(٥) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٤٣.
وانظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٤٦.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، ٤/ ٢١٣٨، رقم ٢٨٤١.
(٧) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٤٣.

عاشور فقال: «وابتدأ في تعداد النعم بذكر الأنعام لأنها أجل نعمة على أهل ذلك البلد، لأن منها أقواتهم ولباسهم وعليها أسفارهم وكانوا أهل نجعة فهي سبب بقائهم، وعطف عليها البنين لأنهم نعمة عظيمة بأنها أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعدهم وكثرة أمتهم»[1].

٥. الجنات والعيون.

قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٤].

قال البغوي: «﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: بساتين وأنهار»[2].

٦. أنهم تميزوا بإرم ذات العماد.

كما وصفهم الله بذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر:٦-٨].

المعنى: ذكر الله سبحانه وتعالى على سبيل الاستشهاد ما أنزله من عذاب مهين بالأقوام المكذبين، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ الرؤية هنا علمية، تشبيها للعلم اليقيني بالرؤية في الوضوح والانكشاف، لأن أخبار هذه الأمم كانت معلومة للمخاطبين، ويجوز أن تكون الرؤية بصرية لكل من شاهد آثار هؤلاء الأقوام البائدين.

والمراد بعاد: تلك القبيلة المشهورة بهذا الاسم، والتي كانت تسكن الأحقاف، وهو مكان في جنوب الجزيرة العربية، معروف للعرب، وسموا بذلك نسبة إلى أبيهم عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد، لأنه جده الأدنى.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ صفة لعاد، والمقصود بهذه القبيلة عادًا الأولى، التي أرسل الله تعالى إليهم هودًا عليه السلام وكانوا معروفين بقوتهم وضخامة أجسامهم، وقد جاء الحديث عنهم كثيرًا في القرآن الكريم، وقوله سبحانه: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ صفة أخرى لقبيلة عاد، والتي كانت تسكن بيوتا ذات أعمدة ترفع عليها خيامهم ومبانيهم الفارهة، و﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ [الفجر:٨]، أي: مثل هذه القبيلة لم يخلق أحد في ضخامة أجسام أفرادها، وفي قوة أبدانها، وفيما أعطاها الله تعالى من غنى وقوة.

وذكر أن ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم، فالضمير في ﴿مِثْلُهَا﴾ يعود إلى القبيلة[3].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٧٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٢٣.
وانظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٨.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي

و«عاد إرم»: كانوا بدوا ذوي خيام تقوم على عماد، وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها وأميزها: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ في ذلك الأوان [1].

ثانيًا: موقف قوم عاد من تلك النعم:

نصحهم نبيهم عليه السلام بتذكر نعم الله وشكره عليها والخوف من عقابه إن كفروا بها، وأنكروها، ولكن كان موقفهم موقف الجاحد لأنعم الله غير المبالي من سخطه، مما جعلهم يطغون في البلاد، ويتكبرون ويستكبرون فيها بغير حساب، ويبطشون في الأرض، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: ١٣٠].

أي: وإذا بطشتم بسوط أو سيف أو أخذتم أحدًا لعقوبة بطشتم جبارين مسلطين، قاسية قلوبكم، بلا رأفة ولا رقة، ولا قصد تأديب، ولا نظرًا للعواقب، والجبار الذي يضرب أو يقتل على الغضب، فاتقوا الله في البطش، وأطيعون فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون من ألوان النعماء وأصناف الآلاء، فأمدكم بأنعامٍ وبنين، وقرن البنين بالأنعام لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام بها، وجناتٍ بساتين وعيونٍ، وأنهار خلال الجنات، إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيمٍ إن عصيتموني، أو: إن لم تقوموا بشكرها، فإن كفران النعم مستتبع للعذاب، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] [2].

ولكن لا مطيع ولا مجيب، واستمروا على ما هم عليه، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر: ١١-١٢].

والمعنى: وصف الله من سبق ذكرهم في الآيات السابقة بأقبح الأوصاف جزاء كفرهم بالله وبنعمه عليهم فقال: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ أي: هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطانهم وقوتهم في هضم حقوق الناس، واغتروا بعظيم قدرتهم، فكانوا سببًا في إفساد البلاد، ذاك أن من اغتر بنفسه وتهاون بحقوق غيره واعتدى عليها وأخذ ما ليس له ولم يعط الذي عليه يكون قد فكك شمل الجماعة وأفسد في البلاد، فيختل نظام العمران، ويقف دولاب التعامل، ويوجس كل امرئ خيفة من بنى جلدته، ولا شك أن أمما هذه حالها تكون عاقبتها الخراب والدمار، وبيان

١٥/ ٣٨٥، مختصر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، اختصار وتحقيق الصابوني ٢/ ٦٣٦.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٠٣.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ١٥٢ بتصرف.

هذا العقاب في المبحث الذي يليه إن شاء الله تعالى [1].

بل إنهم ردوا على نبيهم الذي يدعوهم إلى أفضل النعم ألا وهي عبادة الله، وتذكيرهم بنعم الله عليهم كما ذكر في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] قائلين: أجئتنا لأجل أن نعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا ؟

إن هذا لشيء عجاب !! فجئنا بما تعدنا من العذاب، فنحن مستعجلون، إن كنت من الصادقين في دعواك. وهذا منتهى الغرور والتكبر والجبروت [2].

ويستفاد من ذلك: نعم الله عز وجل على الإنسان كثيرة لا تعد ولا تحصى، ولهذا لا بد من شكر الله وحمده، ليزيدنا الله سبحانه وتعالى من فضله، ومن أنكر وجحد فله العقاب العظيم في الدنيا والآخرة.

عاقبة عاد

الله سبحانه وتعالى يجازي المؤمنين على إيمانهم، ويكافئهم على صبرهم وقدرة تحملهم، وفي المقابل يعاقب الكافرين ويحاسبهم على طغيانهم وجبروتهم، وأوضح الله عز وجل أنه بعد ما أوحى إلى هود عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلا القليل الذين استجابوا له، ولم تعد هناك فائدة من استمرار دعوة هود عليه السلام قومه، فنصره الله على قومه الذين كذبوا بالله سبحانه وتعالى وأدلته، فأنجاه منهم ومن معه من المؤمنين، وأهلك الكافرين أجمعين، وجاءت الكثير من الآيات التي تتحدث عن هلاك قوم عاد، وتوضيح ذلك على النحو الآتي:

أكد الله عز وجل في كتابه العزيز على هلاكهم في الدنيا والآخرة ليكونوا عبرة لغيرهم بعد أن تهاونوا بتحذير نبيهم لهم من عذاب الله رادين عليه بهذا القول كما ذكر في قوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف:٢٢].

وكذلك أنكروا عذاب يوم القيامة واستبعدوه، لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝﴾ [الحاقة:٤].

والنتيجة أنهم يستحقون العذاب في الدنيا والآخرة جزاء كفرهم، كما في قوله

(١) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ١٤٥.
(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ص٧٣٠.

تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:٦٠].

فأهلكهم الله سبحانه عن بكرة أبيهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم:٥٠].

والمعنى: اختلفوا في قوله تعالى: ﴿عَادًا الْأُولَىٰ﴾ منهم من قال: كانوا عادين:

أحدهما: قوم هود، وهم أول، فأهلكوا بالريح، وكانت أخرى في زمن فارس الأول.

ومنهم من قال: عادًا الأولى: الذين أهلكوا من قبل من الأمم، وأهل مكة وهؤلاء عاد أخرى [(١)].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر:١٣-١٤].

والمعنى: يذكر الله عاقبة أمرهم فقال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: فأنزل الله تعالى بهم ألوانًا من البلاء، وشديد العقاب.

وقد شبه سبحانه ما أوقعه بهم من صنوف العذاب وما صبه عليهم من ضروب الهلاك بالسوط، من قبل أن السوط يضرب به في العقوبات، والله يوقع العذاب بالأمم عقوبة لها على ما يقع منها من أنواع التفريط في أوامر دينه.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٤٣٧.

ثم ذكر العلة في تعذيبه لهم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أي: إن شأن ربك ألا يفوته من شؤون عباده نقير ولا قطمير، ولا يهمل أمة تعدت في أعمالها حدود شرائعه القويمة، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر، كما يأخذ الراصد القائم على الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر، لا يفرط فيما رصد له [(٢)].

«وكان بدء عذابهم بإمساك الله المطر عنهم ثلاث سنين، حتى جهدهم، ثم أنشأ الله سحاباتٍ ثلاثا، بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نادى منادٍ من السماء لزعيمهم قيل بن عثر: يا قيل، اختر لنفسك وقومك.فقال: اخترت السوداء، فإنها أكثرهن ماء !!

فخرجت على عادٍ من وادي المغيث، فاستبشروا بها وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا.

فجاءتهم منها ريح عقيم، فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة وعبدوا الله فيها حتى ماتوا» [(٣)].

وهذا ما ذكر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥].

(٢) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ١٤٥.
(٣) القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د.صلاح الخالدي ص١٦٠.

والمعنى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ سحابًا ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أودية ريحهم ومطرهم ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ﴾ سحاب ﴿مُّمْطِرُنَا﴾ سيمطر حرثنا. قال لهم هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ من العذاب ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجيع ﴿تُدَمِّرُ﴾ تهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ بإذن ربها ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ فصاروا بعد الهلاك ﴿لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ منازلهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هكذا ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين [1].

وذكر معنى قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني: ما يوعدون به من العذاب ﴿عَارِضًا﴾ سحابًا ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ فخرجت عليهم سحابة سوداء من واد لهم يقال له: المغيث، وكانوا قد حبس عنهم المطر، فلما رأوها استبشروا ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فجعلت الريح تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مرت به من رجال عاد وأموالها ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فأول ما عرفوا أنها عذاب رأوا ما كان خارجًا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، وكانوا تحت الرمل، سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال، فاحتملتهم فرمت بهم في البحر [2].

وتفصيل كيفية عذابهم:

إن الله سبحانه وتعالى أرسل عليهم الرياح ووصف الله عز وجل هذه الرياح في كتابه بصفتين: مرة أنها ريحٌ صرصرٌ، ومرة أخرى أنها ريح عقيم.

وبين مدة مكوث هذه الرياح على قوم عاد عقوبة لهم، وبيان ذلك على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر:١٨-٢٠].

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هودًا عليه السلام، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ إياهم ﴿وَنُذُرِ﴾ وإنذاري لمن بعدهم بما جرى عليهم، وبالجملة: إنا بمقتضى عظم قهرنا وجلالنا قد ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على عاد حين أردنا انتقامهم وإهلاكهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة شديدة الجري والصوت ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم منحوس، ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ شؤمه ونحوسته عليهم إلى أن يستأصلوا بما فيه بالمرة من

(١) انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، الفيروزآبادي ص٢٢٤.

(٢) انظر: توفيق الرحمن في دروس القرآن، فيصل النجدي ٤/ ٨٢.
وانظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٩٤.

شدة جريها وحركتها، ﴿تَنزِعُ﴾ وتقلع الناس من أماكنهم مع أنهم قد دخلوا في الحفر وتشبثوا بالأثقال، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي: أصولها ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ منقلب عن مغارسه ساقط على الأرض، يعنى هم سقطوا على الأرض جميعًا موتى بلا روح، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ إياهم ﴿وَنُذُرِ﴾ لمن بعدهم[1]

وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قال: الشديدة التي لا تلقح شيئًا، أم: الريح العقيم التي لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب، أم: ريح لا بركة فيها، ولا منفعة، ولا ينزل منها غيث، ولا يلقح منها شجر. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الريح هي النكباء. وعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه هي الجنوب. وعن مجاهد رضي الله عنه هي الصبا التي لا تلقح شيئًا.

وفي قوله: ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ قال: كالشيء الهالك، وقيل: كرميم الشجر[2].

أما مدة مكوث هذه الرياح على قوم عاد عقوبة لهم كما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:٦-٨].

والمعنى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾ فالآية من قبيل الجمع والتفريق، والحدث لا يناسب العين، ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت، لها صرصرة في هبوبها، أو من الصر وهو البرد، كأنها التي كرر فيها البرد ﴿عَاتِيَةٍ﴾ على قوم عادٍ، فلم يقروا على دفعها، وعن على بن أبي طالب رضي الله عنه قال: عتت على خزانها، فخرجت بغير حساب.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ سلطها ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ استئناف لبيان الكمية بعد الكيف؛ ليتكامل الهول، ﴿حُسُومًا﴾ حاسمات كل خير، والحسم: إزالة أثر الشيء، ومنه الحسم للكي المستأصل للداء، أو متابعة هبوب الريح حتى استأصلتهم، كأن كل هبة كية، ويجوز أن يكون مصدر الفعل مقدرًا أي: يحسم حسومًا، أي: يفرق بينهم تفريقًا شديدًا لا اجتماع بعده، لكمال النحوسة، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا﴾ في مهابها، ﴿صَرْعَىٰ﴾ ملقى على الأرض كالأخشاب اليابسة، قيل: كانت من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء. وسميت أيام العجوز؛ لأن عجوزًا توارت في سربٍ فوجدها الريح في اليوم الثامن، وقيل: أيام العجز، وهي آخر الشتاء. وأسماؤها: «الضن، والضبر، والآمر،

(١) انظر: الفواتح الإلهية، نعمة الله النخجواني ٢/ ٣٧٠.

(٢) الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٦٢١ باختصار.

والمؤتمر، والمعلل، ومطفئ الجمر».

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أصول نخلٍ متآكلة الأجواف، ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ بقية، أو نفس باقية، أو بقاء[1].

إذًا أهلك الله الذين لم يؤمنوا بهذه الرياح التي بقت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، الحسوم الدائم، فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك، غير هود والمؤمنين معه، فإنهم اعتزلوا في حظيرة، وكان نصيبهم النجاة، لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف:٧٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود:٥٨].

والمعنى: استعمال الماضي في قوله: ﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بمعنى اقتراب المجيء؛ لأن الإنجاء كان قبل حلول العذاب.

والأمر أطلق على أثر الأمر، وهو ما أمر الله به أمر تكوينٍ، أي: لما اقترب مجيء أثر أمرنا، وهو العذاب، أي: الريح العظيم، والباء في ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ للسببية، فكانت رحمة الله بهم سببًا في نجاتهم. والمراد بالرحمة فضل الله عليهم؛ لأنه لو لم يرحمهم لشملهم الاستئصال فكان نقمةً للكافرين وبلوى للمؤمنين.

وجملة ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، والتقدير أيضًا نجيناهم من عذابٍ شديدٍ وهو الإنجاء من عذاب الآخرة وهو العذاب الغليظ، ففي هذا منةٌ ثانيةٌ على إنجاءٍ ثانٍ، أي: نجيناهم من عذاب الدنيا برحمةٍ منا، ونجيناهم من عذابٍ غليظٍ في الآخرة، ولذلك عطف فعل ﴿وَنَجَّيْنَاهُم﴾ على ﴿نَجَّيْنَا﴾، وهذان الإنجاءان يقابلان جمع العذابين لعادٍ في قوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود:٦٠].

وقد ذكر هنا متعلق الإنجاء وحذف السبب، عكس ما في الجملة الأولى؛ لظهور أن الإنجاء من عذاب الآخرة كان بسبب الإيمان وطاعة الله، كما دل عليه مقابلته بقوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود:٥٩][2].

وقد ذكر طنطاوي في معناها: أي: وحين جاء أمرنا بتحقيق وعيدنا في قوم هود وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم نجينا هودًا والذين آمنوا معه تنجية مصحوبة برحمةٍ عظيمة كائنة منا بسبب إيمانهم وعملهم الصالح.

ونجيناهم كذلك من عذابٍ غليظٍ أي:

(١) انظر: غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، أحمد الشافعي ١/ ٢٢٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٠٣.

من عذاب ضخم شديد مضاعف ترك هؤلاء الطغاة وراءه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المحسوس يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة، ومع ما عرف عن قوم هود من ضخامة في الأجسام ومن تفاخر بالقوة [(١)].

وبقي هود كذلك حتى مات، وقبره بحضرموت، وقيل: بالحجر من مكة [(٢)].

ويستفاد من ذلك: أن الله سبحانه وتعالى لا يغفل عن شيء، ولا يترك أحدًا، فيثيب المؤمنين الصالحين، ويعاقب الكافرين المفسدين، فالعبرة يا أولي الألباب من هلاك الأقوام قبل فوات الأوان.

(١) انظر: التفسير الوسيط ٧/ ٢٢٨.
(٢) انظر: المختصر في أخبار البشر، عماد الدين ابن أيوب ١/ ١٢.

اقتران عاد وفرعون في القرآن

من المعروف في لغة العرب أن لا يقترن شيئان إلا كانت بينهما نوع علاقة سببت هذا الاقتران، ولما كان القرآن الكريم بلسان عربي مبين فقد اقترن ذكر عاد وفرعون فيه في مواضع نذكرها ونحاول أن نبين حكم اقترانهما، فأما المواضع فهي:

الموضع الأول: في سورة ص، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص:١٢].

الموضع الثاني: في سورة ق، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ [ق:١٢-١٣].

الموضع الثالث: في سورة الفجر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:٦ - ١٤].

والذي يظهر -والعلم عند الله- أن سبب الاقتران يرجع إلى التشابه بين فرعون وقومه مع عاد إلى أمور:

الأمر الأول: الملك والعزة والسلطان: فعند تأمل المواضع الثلاثة نجد أن الموضع الثاني في سورة ق ذكر كلًّا من عاد وفرعون

مطلقين بدون قيد، أما الموضعين الآخرين فهما مقيدان بما يعلم منه الحكمة وسر اقترانهما في ذلك، وبيانه كما يلي:

في الموضع الأول من سورة ص قيد فرعون بكونه ذي الأوتاد، وبذات القيد في سورة الفجر، وعلى معنى ذي الأوتاد يكون سر الاقتران، قال ابن كثير: « قال العوفي عن ابن عباس: الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره. ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها. وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد. وهكذا قال سعيد بن جبير والحسن والسدي. قال السدي: كان يربط الرجل في كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه. وقال قتادة: بلغنا أنه كان له مظال وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وحبال. وقال ثابت البناني عن أبي رافع: قيل لفرعون ذي الأوتاد لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت»[1].

فحاصل المعاني: إما أن تكون الأوتاد حقيقية ويكون المعنى أنه ذو جنود لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد، أو يعذب الناس عليها أو يلعب له بها، أو يكون تشبيها يشبه الجنود بالأوتاد لأنهم يشدون ملكه.

وإذا استحضرنا ما سبق من صفات لعاد وجدنا شبها بينا: ففرعون صاحب الملك المؤسس بالجنود وبالبطش بالخصوم وقتلهم، وكان عاد كذلك، كما أن له البناء العظيم من الأهرامات والصرح الذي هو القصر العظيم الشاهق المرتفع، ولابد أن يكون عظيما جدا لأن القصد منه أن يبلغ أسباب السماء ليطلع إلى إله موسى كما زعم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧]

قال السعدي: «﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا لموسى ومكذبًا له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين الذي على العرش استوى وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السماوات»[2]، وقد ذكر الله بناء عاد وبطشهم في قوله تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٢٨ - ١٣٠].

قال البقاعي: «ولما كان لهم من القوة والملك في جميع الأرض وبناء إرم ذات العماد ما يتضاءل معه ملك كل ملك أتبعهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦١٨.
وانظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦١٨

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٧.

ملكًا ضخمًا قهر غيره بعز سلطانه وكثرة أعوانه، ولما نص على كفره وصفه بما يدل مع الدلالة على مشاركة عاد في ضخامة الأمر وعلى كفر قومه فقال: ﴿ذِي ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي الأسباب الموجبة لثبات الملك وتقويته من علو السلطان بكثرة الأعوان والتفرد بالأوامر وسعة العقل ودقة المكر وكثرة الحيل بالسحر وغيره وجودة التدبير بالعدل فيما يزعم وصولة القهر»[1].

الأمر الثاني: ويتشابهون في أن أصل هلاكهم واحد هو الريح، فعاد أرسلت عليهم الريح العقيم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦].

وأما فرعون وقومه فإنه وإن نص على غرقهم بالبحر كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥].

فمن المعلوم أن أمواج البحار تحركها الريح، فهي التي دفعت الأمواج حتى أغرقتهم، قال البقاعي: «ولما اتفق قوم هود عليه السلام والقبط بالإهلاك بالريح أولئك مع الحجارة والرمل وهؤلاء بالماء الذي فرقه الله بالريح عند ضرب العصا وكان لكل منهما من ضخامة الملك وعز السلطان ما هو مشهور قدم أشدهما أبدانًا وأوسعهما ملكًا؛ لأن إهلاكهم كان أدل دليل على القدرة»[2].

الأمر الثالث: مفاجأة العذاب لكل من عاد وفرعون، قال ابن عاشور: «كان العذاب الذي أصاب هؤلاء عذابا مفاجئا قاضيا، فأما عاد فرأوا عارض الريح فحسبوه عارض مطر فما لبثوا حتى أطارتهم الريح كل مطير، وأما فرعون فحسبوا البحر منحسرا فما راعهم إلا وقد أحاط بهم»[3].

(١) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ٣٦٥.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٥٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٨٤-٢٨٥.

العبر والدروس من قصة عاد

بين الله تعالى أن الغاية من قصص القرآن هي العظة والعبرة فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

وفي هذا المبحث نبين الدروس والعبر المستفادة من قصة عاد بإيجاز:

١. الجزاء من جنس العمل، فلما استخدم عاد قوتهم في البطش بالناس بطش بهم الله سبحانه الذي هو أشد منهم قوة.
٢. كفر النعمة سبب لزوالها، فلما كفروا النعم نزعت منهم بهلاكهم.
٣. لزوم الاستغفار والتوبة مجلبة للرزق وصحة البدن وتيسير الأمور.
٤. من توكل على الله تعالى واعتمد عليه حماه من كيد الكائدين.
٥. اتباع الملأ الذين هم السادات والكبراء الضالين عن الحق يوقع في الهلاك.
٦. العبث واللهو وطول الأمل تمنع من الاستجابة للحق فيكون ذلك سببا للهلاك.
٧. الالتفات إلى قوة الله تعالى وبطشه واستحضار يوم القيامة وما فيه من الأهوال والعذاب يمنع من المعصية.
٨. أهمية دفع التهمة عن النفس لئلا يكون ذلك حاجزا عن سماع الدعوة والاستجابة لها.
٩. تذكر نعم الله تعالى وشكرها سبب للفلاح في الدنيا والآخرة.
١٠. الأصل في معرفة الحق معرفة دليله لا التقليد المذموم.
١١. من آثار رحمة الله تعالى أنه ينجي المؤمنين، ومن آثار بطشه وقوته هلاك الكافرين.
١٢. عجيب قدرة الله تعالى في أن يجمع في الشيء الواحد المتناقضات، ومن ذلك الريح، فهي نعمة على قوم تسوق السحاب لبلدهم الميت فيحيا بالمطر، ونقمة على عاد فبها هلكوا.
١٣. من سنة الله تعالى أن من تشابهت صفاتهم ومواقفهم من الدين يتشابه مآلهم وخاتمتهم، ففرعون شابه قوم هود فكان سبب هلاكهم واحدًا وهو الريح [(١)].

موضوعات ذات صلة

آدم، ثمود، صالح، هود

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/١٩٠٦، ٥/٢٦٠٩، أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٦٦٧.

العبادة

عناصر الموضوع

مفهوم العبادة	٤٢
العبادة في الاستعمال القرآني	٤٤
الألفاظ ذات الصلة	٤٥
العبادة والاستعانة	٤٦
أنواع العبادة	٤٨
مكانة العبادة في القرآن	٥٠
أركان العبادة	٥٤
شروط العبادة	٥٧
دوافع العبادة	٥٩
صور العبادة	٦٤
عبادة غير الله تعالى	٦٧
مقاصد العبادة وآثارها	٧٢

مفهوم العبادة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس رحمه الله في مادة «عبد»: «العين والباء والدال أصلان صحيحان، كأنهما متضادان، فالأول يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ»[(١)].

وقال ابن سيده: «أصل العبادة في اللغة: التذليل، من قولهم: «طريق معبد» أي: مذلل، ومنه أخذ «العبد» لذلته لمولاه، والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب في المعاني، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم، كالحياة والفهم والسمع والبصر»[(٢)].

وقال الأزهري: ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع »[(٣)].

وقد استخلص ابن عاشور من كلام أهل اللغة معنى العبادة فقال: «إنها إظهار الخضوع للمعبود، واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضره ملكًا ذاتيًا مستمرًا، فالمعبود إله للعابد كما حكى الله قول فرعون: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧]»[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعريف العبادة: «والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[(٥)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «والعبادة في الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف»[(٦)]؛ لأن الحب الكامل مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب، والانقياد له، فالعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع لمحبوبه، فطاعة العبد لربه تكون بحسب محبته وذله له[(٧)].

وقال ابن عاشور: «والعبادة في الشرع تعرف بأنها فعل ما يرضي الرب من خضوع وامتثال

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٥ - ٢٠٧ بتصرف يسير.
(٢) المخصص، ابن سيده ٤/ ٦٢.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٣٨.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي ٨/ ٣٣١.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٦.
(٥) العبودية، ابن تيمية ص ٤٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٧) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبد الله الغنيمان ١/ ٤٦.

واجتناب، أو هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه»[١]، فصارت في الشرع اسمًا لكل طاعة لله، أديت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم [٢].

وقال الرازي: «العبادة تعظيم أمر الله والشفقة على الخلق، وهذا المعنى هو الذي اتفقت عليه الشرائع وإن اختلفوا في الوضع والهيئة والقلة والكثرة»[٣].

فهي بهذا التفسير تشمل الامتثال لأحكام الشريعة كلها[٤]، فهي في مفهومها العام تعني: «التذلل لله محبة وتعظيمًا، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، على الوجه الذي جاءت به شرائعه»[٥].

وتعريف شيخ الاسلام ابن تيمية أدق وأشمل، فالدين كله داخل في العبادة، ومن خلال تعريف العلماء للعبادة في الاصطلاح الشرعي تبين أن لفظ العبادة يدور حول معنى الذل التام والخشوع الكامل لله تعالى، والالتزام بما شرعه، والانتهاء عما نهى عنه تعالى، والتمسك بكل ما يرضى الله تعالى، قولًا وعملًا وتركًا، وكل هذه التعريفات للعبادة معناها واحد ولا تختلف عن المعنى اللغوي.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٨٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٤٣ بتصرف.
(٣) المصدر السابق ٢٨/ ١٩٣ بتصرف
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٨٠.
(٥) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص٩٢.

العبادة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عبد) في القرآن الكريم (٢٧٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:٣٥]
الفعل المضارع	٨١	﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠]
فعل الأمر	٣٧	﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠]
اسم فاعل	١٢	﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ [الكافرون:٤]
اسم (مفرد، مثنى، جمع)	١٣١	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾ [سبأ:٩]
مصدر	٩	﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠﴾ [الكهف:١١٠]

وجاءت (العبادة) في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

أحدهما: التوحيد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦] أي: وحدوه.

الثاني: الطاعة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس:٦٠] أي: أن لا تعبدوا الشيطان فتطيعوه في معصية الله[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٤٤١- ٤٤٥.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ١/ ٤٣١-٤٣٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٧٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الطاعة:

الطاعة لغةً:

من طوع بمعنى الانقياد[١].

الطاعة اصطلاحًا:

امتثال أمر الله طوعًا[٢].

الصلة بين الطاعة والعبادة:

قال الكفوي: «والطاعة أعم من العبادة؛ لأن العبادة غلب استعمالها في تعظيم الله غاية التعظيم، والطاعة تستعمل لموافقة أمر الله وأمر غيره، وتجوز الطاعة لغير الله في غير المعصية، ولا تجوز العبادة لغير الله تعالى»[٣].

٢ النسك:

النسك لغة:

قال الراغب: «النسك: العبادة، واختص بأعمال الحج»[٤].

وقال الزبيدي: «والنسك: العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢]»[٥].

النسك اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النسك والعبادة:

جاءت لفظة النسك في القرآن الكريم بمعنى العبادة مطلقًا، كما جاءت بمعنى الذبائح التي يتقرب بها إلى الله سبحانه، وشعائر الحج، والأماكن التي تؤدى بها شعائر الحج، و«الموضع» الذي تقدم به الذبائح تقربًا إلى الله تعالى.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣١.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ١/ ١٤٠، اللباب في علوم القرآن، ابن عادل ١٠/ ٣٩٧، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٥٢٣.
(٣) الكليات، الكفوي ص ٥٨٣.
(٤) المفردات، الراغب الاصفهاني ص ٨٠٢.
(٥) تاج العروس، الزبيدي ٢٧/ ٣٧٢.

العبادة والاستعانة

أولًا: حكمة اقتران العبادة بالاستعانة:

ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالى الحكمة من اقتران العبادة بالاستعانة، وتقديم العبادة على الاستعانة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

ومن هذه الحكم ما ذكره أبو حيان حيث قال: «وقرنت الاستعانة بالعبادة للجمع بين ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، وبين ما يطلبه من جهته»[(١)]؛ وليدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بعبادة الله إلا بإعانة الله وتوفيقه، ولا ينهض بها إلا بالتوكل عليه، فهو إقرار بالعجز عن حمل هذه الأمانة الثقيلة، إذا لم يعنه الله على ذلك، فالاستعانة بالله علاج لغرور الإنسان وكبريائه، وهما داءان قتالان[(٢)].

ثانيًا: تقديم العبادة على الاستعانة:

ولتقديم العبادة على الاستعانة أسباب عديدة أشار إليها ابن القيم رحمه الله حيث قال: وتقديم العبادة على الاستعانة لما يلي:

١. العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، فكان ذلك من قبيل تقديم الغايات على الوسائل.

٢. قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته سبحانه ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته.

٣. تقديم العبادة على الاستعانة يتناسب مع تقديم اسم «الله» على لفظ «الرب» المذكورين في أول السورة، حيث إن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد فكان من الشطر الذي له وهو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.

٤. العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين، ولا ينعكس الأمر؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم؛ ولهذا كان قسم الرب.

٥. الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس فقدم الكل على الجزء.

٦. العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص، ومن غير مخلص.

٧. العبادة حق الله الذي أوجبه على العبد والاستعانة طلب العون على العبادة؛ فكان حق الله أولى بالتقديم.

٨. العبادة شكر لنعمته عليك، والله يحب

(١) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٤٤.
(٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي ص ٤٥.

أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإن التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة له من الله أعظم.

٩. قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، والذي له مقدم على ما به؛ لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه والذي يكون به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[(١)].

وتضمنت هذه الآية إثبات مذهب أهل السنة والجماعة في القدر، وأن جميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وأن العبد فاعل حقيقة، ليس مجبورًا على أفعاله، فلولا أن مشيئة العبد مضطر فيها إلى إعانة ربه وتوفيقه لم يسأل الاستعانة[(٢)].

فائدة:

قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل، وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك:٢٩].

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل:٩][(٣)].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٩٧-٩٨ بتصرف واختصار.

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ص١٢.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٢٣٠.

أنواع العبادة

للعبادة معانٍ بحسب ما يتعلق بها، فالعبادة من حيث تعلقها بعموم الخلق وخصوصهم تنقسم إلى نوعين:

أولًا: عبادة عامة:

وهي عبودية أهل السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٣].

قال ابن القيم: «فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، ويدخل فيه مؤمنهم وكافرهم»[(١)].

وتسمى كذلك بالعبادة الكونية.

قال ابن عثيمين: «فالعبادة الكونية: وهي الخضوع لأمر الله تعالى الكوني، وهذه شاملة لجميع الخلق لا يخرج عنها أحد، فهي شاملة للمؤمن والكافر، والبر والفاجر»[(٢)].

فكل من في السماوات والأرض فهو خاضع لله سبحانه وتعالى كونا فلا يمكن أبدًا أن يضاد الله أو يعارضه فيما أراد سبحانه وتعالى بالإرادة الكونية، والعابدون بالعبودية الكونية لا يثابون عليها؛ لأنهم خاضعون لله تعالى شاؤوا أم أبوا، فالإنسان يمرض، ويفقر، ويفقد محبوبه من غير أن يكون مريدًا لذلك بل هو كاره لذلك لكن هذا خضوع لله عز وجل خضوعًا كونيًا[(٣)]، فالخلق كلهم عبيد ربوبيته.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

فالأول: إما منكرًا، كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٣].

والثاني: معرفًا باللام، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر:٣١].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٨].

الثالث: مقيدًا بالإشارة أو نحوها، كقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان:١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٥ بتصرف واختصار.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل، ابن عثيمين ٦/ ٣٢.

(٣) المصدر السابق ١/ ٨٩.

وقد يقال: إنما سماهم عباده إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونوا من عبيد الإلهية والطاعة [(١)].

ثانيًا: عبادة خاصة:

وهي عبودية الطاعة والمحبة، وهي خاصة بالمؤمنين القائمين بأمره سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

قال ابن القيم: «فالعبودية الخاصة: هي عبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف:٦٨].

وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

وقال تعالى عن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢].

وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته، ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقا إلا لهؤلاء» [(٢)].

وتسمى كذلك بالعبادة الشرعية.

قال ابن عثيمين: «وهي الخضوع لأمر الله تعالى الشرعي، وهذه خاصة بمن أطاع الله تعالى، واتبع ما جاءت به الرسل مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]» [(٣)].

فهي التذلل له سبحانه وتعالى شرعا فهذه خاصة بالمؤمنين بالله سبحانه وتعالى القائمين بأمره، ثم إن منها ما هو خاص أخص كعبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥].

وغير ذلك من وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام بالعبودية [(٤)].

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٦ -١٢٧.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٦ بتصرف يسير.

(٣) مجموع فتاوى ورسائل، ابن عثيمين ٦/ ٣٣.

(٤) المصدر السابق ١/ ٨٩.

مكانة العبادة في القرآن

أوجد الله سبحانه وتعالى الخلق لغاية سامية، وهي عبادته جل شأنه، فأرسل الرسل وأنزل الكتب، لدعوة الناس إلى عبادته وحده لا شريك له، فالعبادة شرف عظيم، من انتسب إليها أصبح من عباده المتقين.

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض مظاهر مكانة العبادة، نوجزها في النقاط الآتية:

أولًا: العبادة غاية الخلق:

والعبادة هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

قال السعدي في هذه الآية: «هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله»[1] وقال ابن كثير: «ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب»[2].

وقال ابن عاشور: «وفي هذه الآية خبر مستعمل في التعريض بالمشركين الذين انحرفوا عن الفطرة التي خلقوا عليها، فخالفوا سنتها اتباعا لتضليل المضلين، والجن: جنس من المخلوقات مستتر عن أعين الناس، وهو جنس شامل للشياطين، قال تعالى عن إبليس: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠].

والإنس: اسم جمع واحده إنسي بياء النسبة إلى اسم جمعه»[3].

وما ذكر الله الجن هنا إلا لتنبيه المشركين بأن الجن غير خارجين عن العبودية لله تعالى، وقد حكى الله عن الجن في سورة الجن قول قائلهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ [الجن:٤].

وتقديم الجن في الذكر في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن؛ ليعلموا أن الجن عباد لله تعالى، فهو نظير قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء:٢٦][4].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٥ بتصرف.

(٤) المصدر السابق ٢٧/ ٢٨.

وقال الشوكاني: «ووجه تقديم الجن على الإنس ها هنا تقدم وجودهم»[1].

وفي اختصاص الجن والإنس من بين المخلوقات بالذكر إشارة إلى أنهما هما المخلوقان اللذان لهما إرادة عاملة، وهما بهذه الإرادة يعملان فيؤمنان أو يكفران، ويطيعان أو يعصيان، ومن هنا وقع عليهما التكليف، وحق عليهما الحساب والجزاء، بمقتضى ما يعملان من خير أو شر[2].

ثانيًا: العبادة رسالة الرسل:

فكما أن الله خلق الخلق لعبادته كذلك أرسل الرسل أيضًا لعبادته سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

قال الرازي في هذه الآية: «فبين تعالى أن سنته في عبيده إرسال الرسل إليهم، وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت»[3].

وأن شغل الأنبياء منحصر في أمرين: عبادة الله وهداية الخلق[4].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها وبها أرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم»[5].

فغايتهم العظمى، ووظيفتهم الكبرى، وهدفهم الأسمى: دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وخلع عبادة ما سواه[6]، وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله تعالى[7].

وقال السعدي: «يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾»[8].

والآية تضمنت التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الشيطان، وكل ما يدعو إلى الضلال على ألسنة الرسل عليهم السلام.

ثالثًا: العبادة تشريف:

فالعبادة ذروة الشرف، ومقام عظيم، حيث جاءت تشريفًا لعباده المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١١٠.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٥٣٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٠٤.
(٤) المصدر السابق ٢٨/ ١٩٢.
(٥) العبودية، ابن تيمية ص ٤٤ بتصرف.
(٦) النبوات، ابن تيمية ١/ ٢٨ بتصرف.
(٧) العبودية، ابن تيمية ص ٧٧.
(٨) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٠.

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١﴾ [الصافات:١٧١].

قال ابن عثيمين: «فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عبادًا لله عز وجل أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به»[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «والله تعالى جعل العبودية وصفًا لأكمل خلقه، وأقربهم إليه، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥].

وقال عن سليمان: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

وقال عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:٥٩].

فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى»[(٢)].

وجاءت كذلك تشريفًا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير رحمه الله: «والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى، كما قال بعضهم:

لا تدعني إلا بيا عبدها
فإنه أشرف أسمائي

وقد سمى الله رسوله بعبده في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩].

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١].

فسماه عبدًا عند إنزاله عليه، وقيامه في الدعوة، وإسرائه به»[(٣)].

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾: « و (عبد) المضاف إلى ضمير الجلالة هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم كما هو مصطلح القرآن والإضافة إضافة تشريف»[(٤)].

وقال سيد قطب في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]: « ويبدأ هذا التحدي بلفتة لها قيمتها في هذا المجال يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبودية لله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ولهذا الوصف في هذا الموضع دلالات منوعة متكاملة:

فهو أولًا: تشريف للنبي وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى، دلالة على أن مقام

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٣٧٠- ٣٧١.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٢ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٢ باختصار.

العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك.

وهو ثانيًا: تقرير لمعنى العبودية، في مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده، واطراح الأنداد كلها من دونه، فها هو ذا النبي في مقام الوحي -وهو أعلى مقام- يدعى بالعبودية لله، ويشرف بهذه النسبة في هذا المقام»[1].

وقد جاءت تشريفًا للمؤمنين المتقين:

قال ابن عثيمين: «فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]»[2].

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف:٦٨] « وقد ذكرنا مرارًا أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين، فقوله: ﴿يَا عِبَادِ﴾ كلام الله تعالى، فكأن الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح:

أولها: أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة.

وثانيها: أنه تعالى وصفهم بالعبودية، وهذا تشريف عظيم »[3].

وجاءت تشريفًا لملائكته عليهم السلام:

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف:١٩] «فالإضافة إلى اسم الرحمان تفيد تشريفهم قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

والعبودية عبودية خاصة وهي عبودية القرب، كقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر:٩]»[4].

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف:٢٠٦]: «أن هذا تشريف للملائكة بإضافتهم إلى الله، من حيث إنه أسكنهم في المكان الذي كرمه وشرفه وجعله منزل الأنوار ومصعد الأرواح والطاعات والكرامات، وإنما قال تعالى في صفة الملائكة: الذين عند ربك؛ لأنهم رسل الله إلى الخلق كما يقال: إن عند الخليفة جيشا عظيمًا، وإن كانوا متفرقين في البلد، فكذا هاهنا، والله أعلم»[5].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٨.
(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٣٧٠-٣٧١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٤٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٨٣.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٤٦ بتصرف.

أركان العبادة

لكل بناءٍ أركان يقوم عليه، وبغيرها يكون بناءً ناقصًا ومشوهًا، ولا يقي صاحبه من برد ولا حر، وهكذا هو بناء عبادة الله سبحانه وتعالى، له ركنان يقوم عليهما، ويصبح مقبولًا عند الله سبحانه وتعالى، وهذان الركنان هما:

أولًا: غاية الحب:

وهو تقديم محبة الله ورسوله على غيرهما.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة:٢٤].

قال البغوي: «لما نزلت الآية الأولى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة:٢٣].

قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجاراتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾»[1].

قال القرطبي: «وفي الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب»[2].

وقال ابن عاشور: «فإذا حصل التعارض والتدافع بين ما أراده الله من المؤمنين وبين ما تجر إليه تلك العلائق، وجب على المؤمن دحضها وإرضاء ربه، وقد أفاد هذا المعنى التعبير «بأحب» لأن التفضيل في المحبة يقتضي إرضاء الأقوى من المحبوبين، ففي هذا التعبير تحذير من التهاون بواجبات الدين مع الكناية عن جعل ذلك التهاون مسببا على تقديم محبة تلك العلائق على محبة الله، ففيه إيقاظ إلى ما يؤول إليه ذلك من مهواة في الدين وهذا من أبلغ التعبير»[3].

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له، لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له حتى تكون محبا خاضعا»[4].

ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر؛ ولذا قال من قال من السلف: من

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٢٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٩٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٥٣.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٩٥-٩٦ باختصار.

عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد[1]، فـجنس المحبة يكون لله ولرسوله كالطاعة فإن الطاعة لله ولرسوله[2].

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم تقديم محبة الله ورسوله على محبة غيرهما من خصال الإيمان، ومن علامات وجود حلاوة الإيمان في القلوب: ففي «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار)[3].

ومحبة العبد لله ورسوله وطاعته لهما واتباعه أمرهما.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران:٣١].

قال الحسن وابن جريج: نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نحب ربنا، وروي أن المسلمين قالوا: يا رسول الله، والله إنا لنحب ربنا فأنزل الله هذه الآية[4].

قال ابن القيم: «فجعل اتباع رسوله مشروطا بمحبتهم لله، وشرطا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله»[5].

ثانيًا: غاية الذل والخضوع:

وهو الذل والخضوع لله سبحانه وتعالى.

قال جل شأنه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

قال الطبري: «وتأويل قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لك اللهم نخشع ونذل ونستكين؛ إقرارًا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك»[6].

وقد ذكر الطبري العلة في اختياره لهذا التأويل حيث قال: «لأن العبودية عند جميع

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ الحكمي ٢/ ٤٣٧.
(٢) العبودية، ابن تيمية ص ٤٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الايمان، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم ٦٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٦٠ بتصرف.
(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١١٩.
(٦) جامع البيان، الطبري ١/ ١٥٧.

العرب أصلها الذلة»[1].

وقال الماوردي: «وقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: أن العبادة الخضوع، ولا يستحقها إلا الله تعالى؛ لأنها أعلى مراتب الخضوع، فلا يستحقها إلا المنعم بأعظم النعم، كالحياة والعقل والسمع والبصر. والثاني: أن العبادة الطاعة. والثالث: أنها التقرب بالطاعة. والأول أظهرها؛ لأن النصارى عبدت عيسى عليه السلام، ولم تطعه بالعبادة، والنبي صلى الله عليه وسلم مطاع، وليس بمعبودٍ بالطاعة»[2].

والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقارًا إليه وخضوعًا له كان أقرب إليه، وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله[3].

وفي الآية إعلام بما صدع به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده، وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب. فلا بد أن يكون العابد محبًا للإله المعبود كمال الحب، ولا بد أن يكون ذليلًا له كمال الذل، وهما لا يصلحان إلا لله وحده[4].

ونستخلص مما سبق أن العبادة تتضمن ركنان أساسيان لا قوام للعبادة بدونهما وهما: غاية الحب مع غاية الذل والخضوع، ولا يستحقها إلا المنعم جل وعلا.

فائدة:

مراتب العبادة ثلاث:

الأولى: أن يعبد الله طمعًا في الثواب وخوفًا من العقاب وهي العبادة، وهي درجة نازلة ساقطة؛ لأنه جعل الحق وسيلة لنيل المطلوب.

الثانية: أن يعبد الله لأجل أن يتشرف بعبادته؛ والانتساب إليه بقبول تكاليفه؛ وهي أعلى من الأولى إلا أنها ليست كاملة؛ لأن المقصود بالذات غير الله.

الثالثة: أن يعبد الله لكونه إلهًا خالقًا مستحقًا للعبادة وكونه هو عبدًا له، وهذه أعلى المقامات وهو المسمى بالعبودية[5].

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦١.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٧-٥٨.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٣٩.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٢٢٨.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢١٤ بتصرف.

شروط العبادة

كما أن لكل عبادة في الإسلام أركان تقوم عليها، فكذلك لها شروط لا تصح إلا بها.

فأما شروط العبادة فهي:

أولًا: إخلاص النية:

فالإخلاص لله تعالى شرط أساسي لقبول العبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

وقد اختلفت ألفاظ السلف في معنى قوله: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ قال بعضهم: مقرين له بالعبادة، وقال آخرون: قاصدين بقلوبهم رضا الله في العبادة، وقال الزجاج: أي يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره، ويدل على هذا قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:٣١][1].

قال القرطبي: «وفي الآية دليلٌ على وجوب النية في العبادات، فإن الإخلاص من عمل القلب وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره»[2].

ففي الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)[3].

فمن لم يخلص لله في عبادته، لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور، فلا يقبل منه، فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه[4]) [5].

وللعلماء تعاريف متعددة لهذه الكلمة، قال الكرخي: الإخلاص أن لا يطلع على عملك إلا الله سبحانه ولا تطلب منه ثوابًا، وقال الشهاب: الإخلاص عدم الشرك وأنه ليس بمعنى الإخلاص المتعارف[6].

فالإخلاص أصل من أصول الدين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٤٣، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج ٥/ ٣٥٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٤٤. وانظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٨٠، فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١٥/ ٣٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ١.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم ٢٩٨٥.

(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٢٨.

(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١٥/ ٣٣٤.

«وجماع الدين أصلان: ألا نعبد إلا الله ولا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بالبدع، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]»[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فلا يكون العبد متحققا بـ» ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] »[(٢)].

فإن هذين الأصلين هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٥].

ولفظ «أسلم» يتضمن شيئين:

أحدهما: الإخلاص.

والثاني: الاتباع والإذلال[(٣)].

ثانيًا: التزام الشرع:

والتزام الشرع هو المتابعة والموافقة لما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

قال ابن كثير: «﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ما كان موافقًا لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصا لله، صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم»[(٤)].

ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله يجمعون هذين الأصلين كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

قال: أخلصه وأصوبه.

فقيل له: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟

فقال: إن العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[(٥)].

وهو المتفق عليه بين المسلمين، فإنه لا بد له في العمل أن يكون مشروعا مأمورًا به، وهو العمل الصالح، ولا بد أن يقصد به وجه الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(١) العبودية، ابن تيمية ص ١٤٨.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٠٤.
(٣) جامع المسائل، ابن تيمية ٦/ ٢٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٤٣.
(٥) الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٣٠٨-٣٠٩.

يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا[1].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧].

« وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: أكثر عملًا، بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز وجل، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين بطل وحبط»[2].

وأصبح مردودًا على عامله، يعود عليه أحوج ما هو إليه هبَاء منثورًا.

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

وفي الصحيح عن عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌ)[3].

وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء[4].

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٢/ ٧٦ بتصرف.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم ١٧١٨.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٠٥ بتصرف.

دوافع العبادة

هناك دوافع وأسباب تدفع الإنسان لعبادة الله سبحانه وتعالى، وتجعله دائم الصلة بربه تعالى، وبإمكاننا أن نقسم هذه الدوافع إلى قسمين:

أولًا: دوافع فطرية:

ومن تلك الدوافع:

١. دافع الشعور الفطري بوجود الخالق.

فمعرفة الخالق مغروسة في الفطرة الإنسانية، وهي عهد الله وميثاقه الذي أخذه سبحانه وتعالى على بني آدم، فقد نص الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، أنه استخرج من صلب آدم ذريته، وأقروا بأن الله تعالى ربهم ومليكهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو»[5].

وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها،

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٠٠.

قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

قال المراغي: «أي: الزموا خلقة الله التي خلق الناس عليها، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به؛ لكونه موافقا لما يهدي إليه العقل، ويرشد إليه صحيح النظر، كما ورد في الحديث عن النبي أنه قال: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه...) [(١)] الحديث»[(٢)].

وثبت أيضًا عن النبي أنه قال فيما يحكى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم) الحديث[(٣)].

بل إن المشركين في حالة الشدة والبلاء وانقطاع رجائهم عن الدنيا يرجعون إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في أكثر من آية في كتابه، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت:٦٥].

قال الرازي: «وفي الآية إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا، فإذا أنجاهم وأرجأهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا به سبحانه وتعالى»[(٤)].

وإنما خص بالذكر حال خوفهم من هول البحر في هذه الآية وفي آيات كثيرة في كتاب الله؛ لأن أسفارهم في البر كانوا لا يعتريهم فيها خوف يعم جميع السفر؛ لأنهم كانوا يسافرون قوافل، معهم سلاحهم، ويمرون بسبل يألفونها فلا يعترضهم خوف عام، فأما سفرهم في البحر فإنهم يفرقون من هوله ولا يدفعه عنهم وفرة عدد ولا قوة عدد، فهم يضرعون إلى الله بطلب النجاة ولعلهم لا يدعون أصنامهم حينئذ[(٥)].

فكل فرد من أفراد الناس مفطور أي: مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق، والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣٨٥، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم ٢٦٥٨.

(٢) تفسير المراغي ٢١/ ٤٥-٤٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٧٦.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٢ بتصرف.

جمهور السلف[1].

ونستخلص مما سبق أن معرفة الله فطر عليها الخلق بأجمعهم، والإقرار بربوبيته سبحانه وتعالى، وأن الانحراف عن هذه المعرفة والإيمان قد تكون من قبل الأبوين، أو المجتمع، أو بسبب الغفلة، أو الشياطين، كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

٢. دافع الحاجة والافتقار.

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة، وحقيقته أنه غني حميد.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيًا حميدًا ذاتي، فغناه وحمده ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث، ولا إمكان - ردًا على الفلاسفة والمتكلمين- بل هو ذاتي للفقير، فحاجة العبد إلى ربه لذاته، لا لعلة أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته، لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا كما أن الغنى أبدًا وصف له ذاتي»[2].

وعرف تبارك وتعالى «الفقراء» في هذه الآية؛ ليريهم شديد افتقارهم إليه، إذ هم جنس الفقراء، وإن كان العالم بأسره مفتقر إليه؛ فلضعفهم جعلوا كأنهم جميع هذا الجنس ولو نكر لكان المعنى: أنتم، يعني: الفقراء[3].

وقال الرازي في سبب نزول هذه الآية: «لما كثر الدعاء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والإصرار من الكفار، وقالوا إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمرًا بالغًا، ويهددنا على تركها مُبالغًا، فقال تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم»[4].

ثانيًا: دوافع شرعية:

ومن تلك الدوافع:

١. دافع الرغبة والرهبة.

وهي من أعظم الدوافع الشرعية، فهي من صفات المؤمنين الصادقين، وهي باعث الرجاء والخوف؛ الرغبة في ثواب الله تعالى، والرهبة من عذابه وعقابه سبحانه

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٥٨.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ٨ بتصرف يسير.

(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٩/ ٢٣.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٩.

وتعالى، وقد أثنى الله عزو جل على أشرف الخلق إليه، وهم أنبيائه؛ لرغبتهم ورهبتهم.

قال تعالى عن زكريا عليه السلام وأهل بيته: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

قال الرازي: «فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، وأراد بذلك زكريا وولده وأهله، فبين أنه آتاهم ما طلبوه، وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم، أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به؛ لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة، أما قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قرئ: (رَغْبا ورَهْبا)، وهو كقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٩].

والمعنى: أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة في عقابه. والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفًا من الإثم».[1] وقال ابن القيم: «وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ فالرغب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية، وقال عن ملائكته الذين قد أمنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٥٠]»[2].

٢. دافع المحبة والتعظيم.

فإن محبة الله تعالى وتعظيمه، دافع من دوافع عبادته، فالله عزو جل أهل لأن يعبد لذاته الجليلة، وأن يطاع لصفاته العظيمة، قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦].

قال السعدي: «أي: هو أهل أن يتقى ويعبد؛ لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه»[3].

وقد مدح الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين في كتابه، لمحبتهم إياه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

قال القرطبي في هذه الآية: «وقيل: إنما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأن الله تعالى أحبهم أولًا ثم أحبوه، ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتم، قال الله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٨٢-١٨٣.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص٢٨٢- ٢٨٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩٨.

تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]»[(١)].

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ « وفيه دقيقة وهي أنه تعالى قدم محبته لهم على محبتهم له، وهذا حق؛ لأنه لولا أن الله أحبهم، وإلا لما وفقهم حتى صاروا محبين له »[(٢)].

فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًا وحرية عما سواه[(٣)].

٣. دافع الشكر والعرفان.

فإن نعم الله سبحانه وتعالى على بني آدم عظيمة؛ لأن كل النعم على بني آدم منه.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وهي دافع للعبادة لله سبحانه وتعالى، شكرًا وعرفانًا بعطاياه التي لا تعد ولا تحصى.

قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤].

فلا يستطيع الإنسان حصر هذه النعم؛ لكثرتها عليه.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٠٤، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٦-١٩٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨١.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٥/ ١٨٨.

قال الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن بني آدم لا يقدرون على إحصاء نعم الله لكثرتها عليهم، وأتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فدل ذلك على تقصير بني آدم في شكر تلك النعم، وأن الله يغفر لمن تاب منهم، ويغفر لمن شاء أن يغفر له ذلك التقصير في شكر النعم، وبين هذا المفهوم المشار إليه هنا بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن المفرد إذا كان اسم جنس وأضيف إلى معرفة أنه يعم؛ لأن ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ مفرد أضيف إلى معرفة فعم النعم»[(٤)].

وقد أمر الله بالشكر، ونهى عن ضده.

قال الله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

ووعد أهله بأحسن جزائه.

قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

وجعله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنعمته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦٢.

وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه، كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣][(١)].

وقد سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلا يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردت قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: كل الناس أعلم منك يا عمر! [(٢)]، فشكر الله تعالى أصعب عبادة وأشرفها.

قال الراغب في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٢].

«وإنما قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ ولم يقل: (واشكروني) علمًا بقصورهم عن إدراكه، بل عن إدراك الآية، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، فأمرهم أن يعدوا بعض أفعاله في الشكر له، وشكر الله عز وجل أصعب عبادة وأشرفها، ولهذا قيل: غاية شكر الله الاعتراف بالعجز عنه، فكل نعمة يمكن شكرها إلا نعمة الله، فإن شكرها نعمةٌ منه» [(٣)].

صور العبادة

من حكمة الله تعالى في شريعته أن نوَّع لهم العبادات، وجعل لها صورًا وأشكالًا مختلفة، ومن تلك الصور:

أولًا: عبادات قولية:

وتشمل قول اللسان: كالدعوة إلى الله، وتبليغ دينه، وقراءة القرآن، والدعاء إلى الله، ونحو ذلك.

ومن أدلة هذا النوع:

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨].

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠][(٤)].

ثانيًا: عبادات قلبية:

وتشمل قول القلب: وهو الاعتقاد بما أخبر الله به عن نفسه، وعن ملائكته ولقائه على لسان رسله، ونحو ذلك [(٥)].

ومن أدلة هذا النوع:

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٢٣٢-٢٣٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٧٧.
(٣) تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٣٤٥.
(٤) المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي ص ٩٥ بتصرف.
(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٠ بتصرف.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:١٧٧][(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة:١١١].

وتشمل كذلك عمل القلب: كالتوكل عليه، والإنابة إليه، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه وغير ذلك من أعمال القلوب[(٢)].

ومن أدلة هذا النوع:

قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر:٥٤].

وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠][(٣)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود:٢٣].

(١) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص ٩٥.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢١ بتصرف.
(٣) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص ٩٥.

ثالثًا: عبادات بدنية:

وتشمل أعمال الجوارح: من صلاة، وجهاد، وحج، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك[(٤)].

ومن أدلة هذا النوع:

قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج:٧٧].

وقوله جل جلاله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج:٢٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة:٩][(٥)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

رابعًا: عبادات مالية:

وتشمل إخراج الزكاة من المال؛ امتثالًا لأمر الله، والوفاء بالنذر، والجهاد بالمال في سبيل الله عز وجل.

(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢١ بتصرف.
(٥) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص ٩٦.

ومن أدلة هذا النوع:

قول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤١].

وقول الله عز وجل: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان:٧][1].

خامسًا: عبادات مشتركة:

وهي ما اشتملت على نوعين فأكثر من العبادات، منها على سبيل المثال:

الحج: وهي عبادة مركبة من نوعين بدنية ومالية[2].

واتفق الفقهاء على أن من شروط وجوب الحج الاستطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧].

والاستطاعة أي: القدرة، وتتحقق بأمور منها: وجود المال الذي يكفى ذهابًا وإيابًا[3]، فالحج إذًا عبادة لا تقوم إلا بالبدن والمال؛ ولهذا لا يجب إلا عند وجود المال وصحة البدن.

وكذلك العمرة فهي عبادة مركبة من نوعين: بدنية ومالية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦].

وقد ذهب الفقهاء إلى أنه يجوز أداء العمرة عن الغير؛ لأن العمرة كالحج تجوز النيابة فيها؛ لأن كلًا من الحج والعمرة عبادة بدنية مالية[4].

والجهاد كذلك عبادة مركبة من نوعين: بدنية ومالية.

قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٤١].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «قوله: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من آكد الفرائض وأعظمها»[5].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٥].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، لأن الجهاد يقتضي الأمرين:

(١) المصدر السابق ص ٩٦.
(٢) انظر: المنتقى من فرائد الفوائد، ابن عثيمين ص ٤.
وانظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٣/ ٢٠٩٥.
(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٢/ ٣٤٨ بتصرف.
(٤) المصدر السابق ٣٠/ ٣٢٨.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤١٤.

بذل النفس وبذل المال»[1].

والصلاة تشتمل على عبادات قلبية وقولية وعملية.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢].

فالصلاة في الشرع يراد بها: العبادة المُبتدئَة بالتكبير المُختتمَة بالتسليم، التي تشتمل على عبادات قلبية وقولية وعملية، فالصلاة تشتمل على أنواع العبادة في القلب: من الخشوع، والخشية، والإقبال على الله سبحانه وتعالى، وباللسان: من التكبير، والتحميد، والثناء على الله، وتلاوة كتابه الكريم، ومناجاة الرب سبحانه وتعالى، وبالجوارح: من القيام، والركوع، والسجود، والجلوس، فالصلاة عبادة عظيمة، يجتمع فيها ما لا يجتمع في غيرها من أنواع العبادات؛ ولذلك جعلها الله عمود الإسلام، وجعلها الركن الثاني من أركان الإسلام[2].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٧١.
(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح الفوزان ١/ ١٦٥ بتصرف يسير.

عبادة غير الله تعالى

كان الناس أمة واحدة على دين واحد بعد أبينا آدم عليه السلام، واستمروا على ذلك فترة من الزمن، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله الرسل لدعوتهم إلى عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وكان أول الرسل نوح عليه السلام.

وقد تحدث القرآن الكريم عن عبادة غير الله عز وجل كثيرًا، ويمكن إيجازها في النقاط الآتية:

أولًا: النهي عن عبادة غير الله:

لقد بعث الله سبحانه وتعالى في كل أمة من الأمم رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما زينه الشيطان لهم وأوقعهم فيه من عبادة ما سواه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

قال السعدي: «يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولًا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾»[3].

والطاغوت: كل ما عبد من دونه إما بقهر

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٠.

منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، سواء كان إنسانًا ذلك المعبود، أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صنمًا، أو كائنًا ما كان من شيء[1].

وقد أخبر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده والنهي عن عبادة ما سواه، هي دعوة الرسل من قبله.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقد قام الأنبياء والرسل جميعًا بذلك، فما منهم من أحد إلا قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون:٣٢].

وقد احتدم الصراع بين دعاة الحق وأنصار الباطل بين الرسل وأممهم، وخلال هذا الصراع الرهيب تحطمت الأصنام وتهاوت الأوثان، وانخذل الشرك وأهله، وانتصر الحق ودعاته[2].

المعبودات من دون الله لا تملك شيئًا لعابديها:

أخبر الله عزو جل في كتابه عن جهل المشركين في عبادتهم لمن لا يملك لهم نفعًا، ولا ضرًا، ولا نصرًا، ولا رزقًا، في أكثر من آية.

منها: قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ٥٥﴾ [الفرقان:٥٥].

قال ابن كثير في هذه الآية: «يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا، بلا دليل قادهم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم، ويقاتلون في سبيلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ أي: عونا في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ٧٥﴾ [يس:٧٤-٧٥].

أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرًا، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم، ويذبون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله في الدنيا والآخرة»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ معنى لطيف ذكره الرازي: «وهو أنه تعالى لما قال: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جندًا لهم ومحضرون لنصرتهم، فإن ذلك دال

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٤١٩ بتصرف.
(٢) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١/ ١٧ بتصرف.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٨ باختصار يسير.

على عدم الاستطاعة، فإن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون في غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهبًا ولم يجمع أنصاره»[1].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل:٧٣-٧٤].

وفي هذه الآيات تقريع للكفار وتوبيخ لهم، وإظهار لفساد نظرهم فهذه الأصنام لا تملك توفير الرزق لعبدتها ولا تستطيع فعل شيء، فآية: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ نفي الملك وتحصيل الملك، ومن لا يملك شيئا وهي الأصنام، ليس في استطاعتها تحصيل الملك، أي: إنها لا تملك شيئًا، ولا تستطيع تمليك شيء، والنتيجة لذلك أنكم أيها الوثنيون لا تجعلوا لله أندادًا وأشباهًا وأمثالًا، ولا تشبهوه بخلقه، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لا تمثلوا لله الأمثال، وإن الله يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم أيها البشر الوثنيون بجهلكم تشركون به غيره[2].

وقد ضرب الله الأمثال في القرآن لبيان حال هذه المعبودات، وأنها ضعيفة وعاجزة.

ومن هذه الأمثال، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:٧٣].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى حول هذا المثل: «حقيق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه فكيف ما هو أكبر منه، ولا يقدرون على الانتصار من الذباب، وإذا سلبهم الذباب شيئًا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذونه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوان، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما يسلبهم إياه فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله تعالى؟! وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم»[3].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٠٧.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٢٨٣.
(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ١/ ١٣٩.

ثانيًا: إنكار المعبودات من دون الله لعابديها:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن هذه المعبودات التي عبدت من دون الله، سواءً كانت من الحجر، أو من البشر، أو من الملائكة، أو من الجن، سوف تنكر عابديها يوم القيامة وتتبرأ من ذلك.

قال تعالى في شأن إبليس: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

قال السعدي في هذه الآية: «أي: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطبًا لأهل النار ومتبرئًا منهم ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ودخل أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ على ألسنة رسله، فلم تطيعوه ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ الخير ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: هذا نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعًا لأهوائكم وشهواتكم ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب، ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ كل له قسط من العذاب ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: تبرأت من جعلكم لي شريكًا مع الله، فلست شريكًا لله ولا تجب طاعتي»[1].

والإشراك الذي كفر به إشراكهم إياه في العبادة بأن عبدوه مع الله؛ لأن من المشركين من يعبدون الشياطين والجن، فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرة، ومنهم من يعبدون الأصنام فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته[2].

قال ابن عاشور: «والمقصود من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه؛ لأن هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان، مليء بإضمار الشر لهم فيما وعدهم في الدنيا مما شأنه أن يستفز غضبهم من كيده لهم وسخريته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له وسوء ظنهم بما يتوقعون إتيانه إليهم من قبله، وذلك أصل عظيم في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٢٤ باختصار يسير.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٢١.

الموعظة والتربية»[1].

وقال تعالى في شأن الأولياء والصالحين وغيرهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان:١٧-١٩].

قال السعدي في هذه الآية: «يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: المكذبين المشركين ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ﴾ الله مخاطبًا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ هل أمرتموهم بعبادتكم وزينتم لهم ذلك أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به وبرؤوا أنفسهم من ذلك ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ أي: لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك متبرئين من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحدًا بعبادتنا؟! هذا لا يكون، أو سبحانك عن ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين، فقالوا: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ اشتغالًا في لذات الدنيا، وإكبابًا على شهواتها.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي: بائرين لا خير فيهم، فلما تبرؤوا منهم قال الله توبيخًا وتقريعًا للعابدين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم ورضوا فعلكم، وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم بفعلكم، أو بفداء أو غير ذلك ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لعجزكم وعدم ناصركم، هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، وأما المعاند منهم الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بترك الحق ظلما وعنادًا ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ أمره»[2].

وقال تعالى في شأن الأصنام: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

(١) المصدر السابق ١٣/ ٢١٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٨٠ باختصار.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف:٥-٦].

أي: لا أحد أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين، وأضل الضالين والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ الضمير الأول للأصنام، والثاني لعابديها.

والمعنى: أن الأصنام التي يدعونها غافلون عن ذلك لا يسمعون ولا يعقلون، لكونهم جمادات، فالغفلة مجاز عن عدم الفهم فيهم، وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء؛ لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ العابدون للأصنام ﴿كَانُوا﴾ أي: كان الأصنام ﴿لَهُمْ﴾ أي: لعابديهم ﴿أَعْدَاءً﴾ يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا، وقد قيل: إن الله يخلق الحياة في الأصنام فتكذبهم، وقيل: المراد إنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم جاحدين مكذبين، وقيل: الضمير في كانوا للعابدين، كما في قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، والأول أولى [(١)].

مقاصد العبادة وآثارها

لقد فرض الله تعالى عن الناس عبادات لها مقاصدها وآثارها في إصلاح الفرد والمجتمع، وفي تزكية الأنفس وإصلاح القلوب، ولها آثار ونتائج مفيدة.

وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: مقاصد العبادة:

إن المقصد الأعظم والباعث الأساسي للعبادة هو استحقاق الله تعالى لذلك، فنحن نعبد الله جل وعلا؛ لأنه مستحق للعبادة؛ وتحقيقًا للغاية التي من أجلها خلق الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

فالمقصد الأصلي للعبادات هو تحقيق العبودية لله والانقياد له سبحانه وتعالى.

قال الشاطبي: «إن مقصود العبادات الخضوع لله، والتوجه إليه، والتذلل بين يديه، والانقياد تحت حكمه، وعمارة القلب بذكره، حتى يكون العبد بقلبه وجوارحه حاضرًا مع الله، ومراقبًا له غير غافل عنه، وأن يكون ساعيًا في مرضاته وما يقرب إليه على حسب طاقته»[(٢)].

ونجد أن هذا المعنى قد تقرر في القرآن

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١٣: ١١-١٢ باختصار.

(٢) الموافقات، الشاطبي ٢/ ٣٨٣.

بأساليب مختلفة، منها ما جاء بصيغة الأمر.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

وقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ [الزمر:٦٦].

إلى غير ذلك من الآيات[١].

وهناك بعض المقاصد للعبادات قد نص الله تعالى عليها في كتابه، وبين ثمرتها وفائدتها، ومن ذلك:[٢]

أنه قال في الصلاة: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤].

قال السعدي: «وقوله: ﴿لِذِكْرِي﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي؛ لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصًا الصلاة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة؛ لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح»[٣].

وقال في الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

والصدقة تطلق على الفرض والنفل وسمى الله تعالى الزكاة صدقة؛ لأن المال بها يصح ويكمل، فهي سبب إما لكمال المال وبقائه، وإما لأنه يستدل بها على صدق العبد في إيمانه وكماله فيه[٤].

وقد بين الله تعالى الحكمة في الزكاة وبيان مصالحها العظيمة، فقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي: من الذنوب ومن الأخلاق الرذيلة، وتطهر المال من الأوساخ والآفات، وأما قوله: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ فالزكاة هي النماء والزيادة، فهي تنمي المؤتي للزكاة، تنمي أخلاقه، وتحل البركة في أعماله، وتنمي المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره، وتحل فيه البركة من الله[٥].

ونسبت التزكية إلى رسول الله؛ لأنه هو المربي للمؤمنين على ما تزكو به نفوسهم[٦].

وفي الآية دلالة على أن الزكاة إنما يتولى أخذها الإمام أو نائبه؛ لأنه تعالى جعل للعاملين سهمًا منها[٧].

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، محمد اليوبي ص٤٨٥ بتصرف.
(٢) انظر: المصدر السابق ص٤٨١ بتصرف.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٣ بتصرف واختصار.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٦١.
(٥) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ص٧٦-٧٧ باختصار.
(٦) تفسير المراغي ١١/ ١٦-١٧ بتصرف.
(٧) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري

وفيها دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وأن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها[1].

وقال في الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣].

قال أبو زهرة: «وقد بين الله تعالى حكمة شرعيته بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي رجاء منكم لأن تصلوا إلى درجة المتقين، فتتقوا المعاصي، وسيطرة الأهواء والشهوات على نفوسكم، وذلك لأن الصوم يربي النفس على الضبط، والاستيلاء على أهوائها وشهواتها، وحيث قويت الإرادة قوي سلطانها على الالتواء وعلى الشهوات»[2].

وفي الآية تأكيد للحكم، وترغيب في الفعل، وتطييب لأنفس المخاطبين فإنه عبادة شاقة، والأمور الشاقة إذا عمت كثيرًا من الناس سهل تحملها ورغب كل أحد في عملها[3].

وقال في الحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الحج:٢٧-٢٨].

قال الرازي: «لما أمر بالحج في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ ذكر حكمة ذلك الأمر في قوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا، وهي أن يتجروا في أيام الحج، وبعضهم حملها على منافع الآخرة، وهي العفو والمغفرة، وبعضهم حملها على الأمرين جميعًا وهو الأولى، ثم نكر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات»[4].

ولأن العبادات شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم أو بالمال كالزكاة، وقد اشتمل الحج عليهما مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال[5].

وكنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا وذبحوا، وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى، وأن يخالف

٣/ ٤٩٢.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٠.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٥٥١ باختصار يسير.

(٣) تفسير المراغي ٢/ ٦٨.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٢١.

(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي ٢/ ٤٣٦.

المشركين في ذلك، فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان [1].

ثانيًا: آثار العبادة:

إن الإسلام قد فرض على الناس عبادات لها أثر حسن في إصلاح القلوب وتهذيب النفوس [2]، فأثرها يتمثل في تقويم أخلاقهم، وتزكية نفوسهم، وتوجيههم الوجهة النافعة، وقد أوصى الله عباده بالفضائل، وحذرهم من الرذائل، فقال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل:٩٠] [3].

ومن الآثار المترتبة على العبادات: انشراح الصدر، وراحة البال، وسعة الرزق، وسلامة الإنسان وارتياحه واطمئنانه، وقد جاء في القرآن آياتٌ كثيرة تدل على تلك الآثار، وعلى أن تقوى الله عز وجل والأعمال الصالحة يترتب عليها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

فإن هذه الآية الكريمة تدل على أن من اتقى الله عز وجل وآمن به، فإن الله تعالى يثيبه ويعطيه في الحياة الدنيا من الرزق، ويفتح عليه من بركات السماء والأرض وما ذكره الله في هذه الآية عن أهل القرى، هو من الثواب الدنيوي على الإيمان والتقوى، وأما الثواب الأخروي للمؤمنين المتقين، فقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥﴾ [المائدة:٦٥].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب:٧٠].

وهذه عبادة، ثم ذكر الأثر المترتب على ذلك بقوله: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧١].

فإن إصلاح الأعمال في الدنيا، ومغفرة الذنوب في الآخرة، من الآثار المترتبة على العبادة، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على ذكر آثار تترتب على العبادة في الدنيا وفي الآخرة.

وقال تعالى فيما حكاه عن نوح وقومه: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٢١.
(٢) العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، محمود السيد شيخون ص ٨٩.
(٣) العبادات في الإسلام وأثرها في تضامن المسلمين، علي عبد اللطيف منصور ص ١١٩ باختصار.

[نوح:١٠-١٢].

فإن هذه الأمور من الآثار المترتبة على العبادة، فالعبادة هنا هي الاستغفار والآثار المترتبة عليها في هذه الآية هي أنه يرسل السماء عليهم مدرارًا، ويمددهم بالأموال والبنين، ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهارًا، ومثل هذه الآية [١].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

قال القاسمي في هذه الآية: «فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين»[٢]، ثم إن من العبادات الصلاة والزكاة والصيام والحج، وكل واحدة منها لها آثار طيبة في حياة المسلم.

فالصلاة هي عمود الإسلام، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وهي صلةٌ وثيقةٌ بين العبد وبين ربه، فإذا حافظ الإنسان على الصلوات في المساجد جماعة مع المسلمين فإنه تقوى صلته بالله عز وجل؛ لأنه يكون على صلة بالله دائمًا وأبدًا في اليوم والليلة[٣]؛ لذلك حث الله تعالى على إقامة الصلاة في الجماعة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

ومن آثارها أنها تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على مواجهة المشقات والمكاره في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣][٤].

ثم إن الزكاة آثارها عظيمة فهي تطهر النفس من الشح والبخل، وتطهر المال، وتكون سببًا في نمائه وكثرته، وبذلك يحصل الخير والفلاح والفوز[٥].

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٣].

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦].

«والمعنى: أن الإنفاق يقي صاحبه من

(١) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ١١-١٦ بتصرف واختصار.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٥٩.
(٣) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ٢٠ بتصرف.
(٤) العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، محمود السيد شيخون ص ٩٠ بتصرف.
(٥) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ٢١ بتصرف.

الشح المنهي عنه، فإذا يسر على المرء الإنفاق فيما أمر الله به فقد وقي شح نفسه، وذلك من الفلاح وإضافة الشح إلى النفس؛ للإشارة إلى أن الشح من طباع النفس، فإن النفوس شحيحة بالأشياء المحببة إليها، قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء:١٢٨]»[(١)].

وأما الصيام فإن آثاره عظيمة، ونتائجه كبيرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣].

قال المراغي: «فرضه عليكم ليعدكم لتقوى الله بترك الشهوات المباحة الميسورة؛ امتثالًا لأمره واحتسابًا للأجر عنده، فتتربى بذلك العزيمة والإرادة على ضبط النفس وترك الشهوات المحرمة والصبر عنها، وإعداد الصوم لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة، منها: أنه يُعوِّدُ الإنسان الخشية من ربه في السر والعلن، ويكسر حدة الشهوة، ويجعل النفس مصرفة لشهواتها بحسب الشرع، ويعود الشفقة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة، فهو عند ما يجوع يتذكر من لا يجد قوتًا من أولئك البائسين، فيرق قلبه لهم ويشفق عليهم، وفي ذلك تكافل للأمة وشعور بالأخوة الدينية»[(٢)].

وأما الحج فإنه عبادة عظيمة، ولها آثار طيبة، ونتائج حميدة في حياة الإنسان.

قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧].

فالحج غذاء روحي كبير تمتلئ فيه جوانح المسلم خشية وتقى لله رب العالمين، ففي كل منسك من مناسكه غذاء للروح، فما الإحرام إلا تجرد من شهوات النفس والهوى، وحبس للنفس عما سوى الله عز وجل، وحث على التفكير في عظمة الله جل جلاله، وحث على تذكر الموت والاستعداد له بالعمل الصالح فالحاج في لباس إحرامه يذكر الميت في أكفانه، وما التلبية إلا استجابة وذكر وطاعة وامتثال، وما الطواف بعد التجرد إلا استحضار لعظمة الله تعالى حول بيته، وامتثال لأمره ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩].

وما السعي بين الصفا والمروة إلا تردد بينهما التماسا لرحمة الله تعالى وطلبا لمغفرته، وما الوقوف بعرفة إلا بذل للمهج في الضراعة إلى الله بقلوب مملوءة بالخشية وأيد مرفوعة بالرجاء وألسنة لاهجة بالدعاء وآمال صادقة في أرحم الراحمين، وما الرمي بعد ذلك إلا رمز

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٨٩.
(٢) تفسير المراغي ٢/ ٦٨-٧٠ بتصرف واختصار.

لاحتقار عوامل الشر ونزعات الشيطان، وما الذبح إلا إراقة للدم الذي أمر الله به أن يراق ورمز للتضحية والفداء ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢].[1].

والحاصل أن هذه العبادات العظيمة التي شرعها الله عز وجل، وبنى عليها دينه الحنيف، تترتب عليها آثار طيبة في حياة المسلم الدنيوية، وآثار عظيمة في حياته الأخروية[2].

موضوعات ذات صلة:

الحج، الزكاة، الصبر، الصلاة، الصيام، الطهارة

(١) العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، محمود السيد شيخون ص ٩٧ بتصرف.
(٢) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ٣٠.

العِبْرَة

عناصر الموضوع

مفهوم العبرة	٨٠
العبرة في الاستعمال القرآني	٨٢
الألفاظ ذات الصلة	٨٣
مواطن العبرة في القرآن	٨٥
أهل العبرة	٩٥
فوائد العبرة في الدعوة	٩٩
المضامين التربوية في آيات العبرة	١٠١

مفهوم العبرة

أولًا: المعنى اللغوي:

العبرة: اسم من الاعتبار[١]، وهو مأخوذ من مادة (ع ب ر)، والمتأمل كتب المعاجم اللغوية يجد أن «العين والباء والراء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدل على النفوذ والمضي في الشيء. يقال: عبرت النهر عبورًا» [٢].

ويقال:عبر الرؤيا: يعبرها عبرًا وعبارةً. وعبرها: فسرها وأخبر بآخر ما يؤول إليه أمرها[٣].

ومن الباب: عبر الرجل والمرأة والعين من باب طرب، أي: جرى دمعه، ورجلٌ عابر سبيلٍ، أي: مار الطريق، ويقال: عبر الرؤيا، فسرها[٤].

قال الخليل: «العبرة: الاعتبار بما مضى، أي: الاتعاظ والتذكر» [٥].

و «العابر: الناظر في الشيء، والمعتبر: المستدل بالشيء على الشيء» [٦].

فالمعنى اللغوي يدور حول الانتقال، والتجاوز من حال إلى حال، سواء أكان هذا الانتقال والتجاوز محسوسًا، أم كان معنويًا.

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: العبرة هي: «الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد»[٧].

إلا أن هذا التعريف غير جامع؛ لأن هناك حالات غير مشاهدة، ذكرها القرآن الكريم، وكانت مضربًا للعبرة، كقصص السابقين.

وقيل: هي الحالة التي ينتقل الذهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها وعاقبة أمثالها[٨].

وعرفها الواحدي النيسابوري بقوله: «والعبرة: الآية التي يعبر بها من منزلة الجهل إلى

(١) الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٣٢.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٧.
(٣) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ١٣٠.
(٤) مختار الصحاح، الرازي ص١٩٨.
(٥) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٩٠ بتصرف.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٣٠.
(٧) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٤٣.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٨٢.

العلم؛ لأن المعتبر بالشيء، تاركٌ جهله، وواصلٌ إلى علمه بما رأى -ثم قال- وأصله من: «العبور»، وهو: النفوذ من أحد الجانبين إلى الآخر. ومنه: «العبارة» وهو: الكلام الذي يعبر بالمعنى إلى المخاطب، «وعبارة الرؤيا» من ذلك؛ لأنه تفسير لها، يعبر بها من حال النوم إلى حال اليقظة بإظهار التأويل»[1].

وعرف ابن منظور العبرة بأنها كالموعظة مما يتعظ به الإنسان ويعمل به ويعتبر ليستدل به على غيره[2].

(١) التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٨٩- ٩٠.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٣١.

العبرة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عبر) في القرآن الكريم (٧) مرات [(١)].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الأمر	١	﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر:٢]
المصدر	٦	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات:٢٦]

وجاءت العبرة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الدلالة بالشيء على مثله للعظة والاعتبار، وحقيقتها: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، يعني: عظةً وتذكرةً لهم [(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٥٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب العين ص٧٤٣.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٣/ ٢٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الآية:

الآية لغة:

بمعنى العجب، وبمعنى العلامة، وبمعنى الجماعة[١].

الآية اصطلاحًا:

الآية أصلها العلامة الدالة على شيء، من قول أو فعل، وآيات الله الدلائل التي جعلها دالة على وجوده، أو على صفاته، أو على صدق رسله، ومنه آيات القرآن التي جعلها الله دلالة على مراده للناس[٢].

الصلة بين العبرة والآية:

«الآية» من الألفاظ التي فيها قدر مشترك مع «العبرة»؛ ذلك لأن من معاني العبرة «الدلالة»، ومن معاني الآية العلامة الدالة على الشيء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧]. قال ابن عباس: لعبرةً للمصدقين[٣].

٢ الاتعاظ:

الاتعاظ لغة:

من «الوعظ» والوعظ هو:النصح والتذكير بالعواقب و«اتعظ» أي: قبل «الموعظة» يقال: السعيد من «وعظ» بغيره والشقي من «اتعظ» به غيره[٤].

الاتعاظ اصطلاحا:

قبول الموعظة بكف النفس عن الشر، وذلك من قولهم:«اتعظ»: قبل الموعظة وائتمر وكف نفسه»[٥].

الصلة بين العبرة والاتعاظ:

الاتعاظ هو حالة تنتج عن العبرة، فمن شاهد العبر اتعظ، وتجنب الوقوع في المهالك.

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ٨٥.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٨٧.
(٣) التفسير البسيط، الواحدي ١٢/ ٦٤٠.
(٤) مختار الصحاح، زين الدين الرازي ص ٣٤٢.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٤٣.

٣ التفكر:

التفكر لغةً:

تردد القلب في الشيء. يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبرًا. ورجل فكير: كثير الفكر[١].

التفكر اصطلاحًا:

تصرف القلب في معاني الأشياء؛ لدرك المطلوب، وقيل: هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء[٢].

الصلة بين العبرة والتفكر:

العبرة أعم وأشمل من التفكر؛ لأن التفكر هو تصرف القلب بالنظر في الدليل، أما العبرة فهي تشمل النظر في الدليل وفي غيره كالنظر في العواقب، وفي غير ذلك.

وبناء على ذلك: فإن في كل عبرة تفكرًا وتأملًا، وليس في كل تفكر عبرة.

٤ الغفلة:

الغفلة لغة:

من «غفل»، والغين والفاء واللام أصلٌ صحيحٌ يدل على ترك الشيء سهوًا، وربما كان عن عمدٍ[٣].

الغفلة اصطلاحًا:

هو سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ[٤].

الصلة بين العبرة والغفلة:

العبرة: الاعتبار بما مضى، أي: الاتعاظ والتذكر»[٥]، أما «الغفلة» فهي من الألفاظ المقابلة التي تعني «فقد الشعور بما حقه أن يشعر به»[٦]، وهذا يعنى أن صاحبها قد يتصف بالغباء والبلادة بعكس المعتبر؛ ومن ثم فالعلاقة بين اللفظين التضاد.

---

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٧٠٤.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٦٣.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨٦.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٠٩.
(٥) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٩٠.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٥٢.

مواطن العبرة في القرآن

أشار القرآن الكريم إلى مواطن متعددة، يحسن بالعبد أخذ العبرة فيها، ومن تلك المواطن:

أولًا: بدائع القدرة الإلهية في الكون:

إن من مواطن العبرة في القرآن، والتي بها نقف على بدائع القدرة الإلهية في الكون؛ مشهد تقليب الليل والنهار.

وهو مشهد يوقظ في القلب الأحاسيس، وفي النفس الخشوع، وفي الروح الخضوع.

قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾ [النور: ٤٤].

والتقليب تغيير هيئة إلى ضدها ومنه ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢].

أي: يدير كفيه من ظاهر إلى باطن، فتقليب الليل والنهار: تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة الضياء، ومن حالة النهار إلى حالة الظلام، فالمقلب هو الجو بما يختلف عليه من الأعراض، ولكن لما كانت حالة ظلمة الجو تسمى ليلًا، وحالة نوره تسمى نهارًا، عبر عن الجو في حالتيه بهما، وعدى التقليب إليهما بهذا الاعتبار.

ومما يدخل في معنى التقليب تغيير هيئة الليل والنهار بالطول والقصر، ولمراعاة تكرر التقلب بمعنييه عبر بالمضارع المقتضي للتكرر والتجدد[1].

ومن هذا التعريف للتقليب يتبين أن تقليب الليل والنهار يشمل كل المعاني التي ذكرها المفسرون على أنها اختلاف؛ فالتقليب يحتمل أن يكون بمعنى «أن يأتي بالليل بعد النهار ويأتي بالنهار بعد الليل، أو أن ينقص من الليل ما يزيد من النهار وينقص من النهار ما يزيد في الليل، أو أنه يغير النهار بظلمة السحاب تارة وبضوء الشمس أخرى، ويغير الليل بظلمة السحاب مرة وبضوء القمر مرة، أو أن يقلبها باختلاف ما يقدر فيهما من خير وشر ونفع وضر»[2].

فالتقليب إذًا هو «تعاقبهما ومجيء أحدهما بعد الآخر وهو كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾ [الفرقان: ٦٢].

ومنها ولوج أحدهما في الآخر، وأخذ أحدهما من الآخر، ومنها تغير أحوالهما في البرد والحر وغيرهما، ولا يمتنع في مثل ذلك أن يريد تعالى معاني الكل؛ لأنه في الإنعام والاعتبار أولى وأقوى»[3].

إن الإنسان حينما يطلق لعقله عنان التفكير في هذا الجانب من جوانب الكون- مشهد تقليب الليل والنهار ليرى بدائع القدرة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٦٤ بتصرف.
(٢) النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي ٤/ ١١٤ بتصرف.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٠٦.

الإلهية في الكون، فالليل والنهار آيتان يتتابعان لكن دون رتابة، فالليل قد يأخذ من النهار، والنهار يأخذ من الليل، وقد يستويان في الزمن تمامًا. ومن تقليب الليل والنهار ما يعتريهما من حرٍ أو برد أو نور وظلمة.

إذن: فالمسألة ليست ميكانيكية رتيبة، إنما هي قيومية الله تعالى وقدرته في تصريف الأمور على مراده تعالى؛ لذلك يقول تعالى بعدها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]»[(١)].

ثانيًا: بدائع القدرة الإلهية في المخلوقات:

إن الوقوف على بدائع القدرة الإلهية في المخلوقات، ولا سيما الأنعام، محلٌ للعبرة، والاتعاظ، وبها يوقف على دلائل تمام قدرة الخالق سبحانه، وانفراده تعالى بالخلق، وسعة العلم، وهذه هي حقيقة العبرة التي يعبر بها الإنسان من الجهل إلى العلم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢١-٢٢].

الأنعام: «اسم جمع لكل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز»[(٢)].

والمتأمل أحوال الأنعام، بداية من خلق الإبل والبقرة والغنم إلى ما فيها من منافع، يجد مصداق ذلك.

فالمنافع كثيرة، ومنها ما ذكر القرآن:

١. ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أي: تشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، وتتخذون منها السمن والجبن وغير ذلك، وتنتج لكم الحملان.

٢. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: وتستفيدون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وتتخذون منها الملابس والفرش.

٣. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: وتأكلون من لحومها بعد ذبحها، فتنتفعون بها حية وبعد الذبح.

٤. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وتركبون ظهورها وتحملون عليها الأحمال الثقال إلى البلاد والبقاع النائية، كما تنتفعون بالسفن.

قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣][(٣)].

إن تأمل مواقع العبرة التي تضمنها البيان المعجز في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ

(١) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٢٩٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٩٩.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٧- ٢٨.

﴿لَعِبْرَةً﴾ تؤكد وجود العبرة بحرف التوكيد « إن » وكذلك بـ«لام الابتداء»، وهي «اللام المزحلقة» بين اسم «إن» المؤكدة وخبرها، وهي ترد أيضًا لتفيد معنى «التوكيد»، ومواقع العبرة يمكن أن تكون في هذا اللبن ذاته، مادته وأجهزة تصنيعه، وكذلك تركيبه الكيميائي وكيفية تنقيته بحيث يصير سائغًا لمن يشربه[(١)].

والامتنان بهذه النعم الجليلة بقصد الإرشاد إلى الخالق، والتعرف على قدرة الله تعالى[(٢)].

فكأن القرآن الكريم يقول لنا إن الحقيقة من وراء ذكر الأنعام أن «تعتبروا بها، فتعرفوا بها أيادي الله عندكم، وقدرته على ما يشاء، وأنه الذي لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يعجزه شيء شاءه»[(٣)].

ولذا قال أبوبكرٍ الوراق إذ يقول: «العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمردك على ربك وخلافك له في كل شيء»[(٤)].

ثالثًا: قصص المرسلين وأقوامهم:

يعد القصص القرآني مجالًا خصبًا لأخذ العبرة، ولذا عقب القرآن بعد كل قصة في سورة الشعراء وغيرها بقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]: أي: لعبرة لمن بعدهم[(٥)].

وأوضح دليل على ذلك تعقيب القرآن على قصة يوسف بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ومعنى ذلك أن قصة يوسف وأبيه وإخوته، أو في قصص الأمم «عبرةٌ» أي: فكرةٌ وتذكرةٌ وعظةٌ»[(٦)].

قال الطبري: «لقد كان في قصص يوسف وإخوته عبرة لأهل الحجا والعقول يعتبرون بها، وموعظة يتعظون بها وذلك أن الله جل ثناؤه بعد أن ألقي يوسف في الجب ليهلك، ثم بيع بيع العبيد بالخسيس من الثمن، وبعد الإسار والحبس الطويل، ملكه مصر، ومكن له في الأرض، وأعلاه على من بغاه سوءًا من إخوته، وجمع بينه وبين والديه وإخوته بقدرته بعد المدة الطويلة، وجاء بهم إليه من الشقة النائية البعيدة، فقال جل ثناؤه للمشركين من قريش من قوم نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: لقد كان لكم، أيها القوم، في قصصهم عبرةٌ لو اعتبرتم به، أن الذي فعل ذلك بيوسف وإخوته، لا يتعذر عليه فعل مثله بمحمد صلى الله عليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٨٠-٢١٨١.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٧-٢٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٢٣.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ١٧/ ٩٠.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٧.

وسلم، فيخرجه من بين أظهركم، ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال من الأتباع والأصحاب، وإن مرت به شدائد، وأتت دونه الأيام والليالي والدهور والأزمان[1].

ولعل وجه الاعتبار بقصصهم هو أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد حبسه في السجن، وتمليكه مصر بعد أن كان لبعض أهلها في حكم العبد، وجمع بينه وبين والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة ؛ لقادرٌ على أن يعز محمدًا، ويعلي كلمته، وينصره على من عاداه»[2].

فالعبرة في خبر المرسلين مع قومهم إجمالًا، كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين[3].

ومن العبرة التي نشهدها في القصص القرآني: «إثبات الوحي والرسالة، وبيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح إلى عهد محمد، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد رب الجميع، وبيان أن غاية الأديان واحدة، فضلًا على أنها كلها من عند إله واحد، وبيان أن ثمة وسائل مشتركة عند الأنبياء في الدعوة، كالدعوة بالبيان والتبليغ وإقامة الحجة، وأن استقبال قومهم لهم متشابه، وبيان الأصل المشترك بين رسالة الإسلام التي أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم والرسالة التي بعث الله بها إبراهيم عليه السلام، ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصال أشد من الاتصال العام بين جميع الأديان، وبيان أن الله ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك المكذبين، وذلك تثبيتًا لمحمد، وتأثيرًا في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان، وبيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه، وتنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وبيان قدرة الله على الخوارق، وبيان عاقبة الطيبة والصلاح، وعاقبة الشر والإفساد، وبيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة»[4].

رابعًا: عذاب المعاندين للحق:

إن في الوقوف على مصائر المكذبين وعواقب المعاندين للحق لعبرة لمن يعتبر، وعظة لمن يتعظ.

عبرة تستحق الوقوف طويلًا أمامها للتأمل، وعظة تلفت الأنظار إليها كثيرًا للتدبر، وهذا ما أمرنا القرآن به.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣١٢- ٣١٣.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ١٢/ ٢٧٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٢٧.
(٤) التصور الفني في القرآن، سيد قطب ص ١٤٥- ١٥٥ بتصرف.

يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢].

«قال المفسرون: نزلت هذه الآية في بني النضير، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منهم، فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا وظهر على المشركين قالت بنو النضير: والله إنه النبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له رايةٌ، فلما غزا أحدًا وهزم المسلمون نقضوا العهد، وأظهروا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صالحهم عن الجلاء من المدينة»[1].

والسؤال الذي يفرض نفسه كيف نقضوا العهد، وعاندوا الحق؟

لما قتل أصحاب بئر معونة، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا سبعين، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعا إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم: «لقد قتلت رجلين، لأدينهما».

وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكان منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه -ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم-فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضي الله عنهم.

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعا إلى المدينة، فلما استلبث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة، فسألوه عنه، فقال:

(١) أسباب نزول القرآن، الواحدي ص ٤١٦.

رأيته داخلا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم.

ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخل والتحريق فيها. فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، ووديعة، ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا.

وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة، ففعل فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وخلوا الأموال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

ومن خلال تلك الواقعة تبين كيف فعل الله بهم، فكان موطنًا من مواطن العبرة التي ينبغي على المؤمن أن يتعظ بها، وكان التعقيب من القرآن بصيغة الأمر ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

أي: «فاتعظوا يا معشر ذوي الأفهام بما أحل الله بهؤلاء اليهود الذين قذف الله في قلوبهم الرعب، وهم في حصونهم من نقمته، واعلموا أن الله ولي من والاه، وناصر رسوله على كل من ناوأه، ومحل من نقمته به نظير الذي أحل ببني النضير. وإنما عنى بالأبصار في هذا الموضع أبصار القلوب، وذلك أن الاعتبار بها يكون دون الإبصار بالعيون»[2].

والاعتبار في عدة أوجه:

أحدها: أنهم اعتمدوا على حصونهم، وعلى قوتهم وشوكتهم، فأباد الله شوكتهم وأزال قوتهم، ثم قال: فاعتبروا يا أولي الأبصار ولا تعتمدوا على شيء غير الله.

وثانيها: أن يعرف الإنسان عاقبة الغدر والكفر والطعن في النبوة فإن أولئك اليهود وقعوا بشؤم الغدر، والكفر في البلاء والجلاء، والمؤمنين أيضًا يعتبرون به

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٥٨ بتصرف.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٦٦.

فيعدلون عن المعاصي[1].

ومن جملة الاعتبار هنا أنهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلهم الله منها.

وثالثها: أنه سلط عليهم من كان ينصرهم.

ورابعها: أنهم هدموا أموالهم بأيديهم.

ومن لم يعتبر بغيره اعتبر في نفسه. وفي الأمثال الصحيحة: «السعيد من وعظ بغيره»[2].

خامسًا: نصرة المؤمنين على المعاندين:

لقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كثيرًا من ألوان العناد من قبل قريش.

حيث عاندت قريش الحق ورفضته، وقاتلت رسول الله وحاربته، فخذل الله قريشًا وهزمها هزيمة كسرت شوكتها، وأراقت على الأرض كرامتها، ونصر رسوله وأتباعه عليهم.

وأحداث غزوة بدر شاهدة على ذلك؛ ولذا عقب الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

«يعني: إن فيما فعلنا بهؤلاء الذين وصفنا أمرهم: من تأييدنا الفئة المسلمة مع قلة عددها، على الفئة الكافرة مع كثرة عددها ﴿لَعِبْرَةً﴾، يعني: لمتفكرًا ومتعظًا لمن عقل وادكر فأبصر الحق»[3].

والحقيقة التي ينبغي أن تستقر في الأذهان أن نصر الله تعالى المسلمين على وجهين: نصرٌ بالغلبة، كنصرهم يوم بدر. ونصرٌ بالحجة. ولو هزم قومٌ من المؤمنين لجاز أن يقال: هم المنصورون بالحجة، ومحمود العاقبة[4].

«وقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: « يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله ما أصاب قريشا». فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا؟ فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

ولعل هذا يفسر قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: قد كان لكم -أيها اليهود

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٣-٥٠٤ بتصرف.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٤٣.
(٤) التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٨٩.

القائلون ما قلتم - ﴿مَايَةٌ﴾ أي: دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أي: طائفتين ﴿الْتَقَتَا﴾ أي: للقتال ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون، ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر[1].

فهذه الآيات التي تتضمن الإشارة إلى أحداث غزوة بدر واردة في صدد خطاب بني إسرائيل، وتهديدهم بمصير الكفار قبلهم وبعدهم.

وفيها لفتة لطيفة عميقة الدلالة كذلك، فهو سبحانه وتعالى يذكرهم فيها بمصير آل فرعون، وكان الله سبحانه قد أهلك آل فرعون وأنجى بني إسرائيل. ولكن هذا لا يمنحهم حقًا خاصًا إذا هم ضلوا وكفروا، ولا يعصمهم أن يوصموا بالكفر إذا هم انحرفوا، وأن ينالوا جزاء الكافرين في الدنيا والآخرة كما نال آل فرعون الذين أنجاهم الله منهم! كذلك يذكرهم مصارع قريش في بدر- وهم كفار- ليقول لهم: إن سنة الله لا تتخلف. وإنه لا يعصمهم عاصم من أن يحق عليهم ما حق على قريش. فالعلة هي الكفر. وليس لأحد على الله دالة، ولا له شفاعة إلا بالإيمان الصحيح!

وقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ يحتمل تفسيرين: فإما أن يكون ضمير «يرون» راجعًا إلى الكفار، وضمير «هم» راجعًا إلى المسلمين، ويكون المعنى أن الكفار على كثرتهم كانوا يرون المسلمين القليلين ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ وكان هذا من تدبير الله حيث خيل للمشركين أن المسلمين كثرة وهم قلة، فتزلزلت قلوبهم وأقدامهم.

وإما أن يكون العكس، ويكون المعنى أن المسلمين كانوا يرون المشركين ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ هم- في حين أن المشركين كانوا ثلاثة أمثالهم- ومع هذا ثبتوا وانتصروا.

والمهم هو إرجاع النصر إلى تأييد الله وتدبيره، وفي هذا تخذيل للذين كفروا وتهديد، كما أن فيه تثبيتا للذين آمنوا وتهوينا من شأن أعدائهم فلا يرهبونهم.

إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله، قائم في كل لحظة. ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة- ولو قل عددها- قائم كذلك في كل لحظة. وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف.

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة وتثق في ذلك الوعد وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة وتصبر حتى يأذن الله ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧ بتصرف.

المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة»[1].

فكأن الآية الكريمة تقول: «قل يا محمد للمغرورين بأموالهم وأولادهم وبأعوانهم وأنصارهم: لا تغرنكم كثرة العدد ولا بما يأتي به المال من العدد، ولا تحسبوا أن هذا هو السبب الذي يفضي إلى النصر والغلب، فإن في الاعتبار ببعض حوادث الزمان أوضح آية على بطلان هذا الحسبان، فذكر الفئتين، أي: الطائفتين اللتين التقتا في القتال هو من قبيل المثال»[2].

سادسًا: عاقبة المتكبرين والعصاة:

التكبر على الحق آفة خطيرة أصابت الأمم من قديم، وانتشر هذا الداء العضال، والمرض الفتاك في جسد البشرية، وابتليت الأمم على مدار التاريخ بأناس تكبروا على الحق، وتجبروا على الخلق، وأعملوا في أقوامهم صنوف العذاب، وألوان العقاب، غير أن يد القدرة أمهلتهم، علهم يرجعوا عن غيهم، أو يثوبوا إلى رشدهم، فلما لم يرجعوا أو يثوبوا، أعمل الله فيهم سنته، وأجرى عليهم قدره الذى لا يرد عن القوم المجرمين.

ولقد ضرب الله لنا في قرآنه العظيم نماذج من هؤلاء، جعل في قصصهم العبرة، وفي أخبارهم العظة. ومن هذه النماذج أنموذج فرعون الذي جاء ذكر قصته مع سيدنا موسى عليه السلام في أكثر من موضع من مواضع القرآن الكريم، ولعل موضع سورة النازعات هو أصرح المواضع تأكيدًا على أخذ العظة والعبرة، إذ يقول الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].

والعبرة هنا بمعنى «الاعتبار» بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد[3].

والعبرة في هذه القصة أن الله خاطب موسى عليه السلام أن اذهب إلى فرعون الذي علا وتكبر وكفر فقل له: ألم يأن لك أن تسلم؟ أو هل ترغب في توحيد ربك، وتشهد أن لا إله إلا الله، وتزكي نفسك من الكفر، والشرك؟ وأدعوك إلى توحيد ربك ﴿فَتَخْشَىٰ﴾، وتخاف عذابه فتسلم، ﴿فَأَرَىٰهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يعني: العصا، واليد، وسائر الآيات.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ يعني: كذب الآيات، ولم يقبل قول موسى عليه السلام ثم أدبر عن التوحيد، وسعى في هلاك موسى، وجمع أهل المدينة فنادى فيهم، فقال: لهم اعبدوا أصنامكم التي كنتم تعبدون، فإن هؤلاء

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٧١-٣٧٢ بتصرف.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٩٢.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٤٣.

أربابكم الصغار، وأنا ربكم الأعلى ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ يعني: فعاقبه بعقوبة الدنيا والآخرة، وهي الغرق وعقوبة الآخرة وهي النار. ويقال: الآخرة والأولى. يعني: العقوبة بالكلمة الأولى، والكلمة الأخرى، فأما الأولى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، والأخرى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، وكان بين الكلمتين أربعون سنة. ويقال: قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ كان في الابتداء، حيث أمرهم بعبادة الأصنام، ثم نهاهم عن ذلك، وأمرهم بأن لا يعبدوا غيره، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾. فعقب الله على ذلك كله بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].

أي: في هلاك فرعون وقومه لعبرةً لمن يخشى، يعني: لعظة لمن يريد أن يعتبر، ويسلم[(١)].

قال الرازي: «والمعنى أن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون، وما أحله الله بفرعون من الخزي، ورزق موسى من العلو والنصر عبرة لمن يخشى، وذلك أن يدع التمرد على الله تعالى، والتكذيب لأنبيائه خوفًا من أن ينزل به ما نزل بفرعون، وعلما بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله، فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه، أي: اعلموا أنكم إن شاركتموهم في المعنى الجالب للعقاب، شاركتموهم في حلول العقاب بكم»[(٢)].

ومن خلال ذلك تبين أن أخذ العبرة هنا يكمن في تهديد المشركين بأنهم إذا ما استمروا في طغيانهم، كانت عاقبتهم كعاقبة فرعون[(٣)].

(١) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٤٣ بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٤٢.

(٣) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١٥/ ٢٧٢.

أهل العبرة

ذكرنا مواطن العبرة في المبحث السابق، ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أهل العبرة، من هم؟ وما صفاتهم وسماتهم؛ حتى يتسنى لنا معرفة الذين ينتفعون بالعبرة.

وأهل العبرة المنتفعون بها أربعة كما ذكرهم القرآن الكريم، هم «المؤمنون، و أولو الأبصار، أولو الألباب، أهل الخشية».

أولًا: المؤمنون:

المؤمنون صنف من الناس يتمتع بموهبة قلبية يستطيع بها النفوذ إلى لب الحقائق ليرى بنور الله، وما ذلك إلا لأن الإيمان له نور يقذفه الله في قلوب عباده المؤمنين، فهم المصدقون بكل ما جاء عن الله وعن رسوله، ومن ثم كانوا هم المنتفعين بالعبرة، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦].

وما أكثر الآيات التي تربط العبرة والانتفاع بالإيمان، نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

ونحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

فاستخراج العبرة من آيات الله الكونية يفتقر إلى إيمان صادق ينفذ به صاحبه إلى أعماق الحقائق ليستخرجها.

قال أبو بكر الوراق: «العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمردك على ربك وخلافك له في كل شي»[(١)].

ويقصد بذلك أن يعتبر الإنسان، كيف سخر الله له الأنعام؟ يستفيد من لبنها ولحومها وتنقله ومتاعه، وتطيعه دون معصية وهو في المقابل يعصي ربه وخالقه الذي أنعم عليه بكل شيء.

والإيمان الحي هو الذي يوقظ صاحبه للوقوف على أمثال هذه العبرة، ومن ثم يظهر لكل ذي عينين أن المؤمنين هم أهل العبرة.

ثانيًا: أولو الأبصار:

إذا كان البصر يقال للجارحة الناظرة، فإن البصيرة يقصد بها قوة القلب المدركة للأمور[(٢)].

وأولو الأبصار قوم ألقى الله في قلوبهم نورًا يرى به حقائق الأشياء وبواطنها، وهذا النور بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها.

والمتتبع لكثير من آي القرآن الكريم يلحظ ربط القرآن الانتفاع بالعبرة بمن لديه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٢٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٢٧ بتصرف.

نور البصيرة.

ويفهم من قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

أن يعتبر ويتعظ المكلف بالشرع من قدرة الله تعالى على أن في «تقليبه الليل والنهار لعبرة لمن اعتبر به، وعظةً لمن اتعظ به. ممن له فهم وعقل؛ لأن ذلك ينبئ ويدل على أنه له مدبرا ومصرفًا ومقلبا لا يشبهه شيء»[(١)].

فمن ذا الذي يستطيع أن يفهم هداية هذه الآية، ويقف على العبرة منها إلا إذا كان من ذوي العقول والفهم في الدين؟.

قال القرطبي: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في الذي ذكرناه من تقلب الليل والنهار، وأحوال المطر والصيف والشتاء ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ أي: اعتبارًا ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: لأهل البصائر من خلقي[(٢)].

ويفهم من قول الله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

أن العبرة في نصرة الله لرسوله يوم بدر مع قلة أصحابه عبرة، كما يفهم أن فيما «أبصره المشركون من كثرة المسلمين مع قلتهم عبرة لذوي الأعين والبصائر»[(٣)].

كما أن تقليل العدد لشد العزيمة فيه عبرة، وتكثير العدد للتهويل وإرجاف الأنفس فيه عبرة.

ولن يستطيع إنسان أن يقف على هذه العبرة إلا إذا كان ممن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»[(٤)].

فكأن القرآن يقول: «فاتعظوا يا معشر ذوي الأفهام بما أحل الله بهؤلاء اليهود الذين قذف الله في قلوبهم الرعب، وهم في حصونهم من نقمته، واعلموا أن الله ولي من والاه، وناصر رسوله على كل من ناواه، ومحل من نقمته به نظير الذي أحل ببني النضير. وإنما عنى بالأبصار في هذا الموضع أبصار القلوب، وذلك أن الاعتبار بها يكون دون الإبصار بالعيون[(٥)].

ومن خلال ما سبق تبين أن أصحاب الأبصار هم المنتفعون دون غيرهم بالعبرة.

ثالثًا: أولو الألباب:

وأولو الألباب هم ذوو العقول السليمة

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٠.
(٣) تفسير النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٧٥ بتصرف.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٦٦.

الذي يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم[1].

وأولو الألباب يجمعون بين صفة التذكر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وصفة التأمل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وصفة حسن الاتباع كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

ولهذه الصفات المجتمعة فيهم جعل الله الانتفاع بالعبرة الواقعة في قصص الأنبياء منوطة بأولي الألباب.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وهذه القصص[2] عبرة لما «اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الرسل الذين قص حديثهم، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم»[3].

ونلحظ أن القرآن الكريم ربط العبرة بأولي الألباب دون غيرهم؛ لأنهم «هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم في النظر والاستدلالات، ومن ثم لا يفيدهم النصح»[4].

فهو عبرة «لأهل العقول الخالصة من شوائب الكدر، يعبرون بها إلى ما يسعدهم، بعلم أن من قدر على ما قص من أمر يوسف عليه السلام وغيره قادر على أن يعز محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويعلي كلمته، وينصره على من عاداه كائنًا من كان كما فعل بيوسف وغيره - إلى غير مما ترشد إليه قصصهم من الحكم، وتعود إليه من نفائس العبر»[5].

كما نلحظ أن القرآن الكريم أشار إلى أن الذين يعتبرون بما أودع الله من أسراره العجيبة في بعض مخلوقاته من حيوانات وزروع ونباتات هم أصحاب العقول.

أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٧٣.
(٢) القصص: الخبر بما يتلو بعضه بعضًا، من قص الأثر، والألباب العقول، لأن العقل أنفس ما في الإنسان وأشرف.
انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٠/ ٢٦٠.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٧٣.
(٤) تفسير المراغي ١٣/ ٥٦.
(٥) نظم الدرر، البقاعي ١٠/ ٢٦٠.

﴿حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٦، ٦٧].

ولما كان مفتتح الكلام: وإن لكم في الأنعام لعبرة، ناسب الختم بقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، لأنه لا يعتبر إلا ذوو العقول كما قال: إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب[(١)].

فأولوا الألباب هم أهل العبرة.

رابعًا: أهل الخشية:

قال الراغب: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]»[(٢)].

فأهل الخشية هم الذين اتصفوا بالخوف من الله تعالى، لكنه خوفٌ نابعٌ عن علم وفهم وتدبر لما تؤول إليه عواقب الأمور، فهو خوف مع إجلال وهيبة من الله تعالى.

وهذا يفسر لماذا أهل الخشية هم أهل العبرة؛ لأن خوفهم نابع من تأملهم واعتبارهم بمآلات الأمور، وعواقبها.

وهذا ما أكده القرآن الكريم حينما عقب على قصة موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].

فإن في العقوبة التي عاقب الله بها فرعون في عاجل الدنيا، وفي أخذه إياه نكال الآخرة والأولى، عظة ومعتبرا لمن يخاف الله ويخشى عقابه[(٣)].

فأهل الخشية جمعوا بين قلب يتأثر، وعقل يتدبر.

فقلوبهم من شأنها أن تخشى الله وتتقيه، وتخاف عقوبته، وتحاذر غضبه.

وعقولهم من شأنها أن تدبر في عواقب الأمور ومصايرها، فينظرون في حوادث الماضين، ويقيسون بها أحوال الحاضرين ليتعظ بها»[(٤)].

فالذي «يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه، أما الذي لا يعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب؛ حتى يصطدم بالعاقبة اصطدامًا، وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى»[(٥)].

ومن ثم «كان أهل الخشية هم أهل العبرة؛ لأن الذين يخشون الله هم أهل المعرفة الذين يفهمون دلالة الأشياء على لوازمها وخفاياها»[(٦)].

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٦/ ٥٥٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠٥.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ٢٩ بتصرف.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٦.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٨٢.

فوائد العبرة في الدعوة

استخدام أسلوب العبرة في الدعوة إلى الله تعالى يوصل إلى استشراف عواقب الأمور.

فأخذ العبرة يجعل الداعية، بل و المدعو يأخذان من الأمور الواقعة المحسوسة دليلًا على ما يمكن أن يأتي في المستقبل غير المحسوس، وهذا ما يشهد له التأمل والتدبر الذي هو جوهر الاعتبار، وأخذ العبرة، فالحق سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

أي: «إن ذلك الذي رأوه وشاهدوه وهو أن الفئة القليلة المؤمنة التي تقاتل في سبيل الله، غلبت الفئة الكثيرة الكافرة التي تقاتل في سبيل الشيطان مع كثرتها وعدتها وأموالها فيه اعتبار بأن يجعلوا منه سبيلًا لإدراك المستقبل فكان على هؤلاء أن يعرفوا من هذه الواقعة التي انتصر فيها الإيمان مع قلة أهله على الكفر مع كثرته، أن القوة المادية ليست كل شيء»[(١)].

ويعلق سيد قطب على أخذ العبرة قائلًا: «إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله، قائم في كل لحظة. ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة- ولو قل عددها- قائم كذلك في كل لحظة. وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف.

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة وتثق في ذلك الوعد وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة وتصبر حتى يأذن الله ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة»[(٢)].

وأكد الشيخ القاسمي على هذه الفائدة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

بقوله: «والعبرة: الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد. والمراد منه التأمل والتفكر. ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه، وإخراجه من السجن، وتمليكه مصر بعد العبودية، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة، واليأس من الاجتماع، قادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته، وإظهار دينه»[(٣)].

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١١٢٩-١١٣٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٧٢.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٣٨.

والحق سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

فإن الفائدة الدعوية هنا أن تأخذ من الحاضر المشاهد دلالة على الغائب غير المشاهد، «فيأخذ المستبصر من رؤية تقلب الليل والنهار، وانتظامه بإحكام ودوامه دليلًا على أن إرادة حكيمة متصرفة تفعل ذلك بتدبير وإحكام»[(١)].

١. توسع مدارك الداعية وتجعله يسير على هدى وبصيرة في جميع أموره.

فالداعية حينما يقف مع العبرة من قصص الأنبياء مع أممهم، يلحظ إعراض أقوامهم عن دعوتهم، ويرى أن الإعراض عن قبول دعوة الأنبياء ليس ببدع من الأمم، بل سبق به أقوام كثيرون، وفي ذلك تسلية للدعاة، إلى ما فيه من التنبيه إلى أن الله لا يهمل أمر المبطلين، بل يمهلهم، وتكون العاقبة للمتقين، فيسير على هدى وبصيرة في جميع أموره.

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة[(٢)].

وهذا ما يشهد له قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

٢. تمنع الداعية من الاغترار بالقوة والاعتزاز بغير الله تعالى.

وهذه الفائدة حاضرة وبقوة في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢ - ١٣].

«فاشتمل ذلك النص الكريم على حقيقة مقررة، ودعوة إلى التأمل والاستبصار لأولي الأبصار، ليمتنع الناس عن الاغترار بالقوة والاعتزاز بغير الله تعالى. أما الحقيقة فهي أن الله ينصر من يشاء، فهو الذي سينصر ويخذل، وأن من يعتمد على قوته وحده من غير اعتبار بما تجري به المقادير يخذله الله، وإن شأن الذين يغترون بالقوة المادية دائما ويعتزون بها لا يعتمدون على الله تعالى، ولا يعملون حسابا للقدر الذي يجريه خالق الكون حسب مشيئته وتدبيره، وأنهم إذ ينسون هذا يأتي هم القدر من حيث لا يحتسبون، فينهزمون حيث يرتقبون النصر؛ وإذا كان النصر والخذلان بيد الله تعالى، فالله سبحانه ينصر من ينصره، ويخذل من يكفره»[(٣)].

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٢٠٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٤.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١١٢٩.

٣. تقي الداعية شر الحمق وتضفي عليه ملامح النجابة والفطنة والذكاء.

وهذا أمر واضح الظهور فيمن يعايش قصص السابقين ويستخرج العبرة منها؛ لأن هذه القصص تبعث على العظة والاعتبار، خاصة ما حدث للأمم السابقة، فيميز بين الطيب والخبيث، والفاسد والصحيح، وفي ذلك قيمة عقلية كبرى تؤدي إلى يقظة الأفراد ونهضة الأمم.

٤. توظيف العبرة الكامنة في إشارات الإعجاز العلمي في الدعوة إلى الله تعالى.

وهذا التوظيف له فائدتان:

الأولى: تقوية للإيمان بالنسبة لبعض المسلمين، أو إيقاظ للإيمان المخدر عند البعض الآخر.

والثانية: وسيلة دعوية مؤثرة في غير المسلين؛ فما أكثر الآيات التي كانت سببًا في إيمان الكثير من المشركين زمن نزول القرآن، واليوم لا تزال هذه الآيات-وخاصة التي فيها إشارات الإعجاز العلمي- تملك قوة التأثير على غير المسلمين، فإبراز العبرة الكامنة في الحقائق العلمية اليقينية التي استقر عليها البحث العلمي التجريبي كانت سببًا في إسلام الكثير من علماء الغرب.

المضامين التربوية في آيات العبرة

لا شك أن آيات العبرة الواردة في القرآن الكريم تحتوي على كثير من المضامين التربوية، سواء في الجانب العقدي، أو الجانب الاجتماعي، أو الجانب العلمي، أو في غير ذلك من الجوانب الأخرى، ومنها:

١. أنها تربي المؤمن على اليقين بنصر الله تعالى للفئة المؤمنة: ومن شأن هذا اليقين أنه ينمي في نفس المسلم الشعور بأن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومعلٍ أمره»[(١)]، فالعبرة تربي المسلم على الإيمان بأن هناك قوةً فوق جميع القوى -الإرادة الإلهية- تؤيد الفئة القليلة فتغلب الكثيرة بإذن الله، فإن النفس تتوجه إليه بكل ما فيها من قوةٍ وشعورٍ ووجدانٍ، وما يمكنها من تدبيرٍ واستعدادٍ مع الثقة بأن وراء قوتها معونة الله وتأييده[(٢)].

٢. تربي وتنشط على عبادة النظر والتأمل والتدبر: سواء أكان في هذا الكون المهيب كما أمر الله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾

(١) تفسير القاسمي ٢/ ٢٩٠.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا٣/ ١٩٣، ١٩٤.بتصرف.

[يونس: ١٠١]. أم في خلق الإنسان العجيب كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. أم في خلق الحيوان، والطير كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل: ٦٦]. ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]. أم النبات كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]. أم في غير ذلك. وتعد هذه العبادة أولى خطوات المرء نحو تحصيل العبرة والعظة.

٣. تورث الخوف والخشية من الله عز وجل: فالعبرة تكسب المؤمن خوفًا من الله عز وجل ومهابة من عقابه، وتجعله يعرف الدنيا، ويوقن أنها ظل زائل، وأن الآخرة هي دار القرار، فيقنع المؤمن بما رزقه الله عما في أيدي الناس، فيعيش المؤمن بسعادة واطمئنان.

٤. تعبر العبر على معالم الخير والشر: فينتفع بذلك في معاشه ومعاده، فيأتي الخير ويجتنب الشر.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، البصر، التفكر، الرؤية، القرآن

العتاب

عناصر الموضوع

مفهوم العتاب	١٠٤
العتاب في الاستعمال القرآني	١٠٥
الألفاظ ذات الصلة	١٠٦
الأساليب القرآنية في العتاب	١٠٨
صور من عتاب الله لأنبيائه	١١١

مفهوم العتاب

أولاً: المعنى اللغوي:

العتاب مصدر عاتب، «وعتب عليه عتبًا وعتابًا وتعتابًا ومعتبًا ومعتبةً، لامه وخاطبه مخاطبة الإدلال طالبًا حسن مراجعته، ومذكرًا إياه بما كرهه منه»[(١)]، وكذلك قال الأزهري[(٢)].

قال صاحب مقاييس اللغة: « (عتب) العين والتاء والباء أصلٌ صحيح، يرجع كله إلى الأمر فيه بعض الصعوبة من كلامٍ أو غيره» [(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي للعتاب عن المعنى اللغوي المذكور سابقًا، فالعتاب: مخاطبة الإدلال، ومذاكرة الموجدة[(٤)]، فهو لوم من طرف لآخر على سبيل الحب والإدلال[(٥)]، وإنما يعاتب من ترجى عنده العتبى، أي: الرجوع عن الذنب والإساءة، أو ما هو أولى، وهذا المعنى هو أنسب معاني العتاب وأمسها بالموضوع.

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٧٥- ٧٧، الصحاح، الجوهري ١/ ١٧٥ -١٧٧، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٥٣- ٥٥، المفردات، الأصبهاني ص ٥٤٥، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض ٢/ ٦٥، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٧٥- ١٧٦، مختار الصحاح، الرازي ص ١٩٩، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٧٦- ٥٨٠، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٢/ ٣٩١، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٣٠٩- ٣١٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٢/ ٥٨١، .

(٢) انظر: تهذيب اللغة ٢/ ١٦٥.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٢٥.

(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٦.

(٥) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ٨/ ٣٤١٩.

العتاب في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (عتب) في القرآن الكريم (٥) مرات [١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٤	﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية:٣٥]
اسم المفعول	١	﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت:٢٤]

وورد العتاب في القرآن بمعناها في اللغة وهو: مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة. تقول: عاتبه معاتبة. قال الشاعر [٢]:

أعاتب ذا المودة من صديق ... إذا ما رابني منه اجتناب

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٤٥.
(٢) انظر: تاج اللغة، الجوهري، ١/ ١٧٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللوم:

اللوم لغة:

لام يلومه لومًا وملامًا وملامةً ولومةً فهو ملوم ومليمٌ، ولامه إذا عذله وعنفه[١].

اللوم اصطلاحًا:

هو «عذل الإنسان عما فيه عيب»[٢].

الصلة بين العتاب واللوم:

أن العتاب هو خطاب على تضييع حقوق المودة والصداقة فهو مفارق للوم، فاللوم هو خطاب وتنبيه على أمورٍ واجبة التحقق ويترتب على تركها ضررٌ[٣]، وعلى ذلك فاللوم يكون مقرونًا بالشدة والتأنيب، بينما العتاب فيه لطف ولين.

٢ النصيحة:

النصيحة لغةً:

نصحت له نصوحًا ونصيحةً ومناصحةً: أي أخلصت وصدقت، والاسم النصيحة، والنصيح: الناصح، وهي كلمة جامعة لإرادة الخير للمنصوح[٤].

النصيحة اصطلاحًا:

هي «الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد»[٥].

الصلة بين العتاب والنصيحة:

العتاب يكون عند تقصير صادر من المنصوح تجاه الناصح، بينما النصيحة تكون بتوجيه ما فيه خير للمنصوح دون وجود تقصير.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٤١٠١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١١٥٩.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٩٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٥٠.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٦١٥.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص٢٤١.

٣ العفو:

العفو لغة:

مصدر عفا يعفو عفوًا، والعفو يطلق على معنيين أصليين:

أحدهما: ترك الشيء، والآخر: طلبه [(١)].

والعفو اصطلاحًا:

كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من استحق عقوبة فتركها، فقد عفا[(٢)].

الصلة بين العتاب والعفو:

العتاب توجيه اللوم للمقصر بلطف لضياع حقوق، والعفو ترك العقوبة عن المذنب.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥٦، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٩٣٨.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٣، ٥٩٨.

الأساليب القرآنية في العتاب

تنوعت أساليب القرآن في الحديث عن العتاب، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولاً: أسلوب المؤاخذة الصريح:

تنوعت أساليب القرآن في العتاب ما بين التصريح والتعريض، وكلاهما خلاف الآخر، فمما قيل في تعريفهما أن التعريض: تضمين الكلام دلالة ليس لها فيه ذكر، كقولك: ما أقبح البخل، تعرض بأنه بخيل.

فيفهم السامع مراد المتكلم من غير تصريح.

والتصريح: خلاف التعريض، كقولك: أنت بخيل، ممن يعتقد أنه بخيل. فلا يحتمل الكلام غير المقصود[1].

ولما كان العتاب من سنة الأحباب.

قال تعالى عن الكفار في يوم القيامة: ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

فقوله: ﴿وَلَا هُمْ﴾ أي: الذين وضعوا الأشياء في غير مواضعها ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يطلب منهم ظاهرًا أو باطنًا بتلويح أو تصريح أن يزيلوا ما وقعوا فيه مما يوجب العتب، وهو الموجدة عن تقصير يقع فيه المعتوب؛ لأن ذلك لا يكون إلا بالطاعة، وقد فات محلها بكشف الغطاء؛ لفوات الدار التي تنفع فيها الطاعات؛ لكونها إيمانًا بالغيب، والعبارة تدل على أن المؤمنين يعاتبون عتابًا يلذذهم[2].

ومن أشد الآيات الصريحة في العتاب آيات سورة عبس، ومع ذلك جاءت ممهدة، فآذنت النبي صلى الله عليه وسلم بالعتاب أولًا، ثم جاءت بالصريح، بل ومن أشد الصريح، فقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:١-٢].

أي: قطب النبي صلى الله عليه وسلم وجهه، وأعرض؛ لأن جاءه الأعمى، وقطع كلامه، وهو عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه، فأعرض عنه.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [عبس: ٣-٤] أي: وما يعلمك ويعرفك يا محمد لعل الأعمى يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ، فتنفعه الموعظة.

وفي هذا إيماء إلى أن غير الأعمى ممن تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين لا يرجى منهم الهداية، وفيه تعظيم من الله سبحانه لابن أم مكتوم.

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٦٢، الحدود الأنيقة، زكريا الأنصاري ص٧٨، أنيس الفقهاء، قاسم الحنفي ص٥٥.

(٢) انظر: نظم الدر، البقاعي ١٥/ ١٣٤.

وبعد هذا الوصف المؤذن بالعتاب جاء العتاب صريحًا في قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥-٦].

أي: أما من استغنى بماله وثروته وقوته عما لديك من معارف القرآن والهداية الإلهية، وعن الإيمان والعلم، فأنت تقبل عليه بوجهك وحديثك، وهو يظهر الاستغناء عنك والإعراض عما جئت به!

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧] أي: لا بأس ولا شيء عليك في ألا يسلم ولا يهتدي، ولا يتطهر من الذنوب، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بأمر من كان مثل هؤلاء من الكفار[1].

قال سيد قطب: «جاء الإسلام ليقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فيضرب صفحًا عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس، ثم جاء هذا الحادث لتقرير هذه القيمة في مناسبة واقعية محددة.

جاء الرجل الأعمى الفقير ابن أم مكتوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشغول بأمر النفر من سادة قريش، لا لنفسه ولا لمصلحته، ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام.

فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة في مكة، وانتشر بعد ذلك الإسلام فيما حولها، بعد إسلام هؤلاء الصناديد الكبار.

فأعرض صلى الله عليه وسلم عن الرجل المفرد الفقير الذي يعطله عن الأمر الخطير، الأمر الذي يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشيء الكثير، والذي تدفعه إليه رغبته في نصرة دينه، وإخلاصه لأمر دعوته، وحبه لمصلحة الإسلام، وحرصه على انتشاره!

فجاء العتاب من الله العلي الأعلى لنبيه الكريم، صاحب الخلق العظيم، في أسلوب عنيف شديد.

وللمرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب: ﴿كَلَّا﴾ وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب!

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢] بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب! وفي هذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب سبحانه أن يواجه به نبيه وحبيبه؛ عطفًا عليه، ورحمة به، وإكرامًا له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه!

ثم يستدير التعبير -بعد مواراة الفعل الذي نشأ عنه العتاب- إلى العتاب في صيغة الخطاب.

فيبدأ هادئًا شيئًا ما: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس: ٣-٤].

ما يدريك أن يتحقق هذا الخير الكبير،

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣٠/ ٦١.

أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير -الذي جاءك راغبًا فيما عندك من الخير-، وأن يتيقظ قلبه فيتذكر فتنفعه الذكرى.

ثم تعلو نبرة العتاب وتشتد لهجته، وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:٥-١٠].

أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة، أما هذا فأنت تتصدى له وتحفل أمره، وتجهد لهدايته، وتتعرض له وهو عنك معرض!

وأما من جاءك طائعًا مختارًا ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ ويتوقى ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، ويسمي الانشغال عن الرجل المؤمن الراغب في الخير التقي تلهيًا، وهو وصف شديد، ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر: ﴿كَلَّآ﴾ لا يكن ذلك أبدًا»[1].

ثانيًا: أسلوب التعريض:

لم يقتصر القرآن الكريم على الأساليب الصريحة في العتاب، بل اشتمل على عدة آيات، استنبط العلماء منها أن المراد منها عتاب غير صريح، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وأنه تعريض بمعاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بالعتاب الأول في خشيته الناس[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

فقد استنبط العلماء منه أنه تعريضٌ للمؤمنين بالعتاب على توليهم يوم أحدٍ بعد أن قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فندبوا إلى الجهاد، فكان ما كان منهم يوم أحدٍ، فنزلوا منزلة من يشك في عملهم بأنه خيرٌ؛ لعدم جريهم على موجب العلم[3].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ [التوبة:٤٠].

عتاب من الله أيضًا للمؤمنين بعد انصراف نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من تبوك؛ لأن معناها: إن تركتم نصره، فالله يتكفل به؛ إذ قد نصره الله في مواطن القلة، وأظهره على عدوه بالغلبة والعزة[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٢٣-٣٨٢٥ بتصرف.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٨، التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٠٧٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٩٥.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢٢٠.

[الأعراف:١٠].

عتاب من الله تعالى لبني آدم على قلة شكرهم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتقدير الكلام: لقد كان لكم في رسول الله قدوة حسنةٌ أن تتأسوا به، ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على الحرب ومعاناة الشدائد، لمن كان يرجو ثواب الله، والفوز بالنجاة في اليوم الآخر، وقد قرن الله الرجاء بكثرة ذكر الله[(٢)].

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٢٠٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٥٥، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣١١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٧٩.

صور من عتاب الله لأنبيائه

تحدث القرآن الكريم عن صور من عتاب الله تعالى لأنبيائه، وسوف نتناولها بالتوضيح فيما يأتي:

أولاً: عتاب الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام:

آدم عليه السلام أول الأنبياء وأبو البشر، خلقه الله بيديه، لما عصى الله تعالى قال تعالى عنه: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١].

وصفه بالعصيان والغواية، وهو أبو الأنبياء.

وكرر ذلك في مواضع عدة من كتابه الكريم؛ وذلك تحذيرًا من خطر الانحراف عن شرع الله، فما بالكم بمن هو دون آدم صلوات الله وسلامه عليه بمراحل كثيرة؟![(٣)].

ووردت قصة آدم عليه السلام في سبعة مواطن في القرآن الكريم، وهي سور: «البقرة» و«الأعراف» و«الحجر» و«الإسراء» و«طه» و«الكهف» و«ص».

عاتب الله آدم عليه السلام لاستجابته لإغواء إبليس، وتوبته مما أقدم عليه، قال عز وجل: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا آدَمُ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا

(٣) انظر: الوارف في مشروعية التثريب على المخالف عبدالعزيز الجربوع ص٩.

﴿الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣].

وقال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

وقال عز من قائل: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢].

قال الزمخشري: «﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ، حيث لم يحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس»[(١)].

وقال أبو السعود: «﴿وَأَقُل لَّكُمَا﴾ عطف على ﴿أَنْهَكُمَا﴾ أي: ألم أقل لكما ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدو»[(٢)].

ما يستفاد من القصة:

تضمنت قصة آدم عليه السلام العديد من الفوائد والعبر، نذكرها فيما يلي:

١. أن آدم عليه السلام أبو البشر، وهذا ما تكاد تجمع عليه جميع الديانات السماوية، حيث كان آدم يتبوأ منزلة في الجنة، لكنه لما استجاب لغواية إبليس وإغرائه، أخرج منها إلى الأرض، وتوالدت منه ومن زوجه البشرية، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١].

٢. أن آدم عليه السلام أخطأ في أكله من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها؛ ولكن هذا الخطأ لم يكن مقصودًا، بل كان عن ضعف ونسيان، كما قال سبحانه: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

٣. سعة رحمة الله وفضله، وسابغ كرمه، وقبوله لتوبة التائبين، كما قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

٤. أن آدم عليه السلام خلق من طين لازب، ومن حمأ مسنون، كما نصت على ذلك العديد من الآيات، نحو قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

٥. اقتضت إرادة الله أن يجعل في الأرض خليفة، هو آدم ومن توالد من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وقال سبحانه أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

٦. أن العداوة بين إبليس وذريته، وبين آدم وذريته عداوة قديمة ومستحكمة ومستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن

(١) الكشاف ٢/ ٩٦.
(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ٢٢١.

عليها، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

٧. أن المتقلب في نعمة يجب أن يحافظ عليها، ويشكر الله ويدعوه بدوامها، ولا يعمل عملًا فيه مخالفة لأمر الله؛ لأن كفران النعم مذهب بها، وقد قال عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

٨. أن قوة الإيمان تتغلب على كيد الشيطان، وأن عباد الرحمن ليس لإبليس عليهم سلطان، قال تعالى مخاطبًا إبليس ومبشرًا عباده المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

٩. خروج آدم عليه السلام من الجنة، وتحذيره وذريته من إغواء إبليس وكيده، قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

هذه أهم القضايا الرئيسة التي أبرزتها قصة آدم عليه السلام كما عرضها القرآن الكريم، وهي في مجملها تبرز صورة الصراع بين الحق والباطل، وبين الإنسان وعدوه الأول والأخير إبليس الرجيم.

ثانيًا: عتاب الله سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام:

وهذا نوح عليه السلام لما سأل الله ما ليس له به حق في ابنه أن ينجيه، فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

قال ابن عاشور: «النداء هنا نداء دعاءٍ، فكأنه قيل: ودعا نوحٌ ربه؛ لأن الدعاء يصدر بالنداء غالبًا، والتعبير عن الجلالة بوصف الرب مضافًا إلى نوحٍ عليه السلام تشريفٌ لنوحٍ وإيماءٌ إلى رأفة الله به، وأن نهيه الوارد بعده نهي عتابٍ»[(١)].

فماذا قال الله تعالى؟

قال تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

حذره من الجهل، وأن هذا السؤال ليس لك إنما للجاهلين[(٢)].

ويبدو في ظاهر تلك الآيات أن الله عاتب نوحًا على أسلوبه بقوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فلابد وأن يكون نوح أخطأ! وحقيقة الأمر أنه كاد أن يسأل نوح ربه أن ينجي كافرًا -ولا يجوز

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ٨٤.
(٢) انظر: الوارف في مشروعية التثريب على المخالف، عبدالعزيز الجربوع ص٩- ١٠.

له ذلك- لجهله بكفر ابنه، فيحذره الله ألا يسأل ما لا يعلم.

ويرفع الله قدر نبيه بأن يرتقي به من أن يكون من الجاهلين بأن ينهاه عن السؤال بغير علم، بينما الأمر واضح أنه طالما استثنى الله ابن نوح فإن الولد كافر، وماذا في ذلك؟ فالله يهذب أنبيائه ويعلمهم؛ حتى يكونوا قدوة لأتباعهم المؤمنين.

وبعد أن ذكر الله تعالى هذه الزلة ومعاتبته إياه عليها، ذكر توبته منها، ورجوعه إليه، واستغفاره إياه واعترافه على نفسه بالجهل لها، فقال -جل جلاله-: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

وقال عز وجل في اعترافه وتوبته: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧][1].

ثالثًا: عتاب الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام:

مما ورد في كتاب الله تعالى، ويدل على معاتبته له، قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٣-٨٤].

قال الزمخشري: «﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ أي: شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقًا إلى كلام ربه، وتنجز ما وعد به، بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى، وزل عنه أنه عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظرًا إلى دواعي الحكمة، وعلمًا بالمصالح المتعلقة بكل وقت، فالمراد بالقوم: النقباء، وليس لقول من جوز أن يراد جميع قومه وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح.

فإن قلت: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ سؤال عن سبب العجلة، فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك، وقوله: ﴿هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ [طه:٨٤].

كما ترى غير منطبق عليه.

قلت: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين:

أحدهما: إنكار العجلة في نفسها.

والثاني: السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر، وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدم يسير، مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب، فقال:

(١) انظر: بحر الفوائد، الكلاباذي ص٣٥٧.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤].

ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام»[1].

رابعًا: عتاب الله سبحانه وتعالى لداود عليه السلام:

معلوم ثناء الله تعالى على داود عليه السلام في كتابه الكريم، فنبي الله داود قد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وجعله خليفة في الأرض ليحكم بين الناس.

واختلف أهل العلم في سبب عتاب الله له على قولين:

الأول: طلبه من أحد جنوده أن ينزل له عن امرأته، وكان ذلك أمرًا مباحًا عندهم، ووجه العتاب فيه: ارتكابه خلاف الأولى.

والتمس أصحاب هذا القول أن ذلك مشابهًا لما كان عليه المهاجرون والأنصار في بادئ الأمر.

قال ابن جزي: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣].

هذه حكاية كلام أحد الخصمين، والأخوة هنا أخوة الدين، والنعجة في اللغة تقع على أنثى بقر الوحش وعلى أنثى الضأن، وهي هنا عبارة عن المرأة، ومعنى: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أملكها لي، وأصله: اجعلها في كفالتي، وقيل: اجعلها كفلي، أي: نصيبي، ومعنى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غلبني في الكلام والمحاورة يقال: عز فلان فلانًا إذا غلبه.

الثاني: تركه قضاء حوائج الناس.

فنبي الله داود قد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وجعله خليفة في الأرض ليحكم بين الناس، فهذه مهمته وهذا منصبه وهذه مؤهلاته، لكنه قسم زمنه إلى أثلاث: يوم لأهل بيته وشأنه الخاص، ويوم يجلس فيه للحكم بين الناس، ويوم يخلو ويعتكف لله سبحانه وتعالى في محرابه، ولكن هل الرسل بعثوا ليعتكفوا في المحاريب؟ وهل القضاة يتركون القضاء بين الناس ويعتكفون؟ لا.

فأداء الواجب مقدم على ذلك، فلما حصل من داود عليه السلام ما حصل وكان الخلطاء في حالة لا ترضى، بعث الله له ملكين تسورا عليه المحراب ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ قالوا: نحن خصمان بغى بعضنا على بعض، وذكرا له القضية، وهي قضية محلولة لا تحتاج إلى قضاء، رجل عنده تسعة وتسعون نعجة والثاني عنده واحدة، فقال صاحب التسعة والتسعين: أعطنيها أكمل المائة، وهذا ظلم لو عرضته على طفل صغير لقال: لا.

هذا ظالم، ولا حاجة إلى قاضٍ صاحب

(١) الكشاف ٣/ ٨٠- ٨١.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٨٦.

اجتهاد قد أوتي الحكمة.

إذًا القضية منتهية.

لكن ليرشد نبي الله داود بأن مهمته ليست الاعتكاف ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ سبحان الله ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي: بترك الخلطاء يبغي بعضهم على بعض وهو معتكف في محرابه، وما دمت تعترف بأن الخلطاء يبغي بعضهم على بعض، فلماذا تتركهم ومهمتك الأساسية الخلافة في الأرض، وقد آتيناك الحكمة وفصل الخطاب؟ لماذا تعطل هذا وتأتي إلى محرابك تعتكف؟

قال أصحاب هذا القول: «هذه هي حقيقة الفتنة المذكورة في سورة ص، ولن يكون للمرأة دخل في هذه القضية البتة؛ لأن الله قدم لهذه القصة، فقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ [ص:١٧].

وإضافته بصفة العبودية أعظم في التكريم ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص:١٧] صاحب القوة المعنوية والقوة المادية.

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ شديد الأوب والرجوع إلى الله.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨-١٩].

سبحان الله! إنسان أعطي القوة، ويسخر الله الجبال معه بالتسبيح، ويجمع الله الطير عليه حينما يسبح فتسبح معه، وهو شديد الأوب إلى الله ويفتن بامرأة؟! والله ولا حتى المجنون يصدق هذا.

إذًا سياق القصة يدل على نزاهة نبي الله داود، وأن حقيقة الفتنة هو ما ذكر ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٤][1].

وعلى كلا القولين بعد أن ذكر الله تعالى هذه الزلة ومعاتبته إياه عليها، ذكر توبته منها، ورجوعه إليه، واستغفاره إياه، فقال جل جلاله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] فغفر له ذلك[2].

خامسًا: عتاب الله سبحانه وتعالى لسليمان عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

اختلفت أقوال المفسرين فيما فتن فيه سليمان عليه السلام، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب[3].

قال أكثر المفسرين: «تزوج سليمان عليه السلام امرأة من بنات الملوك، فعبدت الصنم في داره، ولم يعلم بذلك سليمان، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك»[4].

(١) تفسير سورة الحجرات، عطية سالم ٢/ ١٢-١٣.
(٢) انظر: بحر الفوائد، الكلاباذي ص٣٥٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦٩.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٥٣.

وقيل: سبب فتنته قربانه بعض نسائه في الحيض، وقيل: احتجابه عن الناس ثلاثة أيام، وقيل: تزوجه في غير بني إسرائيل[1].

وقال ابن كثير: «﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرةً»[2].

وقال الألباني: أقرب ما قيل فيه: أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال: (لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس مجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة وجاءته بشق رجل)[3].

فالمراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤].

هو هذا، والجسد الملقى هو المولود شق رجل[4].

وبعد أن ذكر الله تعالى هذه الزلة ومعاتبته إياه عليها، ذكر توبته منها، ورجوعه إليه، واستغفاره إياه، فقال جل جلاله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] فغفر له ذلك.

(١) انظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، أبو القاسم النيسابوري ٢/ ٧١٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٦٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، ٤/ ٢٢، رقم ٢٨١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب الاستثناء، ٣/ ١٢٧٦، رقم ١٦٥٤.
(٤) انظر: السلسلة الضعيفة، الألباني ١٢/ ٦٢٩.

سادسًا: عتاب الله سبحانه وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم:

إن من أعظم الأدلة على صدق القرآن وعلى صدق نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، وعلى صدق حملة الإسلام من الصحابة عتاب الله الثابت حتى الآن للنبي صلى الله عليه وسلم، فكم من آية في كتاب الله يعاتب ربنا فيها النبي صلى الله عليه وسلم عتاب توجيه، أو عتاب تنبيه، أو عتاب تحذير.

وقد عاتب الله سبحانه نبيه في خمسة مواضع من كتابه: في الأنفال، وبراءة، والأحزاب، والتحريم، وعبس[5].

حادثة ابن أم مكتوم:

من أوضح ما جاء من العتاب في القرآن قوله تعالى يعاتب رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد جاءه أحد المسلمين يسأله في أمور الدين، وهو الصحابي عبد الله بن أم مكتوم، وكان الرسول ساعتئذٍ صلى الله عليه وسلم في حديث مع طائفة من المشركين مؤملًا أن يفضى به الحديث إلى إيمانهم، فلم يعن بأمر هذا المسلم السائل، بل أعرض عنه عابسًا، فنزل[6] قوله سبحانه:

(٥) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٢/ ١٣-١٤.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة إذا الشمس كورت، رقم ٣٣٣١

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١-١٠].

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يكرمه بعد هذا العتاب من الله.

قال الثوري: «فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول: (مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي) ويقول: (هل من حاجة؟)»[1].

وهذا العتاب بدأ متحدثًا عن الغائب، وكأنه بذلك يريد أن يرسم الصورة لرسوله على لوحة يراها أمام عينيه على وجه غير وجهه، لتكون الصورة واضحة القسمات، بينة المعالم، فالمرء لا يرى وجه نفسه، ثم اتجه العتاب إلى الخطاب في رفق قريب من العنف، مبينًا ما لعله يرجى من الخير من هذا الأعمى السائل، ثم عقد موازنة بين من عني به النبي ومن أعرض عنه، فهذا مستغن لا يعنيه أن يصغي إلى الدعوة أو يطيعها، والآخر مقبل تملأ قلبه الخشية ويدفعه الإيمان، وقد سجل القرآن معاملة الرسول لهما، فهذا العتاب يحمل في ثناياه عذر الرسول صلى الله عليه وسلم فهو ما تصدى لمن استغنى إلا أملًا في هدايته وإرشاده.

وقد يقسو القرآن في العتاب، بعد أن يكون قد استخدم الرفق واللين؛ وذلك في الأمور التي يترتب على التهاون فيها ما يودي بالدعوة.

كما ترى ذلك في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

ولعله بعد رفقه بهم وبيانه لهم أن متاع الحياة الدنيا قليل إذا قيس بمتاع الآخرة، رأى ألا يقف عند هذا الحد من الموازنة، بل مضى محذرًا منذرًا من العتاب القاسي؛ لأنه يمس أساسًا من أسس نشر الدعوة؛ لتأخذ طريقًا إلى النصر والنجاح كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

واستغربه.
واختلف في وصله وإرساله، وصحح الموصول الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ص٢٣٠.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢١٣.

أما إذا لم يتصل العتاب بمثل ذلك من مهمات الأمور، فإن العتاب يرق ويلين، كما ترى ذلك في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١].

فمعرفة الصادق والكاذب إذا كانت قد ضاعت في فرصة، فمن الممكن أن يتوصل إليها في فرصة أخرى، وتحريم النبي صلى الله عليه وسلم لما أحل الله له مسألة شخصية ليس لها من الأثر ما للجهاد من آثار.

قال العلماء: ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالمًا بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغولٌ بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله -تبارك وتعالى- عاتبه؛ حتى لا تنكسر قلوب الضعفاء والمساكين؛ وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم كان نوعًا من المصلحة؛ لأنه بإسلام هؤلاء القوم تسلم القبيلة كلها، إلا أن الله تبارك وتعالى وجهه إلى الأولى والأحسن، وهو أن النظر إلى المؤمن وإن كان فقيرًا أصلح وأولى من الإقبال على الأغنياء طمعًا في إيمانهم[1].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢١٣، السراج المنير، الخطيب الشربيني ٤/ ٤٨٥.

تحريم ما أحل الله له:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ١-٢].

فهذا عتاب من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حين حرم على نفسه سريته مارية أو شرب العسل؛ مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله تعالى هذه الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.

﴿تَبْتَغِى﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله صلى الله عليه وسلم، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه، سببًا لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكمًا حكمًا عامًا في جميع الأيمان: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ [المائدة: ٨٧].

إلى أن قال: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ

﴿كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

فكل من حرم حلالًا عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يمينًا بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ لتبرأ ذممكم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به؛ فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

ومعنى العتاب ظاهرٌ في هذه الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ١-٣].

وكلاهما له علاقةٌ بالجانب الشخصي، سواءٌ ابتغاء مرضاة الأزواج، أو استرضاء صناديد قريشٍ، وهذا مما يدل على أن التشريع الإسلامي لا مدخل للأغراض الشخصية فيه[١].

وقد اختلف في سبب نزول هذه الآيات، مع اتفاق مضمونها بأنه كان لتحريم شيء حلال؛ طلبًا لرضا أزواجه صلى الله عليه وسلم.

فقال ابن كثير: «اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة فقيل: نزلت في شأن مارية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرمها، ثم ساق الأحاديث في تلك القضية ثم قال: والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل، ثم ساق الأحاديث»[٢].

وقال الطبري -بعد عرض الروايات-: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه شيئًا كان الله قد أحله له، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون شرابًا من الأشربة، وجائز أن يكون كان غير ذلك، غير أنه أي ذلك كان فإنه كان تحريم شيء كان له حلالًا، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله، وبين له تحلة يمينه في يمين كان حلف بها مع تحريمه ما حرم على نفسه»[٣].

وقال السعدي: «هذا عتاب من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حين حرم على نفسه سريته مارية أو شرب العسل»[٤].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢١٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٦٢، المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ٢/ ١٠٣٢.

(٣) انظر: جامع البيان ٢٣/ ٨٩، المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ٢/ ١٠٣٣.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٢، المحرر في أسباب نزول القرآن،

الزواج من زينب رضي الله عنها:

عاتب الله نبيه في سورة الأحزاب، فقال تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[الأحزاب: ٣٧].

قال ابن العربي: «تخشى الناس أن يعاتبوك، وعتاب الله أحق أن تخشاه»[(١)].

فهذا عتاب من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم أنه أخفى ما سيبديه ربه تعالى، وأنه خشي من المنافقين وأهل السوء أن يطعنوا فيه عندما يتزوج من مطلقة ابنه بالتبني!

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا لكتم هذه»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]»[(٣)].

وتفصيل ذلك: أن زيد بن حارثة رضي الله عنه كان في أول أمر الإسلام ابنًا للنبي صلى الله عليه وسلم بالتبني، وكان يدعى «زيد بن محمد» وقد زوجه النبي صلى الله عليه وسلم من ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها، فلما أبطل الله تعالى التبني نسب زيدٌ لأبيه حارثة.

ثم إن زيدًا رضي الله عنه اشتكى لنبينا صلى الله عليه وسلم من زوجته زينب رضي الله عنها، والنبي صلى الله عليه وسلم يصبره ويذكره بتقوى الله تعالى، وبعد ذلك الإبطال للتبني يوحي الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن زيدًا سيطلق زوجته وأنها ستكون زوجة له، فأخفى النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأمر -وهو تزوجه بزينب مستقبلًا- عن الناس ولم يبده لأحد، ولم يكن وحيًا مأمورًا بتبليغه، وإنما خبر سيتحقق، وقد حصل فعلًا أن طلق زيد زوجته زينب، وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم.

فليس في قصة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب ما يقدح في مقامه، ولا ما ينزل من قدره، وما يذكره بعض المفسرين في ذلك من أقوال تخالف ما ذكرناه فكله ضعيف مردود.

قال ابن العربي: «فإن قيل: لأي معنى قال

خالد المزيني ٢/ ١٠٣٣.

(١) أحكام القرآن ٣/ ٥٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء)، ٩/ ١٢٤، رقم ٧٤٢٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/ ١٦٠، رقم ١٧٧.

له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد أخبره الله أنها زوجه؟

قلنا: أراد أن يختبر منه رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى له زيد من النفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن علمه منه في أمرها.

فإن قيل: كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لابد منه، وهذا تناقض؟!

قلنا: بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان، وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلًا وحكمًا، وهذا من نفيس العلم فتيقنوه، وتقبلوه»[1].

وإذا كان الله يعلم أن زواج زيد بزينب لن يستمر إلا سنة واحدة ثم يتزوجها محمد صلى الله عليه وسلم: فلماذا لم يأمره بالزواج بها ابتداءً؟

فيجاب عن ذلك بأنه لا يجوز للإنسان أن يقترح على الله تعالى ماذا يفعل؟ ولا أن يعترض على فعله؛ وذلك لكمال علم الله تعالى وحكمته وقدرته، فلا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة التي كثيرًا ما تغيب عن الإنسان ولا يعلمها، قال الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثم أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بتزوج زينب بعد طلاق زيد لها فيه حكمة عظيمة، وهي تقرير إبطال التبني تقريرًا عمليًا من الرسول صلى الله عليه وسلم؛ حتى يعلم الجميع أن الابن من التبني ليس له أحكام الابن من الصلب، فزوجة الابن من التبني حلال لمن تبناه، وهذه الحكمة تفوت لو أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج زينب ابتداءً.

والتطبيق العملي للأحكام الشرعية يختلف في قوته وأثره عن الواقع النظري، وخاصة فيما يتعلق بأمرٍ مشتهر في الجاهلية ويراد القضاء عليه.

ومن أمثلة ذلك: إفطار النبي صلى الله عليه وسلم في السفر لما شق الصيام على الصحابة، ولم يكتف بأمرهم بالإفطار.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان فصام حتى بلغ كراع الغميم فصام الناس، فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإنما ينظرون فيما فعلت فدعا بقدحٍ من ماءٍ فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام فقال: (أولئك العصاة، أولئك العصاة)[2].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ

(١) أحكام القرآن ٣/ ٥٧٨ ونقله عنه القرطبي في جامعه ١٤/ ١٩١ وأقره.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر، ٢/ ٧٨٥، رقم ١١١٤.

﴿زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾[الأحزاب:٣٧].

أي: إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، أي: الأبناء من التبني؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال له: زيد بن محمد.

فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾[الأحزاب: ٤-٥].

ثم زاد ذلك بيانًا وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة؛ ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

ليحترز من الابن الدعي؛ فإن ذلك كان كثيرًا فيهم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم»[(١)].

وأوضح منه فيما نريده ما قاله الطاهر ابن عاشور رحمه الله حيث قال: «وأشار إلى حكمة هذا التزويج في إقامة الشريعة، وهي إبطال الحرج الذي كان يتحرجه أهل الجاهلية من أن يتزوج الرجل زوجة دعيه، فلما أبطله الله بالقول إذ قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾[الأحزاب: ٤].

أكد إبطاله بالفعل؛ حتى لا يبقى أدنى أثر من الحرج أن يقول قائل: إن ذاك وإن صار حلالًا فينبغي التنزه عنه لأهل الكمال، فاحتيط لانتفاء ذلك بإيقاع التزوج بامرأة الدعي من أفضل الناس، وهو النبي صلى الله عليه وسلم.

والجمع بين (اللام) و(كي) توكيد للتعليل، كأنه يقول: ليست العلة غير ذلك»[(٢)].

فكيف لتلك الأحكام والفضائل أن تظهر لولا وقوع التبني فعليًا من النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تزويجه لابنه في التبني من ابنة عمته، ثم تزوج النبي صلى الله عليه وسلم منها بعد إبطال التبني؟

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٢٦.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٩.

التجاوز عن المتخلفين عن غزوة تبوك:

عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في قبوله لأعذار المنافقين، وإذنه لهم بالتخلف عن غزوة تبوك؛ وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

فتضمنت هذه الآية عتاب الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حيث أذن لمن طلب منه التخلف عن النفور والنهوض إلى تبوك، وكان من السياسة الرشيدة عدم الإذن لأحد حتى يتميز بذلك الصادق من الكاذب.

فقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ أي: تجاوز عنك ولم يؤاخذك، وقدم هذا اللفظ على العتاب الذي تضمنه الاستفهام ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ تعجيلًا للمسرة للنبي صلى الله عليه وسلم إذ لو أخر عن جملة العتاب لأوجد خوفًا وحزنًا.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ علة للعتاب على الإذن للمنافقين بالتخلف عن الخروج إلى تبوك[1].

قال الطبري: «هذا عتاب من الله تعالى ذكره، عاتب به نبيه في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه حين شخص إلى تبوك لغزو الروم من المنافقين، يقول جل ثناؤه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ يا محمد ما كان منك في إذن لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك من قبل أن تعلم صدقه من كذبه ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لأي شيء أذنت لهم؟! ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يقول: ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك إذ قالوا لك: لو استطعنا لخرجنا معك؛ حتى تعرف من له العذر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره وتعلم من الكاذب والمتخلف نفاقًا وشكًا في دين الله، وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل.

قال مجاهد: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ ناس قالوا: استأذنوا رسول الله فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

قال قتادة: قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ الآية، عاتبه كما تسمعون ثم أنزل الله التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢].

فجعله الله رخصة في ذلك من ذلك.

قال عمرو بن ميمون الأودي: اثنتان

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٧٢.

فعلهما رسول الله لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى، فأنزل الله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الآية.

قال مورق: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ عاتبه ربه»[1].

الصلاة على المنافقين:

أتى عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لما مات أبوه المنافق عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وحربة الحاسدين الناقمين على الإسلام، فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك حتى أكفن أبي فيه. وأبوه عدو للإسلام، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام تقديرًا لابنه المسلم المؤمن، أعطاه قميصه، فكفن هذا المنافق فيه؛ جزاءً لابنه، وإكرامًا له. فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه، فقال: أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال: (أنا بين خيرتين) قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

فصلى عليه، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة ٨٤][2].

فجعلها صلى الله عليه وسلم خاتمة عمله في هذه المسألة أن لا يصلي على من علم نفاقه وكفره وضرره على الإسلام والمسلمين.

ثالثًا: الأساليب الرقيقة في عتابات الرسول صلى الله عليه وسلم:

المتتبع لمواقف العتاب للرسول صلى الله عليه وسلم يجده عتابًا لصالحه -عليه الصلاة والسلام- رحمةً به، وشفقةً عليه، لا كما يقول البعض: إن الله تعالى يصحح للرسول خطأ وقع فيه[3].

فالقرآن ينتهج في العتاب نهجًا فريدًا، جامعًا فيه بين العذوبة والرقة والقوة، وهذان أمران أساسان في كل عتاب ناجح.

لأن العتاب مقام يقتضي نوعين من المعاني والألفاظ؛ لأنه لا يكون إلا عن تقصير أو خطأ، هذا أحد سببيه الأقوى، ولا يكون إلا حين يرجى من المعاتب عود إلى الجادة، وتوخي الصواب.

وعتاب القرآن الذي يهمنا هنا: عتاب الله رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء عتابه ناجحًا لاشتماله على تلك الخاصتين:

- تذكير بما كان مما استوجب العتاب.
- وإغراء على الرجوع إلى الحق والحث

(١) جامع البيان ١١/ ٤٧٧-٤٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الكفن في القميص، ٢/ ٧٦، رقم ١٢٦٩، ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، ٤/ ٢١٤١، رقم ٢٧٧٤.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٦١٨.

عليه بما يثيره النص من بوارق الأمل، وأسباب العفو.

فمن عتاب الله رسوله صلى الله عليه وسلم الذي يتجلى فيه هذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١-١٦].

وهذا أشد عتاب وجهه الله لرسوله عليه الصلاة السلام، وبين له فيه كثيرًا من الحقائق، وفي هذا العتاب -مع شدته- اشتمل القرآن على كثير مما يخففه.

ويبين حسن نية الرسول -عليه الصلاة السلام- فيما بدر منه حين أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم وأقبل على وفد قريش يحاورهم، فقد خفف من شدة هذا العتاب أن الله لم يسند العبوس والتولي للرسول مواجهًا له به، فجاء مسندًا إليه على طريقة الغيبة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ولم يقل له: عبست وتوليت وهو مقتضى الحال ترقيقًا له في العتاب حتى لكأن العابس والمتولي شخص آخر غير محمد عليه الصلاة السلام، والجمهور يسمون هذا السلوك القولي: وضع الغيبة موضع الخطاب.

ويسميه السكاكي: التفاتًا[1] إذ لا يشترط أن يسبقه التعبير بواحد من طرقه الثلاثة، وأيًا كان الخلاف بينهم فإن المؤدى واحد هو كراهة إسناد ما لا يليق بالرسول على سبيل الخطاب.

وخفف منه أيضًا أن القرآن أبان أن ما حدث من الرسول لم يكن لغرض شخصي، بل لباعث من بواعث الرسالة التي جاء بها، وهو حرصه الشديد على هداية هؤلاء الناس، فكأنه أراد أن يستميلهم بحديثه وإقباله عليهم.

كما أن في التعبير بضمير المخاطب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣].

الإيناس بعد الإيحاش، والإقبال بعد توهم الإعراض، أما ابن أم مكتوم فمؤمن لا يتأثر بمثل هذه الأعمال التي بدرت من الرسول عليه الصلاة السلام لمصلحة دينية توقعها هو.

فهكذا يكون العتاب الرقيق باستخدام الألفاظ الرقيقة التي لا تؤثر سلبًا على نفس سامعها، بحيث ينسى أنه عتاب ويتحول إلى مدافعٍ ومجادلٍ عن موقفه؛ ليثبت أنه على صواب، ولا يؤتي العتاب -في تلك الحالة- ثمرته المرجوة.

وانظر إلى لطف العتاب في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

(١) انظر: مفتاح العلوم السكاكي ص١٧٥.

﴿لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

فمبالغة في لطف عتاب الله له صدر العتاب بالعفو من أول الأمر، وقدم على ما استحق من أجله العتاب: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وأن العتاب الرقيق يدل على عظم منزلة المعاتب عند المعاتب، أن يبادره بالعفو، ثم يأخذ معه في بيان ما خالف فيه مما ينبغي ألا يكون.

وقد غلا الزمخشري في توجيه هذه الآية حيث قال: «﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الجناية؛ لأن العفو رادف لها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت»[(١)].

وغلوه في هذا التوجيه ظاهر؛ لأنه حمل الكلمة ما ليس من طبيعتها، وصرح بما لم يصرح به الله في كتابه، ولو كان هذا الذي يقوله الزمخشري مطلوبًا لله من هذه الآية لما منع مانع من ذكره.

ولو أنه فسر قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بما قاله في تفسير: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ لكان لقوله شبهة قبول؛ لأن ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ هو موضوع المخالفة.

وقد تعقب ابن المنير قول الزمخشري، وخطأه فيه.

ثم قال: «ولقد أحسن من قال في هذه الآية: إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأ بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداءً: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لتفطر قلبه عليه الصلاة السلام.

فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه الصلاة والسلام»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١].

قال الألوسي: «﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه تعظيم لشأنه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي الكريم يعد كالذنب، وإن لم يكن في نفسه كذلك، وأن عتابه صلى الله تعالى عليه وسلم- ليس إلا لمزيد الاعتناء به، وقد زل الزمخشري ها هنا كعادته، فزعم أن ما وقع من تحريم الحلال المحظور لكنه غفر له عليه الصلاة والسلام»[(٣)].

وقال سيد قطب: «﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يوحي بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته، وهو إيحاء لطيف»[(٤)].

ومن ذلك أيضًا ما رواه مسلم[(٥)] عن

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٧٤.

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف، ابن المنير ٢/ ٢٧٤ ـ مع الكشاف.
وانظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبدالعظيم المطعني ١/ ٢٧٣-٢٧٦.

(٣) روح المعاني ١٤/ ٣٤٣.

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦١٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد

ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: (لما أسروا الأسارى في بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكرٍ وعمر: (ما ترون في هؤلاء الأسارى؟) فقال أبو بكرٍ: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ترى يا ابن الخطاب؟) قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيلٍ فيضرب عنقه، وتمكني من فلانٍ -نسيبًا لعمر- فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكرٍ، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيءٍ تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة) شجرةٍ قريبةٍ من نبي الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

فالنبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف آثر السلامة، وهو رأي كثير من أصحابه، ولكن الله -تبارك وتعالى- أرشده إلى الأولى من ذلك، وهو الشدة في هذا الموقف؛ لأن هؤلاء هم صناديد الكفر، وكبار أهل الضلال، فالأولى معهم القتل والتنكيل بدلًا من العفو والصفح، خاصة والدعوة في بداياتها، وتحتاج إلى أن تظهر بمظهر القوة بين قبائل العرب، وكان هذا هدفًا لا يعدله المال، ولذا سمي هذا اليوم بيوم الفرقان لعظمته في تاريخ الدعوة.

فعاتبه الله بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ فالخطاب ليس موجهًا مباشرة إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم، ولكن المعنى: لا يحق لأي نبي مهما كان أن يكون في هذا الموقف وعنده أئمة الكفر الذين حاربوه وأخرجوه ومكروا به، وأرادوا قتله أن يعفو عنهم.

وهكذا يكون العتاب الرقيق الذي لا يوجه مباشرة إلى الملوم؛ حتى لا يتشاغل بالدفاع عن نفسه، وينسى في ظل الجو شديد السخونة أن يتعلم ويفهم المراد من التوجيهات السديدة، والنصائح الرشيدة، ويفهم عن اقتناع ورضا نفس أن الأولى هو فعل ما يرشد إليه العاتب.

والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم، ٣/ ١٣٨٣، رقم ١٧٦٣.

ولقد تعلم النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا فقه العتاب وفنه من أحاديث ومواقف الأنبياء التي قصها الله -تبارك وتعالى- عليه، وأعلمه بها، فمن ذلك ما رواه أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرةٍ، فلدغته نملةٌ، فأمر بجهازه، فأخرج من تحتها، ثم أمر بها فأحرقت فأوحى الله إليه فهلا نملةً واحدةً)[1].

عاتب الله تبارك وتعالى هذا النبي الذي يقال: إنه العزير، بأنه قتل جماعة النمل لأنه لدغ من واحدة فقط، فاستدعى الله انتباهه وقال له: (فهلا نملةً واحدة).

والناظر لقوله تعالى: (فهلا نملةً واحدةً) يجد أنها لطيفة موجهة لما هو أرفق بهذا النبي؛ حيث إن الموقف لا يستدعي الشدة، فالخطب يسير، وأمة النمل مهما بلغت لا تملك من أمرها شيئًا.

وعلى هذا المنوال من الأدب الجم والفقه العميق لفن العتاب، تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في المواقف التي تحتاج إلى ذلك، وتوجيههم إلى ما هو أصلح وأولى، فكان صلى الله عليه وسلم بذلك يهذب أصحابه ولا يلجئهم إلى الدفاع عن أنفسهم، بل يلفت انتباههم إلى العبرة والعظة من العتاب.

ولقد حرص صلى الله عليه وسلم أن تكون الصيغ والكلمات معبرة وموحية بالحب والعطف والشفقة على محدثه؛ لتنفذ هذه النصائح والكلمات إلى قلبه؛ فيتأثر بها ويعمل بمقتضاها.

وغيرها من المواقف التي تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يصرح باسم أحد من صحابته، بل يقول: (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا)[2] يعاتبهم بأسلوب مهذب رقيق، ليس فيه تجريح للمشاعر، ولا غض من قيمة الشخص الذي اقترف خطأ، فكان صلى الله عليه وسلم مثلًا حيًا للصحابة في فقه التعامل مع الناس؛ حتى قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان النبي صلى الله عليه وسلم قلما يواجه رجلًا في وجهه بشيءٍ يكرهه»[3].

بل كان يتعامل مع أهله -أعني زوجاته- بهذا الفقه، فمن ذلك ما قصه ربنا -تبارك وتعالى- في سورة التحريم، حيث قال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب دخلت امرأة النار في هرة، رقم ٣٠٧٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن العشرة، ٤/ ٢٥٠، رقم ٤٧٨٨. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٠٦٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الترجل، باب في الخلوق للرجال، ٤/ ٨١، رقم ٤١٨٢. وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، رقم ٤١٨٢.

بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

أي أن النبي صلى الله عليه وسلم استكتم حفصة سرًا بتحريم العسل على نفسه، وأن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي؛ فذكرته حفصة لعائشة، فأظهره الله عليه، فعرف بعضه وأعرض عن بعض.

أي: قال لها: إن الله أوحى إلي ما أفشيت من السر في تحريم العسل، وأنك أخبرت عائشة بذلك.

وهذا التغاضي عن كثير من أخطاء الأحبة والمقربين من شيم الكرام الأخيار الذين لا يلومون أحبابهم على كل ما يفعلون، أو يأتون من أخطاء، ولكن يكفي التعريض ببعضها والكف عن البعض الآخر.

ويعد هذا من قمة فقه العتاب وفنه بمكان، لا يصل إليه إلا من تأدب بآداب القرآن، وتعلم من النبي العدنان صلى الله عليه وسلم.

قال الحسن: «ما استقصى كريم قط»[(١)].

وقال سفيان: «ما زال التغافل من فعل الكرام»[(٢)].

وعلى هذا يجب علينا أن نتعلم من النبي صلى الله عليه وسلم الأساليب اللطيفة في العتاب والمحاورة الرقيقة التي تجعل المعاتب لا يخرج عن حب معاتبه، ولا يجنح إلى الإعراض عنه، بل يسمع ويطيع؛ لأن معاتبه لا يبغي إلا صلاحه وكماله سواء في الفعل أو القول.

هذه بعض المواقف من حياته صلى الله عليه وسلم التي تبرز وتوضح ما للعتاب من قيمة حيوية في ديننا وشريعتنا، لعلنا نعتبر بها في عصر الجفاء والغلظة علها أن تبرد أكبادنا، وتطفئ نار قلوبنا، وتهدئ من روعنا[(٣)].

ونلحظ ثلاثة جوانب في آيات الذكر الحكيم من عتاب لبعض الأنبياء والمرسلين:

أولها: إثبات بشرية هؤلاء الأنبياء، وأنهم وإن بلغوا قمة الكمالات البشرية فلا تزول عنهم صبغة البشر المخلوق الذي تتنازعه الطاقات والقوى المودعة فيه، فإن صلتهم بالملأ الأعلى، وسعيهم الحثيث لتطبيق ما يوحى إليهم، والمسارعة إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى يجعل منهم قدوة لأتباعهم في الإيمان والعمل الصالح، إلا أن دواعي الحاجة الإنسانية من طعام وشراب وسير في الأسواق للكسب والمعاش، وعدم الاطلاع على الغيب ومستقبل الأيام، وما يعتريهم من مرض ونسيان وضعف في القوى الجسمية كل ذلك يؤكد بشريتهم، فلا يستطيعون

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٦٤.
(٢) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي ٩/ ٦٣١.
(٣) موقع صيد الفوائد.

النجاة منها، وإلى هذا الجانب أشار القرآن الكريم في دحض شبهة من زعم أن عيسى وأمه إلهين من دون الله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٥].

فبلوغ الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه الدرجات العليا من القربى والطاعة لا تخرجهم عن طبيعة البشر، ولا يجوز اتخاذهم شركاء مع الله سبحانه وتعالى.

وقد ضلت الأمم السابقة في هذا الأمر فاختلطت عليهم المقاييس، فبلغ من تقديسهم لأنبيائهم وصالحيهم أن عبدوهم من دون الله، كما فعلت النصارى فضلوا وأضلوا.

وأبرزت بعض الأمم جانب البشرية فيهم وضخمته، ونفت عنهم المزايا التي يتميزون بها عن غيرهم، فنسبت إليهم كل نقيصة ظلمًا وزورًا فضلوا وأضلوا، كما فعل اليهود في سير أنبيائهم، والمنهج العدل أن يعتقد في اصطفائهم من البشر لحمل رسالة ربهم وتبليغها إلى الناس على خير وجه، وصلتهم بالملأ الأعلى، وتلقيهم عن طريق الوحي إليهم، وهي مكانة لا تدانيها مكانة غيرهم من البشر.

إلا أنهم يبقون من البشر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

فوجود النسيان والسهو من بعض الأنبياء تأكيد لهذا الجانب، من غير أن يؤثر على مكانتهم الرفيعة عند ربهم ومولاهم جل جلاله.

ثانيها: جانب تربوي تعليمي: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يمثلون قمة العبودية لله تعالى، وهم القدوة لغيرهم في ذلك.

كما أن سيرتهم الذاتية هي النبراس لغيرهم أثناء السير إلى الله تعالى، فلئن وقع منهم بمقتضى الطبيعة البشرية ما يعاتبون عليه سرعان ما يرجعون إلى الله، ويلتجئون إلى عفوه ومغفرته، ويتفيؤون ظلال رحمته ورضوانه.

إن في رسم معالم التوبة والاستغفار واستدرار الرحمة والرضوان من خلال سيرة الأنبياء تشريعًا للأمم، ولو لم تكن هذه

الوقائع في سيرهم فأنى للمذنبين أن يدركوا طريق الإنابة إلى ظلال رحمة ربهم.

إن في لجوء آدم عليه السلام إلى ربه بالابتهال والإنابة ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وفي استسلام نوح عليه السلام لربه ورجوعه إليه، وإيثار رضوانه على ما تطلعت إليه نفسه بشأن ابنه أكبر المعالم التربوية إلى يوم القيامة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وفي ابتهال ذي النون في بطن الحوت ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

زادٌ لمن وقع في ضيق الدنيا وتقلبات أحوالها، وسدت في وجهه السبل.

وفي إنابة داود عليه السلام واستغفاره وإقباله على ربه بالطاعة والعبادة، إدراك للصلة بين العبد وخالقه ومولاه ومالكه ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥].

لو ترك البشر يشرعون لأنفسهم طريق التوبة والإنابة والاستغفار لما اهتدوا إلى رضوان ربهم، ولضلوا كما ضل من شرع لنفسه شئون حياته الدنيوية، إن (الدعاء هو العبادة)[1].

والشرائع التعبدية كلها من الله سبحانه وتعالى، وليس لأحد أن يشرع لنفسه، والمقربون إلى الله سبحانه وتعالى يدركون ما يليق بالذات القدسية من كمالات وما تنزع عنها الذات القدسية من نقص ومحال، والبشر عاجزون عن ذلك، فما يكون كمالًا في حق البشر، قد يكون نقصًا محالًا على الذات الإلهية؛ إن وجود الولد والزوجة والقرين والشريك من متطلبات الحياة الإنسانية، وتعتبر من الكمالات البشرية ومن عدمها اشتكى من نقص في نفسه.

أما بالنسبة لله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، ٢/ ٧٦، رقم ١٤٧٩، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، ٥/ ٦١، رقم ٢٩٦٩، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨، رقم ٣٨٢٨، وأحمد ٣٠/ ٣٤٠، رقم ١٨٣٩١.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٢٧، رقم ١٦٢٧.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٣].

ثالثها: إن من يمعن النظر في الأقوال والأعمال التي عوتب عليها الأنبياء صلوات الله عليهم يجدها لا تخرج عن دائرة الأقوال والأفعال التي تدخل في دائرة الاجتهاد وورود الاحتمالات عليها، والموقف الذي اتخذه النبي في الغالب يكون مما يقال عنه أن الأولى كان الوجه الآخر، إلا أن هذه الأولوية لا تدرك إلا بعد التنبيه الرباني ولا يمكن الاستدلال عليها بالظواهر والأسباب المتاحة عند وجود الحادثة، وإلا لأدى إلى ارتكاب النبي المخالفة الواضحة، وهم منزهون عن ذلك.

وإذا كان العتاب يرد على خلاف الأولى، والتهديد يرد على الأمر المفروض غير الواقع.

ولمن العتاب؟ ولمن التهديد؟ لصفوة الله من خلقه وأنبيائه المرسلين إلى عباده، فكيف يكون الحال بالنسبة لمن خالف صريح أمره، وارتكب صريح نهيه، وعصى محكم شرعه؟

إن في ذكر هذه الألوان من العتاب إيجاد حاجز نفسي بين العباد وبين المعصية، ومخالفة شرائع الله[1].

ومن أهم آداب العتاب التي تستنبط من القرآن الكريم:

١. عدم الإكثار من العتاب.

فلا تعتب على أخيك بكل كبيرة وصغيرة، وإذا كنت في كل الأمور معاتبًا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه؛ فكثرة العتاب تودي إلى القطيعة، فلابد من الحكمة في العتاب.

٢. لا نترك العتاب مطلقًا.

فمن حين إلى آخر، إن رأيت من أخيك شيئًا أقلقك ينبغي أن تعاتبه، فهذا دليل صدق المحبة، والحرص على دوام الوصال، فأكبر عقاب من الله عز وجل للكافر عدم استعتابه، حيث قال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤] فالكافر لا يستعتب؛ لأنه خارج العناية الإلهية، أما المؤمن فيستعتب.

٣. الإنصاف.

فعند العتاب لابد أن تذكر محاسن أخيك، وتشير إلى فضائله.

وفي ذلك فوائد -أي: في ذكر المحاسن

(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص٢٦٢- ٢٦٧.

والإشارة إلى الفضائل- فوائد كثيرة من هذه الفوائد:

أولًا: ذكر المحاسن والفضائل هو مدخل إلى تقبل العتاب، وتطييب لنفس صاحبك لما هو فيها. ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل) قالت: حفصة فكان بعد لا ينام إلا قليلًا [(١)].

وقال صلى الله عليه وسلم: (ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة)[(٢)].

بل امدح على قليل الصواب يكثر من الممدوح الصواب.

ثانيًا: من الذل أن تذكر المساوئ والأخطاء، وتوجع قلب أخيك بتكرار ما عليه، ولا تشير إلى فضائله ومحاسنه، ولا شك أن هذا ظلم للعباد، أن تنقل عنهم شرهم، وتخفي خيرهم.

٤. سلامة المقصد.

فالمؤمن مرآة أخيه، أن يكون القصد من العتاب مقصدًا شريفًا؛ لأجل النصح والتوجيه، وليس بتتبع الزلات والسقطات، وروي أن رجلًا صحب رجلًا فلما أراد أن يفارقه قال له: أخبرني عن عيوبي، فقال: سل غيري؛ فإني كنت أراك بعين الرضا.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا[(٣)]

فبعض الناس يفعل ذلك بشكل منفر للنفس والعياذ بالله، وهنا إذا حصل ذلك يخرج العتاب عن معناه الصحيح، ويصبح هذا العتاب هو الشرارة الأولى للعداوة، وهو الذي عبر عنه الشاعر بقوله[(٤)]:

فدع العتاب فرب شر هاج أوله العتاب

بل يكن لسان حالك وأنت تعاتب أخاك أو زوجك أو ولدك:

أنت عيني وليس من حق عيني
طبق أجفانها على الأقذاء

٥. فتح للرجوع والعود.

وذلك عن طريق التماس العذر، فلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب فضل قيام الليل، ٢/ ٤٩، رقم ١١٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، ٤/ ١٩٢٧، رقم ٢٤٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في ذهاب العلم، ٤/ ٣٢٨، رقم ٢٦٥٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١١٧٣، رقم ٢٣٢٨.

(٣) البيت للشافعي في ديوانه ص١٢٣ ت: د.عمر فاروق الطباع.
ونسب لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. انظر: الحيوان، الجاحظ ٣/ ٢٣٦، عيون الأخبار، ابن قتيبة٣/ ١٦، العقد الفريد، ابن عبدربه ٢/ ١٩٤.

(٤) البيت من شواهد تهذيب اللغة ٢/ ١٦٥، تاج العروس ٣/ ٣١١، لسان العرب ١/ ٥٧٨ دون نسبة.

يغلق عليه الأبواب بعتاب غليظ جاف، ثم يريده أن يعتذر منه، ألم تر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاءه المتخلفون عن غزوة تبوك يعتذرون عن تخلفهم، أخذ بظواهرهم وقبل اعتذارهم، ووكل سريرتهم إلى الله تعالى.

وتأمل صنيع الشافعي، قال يونس الصدفي: «ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة ثم افترقنا، فلقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة؟»[(١)].

٦. الرفق.

فقد قال صلى الله عليه وسلم: (لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه)[(٢)].

وقال عليه السلام: (إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق!)[(٣)].

يدخل أعرابي المسجد فيبول في ناحية منه، فيغضب عليه بعض الصحابة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاهم عن فعلهم هذا حتى فرغ الأعرابي، ثم يناديه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له: (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن)[(٤)].

كلمات يسيرة، تخرج في رحمة وإشفاق، فتلامس شغاف قلب رجل البادية، فيرفرف قلبه حبورًا ويقول في ذهول: «اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا»[(٥)].

ومن الرفق استخدام العبارات اللطيفة في إصلاح الخطأ والعتاب، فمثلًا حينما نقول للمخطئ: لو فعلت كذا، ما رأيك لو نفعل كذا؟ أنا أقترح أن تفعل كذا، عندي وجهة نظر أخرى ما رأيك لو تفعلها؟ فلا شك أنها أفضل مما لو قلت له: يا قليل التهذيب والأدب، وعديم المروءة والرجولة ألا تفقه؟! ألا تفهم؟! ألا تسمع؟! ألا تعقل؟!

والعتاب يمحو كل ما يعتلي القلب من كراهية وأحقاد وأحزان.

موضوعات ذات صلة:

الحوار، الدعوة، النصيحة

(١) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ٥١/ ٣٠٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢١/ ١٦٧، رقم ١٣٥٣١.
وصحح الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٨٧، رقم ٥٦٥٤ لفظ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه».
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٤٦، رقم ١٣٠٥٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٤٧، رقم ٢٢٤٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات، ١/ ٢٣٦، رقم ٢٨٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٨/ ١٠، رقم ٦٠١٠.

العجب

عناصر الموضوع

مفهوم العجب	١٣٨
العجب في الاستعمال القرآني	١٣٩
الألفاظ ذات الصلة	١٤٠
التعجب وصوره	١٤١
أنواع الإعجاب	١٥٠

مفهوم العجب

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ع ج ب) تدل على معنيين رئيسين:

الأول: الكبر واستكبار للشيء.

الثاني: خِلقَة من خِلَقِ الحيوان.

ويقال للمتكبر: معجب بنفسه، ويقال للأمر المستعظم: أمرٌ عجيب[1].

قال الراغب الأصفهاني: «العجب والتعجب: حالةٌ تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، ولهذا قال بعض الحكماء: العجب ما لا يعرف سببه»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني رحمه الله: «العجب: تغير النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله»[3].

وقال الكفوي رحمه الله: «العجب، بفتحتين: روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء»[4].

يقول الباحث: بعد الاطلاع على أقوال العلماء في معنى العجب نستطيع أن نقول بأن العجب هو: حالة تصيب الإنسان من الاستعظام والذهول عند رؤيته لشيء خرج عن العادة والمألوف.

فالعجب في معنييه: اللغوي والاصطلاحي يدول على استعظام الشيء عند رؤيته.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٣٤.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٨٠، مختار الصحاح، الرازي ص٢٠٠.
(٢) المفردات ص٥٤٧.
(٣) التعريفات ص ١٤٧.
(٤) الكليات ص ٦٥٥.

العجب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عجب) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(٢٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الصافات:١٢]
الفعل المضارع	٨	﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد:٥]
صيغة المبالغة	١	﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص:٥]
المصدر	٥	﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس:٢]
الصفة المشبهة	٢	﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود:٧٢]

وجاء العجب في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الاستعظام: ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] أي: عجبت من إنكارهم البعث لشدة تحققك بمعرفته[٣].

الثاني: الكريم الشريف: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

أي: كريمًا شريفًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٤٤٦.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٣٣٨.
(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٢٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الذهول:

الذهول لغة:

أصل مادة (ذهل) تدل على شغل عن شيء بذعر أو غيره، ذهلت عن الشيء أذهل، إذا نسيته أو شغلت به، وأذهلني عنه كذا[١].

الذهول اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «الذهول: شغل يورث حزنًا ونسيانًا»[٢].

وقال الكفوي: «الذهول هو عدم استثبات الإدراك حيرة ودهشة»[٣].

الصلة بين الذهول والعجب:

هناك صلة وثيقة بين الذهول والعجب، إذ أن الذهول هو حالة ناتجة عن العجب.

٢ العجب:

العُجب لغة:

العجب بالضم: الزهو والكبر، والمعجب: الإنسان المعجب بنفسه أو بالشيء[٤].

العُجب اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «العجب: هو عبارة عن تصور استحقاق الشخص رتبة لا يكون مستحقًا لها»[٥].

وقيل: «العجب: مسرة بحصول أمر، يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله، بقول أو ما في حكمه، من فعل، أو ترك، أو اعتقاد»[٦].

الصلة بين العَجَب والعُجْب:

العُجب: تصور استحقاق الشخص رتبة لا يكون مستحقًّا لها، أما العَجَب: فهو تغير النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٦٣.
(٢) المفردات ص ٣٣٢.
(٣) الكليات ص ٥٠٦.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٤٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٢، تاج العروس، الزبيدي، ٣/ ٣١٨.
(٥) التعريفات، ص ١٤٧.
(٦) البحر الزخار، ٦/ ٤٩٠.

التعجب وصوره

التعجب له صور كثيرة ومتعددة، منها ما يكون في العقائد، ومنها ما يكون في الأمور الخارقة للعادة، ومنها ما يكون في الأخلاق والأعمال.

أولًا: صور التعجب في مسائل العقيدة:

١ . التعجب من وحدانية الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية وما سبقها من آيات روايات منها: أن جماعة من قريش اجتمعوا في نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب، لنكلمه في شأن ابن أخيه، فلما دخلوا على أبي طالب قالوا له: أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه، فقال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قريش، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك، فقال صلى الله عليه وسلم: (يا عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟) قال: وإلام تدعوهم؟ قال: (أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم)، فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينها لك وعشرة أمثالها، فقال صلى الله عليه وسلم: (تقولون: لا إله إلا الله)، فنفر أبو جهل وقال: سلنا غير هذا، فقال صلى الله عليه وسلم: (لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي، ما سألتكم غيرها)، فقاموا غضابا، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذي أرسلك بهذا[1].

قال طنطاوي: «والاستفهام للإنكار، أي: أجعل محمد صلى الله عليه وسلم الآلهة المتعددة، إلهًا واحدا، وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: إن هذا الذي طلبه منا، ودعانا إليه، لشيء قد بلغ النهاية في العجب والغرابة ومجاوزة ما يقبله العقل، وعجابٌ أبلغ من عجيب، فلفظ عجابٌ صيغة مبالغة سماعية.

وقد حكاها سبحانه عنهم للإشعار بأنهم كانوا يرون- لجهلهم وعنادهم- أن ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو شيء قد تجاوز الحد في العجب والغرابة، واسم الإشارة يعود إلى جعله صلى الله عليه وسلم الآلهة إلهًا واحدا، لأنهم يرون- لانطماس بصائرهم-

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٦.

أن ذلك مخالف مخالفة تامة لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عبادة للأصنام، وما كان مخالفا لما ورثوه عن آبائهم فهو- في زعمهم- متجاوز الحد في العجب»[1].

٢. التعجب من عبادة غير الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

الاستفهام في قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ لإنكار واقعهم والتعجيب مما وقع منهم، وتوبيخهم على جهلهم وغفلتهم، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الضالين من النصارى وأشباههم في الكفر والشرك قل لهم: أتعبدون معبودات غير الله تعالى هذه المعبودات وأشباههم في الكفر والشرك، لا تملك لكم ضرًّا، كالمرض والفقر، ولا تملك أيضًا أن تنفعكم بشيء من النفع كبسط الرزق وغير ذلك مما أنتم في حاجة إليه[2].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

بعدما وقع من إبراهيم عليه السلام تحطيم الأصنام التي كان يعبدها قومه، جاؤوه مسرعين إليه وهم في قمة الغضب، فلما رآهم إبراهيم عليه السلام لم يأبه بهم، بل رد عليهم ردًّا منطقيًّا سليمًا ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: قال لهم موبخا ومؤنبًا ومتعجبًا: أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها وتقطعونها من الحجارة أو من الخشب بأيديكم، وتتركون عبادة الله تعالى الذي خلقكم وخلق الذي تعملونه من الأصنام وغيرها[3].

٣. التعجب من بشرية الرسل.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

يبين سبحانه الأسباب التي أدت إلى سوء عاقبة الكافرين، وما أصابهم من هلاك ودمار، أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالآيات البينات، وبالمعجزات الواضحات، الدالة على صدقهم، فما كان من هؤلاء الأقوام إلا أن أعرضوا عن دعوة الرسل، وقال كل قوم منهم لرسولهم على سبيل الإنكار والتكذيب والتعجب: أبشر مثلنا يهدوننا إلى الحق والرشد؟!!، فما كان منهم إلا الكفر بسبب هذا القول الفاسد[4].

٤. التعجب من نزول الوحي على البشر.

قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٢/ ١٣٣.
(٢) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي، ٤/ ٣٧٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٠.
(٣) انظر: روح البيان، الألوسي ٧/ ٤٧١.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٤٥٥.

﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

معنى الآية الكريمة: أبلغ الجهل وسوء التفكير بمشركي مكة ومن على شاكلتهم، أن كان إيحاؤنا إلى رجل منهم يعرفهم ويعرفونه لكي يبلغهم الدين الحق، أمرًا عجبًا، يدعوهم إلى الدهشة والاستهزاء بالموحى إليه صلى الله عليه وسلم حتى لكأن النبوة في زعمهم تتنافى مع البشرية، إن الذي يدعو إلى العجب حقًّا هو ما تعجبوا منه؛ لأن الله تعالى اقتضت حكمته أن يجعل رسله الى الناس من البشر؛ لأن كل جنس يأنس لجنسه، وينفر من غيره، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته[1].

قال الزمخشري رحمه الله: « فإن قلت: فما معنى اللام في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ وما الفرق بينه وبين قولك: كان عند الناس عجبا؟

قلت: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها. ونصبوه علمًا لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في «عند الناس» هذا المعنى، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلًا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولًا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم البعث، وينذر بالنار ويبشر بالجنة، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرًا مثلهم.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضًا؛ لأن الله تعالى إنما يختار من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال لما اختير له من النبوة، والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ: ٣٧].

والبعث للجزاء على الخير والشر، هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبًا إنما العجب والمنكر في العقول، تعطيل الجزاء»[2].

وقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩].

والاستفهام في هذه الآية للإنكار والتوبيخ، أي: أفمن هذا القرآن وما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات تتعجبون،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٢، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٢٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٢٧.

وتنكرون كونه من عند الله تعالى[1].

٥. التعجب من كون الرسول من القوم أنفسهم.

قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾ مأخوذ من العجب، وهو تغير في النفس من أمر لا ترتاح إليه، وتخفى لديها أسبابه، والمعنى: وعجب هؤلاء الكافرون من مجيء منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك، ويأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وقال هؤلاء الكافرون عندما دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الدين الحق ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ أي: قالوا: هذا الرسول ساحر؛ لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها، وكذاب فيما يسنده إلى الله عز وجل من أنه سبحانه أرسله إلينا[2].

٦. التعجب من البعث بعد الموت.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ أي: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث- لأن من شاهد ما عدد سبحانه من الآيات الدالة على قدرته، أيقن بأن من قدر على إنشائها، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره والله تعالى لا يتعجب، ولا يجوز عليه التعجب، لأنه- أي التعجب- تغير النفس بما تخفى أسبابه، وذلك في حقه تعالى محال، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون»[3].

وعليه فإن معنى الآية يكون وإن تعجب من شيء- أيها الرسول الكريم- فاعجب من قول أولئك المشركين: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ أي: أإذا صرنا ترابا وعظاما نخرة بعد موتنا أإنا بعد ذلك لنعاد إلى الحياة مرة أخرى من جديد، والاستفهام للإنكار، لاستبعادهم الشديد إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى لمحاسبتهم على أعمالهم[4].

٧. التعجب من أحداث الساعة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ٣].

والمراد بالإنسان في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ جنسه فيشمل المؤمن والكافر، والاستفهام: المقصود به التعجب مما حدث من أهوال، والمعنى: وقال كل إنسان على سبيل الدهشة والحيرة والتعجب، أي شيء حدث للأرض، حتى جعلها تضطرب هذا الاضطراب الشديد[5].

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٢٠٣.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢١٩٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٨٤.
(٤) انظر: الصحيح المسبور، حكمت ياسين، ٣/ ١٠٥.
(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم

٨. التعجب من القرآن المعجز.

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

أي: قل يا محمد صلى الله عليه وسلم للناس، إن الله تعالى قد أخبرك عن طريق أمين وحيه جبريل: إن جماعة من الجن قد استمعوا إليك وأنت تقرأ القرآن، فقالوا- على سبيل الفرح والإعجاب بما سمعوا-: إنا سمعنا من الرسول صلى الله عليه وسلم قرآنًا عجبًا، أي: إنا سمعنا قرآنا جليل الشأن، بديع الأسلوب، عظيم القدر، ووصفهم للقرآن بكونه قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد يدل على تأثرهم به تأثرًا شديدًا، وعلى إعجابهم العظيم بنظمه المتقن، وأسلوبه الحكيم، ومعانيه البديعة، ولذا أعلنوا إيمانهم به بدون تردد[(١)].

ثانيًا: صور التعجب في الأمور الخارقة للعادة:

١. الإنجاب عن عقم وكبر.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢-٧٣].

عندما تصل المرأة سن اليأس ولم يكن لها ولد، ثم تأتيها مثل هذه البشارة يهتز كيانها، ويزداد عجبها، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

والمراد بها هنا: التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك، وهي كلمة كثيرة الدوران على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يدهشن له، ويتعجبن منه، أي: قالت بدهشة وعجب عند ما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد: يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز، قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن طويل، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ أي: زوجي إبراهيم شيخًا كبيرًا متقدمًا في السن، وقد رد عليها الملائكة بقولهم: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: أتستبعدين على قدرة الله تعالى أن يرزقك الولد وأنت وزوجك في هذه السن المتقدمة؟ لا أنه لا ينبغي لك أن تستبعدي ذلك، لأن قدرة الله لا يعجزها شيء، فالاستفهام هنا المراد به إنكار تعجبها واستبعادها البشارة، وإزالة أثر ذلك من نفسها إزالة تامة[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ١٦٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١١٨، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١١٥.

الخطيب، ١٦/ ١٦٥٠.

﴿ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

قال زكريا عليه السلام مخاطبًا ربه بعد أن بشره بابنه يحيى: يا رب كيف يكون لي غلام، وحال امرأتي أنها كانت عاقرًا في شبابها وفي شيخوختها، وحالي أنا أنني قد بلغت من الكبر عتيًّا، أي: قد تقدمت في السن تقدمًا كبيرًا[(١)].

قال طنطاوي: «فإن قيل: ما المراد باستفهام زكريا عليه السلام مع علمه بقدرة الله تعالى على كل شيء؟ فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار؛ لأنه لم يكن يعلم أن الله تعالى سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها، ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته، ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتي الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته. وليس المقصود به استحالة ذلك على قدرة الله تعالى؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء»[(٢)].

٢. الإنجاب من غير زوج.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

هذا رد مريم عليها السلام على جبريل عليه السلام عندما جاء ليخبرها بأنه سيهب لها بإذن الله عز وجل غلامًا زكيًّا، فتقول مريم عليها السلام في تعجب شديد ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي﴾ قالت على سبيل التعجب مما سمعته: كيف يكون لي غلام، والحال أني لم يمسني بشر من الرجال عن طريق الزواج الذي أحله الله تعالى، ولم أك في يوم من الأيام بغيًا؟! أي: فاجرة تبغي الرجال، أو يبغونها للزنا بها[(٣)].

وقال الجمل في حاشيته: «وإنما تعجبت مما بشرها به جبريل؛ لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا بعد الاتصال برجل، فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداءً، كيف وقد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله تعالى من غير أب أو أم»[(٤)].

٣. قصة أصحاب الكهف.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

قال الإمام الرازي: «اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف، وسألوا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان، فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٣٨٠.
(٢) التفسير الوسيط، ٩/ ١٨.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٢/ ١٨١.
(٤) حاشية الجمل على الجلالين، ٣/ ٥٦.

﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ لا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب؛ فإن من كان قادرًا على خلق السموات والأرض، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات وحيوان ومعادن، ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزًا خالية من الكل، كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم؟!»[1].

يقول الباحث: وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة، بيان أن قصة أصحاب الكهف ليست شيئًا عجبًا بالنسبة لقدرة الله عز وجل.

٤. حوت موسى ويوشع عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

قال يوشع لموسى عليهما السلام تذكر وانتبه واستمع إلى ما سألقيه عليك من خبر هذا الحوت، أرأيت ما دهاني في وقت أن أوينا ولجأنا إلى الصخرة التي عند مجمع البحرين، فإني هناك نسيت أن أذكر لك ما شاهدته منه من أمور عجيبة، فقد عادت إليه الحياة، ثم قفزت في البحر، وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذي طلبه منه موسى، للإشعار بأن الغداء الذي طلبه موسى منه، هو ذلك الحوت الذي فقداه، وما أنساني تذكيرك بما حدث من الحوت إلا الشيطان الذي يوسوس للإنسان، بوساوس متعددة، تجعله يذهل وينسى بعض الأمور الهامة، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي: نسيت أن أخبرك بأن الحوت عند ما أوينا إلى الصخرة عادت إليه الحياة، واتخذ طريقه في البحر اتخاذًا عجيبًا، حيث صار يسير فيه وله أثر ظاهر في الماء، والماء من حوله كالقنطرة التي تنفذ منها الأشياء[2].

قال الرازي: قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ فيه وجوه:

الأول: أن قوله ﴿عَجَبًا﴾ صفة لمصدر محذوف، كأنه قيل: واتخذ سبيله في البحر اتخاذا عجبا، ووجه كونه عجبا، انقلابه من المكتل وصيرورته حيًّا وإلقاء نفسه في البحر.

الثاني: أن يكون المراد منه ما ذكرنا من أنه تعالى جعل الماء عليه كالطاق وكالسراب.

الثالث: قيل: إنه تم الكلام عند قوله واتخذ سبيله في البحر ثم قال بعده: عجبًا والمقصود منه تعجب يوشع من تلك الحالة العجيبة التي رآها، ثم من نسيانه لها»[3].

(١) مفاتيح الغيب، ٢١/ ٤٢٨.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٢١.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٨٠.

ثالثًا: صور التعجب في الأخلاق والأعمال:

١. التعجب من ارتكاب الفواحش.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤-٥٥].

قال لوط عليه السلام لقومه متعجبًا من فعلهم أتأتون الفاحشة التي لم يسبقكم إليها أحد، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وأنتم تبصرون بأعينكم أنها تتنافى مع الفطرة السوية حتى بالنسبة للحيوان الأعجم فأنتم ترون وتشاهدون أن الذكر من الحيوان لا يأتي الذكر، وإنما يأتي الأنثى، حيث يتأتى عن طريقها التوالد والتناسل وعمارة الكون، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملة حالية المقصود بها زيادة تبكيتهم وتوبيخهم؛ لأنهم يشاهدون تنزه الحيوان عنها، كما يعلمون سوء عاقبتها، وسوء عاقبة الذين خالفوا أنبياءهم من قبلهم، وقوله سبحانه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ تأكيدٌ للإنكار السابق، وتوضيح للفاحشة التي كانوا يأتونها، أي: أإنكم- أيها الممسوخون في فطرتكم وطبائعكم- لتصبون شهوتكم التي ركبها الله تعالى فيكم في الرجال دون النساء اللاتي جعلهن الله تعالى محل شهوتكم ومتعتكم[(١)].

قال الألوسي: «والجملة الكريمة تثنية للإنكار، وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام وتحلية الجملة بِحَرْفَيِّ التأكيد، للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد، لكمال شناعته، وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية، لزيادة التقبيح والتوبيخ»[(٢)].

٢. التعجب من مخالفة القول العمل.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

كيف يليق بكم يا معشر اليهود، وأنتم تأمرون الناس بأمهات الفضائل، وألوان الخيرات، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون به غيركم، وأنتم مع ذلك تقرؤون توراتكم، وتدركون أي عقوبة أليمة لمن يأمر الناس بالخير وينسى نفسه، أفلا عقل لكم يحبسكم عن هذا السفه الذي ترديتم فيه، ويحذركم من سوء عاقبته، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مزيد تقبيح لشأنهم، ذلك أن قراءتهم لكتبهم أبطلت اعتذارهم بالجهل الذي قد يتشبث به بعض الفاسقين

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٣٦٨، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦١٣.
(٢) روح البيان ١٩/ ٢١٦.

على أمر الله عندما ينكر الناس عليهم فسوقهم، وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أسمى أنواع الهداية والإرشاد السليم، فإن من ألطف الأساليب في الخطاب والتوجيه، أن يكون للموجه إليه النصح صفة من شأنها أن تسوقه إلى خير، ولكنه ينساق إلى غيره من أنواع الشرور فيقع فعله من الناس موقع الدهشة والغرابة والتعجب، فيذكر له مسدي النصح تلك الصفة في معرض الاستفهام بغية تذكيره بأن ما صدر منه لا يلتقى مع ما عرف عنه[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

والاستفهام في هذه الآية للإنكار والتوبيخ والتعجب من الذي يقول قولًا لا يؤيده فعله؛ لأن هذا القول إما أن يكون كذبًا، وإما أن يكون خُلفًا للوعد، وكلاهما يبغضه الله تعالى، فهذا نداء من الله تعالى يا من آمنتم بالله واليوم الآخر، لماذا تقولون قولًا، تخالفه أفعالكم، بأن تزعموا بأنكم لو كلفتم بكذا لفعلتموه، فلما كلفتم به قصرتم فيه، أو أن تقولوا بأنكم فعلتم كذا وكذا، مع أنكم لم تفعلوا ذلك[2].

قال الزمخشري رحمه الله: «ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم وهذا من أفصح الكلام وأبلغه في معناه، وقصد في «كبر» التعجب من غير لفظه، ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله وأسند إلى أن تقولوا، ونصب مقتًا على التمييز، للدلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه، لفرط تمكن المقت منه.

واختير لفظ المقت، لأنه أشد البغض وأبلغه، ومنه قيل: نكاح المقت- وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه-، وإذا ثبت كبر مقته عند الله، فقد تم كبره وشدته، وانزاحت عنه الشكوك»[3].

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١/ ١١٢، بيان المعاني، العاني ٥/ ٣٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٧٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٥٢٣.

أنواع الإعجاب

الإعجاب له أنواع متعددة، كالإعجاب بالأقوال والإعجاب بالهيئات والإعجاب بالكثرة، هذا سيكون محور حديثنا في هذا المبحث.

أولًا: الإعجاب بالأقوال:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

ومن الناس فريق يروقك منطقهم، ويعجبك بيانهم، ويحسن عندك مقالهم، فأنت معجب بكلامهم الحلو الظاهر، المر الباطن، وأنت في هذه الدنيا لأنك تأخذ الناس بظواهرهم، أما في الآخرة فلن ﴿يُعۡجِبُكَ﴾ أمرهم لأنهم ستنكشف حقائقهم أمام الله الذي لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبهم عقابا أليما؛ لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح. وعلى هذا التفسير يكون قوله: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ متعلقًا بيعجبك.

وبعضهم يجعل قوله: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ متعلقًا بالقول، فيكون المعنى عليه ومن الناس فريق يعجبك قولهم إذا ما تكلموا في شؤون الدنيا ومتعها؛ لأنها منتهى آمالهم، ومبلغ علمهم، وأصل حبهم، ومن أحب شيئا أجاد التعبير عنه، أما الآخرة فهم لا يحسنون القول فيها، لأنهم لا يهتمون بها، بل هم غافلون عنها، ومن شأن الغافل عن شيء ألا يحسن القول فيه[1].

ويبدو أن تعلق الجار والمجرور بـ﴿يُعۡجِبُكَ﴾ أرجح، لأنه يتفق مع السياق حيث إن سياق الحديث في شأن الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويخدعون الناس بمعسول بيانهم مع أن نفوسهم مريضة، وليس في شأن الذين يحسنون الحديث عن شؤونها المختلفة، بل إن بعض الذين يحسنون الحديث في شؤون الدنيا لم يضيعوا أخراهم وإنما عمروها بالعمل الصالح، فهم جامعون بين حسنتي الدنيا والآخرة.

ثانيًا: الإعجاب بالهيئات:

قال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٞ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢١].

أي: ولأنثى رقيقة مؤمنة مع ما بها من الرق وقلة الجاه والجمال خير في التزوج بها من امرأة حرة مشركة ولو أعجبتكم بجمالها ونسبها وغير ذلك من منافع دنيوية، لأن ما يتعلق بالمنافع الدينية يجب أن يقدم على المنافع الدنيوية، ولأن الزواج ارتباط روحي بين قلبين، ومن العسير أن يتم هذا الترابط بين قلب يخلص لله في عبادته، وقلب لا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٢٩، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٦٥.

يدين بذلك[1].

قال طنطاوي: «وصدرت الجملة بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغة في الحمل على الانزجار، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه أن يجعلوا الدين أساس رغبتهم في الزواج»[2]، فقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)[3].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: يعجب الخبراء بالزراعة لقوته وحسن هيئته، والمعنى: أن صفة المؤمنين في الإنجيل، أنهم كالزرع، يظهر في أول أمره رقيقا ضعيفا متفرقا، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد، وتعجب جودته أصحاب الزراعة، العارفين بها، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، كانوا في أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة، حتى بلغوا ما بلغوا في ذلك[4].

قال الزمخشري: «وهذا مثل ضربه الله تعالى لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده، ثم قواه الله تعالى بمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها، حتى يعجب الزراع»[5].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: هذه الحياة الدنيا حالها وصفتها ومثلها كمثل مطر أعجب الكفار، وَرَاقَهُمْ وَسَرَّهُمْ ما ترتب على هذا المطر، من نبات جميل نبت من الأرض بعد هطول الغيث عليها، ثم يجف وييبس بعد خضرته، ثم يكون فتاتًا هشيمًا متكسرًا متحطمًا بعد

(١) انظر: تيسير التفسير، القطان ١/ ١٢٥.
(٢) التفسير الوسيط، الطنطاوي ١/ ٤٨٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم ٥٠٩٠، ٧/ ٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم ١٤٦٦، ٢/ ١٠٨٦.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٥١٠.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٤٧.

يبسه، تعصف به الرياح[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

يرسم سبحانه للمنافقين صورة تجعل كل عاقل يستهزئ بهم، ويحتقرهم، ويسمو بنفسه عن الاقتراب منهم، والمعنى: وإذا رأيت- أيها الرسول الكريم- هؤلاء المنافقين، أعجبتك أجسامهم، لكمالها وحسن تناسقها، وإن يقولوا قولا حسبت أنه صدق؛ لفصاحته، وأحببت الاستماع إليه لحلاوته، فهم أجسام تعجب، وأقوال تغري بالسماع إليها، ولكنهم قد خلت قلوبهم من كل خير، وامتلأت نفوسهم بكل الصفات الذميمة[2].

قال القرطبي: «قال ابن عباس: كان عبدالله بن أبي، وسيمًا جسيمًا صحيحًا صبيحًا، ذلق اللسان، فإذا قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم مقالته»[3].

ثالثًا: الإعجاب بالكثرة:

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

قل- يا محمد- للناس: إنه لا يستوي عند الله عز وجل ولا عند العقلاء القبيح والحسن من كل شيء، لأن الشيء القبيح- في ذاته أو في سببه أو في غير ذلك من أشكاله- بغيض إلى الله وإلى كل عاقل، وسيكون مصيره إلى الهلاك والبوار، أما الشيء الطيب الحسن فهو محبوب من الله ومن كل عاقل، ومحمود العاقبة دنيا ودينا.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ زيادة في التنفير من الشيء الخبيث، وحض على التمسك بما هو طيب، أي: لا يستوي في ميزان الله ولا في ميزان العقلاء الخبيث والطيب، حتى ولو كان الفريق الخبيث كثير المظهر، براق الشكل، تعجب الناظرين هيئته فلا تغتر به أيها العاقل، ولا تؤثر في نفسك كثرته وسطوته؛ فإنه مهما كثر وظهر وفشا، فإنه سيئ العاقبة، سريع الزوال، لذته تعقبها الحسرة، وشهوته تتلوها الندامة، وسطوته تصحبها الخسارة والكراهية، وطريقه المليئة بالدنس والقذر يجب أن يوصد أبوابها الأخيار الشرفاء، أما الفريق الطيب أو الشيء الطيب فهو محمود العاقبة، لذته الحلال يباركها الله، وثماره الحسنة تؤيدها شريعته وتستريح لها العقول السليمة، والقلوب النقية من كل دنس وباطل وطريقه المستقيم- مهما قل- سالكوه- هو الطريق الذي يوصل إلى كل خير وفلاح[4].

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٣٢٦.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٩٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٢٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير،

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

أي: ويوم غزوة حنين، وهو اليوم الذي راقتكم فيه كثرتكم فاعتمدتم عليها حتى قال بعضكم: لن نغلب اليوم من قلة، ولكن هذه الكثرة التي أعجبتم بها لم تنفعكم شيئًا من النفع في أمر العدو، بل انهزمتم أمامه في أول الأمر، وضاقت في وجوهكم الأرض مع رحابتها وسعتها بسبب شدة خوفكم، ثم وليتم الكفار ظهوركم منهزمين لا تلوون على شيء[1].

[انظر: الغرور: التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد]

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الدعوة، الغرور

٣/ ٢٠٣، التفسير المنير، الزحيلي ٧/ ٧٤.

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ١/ ٨٧٠.

العدل

عناصر الموضوع

مفهوم العدل	١٥٦
العدل في الاستعمال القرآني	١٥٧
الألفاظ ذات الصلة	١٥٨
الحث على العدل	١٦٠
مجالات العدل	١٧٨
ثمرات إقامة العدل	٢٠٣

مفهوم العدل

أولاً: المعنى اللغوي:

العدل مصدر عدل يعدل عدلًا، وهو مأخوذ من مادة «ع د ل» التي تدل على معنيين متقابلين: أحدهما يدل على الاستواء، والآخر على الاعوجاج[1]، ويرجع لفظ العدل هنا إلى المعنى الأول، وإذا كان العدل مصدرًا، فمعناه: خلاف الجور، وهو ما قام في النفوس أنه مستقيم، وقد يستعمل هذا المصدر استعمال الصفات، ويرادفه في معناه المصدري العدالة والعدولة والمعدلة والمعدلة، يقال: فلان من أهل المعدلة، أي: من أهل العدل، وعدل عن الطريق عدولًا مال عنه وانصرف[2]. والعَدل والعِدل والعَديل: النظير والمثيل[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج العدل عن معنى الاستقامة على الحق، العدل هو الحكم بالحق، أو فصل الحكومة على ما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا الحكم بالرأي المجرد[4].

وقيل: «بذل الحقوق الواجبة، وتسوية المستحقين في حقوقهم»[5].

وقال ابن حزم: «هو أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه»[6].

وقال الجرجاني: «العدل: الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط، فالعدالة في الشريعة: عبارة عن الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب مما هو محظور دينًا»[7].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي فكلاهما يدلان على الاستواء والاستقامة، إلا أن المعنى الاصطلاحي خص بالاستقامة على الحق.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٤٦، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٦٥١.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ١١، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٦٦٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٠٦، تاج العروس، الزبيدي ٢٩/ ٤٤٤.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٢٣.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٨٠.
(٥) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، السعدي ص٢٥٣.
(٦) مداواة النفوس ص٨١.
(٧) انظر: التعريفات ص١٥٣.

العدل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عد ل) في القرآن الكريم (٢٨) مرة، يخص موضوع البحث منها(٢٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	١١	﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾[الأنعام:٧٠]
الفعل الأمر	٢	﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨]
المصدر	١٤	﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾[النحل:٩٠]

وجاء العدل في الاستعمال القرآني على أربعة أوجه[٢]:

الأول: الفداء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] يعني: فداء.

الثاني: القيمة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ [المائدة: ٩٥] يعني: قيمة ذلك بصيام.

الثالث: الشرك: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] يعني: يشركون.

الرابع: الإنصاف: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٤٨-٤٤٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٤٢-٣٤٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ المساواة:

المساواة لغة:

مصدر سوي، والسوى: العدل، والسواء من المساواة تقول: بنو فلان سواء، إذا استووا في خير أو شر، فإذا قلت: سواسية لم يكن إلا في شر[١].

المساواة اصطلاحًا:

اتفاق الشيئين في الكمية[٢].

الصلة بين العدل والمساواة:

إن المساواة هي الغاية التي تسعى العدالة إلى تحقيقها، وهي الغاية المرجوة منها، والعدل -في مجال الحكم- هو الحكم بالسوية[٣]، ولما كانت العدالة خلقًا أو هيئة نفسانية تصدر عنها المساواة؛ فقد اقترن الأمران، وارتبطا ارتباطًا وثيقًا؛ لأن العادل من شأنه أن يساوي بين الأشياء التي هي غير متساوية؛ ولما كان الأمر كذلك، فإن كليهما قد يستعمل استعمال الآخر تسامحًا[٤]، ولكنهما غالبًا ما يستعملان معًا.

٢ الإنصاف:

الإنصاف لغة:

إعطاء الحق، وأنصف الرجل صاحبه إنصافًا، أي: عدل، وأنصف: إذا أخذ الحق، وأعطى الحق، والنصفة: اسم الإنصاف، وتفسيره: أن تعطيه من نفسك النصف، أي: تعطيه من الحق كالذي تستحق لنفسك. ويقال: انتصفت من فلان أخذت حقي كاملًا[٥].

الإنصاف اصطلاحًا:

قال المناوي: «الإنصاف: هو العدل في المعاملة بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا ما يعطيه، ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله، وهو والعدل توأمان نتيجتهما علو الهمة، وبراءة

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٢٣٧.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص٨٤٣.
(٣) تهذيب الأخلاق، ابن مسكويه ص٩٨.
(٤) تهذيب الأخلاق، ابن مسكويه ص١٠٧.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٣٣٢.

الذمة باكتساب الفضائل، وتجنب الرذائل»[1].

الصلة بين العدل والإنصاف:

«إن الإنصاف إعطاء النصف، والعدل يكون في ذلك وفي غيره، ألا ترى أن السارق إذا قطع قيل: إنه عدل عليه، ولا يقال: إنه أنصف، وأصل الإنصاف: أن تعطيه نصف الشيء وتأخذ نصفه من غير زيادة ولا نقصان، وربما قيل: أطلب منك النصف، كما يقال أطلب منك الإنصاف»[2].

٣ القسط:

القسط لغة:

القسط بالكسر: العدل، يقال أقسط يقسط فهو مقسطٌ: إذا عدل، وقسط يقسط فهو قاسطٌ: إذا جار، والقسط أيضًا: مكيال، وهو نصف صاع[3].

القسط اصطلاحًا:

«القسط بالكسر، النصيب بالعدل»[4].

الصلة بين العدل والقسط:

إن القسط هو: العدل البين الظاهر، ومنه سمي المكيال قسطًا، والميزان قسطًا؛ لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهرًا، وقد يكون من العدل ما يخفى ولهذا قلنا: إن القسط هو النصيب الذي بينت وجوهه، وتقسط القوم الشيء تقاسموا بالقسط[5].

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٦٤.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٦٢٦، الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٥٢.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص٢٧١.
وانظر: الكليات، الكفوي ص٧٣٣.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٤.

الحث على العدل

تنوعت أساليب القرآن في الحث على العدل، وهي كما يأتي:

أولًا: أسلوب الطلب:

هناك آيات كثيرة تأمر بالعدل، جملة وتفصيلًا في مجالات كثيرة، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

قال الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: وليكتب كتاب الدين إلى الأجل المسمى بين الدائن والمدين ﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ يعني: بالحق والإنصاف في كتابه الذي يكتبه بينهما، بما لا يتحيف ذا الحق حقه، ولا يبخسه، ولا يوجب له حجة على من عليه دينه فيه بباطل، ولا يلزمه ما ليس عليه»[(١)].

وقال الماوردي: «وعدل الكاتب ألا يزيد فيه إضرارًا بمن هو عليه، ولا ينقص منه، إضرارًا بمن هو له»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

قال الزجاج: «ومعنى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: الذي يقوم بأمره؛ لأن الله أمر ألا نؤتي السفهاء الأموال، وأمر أن يقام لهم بها، فقال: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥].

فوليه الذي يقوم مقامه في ماله لو كان مميزًا»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾[النساء: ١٢٧].

وعن عائشة رضي الله عنها في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

قالت: «هذا في اليتيمة التي تكون عند الرجل لعلها أن تكون شريكته في ماله، وهو أولى بها، فيرغب عنها أن ينكحها؛ فيعضلها لمالها، ولا ينكحها غيره كراهية أن يشركه أحد في مالها»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

في هذه الآية يحذر المولى عز وجل النفوس الضعيفة التي تطبق ميزان العدل، وتشهد بالحق على الآخرين، وإذا كانت

(١) جامع البيان ٦/ ٥١.
(٢) النكت والعيون ١/ ٣٥٥.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٦٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي، ٧/ ١٦، رقم ٥١٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، ٤/ ٢٣١٥، رقم ٣٠١٨.

القضية تمسهم أو تمس أقاربهم فسرعان ما يميلون عن العدل، ويزيغون عن الحق.

قال ابن كثير: «يأمر الله تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعد على تركه في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

في هذه الآية الكريمة إشارة إلى الفضل مع العدل، ففيما يتعلق بالعدل فإن الإحسان فوقه؛ لأنه إذا كان العدل يعني أن يأخذ الإنسان ما له، ويعطي ما عليه؛ فإن الإحسان يعني أن يأخذ الإنسان أقل مما له، وأن يعطي أكثر مما عليه، فالإحسان بذلك زائد على العدل، وإذا كان تحري العدل من الواجبات؛ فإن تحري الإحسان ندب وتطوع، وكلاهما مأمور به، فالعدالة لابد منها لضبط الأمور، وإنصاف بعضهم من بعض.

وعندما سأل عمر بن عبد العزيز محمد بن كعب القرظي: صف لي العدل، قال: بخ، سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أبًا، ولكبيرهم ابنًا، وللمثل أخًا، وللنساء كذلك! وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، ولا تضربن في غضبك سوطًا واحدًا؛ فتكون من العادين، ذاك وصف العدل.

وقال ابن رجب الحنبلي: «فجوامع الكلم التي خص بها النبي صلى الله عليه وسلم نوعان: أحدهما: ما هو في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال الحسن البصري: «لم تترك هذه الآية خيرًا إلا أمرت به، ولا شرًا إلا نهت عنه»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

هذا أمر بالعدل المطلق في الأحكام والأعمال، وهو الأصل العام لجميع الأحكام بين الناس[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

قال الطبري: « السديد من الكلام: هو العدل والصواب»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

هذه الآية الكريمة تبين حرص الدعوة الإسلامية على بناء مجتمع العدل والقوة، وتوضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر يقوم على العدل والقوة، فالكتاب

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٩٠.

(٢) جامع العلوم والحكم ص٣.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٤٧٧.

(٤) جامع البيان ٧/ ٢٦.

والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل، وتكفل استمراره، والعدل الشامل يمتد إلى المسلم والذمي والكافر، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، والرجال والنساء، حيث تتحدد حقوق الجميع وفق موازين العدل دون احتكار، أو استغلال، أو استئثار، أو ظلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أخبر الله في كتابه أنه أنزل الكتاب والحديد؛ ليقوم الناس بالقسط، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] الآية.

ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بتولية ولاة الأمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور من طاعة الله تعالى»[(١)].

ثانيًا: أسلوب النهي عن ضده:

ضد العدل: الظلم، وأصله: وضع الشيء في غير موضعه، وكذلك ذكر غير واحد، قالوا: والعرب تقول: من أشبه أباه فما ظلم، أي: ما وضع الشبه في غير موضعه.

وأجمع العلماء سلفًا وخلفًا على تحريم الظلم، -ولو كان شيئًا يسيرًا-، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من اقتطع حق امرئٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة) فقال له رجلٌ: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: (وإن قضيبًا من أراكٍ)[(٢)].

قال الزرقاني: «لئلا يتهاون بالشيء اليسير، ولا فرق بين قليل الحق وكثيره في التحريم، أما في الإثم؛ فالظاهر أنه ليس من اقتطع القناطير المقنطرة من الذهب والفضة كمن اقتطع الدرهم والدرهمين، وهذا خرج مخرج المبالغة في المنع، وتعظيم الأمر وتهويله»[(٣)]. وقال الراغب الأصفهاني: «الظلم هو الانحراف عن العدل؛ ولذلك حد بأنه وضع الشيء في غير موضعه المخصوص به، وقد يسمى هذا الانحراف جورًا، ولما كانت العدالة تجري مجرى النقطة من الدائرة؛ فإن تجاوزها من جهة الإفراط عدوان وطغيان، والانحراف عنها في بعض جوانبها جور وظلم، والظلم أعم هذه الألفاظ استعمالًا»[(٤)].

«وقال أبو بكر بن الأنباري: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، يقال: ظلم الرجل

(١) الحسبة ص١٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، ١/ ١٢٢، رقم ١٣٧.

(٣) شرح الموطأ ٤/ ٥.

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب ص٢٥٣.

سقاءه، إذا سقا منه قبل أن يخرج زبده، قال الشاعر[1]:

وصاحب صدق لم تنلني شكاته
ظلمت وفي ظلمي له عامدًا أجر

أراد بالصاحب: وطب اللبن، وظلمه إياه: أن يسقيه قبل أن يخرج زبده، والعرب تقول: هو أظلم من حية؛ لأنها تأتي الحفر الذي لم تحفره فتسكنه، ويقال: قد ظلم الماء الوادي إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى[2].

وهناك آيات كثيرة قاضية بتحريم الظلم جملة وتفصيلًا، ومنها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال الزمخشري: «البغي: الظلم والكبر، أفرده بالذكر كما قال: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣].

فيه تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهانًا بأن يشرك به غيره»[3].

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: الظلم المجاوز للحد، وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله؛ لكونه ذنبًا عظيمًا، كقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾»[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قال الواحدي: «البغي: الكبر والظلم ﴿يَعِظُكُمْ﴾ ينهاكم عن هذا كله، ويأمركم أن تتحاضوا على ما فيه لله رضا؛ لكي تتعظوا»[5].

ولم يقتصر التحريم على ظلم الغير، بل نهانا ربنا سبحانه وتعالى عن ظلم النفس كذلك، فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

ومنع سبحانه كل سبب يؤدي إلى الظلم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

---

(١) البيت في لسان العرب ١٢/ ٣٧٥ دون نسبة، وروايته: «لم تربني» بدل «لم تنلني».
وانظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢٧٦، الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي ص ٣١٠، أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٦٢٧.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٥.
وانظر: جامع الرسائل لابن تيمية ١/ ١٢٤.

(٣) الكشاف ٢/ ١٠١.

(٤) فتح القدير ٢/ ٢٢٩.
وانظر: نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، صديق حسن خان ص٣٠١.

(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٣/ ٧٩.

قال الزمخشري: «لبغوا من البغي، وهو الظلم، أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة، وكفى بحال قارون عبرة»[1].

وكذلك هناك آيات كثيرة قاضية بوعيد الله للظالمين، ومنها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل[2].

وتكرير الفعل «يقتلون» للإشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافها في الوقت[3].

قال الطبري: «تأويل الآية إذًا: إن الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون آمريهم بالعدل في أمر الله ونهيه، الذين ينهونهم عن قتل أنبياء الله، وركوب معاصيه»[4].

وقال السعدي: «هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية أشد الناس جرمًا، وأي جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد، ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم وتعزيرهم، وتوقيرهم، ونصرهم، وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضًا الذين يأمرون الناس بالقسط، الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور، ونصحٌ له؛ فقابلوهم شر مقابلة فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها، المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح.

وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم،-قبحهم الله- ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين»[5].

وبين سبحانه وتعالى أن الظالمين لا ينتفعون بالقرآن الكريم؛ لفساد فطرتهم، فقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

(١) الكشاف ٤/ ٢٢٣.
وانظر: روح المعاني، الألوسي ١٣/ ٣٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢٧.
(٢) معاني القرآن، النحاس ١/ ٣٧٥.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٩، روح المعاني، الألوسي ٢/ ١٠٥.
(٤) جامع البيان ٦/ ٢٨٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ١٢٦.

قال قتادة: قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ به ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أنه لا ينتفع به، ولا يحفظه، ولا يعيه[1].

وقال الشعراوي: «لأنهم بظلمهم واستقبالهم فيوضات السماء بملكات سقيمة، وأجهزة متضاربة متعارضة، فلم ينتفعوا بالقرآن، ولم يستفيدوا برحمات الله»[2].

ونهانا ربنا سبحانه وتعالى عن مجرد الميل اليسير إلى من تلبس بأي أنواع الظلم القليل، فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

قال الزمخشري: «تأمل قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾، فإن الركون هو الميل اليسير، وقوله ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: إلى الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل: إلى الظالمين»[3].

وبين المولى أن عاقبة الظالمين وخيمة -وإن أمهلهم-، فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

فهذه الآية الكريمة تبين أن الله تعالى يمهل ولا يهمل، وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[4].

وتزداد خيبة الظالم حسب حجم ظلمه ونوعه، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

قال الشنقيطي: «خيبة كل ظالمٍ بقدر ما حل من الظلم»[5].

فعذاب الظالمين ليس عذابًا عاديًا، فوصفه الله عز وجل أنه كبير، فقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٣٩.
(٢) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٧١٣.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٣٣.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٥١، وفتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٠١، والمنار، محمد رشيد رضا لمحمد رشيد ١٢/ ١٤٠-١٤٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة)، ٦/ ٧٤، رقم ٤٦٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨٣.
(٥) أضواء البيان ٤/ ١٠١.

وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢][1].

وغير ذلك من الآيات التي تبين حال أهل الظلم وموقفهم بين يدي الله تعالى يوم الفصل والقضاء.

(١) من أهل العلم من جعل المقصود بالظلم في مثل هذه الآيات هو الشرك، ومنهم من أطلقه، وأدخل فيه كل أنواع الظلم، وجعل العذاب فيه مراتب.

ثالثًا: وصف الله تعالى بالعدل في صفاته وأفعاله:

الله سبحانه وتعالى حكم عدل، يضع الأشياء مواضعها، لا يضع شيئًا إلا في موضعه الذي يناسبه وتقتضيه حكمته وعدله تبارك وتعالى، فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يجزي أحدًا إلا بذنبه، لا يزاد في سيئاته، ولا ينقص من حسناته شيئًا، كما أنه تعالى لا يسوي بين المؤمن والكافر، والصالح والفاجر، بل يجازي كلا بعمله.

فهو سبحانه عدل فيما شرعه من الدين عن الغلو والتقصير إلى التوسط، وخير الأمور أوساطها، وليس لما جاوز العدل حظ من رشد، ولا نصيب من سداد.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦-٤١].

ومن أسمائه تعالى: العدل[2]، ودليله:

(٢) اختلف أهل العلم في عده اسمًا لله عز وجل، فجعله د.محمد بن خليفة التميمي في معتقد أهل السنة في أسماء الله الحسنى ص١٧٩ من الأسماء المقيدة لا المطلقة، معللًا أنه لم يصح وروده مطلقًا، ولم يعده من الأسماء الشيخ ابن عثيمين في القواعد المثلى، ولا الشيخ محمد الحمود في النهج الأسمى.
وعده اسمًا الخطابي وابن منده والحليمي والبيهقي وابن العربي والقرطبي وابن الأثير

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «العدل» هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم، وهو في الأصل مصدرٌ سمي به فوضع موضع العادل، وهو أبلغ منه؛ لأنه جعل المسمى نفسه عدلًا»[(١)].

وكذلك من أوصافه تعالى: العدل[(٢)]، فهو سبحانه على صراط مستقيم، في كل ما يقضيه ويقدره؛ فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه؛ فإنه على صراط مستقيم، ماضٍ في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك، وله الحمد، لا يخرج تصرفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا.

قال ابن القيم: «التوحيد والعدل هما جماع[(٣)] صفات الكمال، وصفات العدل والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم ونحوها أخص باسم الملك»[(٤)].

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل (٣٤)]: «أهانوا شرفاءها؛ لتستقيم لهم الأمور، فصدق الله قولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل (٣٤)].

قال ابن الأنباري: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ هذا وقف تام، فقال الله عز وجل تحقيقًا لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ

وابن القيم والسعدي والشرباصي ونور الحسن خان، ودليلهم: ما ورد في طريق الوليد بن مسلم عند الترمذي والطبراني وابن حبان وابن خزيمة والبيهقي وابن منده وغيرهم، ولكنه حديث ضعيف عند نقاد الحديث.

وعده صفةً الشيخ علوي السقاف في صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة ص٢٤٧ وقال: قد عد بعضهم [العدل] من أسماء الله تعالى، وليس معهم في ذلك دليل، والصواب أنه ليس اسمًا له، بل هو صفة.

(١) النهاية، ابن الأثير ٣/ ١٩٠.
وقال ابن الأثير ٤/ ٩٣: في أسماء الله تعالى المقسط هو العادل، يقال: أقسط يقسط فهو مقسط إذا عدل.
وقال الحليمي [كما في فتح الباري ١٣/ ٥٣٩]: هو المعطي عباده القسط، وهو العدل من نفسه، وانظر لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٨٣٩.

(٢) قال الدكتور صلاح الدين المنجد في المجتمع الإسلامي في ظل العدالة ص ١٥: لا نجد هذه الصفة لله في مفهوم اليهود ولا النصارى، فهو جل وعز في المفهوم الإسلامي العادل المطلق.

(٣) الجماع بضم الجيم وتشديد الميم: مجتمع أصل كل شيء.

(٤) مدارج السالكين ١/ ٣٣- ٤٣ باختصار وتصرف.
وانظر أيضًا: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ص ٨٩ حيث ذكر تحت عنوان أنواع التوحيد التي دعت إليها الرسل نوعين: هما توحيد الإثبات والمعرفة، والآخر توحيد الطلب والقصد، ولخص كلام ابن القيم هنا.

﴿يَفْعَلُونَ﴾[1].

وقال الشيخ ابن غازي: «فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ من تصديق الله تعالى لقول ملكة سبأ وهي كافرة، وهذا غاية العدل والإنصاف»[2].

وقال أبو حامد الغزالي: «من أراد أن يفهم وصف الله عز وجل بالعدل ينبغي له أن يحيط علمًا بأفعال الله تعالى من ملكوت السموات إلى منتهى الثرى.

حتى إذا لم ير في خلق الرحمن من تفاوت، ثم رجع إليه بصره فما رأى من فطور، ثم رجع مرة أخرى فانقلب إليه البصر خاسئًا وهو حسير، وقد بهره جمال ما رأى، وحيره اعتداله وانتظامه، فعند ذلك يعبق بفمه شيء من معاني عدله تعالى وتقدس.

وقد خلق الله أقسام الموجودات، جسمانيها وروحانيها، كاملها وناقصها، وأعطى كل شيء خلقه، وهو بذلك جواد، ورتبها في مواضعها اللائقة بها، وهو بذلك عدل، ولينظر الإنسان إلى بدنه؛ فإنه مركب من أعضاء مختلفة، فقد ركبه من العظم واللحم والجلد، وجعل العظم عمادًا مستبطنًا، واللحم صوانًا له مكتنفًا إياه، وكذلك جعل الجلد صوانًا للحم، فلو عكس هذا الترتيب وأظهر ما أبطن لبطل النظام، واختل العدل، وعلى هذا ينبغي أن تعلم أنه لم يخلق شيء في موضع إلا لأنه متعين له، ولو تيامن عنه أو تياسر أو تسفل أو تعلى؛ لكان ناقصًا أو باطلًا، أو قبيحًا، أو خارجًا عن المتناسب، كريهًا في المنظر، ألم تر أنه مثلًا لو خلق الأنف على غير وسط الوجه أو لو خلق على الجبهة أو على الخد لتطرق النقص إليه، ثم إن الإنسان لو ترقى ونظر في ملكوت السماوات والأرض وعجائبها؛ لرأى ما يستحقر فيه عجائب بدنه، وكيف لا؟ وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

هذا هو الطريق لمعرفة هذا الاسم؛ لأن معرفة الأسامي المشتقة من الأفعال لا تفهم إلا بعد فهم الأفعال، وأنت تعلم أن كل ما في الوجود من أفعال الله، فإذا كان الأمر كذلك فإن الواجب على العبد بعد إيمانه بأن الله عدل أنه لا يعترض عليه في تدبيره وحكمه وسائر أفعاله،-وافق مراده أم لم يوافق-؛ لأن كل ذلك عدل، وتيقنه أنه لو لم يفعل سبحانه وتعالى ما فعله؛ لحصل في الوجود أمر آخر هو أعظم ضررًا مما حصل، كما أن المريض لو لم يحتجم؛ لتضرر ضررًا يزيد على ألم الحجامة»[3].

وهناك آيات كثيرة يتجلى فيها وصف الله

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٩٥.

(٢) الإنصاف، أبو الحسن بن غازي ص ١٨ [كما في نضرة النعيم ٣/ ٥٩٥]..

(٣) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص٩٨- ١٠١ بتصرف شديد.

تعالى بالعدل، ومنها:

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: بالعدل[(١)].

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ فإنه بمعنى: أنه الذي يلي العدل بين خلقه.

والقسط هو العدل، من قولهم: «هو مقسط»، و«قد أقسط»، إذا عدل، ونصب ﴿قَآئِمَۢا﴾ على القطع»[(٢)].

وقال الراغب الأصفهاني: «وقوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: هو تعالى مراعٍ للعدالة بكل حال؛ وذلك حال مؤكدة»[(٣)].

وقال البيضاوي: «﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ مقيمًا للعدل في قسمه وحكمه، وانتصابه على الحال من الله، وإنما جاز إفراده بها، ولم يجز: جاء زيد وعمرو راكبًا؛ لعدم اللبس؛ كقوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

أو من هو والعامل فيها معنى الجملة، أي: تفرد قائمًا، أو أحقه؛ لأنها حال مؤكدة، أو على المدح، أو الصفة للمنفي، وفيه ضعف للفصل، وهو مندرج في المشهود به إذا جعلته صفة، أو حالًا من الضمير.

وقريء (القائم بالقسط) على البدل عن ﴿هُوَ﴾، أو الخبر لمحذوف»[(٤)].

وقال ابن القيم: «وقوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ القسط هو العدل، فشهد سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله، والتوحيد والعدل: هما جماع صفات الكمال؛ فإن التوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه، والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب، وموافقة الحكمة.

والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ هو كقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦]»[(٥)].

وقال محمد رشيد رضا: «أما قوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ فمعناه: أنه تعالى شهد هذه الشهادة قائمًا بالقسط، وهو العدل في الدين والشريعة، وفي الكون والطبيعة.

فمن الأول: تقرير العدل في الاعتقاد، كالتوحيد الذي هو وسطٌ بين التعطيل

(١) غريب القرآن، ابن قتيبة ١/ ١٠٣، معاني القرآن، النحاس ١/ ٣٧١.

(٢) جامع البيان ٦/ ٢٧٠.
والقطع هو الحال، إذ بينه الفراء في كلامه في معاني القرآن ١/ ٢٠٠ إذ قال: منصوب على القطع، لأنه نكرة نعت به معرفة، والزجاج في كلامه في معاني القرآن ١/ ٣٨٧ إذ قال: حال مؤكدة، لأن الحال المؤكدة تقع مع الأسماء.

(٣) تفسير الراغب ٢/ ٤٦٥.

(٤) أنوار التنزيل ٢/ ٩.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٣٣- ٤٣ باختصار وتصرف.

والشرك، ومن الثاني: جعل سنن الخليقة في الأكوان والإنسان الدالة على حقية الاعتقاد قائمةً على أساس العدل، فمن نظر في هذه السنن ونظامها الدقيق يتجلى له عدل الله العام، فالقيام بالقسط على هذا من قبيل التنبيه إلى البرهان على صدق شهادته تعالى في الأنفس والآفاق؛ لأن وحدة النظام في هذا العدل تدل على وحدة واضعه.

وهذا مما يفند تفسير بعضهم للشهادة بأنها عبارةٌ عن خلق ما يدل على الوحدانية من الآيات الكونية والنفسية، كذلك كانت أحكامه تعالى في العبادات والآداب والأعمال مبينةً على أساس العدل بين القوى الروحية والبدنية وبين الناس بعضهم مع بعضٍ؛ فقد أمر بذكره وشكره في الصلاة وغير الصلاة؛ لترقية الروح وتزكيته، وأباح الطيبات والزينة؛ لحفظ البدن وتربيته، ونهى عن الغلو في الدين والإسراف في الدنيا وذلك عين العدل، فهذا هو القسط في العبادات والأعمال الدنيوية.

وأما القسط في الآداب والأخلاق فهو صريحٌ في القرآن كصراحة الأمر بالعدل في الأحكام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وإذ قد تجلى لك صدق الشهادة؛ فعليك أن تقر بها قائلًا: لا إله إلا هو العزيز الحكيم، تفرد بالألوهية، وكمال العزة والحكمة، فلا يغلبه أحدٌ على ما قام به من سنن القسط، ولا يخرج شيءٌ منها عن مقتضى الحكمة البالغة»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

قال الشوكاني: «بالحق: هو العدل»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [إبراهيم: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

عن سعيد بن جبير: «﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ في الآخرة ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ حسابهم العدل لا يظلمهم ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ يعني: العدل المبين»[(٣)].

(١) تفسير المنار ٣/ ٢١١.
(٢) فتح القدير ١/ ٤٢٤.
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٣/ ١٥٥-٢٣٧ بإسناد فيه ابن لهيعة، وابن أبي حاتم في التفسير

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [لقمان: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وغير ذلك من عموم الآيات التي فيها وصف الله عز وجل، أو خلق السموات والأرض، أو إنزال الكتاب بالحق، الذي معناه العدل.

ومما نفاه الله عن نفسه مما يقتضي نقصًا في حقه -تبارك وتعالى- الظلم المنافي لكمال عدله، وذلك في آيات عديدة، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وغير ذلك كثير جدًا من الآيات الكريمات التي ينفي الله فيه صفة من أنقص الصفات وأشنعها، ألا وهي الظلم الذي هو: «وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ العدل وهو القسط، وجعل القسط -وهو موحد- من نعت الموازين، وهو جمع؛ لأنه في مذهب عدل ورضا ونظر.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ يقول: فلا يظلم الله نفسًا ممن ورد عليه منهم شيئًا؛ بأن يعاقبه بذنب لم يعمله، أو يبخسه ثواب عمل عمله، وطاعة أطاعه بها، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، ولا يعاقب مسيئًا إلا بإساءته»[(٢)].

وقال الزجاج: «﴿ٱلْقِسْطَ﴾ العدل،

٨/ ٢٥٦٠، رقم ١٤٣٠٧.

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٥٣٧، النفي في باب صفات الله عز وجل، أرزقي سعيداني ص ٣٣١ ٣٣٢، الجامع الصحيح في الأسماء والصفات، أبو عزيز المروعي ص ٢٦٥.

(٢) جامع البيان ١٨/ ٤٥١.

المعنى: ونضع الموازين ذوات القسط، وقسط مثل عدل، مصدر يوصف به، تقول: ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط»[1].

وقال الفراء: «وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ القسط من صفة الموازين، وإن كان موحدًا، وهو بمنزلة قولك للقوم: أنتم رضًا وعدلٌ، وكذلك الحق إذا كان من صفة واحدٍ أو اثنين أو أكثر من ذلك كان واحدًا»[2].

وقال البغوي: «﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: ذوات القسط، والقسط: العدل ليوم القيامة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقص من ثواب حسناتها، ولا يزاد على سيئاتها»[3].

وقال ابن عطية: «لما توعدهم بنفحة من عذاب الدنيا؛ عقب ذلك بتوعده بوضع الموازين، وإنما جمعها -وهو ميزان واحد- من حيث لكل أحد وزن يخصه، ووحد القسط وهو جاء بلفظ الموازين مجموعًا، من حيث القسط مصدر وصف به، كما تقول: قوم عدل ورضا»[4].

وقال القرطبي: «﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ جمع ميزانٍ، فقيل: إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلفٍ ميزانًا توزن به أعماله؛ فتوضع الحسنات في كفةٍ، والسيئات في كفةٍ، وقيل: يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد، يوزن بكل ميزانٍ منها صنفٌ من أعماله، كما قال[5]:

ملكٌ تقوم الحادثات لعدله
فلكل حادثةٍ لها ميزان

ويمكن أن يكون ميزانًا واحدًا عبر عنه بلفظ الجمع.

و﴿ٱلْقِسْطَ﴾ العدل، أي: ليس فيها بخسٌ ولا ظلمٌ، كما يكون في وزن الدنيا.

و﴿ٱلْقِسْطَ﴾ صفة الموازين، ووحد لأنه مصدرٌ، يقال: ميزان قسطٍ، وميزانان قسطٌ، وموازين قسطٌ، مثل رجالٌ عدلٌ ورضًا»[6].

وقال البيضاوي: «﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ العدل، توزن بها صحائف الأعمال، وقيل: وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل، وإفراد القسط لأنه مصدر وصف به

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٩٤.
وانظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٩٢، وفتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٥.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٢٠٥.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٩٠.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٨٥.

(٥) البيت لم نجده في كتب اللغة والأدب، ولم نعثر له على قائل، وإنما ذكره، دون نسبة، القرطبي في التفسير ١١/ ٢٩٣، والقسطلاني في إرشاد الساري شرح صحيح البخاري ١٠/ ٤٨٠، والقرطبي في التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٧٣٥، والشنقيطي في أضواء البيان ٤/ ١٥٩ وبعده:
تتصرف الأشياء في ملكوته
ولكل شيء مدة وأوان
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٩٣.

للمبالغة»[1].

وقال السعدي: «يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة التي يبين فيها مثاقيل الذر الذي توزن بها الحسنات والسيئات»[2].

وقال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة، فتوزن أعمالهم وزنًا في غاية العدالة والإنصاف، فلا يظلم الله أحدًا شيئًا، وأن عمله من الخير والشر -وإن كان في غاية القلة والدقة كمثقال حبةٍ من خردلٍ-؛ فإن الله يأتي به؛ لأنه لا يخفى عليه شيءٌ، وكفى به -جل وعلا- حاسبًا؛ لإحاطة علمه بكل شيءٍ.

وقوله في هذه الآية: ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ أي: العدل، وهو مصدرٌ وصف به؛ ولذا لزم إفراده، كما قال في الخلاصة[3]:

ونعتوا بمصدرٍ كثيرًا
فالتزموا الإفراد والتذكيرا

كما قدمناه مرارًا، ومعلومٌ أن النعت بالمصدر، يقول فيه بعض العلماء: إنه المبالغة، وبعضهم يقول: هو بنية المضاف المحذوف، فعلى الأول كأنه بالغ في عدالة الموازين حتى سماها القسط الذي هو العدل، وعلى الثاني فالمعنى: الموازين ذوات القسط»[4].

وترك الأخذ على يدي الظالم آذنٌ بعقوبة الجميع، فعن أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه قال: (أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب)[5].

ولما كان كثير من الظلمة لا يباشر الظلم بنفسه، بل يتخذ أعوانًا يعينونه ويسهلونه عليه، ولا يعلمون أنهم في الإثم سواء، نهانا سبحانه عن مساعدة الظالم، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

(١) أنوار التنزيل ٤/ ٥٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٥٢٤.
(٣) البيت من ألفية ابن مالك في النحو (الخلاصة) ص ٤٥.
(٤) أضواء البيان ٤/ ١٥٨.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٢، رقم ٤٣٣٨، واللفظ له، والترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، ٤/ ٣٧، رقم ٢١٦٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٢/ ١٣٢٧، رقم ٤٠٠٥، وأحمد في مسنده، ١/ ٢٠٨، رقم ٣٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٩٨، رقم ١٩٧٣

رابعًا: الثناء على أهل العدل:

جاء في غير موطن من الكتاب العزيز إعلان الحب الإلهي بكل وضوح للمقسطين، أهل العدل والإنصاف، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢- الحجرات: ٩ -الممتحنة: ٨].

وأثنى سبحانه على أهل العدل، فقال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ يقول: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يقول: يهتدون بالحق، أي: يستقيمون عليه ويعملون ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: وبالحق يعطون ويأخذون، وينصفون من أنفسهم فلا يجورون»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ومن الخلق الذين خلقنا ﴿أُمَّةٌ﴾ يعني: جماعة ﴿يَهْدُونَ﴾ يقول: يهتدون بالحق، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يقول: وبالحق يقضون، وينصفون الناس»[(٢)].

وقال محمد رشيد رضا: «الأصل السابع[(٣)]: هداية الناس بالحق والعدل به، وقد وصف الله تعالى بذلك خيار قوم موسى عليه السلام في آية (١٥٩) وخيار أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم في الآية (١٨١) فهذا من أصول دين الله العامة في جميع شرائعه، والحق هو الأمر الثابت المتحقق في الشرع إن كان شرعيًا، وفي الواقع ونفس الأمر إن كان أمرًا وجوديًا، والعدل ما تحري به الحق من غير ميلٍ إلى طرفٍ من الطرفين أو الأطراف المتنازعة فيه أو المتعلقة به، ويدخل في هذا الأصل الدعوة إلى الحق والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتضحية العامة والخاصة، والإصلاح بين الناس»[(٤)].

ووصف المولى سبحانه وتعالى من يمتنع عن الظلم والبغي بالإيمان والعمل الصالح، وأن إيمانهم هو الذي يمنعهم من هذا السلوك المستشري بين معظم الشركاء، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

قال نظام الدين النيسابوري: «إن أكثر

(١) جامع البيان ١٣/ ١٧٢.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٨٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٩١.

(٢) جامع البيان ١٣/ ٢٨٥.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٥٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥١٦.

(٣) من أصول التشريع في سورة الأعراف.

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٤٧٧.

الخلطاء موسوم بسمة الظلم إلا المؤمنين، وإنهم لقليل. و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ مزيدة للإبهام، وفيه تعجيب من قلتهم»[1].

وقال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهو يعني الشركاء يدل على أن العادة في أكثر الشركاء الظلم والبغي، ويدل عليه أيضًا قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾»[2].

وقال الألوسي: «إن كثيرًا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعضٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات إشارة إلى أن النفوس مجبولة على الظلم وسائر الصفات الذميمة، وإلى أن الذين تزكت أنفسهم قليل جدًا بالنسبة إلى الآخرين»[3].

وقال السعدي: «هذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ لأن الظلم من صفة النفوس ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من الظلم، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]»[4].

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥/ ٥٨٩.
(٢) أحكام القرآن ٥/ ٢٥٥.
(٣) روح المعاني ١٢/ ٢٢١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٧١٢.

خامسًا: بيان عاقبة أهل العدل:

ما أجمل العاقبة الحميدة لأهل العدل! إذ بين المولى إكرامهم وإعزازهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا لهم التمكين وميراث الكتاب، فقال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

هذه الآية نص على توريث واصطفاء من فيه نوع ظلم، فمن باب أولى أهل العدل والإحسان، وكما هو مفهوم من جزأي الآية الآخرين.

قال الكرجي القصاب: «بشارة كبيرة لهذه الأمة؛ إذ قد وعدوا على اختلاف أحوالهم من الظلم والقصد والمسابقة معًا بالجنة»[5].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فالوسط: العدل[6].

قال سيد قطب: «إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعًا، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم تصوراتها وقيمها وموازينها، وهي

(٥) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام ٣/ ٧٠٥.
(٦) الرياض الأنيقة، السيوطي ص ١٨٣.

شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم»[1].

وقال ابن عاشور: «الله تعالى جعل هذه الأمة وسطًا، وعلمنا أن الوسط هو الخيار العدل الخارج من بين طرفيه إفراط وتفريط، علمنا أن الله تعالى أكمل عقول هذه الأمة بما تنشأ عليه العقول من الاعتقاد بالعقائد الصحيحة، ومجانبة الأوهام السخيفة التي ساخت فيها عقول الأمة»[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال محمد رشيد رضا: «لا يخفى أن الأمن في الآية مقصورٌ على الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ، فإذا حمل العموم فيها على إطلاقه وعدم مراعاة موضوع الإيمان يكون المعنى: الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بظلمٍ ما لأنفسهم -لا في إيمانهم ولا في أعمالهم البدنية والنفسية من دينيةٍ ودنيويةٍ، ولا بغيرهم من المخلوقات من العقلاء والعجماوات- أولئك لهم الأمن من عقاب الله تعالى الديني على ارتكاب المعاصي والمنكرات، وعقابه الدنيوي على عدم مراعاة سننه في ربط الأسباب بالمسببات، كالفقر والأسقام والأمراض، دون غيرهم ممن ظلموا أنفسهم أو غيرهم، فإن الظالمين لا أمان لهم، بل كل ظالمٍ عرضةٌ للعقاب، وإن كان الله تعالى لسعة رحمته لا يعاقب كل ظالمٍ على كل ظلمٍ، بل يعفو عن كثيرٍ من ذنوب الدنيا، ويعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء في الآخرة ما دون الشرك به.

وهذا المعنى في تفسير الآية صحيحٌ في نفسه، ويترتب عليه أن الأمن المطلق من الخوف من عقاب الله الديني والدنيوي أو الشرعي والقدري جميعًا لا يصح لأحدٍ من المكلفين، دع خوف الهيبة والإجلال الذي يمتاز به أهل الكمال، وقد صح إسناد الخوف إلى الملائكة والأنبياء»[3].

وحصر المولى عز وجل الفلاح لأهل العدل المقسطين، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

قال محمد رشيد رضا: «قد تقدم شرح هذا المعنى في تفسير: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

من هذه السورة، وإذا كان فلاح الظالمين لأنفسهم وللناس بالأولى منتفيًا بشرع الله وسنته العادلة؛ انحصر الفلاح والفوز في أهل الحق والعدل الذين يقومون بحقوق الله وحقوق أنفسهم، ومن يرتبط معهم في

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٣١٠ - ١٣١.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ١٩.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٨٤.

شئون الحياة، وهذا لا يكمل إلا لرسل الله وجندهم من المؤمنين الصالحين، ألم تر كيف نصر الله رسوله على الظالمين من قومه أولًا كأكابر مجرمي مكة المستهزئين به؟

ثم على سائر مشركي العرب، ثم نصر أصحابه على أعظم أمم الأرض وأقواها جندًا، وأعظمها ملكًا، وأرقاها نظامًا، كالرومان والفرس؟ ثم نصر من بعدهم من المسلمين من كل أمةٍ وشعبٍ على من ناوأهم وقاتلهم من أهل الشرق والغرب في الحروب الصليبية والفتوح العثمانية وغيرها بقدر حظهم من اتباع ما جاء به من الحق والعدل، فلما ظلموا أنفسهم، وظلموا الناس، وصار حظهم من هداية دينهم نحوًا مما كان من حظ أهل الكتاب قبلهم من هداية رسلهم أو أقل، ولم يعد لهم مزيةٌ ثابتةٌ في هذا السبب المعنوي للنصر والفلاح.

بل انحصر الفوز في الأسباب المادية والفنية، وسائر الأسباب المعنوية، كالصبر والثبات، والعدل والنظام ونرى كثيرًا من الجاهلين بالإسلام يقولون: ما بال المسلمين قد أضاعوا ملكهم إذا كان الله قد وعد بنصرهم؟

وجوابه: أن الله تعالى لم يعد قط بنصر من يسمون مسلمين -كيفما كانت حالهم-، وإنما وعد بنصر من ينصره، ويقيم ما شرعه من الحق والعدل، وبإهلاك الظالمين مهما تكن أسماؤهم وألقابهم، إذا نازعهم البقاء من هم أقرب إلى الحق والعدل أو النظام منهم»[1].

وغير هذه الآيات كثير جدًا، مما توضح الفلاح لأهل العدل، وحسن عاقبتهم في الدنيا والآخرة، سواء كانت صريحة أم ضمنية، كقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٨٣-٤٨٤، ٨/ ١٠٥.

مجالات العدل

يدخل العدل في مجالات كثيرة في الحياة، ومن ذلك:

أولًا: مجال الأحكام:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكل عمل يؤمر به فلابد فيه من العدل، فالعدل مأمور به في جميع الأعمال، والظلم منهي عنه نهيًا مطلقًا؛ ولهذا جاءت أفضل الشرائع والمناهج بتحقيق هذا كله وتكميله، فأوجب الله العدل لكل أحد على كل أحد في كل حال»[(١)].

ومن صور اهتمام الإسلام بالجانب العملي والميدان التطبيقي للعدل المأمور به في حياة الأفراد والجماعات البشرية المنتشرة على وجه البسيطة ما يلي:

اشتراط العدل «العدالة» في الشهادة والشهود[(٢)]:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قال الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: وليكتب كتاب الدين إلى الأجل المسمى بين الدائن والمدين ﴿كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ يعني: بالحق والإنصاف في كتابه الذي يكتبه بينهما، بما لا يتحيف ذا الحق حقه، ولا يبخسه، ولا يوجب له حجة على من عليه دينه فيه بباطل، ولا يلزمه ما ليس عليه»[(٣)].

وقال الماوردي: «وعدل الكاتب ألا يزيد فيه إضرارًا بمن هو عليه، ولا ينقص منه إضرارًا بمن هو له»[(٤)].

وقال الزجاج: «ومعنى: ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي: الذي يقوم بأمره؛ لأن الله أمر ألا نؤتي السفهاء الأموال، وأمر أن يقام لهم بها، فقال: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ [النساء: ٥]. فوليه الذي يقوم مقامه في ماله لو كان مميزًا»[(٥)].

---

(١) الرد على المنطقيين ١/ ٤٢٥.

(٢) قال بعض العلماء: العدالة صفة توجب مراعاتها الاحتراز عما يخل بالمروءة عادة ظاهرًا، فالمرة الواحدة من صغائر الهفوات، وتحريف الكلام لا تخل بالمروءة ظاهرًا، لاحتمال الغلط والنسيان والتأويل، بخلاف ما إذا عرف منه ذلك وتكرر، فيكون الظاهر الإخلال، ويعتبر عرف كل شخص وما يعتاده من لبسه، وتعاطيه للبيع، والشراء وحمل الأمتعة، وغير ذلك، فإذا فعل ما لا يليق به لغير ضرورة، قدح وإلا فلا.
انظر المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٤- ٤٥، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٨٣٨- ٢٨٣٩.

(٣) جامع البيان ٦/ ٥١.

(٤) النكت والعيون ١/ ٣٥٥.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٦٣.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

هذه الآية الكريمة تبين أن إنصاف المرء أخاه في النسب أو الدين قد يكون أمرًا معقولًا تقره الطبائع السليمة، والفطر النقية، أما إنصاف العدو، وتبرئة ساحته مع مخالفته لنا في الدين فهذا ما لا يستطيعه إلا من تربى على مائدة الإسلام، وتشبع بروح العدل والإنصاف التي جاء بها القرآن، فهذه الآية تعلمنا أن الميل في العدل بسبب الغضب أو عاطفة القرابة، أو بسبب الخشية من إنسان ما، أو التودد إلى ضعيف يجب أن يبعد تمامًا من دائرة العدل عند مباشرته.

وصمام الأمان في إبعاده تذكر الله، واستحضار جلاله في القوامة على الناس، والحكم فيما بينهم.

قال ابن كثير: «أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل؛ فإن العدل واجب على كل أحد في كل حال. وقد قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه»[(١)].

وقال أبو عبيدة والفراء: «أي: لا يكسبنكم بغض قوم أن تعتدوا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الظلم»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٥].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: يحكم بذلك الجزاء الذي هو مثل المقتول من الصيد من النعم عدلان منكم، يعني: فقيهان عالمان من أهل الدين والفضل»[(٣)].

وقال الزجاج: «أي: من أهل ملتكم، فعلى قاتل الصيد أن يسأل فقيهين عدلين عن جزاء ما قتل»[(٤)].

وقال الشعراوي: «هم الذين لا يميلون عن الحق، ويقيمون الميزان، ويأمرنا الحق أن نحكم بالإنصاف؛ لنكون من ذوي العدل، أي: أن الإنسان حين يواجه خصمين، فهو يعطي نصفه لخصم، ونصفه الآخر للخصم الثاني، فلا يميل بالهوى ناحية أحدهما، ولا يدير الإنسان وجهه إلى الخصم أكثر مما يديره للآخر.

وإن سأل أحد: كيف نأتي بذوي العدل؟ ونقول: انظر إلى عدالتهما في نفسيهما، ولنر تصرفات الإنسان، هل هي مستقيمة أو لا؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء في الطعام

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٥.

(٣) جامع البيان ١٠/ ٢٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٢٠٧.

أو الغضب أو في أي لون من ألوان السلوك؟ ومن كان مأمونًا على نفسه فهو مأمون على غيره»[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٦].

قال الطبري: «﴿ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ يقول: ذوا رشد وعقل وحجًى من المسلمين»[2].

وقال ابن قتيبة: «رجلان عدلان من المسلمين تشهدونهما على الوصية»[3].

وقال تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الطلاق: ٢].

قال الطبري: «هما اللذان يرضى دينهما وأمانتهما»[4].

وقال ابن عطية: «العدل حقيقة الذي لا يخاف إلا الله»[5].

ثانيًا: الحياة الأسرية والاجتماعية:

خص المولى عز وجل هذا الجانب باهتمام بالغ؛ فذكر آيات كثيرة في غاية الوضوح تؤسس الأسرة على أسس العدل والحق؛ لأن الأسرة نواة المجتمع، فإذا صلحت، صلح المجتمع، وإذا فسدت فلا سبيل لصلاح المجتمع، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء: ٣].

قال ابن قتيبة: «أي: فإن علمتم أنكم لا تعدلون بين اليتامى يقال: أقسط الرجل: إذا عدل ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (المقسطون في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة)[6].

ويقال: قسط الرجل: إذا جار بغير ألف، ومنه قول الله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٥]»[7].

وقال الطبري: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وإن خفتم يا معشر أولياء اليتامى أن لا تقسطوا في صداقهن فتعدلوا فيه، وتبلغوا بصداقهن صدقات أمثالهن؛ فلا تنكحوهن، ولكن انكحوا غيرهن من الغرائب اللواتي أحلهن

(١) تفسير الشعراوي ٦/ ٣٤٠٠.
(٢) جامع البيان ١١/ ١٥٤.
(٣) تأويل مشكل القرآن ص٢١٩.
(٤) جامع البيان ٢٣/ ٤٤٤.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٢٤.
(٦) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده، ١١/ ٤٩٩، رقم ٦٨٩٧.
وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٨، رقم ١٨٢٧ بلفظ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم، وما ولوا).
(٧) غريب القرآن ١/ ١١٩.

الله لكم وطيبهن، من واحدة إلى أربع، وإن خفتم أن تجوروا -إذا نكحتم من الغرائب أكثر من واحدة- فلا تعدلوا فانكحوا منهن واحدة، أو ما ملكت أيمانكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: النهي عن نكاح ما فوق الأربع حذارًا على أموال اليتامى أن يتلفها أولياؤهم؛ وذلك أن قريشًا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فإذا صار معدمًا؛ مال على مال يتيمه الذي في حجره فأنفقه، أو تزوج به، فنهوا عن ذلك، وقيل لهم: إن أنتم خفتم على أموال أيتامكم أن تنفقوها؛ فلا تعدلوا فيها من أجل حاجتكم إليها لما يلزمكم من مؤن نسائكم، فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على أربع، وإن خفتم أيضًا من الأربع أن لا تعدلوا في أموالهم؛ فاقتصروا على الواحدة، أو على ما ملكت أيمانكم[1].

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن القوم كانوا يتحوبون في أموال اليتامى أن لا يعدلوا فيها، ولا يتحوبون في النساء أن لا يعدلوا فيهن، فقيل لهم: كما خفتم أن لا تعدلوا في اليتامى؛ فكذلك فخافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهن، ولا تنكحوا منهن إلا من واحدة إلى الأربع، ولا تزيدوا على ذلك،

(١) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ٧/ ٢، رقم ٥٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، ٤/ ٢٣١٣، رقم ٣٠١٨ عن عروة أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].
قالت: يا ابن أختي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها، يريد أن يتزوجها بأدنى من سنة صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فيكملوا الصداق، وأمروا بنكاح من سواهن من النساء.
قال سيد قطب في ظلال القرآن ١/ ٥٧٧-٥٧٨: «وحديث عائشة رضي الله عنها يصور جانبًا من التصورات والتقاليد التي كانت سائدة في الجاهلية، ثم بقيت في المجتمع المسلم، حتى جاء القرآن ينهى عنها ويمحوها، بهذه التوجيهات الرفيعة، ويكل الأمر إلى الضمائر، وهو يقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ فهي مسألة تحرج وتقوى وخوف من الله إذا توقع الولي ألا يعدل مع اليتيمة في حجره، ونص الآية مطلق لا يحدد مواضع العدل، فالمطلوب هو العدل في كل صوره وبكل معانيه في هذه الحالة، سواء فيما يختص بالصداق، أو فيما يتعلق بأي اعتبار آخر، كأن ينكحها رغبة في مالها، لا لأن لها في قلبه مودة، ولا لأنه يرغب رغبة نفسية في عشرتها لذاتها، وكأن ينكحها وهناك فارق كبير من السن لا تستقيم معه الحياة، دون مراعاة لرغبتها هي في إبرام هذا النكاح، هذه الرغبة التي قد لا تفصح عنها حياء أو خوفًا من ضياع مالها إذا هي خالفت عن إرادته...، إلى آخر تلك الملابسات التي يخشى ألا يتحقق فيها العدل...، والقرآن يقيم الضمير حارسًا، والتقوى رقيبًا، وقد أسلف في الآية السابقة التي رتب عليها هذه التوجيهات كلها قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
فعندما لا يكون الأولياء واثقين من قدرتهم على القسط مع اليتيمات اللواتي في حجورهم، فهناك النساء غيرهن، وفي المجال متسع للبعد عن الشبهة والمظنة».

وإن خفتم أن لا تعدلوا أيضًا في الزيادة على الواحدة؛ فلا تنكحوا إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيهن من واحدة، أو ما ملكت أيمانكم.

وقال آخرون: معنى ذلك: فكما خفتم في اليتامى؛ فكذلك فتخوفوا في النساء أن تزنوا بهن، ولكن انكحوا ما طاب لكم من النساء.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، اللاتي أنتم ولا تهنفلا تنكحوهن، وانكحوا أنتم ما حل لكم منهن.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بتأويل الآية قول من قال: تأويلها: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فكذلك فخافوا في النساء فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن، من واحدة إلى الأربع، فإن خفتم الجور في الواحدة أيضًا فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم؛ فإنه أحرى أن لا تجوروا عليهن.

وإنما قلنا: إن ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الله جل ثناؤه افتتح الآية التي قبلها بالنهي عن أكل أموال اليتامى بغير حقها وخلطها بغيرها من الأموال، فقال تعالى ذكره: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

ثم أعلمهم أنهم إن اتقوا الله في ذلك فتحرجوا فيه، فالواجب عليهم من اتقاء الله، والتحرج في أمر النساء مثل الذي عليهم من التحرج في أمر اليتامى، وأعلمهم كيف التخلص لهم من الجور فيهن، كما عرفهم المخلص من الجور في أموال اليتامى، فقال: انكحوا إن أمنتم الجور في النساء على أنفسكم ما أبحت لكم منهن وحللته، مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم أيضًا الجور على أنفسكم في أمر الواحدة، بأن لا تقدروا على إنصافها فلا تنكحوها، ولكن تسروا من المماليك؛ فإنكم أحرى أن لا تجوروا عليهن؛ لأنهن أملاككم وأموالكم، ولا يلزمكم لهن من الحقوق كالذي يلزمكم للحرائر، فيكون ذلك أقرب لكم إلى السلامة من الإثم والجور.

ففي الكلام -إذ كان المعنى ما قلنا- متروك، استغنى بدلالة ما ظهر من الكلام عن ذكره؛ وذلك أن معنى الكلام: وإن خفتم أن لا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها، فكذلك فخافوا أن لا تقسطوا في حقوق النساء التي أوجبها الله عليكم، فلا تتزوجوا منهن إلا ما أمنتم معه الجور مثنى وثلاث ورباع، وإن خفتم أيضًا في ذلك فواحدة، وإن خفتم في الواحدة فما ملكت أيمانكم، فترك ذكر قوله: فكذلك فخافوا أن لا تقسطوا في حقوق النساء بدلالة ما ظهر

من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

في هذه الآية الكريمة نهي عن مظلمة تقع على المرأة حين يؤكل صداقها من أقاربها، ولا تعطى إياه، وهو حق لها خالص لا سبيل لوالد ولا لأخ عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

قال البغوي: «﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ أي: حرامًا بغير حق ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أخبر عن مآله، أي: عاقبته تكون كذلك»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

قال محمد رشيد رضا: «معنى: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ لا تطلبوا طريقًا للوصول إلى إيذائهن بالقول أو الفعل، فالبغي بمعنى الطلب، ويجوز أن يكون بمعنى تجاوز الحد في الاعتداء، أي: فلا تظلموهن بطريقٍ ما، فمتى استقام لكم الظاهر فلا تبحثوا عن مطاوي السرائر ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فإن سلطانه عليكم فوق سلطانكم على نسائكم، فإذا بغيتم عليهن عاقبكم، وإذا تجاوزتم عن هفواتهن كرمًا وشممًا تجاوز عنكم.

قال الأستاذ[3]: أتى بهذا بعد النهي عن البغي؛ لأن الرجل إنما يبغي على المرأة بما يحسه في نفسه من الاستعلاء عليها، وكونه أكبر منها وأقدر، فذكره تعالى بعلوه وكبريائه وقدرته عليه؛ ليتعظ ويخشع، ويتقي الله فيها، واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادةً في بيوتهم إنما يلدون عبيدًا لغيرهم، يعني: أن أولادهم يتربون على ذل الظلم، فيكونون كالعبيد الأذلاء لمن يحتاجون إلى المعيشة معهم»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ

(١) جامع البيان ٧/ ٥٣١- ٥٣٩.
وفي الآية أحكام أخرى، انظر: الجامع في أحكام القرآن القرطبي وتفاسير الأحكام.

(٢) معالم التنزيل ١/ ٥٧٣.
وانظر: الوسيط ٢/ ١٦، والوجيز ص٢٥٤ كلاهما الواحدي.

(٣) أراد به أستاذه محمد عبده فقد تأثر به، ونقل عنه كثيرًا في تفسيره بقوله: قال الأستاذ، أو قال الإمام، حتى قال محمد عبده عنه: «صاحب المنار ترجمان أفكاري».

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٦٣.

﴿عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧].

عن عائشة رضي الله عنها في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قالت: «هذا في اليتيمة التي تكون عند الرجل لعلها أن تكون شريكته في ماله وهو أولى بها، فيرغب عنها أن ينكحها فيعضلها لمالها ولا ينكحها غيره؛ كراهية أن يشركه أحد في مالها»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء ١٢٩].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ الآية [النساء: ٣].

هذه الآية الكريمة تدل على أن العدل بين الزوجات ممكنٌ، وقد جاء في آيةٍ أخرى ما يدل على أنه غير ممكنٍ، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

والجواب عن هذا: أن العدل بينهن الذي ذكر الله أنه ممكنٌ هو العدل في توفية الحقوق الشرعية، والعدل الذي ذكر أنه غير ممكنٍ هو المساواة في المحبة والميل الطبيعي؛ لأن هذا انفعالٌ لا فعلٌ، فليس تحت قدرة البشر، والمقصود أن من كان أميل بالطبع إلى إحدى الزوجات فليتق الله وليعدل في الحقوق الشرعية، كما يدل عليه قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]. ﴿أَقْسَطُ﴾ أي: أعدل[(٣)].

قال الطبري: «دعاؤكم إياهم لآبائهم هو أعدل عند الله، وأصدق وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم ونسبتكموهم إلى من تبناهم، وادعاهم وليسوا له بنين»[(٤)].

وقال سيد قطب: «وإنه لقسط وعدل أن يدعى الولد لأبيه، عدلٌ للوالد الذي نشأ هذا الولد من بضعة منه حية، وعدلٌ للولد الذي يحمل اسم أبيه، ويرثه ويورثه، ويتعاون معه، ويكون امتدادًا له بوراثاته الكامنة، وتمثيله لخصائصه، وخصائص

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي، ٧/ ١٦، رقم ٥١٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير ٤/ ٢٣١٥، رقم ٣٠١٨.

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص ٥٥.

(٣) معاني القرآن، النحاس ٥/ ٣٢٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢١٥.

(٤) جامع البيان ٢٠/ ٢٠٧.

آبائه وأجداده، وعدلٌ للحق في ذاته الذي يضع كل شيء في مكانه، ويقيم كل علاقة على أصلها الفطري، ولا يضيع مزية على والد ولا ولد، كما أنه لا يحمل غير الوالد الحقيقي تبعة البنوة، ولا يعطيه مزاياها، ولا يحمل غير الولد الحقيقي تبعة البنوة ولا يحابيه بخيراتها! وهذا هو النظام الذي يجعل التبعات في الأسرة متوازنة، ويقيم الأسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع، وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية بما فيها من الحق ومن مطابقة الواقع الفطري العميق.

وكل نظام يتجاهل حقيقة الأسرة الطبيعية هو نظام فاشل ضعيف، مزور الأسس، لا يمكن أن يعيش! ونظرًا للفوضى في علاقات الأسرة في الجاهلية، والفوضى الجنسية كذلك التي تخلف عنها أن تختلط الأنساب، وأن يجهل الآباء في بعض الأحيان، فقد يسر الإسلام الأمر -وهو بصدد إعادة تنظيم الأسرة، وإقامة النظام الاجتماعي على أساسها-؛ فقرر في حالة عدم الاهتداء إلى معرفة الآباء الحقيقيين مكانًا للأدعياء في الجماعة الإسلامية، قائمًا على الأخوة في الدين، والموالاة فيه»[1].

وقال الطاهر بن عاشور: «وضمير ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ عائدٌ إلى المصدر المفهوم من فعل ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ أي: الدعاء للآباء، وجملة: ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأن سائلًا قال: لماذا لا ندعوهم للذين تبنوهم؟ فأجيب ببيان أن ذلك القسط، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة، أي: هو قسطٌ كاملٌ، وغيره جورٌ على الآباء الحق والأدعياء؛ لأن فيه إضاعة أنسابهم الحق.

والغرض من هذا الاستئناف تقرير ما دل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]؛ لتعلم عناية الله تعالى بإبطال أحكام الجاهلية في التبني، ولتطمئن نفوس المسلمين من المتبنين والأدعياء ومن يتعلق بهم بقبول هذا التشريع الذي يشق عليهم إذ ينزع منهم إلفًا ألفوه»[2].

وقال الشعراوي: «المعنى: إن كنتم جعلتم من العدل والمحبة أن تكفلوا هؤلاء الأولاد، وأن تنسبوهم إليكم، فهذا عدل بشريٌّ، لكن حكم الله أعدل وأقسط، وشرفٌ لرسول الله أن يرد الله حكمه إلى حكم ربه، وشرفٌ لرسول الله أن يكون له الأصل في المسألة، وأنه يحكم، فيرد الله حكمه إلى حكمه، فهذا تكريم لرسول الله.

فقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ يعني: أن فعل محمد كان قسطًا وعدلًا

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٢٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٦١.

بقانون البشر، وقد جاء محمد ليغير قوانين البشر بقوانين رب البشر، وبهذا خرج سيدنا رسول الله من هذا المأزق»[1].

ثالثًا: العقوبات والقصاص:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩].

قال ابن كثير: «يقول الله تعالى: كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حركم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم، وغيروا حكم الله فيهم.

فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفرًا وبغيًا»[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

قال السعدي: «النهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار ونحوها لغير مصلحة تعود للمسلمين»[3].

وقال تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ أي: متساوية[4].

وقال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ [المائدة: ٤٥].

قال القاسمي: «حكم الله سبحانه وتعالى في دماء المسلمين أنها كلها سواء، خلاف ما عليه أهل الجاهلية»[5].

رابعًا: العدل بين الجنسين:

جعل الإسلام المرأة عضوًا في المجتمع الإسلامي مساويًا للرجل، ففي آيات كثيرة نجد النساء يذكرن إلى جانب الرجال، ويخاطبن كما يخاطبون.

وقد حل الإسلام بهذه المساواة مشكلة الطبقات في المجتمع الإنساني التي قامت على أسس توجب لظلم.

(١) تفسير الشعراوي ١٩/ ١٢٠٣٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢١٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٩.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٦٠.
(٥) المصدر السابق.

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١-٧٢].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

قال محمد رشيد رضا: «المقصد التاسع من فقه القرآن: إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

كان النساء قبل الإسلام مظلوماتٍ ممتهناتٍ مستعبداتٍ عند جميع الأمم وفي جميع شرائعها وقوانينها، حتى عند أهل

الكتاب، حتى جاء الإسلام، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمدٍ عليه أفضل الصلاة والسلام، فأعطى الله النساء بكتابه الذي أنزله عليه، وبسنته التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل، جميع الحقوق التي أعطاها للرجال، إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الأحكام، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها.

قد أبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك، أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن، واستبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنيةً، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك.

ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي وغيره من الأعمال، وأن المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدةً بإرادة زوجها في جميع التصرفات المالية، والعقود القضائية.

وجملة القول: أنه ما وجد دينٌ ولا شرعٌ ولا قانونٌ في أمةٍ من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم لمحمدٍ النبي الأمي المبعوث في الأميين؟ بلى، وأنا عن ذلك من الشاهدين المبرهنين، والحمد لله رب العالمين»[1].

خامسًا: العدل بين المؤمنين والكافرين:

قال ابن القيم: «فصل: النوع الثاني عشر[2]: إنكاره سبحانه أن يسوى بين المختلفين، أو يفرق بين المتماثلين، وأن حكمته وعدله يأبى ذلك، أما الأول فكقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥- ٣٦].

فأخبر أن هذا حكم باطل جائر يستحيل نسبته إليه، كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه، ومنكرو الحكمة والتعليل يجوزون نسبة ذلك إليه، بل يقولون بوقوعه؟

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص: ٢٨].

وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٢٣٢- ٢٣٦.

(٢) من أنواع الأصل الخامس: أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمه.

[الجاثية: ٢١].

فجعل سبحانه ذلك حكمًا سيئًا يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «تدل آياتٌ على الحساب والجزاء العام بالقسط على حسب تأثير الأعمال في النفوس، فمن دسى نفسه وأبسلها، لا يمكن أن يكون عند الله كمن زكى نفسه وأسلمها، ولا يمكن أن يقول عاقلٌ: إن نفوس من لم تبلغهم الدعوة الصحيحة تكون سواءً مهما اختلفت عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، فإن هذا مخالفٌ لحكم العقل وإدراك الحس، إذ لم توجد ولا توجد أمةٌ إلا وفيها الصالحون والطالحون، والأبرار والفجار، والذين يؤثرون ما يرونه من الهدى على داعية الشهوة والهوى والعكس، فهل يكون الفريقان عند الحكم العدل سواءً؟ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]»[(٢)].

وقال كذلك: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] أي: ذلك العذاب إنما يصيبكم بعملكم، وبكونه تعالى عادلًا في حكمه وفعله لا يجور ولا يظلم، فيعاقب غير المستحق للعقاب، ولا يجعل المجرمين كالمتقين، والكافرين كالمؤمنين، فلو كان سبحانه ظلامًا لجاز ألا يذوقوا ذلك العذاب على كفرهم به، واستهزائهم بآياته، وقتلهم لأنبيائه بأن يجعلوا مع المقربين في جنات النعيم؛ وإذًا لكان الدين عبثًا ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

فالاستفهام الإنكاري في هذه الآيات يدل على أن ترك تعذيب أولئك الكفرة الفجرة هو من المساواة بين المحسن والمسيء، ووضع الشيء في غير موضعه، وناهيك به ظلمًا كبيرًا»[(٣)].

وقال الشنقيطي: «نفى الله سبحانه عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم، فقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

وأخبر أن هذا حكمٌ باطلٌ في الفطر

(١) شفاء العليل ص١٩٩.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٦٢.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢١٨.

والعقول، لا تليق نسبته إليه سبحانه، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

أفلا تراه كيف ذكر العقول، ونبه الفطر بما أودع فيها من إعطاء النظير حكم نظيره، وعدم التسوية بين الشيء ومخالفه في الحكم»[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ومثل هذه الآيات كثير، كما هو معلوم، ومذكور في كتب الوجوه والنظائر[٢].

(١) أضواء البيان ٤/ ١٨٤.

(٢) انظر أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي ص ٤١٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ١٢١-١٥٣، البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٤٢٨-٤٢٩.

سادسًا: عدل بين المؤمنين وتفاضلهم في الدرجات:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

أي: لا يكونون سواء.

قال ابن العربي: «من سبق أكرم عند الله مرتبةً، وأوفى أجرًا، ولو لم يكن للسابق من الفضل إلا اقتداء التالي به، واهتداؤه بهديه، فيكون له ثواب عمله في نفسه، ومثل ثواب من اتبعه مقتديًا به؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من سن سنةً حسنةً في الإسلام كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا)»[٣].

وقال كذلك: «نفى الله سبحانه المساواة بين من أنفق من قبل فتح مكة وبين من أنفق بعد ذلك؛ لأن حاجة الناس كانت قبل الفتح أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنافقين أشق، والأجر على قدر النصب، إذا ثبت انتفاء المساواة بين الخلق وقع التفضيل بين الناس بالحكمة والحكم؛ فإن التقدم والتأخر يكون في الدين، ويكون في أحكام الدنيا»[٤].

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، ٤/ ٢٠٦٠، رقم ٢٦٧٤.

(٤) أحكام القرآن ٢/ ٥٧٣، ٤/ ١٧٨.

وقال ابن عثيمين: «﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ دين الإسلام دين العدل في العمل والجزاء، وانتبه دين العدل في العمل والجزاء، وليس كما يقول المحدثون: «إنه دين المساواة» هذا غلط عظيم، لكن يتوصل به أهل الآراء والأفكار الفاسدة إلى مقاصد ذميمة، حتى يقول: المرأة والرجل، والمؤمن والكافر سواء، ولا فرق، وسبحان الله! إنك لن تجد في القرآن كلمة المساواة بين الناس، بل لابد من فرق، بل أكثر ما في القرآن نفي المساواة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وآيات كثيرة».

وقال أيضًا: «﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ وذلك لأن الأولين أنفقوا وقاتلوا وسبقوا إلى الإسلام، وكان الإسلام في حاجة لهم ولإنفاقهم؛ فكانوا أفضل ممن أنفق من بعد وقاتل، والله سبحانه وتعالى يجزي بالعدل بين عباده، ولكن لما كان تفضيل السابقين قد يفهم منه أن لا فضل للاحقين قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: كلٌّ من الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وعدهم الله الحسنى يعني: الجنة»[1].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤].

سابعًا: العدل في عدم تحمل أحد وزر غيره:

قال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

هو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤٠].

وفيه الدلالة على أن كل واحد من المكلفين فأحكام أفعاله متعلقةٌ به دون غيره، وأن أحدًا لا يجوز تصرفه على غيره، ولا يؤاخذ بجريرة سواه، فهذا هو العدل الذي لا يجوز في العقول غيره»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

(١) تفسير سورة الحديد ص٣٨١-٣٨٤.

(٢) أحكام القرآن ٢/ ٢٧٩.

قال ابن العربي: « المعنى لا تحمل نفسٌ مذنبةٌ عقوبة الأخرى؛ وإنما تؤخذ كل نفسٍ منهم بجريرتها التي اكتسبتها، كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]»[(١)].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ١٣٤، ١٤١].

تكررت هذه الآية الكريمة في موطنين من كتاب الله؛ ولهذا التكرار سر جمال، يوضحه لنا محمد رشيد رضا، فيقول: «﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وإنما تسئلون عن أعمالكم، وتجازون عليها، فلا ينفعكم ولا يضركم سواها، وهذه قاعدةٌ يثبتها كل دينٍ قويمٍ، وكل عقلٍ سليمٍ، ولكن قاعدة الوثنية القاضية باعتماد الناس في طلب سعادة الآخرة، وبعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين تغلب مع الجهل كل دينٍ وكل عقلٍ، ومع الجهل التقليد المانع من النظر في الأدلة العقلية والدينية جميعًا، اللهم إلا مكابرة الحس والعقل، وتأويل نصوص الشرع، تطبيقًا لهما على ما يقول المقلَدون المتبَعون.

وقد أول المؤولون نصوص أديانهم تقريرًا لاتباع رؤسائهم والاعتماد على جاههم في الآخرة؛ لذلك جاء القرآن يبالغ في تقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل والكسب وتبيينها، ونفي الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يتأس بهم في العمل الصالح؛ ولذلك أعاد هذه الآية بنصها في مقام محاجة أهل الكتاب المفتخرين بسلفهم من الأنبياء العظام، المعتمدين على شفاعتهم وجاههم، وإن قصروا عن غيرهم في الأعمال.

وفائدة الإعادة تأكيد تقرير قاعدة بناء السعادة على العمل دون الآباء والشفعاء، بحيث لا يطمع في تأويل القول طامعٌ، والإشعار بمعنًى يعطيه السياق هنا وهو: أن أعمال هؤلاء المجادلين المشاغبين من أهل الكتاب مخالفةٌ لأعمال سلفهم من الأنبياء، فهم في الحقيقة على غير دينهم»[(٢)].

وقال كذلك: «القاعدة الحادية والثلاثون[(٣)]: أن عمل كل إنسانٍ له أو عليه لا يجزى إلا به، ولا يجزى به سواه، فلا ينفعه عمل غيره ولا يضره؛ وذلك قوله تعالى في خاتمة هذه السورة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨٦]»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٠٠.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٤٠٣-٤٠٤.

(٣) من الأصول والقواعد الشرعية العامة في سورة البقرة.

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ١٠١.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ولا تتعارض هذه الآيات وأمثالها مع قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

فجواب ذلك: أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عنه؛ فكلهم عاصٍ، هذا بفعله، وهذا برضاه به.

وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل؛ فانتظم الذنب بالعقوبة، ولم يتعد موضعه[(١)].

ثامنًا: العدل في القول:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

في هذه الآية يحذر المولى عز وجل النفوس الضعيفة التي تطبق ميزان العدل، وتشهد بالحق على الآخرين، وإذا كانت القضية تمسهم أو تمس أقاربهم؛ فسرعان ما يميلون عن العدل، ويزيغون عن الحق.

قال ابن كثير: «يأمر الله تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعد على تركه في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]»[(٢)].

تاسعًا: العدل مع الخصوم:

قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

قال الراغب الأصفهاني: «قد يوجد في الاعتداء ما ليس بفساد، وهو مقابلة المعتدي بفعله، نحو: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا الاعتداء ليس بإفساد، بل هو بالإضافة إلى ما قوبل به عدل، فلولا كونه جزاءً لكان إفسادًا»[(٣)].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين»[(٤)].

وقال سيد قطب: «ويسمى دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانًا، من باب المشاكلة اللفظية، وإلا فهو العدل والقسط، ودفع العدوان عن المظلومين»[(٥)].

وقال الشعراوي: «ولكسر حدة الغل أباح

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٣٩١- ٣٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٩٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٩٠.
(٣) تفسير الراغب ١/ ٢٠٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٢٧.
(٥) في ظلال القرآن ١/ ١٩١.

لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدي على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل في حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقاتك إلى أداء عملك.

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل، فيقول عز وجل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾»[1].

وقال كذلك: «ويثور سؤال: من القادر على تحقيق المثلية بعدالة؟ ونجد على سبيل المثال إنسانًا ضرب إنسانًا آخر صفعة على الوجه، فبأية قوة دفع قد ضرب؟ وفي أي مكان ضرب؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتساوية أمر صعب، وما دام المأمور به: أن أعتدي بمثل ما اعتدي به علي؛ ولن أستطيع تحقيق المثلية، ولربما زاد الأمر على المثلية؛ وبعد أن كنت المعتدى عليه صرت المعتدي؛ بذلك يكون العفو أقرب وأسلم»[2].

وقال الكرماني: «سمى الثانية اعتداءً للمزاوجة ولها نظائرها، منها: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]»[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل[4].

وقال البيضاوي: «أي بالعدل الذي أمر الله به ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ فيحفظهم، ويعظم شأنهم»[5].

وقال ابن كثير: «أي: بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمةً خارجين عن طريق العدل»[6].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

قال البيضاوي: «لما أمره بالدعوة وبين له طرقها، أشار إليه وإلى من يتابعه بترك المخالفة، ومراعاة العدل مع من يناصبهم؛ فإن الدعوة لا تنفك عنه، من حيث إنها تتضمن رفض العادات، وترك الشهوات،

(١) تفسير الشعراوي ١٠/ ٦٣٥٨.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٧٦١.
(٣) غرائب التفسير وعجائب التأويل ١/ ٢٠٤. وانظر: إعجاز القرآن، الباقلاني ص ٢٧١، النكت في القرآن الكريم، الماوردي ص ١٧٩، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د.عبد العظيم المطعني ٢/ ٤٣٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٣٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٧٧، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٥٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٩٥، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٩.
(٥) أنوار التنزيل ٢/ ١٢٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١٧.

والقدح في دين الأسلاف، والحكم عليهم بالكفر والضلال»[1].

وقال أبو السعود: «أي: بمثل ما فعل بكم، وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب، نحو: كما تدين تدان، أو على نهج المشاكلة، والمقصود إيجاب مراعاة العدل مع من يناصبهم من غير تجاوزٍ»[2].

وقال الطاهر بن عاشور: «والأمر في قوله: ﴿فَعَاقِبُوا﴾ للوجوب باعتبار متعلقه، وهو قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ فإن عدم التجاوز في العقوبة واجبٌ.

وفي هذه الآية إيماءٌ إلى أن الله يظهر المسلمين على المشركين، ويجعلهم في قبضتهم، فلعل بعض الذين فتنهم المشركون يبعثه الحنق على الإفراط في العقاب، فهي ناظرةٌ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ [النحل: ١١٠]»[3].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين: وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة»[4].

وقال الزجاج: «سمي الأول عقوبةً، وإنما العقوبة الثاني؛ لازدواج الكلام؛ لأن الجنسين في الفعل معنى واحد، ومثله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ فالثاني ليس بسيئةٍ، ولكنه سمي به؛ ليتفق اللفظ»[5].

ومن أوضح الآيات في الأمر بالعدل مع غير المسلمين:

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ من أهل مكة ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ يقول: وتعدلوا فيهم بإحسانكم إليهم، وبركم بهم.

واختلف أهل التأويل في الذين عنوا بهذه الآية، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله عز وجل عم بقوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص

(١) أنوار التنزيل ٣/ ٢٤٥.
(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٥٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٣٦.
(٤) جامع البيان ١٧/ ٣٢٢.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٢٣، ٤٣٥.

به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ؛ لأن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح»[(١)].

وقال سيد قطب: «إن الإسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين، وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله، فأما إذا سالموهم؛ فليس الإسلام براغب في الخصومة، ولا متطوع بها كذلك! وهو حتى في حالة الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك، وعدالة المعاملة؛ انتظارًا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع، ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم»[(٢)].

عاشرًا: عدل في جزاء السيئة بمثلها:

قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

قال الطبري: «معلومٌ أن الأولى من صاحبها سيئة؛ إذ كانت منه لله تبارك وتعالى معصية، وأن الأخرى عدلٌ؛ لأنها من الله جزاءٌ»[(٣)].

وقال ابن كثير: «قال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثةً: ظالمٌ لنفسه، ومقتصدٌ، وسابقٌ بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية، فذكر المقتصد، وهو الذي يفيض بقدر حقه؛ لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم»[(٤)].

وقال النخعي: «كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم؛ فيجترئ عليهم السفهاء، ولكن هذا الانتصار مشروطٌ بالاقتصار على ما جعله الله له، وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة، وظاهر هذا العموم»[(٥)].

وقال السيوطي: «فيه وجوب العدل في الجزاء، وعدم الاعتداء فيه، قال ابن أبي

(١) جامع البيان ٢٣/ ٣٢١- ٣٢٣
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٤٤.
(٣) جامع البيان ١/ ٣٠٢.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢١٢.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٢٠.

نجيح والحسن: لو قال: أخزاه الله، فيقول له: أخزاه الله، وقال السدي: إذا شتمك تشتمه من غير أن تتعدى»[1].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤].

هذا غيض من فيض صريح مجالات إقامة العدل، فكما أن الشرع كله حكمة وخير، فكذلك كله عدل، فيستدل بما ذكر على ما وراءه، فمحال حصر معاني العدل الصريحة في الشريعة، فضلًا عن المستنبطة.

وقال تعالى بعد ذكره جملة من الأحكام: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠].

أي: ومن يفعل ما حرمته عليه من نكاح من حرمت نكاحه، وتعدى حدوده، وأكل أموال الأيتام ظلمًا، وقتل النفس المحرم قتلها ظلمًا بغير حق، ومن يأكل مال أخيه المسلم ظلمًا بغير طيب نفس منه فسوف نصليه نارًا.

قال ابن كثير: «ينهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل، أي: بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعديًا فيه، ظالمًا في تعاطيه، أي: عالمًا بتحريمه، متجاسرًا على انتهاكه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ الآية، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب، ممن ألقى السمع وهو شهيد»[2].

حادي عشر: الإصلاح بين الناس:

قال البخاري: « باب فضل الإصلاح بين الناس، والعدل بينهم»[3].

وقال ابن القيم: «الصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضا الله سبحانه، ورضا الخصمين، فهذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالمًا بالوقائع، عارفًا بالواجب، قاصدًا للعدل، فدرجة هذا أفضل من درجة الصائم القائم»[4].

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩٠- ٤٩٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلح.٣/ ١٨٧.

(٤) أعلام الموقعين ١/ ١٠٩- ١١٠.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

قال الألوسي: «إصلاحٍ بين الناس الذي هو من باب العدل»(١).

وقال الجصاص: «قوله عز وجل: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء: ١١٤].

هو نظير قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

وقوله: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[النساء: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[النساء: ٣٥]»(٢).

وما ينطبق على الأفراد فيما يتعلق بالتناصر والإصلاح ينطبق أيضًا على الدول التي تدين بالإسلام، فإذا ظلمت دولة وجدت من الدول كافة ما يقدم لها العون والمساعدة؛ حتى يتحقق لها النصر على البغاة والظالمين، وإذا كان الباغي مسلمًا فعليه أن يتيقن أن ردعه عن ظلمه ما هو إلا نصرة له، وقيام بتنفيذ أمر الله؛ حتى يفيء إلى الحق والعدل.

فالتناصر صفة المسلمين -أفرادًا وجماعات ودولًا-، أما أن ينكفئ كل فرد، أو كل دولة على شأنه الخاص؛ فإن ذلك كفيل بتعرض الجميع للضياع، ولن يفيد في هذه الحالة أن يتصف هذا أو ذاك بالإسلام؛ لأن الإسلام الحقيقي يقتضي تنفيذ ما أمر الله به؛ ومن ذلك تحقيق التناصر والإصلاح فيما بين المسلمين بعضهم وبعض من ناحية، وفيما بينهم وبين ربهم من ناحية أخرى.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فهذه الآية الكريمة تبين أن الأخذ بيد المظلوم، والضرب على يد الظالم يؤدي إلى نجاة المجتمع بأسره، ووصوله إلى بر الأمان.

قال العلماء: «لا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا أو لا، فإن كان

(١) روح المعاني ٣/ ١٥٢.
(٢) أحكام القرآن ٣/ ٢٧٦.

الأول؛ فالواجب في ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين، ويثمر المكافة والموادعة، فإن لم يتحاجزا، ولم يصطلحا، وأقامتا على البغي؛ صير إلى مقاتلتهما، وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغي عليها بالقسط والعدل، فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما، وكلتاهما عند أنفسهما محقة؛ فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة، والبراهين القاطعة على مراشد الحق، فإن ركبتا متن اللجاج، ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه، ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما، فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين»[1].

ثاني عشر: العدل في القضاء:

إن دور الأمة الإسلامية أن تكون الوصية على البشرية تقيم العدل في الأرض غير متأثرة بمودة أو شنآن، وغير ناظرة في إقامة العدل إلى ما أصابها أو يصيبها من الناس، فهذه هي تكاليف القوامة والوصاية والهيمنة، وغير متأثرة كذلك بانحرافات الآخرين وأهوائهم وشهواتهم، فلا تنحرف فيه شعرة عن منهجها وشريعتها وطريقها القويم لاسترضاء أحد، أو لتأليف قلب، وغير ناظرة إلا إلى الله وتقواه[2].

ومن الآيات التي تبين هذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾[المائدة: ٢].

قال الطبري: «معنى الكلام: ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، ولكن ليعن بعضكم بعضًا بالأمر بالانتهاء إلى ما حده الله لكم في القوم الذين صدوكم عن المسجد الحرام وفي غيرهم، والانتهاء عما نهاكم الله أن تأتوا فيهم وفي غيرهم، وفي سائر ما نهاكم عنه، ولا يعن بعضكم بعضًا على خلاف ذلك»[3].

وقال الأخفش: «لا يُحِقَنَّ لكم شنآن قوم أن تعتدوا، أي: لا يحملنكم ذلك على العدوان»[4].

وقال ابن كثير: «معناها ظاهرٌ أي: لا يحملنكم بغض قومٍ قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام؛ وذلك عام الحديبية، على أن تعتدوا في حكم الله فيكم، فتقتصوا منهم ظلمًا وعدوانًا، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كل أحدٍ.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٠٨.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٩.
(٣) جامع البيان ٩/ ٤٩١.
(٤) معاني القرآن ١/ ٢٧٢.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٥.

وهذه الآية كما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

أي: لا يحملنكم بغض أقوامٍ على ترك العدل، فإن العدل واجبٌ على كلِّ أحدٍ، في كل أحدٍ، في كل حالٍ.

وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض»[(١)].

وقال أبو عبيدة والفراء: «معنى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم بغض قومٍ أن تعتدوا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الجور والجريمة»[(٢)].

وقال السعدي: «أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم؛ طلبًا للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جني عليه، أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه»[(٣)].

وقال الشنقيطي: «نهى الله المسلمين في هذه الآية الكريمة أن يحملهم بغض الكفار؛ لأجل أن صدوهم عن المسجد الحرام في عمرة الحديبية، أن يعتدوا على المشركين بما لا يحل لهم شرعًا»[(٤)].

وقال الجصاص: «وقد تضمن ذلك الأمر بالعدل على المحق والمبطل، وحكم بأن كفر الكافرين وظلمهم لا يمنع من العدل عليهم، وأن لا يتجاوز في قتالهم وقتلهم ما يستحقون، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والأمر والاسترقاق دون المثلة بهم، وتعذيبهم وقتل أولادهم ونساءهم؛ قصدًا لإيصال الغم والألم إليهم»[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل إنسان، صديقًا كان أو عدوًا.

قال الطبري: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾ أيها المؤمنون على كل أحد من الناس، وليًا لكم كان أو عدوًا، فاحملوهم على ما أمرتكم أن تحملوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحد منهم عنه.

وأما قوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فإنه يعني بقوله: ﴿هُوَ﴾ العدل عليهم أقرب

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٢١٩.
(٤) أضواء البيان ١/ ٣٢٨.
(٥) أحكام القرآن ٤/ ٣٩.

لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، يعني: إلى أن تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهل التقوى، وهم أهل الخوف والحذر من الله أن يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئًا من معاصيه.

وإنما وصف جل ثناؤه «العدل» بما وصفه به من أنه ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من الجور؛ لأن من كان عادلًا كان لله بعدله مطيعًا، ومن كان لله مطيعًا كان لا شك من أهل التقوى، ومن كان جائرًا كان لله عاصيًا، ومن كان لله عاصيًا كان بعيدًا من تقواه»[1].

وقال الراغب الأصفهاني: «إن قيل: كيف قال: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وأفعل إنما يقال في شيئين أشركا في معنى واحد لأحدهما مزية، وقد علمنا أن لا شيء من التقوى ومن فعل الخير إلا هو من جملة العدالة فما معنى قوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؟

قيل: إن «أفعل» -وإن كان كما ذكرت- فقد يستعمل على تقدير بناء الكلام على اعتقاد المخاطب في الشيء، لا على ما عليه من حقيقة الشيء في نفسه، قطعًا لكلامه، وإظهار التبكية، فيقال لمن اعتقد مثلًا في زيد فضلًا -وإن لم يكن فيه فضل-، ولكن لا يمكنه أن ينكر أن عمرًا أفضل منه، فقال: أخدم عمرًا؛ فهو أفضل من زيد، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

وقد علم أن لا خير فيما يشركون بوجه، والآية نزلت في يهود احتالوا النبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل: في قريش لما صدوا المسلمين؛ فأمر الله تعالى المسلمين ألا يتركوا معهم مع ذلك استعمال العدالة.

إن قيل: كيف تصور الظلم وقد أبيح للمسلمين أن يقتلوهم ويسبوهم ويسلبوهم؟ وقيل: كل ذلك أبيح لهم على وجه دون وجه، متى أخل لمراعاة الحكم المسنون في شيء من ذلك فهو ظلم، بل من فعل الإنسان بالكافر، مع ما أمر أن يفعل به قصدًا إلى التشفي منه تحريًا لأمر الله، ففي ذلك تعديًا؛ فأوجب الله تعالى تحري العدالة مع كل محق ومبطل، وإقامة الشهادة بالحق في كل أمر، وبين الله أنه تعالى عالم بما يتحرونه، ولا يخفى عليه خافية»[2].

وقال القرطبي: «والمعنى: أتمم عليكم نعمتي فكونوا قوامين لله، أي: لأجل ثواب الله فقوموا بحقه، واشهدوا بالحق من غير ميلٍ إلى أقاربكم، وحيفٍ على أعدائكم، ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ترك العدل، وإيثار العدوان على الحق.

وفي هذا دليلٌ على نفوذ حكم العدو على

(١) جامع البيان ١٠/ ٩٦.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٢٩٤.
واعتبره الألوسي تكلفًا، انظر: روح المعاني ٣/ ٢٥٥.

عدوه في الله تعالى ونفوذ شهادته عليه؛ لأنه أمر بالعدل -وإن أبغضه-، ولو كان حكمه عليه وشهادته لا تجوز فيه -مع البغض له-؛ لما كان لأمره بالعدل فيه وجهٌ، ودلت الآية أيضًا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المثلة بهم غير جائزةٍ -وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك-، فليس لنا أن نقتلهم بمثلةٍ؛ قصدًا لإيصال الغم والحزن إليهم»[1].

وقال ابن كثير: «أي: لا يحملنكم بغض قومٍ على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحدٍ-صديقًا كان أو عدوًا- ولهذا قال: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه، ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْ﴾ [النور: ٢٨].

وقوله: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيءٌ، كما في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وكقول بعض الصحابيات لعمر: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم»[2].

وقال الشعراوي: «أي: لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا، وإلا سيكون البغض لصالح عدوكم، وبغض المؤمن إذا حمله على اتباع هواه سيكون لصالح العدو؛ لأن الله سيعاقب المؤمن -لو أدخل الهوى والبغض في إقامة الميزان العادل-، فتحكيم البغض والعداء والهوى يكون لصالح الخصوم؛ لذلك لا يحملنكم أيها المؤمنون شنآن -أي بغض- قوم على ألا تعدلوا.

ويضيف الحق: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ والعدالة حين تطلب مع الخصم هي تقريع لذلك الخصم؛ لأنه خالف الإيمان، ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه: إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أن يقول الحق، ولابد أن عقيدته تجعل منه إنسانًا قويًا، وأن دينه الذي أمره بذلك هو نعم الدين.

إذن ساعة تحكم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تقرعه؛ لأنه ليس مؤمنًا، لكن لو رأى خصمك أنك قد جرت ولم تذهب إلى الحق فأنت بذلك تشجعه على أن يبقى كافرًا؛ لأنه سيعرف أنك تتبع الهوى، أما إذا رآك وأنت تقف موقفًا يرضي الله مع أنه خصم لك، فهو يستدل من ذلك على أن العقيدة التي آمنت بها هي الحق، وأنك تقيم

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٠٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٢.

الحق حتى في أعدائك.

وهكذا يقرع الخصم العقدي نفسه، وقد يلفته ذلك إلى الإيمان.

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أقرب إلى أي تقوى؟ أأقرب إلى تقوى المؤمن؟ أم أن الخصم يكون أقرب إلى التقوى حين يرى المؤمن مقيمًا للعدل والحق، فلعله يرتدع ويعاود نفسه ويقول: إن الإيمان قد جعل هذا المسلم يتغلب على البغض، وحكم بالحق على الرغم من أنه يعلم أنني عدو له؟، فالمعنى النفسي الذي يصيب خصمك، أو من يبغضك أو من بينك وبينه شنآن، حين يراك آثرت الحق على بغضك له يجعله يلتفت إلى الإيمان، الذي جعل الحق يعلو الهوى، ويغلبه ويقهره، ويصير أقرب للتقوى، و أيضًا من يشهد بالقسط؛ هو أقرب للتقوى»[1].

(١) تفسير الشعراوي ٥/ ٢٩٧٦.

ثمرات إقامة العدل

لإقامة العدل بين الناس ثمرات كثيرة، منها:

أولًا: الأمن في المجتمع:

إن آثار العدل ومباشرته في الحكم، على نحو صورة العدل المطلوب في سياسة الإسلام حسبما جاء في كتاب الله، توفر حتمًا: صيانة الأعراض من الاعتداء عليها، وصيانة النفوس من الاضطهاد والتعذيب، ومن تتبع الخصوصيات لها ومراقبتها، وعدم التفرقة في فرص المعيشة، وتولي الوظائف العامة.

فبالعدل يتحقق الاستقرار والطمأنينة في المجتمع المسلم؛ لما يشعر به كل فرد من أنه ليس أقل من غيره، وأنه سيحصل على حقه في التعليم والوظائف العامة ونحوها.

والقضاء على الفتن الطائفية؛ نظرًا لشعور الذميين بأن لهم حق المواطنة على قدم العدل مع المسلمين.

ولا أدل على معنى الأمن في المجتمع من إقامة العدل بالقصاص من المعتدي؛ ليكف عدوانه عن المجتمع، فيظل المجتمع مستقرًا هادئًا.

وهذا الاستقرار والهدوء عبر عنه المولى بـ«الحياة» فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:

١٧٩].

فالقصاص فيه ضمان لبقاء المجتمع وحياته[١].

ومن مقتضى رحمته وحكمته سبحانه وتعالى أن يكون التحاكم بين العباد بشرعه ووحيه؛ لأنه المنزه عما يصيب البشر من الضعف والهوى والعجز والجهل، فهو سبحانه الحكيم العليم اللطيف الخبير، يعلم أحوال عباده وما يصلحهم، وما يصلح لهم في حاضرهم ومستقبلهم، ومن تمام رحمته أن تولى الفصل بينهم في المنازعات والخصومات وشئون الحياة؛ ليتحقق لهم العدل والخير والسعادة، بل والرضا والاطمئنان النفسي، والراحة القلبية.

ذلك أن العبد إذا علم أن الحكم الصادر في القضية التي يخاصم فيها هو حكم الله الخالق العليم الخبير، قبل ورضي وسلم -حتى ولو كان الحكم خلاف ما يهوى ويريد-، بخلاف ما إذا علم أن الحكم صادر من أناس بشر مثله، لهم أهواؤهم وشهواتهم؛ فإنه لا يرضى ويستمر في المطالبة والمخاصمة؛ ولذلك لا ينقطع النزاع ويدوم الخلاف، وأن الله سبحانه وتعالى إذ يوجب على العباد التحاكم إلى وحيه رحمة بهم، وإحسانًا إليهم؛ فإنه سبحانه بين الطريق العام لذلك أتم بيان وأوضحه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨-٥٩].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ويروى: الله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة، وإن كانت مؤمنة»[٢].

وقال ابن القيم: «الإنسان خلق في الأصل ظلومًا جهولًا، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويلهمه رشده، فمن أراد به خيرًا؛ علمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علمه، فخرج به عن الظلم، ومن لم يرد به خيرًا؛ أبقاه على أصل الخلقة، فأصل كل خير هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم، وقد جعل الله سبحانه للعدل المأمور به حدًا، فمن تجاوزه كان ظالمًا معتديًا، وله من الذم والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه»[٣].

(١) المجتمع الإسلامي في ظل العدالة، صلاح الدين المنجد ص ٣٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٦٢-٦٣.

(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ١٣٦-١٣٧ بتصرف.

وقال أيضًا: «إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد:

أحدها: مشهد التوحيد، وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: مشهد العدل، وأنه ماضٍ فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه»[1].

ثانيًا: سعة الرزق:

ذكر المولى سبحانه وتعالى في آيات كثيرة أن رغد العيش، وسعة الرزق في إقامة أوامر الله وشرعه، الذي من أولياتها ومقاصدها العدل، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

قال القطان: «أوحى الله إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنه لو استقام الإنس والجن على الحق والعمل بشريعة العدل، ولم يحيدوا عنها لأسقيناهم ماءً غزيرًا، ولرزقناهم سعة في الرزق، ورخاءً في العيش»[2].

وقال محمد بن إسماعيل المقدم: «﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي: على طريقة الحق والعدل.

﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي: لوسعنا عليهم الرزق، وإنما عبر بالماء الغدق -وهو الكثير- عن سعة الرزق؛ لأن الماء الكثير هو أصل المعاش، وسعة الرزق، ولعزة وجوده بين العرب، فهم يعظمون الماء أكثر من غيرهم؛ فمن ثم وعد الله هؤلاء بقوله: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾»[3].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: «قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفساد القحط، وقلة النبات، وذهاب البركة، قال أبو العالية: من

(١) الفوائد ص ٤٨.

(٢) تيسير التفسير، القطان ٣/ ٣٧٦.

(٣) تفسير القرآن الكريم، المقدم ١٨٣/ ٤.

عصى الله في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

قال: البركات: المطر والنبات، وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير: ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعني: المطر والنبات، وقال هود لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

ذكر المفسرون: أن قوم هود حبس الله عنهم المطر بسبب ذنوبهم ثلاث سنين، فقال لهم هود: إن آمنتم أحيا الله بلادكم، وزادكم عزًا على عزكم. وقال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

قال قتادة: علم نبي الله أنهم أهل حرص على الدنيا، فقال: هلموا إلى طاعة الله؛ فإن في طاعة الله سعادة الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

ومعنى الآية: لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام، وعدلوا إليها، واستمروا عليها؛ لأسقيناهم ماءً غدقًا، يعني: سعة الرزق، وضرب الماء الغدق مثلًا؛ لأن الخير والرزق كله من المطر، هذه الآيات تدل على أن المعاصي سبب لحبس المطر، وذهاب البركة، وأن طاعة الله سبب للمطر والبركات.

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي مخدع أنه قال: وجد رجل في زمان زياد أو ابن زياد صرة فيها حب يعني: من بر أمثال النوى، مكتوب فيها: هذا نبت في زمان كان يعمل فيه العدل، وجاءت في هذا المعنى أحاديث»[1].

وفي المقابل ذكر الله تعالى أن البغي والظلم هو سبب الحرمان من خيراته ورزقه فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

(١) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ٣/ ١٣٣- ١٣٤.

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

وبمفهوم المخالفة من هذه الآيات فإن العدل هو سبب إغداق الله على عبيده بكل أصناف النعيم.

ثالثًا: الثقة بين الحاكم والرعية:

العدل هو أول واجبات ولاة الأمور، وهو وضع الأشياء في مواضعها، وإعطاء كل ذي حق حقه، والمساواة في الإنصاف بميزان القوانين، وبتحقيقه تكون الثقة بين الحاكم والرعية أقوى من الجبال الرواسي.

سأل الإسكندر حكماء أهل بابل: هل الشجاعة عندكم أبلغ أو العدل؟ فقالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة، فإلى العدل انتهت الرياسة الكاملة، والمملكة الفاضلة[١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

قال الطبري: «أولى الأقوال بالصواب في معنى الآية قول من قال: هو خطاب من الله إلى ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره في فيئهم وحقوقهم، أو ما ائتمنوا عليه من أمورهم بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية»[٢].

وقال القرطبي: «فالله سبحانه وتعالى يأمر الحكام بإقامة العدل بين الناس في أحكامهم؛ حتى لا تضيع الحقوق، وتنتفي الأمانة».

وقال أيضًا: «الأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس، فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال، ورد الظلمات، والعدل في الحكومات، وتتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع، والتحري في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه»[٣].

وقال البيضاوي: «هو خطاب يعم المكلفين؛ ولأن الحكم وظيفة الولاة -قيل الخطاب لهم-، أي: وأن تحكموا بالإنصاف والسوية إذا قضيتم بين من ينفذ عليه أمركم، أو يرضى بحكمكم»[٤].

(١) العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، د.عزت القرني ص ٧٦.

(٢) جامع البيان ٧/ ١٧١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٥٦.

(٤) أنوار التنزيل ٢/ ٨٠.

وقال الرازي: « أجمعوا على أن من كان حاكمًا وجب عليه أن يحكم بالعدل، وقد أوجب الله العدل على جميع الخلق -حتى الأنبياء-، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]»[١].

وقال الشوكاني: « والعدل هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله، ولا في سنة رسوله؛ فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فضلًا عن أن يحكم بها بين عباد الله»[٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال الطاهر بن عاشور: «وإنما أمر بذلك بعد الأمر بالعدل، وأداء الأمانة؛ لأن هذين الأمرين قوام نظام الأمة، وهو تناصح الأمراء والرعية، وانبثاث الثقة بينهم»[٣].

فهذه النصوص -وإن كانت تمتلئ بالتفخيم في أمر الحاكم-؛ فلأنه القائم بأمر الله في أرضه، فهي كذلك تحذره في نفس الوقت؛ لأنه ليس مالكًا للعباد، فطاعته ما قادهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[٤].

فعلى الحاكم الاجتهاد في إقامة العدل والاستقامة، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم، فيكون حكمه وشهادته لوجه الله، دون تحيز أو محاباة، ولو كان في ذلك الحكم وتلك الشهادة مسٌّ به شخصيًا، أو إلحاق أذى أو مضرة بوالديه أو بأقاربه وأنسبائه؛ ذلك أن صلة البر لا تكون بكتمان الحق، ولا بإعانة هؤلاء على ما ليس لهم بحق، فالحق أحق بالإتباع، وهو الحاكم على كل إنسان.

«فالعدل الذي يجب أن يتحلى به الحاكم لا يميل ميزانه الحب والبغض، ولا تغير قواعده المودة والشنآن، العدل الذي لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد، ولا بالتباغض بين الأقوام، فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعًا، لا يفرق بينهم حسب ولا نسب، ولا مال ولا جاه، كما تتمتع به الأقوام الأخرى،

(١) مفاتيح الغيب ١٠/ ١١٠.
(٢) فتح القدير ١/ ٥٧١.
(٣) التحرير والتنوير ٥/ ٩٨.
(٤) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم ٤/ ١٧٦.

ولو كان بينها وبين المسلمين شنآن، وتلك قمة العدل لا يبلغها أي قانون دولي إلى هذه اللحظة، ولا أي قانون داخلي كذلك»[1].

موضوعات ذات صلة:

الإنصاف، التمكين، الحساب، الحكم، السياسة، الظلم، الوسطية

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب ص١٠٥.

العذاب

عناصر الموضوع

مفهوم العذاب	٢١٢
العذاب في الاستعمال القرآني	٢١٣
الألفاظ ذات الصلة	٢١٤
أنواع العذاب	٢١٦
الأسباب الموجبة للعذاب	٢٢٦
استعجال العذاب	٢٣١
موانع العذاب	٢٣٣
الحكمة من العذاب	٢٣٧

مفهوم العذاب

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس في مادة «عذب»: «العين والذال والباء أصل صحيح، لكن كلماته لا تكاد تقاس، ولا يمكن جمعها إلى شيء واحد، العذاب: يقال منه: عذب تعذيبًا، وناس يقولون: أصل العذاب الضرب، واحتجوا بقول زهير:

وخلفها سائق يحدو إذا خشيت نه العذاب تمد الصلب والعنقا

قال: ثم استعير ذلك في كل شدة»[1].

وقال ابن منظور: «والعذاب: النكال والعقوبة، يقال: عذبته تعذيبًا وعذابًا، وكسره الزجاج على أعذبة، فقال في قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]؛ قال أبو عبيدة: تعذب ثلاثة أعذبة؛ قال ابن سيده: فلا أدري، أهذا نص قول أبي عبيدة، أم الزجاج استعمله، وقد عذبه تعذيبًا، ولم يستعمل غير مزيد»[2].

وقال الفيروز آبادي: «والعذاب: النكال، أعذبة وقد عذبه تعذيبًا، وأصابه عذاب عذبين، كبلغين، أي: لا يرفع عنه العذاب»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

العذاب: «هو ألمٌ جسديٌ أو نفسيٌ شديد»[4].

وقيل: «كل ما شق على النفس احتماله وآلمها»[5].

وقيل:« كل مؤلم للنفس إذا كان جزاء على سوء»[6].

بعد سرد أقوال علماء اللغة في معنى العذاب، نجد أن معنى العذاب في الاصطلاح لا يبتعد كثيرًا عن المعنى اللغوي، حيث يأتي العذاب بمعنى العقاب والنكال، وكل ما شق على النفس.

---

(١) مقاييس اللغة ٤/ ٢٦٠.
(٢) لسان العرب ١/ ٥٨٥.
(٣) القاموس المحيط ص ١١٣
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار، ٢/ ١٤٧٤.
(٥) معجم لغة الفقهاء، قلعجي ١/ ٣٠٧.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٩.
وانظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٩

العذاب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عذب) الدالة على «العذاب» في القرآن الكريم (٣٧١) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة:٢٦]
الفعل المضارع	٣٧	﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت:٢١]
اسم الفاعل	٤	﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥]
اسم المفعول	٤	﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء:٢١٣]
الاسم	٣٢٢	﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]

ذكر بعض أصحاب الوجوه والنظائر أن (العذاب) في القرآن على تسعة أوجه[٢]، وأوصلها بعضهم إلى عشرة أوجه[٣]، ولكن بتدبر هذه الأوجه والرجوع إلى كتب التفسير نجد أن العذاب لم يخرج عن معناه اللغوي: وهو النكال والعقوبة[٤]، أو اسمٌ لما استمر ألمه[٥].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

أي: «ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا وسخطنا، وضيقنا عليهم معايشهم، وأجدبنا بلادهم، وقتلنا سراتهم بالسيف»[٦].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.
(٢) الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٤٣-٣٤٤.
(٣) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٤٨- ٤٥١.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٨٣.
(٥) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٤٨.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٩٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الألم:

الألم لغة:

أصل مادة (ألم) تدل على الوجع، يقال: وجع أليم[١].

الألم اصطلاحًا:

هو الوجع الذي يلحق بالجسد، وينتج عن عقاب، أو مرض وما شابه[٢].

الصلة بين العذاب والألم:

«أن العذاب أخص من الألم، وذلك أن العذاب هو الألم المستمر، والألم يكون مستمرًا وغير مستمر، ألا ترى أن قرصة البعوض ألم وليس بعذاب، فإن استمر ذلك قلت عذبني البعوض الليلة، فكل عذاب ألم وليس كل ألم عذابًا[٣].

٢ العقاب:

العقاب لغة:

مادة (عقب) لها أصلان صحيحان: أحدهما: يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره. والآخر: يدل على ارتفاع وشدة وصعوبة[٤].

العقاب اصطلاحًا:

العقاب: جزاء الشر[٥]، أو هو ما يلحق الإنسان بعد الذنب من المحنة[٦].

الصلة بين العذاب والعقاب:

«أن العقاب ينبئ عن استحقاق، وسمي بذلك؛ لأن الفاعل يستحقه عقيب فعله، ويجوز أن يكون العذاب مستحقًا وغير متسحق[٧].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٢٦.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٠.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٩.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٧٧.
(٥) الكليات، الكفوي ص٦٥٤.
(٦) كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١١٩٢. بتصرف
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٠.

٣ التنكيل:

التنكيل لغة:

قال ابن منظور: «نكل به تنكيلًا إذا جعله نكالًا وعبرة لغيره، ويقال: نكلت بفلان إذا عاقبته في جرم أجرمه عقوبة تنكل غيره عن ارتكاب مثله، وأنكلت الرجل عن حاجته إنكالًا إذا دفعته عنها»[(١)]

التنكيل اصطلاحًا:

هو العقاب بما يروع ويردع ويجعله عبرةً ودرسًا لغيره[(٢)].

الصلة بين العذاب والتنكيل:

التنكيل هو جزء من العذاب، بل هو ناتج عن العذاب نفسه.

٤ الجزاء:

الجزاء لغة:

المكافأة على الشيء[(٣)].

الجزاء اصطلاحًا:

هو الغناء والكفاية والمكافأة بالشيء وما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣][(٤)].

الصلة بين الجزاء والعذاب:

الجزاء هو ما يناله الإنسان على عمله الشر من عذاب، فالعذاب ناتج عن الجزاء.

(١) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٧٧.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٣/ ٢٢٨٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٤٣، الكليات، الكفوي ص ٣٥٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٣٥١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص ١٩٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٨٠.

أنواع العذاب

يمكن تقسيم العذاب إلى نوعين رئيسين:

أولًا: عذاب حسي:

ذكر القرآن الكريم صورًا من العذاب الحسي الذي لحق وسيلحق بالكفار والعصاة، ومن تلك الصور:

١. الغرق والطوفان.

الذين عذبوا بالغرق والطوفان كثر، أذكر بعضًا منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١. قوم نوح.

فقوم نوح عليه السلام هم أول قوم من الأقوام ينزل بهم هذا النوع من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤].

لقد مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله عز وجل، ولكنهم كذبوه، فأخذهم الطوفان، والحال أنهم كانوا مستمرين على الظلم والكفر، دون أن تؤثر فيهم مواعظ نبيهم ونذره، والطوفان: هو ما يطلق على كثرة وشدة السيل والريح والظلام، وقد غلب إطلاقه على طوفان الماء[(١)].

وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح:٢٥].

قال ابن كثير: «من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم أغرقوا فأدخلوا نارًا»[(٢)].

٢. فرعون وجنوده.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

أي: فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذًا سريعًا حاسمًا، فأغرقناه هو وجنوده في البحر فكانت عاقبتهم الإغراق الذي أزهق أرواحهم واستأصل باطلهم[(٣)].

٣. مملكة سبأ.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٦-١٧].

والمعنى: فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا، فكانت نتيجة ذلك، أن أرسلنا عليهم السيل الجارف، الذي اجتاح أراضيهم، فأفسد مزارعهم، وأجلاهم عن ديارهم، ومزقهم شر ممزق وبدلناهم بالجنان اليانعة التي كانوا يعيشون فيها،

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٣٦.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٦٤.

بساتين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل، وتناثرت في أماكنهم الأشجار التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بدلا من تلك الأشجار التي كانت تحمل لهم ما لذ وطاب، وعظم نفعه[(١)].

٢. الريح.

وهذا النوع من العذاب لحق بقوم عاد لما كفروا بربهم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت:١٥-١٦].

أي: فأرسلنا على قوم عاد ريحًا شديدة الهبوب والصوت، وشديدة البرودة أو الحرارة في أيام نحسات أو مشؤومات نكدات عليهم بسبب إصرارهم على كفرهم وفعلنا ذلك معهم لنذيقهم العذاب المخزي لهم في الحياة الدنيا[(٢)].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤].

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٨٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٧.

وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم إذا رأى ريحًا كرهه وظهر ذلك في وجهه، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعًا ضاحكًا، حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا، عرف ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله أرى الناس، إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ قالت: فقال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤][(٣)].

٣. الحاصب[(٤)].

الذين عذبوا بهذا النوع من العذاب:

١. قوم لوط.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت:٤٠].

أي: فمن هؤلاء الكافرين من أهلكناه، بأن أرسلنا عليه ريحًا شديدة رمته بالحصباء

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح، رقم ٨٩٩، ٢/ ٦١٦.
(٤) الحاصب: الريح الشديدة تحمل التراب والحصباء.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٧٧.

فأهلكته[1].

قال القرطبي: «قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني: قوم لوط، والحاصب ريح يأتي بالحصباء، وهي الحصى الصغار، وتستعمل في كل عذاب[2].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤].

٢. أصحاب الفيل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:١-٥].

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: من طين متحجر محرق، وعن عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة، فإذا أصاب أحدهم حجر منها، خرج به الجدري، وكان ذلك أول يوم رئي فيه الجدري بأرض العرب[3].

وهو الذي حذر الله المشركين منه، قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٧].

أي: بل أأمنتم- أيها الناس- من السماء، وهو الله عز وجل بسلطانه وقدرته، أن يرسل عليكم حاصبًا أي: ريحًا شديدة مصحوبة بالحصى والحجارة التي تهلك، فحينئذ ستعلمون عند معاينتكم للعذاب، كيف كان إنذاري لكم متحققًا وواقعًا وحقًا[4]، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الإسراء:٦٨].

٤. الجوع والعطش وضيق الأرزاق.

وهو ما عذب به قوم سبأ، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

أي: وجعل الله قرية موصوفة بهذه الصفات مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم بهذه النعم، فكان موقف أهل هذه القرية من تلك النعم الجليلة، أنهم جحدوا هذه النعم، ولم يقابلوها بالشكر، وإنما قابلوها بالإشراك بالله تعالى مسدي هذه النعم، فأذاق سبحانه أهلها لباس الجوع والخوف، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والعتو عن أمر الله ورسله[5].

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ٢٤٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٤٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٣٤.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٢٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٠٩.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

قال ابن كثير: «بان النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي ليذيقهم بعض الذي عملوا»، وقال: «يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارًا منه على صنيعهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي»[(١)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: (أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم)[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٢٠.
(٢) أخرجه ابن ماجه، رقم ٤٠١٩، ٢/ ١٣٣٢، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٤٠.
قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ولم يتعقبه الذهبي.

٥. الخسف[(٣)].

وهو العذاب الذي لحق بقارون لما بغى وأفسد في الأرض، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

وقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا﴾ من الخسف وهو النزول في الأرض، يقال: خسف المكان خسفا- من باب ضرب- إذا غار في الأرض[(٤)].

قال ابن كثير: «لما ذكر الله تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم أن أباه حدثه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجلٌ يجر إزاره من الخيلاء، خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)[(٥)]»[(٦)].

(٣) الخسف: هو الذاهب بالشيء، ومنه خسفت الأرض، أي: غارت بما عليها واختفى بداخلها.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٣٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٨٥، ٤/ ١٧٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٥٥.

وهو أحد أنواع العذاب التي تكون في آخر الزمان كما في حديث عمران بن حصين حيث سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (في هذه الأمة خسفٌ ومسخٌ وقذفٌ)، فقال رجلٌ من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذاك؟ قال: (إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور)[1].

وقد حذر الله العصاة من هذا العذاب، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ:٩].

ومن صور الخسف الزلازل التي تميد بالأرض فتخرب المدن بعد عمارها، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم أن الزلازل تكثر بين يدي الساعة، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل... وتكثر الزلازل)[2].

قال ابن حجر: «وقد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها»[3].

٦. المسخ.

المسخ: هو تحويل صورة إلى ما هو أقبح منها[4]، أو هو كما قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: «تشويه الخلق والخلق، وتحويلهما من صورة إلى صورة، قال بعض الحكماء: المسخ ضربان: مسخ خاص يحصل في الفينة بعد الفينة وهو مسخ الخَلْق، ومسخ قد يحصل في كل زمان ومكان، وهو مسخ الخُلُق؛ وذلك بأن يصير الإنسان متخلقًا بخلق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات، نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب، وفي الشره كالخنزير»[5].

وقد عذب الله عز وجل بني إسرائيل بهذا النوع من العذاب عندما اعتدوا في السبت، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥].

يرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أي: إنهم مسخوا مسخًا نفسيًا فصاروا كالقردة في شرورها

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الخسف، رقم ٢٢١٢ ٤/ ٤٩٥. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٣٩٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب خروج النار، رقم ٧١٢١، ٩/ ٥٩.
(٣) فتح الباري، ١٣/ ٨٧.
(٤) التعريفات، الجرجاني، ص ٢٢٥.
(٥) المفردات، ص ٤٦٨

وإفسادها لما تصل إليه أيديها، و لكن جمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير[(١)]

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحذر أهل الكتاب - إذا كذبوه وخالفوا أمره - أن يحل بهم ما حل بأسلافهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وهذا النوع من العذاب الذي أحله الله بالسابقين؛ توعد الله به اللاحقين المخالفين من هذه الأمة، فقد أخرج البخاري رحمه الله عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري، قال حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري- والله ما كذبني- سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ليكونن من أمتي أقوامٌ، يستحلون الحر[(٢)] والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوامٌ إلى جنب علمٍ، يروح عليهم بسارحةٍ لهم، يأتيهم - يعني: الفقير - لحاجةٍ فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة)[(٣)].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا العذاب يكون في هذه الأمة، ووصف ذنب أولئك الممسوخين والذي بسببه يمسخهم الله، فقال صلى الله عليه وسلم: (سيكون في أمتي خسفٌ ومسخٌ وقذفٌ)[(٤)].

٧. الصيحة[(٥)].

وهي عذاب الله الذي عذب به قوم صالح، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٦٧].

والصيحة هي كما قال القرطبي في تفسيرها: «صيح بهم فماتوا، وقيل: صاح بهم جبريل، وقيل: غيره، وقال أيضًا: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم»[(٦)].

والمعنى: وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح عليه السلام عن طريق الصيحة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ١٧٤، التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٦٠.

(٢) الحر بكسر الحاء هو الفرج، جاء في الحديث كناية عن الزنا.
انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٦/ ٥١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر،.رقم ٥٥٩٠، ٧/ ١٠٦.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الخسف، رقم ٢١٥٢، ٤/ ٤٥٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٣٩٣.

(٥) الصياح: الصوت، وهو صوت كل شيء إذا اشتد، والصيحة هي العذاب، كعذاب قوم صالح.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٢١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٤٢، ٩/ ٦١.

الشديدة التي صيحت بهم بأمر الله عز وجل فأصبحوا بسببها في ديارهم جاثمين أي: هلكى صرعى، ساقطين على وجوههم، بدون حركة[1]، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[القمر:٣١].

وجاء في السنة ما يوضح ذلك، فعن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: (لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني: الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فأخذتهم الصيحة فأهمد الله من تحت السماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله، قيل من هو؟ قال: أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه)[2].

٨. القتل والصلب وتقطيع الأعضاء والنفي من الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣].

والمعنى: إنما جزاء أي: عقاب الذين يحاربون الله ورسوله أي: يخالفونهما ويعصون أمرهما، ويعتدون على أوليائهما ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: يعملون بسرعة ونشاط في الأرض لا من أجل الإصلاح وإنما من أجل الإفساد فيها عن طريق تهديد أمن الناس، والاعتداء على أموالهم وأنفسهم، جزاء هؤلاء ﴿أَن يُقَتَّلُوا﴾ والتقتيل هو القتل، إلا أنه ذكر بصيغة التضعيف لإفادة الشدة في القتل وعدم التهاون في إيقاعه عليهم، لكونه حق الشرع وللإشارة إلى الاستمرار في قتلهم ما داموا مستمرين في الجريمة فكلما كان منهم قتل قتلوا.

﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ والتصليب: وضع الجاني الذي يراد قتله مشدودًا على مكان مرتفع بحيث يرى بعد القتل ليكون عبرة لغيره، وردعًا له عن ارتكاب المعاصي والجرائم، قالوا: ويكون الصلب لمدة ثلاثة أيام وقيل: لمدة يوم واحد. وجيء هنا أيضًا بصيغة التضعيف لإفادة التشديد في تنفيذ هذه العقوبة وإثبات أنه لا هوادة فيها.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي: تقطع مختلفة، فلا تكون اليد والرجل المقطوعتان من جانب واحد بل

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٢٤٨، ٢/٣٥١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

تكونان من جانبين مختلفين.

﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: يطردوا من الأرض التي اتفقوا فيها على الإجرام إلى أرض أخرى ليتشتت شملهم، ويتفرق جمعهم، مع مراقبتهم والتضييق عليهم. وفسر بعضهم النفي بالحبس في السجون، لأن فيه إبعادا لهم وتفريقا لجمعهم[1].

ثانيًا: العذاب المعنوي:

وقد ذكر القرآن الكريم صورًا من العذاب المعنوي، والتي منها:

١. الخزي والصغار.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

يبين الله عز وجل العقاب الذي سيلحق بالذين يفرقون بين أحكام الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى القتل والإخراج من الديار، اللذين نقضوا بهما عهد الله بغيًا وكفرًا والخزي في الدنيا هو الهوان والمقت والعقوبة ومن مظاهره: ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المذلة بإجلاء بني قينقاع والنضير عن ديارهم، وقتل بني قريظة وفتح خيبر، وما لحقهم بعد ذلك من هوان وصغار، وتلك سنة الله في كل أمة لا تتمسك بدينها ولا تربط شئونها بأحكام شريعتها وآدابها[2].

وهو العقاب الذي سيلحق بمن منع الذكر والصلاة في مساجد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤].

قال ابن كثير: «عندما حج النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع لم يجترئ أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام، وهذا هو الخزي في الدنيا لهم، المشار إليه بقوله تعالى: لهم في الدنيا خزيٌ لأن الجزاء من جنس العمل»[3].

وهو العقاب الذي سيلحق بالمتكبر المغرور بنفسه، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١٤٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣٨٧.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ [الحج:٩]. أي: هوان وذلة وصغار[(١)].

وهو ما سيلحق الكفار يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [آل عمران: ١٩٢]

قال سيد طنطاوي في تفسير الآية: «وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾ في مقام التعليل لضراعتهم بأن يبعدهم عن النار، أي: أبعدنا يا ربنا عن عذاب النار، فإنك من تدخله النار تكون قد أخزيته أى أهنته وفضحته على رؤوس الأشهاد، والخزي: مصدر خزي يخزى بمعنى ذل وهان بمرأى من الناس، وفي هذا التعليل مبالغة في تعظيم أمر العقاب بالنار»[(٢)].

٢. الفضيحة.

من أسماء سورة التوبة الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين وبينت نواياهم الخبيثة، وهذه بعض الآيات من السورة تفضحهم.

قال تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٦].

قال صاحب المنار: «هذه الآيات في بيان شأن آخر من شئون المنافقين التي كشفت سوأتهم فيها غزوة تبوك، أخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ﴾ قال: كانوا يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون: عسى أن لا يفشي علينا هذا، وعن قتادة قال: كانت هذه السورة تسمى الفاضحة، فاضحة المنافقين، وكان يقال لها المنبئة، أنبأت بمثالبهم وعوراتهم»[(٣)].

الآيات التي فضحت المنافقين في القرآن الكريم كثيرة، أذكر بعضًا منها:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦٢٨.
(٢) التفسير الوسيط، ٢/ ٣٧٤.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٥٣.

﴿السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٨-١٦]

قال الزمخشري: «وصف الله عز وجل حال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وفضحهم، وسفههم، واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل طغيانهم، ودعاهم صما بكمًا عميا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة»[(١)].

فالآيات السابقة فضحت المنافقين بشكل واضح وصريح على رؤوس الأشهاد، وأظهرتهم على حقيقتهم.

وفي موطن آخر يفضح الله المنافقين ويكذبهم، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ١-٣].

أي: إذا حضر المنافقون إلى مجلسك يا محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا لك على سبيل الكذب والمخادعة والمداهنة، نشهد أنك رسول من عند الله تعالى، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك، فيفضحهم الله ويكذبهم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ والله تعالى يشهد إن المنافقين لكاذبون في قولهم: نشهد إنك لرسول الله، لأن قولهم هذا يباين ما أخفته قلوبهم المريضة، من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق الذي جئت به[(٢)].

٣. الإهانة.

جاء في مادة (هون): «الهون: الخزي، والهون، بالضم: الهوان، والهون والهوان: نقيض العز»[(٣)]، ورجل فيه مهانة أي ذلٌ وضعف[(٤)].

وأذكر بعض الآيات التي تحدثت عن هذا النوع من العذاب:

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

المهين؛ هو العذاب الذي يقترن به الخزي والذل، وهو أنكى وأشد على المعذب[(٥)].

وقال تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٩].

يعني: أنه يبقى في العذاب والهوان

(١) الكشاف، ١/ ٥٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٤٣٨.

(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٣٦/ ٢٩٠.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٢.

صاغرًا حقيرًا إلى ما لا نهاية[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[آل عمران:١٧٨].

أي: عذاب يوقعهم في الذل والمهانة والصغار في الدنيا والآخرة[2].

٤. الذل.

وهو العقاب الذي سيلحق بمن اتخذ آلهة أخرى غير الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾[الأعراف: ١٥٢].

والمعنى: إن الذين اتخذوا العجل معبودًا، واستمروا على ضلالتهم سيصيبهم ذل وهوان وصغار في الحياة الدنيا، وبمثل هذا الجزاء في الآخرة أيضًا[3].

وهو العقاب الذي لحق ببني إسرائيل؛ لأنهم كفروا بآيات الله عز وجل، وقتلوا أنبيائهم فكان الذل والهوان جزاؤهم، قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

[انظر: الإهلاك: وسائل الإهلاك]

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٢٤٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٣٤٧.
(٣) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ٥/ ٤٧٠.

الأسباب الموجبة للعذاب

الأسباب التي توجب العذاب على المعذب كثيرة، سنتعرض لأهمها في هذا المبحث.

أولًا: الشرك والكفر:

مما يوقفنا على عظم جريمة الشرك والكفر قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩١].

وقال تعالى محذرًا من الشرك الذي أحل العقوبة بالأمم السابقة: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩].

قال ابن كثير: «الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم، وكذلك أنتم أيها المشركون: احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر»[4].

لقد جعل الله العقوبة للأمم الكافرة سنة له في خلقه، فقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٦٩.

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا سنة الله بهم في عاجل الدنيا على كفرهم به أليم العقاب، يقول: فهل ينتظر هؤلاء إلا أن أحل بهم من نقمتي على شركهم بي وتكذيبهم رسولي مثل الذي أحللت بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم»[1].

وقد جاءت الآيات تتوعد الأمم الكافرة بسنة الله الماضية في أهل الشرك والكفر، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:٥٨].

قال ابن كثير: «هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم عذابًا شديدًا إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق:٨-٩]»[2].

وقال القرطبي: «أجرى الله العذاب على الكفار، وجعل ذلك سنة فيهم، فهو يعذب بمثله من استحقه لا يقدر أحد أن يبدل ذلك ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره»[3].

ثانيًا: الطغيان والظلم:

ذكر القرآن الكريم أن سبب مصرع كثير من الأمم، الظلم والطغيان، كقوم عاد وثمود وفرعون، فقال تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:٩-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء:١١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٥٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة؟ فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضًا واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره»[4].

والظلم من المعاصي التي يعجل الله

(١) جامع البيان، ٢٠/ ٤٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٣٦٠.
(٤) جامع البيان، ١٦/ ٣٨٢.

عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم)[1].

وقد تتأخر عقوبة الظلم إلى حين وأجل يعلمه الله، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) قال ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢][2].

ثالثًا: كثرة المعاصي والمنكرات وقلة الأمر بالمعروف:

من الأسباب التي تحل العذاب العاجل في الأمم فشو المنكرات وشيوعها، وذلك عندما تقصر الأمة بواجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

والمراد بالفتنة هنا العذاب الدنيوي، كالأمراض، والقحط، واضطراب الأحوال، وتسلط الظلمة، وعدم الأمان وغير ذلك من المحن والمصائب والآلام التي تنزل بالناس بسبب غشيانهم الذنوب، وإقرارهم للمنكرات، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3].

عن زينب بنت جحشٍ رضي الله عنها: (أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل عليها فزعًا يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحشٍ فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[4].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: (أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)[5].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٠٣٧٥، ٣٤/ ١٠، والترمذي في سننه، رقم ٢٥١١، ٤/ ٦٦٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٥٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك)، رقم ٤٦٨٦، ٦/ ٧٤.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٨/ ٤٦٥٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم ٣٣٤٦، ٤/ ١٣٨.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٤٠١٩، ٢/ ١٣٣٢، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٤٠.

رابعًا: كفران النعم:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

قال الإمام الطبري: «ولئن كفرتم أيها القوم نعمة الله فجحدتموها بترك شكره عليها وخلافه في أمره ونهيه وركوبكم معاصيه إن عذابي لشديد، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي»(١).

وقد ذكر القرآن الكريم مصارع الأمم التي كفرت بنعم الله عز وجل فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

قال المناوي: «ما زال شيء عن قوم أشد من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما ثبتت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم، وفي الحكم: من لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها، وقال الغزالي: والشكر قيد النعم، به تدوم وتبقى، وبتركه تتحول»(٢).

خامسًا: ترك الصلاة:

من تهاون بالصلاة وضيعها فهو متوعد بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

والصلاة من أعظم الذكر.

وقد جاءت آيات عديدة في القرآن الكريم تتحدث عن العذاب الذي أعده الله لتاركي الصلاة، فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

وقال أيضًا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بالعذاب الذي يلقاه في قبره المتهاون بالصلاة، ففي الصحيح عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأى أحد منكم من رؤيا؟ قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص. وإنه قال ذات غداة: إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر

قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ولم يتعقبه الذهبي.

(١) جامع البيان، ١٣/ ١٨٦.

(٢) فيض القدير ٣/ ٤١٨.

فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، قال: قلت لهما سبحان الله! ما هذان؟ قال قالا لي: انطلق انطلق إلى أن قال: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر؛ فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة)[1]، ومعنى يثلغ رأسه: أي يشقه، ويتدهده: يتدحرج.

سادسًا: منع الزكاة:

قاتل الصديق رضي الله عنه من فرق بين الصلاة والزكاة، وأقره على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، وما ذاك إلا لعظيم مكانتها في هذا الدين.

فإذا كانت الزكاة بهذه المكانة فلا عجب أن رتب الشارع العقوبات العظيمة على من منعها، ومن تأمل العذاب المترتب على منع الزكاة أدرك تمام الحكمة الإلهية في المناسبة بين الذنب وبين العقوبة، فإذا كان من معاني الزكاة البركة والنماء، فإن من عقوبة منعها منع المطر الذي تنمو به الخيرات، وتخرج الأرض بركتها، ومن عقوبتها أيضًا أن يبتلى الناس بالسنين وهي الجدب والقحط، فلما منعوا فضول أموالهم؛ شدد الله عليهم في أرزاقهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم ٧٠٤٧، ٩/ ٤٤.

قال ابن القيم رحمه الله: «وتأمل حكمة الله في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين؛ كيف جوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحق فمنعتم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قبلكم»[2].

أما العذاب الذي سيلحق مانعي الزكاة في الآخرة يتضح من خلال قول الحق تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

سابعًا: ترك الجهاد في سبيل الله:

بين النبي صلى الله عليه وسلم مكانة الجهاد في سبيل الله بأنه ذروة سنام هذا الإسلام؛ وبين أيضًا العاقبة المترتبة على تركه، وهذا على سبيل المقابلة، فلما كان الجهاد سبيل العز والسؤدد؛ كان تركه سبيل الذلة والمسكنة.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا

(٢) مفتاح دار السعادة، ١/ ٣١٥.

تبايعتم بالعينة[1]، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[2].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التوبة: ٣٩].

قال نجدة بن نفيع رضي الله عنه: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيًا من أحياء العرب فتثاقلوا؛ فأمسك عنهم المطر، وكان عذابهم[3].

[انظر: الإهلاك: أسباب الإهلاك]

(١) العينة: أن يبيع سلعة بثمن لأجل ثم يشتريها منه بأقل منه.
انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ١/ ٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، ٣/ ٢٧٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ١٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٢٥٠٤، ٢/ ١١٤.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

استعجال العذاب

أخبر تعالى في آيات كثيرة من القرآن الكريم أن المشركين استعجلوا العذاب في الدنيا من باب الاستهزاء والسخرية فنزل بهم العذاب سريعًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

قال الزمخشري: «وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعني: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر، ومرادهم نفي كونه حقًا، وإذا انتفى كونه حقًا لم يستوجب منكره عذابًا، فكان تعليق العذاب بكونه حقًا، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقًا فأمطر علينا حجارة من السماء، فإن قلت: ما فائدة قوله: من السماء والأمطار لا تكون إلا منها؟، قلت: كأنهم يريدون أن يقولوا: فأمطر علينا السجيل وهي الحجارة المسومة للعذاب، فوضع حجارة من السماء موضع السجيل»[4].

وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١].

(٤) الكشاف، ٢/ ٢١٦.

قال الألوسي: «قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي: دعا داع به، فالسؤال بمعنى الدعاء، والمراد: استدعاء العذاب وطلبه، والسائل هو النضر بن الحارث- كما روى النسائي وجماعة وصححه الحاكم- حيث قال إنكارًا واستهزاءً: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقيل السائل: أبو جهل، حيث قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾»[1].

قال طنطاوي: «وعلى أية حال فسؤالهم عن العذاب، يتضمن معنى الإنكار والتهكم، كما يتضمن معنى الاستعجال، كما حكته بعض الآيات الكريمة، ومن بلاغة القرآن، تعدية هذا الفعل هنا بالباء، ليصلح لمعنى الاستفهام الإنكاري، ولمعنى الدعاء والاستعجال»[2].

ولما توعد الله عز وجل الكفار بالعذاب في الآخرة في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨].

استعجلوا ذلك العذاب، وقالوا: متى يحصل ذلك كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥٠-٥١].

والمعنى: أخبروني أيها الجاهلون الحمقى: أي دافع جعلكم تستعجلون نزول العذاب؟ سواء أكان بالليل أم بالنهار لا يمكن دفعه، ولا يمكن أن يتعجله عاقل، لأنه كما قال الزمخشري: «أن العذاب كله مكروه، مر المذاق، موجب للنفار منه، فكيف ساغ لكم أن تستعجلوا نزول شيء فيه هلاككم ومضرتكم؟!!»[3].

فالآية الكريمة توبيخ لهم على استعجالهم وقوع شيء من شأن العقلاء أنهم يرجون عدم وقوعه، ولذا قال القرطبي: «قوله: «ماذا يستعجل منه المجرمون» استفهام معناه التهويل والتعظيم، أي: ما أعظم ما يستعجلون به، كما يقال لمن يطلب أمرا تستوخم عاقبته: ماذا تجنى على نفسك؟!»[4].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: ٦].

أي: أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الحال في الطغيان، أنهم كانوا إذا هددهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعقاب الله إذا ما استمروا في كفرهم، سخروا منه، وتهكموا

(١) روح المعاني، ١٥/ ٦٢.
(٢) التفسير الوسيط، ١٥/ ٩٢.
(٣) الكشاف، ٢/ ٣٥١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٥٠.

به وقالوا له على سبيل الاستهزاء: ائتنا بما تعدنا به من عذاب إن كنت من الصادقين[1].

قال طنطاوي: «والجملة الكريمة تحكي لونا عجيبا من ألوان توغلهم في الجحود والضلال، حيث طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم تعجيل العقوبة التي توعدهم بها، بدل أن يطلبوا منه الدعاء لهم بالسلامة والأمان والخير والعافية»[2].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤].

يخبر الله تعالى عن جهل المشركين وحماقتهم في استعجالهم إيقاع عذاب الله بهم، ولولا كون العذاب محددا بوقت معلوم، ولولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة؛ لجاءهم العذاب قريبًا سريعا كما استعجلوه، وسوف يأتيهم بالتأكيد فجأة، وهم لا يحسون بمجيئه، بل يكونون في غفلة عنه، ثم أكد تعالى طلبهم نزول العذاب بقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: يطلبون منك حدوث العذاب، وهو واقع بهم لا محالة، وإن جهنم ستحيط بهم من كل جانب[3].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١٣.
(٢) التفسير الوسيط، ٧/ ٤٤٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ .

موانع العذاب

يستطيع المرء أن يدفع العذاب عن نفسه من خلال أمور كثيرة، منها:

أولًا: التوبة:

التوبة مانع شامل يمنع من إنفاذ وعيد جميع الذنوب، الكفر فما دونه من المعاصي، فليس شيء يغفر الله به جميع الذنوب إلا التوبة النصوح.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال الإمام الشوكاني: «واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله، لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولا: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، ثم عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فيا لها من بشارة ترتاح لها النفوس، وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾»[4].

(٤) فتح القدير، ٤/ ٥٣٨.

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

أي: فمن تاب إلى الله عز وجل توبة صادقة من بعد ظلمه لنفسه بسبب إيقاعها في المعاصي التي من أكبرها السرقة وأصلح عمله بالطاعات التي تمحو السيئات فإن الله يتوب عليه أي: يقبل توبته، ويغسل حوبته، إن الله واسع المغفرة والرحمة ومن مظاهر ذلك أنه سبحانه فتح لعباده باب التوبة والإنابة، فالآية الكريمة ترغب العصاة من السراق وغيرهم في التوبة إلى الله، وفي الرجوع إلى طاعته حتى ينالوا مغفرته ورحمته[(١)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله عز وجل يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)[(٢)].

ثانيًا: الاستغفار:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

أي: ومن يعمل عملًا سيئًا يؤذي به غيره، أو يظلم نفسه بارتكاب الفواحش، التي يعود معظم ضررها على نفسه كشرب الخمر، وترك فرائض الله التي فرضها على عباده ثم بعد كل ذلك يستغفر الله، فيتوب إليه توبة صادقة نصوحًا يجد الله بفضله وكرمه غفورًا رحيمًا[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)[(٤)].

والاستغفار لا يمكن أن يمنع العذاب لمن مات على الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

والمعنى: إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصي لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة، فمن مات من المسلمين بدون توبة من الذنوب التي اقترفها فأمره مفوض إلى الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة[(٥)].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ١٣٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة، رقم ٢٧٥٩، ٤/ ٢١١٣.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ١٩٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، رقم٢٧٤٩، ٤/ ٢١٠٦.
(٥) انظر: الوسيط، الزحيلي، ١/ ٣٢٨.

ثالثًا: دعاء المؤمنين:

يسن للمؤمن الدعاء لإخوانه المؤمنين بالمغفرة والرحمة، وهذا يدل قطعًا على انتفاع المدعو له بدعاء إخوانه المؤمنين، واستغفارهم له.

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: واستغفر أيها الرسول الكريم لذنوب أتباعك وأمتك، بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم، وهذا فيه تعليم للصحابة وللمؤمنين أن يدعوا لإخوانهم المؤمنين[(١)]، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أي: يا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان فهم أسبق منا إلى الخير والفضل[(٢)].

وعن عوف بن مالكٍ رضي الله عنه قال: (صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازةٍ، فحفظت من دعائه وهو يقول: (اللهم اغفر له وارحمه وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلا خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر) قال: (حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت)[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من ميتٍ تصلي عليه أمةٌ من المسلمين يبلغون مائةً، كلهم يشفعون له، إلا شفعوا فيه)[(٤)]

والدعاء بالمغفرة والرحمة لا يجوز لمن لقي الله كافرًا، ولا يمنع إنفاذ وعيد الله فيه.

قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

قال طنطاوي: «أي: إن هؤلاء الراسخين في الكفر والنفاق، قد استوى عندهم استغفارك لهم وعدم استغفارك، فهم لتأصل الجحود فيهم صاروا لا يفرقون بين الحق والباطل، ولا يؤمنون بثواب أو عقاب،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٨/ ٥١٠.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة، رقم٩٦٣، ٢/ ٦٦٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من صلوا عليه مائة شفعوا فيه، رقم٩٤٧، ٢/ ٦٥٤.

ولذلك فلن يغفر الله تعالى لهم مهما حرصت على هدايتهم وصلاحهم»[1].

وبهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

رابعًا: وجود النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

سبب نزول الآية: عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال أبو جهلٍ: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ، فنزلت الآية[2].

والمعنى: وما كان الله مريدًا لتعذيب هؤلاء الذين دعوا بهذا الدعاء الغريب تعذيب استئصال وإهلاك، وأنت مقيم فيهم- يا محمد- بمكة، فقد جرت سنته سبحانه ألا يهلك قرية مكذبة وفيها نبيها والمؤمنون به حتى يخرجهم منها ثم يعذب الكافرين، واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ لتأكيد النفي، وللدلالة على أن تعذيبهم والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة[3].

والشفاعة التي تمنع أو تخفف من العذاب وخصوصًا في الآخرة، وهي على ثلاثة أنواع:

١. الشفاعة العظمى.

وهي شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الموقف ليفصل الله بينهم، وهي المقام المحمود له، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة، وفيه أن بعض الناس يقول: (ائتوا النبي صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه)[4].

٢. الشفاعة في أهل الجنة.

وهي ثلاثة أنواع:

- شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الجنة ليدخلوها.
- شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات أهل الجنة.

(١) التفسير الوسيط، ١٤/ ٤٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله تعالى: (وما كان الله معذبهم)، رقم٢٧٩٦، ٤/ ٢١٥٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٥٢١. وانظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣٠٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (إنا أرسلنا نوحًا)، رقم ٣٣٤٠، ٤/ ١٣٤.

- شفاعته صلى الله عليه وسلم في بعض المؤمنين ليدخلوا الجنة بلا حساب ولا عذاب.

٣. الشفاعة لأهل الكبائر.

وهي نوعان:

- شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن استحق النار من أهل الكبائر أن لا يدخلها.
- شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن دخل النار من أهل الكبائر أن يخرج منها.

فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: (لكل نبي دعوةٌ دعاها لأمته، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة)[(١)].

إذن فالشفاعة خاصة بأهل التوحيد ولا تكون للكفار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: (لقد ظننت، يا أبا هريرة، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قبل نفسه)[(٢)].

الحكمة من العذاب

لا يخلو شيء في الوجود من حكمة لله عز وجل منه، وكذلك العذاب له حكم جليلة، منها:

أولًا: الفتنة والامتحان للمؤمنين والمحق للكافرين:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

والمعنى: أظن الناس أن يتركوا بدون امتحان، واختبار، وابتلاء، وبدون نزول المصائب بهم؛ لأنهم نطقوا بكلمة الإيمان؟ إن ظنهم هذا ظن باطل، ووهم فاسد؛ لأن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فقط، بل هو عقيدة تكلف صاحبها الكثير من ألوان الابتلاء والاختبار، عن طريق التعرض لفقد الأموال والأنفس والثمرات، حتى يتميز قوي الإيمان من ضعيفه[(٣)].

قال القرطبي: «والمراد بالناس قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، كسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والوليد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٠٠، ١/ ١٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، رقم ٩٩، ١/ ٣١.

(٣) انظر: تفسير السرقندي، ٢/ ٦٢٤.

بن الوليد فكانت صدورهم تضيق بذلك، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين. قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده، اختبارًا للمؤمنين وفتنة[1].

قال ابن عطية: «وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، موجود حكمها بقية الدهر»[2].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

«أظننتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شدائد في الأنفس والأموال، ومن مخاوف أزعجتهم وأفزعتهم حتى بلغ الأمر برسولهم وبالمؤمنين معه أن يقولوا وهم في أقصى ما تحتمله النفوس البشرية من آلام: متى نصر الله؟!!»[3]

ويأتي هذا الامتحان في شدته على قدر الإيمان، فعن سعد رضي الله عنه قال: (قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاءً: قال: (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة)[4].

وكما أن العقاب يكون امتحان للمؤمنين، يكون في المقابل محق للكافرين قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

قوله: ﴿وَيَمْحَقَ﴾ من المحق وهو محو الشيء والذهاب به، والمعنى: ولقد فعل سبحانه ما فعل في غزوة أحد، لكي يطهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم، ولكي يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم وبطرهم[5].

ثانيًا: تكفير الذنوب ورفع الدرجات للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

الابتلاء عندما ينزل يكون للكفار محق

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٢٣.
(٢) المحرر الوجيز، ٤/ ٣٠٥.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/ ٤٦٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٠٧، ٣/ ١٥٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٣٠، رقم ٩٩٢.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٠.

وعذاب، وللمؤمنين الصابرين المحتسبين تكفير لذنوبهم ورفعة لدرجاتهم، والمعنى: ولنصيبنكم بشيء من الخوف وبشيء من الجوع، وبشيء من النقص في الأنفس والأموال والثمرات، ليظهر هل تصبرون أو لا تصبرون، فنرتب الثواب ورفع الدرجات على الصبر والثبات على الطاعة، ونرتب العقاب على الجزع وعدم التسليم لأمر الله عز وجل، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه)[١].

وقد تصيب المؤمن المصيبة فترفع درجته في الآخرة إذا صبر واحتسب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل لتكون له المنزلة عند الله تبارك وتعالى فما يبلغها بعملٍ، فلا يزال يبتليه حتى يبلغه ذلك)[٢].

ومن هذا الباب، المرض فقد يكفر الله ذنوب عبد بمرض يصيبه فعن جابر بن عبدالله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال: «ما لك؟ يا أم السائب أو يا أم المسيب تزفزفين؟» قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، فقال: (لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد)[٣].

إذًا فتعجيل العقوبة في الدنيا للعبد الصالح إنما هو خيرٌ له، فعليه ألا يقنط أو ينحرف عن الطريق لأن عذاب الآخرة أشد وأبقى بينما عذاب الدنيا مهما كانت شدته فإنه يزول بعد فترة أو تعقبه السعادة الأبدية بإذن الله تعالى، بشرط أن يكون صاحبه مؤمنًا صالحًا، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عليه ذنوبه حتى يوافيه يوم القيامة)[٤].

ثالثًا: التحذير من التمادي في المعصية:

فتأتي مصائب الدنيا بمثابة إشارات وتنبيهات من الله تعالى للعبد أنه غارق في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم ٥٦٤١، ٧/ ١١٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الآداب، رقم ٧٣٥، ١/ ٢٩٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٣٥، رقم ١٦٢٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، ٤/ ١٩٩٣، رقم ٢٥٧٥.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٦، ٤/ ٦٠١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١١٨، رقم ٣٠٨.

معصيته ويجب الرجوع قبل فوات الأوان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

أي: ولنذيقنهم من العذاب الأدنى الأهون والأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا، عن طريق ما ننزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة، دون العذاب الأكبر أي: الأشد والأعظم والأبقى، وهو عذاب الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم فيه من شرك وكفر وفسوق وعصيان[(١)].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

يؤكد الله تعالى الحض على التضرع فقال: فهلا تضرعوا إلينا خاشعين تائبين حين جاءهم بأسنا وظهرت بوادر العذاب، ولكن لم يفعلوا وقست قلوبهم، أي: ما رقت ولا خشعت، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فلم يعتبروا، وزين لهم الشيطان أفعالهم من الشرك والفجور والمعاندة والمعاصي، ووسوس لهم بأن يبقوا على ما كان عليه آباؤهم[(٢)].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الذنوب أجدر بوقوع عذاب الدنيا فقال: (ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم)[(٣)].

رابعًا: العبرة والعظة:

قد يأتي العذاب عقوبة لصاحب المعصية أو لأهلها ليكونوا عبرة وعظة لمن بعدهم كما فعل الله بالأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

أي: أن هذه القرية المدمرة بسبب فسوق أهلها، وعصيانهم لأمرنا، ليست هي القرية الوحيدة التي نزل بها عذابنا، بل إننا قد أهلكنا كثيرا من القرى من بعد زمن نوح عليه السلام كقوم عاد وثمود وغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الكفر على الإيمان والغي على الرشد.

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بالتهديد الشديد لمن يخالف أمره فقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ فهذه الآية الكريمة بجانب أنها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فهي أيضًا تهديد للمشركين، وإنذار لهم بأنهم إذا ما استمروا على كفرهم، ومعاداتهم للحق، وتطاولهم

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٣٣.
(٢) انظر: الوسيط، الزحيلي، ١/ ٥٤٨.
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البغي، رقم ٤٢١١، ٢/ ١٤٠٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٩٤، رقم ٥٧٠٤.

على من جاء به وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فسيكونون محلًا لغضب الله تعالى وسخطه، ولنزول عذابه الذي أهلك به أمثالهم في الشرك والكفر والجحود[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]

أي: جلسوا في مساكنهم فلم يسيروا في جنبات الأرض، فيشاهدوا كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم كقوم عاد وثمود ولوط وغيرهم، فكان الجواب: دمر الله تعالى عليهم مساكنهم وأموالهم، وقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ وعيد وتهديد لهؤلاء الكافرين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم أي: هكذا كانت عاقبة المجرمين السابقين، وللكافرين المعاصرين لك -أيها الرسول الكريم- السائرين على درب سابقيهم في الكفر والضلال والطغيان، أمثال تلك العاقبة السيئة[2].

[انظر: الإهلاك: حكم الإهلاك]

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، الجزاء، الجنة، النار، اليوم الآخر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٠٦.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣١٣.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٥.

العِزَّة

عناصر الموضوع

مفهوم العزة	٢٤٤
العزة في الاستعمال القرآني	٢٤٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٤٦
الأساليب القرآنية في عرض العزة	٢٤٨
أنواع العزة ومقوماتها	٢٥٧
علاج العزة المذمومة	٢٦٧
آثار العزة وعواقبها	٢٧١

مفهوم العزة

أولاً: المعنى اللغوي:

العين والزاي أصلٌ واحد يدل على الشدة والقوة وما ضاهاهما من غلبةٍ وقهر، وعز يعز عزًّا وعزَّةً وعزازةً، ورجلٌ عزيزٌ من قومٍ أعزة وأعزاء وعزازٍ، واعتز بي وتعزز: تشرف، وعز علي يعز عزًّا وعزَّةً وعزازةً: كرم، وأعززته: أكرمته وأحببته، ويقال: عز الرجل بعد ضعفٍ، أي: صار عزيزًا بعد ذلة، وأعززته: جعلته عزيزًا، وعز الشيء: إذا قل، ومنه ناقةٌ عزوزٌ: إذا كانت ضيقة الإحليل لا تدر إلا بجهد، ويقال: استعز على المريض، إذا اشتد مرضه. واستعز عليه الشيطان: أي غلب عليه وعلى عقله، واستعز عليه الأمر: إذا لج فيه، والعز من المطر: الكثير الشديد، وأرض معزوزة: إذا أصابها ذلك[(١)].

إذن فالعزة تدور حول معاني الغلبة والقهر والشدة والقوة ونفاسة الشيء وعلو قدره.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «العزة: حالةٌ مانعة للإنسان من أن يغلب»[(٢)].

وقيل: «العزة: التأبي عن حمل المذلة، وقيل: الترفع عما تلحقه غضاضة»[(٣)].

وقيل: العزة صفة تفيد حصول الفوقية والغلبة لله سبحانه وتعالى وعباده الصالحين على أعدائهم[(٤)].

وعرفها الدكتور محمد بن عبد الله الهبدان بأنها: «ارتباط بالله تعالى، وارتفاع بالنفس عن مواضع المهانة، والتحرر من رق الأهواء ومن ذل الطمع، وعن السير إلا وفق ما شرع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم»[(٥)].

وخلاصة القول: إن المتدبر في المعنيين يجد اتصالًا بينهما، حيث إن المعنى الاصطلاحي يعني أن العزة حالة تعتري الإنسان تمنعه من غلبة غيره عليه، وهذا مرتبط بمعنى العزة في اللغة التي هي الشدة والقوة والغلبة والقهر

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤١، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٧٤.
(٢) المفردات ص٥٦٣.
(٣) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص٢٠٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٢٩.
(٥) العزة مصادرها، أسبابها، مواقف وأحداث ص٥.

العزة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عزز) في القرآن الكريم (١٢٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس:١٤]
الفعل المضارع	١	﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران:٢٦]
المصدر	١٢	﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٩]
الصفة المشبهة	٩٩	﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة:٢٠٩]
أفعل التفضيل	٤	﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [هود:٩٢]
اسم	٢	﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]

وجاءت العزة في الاستعمال القرآني على ستة أوجه[٢]:

الأول: المنعة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨] يعني: منيعًا.

الثاني: العظمة: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ يعني: فبعظمتك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢].

الثالث: الحمية: ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ﴾ [ص:٢] يعني: في حمية.

الرابع: الغلظة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤] يعني: غلظاء عليهم.

الخامس: الشدة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٧] يعني: بشديد.

السادس: القوة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس:١٤] يعني: فقويناهما بثالث.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الظاء، ص٧٦٢-٧٦٤.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٣٣-٣٣٤، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٣٤-٤٣٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ القوة:

القوة لغةً:

قوي الرجل والضعيف يقوى قوة فهو قويٌّ وقويته تقويةً وقاويته فقويته أي غلبته[١].

القوة اصطلاحًا:

ذكر الراغب أن أكثر استعمال القوة في القدرة[٢]، وقال السيوطي: «القوة: مبتدأ كل فعل في البدن»[٣].

الصلة بين القوة والعزة:

يتضح أن العزة دليل على القوة، فلا يعقل أن يكون الإنسان عزيزًا دون أن يكون قويًّا، سواء كانت القوة معنوية أم مادية.

٢ الشدة:

الشدة لغةً:

قال ابن فارس: «الشين والدال أصلٌ واحدٌ يدل على قوةٍ في الشيء، وفروعه ترجع إليه. من ذلك شددت العقد شدًّا أشده»[٤].

الشدة اصطلاحًا:

قال المناوي: «الشد: العقد القوي»[٥].

الصلة بين الشدة والعزة:

يظهر أن العزة دليل على الشدة التي تطلق في الأصل على المبالغة في وصف الشيء في صلابة[٦]، فالإنسان لا يكون عزيزًا إلا إذا كانت فيه صلابة على الحق.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٠٧.
(٢) المفردات ص٦٩٣.
(٣) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم ص ١٧٦.
(٤) مقاييس اللغة ٣/ ١٧٩.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٠٢.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٢٩٧.

٣ الغلبة:

الغلبة لغةً:

من غلب يغلب غلبةً، وهو القهر[١].

الغلبة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قال الراغب: «الغلبة: القهر»[٢]. والمقصود هو قهر العدو.

الصلة بين الغلبة والعزة:

يتبين أن الغلبة مظهر من مظاهر العزة.

٤ الرفعة:

الرفعة لغةً:

فلان رفعة ورفاعة، ارتفع قدره وشرف، يقال: رفع في حسبه ونسبه فهو رفيع وهي رفيعة[٣].

الرفعة اصطلاحًا:

ذكر المناوي أن «الرفع: يقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها، وتارة في البناء إذا طولته، وتارة في الذكر إذا نوهته، وتارة في المنزلة إذا شرفتها»[٤].

الصلة بين الرفعة والعزة:

لا شك أن الرفعة هي العزة، فهما كلمتان مترادفتان.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨٨.
(٢) المفردات ص٦١١.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٣٦٠.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ١٧٩.

الأساليب القرآنية في عرض العزة

لقد عرض القرآن الكريم موضوع العزة بأسلوب مميز، تطرق فيه إلى نواحٍ مختلفة، منها:

أولًا: وصف الله سبحانه بالعزة:

إن اسم الله تعالى (العزيز) ورد ضمن مجموعة من أسمائه الحسنى الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٣].

ويكمن معنى هذا الاسم الجليل-كما ذكر الزجاج-في أن الله تعالى هو الغالب لكل شيء، فهو سبحانه العزيز الذي ذل كل عزيز لعزته جل جلاله [(١)].

وقال الغزالي: «العزيز: هو الخطير الذي يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز» [(٢)].

وبين السعدي أن العزة لها معانٍ ثلاثة متمثلة في عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فالله جل جلاله يمتنع عن أن يناله أحد من المخلوقات، وأنه سبحانه قهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة كلها، وخضعت لعظمته وجبروته، ثم قال: «فمعاني العزة الثلاث كلها كاملة لله العظيم، عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت، وعزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد، ولا يبلغ العباد ضره فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه، بل هو الضار النافع المعطي المانع، وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي كلها مقصورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به» [(٣)].

هذا وقد وصف الله تعالى نفسه بالعزة في آيات عديدة من القرآن الكريم، منها-على سبيل المثال لا الحصر-قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس:٦٥].

فالله سبحانه وتعالى ينهى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الحزن من قول المشركين في الله عز وجل ما يقولون من كلام باطل، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام في العبادة، فإن الله سبحانه وتعالى هو

(١) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى ص٣٤.
(٢) المقصد الأسنى ص٧٣.
(٣) تفسير أسماء الله الحسنى ص٢١٤.

المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا يشاركه فيها أحد، كما أنه هو المنتقم من هؤلاء المشركين، فلن ينصرهم أحد عند انتقام الله تعالى منهم؛ لأنه لا يُعَازُّهُ شيء، فهو تعالى لهم بالمرصاد، يسمع ما يفترون عليه، ويعلم ما يضمرونه في أنفسهم، وما يعلنونه من شرك وعداء للإسلام والمسلمين[(١)].

منها قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠].

والمعنى: أن من يطلب القوة والمنعة والرفعة فإنها تكون بعبادة الله تعالى وطاعته، فبالله عز وجل يكون عز الدنيا والآخرة لا بالأصنام التي عبدها المشركون من دونه سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن المشركين كانوا يعبدون هذه الأصنام طلبًا للعز، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم:٨١].

وطلبًا للمنعة والقوة أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [يس:٧٤][(٢)].

وعليه فإن العزة لا تكون إلا لله تعالى وحده، فهو صاحبها ومالكها، كما بين ذلك عن نفسه حين قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات:١٨٠].

فهو سبحانه نزه ذاته العلية عما وصفه به المشركون مما لا يليق بجلاله وكماله، ثم أضاف الرب إلى العزة؛ ليفيد اختصاصه بها، كأنه قال: ذو العزة[(٣)].

هذا وقد اقترن اسمه «العزيز» بالأسماء والصفات الآتية:

أولًا: ذو انتقام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٤].

أي: إن الذين كفروا بآيات الله تعالى الناطقة بالحق، وبوجوب توحيده وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، فإن لهم عذابًا شديدًا، لا يقادر قدره بسبب كفرهم، فالله تعالى عزيز لا يغالب، ويفعل ما يشاء، وذو انتقام عظيم[(٤)].

ثانيًا: الحكيم.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل:٦٠].

فالله تعالى يخبر أن الذين ينكرون البعث ولا يؤمنون بالآخرة لهم صفة السوء؛ وذلك لجهلهم وظلمهم أنفسهم؛ أنهم لم ينقذوا أنفسهم بالإيمان وعمل الخير، أما الله سبحانه وتعالى فله الصفة الحسنى، وهو أنه لا إله إلا هو منزه عن كل نقص، ورب كل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٤٢.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٤٧٣.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٩.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٥.

شيء ومليكه، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا شريك له، ولا ند له ولا ولد، ثم أثنى الله تعالى على نفسه بأعظم وصف وهو العزة والقهر والغلبة لكل شيء، والحكمة العليا في تدبيره لهذا الكون، وتصريفه لشؤون خلقه، وفي حكمه وقضائه[1].

ثالثًا: الرحيم.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء:٧-٩].

فالله تعالى ينكر على المشركين عدم تدبرهم في آيات الله تعالى الدالة على استحقاقه وحده للربوبية والعبادة والخضوع، ثم يخاطب الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم مسليًا إياه بأنه تعالى هو العزيز القاهر الذي لا يعجزه شيء، والرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فالآية تقرر أن الله تعالى قادر على سحق الكفار والقضاء عليهم غير أن رحمته تعالى اقتضت عدم التعجيل بذلك لعلهم يرعوون[2].

رابعًا: الحميد.

قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ:٦].

أي: إن أهل العلم يعلمون أن القرآن الذي أنزل من عند الله تعالى هو الحق، وأنه يرشد إلى الطريق المستقيم، طريق الله العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع؛ بل إنه سبحانه حميد محمود في أقواله وأفعاله وشرعه[3].

خامسًا: العليم.

قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس:٣٨].

أي: إن الشمس من آيات الله عز وجل الدالة على نفوذ مشيئته سبحانه، وعلى كمال قدرته، فهي دائمًا تجري لمستقر قدره الله تعالى لها، لا تحيد عنه ولا تتعداه، فهي لا تتصرف في نفسها، ولا تعصي الله تعالى، فسبحان الذي دبر هذه المخلوقات بعزته العظيمة بأكمل تدبير، وأحسن نظام، كما دبرها بعلمه حيث جعلها مصالح لعباده، ومنافع لهم في الدنيا والآخرة[4].

سادسًا: الوهاب.

قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩﴾ [ص:٩].

فالله تعالى يوبخ المشركين وينكر

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٣/ ١٢٩.

(٢) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٣/ ٢٤٣.

(٣) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٢٨.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٥.

عليهم اعتراضهم على نزول النبوة على محمد صلى الله عليه وسلم دون غيره منهم، فليست خزائن الله تعالى عندهم فيعترضوا ويتصدوا لحرمان من يشاؤون، فإن المواهب من الله تعالى يصيب بها من يشاء، فيختار للنبوة من يصطفيه، وليس لهم الاختيار في ذلك، فهو العزيز الوهاب[1].

سابعًا: الغفار.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٦٦﴾ [ص:٦٥-٦٦].

والمعنى: أن الله عز وجل يأمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخبر المشركين -إن طلبوا منه ما ليس بيده- أن الأمر لله تعالى قائلًا: ليس لي إلا أن آمركم وأحثكم على الخير، وأنهاكم عن الشر، فما من أحد يعبد حق العبادة إلا الله تعالى الواحد القهار الذي قهر كل شيء، كما أنه خالق السماوات والأرض وما بينهما، ومدبرهما بجميع أنواع التدابير، العزيز الذي له القوة التي بها خلق جميع المخلوقات العظيمة، والغفار لجميع الذنوب الصغيرة والكبيرة لمن تاب إليه سبحانه وتعالى[2].

ثامنًا: الغفور.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

فلما أخبر الله تعالى عن اختلاف الألوان والأصباغ في ثمار النبات، والجمادات والحيوانات، وكذلك الإنسان؛ لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله تعالى وبديع صنعه، أخبر تعالى عن العلماء الذين يعرفون جمال ذلك الاختلاف ودقائقه، فهؤلاء العالمون به يخافون الله عز وجل بالغيب، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة والتي منها قدرته العظيمة على صنع ما يشاء ويفعله، فمن كان أعلم بالله تعالى كان أخشاهم له، وسبب هذه الخشية من العلماء لله تعالى هو أن الله عز وجل قوي في انتقامه من الكافرين، وغفور لذنوب المؤمنين به التائبين إليه، وهذا يوجب الخوف والرجاء، فكون الله تعالى عزيزًا ذا انتقام يوجب الخوف التام، وكذلك كونه تعالى غفورًا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ، وهذا ما يدركه العلماء المتخصصون[3].

تاسعًا: القوي.

قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [الحج:٧٤].

فقد بين الله عز وجل أن المشركين الذين عبدوا الآلهة العاجزة عن فعل شيء، لم يعرفوا الله تعالى حق المعرفة، ولم

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢١٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧١٦.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٢٦٠ بتصرف.

يعظموه حق التعظيم إذ جعلوا هذه الأصنام والأوثان شركاء له مع هذه الحالة من العجز والضعف، ثم بين الله تعالى أنه القوي على خلق كل شيء، وعزيز غالب لا يغالبه أحد بخلاف آلهة المشركين التي لا تعقل ولا تنفع ولا تضر ولا تقدر على فعل شيء لنفسها حتى تفعله لغيرها، فإنها جماد لا تعقل[1].

ثانيًا: العزة من أخلاق المؤمنين:

إن العزة خلق رفيع من أخلاق المؤمنين، فلا يعقل أن يكون المرء مؤمنًا حق الإيمان وفي ذات الوقت غير عزيز، فالعزة والإيمان صنوان لا يفترقان، وذلك أن المرء إذا آمن، وتغلغل الإيمان في قلبه واستقر فإنه في نفس الوقت يتشرب قلبه العزة، فتصدر عنه الأقوال والأفعال وهي متصفة بالفخر والاستعلاء بهذا الدين العظيم الذي أكرمه الله عز وجل به، فيتعامل مع المؤمنين أمثاله بكل تواضع ولين ورحمة، وفي المقابل يتعامل مع الكفار بكل عزة وفخر.

فيقول الله سبحانه وتعالى واصفًا المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة:٥٤].

فقد توعد الله تعالى من يرتد عن دينه- وهو لن يضر الله شيئًا - بأنه سوف يأتي بدلًا منهم بأناسٍ من صفاتاهم أن الله جل جلاله يحبهم، وهم يحبونه كذلك، ومن صفاتهم أيضًا أنهم أذلة للمؤمنين من فرط محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورقتهم ورأفتهم بهم، وكذلك رحمتهم بهم، ومن صفاتهم أيضًا أنهم أعزة على الكافرين بالله تعالى ورسوله، وقد اجتمعت عزائمهم وهممهم على معاداتهم، وبذلوا كل جهد في كل سبب يحصلون به على الانتصار عليهم[2]، فهم لا يداهنون الخلق، ولا يستكينون للعدو، ولا يتنازلون عن شيء من دينهم مهما رغبوا أو رهبوا، وفي هذا المعنى قال الشنقيطي: «أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضًا عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين»[3].

وفي موضع آخر أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثناء العطر، كما شهد لرسوله صلى الله عليه وسلم بصدق الرسالة، فقال: ﴿مُّحَمَّدٞ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٥٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٥.

(٣) أضواء البيان ١/ ٤١٥.

﴿رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:٢٩].

فوصف أصحابه الأبرار بأنهم غلاظٌ على الكفار، متراحمون فيما بينهم[(١)]، قال أبو السعود: «يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة»[(٢)].

ومن الآيات الدالة على أن العزة من أخلاق المؤمنين أيضًا قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨].

ففي هذه الآية يبين الله عز وجل أن العزة لله تعالى بقهره لأعدائه، وكذلك لرسوله صلى الله عليه وسلم بإظهاره دينه على الأديان كلها، وكذلك للمؤمنين أيضًا بنصر الله تعالى لهم على أعدائهم، ولكن المنافقين لا يعلمون أن الله تعالى معزٌ أولياءه، ومذلٌ أعداءه، ولو علموا ذلك ما قالوا مقالتهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[(٣)]، وفي هذا قال الطبري: «فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم، هم الأذلاء الأقلاء، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، فيعزهم ويمنعهم؟»[(٤)].

هذا وقد نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن الهوان والحزن، ووصفهم بأنهم هم الأعلون، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

ففي هذه الآية أدب قرآني عظيم حيث حث الله تعالى المؤمنين المجاهدين الصابرين على عدم الهوان والاستسلام الذي ينافي العزة ويقابلها، فقد أمرهم بالثبات على عزتهم؛ لتبقى العزة ملازمة لهم، لا تنفك عنهم حتى ولو في أحلك الظروف، كما أمرهم بحسن الظن بالله تعالى، والتوكل عليه والثقة بنصره، قال الرازي: «كأنه قال إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية علمتم أن أهل الباطل وإن اتفقت لهم الصولة، لكن كان مآل الأمر إلى الضعف والفتور، وصارت دولة أهل الحق عالية، وصولة أهل الباطل مندرسة، فلا ينبغي أن تصير صولة الكفار عليكم يوم أحد سببًا لضعف قلبكم ولجبنكم وعجزكم؛ بل يجب أن يقوى قلبكم، فإن الاستعلاء سيحصل لكم والقوة

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢١١.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ١١٤.
(٣) انظر: مراح لبيد، محمد الجاوي ٢/ ٥٣١.
(٤) جامع البيان ٩/ ٣١٩.

والدولة راجعة إليكم»[1].

ومن خلال هذا يظهر أن العزة خلق من أخلاق المؤمنين، وقد عبر الله تعالى عنها في الآية الأخيرة بالجملة الاسمية ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ الدالة على الثبات والاستقرار، وعليه فيجب على المؤمنين الثبات على ما هم عليه من العزة، وعدم التخلي عنها في أي ظرف من الظروف سواء في الحرب أو السلم، في الفرح أو الحزن، في السراء أو الضراء، فالله تعالى يربيهم على معاني العزة، ويغرسها في قلوبهم.

ثالثًا: حسن عاقبة من اعتز بالله ودينه:

يقول الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠].

وقد وردت أقوال عديدة في معنى الآية، وأولاها بالصواب وأرجحها -كما ذكر الطبري-[2] أن من كان يريد العزة ويبحث عنها ويطلبها، فليتعزز بالله عز وجل، فلله تعالى العزة جميعًا دون كل ما دونه من الأوثان والأصنام، وفيها تنبيهٌ لذوي الأقدار والهمم العالية من أين تنال العزة، ومن أي جهة تطلب؟[3].

ثم بين الله تعالى أن الكلام الطيب من ذكرٍ لله تعالى، أو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وتلاوة قرآن، وغير ذلك يصعد إلى الله عز وجل فيقبله، والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ وذلك لأن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان، بالإضافة إلى أن العمل الصالح يرفع صاحبه الذي أراد العزة من الله تعالى[4].

قال القرطبي: «فمن طلب العزة من الله وصدقه في طلبها بافتقارٍ وذلٍ، وسكونٍ وخضوعٍ، وجدها عنده إن شاء الله غير ممنوعةٍ ولا محجوبةٍ عنه، قال صلى الله عليه وسلم: (من تواضع لله رفعه الله)[5] ومن اعتز بالله أعزه الله»[6].

ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن من اعتز بالله تعالى، واعتز برسوله صلى الله عليه وسلم، وبدين الإسلام، أعزه الله جل جلاله، ولهذا السبب حصر الله تعالى العزة الحقيقية في كونها لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

قال ابن عاشور: «والمعنى: إن كان الأعز

(١) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٧١.
(٢) انظر: جامع البيان ٢٠/ ٤٤٤.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٩١، بتصرف.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن أبي هريرة، ٨/ ٤٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦١٦٢، ٢/ ١٠٦١.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٣٢٨.

يخرج الأذل فإن المؤمنين هم الفريق الأعز، وعزتهم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وبتأييد الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأولياءه؛ لأن عزة الله هي العزة الحق المطلقة، وعزة غيره ناقصةٌ، فلا جرم أن أولياء الله هم الذين لا يقهرون إذا أراد الله نصرهم ووعدهم به. فإن كان إخراجٌ من المدينة فإنما يخرج منها أنتم يا أهل النفاق»[(١)].

ويخلص من هذا إلى أنه إذا كانت العزة لله تعالى وحده، فإنه سبحانه يهبها لعباده المؤمنين، وأوليائه الصادقين، وقد استمدوا هذه العزة من الله جل جلاله، فيعزهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، فيغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، ويرفع قدرهم وشأنهم، ويقبل أعمالهم الصالحة ويثيبهم عليها خير الثواب، وينزلهم الدرجات العلا من الجنة، وفي هذا المعنى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله أذلنا الله»[(٢)].

رابعًا: بيان سوء عاقبة من أخذته العزة بغير الحق:

اقتضت حكمة الله جل جلاله أن من طلب العزة في غير جانب الله تعالى أذله الله تعالى؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن حقًّا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه)[(٣)].

فمن اعتز بالكفار أذله الله تعالى، وأذاقه الذلة والصغار على أيديهم، وفي هذا المعنى قال الزمخشري: «المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين»[(٤)].

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فسوف يصليه الله تعالى جهنم وساءت مصيرًا.

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة:٢٠٦].

فهذه الآية في ذكر وصف من أوصاف المنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن، فإذا نصحه إنسان فقال له: اتق الله، أخذته الحمية الجاهلية، والعزة الشيطانية على ارتكاب الإثم والحرام، فتمادى في غيه وضلاله؛ لأنه ينفر من الصلاح والمصلحين، فبين الله تعالى أن مثل هذا يكفيه عذاب جهنم، فهي مأواه ومهاده، ولبئس المهاد مهاده، بسبب سوء عمله في الدنيا، وسوء خداعه

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٤٩.
(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، رقم ٢٠٧، ١/ ١٣٠.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٥٠١، عن أنس، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥.
(٤) الكشاف ٤/ ٥٤٣.

وحاله[1].

وتاريخ الأمم السابقة ومصارعها شاهد على أن من يغالب الله جل جلاله يغلب، وأن من اعتز بغير الله تعالى ذل وهان، فقد اعتزت تلك الأمم بقوتها التي منحها الله عز وجل إياها، فبدلًا من أن يشكروا الله تعالى على هذه النعم جحدوا مانحها، واعتزوا بهذه النعم بدلًا من المنعم.

وقد وضح الله عز وجل السبب في اتخاذ المشركين الأصنام والأوثان آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨١-٨٢].

أي: ليكونوا لهم أنصارًا وشفعاء ينقذونهم من عذاب الله تعالى في الآخرة، فزعمهم هذا ما هو إلا كذب وافتراء على الله عز وجل، ثم زجرهم الله تعالى رادعًا إياهم عن ذلك الظن الفاسد بأنه ليس الأمر كما زعموا؛ بل ستكون هذه المعبودات ضدًّا وأعوانًا عليكم في خصومتكم وتكذيبكم فيما زعمتم، ومن ثم التبرؤ منكم[2].

ولذلك أنكر الله سبحانه وتعالى عليهم اتخاذهم الأصنام لأجل العزة، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٩].

ويوم القيامة يأمرهم بقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ:٢٧].

وهكذا تظهر سوء عاقبة من اعتز بغير الله تعالى، وأنها عزة واهية باطلة لا حقيقة لها لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٢٢٩.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٥٠٩.

أنواع العزة ومقوماتها

إن الحديث عن أنواع العزة ومقوماتها يظهر من خلال التعرف على العزة المحمودة ومقوماتها، وكذلك على العزة المذمومة ودوافعها، وتفصيل ذلك فيما يأتي:

أولًا: العزة المحمودة ومقوماتها:

تظهر أنواع العزة المحمودة في القرآن الكريم من خلال النقاط الآتية:

١. العزة لله عز وجل جميعًا.

ذكرنا سابقًا أن من معاني العزة القلة والندرة، فمقومات العزة لله جل جلاله قد تفرد بها دون غيره، وليست لأحد سواه، ومن الأمثلة على هذه المقومات التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز:

- تفرده بالخلق.

فالله عز وجل هو الخالق لكل شيء في هذا الكون، وهذه المخلوقات كلها التي تتجلى فيها قدرته عز وجل وعظمته قد أوجدها من عدم.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام:٩٥-٩٦].

فقد ذكر في هاتين الآيتين مجموعة من المخلوقات الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته، وعلى علمه وحكمته، فهو فالقٌ لما يزرعونه من حب الحصيد ونوى الثمر، وشقه بقدرته بربط الأسباب بمسبباتها كجعل الحب والنوى في التراب، وإرواء التراب بالماء، كما أنه يخرج الحي من الميت كالزرع يخرجه من التراب أو البذور، ويخرج الحيوان من البيضة أو النطفة، وهو أيضًا مخرج الميت من الحي إذ يخرج اليابس من النبات الحي النامي، كما أنه فلق ظلمة الليل وشقها بنور الصباح، وجعل الليل سكنًا يستراح فيه من التعب بالنهار، كما خلق الشمس والقمر يجريان بحساب وعدد لبلوغ أمرهما ونهاية آجالهما، وفيهما مصالح ومنافع للناس حيث يحتاجون إلى معرفة حساب الأوقات لعباداتهم ومعاملاتهم وتواريخهم، فذلك كله من تقدير العزيز المتفرد بالخلق، الغالب على أمره في تنظيم ملكه، والعليم بما اقتضاه، واسعٌ علمه[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠].

والآيات على ذلك كثيرة.

(١) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٩٧.

❁ تفرده بالإحياء بعد الإماتة.

فقد أنكر المشركون أمر البعث، فبين الله تعالى في كثير من الآيات أنه قادر على ذلك.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:٢٦٠].

فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى رؤية كيفية إحياء الموتى، وهو لم يشك قط في قدرة الله تعالى على ذلك، ولكن لأن النفس البشرية جبلت على رؤية ما أخبرت به بالعين المجردة؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس الخبر كالمعاينة)[1].

فأمره تعالى أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحهن ويجزئهن، ويضع على كل جبل منهم جزءًا، ثم يدعهن بأسمائهن فتأتيه هذه الطيور مسرعة، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك، وشاهد بأم عينيه قدرة الخالق العزيز الحكيم[2].

وقد ذكر الله تعالى في أكثر من موضع أن الإحياء بعد الإماتة أهون عليه من الخلق، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم:٢٧].

فإذا كان المشركون يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق كما أخبر عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف:٩].

فلماذا ينكرون البعث؟!

❁ تفرده بالتصوير في الأرحام.

وهذا أمر قد تفرد الله تعالى به كما تفرد بالخلق والإحياء بعد الإماتة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران:٦].

فقد أخبر الله تعالى عن تصويره للبشر في أرحام أمهاتهم على الكيفية التي يشاؤها جل جلاله من حسن وقبح، وسواد وبياض، وطول وقصر، وسلامة وعاهة إلى غير ذلك من السعادة والشقاء، وهذا دليل على وحدانيته عز وجل، ولا يقدر على ذلك إلا العزيز الذي لا يغالب، والحكيم بخلقه وشؤونهم[3].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٨٤٢، ٣/ ٣٤٧.
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ٥٧٣٨، ٣/ ١٥٩٩.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١/ ٢٥٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٧.

❁ تفرده بالنصر.

وهذا واردٌ في قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦].

والمعنى: أن نصر المؤمنين لا يكون إلا من عند الله عز وجل على خلاف ما كان يعتقد المشركون من أن الآلهة هي التي تمدهم بالنصر في حروبهم ومعاركهم، وهذا واضحٌ من التركيب القرآني حيث استخدم «ما» النافية مع حرف الاستثناء «إلا»، وهو أسلوب حصر وقصر؛ لذلك ناسب أن يذكر اسمه «العزيز» لتفرده سبحانه بأمر النصر فهو العزيز الغالب القاهر.

❁ تفرده بتأليف القلوب.

وهذا ما أخبر الله تعالى به في قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال:٦٣].

فالله تعالى له جميع صفات الكمال، فألف بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، وعلل سبحانه فعله ذلك؛ لأنه عزيز حكيم، فلولا عزته التي غلبت كل شيء، وحكمته التي أتقن بها كل ما يريد بحيث لا يستطيع أحد أن يغير مما أراد الله تعالى شيئًا لما تآلف المؤمنون فيما بينهم بعدما كانت تثور الإحن والفتن بينهم، فتغلي لها الصدور حتى يقتتلوا[1].

❁ تفرده بالهداية.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم:٤].

أي: إن من لطف الله تعالى أن أرسل الرسل بلسان الأقوام الذين بعثوا إليهم؛ ليتمكنوا من فهم ما يدعونهم إليه، وحينئذٍ يقيم عليهم الحجة، فيضل الله تعالى من لم يرد الهداية، ويهدي من يشاء ممن اختصه برحمته فيهديه؛ وذلك لأنه هو العزيز الذي من عزته أن انفرد بأمر الهداية والضلال، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا في المحل اللائق به[2].

❁ تفرده بالقضاء.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ [النمل:٧٨].

أي: إن الله تعالى سوف يقضي بين بني إسرائيل وغيرهم بالحق الذي يحكم به أو بحكمته العلية، فهو العزيز الذي لا يرد حكمه وقضاؤه، ومن عزته تفرده بالقضاء، كما أنه عليمٌ بجميع الأشياء التي من جملتها

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٣١٨.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢١.

ما يقضي به[1].

❁ تفرده بالرزق والعطاء.

فيقول الله عز وجل: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر:٢].

فكل ما يفتحه الله تعالى للناس من خزائن رحمته لن يستطيع أحد منعه، وكذلك ما منعه الله تعالى من نعمه عن أحد، فلا يستطيع أحد إرساله إليه، فهو سبحانه المعطي المانع، لا معطي سواه، ولا منعم غيره[2]، فهو العزيز الذي من عزته يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، وليس لأحد فعل ذلك.

ويقول أيضًا: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝١٩﴾ [الشورى:١٩].

فالله تعالى كثير اللطف بهم، وبالغ الرأفة لهم، ويرزق من يشاء من أنواع الرزق، وإن كان يرزق كل نفس، لكنه فاوت بين المرزوقين في الرزق في القلة والكثرة لحكمة لا يعلمها إلا هو عز وجل[3].

فالله سبحانه هو القوي العظيم القوة، والباهر القدرة، والعزيز الذي من عزته انفرد بأمر الرزق والعطاء، ومن أجمع الآيات على مقومات عزة الله جل جلاله، قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة:٤-٩].

٢. العزة لكتاب الله.

لقد وصف الله عز وجل نفسه بأنه عزيز، وعليه فإن كل ما يصدر عنه جل جلاله يستمد العزة من عزته تعالى، فالقرآن الكريم هو كلام الله تعالى، ولذلك فهو يتصف بالعزة أيضًا.

يقول الله عز وجل: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر:١].

فهذا الكتاب العظيم هو منزل من الله تعالى العزيز في ملكه والحكيم في أمره[4].

وفي وصف القرآن ذاته يقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/٢٢٩.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/٣٨٨.
(٣) انظر: فتح البيان، صديق خان ١٢/٢٩١.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/٤٥٧.

[فصلت:٤١-٤٢].

فإن الكافرين جحدوا وكفروا بالقرآن الكريم، فبين الله تعالى أن هذا القرآن هو كتاب عزيز، قال الطبري: «وإن هذا الذكر لكتاب عزيز بإعزاز الله إياه، وحفظه من كل من أراد له تبديلًا أو تحريفًا، أو تغييرًا من إنسي أو جني وشيطان ومارد»[(١)].

كما وصفه الله عز وجل بأن من هو على الباطل لا يستطيع أن يغير شيئًا من القرآن بكيده، أو أن يبدل شيئًا من معانيه، ولا أن يلحق فيه مما ليس منه، فهو تنزيلٌ من عند ذي حكمة بتدبير عباده، ومن عند حميد محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم[(٢)].

٣. العزة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

بما أن الله جل جلاله قد وصف نفسه بأنه عزيز، فإن كل ما يصدر عنه من أفعال فهو يتصف بالعزة أيضًا، ومن جملة أفعاله عز وجل أنه بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمةً للعالمين، وعليه فإن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم يتصف بالعزة، يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

وعزة الرسول صلى الله عليه وسلم متمثلةٌ في إظهار دينه على سائر الأديان الموجودة على الأرض[(٣)].

٤. العزة للمؤمنين.

إن الله تعالى لما ذكر العزة الحقيقية حصرها فيه جل جلاله، وفي رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

وعزة المؤمنين تتمثل في نصر الله تعالى إياهم على أعدائهم[(٤)]، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

أي: إن الله سبحانه وتعالى ينصر من ينصر دينه، ويدافع عن أوليائه، فالله تعالى لا يحتاج إلى نصرة أحد؛ بل كل الخلق مفتقرٌ إلى نصرته سبحانه[(٥)].

فهذه العزة المحمودة للمؤمنين تكون في اتباعهم لشرع الله تعالى، وتنفيذه في أمور حياتهم، والسير على منهج أهل السنة والجماعة، ونبذ كل ما يعكر صفو الإيمان من الأمور البدعية والفلسفية والكلامية التي لا جدوى من ورائها، فالإيمان الذي به عزة المسلمين هو الإيمان الذي يولد عملًا

(١) جامع البيان ٢١/ ٤٧٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢١/ ٤٨٠.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٠٠.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٣٣، زاد المسير، ابن القيم ٤/ ٢٨٩.
(٥) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب ص٤٠٦.

صالحًا من صلاة خاشعة أو صيام، وأداء للزكاة، وبعدًا عن كل ما حرم الله تعالى من الربا والزنا والغش والغيبة والنميمة وغير ذلك من المنكرات، فهذا هو الإيمان الحقيقي.

وهذا الإيمان هو الذي تكون به العزة والرفعة والكرامة والمكانة للمسلمين جميعًا، وبالإضافة إلى ذلك فهو إيمانٌ قائمٌ على إخلاص العبادة لله عز وجل الذي بيده ملكوت كل شيء، وبيده الأمر كله، فحياتنا وأرزاقنا وآجالنا كلها بيد الله عز وجل، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يتوجه العبد بالتوكل أو الخوف أو الرجاء أو المحبة لغير الله عز وجل، والإنسان المؤمن العزيز هو الذي يجد للإيمان طعمًا وحلاوةً في أمور حياته كلها، وهذا ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: (ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[1].

ثانيًا: العزة المذمومة ودوافعها:

كما تكون العزة محمودة كذلك قد تكون مذمومة، ومن أهم أنواع هذه العزة المذمومة والبواعث عليها أو دوافعها كما يأتي:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ١/ ١٢، رقم ١٦.

١. عزة الكافر دوافعها الكبر والعناد.

يقول الله عز وجل: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ [ص:١-٢].

فالله تعالى حين أنزل هذا القرآن العظيم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أنزله ذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، فانتفع به المؤمنون، ولم ينتفع به الكافرون، والسبب في ذلك أنهم في عزة وحمية واستكبار عن قبول الحق والإيمان به، فهم دائمًا يخالفون الحق ويعاندونه[2] مع اعتقادهم في قرارة أنفسهم أن القرآن حق، وأن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم حق قد بعثه الله تعالى إليهم؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ولكن ما يمنعهم من الإيمان به إلا عزتهم وحميتهم الباطلة، وجحودهم وظلمهم لأنفسهم.

ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام:٣٣].

هذا وقد بين الله تعالى أن هؤلاء الكفار يعتزون بالأصنام والأوثان التي يعبدونها من دونه سبحانه حيث قال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝٨١﴾ [مريم:٨١].

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥١.

ولا شك أنها عزة مذمومة.

٢. عزة المنافق، دوافعها الاغترار بالمواقف والمصالح.

إن المنافق هو شخص أخطر من الكافر على الإسلام والمسلمين، وذلك لأنه يظهر الإسلام والموالاة لأهله، في حين يبطن الكفر والعداء لهم، ويوالي الكفار، فخطره أشد وأعظم من الكافر نفسه، وكان هؤلاء المنافقون يبحثون عن مصالحهم، فيلهثون وراءهم سواءً كانت عند المسلمين أم عند الكافرين، وكانوا دائمًا يتحينون الفرص، وينتهزون المواقف ليثيروا الفتن.

ومنها ما أخبرنا به الله عز وجل في كتابه العزيز إذ قال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨].

وللوقوف على المعنى المراد من هذه الآية، لا بد من التعرف على سبب نزولها، فقد روى ابن هشام أن غلامًا لعمر بن الخطاب اسمه جهجاه بن سعيد الغفاري تنازع مع سنان بن وبر الجهني، وهما مع جمع عند ماء المريسيع أثناء مقام النبي صلى الله عليه وسلم هناك، وكادا يقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فسمع بالأمر عبد الله بن أبي بن سلول، فغضب وقال للرهط ممن معه: أو فعلوها؟! قد نافرونا وكاثرونا في دارنا والله ما أعدنا وجلابيب قريش -يقصد المسلمين من قريش- إلا كما قالوا: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وكان ممن سمع كلامه زيد بن أرقم، فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره الأمر، وكان عنده عمر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له صلى الله عليه وسلم: **(فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا. ولكن أَذِّنْ بالرحيل،** وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها، فارتحل الناس.

ومشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وهكذا إلى أن آذنتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا. وإنما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي، ونزلت سورة المنافقين تصديقًا لقول زيد بن أرقم[(١)].

فكما ظهر من هذه الحادثة أن عبد الله بن أبي بن سلول قد أخذته العزة بالإثم، وانتهز

(١) السيرة النبوية ٤/ ٢٥٣ بتلخيص.

هذا الحدث وهذا الموقف لأجل تحقيق مصلحة له ولأعوانه، وهي إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار مما قد يؤدي إلى خطر أعظم لولا حكمة تصرف النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة:٢٠٦].

أي: إذا قيل للمنافق: اتق الله تعالى، وخفه ولا تفسد في الأرض، ولا تسع فيها بما حرم الله تعالى عليك من معاصٍ، ولا تهلك حرث المسلمين ونسلهم، فإذا نصح بذلك استكبر ودخلته عزة وحمية بما حرم الله تعالى عليه، وتمادى في غيه وضلاله، فتوعده الله تعالى بأنه سوف يصليه نار جهنم، وبئس المهاد لصاليها[(١)].

٣. عزة القبيلة والرهط، دوافعها العجب بالنفر والحسب.

ويظهر هذا النوع من العزة المذمومة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود:٩١-٩٢].

فلما بعث الله تعالى شعيبًا عليه السلام إلى قومه، ودعاهم إلى التوحيد، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عما كانوا يفعلون من منكرات أهمها: التطفيف في الميزان، ولكنهم لم يستجيبوا، فحذرهم وخوفهم بما أصاب الأقوام السابقة حين عصت أمر ربها جل جلاله، فكانت هذه الآية هي رد القوم على نبيهم شعيب عليه السلام، ومعناها أن القوم قالوا: لا نفهم يا شعيب صحة ما تقول -وقد كان عليه السلام خطيب الأنبياء-، ولا قوة لك ولا عز لك بيننا، وإنك لا تقدر على الامتناع منا إن أردنا أن نلحق بك مكروهًا، ولولا عشيرتك ورهطك لقتلناك رجمًا، وحينئذٍ أنت لا تعز علينا حتى نكرمك من القتل، ونرفع عنك الرجم، وإنما يعز علينا رهطك؛ لأنهم من أهل ديننا وملتنا، فرهطك هم الأعزة علينا[(٢)].

ولذلك أنكر شعيب عليه السلام عليهم هذه العزة المذمومة التي كان دافعها العجب بالنسب والكثرة والنفر، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)[(٣)].

قال صاحب الظلال: «الجماعة من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٤٤.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، ٢/ ٦٤٤، رقم ٩٣٤.

البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس، وهم ضعاف، وهم عباد من عباد الله أهؤلاء أعز عليكم من الله؟ أهؤلاء أشد قوة ورهبة في نفوسكم من الله؟ ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ وهي صورة حسية للترك والإعراض، تزيد في شناعة فعلتهم، وهم يتركون الله ويعرضون عنه، وهم من خلقه، وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذي هم فيه. فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير»[1].

٤. عزة الغنى وزينة الحياة الدنيا، دوافعها الركون إلى الملذات.

يتمثل هذا النوع من العزة المذمومة في قصة أصحاب الجنتين، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف:٣٢-٣٦].

فهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتوضيح حال المؤمن والكافر ومآل أمرهما، وهما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وورثا عنه أموالًا طائلة فاقتسماها، فصرف المؤمن ماله في سبيل الله تعالى، وأنفق منها على الفقراء واليتامى والمساكين، في حين اشترى الكافر مزارع وبساتين، وكثر ماله إلى أن حان وقت الابتلاء، فكان له جنتان مملوءتان بجميع الخيرات، ولم ينقص من ثمرهما شيء، هذا بالإضافة إلى ما كان عنده من النقود والجواهر والعبيد وغير ذلك من أنواع النعيم، فقال الأخ الكافر على سبيل البطر والمباهاة لأخيه المؤمن: أنا أكثر منك مالًا؛ لأنه بالمال تنال جميع اللذات والشهوات، كما أنني أعز نفرًا وأبناء عشيرة وخدمًا.

قال ابن كثير: «أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا، قال قتادة: تلك-والله-أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر»[2].

ومن شدة بطره وخيلائه دخل جنته وهو ظالمٌ لنفسه؛ لأنه لم يعترف بهذه النعمة أنها من عند الله سبحانه وتعالى، كما كان لديه طول أملٍ وحرصٍ وغرورٍ شديدين، هذا بالإضافة إلى غفلته فقال معتمدًا على هذه الثروة والجاه وكثرة الأعوان: ما أشك أن تهلك هذه الجنة وتعدم؛ بل هي ستظل هكذا من النضارة على الأبد، كما أنني ما أظن أن الساعة الموعودة التي أخبر بها جميع الأنبياء والرسل أنها آتية حتى تنعدم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩٢٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٥٧.

هذه الجنة بانعدام العالم، وعلى فرض قيام الساعة وانتهاء الدنيا فإنني سأجد جنة أفضل من هذه في الآخرة، ثم ذكره أخوه المؤمن بالله عز وجل، وكيف خلقه وأنعم عليه، فمن الواجب أن يشكره على هذه النعم، وفي لحظة وجد الكافر جنته خاوية ساقطة على عروشها، وحين أفاق من سكر غروره وغفلته، تنبه إلى هذه الصدمة وقال متحسرًا: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٢].

ومثله أيضًا عزة قارون بماله، حيث قال الله عز وجل فيه: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص:٧٦].

فقارون كان على شاكلة قوم موسى في الكفر والطغيان، فبغى عليهم بالكبر لما غلب عليه من الحرص على الدنيا، وذلك لما اتصف به من الغرور والتعزز برؤية زينة نفسه، وقد أعطاه الله تعالى من الأموال المدخرة ما يثقل على الجماعة الكثيرة من الرجال أصحاب القوة حمل مفاتيح صناديقها، فقام قومه بتوجيه النصح له بعدم الفرح بزخارف الدنيا، حيث إن هذا الفرح يشغله عن القيام بحق الله تعالى في هذه الأموال، فالله تعالى لا يحب الفرحين؛ لأن في حب المال إلى هذه الدرجة إيثار لها على الآخرة، وهذا أصل كل شر، ومنبع كل فساد[1].

قال سيد قطب: «وفي هذا القول جماع ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة. «لا تفرح» فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ، لا تفرح فرح البطر الذي ينسي المنعم بالمال وينسي نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران، لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطير له لبه، ويتطاول به على العباد، «إن الله لا يحب الفرحين» فهم يردونه بذلك إلى الله، الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال، المتباهين المتطاولين بسلطانه على الناس»[2].

ومثله أيضًا قوله تعالى في حق سحرة فرعون إذ قال: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الشعراء:٤٤].

فاستعان هؤلاء السحرة بعزة عبد عاجز ضعيف، ولكنه تجبر فأصبح في صورة ملك له جنود، كما أنه استخف قومه وأطاعوه، فغرتهم هذه الزينة وهذه الأبهة، ولم يعلموا حقيقة الأمر التي لم تصل بصائرهم إليها[3].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٥٣٦.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١١.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي

قال الشعراوي «رحمه الله» في تفسيره للآية: «هذا قسمهم، وما أخيبه من قسم؛ لأن فرعون لا يغلب ولا يقهر في نظرهم، والعزة تعني عدم القهر وعدم الغلبة، لكن عزة فرعون عزة كاذبة وأنفة وكبرياء بلا رصيد من حق، وعزة بالإثم كالتي قال الله عنها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦]»[1].

فكثرة الغنى والمال والجاه والركون إلى ألوان الملذات والشهوات مع عدم القيام بحق الله عز وجل في هذه النعم من الحمد والشكر عليها سببٌ لهلاك العبد، فهذه عزة مذمومة.

ويخلص من هذا إلى أن أنواع العزة المذمومة-كما جاءت في القرآن الكريم- هي أربع: عزة الكافر عنادًا واستكبارًا عن قبول الحق، وعزة المنافق اغترارًا بالمواقف، وعزة الرهط والعشيرة والقبيلة افتخارًا بالنسب والنفر، وعزة الغنى وزينة الحياة الدنيا ركونًا إلى الملذات والشهوات، فعلى المسلم تجنب هذه البواعث والدوافع على العزة المذمومة حتى لا يقع فيها من حيث لا يشعر.

علاج العزة المذمومة

قدمت النصوص القرآنية مجموعة من الآيات التي تحمل علاجًا لمن يتصفون بهذا الخلق المذموم، وهي متمثلة فيما يأتي:

أولًا: تقوية الإيمان بالله والتوكل عليه:

ذكرنا من أنواع العزة المذمومة عزة المنافق، والتي كان من أهم دوافعها تصيد الفرص واقتناصها لجعلها في غير صالح المؤمنين، فها هو الله عز وجل يقول عنهم: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال:٤٩].

فهؤلاء المنافقون يحتقرون المؤمنين ويستخفون بعقولهم عندما أقدموا على قتال المشركين في بدر، وكان عددهم يفوق عدد المشركين بثلاثة أضعاف تقريبًا، فقال المنافقون مستهزئين بالمؤمنين: إن هذا الدين الذي اعتنقه المؤمنون هو الذي أدى بهم إلى هذه الموارد التي سوف يكون فيها هلاكهم، ولم يعلموا أن إيمانهم بهذا الدين العظيم هو الذي يوجب عليهم الإقدام لنصرة دين الله عز وجل.

قال السعدي رحمه الله: «فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن

ص٥٩١.

(١) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٥٦٧.

المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقًا بربه، مطمئن القلب لا فزعًا ولا جبانًا، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لا يغالب قوته قوة، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجراه»[1].

وبهذا تكون تقوية الإيمان بالله سبحانه وتعالى والتوكل عليه من أهم نقاط علاج العزة المذمومة لأصحاب النفوس الضعيفة، فإذا قوي إيمانهم وتوكلوا على الله تعالى حق التوكل، أمدهم الله تعالى بالعزة والغلبة، ولذلك إذا كان الله تعالى قد أمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالتوكل عليه حين قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء:٢١٧].

فمن باب أولى أن يتوكل عليه المؤمنون.

ثانيًا: بيان حقيقة الدنيا وزينتها وسرعة زوالها:

يقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال:٦٧].

فهذه الآية فيها عتابٌ للنبي صلى الله عليه وسلم لما كان منه من فداء الأسرى يوم بدر، فاستشار أصحابه فيهم، فأشار أبو بكر رضي الله عنه عليه بفدائهم مقابل إطلاق سراحهم؛ لأن المهاجرين كانوا في ذلك الوقت فقراء، وكانوا حديثي عهد بترك ديارهم وأموالهم في مكة حين هاجروا إلى المدينة المنورة، ولعل الله تعالى يهديهم بعد فكاك أسرهم فيؤمنوا، في حين أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتل الأسرى جميعهم؛ لأنهم كانوا أئمة الكفر وصناديدهم، فيعلم المشركون حينئذٍ أن بأس المؤمنين شديد، وتظهر به قوة الإسلام والمسلمين، لكن النبي صلى الله عليه وسلم للينه ورقة قلبه ورحمته أخذ برأي أبي بكر[2]، فنزلت هذه الآية تعاتب النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، وتعرفه أن قتل المشركين كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم، فكان يجب على النبي صلى الله عليه وسلم المبالغة في قتل هؤلاء المشركين، وقهرهم غلبةً وقسرًا.

ثم وجه الله عز وجل الخطاب إلى المؤمنين من صحابة رسول الله صلى الله

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٢.

(٢) انظر: فقه السيرة، البوطي ص١٨٥.

عليه وسلم، فقال: أيها المؤمنون إنكم تريدون عرض الدنيا من مال ومتاع حين أسرتم المشركين، ولكن الله تعالى يريد لكم زينة الآخرة، وما أعده سبحانه للمؤمنين وأهل ولايته في جنان النعيم بقتلكم هؤلاء المشركين وإثخانكم في الأرض، فافعلوا ما يريده الله تعالى منكم، وليس ما تدعوكم إليه أهواؤكم، من الرغبة في الدنيا، فإنه جل جلاله عزيز حكيم، عزيز إن فعلتم ما يريده منكم، فإنه لن يجعل عدوكم يغلبكم؛ بل ستكون الغلبة لكم؛ لأن الله تعالى عزيز لا يقهر ولا يغلب، كما أنه حكيم في تدبيره أمر خلقه[1].

فما أخذه المسلمون من مال مقابل إبقاء أسرى المشركين على قيد الحياة هو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم والقضاء عليهم.

قال السعدي رحمه الله: «يقول تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل العزة، ولو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفعل، لكنه حكيم، يبتلي بعضكم ببعض»[2].

وبهذا تكون معرفة حقيقة الدنيا سببًا في علاج أصحاب النفوس المريضة الذين يلهثون وراء التمتع بزينتها.

ثالثًا: بيان ضعف الولاء لغير الله وانقطاعه:

يقول الله عز وجل في الذين تركوا الولاء لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وطلبوه عند المشركين، فاتخذوهم أولياء يتعززون بهم ويستنصرونهم: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

فالله تعالى يبشر هؤلاء المنافقين-على سبيل التهكم-وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، فيبشرهم بأقبح بشارة، وهي العذاب الأليم الموجع، وذلك بسبب اتخاذهم الكافرين أولياء عن طريق محبتهم ومعاونتهم ونصرتهم، في حين تركوا ولاية المؤمنين، فما الذي دفعهم إلى ذلك؟ هل يبتغون العزة ويطلبونها عندهم؟ فإن العزة الحقيقية لله جل جلاله، وفي موالاته تعالى وموالاة المؤمنين.

قال السعدي رحمه الله: «وهذا هو

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٦.

الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعًا، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين، وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم»[1].

فإذا علم هؤلاء أن ولاءهم لغير الله تعالى هو باطل وضعيف ومنقطع، ولا يجدي من ورائه نفعًا يوصلهم إلى الآخرة، وإلى مرضات الله سبحانه وتعالى، حينئذٍ يكون هذا علاجًا للعزة المزعومة المذمومة التي يلهث أصحابها وراءها، فهي عزة واهية باطلة، فالعزة الحقيقية المحمودة هي التي تكون في رضا الله جل جلاله.

ويخلص من هذا إلى أن القرآن الكريم وضع بعض الحلول أو العلاج لهذه العزة المذمومة، فإذا قوى المرء إيمانه بالله تعالى، وتوكل عليه حق توكله، وإذا لم يلهث وراء ملذات الدنيا وشهواتها ليحصل منها على عرض زائل، وأن هذه الحياة الدنيا كلها فانية وسريعة الزوال، ولا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة، وإذا علم حقيقة الولاء، وأنه لا يكون إلا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، حينئذٍ يتخلص هذا المرء من هذا الخلق المذموم، ويتحول عنده إلى خلق محمود.

(١) المصدر السابق ص٢٠٩.

آثار العزة وعواقبها

لاشك أن للعزة المحمودة آثارًا في الدنيا وفي الآخرة، وللعزة المذمومة عواقب وخيمة في الدنيا وفي الآخرة، ستتعرف على أهم الآثار وأهم العواقب لكلا النوعين في النقاط الآتية:

أولًا: آثار العزة المحمودة في الدنيا:

إن العزة المحمودة تظهر آثارها في الدنيا، وذلك من خلال النقاط الآتية:

١. علو الهمة والثبات على الحق.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل:٧٨-٧٩].

فالله تعالى سوف يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بحكمه فيهم، فينتقم من المبطل منهم، كما سيجزي المحسن منهم بالثواب الحسن، فهو العزيز في انتقامه من المبطلين، لا يقدر أحد على منعه تعالى من الانتقام منهم ومن غيرهم الضالين عن طريق الهدى.

ثم يأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتفويض جميع أموره إليه، فإنه سبحانه وتعالى كافيه؛ لأنه على الحق المبين الواضح لمن تأمله وتدبره، فهذا من باب التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وكأنه تعالى يقول له: لا يحزنك تكذيب المكذبين لك، وخلافهم لما تأمرهم به، ولكن امض لأمر ربك الذي بعثك فيه[1].

فنبذ المؤمن لما يلاقيه من المكذبين والمشركين فيه إعلاءٌ للهمة، وثبات على الحق، وعدم الركون إلى ما يلاقيه منهم، فإذا لم يكن الأمر كذلك فستأتي نتيجة ذلك بالفشل، فيجب على المؤمن المضي في طريق الحق والثبات عليه، حتى يمده الله تعالى بالنصر المؤزر.

٢. الصبر على الشدائد.

إن إبراهيم عليه السلام لما دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل، وإفراده بالعبادة دون ما كانوا يعبدونه من الأصنام والأوثان، فقابلوا هذه الدعوة بالسخرية والاستهزاء؛ بل هموا بقتله وحرقه، فلما ألقوه في النار نجاه الله تعالى منها، وما زال قومه مستمرين في عنادهم وغيهم وضلالهم، ولم يؤمن معه إلا لوط عليه السلام.

فقال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت:٢٦].

ثم قرر إبراهيم عليه السلام ترك هذه الأرض السوء التي عليها قومه، وأن يهاجر إلى الأرض المباركة في الشام، وعلل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٩٥.

هجرته بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي إنه سبحانه وتعالى العزيز القادر على هدايتهم، والحكيم بتدبير شؤون خلقه.

وعليه فإن العزة التي كان يتمتع بها إبراهيم عليه السلام جعلته يثبت على الحق الذي آتاه الله تعالى إياه، فلم يجزع لما لاقاه من قومه في طريق دعوتهم إلى الحق؛ بل صبر وتحمل في سبيل الله تعالى الكثير والكثير، ومع ذلك لم يذكر الله تعالى لنا أنه دعا على قومه، ولم يذكر أيضًا أنه تعالى أهلك قومه بعذاب مستأصل كبقية الأقوام السابقة التي أهلكها الله تعالى بالاستئصال، ولكنه تعالى ذكر اعتزال إبراهيم عليه السلام لقومه، وهجرته من بين أظهرهم ثابتًا على الحق، صابرًا لما لاقاه من أذى قومه له، ولما سيلاقيه من شدائد بعد ذلك.

٣. التمسك بهدايات القرآن الكريم والسنة النبوية.

إن الله تعالى ذكر حال المهتدين الموفقين من عباده، وهم أهل العلم، فقال عز وجل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ:٦].

فإنهم يرون فيما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من الأخبار أنه الحق، وما سواه مما خالفه أو ناقضه فهو باطل، كما أنهم يرون في أوامره ونواهيه أنه يهدي إلى صراط العزيز الحميد، قال السعدي: «وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق والإخلاص وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنهى عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين»[(١)].

وعليه فإن العزة التي يتمتع بها المؤمنون جعلتهم يزيدون تمسكًا بهدايات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله.

ذكر الله تعالى أن العزة التي يتمتع

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٧٥.

بها المؤمنون في الدنيا جعلتهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون فيه لومة لائم.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

والمعروف هو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من برٍ وخير، من العقيدة الحسنة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، وإن أول ما يأمرون به أنفسهم، والمنكر هو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة المزيفة، والأعمال الخبيثة والأخلاق الرذيلة، كما أنهم يطيعون الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يزالون ملازمين لطاعة الله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم على الدوام[1].

قال سيد قطب عن طبيعة المؤمنين أنهم «يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض، فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله، ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله ،وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم»[2].

ويقول الله تعالى عنهم في موضع آخر:. ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤٠-٤١].

ومن آثار هذه العزة في الدنيا أيضًا الجهاد في سبيل الله عز وجل حيث قال تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد:٢٥].

فإن من جملة ما أنعم الله تعالى به على عباده خلقه الحديد، إذ علم الله تعالى الناس صنعته، وجعله رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد أن أقام عليه الحجة، كما أن فيه منافع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٤٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٥.

للناس في كثير من أمور حياتهم، ومنها صناعة أدوات الحرب من آلات وأسلحة وغير ذلك؛ لتكون قوة رادعة يستخدمها المسلمون في تنفيذ أحكام الشريعة فيما بينهم، ولجهاد الأعداء الذين يعتدون على حرمات الدين والبلاد، ويعرقلون انتشار الإسلام على وجه الأرض.

قال الزحيلي: «إنما فعل الله ذلك ليعلم علم مشاهدة ووجود من ينصر دينه وينصر رسله بإخلاص ونية صالحة، باستعمال الحديد، في أسلحة الجهاد ومقاومة الأعداء، إن الله قوي قادر عزيز قاهر غالب، يستطيع دفع عدوان الظالمين، وينصر رسله والمؤمنين من غير حاجة إليهم، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به وبثوابه، ويحققوا لأنفسهم العزة والمنعة والهيبة في قلوب الناس، فإن حماية القيم والمبادئ تحتاج دائما إلى حماة أشداء، ذوي بأس وإباء»[1].

وقد ورد عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقومٍ فهو منهم)[2].

ويفهم من هذا أن العزة والكرامة جعلت لمن اتبع أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وسار على هداه، واقتفى أثره، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وجاهد في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمة التوحيد.

ثانيًا: آثار العزة المحمودة في الآخرة:

تظهر آثار العزة المحمودة في الآخرة من خلال النقاط الآتية:

١. مغفرة الذنوب.

يقول الله عز وجل: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح:٥].

وهذه الآية ضمن مجموعة من الآيات التي تتحدث عن صلح الحديبية، وقد سماه الله تعالى فتحًا مبينًا، فهو سبحانه قد فتح على رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بهذا الفتح العظيم؛ ليشكروه بالطاعة والجهاد والصبر، وقد أتم الله تعالى لهم ذلك؛ ليدخلهم الجنة، ويغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، فيفوزوا بهذا الفوز العظيم[3].

٢. استحقاق رضوان الله تعالى.

يقول الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ

(١) التفسير المنير ٢٧/ ٣٣٣.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٥١١٤، ٩/ ١٢٣.
وصححه الألباني في تخريج مشكلة الفقر رقم ٢٤، ص٢٥.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٩٥.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧١-٧٢].

فهؤلاء المؤمنون الذين يتصفون بالعزة المحمودة، ويتصفون بالأوصاف الواردة في الآية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فأولئك يستحقون الرحمة من الله تعالى، كما أنه عز وجل وعدهم -ووعده حق منجز لا محالة- بجنات تجري من تحتها الأنهار، ومنازل يسكنونها من الدر والياقوت، كما أنهم يستحقون رضوان الله تعالى، فرضوانٌ يسيرٌ منه عز وجل أكبر من كل الذي أعطاهم إياهم من نعم في الآخرة، فذلك هو الفوز العظيم[(١)].

فلذلك أتى بكلمة «رضوان» نكرة؛ ليبين أن القليل من رضوان الله تعالى أفضل وأعظم من كل ما منحهم من نعيم وملذات، وبذلك يكون المؤمنون قد استحقوا هذا الرضوان فمنحهم الله تعالى إياه في الآخرة.

٣. جنات الخلد والنعيم المقيم.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [لقمان:٨-٩].

فذكر الله تعالى نعيم المؤمنين في الآخرة، حيث أعد لهم جنات النعيم الخالد الدائم الذي لا ينتهي، فهذا وعد الله جل جلاله النافذ لا محالة، وكان قد وعدهم به في الدنيا، وها هو سبحانه في الآخرة ينفذ لهم ما وعد به، فهو العزيز الحكيم كامل القدرة يعذب المعرض، ويثيب المقبل، كامل العلم، يفعل الأفعال كما ينبغي، فلا يعذب من يؤمن، ولا يثيب من كفر، فهو حكيم يضع الفعل المناسب اللائق في مكانه المناسب[(٢)].

وهكذا تظهر آثار العزة المحمودة في الآخرة من مغفرة الذنوب، واستحقاق رضوان الله تعالى، والفوز بجنات الخلد والنعيم المقيم.

ثالثًا: عواقب العزة المذمومة في الدنيا:

تتجلى عواقب العزة المذمومة في القرآن الكريم من خلال النقاط الآتية:

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٣٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١١٦.

١. اتباع الهوى والشهوات.

يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾ [البقرة:٢٠٨-٢٠٩].

وهذه الآية نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، فأمرهم الله تعالى أن يؤمنوا كذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويدخلوا في دين الإسلام، ونهاهم عن السير في الطريق الذي يدعوهم إليه الشيطان؛ لأنه عدوٌّ مبينٌ ظاهر العداوة، ثم توعدهم الله تعالى بأنهم إن تنحوا عن طريق الحق والاستقامة من بعد ما جاءتهم الآيات من التعريف بمحمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم، فإن الله تعالى عزيز لا يمتنع عليه ما يريده من إنزال العقوبة بهم، وحكيم فيما يفعله.

وقد يكون هذا الخطاب موجهًا إلى المؤمنين أيضًا، ويكون المعنى: أن الله تعالى يأمرهم بالتمسك بالإسلام، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، ويحذرهم من تتبع خطوات الشيطان، فعداوته لهم ظاهرة وواضحة، ثم توعدهم بأنهم إن تنحوا عن طريق الاستقامة من بعد ما جاءتهم المعجزات وآيات القرآن الكريم، فإن الله تعالى عزيز لا يمتنع عليه ما يريده من إنزال العقوبة لهم في الدنيا والآخرة، وحكيم فيما يفعل[(١)].

وذكر القرطبي أن الآية فيها دليلٌ على أن عقوبة العالم بالذنب أعظم من عقوبة الجاهل به[(٢)].

وعليه فإن من كانت عزته لغير الله تعالى، فعزته مذمومة ينتج عنها أنه سوف يكون عرضةً لاتباع الهوى والشيطان.

٢. الفرقة والتنازع والفشل.

ذكرنا فيما سبق أن من دوافع عزة الكفار الكبر والعناد والاستعلاء على الحق رغم معرفتهم به وتأكدهم منه، فلما اجتمعوا على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لقتالهم في غزوة الأحزاب، فوجئوا بأمر لم تعهده العرب من قبل في الحروب، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد حفروا خندقًا، واستعانوا بالمنافقين واليهود على حرب المؤمنين، فعسكروا حول الخندق يحاصرون المسلمين، ولم يحدث بينهما قتال، فهزم الله تعالى جموع المشركين بوسيلتين لا دخل للمسلمين فيهما، وهما:

الأولى: عندما أتى نعيم بن مسعود إلى

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٣.

النبي صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه بين يديه، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم، وأوقع العداوة والبغضاء بين المشركين واليهود، فصار كل منهما يظن بالآخر سوءًا، فتألب بعضهم على بعض، وأصبح كل منهما يتهم الآخر بالغدر والخيانة، واختفت بينهم الثقة، فأشار أبو سفيان قائد المشركين على جيشه بالانسحاب.

الثانية: الريح الهوجاء التي أرسلها الله تعالى على المشركين فاقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وذلك بعد بضعة عشر يومًا من المحاصرة التي ضربها المشركون على المسلمين[1].

فرد الله تعالى الكفار من قريش واليهود بغيظهم، ولم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا من هذه الحرب، وكفى الله عز وجل المؤمنين في هذه الحرب، وأمدهم بنصر من عنده عز وجل بالملائكة والريح، وكان الله تعالى قويًا في ملكه، عزيزًا في انتقامه من الأحزاب[2].

فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥].

فالعزة والأنفة التي كان يتمتع بها المشركون استكبارًا وعنادًا عن قبول الحق قادت بهم إلى الفرقة والنزاع والفشل.

رابعًا: عواقب العزة المذمومة في الآخرة:

تبرز أهم عواقب العزة المذمومة في الآخرة من خلال ما يأتي:

١ . استحقاق غضب الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر:٤١-٤٢].

فإن الله عز وجل يقسم أنه أنذر فرعون وقومه، حيث أرسل لهم موسى عليه السلام، وأيده بالمعجزات المادية التسعة المعروفة الدالة على صدق رسالته ونبوته، ومع ذلك كذبوا وأنكروا هذه الآيات، وكذبوا الرسول الذي أرسله الله تعالى من عنده عز وجل المستحق وحده أن يفرد بالعبادة دون غيره، فأغرقهم الله تعالى في البحر، ثم أدخلهم النار، فهو العزيز الغالب الذي لا يغلب، مقتدر على الانتقام، ولا يعجزه ما أراد، كما لا يمنعه شيء عما أراد[3].

ففرعون وقومه لما كذبوا نبيهم موسى عليه السلام والآيات التي أيده الله تعالى

(١) انظر: فقه السيرة، البوطي ص٢١٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤١٩.
(٣) انظر: التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري ٩/ ٤٤٢.

بها، استحقوا بذلك غضب الله تعالى عليهم، فأهلكهم في الدنيا، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما أنه تعالى سوف يدخلهم النار في الآخرة.

٢. العذاب الشديد.

يقول الله عز وجل: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٤﴾ [آل عمران:٣-٤].

فالله سبحانه وتعالى أنزل القرآن والتوراة والإنجيل لإخراج الناس مما هم عليه من ضلال، فَمَنْ قَبِلَ هدى الله تعالى فهو المهتدي، ومن لم يقبل بقي على غيه وضلاله، كما أنه سبحانه أنزل الحجج والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد، وفسر كل ما يحتاج إليه الخلق، فأصبحت الأحكام من شدة الظهور والوضوح ما لا يقوى أحد على ردها إلا عنادًا واستكبارًا، وهذا ما فعله المشركون إذ لم يبق لهم عذر ولا حجة على عدم إيمانهم.

ولهذا توعد الله عز وجل الذين كفروا- بعدما بين الآيات ووضحها، فلم يبق عليها لبس أو إشكال-بالعذاب الشديد الذي لا يقدر قدره، ولا يدرك وصفه، فهو سبحانه قوي لا يعجزه شيء، وهو ذو انتقام ممن عصاه[(١)].

٣. الخلود في نار جهنم.

يقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦﴾ [النساء:٥٦].

فالله تعالى قد أعد لمن جحد آياته التي أيد بها أنبياءه ورسله نارًا مستعرة تشويهم وتحرق أجسامهم إلى درجة تفقدها الحس والإدراك، وكلما وصلت إلى هذه المرحلة بدلهم الله تعالى جلودًا حية غيرها؛ ليحسوا بالعذاب ويشعروا بالألم، فيستمر الألم بلا انقطاع، ويذوقوا العذاب الأليم[(٢)]، فهو سبحانه له العزة التي تتأتى بها تمام القدرة في عقاب المجترئين على الله عز وجل، وله الحكمة التي تتأتى بها الكيفية في إصلائهم النار[(٣)].

٤. الخوف والتخاذل والانهيار عند الشدائد.

أخبر الله تعالى أن المشركين اتخذوا الأصنام والأوثان لتعزهم وتقويهم وتنصرهم وتمدهم بالمال والولد والنعم في الدنيا، ولتكون لهم منعةً من عذاب الله

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢١.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٥/ ٦٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٩٠.

تعالى في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم:٨١].

فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨٢].

أي: لن تكون لهم هذه الأصنام منعة في الآخرة؛ بل إن هذه الآلهة نفسها التي كانوا يعبدونها في الدنيا ستجحد عبادتهم لها في الآخرة، وستكون عونًا عليهم في العذاب، فهؤلاء المشركون عبدوا الآلهة لتكون عزًّا لهم في الآخرة، فصارت عونًا عليهم في العذاب، فوجدوا عكس ما طلبوا[1].

هذا وقد أكد الله تعالى في موضع آخر على سبب اتخاذهم الأصنام آلهة من دونه عز وجل لأجل أن تكون مودة بينهم في الحياة الدنيا، وليست مودة تدوم؛ بل ستصير يوم القيامة عداوةً وبغضًا لهم، فقال: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٥].

ومعلومٌ أنه في يوم القيامة سيتبرأ المتبوع من الأتباع، وكذلك الأصنام ستتبرأ منهم، وستكفرهم وتلعنهم، وحينئذٍ يكون مصير الكل ومأواه النار، وما لهم من ناصر ينصرهم من عذاب الله عز وجل، أو يدفع عنهم العذاب[2].

وهكذا يكون في هذا اليوم العصيب، حيث يظن المشركون أنهم سيجدون من ينصرهم من عذاب الله تعالى، فيعتريهم الخوف الشديد، فَيُفَاجَؤوا بتبرؤ الآلهة منهم وخذلانها لهم، فيصيبهم الانهيار الشديد.

ونخلص من هذا إلى أن العزة المذمومة قادت أصحابها إلى أمورٍ لا تحمد عقباها في الآخرة من استحقاقهم لغضب الله عز وجل، والعذاب الشديد المؤلم، بالإضافة إلى خلودهم في النار أبد الآبدين.

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، التواضع، الذل، الغرور

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣٨٥.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٢١٩.

العزم

عناصر الموضوع

مفهوم العزم	٢٨٢
العزم في الاستعمال القرآني	٢٨٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٨٤
مجالات العزم	٢٨٦
أخلاق أولي العزم	٢٩٣
عوامل قوة العزم	٣٠٢
آثار العزم على الفرد والأمة	٣٢٣

مفهوم العزم

أولاً: المعنى اللغوي:

عزم الأمر وعزم عليه يَعْزِمُ عَزْمًا ومَعْزَمًا ومَعْزِمًا وعُزْمًا وعزيمًا وعزيمةً وعَزْمةً وعزمانًا، واعتزمه واعتزم عليه: أراد فعله وعقد قلبه عليه؛ فالعزم ما عقد عليه قلبك من أمرٍ أنك فاعله. ويقال: ما لفلان عزيمة؛ أي: ما يثبت على أمرٍ يعزم عليه؛ كأنه لا يمكن أن يصرم الأمر، بل يتردد فيه ويختلط. وعزم عليه ليفعلن؛ أي: أقسم عليه، وأمره أمرًا جدًا، لا استثناء فيه. والرجل يعتزم الطريق: يمضي فيه ولا ينثني. ويقال: إنه لذو أمرٍ عزيمٍ: أي مجمعٌ ومحكمٌ ومؤكدٌ. ورجل ماضي العزيم مجدٌ في أموره. والعزم: الصبر في لغة هذيل. يقولون: مالي عنك عزم؛ أي: صبرٌ. والعزيمة: الصريمة، وهي الحاجة التي قد عزمت على فعلها. والعزيمة: الإرادة المؤكدة. والجمع عزائم[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف العزم اصطلاحًا بتعريفات مقاربة وافيةٍ، فقال الراغب: «العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر»[(٢)]، وقال الجرجاني: «والعزم: جزم الإرادة بغير تردد»[(٣)]. وقال القرافي: «وأما العزم فهو الإرادة الكائنة على وفق الداعية. والداعية ميلٌ يحصل في النفس لما شعرت به من اشتمال المراد على مصلحة خالصة أو راجحة، أو درء مفسدة خالصة أو راجحة»[(٤)]. وقال ابن القيم: «والعزم: هو القصد الجازم المتصل بالفعل وحقيقته: استجماع قوى الإرادة على الفعل»[(٥)].

ولم يخرج التعريف الاصطلاحي للعزم عن معناه اللغوي، والجزء الحاضر في تلك التعريفات جميعها أن العزم عملٌ قلبيٌ، فهو من باب الإرادات، وليس هو الرغبة المنبتة عن الفعل، وليس هو الهم الطارئ الذي ينصرف عنه صاحبه بذهولٍ أو فترة.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ١/ ٣٦٣-٣٦٤، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٨١٧، تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٥٢، الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٨٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٠٨-٣٠٩، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٢) المفردات ٢/ ٤٣٤.

(٣) التعريفات ص ١٦.

(٤) الأمنية في إدراك النية ص ١١٧-١١٨.

(٥) مدارج السالكين ١/ ١٥٢.

العزم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عزم) في القرآن الكريم (٩) مرات[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩]
الفعل المضارع	١	﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]
المصدر	٥	﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه:١١٥]

وجاء العزم في القرآن الكريم بمعناه اللغوي: عقد القلب على قطع الأمر وفعله، ويلزم منه الحزم والصبر لحين تحقيقه وإمضائه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] يعني: الذين عزموا على أمر الله فيما عهد إليهم، وصبروا على كل ما لحقهم من إيذاء؛ في سبيل تحقيق ذلك[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٦١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب العين ص٧٦٤.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٤٠-٣٤١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٦٣-٦٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإرادة:

الإرادة لغةً:

المشيئة والقصد، أراد الشيء: شاءه[١].

الإرادة اصطلاحًا:

ميل يعقب اعتقاد النفع[٢].

الصلة بين الإرادة والعزم:

أن العزم مقترنٌ بالعمل، وأما الإرادة فقد تسبقه، والعزم إرادةٌ يقطع بها المريد تردده في الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه، ويصح أن يسمى مبدأ إرادة الفعل والرغبة فيه قبل هذا القطع إرادةً ولا يسمى عزمًا، فالإرادة من هذه الجهة سابقة على العزم، وكل عزمٍ إرادةٌ، وليس كل إرادةٍ عزمًا[٣].

٢ الهم:

الهم لغة:

ما هممت به في نفسك؛ تقول: أهمني هذا الأمر، وهم بالشيء يهم همًا: أراده ونواه وعزم عليه. والهِمة: ما هممت به من أمرٍ لتفعله[٤].

الهم اصطلاحًا:

أول العزيمة وعقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر[٥].

الصلة بين الهم والعزم:

أن الهم في الأصل حديث النفس بالفعل، ومبدأ الإرادة، فإذا استحكمت تلك الإرادة صارت عزمًا، وتصميمًا على تحقيق ذلك الهم، فالعزم نهاية الهم[٦].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٦٤، تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ١٦٣، الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٧٨، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٩/ ٤٢١، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٩٥-٢٩٧.

(٢) التعريفات، الجرجاني ص ١٦.

(٣) انظر: الفروق اللغوية ص ١٢٤.

(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٥٧، تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٣٨١، الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٦١، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٤/ ١١٠- ١١١، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ١٣٨- ١٤٠.

(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٧، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٤٤.

(٦) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ٢/ ١٠٧.

٣ الحزم:

الحزم لغةً:

جمع الشيء وشده بحزامٍ أو حبلٍ أو نحوه، والحزم: ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة[١].

الحزم اصطلاحًا:

هو ضبط الرجل أمره، والحذر من فواته[٢]، أو هو أخذ الأمور بالضبط والإتقان[٣].

الصلة بين العزم والحزم:

الحزم: جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه، والعزم: قصد الإمضاء[٤].

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ١٦٦، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٣٧٦، الصحاح، الجوهري ٥/ ١٨٩٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٥٣، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ٢٣٢، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٢٨.

(٢) انظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ١/ ٢٧٨، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٣٧٩.

(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٨٦، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٣٩.

(٤) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٥٥١، البحر المحيط ٨/ ٤١٦.

مجالات العزم

ما من امرئٍ ذي عقلٍ إلا وهو يهتم لأمرٍ ما؛ ولذا فإن أصدق الأسماء همام وحارث، كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)].

وإنما يتفاوت قدر الناس على قدر هممهم، ومجالاتها.

وقد تطرق القرآن الكريم إلى شيء من مجالات العزم، يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

أولًا: العزم في طلب العلم وتحمله ونشره:

طلب العلم وتحمله ونشره مجالٌ لظهور أثر تفاوت العزم والهمة، فما بين رجلٍ رزق عقلًا وهمةً فجد في الطلب، وارتقى في الرتب؛ حتى صار يعد من العلماء العاملين والأئمة المتبوعين، وبين من تقاعس عن الجد، ولزم الدعة، وانحطت همته؛ فكان في عداد الهمل الهمج الرعاع أتباع كل ناعقٍ.

وقد أمر الله عز وجل اليهود بأن يأخذوا ما آتاهم من الشرع بقوة، فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ٩٣].

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ يعني: التوراة والشرع، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزمٍ ونشاطٍ وجدٍ، ﴿وَاسْمَعُوا﴾ معناه هنا: وأطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط»[(٢)].

وقال البيضاوي: «﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍ وعزيمة»[(٣)].

وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

أي: بجدٍ واجتهادٍ وبقوة قلبٍ وصحة عزيمةٍ؛ لأنه لو أخذه بضعف نية لأداه إلى فتور العمل به[(٤)].

وأمر الله تعالى يحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] أي: بجدٍ وعزمٍ واجتهادٍ ومواظبةٍ[(٥)].

---

(١) روى أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم ٤٩٥٠، عن أبي وهب الجشمي رضي الله عنه، وكانت له صحبة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة».
وحسنه لغيره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٩٠٤، ورقم ١٠٤٠.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٨٠.

(٣) أنوار التنزيل ١/ ٨٥.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٦٠، التفسير البسيط، الواحدي ٩/ ٣٤٧، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٣٣.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٧٣-٤٧٤، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٥٠٢.

ثانيًا: العزم في العبادات:

وصف الله عز وجل المؤمنين أولي العزم بأنهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

فلما صح عزمهم في القيام بتلك الأمور استحقوا وصف الرجولة الذي يوحي بتحمل المسئولية وعلو الهمة. فإذا كان الحرص على الوفاء بها بإزاء عاجل ثمرة التجارة، وتحصيل الربح، وكانت همم البشر في جملتها معقودةً على حب خضرة الدنيا؛ كان القائم بها من أهل العزم الخلص.

قال ابن كثير: «فقوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عمارًا للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]»[(١)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان في السوق وأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[(٢)].

ويروى نحو ذلك عن سالم بن عبد الله: أنه نظر إلى قوم من السوق قاموا وتركوا بياعاتهم إلى الصلاة، فقال: «هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾. ويروى عن ابن مسعود، نحو ذلك أيضًا[(٣)].

وفيه ترك الربح القريب رغبةً في الفوز بنعيم الآخرة، وهذا مقامٌ لا يقومه إلا أولوالعزم من البشر.

وفي وصية لقمان لابنه ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

فيحتمل أن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى كلها داخلة في المراد بعزم الأمور[(٤)].

والحج عبادةٌ لا يتم مقصودها إلا صاحب عزيمةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] أي: ائتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله من غير توانٍ ولا نقصان يقع منكم فيهما[(٥)].

وهو مقامٌ للعطاء المالي والبدني فضلًا عن مفارقة الأهل، ومكابدة السفر ومشاقه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٦٧.
(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٤٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢١-٣٢٢، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٠٨.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩٩، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٥-٤١٦.
(٥) الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٣٨.

ولا يخلو الحاج من دواعي الرغبة، وبواعث الغضب، والاستفزاز إلى الجدل والمراء؛ ولذا نهاه الله عز وجل عن ذلك، مؤكدًا على فضيلة التقوى، فقال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة: ١٩٧].

والأمر بالتزود إشارةٌ إلى ضرورة استصحابها من أول عقد عزمه على الحج، فيتزود بالتقوى كما يتزود بالطعام؛ مخلصًا نيته من كل شائبةٍ، ومجردًا قصده من كل داخلةٍ. والحج المبرور أفضل الجهاد فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: (يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: (لا، لكن أفضل الجهاد: حجٌّ مبرورٌ)[(١)].

وقال الغزالي: «وأما العزم؛ فليعلم أنه بعزمه قاصدًا إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجهًا إلى زيارة بيت الله عز وجل؛ وليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، وليعلم أنه عزمٌ على أمرٍ رفيع شأنه خطير أمره، وأن من طلب عظيمًا خاطر بعظيم. وليجعل عزمه خالصًا لوجه الله عز وجل بعيدًا عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره، فليصحح مع نفسه العزم. وتصحيحه بإخلاصه، وإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياءٌ وسمعة، فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير»[(٢)].

ثالثًا: العزم في الجهاد:

الجهاد في سبيل الله عز وجل من أعظم مهمات الدين، وهو أبرز مجالات العزم وأوضحها، ذلك أن الجهاد مخاطرةٌ بالنفس والنفيس، فلا تجد أحدًا أصدق همةً ولا أتم عزيمةً ممن وطن نفسه على بذل النفس والنفيس لإعلاء كلمة الحق. ومنزلة الجهاد من الإسلام سامقةٌ، وشأنه عظيمٌ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد؟ قال: (لا أجده)قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم ١٥٢٠.
قال ابن حجر في فتح الباري ٣/ ٣٨٢: «اختلف في ضبط لكن فالأكثر بضم الكاف خطاب للنسوة قال القابسي وهو الذي تميل إليه نفسي، وفي رواية الحموي لكن بكسر الكاف وزيادة ألف قبلها، بلفظ الاستدراك، والأول أكثر فائدة، لأنه يشتمل على إثبات فضل الحج وعلى جواب سؤالها عن الجهاد وسماه جهادا لما فيه من مجاهدة النفس».

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٢٦٧.

أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟)، قال: ومن يستطيع ذلك؟!(١)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: (قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله)(٢).

وعن معاذ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)(٣).

فهذه الأحاديث، وعشرات الأحاديث غيرها توقفنا على شرف الجهاد، ورتبة المجاهدين.

وقد كرم الله عز وجل رجالًا بصدق عزائمهم، وعلو همتهم، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

والإخبار عنهم بأنهم رجالٌ زيادة في الثناء؛ لأن الرَّجُلَ مشتق من الرِّجْلِ، وهي قوة اعتماد الإنسان(٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال: (غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر، فقال: (يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع) فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: (اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني: أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، - يعني: المشركين-، ثم تقدم) فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال: (يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد) قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحدٌ إلا أخته ببنانه قال أنس: (كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]؛ إلى آخر الآية)(٥).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد، رقم ٢٧٨٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله، رقم ١٨٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، رقم ٢٧٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، رقم ١٨٨٨.

(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٠١٦.
وصححه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٨٦٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٠٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله عز وجل:(من المؤمنين رجال صدقوا)، رقم ٢٨٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم ١٩٠٣.

وفيه الأخذ بالشدة واستهلاك الإنسان نفسه في طاعة الله. وفيه الوفاء بالعهد لله بإهلاك النفس، ولا يعارض قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]؛ لأن هؤلاء عاهدوا الله فوفوا بما عاهدوه من العناء في المشركين وأخذوا في الشدة بأن باعوا نفوسهم من الله بالجنة[١].

رابعًا: العزم في الدعوة إلى الله:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١-٢] فقوله: ﴿قُمْ﴾ أي: من مضجعك أو: قم قيام عزمٍ وتصميمٍ، فأنذر[٢].

والدعوة جهاد بالكلمة، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ولعل من حكمة الترتيب في هذه الوصية أنه ابتدره بالحث على ما فيه صلاح نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل، ألا وهو الصلاة، فإذا أقام الصلاة كما أمر بها نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر، فكان كاملًا في نفسه مهيأً لتكميل غيره، فانتقل به إلى الوصية التالية ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر دائرٌ بين ثلاثة أحوال:

وَلَا الحال الأولى: أن يستجاب له، فيكون عليه أن يشكر الله الذي فتح له القلوب ووضع له القبول، وإنما يكون الشكر بمزيد من الاجتهاد في الطاعة والقيام بحق الله، والصبر عن المعصية التي تحرم التوفيق.

الحال الثانية: أن يعرض الناس عنه، فينبغي عليه ألا ييأس من هدايتهم، وأن يتلطف في نصيحتهم، وأن يتحرى أوقات إقبال قلوبهم، وأن يتخولهم مرةً بعد مرةٍ، وفرصةً بعد فرصة.

الحال الثالثة: أن يضموا إلى إعراضهم عنه أذيته بالقول والفعل؛ فينبغي عليه أن يصبر على أذاهم. ففي الأحوال الثلاثة كان الواجب في حقه أنواعًا من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على الأذى؛ فكانت الوصية الثالثة: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾.

خامسًا: العزم في العلاقات الأسرية:

من أهم مجالات العزم في العلاقات الأسرية: النكاح والطلاق، وما يتعلق بهما من سلوكٍ يترتب على التزام حكم الشرع فيه، وتعظيم حرمات الله، وحفظ الأعراض، وصيانة جناب العفاف، ويترتب على التجاوز فيه انتهاك المحارم، وإيذاء

(١) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ٢٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٥٤.

المشاعر، وهتك الأعراض.

والعلاقة بين الرجل والمرأة قد تحكم بنوعٍ من الميل الفطري والشهوة الغريزية؛ كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٦].

أي: لن تقدروا أن تسووا بين النساء في الحب وميل القلب، ولو حرصتم على العدل، فلا تميلوا إلى التي تحبونها كل الميل في القسم والنفقة، ولا تتبعوا أهواءكم أفعالكم فتدعوا الأخرى كالمعلقة، لا أيِّمًا ولا ذات بعلٍ[(١)].

والميل بالتفضيل في الحقوق الشرعية بينهن لا يجوز، أما الميل الطبيعي بمحبة بعضهن أكثر من بعض فهو غير مستطاع دفعه للبشر؛ لأنه انفعالٌ وتأثر نفسانيٌّ لا فعلٌ[(٢)].

وربما كان هذا الميل الطبيعي مذللًا سبيل الجور في الحقوق الشرعية، وهذا لا يدفع إلا بعزمٍ وتصميمٍ على العدل، ولو بشيءٍ من ترك المباح مخافة الولوج في المحظور، ولو بشيءٍ من هضم حظ النفس من نيل مرادها من محبوبها. وبالجملة فهو مقام عزمٍ لا يثبت فيه إلا من كبح شهوة قلبه بوازع التقوى، وزم شيطان غضبه بلجام الحلم والأناة.

ويظهر هذا العزم في العلاقات الأسرية في أمرٍ آخر وهو الطلاق، فكما يتأثر النكاح وتوابعه بالميل الفطري والشهوة الغريزية، فكذا الطلاق وتوابعه قد يتأثر بالبغض والرغبة في المفارقة بأقل خسارةٍ يتجشمها، وبأكثر ما يستطيع تحميل الطرف الآخر منها، فبعض الأزواج لا يمسك بمعروفٍ ولا يسرح بإحسان، وقد صمم على فراق زوجه، وإنما يفعل ذلك رجاء أن يضطرها أن تترك له حقها أو شيئًا منه، أو نكايةً فيها وتحكمًا بغير وجه حقٍ. فأغلق الشرع عليه إلا باب المعروف، وإن لم يمتثل كان ظالمًا لنفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال تعالى في الإيلاء: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

قال البقاعي: «ولما كان الحال في مدة الإيلاء شبيهًا بحال الطلاق وليس به قال مبينًا أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة الأشهر، بل إما أن يفيء أو يطلق، فإن أبى

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٠٩.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٢.

طلق عليه الحاكم. ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فأوقع عليه العزم من غير حرف جر، بمعنى أنهم تركوا ما كانوا فيه من الذبذبة وجعلوا الطلاق عزيمة واقعًا، ولما كان المطلق ربما ندم فحمله العشق على إنكار الطلاق رهبه بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي: الملك الذي له الجلال والإكرام ﴿سَمِيعٌ﴾ أي: لعبارتهم عنه ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: به وبنيتهم فيه.

قال الحرالي: وفيه تهديدٌ بما يقع في الأنفس والبواطن من المضارة والمضاجرة بين الأزواج في أمور لا تأخذها الأحكام ولا يمكن أن يصل إلى علمها الحكام فجعلهم أمناء على أنفسهم فيما بطن وظهر»[1].

وقال ابن عاشور: «وعزم الطلاق: التصميم عليه، واستقرار الرأي فيه بعد التأمل، وهو شيء لا يحصل لكل مؤلٍ من تلقاء نفسه، وخاصة إذا كان غالب القصد من الإيلاء المغاضبة والمضارة فقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ دليلٌ على شرط محذوف دل عليه قوله: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ فالتقدير: وإن لم يفيئوا فقد وجب عليهم الطلاق، فهم بخير النظرين بين أن يفيئوا أو يطلقوا، فإن عزموا الطلاق فقد وقع طلاقهم. وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ دليل الجواب، أي: فقد لزمهم وأمضى طلاقهم، فقد حد الله للرجال في الإيلاء أجلًا محدودًا لا يتجاوزونه، فإما أن يعودوا إلى مضاجعة أزواجهم، وإما أن يطلقوا، ولا مندوحة لهم غير هذين»[2].

سادسًا: العزم في العلاقات الاجتماعية:

ومما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الإصلاح بين الناس.

يقول تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

والمعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير. والإصلاح بين الناس هو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما؛ ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به[3].

فإن كان المظلوم هو الساعي إلى الإصلاح، المبادر بالتأليف؛ ابتغاء مرضات الله، فلعمر الله إنه لمقامٌ عظيمٌ لا يقومه إلا أشداء الرجال وأقوياؤهم. وإن من العزم أن يوطن المرء نفسه على الصبر على الأذى إن كان فيه إصلاحٌ وتأليفٌ للقلوب، فإن غفر لظالمه ابتغاء وجه ربه؛ استحق أن يكون ممن قال فيهم الله عز وجل: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قال مكي: «أي: ولمن صبر على إساءة من أساء إليه، وغفر للمسيء إليه جرمه فلم

(١) نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٢٩٢-٢٩٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٨٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٨١.

ينتصر منه وهو قادر على ذلك؛ ابتغاء وجه الله عز وجل وجزيل ثوابه، إن ذلك الفعل منه لمن عزم الأمور، لمن أعالي الأمور التي ندب الله إلى فعلها عبادة ومن أجلها، وذلك فعل الوارعين»[1].

ويحكى أن رجلًا سب رجلًا في مجلس الحسن، فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام وتلا هذه الآية: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] فقال الحسن: «عقلها والله وفهمها لما ضيعها الجاهلون»[2].

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ١٠/ ٦٦٠٩-٦٦١٠.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٠٧، البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٣٤٥-٣٤٦.

أخلاق أولي العزم

من صفات الأخلاق أنها تؤثر في بعضها بعضًا، فتحصيل خُلُقٍ منها ينعكس إيجابًا على تكوين غيره من الأخلاق، ويظهر هذا القانون بوضوحٍ في خلق العزم، إذ يلزم لصاحبه أن يكون صابرًا مصابرًا قادرًا على كبح شهوات نفسه، وتركيز عزمه، فإذا بلغ تلك الرتبة السامقة كان من أقدر الناس على إتيان البر في المكره والمنشط، وفي العسر واليسر، كالعفو مع القدرة، وتقوى الله فيمن لا يتقي الله فيه.

ولتحليل أخلاق العازمين التي نوه بها القرآن الكريم تقابلنا عبارة (عزم الأمور) ثلاث مراتٍ في ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل هي: قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ويتدبر الآيات المذكورة تتضح أخلاق

أولي العزم، فأولها: الصبر، وهو المشترك بين الآيات الثلاث، وثانيها: التقوى، وثالثها: العفو عن المسيء. ثم إن هناك أخلاقًا أخرى من أخلاق أهل العزم نوه بها القرآن الكريم، وهي الصدق والإخلاص والمسارعة في الخيرات، والثبات.

أولًا: الصبر:

الصبر من أهم أخلاق أهل العزم، والعازم محتاجٌ إلى استيفاء أنواع الصبر بقدر عزيمته وشرف معزومه، فهو محتاجٌ إلى الصبر في الطاعة لنيل التوفيق في حصول مسعاه. وهو محتاج إلى الصبر عن تثبيط المثبطين، ونقد المنتقدين الذين لا هَمَّ لهم إلا الهدم، ومحتاجٌ إلى الصبر عن المعاصي التي توهن العزم، وتطمس نور البصيرة، وتورث الكسل، وتقتل الطموح وتفقد زمام المبادرة. ومحتاج إلى الصبر عن رد الأذى، ولا شك أن أعداء أهل العزم كثيرون من أعداء أهل الحق في كل زمان ومكانٍ. فلا عجب أن يعرف أهل العزائم بالصبر، ويشتهرون به. ولما أمر الله عز وجل نبيه بالصبر اقتداءً بصفوة الرسل - عليهم السلام - وصفهم بأولي العزم، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأولو العزم هم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها[(١)]، فعلم أن الصبر والمصابرة من أخص أخلاق أولي العزم. قال ابن عاشور: «والوصف بالعزم مشعرٌ بمدح الموصوف؛ لأن شأن الفضائل أن يكون عملها عسيرًا على النفوس؛ لأنها تعاكس الشهوات، ومن ثم وصف أفضل الرسل بأولي العزم»[(٢)].

فها هم يقارعون أقوامهم مقسمين مظهرين كمال العزيمة: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب، وهلاك الأقرباء والعشائر من أهل النصرة والملة. وفي الأموال: ما يبذله المسلم من مالٍ في سبيل الله، وما يقع في تلك الأموال من أنواع الآفات والتلف، وما يسمعون من أهل الكتاب والمشركين من المطاعن في الدين الحنيف، وصد من أراد الإيمان، وتخطئة من آمن، وسب الله عز

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١١٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ١٢٢.

وجل، كقولهم: إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء، وقولهم: يد الله مغلولة- تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا- وكهجاء رسوله صلى الله عليه وسلم وافترائهم وكذبهم عليه، ومعاداة أصحابه رضي الله عنهم[(١)].

قال النسفي:«خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الشدائد والصبر عليها؛ حتى إذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتةً، فينكرها وتشمئز منها نفسه»[(٢)].

وفيه إيقاظ المؤمنين إلى ما يعترض أهل الحق وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيه لهم على أنهم إن كانوا ممن توهنهم الهزيمة فليسوا أحرياء بنصر الحق، وأكد الفعل بلام القسم وبنون التوكيد الشديدة؛ لإفادة تحقيق الابتلاء[(٣)].

ففيه تحضيضٌ لهم على الصبر على أنواع البلاء والأذى المذكورة، وتحذيرٌ لهم من ترك التقوى فيمن لا يتقي الله فيهم، ولا يرقب فيهم إلًّا ولا ذمةً، فلا ينبغي للمسلم أن يفتري على عدوه كذبًا، أو يفحش في القول والفعل، وإن كان عدوه هذا من أفحش الناس وأكذبهم. فالصبر المراد: صبر على المصائب، وصبرٌ عن المعاصي.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٩٠، الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٤٩.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣١٨-٣١٩.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ١٨٩.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

فيه -زيادةً على الصبر- تحضيضٌ على المغفرة للمسيء مع القدرة على رد الإساءة، وهذه سمة الداعية الحريص على وصول الخير والهداية لكل الناس، وهؤلاء هم من يألفون ويؤلفون.

وقال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

يعني: «إن ذلك الصبر على الأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حق الأمور التي أمر الله عز وجل بها وعزم عليها»[(٤)].

وفي الآية إشارةٌ إلى الصبر على الطاعة بالأمر بالمحافظة على الصلاة، بالإضافة للأمر بالصبر على الأذى.

ثانيًا: التقوى:

التقوى سبيلها مراقبة الخطرات والحركات، ومراقبة الخطرات سبيل تصحيح العزم، فالعزم مبدؤه خطرةٌ، ومهما أيقن العبد بعلم الله عز وجل السر والنجوى جاهد نفسه في مراقبة عزمه وإخلاصه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾

(٤) تفسير مقاتل ٣/ ٤٣٥.

[طه: ٧] قيل: السر: العزيمة، وما هو أخفى: هو الهم الذي دون العزيمة[١].

وعن ابن عباس قال: «السر: ما أسر ابن آدم في نفسه. «وأخفى»: ما أخفى ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله، فالله يعلم ذلك، فعلمه فيما مضى من ذلك، وما بقي علم واحد»[٢].

وعن قتادة قال: «أخفى من السر: ما حدثت به نفسك، وما لم تحدث به نفسك أيضًا مما هو كائن»[٣].

قال الرازي: «ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالأخفى: ما ليس بقول، وهذا أظهر، فكأنه تعالى بين أنه يعلم السر الذي لا يسمع، وما هو أخفى منه، فكيف لا يعلم الجهر؟! والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة، والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل السر والأخفى على ما فيه ثواب أو عقاب، والسر هو الذي يسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها، والأخفى هو الذي لم يبلغ حد العزيمة، ويحتمل أن يفسر الأخفى بما عزم عليه وما وقع في وهمه الذي لم يعزم عليه، ويحتمل ما لم يقع في سره بعد، فيكون أخفى من السر»[٤].

قال مسروق: «من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه»[٥].

وعن أبي حفص عمرو بن سلمة النيسابوري قال: «من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال»[٦].

وقال أبو تراب النخشبي: «احفظ همك فإنه مقدمة الأشياء، فمن صح له همه صح له ما بعد ذلك من أفعاله وأحواله»[٧].

وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فعد الصبر والتقوى من عزم الأمور، وأمرهم بتقوى الله فيمن يؤذيهم، وإنما يكون ذلك بطاعة الله فيمن يعصي الله في المؤمنين؛ فلا يبرر فحشه الإفحاش له في القول والفعل، ولا يبرر ارتكابه الخيانة

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٩٤، تفسير السمعاني ٣/ ٣٢١، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٥٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٣، تفسير ابن حاتم ٧/ ٢٤١٦.
(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٦٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٠. وانظر لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٠١.
(٥) ذم الهوى ص ١٦٢.
(٦) حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٠.
(٧) انظر: سير السلف الصالحين ص ١٢١١، ذم الهوى ص ١٦١.

والدسيسة والظلم وهتك الأعراض ونحو ذلك، كل ذلك لا يبرر أن يرتكب المؤمنون مثل ذلك. فالمؤمن صاحب رسالةٍ ومبدإٍ وعزيمةٍ، ليس إمعةً، ولا يقلد في دينه من لا خلاق له.

ثالثًا: العفو والصفح عن المسيء:

العفو والصفح صورتا الحلم ومخرجاه إلى الوجود، والعفو هو ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح: ترك التثريب، واشتقاقه من تجاوز الصفحة التي أثبت فيها ذنوب المذنب، أو من الإعراض بصفحة الوجه عن التلفت إلى ما كان منه من إساءة، وهو محمودٌ إذا كان على الوجه الذي يجب.

وقد ندب الله عز وجل إلى ذلك بقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فأمر بالحلم والعفو، وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠][1].

وقد عد الله عز وجل العفو والصفح عن المسيء من عزم الأمور، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٤١.

قال مقاتل: «ولمن صبر ولم يقتص، وغفر وتجاوز فإن ذلك الصبر والتجاوز لمن عزم الأمور، أي: من حق الأمور التي أمر الله عز وجل بها»[2].

قال الفضيل بن عياض: «إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلًا فقل: يا أخي، اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر؛ وإلا فارجع إلى باب العفو فإنه باب واسعٌ، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور»[3].

وبالجملة فإن العفو مندوبٌ إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبًا إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى[4].

وقد أكد الله عز وجل هذه الآية بما لم تؤكد به آيتا آل عمران ولقمان فقال هنا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال في سورة آل عمران: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

(٢) تفسير مقاتل ٣/ ٧٧٣.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢١٤.
(٤) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢٤١-٢٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤٩٠-٤٩٦.

وفي سورة لقمان: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] لأن فيها زيادة العفو والصفح على الصبر الذي حثت عليه آيتا آل عمران ولقمان، فإن كان الصبر على الأذى وعن الانتصار للنفس شاقًا فإن إضافة الصفح إلى ذلك أشقُّ.

قال السعدي: «فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيءٍ عليها، والصبر على الأذى والصفح عنه ومغفرته ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه»[١].

رابعًا: الصدق والإخلاص:

الصدق والكذب أصلهما في القول، ويدخلان في الإرادة والعزم والفعل، فلفظ الصدق يستعمل في ستة معانٍ: صدق القول، وصدق النية والإرادة، وصدق العزم، وصدق الوفاء بالعزم، وصدق العمل، والصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صِدِّيقٌ مبالغة في الصدق. والعزم قد يكون صادقًا جازمًا، وقد يكون فيه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة، والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوةً تامةً ليس فيها ميل ولا ضعفٌ ولا تردد، بل تسخو نفسه أبدًا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات. ومن كان عزمه صادقًا تم فعله[٢].

وفرق بين الصدق والإخلاص أن للعبد مطلوبًا وطلبًا، فالإخلاص توحيد مطلوبه، والصدق توحيد طلبه. فالإخلاص: أن لا يكون المطلوب منقسمًا، والصدق: أن لا يكون الطلب منقسمًا، فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب[٣].

ومقام الصدق جامعٌ للإخلاص والعزم، فباجتماعهما يصح له مقام الصدق[٤].

وأول درجات الصدق صدق القصد، وهو كمال العزم، وقوة الإرادة، بأن يكون في القلب داعيةٌ صادقة إلى السلوك، وميلٌ شديد يقهر السر على صحة التوجه. فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور، ولا يكون فيه قسمةٌ بحالٍ، ولا يصح الدخول في شأن السفر إلى الله عز وجل، والاستعداد للقائه إلا به. ومن كان صادقًا في طلبه مستجمع القوة لم يقعد به عزمه عن الجد في جميع

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٠.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٣٨٧-٣٨٩.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٣٠.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٥٧.

أحواله. فلا تراه إلا جادًا، وأمره كله جد[1].

قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أي: أوفوا بما عاهدوه عليه من الصبر على البأساء والضراء وحين البأس، فمنهم من قضى نحبه، وفرغ من العمل الذي كان نذره لله وأوجبه له على نفسه، فاستشهد بعضٌ يوم بدر وبعضٌ يوم أحد وبعضٌ في غير ذلك من المواطن، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه، كما قضى من مضى منهم على الوفاء لله بعهده[2].

وعن حميد بن عبد الرحمن الحميري أن رجلًا كان يقال له: «حممة» من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خرج إلى أصبهان غازيًا في خلافة عمر رضي الله عنه فقال: «اللهم إن حممة يزعم أنه يحب لقاءك، فإن كان حممة صادقًا فاعزم له بصدقه، وإن كان كاذبًا فاعزم عليه وإن كره، اللهم لا ترد حممة من سفره هذا». قال: فأخذه الموت، وقال عفان مرة: البطن، فمات بأصبهان. قال: فقام أبو موسى رضي الله عنه فقال: «يا أيها الناس إنا والله ما سمعنا فيما سمعنا من نبيكم صلى الله عليه وسلم، وما بلغ علمنا إلا أن حممة شهيدٌ»[3].

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٦٧- ٢٦٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦١.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٩٦٥٩.

وقال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]؛ قال الزجاج: «المعنى: فإذا جد الأمر ولزم فرض القتال، فلو صدقوا الله فآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وعملوا بما نزل عليه وما أمروا به من فرض القتال؛ لكان خيرًا لهم، أي: لكان صدقهم الله بإيمانهم خيرًا لهم»[4]. فهاتان الآيتان تبينان فرق ما بين المؤمن والمنافق.

خامسًا: المسارعة في الخيرات:

المبادرة إلى الأعمال الصالحة صفة أولي العزم من البشر، وقد ذكر الله عز وجل جملة من الأنبياء والرسل عليهم السلام، ثم قال في وصفهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال بعض المفسرين: ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني: الأنبياء الذين سماهم في هذه السورة[5]

قال محققو المسند: «إسناده صحيح إن ثبت سماع حميد بن عبد الرحمن الحميري لهذه القصة من أبي موسى، فليس في الإسناد تصريح من حميد بسماعه منه. ورجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير داود بن عبد الله الأودي، فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة».
(٤) معاني القرآن، الزجاج ٥/ ١٣.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٣٠٥، البسيط، الواحدي ١٥/ ١٨٠، تفسير السمعاني ٣/ ٤٠٥، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣١٥.

يسارعون في طاعة الله، والعمل بما يقرب إليه. والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به؛ لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تعليلٌ لما فصل من فنون إحسانه تعالى المتعلقة بالأنبياء المذكورين أي: كانوا يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير، وهو السر في إيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين إليها[2].

وأفاد فعل الكون أن ذلك كان دأبهم وهجيراهم. والمسارعة: مستعارة للحرص وصرف الهمة والجد[3].

وحقيقة المسارعة في الخير: أن يترقى الإنسان فيما يتحراه منزلة فمنزلة، فيتعوده فيتقوى به على المنزلة الثانية؛ لأن الخير حاصلٌ بعضه عن بعض، وحاملٌ بعضه بعضًا[4].

ووصف الله عز وجل المؤمنين بذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

أي: يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها، ويسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها[5].

وما كانوا كذلك إلا لعلو هممهم وصدق عزائمهم في ميدان التسارع في أفعال الخير، همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه انتهزوه وبادروه. ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال: ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: للخيرات ﴿سَٰبِقُونَ﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون[6].

والآيات الداعية إلى المسابقة والمسارعة في الخيرات كثيرة منها قوله

وقال بعضهم: إنما يعني زكريا وزوجه ويحيى عليهم السلام.
انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢١١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٧٩.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٨٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٨٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٣٦.
(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ٩٩٧.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٩٠.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٥٤.

تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨، والمائدة: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

سادسًا: الثبات:

من أخلاق صاحب العزم الصادق أنه لا ينصرف عن بغيته حتى يبلغها أو يقطع به دونها لعذرٍ قاهرٍ، أو لحينٍ باهرٍ، وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستمر في عقد قلبه على طاعة مولاه مواظبًا على العبادة حتى يأتيه الموت، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

ووجه كون أهل العزم أكثر الناس ثباتًا، وأبعدهم عن الانتكاس والفتور أنهم تمرسوا بمراقبة خطراتهم، وتجريد قصدهم. وتجريد القصد وجزم النية والجد في الطلب هو عين كمال العبد، وهو متضمن للصدق والإخلاص والقيام بالعبودية. والاجتهاد في تجريد القصد وتخليصه من كل شائبة نفسانية أو طبيعية، وتجريده لمراد المحبوب وحده، والجد في طلبه وطلب مرضاته، وجزم النية -وهو أن لا يعتريها وقفة ولا تأخير- هو غاية منازل الصديقين، وصديقية العبد بحسب رسوخه في هذا المقام، وكلما ازداد قربه وعلا مقامه قوي عزمه وتجرد صدقه، فالصادق لا نهاية لطلبه ولا فتور لقصده، بل قصده أتم وطلبه أكمل.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

واليقين هنا الموت باتفاق أهل الإسلام، فجاء صلى الله عليه وسلم إذ جاءه وإرادته وقصده ونيته في الذروة العليا ونهاية كمالها وتمامها[(١)].

وصاحب العزم الصادق لا يفتأ يستعين على هواه بالتجرد من الحول والقوة، والتضرع إلى الله بالدعاء بالثبات، فهو أبعد الناس عن الخذلان، هجيراه في السلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٨-٩].

وعند عزم الأمر: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

فكان أثبت الناس قدمًا، وأصدقهم عزمًا. يشيب شعره ولا تشيب عزيمته. بعكس من اشتهر بالتواني والفتور والكسل، ولم

(١) انظر: طريق الهجرتين ص٢٢٤.

يتمرس بالعزم، تراه شابًا في بدنه، وشيخًا في عزيمته وهمته.

عوامل قوة العزم

يتفاوت العزم قوة وضعفًا بقدر حظ صاحبه من مادة حياة القلب، وقوة الباعث والمنادي، ووجود المساعد والحادي، وبقدر أخذه من أسباب النجاح والتوفيق. فإذا اجتمع له من جملة العوامل المذكورة ما يجيز به أنجح وأفلح، وإلا خاب وخسر. وفيما يأتي نتناول أهم العوامل المؤثرة على العزم قوةً، ولا يخفى أن انتفاءها أو ضعفها يضعف العزم ويحط بالهمة، وبضدها تتميز الأشياء.

أولًا: الإيمان بالله:

تقدم أن العزم من باب الإرادات فهو من أعمال القلوب، والقلب للأعضاء كالملك المتصرف فى الجنود، فتصدر كلها عن أمره، يستعملها فيما شاء، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله[1]، فمتى كان القلب حيًا متيقظًا صح العزم، وتمت الإرادة، ومتى كان ميتًا أو مريضًا لم يستقم له عزمٌ في خيرٍ. وقد ضرب الله عز وجل مثلًا للمؤمن والكافر بالحي والميت فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ٥.

[الأنعام: ١٢٢].

فهل للميت من إرادةٍ فضلًا عن أن يكون له عزمٌ؟! ولا شك أن إيمان القلب ينعكس أثره على عمل الظاهر فيتميز العازم الحازم من المرتاب الشاك الحيران، يقول شيخ الإسلام: «والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧-٥١].

فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا؛ فبين أن هذا من لوازم الإيمان»[١].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير)[٢].

والقوة المحمودة ها هنا هي القوة الإيمانية، وعلى قدرها تكون القوة في الطاعة، فإن وافقت قوة في البدن كان صاحبها أكثر عملًا، وأطول قيامًا، وأكثر صيامًا وجهادًا وحجًا. وقد تكون القوة إشارة إلى عزيمة النفس والحزم، فيكون أتم إقدامًا على العدو في الجهاد، وأشد عزيمة في تغيير المنكر، والصبر على إيذاء العدو، واحتمال المكروه والمشاق في ذات الله، أو تكون القوة بالمال والغنى فيكون أكثر نفقة في سبيل الخير، وأقل ميلًا إلى طلب الدنيا، والحرص على جمع شيء فيها. وكل هذه الوجوه ظاهرة في القوة[٣].

وهي متلازمة؛ لأن قوة الطاعة تأتي على قدر الهمة والعزيمة، ومثل ذلك يقال في القوة المالية؛ إذ إن المال لا يكون قوة ممدوحةً إلا إذا أنفق في أبواب الخير، والجود بالمال فرعٌ عن الجود بالنفس والبدن، فآل الأمر إلى أن القوة الممدوحة هي القوة الإيمانية التي يتولد عنها قوةٌ في العزم.

والقوة الإيمانية أن يعمل المؤمن بعزائم الشرع في مواطنها، وأن لا يجبن على الأخذ برخص الشرع في مواطنها، وأن لا يترك المسلمين من يده حفاظًا لدينهم، واهتمامًا بهم، ذكرهم وأنثاهم، عالمهم وجاهلهم.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٢١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم ٢٦٦٤.
(٣) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القرطبي ٨/ ١٥٧، شرح صحيح مسلم، النووي ١٦/ ٢١٥.

وأما المؤمن الضعيف فعلى ضد ذلك يكون قانعًا بأن يسلم بنفسه[1]. وهو ما ينشأ عنه نوعٌ من الحرص والإحجام عن مواطن الرفعة، ومظان السمو، وقبض اليد عن مواطن العطاء.

والمنافق إنما يؤتى انتقاض عزمه من ثلمة يقينه، إذ لا يزال شاكًا حائرًا مترددًا متذبذبًا، فلا يتصور أن ينعقد له عزمٌ، أو يصح له فعلٌ. وهؤلاء موصوفون بقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

وبقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

والقدر المشترك بين هذه الآيات أنها تصور حالة الكافر والمنافق من الحيرة والريبة والاضطراب، فهو أبعد ما يكون عن العزم.

ثانيًا: العلم ووضوح الغاية:

العالم أبصر الناس بالعواقب، وعلى قدر علمه تكون بصيرته، وعلى قدر بصيرته تكون عزيمته.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ويقول تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

وبدلالة المفهوم فإن الذين لم يؤتوا العلم لا يرونه كذلك، فهم يتقلبون في شكهم وريبهم وضلالهم. ولا شك أن التفكر في ثمرات الأمر ومغباته يأطر القلوب الصافية والألباب الواعية على الجد والاجتهاد، وأن البصيرة بالعواقب تورث اليقظة والعزيمة، وكما قيل: البصيرة ما خلصك من الحيرة[2].

وإن عقل العاقل وعلمه لم يزل به من همٍ إلى همٍ، ومن عزمٍ إلى عزمٍ؛ حتى ينضي بدنه كما ينضي المسافر بعيره في تطلاب المآثر والمفاخر والمحامد، في الوقت الذي يتمتع فيه الجاهل على وثير أمن المغبات، وفاره دواب الشهوات.

إن عدم وضوح الأهداف والغايات فرعٌ عن الجهل وضعف الإيمان بالله. وقد شبه الله عز وجل الكفار بالأنعام، بل جعلهم أضل من الأنعام، ذلك أن الأنعام تأكل

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة ٨/ ٤٤.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٤٣.

وتتمتع، وربما كان القصاب يشحذ سكينه أمامها، فهي لا ترى أبعد من أنفها، ولا تطمح إلى أكثر من كومة الكلإ بين يديها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ.

يقول سيد قطب: «إن الفارق الرئيسي بين الإنسان والحيوان أن للإنسان إرادةً وهدفًا وتصورًا خاصًا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقاة من الله خالق الحياة، فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه، وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله»[(١)].

فلا هم لمن كان كذلك إلا تحصيل عاجل الأمر، ولو بتفويت آجله، وإيثار فانيه، ولو بتضييع باقيه.

يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فمن كانت الدنيا همه وطلبته ونيته، يعمل لها ويسعى في تحصيلها، لا يوقن بمعادٍ، ولا يرجو ثوابًا، ولا يخاف عقابًا عجل الله له فيها ما يشاء من توسيع وتقتيرٍ، لا ينال منها إلا ما قدره الله عز وجل له، ثم هو في الآخرة في عذاب جهنم مذمومٌ مدحورٌ.

وقيد الأمر تقييدين، أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته. والثاني: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال ترى كثيرًا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضًا منه، وكثيرًا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة، فما يبالي أوتي حظًا من الدنيا أو لم يؤت، فإن أوتي فيها، وإلا فربما كان الفقر خيرًا له، وأعون على مراده[(٢)].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة)[(٣)].

ومن أحب الدنيا كره الموت إذ عَمَّر الفانية وخرب الباقية، فكره الانتقال من

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٠.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٥٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٥٩٠. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٥٠.

العمران إلى الخراب. وحقيقة كره الموت كره لقاء الله، ومن كره الموت وأساء الظن بالله جمع كل أسباب الجبن.

قال ابن القيم: «والجبن خلق مذمومٌ عند جميع الخلق، وأهل الجبن هم أهل سوء الظن بالله، وأهل الشجاعة والجود هم أهل حسن الظن بالله كما قال بعض الحكماء في وصيته: عليكم بأهل السخاء والشجاعة فإنهم أهل حسن الظن بالله، والشجاعة جُنةٌ للرجل من المكاره، والجبن إعانة منه لعدوه على نفسه، فهو جندٌ وسلاحٌ يعطيه عدوه ليحاربه به»[1].

والجبان حريصٌ على الحياة وإن حقرت، لا يصدق له عزمٌ على مكرمة، ولا صبرٌ عن معرة يقول تعالى في وصف اليهود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وموقفهم من أمر موسى عليه السلام لهم بدخول الأرض المقدسة يصور جبنهم، وترددهم، ووهنهم يقول لهم موسى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة].

فكان جزاؤهم من جنس عملهم؛ إذ تمادوا في ترددهم وحيرتهم، فضرب عليهم التيه أربعين سنةٍ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

وهم وأشباههم من المنافقين مؤنثي العزم إن أجبروا على معركةٍ لا يقاتلون إلا من وراء حصونهم، أو من خلف جدرهم: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

فهذه الحال التي جمعتهم هم وإخوانهم من المنافقين؛ تبين ما يفعله حب الدنيا والحرص عليها في قلب المرء.

وقد حذر الله عز وجل المؤمنين من أن يركنوا إلى الدنيا، فيتثاقلوا عن الجهاد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ

(١) الفروسية، ابن القيم ص ٤٩١.

﴿الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

فلما صار كثيرٌ من المسلمين إلى ما حذروا منه سلط عليهم أعداؤهم لا عن قلةٍ، ولكن لحبهم الدنيا وكراهيتهم الموت.

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها). قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: (أنتم يومئذ كثيرٌ، ولكن تكونون غثاءً كغثاء السيل، تنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن). قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: (حب الحياة وكراهية الموت)[1].

ثالثًا: الدعاء:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ذلك خبرٌ من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئًا من إيمان أو كفر، أو أن يعي به شيئًا، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته[2]. فهو سبحانه يحول بين المرء وإرادته؛ لأن الأمر لا يكون بإرادة العبد، وإنما يكون بإرادة الله تعالى[3].

وهو سبحانه القادر أن يقلب قلب العبد فيفسخ عزائمه، ويغير نياته ومقاصده، فلما كان كذلك لم يكن للعبد حيلةٌ إلا أن يلهج بالدعاء إلى مقلب القلوب أن يثبتها.

وقد صح بذلك الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم فعن أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك). قال: فقلنا يا رسول الله، آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟! قال: فقال: (نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها)[4].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

يقول أبو بكر الوراق: «يعني: في تحويل الحالات، وضعف القوة، وقهر المنة، وعجز الأركاب، وفسخ الصريمة، ونقض العزيمة»[5].

قال الثعلبي: «قالت الحكماء: من كان

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٣٩٧. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٥٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ١١٢.

(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ١٥.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٢١٠٧. وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ١٠٢.

(٥) الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ١١٣.

اليوم على حالة وغدًا أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه»[1].

وسئل سفيان الثوري: بم عرفت ربك؟ قال: «بفسخ العزم، ونقض الهمة»[2].

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: التقى حكيمان من الحكماء، فقال أحدهما لصاحبه: بم عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزم، ومنع الهم، لما عزمت فأزالني القدر، وهممت فحال بيني وبين همي، فعلمت أن المستولي على قلبي غيري[3].

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا كنز الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلبا سليمًا، وأسألك لسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب)[4].

قال ابن القيم: «الدين مداره على أصلين: العزم والثبات وهما الأصلان المذكوران في الحديث «اللهم إنى أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد» وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أيد العبد بعزيمة وثباتٍ؛ فقد أيد بالمعونة والتوفيق»[5].

وقال: «وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح، وما أتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما، فما أتي أحدٌ إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداءات له، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد مواتاتها، فإذا حصل الثبات أولًا، والعزيمة ثانيًا أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق»[6].

وينفسخ العزم بتشعب الهم، واستيلاء الحزن على القلب، والعجز عن الاضطلاع بالأمر، والكسل عنه، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ من ذلك كثيرًا، عن أنس رضي الله عنه أنه كان يسمع النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال)[7].

قال ابن القيم: «والمقصود أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل الحزن مما

(١) المصدر السابق ١٠/ ١٦٢.
(٢) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني ٧/ ٥٢.
(٣) العظمة، أبو الشيخ الأصبهاني ١/ ٣٣٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧١١٤. وحسنه محققو المسند بمجموع طرقه.
(٥) عدة الصابرين ص ١١٠.
(٦) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٤٦.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبيٍ للخدمة، رقم ٢٨٩٣.

يستعاذ منه، وذلك لأن الحزن يضعف القلب ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠].

فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره»[١].

رابعًا: الاستخارة والاستشارة:

عظم النبي صلى الله عليه وسلم أمر الاستخارة، وبلغ من اهتمامه بها أنه كان يعلمها للصحابة رضي الله عنهم كما يعلمهم السورة من القرآن، وكان يأمرهم بها في الأمور كلها.

فعن جابر رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: (إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال في عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني. قال: ويسمي حاجته)[٢].

والاستخارة استفعال من الخير، ومعناها أن يسأل العبد ربه عز وجل التوفيق إلى خير الأمرين[٣].

قال ابن بطال: «يجب على المؤمن رد الأمور كلها إلى الله، وصرف أزمتها والتبرؤ من الحول والقوة إليه، وينبغي له أن لا يروم شيئًا من دقيق الأمور وجليلها، حتى يستخير الله فيه ويسأله أن يحمله فيه على الخير ويصرف عنه الشر؛ إذعانًا بالافتقار إليه في كل أمر والتزامًا لذلة العبودية له، وتبركًا باتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في الاستخارة؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن؛ لشدة حاجتهم إلى الاستخارة في الحالات كلها، كشدة حاجتهم إلى القراءة في كل الصلوات»[٤].

ونقل ابن حجر أن ترتيب الوارد على القلب على مراتب: الهمة ثم اللمة ثم الخطرة

(١) طريق الهجرتين ص ٢٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم ١١٦٢.

(٣) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٣/ ٥١، شرح المشكاة، الطيبي ٤/ ١٢٤٥.

(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٠/ ١٢٣.

ثم النية ثم الإرادة ثم العزيمة، فالثلاثة الأولى لا يؤاخذ بها بخلاف الثلاثة الأخرى، فقوله: «إذا هم» يشير إلى أول ما يرد على القلب يستخير، فيظهر له ببركة الصلاة والدعاء ما هو الخير، بخلاف ما إذا تمكن الأمر عنده وقويت فيه عزيمته وإرادته، فإنه يصير إليه له ميلٌ وحبٌ؛ فَيُخْشَى أن يخفى عنه وجه الأرشدية لغلبة ميله إليه. ويحتمل أن يكون المراد بالهم العزيمة؛ لأن الخاطر لا يثبت فلا يستمر إلا على ما يقصد التصميم على فعله وإلا لو استخار في كل خاطر لاستخار فيما لا يعبأ به فتضيع عليه أوقاته[1].

وأما الاستشارة فهي استنباط المرء الرأي من غيره فيما يعرض له من مشكلات الأمور، ويكون ذلك في الأمور التي يتردد المرء فيها بين فعلها وتركها[2].

ومن الأخذ بأسباب الحزم والعزم استشارة ذوي العلم السديد، والفهم الرشيد، وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه رضي الله عنهم فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعن الضحاك بن مزاحم قال: «ما أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالمشورة إلا لما علم فيها من الفضل»[3].

وعن الحسن: «ما شاور قومٌ قط إلا هدوا لأرشد أمورهم»[4].

وفي رواية قال: «والله ما استشار قومٌ قط إلا هدوا لأفضل ما بحضرتهم. ثم تلا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]»[5].

«وعن سفيان أن الشورى نصف العقل. قال: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاور حتى المرأة»[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ما رأيت من الناس أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم[7].

قال البخاري: «المشاورة قبل العزم والتبين؛ لقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإذا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لبشرٍ التقدم على الله ورسوله، وشاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم قالوا: أقم فلم يمل إليهم

(١) فتح الباري ١١/ ١٨٥.
(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني ص ٢١٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٨٩.
(٤) المصدر السابق ٦/ ١٩٠.
(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص ١١٤.
(٦) انظر: تفسير ابن المنذر ٢/ ٤٦٨، تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٠١.
(٧) جزء من حديث أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٥/ ٣٣٠، رقم ٩٧٢٠.

بعد العزم، وقال: «لا ينبغي لنبيٍ يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله»[1].

قال ابن عطية: «والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه. وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالمًا دينًا، وقل ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله، وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلًا مجربًا وادًّا في المستشير، والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة -وهي أعظم النوازل- شورى، وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم، وكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه، وقد قال في غزوة بدر: أشيروا علي أيها الناس، في اليوم الذي تكلم فيه المقداد، ثم سعد بن عبادة. ومشاورته صلى الله عليه وسلم إنما هي في أمور الحروب والبعوث ونحوه من أشخاص النوازل، وأما في حلال أو حرام أو حدٍ فتلك قوانين شرع»[2].

وقال: «والشورى مبينة على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ويتخير، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه، عزم عليه وأنفذه متوكلا على الله، إذ هي غاية الاجتهاد المطلوب منه»[3].

قال الراغب: «المشاورة حصن من الندامة وأمنٌ عن الملامة، وقيل: الأحمق من قطعه العجب عن الاستشارة، والاستبداد عن الاستخارة، والرأي الواحد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين والثلاثة إصرار لا ينقض»[4].

وقيل: شاور من جرب الأمور، فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء، وأنت تأخذه مجانًا[5].

وقال قتادة: «أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه في الأمور، وهو يأتيه وحي السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القوم، وإن القوم إذا شاور بعضهم بعضًا، وأرادوا بذلك وجه الله عزم لهم على أرشده»[6].

وعن الحسن قال: «قد علم الله عز وجل أنه ليس به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستن به من بعده»[7].

والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحي

(١) صحيح البخاري ص ١٨١٨. والحديث أخرجه أحمد ح ١٤٧٨٧، وصححه محققو المسند.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢١٠.
(٥) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣٠٣.
(٦) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٨٨-١٨٩.
(٧) تفسير ابن المنذر ٢/ ٤٦٧.

من الله أو إلهامه إياه صواب ذلك. وأما أمتهفإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك على تصادق وتوخٍ للحق وإرادة جميعهم للصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حيد عن هدى فالله مسددهم وموفقهم[(١)].

وفي المشاورة اجتماع العقول والأذهان، وإذا اجتمعت كانت إلى استدراك الحق والصواب أسرع وأبلغ مما لو انفرد كل عقل بنفسه[(٢)].

وفي المشاورة أيضًا ترك الملامة؛ لأنه يقال: فعلت كذا بمشاورتكم، والمشاور إذا لم ينجح أمره، علم أن امتناع النجاح محض قدر، فلم يلم نفسه[(٣)].

ومنها أنه قد يعزم على أمر فيبين له الصواب في قول غيره، فيعلم عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح[(٤)].

وفي المشاورة تطييب نفوس المشاورين، والرفع من مقدارهم بصفاء قلب المشاور لهم، حيث أهلهم للمشاورة. وفي المشاورة اختبار عقول المشاورين؛ فيظهر للمشاور مقدار فهومهم، وتنوع ملكاتهم؛ فينزلهم منازلهم[(٥)].

ومدح الله عز وجل المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

أي: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه، وفي ذلك اجتماع الكلمة والتحاب واتصال الأيدي، والتعاضد على الخير، فالشورى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسببٌ إلى الصواب[(٦)].

وعن عمر بن عبد العزيز قال: «إن المشورة والمناظرة بابا رحمةٍ ومفتاحا بركة، لا يضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم»[(٧)].

وقال الماوردي: «اعلم أن من الحزم لكل ذي لبٍ ألا يبرم أمرًا ولا يمضي عزمًا إلا بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح»[(٨)].

وقيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم! قال: نحن ألف رجل وفينا حازمٌ، ونحن نطيعه فكأنا ألف حازمٍ[(٩)].

خامسًا: الأخذ بالأسباب:

من أسباب ضعف العزم ترك الأخذ بالأسباب، فيستصعب القاعد ما هو مقدمٌ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٩١.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ١٣٣.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٦٠، زاد المسير ١/ ٣٤٠.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٠٩، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٤٠.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٠٩، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٤٠٨-٤٠٩.
(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٠١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩، أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٩١.
(٧) انظر: أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣٠٠.
(٨) المصدر السابق.
(٩) المصدر السابق.

عليه من مهمات الأمور، وكلما فوت فرصة المبادرة ثبطه سبق السابقين، واتساع البون بينه وبينهم، فلا يرى إلا في المتأخرين، فيعين على نفسه شيطانها. وقد نعى الله عز وجل على المنافقين ترك الأخذ بالأسباب فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

وأخذهم العدة يكون بصدق العزم، ونشاط النفس، وبإعداد السلاح والزاد والراحلة للسفر، ونفقة الأهل في الحضر[(١)]. فتركهم الاستعداد وأخذ العدة دليلٌ على إرادتهم التخلف[(٢)].

ومن الأخذ بالأسباب الاستخارة والاستشارة، والمغلوب على الاستخارة والاستشارة أعجز عما سواهما من عظائم الاستعداد. ولعل ما كان يستصعبه مما هو مقدمٌ عليه صائرٌ إلى يسرٍ وسهولةٍ بمشورة بعض أهل الرأي والعقل والحزم. فترك ذلك مؤدٍ إلى ضعف العزم.

والأخذ بالأسباب يقطع على الشيطان فتح باب التحسر والندامة إن لم يقدر للمرء بلوغ ما عزم عليه، قال مسلمة بن عبد الملك: «ما أحمدت نفسي على ظفرٍ ابتدأته بعجزٍ، ولا لمتها على مكروهٍ ابتدأته بحزمٍ»

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٦٨.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٦٣

وقال بعض الحكماء: «لا ينبغي لأحدٍ أن يدع الحزم لظفرٍ ناله عاجزٌ، ولا يرغب في التضييع لنكبةٍ حلت على حازمٍ»[(٣)].

سادسًا: التوكل والتفويض:

يقول تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: فإذا قطعت الرأي على شيء بعد الشورى فتوكل على الله في إمضاء أمرك على الأرشد لا على المشورة، ولا تظن أنك تنال منالًا تحبه إلا بتوفيق الله، إن الله يحب المتوكلين عليه. والتوكل: الاعتماد على الله والتفويض في الأمور إليه[(٤)].

فالعبد يحتاج إلى الاستعانة بالله والتوكل عليه في تحصيل العزم، وفي العمل بمقتضى العزم بعد حصول العزم[(٥)].

فالتوكل على الله أدعى إلى قوة العزيمة، فإن العبد إذا أيقن أن معه قاهر الكون رفعته تلك الفكرة، وجعلته أقوى الناس، وأقدرهم على صعاب الأمور، لا كما يظنه المتنكسون الجاهلون الكسالى اليائسون من روح الله، حيث جعلوا التوكل ذريعة إلى البطالة،

(٣) انظر: مكارم الأخلاق، الخرائطي ص ٣٠٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٩١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٨٣، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٠٦.
(٥) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٣٧٢.

فباؤوا بغضب على غضب[1].

فإذا حصل الرأي المتأكد بالمشورة فيجب ألا يقع الاعتماد عليه، بل يجب أن يكون الاعتماد على إعانة الله وتسديده وعصمته، والمقصود أن لا يكون للعبد اعتمادٌ على شيء إلا على الله في جميع الأمور، ودلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه كما يقوله بعض الجهال، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيًا للأمر بالتوكل، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها، بل يعول على عصمة الحق[2].

قال القرطبي: «قال المهلب: وامتثل هذا النبي صلى الله عليه وسلم من أمر ربه فقال: (لا ينبغي لنبي يلبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله) أي: ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقض للتوكل الذي شرطه الله عز وجل مع العزيمة. فلبسه لأمته صلى الله عليه وسلم حين أشار عليه بالخروج يوم أحد من أكرمه الله بالشهادة فيه، وهم صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بدر.... دالٌ على العزيمة»[3].

ومن أخطر أمراض القلوب التي تضاد التوكل، فتحول بين المرء وبين كل خيرٍ: سوء الظن بالله، واليأس من روح الله، ولذلك كان اليأس من روح الله كفرًا.

يقول تعالى على لسان نبيه يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ومن علامات سوء الظن بالله التطير والتشاؤم، وكان الرجل منهم في الجاهلية يكون في الشأن الخطير، والحدث الجلل، فيحدث له ما يتطير به، فينفرط عقد عزمه، وتفتر همته. ولذلك نهي المؤمنون عن الطيرة، بل بلغ التحذير منها أن عدها النبي صلى الله عليه وسلم شركًا[4]، وهي سوء ظنٍ بالله، وفرارٌ من قضائه، وهي من الشرك؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن ما يتشاءمون به يؤثر في حصول المكروه، وملاحظة الأسباب في الجملة شركٌ خفيٌ، فكيف إذا انضم إليها جهالة فاحشة وسوء اعتقاد في الله؟! ومن اعتقد أن غير الله ينفع أو يضر استقلالًا فقد أشرك[5].

يقول ابن القيم: «وقد كانت عائشة أم

(١) محاسن التأويل ٥/ ٢٦٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤١٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٤-٣٨٥.

(٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الطيرة شرك».
أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٢١٣، رقم ٣٦٨٧، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، رقم ٣٩١٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٤٢٩.
(٥) انظر: فيض القدير، المناوي ٤/ ٢٩٤.

المؤمنين رضي الله عنها تستحب أن تتزوج المرأة أو يبنى بها في شوال وتقول: ما تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا في شوال، فأي نسائه كان أحظى عنده مني؟! مع تطير الناس بالنكاح في شوال، وهذا فعل أولى العزم والقوة من المؤمنين الذين صح توكلهم على الله واطمأنت قلوبهم إلى ربهم ووثقوا به، وعلموا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنهم لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، وأنهم ما أصابهم من مصيبة إلا وهي في كتاب من قبل أن يخلقهم ويوجدهم، وعلموا أنه لا بد أن يصيروا إلى ما كتبه وقدره، ولابد أن يجري عليهم، وأن تطيرهم لا يرد قضاءه وقدره عنهم، بل قد يكون تطيرهم من أعظم الأسباب التي يجري عليهم بها القضاء والقدر؛ فيعينون على أنفسهم، وقد جرى لهم القضاء والقدر بأن نفوسهم هي سبب إصابة المكروه لهم، فطائرهم معهم.

وأما المتوكلون على الله المفوضون إليه العالمون به وبأمره فنفوسهم أشرف من ذلك، وهممهم أعلى، وثقتهم بالله وحسن ظنهم به عدةٌ لهم، وقوة وجنةٌ مما يتطير به المتطيرون ويتشاءم به المتشائمون، عالمون أنه لا طير إلا طيره، ولا خير إلا خيره، ولا إله غيره، له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين»[1].

ومن أمثلة تأثر العزم بسوء الظن بالله: الإنفاق والصدقة في سبيل الله، فإن سوء الظن في حصول البركة والزيادة بالنفقة يورث خشية الفقر، وهو يورث التقتير والبخل والشح.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولا جرم أن من استجاب لهذه الوساوس حصل له سوء الظن والتكذيب بوعد الله؛ فغل يديه إلى عنقه. وعدد ابن القيم فوائد الصدقة فذكر منها أنها توجب الثقة بالله، وحسن الظن به كما أن البخل سوء الظن بالله[2].

ومن التفويض والتوكل ألا يتحدث المرء أنه فاعلٌ ما هو عازمٌ عليه حتى يستثني ويعلق الأمر على مشيئة الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

وهذا إرشاد من الله عز وجل لرسوله الله صلى الله عليه وسلم إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب، الذي

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٦١.
(٢) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٢٥٤.

يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون[1]. وقال ابن العربي: «وهذا عزمٌ من الله لعبده على أن يدخل قولًا وعقدًا في مشيئة ربه، فما تشاؤون إلا أن يشاء الله، وقول ذلك أجدر في قضاء الأمر، ودرك الحاجة»[2].

سابعًا: المبادرة وترك التسويف:

أرشد الله عز وجل إلى المبادرة إلى العمل بما استبان فيه الرشد مما عزم عليه فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال ابن عاشور: المراد: «التوكل حقيقته الاعتماد، وهو هنا مجاز في الشروع في الفعل مع رجاء السداد فيه من الله، وهو شأن أهل الإيمان، فالتوكل انفعال قلبي عقلي يتوجه به الفاعل إلى الله راجيًا الإعانة ومستعيذًا من الخيبة والعوائق، وربما رافقه قول لساني وهو الدعاء بذلك. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ دليل على جواب (إذا) وفرع عنه.

والتقدير: فإذا عزمت فبادر ولا تتأخر وتوكل على الله؛ لأن للتأخر آفات، والتردد يضيع الأوقات، ولو كان التوكل هو جواب «إذا» لما كان للشورى فائدة؛ لأن الشورى كما علمت لقصد استظهار أنفع الوسائل لحصول الفعل المرغوب على أحسن وجه وأقربه، فإن القصد منها العمل بما يتضح منها، ولو كان المراد حصول التوكل من أول خطور الخاطر لما كان للأمر بالشورى من فائدة. وهذه الآية أوضح آية في الإرشاد إلى معنى التوكل الذي حرف القاصرون ومن كان على شاكلتهم معناه، فأفسدوا هذا الدين من مبناه»[3].

وعن أحمد بن عاصم الأنطاكي قال: «وأنفع الحزم ما طرحت به التسويف للعمل عند إمكان الفرصة وانتهاز البغية في أيام المهلة، وعند غفلة أهل الغرة»[4].

وقال ابن القيم: «وأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به رغم القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه»[5].

والتسويف سمة بارد الحس عديم المبالاة، الذي كلما همت نفسه بخيرٍ وتشوفت إليه وعزمت عليه أعاقها بالتسويف حتى يفجأه الموت. ومن علامات التسويف كثرة الجدال في الأمر، وافتراض المسائل وتشقيقها؛ فرارًا من العمل.

يقول ابن رجب: «فأما إن كانت همة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٤٨.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢٢٨.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ١٥١.
(٤) انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني ٩/ ٢٨٣.
(٥) الصواعق المرسلة ٤/ ١٥٦١.

السامع مصروفة عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع وقد لا تقع فإن هذا مما يدخل في النهي، ويثبط عن الجد في متابعة الأمر، وقد سأل رجلٌ ابن عمر عن استلام الحجر، فقال له: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله. فقال له الرجل: أرأيت إن غلبت عنه؟ أرأيت إن زوحمت؟ فقال له ابن عمر: «اجعل (أرأيت) باليمن، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله»، ومراد ابن عمر أن لا يكون لك همٌّ إلا في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولا حاجة إلى فرض العجز عن ذلك أو تعسره قبل وقوعه، فإنه يفتر العزم على التصميم عن المتابعة»[1].

ومن الفوائد المستنبطة من حديث الثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد: أن الرجل إذا سنحت له فرصة القربة والطاعة فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها والتسويف بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض قلما ثبتت، والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته عقوبة له[2].

(١) جامع العلوم والحكم ص ٩٢.
(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٥٠٢-٥٠٣.

ثامنًا: التحرز من المعاصي:

من أسباب ضعف القلب كثرة المعاصي؛ يقول تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال قتادة: «هو الذنب على الذنب، حتى يرين على القلب فيسود»[3].

وعن الحسن قال: الذنب على الذنب حتى يموت قلبه[4]، وقال: غشيت على قلوبهم فهوت بها فلا يفزعون، ولا يتحاشون[5].

فهم قد غطى على قلوبهم الرين علاها كما يعلو الصدأ الحديد، فلا يبصرون رشدًا ولا يخلص إلى قلوبهم خيرٌ؛ بسبب إصرارهم على الكبائر وتسويف التوبة.

قال القشيري: «وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة، والشهوة والصفوة لا تجتمعان فإذا حصلت الشهوة رحلت الصفوة. وموجب القسوة هو انحراف القلب عن مراقبة الرب. ويقال: موجب القسوة أوله خطرة، فإن لم تتدارك صارت فكرة، وإن لم تتدارك صارت عزيمة، فإن لم تتدارك جرت المخالفة، فإن لم تتدارك بالتلافي صارت قسوة، وبعدئذ تصير طبعًا

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق ٣/ ٤٠٤، جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠١.
(٥) انظر: المصدر السابق ٢٤/ ٢٠٣.

وريًا»[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلبٍ أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه)[2].

قال القاضي عياض: «وقوله: «على قلبين أبيض مثل الصفا» ليس تشبيهه بالصفا لما تقدم من بياضه، لكن أخذ في وصف آخر من شدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل وأن الفتن لم تلصق به، ولم تؤثر فيه كالصفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، بخلاف الآخر الذي شبهه بالكوز الخاوي الفارغ من الإيمان، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] قيل: لا تعي خيرًا»[3].

فكثرة المعاصي من أسباب فتور الهمة وقصور العزم عن الخير.

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٥٣٩.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، رقم ١٤٤.
(٣) إكمال المعلم ١/ ٤٥٣.

تاسعًا: مجاهدة الشيطان:

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

أي: يخوفكم به ويوسوس إليكم، فلا تخرجون الزكاة[4].

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن للشيطان لمةً، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان)، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾»[5].

قال ابن رجب: «من صدق العزيمة يئس منه الشيطان، ومتى كان العبد مترددًا طمع فيه الشيطان وسوفه ومناه. يا هذا كلما رآك الشيطان قد خرجت من مجلس الذكر كما دخلت، وأنت غير عازمٍ على الرشد فرح بك إبليس، وقال: فديت من لا يفلح»[6].

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٨٩٤.
(٥) أخرجه الترمذي ح٢٩٨٨ في التفسير، باب ومن سورة البقرة، وابن حبان في صحيحه ح ٩٩٧، وفي سنده من اختلط، وأخرجه الطبري بسنده موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه ٥/ ٦-٨، قال الأرنؤوط: «وهذا إسناد صحيح، وقد أعل بالوقف، وأجيب بأن له حكم الرفع، لأنه لا يعلم بالرأي ولا يدخله القياس».
(٦) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٣٧٧.

وإن الشيطان ليستعين على ابن آدم بالهوى، فيأتيه من أضعف جهات عزيمته، فإن المرء قد يكون ذا عزيمةٍ ماضيةٍ، ولكنه أمام داعي هواه لا صبر له قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وفي المراد بضعف الإنسان ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الضعف في أصل الخلقة. قال الحسن: هو أنه خلق من ماءٍ مهين.

والثاني: أنه قلة الصبر عن النساء، قاله طاوس، ومقاتل.

والثالث: أنه ضعف العزم عن قهر الهوى، وهذا قول الزجاج، وابن كيسان[1].

فلما رأى إبليس منه هذا الضعف ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الرازي: «فإن قيل: كيف ظن إبليس هذا الظن الصادق بذرية آدم؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: أنه سمع الملائكة يقولون: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. فعرف هذه الأحوال. الثاني: أنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عزمًا، فقال: الظاهر أن أولاده يكونون مثله في ضعف العزم»[2].

والوسوسة إذا استحكمت من القلب أفسدت كل عزمٍ، ونقلته إلى الشك والحيرة، التي قد تفسد على العبد اعتقاده وعبادته، فلا عجب أن تكررت وجوه الاستعاذة؛ إشعارًا بعظم خطر المستعاذ منه في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

فلما كانت مضرة الدين، وهي آفة الوسوسة، أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت، جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث: الرب والملك والإله، وإن اتحد المطلوب، وفي الاستعاذة من ثلاث: الغاسق والنفاثات والحاسد بصفة واحدة وهي الرب، وإن تكثر الذي يستعاذ منه[3].

قال الشيخ عطية سالم: «ولقد علم عدو المسلمين أن أخطر سلاح على الإنسان هو الشك، ولا طريق إليه إلا بالوسوسة، فأخذ عن إبليس مهمته وراح يوسوس للمسلمين في دينهم وفي دنياهم، ويشككهم في قدرتهم على الحياة الكريمة مستقلين عنه، ويشككهم في قدرتهم على التقدم والاستقلال الحقيقي، بل وفي استطاعتهم على الإبداع والاختراع؛ ليظلوا في فلكه ودائرة نفوذه، فيبقى المسلمون يدورون في حلقة مفرغة، يقدمون رِجْلًا ويؤخرون

(١) زاد المسير ص ٣٩٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٣٦٧.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٥٧٩.

أخرى. والمتشكك في نتيجة عمل لا يقدم عليه أبدًا، بل ما يبنيه اليوم يهدمه غدًا»[1].

وإذا كانت مهمة الوسوسة التشكيك والذبذبة والتردد فإن عمومات التكليف تلزم المسلم بالعزم واليقين والمضي دون تردد، والقاعدة الفقهية: «اليقين لا يرفع بشكٍ» ومن هنا كانت التكاليف كلها على اليقين، فالعقائد لا بد فيها من اليقين، والفروع في العبادات لا بد فيها من النية؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات) والشرط في النية الجزم واليقين، فمن هذا كله كانت دوافع العزيمة مستقاة من التكاليف، مما يقضي على نوازع الشك والتردد، فلم يبق في قلب المؤمن مجالٌ لشكٍ، ولا محلٌ لوسوسة[2].

عاشرًا: أثر الصحبة:

من أهم أسباب قوة العزم صحبة أولي الهمم العالية، ومطالعة أخبارهم[3]، ومن أسباب الفتور وضعف العزيمة، وسفول الهمة مصاحبة البطالين، والركون إلى المثبطين.

ولو كان أحدٌ آمنًا من تأثير البطالين لكان النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الله عز وجل يأمره: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابن القيم: «فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكر أم من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أم الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطًا. ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائعٌ قد فرط فيه. وفسر بالإسراف، أي: قد أفرط بالإهلاك. وفسر بالخلاف للحق. وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود: أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات. فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه»[4].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]

أي: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم

(١) تتمة أضواء البيان ٩/ ١٨٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ٩/ ١٨٩.
(٣) انظر: علو الهمة ص ٣٥٢-٣٥٧.
(٤) الوابل الصيب ص ٤١.

من دون أهل دينكم وملتكم، يعني من غير المؤمنين، وإنما جعل البطانة مثلًا لخليل الرجل فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه؛ لحلوله منه في اطلاعه على أسراره، وما يطويه عن أباعده وكثيرٍ من أقاربه محل ما ولي جسده من ثيابه، فنهى الله المؤمنين أن يتخذوا من الكفار أخلاء وأصفياء، فإنهم منطوون على الغش والخيانة، وبغيهم إياهم الغوائل، لا يتركون جهدهم في تخبيل المؤمنين وإفسادهم، يتمنون لهم العنت والشر والمضرة لا المسرة[1].

والحاصل أنهم لا يدعون للتثبيط عن الخير سبيلًا إلا طرقوه، ولا يبقون غاية في التلبيس على المؤمنين إلا قصدوها.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

فهذه الآيات وأشباهها دالة على أثر الصاحب على صاحبه، فإن كان ممن وفقوا لصاحب الخير فقد رشد، وإن كانت الأخرى فقد غوى وهلك. نسأل الله التوفيق والسلامة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[2].

قال الغزالي:« وأما الحريص على الدنيا فصحبته سمٌّ قاتل؛ لأن الطباع مجبولةٌ على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا؛ فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا، ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة»[3].

حادي عشر: تحصيل ملكة العزم بالمداومة عليه:

عن معاوية رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الخير عادة، والشر لجاجة)[4].

ومن اعتاد صدق العزم في أموره كلها

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٧٠٧-٧٠٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٨٤١٧، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم ٤٨٣٣.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٢٧.

(٣) إحياء علوم الدين ٢/ ١٧٣.

(٤) أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ١/ ٨٠، رقم ٢٢١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٣١، رقم ٣٣٤٨.

حصلت له ملكة العزيمة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه)[1].

وكما أن الرجل لا يزال يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، فكذلك الرجل يعزم ويتحرى صدق العزم حتى يكتب عند الله من أهل العزم، ولعل وصف الله عز وجل بعض عباده بأولي العزم شاهدٌ بهذا الاختصاص، وهو يحصل بالدربة والتعود والتكرار، وإلا ما كان لأمر الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم معنى إذ قال له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فمن وطن نفسه على العزم حتى صار له ملكةً راسخةً حصل له من الكمال الممكن في هذا الباب بقدر تحريه ومصابرته فيعتاد عليه، ويسهل عليه عقده. وهي سمةٌ تميز أهل العزائم.

قال ابن القيم: «تأمل الحكمة في التشديد في أول التكليف ثم التيسير في أخره بعد توطين النفس على العزم والامتثال، فيحصل للعبد الأمران: الأجر على عزمه، وتوطين نفسه على الامتثال، والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه»[2].

ويحصل له هذه الملكة الراسخة من العزم، فإذا استنفر بعد ذلك إلى خيرٍ نفر، وإن استنهض إلى مكرمةٍ نهض.

والخبير من أهل العزم أحرى من غيره بالاهتداء إلى معاقد العزم فيمضي في تحصيلها كالسهم، والوقوف على علل العزائم فيتجنبها.

قال ابن القيم: «قوله [الهروي]: فإن العزائم لم تورث أربابها ميراثًا أكرم من وقوفهم على علل العزائم. ومدار علل العزائم: على ثلاثة أشياء:

أحدها: فتورها وضعفها.

والثاني: عدم تجردها من الأغراض وشوائب الحظوظ.

والثالث: رؤية العزائم وشهودها، ونسبتها إلى أنفسهم.

فإذا عرف هذه الثلاثة عرف علل العزائم»[3].

(١) أخرجه الدارقطني في الأفراد، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٣٤٢.
(٢) عدة الصابرين ص ١٨٣.
(٣) مدارج السالكين ٢/ ٣٤٤.

آثار العزم على الفرد والأمة

للعزم آثار حميدة، منها ما يعود على الفرد، ومنها ما يعود على الأمة.

أولًا: آثار العزم على الفرد:

العزم من أهم مقومات تحصيل خيري الدنيا والآخرة، فهو مادة الطموح وعلو الهمة والرجولة والشهامة والمروءة وتحمل المسئولية، وهو أحد ثلاث خصالٍ ما اجتمعت في امرئٍ إلا كان له شأنٌ بين الرجال: العقل والعلم والعزم، فبالعقل يميز وجهته وبغيته، وبالعزم يُغذُّ السير إليها، وبالعلم يستقيم له سيره. وغياب العزم فتورٌ وتوانٍ، وانحطاط الهمم مؤذنٌ بانحطاط الأمم، وضعف العزائم مؤذنٌ بذهاب المكارم.

وقد بينا أن العزم أوكد النية، والنية - كما يقول ابن القيم - هي روح العمل ولبه وقوامه، وهو تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها، والنبي صلى الله عليه وسلم قد قال كلمتين كفتا وشفتا، وتحتهما كنوز العلم، وهما قوله: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[1]. فبين في الجملة الأولى أن العمل لا يقع إلا بالنية؛ ولهذا لا يكون عملٌ إلا بنية، ثم بين في الجملة الثانية أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه وهذا يعم العبادات والمعاملات والأيمان والنذور وسائر العقود والأفعال[2].

فلما كان تحقق العمل فرعًا عن العزم وجمع الهمة، كان كل الطاعات والقربات والمكرمات مفتقرةً إلى جمع الهمة؛ ولذا قال أبو محمد المرتعش: «ما نفعني من العبادات شيءٌ ما نفعني جمع الهمة»[3].

فإذا صحت العبادة كثرت الحسنات، ونال العبد بعزمه ما قد لا يبلغه بعمله لعذرٍ لا يد له فيه، إذا كان صادق العزم. والأدلة على هذا الأصل أكثر من أن تحصى. قال ابن القيم: «وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلفة فى الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم، وإن قدر التزاحم فى عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع بحيث إذا فعله واحد فات على غيره، فإن فى العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله، كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى غير حديث، فإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله»[4].

والعزم يورث التأهب لكل أمرٍ جليلٍ، فإذا عزم الأمر ألفيت العازم مبادرًا متفانيًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم ١.

(٢) إعلام الموقعين ٣/ ٩١.

(٣) انظر: ذم الهوى ص ٩٠.

(٤) طريق الهجرتين ص ٢٩٩.

غير متوانٍ، فكان حقيقًا بنجاح المسعى، وجديرًا بنيل طلبته. وفي المبادرة حفظٌ للأوقات، وقطعٌ لآفات التأخر والتباطؤ.

ويدل على أثر العزم وتأثير فقده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

أي: لم نجد له صبرًا عن الأكل من الشجرة[١].

قال ابن جرير: «وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء؛ لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه. فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلبٍ على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه»[٢].

قال ابن زيد: «ولو كان له عزمٌ ما أطاع عدوه الذي حسده، وأبى أن يسجد له مع من سجد له، وعصى الله الذي كرمه وشرفه»[٣].

فما كان من أمر آدم عليه السلام مع إبليس، وخروجه من الجنة إنما كان بسبب ضعف عزمه، ولم يقتصر تأثير ذلك على آدم وزوجه فحسب، بل تعدى أثره إلى ذريته؛ ولذا قال له موسى عليه السلام: (يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة)[٤].

ومن آثار العزم استجابة الدعاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني فإنه لا مستكره له)[٥].

ومن آثار العزم حسن الخاتمة ذلك أن الثبات على الأمر والعزيمة على الرشد يورثان المواظبة على الطاعة، ومن واظب على الطاعة مخلصًا كل أوقاته فحريٌّ أن توافيه منيته وهو مقيمٌ على الطاعة.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم؛ لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذلك»[٦].

---

(١) وهو قول قتادة مقاتل.
انظر: تفسير مقاتل ٣/ ٤٣، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٨٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٨٥.

(٣) انظر: المصدر السابق ١٦/ ١٨٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم ٦٦١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٢٦٥٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، رقم ٦٣٣٨.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٨٧.

ومن آثار العزم أن يفتح للمرء باب الفهم في دين الله، فالمواظبة على شحذ القلب بالعزم الصادق يشحذ ملكة الفهم وآلته. والفهم من بركات الطاعة كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولذا قال أبو حازم: «عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر، وإذا عزم العبد على ترك الآثام أمه الفتوح»[(١)].

ومن آثار العزم على ترك الذنوب وعدم العودة إليها أن تقبل التوبة فيختم له بالصالحات، وتبدل السيئات حسناتٍ، وتفتح له الجنات، وترفع له الدرجات. وكفى بذلك لصاحب العزم منزلةً ومثوبةً.

ثانيًا: آثار العزم على الأمة:

إن سقوط الهمم وخساستها حليف الهوان وقرين الذل والصغار، وهو أصل الأمراض التي تفشت في أمتنا فأورثتها قحطًا في الرجال، وجفافًا في القرائح، وتقليدًا أعمى، وتواكلًا، وكسلًا، واستسلامًا لما يسمى بالأمر الواقع[(٢)].

ولا ريب أن طريق هذه الأمة في الأرض يبدأ بصناعة الجيل الذي وصفه ربنا عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

قومٌ صلاب في دينهم، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين من إنكار منكر أو أمر بمعروف، مضوا فيه كالمسامير المحماة، لا يرعبهم قول قائلٍ، ولا اعتراض معترض، ولا لومة لائمٍ، ممن يشق عليه جدهم في إنكارهم وصلابتهم في أمرهم. وهذان الوصفان: الجهاد والصلابة في الدين هما نتيجة الأوصاف السابقة؛ لأن من أحب الله لا يخشى إلا إياه، ومن كان عزيزًا على الكافر جاهد في إخماده واستئصاله[(٣)].

قال السعدي: «فهم للمؤمنين أذلةٌ من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله المعاندين لآياته المكذبين لرسله، أعزةٌ قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

(١) انظر: حلية الأولياء ٣/ ٢٣٠.
(٢) علو الهمة ص ٣٢٥.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٤٨، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٩٩.

يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم، ولا يخافون لومة لائم بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتر قوته عند عذل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم»[(١)].

وقال ابن عاشور: «وهذا الوصف علامة على صدق إيمانهم حتى خالط قلوبهم بحيث لا يصرفهم عنه شيء من الإغراء واللوم؛ لأن الانصياع للملام آية ضعف اليقين والعزيمة. ولم يزل الإعراض عن ملام اللائمين علامة على الثقة بالنفس وأصالة الرأي»[(٢)].

وليس ذلك بسبيل الإمعة ضعيف العزيمة المتردي في أسر الشهوات والعادات، المتهاوي في حبائل عدوه، وقد يكون من الموقنين بأنه عدوه، وأنه أحرص الناس على مضرته، ولكن وهنه، وانحطاط عزيمته، وهوانه على نفسه وعلى الناس يثبطه عن قطع الحبل الذي يربطه بالمذلة، ويجلب عليه بالمعرة.

ومن آثار العزم على الأمة الاستقرار الأسري، فإن عزم الرجل أمر النكاح والطلاق يحسم مادة الجور، فيقوم المرء لله بالقسط، إن أحب أمسك بالمعروف، وإن كره سرح بإحسانٍ، وهذا وحده كفيلٌ بحسم مئات الآلاف من قضايا الأحوال الشخصية، التي تهدر فيها الأموال، وتضيع فيها الأوقات، فضلًا عن إراقة ماء الوجه، وقطيعة الأرحام، وفسخ أواصر العلاقات الاجتماعية مع ما فيه من فساد ذات البين.

ومن آثار العزم على الأمة صناعة الفرسان في كل ميادين الحياة، بين عالمٍ ومخترعٍ وطبيب ومهندسٍ وزارعٍ وصانعٍ إلخ، وإقامة القدوات للنشء، وصناعة المواهب، وتوريث الإبداع، فضلًا عن استجلاب الرخاء العميم، والخير المقيم ببركة الطاعات.

إن المتدبر في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

ليرى أن مكونات تلك الصورة الكلية الرائعة لا تتحقق إلا بالعزم الماضي، والهمة الأكيدة، فموالاة المؤمنين ليست كلمةً

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٥.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٣٨.

تقال، وإنما جهادٌ ومناصرةٌ ومؤازرةٌ بالنفس والنفيس، تتجاوز الكلمات الشفوية، وبيانات الشجب والاستنكار.

وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله ورسوله، كل ذلك من عزم الأمور.

والتعبير بالأفعال المضارعة إشارةٌ إلى أن ذلك دينهم وعادتهم وديدنهم، ولا شك أنه مما يحتاج إلى مثابرة ومرابطةٍ، ومكابدة للمشاق والعقبات، ومجاهدة للنفس المحبة للدعة والراحة.

والصورة المقابلة لتلك الصورة هي للمنافقين: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

ولما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعضٍ ذكر بعده ما يجري كالتفسير والشرح له، وهي الخمسة التي يميز بها المؤمن على المنافق.

فالمنافق يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف ولا يقوم إلى الصلاة إلا وهو كسلان، ويبخل بالزكاة، ويتخلف بنفسه عن الجهاد، وإذا أمره الله تثبط وثبط غيره. والمؤمن بضد ذلك كله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والجهاد[1].

فهذه صورة المجتمع المؤمن إذا حضره الإيمان وانحسر عنه النفاق، وتصدره أولو العزم، وتبدد عنه التثبيط والمثبطون. والله المستعان.

موضوعات ذات صلة:

التوكل، الثبات، الشورى، الصبر، الضعف، الوهن

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٥٩.

العطاء

عناصر الموضوع

مفهوم العطاء	٣٣٠
العطاء في الاستعمال القرآني	٣٣١
الألفاظ ذات الصلة	٣٣٢
العطاء الإلهي	٣٣٤
أنواع العطاء الإلهي	٣٣٩
مجالات العطاء	٣٤٢
مبطلات العطاء	٣٤٥
ثمرات العطاء على الفرد والمجتمع	٣٤٨

مفهوم العطاء

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (عطو) تدل على أخذ ومناولة، فالعطو: التناول باليد، ومنه اشتق الإعطاء، والمعاطاة: المناولة[1].

والعطاء والعطية: اسم لما يعطى، والجمع عطايا وأعطية، وأعطيات جمع الجمع، والاسم العطاء[2].

قال الراغب: «والإعطاء: الإنالة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩].

واختص العطية والعطاء بالصلة، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن العربي: «حقيقة العطاء: هي المناولة، وهي في اللغة والاستعمال عبارة عن كل نفع أو ضر يصل من الغير إلى الغير»[4].

وقال المناوي: «العطاء: التناول، والمعاطاة: المناولة، لكن استعملها الفقهاء في مناولة خاصة»[5].

يتبين مما سبق أن المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٥٤.
(٢) لسان العرب ١٥/ ٦٩.
(٣) المفردات ص ٥٧٢.
(٤) أحكام القرآن ٤/ ٤٠٥.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٤٣.

العطاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عطو) في القرآن الكريم(٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الليل:٥]
الفعل المضارع	٣	﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى:٥]
المصدر	٥	﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود:١٠٨]

وجاء (العطاء) في الاستعمال في القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الإعطاء والإنالة والمناولة[٢]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٤٦٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٧٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الرزق:

الرزق لغة:

الرزق: مصدر رزق يرزق رزقًا «فالرزق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم» وجمعه أرزاق، والرزق: العطاء، وقد يسمى المطر رزقًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥][(١)].

الرزق اصطلاحًا:

الرزق: هو العطاء الجاري تارةً دنيويًّا كان أم أخرويًّا، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة، يقال: أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علمًا[(٢)].

الصلة بين الرزق والعطاء:

نجد أن الرزق عند أهل اللغة مجتمع على أنه ما بين العطاء وما ينتفع به مما يؤكل.

٢ الجود:

الجود لغة خلاف البخل[(٣)]، وجاد الرجل بماله يجود جودًا بالضم، فهو جوادٌ، وقيل: الجواد هو الذي يعطي بلا مسألة؛ صيانة للآخذ من ذل السؤال[(٤)].

الجود اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «الجود صفة، هي مبدأ إفادة ما ينبغي لا بعوض»[(٥)].

وقيل: هو «صفةٌ تحمل صاحبها على بذل ما ينبغي من الخير لغير عوض»[(٦)].

الصلة بين الجود والعطاء:

الجود كثرة العطاء من غير سؤال، من قولك: جادت السماء، إذا جادت بمطر غزير[(٧)].

٣ البذل:

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١١٥، مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٢١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥١.
(٣) مجمل اللغة، ابن فارس ص ٢٠٢.
(٤) انظر: الصحاح في اللغة، الجوهري ٢/ ٤٦١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٤٨٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٨٤.
(٥) التعريفات ص٧٩.
(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ١٤٦.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص٣٥٣.

البذل لغة:

بذل الشيء: أعطاه وجاد به، والبذل نقيض المنع، وكل من طابت نفسه لشيءٍ فهو باذلٌ، ورجلٌ بذال، وبذول: إذا كثر بذله للمال. يقال: بذل له شيئًا، أي: أعطاه إياه[1]

البذل اصطلاحًا:

قال المناوي: «البذل: الإعطاء عن طيب نفس»[2].

الصلة بين البذل والعطاء:

يظهر من تعريف البذل أنه إعطاء عن طيب نفس، وعليه فالعطاء أعم.

(١) العين، الفراهيدي ٨/ ١٨٧، تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٣١٢، مختار الصحاح، الرازي ص ٣١.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٧٣.

العطاء الإلهي

تحدث القرآن الكريم عن العطاء الإلهي، وتكمن محاور هذا الحديث في النقاط الآتية:

أولًا: تفرد الله عز وجل بالعطاء:

قال تعالى عن موسى عليه السلام وهو يصف عطاء الربوبية: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

يخبرتعالى أن موسى عليه السلام قال في رده على فرعون: يا فرعون ربنا وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي أعطى كل مخلوق من مخلوقاته، وكل شيء من الأشياء، الصورة التي تلائمه، والهيئة التي تتحقق معها منفعته ومصلحته، ثم هداه إلى وظيفته التي خلقه من أجلها، وأمده بالوسائل والملكات التي تحقق هذه الوظيفة.

فالله عز وجل أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه، ثم هداهم إلى طريق استعماله والانتفاع به[(١)].

والله سبحانه هو المتفرد وحده بالعطاء، فهو الذي أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه في معاشهم، ثم هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم، كما أعطى كل نوع من أنواع خلقه الصورة التي تناسبه، والشكل الذي يتناسب مع جنسه.

ثانيًا: العطاء الدنيوي:

عطاء الله لا يحصى ولا يعد، وفي هذه الأسطر يتم الحديث عن أهم العطاء الدنيوي للإنسان.

١ . نعمة الخلق.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٢].

من أعظم النعم التي أنعم الله عز وجل بها على الإنسان نعمة الخلق، ففي الآيتين السابقتين يذكر الله عز وجل الإنسان بأنه جاء عليه وقت غير محدد من الزمان، لم يكن هذا الإنسان في ذلك الحين من الدهر شيئًا مذكورًا من بين أفراد جنسه، وإنما كان شيئًا غير موجود إلا في علم الله عز وجل، ثم أوجده سبحانه بعد ذلك من نطفة فعلقة فمضغة، ثم أنشأه سبحانه بعد ذلك خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين[(٢)].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤].

في هذه الآية يذكر الحق تعالى الإنسان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣١٦، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦٧.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٥٢٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٨٩.

كيف خلقه من نطفه عندما كان في أول أمره، ثم خلق النطفة في الرحم، وتطورت تلك النطفة إلى أن أخرجه بشرًا سويًّا، أخرجه رجلًا كاملًا[(١)].

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

أي: هو الخالق لكل شيء في هذا الكون، وهو سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد، القهار لكل ما سواه، والغالب لكل من غالبه[(٢)].

ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

وغيرها من هذه الآيات.

٢. الرزق.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

في هاتين الآيتين محاججة للمشركين الذين جعلوا مع الله إلهًا آخر، والاستفهام في الآية تقريري، من فوائده إلجاء المشركين المخاطبين في هذه الآية بما تقره عقولهم، إذ أنهم كانوا يقرون في ضمائرهم، ويقتنعون بقلوبهم أن الرازق هو الله وحده، ولا رازق غيره، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من الذي يرزقكم من السماء بالأمطار وما يتولد عنها، ومن الأرض وما يخرج منها من نباتات وأشجار، وغير ذلك مما تخرجه الأرض[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

قال الألوسي: «الدابة اسم لكل حيوان ذي روح، ذكرًا كان أو أنثى، عاقلًا أو غيره، مأخوذ من الدبيب وهو في الأصل المشي الخفيف»[(٤)].

والمعنى: وما من شيء يدب على الأرض، إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشه، فضلًا منه سبحانه وكرمًا على مخلوقاته. وقدم سبحانه الجار والمجرور «عَلَى اللَّهِ» على متعلقه وهو ﴿رِزْقُهَا﴾؛ لإفادة القصر، أي: على الله وحده لا على غيره رزقها ومعاشها[(٥)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

أي: إن الله عز وجل هو الرزاق ولا رازق

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص١٢٥٧.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٠٨.
(٣) انظر: تفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ٩٦٨.
(٤) روح المعاني، ٦/ ٢٠٣.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٥.

سواه، وكل رزق إنما هو رازقه، وما من عطاءٍ إلا وهو الذي أعطاه[1].

[انظر: الرزق: حقيقة الرزق وتنوع صوره]

ثالثًا: العطاء الأخروي:

هناك آيات تحدثت عن عطاء الله عز وجل في الآخرة، في حق النبي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء بشكل عام، وفي حق المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٤-٥].

يبشر الحق تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن الدار الآخرة وما أعده الله له فيها من نعيم لا يحيط به وصف، خير له من دار الدنيا التي أعطيناه فيها ما أعطيناه فيها من نبوة وكرامة ومنازل عالية، وخلق كريم، وفضلًا عن كل ذلك فسوف يعطيه ربك من خيرى الدنيا والآخرة كل ما يسعدك ويرضيك من نصر عظيم، وفتح مبين، وتمكين في الأرض، وإعلاء لكلمة الحق على يدك، وعلى أيدى أصحابك الصادقين، ومنازل عظمى في الآخرة لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى، كالمقام المحمود، والشفاعة، والوسيلة؛ وبذلك يرضى رضاء تامًا بما أعطاه سبحانه من نعم ومنن[2].

وجيء بحرف الاستقبال في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾؛ لإفادة أن هذا العطاء مستمر غير مقطوع، وحذف المفعول الثاني في قوله: ﴿يُعْطِيكَ﴾، ليعم كل وجوه العطاء التي يحبها صلى الله عليه وسلم، أي: ولسوف يعطيك ربك عطاء يرضيك رضاء تاما، والتعبير بقوله ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ المشتمل على فاء التعقيب؛ للإشعار بأنه عطاء عاجل النفع، وأنه سيأتى إليه صلى الله عليه وسلم في وقت قريب، وقد أنجز سبحانه وعده[3].

قال الجمل: « وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ هذا وعد شامل لما أعطاه الله تعالى له من كمال النفس، وظهور الأمر، وإعلاء الدين واللام لام الابتداء، والمبتدأ محذوف، أى: ولأنت سوف يعطيك ربك، وليست لام القسم، لأنها لا تدخل على المضارع، إلا مع نون التوكيد[4]

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

الكوثر: فوعل من الكثرة، مثل النوفل من النفل، ومعناه: الشيء البالغ في الكثرة حد الإفراط، والعرب تسمي كل شيء كثر

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١/ ١٩٣، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٥٧.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٤٩٠.

(٤) حاشية الجمل على الجلالين، ٤/ ٥٥١.

عدده، وعظم شأنه: كوثرًا، وقد قيل لأعرابية بعد رجوع ابنها من سفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر. أي: بشيء كثير[(١)].

قال الإمام القرطبي ما ملخصه: «واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولا: الأول: أنه نهر في الجنة، الثاني: أنه حوض للنبي صلى الله عليه وسلم في الموقف يوم القيامة، الثالث: أنه النبوة والكتاب، الرابع: أنه القرآن، الخامس: الإسلام، ثم قال- رحمه الله- قلت: أصح هذه الأقوال الأول والثاني؛ لأنه ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم نص في الكوثر وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه صلى الله عليه وسلم زيادة على حوضه»[(٢)].

وافتتح سبحانه الكلام بحرف التأكيد، للاهتمام بالخبر، وللإشعار بأن المعطى شيء عظيم، أي: إنا أعطيناك بفضلنا وإحساننا- أيها الرسول الكريم- الكوثر، أي: الخير الكثير الذي من جملته هذا النهر العظيم، والحوض المطهر، فأبشر بذلك أنت وأمتك، ولا تلتفت إلى ما يقوله أعداؤك في شأنك[(٣)].

وفي موضع آخر نجد التعبير القرآني قد تحدث عما أعده الله عز وجل لأنبيائه أيضًا.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

أي: ومن جملة من أنعم الله عليهم، أولئك الذين هديناهم إلى طريق الحق واجتبيناهم واخترناهم لحمل رسالتنا ووحينا، فهنا نرى أن الله تعالى قد جمع لهؤلاء المنعم عليهم جملة من المزايا منها: أعمالهم الصالحة، ومناقبهم الحميدة التي سبق الحديث عنها، ومنها: كونهم من نسل هؤلاء المصطفين الأخيار، ومنها أنهم ممن هداهم الله تعالى واصطفاهم لحمل رسالته[(٤)].

وقد بين سبحانه في سورة النساء من أنعم عليهم بصورة أكثر شمولًا، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

والمعنى: ومن يطع الله بالانقياد لأمره ونهيه، ويطع الرسول في كل ما جاء به من ربه فأولئك المطيعون مع الذين أنعم الله عليهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٤٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/ ٢١٦.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٨٠٦، إيجاز البيان، النيسابوري ٢/ ٨٩٣.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٦/ ١٢٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٦.

بالنعم التي تقصر العبارات عن تفصيلها وبيانها، وأولئك المتصفون بتمام الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، يكونون يوم القيامة في صحبة الأنبياء الذين أرسلهم الله مبشرين ومنذرين فبلغوا رسالته ونالوا منه سبحانه أشرف المنازل[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

قال الطبري: «قال أبو جعفر: واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والحجاز والبصرة وبعض الكوفيين: «وأما الذين سعدوا»، بفتح السين، وقرأ ذلك جماعة من قراء الكوفة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾، بضم السين، بمعنى: رزقوا السعادة.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان فبأيتهما قرأ القارئ فمصيبٌ الصواب، فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿سُعِدُوا﴾، فيما لم يسم فاعله، ولم يقل: «أسعدوا»، وأنت لا تقول في الخبر فيما سمي فاعله: «سعده الله»، بل إنما تقول: «أسعده الله»؟

قيل: ذلك نظير قولهم: «هو مجنون» و«محبوب»، فيما لم يسم فاعله، فإذا سموا فاعله قيل: «أجنه الله»، و«أحبه»، والعرب تفعل ذلك كثيرًا، وتأويل ذلك: وأما الذين سعدوا برحمة الله، فهم في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض»[2].

فالذين سعدوا هم أهل السعادة، وهم أتباع الرسل، فمأواهم الجنة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبدًا، مدة دوام السماء والأرض، بمشيئة الله تعالى، عطاءً غير منقطع ولا ممنوع، ولكنه ممتد إلى غير نهاية[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١١٦.

(٢) جامع البيان، ١٥/ ٤٨٧.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٧٩، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٥٨٠.

أنواع العطاء الإلهي

ينقسم العطاء الإلهي إلى قسمين، عطاء عام لجميع الخلائق، وعطاء خاص يكون لبعض الناس كالأنبياء والمرسلين والمؤمنين، وسيتم الحديث عن ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: العطاء العام:

وهذا العطاء يكون للخلائق جميعًا.

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:١٨-٢٠].

قال الطبري: «يمد ربك يا محمد كلا الفريقين من مريدي العاجلة، ومريدي الآخرة، الساعي لها سعيها وهو مؤمن في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعا من رزقه إلى بلوغهما الأمد، واستيفائهما الأجل ما كتب لهما، ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات، وتفترق بهما بعد الورود المصادر، ففريق مريدي العاجلة إلى جهنم مصدرهم، وفريق مريدي الآخرة إلى الجنة مآبهم.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ يقول: وما كان عطاء ربك الذي يؤتيه من يشاء من خلقه في الدنيا ممنوعا عمن بسطه عليه لا يقدر أحد من خلقه منعه من ذلك، وقد آتاه الله إياه، وإن الله عز وجل قسم الدنيا بين البر والفاجر، والآخرة خصوصا عند ربك للمتقين»[(١)].

فالعطاء هنا هو تمكين العبد من الفعل ومنحه القدرة والاستطاعة، كل على حسب رزقه وقضاء الله وقدره، وإن الله تبارك وتعالى يمد بعطائه في الدنيا أهل طاعته، وأهل معصيته، حتى الكافرين به والجاحدين له، فهذا النص يفسر الظاهرة المشهودة في دنيا الناس، فبين أن الله تبارك وتعالى يمد عباده بالعطاء غير المحظور، أي: الذي لا تستطيع منعه قوة غير قوة الله. فهو يمد أهل الدنيا الذين يريدون العجلة، ولكن مالهم في الآخرة من نصيب، بل لهم فيها العذاب جزاء كفرهم وعصيانهم، ويمد بعطائه طلاب الآخرة، ويدخر لهم العطاء الأَجَلّ الأعظم يوم القيامة، فيمنحهم بذلك عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، فضلًا منه وكرمًا[(٢)].

أما عطاء الدنيا فمشمول بقانون الابتلاء، الذي يخضع له المؤمنون والكافرون على سواء، وأما عطاء الآخرة فهو عطاء الفضل العظيم، الذي يحرم من يحرم منه ضمن

(١) جامع البيان، ١٧/ ٤١١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٦٢.

قانون الجزاء.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع، والجذ في اللغة القطع[(١)].

وقد زاد الله في فضله وإكرامه، فسمى هذا العطاء أجرًا، مع أنه في الحقيقة والواقع من محض فضله وجوده، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع[(٢)].

ونظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤-٦].

ثانيًا: العطاء الخاص:

ومن ذلك:

١. تسخير الرياح والجن لسليمان عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٥-٣٩].

من العطاء الخاص لسليمان عليه السلام أن الله تعالى سخر له الريح تجري بأمره حيث يريدها؛ لأنها تحمل بساطه أو سفينته الهوائية التي غدوها شهر ورواحها شهر ﴿رُخَاءً﴾ أي: لينة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: أراد، كما سخر له شياطين الجن منهم البناء الذي يقوم بالبناء للدور والمصانع، ومنهم الغواص في أعماق البحر لاستخراج اللآلئ، ومنهم من إذا عصاه وتمرد عليه جمع يديه إلى عنقه بصفد ووضعه تحت الأرض.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: أعطيناه ما طلب منا وقلنا له: هذا عطاؤنا لك ﴿فَامْنُنْ﴾ أي: أعط ما شئت لمن شئت وامنع ما شئت عمن شئت بغير حساب منا عليك، وفوق هذا وإن لك عندنا يوم القيامة للقربة وحسن المرجع[(٣)].

٢. استجابة دعوة زكريا عليه السلام برزقه الولد.

وكذلك في دعاء نبي الله زكريا عليه السلام فحقق الله مطلبه وأعطاه ما يتمناه في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٩٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٤٠.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ١٥٧.

﴿رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٥-٧].

يجتهد زكريا عليه السلام في الدعاء بأن يرزقه الله الولد، لا من أجل شهوة دنيوية، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبديله والحرص على من يرثه في علمه ونبوته، ويكون مرضيًّا عنده عز وجل، والمعنى: وإني- يا إلهي- قد خفت ما يفعله أقاربي ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: من بعد موتي، من تضييع لأمور الدين، ومن عدم القيام بحقه.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ لا تلد قط في شبابها ولا في غير شبابها.

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ أي: ولدًا من صلبي، هذا الولد يرثني في العلم والنبوة ويرث أيضًا من آل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم العلم والنبوة والصفات الحميدة، واجعله يا رب رضيًّا.

وفي قوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ اعتراف عميق بقدرة الله تعالى؛ لأن مثل هذا العطاء لا يرجى إلا منه عز وجل، بعد أن تقدمت بزكريا السن، وبعد أن عهد من زوجه العقم وعدم الولادة[1].

٣. عطاء المؤمنين في الآخرة.

قال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦].

بعد أن سرد الله عز وجل ما أعده لعباده المتقين من نعيم، يبين أن هؤلاء المتقين كوفئوا مكافأة صادرة من ربك على سبيل العطاء، أي: الإحسان والتفضل، حتى شبعوا واكتفوا، فقوله: ﴿حِسَابًا﴾ صفة للعطاء وهو بمعنى كاف، فهو مصدر أقيم مقام الوصف، من قولهم: أحسبه الشيء، إذا كفاه حتى قال حسبي، أي: كافيني[2].

قال الزمخشري: «و﴿حِسَابًا﴾ صفة بمعنى كافيًا، من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال: حسبي، ويصح أن يكون قوله حسابًا معناه محسوبًا، أي: كافأهم الله تعالى على أعمالهم الحسنة في الدنيا مكافأة محسوبة، على قدر أعمالهم الطيبة»[3].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢١١.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ٣٠/ ١٥.

(٣) الكشاف، ٤/ ٦٩٠.

مجالات العطاء

تتنوع المجالات التي يشملها العطاء، ففي هذا المبحث سنتطرق إلى أهم المجالات التي يدخل فيها العطاء في النقاط الآتية:

أولًا: النفس:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التوبة: ١١١].

تدل على أن هناك صفقة- عملية شراء وبيع- وإن كان هذا ملكا لله، فالله هو المشتري، والله هو البائع، فلابد أن لهذا الأمر رمزية، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان في الولي على اليتيم أو السفيه، فقد يصح أن يكون عندي شيء وأنا ولي على يتيم، فأشتري هذا الشيء بصفتي، ثم أبيعه بصفتي الأخرى، فالشخص الواحد يكون هو الشاري وهو البائع.

فكأن الله يضرب لنا بهذا المثل: «إنكم بدون منهج الله سفهاء، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشتري»، وما الثمن ؟: يأتي التحديد من الحق ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هذا هو الثمن الذي لا يفنى ولا يبلى، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التي لا نهاية لها، أما نعيمك في حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت في أسباب الله، وهكذا يكون الثمن غاليًا[1].

قال أبو السعود: «الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية. ثم جعل المبيع - الذي هو العمدة والمقصد في العقد - أنفس المؤمنين وأموالهم، والثمن - الذي هو الوسيلة في الصفقة - الجنة.

ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال: إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم؛ ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة، وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها، إيذانا بتعليق كمال العناية بهم وبأموالهم، ثم إنه لم يقل «بالجنة» بل قال: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم، فكأنه قيل: بالجنة الثابتة لهم، المختصة بهم[2].

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٥٠٩.
(٢) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٠٥.

ومن الأمور العظيمة في هذا المجال من العطاء هو إيثار الغير على نفسك مصداقًا لقول الحق تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

والإيثار معناه: أن يؤثر الإنسان غيره على نفسه، على سبيل الإكرام والنفع. والخصاصة: شدة الحاجة، وأصلها من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتحات، أي: إن من صفات الأنصار أنهم كانوا يقدمون في النفع إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، ولو كانوا في حاجة ماسة، وفقر واضح إلى ما يقدمونه لإخوانهم المهاجرين[(١)].

ثانيًا: العلم:

المعطاء في هذا المجال هو الذي لا يدخر عنده علمًا ولا معرفة عمن يحسن الانتفاع بذلك، والبخيل هو الذي يحتفظ بمعارفه وعلومه لنفسه، فلا ينفق منها لمستحقيها، ضَنًّا بها ورغبة بالاستئثار.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وبعض البخلاء بعطاء العلم إذا بذلوا منه شيئا فإنما يبذلون منه بقدر، كأنهم يخشون النفاد، مع أن المعارف والعلوم تربو بالعطاء، فهي تزيد ولا تنقص؛ إلا أن دافع البخل في نفوسهم يجعلهم يضنون حتى في الأمور التي تزيد ولا تنقص، فسوابق أوهام نفوسهم - التي سيطر عليها أن العطاء ينقص من الأشياء التي يمتلكونها - هي التي جعلت نفوسهم تمتنع عن عطاء العلم وتبخل به، دون أن تنير أجواء نفوسهم المظلمة بصيرة واعية، أو تخفف من غواء أنانيتهم الضيقة أخلاق كريمة فاضلة[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

أي: إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسله من آيات واضحة دالة على الحق، ومن علم نافع يهدى إلى الرشد، من بعد ما شرحناه وأظهرناه للناس في كتاب يتلى، أولئك الذين فعلوا ذلك ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ بأن يبعدهم عن رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي: ويلعنهم كل من تتأتى منه اللعنة- كالملائكة

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٤٣٤، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٧١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢١٤.

والمؤمنين- بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله لكتمانهم لما أمر الله بإظهاره[1].

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كامل الخلق، ومن كمال خلقه أنه جواد بعطاء ما يختصه الله به من معارف غيبية لم يأمره بكتمها، وصفه الله بخلق الجود في هذا المجال، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢٤].

ففي وصف الله لرسوله بأنه ليس بضنين على الغيب، أي:ليس بشحيح ولا بخيل بعطاء المعارف والعلوم الغيبية التي يصطفيه الله بها، وإثبات لصفة جوده صلى الله عليه وسلم بعطاء العلم الذي يملك معرفته، ويسمح له ببذله[2].

ثالثًا: المال:

المال هو كل ما يمتلك الإنسان من أشياء ينتفع بها، كالذهب والفضة، والخيل، والأنعام، والحرث، وكل مأكول، أو مشروب، أو ملبوس، أو مركوب، أو مسكون، إلى غير ذلك من أشياء يصعب إحصاؤها.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالعطاء من المال في سبيل الله من أعظم القربات إلى الله عز وجل، ولقد امتدح الله تعالى الذين يجودون بأموالهم في سبيل الله تعالى في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

مثل صدقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، كمثل حبة ألقيت في أرض طيبة، أصابها الغيث، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوي جميل فأنبتت في الوقت المناسب لإنباتها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فهنا نرى أن الله عز وجل قد شبه حال الصدقة التي يبذلها المؤمن في سبيل الله فيكافئه الله تعالى عليها بالثواب العظيم، بحال الحبة التي تلقى في الأرض النقية فتخرج عودًا مستويًا قائمًا قد تشعب إلى سبع شعب، في كل شعبة سنبلة، وفي كل سنبلة مائة حبة.

(١) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ٢/ ١٩٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٣٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٧٤.

وفي هذا التشبيه ما فيه من الحض على العطاء في وجوه الخير، ومن الترغيب في فعل البر ولا سيما النفقة في الجهاد في سبيل الله[1].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

فأما من أعطى حق الله تعالى، بأن أنفق من ماله في وجوه الخير: كإعتاق الرقاب، ومساعدة المحتاجين واتقى المحارم والمعاصي، وأيقن بالخصلة الحسنى، وهي الإيمان بكل ما يجب الإيمان به، أو أيقن بالملة الحسنى، وهي ملة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة، فسنهيئه للخصلة التي توصله إلى اليسر والراحة وصلاح البال، بأن نوفقه لأداء الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى السعادة[2].

مبطلات العطاء

الأمور التي تبطل العطاء كثيرة في هذا المبحث، ستتعرف على أهم الأشياء التي تبطل العطاء كالمن والأذى والرياء وغيرها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

هذا نداء من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم عن المن والأذى، لأنهما يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله تعالى وإلى عدم الشكر من الناس، ثم أكد سبحانه هذا النهي عن المن والأذى بذكر مثلين فقال في أولهما: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾.

والمعنى: يا من آمنتم بالله تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها، وتمحقوا ثمارها، بسبب المن والأذى، فيكون مثلكم في هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام، كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا يبغي به رضاء الله ولا ثواب الآخرة؛ لأنه كفر بالله، وكفر بحساب الآخرة.

وفي هذا التشبيه تنفير شديد من المن والأذى؛ لأنه سبحانه شبه حال المتصدق

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٣١٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٢٦، التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٨٨٦.

المتصف بهما في إبطال عمله بسببهما بحال هذا المنافق المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر[1].

وأما المثال الثاني فقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾.

والمعنى: يا أيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق في انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحبًّا للظهور كمثل حجر أملس لا ينبت شيئا، ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه منتج فنزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب، فانكشف حقيقته، وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس صلد لا يصلح لإنبات أي شيء عليه.

فالتشبيه في الآية الكريمة بين الذي ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذي عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتنكشف حقيقته ويراه الرائي عاريًا من أي شيء يستره، وكذلك المنافق المرائي في إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث أن ينكشف أمره؛ لأن ثوب الرياء يشف دائما عما تحته، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه[2].

ومن المفسرين من يرى أن التشبيه في الآية الكريمة بين المنفق الذي يبطل صدقته بالمن والأذى وبين الحجر الأملس، وأن الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالمن والأذى. فيكون المعنى: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل الحجر الأملس الذي عليه تراب كان يرجى أن يكون منبتا للزرع فنزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه، فالمن والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع، كما يزيل المطر التراب الذي يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس[3].

ثم قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: إن الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى، والذين يتصدقون رياءً ومفاخرة لا يقدرون على تحصيل شيء من ثواب ما عملوا؛ لأن ما صاحب أعمالهم من رياء ومن أذى محق بركتها، وأذهب ثمرتها، وأزال ثوابها.

والذي ينظر في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله تعالى قد حذر المنفقين من المن والأذى في ثلاث آيات متواليات، كما حذرهم من الرياء، وساق أكثر من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٢١، تفسير السمرقندي ١/ ١٧٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٢٥٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٥٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٥٧.

تشبيه لتقبيح الصدقات التي لا تكون خالصة لوجه الله، فلماذا كل هذا التشديد في النهي؟ والجواب عن ذلك: أن المن والأذى في الإنفاق كثيرًا ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب، أو رغبة في إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف: وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة، ولا يتلاقى مطلقًا مع الحكم التي من أجلها شرعت الصدقات.

بل إنه ليتنافر معها تنافرًا تامًّا؛ لأن الصدقات شرعها الله لتهذيب النفوس وتطهير القلوب، ولتربط بين الأغنياء والفقراء برباط المحبة والمودة والإخاء، فإذا ما صاحبها المن والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له، لأنها تثير في نفس المعطي بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات الذميمة، وتثير في نفس الآخذ شعورًا بالحقد والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه وبذلك تنقطع الروابط، ويتمزق المجتمع، وتتحول المحبة إلى عداوة[1].

ولقد تحدث الإمام الرازي عن الآثار السيئة للمن والأذى فقال: «وإنما كان المن مذموما لوجوه:

الأول: أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة، فإذا أضاف المعطي إلى ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك في انكسار قلبه فيكون في حكم المضرة بعد المنفعة، وفي حكم المسيء إليه بعد أن أحسن إليه.

والثاني: أن إظهار المن يبعد أهل الحاجة عن الرغبة في صدقته إذا اشتهر من طريق ذلك.

الثالث: أن المعطي يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله تعالى عليه- وأن يعتقد أن لله عليه نعمًا عظيمة حيث وفقه لهذا العمل، ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفقه منة على الغير.

الرابع: أن المعطي في الحقيقة هو الله، ومتى اعتقد العبد ذلك استنار قلبه، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون في درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول، وعن الآثار إلى المؤثر وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسيء إلى الفقير بأن يقول له: فرج الله عنى منك، وأنت أبدا تأتى إلي بما يؤلم. إلخ»[2]

وجاء في الحديث عن أبى ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرارا قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٣١٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣١١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٧/ ٤٣.

هم يا رسول الله؟ قال: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)[1].

والمنان: هو الذي لا يعطي شيئا إلا منه كما في رواية، وقيل: أي يمن بما يعطيه لغيره بأنه يذكر ولو لواحد، فالمبالغة غير شرط كأعطيت فلانا كذا وفلان يكره ذلك القول، فهي من المنة التي هي الاعتداد بالصنيعة، وهي إن وقعت في الصدقة أبطلت المثوبة، وإن وقعت في المعروف كدرت الصنيعة[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم١٠٦، ١/ ١٠٢.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ١١٤، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري ٥/ ١٩٠٩.

ثمرات العطاء على الفرد والمجتمع

للعطاء فوائد وثمرات فردية واجتماعية عظيمة، ذكر الباحث أهمها:

١. تطهير النفس وتزكيتها من الأنانية.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

أي: أفلح من طهر نفسه من أدناس الرذائل الخلقية والسلوكية، وخاب من غمسها في هذه الأدناس، ومن هذه الرذائل المدنسة للنفس الإنسانية الشح والأنانية المفرطة المقيتة، ولذلك سميت الزكاة بهذا الاسم، فهي مطهرة للنفوس من دنس الشح والبخل والأنانية المفرطة، وهي أيضًا مطهرة للمال من الحقوق المتعلقة به للفقراء والمساكين[3].

ولما في العطاء من تزكية للنفس، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٨].

وهذه التزكية لا تكون إلا بمخالفة أهواء النفس وشهواتها، وقضية مخالفة أهواء النفوس يمكن أن تكون بتحويل ذكي فيه

(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٧٧.

ارتقاء وشيء من المشقة عند الصعود، ولكن في هذا الارتقاء الشاق لذات لا يظفر بها من اتبعوا أهواء نفوسهم، المنحدرين إلى أدناس الأخلاق وقبائح السلوك، مما يجدون فيه بعض متع زائلة منغصة بالأكدار والآلام[1].

٢. يعود الفرد على الإيثار.

ويتضح ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

إن تربية النفوس على حب العطاء إقامة سد واق يمنع الأنفس عن الجنوح الخطير في مجال حب التملك والأثرة، فإنه متى جنحت النفس هذا الجنوح الخطير كان حب التملك غاية بنفسه، وليس مجرد وسيلة لتحقيق منافع الحياة ومصالحها، وعندئذ يستأثر بالإنسان داء الجمع والمنع، حتى يعيش حياته كلها جَمَّاعًا للمال، دون أن ينتفع بما يجمع منه، ثم تأخذ يد المنون فتعزله عن وظيفة حارس صندوق أو خازن مال، ليلقى حسابه العسير على ما جمع ومنع، فلا هو انتفع ولا هو نفع[2].

٣. التعاون على البر والتقوى.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

قال القرطبي: «ندب الله تعالى إلى التعاون بالبر، وقرنه بالتقوى له، لأن في التقوى رضا الله، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته»[3]، فالعطاء هو أحد أنواع البر بين الناس.

إن اكتساب العطاء يولد في الفرد شعورًا بأنه جزء من الجماعة وحب التعاون، وليس فردًا منعزلًا عنهم إلا في حدود مصالحه ومسئولياته الشخصية، فهو بهذا الشعور النبيل يجد نفسه مدفوعًا إلى مشاركتهم في عواطفهم مشاركة وجدانية ومشاركة مادية، فيفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويتألم عندما يتألمون، وينشرح صدره إذا وجدهم منشرحين، ويساهم معهم في الأعمال العامة، ويعين منهم ذا الحاجة بجسمه، أو ماله، أو شفاعته في الحق، أو عواطفه ومشاعره وتعبيراتها[4].

ومتى كان هذا المعنى متبادلًا بين أفراد الجماعة استطاعت أن تمثل في واقعها معنى الجسدية الواحدة للجماعة، التي إذا اشتكى عضو منها تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، كما جاء في الحديث الصحيح من

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٢٦٣.
(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٧٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٤٧.
(٤) انظر: ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٧٤.

حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه شيءٌ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[1]

أبرز النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عنصرين رئيسين، وهما:

الأول: التواد، أي: التحابب، وهذا العنصر بمثابة الروح التي تسري في الأجساد المادية، فتعقد الصلة التامة بين أعضاء الجسد السارية فيه، حتى يشعر كل عضو بأنه جزء لا يتجزأ من وحدة كلية.

الثاني: التراحم، وهذا العنصر يبرز بالمشاركة الوجدانية والمادية في الآلام والمسرات، والأحزان والأفراح، وهذه المشاركة صورتها العطاء، وحقيقتها الانفعال العاطفي النبيل نحو الآخرين.

وإذا كان التواد بمثابة الروح التي تسري في الأجساد، فإن عنصر التراحم بمثابة الأغذية التي تمد الأجساد بشروط الحياة للمحافظة على بقاء الروح فيها[2].

٤. التعود على نيل درجة البر ورضا الرحمن عز وجل.

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

فالعطاء بشتى أنواعه - لاسيما العطاء مما يحب الإنسان - يوصله إلى رضا الرحمن تبارك وتعالى، والمعنى: لن تنالوا حقيقة البر، ولن تبلغوا ثوابه الجزيل الذي يوصلكم إلى رضا الله، وإلى جنته التي أعدها لعباده الصالحين، إلا إذا بذلتم مما تحبونه وتؤثرونه من الأموال وغيرها في سبيل الله[3].

موضوعات ذات صلة:

الإنفاق، البر، التطوع، الخير، الرزق، الزكاة، العلم، المَنّ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين، رقم ٢٥٨٦، ٤/ ١٩٩٩.

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٧٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ٣٠٥.

العِفَّةُ

عناصر الموضوع

مفهوم العفة	٨
العفة في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
أنواع العفة	١٢
الحث على العفة	١٦
نماذج قرآنية من المتعففين	٢٢
معوقات العفة	٣٠
ثمرات العفة	٣٨

مفهوم العفة

أولًا: المعنى اللغوي:

عف عن الشيء يعف عِفَّةً وعَفَافًا: كف عمَّا لا يحل ولا يجمل ولا ينبغي من قول أو فعل، والعفيف من لا يقذف بريبة، والتعفف والاستعفاف هو تكلف العفة وطلبها [(١)]، وامرأة عفيفة أي: عفة الفرج[(٢)]، وتتعدى بالألف فيقال: أعففته عن كذا، أي: كففته[(٣)].

فالعفة في اللغة تدور حول الكف والامتناع عن القبائح القولية والفعلية.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي لا يبعد عن المعنى اللغوي، فقد عرفها بعض العلماء بأنها: «هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة والخمود الذي هو تفريطها، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة»[(٤)].

وعرفها آخرون بأنها: «حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف هو المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر»[(٥)].

وعرفها الكفوي بأنها: «الكف عما لا يحل»[(٦)].

وعرفت العفة أيضًا أنها الصبر والنزاهة عن الشهوات[(٧)].

فالعفة إذًا: حاجز داخلي يمنع الإنسان من تغليب الشهوة، ويبعده عن عمل القبيح عرفًا وشرعًا، ويدفعه إلى الصبر والنزاهة عن الشهوات الدنيوية والحاجات الإنسانية.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ١٦٩، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٧٣، تاج العروس، الزبيدي ٢٤/ ١٧٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦١١.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٥٣.

(٣) انظر: العين، الفراهيدي ١/ ٩٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٨٣٨.

(٤) التعريفات، الجرجاني ص١٥١.

(٥) المفردات، الأصفهاني ص٥٧٣.

(٦) الكليات ص٦٥٦.

(٧) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٥٣.

العفة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عفف) في القرآن الكريم (٤) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٣	﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٣]
المصدر	١	﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣]

وجاءت العفة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة[٢]، وترك الشيء[٣]، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾[النساء: ٦]، أي: فليستعفف عنه، ولا يأكل منه شيئًا[٤].

وقال تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾[النور: ٦٠]، أي: وترك وضعهن لثيابهن -وإن كان جائزًا- خير وأفضل لهن[٥].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٦٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٣٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٩٤.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٦.
(٥) انظر: المصدر السابق ٦/ ٨٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ السؤال:

السؤال لغةً:

ومعناه لغة ما يطلبه الإنسان، وسأله سؤله أي: قضى حاجته[١].

السؤال اصطلاحًا:

استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى معرفة، واستدعاء مال أو ما يؤدي إلى مال[٢].

الصلة بين السؤال والعفة:

ورد السؤال في القرآن الكريم بمعنى مضاد للعفة، فالمتعفف يمتنع عن طلب المال وأخذه من الآخرين بخلاف السائل الذي يسأل المعونة بإظهاره حاجته إليها[٣].

٢ الفاحشة:

الفاحشة لغةً:

«القبيح من القول والفعل»[٤].

الفاحشة اصطلاحًا:

هي ما توجب الحد في الدنيا والعذاب في العقبى، وتطلق على فعل الزنا[٥].

الصلة بين الفاحشة والعفة:

العفة ضد الفاحشة، فهي الكف عن القبيح، أما الفاحشة فهي ممارسة القبح.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠١٢.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٩٩.
(٣) انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل، الكرماني ٢/ ١١٤٠.
(٤) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ١١٤.
(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٩٧.

٣ الإحصان:

الإحصان لغةً:

هو الإحكام بحيث لا يوصل إلى ما في جوفه[١]، و«أحصنت المرأة عفت»[٢].

الإحصان اصطلاحًا:

هو «العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام»[٣]، ويطلق على الوطء الصحيح.

الصلة بين الإحصان والعفة:

التقارب بين مصطلحي العفة والإحصان بين؛ ففي كليهما بعدٌ عما يحرم، واكتفاءٌ بما يحل، وقطعٌ للشهوة المؤدية إلى الحرام.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٤٣.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ١/ ٧٥.
(٣) الكليات، الكفوي ص٥٥.

أنواع العفة

العفة سببٌ للسعادة في الدارين، وارتكاب الفواحش سبب للشقاء في الدارين، ولهذا لم يفترض الله على الأمة إلا ما يصلحها، ولم يمنعها إلا مما يفسدها، فأحل الحلال وحرم الحرام، وكل ذلك من أجل سعادة البشرية.

وقد تحدث القرآن الكريم عن أنواع من العفة نوجزها في النقاط الآتية:

أولًا: العفة عن المحرمات:

قال الماوردي: «العفة نوعان[1]:

أحدهما: العفة عن المحارم، وتعني: الكف عن محارم المسلمين، من الدم والمال والعرض، وهي نوعان:

أحدهما: ضبط الفرج عن الحرام، كالزنا واللواط.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٣٣].

«أي: أن يبتعد الإنسان عما حرم عليه من الزنا ووسائله وذرائعه؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

ولذا فقد أمر الله في كتابه الكريم بحفظ الفرج حيث قال: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

قال الماوردي: «فيها قولان: أحدهما: أنه يعني بحفظ الفرج عفافه، والعفاف يكون عن الحرام دون المباح»[2].

والثاني: كف اللسان عن الأعراض، كالقذف والنميمة والغيبة والكذب والاستهزاء ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: ٤].

أي: يقذفون العفائف المسلمات بأن يرموهن بالزنا كيدًا وظلمًا[3].

قال الطبري: «أي: والذين يشتمون العفائف من حرائر المسلمين فيرمونهن بالزنا ثم لم يأتوا على ما رموهن به من ذلك بأربعة شهداء عدول يشهدون عليهن أنهن رأوهن يفعلن ذلك فاجلدوا الذين رموهن بذلك ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا، وأولئك هم الذين خالفوا أمر الله وخرجوا من طاعته ففسقوا عنها»[4].

و الداعي إلى ذلك شيئان:

أحدهما: إرسال الطرف، فقد نهى الله عن ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا

(١) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣٢٩ بتصرف.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٨٩.

(٣) أوضح التفاسير، محمد الخطيب ص ٤٢٣.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٦١.

﴿فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

يعني: «يحفظوا أبصارهم عما لا يحل لهم النظر إليه [١]؛ لأن النظر بالبصر يحمله على الزنا في الفرج؛ ومنه يكون بدء الفجور [٢].

والثاني: اتباع الشهوات والانكباب عليها.

قال عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩].

قال ابن تيمية: «إن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه ويبقى أسيرًا، ما يهواه يصرفه» [٣].

ثانيًا: العفة عن المآثم.

وتنقسم إلى نوعين [٤]:

الأول: الكف عن المجاهرة بالظلم، وهذا يعني أن تظلم جهارًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

في هذه الآية إخبار منه تعالى بحقيقة يجهلها الناس، وهي أن عاقبة المكر السيئ تعود على الماكرين بأسوأ العقاب وأشد العذاب [٥].

والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة.

وردت الخيانة في القرآن الكريم بعدة معانٍ، منها [٦]:

- الزنا: كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [فاطر: ٥٢].
- الاختيان: مراودة الخيانة، أي: تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة.

قال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

مما قيل في تفسير هذه الآية أن كل واحد منهم يريد خيانة نفسه، سواء كان ذلك في جماع النساء أو في المأكل والمشرب في الوقت الذي كان ذلك حرامًا عليهم، وسمي خائنا؛ لأن الضرر عائد عليه [٧].

ومما سبق نستطيع تقسيم العفة عن المحرمات بحسب جوارح المسلم:

١. عفة الجوارح.

المسلم يعف يده ورجله وعينه وأذنه وفرجه عن الحرام فلا تغلبه شهواته، وقد أمر الله كل مسلم أن يعف نفسه ويحفظ فرجه حتى يتيسر له الزواج، فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٧١.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٤٥٠.
(٣) الزهد والورع والعبادة، الدمشقي ص ٣٤.
(٤) انظر: أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣٣٢.
(٥) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٣٦١.
(٦) التصاريف، ابن سلام ص ١٧٨.
(٧) جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٩٣ بتصرف.

﴿ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

٢. عفة الجسد.

المسلم يستر جسده ويبتعد عن إظهار عوراته، فعلى المسلم أن يستر ما بين سرته إلى ركبتيه، وعلى المسلمة أن تلتزم بالحجاب؛ لأن شيمتها العفة والوقار.

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأحزاب: ٥٩].

٣. عفة البصر.

فقد حرم الإسلام النظر إلى المرأة الأجنبية، وأمر الله المسلمين أن يغضوا أبصارهم، فقال: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ [النور: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

٤. عفة اللسان.

المسلم يعف لسانه عن السب والشتم، فلا يقول إلا طيبًا، ولا يتكلم إلا بخير، والله تعالى يصف المسلمين بقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ [الحج: ٢٤].

ويقول عز وجل عن نوع الكلام الذي يقبله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

ويأمرنا الله سبحانه أن نقول الخير دائمًا، فيقول تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣].

٥. عفة الفرج.

ومنه الثناء على عفاف الصديقة مريم عليها السلام، قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

٦. عفة المأكل والمشرب.

المسلم يعف نفسه ويمتنع عن وضع اللقمة الحرام في جوفه، لأن من وضع لقمة حرامًا في فمه لا يتقبل الله منه عبادة أربعين يومًا، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثانيًا: العفة عن المباحات:

عرض القرآن الكريم إلى صور من العفة عن المباحات، منها:

١. التعفف عن سؤال الناس.

المسلم يعف نفسه عن سؤال الناس إذا احتاج، فلا يتسول، ولا يطلب المال بدون عمل، وقد مدح الله أناسًا من الفقراء لا

يسألون الناس لكثرة عفتهم، في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

ولهذا فقد حرم الشرع السؤال على من يملك ما يغنيه من مالٍ أو قدرةٍ على التكسب، سواءٌ كان ما يسأله زكاةً أو تطوعًا أو كفارةً، ولا يحل له أخذ ذلك إن أعطي بالسؤال أو إظهار الفاقة، فلو أظهر الفاقة وظنه الدافع متصفًا بها لم يملك ما أخذه، لأنه قبضه من غير رضا صاحبه، إذ لم يسمح له إلا على ظن الفاقة. بينما من كان محتاجًا إلى الصدقة وممن يستحقونها لفقرٍ أو عجزٍ عن الكسب يجوز له السؤال بقدر الحاجة، وبشرط أن لا يذل نفسه، وأن لا يؤذي المسؤول، فإن أذل نفسه أو آذى المسؤول بإلحاحٍ أو إحراجٍ لم تجز له المسألة وأخذ الصدقة وإن كان محتاجًا إليها، وحرم أخذها، ووجب ردها، إلا إذا كان مضطرًا بحيث يخشى الهلاك إن لم يأخذ الصدقة.

لكن من خاف هلاكًا وكان عاجزًا عن التكسب وجب عليه السؤال، فإن ترك السؤال في هذه الحالة أثم لأنه ألقى بنفسه إلى التهلكة، والسؤال في هذه الحالة في مقام التكسب؛ لأنها الوسيلة المتعينة لإبقاء النفس، ولا ذل فيها للضرورة، والضرورة تبيح المحظورات كأكل الميتة.

٢. التعفف عن مال اليتيم.

إذا كان يرعى اليتيم ويقوم على شؤونه فإن كان غنيا فلا يأخذ منه شيئًا، بل ينميه ويحسن إليه طلبًا لمرضاة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦].

٣. عفة القواعد من النساء.

بأن تحافظ على حجابها فذلك خيرٌ لها.

قال تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور: ٦٠].

جاء في الآية الندب إلى الاستعفاف بالنسبة للقواعد من النساء وهن اللاتي قعدن عن المحيض وعن الولد بسبب كبر السن والعجز؛ ولأنهن صرن بذلك غير مرغوبات للزواج، أذن لهن بوضع ما تؤمر به المرأة عادة من اللباس الساتر لعورتها، من دون مبالغة في التبرج وإظهار الزينة، وجاء التعقيب بعد هذا الجواز بالترغيب في الاستعفاف، أي: طلب العفة بالتخلي عن هذه الرخصة، وذلك لما في الاستعفاف من خير.

وهذه الآية الكريمة تندرج في سياق آيات أخر حددت شروط اللباس الشرعي

للمرأة والقوانين التي تحكم زينتها الظاهرة والباطنة، وبعد بيان طبيعة هذه الزينة وما ينبغي أن يظهر منها ولمن يمكن إظهارها له جاءت هذه الآية بالترخيص للمرأة في وضع خاص وهو كبر السن بالتخفيف عليها في التحفظ في اللباس، مع التنبيه على أن الاستعفاف خير لها، حيث يفهم من هذا التعقيب في ختام الآية أن الاستعفاف هنا نظير الستر الكامل الذي يحسن بالمرأة التجمل به في كل مراحل عمرها[1].

(١) انظر: العفة والاستعفاف في القرآن، د.فريدة زمرد، موقع ميثاق الرابطة، العدد ١٨٩ بتصرف.

الحث على العفة

يتميز القرآن بجماله البياني الذي لا يمكن قياسه على غيره، فالقرآن له لغته الخاصة، البينة بنفسها، المكتملة بدون نقصان، والوافية التي لا تحتاج إلى إتمام.

وقد حث القرآن الكريم على العفة بأساليب متنوعة، منها:

أولًا: أسلوب الطلب:

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ أي: ليجتهد في العفة وصون النفس، وهو استفعل بمعنى طلب العفة من نفسه وحملها عليها.

فالمأمور بالاستعفاف هو من عُدِمَ المال الذي يتزوج به ويقوم بمصالح الزوجية.

والظاهر أنه أمر ندبٍ لقوله قبل: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢][2]، ولهذا جاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾، ولو كان للإلزام والوجوب لكان النظم هكذا: (وليعف)؛ لأن في الاستعفاف تردد ومعاودة للفعل بعد الترك، والترك بعد الفعل، وهكذا[3].

قال الطاهر بن عاشور: «أمر كل من تعلق به الأمر بالإنكاح بأن يلازموا العفاف في

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٨/ ٣٨.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٧٠٤.

مدة انتظارهم تيسير النكاح لهم بأنفسهم أو بإذن أوليائهم ومواليهم، والسين والتاء للمبالغة في الفعل، أي: وليعف الذين لا يجدون نكاحًا.

ووجه دلالته على المبالغة أنه في الأصل استعارة. وجعل طلب الفعل بمنزلة طلب السعي فيه؛ ليدل على بذل الوسع»[1].

والسين والتاء إذا دخلتا الفعل فهما للطلب، أي: ليطلب العفة، فهؤلاء الفقراء إن أصروا على عدم الزواج للفقر فليكونوا عفيفين عن النظر والسمع والزنا والفرج فيما لا يحل لهم، عسى الله أن يغنيهم ويكفيهم، فإن الله قد تعهد بذلك من قبل.

وهذه الآية في حق الأحرار[2]، حيث أمر الله الذين لا يجدون ما يتزوجون به أن يجتهدوا في العفة عن إتيان ما حرم الله عليهم من الفواحش إلى أن يغنيهم الله من سعته، ويرزقهم ما به يتزوجون.

وفي ذلك عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى تأميلًا لهم وتطمينًا لقلوبهم[3].

وأمر الله بالعفة يقتضي تحميل الفرد المسؤولية عن نفسه في عفته وصيانته لعرضه، فلا يتذرع بطرقه أبواب الحرمات بأنه لم يعط ما يعينه على النكاح، ولذا فإن «للصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى[4].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما ذكر تزويج الحرائر والإماء، ذكر حال من يعجز عن ذلك فقال: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ أي: وليجتهد في العفة، كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه»[5].

والاستعفاف: هو طلب العفاف والاجتهاد في العفة وصون النفس، كأنه قال: يطلب الأسباب التي تمنعه عن الزنا وتجعله عفيفًا حتى يغنيه الله من فضله، وأسباب العفة تكون في أشياء:

أحدها: ما روي عنه صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢١٨.
(٢) روضة المحبين، ابن القيم ص ٢٢٥-٢٢٦.
(٣) تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس ص ٥٩٧.
(٤) زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٢٨.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣٧٢.

له وجاء)[1].

فيطلب أسباب العفة إن لم يكن عنده ما ينكح حتى لا يقع في الزنا إلى أن يغنيه الله.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ أي: ليتعفف الذين لا يجدون نكاحًا ما ينكحون به النساء عن إتيان ما حرم الله عليهم من الفواحش، حتى يغنيهم الله من سعة فضله ويوسع عليهم من رزقه[2].

ولذا لم يجعل الله عز وجل للذي عجز عن النكاح استباحة الفروج والاستمتاع بها زنا إذا لم يكن عنده ما ينكح، كما جعل في الأموال وغيرها رخصة التناول في ملك غيره عند الحاجة والضرورة ببدل؛ لوجوه:

الأول: أن رخصة التناول في ملك غيره إنما تكون عند الضرورة، والضرورات لا تقع في الفروج، وفي الاستمتاع بها بحال؛ لذلك لم تبح.

والثاني: الاستمتاع بالنساء في الأصل كأنه إنما جعل وأبيح لبقاء النسل والتوالد، لا لحاجة أنفسهم وقضاء الشهوة، فإذا لم يكن عنده ما ينكح ارتفع عنه إبقاء النسل والتوالد.

والثالث: أن السعة والغناء وأنواع النعم هي الداعية إلى الحاجة وقضاء الشهوة، فإذا كان فقيرًا لا يجد ما ينكح زالت عنه الأسباب التي تدعو إلى ذلك؛ لذلك لم يبح، وأما الحاجات والضرورات وما ذكرنا كلها تقع في الأموال، وإنما الحاجة في التناول منها لأنفسهم ولإبقائها؛ لذلك افترقا[3].

والخلاصة أن الله جل جلاله أخبر في هذه الآية الكريمة بأنه لا رخصة لمن لم يجد النكاح في الزنا، وأمر بالتعفف للذي لا امرأة له حينما قال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ وليطلب العفة عن الحرام والزنا الذين لا يجدون ما لا ينكحون به للصداق والنفقة[4]، كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه[5] حتى يغنيه الله من رزقه[6].

قال القشيري: «يغنيهم الله في الحال أولًا بالنفس، ثم غنى القلب، وغنى القلب غنى عن الشيء، فالغنى عن الدنيا أتم من الغنى بالدنيا»[7].

ولذا فإن المعاني التي نستخلصها من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من استطاع منكم الباءة فليتزوج، لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج)، وهل يتزوج من لا أرب له في النكاح، رقم ٥٠٦٥، وباب من لم يستطع الباءة فليصم، رقم ٥٠٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، رقم ١٤٠٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٧٥-٢٧٦.

(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٤٥٩.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٤٠.

(٥) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٣٧.

(٦) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٣٩، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٩٩ بتصرف.

(٧) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٦٦.

الآية تؤكد دلالة لفظ الاستعفاف على تجنب الفاحشة بالنسبة لمن لم يجد طولا للنكاح.

ثانيًا: الثناء على المتعففين:

امتدح الله في كتابه الكريم طائفة من المؤمنين هي أولى الناس بالعون والمساعدة، ووصف هذه الطائفة بست صفات من شأنها أن تحمل العقلاء على المسارعة في إكرام أفرادها وسد حاجتهم.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

لقد وصفهم الله تعالى بالفقراء، أي: الذين هم في حاجة إلى العون والمساعدة؛ لفقرهم واحتياجهم إلى ضرورات الحياة.

ثم ذكر أن من صفاتهم الإحصار، وهو في اللغة أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين ما يريده بسبب مرض أو شيخوخة أو عدو أو ذهاب نفقة أو ما يجري مجرى هذه الأشياء.

أما صفتهم الثالثة فقال فيها: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾، والضرب في الأرض هو السير فيها للتكسب والتجارة وغيرهما، أي: أنهم عاجزون عن السير في الأرض لتحصيل رزقهم بسبب اشتغالهم بالجهاد، أو بسبب ضعفهم وقلة ذات يدهم.

والصفة الرابعة من صفاتهم هي قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ والتعفف: ترك الشيء والتنزه عن طلبه بقهر النفس والتغلب عليها. يقال: عف عن الشيء يعف إذا كف عنه. والحسبان بمعنى الظن، أي: يظنهم الجاهل بحالهم أو الذي لا فراسة عنده يظنهم أغنياء من أجل تجملهم وتعففهم عن السؤال، أما صاحب الفراسة الصادقة والبصيرة النافذة فإنه يرحمهم ويعطف عليهم؛ لأنه يعرف ما لا يعرفه غيره.

الصفة الخامسة من صفاتهم فهي قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، والسيما والسيماء: العلامة التي يعرف بها الشيء، وأصلها من الوسم بمعنى العلامة. والمعنى: تعرف فقرهم وحاجتهم بما ترى في هيئتهم من آثار تشهد بقلة ذات يدهم.

قال الرازي: «إن لعباد الله المخلصين هيبة ووقعًا في قلوب الخلق، وكل من رآهم تأثر منهم وتواضع لهم، وذلك له إدراكات روحانية لا علامات جسمانية»[1].

أما الصفة السادسة من صفاتهم فهي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ والإلحاف كما يرى الزمخشري هو الإلحاح

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٨٧.

بأن لا يفارق السائل المسئول إلا بشيء يعطاه[1].

والذي عليه المحققون من العلماء أن النفي منصب على السؤال وعلى الإلحاف، أي: أنهم لا يسألون أصلًا تعففا منهم؛ لأنهم لو كانوا يسألون ما ظنهم الجاهل أغنياء من التعفف، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين، ولو كانوا يسألون ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم عن طريق التفرس في سماتهم؛ لأن سؤالهم كان يغنيه عن ذلك[2].

وإنما جاء النفي بهذه الطريقة التي يوهم ظاهرها أن النفي متجه إلى الإلحاف وحده للموازنة بينهم وبين غيرهم، فإن غيرهم إذا كان يسأل الناس إلحافًا فهم لا يسألون مطلقًا لا بإلحاف ولا بدونه، والنفي بهذه الطريقة فيه تعريض بالملحفين وثناء على المتعففين. هذا وقد وردت أحاديث متعددة تمدح المتعففين عن السؤال وتذم الملحفين فيه.

ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، ولا التمرة والتمرتان، إنما المسكين الذي يتعفف، اقرؤوا إن شئتم: لا يسئلون الناس إلحافًا)**[3].

وخلاصة ما سبق أن هؤلاء الفقراء ليسوا من الطفيليين الذين يعيشون عالة على كسب غيرهم، وإنما هم أزهد الناس فيما في أيدي الناس، وقد بذلوا أنفسهم وخرجوا عن ديارهم وأموالهم في سبيل المبدأ والعقيدة، ومن أجل هذا فهم -على فقرهم وحاجتهم- متجملون بالتعفف والقناعة والصبر، حتى ليحسبهم من لا نفاذ لبصره في حقائق الأمور أنهم أغنياء لا حاجة بهم إلى شيء من مال أو متاع، وقد يكون أحدهم طاويًا لأيام لم يذق طعامًا.

ولكن البصير الذي يتفرس في وجوههم فينفذ إلى دخيلة أمرهم يجد منهم ما يخفيه تعففهم وتجملهم من ضر الجوع وأذى المسغبة، ومن هنا كان واجبا على المحسن أن يتحسس حاجة المحتاجين، وأن يتعرف على ذوي الحاجة المتسترين الذين يمنعهم الحياء والتعفف عن أن يسألوا، فهؤلاء هم أحق الناس بالعون والإحسان![4].

ثالثًا: وعد المتعففين بالتوسعة عليهم:

إذا التزم المسلم بعفته وطهارته فإن له

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٣.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٨١٨-٨١٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (لا يسألون الناس إلحافًا)، رقم ٤٥٣٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يفطن له فيتصدق عليه، رقم ٢٣٤٨.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٣٤٨.

عظيم الأجر ووافر الثواب عند الله.

قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

الضمير في ﴿يَكُونُوا﴾ يعود إلى المذكورين في الآية من ﴿الْأَيَامَىٰ﴾، ويشير من طرف خفي إلى العبيد والإماء، أي: إن يكن هؤلاء المذكورون صالحين للزواج وراغبين فيه طلبًا للتعفف ولكن يمنعهم خوف الفقر والحاجة وعدم القدرة على حمل أعباء الزوجية وما تجيء به من ذرية إن يكن هذا صارفًا لهم عن التزوج فليتزوجوا، والله سبحانه وتعالى يعدهم سعة الرزق ودفع الضر الذي يتوقعونه من الزواج ما دامت نيتهم قائمة على طلب مرضاة الله وحفظ الفروج بهذا الزواج[(١)].

قال الطبري: إن يكن هؤلاء الذين تنكحونهم من أيامى رجالكم ونسائكم وعبيدكم وإمائكم أهل فاقة وفقر فإن الله يغنيهم من فضله، فلا يمنعنكم فقرهم من إنكاحهم[(٢)].

فوعد الله للمتزوج من هؤلاء إن كان فقيرًا أن يغنيه الله، فإغناؤه تيسير الغنى إليه إن كان حرًا، وتوسعة المال على مولاه إن كان عبدًا، فلا عذر للولي ولا للمولى أن يرد خطبته في هذه الأحوال. وإغناء الله إياهم توفيق ما يتعاطونه من أسباب الرزق التي اعتادوها مما يرتبط به سعيهم الخاص من مقارنة الأسباب العامة أو الخاصة التي تفيد سعيهم نجاحًا وتجارتهم رباحًا.

والمعنى: أن الله تكفل لهم أن يكفيهم مؤنة ما يزيده التزوج من نفقاتهم. وصفة الله (الواسع) مشتقة من فعل وسع باعتبار أنه وصف مجازي؛ لأن الموصوف بالسعة هو إحسانه.

قال الغزالي في شرح الأسماء الحسنى: مشتق من السعة، والسعة تضاف مرة إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف أخرى إلى الإحسان وبسط النعم وكيف ما قدر وعلى أي شيء نزل، فالواسع المطلق هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إن نظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته، بل تنفد البحار لو كانت مدادًا لكلماته، وإن نظر إلى إحسانه ونعمه فلا نهاية لمقدوراته، وكل سعة وإن عظمت فتنتهي إلى طرف، والذي لا ينتهي إلى طرف فهو أحق باسم السعة، والله سبحانه وتعالى هو الواسع المطلق[(٣)].

والذي يؤخذ من استقراء القرآن وصف الواسع المطلق إنما يراد به سعة الفضل والنعمة. وذكر عليم بعد واسع إشارة إلى أنه يعطي فضله على مقتضى ما علمه من

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٩/ ١٢٧١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٧٤.
(٣) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي ص ١١٩.

الحكمة في مقدار الإعطاء[1].

وهذا وعد كريم من الله سبحانه لا بد أن يتحقق؛ وذلك لأمرين:

أولهما: أنه وعد من الله، والله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده.

وثانيهما: أن هذا الوعد يحمل معه أسباب الغنى[2].

وقد نصت السنة النبوية على ذلك الوعد، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف)[3].

قال ابن كثير: «فأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث: (تزوجوا فقراء يغنكم الله) فلا أصل له، ولم أره بإسناد قوي ولا ضعيف إلى الآن، وفي القرآن غنية عنه»[4].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢١٨ بتصرف.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٩/ ١٢٧٢.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم ٣/ ٤٦٢، رقم ١٦٥٥، والنسائي في سننه، كتاب النكاح، باب عون الناكح الذي يريد العفاف، ٥/ ١٥٢، رقم ٥٣٠٧، وابن ماجه في سننه، كتاب العتق، باب المكاتب، ٢/ ٨٤١-٨٤٢، رقم ٢٥١٨. قال الترمذي: حديث حسن. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٨٥، رقم ٣٠٥٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٢٢٧.

نماذج قرآنية من المتعففين

عرض القرآن الكريم إلى نماذج من المتعففين اختاروا طريق العفة وآثروا العفة رغم المشاق التي فيها، ومن تلك النماذج:

أولًا: يوسف عليه السلام:

لقد أوتي يوسف عليه السلام نصف الجمال، فكان بهي الطلعة، جميل الوجه، جذاب الشخصية، حسن القامة والهيئة، ففتنت به امرأة عزيز مصر، وغازلته ولاطفته للوصول إلى غرض معين، ولكن الله عصم نبيه يوسف من الوقوع في الفاحشة، ونجاه من الافتراء وسوء الاتهام، وحماه من تلفيق التهمة، وأبعده عن مظان السوء، والتصقت التهمة بامرأة العزيز، وثبت الخطأ عليها. وهذا ما عبر عنه القرآن المجيد بصورة قاطعة وبرهان حسي عقلي[5].

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ

(٥) التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١١٠١.

﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۖ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىَٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [يوسف: ٢٣-٣٠].

أخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف عليه السلام في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه[١]، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب أن ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣]، وهو غلامها وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، فيتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد ولا إحساس بشر، والمراودة: طلب الفعل، والمراد هاهنا أنها دعته إلى نفسها ليواقعها[٢].

وأكثر استعمال هذه اللفظة إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساء، ويشبه أن يكون من راد يرود إذا تقدم لاختبار الأرض والمراعي، فكان المراود يختبر أبدًا بأقواله وتلطفه حال المراود من الإجابة أو الامتناع[٣].

وزادت المصيبة بأن ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ وصار المحل خاليًا، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، بسبب تغليق الأبواب، وقد دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عزب، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم.

وهنا يرسم يوسف عليه السلام معالم العفة والحياء ويعلن موقفه الرفض للوقوع في الفحشاء، فلم يبال بزينة امرأة العزيز وسفورها، ولم يلتفت إلى منصبها وجمالها، إنما استحضر مراقبة الله واطلاعه، فرد عليها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣][٤].

فقد صبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها هما تركه لله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه -هو ما معه من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله- ما أوجب له البعد والانكفاف عن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٩.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٢٧.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٣٢.
(٤) انظر: العفاف أريد، قصص وأحداث العفيفين والعفيفات، أبو الحسن الفقيه ص ١٧.

هذه المعصية الكبيرة[1]، ومع هذه الدواعي كلها آثر مرضاة الله وخوفه[2]، وبعد أن رآها مصرة على غيها وشهوتها ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص ويهرب من الفتنة[3] بعدما أعلن براءته وعفته.

ولشدة حرص امرأة العزيز على الفاحشة تبعت يوسف وأمسكت بقميصه فتمزق، وفي اللحظة نفسها دخل العزيز عليهما في تلك الصورة الغامضة، فرأى أمرًا شق عليه، وقبل أن يسأل أو يستفسر سبقته امرأته بمكر ودهاء، فادعت أن يوسف راودها عن نفسها وطلب منها الفاحشة، وظهرت لزوجها بمظهر العفيفة المظلومة وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥].

ولم تقل «من فعل بأهلك سوءا» تبرئة لها، وتبرئة له أيضًا من الفعل، وإنما النزاع في الإرادة والمراودة ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقال بارًا صادقًا: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه[4]، فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما.

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها يشهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]؛ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٧]؛ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب[5].

وحينما تفقد العزيز قميص يوسف وجده ممزقًا من خلفه، فأيقن ببراءة يوسف وعفته، وعلم ما دبرته زوجته من المكر والخديعة والقذف، فصوب إصبع الاتهام إليها وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وحتى لا يفتضح الأمر ويهتك بيت العزيز أمر يوسف عليه السلام بالإعراض عن هذه القضية وكتمانها، ثم أمر زوجته بالتوبة والرجوع عن الخطأ[6] ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ

(١) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ص ٢٠٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٤٨٧.
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين ٣/ ٥٢٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٧.
(٦) انظر: العفاف أريد، قصص وأحداث للعفيفين والعفيفات، أبو الحسن بن محمد الفقيه ص

﴿هَٰذَا وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف: ٢٩].

شاع ذلك الحديث في مصر حتى تحدث بذلك النساء[١] يلمنها، فجعلن يلمنها ويقلن: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ [يوسف: ٣٠].

أي: هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه! ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغًا عظيمًا[٢]!

قال الواحدي: قد دخل حبه في شغاف قلبها، وهو موضع الدم الذي يكون داخل القلب ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عن طريق الرشد بحبها إياه ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ﴾ امرأة العزيز ﴿بِمَكۡرِهِنَّ﴾ مقالتهن، وسميت مكرًا لأنهن قصدن بهذه المقالة أن تريهن يوسف ليقوم لها العذر في حبه إذا رأين جماله، وكن مشتهين ذلك؛ لأن يوسف وصف لهن بالجمال[٣].

لم يكن أمامها إلا أن تبحث عن مخرج يخفف من وطأة فضيحتها ويسد منافذ ملامة النسوة لها، فدبرت مكيدة جديدة تضع بها حدًا لانتقادها، لقد كانت تدرك أكثر من غيرها جمال يوسف وتأثيره على أولئك النسوة، ولذلك: ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف: ٣١]. فقالت: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: ٣٢][٤].

فلامتهن في لومهن لها، وأخبرتهن أنه مع جماله الظاهر جميل الباطن، فقد استعصم وأبى الخيانة والفاحشة، وأن كمال جماله هذا هو الذي يزيدها شغفًا وحبًا وتعلقًا به، فلا تقوى على تركه! ثم قالت: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

وهنا يقف يوسف عليه السلام شاهدا بعفته على إيمانه، وثابتا على حياته ويقينه، يرسم للتاريخ معالم العفة وآفاقها وطرقها وأسبابها.

فلجأ إلى الله بقلبه خاشعًا متضرعًا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ

١٩.

(١) زاد المسير، جمال الدين ابن الجوزي ١/ ٦٩٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٨، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٣/ ٥٢٢.

(٣) الوجيز، الواحدي ٢/ ٥٤٤.

(٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٣/ ٥٢٣.

﴿لَّجَهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: ٣٣].

وهذا يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف عليه السلام بمطاوعة سيدته، فاعترف لبارئه بضعف الحيلة والخوف من سوء المنقلب، وتضرع يسأله الثبات والفرج، ولو أدى ذلك إلى سجنه وحبسه، فحبس الذات عن الذوات أهون عليه من حبس الفؤاد بالفاحشة عن رب الأرض والسماوات.

وكثر كلام الناس من جديد على ما يدور في خاطر امرأة العزيز نحو يوسف، فما كان من العزيز إلا أن أدخل يوسف السجن ظلمًا وعدوانًا، ليعلم الناس عفاف زوجته وخيانة يوسف كما زعم! كتمانًا للقصة ألا تشيع في العامة، وللحيلولة بينه وبينها، فكان السجن آية عفته وطهارته!

عاش يوسف عليه السلام في سجنه برعاية الرحمن عابدًا ساجدًا شاكرًا حامدًا، يدعو إلى الله على نور وبصيرة!

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: ٣٦].

انتهز عليه السلام اعتراف رفيقيه في السجن بإحسانه وصحة دعوته وجميل استقامته وحاجتهما إلى تأويل ما رأياه في المنام، فبادر إلى دعوتهما إلى التوحيد ومعاني الإسلام وسعة علمه الذي علمه الله إياه ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: ٣٧-٣٨].

وبعد أن قدر لهما دعوة التوحيد أول رؤياهما فقال: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

وكان عليه السلام قد طلب من السقاء الذي كان معه في السجن أن يذكره عند الملك، ولكن السقاء نسي الطلب وتشاغل عنه، ويشاء الله جل وعلا أن ينصر يوسف العفيف، وأن يعزه ويرفع شأنه، ويذل من اتبع شهوته وهواه، فلقد رأى الملك فيما يرى النائم رؤيا قضت منامه وبعثت فيه من القلق والفزع ما دفعه إلى إحضار العلماء والكهنة والعرافين يستفتيهم في شأنها!

فعرض عليهم رؤياه فقالوا: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ [يوسف: ٤٤].

وفي تلك اللحظة تذكر السقاء شأن

يوسف وسعة علمه في التأويل وما عايشه من صدق تأويله، وتذكر طلب ذكره عند الملك، فذكره بما يعلمه عنه من الخير والإحسان والصدق والعلم، فأرسل الملك ساقيه إلى السجن ليستفتي في شأن الرؤيا يوسف عليه السلام، فذهب السقاء على الفور.

فشرع يوسف عليه السلام في تأويلها على الفور ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٧-٤٩].

رجع السقاء إلى ديوان الملك وأخبره بما تلقاه من يوسف عليه السلام من التأويل، فلما سمع الملك كلامه عجب لذلك عجبًا عظيمًا، وانتابه ذهول من علمه عليه السلام، فبعث إليه بالمجيء إلى قصره، لكن وزيره رجع يخبره خبرًا غريبًا: فقد أبى عليه السلام الخروج من السجن إلا إذا نظر الملك في مسألة النسوة اللاتي قطعن أيديهن وما حدث مع امرأة العزيز، ولماذا أدخله إلى السجن العزيز؟ فقال للوزير: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

وهنا تجلت آثار العفة والطهارة، ويفتضح أمر اتباع الشهوة والهوى، فقد استدعى الملك امرأة العزيز ومعها النسوة، وحقق في الأمر معهن، ويوسف عليه السلام لا يزال في سجنه، فاعترفت امرأة العزيز على نفسها أمام الملأ، وشهدت ليوسف عليه السلام بالصدق والطهارة والاستقامة، قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

فقال الملك: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

إنه انتصار العفة واستعلاء الإيمان، فمهما تكبد العفيف من البلاء والمحن في طريقه فلا بد أن يحالفه النصر، فها هو يوسف السجين، يرفعه الله من السجن والحصر إلى رحاب القصر، بل ويهبه فيه القوة والتمكين ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢][1].

وتجدر الإشارة إلى أن يوسف عليه السلام قد ثبتت بحقه العفة عن المال أيضًا، فقد أثبتها لنفسه وتعهد بها عندما طلب أن يعين على خزينة المال: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥].

أي: حافظ أمين على ما استودعتني،

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٢٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥-٢٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٦.

عالم بما أوليتني[1]، فهو المتعفف عن الفحش، وعن الطمع في المال العام.

ثانيًا: قصة ابني آدم عليه السلام:

قص الله علينا خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل على ما ذكره غير واحد من السلف والخلف، وكان من خبرهما أن الله تعالى شرع لآدم أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، وكان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان آدم عليه السلام يزوج أنثى هذا البطن بذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة، وأخت قابيل وضيئة، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك، قال السمرقندي: فقال آدم: إن الله تعالى أمرني بذلك. فقال له قابيل: إن الله تعالى لم يأمرك بهذا، ولكنك تميل إلى هابيل[2]، فأمرهما بأن يقربا قربانًا، فمن تقبل منه فهي له، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه[3].

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠].

الآيات الكريمة تشير إلى أن ابني آدم عليه السلام قربا قربانًا، واختلف في السبب الذي قربا لأجله قربانًا على قولين:

أحدهما: أنهما فعلاه لغير سبب.

والثاني: وهو أشهر القولين أن ذلك لسبب، وهو أن حواء في كل عام تلد غلامًا وجارية، فكان الغلام يتزوج من إحدى البطنين بالجارية من البطن الأخرى، وكان لكل واحد من ابني آدم عليه السلام - هابيل وقابيل - توأمة، فأراد هابيل أن يتزوج بتوأمة قابيل فمنعه، وقال: أنا أحق بها منك[4].

قال أهل التفسير في بيان هذا القربان، والقربان هو البر الذي يقصد من رحمة الله، وهو اسم ما يتقرب به إلى الله من نسيكة أو صدقة[5].

أُمِرَ ابنا آدم أن يقربا قربانًا، وكان هابيل صاحب غنم وعهد إلى كبش أنتج فذبحه طيبة بها نفسه، وكان قابيل صاحب زرع وعهد إلى سيء من الفوم رديء[6] فقربه غير طيبة به نفسه، فتقبل الله عز وجل قربان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢١٩.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٤٢٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٣١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٨٢، المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان ١/ ١٠٧.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٨.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٢٤-٢٢٥.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٣٢٣.

صاحب الغنم -أي: هابيل- ولم يتقبل قربان صاحب الزرع -أي: قابيل- فتحرك الحسد في قلبه، ودفعه إلى قتله، فقال قابيل لأخيه: تقبل قربانك ولم يتقبل مني، والله لأقتلنك[(١)].

فهو إنما غضب عليه وحسده؛ لقبول قربانه. فقال له أخوه: ما ذنبي؟! إنما يتقبل الله القربان من المتقين لا من غيرهم، وكأنه يقول لأخيه: إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلي، فإن عدم تقبل قربانك بسبب عدم تقواك[(٢)].

وهنا يرد عليه التقي الورع العفيف الذي تقبل الله تعالى قربانه منبها له ومبينا أن تقوى الله تعالى والإخلاص له من أهم أسباب القبول عند الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وإن كنت مصرًا على قتلي فلن أفعل فعلك، فخوفي من الله تعالى ربي وربك يمنعني من فعل ذلك والإقدام عليه، فهذه جريمة لا أجرؤ على الإقدام عليها[(٣)]. فقال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨].

أخبر الله في هذه الآية بتحرج المقتول عن القتل، وقال ابن عمر: وأيم الله، إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن عفة يده عن فعل الحرام منعته من أن يبسط يده إلى أخيه[(٤)].

قال سيد قطب: وهكذا يرتسم نموذج من الوداعة والسلام والتقوى في أشد المواقف استجاشة للضمير الإنساني وحماسة للمعتدى عليه ضد المعتدي وإعجابًا بهدوئه واطمئنانه أمام نذر الاعتداء وتقوى قلبه وخوفه من رب العالمين. إلى أن قال: إذا أنت مددت يدك إلي لتقتلني فليس من شأني ولا من طبعي أن أفعل هذه الفعلة بالنسبة لك خوفًا من الله رب العالمين لا عجزًا عن إتيانه: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩]، أي: تحمل إثم قتلي وتضيفه إلى إثمك الذي جعل الله لا يتقبل منك قربانك فيكون إثمك مضاعفًا وعذابك مضاعفًا. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩] أراد أن يثنيه ويعفه عما تراوده به نفسه، وعرض له وزر جريمة القتل لينفره منه، ويزين له الخلاص من الإثم المضاعف، بالخوف من الله رب العالمين، وبلغ من هذا وذلك أقصى ما يبلغه إنسان في صرف

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٥.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٣٢٦، تفسير الشعراوي ٥/ ٣٠٧٤.
(٤) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ١٦٨٠، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨٥.

الشر ودوافعه عن قلب إنسان[1].

ومع هذا فإن الحسد وعدم العفة قد غطى على كل شيء منه، فلم ير في كلمات أخيه وفي تحديه له شيئًا يعدل به عن طريقه الذي ركبه من أول الأمر، وكان أن قتل أخاه وأسال على الأرض دمه[2].

معوقات العفة

المعوقات التي تقف في طريق العفة في هذا الزمن كثيرة جدًا، ومن تلك المعوقات:

١ . ضعف الإيمان.

إن الباعث على العفة هو الإيمان الذي يرافقه الخوف من الله وخشية جلاله، فمن الطبيعي أن لا توجد العفة متى رفع الإيمان، ولذا فإن هذا المعوق تندرج تحته أغلب المعوقات إن لم تكن كلها، لما للإيمان من أهمية في استقامة الفرد وأخلاقه، لأن الإيمان بالله وعبادته المتصلة يحرران الإنسان من العبودية والخضوع لأية قوة مادية بشرية من العوائق الداخلية والخارجية، فينطلق إلى أداء رسالته وهو يحس بالحمية والحيوية، والله معين على أدائها ويتكفل برعايته ويضمن له الثواب، سواء أصاب أم أخطأ ما دامت الوجهة كلها لله[3].

فالعفة من الإيمان، ونقصه يؤدي إلى الوقوع في المعاصي والتدرج فيها، والوقوع في المنكرات بأنواعها، ومن مظاهره اتباع خطوت الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [النور: ٢١].

أي: طرقه ووساوسه، حيث يدخل فيها

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٧٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ١٠٧٦.
(٣) أضواء على التربية الإسلامية، على القاضي ص ٣٢.

سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن[1].

٢. الصحبة السيئة.

تعد الصحبة السيئة من أهم العوائق التي تعيق الإنسان عن القربات والأعمال الصالحات؛ لما لها من تأثير كبير على الإنسان؛ ولذا فقد ذكر القرآن الكريم تأثير الصحبة السيئة وبيان خطورتها وأنها قد تورد المهالك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

ففي هذه الآية يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقا أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرة وأسفا[2].

قال الشنقيطي: « وهذه الآية الكريمة تدل على أن قرين السوء قد يدخل قرينه النار، والتحذير من قرين السوء مشهور معروف»[3].

ولأهمية هذا الموضوع قد أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم باختيار من يجالسهم ويصاحبهم، فقال عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

يقول ابن كثير: «أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيًّا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعًا ولا محبًا لطريقته ولا تغبطه بما هو فيه»[4].

٣. ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هو ضياع للأفراد والمجتمعات، وانتشار المنكرات وشيوعها، وقيامها كأسباب للانحراف ومهيجات للغرائز، وما ذاك إلا نتيجة لغياب تلك الفريضة.

(١) تفسير تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٨.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٥٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٥٢.

قال الغزالي: « إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة»[(١)].

فعندما ترك بنو إسرائيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعنوا على لسان أنبيائهم.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

قال ابن كثير: «أي: كان لا ينهى أحدٌ منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوه»[(٢)].

وقد حذر الله سبحانه عباده المؤمنين من القعود عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو التراخي عن الدعوة وإرشاد الناس إلى الخير، فيكون ذلك سببًا في وقوع الفتنة التي لا تختص بمن يمارسها من العاصين دون الطائعين، بل تتعدى هؤلاء الواقعين في المنكر لتعم الصالح والطالح كما في قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب»[(٣)].

والمراد بتلك الفتنة التي تعم الظالم وغيره هي أن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه عمهم الله بالعذاب: صالحهم وطالحهم، وبه فسرها جماعة من أهل العلم، والأحاديث الصحيحة شاهدة لذلك[(٤)].

٤. وسائل الإعلام الفاسدة.

فمن معوقات العفة في هذا العصر وسائل الإعلام المفسدة، والناظر إلى أغلب وسائل الإعلام في الدول الإسلامية فضلًا عن غيرها يجد فيها الكثير من الفساد، سواء كان في القنوات الفضائية المتنوعة كالتلفاز، أو الشبكة العنكبوتية كاليوتيوب والفيس بوك وغيرها، أو الإذاعات والمجلات والصحف[(٥)].

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٧/ ١١٨٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٤٨٦.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٤٨٩، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي ٤/ ٤٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٣١، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٩٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٣.

(٥) انظر: العفة ومنهج الاستعفاف، يحيى العقيلي

بل يجد أن مهمتها العظمى بث السموم ونشر الرذيلة والفاحشة والدعوة إلى خلاف العفة. فإذا تناولت مجلة فصورها وأحاديثها تنطق بهدم العفاف، وإذا فتحت المذياع فالأغاني الماجنة المائعة تصك الآذان، وإذا نظرت إلى التلفاز نظرت إلى هدم العفاف، وهذه هي الحقيقة والواقع بالنسبة لبعض بلاد المسلمين التي وقعت فريسة في أيدي بعض أبنائها الذين يستوردون المبادئ والأخلاق والعقائد والشرائع والتعليمات من الأعداء ثم ينفذونها بدقة وأمانة[1].

٥. الجهل.

لا شك أن الجهل من الأسباب التي تعوق العبد المسلم عن العفة، فعدم العلم بالشيء هو السبب الحقيقي في عدم الإقبال عليه وفعله؛ ولهذا ذم الله تعالى الجهل وحذر منه، وبين أنه سبب إعراض المعرضين عن دعوة الأنبياء والمرسلين، وأن الناس لجهلهم كذبوا بهم.

يقول تعالى مخبرًا عن قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾ [هود: ٢٩].

بل ذكر سبحانه أن الجهل هو الذي دفع قوم لوط لعمل جريمتهم البشعة من اللواط، يقول تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النمل: ٥٥].

قال ابن تيمية: الجهل والظلم هما أصل كل شر[2]، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٦. تأخير الزواج.

من معوقات العفة أن كل واحد من الجنسين محتاج للآخر، وقد فطرهما الله على ذلك، فلا غنى لأحدهما عن الآخر[3].

قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: ٢١].

فالزواج المبكر من أقوى الوسائل المعينة للعفاف، فعن عبد الرحمن بن يزيد قال: دخلت مع علقمة والأسود على عبد الله، فقال عبد الله: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم شبابًا لا نجد شيئًا، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا

ص ٥١، موسوعة الأخلاق الإسلامية، مؤسسة الدرر السنية ١/ ٤١٢.

(١) انظر: الغزو الفكري، ممدوح فخري ص ٢٩.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/ ١٣٢.

(٣) انظر: العفة وسائلها ومعوقاتها وثمراتها، محمد الهبدان ص ١٧.

معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاءٌ)[1].

في الحديث ما يدل على أن الزواج وسيلة لصيانة الفروج والأعراض وحفظها من الانزلاق في مهاوي الفواحش وأوحال الرذائل والمحرمات.

هذا وقد حث ديننا الحنيف على مساعدة الشباب على الزواج، بالذات من كان المانع من زواجه هو نقص المال.

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٣٢].

وهنا جاء الندب للجماعة المسلمة بمساعدة المحتاج للزواج من الجنسين لإعفافه، ففي ذلك حماية له من الوقوع فيما حرم الله، وحفظ للمجتمع من بلاء الفواحش.

يقول سيد قطب: «وهذا أمر للجماعة بتزويجهم، والجمهور على أن الأمر هنا للندب، ودليلهم أنه قد وجد أيامى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزوجوا، ولو كان الأمر للوجوب لزوجهم[2]».

ويحسن التحذير مما يقع فيه بعض أولياء الأمور من منع زواج فتياتهن بحجة إتمام الدراسة الجامعية أو العمل وتحقيق الذات والمال، أو لأسباب أسوأ من ذلك تتعلق بأصول الشاب ومدى غناه، بل وأصبح بعض الأولياء يرفض الشاب الصالح لمجرد مكان سكناه ويتناسى أنه -بصفته وليًّا- مؤتمن على عفة ابنته، والمفترض أن يسعى إلى ذلك ما استطاع.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريضٌ)[3].

ولعل من المهم معالجة بعض المشاكل الاجتماعية المتعلقة بارتفاع المهور ومستلزمات الزواج، فالأهل يوقعون -غير قاصدين- أبناءهم وبناتهم في المشاكل الأخلاقية، لأنهم يرفعون من سقف مطالبهم عند التزويج؛ فلا يبقى للشاب أو الفتاة سوى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من استطاع منكم الباءة فليتزوج، لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج)، وهل يتزوج من لا أرب له في النكاح، رقم ٥٠٦٥، وباب من لم يستطع الباءة فليصم، رقم ٥٠٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، رقم ١٤٠٠.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥١٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه ٣/ ٣٨٦ رقم ١٠٨٤. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١١٢، رقم ٢٧٠.

إقامة علاقات تشبع رغباتهم ولا تكلفهم شيئًا!

ومن الأمور التي يجب على المجتمع أن يتبناها حتى تنخفض الرذيلة هو مسألة خفض مستوى الشروط التي يطلبها أهل الشاب، فبدلًا من الإقبال على فتاة بكر على قدر عالٍ من الجمال لم لا يفكر الأهل أو الشاب في التقدم لمطلقة أو أرملة صغيرة السن أو بكر تكبر الشاب ببضع سنين؟ فهؤلاء لن يشترطن مهورًا عالية كغيرهن، وستحصل البركة في هذا الزواج مادام الغرض منه الاستعفاف عن الحرام، فلا يقاس النجاح في الحياة بكم المبالغ المدفوعة فيه، بل هو التوفيق الرباني لا غير.

٧. الاختلاط بين الجنسين.

إن العفة حجاب يمزقه الاختلاط؛ ولهذا صار طريق الإسلام التفريق والمباعدة بين المرأة والرجل الأجنبي عنها، فالمجتمع الإسلامي مجتمع فردي لا زوجي، فللرجال مجتمعاتهم، وللنساء مجتمعاتهن، ولا تخرج المرأة إلى مجتمع الرجال إلا لضرورة أو حاجة بضوابط الخروج الشرعية. كل هذا لحفظ الأعراض والأنساب، وحراسة الفضائل، والبعد عن الريب والرذائل، وعدم إشغال المرأة عن وظائفها الأساس في بيتها؛ ولذا حرم الاختلاط، سواء في التعليم، أم في العمل والمؤتمرات والندوات والاجتماعات العامة والخاصة، وغيرها؛ لما يترتب عليه من هتك الأعراض، ومرض القلوب، وخطرات النفس، وخنوثة الرجال، واسترجال النساء، وزوال الحياء، وتقلص العفة والحشمة، وانعدام الغيرة[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٨. الطمع.

يطمع بعض الناس فيما في أيدي الناس من الأموال والنساء والأولاد والمتاع ونحوها.

قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨].

قال السعدي في تفسيره: « أي: لا تعجب إعجابًا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون واغتر بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم»[2]؛ لأنه لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس،

(١) انظر: حراسة الفضيلة، بكر أبو زيد ص ٦٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٣٤.

وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص[1].

٩. إهمال حفظ المال.

حفظ المال مقصد من مقاصد الشريعة الخمس، وإهمال حفظه مفسدة، وفتحٌ لباب من أبواب الشيطان، والأصعب أن يكون هذا الإهمال من ولي المال القائم عليه بداعي الثقة الزائدة أو الاستهتار.

وقد نهى الله تعالى عباده عن التبذير في إنفاق المال؛ ليدلل على ضرورة حفظه، فالإنسان مأمور بالاقتصاد في ماله، ومن باب أولى هو مأمور بصيانة هذا المال من أن يتعدى عليه غيره.

قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

وكذلك أمر بالانتباه للمال حتى لا يندم الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

ومعنى القعود ملومًا محسورًا أي: ملومًا من الناس لائمًا لنفسك على ما ضيعته من مال[2].

فالمال نعمة بموجب قول الله تعالى متفضلًا على نبيه الكريم عليه السلام: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ٨].

وعلينا شكرها بحفظها وعدم إهمالها، وقد ورد في المثل العربي ما معناه « المال المهمل يعلم السرقة »، فالمال له حظوة في النفس، والنفس أمارة بالسوء، فإذا ترك المال هكذا بلا رقابة ولا متابعة ولا حفظ جيد سيكون مغريًا لمن ضعف إيمانه، ولن يتعفف عن سرقته أو إهداره، أما لو كان الإنسان أمينًا فستمنعه العفة عن هذا المال مهما بلغ إهماله، بل سيراعي ربه فيه، وقد يستثمره لمصلحة صاحبه إرضاءً لأمانته وضميره.

لكن الأصل أن يحفظ المال جيدًا حتى يسد الباب الرئيس للشيطان، لأن إهمال حفظه يسوغ للنفس الاستيلاء عليه، حتى إنه يسقط الحد الشرعي على آخذه، فكما نعلم أن أحد شروط إقامة حد القطع في السرقة هو وجود المال في حرز[3]، وإذا انتفى ذلك بحيث كانت الأموال متروكة دون اكتراث فاللوم على صاحبه لا آخذه.

١٠. تبرج النساء.

(١) الفوائد، ابن القيم ١/ ٢١٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٣٣.

(٣) انظر: الهداية في شرح بداية المبتدي، المرغيناني ٢/ ٣٦٣.

من الأسباب التي تعوق العفة؛ لذا أمرت المرأة بالقرار في البيت.

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فإذا خرجت التزمت بالضوابط الشرعية للخروج، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن ليصوت ما عليهن من حلي كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة. ويؤخذ من هذا ونحوه قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحًا ولكنه يفضي إلى محرم أو يخاف من وقوعه فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض الأصل أنه مباح ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة منع منه[(١)].

١١. الغناء.

إن المتتبع لمجالس الغناء ومسارح الطرب وأماكن اللهو وما يصاحبها من معازف وآلات في ذلك يجد الرقص الخليع الفاجر من نساء امتهن الرذيلة والفاحشة، ويجد العربدة والصياح المتعالي من أفواه السكارى، ويجد الكلمات البذيئة الفاحشة العارية من الحياء والخجل والمتخمة بالوقاحة وسوء الأدب، يجد الاختلاط الشائن بين عوائل متحللة، حيث التخلع والمراقصة وهدر النخوة والشرف، وباختصار يجد التحلل والإباحية في أسوأ تبذلها ومظاهرها[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ [لقمان: ٦].

نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير[(٣)].

قال الطبري: « عنى به كل ما كان من الحديث ملهيا عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه أو رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى عم بقوله: ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ ولم يخصص بعضا دون بعض، فذلك على عمومه حتى يأتي ما يدل على خصوصه، والغناء والشرك من ذلك»[(٤)].

قال الواحدي: «أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث: الغناء، فهذه الآية تدل على تحريم الغناء[(٥)]».

ويكفي تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه الغناء فقد صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، قال أبو

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٣.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله العلوان ٢/ ٨٥٩-٨٦٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣١.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٣٩.

(٥) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤١.

الصهباء: سألت ابن مسعود رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، فقال: والله الذي لا إله غيره هو الغناء. يرددها ثلاث مرات[1].

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ٢٤٠.

ثمرات العفة

العفة من أجل الأخلاق وأسماها، وأفضل الخصال وأعلاها، ثمارها زاكية، وآثارها مرضية، لا يتناهى ثوابها، ولا يضاهى فضلها، بل إنها تعود على صاحبها بالخير في الدنيا والآخرة، ومن تلك الثمرات:

أولًا: ثمرات دنيوية:

تعود العفة على صاحبها بكثير من الثمرات الدنيوية، ومنها:

١. تزكية النفس وانضباط السلوك.

لما أمر الله بها في آية غض البصر قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾ [النور: ٣٠].

فمن أراد أن يزكي نفسه فعليه بالعفة، وقد نصت السنة النبوية على فضيلة العفة وتزكية أهلها، فعن سهل بن سعدٍ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)[2].

٢. الاستقامة على شرع الله وطاعته.

فالعفة من أجل مظاهر التقوى وأنصع صورها؛ لأن العفيف حينما يصد عن الفواحش وأسبابها إنما يتقي بعفته سوء الحساب، ولذا فإنها تقتضي التحرز من

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، رقم ٦٤٧٤.

الوقوع في المآثم والمحارم، مما لا يقبله الشرع الحكيم، ولا يرضى عنه العقل السليم، بل إنها تستلزم الاقتصار على ما هو موافق للشرع وملائم للطبع[1].

ولقد أمر الله جل وعلا الرجال بالعفة فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

وأمر النساء بالعفة أيضًا فقال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

فإلى جانب الأمر بغض البصر ألح كتاب الله من جديد على التزام العفة وحفظ الفرج من طرف الرجال والنساء[2]، وبدهي أن هذا الحفظ لا يتحقق إلا بتفادي كل ما نهى الله عنه والتزام كل ما أمر الله به.

٣. حفظ الجسد من الأمراض الفتاكة.

فالعفة وقاية اجتماعية من الأذى والشرور والآفات، ومن فشو الأمراض الفتاكة، ولو تأمل المسلم في عقوبات الزنا وأضراره في الدنيا والآخرة لأدرك ما يفوته طائع شهوته على نفسه من الخير والفضل، وما يجنيه من مر الثمار وشنيع الأضرار.

٤. حفظ الأعراض.

من أجلِّ مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ عرض الإنسان؛ لأن حفظه هو الطريق إلى حفظ الأنساب والمجتمعات من الأمراض والأدواء، ومن أجل حفظ العرض اتخذت الشريعة اتجاهًا علاجيًا عن طريق فتح أبواب التعفف والحصانة على مصراعيها، وشق الطرق المعبدة الموصلة إلى ما أحله الله[3].

وأوعد هاتك الأعراض أعظم وعيد فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٣-٢٤].

ورتب الحد ورد الشهادة وحكم بالفسق على قاذف المسلم بغير حق: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور: ٤-٥].

فالعفة حراسة، بل إن من أهم الوسائل

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد الناصري ٥/ ١٣١.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٦٣.
(٣) عودة الحجاب، محمد المقدم ٣/ ٢٦.

التي نهجها الإسلام للحفاظ على الأعراض: الزجر عن الوقوع في الفاحشة والطرق الموقعة فيها، والترغيب في الاستعفاف لوجه الله تعالى.

٥. نيل معونة الله.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف)[(١)].

٦. إن الله تعالى يدافع عن أهلها.

وهذا دليل على صدق إيمانهم؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج: ٣٨].

ولقد تولى الله تعالى الدفاع عن ثلاثة من سادة الأعفة في القرآن الكريم: أولهم نبي الله يوسف عليه السلام، عندما اتهمته امرأة العزيز بالفاحشة فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٥].

فأوضح كل من له تعلق بهذه القصة براءة يوسف عليه السلام ونقاء سريرته.

وقد تولى الله الدفاع عن مريم عليها السلام، فلقد اتهمت بالفاحشة كما أخبر الله في موضعين:

الأول: في قوله تعالى: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾ [النساء: ١٥٦].

والثاني: في قوله جل جلاله: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم: ٢٧-٢٨].

وبرأها الله في موضعين كذلك:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

والثاني: في قوله: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: ١٢].

وتولى الله الدفاع عن عائشة رضي الله عنها، فالمنافقون لما خاضوا في الإفك أنزل الله لبراءتها عشر آيات في سورة النور بدأها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ [النور: ١١].

٧. إغناء الله لأهل العفة.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم ٣/ ٤٦٢، رقم ١٦٥٥، والنسائي في سننه، كتاب النكاح، باب عون الناكح الذي يريد العفاف، ٥/ ١٥٢، رقم ٥٣٠٧، وابن ماجه في سننه، كتاب العتق، باب المكاتب، ٢/ ٨٤١-٨٤٢، رقم ٢٥١٨. قال الترمذي: حديث حسن. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٨٥، رقم ٣٠٥٠.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

قال أبو السعود في تفسيره[١] ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]: عِدَةٌ كريمة بالتفضل عليه بالغنى، لطف لهم في استعفافهم، وتقوية لقلوبهم، وإيذان بأن فضله تعالى أدنى من الصلحاء. والإغناء يتحقق بأمور: بأن يرزقه ما يتزوج به، أو يجد من ترضى باليسير وبحاله، أو يصبره الله[٢].

ثانيًا: ثمرات أخروية:

ثمرات العفة لا تقتصر على الدنيا، بل تمتد إلى الدار الآخرة، ومن تلك الثمرات:

١. العفيف في ظل عرش الرحمن.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)[٣].

فالعفيف يوم القيامة في ظل الرحمن، آمن من فتن ذلك اليوم العظيم؛ لأنه خاف الله جل جلاله حينما دعاه داعي الشهوة فخشيه وعف عن الحرام، فأحسن الله إليه يوم الفزع الأكبر.

إنه لأجر عظيم يلقاه هؤلاء الأصناف السبعة، فهم يوم القيامة إذا قام الناس لرب العالمين ودنت منهم الشمس واشتد عليهم حرها وأخذهم العرق ولا ظل هناك لشيء كافأهم ربنا الكريم وأظلهم بظل عرشه، وقيل: بظل الجنة وهو نعيمها، كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقيل: المراد بالظل هنا الكرامة والكنف والكف من المكاره في ذلك الموقف[٤].

والمتأمل للأصناف السبعة يجد أن العنوان الذي يجمعهم هو «العفة»، فقد جاهدوا أنفسهم وروضوها على التصبر والامتناع مما تدعو إليه الشهوة أو الغضب أو الطمع، وفي ذلك مشقة بالغة وألم عظيم، فالقلب يكاد يحترق من نار الشهوة أو الغضب ولا تطفئه تلبية تلك الرغبة، فيأتي تعويض الله لهؤلاء يوم القيامة حين يشتعل الحر في ذلك الموقف العظيم ولا يجد

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ١١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٤٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب فضل من ترك الفواحش، رقم ٦٨٠٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٠٣١.
(٤) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ٧/ ١٢٠.

الناس ظلًا أو مأوى فيظلهم بفضله وكرمه، ولا ظل كظله تعالى ولا كرم ككرمه عز وجل[1].

٢. جنات النعيم.

إن أعظم ثمرة للعفة دخول الجنة.

قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والأجر العظيم: الجنة.

قال الطبري: «يعني ثوابًا في الآخرة على ذلك من أعمالهم عظيمًا، وذلك الجنة»[2].

وعن سهل بن سعد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة).

وفي رواية: (من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة)[3].

٣. رضوان الله ومغفرته.

قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والمغفرة: ستر الله ذنوبهم والصفح عنها[4].

موضوعات ذات صلة:

الإحصان، حجاب المرأة، الزنا، النكاح

(١) انظر: فتح الباري، ابن رجب ٦/ ٤٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٠٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما جاء في حفظ اللسان ٨/ ١٠٠، رقم ٦٤٧٤.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٧/ ١٢٠.

العفو

عناصر الموضوع

مفهوم العفو	٤٤
العفو في الاستعمال القرآني	٤٥
الألفاظ ذات الصلة	٤٦
مشروعية العفو	٤٨
الترغيب في العفو	٥٦
أنواع العفو	٦١
أسباب العفو	٦٥
مراتب العفو	٧٠
مجالات العفو	٧٩
آثار العفو	٨٨

مفهوم العفو

أولًا: المعنى اللغوي:

العفو يطلق على معنيين أصليين: أحدهما: ترك الشيء. والآخر: طلبه.

فمن المعنى الأول: عفو الله تعالى عن خلقه، وذلك تركه إياهم فلا يعاقبهم فضلًا منه.

ومن المعني الثاني: قول: اعتفيت فلانًا، إذا طلبت معروفه وفضله، فهو القصد لتناول الشيء[(١)].

والعفوأيضًا: خيار الشيء وأجوده، والعفو من الماء: ما فضل عن الشاربة وأخذ بلا كلفة ولا مزاحمة، العفو من البلاد: ما لا أثر لأحد فيها بملك[(٢)].

فهذان هما المعنيان الأصليان للعفو، وعليهما يدور جميع معاني العفو، فيفسر في كل مقام بما يناسبه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

العفو اصطلاحًا: التجاوز عن الذنب وترك العقاب[(٣)].

وقال الراغب: العفو هو التجافي عن الذنب[(٤)].

والعفو: كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من استحق عقوبة فتركها، فقد عفا[(٥)].

فالمعنى الاصطلاحي متفق مع المعنى الأول من المعنيين اللغويين للعفو.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥٦، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٩٣٨.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٧٢، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٤٣١، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٦٩.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري ٦/ ١٤٣.

(٤) المفردات، الراغب ص ٥٧٤.

(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٣، ٥٩٨.

العفو في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عفو) في القرآن الكريم (٣٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]
الفعل المضارع	١٢	﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى:٢٥]
الفعل الأمر	٤	﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]
المصدر	٢	﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩]
اسم الفاعل	١	﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٤]
الصفة المشبهة	٥	﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء:٤٣]

وجاء العفو في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

أحدها: الصفح والمغفرة: ومن لوازمها الترك وعدم المؤاخذة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥٥]، يعني: صفح عنهم وترك مؤاخذتهم.

الثاني: الفضل والكثرة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. يعني: ما كثر من أموالهم وفضل عن حاجتهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٦٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب العين ص٧٧١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٣٥-٣٣٦، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٣٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ المغفرة:

المغفرة لغة:

أصل الغفر التغطية والستر، غفر الله ذنوبه أي: سترها، والغفر: الغفران، وقد غفره يغفره غفرًا: ستره، وكل شيء سترته فقد غفرته[١].

المغفرة اصطلاحًا:

عرفها الكفوي بقوله: «هي أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته، حتى إن العبد إن ستر عيب سيده مخافة عتابه لا يقال: غفر له»[٢]، والمغفرة من الله هي بأن يصون العبد من أن يمسه العذاب يوم القيامة[٣].

الصلة بين العفو والمغفرة:

«أن الغفران يقتضي إسقاط العقاب، وإسقاط العقاب هو إيجاب الثواب، فلا يستحق الغفران إلا المؤمن المستحق للثواب، ولهذا لا يستعمل إلا في الله، فيقال: غفر الله لك. ولا يقال: غفر زيد. والعفو يقتضي إسقاط اللوم والذم، ولا يقتضي إيجاب الثواب، ولهذا يستعمل في العبد، فيقال: عفا زيد عن عمرو. وإذا عفا عنه لم يجب عليه إثابته إلا أنه العفو والغفران»[٤].

٢ الصفح:

الصفح لغة:

صفح عنه يصفح صفحًا: أعرض عن ذنبه، وهو صفوح وصفاح أي: عفو، والصفوح: الكريم؛ لأنه يصفح عمن جنى عليه، واستصفحه ذنبه: استغفره إياه وطلب أن يصفح له عنه[٥].

الصفح اصطلاحًا:

«ترك التأنيب، وهو أبلغ من العفو، فقد يعفو ولا يصفح، وصفحت عنه: أوليته مني

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٥.
(٢) الكليات ص٢٢٣.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٥٢.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٣٥.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥١٢.

صفحة جميلة معرضا عن ذنبه بالكلية»[١].

الصلة بين العفو والصفح:

وقال الراغب: «الصفح: ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح»[٢].

وقال البيضاوي: « العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك تثريبه»[٣].

٣ العقاب:

العقاب لغة:

العقاب مأخوذ من «عقب»: العين والقاف والباء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره، والأصل الآخر يدل على ارتفاع وشدة وصعوبة[٤].

العقاب اصطلاحًا:

العقاب هو جزاء الشر، والنكال أخص منه[٥]، أو هو ما يلحق الإنسان بعد الذنب من المحنة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا[٦].

الصلة بين العفو والعقاب:

هما ضدان فالعفو ترك العقوبة، والعقاب إيقاعها.

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢١٧.
(٢) المفردات ص٢٨٢.
(٣) أنوار التنزيل ١/ ١٠٠.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٧٧.
(٥) الكليات، الكفوي ص٦٥٤.
(٦) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ٢/ ١١٩٢.

مشروعية العفو

بين القرآن الكريم في كثير من آياته مشروعية العفو، ورغب فيه، ومن ذلك:

قوله تبارك وتعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ففي هذه الآية الكريمة أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمعاملة العباد بخلق العفو، قال عبد الله بن الزبير: (أمر نبي الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس)[(١)].

قال ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية: «فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعفو ويصفح، وذلك بعدم المؤاخذة بجفائهم وسوء خلقهم، فلا يعاقبهم ولا يقابلهم بمثل صنيعهم»[(٢)].

فالذي ينبغي أن يعامل به الناس أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم[(٣)].

وكل ذلك في المعاملات الشخصية لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية؛ فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح، ولكن في الأخذ والعطاء والصحبة والجوار، وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة. فالإغضاء عن الضعف البشري والعطف عليه، والسماحة معه واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم راع وهاد ومعلم ومرب، فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والإغضاء، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم، لم يغضب لنفسه قط، فإذا كان في دين الله لم يقم لغضبه شيء، وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضي سعة صدر وسماحة طبع ويسرًا وتيسيرًا في غير تهاون ولا تفريط في دين الله[(٤)].

وهذه الآية تدل على عمومية العفو، وأنه ليس خاصًا بالمسلمين فقط، بل يعم جميع الناس؛ لأن: «التعريف في العفو تعريف الجنس، فهو مفيد للاستغراق إذا لم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (خذ العفو وأمر بالعرف)، ٦/ ٦١، رقم ٤٦٤٤.

(٢) التحرير والتنوير ٩/ ٢٢٦- ٢٢٧.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣١٣.

(٤) انظر: ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤١٩.

يصلح غيره من معنى الحقيقة والعهد، ولا يخرج عن هذا العموم من أنواع العفو أزمانه وأحواله إلا ما أخرجته الأدلة الشرعية، مثل العفو عن القاتل غيلة، ومثل العفو عن انتهاك حرمات الله، والرسول أعلم بمقدار ما يخص من هذا العموم، وقد يبينه الكتاب والسنة، وألحق به ما يقاس على ذلك المبين، وفي قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ ضابط عظيم لمقدار تخصيص الأمر بالعفو»[1].

ولم يفهم السلف من هذه الآية الخصوصية، بل فهموا منها العموم[2].

وأيضًا هذه الآية ليست منسوخة كما ادعى بعضهم أنها منسوخة بالآيات الآمرة بالقتال، بل هي محكمة؛ لأن من ادعى أنها منسوخة لم يستند في دعواه إلى دليل من الكتاب أو من السنة.

وهذه الدعوى لم يعول عليها جهابذة المفسرين، كابن جرير[3] وابن عطية[4] وابن عاشور[5]، ولم يذكروها إلا ليبينوا ضعفها.

ولأن العفو من مكارم الأخلاق التي جاء الإسلام بالحث على تكميلها؛ فلا يدخلها النسخ.

ومن الأدلة على مشروعية العفو: قوله تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩]، فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالعفو عن أصحابه ما كان منهم يوم أحد مما يختص[6] به. وأمره أن يعفو عنهم ما لم يلزمهم من حكم أو حد[7].

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فتجاوز يا محمد عن تباعك وأصحابك من المؤمنين بك وبما جئت به من عندي، ما نالك من أذاهم ومكروهٍ في نفسك»[8].

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ، وذلك أنه أمره بأن يعفو عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة، فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعة أيضًا، فإذا صاروا في هذه الدرجة صاروا أهلًا للاستشارة في الأمور[9].

وظاهر الأمر للوجوب، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ يدل على التعقيب، فهذا يدل على أنه تعالى أوجب عليه أن يعفو عنهم في الحال، ويدل أيضًا على إيجاب

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٢٦-٢٢٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٢٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٣٢٩.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٩١.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٢٧.
(٦) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٠٦.
(٧) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٣٣٠.
(٨) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٣.
(٩) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٣٣- ٥٣٤.

العفو على الرسول عليه السلام، ولما آل الأمر إلى الأمة لم يوجبه عليهم، بل ندبهم إليه، فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ليعلم أن حسنات الأبرار سيئات المقربين[(١)].

وقد أخبر تبارك وتعالى بأنه قد عفا عن الصحابة الذين خالفوا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بملازمة الجبل، وتحذيرهم من النزول منه مهما كانت الظروف والأحوال، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال ابن جرير: «﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أيها المخالفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتاركون طاعته فيما تقدم به إليكم من لزوم الموضع الذي أمركم بلزومه عنكم، فصفح لكم من عقوبة ذنبكم الذي أتيتموه عما هو أعظم مما عاقبكم به من هزيمة أعدائكم إياكم، وصرف وجوهكم عنهم، إذ لم يستأصل جمعكم»[(٢)].

ولا شك أن ترك الرماة للجبل ونزولهم منه يعد مخالفة صريحة لأمر الرسول لهم بملازمته، وارتكابا لنهيه بعدم النزول منه مهما كانت الظروف والأحوال.

قال الرازي: «واعلم أن الذنب لا شك أنه كان كبيرة؛ لأنهم خالفوا صريح نص الرسول، وصارت تلك المخالفة سببا لانهزام المسلمين وقتل جمع عظيم من أكابرهم، ومعلوم أن كل ذلك من باب الكبائر، وأيضًا ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١٦]، يدل على كونه كبيرة، وقول من قال: إنه خاص في بدر ضعيف؛ لأن اللفظ عام، ولا تفاوت في المقصود، فكان التخصيص ممتنعا، ثم إن ظاهر هذه الآية يدل على أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة؛ لأن التوبة غير مذكورة، فصار هذا دليلًا على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الكبائر، وهذه الآية دالة على أن صاحب الكبيرة مؤمن؛ لأنا بينا أن هذا الذنب كان من الكبائر، ثم إنه تعالى سماهم المؤمنين، فهذا يقتضي أن صاحب الكبيرة مؤمن بخلاف ما تقوله المعتزلة»[(٣)].

وقد غفر الله لهم ذلك لكثرة عدد العدو وعددهم وقلة عدد المسلمين وعددهم[(٤)].

وأيضًا غفر لهم لعلمه بتوبتهم وندمهم، كما يقول النسفي: «﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ حيث ندمتم على ما فرط منكم من عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو عنهم وقبول توبتهم، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أديل لهم

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٠٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٩٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٨٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١١٦.

أو أديل عليهم؛ لأن الابتلاء رحمة كما أن النصرة رحمة»[1].

وقد يقال: إنه عفا الله عنهم؛ لأن مخالفتهم تلك لم تكن عن نية سيئة أو إصرار، بل كان عن اجتهاد منهم، كما أشار إلى ذلك صاحب الظلال: «عفا عما وقع منكم من ضعف ومن نزاع ومن عصيان، وعفا كذلك عما وقع منكم من فرار وانقلاب وارتداد، عفا عنكم فضلًا منه ومنة، وتجاوزًا عن ضعفكم البشري الذي لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار على الخطيئة، عفا عنكم؛ لأنكم تخطئون وتضعفون في دائرة الإيمان بالله والاستسلام له، وتسليم قيادكم لمشيئته: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ومن فضله عليهم أن يعفو عنهم ما داموا سائرين على منهجه، مقرين بعبوديتهم له لا يدعون من خصائص الألوهية شيئًا لأنفسهم، ولا يتلقون نهجهم ولا شريعتهم ولا قيمهم ولا موازينهم إلا منه، فإذا وقعت منهم الخطيئة وقعت عن ضعف وعجز أو عن طيش ودفعة، فيتلقاهم عفو الله بعد الابتلاء والتمحيص والخلاص»[2].

ومن الأدلة على مشروعية العفو قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

ففي هذه الآية أمر الله -عز ذكره- نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالعفو عن هؤلاء القوم الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليه من اليهود. يقول الله -جل وعز- له: اعف يا محمد عن هؤلاء اليهود الذين هموا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرمهم بترك التعرض لمكروههم، فإني أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه[3].

وقد حث الله على العفو عنهم والحالة هذه؛ لأن في ذلك مصالح عظيمة، قال ابن كثير: «وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يعني به الصفح عمن أساء إليك»[4].

والعفو عنهم من باب الإحسان إليهم، حتى تهيج فيهم غريزة العرفان بالجميل، فيستل ذلك الإحسان الحقد من قلوبهم، ويفتحوا آذانهم وقلوبهم لكلمة الحق: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤]؛ لأن العداوة لا تشتد إلا إذا وجد مؤجج لها من عداوة في

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٠١.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٠.

المقابل، فعندما تعامل عدوك بالحسنى ولا ترد على عدائه بالعدوان فكم من الزمن يصير عدوًا لك؟ إنه اعتدى مرة وسكت أنت عليه، واعتدى ثانية وسكت أنت عليه، لا بد أنه يهدئ من نفسه[1].

ولا دليل ولا حجة لمن ذهب[2] إلى أن هذه الآية منسوخة بآية براءة: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩].

فقد رد على من ذهب على ذلك جملة من أئمة التفسير، كابن جرير[3] وابن عاشور[4] ومحمد رشيد رضا[5].

ومن الأدلة على مشروعية العفو قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ففي هذه الآية أمر الله تبارك وتعالى بالعفو عن ذوي الإساءات من أهل الكتاب، قال ابن جرير: «﴿فَٱعۡفُواْ﴾ فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ في رأي أشاروا به عليكم في دينكم، إرادة صدكم عنه، ومحاولة ارتدادكم بعد إيمانكم، وعما سلف منهم من قيلهم لنبيكم صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦].

واصفحوا عما كان منهم من جهل في ذلك حتى يأتي الله بأمره، فيحدث لكم من أمره فيكم ما يشاء، ويقضي فيهم ما يريد»[6].

وقال محمد رشيد رضا: «أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الأخلاق، فقال: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾، ولم يقل: (فاعفوا واصفحوا عنهم)؛ لإرادة العموم، أي: عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو، فإن هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة؛ لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه، كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوي العادل للقوي الجاهل، وفي إنزال المؤمنين على ضعفهم منزل الأقوياء ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية،

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٣٠١٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠ / ١٣٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٠/ ١٣٥.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٤٥.
(٥) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٣٦- ٢٣٧.
(٦) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٠٣.

وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصرع الباطل، وإنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه»[1].

وهذه الآية أيضًا غير منسوخة كما هو قول المحققين من أئمة التفسير، قال الشنقيطي عند تفسيره لها: «هذه الآية في أهل الكتاب كما هو واضح من السياق، والأمر في قوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾، قال بعض العلماء: هو واحد الأوامر. وقال بعضهم: هو واحد الأمور. فعلى القول الأول بأنه الأمر الذي هو ضد النهي؛ فإن الأمر المذكور هو المصرح به في قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وعلى القول بأنه واحد الأمور فهو ما صرح الله به في الآيات الدالة على ما أوقع باليهود من القتل والتشريد كقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

إلى غير ذلك من الآيات، والآية غير منسوخة على التحقيق»[2].

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٤٧-٣٤٨

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٢-٤٣.

ومن الأدلة على مشروعية العفو: قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ أي: عما تقدم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم، وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة وطابت النفوس المؤمنة واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه؛ شرع -تبارك وتعالى وله الفضل والمنة- يعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكينا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها، وكان الصديق رضي الله عنه معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك

نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا، في مقابلة ما كان، قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدا»[1].

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: «فندب إلى العفو ورغب فيه، والعفو من صفة الله تعالى مع القدرة على الانتقام، ففي هذه الألفاظ اليسيرة معان كثيرة لمن تأملها. وقيل: إن عفوت فإن الله يعفو عنك»[2].

ومن الأدلة على مشروعية على العفو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾[البقرة(١٧٨)].

فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾يعني الولي إذا أعطي شيئا من المال فليقبله وليتبعه بالمعروف، وليؤد القاتل إليه بإحسان، فندبه الله تعالى إلى أخذ المال إذا سهل ذلك من جهة القاتل، وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة، كما قال عقيب ذكر القصاص من سورة المائدة: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[المائدة: ٤٥].

فندبه إلى العفو والصدقة، وكذلك ندبه بما ذكر في هذه الآية إلى قبول الدية إذا بذلها الجاني؛ لأنه بدأ بذكر عفو الجاني بإعطاء الدية ثم أمر الولي بالاتباع، وأمر الجاني بالأداء بالإحسان[3].

وفي الختام لابد من الإشارة إلى أن العفو ليس محمودا على إطلاقه، بل مقيد بما إذا كان ثمة مصلحة من ورائه، كما يدل على ذلك سياق الآيات الحاثة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

قال ابن سعدي: «وشرط الله في العفو الإصلاح فيه؛ ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورًا به»[4].

وأكد على ذلك ابن عثيمين بقوله: «العفو المندوب إليه ما كان فيه إصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ فإذا كان في العفو إصلاح، مثل أن يكون القاتل معروفًا بالصلاح ولكن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٨٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٦١.

بدرت منه هذه البادرة النادرة، ونعلم أو يغلب على ظننا أنا إذا عفونا عنه استقام وصلحت حاله؛ فالعفو أفضل لا سيما إن كان له ذرية ضعفاء، ونحو ذلك، وإذا علمنا أن القاتل معروف بالشر والفساد، وإن عفونا عنه لا يزيده إلا فسادًا وإفسادًا؛ فترك العفو عنه أولى، بل قد يجب ترك العفو عنه»[(١)].

وقيده الماوردي بالتائب دون المصر، فقال: «أصلح بينه وبين أخيه، وهذا مندوب إليه في العفو عن التائب دون المصر»[(٢)].

وأيضًا العفو الممدوح هو العفو عند المقدرة، كما يقول إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا»[(٣)].

والأنبياء والرسل عليهم السلام أوذوا في سبيل الله أذى كثيرا، فصبروا وتحملوا أذى قومهم، وليس ذلك في مرحلة الضعف فحسب، بل في مرحلة القوة والقدرة والتمكين؛ وذلك هو كمال العفو: «العفو عند المقدرة».

وهنا نورد مثالين فقط على عفو الأنبياء وصفحهم:

المثال الأول: نبي الله يوسف عليه السلام لما صار ملكا لمصر عفا وصفح عن إخوته، فقال مخاطبا لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ يقول: لا تعيير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو[(٤)].

وكذلك يعقوب عليه السلام عفا عن أبنائه الذين كادوا له ولابنه يوسف، وذلك حينما اعترفوا بخطئهم وطلبوا منه أن يستغفر لهم، فقالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

فعفا عنهم ولبى طلبهم، فقال: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

المثال الثاني: خاتم النبيين وإمام المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن العفو والصفح من أجل صفاته، كما جاء في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وفيه: (لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح)[(٥)].

وقد طبق ذلك عليه الصلاة والسلام في

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة، ٢/ ٣٠١-٣٠٢.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٠٧.
(٣) علقه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب الانتصار من الظالم، ٣/ ١٢٩.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٤٧.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح، رقم ٤٨٣٨.

حياته العملية، فقال لأهل مكة الذين ناصبوه العداء وآذوه: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[1].

وهكذا فعل الخلفاء الراشدون مع من أساء إليهم، فقد عفا أبو بكر عن مسطح بعد نزول قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

والعفو سجية من سجايا عباد الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

قال ابن كثير: «أي: سجيتهم وخلقهم وطبعهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس»[2].

وعفا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ذلك الأعرابي الذي أساء إليه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

الترغيب في العفو

تعددت أساليب القرآن الكريم في الترغيب في العفو والحث عليه والندب إليه، ومن تلك الأساليب:

أولًا: أسلوب الطلب:

وذلك من خلال فعل الأمر؛ كما في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقد سبق أن نقلنا كلام المفسرين في السابق مما أغنى عن إعادته هنا.

ثانيًا: أسلوب التحضيض:

كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

ففي هذه الآية الكريمة حث الله عباده المؤمنين على العفو عمن أساء إليهم، وما تضمنته هذه الآية من العفو والصفح جاء مبينا في مواضع أخر؛ كقوله تعالى:

(١) القصة أخرجها البيهقي في السنن الكبرى، ٩/ ١٩٩، رقم ١٨٢٧٥، وهي قصة مشهورة في كتب السير.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٩٢.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

وقد دلت هذه الآية على أن كظم الغيظ والعفو عن الناس من صفات أهل الجنة، وكفى بذلك حثا على ذلك، ودلت أيضًا على أن ذلك من الإحسان الذي يحب الله المتصفين به. وكقوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقد بين تعالى في هذا الآية أن العفو مع القدرة من صفاته تعالى، وكفى بذلك حثا عليه، وكقوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

وكقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [النور: ٢٢]، دليل على أن العفو والصفح عن المسيء المسلم من موجبات غفران الذنوب، والجزاء من جنس العمل، ولذا لما نزلت قال أبو بكر: بلى والله نحب أن يغفر لنا ربنا. ورجع للإنفاق في مسطح، ومفعول: ﴿أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ محذوف؛ للعلم به، أي: يغفر لكم ذنوبكم[1].

وقد اتفق الفقهاء على أن العفو والصفح عن المسيء حسن ومندوب إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ والأمر هنا للندب والإرشاد، وليس للوجوب؛ لأن الإنسان يجوز له أن يقتص ممن أساء إليه، فلو كان العفو واجبًا لما جاز طلب القصاص[2].

وهذه الآية وإن كان سبب نزولها خاصا في أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلا أنها عامة في الحث على العفو والصفح؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وفي قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

في هذه الآية الكريمة حذف متعلق الأفعال الثلاثة؛ لإرادة العموم، كما أشار إلى ذلك ابن عاشور: «وحذف متعلق الأفعال الثلاثة؛ لظهور أن المراد من أولادكم وأزواجكم فيما يصدر منهم مما يؤذيكم، ويجوز أن يكون حذف المتعلق؛ لإرادة عموم الترغيب في العفو.

وإنما يعفو المرء ويصفح ويغفر عن المذنب إذا كان ذنبه متعلقا بحق ذلك المرء

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٨٧-٤٨٨.
(٢) روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني ٢/ ١١٠.

وبهذه الأفعال المذكورة هنا مطلقة، وفي أدلة الشريعة تقييدات لها.

وجملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليل جواب الشرط المحذوف المؤذن بالترغيب في العفو والصفح والغفر، فالتقدير: وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحب الله ذلك منكم؛ لأن الله غفور رحيم، أي: للذين يغفرون ويرحمون، وجمع وصف رحيم الخصال الثلاث»[1].

وقال المفسرون: جملة الجزاء تحريض على العفو ببيان أن فيه تخلقًا بالكمال؛ لأن صفات الله غاية الكمالات. والتقدير: «إن تبدو خيرًا» إلخ تكونوا متخلقين بصفات الله، فإن الله كان عفوًا قديرًا، وهذا التقدير لا يناسب إلا قوله: «أو تعفوا عن سوء»، ولا يناسب قوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إلا إذا خصص ذلك بإبداء الخير لمن ظلمهم وإخفائه عمن ظلمهم[2].

﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾ لكم المؤاخذة عليه، وهو المقصود، وذكر إبداء الخير وإخفائه تشبيب له، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام، فأنتم أولى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو بعد ما رخص له في الانتصار حملا على مكارم الأخلاق[3].

وقد بين تعالى في هذا الآية أن العفو مع القدرة من صفاته تعالى، وكفى بذلك حثا عليه، وكقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وكقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، إلى غير ذلك من الآيات[4].

وقد ختم الله هذه الآية الكريمة ببعض أسمائه الحسنى ليرشد عباده إلى التخلق بها، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ كأنه يقول لهم: اعفوا أيها الناس، فإن الله عفو، فلله صفات يحب أن تكون في عباده، وصفات لا يحب أن تكون إلا له وحده سبحانه وتعالى، ومن الصفات التي يحب الله أن تكون في عباده أنه: كريم يحب الكرم، رحيم يحب من عباده الرحماء، عفو يحب من عباده العافين عن الناس، فصفة العفو يحبها سبحانه وتعالى في العباد، قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٨٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٧-٨.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٠٦.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٨٨.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٢/ ٢٣٦، رقم ٢٥٣٨٤، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٣٤، رقم ٣٥١٣.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٣٣٩١.

ثالثًا: أسلوب الترغيب:

فقد رغب الله تعالى في العفو في آيات عديدة، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

في هذه الآية الكريمة مدح الله سبحانه: من كظم غيظه وعفا عمن اجترم إليه، وكظم الغيظ والعفو مندوب إليهما، موعود بالثواب عليهما من الله تعالى[(١)].

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: «العفو عن الناس أجل ضروب فعل الخير، حيث يجوز للإنسان أن يعفو وحيث يتجه حقه»[(٢)].

وقال الشنقيطي: «وقد دلت هذه الآية على أن كظم الغيظ والعفو عن الناس من صفات أهل الجنة، وكفى بذلك حثا على ذلك، ودلت أيضًا على أن ذلك من الإحسان الذي يحب الله المتصفين به»[(٣)].

وقال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فإنه يعني: والصافحين عن الناس عقوبة ذنوبهم إليهم وهم على الانتقام منهم قادرون، فتاركوها لهم.

وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإنه يعني: فإن الله يحب من عمل بهذه الأمور التي وصف أنه أعد للعاملين بها الجنة التي عرضها السموات والأرض، والعاملون بها هم محسنون، وإحسانهم هو عملهم بها»[(٤)].

وقال أبو السعود: «وفي هذين الوصفين إشعار بكمال حسن موقع عفوه عليه الصلاة والسلام عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا مخالفة أمره عليه السلام، وندب له عليه السلام إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين بما فعلوا بحمزة رضي الله عنه، حيث قال حين رآه قد مثل به: (لأمثلن بسبعين مكانك)»[(٥)].

وجاء الترغيب في العفو في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية: «وفيه الترغيب في ذلك والإرشاد إليه»[(٦)] أي: الترغيب في العفو والصفح.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

ففي هذه الآية تكفل الله تبارك وتعالى بمكافأة المتصفين بالعفو، وكفى بذلك ترغيبا! قال ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية: «﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عمن أساء إليه إساءته إليه، فغفرها له ولم يعاقبه بها وهو على عقوبته عليها قادر ابتغاء وجه الله، فأجر عفوه ذلك

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٤٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٠٧.
وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥١٠.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٨٧.
(٤) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢١٥.
(٥) إرشاد العقل السليم ٢/ ٨٥.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٤٩.

على الله، والله مثيبه عليه ثوابه»[1].

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وهو وعد مبهم، لا يقاس أمره في التعظيم[2].

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: من عفا عمن ظلمه وأصلح بالعفو بينه وبين ظالمه، أي: أن الله سبحانه يأجره على ذلك، وأبهم الأجر تعظيما لشأنه وتنبيها على جلالته. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة[3].

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ففي هذه الآية أخبر الله تبارك وتعالى أن العفو سبب من أسباب حصول التقوى ودليل عليها، وكفى بذلك حثا عليه، قال الشنقيطي: «فانظر ما في هذه الآية من الحض على مكارم الأخلاق من الأمر بالعفو والنهي عن نسيان الفضل»[5].

فإن قال قائل: وما في الصفح عن ذلك من القرب من تقوى الله، فيقال للصافح العافي عما وجب له قبل صاحبه: فعلك ما فعلت أقرب لك إلى تقوى الله؟ قيل له: الذي في ذلك من قربة من تقوى الله مسارعته في عفوه ذلك إلى ما ندبه الله إليه ودعاه وحضه عليه، فكان فعله ذلك -إذا فعله ابتغاء مرضاة الله، وإيثار ما ندبه إليه على هوى نفسه- معلوما به؛ إذ كان مؤثرا فعل ما ندبه إليه مما لم يفرضه عليه على هوى نفسه، أنه لما فرضه عليه وأوجبه أشد إيثارا، ولما نهاه أشد تجنبا. وذلك هو قربه من التقوى[6].

وقال ابن سعدي عند تفسيره لهذه الآية: «رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحسانا موجبا لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة؛ لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب وإعطاء

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٤٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٠٧.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٢٠.
وانظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٣٧٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٦٢.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٥٠.
(٦) جامع البيان، الطبري ٥/ ١٦٤.

الواجب. وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصا لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢].

قال الراغب: «وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أي: يعفوا عن الدية، فجعل العفو عنها صدقة منهم؛ تنبيهًا على فضيلة العفو وحثا عليه، وأنه جار مجرى الصدقة في استحقاق الثواب الآجل به دون طلب العوض العاجل، وهذا حكم من قتل في دار الإسلام خطأ»[2].

وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أي: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت[3].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٠٦.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١٣٩٥.
وانظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٤/ ٢٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٩/ ٩٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٩٥.

أنواع العفو

من خلال جمعنا لآيات العفو في القرآن الكريم واستعراضنا لأقوال أئمة التفسير حول هذه الآيات يمكننا أن نقسم العفو إلى نوعين:

أولًا: عفو مطلق:

المقصود به عفو المجروح إن كان باقيًا، أو وارثه إن كان هالكًا عن عقوبة القصاص في القتل العمد، وما دونها من الأطراف والجروح، فيعفون عفوًا مطلقًا شاملًا، للقصاص والدية معًا، وهو ما يمكن أن نسميه العفو دون مقابل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢].

ففي هذه الآية أخبر جل ثناؤه عباده بحكم من قتل من المؤمنين خطأ، فقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ﴾ فعليه تحرير ﴿رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ في ماله ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ تؤديها عاقلته ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ إلا أن يصدق أهل القتيل خطأ على من لزمته دية قتيلهم، فيعفوا عنه ويتجاوزوا عن ذنبه، فيسقط عنه[4].

وقال تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣١.

﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[المائدة: ٤٥].

فقد ذكر المفسرون أن هذه الآية تحتمل ثلاثة معان:

أحدها: أن تكون ﴿فَمَن﴾ للجروح أو ولي القتيل، ويعود الضمير في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾ عليه أيضًا، ويكون المعنى أن من تصدق بجرحه أو دم وليه فعفا عن حقه في ذلك فإن ذلك العفو كفارة له عن ذنوبه، ويعظم الله أجره بذلك، ويكفر عنه.

والمعنى الثاني: أن تكون ﴿فَمَن﴾[1] للجروح أو ولي القتيل، والضمير في ﴿لَّهُۥ﴾ يعود على الجارح أو القاتل إذا تصدق المجروح أو على الجارح بجرحه وصفح عنه؛ فذلك العفو كفارة للجارح عن ذلك الذنب، فكما أن القصاص كفارة فكذلك العفو كفارة، وأما أجر العافي فعلى الله تعالى، وعاد الضمير على من لم يتقدم له ذكر؛ لأن المعنى يقتضيه.

والمعنى الثالث: أن تكون للجارح أو القاتل والضمير في له يعود عليه أيضًا، والمعنى: إذا جنى جان فجهل وخفي أمره، فتصدق هو بأن عرف بذلك ومكن الحق من نفسه؛ فذلك الفعل كفارة لذنبه[1].

قال ابن عباس: «﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ فمن عفا وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب. وقال أيضًا: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ فهو كفارة للجارح، وأجر المجروح على الله عز وجل»[2].

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: عفا عن القصاص ممن يستحقه سواء كان هو المجروح إن كان باقيًا، أو وارثه إن كان هالكًا ﴿فَهُوَ﴾ أي: التصدق بالقصاص ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي: ستارة لذنوب هذا العافي[3].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: بالقصاص المتعلق بالنفس، أو بالعين، أو بما بعدها ﴿فَهُوَ﴾ أي: فذلك التصدق، عاد الضمير على المصدر؛ لدلالة فعله عليه، وهو كقوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٨][4].

وكذلك عفو المجروح إن كان باقيًا، أو وارثه إن كان هالكًا عن عقوبة الدية، فيما إذا كان القتل لا يوجب غير ذلك، وذلك في قتل الخطأ؛ لقوله تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾[النساء: ٩٢].

قال أبو بكر بن العربي: «أوجب الله تعالى الدية في قتل الخطأ جبرا، كما أوجب القصاص في قتل العمد زجرا، وجعل الدية على العاقلة رفقا؛ وهذا يدل على أن قاتل الخطأ لم يكتسب إثمًا ولا محرمًا، والكفارة وجبت زجرًا عن التقصير والحذر في جميع

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٩٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٢.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ١٥٥.

(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٣٥٧.

الأمور»[1].

وقال أيضًا: «أوجب الله تعالى الدية لأولياء القتيل: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ بها على القاتل، والاستثناء إذا تعقب جملا عاد إلى جميعها إذا صلح ذلك فيها، وإلا عاد إلى ما يصلح له ذلك منها، والذي تقدم الكفارة والدية، والكفارة حق الله سبحانه، ولا تقبل الصدقة من الأولياء؛ لأن الصدقة من المتصدق عليه لا تنفذ إلا فيما يملكه»[2].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ معناه أن الدية تجب على قاتل الخطأ لأهل المقتول، إلا أن يعفوا عنها ويسقطوها باختيارهم فلا تجب حينئذ؛ لأنها إنما فرضت لهم؛ تطييبًا لقلوبهم، وتعويضًا عما فاتهم من المنفعة بقتل صاحبهم، وإرضاء لأنفسهم عن القاتل؛ حتى لا تقع العداوة والبغضاء بينهم، فإذا طابت نفوسهم بالعفو عنها حصل المقصود، وانتفى المحذور؛ لأنهم يرون أنفسهم بذلك أصحاب فضل، ويرى القاتل لهم ذلك، وهذا النوع من الفضل والمنة لا يثقل على النفس حمله كما يثقل عليها حمل منة الصدقة بالمال، وقد عبر عنه بالتصدق للترغيب فيه[3].

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦٠٠.
(٢) المصدر السابق ١/ ٦٠٢.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٢٧١-٢٧٢.

ثانيًا: عفو مقيد:

المقصود به عفو المجروح إن كان باقيًا، أو وارثه إن كان هالكًا عن عقوبة القصاص في القتل العمد، أو ما دون ذلك من الأطراف والجروح، فيعفون عفوًا مشروطًا مقيدًا بدفع الجاني أو عاقلته الدية للمجروح إن كان باقيًا أو إلى وارثه إن كان هالكًا مقابل عفوهم عن الجاني، وهو ما يمكن أن يطلق عليه العفو عن القصاص مقابل الدية؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

يعني الولي إذا أعطي شيئًا من المال فليقبله، وليتبعه بالمعروف، وليؤد القاتل إليه بإحسان.

فندبه الله تعالى إلى أخذ المال إذا سهل ذلك من جهة القاتل، وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة، كما قال عقيب ذكر القصاص من سورة المائدة: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[المائدة: ٤٥].

فندبه إلى العفو والصدقة، وكذلك ندبه بما ذكر في هذه الآية إلى قبول الدية إذا بذلها الجاني؛ لأنه بدأ بذكر عفو الجاني بإعطاء الدية ثم أمر الولي بالاتباع، وأمر الجاني بالأداء بالإحسان[4].

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٨٤

ومقصد الآية الترغيب في الرضا بأخذ العوض عن دم القتيل بدلًا من القصاص؛ لتغيير ما كان أهل الجاهلية يتعيرون به من أخذ الصلح في قتل العمد، ويعدونه بيعًا لدم مولاهم.

وهذا كله في العفو على قتل العمد، وأما قتل الخطأ فإن شأنه الدية عن عاقلة القاتل[1].

وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

أي: شيء من العفو؛ لأن عفا لازم. وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام في إسقاط القصاص.

وقيل: «عفا» بمعنى ترك، وشيء مفعول به، وهو ضعيف، إذ لم يثبت عفا الشيء بمعنى تركه، بل أعفاه. و«عفا» يعدى بـ«عن» إلى الجاني وإلى الذنب، قال الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[المائدة: ٩٥].

فإذا عدي به إلى الذنب عدي إلى الجاني باللام، وعليه ما في الآية، كأنه قيل: «فمن عفي له عن جنايته من جهة أخيه، يعني ولي الدم»[2].

والعفو عن القصاص مقابل الدية ليس على سبيل الوجوب والإلزام، بل على سبيل الجواز والتخيير؛ لما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: (فمن قتل فهو بخير النظرين: إما أن يعقل، وإما أن يقاد أهل القتيل)[3].

وهذا من فضل الله على هذه الأمة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾[البقرة: ١٧٨]؛ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قود ولا دية، فجعل الله تعالى ذلك تخفيفا لهذه الأمة، فمن شاء قتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا[4].

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥٤.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٤٢.
والمقصود بـ(عاقلة القاتل) عصبته من الرجال الذكور، ففي قتل الخطأ الدية تجب على العاقلة كل حسب قرابته وحاله، أما في قتل العمد فتكون واجبة على الجاني نفسه.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم ١١٢.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥٥.

أسباب العفو

تحدث القرآن الكريم عن أسباب العفو الدنيوية والأخروية حاثا للعباد على الأخذ بها؛ لنيل رضا الله تعالى، ومحبة الخلق، وسوف نبين هذه الأسباب فيما يأتي:

أسباب العفو كثيرة، منها:

١. كرم النفس.

فمن كانت نفسه كريمة فإنه سيعفو ويصفح كما عفا أنبياء الله ورسله عن أقوامهم، ومن ذلك عفو يوسف عليه السلام عنه إخوته وقوله لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وعفو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن أعدائه، فضلا عن أتباعه وأصحابه.

وأيضًا من علم أن الجاني أهلا للعفو؛ فإنه سيعفو ويصفح.

٢. استشعار الأجر.

فقد جاءت آيات كثيرة تبين أن للعفو أجورا عظيمة، كقوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥].

فبين القرآن أن العفو عن القصاص صدقة، وأن من عفا كفر الله من ذنبه بقدر ما عفا.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

فبينت الآية أن من عفا وصفح فقد نال مغفرة الله، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

فقد بينت هذه الآية أن العفو والصفح سبب لنيل مغفرة الله؛ ولذلك لما استشعر أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا الأجر العظيم عفا عن مسطح.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

فقد بينت الآية أن الله تبارك وتعالى هو من يتولى مكافأة من عفا وأصلح.

فإذا استشعر العبد هذه الفضائل وجعلها نصب عينيه كانت مدعاة له للتحلي بالعفو والصفح والإحسان.

٣. امتثال أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

لما سبق في الآيات السابقة أن الصحابة رضوان الله عليهم لما امتثلوا أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم عفا الله عنهم، وأنزل في ذلك آيات تتلى إلى يوم القيامة.

٤. التوبة.

فهي أعظم سبب من أسباب عفو الله على العبد؛ فهو سبحانه عفو يحب العافين

عن الناس، تواب يحب التوابين؛ ولذلك لما تاب بنو إسرائيل تاب عليهم وعفا عنهم، كما في قوله تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

وفي هذه الآية الكريمة لم يبين سبحانه وتعالى سبب عفوه عنهم ذنب اتخاذ العجل إلها، ولكنه بينه في سورة البقرة بقوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤][(١)].

وقد ذكر المفسرون أن في قوله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ استدعاء إلى التوبة، والمعنى: أن أولئك الذين أجرموا لما تابوا عفونا عنهم؛ فتوبوا أنتم نعف عنكم[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فمن تاب في الدنيا توبة صادقة تاب الله عليه وعفا عنه في الآخرة.

٥. الدعاء.

فهو من أهم أسباب عفو الله على العبد؛ كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

«فقد طلبوا من ربهم أن يعفو لهم عن تقصير إن كان منهم في بعض ما أمرهم به من فرائضه، فيصفح لهم عنه ولا يعاقبهم عليه»[(٣)].

فيستفاد من هذه الآية الكريمة: «أنه ينبغي للإنسان سؤال الله العفو؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقصير في المأمورات؛ فيسأل الله العفو عن تقصيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾، وسؤال الله المغفرة من ذنوبه التي فعلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ لأن الإنسان إن لم يغفر له تراكمت عليه الذنوب ورانت على قلبه، وربما توبقه وتهلكه»[(٤)].

قال الألوسي عند تفسيره لهذه الآية: «فهو تعليم منه تعالى لعباده كيفية الدعاء والطلب منه، وهذا من غاية الكرم ونهاية الإحسان، يعلمهم الطلب؛ ليعطيهم، ويرشدهم للسؤال؛ ليثيبهم»[(٥)].

وقد استجاب الله لهم، كما جاء ذلك مفسرا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٢١.
(٢) لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٤٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٤٠.
(٤) تفسير القرآن الكريم، سورتي الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين ٣/ ٤٦٠.
(٥) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٦٧.

﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾) قال: نعم. (﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾) قال: نعم. (﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾) قال: نعم. (﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾)قال: نعم)[1].

الشاهد قوله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ قال: (قد فعلت).

فبينا أن الله قد استجاب للصحابة دعوتهم، ولبى طلبهم، وعفا عنهم، وتجاوز عنهم.

بل إن العبد الصادق في إيمانه المخلص في دعائه إذا دعا الله أن يعفو أولياء المجني عليه على الجاني استجاب الله له، كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه: (أن الربيع وهي ابنة النضر كسرت ثنية[2] جاريةٍ[3] فطلبوا الأرش[4]، وطلبوا العفو، فأبوا، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله؟! لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال: (يا أنس، كتاب الله القصاص)[5]، فرضي القوم وعفوا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من عباد الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه و تعالى لم يكلف إلا ما يطاق، رقم ١٢٥.
(٢) مفرد ثنايا، وهي مقدم الأسنان.
(٣) الجارية: هي المرأة الشابة هنا، لا الأمة.
(٤) الأرش: دية الجراحة أو الأطراف.
(٥) أي حكم كتاب الله تعالى القصاص، وهو أن تكسر السن مقابل السن.

من لو أقسم على الله لأبره[1])[2].

٧. كرم الله على عباده وتفضله عليهم.

فقد بين القرآن أن الله سبحانه ذو فضل عظيم يتفضل على عباده بالعفو، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ففي هذه الآية أخبر الله تبارك وتعالى بتفضله سبحانه وتعالى بالعفو عن الذين خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتاركين طاعته فيما تقدم به إليكم من لزوم الموضع الذي أمركم بلزومه عنكم، فصفح لكم من عقوبة ذنبكم الذي أتيتموه عما هو أعظم مما عاقبكم به من هزيمة أعدائكم إياكم، وصرف وجوهكم عنهم، إذ لم يستأصل جمعكم[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ حيث ندمتم على ما فرط منكم من عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو عنهم وقبول توبتهم، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال، سواء أديل لهم أو أديل عليهم؛ لأن الابتلاء رحمة كما أن النصرة رحمة[4].

٨. السيرة الحسنة وعدم تعمد الوقوع في الخطأ.

كما في عفو الله سبحانه عن الرماة الذي خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بملازمة الجبل وعدم النزول منه مهما كانت الظروف، إلا أنهم لما رأوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه قد انتصروا وأن كفار قريش قد انهزموا نزلوا من الجبل، فحصل ما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن معه من الصحابة، فانقلب النصر إلى هزيمة بسبب ذلك، إلا أن الله تبارك وتعالى عفا عن ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ ذلك أن هذا الخطأ كان عن اجتهاد ولم يكن عن تعمد.

٩. من كان له عذر «ذوو الأعذار».

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩].

قال الحسن: ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، وقيل: إنها بمنزلة الوعد؛ لأنه لا يخبر بذلك عن شك. وقيل: إنما هذا على شك العباد، أي: كونوا أنتم على الرجاء والطمع[5].

١٠. الموعظة.

وعظ المجني عليه وحثه على العفو:

(١) لصدقه وإخلاصه، ولذلك فقد حقق الله رغبته.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، رقم ٢٧٠٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٩٨.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٠١.
(٥) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٣١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٤.

فقد كان من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم الحث على العفو والأمر به، كما في حديث أنس رضي الله عنه: (ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو)[1].

وكل آيات القرآن الكريم الواردة في خلق العفو تشير إلى أنه ينبغي وعظ المجني عليه بالعفو عن الجاني؛ إذ كان أهلا لذلك، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

نزلت في وعظ أولياء الأمور على العفو عمن تحت أيديهم من زوجات وأولاد وخدم، وما أشبه ذلك.

ولما نزل قول الله تعالى في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومسطح: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

كانت موعظة بليغة له؛ فما كان منه رضي الله عنه إلا أن عفا عن مسطح.

ولما أخطأ أعرابي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهم به، فوعظه أحد الحاضرين بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فعفا عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع هذه الآية.

ولما وعظ أحد الخلفاء بقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] من قبل أحد جواريه عفا عنها.

١١. العفو عن الغير.

والعفو اسم من أسماء الله تبارك وتعالى الحسنى، وصفة فعلية من صفاته العلى، فهو سبحانه عفوٌ يحب العفو، بل العفو أحب إليه من العقوبة، وبما أنه تبارك وتعالى عفو يحب العفو فإنه يعفو عمن يعفو عن الناس.

قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فمن عفا عن أخيه في الدنيا عفا الله عنه في الآخرة؛ لأن: «الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك، وكما تصفح يصفح عنك»[2].

وإذا عفا أولياء المجني عليه «المقتول» عن الجاني «القاتل» عن عقوبة القصاص، وكذلك الجاني كانت جنايته دون القتل فعفا عن المجني؛ كفر الله عنه من ذنوبه بقدر ما عفا، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥].

فقد سئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن هذه الآية، فقال: «يهدم عنه من ذنوبه

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٤٣٧، رقم ١٣٢٢٠، وأبو داود في سننه، كتاب الديات، باب الإمام يأمر بالعفو في الدم، رقم ٤٤٩٧، والنسائي في سننه، كتاب القسامة، باب الأمر بالعفو في القصاص، رقم ٤٧٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩.

بقدر ما تصدق به»[1].

ويؤيد ذلك ما جاء في حديث المحرر بن أبي هريرة، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أصيب بشيء في جسده فتركه لله كان كفارة له)[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٦٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٩٨٣.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم٢٤٦١.

مراتب العفو

للعفو ثلاث مراتب، وهي:

أولًا: ترك المعاقبة:

مرتبة ترك المعاقبة هي المعنى الأوَّلي المتبادر إلى الذهن، كما يدل على ذلك المعنى الاصطلاحي للعفو فهو باختصار: «ترك المؤاخذة بالذنب»[3].

والمؤاخذة: المعاقبة كما في دعاء الصالحين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ أي: لا تعاقبنا[4] ﴿إِن نَّسِينَآ﴾ أمرك ونهيك ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: ففعلنا خلاف الصواب، تفريطًا ونحوه[5].

والمعنى: «اعف عن إثم ما يقع منا على هذين الوجهين، أو أحدهما»[6] وترك المعاقبة يكون بالفعل والقول، أو هما معا.

وكما يدل على ذلك سياق الآيات الواردة في الحث على العفو، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾[المائدة: ١٣].

ففي هذه الآية حث الله نبيه صلى الله عليه وسلم على العفو، وترك معاقبة من أرادوا به وبأصحابه سوءًا من اليهود، قال

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٧١.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١١٩.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٢٤٤.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٣١.
والمقصود بالوجهين: الخطأ والنسيان، أو أحدهما.

ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية: «يقول الله جل وعز له: اعف يا محمد عن هؤلاء اليهود الذين هموا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرمهم بترك التعرض لمكروههم، فإني أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه»[1].

والحث على العفو عنهم في هذه الآية إنما هو في الدنيا، وأما في الآخرة فإن الله سيتولى حسابهم، كما قال ابن جرير: «اعف عن هؤلاء الذين هموا ببسط أيديهم إليك وإلى أصحابك واصفح، فإن الله عز وجل من وراء الانتقام منهم، وسينبئهم الله عند ورودهم عليه في معادهم بما كانوا في الدنيا يصنعون من نقضهم ميثاقه، ونكثهم عهده، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم أمره ونهيه، فيعاقبهم على ذلك حسب استحقاقهم»[2].

وفي قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ فقد عفا صلى الله عليه وسلم عن الرماة الذين خالفوا أمره، وارتكبوا نهيه، وتجاوز عنهم، وترك معاقبتهم.

وفي قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فقد فهم منها الصحابة رضوان الله عليهم أنها تحث على العفو عن الجاهلين والتجاوز عنهم، وترك معاقبتهم كما يدل على ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيسٍ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي هل لك وجهٌ عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباسٍ: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه، قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله[3].

قال ابن الجوزي: المعنى: «أنه وقف عند سماعها عن إمضاء ما هم به من العقوبة»[4].

بل عملوا بما دلت عليها، وطبقوها في حياتهم العملية، قال ابن حجر: ومعنى «ما

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٤.
(٢) المصدر السابق ١٠/ ١٤٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن: سورة الأعراف باب (خذ العفو وأمر بالعرف)، رقم ٤٦٤٢.
(٤) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ١/ ١١١.

جاوزها» ما عمل بغير ما دلت عليه، بل عمل بمقتضاها؛ ولذلك قال: «وكان وقافا عند كتاب الله» أي: يعمل بما فيه ولا يتجاوزه، وفي هذا تقوية لما ذهب إليه الأكثر أن هذه الآية محكمة.

«قال الطبري بعد أن أورد أقوال السلف في ذلك: وإن منهم من ذهب إلى أنها منسوخة بآية القتال والأولى بالصواب أنها غير منسوخة؛ لأن الله أتبع ذلك تعليمه نبيه محاجة المشركين، ولا دلالة على النسخ، فكأنها نزلت لتعريف النبي صلى الله عليه وسلم عِشْرَةَ من لم يؤمر بقتاله من المشركين، أو أريد به تعليم المسلمين وأمرهم بأخذ العفو من أخلاقهم فيكون تعليما من الله لخلقه صفة عِشْرَةَ بعضهم بعضًا فيما ليس بواجب، فأما الواجب فلا بد من عمله فعلًا أو تركًا»[1].

وجاء ذكرها كذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

كما يدل على ذلك سبب نزول هذه الآية فقد نزلت في قوم من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فأتوا المدينة، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوهم قد فقهوا فهموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا﴾[2] الآية.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في شأن قوم مخصوصين إلا أن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» وبالتالي فهي عامة كما يقول القرطبي: «وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم»[3].

ففي هذه الآية حث الله تبارك وتعالى أولياء الأمور من الآباء والأزواج على العفو عن الضعفاء من زوجات وأولاد وخدم، وترك معاقبتهم، قال النسفي: «﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عنهما أي: الزوجات والأولاد إذا اطلعتم منهم على عداوة، ولم تقابلوهم بمثلها»[4].

وقيد ذلك الألوسي بالذنوب القابلة للعفو، فقال عند تفسيره لهذه الآية: «﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا، أو بأمور الدين لكن مُقارِنة للتوبة بأن لم تعاقبوهم عليها» إلى أن قال: «ولما كان التكليف هاهنا شاقًا؛ لأن الأذى الصادر ممن أحسنت إليه أشد نكاية وأبعث على الانتقام ناسب التأكيد في قوله

(١) انظر فتح الباري ١٣/ ٢٥٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التغابن، رقم ٣٣١٧. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٤٢.

(٤) مدارك التنزيل ٣/ ٤٩٣.

سبحانه: ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ إلخ»[1].

وجاء ذكرها أيضًا في قول يوسف لإخوته كما حكى الله عنه أنه قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

كما يدل على ذلك سياق قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وقد فهم منها ذلك أحد الأمراء وعمل بمقتضاها، كما روي في الأثر عن مالك بن دينار قال: «أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير، وجاء الحسن -وهو خائف- فدخلنا معه عليه، فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته، فقال: باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم، وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس، ثم قال: أيها الأمير، ماذا صنع الله به؟ أداله منهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته، وجعله على خزائن الأرض، فماذا صنع يوسف حين أكمل الله له أمره وجمع له أهله؟ قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه، قال الحكم: فأنا أقول: لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا ثوبي هذا لواريتكم تحته»[2].

وأيضًا يدل على ذلك قصة يعقوب عليه السلام مع أبنائه، فإنهم لما ظهرت حقيقة فعلهم، طلبوا من أبيهم العفو والمغفرة، فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

فلبى طلبهم، وقال: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

وجاء ذكرها كذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ و«أصل الكظم: شد رأس القربة عند امتلائها، ويقال: فلان كظيم أي: ممتلئ حزنا، والغيظ هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر، والمراد: والمتجرعين للغيظ الممسكين عليه عند امتلاء نفوسهم منه، فلا ينقمون ممن يدخل الضرر عليهم ولا يبدون له ما يكره، بل يصبرون على ذلك مع قدرتهم على الإنقاذ والانتقام، وهذا هو الممدوح»[3].

ومعنى هذه الآية كما يقول الرازي: «الذين يكفون غيظهم عن الإمضاء، ويردون غيظهم في أجوافهم، وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم، وهو كقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]»[4].

والمقصود أنهم: «لا يعملون غضبهم في الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون

(١) روح المعاني، ١٤/ ٣٢١.
(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١٨٤.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٢٧٢- ٢٧٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٦٧.

ذلك عند الله عز وجل»[1]. «وكل من استحق عقوبة فتركت له فقد عفي عنه»[2].

وجاء ذكرها أيضًا في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

قال القرطبي: «فأمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم، والصفح عن زللهم»[3].

ثانيًا: الصفح:

الصفح هو: «إزالة أثر الذنب من النفس، يقال: صفحت عن فلان، إذا أعرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحا، إذا أعرضت عنه وتركته»[4].

والصفح أبلغ من العفو وأعلى درجة منه، كما يدل على ذلك سياق الآيات القرآنية الواردة في ذلك، فقد جاءت بالحث على العفو أولًا، ثم أعقبت ذلك بالصفح مما يدل على أن الصفح أبلغ من العفو وأعلى درجة منه.

وهذا ما ذهب إليه الألوسي، فقال: «العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك التثريب والتأنيب، وهو أبلغ من العفو إذ قد يعفو الإنسان ولا يصفح»[5].

وقال الراغب: «والصفح: ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو وقد يعفو الإنسان ولا يصفح»[6].

وذكر الماوردي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا﴾ وجهين:

أحدهما: أن العفو عن الأفعال والصفح عن الأقوال.

الثاني: أن العفو ستر الذنب من غير مؤاخذة، والصفح الإغضاء عن المكروه[7].

وقال بعضهم: «والصفح ترك التقريع باللسان، والاستقصاء في اللوم»[8].

وقد جاء ذكر هذه المرتبة -كما هو الحال في بقية المراتب- في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا﴾ قال ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية: «وتصفحوا لهم عن عقوبتكم إياهم على ذلك، وتغفروا لهم غير ذلك من الذنوب»[9].

وقال البيضاوي: «﴿وَتَصْفَحُوا﴾ بالإعراض، وترك التثريب عليها

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٠٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٠٧.
(٣) المصدر السابق ١٤/ ٢٠٢.
(٤) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١/ ٢٦٩.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٧١.

(٥) روح المعاني، الألوسي ١/ ٣٥٦.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٨٦.
(٧) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٨٤.
(٨) روح البيان، إسماعيل حقي ١/ ٢٠٤.
(٩) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٢٥.

﴿وَتَغْفِرُوا﴾ بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها»[1].

وجاء ذكرها صراحة في آيات أخرى مستقلة، كقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

ففي هذه الآية أمر الله جل وعلا نبيه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة أن يصفح عمن أساء الصفح الجميل، أي: بالحلم والإغضاء.

وقال علي وابن عباس: الصفح الجميل: الرضا بغير عتاب. وأمره صلى الله عليه وسلم يشمل حكمة الأمة؛ لأنه قدوتهم، والمشرع لهم[2].

وفي أمره صلى الله عليه وسلم -بالصفح عنهم- بذلك إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام قادر على الانتقام منهم، فكأنه قيل: أعرض عنهم، وتحمل أذيتهم، ولا تعجل بالانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم[3].

وجاء ذكرها أيضًا في قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩].

أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

أي: خطابا بمقتضى جهلهم: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ فامتثل صلى الله عليه وسلم لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل[4].

وكثير من أهل العلم يقول: إن قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]، وما في معناه منسوخ بآيات السيف، وجماعات من المحققين يقولون: هو ليس بمنسوخ.

والقتال في المحل الذي يجب فيه القتال والصفح عن الجهلة والإعراض عنهم وصف كريم، وأدب سماوي، لا يتعارض مع ذلك، والعلم عند الله تعالى[5].

وقد أشار ابن سعدي إلى قيد مهم عند تفسيره لقوله: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ فقال: «أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل وهو الصفح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة»[6].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢١٩.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣١٣.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٧/ ٣٢٠.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٧١.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٧١.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٣٥.

ثالثًا: الإحسان:

جاء ذكر هذه المرتبة في آيات عدة، منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

تتضمن هذه الآية الإحسان إلى المسيء بالعفو عنه، وهذه المرتبة أعلى مراتب العفو.

والإحسان له معان عديدة ليس المقام مقام ذكرها، ولكن نذكر ما يهمنا.

قال الرازي: «واعلم أن الإحسان إلى الغير: إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضرر عنه.

أما إيصال النفع إليه، فهو المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾

وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة أخرى، وهو المراد بكظم الغيظ، وإما في الآخرة وهو أن يبرئ ذمته عن التبعات والمطالبات في الآخرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾»[(١)].

ومن معاني الإحسان: مقابلة الإساءة بالإحسان، قال الثوري: «الإحسان أن تحسن إلى المسيء، فإن الإحسان إلى المحسن تجارة»[(٢)].

ومن معانيه: الإنعام على الغير، كما في قول الشاعر[(٣)]:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسان

وهذا المعنى أشار إليه الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ «ويمكن أن يقال: الإحسان هنا بمعنى الإنعام على الغير على وجه عار عن وجوه القبح، وعبر عنهم بذلك؛ للإشارة إلى أنهم في جميع تلك النعوت محسنون إلى الغير لا في الإنفاق فقط»[(٤)].

وأشار إليه الفيروز آبادي بقوله: «والإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير، أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله وذلك إذا علم علمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا والإحسان أعم من الإنعام»[(٥)].

وهذه المراتب الثلاث قد دل عليها سياق الآيات الكريمة الواردة في العفو -كما سبق أن أوردنا ذلك- ودل عليها أيضًا ما جاء في الواقعة التي حصلت لجارية مع سيدها.

فقد روي في الأثر عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٦٧.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٠٨.
(٣) قصيدة عنوان الحكم، أبو الفتح البستي، ص ٣٦.
(٤) انظر: روح المعاني ٢/ ٢٧٣- ٢٧٤.
(٥) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤٦٥.

مرقة حارة، وعنده أضياف، فعثرت فصبت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يا مولاي، استعمل قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ قال لها: «قد فعلت» فقالت: اعمل بما بعده: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فقال: «قد عفوت عنك» فقالت الجارية: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال ميمون: «قد أحسنت إليك، فأنت حرة لوجه الله تعالى»[1].

فهذه الواقعة تبين مراتب العفو الثلاث ابتداءً بأدناها وانتهاءً بأعلاها، فأدناها: ترك المعاقبة، وهي المرتبة الأولى فإن سيد هذه الجارية لما عثرت وصب المرق عليه؛ هم بضربها؛ فطلبت منه أن يمتثل قول الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فامتثل ذلك، وترك ضربها، فلما فعل ذلك؛ طلبت منه المرتبة الوسطى، وهي مرتبة: الصفح عنها، فقالت له: اعمل بما بعدها: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فامتثل ذلك، فصفح عنها، ثم طلبت منه المرتبة العليا، فقالت له: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فامتثل ذلك فأعتقها، وجعلها حرة لوجه الله تعالى.

وقد أشار إلى هذا المعنى مجموعة من علماء التفسير، منهم محمد رشيد رضا حيث يقول: «فالعفو مرتبة فوق مرتبة كظم الغيظ، إذ ربما يكظم المرء غيظه على حقد وضغينة.

وهناك مرتبة أعلى منهما، وهي ما أفاده قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فالإحسان وصف من أوصاف المتقين، ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات، بل صاغه بهذه الصيغة تمييزًا له بكونه محبوبًا عند الله تعالى لا لمزيد مدح من ذكر من المتقين المتصفين بالصفات السابقة، ولا مجرد مدح المحسنين الذي يدخل في عمومه أولئك المتقون -كما قيل- فالذي يظهر لي هو ما أشرت إليه من أنه وصف رابع للمتقين[2].

وأكد على ذلك ابن سعدي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فقال: «أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول والفعل، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم؛ لأن العفو ترك المؤاخذة مع المسامحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٠٧.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١١١.

الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحسانا إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل وهي الإحسان، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة الخالق فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[(١)].

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو «إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم»[(٢)].

وأشار أيضًا إلى ذلك صاحب الظلال: «وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى، وهي وحدها لا تكفي، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن، فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة، ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين، وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن؛ لذلك يستمر النص؛ ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين إنها العفو والسماحة والانطلاق.

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه، وشواظ يلفح القلب، ودخان يغشى الضمير، فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب، فهو الانطلاق من ذلك الوقر، والرفرفة في آفاق النور، والبرد في القلب، والسلام في الضمير.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والذين يجودون بالمال في السراء والضراء محسنون، والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والحب هنا هو التعبير الودود الحاني المشرق المنير، الذي يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضيء الكريم»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم ٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٤٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٧٥.

مجالات العفو

بين القرآن الكريم مجالات العفو، وسوف نتناولها بالتوضيح في الآتي:

أولًا: العفو في المجالات الاجتماعية:

حث القرآن الكريم العباد على العفو والصفح عما يحصل بينهم ومن ذلك:

- عفو الزوج عما له من حقوق لدى زوجته، وعفو الزوجة عما لها من حقوق لدى زوجها.
- عفوها عن الصداق: المهر.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

فالصداق حق خاص من حقوق الزوجة على زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[النساء: ٤].

ففي هذه الآية الكريمة أمر الله الأزواج بإيتاء الزوجات صداقهن، وجعل ذلك حقا من حقوقهن الخاصة، فللزوجة أن تتصرف فيه كيفما شاءت وفق الضوابط الشرعية، ومن ذلك تهبه لزوجها كله أو بعضه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أمرهم بإيتائهن صدقاتهن عقبه بذكر جواز قبول إبرائها وهبتها له؛ لئلا يظن أن عليه إيتاءها مهرها وإن طابت نفسها بتركه»[(١)].

وقال ابن سعدي: «﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ﴾ أي: من الصداق ﴿نَفْسًا﴾ بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيره أو المعاوضة عنه ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي: لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة»[(٢)].

فإذا عفت الزوجة عن صداقها -كله أو بعضه- لزوجها فله أخذ ذلك، والمهر لا يجب لها كاملًا إلا إذا دخل بها، وأما إذا عقد عليها، ثم طلقها قبل أن يدخل بها وجب لها نصف الصداق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمى لها صداقا ثم فارقها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق[(٣)].

وبما أن ذلك حقًا لها فلها أن تتصرف فيها كيفما شاءت، ومن ذلك أن تعفو عنه لزوجها، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: اللواتي وجب لهن عليكم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٩٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٦٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٦.

نصف تلك الفريضة، فيتركنه لكم، ويصفحن لكم عنه تفضلا منهن بذلك عليكم، إن كن ممن يجوز حكمه في ماله وهن بالغات رشيدات، فيجوز عفوهن حينئذ ما عفون عنكم من ذلك، فيسقط عنكم ما كن عفون لكم عنه منه. وذلك النصف الذي كان وجب لهن من الفريضة بعد الطلاق[1].

وقال ابن العربي: «أذن الله تعالى لهن في إسقاطه بعد وجوبه؛ إذ جعله خالص حقهن يتصرفن بالإمضاء والإسقاط كيف شئن إذا ملكن أمر أنفسهن في الأموال ورشدن»[2].

وقال الرازي: «المعنى: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رآني ولا خدمته، ولا استمتع بي فكيف آخذ منه شيئا؟!»[3].

وقال ابن سعدي: «أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر، فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه. هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة، بأن تعفو عن نصفها لزوجها، إذا كان يصح عفوها»[4].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ يدل على بطلان قول من يقول: «إن البكر إذا عفت عن نصف الصداق بعد الطلاق أنه لا يجوز»؛ لأن الله تعالى لم يفرق بين البكر والثيب في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ ولما كان قوله وابتداء خطابه حين قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ عامًا في الأبكار والثيب وجب أن يكون ما عطف عليه من قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ عامًا في الفريقين منهما، وتخصيص الثيب بجواز العفو دون البكر لا دلالة عليه[5].

وأما ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن المقصود بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ يعني: الرجال، فهو قول شاذ لم يتابع عليه[6].

والعفو في هذه الآية بمعنى: الترك والصفح، والاستثناء منقطع؛ لأن عفو المرأة عن النصف الذي وجب لها عليه ليس من جنس الأخذ، والمعنى إلا أن يتركن النصف الذي وجب لهن عند الزوج، ولم تسقط النون مع «أن»؛ لأن جمع المؤنث في المضارع على حالة واحدة في الرفع والنصب والجزم، فهي ضمير وليست بعلامة إعراب فلذلك لم تسقط؛ ولأنه لو سقطت النون لاشتبه بالمذكر[7].

❁ عفو الزوج عن ذلك النصف الذي

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ١٤١.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٩٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٧٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٠٦.
(٥) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٥٣٦.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٧.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٠٥ - ٢٠٦.

أعطاه لزوجته.

قال تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، كما مال إلى ذلك جملة من أئمة التفسير، كابن جرير الطبري، والراغب، وابن أبي السعود، وابن الجوزي، وابن كثير، والجصاص، والألوسي، والنسفي، والشوكاني، وابن سعدي، وابن عثيمين[(١)].

وقد استدلوا على ذلك بشواهد عدة منها:

١. ما روى في الأثر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولي عقدة النكاح الزوج)[(٢)]. فالحديث نص في أن عقدة النكاح بيد الزوج.

٢. أن ذلك ما فهمه السلف من هذه الآية وعملوا بمقتضاه؛ فقد روي أن جبير ابن مطعم رضي الله عنه تزوج امرأة من بني نصر فطلقها قبل أن يدخل بها فأرسل إليها بالصداق كاملًا، وقال: أنا أحق بالعفو منها، قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وأنا أحق بالعفو منها[(٣)].

٣. أن الذي بيد الولي هو عقد النكاح، فإذا عقد حصلت العقدة؛ لأن بناء الفعلة يدل على المفعول، كالأكلة واللقمة، وأما المصدر فالعقد كالأكل واللقم، ثم من المعلوم أن العقدة الحاصلة بعد العقد في يد الزوج لا في يد الولي.

٤. أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ معناه: الذي بيده عقدة نكاح ثابت له لا لغيره؛ كما أن قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، أي: نهى النفس عن الهوى الثابت له لا لغيره، كانت الجنة ثابتة له، فتكون مأواه.

٥. أن الله تعالى ذكر الصداق في هذه الآية ذكرًا مجملًا من الزوجين، فحمل على المفسر في غيرها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤] فأذن الله تعالى للزوج في قبول الصداق إذا طابت نفس المرأة

(١) انظر: جامع البيان ٥/ ١٥٨، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٩١، زاد المسير ١/ ٢١٤، تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٨٧، أحكام القرآن ١/ ٥٣٤، إرشاد العقل السليم ١/ ٢٣٥، روح المعاني ١/ ٥٤٧، مدارك التنزيل ١/ ١٩٩، فتح القدير ١/ ٢٩٢، تيسير الكريم الرحمن، ص ١٠٦، تفسير القرآن الكريم، سورتي: الفاتحة والبقرة ٣/ ١٧٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٢/ ٢٦٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٤١٠.
وصحح الألباني وقفه على علي رضي الله عنه، في إرواء الغليل، رقم ١٩٣٥.

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه ٤/ ٤٢١.

بتركه. وقال أيضًا: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠]، فنهى الله تعالى الزوج أن يأخذ مما أتى المرأة إن أراد طلاقها.

٦. قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. يعني النساء: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ يعني: الزوج، معناه يبذل جميع الصداق، يقال: عفا بمعنى بذل، كما يقال: عفا بمعنى أسقط. ومعنى ذلك وحكمته: أن المرأة إذا أسقطت ما وجب لها من نصف الصداق تقول هي: لم ينل مني شيئًا ولا أدرك ما بذل فيه هذا المال بإسقاطه، وقد وجب إبقاء للمروءة واتقاء في الديانة. ويقول الزوج: أنا أترك المال لها؛ لأني قد نلت الحل وابتذلتها بالطلاق فتركه أقرب للتقوى، وأخلص من اللائمة.

٧. أنه تعالى قال: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ وليس لأحد في هبة مال لآخر فضل، وإنما ذلك فيما يهبه المفضل من مال نفسه، وليس للولي حق في الصداق[1]. فإن قيل: إن العفو في الترك لا في الإعطاء، والزوج هو المعطي، فكيف يصح منه العفو؟! قيل: إن ذلك في العفو عن الشيء لا في العقوبة، وقد يقال: عفا فلان بكذا إذا بذل، والصداق المفروض تستحق المرأة أخذه بالعقد، فإن أخذته وإلا ففي حكم المأخوذ، فإذا عفا به كملا، فكأنه قد عفي عنه[2].

ولم يقتصر القرآن الكريم على إباحة عفو كلٍّ من الزوجين عما له، أو عليه للآخر، بل ذهب إلى حثهما على ما هو أكمل، فرغبهما جميعًا في العفو فقال: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

خطاب للرجال والنساء جميعًا إلا أن الغلبة للذكور إذا اجتمعوا مع الإناث، وسبب التغليب أن الذكورة أصل والتأنيث فرع في اللفظ وفي المعنى، أما في اللفظ فلأنك تقول: قائم، ثم تريد التأنيث، فتقول: قائمة. فاللفظ الدال على المذكر هو الأصل، والدال على المؤنث فرع عليه، وأما في المعنى فلأن الكمال للذكور والنقصان للإناث؛ فلهذا السبب متى اجتمع التذكير والتأنيث كان جانب التذكير مغلبًا.

ومعنى الآية: عفو بعضكم عن بعض أقرب إلى حصول معنى التقوى، وإنما كان الأمر كذلك لوجهين:

الأول: أن من سمح بترك حقه فهو

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٩٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٧٩، أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٥٣٠-٥٣٥.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٩١.

محسن، ومن كان محسنا فقد استحق الثواب، ومن استحق الثواب نفى بذلك الثواب ما هو دونه من العقاب وأزاله.

والثاني: أن هذه الصنع يدعوه إلى ترك الظلم الذي هو التقوى في الحقيقة؛ لأن من سمح بحقه -وهو له معرض- تقربا إلى ربه كان أبعد من أن يظلم غيره يأخذ ما ليس له بحق.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ وليس المراد منه النهي عن النسيان؛ لأن ذلك ليس في الوسع، بل المراد منه الترك، فقال تعالى: ولا تتركوا الفضل والإفضال فيما بينكم، وذلك لأن الرجل إذا تزوج بالمرأة فقد تعلق قلبها به، فإذا طلقها قبل المسيس صار ذلك سببا لتأذيها منه، وأيضًا إذا كلف الرجل أن يبذل لها مهرًا من غير أن ينتفع بها البتة صار ذلك سببا لتأذيه منها.

فندب تعالى كل واحد منهما إلى فعل يزيل ذلك التأذي عن قلب الآخر، فندب الزوج إلى أن يطيب قلبها بأن يسلم المهر إليها بالكلية، وندب المرأة إلى ترك المهر بالكلية، ثم إنه تعالى ختم الآية بما يجري مجرى التهديد على العادة المعلومة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١).

فمن عفا كان أقرب لتقواه؛ لكونه إحسانًا موجبًا لشرح الصدر؛ ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة؛ لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب، وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجبٍ والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصًا لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢).

ومن مجالات العفو الاجتماعية التي ينبغي أن تسود بين الرجل وزوجته في حال ارتباطهما: العفو في النفقة وهو ما يمكن أن نطلق عليه «إنفاق العفو»؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

فيجب على الزوج أن ينفق على زوجته حسب قدرته، وعليها أن ترضى بذلك، وإن قصر في ذلك فينبغي لها أن تعفو عنه، وكذلك ينبغي للرجل أن ينفق على أقربائه الفقراء بحسب قدرته، وليس هذا فحسب، بل ينبغي له أن ينفق في وجوه الخير، سواء

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٨١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٦.

كان ذلك واجب عليه أم مندوب إليه.

وهذا هو التكافل الاجتماعي الذي حث القرآن عليه، ورغب فيه، كما دلت على ذلك نصوص كثيرة جدًا.

❁ عفو الرجل عن أولاده وزوجته أو زوجاته إذا أخطؤوا في حقه.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

فقد استدل بها على أنه لا ينبغي للرجل أن يحقد على زوجه وولده إذا جنوا معه جناية، وأن لا يدعو عليهم[(١)].

ومن مجالات العفو الاجتماعية: عفو الغني عن الفقير، والقريب عن قريبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: ٢٢].

فقد نزلت في حث أبي بكر الصديق رضي الله عنه في مواصلة نفقته على مسطح بعد أن منعها عنه؛ بسبب ولوغه في عرض ابنته الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها، كما سبق أن ذكرنا ذلك.

قال ابن سعدي عند تفسيره لهذه الآية: «وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم»[(٢)].

❁ عفو السيد عن عماله وخدمه، ومنهم تحت يده.

فقد جاء عن بعض السلف: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال أبو العالية: يريد المماليك.

قال القاضي أبو محمد: وهذا حسن على جهة المثال، إذ هُم الخَدَمة، فهم مذنبون كثيرًا، والقدرة عليهم متيسرة، وإنفاذ العقوبة سهل؛ فلذلك مثل هذا المفسر به[(٣)].

وكذلك عفو الإنسان عن جلسائه وخلطائه عموما، كما تدل على ذلك عمومات سياق الآيات الواردة في الحث على العفو.

وبالجملة فإن العفو خلق نبيل ينبغي أن يسود بين الناس جميعًا، وفي الحياة كلها، وإلا لتكدرت الحياة، ولنغصت المعيشة، ولأصبحت جحيمًا لا يطاق.

ثانيًا: العفو في مجال العقوبات:

شرع الله العقوبات لما يترتب عليها من الفوائد العظمية، والمصالح القويمة؛ كإقامة العدل، وزجر الجاني، وإصلاحه، وحجزه عن غيه، وردع غيره ممن تسول لهم أنفسهم أن يسلكوا مسلكه، وما أشبه ذلك.

والعقوبات التي شرعها الله كثيرة،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٢١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٥٦٥.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥١٠.

ومنها: عقوبة القصاص فيما إذا كان القتل عمدًا.

ومع أن الله تبارك أوجب عقوبة القصاص على الجاني الذي قتل عمدًا، فقد حث على العفو عن هذه العقوبة مقابل الدية، سواء كانت هذه العقوبة عقوبة قتل، أو ما دون ذلك من الجراحات فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أن يقبل الدية في العمد ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أن يطلب هذا بمعروف، ويؤدي هذا بإحسان»[(١)].

وهذا المعنى رجحه كبار أئمة التفسير كابن جرير، فقد قال: «وأولى الأقوال عندي بالصواب في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فمن صفح له من الواجب كان لأخيه عليه من القود عن شيء من الواجب على دية يأخذها منه ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من العافي عن الدم، الراضي بالدية من دم وليه ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ﴾ من القاتل ذلك ﴿بِإِحْسَانٍ﴾»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فيها أربع تأويلات:

أحدها: أن ﴿مَنْ﴾ يراد بها القاتل ﴿عُفِيَ﴾ يتضمن عافيا هو ولي الدم والأخ هو المقتول، ويصح أن يكون هو الولي على هذا التأويل، وهي أخوة الإسلام، و﴿شَيْءٌ﴾ هو الدم الذي يعفى عنه ويرجع إلى أخذ الدية والعفو في هذا القول على بابه والضميران راجعان على ﴿مَنْ﴾ في كل تأويل.

والتأويل الثاني: أن ﴿مَنْ﴾ يراد بها الولي، و﴿عُفِيَ﴾ بمعنى يسر لا على بابها في العفو، والأخ يراد به القاتل، و﴿شَيْءٌ﴾ هي الدية، والأخوة على هذا أخوة الإسلام، ويحتمل أن يراد بالأخ على هذا التأويل المقتول أي: يسر له من قبل أخيه المقتول وبسببه، فتكون الأخوة أخوة قرابة وإسلام.

والتأويل الثالث: أن هذه الألفاظ في المعينين الذين نزلت فيهم الآية كلها، وتساقطوا الديات فيما بينهم مقاصة حسبما ذكرناه آنفا، فمعنى الآية فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من تلك الديات، ويكون عفي بمعنى فضل من قولهم: عفا الشيء إذا كثر، أي: أفضلت الحال له أو الحساب أو القدر.

والتأويل الرابع: في الفضل بين دية المرأة والرجل والحر والعبد، أي: من كان له ذلك الفضل فاتباع بالمعروف، و﴿عُفِيَ﴾ في هذا الموضع أيضًا بمعنى أفضل، وكأن الآية من أولها بينت الحكم إذا لم تتداخل الأنواع ثم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٣٦٧.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٧١.

الحكم إذا تداخلت، و﴿شَيْءٌ﴾ في هذه الآية مفعول لم يسم فاعله، وجاز ذلك و﴿عُفِيَ﴾ لا يتعدى الماضي الذي بنيت منه من حيث يقدر ﴿شَيْءٌ﴾ تقدير المصدر، كأن الكلام: عفي له من أخيه عفوٌ، و﴿شَيْءٌ﴾ اسم عام لهذا وغيره، أو من حيث تقدر: ﴿عُفِيَ﴾ بمعنى ترك فتعمل عملها، والأول أجود، وله نظائر في كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾[هود: ٥٧].

قال الأخفش: التقدير: لا تضرونه ضرًا، ومن ذلك قول أبي خراش[(١)]:

فعاديت شيئًا والدريس كأنما
يزعزعه وردٌ من الموم مردم

فإن قيل: لِمَ قيل شيء من العفو؟

والجواب: من وجهين:

أحدهما: أن هذا إنما يشكل إذا كان الحق ليس إلا القود فقط، فحينئذ يقال: القود لا يتبعض فلا يبقى لقوله: ﴿شَيْءٌ﴾ فائدة، أما إذا كان مجموع حقه إما القود وإما المال كان مجموع حقه متبعضًا؛ لأن له أن يعفو عن القود دون المال، وله أن يعفو عن الكل، فلما كان الأمر كذلك جاز أن يقول: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾.

والجواب الثاني: أن تنكير الشيء يفيد فائدة عظيمة؛ لأنه يجوز أن يتوهم أن العفو لا يؤثر في سقوط القود، إلا أن يكون عفوًا عن جميعه، فبين تعالى أن العفو عن جزئه كالعفو عن كله في سقوط القود، وعفو بعض الأولياء عن حقه، كعفو جميعهم عن حقهم، فلو عرف الشيء كان لا يفهم منه ذلك، فلما نكره صار هذا المعنى مفهومًا منه؛ فلذلك قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾[(٢)].

فإن قيل: لم قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ ولم يقل: «فمن عفا له أخوه شيئا»؟

قيل: العدول إلى هذا البناء للطيفة، وهي أنه لا فرق بين أن يكون صاحب الدم واحدًا، فعفا أو جماعة فعفا واحد منهم أنه يبطل حق القصاص ويعدل حينئذ إلى الدية، فقال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ﴾ ليدل على هذا المعنى.

وقيل: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ﴾ هو أمر للعافي بحسن المطالبة، والهاء في قوله: ﴿أَخِيهِ﴾ يجوز أن يكون للمقتول، ويكون لولي المقتول، وجعله أخًا لولي الدم لا للنسبة ولا للموالاة الدينية، ولكن للإحسان الذي أسداه إليه وأجرى العهد مجرى الخطأ في الرضا منه بالدية[(٣)].

وإذا عفا ولي الدم عن القصاص مقابل الدية فله أخذها، وإن لم يرض بذلك القاتل، وهذا مذهب أكثر العلماء من الصحابة

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٤٥ - ٢٤٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥٣- ٢٥٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٢٧.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٣٨١.

والتابعين[1] ورجح ذلك القرطبي[2].

ولم يقتصر القرآن على الحث على العفو عن عقوبة القصاص مقابل الدية فيما إذا كان القتل عمدًا، وإنما حث على ما هو أولى وأكمل، وهو العفو عن عقوبة القصاص والدية معًا.

وهذا فيما إذا كان القتل عمدًا، أما إذا كان القتل خطأ فإنه لا يجب القصاص «والحالة هذه»، بل الواجب الدية فقط، وقد حث القرآن أيضًا على العفو عنها فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢].

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «وقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ إلى أهله هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل عوضا لهم عما فاتهم من قتيلهم وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أي: فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب»[3].

والعفو عن عقوبة القصاص في قتل العمد مقابل الدية، أو عنهما جميعا أيضًا، أو العفو عن الدية في قتل الخطأ مقيد بما إذا كان الجاني أهلًا لذلك، وأما إذا لم يكن أهلًا لذلك فالأولى أن لا يعفى عنه، بل يعاقب على فعله؛ حتى يرتدع؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

فقيد العفو بالصلاح، أما إذا كان ليس أهلًا للعفو فلا يعفى عنه.

وبعد هذا كله ننبه إلى أن العفو المندوب إليه في مجال العقوبات مقتصر على العقوبات المختصة بالأبدان والأموال، كعفو أولياء الدم عن عقوبة القصاص مقابل الدية، أو عنهما معا؛ لما في العفو عن ذلك من المصالح العظيمة التي تعود على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، وأما العقوبات المتعلقة بالأعراض فلا يعفى عنها كعقوبة الزنا، أو عقوبة القذف، فلا يعفى عنها بحال من الأحوال، بل يجب أن تقام مثل هذه العقوبات حتى يرتدع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

فهذه الآية بينت حكم الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما في دين الله، تمنعنا

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٠٩.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٣١- ٣٣٢.

من إقامة الحد عليهم، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين؛ ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع؛ وليشاهدوا الحد فعلا، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل مما يقوي بها العلم، ويستقر به الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب فلا يزاد فيه ولا ينقص[(١)].

فهذه العقوبات لا يعفى عنها بحال من الأحوال بل يجب أن تقام؛ لأنه لا فائدة من العفو عنها بل في العفو عنها والتساهل في إقامتها مفاسد عظيمة، وعواقب وخيمة على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة.

وأيضًا لا يعفى عن العقوبات المتعلقة بحقوق الله تعالى، أو حقوق رسوله صلى الله عليه وسلم، كعقوبة حد الردة، وما أشبه ذلك، فليس لأحد من البشر كائنًا من كان أن يعفو عنها، بل يجب على أولياء الأمور تنفيذها؛ لأن الله سبحانه قد استخلفهم في الأرض ليقوموا بذلك حق القيام، وعليهم أن يحذروا من التهاون في ذلك.

آثار العفو

للعفو آثار جليلة في الدنيا والآخرة نتحدث عنها فيما يلي:

أولًا: آثار دنيوية:

للعفو آثار عظيمة دنيوية وأخروية، فمن آثار العفو الدنيوية:

١ . سقوط القصاص.

فإذا عفا جميع أولياء المجني عليه، أو عفا بعضهم، وذلك فيما إذا كان القتل عمدًا.

وبذلك يكونون قد عصموا دمه، وأنقذوه من القتل كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

قال بعض المفسرين: «ومن أحياها بالعفو عن القاتل أعطاه الله من الأجر مثل ما لو أحيا الناس جميعًا»[(٢)].

وإذا عفا أولياء المجني عليه أو بعضهم عن القصاص من الجاني وجب على عاقلة الجاني أن يدفعوا لأولياء المجني عليه الدية؛ لقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٣٤.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٢.

١٧٨].

وكذلك إذا عفوا عن القصاص والدية معا في العمد سقط ذلك كله، وكذلك لو عفوا عن الدية في الخطأ سقط ذلك.

٢. التيسير والتخفيف.

والتيسير اختص الله به هذه الأمة دون ما سواها من الأمم السابقة؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قود ولا دية، فجعل الله تعالى ذلك تخفيفا لهذه الأمة، فمن شاء قتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا[(١)].

قال سعيد بن جبير: «كان حكم الله على أهل التوراة أن يقتل قاتل العمد، ولا يعفى عنه، ولا يؤخذ منه دية، فرخص الله لأمة محمد، فإن شاء ولي المقتول عمدًا قتل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية»[(٢)]. فإذا عفا أولياء المجني عليه عن القصاص مقابل الدية فقد حققوا هذا المقصد العظيم من مقاصد الشريعة.

٣. إصلاح المعتدي والمسامح.

فالمعتدي حين يشعر بأن العفو جاء سماحة، ولم يجئ ضعفًا فإنه سيخجل ويستحي، ويحس بأن خصمه الذي عفا عنه هو الأعلى، والمسامح حينما يعفو تصفو نفسه وتعلو، فالعفو عندئذ خير لهما معًا.

٤. حل المشاكل الأسرية.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

قال الشنقيطي: «أي: إن عداوة الزوجة والأولاد لا ينبغي أن تقابل إلا بالعفو والصفح والغفران، وأن ذلك يخفف أو يذهب أو يجنب الزوج والوالد نتائج هذا العداء، وإنه خير من المشاحنة والخصام»[(٣)].

٥. تطهير النفس من الحقد.

بوب الإمام البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح بابا بعنوان: «باب الانتصار من الظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾»[الشورى: ٣٩].

قال إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا»[(٤)].

٦. التغلب على النفس.

قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

فالذي يعفو يتغلب على نفسه، ولا يستجيب لرغبتها في الانتقام والانتصار.

فإذا عفا الإنسان فقد ارتقى بنفسه إلى

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥٥.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١٣٧.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٠٤.
(٤) علقه البخاري في صحيحه، - ٢/ ١٢٩.
وانظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٧٩.

المراتب العلية، وإلى الأخلاق النبيلة، والمثل الفاضلة.

٧. حفظ الدماء.

فالعفو يقضي على النعرات الجاهلية، والعصبيات المقيتة، ويخمد فتنة الثأر.

٨. حصول التقوى.

قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلا، فقل: يا أخي، اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور»[(١)].

٩. يصلح بين المتخاصمين.

قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

١٠. الأجر والمثوبة.

العفو من الأعمال الصالحة التي يأجر الله العبد عليها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. أي: إن الله يأجره على ذلك، قال مقاتل: «فكان العفو من الأعمال الصالحة»[(٢)].

١١. نيل محبة الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا عفوت فأنت محسن، وإذا كنت محسنا فقد أحبك الله»[(٣)]؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فإذا عفا الإنسان عمن أساء إليه، وهو قادر على إنفاذ العقوبة؛ نال بذلك محبة الله تبارك وتعالى، فهو تبارك وتعالى عفو يحب العافين، وإذا أحب الله العبد وضع الله القبول في الأرض.

ثانيًا: آثار أخروية:

للعفو آثار أخروية منها:

١. تكفير ذنوب العافي.

فإذا عفا عن الجاني جنايته، وخاصة إذا عفا عن القصاص؛ لقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥] شرط وجوابه، أي: تصدق بالقصاص

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٠.

(٢) المصدر السابق ١٦/ ٤٠

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٢٦.

فعفا فهو كفارة له، أي: لذلك المتصدق. وقيل: هو كفارة للجارح فلا يؤاخذ بجنايته في الآخرة؛ لأنه يقوم مقام أخذ الحق منه، وأجر المتصدق عليه.

قال ابن العربي: «والذي يقول: إنه إذا عفا عنه المجروح عفا الله عنه لم يقم عليه دليل، فلا معنى له»[1].

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: بالقصاص في النفس، وما دونها من الأطراف والجروح، بأن عفا عمن جنى، وثبت له الحق قبله. ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي: كفارة للجاني؛ لأن الآدمي عفا عن حقه والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه، وكفارة أيضًا عن العافي، فإنه كما عفا عمن جنى عليه، أو على من يتعلق به فإن الله يعفو عن زلاته وجناياته.

وقد سئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن قوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[المائدة: ٤٥].

فقال: «يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به»[2].

ويؤيد ذلك ما جاء في حديث المحرر ابن أبي هريرة، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أصيب بشيء في جسده فتركه لله كان كفارة له)[3].

وقال تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[النور: ٢٢] ففيها «دليل على أن العفو والصفح على المسيء المسلم من موجبات غفران الذنوب، والجزاء من جنس العمل»[4].

٢. الفوز بالأجر العظيم والثواب الجزيل.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]يجزيه أجرا عظيما، وثوابا كثيرا[5].

فقد تولى سبحانه بنفسه مجازاة من تحلى بهذا الخلق النبيل، وتكفل بذلك سبحانه.

٣. عفو الله في الآخرة.

فمن عفا عن أخيه المسلم في الدنيا عفا الله عنه في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

«إن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب عليك يغفر الله لك، وكما تصفح يصفح عنك»[6].

(١) أحكام القرآن، ٢/ ١٣٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٦٢ رقم ١٢٠٧٣.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم٢٧٥٣٤. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٤٦١.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٨٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦١.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٦.

٤. دخول الجنة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم».

وقال قتادة ومجاهد -رحمها الله-: «الحظ العظيم: الجنة».

وقال الحسن رحمه الله: «والله ما عظم حظ قط دون الجنة».

وقيل: الكناية في ﴿يُلَقَّاهَا﴾ عن الجنة، أي: ما يلقاها إلا الصابرون، والمعنى متقارب[1].

موضوعات ذات صلة:

الجزاء، الحساب، الرحمة، السماحة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٦٢-٣٦٣.

العقل

عناصر الموضوع

مفهوم العقل	٩٤
العقل في في الاستعمال القرآني	٩٥
الألفاظ ذات الصلة	٩٦
العقل نعمة	٩٩
ضوابط العقل	١٠١
مجالات استعمال العقل	١٠٣
ثمار استعمال العقل	١١٨
الآثار المترتبة على إهمال العقل	١٣٥

مفهوم العقل

أولًا: المعنى اللغوي

أصل مادة (عقل) تدل على حُبسةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبسة. من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل[(١)].

والعقل أيضًا: نقيض الجهل، يقال: عَقِلَ يعقل عقلًا فهو عاقل، والمعقول: ما تعقله في فؤادك، ويقال: هو ما يُفهم من العقل[(٢)].

وأصل العقل: الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعقال، وعقل الدواء البطن[(٣)].

قال الزبيدي: العقل هو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها[(٤)].

وهو مأخوذ من عقال الدابة، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

عرفه ابن عطية بأنه: الإدراك المانع من الخطأ[(٦)].

ويقول الأصفهاني: هو القوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل[(٧)].

«وقيل: إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعاني»[(٨)].

«وأُسمِيَ العقلُ عقلًا؛ لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، و ينعقل به عما يضره»[(٩)].

فالعقل يميز به الحق والباطل، ويمنع صاحبه من ارتكاب ما يضر.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٦٩، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٦١٧.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ١/ ١٥٩، جمهرة اللغة، أبو بكر الأزدي، ٢/ ٩٣٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده المرسي،١/ ٢٠٥.
(٣) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٥٧٨.
(٤) انظر: تاج العروس ٣٠/ ١٨.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي،١/ ٨٨.
(٦) انظر: المحرر الوجيز،١/ ١٣٧.
(٧) انظر: المفردات ص٥٧٧.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٣٧٠.
(٩) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١.

العقل في في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عقل) في القرآن الكريم (٤٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة:٧٥]
الفعل المضارع	٤٨	﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام:١٥١]

وجاء العقل في القرآن الكريم بمعنى الفهم[٢]، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣].

أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٦٨- ٤٦٩.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٥٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٨٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٧٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللب:

اللب لغةً:

«لُبُّ: لُبُّ كُلِّ شيءٍ: داخلُه، ولُبابُه أيضًا. وكذلك الخالص الخيار من كل شيءٍ»[١]. «واللُّبُّ: خُلاصة الشيء وقلبُه، ولُبُّ الرجل: ما جعل في قلبه من العقل. وشيءٌ لبابٌ: خالصٌ. ابن جني: هو لباب قومه، وهم لباب قومهم، وهي لباب قومها، ولبيبٌ: عاقلٌ ذو لبٍّ»[٢]. «لبب: الألباب: العقول»[٣].

اللُّبُّ اصطلاحًا:

«وأطلق هنا على عقل الإنسان؛ لأنه أنفع شيء فيه، ولب الرجل: ما جعل في قلبه من العقل»[٤]، وقيل: «هو ما زكى من العقل، فكل لب عقل وليس كل عقل لُبًّا»[٥].

الصلة بين العقل واللب:

كل لبيب له عقل حصيف، يعقل به خالص الأمور وأنفعها.

٢ النهي:

النهى لغة:

«نَهَيَ: النون والهاء والياء أصلٌ صحيحٌ يدل على غايةٍ وبلوغٍ»[٦]، و «النُّهية: العقل؛ لأنه ينهى عن قبيح الفعل والجمعُ نُهى»[٧]، وهو «الزجر عن الشيء»[٨]، «وجُعل اسمًا للعقل الذي انتهى من المحسوسات إلى معرفة ما فيه من المعقولات»[٩].

النُّهَى اصطلاحًا:

---

(١) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد،٢/ ٤٥١.
(٢) جمهرة اللغة، الأزدي ١/ ٧٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/ ٣٦٦، وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٢٩.
(٣) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان الأندلسي،١/ ٢٧٤.
(٤) لسان العرب، ابن منظور،١/ ٧٢٩.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٣٣.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٥٩.
(٧) المصدرالسابق.
(٨) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٢٦.
(٩) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني،١/ ١٣٧.

ذكر السعدي: «النُّهَى، أي: العقول السليمة والفطر المستقيمة والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي»[١].

الصلة بين العقل والنُّهَى:

العقل والنهى مترادفان فبالعقل يُمْنَعُ الشخص عن ارتكاب المعصية، وبالنهى ينزجر وينتهى عن المحرمات والمعاصي.

٣ الحجا:

الحجا لغة:

«الحاء والجيم والحرف المعتل أصلان متقاربان، أحدهما إطافة الشيء بالشيء وملازمته، والآخر القصد والتعمد»[٢]، «الحجا: الستر والعقل»[٣]، «حجا: مفرد، الجمع أحجاء، وأحجية: عقل وفطنة، من ذوي الحجا: ذكيٌّ حكيمٌ»[٤].

الحجا اصطلاحًا:

«الحجا هو ثبات العقل من قولهم: تَحَجَّى بالمكان إذا أقام فيه»[٥].

الصلة بين العقل والحجا:

بالعقل يتم الفهم والحفظ، وبالحجة يقوى على الاستنباط وإظهار المعاني.

٤ الذهن:

الذهن لغة:

«الذال والهاء والنون أصل يدل على قوة، وهو الفطنة للشيء والحفظ له»[٦].

الذهن اصطلاحًا:

« هو قوة للنفس معدة لاكتساب العلوم، تشمل الحواس الظاهرة والباطنة»[٧]، وقيل: هو «قوة للنفس تشمل الحواس الظاهرة والباطنة معدة لاكتساب العلوم، وهو الاستعداد التام لإدراك العلوم والمعارف بالفكر»[٨].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٥١٦.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس،٢/ ١٤١.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١/ ١٥٩.
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار - ١/ ٤٥١.
(٥) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٨٥.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣٦٣.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٧١.
(٨) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري،ص٨٥.

الصلة بين الذهن والعقل:

بالعقل والذهن يتم الفهم والحفظ وإدراك العلوم والمعارف، وذلك باشتراك الحواس الظاهرة والباطنة.

٥ الحجر:

الحجر لغة:

«الحاء والجيم والراء أصل واحد مطرد، وهو المنع والإحاطة»[١].

الحجر اصطلاحًا:

هو «قوله تعالى لذي حجر أي: عقل ولب، فمن كان ذا عقل ولب علم، قال الحسن: لذي حجر، أي: لذي حلم. وقال أبو مالك: لذي ستر من الناس. وقال الجمهور: الحجر: العقل. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد، لذي عقل ولذي حلم ولذي ستر، الكل بمعنى العقل. والعرب تقول: إنه لذو حجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها »[٢].

الصلة بين العقل والحجر:

صاحب العقل السليم والفطرة السوية يكون ذا حِجْر، حيث يمنع صاحبه ويحجره عن الوقوع في ما لا يحل له، ولا يليق به من القبائح.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٣٨.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٥٢٨.

العقل نعمة

إن من أفضل نعم الله على عباده نعمة العقل، فلولا العقل لما عَرَفَ الإنسانُ دين الإسلام والنبوة، والخير والشر، والحق والباطل، والمعروف والمنكر.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فاللَّهُ سبحانه وتعالى فضل بني آدم على غيرهم من الجمادات والحيوانات، والنباتات بهذا العقل.

فإذا فقد الإنسان العقل السليم الذي يقوده إلى الخير ويبعده عن الشر، فقد أصبح كالبهيمة التي تأكل وتشرب ولا تعقل شيئًا، بل إنها خيرٌ منه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قال ابن حزم: وَحَدُّ العقل ينطوي فيه فعل الطاعات والفضائل، واجتناب المعاصي والرذائل، وقد نص الله تعالى في كتابه على أن من عصاه لا يعقل.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠].

وَحَدُّ الحمق: استعمال المعاصي والرذائل، وهو ضد العقل، ولا واسطة بين الحمق والعقل إلا السخف[(١)].

وأفضل مواهب الله لعباده العقل، ولقد أحسن الذي يقول[(٢)]:

أفضل قسم الله للمرء عقله
فليس من الخيرات شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله
فقد كملت أخلاقه ومآربه
يعيش الفتى في الناس بالعقل إنه
على العقل يجري علمه وتجاربه
يزيد الفتى في الناس جودة عقله
وإن كان محظورًا عليه مكاسبه

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

«وقد جُعِلَ للعقل نَظَرٌ وإدراك ورؤية وإبصارٌ، وجعل له أضدادُه من العمى وغيره، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]»[(٣)].

«إنما العاقل من وَحَّدَ الله تعالى وعمل بطاعته، وقال تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾

(١) انظر: الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص٥٨.
(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص١٧.
(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهاني، ص١٣٥.

[الملك: ١٠][(١)].

«قيل لابن المبارك: ما خير ما أُعطي الرجل؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدبٌ حسن، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل»[(٢)].

وفي الصحيحين من حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنهما: **(ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)**[(٣)].

فإذا آمن القلب، آمنت الجوارح بفعل المأمورات وترك المنهيات؛ لأن القلب أمير البدن، وذلك يدل دلالة واضحة على أن القلب ما كان كذلك إلا لأنه محل العقل الذي به الإدراك والفهم.

وقد حشد القرآن الكريم عشرات الآيات القرآنية الداعية إلى استعمال العقل والتفكر والتدبر في آيات الله الكونية، وآيات الله القرآنية، وجعل الله سبحانه وتعالى التفكير فريضة إسلامية فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد خص أصحاب العقول الصافية، والقلوب النيرة أولي الألباب، وأصحاب الفطرة السليمة بهذا التفكر والتدبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

«وخَصَّ اللهُ بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم»[(٤)].

والواجب علينا أن نقوم بالمحافظة عليه؛ كي يبقى سليمًا بعيدًا عن الشبهات التي تتسبب في نقص الإيمان أو انعدامه كلية، كذلك الابتعاد عن تعاطي كل ما يخامر العقل ويؤدي بالإنسان إلى ارتكاب حماقات أو جرائم هو والمجتمع في غنى عنها، عدا ذلك الأضرار الصحية وما ينجم عنها من خسائر وأضرار مادية ومعنوية تعود على الشخص وعائلته وكذلك المجتمع.

لذا فقد حدد الشارع الحكيم أمورًا لابد من الابتعاد عنها للمحافظة على العقل سليمًا منها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة:

(١) المصدر السابق ص١٣٦.
(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص١٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦١.

.[٩٠

فالعقل نعمة عظيمة وهبة كبيرة من الله عز وجل، يجب أن نشكر المولى عليها شكرًا عمليًا، وذلك بحفظ العقل مما يكدر صفوه، ويعكر فهمه، ويفسد صلاحه، ويطمس نوره، إنه أمانة يجب حفظها، وعطية يتحتم رعايتها، وذلك بالبعد عن الشبهات، والحذر من الشهوات.

إنَّ حماية العقل وحراسة الفكر واجب فردي، وواجب جماعي، وواجب حكومي.

يجب على الفرد أن يحمي عقله من مهاوي الردى، ودروب الزلل، ومراتع الخلل، يجب على أفراد المجتمع أن يتعاونوا على حراسة العقول، وحماية الأذهان، ورعاية الأفكار، يجب على المسؤولين أن يتقوا الله في عقول رعاياهم، فَيَحُولُوا بينهم وبين ما يُفسِد هذه العقول، ويشوش أذهانهم، ويطمس بصائرهم، من كتب مضللة، وأفكار هدامة، وأفلام ماجنة، ومسلسلات هابطة، وبرامج ساخرة، وأغانٍ محرمة.

اللهم متعنا بعقولنا ما أحييتنا، اللهم عمر قلوبنا وعقولنا بحبك وطاعتك وحب من يحبك، اللهم نَوِّر أبصارنا، وَزَكِّ نفوسنا، واحفظ من الزيغ أفكارنا وعقولنا، اللهم آمين.

ضوابط العقل

لقد اهتم الإسلام بالجانب العقلي بما يتفق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وقد أحاط العقل بسياج من العناية والرعاية، فالإسلام فتح المجال للعقل للتفكر، والتدبر في آيات الله المسطورة والمنظورة، فلا نكاد نجد سورة من سور القرآن، تخلو من دعوة للتفكر والتدبر في هذا الكون الفسيح، بكل ما فيه من دلائل على قدرة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩].

ولكنَّ هذه الدعوة ليست مفتوحة على مصراعيها، بل وُضِعَ لها حدود وقيود، لابد من الأخذ بها تجنبًا للوقوع في الأخطاء، إن العقل يُسَلِّمُ بمحدودية معارفه وانحصارها في عالم الشهادة، أما عالم الغيب فلا سبيل إلى معرفته والإلمام بأسراره وخصائصه إلا بالوحي، ومن هنا أدركت العقول الصحيحة أن الإنسان في حاجة ماسة إلى الوحي الإلهي للوصول إلى المعرفة الصحيحة حول الكون وخالقه والإنسان ودوره في التعمير وخلافة الله في الأرض ومصيره في الآخرة، والإحساس بالحاجة إلى الوحي ليس فيه غمط للعقل والحس ودورهما في المعرفة، ذلك أنَّ الوحي يهدي هذه الوسائل ويصحح مسارها ويرشدها إلى الحقائق

التي لا سبيل أن يصل إليها العقل والحس بمفردهما، لا يمكن بحال أن يغني العقل عن النبوة والرسالة، وطالما أن الإنسان مُحاسَبٌ مجازى على أعماله فإن مبعث الرسل للشعوب والأمم وللخليقة أجمعين يعد واجبًا، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

كما يعد الوحي حقيقة لا ينكرها إلا متفلت من ضوابط العقل والحس وثوابت النقل وكُلِّ سبل المعرفة وتحصيل العلم[(١)].

وقد حدد العلماء مجال استعمال العقل بعدد من الضوابط منها:

- أن لا يتعارض مع النصوص الصحيحة.

«العقل والوحي لا يتعارضان فهما متكاملان، وهما يوصلان إلى طريق واحد، وهو معرفة الله تعالى والإقرار بوحدانيته، وهو ما يَثْبُتُ بالعقل وهو ما يؤيده قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢]. ثم يأتي دور الوحي لنتعرف من خلاله على ما يجب لله، وما يستحيل في حقه، وما يُرضيه وما يُسخطه، وكيف نعبده»[(٢)].

- أن لا يكون استعمال العقل في القضايا الغيبية التي يعتبر الوحي هو المصدر الصحيح والوحيد لمعرفتها.
- أن يقدم النقل على العقل في الأمور التي لم تتضح حكمتها، وهو ما يعرف بالأمور التوقيفية.

ولا شك أن احترام الإسلام للعقل وتشجيعه للنظر والفكر لا يقدمه على النصوص الشرعية الصحيحة، خاصة أن العقول متغيرة، وتختلف وتتأثر بمؤثرات كثيرة تجعلها لا تصلح لأن تكون الحكم المطلق في كل الأمور[(٣)].

مما سبق نجد أن الله تعالى لم يحجر على العقل، بل أمرنا بالتدبر والتفكر في آلائه سبحانه وتعالى لنزداد يقينًا وإيمانًا بوحدانيته سبحانه وبقدرته على الخلق والإيجاد والرزق والإحياء والإماتة، لكنه لم يترك المجال للعقل على مصراعيه؛ لأن العقل له قدر محدود من الفهم والإدراك خاصة في علوم الغيب التي لا يعلمها إلا الله وحده، بينما الأمور الأخرى التي

(١) انظر: السنة النبوية وحي من الله محفوظة كالقرآن الكريم، أبو لبابة بن الطاهر حسين، ١/ ١٤-١٦.

(٢) العقل في القرآن والسنة، سالم عبدالجليل، أبحاث ووقائع المؤتمر العام الثاني والعشرين، ص٩.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١/ ٧٠.

تتعلق بأمورنا الدنيوية من مصالح مرسلة أو العمل بالقياس والاجتهاد، فسمح للعلماء المتعلمين القادرين على الاستنباط بالقيام بمثل تلك الأمور، كذلك عند تعارض النقل والعقل يقدم النقل على العقل، لأن العقل حدود معرفته وتصوره محدودة.

مجالات استعمال العقل

الله سبحانه وتعالى أكرم الإنسان وخلقه في أحسن صورة، وميزه بالعقل ليتدبر أمره ويتعرف على الكون من حوله، فالله سبحانه وتعالى لم يحجر على عقولنا بل جعل التدبر والتفكر عبادة، فهو سبيلنا للتعرف على موجد الكون بصفاته وقدرته، لكن توجد ضوابط معينة يعمل من خلالها العقل، فلا نستطيع الخوض في ذات الله سبحانه أو تأويل الصفات وتشبيهها وتمثيلها وتكييفها، فالله سبحانه هو أعلم بذاته، وهو أعلم بصفاته فنحن نمررها كما وردت، كذلك الغيبيات العقل لا يستطيع الاطلاع عليها، لذا علينا أن نستعمل عقولنا في النطاق المسموح لنا استعماله فيه بل ونؤجر على استعمالنا لعقولنا، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك على نعمة العقل.

أولًا: دلائل وحدانية الله:

خلق الله تعالى البشر لعبادته سبحانه وتعالى وإفراده وحده بهذه العبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

[النساء: ١٦٥].

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٨].

«قال مقاتل: إن كنتم تعقلون توحيد الله»[(١)].

«قال موسى: إنه الرب الذي تشاهدون آثاره كل يوم، فيأتي بالشمس من المشرق، ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله، حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع ينتظم به أمور الكائنات. إن كنتم تعقلون إن كان لكم عقل علمتم ألا جواب لكم فوق ذاك»[(٢)].

«هو الذي جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقًا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا، والمغرب مشرقًا»[(٣)].

«﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كان لكم عقل علمكم أنه لا تمكن معرفته إلا بهذا الطريق»[(٤)].

«﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن كان لكم عقول تعقلون بها ما يقال لكم، وتفهمون بها ما تسمعون مما يعين لكم؛ فلما أخبرهم موسى عليه السلام بالأمر الذي علموا أنه الحق الواضح»[(٥)].

«قال موسى: رب المشرق والمغرب وما بينهما وما يكون فيهما من نور وظلمة، وهذا يستوجب الإيمان به وحده إن كنتم من أهل العقل والتدبر!»[(٦)].

وهكذا نجد كيف تتجلى وظيفة العقل في هذه الآية، وهي الاستدلال بمظاهر قدرة الله وعظمته على توحيده وعدم الإشراك به.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون: ٨٠].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، كنه قدرته وربوبيته و وحدانيته، وأنه لا يجوز أن يكون له شريك من خلقه، وأنه قادر على البعث»[(٧)].

«﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: يحيي الموتى ويميت الأحياء. ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: ذهاب الليل ومجيء النهار، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أمر الله؟ ويقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توحيد ربكم فيما ترون من صنعه فتعتبرون؟»[(٨)].

١. دلائل الآفاق.

(١) التفسير البسيط، الواحدي، ١٧/ ٤٦.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ١٩/ ١٣٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٣٩.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٥٦٠.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٣٤٥.
(٦) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص٣٦٨.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/ ١٤٤.
(٨) تفسير السمرقندي، ٢/ ٤٨٧.

لقد خلق الله الإنسان وميزه عن سائر المخلوقات الأرضية بالعقل، بل وأمره بعدم تعطيل هذا العقل، فأمر المكلفين بعبادة التفكر في خلق الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

«وإذا عرف بهذا البرهان قصور عقله لم يبق معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين بل يسلم أن في كل ما خلقه الله تعالى حكمًا بالغة وأسرارًا عظيمة ولا سبيل له إلى معرفتها، فعند هذا يقول: ربنا ما خلقت هذا، أي: المخلوق العجيب باطلًا، أي: بغير حكمة، بل خلقته بحكمة عظيمة، -سبحانك- وهذا إقرار بعجز العقول عن الإحاطة بآثار حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض، أي: إن الخلق إذا تفكروا في هذه الأجسام العظيمة لم يعرفوا منها إلا هذا القدر. وهو أن خالقها ما خلقها باطلًا، بل خلقها لحكم عجيبة وأسرار عظيمة، وإن كانت العقول قاصرة عن معرفتها»[1].

(١) مراح لبيد، محمد الجاوي، ١/ ١٧٦.

« أخبر عن عباده الصالحين بأنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ويعلموا أن لهما خالقًا قادرًا مدبرًا حكيمًا؛ لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها سبحانه وتعالى، كما قيل: وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد»[2].

ومما ذكر في القرآن الكريم من آيات دالة على التفكر في الآفاق حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

«هذه الآيات الست الكونية أكبر برهان وأقوى دليل على وجود الله سبحانه وتعالى وعلمه وقدرته ورحمته بعباده، ولذلك هو رب العالمين وإله الأولين والآخرين، ولا رب غيره ولا إله سواه. «والحاصل، أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة، وما أودع فيها من لطائف البر

(٢) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٣٢.

والحكمة، علم بذلك، أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه و وحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها. فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه[1].

«﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ينظرون بعيون عقولهم، ويعتبرون فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدها وحكمة مبدعها ووحدانية منشئها»[2].

« أما قوله تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإنما خص الآيات بهم؛ لأنهم الذين يتمكنون من النظر فيه، والاستدلال به على ما يلزمهم من توحيد ربهم وعدله وحكمه ليقوموا بشكره، وما يلزم عبادته وطاعته»[3].

«علمه كيفية الاستدلال على وحدانية الصانع، وردهم إلى التفكر في آياته والنظر في عجائب مصنوعاته وإتقان أفعاله ففي ذلك دليل على وحدانيته إذ لو كان في الوجود صانعان لهذه الأفعال، لاستحال اتفاقهما على أمر واحد، ولامتنع في أفعالهما التساوي في صفة الكمال، فثبت بذاك أن خالق هذا العالم والمدبر له واحد قادر مختار»[4].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٤].

«﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها؛ ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته»[5].

«يقول الحق جل جلاله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على باهر قدرته ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ »[6].

« دلالات واضحة، وبراهين بينة، تدل على الخالق سبحانه.

ويقول تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الجاثية: ٥].

«إن المنصفين من العباد إذا نظروا في هذه الدلائل النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بد لها من صانع فآمنوا به، وأقروا أنه الإله القادر على كل شيء،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ١٤٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٤/ ١٧٤.
(٤) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٩٩.
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٤/ ٢٠٥.
(٦) البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ٣٣٤.

ثم إذا أمعنوا النظر ازدادوا إيقانًا وزال عنهم اللبس، فحينئذ استحكم علمهم وعدوا في زمرة العقلاء الذين عقلوا عن الله مراده في أسرار كتابه »[1].

« ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني: هذه دلائل الله، وعلامة وحدانيته »[2].

التفكر في خلق الله عبادة، لابد لنا من القيام بها لنزداد إيمانًا مع إيماننا، بل ونصل لدرجة اليقين، كذلك نستشعر عظمة الله سبحانه وقدرته و وحدانيته، فهو إله واحد بلا شريك، مدبر للكون بلا قصور.

٢. دلائل النفس.

لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالنظر والتفكر في أنفسنا، كيف خلقنا الله من العدم فبدأ بخلقنا من الطين، ثم جعل الخلق بعد ذلك من نطفة، ثم خلق النطفة علقة، وخلق العلقة مضغة، ثم خلقها عظامًا، وكساها بعد ذلك لحمًا، ثم تدرج في الخلق وبعد حينٍ أماته، وهذه دلائل قدرته سبحانه على الإيجاد والإماتة، ليختبرنا ماذا سنفعل في هذه الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١٢-١٥].

« هذا شروع في الاستدلال على انفراد الله تعالى بالخلق وبعظيم القدرة التي لا يشاركه فيها غيره، وعلى أن الإنسان مربوب لله تعالى وحده، والاعتبار بما في خلق الإنسان وغيره من دلائل القدرة ومن عظيم النعمة»[3].

« يخبر تعالى عن خلقه الإنسان آدم وذريته وفي ذلك تتجلى مظاهر قدرته وعلمه وحكمته، والتي أوجبت عبادته وطاعته ومحبته وتعظيمه وتقديره»[4].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝﴾ [الروم: ٨].

« وهو الدلالة على توحيده وقدرته»[5].

«وهذا حث لهم على إعمال الفكر السليم الموصل إلى معرفة الله و وحدانيته بالنظر في أنفسهم وما حولهم من مشاهد الكون»[6].

«أي: يعلمون الله بدلائل الأنفس في

(١) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ١٢٢.
(٢) تفسير السمرقندي، ٣/ ٢٧٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ٢٢.
(٤) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٣/ ٥٠٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٨.
(٦) التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٥٤.

سائر الأحوال ويتفكرون في خلق السماوات والأرض بدلائل الآفاق»[1].

«والمعنى: أن أسباب التفكر حاصلة لهم، وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي، لعلموا وحدانية الله، وصدق أنبيائه»[2].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: ٦٧].

«﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: ما في هذه الأحوال العجيبة من القدرة الباهرة الدالة على توحيده وقدرته هو الذي يحيي ويميت، فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، أي: يكونه من غير كلفة ولا معاناة ولا تعب وكل ذلك من كمال قدرته على الإحياء والإماتة وسائر ما ذكر من الأفعال الدالة على قدرته»[3].

«أي: لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته»[4].

«دلالة على وجود هذا الخالق الخلق البديع، وعلى انفراده بالإلهية، وعلى أن ما عداه لا يستحق وصف الإلهية، فمن عقل ذلك من الناس فقد اهتدى إلى ما أريد منه، ومن لم يعقل ذلك فهو بمنزلة عديم العقل[5].

«دعوة القرآن للتفكر في الأنفس لتفتح مغاليق القلوب لتتدبر هذا الخلق العجيب، فهذا الإنسان بجميع خصائصه وسماته كان كامنًا في تلك النقطة الصغيرة الدقيقة التي لا تراها العين المجردة بعد أن أنستهم الألفة هذا الأمر العجيب»[6].

وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى لم يحجر على عقولنا، بل أمرنا بالنظر والتفكر والتدبر في آيات الله الكونية، وفي أنفسنا لنزداد إيمانًا ويقينًا بوحدانيته سبحانه وتعالى، وبالتالي نزداد خشوعًا وتعظيمًا له سبحانه، أما الذين عطلوا عقولهم وألغوها فهم لا يقلون عن الحيوانات، بالإضافة إلى العقوبة التي تنتظرهم يوم القيامة، لأنهم لو أعملوا عقولهم لاهتدوا، فكل الأنفس قابلة للإيمان والاهتداء وكل شيء بيد الله سبحانه وتعالى. اللهم ألهم نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم آمين.

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٥/ ٣٨٩.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٤٨.
(٣) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٨٠.
(٤) معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ١٥٨.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١٩٦-١٩٧.
(٦) البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، رسالة ماجستير، ميساء قلجة، ص ٥٥.

ثانيًا: الأحكام الشرعية:

القرآن الكريم احترم العقل وأولاه اهتمامًا بالغًا، وسمح له بالتفكر والتدبر في الآيات الكونية المرئية المنظورة، والآيات المسطورة في القرآن الكريم وذم من يعطل عقله عن التفكر والتدبر، لكن في الأحكام الشرعية، فالعقل لا يستطيع أن يحيط بكل شيء علمًا، بعض الأحكام التي شرعت لا يعلم كنهها إلا الله وحده، فلا يستطيع العقل فهم الحكمة المرادة منها، وقد جعلها الله تعالى من الأمور الغيبية، فلا يجوز للعقل الخوض في أمور الغيب، بينما أمور الاجتهاد والقياس والأمور التي في إمكانية العقل القيام بها، فهذا مسموح الخوض فيه، وعند تعارض العقل والنقل يقدم النقل على العقل.

تعرف الأحكام الشرعية بأنها ما يصدر عن الإنسان من الأقوال والأفعال بالنسبة للآخرة، فتبين ما يجب فعله وما يجب تركه، وما يترتب على الفعل والترك من استحقاق الثواب والعقاب في الحياة الأخرى، لذلك فان الأحكام الشرعية تتصف بالشمولية، فهي موقوفة من الله سبحانه وتعالى لتراعي الحياتين كلتيهما، الآخرة والدنيا، أما واضع الأحكام الشرعية فهو الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يوجب ما يشاء بيده الأمر وهو على كل شيء قدير.

الأحكام الشرعية التي تتعلق بالعقيدة ليس للعقل فيها أي دور فلا يسمح بالاجتهاد في أمور العقيدة؛ لأن الدليل فيها قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، فلا مجال لإعمال العقل فيها.

«العقل هو الذي دلنا على وجود الخالق، وصحة رسالة رسوله الذي أيده بالمعجزات، تلك المعجزات التي تدل على صدق نبوة الأنبياء باستعمال الفكر والنظر.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح»[1].

العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس، وأيضًا فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر.

فلهذا قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فالعقل لا يهدي إلى تفاصيل الشرعيات

(١) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، ٨/ ٩١، العقل والنقل عند ابن رشد، أبو أحمد جامي علي، ١/ ٧٨.

والشرع تارة يأتي بتقرير ما استقر عليه العقل، وتارة بتنبيه الغافل وإظهار الدليل حتى يتنبه لحقائق المعرفة، وتارة بتذكير العاقل حتى يتذكر ما فقده، وتارة بالتعليم وذلك في الشرعيات وتفصيل أحوال المعاد، فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة والدال على مصالح الدنيا والآخرة، ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل، وإلى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

«وعنى بالقليل المصطفين الأخيار»[(١)].

دور العقل في إدراك الغيبيات:

إن أول ركن بني عليه الإسلام، صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام، وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات وصدأ الأوهام بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية، فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن، وفوق ذلك ما تجلبه من الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة، والخوف مما لا يخيف، والفزع مما لا يفزع[(٢)].

أما في الغيبيات فإن دور العقل منفي تمامًا، ولهذا لا يقبل حكم العقل على غيبيات، وجعل الشرع موطن التصديق بالغيبيات الإيمان المطلق وليس العقل، ولا غرابة في ذلك، إذ أن جميع الناس يتفقون على أن العقل حادث ومخلوق، ويتغير بتغير المعلومات التي تدخل إليه، وأيضًا يتغير بالقدرة علي الاستفادة من تلك المعلومات، ولا قدرة للمخلوق أن يحيط بالخالق سبحانه، والغيب من اختصاصات الخالق، لذا فلا يدرك الغيب أصلًا، وبعض ما يعلم عنه إنما يكون من خلال النصوص الصحيحة.

دور العقل في الأحكام الشرعية:

والأصل أن العقل لا سلطان له في تغيير الأحكام الثابتة بالكتاب والسنة، هذا إذا افترضنا أصلًا أن هناك تناقضًا بين أحكام الشريعة وما يتوصل إليه العقل السليم، مع أن هذا الافتراض مدفوع، فالعقل السليم ينتهي دائمًا عند مراد الشرع، حتى بالنسبة لأحكام العبادات التي قد لا ينهض العقل لإدراك الحكمة من فرضيتها، فإنه بالعقل يمكن إدراك العديد من الحكم الجليلة التي تتخفى وراء الحكم الشرعي والتي تدرك بالممارسة والتأمل.

وآفة الناس أنهم تركوا المساحة الواسعة التي أفردها الشرع لعقولهم ولم يسعوا إلا

(١) معارج القدس في مدراج معرفة النفس، أبو حامد الغزالي، ١/ ٥٩.

(٢) انظر: مقام العقل في الإسلام، د.محمد عمارة، ص ٤٩.

للكلام في المناطق التي ملأها الشرع على نحو تفصيلي، وهذا مما يطعن في سلامة نوايا هؤلاء الناس.

وليس للعقل دور في كل العلوم على سواء، فالعلوم ثلاثة أقسام:

٨. العلوم الضرورية: وهي التي لا يمكن التشكيك فيها، إذ أنها تلزم جميع العقلاء ولا تنفك عنهم، كعلم الإنسان بوجوده وأن اثنين أكثر من الواحد، وكالسماء فوقنا والأرض تحتنا إلى غير ذلك مما يسمى بقوانين العقل الضرورية.

٩. العلوم النظرية: وهي التي تكتسب بالنظر والاستدلال، وهذا النظر لابد في تحصيله من علم ضروري يستند إليه حتى يعرف وجه الصواب فيه، ويدخل في هذا القسم كثير من العلوم كالطبيعيات والطب والصناعات، فهذه العقلُ له مجال رحب في معرفتها وإدراكها والتوسع فيها.

١٠. العلوم الغيبية: وهذه لا تعلم بواسطة العقل المجرد وحده، بل لابد للعقل إذا أراد أن يعلمها أن يكون له طريق آخر للعلم به؛ كعلمه بما يكون في البلد القاصي عنه، وعلمه بما في اليوم الآخر من بعث وحساب وجزاء، وهذا لا يعلم إلا عن طريق الخبر، ويدخل في هذا القسم كثير من مسائل الاعتقاد لا سيما التفصيلية منها، فهذه لا يستقل العقل بمعرفتها؛ بل لابد من اعتماده على الوحي، هذا الموقف الوسط بخلاف ما عليه أصحاب الفرق الضالة، فمنهم من اعتمد على العقل وأعرض عن الوحي بالكلية كالفلاسفة، أو أسقط حكم الوحي عند التعارض المفترض كما هو حال أكثر المتكلمين، ومنهم من جعل الحق والصواب فيما تشرق به نفسه وتفيض به روحه، وإن خالف هذا أحكام العقل الصريحة أو نصوص الوحي الصحيحة، كما هو حال بعض المتصوفة، والعقل كذلك له طاقة وقدرة محدودة ولا يستطيع أن يخضع كل المعارف وحقائقها لقدرته.

ثالثًا: التمييز بين الحق والباطل:

من فضل الله علينا أَنْ مَنَّ علينا بنعمة العقل كي نميز به بين الحق والباطل والصواب والخطأ، وبين ما ينفعنا وما يضرنا فلله الحمد على هذه النعمة، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك نذكر بعضًا منها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٧٦].

«عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: بما أمركم الله به. فيقول الآخرون: إنما نستهزئ بهم ونضحك»[1].

«روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن منافقي أهل الكتاب كانوا إذا لقوا أصحاب محمد صلى عليه وسلم قالوا لهم: آمنا بالذي آمنتم به، نشهد أن صاحبكم صادق، وأن قوله حق، ونجده بنعته وصفته في كتابنا، ثم إذا خلا بعضهم إلى بعض قال الرؤساء -كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ووهب بن يهودا وغيرهم- أتحدثونهم بما فتح الله عليكم في كتابه من نعته وصفته ليحاجوكم به»[2].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ متصل بكلامهم من التوبيخ والعتاب، أي: ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش، وهو أن ذلك حجة لهم عليكم، فالمنكر عدم التعقل ابتداء، أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون الى التنبيه عليه، فالمنكر حينئذ عدم التعقل بعد الفعل»[3].

فهم كانوا يعرفون الحق وينكرونه، من أقوال المفسرين يتبين أن بالعقل يستطيع الإنسان التمييز بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

«﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بتحريم ذلك ونسبته إلى الله سبحانه وتعالى، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: الحلال من الحرام والمبيح من المحرم، أو الآمر من الناهي، ولكنهم يقلدون كبارهم، وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك، ولكن يمنعهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به»[4].

فهم يعرفون الحلال والحرام ويميزونه، لكن حبهم لتقليد الآباء هو الذي أعمى بصائرهم عن اتباع الحق.

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦].

«وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تنتقدون علي شيئا تغمصوني به؛ أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل»[5].

«وقل لهم: إنني إنما جئتكم بهذا القرآن بإذن الله ومشيئته، ولو شاء الله أن لا أتلوه عليكم ما تلوته، ولو شاء أن لا يعلمكم به بإرسالي إليكم، لما أرسلني، ولما أدراكم

(١) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٥١.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٢/ ١٩٧.
(٣) روح البيان، إسماعيل حقي، ١/ ١٦٧.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٤٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٢٥٣.

به، ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم لتهتدوا، وتكونوا خلائف في الأرض. فقد عشت فيكم وبينكم سنين طويلة من عمري لم أبلغكم خلالها شيئا، لأن الله لم يكن قد أوحى إلي برسالته، فلما أوحى إلي، وأمرني بأن أبلغكم أوامره فعلت، أليس لكم عقول تميزون بها بين الحق والباطل؟»[1].

رابعًا: التدبر في آيات القرآن:

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم من الآيات التي تبين لنا أن الغرض منها هو التدبر والتأمل، وذلك ليزداد الإيمان بالله وتقوى العقيدة، ونصل إلى مرتبة اليقين بالله تعالى، ولا يعترينا شك في أي شيء مما وصلنا على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه من لدن حكيم خبير، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨].

«﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم في تدبر الأمور، وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها»[2].

«﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال»[3].

«﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: ومثل هذا التفصيل البديع بضرب الأمثال الكاشفة للمعاني، المقربة لها إلى العقول، إذ تنقل المعقول إلى المحسوس التي هي به ألصق، ولإدراكه أقرب-نفصل حججنا وآياتنا لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال، واستخراج مغازيها ومراميها للوصول إلى الأغراض التي لأجلها ضربت، ولمثلها استعملت، فيستبين الرشد من الغي، والحق من الباطل، ولأمر ما كثرت الأمثال في جلاء الحقائق، وإيضاح ما أشكل منها على الناظرين»[4].

الواجب استعمال العقول في التدبر والتفكر للآيات والأمثال التي يضربها الله لنا كي ننجو من الوقوع في المحظور، والخوف كذلك لا يكون إلا منه سبحانه، فكل شيء بيده، فلم نخاف المخلوقين وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، فكيف سيقومون بنفعنا أو ضرنا؟! نسأل الله السلامة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنكار توبيخي فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب والتأمل في أحكامه»[5].

(١) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ١/ ١٣٨١.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٥٩.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٠٦.
(٤) تفسير المراغي، ٢١/ ٤٤.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٥٨.

«وهذا كالحث على التدبر للقول؛ لأنهم كانوا عقلاء، لأن التدبير من لوازم العقل، فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل»[(١)].

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر، فتعلموا أنه ليس من طوق البشر، بل هو من عند الحكيم العليم الواحد القهار»[(٢)].

«فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتم جزما لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذا أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون»[(٣)].

«أفلا تعقلون أنه ليس من قبلي، أي: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه، لتعلموا أنه ليس إلا من الله»[(٤)].

مما سبق نجد أننا لو تدبرنا كتاب الله وآياته المسطورة والمنظورة بعقولنا وفطرتنا السليمة، كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى، واتبعنا التعاليم والمبادئ الموجودة في ديننا الحنيف، لاهتدينا بأمر الله وكنا من الفائزين في الدنيا والآخرة.

خامسًا: آثار المهلكين من الأمم السابقة:

من وسائل تربية الله تعالى للبشر، ذكره القصص لأخذ العبرة والامتثال لحكم الله سبحانه وتعالى، فذكر لنا قصص الأمم الغابرة التي حادت عن منهج الله سبحانه، فبين الله عز وجل سنته فيهم وذلك بالخسف والدمار وإنزال العذاب عليهم، وترك من آثار ديارهم المدمرة للتدبر وليكونوا عبرة لغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني: يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنون»[(٥)].

« فتتدبروا سنن الله في الغابرين؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير؟ »[(٦)].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٣/ ٤٥٣.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٤٥٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٩.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١١/ ١٢٧.
(٥) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٥٦٠.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٠٣٥.

١٣٧-١٣٨].

والمعنى تمرون على منازلهم في ذهابكم إلى الشام ورجوعكم منه نهارًا وليلًا أفلا تعقلون ما تشاهدونه في ديارهم من آثار عقوبة الله النازلة بهم، فإن في ذلك عبرة للمعتبرين وموعظة للمتدبرين[١].

«أي: أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟»[٢].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لكم عقول تتدبرون بها وتتفكرون»[٣].

«أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم»[٤].

ويظهر من خلال ما نقل من أقوال المفسرين آنفًا أن معنى العقلان في الآيات السابقة يدور حل الاعتبار والاتعاظ بما تضمنه السنن الجارية من دروس في حياة الأفراد والأمم، فلنعتبر مما حدث في الأمم السابقة، وننظر إلى ما آلت إليه الأمم التي حادت عن المنهج السليم، الذي أرسل الله لهم به الرسل للهداية والنجاة من العقاب، وتدبرنا ذلك في أنفسنا بعقولنا وبصائرنا، ترانا ماذا كنا فاعلين؟

فالسعيد من وعظ بغيره، نسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٨٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٣٨.
(٣) جامع البيان، الطبري،٢١/ ١٠٥.
(٤) إرشاد العقل السليم،أبو السعود ٧/ ٢٠٥.

سادسًا: حقيقة الحياة الدنيا والحياة الآخرة

في القرآن الكريم العديد من الآيات التي يدعونا الله عز وجل من خلالها للمقارنة بين الدنيا وشقائها، والدار الآخرة بنعيمها والفوز بالجنة، والذي يتدبر الأمر هو الذي يمتلك عقلًا واعيًا، ويحسن المقارنة فيترك متاع الدنيا القليل الزائل ويعمل من أجل النعيم الدائم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].

« ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون، أي الدارين أحق بالإيثار»[٥].

« أفلا تعقلون إن الآخرة خير من الدنيا فيعملون لها»[٦].

« نصيحة القرآن للعقلاء بأن لا يغتروا بالحياة الدنيا، ويهملوا شأن الآخرة وهي خير للمتقين»[٧].

في الآية السابقة نلاحظ كيف أن القرآن ينكر على الذين يعقلون كيف لا يتدبرون الآيات، ويشغلون أنفسهم بالدنيا وما فيها من مظاهر اللهو واللعب، ويتركون الإعداد

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٥٤.
(٦) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ١٠٩.
(٧) أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٢.

للآخرة التي هي خير وأبقى لمن أخلص في طلبها واستعمل دنياه في تحصيلها.

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف: ١٦٩].

«﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لدوامها، وخلوص منافعها ولذاتها عن المضار والآلام، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي، ولا تؤثرون الأدنى الفاني، على الأعلى الباقي»[1].

«﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ فيعلموا ذلك، ولا يستبدلوا الأدنى الحقير المؤدي إلى العقاب بالنعيم الكبير المخلد في دار الثواب»[2].

«﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ يعني: أفلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أن ما في الآخرة خير وأبقى لأنها دار المتقين»[3].

«﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره. فخاصية العقل النظر للعواقب.

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيمًا عظيمًا باقيًا فأنى له العقل والرأي؟»[4].

مما سبق نلاحظ أن القرآن الكريم ذكر أن العاقل هو الذي يقارن بعقله بين الدنيا ومتاعها الزائل، والآخرة ونعيمها الباقي ويختار بعقله السليم ما هو خير له في دنياه وآخرته، و الشقي من يؤثر الدنيا ومتاعها القليل الزائل ويستبدلها بالخلود في الجنة ونعيمها المقيم، يبيع آخرته بعرض ومتاع سقط لا قيمة له، مقارنة بما كان ينتظره في الجنة لو أعد له واهتدى. نسأل الله السداد والتوفيق.

سابعًا: الأمثال القرآنية:

ضرب المثل نوع من أنواع تقريب العلم وفهمه لعقول الناس، وهو وسيلة من الوسائل التعليمية التي نهجها القرآن منها القصص والمثل وغيرها، وذلك لتقريب الصورة للأذهان، والاستفادة من الأحكام والأوامر والنواهي والتدبر والتفكر في آيات الله، والحذر من الوقوع في المعصية، والتعرض لغضب الله والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: ٥٤].

(١) محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ٣٤٤.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٢٧٧.
(٣) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٦٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٧.

«﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بيَّنا ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: ليتذكروا ويتعظوا»[1].

«﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل خبر يحتاجون إليه مضروب يعتبرون به، ومن جملته ما مر من مثل الرجلين، ومثل الحياة الدنيا، أو من كل نوع من أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان، التي هي، في الغرابة والحسن واستجلاب القلوب، كالمثل المضروب، ليتلقوه بالقبول»[2].

«﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ضربناه للناس: تقريبًا لأفهامهم»[3].

«يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن، وجلالته، وعمومه، وأنه صرف فيه من كل مثل، أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادًا، وطمأنينة، ونورًا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور»[4].

«يقول عز ذكره: ولقد مثلنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، ووعظناهم فيه من كل عظة، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة ليتذكروا فينيبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله وعبادة الأوثان»[5].

وهكذا نرى أن الغاية من ضرب المثل هو تقريب المعنى للأفهام، وتوضيح الصورة لأخذ العبرة، والانقياد والطاعة وزيادة الطمأنينة.

قوله تعالى: ﴿۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤].

«﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: بضرب الأمثال وتدبرها»[6].

«﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تعتبرون وتتعظون؟ والغرض التفريق بين أهل الطاعة والإيمان، وأهل الجحود والعصيان»[7].

«﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون بضرب الأمثال فترجعون عن غيكم»[8].

«﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون بضرب الأمثال والتأمل فيها»[9]، من الآية السابقة نجد أن ضرب المثل كان للتدبر والاتعاظ.

(١) لباب التأويل، الخازن، ٣/ ١٦٨.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٣/ ٢٨٢.
(٣) أوضح التفاسير، الخطيب، ١/ ٣٥٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٨٠.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤٨.
(٦) محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ٨٦.
(٧) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ٢/ ٩.
(٨) البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٥٢١.
(٩) السراج المنير، الشربيني، ٢/ ٥٢، التفسير المظهري، ٥/ ٨٠.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾ [محمد: ٣].

«﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: مثل ذلك البيان الواضح، بين الله أمر كلٍّ من الفريقين المؤمنين والكافرين بأوضح بيانٍ وأجلى برهان؛ ليعتبر الناس ويتعظوا»[(١)].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

«هذا المثل وغيره من الأمثال التي في القرآن، نضربها للناس تنبيهًا لهم، وتقريبًا لما بعد من أفهامهم»[(٢)].

«أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس»[(٣)].

وهكذا نرى كيف ضرب الله تعالى المثل لتقريب الصورة وسهولة الاستيعاب، وأخذ العبرة من الأمثال.

(١) صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ١٩١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٣٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣١.

ثمار استعمال العقل

الحمد لله على نعمة العقل التي أنعم الله تعالى بها علينا، فبه عرفنا الله ربنا وبه عبدناه، ونسير كذلك أمرنا في الحياة الدنيا، وبه ميزنا عن سائر خلقه من الطيور والحيوانات، وبه نميز بين الحق والباطل، وبواسطته تعلمنا الحلال من الحرام، وتعلمنا العلوم الشرعية والدنيوية، وبه جاهدنا أنفسنا والشيطان.

أولًا: الهداية:

«إن القرآن هو كتاب العقل، وأنه بأكمله دعوة لتحرير العقل من عقاله، وأنه يدعونا -بعبارات تختلف في أسلوبها وتتحد في معناها- إلى استعمال العقل ووزن كل شيء بميزانه.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني: أليس لكم عقل تعقلون به أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة؟»[(٤)].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن من ليس له ذهن ولا قوة ولا منفعة ولا مضرة أن لا تعبدوه»[(٥)].

(٤) لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٢٢٩.
(٥) تفسير السمرقندي، ٢/ ٤٣١.

وقوله: «﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أليس لكم عقل تعرفون هذا؟»[1].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟»[2].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم»[3].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذي لا يدين به إلا كل جاهل ظالم فاجر»[4].

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

« قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوو العقول الصحيحة، والفطر المستقيمة »[5].

«وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أرشدهم الله إلى الحق. وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: أولو العقول»[6].

«﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لدينه، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة، وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله وقبول النفس لها»[7].

مما سبق نجد أن الله سبحانه وتعالى أكرم الإنسان بالعقل، وبهذا العقل السليم اهتدى لوحدانية الله عز وجل، فأكرمه الله تعالى بالهداية والعلم، مما زاد تقواه وخشيته لله تعالى، وهذا فضل من الله ومنة لذوي العقول السليمة والفطرة الصافية.

ثانيًا: مطابقة العلم للعمل:

من العار أن يكون الإنسان متعلمًا لأمر معين، ويعلمه لغيره، وهو أولى أن يقوم بالعمل بما يعلم، قال صلى الله عليه وسلم مادحًا من تعلم وعلم، أي: من عمل بعلمه، فالإنسان العاقل هو من يقوم بالعمل بما يعمل، عن عثمان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[8].

«قال الحكماء: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، وحياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفاف، وحياة الحلم العلم، وحياة العلم الفهم، وحياة الفهم العمل، وحياة العمل القبول»[9].

(١) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير اليماني، ١/ ١١٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٣٥١.
(٣) إرشاد العقل السليم،أبو السعود ٦/ ٧٦.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٧/ ٨٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٩٠
(٦) تفسير السمعاني، ٤/ ٤٦٤.
(٧) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ٣٩.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم ٥٠٢٧، ٦/ ١٩٢.
(٩) المجالسة وجواهر العلم، الدينوري،

و«قال بعض الحكماء: أفضل العقل معرفة الرجل نفسه، وأفضل العلم وقوف الرجل عند علمه»[(١)].

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قيل: إن من وعظ الناس يجتهد أن ينفذ موعظته إلى القلوب، فإذا خالف قوله فعله كان ذلك سبب تنفير القلوب عن قبول موعظته»[(٢)].

«العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصا إذا كان عالما بذلك، قد قامت عليه الحجة»[(٣)].

«وقال الحرالي: ولما كان فيهم من أشار على من استهداه بالهداية لاتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يهدوا أنفسهم لما أرشدوا إليه غيرهم، أعلن تعالى عليهم بذلك نظمًا لما تقدم من نقض عهدهم ولبسهم وكتمهم بما ظهر من نقص عقولهم، في أن يظهر طريق الهدى لغيره ولا يتبعه، فأخرجهم بذلك عن حد العقل الذي هو أدنى أحوال المخاطبين، وزاد في تبكيتهم بجملة حالية حاكية تلبسهم بالعلم والحكمة الناهية عما هم عليه»[(٤)].

«وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام عن انتفاء تعقلهم استفهامًا مستعملًا في الإنكار والتوبيخ، نزلوا منزلة من انتفى تعقله فأنكر عليهم ذلك، ووجه المشابهة بين حالهم وحال من لا يعقلون أن من يستمر به التغفل عن نفسه وإهمال التفكر في صلاحها مع مصاحبة شيئين يذكرانه، قارب أن يكون منفيًّا عنه التعقل»[(٥)].

وهكذا نجد التقريع والذم لمن لا يعمل بما يعلمه للناس.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢-٣].

«تتناول ذم من قال ما لا يفعله على أي وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط»[(٦)].

«هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه؟»[(٧)].

«أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر، وربما نزهتم أنفسكم عنه،

٤/ ٣٣٢.
(١) المصدر السابق، ٤/ ٤٩٣.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٤٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥١.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٩٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٤٧٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٧٩.
(٧) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٦١.

وأنتم متلوثون به ومتصفون به. فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه»[1].

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٨].

«قال قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله»[2].

«أنه مال إلى الدنيا ورغب فيها وآثرها على الآخرة واتبع هواه، أي: اتبع ما يهواه، وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله، وهو حطام الدنيا»[3].

«وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاد العبد إلى الشهوات، يكون سببا للخذلان»[4].

«هنا نفيٌ بضرب المثل للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله الكريم بعد أن أيدها بالأدلة العقلية والكونية، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالمًا بها قادرًا على بيانها، لكنه لا يعمل بها، بل يأتي عمله مخالفًا لعلمه. لذا سلبه الله ما آتاه»[5].

فالعمل المبارك المقبول هو ما كان عن علم، كذلك العمل الطيب المبارك هو الذي ينفع صاحبه ويعمل به، فيكون حجة له لا عليه، ويرفع الله درجاته في الجنة.

ثالثًا: الامتناع عن المعاصي:

السعيد الذي منحه الله تعالى عقلًا سليمًا وقلبًا عامرًا بالتقوى والإيمان، فهو يكون بعيدًا كل البعد عن المعاصي؛ لأن قلبه مضاء بنور الإيمان، وعقله النير وفطرته السليمة يصد بهما كل خطرات الشيطان، كذلك نفسه التي بين جنبيه تكون مطمئنة، تدعوه للعمل الصالح والطاعة والسلوك القويم الذي يرضي الله تعالى عنه، فلا يسلك سبل الشيطان الملتوية، بل يبتعد عن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥٨.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٧٢.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٠٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٨.
(٥) تيسير التفسير، إبراهيم القطان، ٢/ ٨٩.

كل ما يغضب الله تعالى، اللهم ألهم نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم آمين.

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تنتفعوا بعقولكم[١].

«﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تستعملون عقولكم التي تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح المذكورة»[٢].

«وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ رجاء أن يعقلوا، أي: يصيروا ذوي عقول؛ لأن ملابسة بعض هذه المحرمات ينبئ عن خساسة عقل، بحيث ينزل ملابسوها منزلة من لا يعقل، فلذلك رجي أن يعقلوا»[٣].

«ذلكم وصاكم به الله، وأرشدكم، لتعقلوا الخير والمنفعة في فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، إذ هو مما تدركه العقول، وفي هذا تعريض بأن ما هم عليه لا يعقل له معنى، ولا تظهر له فائدة عند ذوى العقول الراجحة»[٤].

«لعلكم تعقلون عن الله أوامره ونواهيه، أي: ليعدكم لأن تعقلوا الخير والمصلحة في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه»[٥].

قال تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢١-٢٧].

أنا أتبرأ مما تعبدون إلا من الله عز وجل، ويجوز أن يكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن، فيكون المعنى: لكن الذي فطرني فإنه سيهديني، أي: سيرشدني لدينه ويوفقني لطاعته[٦].

«يعني: بريء من معبودكم، إلا الذي خلقني، فإني لا أتبرأ منه، ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٣١٥.
(٢) إرشاد العقل السليم،أبو السعود، ٣/ ١٩٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨ أ/ ١٦٢.
(٤) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ١/ ٦٨٢.
(٥) التفسير المنير، الزحيلي، ٨/ ٩٨.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ٦٢٩.

يعني: يثبتني على دين الإسلام»[1].

«قال ذلك ثقة بالله وتنبيهًا لقومه أن الهداية من ربه»[2].

«لكن الذي فطرني هو معبودي الهادي المنجي من العذاب، وفي هذا استدعاءٌ لهم، وترغيبٌ في طاعة الله، وتطميع في رحمته»[3].

فصاحب العقل السليم والفطرة السليمة، يمنع نفسه من ارتكاب المعاصي والوقوع في المحرمات، وذلك لأن العقل معناه: الكف والحبس، فهو يحبس صاحبه ويكفه عن كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى.

رابعًا: البعد عن التقليد المذموم:

أرسل الله تعالى الرسل لهداية الناس والأخذ بأيديهم من الظلمات إلى النور وهداية قلوبهم بنور الإيمان، بعد ما كانت مظلمة بظلمة الكفر، واتباعهم لتقاليد الآباء الكفرية والشركية التي هي بعيدة كل البعد عن شريعة الإسلام، ولكن بعضهم رفضوا الانقياد لمنهج الله القويم، فكان عقابهم جهنم وبئس المصير، فخسروا الدنيا والآخرة، وشبههم الله تعالى بالأنعام بل هم أضل سبيلًا؛ لتعطيلهم عقولهم عن الفهم والإدراك، وصمهم لآذانهم، وطمس أبصارهم عن نور الهداية والإيمان.

إن البشرية قد بلغت رشدها فأصبحت تقاد بالعقل وحده، ولم يعد ينفع معها مجرد الخوارق والقوارع الملجئة أو شبه الملجئة، فجاء الإسلام دينًا منطقيًّا، رفع من قيمة العقل،، ثم هو بعد ذلك يذم التقليد وينعي على المقلدين لآبائهم وأحبارهم ورهبانهم[4].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠-١٧١].

«﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ يعني لا يعلمون شيئا من أمر الدين، لفظه عام ومعناه خاص، وذلك أنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى الصواب»[5].

فقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: كفار قريش من بني عبد الدار، قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام. فقال الله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من التوحيد ومعرفه الرحمن ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ للحجة البالغة لا يعقلون شيئًا

(١) تفسير السمرقندي، ٣/ ٢٥٥.
(٢) النكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٢٢٢.
(٣) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٥/ ١٧٨.
(٤) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، محمد حسين الذهبي، ١/ ٥٩.
(٥) لباب التأويل، الخازن، ١/ ١٠٢.

من أمر الدين ولا يهتدون، معنى الآية في أحد الأقوال: ومثل الذين كفروا في قلة عقلهم وفهمهم عن الله عز وجل وعن رسوله وسوء قبولهم عنهما كمثل المنعوق به من البهائم، التي لا تفقه من الأمر والنهي غير الصوت، فكذلك الكافر في قلة فهمه وسوء تفكره، الكافر ليس له من دعائه الآلهة وعبادته الأوثان إلا العناء والبلاء، ولا ينتفع منها بشيء فهم لا يعقلون[1].

«يقول تعالى ذكره لهؤلاء الكفار: فكيف أيها الناس تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم فتتركون ما يأمركم به ربكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئًا، ولا هم مصيبون حقًّا، ولا مدركون رشدًا؟ وإنما يتبع المتبع ذا المعرفة بالشيء المستعمل له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه -فيما هو به جاهل- إلا من لا عقل له ولا تمييز»[2].

«معناه أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالًا فيتابعوهم بغير حجة؟ فكأنه نهاهم عن التقليد وأمرهم بالتمسك بالحجة»[3].

«وفي هذا دلالة على ذم التقليد، وهو قبول الشيء بلا دليل ولا حجة. وحكى ابن عطية أن الإجماع منعقد على إبطاله في العقائد. وفي الآية دليل على أن ما كان عليه آباؤهم هو مخالف لما أنزل الله، فاتباع أبنائهم لآبائهم تقليد في ضلال. وفي هذا دليل على أن دين الله هو اتباع ما أنزل الله، لأنهم لم يؤمروا إلا به»[4].

وهكذا نجد كيف أن الله تعالى ذم المقلدين للآباء أو الرؤساء الجهال، والمعرضين عن اتباع منهج الله تعالى وتعاليمه.

قال تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢١-٢٣].

«وفي هذا دليل على إبطال التقليد، لذمه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم»[5].

«أي: لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية بل اعترفوا بأن لا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم»[6].

«وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد وقبحه، فإن هؤلاء المقلدة في الإسلام إنما يعملون بقول أسلافهم، ويتبعون آثارهم، ويقتدون بهم، فإذا رام

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/ ٤٣.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٣/ ٣٠٧.
(٣) تفسير السمرقندي، ١/ ١١٢.
(٤) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٢/ ١٠٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٧٥.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٤٣.

الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة، أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نيِّر، ولا حجة واضحة، بل بمجرد قال وقيل لشبهة داحضة، وحجة زائفة، ومقالة باطلة، قالوا بما قاله المترفون من هذه الملل: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون»[(١)].

«أي: لم يأتوا بحجة عقلية، أو نقلية، بل اعترفوا بتقليد آبائهم الجهلة، وقالوا: إنا وجدنا آباءنا على حالة عظيمة تقصد، وإنا مهتدون على أعمالهم، وكذلك، أي: والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتمسكهم بالتقليد»[(٢)].

«وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل»[(٣)].

« هذا الكلام مسوقًا مساق الذم لهم إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرسول وبين ما تلقوه من آبائهم، فإن شأن العاقل أن يميز ما يلقى إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق»[(٤)].

«ليست لهم حجة عقلية ولا حجة نقلية تبرر لهم أفعالهم، وإنما السبب الحقيقي أنهم يقلدون آباءهم تقليد الأعمى مع التعصب الشديد ولو كانوا على باطل»[(٥)].

« وهذا دليل على إبطال التقليد في العقائد والأصول، لأن الله ذمهم على تقليد آبائهم، وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم»[(٦)].

«قال سبحانه عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].

فقد كانت لديهم عقول وأسماع لزمتهم بها الحجة عند الله تعالى»[(٧)].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

« بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى كلام الله، وهم يأخذون بكلام آبائهم، وبين كلام الله وكلام العلماء بون عظيم، فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهال؟!»[(٨)].

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٦٣٢.
(٢) مراح لبيد، محمد الجاوي، ٢/ ٣٨٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦٤.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥/ ١٨٧.
(٥) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ٣/ ٣٨٩.
(٦) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٥/ ١٣٩.
(٧) مقام العقل في الإسلام، د.محمد عمارة، ص ٧٦.
(٨) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٥/ ٤٥٥.

«﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: وإذا قيل لهؤلاء المجادلين في توحيد الله: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع المطهرة، لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين فيما اعتقدوه من دين. وهذا في غاية القبح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى كلام الله الهادي إلى الحق والخير، وهم يأخذون بكلام آبائهم. وهذا منع صريح من التقليد في أصول العقيدة، لذا وبخهم الله على سوء مقالتهم»[1].

«فهذا هو سندهم الوحيد، وهذا هو دليلهم العجيب! التقليد الجامد المتحجر الذي لا يقوم على علم ولا يعتمد على تفكير. التقليد الذي يريد الإسلام أن يحررهم منه، وأن يطلق عقولهم لتتدبر ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور، فيأبوا هم الانطلاق من إسار الماضي المنحرف، ويتمسكوا بالأغلال والقيود.

إن الإسلام حرية في الضمير، وحركة في الشعور، وتَطَلُّعٌ إلى النور، ومنهج جديد للحياة، طليق من إسار التقليد والجمود. ومع ذلك كان يأباه ذلك الفريق من الناس، ويدفعون عن أرواحهم هداه، ويجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير»[2].

وإذا دعوا إلى اتباع وحي الله رجعوا إلى التقليد المحض بغير حجة فسلكوا طريق الآباء، فكان القائل منهم يقول: هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير[3].

خامسًا: إدراك الحكمة من الأحكام الشرعية:

لقد مَنَّ الله علينا بنعمة العقل، لنهتدي به خلال رحلة الحياة، فعن طريقه نعبد الله تعالى على بصيرة، حيث نتدبر الأحكام الشرعية، نتعلمها ونفهمها ونتفقه ما بها من أوامر ونواهٍ، فبإدراكنا الحكمة يزداد اليقين، ويقوى الإيمان، وتتسع مدارك العقول كلما استنار الإنسان بعلم الله تعالى وهدايته لنا.

«إن الآيات التشريعية التي تبين فضل الله على الناس في تشريع الأحكام لهم كثيرة تكفل القسم المدني من القرآن بها، وجاءت وفق مبادئ الإسلام العظيم في التيسير ورفع الحرج وغيرها، مما ميز طبيعة التشريع الإسلامي عن غيره، وهنا فنحن أمام مجموعة من الآيات المتحدثة عن حكمة تحريم الخمر والميسر، وعن مشروعية النفقة والصدقة، وعن أهمية سنة الزواج، وهي أمور قليلة إن قورنت بمجموع ما تحدث عنه القرآن في مسائل التشريع، لكن طلب التفكير فيها ربما لأمور خفية قد لا تدرك بمجرد العقل أو السمع، فلا بد من

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ١٦٠.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٧٩٣.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٣٥٣.

إعمال الفكر فيها»[1].

«القرآن العظيم جاء بهدايات كاملة تامة، تفي بحاجات جميع البشر في كل زمان ومكان؛ لأن الذي أنزله هو العليم بكل شيء، خالق البشرية والخبير بما يصلحها ويفسدها، وما ينفعها ويضرها، فإذا شرع أمرًا جاء في أعلى درجات الحكمة والخبرة، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

ويزداد الوضوح عند التأمل في أحوال الأنظمة والقوانين البشرية التي يظهر عجزها عن معالجة المشكلات البشرية، ومسايرة الأوضاع والأزمنة والأحوال، مما يضطر أصحابها إلى الاستمرار في التعديل والزيادة والنقص، فيلغون غدًا ما وضعوه اليوم؛ لأن الإنسان محل النقص والخطأ، والجهل لأعماق النفس البشرية، والجهل بما يحدث غدًا في أوضاع الإنسان وأحواله وفيما يصلح البشرية في كل عصر ومصر»[2].

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢].

«أي: لكي تعقلوا ما بينت لكم من الفرائض والأحكام وما فيه صلاحكم وصلاح دينكم»[3].

«ولما بين تعالى هذه الأحكام العظيمة المشتملة على الحكمة والرحمة امتن بها على عباده فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾، أي: حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها»[4].

«فكذلك أبين لكم سائر الأحكام في آياتي التي أنزلتها على نبيي محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب، لتعقلوا- أيها المؤمنون بي وبرسولي- حدودي، فتفهموا اللازم لكم من فرائضي، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، وعاجلكم وآجلكم، فتعملوا به ليصلح ذات بينكم، وتنالوا به الجزيل من ثوابي في معادكم»[5].

«وعد بأنه سيبين لعباده من الدلائل والأحكام ما يحتاجون إليه معاشًا ومعادًا. لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها»[6].

«أي: مثل هذا التبيين الذي سبق من الأحكام، يبين لكم في المستقبل ما بقي من الأحكام التي يكلفها العباد. لعلكم تعقلون ما يراد منكم من التزام الشرائع والوقوف

(١) مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم، مجلة الشريعة والقانون، د.محمد خازر المجالي، ص ٥٢.
(٢) عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة، القحطاني، ١/ ٥٠.
(٣) لباب التأويل، الخازن، ١/ ١٧٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٦.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٥/ ٢٦٦.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٤٨.

عندها، لأن التبيين للأشياء مما يتضح للعقل بأول إدراك، بخلاف الأشياء المغيبات والمجملات، فإن العقل يرتبك فيها، ولا يكاد يحصل منها على طائل»[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١].

«أي: لكي تعقلوا فوائد هذه التكاليف في الدين والدنيا»[2].

«أي: ليعدكم لأن تعقلوا الخير والمصلحة في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه»[3].

«أي: وصاكم الله بذلك لما فيه من إعدادكم، وباعث الرجاء في أنفسكم لأن تعقلوا ما فيه الخير والمنفعة في ترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به، فإن ذلك مما تدركه العقول الصحيحة بأدنى تأمل، وفيه دليل على الحسن الذاتي وإدراك العقول له بنظرها، وإذا هي عقلت ذلك كان عاقلا لها ومانعا من المخالفة. وفيه تعريض بأن ما هم عليه من الشرك وتحريم السوائب وغيرها، مما لا تعقل له فائدة، ولا تظهر للأنظار الصحيحة فيه مصلحة»[4].

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور: ٦١].

«فأنزل سبحانه لهم في كل وقت شرعًا يليق بذلك الزمان على لسان رسول من رسله عليهم الصلاة والسلام، جعل ذلك الشرع يطابق العقل السوي، والنور الضوي، والمنهل الروي، والسبب القوي، من تمسك به هدي ولم يزغ، حد فيه سبحانه حدودًا، وأقام فيه زواجر، لتظهر حكمته، ويتضح علمه وقدرته، فصارت شرائع متفقة الأصول، مختلفة الفروع، بحسب الأزمنة، إشارة إلى أن الفاعل في تغيير الأحكام

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٢/ ٥٥٥.
(٢) مراح لبيد، محمد الجاوي، ١/ ٣٥٤.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي، ٨/ ٩٨.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٨/ ١٦٦.

بحسب الأزمان واحد مختار، وامتحانًا للعباد، تمييزًا لأهل الصلاح منهم من أهل الفساد»[1].

«أي: ما في تضاعيفها من الشرائع والأحكام، وتعملون بموجبها، وتحوزون بذلك سعادة الدارين»[2].

«تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات الله سبحانه وفهم معانيها»[3].

«﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد في العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك»[4].

«وكذلك يبين الله للناس آياته وحكمه لعلهم يدركون المنهج الإلهي، ولعلهم يعقلون ما في هذه الآيات والحجج»[5].

نجد أنه من الحكمة التدبر في الآيات والأحكام الشرعية، ونوقن بأن الله تعالى حد الحدود ووضع القيود، والفرائض والسنن لحكمة، بعضها أعلمنا بها، وبعضها أخفى سرها ولا يعلمها إلا هو سبحانه لغاية يريدها هو.

سادسًا: عدم اتباع الشيطان:

العاقل من ائتمر بأوامر الله عز وجل، حيث نهانا عن اتباع الشيطان؛ لأنه عدو لنا، ولا يريد لنا إلا الغواية والضلالة، لذا علينا أن نكون دائمًا يقظين، وعقولنا وقلوبنا متنبهة؛ لئلا يوقعنا في شركه، ونحن في غفلة فنخسر دنيانا وأخرانا، نسأل الله السلامة.

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

«أي: لا تطيعوا الشيطان في معصية الله»[6].

«قد رأيتم آثار الهالكين قبلكم بطاعة الشيطان، أفلم تعقلوا ذلك؟!»[7].

«قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أي: ألم آمركم وأوصيكم يا بني آدم ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يعني: لا تطيعوه فيما يوسوس ويزين لكم من معصية

(١) نظم الدرر، البقاعي، ١٣/ ٣٢١.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ١٩٧.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٦٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٥.
(٥) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ١/ ٢٧٣٤.
(٦) معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ٢٣.
(٧) زاد المسير، الجوزي، ٣/ ٥٢٩.

الله ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ أي: أطيعوني ووحدوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: لا صراط أقوم منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: خلقًا كثيرًا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ يعني: ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس»[1].

هذا تقريع من الله للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم؛ واتبعتم الشيطان فيما أمركم به، أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعدولكم إلى اتباع الشيطان؟![2].

ألم أوصكم يا بني آدم أن لا تطيعوا الشيطان فيما يوسوس به إليكم من المعاصي، لأنه لكم عدو مبين واضح العداوة، ولقد أضل الشيطان منكم يا بني آدم أممًا كثيرة، أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ أنها لضلالهم، أو أفلم تكونوا تعقلون شيئًا أصلًا، فلذلك كفرتم ككفرهم واستحققتم العذاب مثلهم[3].

«رجوع إلى بيان معاداة الشيطان مع ظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل ورأي»[4].

«فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وبعبادة غيره فهو تولية، فإن لم يقدر يأمره بعبادة الله لأمر غير الله من رئاسة وجاه وغيرهما فهو صد، وهو يفضي إلى التولية؛ لأن مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية»[5].

«﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ عداوة الشيطان لكم»[6].

«﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ أيها المشركون، إذ أطعتم الشيطان في عبادة غير الله، أنه لا ينبغي لكم أن تطيعوا عدوكم وعدو الله، وتعبدوا غير الله»[7].

«﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ استفهام تقريع على تركهم الانتفاع بالعقل»[8].

«﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله»[9].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(١) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ١١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، بن كثير، ٦/ ٥٨٤.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ٨/ ٣٨٠.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٧٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٠١.
(٦) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٤٣٣.
(٧) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٥٤٣.
(٨) مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ١٠٩.
(٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٤٧.

﴿١٦٩﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

فهذا نهي عن اتباع وحي الباطل والشر، لأنه من إغواء الشيطان،ثم بين كيفية عداوته وفنون شره وإفساده فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ أي: إنما يوسوس الشيطان ويتسلط عليكم، كأنه آمر مطاع بأن تفعلوا ما يسوؤكم في دنياكم وآخرتكم، وأن تجترحوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والتصرف في الأكوان بدون اتخاذ الأسباب قد ضلوا ضلالًا بعيدًا واتبعوا أمر الشيطان، ومثلهم من اتخذ رأي الرؤساء حجة في الدين من غير أن يكون بيانًا أو تبليغًا لما جاء عن الله، فهؤلاء قد أعرضوا عن سنن الله، وأهملوا نعمة العقل، واتخذوا من دون الله الأنداد، قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ويأمركم أن تقولوا على الله في دينه ما لا تعلمون علم اليقين أنه شرعه لكم من عقائد وشعائر دينية، أو تحليل ما الأصل فيه التحريم، أو تحريم ما الأصل فيه الإباحة، ففي كل ذلك اعتداء على حق الربوبية بالتشريع، وهذا أقبح ما يأمر به الشيطان، فإنه الأصل في إفساد العقائد وتحريف الشرائع[1]، أي: لا تطيعوه. وهذا التوبيخ يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي: فلا كان لكم عقل يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم وليا، فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك، فإذا أطعتم الشيطان وعاديتم الرحمن وكذبتم بلقائه ووردتم القيامة دار الجزاء وحق عليكم القول بالعذاب[2].

«وفرع عليه توبيخهم بقلة العقول بقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾، فالاستفهام إنكاري عن عدم كونهم يعقلون، أي: يدركون، إذ لو كانوا يعقلون لتفطنوا إلى إيقاع الشيطان بهم في مهاوي الهلاك. وزيادة فعل الكون للإيماء إلى أن العقل لم يتكون فيهم ولا هم كائنون به»[3].

«ألا تطيعوه، والمراد: عبادة غير الله من الآلهة الباطلة، مما زين به الشيطان وأمر به، فهو لكم ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة، ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وحدوني وأطيعوني، أي: ألم أعهد إليكم بترك عبادة الشيطان، وبعبادتي. ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريق معتدل قويم، وهو دين الإسلام، أفلم تكونوا تعقلون

(١) انظر: تفسير المراغي، ٢/ ٤٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٣/ ٤٩.

عداوة الشيطان وإضلاله لكم؟!»[1].

«لقد عهدت إليكم يا بنى آدم عهدًا مؤكدا على ألسنة رسلي، أن لا تعبدوا الشيطان وأن لا تستمعوا لوسوسته، وأن لا تتبعوا خطواته، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة، بحيث لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء»[2].

وهكذا نجد أن النجاة في مخالفة الشيطان، ولا يكون ذلك إلا باستعمال العقل السليم الذي يعرف الله ويخشاه ويهتدي بهدي محمد صلى الله عليه وسلم.

سابعًا: الأدب والتوقير للرسول الكريم والعلماء:

لقد أرسل الله تعالى لنا الرسل لتنير عقولنا وقلوبنا بنور الهداية والإيمان، لذا علينا اتباعهم بالحسنى واحترامهم وتوقيرهم كما أمرنا ربنا سبحانه وتعالى، لأننا عن طريقه صلى الله عليه وسلم وصلنا القرآن، وتعرفنا على منهج الهداية والإيمان والشريعة الصحيحة السليمة، وعرفنا كيف نصد الشيطان ونستمر في طريق الهدى والتقوى، وكيفية التعامل مع الآخرين من أهل وأقارب وجيران.

أما الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أخل كثير من الناس بواجبهم تجاهه، بل هم يرون الغارات تشن وبشكل مستمر ومبرمج من اليهود والنصارى ومن لا أخلاق له، ولا يحركون ساكنًا، فقد دأب أعداء الله يملؤون الصحف والمنتديات الإلكترونية والكتب المدرسية الغربية بسمومهم وهجومهم الموبوء وإساءاتهم المتكررة، ولا زالوا منذ البعثة إلى يومنا هذا يتعاونون على الإثم والعدوان على رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. وقد كشف الله سبحانه حقيقتهم في القرآن الكريم، وفضح حقدهم الدفين في الصد عن شريعة خاتم الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات: ٢].

﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ أي: إذا نطق ونطقتم، ولا تجهروا له بالقول إذا كلمتموه؛ لأن رتبة النبوة والرسالة يجب أن توقر وتجل، ولا يكون الكلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم كالكلام مع غيره، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبحضرة العالم، وفي المساجد[3].

«أمرهم أن يبجلوه ويفخموه ويعظموه، ولا يرفعوا أصواتهم عنده، ولا ينادوه كما

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٣/ ٣٥.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١٢/ ٤٥.
(٣) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٩/ ٥٠٧.

ينادي بعضهم بعضا فيقول: يا محمد. بل يقولون: يا رسول الله، يا نبي الله»[1].

«﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام؛ لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير»[2].

«هذه آداب أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول صلى الله عليه وسلم من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام»[3].

«يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي عند مخاطبتكم له، ولا تجهروا بمناداته كما يجهر بعضكم لبعض، وميزوه في خطابه كما تميز عن غيره في اصطفائه لحمل رسالة ربه، ووجوب الإيمان به، ومحبته وطاعته والاقتداء به؛ خشية أن تبطل أعمالكم وأنتم لا تشعرون ولا تحسون بذلك»[4].

«وفي هذا ما فيه من الحث على توقير العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وتعظيم الأتقياء والصلحاء؛ أسوة بتوقير سيد الأنبياء»[5].

« فأمرهم الله بتوقيره، وأن يدعوه بالنبوة والرسالة والكلام اللين، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وبحضرة العالم وفي المساجد، وحرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتًا كحرمته حيًّا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه»[6].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٤].

«وصفهم بالجهل وقلة العقل»[7].

﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة، سيما لمن كان بهذا المنصب. لكان الصبر خيرًا لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب[8].

والكتاب العزيز مملوء بدعوة العقلاء إلى الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه الرحمة، وهو المثل، والهادي البشير، والسراج المنير، كيف لا وهو صلى الله عليه وسلم القدوة الكاملة والأسوة الحسنة لكل

(١) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ١٧٦.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٧/ ٥٢٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٣٦٤.
(٤) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ١/ ٥١٥.
(٥) أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ١/ ٦٣٣.
(٦) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٥/ ٢٦٨.
(٧) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ١٧٧.
(٨) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ١٣٤.

من كان يرجو الله واليوم الآخر؟!

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

شرح الله صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره، وأوجب طاعته، وحرم خيانته، وما تخلف ركب الأمة اليوم إلا يوم أن تخلفت عن الأدب معه صلى الله عليه وسلم، وما تجرع أفراد الأمة مرارات البعد عن جمال الحياة وطيب معانيها إلا يوم أن بعدت نفوسهم عن سيرته الرائعة وعن هديه، فصاروا يركضون وراء كل من أوتى ظاهرًا من الحياة الدنيا، يخلعون عليه لباس العظمة والبهاء باسمه وقوله وشخصه زعمًا وزورًا! فكم من صفيق وجه صفقوا له، وكتبوا عنه الأسفار، وتناقلوا أقواله! وكم من سفيهٍ نصبوه إمامًا يقتدى به، فأضحى الذي أملوه سرابًا بقيعةٍ وأضغاث أحلام! فالبعد عن سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم والاهتداء بغيره هو مستنقع الجهل وهوة الضلال وحياة الشقاء، وطاعته هداية وسعادة وفوز[1].

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت رسول الله تتجهموه بالكلام، وتغلظون له في الخطاب، ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضًا: يا محمد، يا محمد، يا نبي الله، يا نبي الله، يا رسول الله. نهاهم الله أن ينادوه كما ينادي بعضهم بعضا وأمرهم أن يشرفوه ويعظموه، ويدعوه إذا دعوه باسم النبوة[2].

«فذمهم الله بعدم العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب»[3].

(١) انظر: موسوعة الأخلاق، خالد الخراز، ١/ ١٣٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٢٧٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٩.

الآثار المترتبة على إهمال العقل

زودنا الله سبحانه وتعالى بالعقل، كي نعبده حق العبادة ونميز به بين الحق والباطل، وبين ما ينفعنا وما يضرنا، ولم يتركنا هملًا كالحيوانات، ولم يعط أحدًا منا عذرًا حين يعطل عقله، بل منع من تناول أي نوع من الأطعمة أو الأشربة التي تجعل العقل في غيبوبة عن العالم الذي حوله، أو تؤدي إلى ضرر في عقله أو صحته، فيمتنع عن العبادة، لكن بعض الأشخاص لم يستعملوا عقولهم في التفكر والتدبر في الآيات الكونية كما أمرنا الله تعالى، بل كانوا كالأنعام بل هم أضل سبيلًا بتقليدهم لآبائهم أو لكبرائهم في الكفر.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: ٢٢].

إن شر ما دب على الأرض من خلق الله عند الله، الذين يصمون عن الحق لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويتعظوا به، وينكصون عنه إن نطقوا به، الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، فيستعملوا بهما أبدانهم»[1].

«وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

إلا أنه زاد في هذا وصف العمى وكل هذه الأوصاف كناية عن انتفاء قبولهم للإيمان وإعراضهم عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وظاهر هذه الأخبار العموم»[2].

«إن شر الناس عند الله الصم عن الهدى البكم، يعني: الخرس الذين لا يتكلمون بخير، الذين لا يعقلون الإيمان»[3].

«سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم»[4].

«قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: ٤٤].

«أي: ما هم إلا كالأنعام، جعلهم كالأنعام؛ لأنهم لم يدركوا طريق الحق، ولم ينتفعوا بما ميزهم الله به عن البهائم من عقولهم وأسماعهم وأبصارهم»[5].

«أي: لا ينتفعون بما يعقلون»[6].

«لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل له، أضل وأسوأ حالًا ممن

(١) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٥٩.

(٢) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٥/ ٣٠٠.

(٣) تفسير السمرقندي، ٢/ ١٤.

(٤) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٣٤٣.

(٥) تفسير القرآن، السمعاني، ٤/ ٢٢.

(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٢٩.

لا يهتدي حيث لا دليل معه»[1].

«سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه، أي أهم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع، وقيل: المعنى أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا»[2].

«ليس المراد أنهم لا يعقلون بل إنهم لا ينتفعون بذلك العقل»[3].

كذلك من عطل عقله عن العمل، سيكون تابعًا لغيره ومقلدًا له، وقد نهانا الله تعالى عن الاتباع إلا لله تعالى وللرسول صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن كان متبعًا لجاهل أو كافر فماذا سيكون مصيره؟ سيكون من أهل الضلالة والجهالة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

«أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله، رغبوا عن ذلك واكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالًا وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعًا، واتبعه إن كان منصفًا»[4].

«الآية تضمنت النهي عن التقليد؛ لأن الله تعالى أنكر عليهم متابعة آبائهم، وأمر بمتابعة العقل والهدى»[5].

«أيتبعون ما ألفوا عليه آباءهم في تقاليدهم وعاداتهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا من الحق في أمور العقائد والعبادات، بل ولو تجردوا من أي دليل منطقي، وحادوا عن الصواب، وهذا يدل على ذم التقليد بدون دليل»[6].

«ومثل الذين كفروا فيما هم فيه من الغي والضلال، والجهل وتقليد الآباء والرؤساء، كمثل الدواب السارحة التي لا تفقه شيئا مما يقال لها، فإذا نعق فيها راعيها فإنها تسمع صوته، ولكنها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، فهم صم عن سماع الحق، وبكم لا يتفوهون به، وعمي عن رؤية طريقه ومسلكه، لا يعقلون شيئا ولا يفهمون»[7].

وهكذا بناء على تفسير العلماء للآية نرى حال من يقلد الآخرين دون تعقل وتمييز بين الحق والباطل، ويعطل عقله وحواسه عن الفهم والإدراك، كيف يكون كالدواب التي

(١) الأمثال في القرآن، ابن القيم ص٢٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٣٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٤٦٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ٣/ ٤٩٠.
(٦) التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٧٣.
(٧) المصدر السابق، ٢/ ٧٦.

لا تعقل، نسأل الله الهداية.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

«أيتبعون آباءهم وإن كان آباؤهم جهالا، فنهاهم الله عن التقليد، وأمرهم بالتمسك بالحق وبالحجة»[(١)].

«يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا من الدين والمنهاج أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا من الدين ولا يهتدون له، أيتبعونهم في خطئهم»[(٢)].

«يعني قد اكتفينا بما أخذنا عنهم من الدين ونحن لهم تبع، ولا يصح الاقتداء إلا بالعالم المهتدي الذي يبني قوله على الحجة والبرهان والدليل، وأن آباءهم ما كانوا كذلك فيصح اقتداؤهم بهم»[(٣)].

«تتبعون آباءكم وتقتدون بهم، وإن كنتم تعلمون أن آباءكم لا يعلمون شيئًا في أمر الدين ولا يهتدون، وإن جئتكم بأهدى مما كان عليه آباؤكم؛ يسفههم في أحلامهم في تقليدهم آباءهم، وإن ظهر عندهم أنهم على ضلال وباطل»[(٤)].

«ولكنهم يقلدون كبارهم وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ولكن يمنعهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا بها»[(٥)].

وينتج عن إهمال العقل عدم إعماله آثارٌ سيئة، منها:

١ . عبادة غير الله تعالى.

فصاحب العقل السليم والفطرة السليمة لا يصرف عبادته إلا لله الواحد سبحانه[(٦)].

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٧].

قص الله سبحانه علينا كيف أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون الأصنام ثم قام بدعوتهم لعبادة الله وحده ولما لم يستجيبوا له قام بتكسير تلك الأصنام وبعد ذلك قامت بينهم مشادة فاتهموه بتكسيرها، قال إبراهيم موبخا لهم ومعلنا بشركهم على رؤوس الأشهاد، ومبينًا عدم استحقاق

(١) تفسير السمرقندي، ١/ ٤٢٣.
(٢) زاد المسير، الجوزي، ١/ ٥٩٤.
(٣) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٨٤.
(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٦٣٥.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٤٦.
(٦) البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، ميساء كمال قلجة، ص ١٣١.

آلهتهم للعبادة، فلا نفع ولا دفع، ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما أخسركم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل، وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم، أحسن حالًا منكم[1].

«قبحا لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع، فتتركوا عبادته، وتعبدوا الله الذي فطر السماوات والأرض، والذي بيده النفع والضر»[2].

٢. افتراء الكذب على الله.

نجد أن المشركين يشرعون في الدين من البدع والضلالات ما لم يشرعه الله تعالى، بينما من أعمل عقله فلا يتبع إلا ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية.

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

«﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أراد بالأكثر الاتباع يعني: أن الاتباع لا تعقل أن هذا كذب وافتراء من الرؤساء على الله عز وجل»[3].

«وصفهم الله سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على الله وكذبًا، لا لشرع شرعه الله لهم ولا لعقل دلهم عليه، وسبحان الله العظيم ما أرك عقول هؤلاء وأضعفها! يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة ونفس الحمق، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا وهذه أفعال آبائهم وسننهم التي سنوها لهم، وصدق الله سبحانه حيث يقول: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ولو كانوا جهلة ضالين»[4].

«وصفهم الله سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على الله وكذبًا لا لشرع شرعه الله لهم، ولا لعقل دلهم الله عليه، وسبحان الله العظيم ما أرك عقول هؤلاء وأضعفها! يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة ونفس الحمق، وهذا شأن علمائهم ورؤسائهم وكبرائهم»[5].

٣. تقليد الآباء السادة في ضلالهم.

بينما العاقل يعلم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فلا يتبع إلا الدين الصحيح دين الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٦.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤٦٤.
(٣) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٨٤.
(٤) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٩٤.
(٥) فتح البيان، صديق خان، ٤/ ٦٦.

«فكيف أيها الناس تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم فتتركون ما يأمركم به ربكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئًا، ولا هم مصيبون حقًا، ولا مدركون رشدًا؟ وإنما يتبع المتبع ذا المعرفة بالشيء المستعمل له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه فيما هو به جاهل إلا من لا عقل له ولا تمييز»[(١)].

«أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالًا فيتابعوهم بغير حجة؟ فكأنه نهاهم عن التقليد وأمرهم بالتمسك بالحجة»[(٢)].

«فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالًا وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم»[(٣)].

«رد عليهم، وبيان لبطلان الاعتماد في الدين على مجرد تقليد الآباء»[(٤)].

٤. تحريف كلام الله.

فهم بعد ما عقلوه وفهموه، يؤولونه تبعًا لأهوائهم لكن المسلم العاقل لا يحرف ولا يؤول بل يتبع ما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من قرآن أو سنة.

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

«في ذلك قولان:

أحدهما: أنهم علماء اليهود والذين يحرفونه التوراة فيجعلون الحلال حرامًا والحرام حلالًا اتباعًا لأهوائهم وإعانة لراشيهم، وهذا قول مجاهد والسدي.

والثاني: أنهم الذين اختارهم موسى من قومه، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره وحرفوا القول في إخبارهم لقومهم، وهذا قول الربيع بن أنس وابن إسحاق»[(٥)].

«ومعنى الآية الكريمة: أفتطمعون- أيها المؤمنون- بعد أن وصفت لكم من حال اليهود ما وصفت من جحود ونكران، أن يدخلوا في الإسلام. والحال أنه كان فريق من علمائهم وأحبارهم يسمعون كلام الله ثم يميلونه عن وجهه الصحيح من بعد ما فهموه، وهم يعلمون أنهم كاذبون بهذا التحريف على الله تعالى، أو يعلمون ما يستحقه محرفه من الخزي والعذاب الأليم»[(٦)].

«والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حلاله حرامًا أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم، كتحريفهم صفة رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ٣٠٨.
(٢) تفسير السمرقندي، ١/ ١١٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/ ٣٤٦.
(٥) النكت والعيون، الماوردي، ١/ ١٤٨.
(٦) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/ ١٧٩.

وسلم وإسقاط الحدود عن أشرافهم، أو سمعوا كلام الله لموسى فزادوا فيه ونقصوا، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر وإنكار على من طمع في إيمانهم وحالهم هذه الحال: أي ولهم سلف حرفوا كلام الله وغيروا شرائعه وهم مقتدون بهم متبعون سبيلهم»[1].

٥. الاستهزاء بدين الله تعالى وشعائره.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٧-٥٨].

«الكفار، إذا سمعوا الأذان استهزؤوا به. وإذا رأوهم ركعا وسجدا ضحكوا واستهزؤوا بذلك. ذلك الاستهزاء بأنهم قوم لا يعقلون يعني: لا يعلمون ثوابه»[2].

«قال الكلبي: كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا وقالوا في حق الأذان: لقد ابتدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم، فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمجه من أمر، وقيل: إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والمجون، تجهيلا لأهلها، وتنفيرا للناس عنها وعن الداعي إليها. وقيل: إنهم كانوا يرون المنادي إليها بمنزلة اللاعب الهازئ بفعلها، جهلا منهم بمنزلتها»[3].

وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين، من قدحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزوا ولعبًا، واحتقاره واستصغاره، خصوصًا الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزوًا ولعبًا، وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس. فكيف تدعي لنفسك دينًا قيمًا، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بموالاة من اتخذه هزوًا ولعبًا، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحمق؟!

وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم[4].

مما سبق يجب علينا جميعًا أن نحرص على استعمال عقولنا في التقرب إلى الله تعالى، بعبادة التفكر والتدبر في آيات الله

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٢٠.
(٢) تفسير السمرقندي، ١/ ٤٠١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٢٢٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٧.

تعالى المنظورة والمسطورة، عسى الله تعالى أن ينفعنا بهذه العبادة، ويزداد إيماننا، ولا نترك عقولنا معطلة عن العمل فتصدأ وتتعطل حواسنا، فنضل عن سبيل الله ونتعرض لسخط الله، باتباعنا الشيطان أو نقلد الضالين المعاندين لدين الله.

نسأل الله الهدى والتقى، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، التدبر، التفكر، الحكمة، الحوار، الغفلة

العلاقات الاجتماعية

عناصر الموضوع

مفهوم العلاقات الاجتماعية	١٤٤
الألفاظ ذات الصلة	١٤٦
العلاقات الأسرية	١٤٨
العلاقة مع المجتمع	١٥٤
العلاقة الدينية	١٥٨
العلاقة بين الحاكم والمحكوم	١٦٤
التكافل الاجتماعي	١٦٧
الانحراف المجتمعي وعلاجه	١٧٧

مفهوم العلاقات الاجتماعية

أولًا: المعنى اللغوي:

يقال: عَلِق المرأة عَلْقًا وعَلَاقة، وتعلق بها، وعلق بها، وهو الحب اللازم للقلب[١].

«والعلاقة، بالكسر: هي علاقة القوس والسوط ونحوهما، وبالفتح: علاقة المحبة والخصومة ونحوهما، فالمفتوح يستعمل في الأمور الذهنية، والمكسور في الأمور الخارجية»[٢].

وقال الجرجاني: «العلاقة: بكسر العين، يستعمل في المحسوسات، وبالفتح، في المعاني، وفي الصحاح: العلاقة، بالكسر: علاقة القوس والسوط، ونحوهما، وبالفتح، علاقة الخصومة والمحبة، ونحوهما»[٣].

فالعلاقات «بالفتح» هي: الصلات التي تربط كل فرد من أفراد الأسرة، وكل أسرة بأسرة، وكل بلد ببلد.

وأصل مادة (جمع) تدل على تضام الشيء، يقال: جمعت الشيء جمعًا[٤].

والمجتمع: جماعة من الناس تربطها روابط ومصالح مشتركة وعادات وتقاليد وقوانين واحدة[٥].

وعلم الاجتماع: علم يبحث في نشوء الجماعات الإنسانية ونموها وطبيعتها وقوانينها ونظمها.

ويقال: هذا الباب جماع هذه الأبواب الجامع لها الشامل لما فيها، وفلان جماع لبني فلان يأوون إليه ويعتمدون على رأيه، والجماع كل ما اجتمع وانضم بعضه إلى بعض، وجماع الجسد الرأس، وجماع الثريا ما اجتمع من كواكبها[٦].

وسميت الجمعة جمعة؛ لاجتماع الناس فيها، أو لما جمع فيها من الخير[٧].

---

(١) انظر: إيضاح شواهد الإيضاح، القيسي ١/ ٤١٧.
(٢) الكليات، الكفوي ص ٦٥٣.
(٣) التعريفات ص ١٥٥.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٧٩.
(٥) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ١/ ٣٩٦
(٦) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٣٥.
(٧) انظر: كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، أبو بكر الحصني ص ١٤١.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الاجتماعي: هو الرجل المزاول للحياة الاجتماعية، كثير المخالطة للناس[1].

وبناءً على ذلك يمكن تعريف العلاقات الاجتماعية اصطلاحًا: بأنها الروابط والآثار المتبادلة بين الأفراد في المجتمع، والتي تنشأ نتيجة اجتماعهم وتبادل مشاعرهم واحتكاكهم ببعضهم بعضًا، ومن تفاعلهم في بوتقة المجتمع.

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٣٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصلات الاجتماعية:

الصلات لغةً:

«وصل» الواو والصاد واللام: أصلٌ واحدٌ يدل على ضم شيءٍ إلى شيءٍ حتى يعلقه. ووصلته به وصلًا، والوصل: ضد الهجران[١].

الصلات اصطلاحًا:

وَصْلُ الآخرين، بأداء حقوقهم الدينية والدنيوية كاملةً[٢].

الصلة بين الصلات والعلاقات الاجتماعية:

الصلات الاجتماعية لا تكون إلا خيرًا، وأما العلاقات الاجتماعية فقد تكون خيرًا وقد تكون شرًّا.

٢ الروابط الاجتماعية:

الروابط الاجتماعية لغةً:

الراء والباء والطاء أصلٌ واحدٌ يدل على شدٍّ وثبات، وربطت الشيء أربطه، وأربطه ربطًا إذا شددته[٣].

الروابط الاجتماعية اصطلاحًا:

هي العلاقات والروابط بين الناس والتي تقوم على أساس التناصح والتكافل، والتراحم والتعاون، لتقوية بنية الأمة[٤].

الصلة بين الروابط الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية:

الروابط الاجتماعية فيها قوة وتماسك، وأما العلاقات الاجتماعية فلا يشترط فيها ذلك.

٣ الصداقة:

الصداقة لغة:

الصداقة: صدق الاعتقاد في المودة، وذلك مختص بالإنسان، وقوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١١٥، مجمل اللغة، بن فارس ص ٩٢٧
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٧٨، جمهرة اللغة، ابن دريد ص٣١٥
(٤) انظر: المصادر السابقة.

﴿١٠١﴾ [الشعراء ١٠١].

إشارة إلى قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف ٦٧][1].

الصداقة اصطلاحًا:

قوة المودة مأخوذة من الشيء الصدق وهو الصلب القوي، وقال أبو علي رحمه الله: الصداقة اتفاق القلوب على المودة، ولهذا لا يقال: إن الله صديق المؤمن كما يقال: إنه حبيبه وخليله[2].

الصلة بين الصداقة والعلاقات الاجتماعية:

الصداقة لا تقوم إلا على المحبة والمودة، وأما العلاقات الاجتماعية فلا يشترط فيها ذلك.

٤ الهجران:

الهجران لغةً:

الهجر: المصارمة والقطع، يقال: هجر صاحبه هجرًا وهجرانًا، ومنه هجرة المهاجرين، لأنهم هجروا قبائلهم وعشائرهم[3].

الهجران اصطلاحًا:

الابتعاد والنأي بالنفس عن الآخرين[4].

الصلة بين الهجران والعلاقات الاجتماعية:

الهجران يعني قطع العلاقات، والعلاقات الاجتماعية تعني وصلها.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٨٠.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص١٢١.
(٣) انظر: إيضاح شواهد الإيضاح، القيسي ١/ ٢٦١.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٧١.

العلاقات الأسرية

إن ديننا الحنيف دين كمال وشمول، جاء بما فيه خير وصلاح البشرية جمعاء، ولا أدل على ذلك من اهتمام الإسلام بالعلاقات التي تكون المجتمع الواحد المتماسك والدولة المتماسكة؛ بدءًا من الأسرة، وانتهاءً بالأمة كلها، فقد جاء الإسلام بالعلاقات التي تربط الأسرة ببعضها، وتربط المجتمع ببعضه؛ حيث أمر الإسلام ببر الوالدين، وصلة الرحم، وحسن الجوار، وبذل الإحسان، والعطف على المحتاج، والمؤاخاة بين المسلمين، وغير ذلك مما فيه صلاح الدنيا والآخرة.

وعند غياب الدين نجد أن المشكلات تنبع، والخلافات تزداد، والأحقاد تنتشر، والخصومات تطفو على السطح، وكل إنسان ضد الثاني ضمن الأسرة الواحدة، بين الزوجين وبين الشريكين وبين الأخوين وبين الحيين وبين المدينتين.

هذا قانون العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

أولًا: الأسرة نواة المجتمع:

تعتبر الأسرة نواة المجتمع وركيزته الأساسية، فهو يصلح بصلاحها وتماسكها، ويفسد بتفككها وانحلالها. لذا اهتم الإسلام ببنائها على أسس متينة، تكفل قوتها واستمراريتها، لأداء دورها الفعال في تربية الأجيال وإعدادهم ليكونوا أعضاء صالحين نافعين لدينهم ووطنهم ومجتمعهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

أي: أيها الناس، احذروا ربكم في أن تخالفوه فيما أمركم وفيما نهاكم، فيحل بكم من عقوبته ما لا قبل لكم به؛ فإنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد، معرفًا عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة، ومنبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه، لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة، وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم بعضًا -وإنْ بَعُدَ التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم- مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى، وعاطفًا بذلك بعضهم على بعض، ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف على ما ألزمه

الله له[1].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤].

أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعدله، وجعله كامل الخلقة، ذكرًا أو أنثى، كما يشاء، فجعله نسبًا وصهرًا، فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهرًا، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين[2].

ثانيًا: العلاقة الزوجية:

إن العلاقات الزوجية في الإسلام متينة ومهمة؛ لأنها تبنى على ميثاق أخذه الله عز وجل على الرجال والنساء، كما أخذته النساء على الرجال.

فإن الله تعالى قال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١].

أي: إن المرأة قد أخذت هذا الميثاق الغليظ على هذا الرجل، وهذا الميثاق الغليظ تجب المحافظة عليه، وحينئذٍ فإن للعلاقات الزوجية شروطها وآدابها؛ لتكون هذه العلاقة وثيقة ومتينة، وذلك حينما يكون الزواج بتراضٍ، ويا حبذا لو كان بنظر إلى المخطوبة! وهكذا توافرُ الصفات التي دعا إليها الإسلام، وحينئذٍ تبنى العلاقات الزوجية على المودة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

أي: ومن آياته الدالة على قدرته ورحمته أن خلق النساء لكم من جنس الرجال، وجعل بَدْءَ خلق المرأة من جسد الرجل، ليتحقق الوفاق ويكتمل الأنس، وجعل بين الجنسين المودة -أي: المحبة- والرحمة -أي: الشفقة- ليتعاون الجنسان على أعباء الحياة، وتدوم الأسرة على أقوى أساس وأتم نظام، ويتم السكن والاطمئنان والراحة والهدوء، فإن الرجل يمسك المرأة ويتعلق بها إما لمحبته لها، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما وغير ذلك[3].

وقال تعالى: ﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥١٢، ٥١٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٧.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ٦٩، ٧٠.

أي: هو الذي خلقكم أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم من أبيكم آدم أبي البشر صلى الله عليه وسلم، وخلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها؛ لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة[1].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: ٧٢].

يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجا ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات من جميع المآكل والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها[2].

ومن أجل تحقيق السكن والمودة بين الزوجين أمر الله النساء أن يلتزمن البيوت ليتفرغن لوظيفتهن الأسمى ألا وهي رعاية الزوج والأولاد، فقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

أي: والزمن بيوتكن، ولا تخرجن منها إلا لحاجة، ولا تظهرن محاسنكن، كما كان يفعل نساء الجاهلية الأولى في الأزمنة السابقة على الإسلام، وهو خطاب للنساء المؤمنات في كل عصر[3].

وقد جعل الإسلام للمرأة حقوقا على الزوج كما للزوج على المرأة حقوقًا، فقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

أي: لهن من حقوق الزوجية على الرجال بمثل ما للرجال عليهن، فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم، وهي كذلك، تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهن يفعلنه لأزواجهن من طاعة، وتزين، وتحبب ونحو ذلك، وللرجال عليهن منزلة ليست لهن، وهي قيامه عليها في الإنفاق، وكونه من أهل الجهاد والعقل والقوة، وله من الميراث أكثر مما لها، وكونه يجب عليها امتثال أمره، والوقوف عند رضاه[4].

ومن حسن العشرة أن يصبر الزوج على زوجه، وأن لا يظلمها فيأكل مالها، أو يطلقها لأتفه الأسباب، كما قال تعالى:

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١١.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٤٤٤.
(٣) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ١/ ٤٢٢.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٧٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء: ١٩].

هنا أمر من المولى عز وجل للرجال بأن يحسنوا معاشرة زوجاتهم من خلال المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة، وكف الأذى وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، وبين تعالى أن إجبار الزوج نفسه على معاشرتها وإمساكها والإحسان إليها -مع عدم محبته لها- فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك، وربما رزق منها ولدًا صالحًا نفع والديه في الدنيا والآخرة، وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور، فإن كان لا بد من الفراق، وليس للإمساك محل، فليس الإمساك بلازم[1].

فحين تفقد المودة وتفقد الرحمة بين الزوجين وتتعسر الحياة فهنا يأتي دور الحكمين، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾ [النساء: ٣٥].

أي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة فابعثوا برجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، أقنعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه.

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعاداة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح، فرقا بينهما[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠﴾ [النساء: ١٣٠].

أي: وإن يتفرقا أي الزوج والمرأة بالطلاق، بأن لم يتفق الصلح بينهما، فاختارا الفرقة يغن الله كلا منهما، أي: يجعله مستغنيًا عن الآخر من غناه وجوده وقدرته، وفيه زجر لهما عن المفارقة رغمًا لصاحبه، وتسلية لهما بعد الطلاق[3].

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٢٨٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٧.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٣٦٥.

ثالثًا: العلاقة مع الأقارب:

إن من العلاقات الاجتماعية صلة الرحم، والمراد بصلة الرحم: القرابة غير الوالدين، ولهم حقٌّ كبير أيضًا في الإسلام، ولذلك فإن الله تعالى لعن الذين يقطعون الرحم، فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

أولو الأرحام: هم أصحاب القرابة، جمع رحم، وأصله رحم المرأة الذي هو موضع تكوين الولد من بطنها، ويسمى به الأقارب؛ لأنهم في الغالب من رحم واحد، وفي اصطلاح علماء الفرائض: هم الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب وهم عشرة أصناف: الخال والخالة، والجد للأم، وولد البنت، وولد الأخت، وبنت الأخ، وبنت العم، والعمة، والعم[(١)].

ولقد حث المولى عز وجل عباده المؤمنين على النفقة على الأقارب والمساكين وجعل ذلك سببًا في مغفرة الذنوب، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

أي: لا يحلف أهل الفضل في الدين وأصحاب الغنى واليسار على منع إعطاء أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إياه من الإحسان لذنب فعلوه، وليعفوا عما كان منهم من جرم، وليصفحوا عما بدر منهم من إساءة، وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنعام والإحسان؛ ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم؟

قال أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: «والله لا أنفق على مسطحٍ شيئًا أبدًا بعد ما قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال أبو بكرٍ: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطحٍ الذي كان يجري عليه»[(٢)(٣)].

كما حث المولى عز وجل المؤمنين على الوصية للأقارب الفقراء، وجعل ذلك من أوصاف المتقين، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهم بعضًا، ٣/ ١٧٦، رقم ٢٦٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ٤/ ٢١٢٩، رقم ٢٧٧٠.

(٣) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٣٠٥.

﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٨٠].

ففي هذه الآية شرع الله شريعة فيها صلاح الأسرة وحفظ كيانها وهى شريعة الوصية، فعلى من ظهرت أمامه أمارات الموت وعلم أنه ميت لا محالة، وكان ذا مال يعتد به أن يجعل من ماله نصيبًا لأقاربه غير الوارثين وليراع في ذلك ما يحسن ويقبل في عرف العقلاء، فلا يعطى الغني ويدع الفقير، بل يؤثر ذوى الحاجة ولا يسوي إلا بين المتساوين في الفاقة، وكان ذلك الفرض حقًّا واجبًا على من آثر التقوى واتبع أوامر الدين[1].

ولقد أمر الله بإعطاء ذي القربى الحق الذي أوجبه عليهم بسبب القرابة والرحم في أكثر من آية، كما قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ٤٠.

العلاقة مع المجتمع

إن الإنسان كائن اجتماعي لا يمكن عزله عن الآخرين، فقد نشأت بينه وبين أفراد المجتمع علاقات مختلفة نتيجة التفاعل، وتبدأ علاقة الفرد بأسرته أولًا ثم المجتمع الذي يحيط به ثم نطاق القبيلة، وكلما اتسع نطاق المجتمع تنوعت وزادت علاقاته الاجتماعية، وبهذا يمكن القول بأن وظيفة العلاقات العامة وجدت مع وجود الإنسان نفسه.

ولقد حث القرآن الكريم على مراعاة العلاقة مع المجتمع باعتبار أن تماسك المجتمع وتوحده سبيل للقوة والعزة والمنعة، فقال تعالى مبينًا أوصاف المؤمنين الحقيقية: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

في هذه الآية تنبيه عظيم للمسلم الذي يقصر إسلامه على الصلاة ولا يبالي بعدها ما ترك من واجبات وما ارتكب من منهيات، فبين تعالى لهم الطاعة الحق في دعوى الإيمان والإسلام والإحسان بأنه من التزم أركان الإيمان وأداء الفرائض -وعلى وجه الخصوص فريضتي الصلاة والزكاة وهما من أعظم أركان الإسلام- وأنفق المال في سبيل الله مع حبه له وضنه به على من لا يرجو منه جزاء ولا مدحًا ولا ثناء؛ كالأقارب والمساكين وأبناء السبيل والسائلين من ذوي الخصاصة والمسغبة، وفي تحرير الأرقاء وفكاك الأسر مع أدامة الصلاة على الوجه الأكمل في أدائها وأدى زكاة ماله على المستحقين لها، ومن صفاتهم الوفاء بالعهود والصبر في أصعب الظروف وأشد الأحوال.

وهذا هو مبدأ الإحسان وهو مراقبة الله تعالى والنظر إليه وهو يزاول عبادته، ومن هنا قرر تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في دعوى الإيمان والإسلام، وهم المتقون بحق غَضَبَ اللهِ وأليمَ عذابه، جعلنا الله منهم، فقال تعالى مشيرًا لهم بلام البعد وكاف الخطاب لبعد مكانتهم وارتفاع درجاتهم[1].

أولًا: العلاقة مع الجيران:

حقُّ الجيران حقٌّ فرضه الإسلام، فجاء الأمر الصريح بالإحسان إلى الجار، واقتران

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١/ ١٥٣.

حقِّهِ بتوحيد الله عز وجل وعدم الشرك به، وهذا من أقوى الأدلة على اهتمام الإسلام بحقوق الجار وتعظيم شأنه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ [النساء: ٣٦].

قرن تعالى عبادته بالإحسان بالوالدين في غير موضع من كتابه الكريم؛ لما لهما على الابن من فضل يعجزه وفاؤه فقال هنا: واعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه شريكًا في الألوهية والعبادة، وأحسنوا إلى الوالدين إحسانًا لا تقصير فيه، وإلى أقربائكم وإلى اليتامى، والذين افتقروا بسبب عجزهم أو ذهاب الكوارث بأموالهم، وبالجار القريب النسب والجار الأجنبي والرفيق لك في عمل أو طريق أو جلوس، والمسافر المحتاج الذى لا قرار له في بلد معين، وبما ملكتم من الأرقاء فتيانًا وفتيات، إن الله لا يحب من كان متعاليًا على الناس، لا تأخذه بهم رحمة، كثير التمدح بنفسه[(١)].

وقد أوصى جبريل الأمين الرسول الكريم صلوات الله تعالى وسلامه عليهما بالجار حتى ظن النبي أنه سيورثه؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)[(٢)].

وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره)[(٣)].

وعن أبي شريحٍ العدوي، قال: سمعت أذناي، وأبصرت عيناي، حين تكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره)[(٤)].

وعن أبي شريحٍ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن) قيل: من يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)[(٥)].

---

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ١١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، ٨/ ١٠، رقم ٦٠١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار، ٤/ ٢٠٢٥، رقم ٢٦٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، ٧/ ٢٦، رقم ٥١٨٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار، ١/ ٦٨، رقم ٤٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ٨/ ١١، رقم ٦٠١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار، ١/ ٦٨، رقم ٤٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ٨/ ١٠، رقم ٦٠١٦.

ثانيًا: العلاقة مع الضيوف:

ومن العلاقات الاجتماعية في القرآن العلاقة مع الضيوف، فقد جعل الإسلام آدابًا للزيارة ودخول البيوت ينبغي على المسلمين التخلق بها منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

أي: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله إذا دعيتم إلى وليمة في بيت النبي صلى الله عليه وسلم فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه، وانتهى إعداده، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت في شغل عنكم، وقد يلبسن ثياب البذلة والعمل، فلا يحسن أن تروهن وهن على هذه الحال، إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه، ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا ولا تمكثوا فيه لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة؛ فإن ذلك اللبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجه، إلى ما فيه من تضييق المنزل على أهله، لكنه كان يستحيي من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج، وفي هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان في ذلك أذى لرب البيت، ولو كان البيت غير بيت النبي صلى الله عليه وسلم فالتثقيل مذموم في كل مكان، محتقر لدى كل إنسان[1].

هذه الآية وإن كانت تتعلق بدخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم خاصة إلا أنها من الآداب العامة التي ينبغي على المسلمين التحلي بها لما فيها من الخير والتيسير على المسلمين.

كما ينبغي على الضيف أن يتأدب بآداب دخول البيوت، فلا يدخل إلا بعد السلام والاستئذان والاستئناس من صاحب الدار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور: ٢٧].

يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم، فعن سهل بن سعدٍ، قال: (اطلع رجلٌ من جحرٍ في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، ومع النبي صلى الله

(١) تفسير المراغي ٢٢/ ٢٩.

عليه وسلم مدرًى يحك به رأسه، فقال: (لو أعلم أنك تنظر، لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر)[1].

فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده، ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأذنوا، وسمي الاستئذان استئناسًا؛ لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة، وتسلموا على أهلها[2].

ومن الآداب الإسلامية التي أمر الله بها عباده المؤمنين بأن يتحلوا عند دخول البيوت غض البصر، فلا يقف أمام باب البيت عند الاستئذان، ولا ينظر إلى عورات البيت عند الدخول.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

أي: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويكفوها عن النظر إلى الأجنبيات غير المحارم، ويحفظوا فروجهم من كل منكر كالنظر واللمس والزنى، وقد قدم تحريم النظر على حفظ الفروج التي هي المقصود الأساسي من الكلام ليعلم الناس جميعًا ما للنظر من خطر وأثر، وأنه رسول الشهوة، وبريد الزنى، وبذرة الفسق والفجور، وخص المؤمنين بالذكر؛ لأنهم الممتثلون المنتفعون بهذا. ذلك أزكى لهم وأطهر، وأبعد عن الشك وأنفى للريبة، وأبقى للنفس طاهرة زكية بعيدة عن الخطر[3].

ثالثًا: العلاقة التجانسية:

لا شك أن صفة التجانس والانسجام بين الناس هو وسيلة للتقارب وزيادة المحبة بين الناس، وعامل مساعد في توثيق العلاقات الاجتماعية بين الناس.

قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور: ٢٦].

أي: النساء الزواني الخبيثات للخبيثين من الرجال، والخبيثون الزناة من الرجال للخبيثات من النساء؛ لأن اللائق بكل واحد ما يشابهه في الأقوال والأفعال، ولأن التشابه في الأخلاق والتجانس في الطبائع من مقومات الألفة ودوام العشرة. وعلى هذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر، ٨/ ٥٤، رقم ٦٢٤١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦٥.

(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي ٢/ ٦٧٤.

يكون المراد بالخبيثات والطيبات النساء، أي: شأن الخبائث من النساء يتزوجن الخبائث من الرجال، وشأن أهل الطيب من النساء يتزوجن الطيبين من الرجال، ويجوز أن يكون المراد من الخبيثات الكلمات التي هي القذف الواقع من أهل الإفك، والمعنى: الخبيثات من قول أهل الإفك للخبيثين من الرجال، وبالعكس: والطيبات من قول منكري الإفك للطيبين من الرجال وبالعكس[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير: ٧].

أي: الأرواح قرنت بأجسادها، أو إذا النفوس صنفت: كل نفس مع من يشاكلها من أجناسها[2].

ولقد خلق الله عز وجل الأرواح وجعلها كالجنود المجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، كما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: (الأرواح جنودٌ مجندةٌ فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[3].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١٩٦.
(٢) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب ١/ ٧٣٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، ٤/ ١٣٤، رقم ٣٣٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة، ٤/ ٢٠٣١، رقم ٢٦٣٨.

العلاقة الدينية

فرق الإيمان بالله، بين المؤمنين والمشركين، وجعل ولاء المؤمن للمؤمنين عامة، أيا كان لونهم وجنسهم، وأيا كانت درجة القرابة في النسب بينهم وبينه، على حين قطع ولاءه لأهله، وأقرب المقربين إليه إذا لم يكونوا من المؤمنين بالله وبرسول الله.

أولًا: الأخوة الإيمانية:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات: ١٠].

هذا عقدٌ عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا جاء الأمر من النبي صلى الله عليه وسلم بالوفاء بحقوق الأخوة الإيمانية.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ،

وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا) ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ (بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ، دمه، وماله، وعرضه)[1].

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا) وشبك بين أصابعه)[2].

ولقد أمر الله ورسوله، بالقيام بحقوق المؤمنين، بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد، والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم -الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها- فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم.

ثم أمر بالتقوى عموما، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى الله الرحمة، وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة[3].

ولقد حث المولى عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم على الرحمة وعدم الغلظة في تعامله مع الآخرين؛ مبينا أن الفظاظة وغلظة القلب من أكبر العوامل على نفرة الناس من حوله فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: فبرحمة مِنَ الله لك ولأصحابك -أيها النبي- مَنَّ الله عليك فكنت رفيقًا بهم، ولو كنت سيئ الخلق قاسي القلب لانصرف أصحابك من حولك، فلا تؤاخذهم بما كان منهم في غزوة أحد، واسأل الله أن يغفر لهم، وشاورهم في الأمور التي تحتاج إلى مشورة، فإذا عزمت على أمر من الأمور -بعد الاستشارة- فامضه معتمدًا على الله وحده، إن الله يحب المتوكلين عليه[4].

وفي مقابل الحث على الأخوة والرحمة التي تفضي إلى تماسك المجتمع وقوته حذر المولى عز وجل من تقديم محبة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم، ٤/ ١٩٨٦ رقم ٢٥٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم، ٣/ ١٢٩ رقم ٢٤٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين، ٤/ ١٩٩٩ رقم ٢٥٨٥.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠٠.

(٤) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ١/ ٧١.

القرابة وزخارف الدنيا ومتاعها الزائل على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤]

يحذر المولى عز وجل المؤمنين إلى ما قد يدخل عليهم من مشاعر القرابة نحو أهليهم الذين خلفوهم وراءهم من المشركين، تلك المشاعر التي قد تبلغ حد الجور على حق المسلمين على المسلم، من إخاء وموالاة، فجاء النهي واقعًا على الولاء والإيثار، وتغليب مصلحتهم على مصالح المؤمنين، ولم يتضمن النهى عن المشاعر والأحاسيس؛ لأن ذلك أمر لا تحتمله النفوس، وإن كانت تحتمله بعض النفوس، فإن ذلك لم يكن إلا عن مشقة ومعاناة وحرج، الأمر الذي برئت منه الشريعة الإسلامية السمحاء، ولقد وضع الله المسلمين في مواجهة التجربة والاختبار لإيمانهم، واختيار ما يحبون وما يؤثرون.

فالإيمان في جانب والآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والديار في جانب آخر، وعلى المؤمن أن يختار بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، وبين أهله، وماله ودياره.

فإذا آثر الإيمان على الولد والأهل والمال والموطن، كان على الصفة التي يتحقق بها الإيمان الذي يقبله الله منه، ويرضاه له، وإن كان العكس، وآثر الولد والأهل والمال والموطن، على الإيمان بالله ورسوله والولاء للمؤمنين، والجهاد في سبيل الله، فهو أقرب إلى الجبهة المعادية للإسلام، منه إلى الجبهة الموالية له، جاء في الصحيح عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: (جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجلٍ أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المرء مع من أحب)[(١)(٢)].

وحذر المولى عز وجل من الفرقة آمرًا المؤمنين بالوحدة والتمسك بالدين فقال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل، ٨/ ٣٩ رقم ٦١٦٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، ٤/ ٢٠٣٤ رقم ٢٦٤٠.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٧٢١- ٧٢٥

﴿تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أي: وتمسكوا جميعًا بكتاب ربكم وهدي نبيكم، ولا تفعلوا ما يؤدي إلى فرقتكم. واذكروا نعمة جليلة أنعم الله بها عليكم: إذ كنتم -أيها المؤمنون- قبل الإسلام أعداء، فجمع الله قلوبكم على محبته ومحبة رسوله، وألقى في قلوبكم محبة بعضكم لبعض، فأصبحتم بفضله إخوانا متحابين، وكنتم على حافة نار جهنم، فهداكم الله بالإسلام ونجاكم من النار. وكما بَيَّنَ الله لكم معالم الإيمان الصحيح، فكذلك يُبَيِّنُ لكم كل ما فيه صلاحكم؛ لتهتدوا إلى سبيل الرشاد، وتسلكوها، فلا تضلوا عنها[1].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

أي: إن الذين فرقوا الدين الحق الواحد بالعقائد الزائفة والتشريعات الباطلة، وصاروا بسبب ذلك أحزابًا، تحسبهم جميعًا وقلوبهم مختلفة، لست مؤاخذًا بتفرقهم وعصيانهم ولا تملك هدايتهم، فما عليك إلا البلاغ، والله - وحده - هو الذى يملك أمرهم بالهداية والجزاء، ثم يخبرهم يوم القيامة بما كانوا يفعلونه في الدنيا ويجازيهم عليه[2].

كما نهى الله عن السخرية والهمز واللمز بالمؤمنين والتنابز بالألقاب، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

كما حذر من سوء الظن والتجسس والغيبة؛ لأنها من الكبائر التي حرمها الله سبحانه وتعالى وتتنافى مع الأخوة الإيمانية، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢].

ثانيًا: العلاقة مع غير المسلمين:

أرست الشريعة الإسلامية قواعد التعامل مع غير المسلمين على أساس العقيدة والأخلاق والحق والعدل والوفاء، وأقامت القاعدة العامة في مركز أهل الذمة

(١) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ١/ ٦٣

(٢) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ٢٠٢

والمستأمنين الأجانب في الدولة بما يترتب عليها من حقوق في حرية التعبد وعدم الإكراه في الدين، وفي رعاية العهد والوفاء بالمواثيق، وفي عصمة الدم والعرض، وفي الحماية والدفاع عن المحرمات، وفي سائر الحقوق الاجتماعية.

وإذا أردنا أن نجمل تعليمات الإسلام في معاملة المخالفين له -في ضوء ما يحل وما يحرم- فحسبنا آيتان من كتاب الله، جديرتان أن تكونا دستورًا جامعًا في هذا الشأن، وهما قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

أي: لا يمنعكم الله من البر والإحسان وفعل الخير إلى الكفار الذين سالموكم ولم يقاتلوكم في الدين كالنساء والضعفة منهم، كصلة الرحم، ونفع الجار، والضيافة، ولم يخرجوكم من دياركم، ولا يمنعكم أيضا من أن تعدلوا فيما بينكم وبينهم، بأداء ما لهم من الحق، كالوفاء لهم بالوعد، وأداء الأمانة، وإيفاء أثمان المشتريات كاملة غير منقوصة، إن الله يحب العادلين، ويرضى عنهم، ويمقت الظالمين ويعاقبهم.

ثم حدد الله تعالى موضع النهي في المعاملات، فقال: إنما ينهاكم الله عن موالاة هؤلاء الذين عادوكم، وهم صناديد الكفر من قريش وأشباههم ممن هم حرب على المسلمين، وعاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم على ذلك، وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم في عهدهم، ينهاكم الله عن اتخاذهم أولياء وأنصارًا لكم، ويأمركم بمعاداتهم. ثم أكد الوعيد على موالاتهم، فأبان أن من يتولهم ويناصرهم، فأولئك الذين ظلموا أنفسهم، لأنهم تولوا من يستحق العداوة، لكونه عدوًّا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولكتابه[1].

فالآية الأولى لم ترغب في العدل والإقساط فحسب إلى غير المسلمين الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم -أي: أولئك الذين لا حرب ولا عداوة بينهم وبين المسلمين- بل رغبت الآية في برهم والإحسان إليهم، والبر كلمة جامعة لمعاني الخير والتوسع فيه، فهو أمر فوق العدل، وهي الكلمة التي يعبر بها المسلمون عن أوجب الحقوق البشرية عليهم، وذلك هو «بر الوالدين».

والآية تنفي ما كان عالقًا بالأذهان -وما يزال- أن المخالف في الدين لا يستحق برًّا ولا قسطًا، ولا مودة ولا حسن عشرة. فبين

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٣٥،١٣٦

الله تعالى أنه لا ينهى المؤمنين عن ذلك مع كل المخالفين لهم، بل مع المحاربين لهم، العادين عليهم.

وينقسم غير المسلمين الذين يعيشون في بلاد المسلمين إلى أهل ذمة ومستأمنين:

تعريف عقد الذمة: الذمة في اللغة العهد، وهو الأمان والضمان والكفالة.

وعند الفقهاء: هو التزام تقرير الكفار في ديارنا وحمايتهم والدفاع عنهم ببذل الجزية والاستسلام من جهتهم، ولا يعقدها إلا الإمام أو نائبه؛ لأنها من المصالح العظمى التي تحتاج إلى نظر واجتهاد، وهذا لا يتأتى لغير الإمام أو نائبه[1].

وهؤلاء بالتعبير الحديث «مواطنون» في الدولة الإسلامية، أجمع المسلمون منذ العصر الأول إلى اليوم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، إلا ما هو من شؤون الدين والعقيدة، فإن الإسلام يتركهم وما يدينون.

والمستأمن: هو الحربي الذي دخل دار الإسلام بأمان دون نية الاستيطان بها والإقامة فيها بصفة مستمرة، بل يكون قصده إقامة مدة معلومة، لا تزيد على سنة، فإن تجاوزها، وقصد الإقامة بصفة دائمة، فإنه يتحول إلى ذمي[2].

وإذا كان الإسلام لا ينهى عن البر والإقساط إلى مخالفيه من أي دين، ولو كانوا وثنين مشركين -كمشركي العرب الذين نزلت في شأنهم الآيتان السالفتان- فإن الإسلام ينظر نظرة خاصة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، سواء أكانوا في دار الإسلام أم خارجها.

فالقرآن لا يناديهم إلا بـ«يا أهل الكتاب» و«يا أيها الذين أوتوا الكتاب» يشير بهذا إلى أنهم في الأصل أهل دين سماوي، فبينهم وبين المسلمين رحم وقربى، تتمثل في أصول الدين الواحد الذي بعث الله به أنبياءه جميعا: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وإذا جادل المسلمون أهل الكتاب فليتجنبوا المراء الذي يوغر الصدور، ويثير العداوات، قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي، ٨/ ٥٨٧٩، فقه السنة، سيد سابق ٢/ ٦٦٢

(٢) انظر: فقه السنة، سيد سابق ٢/ ٦٩٧

العلاقة بين الحاكم والمحكوم

إن إقامة حكم الله في الأرض مطالب به كل المسلمين، وهذا يتطلب أن تقوم الخلافة لله عز وجل في الأرض، وأن يكون هناك من يرعى هذا الأمر من أمور المسلمين، وهذا الحاكم الذي يقوم بهذا الأمر له حق وعليه حق، أما الحق الذي عليه فهو أن يحكم هؤلاء الناس بحكم الله عز وجل، بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى المسلمين أمر يقابل هذا الأمر، فعليهم الطاعة لهذا الحاكم في حدود طاعة الله تعالى، فإذا لم تكن هناك طاعة لله في طاعته، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: ٥٨-٥٩].

فالآية في كل أمانة فعلى كل مؤتمن على شيء أن يحفظه ويرعاه حتى يؤديه إلى صاحبه، والآية تتناول حكام المسلمين أولًا فعليهم أن يحكموا بالقسط، وهو ضد الجور ومعناه: إيصال الحقوق إلى مستحقيها من أفراد الرعايا، والله يريد من أمة الإسلام -حكامًا ومحكومين- بأداء الأمانات والحكم بالعدل وأنه شيء حسن، وهو كذلك إذ قوام الحياة الكريمة هو النهوض بأداء الأمانات والحكم بالعدل.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله أولًا، ثم بطاعة ولاة الأمور ثانيًا، والطاعة لأولي الأمر مقيدة بما كان معروفًا للشرع، أما في غير المعروف فلا طاعة في الاختيار لحديث: (لا طاعة في معصيةٍ، إنما الطاعة في المعروف)[1].

ثم جاء الخطاب العام للولاة والرعية، عند حصول الخلاف في أمر من أمور الدين والدنيا وجب رد ذلك إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكما فيه وجب قبوله، حلوًا كان أو مرًّا، وأن الإيمان يستلزم الإذعان لقضاء الله ورسوله، وهو يفيد أن رد الأمور المتنازع فيها إلى غير الشرع قادح في إيمان المؤمن، وأن ذلك الرد والرجوع بالمسائل والقضايا المختلف فيها إلى الكتاب والسنة هو خير حالًا ومآلًا، لما فيه من قطع النزاع والسير بالأمة متحدة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في قبول خبر الواحد، ٩/ ٨٨، رقم ٧٢٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء، ٣/ ١٤٦٩، رقم ١٨٤٠.

متحابة متعاونة[1].

ويجب العدل في الأحكام حتى ولو كان المحكوم عليهم من أقرب الناس للحاكم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء: ١٣٥].

أي: ليكن من أخلاقكم وصفاتكم أيها المؤمنون القيام بالعدل حين شهادتكم، ولو كانت شهادتكم على أنفسكم، أو على والدين لكم أو أقربيكم، فقوموا فيها بالقسط والعدل، وأقيموها على صحتها بأن تقولوا فيها الحق، ولا تميلوا فيها لغني لغناه على فقير، ولا لفقير لفقره على غني، فتجوروا.

فإن الله الذي سوى بين حكم الغني والفقير فيما ألزمكم -أيها الناس- من إقامة الشهادة لكل واحد منهما بالعدل؛ لأنه أولى بهما وأحق منكم، لأنه مالكهما وأولى بهما دونكم، فهو أعلم بما فيه مصلحة كل واحد منهما في ذلك وفي غيره من الأمور كلها منكم، فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما فلا تتبعوا أهواء أنفسكم في الميل في شهادتكم إذا قمتم بها فتقولوا غير الحق، ولكن قوموا فيه بالقسط، وأدوا الشهادة على ما أمركم الله بأدائها بالعدل لمن شهدتم له وعليه[2].

ولقد نفى المولى عز وجل صفة الإيمان عن الذين يرفضون حكم الله فقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

إن الناس لا يؤمنون -ابتداء- إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله ممثلًا في أحكام الرسول، وباقيًا بعده في مصدريه القرآن والسنة بالبداهة، ولا يكفي أن يتحاكموا إليه -ليحسبوا مؤمنين- بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين، فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام[3].

ومن أجمل مظاهر الحكم في الإسلام هو التزام مبدأ الشورى بين المسلمين حكامًا ومحكومين، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى: ٣٨].

أي: يتشاورون فيما بينهم في الأمور الخاصة والعامة، ولا ينفردون برأي في كل أمر من القضايا العامة، كتولي الحكم وشؤون تدبير الدولة والتخطيط لمصالحها،

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١/ ٤٩٧، ٤٩٨

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٠١، ٣٠٢

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٨٧

وإعلان الحرب، وتولية الولاة والحكام والقضاة وغيرهم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم أكثر الناس مشاورة لأصحابه، وسلك الصحابة طريقه ومنهجه في عظائم الأمور كتولية الخلافة، وحروب الردة، واستنباط الأحكام الشرعية للقضايا والحوادث المستجدة، وشاور عمر رضي الله عنه الهرمزان حين وفد عليه مسلمًا، ولما طعن عمر جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فاتفقوا على تقديم عثمان رضي الله عنه للخلافة الثالثة[1].

بل جاء الأمر الإلهي لنبيه بالشورى في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: أمر الله نبيه بأمر ثالث، وهو أن يشاورهم، وإن المشاورة من بعد ما كان منهم دليل على عفو النبي صلى الله عليه وسلم بعد عفو الله تعالى وغفرانه؛ لأن مما أخطؤوا فيه في الماضي أن النبي صلى الله عليه وسلم شاورهم في أمر الخروج إلى لقاء المشركين في أحد، وأنه كان يميل إلى البقاء حتى يدخلوا المدينة، وشبابهم كان يريد الخروج، فنزل عليه الصلاة والسلام عند رأيهم، ثم كان ما كان منهم من أن طائفتين همتا بأن تفشلا، ثم ما كان من خروج الرماة عن مواقفهم، ولو بقوا في المدينة ما وقع هذا، ولكن الله سبحانه مع ذلك أمره بمشاورتهم للإعلان عن سماحته المطلقة، ولأن المشاورة إن أخطأت فيها النتيجة مرة، فصوابها كثير.

والشورى أصل من أصول الحكم في الإسلام، قد التزمها النبي صلى الله عليه وسلم في كل أمر كان يمس أمور المسلمين العامة فقد استشار في غزوة بدر قبل وقوعها، واستشار في أسرى بدر، واستشار في أحد، واستشار في غزوة الأحزاب، وكان من نتائج الشورى حفر الخندق والتحصن وراءه، واستشار في القتال يوم الحديبية، والتزم أبو بكر ومن بعده عمر الشورى، وما اضطرب حبل الأمور من بعد إلا عندما منعت أمر الشورى[2].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٥/ ٨١، ٨٢

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٤٧٦

التكافل الاجتماعي

يقصد بالتكافل الاجتماعي أن يكون أفراد المجتمع مشاركين في المحافظة على المصالح العامة والخاصة، ودفع المفاسد والأضرار المادية والمعنوية، بحيث يشعر كل فرد فيه أنه إلى جانب الحقوق التي له، وأن عليه واجبات للآخرين، وخاصة الذين ليس باستطاعتهم أن يحققوا حاجاتهم الخاصة، وذلك بإيصال المنافع إليهم ودفع الأضرار عنهم[(١)].

والتكافل الاجتماعي جزء من عقيدة المسلم والتزامه الديني، وهو نظام أخلاقي يقوم على الحب والإيثار ويقظة الضمير ومراقبة الله عز وجل، ولا يقتصر على حفظ حقوق الإنسان المادية، بل يشمل أيضًا المعنوية؛ وغايته التوفيق بين مصلحة المجتمع ومصلحة الفرد.

وقد عني القرآن بالتكافل ليكون نظامًا لتربية روح الفرد وضميره وشخصيته وسلوكه الاجتماعي، وليكون نظامًا لتكوين الأسرة وتنظيمها وتكافلها، ونظامًا للعلاقات الاجتماعية، ومن هنا فإن مدلولات البر والإحسان والصدقة تتضاءل أمام هذا المدلول الشامل للتكافل.

إن المجتمع المسلم هو الذي يطبق فيه الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ونظامًا وخلقًا وسلوكًا، وفقا لما جاء به الكتاب والسنة، واقتداءً بالصورة التي طبق بها الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده.

وعندما يلتزم المجتمع بهذه القاعدة يجد التكافل الاجتماعي مكانه بارزًا في المجتمع بحيث تتحقق فيه جميع مضامينه، ذلك أن الإسلام قد اهتم ببناء المجتمع المتكامل وحشد في سبيل ذلك جملة من النصوص والأحكام لإخراج الصورة التي وصف بها الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك المجتمع، فعن النعمان بن بشيرٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[(٢)].

قال سيد قطب: «جعل الإسلام التكافل في محيط الأسرة هو حجر الأساس في بناء التكافل الاجتماعي العام، وجعل الإرث مظهرًا من مظاهر ذلك التكافل في محيط الأسرة، فوق ما له من وظائف أخرى في النظام الاقتصادي والاجتماعي العام، فإذا عجزت هذه الخطوة أو قصرت عن استيعاب جميع الحالات المحتاجة

(١) انظر: مقال التكافل الاجتماعي في الإسلام، عادل الصعدي، موقع الإسلام اليوم.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ٤/ ١٩٩٩، رقم ٢٥٨٦.

إلى التكافل جاءت الخطوة التالية في محيط الجماعة المحلية المتعارفة لتكملها وتقويها. فإذا عجزت هذه جاء دور الدولة المسلمة لتتولى كل من قصرت في إعالتهم وكفالتهم الكاملة، جهود الأسرة، وجهود الجماعة المحلية المحدودة، وبذلك لا يلقى العبء كله على عاتق الجهاز العام للدولة»[1].

ومن صور التكافل الاجتماعي التي تعرض لها القرآن الكريم:

أولًا: الزكاة والصدقات:

وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات، فإنها مأخوذة من الزكاة، وهو النماء والطهارة والبركة.

قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣][2].

والزكاة فريضة إلزامية فرضها الله على المسلم دينًا، وجعل للدولة الحق في أخذها منه قهرًا إذا هو امتنع عن أدائها.

وتظهر الزكاة التي هي أحد أركان الإسلام وفريضته الاجتماعية أول صور التكافل الاجتماعي في الإسلام، وهي فريضة على كل مسلم، وهي حق مقدر بتقدير الشارع الحكيم في المال بشروط معينة، وهي تدل على معنى أخص من الصدقة التي لا تتحدد بمال معين أو قدر بذاته.

الصدقة متروكة لاختيار الأفراد في قدرها، وفي من توجه إليه من المحتاجين، وذلك على خلاف الزكاة التي فرضها الله في أنواع المال التي حددها الشارع، وبين نصاب كل نوع، ومقدار الزكاة فيه.«أين المرجع لهذا الكلام؟»

قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

تخاطب الآيات السابقة في وضوح لا لبس فيه أصحاب الأموال ممن أعطاهم الله شيئا سعة في الرزق، وتذكرهم بأن لهم إخوانًا من الأقارب واليتامى والمساكين والسائلين وفي الرقاب كل أولئك بحاجة

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٨٧.
(٢) انظر: فقه السنة، سيد سابق ١/ ٣٢٧.

ماسة إلى مد يد العون لهم ليعيشوا حياة ناعمة في ظلال الإسلام الوارفة، وتشير الآيات إلى أن أصحاب الأموال إذا فعلوا ذلك فهم يحققون دعوة الإسلام التي جاء بها لتحقيق التكافل العام بين جميع أفراد الأمة وأبناء المجتمع؛ ليعيش الجميع حياة آمنة هادئة ينعمون فيها بالأمن والرخاء والتعاون الصادق في ظل العقيدة الإسلامية السمحة[1].

ولهذا اعتبر القرآن الكريم المؤمنين أخوة ينبغي التراحم والتكافل فيما بينهم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠].

وبين المولى عز وجل أن هذه الأموال تؤخذ من الأغنياء ممن لديهم فضل زاد كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وحدد الشارع الكريم مقادير الزكاة وشروطها والأصناف التي تنفق فيها، باعتبار الزكاة ركن من أركان الإسلام ومظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع المسلم، والذي يسوده الحب والوئام والتناصح والتكافل.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥].

كما حذر المولى عز وجل من الإمساك عن النفقة في سبيل الله وجعل ذلك سببا في الهلاك فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

ولقد توعد الله عز وجل الذين يكنزون الذهب والفضة ويبخلون بأموالهم ولا يؤدون حق الله فيها بالعذاب الأليم في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

أي: ولا يظن الذين يبخلون، أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله من المال والجاه والعلم وغير ذلك مما منحهم الله وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك وأمسكوه وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم، وسيجعل ما بخلوا به طوقا في

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٩٧.

أعناقهم، يعذبون به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من آتاه الله مالًا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - ثم يقول أنا مالك أنا كنزك. ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾) الآية[1].

فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم ومجد عليهم، فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم وسبب عقابهم؛ لأنه هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار ولا غير ذلك من المال[2].

ثانيًا: التوزيع العادل للثروات:

يؤكد القرآن الكريم أن الناس متساوون في حق الكفاية والعدل، ولكنهم ليسوا متساوين في العلم والمعرفة والقدرات التي تترتب على ذلك، وبمعنى آخر يؤكد القرآن تكافؤ الفرص لجميع أفراد المجتمع، وحق كل فرد في حد أدنى من المعيشة يتمثل في الضروريات التي لابد من توفرها له وفقًا لتطور مستويات المعيشة ونفقاتها، وكذلك حقه في أن يشكو الظلم وأن يحصل على العدالة التي تناسب شكواه.

وبالرغم من هذه الحقوق المختلفة التي يتساوى فيها الجميع، فإن الناس لا يتساوون في العلم والمعرفة والقدرات والمهارات والمواهب، وهم لذلك طبقات يجب التمييز بينها، لعل في هذا التمييز ما يحفز على التسابق في سبيل استغلال موارد الطبيعة وكشف أسرار الكون وفهم القواعد التي تحكم هذه الأسرار، وبذلك يكون التسابق طريق العلم والمعرفة والعمل الجاد والوصول بذلك إلى مجتمع الرفاهية الشاملة المتكاملة عندما تكون دعائمه الأخوة والتقوى والبر والتعاون والعدل.

لذلك جاء القرآن كتاب دين وأخلاق وبيانٍ لكل شيء، ثم من خلال هذا الإطار العام الذي يتصف بالقيم الأخلاقية الحميدة تضمن الأسس والمبادئ العامة التي يجب أن يقوم عليها بقاء المجتمع سياسيًا واقتصاديًا، ذلك أن القرآن تضمن نصوصًا كثيرة تشير إلى حرية الفرد، وإلى جعل المشورة والعدل والكفاية دعائم الحكم، وإلى انتظام علاقات الناس على أساس الأخوة الصادقة والتعاون والبر المتبادل، منع المنافع العامة من أن تكون ملكًا لشخص واحد وجعلها ملكًا للدولة وحدها أمر لا شك فيه، إذ ورد في معنى الحديث عن ابن عباسٍ، قال: قال رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، ٢/ ١٠٦، رقم ١٤٠٣.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٨.

عليه وسلم: (المسلمون شركاء في ثلاثٍ: في الماء، والكلأ، والنار)[1]، وهذا من قبيل التمثيل للأمور التي لا يجوز احتكارها، إذ أن حاجة جماهير الناس إليها سواء، فلا يصح تمكين يد واحدة من الاستيلاء عليها.

إن مشكلة المشاكل في عالمنا اليوم هو غياب أي توزيع عادل للثروات، وتركز الثروات عند فئة قليلة من الناس في حين تعيش الأغلبية في فقر مدقع، وبذلك يزداد الغني غنىً والفقير فقرًا!!

ويشجع النظام الرأسمالي على تكوين الطبقات المتباعدة بين أفراد المجتمع، فنرى فئات من المجتمع تنام على مليارات الدولارات، في حين أنه توجد فئات أخرى -وهي الغالبة- تعيش إما بقدر الكفاية أو تحت خط الفقر.

ويحذر القرآن الكريم الذين يجمعون الأموال الطائلة ولا ينفقون منها ما يجب عليهم فيها من واجبات مالية بعذاب أليم، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

كما ينهى القرآن الكريم عن أكل أموال الناس بالباطل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨].

فالثراء إن لم يكن بطريق مشروع كالتجارة أو الصناعة أو العمل المنتج فهذا أكل لأموال الناس بالباطل، وهو ما يعبر عنه في عصرنا بـ(الثراء غير المشروع) أو الثراء غير القانوني الناتج عن غسيل الأموال، أو الاستيلاء على أموال الآخرين بالغصب والاستيلاء على ممتلكات الناس دون حق.

وفي مقابل تحذير القرآن الكريم من تراكم الثروات دون وجه شرعي أو أكل أموال الناس بالباطل يدعو الأغنياء والموسرين إلى دفع جزء من أموالهم للفقراء والمحتاجين والمساكين، وذلك من خلال الزكاة والخراج والصدقات والكفارات والنذور وغيرها من وجوه الإنفاق الواجب أو المندوب.

كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ

(١) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في منع الماء، ٣/ ٢٧٨، رقم ٣٤٧٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث، ٢/ ٨٢٦، رقم ٢٤٧٢. صححه الألباني في إرواء الغليل، ٦/ ٧، رقم ١٥٥٢.

﴿وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ [الذاريات: ١٩].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأمر القرآن المجيد بالإنفاق كي لا تتراكم الثروات بيد مجموعة قليلة من الأغنياء.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: ٧].

كما حذر القرآن المبذرين للأموال، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧﴾ [الإسراء: ٢٧].

فالإنسان مسؤول عن اكتسابه للأموال كما أنه مسؤول عن طريقة إنفاقه لها، وتزداد المسؤولية عندما يكون الإنسان مسؤولًا عن بيت مال المسلمين؛ لأن هذا المال هو حق لكل المسلمين، ويجب صرفه في الوجوه الشرعية، ووفق تعاليم الشرع والدين.

ثالثًا: حقوق الضعفاء:

موضوع الضعفاء والمستضعفين في القرآن الكريم، ورد ذكره في القرآن أكثر من ثلاثين مرة باللفظ أما بالمعنى فالآيات أكثر من ذلك.

وقد تحدث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن بعض صفات الإنسان التي تبين مظاهر الضعف البشري، وتحدثت آيات عن صور من الضعف تعتري بعض الخلق كسنة فطرية تجري عليهم دون اختيار، وهي بحاجة إلى رعاية واهتمام خاص بهم، كضعف الطفولة، والأنوثة، والشيخوخة.

وتحدثت أيضًا عن نوع آخر من أنواع الضعف البشري، هو الضعف بسبب الفقر أو المرض، وقد حث القرآن الكريم على دفع أسبابه، وحث المسلمين على القيام بواجب التكافل والتعاون.

ولم يكتف بالحث على الإنفاق الطوعي، ولم يترك أمر هؤلاء الضعفاء لحاكم ولا لمتسلط ولا لطامع ولا لصاحب هوى، بل فرض لهم فريضة تولى الله تعالى بيان أصناف مستحقيها وتفصيلهم، لتقطع تلك الآيات المطامع ويعرف كل ذي حق حقه.

وإن الناظر في كتاب الله الكريم والمتعمق فيه يرى وبكل وضوح مدى اهتمام المولى عز وجل بالفقراء والمساكين والمحتاجين، فقد أعطى هؤلاء الفقراء والضعفاء والمساكين من أرامل وأيتام عظيم العناية وشديد الاهتمام، حيث نجد أن الله تعالى قد ذكرهم في كثير من سور القرآن الكريم، وما ذلك إلا لعلو منزلتهم عنده سبحانه وتعالى، وحتى يلفت أنظار المسلمين إليهم فلا يتساهلون في أمورهم ويبخسوا حقوقهم، وخصوصًا قاصر الجناح ومن لم يوجد له مطالب منهم.

إن من أهم ألوان الحفاظ على الكرامة الإنسانية في الإسلام الحفاظ على حق الضعفاء، فإن كان للقوي جسد يحميه ويد يبطش بها فليس للضعيف ذلك، بل له دين قويم يستحق بسببه أن نحفظ له كرامته مهما بلغ ضعفه.

والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ووصايا الخلفاء الراشدين كلها مليئة بالوصية بالضعفاء.

فكلنا نولد ضعفاء نحتاج إعانة الآخرين واهتمامهم ورعايتهم، ثم يرزقنا الله القوة ويمنحنا إياها لنقوم برد الجميل وشكر النعمة فنؤدي نفس الدور الذي قام به غيرنا معنا، فنعين الآخرين من الضعفاء ونهتم بهم ونرعاهم، ثم نرد مرة أخرى إلى الضعف لنحتاج مرة أخرى إلى إعانة الآخرين واهتمامهم ورعايتهم.

وقد يطرأ علينا الضعف أثناء مراحل قوتنا لأسباب قد تكون طارئة ووقتية مآلها إلى الزوال بعد فترة، كحال ابن السبيل، والرجل الذي ضل طريقه في أرض الضلال، ومن لزمه دين، وقد تطول فترات الضعف لتبقى شهورًا وأعوامًا، كحال من ابتلي بالمرض العضال، وحال من ابتلي بإعاقة جسدية أو ذهنية مزمنة، وحال الأرملة الثكلى واليتيم، إلى آخره، وكل هؤلاء الضعفاء يحتاجون إلى الرعاية والاهتمام حفظا لكرامتهم كل حسب حاله وحسب ما يعينه ويحفظ له هذه الكرامة التي هي ماء حياة المسلم.

١ . حقوق الأيتام.

ولقد اهتم الإسلام باليتيم اهتمامًا بالغًا، من ناحية تربيته ومعاملته والحرص على أمواله وضمان معيشته، حتى ينشأ عضوًا بارزًا في المجتمع، ويقوم بمسؤولياته على أحسن وجه.

فمن اهتمام القرآن الكريم بشأن اليتيم: عدم قهره، والحط من كرامته، والغض من شأنه.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون: ١-٢]

كما أمر الله سبحانه وتعالى بالمحافظة

على أموال اليتيم وعدم الاقتراب منها إلا بالتي هي أحسن.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

أي: هل عرفت الذي يكذب بالبعث والجزاء؟ فذلك الذي يدفع اليتيم بعنف ويرده بزجر وخشونة[١].

ومن مظاهر العناية التي أولاها الإسلام للأيتام حفظ أموالهم والسعي في تنميتها والابتعاد عن كل تصرف ضار بها.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢٠].

«ويسألونك -أيها النبي- عن اليتامى الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ كيف يتصرفون معهم في معاشهم وأموالهم؟ قل لهم: إصلاحكم لهم خير، فافعلوا الأنفع لهم دائمًا، وإن تخالطوهم في سائر شؤون المعاش فهم إخوانكم في الدين، وعلى الأخ أن يرعى مصلحة أخيه، والله يعلم المضيع لأموال اليتامى من الحريص على إصلاحها. ولو شاء الله لضيق وشق عليكم بتحريم المخالطة، إن الله عزيز في ملكه، حكيم في خلقه وتدبيره وتشريعه»[٢].

كما نهى عن أكل أموال اليتيم ظلمًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

إن الذين يعتدون على أموال اليتامى فيأخذونها بغير حق إنما يأكلون نارًا تتأجج في بطونهم يوم القيامة، وسيدخلون نارا يقاسون حرها[٣].

ومن اهتمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بشأن اليتيم أنه رغب في كفالته، والاهتمام برعايته، وبشر الأوصياء أنهم سيكونون معه بالجنة. عن سهلٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئًا)[٤].

ورعاية اليتيم وكفالته واجبة في الأصل على ذوي الأرحام والأقرباء، ويجب على المسلمين أن يتعاونوا فيما بينهم لإقامة دور لرعاية الأيتام، لتشرف المؤسسات الإسلامية على تربيتهم والإنفاق عليهم، ويكون ذلك أبعد لهم عن الانحراف

(١) انظر: أوضح التفاسير ١/ ٧٦٣.

(٢) التفسير الميسر ١/ ٣٥.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٧٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب اللعان، ٧/ ٥٣، رقم ٥٣٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان للأرملة، ٤/ ٢٢٨٧، رقم ٢٩٨٣.

والتشرد والضياع، وتساهم كفالة اليتيم في بناء مجتمعٍ سليم خالٍ من الحقد والكراهية تسوده روح المحبة والود.

٢. رعاية المنكوبين والمكروبين.

حثت الشريعة الإسلامية على إغاثة المنكوب والتفريج عن المكروب.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربةً فرج الله عنه كربةً من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة)[(١)].

ولا شك أن المجتمع المسلم حين يتربى على هذه المعاني فإن أفراده ينطلقون في مضمار التعاون الكامل والتكافل الشامل والإيثار الكريم، ويأخذون بيد من أصابته مصيبة في ماله ونفسه.

٣. الفقراء والمساكين.

قد استفاض كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في الاهتمام بالفقراء والمساكين، والفرق بينهما أن الفقراء هم الذين لا شيء لهم أصلا والمساكين هم الذين لهم شيء لا يقوم بهم.

ولقد ذكرهم الله تبارك وتعالى عند بيان أصناف المستحقين للزكاة وللصدقات، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠].

فكان الفقراء والمساكين هم أولى الفئات المستحقة للزكاة وللصدقات.

٤. الوالدان عند الكبر.

وهم طائفة خاصة من المسنين يجب إفرادها لعظيم قدرها ولضرورة التنبيه عليها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

٥. يتامى النساء خاصة.

وقد قال الله تبارك وتعالى في حقهن وفي التحذير من عدم إيتائهن ما كتب لهن: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ٣/ ١٢٨، رقم ٢٤٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٦، رقم ٢٥٨٠.

﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء: ١٢٧].

٦. الأسرى.

ويكفينا قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٨].

وهنا لابد أن نوصي بالاهتمام بعوائل الأسرى في كل مكان وخاصة في أرض الرباط أرض الجهاد والفداء أرض فلسطين الحبيبة، الذين يقبعون في سجون الاحتلال الإسرائيلي، والذين ضحوا بحريتهم من أجل عقيدتهم ووطنهم، فنقدم لهم كل عون ومساعدة ورعاية لهم ولأسرهم وتفقدهم في المناسبات، والعمل الجاد على فك أسرهم وأسرى المسلمين في كل مكان.

٧. الغارمون.

والغارم هو: المدين دينًا يستحق به الزكاة وليس دينًا للترفه، أو ليكون مصدرًا للثراء «إذا استدان إنسان مبلغا مضطرا إليه؛ لبناء بيت لسكناه، أو لشراء ملابس مناسبة، أو لمن تلزمه نفقته؛ كأبيه ولأولاده أو زوجته، أو سيارة يكد عليها لينفق من كسبه منها على نفسه، ومن تلزمه نفقته مثلًا، وليس عنده ما يسدد به الدين استحق أن يعطى من مال الزكاة ما يستعين به على قضاء دينه، أما إذا كانت استدانته لشراء أرض تكون مصدر ثراء له، أو لشراء سيارة ليكون من أهل السعة أو الترف، فلا يستحق أن يعطى من الزكاة»[(١)].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ وَالْغَارِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٠].

٨. ابن السبيل.

هو من كان في سفر وضاق به الحال وغدا بلا مال، وإن كان في الأصل ربما من أهل اليسار، ولكنه صار بحالته الجديدة من أهل الصدقات، ومن الضعفاء المستحقين للمساعدة والمعونة.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥][(٢)].

٩. السائلون.

والسائل يحمل ضعفًا بين جنباته بما جعل به يده هي السفلى، فإن كان فقيرًا فضعفه واضح، وإن كان غنيًا فيما يظهر لك فلعل لديه ما ألجأه إلى ذلك، فلا تزيدن عليه بعد ذل السؤال ذلا آخر من الانتهار، ولذلك يكفينا في حق السائل قول الله تبارك وتعالى:

(١) فتاوى اللجنة الدائمة ١ المجموعة الأولى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ١٠/ ٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٦.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: ١٠].

وكان من خصاله صلى الله عليه وسلم أنه لا يرد سائلا، ولعل الحديث المروي في الصحيحين من أبلغ ما يضرب مثلًا لهذه الحالة عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال رجلٌ: لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارقٍ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على سارقٍ فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانيةٍ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانيةٍ، فقال: اللهم لك الحمد، على زانيةٍ؟ لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي غنيٍ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غنيٍ، فقال: اللهم لك الحمد، على سارقٍ وعلى زانيةٍ وعلى غنيٍ، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارقٍ فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله)[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، ٢/ ١١٠، رقم ١٤٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ثبوت أجر المتصدق، ٢/ ٧٠٩، رقم ١٠٢٢.

الانحراف المجتمعي وعلاجه

شغلت مشكلة الانحراف عن السلوك السوي علماء الاجتماع منذ فترات طويلة خاصة أن الانحراف يشكل ظاهرة اجتماعية خطيرة تخرج بالفرد أو الأفراد المنحرفين عن معايير المجتمع وقيمه.

والجريمة في حقيقة أمرها لا تعدو إلا أن تكون شكلًا من أشكال الانحراف عن السلوك السوي إلا أن القانون الجنائي وضع لها طابع الجريمة أو السلوك الانحرافي أو السلوك غير المشروع وذلك لمخالفتها لنص معين في القانون الجنائي السائد في المجتمع.

وقد أصبحت ظاهرة الانحراف والجريمة في الفترة الأخيرة التي تحول فيها المجتمع الدولي إلى قرية صغيرة بسبب انتشار وسائل الاتصال والتقدم التكنولوجي السريع ظاهرة خطيرة جديرة بالرصد والدراسة والتحليل خاصة إذا ما تعلق الانحراف بالأحداث الذين يشكلون عماد المستقبل للمجتمع.

إن مجتمعا تكثر فيه الأمراض الاجتماعية؛ كالعنف والجريمة والإدمان والانحرافات الجنسية واستغلال الطفولة، سيكون هو حتمًا مريضًا، وبحاجة إلى إعادة تنظيم من خلال تفعيل الرعاية الاجتماعية، وتأمين الاحتياجات الخاصة

بالفرد وبالمجتمع؛ تأمينًا لحالات الاكتفاء والإشباع.

الطبقية:

تباينت المواقف البشرية من هذه الظاهرة الإنسانية، فذهبت الماركسية إلى إنكار مفهوم الطبقات على مستوى التنظير، ودعت إلى إلغاء الفوارق بين الناس على مستوى التطبيق، واعتبرت أن هذا التفاوت يستدعي صراعًا على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع، وقررت أن «الصراع الطبقي» هو الحاكم والمتحكم في علاقات الإنسان على المستويات كافة؛ ومن ثم رأت أن «الصراع الطبقي» صراع حتمي في المجتمعات، ويفضي في النهاية إلى زوال الطبقات من تلك المجتمعات، وسيادة طبقة واحدة هي طبقة العمال.

والرأسمالية تعاملت مع هذه الظاهرة من منظور آخر، فهي من جانب أقرت هذا التفاوت على مستوى التنظير، وعملت على ترسيخه على مستوى التطبيق، فأطلقت للأفراد حرياتهم دون قيد أو شرط، وجعلتهم المالكين الوحيدين لما يكتسبون، ولا حق فيه لغيرهم. ومنعت الدولة من القيام بأي تدخل في سلوك الأفراد، واعتبرت أن سيطرة القوي على الضعيف والغني على الفقير هو القانون الذي يحكم المجتمعات والعلاقات بين الناس.

وأما نظام الإسلام الاقتصادي والاجتماعي: فهو العدل الوسط بين النظامين السابقين، أو بتعبير أدق: هو نظام قائم بذاته، له فكره الاجتماعي الخاص به، فهو يعترف بقيمة الإنسان، كما يعترف بحقوق المجتمع، فيقيم توازنًا بينهما، بل إنه جعل الفرد للجماعة، والجماعة للفرد من طريق التضامن العام بين الأفراد، فهو إذن ليس فرديًا فقط يؤدي إلى الرأسمالية، وليس جماعيًا يؤدي إلى الماركسية، وإنما يمنح الفرد قدرًا من الحرية بحيث لا يطغى على كيان الآخرين، ويمنح المجتمع أو الدولة التي تمثله سلطة واسعة في تنظيم الروابط الاجتماعية والاقتصادية على أساس من الحب المتبادل بين الفرد والجماعة، لا على أساس الحقد وإيجاد العداوات بين الناس[1].

موقف القرآن من ظاهرة التفاوت الطبقي:

المتأمل في القرآن الكريم يقف على العديد من الآيات القرآنية، التي ألمحت إلى ظاهرة التفاوت الطبقي بين الناس؛

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٦/ ٤٥٧٤ وما بعده، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها: د.غالب بن علي عواجي ٢/ ٧٢٧.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢].

أي: ألزموا الطاعة، وتمسكوا بأهداب القناعة؛ ولا تطمحوا بأعينكم إلى ما خص الله تعالى به غيركم؛ فهو جل شأنه مالك الملك؛ يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء؛ بيده الخير كله وهو حث على عدم الحقد والحسد[1].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [النحل: ٧١].

فمنكم غني وفقير ومالك ومملوك، أي: فجعلكم متفاوتين فيه فوسع على بعض عباده وبسط حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفًا مؤلفة من بني آدم، وضيقه على بعض عباده وقتر حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم، وكثر لواحد وقلل على واحد، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها.

وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم والفهم والجهل وقوة البدن وضعفه والحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك من الأحوال[2].

وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

فهذه الآيات ونحوها تقرر حقيقة واقعة وهي: أن الله سبحانه قد فضل الناس بعضهم على بعض بشتى أنواع التفضيل، والقرآن الكريم حين يقرر ظاهرة التفاوت بين الناس إنما يفعلها لحكمة وهي الامتحان والاختبار، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

أي: ورفع بعضكم فوق بعض درجات في العلم، والعمل، والغنى والفقر، ليبلوكم جميعا، كل بما عنده، فيختبر الغني، هل يؤدي زكاة ماله؟ هل يتصدق بالفضل من

(١) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب ١/ ٩٨.

(٢) انظر: فتح البيان، صديق خان ٧/ ٢٧٩.

ماله؟ هل يعطف على الفقير والمحتاج والمسكين أم هو نهم جشع صلد صلب كالحجر؟ نعم ويبلو الفقير هل يصبر ويرضى أم يشكو ويكفر؟

وإذا كان الله سبحانه قد رفع بعضنا فوق بعض، فما علينا إلا العمل والجد والصبر والرضا بقضاء الله وقدره، واعتقاد أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وعلى الجملة فهذا علاج نفسي لسل السخائم والتحاسد[1].

ومن الحكم لهذا التفاوت هو إعمار الأرض، ولا يمكن أن تستقيم الحياة إلا بهذا التفاوت؛ وذلك أن التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة لعمارة هذه الأرض، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

أي: طلب منكم عمارتها، وهذا يتطلب أمرين اثنين: أن يبقي الناس الأمر الصالح على صلاحه، أو يزيدوه صلاحًا. وهكذا نفهم معنى استعمار الأرض، ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أنه تجلى على الخلق بصفات من صفاته، فالقوي يعين الضعيف، والحق سبحانه له مطلق القوة، ويهب الخلق من حكمته حكمة، ومن قبضه قبضًا، ومن بسطه بسطًا، ومن غناه غنىً؛ ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وموهوبة منه لنا، والدليل على ذلك أن القوي فينا يصير إلى ضعف، والغني منا قد يصيبه الفقر؛ حتى لا نفهم أن هذه الصفات ذاتية فينا، وأن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا من صفاته قدرة لنفعل.

ومن أعطاه الله تعالى قدرة ليفعل؛ عليه أن يلاحظ أنه انتفع بفعل من سبقه، فإن أكل اليوم تمرًا على سبيل المثال فعليه أن يتذكر أن الذي زرع له النخلة هو من سبقه، فليزرع من يأكل البلح الآن نخلة لتفيده بعد سبع سنين وهو الزمن اللازم لتطرح النخلة بلحًا وليستفيد بها من يأتي من بعده[2].

ولو كان جميع الناس نسخًا مكررة ما أمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض على النحو المطلوب، ولبقيت أعمال كثيرة لا نجد لها من يقوم بها.

ومع أن القرآن قد أقر هذه الظاهرة الإنسانية -ظاهرة التفاوت بين الناس- إلا أنه سعى للحد قدر المستطاع من هذا التفاوت، وهذا بيان ذلك:

على مستوى التفاوت الاقتصادي بين الناس، طلب من الغني الإنفاق على الفقير، ومد يد العون له، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [المنافقون: ١٠].

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي ١/ ٦٩٢.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي ١/ ٦٩٢.

بالمقابل، طلب من الفقير أن لا يتمنى ما فضل الله به غيره من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢].

ومدح المتعففين من الفقراء، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وعلى مستوى التفاوت الفكري، طلب القرآن من العالم أن يظهر علمه، ولا يكتمه عن الناس، وتوعد من يفعل ذلك أشد الوعيد.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

وبالمقابل، حض القرآن غير المتعلم على طلب العلم، وميز بين العالم وغير العالم، ما يفيد مدح الأول وذم الثاني، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

فغير العالم مطالب بأن يتعلم ولا ينبغي أن يبقى جاهلًا.

وينبغي ألا يفهم من قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

استعلاء طبقة على طبقة، أو استعلاء فرد على فرد، كلا! إن كل البشر مسخر بعضهم لبعض، ودولاب الحياة يدور بالجميع، ويسخر بعضهم لبعض في كل وضع، وفي كل ظرف، فالله فاضل بينهم فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والعلم.

ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض وهي ليستخدم بعضهم بعضًا فيستخدم الغني الفقير، والرئيس المرؤوس والقوي الضعيف، والحر العبد، والعاقل من دونه في العقل والعالم الجاهل وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم، ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه.

فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين فجعل البعض محتاجًا إلى البعض لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا ويحتاج هذا إلى هذا ويصنع هذا لهذا

ويعطي هذا هذا[1].

والقرآن إذ يقرر هذا التفاوت بين البشر لا يدعو إلى ترسيخ هذا التفاوت وتنظيمه، بل غاية ما في الأمر أنه يقرر الحقائق الخالدة المركوزة في فطرة هذا الوجود؛ الثابتة ثبات السماوات والأرض ونواميسها التي لا تختل ولا تتزعزع.

فالقرآن الكريم كما يقول سيد قطب: «يرسي القواعد الأساسية والحقائق الكلية التي لا تضطرب ولا تتغير؛ ولا تؤثر فيها تطورات الحياة، واختلاف النظم، وتعدد المذاهب، وتنوع البيئات، فهناك سنن للحياة ثابتة، تتحرك الحياة في مجالها؛ ولكنها لا تخرج عن إطارها، والذين تشغلهم الظواهر المتغيرة عن تدبر الحقائق الثابتة، لا يفطنون لهذا القانون الإلهي، الذي يجمع بين الثبات والتغير، في صلب الحياة وفي أطوار الحياة؛ ويحسبون أن التطور والتغير، يتناول حقائق الأشياء كما يتناول أشكالها، ويزعمون أن التطور المستمر يمتنع معه أن تكون هناك قواعد ثابتة لأمر من الأمور؛ وينكرون أن يكون هناك قانون ثابت غير قانون التطور المستمر، فهذا هو القانون الوحيد الذي يؤمنون بثباته! فأما نحن أصحاب العقيدة الإسلامية فنرى في واقع الحياة مصداق ما يقرره الله من وجود الثبات والتغير متلازمين في كل زاوية من زوايا الكون، وفي كل جانب من جوانب الحياة. وأقرب ما بين أيدينا من هذا التلازم ثبات التفاوت في الرزق بين الناس، وتغير نسب التفاوت وأسبابه في النظم والمجتمعات»[2].

الخلاصة: مما تقدم يتبين أن القرآن الكريم أقر ظاهرة التفاوت بين الناس، واعتبر ذلك من المقتضيات الملازمة لاستمرار هذه الحياة، ودعا في الوقت نفسه إلى تقليل هذه التفاوت قدر المستطاع، لكنه لم يسع إلى إلغائه؛ لأن في ذلك إلغاء لسنة من سنن الحياة، ما يعني التناقض بين ما قرره القرآن وبين السنن التي أقام الله عليها هذا الكون.

الجرائم المجتمعية:

إن المجتمع المريض الذي يحول دون إشباع حاجات أفراده والذي يفيض بأنواع الحرمان والإحباطات والصراعات، والذي يشعر فيه الفرد بنقص الأمن وبعدم الأمان، وإن التنافس الشديد بين الناس وعدم المساواة والاضطهاد والاستغلال، يضاف إلى ذلك وسائل الإعلام غير الموجهة التي تؤثر تأثيرا سيئًا على أخلاقيات أفراد المجتمع، وغيرها من الأسباب قد يدفع بالعديد إلى ممارسة بعض أنواع السلوك

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٥٣٠، ٦٥٣١.

(٢) انظر: فتح البيان، صديق خان ١٢/ ٣٤٩، ٣٥٠.

الممنوع أو المرفوض اجتماعيًا، ومن هذه الجرائم المجتمعية:

١. القتل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: ٣٣].

وهذا شامل لكل نفس حرم الله قتلها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد ومسلم وكافر له عهد، إلا بالحق كالنفس بالنفس والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل، ومن قتل مظلوما بغير حق فقد جعل الله لوليه وهو أقرب عصباته وورثته إليه حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضا تسلطا قدريا على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص كالعمد العدوان والمكافأة، فلا يسرف الولي في القتل إنه كان منصورا والإسراف مجاوزة الحد إما أن يمثل بالقاتل أو يقتله بغير ما قتل به أو يقتل غير القاتل.

وفي هذه الآية دليل إلى أن الحق في القتل للولي فلا يقتص إلا بإذنه وإن عفا سقط القصاص، وأن ولي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله[(١)].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٨٨، ٣١٨٩.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

وهذا بيان من الله عز ذكره عن حكم الفساد في الأرض، وهو ما يعرف بحد الحرابة، أعلم عباده ما الذي يستحقه المفسد في الأرض من العقوبة والنكال، فبين تبارك وتعالى أنه لا جزاء له في الدنيا إلا القتل، والصلب، وقطع اليد والرجل من خلاف، أو النفي من الأرض، خزيا لهم، وأما في الآخرة إن لم يتب في الدنيا، فعذاب عظيم[(٢)].

وقال تعالى مبينًا حرمة قتل النفس المؤمنة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٧.

﴿مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

ولا يحق لمؤمن الاعتداء على أخيه المؤمن وقتله بغير حق، إلا أن يقع منه ذلك على وجه الخطأ الذي لا عمد فيه، ومن وقع منه ذلك الخطأ فعليه عتق رقبة مؤمنة، وتسليم دية مقدرة إلى أوليائه، إلا أن يتصدقوا بها عليه ويعفوا عنه، فإن كان المقتول من قوم كفار أعداء للمؤمنين، وهو مؤمن بالله تعالى، وبما أنزل من الحق على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فعلى قاتله عتق رقبة مؤمنة، وإن كان من قوم بينكم وبينهم عهد وميثاق، فعلى قاتله دية تسلم إلى أوليائه وعتق رقبة مؤمنة، فمن لم يجد القدرة على عتق رقبة مؤمنة، فعليه صيام شهرين متتابعين؛ ليتوب الله تعالى عليه. وكان الله تعالى عليما بحقيقة شأن عباده، حكيمًا فيما شرعه لهم[(١)].

٢. السرقة.

قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٨-٣٩].

ومعنى الآيات: فيما فرض عليكم أو يتلى عليكم حكم السارق والسارقة، فمن سرق من ذكر أو أنثى، ﴿فَاقْطَعُوا﴾ يا ولاة الأمور ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ أي: من الرسغ كما أوضحت السنة النبوية، ﴿جَزَاءً﴾ لهما على سرقتهما وما كسبت أيديهما، ولانتهاك حرمة مال الآخرين، لأن السرقة قد تجر إلى الدفاع عن المال وإلى القتل، وتنكيلًا وإهانةً وتحقيرًا لهما من الله؛ لأن فعلهما خسيس ودنيء يستوجب الإذلال، والزجر عن العودة للسرقة، وإيقاع عبرة لغيرهما، والله قوي غالب في تنفيذ أوامره، حكيم في تدبيره وصنعه وتشريعه، لا يشرع إلا ما فيه الحكمة والمصلحة، واختيار الأنسب للجريمة[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨].

نهانا الله أن نأكل أموال بعضنا بالباطل وبدون وجه حق، ونهانا أن نلقى بالأموال إلى الحكام مستعينين في ذلك بالدفاع الباطل، والرشوة التي تعطى لبعض أصحاب النفوس القذرة الحقيرة من الحكام ليصل صاحبها إلى غرضه، ولا شك أن كثرة التقاضي بالباطل وشيوع الرشوة في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٤٣.

(٢) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ١/ ٩٣.

الأمة مقبرة لها بل خطرها على الأمة أشد من اليهود، وكيف يجوز لمسلم أن يأكل مال أخيه المسلم بالإثم والزور والبهتان والرشوة، وهو يعلم أنه حرام ولا يأكل في بطنه إلا النار، واعتبروا أيها الحكام والقضاة والمتخاصمون بقول الرسول الأمين للمتخاصمين: أن زينب بنت أم سلمة، أخبرته: أن أمها أم سلمة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرتها، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه سمع خصومةً بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: (إنما أنا بشرٌ، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعضٍ، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعةٌ من النار، فليأخذها أو فليتركها)[1].[2].

٣. الزنا.

وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النور: ٢].

إن عقوبة الزناة الأبكار غير المتزوجين هي الجلد مائة لكل من الزاني والزانية في دار الإسلام أيا كان، ولا يحملنكم العطف والرأفة على ترك هذا الحد فهو حكم الله تعالى، والواجب تنفيذه، والغيرة على حرمات الله، ما دمتم مؤمنين مصدقين بالله وبالآخرة التي يجري فيها الحساب والجزاء، وهذا حث شديد على تطبيق حدود الله وتنفيذها، وتكون إقامة الحد علانية أمام فئة من الناس المؤمنين، تحقيقا للزجر والردع، وبعدا عن التورط في الفاحشة، وتقريعا وتوبيخا لمن تدنس بها.

والطائفة التي تشهد على إقامة الحد: أقلها واحد. وقيل: اثنان فأكثر. وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، أي: نفر من المسلمين، ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالًا[3].

٤. شرب الخمر.

قال تعالى: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة: ٢١٩].

السؤال عن الخمر والميسر هو بلا شك عن الحل والتحريم لا عن الحقيقة والذات، فإنهم يعرفونهما بلا شك، وكان الأغنياء

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٤٥٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، ٣/ ١٣١، رقم ٢٤٥٨، ومسلم في صحيحه، ٣، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر/ ١٣٣٧، رقم ١٧١٣.
(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي ١/ ١١١.

وذوو المقدرة فيهم منغمسين فيهما، ولذلك كان الجواب مشيرا إلى عدم رضا الشارع عنهما أو مشيرا إلى تحريمهما، لأن ما غلبت مضرته على منفعته-كما هو حكم الإسلام- يكون حراما، ولا يكون حلالا، وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك، فكان يحق على المؤمن النقي النفس، الذي خلص من أدران الهوى أن يكتفي بذلك ويجتنبهما، وكذلك فعل خواص المؤمنين، والعلية من أصحاب الرسول الأمين كأبي بكر وعمر وغيرهما من السابقين المقربين، ولقد كان عمر رضي الله عنه يحس بأن شرب الخمر لا يسوغ في الإسلام، ولذا كان يدعو الله قائلا: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا. خصوصًا بعد أن نزلت الآيات التي تشير إلى التحريم، ولا تصرح به.

ولماذا كان السؤال عن الخمر والميسر، وممن كان السؤال؟ إن السؤال بلا ريب من المؤمنين، ولم يكن من غيرهم، لأنهم رأوا الخمر تذهب الرشد، وتضعف العقل، وتجعل المرء يقع فيما لا يحسن، فما كان المؤمنون الأولون وقد أرهف الإيمان قلوبهم وزكت أرواحهم، وطهرت نفوسهم ليرضوا عن الخمر، وإن لم يصرح القرآن بالتحريم، ولذلك كثر سؤالهم عنها، ليكون القطع في أمرها[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

أي: لا تدخلوا فيها، والحال أنكم سكارى من الخمر إذ كانت يومئذ حلالًا غير حرام، حتى تكون عقولكم تامة تميزون بها الخطأ من الصواب فتعلموا ما تقولون في صلاتكم[2].

ثم كان التحريم النهائي بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: ٩١].

والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج: أن الناس كانوا مفتونين بها حتى إنها لو حرمت في أول الإسلام لكان تحريمها صارفًا لكثير من المدمنين لها عن الإسلام، بل عن النظر الصحيح المؤدي إلى الاهتداء به، لأنهم حينئذ ينظرون إليه بعين السخط فيرونه بغير صورته الجميلة، فكان من لطف الله وبالغ حكمته أن ذكرها في سورة البقرة بما يدل على تحريمها دلالة ظنية فيها مجال للاجتهاد، ليتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه، وذكرها في سورة النساء بما يقتضي تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة، إذ نهى عن قرب الصلاة في حال السكر، فلم يبق للمصر على شربها إلا

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٧٢٨.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ٦٩٧

الاغتباق بعد صلاة العشاء وضرره قليل، وكذا الصبوح من بعد صلاة الفجر لمن لا عمل له ولا يخشى أن يمتد سكره إلى وقت الظهر، وقليل ما هم، وكان شيخنا يرى أن آية النساء نزلت قبل آية البقرة، ثم تركهم الله تعالى على هذه الحال زمنا قوي فيه الدين، ورسخ اليقين، وكثرت الوقائع التي ظهر لهم بها إثم الخمر وضررها[1].

ثالثًا: علاج الانحراف المجتمعي:

لقد تعامل الإسلام مع مشكلة الانحراف المجتمعي بنظرة واقعية؛ فما اعتبره خطرًا- كالتفاوت في المستوى المعيشي المادي وآثاره ونتائجه- عالجه ولم يتهاون إزاءه.

ومن طرق الوقاية من الانحراف وعلاجه التي أشار إليها القرآن الكريم:

- مراقبة الله في السر والعلن والتحصين بالأخلاق التي أرشدنا إليها الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم وليعلم كل إنسان ما في نفسه، ولابد أن يقف ضد شهواته ورغباته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].
- قيام كل فرد بمسؤولياته سواء في البيت أو المدرسة أو المجتمع أو السلطات الحاكمة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].
- إعطاء المسجد دوره في إيصال رسالة مدوية يصل صداها إلى أقصى الأماكن وأبعدها، ولو وقفنا عند سيرة نبينا- صلى الله عليه وآله وسلم- لأدركنا كيف عني الإسلام بأهمية هذه الأماكن والبقاع، فأول ما فعل النبي عليه السلام عند مقدمه المدينة بنى المسجد، لما يمثله من حاضنة تحتضن الشباب، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: ٣٦].
- مقاطعة الوسائل والمواقع والقنوات الإعلامية التي اشتهرت بالانحراف والفساد، والعمل على التحذير منها، حتى لا تشيع الفاحشة بين الشباب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].
- إصدار تشريعات وقوانين تجرم عمل هذه القنوات، وكذا مواقع الإنترنت، والاقتصار على مشاهدة وسائل الإعلام المفيدة والنافعة، وعدم تضييع

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ١/ ٤٨٣

الوقت فيما لا فائدة فيه، فقد روي عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[1].

- تحصين الشباب بالثقافة الإسلامية الواعية، وذلك من خلال الاهتمام بالرعاية الأسرية، ودعم الدولة للبرامج الإعلامية الدينية والتربوية، وربط الشباب بالمساجد وبيان فضل العلماء، لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَٰجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].
- الإكثار من ذكر القصص والنماذج والمواقف التاريخية لرجال وشباب ونساء كان في موضع القدوة الصالحة، فالقصص جند من جنود الله، يثبت الله بها أوليائه كما قال تعالى مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].
- حث الشباب والفتيات على الزواج المبكر وتيسير أسبابه وتخفيف المهور لتحصينهم ضد الإغراءات والمفاسد، وعدم التهاون مع النساء المتبرجات ومنع الخلوة والاختلاط المحرم في المجالس والمنتديات والعمل على تجنب ما يثير الغرائز ومحاسبة من يتجرأ على ذلك قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠-٣١].
- إنزال العقوبات الشرعية بالمفسدين والمنحرفين والمجرمين، وعدم التهاون معهم؛ لما يسببونه من أضرار ومفاسد دينية وأخلاقية تدمر المجتمع، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩].

موضوعات ذات صلة:

الاجتماع، الأخوة، الأسرة، الصحبة

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢، ٤٣.

العلاقات الدولية

عناصر الموضوع

مفهوم العلاقات الدولية	١٩٠
الألفاظ ذات الصلة	١٩٢
مقومات الدولة الإسلامية	١٩٣
وظائف الدولة الإسلامية	٢١٠
وسائل تحقيق وظائف الدولة	٢٢٨
علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى	٢٢٩
العهود بين الدولة الإسلامية وغيرها	٢٣٩
مزايا الدولة الإسلامية	٢٥٣
أسس العلاقات الدولية في الإسلام	٢٧٨
خصائص العلاقات الدولية في الإسلام	٢٨١

مفهوم العلاقات الدولية

أولًا: المعنى اللغوي:

العلاقات في اللغة: العلاقات والعلائق جمع لكلمة «علاقة»، مشتقة من العين واللام والقاف، وهو أصلٌ كبير صحيح يرجع إلى معنىً واحدٍ، وهو أن يناط الشيء بالشيء العالي أو ينشب فيه ويتشبث به، ثم يتسع الكلام فيه، والمرجع كله إلى الأصل الذي ذكرناه، تقول: علقت الشيء أعلقه تعليقًا، وقد علق به، إذا لزمه، وعلق فلانٌ بفلانٍ: خاصمه، و«علق» القاضي الحكم: لم يقطع به، وعلق على كلام غيره: تعقبه بنقدٍ أو غيره، والعلاقة -بفتح العين-: تستعمل في المعقولات والأمور الذهنية، كالحب والخصومة، وأما بكسر العين فإنها تستعمل في المحسات والأمور الخارجية المادية[1].

الدولية في اللغة: الدولية: مصدر صناعي لكلمة الدولة، وهي من «دول»، وهو أصل واحد يدل على تحول شيء من مكانٍ إلى مكان، ويقال: الدولة والدولة، وهما بمعنى واحد، وقيل: الدولة هي العقبة في المال، والدولة في الحرب، والجمع دولٌ ودولات ودولات، وينسب إليها فيقال: الدولية والدولية، وتطلق الدولة على الاستيلاء والغلبة وانقلاب الزمان، وعلى الشيء المتداول، والإدالة: الغلبة، يقال: أديل لنا على أعدائنا، أي نصرنا عليهم[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال أبو البقاء الكفوي: «والعلاقة -بالفتح- هي اتصال ما بين المعنى الحقيقي والمجازي، وذلك معتبر بحسب قوة الاتصال، ويتصور ذلك الاتصال من وجوه خمسة: الاشتراك في شكل، والاشتراك في صفة، وكون المستعمل فيه -أعني المعنى المجازي- على الصفة التي يكون اللفظ حقيقة فيها، وكون المستعمل فيه آيلًا غالبا إلى الصفة التي هي المعنى الحقيقي والمجاورة، فالأولان يسميان مستعارًا، وما عداهما مجازًا مرسلًا»[3].

والعلاقات الثقافية أو التجارية بين بلدين: وجود تبادل ثقافي أو تجاري بينهما، والعلاقات

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٢٧، المخصص، ابن سيده ١/ ٣٧٨، الصحاح، الجوهري ١/ ٤٩٢، تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ١٦٣، المصباح المنير، الفيومي ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣١١، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٢٥٢، ترتيب القاموس المحيط، ١/ ٢٣٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٣٠٤.

(٣) الكليات ص ٤٠٤١.

الدبلوماسية أو السياسية بين بلدين: وجود سفارة أو قنصلية لكلٍ منهما في الأخرى، وتربط بينهما علاقة قربى: تجمعهم علاقة عائلية، وتوتر العلاقات: سوء العلاقات واضطرابها بين دولتين أو أكثر وهي حالة قد تؤدي إلى قطع العلاقات، وقطعت دولة علاقاتها الدبلوماسية بدولة أخرى: أغلقت سفارتها أو قنصليتها في تلك الدولة[1].

والدولة في الاصطلاح: جماعة من الناس، يقيمون على إقليم معين، تحكمهم سلطة واحدة.

وهذا تعريف للدولة بإطلاق، سواء كانت دولة مسلمة أو غير مسلمة. فإذا نظرنا إليها بهذا الاعتبار أو من هذه الحيثية «الإسلام»، فإن الدولة تتحدد صفتها بنوع السلطة التي تحكمها؛ فإن كانت سلطة إسلامية تقوم على التزام عقيدة التوحيد وأحكام الشرع الإسلامي، فهي الدولة الإسلامية. وإن كانت سلطة تقوم على أحكام وضعية بمعزل عن دين الله تعالى وشرعه، فهي عندئذ دولة غير إسلامية.

وأما العلاقات الدولية:

العلاقات الدولية تأخذ بالاعتبار طبيعة المجتمع الدولي ومنطق المعاملات والصلات التي تتم في إطار القانون الدولي الذي يعنى بتنظيم العلاقات بين الدول أو الهيئات الدولية، وقد اختلف علماء القانون في تحديد مضمونها وطبيعتها ومنهجها، كما اختلفوا في تعريف القانون الدولي؛ بسبب عوامل عديدة تضافرت فساعدت على الخلاف والغموض، فهي حديثة العهد نسبيًا مقارنة بغيرها من العلوم المهتمة بدراسة الظواهر الدولية، كما أن اتصالها الوثيق واختلاطها بعلوم أخرى أقدم منها عهدًا وأرسخ قدمًا يجعلها أقل وضوحًا وتميزًا[2].

ويقصد بالعلاقات الدولية: سائر أنواع الروابط والمبادلات التي تتم خارج حدود دولة واحدة، وبعضهم يقصد بالعلاقات الدولية ما يكون بين الدول من روابط تقوم على أساسٍ من قواعد عامة، وضوابط تحكم تعاملها فيما بينها باعتبارها مستقلة ذات سيادة[3].

---

(١) انظر: معجم تصحيح لغة الإعلام العربي، عبد الهادي أبوطالب ص ١٦٧، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ٢/ ١٥٣٨.

(٢) انظر: العلاقات الدولية، د.محمد سامي عبدالحميد ص ٩ - ١٤، مذكرات في العلاقات الدولية، د.محمد السعيد الدقاق ص ٦.

(٣) انظر: المعاهدات والاتفاقات، بحث للدكتور عبدالعزيز خياط في [مجلة مجمع الفقه الإسلامي] بجدة، العدد ٧ - الجزء ٤ - ١٤١٢ هـ - ص ٥٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ القرية:

القرية لغة:

البلد المسكون؛ مأخوذة من القري. وهو التجمع؛ وسميت بذلك؛ لاجتماع الناس بها[١].

القرية اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي[٢].

الصلة بين الدولة والقرية:

جاء في القرآن الكريم كلمة تعبر عن الدولة وهي القرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾[الأنعام: ١٢٣].

وهذا يصف الصورة التي كانت غالبة على الدولة في القديم؛ إذ كانت المدينة تكون دولة، وكان يطلق عليها: الدولة والمدينة، والقرآن الكريم في تسميته للدولة بالقرية يقدم لنا الدولة في أصغر صورها حتى يمكن البناء أو القياس عليها[٣].

٢ السلم:

السلم لغة:

السِلم: ضد الحرب[٤].

السلم اصطلاحًا:

السلم ضد الحرب، وهو الصلح[٥].

وقيل: هو حالة نفسية تسود أفراد المجتمع نتيجة وحدة الأهداف والغايات والتصورات، تجعلهم يشعرون بالأمان والسكينة في كل نواحي الحياة.

الصلة بين العلاقات الدولية والسلم:

يعتبر السلم من العلاقات الحميمة بين الدول، فالسلم جزء من العلاقات الدولية.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٠٢.
(٣) انظر: قانون السلام في الإسلام، د.محمد طلعت الغنيمي ص٣٢٤.
(٤) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٨٥٨.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٤٠.

مقومات الدولة الإسلامية

إن التعريف السابق للدولة يشير إلى ثلاثة مقومات لا بد من توفرها لقيام الدولة، فهي أركانها، مهما اختلفت التعاريف. بل إن بعض الشراح القانونيين الذين يكتبون في الدولة وتعريفها يكتفون بتعداد هذه الأركان بدلًا من تعريف الدولة؛ لصعوبته أو للاختلاف فيه.

وهذه المقومات الثلاثة هي:

الأول: الركن الاجتماعي، وهو الشعب أو الرعية أو الأمة.

الثاني: الركن المادي، وهو الإقليم الذي يقطنه الشعب.

الثالث: الركن القانوني، وهو السلطة التي تقوم على شؤون الدولة[1].

وقد استخرج بعض علماء القانون الدولي هذه المقومات أو الأركان للدولة من مفهوم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

يقول الدكتور محمد طلعت الغنيمي:

فالقرية هنا - وهي الدولة- ذات شعب هم أهلها الظالمون، ولا بد أن يكون لها إقليم، إذ لا يتم الإخراج إلا من مكان محدد ومعين، أما السلطة فقد عبرت عنها الآية بالنصير، حتى يمكن أن يحمي المظلومين من السلطة الظالمة في تلك القرية[2].

وكانت دولة المدينة أول تصور إسلامي للدولة، وقد تبدت إرهاصاتها في بيعة العقبة؛ فالذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم هناك لم يبايعوه على الولاء الديني فحسب، بل على أن يمنعوا الرسول صلى الله عليه وسلم مما يمنعون منه أنفسهم. ثم تأكد ذلك في عهد المدينة «الصحيفة» حيث جعل المؤمنين من المهاجرين والأنصار أمة واحدة، فكانوا بذلك عنصر شعب الدولة الناشئة إلى جانب اليهود كأقلية محمية، وكانت «المدينة» إقليم الدولة. وتذكر بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم اهتم ببيان حدود المدينة؛ فقد روى كعب بن مالك رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم على أشراف مخيضٍ وعلى الحفياء وعلى ذي العشيرة وعلى تيم)[3] وهي جبال المدينة[4].

(١) انظر: القانون الدولي العام، د.محمود سامي جنينة، ص ٩٧، القانون الدولي العام، د.حامد سلطان وآخرين، ص ٣٤٩، القانون الدولي العام، د.إبراهيم العناني، ص ٦٢، الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، د.علي علي منصور، ص ٨٩.

(٢) قانون السلام في الإسلام، د.محمد طلعت الغنيمي، ص ٣٢٤.

(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٦٤-٦٥.

(٤) انظر: قانون السلام في الإسلام، ص١ , ٣٢٥

وفيما يلي بيان لهذه المقومات الثلاثة بما يناسب المقام والموضوع.

أولًا: الأمة:

جاء في القرآن الكريم -كما تقدم آنفًا- وفي الحديث الشريف كلماتٌ أو مفردات تدل على هذا المقوم أو الركن من أركان الدولة، مثل الأمة والقبيلة والجماعة والناس والمؤمنين، ففيها إشارة إلى ذلك، وإن كانت تختلف معانيها ودلالاتها باختلاف السياق. وحسبنا الإشارة إلى كلمتين تدلان على ما وراءهما، وهما (الأمة) و (القبيلة)، وقد تنطوي كلٌ منهما على معاني بعض الكلمات الأخرى التي أشرت إليها.

و(الأمة) راجعة في معناها اللغوي إلى القصد. وهي: الجماعة التي تقصد الأمر بتضافرٍ وتعاون. وقولنا: أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، معناه: الجماعة القاصدة لتصديقه، المتفقة في أصول دينه، وإن اختلفت في الفروع. ويجوز أن يكون أصل الكلمة الجمع. فقيل للرجل: أمة؛ لأنه يسد مسد الجماعة. وقيل للإمام: إمام؛ لاجتماع القوم عليه. والأم؛ لجمعها أمر الولد. والذي ينتهي إليه البحث في معنى «الأمة» أنها جماعة من الناس لها رؤية شاملة للإنسان والحياة والكون ينبثق عنها منهج متكامل يصبغها بصبغته ويميزها بطابعه[1].

وجاءت كلمة «الأمة» في القرآن الكريم على عشرة أوجه[2]. أربعةٌ منها تتصل بهذا المعنى الذي نريده في هذا الموضع:

١. الجماعة.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وأما الأمة في هذا الموضع، فإنه يعني بها الجماعة من الناس، من قول الله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]»[3].

ومثله: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٦-٨٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ٧٩-٨٠، الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص ٤٧-٤٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، العسكري، ص ٣١-٣٦، و الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص ٤٧-٤٩، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ١٤٢-١٤٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ٧٤.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي: ١/ ١٥٠.

﴿وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «والأمة اسم مشترك يطلق على معان كثيرة، والمراد منها هنا: الجماعة العظيمة التي يجمعها جامع له بال من نسب أو دين أو زمان، ويقال: أمة محمدٍ -مثلًا- للمسلمين؛ لأنهم اجتمعوا على الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهي بزنة فعلة، وهذه الزنة تدل على المفعول مثل: لقطة وضحكة وقدوة، فالأمة بمعنى مأمومة، اشتقت من الأم -بفتح الهمزة- وهو القصد؛ لأن الأمة تقصدها الفرق العديدة التي تجمعها جامعة الأمة كلها، مثل الأمة العربية؛ لأنها ترجع إليها قبائل العرب، والأمة الإسلامية؛ لأنها ترجع إليها المذاهب الإسلامية. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

فهو في معنى التشبيه البليغ، أي: كأمم إذا تدبرتم في حكمة إتقان خلقهم ونظام أحوالهم وجدتموهم كأمم أمثالكم؛ لأن هذا الاعتبار كان الناس في غفلة عنه»[1].

٢. الملة.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

يعني: أهل أمة واحدة، أي: ملة، فحذف؛ لبيان المعنى. وسميت الملة أمة؛ لاجتماع أهلها عليها، ويجوز أن يقال: إنها سميت أمة؛ لأنها تقصد وتتبع. والمراد: أن الناس كانوا على الكفر فيما بين آدم ونوح، أو ما بين نوح وإبراهيم، فبعث الله النبيين عليهم السلام بالأوامر والنواهي والبشارات والزواجر، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ الذي فيه الحق؛ لكون فصلا بين المختلفين بما فيه من التمييز بين الصواب والخطأ، وهو مثل قولك: ذهب به، وخرج به، وما أشبهه.

٣. أهل الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

يعني: حالهم على عهد آدم، وما كانوا عليه في سفينة نوح. ومثله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

أي: لو شاء الله لجعلكم متفقين على الإسلام قهرًا.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧٢١.

٤. الملة الواحدة.

كما في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

أي: ملتكم، فهي هاهنا الملة بعينها، وفي الأول: الجماعة المتفقة على الملة الواحدة كما بينا.

وأما القبيلة: فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوبًا، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

وقيل: المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولهذا قال الله تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا، منبها على تساويهم في البشرية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم، كلٌ يرجع إلى قبيلته. قال مجاهد في قوله ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾: كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أي: من قبيلة كذا وكذا. وقال سفيان الثوري: كانت حمير ينتسبون إلى مخاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

ويعبر المعاصرون عن معنى «الأمة» ومفهومها بكلمة أخرى هي «الشعب». وهو مجموع الذكور و الإناث الذين يقطنون بصفة دائمة في الإقليم، دون اشتراط لعدد معين، وإن كانت الكثرة تعطي الدولة قوة أكبر ومكانة أعظم بين الدول.

والشعب في الدولة الإسلامية قد يكون كله من المسلمين، وقد يتكون من المسلمين ومن غير المسلمين الذين يقيمون إقامة دائمة وهم الذميون، وهؤلاء جميعًا مواطنون أو رعايا في الدولة الإسلامية. و قد يقيم غير المسلمين إقامة مؤقتة وهم المستأمنون، وهؤلاء أجانب عن الدولة وليسوا من رعاياها. ونخصص لكل صنف من مكونات الشعب كلمةً موجزة:

١. المسلمون.

والمسلمون المؤمنون الذين يكونون الأمة المسلمة بمعناها الديني: هم المعترفون بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والمصدقون بكل ما أخبر به. وقد وصفهم الله تعالى في كتابه الكريم، وحدد

سماتهم فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾. [البقرة: ١-٥].

وهذا الإيمان يترتب عليه عصمة الدم والمال والعرض، ويجعل المؤمنين سواسية في الحقوق والواجبات، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري: (من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما لنا وعليه ماعلينا)[1].

وينبغي أن يلاحظ هنا أن الإسلام يعتبر في آنٍ واحد عقيدةً وجنسية، فالمسلمون أينما كانوا إخوةٌ في العقيدة والجنسية.

وبما أن الإسلام لا يتعرف إلى فكرة الجنسيات وفقًا لمعناها الاصطلاحي السائد لدى التشريعات الوضعية، أو غيرها من أسباب التمييز بين الناس[2].

فإن جميع المسلمين يعتبرون متساوين في نظر الشريعة، إذ تجري عليهم أحكامها، مهما كان جنسهم أو لونهم أو عنصرهم، وأينما كانت إقامتهم. فالعصبية الدينية هي التابعية الأصلية التي تعطي صفة المواطن الكاملة في دار الإسلام.

فإذا أقام المسلم في دار الإسلام وجب عليه اتباع أحكام الشريعة الإسلامية في جميع الأمور، فيلتزم بما توجبه من التزامات، ويتمتع بما تعطيه من حقوق، حسب شروطها الشرعية من دون تقييد ولا تخصيص.

وفي هذه الحالة يرادف قانون المسلم الشخصي القانون الإقليمي أو المحلي لدار الإسلام. وبناءً على هذا: إذا عقد المسلم في دار الإسلام عقدًا مع مسلم آخر أو ذمي أو مستأمن، فتطبق عليه الأحكام الشرعية وحدها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، في باب فضل استقبال القبلة، ١/ ٨٧، رقم ٣٩١.

(٢) أوصت الدول النصرانية والمستشارون النصارى واليهود وأعوانهم بانتهاج سبيل أوربا باعتباره الطريق الوحيد للتخلص من مشاكل الحكم والإدارة والقضاء وغيرها في الدولة العثمانية، فبادر أولئك المغلوبون على أمرهم من الحكام بتلقف جملة من القوانين والتشريعات الأوربية، فصدرت عدة قوانين مستمدة من التقنين الفرنسي وغيره، ومن ذلك قانون الجنسية الذي صدر في سنة ١٨٦٩ م وكان ضربة وجهت إلى أخوة الإسلام بوصفها الرابطة التي كانت تربط بين المسلمين.فقد أعطى القانون المذكور المشاعر القومية والعواطف العنصرية دفعة هيأت الرابطة القومية، لتحل محل الرابطة الإسلامية، وبذلك خطت الدولة العثمانية خطواتها الواسعة نحو التمزق.انظر: النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار، مصطفى بن محمد الورداني، ص ٤١ - ٤٣ من مقدمة المحقق، القانون الدولي الخاص، د.مصطفى الحفناوي، ص ٢٥ - ٢٧.

فالمسلمون في دار الإسلام أمة واحدة، تربط بينهم العقيدة والإيمان مهما اختلفت أقطارهم وتناءت بلادهم وتنوعت لغاتهم وأجناسهم، فهم إخوة في الإيمان لا تفرقهم الأوطان ولا العصبيات ولا المذاهب: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

والقاعدة التي ينطلق منها الإسلام في بناء المجتمع وإقامة الدولة الإسلامية، وفي تمتع المسلم بالجنسية أو التابعية الإسلامية هي علاقة العقيدة مع علاقة القيادة الإسلامية، أي: الإيمان وسكنى دار الإسلام أو الانتقال إليها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وليست علاقة الأرض، ولا علاقة الدم، ولا علاقة الجنس، ولا علاقة التاريخ أو اللغة أو الاقتصاد، وليست هي مجرد القرابة أو الوطنية أو القومية، وليست هي المصالح الاقتصادية. ولذلك يقول الإمام السرخسي: «إن المسلم من أهل دار الإسلام حيثما يكون»[(١)].

ولهذا فإن المسلم في أي بلدٍ إسلامي ليس أجنبيًا عن أي بلدٍ آخر من بلاد المسلمين؛ لأن مدلول الأجنبي في الدولة الإسلامية أمسى مرادفًا لغير المسلم، أما المسلم فهو مواطن له جميع حقوق المواطنين، وتصان هذه الحقوق كلها بغاية الصيانة في نفسه وأهله وماله وعرضه، وعليه كذلك جميع الواجبات المفروضة على المواطن أينما وجد، من التعاون والتعاضد والتكافل والنصرة، لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم)[(٢)].

٢. الذميون.

المراد بالذميين أو أهل الذمة: جميع أولئك الذين يقطنون داخل حدود الدولة الإسلامية من غير المسلمين، ويقرون بالولاء والطاعة لها، بصرف النظر عما إذا كانوا قد ولدوا في دار الإسلام، أو جاؤوا إليها من الخارج والتمسوا من الحكومة أن تجعلهم في عداد أهل الذمة[(٣)].

والأصل في مشروعية عقد الذمة:

(١) شرح السير الكبير، السرخسي ٥/ ٢٠٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب السرية، ٣/ ٨٠، رقم ٢٧٥١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٣٧، رقم ٦٧٠٧.

(٣) نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، ص ٣٠٢.

الكتاب والسنة وعمل الخلفاء الراشدين، وعلى ذلك انعقد الإجماع. وحسبنا هنا ما يدل على ذلك من قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وهذه الآية الكريمة من سورة التوبة التي تضمنت تحديد العلاقات النهائية بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب، مع بيان الأسباب العقدية والتاريخية والواقعية التي تحتم هذا التحديد، وتكشف كذلك عن طبيعة الإسلام وحقيقته المستقلة، وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله الصحيح عقيدة وسلوكًا، بما يجعلهم في اعتبار الإسلام ليسوا على دين الله الذي نزله إليهم، والذي به صاروا أهل كتاب[1].

وإذا تلمسنا الحكمة من مشروعية عقد الذمة؛ فإننا نقف من خلال ذلك على عظمة التشريع الإسلامي؛ ففي الوقت الذي لا تهتم النظم غير الإسلامية بالمخالفين لها في العقيدة، ولا تحاول تأليفهم بحسن المعاملة، بل الغالب أن تحاول السيطرة عليهم بالإرهاب والحصار والتصفية البدنية عند الحاجة، فإن الإسلام يوجب تأليف قلوب غير المسلمين المقيمين في دار الإسلام وحسن معاملتهم، والنصوص الشرعية في ذلك كثيرة متضافرة على هذا المعنى.

وإقامة غير المسلمين في دار الإسلام إقامةً دائمة بسبب عقد الذمة سبيلٌ للدعوة إلى الإسلام بأحسن الطرق، من خلال مخالطة المسلمين لغير المسلمين ومعاملتهم لهم، وبذلك يتعرفون على أحكام الإسلام ومحاسنه ودلائله، وعلى طريقة المسلمين وسيرتهم، فقد يحملهم ذلك على الدخول فيه عن طواعية واختيار وعن قناعة ورضًى، وبذلك يصبح أعداء الأمس إخوان اليوم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ٧].

وإن لم يكن ذلك، فإنه على الأقل سيكون سبيلًا لدفع شرهم في الحال، بسبب زوال قوة الكفار وشوكتهم، حيث يخضعون للنظام الإسلامي بموجب عقد الذمة وشروطه -على أن يكون لهم في أحوالهم الشخصية القضاء بما في دينهم وشريعتهم-، وعندئذ تظهر شوكة المسلمين وقوتهم، وقد بعث الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليظهره على الدين كله، لذلك يجب على المسلمين أن ينظروا في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٦٦.

أسباب ذلك[1].

والقاعدة العامة في المركز القانوني للذميين في دار الإسلام: أنهم رعية من رعايا الدولة، يسري عليهم القانون الإسلامي فيما يتعلق بشئونهم الدنيوية، ويلتزمون بأحكام الإسلام فيما يعود إلى العقوبات والمعاملات، فيما يحكم به عليهم من أداء الحقوق أو ترك المحرمات؛ لأنهم من أهل دار الإسلام، وفيما عدا ما يختصون به من أحكام دينهم في الاعتقادات والعبادات وفي الزواج والطلاق «الأحوال الشخصية» ونحو ذلك مما يرونه مباحًا عندهم، فهم فيه أحرار، لا يتعرض لهم المسلمون بشيء. والحكم العام الذي يطبق على أهل الذمة في الدولة الإسلامية «دار الإسلام» هو ما عبر عنه عليٌّ رضي الله عنه بقوله: «من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا»[2].

ولذلك أرسى الفقهاء قاعدة عامة في معاملة أهل الذمة وبيان مركزهم وحقوقهم، فقالوا: «لهم مالنا وعليهم ما علينا». وهذه القاعدة لا ينبغي أن تفهم على إطلاقها، فهي تعني أن لهم حقوقًا وعليهم واجبات يلتزمون بها، فلهم ما لنا من الإنصاف في المعاملة بالعدل والقسط والأخذ بهما، ويشهد لهذا أنه ليس لهم رئاسة الدولة الإسلامية ولا ولاية القضاء فيها[3].

ثانيًا: الأرض:

الأرض أو دار الإسلام هو ما يعبر عنه بالإقليم. وهو الرقعة من الأرض التي يقيم عليها شعب الدولة. ولا يقتصر الإقليم على الرقعة من الأرض، بل يشمل أيضًا: الجو الذي يعلو هذه الأرض، والمياه المحيطة، إن كان يقع على البحر أو المحيط، وقد يكون هذا الإقليم متصلًا على بقعة واحدة، وقد يكون -أحيانًا- غير متصل، فتفصل بعض البلاد بين أجزائه، كما أنه لا يشترط

(١) انظر: حجة الله البالغة لشاه ولي الله الدهلوي ٢/ ٧٩٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٣٣.

(٢) أخرجه الإمام محمد بن الحسن في الحجة على أهل المدينة: ٤/ ٣٥٢-٣٥٤ ومن طريقه الشافعي في السنن: ٢/ ١٠٥-١٠٦، وأخرجه الدارقطني في السنن: ٣/ ١٤٧- ١٤٨، والجصاص في أحكام القرآن: ١/ ١٤١. وفيه أبو الجنوب الأسدي وهو ضعيف. وهذا الأثر اشتهر عند الفقهاء بلفظ [إنما قبلوا الذمة لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا]. وقال عنه الزيلعي: غريب بهذا اللفظ. انظر: نصب الراية: ٣/ ٣٨.

(٣) انظر بالتفصيل -إن شئت-: أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام الشيباني، عثمان جمعة ضميرية: ١/ ٤٣٠-٥٨٢.
وفي الواقع المعاصر لا نجد لأحكام الذمة بمفهومها الفقهي تطبيقًا عمليًا أو التزامًا في البلاد الإسلامية، بعد قيام الدول على أسس مدنية، و بعد نظم وقوانين الجنسية التي بدأت في أواخر عهد الدولة العثمانية، كما تقدمت الإشارة لذلك، ثم تبعتها سائر البلاد الأخرى، وإن كنا نجد أحكام ما يتعلق بغير المسلمين أو بعض هذه الأحكام في بعض البلاد. ولعل هذه القضية بحاجة إلى دراسة مستقلة.

مساحة معينة، وإنما المهم أن يقيم عليه شعب مستقر على أرضه. وليس من غرضنا هنا دراسة ذلك بالتفصيل؛ لأنه أقرب إلى دراسة القانون الدولي العام.

وفي الفقه الإسلامي يطلق الفقهاء على الإقليم الذي يشكل عنصرًا من عناصر الدولة في القانون؛ اسم «الدار»، والدولة المسلمة يطلقون عليها اسم «دار الإسلام»[1].

تقسيم العالم:

الإسلام دعوة عامة للناس كافة، وأحكامه تخاطب الناس جميعًا، لا يختص بها قوم دون قوم، ولا إقليم دون إقليم، وبذلك تهدف الشريعة الإسلامية إلى تكوين مجتمع إنساني واحد، يخضع لنظام واحد، لكن لما لم تمتد الشريعة إلى كافة أرجاء العالم، ولم تكن لها السيادة الفعلية على العالم كله، فقد قضت ظروف الواقع أن لا تطبق إلا على البلاد التي يدخلها سلطان المسلمين دون غيرها من البلاد، فكانت من حيث الواقع إقليمية تطبق على البلاد التي تخضع لسلطة المسلمين.

وقد نظر الفقهاء إلى هذا الاعتبار، فأوجدوا تقسيمًا للعالم كله إلى قسمين:

الأول: يشمل كل بلاد الإسلام، ويسمى «دار الإسلام».

والثاني: يشمل كل البلاد الأخرى، ويسمى «دار الحرب» أو «دار الكفر»[2].

٣. دار الإسلام.

عرفها فقهاء الحنفية بأنها: «ما يجري فيه حكم إمام المسلمين من البلاد»[3].

فدار الإسلام: هي الدار التي تكون تحت سلطة المسلمين، وتظهر فيها أحكام الإسلام، ويأمن فيها المسلمون.

فهي تشمل جميع البلاد التي تظهر فيها أحكام الإسلام، أو يستطيع المسلمون أن يظهروا فيها أحكام الإسلام. أي: أن تكون أحكام الإسلام لها السيادة والظهور والغلبة، فهي القانون الأساسي للبلاد، فيدخل في دار الإسلام كل بلد سكانه كلهم أو أغلبهم مسلمون، وكل بلدٍ يتسلط عليه المسلمون ويحكمونه -ولو كانت غالبية السكان من غير المسلمين-، وكل بلد يحكمه ويتسلط عليه غير المسلمين ما دام فيه سكان مسلمون

(١) انظر: حاشية ابن عابدين ٤/ ١٦٦.

(٢) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي، عبدالقادر عودة: ١/ ٢٧٤- ٢٧٥.

(٣) در المنتقى شرح الملتقى: ١/ ٦٣٤.وقال المالكية: هي ما تجري فيها أحكام المسلمين. انظر: المقدمات الممهدات لابن رشد: ٢/ ١٥٣.و قال الشافعية: كل دار ظهرت فيها دعوة الإسلام من أهله بلا خفير ولا مجير ولا بذل جزية، ونفذ فيها حكم المسلمين على أهل الذمة، ولم يقهر أهل البدعة فيها أهل السنة فهي دار الإسلام.انظر: أصول الدين للبغدادي، ص ٢٧٠، وقال الحنابلة: «هي كل دار كانت الغلبة فيها لأحكام الإسلام دون أحكام الكفر».
انظر: الآداب الشرعية، ابن مفلح ١/ ٢١٣.

يظهرون أحكام الإسلام، أو لا يوجد لديهم ما يمنعهم من إظهار أحكام الإسلام[1].

وتصير البلاد دار إسلام بأحد أمرين:

الأول: إسلام أهل الحرب وإقامتهم في دارهم، كأهل المدينة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لما أسلموا وأقاموا فيها.

الثاني: فتح بلاد أهل الحرب، وإعلان السيادة عليها بإظهار أحكام الإسلام فيها، ولو كان أهلها كلهم غير مسلمين؛ لأن السيادة لأحكام الإسلام. وفي هذه الأحوال يأمن المسلمون في الدار بأمان الإسلام؛ لأن دار الإسلام اسمٌ للموضع الذي يكون تحت يد المسلمين، وعلامة ذلك أن يأمن فيه المسلمون[2].

٤. دار الكفر.

وهي البلاد التي ظهرت فيها أحكام الشرك عند غلبة أهل الحرب عليها. أو هي: ما يجري فيه أمر رئيس الكفار من البلاد. وتشمل دار الكفر كل البلاد غير الإسلامية التي لا تدخل تحت سلطان المسلمين، أولا تظهر فيها أحكام الإسلام، أي: لا تكون لها السيادة والغلبة، سواء أكانت هذه البلاد تحكمها دولة واحدة أم تحكمها دول متعددة، ولذلك قرر الفقهاء أن بلاد الكفار كلها تعد دارًا واحدة مهما تعددت أقاليمها، ويستوي أن يكون بين سكانها المقيمين بها إقامةً دائمة مسلمون أو لا يكون، ما دام المسلمون عاجزين عن إظهار أحكام الإسلام[3].

ودار الكفر تقسم إلى قسمين:

الأول: دار كفر لا يوجد بيننا وبينها عهد وميثاق، أي: معاهدة صلح وسلم.

والثاني: دار كفر بيننا وبينهم ميثاق وعهد. وهذه يجعلها بعض العلماء دارًا مستقلة يسمونها دار العهد.

وبعض العلماء يسمي دار الكفر دار الحرب، ولم يكن سبب التسمية بدار الحرب هو حالة وقوع الحرب فعلًا بينها وبين المسلمين، بل تسمى بذلك الاسم «دار الحرب» -ولو لم تكن هناك حرب فعلية- باعتبار ما بينهما من تباعد - كما يقول الحنابلة-، ولأنها دار غير إسلامية ويتوقع الاعتداء منها، وهي لم تخضع لحكم الإسلام، ومن الناحية التاريخية الواقعية كانت دار الكفر تناصب المسلمين الخصام والعداء والحرب، ولذلك يسمونها دار كفر أو دار شرك أو دار حرب، ويعنون

(١) التشريع الجنائي الإسلامي ١/ ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٢) انظر: شرح السير الكبير، السرخسي ٤/ ١٢٥٣، المبسوط، السرخسي ١٠/ ٩٣ و١١٤.

(٣) انظر: المبسوط، السرخسي ١٠/ ١١٤، در المنتقى، داماد أفندي ١/ ٦٣٤، المدونة الكبرى، الإمام مالك ٢/ ٢٢، كشاف القناع، البهوتي ٣/ ٣٨، الإنصاف، المرداوي ٤/ ١٢١.

بها حقيقة واحدة[1].

والمناط أو العلة التي بني عليها تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار كفر، هو غلبة الأحكام وظهورها بحيث تكون لها السيادة، فإذا كانت الغلبة والسيادة لأحكام الإسلام: فالبلاد دار إسلام، وإذا كانت الغلبة والسيادة لأحكام الكفر: فهي دار حرب أو كفر، ولا فرق بينهما. وفي ذلك يقول السرخسي: «إن الدار إنما تنسب إلينا أو إليهم باعتبار القوة والغلبة»[2].

وقد عمد بعض الكتاب المعاصرين إلى مهاجمة تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب، وكان أول من اتجه هذا الاتجاه هم غير المسلمين، حيث اعتبره بعضهم ناشئًا عن تصور يتطابق مع نزعة تميل إلى السيطرة العالمية لا ينسجم مع مبدأ المساواة القانونية بين الأمم. ثم قال: وفي وقتٍ كانت هذه الفكرة مرفوضة من نفس أولئك الذين دخل الإسلام معهم في صراع: نجد التقسيم الأساسي للعالم إلى «دار الإسلام» و «دار الحرب»، مع ما يتفرع عنه من تقسيم قابلا للتطبيق في القانون الداخلي وفي الخارج على السواء، ألا وهو تقسيم الناس إلى مؤمنين وكفار على أنه لا بد من القول بأن هذا التصور لم يكن متسقًا مع الإسلام، وإن كان منسجمًا تمامًا مع أفكار العصر الذي أنتجه. وقد انتهت هذه الثنائية الواضحة بالانفجار على المستوى الدولي كرد فعلٍ ضد مفهوم الإمبراطورية النصرانية آنذاك، وارثة فكرة السلم الروماني[3].

ثم عمق هذا الاتجاه بعض الكتاب المسلمين المعاصرين وحاولوا دعمه ببعض التعليلات وبأقوال الفقهاء، ويمكن أن نوجز خلاصة رأيهم في تقسيم العالم إلى دارين بما يلي في نقاط متتابعة:

- إن هذا التقسيم مبني على أساس الواقع لا على أساس الشرع، وهو من محض صنيع الفقهاء في القرن الثاني الهجري.
- إنه تقسيم طارئ بسبب قيام حالة الحرب، فهو ينتهي بانتهاء الحرب والأسباب التي دعت إليه. ودار الحرب هي التي لم تكن في حالة سلم مع الدولة الإسلامية، وهذا أمر عارض يبقى بقيام حالة الحرب.
- إن الدنيا بحسب الأصل هي دار واحدة، كما هو رأي الشافعي.

(١) انظر: منهج الإسلام في الحرب والسلام، عثمان جمعة ضميرية، ص ٥٦-٥٨، أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني له أيضا: ١/ ٣١٥-٣٨٠.

(٢) المبسوط، السرخسي ١٠/ ١١٤.

(٣) انظر: من أجل نظرية في القانون الدولي لإدمون رباط، ترجمة الدكتور إبراهيم عوض، ص ٣٠ - ٣١.وهو بحث بالفرنسية منشور في المجلة المصرية للقانون الدولي عام ١٩٥٠ ص ١-٢٣.

- ولذلك قال الشافعي مع جمهور الفقهاء: إن الحدود تجب على المسلم أينما وقع سببها، أما الحنفية فإنهم اعتبروا أن الدنيا داران، ولذا لم يوجبوا إقامة الحدود على المسلم في دار الحرب.
- إن الأحكام التي اختلفت بسبب وصف الدار إنما كانت أثرًا من آثار الحرب الدائرة بين المسلمين وغيرهم، أو بسبب مجرد قيام حالة الحرب [(١)].
- والخلاصة في رأيهم: «أن أساس اختلاف الدارين هو انقطاع العصمة وأن مناط الاختلاف هو الأمن والفزع كما بينه أبو حنيفة، فالدار الأجنبية أو دار الحرب: هي التي لم تكن في حالة سلم مع الدولة الإسلامية، وهذا أمر عارض يبقى بقيام حالة الحرب وينتهي بانتهائها».

ثم ينتهي إلى النتيجة التي يريد تقريرها فيقول: «وبذلك يلتقي القانون الدولي والشريعة الإسلامية في اعتبار أن الدنيا دار واحدة، وأن الحرب أمر عارض يقيم حالة عداءٍ مؤقت بين بلدين، فإذا ما انتهت الحرب زالت معها هذه الحالة، وحينئذ يتضح لكل إنسان أن كلمة «الحربي» بحسب اصطلاح الفقهاء المسلمين، لا يلزم أن ترادف كلمة «عدو» دائمًا» [(٢)].

وتلكم هي خلاصة القول في رأيهم في تقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب، لم يكن لنا فيها أي إضافة أو نقص، وإنما جعلناها مرتبة متسلسلة؛ لنعود إليها بإبداء بعض الملاحظات حيالها؛ لنرى مدى دلالتها على ما يريدون الوصول إليه أو عدم الدلالة على ذلك.

إن هذا التقسيم الذي وضعه الفقهاء للعالم تقسيم أصيل وإن لم يجر به الاصطلاح في عهده صلى الله عليه وسلم، فهو لم يكن ابتداعًا ابتدعه الفقهاء، بل إن أصوله في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، شأنه في ذلك شأن كثير من التقسيمات في الفقه الإسلامي.

ففي القرآن الكريم نجد تقسيم الناس إلى

(١) انظر: العلاقات الدولية في الإسلام، أبو زهرة، ص ٥١، وبحثه عن نظرية الحرب ص ١٤ ١٥ منشور بالمجلة المصرية للقانون الدولي، المجلد الرابع عشر، ١٩٥٨. ففيهما تقرير أن التقسيم كان بحكم الواقع لا بحكم الشرع. أما سائر النقاط الأخرى أعلاه فهي خلاصة رأي أستاذنا الدكتور وهبة الزحيلي في كتابيه آثار الحرب ص ١٨١ و ١٩٤ - ١٩٥ و العلاقات الدولية في الإسلام ص ١٠٩ و ١١٣ - ١١٦.

(٢) آثار الحرب في الفقه ص ١٩٥ - ١٩٦، العلاقات الدولية ص ١١٦. ويلاحظ أن فقهاء القانون الدولي كان لهم نظرة لهذا التقسيم تتسم بالدقة، فوصفوا هذا المصطلح بأن فيه سهولة ويسرًا وضبطًا. انظر: أحكام القانون الدولي، د. حامد سلطان، ص ١١٥.

مؤمنين وكفار، ولكل من هذين القسمين بلاد أو دار تجمعهم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

وقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

وغيرها من الآيات كثير.

وفي السنة النبوية وفي الآثار عن الصحابة جاء هذا المعنى واضحًا باسم دار الشرك، ودار السنة، ودار الإسلام، ودار الهجرة، وهذه الثلاثة الأخيرة تعني حقيقة واحدة، وتنوعت فيها التسمية بتنوع الوصف. وهذه طائفة من الأحاديث والآثار في ذلك:

عن جابر بن زيد قال: قال ابن عباس: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر، وعمر كانوا من المهاجرين؛ لأنهم هجروا المشركين. وكان من الأنصار مهاجرون؛ لأن المدينة كانت دار شرك، فجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة»[(١)].

وعن بريدة قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرًا على جيش أو سريةٍ أوصاه ثم قال: (وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم؛ ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين)[(٢)].

فالدار الأولى هي دار المشركين، والثانية هي دار المهاجرين وهي دار الإسلام، التي جاءت في رواية الإمام محمد بن الحسن للحديث بلفظ فقال: (وادعوهم إلى التحول إلى دار الإسلام).

وعن سليمان بن بريدة أن عمر رضي الله عنه بعث سلمة بن قيس على جيشٍ فقال: «فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة»[(٣)].

وفي كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: «وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة، أو كان غنيًا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه: طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام، فليس على

(١) أخرجه النسائي في كتاب البيعة، باب تفسير الهجرة ٧/ ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء، ٣/ ١٣٥٧، رقم ١٧٣١.

(٣) أخرجه أبو يوسف في الخراج ص ٢١٠.

المسلمين النفقة على عيالهم»[1].

ففي هذه الأحاديث والآثار وفي غيرها أيضًا جاء اسم «دار الهجرة» و«دار الإسلام» و «دار السنة» و «دار الشرك» كما رأينا، فقد كانت هذه المسميات موجودة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الصحابة، وحتى لو لم تستعمل مصطلحًا شائعًا مشتهرًا، «فإن الأحكام التي طبقها الفقه بعد ذلك على الوحدة التي سماها «دار الإسلام»، والأخرى التي سماها «دار الحرب» كانت موجودة في عهده صلى الله عليه وسلم، واستمد الفقه منها تقنينه لما أطلق عليه كل من الاسمين، فلا دلالة إذن للقول بأن هذه التسمية طارئة مستحدثة، ولا سند للقول بعدم شرعية تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب»[2].

ومن استقراء أقوال الفقهاء في تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب يظهر أنه لا علاقة لحال الحرب بأصل التقسيم؛ إذ هو -كما سبق- عند جمهور الفقهاء مبنيٌّ على سيادة الأحكام. ولذلك فإن بناء التقسيم على أصل العلاقات سلمًا أو حربًا فيه عكسٌ للقضية، فإن العلاقات إنما تتحدد بناء على وصف الدار وموقف أهلها من الإسلام ودعوته. ولذلك فإن «تقسيم الدور الأصلية ثابت عند الفقهاء ومحل إجماع، وليس له علاقة بقضية الحرب والسلم حتى يمكن أن تتغير الأوصاف، فإن الأوصاف الأصلية -وهي دار الإسلام ودار الكفر- لا تزال، ما دام هناك مسلمون وهناك كفار، فلا يجوز أن تخلط هذه المفاهيم بعضها ببعض»[3].

وأما أن الدنيا دار واحدة عند الشافعي -كما نقله الدبوسي عنه واحتج به بعض المعاصرين- فهذا من حيث الأحكام التي وقع الخلاف فيها بينه وبين الحنفية، فهي دار واحدة من حيث التزام المسلم بالأحكام أينما كان، ويوضح هذا ويؤكده أن الشافعية يقسمون الديار إلى دار إسلام ودار كفر، ويقولون بوجوب الهجرة -أحيانًا- من دار الكفر إلى دار الإسلام، و-أحيانًا- باستحبابها حسب حاله، ويتحدثون عن مسائل اختلاف الدارين، وأنه لا يؤثر في الأحكام. وعلى هذا فالتقسيم عندهم متفق عليه، وكتبهم كلها شاهدة على ذلك وناطقة به.

أما اختلاف بعض الأحكام بين دار الإسلام ودار الحرب -عند القائلين بذلك

(١) أخرجه أبو يوسف في الخراج ص ١٥٥. وانظر: الأموال، أبو عبيد، ص ٩٨، مجموعة الوثائق السياسية د.محمد حميد الله ص ٣٨١.

(٢) انظر: مصنفة النظم الإسلامية د.مصطفى كمال وصفي، ص ٢٨٩.

(٣) مجلة مجمع الفقه الإسلامي العدد السابع، الجزء الرابع ١٤١٢ هـ من مداخلة للدكتور عابد السفياني.

كالحنفية- فلا علاقة له بقيام الحرب كما هو ظاهر واضح. فإن الحنفية لما قالوا بامتناع تطبيق العقوبة على المسلم الذي ارتكب موجبها وهو في دار الحرب، عللوا ذلك بأنه لا ولاية للحاكم المسلم على دار الحرب، وتطبيق العقوبة يقتضي الولاية، فلما وقعت الجريمة غير موجبة للعقوبة وقتها لم تجب العقوبة بعد عودته؛ لأنها وقعت أصلًا غير موجبة. وسيأتي ذلك كله مدعومًا بنصوصهم وأدلتهم.

ويزكي هذا الذي تقدم ويؤيده أن رأي الحنفية في درء الحد عن المسلم الذي ارتكب ما يوجب العقوبة في دار الحرب لا يختلف باختلاف حال الحرب وحال السلم والأمن أو الموادعة، فهو قد يكون آمنًا عندهم بعقد الأمان ولا يؤثر ذلك على درء الحد، بل غالبًا ما لا يكون دخوله إلا بأمان. وعندئذ يظهر أن اختلاف الأحكام لم يكن بسبب قيام حالة الحرب، وإنما بسبب عدم الولاية والسلطة.

أما توفر الأمن والسلام فإنه لا يؤثر في التقسيم أيضًا؛ إذ قد يكون المسلم آمنًا في دارهم بعقد أمان، ومع ذلك فإن دارهم دار كفر وحرب ولا فرق في التسمية، وإن كان بعضهم قد جعلها دار كفر لا دار حرب اسمًا.

واشتراط الإمام أبي حنيفة الأمان للمسلمين لتكون الدار دار إسلام، لا ينصب على أصل وصف الدار وتقسيم العالم إلى دارين، وإنما هو في شروط تغير صفة الدار من دار إسلام إلى دار كفر، حيث قال: لا تصبح دار كفر إلا بالشروط الثلاثة مجتمعة، فإذا بقي المسلمون آمنين بالأمان الأول لم تصر الدار دار حرب. فهما قضيتان مختلفتان لا يجوز الخلط بينهما، ولا يدل رأيه على ما أراده المعاصرون أو فهموه من رأيه في ذلك.

أما أن كلمة (الحربي) لا يلزم أن ترادف كلمة (عدو)، فهذا كلام عجيب غريب يصادم آيات القرآن الكريم ومدلولات اللغة العربية، فإن الحربي عدو للمسلمين، وعدو المسلمين محارب لهم حقيقة أو حكمًا. ولذلك فإن محاولة تأويل النصوص وتمييع الأحكام من أجل أن نظهر أمام أعدائنا من الكفار بأننا أصدقاء لهم، هذا كله يتناقض مع أحكام الدين، وهو في الوقت نفسه لا يقنع أولئك القوم، ويعرفون أنه مجاملة أو انهزامية فحسب، فهم قد «درسوا قضية ديار الحرب وديار الإسلام، وكيف يقسم الفقهاء المسلمون الدار إلى دارين ؟ وهل لدى المسلمين استعداد لأن يتنازلوا عن هذه القسمة ويعترفوا بالنظام العالمي الجديد؟!»[1].

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٠ من مداخلة

ثالثًا: النظام:

المقصود بالنظام أو السلطة: وجود هيئة حاكمة منظمة، مهمتها الإشراف على الإقليم ومن يقيمون عليه، بحيث يكون لها أن تصدر الأوامر الملزمة لكل رعاياها أو لكل أفراد الجماعة، فمن طبيعة الأمور أن تحتاج كل جماعة إلى من يتولى تنظيم أمورها وإصدار ما تحتاجه من التشريعات أو التنظيمات، ولاستغلال مواردها ولإقامة العدل بين الأفراد، والدفاع عنهم ضد أي اعتداء خارجي، وتنظيم علاقاتهم بالدول الأخرى.

ووجود هذه الهيئة الحاكمة ركن أساسي في تكوين الدولة، حتى إن بعض علماء القانون يعتبرونها مع الشعب الذي هو أساس تكوين الدولة، فيعتبرون القبائل الرحالة غير المستقرة على إقليم معينٍ دولةً، إذا كان لها تنظيم داخلي وسلطات حاكمة[1].

وأساس هذه السلطة يقوم على مبدأ أن النصوص القرآنية الكريمة تقرر لجماعة من المسلمين الحق في إصدار الأوامر إلى بقية أفراد الأمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله تعالى فيما أوجبه من طاعة تلك الأوامر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وذلك أن الشريعة الإسلامية تنظر إلى الأمة مجموعة واحدة لها كيانها المستقل، و الخطاب في القرآن الكريم يتوجه إلى المؤمنين كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا﴾ [المائدة: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وإذا كانت الأمة لا تستطيع كلها بمجموع أفرادها أن تباشر السلطة العامة، لذلك يتعين أن يتولى عنها ذلك أفراد منها، و هم نواب هذه الأمة، أي: أهل الحل والعقد فيها، وهم أولو الأمر الذين يجب طاعتهم، لما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وتكون العلاقة بين الأمة وأهل الحل والعقد هي علاقة النيابة والوكالة؛ ولأن هذه النيابة مصدرها النصوص الشرعية؛ فهي إذن نيابة شرعية. ويتأيد هذا المفهوم أيضًا بأصل شرعي آخر هو القيام بالفروض الكفائية أو

للدكتور طه جابر العلواني.

(١) انظر: نظام الحكم الإسلامي، د.محمود حلمي، ص٢٠-٢١، الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي د.فتحي عبد الكريم، ص ١٥٠ وما بعدها.

الكفاية، فهي في حقيقتها فروض تكافلية يقوم فيها بعض الأفراد بالواجب نيابة عن الآخرين فيسقط الإثم عن الجميع عند قيام بعضهم به[1].

ويرى بعض العلماء أن إدارة المصالح العامة والقيام بها موكولة في الأصل إلى الشعب، ولذا فإن الأصل في النظام الإسلامي هو أن تقوم السلطة بما لا يتيسر للأفراد، وذلك لإجبار الناس على العدالة وحفظ الأمن، وجباية الموارد وتوزيعها على المستحقين.

ولكن لما ضعف الدافع الفردي عن رعاية الصالح العام بسبب غفلة الناس وضعف الإيمان في القلوب، اضطرت السلطة العامة إلى التدخل في شؤون الحياة وممارستها، وبذلك ظهرت - مع مرور الأيام- أنوع جديدة من الولايات والإمارات لم تكن معروفة من قبل.

وتتميز السلطة في الإسلام بخصائص تميزها عن النظم الأخرى، من أهمها:

أولًا: إن الولاية مقيدة بالمصلحة العامة، وليست مطلقة. ويترتب على ذلك أن يشترط لولاية الأعمال شروط شديدة من القوة والأمانة، وأن تقوم الأعمال على المشروعية، فإن حصل تجاوز، فإنه يؤدي إلى بطلان التصرفات.

ثانيًا: إن الأمة أو الشعب يقوم فعلًا بقسط وافر من الولاية، وبذلك تتكون السلطة من الإمام وأهل الشورى الذين يقومون بهذه الولاية أو بجزء منها.

ثالثًا: إن السلطة تفويضية نيابة عن الشعب، في القيام بمصالح الجماعة[2].

وأما سيادة الدولة، فقد أثيرت مسألة السيادة في الحديث عن مقومات الدولة وأركانها، وتعددت وجهات النظر في هذه السيادة وتعريفها ومصدرها. وهي في أصلها نظرية غربية نشأت عندهم لاعتبارات سياسية وقانونية، و الذي ينبغي أن نشير إليه

(١) انظر بالتفصيل: الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي، ص ١٨٦-١٩٥.
وفروض الكفاية: هي الواجبة على مجموع الأمة كوحدة، دون نظر إلى الأفراد بذواتهم. وهي على الغالب تتعلق بحقوق الله فيما يتصل بمصلحة المجتمع أو الأمة كلها، فهي ذات أثر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.ونظرًا لأهمية هذه الفروض أطلق عليها بعضهم اسم «الفروض التضامنية» أو «الاجتماعية» أو «السياسية» أو «العامة».وهذه التسمية الأخيرة أكثر دقةً من الناحية العلمية، وأكثر انطباقًا على طبيعتها. والأصل أن هذه الفروض يقوم بها المجتمع عامة، وتطلب من الأفراد، فإن تخلف أفراد المجتمع عن القيام بها وجب عندئذ على الدولة أن تقوم بها.
انظر: الموافقات، الشاطبي ١/ ١٧٨ -١٨١، آراء ابن تيمية في الدولة، محمد المبارك ص١٣٥، في المجتمع الإسلامي، أبو زهرة، ص ٥٥-٥٦.

(٢) انظر: النظام الدستوري في الإسلام، مصطفى كمال وصفي، ص ٩٣-٩٤.

-باختصار- هو التفريق بين مصدر السيادة وبين من له حق ممارسة السيادة أو السلطة، ولعل ذلك يرفع الخلاف بين الفقهاء المعاصرين من المسلمين في هذه المسألة.

أما مصدر السيادة في الدولة الإسلامية، فإنه الشرع الإسلامي؛ لأن الله تعالى هو الحاكم المشرع باتفاق علماء الإسلام. وسيأتي تفصيل لهذا إن شاء الله تعالى.

وأما حق ممارسة مظاهر السيادة في الدولة الإسلامية: فهم جميع المحكومين، وليس هذا حقًا لفرد معين. وحيث إن المحكومين لا يستطيعون القيام جميعًا بهذا الدور، فإن الشارع أوجب قيام سلطة عامة لتحقيق ما أوجبه الشرع. و مؤدى هذا أن يكون الإمام أو الخليفة نائبًا عن الأمة في ممارسة السلطة العامة ووكيلًا عنها كما تقدم آنفًا[1].

وظائف الدولة الإسلامية

إن الدولة ليست غاية في ذاتها، وإنما هي وسيلة لغاية. فهي تقوم بوظيفتين أساسيتين:

الأولى: إقامة الدين الإسلامي وتنفيذ أحكامه.

والثانية: القيام بسياسة أمور الدنيا التي رسمها الإسلام.

على أننا نستطيع أن نكتفي بالقول بأن وظيفة الدولة هي إقامة الإسلام؛ لأن الإسلام دين ودولة، فإقامة الإسلام هي إقامة للدين، وقيام بشئون الدولة في الحدود التي رسمها الإسلام. وقد تنوعت هذه الغاية أنواعًا، وظهرت بصور مختلفة باختلاف العصور والأمكنة والحاجة، واختلفت تبعًا لذلك ضيقًا وسعة.

وقد جاءت الآيات القرآنية الكريمة تبين أن وظيفة الدولة الإسلامية هي: إقامة المآثر والمكارم التي يجب أن تتحلى بها الحياة البشرية، وتبث الخير، وتبذل جهد المستطاع في رقيها وتعميم ميراثها، وأن تستأصل وتنفي عن الأرض كل ما يبغضه الله من الفواحش والمنكرات، وتطهرها من شوائبها وأدناسها، وأن تقيم الصلاة وتأخذ الزكاة، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأن تسوس أمور الناس في حدود ما أنزل الله تعالى؛ ليقوم الناس بالحق

(١) انظر: مبادئ نظام الحكم، د.فؤاد النادي، ص ٤٧-٤٩، النظام السياسي والدستوري في الإسلام، د.عثمان جمعة ضميرية، ص٩١-٩٢. وأفرد الدكتور فتحي عبد الكريم موضوع نظرية الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي برسالة مستقلة مطبوعة في مكتبة وهبة بالقاهرة.

والعدل والقسط[1]. كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وفي النقاط الآتية إيجازٌ لأهم الوظائف التي تقوم بها الدولة، ويمكن أن ينطوي فيها وظائف أخرى، فالقضية اصطلاحية:

أولًا: تحقيق العبودية لله تعالى:

يقوم الإسلام على عقيدة التوحيد النقية الصافية، وفيها تتحدد علاقة الإنسان بربه تبارك وتعالى، وهذه العلاقة هي علاقة العبودية أو العبادة. وتتمثل بالعبودية المطلقة لله وحده، بكل مقتضيات هذه العبودية وأولها الائتمار بأمره سبحانه وحده في كل أمور الحياة. فالعبودية لله تعالى تتمثل في اتخاذه وحده إلهًا، عقيدة وعبادة وشريعة، فلا حاكمية لأحد إلا لله تعالى وحده.

وقد شرح شيخ الإسلام ابن تيمة رحمه الله نظرية العبودية شرحًا وافيًا في رسالته «العبودية»، وبين فيها أن المخلوقين كلهم عباد لله، الأبرار منهم والفجار المؤمنون منهم والكفار؛ إذ هو ربهم ومليكهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومدبر أمورهم، لا رب غيره، ولا مالك لهم سواه، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه.

فهناك نوعان من العبودية؛ عبودية قسرية وعبودية اختيارية، وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غيره، فإن الإنسان يتحرك بالإرادة، ولابد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فالإنسان على مفترق الطريقين، فإما أن يختار العبودية لله، وإما أن يرفض هذه العبودية فيقع لا محالة في عبودية لغير الله، وفي العبودية لله تمام للحرية، وفي الحرية منها تمام العبودية. ومن مقتضيات هذه العبودية ألا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى، وألا يعبد الله إلا بما شرع[2].

ومظاهر العبودية لله تعالى تتجلى في جانب الشعائر التعبدية التي تعبر عن كمال الحب لله تعالى مع كمال الانقياد والطاعة له، كما تتجلى في الجانب الاجتماعي والتشريعي في كل مجالات الحياة ونواحيها الفردية والأسرية وفي علاقة الأمة بغيرها، وتتجلى أيضًا في الجانب الأخلاقي الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعقيدة والإيمان الذي

(١) انظر: نظام الحياة في الإسلام، المودودي ص ٢٧ - ٢٩، الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، ص ٦٤ - ٦٦، النظم الإسلامية، د.محمد عبد الله العربي ١/ ١٢٢.

(٢) العبودية، ابن تيمية ص٤٧ وما بعدها.
وانظر: أحكام الصيام وفلسفته، مصطفى السباعي ص١٨ وما بعدها.

جعله الإسلام أساسًا للبناء الديني كله وسببًا لقبول الأعمال ودخول الجنة، وبذلك تتكامل هذه المظاهر؛ لتكون هذا الدين عقيدةً وعبادةً وأخلاقًا ومنهجًا للحياة تقوم الدولة الإسلامية عليه، كما تقوم برعايته والالتزام به؛ ليكون له أثره في حياة الفرد والأسرة والجماعة المسلمة، بل ويمتد؛ ليشمل الجماعة البشرية كلها؛ لأنها تنعم بخيراته وأحكامه المتسقة مع الفطرة البشرية ومع سنن الله الكونية.

وهذه العبودية لله تعالى وتحقيقها في الحياة هي غاية وجود الإنسان؛ إذ عندما ينظر المرء حوله يجد كل شيء في هذا الكون قد خلقه الله تعالى لحكمة كبرى وغاية يسعى إليها، وإلا كان وجوده عبثًا، وقد تنزه الله سبحانه وتعالى عن العبث والباطل، فقال في كتابه الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

والمؤمن يناجي ربه تعالى قائلًا عندما يتفكر في خلق السموات والأرض: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

والإنسان ليس بدعًا بين هذه المخلوقات، فلابد أن يحدد الغاية التي أوجد من أجلها، وهو يسعى لها؛ كي تستقيم حياته من خلالها ويعرف سر وجوده: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وغدت العبادة غاية الوجود الإنساني كله، بل إن الجن كذلك خلقوا من أجل عبادة الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦ -٥٨].

وبهذا النفي في أول الآية الكريمة والاستثناء في آخرها يحصر الله تعالى مهمة الإنس والجن ويقصرها على وظيفة واحدة ومسئولية واحدة هي عبادة الله تعالى وحده، فليس لهم وراء ذلك وظيفة أو غاية، وما ينبغي أن يكون! فكيف يستطيع الإنسان أن يكون دائمًا في عبادة لله تعالى، فلا تنقضي لحظة من لحظات حياته -بعد التكليف- إلا وهو في عبادة؟ وكيف يستطيع أن يقوم بهذا التكليف الرباني؟

هنا نجد أنفسنا أمام فهم صحيح للعبادة كما أرادها الله تعالى، لا تقتصر على ركعات خاشعة يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم والليلة، ولا على أيام من العام يصومها المسلم طاعة لله سبحانه، ولا على جزء من المال يدفعه زكاة يطهر بها نفسه وماله، ولا على حج البيت الحرام عند الاستطاعة. فإن هذه العبادات كلها لا تستغرق من

حياة الإنسان إلا جزءًا يسيرًا، فهل يترك سائر أيام حياته وساعاتها دون عبادة، فيخالف -عندئذ- أمر الله تعالى، وهو سبحانه لم يخلقه إلا للعبادة؟ إن المسلم يستطيع أن يجعل حياته كلها في الساعات الأربع والعشرين في اليوم والليلة عبادةً لله تعالى وحده؛ إذ إن الإسلام قد أسبغ على جميع أعمال الإنسان صفة العبادة إذا قصد بهذه الأعمال وجه الله ومرضاته، وقام بها على الوجه المشروع الموافق للسنة، وكانت في سبيل تحقيق أهدافها المقصودة المشروعة.

فالزارع والصانع والتاجر، والطبيب والمهندس والعامل، والموظف، والمعلم والتلميذ وغيرهم من أصحاب الأعمال تعتبر أعمالهم عبادة إذا قصد بها كلٌّ منهم نفع عباد الله، والاستغناء عن الحاجة إلى الناس، وإعالة العيال؛ تحقيقًا لأمر الله سبحانه وتعالى وخضوعًا له، والتزامًا وتحقيقًا لمقاصد الشريعة التي أنزلها الله تعالى لمصالح الناس، وليقوموا جميعًا بالحق والقسط.

والقرآن الكريم -كتاب الله الخالد- لم يقصر وصف الصلاح -عندما أمرنا بالعمل الصالح- على العبادات المخصوصة، وهي أركان الإسلام وشعائره ومبانيه الأساسية، «أو العبادة بمعناها الخاص»، بل جعله شاملًا لأعمال أخرى، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ - ١٢١].

والآيات في ذلك كثيرة تعز على الحصر.

وبعد، فما أصدق وما أجمل ما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو يتحدث عن العبادة وفروعها حيث يقول: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله و يرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك كله من العبادة». وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه، والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه هي من العبادة لله. وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له

والمرضية له، التي خلق لها الخلق فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦][(١)].

وعن هذا المعنى الواسع والمفهوم الشامل للعبادة في الإسلام، بما يشمل الشعائر والمعاملات وغيرها، يتحدث الأستاذ سيد قطب رحمه الله فيقول[(٢)]:

«إن تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات» و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة «الفقه»، ومع أنه كان المقصود به -في أول الأمر- مجرد التقسيم الفني، الذي هو طابع التأليف العلمي، إلا أنه -مع الأسف- أنشأ فيما بعد آثارًا سيئة في التصور، تبعته -بعد فترة- آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها؛ إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة العبادة إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله فقه العبادات، بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط، الذي يتناوله فقه المعاملات!

وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي، ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف، والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة أولًا وأخيرًا.

وأنواع النشاط التي أطلق عليها الفقهاء اسم العبادات وخصوصا بهذه الصفة -على غير مفهوم التصور الإسلامي- حين تراجع مواضعها في القرآن تتبين حقيقة بارزة لا يمكن إغفالها، وهي أنها لم تجئ مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التي أطلق عليها الفقهاء اسم المعاملات إنما جاءت هذه وتلك مرتبطة في السياق القرآني ومرتبطة في المنهج التوجيهي باعتبار هذه كتلك شطرًا من منهج العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني، وتحقيقًا لمعنى العبودية، ومعنى إفراد الله سبحانه بالألوهية.

وهذه هي الحقيقة الكبيرة، التي يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه؛ ويريد في الوقت ذاته، أن يحقق غاية وجوده الإنساني، آثار هذا المفهوم الشامل للعبادة: إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني -وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كله-، بل إن أهميتها تتجلى كذلك في حسن تذوق الحياة، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق، فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله، وحين يصبح كل نشاط فيها

(١) العبودية، ابن تيمية، ص ٣٨، ٣٩.
(٢) خصائص التصور الإسلامي، ص ١٣١.

-صغر أم كبر- جزءا من هذه العبادة أو كل العبادة متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه، وهو إفراد الله سبحانه بالألوهية، والإقرار له وحده بالعبودية هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه، ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه، وهو المقام الذي بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى حالاته التي ارتقى إليها؛ حالة تلقي الوحي من الله، وحالة الإسراء والمعراج أيضًا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ولذلك فإن أول الوظائف التي تقوم بها الدولة وتسعى لتحقيقها هي تحقيق هذه العبودية الشاملة، بل إن إقامة الدولة نفسها وظيفةٌ دينية، يقوم بها مجموع الأمة الإسلامية، والمقصد الأول من إنزال الشريعة هو حفظ الدين، يقول الشاطبي رحمه الله: «تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تكون ضرورية.

والثاني: أن تكون حاجية.

والثالث: أن تكون تحسينية.

والضرورية معناها: أنه لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين ومجموع الضروريات خمسة، وهي حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقد قال العلماء: إنها مراعاة في كل ملة من الملل»[(١)].

ويقول حجة الإسلام الغزالي: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم»[(٢)].

فالاتفاق حاصلٌ بين العلماء على أن الدين له المرتبة الأولى بين هذه الضروريات، ولما كان واجب الدولة أن تحقق المصلحة بحفظ هذه الضروريات كان من أول وظائفها تحقيق العبودية وحماية الدين ونشره، وذلك بنشر عقيدة التوحيد التي تحرر البشرية من الوثنية والعبودية لغير الله تعالى، بكل صورها. كما سيأتي قريبا -إن شاء الله تعالى-.

وليس معنى هذا أن سائر الوظائف لا علاقة لها بالدين؛ لأن الإسلام يمزج بين الدين والحياة، وبين الوظيفة الدينية وغيرها

(١) انظر: الموافقات، الشاطبي ٢/ ٨ - ١٠.
(٢) انظر: المستصفى، الغزالي ١/ ٢٨٧.

من الوظائف مزجًا رائعًا متكاملًا، حتى إن كل الوظائف التي تقوم بها الدولة أصبحت وظائف دينية.

يقول ابن القيم رحمه الله [1]: «جميع هذه الولايات، في الأصل ولايات دينية ومناصب شرعية، فمن عدل في ولاية من هذه الولايات وساسها بعلم وعدل، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان، فهو من الأمراء الأبرار العادلين، ومن حكم فيها بجهل وظلم فهو من الظالمين المعتدين: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]».

ثانيًا: الدعوة إلى الله ونشر الإسلام:

إن الدعوة الإسلامية التي أنزلها الله تعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم دعوة عامةٌ عالميةورسالة خاتمة للرسالات السابقة، أراد الله تعالى لها أن تكون دعوة إنسانيةموجهة للبشر جميعًا، لا تخاطب أقوامًا بأعيانهم ولا جنسًا بذاته، رضيها الله تعالى للناس دينًا، فكانت هي الدين الكامل الذي أتم الله تعالى به علينا النعمة فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد تواردت النصوص الشرعية بدلالتها القاطعة على عموم رسالة الإسلام وعالميتها، منذ بداية الدعوة وهي لا تزال محصورة في شعاب مكة المكرمة، وأصحابها لا يزالون يتخفون في دار الأرقم بن أبي الأرقم وسط المجتمع الجاهلي الواسع؛ فمحمد صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى الناس كافة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

والخطاب موجهٌ للناس جميعًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

والقرآن الكريم أنزله الله تعالى ليكون ذكرًا للعالمين جميعًا، وليس لأمة بعينها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧].

بل هو بلاغ لكل من يبلغه خبره وينتهي إليه أمره في عصره وفي سائر العصور إلى يوم القيامة: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عموم بعثته وعالمية دعوته فقال: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحدٌ قبلي: كان كل نبي

(١) الطرق الحكمية ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود -وفي لفظ: إلى الناس عامة- ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا؛ فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة)[1].

ومما يشير إلى عالمية دعوته عليه الصلاة والسلام وعموم رسالته: أن المعجزة الكبرى التي أيده الله تعالى بها -مع ما أيده به من معجزات- كانت معجزة خالدة دائمة، تختلف عن معجزات الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام حيث كانت تنقضي معجزاتهم المادية بوقوعها، ولا يبقى أثرها قائمًا، ولهذا كانت الشرائع قبل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم إنما خص بها قوم دون قوم، وكانت شريعته عامة لجميع الناس، ولما كان هذا كله إنما فضل فيه صلى الله عليه وسلم؛ لأنه فضلهم في الوحي الذي استحق به اسم النبوة[2].

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام منبهًا على هذا المعنى الذي خصه الله تعالى به: (ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[3].

فهذه الدعوة الأخيرة الخاتمة الناسخة للدعوات السابقة، رسالة مفتوحة إلى الأمم كلها، وللأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للقريب والبعيد، لكل أمة ولكل جيل، والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها، ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى لا واقعًا يشهد[4].

وقد قام الرسول عليه الصلاة والسلام بإبلاغ هذه الدعوة، فصدع بالأمر ودعا الناس جميعًا إلى دين الله تعالى؛ امتثالًا لأمره سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وهذه الدلائل كلها تقوم شاهدًا عدلًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، - ١/ ٧٤، رقم ٣٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢١.

(٢) انظر: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد، ص ١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ٦/ ١٨٢، رقم ٤٩٨١ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٣٤، رقم ١٥٢. واللفظ له.

(٤) انظر: «في ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب: ١٩/ ٢٥٨٤.

وحجة قاطعة على أن الإسلام دعوة للناس جميعًا منذ اللحظة الأولى التي بعث الله تعالى فيها نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم وأمره بالقراءة باسم ربه ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]؛ إذ موضوعها هو (الإنسان) وهي موجهة كذلك للإنسان بما أنه إنسان، والكل في هذا سواء، واستمر النبي صلى الله عليه وسلم في القيام بهذه الدعوة؛ إنفاذًا لأمر ربه تبارك وتعالى حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وحمل الرسالة خلفاؤه من بعده، وأعلى الله كلمته وأظهر دينه على الأديان كلها[1].

ولذلك أمر الله تعالى بالدعوة وإبلاغها، وهو مما تقوم به الدولة الإسلامية وتجعله غاية لها، فقال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي هذا بيان لأهم وظيفة تقوم بها الدولة الإسلامية وأجهزتها المتنوعة، وهي الدعوة إلى الإسلام والحرص على هداية الناس؛ تأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث مصعب بن عمير بن هاشم القرشي -أحد السابقين إلى الإسلام وصاحب الهجرتين- إلى أهل المدينة، بعد بيعة العقبة؛ ليعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين، فنزل على سعد بن معاذ -وقيل: على أسعد بن زرارة-، فكان يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم، فيدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، فيسلم الرجل والرجلان، حتى ظهر الإسلام وانتشر في دور الأنصار كلها.

فلا عجب أن يلقب بـ«مصعب الخير»؛

(١) ولذلك كان من العجب والغريب، بعد معرفة هذه الأدلة والشواهد، ما يلهج به بعض المستشرقين ممن عنوا بدراسة السيرة النبوية ودعوة الإسلام، من إنكارهم هذه الصفة العالمية للإسلام، حيث يقول وليم موير مثلا: «إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد. وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه.وعلى فرض أنه فكر فيها، فقد كانت الفكرة غامضة، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها، وأن محمدًا لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم.وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد عرفت، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج». ويذهب كذلك كايتاني إلى هذا الرأي.

انظر: الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين، ص ٤٩.

وهذا نموذج لتفكير المستشرقين ومناهجهم وأساليبهم يشير إلى أن بعضهم يقول ما لا يعقل أو يفكر بأدوات تفكير لا يفكر بها إلا أمثالهم.فكيف جاءت فكرة عالمية الإسلام فيما بعد رغم الآيات المكية والواقع العملي للدعوة؟ وهل كان هرقل وكسرى والنجاشي عربًا يوجه إليهم النبي صلى الله عليه وسلم الدعوة على أنهم عرب؟!

لما كتب الله على يديه من الخير والدخول في الإسلام[1].

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتبًا، فقد أخرج الإمام مسلم عن أنسٍ (أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبارٍ يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم)[2].

فكان أول رسول بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، فأسلم النجاشي وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بإجابته وتصديقه وإسلامه.

وبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث معه كتابًا، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى؛ ليدفعه إلى قيصر، فقرأه وسأل قومه أن يتبعوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فأبوا، وخافهم على ملكه ونفسه فلم يؤمن، وأظهر أنه فعل ذلك اختبارًا لدينهم.

وبعث عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى وكتب معه كتابًا، وهو الذي مزق الكتاب فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم مزق ملكه). وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية عظيم القبط بمصر يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا، فقرأه وقال له خيرًا وأكرم رسول النبي صلى الله عليه وسلم وبعث معه بهدية.

وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث الغساني وكتب معه كتابًا، فلما قرأه رمى به وقال: من ينتزع ملكي، وعزم على المسير إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنهاه قيصر عن ذلك، ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبره قال: (باد ملكه!).

كما بعث أيضًا سليط بن عمروٍ العامري إلى صاحب اليمامة هوذة بن علي الحنفي، وبعث جرير بن عبدالله البجلي إلى ذي الكلاع اليمني، وغيرهم من عظماء ذلك الوقت من العرب والعجم[3].

وقد كان لهذه السفارات والكتب أثرها في نشر الدعوة الإسلامية حيث استجاب عدد منهم ودخلوا في الإسلام، وكشفت عن مواقف الآخرين من الدعوة. وهذا يحدد طبيعة علاقة الدولة الإسلامية بهم بعد ذلك.

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٤٣٤-٤٣٥، طبقات ابن سعد - ٣/ ١١٦- ١٢٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار، ٣/ ١٣٩٧، رقم ١٧٧٤.

(٣) انظر بالتفصيل: الطبقات الكبرى، ابن سعد ١/ ٢٥٨، السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٦٠٦، المصباح المضي، ابن حديدة ١/ ١٩٣، زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٦٨٨.

وكانت رسائله صلى الله عليه وسلم مع رسله وسفرائه إلى عظماء العالم موجزة جامعة تحمل معنى واحدًا وهو الدعوة إلى الإسلام، وبيان وحدة الرسالات في أصولها؛ ليكون هذا منطلقًا للدعوة وإقامة للحجة على من يخاطبهم برسالته، ثم يضعهم أمام مسئوليتهم عن الرعية؛ لأن الرعية تبعٌ لهم، وتنطوي كل كتبه ورسائله عليه الصلاة والسلام على القيم والمبادئ العالية في إطار من الصياغة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ونجتزئ هنا برسالته صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم؛ فقد أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث طويل يحكي قصة أبي سفيان مع هرقل لما جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وسأله عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأبي سفيان: إن يكن ما تقول فيه حقًا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي. ثم دعا بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم فقرأه، فإذا فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلامٌ على من اتبع الهدى! أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام؛ أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤])[1].

ثالثًا: رفع الظلم وحماية المستضعفين:

من أعظم وظائف الدولة الإسلامية أن تقوم برفع الظلم والدفاع؛ لرد أي اعتداء وقع على المسلمين، أو يتوقع أن يقع عليهم في ديارهم أو نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم. وذلك أن الإسلام وإن كان يدعو إلى السلم ويميل إليه إذا رغب فيه غير المسلمين بموادعة أو غيرها من الصلح، فإنه في الوقت نفسه لا يقف موقفًا سلبيًا أمام التحديات التي تجابه المسلمين، أو أمام الاعتداءات التي تقع على الضروريات الخمس للإنسان، وهي الدين والنفس والعرض والعقل والمال.

ولا يدعو الإسلام إلى السلم الرخيص فيقف مكتوف اليدين أمام عدوان الآخرين،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام، ٤/ ٤٥، رقم ٢٩٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، - ٣/ ١٣٩٣، رقم ١٧٧٣.

بل إنه ليدعو أتباعه هنا إلى الجهاد ورد العدوان بكل وسيلة مشروعة، ويجعل من قتل دون دينه أو نفسه أو ماله أو عرضه شهيدًا له أجر الشهداء؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من قتل دون ماله فهو شهيد)[1].

هذا، ولا تقتصر مشروعية الجهاد هنا دفعًا عن المسلمين وردًا للعدوان الواقع عليهم فقط، بل إن الجهاد أيضًا يكون لرد العدوان الذي يقع من الحربيين على أهل ذمة المسلمين والمستأمنين في دار الإسلام واستنقاذهم من الظلم أو الأسر، فالأصل أنه يجب على إمام المسلمين أن ينصر المستأمنين ما داموا في دارنا، وأن ينصفهم ممن يظلمهم، كما يجب عليه ذلك في حق أهل الذمة؛ لأنهم تحت ولايته ما داموا في دار الإسلام، فكان حكمهم كحكم أهل الذمة[2].

وهذا الدفاع عن أهل الذمة يبيح للمسلمين أن ينقضوا العهد مع الحربيين الذين ظهروا على أهل ذمتنا للدفاع عنهم كالدفاع عن المسلمين[3].

وقد تواردت الآيات القرآنية الكريمة في بيان هذا السبب من أسباب القتال كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩٣ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣ - ١٩٤]

وتشير الآيات الكريمة إلى شرطين في الدفاع الشرعي:

أحدهما: شرط اللزوم، أي: لزوم فعل الدفاع لرد العدوان. فقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ يعني: أن قتالنا لهم كان بسبب قتالهم لنا، والآية الثانية: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعني: ألا نقوم بقتال أو نستمر في قتال ما دام العدو قد كف أيديه عنا. وهذا يتطابق مع شرط اللزوم الذي يتحدث عنه شراح القانون المحدثون.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب من قاتل دون ماله، ٣/ ١٣٦، رقم ٢٤٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قتل دون ماله فهو شهيد، ١/ ١٢٤، رقم ١٤١.
(٢) السير الكبير مع شرح السرخسي، ٥/ ١٨٥٣.
(٣) المصدر السابق، ٥/ ١٨٥٦.

والشرط الثاني: هو شرط التناسب. بمعنى أن يكون رد العدوان متناسبًا مع الفعل الذي مورس به العدوان، ولا يجوز التزيد في هذا الصدد[1]. وهو ما تشير إليه الآية الكريمة بوضوح: ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

كما تقوم الدولة الإسلامية بمهمتها في حماية دار الإسلام وبلاد المسلمين، وإنقاذ المستضعفين من المسلمين في أي دولة كانوا، وذلك لأن الإسلام يعتبر بلاد المسلمين كلها دارًا واحدة وبلدًا واحدًا يجب حمايته والجهاد دونه إن كان دار عدل بيد المسلمين، ويجب الجهاد؛ لاسترداده إن كان مسلوبًا.

ومما يدل على أن حماية دار الإسلام سبب لإعلان الجهاد ما رواه الإمام محمد بن الحسن عن عبدالله بن أنيس: (أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه سريةً وحده إلى خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي لما بلغه أنه يجمع الجيش لقتال النبي صلى الله عليه وسلم وغزو المسلمين. قال رضي الله عنه: دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس؛ ليغزوني وهو بعرنة[2]، فأته فاقتله). فقلت: يا رسول الله إني لا أعرفه! فقال: (إنك إذا رأيته هبته)، وكنت لا أهاب الرجال، فخرجت متوشحًا بسيفي حتى وقعت عليه وهو بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلًا، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبلت نحوه، فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك ويجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا. قال: أجل، أنا في ذلك).

قال: فمشيت معه شيئًا حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت فكنت أسير الليل وأتوارى النهار حتى جئت المدينة، وقدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآني فقال: (أفلح الوجه) - وهذا لفظ يتكلم به العرب خطابًا لمن نال المراد وفاز بالنصرة - فقلت: وجهك الكريم يا رسول الله. فأخبرته خبري، فدفع إلي عصًا وقال: (تخصر بهذه يا ابن أنيس فإن المتخصرين في الجنة قليل)[3].

وكذلك يعتبر الإسلام المسلمين جميعًا أمة واحدة يجب حمايتهم والدفاع عنهم؛ لاستنقاذ المستضعفين منهم في أي بلدٍ

(١) انظر: القانون والعلاقات الدولية في الإسلام، د.صبحي محمصاني، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) عرنة: بضم العين وفتح الراء، وادٍ في عرفات.

(٣) السير الكبير ١/ ٢٦٦ - ٢٦٩.
والقصة أخرجها: أحمد في مسنده، ٢٥/ ٤٤١، رقم ١٦٠٤٧، وأبو داود في سننه، تفريع صلاة المسافر، باب صلاة الطالب ٢/ ١٨، رقم ١٢٤٩.
وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري، ٢/ ٤٣٧.

كانوا، فقد يقع عليهم ظلم ويحيق بهم حيف في دولة جائرة، وعندئذ يجب على المسلمين أن يهبوا لنجدتهم والدفاع عنهم، ولايجوز أن يتركوهم ليقاسوا أنواعًا من الضيم أو الذل والهوان والضياع ينزله بهم أعداءالإسلام.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

ويدل عليه أيضًا: مناصرة النبي صلى الله عليه وسلم لحلفائه من خزاعة، لما استنصروا بالرسول صلى الله عليه وسلم على قريش وبني بكر. ولا يمنع من القيام بهذه النصرة والحماية والدفاع إلا وجود ميثاق بين المسلمين وبين الدولة التي ينتمي إليها هؤلاء المسلمون المستضعفون، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢][1]. ولذلك تقدم فيما سبق أنه يجب على المسلمين نبذ الميثاق أو المعاهدة من أجل استنقاذ المسلمين.

رابعًا: عمارة الأرض وفق المنهج الرباني:

خلق الله البشر وجعلهم خلفاء في الأرض؛ ليقوموا بعبادته وتوحيده، وليقيموا فيها الحضارة والعمران، وليستثمروا خيراتها التي سخرها لهم؛ ولذلك هيأ الله تعالى للإنسان كل ما يساعده على الانتفاع بهذا الكون -بما وهبه من العقل والحواس والملكات التي يستخدمها للتعرف على هذا الكون بكل موجوداته-، وليستطيع تسخيره بكل ما يحقق الغاية من وجوده.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الدنيا حلوة خضرةٌ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون)[2].

---

(١) ويستدل بعض الكتاب بالآية الكريمة على إعلان الجهاد من أجل استنقاذ غير المسلمين ولو لم يكونوا من أهل الذمة أو المستأمنين. ولا يصح لهم هذا الاستشهاد، لأن سياق الآية في المؤمنين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام كما هو في السياق.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب

والاستخلاف في الأرض نوعان: عام، وخاص. فالاستخلاف العام: هو استخلاف جميع البشر في الأرض باعتبارهم مسلطين عليها، يقومون بعمارتها منذ عهد آدم عليه السلام؛ ولذلك لا يختص هذا الاستخلاف بصنف من البشر دون الآخر، فإن الناس عباد الله، ينتفعون بما سخره الله لهم وفق سنة الله تعالى في الرزق والعطاء، وفي الأسباب والمسببات في المجالين الروحي والمادي.

قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٨- ٢٠].

وأما الاستخلاف الخاص: فهو استخلاف الدول والأفراد في الحكم؛ لتكون الأمة مستقلة بحكم نفسها، ولها من السلطات ما يحمي مصالحها ويعلي كلمتها، ويجعلها في اتساع وقوة، وفق سنة الله تعالى في التمكين و الاستخلاف والنصر.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا المعنى تبين أن الجماعة المسلمة أو الدولة الإسلامية ينبغي أن تقوم بعمارة الأرض وإنشاء الحضارة المهتدية فيها، فتكون القدوة والمثال للبشرية، وتوازن بين متطلبات الإنسان الروحية والخلقية والمادية.

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «أي: مستخلف في الأرض خليفةً، ومصير فيها خلفًا والخليفة على وزن الفعيلة، من قولك: خلف فلان فلانًا في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده. كما قال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤].

أكثر أهل الجنة الفقراء، - ٤/ ٢٠٩٨، رقم ٢٧٤٢.

يعني بذلك: أنه أبدلكم في الأرض منهم، فجعلكم خلفاء بعدهم. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة؛ لأنه خلف الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خلفًا. يقال منه: خلف الخليفة، يخلف خلافة وخليفى»[1].

وفي ظلال هذه الآية الكريمة يقول سيد قطب رحمه الله: «وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل وكشف ما في هذه الأرض من قوّى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله -بإذن الله- في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه. وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية.

وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض -وتحكم الكون كله- والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة!

وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة. وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم.

هذا كله بعض إيحاء التعبير العلوي الجليل: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ حين نتملاه اليوم بالحس اليقظ والبصيرة المفتوحة، ورؤية ما تم في الأرض على يد هذا الكائن المستخلف في هذا الملك العريض! »[2].

وهذه العمارة للأرض هي منهج رباني تعاقب عليه الرسل و الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها، وتنميتها وتحويرها، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله. ولقد وضع الله للبشر منهجًا كاملًا متكاملًا للعمل على وفقه في هذه الأرض، منهجًا يقوم على الإيمان والعمل الصالح، وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج، وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه وتكفل التناسق

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٤٤٨-٤٤٩.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٥٦.

والتوازن بين خطواته.

في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها هو وحده المقصود، ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان؛ ليبلغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة، فلا يتكس حيوانا في وسط الحضارة المادية الزاهرة ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة.

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفة وترجح كفة. وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة، وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة، وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالًا ماديًا ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق، والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح، فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم.

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ، ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح، وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان.

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم، وهو العمل الصالح، والنهوض بتبعات الخلافة؛ ليتحقق وعد الله، وتجري سنته: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ - ١٠٦].

فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون[1].

وبعد جولة في ضمير السماوات والأرض وما بينهما -وهي جولة بعيدة الآماد والآفاق في هيكل الكون الهائل، وفي محتوياته المنوعة، الشاملة للأحياء والأشياء، والأفلاك والأجرام، والنجوم والكواكب، والجليل والصغير، والخافي والظاهر، والمعلوم والمجهول- من هذه الجولة البعيدة في ضمير الكون ينقلهم إلى جولة أخرى في ضمير الزمان وأبعاد التاريخ، يرون فيها طرفا من سنة الله الجارية، التي لا تتخلف مرة ولا تحيد:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٠.

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ٩- ١٠].

وهي دعوة إلى التأمل في مصائر الغابرين، وهم ناس من الناس، وخلق من خلق الله، تكشف مصائرهم الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية، فسنة الله هي سنة الله في الجميع، وسنة الله حق ثابت يقوم عليه هذا الوجود، بلا محاباة لجيل من الناس، ولا هوى يتقلب فتتقلب معه العواقب -حاشا لله رب العالمين! -، وهي دعوة إلى إدراك حقيقة هذه الحياة وروابطها على مدار الزمان، وحقيقة هذه الإنسانية الموحدة المنشأ والمصير على مدار القرون؛ كي لا ينعزل جيل من الناس بنفسه وحياته، وقيمه وتصوراته، ويغفل عن الصلة الوثيقة بين أجيال البشر جميعا، وعن وحدة السنة التي تحكم هذه الأجيال جميعا ووحدة القيم الثابتة في حياة الأجيال جميعا.

فهؤلاء أقوام عاشوا قبل جيل المشركين في مكة ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ فحرثوها وشقوا عن باطنها، وكشفوا عن ذخائرها ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ فقد كانوا أكثر حضارة من العرب، وأقدر منهم على عمارة الأرض ثم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾. فلم تتفتح بصائرهم لهذه البينات ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذي يكشف الطريق، فمضت فيهم سنة الله في المكذبين ولم تنفعهم قوتهم ولم يغن عنهم علمهم ولا حضارتهم ولقوا جزاءهم العادل الذي يستحقونه: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾ كانت السوأى هي العاقبة التي لقيها المسيئون وكانت جزاء وفاقا على ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

والقرآن الكريم يدعو المكذبين المستهزئين بآيات الله أن يسيروا في الأرض فلا ينعزلوا في مكانهم كالقوقعة، وأن يتدبروا عاقبة أولئك المكذبين المستهزئين ويتوقعوا مثلها، وأن يدركوا أن سنة الله واحدة وأنها لا تحابي أحدًا، وأن يوسعوا آفاق تفكيرهم فيدركوا وحدة البشرية، ووحدة الدعوة، ووحدة العاقبة في أجيال البشرية[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٦٠.

وسائل تحقيق وظائف الدولة

هذا الذي تقدم ليس حصرًا لكل وظائف الدولة، وإنما هو بيان إجماليٌّ لها؛ لأن الدولة تقوم بكثير من الوظائف والواجبات والوظائف الإيجابية والسلبية؛ فإن الدولة التي يريدها الإسلام ليس لها غاية سلبية فقط، بل لها غاية إيجابية أيضًا، أي: ليس من مقاصدها المنع من عدوان الناس بعضهم على بعض، وحفظ حرية الناس، والدفاع عن أرض الدولة فحسب.

بل الحق أن هدفها الأسمى هو نظام العدالة الاجتماعية الصالح الذي جاء به كتاب الله، وفي سبيل تحقيق هذا الغرض تستعمل القوة السياسية تارةً، ويستفاد من منابر الدعوة والتبليغ العام تارةً أخرى، ويستخدم لذلك وسائل التربية والتعليم طورًا، ويستعمل لذلك الرأي العام والنفوذ الاجتماعي طورًا آخر، كما تقتضيه الظروف والأحوال، فمن الظاهر أنه لا يمكن لمثل هذا النوع من الدولة أن تحدد دائرة عملها؛ لأنها شاملة محيطة بالحياة الإنسانية بأسرها، وتطبع كل فرع من فروع الحياة الإنسانية بطابع نظريتها الخلقية الخاصة وبرنامجها الإصلاحي الخاص، فليس لأحد أن يقوم في وجهها ويستثنى أمرًا من أموره قائلًا: إن هذا أمر شخصي خاص لكي لا تتعرض له الدولة، وبالجملة: إن الدولة الإسلامية تحيط بالحياة الإنسانية، وبكل فرع من فروع الحضارة وفق نظريتها الخلقية وبرنامجها الإصلاحي[(١)].

وليس هناك ما يحد من اختصاصات الدولة ووظائفها؛ إذ إنها تقوم بعمل يؤدي إلى جلب المصالح ودفع المضار، وإلى إقامة القسط في حقوق الله وحقوق العباد، ولتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله، من خلال تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس وإتاحة الحرية الكاملة لهم في قبولها أو رفضها؛ لأنه لا إكراه في الدين. ومن أجل ذلك تمارس الدولة أو ولاة الأمور عددًا من الأعمال يمكن توزيعها في عدة ولايات، كولاية الحرب والقضاء والمال وغيرها، وهذا التوزيع والاختصاصات في الوظائف والولايات راجعٌ إلى عرف الناس ومقتضيات المصلحة، وليس له حدٌّ في الشرع[(٢)].

(١) نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، المودودي، ص ٤٥ - ٤٦.
(٢) الحسبة في الإسلام، ابن تيمية، ص ١٥ - ١٦، الطرق الحكمية، ابن القيم، ص ٢٥٨.

علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى

بعث الله تعالى رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم برسالة خاتمة تهدف إلى رد البشرية كلها إلى الله تعالى والخضوع لدينه؛ ليكون ذلك سبيلًا إلى تحريرها حرية حقيقية كاملة، عندما تتحرر من كل عبودية لغير الله تعالى. فانقسم الناس عندئذ قسمين:

منهم من فتح قلبه وعقله للهداية والنور، فآمن بالرسول صلى الله عليه وسلم وصدق بما جاء به من عند الله تعالى، ومنهم من أغلق قلبه وعقله، وجعل على بصره غشاوة، فكفر وكذب؛ فكانوا بذلك فريقين اثنين: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢].

وعندما كتب الله تعالى النصر لنبيه صلى الله عليه وسلم وأظهر دينه على الدين كله، وضرب الإسلام بجرانه[(١)]، أصبح للمسلمين دولة تضم جميع المؤمنين بالله تعالى الموحدين له، ترفرف عليها راية التوحيد، وتقيم الحق والعدل بين الناس، وتدعو إلى الإنصاف والقسط. لم يكن من أهدافها العلو في الأرض ولا مجرد بسط السيطرة والنفوذ، ولا إكراه الناس على الدين، فتركتهم وما يختارون، عندما يخضعون لسلطان الإسلام وسيادة أحكامه، بعد أن أزاحت العقبات من طريق الدعوة الإسلامية، وخلت بينها وبين الناس؛ ليختاروا - عندما يكون لهم الاختيار- عن طواعية وإرادة.

وأقام الإسلام قواعد العلاقات الدولية بين الناس على افتراض أنهم إما مؤمنون، وإما معاهدون، وإما لا عهد لهم[(٢)].

وفي هذا يقول عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «كان المشركون على منزلتين من النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين؛ كانوا مشركي أهل حرب يقاتلهم ويقاتلونه، ومشركي أهل عهد لا يقاتلهم ولا يقاتلونه»[(٣)].

---

(١) الجران: باطن العنق من البعير وغيره، يقال: ألقى فلان على هذا الأمر جرانه: وطن نفسه عليه.ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «حتى ضرب الحق بجرانه» أي: ثبت واستقر.
انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٤٨٢، النهاية، ابن الأثير ١/ ٢٦٣، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية - ١/ ١١٩.

(٢) انظر: الرسالة الخالدة، عبدالرحمن عزام، ص١٥٦.
ونجد أصلًا لهذا التقسيم وإشارة له في شرح السير الكبير ١/ ٣٠٦، المبسوط، السرخسي ١٠/ ٨٤ - ٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب نكاح من أسلم من المشركات، ٧/ ٤٨، رقم ٥٢٨٦.

ويقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: «فاستقر أمر الكفار معه صلى الله عليه وسلم بعد نزول سورة براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين له، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمنٌ به، ومسالمٌ له آمن، وخائف محارب»[1].

وعلاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى ومظاهر هذه العلاقة سيتم تناوله حالي السلم والحرب فيما يأتي:

أولًا: حال السلم:

ينشد الإسلام السلم في محيط الفرد والأسرة والمجتمع؛ ليصل إلى السلم المنشود مع الأمم والدول الأخرى بعد تلك الخطوات، فالمسلمون أمة واحدة، والبشرية أسرة واحدة، لذا فالمسلمون مكلفون بتبعات إنسانية تجاه هذه البشرية، بحكم أنهم الأمة الخيرة الوسط التي أخرجت من أجل خير البشرية.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالإسلام ينشد السلام الداخلي والخارجي، ويسعى إلى الاستقرار داخل الأمة، وفي علاقتها بالأمم الأخرى، فيطالب المسلمين بالسلام والاستقرار وعدم الاعتداء في علاقتهم بهذه الأمم، وهو يدعوهم إلى السلام وإلى الإسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

كما يطلب من المسلمين أن يكون قولهم قول الحريص على السلام، وأن يعملوا على سلامة السلام العزيز، لا السلم الرخيص[2].

فهو دين السلام في اسمه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

و هو دين السلام في تحيته في الدنيا وفي الجنة في الآخرة: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٦٠.

(٢) انظر: السلام العالمي والإسلام، سيد قطب، ص ٥، الإسلام في حياة المسلم، محمد البهي، ص٤٨٢-٤٨٣، منهج الإسلام في الحرب والسلام، عثمان ضميرية، ص٣٥-٥٨.

﴿الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠ ٢٣].

وهو دين السلام في ليلة نزول الوحي فيه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١ - ٥].

وفي اسم الله الكريم الذي أنزله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

وتقدم أن غير المسلمين من الناس ومن الدول أصناف؛ فمنهم المسالمون ومنهم المحاربون غير المسالمين. والكلام هنا ينصب على المسالمين وهم الأجانب غير المسلمين الذين يقيمون في دار الإسلام أو الدولة الإسلامية إقامة مؤقتة، على أساس عقد الأمان.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

يقول تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم: وإن أحدٌ من هؤلاء المشركين استأمنك؛ فسألك الجوار والأمان؛ ليسمع القرآن الكريم، ويعلم أحكامه وأوامره ونواهيه، وما تدعو إليه من التوحيد وما بعثت به، فأعذه وأمنه حتى يسمع كلام الله تعالى، وحتى يتدبره ويطلع على حقيقة الأمر وحال الإسلام، فإن قبل أمرًا فحسنٌ، وإن أبى أن يسلم فرده إلى مأمنه، وهو الموضع الذي يأمن فيه منك وممن هو في طاعتك من المسلمين، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين[(١)].

وقد أفردت الشريعة الإسلامية لهؤلاء المسالمين من الأجانب غير المسلمين معاملة خاصة لا يمكن إدراك مستواها الأخلاقي السامي إلا عند موازنتها بمعاملة الأجانب في مختلف النظم التي سبقت دعوة الإسلام التي بعث الله تعالى بها نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، أو النظم التي عاصرتها، أو تلك التي جاءت تالية لها[(٢)].

وغير المسلمين هؤلاء أصناف متنوعة من حيث علاقتهم بالمسلمين، ولذلك يقول ابن قيم الجوزية: «الكفار؛ إما أهل حرب وإما أهل عهد. وأهل العهد ثلاثة أصناف: أهل ذمة، وأهل هدنة، وأهل أمان. وقد عقد الفقهاء لكل صنف بابًا، فقالوا: باب الهدنة،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٣٨، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٧٧.

(٢) أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية، ص ٢١٧، القانون الدولي العام وقت السلم ص ٤٨٤ - ٤٩٠، حامد سلطان، مبادئ القانون الدولي العام، عبدالعزيز سرحان، ص ٣٣٤ - ٣٤٥.

باب الأمان، باب عقد الذمة.

ولفظ «الذمة والعهد» لغةً يتناول هؤلاء كلهم في الأصل، وكذلك لفظ «الصلح»؛ فإن الذمة من جنس لفظ العهد والعقد وهكذا لفظ «الصلح» عامٌ في كل صلح، وهو يتناول صلح المسلمين بعضهم مع بعض، وصلحهم مع الكفار. ولكن صار في اصطلاح كثير من الفقهاء «أهل الذمة» عبارة عمن يؤدي الجزية، وهؤلاء لهم ذمة مؤبدة، قد عاهدوا المسلمين على أن يجري عليهم حكم الله ورسوله؛ إذ هم مقيمون في الدار التي يجري فيها حكم الله ورسوله، بخلاف «أهل الهدنة» فإنهم صالحوا المسلمين على أن يكونوا في دارهم، لا تجري عليهم أحكام الإسلام كما تجري على أهل الذمة، لكن عليهم الكف عن محاربة المسلمين. وهؤلاء يسمون «أهل العهد» و«أهل الصلح» و«أهل الذمة».

وأما المستأمن: فهو الذي يقدم بلاد المسلمين من غير استيطان لها؛ وهؤلاء أربعة أقسام: رسلٌ، وتجار، ومستجيرون حتى يعرض عليهم الإسلام والقرآن، فإن شاؤوا دخلوا فيه وإن شاؤوا رجعوا إلى بلادهم، وطالبو حاجة من زيارة أو غيرها. وحكم هؤلاء ألا يهاجروا[1] ولا يقتلوا، ولا تؤخذ منهم الجزية، وأن يعرض على المستجير منهم: الإسلام والقرآن، فإن دخل فيه فذاك، وإن أحب اللحاق بمأمنه ألحق به، ولم يعرض له قبل وصوله إليه، فإذا وصل مأمنه عاد حربيًا كما كان»[2].

ونختم هذا بالإشارة إلى الحكمة التشريعية لهذا التعامل مع المستأمنين في حال السلم وإباحة دخولهم بلاد الإسلام والتعامل معهم، فإن الإسلام -كما تقدم- دعوة للناس كافة للدخول في دين الله تعالى، وينبغي على المسلمين أن يتخذوا من الوسائل ما يمكنهم من إبلاغ هذه الدعوة وتعريف الناس بها. ولما كان الكفار الحربيون لا يجوز لهم دخول دار الإسلام دون إذن من ولي أمر المسلمين؛ لأنهم أعداء للمسلمين ولا يؤمن كيدهم وشرهم، فإن الحكمة تقتضي أن يكون هناك وسيلة لاختلاط الكفار بالمسلمين -ولو لمدة مؤقتة- يتعرفون فيها على الدين وتعاليمه وسيرة أهله بما قد يكون عونًا على فهمهم الصحيح للدين ودخولهم فيه، فيكون هذا في معنى الدعاء إلى الدين بأرفق الطريقين وأيسرهما.

و فيه أيضًا توطيد للعلاقات السلمية بين المسلمين والحربيين، وهذا له أثره في نشر

(١) هكذا في الأصل. ولعلها: يهاجوا. يقال: هاجه وأهاجه وهايجه، أي: أثاره وقاتله.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ١٠٠٢.

(٢) أحكام أهل الذمة، ابن القيم ٢/ ٤٧٥- ٤٧٦.

الدعوة واطمئنان الكفار إلى المسلمين.

كما أن ذلك فيه تحقيق مصلحة للحربيين أنفسهم في تمتعهم بالأمان عند دخولهم لغرض من أغراضهم، فكثيرًا ما تقع الحاجة إلى تردد التجار وأشباههم إلى دار الإسلام وفي هذا تحقيق لمصلحة الطرفين [(١)].

ثانيًا: حال الحرب:

أما الحربيون أو المحاربون، فهم القسم الثاني من الكفار والمشركين الذين سبقت الإشارة إليهم بأنهم الخائفون المحاربون للنبي صلى الله عليه وسلم [(٢)].

وهم أهل إحدى المنزلتين من النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «كان المشركون على منزلتين من النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين؛ كانوا مشركي أهل حرب يقاتلهم ويقاتلونه، ومشركي أهل عهد لا يقاتلهم ولا يقاتلونه» [(٣)].

وقد ألمعنا -آنفًا- إلى هذا الصنف الأخير من أهل العهد في الفقرة السابقة، أما الحربيون فهم الأعداء من سكان دار الحرب أو بلاد الكفر الذين لا يدينون بالإسلام، ويحاربون المسلمين، أو ينتسبون إلى قوم محاربين لهم حقيقة وواقعًا أو حكمًا وتوقعًا. وبعبارة أخرى: هم غير المسلمين الذين لم يدخلوا في عقد الذمة، ولا يتمتعون بأمان المسلمين ولا عهدهم، وهم أصناف: الكفار الذين يقاتلون المسلمين بالفعل ويكيدون لهم، والكفار الذين أعلنوا الحرب على الإسلام وأهله، بأن ضيقوا على المسلمين وحاصروهم اقتصاديًا، أو فتنوهم عن دينهم، أو ظاهروا أعداء الإسلام على المسلمين، والكفار الذين ليس لهم عهد مع المسلمين ولو لم يحاربوا المسلمين ولم يظاهروا عليهم، فهؤلاء كلهم يسمون في الاصطلاح الفقهي أهل الحرب أو الحربيين، ولا يشترط أن تكون الحرب قائمة فعلًا، وإن كانت من الناحية التاريخية الواقعية قد ناصبت الدولة المسلمة العداء والخصام والحرب [(٤)].

والحربيون غير معصومين، فدماؤهم وأموالهم مباحة للمسلمين؛ لأن العصمة في الشريعة الإسلامية لا تكون إلا بأحد؛ بالإيمان أو الأمان، وليس للحربيين إذا لم يكن لهم عهد أو أمان أن يدخلوا دار الإسلام ولا أن يقيموا فيها، فإذا دخلها أحدهم فهو مباح الدم والمال، ويجوز قتله ومصادرة

(١) انظر: المبسوط، السرخسي ١٠/ ٧٧- ٧٨، حجة الله البالغة، الدهلوي ٢/ ٧٩٧.
(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٦٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب نكاح من أسلم من المشركات ٧/ ٤٨، رقم ٥٢٨٦.
(٤) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٩/ ٤٣٧٥، الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي، ابن عبدالهادي ٣/ ٧٤٤.

ماله، كما يجوز أسره والعفو عنه[1].

ولذلك قال ابن المرتضى: «ودار الحرب دار إباحة، يملك كلٌّ فيها ما ثبتت يده عليه، ولا قصاص فيها ولا أرش؛ إذ دماؤهم هدر، ويملك بعضهم بعضًا وماله بالقهر، إذ رقابهم معرضة للاسترقاق وأموالهم للأخذ»[2].

علاقة دعوية ينبثق عنها أصل العلاقات الدولية:

ومن ذلك كله يمكن أن ندرك أن علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم الأخرى -على اختلاف ألوانها ولغاتها وأديانها- ليست في حقيقتها علاقة سلم ولا علاقة حرب ابتداءً، وأن الأصل ليس هو السلم بإطلاق، وليس هو الحرب بإطلاق، «وإنما هي علاقة دعوة، فالأمة المسلمة أمة دعوة عالمية تتخطى في إيمانٍ وسموٍ وعفوية كل الحدود والحواجز التي تنتهي إليها، أو تتهاوى عندها المبادئ الأخرى، سواء كانت هذه الحدود والحواجز جغرافية أو سياسية أو عرقية أو لغوية وهي بذلك تفتح أبواب رحمة السماء لأهل الأرض أجمعين»[3].

وإنما تكون العلاقة -بعد ذلك- علاقة سلم أو حرب، ويكون الأصل هو السلم أو الحرب، بعد تحديد موقف الأمم والدول الأخرى من دعوة الإسلام قبولًا أو رفضًا. ولذلك يقول الدكتور الغنيمي: «إن علاقة الدولة الإسلامية بأيٍ من دول دار المخالفين تتوقف على سياسة تلك الدول من الدولة الإسلامية. وتلك -لعمر الحق- بديهة من بدهيات السياسة الدولية. فإن هي نهجت منهج الموادعة والمسالمة كان حكمها هو ما قررت الآية الكريمة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وعندئذٍ لا يطلب من المسلمين أن يمارسوا إكراهًا على هؤلاء؛ لأن الإقساط يتنافى مع الإكراه»[4].

(١) انظر: المبسوط، السرخسي ١٠/ ٩٢، بدائع الصنائع، الكاساني ٩/ ٤٣١١، الأم، الشافعي ٣/ ٢٠١، شرح السنة، البغوي ١١/ ٧٧، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٦١٢، كشاف القناع، البهوتي ٣/ ١٠٠.

(٢) البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، أحمد بن يحيى بن المرتضى ٦/ ٤٠٧.

(٣) ما هي علاقة الأمة المسلمة بالأمم الأخرى؟، أحمد محمود الأحمد، ص ٧ - ٨.
وانظر: الأصول الشرعية للعلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، محمد أبو الفتح البيانوني، مقال بمجلة جامعة الإمام محمد بن سعود لإسلامية بالرياض، عدد محرم ١٤١٣ هـ.

(٤) انظر: قانون السلام في الإسلام، محمد طلعت الغنيمي، ص ١٠٤، الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي، عبدالله - الطريقي، ص ٢٦، المقدمة العامة لمشروع العلاقات الدولية» بإشراف د.نادية محمود مصطفى، ص ١٦٠.

بل إننا نقول: إن الإكراه يتنافى دائمًا مع الإقساط، وحتى في الحرب لا يجوز أن يقع إكراه على قبول الدين. ونقول أيضًا: إن وقفت دار المخالفين من الدعوة الإسلامية موقف الرفض والعداء والحرب، فإن حكمها هو ما قررته الآية الكريمة التي جاءت تالية للآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

وهذا الذي انتهينا إليه هو ما يفهم من كلام العلماء رحمهم الله تعالى، حيث قرروا أنه إذا لقي المسلمون المشركين وكانوا لم يبلغهم الإسلام، فليس ينبغي لهم أن يقاتلوهم حتى يدعوهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وبه أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراء الجيوش، فقال: «فادعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله»[(١)]. ولأنهم ربما يظنون أنا نقاتلهم طمعًا في أموالهم وسبي نسائهم وذراريهم، ولو علموا أنا نقاتلهم على الدين أجابوا إلى ذلك من غير أن تقع الحاجة إلى القتال، وفي تقديم عرض الإسلام عليهم دعاء إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فيجب البداية به[(٢)].

ولذلك يقول العلامة أبو القاسم السمناني الحنفي: «وكل من لم تبلغه الدعوة إلى الإسلام: فالسنة أن يدعى إلى الإسلام، ويعلم ما يدعى إليه، ونبين له شرائعه وفرائضه وأحكامه، فإن أسلم كف عنه وخلي وشأنه، ودعي إلى التحول إلى دار الإسلام والكون فيها، فإن لم يجب إلى ذلك كله دعي إلى الجزية، فإن بذلها كف عنه، وإن امتنع استعين بالله وقوتلوا على اسم الله وملة رسول الله صلى الله عليه وسلم»[(٣)].

ويقول الكاساني: «إن كانت الدعوة لم تبلغهم فعلى المجاهدين الافتتاح بالدعوة إلى الإسلام باللسان؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولا يجوز لهم القتال قبل الدعوة؛ لأن الإيمان -وإن وجب عليهم قبل بلوغ الدعوة بمجرد العقل فاستحقوا القتل بالامتناع-

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ٣/ ١٣٥٧، رقم ١٧٣١.

(٢) انظر: شرح السير الكبير، السرخسي ١/ ٧٥-٧٦.

(٣) روضة القضاة وطريق النجاة، السمناني ٣/ ١٢٣٧.
وانظر: الاختيار لتعليل المختار، البلدحي ٤/ ١٨٧.

لكن الله تبارك وتعالى حرم قتلهم قبل بعث الرسول عليه الصلاة والسلام وبلوغ الدعوة إياهم؛ فضلًا منه ومنةً، قطعًا لمعذرتهم بالكلية ولئلا يبقى لهم شبهة عذر ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

كما يجب تقديم هذه الدعوة كذلك؛ لأن القتال ما فرض لعينه وذاته، بل للدعوة إلى الإسلام. والدعوة دعوتان: دعوة بالبنان وهي القتال، ودعوة بالبيان وهو اللسان، وذلك بالتبليغ. والثانية أهون من الأولى؛ لأن في القتال مخاطرة بالروح والنفس والمال. وليس في دعوة التبليغ شيء من ذلك، فإذا احتمل المقصود بأهون الدعوتين لزم الافتتاح بها»[(١)].

وهذا يعني: أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل الحرب في هذه الحال هو السلم، ويبقى هذا الأصل قائمًا إذا كان قد بلغهم الإسلام ولكن لا يدرون أنا نقبل منهم الجزية ونعقد لهم الذمة، فينبغي ألا نقاتلهم حتى ندعوهم إلى ذلك، وبهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمراء الجيوش، وهو آخر ما ينتهي به القتال، وفي هذا التزام بعض أحكام المسلمين، والانقياد لهم في المعاملات، فيجب عرضه عليهم إذا لم يعلموا به[(٢)].

وتتحول هذه العلاقة إلى علاقة حرب فيما عدا ذلك «فإن كانوا قومًا لا تقبل منهم الجزية كالمرتدين وعبدة الأوثان من العرب، فإنه لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف. فإذا أبوا الإسلام: قوتلوا من غير أن يعرض عليهم إعطاء الجزية»[(٣)].

وروى الإمام محمد أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو القتل» وقال: بهذا كان يأخذ أبو يوسف[(٤)].

وكذلك: من تقبل منهم الجزية، إذا عرض عليهم الإسلام ولم يقبلوه، وعرضت عليهم الجزية فلم يقبلوها أو يلتزموا بها، فإن العلاقة بهم علاقة حرب؛ لذلك قال الإمام محمد بن الحسن: «فينبغي أن لا نقاتلهم حتى ندعوهم إلى إعطاء الجزية. وهو آخر ما ينتهي به القتال» يعني: فإن لم يلتزموا

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ٩/ ٤٣٠٤ - ٤٣٠٥ بتصرف يسير.
وانظر: غياث الأمم في التياث الظلم، الجويني، ص ٢٠٧.

(٢) انظر: شرح السير الكبير، السرخسي ١/ ٧٦.
وانظر: المبسوط، السرخسي، ١٠/ ٧، بدائع الصنائع، الكاساني - ٩/ ٤٣٠٥.

(٣) السير الكبير، الشيباني ١/ ٧٦ - ٧٧ و ١٨٩. مع شرح السرخسي.
وانظر: الجامع الصغير، الشيباني، ص ٢٤٨ - ٢٤٩، أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٢٦١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٧٣.

(٤) انظر: السير الكبير، الشيباني، ص ٢٢٢، شرح السير الكبير، السرخسي ٥/ ١٧٠٨.

ذلك فقد وجب علينا قتالهم.

وذهب جمهور الفقهاء إلى أن الأصل في العلاقة بغير المسلمين - عند امتناعهم عن الإسلام أو الجزية - هو الحرب والقتال، وأن السلم ليست إلا هدنة يستعد بها لاستئناف القتال والاستعداد له[1].

فلا ينبغي موادعة أهل الشرك إذا كان بالمسلمين عليهم قوة؛ لأن فيه ترك القتال المأمور به. وإن لم يكن بالمسلمين عليهم قوة فلا بأس بالموادعة؛ لأنها خير للمسلمين، ولأن هذا من تدبير القتال.

وحينئذ تكون الموادعة جهادًا معنىً؛ لأن المقصود -وهو دفع الشر- حاصلٌ بها. وإن السلم المطلق لا يكون إلا بإسلامٍ أو أمانٍ، أي: بالدخول في دين الإسلام أو الرضا بعقد الذمة. ولذلك قالوا: يقاتل أهل الكتاب والمجوس حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، ويقاتل من سواهم من الكفار حتى يسلموا.

وهذا هو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله حيث قال: «حكم الله عز وجل في المشركين حكمين: فحكم أن يقاتل أهل الأوثان حتى يسلموا، وأهل الكتاب حتى يعطوا الجزية إن لم يسلموا»[2].

وقالوا: إن الجهاد لإعلاء كلمة الله، وقتال الكفار الذين امتنعوا عن الإسلام وأداء الجزية - وهم ممن تقبل منهم - واجب كفائي على المسلمين كل سنة وإن لم يبدؤونا بالقتال. وإن دعت الحاجة إلى القتال في كل عام أكثر من مرة وجب ذلك عليهم. ولهذا لا تجوز المهادنة مع الأعداء إذا كانت الهدنة مطلقة لم تقيد بمدة[3]؛ لأن الإطلاق يقتضي التأبيد، وذلك يفضي إلى ترك الجهاد بالكلية، وهو غير جائز[4].

(١) جعل الأستاذ ظافر القاسمي هذا المذهب نظرية لفريق من الباحثين المتأخرين.بينما نجد أن هذا مذهب عامة الفقهاء المتقدمين، ولم نجد -كما سيأتي- لأيٍ منهم ما يخالف ذلك، إلا ما روي عن سفيان الثوري رحمه الله في الجهاد الدفاعي وعدم وجوب البدء بالقتال إن لم يقاتلونا.وإن كان هذا في غير ما نحن فيه، لأنه رحمه الله لم يحرم الجهاد أو يمنعه بل هو ينفي وجوب البدء إن لم يقاتلونا. وقد وضعه بعض الكتاب في غير موضعه وأنطقوا الإمام سفيان رحمه الله بما لم يقل به.
انظر: الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام، ظافر القاسمي، ص ١٦٠.

(٢) أحكام القرآن، الشافعي ٢/ ٥٦.
وانظر: الأم، الشافعي ٤/ ١٥٥-١٥٦.

(٣) وهذا أحد القولين في مذاهب العلماء.وفي قول آخر أنه يجوز ذلك وهو الذي نص عليه الشافعي في المختصر. والمذكور عن أبي حنيفة: أنها لا تكون لازمة بل جائزة، فإنه جوز فسخها متى شاء.وهذا القول الثالث مال إليه ورجحه ابن القيم واستدل له بجملة أدلة.
انظر: أحكام أهل الذمة ٢/ ٤٧٦-٤٩٠.

(٤) انظر: المبسوط، السرخسي ١٠/ ٢-٣ و ٢٧، فتح القدير، ابن الهمام ٤/ ٢٨٢، الكافي في فقه أهل المدينة، ابن عبد البر ١/ ٤٦٦، روضة الطالبين، النووي ١٠/ ٢٠٨ و ٣٣٥ - ٣٣٦، الأحكام السلطانية، الماوردي ص

قال الإمام محمد بن الحسن: «الجهاد واجب على المسلمين، إلا أنهم في سعة من ذلك حتى يحتاج إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ولقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

حتى لو اجتمع المسلمون على تركه اشتركوا في المأثم. وفي مثل هذا يجب على الإمام النظر للمسلمين؛ لأنه منصوب لذلك نائب عن جماعتهم، فعليه ألا يعطل الثغور، ولا يدع الدعاء إلى الدين، وعليه حث المسلمين على الجهاد، ولا ينبغي أن يدع المشركين بغير دعوة إلى الإسلام أو إعطاء الجزية إذا تمكن من ذلك»[(١)].

هذه خلاصة ما جاء من نصوص عند العلماء المتقدمين، وهو ما نص عليه أيضًا المتأخرون من العلماء المحققين، فقال الشوكاني: «وأما غزو الكفار ومناجزة أهل الكفر، وحملهم على الإسلام أو تسليم الجزية، أو القتل، فهو معلوم من الدين بالضرورة الدينية، ولأجله بعث الله تعالى رسله وأنزل كتبه، وما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعثه الله سبحانه وتعالى إلى أن قبضه إليه جاعلًا هذا الأمر من أعظم مقاصده ومن أهم شئونه. وأدلة الكتاب والسنة في هذا لا يتسع لها المقام، ولا لبعضها. وما ورد في موادعتهم أو في تركهم إذا تركوا المقاتلة: فذلك منسوخ -باتفاق المسلمين- بما ورد من إيجاب المقاتلة على كل حال مع ظهور القدرة عليهم والتمكن من حربهم وقصدهم في ديارهم»[(٢)].

وقال السيد صديق حسن خان عن جواز الصلح مع الكفار: «ذهب الجمهور إلى أنه لا يجوز أن يكون أكثر من عشر سنين؛ لأن الله سبحانه قد أمرنا بمقاتلة الكفار، فلا يجوز مصالحتهم بدون شيء من جزية أو نحوها. ولكنه لما وقع ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم كان دليلًا على الجواز إلى المدة التي وقع الصلح عليها، ولا تجوز الزيادة عليها؛ رجوعًا إلى الأصل وهو وجوب مقاتلة الكفار ومناجزتهم الحرب»[(٣)].

ولذلك يرى الدكتور مصطفى كمال وصفي رحمه الله أن علاقة المسلمين مع غير المسلمين لا تقوم على وجهها الإسلامي إلا إذا كان للمسلمين هيبة تكفل لهم قيام الأحكام الشرعية وحسن تطبيقها، فإن تطبيق الشريعة الإسلامية في المحيط

٥٢، كشاف القناع، البهوتي ٣/ ٢٨، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٣٨١.

(١) السير الكبير، الشيباني ١/ ١٨٧ - ١٨٩ مع شرح السرخسي.

(٢) انظر: السيل الجرار، الشوكاني ٤/ ١٥٨ - ١٥٩.

(٣) الروضة الندية ٢/ ٤٧٩ - ٤٨٠.

الدولي يتطلب عزًا وكرامة وهيبة، فيكون لتسامحها ومرونتها أثره في حسن الدعوة وحسن التمثل بالمسلمين. وبدون ذلك فإن التحدث بالعزة الإسلامية يحمل على الاستخفاف فتطمع فينا الدول، وينتهزون ذلك ويستغلونه لمصالحهم، كما حدث بالنسبة لمعاهدات الامتيازات التي أولاها العثمانيون -وهم في قوتهم- للأوربيين، فكانت أول مسمار في نعش هذه الدولة.

ومن أهم ما يوجبه الإسلام أن نقوم ببث الهيبة الإسلامية كل سنة بإظهار القوة العسكرية الإسلامية على الحدود، فإن القيام بالغزوات الآن محفوف بالقيود الدولية، لذلك يجب -على الأقل- بث الهيبة على الحدود بعد تحرير أراضي المسلمين والجهاد لنصرة أقلياتهم المغلوبة، وهو عمل يسهل مع مضي الوقت وزيادة النفوذ الدولي، وإن يكن صعبًا في البداية، كما يجب القيام بالدعوة والتوعية بصورة فعالة موازية للحرب المضادة على الأقل [(١)].

(١) انظر: مصنفة النظم الإسلامية، مصطفى كمال وصفي، ص ٣٣٩ - ٣٤١.

العهود بين الدولة الإسلامية وغيرها

تعتبر المعاهدات والمواثيق أو الاتفاقات من أهم وسائل العلاقات الدولية في القديم والحديث، فهي توطد فكرة السلام، وتوجه العلاقات السلمية بين المسلمين وغير المسلمين. وفي هذا الموضع إيجاز للمعاهدات بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى، و نقض العقد ومسوغاته، والاستجابة للدعوة إلى السلم عندما يميل العدو إلى ذلك.

أولًا: الدولة الإسلامية والمعاهدات:

المعاهدة في اللغة: مأخوذة العين والهاء والدال، وهو أصل يدل على الاحتفاظ بالشيء وإحداث العهد به. فمن ذلك: العهد؛ وهو حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال. وهوأيضًا: العقد والموثق واليمين والوصية والتقدم إلى المرء بالشيء أو بالأمر، وجمعه عهود. والمعاهدة والتعاهد بمعنىً واحد. وهي: المعاقدة والمحالفة. يقال: تعاهد القوم، أي: تحالفوا. فالمعاهدة ميثاق بين اثنين أو جماعتين؛ لأنها على وزن «مفاعلة»، وهي تدل على المشاركة فلابد أن تكون بين طرفين [(٢)].

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٦٧ - ١٧٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣/ ٣٣٥ - ٣٣٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣١١ - ٣١٥.

والمعاهدة عند الفقهاء: موادعة المسلمين والمشركين سنين معلومة. أو هي: الصلح على ترك القتال مؤقتًا[1].

ويدل على مشروعية هذه المعاهدات قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

ففي الآية الكريمة دلالة على مشروعية المصالحة والموادعة إذا طلبها المشركون ومالوا إليها، وإذا كان في الصلح مصلحة فلا بأس أن يبتدئ به المسلمون إذا احتاجوا إليه[2].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ [النساء: ٩٢].

والآية الكريمة نزلت في بيان ما يترتب على قتل رجل من الكفار الذين بيننا وبينهم عهد، ففيها دليل على مشروعية الدخول في العهد أو المعاهدة التي سماها الله تعالى في هذه الآية ميثاقًا؛ لأنها عهد وعقد مؤكد[3].

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وادعته يهود كلها، وكتب بينه وبينها كتابًا، وألحق كل قوم بحلفائهم. وكان فيما شرط عليهم ألا يظاهروا عليه عدوًا[4]. كما صالح النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة عام الحديبية على أن وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن من جاءه منهم مسلمًا رده إليهم، ومن جاءهم من عنده لا يردونه إليه، وغير ذلك من الشروط[5].

أنواع المعاهدات: وإذا شرعت المعاهدات فإنها تتنوع حسب وجهة النظر إليها؛ فمن حيث التوقيت: قد تكون المعاهدة مؤبدة، كعقد الذمة، وقد تكون مؤقتة كالأمان والهدنة والموادعة، وقد تكون مطلقة الوقت. ولكل نوع منها أحكام خاصة، والكلام هنا ينصب على هذا النوع المؤقت بخاصة.

ومن حيث موضوعها: قد تكون معاهدات لوضع الحرب كالهدنة والصلح والموادعة. وهي الموضوع الرئيس الذي كانت تعقد المعاهدات من أجله، كما أنها هي المقصودة أساسًا بالبحث في كتب

(١) السير الكبير، الشيباني ٥/ ١٧٨٠، الإنصاف، المرداوي ٤/ ٢١١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٠، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٧٣، أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٦٩-٧٠.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٦٣.
(٤) أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف: ١/ ٢٨٦، وأبو عبيد في الأموال، ص ٢٣٢، وذكره الشافعي في الأم ٤/ ١٢٩.
وانظر: مجموعة الوثائق السياسية، محمد حميد الله، ص ٥٧-٥٩.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب الصلح مع المشركين، ٣/ ١٨٥، رقم ٢٧٠٠.

الفقه، وقد تتعلق بأمور التجارة والاقتصاد والخدمات والثقافة ونحوها مما يكون بين الدول من علاقات ومعاملات متنوعة. وليست كلها سواء من حيث المشروعية.

ومن حيث الأطراف: قد تكون ثنائية بين دولتين، وقد تتعدد أطرافها أكثر، فينضم إلى أحد الطرفين من يدخل في عهده كما في صلح الحديبية.

وكي تكون المعاهدات صحيحة تترتب عليها آثارها ينبغي أن تستجمع شروطًا لا بد منها، فإن اختلت هذه الشروط أو فقدت، أو اختل بعضها، ترتب على ذلك عدم صحة المعاهدة. وهي:

٥. أهلية إبرام المعاهدات.

والأصل العام والقاعدة المتبعة أن يتولى إبرام المعاهدات رئيس الدولة «الخليفة» باعتباره ممثلًا للجماعة الإسلامية ومعبرًا عن إرادتها وناظرًا لمصلحتها، أومن ينوب عنه؛ لأنه يقوم مقام الخليفة نفسه ويعبر عنه. ولذلك لا تصح المعاهدة في مهادنة الكفار ونحوها إلا منهما، لما يترتب على عقد غيرهما لها من المفاسد، ولما فيه من الافتئات عليه.

٦. الرضا.

حيث تقوم العقود في الإسلام على مبدأ الرضا الذي أرساه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩].

فاقتضت الآية الكريمة إباحة سائر التجارات الواقعة عن تراضٍ من الطرفين، ويدخل في هذا جميع العقود، والموادعة عقد من هذه العقود.

٧. المصلحة.

يشترط أن يكون في المعاهدة مصلحة للمسلمين وحاجة تدعو إليها، كي يتحقق الباعث على المعاهدة. وعلى هذا فإن وقعت المعاهدة مع الإخلال بهذا الشرط فهي فاسدة يجب نقضها وإبطالها وإعلام الطرف الثاني بذلك. ودليل ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

وهذه الآية الكريمة وإن كانت مطلقة، لكن إجماع الفقهاء على تقييدها برؤية المصلحة للمسلمين في ذلك بآية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٥].

فأما إذا لم يكن في الموادعة مصلحة فلا تجوز بالإجماع.

٨. مشروعية محل المعاهدة.

يشترط لصحة المعاهدة أن يكون محلها أو موضوعها مشروعًا، فلا تصادم نصًا أوحكمًا شرعيًا ثابتًا، وألا يكون فيها تغيير

للأوضاع الشرعية؛ لأن في هذا التغيير خروجًا على الشريعة وأحكامها ومناقضةً لها، وهو محرم وباطل على الإطلاق، ولا يجب الوفاء إلا بما كان مشروعًا من المعاهدات دون ما كان معصية لا تجوزه الشريعة[1].

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

٩. شرط المدة أو التوقيت.

من شروط المعاهدة أن تكون مؤقتة بمدة معينة، وذلك لبيان سريان المعاهدة والالتزام بها، ولا يتم ذلك إلا ببيان أول تلك المدة وآخرها. والمعاهدة قد تكون مؤقتة بمدة، وقد تكون مؤبدة، وقد تكون مطلقة عن التوقيت والتأبيد:

- **المعاهدة المؤبدة:** وهي التي تستغرق الدهر كله. وقد أجمع العلماء على أن معاهدات الصلح المؤبدة باطلة غير صحيحة[2].
- **المعاهدة المؤقتة بمدة معلومة:** وهذه معاهدة صحيحة مشروعة؛ إذ إنه من طبيعة المعاهدة أن تقبل التخصيص بالوقت. والأصل في توقيت المعاهدات أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح أهل مكة عام الحديبية على أن وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين. ويرى الحنفية أن المعاهدة لا يقتصر جوازها على عشر سنين، بل إن ذلك مفوض لرأي إمام المسلمين وما يراه من المصلحة والحاجة، فقد تكون المصلحة في تجاوز هذه المدة إلى مدة أخرى أكثر منها، سواء طالت أم قصرت. ورجح هذا الخطابي، وابن حجرٍ العسقلاني من الشافعية[3].
- **المعاهدة المطلقة عن التوقيت:** ذهب الحنفية وبعض المالكية، إلى جواز المعاهدة المطلقة عن التوقيت، فهي ليس مؤبدة وليست محددة بمدة معينة أيًا كانت، وإنما لم يذكر فيها شرط المدة فحسب. وهو ما يرجحه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن قيم

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٢٩٤، أحكام المعاهدات في الشريعة الإسلامية، طلعت الغنيمي ص ٩٨-١٠٠، المعاهدات الدولية في الشريعة، أحمد أبو الوفا، ص ٦٩-٧٤.

(٢) اختلاف الفقهاء، الطبري ص ١٤، البحر الزخار، ابن المرتضى ٦/ ٤٤٨.

(٣) انظر: شرح السير الكبير، السرخسي ٥/ ١٧٨٠، معالم السنن، الخطابي ٤/ ٨٠، فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٢٨٢.

الجوزية، وهو الذي يتفق مع نصوص القرآن الكريم الآمرة بالوفاء بالوعد والعهد، ومع نصوص السنة النبوية والواقع العملي لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يجئ بعد ذلك ما ينسخ هذا الحكم البتة[1].

آثار المعاهدات الدولية على غير الأطراف:

الأصل في المعاهدات أنها تنتج أثرها وتلزم عاقديها «الأطراف في المعاهدة» دون غيرهم. إلا أن هذه القاعدة يكتنفها قاعدة أخرى تنازعها الحكم، وتجيز أن تتمتع الدول غير الأطراف بآثار المعاهدة وإن لم يكونوا طرفًا فيها، ودليل ذلك: هو قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: ٨٩-٩٠].

فالذين يصلون إلى قوم بيننا وبينهم عهد أو ميثاق يدخلون معهم، وترتب المعاهدة آثارًا بالنسبة لهم، كما في صلح الحديبية؛ فقد جاء فيه أن من أحب أن يدخل في عهد محمد صلى الله عليه وسلم دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

وتستنفد المعاهدة أغراضها وينتهي أجلها، فتفنى وتنتهي آثارها، وذلك عندما يطرأ عليها سبب من أسباب الانتهاء والانقضاء، ويمكن أن نجملها بأربعة أسباب[2]:

وتنتهي المعاهدة المؤقتة بوقتٍ معلوم بانتهاء الوقت من غير حاجة إلى نبذٍ أو إعلام للطرف الآخر؛ لأن العقد المؤقت إلى غاية ينتهي بانتهاء الغاية، فالمعاهدة في هذه الحال أصبحت غير قائمة فعلًا.

وقد ينبذ الطرفان المعاهدة أو ينهياها صراحةً، وهو ما سماه الإمام الكاساني «النص على إنهاء المعاهدة»، على غرار الإقالة في العقود.

وتنتهي المعاهدة كذلك إذا نقضها المعاهدون من الأعداء صراحةً أو دلالةً، ويكون هذا النقض بواحد من أمرين يدلان على ذلك:

أحدهما: قيامهم بأعمال تعتبر نقضًا للمعاهدة؛ لأنها مخالفة لموجبها. والدليل على ذلك: أن أهل مكة لما بدؤوا بالغدر

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٨٩، مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩/ ١٤٠، أحكام أهل الذمة» ابن القيم ٢/ ٤٧٦-٤٩٠.

(٢) وعلى هذا فإن بطلان المعاهدات لا يدخل ضمن هذا الموضع، لأن الباطل غير قائم شرعًا ولا أثر له، لأنه يعني أن المعاهدة لم توجد أصلًا من الناحية الشرعية حتى ولو كانت قائمةً حسًا.بينما في الانتهاء كانت المعاهدة موجودة ثم طرأ عليها سبب من أسباب الانتهاء والانقضاء.

ونقض العهد الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية، قبل مضي المدة، حيث عاونت قريشٌ بني بكرٍ على خزاعة، وهم حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم، قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينبذ إليهم[(١)].

والثاني: مخالفتهم لشروط المعاهدة والإخلال بها. ويدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح ابني أبي الحقيق من اليهود على شروط اشترطها عليهم فخالفوها، فكان ذلك نقضًا منهم للصلح، كما هو معروف في كتب السيرة[(٢)].

وقد تنهى المعاهدة بإرادة منفردة: والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وانقضاء المعاهدة بالنبذ «الإلغاء» من جانب المسلمين يكون لأحد أمرين هما: تعذر الوفاء بشرط من شروط المعاهدة، وتغير الظروف التي عقدت المعاهدة في ظلها فتبدلت المصلحة الداعية إليها[(٣)].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ١٤/ ٤٧٣ و٤٨١، وعبدالرزاق في مصنفه، ٥/ ٣٧٤.
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٢٧٨ - ٢٨١، زاد المعاد، ابن القيم، ٣/ ١٤٣.
(٣) شرح السير الكبير، السرخسي ١/ ٣٠٤، البحر الرائق، ابن نجيم ٥/ ٨٦، بدائع الصنائع، الكاساني ٩/ ٤٣٢٧.

ثانيًا: الدولة الإسلامية والوفاء بالعهود:

الوفاء بالعهود والمواثيق من أعظم ما يترتب على العقود، سواء كانت عقودًا بين العبد وربه تبارك وتعالى، أو بين العبد وإخوانه في أنواع المعاملات المختلفة، أو بين الدولة وغيرها من الدول والأمم والشعوب. وهو من القواعد العامة في الشريعة الإسلامية ومن أحكامها القطعية الثابتة، وهو كذلك معلم من المعالم البارزة في العلاقات الدولية الإسلامية.

والأصل في ذلك: كثير من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، التي ترسي هذا المبدأ الأصيل في العلاقات الدولية وغيرها.

ففي الوفاء بالعهد أو العقد، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

ووجه الاستدلال بالآية الكريمة: «أن العقد ما يعقده العاقد على أمر يفعله هو، أو يعقد على غيره فعله على وجه إلزامه إياه والعهد والأمان يسميان عقودًا؛ لأن معطيها قد ألزم نفسه الوفاء بها. والأيمان كذلك؛ لأن الحالف قد ألزم نفسه التمام عليه والوفاء به، والشركة والمضاربة تسمى أيضًا عقودًا؛ لأنها تقتضي الوفاء بما شرطه كل واحد من الربح والعمل لصاحبه، وألزم نفسه بما شرطه في شيء يفعله في المستقبل،

فهو عقد كعقود البيوع والإجارات وغيرها. فقد اشتملت الآية الكريمة على إلزام الوفاء بالعهود والذمم التي نعقدها لأهل الحرب وأهل الذمة والخوارج وغيرهم من سائر الناس وجميع ما يتناوله اسم العقود»[1].

ويأمر الله تعالى بإتمام العهود إلى مدتها ويحذر من نقضها فيقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

ومنذ أن كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه - رضوان الله عليهم - في مكة المكرمة والدعوة في مهدها لا تتجاوز أم القرى، يعلم الله تعالى أن المسلمين سيكون لهم دولة قوية.

وقد تحمل القوة أهلها على التهاون بالعهود والمواثيق تحقيقًا لمصلحة قريبة أو ثأرًا لمظلمة سابقة، فكان من حكمة الله تعالى أن يأتي التأكيد على الوفاء بالعهد والتحذير من الغدر في التعامل مع الأمم الأخرى، وكان ذلك أيضًا إرهاصًا بقيام دولة قوية عزيزة للمسلمين ينبغي أن تستشرف الحق والعدل والوفاء، فقال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩١ - ٩٢][2].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وتواردت الآيات الكريمة في الوفاء بالعهد في مجالات العقيدة والعبادة والأخلاق وفي العلاقات الاجتماعية والدولية وفي المعاملات المالية وغيرها، وسلك القرآن الكريم في ذلك مناهج شتى، فقد أوجب الوفاء بالعهود بصيغة الأمر المباشر، وبصيغة الخبر، ثم بطريقة التحذير من عدم الوفاء أو التهاون بالعهود، وجعل الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين[3].

ثم عرضت الآيات الكريمة للصورة المقابلة للوفاء فحذرت من خيانة العقود ونقضها وعدم مراعاتها مع بيان ما يترتب على ذلك من الآثار، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٢٩٣ - ٢٩٤. وانظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٤٩ - ٤٥٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٦٩.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ١٩٠.

(٣) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، ناصر العمر ص ١٥٣.

﴿يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢-١٣].

أما الأحاديث النبوية فقد جاءت بتفصيلات أوسع في الوفاء بالعهود والنهي عن الغدر والخيانة والنقض، حسبنا أن نشير إلى طرفٍ منها:

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)**[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان)**. وقال: **(لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامةٍ)**[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)**[3].

وأخرج أبو عبيد بسنده عن رجل من جهينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إنكم لعلكم تقاتلون قومًا فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم ويصالحونكم على صلح، فلا تأخذوا منهم فوق ذلك، فإنه لا يحل لكم)**[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ١/ ١٦، رقم ٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خصال المنافق ١/ ٧٨، رقم ٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجزية، باب إثم الغادر، ٤/ ١٠٤، رقم ٣١٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، ٣/ ١٣٥٩، رقم ١٧٣٥.

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه، ٣/ ٢٩٠، رقم ٣٥٣٤، والترمذي في سننه، أبواب البيوع، ٣/ ٥٥٦، رقم ١٢٦٤.
قال الترمذي: «حسن غريب».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٠٧، رقم ٢٤٠.

(٤) «الأموال» لأبي عبيد ص ١٧٠ و ١٧١، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة، ٣/ ١٧٠، رقم ٣٠٥١.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٦٧٤، رقم ٤٦٨٠.

وفي هذا دليل على أنه لا يجوز للمسلمين بعد وقوع الصلح بينهم وبين الكفار على شيء أن يطلبوا منهم زيادة عليه، فإن ذلك من ترك الوفاء بالعهد ونقض العهد وهما محرمان بنص القرآن والسنة [(١)].

وإذا كان للوفاء بالعهد أثره في الالتزام بالمعاهدات الدولية واستقرارها فإنه كذلك يجعل المعاهدين عونًا للمسلمين ويزرع في نفوسهم الثقة بهم، فقد أخرج القاضي أبو يوسف أن أبا عبيدة بن الجراح لما صالح أهل الشام واشترط لهم وعليهم شروطًا كان الصلح عليها، قالوا له: اجعل لنا يومًا في السنة نخرج فيه صلباننا بلا رايات، وهو يوم عيدنا الأكبر. ففعل ذلك وأجابهم إليه، فلم يجدوا بدًا أن يفوا لهم بما شرطوا، ففتحت المدن على هذا.

فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعونًا للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالًا من قبلهم يتحسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون أن يصنعوا، فأتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعًا لم ير مثله، فأتى رؤساء أهل كل مدينة إلى الذي خلفه أبو عبيدة فأخبروه بذلك [(٢)].

وقد كان الوفاء بالعهد والتحرز عن الغدر من المعالم البارزة والأصول الثابتة في الفقه الإسلامي، وكثيرًا ما نجدهم يعللون لما يذهب إليه بأن فيه وفاءً وتحرزًا عن الغدر. وإليك ما يدل على هذا:

- ينبغي رعاية العهد والميثاق مع الدولة غير المسلمة في كل الأحوال، ويقدم هذا على واجب النصرة والمساعدة للمسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام إذا استنصرونا، فإذا كان بين المسلمين وبين غير المسلمين عهد، فلا ينبغي نقضه، بل يجب الوفاء به حتى ينقضي العهد أو ينبذ إليهم على سواء [(٣)]. قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].
- إلا أن وجود الميثاق المانع من نصرة المسلمين وعدم قتال المعاهدين يكون فقط بالنسبة للدولة الإسلامية، أما الرعايا العاديين فيمكنهم تخليص الأسرى إذا كانوا مستأمنين في بلاد الكفر وقدروا على ذلك. قال الإمام

(١) انظر: نيل الأوطار، الشوكاني ٨/ ٦٩.

(٢) انظر القصة كاملة: في الخراج، أبو يوسف ص ١٤٩ - ١٥١.

(٣) انظر: شرح السير الكبير، السرخسي ٤/ ١٦٦٧.

محمد بن الحسن الشيباني: «قوم من المسلمين يكونون مستأمنين في دار الحرب إذا أغار أهل الحرب على دار الإسلام فأصابوا غنائم وسبايا كبيرة أحرارًا مسلمين فأدخلوهم دار الحرب، فمروا بهم على أولئك المسلمين المستأمنين، لهم أن ينقضوا عهدهم ويقاتلوا على ذراري المسلمين، لا يسعهم إلا ذلك إذا كانوا يطيقون القتال»[1].

- وعرض الفقهاء لكثير من الشروط التي يجب الوفاء بها في الموادعة؛ ليكون ذلك تحرزًا عن الغدر والخيانة وتأكيدًا للوفاء بالمعاهدات وشروطها، فمن ذلك: إذا مر عسكر المسلمين بمدينة من مدائن أهل الحرب، فأعطوهم العهد على أن لا يتعرضوا لزرعهم وأشجارهم وثمارهم، فليس ينبغي لهم أن يتعرضوا لشيء من ذلك، سواء أضر بأهل الحرب أو لم يضر بهم؛ لأن هذا ملك لهم، ونفوذ تصرف الإنسان في ملكه بحكم الملك، لا باعتبار المنفعة والضرر والتحرز عن الغدر واجب[2].
- وإن شرطوا في المعاهدة شرطًا وجب الوفاء به وبما هو أولى منه، حتى ولو لم ينص على ذلك: فإن شرطوا علينا ألا نأكل من زروعهم ولا نعلف منها، فليس ينبغي لنا أن نحرق شيئًا منها؛ لأن الإحراق فوق الأكل في تفويت مقصودهم بالشرط، فيثبت الحكم فيه بالطريق الأولى. وإن شرطوا ألا نحرق لهم زروعًا فقدرنا على أن نغرقها بالماء، فليس لنا أن نفعل ذلك؛ لأن هذا في معنى المنصوص من كل وجه، فإن كل واحد منهما إفساد. وإن شرطوا أن لا نقتل أسراهم إذا أصبناهم، فلا بأس أن نأسرهم؛ لأن الأسر ليس في معنى ما شرطوا من القتل. وإن شرطوا أن لا نأسر منهم أحدًا فليس ينبغي لنا أن نأسرهم ونقتلهم؛ لأن القتل أشد من الأسر، ومقصودهم بهذا الشرط يفوت بالقتل كما يفوت بالأسر»[3]. والأصل في جنس هذه المسائل والشروط: أن الأمان على الشيء أمان على مثله وعلى ما فوقه ضررًا، ولا يكون أمانًا على ما دونه ضررًا[4].
- وينبغي أن نشير هنا إلى وجوب الوفاء بالعهد والشروط في المعاهدات طالما أن المعاهدة لا تزال قائمة يلتزم بها الطرف الآخر. أما إذا نقضها بخيانة أو

(١) الأصل، الشيباني ص ١٩٦.
(٢) السير الكبير ١/ ٣٠٠ - ٣٠١.
(٣) المصدر السابق ١/ ٣٠٢ - ٣٠٤.
(٤) انظر: الفتاوى الهندية ٢/ ٢٠٣.

مخالفة للشروط المتفق عليها -كما سيأتي- فإن المسلمين عندئذ في حلٍّ من الالتزام بها والوفاء لها؛ لأنها لم تعد قائمة فعلًا.

وبهذا يضع الفقه الإسلامي قيدًا على الوفاء بالعهد، ويعاملهم بالمثل فيما هو سائغ جائز لنا. وهذا ما يفهم من قولهم آنفًا: «إن شرطوا أن لا نأسر منهم أحدًا، فليس ينبغي لنا أن نأسرهم أو نقتلهم إلا أن تظهر الخيانة منهم، بأن كانوا التزموا أن لا يقتلوا منا أحدًا، ولا يأسروا منا أحدًا، ثم فعلوا ذلك، فحينئذ يكون هذا منهم نقضًا للعهد، فلا بأس بأن نقتل أسراهم وأن نأسرهم، كما كان لنا ذلك قبل العهد»[1].

والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

كما يدل على ذلك أيضًا أن أهل مكة لما نقضوا العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية بمساعدتهم بني بكرٍ على خزاعة، وكانت خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، قصدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير نبذٍ إليهم، وسأل الله تعالى أن يعمي عليهم الأخبار حتى يأتيهم بغتة[2].

واتفق الفقهاء على أنه ينبغي على المسلمين أن يفوا بكل ما في المعاهدة من شرط صحيح، طالما أنها لا تزال قائمة لم تنتقض[3].

قال ابن حزم: «اتفق الفقهاء على أن الوفاء بالعهود التي نص القرآن على جوازها ووجوبها وذكرت فيه بصفاتها وأسمائها، وذكرت في السنة كذلك، وأجمعت الأمة على وجوبها أو جوازها، فإن الوفاء بها فرض، وإعطاؤها جائز. واختلفوا في الوفاء بكل عهد كان بخلاف ما ذكرنا، أيحرم إعطاؤه ويبطل إن عقد أم ينفذ؟»[4].

هذا، وبالمقارنة نجد البون شاسعًا بين تأكيد الإسلام على الوفاء بالعهد وشروطه ومنع الغدر، حتى غدا ذلك أصلًا عظيمًا في العلاقات الدولية والاجتماعية، وبين واقع غير المسلمين في القديم والحديث، وتعاملهم مع المسلمين بالغدر وعدم

(١) السير الكبير ١/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٣٩٤-٣٩٥، زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٣٩٤.

(٣) انظر: عقد الجواهر الثمينة، ابن شاس ١/ ٤٩٨، روضة الطالبين، النووي ١٠/ ٣٣٧، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٥١٣.

(٤) مراتب الإجماع، ابن حزم، ص ١٢٣.

الوفاء، حتى اعترف بذلك كتابهم، ومنهم «فوشيه» الذي يقرر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصى أتباعه بمراعاة المعاهدات وتنفيذ نصوصها، قبل أن تظهر في الغرب قاعدة احترام المعاهدات[1].

بل في وقت كان الغرب يغط فيه في دياجير الجهالة والظلمة، ولم يكن فيه أي احترام لذمةٍ أو عهد أو ميثاق، وإنما كانت القاعدة هي الكذب والخديعة والغدر، حتى إن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السابع عشر قد قامت بإعفاء الأمراء الكاثوليك من الالتزام بالمعاهدات التي أبرموها مع الكفار وغير المؤمنين بالكاثوليكية، ومنها المعاهدات المبرمة مع البروتستانت[2].

فكان ذلك شهادة لا يرقى إليها الشك؛ إذ هي شهادة من الأعداء، تدل على عظمة الإسلام وأحكامه وسمو مبادئه التي تقوم على الحق والعدل اللذين قامت بهما السموات والأرض[3].

(١) نقلاً عن آثار المعاهدات بالنسبة للدول غير الأطراف، محمد مجدي مرجان، ص ٢٣.
(٢) تاريخ القانون الدولي، لوران، ١٠/ ٤٣٢ - ٤٣٩ نقلًا من المصدر السابق.
(٣) انظر: حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ص ٣٣٠ - ٣٣١، الشرع الدولي في الإسلام، أرمنازي، ص ٤٠ - ٤١، منهج الإسلام في الحرب والسلام، عثمان ضميرية، ص ٥٤ - ٥٥، المعاهدات الدولية، أحمد أبو الوفا ص ١٢٤ - ١٢٥، آثار المعاهدات بالنسبة للدول غير الأطراف، محمد مجدي مرجان، ص ٢٣.

ثالثًا: الدولة الإسلامية وجنوح العدو إلى السلم:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٠ - ٦٢].

قال الإمام أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ وغدرًا، ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ وآذنهم بالحرب ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحرب؛ إما بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاء الجزية، وإما بموادعة، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾، يقول: فمل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه»[4].

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا﴾ أي:

(٤) جامع البيان ١٤/ ٤٠.

الكفار المحاربون، أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: الصلح وترك القتال ﴿فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلًا على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة:

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماما لقواكم، واستعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك. ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضا، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له.

فصار هذا السلم عونًا للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره[1].

وفي ظلال هذه الآية الكريمة يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح تعبيرٌ لطيف، يلقي ظل الدعة الرقيق. فهي حركة جناح يميل إلى جانب السلم، ويرخي ريشه في وداعة! كما أن الأمر بالجنوح إلى السلم مصحوب بالتوكل على الله السميع العليم الذي يسمع ما يقال ويعلم ما وراءه من مخبآت السرائر. وفي التوكل عليه الكفاية والأمان.

وبالعودة إلى تلخيص ابن القيم لطوائف الكفار ومواقفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموقفه كذلك منهم، أول العهد بالمدينة إلى يوم بدر ونزول هذا الحكم[2].

يتبين أن هذا النص يتعلق بالفريق الذي اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقاتله وجنح إلى السلم ولم يظهر العداء والمقاومة للدعوة الإسلامية، ولا للدولة المسلمة. وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يترك هذا الفريق، وأن يقبل مهادنته ومسالمته «وذلك حتى نزلت براءة ونزل فيها إمهال من لم يكن له عهد، أو كان له عهد غير موقت، مدة أربعة أشهر، يكون له بعدها حكم آخر بحسب موقفه»، ومن ثم فهو ليس حكمًا نهائيًا على إطلاقه الذي يؤخذ من نصه مجردًا عن هذه الملابسات، ومجردًا كذلك عن النصوص التالية له في الزمن، وعن التصرفات الواقعية بعده لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن النص كان له

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٥.

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٦٠.

نوع من العموم في الحكم في حينه. فقد عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم به حتى نزلت سورة براءة، ومن عمله به كان صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة..

ولقد اتجه بعض الفقهاء إلى اعتبار الحكم نهائيًّا ودائمًا، ففسروا الجنوح إلى السلم بقبول أداء الجزية ولكن هذا لا يتفق مع الواقع التاريخي، فإن أحكام الجزية نزلت في سورة براءة بعد السنة الثامنة للهجرة، وهذه الآية نزلت في السنة الثانية بعد بدر ولم تكن أحكام الجزية موجودة. والأقرب إلى الصحة بمراجعة الأحداث وتواريخ النزول والطبيعة الحركية للمنهج الإسلامي، أن يقال: إن هذا الحكم ليس نهائيًّا، وأنه عدل أخيرًا بالأحكام النهائية التي نزلت في سورة براءة «التوبة» والتي انتهى بها الناس إلى أن يكونوا مع الإسلام: إما محاربين يحاربون، وإما مسلمين تحكمهم شريعة الله، وإما أهل ذمة يؤدون الجزية وهم على عهدهم ما استقاموا، وهذه هي الأحكام النهائية التي تنتهي إليها حركة الجهاد الإسلامي.

وكل ما عداها هو حالات واقعية يسعى الإسلام إلى تغييرها حتى تنتهي إلى هذه الأوضاع الثلاثة التي تمثل العلاقات النهائية، وهي العلاقات التي يمثلها الحديث الذي أخرجه مسلم عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيرًا، وقال: (اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم؛ ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم. فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم))[1].

والمشكل في هذا الحديث هو ذكر الهجرة ودار المهاجرين، مع ذكر الجزية، والجزية لم تفرض إلا بعد الفتح، وبعد الفتح لم تعد هجرة «بالقياس إلى الجماعة المسلمة الأولى التي انتهت إلى دار إسلام

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ٣/ ١٣٥٧.

وفتح وتمكن»، والثابت أن الجزية لم تفرض إلا بعد السنة الثامنة، وأنها من ثم لم تؤخذ من المشركين العرب؛ لأنهم أسلموا قبل نزول الجزية، فقبلت بعد ذلك من أمثالهم من المشركين المجوس، وهم مثلهم في الشرك، ولو نزلت أحكام الجزية وفي الجزيرة مشركون لقبلت منهم كما يقرر الإمام ابن القيم. وهو -فيما ذكر- قول أبي حنيفة وأحد قولي الإمام أحمد، أما القرطبي فقد روى هذا القول عن الأوزاعي ومالك، وروى غيره عن أبي حنيفة[1].

وعلى أية حال فالذي ننتهي إليه، أن قول الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

لا يتضمن حكمًا مطلقًا نهائيًا في الباب، وأن الأحكام النهائية نزلت فيما بعد في سورة براءة، إنما أمر الله رسوله أن يقبل مسالمة وموادعة ذلك الفريق الذي اعتزله فلم يقاتله، سواء كان قد تعاهد، أو لم يتعاهد معه حتى ذلك الحين، وأنه ظل يقبل السلم من الكفار وأهل الكتاب حتى نزلت أحكام سورة براءة. فلم يعد يقبل إلا الإسلام أو الجزية، أو هو القتال ما استطاع المسلمون هذا؛ ليكون الدين كله لله[2].

(١) انظر: أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني، عثمان جمعة ضميرية ١/ ٤٦٤-٤٨٧.

(٢) الظلال، سيد قطب ٣/ ١٥٤٥-١٥٤٦.

مزايا الدولة الإسلامية

مزايا الدولة الإسلامية هي مجموعة من الخصائص والقابليات التي تفردها عن الأمم الأخرى، وتجعل لها كيانها المتكامل الفريد وشخصيتها الذاتية[3].

وهي خصائص ومزايا كثيرة، ومنها:

أولًا: التمكين في الأرض:

التمكين هو: التوثيق، وأصله إقرار الشيء في مكان. وهو مستعمل فيما يأتي من الآيات الكريمة في التسليط والتمليك. وتمكين المؤمنين الذي تتميز به الدولة المسلمة هو تسليطهم على شيء من الأرض فيكون ذلك شأنهم فيما هو من ملكهم وما بسطت فيه أيديهم.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وهذا وعدٌ من وعود الله الصادقة، التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام

(٣) انظر: تميز الأمة الإسلامية إسحاق عبدالله السعدي: ١/ ٥١-٦٨.ففيه بيان لمفهوم التميز والمزايا في اللغة العربية وفي النصوص الشرعية.

بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة؛ لفضلها وشرفها، ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم؛ لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدًّا بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا، ولا يخافون أحدًا إلا الله، فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح، بما يفوقون على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام. فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح[1].

وفي ظلال هذه الآية الكريمة يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يستخلفهم في الأرض، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا ذلك وعد الله، ووعد الله حق، ووعد الله واقع، ولن يخلف الله وعده، فما حقيقة ذلك الإيمان؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف؟

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله، وتوجه النشاط الإنساني كله، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله، لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لا يبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله.

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه. وأشواق

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٣.

روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعا، ويتوجه بهذا كله إلى الله.

يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلًا للاستخلاف والتمكين والأمن: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾. والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لونٌ من ألوان الشرك بالله.

ذلك الإيمان منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض أمانة الاستخلاف..

فما حقيقة الاستخلاف في الأرض؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان! وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم؛ ليحققوا النهج الذي أراده الله، ويقرروا العدل الذي أراده الله ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله، فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان، فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض. إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم؛ لحكمة يقدرها الله، آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها. فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض. ودينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض، ويأمر بعمارة هذه الأرض، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة، ومن رصيد، ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ

﴿خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ ولقد كانوا خائفين، لا يأمنون، ولا يضعون سلاحهم أبدًا حتى بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة.

قال الربيع بن أنس عن أبي العالية في هذه الآية: (كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحوًا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وإلى عبادته وحده بلا شريك له، سرًّا وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بَعْدُ الهِجْرَةَ إلى المدينة، فقدموها، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله. ثم إن رجلًا من الصحابة قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنَّا السلاح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لن تصبروا إلا يسيرًا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم ليست فيه حديدة) وأنزل الله هذه الآية)[1].

فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب، فأمنوا ووضعوا السلاح. ثم إن الله قبض نبيه صلى الله عليه وسلم فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان. حتى وقعوا فيما وقعوا فيه، فأدخل الله عليهم الخوف، فاتخذوا الحجزة والشرط، وغيروا فغير بهم.

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون على شرط الله، ووعد الله، وعهد الله.

لقد تحقق وعد الله مرة، وظل متحققًا وواقعًا ما قام المسلمون على شرط الله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥] لا من الآلهة ولا من الشهوات. ويؤمنون -من الإيمان- ويعملون صالحًا.

ووعد الله مذخورٌ لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة، إنما يبطؤ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن؛ لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة أو في تكليف من تكاليفه الضخمة، حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء، وجازت الابتلاء، وخافت فطلبت الأمن، وذلت فطلبت العزة، وتخلفت فطلبت الاستخلاف، كل ذلك بوسائله التي أرادها الله، وبشروطه التي قررها الله تحقق وعد الله الذي لا يتخلف، ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعا[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/ ١٥٩-١٦٠، ووصله الحاكم في المستدرك: ٢/ ٤٠١.
قال الهيثمي في المجمع ٧/ ٨٣: أخرجه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٨-٢٥٣٠.

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤١].

والكلام هنا في الآيات الكريمة مسوقٌ للتنبيه على الشكر على نعمة النصر بأن يأتوا بما أمر الله به من أصول الإسلام، فإن بذلك دوام نصرهم، وانتظام عقد جماعتهم، والسلامة من اختلال أمرهم، فإن حادوا عن ذلك فقد فرطوا في ضمان نصرهم وأمرهم إلى الله. فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدين وتجديد لمفعوله في النفوس، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين في نظام معاشهم، وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة من تلقاء أنفسهم»[1].

وقد جاء هذا المعنى في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

ثانيًا: تحقيق العدل:

تقوم الدولة الإسلامية على العدل الحقيقي، بل تهدف إلى تحقيق أعدل سيرة ممكنة للحاكم المسلم في هذا المجال، وتتنزه عن اعتبارات الأنانية والظلم والصراع على المصالح الذاتية؛ فإن الله تعالى ما بعث الرسل وأنزل عليهم الكتب والشرائع إلا ليقوم الناس بالحق والعدل والقسط.

و العدل: هو المساواة بين الناس في تطبيق الأحكام وإعطاء الحقوق لأصحابها، وعدم التمييز بينهم في المعاملة تبعًا للهوى والمصلحة الذاتية.

وقد أعلى الإسلام من قيمة العدل فجعله الغاية من إرسال الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وإنزال الشرائع والكتب. قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وبالعدل والحق قامت السماوات والأرض. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾

(١) التنوير والتحرير، ابن عاشور ٢٨٠-٢٨١.

[الحجر: ٨٥].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وقال أيضًا: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وبالعدل يطمئن الناس على حقوقهم، وتتطهر قلوبهم ونفوسهم من الأحقاد والخصومات و الضغائن، وعندئذ تسودهم السعادة وينتشر بينهم السلام، ويترقون في مدارج الحضارة والعلم والرقي[(١)].

والإسلام يسير في إقرار العدل والدعوة إليه بخطوات متدرجة، فيبدأ بالعدل مع النفس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥].

ثم العدل مع الأهل و الأسرة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

و العدل مع القرابة: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والعدل مع هؤلاء جميعا في دائرة واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

والعدل بين المتخاصمين والمتقاتلين من المؤمنين: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ثم ينتهي بالعدل مع الأمم الأخرى، فيشمل البشرية كلها بعدله ورحمته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقد تضافرت الأدلة الشرعية والعقلية والواقع التاريخي العملي على تقرير هذا المبدأ والدعوة إليه بوسائل متعددة:

فمن القرآن الكريم: أرست الآيات القرآنية هذا الأصل الكبير، وجعلته قاعدة عامة مطلقة، لا تختص بأمر من الأمور ولا قوم من الأقوام. فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ

(١) انظر: فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، ص ١٤٣-١٤٨، القرآن العظيم في هدايته وإعجازه، محمد الصادق عرجون، ص ٣١-٣٨.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى في الحكم بما أنزل الله، و هو الحق والعدل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وفي المعاملة مع الأعداء؛ لا يجوز أن تحملنا العداوة لهم والبغضاء على أن نَنْتَكِبَ جادة العدل؛ فإن شريعة الله تعالى هي شرعة الحق والعدل المطلق. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

كما حكت الآيات القرآنية واقعة عملية؛ حيث نزلت لتبرئ ساحة يهودي اتهم بالسرقة، بل نزلت لتقيم ميزان العدالة الذي لا يميل مع الهوى ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيًا كانت الملابسات والأحوال، وأمرت النبي صلى الله عليه وسلم ألا يجادل عن الذين اتهموا اليهودي بذلك؛ لأنهم يختانون أنفسهم[1].

(١) القصة التي رويت من عدة مصادر في سبب نزول هذه الآيات أن نفرًا من الأنصار - قتادة بن النعمان وعمه رفاعة - غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته. فسرقت درع لأحدهم -رفاعة- فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم: بنو أبيرق.فأتى صاحب الدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي.فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين، وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع، وألقيتها في بيت فلان.وستوجد عنده.فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبي الله: إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع فلان.وقد أحطنا بذلك علمًا، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك..ولما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدرع وجدت في بيت اليهودي، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس.وكان أهله قد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي: إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت! قال قتادة: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته.فقال: [عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة؟] قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك.فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم.فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ -١٠٧].

وفي ظلال هذه الآيات الكريمة يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: هذه الآيات تحكي قصةً لا تعرف لها الأرض نظيرًا، ولا تعرف لها البشرية شبيهًا، وتشهد وحدها بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند الله؛ لأن البشر -مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم- لا يمكن أن يرتفعوا بأنفسهم إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات إلا بوحي من الله.

هذا المستوى الذي يرسم خطًا على الأفق لم تصعد إليه البشرية إلا في ظل هذا المنهج، ولا تملك الصعود إليه أبدًا إلا في ظل هذا المنهج كذلك، إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة، التي تحويها جعبتهم اللئيمة، على الإسلام والمسلمين والتي حكت هذه السورة -النساء- وسورة البقرة وسورة آل عمران جانبًا منها ومن فعلها في الصف المسلم.

في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ويؤلبون المشركين ويشجعون المنافقين، ويرسمون لهم الطريق ويطلقون الإشاعات ويظللون العقول ويطعنون في القيادة النبوية، ويشككون في الوحي والرسالة ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه؛ ليهاجموه من الخارج والإسلام ناشئ في المدينة، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس، ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم تمثل خطرًا حقيقيًّا على تماسك الصف المسلم وتناسقه.

في هذا الوقت الحرج الخطر الشديد الخطورة كانت هذه الآيات كلها تتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الجماعة المسلمة؛ لتنصف رجلًا يهوديًّا اتهم ظلما بسرقة؛ ولتدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول صلى الله عليه وسلم وجنده في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة.

أي مستوى هذا من النظافة والعدالة

﴿بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥].

انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٨٣، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٤٤٧-٢٤٨.

والتسامي؟! ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى؟ وكل كلام، وكل تعليق، وكل تعقيب يتهاوى دون هذه القمة السامقة التي لا يبلغها البشر وحدهم، بل لا يعرفها البشر وحدهم إلا أن يقادوا بمنهج الله إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء.

إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء تآمرت عليه عصبة؛ لتوقعه في الاتهام -وإن كانت تبرئة بريء أمرًا هائلًا ثقيل الوزن في ميزان الله- إنما كانت أكبر من ذلك، كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيًا كانت الملابسات والأحوال.

وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد، وعلاج عناصر الضعف البشري فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية في كل صورها حتى في صورة العقيدة، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس وإقامة هذا المجتمع الجديد الفريد في تاريخ البشرية على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة المتينة التي لا تدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية، والتي لا تترجرج مع الأهواء والميول والشهوات، ولقد كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث، أو عدم التشديد فيه والتنديد به وكشفه هكذا لجميع الأبصار. بل فضحه بين الناس على هذا النحو العنيف المكشوف.

كان هناك أكثر من سبب لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم وتحكم. ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي التي يرجع إليها هذا المنهج؛ كان هناك سبب واضح عريض أن هذا المتهم «يهودي» من يهود، يهود التي لا تدع سهمًا مسمومًا تملكه إلا أطلقته في حرب الإسلام وأهله، يهود التي يذوق منها المسلمون الأمرين في هذه الحقبة ويشاء الله أن يكون ذلك في كل حقبة، يهود التي لا تعرف حقًا ولا عدلًا ولا نصفة، ولا تقيم اعتبارًا لقيمة واحدة من قيم الأخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق.

وكان هنالك سبب آخر: وهو أن الأمر في الأنصار، الأنصار الذين آووا ونصروا، والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الضغائن، بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي يبعد شبح الشقاق.

وكان هنالك سبب ثالث: هو عدم إعطاء اليهود سهمًا جديدًا يوجهونه إلى الأنصار، وهو أن بعضهم يسرق بعضًا، ثم يتهمون اليهود، وهم لا يدعون هذه الفرصة تفلت؛ للتشهير بها والتغرير، ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله، كان أكبر من كل هذه الاعتبارات الصغيرة، الصغيرة في حساب الإسلام.

كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة؛

لتنهض بتكاليفها في خلافة الأرض وفي قيادة البشرية، وهي لا تقوم بالخلافة في الأرض ولا تنهض بقيادة البشرية حتى يتضح لها منهج فريد متفوق على كل ما تعرف البشرية وحتى يثبت هذا المنهج في حياتها الواقعية، وحتى يمحص كيانها تمحيصا شديدا وتنفض عنه كل خبيئة من ضعف البشر ومن رواسب الجاهلية، وحتى يقام فيها ميزان العدل؛ لتحكم به بين الناس مجردًا من جميع الاعتبارات الأرضية، والمصالح القريبة الظاهرة، والملابسات التي يراها الناس شيئًا كبيرًا لا يقدرون على تجاهله.

واختار الله سبحانه هذا الحادث بذاته، في ميقاته مع يهودي من يهود التي يذوق منها المسلمون الأمرين إذ ذاك في المدينة والتي تؤلب عليهم المشركين، وتؤيد بينهم المنافقين، وترصد كل ما في جعبتها من مكر وتجربة وعلم لهذا الدين، وفي فترة حرجة من حياة المسلمين في المدينة، والعداوات تحيط بهم من كل جانب، ووراء كل هذه العداوات يهود.

اختار الله هذا الحادث في هذا الظرف؛ ليقول فيه سبحانه للجماعة المسلمة ما أراد أن يقول، وليعلمها به ما يريد لها أن تتعلم، ومن ثم لم يكن هناك مجال للباقة، ولا للكياسة، ولا للسياسة، ولا للمهارة في إخفاء ما يحرج، وتغطية ما يسوء، ولم يكن هناك مجال لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية، ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها.

هنا كان الأمر جدًّا خالصًا، لا يحتمل الدهان ولا التمويه وكان هذا الجد هو أمر هذا المنهج الرباني وأصوله، وأمر هذه الأمة التي تعد؛ لتنهض بهذا المنهج وتنشره، وأمر العدل بين الناس، العدل في هذا المستوى الذي لا يرتفع إليه الناس -بل لا يعرفه الناس- إلا بوحي من الله، وعون من الله.

وينظر الإنسان من هذه القمة السامقة على السفوح الهابطة -في جميع الأمم على مدار الزمان- فيراها هنالك، هنالك في السفوح ويرى بين تلك القمة السامقة والسفوح الهابطة صخورًا متردية، هنا وهناك، من الدهاء والمراء، والسياسة، والكياسة، والبراعة، والمهارة، ومصلحة الدولة، ومصلحة الوطن، ومصلحة الجماعة إلى آخر الأسماء والعنوانات فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها الدود.

وينظر الإنسان مرة أخرى فيرى نماذج الأمة المسلمة وحدها صاعدة من السفح إلى القمة تتناثر على مدار التاريخ، وهي تتطلع إلى القمة التي وجهها إليها المنهج الفريد.

أما العفن الذي يسمونه «العدالة» في أمم

الجاهلية الغابرة والحاضرة، فلا يستحق أن نرفع عنه الغطاء في مثل هذا الجو النظيف الكريم»[1].

وفي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته ما يؤكد ذلك، فهي تلزم الحاكم بالعدل وترتب على ذلك عظيم الأجر والثواب، وتنهى عن الظلم وتبين آثاره على الظالمين، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبعةٌ يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمامٌ عدل، وشاب نشأ في عبادة الله.)[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[3].

وقال أيضًا: (إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأقربهم منه مجلسًا: إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة، وأبعدهم منه مجلسًا: إمام جائر)[4].

وأخرج مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا)[5].

من الوقائع في العدل المطلق في الإسلام، والذي لا يفرق بين الناس في إقامة أحكام الشريعة في الحدود ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها (أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا ومن يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتشفع في حدٍ من حدود الله) ثم قام فاختطب ثم قال: (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها)[6].

وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٥١-٧٥٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ٢/ ١٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة ٢/ ٧١٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل ٣/ ١٤٥٨.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء في الإمام العادل: ٤/ ٥٥٩. قال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٣/ ١٩٧، رقم ١١٥٦.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٤٤٩.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، ٨/ ١٦٠، رقم ٦٧٨٧.

﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

ثم جاء الواقع التاريخي شاهدًا صادقًا على ذلك، والأمثلة على هذا كثيرةٌ تعز على الحصر، حسبنا منها الإشارة إلى واقعتين اثنتين:

الأولى: حكم القاضي جُمَيْعُ بن حاضر على جيش المسلمين في الخروج من سمرقند بعد فتحها دون إنذار؛ تحقيقًا لهذا العدل المطلق. فلما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قال أهل سمرقند لسليمان بن أبي السري -عامل عمر على تلك البلاد-: إن قتيبة بن مسلمٍ قد غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهرَ الله العدل والإنصاف. فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكو ظلامتنا، فإن كان لنا حقٌّ أعطيناه، فإن بنا إلى ذلك حاجة، فأذن لهم، فوجهوا منهم قومًا فقدموا على عمر، فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر.

فكتب عمر إلى سليمان بن أبي السري: إن أهل سمرقند قد شكوا إلي ظلمًا أصابهم، وتحاملًا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم. فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي، فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة. قال: فأجلس لهم القاضي جميع بن حاضر الناجي، فحكم بإخراج المسلمين إلى معسكرهم، وأن ينابذوهم بعد ذلك على سواء، فيكون صلحًا جديدًا أو ظفرًا عنوة. فقال أهل سمرقند: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة، فنرضى بما كان ولا نجدد حربًا، فتركوا الأمر على ما كان، ورضوا ولم ينازعوا[1].

(١) انظر: تاريخ الطبري ٦/ ٥٦٨ - ٥٦٩، فتوح البلدان، البلاذري ٣/ ٥١٩، الكامل، ابن الأثير ٤/ ١٦٢ - ١٦٣.
وهذا الحكم الذي أصدره القاضي المسلم ضد جيش المسلمين المنتصر لا تجد له نظيرًا في التاريخ كله، إذ لا نجد جيشًا يخرج من بلد احتله بحكم أصدره أو يصدره قاضٍ في الجيش الذي احتل البلد، بل إنهم يباركون ذلك الاحتلال ويسعون إلى مزيد من السيطرة.هذا الحكم الذي ينطق بالعدالة والسمو والرفعة يعتبره المستشرق القذر فان فلوتن حكمًا ينطوي على خبث !! فيقول: «ولما ارتقى عمر بن عبد العزيز عرش الخلافة شكا إليه أهل سمرقند تلك الحالة الجائرة، فأمر أحد قضاته بالنظر في هذه المسألة، فقضى بينهم بحكم يكاد يخفي ما انطوى عليه من الخبث حتى على أشد الناس نزاهة، وذلك أن يتقابل الفريقان من العرب ومن أهل سمرقند تحت أسوار المدينة، وأن يؤخذوا بالقوة أو أن تعقد معهم محالفة جديدة.ومعنى ذلك أنه إذا انتصر العرب وهو ما كان راجحًا، فإن سكان سمرقند كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم في أسوارهم عاملوا أهل سمرقند معاملة من فتحت بلادهم عُنوة. ومن الجلي أن حكم ذلك القاضي

والثانية: حين رد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه على أهل الذمة في بلاد الشام ما جبي منهم من الجزية والخراج؛ لأنه كان قد اشترط لهم أن يمنعهم ويدافع عنهم، وهو لا يقدر على ذلك لما رأى تجمع الروم، وقال لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم. فلما قال لهم ذلك وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم، قالوا: ردكم الله علينا ونصركم عليهم. فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئًا[1].

ونضع هنا كلمة مضيئة منصفة لشيخ الإسلام ابن تيمية في أثر العدل في قيام الأمم والحضارات وأثر الظلم في سقوطها، قال رحمه الله:

«وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس ذنبٌ أسرع عقوبةً من البغي وقطيعة الرحم)[2]. فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفورًا له مرحومًا في الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»[3].

هذا بينما تقوم الدول الاستعمارية -في القديم والحديث- على الأنانية المفرطة وحب الذات، والظلم والعدوان، ففي

لم يغير تلك الحالة في شيء».وما أظن هذا المستشرق كان يفكر بعقله وهو يكتب هذا الكلام والافتراء.فقد أشار إلى مرجعه في ذلك، وهو الطبري والبلاذري، وقد رأينا أنه ليس في هذين المرجعين أن يتقابل الفريقان تحت أسوار المدينة - كما زعم فلوتن - وإنما فيه خروج الجيش المسلم من المدينة، وهذا يعني أن أهل سمرقند يتحصنون في حصونهم ويمكنهم أن يدافعوا عن أنفسهم، ولعله أصبح واضحًا أن الخبث ينضح من كلام الخبيث فلوتن وليس من حكم القاضي المسلم.

(١) انظر: الخراج، أبو يوسف القاضي، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الأدب، باب النهي عن البغي، ٦/ ٢٧٦، رقم ٤٩٠٢، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٦٤، رقم ٢٥١١.
قال الترمذي: هذا حديث صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٩٤، رقم ٥٧٠٤.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ١٤٦.

السياسة الداخلية كثيرًا ما نجد التفرقة بين البيض والملونين في الحقوق والامتيازات، وبين أولئك الذين ينحدرون من أصول معينة وبين غيرهم من الأجناس في البلاد التي تتشدق بالعدالة والديمقراطية إلى زمن قريب. ومن المؤسف أن هذه السيئات والانحرافات عند أولئك القوم نجدها في واقعنا المعاصر رغم أن الإسلام يجعل العدل -كما رأينا- قيمة من أعلى القيم.

أما في العلاقات الخارجية وفي التعامل الدولي فتقوم تلك الدول الاستعمارية باستغلال الشعوب الضعيفة واستنزاف خيراتها، وإفساد عقائدها وأخلاقها؛ لتسهل السيطرة عليها، شأنها في ذلك شأن الأناني في علاقته مع الناس، وهذا كله مما يثير الصراع ويفشي الظلم، ويسوغ الغدر، ويبرر الواسطة -مهما كانت- بالغاية الأنانية التي تستهدف المصلحة الخاصة مهما كان الضرر الذي تلحقه بالغير. وواقع العلاقات الدولية اليوم شاهد ناطق بذلك، وما قضايا المسلمين في فلسطين وفي العراق وفي أفغانستان والشيشان والفلبين وفي البوسنة وغيرها في بقاع كثيرة من العالم ببعيدة عنا.

ثالثًا: تحرير الإنسان من العبودية لغير الله:

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد، ومن العبودية لهواه أيضًا وهي من العبودية للعباد، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده سبحانه وربوبيته للعالمين إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور ذلك أن الحكم الذي مرد الأمر فيه إلى البشر، ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه للبشر، يجعل بعضهم لبعض أربابا من دون الله إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله، وطرد المغتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب، ويقوم الناس منهم مقام العبيد إن معناه تحطيم مملكة البشر؛ لإقامة مملكة الله في الأرض.

أو بالتعبير القرآني الكريم: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

والدولة الإسلامية لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم هم رجال الدين كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال في ما يعرف باسم الثيوقراطية أو الحكم الإلهي المقدس، ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة.

وقيام الدولة المسلمة في الأرض، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده. وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان؛ لأن المتسلطين على رقاب العباد، المغتصبين لسلطان الله في الأرض، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان. وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال.

إن هذا الإعلان العام لتحرير الإنسان في الأرض من كل سلطان غير سلطان الله، بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين، لم يكن إعلانًا نظريًا فلسفيًا سلبيًا، إنما كان إعلانًا حركيًا واقعيًا إيجابيًا، إعلانًا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك، ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل «الحركة» إلى جانب شكل «البيان» ذلك ليواجه الواقع البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه.

والواقع الإنساني، أمس واليوم وغدًا، يواجه هذا الدين -بوصفه إعلانًا عامًا لتحرير الإنسان في الأرض من كل سلطان غير سلطان الله- بعقبات اعتقادية تصورية، وعقبات مادية واقعية وعقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية، إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد.

وإذا كان «البيان» يواجه العقائد والتصورات، فإن الحركة تواجه العقبات المادية الأخرى، وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية، والعنصرية والطبقية، والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة وهما معًا -البيان والحركة- يواجهان الواقع البشري بجملته، بوسائل مكافئة لكل مكوناته، وهما معًا لا بد منهما

لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض، الإنسان كله في الأرض كلها، وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى، إن هذا الدين ليس إعلانًا لتحرير الإنسان العربي، وليس رسالة خاصة بالعرب، إن موضوعه هو الإنسان نوع الإنسان ومجاله هو الأرض كل الأرض.

إن الله سبحانه ليس ربا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم، إن الله هو رب العالمين، وهذا الدين يريد أن يرد العالمين إلى ربهم، وأن ينتزعهم من العبودية لغيره. والعبودية الكبرى -في نظر الإسلام- هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر وهذه هي العبادة التي يقرر أنها لا تكون إلا لله. وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين. ولقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي صار بها اليهود والنصارى مشركين مخالفين لما أمروا به من عبادة الله وحده.

أخرج الترمذي -بإسناده- عن عدي ابن حاتم رضي الله عنه (أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاها. فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحدث الناس بقدومه. فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقه (أي: عدي) صليب من فضة، وهو (أي: النبي صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: (بلى! إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام. فاتبعوهم. فذلك عبادتهم إياهم)[1].

وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الله سبحانه نص قاطع على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تُخرج من الدين، وأنها هي اتخاذ بعض الناس أربابا لبعض الأمر الذي جاء هذا الدين ليلغيه، ويعلن تحرير الإنسان في الأرض من العبودية لغير الله.

ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في الأرض؛ لإزالة الواقع المخالف لذلك

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، تفسير سورة براءة، ٨ / ٤٩٢-٤٩٤، والطبري في تفسيره ١٤/ ٢١٠.
قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث».
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ٨٦١، رقم ٣٢٩٣.

الإعلان العام بالبيان وبالحركة مجتمعين، وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله -أي: تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه- والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى البيان واعتناق العقيدة بحرية لا يتعرض لها السلطان.

ثم لكي يقيم نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي - بعد إزالة القوة المسيطرة - سواء كانت سياسية بحتة، أو متلبسة بالعنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد، إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته، ولكن الإسلام ليس مجرد عقيدة.

إن الإسلام -كما قلنا- إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد، فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر، وعبودية الإنسان للإنسان، ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحرارًا -بالفعل- في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم، ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم، أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيدا للعباد، وأن يتخذ بعضهم بعضا أربابًا من دون الله. إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده، ثم ليعتنق كل فرد -في ظل هذا النظام العام- ما يعتنقه من عقيدة، وبهذا يكون الدين كله لله. أي: تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله، إن مدلول الدين أشمل من مدلول العقيدة، إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة. وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة، ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام[1] كما تقدم في مقومات الدولة.

رابعًا: إطلاق طاقات الأمة:

إن الدولة الإسلامية -وهي التي تقوم بأعباء الخلافة والعمران والإبداع المادي في الأرض، الذي جعله الإسلام نوعًا من أنواع العبادة لله تعالى، ومظهرًا لتحقيق العبودية له سبحانه- دولة إيجابية فاعلة، ومن وظيفتها إطلاق طاقات الأمة وتحفيزها للعمل والإيجابية المؤثرة في الحياة. وتنبثق هذه الإيجابية الفاعلة من إيجابية العقيدة الإسلامية والإيمان بالله تعالى.

وإن استقرار هذه الحقيقة في ضمير الجماعة المسلمة الأولى هو الذي أنشأ

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٣٤-١٤٣٥.

هذه المجموعة الفريدة الممتازة في تاريخ البشرية كله على الإطلاق، وبدون استثناء. فقد عاشوا هذه الحقيقة. عاشوها حية في نفوسهم. عاشوها ليل نهار، وصباح مساء. عاشوها كما يعيشون حياتهم اليومية الواقعة. عاشوا مع الله ومن ثَمَّ كانوا هذا الذي كانوا من الحساسية والطمأنينة معًا، ومن اليقظة والراحة معًا، ومن التوكل والفاعلية معًا، ومن الخوف والطمع معًا، ومن التواضع والعزة معًا -التواضع لله والعزة بالله-، ومن الخضوع والاستعلاء معًا -الخضوع لله والاستعلاء على أعداء الله-، ومن ثم صنع الله بهم في هذه الأرض ما صنع من الصلاح والعمار، ومن الرفعة والطهارة مما لم يسبق ولم يلحق في تاريخ بني الإنسان.

ولذلك كانت الصورة الأخرى للإيجابية وإطلاقات طاقات الأمة للعمل في كل المجالات والميادين هي إيجابية الإنسان في الكون. وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة في واقع الحياة على وجه خاص.

إن هذا التصور ما يكاد يستقر في الضمير؛ حتى يتحرك ليحقق مدلوله في صورة عملية، وليترجم ذاته في حالة واقعية. والمؤمن بهذا الدين ما يكاد الإيمان يستقر في ضميره حتى يحس أنه قوة فاعلة مؤثرة. فاعلة في ذات نفسه، وفي الكون من حوله.

إن التصور الإسلامي ليس تصورًا سلبيًا يعيش في عالم الضمير قانعًا بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية، أو تصوفية روحانية، إنما هو تصميم لواقع مطلوب إنشاؤه وفق هذا التصميم. وطالما هذا الواقع لم يوجد فلا قيمة لذلك التصميم في ذاته إلا باعتباره حافزًا لا يهدأ لتحقق ذاته.

وحيثما ذكر الإيمان في القرآن أو ذكر المؤمنون ذكر العمل، الذي هو الترجمة الواقعية للإيمان، فليس الأمر مجرد مشاعر، إنما هو مشاعر تفرغ في حركة لإنشاء واقع، وفق التصميم الإسلامي للحياة، أو وفق التصور الإسلامي للحياة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل

عمران: ١٩٥].

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ -٣].

ثم يحس المسلم من وحي تصوره الإسلامي أنه مطالب بأداء شهادة لهذا الدين، لا يستريح ضميره، ولا يطمئن باله، ولا يستشعر أنه أدى حق نعمة الله عليه بالإسلام. وأنه يطمع من ثم في النجاة من عذاب الله في الدنيا والآخرة إلا أن يؤدي هذه الشهادة كاملة، بكل تكاليفها في النفس والجهد والمال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهو يؤدي هذه الشهادة أولًا في ذات نفسه: بأن يطابق بين واقع حياته الشخصية، في كل جزئية من جزئيات نشاطه، وبين مقتضيات التصور الذي يقوم عليه اعتقاده.

وهو يؤديها ثانية في دعوة الآخرين إلى هذا المنهج وبيانه لهم. مسوقًا في هذه الدعوة وهذا البيان بدوافع كثيرة:

أولها: دافع أداء الشهادة لينجو من الله، وليؤدي حق نعمته عليه بهدايته إلى الإسلام.

وثانيها: حب الخير للناس، وهدايتهم إلى هذا الخير الذي هدي هو إليه، والذي لا يحتجنه لنفسه، ولا لأسرته، ولا لعشيرته، ولا لقومه، ولا لجنسه؛ لأنه يتعلم من هذا التصور ذاته أن البشر كلهم إخوة.

وثالثها: شعوره بأن تبعة ضلال الناس -إذا ضلوا- إنما تقع على عاتقه هو، ما لم يبين لهم -بعد ما عرف وتبين- وهي تبعة ثقيلة تنوء بضميره، وتنوء بكاهله، وقد علم أنها تبعة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم- وأنه هو مستخلف فيها عن الرسل، ومسؤول عنها بعدهم.

وهو يؤديها -أخيرًا- بالعمل على تحقيق منهج الله في حياة الناس، وإقامة النظام الذي ينبثق من ذلك التصور، وإقامة حياة الجماعة الإنسانية على أساس هذا النظام. باعتبار أن هذا التصور هو «تصميم» لعالم واقعي، يراد إخراجه وتحقيقه؛ ليتحقق وجود الإسلام في الأرض؛ ولتخلص الألوهية لله، إذ لا وجود للإسلام بدون قيام مجتمع يعيش بهذا النظام، ويعترف لله وحده بالألوهية، فلا يتلقى في منهج حياته الأساسي إلا من الله. ثم ليستحق المسلمون نصر الله وتأييده الذي وعدهم إياه. وشرط له شرطًا واضحًا لا عوج فيه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١]

بهذا كله يستشعر المسلم أن وجوده على الأرض ليس فلتة عابرة، إنما هو قدر مقدور،

مرسوم له طريقه ووجهته وغاية وجوده، وأن وجوده على الأرض يقتضيه حركة وعملًا إيجابيًّا في ذات نفسه. وفي الآخرين من حوله. وفي هذه الأرض التي هو مستخلف فيها، وفي هذا الكون المحسوب حسابه في تصميمه، وأنه لا يبلغ شكر نعمة الله عليه بالوجود، ونعمة الله عليه بالإيمان، ولا يطمع في النجاة من حساب الله وعذابه، إلا بأن يؤدي دوره الإيجابي في خلافة الأرض، وفق شرط الله ومنهجه، وتطبيق هذا المنهج في حياته وفي حياة غيره، والجهاد لدفع الفساد عن هذه الأرض التي هو قيم عليها، والفساد في الأرض إنما ينشأ عن عدم تطبيق منهج الله في عالم الواقع، ودنيا الناس، حياة الجماعات - وأن وزر هذا الفساد -حين يقع- واقع على عاتقه هو، ما لم يؤد الشهادة لله في نفسه وفي غيره، وفي الأرض كلها من حوله.

وتصور المسلم للأمر على هذا النحو، لا جرم يرفع من قيمته في نظر نفسه، كما يرفع من اهتماماته بقدر ما يشعره بضخامة التبعة الملقاة على عاتقه، ويثقل العبء الذي يحمله، ويكدح فيه حتى يلاقي الله ربه، وقد أدى الأمانة، وأدى الشهادة، ووفى بحق النعمة - فيما يملك من الطاقة- وطمع في النجاة من عذاب الله، وزحزح عن النار[1].

و الواقع التاريخي للأمة المسلمة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم شاهد صادق على هذه الإيجابية، وعلى إطلاقات طاقات الأمة الكامنة في أفرادها، حتى صار ذلك واقعًا ملموسًا نشاهده رأي العين، فالذين حملوا الدعوة الأولى و تحركوا بها ونشروها بعد جهد وجهاد وصبر ومصابرة، والذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرهم ويأخذ برأيهم، ويقول لأحدهم: إنما أنت فرد فخذل عنا، والذين يقومون بمهمة في الجهاد و الدفاع والحماية للمسلمين، والذين كانوا أصحاب مشورة عمر رضي الله عنه، والذين قادوا الجيوش في الفتوحات، والذين ارتادوا للبشرية طريق الهداية وطريق العلم والصناعة والاكتشافات الجغرافية مثلًا، والذين حملوا مشاعل الحضارة والعرفان فأناروا طريق البشرية كل هؤلاء وأمثالهم.

إنما هم أمثلة حية وشواهد صادقة على هذه الطاقات التي أطلقها الإسلام، وعلى هذه التربية الراقية التي وضع أسسها وطرائقها فأثمرت ثمراتها التي ننعم بها و تنعم بها البشرية اليوم على الرغم من جحود الجاحدين وإنكار المستكبرين. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

(١) انظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، ص ١٦٩-١٧٠.

خامسًا: إعداد القوة المادية والمعنوية:

من مزايا الدولة الإسلامية أن تقوم بإعداد القوة بكل أنواعها؛ لأن الله تعالى يأمر بإعداد القوة والاستعداد بدرجة قصوى؛ ليكون ذلك الإعداد والاستعداد سببًا لردع الأعداء وإرهابهم قبل وقوع الحرب والقتال. ونظرية الردع هذه مفتاح الاستراتيجية المعاصرة التي وصل إليها الفكر العسكري العالمي بعد معاناة قاسية وطويلة في حروب طاحنة اكتوى العالم بنارها خلال الحربين العالميتين، ثم وجد أخيرًا الوسيلة لمنع وقوع مثل هذه المآسي، وهي استراتيجية الردع[1].

وهي أول نظرية حربية في الإسلام منذ خمسة عشر قرنًا، أرساها القرآن الكريم وأوضح معانيها النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من الأحاديث. وتناولها العلماء بالبحث بأسلوب يتفق مع العصر الذي يعيشون فيه.

وأما الاستعداد والإعداد الذي أشارت إليه الآية الكريمة وأمرت به: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فإنه يشمل جوانب متعددة يتضمن كل ما يمكن أن يساعد على الظفر والنصر في المعركة والتهيؤ لها قبل وقوعها.

إن الإعداد القوي يشمل أنواعًا كثيرة دينية وأدبية وعلمية وخلقية ومادية وإدارية وفنية ومالية.

فأما الإعداد العلمي فهو يشمل الفكرة والمبدأ والعقيدة. والإسلام حريص - رغم حرصه على السلام- على تنشئة فكرة القوة في نفوس المسلمين تنشئة عادلة كريمة، وعلى توجيهها من أول أمرها توجيهًا إسلاميًا نزيها وإنسانيا عالميًا، وجعلها من أسمى العبادات المفروضة لحفظ العقيدة وحرية الحياة وبناء الأمة وإرهاب العدو، لا للعدوان والظلم والإفساد والسيطرة، وجعلها آخر ما يلجأ إليه المسلمون من أدوات التفاهم مع المعتدين. وفي هذا المقام تتجلى عزة الإسلام وروعته وحكمته، حيث جعل الجهاد في سبيل الله تعالى أسمى الأعمال وأفضلها، وجعل المجاهدين في

(١) انظر: العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية، ص ٩٨، الجانب العسكري من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، للواء الركن محمد جمال الدين محفوظ، ص ٥١٨ - ٥١٩ ضمن الجزء الرابع من البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية، قطر، ١٤٠١ هـ «اقتباس النظام العسكري» ص ١١٨-١١٩ وهو يشمل ثلاث بحوث للواء محمود شيت خطاب، واللواء جمال محفوظ، وعبداللطيف زايد.

أعلى الدرجات.

فقال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وأما الإعداد الأدبي فهو يشمل آداب القيادة وآداب الجندية. وفي ذلك جاء الاهتمام بالصفات الخلقية والآداب الضرورية، فيجب على القائد أن يكون عالمًا بكتاب الله، و ملما بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون عارفًا بالحروب ومعداتها، وأن يكون قويًا حائزًا لثقة أتباعه واحترامهم، هادئ الأعصاب، ثابت الجنان، كثير الاختبار لجنوده، سريع الحركة بينهم، عاقلًا وحكيمًا وحازمًا في اتخاذ القرارات، وأن يكون عادلًا ولو مع الأعداء، رحيمًا بجنوده متفقدًا لأحوالهم، وأن يخرج في كل موقف أو معركة بفوائد جليلة لدينه وأمته.

وأما الجنود وهم الآلة الحية المنفذة واليد العاملة و القوة الفاعلة، فإنهم يتصفون -كذلك- بصفات وآداب هي روح المؤمنين وسر حياتهم. ومن أخلاقهم السامية التي لا بد أن يتربوا عليها: الإيمان بالفكرة والإخلاص لها، والاستعداد للتضحية في سبيلها، والوفاء بالوعد، و الصدق، والسمع والطاعة في المعروف، والثبات عند اللقاء، واستشعار الرضا بقضاء الله و التسليم لقدره، وعدم التنازع، والتحرز عن المعاصي، والترفع عن الطمع، والإيمان بأن النصر من عند الله تعالى.

وإن الإدارة أمر خطير، يتوقف على حسن نظامها وتجهيزها التصرف في المواقف؛ لذلك عني الإسلام بالإعداد الإداري للقيادة ولهيئة أركان الحرب ولقلم المخابرات الذي يستطلع ويعرف أخبار العدو ومخططاته؛ لمواجهتها بالأساليب والأدوات المكافئة، وفي كل قسم من هذه الأمور الثلاثة آداب وأحكام لا مجال لتفصيلها، فحسبنا هذه الإشارة الموجزة إليها.

وأما الإعداد الفني: وهو الخطوة العملية الأولى في الإعداد الأدبي باعتبارها حقيقة واقعة في ميدان الجهاد، وهو المظهر الحسي للقوة المعنوية الكامنة في نفوس المجاهدين. وهذا الإعداد قسمان: إعداد عمليٌّ وآخر خلقيٌّ.

وهما يسيران جنبًا إلى جنب، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. فالعملي يتركز في النظافة والنظام والرياضة البدنية والتدريبات العسكرية بأنواعها. والخلقي يتمثل في الرياضة الروحية والعقلية، وفي التعرف

على واجبات الجندية والقيادة والتخلق بها، وتحديد المسؤوليات والتعاون عليها، وتوضيح الصلة بين كلٍ من الجندي والقائد، وأساليب المعاملة بينهما ويتبنيان مبدأ الجزاء وقوانينه.

وأما الإعداد المالي: وذلك لأن الإنفاق هو شطر الجهاد الأول، وبدونه لا قيام للشطر الثاني. و الإنفاق مبدأ من مبادئ الإسلام القويمة التي لا يقبل الإسلام التقصير فيها مع القدرة، والتقصير نكوص وإلقاء بالنفس إلى التهلكة.

وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والواقع التاريخي يثبت لنا حسن تمثل الصحابة رضوان الله عليهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لهذا المبدأ وتطبيقه. والأمثلة في ذلك كثيرة تعز على الحصر، ومن ذلك ما هو معروف من مواقف أبي بكر، و عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وغيرهم -رضي الله عنهم أجمعين- حتى ممن كان في قلةٍ من ذات اليد، فإنهم أيضًا لم يبخلوا بالقليل الذي كان عندهم، وقد سجل الله تعالى لهم مواقفهم الطيبة تلك.

وأما الإعداد المادي: ويشمل الإعداد للرجال والعتاد بكل أنواعه، ففي إعداد القوة والسلاح والفروسية روي عن عتبة بن أبي حكيم قال: ذكرت القوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (ما سبقها سلاحٌ قط إلى خيرٍ)[١].

يعني أنها أقوى آلات الجهاد.

وفي هذا حثٌ للمجاهدين على تعلم الرمي، وفي ذلك جاءت أحاديث وآثار منها حديث عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: (ألا إن القوة الرمي) قالها ثلاثًا[٢].

وروي عنه أيضًا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه الذي يحتسب به، ومنبله، والرامي به)[٣].

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: «علموا أولادكم السباحة والفروسية، ومروهم بالاحتفاء بين الأغراض»[٤].

---

(١) أخرجه الديلمي عن ابن عباس قال: ما مد الناس أيديهم إلى شيء من السلاح إلا وللقوس عليه فضل.انظر: «كنز العمال»: ٤/ ٣٥٥، وأشار السيوطي إلى ضعفه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، ٣/ ١٥٢٢، رقم ١٩١٧.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٥٣٢، رقم ١٧٣٠٠، والترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي، ٥/ ٢٠٥، ١٦٣٧.
قال الترمذي: «حديث حسن».
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٢٥٩، رقم ١٧٣٢..

(٤) أخرجه القراب في فضائل الرمي، رقم

وأما المرابطة بالنفس وبالخيل ونحوها فإنها كذلك من أهم مظاهر القوة والإعداد والاستعداد للجهاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وأما درجة الاستعداد القصوى بالحث على الجهاد والاستنفار الدائم له والتأهب على أقصى درجات التأهب، والاستعداد للحركة والانطلاق نحو الخطر، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يهتف بأهل مكة فيقول: «يا أهل مكة، يا أهل البلدة، ألا التمسوا الأضعاف المضاعفة في الجنود المجندة والجيوش السائرة. ألا وإن لكم العشر ولهم الأضعاف المضاعفة».

وهذه خطبة الاستنفار لتحريض الناس على الجهاد والاستعداد له، وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ثم اقتدى به عمر رضي الله عنه في تحريضه أهل مكة، فحثهم على الجهاد وتحصيل أعلى الدرجات؛ لكي لا يتخلفوا عن الجهاد معتمدين على أنهم جيران بيت الله وسكان حرمه.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «يا أهل المدينة خذوا بحظكم من الجهاد في سبيل الله، ألا ترون إلى إخوانكم من أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق، فوالله ليومٌ يعمله أحدكم في سبيل الله خير له من ألف يوم يعمله في بيته صائمًا قائمًا لا يفطر ولا يفتر»[(١)].

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «خير الناس هو رجلٌ من أهل البادية، صاحب صرمة إبل أو غنم[(٢)]، قدم بإبله أو غنمه إلى مصرٍ من الأمصار فباعها ثم أنفقها في سبيل الله، فكان مسلحة بين المسلمين وبين عدوهم. فذاك خير الناس»[(٣)].

وفي أصول التربية على القوة والتحذير من التنعم والترف، روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «لا تزال هذه الأمة على شرعة من الإسلام حسنة، هم فيها لعدوهم قاهرون وعليه ظاهرون ما لم يصبغوا الشعر ويلبسوا المعصفر ويشاركوا الذين كفروا

١٥ دون قوله: ومروهم بالاحتفاء. وانظر: التعليق الممجد على موطأ محمد ٣/ ٤٢٣، الفروسية، ابن القيم، ص ٩ - ١٠.

(١) المصدر السابق، ص ١٥ - ١٦.
(٢) الصرمة - بالكسر - القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين أو إلى الخمسين والأربعين، أو ما بين العشرة والأربعين. انظر: ترتيب القاموس المحيط ٢/ ٨١٨.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٥/ ٣٣٤.

في صغارهم. فإن فعلوا ذلك كانوا قمنا أن ينتصف منهم عدوهم»[1].

وكتب عمر إلى خليفته بالشام: «انظر من قبلك فمرهم فليتعلوا وليحتفوا وليأتزروا وليرتدوا وليؤدبوا الخيل، ولا يظهر صليب، ولا يجاورنهم الخنازير، ولا يقعدون على مائدة يشرب عليها الخمر، وإياكم وأخلاق الأعاجم»[2] يعني: في التنعم وإظهار التجبر. وفي هذا وذاك بيان النصرة لهذه الأمة ما داموا مشتغلين بالجهاد، فإذا انشغلوا بالدنيا واتبعوا اللذات والشهوات وأعرضوا عن الجهاد يظفر عليهم عدوهم[3].

ولذلك جاء التحذير من الانشغال عن الجهاد والتقاعس عنه بسبب الانشغال بالدنيا ومتاعها؛ إذ إن ذلك سبب في ضعف الأمة أمام أعدائها يطمعهم فيها وينزع هيبتها من صدورهم، فيكون ذلك طريقًا إلى الذلة. وفي هذا روى الإمام محمد عن معبدٍ قال: «إذا زرعت هذه الأمة نزع منهم النصر وقذف في قلوبهم الرعب».

و عن محمد بن كعب قال: قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

أهو التعرب -الإقامة بالبادية وترك الهجرة-؟! قال: لا، ولكنه الزرع[4].

وروي عن ابن عمر موقوفًا: «إذا تبايعتم بالعينة ، واتبعتم أذناب البقر، وكرهتم الجهاد، ذللتم حتى يطمع فيكم عدوكم»[5].

وعنه أيضًا قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[6].

ولا يقتصر الاستعداد للحرب البرية فقط، بل يشمل الحرب البحرية. فقد روي عن مجاهد عن تبيع -وهو ابن امرأة كعب - عن كعبٍ قال: «إذا وضع الرجل رجله في السفينة خرج من خطاياه كيوم ولدته أمه، والمائد فيه كالمتشحط بدمه في سبيل الله، والغريق فيه له مثل أجر شهيدين، والصابر فيه كالملك على رأسه التاج»[7][8].

(١) السير الكبير، الشيباني ١/ ١٣ - ١٤.
(٢) أخرجه عبدالرزاق والبيهقي.انظر: كنز العمال ٤/ ٤٦٧.
(٣) السير الكبير، ص ١٣ - ١٤ و ٥٦ - ٥٧.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ٥٩٦.
(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٣١٧.
(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، ٥/ ٩٩ - ١٠١.
وصححه ابن القطان وضعفه آخرون.وله شواهد يتقوى بها.
انظر: نصب الراية ٤/ ١٦، التلخيص الحبير ٣/ ١٩، الجوهر النقي، التركماني ٥/ ٣١٧.
(٧) أخرجه سعيد بن منصور عن تبيع عن كعب مرفوعًا و موقوفًا، ٢/ ١٥٤و١٥٥.
(٨) انظر: القتال في الإسلام، أحمد نار، ص ٣٠،

أسس العلاقات الدولية في الإسلام

تقوم العلاقات الدولية في الإسلام على مجموعة من القواعد العقدية والأخلاقية والتشريعية، وهي أسس عامة تبنى عليها أحكام هذه العلاقات، وهذا يؤدي إلى تميز هذه الأحكام في الإسلام عن العلاقات الدولية في النظم الوضعية؛ ولذلك نعقد هذا الموضع لبيان هذه الأسس التي تتميز بها، وذلك فيما سيأتي.

المقصود بالأسس: مجموعة الأحكام والقواعد العقدية والتشريعية التي تقوم عليها العلاقات الدولية في الإسلام، وتؤثر فيها. وقد تناول البحث بعض الأسس التشريعية فيما سبق عن مزايا الدولة، مثل تحقيق العدل والوفاء بالعهود والمواثيق؛ ولذلك نكتفي في هذا الموضع بإشارات سريعة إلى أهم الأسس العقدية والأخلاقية في فقرتين.

أولًا: الأسس العقدية:

عني القرآن الكريم كما عنيت السنة النبوية بالعقيدة التي تقوم على أساس الإيمان بالله تعالى ربًا متفردًا بالخلق، وإلهًا متفردًا بالأمر والنهي، فلا عبودية إلا له، وبذلك يتحرر الإنسان من كل عبودية لغير الله، يتحرر وجدانه وعقله حريةً حقيقية. فالدولة الإسلامية والأمة المسلمة لها مثالية لم تنعم بها أي دولة كبرى سبقتها أو جاءت بعدها، وهذه المثالية التي هي دعامة الدولة الإسلامية، هي عقيدة التوحيد[1].

والتوحيد له أيضًا أثر سياسيٌّ وقانونيٌّ، لم يفطن له الكثيرون، فالتوحيد وقاية من طغيان الفرد وظلم الإنسان للإنسان. وهل هناك تحرر من طغيان البشر أروع من الإيمان بأن الله هو خالق الكون، وأن القوة لله جميعًا، وأن السلطة لله وحده، وأن الخير بيده سبحانه وإليه المصير؟! هذا المعنى رد للفرد شعوره بشخصيته وبكرامته، وبأن له حرمةً في نظر القانون، وأنه لا توجد قوة في الأرض تستطيع أن تجرده من حقوقه كإنسان، وإن حاولت فهو مطالب بالدفاع عن تلك الحقوق، وإن مات دونها فهو شهيد[2].

وإذا كانت العقيدة هي الموضوع الرئيس الأساس في السور المكية، فإنها

منهج الإسلام في الحرب والسلام، عثمان ضميرية، ص ٩٠ - ٩٤.

(١) انظر: العبودية، ابن تيمية، ص ١١٠ - ١١٨، العدالة الاجتماعية، سيد قطب، ص ٤٠ - ٥٥، وله أيضًا «مقومات التصور الإسلامي»، ص ٨١.

(٢) انظر: الإسلام والعلاقات الدولية، مصطفى الحفناوي، مجلة المسلمون، ص ٥١ - ٥٢ العدد الثالث، ١٣٧٣ هـ القاهرة، خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، ص ٢٣١ - ٢٣٦.

كذلك موضوع رئيسي في السور المدنية التي تنزلت لتعالج قضايا تشريعية دولية مثل الدعوة إلى السلم، واستنقاذ المستضعفين، والوفاء بالعهد، والعدل والمعاملة بالمثل وغير ذلك من المبادئ والأحكام التي عرضت من خلال هذه العقيدة ومقتضى الإيمان بالله تعالى والإيمان باليوم الآخر، مرتبطةً بصفات الله تعالى من أنه حكيم عليم، سميع بصير، حكم عدل؛ ولذلك نجد هذه الآيات الكريمة وأمثالها:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ومن هنا كانت أحكام العلاقات الدولية - كغيرها من جوانب الفقه الإسلامي - ذات اعتبارين: قضائي وديانى. فالقضائي يحاكم العمل بحسب الظاهر، أما الديانى فإنما تحكم بحسب الحقيقة والواقع. فالأمر أو العمل الواحد قد يختلف حكمه في القضاء عنه في الديانة. ولذلك نجد الفقهاء يميزون بين ما ينفذ من الأحكام ظاهرًا وباطنًا وبين ما ينفذ ظاهرًا؛ تأسيسًا على هذا التفريق[(١)].

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى فيما روته أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: (إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها)[(٢)].

ثانيًا: الأسس الأخلاقية والقيم العليا:

تمتزج العقيدة بالأخلاق، فتهذب النفس وتربي الضمير، فتجعل منه محكمة داخلية في نفس المسلم، ينصف من نفسه قبل أن ينتصف هو من الآخرين، وتحمله على الامتثال والالتزام بالأحكام عن طواعية

(١) انظر: حاشية ابن عابدين ٥/ ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام الخصوم، ٩/ ٦٩، رقم ٧٢٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر، ٣/ ١٣٣٧، رقم ١٧١٣.

واختيار في كل معاملاته على مستوى الأفراد والجماعة والأمة، وفي العلاقات مع الأمم الأخرى[1].

ومن الواضح أن القانون الإسلامي يعلق أهمية غير قليلة على القيمة الأخلاقية. وقد ألمحنا آنفًا إلى بعض الآيات القرآنية الكريمة التي توجب الالتزام بقانون الأخلاق الإسلامية في العلاقات الدولية، تمامًا كما هي ملزمة في العلاقات الفردية.

وقد جاءت السنة النبوية وأعمال الخلفاء الراشدين وسيرتهم في الجهاد والعلاقات الدولية تطبيقًا عمليًا لذلك، ثم بنى الفقهاء كثيرًا من أحكامهم في العلاقات الدولية والجهاد على هذا الأصل العظيم.

ومن ذلك: الحفاظ على الكرامة الإنسانية، وإعلاء مكانة الجوانب الشعورية والنفسية، ووجوب الوفاء بالعهد، والتحرز عن الغدر حتى ولو غدروا بنا، وتحريم المثلة بالأعداء في الجهاد، وتحريم قتل غير المقاتلين، وتحريم استعمال آلاتٍ وأدواتٍ يعم ضررها، وغيرها من المبادئ الأخلاقية التي ستأتي - إن شاء الله تعالى - في مواضعها.

وقد أدرك بعض الكتاب في القانون الدولي- من غير المسلمين- قيمة هذه الخاصية ومكانتها، حيث إن الإسلام بوصفه منهجًا للحياة، فإنه يشدد على أهمية المبادئ الخلقية في العلاقات الدولية، التي دفعت المسلمين لاتخاذ موقفٍ رائع من التسامح نحو غير المسلمين، والتحلي بمبادئ إنسانية، يعكسها لنا مضمون الأحكام التي استنبطوها لحالة الحرب ولسير المعارك مع الأعداء. والواقع التاريخي الإسلامي - وهذا يصدق على البشر أجمعين - يظهر لنا أن أي نظام اجتماعي على الصعيد الدولي، يفقد معناه إذا خلا كليًا من المبادئ الأخلاقية والقيم العليا الفاضلة.

وهذ الارتباط بين الأخلاق والتشريعات أفاض على الأحكام هيبة واحترامًا في عقول المخاطبين بالتشريع، وأورثها سلطانًا على النفوس، كان به الفقه الإسلامي شريعة مدنية ووازعًا أخلاقيًا في وقت معًا؛ لما فيه من قدسية المصدر القرآني الآمر، ومن الزاجر الديني الباطن إلى جانب القضاء الظاهر، فلا يحتاج الإنسان إلى قوة مصلتة عليه دائمًا؛ لتلزمه الخضوع لإيجابه، ولا يجد في الإفلات من سلطان حكمه غنيمة -إن استطاع الإفلات- سواء كان عظيمًا أو ضعيفًا[2].

كما ترتب على هذا أيضًا: أن يكون

(١) انظر: دراسات إسلامية، محمد عبدالله دراز، ص ٦٦ - ٦٨.

(٢) انظر: المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا ١/ ٢١٩-٢٢٠.

لمخالفة الحكم الشرعي جزاء يتحمله المخالف، وهو يشمل الثواب عند الطاعة والعقاب أو الضمان عند المخالفة.

والجزاء قد يكون دنيويًا يتولاه الحاكم، أي: السلطة العامة في الدولة، وقد يكون جزاء أخرويًّا عند الله تعالى يوم القيامة، ولكن للتوبة أثر في سقوط العقاب عند الله تعالى، ولها أثر في سقوط بعض العقوبات في الدنيا[1].

وأما في القوانين الوضعية فلا نجد لذلك مثيلًا، حيث إن القانون الوضعي لا يلتفت إلى الأحكام الأخلاقية، ولا يعاقب على مخالفتها. فإن شراح القانون الدولي يميزون بين قواعد القانون الدولي العام وبين الأخلاق الدولية والمجاملات الدولية، فيجعلون الأولى لها صفة الإلزام بينما الأخيرة ليس لها هذه الصفة، كما أنه لا يترتب على مخالفتها أو تجاهلها تحمل المسؤولية الدولية، ولا تعد مخالفتها مخالفة دولية، وإن كانت قد تتحول إلى قواعد قانونية عندما تتكرر وتتعارف عليها الدول[2].

(١) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٩/ ٤٢٩٥ـ ٤٢٩٦، الأم، الشافعي ٤/ ١٣٣ـ ١٣٤، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٣٠٨ - ٣١١، التشريع الجنائي الإسلامي، عبد القادر عودة ١/ ٣٢٥ - ٣٥٥، العقوبة في الفقه الإسلامي، محمد أبو زهرة ٢٤١ - ٢٥٥.

(٢) انظر: الأصول الجديدة للقانون الدولي، محمد حافظ غانم، ص ٢٨ - ٣٠، القانون الدولي العام وقت السلم، حامد سلطان، ص ١٨ - ١٩، القانون الدولي العام، جنينة، ص١٧ـ١٨.

خصائص العلاقات الدولية في الإسلام

تتميز أحكام العلاقات الدولية في الإسلام بمجموعة من الخصائص التي تفردها عن غيرها من الأنظمة القانونية.

فأحكامها في الإسلام ليست قواعد وضعية يمكن أن تتناول أصولها يد البشر بالتعديل والتبديل كلما عَنَّ لهم ذلك. بل هي أحكام شرعية تكون جزءًا لا يتجزأ من الشريعة السمحاء، التي تنظم كل جوانب الحياة، مستقاة من آيات الله البينات وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فأول مصادرها الكتاب الكريم ثم السنة المطهرة، دون أن نغفل أهمية المصادر الأخرى باعتبارها كلها مصادر مكملة أو تابعة. وعلى هذا يمكن أن نبرز - بإيجاز - أهم الخصائص التي تتميز بها أحكام العلاقات الدولية في الإسلام:

١. مرجعها الوحي.

وهذه الخاصية هي أهم الخصائص، وعنها تنبثق سائر الخصائص، فالإسلام دين رباني، ومنهج إلهي كامل مترابط، ينظم الحياة ويحكم كافة جوانبها. وبما أن العلاقات الدولية جزء من الفقه الإسلامي الذي يقوم على الشريعة كتابًا وسنة فإنه

يقوم على الوحي الإلهي. هذا الوحي الذي نجده في كتاب الله الكريم، وسنة رسوله العظيم، الذي لا ينطق عن الهوى. ففي هذين المصدرين نجد جماع الأحكام الشرعية في كل جوانب الحياة، بما في ذلك أحكام العلاقات الدولية. وكل فقيه مقيد في استنباطه للأحكام بنصوص هذين المصدرين أو الأصلين الأساسيين عندما تسعفه النصوص بذلك، وإلا فهو مقيد باستلهام روح الشريعة ومقاصدها وأصولها.

وينص الله تعالى في كتابه الكريم على أن هذا الدين كله وحي منه سبحانه لهداية البشرية، ورحمة منه لها، وأن وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام هي البلاغ والبيان، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٤].

وتقوم الأدلة القاطعة من القرآن الكريم على بيان هذه الخاصية وتأكيدها وإبرازها، فقد تواردت آيات الكتاب الكريم تؤكد بأن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والإيجاد والملك، فهو إذن المتفرد كذلك بالحكم والأمر والتشريع فقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهذه الخاصية تميز أحكام العلاقات الدولية في الإسلام عن سائر الأنظمة والقوانين الوضعية التي يضعها الناس لأنفسهم في القديم والحديث؛ لذلك لا نجد لها من الهيبة والاحترام ما نجده للتشريع الإلهي الذي يقوم على الوحي المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الوحي الذي تكفل الله تعالى بحفظه.

وهي كذلك ضمانة لتوحيد كلمة الأمة كلها على منهج واحد، ونظام واحد، عندما تلتقي على هذا الوحي بما فيه من موازين لا تضطرب، ولا تتأرجح، ولا تتأثر بالهوى والعصبية والدوافع الذاتية. فالإسلام دينٌ ربانيٌ، ومنهج إلهيٌ كامل مترابط، ينظم الحياة ويحكم كافة جوانبها. وبما أن العلاقات الدولية جزء من الفقه الإسلامي الذي يقوم على مصادر الشريعة الأصلية كتابًا وسنة فإنه بذلك يقوم على الوحي الإلهي. ففي هذين المصدرين نجد جماع الأحكام الشرعية في كل جوانب الحياة، بما

في ذلك أحكام العلاقات الدولية. وهذا يسبغ عليها صفة الكمال ويعطيها الثقة والاحترام، ويضمن لها الالتزام والامتثال[1].

٢. تشمل الفرد والدولة.

إن الشريعة الإسلامية خطاب عام للمكلفين، أفرادًا وجماعاتٍ، وهم محل للتكليف بوصفهم أفرادًا وبوصفهم جماعات.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي كثير من الآيات القرآنية الكريمة يتوجه الخطاب مباشرة إلى الإنسان الفرد كما يتوجه إلى الجماعة والأمة، وهذا أمر واضح في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فالخطاب هنا موجه للفرد، ثم يتوجه إلى الجماعة بمثل قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وينبني على ذلك: أنه إذا أخذنا الخطاب المباشر معيارًا للشخصية القانونية وجب علينا أن نرتب على ذلك نتيجةً حتميةً، وهي أن الإنسان بوصفه إنسانًا هو محل التكليف في الشريعة الإسلامية؛ لأن النصوص الشرعية تخاطبه خطابًا مباشرًا، فتلزمه بالتكليف وتكسبه الحقوق، وتبشره بالثواب وتوقع عليه الجزاء بطريق مباشر. فليست أحكام العلاقات الدولية قاصرة على الدول، بل هي مفتوحة عامة شاملة تقوم أصلًا على الكيان الفردي، سواء كان الفرد منفردًا أو في جماعة أو في تشكيل سياسي باسم دولة.

بينما يثير مركز الفرد في القانون الدولي الوضعي جدلًا كبيرًا، حيث يصر الشراح التقليديون على أن القانون الدولي هو قانون الدول فحسب، ولا يرتبون للفرد حقوقًا أو واجبات دولية بصفة مباشرة، وإنما اعتبروه مجرد محل لهذه القواعد. أما الإسلام فقد اعترف للفرد بالشخصية القانونية الدولية منذ خمسة عشر قرنًا، دون تفريق بين الرجال والنساء ودون تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الإقليم[2].

٣. جزء من الأحكام الإسلامية.

جاء الإسلام ليكون دينًا عالميًا للناس

(١) انظر: أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام الشيباني، عثمان ضميرية ١/ ٢٥٥-٢٦٠.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٢٦٩-٢٧٣، قانون السلام في الإسلام، محمد طلعت الغنيمي، ص ٣١٧ - ٣١٨.

جميعًا؛ لذلك لم يفرق الإسلام في خطاب التكليف بين الفرد والجماعة على اختلاف صورها؛ لأن الخطاب في الإسلام صادر من رب العالمين وموجه إلى بني البشر جميعًا - كما رأينا - وشريعة الإسلام تهدف إلى تنظيم الأفراد والجماعات والشعوب والأمم في منظمة عالمية، متحدة في العقيدة وفي المبادئ والأصول الكلية التي تحكم العلاقات. والشريعة الإسلامية تنتظم كافة العلاقات الإنسانية، فردية كانت أم جماعية، سواء فيما بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع الإسلامي ذاته، أو بين المجتمع الإسلامي بوصفه وحدة قائمة بذاتها وبين المجتمعات الأخرى المختلفة معها في العقيدة في وقت السلم ووقت الحرب على حد سواء.

وإذا أردنا استعمال المصطلحات القانونية الحديثة فإنه ينبني على هذا: أنه يجتمع في الشريعة الإسلامية كل أحكام العلاقات الدولية وكل أحكام القانون الداخلي بفروعه المختلفة، أو بتعبير آخر: إن الشريعة الإسلامية نظام واحد يشمل النظام الدولي والداخلي معًا، وينتظمهما في وحدة قانونية أو في نظام واحد. فالقانون الدولي والقانون الداخلي هما - في الشريعة الإسلامية - فرعان لنظام واحد، دون أن يكون لأحدهما الصدارة على الآخر من حيث القوة القانونية، فكلاهما يتساوى مع الآخر؛ لأن طبيعة أحكامهما واحدة، ولأن مصدر كلٍ منهما واحد، وهدف كل منهما واحد؛ والشريعة ليست نظامًا قانونيًا داخليًا فحسب أدمجت فيه الأحكام والقواعد الدولية، وليست نظامًا دوليًا فحسب أدمجت فيه الأحكام والقواعد القانونية الداخلية. وإنما هي نظام وشريعة عالمية تنتظم العلاقات الداخلية والدولية معًا، ويسري الفرع الداخلي منها في النطاق الإقليمي للدولة الإسلامية العالمية، بينما تسري أحكام الفرع الدولي منها على العلاقات ما بين الدولة الإسلامية، وبين غيرها من الدول الأخرى.

ويذهب الدكتور حسني جابر إلى أن الشريعة الإسلامية قد قررت قاعدة أن القانون الدولي له الأولوية على القانون الداخلي عند التعارض، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

فمناصرة الأقليات الإسلامية في الدول غير الإسلامية إذا تعرضوا لاضطهاد ديني هو واجب، بناء على تشريع داخلي إسلامي يندرج في عموميات الجهاد، إلا أن ذلك يمتنع إذا كان بين الدولة الإسلامية وبين إحدى تلك الدول معاهدة لا تمكن المسلمين من تلك المناصرة كمعاهدة عدم

اعتداء أو نحوها[1].

إلا أننا نلاحظ -حتى في هذه الحالة- أن ذلك لا يعني أولوية في قانون ثنائي، وإنما هو سريان لحكم شرعي في العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم في الفرع الدولي من القانون أو الفقه الإسلامي[2].

٤. مبنية على الالتزام الذاتي.

يقوم النظام الإسلامي على الالتزام الذاتي بقواعد العلاقات الدولية؛ لأنه جزء من قانونه الداخلي، أي: ولو بدون معاهدة أو عرف دولي، وبصرف النظر عن قوة الدولة الإسلامية وسيادتها وقدرتها على الدول الأخرى، فالقانون الدولي الإسلامي يستند إلى إرادة الدولة الإسلامية - شأنه في ذلك شأن أي قانون إسلامي آخر في البلاد، وحتى الالتزامات المفروضة بمقتضى معاهدات ثنائية أو متعددة الأطراف دولية فإن لها نفس الأساس. فهو التزام ذاتي سببه التكليف الشرعي باعتبار أن أحكام الشريعة الإسلامية خطاب ملزم للمسلم في ذاته، فهو يطبق أحكام وقواعد السير في مجالها، كما تطبق أي قاعدة شرعية أخرى في مجالها. وكلها على وجه الالتزام وعلى وجه حكمها الشرعي من الوجوب أو الندب أو الإباحة أو الكراهة أو التحريم. فإنه - على سبيل المثال - إذا طلب العدو الأمان أو الذمة، فيجب إجابته إلى ذلك فرضًا بنص القرآن الكريم على ذلك: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

وفي الحديث الصحيح عن سليمان بن بريدة عن أبيه في الدعوة إلى الإسلام قبل القتال (فإن هم أبوا الإسلام فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم)[3].

وكذلك اعتبار عقد الأمان ملزمًا لنا وحدنا دون من يعقد معهم من المشركين، وكذلك لا ننتهز فرصة ضعف للإجهاز عليه، ولا يجوز للمسلمين قتل الصبي أو المرأة في الحرب -إلا في أحوال خاصة كما سيأتي- ولا يجوز الغدر بهم حتى ولو غدروا.

وهذا الالتزام الخاص منشؤه أننا مخاطبون بأحكام الشريعة دونهم، وهم ليسوا مخاطبين بفروعها ولا يلتزمونها[4]،

(١) انظر: القانون الدولي، حسني جابر، ص ٣٩.

(٢) انظر: أصول العلاقات الدولية، عثمان ضميرية ١/ ٢٧٣-٢٨١، أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية، حامد سلطان، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم، ٣/ ١٣٥٧-١٣٥٨.

(٤) أجمع العلماء على أن الكفار مخاطبون بالإيمان وأصول الدين، واختلفوا في تكليفهم بالفروع على مذاهب، فمنهم من قال: هم مخاطبون بها، ومنهم من نفى ذلك، ومنهم من فرق بين الأوامر والنواهي فقال: يخاطب بالنواهي دون الأوامر. انظر بالتفصيل هذا الخلاف وما يترتب عليه في

فالتزامنا بها التزام أصيل وناشئ عن خضوعنا لله تعالى في كل أعمالنا. وقد كانت الدولة الإسلامية في أوج قوتها وعنفوان سيادتها تلزم نفسها بأدق آداب الإسلام في القتال والمعاهدات، ولو لم يلتزمها من تحاربهم، إلا إذا ساغ في الشرع رد العدوان بمثله[1].

وأساس الإلزام بهذه الأحكام -وسائر الأحكام- أنها أوامر الله سبحانه وتعالى لعباده، فهو وحده الحاكم الآمر الواجب الطاعة، وهو مقتضى الإيمان بالله وتوحيده وعبادته.

أما في القانون الدولي، فقد نشأت مدارس متعددة لتفسير طبيعة القانون الدولي ومصادره وأساس الإلزام بقواعده. وبالمقارنة نلمح شبهًا بين نظرية القانون الطبيعي والأصول التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية، نتيجة التأثير الإسلامي في أصحاب هذا الاتجاه الذين درسوا الثقافة الإسلامية وعلوم الإسلام، ونشؤوا في بيئة إسلامية الثقافة، وإن كانوا يخفون مصادر تأثرهم؛ خشية الإرهاب الديني الذي كانت تعيشه أوربا في تلك العصور[2].

٥. مقيدة بالشرع.

تتقيد جميع الأحكام بالمشروعية الإسلامية، التي تتضمن التضامن في تنفيذ ما أمر الله به وفي منع ما نهى عنه[3].

فقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

ومن هنا تتميز أحكام العلاقات الدولية والتنظيم الدولي الإسلامي عن القانون الدولي الحديث، حيث تقوم في الإسلام على هذا التضامن، فإن وحدة الأمة الإسلامية التي تسكن دار الإسلام إنما تظهر فيها أحكام الشريعة الإسلامية، وهذه الوحدة المتماسكة لا يجوز أن يقوم بينها وبين غيرها علاقة الحرب إلا لأجل إعلاء كلمة الله تعالى، فلا يجوز أن تشن على سائر البلاد حربًا بقصد الاغتناء الاقتصادي أو فتح الأسواق أو تأمين المواصلات أو غير ذلك، وإنما الهدف الوحيد الذي يسوغ الحرب هو الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الرجل يقاتل حمية

«أصول السرخسي»: ١/ ٧٣ - ٧٨، «البرهان في أصول الفقه» لإمام الحرمين الجويني: ١/ ١٠٧ - ١١٠، «شرح تنقيح الفصول» للقرافي، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(١) انظر: مصنفة النظم الإسلامية، ص ٢٨٢- ٣٢١، المشروعية في النظام الإسلامي، مصطفى كمال وصفي، ص ٥١ - ٥٢.

(٢) انظر: قواعد العلاقات الدولية، جعفر عبد السلام، ص ٩١، الشخصية الدولية، محمد كامل ياقوت، ص ٢٧١ - ٢٧٣.

(٣) انظر: المشروعية الإسلامية العليا، مصطفى كمال وصفي، ص ١٩.

ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[1].

موضوعات ذات صلة:

الاقتصاد، الحرب، السلم، السياسة، العلاقات الاجتماعية

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله العليا، ٤/ ٢٠، رقم ٢٨١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ٣/ ١٥١٢ - ١٥١٣، رقم ١٩٠٤.

العلم

عناصر الموضوع

مفهوم العلم	٢٩٠
العلم في الاستعمال القرآني	٢٩١
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٢
العلم بالخلق في القرآن	٢٩٤
العلم صفة الله تعالى	٢٩٦
العلم وصف للمخلوقات	٣٠٤
الثناء على أهل العلم	٣١٢
أنواع العلوم في القرآن	٣١٥
آداب المعلم والمتعلم	٣١٧
أثر العلم في الرقي الحضاري	٣١٩
موسى والخضر عليهما السلام	٣٢١

مفهوم العلم

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (علم) تدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره[١]، فهو من العلامة والأثر[٢]، والعلم بالشيء: المعرفة، يقال: علم الشيء يعلمه علمًا، أي: عرفه، ورجلٌ علامةٌ، أي: كثير العلم، والتاء للمبالغة، واستعلمه الخبر فأعلمه إياه[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الجرجاني العلم بأنه: «الاعتقاد الجازم المطابق للواقع»[٤].

وعرفه المناوي بأنه: «الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع؛ إذ هو صفةٌ توجب تمييزًا لا يحتمل النقيض، أو هو حصول صورة الشيء في العقل، والأول أخص»[٥].

وقيل: «إدراك الشيء على ما هو به»[٦].

وقولهم: «الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع» يقتضي انطباعًا في العقل بما يكون له أثرٌ وعلامة، كما أن دلالة أنه «صفةٌ توجب تمييزًا لا يحتمل النقيض» لبيان أن كل علمٍ ينضبط بدقةٍ عالية يتميز من خلالها عن غيره من العلوم والفنون، و«حصول صورة الشيء في العقل» تتطور إلى اعتقاد قلبي ثابت جازم، يطابق ذلك الواقع الذي عليه ذلك الأمر، والله تعالى أعلم.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٠٩.
(٢) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٨٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤١٧، مختار الصحاح، الرازي ص٢١٧.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص١٥٥.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٤٦.
(٦) الحدود الأنيقة، السنيكي ص٦٦.

العلم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (علم) في القرآن الكريم (٧٧٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦٠	﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠]
الفعل المضارع	٣٣٤	﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة:٧٧]
فعل الأمر	٣١	﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة:٩٨]
اسم الفاعل	٢٠	﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام:٧٣]
اسم المفعول	١٤	﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر:٢١]
اسم تفضيل	٤٩	﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠]
مصدر	١٠٥	﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤]
صيغة مبالغة		﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩]
		﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة:١٠٩]

وجاء العلم في القرآن الكريم بمعناه اللغوي، والذي هو نقيض الجهل[٢].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحجرات: ١٦] يعني: لا يغيب عن علمه شيء في السموات ولا في الأرض.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١١٠، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤١٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ المعرفة:

المعرفة لغةً:

العلم، يقال: عرفه بيته، أي: أعلمه بمكانه، وعرفه به، وسمه[١].

المعرفة اصطلاحًا:

إدراك الشيء على ما هو به، وهي بذلك ترادف العلم، وقيل: إنها تخالف العلم من كونها تستدعي سبق جهلٍ بخلاف العلم[٢].

الصلة بين المعرفة والعلم:

العلم والمعرفة مترادفان في سياق اللفظ والدلالة، إلا أن فعل العلم يتعدى إلى مفعولين، أما فعل المعرفة فيتعدى إلى مفعولٍ واحدٍ، كذلك فإنه يجوز أن نقول عن الله تعالى بأنه عالم، ولا يجوز أن نقول عنه عارف؛ إذ إن لفظة عارف -مما يختص بذات الله- لم ترد في القرآن ولا في السنة.

٢ الفقه:

الفقه لغةً:

«العلم بالشيء، والفهم له، والفطنة، وغلب على علم الدين؛ لشرفه»[٣].

الفقه اصطلاحًا:

هو الإصابة، والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم، وهو علمٌ مستنبطٌ بالرأي والاجتهاد، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل[٤].

الصلة بين الفقه والعلم:

الفقه أخص من العلم؛ إذ إن العلم دالٌ على كل ما له أثرٌ وعلامةٌ فيدرك على ما هو عليه، أما الفقه فيختص بما يستنبط بالرأي والاجتهاد، وما يحتاج إلى التأمل والنظر[٥].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٣٦.
(٢) انظر: الحدود الأنيقة، السنيكي ص٦٦.
(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٢٥٠.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٦٨.
(٥) انظر: المصدر السابق.

٣ اليقين:

اليقين لغة:

الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع[١].

اليقين اصطلاحًا:

من صفة العلم، فوق المعرفة والدراية وأخواتهما، يقال: علم يقينٍ، ولا يقال: معرفة يقينٍ، وهو سكون القلب إلى خبر المخبر ووثوقه به مع ثبات الحكم[٢].

وقيل: «العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكًا فيه؛ ولذلك لا يطلق على علمه تعالى»[٣].

الصلة بين اليقين والعلم:

اليقين والعلم مترادفان في الدلالة، غير أنهما يفترقان في سياق اللفظ، فاليقين يقتضي شكًا مسبقًا تم إزالته، ومن ثم إدراكه على ما هو به، وأما العلم فلا يقتضي سبق شكٍ؛ إذ إنه يدل فقط على الإحاطة بالأمر على ما هو به.

الجهل:

الجهل لغة:

ضد العلم، وتجاهل: أظهر الجهل وهو ليس بجاهل، واستجهله: عده جاهلًا واستخفه، والجهالة: أن تفعل فعلًا بغير علم، وجهلت الشيء: إذا لم تعرفه، والجاهل: ضد العاقل، والجهل: ضد الخبرة، والجاهلية: زمن الفترة، وهي حال العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين، وما كانوا عليه من المفاخرة بالأنساب، والكبر والتجبر وغير ذلك من الأخلاق المذمومة[٤].

الجهل اصطلاحًا:

«أن تعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه»[٥].

الصلة بين الجهل والعلم:

العلم والجهل مصطلحان متضادان من حيث المعنى والدلالة.

---

(١) انظر: التعريفات ص ٢٥٩، الكليات ص ٩٧٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٩٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٩٩.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٤٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٢٩، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٣٢٢.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٠٩، العين، الفراهيدي ٣/ ٣٩٠.

العلم بالخلق في القرآن

جاء العلم مقترنًا بالخلق في عدة مواضع في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾[الرحمن: ٣-٤].

حيث بين سبحانه ما صنعه المليك المقتدر من النعم لعباده؛ رحمة بهم، وإن هذه الآيات هي صدر سورة الرحمن التي هي خطاب لبني آدم أو لمشركي العرب، وهي تخاطب الثقلين من إنس وجن، فأفاد:

١. أنه علم القرآن وأحكام الشرائع؛ لهداية الخلق، وإتمام سعادتهم في معاشهم ومعادهم، ويلاحظ في هذه الآيات أن الله تعالى أنعم على الإنسان بتعلم القرآن.

٢. وأنه خلق الإنسان على أحسن تقويم، وكمله بالعقل والمعرفة.

٣. وأنه علمه النطق وإفهام غيره، ولا يتم هذا إلا بنفس وعقل؛ لما في ذلك من إشارة إلى أن الإنسان بعد أن يهتدي إلى الحق قبل خلقه، ويولد على تلك الفطرة، فإن أعظم غايةٍ بعدها هي أن يتواصل مع جميع جنسه من البشر؛ لدعوتهم إلى ربهم، وتذكيرهم بهذا الخالق، ومن ثم بيان الأحكام الشرعية[1].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٣-٨].

فقد بينت الآيات السابقة نعم الله تعالى في خلق الإنسان، ومراحل ذلك الخلق، ومن ثم خلق الأنعام وبيان بعض فوائدها، وتبين هذه الآية الكريمة ثلاثة أصناف من الدواب وهي: الخيل والبغال والحمير، حيث خلقت لعلة وهي الركوب؛ ليدفع الإنسان بواسطتها عن نفسه ضرر الإعياء والمشقة، وهناك علةٌ أخرى وهي التزين، الحاصل في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات.

وفي هذه الآية دلالة على أن هذه الأصناف الثلاثة مخلوقةٌ لمصلحة الركوب في الغالب، ويؤيد هذا إفراد الأنواع الثلاثة بالذكر، وإخراجها عن الأنعام[2].

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٧/ ١٠٥، نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ١٤٣.

(٢) انظر: فتح البيان، صديق حسن خان ٧/ ٢١١.

ثم تأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أن الله تعالى يخلق ما لا يحيط على هذا الإنسان به من المخلوقات التي تصلح لعلة الركوب غير ما قد عدده[1].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن الله تعالى قادر على أن يخلق كل ما لا يتصور عقل الإنسان في زمانه أو غير زمانه، مما يصلح للركوب وغيره، وأنه يتوجب على المخلوق أن يستيقن أن الله تعالى أكبر وأقدر من تصور العقل القاصر.

وقال تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾[المعارج: ٣٨-٣٩].

وقد بينت الآية السابقة الطمع الفارغ الذي اتصف به أولئك الكفار، حيث طمعوا في دخولهم جنة النعيم، دون إيمان منهم بالله تعالى، حيث يقول الله تعالى في هذه الآية -بأسلوب الردع لهم- إنا خلقناهم مما يعلمون مراحله التي يعرفونها[2].

فالكفار -كما كل البشر- خلقوا من نطفة مذرة؛ فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم؟! ويقولون لندخلن الجنة قبل المؤمنين، وفي هذه الآية دلالةٌ على أن الإنسان يجب أن يعرف قدر نفسه، فلا يفتري على الله الكذب وهو يعلم حقيقة خلقه؛ إذ إنه لا يساوي شيئًا إذا فقد ولاية الله تعالى له.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[يس: ٨١].

فقد بينت الآيات السابقة عظيم قدرة الله تعالى في إحياء العظام وهي رميم، فكما أنشأها أول مرة فإنه يحييها مرة أخرى، فهو القادر على كل شيءٍ، وبين دليلًا محسوسًا، وهو أنه يجعل من الشجر الأخضر نارًا يوقد الناس منه، وتبين هذه الآية بأسلوب الاستفهام الذي يفيد التقرير فيقول الله تعالى: أوليس الذي خلق هذا الكون الكبير العجيب من سماوات وأرضين مما هو أعظم من خلق الإنسان وإعادته، بقادرٍ على أن يخلق مثل البشر بإحياء عظامهم، ومن ثم دب الروح فيهم؟ وتأتي الإجابة؛ لتقرير حقيقة.

وذلك بما جاء في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ وهو كثير الخلق كثير العلم بما يصلح للخلق، ثم تأتي الآية التي بعدها كنتيجة لما سلف، من تقرير واسع قدرته، وإثبات عظيم سلطانه، بقوله: إنما أمر الله سبحانه إذا أراد خلق شيء أن يقول له: كن فيكون، وتختم السورة بتنزيه الله تعالى الذي بيده مقاليد كل شيء، وإليه المرجع والمصير[3].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٧٩.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٣٤.
(٣) انظر: تيسير التفسير، القطان ٣/ ١٤٥.

﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾[يس: ٣٦].

فقد بينت الآيات السابقة أن الله تعالى من آياته إحياء الأرض بإمطارها، ومن ثم إخراج الثمرات منها، وتفجير العيون بالماء؛ ليأكل الناس من ثمرات النخيل والأعناب، وما تنتجه البساتين من فاكهة، وثمار، وما عملته أيديهم، كل هذا لأجل الشكر لله تعالى وحده، وتأتي هذه الآية؛ لتنزه الله تعالى الذي خلق الأصناف والأنواع -باختلاف الألوان والطعوم والأحجام- والذي خلق أزواجًا من البشر ذكورًا وإناثًا، طوالًا وقصارًا، سمانًا وعجافًا، سودًا وبيضًا، حمرًا وصفرًا، والذي خلق مما لا يعلمه البشر من مخلوقاته جل شأنه في البر والبحر والأرض والسماء وغير ذلك[1].

وفي هذه الآية دلالة على أن خلق الله تعالى غير محصورٍ في أي عقل من العقول، ولا تصور من التصورات؛ إذ إن البشر مهما وصلوا من علم فإنهم لن يتعرفوا على أقل القليل من علم الله تعالى وخلقه.

العلم صفة الله تعالى

إن الله تعالى وصف نفسه في كتابه العزيز بأكثر من صفة دالة على علمه، منها: «عالم، والعليم، والعلام، وأعلم، وعلمناه، ويعلم، وغير ذلك»، كما أن علم الله تعالى لا يشابهه علم، ولا يتخيله عقل؛ إذ إنه مطلق محيط، ينفرد بكنهه رب العزة والجبروت، ومن ثم فإن المتدبر بآيات القرآن الكريم التي بينت علم الله تعالى المطلق ينبغي أن يسلم أمره إلى ربه، لا سيما بعد إذعانه بما لا طاقة له بإدراكه، مما هو مسندٌ إلى ربه من صفات العلم، وغير ذلك.

وسيمثل هذا المبحث توضيحًا لكل ما سبق من خلال النقاط الآتية:

أولًا: إسناد العلم إلى الله تعالى:

وردت آيات عديدة تبين كثيرًا من صفاته جل شأنه مما اختصت بالعلم، ومن هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٥-٢٦].

وقد بينت الآية السابقة أن الله تعالى أمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين -المطالبين بالعذاب استخفافًا وعنادًا- ما أدري أقريبٌ ما وعدكم ربكم

(١) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب ص٥٣٨.

به من العذاب أم يجعل له ربي غايةً وأجلًا بعيدًا يعلمه هو ولا يعلمه غيره، وتأتي هذه الآية؛ لتقرر حقيقةً ألا وهي أن الله تعالى عالم الغيب وحده، ولا يطلع على غيبه أحدًا من عباده إلا من رضي ربنا سبحانه وتعالى من رسول أن يبلغ عنه، فإنه يطلعه مع الاحتياط الكافي؛ حتى لا يتسرب الخبر الغيبي إلى الناس[1].

وفي هذه الآية دلالةٌ على أن الله تعالى من أخص خصوصياته علم الغيب؛ إذ إن ذلك العلم لا يمكن أن يصل إليه مخلوق من المخلوقات مهما علت رتبته عند الله تعالى، إلا إذا ارتضى من رسول فإن من خلفه رصدًا من الملائكة، ثم يطلعه ضمن الوحي الذي يوحى إليه.

وهذا خلاف لما يمكن أن يقال من بعض الصوفية: إن بعض الصالحين ممن يدعي أنه له مدد الولاية من الرسول صلى الله عليه وسلم يعطيه الله تعالى الكرامة لأن يطلع على الغيب، ولا شك أن هذا باطل؛ إذ إن ظاهر الآية لا يحتمل ما ذهب إليه أصحاب هذا القول، ولا بوجهٍ من وجوه هذا المعنى، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٢].

حيث إن هذه الآيات تأتي في سياق بيان قدرة الله تعالى المطلقة، فيقول الله عز وجل فيها: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فقالت الملائكة: يا ربنا أتجعل في هذه الأرض من يرتكب الفساد بأنواعه، ويقتل بسفك الدماء، والحال أننا نصلي لك، ونبرئك من السوء، ونعظمك ونعمل لك كل خيرٍ أردتنا له، ونطهر أنفسنا لك، وعندها جاءت الآية القرآنية؛ لترد على قول الملائكة بأن الله تعالى قطع كلامهم، بأنه علم أنه سينشأ من ذلك الخليفة أنبياء ورسل، وقوم صالحون، وأنه لا يقدر إلا الخير، وهو الذي لربما يغفل عنه المخلوقات، ولربما الملائكة فهو الأعلم بخلقه مما لا تعلمه الملائكة.

ثم يعلمهم الله سبحانه تعالى درسًا عمليًا في الإذعان له جل جلاله ولأمره، فعلم هذا الخليفة الذي هو آدم عليه السلام أسماء الخلق كلهم دون أن تعلم الملائكة، ثم حشر الله تعالى الدواب كلها، والسباع والطير وما ذرأ في الأرض.

ثم قال للملائكة: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٤٥٤.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1].

وفي هذه الآية دلالة على أن الإنسان المسلم ينبغي أن يترجم إسلامه باستسلامه لربه تعالى ولعلمه المطلق، فكلما ازداد العبد ايمانًا وتقوىً وطاعةً كلما ازداد إذعانًا وتسليمًا، فمهما علم فإنه ما أوتي من العلم إلا القليل، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[الإسراء: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ۞ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٠-٨١].

إن هذه الآية تأتي في سياق ذكر قصة النبي داود عليه السلام فتذكر أن الله تعالى علم ذلك النبي صناعة دروع الحديد؛ لتحفظ أنفسهم في المعارك عند قتال عدوهم، ثم تأتي الفاصلة القرآنية؛ لتسأل سؤالًا غرضه الأمر، فيقول تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ أي: اشكروا رب هذه النعم ووحدوه، وتأتي الآية الثانية؛ لتبين أن الله تعالى أعطى لنبيه سليمان عليه السلام نعمة تسخير الريح، حيث كانت تشتد إذا أراد، وتلين إذا أراد، فتسير بأمر الله تعالى إلى الأرض التي بارك فيها بالماء والشجر والقدسية، وتأتي فاصلة الآية؛ لتبين أن الله تعالى كان بكل شيء من أمر سليمان عليه السلام وغيره عالمًا[2].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[المائدة: ١٠٩].

فقد بينت الآيات الكريمة أن الله تعالى يجمع الرسل يوم القيامة على صعيدٍ واحدٍ، فيسألهم ماذا أجبتم من قبل الناس الذين أرسلتم إليهم، فتكون إجابتهم بكل أدبٍ ونسبٍ للعلم لله تعالى وحده: لا علم لنا إلا علمٌ أنت أعلم به منا[3].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن الله تعالى سيسأل الجميع رسلًا كانوا أو مرسلًا إليهم، قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾[الأعراف: ٦، ٧].

ثانيًا: علم الله المطلق المحيط:

وقد برز ذلك واضحًا في آياتٍ، منها:

قال تعالى: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾[الجن: ٢٨].

وقد بينت الآيات السابقة أنه تعالى

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٢٣٢.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٣٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٣٥، ١٢٣٦.

لا يظهر على غيبه أحدًا، وأنه يختص من ارتضى من الرسل، فيعطيهم من الغيبيات ما يكفيهم لهداية الناس، وإبلاغ شرع الله تعالى، وتأتي هذه الآية؛ لتبين علة إعطاء الرسل هذه المساحة من علم الغيب، وهي إبلاغ رسالات ربهم، فإذا بلغوا علم الله تعالى ذلك، وإن الله تعالى قد أحاط بما لدى هؤلاء الرسل من علم ما عندهم، وعلم عدد كل شيء فلم يخف عليه شيء[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

أي: قل يا محمد لمن سألك عن الساعة متى هي: لا يعلم غيبها إلا الله تعالى.

وقد أثر عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «من زعم أنه يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾ الآية»[2].

وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

عن البراء رضي الله عنه قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائمًا، فحضر الإفطار فنام قبل أن يطعم لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائمًا، فلما حضر الإفطار أتى امرأته، فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، وجاءته امرأته، فلما رأته قالت: خيبةٌ لك، فأصبح صائمًا، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ ففرحوا بها فرحًا شديدًا[3].

وأما قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ فإن ذلك يبين أن الله تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه، وما يجول في النفس، وما يجتهد الإنسان أن يفعله بسبب أو بآخر فإن الله تعالى يعلمه، وقد كان من الصحابة رضي الله عنهم من يختان نفسه بجماع امراته في الليل، أو في المطعم والمشرب في الوقت الذي كان

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص١١٤٣.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥٤٥٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول الله جل ذكره: (أحل لكم ليلة الصيام)، ٣/ ٢٨، رقم ١٩١٥، أسباب النزول، الواحدي ص٥٤.

حرامًا ذلك عليهم[1].

ثالثًا: المجالات التي ينفرد بها العلم الإلهي:

لقد بين القرآن الكريم كثيرًا من المجالات التي ينفرد بها العلم الإلهي، ولعل أوضح هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾[لقمان: ٣٤].

فإن هذه الغيبيات الخمسة اختص الله تعالى بعلمها، فلا يعلم أحدٌ غير الله تعالى عن علم الساعة ومتى تقوم، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٨٧].

فقيام الساعة مختصٌ بعلمه، وموقوف على إرادته[2].

ثم تبين هذه الآية اختصاصه جل جلاله بعلم نزول الغيث وتقديره؛ إذ إن الله سبحانه له طلاقة القدرة التي لا تخضع لقوانين الكون، بل يخضعها الله تعالى لتقديره وأمره، فقد تكون كل الظروف مهيأة لنزول الغيث، ولا يقدر الله تعالى ذلك، فلم تلبث أن تكون السماء صافية، وقد يحدث عكس ذلك، وعلى هذا فإن المؤمن يجب أن يوقن من قلبه ويعترف بلسانه ويعمل بجوارحه بمقتضى التسليم لعلم الله تعالى وتقديره.

وتبين الآية الكريمة الغيبية الثالثة، والتي اختصها الله تعالى بعلمه، وهي علمه بما في الأرحام، وهذا لا يعني أن يعلم الله تعالى كون ما في الأرحام ذكرًا أو أنثى فحسب؛ إذ إن علم الأرحام أعم من ذلك، فلا يعلم أحدٌ من الخلق هل الجنين شقيٌّ أو سعيد؟ وما هو عمله؟ ومتى رزقه؟ ومتى أجله؟ وهل سيولد حيًا أو ميتًا؟ حتى معرفة الجنين فقد يقدر الله تعالى خلاف ما يتوقعه أهل العلم، من خلال الأجهزة المتطورة، وما شابه.

ويبين الله تعالى الغيبية الرابعة التي لربما لا ينتبه لها بعض الناس، وهي علم كسب الرزق، وكيف سيكون؟ فالله تعالى قد أقسم في القرآن الكريم أعظم قسم في حق الرزق، فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات: ٢٢- ٢٣].

وعلى هذا فإن المسلم يجب أن يستيقن من قضية رزقه، وأنه آتٍ لا محالة -وفق ما يقدره الله- غير أن الكمية ومدى كفايتها، ومن أين ستكون؟ وهل ستجعله شقيًا أم سعيدًا؟ وهل سيكون في ذلك حرجٌ أم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٩٤.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٤٩.

لا؟ وغير ذلك من علم الرزق إنما هو من اختصاص الذات الإلهية.

ثم تبين الآية الغيبية الخامسة وهو علم موعد موت الإنسان، وبأي أرض سيموت؟ وهل سيموت على الطاعة أم المعصية؟ وهل سيخلف بعده عملًا صالحًا أم سيئًا؟ وهل سيترك لأولاده ما يتقوون به أم لا؟ وغير ذلك من القضايا المتعلقة بالموت، فإنها كلها من اختصاص علم الله تعالى وتقديره.

ثم تأتي الفاصلة القرآنية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ لتقرر أن الله تعالى متصفٌ بالعلم الذي لا يحده وصفٌ، وبالخبرة التي لا يحدها قدرٌ[1].

وقد وردت آية كريمة ذات صلة بموضوع اختصاص الذات الإلهية بعلم ما في النفس، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥].

عن عبد الله رضي الله عنه، قال: (إني لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرثٍ بالمدينة، وهو متكئٌ على عسيبٍ، فمر بنا ناسٌ من اليهود، فقالوا: سلوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون، فأتاه نفرٌ منهم فقالوا له: يا أبا القاسم ما تقول في الروح؟ فسكت، ثم قام فأمسك بيده على جبهته، فعرفت أنه ينزل عليه. فأنزل الله عليه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

والمعنى: ويسألك يا محمد صلى الله عليه وسلم قومك -بإيعازٍ من اليهود- عن حقيقة الروح، قل لهم: الروح من علم ربي، الذي استأثر به، وما أوتيتم من العلم إلا شيئًا قليلًا في جانب علم الله تعالى[3].

رابعًا: الآثار المترتبة على علم الله المطلق:

يترتب على علم الله تعالى المطلق آثارٌ، منها:

٤. معرفة حسن تقدير الله تعالى لما ينفع العباد.

وقد برز ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٥٩، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٣٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قول الله تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)، ١/ ٣٧، رقم ١٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح ٤/ ٢١٥٢، رقم ٢٧٩٤.
وانظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٩٩.

(٣) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص٤٢٢.

[الأنفال: ٢٢- ٢٣].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن شر الناس عند الله تعالى من يصم أذنيه عن الهدى، ويخرس لسانه التكلم بخير، ويكون ليس متعقلًا للإيمان وحقيقته، وقد وردت تلك الآية في بني عبد الدار، وغيرهم من الكفار، الذين لم يسلموا بعد، ثم تأتي الآتية؛ لتبين أنه جل جلاله لو علم فيهم صدقًا لأعطاهم الإيمان وأكرمهم به، ولو أكرمهم بالإسلام لأعرضوا عن الإيمان، بما سبق في علم الله تعالى فيهم[(١)].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن الدعوة تقتضي الإعراض والانشغال عمن طبع الله تعالى على قلبه؛ فلا يصغي ولا يتكلم بالحق، فهو لا يسمع آيات الله تعالى سماع تفهم وتبصر، وإن سمعها فإنه يبحث في سماعه هذا عن ثغرةٍ ينال من خلالها من الإسلام.

٥. الحذر من عقاب الله تعالى.

وقد برز ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَٰعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٣٥].

فبعد أن بين الله تعالى في رأس هذه الآية رفع الحرج عن التعريض بخطبة النساء اللاتي في عدة وفاة أزواجهن دون تصريحٍ لهن، وذلك بالنهي عن المواعدة سرًا، وتحريم عقدة النكاح قبل انقضاء العدة، ثم عقب ذلك بما جاء في قوله تعالى: «واعلموا» علمًا يزول الشك من خلاله أن الله تعالى يعلم ما في أنفسكم فاحذروا أن تتعدوا ما حد لكم؛ فإنه مطلع على ما تسرون وما تعلنون، ثم بينت فاصلة الآية الكريمة أنه لولا مغفرته وحلمه لعنتم غاية العنت؛ فإنه سبحانه مطلعٌ عليكم، يعلم ما في قلوبكم، ويعلم ما تعملون[(٢)].

وفي هذه الآية دليل أن الإنسان المؤمن يجب أن يستشعر علم الله تعالى المطلق؛ فيحذر من عقابه وغضبه، فلا يكتم في نفسه إلا كل خير، وفق شرع الله تعالى فضلًا عن القول والعمل.

٦. الاعتقاد الجازم أن الشدائد المقدرة من الله تعالى خيرٌ للمسلمين.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٧٧.

(٢) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص١٥٠.

[البقرة: ٢١٦].

حيث يبين الله تعالى في هذه الآية فرضية الجهاد، فيأمر -بأسلوب الإلزام الذي يلحق تاركه إثم- المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله تعالى من الكفار، والحال أن هذا الفرض مكروه في الطباع النفسية، لكن عسى أن يكرهوا ما في الجهاد من مشقة، وهو خيرٌ كله، فالمؤمنون بالتزامهم الجهاد يغلبون ويغنمون ويؤجرون، ومن مات فهو شهيدٌ، وعسى أن يحبوا الدعة وترك القتال وهو شرٌ كله، في كون المؤمنين يغلبون ويذلون ويذهب أمرهم[(١)].

وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أن العاقل هو من يستسلم لعلم الله تعالى وتقديره؛ إذ إن علم الإنسان قاصرٌ مهما بلغ من تطور، وفي الآية دليلٌ على أن المسلم ينبغي أن يستشعر بالعجز والتسليم لعلمه تعالى من جهة، وأن يلتزم أمره جل جلاله مهما ظهرت في قشوره الهلكة؛ لأن باطن ذلك الرحمة والخير، ثم إن من رضي بعلم الله تعالى وبما قسمه له فهو من الراضين بقضاء الله تعالى، الذين يستحقون أن يبلغوا المنازل العليا في الجنة.

٧. تحصين المجتمع المسلم من الفاحشة.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور: ١٩].

وهذه الآية عامة لكل من يحب أن تذيع وتشتهر الفاحشة والرذيلة في الذين آمنوا وإن كان ظاهر الآية يتحدث عن أم المؤمنين عائشة وصفوان وآل أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين، حينما قال بعض الناس من المؤمنين لبعضهم: أما بلغك كذا وكذا من خبر عائشة، فإن هذه الآية تبين أن هذا له عذاب حد القذف في الدنيا، وعذابٌ في الآخرة وهو النار، وهذا خاصٌ بمن أحب إشاعة الفاحشة، ثم تأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أن الله تعالى يعلم براءة عائشة رضي الله عنها، وأنه خلقها طاهرة طيبة؛ حتى إن لم يعلم الجميع فإن الله تعالى وحده هو الذي يعلم[(٢)].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٨-٣٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥١٢.

العلم وصف للمخلوقات

إن الله تعالى قد وصف المخلوقات من الملائكة والرسل والمؤمنين والجن والشياطين بأنهم يعلمون؛ فمنهم يَعْلَمُ ويُعَلِّمُ سواء أكان هذا العلم خيرًا كما عند الملائكة والنبيين والمؤمنين، أو كان هذا العلم شرًا كعلم الشياطين، أو كان متوقفًا على ضابطٍ يحله أو يحرمه، كعلم الجن، ثم جاء في وصف المخلوقات من الحيوانات والطيور أنهم يسبحون ولا يعلم أحدٌ تسبيحهم إلا الله تعالى.

وسيتم الحديث عنها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الملائكة:

وقد برز ذلك واضحًا في آيات، منها:

قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة: ٣٢].

فإن هذه الآية الكريمة تبين عظيم تأدب الملائكة مع ربهم جل شأنه؛ حيث ينزهون الله تعالى عن أن يعلم الغيب أحدٌ سواه، وهذا جوابٌ عن قوله: ﴿أَنْبِئُونِي﴾ في الآية السابقة، فقد أجابوا بأنهم لا يعلمون إلا بما أعلمهم به، ولا يتعاطون بما لا علم لهم به كما يفعله بعض الجهال[1].

وفي الآية دليلٌ على أنه يتوجب على من يسأل عن علمٍ لا يعلمه أن يقول: الله أعلم ولا أدري، اقتداءً بالملائكة[2]، كما أنه يستفاد بأن الملائكة لما علمت عجزها عن الإنباء بأسماء الخلق كلهم من دواب، وطيور وغيرهم، عندها بدأت الملائكة جوابها لله تعالى بتنزيهه عن كل نقص، فهو الذي لا يعجزه شيء، ومن ثم فإن أي علمٍ أو قدرةٍ أو تقديرٍ وصلت الملائكة إليه، إنما هو مما علمهم الله تعالى وقدرهم له، ومما أعطاهم الله تعالى به من وجوه الاستطاعة.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤].

وفي هذه الآية إخبارٌ عن الملائكة، بأنه ما منهم ملكٌ إلا له مكانٌ في السماوات مخصوص، يعبد الله تعالى فيه، وعلى هذا فإن المعلوم هنا يعني المخصوص؛ حيث يضاف إلى استعمالات العلم في القرآن الكريم هذا المعنى[3].

وفي الآية دليلٌ على أن الملائكة لهم تخصصات في العمل، ومقامات في المرتبة، وهم جنود الله تعالى العظماء الذين هم أكثر الخلق -فيما نعلم- عبادةً لله تعالى، والتزامًا بأوامره، وانضباطًا بما يوضعون به من مكان، أو مهام.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٨٥.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٥٥.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار: ١٢].

وفي هذه الآية تعجب من حال المكذبين بيوم الدين، فكيف يكذبون بيوم الدين، وهو يوم الحساب والجزاء؟! وملائكة الله تعالى موكلون بكم، يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا عليها يوم القيامة[1].

وفي هذه الآيات دلالةٌ على وجوب الاستشعار بجنود الله تعالى مما يحمل ذلك المسلم على مزيد من الخوف من الله تعالى، فإذا كان على يقينٍ بأنه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨]، فعندها يتقرب إلى الله تعالى، ويرتدع عن فعل المنكرات فضلًا عن القول بها، فلا يتفاجأ ذلك المسلم الذي يراقب الله تعالى في كل حركة من حركاته، وفي كل سكنة من سكناته حينما ينصب الميزان، ويوضع الكتاب، فيقول أولئك الموحدون الذين استحقوا دخول الجنة برحمةٍ من الله تعالى حال ندائهم لأصحاب النار: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[الأعراف: ٤٤].

أما المجرمون فإن المفاجأة تتملكهم حين ينصب الميزان، ويوضع الكتاب؛ إذ إنهم كانوا لا يستشعرون جنود الله تعالى الملائكة الحافظين، وعندها يقول هؤلاء المجرمون: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٩].

ولا شك أن هذا الكتاب قد أحصى كل شيء بتقدير الله تعالى وعلمه؛ إذ إن الله تعالى سخر جنودًا لذلك، هم الملائكة الذين هم موكلون بذلك.

ثانيًا: الرسل:

وقد ورد في القرآن الكريم نماذج من الأنبياء والمرسلين الذين آتاهم الله تعالى علمًا يكفيهم لتبليغ رسالة الله تعالى، ومن هؤلاء الأنبياء الذين ورد ذكرهم ما يأتي:

٨. أبو البشر آدم صلى الله عليه وسلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة: ٣١].

حيث تفصل هذه الآية الكريمة ما أجمله قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

في الآية السابقة حين أجاب الملائكة عن حكمة خلق آدم؛ فتبين هذه الآية أن الله تعالى علمه الأسماء كلها مما فيه معرفة للخلق من حيوان ودواب وكافة المخلوقات

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٧٧.

على الأرض، ثم عرضهم على الملائكة؛ ليظهر بذلك كمال فضل آدم عليه السلام، وقصور الملائكة عنه في العلم الذي أعطاه الله لهم، فيتأكد ذلك الجواب الإجمالي في الآية السابقة بهذا الجواب التفصيلي في هذه الآية[1].

٩. أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾[مريم: ٤٣].

أي: إني قد آتاني الله تعالى من العلم -أي: من اليقين والمعرفة بالله وما يكون بعد الموت- ما لم يؤتك به فاقبل مني نصيحتي؛ حتى تبصر هدي الطريق المستوي، الذي لا تضل فيه إن لزمت، وهو الدين الذي لا اعوجاج فيه[2].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن الداعية إذا كان عالما في مسائل الدين ينبغي أن ينبه الناس بهذه المسائل، ويحذرهم من مغبة الحيد عنها، واتباع الشيطان.

١٠. لوط عليه السلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾[الأنبياء: ٧٤].

حيث تأتي هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن الأنبياء عليهم السلام؛ فبينت أن الله تعالى آتى نبيه لوطًا عليه السلام القول الفصل والسداد في الحكم، والعلم النافع، ونجاه من القرية التي أهلها يعملون الأعمال الشاذة الخبيثة، وجاءت فاصلة الآية؛ لتبين أن قوم لوطٍ عليه السلام كانوا أهل سوء وخروج عن حد الإنسانية؛ فهم بهيميون في إتيانهم الذكران، وهي فاحشةٌ ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين[3].

١١. يوسف عليه السلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٢٢].

حيث إن النبي يوسف صلى الله عليه وسلم لما بلغ منتهى قوته وشبابه أعطاه الله تعالى فهمًا في الحكم وعلمًا نافعًا، وإن مثل هذا الجزاء الذي جوزي به النبي يوسف عليه السلام إنما هو لإحسانه، وفي هذا تسليةٌ للنبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ فالله تعالى معه، يؤيده وينصره، ويعطيه من مدعمات انتشار الدعوة، والحفاظ عليها، ما يكفيه للاستمرار في ذلك[4].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٥١١- ٥١٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٠٣، ٢٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١١١.

(٣) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص٤٨١.

(٤) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ص٢٣٧.

١٢. داود عليه السلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[الأنبياء: ٨٠].

حيث ألهمه الله تعالى بصناعة اللبوس الذي تعنيه العرب بأنه السلاح كله، درعًا كان، أو سيفًا، أو رمحًا، أو غير ذلك[(١)].

١٣. موسى عليه السلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

فإن هذه الآية الكريمة تبين أنه لما اشتد بدن النبي موسى صلى الله عليه وسلم وأعطاه الله تعالى من القوة، وتناهي مرحلة التكوين الشبابية، وتم خلقه، واستحكم في سنين معدودة -ذكر بعضهم أنها أربعون عامًا[(٢)]- عندها آتاه الله تعالى حكمًا وعلمًا، أي: عقلًا وفهمًا في الدين، فعلم وحكم قبل أن يبعث نبيًّا.

وتأتي الفاصل القرآنية؛ لتبين العلة من هذه المكرمة الربانية لموسى صلى الله عليه وسلم، وهي أن هذه الكرامة جزاء المحسنين الذين أحسنوا وأطاعوا[(٣)].

١٤. محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد قال الله تعالى في حقه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وردت هذه الآية في معرض الحديث القرآني عن قصة بني أبيرق، حيث تبين عظيم فضله سبحانه وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ثم رحمته به؛ إذ لولا فضل الله تعالى عليه ورحمته لهمت فرقةٌ من هؤلاء الذين يختانون أنفسهم، وإن كانوا أهل إيمان، أن يزلوك عن طريق الحق؛ وذلك لتلبسهم أمر الخائن على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وشهادتهم أن هذا الخائن ادعي عليه ظلمًا، بل وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعذره، وأن يقوم بمعذرته في أصحابه.

لكن الله تعالى يبين أن هؤلاء المختانين يأخذون أنفسهم في غير ما أباح الله تعالى لهم الأخذ بها فيه من سبله.

ثم تبين الآية على وجه التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء الناس لا يضرون الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى مثبته ومسدده في أموره، ومبينٌ له أمر من سعوا في إضلاله عن الحق في أمره، وأمرهم، ففاضح من ارتكب جريمة السرقة،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٨٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٩/ ٥٣٥.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٥٩.

وفاضحٌ من ستر هذا السارق.

وتبين الآية أيضًا أن الله تعالى أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم القرآن والسنة، بما في ذلك من حلالٍ وحرام، وأمرٍ ونهيٍ وأحكام، ووعدٍ ووعيد، وأن الله تعالى علم نبيه ما لم يكن يعلم من خبر الأولين والآخرين، وما كان وما هو كائنٌ، فكل ذلك من فضل الله تعالى العظيم عليه[1].

ثالثًا: المؤمنون:

وقد ورد ذلك في آياتٍ، منها:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٧].

إن هذه الآية خبرٌ عن قوم بني إسرائيل -كما بينت الآية السابقة- نالتهم ذلةٌ وغلبة عدوٍ، فطلبوا الإذن في الجهاد، وأن يؤمروا به، فلما أمروا نكص أكثرهم على أعقابهم، وصبر الأقل، وهذا كله مثالٌ للمؤمنين؛ ليحذروا المكروه منه، ويقتدوا الحسن[2]، وتأتي هذه الآية؛ لتفصل ما جرى بين نبيهم صلى الله عليه وسلم وبين قوم بني إسرائيل من الأقوال والأفعال، إثر الإشارة الإجمالية إلى مصير حالهم، حيث قال لهم -بعد ما أوحي إليه- إن الله تعالى أوحى إلي أن يكون طالوت ملكًا عليكم، وتستأنف الآية؛ لتبين حقيقةً ألا وهي أنهم ردوا بقولهم: من أين يكون وكيف يكون ذلك؟

والحال أنه لا يستحق التملك علينا؛ لوجود من هو أحق منه؛ ولعدم ما يتوقف عليه الملك من المال، فلما استبعدوا تملكه بسقوط نسبه، وبفقره، رد نبيهم عليهم بأن ذلك اصطفاء من الله تعالى، وزيادةٌ منه جل جلاله لطالوت بوفور العلم؛ ليتمكن من معرفة أمور السياسة، وزيادة في جسامة البدن؛ ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء، ومكابدة الحروب، وقد خصه الله تعالى في العلم والجسم بحظٍ وافر[3].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن وفرة العلم منحةٌ من الله تعالى يمنحها من يشاء من عباده، ومن ثم فإن تقدير العلماء ليس مربوطًا بنسب ولا حسب.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٠٠.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٤٨٨.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٤٠.

عمران: ١٣٥].

فإن هذه الآية تأتي في سياق الحديث عن صفات المتقين، فتبين أن من صفاتهم إذا فعلوا فعلةً قبيحةً صغيرةً كانت أم كبيرةً ذكروا الله تعالى المنتقم الغيور خائفين من بطشه وانتقامه، فاستغفروا منه تعالى على الفور راجين منه العفو والستر لذنوبهم، التي صدرت عنهم، ثم إنهم بعد ذلك يعلمون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله تعالى، مما يجعلهم غير مصرين على الذنب، أو العودة إليه، ويعلمون قبح وخامة الإصرار.

وفي هذه الآية دليلٌ على أنه من التحصينات التي يتحصن بها المتقون من الذنوب هو علمهم بربهم من خلال فهم الدين.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

حيث بينت هذه الآية الكريمة أن المحكم هو بمعنى الإحكام والإتقان والمنع عما لا ينبغي، بمعنى أنه ما لا يحتمل التأويل ولا النسخ ولا التخصيص ولا التدرج، ويكون معناه واضحًا وضوحًا قويًا، وأما المتشابه فقد اختلف فيه العلماء، وليس هذا هو مقام عرض الخلاف، بل يكفي القول: إن المتشابه هو ما استأثر الله تعالى بعلمه، فيكون المعنى: فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه طلبًا منهم لفتنة الناس في دينهم، والتلبيس عليهم، وإفساد ذات بينهم، ولتأويله على الوجه الذي يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسدة[1].

ثم يستأنف الرب تعالى مقررًا لحقيقةٍ، ألا وهي أنه ما يعلم المراد من المتشابه إلا الله تعالى، ثم تستأنف الآية مقررةً لحقيقةٍ أخرى، وهي أن الراسخين في العلم يقولون آمنا بالمتشابه رغم أننا لا نعلم كنهه؛ إذ إنه كلٌّ من المحكم والمتشابه من عند ربنا، وفي هذه الآية دليلٌ على أن كل من يتصف بالعقل، وأنه صاحب لبٍ ينبغي أن يسلم بالمتشابه، ولا يقحم عقله بفهم مراده.

رابعًا: الجن:

وقد برز ذلك واضحًا في آيات، منها:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

تأتي هذه الآية الكريمة في سياق ذكر قصة النبي سليمان صلى الله عليه وسلم،

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٦١.

فتبين أنه لما جاء قضاء الله تعالى على هذا النبي صلى الله عليه وسلم بالموت، عندها لم يستدل الجن على موته إلا بعد أن أكلت الأرضة عصاه، فلما سقط على الأرض علمت الجن -بعد التباس الأمر عليهم- أنهم لو كانوا يعلمون الغيب -كما زعموا- لعلموا موته ساعة مجيئه، ولم يلبثوا بعده حولًا مسخرين إلى أن خر على الأرض، أي: ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[الصافات: ١٥٨].

حيث بين الله تعالى أن من مفتريات الكافرين على الله تعالى أن جعلوا بينه سبحانه وبين العالم الخفي غير المنظور لهم -وهو عالم الملائكة والجن- نسبًا وقرابةً، حيث نسبوا إليه سبحانه الولد، والولد لا يكون إلا من زواج، ولا يكون زواجٌ إلا بين متناسبين متقاربين في الصورة والطبيعة، وهذا العالم الخفي يعلم أنه محضرٌ بين يدي الله تعالى، ومحاسبٌ على ما كان منه، فهم خلق الله، ولم يخرجوا على خلقه، فسبحان الله عما يصفه به هؤلاء المشركون[2].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن الجِنَّة من ملائكةٍ وجنٍ يعلمون علم اليقين أنهم سيحضرون بين يدي الله.

خامسًا: الشياطين:

وقد برز ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٠٢].

إن هذه الآية تأتي في سياق الحديث عن الكافرين من أهل الكتاب، وافتراءاتهم على الله تعالى فتبين أنهم نبذوا كتاب الله تعالى، واتبعوا ما تروي الشياطين من أمر النبي سليمان صلى الله عليه وسلم، وتبين هذه الآية الكريمة أن هاروت وماروت لا يعلمان من أحدٍ حتى يقولا له: إنما نحن مفتونون بأن نعلم السحر فلا تكفر.

وفي هذه الآية دليلٌ على أن العلم نوعان، منه ما هو حقٌّ، ومنه ما هو باطلٌ،

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٤.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ١٠٣٨.

فتعليم السحر باطلٌ باتفاق[1]، كما أن هاروت وماروت لا يضرون أحدًا إلا بإذن وأمر رباني، فمن شاء الله سلطهم عليه، ومن شاء منعهم منه، ويبين الله تعالى بلام قد الموطئة للقسم أنهم أي: الملكين بأن من اختار هذه الفتنة وهذا السحر ما له في الآخرة من نصيب، ثم تأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أنه بئس ذلك الاختيار منهم؛ إذ إن ذلك يجلب لهم غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه الشديد، وهذا كله لو كانوا علماء أتقياء[2].

سادسًا: الحيوانات والطيور:

إن القرآن الكريم قد بين أن الحيوانات والطيور وكل الخلق يسبحون بحمد ربهم طوعًا وكرهًا، كلٌّ بالطريقة التي تتناسب مع طبيعة خلقه، والله تعالى هو وحده الذي يعلم هذه الصلاة وهذا التسبيح منهم.

ومن الآيات التي بينت هذا الأمر ما يأتي: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[النور: ٤١].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن الله تعالى ينزهه عن الشرك كل من في السماوات والأرض من المخلوقات، وخاصةً الطير الباسطات أجنحتها في الهواء باصطفاف؛ لأنها تكون بين السماء والأرض إذا طارت، فلعل السامع يغلب على ظنه إذا ذكرت السماوات والأرض أن الطير خارجة عن جملة من فيهن، وما يدل على هذا قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: من الجملة التي ذكرها الله تعالى من السموات والأرض ومن فيهن، والطير باسطات أجنحتها في الهواء، قد علم الله صلاتهم وتسبيحهم[3].

وإن هاتين الآيتين وغيرهما التي بينت أن جميع المخلوقات تنزه الله تعالى عن الشرك، إنما ذكرت الخلق المحصور في السماوات السبع والأرضين السبع، والطير الباسطات أجنحتها في الهواء، وهذا يدلل على أن القرآن الكريم يعطي الدلائل المحسوسة للناس أن هذه المخلوقات التي هي بين أيديكم ترونها، ولكن لا تفهمون طريقة تسبيحها لله تعالى، وفي هذه دليل عجزٍ لهم، فليس كل ما يرونه يستطيعون أن يصلوا إلى كل جوانب معرفته، فهم المخلوقون الذين علمهم الله تعالى؛ إذ لا معنى لذكر مخلوقاتٍ لا يستطيعون تصور شيء منها؛ ولذلك بينت آية الإسراء أن كل شيء يسبح بحمد ربه ولكن لا يفقه أحدٌ تسبيحهم، دون ذكر أنواع كل شيء من الخلق مما لا يستشعره الخلق، وهذا من

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٧٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ١٦٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩٩.

بديع نظم القرآن الكريم[1]، كما أن الطيور والحيوانات تعلم كل التسابيح وتفقهها بما يرضي بذلك رب العالمين.

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٢٤٠.

الثناء على أهل العلم

لقد تعددت الأساليب القرآنية في الثناء على أهل العلم، فمنها: ارتضاء شهاداتهم على أعظم العقائد، وحصر كمال الصفات الطيبة فيهم.

وفيما يلي بيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: ارتضاء شهاداتهم على أعظم عقائد الدين.

إن أكثر الناس حبًا لله تعالى، ومن ثم عبادةً له هم أهل العلم؛ إذ إنهم الأعلم به جل جلاله، ومن ثم فإن الرسول صلى الله عليه وسلم بين أنهم ورثة الأنبياء، فقال: (إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر)[2].

وعلى هذا فإن الله تعالى قد أكرم أهل العلم بارتضائه جل جلاله لهم أن يشهدوا بتوحيده تعالى، حيث قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[آل عمران:

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ٤/ ٣٤٥، رقم ٢٦٨٢، وابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ١/ ٨١، رقم ٢٢٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٧٩، رقم ٦٢٩٧.

١٨].

فإن هذه الآية تبين أن أول من شهد أنه تعالى لا إله إلا هو، إنما هو الله جل جلاله، وشهدت الملائكة بعد ذلك، وأولو العلم بعدهم[(١)].

فقد شهد أهل العلم بعد الملائكة وبعد الله تعالى بالوحدانية؛ لبيان أنه جل جلاله قائمٌ بتدبير الخلق بالعدل؛ إذ إن من أراد أن يكون عدلًا في حكمه فإنه يشهد بوحدانية الله تعالى، فكل الآيات المتلوة والكونية تدلل على وحدانيته فضلًا عن أن الإنسان بفطرته يوحد الله تعالى، والعلم يحفظ الفطرة السليمة من التآكل أو الخلط بثقافات شيطانية، ومن ثم فإن الله تعالى وصف أولي الألباب بأنهم من عرف الحق بفطرته، وتفكر في خلقه بعقله وقلبه ومشاعره.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وأما ما جاء في سبب نزول هذه الآية فهو من كون أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لقد نزلت علي الليلة آيةٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها) وقرأ الآية السابقة[(٢)].

وقد دلت آيةٌ أخرى أن الله تعالى ارتضى شهادة أهل العلم على القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[الرعد: ٤٣].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن من الذين علموا الكتاب مؤمنو أهل الكتابين أمثال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهم، حيث كانت شهادتهم قاطعة لقول أهل الخصوم[(٣)].

ثانيًا: حصر كمال الصفات الطيبة فيهم:

وقد برز ذلك واضحًا في عدة آيات.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

فقد بينت الآيات السابقة أن الله تعالى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٦٧.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب التوبة، ذكر البيان بأن المرء عليه إذا تخلى لزوم البكاء على ما ارتكب من الحوبات وإن كان بائنًا عنها مجدًا في إتيان ضدها ٢/ ٣٨٦، رقم ٦٢٠.
قال الألباني: وهذا إسنادٌ جيد، رجاله كلهم ثقات غير يحيى بن زكريا، قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عنه، قال: ليس به بأس، هو صالح الحديث.
انظر: السلسلة الصحيحة ١/ ١٤٧.

(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص٥٧٦.

ضرب مثلًا على الذين لا يعلمون، وهو مثل العنكبوت التي اتخذت بيتًا لا يغني عنها شيئًا لا في حرٍ، ولا قرٍ، ولا مطرٍ، وتبين هذه الآية الكريمة أن جميع الأمثال التي ضربت من العنكبوت أو ما قبله مما حدث مع أقوام النبيين من الكافرين إنما كل ذلك يضربه للناس تنبيهًا لهم، وتقريبًا لما بعد من أفعالهم، ولكن النتيجة هي أنه لا يفهمها ولا يتعقل الأمر الذي ضربناه لأجله إلا العالمون بالله تعالى، الراسخون في العلم، المتدبرون، المتفكرون لما يتلى عليهم[(١)].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن الإنسان لا يفقه أمثال الله تعالى إلا إذا علم، ولا ينجو العالم من غضب الله تعالى إلا إذا عمل بما علم، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[الروم: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

فكما بينت الآية السابقة اختلاف الجبال في ألوانها فإن هذه الآيات تبين أن من الناس والدواب والأنعام مختلفًا ألوانه كذلك، ثم قال في هذه الآية بأسلوب الحصر: إنما يكون أكثر الناس خشيةً لله تعالى هم العلماء، الذين يعلمون أن الله تعالى على كل شيء قدير، فإن أعلم الناس بالله هم أشدهم له خشية، وإلا فما فائدة العلم اللساني، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية[(٢)].

ولهذا «قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالم، وقال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل، وعن ابن مسعود: كفى بخشية الله تعالى علمًا وبالاغترار جهلًا، وقيل لسعد بن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة؟ قال: أتقاهم لربه عز وجل، وعن مجاهد قال: إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل، وعن علي رضي الله عنه قال: إن الفقيه حق الفقه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله تعالى، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، إنه لا خير في عبادةٍ لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها»[(٣)].

وحاصل ذلك القول، فإنه كلما كانت المعرفة لله تعالى أتم، والعلم به جل جلاله أكمل كلما كانت الخشية له عز وجل أعظم وأكثر[(٤)].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٨٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣٤٣، ٣٤٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٤٤.

أنواع العلوم في القرآن

تعددت العلوم في القرآن الكريم بما يصعب حصره في هذا المبحث، غير أنه يمكن حصر أصوله في نوعين: علوم وهبية، وعلوم مكتسبة.

وفيما يلي بيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: العلوم الوهبية:

ويقصد بالعلوم الوهبية تلك العلوم التي وهبها الله تعالى لخلقه سواء أكانت عن فطرة فطر الله تعالى بها من يشاء من عباده، أو عن وحي أوحى الله تعالى به لمن يشاء من عباده، فأما ما كان عن فطرة فمنه ما ورد واضحًا في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فقد بينت الآية السابقة أن عبادة الظالمين للأوثان كانت اتباعًا لأهوائهم بغير علم أتاهم من الله، فما دام الأمر كذلك لا يمكن لأحدٍ أن يهديهم، وليس لهم من ناصرٍ ينصرهم من بعد الله، وتأتي هذه الآية لتضع العلاج المناسب لمسألة التوحيد، والإيمان بالله تعالى من خلال الرجوع إلى دين الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها فهم قد علموا التوحيد قبل أن يكونوا في بطون أمهاتهم أو ظهور آبائهم، حينما كانوا في عالم الذر، ولا تبديل لفطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أن ذلك الدين الفطري هو الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ولكن أكثر الناس الذين تآكلت فطرتهم واستسلموا للشيطان وأعوانه، هم الذين خيم عليهم الجهل بعد العلم[1].

وأما ما كان عن وحيٍ فقد ورد في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩].

فقد بينت الآيات السابقة أن الله تعالى أمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم لقومه المكذبين فيما جاءهم به، ومن عند الله تعالى أن هذا القرآن خبرٌ عظيم، وهم عنه منصرفون لا يعملون به، ولا يصدقون بما جاء فيه من حجج الله تعالى وآياته[2].

وتأتي هذه الآية تكملةً لما سبق؛ لتبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطبٌ بأن يقول للمشركين: ما كان لي من علم بالملائكة؛ إذ يختصمون في شأن آدم صلى الله عليه وسلم، حين قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وتستكمل الآيات خطاب الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: قل يا محمد أيضًا إنما أنا عليه من التبليغ لهذا

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص٨٤٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٣٥.

الدين إنما هو وحيٌ مما يوحى إلي، وإنما أنا منذر[1].

ثانيًا: العلوم المكتسبة:

وهي العلوم التي تقوى وتزداد بكسب الإنسان من التعلم سواء أكانت علومًا محمودةً أو مذمومة، فأما العلوم المحمودة الكسبية فقد وردت في عدة آيات.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾[الشعراء: ١٣٢].

فإن السياق القرآني يتحدث عن قوم هود عليه السلام وتبليغ نبيهم لهم، محذرًا إياهم من الاغترار بنعم الله تعالى التي أعطاها إياهم، ومن جملتها ما ذكره في هذه الآية، أي: أعطاكم الله تعالى بما تعلمون من جميع أوجه الخير، ومنها إعطاؤكم أنعامًا وبنين، وجناتٍ وعيون، وغير ذلك[2].

وإن هذا العلم وإن كان محمودًا إلا أنه استدراجٌ من الله تعالى، فلا يغرن أحدًا إمهال الله تعالى له، على ما يقترف من الذنوب والآثام، فإنه قد يكون ذلك مسارعةً في الخيرات بجني ثمار ما يفعل في الدنيا؛ حتى يكون صفر اليدين يوم القيامة، فالعلم هنا محمودٌ في ذاته لكنه ليس محمودًا في مقصوده، والله تعالى أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨].

فإن هذه الآية تبين أنه جل جلاله خلق الخلق من غير مشورة لهم، وأثبتهم على الوصف الذي أراد، فلم يعلموا بما سبق حكمهم[3]، ولا يعلمون أيضًا أي جانب من جوانب العلم المكتسب، ثم أعطاهم الله تعالى أدوات العلم، وهي: السمع ليسمعوا جوانب العلم ومدركاته، والأبصار لينظروا في ملكوت الله تعالى، فتتحقق بالمران، بعد توفيقه تعالى جوانب متقدمة من العلوم، ثم جعل القلوب ليكون هذا القلب بمثابة المصفاة التي تصفي تلك العلوم المكتسبة، فتبتكر علومًا مما تم اكتسابه، وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أن العلة من خلق الله تعالى للبشر ومن ثم إعطاؤهم أدوات المعرفة هي أن يشكروا الله تعالى على نعمائه.

وأما العلم المذموم، فمنه ما ورد على لسان الطغاة، كقارون حينما قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٨].

حيث إن هذه الآية تأتي في سياق الحديث عن قصة قارون واغتراره بما أعطاه

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٧٦.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٦٢.
(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣١١.

الله تعالى من المال، فيقول ردًا على أهل العلم والإيمان الذين وعظوه وذكروه بالله تعالى إنما أوتيت هذا المال على فضلٍ وخيرٍ عندي؛ إذ إنني من أهل العلم بالصنعة آخذ هذا المال بفضل خبرتي في مجالي الذي أنا متميز فيه[1].

فرد الله تعالى بأسلوب غير مباشر، فهو أصغر من أن يخاطبه الله تعالى خطابًا مباشرًا، فقال جل شأنه: أو لم يعلم هذا الأفاك أن الله تعالى قد أهلك من تجبر وظلم أكثر منه ممن قبله ممن هو أكثر شدةً وقوة منه، وله جمع ملتفٌ حوله، ثم تأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أن المشركين لا يسألون عن ذنوبهم، فهم يعذبون ويدخلون النار بغير حساب[2].

وعلى هذا فإن العلم المذموم هنا هو الذي ادعاه قارون، وخالف شرع الله تعالى فيه، وعدم عزوه الرزق إلى الله تعالى، كما أن المذموم هو سلوكه السيئ بدلًا من الشكر على نعمة العلم لله تعالى.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠١٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ٩/ ٣٠١٣.

آداب المعلم والمتعلم

أشارت آيات العلم الواردة في القرآن الكريم إلى مجموعة من الآداب، منها:

١. الإيقان بأنه فوق كل عالم من هو أعلم منه.

قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

فإن هذه الآية الكريمة تأتي في سياق الحديث عن قصة يوسف عليه السلام وكيد إخوته له، فلما تولى الوزارة ودخلوا عليه أراد أن يأخذ أخاه من أبيه وأمه، وهو الذي لم يكن مشتركًا معهم في كيدهم له، فأوحي إليه أن يكيد كيدًا، وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لتبين أنه فوق كل عليم من هو أعلم فيكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، قال قتادة والحسن: والله ما من عالم على ظهر الأرض إلا فوقه من هو أعلم منه؛ حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى الذي علمه، ومنه بدأ وإليه يعود[3].

٢. إسناد العلم لواهبه عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٢٤٢.

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران: ٧].

حيث تبين هذه الآية أن الراسخين في العلم هم الذين يقولون آمنا بهذا المتشابه، فصدقنا أن علم ذلك لا يعلمه إلا الله.

٣. العلماء أكثر الناس خشية لله تعالى.

لأنهم الأكثر معرفة له، وبه جل جلاله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر: ٢٨].

أي: إنما يخاف الله تعالى ويتقي عقابه العلماء؛ لأن من علم قدرة الله تعالى أيقن بالمعاقبة على المعصية فخاف الله واتقاه[(١)].

وقد ذكر بعض المفسرين أن العلماء هم المؤمنون[(٢)]، وهو رأي مقبول؛ إذ إن المؤمنين هم الذين استسلموا لعلمهم الفطري بتوحيد الله تعالى ولم يخالطوه بعلم مكتسب مذموم، بل إنهم وجهوا عقولهم إلى ما يعزز علم الفطرة، بإفرادهم الله تعالى في الربوبية والألوهية، والأسماء والصفات، وأركان الإيمان بما يقوي عندهم الطاعة والعبادة، وعلى هذا فإنه لا يعقل أن يسمى المؤمن غبيًا؛ إذ إن العلماء محصورون في المؤمنين حق الإيمان، الذين عاشوا في دنياهم لأجل آخرتهم، وانضبطوا بشرع الله تعالى، ونهلوا من العلم النافع، ووهبوا حياتهم وأرواحهم لأجل ربهم.

ثم إن طلاب العلم ينبغي أن يتقوا الله تعالى؛ حتى يعطيهم من العلم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٨٢].

وهذه هي الفاصلة القرآنية لآية الدين، التي تتعلق بإرشاد الناس إلى ضبط مصالحهم وتنظيم حياتهم المعاشية منها، حيث تختتم الآية بالأمر بالتقوى؛ لأنها ملاك الخير، وبها يكون ترك الفساد، وبيان تعليم الله تعالى للخلق تذكيرًا بنعمة الإسلام، الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشريعة، وقد وعد بذلك؛ لأنه جيء فيه بالمضارع، وفي عطفه على الأمر بالتقوى إيحاءٌ إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم[(٣)].

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٩/ ٥٩٧٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٣٠.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١١٨.

أثر العلم في الرقي الحضاري

يركز هذا المبحث على بيان أثر العلم الذي أعطاه الله تعالى من سار على سنن الله تعالى الكونية، سواء أكان مؤمنًا مجتهدًا في التعاطي مع هذه السنن التي لا تحابي أحدًا، وهي ماضيةٌ وفق ما يريده الله تعالى، أو كان كافرًا لا يؤمن بهذه الحياة الدنيا، وهذا كله في العلم الدنيوي.

أما في العلوم الشرعية التعبدية فإن عيش الأمة على هدىً من أمرها، وبعدٍ عن الخرافات والبدع التي تفسد العقل، وتذيع السوء والفاحشة، وتجعل العالم من حضارته حضارة مزيفة ليست قائمةً على رقيٍ ملموسٍ، ومن ثم فإنه يمكن القول إن أثر العلم في الرقي الحضاري قد بينه القرآن الكريم في آيات لعل أبرزها قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٨].

حيث تأتي هذه الآية في سياق بيان خلق الله تعالى لكل شيء، ومنها ما تذكره هذه الآية من خلق الخيل، وهم اسم جنس للفرس، وكذلك خلق البغال والحمير، وقد بينت الآية سبب خلق هذه الأنواع الثلاثة من المخلوقات، وهو الانتفاع بها بالحمل من ركوب على ظهرها، مما يجلبه ذلك من نفع في تسهيل السفر والترحال، وأما قوله: ﴿وَزِينَةً﴾ فهي زينة لأجل الركوب، وقد قدم الركوب على الزينة؛ لأن الأول أهم في الانتفاع من الثاني، وتأتي الفاصلة القرآنية؛ لتخبر «بأنه سبحانه يخلق من الخلائق ما لا علم لنا به دلالةً على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد، كنعمه الظاهرة والباطنة»[(١)].

وفي هذه الآية دليلٌ على أنه جل جلاله يبين دائمًا عظيم نعمه على عباده، ومنها نعمة الركوب، ومن ثم تسهيل عملية الحركة والسفر؛ لسرعة التواصل بين البشر، مما يذلل العقبات أمام انتشار العلم، وتبادل الثقافات التي تطور العلوم التي يتوصل إليها بلدٌ من البلاد، وإن العلم الدنيوي مطلوبٌ كي لا يقع المسلمون في الحرج.

وعلى هذا فإن الآية تحث على الاستغلال الأمثل للمواصلات بما يرقى من خلاله المجتمع المسلم في كل أموره المعاشية، ومما يدل على هذا أن الآية التالية تنبه على أمور المعاد، فيكون معناها: كما يدبر سبحانه أمور معاش عباده على الوجه الأليق بحالهم، كذلك له سبحانه أن يدبر لهم أمور معادهم؛ بل هي أولى بالتدبير على الله المصلح لأحوال عباده.

وإن أول آياتٍ نزلت في القرآن الكريم على قلب النبي صلى الله عليه وسلم كانت تأمر بالقراءة التي هي مفتاح العلم الموصل

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٩٨.

إلى الله تعالى، حيث قال الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق: ١-٥].

وقد اشتملت هذه الآيات على أمورٍ، منها:

١. الحث على القراءة بل والأمر بها، والمقصود بالقراءة هنا حسن الطلب للعلم بما يشمل حسن التلقي للعلم، ومن ثم السعي لتطوير ذلك العلم الذي تلقاه، والاستفادة منه عمليًا في العلوم التي تقبل الاجتهاد، أما العلوم العقدية الأصولية، فإنه يكفي أن يتلقاها الإنسان ويجتهد في تطبيقها.

٢. جاء الأمر بالقراءة مرتبطًا بمراحل خلق الإنسان، حيث يقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]. وقد أفاد ذلك في الحث على معرفة الأسرار الخفية في خلق ذلك الإنسان، كيف لا والله تعالى يقول: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١].

٣. جاء الأمر بالقراءة مرتبطًا بالإيقان الكامل أن الله سبحانه وتعالى أعز وأكرم من كل شيء، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾[العلق: ٣].

٤. بينت الآيات أنه سبحانه وتعالى علم بالقلم الذي هو صيد كل العلوم، حيث قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ٤].

٥. جاء الأمر بالقراءة مرتبطًا ببيان أن كل علم تعلمه الخلق إنما هو من الله تعالى، حيث قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

موسى والخضر عليهما السلام

يركز هذا المبحث على عرض أهم الدروس المستفادة من رحلة موسى والخضر عليهما السلام في طلب العلم، دون التركيز على ما هو ليس داخلًا في طلب العلم؛ انسجامًا مع سياق الدراسة العام، وعلى هذا فإنه يمكن إجمال الدروس المستفادة بالنقاط الآتية:

١. تواضع العالم، وهذا يعني ألا يتعامل الإنسان مع نفسه أنه أعلم الناس، ولا يجزم بذلك حتى لو كان نبيًا مرسلًا، ومما يدل على هذا ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بينما موسى في ملأٍ من بني إسرائيل جاءه رجلٌ فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى عبدنا خضرٌ)[١].

٢. الكد والتعب لأجل العلم، وهذا يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]. أي: «واذكر يا محمد إذ قال موسى بن عمران لفتاه يوشع: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ يقول: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين»[٢].

٣. إيقان العالم أن الشدة تكون فيها قرب الفرج، فإن النبي موسى عليه السلام حينما نسي فتاه الحوت أدرك أنه وصل إلى الخضر عليه السلام[٣].

٤. التلطف في طلب العلم، وهذا في حسن طلب موسى من الخضر أن يعلمه مما علمه الله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٥-٦٦] حيث تبين هاتان الآيتان أن النبي موسى عليه السلام قال للخضر عليه السلام: جئت لأتبعك وأصحبك؛ لأجل أن تعلمني علمًا ترشدني به[٤].

٥. اختبار المعلم لقدرة المتعلم، وقد جاء هذا في قول الخضر كما في الآية: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] وإنما قال الخضر ذلك؛ لأنه علم أن موسى عليه السلام سيرى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر ١/ ٢٦، رقم ٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام ٤/ ٢٨٥٢، رقم ٢٣٨٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٠٤.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٠٦.

أمورًا منكرةً، ولا يجوز للنبيين أن يصبروا على المنكرات، ثم بين عذره في ترك الصبر بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[الكهف: ٦٨] أي: علمًا.

٦. الأدب الرفيع في صحبة المعلم، وذلك حينما رد موسى عليه السلام على الخضر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[الكهف: ٦٩] حيث علق المشيئة على رب العالمين.

٧. عدم تعجل النتائج في العلم مع الثقة بالمعلم، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف: ٧٠] أي: فإن صحبتني فلا تسألني عن شيء حتى أكون أنا الذي أفسره لك[1]، وقد كان هذا بمعايشة الحادثة، ثم إعطاء الحكم عليها، ولا شك أن هذه طريقةٌ طيبة في تحصيل العلم.

٨. العالم ينسب العيب إلى نفسه، والمشيئة إلى ربه، قال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[الكهف: ٧٩] أي: أجعلها ذات عيب[2]، وهذا أدبٌ رفيع من الخضر عليه السلام مع ربه؛ إذ إنه موحىً إليه من الله تعالى، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[الكهف: ٨٢].

موضوعات ذات صلة:

الجاهلية، العقل، الغفلة، الفقه

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص٦٦٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٦٦٩.

العلن

عناصر الموضوع

مفهوم العلن	٣٢٤
العلن في الاستعمال القرآني	٣٢٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٦
تقديم السر على العلن	٣٢٨
أنواع العلن	٣٣٢
استواء السر والعلن في علم الله	٣٣٣
صور العلن المحمود	٣٤٠
صور العلن المذموم	٣٦٨

مفهوم العلن

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (علن) على إظهار الشيء والإشارة إليه وظهوره.

والعلان والمعالنة والإعلان بمعنى المجاهرة.

ويقال: علن الأمر يعلن علونًا ويعلن وعلن يعلن علنًا وعلانية فيهما، إذا شاع وظهر.

والإعلان: إظهار الشيء[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي للعلن عن المعنى اللغوي، فقد عرفها المناوي بقوله: «العلانية: ضد السر، وأكثر ما يقال في المعاني دون الأعيان»[2].

وفي بعض المعاجم الحديثة: الإعلان هو: «إظهار الشيء بالنشر عنه في الصحف ونحوها، والعلانية خلاف السر، ويوصف به فيقال: رجل علانية ظاهر أمره، وجمعها علانون»[3].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١١١، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٨٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٥٢٥.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية٢/ ٦٢٥.

العلن في الاستعمال القرآني

وردت مادة (علن) في القرآن الكريم (١٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح:٩]
الفعل المضارع	١٠	﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم:٣٨]
المصدر	٤	﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة:٢٧٤]

وجاء العلن في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: الإظهار والمجاهرة ضد الإخفاء والإسرار[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٨١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب العين ص٧٩١.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٩٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجهر:

الجهر لغة:

جهرت الشيء إذا كشفته، وجهرته واجتهرته أي رأيته بلا حجاب بيني وبينه، والجهر العلانية وفي الحديث (وكان عمر رجلًا مجهرًا)[١] أي صاحب جهرٍ ورفع لصوته، والجهر هو ما ظهر.

والجهر أيضًا: رفع الصوت يقال جهر بالقراءة إذا رفع صوته بها[٢].

الجهر اصطلاحًا:

هو «رفع الصوت بحيث يسمع نفسه ومن جاوره»[٣].

الصلة بين الجهر والعلن:

أن العلانية أعم من الجهر، ولا يقتضي الإعلان رفع الصوت به، والجهر يقتضي رفع الصوت به[٤].

٢ الإخفاء:

الإخفاء لغة:

الستر والكتمان، يقال: خفيت الشيء أخفيه: كتمته، وأخفيت الشيء: سترته وكتمته، ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء: تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها، وهو من الأضداد[٥].

والإخفاء اصطلاحًا هو:

الستر ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى

---

(١) أخرجه وأحمد في مسنده، رقم ١٨٩٢٦، ٤/ ٣٢٢ ، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، رقم ٤٦٦٢.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٤٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٤٧١.

(٣) معجم لغة الفقهاء، قلعجي ص١٦٨.

(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٨٧.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٣٤، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٥٦٤.

إليه من جهتها[1].

الصلة بين الإخفاء والعلن:

أن الإخفاء ضد العلانية.

٣ السر:

السر لغة هو:

ما يكتم في النفس من الحديث، وهو خلاف الإعلان، والجمع الأسرار، يقال: سررته: كتمته، كما يطلق على: ما يظهر؛ لأنه من الأضداد، يقال: سررته: أعلنته، والوجهان جميعا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾[يونس: ٥٤].

الأول: كتموها، والثاني: أظهروها بدليل قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]؛ ولأن دار الآخرة ليست دار تجلد وتصبر.

السر اصطلاحًا هو:

اسم لما يكتم ويخفى في القلوب من العقائد والنيات والأقوال والأعمال وغيرها[2].

الصلة بين السر والعلن:

أن السر ضد العلانية.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢، الكليات، الكفوي ص ٥١٤.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦٣، المصباح المنير، الفيومي ص٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٧.

تقديم السر على العلن

بالنظر إلى آيات الكتاب العزيز التي تناولت العلن والسر، نجد أن أكثرها قدم فيها السر على العلن، والإخفاء على الإبداء، وهذا التقديم لحكمٍ سامية، ومعانٍ عالية استنبط منها المفسرون ما أفاء الله به عليهم.

قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران: ٢٩].

وهنا نجد أن المولى سبحانه وتعالى قدم فيه الإخفاء على الإبداء على عكس ما وقع في قوله تعالى وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله إذ لم يتعلق بإشعار أن المحاسبة بما يخفونه أولى منها بما يبدونه غرض بل الأمر بالعكس وأما ههنا فقد تعلق بإشعار كون تعلق علمه تعالى بما يسرونه أولى منه بما يعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود: ٥].

وقد روي في سبب نزول الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة ويضمر في قلبه ما يضادها.

وقال ابن شداد: إنها نزلت في بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يراه النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه إنما كان يصنع ما يصنع لأنه لو رآه النبي صلى الله عليه وسلم لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه وربما يؤدى ذلك إلى ظهور ما في قلبه من الكفر والنفاق.

وقيل: «كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحني ظهره»، فهنا تفيد الآية أنه يستوي بالنسبة إلى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ما عسى يظهرونه وإنما قدم السر على العلن نعيا عليهم من

(١) انظر: المفردات ص ٤٠٤، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٦.

أول الأمر ما صنعوا وإيذانًا بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه وتحقيقًا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه[1].

وقال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ٢٣].

وقال جل شأنه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٧٦].

ففي هذه الآية نجد أن تقديم السر على العلن إما للمبالغة في بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات، كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما في الحقيقة، فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة، وإما لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن، إذ ما من شئ يعلن إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة[2].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النحل: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

وحكمة تقديم السر على العلن أنها بمثابة النعي عليهم من أول الأمر ما صنعوا وإيذانا بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكأن علمه سبحانه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه وحاصل المعنى يستوي بالنسبة إلى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه سبحانه ما عسى أن يظهروه[3].

أما الآيات التي قدم فيها الإبداء على الإخفاء، أو العلن على السر، فهي آيات قليلة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٣].

وهنا حيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزه مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة في الإخبار بإحاطة علمه تعالى بالظاهر والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك -وهو تقديم الخفاء على العلن- مع أنه وقع الغنية عنه بما قبله من

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٨٦.
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٨٦.
(٣) المصدر السابق ٧/ ١٨٠.

قوله عز و جل إني أعلم غيب السموات والأرض ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية[1].

وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال جل شأنه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور: ٢٩].

ثانيًا: حكمة المقابلة بين العلن والسر والإخفاء والإكنان:

المتتبع لآيات القرآن الكريم التي تحدثت عن العلن والسر، أو الإخفاء والإكنان يجد فيها مقابلة بليغة بين هذه الألفاظ، وما ذلك إلا صورة بليغة من صور بلاغة الكتاب العزيز.

ومن هذه الصور ما يلي:

١. المقابلة بين التعريض والإكنان في خطبة النساء.

أباح الله سبحانه وتعالى للرجال التعريض بالخطبة للمعتدة من وفاة خلال فترة العدة، وكذا الإكنان بمعنى إخفاء الرغبة في الزواج في نفس الرجل فقال جل شأنه ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وللبيضاوي كلام طيب في معنى الآية وما فيها من بلاغة أوجزه على هذا النحو:

قال ما ملخصه: «إن التعريض والتلويح إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا، والكناية هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة، وتعريض خطبتها أن يقول لها: إنك جميلة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضًا.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن، وفيه نوع توبيخ.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ استدراك على محذوف دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لا تواعدهن نكاحا أو جماعا عبر بالسر عن الوطء؛ لأنه مما يسر ثم عن العقد لأنه سبب فيه وقيل معناه: لا تواعدوهن في السر على أن المعنى بالمواعدة في السر المواعدة بما يستهجن.

(١) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٩.

﴿سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو أن تعرضوا ولا تصرحوا والمستثنى منه محذوف أي: لا تواعدوهن مواعدة إلا مواعدة معروفة أو إلا مواعدة بقول معروف»[1].

٢. العلاقة بين السر وما أخفى منه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧].

قال العكبري: قوله تعالى «وأخفى» يجوز أن يكون فعلا ومفعوله محذوف: أي وأخفى السر عن الخلق، ويجوز أن يكون اسما: أي وأخفى منه»[2].

وأشار الزجاج إلى أن من صور حذف المفعول في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧].

والمعنى: «فإنه يعلم السر وأخفى، أي أخفى سره، كقوله ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾ [الجن: ٢٦].

وقيل: «بل تقديره: بل أخفى من السر، فحذف الجار والمجرور، كقوله الله أكبر، أي أكبر من كل شيء»[3].

قال الرازي: «ذهب أبو حيان إلى أنه رضي الله تعالى عنه اعتبر في الآية حذف أحد المتقابلين اكتفاءا بالآخرة وكلامه رضي الله تعالى عنه محتمل لذلك ويحتمل أنه ذكر العلانية في بيان المعنى لأن من علم السر علم العلانية من باب أولى، ويحتمل أن ذلك لأنه ما من علانية إلا وهي غيب بالنسبة إلى بعض الأشخاص؛ فيكون قد أشار رضي الله تعالى عنه ببيان المعنى وذكر السر والعلانية فيه إلى أن المراد بغائبة في الآية ما يشملها وهو ما اتصف بالغيبة أعم من أن تكون مطلقة أو إضافية»[4].

٣. المقابلة بين السر والجهر.

قال الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: ٣].

تفيد وحدانية الله تعالى.

قال الزمخشري فيها: «فإن قلت: كيف موقع قوله ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

قلت: إن أراد المتوحد بالإلهية كان تقريرًا له، لأن الذي استوى في علمه السر والعلانية، هو الله وحده»[5].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٨٦.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٥٢٩ بتصرف.
(٣) إملاء ما من به الرحمن، أبو البقاء العكبري ٢/ ١١٩.
(٤) معاني القرآن، الزجاج ١/ ١٠٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٨.

أنواع العلن

يمكن تقسيم العلن إلى أنواع متعددة باعتبارات مختلفة بيانها بإيجاز على النحو التالي:

أولًا: العلن المحمود والعلن المذموم:

يمكن تقسم العلن إلى نوعين: علن محمود، وعلن مذموم.

فالعلن المحمود هو الذي حث القرآن الكريم عليه، وامتدحته السنة النبوية المطهرة، وهو كل علن يحقق منفعة للأمة المسلمة، أو يدفع عنها ضررًا، أو يهدي ضالا أو يرشد حيرانًا.

وهذا النوع يشمل: الدعوة إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة، ودعوة غير المسلمين إلى الدخول في دين الإسلام، والجهر بالعبادات البدنية كالصلاة وقراءة القرآن والذكر، والتكبير في الأعياد ونحوها، والعبادات البدنية والمالية كالحج، والعبادات المالية كالزكاة والصدقة إذا خلتا من الرياء وقصد بها حث الناس على تنفيذ فرائض الله تعالى.

ويشمل هذا النوع من العلن أيضًا إعلان التظلم لنيل المظلوم حقه من الظالم، وتحذير الناس منه قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء: ١٤٨].

وإعلان أعمال الخير المختلفة ليتأسى الناس فيها بفاعل الخير وباذل المعروف.

والعلن المذموم هو الذي يضر بعقيدة المسلم وعبادته، كموالاة الكفار ومجاراتهم في غيهم وضلالهم، وكذا العلن الذي ينشر الفاحشة والرذيلة في المجتمع، كالجهر بالمعاصي القولية والفعلية.

والتي حذر القرآن الكريم منها في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

ويشمل العلن المذموم كذلك قيام أحد الزوجين بإفشاء الأسرار الزوجية، حيث يتنافى ذلك مع مكارم الأخلاق، ومع وصف الله تعالى للحياة الزوجية بقوله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ومن العلن المذموم أيضًا إفشاء الأسرار الحربية، نظرًا لما يجلبه ذلك من خطر على الأمة الإسلامية، وفتح مجال لأعدائها للنيل منها.

وسيأتي بسط الكلام في صور العلن المحمود والمذموم وبيان منافع الأول ومضار الثاني، فيما يأتي.

ثانيًا: العلن الخاص والعلن العام:

يمكن تقسيم العلن باعتبار الشخص

إلى قسمين: علن شخصي، وعلن عام، فالعلن الخاص أو الشخصي هو ما يختص بالفرد نفسه فيما يتعلق بشئونه هو مثل قضاء حوائجه ومصالحه المختلفة، بحيث يحق له أن يظهرها أو يخفيها، وذلك كأسراره الخاصة، أو أسراره الزوجية، أو عباداته وطاعاته المختلفة التي لا يطلع عليها الناس، كقيام الليل وقراءة القرآن والأذكار.

والعلن العام هو ما يتعلق بعموم جماعة بعينها أو دولة معينة، أو الأمة بأسرها، وذلك كأمور العمل في المهن أو الوظائف المختلفة، حيث يحظر على الشخص الذي يعمل في جهة معينة أن يجهر أو يفشي أسرار عمله للغير، لا سيما إذا كان عمله في مكان ذي أهمية كبيرة.

وهذا يشمل على سبيل المثال: الأسرار العسكرية، والسياسية الخاصة بالدول، ويشمل أسرار العمل في الدوائر المختلفة حكومية كانت أو خاصة، ويشمل أسرار المهنة كما في بعض المهن الحرفية الدقيقة التي يكلف صاحبها بأن لا يفشي أسرارها للمنافسين.

وسيأتي تفصيل الكلام عن العلن الخاص بالمرء والعلن العام وما يقبل منه وما لايقبل.

استواء السر والعلن في علم الله

الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء خفي أو ظهر، بان أو استتر، يعلم ما كان وما هو كائن وما سوف يكون وما لم يكن، ولو كان كيف كان سيكون، والسر والجهر في علم الله تعالى سواء، وقد تواترت الآيات الكريمة المصرحة بذلك.

والناظر في الآيات القرآنية التي تحدثت عن السر والجهر وما يتعلق بهما يجد أنها تتحدث عن:

أولًا: استواء السر والجهر في علم الله تعالى:

وذلك مذكور بلفظ صريح في قول الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد: ٩-١٠].

والآية صريحة الدلالة على أن الله تعالى يستوي عنده السر والعلن، فمن أسر القول أو أظهره، لا يقدم شيئا ولا يؤخر في علم الله تعالى، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين من السلف وغيرهم[(١)].

قال ابن الجوزي نقلا عن ابن الأنباري: «ناب سواء عن «مستو» والمعنى مستو منكم من أسر القول أي أخفاه وكتمه ومن جهر

(١) الكشاف ٢/ ٧.

به أعلنه وأظهره والمعنى أن السر والجهر سواء عنده»[1].

ومما روي عن السلف في ذلك ما يلي:

- ما روي عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، قال: السر والجهر عنده سواء[2].
- وما روي عن قتادة رضي الله عنه قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ كل ذلك عنده تبارك وتعالى سواء، السر عنده علانية والظلمة عنده ضوء[3].
- وما روي عن الحسن رضي الله عنه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ قال: «يعلم من السر ما يعلم من العلانية، ويعلم من العلانية ما يعلم من السر»[4].

وسبب نزول الآيتين -هذه والتي قبلها- كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن عامر بن الطفيل وأربد بن قيس - وهو أخو لبيد بن ربيعة الشاعر لأمه - أقبلا يريدان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رجل من أصحابه يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك فقال: دعه فإن يرد الله به خيرًا يهده، فأقبل حتى قام عليه قال: يا محمد مالي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، قال: تجعل لي الأمر بعدك قال: لا ليس ذلك إلي إنما ذاك إلى الله تعالى يجعله حيث شاء، قال: أسلم على أن لك المدر ولي الوبر، يعني: لك ولاية القرى ولي ولاية البوادي قال: لا، قال فماذا تجعل لي قال: أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها، قال: أو ليس ذلك إلي اليوم وكان أوصى إلى أربد إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف.

فجعل يخاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويراجعه، فدار أربد خلفه عليه السلام ليضربه فاخترط من سيفه شبرًا ثم حبسه الله فلم يقدر على سله؛ وجعل عامر يومئ إليه فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يصنع بسيفه فقال: اللهم اكفنيهما بما شئت، فارسل الله على أربد صاعقة في يوم صائف صاحي فأحرقته، وولى عامر هاربًا فقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد، والله لأملأن عليك الأرض رجالًا ألفًا أشعر وألفًا أمرد، فقال

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٦٨، تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٩، تفسير السمعاني ٣/ ٨٠، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٩٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٠٩، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٧، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٦١٠.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٠٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري رقم ٢٠٢٠٦، ١٦/ ٣٦٨، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٨، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٦١٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري رقم ٢٠٢٠٨، ١٦/ ٣٦٨، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٨.

عليه السلام: يمنعك الله من ذلك وأبناء قيلة يريد الأوس والخرزج، فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم إليه سلاحه وخرج، وهو يقول: واللات لئن اصحر محمد إلي وصاحبه، يعني: ملك الموت لأنفذنهما برمحي.

فلما رأى الله ذلك منه أرسل ملكًا فلطمه بجناحه فأذراه بالتراب، وخرجت على ركبته غدة في الوقت عظيمة، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، ثم مات على ظهر فرسه، فأنزل الله تعالى في هذه القصة قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ حتى بلغ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٣-١٤][1].

ثانيًا: التصريح بعلم السر والعلن:

وذلك في مواضع كثيرة هي منها:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود: ٥].

والاستغشاء بالثياب بمعنى التغطية، حملها بعض المفسرين على المجاز، وحملها بعضهم على الحقيقة، بمعنى التغطية بالثياب أو الاستغشاء بها في البيوت حين النوم، أو أن بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم[2].

وعلى كلٍ فقد جاءت جملة ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مستأنفة لبيان أنه لا فائدة لهم في الاستخفاء لأن الله سبحانه يعلم ما يسرونه في أنفسهم أو في ذات بينهم وما يظهرونه فالظاهر والباطن عنده سواء والسر والجهر سيان وجملة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبلها وتقرير له وذات الصدور هي الضمائر التي تشتمل عليها الصدور وقيل هي القلوب والمعنى: إنه عليم بجميع الضمائر أو عليم بالقلوب وأحوالها في الإسرار والإظهار فلا يخفى عليه شيء من ذلك[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩﴾ [النحل: ١٩].

والمعنى: والله يعلم ما تسرون «في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٦٨، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٨، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٦١٠.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٣٣، تفسير السمرقندي ٢/ ١٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٥، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٩٦.

قلوبكم» وما تعلنون «بالقول ويقال ما تخفون من أعمالكم» وما تعلنون أي: تظهرون منها فالسر والعلانية عنده سواء[1].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

وقدم السر على العلن ليكون بمثابة النعي عليهم من أول الأمر ما صنعوا وإيذانا بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه؛ فكأن علمه سبحانه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه وحاصل المعنى يستوي بالنسبة إلى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه سبحانه ما عسى أن يظهروه[2].

وقال تعالى ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٣ - ١٤].

والمعنى: إن أخفيتم كلامكم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم أو جهرتم به «إنه عليم بذات الصدور» يعني بما في القلوب من الخير والشر.

وذلك أن جماعة من الكفار كانوا يتشاورون فيما بينهم فقال بعضهم لبعض لا تجهروا بأصواتكم فإن رب محمد صلى الله عليه وسلم يسمع فيخبره قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾؛ فإنه يعلم به؛ ثم أخبر بما هو أخفى من هاتين الحالتين فقال: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: فكيف لا يعلم قول السر ثم قال عز وجل ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني: ألا يعلم السر من خلق السر يعني هو خلق السر في قلوب العباد فكيف لا يعلم بما في قلوب العباد[3].

ثالثًا: التصريح بعلم السر فقط، والعلن معلوم بالتبعية.

وذلك في قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]؛ والمعنى «قل يا محمد أنزل هذا القرآن الذي يعلم السر، فهو عالم الغيب، فلا يحتاج إلى معلم، وذكر «السر» دون الجهر؛ لأنه من علم السر فهو في الجهر أعلم»[4].

وقيل: «وخص السر للإشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر»[5].

رابعًا: التصريح بعلم درجات السر أو الخفاء.

حيث تجد بعض الآيات ورد فيها لفظ

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٩٦.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٦٩.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٠٩.
(٤) تفسير السمرقندي ٣/ ٤٥٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٤.

السر فقط، وبعضها ورد فيها التعبير بالسر والخفاء، أو بمعنى آخر درجات السر، كالسر والنجوى وذلك واضح في المواضع التالية:

قال جل شأنه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [التوبة: ٧٨].

والمعنى: ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم يكفي يتجرؤن على النفاق الذي الأصل فيه الاستسرار والتناجي فيما بينهم مع علمهم بأنه تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر، وأنه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه: ٧].

وفي معنى السر وأخفى في هذه الآية ست تأويلات:

أحدها: أن «السر» ما حدث به العبد غيره في السر «وأخفى» ما أضمره في نفسه، ولم يحدث به غيره.

قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

الثاني: أن السر ما أضمره العبد في نفسه. وأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد في نفسه.

قاله قتادة وسعيد بن جبير رضوان الله عليهم.

الثالث: يعلم أسرار عباده، وأخفى سر نفسه عن خلقه، قاله ابن زيد.

الرابع: أن السر ما أسره الناس، وأخفى: الوسوسة، قاله مجاهد رضي الله عنه.

الخامس: أن السر ما أسره من علمه وعمله السالف، وأخفى: وما يعلمه من عمله المستأنف. قاله الكلبي.

السادس: السر: العزيمة، وما هو أخفى: هو الهم الذي دون العزيمة[(٢)].

روى سفيان الثوري بسنده عن أبي داود عن الضحاك في قوله يعلم السر وأخفى قال «السر ما حدثت به نفسك واخفى ما لم تحدثك به»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

وهذه الآية جاءت في معرض قصة الخليل إبراهيم عليه السلام، وذلك حين طلب من الله تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم، ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهايات الأمور في المستقبل، وأنه تعالى هو العالم بها المحيط بأسرارها، فقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٩٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١١١.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٩٤، جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٧٢ و٢٧٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ١٦.

ومفاسدنا منا، قيل: ﴿مَا نُخْفِي﴾ من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين إسمعيل، ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ من البكاء، وقيل: ﴿مَا نُخْفِي﴾ من الحزن المتمكن في القلب ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ يريد ما جرى بينه وبين هاجر حيث قالت له عند الوداع إلى من تكلنا؟ فقال إلى الله أكلكم، قالت آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم قالت: إذًا لا نخشى[1].

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ «وفيه قولان:

أحدهما: أنه كلام الله عز وجل تصديقًا لإبراهيم عليه السلام كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

والثاني: أنه من كلام إبراهيم عليه السلام يعني وما يخفي على الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان؛ ولفظ «من» يفيد الاستغراق كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما»[2].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠].

والمراد بذلك ما أضمروه في قلوبهم وما تناجوا به بينهم[3].

وقد روي أن هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها؛ فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ وقال الثاني: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع. وقال الثالث: إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم، وهو مروي عن ابن مسعود[4].

خامسًا: التصريح بالعلم المطلق:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[5] [الأنبياء: ٤].

والمراد كما يتلخص من كلام بعض المفسرين أن «القول» عام يشمل السر والجهر فكأن في العلم به العلم بالسر وزيادة فكأن آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ كما أن قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ آكد من أن يقول يعلم سرهم فإن قلت فلم ترك الآكد في سورة الفرقان في قوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٦].

قلت: ليس بواجب أن يجيء بالآكد في قوله في كل موضع، ولكن يجيء بالتوكيد مرة وبالآكد مرة أخرى[6].

(١) تفسير الثوري ص١٩٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٠٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٧٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١٩.
(٦) قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (قال ربي يعلم) على معنى الخبر، وقرأ الباقون (قل ربي أعلم) على معنى الأمر، وصحح بعض العلماء القراءتين، وقال

وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وهذه الآية نزلت عقيب آية ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ﴾ وقد سبق الكلام عنها، وجاء قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلم السر من خلق السر يعني هو خلق السر في قلوب العباد فكيف لا يعلم بما في قلوب العباد[١].

سادسًا: التصريح بعلم الغيب والشهادة:

ورد في القرآن الكريم في حوالي عشرة مواضع علم الله تعالى بالغيب والشهادة[٢]، ولم أذكر هذه الآيات في صلب البحث، منعا للإطالة بل أكتفي بذكر مواضعها في بعض الآيات، أو مواضعها إجمالًا.

فقول الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الوارد في مواضع عدة، فسر الغيب والشهادة فيه بأنها السر والعلانية، كما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس في قوله عالم الغيب والشهادة قال: السر والعلانية[٣].

وقد ذكر تفسير الغيب والشهادة بالسر والعلانية عند جمع من المفسرين منهم الطبري، والنسفي، والسلمي وقد حكاه عن سهل التستري، والرازي، والسمعاني في آيات المؤمنون والزمر والحشر. والقرطبي في سورة الجمعة، وابن عجيبة في المؤمنون والزمر والحشر[٤].

أما السمرقندي فقد فسر الغيب والشهادة أو حكى تفسيرهما بأن المراد بهما السر والعلن في آيات الأنعام والرعد والمؤمنون والسجدة والزمر والحشر؛ كما هو مذكور في هذه المواضع من كتبه[٥].

ولذلك ذكر فقهاء الحنفية[٦]

إنهما بمنزلة الآيتين، وفيهما من الفائدة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر وأنه قال كما أمر.

انظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد ص٤٢٨، حجة القراءات، ابن زنجلة ص٤٦٥.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٣١١٨، السراج المنير، الشربيني ٢/ ٣٩٨.

(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٤٥٣.

(٣) المواضع هي: الأنعام ٧٣، التوبة ٩٤ التوبة ١٠٥، الرعد ٩، المؤمنون ٩٢، السجدة ٦، الزمر ٤٦، الحشر ٢٢ الجمعة ٨، التغابن ١٨.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم رقم ١٢١٧٣، ٧/ ٢٢٢٨، الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٢٩٩.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٩، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٣٠، ٦/ ٢٧، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٨، حقائق التفسير، السلمي ٢/ ٣٢١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥١٥، تفسير القرآن السمعاني ٣/ ٤٨٨ و ٤/ ٢٧٢، و ٥/ ٤٠٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤٥، البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥٧، ٦/ ٤٠٦ ، ٨/ ٢٧، الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٢٩٩، ٤/ ٦١٠، ٨/ ١٢٣ وكلها عن ابن عباس.

(٦) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٧٩، ٢/ ٢١٩، ٢/ ٤٨٨، ٣/ ٣١، ٣/ ٤١٠.

والشافعية[1] والحنابلة[2] أن التغليظ في اليمين هو أن يحلف القاضي المتهم بلفظ نحو «والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم، الطالب الغالب، المدرك المهلك، الذي يعلم من السر ما يعلم من العلانية، الكبير المتعال» ونحو ذلك من الألفاظ يزيد عليها أو ينقص منها، غير أن جميعها تتفق على أن التغليظ يتضمن «عالم الغيب والشهادة» و«السر والعلانية».

أما المالكية فقد ذكروا في التغليظ في يمين اللعان، والقسامة لفظ «عالم الغيب والشهادة» ولم يذكروا ألفاظ مثل السر والعلن[3].

(١) انظر: المبسوط، السرخسي ١٦/ ٢٢٦، حاشية ابن عابدين ٥/ ٥٥٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٥٤.

(٢) انظر: المجموع، النووي ٢٠/ ٢١٧، فتح الوهاب، زكريا الأنصاري ٢/ ٤٠٢.

(٣) انظر: المغني، ابن قدامة ١٢/ ١١٣، شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٣/ ١٠٤.

صور العلن المحمود

العلن المحمود مبسوط في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، ومن تلك الصور:

أولًا: الدعوة إلى الله تعالى:

الدعوة إلى الله تعالى أمر ضروري لنشر الدين، والدعوة تتطلب كلامًا معلنًا يجهر به الداعي حتى تؤثر دعوته وتؤتي ثمارها، وقد وردت نصوص في القرآن الكريم تحث على ذلك، وتبين دعوة بعض الأنبياء إلى أقوامهم، وقد عبر القرآن عن الدعوة إلى الله تعالى بأساليب مختلفة، أبرزها على النحو التالي:

١. الدعوة إلى الله تعالى على جهة العموم بدون إشارة إلى السر والجهر.

وذلك نجده واضحًا في آيات مثل قول الله تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وذكر ابن عجيبة في إشاراته حول الآية الكريمة أن العبد لا يصلح أن يكون داعيًا إلى الله حتى يكون على بصيرة من ربه، بحيث لا يبقى فيه تقليد بحت، ولا يختلجه شك ولا هم، والدعاة إلى الله على ثلاث مراتب: فمنهم من يدعو على بصيرة الإسلام؛ وهم الدعاة إلى معرفة أحكام

الله وشرائعه، ومنهم من يدعو على بصيرة الإيمان، وهم الدعاة إلى معرفة صفات الله تعالى وكمالاته، ومعرفة ما يجب له تعالى وما يستحيل وما يجوز على طريق البرهان الواضح، ومنهم من يدعو إلى الله على بصيرة الإحسان، وهم الدعاة إلى معرفة الذات العلية على نعت الشهود والعيان، من طريق الذوق والوجدان؛ وهم العارفون بالله وهذه -أي: المرتبة الثالثة- الدعوة الحقيقية والبصيرة النافذة، وأهل هذا المقام هم اهل التربية النبوية، فدعوة هؤلاء أكثر نفعًا، وأنجح تأثيرًا؛ في زمن يسير؛ يهدي الله على أيديهم الجم الغفير[1].

وقوله جل شأنه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

والمراد الدعوة إلى دين ربك وطاعته عز وجل ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: بالنبوة والقرآن ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أي: عظهم بالقرآن ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: حاججهم وناظرهم بالحجة والبيان، أو باللين، وفي الآية دليل أن المناظرة والمجادلة في العلم جائزة إذا قصد بها إظهار الحق[2].

وهذه الآية تضمنت أصول الدعوة إلى الله تعالى باعتبار حال المدعو، كما ذكره الإمام الرازي حيث قال: «اعلم أنه تعالى أمر رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الأحسن، وقد ذكر الله تعالى هذا الجدل في آية أخرى فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاثة وعطف بعضها على بعض، وجب أن تكون طرقًا متغايرة متباينة»[3].

ثم قال: «فظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة:

أولها: الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وذلك هو المسمى بالحكمة، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي قال الله في صفتها: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وثانيها: الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية وهي الموعظة الحسنة.

وثالثها: الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم، وذلك هو

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٥٤، شرح منح الجليل، محمد عليش ٣/ ٥٥٧، التاج والإكليل، المواق ٦/ ٢٧٠.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٤٢٣.

(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٩٦.

الجدل»[1].

قلت: والمعروف أن الدعوة والمناظرة لا يكونان إلا علنًا، وكل ما دار من مناظرات بين الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم وخصومهم إنما كان بطريق الجهر لا بطريق الخفاء.

وقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: ٦٧].

والمراد بالدعوة إلى الله تعالى هنا -كما ذكره جمهور المفسرين- الدعوة إلى دينه وإلى توحيده عز وجل، وأن الخطاب فيها للنبي عليه الصلاة والسلام وأمر أن لا يخص بالدعاء أمة دون أخرى، فكلهم أمته صلى الله عليه وسلم[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

وهنا نلحظ أن الدعوة اقترنت بالعمل الصالح، وجرى خلاف في المقصود في الآية على ثلاثة أقوال:

أولها: وهو قول الحسن أنها عامة لجميع المؤمنين.

وثانيها: وهو قول ابن سيرين أن المقصود بها النبي صلى الله عليه وسلم، ودعوته الناس إلى توحيد الله عز وجل.

وثالثها: وهو قول السيدة عائشة أنها نزلت في المؤذنين[3].

قلت: ولا مانع من دخول كل الدعاة في الآية الكريمة، كما ذكره الرازي أن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه، والدعوة إلى الله مراتب:

فالمرتبة الأولى: دعوة الأنبياء عليهم السلام.

والثانية: دعوة العلماء.

والثالثة: دعوة المؤذنين[4].

ثم ذكر رحمه الله هذه المراتب بأن جعل دعوة الأنبياء عليهم السلام راجحة على دعوة غيرهم، وأن العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء، وأن المؤذنين يدخلون في هذا الباب دخولًا ضعيفًا، أما دخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الأذان دعوة إلى الصلاة، فكان ذلك داخلًا تحت الدعاء إلى الله، وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن أنه لا يحيط بمعاني تلك الكلمات وبتقدير أن يكون محيطًا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٨٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٦٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٥٢، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٢٢٨.
(٤) انظر: معاني القرآن، النحاس ٦/ ٢٦٧، تفسير السمرقندي ٣/ ٢١٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٦٨.

بها إلا أنه لا يريد بذكرها تلك المعاني الشريفة[1].

٢. دعوة الأنبياء إلى الله تعالى ومحاوراتهم لأقوامهم بين السرية والجهرية.

تضمن القرآن الكريم العشرات من مواضع دعوة الأنبياء أقوامهم إلى الله تعالى، وما دار بينهم وبين أقوامهم من حوار ومناظرة، وجدال، ولم ينص القرآن على الجهر بذلك في أكثر المواضع، إلا أن الذي يفهم من سياق الآيات أن تلك الدعوة غلب عليها طابع الجهر.

وإذا ذهبنا نتتبع هذه المواضع تفصيلا لطال بنا المقام في هذا الجانب، ولكن يكفي أن نشير إلى أشهر مواطن الدعوة إلى الله تعالى على لسان الأنبياء والرسل عليهم السلام إجمالا على هذا النحو:

- سيدنا نوح عليه السلام: دعا قومه إلى الله تعالى سرًا وجهرًا، وأمضى قرونا عديدة في دعوتهم رجاء هدايتهم، وذكرهم بنعم الله تعالى عليهم، وذلك في سورة الأعراف «الآيات٥٩-٦٤»، وسورة هود «٢٥-٤٩»، وسورة الشعراء «الآيات ١٠٥-١٢٢»، وسورة نوح كاملة.
- سيدنا هود عليه السلام: دعا قومه جهرة إلى عبادة الله تعالى وذكرهم بنعمه عليهم، وحذرهم عذابه، فلم يستجيبوا له فكان عاقبتهم السوء في الدنيا والآخرة، وذلك في سورة الأعراف «الآيات٦٥-٧٢»، وسورة هود «٥٠-٦٠»، وسورة الشعراء «الآيات١٢٣-١٤٠».
- سيدنا صالح عليه السلام: دعا قومه إلى الله تعالى جهرًا وذكرهم بنعم الله تعالى عليهم وحذرهم عذابه، وحذرهم من التعرض للناقة بسوء، فلم يأبهوا لدعوته، فكان جزاؤهم الهلاك والدمار، وذلك في سورة الأعراف «الآيات٧٣-٧٩»، وسورة هود «الآيات٦١-٦٨»، وسورة الشعراء «الآيات١٤١-١٥٩»، وسورة النمل «الآيات٤٥-٥٣».
- سيدنا إبراهيم عليه السلام: ناظر النمروذ بن كنعان فغلبه كما في سورة البقرة «الآية ٢٥٨»، ودعا قومه إلى عبادة الله، وناظرهم في عبادتهم للأصنام كما في سورة الأنعام «الآيات٧٤-٨٣»، ودعا أباه إلى الله وحاججه في كفره كما في سورة مريم «الآيات٤١-٤٩»، ودعا قومه إلى الله، وحاججهم في عبادة الأصنام وفي اعتراضهم على تحطيمه لها، كما ورد في أكثر من عشرين آية من

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٦٨.

سورة الأنبياء «الآيات٥١-٧٢»، وكل صور الدعوة السابقة كانت جهارًا، إلا ما كان من دعوته لأبيه وحواره معه، حيث لم أقف على ما يفيد هل كان ذلك سرًا أو جهرًا.

- سيدنا لوط عليه السلام: ناظر قومه جهرًا في إتيانهم الفاحشة والجهر بها، فلم يستجيبوا له بل تمادوا في غيهم وضلالهم، فدمر الله تعالى بيوتهم وأموالهم، وأهلكهم، وذلك كما في سورة الأعراف «الآيات ٨٠-٨٤» وسورة هود «الآيات٧٧-٨٣»، وسورة الشعراء «الآيات١٦-١٧٥»، وسورة النمل «الآيات٥٤-٥٨».
- سيدنا شعيب عليه السلام: دعا قومه إلى الله تعالى جهرة، وبين لهم قبح صنيعهم من قطع الطرقات، والتطفيف في الكيل والبخس في الميزان، وأكل أموال الناس بالباطل، وذلك في آيات سورة الأعراف «الآيات٨٥-٩٣»، وسورة هود «الآيات ٨٤-٩٥»، وسورة الشعراء «الآيات١٧٦-١٩١».
- سيدنا موسى عليه السلام: وقصته في الدعوة إلى الله تعالى والجهر بها، ومحاوراته مع فرعون والسحرة، ومحاوراته مع قومه مبسوطة في مواضع عدة من كتاب الله تعالى، أشير إلى أبرزها بإيجاز:

١. حواره مع قومه بشأن ذبح البقرة في الآيات «٦٥-٧٣» من سورة البقرة.
٢. حواره معهم بشأن دخول الأرض المقدسة وامتناعهم من ذلك في الآيات «٢٠-٢٦» من سورة المائدة.
٣. حواره مع فرعون وقصة السحرة في الآيات «١٠٣-١٢٦» من سورة الأعراف، والآيات «٧٦-٨١» من سورة يونس، والآيات «١٠١-١٠٤» من سورة الإسراء، والآيات «٤٨-٧٣» من سورة طه، والآيات «١٨-٦٨» من سورة الشعراء.
٤. حواره مع قومه حين طلبوا اتخاذ إله لهم في الآيات «١٣٨-١٤١» من سورة الأعراف.
٥. حواره مع قومه وأخيه هارون حين اتخذوا العجل معبودًا لهم خلال غيابه على جبل الطور، وذلك في الآيات «١٤٨-١٥٤» من سورة الأعراف، والآيات «٨٣-٩٨» من سورة طه.

- سيدنا عيسى عليه السلام: أيد الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام بنعمة النطق في المهد، فجهر بالدعوة إلى الله تعالى، وبين لقومه نعم الله تعالى عليه من شفاء المرضى، وإحياء الموتى، والبر بوالدته، وذلك كما في الآيات

«٤٩-٥١» من سورة آل عمران، والآيات «٣٠-٣٣» من سورة مريم.

٣. جهر سيدنا نوح عليه السلام بالدعوة نموذجًا.

وهذا ما صرحت به آيات سورة نوح عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ ثُمَّ لَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: ٥-٩].

ويلحظ في الآيات الكريمة مواطن عدة وأساليب مختلفة قام بها نبي الله نوح عليه السلام في الدعوة تعطي معنى العلن والجهر، فدعوة الليل والنهار فيها سر وعلن، وتغطية وجوههم وسد آذانهم إنما يفيد العلنية في الدعوة، والجهر بالدعوة واضح ومصرح به.

روي عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: بأعلى صوته[(١)]، وروي عن مجاهد قال: الجهار الكلام المعلن به[(٢)].

وذكر الطبري أن قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ يقول: صرحت لهم، وصحت بالذي أمرتني به من الإنذار، وأورد رواية عن مجاهد: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ يقول: صحت بهم[(٣)].

وذكر الألوسي أن المراد بالآيات: دعوتهم مرة بعد مرة وكرة غب كرة على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة وهو تعميم لوجوه الدعوة بعد تعميم الأوقات، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ يشعر بمسبوقية الجهر بالسر وهو الأليق بمن همه الإجابة لأنه أقرب إليها لما فيه من اللطف بالمدعو فثم لتفاوت الوجوه؛ وإن الجهار أشد من الإسرار والجمع بينهما أغلظ من الإفراد.

وحكى عن بعض الأجلة من العلماء أنه ليس في النظم الجليل ما يقتضي أن الدعوة الأولى كانت سرا فقط فكأنه أخذ ذلك من المقابلة ومن تقديم قوله: ﴿لَيْلًا﴾ وذكرهم بعنوان «قومه» وقوله: ﴿فِرَارًا﴾ فإن القرب ملائم له وجوز كون: ﴿ثُمَّ﴾ على معناها الحقيقي وهو التراخي الزماني لكنه باعتبار مبدأ كل من الإسرار والجهار ومنتهاه وباعتبار منتهى الجمع بينهما لئلا ينافي عموم الأوقات السابق[(٤)].

٤. جهر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة.

اتفق العلماء على أن مرحلة جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة كان بموجب

(١) انظر: المصدر السابق ٢٧/ ٥٦٨.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٣٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٣٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٣٢.

قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر: ٩٤][1]، وأنه صلى الله عليه وسلم أمر بالجهر بالدعوة بعد أن كانت في السر، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وكان الامتثال لذلك بأن قام عليه الصلاة والسلام بجمع قريش على الصفا ونادى عليهم بطنا بطنا وشعبا شعبا ودعاهم إلى الله تعالى، فمنهم من استجاب ومنهم من أعرض[2].

أخرج البخاري بسنده عن ابن عباسٍ رضى الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: (يا بنى فهرٍ، يا بنى عديٍ) لبطون قريشٍ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادى تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقى). قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال (فإنى نذيرٌ لكم بين يدى عذابٍ شديدٍ). فقال أبو لهبٍ تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا فنزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ [المسد: ١-٢][3].

وأخرج مسلم بسنده عن قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرٍو قالا: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ قال: انطلق نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى رضمةٍ من جبلٍ فعلا أعلاها حجرًا ثم نادى: (يا بنى عبد منافاه إنى نذيرٌ إنما مثلى ومثلكم كمثل رجلٍ رأى العدو فانطلق يربأ أهله فخشى أن يسبقوه فجعل يهتف يا صباحاه)[4].

والحديث صريح الدلالة في أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صرخ جهارًا داعيًا قومه ومحذرًا لهم.

ثانيًا: الإنفاق في سبيل الله تعالى:

الإنفاق في سبيل الله تعالى، ينقسم إلى قسمين: الإنفاق الواجب، وهو الزكاة، والإنفاق التطوع وهو الصدقة، وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير صراحة إلى موضوع الجهر بالنفقة أو السر بها، وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ

(١) روح المعاني، الألوسي ٢٩/ ٧٢.

(٢) سمع أعرابي رجلاً يقرأ قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ فسجد، فقيل له في ذلك فقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام.
انظر: أعلام النبوة، الماوردي ص٢٧٥، السيرة الحلبية، برهان الدين الحلبي ١/ ٤٧٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٠٤، تفسير السمرقندي ٢/ ٥٦٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٦٧، أعلام النبوة، الماوردي ص٢٧٥، السيرة الحلبية، الحلبي ١/ ٤٥٧، الخصائص الكبرى، السيوطي ١/ ٢٠٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير باب وأنذر عشيرتك الأقربين، رقم ٤٧٧٠.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١]. (١).

وللمفسرين كلام طيب ولطائف تفسيرية بليغة في هذه الآية الكريمة:

ومن تلك اللطائف: الموازنة بين الإخفاء والإظهار في الصدقات:

من جوانب أفضلية إخفاء الصدقة ما يلي:

الأول: أن الإخفاء يجعل الصدقة أبعد عن الرياء والسمعة، والمتحدث بصدقته لا شك أنه يطلب السمعة، والمعطي في ملأ من الناس يطلب الرياء، والإخفاء والسكوت هو المخلص منهما، وقد بالغ قوم في قصد الإخفاء، واجتهدوا أن لا يعرفهم الآخذ، فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى، وبعضهم يلقيه في طريق الفقير، وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطي، وبعضهم كان يشده في أثواب الفقير وهو نائم، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره، والمقصود عن الكل الاحتراز عن الرياء والسمعة والمنة، لأن الفقير إذا عرف المعطي فقد حصل الرياء والمنة معًا وليس في معرفة المتوسط الرياء.

الثاني: أن المتصدق إذا أخفى صدقته لم يحصل له بين الناس شهرة ومدح وتعظيم، فكان ذلك يشق على النفس، فوجب أن يكون ذلك أكثر ثوابًا.

الثالث: ورود العديد من الأحاديث الدالة على فضل إخفاء الصدقة، منها حديث: (سبعةٌ يظلهم الله فى ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشابٌ نشأ فى عبادة ربه، ورجلٌ قلبه معلقٌ فى المساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ طلبته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدقَ، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)(٢).

الرابع: أن إظهار الصدقة يوجب إلحاق الضرر بالآخذ من وجوه، والإخفاء لا يتضمن ذلك، فوجب أن يكون الإخفاء أولى، ومن وجوه الضرر المترتبة على الإظهار:

- هتك عرض الفقير وإظهار فقره، وربما لا يرضى الفقير بذلك.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التفسير باب في قوله وأنذر عشيرتك الأقربين، رقم ٥٢٧.

(٢) اختلف في قراءة: (فنعما هي) فقرأ نافع في غير رواية ورش وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل: (فنعما) بكسر النون وسكون (فنعما) بكسر النون والعين وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: (فنعما) بفتح النون وكسر العين وكلهم شدد الميم.
انظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد ص١٩٠، الحجة في القراءات، ابن زنجلة ص١٤٦.

- إخراج الفقير من هيئة التعفف وعدم السؤال، والله تعالى مدح ذلك في قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].
- أن الناس ربما أنكروا على الفقير أخذ تلك الصدقة، ويظنون أنه أخذها مع الاستغناء عنها، فيقع الفقير في المذمة والناس في الغيبة.
- أن في إظهار الإعطاء إذلالًا للآخذ وإهانة له وإذلال المؤمن غير جائز[(١)].

ولهذا تجد حكمة في قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وهي: الإشارة إلى تفضيل صدقة السر على العلانية، والمعنى: أن الله عالم بالسر والعلانية وأنتم إنما تريدون بالصدقة طلب مرضاته، فقد حصل مقصودكم في السر، فما معنى الإبداء، فكأنهم ندبوا بهذا الكلام إلى الإخفاء ليكون أبعد من الرياء[(٢)].

ومن جوانب أفضلية الإظهار ما يلي:

الأول: أن الإنسان إذا علم أنه إذا أظهرها، صار ذلك سببًا لاقتداء الخلق به في إعطاء الصدقات، فينتفع الفقراء بها فلا يمتنع، والحال هذه أن يكون الإظهار أفضل.

هذا وقد حكى بعض المفسرين اتفاق العلماء على أن: إخفاء صدقة التطوع أفضل من إظهارها، وأن الخلاف جارٍ في الزكاة المفروضة[(٣)] على نحو ما سيأتي ذكره في موضعه.

وما أجمل ما ذكره ابن العربي: أنه ليس في تفضيل صدقة العلانية على السر، ولا تفضيل صدقة السر على العلانية حديث صحيح ولكنه الاجماع الثابت، فأما صدقة النفل فالقرآن ورد مصرحًا، أن الحال في الصدقة تختلف بحال المعطي لها، والمعطى إياها والناس الشاهدين لها.

أما المعطي فله فيها فائدة إظهار السنة وثواب القدوة؛ وهذا لمن قويت حاله وحسنت نيته وأمن على نفسه الرياء، وأما من ضعف عن هذه المرتبة فالسر له أفضل، وأما المعطى إياها فإن السر له أسلم من احتقار الناس له،أو نسبته إلى أنه أخذها مع الغنى عنها وترك التعفف، وأما حال الناس فالسر عنهم أفضل من العلانية لهم، من جهة أنهم ربما طعنوا على المعطي لها بالرياء وعلى الآخذ لها بالاستغناء، ولهم فيها تحريك القلوب إلى الصدقة، لكن هذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم ٦٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ٢٤٢٧.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٦١.
(٣) انظر: المصدر السابق ٧/ ٦٢.

اليوم قليل[1].

ثالثًا: إقامة الحدود:

شرع الله تعالى الحدود جزاء للجرائم التي يرتكبها البعض في حق الله تعالى، وفي حق المجتمع، كجرائم الردة والسرقة، والحرابة،والزنا، والقذف، وشرب الخمر، ونبه سبحانه وتعالى على أن يكون تنفيذ هذه العقوبات علنًا حتى تكون رادعًا لمن تسول له نفسه أن يقدم على جريمة في حق غيره.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: ٢].

وقد اتفق الفقهاء على ضرورة الجهر بإقامة الحدود، كما هو مبسوط في مواضعه من كتب الفقه، وإن كان الحكم يختلف عند بعضهم من الوجوب إلى السنية إلى الاستحباب[2].

قال الكاساني: «ينبغي أن تقام الحدود كلها في ملأ من الناس لقوله تبارك وتعالى -عز اسمه-: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والنص وإن ورد في حد الزنا لكن النص الوارد فيه يكون واردا في سائر الحدود دلالة»[3].

الحكمة من حضور طائفة من المؤمنين إقامة الحد:

ذكر الكاساني حكمًا تشريعية مختلفة من إقامة الحدود علنا هي:

١. أن المقصود من الحدود كلها واحد وهو زجر العامة وذلك لا يحصل إلا وأن تكون الإقامة على رأس العامة لأن الحضور ينزجرون بأنفسهم بالمعاينة والغيب ينزجرون بإخبار الحضور فيحصل الزجر للكل.

٢. أن فيه منع الجلاد من المجاوزة عن الحد الذي جعل له؛ لأنه لو جاوز لمنعه الناس عن المجاوزة.

٣. أن فيه دفع التهمة والميل فلا يتهمه الناس أن يقيم الحد عليه بلا جرم سبق منه[4].

وذكر السمرقندي أن في حضور الطائفة ثلاث فوائد:

الأولى: أنهم يعتبرون بذلك ويبلغ الشاهد الغائب.

والثانية: أن الإمام إذا إحتاج إلى الإعانة

(١) انظر: معاني القرآن، النحاس ١/ ٣٠١، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٢٦.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٧٢.

(٣) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ٦١، حاشية الدسوقي، محمد عرفة الدسوقي ٤/ ٣٢٠، نهاية المحتاج، الرملي ٧/ ٤٣٢، المغني، ابن قدامة ١٠/ ١٣٣، شرح منهتى الإرادات، البهوتي ٣/ ٣٤٠.

(٤) بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ٦١.

أعانوه.

والثالثة: لكي يستحي المضروب فيكون زجرا له من العود إلى مثل ذلك الفعل[1].

ومن حكمة حضور الطائفة: أن حضور الطائفة ليس بقصد الفضيحة، إنما ذلك لِيُدْعَى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة، وهو مروي عن نصر بن علقمة[2].

وقد جرى خلاف في الطائفة المرادة في الآية من حيث العدد، وحاصل ما في المسألة الأقوال التالية:

القول الأول: أن الطائفة معناها رجل واحد فما فوق، حيث إن العرب تسمي الواحد طائفة، وعليه فيكفي في شهود الحد رجل واحد وهو أقل ما يطلق عليه طائفة، وهذا مروي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وعامر الشعبي[3].

القول الثاني: أن الطائفة المراد بها رجل واحد، وهو مروي عن إبراهيم النخعي، وحماد بن أبي سلمة[4].

القول الثالث: أن أقل الطائفة اثنان، وهو مروي عن عكرمة وعطاء[5]، ومشهور مذهب مالك[6].

القول الرابع: أن أقل الطائفة ثلاثة، وهو مروي عن قتادة وابن شهاب الزهري[7].

القول الخامس: أن أقل الطائفة أربعة رجال، وهو مروي عن أنس بن مالك، وابن أبي زيد[8]، وهو الأظهر من مذهب مالك[9] والشافعي[10]. وحجتهم أنه لا يكون شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعدًا[11].

القول السادس: أن الطائفة عشرة رجال، وهو مروي عن الحسن[12].

وما أجمل ما قاله الماوردي في تفسير الطائفة: «أما الطائفة فقد ورد القرآن بها في مواضع يختلف المراد بها من الأعداد لاختلاف ما اقترن بها من الأحكام، والمراد

(١) المصدر السابق ٧/ ٦١.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٩٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٩، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ١٢٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٩٣، معاني القرآن، النحاس ٤/ ٤٩٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٦٦، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ١٢٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٩٤، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ١٢٦..
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٦٦.
(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٦٦، مواهب الجليل، للحطاب ٨/ ٣٩٩.
(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٩٥، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ١٢٦.
(٩) انظر: المصادر السابقة.
(١٠) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٦٦، حاشية الدسوقي ٤/ ٣٢٠.
(١١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ١٢٦، الحاوي الكبير، الماوردي ٢/ ٤٦٤، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ١٥٢.
(١٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٦٦، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ١٢٦.

بقوله تعالى: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾[النساء: ١٠٢].

أقلها ثلاثة: لأن المأمور فيها أن يصلي بجماعة وأن تحرسه جماعة فكانت الطائفة عبارة عن الجماعة، وأقل الجمع في الإطلاق ثلاث وإنما يعبر عن الاثنين بلفظ الجمع بدليل لا بمطلق العبارة وظاهرها.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩].

فحمل على الفريقين والقبيلتين من الناس، وقال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

فحمل على الأربعة في الآيات لتعلقه بالزنا ولا يثبت بأقل من أربعة، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾[التوبة: ١٢٢].

فحمل على الواحد لأن الإنذار يقع به فكان ذكر الطائفة في هذا الموضع يختلف حملا على ما يليق بها»[١].

قلت: المقصود من العلنية تحقيق مصالح شرعية من الزجر والردع، والاشتهار -أي: التشهير- والدعاء للمحدود، ونحو ذلك مما سبق ذكره، ولهذا يذكر بعض فقهاء القانون المعاصرين: أن علانية تنفيذ الحد ضرورية عملا بالآية الكريمة، وأن كثيرا من القوانين الوضعية الأوربية والعربية تتفق مع ما قرره القرآن من اشتراط العلانية في تنفيذ عقوبة الإعدام خاصة، وأما في حد الزنا فإنه كلما كان الحد رجمًا فالمفروض أن عدد الرماة غير محدود وأنه يجب أن يكون من الكثرة بحيث يقضى على المرجوم بسرعة، أما فى الجلد فيكفى فى إقامة الحد شخص واحد[٢].

رابعًا: العبادات:

العبادات كما هو معروف تشمل صنوفا مختلفة، فمنها البدنية فقط كالصلاة والصيام، ومنها المالية فقط كالزكاة، ومنها ما يجمع بين البدنية والمالية كالحج، ويدخل في العبادات الذكر من تسبيح وتكبير وتحميد وتهليل ودعاء واستغفار وقراءة القرآن، وكل هذه العبادات يؤديها الإنسان سرًا وجهرًا.

قال الغزالي رحمه الله: «كل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء، وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل؛ لأن الإيذاء حرام، فإن لم يكن

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٩٥، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ١٢٦.

(٢) الحاوي الكبير، الماوردي ٢/ ٤٦٤-٤٦٥.

فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل»[1].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى ذلك، ونصت السنة النبوية على الجهر بعبادات بعينها نظرًا لما للجهر من أثر في العبادة وتعظيم لها، وأورد هنا طرفا من جوانب العلن المحمود في العبادات على النحو التالي:

١ . العلن في الصلاة.

الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة[2].

وتنقسم الصلاة من حيث السرية والجهرية إلى قسمين: صلوات سرية وهي الظهر والعصر، والركعة الأخيرة من المغرب، والركعتين الأخيرتين من العشاء، وصلوات جهرية: وهي الفجر والركعتين الأوليين من المغرب ومثلهما من العشاء، وصلاة الجمعة، وما عدا الصلوات الخمس فيه صلوات سرية وجهرية كما هو معروف في مواضعه من كتب الفقه.

ولما كانت الصلاة مشتملة على أقوال كالقراءة والتسبيح والتكبير والتشهد، فإن من هذه الأقوال ما يجهر فيه ومنها ما يسر به، فقراءة الفاتحة والسورة والتكبيرات مما يجهر به الإمام في الجهرية، ويجهر به المنفرد في الجهرية كذلك، وما عدا ذلك يسر به.

ويقسم بعض الفقهاء الجهر والسر إلى درجات أربعة: أدنى الجهر وأعلى الجهر، وأدنى السر وأعلى السر.

فأدنى الجهر: هو أن يسمع نفسه ومن يليه،وأعلى الجهر لا حد له، أو هو أقواه أو المبالغة فيه جدًا.

وأدنى السر أن يحرك لسانه بالقراءة، وأعلاه أن يسمع نفسه فقط[3].

والآية الوحيدة في القرآن التي ورد فيها ذكر الجهر في الصلاة والمخافتة بها هي قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١١٠].

ومن لطيف ما يتعلق بها عن الصاحبين رضي الله عنهما ما رواه محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي، عز وجل، وقد علم حاجتي. فقيل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان، وأوقظ الوسنان[4] قيل

(١) انظر: التشريع الجنائي في الإسلام، عبدالقادر عودة ٢/ ٤٣٤ و٤٨٥.
(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٣١٧.
(٣) نهاية المحتاج، الرملي ١/ ٣٥٩.
(٤) انظر: حاشية ابن عابدين ١/ ٥٣،٥٣٤، الهداية، مرغيناني ١/ ٥٤، مواهب الجليل،

أحسنت. فلما نزلت: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئًا، وقيل لعمر: اخفض شيئًا[1].

وقد اختلف المفسرون والفقهاء في المقصود بالصلاة في الآية هل القراءة أم الدعاء على رأيين:

الرأي الأول: أن المقصود بالصلاة فيها الدعاء، وهو رأي كثير من السلف، فأكثرهم يحملون الآية على الدعاء وليس على قراءة القرآن، حيث روي ذلك عن ابن عباس، وعائشة، وعروة بن الزبير، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومكحول، وعطاء رضوان الله عليهم[2].

والآثار المروية عن هؤلاء الصحابة والتابعين كثيرة في كتب السنة والتفسير، لا يتسع المقام لسردها.

الرأي الثاني: أن المقصود بها القراءة في الصلاة.

وبناء عليه جرى الخلاف في بعض مسائل القراءة في الصلاة كجهر الإمام بالبسملة في القراءة، حيث وصل الخلاف فيها إلى سبعة أقوال، ولكن أشهرها ثلاثة أوردها ببعض أدلتها على هذا النحو:

القول الأول: أن الإمام يجهر بالبسملة في الصلاة استحبابًا.

وهو للشافعية وبعض المالكية وبعض الحنابلة، وروي عن جمع من الصحابة والتابعين وتابعيهم[3].

واستدلوا بما يلي:

- قول الله تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [طه: ١١٠].ووجه الدلالة منها أنها تدل على مشروعية الجهر بالبسملة إذا المراد بخفض قراءته دون الجهر الشديد الذي يبلغ أسماع المشركين[4].

الحطاب ٢/ ٢٢٣، حاشية الدسوقي ٢/ ٢٤٣.

(١) وسن يوسن وسنًا فهو وسنٌ ووسنان وميسانٌ والأنثى وسنةٌ ووسنى وميسانٌ، ورجل وسنان ونعسان بمعنى واحد والسنة نعاسٌ يبدأ في الرأس فإذا صار إلى القلب فهو نوم، والوسن أول النوم، وفي الحديث: (وتوقظ الوسنان) أي: النائم الذي ليس بمستغرقٍ في نومه.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٤٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم ١٣٣١، والترمذي في سننه، كتاب الصلاة، باب قراءة الليل، رقم ٤٤٧.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وصححه النووي في خلاصة الأحكام ١/ ٣٩١.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٢٤ حيث انفرد بإخراجه عن محمد بن سيرين مرسلا كما ذكره الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الكشاف، ٢/ ٢٩٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٨٣، معاني القرآن، النحاس ٤/ ٢٠٦-٢٠٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٢٩.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٦، الذخيرة، القرافي ٢/ ١٧٦، المجموع، النووي ٣/ ٣٤١، مغني المحتاج، الشربيني ١/ ١٥٧.

- ما روي عن ابن عمر، قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكرٍ، وعمر رضي الله عنهما فكانوا يجهرون بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[1].
- ما روي عن نعيمٍ المجمر، أنه قال: صليت وراء أبي هريرة فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم قرأ بأم القرآن حتى بلغ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: آمين وقال الناس: آمين، ويقول كلما سجد: الله أكبر وإذا قام من الجلوس من اثنتين قال: الله أكبر، ثم يقول إذا سلم: والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاةً برسول الله صلى الله عليه وسلم[2].
- من المعقول أن البسملة آية من الفاتحة فلها حكم باقي آياتها في الجهر والإسرار، حيث دل الاستقراء على أن السورة الواحدة بتمامها إما أن تكون سرية أو جهرية، فأما أن يكون بعضها جهر فهذا مفقود[3].

القول الثاني: أنه يسن للإمام الإسرار بالبسملة أي: إخفائها في الصلاة.

وهو مذهب الحنفية والمالكية في الفرض، وجمهور الحنابلة، ورأي للإباضية، وروي عن بعض الصحابة والتابعين[4].

واستدلوا بما يلي:

- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [طه: ١١٠]. ووجه الدلالة منها كما روي عن سعيد بن جبيرٍ قال: كان المشركون يحضرون بالمسجد، فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بسم الله الرحمن الرحيم» قالوا: هذا محمدٌ يذكر رحمان اليمامة يعنون مسيلمة فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم، ونزل: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله: فبقي ذلك إلى يومنا هذا على ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقي الرمل في الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة في صلاة النهار وإن زالت العلة[5].

---

(١) أحكام البسملة، الرازي ص٦٨.

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه، رقم ١٢، ١/ ٣٠٥، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة والجهر بها واختلاف الروايات في ذلك، وفيه أبو الطاهر أحمد بن عيسى، وهو ضعيف الحديث كما ذكره الغساني في تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني ص١٠٠.

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه، رقم ١٤، ١/ ٣٠٥، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة والجهر بها واختلاف الروايات في ذلك. وقال: إسناده صحيح ورواته كلهم ثقات.

(٤) انظر: أحكام البسملة، الرازي ص٧٣.

(٥) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٦١، حاشية ابن عابدين ١/ ٤٩٠، الذخيرة، القرافي ٢/ ١٧٦، التاج والإكليل، المواق

- حديث أنسٍ: كان النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكرٍ، وعمر يفتتحون ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: قلت: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: خلفها يقول: خلفها يقول: أسررها[1].
- القياس على الاستعاذة بجامع أن كلاهما افتتاح للصلاة فيأخذ حكما واحدًا.
- بالمعقول أنه لو كان الجهر بالبسملة ثابتًا لنقل متواترا أو مستفيضا كوروده في سائر القراءة[2].

القول الثالث: أن الإسرار بها والجهر سواء.

وهو قول عند الحنابلة، وروي عن ابن أبي ليلى والحكم[3].

وهؤلاء نظروا إلى أدلة المثبتين للجهر والمثبتين للسر، فأزالوا ما بينهما من التعارض وجعلوا الأمر بالخيار.

١/ ٥٤٤، كشاف القناع، البهوتي ١/ ٣٣٥.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٩٦، المجموع، النووي ٣/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، رقم ٢٥٩٩، كتاب الصلاة، باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم.
وله شاهد عند البخاري بلفظ: عن أنسٍ أن النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكرٍ وعمر رضى الله عنهما كانوا يفتتحون الصلاة بـ(الحمد لله رب العالمين).
أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقول بعد التكبير، رقم ٧٤٣.

(٣) المجموع ٣/ ٣٤٣.

أما بقية الأقوال الأخرى فهي:

القول الرابع: أن الإمام يجهر بها مطلقا في الصلوات الجهرية والسرية. وهو مروي عن بعض أهل البيت[4].

القول الخامس: أن الجهر بالبسملة واجب في الجهرية «الصبح وأوائل المغرب والعشاء»، وهو مذهب الإمامية[5].

القول السادس: أن البسملة لا يسر بها ولا يجهر في الصلاة مطلقا، فلا تقرأ.

وقد حكاه الشوكاني عن بعض العلماء وهم النافين لكونها من القرآن مطلقا[6].

القول السابع: أنه يجهر بها في حالات معينة على تفصيل في تلك الحالات:

- أنه يجهر بها في النوافل فقط.
- أنه يجهر بها في صلاة الجنازة ونحوها لأجل التعليم.
- أنه يجهر بها في المدينة المنورة.

وهذه الحالات كلها مروية عن بعض الحنابلة[7].

وسبب الخلاف في المسألة كما ذكره بعض العلماء أمران:

الأمر الأول: تعارض الآثار الواردة

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٦١، الإنصاف، المرداوي ٢/ ٣٧، نيل الأوطار، الشوكاني ١/ ٢١٨.

(٥) نيل الأوطار، الشوكاني ٢/ ٢١٨.

(٦) انظر: نيل الأوطار، الشوكاني ٢/ ٢١٨، النيل وشفاء العليل،أطفيش ١/ ١٣٥.

(٧) انظر: نيل الأوطار، الشوكاني ٢/ ٢١٨.

في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة.

الأمر الثاني: الخلاف الواقع في البسملة هل هي آية من الفاتحة أم لا[1].

الرأي المختار: بعدما تقدم ذكره من الأقوال في الجهر بالبسملة أو الإسرار بها يمكن اختيار القول الثالث وهو: أن الجهر بها والإسرار سواء، وذلك جمعا بين الأدلة وإعمالا لأدلة المثبتين للجهر والنافين له، حيث إن أدلة الفريقين كثيرة من الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين[2].

أما بقية مسائل الجهر الأخرى في الصلاة فهي على النحو التالي إجمالا:

٤. جهر الإمام بالتكبير والتسميع والسلام كي يسمعه المأمومون الذين يصلون خلفه وهذا الجهر سنة باتفاق الحنفية والشافعية والحنابلة[3]، وقال المالكية: إنه مندوب لا سنة[4].

٥. الجهر بالقراءة للإمام والمنفرد في الركعتين الأوليين من صلاة المغرب والعشاء وفي ركعتي الصبح والجمعة، وهذا متفق عليه عند المالكية والشافعية[5]. أما الحنفية فالجهر واجب على الإمام وسنة للمنفرد[6]، وأما الحنابلة فيرون أن الجهر فيها سنة للإمام، المنفرد مخير بين الجهر والإسرار في الصلاة الجهرية[7].

٦. الجهر في غير الفرائض كالوتر ونحوه والنوافل ففيه تفصيل في المذاهب:

- الحنفية: يجب الجهر على الإمام في كل ركعات الوتر في رمضان وصلاة العيدين والتراويح ويجب الإسرار على الإمام والمنفرد في صلاة الكسوف والاستسقاء والنوافل النهارية أما النوافل الليلية فهو مخير فيها[8].
- المالكية: يندب الجهر في جميع النوافل الليلية ويندب السر في جميع النوافل النهارية إلا النافلة التي لها خطبة كالعيد والاستسقاء فيندب الجهر فيها[9].
- الشافعية: يسن الجهر في العيدين

(١) انظر: الإنصاف، المرداوي ٢/ ٣٧.
(٢) انظر: مسائل مختارة من فقه العبادات، ص١٦٥-١٦٩.
(٣) انظر: المبسوط، السرخسي ١/ ١٥، المجموع، النووي ٣/ ٢٤٢-٢٤٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢١٩.
(٤) انظر: البحر الرائق، ابن نجيم ١/ ٣١٩، الشرح الكبير، الدردير ١/ ٣٩٩، الحاوي الكبير، الماوردي ٢/ ٩٦، المغني، ابن قدامة ١/ ٥٤٢، الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ١/ ٢٨٩.
(٥) انظر: الشرح الكبير، الدردير ١/ ٣٩٩، الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ١/ ٢٨٩.
(٦) انظر: مواهب الجليل، الحطاب ٢/ ٣٧٤.
(٧) انظر: البحر الرائق، ابن نجيم ١/ ٣١٩.
(٨) انظر: كشاف القناع، البهوتي ١/ ٣٤٣.
(٩) انظر: البحر الرائق، ابن نجيم ١/ ٣١٩، الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ١/ ٣١٩.

وكسوف القمر والاستسقاء والتراويح ووتر رمضان وركعتي الطواف ليلا أو صبحًا، والإسرار في غير ذلك إلا نوافل الليل المطلقة فيتوسط فيها بين الجهر مرة والإسرار أخرى[1].

- الحنابلة: يسن الجهر في العيد والاستسقاء والكسوف والتراويح والوتر إذا وقع بعد التراويح ويسر فيما يسر.

٢. العلن في الصيام.

يشير الإمام الغزالي إلى أن الإسرار للأعمال فيه فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الإقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء، وروى عن الحسن قوله:« قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين».

ولكن في الإظهار أيضا فائدة، والإظهار قسمان:

أحدهما: في نفس العمل.

والآخر: التحدث بما عمل.

القسم الأول إظهار نفس العمل؛ كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها، وقال- أي الغزالي- إن سائر الأعمال تجري هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها[2].

والصيام عبادة بدنية تشتمل على فرض ونفل كما هو معروف، غير أنه يعد من العبادات التي فيها سر بين العبد وربه جل وعلا، وقد افترضه الله تعالى على الأمة بهذه الآيات البينات من سورة البقرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ [البقرة: ١٨٣ – ١٨٥].

وورد في السنة النبوية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنةٌ، وإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحدٌ، أو قاتله فليقل: إني امرؤٌ صائمٌ، والذى نفس محمدٍ بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه)[3].

(١) انظر: مواهب الجليل، الحطاب ٢/ ٣٧٤.
(٢) انظر: المغني، ابن قدامة ١/ ٣٢٨، الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ١/ ٣١٩..
(٣) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٣١٧.

وعبارة: (فإنه لي وأنا أجزي به) فيها كلام طيب للمفسرين وغيرهم.

قال بعض المفسرين: «إنما اختص الصوم بأنه له، وإن كان كل العبادات له، لأمرين باين الصوم بهما سائر العبادات: أحدهما: أن الصوم منع من ملاذ النفس وشهواتها، ما لا يمنع منه سائر العبادات، والثاني: أن الصوم سر بين العبد وربه لا يظهر إلا له، فلذلك صار مختصًا به، وما سواه من العبادات ظاهر، ربما فعله تصنعًا ورياء، فلهذا صار أخص بالصوم من غيره»[(١)].

ومما يحرم على المرء فعله الجهر بالفطر في نهار رمضان إذا لم يكن لديه عذر شرعي يبيح له الفطر، لما في ذلك من انتهاك لحرمة الشهر الكريم، وهذا يستوجب الوعظ والتذكير إن كان ممن يقبل ذلك أو كان ظاهر الصلاح، أما إذا لم يكن كذلك فيعزر كما ذكره بعض فقهاء المالكية[(٢)].

قال الدسوقي: «من تعاطى المفطر ظاهرًا فيوعظ إن كان ظاهر الصلاح وإلا عزر»[(٣)].

إما إن كان ممن لا يقبل الوعظ أو جهر بفسقه بالفطر فينبغي أن يعزر كما فعله سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالنجاشي الشاعر حين شرب الخمر في رمضان وجهر بفسقه وفطره.

فقد روي أن عليا ضرب النجاشى الحارثى الشاعر وشرب الخمر فى رمضان فضربه ثمانين جلدة ثم حبسه وأخرجه من الغد فجلده عشرين وقال: إنما جلدتك هذه العشرين لجرأتك على الله وإفطارك فى رمضان[(٤)].

وإذا وجدت ضرورة تدعو شخصًا للفطر، كما لو رأى هلال شوال وحده، أو حاضت امرأة أو نفست في نهار رمضان فأفطرت فالأولى أن لا يجهرون بفطرهم أمام الناس مراعاة لحرمة اليوم.

ففي حاشية قليوبي على المنهاج «ويندب إخفاء الفطر عند من جهل عذر المفطر»[(٥)].

وقال الشرواني: «ومتى رأى شوالا وحده لزمه الفطر فإن شهد ثم أفطر لم يعزر وإن ردت شهادته وإلا بأن أفطر ثم شهد برؤيته سقطت شهادته وعزر وحقه إذا أفطر أن يخفيه أي: الإفطار والظاهر أنه على وجه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصيام، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم ١٩٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام باب فضل الصيام، رقم ٢٧٦٢.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٣٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٧٤.

(٣) انظر: حاشية الدسوقي ١/ ٥١٢.

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم ١٧٠٤٢، ٩/ ٢٣١، كتاب الأشربة، باب الشراب في رمضان وحلق الرأس، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم ١٨٠٠١، ٨/ ٣٢١ عن أبي مروان عن أبيه.

الندب»[1].

٣. العلن في الزكاة.

الزكاة عبادة مالية، فيها حق لله تعالى، وحق للفقير أو المستحقين للزكاة، وهي من العبادات التي تشتمل على تكافل وتراحم، وتعاون، وتتعلق بالأموال الظاهرة كالماشية والزروع والثمار ونحوها، والخفية كالأموال النقدية والحلي ونحوهما، وقد جرى خلاف في أفضلية العلن في الزكاة المفروضة أو الخفاء على قولين:

يرى بعض المفسرين أن قول الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

يشمل صدقة التطوع والزكاة، وعليه فقد اختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول: أن إظهار الزكاة أفضل، وهو مروي عن ابن عباس وغيره، واختاره أبو يعلى من الحنابلة[2].

ومما يؤيد هذا القول ما يلي:

٧. أن الله تعالى أمر الأئمة بتوجيه السعاة لطلب الزكاة، وفي دفعها إلى السعاة إظهارها.

٨. أن في إظهارها نفي التهمة، روي أنه صلى الله عليه وسلم كان أكثر صلاته في البيت إلا المكتوبة فإذا اختلف حكم فرض الصلاة ونفلها في الإظهار والإخفاء لنفي التهمة، فكذا في الزكاة.

٩. أن إظهارها يتضمن المسارعة إلى أمر الله تعالى وتكليفه، وإخفاءها يوهم ترك الالتفات إلى أداء الواجب فكان الإظهار أولى[3].

القول الثاني: أن إخفاء الزكاة أفضل، وهو مروي عن الحسن، وقتادة، ويزيد بن أبي حبيب[4].

ويؤيده ما يلي:

١٠. أن إظهار زكاة الأموال توجب إظهار قدر المال، وربما كان ذلك سببًا للضرر، بأن يطمع الظلمة في ماله، أو بكثرة حساده، وإذا كان الأفضل له إخفاء ماله لزم منه لا محالة أن يكون إخفاء الزكاة أولى.

١١. أن هذه الآية إنما نزلت في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ما كانوا متهمين في ترك الزكاة فلا جرم كان إخفاء الزكاة أولى لهم لأنه أبعد عن الرياء والسمعة أما الآن فلما حصلت التهمة كان الإظهار

(١) انظر: حاشية قليوبي على المنهاج ٢/ ٨٣.
(٢) انظر: حواشي الشرواني والعبادي على تحفة المحتاج ٣/ ٤٥٠.
(٣) انظر: معاني القرآن، النحاس ١/ ٣٠١، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٦٢، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٢٦.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٦٢.

أولى بسبب حصول التهمة[1].

قلت: وكلا القولين له وجهه، غير أنه ينبغي أن يخلو الأمر في الحالتين من الرياء، إذ الرياء يحبط ثواب الأعمال كما هو معروف.

٤. العلن في الحج والعمرة.

تقدم ذكر كلام الغزالي بأن كل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء[2].

والحج والعمرة من العبادات التي لا تخفى إذ هي سفر وارتحال ذهابا وإيابًا، وما يؤديه الحاج من مناسك يطلع عليه الغادي والرائح، وكل هذا مما لا يمكن إخفاؤه، فالجهر به أمر لا ينفك عنه.

ويشتمل الحج والعمرة على التلبية، وهي مما يجهر به الرجال باتفاق العلماء[3]، أما النساء فلا يجهرن بها[4].

فمما يؤيد رفع الصوت بالتلبية للرجال ما أخرجه مسلم عن ابن عباسٍ قال: سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة فمررنا بوادٍ فقال: (أيُّ وادٍ هذا؟)، فقالوا: وادي الأزرق، فقال: (كأني أنظر إلى موسى صلى الله عليه وسلم فذكر من لونه وشعره شيئًا لم يحفظه داود واضعًا إصبعيه في أذنيه له جؤارٌ إلى الله بالتلبية مارًّا بهذا الوادي)، قال: ثم سرنا حتى أتينا على ثنيةٍ فقال: (أيُّ ثنيةٍ هذه؟)، قالوا: هرشى أو لفتٌ، فقال: (كأني أنظر إلى يونس على ناقةٍ حمراء عليه جبة صوفٍ خطام ناقته ليفٌ خلبةٌ مارًّا بهذا الوادي ملبيًا)[5].

وما أخرجه مالك بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أو من معي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية أو بالإهلال)[6].

ويستدل كذلك من المعقول بأن الحج عبادة لها تحريم فيكون لها نطق كالصلاة[7].

وأما عدم رفع صوت المرأة بالتلبية فقد حكى ابن عبد البر إجماع العلماء على أن

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٦٣، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٢٦.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٦٢.
(٣) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٣١٧.
(٤) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٢/ ١٤٥، الذخيرة، القرافي ٣/ ٢١٨، الخرشي على مختصر خليل ٢/ ٣٢٥، الحاوي الكبير، الماوردي ٤/ ٨٨، نهاية المحتاج، الرملي ١/ ٤٨١، كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٤١٩.
(٥) انظر: مجمع الأنهر، شيخي زاده ١/ ٤٢١، الذخيرة، القرافي ٣/ ٢٣٣، المغني، ابن قدامة ٣/ ٣١٧، كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٤٨٨.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، رقم ٤٣٩.
(٧) أخرجه مالك في الموطأ رقم ٧٣٦، ١/ ٣٣٤ عن خلاد بن السائب الأنصاري عن أبيه. وصححه ابن الملقن في البدر المنير ٦/ ١٥٢.

السنة في المرأة أن لا ترفع صوتها وإنما عليها أن تسمع نفسها[1].

وهذا ما عليه جمهور الفقهاء وفقهاء السلف كما حكاه ابن قدامه عن عطاء ومالك والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي والحنابلة، وحُكي عن سليمان بن يسار قوله: السنة عندهم أن المرأة لا ترفع صوتها بالإهلال وإنما كره لها رفع الصوت مخافة الفتنة بها ولهذا لا يسن لها أذان ولا إقامة والمسنون لها في التنبيه في الصلاة التصفيق دون التسبيح[2].

٥. العلن في الذكر والدعاء.

ذكر الله تعالى ودعاؤه من العبادات، فالذكر يتضمن التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والاستغفار ونحو ذلك، والدعاء يتضمن طلب الحوائج العامة والخاصة، من المغفرة والرحمة، ومنافع الدنيا والآخرة، والآيات التي تناولت الذكر والدعاء في القرآن كثيرة، وقد تنوع فيها الخطاب بين الجهر تارة والإخفاء تارة أخرى.

ففي شأن الذكر قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

روي عن ابن جريج، قوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ قال: يؤمر بالتضرع في الدعاء والاستكانة، ويكره رفع الصوت والنداء والصياح بالدعاء[3].

وروي عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

لا يجهر بذلك[4].

قال الجصاص: «الذكر على وجهين:

أحدهما: الفكر في عظمة الله وجلاله ودلائل قدرته وآياته وهذا أفضل الأذكار إذ به يستحق الثواب على سائر الأذكار سواه وبه يتوصل إليه.

والذكر الآخر: القول، وقد يكون ذلك الذكر دعاء، وقد يكون ثناء على الله تعالى، ويكون قراءة للقرآن، ويكون دعاء للناس إلى الله.

وجائز أن يكون المراد الذكرين جميعا من الفكر والقول فيكون قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هو الفكر في دلائل الله وآياته وقوله تعالى: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فيه نص على الذكر باللسان وهذا الذكر يجوز أن يريد به قراءة القرآن وجائز أن يريد الدعاء فيكون الأفضل في الدعاء الإخفاء»[5].

(١) الذخيرة، القرافي ٣/ ٢١٨.
(٢) إجماعات ابن عبد البر في مسائل العبادات، عبد الله البوصي ٢/ ٨٧٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٥٤.
(٤) انظر: المصدر السابق ١٣/ ٣٥٤.
(٥) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٢٢.

ويرى الزمخشري: أن الخطاب عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك[1].

وهذه الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعم جميع أمته وهو أمر من الله عز وجل بذكره وتسبيحه وتقديسه والثناء عليه بمحامده والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس ولا يراعى إلا بحركة اللسان[2].

وقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٢ - ٣].

وفي إخفاء النداء من نبي الله زكريا عليه السلام لطائف ومعان سامية:

منها: ما ذكره ابن العربي من أن هذا يناسب قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وأن خفاءه لوجهين: أحدهما: أنه كان ليلا، والثاني: لأنه ذكر في دعائه أحوالا تفتقر إلى الإخفاء، كقوله: {وإني خفت الموالي من ورائي}، وهذا مما يكتم ولا يجهر به[3].

ومنها: ما ذكره الرازي وهو أن رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة وإخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار وعمدة الدعاء الإنكسار والتبري عن حول النفس وقوتها والاعتماد على فضل الله تعالى وإحسانه[4].

هذا وقد تقدم القول بأن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

هو الدعاء عند كثير من فقهاء السلف.

وقد ورد الأمر بالدعاء في آيات كثيرة في كتاب الله تعالى بعضها مطلق، وبعضها مأمور فيه بالتضرع والخفية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقيل: إن سبب نزولها أن قوما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت الآية[5].

وقال عز من قائل: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥].

ذكر السمرقندي والسمعاني أن المقصود بالتضرع والخفية الخفض والسكون، ويقال: «خفية» يعني: اعتقدوا عبادته في أنفسكم لأن الدعاء معناه: العبادة، وقيل: المقصود علانية وسرا، وقيل: المقصود أن يكون السر مع الجهر في الدعاء بحيث يدعو

(١) الكشاف ٢/ ١٨١.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٦٦.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٥/ ٣٤١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٢١.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٣٠٨، لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي ص١٧.

باللسان وسره معه، وقيل: هذا أمر بالدعاء في الأحوال كلها [(١)].

ومن أحكام الآية ما ذكره ابن العربي من أن الأصل في الأعمال الفرضية الجهر، والأصل في الأعمال النفلية السر؛ وذلك لما يتطرق إلى النفل من الرياء والتظاهر بها في الدنيا، والتفاخر على الأصحاب بالأعمال، وجبلت قلوب الخلق بالميل إلى أهل الطاعة، وقد جعل الباري سبحانه في العبادات ذكرا جهرا وذكرا سرا، بحكمة بالغة أنشأها بها ورتبها عليها؛ وذلك لما عليه قلوب الخلق من الاختلاف بين الحالين.

ثم قال: «أما الذكر بالقراءة في الصلاة فانقسم حاله إلى سر وجهر، وأما الدعاء فلم يشرع منه شيء جهرا؛ لا في حالة القيام ولا في حالة الركوع، ولا في حالة السجود؛ لكن اختلف العلماء في قول قارئ الفاتحة: «آمين» هل يسر بها أم يجهر» [(٢)].

خامسًا: إعلان أعمال الخير:

أعمال الخير متنوعة تشمل صنوفا كثيرة من الطاعات والقربات أقوالا وأفعالا، وذلك مثل: النفقة، والعون، وبذل النصيحة، وإماطة الأذى عن الطريق وغير ذلك.

وقد ذكر حجة الإسلام الغزالي كلاما طيبا في الرخصة في قصد إظهار الطاعات المختلفة ونحوها، فقال رحمه الله ما ملخصه: «اعلم أن في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء وفي الإظهار فائدة الإقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء، وفي الإظهار أيضا فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

والإظهار قسمان:

أحدهما: في نفس العمل.

والآخر: التحدث بما عمل.

فالقسم الأول إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها، وتجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها [(٣)].

وقد وردت آيات قرآنية تحث على أعمال الخير القولية والفعلية، وورد في السنة النبوية طائفة من الأحاديث تحث على فعل الخير، وتمتدح فاعليه، لاسيما إذا كان بإخلاص وابتغاء وجه الله تعالى.

والناظر في الآيات الكريمة التي تتحدث عن أعمال الخير يجد أنها على أنحاء ثلاثة:

الأول: وصف أقوام بعينهم بفعل

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٥٨٣، تفسير السمعاني ٢/ ١١٣.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٦.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين ٣/ ٣١٧.

الخيرات:

ومن هذا القبيل في كتاب الله تعالى: قوله تعالى في وصف بعض أهل الكتاب: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٤].

وهذا وصف لطائفة من أهل الكتاب بإنهم يبتدرون فعل الخيرات قبل موافاة المنية لهم، أو يبادرون إلى الطاعات والأعمال الصالحة، أو يعملون الطاعات وهم غير متثاقلين أو متباطئين، وذلك بعد إقرارهم بالله ربًا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا [(١)].

ومن دقائق الآية الكريمة أنها أتت عامة في أهل الكتاب، إلا أنها لا اختصاص فيها للنصاري؛ لأنها مذكورة بعد قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وما بعدها من الآيات وفيها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وهذه الصفات لليهود، وعليه فتناولها لليهود أقوى من تناولها للنصارى [(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقوله جل شأنه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١].

وهذه المواضع السابقة جاءت كلها على سبيل المدح لفاعل الخيرات والمبادر إليها، وأن فعل الخيرات ينشأ عنه رضوان الله تعالى وصلاح الحال، ولم تشر الآيات إلى تخصيص فعل الخير فيها بالسر أو العلن.

الثاني: الأمر بفعل الخير:

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وهاتان الآيتان فيها الدعوة لفعل الخير

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٣٠، تفسير السمرقندي ١٢٦٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٠٨.

(٢) انظر: دقائق التفسير، ابن تيمية ١/ ٣١٣.

على جهة العموم، وذلك يشمل السر والعلن.

الثالث: الأمر بالمسارعة أو المسابقة في الخيرات:

قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأيًا كان نوع القربة أو الطاعة التي يسهم بها المؤمن في فعل الخيرات فإنها لابد أن تكون النية فيها خالصة لوجه الله تعالى، سواء فعل الخير علنا أو سرًا، وقد كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يتسابقون في الخيرات، سرًا وجهرًا.

ومن ذلك مسارعة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الخير ببذل نفسه وماله وأهله في سبيل الله تعالى في رحلة الهجرة، كما هو معروف في السيرة النبوية، والإسرار بالكثير من ذلك نظرًا لطبيعة الحال حينئذٍ.

ومنه مسارعة سيدنا عثمان رضي الله عنه في الخيرات مرارا في المدينة المنورة من شراء بئر رومة من اليهودي ووقفها لنفع المسلمين،وتجهيز جيش العسرة، وغيرها من المواقف، وهذه أمور وقعت علنًا أمام الجميع.

ومنه تسابق سيدنا أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في فعل الخيرات، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن زرٍ عن عبد الله: أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه بين أبي بكرٍ وعمر وعبد الله يصلي فافتتح النساء فسحلها فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبدٍ) ثم تقدم يسأل فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول :(سل تعطه سل تعطه سل تعطه) فقال فيما سأل: اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد ونعيمًا لا ينفد ومرافقة نبيك محمدٍ صلى الله عليه وسلم في أعلى جنة الخلد قال فأتى عمر رضي الله تعالى عنه عبد الله ليبشره فوجد أبا بكرٍ رضوان الله عليه قد سبقه فقال: إن فعلت لقد كنت سباقًا بالخير[1].

وفي رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أصلي فقال: (سل تعطه يا ابن أم عبدٍ)، فابتدر أبو بكرٍ وعمر قال عمر: ما بادرني أبو بكرٍ إلى شيءٍ إلا سبقني إليه أبو بكرٍ، فسألاه عن قوله فقال: من دعائي الذي لا أكاد أدع اللهم إني أسألك نعيمًا لا يبيد وقرة عينٍ لا تنفد ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٤٣٤٠، ١/ ٤٥٤.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٤٧٠: فيه عاصم بن أبي النجود، وهو على ضعفه حسن الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح، ورجال الطبراني غير فرات ابن محبوب وهو ثقة.

محمدٍ في أعلى الجنة جنة الخلد[1]. فتسابق الصديق وعمر رضوان الله عليهما في فعل الخيرات أمر مشهور.

سادسًا: إعلان التظلم:

الظلم محرم في جميع الشرائع السماوية، والمظلوم دعوته عند الله تعالى مستجابة، كما هو ثابت في السنة النبوية، وقد نهى الله تعالى في كتابه العزيز عن الجهر بالسوء من الأقوال إلا للمظلوم فقال جل شأنه: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء: ١٤٨].

وقد اختلف القراء في الآية وبناء على اختلافهم في القراءة اختلفوا في تأويلها، فأكثر قراء الأمصار قرؤوها بضم الظاء: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وقرأ بعضهم: «إلا من ظَلم»، بفتح «الظاء»[2].

والذين قرؤوا بالضم وهم الجمهور اختلفوا في تأويله على أقوال:

القول الأول: أنه لا يحب الله تعالى ذكره أن يجهر أحدنا بالدعاء على أحد، وذلك عندهم هو: «الجهر بالسوء إلا من ظلم»، يقول: إلا من ظلم فيدعو على ظالمه، فإن الله جل ثناؤه لا يكره له ذلك، لأنه قد رخص له في ذلك، وهذا مروي عن ابن عباس[3].

القول الثاني: أن المراد بها الرجل ينزل بالرجل فلا يقريه، فينال من الذي لم يقره. وهو قول مجاهد وأبي نجيح[4].

فقد روي عن مجاهد: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، قال: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن إليه، فقد رخص الله له أن يقول فيه[5].

القول الثالث: أن المعنى: إلا من ظلم فانتصر من ظالمه، فإن الله قد أذن له في ذلك. وهو مروي عن السدي[6].

وبناء على ما سبق فإن كلمة: «من»، على هذه الأقوال التي ذكرناها، سوى قول ابن عباس، تكون في موضع نصب على انقطاعه من الأول، والعرب من شأنها أن تنصب ما بعد «إلا» في الاستثناء المنقطع.

ويكون معنى الكلام على ذلك: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، ولكن من ظلم فلا حرج عليه أن يخبر بما نِيل منه، أو ينتصر ممن ظلمه. أما الذين قرؤوا بالفتح «ظلم»

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٣٦٦٢، ٦/ ١٧٨.
وعلق عليه المحقق بأنه صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٤٣، معاني القرآن، النحاس ٢/ ٣٢٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٥١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٤٣، معاني القرآن، النحاس ٢/ ٣٢٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٤٦ معاني القرآن، النحاس ٢/ ٣٢٥.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٤٩.

(٦) انظر: المصدر السابق ٩/ ٣٤٨.

فتأولوه: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، إلا من ظلم فلا بأس أن يجهر له بالسوء من القول.

فقد روي عن ابن زيد: كان أبي يقرأ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، قال ابن زيد: يقول: إلا من أقام على ذلك النفاق، فيجهر له بالسوء حتى ينزع. قال: وهذه مثل: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ ۝١١﴾، أن تسميه بالفسق ﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾، بعد إذ كان مؤمنًا ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾، من ذلك العمل الذي قيل له ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، [الحجرات: ١١] قال: هو شرٌّ ممن قال ذلك.

وتكون: «من» على هذا التأويل نصبٌ لتعلقه بـ«الجهر»، وتأويل الكلام، على قول قائل هذا القول: لا يحب الله أن يجهر أحد لأحد من المنافقين بالسوء من القول، إلا من ظلم منهم فأقام على نفاقه، فإنه لا بأس بالجهر له بالسوء من القول.

قال الطبري: «وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ: «إلا من ظلم» بضم «الظاء»، لإجماع الحجة من القرأة وأهل التأويل على صحتها، وشذوذ قراءة من قرأ ذلك بالفتح؛ فإذ كان ذلك أولى القراءتين بالصواب، فالصواب في تأويل ذلك: لا يحب الله، أيها الناس، أن يجهر أحدٌ لأحد بالسوء من القول «إلا من ظلم»، بمعنى: إلا من ظلم، فلا حرج عليه أن يخبر بما أسيء عليه، وإذا كان ذلك معناه، دخل فيه إخبار من لم يقر، أو أسيء قراه، أو نيل بظلم، في نفسه أو ماله، أو يخبر غيره من سائر الناس بما أصابه ونيل منه، وكذلك دعاؤه على من ناله بظلم: أن ينصره الله عليه، لأن في دعائه عليه إعلامًا منه لمن سمع دعاءه عليه بالسوء له»[1].

(١) جامع البيان ٩/ ٣٤٩ بتصرف.

صور العلن المذموم

أولًا: إعلان الكفر:

إعلان الكفر له صور متعددة، أولها: إعلان الكفار عداوتهم للرسول وكفرهم بدين الله عز وجل ومعارضتهم لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام، والثانية: إعلان المسلم الكفر إكراهًا واضطرارًا، والثالثة: إعلان الكفار مظاهر دينهم والجهر بها.

١. إعلان الكفار عداوتهم للرسول وكفرهم بدينه.

بين الله سبحانه وتعالى أنه مطلع على سر الكفار جهرهم، يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون، ولا يخفى عليه شيء من أمرهم، قال تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤﴾ [النمل: ٧٤].

والمراد بما يخفونه من عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم والحقد عليه، وما يعلنون من الطعن فيه واللمز[(١)].

ونهى الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم عن طاعة الكفار والمنافقين في قوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ [الأحزاب: ١].

قال بعض المفسرين: «﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى الله، فأشعر ذلك أن تشريعا عظيما سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين، وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقبل أقوالهم ليأسوا من ذلك لأنهم كانوا يدبرون مع المشركين المكايد ويظهرون أنهم ينصحون النبيء صلى الله عليه وسلم ويلحون عليه بالطلبات نصحا تظاهرا بالإسلام.

والمراد بالكافرين المجاهرون بالكفر لأنه قوبل بالمنافقين، فيجوز أن يكونوا المشركين كما هو غالب إطلاق هذا الوصف في القرآن»[(٢)].

وفي موضع آخر يقول المولى عز وجل: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢].

وهي صريحة في النهي عن طاعة الكفار ووجوب مجاهدتهم.

٢. إعلان المسلم الكفر إكراهًا واضطرارًا.

لم يختلف أحد من الفقهاء أنه يجوز إعلان الكفر أو الجهر به إذا ألجئ المرء إلى ذلك كما في قصة عمار بن ياسر وما نزل بشأنها في سورة النحل، ولا يترتب

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١٠٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٥١.

على الكفر إكراها أي أثر شرعي من نحو فراق الزوج، ومنع الإرث ونحو ذلك من الأحكام، لأن الإكراه لا أثر له في ذلك ما دام القلب مطمئنا بالإيمان[1].

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

قال الإمام الشافعي: «فلو أن رجلا أسره العدو، فأكره على الكفر لم تبن منه امرأته، ولم يحكم عليه بشيء من حكم المرتد قد أكره بعض من أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على الكفر، فقاله؛ ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر له ما عذب به فنزلت هذه الآية، ولم يأمره النبي صلى الله عليه وسلم باجتناب زوجته، ولا بشيء مما على المرتد»[2].

وقال ابن العربي: «هذه الآية نزلت في المرتدين، وقد تقدم ذكر بعض من أحكام الردة في سورة المائدة، وبينا أن الكفر بالله كبيرة محبطة للعمل، سواء تقدمها إيمان أو لم يتقدم، والكافر أو المرتد هو الذي جرى بالكفر لسانه، مخبرا عما انشرح به من الكفر صدره، فعليه من الله الغضب، وله العذاب الأليم، إلا من أكره، وهي: المسألة الثانية: فذكر استثناء من تكلم بالكفر بلسانه عن إكراه، ولم يعقد على ذلك قلبه، فإنه خارج عن هذا الحكم، معذور في الدنيا، مغفور في الأخرى»[3].

هذا ولم يقل أحد بوجوب التلفظ بكلمة الكفر أو إظهاره عند الإكراه عليه، بل الأمر لا يعدو كونه رخصة من شاء أخذ بها ومن شاء ثبت على موقفه حتى لو قتل.

قال الرازي: «أجمعوا على أنه لا يجب عليه التكلم بكلمة الكفر»[4].

وقال الجصاص نقلًا عن أصحابه الحنفية: «من أكره على الكفر فلم يفعل حتى قتل أنه أفضل ممن أظهر الكفر، وقد أخذ المشركون خبيب بن عدي فلم يعط التقية حتى قتل فكان عند المسلمين أفضل من عمار بن ياسر حين أعطى التقية وأظهر الكفر، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: (كيف وجدت قلبك؟) قال: مطمئنًا بالإيمان فقال صلى الله عليه وسلم: (وإن عادوا فعد)، وكان ذلك على وجه الترخيص»[5].

(١) انظر: أحكام القرآن، الشافعي ١/ ١٧٧، جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٠٣، أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٢٩٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٨٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٧٨.

(٢) أحكام القرآن، الشافعي ١/ ١٧٧.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٥/ ٢٠٦.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٧٨.

(٥) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٢٩٠.

والأدلة على ذلك ما يلي:

الدليل الأول: ما تواتر ذكره في السيرة النبوية والسنة المطهرة من أن سيدنا بلال بن رباح صبر على ذلك العذاب، وكان يقول: «أحد أحد»، ولم يقل له رسول الله صلى الله عليه وسلم بئس ما صنعت بل عظمه عليه، فدل ذلك على أنه لا يجب التكلم بكلمة الكفر.

الدليل الثاني: ما روى عبد الرزاق عن معمرٍ، قال: سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين من أهل الإسلام، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟، قال: نعم، وكان مسيلمة لا ينكر أن محمدًا رسول الله، ويقول: هو نبيٌّ، وأنا نبيٌّ، قال: فقال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟، قال: نعم، قال: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟، قال: نعم، فتركه، ثم جيء بالآخر، فقال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟، قال: نعم، قال: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟، فقال: إني أصم، فقال: أسمعوه، فقال: مثل مقالته الأولى، فقال: إذا ذكروا لك محمدًا سمعت، وإذا ذكروا لك مسيلمة، قلت: إني أصم! اضربوا عنقه، قال: فضربوا عنقه، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (أما هذا فقد مضى على يقينٍ، وأما الآخر فأخذ بالرخصة)[1].

وجه الاستدلال بهذا الخبر من وجهين كما ذكرهما الرازي:

الأول: أنه سمى التلفظ بكلمة الكفر رخصة.

والثاني: أنه عظم حال من أمسك عنه حتى قتل[2].

الدليل الثالث من المعقول: أن بذل النفس في تقرير الحق أشق، فوجب أن يكون أكثر ثوابًا.

الدليل الرابع من المعقول أيضًا: أن الذي أمسك عن كلمة الكفر طهر قلبه ولسانه عن الكفر، أما الذي تلفظ بها فهب أن قلبه طاهر عنه إلا أن لسانه في الظاهر قد تلطخ بتلك الكلمة الخبيثة، فوجب أن يكون حال الأول أفضل[3].

٣. إعلان الكفار شعائر دينهم ومظاهر كفرهم.

اتفق الفقهاء على إقرار أهل الكتاب وغيرهم بديار الإسلام مقابل الجزية، وانقيادهم لحكم الإسلام في غير العبادات من حقوق الآدميين في المعاملات وغرامة المتلفات، وكذا ما يعتقدون تحريمه، كالزنا والسرقة دون ما لا يعتقدون تحريمه، كشرب الخمر ونكاح المجوس ونحو ذلك[4].

(١) تفسير الصنعاني ٢/ ٣٦٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٧٨ بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٢٧٨ بتصرف يسير.

(٤) انظر: بداية المجتهد، ابن رشد ٢/ ٣٧٨، تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/ ١٥٧.

ونقل عن غير واحد من فقهاء السلف وغيرهم أنه لا ينبغي للكفار أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يظهروا شعائرهم بديار المسلمين، كمثل ضرب الناقوس، أو إظهار عبادة المسيح أو العزير، والآثار والنصوص الواردة في ذلك كثيرة، أورد منها:

ما روي عن عكرمة قال: قيل لابن عباسٍ رضي الله عنه: أللعجم أن يحدثوا في أمصار المسلمين بناءً أو بيعةً؟ فقال: «أما مصرٍ مصرته العرب فليس للعجم أن يبنوا فيه بناءً، أو قال: بيعةً، ولا يضربوا فيه ناقوسًا، ولا يشربوا فيه خمرًا، ولا يتخذوا فيه خنزيرًا، أو يدخلوا فيه، وأما مِصْرٍ مَصَّرَتْهُ العجم يفتحه الله على العرب ونزلوا، يعني على حكمهم فللعجم ما في عهدهم، وللعجم على العرب أن يوفوا بعهدهم، ولا يكلفوهم فوق طاقتهم»[(١)].

وقد استدل به ابن القيم في في غير موضع من كتابه أحكام أهل الذمة، وذكر أنه المروي عن الإمام أحمد بن حنبل حين استفتاه الخليفة المتوكل لما ألزم أهل الكتاب بالشروط التي وضعها سيدنا عمر بن الخطاب[(٢)].

ما روي عن ميمون بن مهران قال: كتب عمر بن عبد العزيز: أن يمنع النصارى في الشام أن يضربوا ناقوسًا، ولا يرفعوا صليبهم فوق كنائسهم[(٣)].

ومن نصوص الفقهاء ما قاله الشافعي: «واشترط عليهم ألا يسمعوا المسلمين شركهم، ولا يسمعوهم ضرب ناقوس، فإن فعلوا ذلك عزروا»[(٤)].

وقال ابن القيم: «وقد أبطل الله تعالى الأذان ناقوس النصارى، وبوق اليهود، فإنه -أي: الأذان- دعوةٌ إلى الله تعالى وتوحيده، وعبوديته، ورفع الصوت به إعلاءٌ لكلمة الإسلام، وإظهار لدعوة الحق، وإخماد لدعوة الكفر»[(٥)].

وقال المواق: «ويمنع من إظهار معتقده في المسيح أو غيره، مما لا ضررفيه على المسلمين، لا ما فيه ضرر عليهم، كتغيير

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٠٠٠٢، ٦/ ٦٠، كتاب أهل الكتابين، باب هدم كنائسهم وهل يضربون بناقوس، وابن أبي شيبة، رقم ٣٣٦٥٣، ١٢/ ٣٤٢-٣٤٣ في كتاب السير، باب ما قالوا في هدم البيع والكنائس وبيوت النار.
وضعفه الألباني في إرواء الغليل ٥/ ١٠٤.

(٢) أحكام أهل الذمة، ابن القيم ٣/ ١١٨١، ٣/ ١١٩٥.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم ١٠٠٠٤، ٦/ ٦١ كتاب أهل الكتابين، باب هدم كنائسهم وهل يضربون بناقوس ورقم ١٩٢٣٥، ١٠/ ٣٢١ كتاب أهل الكتابين، باب هل تهدم كنائسهم وما يمنعوا، وإسناده صحيح.

(٤) الأم، الشافعي ٤/ ٢٠٦.

(٥) أحكام أهل الذمة، ابن القيم ٣/ ١٢٣٩.

معتقدهم، فينتقض عهده بإظهاره»[1].

وقال في فتح العلي المالك: «يجب على من بسط الله تعالى يده بالحكم وولاه أمر المسلمين وأهل الذمة أن يمنعهم من كل ذكر، إذ فيه تعظيم لأعداء الله تعالى ورسوله والمسلمين، وإظهار لشوكتهم وتقوية لهم على المسلمين، وأن يلزمهم بإظهار كل ما فيه مذلةٌ لهم وإخفاء أفراحهم وأعيادهم وجنائزهم وعقائدهم وسائر أمور دينهم، وأجره في ذلك على الله والمسلم الذي يقصد تعظيم غير المسلمين، إن كان لغرضٍ دنيوي فهو آثم فاسق تجب عليه التوبة فورا، وإن كان لرفع دينهم فهو مرتد يستتاب ثلاثا، فإن تاب وإلا قتل»[2].

وفي مغني المحتاج: «ويمنع الكافر من إسماع المسلمين قولا شركا، كقولهم: الله ثالث ثلاثة، واعتقادهم في عزير والمسيح، ومن إظهار خمر وخنزير وناقوس وعيد، ومن إظهار قراءتهم التوراة والإنجيل، ولو في كنائسهم، لما في ذلك من المفاسد وإظهار شعائر الكفر، فإن أظهروا شيئا من ذلك عزروا»[3].

وقال البهوتي: «ويمنعون من إظهار منكر كنكاح المحارم، ومن إظهار ضرب ناقوس، ورفع صوتهم بكتابهم أو صوتهم على ميت، وإظهار عيد وصليب»[4].

وبناء على ما سبق، فإنه لا ينبغي أن يمكن الكفار من إظهار شعائر كفرهم أمام المسلمين وفي ديار المسلمين التي تسري عليهم فيها أحكام الإسلام، وينبغي أن يسعى ولاة الأمر في بلاد المسلمين إلى منع ذلك.

ثانيًا: إعلان موالاة الكافرين:

نهى الله سبحانه وتعالى في غير موضع من القرآن عن موالاة الكافرين أو اتخاذهم أولياء من دون المؤمنين، نظرًا لعلو مكانة المسلم على غير المسلم، واستثنى من ذلك حالات معينة.

ففي موطن النهي عن اتخاذ الكفار أولياء إلا في حالة التقية.

قال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

والتقاة فسرت بتفسيرين كما ذكرهما ابن العربي: أحدهما: إلا أن تخافوا منهم، فإن خفتم منهم فساعدوهم ووالوهم وقولوا ما

(١) جواهر الإكليل، تلآبي الأزهري ١/ ٢٦٨.
(٢) فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك، الشيخ عليش ١/ ٣٩٣، حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني ٣/ ١٤٨.
(٣) مغني المحتاج، الشربيني ١/ ٣٩٣.
(٤) كشاف القناع، البهوتي ٣/ ١٣٣.

يصرف عنكم من شرهم وأذاهم بظاهر منكم لا باعتقاد؛ يبين ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ على ما يأتي بيانه إن شاء الله، والثاني: أن المراد به إلا أن يكون بينكم وبينه قرابة فصلوها بالعطية[1].

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: «نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار أو يتخذوهم وليجةً من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيظهرون لهم اللطف، ويخالفونهم في الدين، وذلك قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[2].

وروي عن مجاهد في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلا مصانعةً في الدنيا ومخالقة[3][4].

وعليه فلا يجوز اتخاذ الكفار أولياء أو إظهار موالاتاهم إلا في حالة التقية، كما قال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تكون بينه وبينه قرابة فيصله لذلك فجعل التقية صلة لقرابة الكافر وقد اقتضت الآية جواز إظهار الكفر عند التقية، وهو نظير قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠].

وإعطاء التقية في مثل ذلك إنما هو رخصة من الله تعالى وليس بواجب بل ترك التقية أفضل»[5].

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول الآية أقوالا فروي عن ابن عباس رضي الله عنه: كان الحجاج بن عمرو بن أبي الحقيق وقيس بن زيد يظنون بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود لا يفتنونكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم فنزلت.

وقال مقاتل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره وكانوا يظهرون المودة لكفار مكة.

وفي موطن آخر بين سبحانه وتعالى أن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين لا يحقق للمسلم عزة ولا ارتفاعًا، فإن العزة تبتغى فيما عند الله تعالى فقال جل شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩].

وجاء النهي عن اتخاذ الكفار أولياء في

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٥٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٦٨٥٣، ٦/ ٣١٣.
(٣) خالق الناس يخالقهم مخالقة: عاشرهم على أخلاقهم، مثل: (تخلق) أي: تصنع وتجمل وتحسن.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٨٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣١٣.
(٥) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٢٩٠.

موضع آخر صريحًا فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

ثالثًا: إعلان المعاصي:

أمر الله تعالى عباده بطاعته، ونهاهم عن معصيته، ورتب على فعل المعاصي إثما تختلف درجته بحسب درجة المعصية، والمعصية آثارها على المرء وخيمة في الدنيا والآخرة، بحسب درجتها، ومما حذر منه الشرع في المعصية الجهر بالمعصية، فهذا إثم آخر يكتسبه المرء بالإضافة إلى فعل المعصية نفسها.

وقد حذرت السنة النبوية من المجاهرة بالمعصية لما في ذلك من تجرؤ على شرع الله تعالى، وإفساح لمجال انتشار المعاصي وذيوعها بين الناس، فقد روى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كل أمتي معافًى إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه)[1].

ورواه مسلم بلفظ منصوص فيه على «الإجهار» فقد أخرج بسنده عن زهير بن حرب وغيره بلفظ: (كل أمتي معافاةٌ إلا المجاهرين وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملًا ثم يصبح قد ستره ربه فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه فيبيت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه). قال زهيرٌ: (وإن من الهجار)[2]، والمراد بالمعافاة في الحديث في لفظ: «معافى» «معافاة»: دفاع الله تعالى عن العبد يوم القيامة، أو العفو عن ذنبه والمؤاخذة به، ولفظ: الجهار من أجهر «وجهر»، ولفظ: الهجار هي لغة من الإهجار وهو الفحش والكلام الذي لا ينبغي[3].

ويستحق المجاهر بالمعاصي أن يعامل بالأمور الآتية:

١. المجاهر بالمعصية لا حرمة في سوء الظن به.

أمرنا الله تعالى باجتناب كثير من الظن، وبين لنا تعالى في سورة الحجرات أن بعض الظن إثم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم ٦٠٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، رقم ٧٦٧٦.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٨/ ١١٩، فتح الباري، ابن حجر ١٠٤٨٦، الديباج على صحيح مسلم، السيوطي ٦/ ٢٩٥.

أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ [الحجرات: ١٢].

فهل المجاهر بالمعصية يجوز أن يساء الظن به أم لا ؟ ذكر بعض المفسرين أن أهل السوء والفسق المجاهرون بذلك لنا أن نظن فيهم مثل الذي يظهر منهم[(١)].

وقال بعض العلماء: «سوء ظن بالمسلمين، وهو ليس بجائز ودفع أن ذلك عند الخصوص وأما على وجه العموم فجائز، أقول: سوء الظن المحرم إما بمجرد الوهم أو الشك، وأما المجاهرون وكذا الذين دل على سوء حالهم الدليل، ولو ظنا غالبا فليس بمحرم بل من قبيل البغض في الله المأمور به»[(٢)].

٢. إظهار أمر أهل المعاصي ليحذر الناس منهم.

ذكر بعض العلماء أنه يجب على الإمام إذا رأى قومًا يجاهرون بالعصيان بحيث اشتهروا بذلك، أن يشهر أمرهم بين الناس تنكيلا بهم، وحتى يحذرهم الناس، قال المهلب فيما نقله عنه ابن بطال: «إخراج أهل الريب والمعاصي من دورهم بعد المعرفة بهم واجب على الإمام من أجل تأذي من جاورهم، ومن أجل مجاهرتهم بالعصيان، وإذا لم يعرفوا بأعيانهم فلا يلزم البحث عن أمرهم؛ لأنه من التجسس الذى نهى الله عنه، وليس للسلطان أن يرفع ستر اختفائهم حتى يعلنوا إعلانًا يعرفون به لقوله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى: (كل عبادى معافون إلا المجاهرين) [(٣)] فحينئذ يجب على السلطان تعييره والنكال به، كما صنع عمر بأخت أبى بكر حين ناحت»[(٤)].

٣. مؤاخذة المجاهرين بالمعاصي في ما يتعلق بحقوق الناس.

إذا فعل امرؤ معصية في حق آخر وستره الله تعالى، ولكن جهر بها بعد ذلك، فحينئذ ينبغي أن يؤاخذ به، ولا يعفى عنه، كما لو ضربه أو قذفه أو سرق ماله ونحو ذلك، فإن العاصي إذا أقر بذلك أو أعلنه أمام الناس فينبغي أن يعاقبه الحاكم بما يناسب جرمه في حق غيره، كما قال الشيخ إسماعيل حقي: «المجاهرون بالمعاصي لا يعافون بل يؤخذون في الدنيا إن كانت مما يتعلق بالحدود وأما في الآخرة فمطلقًا»[(٥)].

٤. المجاهر بمعصيته تجوز الخطبة على خطبته ولا حرمة له.

المعروف في الشرع أنه لا يجوز للإنسان أن يخطب على خطبة أخيه حتى يذر الخاطب الأول مخطوبته، فقد ورد في السنة عن ابن عمر -رضى الله عنهما- كان يقول:

(١) لباب التأويل، الخازن ٦/ ٢٨٨.
(٢) بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية، الخادمي ٣/ ٤٥٩.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٨/ ٢٨٨.
(٥) روح البيان، إسماعيل حقي ٤/ ١٠٤.

(نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيع بعضكم على بيع بعضٍ، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه، حتى يترك الخاطب قبله، أو يأذن له الخاطب)[1].

ولكن ذكر بعض العلماء أنه إذا كان الخاطب الأول فاسقًا أو عاصيًا، أو مجاهرا بمعصيته فإنه لا حرمة في أن يخطب على خطبته من هو أفضل منه وأصلح[2]، فالمعصية الظاهرة أو المجاهرة بها أسقطت حق صاحبها في هذا الأمر.

رابعًا: الفواحش القولية والفعلية:

حرم الله تعالى الفواحش بكل أنواعها، خفية كانت أو ظاهرة، قولية أو فعلية، فقال تعالى في معرض ذكر بعض المعاصي المحرم اتيانها: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال جل شأنه مبينًا تحريم الفواحش الظاهرة والباطنة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فتضمنت الآية الأولى نهيا صريحا عن إتيان تلك المحرمات، وفيما يخص الفواحش جاء النهي صريحا عن الاقتراب منها، وتضمنت الآية الثانية خبرًا في صورة النهي عن إتيان الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وذكر المفسرون تأويلات عدة في المقصود بما ظهر منها وما بطن في الموضعين، فذكر الماوردي على سبيل المثال خمسة وجوه في آية الأنعام، ووجهان في آية الأعراف[3]، وذكر ابن الجوزي ستة وجوه في آية الأعراف[4].

ونظرا لاشتراك بعض هذه الأقوال فقد تحصل لدي ثمانية أقوال من كلا الموضعين على النحو التالي:

القول الأول: أن المراد بما ظهر منها الزنا علنا، وما بطن الزنا سرًّا. وهو مروي عن ابن عباس وبه قال سعيد بن جبير.

قال الطبري: «﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ يعني: الزنا ﴿مَا ظَهَرَ﴾ يعني: العلانية، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ في السر وكانوا يتكرمون عن الزنا في العلانية، ويفعلونه في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح باب لا يخطب على خطبة أخيه، حتى ينكح أو يدع، رقم ٥١٤٢.

(٢) وهو المذهب عند المالكية كما في: الذخيرة، القرافي ٤/ ١٩٨ كفاية الطالب الرباني، ابن خلف المنوفي ٢/ ٦٥.

(٣) النكت والعيون ٢/ ١٨٦ ٢/ ٢١٩.

(٤) زاد المسير ٢/ ١٩٠-١٩١.

السر[1].

القول الثاني: أن ﴿مَا ظَهَرَ﴾ نكاح الأمهات، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا. وهذا رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما وبه قال علي بن الحسين.

القول الثالث: أن ﴿مَا ظَهَرَ﴾ نكاح الأبناء نساء الآباء والجمع بين الأختين وأن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا، وهو مروي عن ابن عباس أيضا.

القول الرابع: أن ﴿مَا ظَهَرَ﴾ الزنا، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ العزل. قاله القاضي شريح.

القول الخامس: أن ﴿مَا ظَهَرَ﴾ طواف الجاهلية عراة، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا. قاله مجاهد.

القول السادس: أن ﴿مَا ظَهَرَ﴾ منها شرب الخمر، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا. وهو قول الضحاك.

القول السابع: أن ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: نكاح ذوات الحوانيت، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: ذوات الاستسرار، قاله ابن عباس، والحسن البصري، والسدي.

القول الثامن: أنه عام في جميع المعاصي وهذا قول قتادة، ثم في ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قولان:

أحدهما: أن الظاهر العلانية والباطن السر قاله أبو سليمان الدمشقي.

والثاني: أن ﴿مَا ظَهَرَ﴾ أفعال الجوارح والباطن اعتقاد القلوب قاله الماوردي[2].

وعلى جهة الإجمال فإن الفواحش يحرم إتيانها سرا أو جهرًا، ويحرم الجهر بها أمام الناس إذا ابتلي المرء بإتيانها، وما أجمل ما ذكره ابن العربي على جهة العموم في تفسيرها بقوله: «إن كل فاحشة ظاهرة للأعين، أو ظاهرة بالأدلة، كما ورد النص فيه أو وقع الإجماع عليه، أو قام الدليل الجلي به، فينطلق عليها اسم الظاهرة، والباطنة كل ما خفي عن الأعين، ويقصد به الاستتار عن الخلق؛ أو خفي بالدليل؛ كتحريم نكاح المتعة والنبيذ على أحد القولين ونحو ذلك في الصنفين؛ فإن النبيذ وإن كان مختلفا فيه فإن تحريمه جلي في الدليل، قوي في التأويل»[3].

وفي الحديث الصحيح عن عمرو بن مرة عن أبي وائلٍ عن عبد الله رضى الله عنه قال: قلت أنت سمعت هذا من عبد الله قال: نعم، ورفعه قال: (**لا أحد أغير من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، فلذلك مدح نفسه**)[4].

(١) جامع البيان ١/ ٣٨٩.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٩٠-١٩١.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الأنعام، باب (ولا تقربوا الفواحش)،

وفي موطن ثالث في قصة الإفك تجد الوعيد الشديد في انتظار من يحب إشاعة الفواحش والجهر بها بين المؤمنين نظرًا لما يترتب على إشاعتها من فساد في المجتمع، فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

والآية نزلت في واقعة الإفك المعروفة التي نال فيها المنافقون من السيدة عائشة رضي الله عنها، وكان غرضهم الخبيث التشهير بها فأنزل الله تعالى براءتها من فوق سبع سماوات في آيات تتلى إلى يوم القيامة.

والمقصود بحب إشاعة الفاحشة: حب ظهور الزنا وإذاعته كما ذكره غير واحد من المفسرين[(١)].

والمقصود في الآية كما ذكره بعض المفسرين أن الله سبحانه لما بين ما على أهل الإفك وما على من سمع منهم، وما ينبغي أن يتمسكوا به من آداب الدين أتبعه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ ليعلم أن من أحب ذلك فقد شارك في هذا الذم كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره، وليعلم أن أهل الأفك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه، فكذلك يستحقون العقاب بما أسروه من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين، وذلك يدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين كوجوب كف الجوارح والقول عما يضربهم[(٢)].

ولو رجعنا إلى السنة النبوية لوجدنا الكثير من النصوص التي تبين ضرورة حماية المجتمع من نشر الفاحشة بالقول والفعل، وتبين لزوم سلامة المسلم من لسان غيره ويده، وتحذر من تتبع عورات الناس وإفضاح أمورهم، وكشف سرائرهم، ومن ذلك:

ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[(٣)].

وما روي عن ابن عمر قال: (صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى

رقم ٤٦٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، رقم ٢٧٦٠.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٤، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٥٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٢٢، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٢٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ١٤٨، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ١٦٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ١٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب المسلم من سلم المسلمون من لسان ويده، رقم ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، رقم ٧٠١.

بصوتٍ رفيعٍ فقال: (يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله) قال: ونظر ابن عمر يومًا إلى البيت أو إلى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمةً عند الله منك)[1].

رأينا كيف أن هذه الآية الكريمة نزلت في واقعة معينة، وهي واقعة الإفك، وكيف أن إشاعة الفواحش في العرب قديما كانت تقتصر غالبا على إشاعة الزنا، وشرب الخمر، ولعب الميسر ونحوها، ويمكن القول إن الآية وإن كانت واردة في واقعة خاصة إلا أنه يمكن تعميم حكمها على كل الفواحش القولية والفعلية، وذلك لأن المجتمع المسلم يتأذى من كل ما يشينه قولا وعملا، سواء أكان في النفس أم في العرض أم في غير ذلك.

وفي العصر الحاضر تعددت وسائل نشر الفواحش وإشاعاتها في المجتمعات المختلفة، وتفنن أعداء الأمة من الخارج، وبعض أتباعهم من الداخل في العمل على نشر الفواحش بشتى الطرق والوسائل، من إنتاج أعمال يسمونها فنية «كالأفلام والمسرحيات والمسلسلات» التي تقدم عريًا وفحشًا، وتبث سموما من الفجور والإباحية في المجتمع، وتقتحم على الناس بيوتها في أجهزة الإعلام المختلفة.

ووجدت الصحف والمجلات والجرائد المختلفة التي تنشر صورا فاضحة، أو دعايات فجة تشتمل على إساءات واضحة، تؤذي السمع والبصر، بل وتخصصت بعض هذه الوسائل في الإباحية، وما يسمونها في بعض الصحف أو الجرائد «صفحة الحوادث» يتفشى في كتابها ومحرريها -إلا من رحم ربي- مرض حب التضخيم من الحادثة ونشر تفاصيل الجريمة على العرض أو على النفس وصفا يسيء لمشاعر القارئ والمشاهد، وصفا تشعر معه وأنت تقرأ الواقعة كما لو أن المحرر أو كاتب الخبر كان مع المجرم حين تنفيذ جريمته، وهذا لا يصب في مصلحة المجتمع بقدر ما يضره.

ومع تطور التقنية ووسائل الاتصال والمواقع الإليكترونية «شبكة الإنترنت» يبتلى المجتمع بوجود المئات من المواقع الإباحية المفتوحة على شبكات التواصل الإجتماعية «الفيس بوك» ونحوها، وعلى الشبكة العنكبوتية «الإنترنت»، ويتم تبادل

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ١٩٧٩١، ٤/ ٢٢٠، وأبو داود في سننه، كتاب، باب في الغيبة، رقم ٤٨٨٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ١٢٤٨، رقم ٣٤٢٠.

معلومات وعناوين هذه المواقع، أو إرسالها إلى عناوين أناس معينين أو مجهولين، مما نشر الفساد والفحش في المجتمعات الغربية، وبعض المجتمعات الإسلامية بصورة لا ينكر وجودها أحد.

وكل ما سبق ذكره يؤدي إلى الإضرار بالمجتمع في جوانب مختلفة أخلاقيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديًا، حيث يفسد أجيالا من أبناء الأمة، ويولد عندهم حب الرذيلة، وإلف المعصية، وينشر الجريمة، ويسهل الطرق إلى ارتكاب الفاحشة.

وهذا كله يحتاج إلى وقفة حاسمة من المجتمع المسلم عامة، ومن القائمين على أمور المسلمين خاصة في المجتمعات الإسلامية، وقفة تحمي المجتمع من هذه الموبقات، وتطهره من هذه الشرور، تضع نصب أعينها هذه الآيات الكريمة التي تنهى عن نشر الفواحش، وتحذر من الاقتراب منها أو إتيان أبوابها.

قال الجصاص: «أبان الله بهذه الآية وجوب حسن الاعتقاد في المؤمنين ومحبة الخير والصلاح لهم فأخبر فيها بوعيد من أحب إظهار الفاحشة والقذف والقول القبيح للمؤمنين وجعل ذلك من الكبائر التي يستحق عليها العقاب وذلك يدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين كوجوب كف الجوارح والقول عما يضر بهم»[1].

وقال الرازي: «لا شك أن ظاهر قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ [النور: ١٩].

يفيد العموم وأنه يتناول كل من كان بهذه الصفة، ولا شك أن هذه الآية نزلت في قذف عائشة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فوجب إجراؤها على ظاهرها في العموم، ومما يدل على أنه لا يجوز تخصيصها بقذفة عائشة قوله تعالى في: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإنه صيغة جمع ولو أراد عائشة وحدها لم يجز ذلك، والذين خصصوه بقذفة عائشة منهم من حمله على عبدالله بن أبي، لأنه هو الذي سعى في إشاعة الفاحشة»[2].

خامسًا: الأسرار الزوجية:

العلاقة بين الزوجين لها قدسيتها ومكانتها في الإسلام، وتتمتع بخاصية السرية والكتمان، ومراعاة الأدب والحياء ونحو ذلك من الأخلاقيات الإسلامية، ولهذا كلف الزوجان بالحفاظ على هذه العلاقة وعدم كشف أسرارها للغير إلا للضرورة القصوى من نحو التنازع في القضاء أو العلاج.

وقد ورد في السنة التحذير من إفشاء الزوجين أسرار الزوجية لاسيما ما يتعلق

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ١٦٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣٤٨.

بالمعاشرة، فقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أشر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها)[1].

وأخرج أبو داود والطبراني من حديث طويل عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي أقبل على الرجال فقال: (هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه وألقى عليه ستره واستتر بستر الله؟)، قالوا: نعم، قال: (ثم يجلس بعد ذلك فيقول: فعلت كذا فعلت كذا)، قال: فسكتوا، قال: فأقبل على النساء فقال: (هل منكن من تحدث؟)، فسكتن، فجثت فتاةٌ -قال مؤملٌ فى حديثه فتاةٌ كعابٌ- على إحدى ركبتيها وتطاولت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليراها، ويسمع كلامها، فقالت: يا رسول الله إنهم ليتحدثون وإنهن ليتحدثنه، فقال: (هل تدرون ما مثل ذلك؟)، فقال: (إنما ذلك مثل شيطانةٍ لقيت شيطانًا فى السكة فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه)[2].

وفي رواية لأحمد عن أسماء بنت يزيد: أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال والنساء قعودٌ عنده فقال: (لعل رجلًا يقول ما يفعل بأهله ولعل امرأةً تخبر بما فعلت مع زوجها؟)، فأرم القوم فقلت: إي والله يا رسول الله إنهن ليقلن وإنهم ليفعلون، قال: (فلا تفعلوا فإنما مثل ذلك مثل الشيطان لقي شيطانةً فى طريقٍ فغشيها والناس ينظرون)[3].

والحديث يدل على تحريم إفشاء أحد الزوجين لما يقع بينهما من أمور الجماع وذلك لأن كون الفاعل لذلك بمنزلة شيطان لقي شيطانة فقضى حاجته منها والناس ينظرون من أعظم الأدلة الدالة على تحريم نشر أحد الزوجين للأسرار الواقعة بينهما الراجعة إلى الوطء ومقدماته، وهذا التحريم هو في نشر أمور الاستمتاع ووصف التفاصيل الراجعة إلى الجماع وإفشاء ما يجري من المرأة من قول أو فعل حالة الوقاع، وأما مجرد ذكر نفس الجماع فإن لم يكن فيه فائدة ولا إليه حاجة فمكروه لأنه خلاف المروءة ومن التكلم بما لا يعني ومن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه فإن كان إليه حاجة أو ترتب عليه فائدة فلا كراهة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم ٣٦١٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من إصابة أهله، رقم ٢١٧٦.
. وضعه الألباني في ضعيف أبي داود ٢/ ٢٢٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٤٥٦، رقم ٢٧٦٢٤، ورواية أحمد فيها شهر بن حوشب وهو على ضعفه حديثه حسن كما ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٥٤٠، وأخرجه الطبراني رقم ٢٠٤٣٥ في الكبير ٢٤/ ١٢٦.

في ذكره، وذلك نحو أن تنكر المرأة نكاح الزوج لها وتدعي عليه العجز عن الجماع أو نحو ذلك[1].

قال النووي: «وفي هذا الحديث تحريم إفشاء الرجل ما يجري بينه وبين امرأته من أمور الاستمتاع ووصف تفاصيل ذلك وما يجري من المرأة فيه من قول أو فعل ونحوه، فأما مجرد ذكر الجماع فإن لم تكن فيه فائدة ولا إليه حاجة فمكروه، لأنه خلاف المروءة وقد قال صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت) وإن كان إليه حاجة أو ترتب عليه فائدة؛ بأن ينكر عليه إعراضه عنها، أو تدعي عليه العجز عن الجماع، أو نحو ذلك فلا كراهة في ذكره كما قال صلى الله عليه وسلم: (إني لأفعله أنا وهذه)، وقال صلى الله عليه وسلم لأبي طلحة: (أعرستم الليلة)[2].

قال المناوي: «والقصد بالحديث التحذير من ذلك وبيان أنه من أمهات المحرمات الدالة على الدناءة وسفساف الأخلاق»[3].

هذا وإفشاء الأسرار الزوجية يترتب عليه آثار سيئة في العلاقة الزوجية، وكذا على نفوس المستمعين لهذه الأسرار، لا يتسع المقام لسرده، وهو يوقع صاحبه في مخالفة الشرع، سواء أكان زوجًا أو زوجه، حيث نص القرآن الكريم على مؤاخذة المرء بكل ما يلفظ من قول، فقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

سادسًا: الأخبار الحربية:

الحرب مشروعة في الإسلام لنشر دين الله عز وجل بعد إنذار غير المسلمين بالدخول في الإسلام أو دفع الجزية، ومشروعة للدفاع عن الأوطان والأنفس كما هو معروف، والحرب لها وضعها الخاص من الترتيب والكتمان وحسن التخطيط، مما يتطلب من المجاهدين وغيرهم المحافظة على أسرارها، وعدم إفشاء أمورها حتى لا يصل الخبر للعدو فيكيد ويحتاط.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على ذلك، ويحذرهم قولًا وعملًا من إشاعة أخبار الجهاد حفاظًا على سلامة

(١) عون المعبود، المباركفوري ٦/ ١٥٨.
(٢) شرح صحيح مسلم ١٠/ ٨-٩ بتصرف يسير.
وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إني لأفعله أنا وهذه) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض باب نسخ «الماء من الماء» ووجوب الغسل بالتقاء الختانين، رقم ٨١٣.
وقوله صلى الله عليه وسلم (أعرستم الليلة) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العقيقة،باب تسمية المولود غداة يولد، لمن لم يعق عنه، وتحنيكه، رقم ٥٤٧٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته، رقم ٥٧٣٧.
(٣) فيض القدير،المناوي ٤/ ٤١٦.

الأمة، وتجنبًا لكيد أعدائها، ولهذا ورد في السنة ما ينص على أن الحرب خدعة، وهو يدل على كتمان الأسرار الحربية، فقد روي الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحرب خدعةٌ)[1].

قال النووي: «اتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف أمكن الخداع إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل»[2].

قال ابن حجر: وأصل الخدع إظهار أمر واضمار خلافه وفيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار وأن من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه قال النووي: واتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن الا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز قال ابن العربي: الخداع في الحرب يقع بالتعريض وبالكمين ونحو ذلك وفي الحديث الإشارة إلى استعمال الرأي في الحرب بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة ولهذا وقع الاقتصار على ما يشير إليه بهذا الحديث وهو كقوله: (الحج عرفة)[3].

وتناول الفقهاء حكم الجاسوس الذي يفشي أسرار جيش المسلمين لعدوهم، وهو لا يخلو من أن يكون غير مسلم كالحربي أو الذمي، أو مسلم، فإن كان الجاسوس حربيًا فهو مباح الدم يقتل على أي حال بالإجماع[4].

قال النووي في شرح مسلم: «اعلم أن الجاسوس إن كان كافرا حربيا فإنه يقتل بإجماع، وأما المعاهد والذمي فقال مالك والأوزاعي: يصير ناقضا للعهد فإن رأى استرقاقه أرقه ويجوز قتله»[5].

أما إن كان الجاسوس ذميا أو مستأمنًا أو مسلمًا، فقد اختلف الفقهاء في قتله حيث ذكر ابن بطال وغيره أقوالا عدة للعلماء:

القول الأول: أنه يوجع عقوبة ويحبس حبسًا طويلا. وهذا قول أبي حنيفة والأوزاعي[6].

القول الثاني: أنه ليس فيه شيء مقدر، وإنما يرجع في أمره إلى اجتهاد الإمام. وهو قول مالك[7].

القول الثالث: إنه يعفى عنه إذا كان ذو هيئة ومكانة، وإن لم يكن كذلك فإنه يعذره

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الحرب خدعة، رقم ٣٠٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الخداع في الحرب، رقم ٤٦٣٨.
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/ ٤٥.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ٦/ ١٥٨.
(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/ ٦٧، فتح الباري، ابن حجر ٦/ ١٦٩.
(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/ ٦٧.
(٦) انظر: المبسوط، السرخسي ١٠/ ١٤٥، البحر الرائق، ابن نجيم ٥/ ١٤٥.
(٧) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ٢١٣، التاج والإكليل، المواق ٣/ ٣٥٧.

الإمام.وهو للشافعي[1].

ودليله في العفو قصة حاطب بن أبي بلتعة حينما أرسل يخبر قريشًا بشأن النبي صلى الله عليه وسلم، حيث عفا عنه النبي.

والحديث بتمامه كما في الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود، قال: (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينةً ومعها كتابٌ، فخذوه منها)، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتابٍ، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا حاطب، ما هذا؟)، قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأً ملصقًا في قريشٍ، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قراباتٌ بمكة، يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد صدقكم)، قال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: (إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدرٍ فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)[2].

ودليله في التعزير عموم حديث: (لا يحل دم امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلاّ بإحدى ثلاثٍ: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك الجماعة)[3].

القول الرابع: أنه يقتل، وهو قول ابن القاسم وسحنون وابن وهب المالكية، غير أن ابن وهب قيد القتل بحالة إذا لم يتب[4]، والحنابلة[5].

فعند المالكية سئل مالك عن الجاسوس

(١) المجموع، النووي ١٩/ ٣٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الجاسوس، رقم ٣٠٠٧، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدرٍ رضى الله عنهم وقصة حاطب بن أبى بلتعة، رقم ٦٥٥٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله تعالى: (أن النفس بالنفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.

(٤) انظر: الذخيرة، القرافي ٣/ ٤٠٠، مواهب الجليل، الحطاب ٤/ ٥٥٣، الخرشي على مختصر خليل ٣/ ١١٩، شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ٢١٣.

(٥) انظر: الطرق الحكمية للسياسة الشرعية، ابن القيم ص٩٤، كشاف القناع، البهوتي ٣/ ٣٥٠.

من المسلمين يؤخذ وقد كاتب الروم وأخبرهم خبر المسلمين فقال: ما سمعت فيه بشيء وأرى فيه اجتهاد الإمام وقال ابن القاسم: أرى أن تضرب عنقه»[١].

وعند الحنابلة: يجوز قتل الجاسوس المسلم، والمفرق لجماعة المسلمين، والداعي إلى غير كتاب الله وسنة نبيه، وغير ذلك مما لا يندفع إلا بالقتل[٢].

والقائلون بالقتل استدلوا بما روي في الصحيحين عن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: (أتى النبي صلى الله عليه وسلم عينٌ من المشركين وهو في سفرٍ، فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انفتل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (اطلبوه واقتلوه). فقتله، فَنَفَّلَهُ وسَلَبَهُ)[٣].

والدليل على قتل الجاسوس المسلم استئذان سيدنا عمر النبي صلى الله عليه وسلم في قتل حاطب، والنبي صلى الله عليه وسلم أقر عمر على إرادة القتل لولا المانع وبين المانع هو كون حاطب شهد بدرًا، وهذا منتفٍ في غير حاطب فلو كان الإسلام مانعًا من قتله لما علل بأخص منه[٤].

وقتل الجاسوس عند القائلين به هو قتل تعزير، فالأمر في قتله متروك للإمام فمتى ما رآى أن المصلحة في قتله فعل ذلك[٥].

القول الخامس: أنه ينظر لفعله، فإن كان نادرًا، أي: تجسس مرة واحدة أو أخبر المشركين عن المسلمين مرة واحدة، ولم يكن من أهل الطعن على الإسلام، فإنه ينكل به، وإن كان معتادًا منه هذا الفعل، فإنه يقتل.

وهو قول عبد العزيز بن الماجشون من علماء المالكية[٦]، واختاره بعض الحنابلة[٧][٨].

وفي العصر الحاضر تختلف عقوبة الجاسوس من دولة لأخرى حسب درجة الجرم، وحسب درجة خطورة وأهمية المعلومات التي قدمها للعدو، وحسب حالة الجاسوس من كونه من أبناء الدولة أو أجنبيًا.

وفي جميع الحالات فإن نشر الأسرار العسكرية، أو الإدلاء بمعلومات تتعلق

(١) انظر: التاج والإكليل، المواق ٣/ ٣٥٧.
(٢) انظر: حاشية الروض المربع، ابن قاسم النجدي ٧/ ٣٤٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الحربى إذا دخل دار الإسلام بغير أمانٍ، رقم ٣٠٥١.
والاستدلال به على القتل في شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ٢١٣.
(٤) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٦٣٥.
(٥) انظر: الموسوعة الجنائية الإسلامية المقارنة بالأنظمة المعمول بها في المملكة العربية السعودية، سعود العتيبي ١/ ٢٠٩.
(٦) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ٢١٣.
(٧) الاختيارات الفقهية، البعلي ١/ ٦٠١.
(٨) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ٢١٣، فتح الباري، ابن حجر ٦/ ١٤٣، ٨/ ٦٣٥، عون المعبود، المباركفوري ٧/ ٢٢٦.

بالأمن القومي للأوطان إلى الجهات المعادية، أو حتى غير المعادية في بعض الأحيان عمل لا يقره الإسلام، ومما ينبغي الحذر منه والتشديد في أمره من قبل ولاة الأمر.

موضوعات ذات صلة:

الإنفاق، الدعوة، السر، الكتمان

العمل

عناصر الموضوع

مفهوم العمل	٣٨٨
العمل في الاستعمال القرآني	٣٨٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٩٠
اقتران العمل الصالح بالإيمان	٣٩٤
نسبة العمل إلى الله	٣٩٨
إحاطة الله بعمل الخلق	٣٩٩
أنواع الأعمال وشروطها	٤٠٨
الحث على العمل الصالح	٤٢٣
أثر العمل في الدنيا	٤٣٣
أثر العمل في الآخرة	٤٤٣

مفهوم العمل

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (عمل) تدل على كل فعل يفعل[١].

قال الخليل: عمل عملًا فهو عاملٌ، واعتمل: عمل لنفسه[٢].

والعمالة: أجر ما عمل.

والمعاملة: مصدر من قولك: عاملته، وأنا أعامله معاملة.

والعَمَلة: القوم يعملون بأيديهم ضروبًا من العمل، حفرًا، أو طيًا أو نحوه[٣].

والخلاصة: أن العمل: المهنة والفعل، والجمع أعمال.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى العمل في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

وقد عرفه المناوي بقوله: العمل: كل فعل من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوان الذي يقع منه فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجماد، والعمل قلما ينسب إلى ذلك[٤].

وقال الكفوي: العمل: المهنة والفعل، والعمل يعم أفعال القلوب والجوارح[٥].

وقال الصغاني: تركيب الفعل يدل على إحداث شيء من العمل وغيره، فهذا يدل على أن الفعل أعم من العمل[٦].

وفي معجم الفقهاء قال: العمل: بالتحريك مصدر عمل، جمع أعمال، كل فعل كان بقصد وفكر، سواء كان من أفعال القلوب كالنية، أم من أفعال الجوارح كالصلاة، والعملة: بضم العين أو كسرها، وسكون الميم، وفتح اللام: ما يعطاه الأجير أجرة عمله[٧].

---

(١) مقاييس اللغة ٤/ ١٤٥.
(٢) العين ٢/ ١٥٣.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ١٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٤٦.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٤٧.
(٥) الكليات ص ٦١٦.
(٦) انظر: المصدر السابق ص ٦١٦.
(٧) معجم لغة الفقهاء، قلعجي ص ٣٢٢.

العمل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عمل) في القرآن الكريم (٣٤٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩٤	﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٦٢]
الفعل المضارع	١٦٦	﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤]
فعل الأمر	١١	﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ:١١]
الاسم	٦١	﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]
اسم فاعل	١٣	﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠]

وجاء العمل في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي الدال على الفعل والمهنة.

وقد نوع القرآن الكريم في استعمال المفردات الدالة على ذات المعنى، ومن تلك المفردات المستعملة: فعل، وكسب، وسعى، وغيرها.

وقد أطلق القرآن الكريم (العمل) على الأعمال الصالحة والسيئة، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣][٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٨٢٨.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٨٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ١٠١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكسب:

الكسب لغةً:

تدل مادة (كسب) على ابتغاء وطلب وإصابة، فالكسب من ذلك، ويقال: كسب أهله خيرًا، وكسبت الرجل مالًا فكسبه[١].

الكسب اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الكسب في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

وقد عرفه المناوي بقوله: الكسب: ما يجري من الفعل والقول والعمل والآثار على إحسان قوة عليه[٢].

الصلة بين العمل والكسب:

العمل والكسب لفظان متقاربان في المعنى في اللغة؛ لذا لا نجد أهل اللغة يفرقون بينهما كثيرًا، بل يعرفون أحدهما بالآخر.

قال الجوهري: الكدح، والعمل، والسعي، والخدش، والكسب[٣]. بمعنى واحد.

ويقول ابن فارس: السعي هو: العمل والكسب[٤].

٢ الفعل:

الفعل لغةً:

تدل مادة (فعل) على إحداث شيء من عمل وغيره، من ذلك: فعلت كذا أفعله فعلًا، وكانت من فلان فعلة حسنة أو قبيحة، والفعال جمع فعل، والفعال، بفتح الفاء: الكرم، وما يفعل من حسن[٥].

الفعل اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الفعل في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

وقد عرفه الجرجاني بقوله: الفعل كون الشيء مؤثرًا في غيره، كالقاطع ما دام قاطعًا، وفي

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٧٩.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٨١.
(٣) الصحاح، الجوهري ١/ ٣٩٨.
(٤) مجمل اللغة، ابن فارس ص ٤٦١.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥١١.

اصطلاح النحاة: ما دل على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة[١].

وعرفه الفيروزآبادي الفعل بأنه: كناية عن كل عمل، متعد أو غيره[٢].

وقال الراغب: الفعل: التأثير من جهة مؤثر، وهو عام لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد؛ ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات، والعمل مثله، والصنع أخص منهما[٣].

الصلة بين العمل والفعل:

قال الراغب: العمل كل فعل يصدر من الحيوان بقصده، فهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعمل قلما ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل في الحيوانات إلا في قولهم: الإبل والبقر العوامل[٤].

٣ الصنع:

الصنع لغةً:

تدل مادة (صنع) على عمل الشيء، ويقال: امرأة صناع، ورجل صنع، إذا كانا حاذقين فيما يصنعانه[٥]. والصنيعة: ما اصطنعته من خير، والتصنع: حسن السمت[٦].

الصنع اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الصنع في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

وقد عرفه الكفوي بقوله: الصناعة: كل عمل مارسه الرجل، سواء كان استدلاليًا، أو غيره، حتى صار كالحرفة له، فإنه يسمى صناعة، وقيل: كل عمل لا يسمى صناعة حتى يتمكن فيه، ويتدرب، وينسب إليه.

وقيل: الصنعة «بالفتح» العمل، والصناعة قد تطلق على ملكة يقتدر بها على استعمال المصنوعات على وجه البصيرة لتحصيل غرض من الأغراض بحسب الإمكان.

والصناعة «بالفتح»: تستعمل في المحسوسات، وبالكسر في المعاني، وقيل: بالكسر

(١) التعريفات ص ١٦٨.
(٢) بصائر ذوي التمييز ٤/ ٢٠١.
(٣) المفردات ص ٦٤٠.
(٤) المفردات ص ٥٨٧.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٧٢، أشعار النساء، المرزباني ص ٩٠.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣١٣.

حرفة الصانع، وقيل: هي أخص من الحرفة؛ لأنها تحتاج في حصولها إلى المزاولة[1].

الصلة بين الصنع والعمل:

قال الراغب: الصنع: إجادة الفعل، فكل صنعٍ فعلٌ، وليس كل فعل صنعًا، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات، كما ينسب إليها الفعل.

وقال الكفوي: الإبداع، والاختراع، والصنع، والخلق، والإيجاد، والإحداث والفعل، والتكوين، والجعل: ألفاظ متقاربة المعاني[2].

٤ السعي:

السعي لغةً:

السعي: الكسب، وكل عمل من خير أو شر سعيٌ، وفي التنزيل: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥][3].

السعي اصطلاحًا:

لا يختلف معنى السعي في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

وعرف الكفوي السعي بأنه: الإسراع في المشي إذا انصرف عنك، وذهب مسرعًا، وسعى، كـ«رعى قصد وعمل ومشى وعدا»، والسعي إذا كان بمعنى المضي والجري يتعدى بـ«إلى» نحو: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]وإذا كان بمعنى العمل يتعدى باللام، كقوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩][4].

الصلة بين السعي والعمل:

السعي والعمل لفظان متقاربان في المعنى، قال الخليل: السعي: عدوٌ ليس بشديد، وكل عملٍ من خيرٍ أو شرٍ فهو السعي، يقولون: السعي: العمل، أي: الكسب[5].

٥ الشغل:

الشغل لغةً:

تدل مادة (شغل) على خلاف الفراغ، تقول: شغلت فلانًا فأنا شاغله، وهو مشغول، وشغلت عنك بكذا، على لفظ ما لم يسم فاعله، قالوا: ولا يقال: أشغلت، ويقال: شغل

(١) الكليات ص ٥٤٤.
(٢) الكليات ص ٢٩.
(٣) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٢٢١.
(٤) الكليات ص ٥٠٩.
(٥) العين ٢/ ٢٠٢.

شاغل، وجمع الشغل أشغال، وقد جاء عنهم: اشتغل فلان بالشيء، وهو مشتغل[1].

الشغل اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الشغل في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

وقال الراغب: الشغل: العارض الذي يذهل الإنسان، قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ [يس: ٥٥][2].

الصلة بين الشغل والعمل:

لم يستعمل الشغل بمعنى العمل إلا في اللغة الدارجة العامية، فقد جاء في تكملة المعاجم العربية قوله: ويستعمل الشغل عند المولدين بمعنى العمل.

إلا أن هناك علاقة بين اللفظين، من حيث أن الشغل هي الحالة التي يكون عليها العامل أي عمل، يقال: هو في شغل، أي: ضد الفراغ.

٦ الكدح:

الكدح لغةً:

تدل مادة (كدح) على تأثير في شيء، يقال: كَدَحَهُ وكَدَّحَهُ، إذا خدشه، ومن هذا القياس: كدح إذا كسب، يكدح كدحًا فهو كادح، قال الله عز وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦]. أي: كاسب[3].

الكدح اصطلاحًا:

عرفه الكفوي بقوله: الكدح: العمل والسعي والكد والكسب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]أي: ساع إلى لقاء جزائه، ويقال: هو يكدح ويكتدح، أي: يكتسب[4].

الصلة بين الكدح والعمل:

بين الكدح والعمل تقارب في المعنى، ويزيد الكدح في الدلالة على الشدة في العمل، والتعب والعناء.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٩٥.
(٢) المفردات ص ٤٥٧.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٦٧.
(٤) الكليات ص ٧٧٣.

اقتران العمل الصالح بالإيمان

قرن الله تعالى في القرآن الكريم بين العمل الصالح والإيمان في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] جاء هذا الاقتران -بهذه العبارة- في تسع وأربعين آية.

وجعل الإيمان في آياتٍ أخر شرطًا لقبول العمل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤] وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وهذا الاقتران بين العمل الصالح والإيمان في القرآن له حكم عديدة، منها:

١. بيان أهمية الإيمان في قبول العمل، وأهمية العمل أيضًا في حصول الإيمان.

فهما قرناء؛ إذ لا تنفع الأعمال بدون إيمان، ولا يكون إيمان بلا أعمال تدل عليه.

ففي هذا تنبيه لطيف جدًا إلى منزلة الأعمال الصالحة مع إيمان القلب، وأن في ذكرها معه إشارة إلى أنه لا يكتفي بإيمان القلب؛ ولعل ذلك راجع إلى أن الأعمال من دلائل الإيمان الظاهرة؛ وأنها لازمة له، فكلما وجد الإيمان فلا بد أن يوجد العمل معه[(١)].

٢. التأكيد على أنه لا يحصل الإيمان الشرعي إلا باجتماع الإيمان والعمل، ولا يكفي واحد من هذه الأمور، بل لا بد من الإتيان بها جميعًا.

وهذا ما اتفق عليه السلف رضوان الله عليهم، قال الإمام الشافعي رحمه الله: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم، وممن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»[(٢)].

وقال ابن عبد البر رحمه الله: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم تسمى إيمانًا»[(٣)].

٣. بيان التلازم بينهما، وشرطية الأعمال في وجود الإيمان، وشرطية الإيمان في قبول الأعمال.

فجميع الأعمال الصالحة التي شرعها الله على لسان نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم إذا تأسست على الإيمان كان السعي مشكورًا، مقبولًا مضاعفًا، لا يضيع منه مثقال ذرة.

---

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبدالرحمن المحمود ٣/ ١٣٦٩.
(٢) الإيمان، ابن تيمية ص١٩٦.
(٣) التمهيد ٩/ ٢٣٨.

هذا هو قانون العمل والجزاء، لا جحود ولا كفران للعمل الصالح، متى قام على قاعدة الإيمان، وهو مكتوب عند الله لا يضيع منه شيء، ولا يغيب.

فلا بد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته، بل ليثبت للعمل الصالح وجوده، ولا بد من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته، بل لتثبت للإيمان حقيقته.

إن الإيمان هو قاعدة الحياة؛ لأنه الصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود، والرابطة التي تشد الوجود بما فيه ومن فيه إلى خالقه الواحد، وترده إلى الناموس الواحد الذي ارتضاه، ولا بد من القاعدة ليقوم البناء، والعمل الصالح هو هذا البناء، فهو منهار من أساسه ما لم يقم على قاعدته.

والعمل الصالح هو ثمرة الإيمان التي تثبت وجوده وحيويته في الضمير، والإسلام بالذات عقيدة متحركة متى تم وجودها في الضمير تحولت إلى عمل صالح هو الصورة الظاهرة للإيمان المضمر، والثمرة اليانعة للجذور الممتدة في الأعماق.

ومن ثم يقرن القرآن دائمًا بين الإيمان والعمل الصالح كلما ذكر العمل والجزاء، فلا جزاء على إيمان عاطل خامد لا يعمل ولا يثمر، ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان.

والعمل الطيب الذي لا يصدر عن إيمان إنما هو مصادفة عابرة؛ لأنه غير مرتبط بمنهج مرسوم، ولا موصول بناموس مطرد، وإن هو إلا شهوة أو نزوة غير موصولة بالباعث الأصيل للعمل الصالح في هذا الوجود، وهو الإيمان بإله يرضى عن العمل الصالح لأنه وسيلة البناء في هذا الكون، ووسيلة الكمال الذي قدره الله لهذه الحياة، فهو حركة ذات غاية مرتبطة بغاية الحياة ومصيرها، لا فلتة عابرة، ولا نزوة عارضة، ولا رمية بغير هدف، ولا اتجاها معزولًا عن اتجاه الكون وناموسه الكبير[1].

فإذا فقد العمل الإيمان فلو استغرق العامل ليله ونهاره فإنه غير مقبولٍ، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

ذلك أنه لم يقم على الإيمان الذي يصل القلب بالله، والذي يجعل العمل الصالح منهجًا مرسومًا، وأصلًا قاصدًا، لا خبط عشواء، ولا نزوة طارئة، ولا حركة مبتورة، لا قصد لها ولا غاية، فلا قيمة لعمل مفرد لا يتصل بمنهج، ولا فائدة لحركة مفردة ليست حلقة من سلسلة ذات هدف معلوم، وهكذا تعدم أعمال أولئك المشركين، تعدم إعدامًا يصوره التعبير القرآني تلك الصورة الحسية المتخيلة: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٩٨.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

فهم لما فقدوا الإيمان، وأحلوا محله الكفر بالله وآياته حبطت أعمالهم، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجب ما قبله من السيئات وإن عظمت، فالتوبة من الذنوب المنافية للإيمان، والقادحة فيه، والمنقصة له تحبط ما قبلها، قال تعالى مبينًا صفات في الإيمان من العمل خلافًا للمرجئة[٢]؛ ولبيان شرطية وجود الإيمان لقبول العمل، والغالب أن يتقدم ذكر الإيمان، ثم يليه ذكر العمل الصالح، وقد يذكر الله في القرآن العمل، ثم يذكر بعده الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

وقد يفرد أحدهما بالذكر، ويدخل معه الآخر، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] والمراد: العمل الصالح المنبعث على أساس الإيمان، يرفعه الله تعالى، ويقبله.

وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٣] أفرد ها هنا الإيمان، فدخل معه العمل.

وهذا الجمع بين الأمرين هو سبيل المؤمنين المهتدين، وإهمالهما، أو إهمال أحدهما هو طريق أهل الضلال؛ كما أن الجمع بين العلم والعمل هو الطريق المأمور به، المخالف لطريق المغضوب عليهم، والضالين.

قال ابن كثير: وللفرق بين الطريقتين لتجتنب كل منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]وأخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧][1] وهكذا القول في الجمع بين الإيمان والعمل.

ولهذا جعل الله تعالى لمن أتى بالوصفين: «الإيمان والعمل» الجنة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨٢].

قال ابن كثير[2] في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة، فهم من أهل الجنة، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٤١.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٠٨.

نسبة العمل إلى الله

جاء نسبة العمل إلى الله في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١]ونسبة الفعل إليه سبحانه وتعالى في القرآن أكثر، فقد جاء في آيات كثيرة أنه يفعل ما يشاء، وفعال لما يريد، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وقال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

فقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: مما فعلته وصنعته أيدينا.

وقال البيضاوي: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: مما تولينا إحداثه، ولم يقدر على إحداثه غيرنا، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة، تفيد مبالغة في الاختصاص، والتفرد بالإحداث[(١)].

ومما يدل على أن ذلك من باب الاستعارة التمثيلية أن الأنعام تخلق ولا تعمل؛ ولكنه شبه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمرًا بيديه، ويصنعه بنفسه، واستعار لفظ «العمل» للخلق بطريق الاستعارة التمثيلية[(٢)].

والمقصود: أن الله تعالى وصف نفسه بأنه يعمل، قال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١].

ووصف نفسه بالفعل الذي هو العمل، ووصف خلقه بالعمل، قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وبين العمل والعمل من المنافاة كما بين الذات والذات[(٣)].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٧٣.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢٣.

(٣) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٣٦٩.

إحاطة الله بعمل الخلق

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أنه محيط بأعمال خلقه، لا يخفى عليه من أعمالهم شيء، ومما يدل على ذلك:

١. اقتران عمل الإنسان بأسماء الله.

فقد أخبر الله تعالى في القرآن أنه بصير بأعمال العباد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقال: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [هود: ١١٢].

والبصر هنا بمعنى العلم؛ ويمكن أن يكون بمعنى الرؤية؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[(١)].

فأثبت لله بصرًا؛ لكن تفسيره بالعلم أعم[(٢)].

وفي الآية تحذير من المخالفة، فإذا كان الله بصيرًا بأعمال عباده فليحذروا من مخالفة أمره ونهيه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي: إنه تعالى بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء، فيجازي عليها[(٣)].

وأخبر الله تعالى في القرآن أيضًا أنه خبير بأعمال عباده.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٩٤].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وكأن هذه الجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ جاءت تعليلية، تحمل الوعد والوعيد؛ إذ علم الله بأعمال العباد صالحها وفاسدها يستلزم الجزاء عليها، فمتى كانت صالحة كان الجزاء حسنًا، وفي هذا وعده، ومتى كانت فاسدة كان الجزاء سوءًا، وفي هذا وعيده[(٤)].

وأخبر الله تعالى أيضًا في القرآن الكريم أنه عليم بأعمال عباده، فقال: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢٨].

فهو ﴿عَلِيمٞ﴾ بأعمال عباده من خير

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: (إن الله لا ينام)، ١/ ١٦١، رقم ١٧٩.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ١/ ٣١٢.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٢/ ١٦٧.

(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٢٤٠.

وشر، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء[1].

وفق علمه واطلاعه على أعمالهم.

ولا يعلم الله العمل الظاهر من العبد فحسب، بل حتى ما يضمره في قلبه، ويخفيه في نفسه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[الأحزاب: ٥١].

يقول: والله يعلم ما في قلوب الرجال من ميلها إلى بعض من عنده من النساء دون بعض بالهوى والمحبة، يقول: فلذلك وضع عنك الحرج يا محمد فيما وضع عنك من ابتغاء من ابتغيت منهن، ممن عزلت تفضلًا منه عليك بذلك وتكرمة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾[الأحزاب: ٥١].

يقول: وكان الله ذا علم بأعمال عباده، وغير ذلك من الأشياء كلها[2].

ومما يدل على ذلك قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾[المائدة: ١١٦].

بإحاطة الله به، وخص النفس بالذكر لأنها مظنة الكتم والانطواء على المعلومات، والمعنى: أن الله يعلم ما في نفس عيسى، وقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[المائدة: ١١٦].

معناه: ولا أعلم ما عندك من المعلومات، وما أحطت به[3].

ومما يبين ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

فمراد الآية وصف إحاطة الله تعالى بكل شيء، ومعنى اللفظ: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد، والمراد هو وغيره ﴿فِي شَأْنٍ﴾ من جميع الشؤون ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ الضمير عائد على ﴿شَأْنٍ﴾، أي: فيه وبسببه من قرآن، ويحتمل أن يعود الضمير على جميع القرآن، ثم عم بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ وفي قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ تحذير وتنبيه[4].

ومما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

ومعنى هذه الآية: معتدل منكم في إحاطة الله تعالى وعلمه من أسر قوله، فهمس به في نفسه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ فأسمع، فلا يخفى على الله تعالى شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ معناه: من هو بالليل في غاية الاختفاء، ومن هو متصرف بالنهار ذاهب لوجهه، سواء في علم الله تعالى وإحاطته بهما، وذهب ابن عباس رضي الله عنهما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٤٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٩٦.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٦٣.
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٢٧.

ومجاهد إلى معنى مقتضاه: أن «المستخفي والسارب» هو رجل واحد، مريب بالليل، ويظهر بالنهار البراءة في التصرف مع الناس[1].

وأخبر الله تعالى عن نفسه أنه لا يغفل عن عمل الخلق، فقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]وقال: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ومعنى الآيات: أن الله ليس بغافل عن عملكم، بل محيط بأعمالكم، ونياتكم، ومكركم السيئ، فمجازيكم عليه أشر الجزاء[2].

والغفلة: السهو والنسيان، والمراد أنه سبحانه محيط بأعمال هؤلاء الذين كتموا الحق، لا تخفى عليه منها خافية، وسيحاسبهم عليها حسابًا عسيرًا، ويعاقبهم على مزاعمهم الباطلة عقابًا أليمًا، فالجملة الكريمة تهديد ووعيد لأهل الكتاب[3].

وأخبر الله تعالى أنه شهيد على ما يفعله العباد.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أنه حاضر لأعمالكم.

ومعنى الآية: أن الله تعالى وبخهم على كفرهم، وأخبر أنه لا ينفعهم الاستمرار به؛ لأنه شهيد على أعمالهم[4].

قال ابن الجوزي: وأما الشهيد، فقال ابن قتيبة: هو بمعنى الشاهد، وقال الخطابي: هو الذي لا يغيب عنه شيء، كأنه الحاضر الشاهد[5].

والمقصود: أن الله تعالى ﴿شَهِيدٌ﴾ على ما يعمله عباده، حاضر معهم، ناظر إلى نياتهم في أعمال الخير والشر، فيجازيهم بها، فهو عالم علم المعاين الحاضر القائم الحاكم على ما يعملون دائمًا، سواء أكان العمل عمل القلب، أم كان العمل عمل الجوارح.

فالله تعالى شهيد عالم معاين حاكم قوام على ما تعملون من خير ومن شر، فالنص السامي يتضمن توبيخًا على الكفر، وتهديدًا بالعقاب الشديد على ما يعملون؛ لأن الله تعالى إذا كان شهيدًا على ما يفعلون، وهو الحكم العدل القادر على الثواب والعقاب، فإنه بلا ريب مجازيهم على فعلهم، ومحاسبهم على مقاصدهم في أقوالهم

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٩٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤١.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٢٩٠.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٧١.
(٥) زاد المسير ١/ ٣٠٩.

وأفعالهم.

وأخبر الله تعالى أنه محيط بما يفعله العباد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

وقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

فهذه الآيات ونظيراتها تدل على أنه لا يخفى على الله شيء من أعمال عباده؛ فهو محيط بأعمالهم كلها، علمًا وقدرة، وسوف يجازيهم عليها في الدنيا والآخرة.

ففي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ تذييل، قصد به إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين، والرعب في قلوب أعدائهم، أي: إنه سبحانه محيط بأعمالهم، وبكل أحوالهم، ولا تخفى عليه خافية منها، وسيجازيهم عليها بما يستحقونه من عذاب أليم بسبب نياتهم الخبيثة، وأقوالهم الذميمة، وأفعالهم القبيحة[1].

وأعلى من هذا أنه قد أحاط بكل شيء علمًا، ليست إحاطته لأعمال العباد فقط، بل بكل شيء، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

وقال: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠﴾ [البروج: ٢٠].

قال الطبري: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ بأعمالهم، محصٍ لها، لا يخفى عليه منها شيءٌ، وهو مجازيهم على جميعها[2].

ففي قوله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ وجوه:

أحدها: أن المراد وصف اقتداره عليهم، وأنهم في قبضته وحوزته، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه، فسد عليه مسلكه، فلا يجد مهربًا، يقول تعالى: فهو كذا في قبضتي، وأنا قادر على إهلاكهم، ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم إياك، فلا تجزع من تكذيبهم إياك، فليسوا يفوتونني إذا أردت الانتقام منهم.

وثانيها: أن يكون المراد من هذه الإحاطة قرب هلاكهم، كقول تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢١] وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] فهذا كله عبارة عن مشارفة الهلاك، يقول: فهؤلاء في تكذيبك قد شارفوا الهلاك.

وثالثها: أن يكون المراد: والله محيط

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٢٤٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٤٧.

بأعمالهم، أي: عالم بها، فهو مرصد بعقابهم عليها[1].

والخلاصة: أن هذه الآيات تدل على أن الله تعالى محيط بأعمال العباد كلها، ظاهرها، وباطنها، صغيرها وكبيرها، فمجازيهم عليها، وفيها وعيد وتهديد، يعني: أنه تعالى عالم بجميع الأشياء، لا يخفى عن علمه شيء؛ لأنه محيط بأعمال العباد كلها، فيجازي المحسنين، ويعاقب المسيئين.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء: ١٢٦].

قال السعدي: وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أنه له ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء[2].

ولعل المتمعن في هذه الآيات التي جاء فيها الإخبار بعلم الله وخبرته وإطلاعه على ما يعمله الملائكة والجن والإنس وتنوعها، وما جاء فيها من تقريرات حاسمة عن إحاطة الله بكل شيء في كل آن، وشمول قدرته لكل شيء، واستغنائه عن كل عون في تصريف ملكوت السماوات والأرض يدرك مدى قدرة الله وعظمته، ومدى إحاطته بكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعدم طروء ما يطرأ على البشر من غفلة ونسيان عليه، ونفي أي مشابهة له في الأسماء والصفات، والقدرة الشاملة.

وفيها: إشارة إلى سعة إحاطة الله بأعمال الناس ونواياهم، فهو يعلم كل حركة من حركاتهم، خفيها وظاهرها، حتى ما يدق على المشاهدين مما تنطوي عليه لحظات العيون، وتخفيه الصدور من النوايا المريبة.

فهو السميع لكل شيء، النافذ بصره إلى كل شيء، وهو الذي سيقضي بين الناس بالحق وفق أعمالهم، أما الشركاء الذين يدعوهم المشركون مع الله فليس لهم أي قدرة على شيء، أو القضاء في أي شيء، أو النفوذ إلى أي شيء[3].

وقد قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران: ٥]وهذه الجملة السامية تفيد تمام إحاطة الله تعالى في علمه، فهو سبحانه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١١٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٠٦.
(٣) انظر: التفسير الحديث، محمد دروزة ٤/ ٣٦١.

وتعالى يتجلى له كل شيء، ولو كان خافيًا عن الناس أو من شأنه الخفاء؛ ولذلك جاء التعبير عن العلم الكامل، ببيان نفي الخفاء عليه سبحانه؛ وذلك لأن العالم المحيط قد يخفى عليه شيء، لكن علم الله غير ذلك، فهو علم لا خفاء معه في شيء مطلقًا؛ وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليمًا بكل شيء، لا يخفى عليه شيء فهو يعلم القلوب وما تخفيه، وما تكنه السرائر، وما تكنه الضمائر، فهو يعلم البواعث على الكفر، وأنها ليست نقصًا في الدليل، ولكنها مآرب الدنيا، والعصبية الجنسية والمذهبية، فليس الذين ينكرون ما جاء به محمد مخلصين في إنكارهم، بل هي لجاجة العناد، وجحود المستيقن.

وذكر سبحانه السماء والأرض للإشارة إلى أن علمه قد وسع كل شيء وسع السماوات والأرض، وليس الإنسان وما تحدثه به نفسه إلا شيئًا صغيرًا في هذا الملكوت العظيم؛ وذلك العالم بأرضه وسمائه، وأكد نفي الخفاء بتكرار «لا» في قوله تعالى: ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فذكرها ثانيًا تأكيد؛ لأنه لا يخفى عليه شيء[1].

وقال في آية أخرى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧] قال السعدي: يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده، إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الذر الذي توزن بها الحسنات والسيئات ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة أو كافرة ﴿شَيْئًا﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزاد في سيئاتها.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها من خير أو شر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ وأحضرناها ليجازى بها صاحبها، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ يعني: بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسبًا، أي: عالمًا بأعمال العباد حافظًا لها، مثبتًا لها في الكتاب، عالمًا بمقاديرها، ومقادير ثوابها وعقابها، واستحقاقها موصلًا للعمال جزاءها[2].

ويجد المتأمل في آيات القرآن الكريم أن الله تعالى كثيرًا ما يقرن بين اسمه تعالى «العليم» و«الخبير» عند الكلام على علمه وخبرته بأعمال عباده، كما في قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣] وإيثار وصفي العليم الخبير هنا دون الاسم العلم «الله» لما فيهما من التذكير بما يجب أن يعلمه الناس من إحاطة الله تعالى علمًا وخبرًا بكل شيء.

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ١١٠٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٤.

والعليم: القوي العلم، وهو في أسمائه تعالى دال على أكمل العلم، أي: العلم المحيط بكل معلوم.

والخبير: أخص من العليم؛ لأنه مشتق من خبر الشيء إذا أحاط بمعانيه ودخائله؛ ولذلك يقال: خبرته، أي: بلوته، وتطلعت بواطن أمره.

والفرق بين الخبر والعلم وسائر الأشياء الدالة على صفة العلم أن الفائدة متى حصلت من موضع الحضور سميت مشاهدة، والمتصف بها هو الشاهد والشهيد، وكذلك إن حصلت عن طريق السمع أو البصر، فالمتصف بها سميع وبصير، وكذلك إن حصلت عن علم أو علامة فهو العلم، والمتصف به العالم والعليم، وإن حصلت عن استكشاف ظاهر المخبور عن باطنه ببلوى أو امتحان أو تجربة، أو تبليغ فهو الخبر، والمسمى به الخبير.

قال الغزالي في «المقصد الأسنى»: العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة، وسمي صاحبها خبيرًا، وحظ العبد من ذلك أن يكون خبيرًا بما يجري في عالمه وعالمه قلبه وبدنه، والخفايا التي يتصف القلب بها من الغش والخيانة، والتطواف حول العاجلة، وإضمار الشر، وإظهار الخير، والتجمل بإظهار الإخلاص مع الإفلاس عنه، لا يعرفها إلا ذو خبرة بالغة قد خبر نفسه ومارسها، وعرف مكرها وتلبيسها وخدعها، فحاذرها وتشمر لمعاداتها، وأخذ الحذر منها، فذلك من العباد جدير بأن يسمى خبيرًا[1].

والمقصود: أن علم الله تعالى بأعمال العباد ومجازاتهم عليها قاطع لكل شك بأن الله هو إله الحق، وأن ما يدعون من دونه من أوثان هو الباطل، وقاطع بأن الله تعالى ذا الألوهية الحقة هو العلي الكبير، أي: ذو العلو المطلق الكبير الذي ليس شيء أكبر منه؛ إذ هو رب كل شيء ومالكه، والقاهر له، والمتحكم فيه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، الذي يعلم ما خفي، وما ظهر، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النمل: ٧٤]أي: إن ربك وخالقك -جل جلاله- يعلم أحوال هؤلاء الذين معك، فيعلم منافقهم وكافرهم، وصادقهم وكاذبهم، يعلم ما يكنون في أنفسهم، ويجعلونه مكنونًا مستورًا مخفيًا.

ويعلم ما يعلنون، أي: وما يظهرونه، ويتجاهرون به، هل هو كما يظهرونه ويعلنونه، هو النفاق والكذب والدجل، فالله تعالى محيط بهم، محيط بأعمالهم، سميع لأقوالهم، وهذا في مقام التهديد والوعيد، فالله يعلم كل أحوالهم ما أخفوا وما أعلنوا، فلا يطمعوا يومًا في أن يظهروا لك شيئًا لا

(١) المقصد الأسنى ص ١٠٣.

وجود له لتعتقده؛ لأن الله الخالق يعلم منهم ما خفي، وما أعلن[1].

٢. السؤال على الأعمال، والمجازاة عليها.

ومما يدل على إحاطة الله بعمل الخلق، أنه يسألهم عنها، ويجازيهم بها، فلا تهمل، ولا تضيع، بل يسأل الله عنها، ويجازي عليها.

قال تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن العباد مسؤولون عن أعمالهم، مجزيون عنها، خيرًا أو شرًا، يسألهم الله عنها، ويجازيهم بها، وهذا يدل على إحاطته سبحانه وتعالى بتلك الأعمال، وإحصائها، وكتابتها، وأنها محفوظة، لا تضيع، ولا تنسى، ولا تهمل.

قال في البحر: وتوعد بالسؤال عن العمل، فقال: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهو سؤال توبيخ، لا سؤال تفهم، وسؤال التفهم هو المنفي في آيات، ثم قال: يعني: سؤال المحاسبة والمجازاة[2].

وهو خطاب لجميع الناس، ومثله في التأكيد والعموم قوله في سورة الحجر: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

وأكد السؤال بتأكيدين، اللام والنون، أي: عما تعملون من عمل ضلال، أو عمل هدى، والسؤال: كنية عن المحاسبة؛ لأنه سؤال حكيم، تترتب عليه الإنارة، وليس سؤال استطلاع[3].

قال ابن عرفة: واختلف الناس في المباح هل تكتبه الحفظة، ويتعلق فيه السؤال أو لا؟

وعموم الآية تدل على أنه يسأل عنه، ويكتب؛ لأن «ما» إن كانت موصولة بمعنى «الذي» فهي عامة؛ لأن «الذي» معرف بالألف واللام، وهذه بمعناه، وإن كانت مضافة، فيعم بالإضافة[4].

والمقصود: أن مما يدل على إحاطة الله بأعمال المكلفين، أنه يحصيها، ويسأل عنها، قال: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ والسؤال سؤال محاسبة وجزاء، لا سؤال استفهام واستعلام ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «عما» أي: «عن ما» و«ما» اسم موصول، والاسم الموصول من صيغ العموم، أي: سيحاسبنا الله سبحانه وتعالى على كل ما عملنا، من خير، أو شر، والقسم على أن الخلق سيحاسبون مع التأكيد بنون

(١) تفسير المنتصر الكتاني ١٣٩/ ١٢.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٥٨٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٦٨.
(٤) تفسير ابن عرفة ٣/ ٤٥.

التوكيد زيادة في التهديد والوعيد.

٣. سنة الله ابتلاء المكلفين أيهم أحسن عملًا.

ومما يدل على إحاطة الله بعمل الخلق، وإحصائه عليهم، أن الله تعالى ابتلاهم بالعمل، ليتم على وفق ذلك الجزاء، والفلاح أو الهلاك، فلما ابتلاهم بالعمل كان من اللازم أن يحصي عليهم أعمالهم؛ ليجازيهم بها في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فهذه الآيات تدل على أن الله خلق الخلق، وكلفهم بالعمل الصالح، وأحصاه عليهم؛ ليجازيهم به يوم القيامة.

قال البيضاوي: أي خلق ذلك كخلق من خلق؛ ليعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم كيف تعملون، فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم، وما تحتاج إليه أعمالكم، ودلائل وأمارات تستدلون بها، وتستنبطون منها[1].

فالاستخلاف في الأرض منوط بالعمل الصالح، فالله يستخلف قومًا بعد آخرين؛ لينظر كيف يعملون، خيرًا أو شرًا، فيعاملهم على حسب عملهم، وبما أن الله يعلم ما سيكون في المستقبل في كل أنحاء الكون ومن المخلوقات، فيكون المقصود إقامة الدليل الحسي والمادي المشاهد على الناس من خلال أعمالهم الواقعية، وليس معنى الآية بأن الله تعالى ما كان عالمًا بأحوال الخلق قبل وجودهم؛ وإنما المراد منه أنه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم، ليجازيهم بحسبه، كقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢][2].

فبين الحكمة من خلقه الخلائق، فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] ولم يقل: أكثر عملًا.

وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة في خلق الأرض وزينتها، قال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بين الحكمة، فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فهذه الآيات دلت على أنه خلق الخلق ليمتحنهم، وهذا لا ينافي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٢٨.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١١/ ١٢٦.

﴿وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]

أي: إلا لآمرهم بعبادتي على ألسنة رسلي، وأمتحنهم فيظهر المحسن منهم وغير المحسن، وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن طريق الإحسان محصورة في هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، وهو أن يعلم العبد الضعيف الذليل المسكين أن جبار السماوات والأرض مطلع عليه، حاضر لا يغيب عنه شيء من فعله، يعلم كل ما يفعل؛ ولذا فجميع الخلائق الله جل وعلا مطلع عليهم، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، لا يغيب عنه شيء من أعمالهم؛ ولذا قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٧][1].

أنواع الأعمال وشروطها

أشار القرآن الكريم إلى أنواع من العمل، وإلى بعض شروطها، ومن هذه الأعمال:

أولًا: العمل الصالح:

العمل الصالح في مفهوم القرآن هو جميع الطاعات التي أمر الله بها، وأمر بها رسوله صلى الله عليه وسلم، وكل عمل يحبه الله ويرضاه فهو من العمل الصالح، بل يتعدى ذلك إلى كل عمل قصد به فاعله وجه الله تعالى، وكان موافقًا لهدي رسوله، وإن كان فعلًا عاديًا، يفعله الإنسان بدافع العادة.

وقد عبر الله عنه في القرآن بالعمل الصالح، وبالصالحات، وبالحسنات، والطاعة، والحسنة، والخير، وغير ذلك من الألفاظ التي تدل على العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٢١].

وقال: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٦٦.

﴿تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

ففي قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الخصال والفعلات الصالحات، نعت لاسم مؤنث محذوف.

ومعناه: أخلصوا الأعمال، يدل عليه قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[الكهف: ١١٠].

أي: خالصًا؛ لأن المنافق والمرائي لا يكون عمله خالصًا، وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فيما بينهم وبين ربهم، وقال: العمل الصالح يكون فيه أربعة أشياء: العلم، والنية، والصبر، والإخلاص.

وقال سهل بن عبد الله: لزموا السنة؛ لأن عمل المبتدع لا يكون صالحًا.

وقيل: أدوا الأمانة، يدل عليه قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾[الكهف: ٨٢]. أي: أمينًا.

وقيل: تابوا، ودليله قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[يوسف: ٩]. أي: التائبين[(١)].

والعمل الصالح أيضًا هو ما يصلح للقبول، وهو ما يؤدى على الوجه المأمور به، ويقال: العمل الصالح ما كان بنعت الخلوص، وصاحبه صادق فيه، ويقال: هو الذي لا يستعجل عليه صاحبه حظًا في الدنيا من أخذ عوض، أو قبول جاه، أو انعقاد رياسة، وما في هذا المعنى[(٢)].

فالصالحات: هي الأعمال التي تعود بالخير عليك، أو على غيرك، وأضعف الإيمان في عمل الصالح أن تترك الصالح في ذاته على صلاحه فلا تفسده، كأن تجد بئرًا يشرب منه الناس فلا تطمسه ولا تلوثه، فإن رقيت العمل الصالح، فيمكنك أن تزيد من صلاحه، فتبني حوله جدارًا يحميه، أو تجعل له غطاءً.

قال ابن عثيمين: و﴿الصَّالِحَاتِ﴾ هي: التي كانت خالصة لله، وموافقة لشريعة الله.

ولا يمكن أن يكون العمل صالحًا إلا بهذا الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله، فمن أشرك فعمله غير صالح، ومن ابتدع فعمله غير صالح، ويكون مردودًا عليهما، ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[(٣)].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌ)[(٤)].

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ١/ ١٧٠، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٣.

(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٧٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، ٤/ ٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ٣/ ١٨٤، رقم ٢٦٩٧، ومسلم في

أي: مردود عليه، فصار العمل الصالح ما جمع وصفين: الإخلاص لله، والمتابعة لشريعة الله، أو لرسول الله[1].

وهذا العمل الصالح مطلوب من كل أحد، لم يستثن الله نبيًا ولا رسولًا من إلزامه بالعمل الصالح؛ لذا أعقب بيان نعمه وأفضاله على داود بأمره مع أهله بصالح العمل، وهو فعل الأوامر، وترك النواهي، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ [سبأ: ١٣].

وعلل الترغيب بالعمل الصالح بأنه تعالى بصير بأعمال عباده وأقوالهم، لا يغيب عنه شيء، فيجازيهم عليها[2].

وإن ثواب العمل الصالح، وعقاب العمل السيئ يرجع إلى صاحبه، فينفعه أو يضره في آخرته، وإن جميع الخلائق عائدون إلى ربهم للحساب والجزاء، فالعمل الصالح يعود بالنفع على فاعله، والعمل الرديء يعود بالضرر على فاعله، وأنه تعالى أمر بهذا، ونهى عن ذلك، لحظ العبد، لا لنفع يرجع إليه، وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح، وزجر عن العمل الباطل[3].

وإن اقتران الإيمان دائمًا بالعمل الصالح يدل على أن الإسلام يدعو إلى العمل الإيجابي للخير، فليس الإيمان في الإسلام مجرد نزاهة روحية، وتعبد في الصوامع، إنما الإيمان مظهره عمل إيجابي، فيه نفع للناس؛ فالإسلام يدعو إلى العمل الإيجابي، لا مجرد التقديس السلبي.

وإذا كان العمل الصالح هو النفع العام والنفع الخاص، فإنه يفترق عن الصلاة والزكاة، من حيث إن هذه هي الفرائض الوقتية المنظمة للعلاقات بين العبد وربه، وبين العبد والناس، أما العمل الصالح فهو الحال الدائمة للمؤمن التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا حال، فكما أن الإيمان حال دائمة، فالعمل الصالح أي النفع الدائم المستمر للإنسان هو الذي ينبغي أن يكون حالًا دائمة مستمرة للمؤمن[4].

شروط العمل الصالح في القرآن:

دل القرآن العظيم على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: موافقته لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

الثاني: أن يكون خالصًا لله تعالى؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ

صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، ٣/ ١٣٤٣، رقم ١٧١٨.

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة الكهف ص ١٤٧.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١٥٠.

(٣) المصدر السابق ٢٥/ ٢٦٥.

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ١٠٥٣.

﴿اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

الثالث: أن يكون مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧].

فقيد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح.

وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم في آيات كثيرة، كقوله في عمل غير المؤمن: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٦].

وقوله: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] الآية.

وقوله: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

إلى غير ذلك من الآيات[1].

والمقصود: أن العمل الصالح له شروط، وهي ما سبق ذكرها، فلا ينبغي الاغترار بصورة العمل الصالح، فرب عمل صالح في الظاهر لا يثمر خيرًا، أو عمل صالح لا يستفيد منه صاحبه قربًا من الله.

وقد ذكر القرآن كثيرًا أن بعض الأعمال حابطة؛ لأنها لم تستوف شروطها، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٥].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢]

ونظائرها كثير.

والحبوط: من حبطت الإبل: إذا أكلت الخضر، فنفخ بطونها، وربما هلكت[2]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطًا أو يلم)[3].

ومن أخواته: حبجت الإبل، إذا أكلت العرفج، فأصابها ذلك، وأحبض عمله: مثل أحبطه، وحبط الجرح وحبر: إذا غفر،

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٤٤٠.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ١٧٤، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٢٢٨، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٢٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل النفقة في سبيل الله، ٤/ ٢٦، رقم ٢٨٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، ٢/ ٧٢٧، رقم ١٠٥٢.

وهو نكسه وتراميه إلى الفساد، جعل العمل السيئ في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض لمن يصاب به، أعاذنا الله من حبط الأعمال، وخيبة الآمال.

وقد دلت الآية على أمرين هائلين:

أحدهما: أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله.

والثاني: أن في آثامه ما لا يُدرى أنه محبط، ولعله عند الله كذلك، فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ[1].

ثانيًا: العمل السيئ:

ذكر القرآن من أنواع العمل العمل السيئ، وهو الذي من شأنه أن يسوء صاحبه[2]. إذا رآه في صحيفته.

وأطلق عليه القرآن فاحشة، وذنبًا، ومعصيةً، وسيئة، وغيرها من الاطلاقات، لكن جرى أسلوب القرآن أن الله إذا قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، يراد به العمل السيئ، ودليله قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج: ١٠].

وقد جمع الله العمل الصالح والسيئ في آية واحدة، قال الله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٥].

فذكر نوعين من العمل السيئ والحسن، ثم أخبر أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيحتمل: الأحسن: الحسنات نفسها يجزيها، ويكفر السيئات.

ويحتمل: أنه يكفر أسوأ السيئات وأعظمها، ويجزي على أحسن الحسنات وأعظمها، فعلى هذا أحسن وأسوأ من نوعها، أحسن الحسنات، وأسوأ السيئات، وعلى الأول من غير نوعها، أي: يكفر السيئات، ويجزي بالحسنات[3].

والمقصود: أن الأعمال السيئة: هي التي يعملها الإنسان على غير الوجه المشروع، فكل عمل على هذا النحو هو عمل سوء.

والأفعال السيئة على أربعة أنواع:

الأول: الفعل بأحد الجوارح، كالزنا والسرقة.

الثاني: فعل اللسان، فهو عمل، والدليل على أن قول اللسان من الأفعال: أن الله صرح أن قول اللسان من الأفعال في قوله جل وعلا: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فأطلق على زخرف القول اسم «الفعل» فدل على أن قول اللسان فعلٌ.

الثالث: العزم المصمم؛ لأن عزم الإنسان

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٥٥.
(٢) السراج المنير، الشربيني ٣/ ٣٣٣.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٦٨٢.

المصمم دلت السنة الصحيحة على أنه من الأفعال السيئة التي تدخل صاحبها النار، أما الهم الذي لم يكن عزمًا مصممًا، فليس من الأفعال، كما قال جل وعلا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وإتباعه لذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ دل على أنه همٌّ لم يستقر، ولم يكن عزمًا مصممًا حتى يعد من الأفعال، ومن ذلك الهم الذي ليس من العزم المصمم الذي هو من الأفعال.

الرابع: هو الترك، والترك من الأفعال الحقيقية، فهو فعلٌ على التحقيق، وإن خالف فيه من خالف، فمن ترك الصلاة حتى ضاع وقتها فقد عمل بهذا الترك عملًا سيئًا يدخل به النار، وكان ابن السبكي في بعض تآليفه في الأصول يقول: طالعت كتاب الله لأجد فيه آيةً تدل على أن الترك فعلٌ فما وجدت فيه شيئًا يدل على أن الترك فعلٌ إلا شيئًا يفهم من آيةٍ في سورة الفرقان هي قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠].

قال: الاتخاذ أصله من الأخذ، والأخذ: التناول، فقال: تناولوه مهجورًا، فدل على أن الهجر فعلٌ.

ونحن نقول: إنا باتباع كتاب الله وجدنا آياتٍ صريحةً من كتاب الله تدل بصراحةٍ لا شك فيها على أن الترك من الأفعال، منها: آيتان في سورة المائدة، إحداهما قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٣].

فسمى عدم نهيهم وتركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سماه: «صنعًا» والصنع أخص من مطلق الفعل، ومنه قوله تعالى في المائدة أيضًا: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

ثم قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] يعني به تركهم للتناهي عن المنكر، سماه «فعلًا» وأنشأ له الذم بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

هذه الأقسام الأربعة هي الأفعال، واللغة العربية تدل على أن الترك من الأفعال.

وبهذا يعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾[الأنعام: ٥٤]. أن عمل السوء قد يكون بفعل أحد الجوارح، وقد يكون بفعل اللسان، وقد يكون بالعزم المصمم[1].

وأطلق القرآن كثيرًا على العمل السيئ: السيئة، وهي: اسم كالخطيئة، والسوأى، بوزن فعلى: اسم للفعلة السيئة، بمنزلة الحسنى للحسنة، محمولة على جهة النعت

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ٣٤٣.

في حد أفعل وفعلى، كالأسوأ والسوأى، رجلٌ أسوأ، وامرأة سوأى، أي: قبيحة، والسوأة: كل عمل وأمر شائن، وتقول في النكرة: رجل سوءٍ، وإذا عرفت، قلت: هذا الرجل السوء، ولم تضف، وتقول: هذا عمل سوء، ولم تقل: العمل السوء؛ لأن السوء يكون نعتًا للرجل، ولا يكون السوء نعتًا للعمل؛ لأن الفعل من الرجل، وليس الفعل من السوء، كما تقول: قول صدقٍ، والقول الصدق، ورجل صدق، ولا تقول: الرجل الصدق؛ لأن الرجل ليس من الصدق[1].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧].

والسيئات على وجوه: كأكل الحرام، وشرب الخمر، والغيبة ونحوها، لكن أسوأ الكل الشرك بالله؛ ولذلك لا يغفر، وهو جلي وخفي -حفظنا الله منهما-، وكذا الحسنات على وجوه: ويجمعها العمل الصالح، وهو ما أريد به وجه الله، وأحسن الكل التوحيد؛ لأنه أساس جميع الحسنات، وقامع السيئات[2].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠].

وقال بعض الحكماء: إن الله تعالى قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ ولم يقل: من ذكرٍ أو أنثى وقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ لأن العمل الصالح يحسن من الرجل والمرأة، والسيئة من المرأة أقبح من الرجل، فلم يذكر من ذكرٍ أو أنثى[3].

وقال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢].

فالعمل السيئ هو: التخلف عن الغزو بلا إشكال، وأما العمل الصالح ففيه معنيان:

أحدهما: ندامتهم، وربطهم أنفسهم بالسواري.

والثاني: العمل الصالح: هو غزواتهم مع رسول الله من قبل[4]. والصواب العموم في كلا العملين.

ومعنى الخلطة: أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء؛ ذكره غالب المفسرين، وأنكره الرازي، وقال: الواو لمطلق الجمع، وفيه تنبيه على نفي القول بالمخالطة، وأنه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر[5].

وأطلق القرآن على العمل السيئ أيضًا: الخبيث، قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]قيل: يعني: الكافر

(١) العين ٧/ ٣٢٨.
(٢) روح البيان ٢/ ٢٨٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٧.
(٤) تفسير السمعاني ٢/ ٣٤٤.
(٥) فتح البيان، صديق خان ٥/ ٣٨٧.

من المؤمن، فينزل المؤمن الجنان، والكافر النيران، وقال الكلبي: العمل الخبيث من العمل الصالح الطيب، فيثيب على الأعمال الصالحة الجنة، وعلى الأعمال الخبيثة النار[1].

ثالثًا: العمل المباح:

وذكر القرآن من أنواع العمل «العمل المباح» وهو العمل في البحر، والتجارة، والصناعة، قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩].

قال السمرقندي: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: يؤاجرون في البحر، ويكسبون قوتهم[2].

فهذه السفينة كانت لفقراء يحترفون العمل في البحر، لنقل الناس من ساحل إلى آخر[3].

وإسناد العمل إلى الكل حينئذٍ إنما هو بطريق التغليب، أو لأن عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين[4].

ومن فوائد الآية: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩][5]. أي: مجال عملهم البحر، يعملون فيه بنقل الركاب، أو البضائع، أو الصيد، أو خلافه[6].

وهذا من العمل المباح الذي ذكره القرآن.

ومعنى الآية: أما السفينة التي خرقتها، وأنكرت علي ذلك، فقد كانت لمساكين محتاجين، يعملون في البحر للتجارة، وصيد الأسماك، وهي مرتزقهم في الحياة، وكان لهم ملك جبار ظالم نهم يأخذ لنفسه كل سفينة صالحة، ويغتصبها غصبًا من أهلها بدون الرجوع إلى حق، أو قانون[7].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

أي: يغوصون له في البحار، فيستخرجون الجواهر، ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدائن والقصور، واختراع الصنائع العجيبة، كما قال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ والله حافظهم أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه[8].

ومن العمل المباح الذي ذكره القرآن أيضًا الصناعة، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٥٦.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٧.
(٣) تفسير القرآن الكريم، المقدم ٩٢/ ٥.
(٤) إرشاد العقل السليم،أبو السعود ٥/ ٢٣٧.
(٥) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ص٢٥٩.
(٦) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٦٧.
(٧) التفسير الواضح، محمد حجازي ٢/ ٤٣٢.
(٨) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٣٠.

﴿مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

ففي قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ هذا عمل في الصناعة.

قال السمعاني: قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ أي: المساجد، ويقال: الأبنية المرتفعة، وفي القصة: أنه أمرهم ببناء الحصون بالصخر، فبنوا باليمن حصونًا كثيرة عجيبة، وهي صرواح ومرواح وفلتون وهندة وهنيدة وغمدان وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ أي: الصور، فإن قال قائل: أليس أن عمل الصور مكروه؟

قلنا: هو في هذه الشريعة، ويحتمل أنها كانت مباحة في شريعته، وقد كان عيسى يصور من الطين، وينفخ فيه فيجعله الله طيرًا، واختلف القول في الصور التي اتخذتها الشياطين؛ فأحد القولين: أنها صورة السباع والطيور من العقبان والنسور، وما أشبه ذلك.

والقول الثاني: أنه أمرهم باتخاذ صورة الأنبياء والزهاد والعباد، حتى إذا نظرت بنو إسرائيل إليهم ازدادوا عبادة.

وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي: كالحياض، والجفان جمع جفنة، وفي القصة: أن كل جفنة كان يقعد عليها ألف إنسان[1].

ولهذا قال بعد ذلك: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] أي: صالحًا من الأعمال، فإنه لا نجاح، ولا فوز على العدو بالقوة المادية فقط، بل لا بد من العمل الصالح الذي يقوم النفوس، ويطهر الأرواح، ويحصنها حتى لا تكبو، ومن المطلع على خفايا النفوس؟ إنه الله عالم الغيب والشهادة، إنه بما تعملون بصير فاحذروه.

ويظهر -والله أعلم- أن داود كافح وقاتل حتى خلص الملك من الأعداء فمدته كانت مدة حرب وجلاد، ولذلك كان مشغولًا بعمل الدروع السوابغ، وفي أيام سليمان كان الهدوء مخيمًا على المملكة، فكان سليمان ينتقل على بساطه الذي يحمله الريح ليشرف على أطراف المملكة الواسعة الأرجاء، والشعب كان مشغولًا بالبناء والصناعة، وتأسيس الدور والمعابد؛ ولذلك من الله عليه بإذابة النحاس له، وتسخير الجن يعملون له ما يشاء من محاريب، وتماثيل، وقصاع كالجوابي، وقدور واسعة ثقيلة، لا تنقل، بل هي راسيات كالجبال.

وكانت الجن تعمل بين يديه ما يريده بإذن ربه، وهي مهددة، فمن يزغ منهم عن أمر الله: يمل عنه، يذقه عذابًا شديدًا من عذاب السعير.

فيا آل داود: هذه بعض نعم الله عليكم، وهي نعم سابغة كثيرة، ومن أعطي هذا

(١) تفسير السمعاني ٤/ ٣٢١.

فليعمل لله شكرًا، وقليل من عباده الشكور، قليل من تصفو نفسه، ويطهر قلبه، ويقابل الإحسان بالشكر، والنعمة بالحمد ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ٦].

وخذوا أيها الناس العبرة من داود وسليمان، عبدا ربهما، وشكرا وأخلصا، فمن الله عليهما بالنعم التي لا تحصى، وأجرى على أيديهما المعجزات[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

أي: وتذكروا نعم الله عليكم، وإحسانه إليكم؛ إذ جعلكم خلفاء لعاد فى الحضارة والعمران، والقوة والبأس، وأنزلكم منازلهم تتخذون من سهولها قصورًا زاهية، ودورًا عالية، بما ألهمكم من حذق فى الصناعة، فجعلكم تضربون اللبن، وتحرقونه آجرًا «الطوب المحرق» وتستعملون الجص، وتجيدون هندسة البناء، ودقة النجارة، وتنحتون من الجبال بيوتًا؛ إذ علمكم صناعة النحت، وآتاكم القوة والجلد.

وروي: أنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء لما في البيوت المنحوتة من القوة، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في باقي الفصول للزراعة والعمل[(٢)].

ونظير ما جاء في الصناعة قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ۝٨٠﴾ [الأنبياء: ٨٠].

فقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ﴾ تلك هي صنعة الدروع حلقًا متداخلة، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة، والزرد المتداخل أيسر استعمالًا، وأكثر مرونة، ويبدو أن داود هو الذي ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله، والله يمن على الناس أن علم داود هذه الصناعة لوقايتهم في الحرب ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ وهو يسألهم سؤال توجيه وتحضيض ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾؟

والحضارة البشرية سارت في طريقها خطوة خطوة وراء الكشوف، ولم تجيء طفرة؛ لأن خلافة الأرض تركت لهذا الإنسان، ولمداركه التي زوده الله بها ليخطو في كل يوم خطوة، ويعيد تنسيق حياته وفق هذه الخطوة، وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام جديد ليست سهلة على النفس البشرية، فهي تهز أعماقها، وتغير عاداتها ومألوفها، وتقتضي فترة من الزمان لإعادة الاستقرار الذي تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج، ومن ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك فترة

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ١٣٢.

(٢) تفسير المراغي ٨/ ١٩٩.

استقرار تطول أو تقصر، بعد كل تنسيق جديد، والقلق الذي يستولي على أعصاب العالم اليوم منشؤه الأول سرعة توالي الهزات العلمية والاجتماعية التي لا تدع للبشرية فترة استقرار، ولا تدع للنفس فرصة التكيف والتذوق للوضع الجديد[(١)].

والمقصود: أن القرآن أخبر عن نبي الله داود الذي آتاه الحكم والخلافة في الأرض أنه قد اتخذ لنفسه صناعة يأكل منها، وأفهمه الله تعالى هذه الصناعة، وما كان أكل الرجل من عمل يده عيبًا، إنما العيب أن يكون كلًّا على الناس، وهو القادر على العمل، ولقد جاء في تفسير القرطبي ما نصه: «هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضًا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حراثًا، ونوح نجارًا، ولقمان خياطًا، وطالوت دباغًا، وقيل: سقاء، فبالصنعة يكف الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها الضرر»[(٢)].

وقال الرازي وهو يتكلم على هذه الآية ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]: إن مصالح العالم إما أصول وإما فروع، أما الأصول فأربعة: الزراعة والحياكة وبناء البيوت والسلطنة.

وذلك لأن الإنسان مضطر إلى طعام يأكله، وثوب يلبسه، وبناء يجلس فيه، والإنسان مدني بالطبع، فلا تتم مصلحته إلا عند اجتماع جمع من أبناء جنسه، يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص، فحينئذٍ ينتظم من الكل مصالح الكل؛ وذلك الانتظام لا بد وأن يفضي إلى المزاحمة، ولا بد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض؛ وذلك هو السلطان، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلا بهذه الأمور الأربعة[(٣)].

ومن العمل المباح الذي ذكره القرآن أيضًا العمل في التجارة، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال أبو جعفر: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في سفر ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ في تجارة، قد سافروا لطلب المعاش[(٤)].

وقال السيوطي: هذه الآية أصل في التجارة[(٥)].

وقد كان بعض الصحابة يتأول من هذه الآية فضيلة التجارة والسفر للتجارة، حيث سوى الله بين المجاهدين والمكتسبين

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٩٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٢١.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٤٧١.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٩٩.
(٥) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٧٦.

المال الحلال[1].

وقال الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن فوائد هذه الآية: جواز الاتجار؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ ولكن هذا الإطلاق مقيد بالشروط التي دلت عليها النصوص؛ فلو اتجر الإنسان بأمر محرم فهذا لا يجوز من نصوص أخرى؛ ولو رابى الإنسان يريد التجارة والربح قلنا: هذا حرام من نصوص أخرى؛ إذًا هذا المطلق الذي هو التجارة مقيد بالنصوص الدالة على أن التجارة لا بد فيها من شروط.

ومن فوائد الآية: أن التجارة نوعان:

- تجارة حاضرة.
- تجارة غير حاضرة.

فأما الحاضرة فهي التي تدار بين الناس بدون أجل؛ وأما غير الحاضرة فهي التي تكون بأجل، أو على مسمى موصوف غير حاضر.

ومنها: أن الأصل في التجارة الدوران؛ لقوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ فأما الشيء الراكد الذي لا يدار فهل يسمى تجارة؟ يرى بعض العلماء أنه ليس تجارة؛ ولذلك يقولون: ليس فيه زكاة، وأن الزكاة إنما هي في المال الذي يدار -يعني يتداول-، ويرى آخرون أنها تجارة؛ ولكنها تجارة راكدة؛ وهذا يقع كثيرًا فيما إذا فسدت التجارة، وكسد البيع؛ فربما تبقى السلع عند أصحابها مدة طويلة لا يحركونها؛ لكن هي في حكم المدارة؛ لأن أصحابها ينتظرون أي إنسان يأتي، فيبيعون عليه[2].

ومن العمل المباح الذي ذكره القرآن أيضًا العمل في الأرض والزرع، قال تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: ٣٥].

فقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ما معطوفة على ثمره، أي: ليأكلوا من الثمر، وما عملته أيديهم بالحرث والزراعة والغراسة[3].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

قيل: في هذه الآية دلالة على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس؛ ولذلك ضرب الله به المثل في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ الآية.

وفي صحيح مسلم: (ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٨٥.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ٤١٨.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٨٢.

إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة)[1].

وفي الترمذي: (التمسوا الرزق في خبايا الأرض)[2]. يعني: الزرع.

وقال رجل لآخر: دلني على عمل أعالجه، فقال له:

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها
لعلك يومًا أن تجاب وترزقا[3]

والزراعة: من فروض الكفاية، فيجبر عليها بعض الناس إذا اتفقوا على تركها[4].

وقد نبه سبحانه وتعالى إلى أن طرق الكسب قسمان؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ففي هذا النص الكريم تقسيم حكيم؛ وقد قدم سبحانه وتعالى القسم الأول، وهو الكسب الذي يكون بعمل الإنسان، سواء أكان صناعة أم كان تجارة، وسواء أكان عملًا آليًا، أم كان عملًا فكريًا؛ وكان ذلك التقديم لأسباب كثيرة:

منها: بيان فضل الأكل من العمل والكسب، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ما أكل ابن آدم طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)[5].

ومنها: أن العطاء من مال يجيء بمجهود، وتبذل فيه الجهود يكون أعظم ثوابًا.

ومنها: إعلاء قدر العمل الإنساني؛ لأن به إقامة العمران، وإصلاح الأرض، وتقدم هذا الوجود الإنساني في معيشته، ووسائل رزقه.

والقسم الثاني: فيه خير كثير، ولكنه كله بفضل الله تعالى لا عمل للعبد إلا إلقاء البذر، وغرس الغراس، والقيام عليها، والباقي كله لله الواحد القهار.

وهنا يسأل سائل: لماذا أضاف سبحانه ما يخرج من الأرض إليه سبحانه وتعالى مع أن للعبد فيه عملًا من حرث وبذر وإصلاح ومراقبة، ثم أضيف الكسب بالتجارة والصناعة والعمل في هذه الدنيا إلى العبد، مع أنه برزق من الله؛ لأنه هو الذي قسم الأرزاق بين العباد، وجميع ما للعبد من مكاسب بتوفيقه ورزقه، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] وكما

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، ٣/ ١١٨٨، رقم ١٥٥٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، ١/ ٢٧٤، رقم ٨٩٥ والبيهقي في الشعب ٢/ ٤٤٠، رقم ١٧٩.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ١٦٢.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٢.

(٤) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٢/ ٦٥٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ٣/ ٥٧، رقم ٢٠٧٢.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]فكل شيء منه وإليه، وكل كسب للعبد سواء أكان من الزرع والضرع، أم كان من الصناعة أو التجارة فهو من الله وبفضله وبتوفيقه ورزقه وهدايته، بل عطائه سبحانه وإن لذلك السؤال موضعه، وأن الله سبحانه في بعض آي الذكر الحكيم يضيف الكسب إلى العبد لأنه الذي باشر العمل، وفي بعضه يضيف الرزق إلى الرب لأنه المانح، وهو سبحانه يصرف الآيات لمن يفقهونها، ولكل مقام ما يناسبه، ولكلامه سبحانه المثل الأعلى، فلا يحاكيه كلام الإنسان مهما يعل قدره في البيان.

ولو حاولنا أن نصل إلى سر التعبير ما بلغناه على وجهه الكامل؛ وأقصى ما نقول: هو أنه سبحانه وتعالى أضاف الكسب إلى العبد في الأولى، وإخراج النبات والغراس إليه ليتميز القسمان من الإنتاج، فهما قسمان متقابلان بلا شك، إذ الأول العنصر الواضح فيه كسب العبد، والثاني العنصر الواضح فيه عمل الرب، كما أشرنا، فلهذا التمييز بين القسمين كانت الإضافتان المختلفتان، وليحث سبحانه الناس على النوعين من العمل، وبيان أنهما أساس العمران في هذا الوجود، فكلاهما إصلاح في الأرض وسبيل من سبل الإنتاج فيها؛ وقد كان بعض الاقتصاديين المتقدمين يعتبر طريق الإنتاج فقط الزراعة، وما تخرجه الأرض؛ والأخرى طرق ثانوية، فالله سبحانه يرشد إلى أن كليهما طريق متميز فيه عمران الأرض والإصلاح فيها، وفوق ذلك فإن إضافة الكسب إلى العبد مع الحث على الإنفاق من طيباته فيه إشارة إلى أن للفقير حقًا معلومًا في كل ما يكسب من مال، سواء أكان بصناعة أو تجارة، أو عمل باليد، أم كان بالبحث في الأرض، وإلقاء الحب، ورجاء الثمار من الرب، فللفقير قدر معلوم في كل هذا.

وبعض المفسرين لا يقصر ما تخرجه الأرض على الزرع والشجر، والحشائش التي يتغذى منها ذات الضرع وذات الحافر، بل يتجاوز إلى ما يكون في باطن الأرض من معادن وفلزات، وسواء مما تقوم عليها الثروات عند بعض الأمم، ومما صار أساس العمران في عصرنا الحاضر؛ فإن أولئك المفسرين الأجلاء أدخلوا ذلك في عموم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وإن ذلك صادق بلا ريب، وهو نظر مستقيم.

وقد يقول قائل: إن ذلك مودع في باطن الأرض، ولم يخرجه الله سبحانه وتعالى إلى ظاهرها، بل الإنسان هو الذي يخرجه، فنقول: ليس المراد بالإخراج هو هذا المظهر الحسي، بل المراد منه التكوين والإنشاء وظهور الأعراض التي تكون

سبيلا لخروجه، فيشمل الإخراج ذلك كما يشمل تكوين الزرع بخروج البذرة من باطن الأرض؛ فإن كليهما يكونه الله تعالى ويظهره لعباده؛ هذا بعوده مستقيمًا يراه الحس بما يحمل من ثمر، وما معه من غذاء، وذاك يظهر بأعراضه التي يعرفها الخبراء، وقد يظهر للحس ويبدو للنظر، كما يرى البترول طافيًا على الأرض في بعض البلدان، يعلن ما حوته في باطنها من عيون ثرَّة تفيض به[1].

والمقصود: أن هذه الطرق الثلاث التي ذكرها القرآن -الزراعة، والتجارة، والصناعة- وهي الطرق الطبيعية لتحصيل الأموال، عمد الاقتصاد القومي لكل أمة تريد أن تحيا حياة استقلالية، رشيدة عزيزة، من الضروري العمل على تركيزها في البلاد، ثم العمل على تنسيقها تنسيقًا يحقق للأمة هدفها الذي يوجبها الإسلام عليها، والذي يجب أن تحصل عليه وتحتفظ به وتنميه؛ صونًا لكيانها، واستقلالها في سلطانها وإدارتها، وإذا كان من قضايا العقل والدين أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكانت الحياة متوقفة على هذه العمد الثلاثة، كانت هذه العمد الثلاثة واجبة، وكان تنسيقها على الوجه الذي يحقق خيرها واجبًا.

وكل هذه الأعمال -التجارة والصناعة والزراعة- إذا قام صاحبها بحقها، وتوكل على الله تعالى حق توكله هي عبادة لله، فالصانع في مصنعه، والزارع في مزرعته، والتاجر في متجره إذا قصد وجه الله تعالى، ونفع الناس يكون ذاكرًا لله تعالى، عابدًا له، وإن المؤمن لا يفرغ قلبه من ذكره، إذا قام بحق الله تعالى، وإن ذكر الله تعالى يصحبه الخوف من الله فيتقي الله تعالى في كل عمل يعمله، ويكون دائمًا في حذر من غضب الله تعالى[2].

والحكمة من الإشارة إلى هذه الأعمال المباحة في القرآن هي: الدلالة على أن الإسلام دين يجمع بين الدنيا والآخرة، بين إعمار الدنيا وإعمار الآخرة، وقد ذكر الله تعالى ذلك على سبيل الامتنان، مما يدل على إباحة هذه الأعمال، بل على وجوبها أحيانًا.

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ١٠٠٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٤٦٤.

الحث على العمل الصالح

تتنوع أساليب القرآن الكريم في الحث على الشيء المرغوب فيه، فتارة بالأمر الصريح به، وتارة بالنهي عن ضده، وتارة بذكر ثوابه، ونجد هذا التنوع في الأسلوب في الحث على العمل الصالح، حيث جاء في القرآن على النحو الآتي:

١. الأمر به.

من أساليب القرآن الكريم في الحث على العمل الأمر به.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فـ﴿اعْمَلُوا﴾ أمر بالعمل، وهو من أساليب الحث على الشيء، والأمر هو طلب فعل، وصيغته: افعل، ولتفعل، وهي حقيقة في الإيجاب، وترد مجازًا لمعان أخر.

قال أبو السعود: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ زيادة ترغيب لهم في العمل الصالح الذي من جملته التوبة، وللأولين في الثبات على ما هم عليه، أي: قل لهم بعد ما بان لهم شأن التوبة: اعملوا ما تشاؤون من الأعمال، فظاهره ترخيص وتخيير، وباطنه ترغيب وترهيب، وقوله: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ أي: خيرًا كان أو شرًا، تعليل لما قبله، وتأكيد للترغيب والترهيب، والسين للتأكيد، ﴿وَرَسُولُهُ﴾ عطف على الاسم الجليل وتأخيره عن المفعول للإشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ والمعنى: أن أعمالكم غير خافية عليهم، كما رأيتم وتبين لكم، ثم إن كان المراد بالرؤية معناها الحقيقي فالأمر ظاهر، وإن أريد بها مآلها من الجزاء خيرًا أو شرًا فهو خاص بالدنيوي، من إظهار المدح والثناء والذكر الجميل والإعزاز، ونحو ذلك من الأجزية وأضدادها[1].

وقد حذف مفعول ﴿اعْمَلُوا﴾ لأجل التعويل على القرينة؛ ولأن الأمر من الله لا يكون بعمل غير صالح، والمراد بالعمل ما يشمل العمل النفساني من الاعتقاد والنية، وإطلاق العمل على ما يشمل ذلك تغليب.

وتفريع ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ زيادة في التحضيض، وفيه تحذير من التقصير، أو من ارتكاب المعاصي؛ لأن كون عملهم بمرأى من الله مما يبعث على جعله يرضي الله تعالى؛ وذلك تذكير لهم باطلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات، وعطف ﴿وَرَسُولُهُ﴾ على اسم الجلالة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام هو المبلغ عن الله، وهو الذي يتولى معاملتهم على حسب أعمالهم، وعطف ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أيضًا لأنهم شهداء الله في أرضه؛ ولأن هؤلاء لما تابوا قد رجعوا إلى حظيرة جماعة الصحابة، فإن

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٠٠.

عملوا مثلهم كانوا بمحل الكرامة منهم، وإلا كانوا ملحوظين منهم بعين الغضب والإنكار؛ وذلك مما يحذره كل أحد هو من قوم يرمقونه شزرًا ويرونه قد جاء نكرًا.

والرؤية المسندة إلى الله تعالى قد تكون حقيقية، وقد تكون رؤية مجازية، وهي تعلق العلم بالواقعات، سواء كانت ذوات مبصرات أم كانت أحداثًا مسموعات، ومعاني مدركات[1].

ومن الأوامر بالعمل قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

والظاهر أن الأمر في قوله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ لآل داود، وإن لم يجر لهم ذكر، ويجوز أن يكون أمرًا لداود شرفه الله بأن خاطبه خطاب الجمع[2].

وانتصب ﴿شُكْرًا﴾ على أنه مفعول له، أي: اعملوا لله، واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه، وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدى على طريق الشكر، أو على الحال، أي: شاكرين، أو على تقدير: اشكروا شكرًا؛ لأن ﴿اعْمَلُوا﴾ فيه معنى اشكروا، من حيث أن العمل للمنعم شكر له، ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولًا به، ومعناه: إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكرًا على طريق المشاكلة[3].

وكأنه قال: ﴿اعْمَلُوا﴾ ولم يقل: اشكروا؛ لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح[4].

وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب، إنما هو اكتساب، والكسب يكون بقدر الحاجة، وباقي الأيام والليالي للعبادة، فقدر في ذلك العمل، ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب، بل حصل به القوت فحسب.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [سبأ: ١١] أي: لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح، فاعملوا ذلك، وأكثروا منه، والكسب قدروا فيه، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١].

وقد ذكرنا مرارًا أن من يعمل لملك شغلًا ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه، ويجتهد فيه[5].

قال صاحب السراج: كما قال تعالى عقب قوله سبحانه: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: ١١] ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ قال عقب ما تعمله الجن له: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة في هذه الأشياء، وإنما الإكثار

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٥.
(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٨/ ٥٢٦.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٧٣.
(٤) الموسوعة القرآنية، الأبياري ٨/ ٢٩٩.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٩٦.

من العمل الصالح الذي يكون شكرًا[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]ففي الآية أمر للرسل بالعمل الصالح، وهو أمر للأتباع، والمعنى: أي: اعملوا بما أمركم الله به، وأطيعوه في أمره ونهيه ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى علي شيء من أعمالكم[2].

قال النسفي: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما؛ لأنهم أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك، ووصى به؛ ليعتقد السامع أن أمرًا نودي له جميع الرسل، ووصوا به، حقيق أن يؤخذ به، ويعمل عليه، أو هو خطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام لفضله، وقيامه مقام الكل في زمانه، وكان يأكل من الغنائم، أو لعيسى عليه السلام لاتصال الآية بذكره، وكان يأكل من غزل أمه، وهو أطيب الطيبات، والمراد بالطيبات: ما حل، والأمر للتكليف، أو ما يستطاب ويستلذ، والأمر للترفيه والإباحة[3].

وبدأ بالأمر بالأكل من الطيبات قبل الأمر بالعمل الصالح؛ لأن الأعمال تتوقف على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات؛ ولهذا قدم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل، فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلها الله كما حرم غلاة المتصوفة اللحم، وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها، كما يفعله متصوفة الهنادك، ومن قلدهم من المتنسبين للإسلام، والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، وقد بين ذلك أئمة السنة والأثر رحمهم الله، وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنه هو الذي يثمرها؛ لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن، فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن، فتفسد الأعمال[4].

ولم يتوجه الأمر ها هنا إلى العمل فقط، بل لا بد وأن يكون هذا العمل صالحًا؛ ولهذا قال: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ وليس الأمر الذي يكون به متميزًا عن سائر البشر إلا العمل الصالح، بأن يكون خالصًا له، والعمل الصالح هو العمل الطيب الذي يكون خيرًا محضًا للناس، لا يكون معه شر لا في ذاته، ولا في نيته، والعمل الصالح ما يكون فيه النفع لأكبر عدد ممكن، وما تكون فيه سعادة عاجلة لأكثر الناس، أو سعادة آجلة لعامتهم، ويدخل في هذا دعوتهم إلى

(١) السراج المنير، الشربيني ٣/ ٢٨٧.
(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٩٢.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٧١.
(٤) تفسير ابن باديس ص ٣٥٥.

الهداية والرشاد، والتبليغ عن أمر ربهم[1].

قال في روح البيان: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي: عملًا صالحًا، فإنه المقصود منكم، والنافع عند ربكم، وهذا الأمر للوجوب، بخلاف الأول، وفي أمر الرسل بالعمل الصالح رد وهدم لما قال به بعض المبيحين من أن العبد إذا بلغ غاية المحبة، وصفا قلبه، واختار الإيمان على الكفر من غير نفاق سقطت عنه الأعمال الصالحة من العبادات الظاهرة، وتكون عبادته التفكر، وهذا كفر وضلال، فإن أكمل الناس في المحبة والإيمان هم الرسل خصوصًا حبيب الله مع أن التكاليف بالأعمال الصالحة والعبادات في حقهم أتم وأكمل[2].

وقال المراغي: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أمر الله كل نبي في زمانه بأن يأكل من المال الحلال ما لذ وطاب، وأن يعمل صالح الأعمال؛ ليكون ذلك كفاء ما أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة، وهذا الأمر وإن كان موجهًا إلى الأنبياء، فإن أممهم تبع لهم، وكأنه يقول لنا: أيها المسلمون في جميع الأقطار، كلوا من الطيبات أي من الحلال الصافي القوام الحلال ما لا يعصى الله فيه، والصافي ما لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس، ويحفظ العقل، واعملوا صالح الأعمال[3].

والمقصود: أن من أساليب القرآن الكريم في الحث على العمل، الأمر به، بلفظ: «اعملوا» وأمر بالسعي، وهو ضربٌ من العمل، فقال: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

قال الشافعي رحمه الله: السعي في هذا الموضع هو العمل.

وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل: ٤]، ويكون المعنى على هذا: فاعملوا على المضي إلى ذكر الله من التفرغ له، والاشتغال بالطهارة والغسل، والتوجه إليه بالقصد والنية[4].

وأمر بالمشي، وهو عمل أيضًا، فقال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

أي: تمتعوا بهذه النعم، ثم إلى ربكم مرجعكم يوم القيامة، ففي الآية الكريمة حثٌّ على العمل والكسب في التجارة والزراعة والصناعة، وجميع أنواع العمل.

فقوله تعالى: ﴿فَامْشُوا﴾ أمر، لكن هل يقتضي الوجوب؟

في الحقيقة إن الأمر في هذا الموطن يقتضي الإباحة، فلا يجب عليك أن تمشي

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٠٨٢.
(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٨٧.
(٣) تفسير المراغي ١٨/ ٢٩.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٣٠٠.

في المناكب -إن كان عندك سعة- فالأمر أمر إباحة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

هل يجب عليك أن تنتشر في الأرض إذا قضيت الصلاة، أو يجوز لك أن تمكث في المسجد؟

فقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه إباحة الانتشار، وليس وجوب الانتشار، لكن على كلٍ فقوله سبحانه: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ حث على البحث عن الأرزاق في الأرض، ونبي الله داود كان يأكل من عمل يده، وكان يعمل سابغات، وغيره من الأنبياء كذلك، فهذا سلوكهم -عليهم الصلاة والسلام- يأكلون من عمل أيديهم، فكل الأنبياء كانوا يعملون ويجتهدون -عليهم الصلاة والسلام-، وكذلك السلف الصالح، كانوا متعففين لا يمدون أيديهم للناس.

بل يذهبون إلى العمل، وهكذا كان الصحابة، فالذين يظنون أن ديننا مبني على مد اليد، وعلى التكاسل وعلى البلادة ظنهم خاطئ، فاليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا يد المعطي واليد السفلى يد الآخذ، فالعمل ليس بعيب أبدًا، امتهن أي مهنة، حتى لو يأخذ أحدكم أحبله فيحتطب، خير له من أن يأتي هذا فيسأله، ويأتي هذا فيسأله.

وأمر بالسير وهو عمل، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١] فهذه الأوامر كلها: «اعملوا، اسعوا، امشوا، سيروا» تحث على العمل، وتأمر به، فالإسلام دين العمل والحركة والإنتاج، وليس دين خمول وكسل وقعود، اعملوا فالدنيا دار عمل، عمل يوصل إلى رضوان الله، وإعمار الأرض، ونفع الخلق.

اعملوا عملًا يوصلكم إلى الآخرة عملًا صالحًا متقبلًا، على وفق مراد الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ سيراه ويطلع عليه، وهذه الرؤية ليست مجرد نظر، لا قيمة له، وإنما بعدها حساب وجزاء على هذه الأعمال، فاعملوا شكرًا لا كفرًا، اعملوا اعمارًا لا دمارًا، بناءً لا خرابًا، إصلاحًا لا إفسادًا، خيرًا لا شرًا.

ومن أوامر القرآن التي تحث على العمل والسعي، قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعمل محمود، شرط أن يكون صالحًا صوابًا، ولا يذم إلا إذا كان خلاف ذلك، فلا ينفع العمل صاحبه إلا بهذا، وإلا فقد ذم الله قومًا عملوا، لكن ما نفعهم عملهم؛ لأنه لم يكن صوابًا، فقال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ [الغاشية: ٣].

عملت عملًا كثيرًا، فنصبت وتعبت، لكنها تصلى نارًا حامية.

٢. مدح أجر أهل العمل الصالح.

ومن أساليب الحث على العمل الصالح مدح أجر العاملين، قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

فقوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي: فنعم ثواب المطيعين لله، العاملين له في الدنيا، الجنة لمن أعطاه الله إياها في الآخرة[١].

والمراد من العمل الإيمان والتقوى في الدنيا، بأداء الفرائض، واجتناب النواهي.

وفي هذه العبارة: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ حث وأي حث على العمل الصالح؛ لصدورها من الله، قال مقاتل: هذا ليس من كلام أهل الجنة، بل الله تعالى لما حكى ما جرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنة، قال بعده: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[٢].

٣. ضمان أجر العمل الصالح.

ومن أساليب القرآن الكريم في الحث على العمل أنه أخبر: إن الله تعالى لا يضيع عمل عاملٍ، وأن كل عامل يجد ما عمله من خير محضرًا، لا ينقص منه شيء، ولو كان قليلًا، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ومن فوائد الآية أن من يعمل شيئًا من الطاعات فرضًا أو نفلًا، وهو موحد مسلم، مصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم، فلا جحود ولا كفران لعمله، ولا يضيع جزاؤه، فالله حافظ لعمله، كما قال تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ أي: كل ذلك محفوظ ليجازى به، وفي هذا ترغيب الناس بطاعة الله تعالى[٣].

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

قيل: معنى: محضرًا على هذا موفرًا غير مبخوس، وقيل: ترى ما عملت مكتوبًا في الصحف، محضرًا إليها، تبشيرًا لها، ليكون الثواب بعد مشاهدة العمل[٤]. وهذا كما قال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١٤].

وكقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فيكون في قوله تعالى: ﴿مُّحْضَرًا﴾ يحتمل أن يكون المراد أن تلك الصحائف تكون محضرة يوم القيامة، ويحتمل أن يكون المعنى: أن جزاء العمل يكون محضرًا، وعلى كلا الوجهين فالترغيب والترهيب حاصلان[٥].

ومما يدل على ذلك قول الله تعالى:

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٧١.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٥٥٥.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ١٧/ ١٣٢.
(٤) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٣/ ٩٨.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٩٦.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

يقول: ولن يظلمكم أجور أعمالكم، فينقصكم ثوابها، من قولهم: وترت الرجل إذا قتلت له قتيلًا، فأخذت له مالًا غصبًا[(١)].

ومن فوائد الآية: أن الله لا ينقص العباد من أعمالهم شيئًا، بل سيوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصًا عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة، فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتنشيطهم، وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

فقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ أي: لا يخاف ابن آدم يوم القيامة أن يظلم، فيزاد عليه في سيئاته، ولا يظلم فيهضم في حسناته[(٣)].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ [هود: ١١١].

فقوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ فيه توكيد للوفاء، وهو القسم فكأنه تأكد الكلام باللامين، وبالقسم، وبنون التوكيد الثقيلة، وأكد أيضا بالتعبير بـ﴿رَبُّكَ﴾ أي: الذي خلقك وخلقهم، وقام على هذا الوجود، وإذا كان هذا الخالق الحي القيوم هو الذي يعد بالتوفية فإنها واقعة لا محالة.

وقوله: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم، ولكنه سبحانه حذف الجزاء، وأضاف الجزاء إلى الأعمال للإشارة إلى أن الجزاء وفاق العمل، فكأنهما شيء واحد؛ إذ يكون عادلًا تمام العدل، يوم تجد كل نفس عملها محضرًا، وإن العدل الحقيقي يقتضي المساواة بين العمل والجزاء، ويقتضي العلم، وقد أشار إلى العدل بالمساواة دين الجزاء والعمل حتى كأنه هو[(٤)].

ومما يدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة: ٧]فإن كان مثقال الذرة من الخير لا يضيع عند الله فهذا مما يدعو إلى العمل، والازدياد منه، والحرص عليه؛ لأن ثمرته محفوظة، وجزاءه مضمونًا عند الله تعالى.

والمقصود من هذا كله: أن في الآيات السابقة كلها حث على العمل؛ إذ قد ضمن الله فيها للعباد بحفظ أعمالهم، وتوفيتهم

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٢٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٧٦.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٧٦١.

إياها كاملة غير منقوصة ولا مبخوسة، فليزدادوا إذن من الخيرات والطاعات والأعمال الصالحة.

٤. قرن العمل بالإيمان بالله.

ومن أساليب القرآن الكريم في الحث على العمل الصالح أنه قرنه بالإيمان، الذي هو أعظم الأشياء، كما في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨٢]وهذا الاقتران دلالة على أهمية العمل الصالح، وحثٌّ عليه.

٥. الإخبار بأن العمل الصالح سبب في دخول الجنة.

ومن أساليب القرآن الكريم في الحث العمل أنه جعله سببًا في دخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢].

وقال: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

ولا تعارض بين هذه الآية والحديث الذي بين فيه النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله لا بعمله[1]؛ لأن الباء في الحديث عوضية، وفي الآية سببية.

فإن قيل: يلزم على هذا أن يقطع بحصول الجنة لجميع العصاة، وأن يقطع بأنه لا عقاب عليهم؟

أجيب: بأننا نقطع بحصول الجنة ولا نقطع بنفي العقاب عنهم؛ لأنهم إذا عذبوا مدة، ثم نقلوا إلى الجنة بقوا فيها أبد الآباد، فكانت معدة لهم[2].

والمقصود: أن مما يرغب في العمل أن الله تعالى جعله سببًا في دخول جنته، التي يطمع فيها الطامعون، ويرغب فيها الراغبون.

٦. الإخبار بأن العمل الصالح يرفعه الله إليه.

ومن أساليب القرآن في الحث على العمل الإخبار بأن العمل الصالح يرفع إلى الله، قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

فقوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ما روي عن الحسن وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك وغيرهم أنهم قالوا: والعمل الصالح يرفعه، أي: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

والقول الثاني: قول قتادة قال: والعمل الصالح يرفعه، أي: يرفعه الله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ٨/ ٩٨، رقم ٦٤٦٣ ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، ٤/ ٢١٧٠، رقم ٢٨١٦.

(٢) السراج المنير، الشربيني ٤/ ٢١٢.

والقول الثالث: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب[1]. عكس الأول.

ولعل مما يؤيد القول الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

يقول تعالى ذكره: إن الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا فلم يصدقوا بها، ولم يتبعوا رسلنا ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ أي: وتكبروا عن التصديق بها، وأنفوا من اتباعها، والانقياد لها تكبرًا، لا تفتح لهم لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء، ولا يصعد لهم في حياتهم إلى الله قول ولا عمل؛ لأن أعمالهم خبيثة، وإنما يرفع الكلم الطيب والعمل الصالح، وقال بعضهم: معناه: لا تفتح لأرواح هؤلاء الكفار أبواب السماء[2].

أو يكون في قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ إشارة إلى بقائه وارتقائه ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: العمل السيئ، وهو يبور، إشارة إلى فنائه[3].

وقال بعض أهل المعاني: معنى: ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يجعله رفيعًا، ذا وزن وقيمة، كما يقال: طود رفيع ومرتفع، وقال قوم: هذه الكناية راجعة إلى العمل، يعني: أن الكلم الطيب يرفع العمل، فلا يرفع ولا يقبل عمل إلا أن يكون صادرًا عن التوحيد، وعائد الذكر يرفع وينصب، وهذا التأويل اختيار نحاة الكوفة، وقيل: الهاء كناية عن العمل، والرفع من صفة الله سبحانه، أي يرفعه الله[4].

والمقصود: أن مما يرغب بالعمل ويحث عليه أن الله تعالى أخبر أنه يرفع العمل الصالح، وإن اختلف العلماء في حكم هذه الكناية، ومعنى الآية، إلا أن فيها رفعة لهذا العمل الصالح.

٧. الإخبار بأن العمل الصالح يقرب من الله زلفى.

ومن وسائل الحث على العمل أن الله تعالى أخبر أن العمل الصالح يقرب منه زلفى ويزداد به العبد من الله حسنًا.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧].

يعني: قولكم: نحن أكثر أموالًا فنحن أحسن عند الله حالًا ليس استدلالًا صحيحًا، فإن المال لا يقرب إلى الله، ولا اعتبار بالتعزز به، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان، والذي يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله، فيبعد عنه فكيف يقرب منه، والعمل الصالح إقبال

(١) تفسير السمعاني ٤/ ٣٤٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٨٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٧.
(٤) الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ١٠٢.

على الله، واشتغال بالله، ومن توجه إلى الله وصل، ومن طلب من الله شيئًا حصل[1].

والمقصود: أن في الآية تعريض بالعمل الصالح، فالمال لا يخلد صاحبه، لكن العمل الصالح هو الذي يخلد الإنسان، فينبغي للعاقل أن يكب عليه، ويسعى للآخرة حيث الخلود الحقيقي، فالمخلد الحقيقي ليس هو المال، وإنما هو العمل الصالح الذي يخلد صاحبه في الجنة.

٨. الإخبار بأن الإنسان خلق من أجل العمل الصالح.

ومن وسائل الحث على العمل أن الله تعالى أخبر أن الإنسان خلق من أجل العمل والعبادة.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق الموت والحياة وخلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، ولم يخلق ذلك عبثًا، وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم أيكم أحسن عملًا، ولم يقل: أكثر عملًا، بل أحسن عملًا، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز وجل، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حبط وبطل[2].

٩. الإخبار بمضاعفة العمل الصالح إلى أضعاف كثيرة.

ومن وسائل الحث على العمل أن الله تعالى أخبر أن الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة.

قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ففي هذه الآية ترغيب في العمل الصالح، وترغيبٌ في الطاعة، حيث جعل الحسنة بعشر أمثالها.

١٠. ذم أهل العمل السيء.

ومن وسائل الحث على العمل الصالح ذم أهل العمل السيء.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤].

فجملة: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ذم لحسبانهم ذلك، وإبطال له، فهي مقررة لمعنى الإنكار في جملة ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ فلها حكم التوكيد، فلذلك فصلت[3].

وتوعد صاحب العمل السيء بالعذاب

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٠٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٦.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٠٧.

الشديد، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ [فاطر: ١٠].

والمقصود: أن في ذم العمل السيء وأهله دعوة إلى العمل الصالح، وترغيب فيه، فالآيات التي جاءت في ذلك ترغب العبد في العمل الصالح وإتقانه، والابتعاد عن العمل السيء وأهله.

أثر العمل في الدنيا

للعمل آثار، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى المجتمع، وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: أثر العمل الصالح:

للعمل الصالح فوائد جليلة، وآثار عظيمة وثمار كثيرة، فمن آثاره على الفرد:

١ . يرفع العبد ويقربه إلى الله.

من ثمار وآثار العمل الصالح أنه يرفع العبد ويقربه إلى الله زلفى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾[سبأ: ٣٧].

يعني: إن قولكم نحن أكثر أموالًا وأولادًا فنحن أحسن حالًا عند الله استدلالًا صحيحًا، فإن المال لا يقرب إلى الله، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان[(١)].

ومما يدل على ذلك قولهم بعد ذلك: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧].

بإضمار القول، وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح، والاعتراف به، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه، وأنهم كانوا يحسبونه صالحًا، والآن تبين خلافه[(٢)].

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٧٢.
(٢) إرشاد العقل السليم،أبو السعود ٧/ ١٥٤.

وقد سبق أن في قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أقوال، منها: قول قتادة، قال: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يرفعه الله[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

قررت الآيات السابقة أن العمل الصالح هو الباقي النافع، وأن المال والبنين ليسوا إلا زينة لمدة قصيرة ثم تزول، فجاءت هذه الآيات منذرة بالقيامة وهولها، وكيف يجاء بهم مجردين مما كانوا يتفاخرون به، وكيف يعرضون على النار، ويواجهون بكتب أعمالهم التي أحصت كل شيء عليهم[2].

ففي الآية تعريض بالعمل الصالح، بالإخبار بأن المال لا يخلد صاحبه وإنما العمل الصالح هو الذي يخلد الإنسان، فينبغي للعاقل أن يكثر من العمل الصالح، ويسعى للآخرة، حيث الخلود الحقيقي، والسعادة الحقيقية، والنعيم المقيم.

٢. مضاعفة العمل.

ومن ثمار وآثار العمل الصالح على العبد أنه سبب في مضاعفة الأجر، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

ففي قوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ أي: من يعمل خيرًا نزد له، والاقتراف: العمل[3].

﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نضاعف عمله ذلك الحسن، فنجعل له مكان الواحد عشرًا إلى ما شئنا من الجزاء والثواب[4].

٣. تبديل سيئاته حسنات.

ومن ثمار وآثار العمل الصالح على العبد أنه سبب في تبديل السيئات إلى حسنات، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠].

قال الواحدي: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ قال: التبديل في الدنيا طاعة الله بعد عصيانه، وذكر الله بعد نسيانه، والخير يعمله بعد الشر.

وقال الحسن: أبدلهم بالعمل السيئ العمل الصالح، وبالشرك إخلاصًا وإسلامًا، وبالفجور إحصانًا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والسدي: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام وبالشرك إيمانًا، وبقتل النفس التي حرم الله قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصانًا.

(١) تفسير السمعاني ٤/ ٣٤٩.
(٢) التفسير الحديث، محمد دروزة ٥/ ٧٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣١.
(٤) المصدر السابق ٢٠/ ٥٠٢.

وذهب قوم إلى أن الله تعالى يمحو السيئة عن العبد، ويثبت له بدلها الحسنة، وهو قول سعيد بن المسيب ومكحول وعمرو بن ميمون[1].

وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

٤. الحصول على الأجر الكبير.

ومن ثمار العمل الصالح على العبد الحصول على الثواب العظيم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩].

فذكر الله سبحانه وتعالى ها هنا حالتين:

أولاهما: الإيمان.

وثانيتهما: العمل الصالح.

وقرن الإيمان بالعمل الصالح لتلازمهما، وإن الإيمان الكامل والإذعان الصادق يلزمهما العمل الصالح لا محالة، وقال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ بالجمع لتنوعها وكثرتها، فهي وإن ضبطها ضابط الصلاح مفترقة متنوعة، فالإصلاح بين الناس، والمعاملة الحسنة، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، والبعد عن ضلالها.

وذكر سبحانه أنه يبشر المؤمنين الصالحين ببشارتين:

البشارة الأولى: أجر كبير، ونكر الأجر لعظمه، ولتذهب النفس في تقديره مذاهب شتى، مع ملاحظة أنه أجر وثواب، ثم وصفه سبحانه وتعالى بالكبر الذي لا حد له.

البشارة الثانية: وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ [الإسراء: ١٠].

وكيف تكون هذه بشارة لأهل الإيمان؟

الجواب عن ذلك: أن البشارة بالنجاة منها، وأنهم لم يتردوا تردية الذين لا يؤمنون بالآخرة، بل وقاهم الله تعالى، وبذلك يتبين أن ذكر عذاب الذين لا يؤمنون جاء تبعًا لإيمان الذين آمنوا وعملوا الصالحات[2].

فهذه هي قاعدة الإسلام الأصيلة في العمل والجزاء، فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه، فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان، الأول مبتور، لم يبلغ تمامه، والثاني مقطوع، لا ركيزة له، وبهما معًا تسير الحياة على التي هي أقوم، وبهما معًا تتحقق الهداية بهذا القرآن.

فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن، فهم متروكون لهوى الإنسان، الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته، ولو كان من ورائها الشر

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٤٧.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٣٤١.

له[1].

٥. الحياة الطيبة.

ومن آثار العمل الصالح على العبد أنه يحيى به حياة طيبة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

أي: من عمل عملًا صالحًا وهو مؤمن في فاقة أو ميسرة، فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن، ولم يعمل صالحًا، عيشته ضنكة، لا خير فيها.

وقيل: الحياة الطيبة السعادة.

وقيل: بل معنى ذلك: الحياة في الجنة[2].

وكل هذا يدخل في معنى الآية.

قال الزمخشري: وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرًا كان أو معسرًا، يعيش عيشًا طيبًا، إن كان موسرًا فلا مقال فيه، وإن كان معسرًا فمعه ما يطيب عيشه، وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأما الفاجر فأمره على العكس: إن كان معسرًا فلا إشكال في أمره، وإن كان موسرًا فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه[3].

ثم هل هذه الحياة الطيبة تحصل في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة؟

والجواب فيه أقوال:

الأول: الأقرب أنها تحصل في الدنيا، بدليل أنه تعالى أعقبه بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ولا شبهة في أن المراد منه ما يكون في الآخرة.

ولقائل أن يقول: لا يبعد أن يكون المراد من الحياة الطيبة ما يحصل في الآخرة، ثم إنه مع ذلك وعدهم الله على أنه إنما يجزيهم على ما هو أحسن أعمالهم، فهذا لا امتناع فيه[4].

فالعمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها، وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية، منها: الاتصال بالله، والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، ومنها: الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، ومنها: الفرح بالعمل الصالح، وآثاره في الضمير، وآثاره في الحياة، وليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله.

وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة، وأن هذا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢١٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٩١.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٣٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٦٧.

الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات، فما أكرمه من جزاء![1].

والمقصود: أن في هذه الآية الكريمة حضًا على العمل الصالح لجميع الناس ذكورًا وإناثًا، وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الدنيا، يحيا فيها مطمئنًا، في رعاية الله، وعند الله في الآخرة له الجزاء الأوفى، والنصيب العظيم من الأجر والثواب، وقد كرر الله قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ للترغيب في العمل الصالح.

فيجمع الله له حظين من الجزاء، حظًا في الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة، وحظًا في الآخرة.

ويبدو أن تفسير الحياة الطيبة هنا بأنها الحياة الدنيوية أرجح؛ لأن الحياة الأخروية جاء التصريح بها بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلو فسرنا الحياة الطيبة بالحياة الأخروية لكان في الآية الكريمة ما يشبه التكرار، ولكننا لو فسرناها بالحياة الدنيوية لكانت الآية الكريمة مبينة لجزاء المؤمنين في الدارين[2].

فيكون الجزاء لمن آمن وعمل صالحًا في الدنيا هو الحياة الطيبة، وهي التي تشمل: وجوه الراحة المختلفة، من رزق حلال طاهر، وسعادة غامرة، وطمأنينة نفس، وهدوء بال، ورضا وقناعة.

قال ابن عطية: ظاهر هذا الوعد بالجزاء الحسن أنه في الدنيا، وإن طيب الحياة اللازم للصالحين، إنما هو بنشاط نفوسهم، ونبلها، وقوة رجائهم، والرجاء للنفس أمر ملذ، فبهذا تطيب حياتهم، وبأنهم احتقروا الدنيا، فزالت همومها عنهم، فإن انضاف إلى هذا مال حلال، وصحة، أو قناعة، فذلك كمال، فيكون قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ معناه: لنعطينه ما تطيب به حياته: وهو القناعة والرضا[3].

٦. حفظ الذرية بعد الموت.

إن الوعد على العمل الصالح ليس مختصًا بالآخرة، بل يدخل فيه أمور الدنيا حتى في الذرية بعد موت العامل.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قال: حفظا بصلاح

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٩٣.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٣٢.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤١٩.

أبيهما، وما ذكر منهما صلاح[1].

وعن محمد بن المنكدر قال: إن الله عز وجل ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده، وعشيرته التي هو فيها، والدويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله وستره.

وعن سعيد بن المسيب أنه كان إذا رأى ابنه قال: أي بني لأزيدن صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك، ويتلو هذه الآية[2].

والمقصود: أن من آثار وثمار العمل الصالح حفظ ذرية الرجل بعد موته بعمله الصالح، كما دلت الآية السابقة على ذلك.

ومن آثار العمل الصالح على المجتمع:

١. حصول الأمن والتمكين والاستخلاف.

من آثار العمل الصالح على المجتمع أنه طريق إلى الأمن والاستخلاف والتمكين.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

قال ابن كثير: «هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك، فإنه لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر والإسكندرية -وهو المقوقس- وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة -رحمه الله وأكرمه-[3].

وفي تصدير الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ بشارة عظيمة للمؤمنين بتحقيق وعده تعالى؛ إذ وعد الله لا يتخلف، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم: ٦].

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، و﴿مِن﴾ بيانية، أي: وعد الله تعالى بفضله وإحسانه الذين صدقوا في إيمانهم من عباده، والذين جمعوا مع الإيمان الصادق والعمل الصالح، وعدهم ليستخلفهم في الأرض، أي: ليجعلنهم فيها خلفاء، يتصرفون فيها تصرف أصحاب العزة والسلطان والغلبة، بدلًا من أعدائهم الكفار.

فهذا هو الوعد الأول للمؤمنين: أن يجعلهم سبحانه خلفاءه في الأرض، كما

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٩١، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٨٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٧.

جعل عباده الصالحين من قبلهم خلفاءه، وأورثهم أرض الكفار وديارهم.

وأما الوعد الثاني فيتجلى في قوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ والتمكين: التثبيت والتوطيد والتمليك، يقال: تمكن فلان من الشيء إذا حازه، وقدر عليه.

أي: وعد الله المؤمنين بأن يجعلهم خلفاءه في أرضه، وبأن يجعل دينهم وهو دين الإسلام الذي ارتضاه لهم ثابتًا في القلوب، راسخًا في النفوس، باسطًا سلطانه على أعدائه، له الكلمة العليا في هذه الحياة، ولمخالفيه الكلمة السفلى.

وأما الوعد الثالث فهو قوله سبحانه: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

أي: وعدهم الله تعالى بالاستخلاف في الأرض، وبتمكين دينهم، وبأن يجعل لهم بدلًا من الخوف الذي كانوا يعيشون فيه أمنًا واطمئنانًا وراحة في البال، وهدوءا في الحال[1].

والمقصود: أن هذه ثلاثة أشياء، وعد الله عز وجل بها المؤمنين: الاستخلاف في الأرض، فيعطيهم الله عز وجل الحكم فيحكمون بشرعه سبحانه وتعالى، فقد آمنوا، وعملوا الصالحات، وتربوا على العقيدة الصحيحة، وعلى العمل الصالح، فاستحقوا أن يسودوا العالم، وأن يحكموا غيرهم، فوعدهم بالاستخلاف، ووعدهم بأن يمكن لهم هذا الدين العظيم الذي ارتضاه لهم.

فإذا كان الله عز وجل وعد المؤمنين فالوعد عام، فإذا نص على هؤلاء فالوعد عاجل في التنفيذ: أنه يا من أنتم آمنتم بالنبي صلى الله عليه وسلم، وابتليتم وتعبتم، وأوذيتم في سبيل الله عز وجل سنمكن لكم.

٢. طريق إلى النعم والخيرات.

ومن آثار العمل الصالح على المجتمع أنه يثمر حصول النعم والخيرات.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾ [الحج: ٥٠].

وقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [سبأ: ٤].

فذكر الله تعالى منهم أمرين الإيمان والعمل الصالح، وذكر لهم أمرين المغفرة، والرزق الكريم، فالمغفرة جزاء الإيمان، فكل مؤمن مغفور له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

والرزق الكريم مرتب على العمل الصالح، وهذا مناسب، فإن من عمل لسيد

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٤٦.

كريم عملًا فعند فراغه من العمل لا بد وأن ينعم عليه، وتقدم وصف الرزق بالكريم أنه بمعنى ذا كرم، أو مكرم، أو لأنه من غير طلب بخلاف رزق الدنيا، فإنه إن لم يطلب ويتسبب إليه لا يأتي.

فإن قيل: ما الحكمة في تمييزه الرزق بوصفه بأنه كريمٌ، ولم يضف المغفرة؟

فالجواب: لأن المغفرة واحدة، وهي للمؤمنين، وأما الرزق فمنه شجرة الزقوم والحميم، ومن الفواكه والشراب الطهور، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه، ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها[1].

والمقصود: أن من ثمار العمل الصالح المغفرة والرزق والسعة والرخاء، التي إن حصلت في أي مجتمع بجانب الإيمان والعمل الصالح كان مجتمعًا مثاليًا سعيدًا.

٣. الحصول على الخيرية.

ومن آثار العمل الصالح على المجتمع أنه طريق إلى خيرية المجتمع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة: ٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنعوتون بهذا هم خير البرية[2]. أي: أفضل الخليقة؛ لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التي شرفهم الله بها، وبالعمل الصالح قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله قوام الوجود الإنساني، وهدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هدوا إليه من الخير والسعادة، فمن يكون أفضل منهم؟[3].

قال الشافعي رحمه الله: والخير كلمة يعرف ما أريد منها بالمخاطبة بها، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ الآية، فعقلنا أنهم: خير البرية بالإيمان وعمل الصالحات، لا بالمال[4].

والمقصود: أن الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح استحقوا أربعة أنواع من الجزاء:

وصفهم بأنهم خير البرية، ودخول جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، والخلود فيها أبدًا، ورضوان الله عليهم أي: رضي أعمالهم، ورضاهم عن الله، أي: رضاهم بثواب الله تعالى.

وأن المجتمع الذي يحرص أبناؤه على الأعمال الصالحة لحري أن يكون مجتمع خير وصلاح، ومجتمع نور وهداية، بعكس المجتمع الغارق أهله بالأعمال السيئة، فهو

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٨١.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٥٢٤.
(٤) تفسير الشافعي ٣/ ١٤٥٦.

مجتمع بعيد عن الخيرية، خالٍ من الفضيلة.

ثانيًا: أثر العمل السيء:

للعمل السيء آثار سيئة، وعواقب وخيمة، على الفرد وعلى المجتمع.

ومن آثاره على الفرد:

١. أنه يسوء صاحبه يوم القيامة.

من آثار العمل السيئ أنه يسوء صاحبه، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] أي: لكراهتها إياه.

فيود أهل الطاعات أن لو استكثروا منها، ويود أهل المخالفات أن لو كبحوا لجامهم عن الركض في ميادينهم[(١)].

قال السمعاني: أي: غاية مديدة. قال السدي: ما بين المشرق والمغرب. وفي الأخبار: أن الأعمال يؤتى بها يوم القيامة على صور، فما كان منها حسنًا، فعلى الصورة الحسنة، وما كان قبيحًا فعلى الصورة القبيحة[(٢)].

٢. أنه سبب للعقاب والعذاب.

من آثار العمل السيئ أنه سبب للعذاب والعقاب، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣].

فقوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ﴾ أكثر المفسرين: على أن هذا في المسلمين وأهل الكتاب، وذلك أن المسلمين قالوا: نحن أهدى منكم. وقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم. فأنزل الله هذه الآية، يقول: ليس ثواب الله بالأمنية ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ قال الحسن: هذا في الكفار خاصة؛ لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير، والمؤمن يجازى بأحسن عمله، ويتجاوز عن سيئاته، ثم قرأ: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الزمر: ٣٥]الآية.

وقيل: هذا عام في كل من عمل سوءًا من مسلم وكافر، ولكن المؤمن يجزى به في الدنيا[(٣)].

وأخبر الله تعالى أن العمل السيئ يحيط بصاحبه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]أي: لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء، قال الكلبي: يحيق بمعنى: يحيط، والحوق: الإحاطة، يقال: حاق به كذا إذا أحاط به، وهذا هو الظاهر من معنى «يحيق» في لغة العرب، ولكن قطرب فسره هنا بـ«ينزل»[(٤)].

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٢٣٤.
(٢) تفسير السمعاني ١/ ٣١٠.
(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١١٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣٥٩، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٠٨.

فالعمل السيء سبب في نزول العقاب وحلول العذاب قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩] أي: بسبب كسبكم، وهو العمل السيء.

كما قال تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [فصلت: ٢٧].

٣. أنه سبب الذل والهوان.

ومن آثار العمل السيئ أنه سبب الذل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: ٢٧].

فقوله: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ قال الفراء: فلهم جزاء السيئة بمثلها، والمعنى: أنهم يجزون بمثل ما عملوا ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يصيبهم الذل والخزي والهوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ما لهم من عذاب الله من مانع يمنعهم[(١)].

﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي: كأنما ألبست وجوههم ﴿قِطَعًا﴾ أي: أجزاءً ﴿مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لشدة السواد والظلمة التي على وجوههم والعياذ بالله بسبب الشرك والمعاصي، فكأنهم لبسوا ثوبًا أسودًا غطوا وجوههم به، والقصد الإخبار بأبدع تشبيه عن سواد وجوههم.

وقال قبلها في المقابل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦].

والمقصود: أن في الآيات بيانًا لمصير المحسنين والمسيئين في الآخرة، فللأولين الحسنى وزيادة، فلا يغشى وجوههم قتر النار، ولا تتلوث بسخامها، ولا يصيبهم هوان، ويكونون خالدين في الجنات، وللآخرين جزاء سيء من جزاء عملهم، ولهم الذل والهوان، ولن يجدوا لهم من الله عاصمًا، ويشتد سواد وجوههم من القتر والسخام، ويكونون خالدين في النار.

والآيات جاءت كما هو المتبادر معقبة على سابقاتها، وهي والحالة هذه متصلة بها، واستمرار لها، وقد انطوى فيها تنويه بالمهتدين المحسنين، وتطمين لهم، وإنذار للكفار المسيئين، وتنديد لهم، وإطلاق الكلام فيها يجعلها كسابقاتها عامة التوجيه والتبشير والإنذار لكل الناس في كل ظرف كما هو المتبادر[(٢)].

ثالثًا: أثر العمل المباح:

كما أن للعمل الصالح والسيئ أثرًا على صاحبه، فإن العمل المباح له أثر على صاحبه

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٥.

(٢) التفسير الحديث، محمد دروزة ٣/ ٤٦١.

كذلك، فالعمل في التجارة والصناعة والزراعة له آثار وثمار تعود على أصحابها، ومن هذه الآثار: الأكل من رزق الله.

قال تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] وقال: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

فالأكل من الرزق مسبب عن المشي والسعي وأثر عنه، ولا يخفى أن الأمر بالمشي والأكل للإباحة[١]، وفي قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أمر بالتسبب والكسب.

قال ابن كثير: في الآية تذكير بنعمته تعالى على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع، ومواضع الزرع والثمار.

والمعنى: سافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات[٢].

أثر العمل في الآخرة

يوم القيامة هو يوم الجزاء الذي يجد فيه العامل جزاء ما عمله، وما كسبه، ومن آثار العمل في الآخرة:

١. إحصاء العمل في كتاب العبد.

أخبر الله تعالى أنه يحصي عمل العبد في كتاب.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: ٩٤].

وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة: ٦].

وقال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ [النبأ: ٢٩].

وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢].

والإحصاء والكتب والحساب والعد والحفظ بمعنى متقارب: وهو الضبط[٣] والعد[٤].

(١) غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٣٢٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٩.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٣٠٩.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٨٨.

وقال في آية أخرى قال: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١١] يعني: يكتبون أعمال العباد.

فالإحصاء والكتب يتشاركان في معنى الضبط[١].

وهو بمعنى الحساب كما قال في آية أخرى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وفي الآية توعد وإشارة إلى ضبط أعمالهم من الحساب، وهو العد والإحصاء، والمعنى: أنه لا يغيب عنا شيء من أعمالهم، وقيل: هو كناية عن المجازاة، فالإحصاء: هو العد، وكانوا قديمًا يستخدمون الحصى أو النوى في العد، لكن النوى فرع ملكية النخل، فقد لا يتوفر للجميع؛ لذلك كانوا يستخدمون الحصى، ومنه كلمة الإحصاء[٢].

قال الرازي قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ المراد: أنه يوضع في هذا اليوم كتاب كل إنسان في يده إما في اليمين، أو في الشمال، والمراد الجنس، وهو صحف الأعمال[٣].

فهؤلاء لما رأوا أعمالهم قد أحصيت عليهم، وكتبت في صحفهم تعجبوا، فقالوا: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: أنهم يقولون: إذا قرؤوا كتابهم، ورأوا ما قد كتب عليهم فيه من صغائر ذنوبهم وكبائرها، نادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله، وضجوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها[٤].

فهم ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].

أي: خائفين مما في الكتاب من أعمالهم الخبيثة، وخائفين من ظهور ذلك لأهل الموقف فيفتضحون، وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق، وخوف الفضيحة عند الخلق ويقولون: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ وهي عبارة عن الإحصاء بمعنى: لا يترك شيئًا من المعاصي، سواء كانت صغيرة أو كبيرة، إلا وهي مذكورة في هذا الكتاب، وإدخال تاء التأنيث في الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ إلا ضبطها وحصرها[٥].

وأفاد عطف الكبيرة على الصغيرة التسوية في الإحصاء بينها وبين الصغيرة، فالمراد أنه لا يدع شيئًا إلا أحصاه[٦].

وهذا الضبط والإحصاء لا يخص أعمال بني آدم، بل يتناول جميع الأشياء.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِي

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٨٠.
(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٧/ ٤٣٦.
(٣) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٧٠.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٨.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٧٠.
(٦) تفسير ابن عرفة ١/ ٢٢٥.

﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

أي: وبينا كل شيء وحفظناه، في أصل عظيم يؤتم به، ويتبع ولا يخالف، وهو علمنا الأزلي القديم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها[١].

وقد بين الله تعالى أن هذا الإحصاء في كتاب، سهل يسير على الله تعالى، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

أي: سهل لا يحتاج إلى معاناة من الله العلي الكبير، بل إنه سهل عليه سبحانه، وإن الحكم الفاصل يقع منه في ساعات أو لحظات[٢].

والمقصود: أن من أثر العمل في الآخرة أن الله يحصيه على العبد، فلا يضيع منه شيء، حتى يندهش العبد من دقة الإحصاء والحفظ، فيقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ والمراد بالاستفهام هنا مجرد التعجب من الكتاب في هذا الإحصاء الدقيق.

وعن قتادة قوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلمًا، فإياكم والمحقرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه[٣].

والمراد بالكتاب جنس الكتاب؛ فيشمل جميع الكتب التي كتبت فيها أعمال المكلفين في دار الدنيا، وأن المجرمين يشفقون مما فيه أي: يخافون منه، وهذا المعنى الذي دلت عليه الآية الكريمة جاء موضحًا في مواضع أخر من كتاب الله تعالى ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢].

فالمراد بـ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾ ما عملوا من الأعمال قبل الموت، شبهت أعمالهم في الحياة الدنيا بأشياء يقدمونها إلى الدار الآخرة، كما يقدم المسافر ثقله وأحماله.

وأما الآثار فهي آثار الأعمال، وليست عين الأعمال بقرينة مقابلته بـ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾ مثل ما يتركون من خير، أو يثير بين الناس وفي النفوس، والمقصود بذلك ما عملوه موافقًا للتكاليف الشرعية، أو مخالفًا لها وآثارهم كذلك.

فالآثار مسببات أسباب عملوا بها، وليس المراد كتابة كل ما عملوه؛ لأن ذلك لا تحصل منه فائدة دينية يترتب عليها الجزاء، فهذا وعد ووعيد كل يأخذ بحظه منه[٤].

وهذا بصريح معناه يفيد أيضًا كفاية عن وقوع الجزاء؛ إذ لولا الجزاء على الأعمال لكان الاعتناء بإحصائها عبثًا، وأجري على

(١) تفسير المراغي ٢٢/ ١٤٨.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٥٠٢٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣٥٦.

الملائكة الموكلين بإحصاء أعمالهم أربعة أوصاف، هي: الحفظ، والكرم، والكتابة، والعلم بما يعلمه الناس، فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وابتدئ منها بوصف الحفظ؛ لأنه الغرض الذي سيق لأجله الكلام الذي هو إثبات الجزاء على جميع الأعمال، ثم ذكرت بعده صفات ثلاث بها كمال الحفظ والإحصاء، وفيها تنويه بشأن الملائكة الحافظين[1].

فالكرم صفتهم النفسية الجامعة للكمال في المعاملة وما يصدر عنهم من الأعمال، وأما صفة الكتابة فمراد بها ضبط ما وكلوا على حفظه ضبطا لا يتعرض للنسيان ولا للإجحاف ولا للزيادة، فالكتابة مستعارة لهذا المعنى، على أن حقيقة الكتابة بمعنى الخط غير ممكنة بكيفية مناسبة لأمور الغيب.

وأما صفة العلم بما يفعله الناس فهو الإحاطة بما يصدر عن الناس من أعمال وما يخطر ببالهم من تفكير مما يراد به عمل خير أو شر وهو الهم.

وما تفعلون يعم كل شيء يفعله الناس وطريق علم الملائكة بأعمال الناس مما فطر الله عليه الملائكة الموكلين بذلك.

ودخل في ما تفعلون: الخواطر القلبية لأنها من عمل القلب أي: العقل فإن الإنسان يعمل عقله ويعزم ويتردد، وإن لم يشع في عرف اللغة إطلاق مادة الفعل على الأعمال القلبية.

واعلم أنه ينتزع من هذه الآية أن هذه الصفات الأربع هي عماد الصفات المشروطة في كل من يقوم بعمل للأمة في الإسلام من الولاة وغيرهم فإنهم حافظون لمصالح ما استحفظوا عليه وأول الحفظ الأمانة وعدم التفريط[2].

٢. الإنباء بالعمل.

ومن أثر العمل في الآخرة أن الله ينبئ العبد بما عمله في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقال: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة: ٦].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

(١) المصدر السابق ٣٠/ ١٧٩.

(٢) المصدر السابق ٣٠/ ١٨٠.

﴿فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧].

فقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: فيوقفهم ويخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملون بها في الدنيا، ثم يجازيهم بها، إن كان خيرًا فخيرًا، وإن كان شرًا فشرًا، أو يعفو بفضله، ما لم يكن شركًا أو كفرًا[1].

والتعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على البعد الزماني في نظرهم، والبعد بين ما زين لهم من الشر، وما يستقبلهم من جزاء؛ وفاقًا لما عملوا من شر وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ فيه تقديم الجار والمجرور على ربهم للدلالة على الاختصاص أي: المرجع إلى الله وحده، وهو الذي يتولى جزاءهم على ما قدموا من شر، والتعبير بـ﴿رَبِّهِم﴾ إشارة إلى كفرهم بالنعم التي أولاهم؛ إذ إنه هو الذي خلقهم ورباهم ونماهم وأمدهم بآلائه من وقت أن كانوا أجنة في بطون أمهاتهم إلى أن رمسوا في قبورهم.

والنبأ: الخبر الخطير ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ أي: يخبرهم بما كانوا يعملون، وهو إنباء مقترن بالجزاء، فهو إنباء بأعمالهم وجزائها، فيجزون ما كانوا يعملون، أي: أن الجزاء موافق للعمل، وأعدل العدل أن يكون العقاب مأخوذًا من الجريمة نفسها، والله يتولى المحسنين[2].

فالنبأ في لغة العرب: أخص من الخبر؛ لأن النبأ لا يطلق إلا على الإخبار بشيءٍ له شأنٌ وخطبٌ، فمعنى: ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ أي: يخبرهم خبرًا عظيمًا عندهم له خطبٌ، وشأنٌ عظيمٌ.

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «ما» موصولةٌ، والعائد محذوفٌ، والمعنى: بالذي كانوا يعملونه في دار الدنيا، وليس المراد بهذه التنبئة والإخبار مجرد التنبئة فقط، لا وكلا، بل المراد به: الجزاء؛ لأن كل إنسانٍ يوم القيامة يخبر بجميع ما عمل من جهاتٍ متعددةٍ:

تشهد على الكافر جوارحه، تشهد عليه يده ورجله وجلده، كما يأتي في قوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥].

وكقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢].

وكقوله: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١].

وينبئه ويشهد عليه المكان؛ لأن البقعة من الأرض الذي عمل الإنسان عليها المعصية تأتي يوم القيامة، وتشهد عليه عند ربها

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٦٢٦.

وتقول البقعة: إن فلان بن فلانٍ فعل علي كذا وكذا في ساعة كذا في يوم كذا في شهر كذا في سنة كذا، كما يأتي في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ يعني: الأرض ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ بما فعل عليها ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ١-٥].

أمرها بذلك أن تشهد، ومن ذلك وهو الشيء العظيم أن كل إنسانٍ يجد جميع ما قدم من خيرٍ وشرٍ مكتوبًا في كتابٍ ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويقال لكل إنسانٍ في ذلك الوقت: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٤].

وتلك الكتب تعطى للناس، آخذٌ كتابه بيمينه، أو آخذٌ بشماله، أو من وراء ظهره، والعياذ بالله.

وهذه الآيات معناها: اعلم أيها الإنسان أن كل ما عملت من خيرٍ وشرٍ هو محفوظٌ لك مدخرٌ عليك، إن كان خيرًا فإنما تنفع به نفسك، وإن كان شرًا فإنما تضر به نفسك، فعليك أن تجتهد في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة، ولا تضيع الوقت؛ لأنه إذا ضاع الوقت ندم الإنسان حيث لا ينفع الندم، فعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن ربنا يخبرنا أن جميع ما عملنا سنجده محفوظًا لنا أمامنا على رؤوس الأشهاد ونخبر به، ونجازى به، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشرٌ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. فيجب على العبد المسلم في دار الدنيا أن يلاحظ هذا، وأن يخاف الله، ويخشى من أن يجعل في صحيفته الفضائح التي يفتضح بها على رؤوس الأشهاد؛ لأن فضيحة يوم القيامة ليست كفضيحة الدنيا؛ لأن من افتضح في الدنيا ضاع عرضه أمام المجتمع، وهو صحيحٌ يأكل ويشرب وينام وينكح ويركب، ولكن من افتضح في الآخرة سيجر إلى دركات النار -والعياذ بالله جل وعلا- ففضيحة الآخرة على رؤوس الأشهاد أعظم[1].

والمقصود: أن من أثر العمل في الآخرة أن يظهره الله للعبد، كما قال: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

يعني: يظهرها لهم في صورتها الحقيقية حتى يعلموا حقيقة ما كانوا عليه في الدنيا، وأنها إنما زينت لهم هذه المعاصي، وهذا هو سبب عدم توبة أكثر الناس؛ لأنهم يرون الأشياء على غير حقيقتها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧].

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٢/ ١٠٤.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وهذا كحال الكافر والمبتدع، فأحدهما يرى الشيء القبيح حسنًا، فإذا رآه حسنًا هل يتصور أنه يتوب منه؟ لا يتصور؛ لأنه يراه حسنًا؛ ولذا لن يفكر في التوبة، فمن ثم قال بعض السلف: ليس لصاحب بدعة توبة، بمعنى: أنه يستحسن البدع، ويراها بصورة حسنة، فكيف يتوب؟ فمن ثم لا ترجى له توبة، بخلاف العاصي فإن أمره أخف؛ لأن العاصي، الموحد يرى معاصيه فيبغضها، لكن الهوى يغلبه فمن ثم يرجى له التوبة، أما المبتدع فقد زين له سوء عمله فرآه حسنًا.

فأمر العباد مفوض إلى الله تعالى، وإن الله تعالى عالم بأحوالهم، مطلع على ضمائرهم، ورجوعهم يوم القيامة إلى الله، فيجازي كل أحد بمقتضى عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

٣. المجازاة على العمل.

ومن أثر العمل في الآخرة أن يجزي الله العباد بأعمالهم.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

وقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [فصلت: ٢٧].

قال الطبري: يقول: يجزيهم أجرهم في الآخرة بأحسن ما كانوا يعملون[(١)]. أي: ولنعطينهم فى الآخرة أجرهم الخاص بهم، بما كانوا يعملون من الصالحات، وإنما أضيف إليه الأحسن للاشعار بكمال حسنه، كما سبق فى حق الصابرين[(٢)].

واللام هي الموطئة أي: لنجزينهم بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف وجهاد الكافرين، والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات.

قيل: وإنما خص أحسن أعمالهم لأن ما عداه وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة. وقيل: المعنى: ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم، أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل، لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن،

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٩٣.
(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٥/ ٧٨.

والأحسن بالأحسن كذا قيل[1].

والمقصود: أن يوم القيامة يوم جزاء الأعمال ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عمل صالح الأعمال، وأدى فرائض الله التي أوجبها عليه، وهو مصدق بثوابه الذي وعد به أهل طاعته، وبعقاب أهل المعصية على عصيانهم، فلنحيينه حياة طيبة تصحبها القناعة بما قسم الله له، والرضا بما قدره وقضاه؛ إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتدبيره، والله محسن كريم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة، ويعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال، فلا يقيم لها فى نفسه وزنًا، فلا يعظم فرحه بوجدانها، ولا غمه بفقدانها[2].

فهو سبحانه يجزي في الآخرة أحسن الجزاء، ويثاب أجمل الثواب، جزاء ما قدم من عمل صالح، وتحلى به من إيمان صادق.

أما من أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن، ولم يعمل صالحًا فهو فى عناء ونكد؛ إذ يكون شديد الحرص والطمع في الحصول على لذات الدنيا، فإن أصابته محنة أو بلاء استعظم أمره، وعظمت أحزانه، وكثر غمه وكدره، وإذا فاته شيء من خيراتها عبس وبسر، وامتلأ قلبه أسى وحسرة؛ لأنه يظن أن السعادة كل السعادة.

قال سيد: وبمناسبة العمل والجزاء يعقب بالقاعدة العامة فيهما: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فيقرر بذلك القواعد التالية: أن الجنسين الذكر والأنثى، متساويان في قاعدة العمل والجزاء، وفي صلتهما بالله، وفي جزائهما عند الله، ومع أن لفظ: ﴿مَنْ﴾ حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ لزيادة تقرير هذه الحقيقة؛ وذلك في السورة التي عرض فيها سوء رأي الجاهلية في الأنثى، وضيق المجتمع بها، واستياء من يبشر بمولدها، وتواريه من القوم حزنًا وغمًا وخجلًا وعارًا! وأن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصيلة يرتكز عليها، قاعدة الإيمان بالله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته، إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

والعقيدة هي: المحور الذي تشد إليه الخيوط جميعًا وإلا فهي أنكاث، فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثًا وغاية، فتجعل الخير أصيلًا ثابتًا يستند إلى أصل كبير، لا عارضًا مزعزعًا يميل مع الشهوات

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٢٩.
(٢) تفسير المراغي ١٤/ ١٣٨.

والأهواء حيث تميل، وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها، وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: فيها الاتصال بالله، والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، وفيها الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن البيوت، ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير، وآثاره في الحياة، وليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله، وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة، وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات، فما أكرمه من جزاء![1].

٤. دخول الجنة أو النار.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

وقال: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال في الفريق الآخر: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١].

وقال: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٨].

وقال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٩٠].

فهذه الآيات جمعيها تبين أن من أثر العمل يوم القيامة دخول الجنة أو النار، فدخولهما مرتبط بالأعمال، فمن عمل خيرًا نال خيرًا، ومن عمل سوءًا يجزى به والجزاء يوم ذاك ما هو إلا جنة أو نار.

٥. النجاة من عذاب القبر أو الوقوع فيه.

ومن آثار العمل في الآخرة النجاة من عذاب القبر أو الوقوع فيه.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم: ٤٤].

قال بعض السلف: في القبر.

يعني: أن العمل الصالح يكون مهادًا لصحابه في القبر، حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراش، ولا وساد، ولا مهاد، بل كل عامل يفترش عمله، ويتوسده من خير أو شر[2].

والمقصود: أن للعمل أثرًا في الآخرة، سواء كان صالحًا أو سيئًا، فينبغي للعبد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٩٣.

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/ ٧٦.

أن يكثر من العمل الصالح، ويخلصه من الآفات والمحبطات، نسأل الله الكريم أن يوفقنا للعمل الصالح، وأن يفعل ذلك بأهلينا وذريتنا ومحبينا.

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الإيمان، الجزاء، الحساب، السعي، الكسب

العُنْصُرِيَّةُ

عناصر الموضوع

مفهوم العنصرية	٤٥٤
الألفاظ ذات الصلة	٤٥٥
أسباب العنصرية	٤٥٨
مظاهر العنصرية	٤٦٩
نماذج قرآنية في العنصرية	٤٧٥
علاج العنصرية	٤٨٢

مفهوم العنصرية

أولًا: المعنى اللغوي:

العنصرية مأخوذة من العنصر، بفتح الصاد وهو الأفصح، وبضمها وهو الأشهر، وقد وردت كلمة العنصر بمعانٍ مختلفة، لكن الذي يعنينا منها ما يتفق والمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة.

وعلى ذلك: فالعنصر: الأصل، وما في معناه من الجنس، والنسب، والحسب. يقال: هو لئيم العنصر، أي الأصل. قال الأزهري: العنصر: أصل الحسب. والعنصر أيضًا بمعنى الجنس، يقال فلان من العنصر الآري أو السامي[(١)].

ثانيًا: العنصرية في الاصطلاح:

عرف بعض الباحثين العنصرية بأنها: «عقيدة تستند إلى أسطورة مناقضة للدين الحق، والعلم الصحيح، حول تفوق أو نقص هذه الأجناس أو تلك، محاولة بذلك تبرير السياسة العدوانية ضد الكائن البشري، التي تقوم على الاغتصاب والإرهاب والاستعباد»[(٢)].

وعرفها باحث آخر بأنها: التمييز بين الأجناس في القوانين والمعاملات، على أساس الدم والخصائص البيولوجية المتعلقة بتكوين الجسم. وما يتبع ذلك من الحياة الفكرية ومظاهر السلوك والاجتماع[(٣)].

نخلص من ذلك إلى أن العنصرية: اعتقاد التميز عن سائر الناس بسبب الجنس، أو اللون، أو الوطن، أو القبيلة، أو غير ذلك.

وبذلك نجد ترابطًا بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للعنصرية.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٥٠، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٦١١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٣، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٠٧.

(٢) العنصرية اليهودية، أحمد الزغيبي ١/ ٦٠.

(٣) موقف الإسلام من التفرقة العنصرية، محمد الأنصاري، مقال منشور على موقع: إسلام نت.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحمية:

الحمية لغة:

من مادة حمي، ومعناها: الأنفة، والغيرة، والغضب الشديد[١].

الحمية اصطلاحًا:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

قال الكفوي: «الحمية، مشددة كالدنية: الأنفة والغضب»[٢].

الصلة بين العنصرية والحمية:

الحمية صورة من صور العنصرية؛ لارتباطها بالجنس والجماعة حتى لو كانت على الباطل، كما فعل كفار قريش عندما تعصبوا لجاهليتهم ولما كان عليه آباؤهم.

إلا أن الحمية قد تكون أعم من العنصرية، فالعنصرية لا تكون إلا مذمومة، أما الحمية فقد تكون ممدوحة إذا كانت في الأمور الإيجابية.

٢ العصبية:

العصبية لغة:

أصل مادة (عصب) تدل على ربط شيء بشيء[٣].

والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين، وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا، فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل: تعصبوا[٤].

العصبية اصطلاحًا:

قال الأزهري: «العصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين»[٥].

وعرفها بعضهم بأنها: «رابطة اجتماعية نفسية، شعورية ولا شعورية معًا، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطًا مستمرًا، يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٤٤٧، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٣٩.
(٢) الكليات ص٤٠٩.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٣٦.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٠٦.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٣٠.

الأفراد»[1].

وبذلك لا يخرج المعنى الاصطلاحي للعصبية عن معناها اللغوي.

الصلة بين العنصرية والعصبية:

العصبية صورة من صور العنصرية.

٣ القبلية:

القبلية لغة:

هي نسبة إلى القبيلة، وينسب إليها أيضًا فيقال: قبيلية، و«القبيلة من الناس: بنو أب واحد. ومعنى القبيلة من ولد إسماعيل: معنى الجماعة؛ يقال لكل جماعة من أب واحد: قبيلة»[2].

القبلية اصطلاحًا:

يمكن تعريف القبلية بأنها المحاماة والمدافعة والنصرة لمن يشترك معهم برابط النسب، سواء كان بحق أو بباطل، كانوا ظالمين أو مظلومين.

الصلة بين العنصرية والقبلية:

يلاحظ أن القبلية صورة من صور العنصرية.

٤ الحزبية:

الحزبية لغة:

أصل مادة (حزب) تدل على تجمع الشيء[3].

يقال: حزب الرجل أصحابه وجنده الذين على رأيه، وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم حزب، وإن لم يلق بعضهم بعضًا[4].

الحزبية اصطلاحًا:

بالنظر في المعنى اللغوي للحزبية يمكن تعريفها بأنها: تعصب الشخص لشيعته وطائفته وفرقته، فيوافقهم في الأعمال، أو الأهواء، أو الأفكار.

الصلة بين العنصرية والحزبية:

يتضح من المعنى الاصطلاحي للحزبية أنها صورة من صور العنصرية.

(١) فكر ابن خلدون العصبية والدولة، الجابري ص١٦٨.
(٢) لسان العرب ٥/ ٣٥١٩.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٥٥.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١/ ٩٤٥، المفردات، الراغب الأصفهاني ص١١٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٠٨.

٥ الطائفية:

الطائفية لغة:

مصدر، نسبة إلى الطائفة، والطائفة من الشيء: قطعة منه، والطائفة مجموعة من الناس، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢][(١)].

الطائفية اصطلاحًا:

هي تمسك جماعة أو طائفة تربط بينها رابطة ما كالنسب أو الدين أو المذهب الاعتقادي بمصالحها ومنظومة قيمها المشتركة، وبتعصبها في الحق والباطل.

الفرق بين العنصرية والطائفية:

يتبين مما سبق أن الطائفية صورة من صور العنصرية.

٦ الوحدة:

الوحدة لغة:

قال ابن فارس: «الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد، ومن ذلك الوحدة. وهو: واحد قبيلته إذا لم يكن فيهم مثله»[(٢)].

وقال الراغب: «الوحدة: الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم يطلق على كل موجود، حتى إنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به، فيقال: عشرة واحدة، ومائة واحدة، وألف واحد»[(٣)].

الوحدة اصطلاحًا:

يمكن تعريف الوحدة بأنها: اتحاد الدول أو البلاد، والأفراد والجماعات في سائر أمور حياتهم ومعاشهم وسيرتهم وغايتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع شيئًا واحدًا أو أمة واحدة.

الصلة بين العنصرية والوحدة:

الوحدة من الألفاظ المقابلة للعنصرية، فهما ضدان متقابلان.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣٢، المفردات، الراغب الأصفهاني ص١١٥، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٢٥.

(٢) مقاييس اللغة ٦/ ٩٠.

(٣) المفردات ص٨٥٧.

أسباب العنصرية

العنصرية تقف وراءها أسباب كثيرة ومتعددة تدفع إليها، وهذا بيان لأهم أسباب العنصرية:

أولًا: الكبر والاستعلاء:

الكبر والاستعلاء أصل كل الأخلاق المذمومة، وأهم سبب للعنصرية هو الكبر عن قبول الحق، والاستعلاء على خلق الله، فهناك تلازم بين العنصرية والتكبر والترفع والازدراء.

وإن أول من مارس هذا الخلق البغيض -الكبر- هو إبليس -لعنه الله- حينما أمره الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام، فامتنع بحجة أنه خير منه، وبين رب العالمين السبب المانع لإبليس من السجود فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

واذكر -أيها الرسول- للناس تكريم الله لآدم حين قال سبحانه للملائكة: اسجدوا لآدم إكرامًا له وإظهارًا لفضله، فأطاعوا جميعًا إلا إبليس امتنع عن السجود، وأظهر كبره وترفع عن الحق زعمًا منه أنه خير من الخليفة عنصرًا، وأزكى جوهرًا كما قَصَّ ذلك عنه: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فهو الأحق بالرياسة[(١)].

والملاحظ أن الله ذكر تكبر إبليس بقوله: ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ «والاستكبار التزايد في الكبر؛ لأن السين والتاء فيه للمبالغة، ومن لطائف اللغة العربية أن مادة الاتصاف بالكبر لم تجئ منها إلا بصيغة الاستفعال أو التفعل إشارة إلى أن صاحب صفة الكبر لا يكون إلا متطلبا الكبر، أو متكلفا له، وما هو بكبير حقًا»[(٢)].

ولذلك لما طلب إبليس بعدم سجوده أن يكون كبيرًا -وهو ليس كذلك- عاقبه الله بضد فعله فطرده من رحمته، وجعله ذليلًا حقيرًا، فقال سبحانه: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

قال الزمخشري: «وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار، فمن تواضع لله رفعه، ومن تكبر على الله وضعه»[(٣)].

فإبليس بصنيعه تكبر على أمر الله، واستعلى على آدم عليه السلام واحتقره وازدراه.

فالكبر والاستعلاء صفات شيطانية أسسها وبرع فيها وتبناها إبليس منذ خلق آدم، بل هو كبيرهم، وعلى درب إبليس

(١) انظر: تفسير المراغي ١/ ٨٨، التفسير الميسر ص٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٢٥.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٩٠.

سار الكفار في كل زمان ومكان، فمنعتهم عنصريتهم وكبرهم عن قبول الحق، والاستعلاء على غيرهم من البشر -وخاصة الأنبياء- فقال سبحانه عن فرعون وقومه لما جاءهم موسى عليه السلام بالآيات البينات: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال سبحانه عن كفار قريش: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢].

أي: تكبُّرٍ وامتناع عن قبول الحق والإذعان له.

«والمراد بالعزة هنا: الحمية والاستكبار عن اتباع الحق، وأصل الشقاق: المخالفة والمنازعة بين الخصمين حتى لكأن كل واحد منهما في شق غير الذي فيه الآخر. والمراد به هنا: مخالفة المشركين لما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم. والمعنى: إنك -أيها الرسول الكريم- لصادق فيما تبلغه عن ربك، ولست كما يقول أعداؤك في شأنك، بل الحق أن هؤلاء الكافرين في حمية واستكبار عن قبول الهداية التي جئتهم بها من عند ربك، وفي مخالفة ومعارضة لكل ما لا يتفق مع ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة للأصنام، ومن عكوف على عاداتهم الباطلة»[١].

والتعبير بـ«في» في قوله: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ «للإشعار بأن ما هم عليه من عناد ومن مخالفته للحق، قد أحاط بهم من كل جوانبهم، كما يحيط الظرف بالمظروف»[٢].

وقد أخبر ربنا سبحانه أن فريقًا من الناس إذا وعظ وذكر بترك الأفعال والأقوال السيئة استكبر وامتنع عن قبول الحق والوعظ فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

«أي: إذا وعظ هذا الفاجر وذكر وقيل له: انزع عن قولك وفعلك القبيح، حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد»[٣].

ويؤخذ من هدايات الآيات السابقة التحذير من الكبر والحسد حيث كانا سبب إبلاس الشيطان، وامتناع اليهود والكفار من قبول الإسلام.

فالتكبر عن قبول الحق، واحتقار البشر هما شعار العنصرية، وبذلك فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر فقال: (الكبر بطر الحق، وغمط الناس)[٤].

و«البطر أن يتكبر عند الحق فلا يقبله. وقوله: (وغمط الناس) معناه: استحقارهم

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ١٣٠.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ١٣٠.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ١١٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩٣.

واستهانتهم»[1].

فالمستكبر هو الذي جمع بين وصفين: غمط الناس، وبطر الحق، وبطر الحق: يعني رده، وغمط الناس: يعني احتقارهم، فهو في نفسه عالٍ على الحق، وعالٍ على الخلق، لا يلين للحق ولا يرحم الخلق.

ثانيًا: الاغترار بالمال والأنصار:

يغتر العنصريون بما لديهم من ثروات وأموال وأولاد وذرية، ويظنون أنهم أرفع من غيرهم في الدنيا، وأحسن حالا وعاقبة في الآخرة، ولم يدروا أن المال والولد عرض زائل وظل مائل، وأن الخير في اتباع سبيل الهدى والعمل الطيب، وقد انخدع الكفار في بداية عهد الإسلام، وسيطر عليهم غرور المال وكثرة الولد والاعتزاز بالقبيلة، فأبان الله سبب عنادهم وغرورهم الزائف في أموالهم وأولادهم، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

فالآية تبين افتخار المترفين بأموالهم وأولادهم، واستكبارهم بما آتاهم الله من فضله، وجعلهم ذلك دليلًا على أن الله لا يعذبهم.

فـ«هذا هو رد المترفين على كل دعوة إلى الإيمان بالله، وتلك هي حجتهم عند أنفسهم وعند الناس، إنهم بما يملكون من كثرة في الأموال، وما عندهم من كثرة في الأولاد والرجال، لن يكونوا تابعين لغيرهم، ولن يجعلوا لأحد كلمة عندهم، حتى ولو كان رسولا من رسل الله، يدعوهم إلى الله، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الحق والهدى! ! إنهم أكثر أموالا وأولادا من هذا الرسول، فكيف يقوم فيهم مقام الناصح ذي الرأي والسلطان، ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وكيف يتفضل إنسان على من كان أكثر منه مالا وولدا؟ وفي قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إشارة إلى أنهم بما لهم من كثرة في المال والأولاد لن ينزلوا عن مقام السيادة لأحد، ثم إنهم إذا عذب غيرهم من الفقراء والمستضعفين لن يعذبوا هم؛ فإن الله ما أعطاهم هذا الوفر في المال والكثرة في الأولاد إلا لأنهم أهل للكرامة، وموضع للفضل عنده، وكما كانوا في الدنيا في هذا المقام بين الناس، فهم في الآخرة- إن كانت هناك عندهم آخرة- في هذا الموضع أيضا، حيث يعذب الفقراء والمستضعفون، أما هم فلن يعذبوا، بل ينزلوا منازل الإكرام والإعزاز، ذلك ظنهم بأنفسهم!»[2].

فـ«المترفون تخدعهم القيم الزائفة

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ١/ ٣٦١.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٨٢٩-٨٣٠.

والنعيم الزائل، ويغرهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله، ويخالون أنه آية الرضى عنهم، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء»[1].

فالاغترار بالأموال والأنصار صفة مشتركة بين العنصريين على اختلاف أزمانهم وأماكنهم، فقد ذكر الله مثلًا في كتابه لكل من اغتر بماله وأنصاره وأولاده وخدمه فقال سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٤].

«تجيء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلا للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله. وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة. ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه. وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلا على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره»[2].

وقوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ «أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الأمور المعتادة، مفتخرا عليه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأي افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها»[3].

وقد صدق قتادة رحمه الله حين قال: «تلك -والله- أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر»[4].

وقد نسي العنصريون في ظل سكرتهم ونشوتهم بالأنصار والأموال، نسوا حقائق مهمة بينها رب العالمين في كتابه، فأخبر أن هذه الأموال والأولاد لن تفيدهم شيئًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦].

وأن الأموال والأولاد ليست ميزانًا للقرب من الله، بل الإيمان والعمل الصالح أساس القرب، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩١٠.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٧٠.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.

﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

ويتبين من هدايات الآيات اغترار المترفين بما آتاهم الله من مال وولد، ظانين أن ذلك من رضا الله تعالى عليهم، وبيان ما يقرب إلى الله ويدني منه وهو الإيمان والعمل الصالح، لا كثرة المال والولد كما يظن المغرورون المفتنون بالمال والولد.

ثالثًا: تزكية النفس:

أصحاب العنصرية يعتقدون بما لهم من جاه وسلطان، أو حسب ونسب، أو جنس ولون، أو أموال وأولاد أن لهم منزلة عند الله، وأنهم يستحقون الجنة، فيزكون أنفسهم ويمدحونها بالباطل، وقد أخبرنا القرآن عن تزكية أهل الكتاب لأنفسهم بادعائهم الباطل أنهم لن يدخلوا النار إلا أياما معدودة، فقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣ - ٢٤].

فعن ابن عباس «أن يهود كانوا يقولون: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودات، ثم ينقطع العذاب»[1].

ومما زكوا به أنفسهم ما ذكره القرآن بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨].

فهذه «حكاية لما صدر عن الفريقين من أقاويل فاسدة ودعاوى باطلة، يدل على سفاهة عقولهم، وبلادة تفكيرهم، حيث قالوا في حق الله تعالى ما لا يليق بعظمته سبحانه. ومرادهم بالأبناء: المقربون. أي نحن مقربون عند الله تعالى قرب الأولاد من والدهم.

ومن مرادهم بالأحباء: جمع حبيب بمعنى محب أو محبوب. ويجوز أن يكون أرادوا من الأبناء الخاصة، كما يقال: أبناء الدنيا وأبناء الآخرة. ويجوز أن يكونوا أرادوا بما قالوا أنهم أشياع وأتباع من وصف بالبنوة. أي: قالت اليهود: نحن أشياع ابنه عزير، وقالت النصارى: نحن أشياع ابنه عيسى. وأطلق الأبناء على الأشياع مجازًا إما تغليبًا أو تشبيهًا لهم بالأبناء في قرب المنزلة. وهذا كما يقول أتباع الملك: نحن الملوك»[2].

فكل منهما ادعى دعوى باطلة يزكون بها أنفسهم، وحاصل دعواهم أن لهم فضلا

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ٢٠٧.
(٢) الوسيط في التفسير، طنطاوي ٤/ ٩٦.

ومزيدًا عند الله تعالى على سائر الخلق.

وعطف سبحانه قولهم: ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ على قولهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾ للإشارة إلى غلوهم في الجهل والغرور وتزكية النفس بالباطل، حيث قصدوا أنهم أبناء محبوبون، وليسوا مغضوبا عليهم من أبيهم، بل هم محل رضاه وإكرامه.

وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

أي: «قل لهم يا محمد: إذا كان الأمر كذلك! ! فلم يعذبكم بذنوبكم في الدنيا كما ترون من تخريب دياركم وهدم الوثنيين لمسجدكم في بيت المقدس، ومن لصوق العداوة والبغضاء فيكم أيها النصارى، فأنتم تتحاربون وتتقاتلون إلى الأبد، وستظل الحرب بينكم دائما حتى تفنوا جميعا إن شاء الله. وأما في الآخرة فيكون العذاب عسيرا عليكم أهل الكتاب، والأب لا يفعل هذا مع أبنائه والأولاد لا يعصون آباءهم كما تفعلون! ! بل أنتم وغيركم من جميع الطوائف والملل بشر وخلق من خلق الله، لا فضل لأحد على أحد إلا بالإيمان الصادق الخالص من شوائب الوثنية»[(١)].

فالعنصريون من أهل الكتاب ديدنهم تزكية أنفسهم بالباطل، كما قال ربنا: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

فهذا «تعجيب من تمادحهم بالتزكية التي هي التطهير والتبرئة من القبيح فعلا وقولا، المنافية لما هم عليه من الطغيان والشرك الذي قصه تعالى عنهم قبل. فالمراد بهم اليهود، وقد حكى تعالى عنهم أنهم يقولون: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وحكى عنهم أيضا أنهم قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ [البقرة: ٨٠].

وأنهم قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

أي: انظر إليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكياء عند الله تعالى مع ما هم فيه من الكفر والإثم العظيم، أو من ادعائهم تكفير ذنوبهم مع استحالة أن يغفر للكافر شيء من كفره أو معاصيه.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن تزكيته هي المعتد بها دون تزكية غيره. فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حَسَنٍ وقبيح. وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين»[(٢)].

«وفي الآية تحذيرٌ من إعجاب المرء

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ٤٩٩.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ١٦٩.

بنفسه وبعمله»[1].

والآية وإن كانت واردة في أهل الكتاب إلا أنه «يدخل فيها كل من زكى نفسه، ووصفها بزكاء العمل، وزيادة الطاعة والتقوى، والزلفى عند الله»[2].

فمن القواسم المشتركة بين العنصريين تزكيتهم الباطلة لأنفسهم بزعمهم أن لهم المنزلة العظمى عند الله، وأن لهم في الآخرة أفضل مما كان في الدنيا، وأنهم لن يعذبوا، بل ينزلوا منازل الإكرام والإعزاز؛ اغترارًا منهم بجاه وسلطان، أو حسب ونسب، أو جنس ولون، كما ذكر الله على لسان واحدٍ منهم ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[فصلت: ٥٠].

وكما ذكر عن صاحب الجنتين قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

والقرآن قد نهانا عن تزكية النفس ومدحها على سبيل الإعجاب، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

«أي: لا تمدحوها على سبيل الإعجاب، ولا تشهدوا لها بالكمال والتقى، فإن النفس خسيسة إذا مدحت اغترت وتكبرت ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: هو تعالى العالم بمن أخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن»[3].

وقال أبو حيان: «أي لا تنسبوها إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصي، ولا تثنوا عليها واهضموها، فقد علم الله منكم الزكي والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم، وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم»[4].

ومن هدايات الآيات حرمة تزكية المرء نفسه بلسانه والتفاخر بذلك، إما طلبًا للرئاسة، وإما تخليًا عن العبادة والطاعة بحجة أنه في غير حاجة إلى ذلك لطهارته، ورضا الله تعالى عنه.

رابعًا: طبيعة الخلقة:

من الأسباب الدافعة للعنصرية الافتخار بطبيعة الخلقة من جنس أو لون أو قوة أو لغة، أو غير ذلك مما يتعلق بطبيعة الخلقة التي لا فضل للإنسان فيها، وإنما هي منحة من الله بقدره وحكمته سبحانه وتعالى.

وإن أول من افتخر بعنصريته وخلقته هو إبليس -لعنه الله-، فقد أمره الله بالسجود لآدم عليه السلام، فامتنع من ذلك بحجة أنه خير من آدم؛ لأنه خلق من نار، وآدم مخلوق من طين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٩٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٢٠.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢٥٩.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٢٢.

﴿إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١-١٢].

«أي: قال إبليس اللعين: أنا أفضل من آدم وأشرف منه، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟

ثم ذكر العلة في الامتناع فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ أي: أنا أشرف منه لشرف عنصري على عنصره؛ لأنني مخلوق من نار، والنار أشرف من الطين، ولم ينظر المسكين لأمر من أمره بالسجود وهو الله تعالى»[1]. قال ابن كثير: «نظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم، وهو أن الله خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياسًا فاسدًا فأخطأ، قبحه الله في قياسه في دعواه أن النار أشرف من الطين، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم، والنار من شأنها الإحراق والطيش، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار محل العذاب؛ ولهذا خان إبليس عنصره فأورثه الهلاك والشقاء والدمار»[2].

فصار إبليس بذلك رمز العنصرية، وأول عنصري افتخر بطبيعة خلقته، وزعم أن العنصر أو الذات يمكن أن يكون له قيمة ذاتية، وتبعه على ذلك العنصريون في كل زمان ومكان، فها هو فرعون يفتخر فيقول: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

«أي: بل أنا خيرٌ من هذا الضعيف الحقير الذي لا عز له ولا جاه ولا سلطان، فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه؟ يعني بذلك موسى عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضح مقصوده، فكيف يصلح للرسالة؟»[3].

وممن افتخروا بطبيعة خلقتهم، وجعلوها مانعة لهم من الإيمان قوم عاد الذين قال الله عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

«أي: بغير استحقاق ذلك الذي وقع منهم من التكبر والتجبر، ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار والتباهي والتفاخر، فقال: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وكانوا ذوي أجسام طوال، وخلق عظيم، وقوة شديدة، فاغتروا بأجسامهم وافتخروا بخلقتهم حين تهددهم هود بالعذاب، ومرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما نزل بهم من العذاب، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده، ويجعلها حيث يشاء»[4].

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٤٠٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٩٢.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ١٤٩.
(٤) فتح البيان، صديق خان ١٢/ ٢٣٦.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

«الاستفهام للاستنكار عليهم والتوبيخ، أي: أولم يعلموا بأن الله أشد منهم قدرة وأوسع منهم قوة؟ فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء، يقول كن فيكون، وقال: ﴿خَلَقَهُمْ﴾ ولم يقل: خلق السموات، والأرض، لأن هذا أبلغ في تكذيبهم في ادعاء انفرادهم بالقوة، فإنهم حيث كانوا مخلوقين، فبالضرورة أن خالقهم أشد قوة منهم»[(١)].

ولا يزال الافتخار بطبيعة الخلقة ديدن العنصريين في هذا الزمان، فالأخبار العالمية تنقل إلينا باستمرار أنباء التمييز العنصري بين البيض والسود في أرقى دول العالم تمتعًا بمظاهر المدنية الحديثة التي وصل إليها إنسان القرن الحادي والعشرين، وتنقل إلينا أنباء العنجهية التي يتعاظم بها البيض الغرباء على السود أصحاب البلاد في إفريقية وغيرها، والتي يتعاظم بها إنسان القرن الحادي والعشرين الأبيض على سائر الملونين لمجرد بياض بشرته، وهو يدعي المدنية والحضارة والرقي، مع أن بياض البشرة ليس عنصرًا من عناصر المدنية والحضارة والرقي.

إنها صورة تزري بكل مزاعم الرقي الحضاري التي يزعمها رواد حضارة القرن الحادي والعشرين الميلادي، الذين ما زالت شعوبهم تعاني من مشكلات التمييز العنصري آلامًا كثيرة، وما زالت المفاهيم والتقاليد الجاهلية مسيطرة على عقولهم وعواطفهم.

خامسًا: الاغترار بالباطل:

العنصريون أشد الناس اغترارًا بما يركنون إليه من قوة، أو سلطة وجاه، أو حسب ونسب، أو جنس ولون، أو أنصار وأموال، ويدفعهم اغترارهم بباطلهم إلى أن يعتقدوا أنهم على الحق، وأن لهم الحق في مجابهة المصلحين -وخاصة الأنبياء والمرسلين-، وهذا الاغترار بالباطل أحد الأسباب القوية الدافعة للعنصرية.

وقد ذكر القرآن أمثلة لاغترار العنصريين بباطلهم، منها ما قاله المنافقون عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

وقائل ذلك رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول، وسبب مقولته ما حدث في غزوة بني المصطلق لما حدث شجار بين رجلين من المهاجرين والأنصار، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وقال: قد فعلوها؟ قد

(١) المصدر السابق ١٢/ ٢٣٦.

نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك»، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؛ ثم أقبل على من حضر من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادك، فأنزل الله في مقولته تلك هذه الآية [(١)].

«والقائل هو عبد الله بن أبي بن سلول، ولكن القرآن نسب القول إليهم جميعا؛ لأنهم رضوا بقوله، ووافقوه عليه» [(٢)].

وقد قال المنافقون هذا الكلام اغترارًا بما هم عليه من الباطل من وفرة العدد، وسعة المال، والعدة « والأعز: القوي في عزته وهو الذي لا يقهر ولا يغلب على تفاوت في مقدار العزة إذ هي من الأمور النسبية. والعزة تحصل بوفرة العدد وسعة المال والعدة، وأراد بالأعز فريق الأنصار فإنهم أهل المدينة وأهل الأموال وهم أكثر عددا من المهاجرين، فأراد ليخرجن الأنصار من مدينتهم من جاءها من المهاجرين» [(٣)].

والمعنى: « يقول هؤلاء المنافقون- على سبيل التبجح وسوء الأدب- لئن رجعنا إلى المدينة بعد انتهاء هذه الغزوة، ليخرجن الفريق الأعز منا الفريق الأذل من المدينة، حتى لا يبقى فيها أحد من هذا الفريق الأذل، بل تصبح خالية الوجه لنا» [(٤)]. «وقد رأينا كيف حقق ذلك عبد الله بن أبي! وكيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز! » [(٥)] وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ادعوا لي عبد الله بن عبد الله بن أبي)، فدعاه، فقال: (ألا ترى ما يقول أبوك؟) قال: وما يقول بأبي أنت وأمي؟ قال: (يقول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)؛ فقال: فقد صدق والله يا رسول الله، أنت والله الأعز وهو الأذل، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله، وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتينهما به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا؛ فلما قدموا المدينة، قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه؛ ثم قال: أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله، والله لا يأويك ظله، ولا تأويه أبدا إلا بإذن من الله ورسوله؛ فقال: يا للخزرج ابني يمنعني بيتي، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي، فقال: والله لا تأويه أبدا إلا بإذن منه؛ فاجتمع إليه رجال فكلموه، فقال:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٠٧.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٤١٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٤٩.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٤١٠.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٨٠.

والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال: (اذهبوا إليه، فقولوا له خله ومسكنه)؛ فأتوه، فقال: أما إذا جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم)[1].

وقد رد الله تعالى على مقالتهم الباطلة هذه بما يخرس ألسنتهم فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

ومن مواقف العنصرية التي تبين اغترار العنصريين بباطلهم ما قصه القرآن علينا من موقف قوم شعيب من نبيهم شعيب عليه السلام، فقد قالوا له: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

«أي: ما ندرك كثيرا من قولك إدراك فهم، وما ذكروا ذلك ليزدادوا فهما، بل ذكروه مستنكرين لما يريد مستهينين به، وهو يتضمن رفضا لقوله، وإنكارًا لدعوته إلى التوحيد، وحسن المعاملة، والقيام بالعدل فيها وإعطاء كل ذي حق حقه، وكأن المعاملة بالبخس حق لهم، ولذا قالوا متحدين أيضا مهددين: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أكدوا أنهم يرونه ضعيفا لا يمتنع عليهم إذا أرادوه بسوء، ولولا جماعتك، أو عصبتك الذين يوالوننا، ولا نريد أن نغاضبهم لرجمناك، أي لقتلناك شر قتلة، وهي القتل رميا بالحجارة حتى تموت: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي بممتنع علينا إن أردناك بسوء، أو أردنا رجمك، ونفوا أنه عزيز عليهم أشد النفي، فأكدوه بالخطاب وتكراره، وبالباء، وبتقديم ﴿عَلَيْنَا﴾، وذلك اغترار بقوتهم، وسطوتهم، وتأكيد بأنه في قبضة أيديهم»[2].

فاغترار العنصريين بباطلهم يدفعهم دائمًا إلى احتقار غيرهم واستضعافه، ولا فرق عندهم بين مصلح وغيره، وهذا قاسم مشترك بين العنصريين في كل زمان ومكان، ولا زلنا نراه في زماننا من تسلط كثير من شعوب الدول الأوربية والأمريكية على المسلمين في هذه الدول بزعم محاربة الإرهاب والإسلام فوبيا، وينادون بطردهم من هذه البلاد؛ اغترارًا من العنصريين بمعتقداتهم الباطلة، وكثرت هذه الدعوات لطرد المسلمين من هذه الدول بعد أحداث مدبرة، كأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وحادثة شارلي إيبدو.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٠٦.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٧٤٤.

مظاهر العنصرية

العنصرية لها مظاهر تتميز بها، وتعرف من خلالها، وأهم هذه المظاهر ما يأتي:

أولًا: احتقار الضعفاء:

من الصفات اللازمة للعنصريين الكبر والاستعلاء، وهذا يدفعهم إلى احتقار غيرهم من البشر -حتى لو كانوا من الأنبياء-، وهذا المعنى بينه النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال: (الكبر بطر الحق، وغمط الناس)[1].

فمعنى: (وغمط الناس) استحقارهم واستهانتهم.

إن احتقار الآخرين لا ينبعث إلا من نفس ملوثة بجراثيم العجب والكبر، فهو يعمل على إيذاء من حوله بدافع الشعور بالفوقية المتغلغلة في أعماقه، وهذا من الصفات المشتركة بين العنصريين أنهم يحتقرون غيرهم -خاصة الضعفاء- بسبب صفاتهم الخلقية أو ألوانهم أو عدم جاههم وغير ذلك.

فقد قص الله علينا أن من الموانع التي جعلت كثيرًا من قوم نوح لا يؤمنون به أنه لا يتبعه إلا الضعفاء، فكيف يؤمنون به وهم يحتقرون هؤلاء الضعفاء، قال سبحانه وتعالى على لسانهم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ [هود: ٢٧].

«أي: قال السادة والكبراء من قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: ما نراك إلا واحدًا مثلنا ولا فضل لك علينا، وفيه تعريضٌ بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البشر لجعلها فيهم.

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي: وما اتبعك إلا سفلة الناس، وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم جهلًا منهم واعتقادًا بأن الشرف هو بالمال والجاه، وليس الأمر كذلك، بل المؤمنون أشرف منهم على فقرهم وخمولهم.

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: في ظاهر الرأي من غير تفكر أو روية.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ أي: وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوة، واستحقاق المتابعة»[2].

وقالوا له أيضًا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

فالعنصريون يقيسون الخسة والرفعة بمقدار القوة المادية، فمن كان غنيًّا مستعليًا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩٣.

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ١١.

بماله ونفره كان عاليا، ومن كان قليلا في ماله ونفره كان خسيسًا ضعيفًا في نظرهم يستحق الاحتقار، وشعارهم الدائم ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

أهؤلاء الصعاليك خصهم الله بالإيمان من بيننا! وهذه الآية نزلت في كفار قريش مع ما قبلها من آيات وهي: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥١-٥٢].

وسبب نزول هذه الآيات: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾)[1].

فـ«أشراف العرب، أنفوا أن يستجيبوا إلى دعوة الإسلام؛ لأن محمدًا صلى الله عليه وسلم يؤوي إليه الفقراء الضعاف، من أمثال صهيب وبلال وعمار وخباب وسلمان وابن مسعود، وعليهم جِبَابٌ تفوح منها رائحة العرق لفقرهم، ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش في مجلس واحد! فطلب هؤلاء الكبراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطردهم عنه، فأبى.

فاقترحوا أن يخصص لهم مجلسًا ويخصص للأشراف مجلسًا آخر، لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف؛ كي يظل للسادة امتيازهم واختصاصهم ومهابتهم في المجتمع الجاهلي! فَهَمَّ صلى الله عليه وسلم -رغبة في إسلامهم- أن يستجيب لهم في هذه. فجاءه أمر ربه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾»[1].

عندئذ أطلق العنصريون من المشركين شعارهم القبيح: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ «عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون: كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء؟ إنه لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقونا إليه، ولهدانا الله به قبل أن يهديهم! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمن الله عليهم من بيننا، ويتركنا ونحن أصحاب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل. باب في فضل سعد بن أبي وقاص، رقم ٢٤١٣، ٤/ ١٨٧٨.

المقام والجاه!»[1].

فالعنصريون لهم مقاييس مختلفة، فمقاييسهم قائمة على أساس من المال والجاه، فأصحاب المال والجاه أهل الحظوة والقرب والفضل والمكانة، قولهم مسموع وكلمتهم مطاعة، وغيرهم من الفقراء ومن لا مال لهم ولا جاه خدم لهم وعبيد لإحسانهم، ومكانهم خلف الصفوف، ولا يحق لهم أن يجلسوا في مجلس الأثرياء وأصحاب الأموال، وبهذه المقاييس الخاطئة حكموا على أقدار الناس ومنزلتهم واحتقروهم، فكانت العنصرية البغيضة سببًا للفرقة وبابًا للأحقاد والبغض، وما بهذا تستقيم حياة الناس، ولا بهذا تنهض الأمم والشعوب.

ثانيًا: القدح في اختيار القيادات:

العنصريون يرون أنفسهم دائمًا أحق بالصدارة، وامتلاك دفة الأمور، وتوجيه الشعوب، فهم يرون في أنفسهم القيادة الرشيدة، ويحسدون غيرهم من القادة والمصلحين، ويقدحون فيهم؛ رغبة أن يكونوا مكانهم. وإذا تتبعنا القرآن لوجدنا أن ذلك سمة مشتركة بين كل العنصريين على اختلاف الزمان.

فقوم نوح استنكروا أن يكون نبيًّا لهم فقالوا: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

أي: ما هذا الذي يريد أن يطلب الرياسة والشرف عليكم بدعواه النبوة لتكونوا له أتباعًا! كيف يقوم فيكم مقام الناصح ذي الرأي والسلطان، ونحن أحق وأولى بالنبوة والرياسة منه!

وقوم ثمود قالوا عن صالح عليه السلام: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

فـ«هي الشبهة المكرورة التي تحيك في صدور المكذبين جيلا بعد جيل: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟ كما أنها هي الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة، إنما تنظر إلى شخص الداعية: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤]»[2]!

وبنو إسرائيل لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم قائدًا يقاتلون معه، وأخبرهم أن الله اختار لهم طالوت ملكًا استنكفوا في أول الأمر عن اتباعه بحجة أنه ليس أهلًا للملك، وليس من أصحاب الجاه والأموال.

قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٠.

(٢) المصدر السابق.

[البقرة: ٢٤٧].

أي: قاموا معترضين على نبيهم كيف يكون ملكًا علينا، والحال أننا أحق بالملك منه؛ لأن فينا من هو من أولاد الملوك، وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكًا علينا؟ وهكذا تتأصل في اليهود العنصرية والطبقية منذ أبعد الآماد.

وكفار قريش لما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن اعترضوا أن تنزل الرسالة عليه، ورأوا أن في عظمائهم من هو أولى بالرسالة، فقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

كيف هذا اليتيم يصبح نبيًّا؟ أين الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي، وهما من عظماء مكة والطائف؟[(١)].

وقال الله عنهم في موضع آخر: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

فهم «أنكروا أن يختص صلى الله عليه وسلم بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم»[(٢)].

ولما ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يدعوهم قال له أحدهم: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك[(٣)].

فالعنصريون يقدحون دائمًا في القادة والمصلحين، ويرون أنفسهم أحق بالرئاسة والشرف منهم.

ثالثًا: التمادي في الغي والضلال عند النصح:

العنصريون يجمعون في أنفسهم صفات وأفعالًا ذميمة، من احتقار الناس، والكبر والاستعلاء على الآخرين، والفخر بالأحساب والأنساب، والقدح في المصلحين والمخلصين، وإذا وعظهم المخلصون للإقلاع عن هذه الأفعال والصفات الشنيعة يأنفون أن يؤمروا بتقوى الله، كأنهم يقولون في أنفسهم: نحن أرفع من أن نؤمر بتقوى الله عز وجل، فيرفضون الانصياع للحق، ويستكبرون عن قبول النصح، وما منعهم من ذلك إلا عزتهم بالإثم، فيجمعون بين العمل بالمعاصي والكبر على الناصحين.

وقد بين القرآن أن هذه صفة متأصلة في الكفار والمنافقين، إذا نصحهم ناصح وتبين لهم الحق جحدوا واستكبروا بدافع الحمية لما يعتقدون.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٣٢.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢٦.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٤.

قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

فهذا الصنف يقترف ما يقترف من الأفعال الذميمة، فـ«إذا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أسرع إليه الغضب، وعظم عليه الأمر، وأخذته الأنفة وطيش السفه، إذ يخيل إليه أن النصح والإرشاد ذلة تنافى العزة التي تليق بأمثاله.

وفي طبع المفسدين النفور ممن يأمرهم بالصلاح، إذ يرون في ذلك تشهيرا بهم وإعلانا لمفاسدهم التي يسترونها بزخرف القول وخلابته، وإن استطاعوا الحبس حبسوا أو ضربوا أو قتلوا»[1].

فكثيرًا ما تمنع العزة بالإثم أصحابها من قبول الحق، ويتمادون في الغي والضلال عند النصح، سواء كانوا من الكفار، أم من المنافقين، أم من عصاة المسلمين.

ومن الهدايات المستفادة من الآية: إذا قيل للمؤمن اتق الله يجب عليه أن لا يغضب، أو يكره من يأمره بالتقوى، بل عليه أن يعترف بذنبه، ويستغفر الله تعالى، ويقلع عن المعصية فورًا.

رابعًا: دعاوى الاصطفاء الكاذبة:

العنصرية تتستر دائمًا خلف دعاوى الاصطفاء الكاذبة، ففي سبيل إثبات عنصريتهم، وأنهم دائمًا على خير وصواب لابد أن يكون لهم مستند يستندون إليه من ادعاء الاصطفاء الإلهي لهم، أو ادعاء أن الجنة لن تكون إلا لمن كان من جنسهم أو على معتقدهم، وهي أماني باطلة يتعلقون بها.

وقد ذكر لنا القرآن نموذجًا لدعاوى الاصطفاء الكاذبة، قام به أهل الكتاب حيث قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، وقال النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا، فرد الله عليهم قائلًا: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١].

والمراد: «بيان أن ما يدعونه من أن الجنة خاصة بهم، ما هو إلا أماني منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا برهان، سولتها لهم أنفسهم التي استحوذ عليها الشيطان فخدعها بالأباطيل والأكاذيب»[2].

ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون، فقال تعالى ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

«أي: قل - يا محمد- لهؤلاء الزاعمين

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ص٤٢٠.

(٢) تفسير المراغي ٢/ ١١٢.

أن الجنة لهم خاصة من دون الناس، هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم، إن كنتم صادقين في دعواكم؛ لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحي من الله وليس لمجرد التمني، أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز؛ لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها»[1].

ثم أبطل القرآن الكريم دعواهم الكاذبة بإيراد قاعدة كلية رتبت دخول الجنة على الإيمان والعمل الصالح بلا محاباة لأمة أو لجنس أو لطائفة، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

وإذا كان الرد هنا موجهًا إلى أهل الكتاب، فقد جاءت آية أخرى تخاطب جميع الخلق بإبطال الدعاوى الكاذبة للاصطفاء، وتحسم الأمر بأن دخول الجنة لن يكون إلا لمن آمن وعمل صالحًا.

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٢٤٨.

نماذج قرآنية في العنصرية

ذكر القرآن عدة نماذج للعنصريين، ومن هذه النماذج:

أولًا: أهل الكتاب:

عرف أهل الكتاب منذ القدم بعنصريتهم، واحتقارهم للشعوب الأخرى، وقد ذكر القرآن عدة مظاهر لعنصريتهم المقيتة، منها:

١. تفريقهم بين الملائكة والأنبياء بناء على عنصريتهم.

فقد ذكر القرآن عن اليهود أنهم يفرقون بين الملائكة، فيؤمنون ببعضهم، ويعادون بعضهم الآخر، فقال الله سبحانه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧ – ٩٨].

قال الإمام الطبري: «أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك»[1]. ومما ورد من أسباب النزول عن ابن عباس، قال: (أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك. فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

قال: (هاتوا). قالوا: أخبرنا عن علامة النبي. قال: (تنام عيناه ولا ينام قلبه). قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل؟ قال: (يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت)، قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه. قال: (كان يشتكي عرق النَّسَاء فلم يجد شيئًا يلائمه إلا ألبان كذا وكذا) –قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل، فحرم لحومها– قالوا: صدقت.

قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: (ملك من ملائكة الله –عز وجل– موكل بالسحاب بيديه –أو في يده– مخراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله عز وجل). قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمعه؟ قال: (صوته). قالوا: صدقت. إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا أنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟

قال: (جبريل عليه السلام)، قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة

(١) المصدر السابق ١/ ٢٤٩.

والنبات والقطر لكان، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية[1].

«أي: قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك، أن وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك وصدقوا، إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، وتكبر على الله، فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول محض.

مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل مصدقا لما تقدمه من الكتب غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به، فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك كفر بالله وآياته، وعداوة لله ولرسله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل، لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله.

فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك»[2].

وأما تفريق أهل الكتاب بين الأنبياء فقد ورد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠].

فـ«الآية في اليهود والنصارى؛ لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وغيره، جعل كفرهم ببعض الرسل كفرًا بجميع الرسل، وكفرهم بالرسل كفرًا بالله تعالى ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ التفريق بين الله ورسله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم.

وقد فسره بقوله بعده: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ أي: نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض. قال قتادة: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم، وتركوا الإسلام دين الله الذي بعث به رسله[3].

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا وسطًا بين الكفر والإيمان ولا

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٧٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٣٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠.

واسطة بينهما»[1].

وقد حكم الله بكفرهم، وأنهم من أصحاب النار فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٥١].

٢. إنكارهم لرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وتصريحهم أنه ليس النبي المنتظر.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فعن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء وداود بن سلمة: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته فقال سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية[2].

«وحين جاءهم القرآن من عند الله مصدقا لما معهم من التوراة جحدوه، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وكانوا قبل بعثته يستنصرون به على مشركي العرب، ويقولون: قرب مبعث نبي آخر الزمان، وستتبعه ونقاتلكم معه. فلما جاءهم الرسول الذي عرفوا صفاته وصدقه كفروا به وكذبوه. فلعنة الله على كل من كفر بنبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وكتابه الذي أوحاه الله إليه»[3]. فاليهود دفعهم الحقد والحسد والعنصرية إلى إنكار الرسالة المحمدية، بعد أن كانوا يستفتحون بنبوته ظنًّا منهم أنه سيكون من نسلهم، فلما جاء من نسل العرب أنكروا رسالته حقدًا وحسدًا للعرب.

٣. احتقارهم لغير جنسهم، ودعاوى الاصطفاء والاختيار.

فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار، وأن غيرهم بمنزلة الحيوانات، وأنهم مسخرون لخدمتهم، وأن اليهودي أفضل الأجناس على الإطلاق[4].

وهذا يبيح لهم انتهاك حرمات غيرهم؛ لأنهم ليس لهم حرمة وقد ذكر القرآن لهم موقفًا عجيبًا يبين نظرتهم لغيرهم، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٧٢٥.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٢٩٠.
(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ٢١٧.
(٤) التفسير الميسر ص١٤.

﴿إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

«والذي حمل هذه الطائفة من اليهود على الخيانة: زعمهم أن التوراة تبيح لهم أكل أموال الأميين وهم العرب، قائلين: إنه لا تبعة ولا إثم عليهم في أكل أموال العرب بل وكل ما عدا اليهود؛ إذ هم شعب الله المختار، فلهم السمو والتفوق العنصري على غيرهم، وأما من سواهم فلا حرمة له عند الله، فهو مبغوض عنده، محتقر لديه، ولا حق له ولا حرمة»[1].

وأهل الكتاب يزعمون كذبًا وافتراء أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يدخل الجنة أحد غيرهم، وقد ذكر القرآن عنهم هذه المقالات، وفندها، ورد عليهم.

أما دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، فقد قال الله عنها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[المائدة: ١٨].

وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وأما دعواهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم، فقد قال الله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[البقرة: ١١١].

وقد رد الله عليهم فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

فإن ميزان القربى من الله هو الإيمان والعمل الصالح، لا الوراثة ولا الامتياز العنصري أو الجنسي، فليس صحيحًا أن اليهود شعب الله المختار، وليس لشعب مزية على آخر.

ثانيًا: المشركون:

العنصرية متأصلة في نفوس المشركين على اختلاف العصور والأماكن، وتتجلى عنصريتهم في عدة مظاهر، منها:

١. احتقارهم للرسل والمصلحين، واعتقادهم أنهم أحق بالرسالة.

فقد قال قوم نوح له: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وقالوا له: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقالت ثمود لنبيهم صالح عليه السلام:

(١) انظر: عنصرية اليهود، الزغيبي ٢/ ٥٩.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ءَأُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥].

وقالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾[ص: ٨].

وقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقد سبق الحديث عن هذه الآيات في المباحث السابقة.

٢. افتخارهم بالأموال والأولاد، وأن لهم الزلفى عند الله.

فقد قال الله تعالى عن كفار قريش: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقال سبحانه عن صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦].

ومن نماذج العنصرية الكافرة التي حدوها الكبر والاستعلاء فرعون -لعنه الله- فقد قال الله عنه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وتتبين عنصريته في الآية من أمرين:

الأول: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: أصنافًا[(١)].

«والمعنى يكرم قومًا ويذل آخرين بالاستبعاد والأعمال الشاقة. وقيل: جعل بني إسرائيل أصنافًا في الخدمة والتسخير، فهذه التفرقة العنصرية كانت سببًا أيضًا في هلاك دولته، فجعل هناك تمايزًا طبقيًا بين الأقباط وبين بني إسرائيل، فكان يرى ويرى الأقباط معه أن مصر هي ملك لهم، وما وجود بني إسرائيل إلا لخدمتهم في هذه الحياة، فجعل من مملكته فرقًا مختلفة، وجعل منهم شيعًا مقربين منه، والقسم الآخر ناصبهم العداء، وجعل بين الطائفتين العداوة والبغضاء ليسهل له السيطرة عليهم جميعًا»[(٢)].

الثاني: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾.

«يعني: بني إسرائيل، بالاستبعاد والأعمال القذرة، فجعل من هذه الطائفة محقرة مهتضمة الحقوق، لا مساواة بينها وبين الأقباط، مع أنهما يسكنان في أرض واحدة وتحت سماء واحدة. والسبب في ذلك لأنه يرى أنهم غرباء عنه في النسب والدين؛ لأنهم كانوا يعتقدون بعقيدة تختلف عن عقيدته هو وقومه، فهم

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٣/ ٢٦٦.
(٢) سورة القصص دراسة تحليلية، محمد المطني ص٢١٦.

يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب -عليهما السلام-، فهم يعتقدون بإله واحد هو الله، وينكرون ألوهية فرعون، وكذلك أحس فرعون أن هناك خطرًا على عرشه من وجود هذه الطائفة في مصر، ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها، فهم جماعة كبيرة قد يتحالفون مع أعدائه من دول الجوار الذين كانت تقوم بينهم وبين فرعون حروبًا. فاحتقرهم ولم يجعل لهم دورًا في الحياة السياسية والإدارية في مصر، فجعل منهم خدمًا، وفرض عليهم الضرائب الباهظة، وكلفهم بالأعمال الشاقة»[1].

ثالثًا: المنافقون:

إن النفاق مرض خطير، وإن المنافقين شوكة مؤذية تطعن المجتمع من الداخل، والعنصرية داء متأصل في المنافقين، ومن مظاهر عنصرية المنافقين:

١. التمادي في الضلال والغي ورفض النصح.

من الصفات اللازمة للمنافقين الإفساد في الأرض بكل أشكاله وأنواعه، من إثارة الفتن، والتجسس لحساب الكفار، وتأليب الأعداء على المسلمين، وهذا فساد ظاهر، فإذا وعظهم واعظ وقال لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

«أي: وإذا قال لهم بعض المؤمنين: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن، والكفر والصد عن سبيل الله ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: ليس شأننا الإفساد أبدًا، وإنما نحن أناسٌ مصلحون، نسعى للخير والصلاح، فلا يصح مخاطبتنا بذلك»[2].

فهؤلاء المنافقون إذا وعظوا وقيل لهم: انزعوا عن أفعالكم القبيحة، حملتهم الأنفة وحمية الجاهلية على التكبر عن قبول الحق، فأغرقوا في الإفساد وأمعنوا في العناد؛ لأنهم يرون أنفسهم فوق نصيحة الناصحين، ونقد الناقدين، أي: نحن مقصورون على الإصلاح، ولا نعرف الإفساد، فكيف ننهى عنه مع أننا لم نفعله؟ وهذا كمال.

قال الله عنهم في آية أخرى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

فالمنافقون بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ «قصروا نفوسهم على الإصلاح، وذلك أن (إنما) تدل على القصر، أي: قصرهم على الصلاح، لا يكون منهم فساد قط، وذلك أعظم الغرور وأشد الفساد، فكل ما يفعلون يعدونه إصلاحًا، ولا يعدونه فسادًا، وذلك الغرور لا يكون

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٠.

(٢) سورة القصص دراسة تحليلية، محمد المطني ص٢١٦.

إلا ممن أحاطت به خطيئته، فأصبح لا يرى إلا ما يكون في دائرتها، وقد سدت عنه كل منافذ الخير»[1].

وقد رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

ومن هدايات الآية: أن الإصلاح في الأرض يكون بالعمل بطاعة الله ورسوله، والإفساد فيها يكون بمعصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والعاملون بالفساد في الأرض يبررون دائمًا إفسادهم بأنه إصلاح وليس بإفساد.

٢. احتقار المؤمنين ورفض الإيمان.

المنافقون يرون المؤمنين ناقصي العقل والتفكير، فهم دائمو الاحتقار لهم والاستهزاء بهم، وإذا أعلنوا إيمانهم فذلك استهزاء منهم بالمؤمنين، وهذا ما ذكره الله من حالهم وصفاتهم حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٣ - ١٤].

«أي: وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيمانًا صادقًا لا يشوبه نفاقٌ ولا رياء، كما آمن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الهمزة للإنكار مع السخرية والاستهزاء، أي قالوا: أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة أمثال صهيب، وعمار، وبلال ناقصي العقل والتفكير؟!»[2].

ولقد حكم الله تعالى على هؤلاء المنافقين، وهو الحكم العدل، وهو خير الفاصلين، فقال تعالت كلماته مؤكدًا ومنبهًا وحاصرًا السفاهة فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ «يقرر الله تعالى الحكم عليهم بالسفه، وجعلهم مقصورين عليه يدورون في إطاره ويسارعون فيه، فهم يخرجون من سفه إلى سفه، ويسارعون في السفاهة، ويسيرون فيها حتى يصلوا إلى الدرك الأسفل منها»[3].

وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ «أي: وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقًا ومصانعة.

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي: وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم، أهل الضلال والنفاق.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي:

(١) المصدر السابق ص٢١٦.

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣٠.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ١٣٠.

قالوا لهم: نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان»[1].

علاج العنصرية

كان للإسلام منهجه المتميز في علاج داء العنصرية، وهذا العلاج يتمثل في أمور عدة:

أولًا: التذكير بأصل الخلق:

قرر الإسلام أن أصل البشر واحد، وهو التراب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

والأصل الثاني آدم عليه السلام، خلق الله منه زوجه حواء، وبث منهما أولادهما، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

فإذا كان الأصل واحدًا، فلا معنى لأن يفخر أحد على أحد، أو يتعالى أحد على أحد.

والملاحظ في آية سورة النساء أن القرآن نبه إلى التعاطف الأخوي الإنساني في أسلوب يوقظ الحس، ويوضح أن الناس من نفس واحدة، فلابد من التعاطف والتراحم بينهم، وقد عبر بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فالخطاب للناس جميعًا، وعبر بقوله: ﴿رَبَّكُمُ﴾ فالله رب الناس جميعًا، فهم إذًا سواء.

«ولو تذكر الناس هذه الحقيقة -أصل الخلق-، لتضاءلت في حسهم كل الفروق

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣٠.

الطارئة، التي نشأت في حياتهم متأخرة، ففرقت بين أبناء النفس الواحدة، ومزقت وشائج الرحم الواحدة. وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية، وصلة النفس وحقها في المودة، وصلة الربوبية وحقها في التقوى.

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلا باستبعاد الصراع العنصري، الذي ذاقت منه البشرية ما ذاقت، وما تزال تتجرع منه حتى اللحظة الحاضرة في الجاهلية الحديثة، التي تفرق بين الألوان، وتفرق بين العناصر، وتقيم كيانها على أساس هذه التفرقة، وتذكر النسبة إلى الجنس والقوم، وتنسى النسبة إلى الإنسانية الواحدة والربوبية الواحدة»[1].

وقد أخبر رب العالمين أنه خلق الناس من ذكر وأنثى، وفرعهم شعوبًا وقبائل، وبين الحكمة من ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

هذا إعلام من الرب تبارك وتعالى إلى جميع الناس بأن أصلهم واحد ومرجعهم واحد، فقد خلقهم جميعا من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وهما آدم وحواء عليهما السلام، ونوعهم إلى قبائل وشعوب، وهذا التنوع في الأنساب وفي الألوان وفي الألسنة، ومثله التنوع في الطبائع وفي الأخلاق وفي المواهب كل ذلك الهدف منه التعارف والوئام والتعاون للنهوض بجميع التكاليف، والوفاء بجميع الحاجات.

والله تبارك وتعالى العليم الخبير هو الذي وزنهم عن علم وخبرة، وبثهم في الأرض رجالا ونساء وشعوبًا وقبائل من هذا الأصل الواحد، فإذا تفاخر الناس بأنسابهم وبأصولهم وبقبائلهم، فعليهم أن يتذكروا أن العليم الخبير الذي بثهم من التراب والطين يسمعهم ويراهم، هو العليم بأصلهم، خبير بأحوالهم، أليس هو الذي خلقهم! ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فالإسلام أكد على أن الناس خلقوا من أب واحد وأم واحدة، وما حصل من اختلاف اللون والمكان، وتفرع الناس إلى قبائل وشعوب لا يجعل لأحدهم تمييزًا عنصريًّا على الآخر.

ثانيًا: التقوى ميزان التفاضل:

لقد قضى الإسلام قضاء مبرمًا على كافة أنواع العنصرية القائمة على اختلاف اللون أو الجنس أو اللغات، فالأبيض كالأسود والعربي كالعجمي، لا يتفاضلون ولا يتمايزون إلا بالتقوى والعمل الصالح، فأكرم الناس أتقاهم كما جاء في الآية الكريمة:

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ١٣٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

فإن التفاضل لا يرجع إلى الجنس ولا إلى اللون ولا إلى الوطن، ميزان التفاضل واحد هو الإيمان، ثم المؤمنون فيما بينهم يتفاوتون ويتفاضلون، وميزان التفاضل فيما بينهم هو التقوى، فأتقاهم لله تعالى هو أكرمهم عنده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[1].

فالناس جميعًا في أصلهم وفي شرفهم وفي عنصرهم ينتسبون إلى أصل واحد هو الطين والتراب، ولذلك لا يتفاوتون في هذا، لا يتفاوتون في الأصل ولا في الشرف، إنما يتفاوتون في الأمور الدينية، في طاعة الله تبارك وتعالى، وفي متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم، أما تقسيمهم إلى شعوب وإلى قبائل وأما اختلافهم في الأنساب فالمقصود منه التعارف والتآلف. هذا هو المبدأ العظيم الذي جاء به ديننا القويم فكرس مبدأ المساواة بين البشر، وجعل ميزان التفاضل واحدا هو الإيمان والتقوى، فالناس إنما يتفاضلون بهذا الميزان.

فقد «استأصل الإسلام منذ فجر دعوته الإصلاحية الكبرى كل المعاني والروابط القبلية والعنصرية والعرقية، وأحل محلها روابط أخلد وأقوى وأمتن، وهي روابط الإيمان والهجرة والجهاد والإيواء والنصرة

وهذا التصنيف هو ما ذكرته أواخر سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٥]»[2].

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا المبدأ، فقد وقف في حجة الوداع ليعلن في خطابه الخالد: (إن ربكم واحد، وأباكم واحد، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)[3].

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله

«ولم تكن هذه المساواة لتقف عند حدود المبادئ التي تعلن في مناسبات متعددة - كما يقع من زعماء الحضارة الحديثة اليوم- بل كانت مساواة مطبقة تنفذ كأمر عادي لا يلفت نظرًا، ولا يحتاج إلى تصنع أو عناء، فقد نفذت في المساجد حيث كان يلتقي فيها الأبيض والأسود على صعيد واحد من العبودية لله عز وجل والخشوع بين يديه. ولم يكن الأبيض ليجد غضاضة أو حرجًا في وقوف الأسود بجانبه.

ونفذت في الحج حيث تلتقي عناصر البشرية كلها من بيضاء وملونة على صعيد واحد وبثياب واحدة من غير تميز بين أبيض وأسود أو استعلاء من البيض على السود. بل إننا لنجد ما هو أسمى من هذا، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالًا الحبشي يوم فتح مكة أن يصعد فوق الكعبة ليؤذن من فوقها ويعلن كلمة الحق، والكعبة هي الحرم المقدس عند العرب في الجاهلية، وهي القبلة المعظمة في الإسلام، فكيف يصعد عليها عبد ملون كبلال؟ كيف يطؤها بقدميه؟

إن مثل هذا أو قريبًا منه لا يتصور في الحضارة الحديثة في أمريكا مثلا، ولكن حضارتنا فعلته قبل أربعة عشر قرنا، فما كان صعود بلال على سطح الكعبة إلا إعلانا لكرامة الإنسان على كل شيء، وأن الإنسان يستحق هذه الكرامة لعلمه وعقله وأخلاقه وإيمانه لا لبشرته وبياضه، فما يقدم الإنسان بياضه إذا أخره عمله، ولا يؤخره سواده إذا قدمه ذكاؤه واجتهاده»[1].

إن مجتمعًا يقف فيه بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر بجانب أبي سفيان، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب لدليل قاطع على أن العصبيات والقوميات والجنسيات قد ذهبت إلى غير رجعة، وانصهرت في عقيدة واحدة، هي عقيدة التوحيد، تحت لواء واحد، هو لواء الإسلام.

ولا يخفى أن الاستعمار البغيض لم يستطع أن يبسط نفوذه على الأمة الإسلامية إلا بعد أن فرقها شيعا وأحزابا وأقام بينها حواجز مصطنعة، تتقاطع من أجلها وتتقاتل في سبيل هذه الحدود الاعتبارية التي ما أنزل الله بها من سلطان، وشد ما نحزن حينما نعلم أن الخلاف يصل إلى عنفوانه، وإلى درجة سفك الدماء والذهاب بالرجال والمعدات بسبب الحدود المصطنعة، إنها مسألة مرسومة بريشة العدو الثلاثي المشترك «الصهيونية والشيوعية والصليبية»

واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم ٢٥٦٤، ٤/ ١٩٨٧.

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٨٢٤.

لإثارة العداوات[1].

فالإسلام أرسى بصورة عملية المبدأ الأساس للتفاضل بين الناس وهو التقوى والعمل الصالح، مع عدم الاعتراف بالامتيازات الطبقية أو النفوذ الموروث، وقد كانت أعظم صورة لتطبيق هذا المبدأ ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين آخى بين المسلمين، حتى صار في فجر الإسلام يستظل بمظلة الإسلام الكبرى شتى الجنسيات المختلفة، فهنا سلمان الفارسي، وهنا بلال الحبشي، وهنا صهيب الرومي، والكل يعيش في ظل راية الإسلام، وتحت مظلة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

أما العالم اليوم فقد دمر بالحروب وبالتفرقة العنصرية، وتمزق بالتعصب الشخصي والمصلحة الخاصة، ولكن الإسلام بتعاليمه يذيب الفوارق بين تلك الجنسيات فيعيش الحبشي والرومي والفارسي والعربي والعجمي جميعًا تحت مظلة الإسلام، فالإسلام يذيب الفوارق ويجمع الشتات، ويربط الجميع بأخوة واحدة، ويصبح هذا التآخي بمثابة التلاحم، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ويقول صلى الله عليه وسلم: (مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[2].

وقد كان إرساء هذه الدعائم من أعظم ما سهل نشر الهداية الإسلامية، وتقارب عناصر البشرية وامتزاجها بعضها ببعض حتى كان ثمرة اتحادها.

ثالثًا: إبطال دعاوى العنصرية:

لقد قضى الإسلام على كل دعاوى العنصرية التي يتمسك بها العنصريون، وأهم ما أبطل به الإسلام دعاوى العنصرية ما يأتي:

١. بيان أن اغترارهم بالأموال والأنصار لن يغني عنهم شيئًا.

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

فقد أخبر الله أن «الذين جحدوا الدين الحق وأنكروه، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئًا إن وقع بهم في الدنيا، ولن تدفعه عنهم في الآخرة، وهؤلاء

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٣٤٨٩، ٣٨/ ٤٧٤، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٤٧٤٩، ٥/ ٨٦، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٤٧٧٤، ٧/ ١٣٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦/ ٤٤٩.

(٢) انظر: روائع حضارتنا، مصطفى السباعي ص١١٢-١١٣.

هم حطب النار يوم القيامة»[1].

وبين سبحانه أن أموالهم وأولادهم قد تكون سببًا في تعذيبهم في الدنيا والآخرة فقال سبحانه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وأوضح القرآن أن أموال العنصريين وأولادهم لن تقربهم من الله في الآخرة، وإنما الإيمان وحده هو سبب القربى في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٥-٣٧].

فهذا « رد آخر على ادعاء المترفين، بأن أموالهم وأولادهم هي التي تقربهم من الله، وتدنيهم من مرضاته، وكلا فإن الأموال والأولاد لا تقرب من الله إلا بقدر ما يكون لأصحاب الأموال والأولاد من إيمان بالله، وإحسان في العمل»[2].

٢. طبيعة الخلقة غير صالحة كميزان للتفاضل.

من الأمور التي تقوم عليها العنصرية هي التفريق بين الناس بناء على الجنس أو اللون أو اللغة أو غير ذلك مما يتعلق بطبيعة الخلقة، وتتعصب لهذه الأمور، وقد تخوض الحروب بناء على هذه الأمور، وهذه الأمور لا تصلح أبدًا أن تكون مقياسًا للتفاضل بين البشر؛ لأنه لا دخل لأحد فيها، فالإسلام ساوى بين البشرية جميعًا في أصل الخلق، فلا اعتبار لاختلاف لون أو لسان أو غير ذلك ما دام الأصل واحدًا، بل اعتبر الإسلام اختلاف الألسنة والألوان في النوع البشري، مع وحدته الأصلية، آية من آيات الله الكبرى، ودليلا من دلائل قدرته وبالغ حكمته فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

فالآية ترشدنا إلى أن الذين يمارسون العنصرية بناء على اختلاف الألوان أو اللغات «فاتهم أن جميع الكائنات البشرية إخوة، وأن وراء هذه الألوان المتعددة روحًا واحدة لا لون لها، وأن إلهًا واحدًا هو الذي خلقهم جميعًا، وأرخى على روح كل واحد منهم ستارًا كثيفًا: هو الجسد؛ وهذا الستار يكون في صقع أبيض، وفي آخر أسود، وفي

(١) انظر: أجنحة المكر الثلاثة، الميداني ص٢٠٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ح٢٥٨٦، ٤/ ١٩٩٩.

صقع أحمر، وفي آخر أصفر»[1].

فالإسلام نبذه لأي شكل من أشكال التمييز بين بني البشر بناء على أجناسهم أو ألوانهم أو لغاتهم،

فنادى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: (لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)[2].

وقد غضب صلى الله عليه وسلم غضبًا لم ير مثله على وجهه الشريف، عندما سمع أبا ذر الغفاري يحتد على بلال ويعيره بلونه قائلا: يا ابن السوداء! فزجره الرسول صلى الله عليه وسلم، ورده بقوله: (يا أبا ذر أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)[3].

فقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أعيرته بأمه) هذا استفهام إنكاري تعجبي، أي: كيف تعيبه بسواد أمه، وتستنقصه بذلك، وأنت تعلم أن الإسلام لا يميز بين الناس بالألوان، وإنما يفاضل بينهم بالتقوى والعمل الصالح.

وقوله: (إنك امرؤ فيك جاهلية) أي: إن ما فعلته معه من تعيير بسواد أمه نعرة جاهلية، وأثر من آثار التمييز العنصري الذي كان موجودًا قبل الإسلام.

فاستجاب أبو ذر لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووضع خده على الأرض، وأقسم أن يطأه بلال برجله توبة وتكفيرًا عمَّا صدر عنه من أخلاق جاهلية[4].

٣. الفخر بالأحساب والأنساب من أمور الجاهلية.

بين الإسلام أن التفاخر والتعاظم بالآباء والأجداد، والمآثر، والأمجاد من أمور العصبية والعنصرية المقيتة التي حرمها الإسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية[5] الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم، وآدم من تراب، لينتهين أقوام فخرهم برجال، أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان[6] التي تدفع

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٥١.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١١/ ٨٣١.
(٣) أوضح التفاسير، محمد حجازي ١/ ٤٩٣.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٣٤٨٩، ٣٨/ ٤٧٤، والطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٤٧٤٩، ٥/ ٨٦، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٤٧٧٤، ٧/ ١٣٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦/ ٤٤٩.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، رقم ٣٠، ١/ ١٥.
(٦) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ١/ ١١٥.

بأنفها النتن)[1].

فهذا الحديث إعلام أن الكبر والفخر بالنسب من العصبية المقيتة التي حرمها الإسلام، ومن كمال بلاغته صلى الله عليه وسلم أن شبه المتعصب بآبائه ونسبه بأنه أقل من ذلك الحيوان الصغير الذي يدفع فضلات الإنسان والحيوان ويعيش معها.

وقد بين الحديث أن الناس حين يتفاضلون بالعنصرية للون أو العنصرية لجنس أو العنصرية لوطن، فحينئذ يعاقبهم الله تبارك وتعالى بالذل والهوان، هذا هو وعده على لسان النبي صلى الله عليه وسلم: (أو ليكونن أهون على الله من الجعلان).

والمقصود في النهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب أن يعتقد الإنسان أنها معيار التفاضل بين البشر، أو أن يتخذ ذلك سببًا للتعالي والتكبر على الآخرين، أو التفريق بين المسلمين، وتصنيفهم إلى طبقات وفئات بناء على هذه الأحساب والأنساب.

وكيف يفخر الإنسان على غيره بما ليس من كسبه وما لا جهد له فيه؟!

وقد أعلم النبي صلى الله عليه وسلم -يوم أن أمره الله بالصدع بالرسالة- أهله وقومه أن أنسابهم وأحسابهم لن تغني عنهم شيئًا يوم القيامة، فعن أبي هريرة قال: (قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قال: (يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، و يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، و يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا)[2].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا ينبغي للإنسان أن يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء ويقصر في العمل، فقال: (ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه)[3].

ولو أن النسب ينفع صاحبه دون العمل لانتفع به أبو لهب، ولكن هيهات، وقد قال الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ

(١) عبية الجاهلية: الكبر والأنفة.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٦٩.

(٢) الجعلان بكسر جيم وسكون عين، جمع جعل، بضم ففتح: دويبة كالخنفساء.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٢٧٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب النوم، .باب التفاخر بالأحساب، رقم ٥١١٦، ٧/ ٣٤٨، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب فضل الشام واليمن، رقم ٣٩٥٦، ٦/ ٢٢٩، وقال: هذا حديث غريب.
وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح ٣/ ١٣٧٣.

﴿عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١ - ٢].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ولا شك أن التفاخر بالأحساب والأنساب وغير ذلك من أمور العنصرية البغيضة يؤدي إلى وجود تحزبات وحزازات بين المسلمين، ووقوع الفرقة والبغضاء في صفوفهم، كما وقع بين الأنصار بسبب المكيدة التي دبرها شاس بن قيس اليهودي، فعن زيد بن أسلم قال: مَرَّ شاس بن قيس -وكان شيخًا قد عسا[1] في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم- على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه.

فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة[2] بهذه البلاد! لا والله ما لنا معهم، إذا اجتمع ملؤهم بها، من قرار!

فأمر فتى شابًّا من يهود وكان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، وذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار -وكان يوم بعاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج- ففعل. فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب: أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار بن صخر، أحد بني سلمة من الخزرج. فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعةً![3] وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح! موعدكم الظاهرة -والظاهرة: الحرة- فخرجوا إليها.

وتحاوز الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال: (يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، رقم ٤٧٧١، ٦/ ١١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، رقم ٢٠٦، ١/ ١٩٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

(٣) عسا: كبر وأسن. انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣١٦.

واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟).

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وما صنع.

فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨ - ٩٩].

الآية. وأنزل الله عز وجل في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

إلى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥][1].

ولا يزال كثير من الناس في زماننا تدور بينهم المفاخرة بالآباء والأجداد، والتغني بمآثرهم وأمجادهم، وأصالة أحسابهم وأنسابهم، والتعالي بذلك على من يعدونهم أقل منهم نسبًا وحسبًا، وهذا مصداق حديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)[2].

فالواجب على المسلمين أن يتخلصوا من العنصرية البغيضة في أقوالهم وأفعالهم، ويعملوا ميزان الإسلام فيما بينهم، لا فرق بين أبيض وأسود، وعربي وأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الإنصاف، السياسة، الظلم، العدل

(١) بنو قيلة: هم الأنصار من الأوس والخزرج، وقيلة: اسم أم لهم قديمة، هي قيلة بنت كاهل، سموا بها. انظر: النهاية، ابن الأثير ٤/ ١٣٤.

(٢) ردها جذعة: أي جديدة كما بدأت. والجذع والجذعة: الصغير السن من الأنعام، أول ما يستطاع ركوبه. يعني أعدناها شابة فتية. انظر: النهاية، ابن الأثير ١/ ٢٥٠.

العهد

عناصر الموضوع

مفهوم العهد	٤٩٤
العهد في الاستعمال القرآني	٤٩٥
الألفاظ ذات الصلة	٤٩٦
أساليب القرآن في تعظيم العهود	٤٩٨
أنواع العهد في القرآن	٥٠١
مجالات العهد في القرآن	٥٠٥
الوفاء بالعهد	٥١٣

مفهوم العهد

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (عهد) تدل على الاحتفاظ بالشيء وإحداث العهد به[1].

والعهد: الوصية، والأمان، والموثق، والذمة، ومنه قيل للحربي يدخل بالأمان: ذو عهد ومعاهد، وقد عهدت إليه، أي: أوصيته، والمعهود: الذي عُهِد وعُرِف، وعهدته بمكان كذا، أي: لقيته وعهدي به قريب[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تنوعت المعاني الاصطلاحية للعهد لتنوع العهود واختلاف أنواعها، ولذلك ذكر العلماء مجموعة من التعريفات الاصطلاحية، شرعية كانت أم عرفية، نذكر بعضًا منها[3]:

- كل ما عوهد الله عليه.
- كل ما بين العباد من المواثيق، أو جميع ما انعقد بين إنسانين.
- الأمان الذي يبذل للذمي على إعطائه الجزية والكف عنه.
- كل ما أمر الله به من طاعته في الآيات الكريمات، ونهى عن معصيته، وكل ما جاء على ألسنة الرسل.
- كل ما تلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع كالنذور وما يجري مجراها.
- حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال، هذا أصله، ثم استعمل في الموثق الذي تلزم مراعاته، وهو المراد[4].

ونلاحظ أيضًا أن هناك علاقة وثيقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، فكلاهما يدل على الآخر.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٦٧.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥١٥، مختار الصحاح، الرازي ص ٢٢٠، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٣٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٤٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٤٦، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٦٣.

(٤) التعريفات، الجرجاني ص ١٥٩.

العهد في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عهد) في القرآن الكريم (٤٦) مرة [١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٦	﴿قَالُوا يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف:١٣٤]
الفعل المضارع	١	﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [يس:٦٠]
المصدر	٢٩	﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل:٩١]

وجاء العهد في القرآن على خمسة أوجه [٢]:

أحدها: الإمامة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].يعني: الإمامة.

الثاني: المواثيق، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: ٨٠].يعني: موثقًا.

الثالث: الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥]. يعني: ولقد أمرنا آدم.

الرابع: الحلف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].أي: بالحلف إذا حلفتم.

الخامس: الوفاء بالأمانة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: ١٠٢]. أي: وفاء وأمانة.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٩٢.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٣٤١-٣٤٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الميثاق:

الميثاق لغة:

قال ابن فارس: وثق، الواو والثاء والقاف كلمة تدل على عقد وإحكام، ووثقت الشيء: أحكمته، وناقة موثقة الخلق، والميثاق: العهد المحكم[١]، وقال الفيروزآبادي: «الميثاق: عقدٌ يؤكد بيمين وعهد، وأخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف»[٢].

الميثاق اصطلاحًا:

عقد أو عهد مؤكد بيمين ضمانا للوفاء بما تم التواثق من أجله، سواء أكان بين الله وخلقه من النبيين أو البشر، أو كان الميثاق مما يعقده الناس فيما بينهم.

الصلة بين العهد والميثاق:

الميثاق توكيد العهد من قولك: أوثقت الشيء إذا أحكمت شَدَّهُ.

وقال بعضهم: العهد يكون حالًا من المتعاهدين، والميثاق يكون من أحدهما[٣].

٢ الوعد:

الوعد لغة:

قال ابن فارس: «وعد، الواو والعين والدال كلمة صحيحة تدل على ترجية بالقول، يقال: وعدته أعده وعدًا، ويكون ذلك بخير وشر، فأمَّا الوعيد فلا يكون إلا بِشَرٍّ»[٤].

الوعد اصطلاحًا:

أداء ما التزم به المرء لغيره من صلة أو معاملة أو غير ذلك مع عدم الظلم والخيانة[٥].

الصلة بين الوعد والعهد

أن العهد ما كان من الوعد مقرونًا بشرط، نحو قولك: إن فعلت كذا فعلت كذا، وما دمت على ذلك فأنا عليه، ويقال: نقض العهد أخلف الوعد[٦].

---

(١) مقاييس اللغة ٦/ ٨٥.
(٢) بصائر ذوي التمييز ٥/ ١٥٨.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص ٥٧.
(٤) مقاييس اللغة ٦/ ١٢٥.
(٥) انظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد ٥، ٢/ ٩٢٥.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص ٥٧.

٣ العقد:

العقد لغة:

قال ابن فارس: «عقد، العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها، من ذلك عقد البناء، والجمع أعقاد وعقود، وهو نقيض الحل، ويأتي بمعنى: العهد، ويأتي بمعنى الربط بين أطراف الشيء[(١)].

العقد اصطلاحًا:

وهو، اتفاق بين طرفين يلتزم بمقتضاه كل منهما تنفيذ ما اتفقا عليه، ويُجْمَعُ على: عقود[(٢)].

الصلة بين العقد والعهد:

أن العقد أبلغ من العهد، تقول: عهدت إلى فلان بكذا، أي: ألزمته إياه، وعقدت عليه وعاقدته: ألزمته باستيثاق.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٨٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٦٣.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ١٥٥.

أساليب القرآن في تعظيم العهود

نـزل القرآن بلسان عربي مبين، على أفصح العرب وأقومهم لسانًا، وكان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول صلى الله عليه وسلم حيث تحداهم الله أن يأتوا بمثله، بل أن يأتوا بسورة منه، فهذا القرآن المعجزة يقف المسلم أمامه منبهرًا بين الإعجاز وبين سلاسة الأسلوب وسهولة العبارة وقوة نفاذها إلى أعماق القلوب، لا تعقيد ولا تكلف ولا تركيب.

وفي هذا المبحث نقف على الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في تعظيم العهد.

١ . الخبر.

وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن العهد بصيغة الخبر، وهذه الآيات توضح عاقبة نقض العهد، أو جزاء الوفاء به، وسيتضح ذلك من خلال الأمثلة الآتية.

يخبر الحق تبارك وتعالى عن جزاء من أوفى بعهده، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

أي: فإن كل من أوفى بما عاهد عليه، واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه ويرضى عنه؛ لأن الله عهد إلى الناس في كتبه أن يلتزموا الصدق والوفاء بالعهود والعقود[(١)].

وكما أن التقوى ومحبة الله عز وجل جزاءٌ لمن يوفي بعهده، تأتي آية أخرى لتقابل معنى هذه الآية حيث جعل الفسق عاقبة الناقضين لعهد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

يخبر الله تعالى عن جزاء الذين يخونون العهد، ويكتمون ما أنزل الله، ويبدلون بالحق الباطل، ويستبدلون بكلام الله وأوامره عوضًا حقيرًا وثمنًا قليلًا، وهو متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء ونحو ذلك.

ذلك الجزاء هو خسارة نعيم الآخرة، واستحقاق غضب الله وسخطه، وعدم الثناء عليهم، وانعدام الإحسان إليهم والرحمة بهم، والاستهانة بأحوالهم وأوضاعهم، ولهم عذاب مؤلم شديد في نار جهنم، وقد عبر الله تعالى عن كل ذلك بطريق المجاز، فجعل نكث العهد وأخذ شيء مقابله بمثابة الشراء والمعاوضة، ولكنها صفقة خاسرة؛ لأن المقابل أو الثمن مهما كان كثيرًا فهو في الواقع قليل إذا قيس بعظم الجرم والذنب

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣/ ٢٦٨.

وشدة العقاب الذي يلقاه في الآخرة[1].

نلاحظ روعة الأسلوب القرآني في هاتين الآيتين، حيث جعل الوفاء بالعهد في الآية الأولى سببًا لمحبة الله ورضاه، وجعل خيانة العهد في الآية الثانية سببًا لخسارة نعيم الآخرة، واستحقاق غضب الله وسخطه.

٢. الأمر.

يعتبر أسلوب الأمر في القرآن الكريم بشكل عام من الأساليب التي يتسابق المؤمنون العاملون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه، فلا تَأَخُّرَ ولا تَلَكُّؤَ ولا تَرَاجُعَ، وهذا هو مقتضى الإيمان، وسأذكر هنا بعض الآيات التي توضح هذا الأسلوب:

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل: ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

نلاحظ من خلال الآيات السابقة أن الأمر يتكرر، تعظيمًا لشأن العهد، وتنبيهًا على وجوب الوفاء به، وعدم الإخلال بمقتضاه، وتحقيقًا لعبودية الله وطاعته.

٣. أسلوب الاستفهام.

ورد أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم بصيغ كثيرة، أذكر بعضًا منها:

١. بصيغة الاستفهام التوبيخي: قال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٠].

٢. بصيغة الاستفهام الإنكاري: قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]. وقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٧].

٣. بمعنى النفي: قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

نلاحظ مما سبق أن الاستفهام بأنواعه أحد الأساليب البلاغية التي عُرِضت فيها قضية العهد توبيخًا وإنكارًا ونفيًا.

٤. الترهيب والترغيب والوعد والوعيد.

من أبرز الأساليب القرآنية في عرض قضية العهد، أسلوب الترهيب والترغيب، والوعد والوعيد، بل إن أغلب الآيات التي

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ١٤٩.

وردت في هذا المجال لا تخلو من أحد هذين الأسلوبين، وسأذكر هنا بعض الأمثلة التي توضح كيف عرض القرآن الكريم هذا الأسلوب:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١١١].

هذه الآية تَمْثِيلٌ قُصِدَ به الترغيب في الجهاد، عبر فيه تعالى عن بذل المؤمنين أنفسهم وأموالهم وإثابتهم بالجنة، كرمًا وفضلًا وإحسانًا، عبر عن ذلك بالشراء والمعارضة، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له، قال الحسن البصري وقتادة: «بايعهم -والله- فأغلى ثمنهم»[(١)].

ففي هذه الآية يعرض القضية عرضًا يهز نفس المؤمن هزًا، ويشوقها إلى وعد الله وترغيبه.

وفي سورة (المؤمنون) توضيح لصفات المؤمنين، وماذا أعد الله لهم من جزاء.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

من صفاتهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[المؤمنون: ٨].

ويكون جزاؤهم: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

ففي هذه الآيات ترغيب للالتحاق بصفوف المؤمنين لنيل رضى الرحمن عَزَّ وجَلَّ.

وفي سورة البقرة قصة بني إسرائيل، وكيف نقضوا العهود، وكيف كان جزاؤهم مقابل هذا النقض.

قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[البقرة: ٨٥-٨٦].

وفي موضع آخر يتضح الوعيد المخيف لمن استبدل وباع ما عاهد الله عليه بثمن بخس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وهناك آيات جمعت بين الوعد والوعيد

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١١/ ٥٣.

فمنها قوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة: ١٢].

يبين الله تعالى في هذه الآية جزاء الوفاء بالعهود، وعاقبة الكفر والعصيان.

أنواع العهد في القرآن

من خلال استقراء الآيات القرآنية التي وردت في العهد وجدت أن الالتزام بالعهد تارة يكون مع الله تعالى، وتارة بين البشر، فمن أهم تلك العهود والمواثيق ما يلي:

أولًا: العهود مع الله:

لقد أخذ الله عز وجل عهودًا عظيمة وكثيرة على بني آدم حيث حَمَّلَهُم الأمانةَ التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، وكان أول هذه العهود الذي أخذه الله تبارك وتعالى على ابن آدم وهو في صلب آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فقد أخذ الله العهد على عباده جميعًا، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا؛ لأنه ربهم وخالقهم، قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: «والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم الذر، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وموقوفًا على غيره

من الصحابة»[1].

ومن الآيات الدالة على العهود مع الله تعالى، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

قال الطبري: «عنى بذلك: وقد أخذ منكم ربكم ميثاقكم في صلب آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه، وهو قول مجاهد»[2].

وقال القرطبي: «وقد أخذ منكم ربكم الميثاق والعهد وأنتم في ظهر أبيكم آدم عليه السلام بأن الله عز وجل ربكم لا إله لكم سواه»[3].

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضًا، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[البقرة: ٢٧].

قال الماوردي في تفسيره لهذه الآية: «إن العهد هو الذي أخذه الله على بني آدم حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم عليه السلام»[4].

ومن الآيات الدالة على ذلك، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

فنعمة الله عز وجل هي الإسلام والنصر على الأعداء، ومضافًا إليه سائر نعمه عز وجل التي لا تعد ولا تحصى، والعهد والميثاق الذي أخذه عليهم هو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، فكل من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وما وقع من مبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد قطع على نفسه عهدًا يجب أن يلتزم به ولا يحيد عنه، وعليه أن يعمل بالأحكام والشرائع التي فرضها الله تعالى عليه، وأن يعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم[5].

[انظر: الميثاق: ميثاق الله مع الخلق]

ثانيًا: العهود مع الناس:

العهود التي تقع بين الناس، هي التي تكون بين الإنسان وبين أخيه المسلم، وبين المسلمين وبين الكفار وغير ذلك من العهود المعروفة، فقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعهد، فقال عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[الإسراء: ٣٤].

يعني: أن الوفاء بالعهد مسؤول عنه الإنسان يوم القيامة، يسأل عن عهده هل وفى به أم لا؟، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٩٩.
(٢) جامع البيان ٢٣/ ١٧٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٣٨.
(٤) النكت والعيون، ١/ ٨٩.
(٥) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٣٦١.

﴿ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

يعني: ولا تخلفوا العهد.

العهود مع الناس لها صور شتى، وجميع هذه الصور نردها إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٤].

من هذه الصور:

١. سداد الدين.

الدين هو عهد بين الدائن والمدين، فلا بد من الوفاء بهذا العهد، ولقد اهتم الإسلام بالدين؛ لأن أمره عظيم، وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على قضاء الدين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها، أتلفه الله)[١].

٢. عقد النكاح.

عقد النكاح عهد، قال صلى الله عليه وسلم: (أحق الشروط أن توفوا به، ما استحللتم به الفروج)[٢].

قال الخطابي: «الشروط في النكاح مختلفة؛ فمنها ما يجب الوفاء به اتفاقًا، وهو ما أمر الله به من إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، وعليه حمل بعضهم هذا الحديث، ومنها ما لا يوفى به اتفاقًا، كسؤال طلاق أختها ومنها ما اختلف فيه، كاشتراط أن لا يتزوج عليها، أو لا يتسرى، أو لا ينقلها من منزلها إلى منزله»[٣].

فلابد للمسلم أن يؤدي ما التزم من الشروط على عقد الزواج؛ لأنه استحل بها الفرج؛ فأيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر، ليس في نفسه أن يؤديها حقها؛ فقد خدعها، ووقع تحت طائلة العقاب.

٣. حق الجار.

من العهود حقوق الجار؛ فإنها حقوق يلتزم بها الجار لجاره فطرة ودينًا وخلقًا؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

فالإسلام حريص على أن يفي كل جار لجاره بالأمان من ظلمه؛ فلا تُستباح محارمه، ولا يُنال عِرْضُه، ولا يُستحل مالُه، ولا يَناله أيُّ صنف من أصناف الأذى.

٤. الوفاء بما التزم به من بيع أو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد إتلافها، رقم ٢٣٨٧، ٣/ ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في المهر، رقم ٢٧٢١، ٣/ ١٩٠.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ٩/ ٢١٨.

إجارة.

الوفاء بما التزم به من بيع أو إجارة، وغير ذلك من المعاملات المالية ما دامت مشروعة، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

سواء كانت هذه العقود مبرمة بين المسلم والمسلم، أو المسلم وغير المسلم[١].

٥. الوفاء بالعهود بين الدول.

لقد دلت السنة النبوية على احترام العهود، فقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم على احترام الأحلاف المعقودة في الجاهلية، وقال صلى الله عليه وسلم مؤكدًا على ضرورة الوفاء بأحلاف الجاهلية: (أوفوا بحلف الجاهلية فإنه لا يزيده -يعني الإسلام- إلا شدة)[٢].

وظل تاريخ الإسلام منذ فجر عهده، وعلى مر مراحله التاريخية، صفحة بيضاء نقية، لم يدنس بخيانة، ولا غدر، ولا نقض عهد، بدون وجود ناقض من العدو[٣].

قال النووي: «واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب وكيف أمكن الخداع إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل»[٤].

[انظر: الميثاق: الميثاق بين الدول]

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية، مرسي ص ٢١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب أبواب السير، باب ما جاء في الحلف، رقم ١٥٨٥، ٤/ ١٤٦.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٠٠، رقم ٢٥٥٣.

(٣) انظر: الوفاء بالعهود والمواثيق في الشريعة الاسلامية، الحجيلي ص ٣٣٧.

(٤) انظر: شرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٥.

مجالات العهد في القرآن

يمتد العهد إلى جميع ميادين حياة الإنسان وواقعه، لإصلاح حياة الناس وبدون العهد والوفاء به تفسد حياة الناس وتضطرب، والناظر للآيات القرآنية التي جاءت بالعهود يتضح له أن العهود جاءت في مجالات عديدة، منها: العقيدة، العبادات، الأخلاق، العلاقات مع غير المسلمين، المعاملات، الجهاد في سبيل الله.

أولًا: العقيدة:

من أهم مجالات استعمال مصطلح العهد مجال العقيدة، والمتتبع للآيات التي ورد فيها لفظ العهد يلحظ هذا الجانب بوضوح، وبعد استقراء الآيات التي ورد فيها هذا المصطلح في الجانب العقدي ينحصر الحديث فيه عن الإيمان بالله وكتبه ورسله والإيمان بالشرائع المنزلة.

١. الإيمان بالله.

يعتبر الإيمان بالله تعالى الأساس الذي تتفرع عنه جميع جوانب العقيدة الأخرى، ونجد أن آيات العهد التي تتعلق بالإيمان بالله تعالى تربط بين الإيمان والعهد ربطًا قويًا، وأن السبب الرئيس في نقض العهود والمواثيق هو عدم الإيمان أو ضعفه، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقد وردت آيات كثيرة تتضمن لفظ العهد وتشتمل على وجوب الإيمان بالله عز وجل إما بشكل صريح أو ضمني، ففي أول آية في القرآن الكريم يرد فيها لفظ العهد نجد الحكم من الله تعالى على من نقض العهد بالكفر، فلا إيمان إلا بالالتزام بعهد الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧-٢٨].

فنقض العهد كفر، والالتزام به إيمان كما يتضح من هاتين الآيتين.

ومن الآيات التي تربط بين نقض العهد والكفر، قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥].

ومن الآيات التي تدعو إلى الإيمان بالله عز وجل وتُنَبِّهُ إلى ما أخذه الله على البشر من عهد، ومشنعة[1] على أولئك الذين لم

(١) الشناعة: الفظاعة، شنع، ككرم، فهو شنيع وشنع وأشنع، والتشنيع: تكثير الشناعة، والتشمير، والانكماش، والجد في السير،كالتشنع.
انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٧٣٥.

يحترموا عهودهم فلم يحققوا الإيمان في أنفسهم.

قال تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ۝١٠١ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١-١٠٢].

وكما بدأت آيات العهد في القرآن الكريم[1] في مجال الإيمان نجد ختامها أيضًا في المجال نفسه، فآخر آية ذكر فيها لفظ العهد وردت في سورة المعارج، مبينة وصف المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[المعارج: ٣٢].

٢. الإيمان بالكتب المنزلة.

الإيمان بالكتب المنزلة هو الركن الثالث من أركان الإيمان بالله عز وجل، وقد جاء مصطلح العهد في مجال الدعوة إلى الإيمان بكتب الله المنـزلة على رسله، وقد تعددت الأساليب التي ورد فيها هذا المصطلح، يتضح ذلك من خلال الأمثلة:

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[البقرة: ٤٠-٤١].

في هذه الآية يدعو الحق سبحانه وتعالى بني إسرائيل للوفاء بالعهد الذي عاهدوه عليه، ومن العهود التي أخذها الله عز وجل من بني إسرائيل: الإيمان بالتوراة، وفي التوراة وجوب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والكتاب المنـزل عليه، هذا هو مقتضى العهد الذي بينهم وبين الله جل وعلا، وإيمان بالمُنَزَّل، وعدم كفر وابتعاد عن الرشوة بالتوراة، وتحقيق ذلك تحقيق للتقوى ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[2].

٣. الإيمان بالرسل والأنبياء.

جاء مصطلح العهد في مجال وجوب الإيمان بأنبياء الله ورسله، وذلك في عدة آيات في كتاب الله، فالعهد الذي أخذ على بني إسرائيل وذكر في القرآن مرات عديدة كان يتضمن وجوب الإيمان برسل الله سبحانه، وبالأخص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠-١٠١].

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو

(١) من حيث ترتيب المصحف وليس حسب النزول.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٩٤.

المصدق لما معهم، والذي معهم هو التوراة، وفي التوراة وجوب الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وقد أعطوا العهد وأُخِذَ عليهم الميثاق بالإيمان بها وما فيها.

قال الزمخشري: «واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكم عاهدوا رسول الله فلم يفوا الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرةٍ وهم لا يتقون»[(١)].

وحين جاء اليهودَ وأحبارهم رسولٌ من عند الله، وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة، طرح فريق كبير منهم تعاليم التوراة التي تشهد بصدقه وراء ظهورهم، حتى لكأنهم يجهلون أنها من عند الله، واتبعوا ما قصته واختلقته الشياطين من السحر والأوهام والمفتريات على عهد سليمان عليه السلام ومن هذه المفتريات والأكاذيب زعمهم أن سليمان عليه السلام كان ساحرًا، وما تم له ملكه العريض، ولا ظهرت على يديه المعجزات الباهرة من تسخير الجن والريح إلا بهذا[(٢)].

وفي الآية التالية يرد الله تعالى على من ادعى أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول، حتى يكون من معجزاته أن تنزل نار من السماء تأكلها النار.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾[آل عمران: ١٨٣-١٨٤].

رد الله تعالى على الذين استخدموا عهد الله ذريعة للتكذيب بالرسل فكشف الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم أن هذا ديدنهم وسنة فيمن كان قبلهم، يرثها المتأخر عن المتقدم ويورثها السابق للاحق، فلقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا يتم الإيمان به إلا أن يصاحب ذلك دعوة الناس إلى الإيمان به وبيان أنه على الحق، مستدلين على ذلك بما معهم من التوراة والإنجيل، مما لم يكن عند غيرهم من الأمم الوثنية التي كانت تنظر إلى اليهود والنصارى نظرة تقدير واحترام لدينهم الذي يتميزون به عن غيرهم[(٣)].

ثانيًا: العبادات:

لقد أمر الله تعالى عباده في كثير من

(١) الكشاف ١/ ٢٢٧.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٢٣٨.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ١٨٧.

الآيات القرآنية بالعبادة والالتزام بها، منها ما هو مجمل كقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومنها مفصلًا كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

ولقد جاءت الآيات القرآنية الخاصة بالعهود في جانب العبادات لتؤكد على العلاقة القوية بين العهود والعبادات التي شرعها الله تعالى، ومن أوسع المجالات التي استعمل فيها لفظ العهد، مجال الأمر بالعبادة في فروعها المتنوعة.

بعد أن يأمر الحق عز وجل عباده بالإيمان بما أنـزل وينهاهم عن كتمان الحق، وكل ذلك من العهد الذي أخذه عليهم.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

يأمرهم بالعبادة بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وذلك من الوفاء بالعهد الذي طالبهم به، وخوفهم عاقبة التفريط فيه.

وفي موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١-١١٢].

يأتي وصف المؤمنين الذين يفون ببيعهم -وهو عهد مع الله- يشتمل على عدة أنواع من العبادة تؤهل صاحبها لنيل رضاء الله والحصول على الجنة، وفاءً بعهد الله ووعده[1].

وفي موضع آخر والآيات تعدد صفات المؤمنين نلاحظ أنه جاء بعد آية العهد مباشرة أن من صفاتهم المحافظة على الصلاة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٨-٩].

وكأن هذه إشارة إلى أن الصلاة من العهد فهم يراعونها بالمحافظة عليها، ومثل ذلك جاءت آية العهد في سورة المعارج حيث تلتها - بعد آية - آية المحافظة على الصلاة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٢-٣٤].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٨٩.

ثالثًا: الأخلاق:

جاء العهد في القرآن الكريم في مجال الالتزام بالأخلاق النبيلة والسلوك الحسن، فكل الآيات التي جاءت مبينة نقض العهد من قِبَلِ مَنْ أُخِذَ منهم، تدل على اتصاف أولئك بأسوأ الأخلاق وأقبحها.

قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٦].

وفي المقابل يصف القرآن الذين يوفون بالعهد بأحسن الصفات ومكارم الأخلاق.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۚ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۝ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤].

رابعًا: العلاقات مع غير المسلمين:

جاء الإسلام ليقوي العلاقة بين الأفراد والجماعات والأمم والدول بعضها مع بعض، ويحدد إطارها وسياستها، وبهذا توثقت بالعهود والمواثيق، لتكون عاملًا من عوامل النصر وانتشار الإسلام في كل الدول المعروفة وشرع الإسلام للحاكم المسلم أن يعقد العهود والمواثيق والاتفاقيات في السلم والحرب مع الدول الأخرى بما يحقق مصالح الدولة الإسلامية، ويضمن لها استقرارها ونفوذها وسلامتها وقد أوجب الله تعالى الوفاء بتلك العهود والمواثيق وإتمامها وعدم نقضها، واعتبر نقضها خيانةً وغدرًا وخداعًا[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأحزاب: ٥٥-٥٧].

(١) انظر: العهد والميثاق في القرآن، ناصر العمر ص ١٨٦.

توضح هذه الآيات أنه إذا حصل عهد بين دولة الإسلام وأي دولة أخرى وقامت الدول الأخرى بنقض هذا العهد، فهم عندئذ أضل من الدواب وجزاؤهم شديد وعقابهم أليم، ليكونوا عبرة لغيرهم ونكالًا للآخرين.

وفي المقابل إن بلغ الدولةَ المسلمةَ أن قومًا ممن عاهدوا يريدون الخيانة ويخططون لها، فلا يجوز للمسلمين أن ينقضوا العهد فجأة وبدون سابق إنذار، ما لم يكن هناك من البراهين الظاهرة على مباشرتهم لنقض عهودهم، وإنما لا بد من نبذ العهد وإعلامهم بفسحة قبل حربهم ومناجزتهم احترامًا للعهود.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

قال ابن عاشور في هذه الآية: «وإنما رتب نبذ العهد على خوف الخيانة دون وقوعها؛ لأن شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ومخائل الأحوال، ولا ينتظر تحقق وقوع الأمر المظنون لأنه إذا تريث ولاة الأمور في ذلك يكونون قد عرَّضوا الأمة للخطر، أو للتورط في غفلة وضياع مصلحة، ولا تدار سياسة الأمة بما يدار به القضاء في الحقوق؛ لأن الحقوق إذا فاتت كانت بليتها على واحد، وأمكن تدارك فائتها، ومصالح الأمة إذا فاتت تمكن منها عدوها، فلذلك علق نبذ العهد بتوقع خيانة المعاهدين من الأعداء[1].

ومما يدلل على أن الدولة المسلمة تحترم العهد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

والمعنى: وإن طلب منكم هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا النصرة على أعدائكم في الدين، فيجب عليكم أن تنصروهم، لأنهم إخوانكم في العقيدة، بشرط ألا يكون بينكم وبين هؤلاء الأعداء عهد ومهادنة، فإنكم في هذه الحالة يحظر عليكم نصرة هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا؛ لأن في نصرتهم- على من بينكم وبينهم عهد- نقضا لهذا العهد، فالوفاء بالعهد أولى وأداء حق الميثاق أحرى وأجدى[2].

خامسًا: المعاملات:

لقد جاء العهد في القرآن الكريم في إطار تنظيم التعامل بين الناس لتحل الثقة والأمانة مكان والخوف والخيانة، ولكي يتضح هذا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٥٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٦/ ١٦٨.

الكلام نورد بعض الأمثلة:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ٧٦].

فقد جاءت هذه الآية بعد أن ذكر لنا سبحانه واقع أهل الكتاب من حيث التعامل معهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

وهذا دليل قوي على أن التعامل والتقايض نوع من العهود يجب الوفاء به، وأي خلل في ذلك فهو خيانة ونقض للعهود، وهذا ما أكد عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

ومن المعاملات التي عمل القرآن الكريم على تنظيمها بين الناس، ولها ارتباط وثيق بالعهد ما يلي:

١. الزواج والطلاق.

الزواج والطلاق نمط من أنماط التعامل البشري يحتاج إلى ضمانة قوية تضفي على طرفي العقد الود والوئام بعيدًا عن أي محاولة للمكر والخداع، ونلمس قوة هذا العقد وأهميته في ميزان الإسلام من خلال هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۞ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠ - ٢١].

ففي هاتين الآيتين يتضح اهتمام القرآن في تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة عند الزواج وعند الطلاق.

٢. الكيل والميزان.

يجمع الله عز وجل بين الإيفاء بالكيل والميزان وبين الوفاء بالعهد مما يؤكد على العلاقة القوية بين العهود والوفاء بالكيل والميزان.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]

٣. الأمر بالعدل والنهي عن البغي.

بعدما ذكر الحق تبارك وتعالى العدل أعقبه بالأمر بالوفاء بالعهد، والتعامل بين الناس إن لم يصاحبه العدل كان بغيًا وعدوانًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ

عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[النحل: ٩٠-٩١].

٤. الأمانة.

تعتبر الأمانة من أهم أشكال التعامل وأخطرها، ومن هنا نجد العناية بها، فنلاحظ الجمع بينها وبين رعاية العهد في موضعين من القرآن، مع أن الآيات السابقة لهذه الآية في الموضعين واللاحقة كذلك، كل آية منها استقلت في موضوع واحد، بينما جُمِعَا في آية واحدة، وهذا لم يأت عبثًا، وحاشا لله عن ذلك، وإنما للرابط القوي بين معناهما فالأمانة عهد والعهد أمانة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨][1].

سادسًا: الجهاد في سبيل الله:

وَرَدَ العهد في مجال الحث على الجهاد في سبيل الله، وبيانًا لعظم شأنه وعلو مقامه، وأن التخلف يوم الزحف نقض لعهد الله وانتهاك لحرماته.

فقد جاء قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾[التوبة: ١١١].

والتعبير هنا بالاشتراء كناية لجامع ما بينهما من الإيجاب والقبول، يؤكده التصريح بالعهد من الله جل وعلا[2].

وفي موضع آخر ينعى الله على المنافقين سوء فعلتهم يوم الأحزاب وفرارهم عن الجهاد في سبيل الله، مع أنهم قد أعطوا عهودهم ومواثيقهم ألا يفروا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

ولكنهم خانوا وغدروا وبئس ما فعلوه.

وفي المقابل يمدح الله تعالى المؤمنين لصدقهم ولوفائهم بعهودهم وثباتهم في ساحة الجهاد، وكانت أرواحهم ثمنًا للوفاء بعهودهم.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: ٢٣].

فهاتان صورتان متقابلتان: صورة المؤمنين بوفائهم وصدقهم مع الله، وصورة المنافقين بغدرهم وخيانتهم وسوء فعلتهم وهكذا يبدو شأن الجهاد في سبيل

(١) انظر: العهد والميثاق في القرآن، ناصر العمر ص ١٠٨.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٢١.

الله عظيمًا، كيف لا وقد أخذ العهد على المؤمنين بأدائه والقيام به إلى يوم القيامة! وإن تخلوا عن ذلك ضرب الله عليهم الذلة في الدنيا وعاقبهم في الآخرة.

الوفاء بالعهد

الوفاء فضيلة من فضائل الإسلام العظيمة، والتي حث عليها الإسلام وجعلها دليلًا على الصدق والشجاعة والصبر، ولا يتصف بها إلا عظيم، ولقد جعل الله لكل عهد جزاءً ولكل فعل أثرًا، والخوف والرجاء من صفات النفس البشرية، فهناك نفس تنقاد مع الوعد وأخرى تخشى الوعيد، والمؤمن يعيش دائمًا بين الرجاء والخوف.

أولًا: حكم الوفاء بالعهد.

نقض العهد كبيرة من كبائر الذنوب: وقد أمر الله المؤمنين بالوفاء بالعهود، وحرم عليهم نقضها فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[الإسراء: ٣٤].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وتوجد الكثير من الأدلة في الكتاب والسنة التي تأمر بوجوب الوفاء بالعهد وتحرم نقضه، قال ابن عطية: «وكل عهد جائز بين المسلمين فنقضه لا يحل»[(١)].

وقد عد بعض العلماء نقض العهود من الكبائر، ومنهم الذهبي، فقد عدها كبيرة من الكبائر حيث قال: «الكبيرة الخامسة والأربعون: الغدر وعدم الوفاء بالعهد»[(٢)].

(١) المحرر الوجيز، ١/ ١١٣.
(٢) الكبائر، ١/ ١٦٨.

وفيما يلي بعض الأدلة من الكتاب والسنة التي توضح حكم الوفاء بالعهد.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

من خلال الآيات السابقة يتضح حكم العهود، فالآيات صريحة الدلالة على وجوب الوفاء وحرمة الغدر والخيانة، وجميع الآيات التي ورد فيها لفظ العهد تدل على ذلك المنطوق أو بالمفهوم.

وردت أحاديث كثيرة في وجوب الوفاء بالعهد وإثم من نقض ميثاقه أو غدر بما عاهد عليه، نذكر بعضًا منها:

روى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها)**[(١)].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من أخفر[(٢)] مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل)**[(٣)].

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء)**[(٤)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الغادر ينصب الله له لواء يوم القيامة، فيقال: ألا هذه غدرة فلان)**[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٤، ١/ ١٦.

(٢) أخفر: بمعنى نقض عهده.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٠٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم ٣١٧٩، ٤/ ١٠٢.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه: أبواب السير، باب ما جاء في الغدر، رقم ١٥٨٠، ٤/ ١٤٣.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد،

ووجوب الوفاء بالعهد أمر واضح لا يحتاج إلى مزيد بيان، ونقضها محرم بصريح الكتاب والسنة.

[انظر الميثاق: حكم الوفاء بالميثاق]

ثانيًا: آثار الوفاء بالعهد:

باستقراء الآيات التي تحدثت عن العهد، نلاحظ الآثار التي رتبها الله عز وجل على الالتزام بالعهد، فمن هذه الآثار:

١. التقوى.

من الثمرات التي تعود على الفرد من خُلُقِ الوفاء ومن الالتزام به التقوى، حيث إن الوفاء يورث في القلب التقوى.

وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه الثمرة العظيمة، حيث ذكر الله عز وجل عدة صفات كريمة شريفة يختمها بذكر عاقبة المتصفين بتلك الصفات، ونجد أن الوفاء بالعهد بعد الوعد من صفات المتقين الصادقين.

قال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

٢. الإيمان.

الوفاء بالعهد هو الذي يحقق الإيمان، والموفون بعهدهم هم المؤمنون، ففي في سورة «المؤمنون» عندما سردت السورة صفات المؤمنين جاء قول الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

فرعاية العهد والأمانة من صفات المؤمنين الصادقين، والتخلي عن تلك الصفة إخلال بهذا الوصف وقدح بالموصوف، ورعاية العهد هنا تشمل العهد العام والخاص، فكل ما صدق عليه لفظ العهد فرعايته من الإيمان.

وفي موضع آخر يأتي الخطاب بأسلوب الاستفهام الذي يوقظ الحس ويثير المشاعر، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

في هذه الآية يتردد لفظ الإيمان ثلاث مرات بصيغ مختلفة في آيه واحدة « لا تؤمنون لتؤمنوا مؤمنين، وهذا يؤكد أن المؤمنين من أهم صفاتهم الوفاء بالعهود والمواثيق.

٣. محبة الله.

أعلن الله تعالى في كتابه العزيز محبته للمتقين الموفين لعهودهم.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ

باب تحريم الغدر، رقم ١٠، ٣/ ١٣٦٠.

﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

قال أبو السعود: «الآيات السابقة تشعر بأن التقوى ملاك الأمر، عام للوفاء بالعهود والمواثيق وغيره، وجالبة لمحبة الله تعالى»[(١)].

قال الزمخشري: «من وفى بعهده مع الله واتقى ربه ينال محبة الله تعالى»[(٢)].

وبهذا تكون محبة الله ثمرة من ثمار الوفاء بالعهد وأثرًا من آثار الالتزام به، ونعم الثمرة لتلك الشجرة، وطوبى لعبد ظفر بمحبة الله ورضوانه، لقد جمعت له السعادة من طرفيها، وفاز فوزًا لا يشقى بعده أبدًا.

٤. تكفير السيئات و سبب لدخول الجنة.

الوفاء بالعهود يكفر الله به السيئات والذنوب، ويوجب دخول الجنة ونعيمها الدائم، وهذا ما يؤكده قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال الطبري: «وعهده إياهم أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة»[(٣)].

وفي سورة المائدة ذكر الله سبحانه أنه أخذ الميثاق والعهد من بني إسرائيل، ثم بين الجزاء على الوفاء به.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۖ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢].

وفي موضع آخر لما ذكر الله صفات أولي الألباب، بين عاقبتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٤].

ويبين الله تعالى في مواضع أخرى بأن هذا النعيم الذي يلاقيه الأوفياء نعيم دائم مخلدون فيه فبعد أن ذكر الله صفات المؤمنين في سورة «المؤمنون» ومنها أنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ ذكر مآلهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

[انظر: الميثاق: آثار الوفاء بالميثاق]

ثالثًا: آثار نقض العهد:

إذا كان للوفاء بالعهد آثارٌ إيجابية تودي بصاحبها للفوز، فإن نقض العهد يترك آثارًا سلبية تودي بصاحبها إلى الخسران، وإذا كانت الآثار الإيجابية حافزة وداعية المسلم

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ٥١.
(٢) الكشاف ١/ ٣٧٥.
(٣) جامع البيان ١/ ٥٥٧.

للالتزام والوفاء، فإن الآثار السلبية أشد إنذارًا وتحذيرًا وتخويفًا، وهذه الآثار منها ما يكون في الدنيا، وأعظمها ما سيكون في الآخرة، من هذة الآثار:

١. الكفر والفسوق.

قرن الله عز وجل بين الكفر ونقض العهد في كثير من الآيات القرآنية، ولا شك بأن الذي ينقض عهده مع الله فقد كفر، لا سيما وأن الله قد أخذ الميثاق على جميع البشر وهم في عالم الذر، ومن هنا جاء نفي الإيمان عن الناقضين لعهودهم، زجرًا وتهديدًا لهم.

ففي الآية التالية ينفي الله تعالى الإيمان عن الناقضين لعهودهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «ولذلك وجهان من التأويل: أحدهما: أن يكون الكلام دلالة على الزيادة والتكثير في عدد المكذبين الناقضين عهد الله، على عدد الفريق، فيكون الكلام حينئذ معناه: أوكلما عاهدت اليهود من بني إسرائيل رَبَّها عهدًا نقض فريق منهم ذلك العهد؟ لا ما ينقض ذلك فريق منهم، ولكن الذي ينقض ذلك فيكفر بالله أكثرهم، لا القليل منهم، فهذا أحد وجهيه»[(١)].

وبنفس المعنى في الآية السابقة في سورة النساء، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٥٥].

هذا الإيمان القليل هو تصديقهم ببعض الأنبياء والكتب وهو إيمان قليل؛ لأنه تصديق غير متمكن، ولأنه لو كان تصديقًا حقيقيًّا لدعاهم إلى الإيمان بالجميع؛ لأن الأنبياء يصدق بعضهم بعضًا، والكتب تدعو إلى ذلك، ولذلك فهو إيمان كلا إيمان[(٢)].

ويأتي الفسوق بمعنى الكفر كما في قوله تعالى: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والآيات التي جاءت مبينة فسق من نقض العهد وردت بمعنى الكفر، وذلك تأكيد لما سبق من بيان كفر من تخلى عن العهد، ففي أول آية جاء فيها لفظ العهد والميثاق، حكم الله على الناقضين بالفسق فقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

وعندما ذكر الله ما أخذه على النبيين من عهد وميثاق، حيث طلب من الأمم الإقرار والتصديق، فلما تولوا نعتهم بالفسق.

قال تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢].

(١) جامع البيان ٢/ ٤٠٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ٩/ ٣٦٣

وبهذا تؤكد لنا هذه الآيات شناعة فعل الناقضين لعهودهم، وسوء جريرتهم، لخروجهم عن أمر الله وميثاقه.

٢. الخسران.

من الآثار المترتبة على نقض العهد الخسران في الدنيا والآخرة، ويتضح ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

وفي موضع آخر من نفس السورة يؤكد الله لنا أن عاقبة ناقضي العهود والمواثيق الخسران.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤].

فإذا كانت خسارة الدنيا يفر منها الإنسان، وتترك آثارها على حياته ومستقبله، فكيف بخسران الدنيا والآخرة؟

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قال ابن حجر: «كان عاقبة نقض قريش العهد مع خزاعة حلفاء النبي -صلى الله عليه وسلم- أن غزاهم المسلمون، حتى فتحوا مكة، واضطروا إلى طلب الأمان، وصاروا بعد العزة والقوة في غاية الوهن، إلى أن دخلوا في الإسلام، وأكثرهم لذلك كاره»[(١)]

٣. القتل والتشريد.

من الآثار المترتبة على نقض العهد في الدنيا القتل والتشريد، ولقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم إن لقي هؤلاء الخائنين ناقضي العهود وتمكن منهم، أن يعاقبهم عقوبة قاسية تتعدى آثارها هؤلاء المجرمين إلى ما يقف خلفهم ويتربص بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الدوائر، يكون من آثارها تشريد أولئك المتربصين وتفريق كلمتهم وتشتيت شملهم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال: ٥٦-٥٧].

وهذا ما فعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما ظفر ببني قريظة، تنفيذًا لأمر الله من فوق سبع سماوات[(٢)].

٤. اللعن وقسوة القلوب.

من الآثار الناتجة عن نقض العهود اللعن وقسوة القلب؛ فعندما نقض بنو إسرائيل

(١) فتح الباري، ٦/ ٢٨٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١.

عهودهم كانت العاقبة شديدة والأثر أليم، فقد لعنهم الله وجعل قلوبهم قاسية، وتبعًا لذلك ضلوا وانحرفوا عن سواء السبيل.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وفي موضع آخر يبين الله أن اللعن جزاء لناقضي العهود قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة والتي منها نقض العهود والمواثيق، لهم من الله تعالى اللعنة والطرد من رحمته، ولهم فوق ذلك، الدار السيئة وهي جهنم[(١)].

هذه الآيات بيان من الله للمصير الذي ينتظر الناكثين لعهودهم الناقضين لمواثيقهم، وهو إنذار وتحذير للمؤمنين بل وللناس أجمعين.

٥. الموقف المخزي يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧].

تجسد هذه الآية ما يلحق بالذين يشرون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا بخسًا زهيدًا كيف يكون حالهم يوم القيامة، فلا يكون لهم خلاق ولا حجة ولا نصيب ولا قوام[(٢)]، وأشد من ذلك أن الله لا يكلمهم كلامًا يسرهم، ولا ينظر إليهم نظر رحمة وعطف، بل ولا يزكيهم ويطهرهم من ذنوبهم وسيئاتهم في موقف ينتظر كل إنسان رحمة الله وعفوه ومغفرته، ونهايتهم في العذاب الأليم[(٣)].

٦. الجناية على النفس.

نقض العهود تعود جنايتها على النفس.

قال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠].

فالناقض لعهده يجني على نفسه ويوبقها، وهذه الآثار هو سببها، وهو حطبها ووقودها.

[انظر: الميثاق: نقض الميثاق سبب للإفساد في الأرض والعقاب في الآخرة]

موضوعات ذات صلة:

البيعة، الثبات، الرجولة، الميثاق

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٧/ ٤٧٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٧٢٥.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٥٩.

عيسى عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بعيسى عليه السلام	٨
صفات عيسى عليه السلام	١٠
ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم	١٣
التعريف بمريم عليها السلام	١٤
حمل مريم بعيسى عليهما السلام	١٨
حوارات عيسى عليه السلام	٢٢
معجزات عيسى عليه السلام	٢٧
رفع عيسى عليه السلام ونزوله	٣١

المجلد الخامس والعشرون

التعريف بعيسى عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

ذكر الله تعالى اسمه ونسبه في كتابه العزيز، فسماه المسيح عيسى، ونسبه إلى أمه مريم، ولم يزد على ذلك: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

فهو إذًا: المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله.

وعيسى: اسم علم، وهو اسم أعجمي غير منصرف، وهو عبراني أو سرياني[(١)].

ثانيًا: لقبه:

تسميته بالمسيح: التسمية بـ (المسيح) في حق عيسى عليه السلام على سبيل المدح، قالوا: وهو لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق.

أما سبب تسميته بالمسيح:

قيل: أصله مشيحا بالعبرانية، ومعناه: المبارك.

وقيل: سمي عيسى عليه السلام مسيحًا؛ لأنه ما كان يمسح بيده ذا عاهة إلا برىء من مرضه.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه كان يمسح الأرض، أي: يقطعها.

وقيل: كان مسيحًا؛ لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى.

وقيل: لأنه مسح من الأوزار والآثام.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه لم يكن في قدمه خمص[(٢)]، فكان ممسوح القدمين.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه كان ممسوحًا بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء ولا يمسح به غيرهم، ثم قالوا وهذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبيًا.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٥٣، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٤٠، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ١٥٢، تاج العروس ١٦/ ٢٩٧، الكليات، الكفوي ١/ ٦٦٢.

(٢) الأخمص باطن القدم وما رق من أسفلها وتجافى عن الأرض وقيل الأخمص خصر القدم، والأخمص ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض، فالأخمص من القدم الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء.
انظر: النهاية، ابن الأثير ٢/ ٨٠، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٠.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه مسحه جبريل عليه السلام بجناحه وقت ولادته؛ ليكون ذلك صونًا له عن مس الشيطان[1].

ولما كانت العادة أن ينسب الأولاد إلى آبائهم، نسب عيسى عليه السلام إلى أمه ليكون ذلك دليلًا على براءتها، وأنه لا أب له في الحقيقة.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٩٠، تفسير السمعاني ١/ ٣١٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٤، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٨٠.

صفات عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام نبي الله ورسوله، فهو إذًا متصف بكل الصفات التي تؤهله لهذه المكانة العالية والمقام الرفيع.

أولًا: صفاته الخُلُقية:

- **أنه معاذٌ من الشيطان الرجيم:** ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ آل عمران: ٣٦، وقد مر بنا قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦][1].
- **الوجاهة:** ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥]. والوجيه: ذو الوجاهة، وهي: القوة والمنعة، ووجاهته في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة[2].
- **القرب من الله تعالى:** ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].
- **أنه من الصالحين:** ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦].
- **كلمة الله وروح منه:** ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. قال الشيخ المراغي رحمه الله: «وقد خص المسيح لإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شيء قد خلق بكلمة التكوين؛ لأنه لما فقد في تكوينه وعلوق أمه به ما جعله الله سببًا للعلوق في العادة، وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البويضات التي يتكون منها الجنين أضيف إلى الله، وأطلقت الكلمة على هذا المكون إيذانا بذلك، بخلاف الأشياء الأخرى، فإنها تنسب في العرف إلى الأسباب العادية»[3].
- **حكيمٌ:** ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)، رقم ٤٥٤٦، ٦/ ٣٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٩١.
(٣) تفسير المراغي ٣/ ١٥٠.

وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ [الزخرف: ٦٣].

- **عنده علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل:** ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]. ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٣].
- **موحد مخلص لله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٢]. ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].
- **مجاب الدعوة:** ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٤-١١٥].
- **اللين والرحمة: يدل عليه قوله:** ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].
- **مبارك:** ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣١].
- **بار بوالدته:** ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٢].

ثانيًا: صفاته الخَلْقية:

كان عيسى عليه السلام مربوع القامة، ليس بالطويل ولا بالقصير[(١)]، أحمر اللون، آدم، جعد، سبط الرأس.

فعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ورأيت عيسى رجلًا مربوعًا، مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس)[(٢)].

(١) انظر: أشراط الساعة ص١٥١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، ٤/ ١١٦، رقم ٣٢٣٩.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت عيسى وموسى وإبراهيم، فأما عيسى فأحمر، جعد، عريض الصدر)[1].

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وأراني الليلة عند الكعبة في المنام، فإذا رجل آدم، كأحسن ما يرى من أدم الرجال، تضرب لمته بين منكبيه، رجل الشعر، يقطر رأسه ماء، واضعًا يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا ؟ فقالوا: هذا المسيح ابن مريم)[2].

أما قوله: (أحمر)، و(آدم) على الروايتين: الأحمر عند العرب: الشديد البياض مع الحمرة، والآدم: الأسمر، ويمكن الجمع بين الوصفين بأنه أحمر لونه بسبب كالتعب وهو في الأصل أسمر[3].

وقوله: (جعد)، (سبط الرأس): فصفة الجعودة هنا في الجسم لا في الشعر؛ لأنه وصف الشعر بالسبط، والسبط من الشعر المنبسط المسترسل، وهو ضد الجعد[4]، وأما الجعد في الجسم فهو المجتمع الشديد[5].

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين عروة بن مسعود رضي الله عنه، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (عرض علي الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبهًا عروة بن مسعود)[6].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٦، رقم ٣٤٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٦، رقم ٣٤٤٠.
(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٨٦.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣٣٤.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١/ ٢٧٥، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٢٢.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، ١/ ١٥١، رقم ١٦٥.

ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم (٢٥) مرة، في (١١) سورة.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
آل عمران	٤٥-٦٢
النساء	١٥٧-١٥٩، ١٧١-١٧٣
المائدة	٤٦، ١١٠-١١٨
مريم	٢٢-٣٤
الزخرف	٦٣-٦٥
الصف	٦، ١٤

التعريف بمريم عليها السلام

أولًا: اسمها ونسبها:

ورد في القرآن انتساب مريم والدة عيسى إلى عمران عليهم السلام: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ [التحريم: ١٢].

أبوها: هو عمران الرجل العابد الطاهر وهو من رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم[(١)]، يصل نسبه إلى النبي الكريم داود عليه السلام.

وأمها: هي حنة العابدة الطاهرة التي كرمها الله فأجاب دعوتها ورزقها بمريم.

وزوج أختها أو زوج خالتها «أشياع» هو زكريا النبي الكريم عليهم السلام جميعًا.

فلا ريب حينئذ أن يكون هذا البيت المبارك بيت آل عمران من البيوت القليلة المباركة التي حظيت بتشريف الله تعالى لها بقوله: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤].

ثانيًا: الحمل بمريم عليها السلام:

أشار الله تعالى لقصة حمل أم مريم بها ووضعها في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٦].

ثالثًا: الوضع والوفاء بالنذر:

لما حملت أم مريم عليهما السلام حررت ما في بطنها، وكانت لم تعلم بعد ما هو ذكر أم أنثى، والمحرر عندهم لا يعمل للدنيا ولا يتزوج ويتفرغ لعمل الآخرة ويعبد الله، فيجعل للمعبد يقوم بخدمته ولا يخرج منه[(٢)]، ولم يكن يحرر إلا الغلمان.

ثم مات عمران وحنة حامل بمريم، فلما وضعت إذ هي أنثى، فقالت عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي

(١) انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٢٨.

(٢) وقيل: لا يبرح منه حتى يبلغ الحلم، فإذا بلغ خير، فإن أحب أن يقيم فيه أقام، وإن أحب أن يذهب ذهب حيث شاء.
انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٢٨.

﴿وَضَعَتْهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦].

و(مريم) معناه: العابدة[1].

وقد استجاب الله دعاء أم مريم هذا كما أجابها حين اشتهت الحمل، فأعاذها مريم وابنها من الشيطان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦][2].

رابعًا: مكانة مريم عليها السلام وفضلها:

لمريم عليها السلام مكانة كبيرة تمتاز بها عن سائر نساء العالمين، فقد وضع الله مريم بين أهل الصلاح والنقاء، فترعرعت ونشأت في جو إيماني طاهر عفيف، وقد بين الله تعالى فضلها ومكانتها في مواطن من كتابه، كما جاء ذلك على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن دلائله:

- قبول الله تعالى لها، وإنباتها نباتًا حسنًا. قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧].
- إعاذتها وذريتها من الشيطان الرجيم. قال تعالى: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦].
- كفالة نبي الله زكريا عليه السلام لها بعد أن تنازع الأحبار العباد في حق رعايتها والقيام بشؤونها. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]، فقد وضعتها أمها عند المسجد، فتنازعوا فيها، كل يريد أن يكفلها، فهي بنت (عمران) إمام من كبار أئمتهم، فقال زكريا عليه السلام: أنا أحق بها، وأراد أن يؤثرها لنفسه دونهم من أجل أن زوجته أخت أمها أو خالتها على القولين، فشاحوه في ذلك، وطلبوا أن يقترع معهم، فوقع الاقتراع على زكريا عليه

(١) انظر: تاريخ ابن الوردي ١/ ٣٠، المختصر في أخبار البشر، عماد الدين أبو الفداء ١/ ١٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)، رقم ٤٥٤٦، ٦/ ٣٤.
وانظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٢٨، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٥٧.

السلام، فأخذها وكفلها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]. وضمها إلى زوجه أم يحيى، واسترضع لها حتى كبرت[(١)].

- عناية الله بها: فقد كان زكريا يدخل على مريم عليهما السلام فيجد عندها رزقًا لم يأتها به، فيسألها من أين لك هذا؟! فتقول: هو من عند الله، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧]. وقد عد عدد من العلماء ذلك من باب الكرامات وخوارق العادات[(٢)].

- اصطفاؤها وتطهيرها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢].

- إعانتها على طاعة الله، وإحصانها، وتشريفها بذلك: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

- حملها بعيسى عليه السلام وهو النبي الكريم المتصف بمعالي الصفات. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

- انتساب ولدها إليها: فمريم هي الأنثى الوحيدة في الوجود كله التي اختصها الله من بين النساء، فنسب إليها ولدها وذلك في مواطن كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

- جعلها وابنها عليهما السلام آية من آيات الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١]. ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

---

(١) وذهب بعض العلماء إلى كونها لم ترضع ثديا قط.
انظر: تفسير السمعاني ١/ ٣١٤، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٨٦، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٦١.

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٨٠٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٢٦.

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[1].
- وعن علي رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (خير نسائها مريم ابنة عمران وخير نسائها خديجة)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه)، رقم ٣٤٣٣، ٤/ ١٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم ٢٤٣١، ١٨٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك)، ٤/ ١٦٤، رقم ٣٤٣٢.

حمل مريم بعيسى عليهما السلام

كان حمل مريم عليها السلام معجزة لم يكتب لها التكرار، فقد أراد الله تعالى لمريم البتول الطاهرة أن تحمل بابنها عيسى عليه السلام، هذا الحمل الذي هو معجزة كبرى وآية عظمى على قدرته جل جلاله، وهو بيان لمكانة هذه الطاهرة القانتة.

بين الله تعالى هذه القصة الغريبة، والمعجزة الباهرة في كتابه تعالى فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

وقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ١٦-٢٢].

إذًا فمريم قد حملت، وكان حملها بغير زواج وهي التقية النقية، بل كان من غير أن يمسها بشر أيًا كان، فقد أرسل الله تعالى إليها ملائكة تبشرها بهذه البشارة: الحمل بولد هو كلمة الله تعالى، واسمه: عيسى ابن مريم، وهذا الولد له الكثير من الميزات والخصائص التي انفرد بها عمن سواه، فكانت ردة فعلها وهي الطاهرة النقية البتول العذراء أن تساءلت كيف لها أن تحمل ولم يمسسها بشر، فأخبرت بأن هذه هي إرادة الله تعالى، وأن هذا الأمر هين على الله تعالى، وهو أمر قد قضاه وتكفل به، فما كان للطائعة القانتة إلا الاستسلام.

والملك المرسل إلى مريم هو جبريل -عند أكثر المفسرين- وقد تمثل لها على هيئة بشر سوي، فخافت مريم واستعاذت بالله منه ظانة به ظن سوء، لكنه أخبرها بأنه رسول من الله، كلف ببشارتها بأن الله سيهب لها غلامًا ذكر اسمه وصفته، فوصفه بأجمل الصفات وأثنى عليه عظيم الثناء[1].

أما عن كيفية الحمل فقد نفخ فيها نفخة فحملت بإذن الله، قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٨٧-٣٩١.

[الأنبياء: ٩١].

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

قال الرازي رحمه الله: ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

أي: في عيسى عليه السلام، كما قال لآدم عليه السلام: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

وقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] لأن عيسى عليه السلام كان في بطنها.

واختلفوا في النافخ فقال بعضهم: كان النفخ من الله تعالى لقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وظاهره يفيد أن النافخ هو الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل، وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] فكذا هاهنا.

وقال آخرون: النافخ هو جبريل عليه السلام؛ لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٩] أنه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام، فلا بد من إحالة النفخ إليه[1].

واختلفوا في كيفية النفخ، هل نفخ الله في درعها؟ هل نفث الله في جيبها؟

وقد كفانا الله مؤونة البحث بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١].

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله: «أعلم أن الكافرين بآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جمودًا على العادات، وذهولًا عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات، ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين، ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتادًا من قبل، فمنه ما يعرفون به سببًا ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع، ومنه ما لا يعرفون له سببًا ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة.

ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على إمكان التولد الذاتي، أي: تولد الحيوان من غير حيوان، أو من الجماد، وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا إلى ذلك

(١) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٢٤.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٦٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٣.

بتجاربهم، وإذا كان تولد الحيوان من الجماد جائزًا فتولد الحيوان من حيوان واحد أولى بالجواز وأقرب إلى الحصول.

نعم إنه خلاف الأصل، وأن كونه جائزا لا يقتضي وقوعه بالفعل، ونحن نستدل على وقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه.

إذا تمهد هذا فنقول: إن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات، وقد أرسل روحًا من عنده إلى مريم، فتمثل لها بشرًا، ونفخ فيها، فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها، فحملت بعيسى عليه السلام»[1].

وصدق الشيخ رحمه الله، فالاستنساخ المعروف اليوم دليل إلى ما ذهب إليه من إمكان حصول الشيء المخالف للعادة، والبعيد عن التصور.

قال الله جل جلاله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٣ - ٢٦].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

لما انتهت مدة الحمل أحست مريم عليها السلام ألم الوضع، فاحتضنت جذع النخلة لشدة ما تجد من الألم، وتمنت الموت حينئذ لما توقعته من أذى قومها، (وأنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم -فيما يظنون- عاهرة زانية)[2]، فجاءها صوت من تحتها يطمئنها، ويطلب منها ألا تحزن، وأمرت بهز جذع النخلة والأكل مما فيها من الرطب، والشرب من جدول الماء، وعلمت طريقة التصرف إن رآها بشر أو تعرض لها أحد، فقد أمرت بالصوم عن الكلام.

والذي نادى مريم من تحتها: قيل: هو جبريل عليه السلام. وقيل: بل عيسى عليه السلام أنطقه لها حين وضعته تطييبًا لقلبها، وإزالة للوحشة عنها؛ حتى تشاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد[3]، وأيًّا كان فالقصد منه طمأنتها وإيناسها.

ومكان الربوة مكان ولادة عيسى عليه السلام قيل: الغوطة بدمشق. وهذا أشهر

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ٢٥٤.

(٢) دعوة عيسى في الكتاب والسنة ص٧.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٤، مفاتيح الغيب ٢١/ ١٧٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٨.

الأقوال؛ لأن صفة الغوطة أنها ذات قرار ومعين على الكمال، وقيل: هي الرملة من فلسطين. وقيل: بأرض مصر. وقيل: الربوة بيت المقدس. ويترجح أن الربوة بيت لحم وهي قرية قريبة من بيت المقدس؛ لأن ولادة عيسى هنالك كانت، وحينئذ كان الإيواء[1].

أما الصوم: فالمقصود به الصمت، صيانةً لها عن الكلام مع المتهمين لها؛ ولأن عيسى عليه السلام تكلم عنها[2].

وأما حكمة خلق عيسى عليه السلام بلا أب فقد قال الشنقيطي رحمه الله: «من حكم خلقه عيسى من امرأة بغير زوج؛ ليجعل ذلك آية للناس، أي: علامة دالة على كمال قدرته، وأنه تعالى يخلق ما يشاء كيف يشاء، إن شاء خلقه من أنثى بدون ذكر كما فعل بعيسى، وإن شاء خلقه من ذكر بدون أنثى كما فعل بحواء، وإن شاء خلقه بدون الذكر والأنثى معًا كما فعل بآدم، وإن شاء خلقه من ذكر وأنثى كما فعل بسائر بني آدم، فسبحان الله العظيم القادر على كل شيء»[3].

وقصة الحمل بعيسى عليه السلام وقصة ولادته دليل على بشريته عليه السلام.

مواجهتها لقومها: بعد ذلك كله جاءت مواجهتها لقومها التي أخبر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧ - ٢٨].

جاءت مريم إلى قومها وهي تعلم براءة نفسها ونزاهتها، وهي واثقة من تبرئة الله سبحانه وتعالى لها، قال لها قومها تلك المقولة، وعجبوا من ذلك وهي من أهل بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والزهد والعبادة، فلم تتول هي الإجابة لنفي التهمة عنها، ولكنها أشارت إلى وليدها، وهي تعلم أنه ليس من أهل الكلام حتى يتولى الرد عنها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: ٢٩].

ولكن من إيمانها بربها وثقتها به فعلت ذلك، فأنطق الله صاحب المهد ببراءتها ونزاهتها، فنطق عيسى عليه السلام بعد هذه الإشارة: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

ومن الملاحظ أن عيسى عليه السلام لم يرد مباشرة على التهمة الموجهة لأمه، بل إن مضمون كلامه فيه ردٌّ قويٌّ عليهم بما

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٤٥، المختصر في تاريخ البشر، عماد الدين أبو الفداء ١/ ١٩.
(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٤،
(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٨٩.

زعموا، فإن الله سبحانه وتعالى لا يعطي الكتاب والنبوة لولد من زنى، إضافة إلى ما وهبه الله من الأوصاف الجميلة التي توحي ببركته ونزاهة أمه وطهارتها[1].

حوارات عيسى عليه السلام

أولًا: حوار عيسى عليه السلام مع ربه عز وجل:

عيسى عليه السلام نبي الله تعالى ورسوله، فهو واحد من الأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية البشر، ورسول تعتبر تعاليمه ورسالته تكملة وامتدادًا لتعاليم الرسل الذين جاؤوا من قبله، وتهيئة للتعاليم التي سيأتي بها النبي صلى الله عليه وسلم[2].

ودعوة كل الرسل هي الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده، قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوةٌ لعلاتٍ أمهاتهم شتى ودينهم

(١) انظر: دعوة عيسى عليه السلام في الكتاب والسنة ص٨- ٩.

(٢) انظر: عيسى المسيح والتوحيد ص٢٢١.

واحدٌ)[1].

وعن قتادة رحمه الله: أرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد، لا يقبل منهم عمل حتى يقولوه ويقروا به، والشرائع مختلفة، في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي القرآن شريعة، حلال وحرام، وهذا كله في الإخلاص لله والتوحيد له[2].

فالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هم أصحاب الدعوة إلى التوحيد، وأهم أكثر البشر التزامًا بهذه الدعوة وتحقيقًا لها، ومنهم عيسى ابن مريم عليهما السلام الذي وصفه ربه عز وجل بأنه من الصالحين: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦].

ومن اتصف بالصلاح كان قدوة حسنة لمتبعيه.

وقد ظهر إجلاله عليه السلام لربه تعالى، وإخلاصه له، وعبوديته، فها هو يدعو قومه إلى التوحيد، ويبين لهم عاقبة الشرك: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٤].

وقد حكى الله تعالى حوارًا يكون بينه عز وجل وبين عيسى عليه السلام، يقر فيه عيسى عليه السلام بعبوديته، وافتقاره إلى الله تعالى، وأنه اجتهد وأخلص في دعوة قومه إلى التوحيد، وإفراد العبادة لله سبحانه، رغم ما حصل من انحراف بعضهم، وتأليههم لعيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١١٦- ١٢٠].

قال جمهور المفسرين: هذا القول يكون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٥.

من الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق؛ لأن عبادة النصارى لعيسى عليه السلام حدثت بعد رفعه، والمراد به توبيخ النصارى، وتبرئة عيسى عليه السلام مما نسبوه إليه، فيقول الله هذا الكلام لعيسى عليه السلام، فيتبرأ عيسى عليه السلام ويقول: سبحانك عن هذا الكلام القبيح، وعما لا يليق بك.

وقد تقدم في هذه السورة ما يثبت براءة عيسى عليه السلام من مثل هذه المقالة، وذلك قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢][1].

ثانيًا: حوار عيسى عليه السلام مع بني إسرائيل:

بدأ عيسى عليه السلام حواره مع قومه وهو في المهد، فقد رد عن أمه بقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٩ - ٣٣].

وكان عيسى عليه السلام قد بعث لدعوة بني إسرائيل خاصة.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فدعاهم عليه السلام إلى التوحيد، وإلى إخلاص العبادة لله تعالى وحده: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥١].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٤].

وكان عيسى عليه السلام قد أرسل مقررًا لشريعة موسى عليه السلام في التوراة، مع ما جاء به في الإنجيل، قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠].

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٣٢، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٤/ ٤١٦، التحرير والتنوير ٧/ ١١٢.

قال ابن كثير رحمه الله: «فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئًا، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ، وكشف لهم عن الغطاء في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٣] والله أعلم»[1].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

كما تضمنت دعوة عيسى عليه السلام البشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

واتخذ عيسى عليه السلام من قومه أنصارًا، قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

فطلب النصرة ليحتمي بها من قومه، ويظهر الدعوة. وهذه سنة الله في أنبيائه وأوليائه، وقد قال لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠].

أي: عشيرة وأصحاب ينصرونني[2].

وكان من أساليبه عليه السلام أن دعاهم بالحكمة، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨].

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وبالموعظة: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: ١١٢].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وأما قوله: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنه يعني: قال عيسى للحواريين القائلين له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾: راقبوا الله أيها القوم، وخافوا

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٣٢، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٤/ ٤١٦، التحرير والتنوير ٧/ ١١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٦.

أن ينزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا، فإن الله لا يعجزه شيء أراده، وفي شككم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء كفر به، فاتقوا الله أن ينزل بكم نقمته ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[1].

واستعمل معهم الترغيب والترهيب: قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

فكان من قوم عيسى عليه السلام فئة معتدلة، آمنت به واتبعت دعوته، قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

ومنهم فئة مفرطة كفرت ولم تؤمن: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤].

وتجاوزوا ذلك إلى التآمر عليه -عليه السلام- ومحاولة قتله، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

وثالثة أفرطت في حقه عليه السلام، وخالفت دعوته، فقالوا مرة: بأنه هو الله، وقالت أخرى: بأنه ابن الله، وثالثة: بأنه ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وقد رد الله تعالى في كتابه كل هذه الادعاءات؛ سعيًا إلى بيان الحقيقة وتصحيحًا للعقيدة، فاستنكر كون المسيح إلهًا، وشنع على من قال بأنه ابن الله، كما رفض عقيدة التثليث[2].

وأخبر سبحانه أن غلو النصارى في المسيح، واعتقادهم أنه إله أو ابن لله كفر بالله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧].

(١) جامع البيان ٧/ ١٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٩٧.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣][1][2].

معجزات عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام نبي الله ورسوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقد أيد الله أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، والآيات الظاهرات، الدالة على صدقهم فيما جاؤوا به من عند الله عز وجل.

والمعجزة: فعل يظهر على يدي مدعي النبوة، بخلاف العادة، في زمان التكليف، موافقًا لدعواه، وهو يدعو الخلق إلى معارضته، ويتحداهم أن يأتوا بمثله فيعجزوا عنه؛ فيبين به صدق ما يظهر على يده[3].

(١) جامع البيان ٧/ ١٣١.

(٢) والحق الذي جاء في القرآن عن حقيقة المسيح عليه السلام أنه مخلوق كبقية البشر، هو الذي جاء في الإنجيل، فقد جاء فيه: أن المسيح ولد بعد أن لم يكن شيئًا انظر: لوقا ٢: ٤-٧، ومتى ٢: ١-٦، وختن بعد أن كان أغلف انظر: لوقا ٢: ٢١، وكان يصلي ويجتهد في عبادة الله انظر: لوقا ٩: ١٨، ٢٨، ٢٩، ومتى ١٤: ٢٢، وشب واكتهل بعد أن كان صبيًا انظر: لوقا ٢: ٤٢، ٣: ٢٣، وجاع فأكل انظر: متى ٤: ٢، ٢٦: ١٧-٢٥، ومرقس ١١: ١٢، ١٤: ١، ١٤: ١٢-٢٦، لوقا ١٤: ١، يوحنا ١٣: ١-٤، وعطش ثم شرب انظر: يوحنا ٤: ٧-١٠، ومشى ثم تعب فجلس انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وركب الجحش في البر والسفينة في البحر انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وبصق على الأرض انظر: مرقس ٧: ٣٣، ٨: ٢٣، يوحنا ٩: ٦، وكان يحزن فيبكي انظر: مرقس ١٤: ٣٣-٣٤، لوقا ١٩: ٤١، وغير ذلك من الصفات التي تدل على أنه مخلوق مثل بقية البشر، لا يختلف عنهم، إلا أن الله اصطفاه بالرسالة كغيره من الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين انظر: المسيح عيسى ابن مريم مصدق لما بين يديه من التوراة/ ١١-١٤.

(٣) التبصير في الدين، الإسفرائيني ص ١٦٩.

قال العلماء: إن الله تعالى جعل معجزات الأنبياء من جنس أبرع وأشهر ما يكون في زمانهم؛ ليكون أبلغ في التأثير على أقوامهم، وإظهار نبوتهم، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر؛ جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم، ولـما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب؛ جعل معجزاته من جنس تلك الطريقة، فجاء عليه السلام بغرائب لا تعرف في أصول الطب، وكذلك لـما كان الغالب في أيام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الفصاحة والبلاغة؛ جعل معجزته ما كان لائقًا بذلك الزمان، وهو فصاحة القرآن[1].

ومن معجزات عيسى عليه السلام:

١. خلق عيسى عليه السلام بغير أب.

وقد مرت بنا قصة حمل مريم بابنها عيسى عليه السلام.

كلام عيسى عليه السلام في المهد.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦].

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٧-٣٣].

إذًا فقد أنطق الله تعالى عيسى عليه السلام في مهده، دلالةً على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها، وحجة له على نبوته عليه السلام . والمهد: الحجر حجر أمه، أو موضع اضطجاع الصبي وقت تربيته[2].

٢. أنه عليه السلام ينفخ في الطين فيكون روحًا بإذن الله.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ

(١) بل إن التأكيد على دعوة التوحيد ثابتة في كتبهم، ففي إنجيل يوحنا: «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» يوحنا ١٧: ٣.ففي هذا النص التصريح بأن الله هو الإله الحق الذي لا إله غيره، بأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، فهو ليس إلهًا، ولا ابن إله، ولا ثالث ثلاثة كما تزعم النصارى.

(٢) انظر: عيسى المسيح والتوحيد، محمد عطا الرحيم ص٢٢١- ٢٣٠.

الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

فمن معجزات عيسى عليه السلام أنه يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه، فيكون طيرًا حقيقيا ذا حياة، فيطير عيانًا بإذن الله عز وجل.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيه دليلٌ على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه، أجراه على يد عيسى عليه السلام، فكون عيسى عليه السلام خالقًا بيده، ونافخًا بفيه إنما هو ليبين تلبسه بالمعجزة، وأنها جاءت من قبله، وأما الإيجاد من العدم، وخلق الحياة في ذلك الطين فمن الله تعالى وحده لا شريك له[1].

(١) والحق الذي جاء في القرآن عن حقيقة المسيح عليه السلام أنه مخلوق كبقية البشر، هو الذي جاء في الإنجيل، فقد جاء فيه: أن المسيح ولد بعد أن لم يكن شيئًا انظر: لوقا ٢: ٤-٧، ومتى ٢: ١-٦، وختن بعد أن كان أغلف انظر: لوقا ٢: ٢١، وكان يصلي ويجتهد في عبادة الله انظر: لوقا ٩: ١٨، ٢٨، ٢٩، ومتى ١٤: ٢٢، وشب واكتهل بعد أن كان صبيًا انظر: لوقا ٢: ٤٢، ٣: ٢٣، وجاع فأكل انظر: متى ٤: ٢، ٢٦: ١٧-٢٥، ومرقس ١١: ١٢، ١٤: ١، ١٤: ١٢-٢٦، لوقا ١٤: ١، يوحنا ١٣: ١-٤، وعطش ثم شرب انظر: يوحنا ٤: ٧-١٠، ومشى ثم تعب فجلس انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وركب الجحش في البر والسفينة في البحر انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وبصق على الأرض انظر: مرقس ٧: ٣٣، ٨: ٢٣، يوحنا ٩: ٦، وكان يحزن فيبكي انظر: مرقس ١٤: ٣٣-٣٤، لوقا ١٩: ٤١، وغير ذلك من الصفات التي تدل على أنه مخلوق مثل بقية البشر، لا يختلف عنهم، إلا أن الله اصطفاه بالرسالة كغيره من الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين انظر: المسيح عيسى ابن مريم مصدق لما بين يديه من التوراة/ ١١-١٤.

٣. إبراء الأكمه والأبرص.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿وَأُبْرِئُ﴾ معناه: أزيل المرض يقال: برأ المريض وأبرأه غيره، ويقال: برىء المريض أيضًا.

﴿الْأَكْمَهَ﴾: هو الأعمى الذي لا يبصر شيئًا لا ليلًا ولا نهارًا. وهذا ما رجحه الطبري رحمه الله.

﴿وَالْأَبْرَصَ﴾: البرص، المرض المعروف[1].

وذكر هذين الداءين خاصة؛ لأن الاحتجاج على بني إسرائيل في معنى النبوة لا يقوم إلا بالإبراء من العلل التي لا يبرئ منها طبيب بوجه، إلا من أعطاه الله مثل الذي أعطى عيسى عليه السلام.

وقد روي أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى، من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام، وما يداوي إلا بالدعاء.

وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب، فأراهم الله المعجزة في جنس علمهم[2].

٤. إحياء الموتى.

قال تعالى: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

كرر بإذن الله دفعًا لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية[3].

٥. الإنباء بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٩]

يعني: وأخبركم بما تأكلون، مما لم أعاينه وأشاهده معكم في وقت أكلكم، وما ترفعونه فتخبأونه ولا تأكلونه.

وهذا كله من الإنباء بالغيب الذي لا سبيل لأحد من البشر عليه إلا بإذن الله[4].

٦. نزول المائدة.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

(١) التبصير في الدين، الإسفرائيني ص ١٦٩.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤١٨، ١٨/ ١٨٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٣٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٥٣٥.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٣٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٨، ٢٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٤، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٩٢، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣٢٠، تفسير المراغي ٣/ ١٥٧، ١٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٥١.

هذه قصة المائدة، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، لما أجاب دعاءه بنزولها، بعد طلب من قومه، فأنزلها الله آية ودلالة ومعجزة باهرة وحجة قاطعة على قدرته تعالى، وعلى نبوته عليه السلام[1].

(١) البرص: داء معروف، وهو بياض يقع في الجسد، برِصَ بَرَصًا، والأنثى برصاء. انظر: لسان العرب ٧/ ٥.

رفع عيسى عليه السلام ونزوله

أولًا: رفع عيسى عليه السلام إلى السماء:

لما تآمر أعداء الله من اليهود على قتل عيسى عليه السلام والخلاص منه ومن دعوته، نجاه الله سبحانه وتعالى منهم، ورد كيدهم في نحورهم، فرفعه إليه.

يدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال ابن جرير رحمه الله: «يعني بذلك جل ثناؤه: ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتل عيسى عليه السلام مع كفرهم بالله وتكذيبهم عيسى - عليه السلام - فيما أتاهم به من عند ربهم، إذ قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾. فتوفاه ورفعه إليه.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى الوفاة التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية:

فقال بعضهم: هي وفاة نوم، وكان معنى الكلام على مذهبهم إني منيمك ورافعك في نومك.

وقال آخرون: معنى ذلك إني قابضك من الأرض فرافعك إلي، قالوا: ومعنى

الوفاة القبض، لما يقال: توفيت من فلان ما لي عليه، بمعنى: قبضته واستوفيته، قالوا: فمعنى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ أي: قابضك من الأرض حيًا إلى جواري، وآخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك

وقال آخرون: معنى ذلك إني متوفيك وفاة موت.

وقال آخرون: معنى ذلك إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليَّ، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا. وقال: هذا من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم.

قال أبو جعفر: «وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: معنى ذلك إني قابضك من الأرض ورافعك إليَّ؛ لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ثم يمكث في الأرض)[1] مدة ذكرها اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه»[2].

وأكد الله تعالى أن عيسى عليه السلام لم يقتل، ولم يصلب، بل شبه على اليهود الذين أرادوا ذلك، فظنوا أنهم صلبوه.

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء:١٥٧].

أما قضية الرفع فبينا أقوال المفسرين فيها، وعلماء أهل السنة على أنه عليه السلام رفع ببدنه وروحه إلى السماء[3]، أما كيف شبه لهم؟ فهناك تفسيرات عديدة لمسألة التشبيه على الناس في مسألة الصلب، و نلخص التفسيرات التي لا تعارض القرآن الكريم بما يلي:

١. لم يصلب اليهود أحدًا، لكنهم ادعوا ذلك ليشبهوا على من قلدهم و يكذبوا عليهم بعد أن نجى الله المسيح عليه السلام من مكرهم[4].

٢. صلب اليهود واحدًا من الناس و ادعوا أنه هو المسيح ابن مريم عليه السلام؛ ليشبهوا الأمر على الناس بعد أن نجى الله نبيه عليه السلام، وهذا التفسير هو ما ذهب إليه ابن حزم رحمه الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٣١، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٣٩- ٤٤٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٣/ ١٦٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٤، تفسير المراغي ٣/ ١٥٨.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٣٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٥٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٢٥.

في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» حيث يقول رحمه الله: «إنما عنى بذلك تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل وتواطؤوا عليه أنهم كذبة، وهم شبهوا على من قلدهم وكذبوا عليهم، فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه، وهم كاذبون في ذلك، عالمون أنهم كذبة»[(١)]. و يضيف ابن حزم في شرح جملة (شبه لهم) قائلًا: «إنما هو إخبار عن الذين يقولون بتقليد أسلافهم من النصارى واليهود أنه عليه السلام قتل و صلب، فهؤلاء شبه لهم القول، أي: أدخلوا في شبهة منه. وكان المشبهون لهم شيوخ السوء في ذلك الوقت، وشُرَطهم المدعون لهم أنهم قتلوه وصلبوه، وهم يعلمون أنه لم يكن ذلك. وإنما أخذوا من أمكنهم فقتلوه وصلبوه في استتار ومنع من حضور الناس. ثم أنزلوه ودفنوه تمويهًا على العامة الذين شبه لهم الخبر»[(٢)].

٣. صلب اليهود أحد تلاميذ المسيح عليه السلام الذين افتدوا نبيهم بأنفسهم، فادعى التلميذ بأنه هو المسيح عليه السلام عندما طلبه الجنود. فشبه الأمر لليهود بأن ظنوا أنهم صلبوا المسيح عليه السلام وقتلوه.

٤. صلب اليهود أحد الذين وشوا بالمسيح عليه السلام بعد أن جعل اليهود يرونه على صورة المسيح عليه السلام . فظنه اليهود بأنه هو المسيح عليه السلام فصلبوه وقتلوه. فشبه الأمر لليهود بأن ظنوا أنهم صلبوا المسيح عليه السلام وقتلوه[(٣)].

والناظر إلى التفسيرات الأربعة أعلاه يرى عدم تعارضها مع الآية: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

لكن النظريتين الأخيرتين تعتمدان في الأغلب على أناجيل النصارى الذين لا نصدقهم في ادعاءاتهم ولا نكذبهم؛ حيث لم يخالفوا في قصتهم عن شبيه المسيح نصًا من نصوص الشريعة الإسلامية من قرآن أو حديث[(٤)].

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعضٍ أمراء، تكرمة الله هذه الأمة».أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم، رقم ١٥٦، ١/ ١٣٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٨٩- ٢٩١.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٦٤- ٦٥، مجموع فتاوي ابن تيمية ٤/ ٣٢٢.

(٤) ويقوي هذا الاحتمال ما نقله إنجيل يوحنا بأن يسوع تحدى اليهود بأنهم سيطلبونه ولا يجدونه: «فقال لهم يسوع: أنا معكم زمانًا

ثانيًا: نزوله عليه السلام آخر الزمان:

وردت الإشارة إلى هذا النزول في القرآن الكريم حسب أقوال المفسرين، ففي قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [الزخرف: ٦١].

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة: إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ١٥٩﴾ [النساء: ١٥٩].

قال ابن جرير رحمه الله: «يعني قبل موت عيسى -عليه السلام- يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم»[٢].

وأما في السنة فقد تواترت الأحاديث على نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان[٣]، وفي الصحيحين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ)[٤].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

يسيرًا بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» يوحنا ٧: ٣٤-٣٥.

(١) الفصل ١/ ٧٦.

(٢) الفصل ١/ ٧٧. وذهب قريبًا من هذا الاستنتاج النصراني «ملمن» في كتابه «تاريخ الديانة النصرانية» حيث يقول: «إن تنفيذ الحكم كان وقت الغلس، وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم كما اعتقد بعض الطوائف، وصدقهم القرآن».

(٣) ويؤيد هذه القصة ما ورد في إنجيل برنابا، فقد جاء فيه أن الله ألقى شبه عيسى عليه السلام على يهوذا، وأنه رفع إلى السماء. و قد مهد لهذا بإعلان أن المسيح عليه السلام سوف يحيا إلى نحو منتهى العالم، وأن جبريل قد أخبره بخيانة يهوذا، ثم أعلن يسوع أن الله سيصعده من الأرض، وسيغير منظر الخائن يهوذا حتى يظنه كل أحد أنه يسوع برنابا ١١٢: ١٥. ثم يؤكد إنجيل برنابا القول بأن المسيح عليه السلام لم يوضع على الصليب أبدًا، بل ألقى الله شبهه على يهوذا الاسخريوطي فصلب بديلًا عنه. و مما قاله برنابا: «الحق أقول إن صوت يهوذا وشخصه ووجهه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه و المؤمنون به كافة أنه يسوع» إنجيل برنابا: تحقيق سيف الله أحمد فاضل/ ٢٩٢.

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٨٠٥، الكشاف ١/ ٣٦٨، المحرر الوجيز ١/ ٤٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٧.

(لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعضٍ أمراء، تكرمة الله هذه الأمة)[1].

وأما الحكمة من نزوله، فللعلماء في ذلك أقوال، منها:

- الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبين تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم.
- نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض؛ إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها.
- أنه دعا الله لما رأى صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته أن يجعله منهم، فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام، فيوافق خروج الدجال فيقتله.
- تكذيبه لكل من ادعى إلهيته أو بنوته لله تعالى. قال ابن حجر رحمه الله: «والأول أوجه»[2].

وأما مدة بقائه في الأرض فقد اختلفت في ذلك الروايات بين سبع سنين، أو تسع عشرة، أو أربعين سنة[3].

موضوعات ذات صلة:

الإنجيل، أهل الكتاب، مريم، موسى، النصارى

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٧٠، تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٣٣.
(٢) جامع البيان ٦/ ١٨.
(٣) انظر أقوال أهل العلم في تواتر الأحاديث في هذه المسألة: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، الكشميري، ص ٥٦.

العين

عناصر الموضوع

مفهوم العين	٣٨
العين في الاستعمال القرآني	٣٩
الألفاظ ذات الصلة	٤٠
تصنيف العين في القرآن الكريم	٤٢

مفهوم العين

أولًا: المعنى اللغوي:

العين والياء والنون أصلٌ صحيح يدل على عضوٍ من خلاله يبصر وينظر، ويترتب على ذلك الأصل اللغوي معان عديدة[١]، أوصلها العلامة مرتضى الزبيدي رحمه الله نقلاً عن بعض مشايخه إلى ما يزيد على المائة، وكل معانيها ترجع إلى ما ذكر، فالباصرة أصل في معناها، وهو الذي جزم به الكثيرون[٢]، وتطلق العين في اللغة، ويراد بها: عين الينبوع[٣]، وعين الجاسوس[٤]، وعين الشيء ونفسه[٥]، وعين التأمل والمعاينة[٦]، وعين الشرف والأشراف[٧]، وعين المال الحاضر[٨]، وعين الحسد[٩].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

نظرًا لأن المعاني اللغوية كلها رجعت إلى معنى واحد، هو أصلها والبقية فرع عنه، فسيكون التعريف الاصطلاحي تبعًا له، وعليه فإن التعريف الاصطلاحي قد تغلب عليه السمة التشريحية الطبية، وفي ضوء هذا عرفوا العين في الاصطلاح بأنها عبارة عن: «عضو صغير معقد، يتم به الإبصار، مكون من عدة أجزاء، على شكل كرة، موجودة داخل محجر، تدرك الأشكال والحركات والتنوءات والألوان واختلافات الإضاءة بصورة معكوسة»[١٠].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٩٩ .
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٩٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٥/ ٤٤٠ .
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٣٠، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٠٣.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥٤ .
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٠٦.
(٦) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥٥، تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٣٢.
(٧) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥٥، تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٣٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٣.
(٨) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥٤.
(٩) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٠١.
(١٠) انظر: أمراض العين وعلاجاتها، ابن سينا ص٢٦، أسرار العيون، محمود مصطفى ص٧، العين عناية ووقاية، خالد طبارة ص١٣ .

العين في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عين) في القرآن الكريم (٦١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الإفراد	١٨	﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة:٤٥]
التثنية	٧	﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤]
الجمع	٣٢	﴿تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩٢]
الصفة المشبهة	٤	﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الدخان:٥٤]

وجاءت العين في القرآن على خمسة وجوه[(٢)]:

أحدها: العين الباصرة الجارحة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [البلد: ٨].

الثاني: الماء الجاري أو النهر: ومنه قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٦].

الثالث: الحفظ والكلاءة والرعاية: ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٣ - ١٤]. يعني: بحفظنا ورعايتنا.

الرابع: القلب: ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١]. يعني: قلوبهم.

الخامس: بمعنى النفس: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦]. يعني: طيبي نفسًا.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٩٥-٤٩٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب العين ص٨٤٤-٨٤٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٤٤-٣٤٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٤٣-٤٤٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الظرف:

الطرف لغة:

يطلق الطرف في اللغة على ثلاثة معانٍ، وهي: تحريك جفني العين؛ بأن يطبق الجفن على الجفن، وبمعنى العين نفسها ويكون جمعًا ويكون واحدًا[١]، وبمعنى النظر إلى الشيء مد البصر، يقال: طرفت إليه مد بصري، أي: نظرت إلى نهايته[٢].

الطرف اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الطرف والعين:

إن الطرف في المعاني اللغوية الأول والثالث يكون جزءًا من معنى العين ومدلولها، وفي المعنى اللغوي الثاني يكون مرادفًا لها.

٢ البصر:

البصر لغةً:

هو إدراك العين، ويطلق على القوة الباصرة، وهو قوة مرتبة في العصبين المجوفين التي من شأنها إدراك أشباح الصور، بانعكاس الضوء فيها؛ إذ البصر هو حاسة الرؤية، وورد في القرآن مع ما يتعلق به من العمليات؛ ليدل على العلم القوي المضاهي لإدراك الرؤية، فيقال: بصر بالشيء: علمه عن عيان، فهو بصير به[٣].

البصر اصطلاحًا:

«هو القوة المودعة في العصبتين المجوفتين اللتين تتلاقيان ثم تفترقان، فيتأديان إلى العين تدرك بها الأضواء والألوان والأشكال»[٤].

الصلة البصر والعين:

«الفرق بين العين والبصر أن العين آلة البصر وهي الحدقة، والبصر اسم للرؤية؛ ولهذا يقال: إحدى عينيه عمياء، ولا يقال: أحد بصريه أعمى، وربما يجري البصر على العين

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢١٣.
(٢) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٩٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٥٠١.
(٣) انظر: الحواس في القرآن الكريم، بليل عبد الكريم، مقال منشور على موقع شبكة الألوكة الإسلامية.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص٤٦.

الصحيحة مجازًا، ولا يجري على العين العمياء، فيدلل هذا على أنه اسم للرؤية، ويسمى العلم بالشيء إذا كان جليًا بصرًا، يقال: لك فيه بصر، يراد أنك تعلمه كما يراه غيرك»[1].

٣ النظر:

النظر لغةً:

«النظر: حس العين، وتقول: نظرت إلى كذا وكذا من نظر العين ونظر القلب، وإذا قلت: نظرت إليه لم يكن إلا بالعين، وإذا قلت: نظرت في الأمر احتمل أن يكون تفكرًا فيه، وتدبرًا بالقلب، والنظر: الفكر في الشيء تقدره وتقيسه منك، والنظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام وما كان بالبصائر كان للمعاني»[2].

النظر اصطلاحًا:

«تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الرَّويَّة»[3].

الصلة بين النظر والعين:

إن النظر له خاصية من خواص العين، وليس مرادفًا لها.

٤ الرؤية:

الرؤية لغة:

وتعني إدراك المرئي والإقبال بالبصر نحوه، قد يدرك وقد لا يدرك؛ ولذلك قد ينظر الشخص ولا يرى المرئي، وعليه فيجوز أن يقال لله تعالى: إنه راءٍ، ويقال: إنه ناظر.

والرؤية اصطلاحًا:

«المشاهدة بالبصر حيث كان في الدنيا والآخرة»[4].

الصلة الرؤية والعين:

وبهذا يتضح الفرق بين النظر والرؤية، كما يتضح ببيان أن الرؤية من توابع النظر ولوازمه غالبًا؛ لذا أجريت كلمة النظر على الرؤية على سبيل إطلاق اسم السبب على المسبب.

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص٣٨١.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٤٦٦.
(٣) المفردات الراغب الأصفهاني ٢/ ٤٣٨.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص١٠٩.

تصنيف العين في القرآن الكريم

وردت العين في القرآن الكريم متعددة ومتنوعة، ولذا اختلف تصنيف العين إلى أصناف مختلفة، نتناولها في أربعة أنواع.

أولًا: الأعين الممنون بها على كل البشر:

امتن الله تعالى علي بني البشر بنعم عظيمة آفاقية وأنفسية لا تعد ولا تحصى، ومن الآفاقية هذه العيون المائية التي بها قوام كل شيء حي، والتي ذكر الله تعالى بها البشر في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

ومظاهر الامتنان في الآيات الكريمة -وبخاصة العيون- كثيرة وظاهرة، من أبرزها أمران:

الأول: التعبير بالتفجير في قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ للدلالة على الكثرة والقوة.

الثاني: مجيء العيون بصيغة الجمع؛ للدلالة على الكثرة والتعدد والتنوع، وهذا من عظيم فضل الله تعالى على عباده.

ومن النعم الأنفسية العظيمة هذه التي أكرمنا الله عز وجل؛ لنبصر بها، ولا يقدر عظم نعمة إلا من حرمها، نسأل الله تعالى أن يمتعنا بأبصارنا وأسماعنا وقوتنا ما أحيانا وأبقانا، اللهم آمين.

وهذا الامتنان ورد صريحًا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: ٨].

ويلاحظ على هذا الموطن الكريم أمران:

أولهما: أهمية نعمة البصر، وعظم نفعها، وذلك؛ لتقديمها على بقية النعم المذكورة معها.

ثانيهما: أنه ليس المراد بالعينين وما بعدها العضو وحده، بل ما يترتب عليه من آثار وتبعات، ينتج عنها الثواب والعقاب «من أمانة البصر والنطق؛ تمهيدًا لما يلي في السورة، من تقرير تبعات الرشد، ومسئولية الكلمة بعد وسائل الإدراك الحسي من بصر ونطق، ثم يأتي بعد ذلك التذكير بما هدي تعالى الإنسان إليه من إدراك مميز لمعالم الطريقين في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]»[1] والله أعلم.

ثانيًا: عين الإنسان:

المستقرئ لآيات القرآن يجد أن (عين الإنسان) وصفت بصفات مدح في آيات، وبصفات ذم في آيات أخر، وقطعت عن المدح والذم في مجموعة ثالثة، ويمكن جمع هذا في ثلاث مسائل:

(١) انظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، بنت الشاطئ ١/ ١٨١.

١. الأعين الممدوحة وصفاتها.

أقصد بالمدح ما جاء في القرآن وصفًا للعين في سياق المدح تصريحًا أو تلويحًا، من أمور تتعلق بالمؤمنين في الدنيا أو الآخرة، وكذلك ما ورد بصيغة الأمر مما يتعلق بشأن العين، واعتباره مدحًا؛ لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، بل يأمر بكل فضل وخير، ولا ينهى إلا عن كل سوء وشر، وعلى هذا اعتبرت قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] من قبيل المدح.

ووصفت العين بناء عليه بـ(الثابتة غير المتطلعة) وهكذا.

والله تعالى وصف المؤمنين في كتابه بأوصاف عدة، فوصف أفعالهم مرة، وأقوالهم أخرى، ووجوههم ثالثة وهكذا، وكما هو معلوم أن تعدد الصفات يدل على شرف الموصوف.

وعلى هذه الشاكلة يأتينا وصف أعين المؤمنين في القرآن بصفات متعددة، يمكن تجليتها في السطور الآتية:

١. الفياضة.

يقصد بها: العين التي يفيض دمعها، وينزل منها منهمرًا مدرارًا، إما من خشية الله تعالى، أو خوفًا من التقصير في عبادته، أو فوت طاعته وقربه، ونحو ذلك، مأخوذ من قولهم «فاض الماء: إذا سال منصبًا، ومنه: فاض صدره بالسر أي: سال، ورجل فياضٌ، أي: سخي، وحديث مستفيضٌ: منتشر، والفيض: الماء الكثير، يقال: إنه أعطاه غيضًا من فيض، أي: قليلًا من كثير»[(١)].

وورد هذا الوصف في آيتين، هما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقوله تعالى ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

فالآية الأولى: واردة في سياق الآيات النازلة في نصارى الشام الذين كانوا بالحبشة وأتوا المدينة مع اثنين وستين راهبًا مصاحبين للمسلمين الراجعين من الحبشة، وسمعوا القرآن وأسلموا كما ذكره جمع من المفسرين[(٢)].

وتظهر بلاغة التعبير القرآني عنهم ههنا من وجهين:

الأول: التعبير بقوله: ﴿تَرَىٰٓ﴾ الدالة على الرؤية البصرية، والتي هي من أقوى أسباب

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٤٨.

(٢) روي ذلك عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٧، البسيط، الواحدي ٧/ ٤٩٣.

العلم الحسي، مبالغة في مدحهم، حيث يراهم الرائي وهم على تلك الصورة من رقة القلب وشدة التأثر عند سماع الحق[1].

الثاني: التعبير بـ﴿تَفِيضُ﴾ ومعناه: امتلاء العين من الدمع حتى تفيض؛ لأن الفيض أن يمتلأ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض موضع الامتلاء، وهو من إقامة المسبب مقام السبب مبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها، أي: تسيل من الدمع من أجل البكاء، من قولك: دمعت عينه دمعًا[2]، وفي ذلك بيان لغاية رقة قلوبهم، وشدة خشيتهم، ومسارعتهم إلى قبول الحق، وعدم إبائهم إياه[3].

والآية الثانية: واردة في سياق الذين رفع الله تعالى عنهم الحرج من ذوي الأعذار ممن تخلفوا عن غزوة تبوك؛ لعذرهم، وعرف هؤلاء بـ(البكائين)، وحق لهم أن يعرفوا بذلك، وأن ينزل الله تعالى رفع الحرج عنهم من فوق سبع سموات؛ لشدة إخلاصهم، ورغبتهم الصادقة في الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للغزو والجهاد، ونظرًا لقوة إيمانهم وفرط محبتهم للاستشهاد وصفهم الله تعالى بأبلغ وصف - كالآية السابقة - فقال: ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾، ولاشك أن التعبير بذلك أبلغ من قولنا: (يفيض دمع أعينهم)؛ لأن العين في التعبير القرآني جعلت كأنها كلها دمع فائض[4].

٢. القريرة.

هذا الوصف -كما يقول ابن فارس- يدل على معنيين، أحدهما برد، والآخر تمكن.

فالأول: القر، وهو البرد، ومنه: يوم قار، أي: بارد، ويقال: أقر الله عينه، إذا سر ورضي، وقرة العين: ما يسر ويفرح من الأمور، ونظرًا لأن للسرور دمعة باردة، وللحزن دمعة حارة قالوا لمن يدعى عليه: أسخن الله دمعه.

والثاني: التمكن، يقال: قر واستقر، أي: هدأ واطمأن، وقولهم: قرت عينه، أي: أعطاه الله تعالى ما تسكن به عينه فلا يطمح إلى غيره[5]، وعليه قال بعض أهل اللغة: إن معنى قرة العين أن يصادف عينه ما يرضاه قلبه، فتقر عينه عن النظر إلى غيره، يعني: لا تنظر إلى غيره[6].

ووصف العين بالقريرة يشمل المعنيين

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٣٢٨، التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٥٦.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٦٩.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٥.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٠١.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ١٢٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٤٦٠.
(٦) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٢٢٥.

معًا، حيث إنها تكون باردة ودمعتها كذلك عند فرحها وسرورها، كما تكون عندئذ قارة ثابتة غير متطلعة لما ليس لها غالبًا.

والدعاء بقول بعضهم: أقر الله عينك معناه: «صادفت عينك سرورًا فنامت وذهب سهرها، وصادفت ما يرضيك، أي: بلغك الله أقصى أملك، حتى تقر عينك من النظر إلى غيره؛ استغناء ورضى بما في يديك»[1].

ورد هذا المعنى في القرآن في سبع آيات:

قال الله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦]

وقال أيضًا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠]

وقال أيضًا: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]

وقال أيضًا: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص: ٩]

وقال أيضًا: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]

وقال أيضًا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١].

ويلاحظ على هذه الآيات المباركات أمور:

الأول: أن الله تعالى عبر بالفعل (تقر- وقري) في أربع آيات، وبالاسم (قرة) في ثلاث، وهذا أراه في قمة البلاغة، حيث استعمل الفعل -وهو موضوع؛ للدلالة على التجدد والحدوث- حينما كان المقام مقتضيًا لذلك في هذه المواضع، فمثلًا في قصة أم موسى عليه السلام كان قلبها متلهفًا على وليدها وفلذة كبدها، فرده الله تعالى إليها؛ لإرضاعه وتربيته فترة ما، كي تقر عينها بوليدها؛ لأنه غاب عنها فترة من الزمان، وسيغيب فترة أخرى بعد انتهاء الإرضاع، فلكي تتجدد لها قرة العين مرة بعد مرة جاء التعبير بالفعل، في موضعي (طه والقصص)، وكذلك الحال بالنسبة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتجدد لهن الفرح والسرور وقرة العين أيضًا، هذا عن صيغة المضارع، أما صيغة الأمر في قصة مريم فيلمح منها الدلالة على إنشاء قرة العين لمريم عليها السلام، وطيب نفسها، وذهاب الخوف عنها حاضرًا ومستقبلًا، عند ولادتها عيسى عليه السلام، ولا أدل على ذلك من صيغة الأمر. والله أعلم.

الثاني: التعبير بإفراد العين (عين، عينها) في ثلاث آيات، والتعبير بجمعها (أعين) في ثلاث أخرى أيضًا، وأرى أن الإفراد ورد لما

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٤٧٠.

كان حديث الآيات عن شخص مفرد بعينه، وهي أم موسى عليه السلام في سورتي (طه والقصص)، وامرأة فرعون في موضع من سورة (القصص)، ولـما كان الحديث عن جمع من الناس كعباد الرحمن في الفرقان، وأهل الجنة في السجدة، وأمهات المؤمنين في الأحزاب ناسب ذلك الإتيان بصيغة الجمع في الجميع. والله أعلم.

الثالث: التعبير بعطف نفي الحزن على قرة العين في قوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾؛ لتنويع المنة على أم موسى؛ لأن قرة عينها يكون برجوع موسى عليه السلام إليها، وانتفاء حزنها يكون بتحقق سلامته من الهلاك ومن الغرق وبوصوله إلى أحسن مأوى[1]. والله أعلم.

٣. الثابتة غير المتطلعة.

هذا الوصف للعين جاء بطريق الإشارة من غير تصريح في موضعين من كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

وهذان الموضعان استفيد منهما الوصف بطريق الأمر، حيث أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم -والأمر للأمة أيضا- بأن لا تتطلع عينه، ولا تطمح نفسه إلى ما في أيدي الآخرين، وما منحهم الله تعالى إياه من نعم وآلاء، وليقنع بما رزقه الله تعالى إياه، ولعل هذه النعم من قبيل الابتلاء والفتنة لهم، فضلًا عن أنه من متاع الدنيا، وكل أمرها إلى زوال.

واعتبار هذا الوصف الضمني من قبيل الصفات المحمودة؛ لأنه أمر من قبل الله تعالى، والله جلا وعز لا يأمر إلا بكل خير، مما فيه محبته ورضاه سبحانه وتعالى كما مر، وهذا بلا شك على رأس المحامد كلها، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية. قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه[2].

ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده؛ استحسانا للمنظور إليه.

والمراد: لا تنظرن بعين الرغبة إلى ما متعنا به بعض الخلق، فما أعطيناك في الدنيا من القرآن خير وأفضل مما أعطيناهم من الأموال، فاستغن بما أعطيناك من القرآن والدين والعلم، ولا تنظر إلى أموالهم[3].

وقريب من هذين الموضعين قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢١٩.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم الرازي ٧/ ٢٢٧٣.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٦٢.

﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

حيث ينهى الله تعالى فيه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يجاوز بصره ضعفاء المؤمنين، رغبة في مجالسة الأشراف، وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على إيمان الرؤساء؛ طمعًا في إيمان أتباعهم، ولم يمل إلى الدنيا قط ولا إلى أهلها، وإنما كان يلين في بعض الأحيان للرؤساء؛ طمعًا في إيمانهم، فعوتب بهذه الآية، وأمر بأن يجعل إقباله على فقراء المسلمين، وألا يلتفت إلى غيرهم[(١)].

والملاحظ على الآيات الكريمة أمور:

الأول: أن (مد العين) هنا كأنه اقترن به تمنٍ ورجاء، ولذلك عبر عن الميل إلى زينة الدنيا بـ(مد العين)[(٢)].

الثاني: التعبير بلفظ التثنية في (عينيك) يدل على المبالغة في النهي، أي: مدًا عظيمًا بالتمني والاشتهاء المؤكد، ولذلك ثنى العين؛ احترازًا عن حديث النفس[(٣)].

الثالث: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ يفيد النهي عن الإعراض، أي: لا تعرض عن هؤلاء الفقراء لأجل الأغنياء، ولذلك ضمن فعل العدو معنى الإعراض، فعدي إلى المفعول بـ (عن) وكان حقه أن يتعدى إليه بنفسه، يقال: عداه إذا جاوزه[(٤)]. والله أعلم.

٤. المتلذذة.

هي: العين التي تنعم وتسعد بكل ما هو طيب المخبر، أو حسن المظهر، ولا يكون كمال اللذة إلا في الجنة بنعيم الله تعالى للمؤمنين.

ووردت الإشارة إلى هذا الوصف في موطن واحد، عند الحديث عن بعض ألوان النعيم للمؤمنين في الجنة، وهو قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

فقوله تعالى: ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ من لذذت الشيء واستلذذته، والمعنى: ما من شيء اشتهته نفس أو استلذته عين إلا وهو في الجنة، وقد جمع الله تعالى جميع نعيم الجنة في هذين الوصفين، فإنه ما من نعمة إلا وهي نصيب النفس أو العين، وتمام النعيم الخلود؛ لأنه لو انقطع لم تطب[(٥)].

هذا ويلاحظ على هذا الموضع الكريم أمور:

أولها: اشتماله على جميع أنواع النعيم، وألوان المتع لأهل الجنة بأوجز عبارة وأدقها؛ لأنه ما من نعمة إلا وفيها حظ

(١) انظر: الوسيط الواحدي ٣/ ١٤٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٤٧.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١١/ ٨٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥.
(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٨٣.

للنفس أو العين، كما مر.

ثانيها: اختصاص العين بالذكر هنا دون بقية الجوارح؛ «لأنها رائد النفس والقلب، وللدلالة على فرط حسن نعيم الجنة، وإلا ما قبلته العين والنفس»[1].

ثالثها: قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ رافع لكل ألمٍ وتنغيص عن أهل الجنة «فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال، ومستعقب للتحسر في مستقبل الحال»[2] نسأل الله تعالى أن نكون جميعًا من أهل فضله ورضوانه في الحال والمآل، اللهم آمين.

٢. الأعين المذمومة وصفاتها.

سيرًا على سنن القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب والمدح والذم، ألفينا الحديث فيه عن العين جامعًا بين هذين الأسلوبين، ومر بنا سابقًا العين المحمودة وصفاتها، وهذا بلا شك من قبيل الترغيب والمدح؛ ليمتثل المؤمنون الصادقون هذه الصفات، ولهم عند ربهم حسن المثوبة في الجنات، والآن سنعرض الأسلوب الآخر، وهو من قبيل الترهيب والذم؛ ليجتنبه المؤمنون ويحذروه، وستعرض هذه الصفات حسب ترتيبها المصحفي فيما يلي:

١. المعطلة.

يقصد بها: العين التي عطلت عن إدراك الحقائق والبينات من غير علة أو آفة من الآفات، ويدخل في ذلك عدم الاهتداء إلى الهدى، وسلوك طريقه دخولا أوليًّا.

وورد هذا الوصف للعين في القرآن الكريم في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والآية الكريمة واردة في سياق ذم بني البشر الذين تنكبوا الصراط المستقيم، وكفروا بربهم الذي أخذ عليهم العهد في عالم الذر، وتأكد هذا المعنى بذكر قصة الذي أوتي آيات الله ثم انسلخ منها، واتضح هنا أكثر ببيان أن بعضًا من أشقياء الجن والإنس عطلوا حواسهم فلم يستعملوها فيما ينجيهم من عذاب الله تعالى، وخزي الآخرة.

ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع هنا عن آلاتها الكائنة فيهم: أنهم عطلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له، وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي، ويدفع به الضر السرمدي؛ لأن آلات الإدراك والعلم خلقها الله؛ لتحصيل المنافع ودفع المضار،

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل، الكرماني ٢/ ١٠٦٧.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٩٦.

فلما لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع، ودفع أكبر المضار نفى عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة؛ لأن الفعل في حيز النفي يعم مثل النكرة، فهذا عام أريد به الخصوص للمبالغة.

وليس في تقديم الأعين على الآذان مخالفة لما جرى عليه اصطلاح القرآن من تقديم السمع على البصر؛ لأن الترتيب في آية سورة الأعراف سلك طريق الترقي من القلوب التي هي مقر المدركات إلى آلات الإدراك، القلوب ثم الأعين ثم الآذان، فللقلوب المرتبة الأولى في الارتقاء[1].

يليها العين حيث تمثل المرتبة الثانية في الإدراك.

ثم الأذن التي تمثل المرتبة الثالثة في الإدراك.

فالآية وردت بترتيب آلات الإدراك، وهي على حد قوله تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

والآية وإن كانت واردة في شأن الأصنام إلا أنها وصفت بما وصف به عابدوها قبل ذلك من نفي أو تعطيل آلات الإدراك والعلم، أو أنهم خوطبوا على وفق ما يعتقدونه فيها. والله أعلم.

وسبحان من هذا كلامه وبيانه، وصدق الله حين وصفه بقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

٢. المزدرية.

هي: العين التي تحتقر ما تقع عليه وتستصغره؛ تقليلًا لشأنه، وتهوينًا من أمره.

وهذا الوصف مأخوذ من قولهم: زريت عليه: أي: عبته، وأزريت به: أي قصرت به، وازدريت، أصله: افتعلت، والإزراء: التهاون بالناس[2].

وعليه فالعين المزدرية أي: المحتقرة للآخرين، المستصغرة لشأنهم، وقد ورد هذا الوصف في موضع واحد، هو قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٣١].

والآية واردة في ثنايا قصة سيدنا نوح عليه السلام ومجادلته قومه، وفي هذا السياق نفى نوح عليه السلام «أربعة أمور:

أولها: أنه ليس عنده خزائن، فهو في الأموال دونهم، فالله تعالى لم يبعث رسولا يعطيه خزائن الأرض، لكن يبعثه بما هو

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٥٩.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٧/ ٣٨١، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٧٩.

أعز وأغلى وهو إثراء الروح والنفس بمحبة الله ورجاء ثوابه وتقوى الله تعالى وخوف عقابه.

ثانيها: نفى أنه يعلم الغيب، فما جاء إلا هاديًا للحق وداعيًا إلى الله تعالى، وذلك لا يقتضي علم الغيب الذي اختص الله تعالى به نفسه، وهو في هذا مثلكم.

ثالثها: أنه لا يقول إنه ملك، وهو بشر مثلكم نشأ بينكم وعرفتم حياته، وأنه بشر كسائر البشر.

رابعها: نفى أنه يقول للمؤمنين الذين تحتقرهم أعينكم: لن يؤتيهم الله خيرًا، بل لهم الخير كل الخير، وأشار بقوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١].

إلى أن الاعتبار ليس للصورة ولكن إلى نور القلوب[(١)].

وهنا نسب الازدراء للأعين لأحد أمرين:

الأول: إما بالنظر إلى قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

الثاني: أو الإشعار بأنهم قالوا ذلك لقصور نظرهم، ولو تدبروا في شأنهم ما فعلوا ذلك.

أي: لا أقول في شأن الذين استرذلتموهم واحتقرتموهم لفقرهم من المؤمنين: لن يؤتيهم الله خيرًا في الدنيا أو في الآخرة، فعسى الله أن يؤتيهم خيري الدارين[(٢)]، والله أعلم.

٣. الدوارة.

يقصد بها: العين المضطربة كثيرة الحركة والتجول من شدة الخوف والفزع لعظيم ما دهاها.

أو هي: الهلعة التي تدور هلعًا من شدة الخوف.

واستفيد هذا الوصف من قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وهذه الآية الكريمة واردة في سياق غزوة الخندق من سورة الأحزاب؛ لتصف بعضًا من أحوال المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وبيان أن المنافقين قوم جبناء خوارون بخلاء، فإذا جاء الخوف واقترب الوقت الذي يتوقع فيه اللقاء بينكم وبين أعدائكم، رأيتهم -أيها الرسول الكريم- ينظرون إليك بجبن وهلع، تدور أعينهم في مآقيهم يمينًا وشمالًا، كحال المغشي عليه من الموت، وجيء بصيغة المضارع في ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ ليدل على تكرر هذا النظر وتجدده.

وجملة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾: حال من

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧ / ٣٧٠٢.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٠٣.

ضمير ﴿يَنظُرُونَ﴾ لتصوير هيئة نظرهم نظر الخائف المذعور الذي يحدق بعينيه إلى جهات يحذر أن تأتيه المصائب من إحداها.

والدور والدوران: تحرك جسم حركة دائرية -كحركة الرحى- منتقل من موضع إلى موضع، فينتهي إلى حيث ابتدأ، يقال: دار الشيء يدور دورًا ودورانًا وأدار الشيء: جعل حركاته تتواتر بعضها إثر بعض[1].

ومشتقات هذا الفعل تدور حول هذا المعنى، فالدار اسم للمكان المحدود المحيط بسكانه بحيث يكون حولهم، ومنه سميت الدارة لكل أرض تحيط بها جبال، وقالوا: دارت الرحى حول قطبها. وسموا الصنم: دوارا -بضم الدال وفتحها-؛ لأنه يدور به زائروه كالطواف، وسموا ما يحيط بالقمر والشمس دائرة، وسميت مصيبة الحرب دائرة؛ لأنهم تخيلوها محيطة بالذي نزلت به لا يجد منها مفرًا.

وعليه فمعنى ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾: أنها تضطرب في أجفانها كحركة الجسم الدائري من سرعة تنقلها محملقة إلى الجهات المحيطة، وشبه نظرهم بنظر الذي يغشى عليه بسبب النزع عند الموت فإن عينيه تضطربان، ويصير حاله في أقصى دركات الوهن والخوف والفزع.

وفي الآية الكريمة حذف تقديره: تدور أعينهم دورانا كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت، فحذف المصدر وهو (دورانا) وما أضيفت الكاف إليه وهو (دوران) وما أضيف (دوران) إليه وهو (عين) وأقيم (الذي) مقام (عين)، وإنما وجب هذا التقدير؛ ليستقيم معنى الكلام[2]، والله أعلم.

ويقارب هذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠].

وهي الأخرى تصف المنافقين بهذه الحالة من الهلع والخوف والذعر الذي ينتابهم حين يطالبون بالقتال أو الاشتراك فيه مع المؤمنين، إلا أن الآية السابقة دلت على هذا الوصف مع الحركة والاضطراب، وهذه دلت عليه مع السكون وثبات الحدقة وعدم التحريك، وفي ذلك يقول ابن عاشور:

«ووجه الشبه: ثبات الحدقة وعدم التحريك، أي: ينظرون إليك نظر المتحير بحيث يتجه إلى صوب واحد، ولا يشتغل بالمرئيات؛ لأنه شاغل عن النظر»[3].

فسبحان من هذا كلامه، ومنطقه وبيانه.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٩٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢١٨، التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ١٨٩، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٢١/ ٢٥٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٩١.

٤. المطموسة.

هي: العين التي لا يكون بين جفنيها شق، حتى تصير كأنها ممسوحة.

والطمس: إزالة الأثر بالمحو كلية، كما تطمس الريح الأثر، يقال: أعمى طميس ومطموس: إذا كان لا يتبين له جفن، ولا يرى شفر عينه[(١)].

وهذا الوصف ورد في موضعين، هما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: ٣٧].

والآية الأولى: واردة في سياق ذم الكفار وتوبيخهم على تركهم سلوك طريق الحق مع وضوحه، فبين الله تعالى لهم هنا بعض مظاهر قدرته عليهم.

والمعنى: لو نشاء لأعميناهم فعدلوا عن الهدى، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين الطريق المألوف لم يستطيعوا، فكيف بغيره؟ ومن أين يبصرون لو فعلنا بهم ذلك؟!

والثانية: واردة في سياق قصة لوط عليه السلام مع قومه، حيث تعرض الآية مشهدًا من مشاهدها، حيث راودوه عن ضيفه من الملائكة الكرام، ونهاهم لوط عليه السلام عن ذلك، وحذرهم عقاب الله، إلا أنهم لم يرعووا، فطمس الله أعينهم فلم يروا الأضياف، وخرجوا من بينهم سالمين.

ويلاحظ على الآيتين الكريمتين هنا أمران:

الأول: أن الطمس لم يقع في الآية الأولى، بل هو وارد على سبيل التهديد والوعيد، ويدل عليه وقوع فعل المشيئة في أسلوب الشرط، ولعل هذا من فرط رحمة الله تعالى بعباده، إذ لم يعاجلهم بالعقوبة، حتى لو كانوا كفارًا، بينما وقع الطمس في قصة لوط عليه السلام، حيث ضربهم جبريل عليه السلام على أعينهم فأعماهم، وورد الفعل ماضيًا ﴿فَطَمَسْنَا﴾؛ ليؤكد ذلك.

الثاني: الدلالة على تمكن الطمس وقوته عند وقوعه، وذلك للتعبير بحرف الاستعلاء (على) في الموطن الأول، مع أن الطمس يتعدى بنفسه[(٢)] كما جاءنا في الموطن الثاني. والله أعلم.

٥. الخائنة.

يقصد بها: العين التي تنظر خلسة إلى ما لا يحل لها.

أو المراد: العين التي يومئ صاحبها بخلاف ما يظهر من غدر أو قتل أو ضرب أو

(١) انظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى ٢/ ١٦٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٩٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٢٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٥١.

خيانة ونحوها فإذا كان ظهور تلك الخيانة من قبل عينه كانت عينه من خائنة الأعين[1].

وهذا الوصف وردت الإشارة إليه في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

علق سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما على الآية السابقة فقال: الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها، فإن رأى منهم غفلة نظر إليها، فإن خاف أن يفطنوا به غض بصره، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه نظر إلى عورتها[2].

وذكر ابن حجر عن بعض أهل العلم: أن معنى ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾: أن الله يعلم النظرة المسترقة إلى ما لا يحل، وأما خائنة الأعين التي ذكرت في الخصائص النبوية[3].

فهي الإشارة بالعين إلى أمر مباح لكن على خلاف ما يظهر منه بالقول.

قلت[4]: وكذا السكوت المشعر بالتقرير فإنه يقوم مقام القول[5].

ولما كانت هذه الخيانة من قبل العين أضيفت إليها، وكان يحرم عليه صلى الله عليه وسلم خائنة الأعين في غير الحرب، ومكايدة العدو وهي أن يشير إلى مباح من غير أن يظهره من ضرب، أو قتل أو نحوه - كما مر - مما يحل أن ينطق به، ولا يحرم ذلك على الأمة إلا في محظور[6].

وفي ضوء ذلك نعلم أن هذا الوصف للعين ذمه القرآن الكريم، وذم متصفيه مما يؤكد أهمية ابتعاد المسلم عنه، وبخاصة إذا كان في أمر محظور نهى الشرع عنه، ولم يكن في مكيدة أو حرب، والله أعلم.

٣. أعين لا توصف بمدح ولا ذم.

مر بنا حديث القرآن عن العين المحمودة أولًا، ثم المذمومة ثانيًا، وها نحن أولاء

(١) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي ٧/ ٢٤٩.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٤/ ٣٢٧.
(٣) يشار بذلك إلى الحديث الصحيح الذي أخرجه مصعب بن سعد، عن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجاء به حتى أوقفه على النبي، فقال: يا رسول الله، بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا، ثم أقبل على أصحابه، فقال: (أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟) فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ فقال: (إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين).
أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام، رقم ٢٦٨٣، ٣/ ٥٩، والنسائي في الكبرى، كتاب المحاربة، باب الحكم في المرتد، رقم ٣٥١٦، ٣/ ٤٤٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٣٠٠.
(٤) الكلام للإمام ابن حجر رحمه الله تعالى وجميع علمائنا المسلمين.
(٥) فتح الباري ١١/ ٩.
(٦) انظر: شرح السنة، البغوي ١١/ ٤٣.

في هذا الموضع نقف على صفات العين الخارجة عن المدح والذم، وهي مرتبة حسب ترتيبها المصحفي كما يلي:

١. المسحورة.

هي: العين التي وقع عليها تأثير السحر، فيخيل إليها أنها ترى أشياء غير حقيقية أو واقعية.

أو هي: العين الواقعة تحت التأثير النفسي للسحر، فلا ترى الأشياء على حقيقتها.

وهذا الوصف للعين ورد في موضع واحد من كتاب الله تعالى، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ويلاحظ على الآية الكريمة أمران:

أولهما: أن الله تعالى نسب السحر إلى الأعين، ولم ينسبه إلى الناس أنفسهم؛ للدلالة على أنهم سحروا أعين الناس وعقولهم، أي: خيلوا إلى الأبصار -بما فعلوا من التمويه والتخييل- أن صنيعهم له حقيقة في الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، فتأثيرهم في الرؤية لا في تغيير الحقيقة، ولذا لم يقل سبحانه سحروا الناس[(١)].

ثانيهما: أن لفظ (الأعين) الوارد على أحد أوزان جمع القلة (أفعل)، مراد به الكثرة لا القلة؛ لأن الناس في هذا اليوم جمعهم فرعون من كل حدب وصوب لرؤية هذا الحدث الجلل، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٩: ٤٠].

ونحو ذلك من الآيات المفيدة كثرة الناس في هذا المشهد المهيب، أو أن جمع القلة على بابه والمقصود به طائفة مخصوصة من الناس، وهم قوم فرعون ومن جمعهم لمثل هذا الأمر، والله أعلم.

٢. المبيضة.

هي: العين التي غلب البياض على حدقتها من شدة الحزن، المستلزم لكثرة البكاء فتذهب الرؤية عنها[(٢)].

واخترت هذه التسمية بدلًا من (البيضاء)؛ لأن كلمة (البيضاء) توحي بأن هذا الوصف ذاتي للموصوف، وليس الأمر كذلك، بل جاءها البياض، وغلب على العين بعد ذلك لسبب من الأسباب كالحزن وكثرة البكاء ونحوهما، وهذا الوصف وارد في موطن واحد في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ

(١) انظر: تفسير السمعاني ٢/ ٢٠٤، زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٣٣٩، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣٤٩.

(٢) انظر: تفسير السمعاني ٣/ ٥٨.

﴿ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

والآية مسوقة -كما هو معلوم- ضمن قصة يوسف عليه السلام؛ لبيان عظم حزن أبيه يعقوب عليه السلام عليه، وللمفسرين في ابيضاض العين قولان:

أولهما: أنه ذهب بصره كلية.

ثانيهما: أنه ضعف بصره؛ لبياض حصل فيه من كثرة بكائه[(١)].

وذهب بعضهم: إلى أن الآية من قبيل المجاز، وعليه فقوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ كناية عن غلبة البكاء[(٢)]، وليس ثمة ذهاب للبصر أو بعضه.

وأرجح القول الأول، حيث إن ظاهر القرآن يؤيده في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣] إلى أن قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾[يوسف: ٩٦].

فقوله: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ و﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ يقتضيان سبق العمى، الذي أفضى إليه شدة الحزن وكثرة البكاء، والله أعلم.

ثالثًا: العيون الممنون بها على بعض الأقوام السابقين.

مَنَّ الله تعالى على بعض الأقوام السابقين -كما منَّ علينا أيضًا- ببعض عيون الأرض؛ لإصلاح معايشهم ومنافعهم، ومن هؤلاء الأقوام:

١. قوم هود عليه السلام.

قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف، وهي جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن، وقد جاؤوا بعد قوم نوح عليه السلام، وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة من الطوفان الذي طهر وجه الأرض من العصاة.

وقد وردت هذه القصة في (الأعراف) وفي (هود) مفصلة، كما وردت في سورة (المؤمنون) بدون ذكر اسم هود أو عاد، وهي تعرض هنا في (الشعراء) مختصرة بين طرفيها: طرف دعوة هود لقومه، وطرف العاقبة التي انتهى إليها المكذبون منهم[(٣)]، وقبل هلاكهم ذكرهم نبيهم عليه السلام بعظيم نعم الله تعالى عليهم، والتي منها عيون الماء، ولولاها -بعد الله تعالى- ما كانت لهم حياة ولا وجود ألبتة، لكنهم لم يستجيبوا ولم يؤمنوا فحاق بهم سوء العذاب، وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣١-١٣٥].

هذا ويلاحظ على الآيات الكريمة أمور

(١) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٦٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٩٨.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦١٠.

كما يلي:

أولها: أن سيدنا هودًا عليه السلام استعمل مع قومه في دعوته (أسلوب التفصيل بعد الإجمال) في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٣].

وهذا بلا شك أوقع في النفس، وأبلغ في الموعظة والنصح، ولعل دعاة اليوم يستفيدون من مثل هذه المناهج الدعوية للقرآن الكريم.

ثانيها: ابتدأ هود عليه السلام في تعداد النعم بذكر الأنعام؛ لأنها أجل نعمة على أهل ذلك البلد، فمنها أقواتهم ولباسهم وعليها أسفارهم، وكانوا أهل حل وترحال، وعطف عليها البنين؛ لأنهم نعمة عظيمة، وبها أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعدهم، وكثرة سوادهم وعددهم[(١)].

ثالثها: ثم ذكر عليه السلام (الجنات والعيون) بعد ذلك؛ لأن بها رفاهية حالهم، واتساع رزقهم، وعيش أنعامهم[(٢)].

رابعها: ورود النعم المذكورة بصيغة الجمع يدل على تعددها وتنوعها، فهي ليست واحدة، بل أنعام وبنون وجنات وعيون، وهذا الجمع باعتبار التعدد والتنوع، أو باعتبار انفراد كل واحد من القوم بمجموع هذه النعم، وهذا فيه مزيد إكرام وإنعام لهم، ومع ذلك كله لم يتعظوا ولم ينتفعوا فنزل بهم ما أوعدوا به، والله أعلم.

٢. قوم صالح عليه السلام.

كما ذكر سيدنا هود عليه السلام قومه بنعم الله تعالى عليهم، ذكر سيدنا صالح عليه السلام قومه كذلك، ومما ذكرهم به هذه الجنات والعيون التى أغدقها الله عليهم، والزروع والنخيل المترتبة على هذه العيون، فالعيون ههنا لم توصف بمدح أو ذم، لكنها واردة في مقام الامتنان والتذكير بنعم الله تعالى، ولننظر إلى سيدنا صالح عليه السلام هنا وهو يذكر قومه بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩].

وقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: في هذا الخير والسعة آمنين من الموت في البساتين والأنهار، ويقال: العيون هاهنا الآثار؛ لأن قوم صالح لم يكن لهم أنهار جارية[(٣)].

هذا ويلاحظ على الآيات الكريمة هنا أمران:

الأول: أن العيون جاءت مجموعة أيضًا فهذا لتعددها أو تنوعها، وفي كلٍ مزيد إنعام

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٧٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٩/ ١٧٠.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٦٣.

وإكرام.

الثاني: ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات المعنوية، وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة[1].

٣. بنو إسرائيل.

امتن الله تعالى على بني إسرائيل بمنن عظيمة، وأنعم عليهم بنعم كثيرة متنوعة، ومن ذلك هذه العيون التي رزقهم الله تعالى إياها، والمشار إليها في موضعين من كتابه هما قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ – ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ – ٢٨].

وفي تفسير العيون قولان:

أحدهما: عيون الماء، وهو قول الجمهور.

والثاني: عيون الذهب، قاله ابن جبير[2].

والظاهر ما رجحه الجمهور؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ بعد قوله: ﴿جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، مما يدل على أن العيون للماء وليست للذهب، فالعيون شيء، والكنوز شيء آخر، فضلًا عن أن الذهب أول ما يكتنز من المعادن، فلفظ الكنوز يدل عليه ويشمله، ولا ثمة داع أن يشار إليه ثانية، فلغة القرآن منزهة عن العبث، والتكرار غير المفيد، والله أعلم.

والموضعان يتحدثان عن إرث بني إسرائيل للجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم، التي كانت لقوم فرعون بعد هلاكهم «والمعنى: أخرجناهم من بساتينهم التي فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة، والمواضع التي كانوا يتنعمون فيها؛ لنسلمها إلى بني إسرائيل، وسمى الله الكنوز بهذا الاسم؛ لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى، والمقام الكريم هو المنازل الحسنة والمجالس البهية»[3].

وهذا يقتضي رجوع بني إسرائيل إلى مصر؛ لأن هذه الجنات والعيون والكنوز كانت لفرعون وقومه بمصر، ثم آلت لبني إسرائيل بعد غرق فرعون، فتمتعوا بها فترة معينة، ثم خرجوا إلى الأرض المقدسة التي دعاهم موسى عليه السلام لدخولها كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٥.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٥١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٠٦.

ويلاحظ على هذه الآيات الكريمة أمران:

الأول: أن آيات سورة الشعراء بمثابة التفسير لآيات سورة الدخان، حيث فسرت القوم الآخرين بأنهم بنو إسرائيل، وهذا يعد من قبيل تفسير القرآن بالقرآن، وهو مقدم على كل تفسير.

الثاني: أن العبد بحسن طاعته وإقباله على ربه، يمنحه النعم الكثيرة والهبات الجزيلة، فبنو إسرائيل بإيمانهم أورثهم الله تعالى ما كان لفرعون، ولما طغى فرعون وتأله أهلكه، وأراح منه البلاد والعباد، والله أعلم.

رابعًا: عيون الجنة وحورها:

الناظر في كتاب الله تعالى يجد عددًا غير قليل من الآيات الكريمة، ورد فيه أوصاف لعيون الجنة وحورها مما يثير الاهتمام بها، ويؤهلها لدراسة مستقلة، لذا كانت هذه المسألة، وستكون الأوصاف مرتبة تبعًا لورودها بالمصحف في مسألتين:

١ . عيون الجنة.

١ . الجارية.

هي: العين التي يجري فيها ومنها الماء جريانًا سريعًا كثيرًا، غير بطيء ولا قليل.

والجري: المر السريع، وأصله كمر الماء، يقال: جرى الماء يجري جريًا وجريانًا[(١)].

وقد ورد هذا الوصف للعين في القرآن في موضعين:

قال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢].

وكلا الموضعين ورد وصفًا لعيون الجنة، وجاء الأول بلفظ التثنية موافقة للسياق، وأن من خاف ربه- على خلاف بين المفسرين في المراد - له جنتان من صفتهما أنه ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠].

وهاتان الجنتان تجريان بالزيادة والكرامة على أهل الجنة.

وقيل: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل. وقيل: إحداهما من ماء، والأخرى من خمر. وقيل: تجريان في الأعالي والأسافل من جبل من مسك[(٢)].

فإن كان الجنتان اثنتين لكل من خاف مقام ربه، فلكل جنة منهما عين، فهما عينان لكل من خاف مقام ربه، وإن كان الجنتان جنسين فالتثنية مستعملة في إرادة الجمع،

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٩٤.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢١٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٧٨.

أي: عيون على عدد الجنات، وكذلك إذا كان المراد من تثنية (جنتان) الكثرة كما أن تثنية (عينان) للكثرة.

وفصل بين الأفنان وبين ذكر الفاكهة بذكر العينين مع أن الفاكهة بالأفنان أنسب؛ لأنه لما جرى ذكر الأفنان، وهي من جمال منظر الجنة، أعقب بما هو من محاسن الجنات، وهو عيون الماء؛ جمعا للنظيرين، ثم أعقب ذلك بما هو من جمال المنظر، أعني: الفواكه في أفنانها وملذات أذواقها[1].

أما الإفراد في قوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ فلعله؛ لأن عين اسم جنس، أي: عيون، أو عين مخصوصة ذكرت تشريفًا لها[2]، وقيل: في الجنة العالية عين جارية في غير أخدود[3].

وسواء أكانت عينًا أم عينين أم عيونًا فهذا مما يدل على كرامة أهل الجنة عند المليك المقتدر سبحانه وتعالى، وأنه عز وجل يكرمهم بتعدد ألوان النعيم لهم، وذلك لتعدد أنواع الطاعات منهم، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعًا من أهل منه وكرمه، اللهم آمين.

٢. النضاخة.

العين النضاخة هي: الفوراة شديدة الفوران، كثيرة الماء مع حسنه وجماله.

وفي ذلك يقول صاحب اللسان: والنضخ شدة فور الماء في جيشانه وانفجاره من ينبوعه.

وقال أبو علي: ما كان من سفل إلى علو فهو نضخ، وعين نضاخة تجيش بالماء[4].

ولم يرد هذا الوصف للعين إلا في موضع واحد من التنزيل، وهو قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦].

وعليه فـ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ بمعنى: فوارتان، وجل المفسرين على ذلك، وقال الضحاك: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: ممتلئتان لا تنقطعان[5].

وسواء أكان فورانها بالماء أم المسك والعنبر أم الخير والبركة ونحو ذلك مما ذكره المفسرون[6]، فهذا مما يدل على غاية إكرام الله تعالى لهم أيضًا، مع تعدده وتنوعه، ولا حرج على فضل الله تعالى.

والملحوظ هنا أن الله تعالى وصف العين بالنضخ وهو أدون، وفي الآيات السابقة بالجري، وهو أعظم؛ لأن الجري أقوى من النضخ، والجنات الموصوفة بالنضخ أدون وأقل درجة من السابقة؛ لأنه تعالى قال في هذين دون الأوليين: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

وفي ذلك يقول صاحب (باهر البرهان):

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٦٦.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٤٦٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٨٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٦١، تاج العروس، الزبيدي ٧/ ٣٥٧.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٠٧
(٦) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ١٩٣.

«﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: فوارتان، والنضخ دون الجري، فلذلك كانتا دون الأوليين»[1]. والله أعلم.

٣. الكافور.

الكافور: شجر من الفصيلة الغارية يتخذ منه مادة شفافة بلورية الشكل، يميل لونها إلى البياض، رائحتها عطرية وطعمها مر، وهو الذي يجعل في الطيب، وأصنافه كثيرة[2].

وقيل: هو زيت يستخرج من شجرة تنبت في بلاد الصين، يغلى حطبها ويستخرج منه زيت يسمى الكافور، وهو ثخن قد يتصلب فيصير كالزبد، وإذا وقع حطب شجرة الكافور في الماء صار نبيذًا يتخمر فيصير مسكرًا، ولونه أبيض ذكي الرائحة منعش[3].

وهذا الوصف ورد في موضع واحد أيضًا هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥ - ٦].

والكافور في الآية قيل: هو اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده.

وعن قتادة: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك، وقيل: تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده فكأنها مزجت بالكافور[4].

وقوله: ﴿مِزَاجُهَا﴾ أي: يمازجه ماء هذه العين التي تسمى كافورًا، وقال عكرمة: مزاجها طعمها.

وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها، وقيل: أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده؛ لأن الكافور لا يشرب[5]، وعليه فشراب أهل الجنة هنا من عين ماؤها كالكافور بياضًا ورائحة وبرودة وفضلًا.

والملوحظ هنا أن الله تعالى عبر بقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ولم يقل: (يشرب منها) -مع أنه المتبادر من الكلام- لأمرين:

الأول: أن الفعل (يشرب) عدي بالباء؛ لتضمينه معنى التلذذ أو الارتواء، والمعنى: يتلذذ بها أو يروى بها عباد الله؛ لأن الشرب قد يكون أقل من الارتواء، يؤتى الشخص بإناء يشرب منه، فيشرب، لكن ليس إلى درجة الارتواء، فقد يرتوي وقد لايرتوي، وإذا أتي بشيء يشرب به فلابد أن يرتوي، وعليه (فشرب به) بمعنى ارتوى لغة[6].

(١) انظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، أبو القاسم النيسابوري.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٥٣.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٤٢٠.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ٩٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٣.
(٦) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي ابن أبي

الثاني: أن (شرب به) يفيد معنى الوجود في المكان نفسه، يقال: شربت بالعين، وسكنت بالبلد أي: أقمت فيها؛ لأن الباء قد تكون للظرفية، إذن: شرب بالعين معناها: أنه كان قطعًا موجودًا ومقيمًا فيها أو حولها وشرب، أما شرب من العين ليس بالضرورة أن يكون في العين، إذن اللذة تكون بشيئين: بالمنظر وبالارتواء.

وفي ذلك يقول الراغب رادًا على من ذهب إلى زيادة الباء أو بعضيتها في الآية: «وقال بعضهم: الباء بمعنى (من) في قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨].

وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

والوجه ألا يصرف ذلك عما عليه، وأن العين هاهنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء لا إلى الماء بعينه، نحو: نزلت بعين، فصار كقولك: مكانًا يشرب به»[1].

وعلى هذا فقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ يدل لغة على الارتواء والوجود في المكان حين الشرب، فتجتمع لهم لذة الشرب مع الارتواء، ولذة المقام والوجود وعدم المفارقة، فلاهم يفارقون هذا النعيم وهذه العيون، ولا هي تفارقهم إلى غيرهم، وهذا أبعد للتنغيص والتكدير، ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم، نسأل الله تعالى أن نكون منهم أجمعين.

٤. السلسبيل.

الماء السلسبيل: هو الماء السهل اللذيذ، سلس الجري[2] والمساغ.

وقيل: هو عين في الجنة يوجد منها طعم الزنجبيل، لا يشبه زنجبيل الدنيا، يشربها المقربون صرفًا، ويمزج لسائر أهل الجنة[3].

وورد هذا الوصف أيضًا في موضع واحد من التنزيل، وهو قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧ – ١٨].

والسلسبيل صفة لعين ماء في الجنة -على الراجح- ووصفت بذلك؛ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها، يقال: شراب سلسل وسلسال وسلسبيل، وهو ما كان من الشراب غاية في السلاسة، وجاءت الباء مبالغة في هذا المعنى، والمراد: أنها في طعم الزنجبيل، وليس فيها لذعة بل هي على

طالب ١٢/ ٧٩١٢.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦١، لمسات بيانية، فاضل السامرائي ص١٠٠.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤١٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٠٠، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٦.

نقيض اللذع وهو السلاسة[1].

والزنجبيل: مما كانت العرب تستطيبه جدًا، فوعدهم الله تعالى أنهم يسقون في الجنة الكأس الممزوجة بزنجبيل الجنة[2].

وقال قتادة: سميت بذلك؛ لأنها سلسة منقاد ماؤها حيث شاؤوا[3].

وحكى ابن جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك؛ لسلاستها في الحلق، ورجح الطبري أنها تعم ذلك كله، والأمر كما قال[4]، والله أعلم.

وفي ترجيح كون ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ صفة للعين لا اسمًا لها يقول الطبري، بعد ذكره الأقوال الأخرى: «الصواب من القول في ذلك عندي أن قوله: ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ صفة للعين، وصفت بالسلاسة في الحلق وإنما قلت ذلك أولى بالصواب لإجماع أهل التأويل على أن قوله: ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ صفة لا اسم»[5].

والله عز وجل جمع لأهل الجنة ألوانًا من النعيم والعيون، فجعل شرابهم جامعًا بين برد الكافور وطعم الزنجبيل من غير لذع وريح المسك، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن ذاك تارة، أما المقربون فإنهم يشربون من كلٍ صرفًا، كما قاله قتادة وغير واحد[6]، والله أعلم.

٥. التسنيم.

عين (التسنيم): هي عين يمزج بها الرحيق لأصحاب اليمين في الجنة، وأما المقربون فيشربونها صرفًا، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٥ – ٢٨].

وجل المفسرين على هذا القول.

واللفظ مأخوذ من (سنم) أي: ارتفع، ومنه سنام البعير[7].

والتسنيم: تفعيل من قول القائل: سنمتهم العين تسنيمًا، إذا أجريتها عليهم من فوقهم، فكان معناه في هذا الموضع: ومزاجه من ماء ينزل عليهم من فوقهم فينحدر عليهم[8].

وسميت بذلك؛ لأنها عين في الجنة رفيعة القدر، أو أنها تجري فوق الغرف والقصور، أو لأنها أرفع شراب في الجنة أو أنها تجري في الهواء مسنمة فتنصب في أوانيهم، أو لأن ماءها عند الجري يرى فيه ارتفاع وانخفاض، فهو التسنيم أيضًا، وذلك

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٤٢٣، السراج المنير، الشربيني ٤/ ٤٥٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٦.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٣٨، والطبري في تفسيره ٢٩/ ٢١٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٠٩-١١٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٠٩-١١٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩٢.
(٧) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٢٦.
(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٠٠.

لأن أصل هذه الكلمة للعلو والارتفاع[1].

ولا مانع من الجمع بين هذه الأسباب كلها، ولا حرج على فضل الله تعالى أن تجتمع هذه الصفات لعين التسنيم، وبخاصة أن الجنة فضلت بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والناظر في سياقات الآيات الواردة في عيون الجنة يلحظ أمرين:

الأول: أن بعض هذه العيون ورد في وصفها قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ وقوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ والبعض الآخر ليس كذلك، ومن خلال استقراء كتب التفسير وجدت أن العلة في ذلك المغايرة بين جزاء الأبرار والمقربين، وتفاوت درجة كل منهم، فإذا كان الحديث عن الأبرار جاءت الآيات بالشراب الممزوج بغيره لنزول رتبتهم عن رتبة المقربين، وإذا كان الحديث عن المقربين كان شرابهم خالصًا صرفًا لعلو مكانتهم.

الثاني: ورد في التعبير عن بعضها قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ وذلك حين يكون الحديث عن المقربين؛ للدلالة علي شربهم حتى الري، مع الاستقرار والإقامة في المكان، علي ما سبقت الإشارة إليه، والله أعلم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري٢٤ / ٣٠٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢٩.

٢. الحور العين.

من مشتقات مادة (عين) مجيئها في القرآن الكريم بكسر العين (عين) وصفًا للحور العين، والعين في الأصل جمع (عيناء) وهي المرأة واسعة العين، وهو وصف كذلك للبقر الوحشي.

وورد هذا الوصف في القرآن للحور العين في أربع آيات هي:

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢ – ٢٣].

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يلحظ أمورًا:

الأول: أن الله تعالى وصف الحور فيها بأنهن (عين) وهذا الوصف فسره العلماء بتفسيرين:

- اتساع العين وكبرها مع حسنها وجمالها، ومن ذلك قولهم: امرأة عيناء، وهي الواسعة العين ويقال ذلك لبقر الوحش، ومنه أيضًا: رجل أعين، إذا كان ضخم العين واسعها[2].

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥٥، تهذيب

شدة سواد الحدقة، مع شدة بياض ما حولها، وهذا يضفي علي العين حسنًا وبهاءً، ومنه قولهم: شاة عيناء، إذا اسود عينتها، وابيض سائرها[1]، ولا مانع أن يجمع الله تعالى للحور العين هذين الوصفين وأكثر، بل وأعظم من ذلك؛ إكرامًا لأهل النعيم، فاللهم اجعلنا منهم أجمعين.

الثاني: أنه تعالى وصفهن في بعض الآيات بأنهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ ثم وصفهن ثانية بأنهن ﴿عِينٞ﴾ وكأن الوصف الأخير وارد هنا على سبيل (الاحتراس)[2]، حيث إنه سبحانه لما وصفهن بأنهن قاصرات الطرف؛ لشدة عفتهن وحيائهن -لا من ضعف في العيون أو لعيب فيها- فلما وصفهن بالوصف الأول احترس بالوصف الثاني، حتي لا يظن بهن أي نوع من أنواع العيب يسبب لهن قصر النظر[3]، مع تشبيهن في بقية الآيات بالبيض أو اللؤلؤ المكنون، وهذا فيه من كمال الجمال ما فيه.

الثالث: الاقتصار في وصف الحور على هذه الصفة ﴿عِينٞ﴾ في الآيات المذكورة مما يدل على أنها أصل لما سواها وغنية عنه، وليس سواها كذلك، حتى صارت هذه الصفة بمثابة العلم عليهن، فإذا ذكرت (العين) انصرف الذهن إليهن مباشرة.

وهذا غيض من فيض، وقليل من كثير، مما لم تره عين، أو تسمع به أذن، أو يخطر علي قلب بشر، فاللهم اجعلنا أجمعين من أهل فضلك ورضوانك في الدنيا والآخرة اللهم آمين اللهم آمين.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، البصر، التفكر، الرؤية

اللغة، الأزهري ٣/ ١٣١، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٠٢.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٣١، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٩٩.

(٢) الاحتراس هو: أن يؤتي في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم، وسمى بذلك لأن فيه التوقي والاحتراز عن توهم خلاف المقصود، ويسمى بـ «التكميل» أيضًا.
انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني ٣/ ٢٠٨، الكليات، الكفوي ص ٥٥.

(٣) انظر: القاموس القويم، عبد الفتاح إبراهيم ٢/ ٤٦.

الغرور

عناصر الموضوع

مفهوم الغرور	٦٦
الغرور في الاستعمال القرآني	٦٧
الألفاظ ذات الصلة	٦٨
أسباب الغرور	٧٠
مظاهر الغرور	٧٧
عاقبة الغرور	٨٣
علاج الغرور	٨٧

مفهوم الغرور

أولًا: المعنى اللغوي:

تعددت المعاني اللغوية لمادة غرر، ومن ذلك:

الغرور، بفتح الغين المعجمة الذي يغر، وهو ما اغتر به من متاع الدنيا، ويأتي بمعنى الباطل[١]، والخداع، يقال: « (غره) يغره بالضم (غرورًا) خدعه»[٢]، ويأتي أيضًا بمعنى الحمق، وسمي الأحمق بذلك؛ لأنه يغرك في أول مجلسه بتعاقله، فإذا انتهى إلى آخر كلامه تبين حمقه[٣].

والغرار: النقصان، ومنه: غرار النوم: قلته، ونقصان لبن الناقة[٤].

ويلحظ في المعاني اللغوية أنها تشترك في معنى النقص الذي لا يظهر للوهلة الأولى، حتى الخداع أو الحمق، فإنه لا يظهر كنهه وحقيقته إلا بعد انكشافه، وهما في الحقيقة نقص بمن اتصف بهما.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الغرور: كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان»[٥].

وعرفه الغزالي: «سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان»[٦].

وقال البيضاوي: « إظهار النفع فيما فيه الضرر»[٧].

وقال ابن عادل: «الغرور عبارة عن الحالة التي يستحسن ظاهرها، ويحصل الندم عند انكشاف الحال فيها»[٨].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٢- ١٣.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص ٢٢٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٥٤.
(٤) الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٦٨.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٠٤، وذكر هذا أيضًا الفيروزآبادى في بصائر ذوي التمييز ٤/ ١٢٩.
(٦) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٣٧٩.
(٧) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٩٨.
(٨) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٢٨.

الغرور في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غرر) في القرآن الكريم (٢٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩	﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩]
الفعل المضارع	٦	﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان:٣٣]
المصدر	٩	﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥]
اسم	٣	﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان:٣٣]

وجاء الغرور في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الغين، ص٨٤٧.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٢٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخداع:

الخداع لغة:

المنع، والحيلة، فالخدع: إظهار خلاف ما تخفيه، أو ما كان ظاهره خلاف باطنه[١].

الخداع اصطلاحًا:

إظهار خير يتوسل به إلى إبطان شر يؤول إليه أمر ذلك الخير المظهر، أو هو إظهار ما يخالف الإضمار، والخدعة بالضم: ما يخدع به الإنسان، كاللعبة لما يلعب به[٢].

الصلة بين الغرور والخداع:

الغرور فيه خداع، لأنه يغر الإنسان فيخدعه ويصده عن الصواب إلى الخطأ، وعن الحق إلى الباطل، وهذه مخادعة.

والغرور إيهام يحمل الإنسان على فعل ما يضره، أما الخدع فهو أن يستر عنه وجه الصواب فيوقعه في مكروه[٣].

٢ الوهم:

الوهم لغة:

من خطرات القلب، والجمع أوهامٌ، وللقلب وهمٌ، وتوهم الشيء: تخيله وتمثله، سواء أكان في الوجود أو لم يكن[٤]. وكثيرًا ما يستعمل الوهم في الظن الفاسد[٥].

الوهم اصطلاحًا:

من الوهميات، وهي قضايا كاذبة يحكم بها الوهم في أمور غير محسوسة[٦].

الصلة بين الغرور والوهم:

الغرور إيهام حال السرور فيما الأمر بخلافه، وليس كل وهم غرورًا؛ لأنه قد يوهمه أمرًا

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ١١١، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١/ ١٣٢.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٥٢.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٩.
(٤) انظر، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٣.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٩٤٣.
(٦) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٥، مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي، ص ١٢٨.

مخوفًا ليحذر منه، فلا يكون في هذه الحال قد غره[١].

٣ الكبر:

الكبر لغة:

تدل على خلاف الصغر، والكبر: معظم الأمر، والكِبر: العظمة، وكذلك الكبرياء[٢].

الكبر اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «الكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره»[٣].

الصلة بين الغرور والكبر:

الغرور نتيجة المغالاة في الكبر والفخر بغير وجه حق، والجامع بينهما الاستعلاء.

٤ العجب:

العجب لغةً:

العُجب: الزهو والكبر، ورجلٌ معجبٌ: مزهوٌ بما يكون منه حسنًا أو قبيحًا[٤].

العجب اصطلاحًا:

مسرة بحصول أمر، يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله، بقول أو ما في حكمه من فعل أو ترك أو اعتقاد[٥].

الصلة بين الغرور والعجب:

أقرب ما يكون العجب إلى الكبر، وهما معا يعدان مدخلا للغرور، غير أن الفرق بين الكبر والإعجاب يتجلى في كونهما قد يجتمعان في الذم ويفترقان في المعنى، فالإعجاب يكون في النفس وما تظنه من فضائلها، والكبر يكون بالمنزلة وما تظنه من علوها[٦].

---

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٩.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٣-١٥٤.
(٣) المفردات ص٥٤٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٢.
وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٤٣، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٩٣، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٣١٨.
(٥) البحر الزخار، ٦/ ٤٩٠ .
(٦) انظر: درر السلوك في سياسة الملوك، الماوردي ص ٦٠.

أسباب الغرور

للغرور أسباب متعددة، عرض إليها القرآن الكريم، وحث على الانتباه إليها والحذر منها؛ كي لا يكون المؤمن من أصحاب الغرور والغفلة، وفيما يأتي عرض لأهم الأسباب وفق النقاط الآتية:

أولًا: الفهم الخاطئ للدين:

حرف الكفار دينهم وأمدهم الشيطان بالأماني الكاذبة، فبدلوا وغيروا وفق أهوائهم، وافتروا على الله واختلقوا الأكاذيب، وهم بعد ذلك كله يوهمون أنفسهم أن ما اختلقوه من الباطل صواب، وأن تمنيهم على الله ينجيهم، وعن هؤلاء قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

والمعنى: غرهم وأطمعهم وثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم، من زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه[(١)].

وقيل: هو قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، وهي أربعون يومًا -وهن الأيام التي عبدوا فيها العجل- ثم يخرجنا منها ربنا، اغترارًا منهم. وقيل: غرهم قولهم: نحن على الحق وأنتم على الباطل[(٢)]، وأن الله قد وعد أباهم يعقوب أن لا يدخل أحدًا من ولده النار إلا تحلة القسم[(٣)].

ونتيجة لهذا الغرور الباطل توعدهم الله تعالى بالوعيد الشديد والعذاب الأليم قائلا سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

فأكذبهم الله على ذلك كله، وفي هذا تهديد لهم واستعظام لما أعد لهم في ذلك اليوم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم فيه، وإن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وطمع فيما لا يكون ولا يحصل لهم[(٤)].

وفي هذا تنبيه للعلماء العاملين المخلصين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن لا يشتروا بدين الله ثمنا قليلا، وأن يحفظوا على الناس دينهم، فلا يغتروا بما في أيدي الناس من متاع الدنيا فيلبسوا عليهم دينهم، وعليهم أن يتذكروا أن الله تعالى سائلهم عما ائتمنهم، ومحاسبهم على أقوالهم، ومجازيهم على أفعالهم.

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٠٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٩٢، تفسير ابن أبي حاتم، ٢/ ٦٢٣، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٣٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٩٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٩٢، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٣٥ .

ومن الآيات التي حذرت من التلاعب بالدين: قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١].

فهؤلاء تلاعبوا بالدين الذي شرع لهم، واتخذوه لهوًا ولعبًا، أي: أكلًا وشربًا. وقيل: هو ما زينه الشيطان لهم من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك من خصال الجاهلية[(١)].

ثانيًا: متاع الحياة الدنيا:

تشغل الدنيا قلوب الناس جميعا غير أن الناس يتفاوتون بمقدار ما تأخذ الدنيا من ألبابهم وعقولهم وأفعالهم، فمن شغلته الدنيا عن الآخرة هلك، ومن اشتغل فيها بطاعة الله واتخذها سلما للآخرة نجا، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

أي: وما لذات الدنيا وشهواتها وما فيها من زينتها وزخارفها إلا متعة يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل الذي لا حقيقة له عند الامتحان، ولا صحة له عند الاختبار. فأنتم تلتذون بما متعكم الغرور من دنياكم ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره، وفي هذا تحذير لكم من الركون إلى الدنيا فتسكنوا إليها، فإنما أنتم منها في غرور تمتعون، ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون[(٢)].

فالغرور في الآية «الخدع والترجية بالباطل، والحياة الدنيا وكل ما فيها من الأموال فهي متاع قليل تخدع المرء وتمنيه الأباطيل»[(٣)].

فشبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه، وهذا لمن آثرها على الآخرة. فأما من طلب بها الآخرة فهي له متاع بلاغ»[(٤)].

أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن سابط في قوله ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال: «كزاد الراعي، تزوده الكف من التمر، أو الشيء من الدقيق، أو الشيء يشرب عليه اللبن»[(٥)].

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن موضع سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٩/ ١٦٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٢٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٥٣.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٥٠.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٥٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٥٣.

فيها، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

وقد حذر القرآن الكريم من الاغترار بالحياة الدنيا فقال جل شأنه مخاطبًا الناس جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

يعني: «لا يغرنكم ما في الدنيا من زينتها وزهوتها، فتركنوا إليها وتطمئنوا بها وتتركوا الآخرة والعمل لها»[2].

وأرشد القرآن الكريم إلى أن الوقوع في غرور الدنيا عاقبته وخيمة ونتائجه أليمة، فبينت الآيات أن جهنم عاقبة من اغتر وغوى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

وقد يتجاوز الغرور الكفار إلى المؤمنين، فالحياة الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعًا غرور، فيلحق الغرور المؤمنين إذا ضيعوا أمر الله تعالى -وهي الأعمال الصالحة- وتدنسوا بالشهوات، فهم وقتئذ يشاركون الكفار في الغرور[3].

ثالثًا: أصدقاء السوء:

إن الصحبة الصالحة طريق إلى الجنة، أما المبطلون والمفسدون الذين ملكت الدنيا عليهم مجامع النفوس وشغلتهم عن علام الغيوب، فما عسى أحدهم أن يرشد خليله! وإلى أين سيأخذ بيده وناصيته؟! إنه يقوده إلى الهلاك، وإلى طريق السعير وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

أي: وما يعد ﴿بَعْضُهُم﴾ وهم الرؤساء من المشركين، يعد بعضهم ﴿بَعْضًا﴾ وهم الأتباع، ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو قولهم لأتباعهم أن الأصنام تشفع لهم، وأنه لا حساب عليهم ولا عقاب[4]، وذلك تغرير من الرؤساء للأتباع، ومن السلف إلى الخلف.

أما الذين لا ينجرون وراء غرور من يعايشونهم ويخالطونهم فإنهم يسلمون من الاقتران بهم في الهاوية والعذاب الأليم يوم القيامة، وفي هذا حوار المغرورين مع المتقين يوم القيامة قبل أن يضرب الله بينهما

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بابٌ: ومن سورة آل عمران، رقم ٣٠١٣، ٥/ ٢٣٢. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢٧، رقم ٦٦٣٥.

(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٣١.

(٣) انظر: أصناف المغرورين، الغزالي ص ٢٦.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦١٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥١٤.

سورا: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

وفي الآيات تحذير من قرناء السوء، فلا يجر قرين السوء لقرينه إلا الهلاك والثبور، ثم إنه يتبرأ منه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وعندها يتمنى التابع المتابع للرؤساء الظلمة لو أن له عودة للدنيا فيتبرأ منهم، ولكن حين لا تنفع الأماني ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

إن مجالسة أصحاب الأهواء والضلال تورث مجالسهم القسوة، وتجعله شريكا في إثم المجلس وإن لم يشاركهم الإثم، وفي هذا جاء القرآن محذرا من مجالستهم، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

رابعًا: الشيطان:

يعد الشيطان من أخطر مداخل الغرور إلى الإنسان، فهو مخادع كذاب، وكان الإغواء والغرور في مستهل جولاته مع أبي البشر آدم وحواء عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢١- ٢٢].

فقد أقسم إبليس وحلف لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ يعني: فخدعهما بغرور، يقال: ما زال فلان يدلي فلانا بغرور، يعني: ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل. ومعنى الآية أن إبليس لعنه الله غر آدم باليمين الكاذبة، وكان آدم عليه الصلاة والسلام يظن أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا، وإبليس أول من حلف بالله كاذبا، فلما حلف إبليس ظن آدم أنه صادق فاغتر به[1].

وذكر الأزهري لهذه اللفظة أصلين: أحدهما أن الرجل العطشان يتدلى في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء، فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا يجدي نفعا، والغرور إظهار النصح مع إبطان الغش، وهو أن إبليس حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية؛ لأن التدلي لا يكون إلا من علو إلى أسفل، والأصل الثاني لقوله ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: جرأهما على أكل الشجرة،

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٨٨-١٨٩ .

وأصله: دللهما من الدلال والدالة وهي الجراءة[1].

وقد حذرنا الله تعالى من غدر الشيطان وغروره قائلًا: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

قال أبو حيان: «والغرور: الشيطان بإجماع»[2]، وهو مروي عن ابن عباس ومقاتل وغيرهما، والمعنى: لا يخدعنكم بالله الشيطان، فيمنيكم الأماني، ويعدكم من الله العدات الكاذبة، ويحملكم على الإصرار على كفركم بالله[3].

قال القرطبي: «والغرور بفتح الغين: الشيطان، يغر الناس بالتمنية والمواعيد الكاذبة. قال ابن عرفة: الغرور ما رأيت له ظاهرا تحبه وفيه باطن مكروه أو مجهول. والشيطان غرور؛ لأنه يحمل على محاب النفس، ووراء ذلك ما يسوء. قال: ومن هذا بيع الغرر، وهو ما كان له ظاهر بيع يغر وباطن مجهول»[4].

والملاحظ في الآيات التحذير الشديد من الاغترار بالشيطان، فعلى الإنسان أن يخذله ويكذبه فيما يغره فيه حتى لا يكون تبعا له.

خامسًا: الأماني الباطلة:

قال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

والأماني: هي الأطماع، مثل قولهم: سيهلك محمد هذا العام. أو طول الآمال في امتداد الأعمار ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت على النفاق[5].

وقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

«معنى وعد الشيطان ما يصل مفهومه إلى قلب الإنسان، من نحو ما يجده من أنه سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعتلي على أعدائك، فإنما الدنيا دول، فستدور لك كما دارت لغيرك، وكل هذا غرور وتمنية وتطويل للأمل، وسيهجم عن قريب عليه الأجل، وقد أبطل أيام عمره في رجاء ما لم يدرك منه شيئًا، فالعاقل من لم يعرج على هذا، وجدَّ في الطاعة ما أمكنه، وعلم أنه سينقطع عن الدنيا قريبًا، وعد نفسه

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ١/ ١١٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٨٩.
(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ١٠/ ١٠٧.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٤٤٠، جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٣٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٠٢.
(٥) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ١٠/ ١٠٧، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٠٥.

من الموتى، وصدق الله في قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: إلا ما يغرهم بإيهام النفع فيما فيه الضر»[1].

وقال ابن جرير: «يعد الشيطان المريد أولياءه الذين هم نصيبه المفروض: أن يكون لهم نصيرًا ممن أرادهم بسوء، وظهيرًا لهم عليه، يمنعهم منه ويدافع عنهم، ويمنيهم الظفر على من حاول مكروههم والفلج عليهم»[2].

ومن المعلوم أن عدات الشيطان غرور وكذب، وأن أمانيه باطلة، حتى إذا حصحص الحق وصاروا إلى الحاجة إليه تنصل من وعوده إليهم، وفر من نصرتهم بعد أن وقعوا في وبال خداعه، عندها يقول لهم عدو الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾[إبراهيم: ٢٢].

هذه عادة الشيطان في الإغواء والإضلال، وكذا كان حاله مع مشركي مكة قبيل معركة بدر، يُمنِّيهم الأماني الكاذبة بالنصر والظفر، ويزين لهم أعمالهم قائلا لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[الأنفال: ٤٨].

فلما تقابل المسلمون مع المشركين وحصحص الحق وعاين الشيطان جد الأمر ونزول عذاب الله بحزبه ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فصارت عداته -عدو الله- إياهم عند حاجتهم إليه غرورًا كالسراب، وأصبحت أمانيه إياهم باطلة[3].

سادسًا: الاغترار بإمهال الله تعالى وسعة رحمته:

يغتر الكفار كثيرًا بإمهال الله لهم وتأخيره العذاب عنهم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]

قال الواحدي في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾: « أي: بحلم الله وإمهاله»[4].

ثم إن كثيرًا من الناس يرتكبون الذنوب ويغترون بعفو الله تعالى وصفحه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

قال الزجاج: « أي ما خدعك وسول لك

(١) التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ١٠٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٢٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ٩/ ٢٢٥.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٧.

حتى أضعت ما وجب عليك»؟![1].

والمعنى: أي شيء غرك وجرأك وسول لك حتى ارتكبت ما ارتكبت بحق ربك الكريم الذي تجاوز عنك في الدنيا ولم يعاقبك؟![2].

«وقرأ ابن جبير والأعمش: «ما أغرك»، فاحتمل أن تكون استفهامية، وأن تكون تعجبية، ومعنى «أغره»: أدخله في الغرة، أو جعله غارًّا»[3].

وإنما قال (ما غرك بربك الكريم) لطفًا بعبده، وتلقينًا له حجته وعذره ليقول: غرني كرم الكريم. وقال الفضيل: لو سألني الله تعالى هذا السؤال لقلت: غرني ستورك المرخاة. وروي أن عليًّا صاح بغلام له مرَّات فلم يلبه، ثم أقبل فقال له: مالك لم تجبني؟ فقال: لثقتي بحلمك وأمني عقوبتك. فاستحسن جوابه وأعتقه[4].

ويستفاد من الآية أنه يجب على المرء أن لا يغتر بكرم الله تعالى وعفوه وسعة رحمته وتفضله بالإنعام على عباده، فيرتكب المعاصي والذنوب ركونا إلى عفوه وغفرانه، فإن ذلك كفر للنعمة وخروج عن الحكمة في مقابلة المن والعطاء بالجحود والكفران، فمن فعل فمصيره الهلاك والخسران.

ومن غرور كفار أهل الكتاب طمعهم بمغفرة الله تعالى ورضوانه، وقولهم: سيغفر لنا. وادعاؤهم أنهم أحباب الله وأبناؤه، وأن الله لن يعذبهم بذنوبهم، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، ومنه: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

أي: تلك أمانيهم التي تمنوها على الله باطلًا[5].

وقد يطال الاغترار بإمهال الله تعالى وسعة رحمته عصاة المؤمنين لقولهم: إن الله غفور رحيم. وإنما يرجى عفوه فاتكلوا على ذلك وأهملوا الأعمال، وذلك من قبيل الرجاء، واتكؤوا على أن رحمة الله واسعة ونعمته شاملة وكرمه عميم، وإنهم موحدون يرجوه بوسيلة الإيمان والكرم والإحسان[6].

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٩٥.
(٢) انظر: تفسير السمعاني ٦/ ١٧٣، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤١٠.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ١٩٦.
(٤) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي، ص ٥٦٢.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ٣/ ٢٤٥.
(٦) انظر: أصناف المغرورين، الغزالي ص ٢٩، إحياء علوم الدين، الغزالي، ٣/ ٣٨٤.

مظاهر الغرور

بين القرآن الكريم مظاهر الغرور ومعظمها يندرج تحت البعد عن الدين والاغترار بالحياة الدنيا وزينتها وزخرفها، وتتجلى صفة الغرور في فتنة الدنيا كونها لذة سريعة الزوال لا دوام فيها ولا بقاء، فينخدع الإنسان بها ويفتتن ببهائها وزينتها ثم إنها سرعان ما تزول وكأنها لم تكن، ومن هذه المظاهر:

أولًا: التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد:

ما أن يعي الإنسان على الدنيا إلا ويكبر معه هم جمع المال وإنجاب الأبناء ذكورهم قبل إناثهم، حتى إن نظرة الرجل لإنجاب الذكور هي استمرار لتعلقه في الدنيا بعد موته، باعتبار أنهم من سيحملون اسمه، غير أن المال والولد كدمى الأطفال التي يلهون بها ساعة ثم يتركونها، وكذا المال والولد ومفاتن الدنيا يوم القيامة، فإنها إن كانت في طاعة تنفع يوم الشفاعة، وإن كان في معصية زالت لذتها وبقيت حسرتها.

قال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

جاءت هذه الآية في أعقاب آية سابقة لها تحث على الصدقة وتحرض على الإنفاق، ومناسبتها لما قبلها دحض سبب الشح المتمثل في الحرص على استبقاء المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا، فضرب لهم مثل الحياة الدنيا بحال محقرة على أنها زائلة تحقيرا لحاصلها وتزهيدا فيها؛ لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح[(١)].

والمعنى في الآية: «اعلموا أيها الناس إن متاع الحياة الدنيا المعجلة لكم ما هي إلا لعب ولهو تتفكهون به، وزينة تتزينون بها، وتفاخر بينكم، يفخر بعضكم على بعض بما أولى فيها من رياشها، ويباهي بعضكم بعضا بكثرة الأموال والأولاد»[(٢)].

وقد ضرب الله تعالى للدنيا مثلًا آخر، وهو مثل مطر نزل من السماء فنبت به الزرع، ففرح الزارع بنباته، ويقال:(أعجب الكفار) يعني: الكفار بالله، لأنهم أشد إعجابًا بزينة الدنيا من المؤمنين، ثم إن هذا الزرع ييبس فيتغير فتراه مصفرًا بعد خضرته ثم يكون يابسًا وحطامًا هالكًا، وكذا متاع الحياة الدنيا[(٣)].

قال سعيد بن جبير: «الغرة من الله أن يصرَّ العبد في معصية الله ويتمنى على الله

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٠٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٩٣.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٤٠٨.

في ذلك، والغرة في الدنيا أن يغتر بها وأن تشغله عن الآخرة أن يمهد لها ويعمل لها، وأما متاع الغرور فهو ما يلهيك عن طلب الآخرة، فهو متاع الغرور، وما لم يلهك فليس بمتاع الغرور، ولكنه متاع بلاغٍ إلى ما هو خيرٌ منها»[1].

وعلى هذا فالحياة الدنيا غير مذمومة، بل المراد أن من صرف هذه الحياة الدنيا لا إلى طاعة الله بل إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى، فذاك هو المذموم[2].

وهذا شأن النفوس المريضة، إذا أنعم الله عليها صاحبها الغرور والبطر، وإذا أبليت قابلت البلاء بالضجر.

فيا عجبًا من إنسان إذا أنعم الله عليه أُعجب بنفسه، وتكبر مختالًا في زهوه، لا يشكر ربه، ولا يذكر فضله، ويتباعد عن بساط طاعته[3]، ثم هو يغتر بما رزقه بدلاً من شكره، فيفتري على الله بقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]!

ثانيًا: رد النصيحة، والجدال بالباطل:

ينظر المغرور إلى نفسه نظرة إعجاب، ويظن أن الحق ما قال ولا سواه، وأن الصواب ما فعل ولا يصح غيره، فلا يسمع الحق من أصحاب الحق، لأن غروره عمى قلبه وبصره، فهو يجادل في آيات الله، ولا يقبل نصيحة من أحد ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٤-٥].

أي: يماري في آيات الله ويخاصم بهوى نفسه وطبع جبلة عقله[4].

والملاحظ في الآيتين أن الجدل في الآيات جاء بعده عدم قبول النصيحة من الأنبياء، ومن ثم تكذيبهم، وهذا بسبب الغرور بالباطل.

وكذا كان موقف الأمم التي غرها في دينها ما كانت تعبد من دون الله، فلم تقبل نصح أنبيائها، قال قوم نوح لنبيهم: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [هود: ٣٢ - ٣٤].

والنصح: «إخلاص العمل عن الفساد. وقيل: إنه بيان موضع الغي ليجتنب، وبيان

(١) انظر: الزهد، نعيم بن حماد ٢/ ٣٥، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٩٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٦٣.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٣٣٨.
(٤) تفسير التستري ص١٩.

موضع الرشد ليطلب»[1].

وقال صاحب المنار: «النصح تحري الصلاح والخير للمنصوح له والإخلاص فيه قولًا وعملًا، والمعنى: إن نصحي لكم لا ينفعكم بمجرد إرادتي له فيما أدعوكم إليه، وإنما يتوقف نفعه على إرادة الله تعالى، وقد مضت سنته تعالى بما عرف بالتجارب أن نفع النصح له شرطان أو طرفان، هما الفاعل للنصح والقابل له، وإنما يقبله المستعد للرشاد، ويرفضه من غلب عليه الغي والفساد بمقارفة أسبابه من الغرور بالغنى والجاه والكبر»[2].

وعلى شاكلة قوم نوح كان قوم صالح، فلم يتعظوا بنصحه لهم وقالوا لنبيهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف:٧٧-٧٩].

ثالثًا: البغي والاستكبار:

البغي: التعدي، وبغى الرجل على الرجل: استطال. وبغت السماء: اشتد مطرها، وبغى الوالي: ظلم، وكل مجاوزة في الحد وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو بغي[3]، والبغي في عدو الفرس اختيال ومرح[4].

وأما التكبر والاستكبار فهما بمعنى التعظم[5].

ومن معاني الاستكبار: «أن يتشبع المرء فيظهر من نفسه ما ليس له، وهو مذموم، ومنه ما ورد في القرآن نحو ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]»[6].

والمعنيان السابقان للبغي والاستكبار يلتقيان مع الغرور في كون الغرور يشمل كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة، وكونه سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وما البغي والاستكبار إلا متابعة للنفس على هواها وتحقيق لنزواتها ومبتغاها فيما يستحسن ظاهره، ويحصل الندم عند انكشاف الحال فيه، وكذا هو الغرور.

والملاحظ أن التضرع إلى الله يكون في حال الشدة والبلاء، أما في حال الخير والرخاء فإننا نجد عند كثير من الناس الكبر والبغي والبطر والغرور.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ

(١) تفسير السمعاني ٢/ ٤٢٦.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٥٩.
(٣) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٨١.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٧٩، البارع في اللغة، أبو علي القالي، ص٤٣٧.
(٥) مختار الصحاح، الرازي ص٢٦٥.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٤٩.

أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣].

والبغي العمل في الأرض بالفساد وبالمعاصي، من بغى الجرح إذا فسد، وأصله الطلب، أي: يطلبون الاستعلاء بالفساد. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالتكذيب، ومنه بغت المرأة بغاءً إذا فجرت فطلبت غير زوجها[(١)].

وقيل في معنى البغي أيضا أنه: «الكبر، وقيل: هو الظلم. وقيل: الحقد. وقيل: التعدي. وحقيقته: تجاوز الحد، فيشمل هذه المذكورة ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر، وإنما خص بالذكر اهتمامًا به لشدة ضرره ووبال عاقبته، وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها»[(٢)].

والباغي الذي اغتر بقوته وكبريائه ما يضر إلا نفسه، لأن وبال بغيه عائد إليه، فقد يمتع ببغيه متاع الحياة الدنيا ثم يعود إليه وبال بغيه في الدنيا وفي الآخرة أيضا، وفي الآية إيماء إلى أن البغي مجزي عليه في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ولما جاء في الحديث: (ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم)[(٣)]، وأما في الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد.

والخلاصة: إن البغي -وهو أشنع أنواع الظلم- يرجع على صاحبه؛ لما يولد من العداوة والبغضاء بين الأفراد، ولما يوقد من نيران الفتن والثورات في الشعوب، فمن يبغي على مثله تجده قد خلق له عدوًّا أو أعداءً ممن يبغي عليهم[(٤)].

ومن صور البطر والغرور بدلا من الحمد والشكر غرور قارون الذي ظن أن ما أوتيه بفضل منه لا تفضلا من المنعم، ويلحق به أيضا اغترار قوم قارون بما أوتيه قارون: قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦].

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بكثرة ماله، كأنه جاوز الحد بالتكبر والتجبر عليهم، فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره، أو ظلمهم[(٥)].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٢٦.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ٧/ ٣٠٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب النهي عن البغي، رقم ٤٩٠٢، ٧/ ٢٦٣، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٦٦٥.
قال الترمذي: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(٤) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٩١.

(٥) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٧/ ٤٤٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٣.

رابعًا: الاستهزاء بآيات الله تعالى:

إن هؤلاء استهزؤوا بآيات الله لأنهم اغتروا في الحياة الدنيا، فهم طمعوا في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال وقوة الجاه، فاشتدت رغبتهم في هذه الأشياء، وأصبحوا محجوبين عن طلب الدين غارقين في طلب الدنيا؛ فاتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا[(١)].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١].

«يعني: أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم ولهوا عنه، وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. ويقال: لهوت بكذا ولهيت عن كذا أي: اشتغلت عنه»[(٢)].

وقد اتخذ المشركون اللهو واللعب دينًا لأنفسهم، وهو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة وأخواتها، والمكاء والتصدية حول البيت، وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية. وخدعهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته، وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الإيمان بالله ورسله، وعن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية على ذلك. والغرة غفلة في اليقظة، وهو طمع الإنسان في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات، فإذا حصل ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص؛ لأنه غريق في الدنيا بلذاته[(٣)].

قال ابن عباس: «وذلك أنهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم إليه وهزؤوا به اغترارًا بالله»[(٤)].

وعلى شاكلة آية الأعراف السابقة كانت آية الجاثية، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

والمعنى: «ذر هؤلاء الذين اتخذوا دين الله وطاعتهم إياه لعبًا ولهوًا، فجعلوا حظوظهم من طاعتهم إياه اللعب بآياته، واللهو والاستهزاء بها إذا سمعوها وتليت عليهم، فأعرض عنهم، فإني لهم بالمرصاد، وإني لهم من وراء الانتقام منهم والعقوبة لهم على ما يفعلون، وعلى اغترارهم بزينة الحياة الدنيا ونسيانهم المعاد إلى الله تعالى

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ١٣٥.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠٥.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٩٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٧٥.

ذكره والمصير إليه بعد الممات»[1].

قال ابن عباس: «يعني: الكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزؤوا بها وتلاعبوا عند ذكرها»[2].

وقال مقاتل: «اتخذوا دينهم الإسلام لعبًا، يعني: باطلًا ولهوًا عنه»[3].

خامسًا: الانغماس في الشهوات والشبهات:

إن الركون إلى الدنيا ومفاتنها وشهواتها يعد المدخل الرئيس للانزلاق في الشبهات والتزوير في العقائد رجاء موافقة الهوى، فالفتنة مقدمة للغرور.

وقال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

يعني: ينادي المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم وبقوا في الظلمة ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: في الدنيا نصلي ونصوم، ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات، وكلها فتنة، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: بالإيمان والتوبة، وقيل: تربصتم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقلتم: يوشك أن يموت فنستريح منه، ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في نبوته وفيما أوعدكم به ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: الأباطيل، وذلك ما كنتم تتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني: الموت، وقيل: هو إلقاؤهم في النار، وهو قوله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني الشيطان، قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار[4].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١].

«يعني أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم ولهوا عنه. وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه»[5].

سادسًا: التسويف والأماني الباطلة:

قال ابن الجوزي: «فمن الناس من يغره تأخير العقوبة، ومنهم من كان يقطع بالعفو، وأكثرهم متزلزل الإيمان، فنسأل الله أن يميتنا مسلمين»[6].

فالكفار كانوا يسوفون ويؤخرون في توبتهم إلى الله، ويمنون أنفسهم بعفوه وغفرانه.

(١) المصدر السابق ١١/ ٤٤١.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٨/ ٢١٤.
(٣) تفسير السمرقندي ١/ ٤٥٨.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٤٩.
(٥) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٩/ ١٦٠، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠٥.
(٦) صيد الخاطر، ابن الجوزي ص٤٠٢.

وقال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

قال الزمخشري: «﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وغركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم»[(١)].

فهذا خداع من الشيطان بإمهال الله للإنسان وحلمه عليه، وأن هذا الإمهال مدعاة للرضا عنهم وعدم إنزال العذاب عليهم.

قال الطبري: «خدعكم بالله الشيطان، فأطمعكم بالنجاة من عقوبته والسلامة من عذابه»[(٢)].

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٧٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٨٥.

عاقبة الغرور

بين القرآن الكريم عاقبة الغرور، وبيانها في النقاط الآتية:

أولًا: الاستدراج:

الاستدراج هو الإمهال والتأخير إلى أجل، فإن الله تعالى قد يعطي الكفار من الدنيا مع جحودهم وشركهم ما لا يعطيه للمؤمنين، ومن هنا جاء الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد به أمته: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧].

والمراد تصرفهم في التجارات والمكاسب، أي: لا يغرنكم أمنهم على أنفسهم وتصرفهم في البلاد كيف شاؤوا وأنتم معاشر المؤمنين خائفون، فإن ذلك لا يبقى إلا مدة قليلة ثم ينتقلون إلى أشد العذاب، وإنما وصفه الله تعالى بالقلة؛ لأن نعيم الدنيا مشوب بالآفات والحسرات، ثم إنه بالعاقبة ينقطع وينقضي[(٣)].

قال ابن كثير: «لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٧٢.

نمد لهم فيما هم فيه استدراجا»[1].

وقال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤].

فلا يغررك إمهالهم وإقبالهم في دنياهم، وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة، والتكبر والتجبر بغير حق، فإنهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم[2].

ثانيًا: الضلال:

لما أن كان الغرور من عمل الشيطان وتزيينه للنفوس أصبح من انساق إليه كأنما تتبع خطوات الشيطان وسار على نهجه واكتسب بعضا من صفة الغرور عنده.

قال تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠].

والإضلال: الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية، أو هو الدعاء إلى ترك الدين وتقبيحه في عينهم[3].

والملاحظ هنا أن الإغواء والتغرير الذي قام به إبليس عندما شعر بعلوه وتكبره قام به أيضا فرعون بعد أن زهت نفسه واختالت فاغتر بنفسه ودعا قومه إلى الضلال موهما إياهم أنه طريق الرشاد، وهو في الحقيقة ضلال مبين، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

ولما أن كان الشيطان المصدر الرئيس للتغرير بين الناس وكان لا يصدر عن تغريره إلا الضلال تلاه أهل الباطل في تغرير بعضهم بعضًا؛ لإضلالهم عن طريق الهداية.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

ثالثًا: استحقاق العقاب:

إن العذاب الأليم مصير المغرور الذي بدل في دين الله وشك في عطائه، وظن في نفسه من الصفات ما لا تجوز إلا لله.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٩٢.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٥١.
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٤٧٢، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٩٦.

﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

والجريمة التي اقترفها هؤلاء كما قال ابن عباس: «أنهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم إليه وهزؤوا به، اغترارًا بالله»[(١)].

وكان من عقوبتهم نسيان الله لهم يوم القيامة، ومعنى الآية: عن ابن عباس قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر، والمعنى: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السدي: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يقول للعبد يوم القيامة: (ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس، وتربع؟ فيقول: بلى، أي رب. فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني)[(٣)].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

في الآية دلالة على أنهم مأيوس من الرضا عنهم يوم الحشر بحيث يعلمون أن لا طائل في استعتابهم، فلذلك لا يشير أحد عليهم بأن يستعتبوا، وقد يكون المعنى أنهم يطردون ولا يجدون من يشير عليهم بأن يستعتبوا[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

فهؤلاء لما جعلوا اللعب واللهو دينًا أو اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعبًا ولهوًا فقد أسلموا أنفسهم للهلاك، أو ارتهنوها للهلاك جزاء فعلهم، وقال العوفي: أسلموا إلى خزنة جهنم[(٥)].

وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٧٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقاق، رقم ٢٩٦٨، ٤/ ٢٢٧٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٤٥.
(٥) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٨/ ٢١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٠٥.

[الأعراف: ١٦٩].

جاءت هذه الآية في حق اليهود الذين ورثوا التوراة وتابعوا أسلافهم على المعاصي وضيعوا العمل بما فيها، ومع إقدامهم على هذا الذنب العظيم يتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة بأن الله سيغفر لهم، وإن وجدوا من الغد مثله حلالا كان أو حراما أخذوه وتمنوا على الله المغفرة[(١)].

قال مجاهد: «يعني: يأخذون ما يجدون حلالًا أو حرامًا ويتمنون المغفرة»[(٢)].

وهذا الغرور مهلك لأنه عكس ما ينبغي للمرء أن يكون، فالمؤمن ينبغي أن يبتعد عن الذنوب وأن لا يحرص على الدنيا، ويتهم نفسه بالتقصير، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب بين يدي الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله). ومعنى قوله: (من دان نفسه) يقول: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة»[(٣)].

وفي هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا تخفى منكم خافيةٌ»[(٤)].

ومن غرور الإنسان بالله تعالى ظنه أن مقامه في الجنة رغم فسقه وفجوره، قال تعالى في وصف هؤلاء: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]

ترسم هذه الآية صورة الإنسان الذي لا يميز بين عطاء الله وبلائه، فهو يحسب أن ما أوتي من نعيم الدنيا لأجل أن الله تعالى يحبه، وأن له حظوة سيأخذها إن رد إلى الآخرة.

قال سيد قطب في وصف هذا المغرور: «انتفخ في عين نفسه فراح يتألى على الله، ويحسب لنفسه مقاما عنده ليس له! وهو غرور، عندئذ يجيء التهديد في موضعه لهذا الغرور: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهذا الإنسان

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٦٥.

(٢) انظر: تفسير مجاهد ص ٣٤٦، جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢١٢، تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٠٧، تفسير ابن زمنين ٢/ ١٥١، تفسير السمرقندي ١/ ٥٦٢.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في صفة أواني الحوض رقم ٢٤٥٩، ٤/ ٦٣٨، وابن ماجه في سننه كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم ٤٢٦٠، ٢/ ١٤٢٣ وأحمد في مسنده ٢٨/ ٣٥٠.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ٥٣١٩، ١١/ ٤٩٩.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٩٦.

إذا أنعم الله عليه استعظم وطغى وأعرض ونأى بجانبه، فأما إذا مسه الشر فيتخاذل ويتهاوى ويصغر ويتضاءل»[1].

فهو لما ظن أن له الحسنى في الآخرة قاس أمر الآخرة على أمر الدنيا[2].

علاج الغرور

من رحمة الله تعالى بنا أن أبان لنا في كتابه الكريم الداء وأتبعه بالعلاج الذي فيه الشفاء، فآيات القرآن الكريم تزخر في المقابلات بين الخير والشر، الإيمان والكفر، والنفقة والبخل، والجنة والنار، وفي ذلك إرشاد للمرء بأن يختار ما هو أهدى سبيلًا.

أولًا: الإيمان بأن الله تعالى هو المنعم:

إذا علم المرء أن المنعم هو الله وأن ما به من نعمة فمن الله فإنه يخضع لله ويتواضع له، ويعلم أن المال والولد والدنيا بكل زينتها ومفاتنها وبهارجها هي من الله، وأن زوالها بيد الله، حينها لا يسع الإنسان إلا الشكر للمنعم، فبالشكر تدوم النعم، أما الكبر والغرور فعاقبته الخذلان والخسران، وقد بين الله لنا أن متاع الدنيا إلى زوال، وأن ثمار عدم الاغترار بها المغفرة من الله والرضوان.

قال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وإن من أعظم الفتن التي يتعرض لها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٢٩.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٤٢.

المغرور أن يظن أن ما به من نعمة هي من نفسه حازها بعلمه وحوله وقدرته لا بقدرة المنعم سبحانه، فهذا قارون الذي أصابه الغرور بما آتاه الله، أنكر الواهب وتعلق بأوهام النفس قائلًا: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨].

وصاحب الجنة الذي حدثتنا عنه سورة الكهف ظن أن أمر بقاء جنته بيده وتغافل عن الله قائلًا: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٣٥].

بل وصل الغرور في فرعون أن يظن نفسه إلها، وأن ما تحت ملكه من خيرات وجنان هي من تدبيره ورعايته، فنسي المنعم سبحانه وقال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

وشأن الإنسان بشكل عام أنه في الخيرات والنعم يغفل عن المنعم، وعند الضيق والكربات يتوجه إلى الله تعالى مقرا بذنبه راجيًا عفوه كي يذهب عنه ما ألم به من بلاء ويكشف عنه السوء.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الزمر: ٤٩ - ٥١].

يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسه ضر من مرض أو شدة أو كرب يلح في الدعاء، فإذا كشف الله ضره وأزال مشقته عاد بربه كافرًا ولمعروفه منكرًا قائلًا: إنما أوتيته علم من الله، إني له أهل، وإني مستحق له، لأني كريم عليه. أو على علم مني بطرق تحصيله.

وقد بين الله أن هذه فتنة يبتلي بها عباده لينظر من يشكره ممن يكفره، أما أهل الغرور فيعدون الفتنة منحة، ويشتبه عليهم الخير المحض بما قد يكون سببًا للخير أو للشر، ولا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقًّا، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، فما أغنى عنهم ما كسبوا.

ولما ذكر تعالى أنهم اغتروا بالمال وزعموا بجهلهم أنه يدل على حسن حال صاحبه أخبرهم تعالى أن بسط الرزق وقبضه لا يرجع لعلمهم، وأن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبيده، فقد يضيق عليهم الرزق لطفا بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيا في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم[1].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢٧.

ثانيًا: التزود بالتقوى:

التقوى علاج كل علة، وسلاح المؤمن على مر الأزمان، وسد منيع في وجه الشيطان، فلا ينفذ الشيطان إلى نفس التقي فيسول له الكبر والغرور، وقد أوصى الله بها عباده جميعا، وخص المؤمنين بها، فهي سبيل النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

يعني: من يصبر على طاعة الله تعالى، ويصبر على المصائب، وعن المعاصي، ييسر الله عليه أمره، ويوفقه ليعمل على طاعته، ويعصمه عن معاصيه[(١)].

ومجمل دعوى الأنبياء تقوم على توحيد الله تعالى وتقواه، فمعظم الأنبياء أوصوا أقوامهم بالتقوى، وبينوا لهم أن ما هم فيه من النعم من مال ومصانع وبنيان وأولاد؛ إنما هو بمشيئة رب السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٤ - ١٣٦].

وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخروا، واستكبروا، وأصابهم الغرور فقالوا على غرار قول فرعون وقارون: (من أشد منا قوةً)، واستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك، وأمرهم بالتقوى[(٢)].

والآيات في سورة الشعراء فيها تسلسل واضح بأن الأمر بالتقوى دأب الأنبياء مع أقوامهم، فبعد ما سبق من الآيات في شأن هود مع قومه، تلتها آيات مشابهة في المضمون تعرض موقف صالح مع قومه ودعوته لتقوى الله وعدم الاغترار بأمر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/٤٤٦، تفسير السمرقندي ٣/ ٤٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٥٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٥.

المسرفين قائلا لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٠ - ١٥١].

قال السعدي: «أي: الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفسادًا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون لأنه شر محض وكأن أناسا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم موضعون في الدعوة لسبيل الغي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم»[(١)].

ثالثًا: عدم اتباع خطوات الشيطان:

وسوسة الشيطان عبارة عن الخواطر التي يجدها الإنسان في قلبه، وفاعل هذه الخواطر هو الله تعالى، وهو المحدث لها في باطن الإنسان، وإنما الشيطان كالعرض، والله هو المقدر له على ذلك[(٢)].

ومع أن الله تعالى مكن الشيطان من الوسوسة إلا أنه لم يجعل له سلطانًا على الإنسان، إنما هو قرين يوسوس له ويزين المنكر والباطل، ففي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم)[(٣)].

ولما أن كان الشيطان من أهم أسباب دخول الغرور إلى نفس الإنسان، فقد نهي الإنسان من تتبع خطواته، لأن اتباعه طلب للفحشاء والمنكر:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩]

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]

وقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

يعني: لا تتبعوا آثاره ومسالكه ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني بالقبائح من الأقوال والأفعال وكل ما يكره الله عز وجل والآية عامة في حق كل أحد[(٤)].

وإن من أسباب النجاة عدم مجالسة المغرورين الذين غرهم الشيطان فأصبحوا عونا له وجندا من جنوده، وقد نهى الله تعالى نبيه عن مجالستهم وهم يخوضون في منكرهم مبينا أن الشيطان له الدور الأكبر

(١) المصدر السابق ص ٥٩٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٠١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم ٢٠٣٨، ٣/ ٥٠.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٨٩.

في جر الناس إلى مجالس الباطل قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

يخوضون في آياتنا في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك فأعرض عنهم فلا تجالسهم وقم عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره فلا بأس أن تجالسهم حينئذ وإما ينسينك الشيطان وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم.

أي: يخوضون في آيات الله بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم. ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي[(١)]. وقرأ ابن عامر: (يُنَسِّيَنَّكَ) بالتشديد[(٢)].

رابعًا: الاتعاظ بمصارع المغرورين:

دعانا القرآن الكريم للسير في الأرض والنظر في مصارع الغابرين لا للتسلية والتأكد من الخبر؛ بل لأخذ المواعظ والعبر.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٨٢، يوسف:١٠٩].

أفلم يسيروا فيدركوا أن مصير أسلافهم من المكذبين والغاوين كمصيرهم، وأن سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستنالهم.

فتدبروا سنن الله في الغابرين؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير؟[(٣)].

إن قارون لما أن اغتر بماله زاعمًا أن ما أوتيه بعلم من عنده، وخرج على قومه في زينته متباهيًا مغرورًا اغتر قومه بزينته قائلين: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٨ – ٧٩].

فماذا كانت العاقبة قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

«فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازينت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه، ومتاعه»[(٤)].

ولما جاء العذاب لم يكن ينفع قارون جماعة أو أقارب أو أصدقاء أو جنود، لم

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٦٧.
(٢) حجة القراءات، ابن زنجلة ص ٢٥٦، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٥٩.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٣٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٤.

يكن له عاصم من أمر الله فجاءه العذاب، فما نفعه مال ولا جاه فكان من المهلكين.

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨١ - ٨٢].

أما موقف المغرورين بزينته من قومه، فقد اتعظوا وبتفكير يسير علموا أن القليل الدائم خير من الزينة التي سرعان ما تذهب وتذهب أهلها معها، فمع سقوط قارون وهلاكه هوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس وردتهم الضربة القاضية إلى الله وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال.

وقف قوم قارون -الذين اغتروا بماله بالأمس- يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يؤتهم ما آتى قارون. وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة. وأيقنوا أن الثراء ليس آية على رضي الله. فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضا والغضب. ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف. إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء. وعلموا أن الكافرين الذين يغترون بالنفس والمال لا يفلحون[1].

وأما الغرور على صعيد الجماعات والأقوام فهو كثير في الأمم الغابرة، ومنه غرور قوم هود عليه السلام، فقد اغتروا بقوتهم وصدوا عن دعوة رسولهم، «فبعث الله إليهم هودًا نبيًّا وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم حسبًا، فأمرهم أن يوحدوا الله ويكفوا عن ظلم الناس لم يأمرهم بغير ذلك، فكذبوه وقالوا من أشد منا قوةً، وبنوا المصانع وبطشوا بطشة الجبارين»[2].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥ -١٦].

«والاستكبار: المبالغة في الكبر، أي: التعاظم واحتقار الناس، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل: استجاب، والتعريف في الأرض للعهد، أي: أرضهم المعهودة. وإنما ذكر من مساويهم الاستكبار لأن تكبرهم هو الذين صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقع عقاب الله.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإن الاستكبار لا يكون بحق إذ لا مبرر للكبر بوجه من الوجوه لأن جميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧١٣.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٠٤.

والسلطان والقوة وغير ذلك لا تبلغ الإنسان مبلغ الخلو عن النقص وليس للضعيف الناقص حق في الكبر، ولذلك كان الكبر من خصائص الله تعالى. وهم قد اغتروا بقوة أجسامهم وعزة أمتهم وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد، وهو معنى قولهم: من أشد منا قوة، فقولهم ذلك هو سبب استكبارهم؛ لأنه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم، فلما جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم، فلما كان اغترارهم بقوتهم هو باعثهم على الكفر وكان قولهم: من أشد منا قوة دليلا عليه خص بالذكر»[1].

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذا تفسير الصاعقة التي أرسلها عليهم، أي: ريحًا باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب.

﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ قيل: باردات. وقيل: متتابعات. وقيل: شداد.

﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ أي: لكي نذيقهم ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: العذاب بالريح العقيم، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي: أعظم وأشد، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[2].

ثم كانت عاقبة المتقين غير عاقبة المغرورين قال الله تعالى عن المتقين الذين استجابوا لدعوة نبيهم، ولم تفتنهم قوة أجسامهم، ولا وفرة أموالهم، ولا كبرياء نفوسهم: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨].

قال الطبري: «فأما عادٌ قوم هود ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على ربهم وتجبروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تكبرًا وعتوًّا بغير ما أذن الله لهم به»[3].

وفي تفصيل أكثر لغرور قوم هود جاء في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٣٥].

ولما لم يستجيبوا لنبيهم قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

قال الطبري: «فأهلكنا عادا بتكذيبهم رسولنا. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن في إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولها،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٥٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٤٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٤.

لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، المكذبيك فيما أتيتهم به من عند ربك»[1].

وفي الآيات، السابقة من عاقبة المغرورين ما يغني عن الشرح والبيان فإن من عرف الله تعالى لا يأمن مكر الله ومن نظر إلى فرعون وهامان وثمود وماذا حل بهم علم أنه لا مجال في هذه الحياة الدنيا للمغرورين[2].

خامسًا: الزهد في الدنيا:

الزهد يصرف النفس عن شهواتها، ويعافيها من أسقامها، ويصحح سلوكها واعتقادها، ويورث النفس الأدب مع الله، والتواضع مع العباد، فحين يزهد المرء في الدنيا ويعلم أن ما فيها نعيم زائل وأن الذي يدوم ما أعده الله للصابرين، فإنه لا يغتر بكل مفاتنها ويقدم مغفرة الله ورضوانه على كل المتاع الزائل.

قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

«﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: مدة الحياة في هذه الدار الدنيا وإنما أراد من صرف حياته في غير طاعة الله فحياته مذمومة، ومن صرف حياته في طاعة الله فحياته خير كلها.

ثم وصفها بقوله: ﴿لَعِبٞ﴾ أي: باطل لا حاصل له كلعب الصبيان.

﴿وَلَهۡوٞ﴾ أي: فرح ساعة ثم ينقضي عن قريب.

﴿وَزِينَةٞ﴾ أي: منظر يتزينون به.

﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ يعني إنكم تشتغلون في حياتكم بما يفتخر به بعضكم على بعض.

﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ أي: مباهاة بكثرة الأموال والأولاد، وقيل: بجمع ما لا يحل له فيتطاول بماله وخدمه وولده على أولياء الله تعالى وأهل طاعته.

ثم ضرب لهذه الحياة مثلا فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ﴾ أي: الزرَّاع، إنما سمي الزرَّاع كفارًا؛ لسترهم الأرض بالبذر.

﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي: ما نبت بذلك الغيث.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ييبس ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أي: بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ أي: يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى.

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ أي: لمن كانت حياته بهذه الصفة.

قال أهل المعاني: زهد الله بهذه الآية في العمل للدنيا، وهذه صفة حياة الكافرين وحياة من يشتغل باللعب واللهو، ورغب

(١) المصدر السابق ١٩/ ٣٧٩.
(٢) أصناف المغرورين، الغزالي ص ٢٨.

في العمل للآخرة بقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي: لأوليائه وأهل طاعته.

وقيل: عذاب شديد لأعدائه، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه؛ لأن الآخرة إما عذاب وإما جنة.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي: لمن عمل لها ولم يعمل للآخرة، فمن اشتغل في الدنيا بطلب الآخرة فهي له بلاغ إلى ما هو خير منه، وقيل: متاع الغرور لمن لم يشتغل فيها بطلب الآخرة»[1].

وجاء في سورة يونس تصوير مشابه لآية الحديد السابقة حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

أي: إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفاخرون به من زينتها وأموالها، مع ما قد وكل بذلك من التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت كمطر أرسله الله من السماء إلى الأرض فنبت بذلك المطر أنواعٌ من النبات، مختلطٌ بعضها ثم ييبس ويفنى، فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظهرها[2].

ويعطي القرآن الكريم مثالًا حيًا لمن ملكت الدنيا قلبه، وشغلته عن الآخرة وظن أن الدنيا باقية له في قصة صاحب الجنة الذي نصحه صاحبه المؤمن غير أنه لم يرعوي، فماذا كانت النتيجة.

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤١ - ٤٥].

وبعد أن قص القرآن الكريم علينا قصة ذلك المغرور بين لنا مثل الحياة الدنيا على الوجه الذي سبق بيانه في الآيتين السابقتين، ووجه التناسب بين قصة صاحب الجنة وبين الكلام عن تصوير سرعة ذهاب الحياة الدنيا أن الدنيا لا متعلق فيها لأحد، وأنه لا ينبغي لعاقل أن يتشبث فيها، ومن التناسب

(١) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٥٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٥- ٥٦.

أيضا أن الآية التي تليها تتكلم عن زينة المال والأولاد، وأنهما زينة الحياة الدنيا وترشد إلى الالتفات إلى الباقيات الصالحات، ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

ومن جمال التناسب أيضا أن ما ولي هذه الآيات كان الكلام فيه عن الحشر والعرض والحساب يوم القيامة، في لفتة تنقل الإنسان من متاع زائل إلى يوم الخلود والبقاء.

سادسًا: تذكر الموت:

إن تذكر الموت يثني الإنسان عن الاغترار في كل متاع زائل، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكثروا ذكر هادم اللذات)، يعني الموت[1].

وقد اقترن ذكر الموت مع تذكير الله تعالى للناس بأن الدنيا متاع الغرور، وذلك حتى يعلم الإنسان إذا تعلقت نفسه في الدنيا أنه ميت وأن أيامه في الدنيا معدودة فلا يغتر بها ويستعد للقاء الله.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

لا بد من أن يستقر في النفس حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتما يموت الصالحون ويموت الطالحون. يموت المجاهدون ويموت القاعدون. يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾

إنها متاع، ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة إنها متاع الغرور. المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعًا. أو المتاع الذي ينشئ الغرور والخداع! فأما المتاع الحق. المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله فهو ذاك هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار. وعندما تكون هذه الحقيقة قد استقرت في النفس. عندما تكون النفس قد أخرجت من حسابها حكاية الحرص على الحياة -إذ كل نفس ذائقة الموت على كل حال- وأخرجت من

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم ٤٢٥٨، ٢/١٤٢٢، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح رقم ١٦٠٧، ١/٥٠٤.

حسابها حكاية متاع الغرور الزائل. عندئذ يحدث الله المؤمنين عما ينتظرهم من بلاء في الأموال والأنفس[1].

وفي آية الأنبياء قرن الله تعالى تذكير الناس بالموت بمسألة الابتلاء، وأعقبه تذكير الناس بالرجوع لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ربما لأن الموت ابتلاء لأقارب الميت من الأحياء، والتذكير بالرجعة إليه حتى ينزع الدنيا من قلوب العباد، فهو موت ثم رجعة إلى الله، فماذا بقي من نعيم الدنيا؟.

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الشيطان، العجب

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٣٨-٥٣٩.

غزوات الرسول مع اليهود

عناصر الموضوع

اليهود في جزيرة العرب	١٠٠
غزوة بني قينقاع	١٠٦
غزوة بني النضير	١١١
غزوة بني قريظة	١٢٢
غزوة يهود خيبر	١٣٣
الدروس المستفادة	١٤٠

اليهود في جزيرة العرب

أسباب وجود اليهود في جزيرة العرب

ورد في سبب وجود اليهود في جزيرة العرب عدة أسباب يمكن حصرها في ثلاثة:

١. سبب أمني.

حيث انتقلت جماعات من اليهود من الشام إلى شبه الجزيرة العربية، فيما يبدو أنه كان فرارًا من الاضطهاد، وكان انتقالهم يشبه موجات مذعورة، تبحث لنفسها عن شاطئ ومستقر، ولم تتم على دفعة واحدة، كما أنها لم تستقر في مكان واحد.

وقد ورد في ذلك عدة روايات:

- أن هجرة اليهود كانت في أواخر عهد موسى عليه السلام أي في القرنين الثاني عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد، وذلك أن بني إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق[١] من أرض الحجاز، وكانت منازل العماليق يثرب والجحفة إلى مكة، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى عليه السلام، فوجه إليهم جيشًا، وأمرهم أن يقتلوهم ولا يبقوا منهم أحدًا، ففعلوا، وتركوا منهم ابن ملك لهم كان غلامًا حسنًا فَرَقُّوا له، ويقال للملك الأرقم بن أبي الأرقم فيما ذكر الزبير، ثم رجعوا إلى الشام وموسى قد مات، فقالت بنو إسرائيل لهم قد عصيتم وخالفتم فلا نؤويكم فقالوا: نرجع إلى البلاد التي غلبنا عليها فنكون بها، فرجعوا إلى يثرب، فاستوطنوها وتناسلوا بها.

قال أبو حيان: كان بنو النضير من الجيش الذين عصوا موسى في كونهم لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق تركوه لجماله وعقله، وقال موسى عليه السلام: لا تستحيوا منهم أحدًا، فلما رجعوا إلى الشام وجدوا موسى عليه السلام قد مات، فقال لهم بنو إسرائيل: أنتم عصاة الله، والله ما دخلتم علينا بلادنا، فانصرفوا إلى الحجاز[٢].

لكن ضعف السهيلي هذه الرواية حيث قال: ولا أحسب هذا صحيحًا لبعد عمر موسى عليه السلام[٣].

- أن هجرتهم إلى الجزيرة كانت بسبب اضطهاد بختنصر[٤] لهم وعسفه بهم، وهو ما أكده الطبري في تفسيره، قال

(١) قال ابن إسحاق: سموا «العماليق»، نسبة إلي أبيهم: عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٨.

(٢) البحر المحيط في التفسير ١٠/ .

(٣) انظر: الروض الأنف ٤/ ١٧٢.

(٤) بختنصر: بالتشديد، أصله بوخت ومعناه ابن، ونصر اسم صنم، وكان وجد عند الصنم ولم يعرف له أب فنسب إليه، وذكر التاريخ أنه حكم بابل سنة ٥٦١- ٥٠٤ ق.م، وخرب بيت المقدس.
انظر: القاموس المحيط ص٤٨٣.

رحمه الله: وقد قويت شوكته فحارب مع الترك، وقاد جيشًا جرارًا إلى دمشق، ثم قصد بيت المقدس لمحاربة بني إسرائيل، فصالحه ملكهم، ثم نقض الإسرائيليون عهودهم معه، ولما علم بختنصر بنقضهم عاد إلى بيت المقدس، فأثخن فيهم، وهدم بيت المقدس، وأحرق التوراة، وقتل أولاد الأنبياء، واسترق نساءهم، وسبى ذراريهم، ففر كثير منهم إلى أقطار مختلفة، وفر بنو النضير وبنو قريظة وبنو هدل إلى الحجاز يثرب وغيرها[1].

ورجح السهيلي هذا الرأي، حيث قال عقب إيراده للرأي الأول ورده: «والذي قال غيره -أي: غير أبي الفرج الأصفهاني ممن تعرض لأسباب وجود اليهود في الجزيرة-: إن طائفة من بني إسرائيل لحقت بأرض الحجاز حين دوخ بختنصر البابلي في بلادهم، وجاس خلال ديارهم، فحينئذٍ لحق من لحق منهم بالحجاز كقريظة والنضير، وسكنوا خيبر والمدينة، وهذا معنى ما ذكر الطبري، والله أعلم»[2].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٧٣.
وانظر: تاريخ الرسل والملوك ١/ ٥٣٨، الروض الأنف، السهيلي ٣/ ٧٣، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء، الكلاعي ١/ ٩، السيرة النبوية، ابن كثير ٢/ ٣١٩.

(٢) انظر: الروض الأنف ٤/ ٢٩٠.

❁ إن هجرة اليهود كانت في القرن الأول الميلادي بعد تنكيل الرومان بهم سنة ٧٠ م وخراب القدس، وذلك أنهم ظنوا ألن يعاقبهم الله تعالى بتكذيبهم رسله وقتلهم، قال تعالى ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠ - ٧١].

قال أبو جعفر: يقول تعالى: وظن هؤلاء الإسرائيليون أن الله أخذ ميثاقهم، وأنه أرسل إليهم رسلًا، وأنهم كانوا كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا، أن لا يكون من الله لهم ابتلاء واختبارٌ بالشدائد من العقوبات بما كانوا يفعلون[3].

وكان قتال الرومان لهم أحد هذه العقوبات التي حلت بهم.

وقد رجح الدكتور جواد علي، أن هجرة اليهود إلى جزيرة العرب كانت بعد غزو الرومان لهم، حيث قال: أما ما ورد في

وانظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الصالحي ١/ ١٢٢، بنو إسرائيل ووعد الآخرة، فوزي أبو زيد ص٧٧.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٧٨.

روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم، مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء البعيدة عن مجالات الروم فإنه يستند إلى أساس تاريخي صحيح[1]، فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين[2].

٢. سبب ديني.

وقد دل عليه: ما حكاه ابن النجار أن علماء بني إسرائيل كانوا يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل وماء بين حرتين، وكانت هذه الصفة تنطبق على أربعة أماكن في الجزيرة مروا بها تقريبًا (تيماء، وخيبر، وفدك، ويثرب) فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة، فلما رأوا تيماء وفيها النخل نزلها طائفة منهم، وظن طائفة أنها خيبر فنزلوها، ومضى أشرفهم وأكثرهم، فلما رأوا يثرب سبخة وحرة وفيها النخل قالوا: هذه البلد التي تكون مهاجر النبي عليه الصلاة والسلام.

قال ابن النجار: «وقال آخرون: بل كان علماؤهم -أي: اليهود- يجدون في التوراة أن نبيًّا يهاجر من العرب إلى بلد فيه نخل بين حرَّتين، فأقبلوا من الشام يطلبون صفة البلد، فنزل طائفة تيماء وتوطنوا نخلًا، ومضى طائفة، فلما رأوا خيبر ظنوا أنها البلدة التي يهاجر إليها، فأقام بعضهم بها، ومضى أكثرهم وأشرفهم، فلما رأوا يثرب سبخةً وحرةً ونخلًا قالوا: هذا البلد الذي يكون له مهاجر النبي إليها، فنزلوه»[3].

لكن كثيرًا من علماء بني إسرائيل كانوا يرون أنها يثرب، لذا يلحظ أن كثيرًا من القبائل الإسرائيلية نزلوا يثرب وآثروا العيش فيها، واتخذوها وطنًا، حتى إذا ظهر النبي المبشر به آمنوا به، فلما ظهر لم يؤمن به إلا عدد قليل منهم، وكان إيمانهم على هيئة فردية وليست جماعية، فكان للمعتقد الديني أثره في استقرارهم في الحجاز.

٣. المصادفة والاختيار.

حيث ذكرت بعض الروايات أن موسى عليه السلام خرج حاجًّا إلى الكعبة، وفي عودته تخلف بعض اليهود فسكنوا يثرب.

ومنها ما أورده الصالحي في سيرته قال: «وقال أبو المنذر الشرقي بن القطامي: سمعت حديث تأسيس المدينة من سليمان

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٩٤.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ١٢/ ٩٤.
وانظر: التفسير الحديث، دروزة ٦/ ١٦٦، التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٣٤.
(٣) الدرة الثمينة في أخبار المدينة ص ٢٧.

بن عبد الله بن حنظلة الغسيل، وسمعت أيضًا بعض ذلك من رجل من قريش عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عمار بن ياسر، فجمعت حديثهما لكثرة اتفاقه وقلة اختلافه، قالا: «بلغنا أنه لما حج موسى صلوات الله عليه حج معه أناس من بني إسرائيل، فلما كان في انصرافهم أتوا على المدينة، فرأوا موضعها صفة بلد نبي يجدون وصفه في التوراة بأنه خاتم النبيين، فاشتورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به، فنزلوا في موضع سوق بني قينقاع، ثم تألفت إليهم أناس من العرب فرجعوا إلى دينهم، فكانوا أول من سكن موضع المدينة»[1].

إلا أن هذه الرواية مرجوحة بما اتفق عليه أكثر المؤرخين، وهو أن قبائل اليهود في الحجاز هم عبرانيون نازحون من جراء الاضطهاد الروماني، في الفترة مابين عامي ٧٠ م - و١٣٥ م، ولم يكونوا عربًا، أي: إنهم هم الناجون من دمار أورشليم على يد تيطوس أو الذين تم إجلاؤهم (بني النضير وقريظة) على يد الإمبراطور هادريان.

وقد ادعى يهود بني قينقاع أن أصلهم موغل في القدم بيثرب ويعود لزمان موسى في الوجود، كما تدعي الإسرائيليات التي حاول اليهود ترويجها، ونقلها لنا المؤرخون المسلمون، إلا أن قدم تواجدهم لا دليل عليه، فلا يمكن الاستدلال على قدم الوجود اليهودي ما قبل الميلاد فضلًا لزمان موسى عليه السلام؛ لأن اليهود على مر التاريخ لاقوا من الاضطهاد ما لم تلقه أمة أخرى، ولذا فلا يمكن نفي أن اليهود في يثرب قد جاؤوا على فترات متقطعة، ولكن لا يمكن تأكيد بحال من الأحوال فترات ما قبل الميلاد، أما ما بعد الميلاد فالثابت هو نزوح بني النضير وقريظة إلى يثرب.

وتبقى هذه الادعاءات ادعاءات يهودية محضة، ربما عن قصد ألفوها ونشروها بين المسلمين ليكتسبوا شرعية في المكان الذي استقروا فيه، وبرغم أصالة وعبرية تلك القبائل مثل بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر وفدك ووادي القرى، إلا أن هناك من قبائل العرب من اعتنق اليهودية أيضًا، وربما كان تقربًا لليهود.

والذي يظهر: أن غالبية يهود جزيرة العرب حلوا بها في القرن الأول الميلادي، أي: بعد التدمير الثاني لأورشليم على يد تيطس الروماني، وكان أهم أسباب حلولهم بها هو فرارهم من وجه الرومان حتى يأمنوا من بطشهم وفتكهم بهم.

أما عدد قبائلهم وبطونهم فكثيرة، وقد أوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين فرعًا، منهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة،

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الصالحي ٣/ ٢٨١.

وبنو هدل، وبنو عكرمة، وبنو ثعلبة، وبنو محمم، وبنو زعوراء، وبنو القصيص، وغيرهم[1]، وقد اشتهر من هذه القبائل، بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وسبب شهرتهم أنهم كانوا ذوي عدد وعدة، ولهم وقائع مع الأوس والخزرج، ثم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته[2].

ثانيًا: أماكن وجودهم:

تفرق اليهود في الجزيرة العربية، وسكنوا عدة أماكن منها، وكان أشهرها:

- المدينة المنورة، وسكنها ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة.
- خيبر.
- بعض المناطق الأخرى المتفرقة، مثل: فدك وتيماء ووادي القرى، وكانت واحات صغيرة، تقطنها جماعات يهودية محدودة العدد، وبالرغم من قلة المعلومات عنهم، فإن الدلائل تشير إلى التشابه الكبير بين طبيعة حياتهم، وحياة يهود المدينة[3].

وما ورد من وجود لليهود باليمن، فالراجح أنه نتيجة تسرب اليهودية من إسرائيليي الحجاز إليها في القرن الخامس بعد الميلاد[4].

ثالثًا: علاقتهم بالأوس والخزرج:

ذكر المفسرون أن علاقة اليهود بالأوس والخزرج كانت وطيدة، إذ بنيت على التحالفات فيما بينهم، وبما أنهم كانوا يسكنون مكانًا واحدًا، فمن الطبيعي أن تتولد بينهم علاقات تجمعهم، وقد عكس لنا القرآن الكريم جانبًا من جوانب هذه العلاقة، وهو الجانب السياسي، وما ترتب على هذه العلاقة من نتائج، قال تعالى ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾[البقرة: ٨٥].

قال السدي رحمه الله: كانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب سمير[5] فيقاتل بنو قريظة مع حلفائها، النضير وحلفاءها، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، فيغلبونهم، فيخربون بيوتهم، ويخرجونهم منها، فإذا أسر الرجل من الفريقين

(١) المدينة في العصر الجاهلي، محمد الحظراوي ص٧٤.
(٢) مرويات تاريخ يهود المدينة، أكرم السندي ص٢٠.
(٣) انظر: آثار المدينة المنورة، عبدالقدوس الأنصاري ص٦٥ - ٧٦.
(٤) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ٣/ ١٥٠ - ٢٧٣.
(٥) حرب سمير: كانت في الجاهلية بين الأوس والخزرج.وسمير رجل من بني عمرو بن عوف.
انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٥٨٦.

كليهما، جمعوا له حتى يفدوه، فتعيرهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، وحرم علينا قتالهم. قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحيي أن تستذل حلفاؤنا، فذلك حين عيرهم جل وعز بقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة: ٨٥][(١)].

وقد انعكست هذه العلاقة على الجانب الاقتصادي فيما بينهم، إذ كان اليهود قد سيطروا على أغلب الجوانب الاقتصادية في المدينة، وكان من أهم الأعمال التي اشتغلوا بها التجارة، حتى صار لبعضهم فيها شهرة كبيرة، كذلك اشتغلوا بالزراعة التي كانت المهنة الرئيسة لسكان القرى منهم.

كما اهتموا أيضًا بالصناعة، ومن أهم الصناعات التي برعوا فيها صناعة الصياغة، واشتهر بها بنو قينقاع وصناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحربية، وكانت لديهم ثروات وأموال، وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطي الربا.

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها، أن قوي نفوذهم المالي وتحكموا في الأسواق فحشًا واحتكارًا لمصلحتهم ومنفعتهم، فكرههم أغلب الناس لأنانيتهم واشتطاطهم في أخذ الربا وسعيهم للثراء بطرق خبيثة يأنفها العربي ويأباها.

وقد كانت علاقة اليهود بالأوس والخزرج خاضعةً للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية، فكان اليهود يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم، كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي أنهكت الأوس والخزرج؛ لأنهم كانوا يهمهم أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة والسيطرة على صناعة السلاح وجزء كبير من الزراعة ومصادر المياه.

أما بالنسبة للجانب الديني، فقد كان اليهود يعدون أنفسهم أعلى مكانةً من الأوس والخزرج؛ لأنهم أهل كتاب، أما الأوس والخزرج فكانوا كفارًا، ولذا فقد كان اليهود يترقبون خروج النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتبعوه وتكون لهم السيادة في الأرض، وكانوا يدعون أنه سيكون منهم، وعند بعثته سيتحكمون في غيرهم من الأوس والخزرج دينًا ودنيا[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/٣٠٦، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ١/٤٦٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٣١٨.

(٢) بنو إسرائيل ووعد الآخرة، فوزي أبو زيد ص٨٠.

غزوة بني قينقاع

حينما استقر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد هجرته إليها، وأسلم من أسلم من أهلها، وظل اليهود على ديانتهم، وكانوا قوة لا يستهان بها آنذاك، وكانوا شركاء للمسلمين في سكنى المدينة، عقد النبي صلى الله عليه وسلم عهدًا معهم، أبقاهم فيه على صلاتهم وتحالفهم مع الأوس والخزرج، ومنحهم حرية الدين، وأوجب عليهم مشاركة المسلمين في الدفاع عن المدينة إذا ما تعرضت لأذى، كما أوجب على المسلمين معاونتهم أيضًا إذا تحقق ذلك.

ولم يمر على هذا العهد سوى عام ونصف حتى نقضته الطائفة الأولى من اليهود وهو بنو قينقاع[1]، فكانوا أول من نقض العهد من اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم، فتوجه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ليعاقبهم على فعلهم.

أولًا: زمان الغزوة ومكانها.

أما الزمان: فكانت يوم السبت للنصف من شوال في السنة الثانية من الهجرة، حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر يومًا إلى هلال ذي القعدة[2].

وأما المكان: فوقعت الغزوة في ديارهم وكانت في طرف المدينة المنورة[3]، ومنازلهم عند جسر بطحان مما يلي العالية[4].

ثانيًا: أسباب الغزوة:

أورد أهل التفسير أن غزوة بني قينقاع كان لها سببان:

الأول: نقضهم للعهد الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أظهروا له الحسد بما فتح الله عليه في بدر، وكشفوا عن أخلاقهم الدنيئة.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: (كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بني قينقاع، ثم قال: يا معشر اليهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في

(١) قينقاع: بضم النون وقيل بكسرها وقيل بفتحها، فهي مثلثة النون، والضم أشهر. انظر: السيرة الحلبية ٢/ ٢٨٤.

(٢) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ١٧٣، عيون الأثر، ابن سيده ١/ ٣٤٣.
وقيل: كانت في صفر سنة ثلاث، وجعلها بعضهم بعد غزوة الكدر.
انظر: إمتاع الأسماع، المقريزي ١/ ١٢٢، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الصالحي ٤/ ١٧٩.

(٣) انظر: جوامع السيرة، ابن حزم ص١٢١، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة،محمد شراب ص٢٢٨.

(٤) انظر: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، السمهودي ١/ ١٣١.

كتابكم وعهد الله إليكم، فقالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت فيهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس)[1].

الثاني: إثارة الفتنة، بالاعتداء على الأعراض وقتل المسلمين: فعن أبي عون قال: كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلبٍ[2] لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغٍ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًّا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[3].

ولا مانع من تحقق السببين معًا، أو أن يكون فعل اليهود بالمرأة إن صح نتيجة لحقدهم على الإسلام والمسلمين.

ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، يحمل لواءه عمه حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، حتى أتاهم فوجدهم قد تحصنوا بحصنهم، فحاصرهم خمس عشرة ليلة لا يطلع منهم أحد.

وكان عدد اليهود يومئذٍ سبعمائة مقاتل، أربعمائة حاسر[4] وثلاثمائة دارع[5]، مدرعون بدروع الحديد[6].

ثالثًا: حديث القرآن عن الغزوة:

لم يكد يستقر النبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته من غزوة بدر ظافرًا منتصرًا، حتى كشف يهود بني قينقاع عن نواياهم الخبيثة، وما تضمره قلوبهم من حسد وبغضاء للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فنقضوا العهد الذي وثقه النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينهم، وليس هذا ببعيد عنهم، فقد كشف القرآن الكريم في مواضع عدة عن مواقفهم الدنيئة التي عكست التعجيز والتشكيك والسخرية واللجاج والدس والتآمر التي اشتهروا بها.

ولما لم يستجب يهود بني قينقاع لدعوة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٢٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧، السيرة النبوية، ابن هشام ٣/ ٥٠.

(٢) الجَلَب: كل ما يجلب للبيع.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٦٨.

(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٤٨.

(٤) الحاسر: هو الذي لا درع عليه ولا مغفر.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٣٨٣.

(٥) الدارعُ: هو من له درعٌ.
انظر: الدلائل في غريب الحديث، السرقسطي ٢/ ٨٤٥.

(٦) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٨٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٠٤.

الحق بدخولهم في الإسلام أو مراعاة العهد الذي بينهم وبين المسلمين، فقد اقتضت حكمة التنزيل توجيه الإنذار لهم، أن يحيق بهم مثل ما حاق بأسلافهم من كفار قريش في بدر.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران ١٢-١٣].

وقد ذكر أئمة التفسير أن هاتين الآيتين نزلتا في يهود بني قينقاع، وذلك لما جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم في سوقهم ووجه إليهم الإنذار لفعلهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما أنزلت هؤلاء الآيات إلا فيهم، أي: في يهود بني قينقاع[(١)].

وفي تلك الغزوة ظهرت موالاة المنافقين لليهود، حيث قام زعيم المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول بمحاولة تخليصهم من خلال شفاعته عند النبي صلى الله عليه وسلم.

روى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة قال: (حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أُبي ابن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رئي لوجهه ظلل ثم قال: ويحك أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟! إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هم لك)[(٢)].

من أجل ذلك نهى رب العزة سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٢٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٥٦، تفسير العز بن عبد السلام ١/ ٢٥٣، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٣/ ٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٤.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

وقد ورد في سبب نزول هاتين الآيتين، ما رواه محمد بن إسحاق بسنده عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: «لما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تشبث بأمرهم عبدالله بن أبي ابن سلول، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد بني عوف، لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبدالله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، قال: ففيه وفي عبدالله بن أبي نزلت هذه القصة من المائدة»[(١)].

وذكر أبو حيان في تفسيره، قال الزهري وغيره: سبب نزولها قصة عبد الله بن أُبيٍّ واستمساكه بحلف يهود، وتبرؤ عبادة بن الصامت من حلفهم عند انقضاء بدر، في قصةٍ فيها طولٌ هذا ملخصها[(٢)].

وهذا دليل واضح على مشروعية التبرؤ من اليهود والنصارى، وعدم موالاتهم.

وبعد أن أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة، جعلهم الله تعالى مضرب المثل، وعبرةً لمن خلفهم من اليهود.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال في قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥] يعني: بني قينقاع[(٣)].

رابعًا: علاقة قصة غزوة بني قينقاع بموضوع سورة آل عمران:

تدور آيات سورة آل عمران حول ثلاث موضوعات هامة هي:

- تحديد معنى الدين ومعنى الإسلام.
- وصف حال المسلمين مع ربهم وموقفهم من تعاليم الدين وتكاليفه.
- التحذير المستمر من الثقة بغير المسلمين، وتوضيح ما ينجر للمسلمين من الأخطار والمتاعب إذا والوهم ووثقوا بهم في شؤونهم[(٤)].

وقد جاءت الآيات في بني قينقاع تندرج تحت الموضوع الثالث، وهو تحذير المسلمين من اليهود والكافرين، وأنهم مهما بلغت قوتهم وازداد عددهم، لكن قدرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٣.
(٢) البحر المحيط في التفسير ٤/ ٢٩١.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٩٣.
(٤) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي ١/ ٢٠١.

الله تعالى أكبر منهم، فهو يعدهم سبحانه بأنهم سيغلبون، وستكون جهنم مهادهم ومصيرهم، ويدلل سبحانه على تحقق ما وعد به من خلال الواقع الملموس وما حاق بكفار قريش رغم كثرة عددهم وعدتهم في مقابلة قلة عدد المسلمين وعتادهم، كي يكون ذلك آية وعبرة لليهود والكافرين، وأن النصر بيد الله سبحانه وتعالي يكتبه لمن يشاء، وقد وعد به المؤمنين قال تعالي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

ثم تستمر السورة في التحذير من غير المسلمين ومن موالاتهم وبخاصة اليهود والنصارى، وأن من يخالف أمر الله فإنه منهم، وقد جعل الحق سبحانه وتعالى موالاة اليهود والنصارى علامة من علامات النفاق، حينما أخبر أن المنافقين وهم من في قلوبهم مرض يتوددون إلى اليهود والنصارى ويتقربون منهم، شكًّا منهم في وعد الله، مع أن وعده سبحانه لا يتخلف، ونافذ ولو بعد حين، وهذه عقيدة المؤمنين.

خامسًا: نتائج الغزوة:

كان من أهم نتائج الغزوة:

١. هزيمة اليهود ونزولهم على أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالجلاء من المدينة.

٢. نقض اليهود العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم.

٣. كشف الحقد الدفين الذي انطوت عليه طبائع اليهود ضد المسلمين.

٤. تكشف أمر المنافقين بالدفاع عن اليهود، كما حدث من عبد الله بن أبي بن سلول في دفاعه عن اليهود ومؤازرتهم.

٥. براءة المؤمنين من حلف اليهود: وهو ما ظهر من الموقف الإيماني للصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

٦. إجلاؤهم من المدينة: حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة بن الصامت أن يجليهم، فخرجوا بعد ثلاث، ومضى بهم عبادة حتى بلغوا جبل ذباب[1].

(١) ذباب ذكره الحازمي بكسر أوله وباءين، وقيل: بالضم، جبل أو أكمة بالمدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع، وهو علي يمين الخارج من المدينة السالك ثنية الوداع -الشامية للمتجه إلى تبوك- ويكون جبل سلع على يساره، وموقعه الآن في أول شارع عثمان بن عفان العيون المتفرع من شارع سلطانة، وهو الآن مكسو بالعمائر، ويقع في «حي النصر» بالمدينة.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٣/ ٣، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين البغدادي ٢/ ٥٨٣، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، السمهودي ٣/ ٤٩، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد

٧. الغنائم: عرف عن يهود بني قينقاع الثراء والغنى، وظهر ذلك مما غنمه المسلمون منهم، فقد كانوا صاغةً، ولديهم آلة للصياغة، ووجد المسلمون لديهم سلاحًا كثيرًا، خص النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ببعض منه، قال الواقدي: كان محمد بن مسلمة هو الذي أجلاهم وقبض أموالهم، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاحهم ثلاث قسي، قوس تدعى الكتوم كسرت بأحد، وقوس تدعى الروحاء، وقوس تدعى البيضاء، وأخذ درعين من سلاحهم، درعًا يقال لها السغدية[١] وأخرى فضة، وثلاثة أسياف، سيف قلعي، وسيف يقال له بتار وسيف آخر - لم يسم - وثلاثة أرماح، ووجدوا في حصونهم سلاحًا كثيرًا وآلة للصياغة وكانوا صاغةً[٢].

غزوة بني النضير

يهود بني النضير هم الطائفة الثانية من اليهود الذين سكنوا المدينة، وهم داخلون في العهد الذي أبرمه النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود بطوائفهم الثلاث، وقد أثبتت الحقائق التاريخية أنهم لم يرعوا هذا العهد، بل كانوا يتحينون الفرص لنقضه، حتى إذا سنحت لهم الفرصة بادروا إلى النكوث والعودة فيه.

فهم أهل خيانة وغدر، ودلت أفعالهم الدنيئة من انتهاكهم لحرمات المسلمين، وإثارتهم للفتن والقلاقل أنهم لا يرجون أمانًا، ولا يطلبون سلامًا.

وبالرغم مما حاق بأسلافهم من بني قينقاع، إلا أنهم لا يعتبرون، قد أعمى بصائرهم وأبصارهم حقدهم وبغضهم للإسلام والمسلمين.

أولًا: زمان ومكان الغزوة:

فأما الزمان: فقد تعددت الروايات في زمنها[٣]، مما أدى إلى اختلاف أهل التفسير والسير والتاريخ في تحديد وقتها إلى أربعة أقوال:

الأول: أنها كانت بعد بدر بستة أشهر وقبل

شراب ص ١٢٠.

(١) السغدية: بسين مهملة وغين معجمة، نسبة الى سغد بلد تعمل فيه الدروع.
انظر: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، الدياربكري ٢/ ١٨٩، عيون الأثر، ابن سيده ٢/ ٣٨٦، مستعذب الإخبار بأطيب الأخبار، أبو مدين الفاسي ص ٣٧٤، تاريخ الإسلام، الذهبي ١/ ٥١٣.

(٢) انظر: مغازي الواقدي ١/ ١٧٨.

(٣) انظر في غزوة بني النضير: مغازي الواقدي ١/ ٣٥٣، الطبقات الكبري، ابن سعد ٢/ ٥٧، تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٥٥٠، السيرة النبوية، ابن هشام ٣/ ١٤٢.

أحد، روي ذلك عن عروة والزهري وابن إسحاق والبخاري والبيهقي وغيرهم[1].

قال البخاري رحمه الله: قال الزهري عن عروة: «كانت على رأس ستة أشهرٍ من وقعة بدر قبل أحد»[2].

الثاني: أنها كانت في ربيع الأول بعد أحد من السنة الرابعة للهجرة، وهذا رأي ابن إسحاق والمحققين من المؤرخين، قال ابن كثير رحمه الله: «ذكر البيهقي والبخاري قبله خبر بني النضير قبل وقعة أحد، والصواب إيرادها بعد ذلك، كما ذكر ذلك محمد بن إسحاق[3] وغيره من أئمة المغازي[4]، وبرهانه أن الخمر حرمت ليالي حصار بني النضير، وثبت في الصحيح[5] أنه اصطبح الخمر جماعة ممن قتل يوم أحد شهيدًا، فدل على أن الخمر كانت إذ ذاك حلالًا، وإنما حرمت بعد ذلك فتبين ما قلناه من أن قصة بني النضير بعد وقعة أحد والله أعلم»[6].

الثالث: أن غزوة بني قينقاع وبني النضير كانتا في زمن واحد، وهذا رأي الحاكم، قال مغلطاي: قال الحاكم: غزوة بني قينقاع وبني النضير واحدة فربما اشتبهتا على من لا يتأمل.

وقد رد الحافظ ابن حجر على هذا القول بعد أن ذكر أن يهود بني قينقاع أول من نقض العهد فغزاهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم بني النضير، فقال رحمه الله: وأغرب الحاكم فزعم أن إجلاء بني قينقاع وإجلاء بني النضير كان في زمن واحد، ولم يوافق على ذلك لأن إجلاء بني النضير كان بعد بدر بستة أشهر على قول عروة، أو بعد ذلك بمدة طويلة على قول ابن إسحاق.[7]

الرابع: التوقف، وهو ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر، فلم يجزم برأي قاطع، وعلق التسليم برأي ابن إسحاق بثبوت تعلق الغزوة بقصة القتيلين العامريين.

قال رحمه الله معلقًا على رواية الزهري:

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٧٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ٦٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله، ٥/ ٨٨.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣/ ٢١٩.

(٤) وقد ذهب إلي ذلك جل أهل المغازي، انظر: مغازي الواقدي ١/ ٣٦٣، السيرة النبوية، ابن هشام ٣/ ٣١٩، دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ١٨٠.

(٥) جاء ذلك في حديث جابرٍ رضي الله عنه قال: (اصطبح الخمر يوم أحد ناس، ثم قتلوا شهداء). أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ٥/ ٩٥، رقم ٤٠٤٤.

(٦) البداية والنهاية ٤/ ٩.

(٧) انظر: فتح الباري ٧/ ٣٣٢، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٢/ ٣٥٠، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ١/ ٤٠٩.

فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق من أن سبب غزوة بني النضير طلبه صلى الله عليه وسلم أن يعينوه في دية الرجلين، لكن وافق ابن إسحاق جل أهل المغازي فالله أعلم، وإذا ثبت أن سبب إجلاء بني النضير ما ذكر من همهم بالغدر به صلى الله عليه وسلم وهو إنما وقع عندما جاء إليهم ليستعين بهم في دية قتيلي عمرو بن أمية، تعين ما قال ابن إسحاق؛ لأن بئر معونة كانت بعد أحد بالاتفاق[1].

والذي تطمئن إليه النفس ما ذهب إليه ابن إسحاق وابن كثير وابن القيم وغيرهم، من أن غزوة بني النضير كانت بعد أحد، لأن إباحة شرب الخمر في أحد، وتحريمه في غزوة بني النضير يؤيد ذلك، ولأن الثقات من أهل المغازي كابن كثير وابن القيم عندما رتبوا الغزوات حسب الزمن وضعوا غزوة بني النضير بعد غزوة أحد، والله أعلم.

وأكد ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله ورد على أصحاب الرأي الأول بقوله: وزعم محمد بن شهاب الزهري، أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها كانت بعد أحد والتي بعد بدر بستة أشهر: هي غزوة بني قينقاع. ثم قال: والصحيح الذي عليه أهل السير: أنها بعد غزوة أحد، وللنبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود أربع غزوات: أولها: غزوة قينقاع بعد بدر، والثانية: غزوة بني النضير بعد أحد، والثالثة: غزوة بني قريظة، بعد الخندق، والرابعة: خيبر، بعد الحديبية[2]. وإلى هذا القول ذهب ابن العربي[3].

وأما المكان: فوقعت الغزوة في ديار يهود بني النضير، وكان موقعها العوالي في الجنوب الشرقي للمدينة المنورة عند وادي مذينيب -وهو فرع لبطحان- على مسافة ميل أو ميلين منها في أواخر منطقة قربان حاليًا، وتبعد عن المسجد النبوي مسافة ٤كم تقريبًا، ولم يبق من آثارهم غير بعض أطلال حصن كعب ابن الأشرف[4].

ثانيًا: أسباب الغزوة:

هناك عدة أسباب حملت النبي صلى الله عليه وسلم على غزو بني النضير وإجلائهم، ومن أهمها:

الأول: نقض بني النضير عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم والذي يحتم عليهم ألا يؤووا عدوًا للمسلمين، ولم يكتفوا بهذا النقض، بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة.

(١) فتح الباري ٧/ ٣٣٢.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٢٢٣.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٦٥.

(٤) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ١٧٦، آثار المدينة المنورة ص٦٥ - ٧٦.

وقد حصل ذلك في غزوة السويق حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين عاد بقافلته إلى مكة، ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المدينة، فلما خرج في مائتي راكب قاصدًا المدينة قام سيد بني النضير سلام بن مشكم بالوقوف معه وضيافته وأبطن له خبر الناس، ولم تكن مخابرات المدينة غافلة عن ذلك[1].

قال موسى بن عقبة: «كانت بنو النضير قد دسوا إلى قريش وحثوهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلوهم على العورة»[2].

الثاني: محاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم حينما خرج في نفر من أصحابه إلى ديار بني النضير يستعينهم في دية القتيلين العامريين[3].

وكان سببه ما رواه محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر قالا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير ليستعينهم على دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري[4]، فلما جاءهم خلا بعضهم

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٢٨٤، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٧٩.

(٢) انظر: عيون الأثر، ابن سيده ٢٧٠، فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٣٣٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٥٨، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، الصلابي ص ٥٤٩.

(٤) جاء في قصة قتل العامريين ما رواه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيرهم من أهل العلم قالوا: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام، فقال: يا محمد لو بعثت رجالًا من أصحابك إلي أهل نجد فدعوهم إلي الإيمان رجوت أن يستجيبوا لك، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج المعنق ليموت في أربعين رجلًا من المسلمين من خيارهم منهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان أخو بني عدي بن النجار، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، ورجال مسمون من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا بئر معونة -وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم كلا البلدين منها قريب وهي من سليم أقرب- فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاهم لم ينظر في كتابه إلى أن عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم، وقالوا: لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا، فاستصرخ عليهم قبائل بني سليم: عصية، ورعلًا، وذكوانًا، فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا أسيافهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار، فإنهم تركوه فيه رمق، فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق، فكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري، ورجل من الأنصار -أحد بني عمرو بن عوف- فلم

ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا محمدًا أقرب منه الآن، فمن رجلٌ يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، وانصرف

ينبئهما بمصاب إخوتهما إلا الطير تحوم على المعسكر، فقال -أي: عمرو ابن أمية-: والله إن لهذه الطير لشأنًا، فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: لكني ما كنت أرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لتخبرني عنه الرجال، ثم قاتل القوم حتى قتل، وأخذ عمرو بن أمية أسيرًا، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته، واعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا معه في ظل هو فيه، وكان للعامريين عقد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوار، فلم يعلم به عمرو بن أمية وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنه أصاب بهما ثأره من بني عامر لما أصابوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره الخبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لئن قتلت قتيلين لأدينهما)، وجعل حسان بن ثابت يحرض ربيعة بن عامر على عامر بن الطفيل حتى طعن ربيعة عامرًا.

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ٣٥٧.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٢٩: رجاله ثقات إلا ابن إسحاق.

عنهم، فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١][1].

ثالثًا: حديث القرآن عن الغزوة:

لم يجن اليهود من وراء نقضهم العهد إلا لعنة الله تعالى لهم وطردهم من رحمته، فصارت قلوبهم قاسية تجانبها الرحمة، ويبعد عنها الوفاء.

قال تعالى في وصفهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

ورجح الطبري أن هذه الآية نزلت في يهود بني النضير، قال رحمه الله: «والصواب من القول أن الله عنى بهذه الآية يهود بني النضير الذين هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذ أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية العامريين، فأطلعه الله على ما قد هموا به»[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٣.

وهذا يدل على خبث نواياهم، وسوء طبائعهم، ولأهمية هذه الغزوة فقد خصها الله تعالي بسورة كاملة في القرآن، سماها سورة الحشر.

روى الطبري بسنده إلى يزيد بن رومان قال: نزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته، وما سلط عليهم به رسوله صلى الله عليه وسلم وما عمل به فيهم[(١)].

وسمى حبر الأمة عبد الله بن عباس سورة الحشر بسورة بني النضير، فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة النضير[(٢)].

قال الداوودي: كأن ابن عباس كره تسميتها سورة الحشر لئلا يظن أن المراد بالحشر يوم القيامة، أو لكونه مجملًا فكره النسبة إلى غير معلوم[(٣)].

وعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لن تبقي أحدًا منهم إلا ذكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدرٍ، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير[(٤)].

وقد تناولت السورة أهم جوانب الغزوة، ففيها إشارة إلى أن الوضع المادي الذي كان عليه بنو النضير من المال والسلاح والحصون كان يوحي إليهم بأنهم في عز ومنعة، فلا يستطيع أحد أن يطاولهم، فضلًا عن أن ينتصر عليهم، كما أن هذا الوضع نفسه يوحي إلى المسلمين بأن الاستيلاء عليهم يحتاج إلى تضحيات جسام، إن لم يكن في حكم المتعذر بالمرة، لكن الله عز وجل وهو القادر على كل شيء، ألقى في قلوبهم الخوف والهلع والجزع، لما خالفوا أمر الله ورسوله، وأعد المسلمون لهم عدتهم.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٦٣، السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٩٢.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٥٦.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ٥/ ٨٨، رقم ٤٠٢٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٣٣٢.

(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٣، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٨٨.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الحشر ٦/ ١٤٧، رقم ٤٨٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر ٤/ ٢٣٢٢، رقم ٣٠٣١ واللفظ له.

﴿عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٤﴾ [الحشر: ٢-٤].

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم عنادهم وعدم نزولهم على رأيه، وطال حصارهم عمد النبي صلى الله عليه وسلم إلى خطة بارعة ليلقي الخوف في قلوبهم وينزلوا على أمره، فأمر بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم، وضعفت حماستهم للقتال، وجزعوا وتصايحوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله، فما بال قطع النخيل وتخريبها؟

روى الطبري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أن النبي صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني النضير)[1].

وفي رواية قال: (حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥])[2].

ثم بين الله عز وجل مال الفيء وصفته وحكمه، وهو ما أخذ من الكفار من مال من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، وجعل الله عز وجل أمر الفيء خاصًّا للنبي صلى الله عليه وسلم فرده على المسلمين في وجوه البر ومصالحهم روى الثعلبي بسنده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصةً، وكان ينفق على أهله نفقة سنته، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله)[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٧٢.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ٥/ ٨٨، رقم ٤٠٣٢ ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها ٣/ ١٣٦٥، رقم ١٧٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٧٢، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٦٢.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ٥/ ٨٨، رقم ٤٠٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها، ٣/ ١٣٦٥، رقم ١٧٤٦.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٢٧٢.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب المحن ومن يترس بترس صاحبه، ٤/ ٣٨، رقم ٢٩٠٤، ومسلم

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الحشر: ٦].

قال المفسرون: إن بني النضير لما جلوا عن أوطانهم، وتركوا رباعهم وضياعهم، طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخمسها بينهم، كما فعل بغنائم بدر، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يبين أنها فيء إذا لم يوجف المسلمون عليه خيلا ولا ركابًا، ولم يقطعوا إليه مسافة، فجعل الله تعالى أموال بني النضير لرسوله خاصة، يفعل فيها ما يشاء، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئا منها، إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم: أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة[1].

ثم أخبر الله عز وجل أن حكم فيء بني النضير لا يقتصر على هذه الواقعة، ولكنه عام في كل ما يفتح بهذه الطريقة، ثم بين وجوه صرفها.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر: ٧].

ثم كشف الله عز وجل عن العلاقة التي تجمع بين المنافقين واليهود، وذلك من خلال تضامنهم، ووحدة هدفهم في القضاء على الإسلام والمسلمين، وهو ما وقع من المنافقين ووعدهم اليهود بمآزرتهم، ثم خلفهم لهذا الوعد، قال الطبري رحمه الله: ذكر أن الذين نافقوا عبد الله بن أبي ابن سلول، ووديعة ومالك ابنا نوفل، وسويد، وداعس، بعثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للحرب أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة[2].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١-١٢].

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٧٢.

في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء، ٣/ ١٣٧٦، رقم ١٧٥٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٨٩.

وفصل الفخر الرازي معنى الأخوة المذكورة وذكر أنها تحتمل وجوها:

أحدها: الأخوة في الكفر، لأن اليهود والمنافقين كانوا مشتركين في عموم الكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام.

ثانيها: الأخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة.

ثالثها: الأخوة بسبب ما بينهما من المشاركة في عداوة محمد عليه الصلاة والسلام[1]، والواقع أن التعبير القرآني يجمع كل ذلك[2].

وبين كتاب الله السر في فشل يهود بني النضير وحلفائهم من المنافقين، وهو أنهم يخشون المخلوق أكثر من الخالق لأنهم لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته، ثم أطلع المسلمين على سياسة اليهود القتالية، وأنهم من جبنهم وهلعهم لا يجرؤون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة، فهم يقاتلون إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، وما يدور من تحالفات بين اليهود والمنافقين إنما هو تحالف مصالح وأغراض إن اتفقت حينًا اختلفت أخرى.

قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٣-١٤].

وقد ضرب الله لهم المثل بما حل بيهود بني قينقاع وحاق بهم للاعتبار والعظة.

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥].

وشبه الله تعالى موقف المنافقين مع اليهود ووعودهم بنصرتهم، وأنهم لما جد بهم الحصار وأيقنوا بالقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للتهلكة، مثلهم بالشيطان، حينما طلب من الإنسان أن يكفر فلما كفر تبرأ منه.

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

رابعًا: علاقة قصة غزوة بني النضير بموضوع سورة الحشر:

تقص آيات سورة الحشر واقعة يهود بني النضير، وقد ورد فيها أغلب آيات السورة، حتى أطلق عليها سورة بني النضير كما تقدم، وقد ذكرت الآيات أهم أركان الغزوة بما ينفع المسلمين في تعاملهم مع أعدائهم من اليهود، وهي:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٩.
(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ١٤٦.

- الاكتفاء بالأسباب دون التوكل علي المسبب لا يكفي فى تحقيق النصر، فقد اعتمد اليهود على قوتهم المادية وعلى لن يهزموا أمام قوة المسلمين، لكنهم تناسوا أن الحق سبحانه معهم وهو ناصر عباده المؤمنين.

ثم بين سبحانه وتعالى حكم الفيء، وكيفية تقسيمه.

- علاقة اليهود بالمنافقين علاقة أخوة ظاهرية، بدلالة أنهم بعدما وعدوا اليهود بمآزرتهم ونصرهم، خذلوهم وأخلفوا وعودهم معهم، فمثلهم كمثل الشيطان حينما وعد الإنسان إن هو كفر أن يحقق له ما يطلبه ويتمناه، فلما كفر الإنسان تركه الشيطان وتبرأ منه، وهكذا شأن المنافقين مع اليهود .

ثم كشف الحق سبحانه وتعالى عن سياسة اليهود القتالية، وأنهم جبناء فهم أحرص الناس على الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

وفى ذلك تثبيت للمؤمنين وتحريضهم على قتالهم.

نتائج الغزوة:

١. هزيمة اليهود وانتصار المسلمين.
٢. تأكيد اليهود لمعنى الغدر والخيانة ونقض العهود.
٣. كشف علاقة المنافقين مع اليهود، وذلك من خلال تواطؤ عبد الله بن أبي ابن سلول ومن تبعه من المنافقين مع اليهود.
٤. نكث المنافقين للعهود، وخلفهم للوعد، فبعد أن وعد عبد الله بن أبي ابن سلول اليهود بنصرتهم ومعاضدتهم، أسلمهم ونكث في وعده.
٥. إجلاء يهود بني النضير من المدينة المنورة.
٦. إسلام رجلين من بني النضير، هما: يامين بن عمير بن كعب، وأبو سعد بن وهب، فأحرز النبي صلى الله عليه وسلم أموالهما لهما ولم يقسمها[(١)].
٧. تشريع حكم الفيء في الإسلام.
٨. تكشف طبيعة اليهود التي تتسم بالأذى والفساد، وذلك من خلال تخريبهم لبيوتهم بأيديهم وهم خارجون منها لئلا ينتفع بها من بعدهم من المسلمين.
٩. غنائم المسلمين من الغزوة، وقدرت بخمسين درعًا، وخمسين بيضةً[(٢)]، وثلاثمائة وأربعين سيفًا، وقد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٥٩، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ابن حبان ١/ ٢٣٤- ٢٣٧.
(٢) البيضة: الخوذة.

جعلها الله عز وجل خالصةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يخمسها، ولم يسهم منها لأحد، ولكنه قسمها بين المهاجرين والأنصار، بعد أن استبقى قسمًا خصصت غلته للكراع[(١)] والسلاح.

١٠. هذا بخلاف ما حمله اليهود معهم، حيث حملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، ومعهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى إن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوءًا ذهبًا وفضة، بخلاف ما تركوه من النخيل، مما يؤكد ثراء بني النضير وغناهم، وأنهم لم يرعوا تلك النعم التي أنعم الله بها عليهم[(٢)].

١١. لؤم اليهود ومكرهم، فبالرغم من عفو النبي صلى الله عليه وسلم عن قتلهم، فقد خرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم، حتى لا يشمت بهم المسلمون، فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام[(٣)][(٤)].

١٢. اغتناء المهاجرين وإعفافهم، حيث صارت لهم أموال من بني النضير، وردهم ما أشركهم فيه إخوانهم من الأنصار من الأموال[(٥)].

١٣. إيثار الأنصار إخوانهم المهاجرين بالفيء، حيث قبلوا قسمة النبي صلى الله عليه وسلم للفيء على المهاجرين ولم يمتعضوا أو يتضجروا[(٦)].

انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ١٧٢.

(١) الكراع: اسم لجميع الخيل.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ١٦٥.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٤٢٣، السيرة الحلبية، أبو الفرج الحلبي ٢/ ٥٦٦، الروض الأنف، السهيلي ٦/ ١٦٨.

(٣) أذرعات: بلد في أطراف الشام، بجاور أرض البلقاء وعمان.
انظر: معجم البلدان، الحموي ١/ ١٣٠.

(٤) انظر: التفسير الحديث، دروزة ٧/ ٣٠٦.

(٥) عيون الأثر، ابن سيده ٢/ ٧٣.

(٦) أخرج القصة مختصرة البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب العين الجارية في المنام، ٩/ ٣٨، رقم ٧٠١٨.
وأخرجها مطولة الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ٢/ ٤٩٣، رقم ٣٦٩٦.

غزوة بني قريظة

لم يعتبر يهود بني قريظة[1] وهم الطائفة الثالثة والأخيرة من طوائف اليهود الذين سكنوا المدينة، بما حاق بأسلافهم من بني قينقاع والنضير حينما نقضوا العهد، وحنثوا فيه، فالغدر دأب أصيل لا ينفك عنهم والمكر والخداع طبع لا يفارقهم.

قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

ولذا وصفهم الخالق سبحانه وتعالى بأخس الصفات، وهي شر ما دب على الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٦].

نزلت هذه الآيات في بني قريظة[2].

قال الطبري: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ يا محمد، يقول: أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك محاربًا لك، كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد[3].

وقد كانت غزوة بني قريظة آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود في المدينة، إذ تطهرت المدينة عقبها من رجسهم وأحقادهم، وأمن المسلمون بعدها على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، بعد القضاء على الخطر الذي كان يهددهم فيها.

أولًا: زمان الغزوة ومكانها:

أما الزمان: فمن المعلوم أن غزوة بني قريظة كانت عقب غزوة الخندق، فبعد انتهاء النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق توجه مباشرة صوب بني قريظة، ولقربهما جمعهما بعض المفسرين في وقت واحد فقال: غزوة الأحزاب أو الخندق وبني قريظة[4].

وقد ذهب الجمهور من أهل التفسير والسير والمغازي إلى أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة[5].

قال ابن كثير: والصحيح قول الجمهور أن أحدًا في شوال سنة ثلاث، وأن الخندق

(١) قريظة: بضم القاف، وفتح الراء، وسكون التحتية، وبالظاء المعجمة، قال السمعاني: اسم رجل نزل أولاده قلعة حصينة بقرب المدينة، فنسبت إليهم، وقريظة والنضير أخوان من أولاد هارون.
انظر: الأنساب، السمعاني ١٠/ ٣٧٩.
وقيل: إن بني قريظة كانوا يزعمون أنهم من ذرية شعيب نبي الله، قال الحافظ ابن حجر: وهو محتمل.
انظر: فتح الباري ٧/ ٤٠٨.

(٢) التفسير الوسيط ٣/ ١٦٣٨.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ٢٥٥.

(٥) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ٦٥، شذرات الذهب، ابن العماد ١/ ١٢٢.

في شوال سنة خمس من الهجرة والله أعلم[١].

وذهب بعض العلماء إلى أنها كانت في السنة الرابعة منهم: الإمام مالك بن أنس[٢]، وموسى ابن عقبة[٣]، وابن قتيبة[٤]، والبخاري[٥]، وابن حزم[٦].

وقد حاول البيهقي رحمه الله الجمع بين القولين فقال بعد أن أورد الأقوال في ذلك: «لا اختلاف بينهم في الحقيقة، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل يوم بدر لسنة ونصف من مقدمه المدينة في شهر رمضان.

ثم قاتل يوم أحد من السنة القابلة لسنتين ونصف من مقدمه المدينة في شوال.

ثم قاتل يوم الخندق بعد أُحُد بسنتين على رأس أربع سنين ونصف من مقدمه المدينة.

فمن قال: سنة أربع، أراد بعد أربع سنين، وقبل بلوغ الخمس.

ومن قال: سنة خمس، أراد بعد الدخول في السنة الخامسة وقبل انقضائها. والله أعلم»[٧].

قال ابن العماد: وجزم ابن ناصر الدين، أنهما -أي: الخندق وبني قريظة- في الخامسة، وهذا هو الصحيح، لأنه توجه صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة في اليوم الذي انصرف فيه من الأحزاب[٨].

وعن عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع يوم الخندق، ووضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار، فقال: وضعت السلاح فوالله ما وضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين؟ قال: ها هنا، وأومأ إلي بني قريظة، قالت: فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم)[٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (قال النبي صلى الله عليه وسلم لنا لما رجع من الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)[١٠].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٨٣.
(٢) شذرات الذهب، ابن العماد ١/ ١٢٢، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي ١/ ١٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٨٤، فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٣٩٣.
(٤) المعارف ص٧٠.
(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٣٩٣.
(٦) جوامع السيرة ص١٤٧.
(٧) دلائل النبوة ٣/ ٣٩٥.
(٨) انظر: شذرات الذهب، ابن العماد ١/ ١٢٢، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي ١/ ١٣.
(٩) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٧٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٢٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٠٠.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغسل بعد الحرب والغبار، ٤/ ٢١، رقم ٢٨١٣.
(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبًا وإيماءً، ٢/ ١٥، رقم ٩٤٦.

وأما المكان: فقد وقعت الغزوة في منازلهم، وكانت تقع في الجنوب الشرقي للمدينة شرقي قباء، حيث يمر وادي مهزور والتي تبعد حوالي ٥ كم عن المسجد النبوي في منطقة لا تزال معروفة قرب سد بطحان[(١)].

ثانيًا: أسباب الغزوة:

كانت بنو قريظة تمثل خطرًا وشوكة في ظهر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فهم من ساكني المدينة، وهم أعلم بها من غيرهم ممن لم يسكنها، وحصونهم خلف المسلمين، وفي أقرب وقت يستطيعون محاربة المسلمين وقتالهم، ورغم العهد الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنهم لم يراعوه، وسرعان ما نقضوه.

فعقب انتهاء النبي صلى الله عليه وسلم من أمر بني النضير توجه كعب بن الأشرف إلى كفار مكة، يستقويهم على قتال النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وجعل يمدح دينهم، وهو عبادة الأوثان، ففضحه الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١][(٢)].

ولم يكتف اليهود بذلك، بل غدروا في أشد الأوقات وأحلك الظروف، حينما تحالفوا مع قريش وغطفان وتآمروا معهم على قتال المسلمين.

ومن ذلك ما رواه ابن كثير: أن نفرًا من اليهود، منهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وحيي بن أخطب النضريون، وهوذة بن قيس وأبو عمار من بني وائل، وهم كلهم يهود، خرجوا في نفرٍ من بني النضير ونفرٍ من بني وائل، فأتوا مكة، فدعوا قريشًا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعدوهم من أنفسهم بعون من انتدب إلى ذلك، فأجابهم أهل مكة إلى ذلك، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غطفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم.

فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري على فزارة، والحارث بن عوف المري على بني مرة ومسعود بن رخيلة على أشجع قاصدين المدينة لقتال النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين[(٣)].

ولما وصلت الجموع قرب المدينة وسلط الله عليهم جنوده من الريح والبرد الشديد، انتكسوا على أعقابهم وفرق الله

(١) انظر: معجم البلدان، الحموي ١/ ٤٤٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٦٨، تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٩٧٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٨٤.

تعالى جموعهم وألقى الرعب في قلوبهم، وعادت قريش وغطفان مهزومين دون تحقيق ما أتوا من أجله، فلم يلبث النبي صلى الله عليه وسلم من عودته من الخندق حتى أمره الله أن يتوجه لهؤلاء الأوغاد ليقضي فيهم بحكمه تعالى، قال مقاتل بن سليمان: «حين هزم المشركين عن الخندق بالريح والملائكة أتى جبريل عليه السلام على فرس، فقال: سر إلى بني قريظة فإن الله عز وجل داقهم لك دق البيض على الصفا»[1].

كانت هذه هي الأسباب التي دفعت النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين إلى قتالهم.

ثالثًا: حديث القرآن عن الغزوة:

تحدث القرآن الكريم عن أهم وقائع غزوة بني قريظة، وخصت سورة الأحزاب بذكرها، قال ابن كثير رحمه الله: غزوة الخندق هي: غزوة الأحزاب، وقد أنزل الله الله تعالى فيها صدر سورة الأحزاب[2].

فقال تعالى مخبرًا عن نعمه وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم، قريش وغطفان والذين بلغ عددهم عشرة آلاف، حينما تألبوا عليهم، ونزل المشركون شرق المدينة قريبًا من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي المدينة قريبًا منهم، ومن فوقهم يهود بني قريظة وكان عددهم نحوًا من ثمانمائة مقاتل، وكان عدد المسلمين إذ ذاك ثلاثة آلاف، هنالك ارتعدت فرائص المؤمنين ودب الخوف في قلوبهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

وقد ظهرت هذه النعمة حينما قورنت بالواقع الذي عاشه النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام.

روى الطبري بسنده عن محمد بن كعب القرظي، قال: (قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، لحملناه على أعناقنا، قال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق، وصلى رسول الله هويا من الليل، ثم التفت

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٤٨٥.
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ١٧٨.

إلينا فقال: (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم إن يرجع أدخله الله الجنة).

فما قام أحد، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل، ثم التفت إلينا فقال مثله، فما قام منا رجل، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، يشترط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة).

فما قام رجل من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد؛ فلما لم يقم أحد، دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: (يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر، ولا تحدثن شيئًا حتي تأتينا).

قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء؛ فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه، فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان؛ ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الكراع والخف، واختلفت بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما يطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل.

ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي أن لا تحدث شيئًا حتى تأتيني، لو شئت لقتلته بسهم.

قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه؛ فلما رآني أدخلني بين رجليه، وطرح علي طرف المرط، ثم ركع وسجد وإني لفيه؛ فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم)[1].

وعن مجاهد في قوله: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ قال: الأحزاب: عيينة بن بدر، وأبو سفيان، وقريظة[2].

ثم صورت الآيات المشهد، ومواقع الأحزاب.

قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

قال يزيد بن رومان قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢١٥.
(٢) تفسير مجاهد ص ٥٤٧.

﴿فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ فالذين جاءوهم من فوقهم: قريظة، والذين جاءوهم من أسفل منهم: قريش وغطفان[1].

وفي هذا الوقت العصيب ظهر إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين، حيث شك المنافقون في وعد الله، قال قتادة: قال أناس من المنافقين: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا[2].

وانسحب بعضهم من المعركة بحجة أن بيوتهم عورة يخافون عليها السرقة وما هي بعورة، فهم يريدون الفرار من الزحف، ولو دخل الكفار عليهم من كل جهة من جهات المدينة ثم سئلوا الكفر لكفروا سريعًا وما ترددوا، وسيسألهم الله تعالى عن عهدهم الذي نقضوه مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقد عينهم عبد الله بن عباس رضي الله عنه بأنهم بنو حارثة[3].

كما أخبر القرآن أن فرارهم لن ينجيهم من الموت إذا حل بهم، وأنه لا عاصم لهم من أمر الله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٢-١٧].

ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه بالمعوقين غيرهم ممن شهد الحرب، والمثبطين لعزائمهم بقولهم هلم إلى الإقامة في الظلال والثمار، وهم مع ذلك بخلاء بالمودة والشفقة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم يجزعون ويفزعون كالذي اقترب أجله، فإذا ذهب الخوف، ارتفعت أصواتهم لطلب الغنيمة، أما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وهم بذلك قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير.

قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢١٨، تفسير السمعاني ٤/ ٢٦٣، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٥٧٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٢٣، تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣١٢٠.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥١.

﴿ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨-٢٠].

قال الطبري: يحسب هؤلاء المنافقون الأحزاب، وهم قريش وغطفان، لم ينصرفوا، وإن كانوا قد انصرفوا جبنا وهلعا منهم[(١)].

فيظنون أنهم قريبون منهم وأن لهم عودة، فإذا عاد الأحزاب ودوا لو أنهم ليسوا معكم في المدينة بل في البادية يسألون عن أخباركم، ولو كانوا بين أظهركم ما قاتلوا معكم إلا قليلًا لجبنهم وذلتهم وقلة يقينهم بالله تعالى، ثم علمهم الله تعالى أن عليهم الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

أي: هلا اقتديتم وتأسيتم بشمائله صلى الله عليه وسلم.

ثم أخبر الله تعالى عن حال المؤمنين الصادقين حينما نزل بهم البلاء، ورأوا الأحزاب، فما زادهم ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا وتصديقًا بوعد الله تعالى، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أي: انقيادًا لأوامره وطاعةً لرسوله صلى الله عليه وسلم.

قال الطبري: ولما عاين المؤمنون بالله ورسوله جماعات الكفار قالوا تسليمًا منهم لأمر الله، وإيقانا منهم بأن ذلك إنجاز وعده لهم، الذي وعدهم[(٢)].

ثم عدد الله صفات المؤمنين في مقابلة المنافقين الذين نقضوا العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأن المؤمنين ثبتوا على العهد والميثاق ولم ينكثوا أو يتراجعوا أو يبدلوا.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤].

وورد في سبب نزول هذه الآية ما قاله أنس بن مالك رضي الله عنه: نرى هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر رضي الله

(١) جامع البيان ٢٠/ ٢٣٤.

(٢) المصدر السابق ٢٠/ ٢٣٦.

عنه[1].

وأورد الطبري سبب نزولها في أنس بن النضر، فروى بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (غاب أنس بن النضر عن قتال يوم بدر، فقال: غبت عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين، لئن أشهدني الله قتالا ليرين الله ما أصنع؛ فلما كان يوم أحد، انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، فمشى بسيفه، فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أي سعد، إني لأجد ريح الجنة دون أحد، فقال سعد: يا رسول الله، فما استطعت أن أصنع ما صنع، قال أنس بن مالك: فوجدناه بين القتلى، به بضع وثمانون جراحة، بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، فما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه، قال أنس: فكنا نتحدث أن هذه الآية نزلت فيه، وفي أصحابه)[2].

ثم أخبر تعالى أنه رد كيد الكافرين بدون قتال، بأن أرسل عليهم الريح والجنود الإلهية.

(١) أسباب النزول الواحدي صـ٣٦٧.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فمنهم من قضى نحبه)، ٦/ ١١٦، رقم ٤٧٨٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٠.
والحديث أخرجه أحمد في مسنده ٢٠/ ٣١٨، رقم ١٣٠١٥، بإسناد صحيح.

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[الأحزاب: ٢٥].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ به وبرسوله من قريش وغطفان، بكربهم وغمهم، بفوتهم ما أملوا من الظفر، وخيبتهم مما كانوا طمعوا فيه من الغلبة، لم يصيبوا من المسلمين مالا ولا إسارا ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بجنود من الملائكة والريح التي بعثها عليهم[3].

وبعث الله تعالى جندًا من الملائكة لتثبيت المؤمنين، قال أنس رضي الله عنه: (كأني أنظر إلي الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم، موكب جبريل صلوات الله عليه حين سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة)[4].

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم فقال: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[5].

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، ٥/ ١١٢، رقم ٤١١٨.

(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٠.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، ٤/ ٤٤، رقم

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

قال الطبري: وأنزل الله الذين أعانوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وعنى بذلك بني قريظة[(١)]، وقذف في قلوبهم الرعب والخوف، فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا، إشارة إلى حكم سعد بن معاذ فيهم من قتل الرجال وسبي النساء والذرية، ثم أخبر سبحانه عن فضله على المؤمنين بما نالوه من الغنائم نتيجة صبرهم وثباتهم على وعد الله، فقال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

أي: جعلها ملكًا لكم من قتلكم لهم، والمراد بالأرض التي لم يطؤوها: خيبر أو مكة أو أرض فارس والروم.

قال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مرادًا[(٢)].

وقد حث القرآن الكريم أثناء الغزوة على نبذ الخيانة والبعد عنها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

قال بعض المفسرين: نزلت في أبي لبابة، في الذي كان من أمره وأمر بني قريظة، قال الزهري: نزلت في أبي لبابة، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إلى حلقه: إنه الذبح، قال الزهري: فقال أبو لبابة: لا والله، لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت[(٣)]. وذلك لأنه أفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهم.

رابعًا: علاقة قصة غزوة بني قريظة بموضوع سورة الأحزاب:

تناولت سورة الأحزاب عدة موضوعات، من أهمها غزوة الأحزاب التي سميت السورة بها، وغزوة بني قريظة كانت تابعة لغزوة الأحزاب، لأنها كانت عقبها مباشرة بدون فصل بينهما، كما أنهما مشتركتان في الأسباب، وقد عرضت الآيات جانبًا هامًّا من جوانب هذه الغزوة، فذكرت نعم الله على المؤمنين في صرفه أعداءهم منهزمين بدون قتال، وفي كشفه للطائفة المخادعة ممن نطقوا بالشهادتين ظاهرًا دون العمل بها، وهم المنافقون، حتى يحذرهم المؤمنون ولا يركنوا إليهم، كما كشفت الآيات عن ثبات المؤمنين مهما

٢٩٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو، ٣/ ١٣٦٣، رقم ١٧٤٢.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٣- ٣٥٥.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ١٠٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٥٣.

تعرضوا للشدائد والمحن، فإن ذلك لا يثني عزيمتهم ولا يضعف من عقيدتهم، وقد كافأهم الله عز وجل نتيجة صبرهم، فرد أعداءهم خائبين لم ينالوا خيرا، ونصرهم على الفئة الخائنة الباغية، فأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وأمنهم فى موطنهم بالقضاء على آخر معاقل اليهود في المدينة.

خامسًا: نتائج الغزوة:

١. هزيمة اليهود وانتصار المسلمين عليهم.

٢. تأكيد هوية اليهود، وتثبيت صورتهم في أذهان المسلمين، في غدرهم ونقضهم العهد.

٣. مشروعية جواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عادل أهل للحكم: وذلك في تولية النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ رضي الله عنه الحكم على بني قريظة، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سعد فأتى على حمارٍ، فلما دنا من المسجد قال للأنصار: (قوموا إلى سيدكم، أو خيركم) فقال: (هؤلاء نزلوا على حكمك) فقال: تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، قال: (قضيت بحكم الله) وربما قال: (بحكم الملك)[١].

٤. مشروعية قتل المرأة إذا اشتركت في القتال، أو تعرضت لسب النبي صلى الله عليه وسلم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (لم يقتل من نسائهم -تعني: بني قريظة- إلا امرأة واحدة، إنها لعندي تحدث، تضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالهم بالسيوف، إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت: أنا، قلت: وما شأنك؟ قالت: حدث أحدثته، قالت: فانطلق بها فضربت عنقها، فما أنسى عجبًا منها أنها تضحك ظهرًا وبطنًا وقد علمت أنها تقتل)[٢]. قال الواقدي: كانت قد قتلت خلاد بن سويد، رمت عليه رحى، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها وضربت عنقها بخلاد بن سويد[٣].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٦.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب، ٥/ ١١٢، رقم ٤١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، ٣/ ١٣٨٩، رقم ١٧٦٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٩.
والحديث أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب فى قتل النساء، ٣/ ٥٤، رقم ٢٦٧١.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٢٨، معالم

وقال الخطابي رحمه الله: يقال: إنها كانت شتمت النبي صلى الله عليه وسلم وهو الحدث الذي أحدثته وفي ذلك دلالة على وجوب قتل من فعل ذلك[1].

٥. مشروعية النهي عن قتل الأطفال في الحرب، فعن عطية القرظي، قال: كنت من سبي بني قريظة، فكانوا ينظرون، فمن أنبت الشعر قتل، ومن لم ينبت لم يقتل، فكنت فيمن لم ينبت[2].

٦. مشروعية الجمع بين الصلوات للضرورة، حيث أخر النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العصر، إلى ما بعد الغروب، بسبب الأحزاب، قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس)**[3]. وهذا يدل على جواز الجمع جمع تأخير.

٧. تقسيم الغنائم، وكانت غنائم بني قريظة كثيرة بالنسبة لما سبقها، وخصوصًا في الأموال المنقولة، ولذلك كان التوزيع فيها تطبيقًا للنص القرآني ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. قال ابن إسحاق رحمه الله: قَسَمَ أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأَعْلَمَ في ذلك سُهْمَانَ الخيلِ وسُهْمَانَ الرجال، وأخرج منها الخمس -أي: خمس الله ورسوله وذي القربى-، وكان من بعد الخمس في أربعة الأخماس، فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان، ولفارسه سهم، وللراجل -من ليس له فرس- سهم، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستا وثلاثين، وكان أول فيء وقع فيه السهمان، وأخرج منهما الخمس، فعلى سنتها وما مضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت المقاسم، ومضت السنة في المغازي[4].

التنزيل، البغوي ٣/ ٦٣٠.

(١) معالم السنن ٢/ ٢٨١.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٦٨، لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٤٢.
والحديث أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب فى الغلام يصيب الحد، ٤/ ١٤١، رقم ٤٤٠٤، والنسائي في سننه، كتاب الطلاق، باب متى يقع طلاق الصبي ٦/ ١٥٥، رقم ٣٤٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، ٤/ ٤٣، رقم ٢٩٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي: صلاة العصر، ١/ ٤٣٦، رقم ٦٢٧.

(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٢٩، معالم

٨. وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه، حيث توفي عقب حكمه في بني قريظة مباشرة نتيجة جرح أصيب به، وقد ظهر من إكرام الله تعالى له ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، وذلك لحكمه في بني قريظة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إن الملائكة كانت تحمله)[١].

٩. خلو المدينة تمامًا من الوجود اليهودي، الذي كان عنصرًا خطرًا، لديه القدرة على المؤامرة والكيد والمكر.

١٠. القضاء على أمل قريش في وجود حليف لها داخل المدينة، فبعد غزوة بني قريظة انتهت محاولاتها للنيل من المسلمين، أو الاعتداء عليهم.

(١) التنزيل، البغوي ٣/ ٦٣١.
انظر: التفسير المظهري ٧/ ٣٢٩.
والحديث أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب سعد بن معاذ، ٦/ ١٧٣، رقم ٣٨٤٩.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ١٠٥١، رقم ٣٣٤٧.

غزوة يهود خيبر

سميت خيبر بهذا الاسم نسبة إلى رجل من العماليق نزلها، وهو خيبر بن قانية بن مهلايل، وقال الحموي: أما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود: الحصن[٢].

وكان فتح خيبر بمنزلة وعد من الله عز وجل لعباده المؤمنين، فبعد عودتهم من الحديبية وبيعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي: بيعة الرضوان، دون أن يحققوا مرادهم وهو زيارة البيت الحرام، أو أن يجنوا غنائم، أراد الله تعالى أن يجازيهم بامتثالهم أمر الله تعالى وأمر رسوله، وما لاقوه من عناء وشدة، وكان الجزاء وافيًا حيث وفى الله تعالى لهم طاعتهم تلك وامتثالهم وصبرهم بجزائين: معنوي ومادي.

أما المعنوي: فهو إسباغ الرضى الإلهي عليهم، وإنزال السكينة والطمأنينة على قلوبهم، بسبب ما عمله في نفوسهم من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة.

وأما الجزاء المادي: فهو فتح خيبر، وغنائمها وأموالها.

وكان يهود خيبر من أقوى الطوائف

(٢) انظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، البكري ٢/ ٥٢٣، معجم البلدان، الحموي ٢/ ٤٠٩، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، البغدادي ١/ ٤٩٤، الروض الأنف، السهيلي ٧/ ٨٦.

اليهودية في بلاد الحجاز وأكثرهم عددًا وعدة وأمنعهم حصونًا[1]، وهم على عادة اليهود، استحكم بهم المكر، وغرهم المال والسلاح الذي بأيديهم.

وحوت حصون خيبر عشرة آلاف مقاتل، كانوا يخرجون كل يوم صفوفًا يستعرضون قوتهم، ويسخرون من قوة المسلمين وهم يرددون: «محمد يغزونا، هيهات! هيهات!»[2].

أولًا: زمان الغزوة ومكانها:

أما الزمان: فاختلف في تحديد وقتها علي أقوال:

- جاء في تفسير ابن المنذر عن ابن إسحاق قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بقية المحرم سنة سبع، فأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها في صفر[3]. وذكر الحافظ ابن حجر أقوالًا أخرى وهي:
- قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: كان فتح خيبر سنة ست.
- قال الحافظ: نقل الحاكم عن الواقدي، وكذا ذكره ابن سعد أنها كانت في جمادى الأولى، قال الحافظ: فالذي رأيته في مغازي الواقدي: إنها كانت في صفر.
- وقيل: كانت في ربيع الأول.
- وأغرب من ذلك ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (خرجنا إلى خيبر لثمان عشرة من رمضان) الحديث[4]. قال الحافظ ابن حجر: وإسناده حسن، إلا أنه خطأ، ولعلها كانت إلى حنين فتصحفت، وتوجيهه بأن غزوة حنين كانت ناشئة عن غزوة الفتح، وغزوة الفتح خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها في رمضان جزمًا.
- أنها كانت سنة خمس، قال الحافظ ابن حجر: وهو وهم، ولعله انتقال من الخندق إلى خيبر، وأجاب بعضهم بأنه أسقط سنة المقدم، أي: وقطع النظر عن سنة الغزوة[5].

والذي يظهر: أنها كانت في السنة السابعة، وهذا ما رجحه الجمهور، قال ابن القيم رحمه الله: الجمهور على أنها في السابعة[6].

وعلق الحافظ ابن حجر على ما سبق من أقوال فقال: وهذه الأقوال متقاربة، والراجح

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٣٢٨.
(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٤.
(٣) تفسير ابن المنذر ١/ ٢٤١.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٧٧.
(٤) انظر: مصنف ابن أبي شيبة، ٧/ ٣٩٤، رقم ٣٦٨٨٠.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٤٦٤.
(٦) زاد المعاد ٣/ ٢٨١.

منها ما ذكره ابن إسحاق، ويمكن الجمع بأن من أطلق سنة ست بناه على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقي وهو ربيع الأول وهو ابن حزم، ولذا جزم أن خيبر سنة ست لكن الجمهور على أن التاريخ وقع من المحرم[(١)(٢)].

وأما المكان: فوقعت الغزوة في خيبر وهي: مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، تبعد عن المدينة حوالي ١٦٥ كيلو متر شمالًا على طريق الشام[(٣)].

وكان أهلها يسكنون في حصون، وكانت حصونهم ثلاثة مجاميع، تمتد من الجنوب إلى الشمال، يتخللها النخيل والزروع والمنازل المتفرقة، وهذه المجاميع هي: النطاة، والشق، والكتيبة.

أما النطاة: فكانت ثلاثة حصون: ناعم، والصعب، وقلة.

وأما الشق: فكانت حصنين، أبي، والبريء.

وأما الكتيبة: فكانت ثلاثة حصون، القموص، الوطيح، والسلالم[(٤)].

ثانيًا: أسباب الغزوة:

لما اطمأن النبي صلى الله عليه وسلم من خطر اليهود في المدينة بالقضاء على آخر معقل لهم وهم بنو قريظة، والذين كانوا يشكلون تهديدًا محققًا، وأمن جانب قريش بعقد الهدنة معهم ومع حلفائهم تباعًا في الحديبية، أراد أن يقضي على الخطر المحدق به والذي يهدد أمنه واستقراره من جهة الشمال، وهو تجمع اليهود في خيبر.

حيث استقر بعض زعماء بني النضير وأتباعهم في خيبر بعد أن أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة وتزعموا يهود المنطقة، وساقوهم إلى عداء المسلمين، كما أنهم هم من ذهبوا وحرضوا قريشا وقبائل العرب من أسد وغطفان وغيرها على التحزب والزحف على المدينة لاستئصال شأفة الإسلام، كما حرضوا زعماء بني قريظة على الغدر والنكث مما نتج عنه وقعة الأحزاب ثم وقعة بني قريظة.

وقد استمروا على عدائهم بعد ذلك وظلوا يحرضون قبائل العرب ويغرونهم بغزو المدينة، مما حدا بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السير إليهم، للقضاء على هذا الخطر الذي يهدد أمن المسلمين

(١) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٤٦٤.
(٢) انظر: مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٤، السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٣٢٨، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ابن حبان ١/ ٣٠٠، جوامع السيرة، ابن حزم ص١٦٧.
(٣) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، البكري ٢/ ٥٢١، معجم البلدان، الحموي ٢/ ٤٠٩، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، السمهودي ٤/ ٧٤.
(٤) التفسير المظهري ٩/ ٢٦.

واستقرارهم[1].

ثالثًا: حديث القرآن عن الغزوة:

جاء الحديث عن غزوة خيبر في القرآن ضمن الحديث عن صلح الحديبية، فبعد أن انتهى النبي صلى الله عليه وسلم من أمر مشركي مكة بالهدنة في الحديبية، وكان قد تخلف عنه أناس أرادوا الخروج لمجرد الغنيمة، فلما علموا بخروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر وبها غنائم كثيرة، طلبوا منه أن يخرجوا معه، لكن النبي صلى الله عليه وسلم رفض أن يخرجوا معه لأنهم تخلفوا عن الحديبية بدون عذر، وكان خروجهم لطلب الغنائم لا لنصرة دين الله.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: سيقول يا محمد المخلفون في أهليهم عن صحبتك إذا سرت معتمرا تريد بيت الله الحرام، إذا انطلقت أنت ومن صحبك في سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر، فنشهد معكم قتال أهلها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يقول: يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم، ووعدهم ذلك عوضًا من غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح، ولم يصيبوا منهم شيئًا[2].

وذلك أنهم لما منعوا من دخول مكة لأداء العمرة، بايعهم النبي صلى الله عليه وسلم على القتال، ثم صالحهم أهل مكة بما عرف بصلح الحديبية، فلم يظفروا بشيء من الغنائم التي ترقبوها عقب البيعة.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن مكافأته لمن صحب النبي وبايعه وامتثل أمره ممن شهد الحديبية.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

قال الطبري: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد، وهو أن الذي أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب، المغانم الكثيرة من مغانم خيبر، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية

(١) انظر: التفسير الحديث، دروزة ٨/ ٦٠٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢١٥.

غنيمة، ولم يفتحوا فتحًا أقرب من بيعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها[1].

وقوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٩].

قال الطبري: هي سائر المغانم التي غَنَّمَهُمُوها اللهُ بعد خيبر، كغنائم هوازن، وغطفان، وفارس، والروم[2].

ثم وصف الله تعالى الغنائم بأنها كثيرة، ومن مزيد فضله أنه كف أيدي اليهود عنهم، كما قال قتادة[3].

قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠].

قال مجاهد: هي جميع الغنائم إلى اليوم، والمعجلة هي: فتح خيبر[4].

وفي هذه الغزوة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب، فتكلم بعض الناس على زواجه صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «نزلت في الذين طعنوا على النبي صلى الله عليه وسلم حين اتخذ صفية بنت حيي بن أخطب»[5].

رابعًا: علاقة قصة غزوة يهود خيبر بموضوع سورة الفتح:

سميت سورة الفتح بأهم ما تناولته من موضوعات وهو صلح الحديبية الذي عده الصحابة: الفتح الحقيقي، لا فتح مكة كما يتبادر إلى الأذهان، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية)[6].

وقد جاء ما يتعلق بغزوة خيبر من الآيات في صورة الوفاء بالوعد الذي وعده الله عباده المؤمنين من مكافأتهم بغنائم كثيرة، نتيجة طاعتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ومبايعتهم له، فحقق الله تعالى لهم وعده، ووفى أجرهم.

خامسًا: أهم نتائج الغزوة:

١. هزيمة اليهود وانتصار المسلمين.

٢. أحدث فتح خيبر دويًّا هائلًا في

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٢٣٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٢٢/ ٢٣١.
(٤) تفسير العز بن عبد السلام ٣/ ٢٠٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٣٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٧٩.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ٥/ ١٢٢، رقم ٤١٥٠.

الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، فقد أصيبت قريش بالإحباط إذ فقدت حليفًا طالما تآمر معها ضد المسلمين.

٣. إسراع كثيرٍ من القبائل الموالية لقريش إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم، مما ساعد على فتح مكة بعد ذلك، وفتح الباب واسعًا أمام نشر الإسلام في أرجاء الجزيرة بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم، إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي.

٤. القتلى من الجانبين، بلغت حصيلة من قتل من اليهود في هذه الغزوة ثلاثة وتسعين، واستشهد من المسلمين نحو خمسة عشر رجلًا[١].

٥. مصالحة يهود خيبر، فبعد أن أيقن اليهود بالهلاك، واستولى اليأس عليهم، نتيجة تهاوي حصونهم واحدًا تلو الآخر، طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم الصلح على أن يحقن دماءهم، فقبل الرؤوف الرحيم وصارت أرضهم لله ولرسوله وللمسلمين، فلما أراد النبي إجلاءهم سألوه أن يقرهم على أن يعملوا في الأرض ولهم نصف ما تخرجه الأرض، فقال لهم: (نقركم على ذلك ما شئنا)[٢].

٦. محاولة قتله صلى الله عليه وسلم، حيث تعرض النبي صلى الله عليه وسلم لمحاولة اغتيال رغم عفوه وصفحه عنهم، وذلك على يد امرأة تدعى زينب بنت الحارث، وكانت أهدت إلى النبي صلى الله عليه وسلم شاة مشوية مسمومة[٣].

٧. زواجه صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية، وهي أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب، كان أبوها

(١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة ٢/ ٤١٧.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٣٤، لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٦٣.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، ٤/ ٩٥، رقم ٣١٥٢.

(٣) وحديثها أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب الشاة التي سمت للنبي صلى الله عليه وسلم بخيبر، ٥/ ١٤٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة، فأهدت له يهودية شاة مصلية سمتها، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأكل القوم فقال: (ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة) فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري، فأرسل إلى اليهودية، (ما حملك على الذي صنعت؟) قالت: إن كنت نبيًّا لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكًا أرحت الناس منك، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلت، ثم قال في وجعه الذي مات فيه: (ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر، فهذا أوان قطعت أبهري).

سيدًا من سادات بني النضير، انتقل إلى خيبر لما أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة وكان من ذرية هارون بن عمران[(١)(٢)]. وكان لزواجه صلى الله عليه وسلم منها حكمة بالغة، فقد كانت رضي الله عنها بنت سيد يهود خيبر، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم إعزازها وتكريمها وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام، والانضواء تحت لوائه، والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد، فدل ذلك على حسن أدبه وحنكته السياسية صلى الله عليه وسلم[(٣)].

٨. غنائم خيبر، فقد كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم غنيمة، من حيث الأراضي والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك، ويدل على كثرتها قول السيدة عائشة رضي الله عنها: (لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر)[(٤)].

(١) انظر: حاشيه الشهاب علي أنوار التنزيل، البيضاوي ٨/ ٧٩، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة ٢/ ٣٨٣.

(٢) حديث زواجه صلى الله عليه وسلم بصفية، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/ ١٣٥، رقم ٤٢١١، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدمنا خيبر فلما فتح الله عليه الحصن، ذكر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب، وقد قتل زوجها، وكانت عروسًا، فاصطفاها النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا سد الصهباء حلت، فبني بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صنع حيسًا في نطع صغير، ثم قال لي: (آذن من حولك) فكانت تلك وليمته على صفية، ثم خرجنا إلي المدينة، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يحوي لها وراءه بعباءةٍ، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب.

(٣) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة ٢/ ٣٨٥.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٣٤. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/ ١٤٠، رقم ٤٢٤٢.

الدروس المستفادة

١. اليهود أهل غدر وخيانة.

أظهرت غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود حقيقةً ثابتةً، وهي: أن اليهود على مر التاريخ والعصور، وفي عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا مصدر خطر داهم على الإسلام والمسلمين، فهم قوم خيانة وغدر ونقض للعهود والمواثيق، مهما عوملوا بالحسنى، وذلك سر لعنة الله التي حاقت بهم.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

وقال أيضًا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥].

فلا يوثق في وعدهم، ولا أمان لهم.

٢. الأخذ بالأسباب.

إن الأخذ بالأسباب قدر الاستطاعة والإمكان واستفراغ الجهد، هو سبيل النصر.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فبالرغم من قوة اليهود العسكرية والاقتصادية وامتلاكهم الأسباب المادية التي تدفعهم إلى النصر، حتى اعتقدوا أنه لا يستطيع أحد أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها وقوتها، في مقابل قلة عتاد المسلمين وعدتهم، لكن حينما أخذ المسلمون بأسباب النصر التي أمروا بها، وفَّى الله تعالى لهم وعده وحقق النصر لهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٣. تربية الأفراد والأمم.

الثقة بوعد الله عز وجل، وأن النصر من عند الله، وربط الأحداث بفاعلها الحقيقي وهو رب العزة سبحانه، وعدم الاكتفاء بالأسباب المادية، دون اللجوء إلى المسبب سبحانه وتعالى.

قال عز من قائل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

٤. اجتماع أعداء الإسلام على أهل

الإسلام.

فتلك عادة ماضية في كل زمان ومكان، فلا تنقطع عداوتهم، وفي ذلك حكمة بالغة في الرجوع إلى الله، وصدق التوكل عليه، والإنابة والذل وإظهار الحاجة، وبذل الغالي لهذا الدين.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

إلا أن الله عز وجل حامي دينه، وناصر عباده المؤمنين.

قال ابن القيم رحمه الله: «فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله»[1].

وعلى مر العصور وتقلب الدهور قول الصادق: (بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر، والتمكين في الأرض)[2].

لكن الأمر مشروط بشروطه، ومقيد بقيوده: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

٥. نصر الله عز وجل لعباده المؤمنين.

فيمدهم بجيش من عنده ولا يضيعهم، كما أنزل عليهم الملائكة يوم بدر، وأرسل الريح في غزوة الأحزاب، وهذا تحقيق لوعده سبحانه حيث قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨].

٦. جواز قتال من نقض العهد.

ويوب الإمام النووي به في صحيح الإمام مسلم، فالصلح والمعاهدة والاستئمان بين المسلمين وغيرهم، كل ذلك ينبغي احترامه على المسلمين ما لم ينقض الآخرون العهد أو الصلح أو الأمان، وحينئذٍ يجوز للمسلمين قتالهم إن رأوا المصلحة في ذلك[3].

٧. جواز هدم حصون الكفار وديارهم في الحرب.

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٠٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٥/ ١٤٦، رقم ٢١٢٢٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/ ٩٢.

إذا دعت الضرورة إلى ذلك، كأن يستتر العدو بها ويتخذها وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين، فإنه لا مناص من قطع الأشجار، وهدم البناء، على أنه ضرورة من ضرورات القتال[1].

٨. استطلاع أخبار العدو قبل بدء قتالهم.

فإنه من إعداد العدة واتخاذ ما يلزم، كما وقع للزبير بن العوام في غزوة بني قريظة[2].

٩. معاملة المنافقين معاملة المسلمين.

حيث لم يتعرض النبي صلى الله عليه وسلم لرأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول، كما مر في غزوة بني قينقاع، وعامله مع ذلك على أنه مسلم، فلم يخفر ذمته، ولم يعامله معاملة المشرك أو المرتد، وأجابه إلى ما أصر وألح عليه وذلك يدل على أن المنافق إنما يعامل في الدنيا من قبل المسلمين على أنه مسلم، وإن كان نفاقه مقطوعًا به.

وهذا لا ينافي أن يكون المسلمون في حذر دائم من المنافقين، وأن يكونوا في يقظة تامة أمام تصرفاتهم، فذلك من الواجبات البديهية على المسلمين في كل ظرف ووقت.

١٠. الولاء والبراء.

والولاء يعني: مناصرة الله ورسوله والمؤمنين، وإعانتهم والسكنى معهم، والبراء أن يقطع المؤمن صلته بالكفار، ولا يحبهم، ولا يناصرهم، ولا يقيم في أوطانهم إلا لضرورة، والولاء والبراء بذلك يقتضي تحريم التعاون مع الكفار ضد المسلمين، سواء بالنصرة أو المساعدة أو بأي شيء يتقوون به على قتال المسلمين.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

(١) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ٢/ ٦٦٤.
(٢) التفسير المظهري ٧/ ٢٩٥.
وحديثه: عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: كنت يوم الأحزاب، جعلت أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثًا، فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف؟ قال: أو هل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم) فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه فقال: (فداك أبي وأمي).
أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب الزبير بن العوام، ٥/ ٢١، رقم ٣٧٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما، ٤/ ١٨٧٩، رقم ٢٤١٦.

[المجادلة: ٢٢].

كما أن عقيدة الولاء والبراء تحرم على المسلمين أيضًا أن يخذلوا إخوانهم المستضعفين، أو أن يتركوهم يقاتلون وحدهم، دون مناصرتهم وتقديم العون لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾[الأنفال:٧٢].

١١. المنح تخرج من رحم المحن.

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الظرف القاسي، والصحابة في حصار وجوع، وخوف شديد، إلا أن الله تعالى فرج كربهم، وكتب لهم النصر، وانبثق نور الإسلام ليخرج من هذا الضيق ليجوب أنحاء العالم، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

١٢. أن المؤمن لا تزيده الكروب والشدائد إلا إيمانًا ويقينًا.

بخلاف الذين في قلوبهم مرض، وهذا ما أظهرته غزوة بني قريظة.

١٣. الإخلاص في الجهاد.

لا بد تجريد النية عند الخروج في سبيل الله للجهاد أو غيره، وتقديم طلب رضا الله تعالى ورسوله على ما سواهما من أعراض الدنيا، واجتناب ما فعله من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية، لطلبهم مجرد الغنائم.

١٤. حروب النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن للاعتداء والنهب أو التوسع.

بل كانت فقط من أجل نشر عقيدة سامية تنير الدنيا، والقضاء على كل خبيث يؤذي الناس ويهدد حياتهم.

١٥. غزوات الرسول هي أحسن وأرفع الخطط التي يمكن التمثل بها على عصور القتال المتطور.

من حيث اختيار مكان المواجهة ودقته والتهيئة العامة لصفوف الجيش والشعب قبل بداية الحرب.

ففي غزوات الرسول تبلورت النظرية الحربية الإسلامية، والتي تعتبر مقومات النصر وليدة إرادة وصبر وثبات أمام الشدائد والحرب النفسية والدعائية التي يشنها العدو، كذلك الالتحام المباشر لأنه يرهب العدو، ويجعله في حالة ارتباك وعدم توازن كما حدث في فتح خيبر.

١٦. لابد للحق من قوة تحميه وتدافع عنه.

وإذا لم يجد الباطل قوة توقفه، استشرى ضرره وشاع خطره، وظن الناس أنه الحق وأن ما عداه باطل، وهذا لا ينافي مبدأ

الرحمة الذي شرعه الإسلام، فالرحمة لها موضعها، والشدة كذلك.

وفي الختام: تمر السنون والأعوام وتظل غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود خاصةً نبراسًا وهاديًا يضيء لنا الطريق في تعاملنا مع اليهود، وأخذ الحذر منهم مهما أعطوا من المواثيق وإبرام العهود.

موضوعات ذات صلة:

غزوة أحد، غزوة الأحزاب، غزوة بدر، غزوة تبوك

غزوة أحد

عناصر الموضوع

التعريف بغزوة أحد	١٤٦
أسباب الغزوة	١٤٩
الإعداد للغزوة	١٥١
مشاهد من غزوة أحد	١٥٧
التوجيهات القرآنية بعد نهاية الغزوة	١٧٩
القيادة النبوية في الغزوة	١٨٨
الدروس المستفادة من غزوة أحد	١٩٣

التعريف بغزوة أحد

أولًا: تسميتها وزمانها ومكانها:

سميت غزوة أحد بهذا الاسم؛ لوقوعها عند جبل أحد، وأُحُدٌ -بضم أوله وثانيه معًا-: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد، وهو علمٌ مرتجل لهذا الجبل وهو جبل أحمر، وبينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليها[(١)].

قيل: إنما «سمي أحدًا؛ لتوحده وانقطاعه عن جبل آخر هناك، أو لِمَا وقع من أهله من نصرة التوحيد، ولا أحسن من اسم مشتق من الأحدية، وقد سمى الله تعالى هذا الجبل بهذا الاسم تقدمة لما أراده سبحانه وتعالى من مشاكلة اسمه لمعناه؛ إذ أهله -وهم الأنصار- نصروا التوحيد والمبعوث بدين التوحيد، عنده استقر حيا وميتا، وكان من عادته صلى الله عليه وسلم أن يستعمل الوتر ويحبه في شأنه إشعارا للأحدية، فقد وافق اسم هذا الجبل لأغراضه -صلى الله عليه وسلم- ومقاصده في الأسماء، فقد بدل كثيرا من الأسماء؛ استقباحا لها من أسماء البقاع وأسماء الناس؛ لمنافاتها للتوحيد، فاسم هذا الجبل من أوفق الأسماء له، ومع أنه مشتق من الأَحَدِيَّة فحركات حروفه الرفع، وذلك يشعر بارتفاع دين الأحد وعُلُوِّه، فتعلق الحب من النبي -صلى الله عليه وسلم- به اسمًا ومسمى»[(٢)].

وقد وقعت هذه الغزوة يوم السبت للنصف من شوال في السنة الثالثة للهجرة[(٣)].

ثانيًا: حكمة ورودها في سورة آل عمران:

ليس في القرآن الكريم ذكر غزوة أحد صراحة، ولكن ورد ذكرها ضمنًا، في سورة آل عمران، فقد نزلت ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران، تتحدث عن هذه الغزوة، ابتدأت بذكر أول مرحلة من مراحل الإعداد للمعركة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وانتهت بالتعليق الجامع على نتائج المعركة، والحِكَم التي أرادها الله منها فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل

(١) انظر: معجم البلدان، الحموي، ١/ ١٠٩.
(٢) سبل الهدى والرشاد، الصالحي، ٤/ ٢٤٣.
(٣) مغازي الواقدي، ١/ ١٩٩.

عمران: ١٧٩].

لقد وصفت هذه الآيات المعركة وصفًا دقيقًا، وكان فيها تربية للجماعة المسلمة، ودروس لهم في كل زمان ومكان.

روى أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم عن المسور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن ابن عوف: يا خال، أخبرني عن قصتكم يوم أحد، قال: اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا، أي من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١][(١)].

وذكر الطاهر ابن عاشور سبب ورود آيات غزوة أحد في هذه السورة فقال: «ومناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تقدم أنها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين؛ المنافقين، ولمَّا كان شأنُ المنافقين من اليهود وأهل يثرب واحدًا ودخيلتهما سواء، وكانوا يعملون على ما تدبره اليهود، جمع الله مكائد الفريقين بذكر غزوة أحد، وكان نزول هذه السورة عقب غزوة أحد»[(٢)].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن المسلمين كانوا يعانون من التكافل بين اليهود والمنافقين، فاليهود يخططون والمنافقون ينفذون، ولذلك كان من منهج القرآن أن يجمع بينهم في التحذير منهم.

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] أتبعه بما يَدُلُّهم على سنة الله تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة ودفع مضار العدو إذا هم صبروا واتقوا، وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا فقال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٢١] يعني: أنهم يوم أحد كانوا كثيرين للقتال، فلما خالفوا أمر الرسول انهزموا، ويوم بدر كانوا قليلين غير مستعدين للقتال، فلما أطاعوا أمر الرسول غلبوا واستولوا على خصومهم»[(٣)].

فالرازي يرى أنَّ المناسبة هي بيان سبب الهزيمة، وأنها نتيجة حتمية عند التخلي عن الصبر والتقوى.

ويقول أبو حيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٢١].

إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ [آل عمران: ١٥٤].

(١) سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٤/ ٢٣١ .
(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٦٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٧٨-١٧٩.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما نهاهم عن اتخاذ بطانةٍ من الكفار ووعدهم أنهم إن صبروا واتقوا فـ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾. ذكرهم بحالة اتفق فيها بَعْضٌ طَواعيةً، واتباعٌ لبعض المنافقين، وهو ما جرى يوم أُحُدٍ لعبد الله بن أُبي بن سلول حين انخذل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتبعه في الانخذال ثلاثمائة رجل من المنافقين وغيرهم من المؤمنين[1].

فيرى أبو حيان أن ذكر هذه الآيات هنا هي للتذكير بما قام به بعض المؤمنين من اتباع المنافقين يوم أحد، وفي ذلك اقتراف لما حذر منه الله سبحانه في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [عمران: ١١٨].

والظاهر أن جميع ما ذكر يصلح أن يكون مناسبا لورود آيات غزوة أحد في سورة آل عمران، لكن قول ابن عاشور هو الأرجح -والله أعلم- وذلك؛ لأن الآيات السابقة لقصة أُحُدٍ جاء فيها التحذير الشديد من اليهود، ثم جاءت آيات غزوة أحد وتحدثت عما حصل من المنافقين بقيادة عبد الله بن أُبي بن سلول، ويكون بذكر قصة هذه الغزوة في سورة آل عمران قد اكتمل الحلف بين اليهود والمنافقين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن نزول سورة آل عمران كان بعد سورة الأنفال[2]، والمتأمل لموضوع السورتين يجد أن كُلًّا منهما جاء فيه الحديث المفصل عن غزوتي بدر وأحد، وكان من ضمن مفاهيم السورتين: مفهوم أسباب النصر وأسباب الهزيمة، ومفهوم النفاق، ومفهوم النعمة والظفر، والابتلاء والتمحيص.

فاكتمل بذلك المشهد بما ورد في سورة آل عمران من ذكر غزوة أحد.

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٣/ ٣٢٦.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٣١٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٤٤.

أسباب الغزوة

عندما نتحدث عن غزوة أُحُد نجد أن أسباب هذه الغزوة عبارة عن تراكمات كثيرة وسلسلة من الأحداث التي امتدت لفترة طويلة بدأت منذ زمن، فبعد بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- بدأت قريش في العمل المستمر في الصد عن دين الله تعالى، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، والقضاء على المسلمين وعلى دولتهم الإسلامية.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

«فغرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجمع الجيوش لذلك، وإنفاق أموالهم عليها، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ويوم أحد ويوم الأحزاب؛ فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾، أي: سيقع منهم هذا الإنفاق ثم تكون عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم، وكأن ذات الأموال تنقلب حسرة وتصير ندما، ثم آخر الأمر يغلبون، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾، أي: استمروا على الكفر؛ لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم وحسن إسلامه»[1].

فكان من أهم أسباب غزوة أحد هو الصد عن سبيل الله، واتباع طريق الحق، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، ومحاربة النبي صلى الله عليه وسلم والقضاء على الدعوة الإسلامية.

لا سيما وقد حصل للمشركين في غزوة بدر هزيمة كبيرة، وقتل الأشراف من قريش، وقد ذهبت سيادة قريش بعد غزوة بدر، وكانت العرب تُقَيِّمُ للانتصار في الحرب قيمته، وتعتبر الهزيمة مذلة، وتبذل قصارى جهدها في غسلها عنها، فلا بد لقريش من رد اعتبارها والحفاظ على زعامتها مهما كلفها الأمر من جهود ومال وتضحيات.

فلما رجع أبو سفيان بعيرهم فأوقفها بدار الندوة، وكذلك كانوا يصنعون فلم يحركها ولا فرقها، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشا لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمدا قد وترکم وقتل خياركم

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٥٠.

فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك[1].

ومن أسباب خروج قريش في هذه الغزوة: حركة السرايا التي يقوم بها المسلمون التي أثرت على تجارة قريش، وفرضت عليهم حصارا قويا، وكانت تجارة قريش قائمة على رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، ويشير إلى هذا قول صفوان بن أُميَّة: إن محمدًا وأصحابه قد عوروا علينا متاجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، قد وادعهم، ودخل عامتهم معه؟ فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في ديارنا هذه، ما لنا بها بقاء، وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى الحبشة[2].

وبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زيد بن حارثة -رضي الله عنه- إلى القردة، وكان من حديثها أن قريشًا كانت قد أخفت طريقها التي تسلك إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق، وخرج منهم تجار، فيهم أبو سفيان بن حرب معه فضة كثيرة، واستأجروا من بني بكر بن وائل رجلًا يقال له: فُرَاتُ بن حَيَّان يدلهم على الطريق، وبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- زيد بن حارثة -رضي الله عنه- فلقيهم على ذلك الماء، فأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزه الرجال فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك في مستهل جمادى الأولى على رأس ثمانية وعشرين شهرا من الهجرة[3]، أي: بعد ستة أشهر من غزوة بدر الكبرى.

فهذه السرية كانت خسارة فادحة لقريش قصمت فقار اقتصادها، وزودها من الحزن والهم ما لا يقادر قدره، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين، وبذل قصارى جهدها وطاقتها ومحاولة إحكام خطتها في سبيل حشد جيش كبير تقضي به على المسلمين ودعوتهم، وللأخذ بثأر قتلاها يوم بدر، ومحاولة لرد اعتبارها، والحد من قوة المسلمين وسراياهم التي تحكم الحصار من حولهم.

(١) انظر: مغازي الواقدي ١/ ٢٠١- ٢٠٢، سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٤/ ١٨٢ .
(٢) مغازي الواقدي ١/ ١٩٧.
(٣) البداية والنهاية، ابن كثير ٤/ ٦.

الإعداد للغزوة

أولًا: إعداد المشركين:

بعد هزيمة بدر اتخذت قريش صورًا عملية مباشرة، فقد نشطوا في الإعداد لقتال النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه، وسعوا جادين إلى تكثير جنودهم بالتأثير على العشائر، وكان من أهم إعداداتهم: أن بدأت قريش عقب غزوة بدر بجمع الأموال الطائلة، وبذلوا جهدهم في إزالة هذا العار الذي نزل بهم.

فلما رجع أبو سفيان بعيرهم أوقفها بدار الندوة، فلم يحركها ولا فرقها، فطابت أنفس أشراف قريش أن يجهزوا منها جيشًا لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منها، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك.

فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦][1].

يقول الطبري رحمه الله: «إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين؛ ليتقووا بها على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به؛ ليصدوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله، فسينفقون أموالهم في ذلك، ثم تكون نفقتهم تلك عليهم حسرة، يقول: تصير ندامة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله؛ لأن الله معلي كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به وبرسوله إلى جهنم، فيعذبون فيها.

فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك! أما الحي، فحرب ماله وذهب باطلا في غير درك نفع، ورجع مغلوبًا مقهورًا محرويًا مسلوبًا. وأما الهالك، فقتل وسلب، وعجل به إلى نار الله يخلد فيها، نعوذ بالله من غضبه. وكان الذي تولى النفقة التي ذكرها الله في هذه الآية فيما ذكر، أبا سفيان»[2].

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٦٠.
(٢) جامع البيان ١٣/ ٥٢٩.

وقالوا: يا أبا سفيان، انظر هذه العير التي قدمت بها فاحتبسها، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش، وهم طيبو الأنفس، يجهزون بهذه العير جيشًا إلى محمد، وقد ترى من قتل من آبائنا، وأبنائنا، وعشائرنا. قال أبو سفيان: وقد طابت أنفس قريش بذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي، فأنا والله الموتور الثائر، قد قتل ابني حنظلة ببدر وأشراف قومي. فلم تزل العير موقوفة حتى تجهزوا للخروج إلى أحد، فباعوها وصارت ذهبا عينا، فوقف عند أبي سفيان.

ويقال: «إنما قالوا: يا أبا سفيان، بع العير ثم اعزل أرباحها. وكانت العير ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، وكانوا يربحون في تجارتهم»[1].

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلا أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبيه ومنبه ابنا حجاج وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش، وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزائر.

وقال سعيد بن جبير وابن أبزى: نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم «أحد» ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبي صلى الله عليه وسلم سوى من استجاب له من العرب.

وقال الحكم بن عتيبة: أنفق أبو سفيان على المشركين يوم «أحد» أربعين أوقية من الذهب، فنزلت فيه هذه الآية[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «وعلى كل تقدير، فهي عامة. وإن كان سبب نزولها خاصا، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم؛ ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم»[3].

وعبأت جيشها المكون من ثلاثة آلاف مقاتل مصطحبين معهم النساء والعبيد، ومن تبعها من القبائل العربية المجاورة، فخرجت قريش بحدها وحديدها وأحابيشها ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة[4].

ولما استكملت قريش قواها في يوم السبت لسبع خلون من شوال من السنة الثالثة من الهجرة[5]، وخرجوا بالظعن؛ لئلا يفروا، فخرج أبو سفيان، وهو قائد الناس بهند بنت عتبة بن ربيعة، وخرج صفوان

(١) مغازي الواقدي ١/ ١٩٩-٢٠٠.

(٢) أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣.

(٤) السير والمغازي، محمد بن إسحاق ص ٣٢٣.

(٥) دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٣٩٧.

بن أمية بن خلف ببرزة بنت مسعود الثقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة[1].

وكان لهؤلاء النسوة دور بارز خلال المعركة، فكن ينشدن الشعر، ويحمسن الرجال، ويخوفنهم من عار الهزيمة وذل الانكسار، الأمر الذي ظهر أثره في سير القتال يوم أحد.

ودعا جُبيرَ بن مُطعِم غلامًا له حبشيًّا يقال له: وحشي، يقذف بحربة له قذف الحبشة قلَّما يُخطئ لها، فقال: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزةَ عَمَّ محمد بعمي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق[2].

وقد أخذ أبو سفيان يحرض رجاله كذلك على الثبات والقتال بوسائل ماكرة، فقال لأصحاب اللواء من بني عبد الدار: يا بني عبد الدار، إنكم قد وُلِّيتُم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهموا به وتواعدوه، وقالوا: نحن نُسَلِّمُ إليك لواءنا، ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع!

وذلك الذي أراده أبو سفيان[3].

وأدى اصطحاب النسوة إلى بعث روح الحماس في جيش قريش، فقد كن يُوَلْوِلْن ويُذَكِّرْنَ بقتلى بدر ويَدُرْنَ على المقاتلين محرضات حتى لا يضعفوا.

فقد قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال، ويحرضنهم على القتال، فقالت هند فيما تقول[4]:

وَيْهًا بني عبد الدار
وَيْهًا حُمَاةَ الأدبار
ضَرْبًا بكل بتار

وتقول:

إن تُقْبِلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تُدْبِروا نفارق فراق غير وامق

و«قبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين، فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم: خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم، فلا حاجة لنا إلى قتالكم! ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال، فقد رد عليه الأنصار ردا عنيفا، وأسمعوه ما يكره»[5].

واقتربت ساعة الصفر، وتدانت الفئتان،

(١) السير والمغازي، محمد بن إسحاق ص ٣٢٣.
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ٦١ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٦٧ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٦٧- ٦٨ .
(٥) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري ص ٢٣٣.

فقامت قريش بمحاولة أخرى؛ لنفس الغرض، فقد خرج إليهم عميل خائن يُسمَّى أبا عامر الفاسق، واسمه عبد عمرو بن صيفي، وكان يسمى الراهب، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم: الفاسق، وكان رأس الأوس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام شرق به، وجاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه، فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى قومه وتعرف عليهم، وقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر فقالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق. فقال: لقد أصاب قومي بعدي شَرٌّ وقاتلهم قتالًا شديدًا ورماهم بالحجارة[1].

وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية؛ للتفريق بين صفوف أهل الإيمان، مما جعلهم يزدادون خوفًا من المسلمين، ويمتلئون هيبة من لقائهم.

وكان عدد المشركين يوم أحد ثلاثة آلاف مقاتل، وأقبلوا وقد صفوا صفوفهم، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل. ولهم مجنبتان مائتا فرس، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية -ويقال: عمرو بن العاص- وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانوا مائة رام. ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة[2].

ثانيًا: إعداد المؤمنين:

لما تأهبت قريش لقتال المسلمين وأعدت العدة للمواجهة، أرسل العباس عَمُّ النبي صلى الله عليه وسلم رسالة مع رجل من بني غفار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بما عزم عليه، فَقَدِمَ عليه الرجل وهو في قباء، فقرأه عليه أُبَيُّ بن كعب، فطلب النبي صلى الله عليه وسلم من أُبَيٍّ أن يكتم الخبر. وقال له: (لا تُطلع عليه أحدًا).

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس. فقال: والله إني لأرجو أن يكون في ذلك خير[3].

وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر، وقد فارقوا قريشا من ذي طوى، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم الخبر وانصرفوا[4].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة ليلة الخميس

(١) السير والمغازي، محمد بن إسحاق، ص ٣٢٧.

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٢٠، دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٢٢٠.

(٣) مغازي الواقدي ١/ ٢٠٤.

(٤) إمتاع الأسماع، المقريزي ١/ ١٣٢.

عينين، فاعترضا لقريش بالعقيق، وعادا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبراه وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحباب بن المنذر بن الجموح فنظر إليهم وعاد، وقد حرز عددهم وما معهم، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا تذكروا من شأنهم حرفا، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول)[1].

وامتثالًا لمبدأ الشورى الذي أمر الله تعالى به في كتابه، في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩] شاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الخروج لملاقاة العدو أو البقاء في المدينة، وكان رأيه صلى الله عليه وسلم ألا يخرج من المدينة، ووافقه عبد الله بن أُبَيٍّ والأكابر من الصحابة مهاجرهم وأنصارهم. وقال صلى الله عليه وسلم: (امكثوا في المدينة، واجعلوا النساء والذراري في الآطام فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم، ونرميهم من فوق الصياصي والآطام) وكان هذا هو الرأي وبخاصة أن الصحابة قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية حتى صارت كالحصن. وقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدرًا وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو: اخرج بنا إلى عدونا.

وقال حمزة، وسعد بن عبادة والنعمان ابن مالك بن ثعلبة، في طائفة من الأنصار: إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جُبْنًا عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثير، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فساقه الله إلينا في ساحتنا[2].

وقال حمزة: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفي خارجًا من المدينة.

وتكلم مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، وإياس بن أوس بن عتيك ورأوا الخروج للقتال.

فلما رأى صلى الله عليه وسلم ذلك، وأشار الكثيرون بالخروج من المدينة، ولم ينزل وحي محدد في هذا الأمر صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة بالناس فوعظهم، وأمرهم بالجد والجهاد، وأخبرهم أن النصر لهم ما صبروا، ففرح الناس بالخروج من المدينة لقتال عدوهم، وكره صلى الله عليه وسلم ذلك المخرج إلا أنه وافقهم ونزل على رأيهم ما دام لم ينزل فيه وحي من الله تعالى[3].

«وظلت المدينة في حالة استنفار عام لا

(١) إمتاع الأسماع، المقريزي، ١/ ١٣٢ .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢١٠ .

(٣) إمتاع الأسماع، المقريزي، ١/ ١٣٤ .

يفارق رجالها السلاح حتى وَهُم في الصلاة، استعدادًا للطوارئ.

وقامت مفرزة من الأنصار فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة بحراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح.

وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها؛ خوفًا من أن يُؤخذوا على غِرَّة.

وقامت دوريات من المسلمين؛ لاكتشاف تحركات العدو تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين»[(١)].

ثم لبس النبي صلى الله عليه وسلم لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، ثم خرج عليهم وقد ندم الناس، وقالوا: استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لنا ذلك. فلما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: يا رسول الله: استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل)، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه[(٢)].

ثم قسم النبي صلى الله عليه وسلم جيشه إلى ثلاث كتائب:

١. كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير.
٢. كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير.
٣. كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر.

وكان الجيش متألفا من ألف مقاتل، فيهم مائة دارع وخمسون فارسا، وقيل: لم يكن من الفرسان أحد، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة، وأذن بالرحيل، فتحرك الجيش نحو الشمال، وخرج السعدان أمام النبي صلى الله عليه وسلم يعدوان دارعين[(٣)].

وحرض أصحابه على القتال، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه، حتى جرد سيفًا، وقال: (من يأخذ هذا السيف؟) فأخذه قوم فجعلوا ينظرون إليه، فقال: (من يأخذه بحقه؟) فأحجم القوم، فقال أبو دجانة سِمَاك: أنا آخذه بحقه، فأخذه ففلق هام المشركين[(٤)].

(١) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٢٢٦ .
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٦٣ .
(٣) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٢٢٨ .
(٤) السير والمغازي، ابن إسحاق، ص ٣٢٦، وأخرجه أحمد ١٩/ ٢٦٥، رقم ١٢٢٣٥ .

مشاهد من غزوة أحد

أولًا: موقف المنافقين في الغزوة:

كانت غزوة أحد فرصة للمنافقين ليمكروا بأهل الإيمان، لا سيما والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذ برأي رأسهم عبد الله بن أبي، فاتخذها عَدُوُّ الله ذريعة لفعلته، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين شاور أصحابه في الخروج من المدينة للقاء عدوهم أو البقاء فيها ومقاتلتهم داخلها، وكان رأي ابنِ أُبَيٍّ هو البقاء في المدينة موافقًا في ذلك رأي النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم نزل عند رأي الأغلبية، ولو كان ابن أُبَيٍّ مؤمنًا لتابع النبي صلى الله عليه وسلم كما تابعه أصحابه وشعروا بالندم؛ أنهم أكرهوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه كان له هو وأصحابه موقفان:

الأول: رجوعه إلى المدينة مع أصحابه بعد أن خرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد بلغ مكانا يقال له الشوط، رجع بثلث الجيش وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة، يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم، عند ما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه[1].

وبالرغم من خطورة الموقف وحاجة المسلمين لهذا العدد؛ لقلة جيش المسلمين، وكثرة جيش قريش إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم تركهم وشأنهم ولم يعرهم أي اهتمام، واكتفى بفضح أمرهم أمام الناس.

وقد بين الله تعالى حال المنافقين ودورهم في هذه الغزوة فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٧ - ١٦٨].

يقول الطبري: «يعني تعالى ذكره بذلك عبد الله بن أُبي بن سلول المنافق وأصحابه، الذين رجعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه، حين سار نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين بأحد لقتالهم، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا، أو ادفعوا عنا العدو

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ٤/ ١٠ .

بتكثيركم سوادنا! فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم، ولكنا معكم عليهم، ولكن لا نرى أنه يكون بينكم وبين القوم قتالٌ! فأبدوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتمونه، وأبدوا بألسنتهم بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ غير ما كانوا يكتمونه ويخفونه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان به»[1].

ثم بين الله حال إيمانهم بقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ «يعني أنهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر»[2].

فهم غير صادقين في احتجاجهم بأنهم يرجعون؛ لأنهم لا يعلمون أن هناك قتالًا سيكون بين المسلمين والمشركين. فلم يكن هذا هو السبب في حقيقة الأمر، وإنما هم: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فقد كان في قلوبهم النفاق، الذي لا يجعلها خالصة للعقيدة، وإنما يجعل أشخاصهم واعتباراتها فوق العقيدة واعتباراتها[3].

ولما حصل من ما حصل من جراحات وشهداء في صفوف أهل الإيمان، أخذ المنافقون يبرئون أنفسهم من أن يكونوا سببا فيما أصاب المسلمين من آلام، وأن الذين تسببوا في ذلك هم غيرهم، قال تعالى مبينا حال هذه الطائفة: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ومعنى ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: حدثتهم أنفسهم بما يدخل عليهم الهم، وذلك بعدم رضاهم بقدر الله، وبشدة تلهفهم على ما أصابهم وتحسرهم على ما فاتهم مما يظنونه منجيا لهم لو عملوه أي: من الندم على ما فات، وإذ كانوا كذلك كانت نفوسهم في اضطراب وتحرق يمنعهم من الاطمئنان ومن المنام، وهذا كقوله الآتي: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦][4].

«وهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الإيمان، ومن هؤلاء كانت تلك الطائفة الأخرى التي يتحدث عنها القرآن في هذا الموضع، طائفة الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم، فهم في قلق وفي أرجحة،

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٧٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٣٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥١٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٣٤.

يحسون أنهم مضيعون في أمر غير واضح في تصورهم، ويرون أنهم دفعوا إلى المعركة دفعًا ولا إرادة لهم فيها، وهم مع ذلك يتعرضون للبلاء المرير، ويؤدون الثمن فادحًا من القتل والقرح والألم وهم لا يعرفون الله على حقيقته، فهم يظنون بالله غير الحق، كما تظن الجاهلية. ومن الظن غير الحق بالله: أن يتصوروا أنه سبحانه مضيعهم في هذه المعركة، التي ليس لهم من أمرها شيء، وإنما دفعوا إليها دفعًا؛ ليموتوا ويجرحوا، والله لا ينصرهم ولا ينقذهم إنما يدعهم فريسة لأعدائهم»[1].

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ الاستفهام؛ للإنكار بمعنى: النفي، وهم يريدون بهذا القول تبرئة أنفسهم من أن يكونوا سببا فيما أصاب المسلمين من آلام يوم أحد، وأن الذين تسببوا في ذلك هم غيرهم، فأساؤوا الظن بربهم وبدينه وبنبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله. وذلك أن عبد الله بن أبي لما استشاره النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الخروج لقتال المشركين في أحد أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج لقتال المشركين بناء على إلحاح بعض الصحابة فلما أخبر ابن أُبَيٍّ بمن قتل من الخزرج قال: هل لنا من الأمر من شيء؟ يعني: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل قوله حين أشار عليه بعدم الخروج من المدينة[2].

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد على هؤلاء المنافقين الظانين بالله ظن الجاهلية بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، أي: ليس لكم ولا لعدوكم منه شيء، فالنصر بيده والظفر منه[3].

وبين الله حال المنافقين أنهم: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي: يخفون في أنفسهم ما لا يستطيعون إظهاره أمامك.

وفي الذي أخفوه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

الثاني: أنه إسرارهم الكفر، والشك في أمر الله.

الثالث: الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد[4].

فهم يريدون تبرئة أنفسهم مما نزل بالمسلمين من ابتلاء في غزوة أحد، وأنهم لو كان لهم رأي مطاع لبقوا في المدينة ولم يخرجوا منها لقتال المشركين.

وأن التبعة في كل ما جرى في هذه

(١) في ظلال القرآن، ١/ ٤٩٦ .

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ٣٩٥، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٦١٦.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٤٩.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٣٨.

الغزوة يتحملها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، الذين كانوا هم السبب وألحوا عليه في الخروج لقتال المشركين، خارج المدينة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لو كانوا على الحق لانتصروا.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: لو كنتم قاعدين في بيوتكم لم يكن بد من خروج من كتب عليه القتل إلى هذه المصارع التي صرعوا فيها، فإن قضاء الله لا يرد[1].

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يختبركم بما جرى عليكم، وليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر[2].

وهكذا افتضح المنافقون في هذه الغزوة، فإنهم قبل أحد لم يفتضحوا، ولم ينكشف نفاقهم بهذه الصورة من قبل، ولو بقي هؤلاء في صف المسلمين، لكانت النكبة بهم أعظم، والمصاب أشد، ولكن أراد الله برحمته تخليص صفوف المؤمنين من هؤلاء قبل المعركة الذين قد يكون بقاؤهم داخل جيش المسلمين عامل من عوامل تحطيمه؛ إذ لا يبعد أن يميلوا على المسلمين ساعة احتدام المعركة، ويعلنوا انضمامهم لجيش المشركين، فمن فضل الله تعالى ورحمته بأوليائه أن كشف نوايا أهل النفاق وهم في منتصف الطريق، فكان رجوعهم بمثابة التصفية للجيش الإسلامي، وتطهيره من عناصر الخذلان والنفاق؛ ليلقى المسلمون عدوهم وهم وحدة متماسكة كالبنيان المرصوص.

ثانيًا: موقف الطائفتين اللتين همتا بالفشل:

في أثناء سير الجيش الإسلامي انسحب زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول بثلث الجيش، فأثر ذلك في نفسية بعض المسلمين، وراود قلوبهم الفشل والضعف، وبين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

قال الطبري رحمه الله: «ولا خلاف بين أهل التأويل أنه عنى بالطائفتين: بنو سلمة وبنو حارثة، ولا خلاف بين أهل السير والمعرفة بمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن الذي ذكر الله من أمرهما إنما كان يوم أحد»[3].

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٤٩ .
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٤٦ .
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٦١.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: (فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ بنو سلمة وبنو حارثة، وما نحب أنها لم تنزل؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾)[1].

قال ابن حجر رحمه الله: «قوله: نزلت هذه الآية فينا، أي: في قومه بني سلمة، وهم من الخزرج، وفي أقاربهم بني حارثة، وهم من الأوس، قوله: وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، أي: إن الآية وإن كان في ظاهرها غض منهم لكن في آخرها غاية الشرف لهم»[2].

وكان همهما الذي هما به من الفشل، الانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حين انصرف عنهم عبد الله بن أُبي بن سلول بمن معه؛ جبنًا منهم، من غير شك منهم في الإسلام ولا نفاق، فعصمهم الله مما هموا به من ذلك، ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجهه الذي مضى له، وتركوا عبد الله بن أُبي بن سلول والمنافقين معه، فأثنى الله عز وجل عليهما بثبوتهما على الحق، وأخبر أنه وليهما وناصرهما على أعدائهما من الكفار، ومعنى قوله: ﴿أَن تَفْشَلَا﴾، أي: هما أن يضعفا ويجبنا عن لقاء عدوهما[3].

فتولى الله أمرهما، وحفظهما مما كانا قد هما به، وهو الانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين يوم أحد، وأن ذلك الهم لم يخرجهما من ولاية الله لهما.

قال الزمخشري: «والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية»[4].

قال: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة وهي: الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧][5].

وهذه الآية تربية لأهل الإيمان، فقد بينت لهم أن الله مطلع على أعمالهم أثناء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، ٦/ ٣٨، رقم ٤٥٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل الأنصار رضي الله تعالى عنهم ٤/ ١٩٤٨، رقم ٢٥٠٥.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٣٥٧.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٧/ ١٦٨.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٠٩-٤١٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٥.

خروجهم إلى غزوة أحد، كما أرشدهم سبحانه إلى التوكل عليه، فدخول أرض المعركة ليس بالأمر الهين، بل يحتاج إلى صبر ومصابرة، وقوة وعزيمة وتوكل على الله سبحانه.

ثالثًا: موقف المؤمنين في الغزوة:

بين الله سبحانه ما حدث للمؤمنين في غزوة أحد، وذكر انتصارهم على عدوهم في بداية المعركة، ثم ذكر إصابتهم بالجراحات بسبب فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم لرسولهم صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

أي: «ولقد وفى الله لكم، أيها المؤمنون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بما وعدكم من النصر على عدوكم بأحد، حين ﴿تَحُسُّونَهُم﴾، يعني: حين تقتلونهم»[(١)].

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾، فإنه يعني: بحكمي وقضائي لكم بذلك، وتسليطي إياكم عليهم[(٢)].

قال محمد بن كعب القرظي: «لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الآية إلى قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ يعني: الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد»[(٣)].

ولما تحول الموقف في المعركة فر الكثير من المسلمين من ميدان القتال، وانتحى بعضهم جانبا فجلس دون قتال، في حين آثر آخرون الموت بعد أن شاع خبر مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، منهم أنس بن النضر رضي الله عنه، قال: (اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، -يعني المشركين- ثم تقدم)، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: (يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد)، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٨٧ .

(٢) المصدر السابق ٧/ ٢٨٨.

(٣) أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص ١٢٦ .

إلا أخته ببنانه قال أنس: (كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إلى آخر الآية)[١].

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الالتفاف حوله، وقد سجل القرآن الكريم ذلك في قوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

والإصعاد: السير في مستوٍ من الأرض وبطون الأودية والشعاب. والصعود: الارتفاع على الجبال والسطوح والسلاليم والدرج[٢].

عن السدي قال: لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس: (إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله!) فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء نبي الله صلى الله عليه وسلم إياهم، فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾[٣].

قال سيد سابق رحمه الله: «والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية في ألفاظ قلائل فهم مصعدون في الجبل هربًا، في اضطراب ورعب ودهش، لا يلتفت أحد منهم إلى أحد! ولا يجيب أحد منهم داعي أحد! والرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم؛ ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح: إن محمدًا قد قتل، فزلزل ذلك قلوبهم وأقدامهم إنه مشهد كامل في ألفاظ قلائل»[٤].

وقوله: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ الضمير المستتر في قوله: ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ ضمير اسم الجلالة، وهذا هو الموافق لقوله بعده: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال القرطبي رحمه الله: «الغم في اللغة: التغطية. غممت الشيء غطيته. ويوم غم وليلة غمة إذا كانا مظلمين. ومنه غم الهلال: إذا لم ير، وغمني الأمر يغمني. قال مجاهد وقتادة وغيرهما: الغم الأول القتل والجراح، والغم الثاني: الإرجاف بقتل النبي صلى الله عليه وسلم، إذ صاح به الشيطان. وقيل: الغم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)، ٤/ ١٩، رقم ٢٨٠٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٠١.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٤٩٥.

الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني: ما أصابهم من القتل والهزيمة. وقيل: الغم الأول الهزيمة، والثاني: إشراف أبي سفيان وخالد عليهم في الجبل، فلما نظر إليهم المسلمون غمهم ذلك، وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم، فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم لا يعلن علينا). والباء في ﴿بِغَمٍّ﴾ بمعنى: على. وقيل: هي على بابها، والمعنى أنهم غموا النبي صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم إياه، فأثابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم»[1].

وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[آل عمران: ١٥٣].

تعليل لقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ [البقرة: ٥٢][2].

وخلص بعض المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، فلما رهقوه، قال: (من يردهم عنا وله الجنة؟)، فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضًا، فقال: (من يردهم عنا وله الجنة؟)، فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة[3].

ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله، فعن قيس، قال: (رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد)[4].

وقاتل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يناوله السهام، ويقول: (ارم فداك أبي وأمي)[5].

ودافع أبو طلحة الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان راميا، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يشرف على القتال، فيقول له أبو طلحة: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك[6].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول للرجل معه جعبة السهام: (انثرها لأبي

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٤٠ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٤١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد ٣/ ١٤١٥، رقم ١٧٨٩ .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، ٥/ ٩٧، رقم ٤٠٦٣ .
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، ٥/ ٩٧، رقم ٤٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ٤/ ١٨٧٦، رقم ٢٤١١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب أبي طلحة رضي الله عنه ٥/ ٣٧، رقم ٣٨١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال ٣/ ١٤٤٣، رقم ١٨١١ .

طلحة)[1].

وقد خرجت بعض النسوة مع جيش المسلمين إلى أحد، منهن أم سَلِيط، فقد ثبت عنها أنها كانت تحمل قرب الماء لسقاية المسلمين[2].

وكانت حمنة بنت جحش الأسدية تسقي العطشى وتداوي الجرحى، عن معاوية بن عبيد الله بن أبي أحمد بن جحش، قال: (رأيت بعيني حمنة بنت جحش يوم أحد تسقي العطشى، وتداوي الجرحى)[3].

وصح أن عائشة رضي الله عنها وأم سليم قامتا بسقي الجرحى بعد تراجع المسلمين، عن أنس رضي الله عنه، قال: (لما كان يوم أحد، انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقزان القرب، وقال غيره: تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم)[4].

وبهذا الثبات العظيم من النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه استطاعوا السيطرة على الموقف الحربي تجاه تفوق نسبي للمشركين، فصدوا الهجمات، وأعيدت المعنويات، فيئس المشركون من القضاء على المسلمين، ثم انسحبوا من ساحة المعركة.

فالثبات في ميدان المعركة هو أحد صور الثبات التي يربي الإسلام المسلمين عليها، وذلك أنها صفة تدل على قوة العزيمة والإرادة واليقين بالحق، ولذا عد الفرار من الزحف من كبائر الذنوب.

رابعًا: مشهد النعاس:

امتن الله على عباده المؤمنين يوم أحد بآيات عظيمة، كانت معينة لهم على الثبات، ومقوية لهم في محنتهم، رغم قلتهم وكثرة عدوهم، ولما اشتد على المؤمنين الكرب وعظم خوفهم، ونالهم من التعب ما نالهم، وغشيهم من الكرب ما غشيهم؛ ألقى الله تعالى عليهم النعاس وهو أول النوم[5]؛ لينسيهم غمهم، ويزيل تعبهم، ويجدد نشاطهم، فكان ذلك كرامة من الله تعالى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، ٥/ ٩٧، رقم ٤٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال ٣/ ١٤٤٣، رقم ١٨١١ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو ٤/ ٣٣، رقم ٢٨٨١.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٤/ ٢١٦، رقم ٥٤٩، قال الهيثمي: إسناده حسن.مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩/ ٢٦٢ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال ٤/ ٣٣، رقم ٢٨٨٠ .

(٥) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦١٣.

لهم، وسكينة عليهم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ومن شأن النعاس أن يزيل عن الإنسان بعض المتاعب، وصاحبه لا يغيب، ولو كان نومًا ثقيلًا لهاجمهم الكفار.

يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى ممتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئمو السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال، في قصة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]»[(١)].

وهذا النعاس «ظاهرة عجيبة تشي برحمة الله التي تحف بعباده المؤمنين، فالنعاس حين يلم بالمجهدين المرهقين المفزعين، ولو لحظة واحدة، يفعل في كيانهم فعل السحر، ويردهم خلقًا جديدًا، ويسكب في قلوبهم الطمأنينة، كما يسكب في كيانهم الراحة. بطريقة مجهولة الكنه والكيف»[(٢)].

يقول الفخر الرازي: «واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد:

أحدها: أنه وقع على كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد، فكان ذلك معجزة ظاهرة للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيمانا مع إيمانهم، ومتى صاروا كذلك ازداد جدهم في محاربة العدو ووثوقهم بأن الله منجز وعده.

وثانيها: أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال، والنوم يفيد عود القوة والنشاط واشتداد القوة والقدرة.

وثالثها: أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقي منهم؛ لئلا يشاهدوا قتل أعزتهم، فيشتد الخوف والجبن في قلوبهم.

ورابعها: أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أدل الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم، وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله تعالى[(٣)].

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: (لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتد علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منا أحد إلا وذقنه في صدره).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٩٣-٣٩٤.

وقال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه: (غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه)[1].

وفي رواية قال أبو طلحة: (رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر، وما منهم يومئذ من أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤])[2].

وعن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: (كنت ممن يعتريه النعاس يوم أحد، فلا أنسى أنه أسمع صوت معتب بن قشيرٍ كالحلم)[3].

خامسًا: تنزل الملائكة:

من الآيات التي أيد الله بها عباده المؤمنين يوم أحد: أن الملائكة حضروها، ودافعوا عن النبي صلى الله عليه وسلم كما روى الشيخان من حديث سعد رضي الله عنه قال: (رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بياض، ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام)[4].

وهذا «فيه بيان كرامة النبي صلى الله عليه وسلم على الله تعالى وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه. وبيان أن الملائكة تقاتل وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر، وهذا هو الصواب، خلافا لمن زعم اختصاصه به فهذا صريح في الرد عليه»[5].

فكانت الملائكة حاضرة في غزوة أحد؛ لحراسة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد وعد الله المؤمنين إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة معلمين بعلامات يعرفونهم بها، فلما عصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك الرماة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يبرحوا منازلهم رفع الله عنهم مدد الملائكة.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (أمنة نعاسًا)، ٦/ ٣٨، رقم ٤٥٦٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة آل عمران ٥/ ٢٢٩، رقم ٣٠٠٧.

(٣) أخرجه الإسماعيلي في مستخرجه، ٣/ ٦٠، رقم ٨٦٤، والبزار في مسنده ٣/ ١٨٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)،٥/ ٩٦، رقم ٤٠٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في قتال جبريل وميكائيل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ٤/ ١٨٠٢، رقم ٢٣٠٦، واللفظ لمسلم.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥/ ٦٦.

﴿رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٣- ١٢٥].

فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا[١].

ومن أعمال الملائكة في أحد: أنهم غسلوا من كان جنبًا من الصحابة رضي الله عنهم، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأن حنظلة بن أبي عامر: (إن صاحبكم تغسله الملائكة، فاسألوا صاحبته)، فقالت: (إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لذلك غسلته الملائكة)[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أصيب حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب وهما جنب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت الملائكة تغسلهما)[٣].

ومن أعمال الملائكة إظلالها لبعض الصحابة، فقد أظلت عبد الله بن حرام رضي الله عنه، كما روى ابنه جابر رضي الله عنه قال: (لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وينهونني عنه وهو لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (تبكين أو لا تبكين، فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه)[٤].

سادسًا: موقف الرماة:

جعل النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة، وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وأمرهم أن لا يبرحوا أماكنهم حتى وإن ظهر المسلمون.

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، يحدث قال: جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرجالة يوم أحد -وكانوا خمسين رجلًا- عبد الله بن جبير، فقال: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)، فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن، قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٤٦ .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٣/ ٢٢٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٢٢، رقم ٦٨١٤.
وصححه الألباني.في إرواء الغليل ٣/ ١٦٧
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٣٩١.
وحسنه الألباني في أحكام الجنائز ١/ ٥٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه ٢/ ٧٢، رقم ١٢٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضي الله تعالى عنهما ٤/ ١٩١٨، رقم ٢٤٧١ .

عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير اثني عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين[1].

يقول سبحانه، مبينا حقيقة ما حصل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال محمد بن كعب القرظي: «لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الآية إلى قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ يعني: الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد[2].

ومعنى تحسونهم أي: تقتلونهم وتستأصلونهم[3].

والمعنى: ولقد حقق الله تعالى لكم أيها المؤمنون ما وعدكم به من النصر على أعدائكم؛ إذ أيدكم في أول معركة أحد بعونه وتأييده، فصرتم تقتلون المشركين قتلا ذريعا شديدا بإذنه وتيسيره ورعايته.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

«أي: حتى إذا جبنتم وضعفتم ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، أي: واختلفتم في أمر الله، وعصيتم وخالفتم نبيكم، فتركتم أمره وما عهد إليكم. وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أمرهم صلى الله عليه وسلم بلزوم مركزهم ومقعدهم من فم الشعب بأحد بإزاء خالد بن الوليد ومن كان معه من فرسان المشركين»[4].

﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾، أي: من بعد الذي أراكم الله، أيها المؤمنون بمحمد، من النصر والظفر بالمشركين،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه ٤/ ٦٥، رقم ٣٠٣٩.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص ١٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٣٣.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٣٥.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ١٢٨.

وذلك هو الهزيمة التي كانوا هزموهم عن نسائهم وأموالهم قبل ترك الرماة مقاعدهم التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقعدهم فيها، وقبل خروج خيل المشركين على المؤمنين من ورائهم[(١)].

قال الفخر الرازي: «ما الفائدة في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾؟

والجواب عنه: أن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية؛ لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام، وأذاقهم وبال أمرهم»[(٢)].

«وألفاظ الآية تقتضي التوبيخ لهم، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام»[(٣)].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «ما كنت أظن أن في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحدًا يحب الدنيا حتى نزلت: ﴿مِّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾»[(٤)].

(١) جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٨٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٨٨ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣٧ .
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده ١/ ٢٨٤، رقم ٤٣٠ .

ثم قال: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

يقول ابن عاشور: «وإنما قال: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾؛ ليدل على أن ذلك الصرف بإذن الله وتقديره، كما كان القتل بإذن الله وأن حكمته الابتلاء؛ ليظهر للرسول وللناس من ثبت على الإيمان من غيره، ولأن في الابتلاء أسرارا عظيمة في المحاسبة بين العبد وربه سبحانه وقد أجمل هذا الابتلاء هنا وسيبينه.

وعقب هذا الملام بقوله: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ تسكينًا لخواطرهم، وفي ذلك تلطف معهم على عادة القرآن في تقريع المؤمنين.

وفي تذييله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تأكيد ما اقتضاه قوله: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ والظاهر أنه عفو لأجل التأويل، فلا يحتاج إلى التوبة، ويجوز أن يكون عفوا بعد ما ظهر منهم من الندم والتوبة»[(٥)].

وقوله: ﴿صَرَفَكُمۡ﴾ يدل على أن ما حدث في أحد لم يكن هزيمة، وإن لم يكن نصرا أيضًا؛ لأن الهزيمة تقتضي أن يولي المسلمون الأدبار، وأن يأسر بعضهم أعداؤهم، ويسبي نساءهم، ويتحكم فيهم،

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ١٣٠ .

وما حدث في أحد لم يكن كذلك.

عن عبيد الله بن عتبة، عن ابن عباس، أنه قال: ما نصر النبي صلى الله عليه وسلم في موطن كما نصر يوم أحد قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله عز وجل إن الله عز وجل يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

يقول ابن عباس: والحس: القتل، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وإنما عنى بهذا: الرماة، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أقامهم في موضع ثم قال: (احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل، فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا، فلا تشركونا)، فلما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباحوا عسكر المشركين، انكشف الرماة، فدخلوا في العسكر ينتهبون، وقد التقت صفوف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فهم هكذا، وشبك بين أصابع يديه، والتبسوا فلما أخل الرماة تلك الخلة، التي كانوا فيها، دخل الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فضرب بعضهم بعضا والتبسوا وقتل من المسلمين ناس كثير [(١)].

ونستفيد من هذا الحدث الطريقة المثلى لمعالجة الخطأ وتوجيه المخطئ، فقد ترفق القرآن وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في غزوة أحد، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

على عكس ما نزل في بدر من آيات في شأن أسرى بدر، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر، وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٦٨، رقم ٢٦٠٩، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢/ ٣٢٤، رقم ٣١٦٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

المربي الناصح لأمته.

ونستفيد أيضًا من هذا الموقف: أهمية مبدأ الطاعة في الإسلام، بل يعد في غاية الأهمية في الأمور الحربية، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ يؤكد على الرماة أهمية الأمر بالأمر الصريح المباشر بقوله: (احموا ظهورنا)، وألا يقوموا بغير هذا الدور أيا كان مسار المعركة، (وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا).

«ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر في هذه الموقعة درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة، فالجماعة التي لا يحكمها أمر واحد، أو التي تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح في صدام، بل لا تشرف نفسها في حرب أو سلام.

والأمم كلها -مؤمنها وكافرها- تعرف هذه الحقيقة، ولذلك قامت الجندية على الطاعة التامة، وعند ما تشتبك أمة في حرب، تجعل أحزابها جبهة واحدة، وأهواءها رغبة واحدة، وتخمد كل تمرد أو شذوذ ينجم في صفوفها، وإحسان الجندية كإحسان القيادة، فكما أن إصدار الأوامر يحتاج إلى حكمة، فإن إنفاذها يحتاج إلى كبح وكبت، ولكن عقبى الطاعة في هذه الشئون تعود على الجماعة بالخير الجزيل»[1].

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي ص ٢٧١-٢٧٢.

سابعًا: مشهد إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم:

لما للحرب النفسية من أثر عظيم في كسر إرادة الإنسان، فقد مارسها المشركون في أثناء هذه الغزوة، وذلك أن ابن قمئة المجرم، قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه، وهو يظنه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لشبهه به، فانصرف ابن قمئة إلى المشركين، إن محمدًا قد قتل[2].

وصرخ الشيطان عند جبل عينين وقد تصور في صورة جعال بن سراقة رضي الله عنه: «إن محمدًا قد قتل» ثلاث صرخات، ولم يشك فيه أنه حق وكان جعال إلى جنب أبي بردة يقاتل أشد القتال، فقال جماعة من المسلمين لما سمعوا ذلك: إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم، وعلى ما كان عليه نبيكم، حتى تلقوا الله تعالى شهداء؟! وقال جماعة: ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان، يا قوم إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى قومكم، قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، واختلط المسلمون، فصاروا يقتلون على غير شعار، ويضرب بعضهم بعضًا، من العجلة والدهش وما يدري[3].

(٢) دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٢٥٥.

(٣) سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٤/ ١٩٦.

وذكر الله سبحانه المؤمنين بما كان منهم عندما أشيع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فنزلت آيات تقرر هذه الحقيقة الثابتة، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر، وأنه سيموت كما يموت سائر البشر، وليس له صفة تميزه عن غيره من البشر سوى الرسالة التي منحها الله إياه، فقال الله سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤- ١٤٥].

قال الطبري مبينًا المعنى الإجمالي للآيات: «يعني تعالى ذكره بذلك: وما محمد إلا رسول كبعض رسل الله الذين أرسلهم إلى خلقه، داعيًا إلى الله وإلى طاعته، الذين حين انقضت آجالهم ماتوا وقبضهم الله إليه.

يقول جل ثناؤه: فمحمد صلى الله عليه وسلم إنما هو فيما الله به صانعٌ من قبضه إليه عند انقضاء مدة أجله، كسائر رسله إلى خلقه الذين مضوا قبله، وماتوا عند انقضاء مدة آجالهم.

ثم قال لأصحاب محمد -معاتبهم على ما كان منهم من الهلع والجزع حين قيل لهم بأحد: إن محمدًا قتل، ومقبحًا إليهم انصراف من انصرف منهم عن عدوهم وانهزامه عنهم-: أفئن مات محمد، أيها القوم، لانقضاء مدة أجله، أو قتله عدو ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، يعني: ارتددتم عن دينكم الذي بعث الله محمدًا بالدعاء إليه ورجعتم عنه كفارًا بالله بعد الإيمان به، وبعد ما قد وضحت لكم صحة ما دعاكم محمد إليه، وحقيقة ما جاءكم به من عند ربه ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، يعني بذلك: ومن يرتدد منكم عن دينه ويرجع كافرًا بعد إيمانه»[(١)].

قال ابن كثير: «لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمدًا قد قتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدًا. وإنما قد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشجه في رأسه. فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فحصل ضعف ووهن وتأخر بين المسلمين عن القتال. ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية»[(٢)].

وروى الطبري بسنده في قصة غزوة

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٥١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٢٨ .

أحد: وفشا في الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فقال بعض أصحاب الصخرة: «ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أُبي، فيأخذ لنا أمنةً من أبي سفيان!! يا قوم، إن محمدًا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم». قال أنس بن النضر: «يا قوم، إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء!» ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل[1].

«وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه، فقد رئيس ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم»[2].

ورجعت طائفة من الجيش إلى المدينة يوم أحد لما أشيع مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تحدث الله سبحانه عن هذه الطائفة وأخبر بأنه عفا عنها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قال ابن الجوزي: ذكر في سبب فرارهم يومئذ أنهم سمعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل، فترخصوا في الفرار، قاله ابن عباس[3].

ومعنى قوله: ﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾، أي: دعاهم إلى الزلة وحملهم عليها[4]، وهذه الآية إعلام من الله تعالى أنه قد غفر لهم انهزام يوم أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم[5].

وهي «في عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة، فتفقد ثقتها في قوتها، ويضعف بالله ارتباطها، ويختل توازنها وتماسكها، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس، بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة، وهي بعيدة عن الحمى الآمن، والركن الركين»[6].

ولما شاع الخبر في معسكر الإيمان

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٥٥ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٥١ .
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٣٣٨ .
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٠٤.
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ١١٥٨ .
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٧ .

بمقتل النبي صلى الله عليه وسلم، انتهى أنس بن النضر رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل. ووجد بأنس بن النضر يومئذ سبعون ضربة ما عرفته إلا أخته، عرفت بنانه.

وكان أول من عرف بأن الرسول صلى الله عليه وسلم حي هو كعب بن مالك رضي الله عنه، فنادى في المسلمين يبشرهم فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالسكوت؛ لئلا يفطن له المشركون[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

دليل واضح يبين ضرورة الارتباط بالرسالة والتمسك بالمنهج السليم، والحذر من الارتباط بالأشخاص، قال القرطبي: «فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبدا، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل، وإن فقد الرسول بموت أو قتل فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين، أي: لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء»[2].

ثامنًا: نهاية الغزوة:

لما يئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، فكفوا عن مقاتلة المسلمين في شعاب أحد، أشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: (لا تجيبوه)، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: (لا تجيبوه)، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أجيبوه) قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا: الله أعلى وأجل) قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أجيبوه) قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا الله مولانا، ولا مولى لكم) قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة، لم آمر بها ولم تسؤني[3].

(١) السير والمغازي، محمد بن إسحاق، ص ٣٣٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب

ثم انسحب المشركون مكتفين بما نالوا من المسلمين، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه رضي الله عنهم على رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه محددا لهم الهدف من خروجهم: (اخرج في أثر القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وان ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم) فخرج علي رضي الله عنه في أثرهم، فوجدهم قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة[1].

فلما رجع علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بتوجه قريش إلى مكة، وكانت غزوة أحد يوم السبت للنصف من شهر شوال، فلما كان الغد يوم الأحد السادس عشر من شوال أذن مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو، فقال: من يذهب في أثرهم، فانتدب منهم سبعون رجلًا، قال صلى الله عليه وسلم: لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه فأذن له[2].

وكان خروجه إرهابا للعدو، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم، ثم ندب النبي صلى الله عليه وسلم سبعين رجلا فيهم كبار الصحابة رضوان الله عليهم؛ لتعقب جيش المشركين، فاستجابوا لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه مادحا لهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

ذكر الإمام البخاري رحمه الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية ثم ساق بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها قالت لعروة: (يا ابن أختي كان أبواك منهم -الزبير وأبو بكر- لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: (من يذهب في أثرهم؟) فانتدب منهم سبعون رجلًا قال: كان فيهم أبو بكر والزبير)[3].

وأخرج ابن جرير الطبري بإسناده إلى ابن عباس أن منهم أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا والزبير وسعدًا وطلحة وعبد الرحمن

المغازي، باب غزوة أحد ٥/ ٩٤، رقم ٤٠٤٣.

(١) السير والمغازي، محمد بن إسحاق، ص ٣٣٤.

(٢) جوامع السيرة النبوية، ابن حزم الأندلسي ص ١٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (الذين استجابوا لله والرسول)، ٥/ ١٠٢، رقم ٤٠٧٧.

ابن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبا عبيدة بن الجراح[1].

وذكر القرطبي: «أنه نهض مع النبي صلى الله عليه وسلم مائتا رجل من المؤمنين»[2].

قال ابن جرير رحمه الله: «وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك: الذين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد في طلب العدو -أبي سفيان ومن كان معه من مشركي قريش منصرفهم عن أحد- وذلك أن أبا سفيان لما انصرف عن أحد، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثره حتى بلغ حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة؛ ليرى الناس أن به وأصحابه قوةً على عدوهم»[3].

ومر بأبي سفيان ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة؟

قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه؛ لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: (حسبنا الله ونعم الوكيل)[4].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وهذا التصرف يبين لنا أن على المسلمين أن ينظروا بعين ثاقبة إلى مخططات أعدائهم؛ ليعرفوا منتهى خططهم، وما الذي يهدفون إليه، بل عليهم أن يقفوا لهم بالمرصاد؛ لصد هجماتهم، مبينين لهم أن لديهم القدرة -بإذن الله- على القضاء على مخططاتهم ومكرهم.

وفي نهاية هذه الغزوة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بدفن الشهداء، وكانوا سبعين شهيدا، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قتل من الأنصار يوم أحد سبعون[5]، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: (أيهم أكثر أخذا للقرآن)، فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد، وقال: (أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة)، وأمر

(١) جامع البيان، الطبري، ٧/ ٤٠٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٧٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٩٩.
(٤) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٠٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب من قتل من مسلمين يوم أحد ٤/ ١٤٩٧، رقم ٣٨٥٠.

بدفنهم في دمائهم، ولم يغسلوا، ولم يصل عليهم)[1].

ولم يؤسر أحد من المسلمين، أما قريش فقد قتل منهم اثنان وعشرون رجلا[2] وأسر منهم أبو عزة الشاعر، فقتل صبرا؛ لأنه أخلف وعده للنبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يقاتل ضده عندما من عليه ببدر، وأطلقه فعاد فقاتل بأحد[3].

و«تسمية ما أصاب المسلمين هزيمة ليست تسمية تنطبق على الواقع تمام الانطباق، إنما تكون الهزيمة إذا كان جيش الإيمان قد فر فرارا، والآخر قد تبعه في فراره، حتى داهم المدينة المنورة، وكان ما يكون بعد ذلك.

إنما الذي أنهى القتال هم المهاجمون، وكأنما اكتفوا بأن أصابوا مقتلة من المسلمين، ورضوا بذلك؛ لأنهم لا طاقة لهم فيما وراء ذلك، وقد رأوا السيوف الإسلامية تبرق، وذاقوها مرتين، ولذا تتبعهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم.

وإذا كان ما في أحد لا يسمى هزيمة، فإنه لا يسمى نصرا أيضًا لأحد الفريقين. وقد يسمى جراحا للمسلمين، كما سماها القرآن الكريم؛ إذ سماها قرحًا، وسماها إصابة، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾[آل عمران: ١٤٠]»[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد ٢/ ٩١، رقم ١٣٤٣.
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ٩٢.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٨٥.
(٤) خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، أبو زهرة، ٢/ ٦٢٤.

التوجيهات القرآنية بعد نهاية الغزوة

أولًا: تحريم الغلول:

الغلول هو: السرقة من مال الغنيمة قبل القسمة[1]، وهو محرم إجماعًا، بل هو من الكبائر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره قال: (لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء على رقبته فرس لها حمحمة، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك، وعلى رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، وعلى رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك أو على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغتك)[2].

وفي سورة آل عمران نفى الله تعالى عن نبيه الغلول، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

(١) القاموس الفقهي، سعدي، ١/ ٢٧٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول ٣/ ١١١٨، رقم ٢٩٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول ٣/ ١٤٦١، رقم ١٨٣١.

أي: «ما كان له، فهو ليس من شأنه أصلًا ولا من طبعه ولا من خلقه، فالنفي هنا نفي لإمكان وقوع الفعل، وليس نفيًا لحله أو جوازه، فطبيعة النبي الأمينة العادلة العفيفة لا يتأتى أن يقع منها الغلول ابتداء»[3].

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: «يأت به حاملًا له على ظهره، كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيفضحه بين الخلائق، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد يطلع عليها أهل المحشر، وهي مجيئه يوم القيامة بما غله حاملًا له قبل أن يحاسب وافيًا من خير وشر، وهذه الآية تعم كل من كسب خيرًا أو شرًّا ويدخل تحتها الغال دخولًا أوليًّا لكون السياق فيه»[4].

قال ابن الجوزي رحمه الله: في سبب نزول هذه الآية سبعة أقوال:

أحدها: أن قطيفة من المغنم فقدت يوم بدر، فقال ناس: لعل النبي صلى الله عليه وسلم أخذها، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أن رجلًا غل من غنائم هوازن يوم حنين، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٤٨١.
(٤) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٥٩٤.

والثالث: أن قومًا من أشراف الناس طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخصهم بشيء من الغنائم، فنزلت هذه الآية، نقل عن ابن عباس أيضًا.

والرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث طلائع، فغنم النبي صلى الله عليه وسلم غنيمة، ولم يقسم للطلائع، فقالوا: قسم الفيء ولم يقسم لنا، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك.

والخامس: أن قومًا غلوا يوم بدر، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

والسادس: أنها نزلت في الذين تركوا مركزهم يوم أحد طلبًا للغنيمة، وقالوا: «نخاف أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم: من أخذ شيئا، فهو له، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (ألم أعهد إليكم ألا تبرحوا؟! أظننتم أنا نغل؟!)» فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب، ومقاتل.

والسابع: أنها نزلت في غلول الوحي، قاله القرظي، وابن إسحاق[1].

فالسبب السادس يذكر أنها نزلت في أحد، وقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن غزوة أحد.

يقول محمد رشيد رضا في تفسيره: «نزلت هذه الآية في شأن النبي صلى الله عليه وسلم من سياق الحكم والأحكام المتعلقة بغزوة أحد، لكن أخرج أبو داود والترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء، افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[2].

وقد ضعف هذه الرواية بعض المفسرين -وإن حسنها الترمذي-؛ لأن السياق كله في وقعة أحد، ورجحوا عليها ما روي عن الكلبي ومقاتل: «إن هذه الآية نزلت حين ترك الرماة المركز الذي وضعهم فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد؛ طلبا للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم: من أخذ شيئا من مغنم فهو له، وألا يقسم الغنائم، كما لم يقسمها يوم بدر، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: (ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري؟) فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفًا، فقال لهم: (بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم)، والصواب أن هذه الآية من متعلقات هذه الوقعة كالآيات التي قبلها وكثير مما يأتي بعدها»[3].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٤١-٣٤٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحروف والقراءات ٤/ ٣١، رقم ٣٩٧١، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة آل عمران ٥/ ٢٣٠، رقم ٣٠٠٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٦٨٢.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤/ ١٧٦.

ويقول الألوسي: «والمراد تنزيه ساحة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على أبلغ وجه عما ظن به الرماة يوم أحد.

فقد حكى الواحدي عن الكلبي، ومقاتل أن الرماة حين تركوا المركز يومئذ طلبا للغنيمة قالوا: نخشى أن يقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: من أخذ شيئا فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم) ولهذا نزلت الآية، أو تنزيهه صلى الله تعالى عليه وسلم عما اتهمه به بعض المنافقين يوم بدر، فقد أخرج أبو داود والترمذي وابن جرير وحسناه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه قال: نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذها، والرواية الأولى أوفق بالمقام، وارتباط الآية بما قبلها عليها أتم؛ لأن القصة أحدية»[1].

ثانيًا: فضل الشهادة:

أثنى الله تبارك وتعالى ثناء حسنًا على الشهداء والذين لحقوا بالرفيق الأعلى يوم أحد، وهم مقاتلون في سبيل الله تعالى؛ وفاء منهم بصدق ما عاهدوا الله تعالى عليه وقد جاء الثناء عليهم بالذكر الحسن في آيات من الكتاب العزيز فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

وقد جاء في سبب نزول هذه الآيات أحاديث منها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم، ومشربهم، ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا، أنا أحياء في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم)، قال: فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩] إلى آخر الآية)[2].

وعن مسروق، قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

(١) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٢١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة ٣/ ١٥، رقم ٢٥٢٠. وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ٧/ ٢٧٩.

قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: **(أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا)**[1].

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير يوم أحد قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصبنا من الخير كي يزدادوا رغبة، فقال الله: أنا أبلغ عنكم فنزلت: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧١][2].

وعن جابر بن عبد الله، قال: (لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: **(يا جابر ما لي أراك منكسرا؟)** قلت: يا رسول الله استشهد أبي، وترك عيالا ودينا، قال: **(أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟)** قال: بلى يا رسول الله. قال: **(ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحا. فقال: يا عبدي تمن علي أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون)** قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][3].

وهذه الآية تضمنت النهي عن ظن الموت بالشهداء فدلت على أنهم أحياء عند ربهم يرزقون والخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ولا تحسبنهم، يا محمد، أمواتًا، لا يحسون شيئًا، ولا يلتذون ولا يتنعمون، فإنهم أحياء عندي، متنعمون في رزقي، فرحون مسرورون بما آتيتهم من كرامتي وفضلي، وحبوتهم به من جزيل ثوابي وعطائي[4].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ٣/ ١٥٠٢، رقم ١٨٨٧.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٤/ ٢١٦، رقم ١٩٤٣٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة آل عمران ٥/ ٢٣٠، رقم ٣٠١٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٣٠٩.

(٤) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٨٤.

وقد جاءت آية في سورة الأحزاب ذكر المفسرون أنها نزلت في بعض شهداء أحد وهي قوله سبحانه: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وجاءت روايات في سبب نزول هذه الآية، منها:

١. نزلت في أنس بن النضر، فعن أنس رضي الله عنه، قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: «يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع»، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني: أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني: المشركين-، ثم تقدم»، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: «يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد»، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: «كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إلى آخر الآية»[(١)].

٢. نزلت في طلحة بن عبيد الله، فعن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما طلحة، (أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إني اطلعت من باب المسجد وعلي ثياب خضر، فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أين السائل عمن قضى نحبه؟) قال الأعرابي: أنا يا رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا ممن قضى نحبه)[(٢)].

٣. نزلت في مصعب بن عمير وأصحابه يوم أحد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له، ثم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)، ٤/ ١٩، رقم ٢٨٠٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الأحزاب ٥/ ٣٥٠، رقم ٣٢٠٣. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢٤٧.

قرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه)[١].

والظاهر أن هذه الآية تصدق على كل من قتل في سبيل الله، بعد أن جاهد بإخلاص وثبات؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله تعالى أعلم.

ثالثًا: توجيهات عامة للمؤمنين:

بعد غزوة أحد وجه الله عباده المؤمنين إلى توجيهات عديدة، فمن ذلك:

١. النهي عن التشبه بالمنافقين.

نهى الله عباده المؤمنين عن الاتصاف بصفات الكافرين، ومن ذلك قول الكافرين لإخوانهم في الكفر -إذا هم ضربوا في الأرض لتجارة أو لغزو فمات من مات منهم، أو قتل من قتل بقضاء الله وقدره-: لو كانوا عندنا، أي: ما فارقونا وبقوا في ديارنا، ما ماتوا وما قتلوا، وحسب سنة الله تعالى فإن هذا القول منهم يتولد لهم عنه بإذنه تعالى غم نفسي وحسرات قلبية تمزقهم، وقد تودي بحياتهم، وما درى أولئك الكفرة الجهال أن الله يحيي ويميت، فلا السفر ولا القتال يميتان، ولا القعود في البيت جبنًا وخورًا يحيي.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

يقول الطبري: يعني بذلك -جل ثناؤه-: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاء به محمد من عند الله، لا تكونوا كمن كفر بالله وبرسوله، فجحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وقال لإخوانه من أهل الكفر ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فخرجوا من بلادهم سفرًا في تجارة، أو خرجوا من بلادهم غزاةً فهلكوا فماتوا في سفرهم، أو قتلوا في غزوهم: لو لم يكونوا خرجوا من عندنا، وكانوا أقاموا في بلادهم ما ماتوا وما قتلوا، وقد قيل: إن الذين نهى الله المؤمنين بهذه الآية أن يتشبهوا بهم فيما نهاهم عنه من سوء اليقين بالله، هم عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه[٢].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ٢/ ٢٧١، رقم ٢٩٧٧.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ١١/ ٣٦٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٣٠.

قال سيد: «وظاهر من مناسبة هذه الآيات في سياق المعركة، أن هذه كانت أقوال المنافقين الذين رجعوا قبل المعركة، والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا في الإسلام ولكن ما تزال بين المسلمين وبينهم علاقات وقرابات.

وأنهم اتخذوا من مقاتل الشهداء في أحد، مادة لإثارة الحسرة في قلوب أهليهم، واستجاشة الأسى على فقدهم في المعركة -نتيجة لخروجهم-، ومما لا شك فيه أن مثل هذه الفتنة والمواجع دامية، مما يترك في الصف المسلم الخلخلة والبلبلة. ومن ثم جاء هذا البيان القرآني؛ لتصحيح القيم والتصورات، ورد هذا الكيد إلى نحور كائديه، والله في تربيته للجماعة المسلمة وفي ظلال غزوة أحد وما نال المسلمين فيها يحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا، أولئك الذين تصيبهم الحسرات، كلما مات لهم قريب وهو يضرب في الأرض ابتغاء الرزق أو قتل في ثنايا المعركة وهو يجاهد»[1].

٢. نهي المؤمنين عن إطاعة الكفار.

قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩ - ١٥١].

أي: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله في وعد الله ووعيده وأمره ونهيه إن تطيعوا الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه، فتقبلوا رأيهم في ذلك وتنتصحوهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون، فيحملونكم على الردة بعد الإيمان، والكفر بالله وآياته وبرسوله بعد الإسلام، فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذي هداكم الله له هالكين، قد خسرتم أنفسكم، وضللتم عن دينكم، وذهبت دنياكم وآخرتكم[2].

وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم قصدهم ردهم إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران.

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور[3].

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٧٦

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥١.

وحده وليًا وناصرًا من دون كل أحد، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى.

ومن مظاهر الرعب التي ألقاها الله تعالى في قلوب المشركين، أنهم بعد أن انتصروا على المسلمين في غزوة أحد كان في قدرتهم أن يوغلوا في مهاجمتهم وقتالهم، إلا أن الرعب صدهم عن ذلك.

٣. الترغيب في الشهادة في سبيل الله.

رغب الله سبحانه في الشهادة في سبيله، وبين أنها سبب للمغفرة والرحمة، فقال: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨].

أي: لا تكونوا، أيها المؤمنون، في شك من أن الأمور كلها بيد الله، وأن إليه الإحياء والإماتة، كما شك المنافقون في ذلك، ولكن جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله، على يقين منكم بأنه لا يقتل في حرب ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته، ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أن موتًا في سبيل الله وقتلا في الله، خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو[١].

٤. الأمر بالأخذ بالشورى.

شاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في البقاء في المدينة والتحصن فيها، أو الخروج لملاقاة المشركين.

وكان رأي النبي صلى الله عليه وسلم البقاء في المدينة، وقال: أنا في جنة حصينة، وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن رجالا من المسلمين ممن كان فاته بدر، قالوا بالخروج لملاقاة العدو.

قال ابن كثير رحمه الله: «وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ولم يتناهوا إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيه، ولو رضوا بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر، وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدرا، قد علموا الذي سبق لأصحاب بدر من الفضيلة»[٢].

قال تعالى آمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم بالأخذ بمبدأ الشورى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٣٧.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ٤/ ١٥.

﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال الطبري: «إن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه ومكايد حربه، تألفًا منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي يؤمن عليه معها فتنة الشيطان وتعريفًا منه أمته مأتى الأمور التي تحزبهم من بعده ومطلبها؛ ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعله. فأما النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله كان يعرفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه أو إلهامه إياه صواب ذلك. وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك، على تصادقٍ وتوخٍ للحق، وإرادة جميعهم للصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حيد عن هدى، فالله مسددهم وموفقهم»[(١)].

وهذا من أعظم الدروس العملية من النبي صلى الله عليه وسلم، حيث إن رأيه صلى الله عليه وسلم كان البقاء في المدينة وقتال المشركين فيها وفي الطرقات، ومن فوق الدور، لكن لما كان رأي الأغلبية، مخالفا لرأيه صلى الله عليه وسلم وكان الأمر محل اجتهاد، نزل صلى الله عليه وسلم عن رأيه لرأي الأغلبية، وكان ذلك تطبيقا رائعا رفيع المستوى منه صلى الله عليه وسلم لمبدأ الشورى.

٥. تنبيه أهل الإيمان أن النصر بيد الله.

عندما يكتب الله تعالى للمؤمنين النصر، فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يكتب الهزيمة، فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدة؛ لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق[(٢)].

٦. أمر المؤمنين بالصبر اقتداء بأتباع الرسل من قبل.

في نهاية المعركة ذكر الله حال كثير من الأنبياء السابقين الذين قاتل معهم جموع

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٥- ٣٤٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٥٤.

كثيرة من أصحابهم، فما ضعفوا لما نزل بهم من جروح أو قتل؛ لأن ذلك كان في سبيل ربهم، وما عجزوا، ولا خضعوا لعدوهم، بل إنما صبروا على ما أصابهم.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

قال ابن كثير: «عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد، وتركوا القتال أو سمعوا الصائح يصيح: إن محمدا قد قتل، فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال»[(١)].

القيادة النبوية في الغزوة

تجلت القيادة النبوية في غزوة أحد في أمور عدة منها:

١. جمع المعلومات عن العدو.

حصل النبي صلى الله عليه وسلم في وقت مبكر على المعلومات الكافية عن استعداد قريش لغزو النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل تحركها، فأرسل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رسالة مستعجلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضمنها جميع تفاصيل الجيش.

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجد في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام، وسلم الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسجد قباء.

وقرأ الرسالة على النبي صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب، فأمره بالكتمان، وعاد مسرعا إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار[(٢)].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم، فدخل فيهم، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: ما رأيت؟ قال: رأيت يا رسول الله عددا ثم حزرتهم ثلاثة آلاف

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٠.

(٢) الرحيق المختوم، المباركفوري ص ١٨٣.

يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع[١].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينين له: أنسا ومؤنسا ابني فضالة الظفريين، ليلة الخميس لخمس مضت من شوال، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبرهم، وأنهم قد حلوا إبلهم وخيلهم في الزرع الذي بالعريض حتى تركوه ليس به خضراء[٢].

وهذا يدل على اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بجمع معلومات كافية عن العدو، فقد استطاع معرفة قوة جيش عدوه وعدده.

٢. الأخذ بمبدأ الشورى.

كان النبي صلى الله عليه سلم يقول لأصحابه لما علم بخروج قريش لحربه: (أشيروا علي أيها الناس)[٣]، حتى يصل إلى قرار نهائي سليم، ورأي سديد، وهو بذلك يطيب خواطر أصحابه، ويعرف تفكيرهم وعقولهم، ويجعلهم يتحمسون للقتال؛ لأنهم يعرفون أنهم شاركوا في اتخاذ القرار.

٣. أمان المدينة.

في غزوة أحد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم عدة تدابير أمنية لحماية المدينة فمن ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى أحد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم[٤].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، فقال: (اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم) قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة[٥].

ومن هنا يظهر لنا أهمية عناية القائد واهتمامه بسلامة وتأمين نفسه من الداخل، حتى لا يؤتى من حيث لا يحتسب.

٤. اختيار الموقع المناسب.

لما نزل من جبل أحد وصل إلى عدوة الوادي، فعسكر النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه مستقبلًا المدينة، وجعل ظهره إلى هضاب جبل أحد، فصار جيش العدو فاصلًا بين المسلمين وبين المدينة، وقد كان لهذا الترتيب فائدةٌ عظيمة، وهي حماية ظهر الجيش[٦].

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٠٧.
(٢) عيون الأثر، ابن سيده ٢/ ١٣ .
(٣) مغازي الواقدي ١/ ٢٠٩ .
(٤) غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، السيد الجميلي، ص ٦٠.
(٥) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٩٤ .
(٦) الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٢٣٠ .

٥. الاستعداد للقتال وترتيب الصفوف وتجهيز الجيش للمعركة.

اختار رسول الله خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير وأصدر أوامره إليهم: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم، هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم).

وقال: (الزموا مكانكم لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل في عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا وارشقوهم بالنبل؛ فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم)[(١)].

وبذلك يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد سيطر على المرتفعات المجاورة للمعركة.

وبين الله سبحانه كيف كانت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم من بداية الغزوة فقال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

أي: تبين لهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم[(٢)]، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي على رجليه يسوي تلك الصفوف، ويبوئ أصحابه للقتال يقول: تقدم يا فلان! وتأخر يا فلان! حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجا فيؤخره، فهو يقومهم كأنما يقوم بهم القداح[(٣)].

والغدو: الخروج وقت الغداة، وهو أول النهار، وعبر عن الخروج بالغدو الذي هو الخروج غدوة، مع كونه صلى الله عليه وسلم خرج بعد صلاة الجمعة -كما سيأتي-؛ لأنه قد يعبر بالغدو والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناهما، كما يقال: أضحى، وإن لم يكن في وقت الضحى[(٤)].

وفي هذه الآية أعظم مدح للنبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة -صلوات الله وسلامه عليه-[(٥)].

٦. تنظيم الحراسة الليلية واختيار خمسين من أصحابه لحراسة المعسكر.

لما أدرك النبي صلى الله عليه وسلم الليل في المكان الذي استعرض فيه الجيش، بات هناك، واختار خمسين رجلًا لحراسة

(١) السيرة الحلبية، علي الحلبي ٢/ ٣٠٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١١٠.
(٣) مغازي الواقدي ١/ ٢٢١.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٣٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٥.

المعسكر، وجعل قائدهم محمد بن سلمة، وكان هؤلاء يتجولون حول المعسكر، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي صلى الله عليه وسلم[1].

٧. رد الصغار الذين لا يطيقون القتال من بين الجيش.

عندما وصل الجيش إلى مكان يقال له: (الشيخان)، استعرض الجيش ورد الذين لا يطيقون القتال من الصغار، وكان منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وأسيد بن ظهير، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن حارثة الأنصاري، وسعد بن حبتة، وأجاز رافع بن خديج، وسمرة بن جندب على صغر سنهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهرًا في رماية النبل، وسمرة كان أقوى من رافع؛ لأنهما تصارعا بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فصرع سمرة رافعًا، فأجازه النبي صلى الله عليه وسلم[2].

قال ابن إسحاق: «ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل»[3].

(١) الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٢٢٩ .
(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢١٦، سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٤/ ١٨٧ .
(٣) السير والمغازي، محمد بن إسحاق، ص ٣٢٥.

٨. اختيار خمسين من الرماة وجعلهم على جبل الرماة.

انتخب النبي صلى الله عليه وسلم من الجيش خمسين من الرماة الماهرين، وأعطى قيادتهم لعبدالله بن جبير بن النعمان الأنصاري، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناة جنوب شرق المعسكر، على بعد حوالي مائة وخمسين مترًا من مقر الجيش الإسلامي، عرف هذا الجبل بعد ذلك بجبل الرماة[4].

أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرماة بعدة وصايا، وذلك تأكيدًا عليهم بألا يغادروا أماكنهم، فقال لقائد الرماة: (انضح عنا الخيل بالنبل، لا يأتوننا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك)[5].

٩. الانسحاب التكتيكي.

لما خالف الرماة أمر رسول الله وطوق جيش المسلمين تجمع حول النبي صلى الله عليه وسلم جماعةٌ من الصحابة؛ فيهم أبو بكر وعمر وعلي، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصمة، ورهط من المسلمين[6]، فأخذ الرسول صلى

(٤) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٢٣١.
(٥) السير والمغازي، محمد بن إسحاق ص ٣٢٦، دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٢٢٧ .
(٦) دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٣٥٥ .

الله عليه وسلم بعملية الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، فشق طريقًا بين المشركين المهاجمين لبقية الجيش، حتى ينسحبوا إلى الجبل، ويتخلصوا من عملية التطويق التي حلت بهم، وبهذه الطريقة انسحب الجيش، وفشلت عملية التطويق التي كان يراد منها القضاء على ذلك الجيش[1].

١٠. اتخاذ القرار.

اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم قراره بالخروج لملاقاة عدوه، واتخذ قرارات أخرى في المعركة وبعدها.

ومن ذلك: قتل أسير المشركين، أبا عزة الجمحي، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسره ببدر، ثم من عليه، فقال: يا رسول الله، أقلني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدًا مرتين، اضرب عنقه يا زبير**). فضرب عنقه. قال ابن هشام: وبلغني عن سعيد بن المسيب أنه قال: قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت، فضرب عنقه**)[2].

وحين أمر صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى حمراء الأسد في صبيحة اليوم التالي لغزوة أحد أصدر قراره بألا يخرج إلا من شهد معه القتال يوم أحد فاستأذنه جابر بن عبد الله أن يفسح له في الخروج معه، ففسح له في ذلك[3].

١١. عدم تعنيف أصحابه.

لما استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وخيرهم بين الخروج للقاء العدو والبقاء في المدينة، واختار الغالبية الخروج، لم يعنفهم مع ما حصل لهم من الآلام والجراح، «لقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة، أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف في أحرج الظروف وأمام النتائج المريرة التي انتهت إليها المعركة! ولكن الإسلام كان ينشئ أمة، ويربيها، ويعدها لقيادة البشرية. وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة، أن تربى بالشورى وأن تدرب على حمل التبعة، وأن تخطئ -مهما يكن الخطأ جسيمًا وذا نتائج مريرة-؛ لتعرف كيف تصحح خطأها، وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها. فهي لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ، والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هي إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة»[4].

١٢. كان النبي صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة لأصحابه في الصبر.

(١) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٢٤٠.
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٠٤.
(٣) جوامع السيرة، ابن حزم الأندلسي، ص ١٤٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٠١- ٥٠٢.

فقد أوذي صلى الله عليه وسلم إيذاء شديدا في بدنه حيث سقط في حفرة حفرها أبو عامر الفاسق وشج وجهه الشريف ودخلت حلقتا المغفر في وجنته الشريفة، وأوذي صلى الله عليه وسلم أذًى شديدا، بفقد عمه وأخيه من الرضاعة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ومع هذا كله صبر صلى الله عليه وسلم على كل هذا الأذى.

الدروس المستفادة من غزوة أحد

وصف الله غزوة أحد وصفا دقيقا، وبين سبحانه خفايا النفوس، ودخائل القلوب، وذكر سبحانه دروسا عظيمة يستفيد منها المسلم في سيره إلى ربه -تبارك وتعالى-، فمن تلك الدروس ما يلي:

أولًا: المعصية والتنازع سبب لتخلف النصر عن الأمة، فبسبب معصية الرماة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، واختلافهم حول الغنائم ذهب النصر عن الأمة بعد أن لاحت بوادره.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثلوا أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم انهزموا لما خالفوا أمره ونزل الرماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقية الصحابة رضي الله عنهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ

﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾؛ إعلامًا لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادل قادر.

وفي ذكر قدرته هاهنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا تتكلوا على سواه، وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تمييزًا ظاهرًا، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما في نفوسهم فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد الله عليهم وجوابه لهم فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة ونعمة على المؤمنين سابغة، وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشاد وتنبيه وتعريف بأسباب الخير والشر، ومآلهما وعاقبتهما[1].

ثانيًا: حب الدنيا والتعلق بها قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان والصلاح، وربما خفي عليهم ذلك، فقد وصف الله حال المؤمنين لما شاهدوا الغنيمة بقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كنت أرى أن أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا، حتى نزل فينا يوم أحد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[2].

وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها[3].

ثالثًا: ويتخذ منكم شهداء.

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢١٤-٢١٥.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٧/ ٤١٨، رقم ٤٤١٤، وابن أبي شيبة في المصنف ١/ ٢٨٤، رقم ٤٣٠.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٤.

﴿شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

و«هو تعبير عجيب عن معنى عميق، إن الشهداء لمختارون، يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه سبحانه، فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد، إنما هو اختيار وانتقاء، وتكريم واختصاص، إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة؛ ليستخلصهم لنفسه سبحانه ويخصهم بقربه»[(١)].

رابعًا: الجنة غالية عزيزة لا تنال إلا على جسر المتاعب والمشاق والصبر على البلاء، قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

و«صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور، تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان: أسلمت وأنا على استعداد للموت. فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان، وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان! إنما هي التجربة الواقعية، والامتحان العملي، وإنما هو الجهاد وملاقاة البلاء، ثم الصبر على تكاليف الجهاد، وعلى معاناة البلاء»[(٢)].

خامسًا: تمحيص المؤمنين وتمييزهم عن المنافقين، ومحق الكافرين باستحقاقهم غضب الله وعقابه، وقد جمع الله ذلك كله في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩- ١٤١].

وميز الله المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا، فاقتضت حكمة الله عز وجل أنزل على عباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبوآتهم، وعاد تلويحهم تصريحا، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا، وعرف المؤمنون أن لهم عدوا في نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم.

قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن

(١) المصدر السابق ١/ ٤٨١ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٤٨٣.

﴿وَتُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

﴿وَتُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ١٢٩].

﴿وَتُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ١٢٩].

﴿وَتُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

﴿وَتُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: ١٢٩].

﴿وَتُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨

مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

قال السعدي رحمه الله: «هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدما، لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ﴾ أي: وكم من نبي ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ﴾ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك.

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾»[1].

تاسعًا: بيان أن الموت مكتوب على كل أحد وأن الرسول ميت كغيره لا محالة؛ لأن كل نفس ذائقة الموت، ومهمة الرسول تبليغ ما أرسل به، وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائما مع قومه، فلا خلود لأحد في هذه الدنيا.

قال ابن القيم رحمه الله: «وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصا بين يدي موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، وهو حي لا يموت، فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ليخلد لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بد منه سواء مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بقي، ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه، لما صرخ الشيطان إن محمدا قد قتل، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتد من ارتد على عقبيه، وثبت الشاكرون على

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٥١ .

دينهم، فنصرهم الله وأعزهم، وظفرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم»[1].

موضوعات ذات صلة:

غزوة الأحزاب، غزوة بدر، غزوة تبوك، غزوات الرسول مع اليهود

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٠١ .

غزوة الأحزاب

عناصر الموضوع

التعريف بغزوة الأحزاب	٢٠٠
أسباب الغزوة	٢٠٢
بداية الغزوة	٢٠٤
مشاهد من الغزوة في القرآن	٢١٢
القيادة النبوية في الغزوة	٢١٥
ثناء القرآن على المؤمنين في الغزوة	٢١٧
موقف بني قريظة في الغزوة	٢١٩
الدروس المستفادة من غزوة الأحزاب	٢٢٢

التعريف بغزوة الأحزاب

أولًا: أسماؤها:

لقد سميت غزوة الأحزاب بذلك الاسم، بسبب اجتماع أحزاب وطوائف من المشركين فيها لمحاربة المسلمين، وعلى رأسهم قريش وغطفان ومعهم اليهود[(١)]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى اسم الأحزاب في قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وسميت أيضًا بغزوة الخندق؛ لأنه عندما علم المسلمون بقدوم الأحزاب استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه عليه بحفر خندق حول المدينة يحول بينهم وبين الأحزاب ففعلوه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)].

وقد وردت هذه التسمية على ألسنة الصحابة رضي الله عنهم، حيث روي عن عبد الرحمن وهو ابن عبد الله بن دينار، عن أبيه، أن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «أول يوم شهدته يوم الخندق»[(٣)]، وعن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء بن عازب يحدث، قال: «لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأيته ينقل من تراب الخندق، حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه»[(٤)].

ثانيًا: حكمة تسمية سورة باسمها:

لما تحزب المشركون من قريش وغطفان وبعض العرب ويهود بني قريظة، واجتمعوا لغزو المسلمين في المدينة، وقد رد الله كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال في غزوة الأحزاب، ذكر الله سبحانه وتعالى تفاصيل هذه الغزوة وقصتها في سورة سميت بسورة الأحزاب، ولما كانت غزوة الأحزاب حدًا فاصلًا لمرحلة جديدة، أعلن فيها النبي صلى الله عليه وسلم أنه لن يأتي أحد بعد هذه الغزوة ليغزو المسلمين، بل هم سيقومون بغزو أعدائهم، حيث روي عن سليمان بن صرد، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: (نغزوهم، ولا يغزوننا)[(٥)].

ونصر الله سبحانه وتعالى في الغزوة

(١) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤١٣.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١٠٧، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ٥/ ١١٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١٠٦، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ٥/ ١١٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١٠٩، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ٥/ ١١٠.

نبيه صلى الله عليه وسلم والمسلمين وأيدهم بجنوده من الملائكة الكرام والريح والخندق.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

فكانت غزوة الأحزاب معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك سميت سورة باسمها تأييدًا للنبي صلى الله عليه وسلم وتخليدًا لهذه الغزوة، وبيانًا لأحداثها، ولما فيها من دروس وعبر للمؤمنين، وهذا من أعظم مقاصد القرآن الكريم[(١)].

ثالثًا: زمان الغزوة ومكانها:

فأما زمان الغزوة: فذهب جمهور أهل السير والمغازي على أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة[(٢)]، وذهب إلى هذا القول ابن سعد، وابن إسحاق، والواقدي، والطبري، وابن كثير[(٣)]، وغيرهم.

(١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين ٦/ ٦٣، ٦٦.

(٢) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٠٨، السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ٢٥٧.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ٥٠، المغازي، الواقدي ٢/ ٤٤٠، تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٥٦٤، السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ١٨١.

وذهب طائفة من العلماء إلى أنها في السنة الرابعة من الهجرة، منهم الزهري، ومالك بن أنس، وموسى بن عقبة[(٤)]، وابن حزم، والنووي[(٥)].

والذي يرجح هو رأي الجمهور، وهو ما رجحه ابن القيم فقال: «وكانت سنة خمسة من الهجرة في شوال على أصح القولين، إذ لا خلاف أن أحدًا كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل، وهو سنة أربع، ثم أخلفوه لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس جاؤوا لحربه، هذا قول أهل السير والمغازي»[(٦)].

وأما مكان الغزوة: فحدثت غزوة الأحزاب على مشارف المدينة المنورة، وقد حفر المسلمون الخندق على مشارفها وتحصنوا في المدينة للدفاع عنها، وكان حفر الخندق بإشارة من سلمان الفارسي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولما قبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه المشورة تم حفر الخندق في السهل الواقع شمال غرب المدينة، وهو الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو، حيث هذه المنطقة

(٤) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٤/ ١٠٧.

(٥) انظر: جوامع السيرة، ابن حزم ص١٤٧، شرح صحيح مسلم، ٨/ ١٧٧، فتح الباري، ابن حجر، ٥/ ٢٧٨.

(٦) زاد المعاد، ٣/ ٢٤٠.

هي المنطقة الوحيدة المكشوفة من المناطق المحيطة بالمدينة المنورة؛ إذ أن جهات المدينة الأخرى محاطة بالبساتين الكثيفة والعوارض الطبيعية الأخرى، وذلك يحول دون إمكان إجراء القتال بقوات كبيرة في أطراف المدينة عدا الشمالية منها[(١)].

وقد تجمعت جيوش الأحزاب حول المدينة، وجعل المسلمون ظهورهم إلى جبل سلع استعدادًا للقاء الأعداء والخندق بينهم[(٢)].

أسباب الغزوة

إن تحركات المسلمين المتواصلة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتحديهم المستمر لقريش، وتهديدهم لطرق تجارتها، قد هيأت الظروف لتحالف المشركين مع اليهود لاجتثاث المسلمين من قاعدتهم المدينة، فإن قريشًا كانت تفكر بحملة عسكرية ضد الوجود الاسلامي، وتود لو أتيحت لها الفرصة للقضاء على النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام، وقد أتتهم الفرصة حينما اتصل بهم زعماء يهود بني النضير داعين قريشًا لحرب المسلمين[(٣)].

وكان يهود بني النضير وبني قينقاع الذين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة مغيظين، خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين ويسعون بكل ما في وسعهم للقضاء عليهم، فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب الإسلام، وكونوا لهذا الغرض الخبيث وفدًا يتكون من سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، ونفر من وائل

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ٢٢٤، السيرة النبوية، أبو حسن الندوي، ١/ ٣٤٧، الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر: غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، السيد الجميلي، ١/ ٧٦، الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ٢٢٨.

(٣) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ١/ ٣٢٣.

وتوجهوا إلى قريش. وقد نجح الوفد نجاحًا كبيرًا في مهمته حيث وافقت قريش التي كانت تنتظر الفرصة بعد الحصار الاقتصادي المضروب عليها من المسلمين، ووافقت غطفان طمعًا في خيرات المدينة وفي السلب والنهب، وتابعتهم قبائل أخرى، فتعاقدوا جميعًا، والتقى قصد قوى الشر في القضاء على الإسلام، وقد شهدوا أن الشرك خير من الإسلام، حتى نزلت في حقهم الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[النساء: ٥١-٥٢][1].

وقد بين الطبري في تفسيره أن هذه الآية وصف من الله سبحانه وتعالى للذين أوتوا نصيبًا من الكتاب من اليهود بتعظيمهم غير الله بالعبادة، وتفضيلهم أهل الكفر بالله على أهل الإيمان به، وقولهم أن دين أهل التكذيب لله ولرسوله، أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ولرسوله. وذكر آراء العلماء في سبب نزول الآية، وخلص إلى القول بأن ذلك خبر من الله سبحانه وتعالى عن جماعة من أهل الكتاب من يهود، وجائز أن يكون حييًا وآخر معه إما كعبًا وإما غيره[2].

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ٢١٤، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن سويلم أبو شهبة، ٢/ ٢٧٥، السيرة النبوية، علي الصلابي، ٢/ ٢٥٨، حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤١٢.

(٢) انظر: جامع البيان، ٨/ ٤٦٨.

بداية الغزوة

أولًا: مجيء الأحزاب وحصارهم المدينة:

لقد تجمعت الأحزاب لحرب المسلمين، فخرجت قريش وغطفان وغيرهم من القبائل، وقد تولى قيادة جموع الأحزاب أبو سفيان، وكان عددهم عشرة آلاف مقاتل، بينما كان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف فقط، وخرجت يهود بني النضير ونقضت بني قريظة العهد، وقد تفاجأت الأحزاب بالخندق، وما كان أمامهم إلا أن يرابطوا أمامه، وأصبحت المدينة واقعة تحت حصار جموع الأحزاب[1].

ولقد تحدث القرآن الكريم عن خروج الأحزاب وحصارهم المسلمين، ووصف الحالة التي أصابت المسلمين من فزع وجزع وخوف في تلك المحنة الرهيبة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الأحزاب: ٩-١١].

الآيات تشير إلى خروج قوات الأحزاب ومحاصرتهم المدينة، فقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي: جاءتكم جنود الأحزاب من قريش وغطفان وبني النضير وغيرهم، ونكر ﴿جُنُودٌ﴾ لتفيد الكثرة، حيث جاؤوهم إلى المدينة من فوقهم أي: من فوق الوادي من قبل المشرق، ومن أسفل منهم أي: من بطن الوادي من قبل المغرب، فحاصر العدو المسلمين، حتى أصاب المسلمين الخوف والرعب، وتنوعت الظنون، وكثرت الهواجس.

ووصفت الآيات حالهم بتصوير بديع للهول الذي أصابهم، بأن زاغت الأبصار أي: عدلت عن مقرها وشخصت، وزالت القلوب عن أماكنها حتى بلغت الحناجر والحلقوم من شدة الخوف والفزع، فمن المعلوم أن من خاف وجبن تنتفخ رئته فترفع القلب الى الحنجرة، فزلزلوا واضطربت قلوبهم، وبلغوا غاية الضيق والشدة، وهذا ابتلاء واختبار من الله للمسلمين ولإيمانهم، وتمحيص للقوم؛ ليعرف المؤمن من المنافق، وراسخ الإيمان من المتزلزل[2].

(١) انظر: الطبقات، ابن سعد، ٢/ ٥١، السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ٢١٥، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن سويلم أبو شهبة، ٢/ ٢٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢١٤، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٤١٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٩٣، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ٢/ ١٤٧.

يقول سيد قطب في تصوير المشهد: «إنها صورة الهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب، من أعلاها ومن أسفلها. فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج، ومن ثم كان الابتلاء كاملًا والامتحان دقيقًا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسمًا لا تردد فيه»[1].

وعلل الإمام الرازي هذا الابتلاء بقوله: «عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق، والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له، بل لحكمة أخرى وهي أن الله سبحانه وتعالى عالم بما هم عليه؛ لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الملائكة والأنبياء، كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته، وعنده غيره من العبيد وغيرهم، فيأمره بأمر عالمًا بأنه يخالفه، فيبين الأمر عند الغير، فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه، حيث لا يقع لأحد أنها بظلم أو من قلة حلم»[2].

ثانيًا: موقف المؤمنين عند رؤية الأحزاب:

لقد كان موقف المؤمنين مشرفًا، وكان ظنهم بالله قويًّا، حيث بين الله سبحانه وتعالى موقف المؤمنين حين لقاء الأحزاب فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب: ٢٢].

أي: وحين رأى المؤمنون وعاينوا جموع الأحزاب والكفار قد قدموا لمواجهة المدينة، ومحاربة الإسلام، لم يهنوا، بل قالوا على سبيل التسليم لأمر الله سبحانه وتعالى، والتصديق بوعده ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب[3].

فمن يثبت ويصبر حين الابتلاء ينال نصر الله سبحانه وتعالى، هذا وعد الله للمؤمنين في كل زمان ومكان.

إن الإيمان العميق والتربية النبوية جعلت المؤمنين يصمدون أمام الأخطار، فازدادوا إيمانًا، وأيقنوا أن نصر الله لابد أن يكون،

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٨٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١٦١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٣٦، التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٦٠، حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٨٧.

فاستحقوا شهادة الله لهم بصدق إيمانهم، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[1].

قال الطبري: «الذي وعدهم بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فأحسن الله عليهم بذلك من يقينهم، وتسليمهم لأمره الثناء، فقال: وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلا إيمانًا بالله سبحانه وتعالى وتسليمًا لقضائه وأمره، ورزقهم به النصر والظفر على الأعداء»[2].

وهذا شأن المؤمن دائمًا أن يزداد إيمانًا مع كل آية من آيات الله سبحانه وتعالى، وأن يصدق بما وعد الله عباده المؤمنين، ويسلم لأمره وقضائه.

هكذا بين لنا القرآن موقف المؤمنين حين مواجهة عدوهم، ورسم لنا صورتهم المشرقة في مواجهة الهول والخطر، صورة وضيئة في وسط الظلام، مطمئنة في وسط الزلزال، واثقة بالله، راضية بقضاء الله، مستيقنة من نصر الله، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب، فكانوا نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير، فكانوا قدوة للمؤمنين في كل زمان ومكان، فعلينا ألا نيأس من أنفسنا ومن ضعف أمتنا، بل علينا أن نستمسك بالعروة الوثقى، عروة السماء، ونزيد من إيماننا، لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، ونتخذ من الزلزال بشيرًا بالنصر، فنثبت ونستقر، ونقوى ونطمئن، ونسير في الطريق، حتى نحقق النصر والعزة والرفعة[3].

ثالثًا: موقف المنافقين في الغزوة:

لقد بين القرآن الكريم موقف المنافقين في غزوة الأحزاب، حيث كشفت الآيات صفاتهم ومواقفهم المخزية، وما تولد عن نفاقهم من جبن في القلوب وتخاذل في الميدان، وانعدام ثقة بالله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وفرار من الموت لضعف اعتقادهم، وتثبيط الآخرين لترك مواقعهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ

(١) انظر: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن سويلم أبو شهبة، ٢/ ٢٨٢، حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٨٨.

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٢٠/ ٢٣٦.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٨٤١، ٢٨٤٤.

لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٢-٢٠].

تفصل الآيات موقف المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر، أصحاب القلوب المريضة والمليئة بالشبهات والشهوات، وتبين مقالتهم الشنيعة ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: ما وعدنا الله إلا باطلًا من القول وخداعًا، ففي هذه المقولة تشكيك في وعد الله، واتهام للنبي بالخداع، وبيان كفرهم بإنكارهم وعد الله الصادق فيما وعدهم من النصر[1].

فالمنافقون لم يكن لهم دافع للقتال لعدم إيمانهم، فمنهم من بدأ يثبط المؤمنين، ويطلب منهم الرجوع إلى المدينة، وقسم آخر يستأذن من الرسول صلى الله عليه وسلم للرجوع إلى المدينة، ويسوق أعذارًا واهية وكاذبة بادعاء أن بيوتهم عورة أي: مكشوفة على الأعداء، وقد نفى القرآن أن يكون كلامهم صحيحًا فقال: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ وبين أن هدفهم هو سوق العذر أيًا كان بهدف الفرار من المعركة، وترك المسلمين في أشد الظروف وأحوجها[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

«ونستفيد من هذه الآية أن موقف المنافقين كان سلبيًا، بل كانوا مرجفين، فهم بدلًا من المساعدة قاموا بأشد مما قام به الأحزاب، حيث انسحبوا في أحلك الأوقات ناشرين الأراجيف في الجيش الإسلامي بأن لا مقام لهم، وأن بيوتهم مكشوفة، ومعروف أن الأراجيف لها أثر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٢٢٢، روح المعاني، الألوسي، ١١/ ١٥٦، حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٥٦.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ٢١/ ١٤١، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٨٣٨، التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة المؤلفين ٦/ ٨٩.

كبير في هزيمة الجيوش، وهي أشد من وقع السيوف؛ وذلك لأنها تهبط الحالة المعنوية للجيش فيصيبه الخور والضعف»[1].

وتستمر الآيات في كشف وفضح المنافقين، وبيان صفاتهم، ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤].

«يخبر سبحانه وتعالى عن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، وقطر من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة، وهي الدخول في الكفر، لكفروا سريعًا، وهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع، هكذا فسرها قتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وابن جرير، وهذا ذم لهم في غاية الذم»[2]، وهذا دليل واضح على ضعف الإيمان في نفوسهم، فلا عجب من تراجعهم وتسللهم من المعركة، فهذه سمة المترددين الجبناء الذين اعتادوا على الهرب من مواقف الصمود[3].

هكذا المنافقون سريعو الغدر والارتداد عن الدين، وتركهم للمسلمين بدون تردد، فغدرهم ونقضهم للعهود من صفاتهم المتأصلة، لذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

فهم كانوا قد عاهدوا الله قبل المعركة ألا يهربوا منها، إلا أنهم خانوا العهد، وسيسألهم الله عن ذلك، وقد ذكر الطبري أن المقصود فعل بني حارثة في الخندق بعد أن هربوا يوم أحد، ثم عاهدوا الله ألا يعودوا، وقد عادوا[4].

ثم يقرر القرآن الكريم أن الأجل معلوم عند الله سبحانه وتعالى، لا يستطيع أحد أن يفر أو يهرب منه، ولا أحد يستطيع أن يعصم أحدًا أو يمنعه من وقوع قضاء الله عليه.

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٦، ١٧].

ففي هذه الآيات أمر من الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمنافقين بأن فرارهم من القتال لن يؤخر آجالهم، ولن يطيل في أعمارهم، ولن ينجيهم من الموت، وإن توهموا أنهم نجوا مؤقتًا فسيأتيهم أجل الله، ولا أحد يستطيع أن يمنع عنهم قدر الله، فقدره لابد آت، فمن الذي يمنعهم من الله إن أراد لهم سوءًا

(١) حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٦٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٩٠.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٢٦٩.
(٤) انظر: جامع البيان، ٢٠/ ٢٢٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٩.

في أنفسهم -أي: شرًا وهزيمة- أو عافية وسلامة ونصرًا؟ لن يجد هؤلاء المنافقون إن أراد الله بهم سوءًا في أنفسهم وأموالهم من يليهم بالكفاية أو ينصرهم من الله فيدفع عنهم ما أراد الله بهم من سوء ذلك، فهذه دعوة لهم ليمتثلوا طاعة المنفرد بالأمور كلها، الذي نفذت مشيئته، ومضى قدره، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته، وليٌّ ولا ناصر[1].

ويقرر الله سبحانه وتعالى أنه عليم بالمرجفين من المنافقين وبأفعالهم وصفاتهم القبيحة، ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الأحزاب: ١٨].

فالحق سبحانه وتعالى يعلم المثبطين للمؤمنين عن القتال في سبيل الله، والقائلين لإخوانهم اتركوا ساحة القتال والتحقوا بنا في المدينة[2].

«قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أنهم قالوا لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحمًا لالتقمهم أبو سفيان وحزبه، فخلوهم وتعالوا إلينا»[3].

وهؤلاء لا يأتون البأس إلا قليلًا أي: لا يشهدون القتال إن شهدوا إلا تعذيرًا ودفعًا عن أنفسهم[4].

فالمنافقون لم يكتفوا بالانسحاب والفرار من المعركة، بل قاموا بالتثبيط والإرجاف في الجيش، والدعوة للتمرد والانسحاب عن الجبهة وترك النبي صلى الله عليه وسلم وحده[5].

وتتابع الآيات بيان صفاتهم القبيحة عند الخوف والأمن، ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[الأحزاب: ١٩].

من صفاتهم أنهم أشحة « والشح: البخل بما في الوسع مما ينفع الغير، وأصله عدم بذل المال، ويستعمل مجازًا في منع المقدور من النصر أو الإعانة، والمعنى: يمنعونكم ما في وسعهم من المال أو المعونة، أي: إذا حضروا البأس منعوا فائدتهم عن المسلمين ما استطاعوا، ومن ذلك شحهم بأنفسهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٢٨، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٤١٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٠.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٩/ ١١٩٦٨.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣١٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٣٠.
(٥) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٨٦.

وكل ما يشح به»[1].

وقد بين القرطبي عدة معانٍ مقصودة من صفة الشح على المؤمنين، ذكرت عند السلف وهي: البخل في حفر الخندق، وفي النفقة في سبيل الله، وبالقتال معهم، وبالنفقة على فقرائهم ومساكينهم، وبالغنائم إذا أصابوا[2].

قال الطبري: «إن الله وصف هؤلاء المنافقين بالجبن والشح، ولم يخصص وصفهم من معاني الشح، بمعنى دون معنى، فهم كما وصفهم الله به: أشحة على المؤمنين بالغنيمة والخير والنفقة في سبيل الله، على أهل مسكنة المسلمين»[3].

والصفة الأخرى للمنافقين التي بينتها الآية السابقة وهي الجبن الشديد عند رؤية الأعداء، ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ فهم من خوفهم الشديد من القتال، وجبنهم الذي خلع قلوبهم، إذا أقبل العدو يصيبهم الهلع، فينظرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وتدور أعينهم يمينًا وشمالًا، كدوران عين الذي يغشى عليه من سكرات الموت حذرًا وخورًا ولواذًا.

وإذا ما انتهى القتال وذهب الخوف آذوا المؤمنين، وخاصموهم بكلام مستكره، وألسنة سلطة، طعنًا وذمًّا خاطبوهم، بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة[4].

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ «قال قتادة: ومعناه بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطنا أعطنا، فإنا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانًا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم، قال النحاس: هذا قول حسن؛ لأن بعده: أشحة على الخير»[5].

فهم أشحة على الخير أي: هم بخلاء حريصون على مال الغنائم إذا ظفر المؤمنون، فيشاحون المؤمنين على الغنيمة ويطلبون منها[6].

يقول الزمخشري: «فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة، نقلوا ذلك الشح عليكم إلى الخير -وهو المال والغنيمة- ونسوا تلك الحالة الأولى،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٩٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٥٣.
(٣) جامع البيان، ٢٠/ ٢٣١.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣١٠، الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٣٠، روح المعاني، الألوسي، ١١/ ١٦٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٩٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٠، محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٥٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٥٤.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٣٢، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٤١٨، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ٢/ ١٤٨.

واجترؤوا عليكم وضربوكم بألسنتهم وقالوا: وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه»[1]، ولأن المنافقين لم يؤمنوا، وأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، أبطل الله أعمالهم وأحبطها، وهذا الأمر سهل هين على الله[2].

ومن صفات المنافقين أنهم من شدة الخوف والجبن يحسبون الأحزاب لم يذهبوا لقتال المؤمنين، ويتمنوا أنه إذا أتى الأحزاب مرة أخرى وحاصروا المدينة أن يكونوا حينها قد خرجوا إلى البادية مع الأعراب وليسوا في المدينة خوفًا من القتل، وحتى لا ينالهم أذى، ويتمنون أن يسمعوا أخباركم بهلاككم، ولو كانوا في المعركة ما قاتلوا معهم إلا قليلًا لا وزن له، أي: تعذيرًا، لأنهم لا يقاتلون حسبة ولا رجاء ثواب.

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠][3].

هذه هي صفات المنافقين، فالمنافق مريض القلب والنفس، يظن بالله ورسوله ظن السوء، ولا يقاتل عن عقيدة، فينتهز أي فرصة للهروب من أي مهمة صعبة، وللتنصل من الواجبات، بل وتثبيط الآخرين، ويتصف بالشح وعدم حب الخير للآخرين، وخيانة العهود[4].

إن هذه الصفات التي ذكرها الله عن المنافقين تنطبق على منافقي كل زمان ومكان «فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان»[5].

فلنتعرف على صفاتهم لنحذر منها ونعرف عدونا، فالآيات الكريمة كشفت صفاتهم لتحذر منهم.

يقول سيد قطب: «وبهذا الخط ينتهي رسم الصورة، صورة ذلك النموذج الذي كان عائشًا في الجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة، والذي ما يزال يتكرر في كل جيل وكل قبيل، بنفس الملامح، وذات السمات ينتهي رسم الصورة وقد تركت في النفوس الاحتقار لهذا النموذج، والسخرية منه، والابتعاد عنه، وهوانه على الله وعلى الناس، ذلك كان حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في الصفوف، وتلك كانت صورتهم الرديئة»[6].

(١) الكشاف، ٣/ ٥٣٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٣٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٠.
(٤) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين ٦/ ٩٢.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٨٣٨.
(٦) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٨٤١.

مشاهد من الغزوة في القرآن

أولًا: وصف عام للغزوة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب: ٩].

في هذه الآية الكريمة وصف عام للغزوة، حيث يذكر الله سبحانه وتعالى فيها المؤمنين بنعمته عليهم، ويمتن عليهم، إذ صرف عنهم أعداءهم، حين جاءت جنود الأحزاب وتجمعت لإبادتهم، والقضاء عليهم، واستئصال شوكتهم، فأرسل الله على الأحزاب ريحًا، وملائكة لم يروها، فزلزلتهم، وألقت الرعب في قلوبهم، وقلعت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وسفت التراب في وجوههم، فكان للملائكة دور كبير في نجدة المسلمين، وكانت الريح أبرز الجنود التي حسمت المعركة[١].

عن ابن عباس قال: قال صلى الله عليه وسلم: (نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور)[٢].

«وفي هذه الآونة الشديدة وقع ثقل المقاومة على المؤمنين الخلص، الذين كانت قلوبهم عامرة بالإيمان، ونفوسهم في سبيل الدفاع عن الحق أشد من الصخرة صلابة وقوة، ولما وقف المؤمنون الموقف المشهود، ودافعوا دفاع الأبطال، وابتلاهم الله، فوقفوا وصبروا وصابروا أراد ربك أن يصرف عنهم السوء، وأن يتم نعمته عليهم ويكفيهم شر القتال على أحسن صورة وأكمل وضع، فألقى في قلوب المشركين الخوف»[٣].

وكان الله مطلعًا على المؤمنين، عليمًا بجميع أعمالهم، من حفر الخندق ومقاساة الشدائد، والاستعداد للقتال، والتحرز من العدو، وهو يجازيهم عليها[٤].

يقول سيد قطب في بيان الآية السابقة: «يجمل في الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث، وبدءه ونهايته، قبل تفصيله وعرض مواقفه؛

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ٣/ ٨٠، التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٦٦، تفسير المراغي، ٢١/ ١٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ١٠٣٥، كتاب الجمعة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (نصرت بالصبا)، ٢/ ٣٣.
قال مصطفى البغا في تعليقه على الحديث: «الصبا هي الريح التي تهب من مشرق الشمس ونصرته بها -صلى الله عليه وسلم- كانت يوم الخندق إذ أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم كان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم.«الدبور» هي الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

(٣) التفسير الواضح، حجازي، ٣/ ٨١.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٦٦.

لتبرز نعمة الله التي يذكرهم بها، ويطلب إليهم أن يتذكروها وليظهر أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع وحيه، والتوكل عليه وحده، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه، من عدوان الكافرين والمنافقين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب: ٩].

وهكذا يرسم في هذه البداءة المجملة بدء المعركة وختامها، والعناصر الحاسمة فيها مجيء جنود الأعداء، وإرسال ريح الله وجنوده التي لم يرها المؤمنون، ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم، وبصره بعملهم»[(١)].

ثانيًا: نهاية الغزوة:

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾[الأحزاب: ٢٥].

لقد نصر الله المؤمنين وأعزهم، ورد الكافرين من قريش وغطفان واليهود والأحزاب جميعًا، ردهم خائبين خاسرين بكربهم وغمهم وغيظهم، لم يشفوا صدرًا ولم يحققوا أمرًا، فلم ينالوا ما كانوا يأملونه من الظفر على المؤمنين، أو أي خير من غنيمة أو أسر أو نصر، وكفى الله المؤمنين القتال؛ بأن أرسل على الأحزاب الريح والملائكة، فتفرقت جموعهم، وتشتت شملهم، وأوقع الرعب في نفوس الأحزاب، وثبت قلوب المؤمنين على الحق حتى جاءهم النصر من عند الله العزيز الحكيم، فالفضل بالنصر كله لله، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده[(٢)].

وقد روي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده)[(٣)].

«الله أكبر وأعظم به من نصر، الله أكبر وأعظم بها من معركة، سلاحها الفتاك هو الريح والملائكة والرعب، فمن كان معه الله سخر له ما يشاء، نصر الله المؤمنين بالرغم من إتيان الأعداء من كل الجهات فحاصروا المدينة المنورة حصارًا شديدًا، أتى النصر من الله البصير بأعمال المؤمنين الصادقين في نصرة دينه، وذلك بعد أن اشتد الامتحان وعظم، فزاغت الأبصار واضطربت القلوب

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٨٣٦.

(٢) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ٣/ ٨٥، التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٧٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٧١٦، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل، ٤/ ٢٠٨٥.

وخافت، وظن المؤمنون أنهم ممتحنون فخافوا من الزلل، وظن المنافقون أن المسلمين سيستأصلون، ولكن خابت ظنون المنافقين ونصر الله عباده المتقين. واختبر المؤمنون اختبارًا عظيمًا، واضطربوا اضطرابًا شديدًا من هول الموقف، وبسبب خيانة المنافقين واليهود وهجوم الكافرين عليهم، إلا أنهم كانوا متيقنين بنصر الله سبحانه وتعالى، فحقق الله لهم وعده، ونصرهم على الأحزاب»[1].

إن القرآن الكريم ومن خلال آيات غزوة الأحزاب، يرسخ في القلوب والنفوس الاعتقاد الصحيح، والتصور السليم، بأن النصر كله بيد الله، وأن الله ينصر عباده المؤمنين المخلصين، فالمسلمون اليوم مطالبون بترسيخ هذه المفاهيم الصحيحة، والارتكاز إلى الإيمان الصادق، وأن يستمدوا العون من الله سبحانه وتعالى، وأن يردوا أمرهم كله لله.

وإن من أهم نتائج الغزوة والآثار المترتبة على نصر المؤمنين وفشل الأحزاب، بأن كانت الغزوة بمنزلة حد فاصل لمرحلة جديدة، تمثلت في تغير ميزان القوى لصالح المسلمين، وانتقال الموقف من الدفاع إلى الهجوم، وذلك ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم)[2].

وهذا يعكس التغير الجذري في سياسة الدولة الإسلامية من اتباع سياسة الدفاع عن المدينة، إلى مرحلة الهجوم والتهديد، وذلك يشير بوضوح إلى أن مناطق الصراع قد انتقلت في أعقاب هذه الغزوة إلى مناطق أخرى مثل مكة وما حولها، وتبوك، وغيرهما بعيدا عن المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية[3].

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٦/ ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١١٠، حديث سليمان بن صرد، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ٥/ ١١٠.

(٣) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٣٢٨.

القيادة النبوية في الغزوة

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قائد المسلمين في غزوة الأحزاب، خاضها بنفسه، فكان القائد الرباني، والجندي المثالي، والقدوة الكاملة، فهو محل قدوة للمؤمنين دائمًا، في الصبر على الشدائد، والثبات في الحروب، والصدق عند اللقاء، وفي غزوة الأحزاب بذل صلى الله عليه وسلم كل غالٍ لنصرة دين الله، حفر الخندق مع اخوانه، وجاع مثلهم، وصبر وجاهد، فكان الصابر المحتسب، والشاكر الراضي، فاستحق أن يقتدى به في جميع أفعاله وأحواله، لذلك قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١].

هذه الآية أصل كبير وعظيم في وجوب الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في كل الأمور، في أقواله وأفعاله وأحواله، واتباع سنته[(١)].

فلابد من التأسي به، في صبره ومصابرته، ومجاهدته، ومرابطته، يقول البغوي: «اقتداء حسن، أن تنصروا دين الله، وتؤازروا الرسول، ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو، إذ كسرت رباعيته، وجرح وجهه، وقتل عمه، وأوذي بضروب من الأذى فواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم كذلك أيضًا، واستنوا بسنته»[(٢)].

قال بعض المفسرين: إن الخطاب في الآية السابقة عتاب للمنافقين، ودعوة للمتخلفين عن القتال للتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم[(٣)]، وسواء كان الخطاب للمؤمنين أو لغيرهم، يبقى النبي صلى الله عليه وسلم حجة عليهم جميعًا، والقدوة لهم جميعًا بجهاده وجميع أحواله، والذي يقتدي به ويتخذه الأسوة الحسنة هو المؤمن الذي يرجو ثواب الله ويخافه، ويديم ذكره سبحانه وتعالى.

وإن من أهم ما تميز به النبي في المعركة، وكان له الأثر الكبير على المسلمين، ما يأتي:

١. استشارته لأصحابه وعبقريته.

حيث استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما ينبغي عمله لمواجهة الخطر الداهم، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق شمال المدينة، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا الأخذ برأيه السديد، والأمر بالتنفيذ، «وقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب، فلم تكن العرب تعرف هذا الأسلوب، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب لاجتياز

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣١٩.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٦٢٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٣٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٥٥.

الخندق والتغلب على المدافعين عنه»[1].

فكان حفر الخندق عاملًا أساسيًا من عوامل نصر المسلمين في الغزوة، والقائد العبقري هو الذي يستخدم أسلوبًا جديدًا في القتال.

٢. اتصافه بالقوة والحزم والرشد والجندية.

حيث «قرر الرسول صلى الله عليه وسلم البقاء في المدينة المنورة، وأمر بحفر الخندق، وانتخب منطقة الحفر في السهول الكائنة شمال المدينة، ووزع أعمال الحفر بالتساوي بين أصحابه، وسيطر على العمل، فلا يستطيع أحد ترك واجبه إلا بأمر منه، حتى أنجز أعمال حفر الخندق قبل وصول المشركين الى المدينة المنورة، واشتغل هو بنفسه بالحفر كبقية أصحابه تمامًا، بل استأثر دونهم بالأماكن الصلبة في منطقة حفر الخندق التي لم يستطع أصحابه التغلب عليها، كفلق الصخور القاسية! !

ثم قسم واجبات حراسة الموضع بين أصحابه، بحيث لا يغفل أحد عن شبر من الخندق ليلًا ونهارًا، على الرغم من برودة الطقس؛ وقد كان هو بنفسه لا يترك مقره إلا ليقوم بتفتيش الحراس والمواضع الدفاعية وليحرض المؤمنين على القتال، ويرفع من معنوياتهم، وأمن حرسًا قويًا للذراري الذين تركهم في دور المدينة، وأهم من ذلك كله سيطرته على أصحابه عندما تأزم الموقف حين وصلت الأحزاب الى ضواحي المدينة بقوات متفوقة على المسلمين، وحين نكثت قريظة عهدها، فأصبح الخطر يهدد المسلمين من داخل المدينة وخارجها»[2].

٣. تأييد الله سبحانه وتعالى له بالمعجزات.

فقد حصلت خلال مرحلة حفر الخندق ثلاث معجزات حسية للنبي صلى الله عليه وسلم وهي تكثير الطعام الذي أعده الصحابي جابر بن عبد الله للرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن باركه صلى الله عليه وسلم، وأكل منه ألف صحابي حتى شبعوا وتركوا الكثير، ومن معجزاته إخباره لعمار بن ياسر وهو يعمل معهم بأمر غيبي يتعلق بقتله رضي الله عنه، وقيامه صلى الله عليه وسلم بتفتيت صخرة عظيمة عجز الصحابة عن كسرها، فقد ضربها ثلاث ضربات وفتتها، ومع كل ضربة كان صلى الله عليه وسلم يعلن عن تسلمه لمفاتيح أقاليم كل من الشام، وفارس، واليمن، وهي بشارة تنبئ عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها في وقت كان المسلمون فيه محصورين في المدينة، يواجهون المشاق

(١) الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٣٧.

والخوف والجوع والبرد القارص[1].

٤. الدعاء واللجوء إلى الله.

في غمرة الشدائد والمخاوف كان النبي صلى الله عليه وسلم يديم الدعاء خلال الحصار، ولا ينفك هو وأصحابه عن التوجه إلى رب السماء.

ففي حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الأحزاب فقال: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[2].

وفي رواية: (اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم)[3].

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٣٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١١٥، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، ٥/ ١١١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٠٢٤، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، ٤/ ٦٣.

ثناء القرآن على المؤمنين في الغزوة

لقد أثنى القرآن الكريم على المؤمنين في غزوة الأحزاب، ومدحهم مدحًا عظيمًا، فهم مؤمنون حقًا، صادقون مع الله، ومع أنفسهم، استحقوا الثناء، فكانوا قدوة للمؤمنين في كل مكان وزمان.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

يرسم لنا القرآن صورة مشرقة لهؤلاء الرجال المؤمنين الصادقين، الذين أوفوا بالعهود، وصبروا على البأساء والضراء، فمنهم من نذر نفسه لله فاستشهد في سبيله كحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وغيرهم من الصحابة الكرام، ومنهم من ينتظر إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

هؤلاء كاملو الإيمان، لم يغيروا عهدهم مع الله ولم يبدلوه كغيرهم من المنافقين الذين ينقضون العهود، والله سيثيب أهل الصدق بصدقهم ووفائهم لله بما عاهدوا، وسيعذب المنافقين بكفرهم ونفاقهم، إن شاء أو يتوب عليهم فيهديهم للإيمان والتوبة.

قال تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤][(١)].

والآيات الكريمة السابقة تدل على أن الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم من المؤمنين الذين سلموا من النفاق، إذ ليس كل المؤمنين على درجة واحدة في إيمانهم، بل هم درجات في الإيمان، كما أنهم درجات عند الله، ودل على ذلك حرف الجر من للتبعيض، أي: بعض المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ إشارة إلى أنهم أناس قد كملت رجولتهم، وسلمت لهم إنسانيتهم، فكانوا رجالًا حقا، لم ينتقص من إنسانيتهم شيء، فالكفر والشرك والنفاق وضعف الإيمان، كلها أمراض خبيثة تغتال إنسانية الإنسان، وتفقده معنى الرجولة فيه، فالرجل كل الرجل، هو من تحرر عقله من الضلال، وصفت روحه من الكدر، وسلم قلبه من الزيغ، ثم لا عليه بعد هذا ألا يمسك بيده شيئًا من جمال الصورة، أو وفرة المال، أو قوة السلطان.

وفي تنكير ﴿رِجَالٌ﴾ معنى التفخيم، والتعظيم، فمن هؤلاء الرجال من مات، وهو على إيمانه الوثيق بالله، وفي موقف الجهاد في سبيل الله، قد وفى بما نذره لله، وعاهد الله عليه، ومنهم من ينتظر قضاء الله فيه، موتًا، أو استشهادًا في ميدان القتال، فهو على ترقب وانتظار لليوم الذي تتاح له فيه الفرصة للوفاء بنذره وعهده.

ففي قوله: ﴿يَنتَظِرُ﴾ إشارة إلى أن المؤمن الصادق الإيمان، ينتظر لقاء ربه، وهو في شوق إلى هذا اللقاء، يعد له اللحظات، ويستطيل أيام الحياة الدنيا، في طريقه إلى ربه، شأن من ينتظر أمرًا محبوبًا هو على موعد معه.

وفي قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ إشارة إلى أن إيمانهم بالله، ويقينهم بلقائه لم يزايل مكانه من قلوبهم لحظة، ولم ينحرف عن موضعه أيَّ انحراف، فهم على حال واحدة من أمر ربهم، ومن الثقة بما وعدهم الله على يد رسوله، على حين أن كثيرًا ممن كان معهم ممن أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، قد بدلوا مواقفهم، وكثرت تحركاتهم بين الإيمان والكفر.

فالمؤمنون الذين لم يبدلوا موقفهم، ولم يحيدوا عن طريقهم الذي استقاموا عليه- هؤلاء لهم من جزاء إيمانهم وإحسانهم، ما هم أهل له، من الإحسان والرضوان والذين بدلوا، ونافقوا، ولم يصدقوا في إيمانهم بالله- هؤلاء إما أن يعذبهم الله، إذا هم مضوا على نفاقهم، ولم تدركهم رحمة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٤١، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٢٩، التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٦/ ٩٨.

الله، فتخرجهم من هذا النفاق، وتعيدهم إلى الإيمان، وإما أن تنالهم رحمة الله، فيتوبوا من قريب، ويدخلوا في المؤمنين الصادقين[1].

«وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان، في مقابل صورة النفاق، والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق؛ لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن»[2].

موقف بني قريظة في الغزوة

إن موقف يهود بني قريظة في غزوة الأحزاب موقف غدر وخيانة ونقض للعهود، فقد نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانضموا إلى الأحزاب من المشركين عونًا لهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وكانوا يسكنون العوالي في جنوب شرق المدينة مما يمكنهم من طعن المسلمين من الخلف، وكان لهذا الموقف أثره على المؤمنين بأن اشتد تأزم الوضع عليهم في ظل محاصرة الأحزاب للمدينة، ولكن الله ردهم هم والأحزاب خائبين مهزومين.

وكان نقض بني قريظة لوثيقة العهد التي أبرموها مع الرسول صلى الله عليه وسلم عند حصار قوات الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق، وإصرارهم على خيانة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وتعريضهم أمن وسلامة المسلمين ودولتهم للخطر، سببًا في غزو المسلمين لهم، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقتالهم بعد انسحاب الأحزاب وانتهاء الحصار والخطر وعودته بالمسلمين من الخندق ووضعهم السلاح، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتوجه إلى

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١١/ ٦٨٠.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٨٤٤.

ديار بني قريظة ومحاصرتهم[1].

فكان القصاص سريعًا وحاسمًا، روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (أصيب سعدٌ يوم الخندق، رماه رجلٌ من قريشٍ يقال له ابن العرقة رماه في الأكحل، فضرب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمةً في المسجد يعوده من قريبٍ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق وضع السلاح، فاغتسل، فأتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه اخرج إليهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأين؟) فأشار إلى بني قريظة، فقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إلى سعدٍ، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية والنساء، وتقسم أموالهم)[2].

والله سبحانه وتعالى بين أن بني قريظة الذين ظاهروا الأحزاب وكانوا عونًا لهم على المسلمين، قد أنزلهم من حصونهم الممتنعين فيها، وقذف في قلوبهم الرعب، وبين عاقبة غدرهم بأن سلط عليهم المؤمنين فأبادوهم.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

«أنزل الله سبحانه وتعالى بقدرته وأمره يهود بني قريظة -الذين عاونوا الأحزاب، ونقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم- من حصونهم التي كانوا يتحصنون بها، وألقى في قلوبهم الرعب الشديد، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، الذي حكم فيهم قائلًا: آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتسبى الذراري والنساء، وتقسم الأموال»[3].

يقول الطبري: «عن قتادة، قوله: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم: بنو قريظة، ظاهروا أبا سفيان وراسلوه، فنكثوا العهد الذي بينهم وبين نبي الله، قال: فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم عند زينب بنت جحش يغسل رأسه، وقد غسلت شقه، إذ أتاه جبرائيل، فقال: عفا الله عنك؛ ما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة، فانهض إلى بني قريظة، فإني قد قطعت أوتارهم، وفتحت أبوابهم، وتركتهم في

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٣٢٦، أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٢٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٦٩، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتل من نقض العهد، ٣/ ١٣٨٩.

(٣) حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٩٥.

زلزال وبلبال؛ قال: فاستلأم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سلك سكة بني غنم، فاتبعه الناس وقد عصب حاجبه بالتراب؛ قال: فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصروهم، وناداهم: (يا إخوان القردة)، فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت فحاشًا، فنزلوا على حكم ابن معاذ، وكان بينهم وبين قومه حلف، فرجوا أن تأخذه فيهم هوادة، وأومأ إليهم أبو لبابة إنه الذبح، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقال قومه وعشيرته: آثرت المهاجرين بالعقار علينا؟ قال: فإنكم كنتم ذوي عقار، وإن المهاجرين كانوا لا عقار لهم. وذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كبر وقال: (قضى فيكم بحكم الله)»[(١)].

يختم سبحانه وتعالى الآيات التي تتحدث عن غزوة الأحزاب وبني قريظة ببيان النعم الجليلة التي مَنَّ بها على المؤمنين بعد أن نصرهم عليهم، ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾[الأحزاب: ٢٧].

فالله أورث المؤمنين أرض أعدائهم من يهود بني قريظة، كما أورثهم ديارهم ومزارعهم ومساكنهم وأموالهم جزاءً لهم.

﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ اختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض على أقوال: فقيل: خيبر، وقيل: حنين، وقيل: مكة، وقيل: فارس والروم، وقيل: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة، والراجح القول الذي يشمل جميع الأقوال، أي: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة، وفي هذا بشرى من الله للمؤمنين[(٢)].

(١) جامع البيان، ٢٠/ ٢٤٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٦١.

الدروس المستفادة من غزوة الأحزاب

لقد كان لغزوة الأحزاب حكم ودروس كثيرة، نذكر بعضها فيما يأتي:

١. إن النصر الحاسم للمسلمين على المشركين في غزوة الأحزاب، وعلى يهود بني قريظة ناقضي العهد، نعمة عظيمة تستوجب الشكر والحمد لله؛ لأنه نصر بتدبير الله سبحانه وتعالى، بإرسال الريح والملائكة، وقد صدقت فيه عزيمة المؤمنين على خوض المعركة، والدفاع عن مدينتهم عاصمة الإسلام.

٢. إن القائد المثالي هو من يشاور أصحابه وخاصته، فالنبي صلى الله عليه وسلم شاورهم في أمر القتال، وقبل مشورتهم في حفر الخندق، حيث أنزل الشورى منزلتها، ورسخها في حياة الأمة، وإنه بقدر قوة وحزم ورشد وعبقرية القيادة يكون التفوق والنصر.

٣. إن موقف المؤمنين الصادقين دائمًا نقيض موقف المنافقين، فهم مصدقون، واثقون بوعد الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولم تزدهم المحنة والابتلاء والنظر إلى الأحزاب إلا إيمانًا وتسليمًا.

٤. للمنافقين خصال اجتماعية وشخصية قبيحة ومذمومة، فهم بخلاء على المسلمين فيما يحقق المصلحة العامة، بخلاء بأنفسهم وأموالهم، مثبطين مرجفين، جبناء يخافون من لقاء الشجعان، سليطوا اللسان يؤذون غيرهم بالكلام والتفاخر بالكذب والزور، فهم فئة لم يؤمنوا بقلوبهم، وإن كان ظاهرهم الإسلام.

٥. إن تلاحق الشهداء وتواليهم على درب الجهاد في سبيل الله، سواء بالاستشهاد أو بانتظار الأجل، هذا أمارة خير ودليل استدامة الإخلاص جيلًا بعد جيل[(١)].

٦. إن الدعاء سلاح هام في أيدي المسلمين، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان كثير التضرع والدعاء، والأمة اليوم بحاجة للجوء إلى الله والتضرع وحسن التوكل عليه.

٧. إن القتال لا ينقص العمر، وتركه لا يزيد في العمر، فالأجل مكتوب، ولن يمنع حذر من قدر، فترك الجهاد خوفًا من القتل عمل غير صالح، وهو من صفات المنافقين.

٨. إن سوء الظن بالله تعالى وبرسوله كفر ونفاق، وإن على المؤمن أن يكون حسن الظن بالله دائمًا.

٩. إن من الواجب الاقتداء برسول

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٨٠.

الله صلى الله عليه وسلم في كل أقواله وأفعاله وأحواله، فهو القدوة والحجة.

١٠. إن المؤمنين الصادقين يستحقون ثناء الله عليهم؛ لمواقفهم المشرفة، ووفائهم بالعهود.

١١. التحذير من الغدر والخيانة ونقض العهود وعاقبته، وهي صفات ملاصقة لليهود، وهذا شأنهم على مدى التاريخ، بغدرهم وخيانتهم للأنبياء، ولهذا كان عاقبتهم السوء.

موضوعات ذات صلة:

غزوة أحد، غزوة بدر، غزوة تبوك، غزوات الرسول مع اليهود

غزوة بدر

عناصر الموضوع

التعريف بغزوة بدر	٢٢٦
أسباب الغزوة	٢٣١
الإعداد للغزوة	٢٣٢
مشاهد من الغزوة	٢٣٥
التوجيهات القرآنية بعد نهاية الغزوة	٢٥٢
القيادة النبوية في الغزوة	٢٥٨
فضل من حضر بدرًا	٢٦٠
الدروس المستفادة من غزوة بدر	٢٦١

التعريف بغزوة بدر

أولًا: اسم الغزوة:

لقد وردت تسمية غزوة بدر بهذا الاسم في القرآن الكريم، استمدادًا من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وسماها ابن عباس رضي الله عنه أيضًا يوم بدر، حيث روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: (اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد) فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥][(١)].

وسبب تسميتها بغزوة بدر: نسبة إلى بئر بدر بين مكة والمدينة، كان لرجل يسمى بدرًا، وهو المكان الذي تقابل فيه الجيشان، ونصر الله المسلمين على المشركين نصرًا عظيمًا[(٢)].

ثانيًا: حكمة ورودها في سورة الأنفال:

لما كانت سورة الأنفال تتحدث عن الأنفال وتقسيم الغنائم؛ حيث إن أول آية منها جاءت للحديث عن الأنفال، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ١].

ولما كانت غزوة بدر أول معركة حربية خاض غمارها المسلمون من الصحابة بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد غنموا أول غنيمة كبيرة من المشركين، وقد حصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، واختصموا في شأنها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كانت الإجابة عما ورد من تساؤلات الصحابة حول أنفال بدر في هذه السورة[(٣)]. يقول الطاهر بن عاشور: «افتتاح السورة بـ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ مؤذن بأن المسلمين لم يعلموا ماذا يكون في شأن المسمى عندهم الأنفال، وكان ذلك يوم بدر»[(٤)].

لذلك اشتملت سورة الأنفال على الآيات التي تتحدث عن غزوة بدر، فسماها بعض

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٩٥٣، كتاب المغازي، باب قصة غزوة بدر، ٥ / ٧٣.
(٢) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٢٧٢، التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٦٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١/ ١٤٦.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٥، التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٣/ ١٣١.
(٤) التحرير والتنوير، ٩/ ٢٤٨.

الصحابة بسورة بدر، حيث روي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: قلت لابن عباس رضي الله عنه: سورة الأنفال، قال: «تلك سورة بدر»[(١)]، وكان من أهم أسباب نزولها هو أحداث غزوة بدر الكبرى، حيث روي عن ابن عباس رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: (من قتل قتيلًا فله كذا وكذا). أما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم، فإنا كنا ردًّا لكم، ولو كان فيكم شيءٌ لجئتم إلينا، فأبوا فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١]. قسمت الغنائم بينهم بالسوية»[(٢)].

ثالثًا: زمان الغزوة ومكانها:

لقد دلت الآيات القرآنية أن زمان التقاء الجمعين من المؤمنين والكافرين يوم بدر ومكانه كان بترتيب من الله سبحانه وتعالى، حيث قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[الأنفال: ٤١- ٤٢].

وفي هذا دلالة واضحة على أن الفئة المؤمنة تسير برعاية الله وتدبيره، فهو سبحانه يتولى أمرها؛ ليقدر لها الخير والرشاد والغلبة والعزة.

أما زمان الغزوة: فلقد بين الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾[الأنفال: ٤٢]. أن المسلمين عندما خرجوا ليأخذوا العير، وخرج الكفار ليمنعوها من المسلمين، التقوا على غير ميعاد ولو تواعدوا لاختلفوا، ولكن الله جمعهم على غير ميعاد؛ ليقضي أمرًا كان مفعولًا؛ لإعزاز دينه وإهلاك أعدائه[(٣)].

وقد اتفق علماء السير على أن غزوة بدر كانت في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، ولكن اختلفوا في اليوم؛ فقيل: بأنها كانت في الثاني عشر. وقيل: في السابع عشر، وجمع

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٣٠٣١، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والانفال والحشر، ٤/ ٢٣٢٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين، رقم ٢٨٧٦، ٢/ ٢٤١، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.
وانظر: لباب النقول في معرفة أسباب النزول، السيوطي، ١/ ٤٩.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ٧.

العلماء بينهما بأن الثاني عشر ابتداء الخروج، والسابع عشر يوم الواقعة[1].

وأما مكان الغزوة: فحدثت الغزوة بين مكة والمدينة حيث بئر بدر، وهي كانت لرجل يسمى بدرًا، فسمي به الموضع[2].

وقد بين الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ كَانَ مَفْعُولًا مِّنكُمْ﴾ أن من نعمة الله سبحانه وتعالى على المسلمين أن جعلهم بالعدوة الدنيا، أي: بجانب الوادي الأقرب من المدينة، وأن المشركين في جانب الوادي الأبعد عن المدينة، وأن ركب أبي سفيان وأصحابه -وهم عير قريش التي خرج المسلمون لأجلها- كانوا في موضع أسفل منهم جهة ساحل البحر على بعد ثلاثة أميال من بدر، فكان المسلمون بعيدين عن الماء، وكانت الأرض رملية تغوص فيها أقدامهم، بينما كان المشركون قريبين من الماء والأرض كانت صالحة للمشي وكانت العير خلف ظهورهم، ثم تغيرت الموازين بتدبير الله سبحانه وتعالى؛ لتكون الغلبة للمسلمين، حيث أنزل الله سبحانه وتعالى المطر، وهيأ لهم الأسباب، وسبقوا المشركين إلى الماء، وفي هذا دلالة واضحة على أن النصر يتحقق للمسلمين من عند الله؛ ليزدادوا إيمانًا وشكرًا وامتثالًا لأمره[3].

رابعًا: حكمة تسميتها بالفرقان:

لقد سمى الله سبحانه وتعالى غزوة بدر بيوم الفرقان، حيث قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وسمي بالفرقان؛ لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل، بأن أعلى كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه، ونصر نبيه وحزبه[4].

ولهذه التسمية أهمية عظيمة في حياة المسلمين، وقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن وصف الله سبحانه وتعالى ليوم بدر بأنه يوم الفرقان، وعن حكمة هذه التسمية قال: «كانت غزوة بدر، التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده، فرقانًا بين الحق والباطل

(١) انظر: تلخيص الحبير، ابن حجر، ٤/ ٢٤٠.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٦٦.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣١٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢١، التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٣٢، التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ١٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٦٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٢٣.

كما يقول المفسرون: إجمالًا وفرقانًا بمعنى: أشمل وأدق وأوسع وأعمق كثيرًا.

كانت فرقانًا بين الحق والباطل فعلًا ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء والأشياء الحق الذي يتمثل في تفرد الله سبحانه وتعالى بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير، وفي عبودية الكون كله سمائه وأرضه، أشيائه وأحيائه، لهذه الألوهية المتفردة، ولهذا السلطان المتوحد، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك، والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك، ويغشي على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء، فهذا الفرقان الكبير الذي تم يوم بدر، حيث فرق بين ذلك الحق الكبير، وهذا الباطل الطاغي، وزيل بينهما فلم يعودا يلتبسان، لقد كانت فرقانًا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق، على أبعاد وآماد، كانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير؛ فرقانًا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور، وفي الخلق والسلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص، والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات وكانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر، كذلك فرقانًا بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء، وللقيم والأوضاع، والشرائع والقوانين، وللتقاليد والعادات، وبين الرجوع في هذا كله لله الواحد الذي لا إله غيره، ولا متسلط سواه، ولا حاكم دونه، ولا مشرع إلا إياه، فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله، وتساوت الرؤوس فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه، وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة.

وكانت فرقانًا بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية: عهد المصابرة والصبر والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع، والإسلام بوصفه تصويرًا جديدا للحياة، ومنهجًا جديدًا للوجود الإنساني، ونظامًا جديدًا للمجتمع، وشكلًا جديدًا للدولة، بوصفه إعلانًا عاما لتحرير الإنسان في الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته»[1].

إلى أن قال: وأخيرًا فلقد كانت بدر فرقانًا بين الحق والباطل بمدلول آخر، ذلك المدلول الذي يوحي به قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٥٢١.

﴿الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧- ٨].

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة، وكان هذا النصر العملي فرقانًا واقعيًّا بين الحق والباطل بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قول الله سبحانه وتعالى في معرض بيان إرادته سبحانه من وراء المعركة، ومن وراء إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من بيته بالحق، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة، ولقد كان هذا كله فرقانًا بين منهج هذا الدين ذاته، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم وإنه لفرقان ندرك به اليوم ضرورته، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين، حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين، وهكذا كان يوم بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير[1].

(١) انظر: في ظلال القرآن، ٣/ ١٥٢٣، بتصرف.

أسباب الغزوة

لقد أخرجت قريش المؤمنين من ديارهم، وأخذت أموالهم بعد أن فشلت في إرغامهم على العودة للشرك، وقاسى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه صنوف الإيذاء في مكة، وصبروا حتى اضطرتهم قريش للهجرة، إلى أن نزل الإذن بالقتال في المدينة.

قال المفسرون: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بألسنتهم وأيديهم، فيجيئون من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول لهم: (اصبروا فإني لم أومر بقتال)، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب اشتداد أذى قريش لهم، وترك المسلمون أموالهم وأرضهم وديارهم للمشركين في مكة، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الحج: [٣٩-٤٠][1].

ففي هذه الآيات الكريمة أذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعد الهجرة بقتال المشركين، الذين قاتلوهم واعتدوا عليهم، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، فهذا إذن من الله ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين بعد أن بلغ الأمر أقصاه، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة والعبادة في ظل دين الله[2].

ولما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بقافلة أبي سفيان قادمة من الشام وتحمل الأموال والتجارة، ندب المسلمين إليها، وأمرهم باعتراض القافلة بقصد الحصار الاقتصادي، وتعويض المسلمين ما صادره لهم المشركون في مكة من أموال وعقارات وممتلكات، فعلم المشركون بذلك، وأرسل أبو سفيان نذيرًا إلى أهل مكة؛ ليستنفرهم بعد أن غير وجهة القافلة، فعز على المشركين الحادث، وأحسوا بالخطر على وجودهم، وشعروا بقوة المؤمنين في المدينة، فحشدوا قواهم من قبائل العرب، ولما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه ثم خرج بجنده، وتقابل الجيشان في بدر[3].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٥٤٠، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٢٥٨، التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ٢٤٥، أسباب النزول، الواحدي، ١/ ٣٠٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٤٢٤، التفسير الواضح، حجازي، ٢/ ٥٨٩.

(٣) انظر: الموسوعة القرآنية، ابراهيم الإبياري، ١/ ١٢٢، التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٠٧، التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٦٥، ٩/ ٢٥٤.

وفي ظل هذه الهجمة الشرسة من أعداء الله على الإسلام والمسلمين، فإن المسلمين اليوم مطالبون بأن يدفعوا عن أنفسهم الظلم، ويدافعوا عن دينهم وعقيدتهم، ويستردوا حقوقهم، فإن الحق بحاجة إلى قوة تحميه، يقول سيد قطب: «إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان، والشر جامح والباطل مسلح، وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع ويملك أن يفتن الناس عن الخير -إن اهتدوا إليه- وعن الحق -إن تفتحت قلوبهم له-، فلابد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم»[1].

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٢٤.

الإعداد للغزوة

أولًا: إعداد المؤمنين:

إن معركة بدر لم تكن في حسبان المسلمين، ولم يستعدوا لها من حيث العدد والعتاد ومن الناحية النفسية أيضًا، لكنها فرضت عليهم من الله سبحانه وتعالى؛ ليحق الحق ويبطل الباطل، ولتحقيق العبودية لله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه خرجوا ولم يكن في نيتهم قتال، وإنما كان قصدهم عير قريش[2]، حتى أن القرآن الكريم وصف حال بعض المسلمين وهم خارجون للقاء عدوهم بأنهم كانوا كارهين للخروج؛ لأنهم غير متأهبين للقتال غاية التأهب، فلم يستعدوا للقتال، وإنما خرجوا للقافلة وهم عدد يسير، بخلاف عدد أهل النفير فهم كثير، وهم الجيش الذي جاء من قريش[3].

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ

(٢) انظر: السيرة النبوية، علي الصلابي، ٢/ ٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٩٦، نظم الدرر، البقاعي، ٨/ ٢٢٤.

إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٨].

فلقد كان عدد قوات المسلمين في بدر لا يمثل قدرة الدولة الاسلامية، فكان عدد قوات المسلمين بضعة عشر وثلاثمائة، فيهم فارسان[(١)].

وقد ذكرت بعض المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين[(٢)]، وكان لديهم سبعون بعيرًا يتعاقبون ركوبها[(٣)].

ولما فرض الله سبحانه وتعالى المعركة عليهم، تسابق المسلمون إلى الجنة، وقد أعدوا لها من الإيمان والعبادة والصدق والإخلاص وحسن التوكل، وهذا هو الإعداد الحقيقي الذي يكون به النصر والعزة، فقد جاءت الآيات الكريمة في بداية سورة الأنفال وقبل الحديث عن أحداث غزوة بدر تصف صفات المؤمنين التي بها تصلح أعمالهم بما فيها جهادهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

يقول السعدي: «قدَّم تعالى -أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة- الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها؛ لأن من قام بها استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله. فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله صلى الله عليه وسلم من بيته إلى لقاء المشركين في بدر بالحق الذي يحبه الله سبحانه وتعالى، وقد قدره وقضاه، وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال»[(٤)].

فالإعداد الإيماني وحسن التوكل على الله هو الإعداد الحقيقي الذي به يكون النصر والتأييد الإلهي رغم قلة العدد والعتاد، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقد نزلت الآيات يأمر الله سبحانه وتعالى فيها المؤمنين بالتخطيط الجيد وإعداد أنواع

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٧/ ٢٩٢، جوامع السيرة، ابن حزم الاندلسي، ١/ ٨٥.
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ٣١٥.
(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٦١٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ٣١٥.

القوة المعنوية والمادية المناسبة لكل زمان ومكان؛ لإرهاب عدو الله، وعدو المسلمين من الكفار الذين ظهرت عداوتهم كمشركي مكة في الماضي، ولإرهاب العدو الخفي الموالي لهؤلاء الأعداء، وهذا يشمل اليهود والمنافقين في الماضي، ومن تظهر عداوته بعدئذ[(١)].

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالمسلمون في هذا العصر مطالبون بإعداد القوة الإيمانية وكذلك المادية بكل أصنافها حسب الاستطاعة، فالإسلام بحاجة لقوة تحمي عقيدته، وتحرر الإنسان، وترد الأعداء.

ثانيًا: إعداد المشركين:

منذ أن استنفر أبو سفيان قريشًا خرجت بكبريائها وخيلائها، حتى بلغت قوة المشركين ألف رجل فيهم عدد كبير من قادة قريش وسادتها ومعهم مائتا فرس، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين[(٢)].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى في معرض النهي عن التشبه بهم، حال الكافرين عند خروجهم من ديارهم لمقاتلة المسلمين، بأنهم خرجوا بأموالهم وعدتهم وعتادهم؛ بطرًا أي: طغيانًا وتكبرًا ورياءً للصد عن سبيل الله بإضلال الناس والحيلولة بينهم وبين الهداية[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

يقول القرطبي في بيان ما أعده المشركون يوم بدر، وموضحًا المقصود من هذه الآية: «يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر، لنصرة العير، خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث خفاف الكناني - وكان صديقًا لأبي جهل- بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي، مع ما خف من قومي، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد، حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٥٠.
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ٢٦٠، نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ١/ ٢٨٧.
وقد ذكر ذلك في حديث عند مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٦٠، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣١٧.

العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد، فوردوا بدرًا ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»[1].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الكافرين ينفقون أموالهم، ويبذلون عدتهم وعتادهم؛ ليبعدوا الناس عن دين الله، لكن النتيجة تكون بخلاف ما يتوقعون، بأنهم سيغلبون، وسيكون إنفاقهم وإعدادهم حسرة وندامة، وإلى جهنم يحشرون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦].

«فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك! أما الحي فحرم ماله وذهب باطلا في غير درك نفع، ورجع مغلوبًا مقهورًا محزونًا مسلوبًا. وأما الهالك، فقتل وسلب، وعجل به إلى نار الله يخلد فيها، نعوذ بالله من غضبه. وكان الذي تولى النفقة التي ذكرها الله في هذه الآية فيما ذكر، أبا سفيان»[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٢٥.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٥٢٩.

مشاهد من الغزوة

أولًا: خروج المؤمنين للقتال:

لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم نجاة القافلة، وإصرار زعماء مكة على قتال النبي صلى الله عليه وسلم، واستنفار قوات قريش، استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأمر، فخرج المؤمنون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، رغم أن بعض الصحابة أبدى عدم ارتياحه في البداية للمواجهة الحربية مع قريش، وقد صور القرآن الكريم خروج الفئة المؤمنة لبدر.

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥][3].

وروي في سبب نزول هذه الآية، عن أبي أيوب الأنصاري قال: (قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت: (ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا)، فخرجنا فسرنا يومًا أو يومين فقال: (ما ترون فيهم؟)، فقلنا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا من طاقة بقتال القوم إنما أخرجنا للعير، فقال

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٢٨٨، السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ٦.

المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥][1].

وفي رواية قال المقداد: (لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره)[2].

بعد أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماع قادة المهاجرين على التأييد للتقدم، ومبايعة الأنصار له على المضي لما أراد الله، والصدق عند اللقاء[3].

والله قد وعدهم إحدى الطائفتين حيث قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

نظم النبي صلى الله عليه وسلم جنده، وعقد اللواء الأبيض، وسلمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، ومضى إلى بدر[4].

لقد اختار الله للمؤمنين ذات الشوكة، فتقدموا نحو عدوهم بكل ثبات؛ لتحقيق وعد الله سبحانه وتعالى، وقد أمرهم الله سبحانه وتعالى بالثبات حين لقاء العدو والاستعانه به والإكثار من ذكره سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

«هذه هي النصائح التي تكفل النصر للمسلم: الثبات عند اللقاء، وذكر الله والالتجاء إليه، وطاعة الله وطاعة رسوله، وكذا قائد الجيش ورئيس الدولة مادام يأمر بما يرضي الله ورسوله، وعدم النزاع والشقاق، والصبر عند الشدائد»[5].

إن في إرادة الله سبحانه وتعالى للمؤمنين طريق ذات الشوكة في بدر لدلالة واضحة للمؤمنين في كل زمان ومكان أن الله لا يقدر لهم إلا الخير، فما عليهم إلا الاستجابة والتسليم لأمر الله، فالله وعدهم

(١) لباب النقول، السيوطي، ١/ ٩٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٩٥٢، كتاب المغازي، باب قصة غزوة بدر، ٥/ ٧٣.
(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٥/ ٦، البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ٢٦٢.
وانظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة بدر، ١٧٧٩، ٣/ ١٤٠٣.

(٤) انظر: زاد المعاد، ابن القيم، ٣/ ١٥٤.
(٥) التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٣٤.

بإحدى الطائفتين العير أو النفير، وكانوا يودون العير، ولكن الله اختار لهم النفير، فكانت العزة والغلبة والتمكين، وقد بين الله ذلك حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

«لقد أراد الله -وله الفضل والمنة- أن تكون ملحمة لا غنيمة، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل؛ ليحق الحق ويثبته، ويبطل الباطل ويزهقه. وأراد أن يقطع دابر الكافرين، فيقتل منهم من يقتل، ويؤسر منهم من يؤسر، وتذل كبرياؤهم، وتخضد شوكتهم، وتعلو راية الإسلام، وتعلو معها كلمة الله، ويمكن الله للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله وتنطلق به؛ لتقرير ألوهية الله في الأرض، وتحطيم طاغوت الطواغيت، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف -تعالى الله عن الجزاف- وبالجهد والجهاد، وبتكاليف الجهاد ومعاناتها في عالم الواقع وفي ميدان القتال»[1].

ثانيًا: استغاثة الرسول صلى الله عليه وسلم بالله سبحانه وتعالى:

بعد أن نظم النبي صلى الله عليه وسلم جيشه وحرض المؤمنين على القتال، لجأ إلى الله سبحانه وتعالى مستغيثًا يدعوه بأن ينصر عباده وجنده، حيث بين سبحانه وتعالى في بيان استغاثة المؤمنين ولجوئهم إليه سبحانه وتعالى في غزوة بدر.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وقد روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلا، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يده وجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض) فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٤٨١.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾)[1].

وروي أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: (اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد) فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥])[2].

إن في استغاثة النبي صلى الله عليه وسلم بالله في غزوة بدر، والذي بينته الآية الكريمة درسا ربانيًّا نبويًّا للمسلمين المستضعفين، ولكل قائد أو فرد في اللجوء إلى الله وحده، والتجرد من النفس؛ لأن ذل العبد وافتقاره إلى الله هو أول مفتاح من مفاتيح النصر، «فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم بإعلام القرآن أن للنصر في القتال أسبابًا حسية ومعنوية، وأن لله سننًا مطَّردة، وهو مع ذلك يعلم أن لله توفيقًا يمنحه من شاء من خلقه، فينصر به الضعفاء على الأقوياء، والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض به سننه، وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله، فلما عرف من ضعف المؤمنين وقلتهم ما عرف استغاث الله سبحانه وتعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية، التي تكون أجدر بالنصر من القوة المادية، وكان كل من علم بدعائه يتأسى به في هذا الدعاء ويستغيث ربه كما استغاث»[3].

ثالثًا: مشهد النعاس:

إن من نعم الله سبحانه وتعالى على المؤمنين في بدر أن أنزل عليهم النعاس والمطر قبل الالتحام.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

حيث ألقى الله سبحانه وتعالى عليهم النوم الخفيف أمنًا وطمأنينة وسكينة، فإن النعاس يذهب الخوف ويجدد النشاط والقوة، «وقيل: إنهم لما خافوا على أنفسهم؛ لكثرة عدوهم وعددهم، وقلة المسلمين وقلة عددهم، وعطشوا عطشًا شديدًا ألقى عليهم النوم؛ حتى حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلال والعطش، وتمكنوا من قتال عدوهم، وكان ذاك النوم نعمة في حقهم؛ لأنه كان خفيفًا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله إليهم، وقدروا على دفعه عنهم، وقيل في كون هذا النوم كان أمنة من الله سبحانه وتعالى أنه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة، فناموا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٦٣، كتاب الجهاد والسير، باب الامداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٩٥٣، كتاب المغازي، باب قصة غزوة بدر، ٥ / ٧٣.

(٣) تفسير المراغي، ٩/ ١٧٣.

كلهم مع كثرتهم، وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة، فلهذا السبب قيل: إن ذلك النعاس كان في حكم المعجزة؛ لأنه أمر خارق للعادة»[(١)].

ويقول سيد قطب في بيان هذا المشهد العجيب، الذي أنعم به الله على المؤمنين، والذي يدل على كمال قدرته، وعلى تدبيره سبحانه وتعالى ورعايته للفئة المؤمنة الصادقة: «أما قصة النعاس الذي غشي المسلمين قبل المعركة فهي قصة حالة نفسية عجيبة، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه، ولم يتخذوا له عدته فإذا النعاس يغشاهم، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم، والطمأنينة تفيض على قلوبهم»[(٢)].

وقد بينت الآية الكريمة ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١] نعمة أخرى من نعم الله على عباده المؤمنين ببدر، بأن أنزل عليهم المطر ليطهرهم؛ حيث إن المسلمين نزلوا على رمل تسوخ فيه أقدامهم، وقد سبقهم المشركون إلى ماء بدر، وأصبح المسلمون على غير ماء، وبعضهم محدث وبعضهم جنب، وأصابهم العطش، فأنزل الله مطرًا فشربوا منه، واغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب وملئوا الأسقية، وأطفأ الغبار، ولبد الأرض، فثبت أقدامهم، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، وعظمت النعمة[(٣)].

رابعًا: تنزل الملائكة:

ثبت بالنصوص القرآنية وبالسنة النبوية إمداد الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالملائكة؛ ليثبتوا المؤمنين ويقووا عزائمهم، ولتحطيم معنوية الكافرين بإلقاء الرعب في قلوبهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢].

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى الملائكة في بدر؛ استجابة لاستغاثة النبي صلى الله عليه وسلم بالله، وتأييدًا للمؤمنين المخلصين، وعونًا وتثبيتًا، وتبشيرًا بالنصر وتكثيرًا للعدد.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

(١) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٩٧.
(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٤٨٤.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٩٧.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠].

وكان تنزل الملائكة يردف بعضهم بعضًا ويتبعه، فيتقدم بعضهم ويعقبه الآخر، وهكذا تتابع الملائكة، وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1]، وكملت الآيات القرآنية بعضها بعضًا، وبينت حدوث هذا الإمداد على مرات، بألف أولًا، ثم بثلاثة آلاف، ثم بخمسة آلاف[2].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

إن تأييد الله وإعانته للمؤمنين بتنزيل الملائكة؛ إشعار للمؤمنين بأنهم ليسوا وحدهم، فالله يختص أهل الحق والإيمان بالتأييد بشتى أنواع وأشكال العون، «إنه قوة عظمى وثبات راسخ للمؤمنين، حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر، واجتنبوا موانعه، فإنهم أهل لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة في مقابلة الأعداء»[3].

«وإن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سببًا لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سببًا لنصر المسلمين، من بشارتهم بالنصر ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم؛ من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم معانون من الله تعالى، و أيضًا بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال، ولا شك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوى قلوبهم، وثبتهم في القتال، وهذا ما دلت عليه الآية، وصرحت به الأحاديث النبوية»[4].

وقد جاء في صحيح البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: (هذا جبريل، آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب)[5].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ٢٦٤.
(٢) انظر: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، ٢/ ١٤٤.
(٣) السيرة النبوية، علي الصلابي، ٢/ ٣١.
(٤) المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، ٢/ ١٣١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٩٩٥، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة، ٥/ ٨١.

وسواء قاتلت الملائكة مع المؤمنين أم اقتصرت مهمتهم على التأييد والمعونة والتثبيت؛ خروجًا من الخلاف الذي بين العلماء في ذلك، ولكن «بحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها في ذلك اليوم، وهي قلة والأعداء كثرة، وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله سبحانه وتعالى في كلماته ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين، ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين في ميزان الله، إلا أن الله سبحانه وتعالى لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سببًا ينشئ نتيجة، إنما يرد الأمر كله إليه سبحانه وتعالى؛ تصحيحًا لعقيدة المسلم وتصوره.

فهذه الاستجابة، وهذا المدد، وهذا الإخبار به كل ذلك لم يكن إلا بشرى، ولتطمئن به القلوب، أما النصر فلم يكن إلا من عند الله هذه هي الحقيقة الاعتقادية التي يقررها السياق القرآني هنا، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلًا»[1].

خامسًا: استفتاح المشركين على أنفسهم:

لقد دعا المشركون الله بأن ينصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين، فكان ذلك بمنزلة استفتاح على أنفسهم، فالمسلمون هم الأهدى والأعلى والأكثر دينًا، حيث روي عن عبد الله بن ثعلبة بن أبي صغير قال: كان المستفتح أبا جهل، فإنه قال حين التقى القوم: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فاحنه -أي: أهلكه- الغداة. «فكان ذلك استفتاحه فأنزل الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩][2].

ففي هذه الآية الكريمة يخاطب الله أهل مكة على سبيل التهكم، إن تستفتحوا، أي: إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما، وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، وتم النصر للأعلى والأهدى،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٤٨٣.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٣٢٦٤، ٢/ ٣٥٧، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين.
وانظر: لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ١/ ٩٦.

وحدث الهلاك والذلة للأدنى والأضل[1].

وفي بيان قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ يقول الشيخ الشعراوي: «أي: إن كنتم قد استفتحتم وطلبتم الفصل والحكم فقد جاءكم الفتح، وهذا الفتح كان في صالح المؤمنين، و أيضًا في صالح دعاء الكافرين، إنه جاء في الأمرين الاثنين؛ فتح للمؤمنين، وفي صالح دعاء الكفار. فأنتم -أيها الكافرون- قد دعوتم، فإما أن تكونوا قد دعوتم والله أجاب دعاءكم وهو شر عليكم، وهذا دليل على أنكم أغبياء في الدعاء، وما دام الفتح قد جاء، كان الواجب أن ينتهي كل فريق عند الحد الذي وقع، وكان على الكافرين أن يقتنعوا بأنهم انهزموا، وعلى المؤمنين أن يقتنعوا بأنهم انتصروا»[2].

ثم يحذر الله سبحانه وتعالى الكافرين في الآية السابقة، ويخيرهم إن ينتهوا ويسلموا ويتركوا عداوة النبي صلى الله عليه وسلم فهو خير لهم وأجدى، وإن يعودوا إلى محاربته فسينصر الله المؤمنين ويهزم الكافرين، ولن تغني جماعتهم وقوتهم شيئًا ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين بالنصر والتأييد والتوفيق إلى سلوك طرق النجاح والفلاح، والعاقبة دائمًا للمتقين[3].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ٢٧٨.
(٢) الخواطر، ٨٤٦٢٥.
(٣) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨١٥.

سادسًا: مشهد المعركة ورؤية كلا الفريقين بعضهم بعضًا:

لقد شاء الله سبحانه وتعالى للفئتين - فئة المؤمنين وفئة الكافرين- أن تلتقيا، وأن يندلع بينهم القتال، وقد بدأ بالمبارزات الفردية بين عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة من جيش المشركين، وعلي وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم من جيش المسلمين، وقد أنزل الله فيهم: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩][4].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى في منامه ليلة التقاء الجيشين أن المشركين قليلٌ عددهم، وقد أخبر الصحابة برؤيته، كي يرفع معنوياتهم، ويثبت قلوبهم، ويشجعهم للقتال.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

فالله سبحانه وتعالى قدر هذه الرؤيا للنبي صلى الله عليه وسلم حتى يقللهم في

(٤) انظر: صحيح البخاري، ٣٩٦٩، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، ٥/ ٧٥، صحيح مسلم، ٣٠٣٣، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: «هذان خصمان»، ٤/ ٢٣٢٣. وانظر التفسير المنير، الزحيلي، ١٧/ ١٨١.

عينه ويبشر به الصحابة، ولو أراهم حسب الواقع لفشلوا وتنازعوا في أمر القتال، ولكن الله سلم من الفشل والنزاع[(١)].

وكذلك شاء الله عند لقاء الجيشين أن يقلل المشركين في أعين المسلمين فيتجرؤوا ويتشجعوا، ويقلل المسلمين في أعين المشركين فيغتروا، وليعاين المؤمنون ما أخبرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيزدادوا يقينًا وشجاعة على القتال، ويكون النصر والعزة للمسلمين، والهزيمة والذل للكافرين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤][(٢)].

وهذا كله قبل القتال، أما في أثناء القتال فإن المشركين رأوا المسلمين مثلي عددهم؛ ليعمهم الفزع، ويضعف معنوياتهم، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣][(٣)].

وهذا المعنى الأصح فيما ورد من قولين في تفسير الآية، أن الفئة الكافرة رأت الفئة المؤمنة مثلي عدد الكافرة[(٤)].

وقد بين عدد من المفسرين وجه الحكمة واللطف بالمسلمين، برؤيتهم عدد الكافرين قليل، ففي ذلك تثبيت لهم وتنشيط وزيادة جرأة على القتال، ونزع للخوف من قلوبهم، ووجه الحكمة من تقليل المسلمين في أعين المشركين بداية المعركة، أن يغتروا بأنفسهم، وعدم الاستعداد والجد والحذر في مقاتلتهم، بل ومفاجأتهم بالعدد، ورؤيتهم كثر أثناء المعركة يفاجئهم ويبهتهم فيهابون منهم، ويدب الفزع في قلوبهم، فتكسر شوكتهم حين يرون ما ليس في حسابهم، فينهزموا بقدرة الله وإرادته[(٥)].

إن لطف الله بعباده المؤمنين، وإنعامه عليهم بنعمة الرؤية لبعضهم بعضًا في معركة بدر لآية من آيات الله للفئة المؤمنة، صاحبة الإيمان الصادق، الذي به استحقوا رعاية الله ورحمته وكرامته، لينصر دينه، وهذا وعد الله للمؤمنين في كل زمان ومكان، بأن ينصرهم ويهزم عدوهم، «فإن وعد الله

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٣٢.
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة، أبو شهبة ٢/ ١٣٦.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ١٩، السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة، أبو شهبة ٢/ ١٣٦.
(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٢/ ٩٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ١٣.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٢٢٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٦٩، السيرة النبوية، علي الصلابي، ٢/ ٢٨.

بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله، قائم في كل لحظة، ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة -ولو قل عددها- قائم كذلك في كل لحظة، وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف، وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة، وتثق في ذلك الوعد، وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة، وتصبر حتى يأذن الله، ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة»[1].

سابعًا: مشهد تزيين الشيطان للمشركين أعمالهم:

لقد زين إبليس أعمال المشركين بأن وسوس لهم وشجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨].

لقد أوهمهم الشيطان أنهم لا يقاتلون بكثرة عددهم، وأزال مخاوفهم من إتيان عدوهم بني بكر في ديارهم أثناء خروجهم، وقال لهم الشيطان: لا غالب لكم اليوم من بني آدم، وغرهم أنه مجيرٌ لهم، ويمنعهم من المسلمين، ولكن لما تزاحفت جنود الله من المؤمنين وجنود الشيطان من المشركين، ونظر بعضهم إلى بعض، نكص الشيطان على عقبيه ورجع مدبرًا هاربًا، وتبرأ منهم وتخلى عنهم، فهو يرى الملائكة الذين بعثهم الله بمدد للمؤمنين، والمشركون لا يرونهم[2].

ففي هذا النص القرآني إثبات أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم، وشجعهم على الخروج بإعلان إجارته لهم ونصرته إياهم، وأنه بعد ذلك لما تراءى الجمعان ورأى أحدهما الآخر خذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم، ولم يوف بعهده معهم، أما الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم، والتي قال لهم بها: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ وهل جاء على صورة رجل؟ فلا نعلم؛ لعدم ورود نص قرآني أو حديث نبوي صحيح يبين ذلك[3].

وهكذا الشيطان دائما يزين للناس أعمالهم ويضلهم، ثم يتخلى عنهم، قال

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٣٧٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٨، التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٣٣، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٦٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٣٢٢.

تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النساء: ١٢٠].

ولكن كيد الشيطان ضعيف، لا يقوى على مقابلة أمر الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الفارق بين جند الشيطان كيف يوسوسون للمشركين ويضللونهم، وبين الملائكة الذين هم جند الرحمن يثبتون المؤمنين ويؤيدونهم ويعدونهم بنصر الله دون خذلان.

ثامنًا: مشهد المنافقين:

لقد قال المنافقون بالمدينة وأصحاب القلوب المريضة المليئة بالشهوات والشبهات والشكوك، ضعفاء الاعتقاد والايمان: إن المسلمين اغتروا بدينهم، وإنهم خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توهمًا أنهم ينصرون بسبب دينهم.

وقد وضح موقفهم هذا قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٩][1].

«إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر الكفار، لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين: غر هؤلاء دينهم، أي: اغتروا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، وكنى بالقلوب عن العقائد، والمرض أعم من النفاق؛ إذ يطلق مرض القلب على الكفر»[2].

إن المنافقين وكذلك أصحاب القلوب المريضة وضعيفي الاعتقاد، من أسباب هدم بنيان المسلم بأراجيفهم وخداعهم، وما ينجي العبد منهم هو التوكل على الله، لذلك رد الله عليهم في الآية السابقة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

«أي: ومن يكل أمره إلى الله ويؤمن إيمان اطمئنان بأنه ناصره ومعينه، وأنه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء أراده، يكفه ما يهمه وينصره على أعدائه وإن كثر عددهم وعظم استعدادهم؛ لأنه العزيز الغالب على أمره، الحكيم الذي يضع كل أمر في موضعه بمقتضى سننه في نظام العالم، ومن ذلك أن ينصر الحق على الباطل»[3].

«ما أشبه موقف المنافقين بموقف الشيطان، إنه موقف المتخاذل المتفرج، المحرض على الشر، ثم المتخلي عن المؤازرة وقت الشدة والمحنة، أما الشيطان: فيوسوس بالباطل لأعوانه، ثم يحجم عن الشيء الذي زين به، وحبب فيه، وأغرى الناس عليه. فالواجب على العاقل الحذر

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٣١.

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٥/ ٣٣٢.

(٣) تفسير المراغي، ١٠/ ١٤.

منه، والتفكير في عواقب الأمور، وعدم الانسياق في تيار الأهواء والوساوس الشيطانية، فمن انجرف في سيل الشيطان فإن الله يعاقبه أشد العقاب.

وأما المنافقون -الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر- والذين في قلوبهم مرض فيصطادون عادة في الماء العكر، وينتهزون الفرص، ويوقعون الفتنة، وينتظرون الانحياز للغالب، ويشككون في قوة المؤمنين، ويتهمونهم بالتهور والطيش؛ لقلتهم عددًا وعددًا أمام الكثرة في العدد والعدد. وقد خيب الله الفريقين: الشيطان والمنافقين، فنصر الفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة، والله يؤيد بنصره من يشاء؛ لأن من يتوكل على الله، ويفوض أمره إليه، ويثق به، ويلجأ إليه، فإن الله حسبه وناصره ومؤيده»[1].

إن نظرة الكافرين والمنافقين دائمًا نظرة مادية لا روحية، فما قاله المنافقون هو تقدير التكافؤ في أنظار الناس وفي موازين القوى العسكرية، ولكنه في ميزان الله مختلف قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

المقياس الحقيقي هو الإيمان والتوكل على الله.

يقول سيد قطب: «والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة فهم يرون ظواهر الأمور، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة، والثقة في الله، والتوكل عليه، إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاوية من الإيمان، ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئًا وراءه، والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من «الواقع» الحقيقي!

الواقع الذي يشمل جميع القوى، ويوازن بينها موازنة صحيحة ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه!

وهذا ما يرجح الكفة، ويقرر النتيجة، ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كل مكان إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن، ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان إنها في حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائمًا، فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين: النصر والغلب، أو الشهادة والجنة.

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٣٥.

ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف فهناك الله وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض! والعصبة المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة، وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه، وأن ترى بنور الله وهداه، وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله، وأن تلقي بالها دائمًا إلى تعليم الله سبحانه وتعالى للمؤمنين: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾»[1].

تاسعًا: مشهد الأسرى والغنائم:

لقد نزلت الآيات معاتبةً للمسلمين في شأن الأسرى والغنائم.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٧٠].

حيث استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في أمر الأسرى، فأشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتلهم ضمانا لقوة الدولة الإسلامية، حيث إنهم يشكلون عامل تحد وخطورة، ولأنهم أئمة الكفر وصناديد مكة، وأشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأخذ الفدية منهم؛ إذ كان يرى أن في ذلك قوة للمسلمين على الكفار، وكان يأمل أن يهديهم الله تعالى للإسلام.

وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأي أبي بكر، وقد تباين فداء الأسرى، فمن كان ذا مال أخذ فداؤه، وتتناقص الأموال المأخوذة منهم بعد ذلك تبعًا لكفاءتهم المالية، وقد حفظت لنا المصادر نماذج منها، فمن ذلك أنه استوفى من العباس بن عبد المطلب مائة أوقية من الذهب فداء عنه، ومن عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، واستوفى من آخرين أربعين أوقية لكل منهم[2].

«لقد كانت معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للأسرى تحفها الرحمة، والعدل، والحزم، والأهداف الدعوية، ولذلك تعددت أساليبه، وتنوعت طرق تعامله صلى الله عليه وسلم، فهناك من قتله، وبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر من عليهم،

(١) في ظلال القرآن، ١١/ ١٥٣٢، باختصار.

(٢) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٢٩٢.

وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المن عليهم»[1].

وقد بين حديث ابن عباس ما دار في شأن الأسرى: قال ابن عباسٍ: (فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكرٍ، وعمر: **(ما ترون في هؤلاء الأسارى؟)** فقال أبو بكرٍ: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما ترى يا ابن الخطاب؟)** قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيلٍ فيضرب عنقه، وتمكني من فلانٍ نسيبًا لعمر، فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكرٍ، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيءٍ تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة)** -شجرةٍ قريبةٍ من نبي الله صلى الله عليه وسلم- وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. **إلى قوله:** ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]. فأحل الله الغنيمة لهم)[2].

لقد نزل القرآن الكريم موافقًا لرأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شأن الأسرى، ومعاتبًا للمسلمين في شأن الأسرى والغنائم، فهذه الآيات عتاب من الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أنه ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإثخان، أي: القتل والتخويف الشديد.

وما كان ينبغي للصحابة رضي الله عنهم أن يأخذوا الغنائم ويتنافسوا عليها وهي من عرض الدنيا قبل أن يعلموا حكم الله فيها، والله دائما يريد للمؤمنين الغلبة والعزة في الدنيا، ويريد لهم الآخرة بالأجر والثواب والجنة.

فالآيتان الكريمتان: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ

(١) السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ٤٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٦٣، كتاب الجهاد، باب الامداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، ٣/ ١٣٨٣.

﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨].

تبين أن الحكم المؤقت في غزوة بدر بالنسبة للأسرى كان قتلهم، بما يتناسب مع واقع الدولة الإسلامية آنذاك، وهذه قاعدة هامة في بناء الدولة، فحينما تكون ناشئة وفي مرحلة التكوين والإعداد، ينبغي ألا تظهر بمظهر اللين، حتى ترهب من قبل أعدائها[(١)].

«فإنه ليس من سنة الأنبياء، ولا مما ينبغي لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم أو يمن عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين؛ لئلا يفضي أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين وقوة أعدائهم وجرأتهم عليهم، وما فعله المؤمنون من مفاداة أسرى بدر بالمال كان ذنبًا سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان الذي تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، ولولا كتاب من الله سبق من عدم عقابهم على ذنب أخذ الفداء -قبل إذنه سبحانه وتعالى وعلى خلاف سنته- لمسهم عذاب عظيم في أخذهم ذلك»[(٢)]، فالله قضى وقدر وسبق إثباته في اللوح المحفوظ لأهل بدر أنه قد أحل لهم الغنائم والفداء، ورفع عنهم العذاب فلا يعاقب المخطئ على اجتهاده[(٣)].

وحكم الأسرى الذي استقرت عليه الشريعة أنه مفوض للإمام أن يختار الحكم الذي فيه المصلحة، إما بقتلهم أو إطلاق سراحهم، أو أخذ الفدية منهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

«ولأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى، فإن منهم من له قوة ونكاية في المسلمين، وبقاؤه ضرر عليهم، فقتله أصلح، ومنهم الضعيف الذي له مال كثير، ففداؤه أصلح، ومنهم حسن الرأي في المسلمين، يرجى إسلامه بالمن عليه، أو معونته للمسلمين بتخليص أسراهم، والدفع عنهم، فالمن عليه أصلح»[(٤)].

(١) انظر: السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ٤٩، دراسات في السيرة، عدد من علماء الجامعة الاسلامية غزة، ص٢٩٩.
وانظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٥٤، التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٧٤.

(٢) تفسير المراغي، ١٠/ ٣٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٦٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٦.

(٤) المغني، ابن قدامة المقدسي، ٩/ ٢٢١.

وبعد أن عاتب الله سبحانه وتعالى المسلمين على أخذ الفداء والغنيمة؛ لأنهم بفعلهم هذا يريدون عرض الدنيا؛ إذ ليس فيه مصلحة للدين.

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

أباح لهم الفداء وجعله من جملة الغنائم المباحة التي أبيحت لهم في مطلع السورة، فالمعنى أي: أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم من الفدية، حال كونه حلالًا لكم، طيبًا بنفسه لا حرمة فيه، أو كلوه أكلًا حلالًا لا شبهة فيه، والفائدة إزاحة ما وقع في نفوسهم من أكل الفداء بسبب تلك المعاتبة، أو حرمة الغنائم على الأولين من الأمم السابقة، ففي هذه الآية بيان للطف الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة بأن أحل لها الغنائم[(١)].

وبعد أن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسرى، وشق عليهم أخذ أموالهم منهم، أنزل الله هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠]؛ لبيان الهدف من الأسر، وهو الاستمالة لهم، والترغيب لهم في الإسلام، وتهديدًا وإنذارًا لهم إذا بقوا على الكفر، ففي هذه الآية يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لمن وقع في أيديهم من الأسرى الذين أخذ منهم الفداء: إن يعلم الله في قلوبكم الآن أو في المستقبل إيمانًا وإخلاصًا وحسن نية وعزمًا على طاعة الله ورسوله، والتوبة عن الكفر، وعن جميع المعاصي، ومنها العزم على نصرة الرسول والتوبة عن محاربته، يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم من الفداء، ويغفر لكم ما كان منكم من الشرك والسيئات، والله غفور لمن تاب عن المعاصي، رحيم بالمؤمنين، فهو يمدهم بعنايته وتوفيقه وإسعاده[(٢)].

إن هدف إسلامنا العظيم بأخذ الأسرى إنما ليلمس في قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح، وليوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقي والتأثر والاستجابة للهدى، ولترغيبهم بالإسلام لا ليستذلهم انتقامًا، ولا ليسخرهم استغلالًا كما كانت تتجه فتوحات الرومان وغيرهم[(٣)].

عاشرًا: نهاية الغزوة:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٦، التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٧٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٧٤، تفسير المراغي، ١٠/ ٣٨.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٥٥٣.

لقد انتهت غزوة بدر بنصر كبير للمؤمنين، أعز الله فيه الإسلام والمسلمين، وأذل فيه الكفر والكافرين، فكانت غزوة بدر من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، وكان لها أثر كبير في إعلاء شأن الإسلام، وانتصار العقيدة، كما كانت أصداء انتصار المسلمين شديدة على أعداء الإسلام من يهود ومشركين.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

لقد أظهر المسلمون في المعركة بطولات فائقة، حيث كانوا يقاتلون وهم يؤملون إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، وعرفت الدنيا أن القوى الروحية لا تقهرها القوى المادية، وأن النفس البشرية إذا امتلأت بالإيمان وحب الشهادة تضاءلت أمامها شم الجبال الراسيات، والله هو القوي القاهر يمد عباده المؤمنين بنصر من عنده إذا صدقوا الإيمان، وأخلصوا له في الجهاد، وانتصروا على شهواتهم وأنفسهم، واتقوا الله حق تقواه نعم لقد انجلت المعركة عن نصر حاسم للمسلمين، وهزيمة منكرة للمشركين، فقتل سبعون من صناديدهم، وأسر سبعون[١]، ومن بقي سارع إلى الهرب، وقد قدم المسلمون يومئذ أربعة عشر شهيدًا: [٢] منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار[٣].

وإن من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما جاورها، وتعززت مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها، ولم يعد المتشككون في المدينة يتجرؤون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام، وكذلك ازدادت ثقة المسلمين بالله سبحانه وتعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، واشتد ساعدهم، ودخل عدد كبير من مشركي قريش في الإسلام، وإلى جانب ذلك كسب المسلمون من المعركة مهارات عسكرية، وأساليب جديدة في الحرب، وانتعش حال المسلمين المادي والاقتصادي بما أفاء الله عليهم من غنائم.

أما قريش فكانت خسارتها فادحة، فإضافة إلى مقتل أبي جهل وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وغيرهم من زعماء الكفر،

(١) انظر: حديث عمر بن الخطاب الذي أخرجه مسلم في صحيحه، ١٧٦٣، كتاب الجهاد والسير، باب الامداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣.
(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٧٠٦.
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، ٢/ ١٤٢.

وأسر عدد كبير منهم، فقد كانت المعركة خسارة معنوية عليهم، أما اليهود فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في المعركة، وأن تقوى شوكتهم، فأخذوا يدبرون المكائد وينقضون العهود[(١)].

«أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة، وأن تصبح دولة، وأن يصبح لها قوة وسلطان، وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها، فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها! وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة، وليس بالمال والخيل والزاد إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد. وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية، لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي، ذلك؛ لتتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله، ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك في كل زمان وفي كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها، مهما تكن هي من القلة، ويكن عدوها من الكثرة، ومهما تكن هي من ضعف العدة المادية، ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد وما كانت هذه الحقيقة لتستقر في القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان»[(٢)].

التوجيهات القرآنية بعد نهاية الغزوة

أولًا: إصلاح ذات البين:

إن من التوجيهات القرآنية العظيمة بغزوة بدر، أن من أسباب النصر تآلف القلوب وترابطها وتراحمها، فقوة الترابط هي القوة الثانية بعد قوة الإيمان.

لقد بينت الآيات القرآنية أن إصلاح ذات البين، ووحدة الكلمة على منهج الله سبحانه وتعالى أعظم عند الله من الدنيا والغنائم والأموال والمتاع، لذلك لما اختلف الصحابة وتنافسوا وتخاصموا في شأن الغنائم نزعها الله من أيديهم وجعلها لله ورسوله يحكمان فيها، وأنزل الله الآية الكريمة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

ومعنى الآية، أي: وإذا كان أمر الغنائم لله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فاتقوا الله سبحانه وتعالى في أقوالكم وأفعالكم، واجتنبوا ما كنتم فيه من التنازع والاختلاف فيها، الموجب لسخط الله وغضبه، والموقع في الفرقة والعداوة الضارة بكم حال الحرب وغيرها، فلا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا وأصلحوا ذات بينكم، حتى تتأكد الرابطة الإسلامية بين

(١) انظر: السيرة النبوية، علي الصلابي، ١/ ٥٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٤٨١.

بعضكم، وتشيع المحبة والمودة والوفاق والوئام بين صفوفكم، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بترابطكم، فلتجتمع كلمتكم، وليشتد أمركم، وليقو أزركم فتقدروا على إقامة الدين وقمع المفسدين[1].

إن إصلاح ذات البين وتوحيد الصف ورفع الخصومة من أولى مقومات النصر، والتفرق من أسباب الهزيمة، لذلك أمر الله المسلمين بالطاعة، ونهاهم عن التنازع قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦].

أي: أطيعوا الله في كل ما أمر به ونهى، وكذا رسوله الكريم، وإياكم والنزاع فإنه مدعاة للفرقة وأساس الهزيمة، وإنما أهلك من كان قبلكم اختلافهم وكثرة اعتراضهم، فالنزاع أداة الهلاك، ومعول الهدم والشقاء، به تذهب الدولة، وتفنى القوة، وعليكم بالصبر، فهو سلاح المؤمن الذي لا يفل[2].

لذلك عندما استجاب المسلمون لأمر الله سبحانه وتعالى، وأصلحوا بينهم، وكانوا يدا واحدة بلا عصبية قبلية جاهلية، أو تفرقة بين لون أو جنسية أو عشيرة، ولا تنافس على عرض دنيا زائل، بل كانوا صفًا واحدًا لهدف واحد، هو نصرة الدين والعقيدة، ورفع راية الحق، وقد ألف الله بينهم، وجعلهم أمة واحدة، متعاونة ومتناصرة، فكان التأييد الرباني.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

هذا دليل واضح على أن من أهم أسباب النصر هو التآلف واتحاد الكلمة، فالله جمعهم وألف بين قلوبهم، وقد كانوا في الجاهلية أصحاب حروب وفتن وعداوات وعصبيات وحب للانتقام وإثارة الحروب لأتفه الأسباب، ومع أنك لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله القوى القادر الحكيم العليم ألف بين قلوبهم، وجمعهم على صراط سوي، وأزال كل تلك الخلافات بنور الإيمان[3].

ثانيًا: تقسيم الغنائم:

اختلف الصحابة في شأن الغنائم، وتنافسوا عليها، ولم يكن حكمها قد نزل حتى ذلك الوقت، حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٠، التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ٢٤٥، نظم الدرر، البقاعي، ٨/ ٢١٩.

(٢) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٣٤.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٥٧.

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

فأصبحت الغنائم لله ولرسوله، ثم بين الله سبحانه وتعالى إحلال الغنائم (وهي: المال المأخوذ من الكفار في المعركة)، وبين كيف توزع الغنائم.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

فكانت هذه الآية تفصيلًا للغنيمة التي أجمل حكمها في بدء السورة، والتي اختص الله هذه الأمة بإحلالها، فبينت الآية أنها تقسم أخماسا، حيث يجعل الخمس لمن ذكرتهم الآية، والأربعة الأخماس الباقية للغانمين الذين شهدوا المعركة، بدليل بيان هذا الخمس والسكوت عن الباقي، وبدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿غَنِمْتُم﴾ حيث بين القرطبي أن إضافة الغنيمة للغانمين، ثم تعيين الخمس لمن سمى في كتابه، والسكوت عن الأربعة الأخماس، دل على أنها ملك للغانمين[1].

أما الخمس الذي عينته الآية فأكثر المفسرين والفقهاء أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ فهو على سبيل التبرك؛ لأن الدنيا والآخرة كلها لله، فيكون الخمس الباقي للخمسة أصناف التي ذكرت في الآية[2] وهي: سهم الرسول صلى الله عليه وسلم يضعه حيث شاء، وسهم ذوي القربى أي: قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسهم اليتامى وهم أطفال المسلمين الذي هلك آباؤهم، والمساكين وهم أهل الحاجة من المسلمين، وابن السبيل وهو: المجتاز سفرا قد انقطع به[3].

أما التوجيه الدائم بعد ذلك، فهو ما تضمنه شطر الآية الأخير: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أن للإيمان أمارات تدل عليه، والله سبحانه وتعالى يعلق الاعتراف لأهل بدر بأنهم آمنوا بالله، وبما أنزله على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان على قبولهم لما شرع الله لهم في أمر الغنائم في صدر الآية، فيجعل هذا شرطًا لاعتبارهم عنده قد آمنوا بالله، وبما أنزله على عبده من القرآن، كما يجعله مقتضى لإعلانهم الإيمان، فدين الله واضح جازم، لا تميع فيه ولا غلو، بأن الإيمان ليس بالتمني، ولكن ما وقر في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٥٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣، التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٥٢٢، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣١٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٩.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٦.

القلب وصدقه العمل، فلا بد لقيامه من قبول ما شرعه الله، وتحقيقه في واقع الحياة[1].

ثالثًا: توجيهات عامة للمؤمنين:

١. النصر بيد الله.

لقد جاءت الآيات القرآنية ترسخ هذه القاعدة الربانية، وتبين أن الله سبحانه وتعالى هو الذي نصر المؤمنين في بدر، وهذا درس للمؤمنين بأن يثقوا بالله، ويتوكلوا عليه؛ لأنه صانع النصر، قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[الأنفال: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران: ١٢٣].

فلا نصر على العدو إلا بنصر الله وتأييده، لا بشدة بأس أو قوة أو سواها من الأسباب، فهو سبحانه الفاعل للنصر والمسخر له كتسخيره للأسباب الحسية والمعنوية[2].

إن المتأمل في أحداث غزوة بدر يجد رعاية الله وحفظه للمؤمنين، بل يتضح له أنها كلها من تدبير الله سبحانه وتعالى، فالترتيب للمعركة كان من الله.

ودلت على ذلك الآيات: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[الأنفال: ٥-٨].

وكذلك الإعداد النفسي للمعركة من خلال مشهد النعاس، وإنزال المطر، ورؤية الفريقين لبعضهما، ودلت عليه الآيات ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[الأنفال: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[الأنفال: ٤٤].

ونزول الملائكة قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: ١٢].

و أيضًا فإن موعد ومكان المعركة كان

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٥٢٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤١٨، تفسير المراغي، ٩/ ١٧٤.

بترتيب الله قال تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]

لقد هيأ الله الأسباب وسخرها لنصر المسلمين في المعركة؛ ليكون النصر من عنده سبحانه، وفي هذا تعليم للمؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه؛ لأن النصر من عند الله وحده، وليس من الملائكة ولا غيرها، فالأسباب يجب أن يؤخذ بها، لكن يجب ألا يغتروا بها، بل الاعتماد على خالق الأسباب، فهو الناصر سبحانه، وقد أمر الله المسلمين أن يتذكروا نعمته عليهم، نعمة النصر بعد أن كانوا مستضعفين.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٤٤][1].

٢. القتل والإصابة من الله.

فكما أن النصر من عند الله سبحانه وتعالى لمن أخذ بالأسباب، كذلك قتل الكافرين كان بإرادته سبحانه وتعالى، ووقع هذا القتل بيد المؤمنين، والله هو المميت والمقدر ذلك، فالمؤمن يضرب بالسيف، وينجرح العدو وينزف، لكن ألم تر جريحًا لم يمت، وألم تر غير مجروح يموت؟ إذن فالقتل هو من الله.

قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وتدل الآية أن الله هو الذي يصيب الهدف، والعبد إنما يشارك بتكسبه وقصده، فالنبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رمى حفنة التراب على وجوه المشركين، ولكن الله هو الذي أعانه وأظفره وصنع له، فأصابت الرمية المشركين بقوته وقدرته سبحانه وتعالى، ففي الآية أضاف الرمي إلى نبي الله، ثم نفاه عنه، وأخبر عن نفسه أنه الرامي، فيكون المعنى: وما أصبت إذ رميت، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي أصاب[2].

ففي هذا درس هام للمؤمنين في الأخذ بالأسباب، وترك النتائج على الله، ولكن لابد من اليقين وحسن التوكل على الله، ثم لابد ألا يفتخر العبد بأنه فعل كذا وكذا، أو

(١) انظر: السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ٦٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٣٨٤، محاسن التأويل، القاسمي، ٥/ ٢٦٩، تفسير الشعراوي، ٨/ ٤٦١٥.

قتل وضرب ورمى، فعلى المسلم ألا يعجب بعمله، بل يتواضع ويحتسب أجره عند الله؛ لأن التوفيق كله من الله، هو المسدد سبحانه وتعالى.

٣. الابتلاء بالنصر بعد القتال لشكر النعمة.

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن النصر والتوفيق من عنده، بين أنه قادر على نصر المؤمنين من دون مباشرة قتال؛ ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجرًا حسنًا وثوابًا جزيلا، وليعرفوا نعمه عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرتهم وقلة عدد المؤمنين، فيعرفوا بذلك حقه ويشكروه على نعمته[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقد ذكر البقاعي الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالجهاد، والظفر في المعركة مع أنه قادر على نصرهم بدون قتال، فذكر أن الله أراد أن يخالط المؤمنين من ذلك ما يكون لهم من مزاولته عاقبة حسنة، بل أحسن من الراحة؛ لأنه يفضي بهم إلى راحة دائمة، والدعة تفضي الى تعب طويل[(٢)].

٤. قوة الإيمان هي السلاح الأقوى والأنفع.

إن الإيمان الصادق والتسليم لله وقوة الاتصال به والالتزام بأوامره والانتهاء عما نهى، هو القوة الحقيقية والسلاح في المعركة، وهو الذي يجلب رعاية الله وكرامته ونصره، وقد أمر الله بإعداد القوة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأعظم قوة هي قوة الإيمان الصادق.

ونحن نتحدث عن غزوة بدر الكبرى إنما لنستشعر معاني الإيمان الذي فقد، ومعاني الرجولة التي انصرفنا عنها، ومعاني الجهاد الذي نكسنا عنه، ومعاني الإقبال على الله الذي أعرضنا عنه، نستشعر هذه المعاني كلها؛ لنحييها فينا، وفي أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يمكن أن ننتصر اليوم في معاركنا الداخلية ضد الفساد والاستبداد، والخارجية ضد اليهود والاستكبار العالمي، كما انتصر أهل بدر في معركتهم، إن لم نكن مؤمنين كما كانوا، ورجالًا كما كانوا، ومجاهدين كما كانوا، وأبطالًا كما كانوا، نسأل الله أن يعيد للأمة عزها وكرامتها، وأن ينصرها على أعدائها.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٤٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٧.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٨/ ٢٤٤.

القيادة النبوية في الغزوة

كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو القائد العام للمسلمين في معركة بدر، وقد خاض المعركة بنفسه، ونعم القائد هو، إنه القدوة الكاملة، والقائد الرباني، كيف لا وهو أعرف الناس بالله سبحانه وتعالى وأتقاهم له، وأخشاهم، ويملك من القوة الإيمانية ما يملأ قلوب من معه من الصحابة إيمانًا وتقوى بمجرد نظرة منه أو جلسة معه. وكان له من الإرادة الجهادية ما يدفع الصحابة إلى الجهاد والاستشهاد لدرجة التسابق والمسارعة بمجرد إشارة أو نداء، فما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واعظ منبر وكفى، لا أميرًا فقط، وإنما كان المجاهد الكامل، والقائد القدوة، ومن أهم ما تميز به النبي صلى الله عليه وسلم في المعركة، وكان له الأثر الكبير على المسلمين المقاتلين، وكان عاملا أساسيًا من عوامل النصر في المعركة، ما يأتي:

١. تشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله عنهم وتبشير الجنود وبث الثقة.

لقد شجع الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه وحرضهم قبل القتال وأثناءه، وقوى عزائمهم ورفع معنوياتهم، حتى لا يكترثوا بتفوق المشركين عليهم بالعدة والعدد؛ وقد أثر ذلك على معنويات الكبار الذين مارسوا الحرب وعرفوها من المسلمين وكذلك على الأحداث الصغار الذين لم يمارسوا حربا ولا قتالًا[(١)]، وهذا امتثال لأمر الله بالتحريض على القتال، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال:٦٥].

لقد كان النبي يبشر الجنود ويبث فيهم الثقة بقوله لهم: (سيروا وأبشروا)[(٢)]، وكان يخطب فيهم حاثًا لهم على الجهاد، جاء في حديث أنس بن مالك أنه لما دنا المشركون يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)[(٣)].

٢. استشارة الجند من الصحابة.

لقد شاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حين بلغه خبر خروج قريش، وسمع رأي المهاجرين والأنصار في لقاء المشركين، وقبل مشورة الحباب في تبديل معسكره في بدر حين نزل بأدنى ماء منها، فانتقل بالمسلمين الى حيث أشار الحباب،

(١) انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ١١٩.
(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٦١٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٩٠١، كتاب الجهاد، باب ثبوت الجنة، ٣/ ١٥٠٩.

وبنى حوضًا على القليب الذي أتاه؛ واستشار المسلمين في أمر الأسرى بعد المعركة، وعمل بالرأي الذي أبداه أبو بكر الصديق رضي الله عنه[(١)].

٣. المشاركة في القتال وبناء العريش.

لقد شارك النبي صلى الله عليه وسلم في القتال واتخذ مقرًا يسيطر منه على المعركة، فبنى العريش فوق رابية مشرفة على ساحة المعركة[(٢)]، حيث روي عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر وهو يثب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥][(٣)].

٤. ابتكار الصفوف في القتال بالمعركة.

ابتكر النبي صلى الله عليه وسلم نظام الصفوف في القتال؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

والقتال بأسلوب الصفوف، يكون بترتيب المقاتلين صفين أو ثلاثة صفوف أو أكثر على حسب عددهم، وتكون الصفوف الأمامية من المسلحين بالرماح؛ لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى من المسلحين بالنبال؛ لتسديدها على المهاجمين من الأعداء، وإن تطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الأسلوب القتالي في معركة بدر، كان عاملًا مهمًا من عوامل انتصاره على المشركين[(٤)].

هذه مزايا القائد القدوة في كل زمان ومكان، والتي جعلت المسلمين يقاتلون كرجل واحد، لغاية واحدة، بقيادة قائد واحد وهذا عامل مهم من عوامل النصر في كل حرب.

(١) انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ١١٥.
(٢) انظر: السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ١٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٨٧٥، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: سيهزم الجمع، ٦/ ١٤٣.
(٤) انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ١١٤.

فضل من حضر بدرًا

لقد جعل الله سبحانه وتعالى لأهل بدر من المنزلة والمكانة في الدنيا والآخرة ما ليس لغيرهم، حتى صار من المآثر والمفاخر أن يقال: فلان بدري، روي عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي، عن أبيه -وكان أبوه من أهل بدر- قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (**ما تعدون أهل بدر فيكم، قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة**)[1].

وروى الشيخان في صحيحيهما قصة حاطب بن أبي بلتعة، وبعثه الكتاب إلى أهل مكة عام الفتح يخبرهم فيه بعزم رسول الله على قصد مكة، وأن عمر استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ضرب عنقه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (**أليس من أهل بدر؟ لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**) فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم)[2].

وروى البخاري في صحيحه عن حميد قال: سمعت أنس بن مالك يقول: (أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع، فقال: (**ويحك، أو هبلت أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس**)[3].

وفي رواية: (**إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**)[4].

قال الحافظ ابن كثير بعد ذكره هذا الحديث: «وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر، فإن هذا لم يكن في حومة الوغى، بل كان من النظارة من بعيد، وإنما أصابه سهم غرب، وهو يشرب من الحوض، ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس، التي هي أعلى الجنان، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، التي أمر الشارع أمته إذا سألوا الله الجنة أن يسألوه إياها، فإذا كان هذا حال هذا، فما ظنك بمن كان واقفًا في نحر العدو؟!»[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٣٩٩٢، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا، ٥/ ٨٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، ٢٤٩٤، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر، ٤/ ١٩٤١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ٣٩٨٢، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدر، ٥/ ٧٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، ٦٥٥٠، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ٨/ ١١٤.

(٥) البداية والنهاية، ٣/ ٣٩٨.

الدروس المستفادة من غزوة بدر

لقد كان لغزوة بدر حكم ودروس كثيرة، نذكر بعضها فيما يأتي:

١. نصرة الدين والتمكين للمنهج أعظم من الدنيا وما فيها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧ - ٨]. فالنفس تميل للراحة والدنيا، والجهاد فيه المشقة، ولكن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، والله يعلم ما لا نعلمه.

٢. النصر يكون بالطاعة والتسليم لله، والاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فإن ما يقدره الله هو الخير، وما يدعو إليه الرسول هو العزة والسعادة.

٣. النصر بالثبات واستحضار عظمة الله وذكر الله عند المواجهة، فمن صفات المؤمنين الكمل، والمجاهدين الخلص ما بينه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. وأوضح ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٤. القتال بحاجة إلى صبر وشدة بأس ووحدة كلمة وإعداد قال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٥. من عوامل النصر عدم التنازع والاختلاف قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٦. الدعاء من أقوى أسلحة المؤمن في مواجهة مكر الأعداء وكيدهم

وعدوانهم، وهذا ظاهر في مناشدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه والتضرع إلى الله: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض)[1]، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

موضوعات ذات صلة:

غزوات الرسول مع اليهود، غزوة أحد، غزوة الأحزاب، غزوة تبوك

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٦٣، كتاب الجهاد والسير، باب الامداد بالملائكة في غزوة بدر، ٣/ ١٣٨٣.

غزوة تبوك

عناصر الموضوع

التعريف بغزوة تبوك	٢٦٤
أسباب الغزوة	٢٧١
موقف المؤمنين في الغزوة	٢٧٣
موقف المنافقين في الغزوة	٢٨٢
المخلفون عن الغزوة	٢٩٩
القيادة النبوية في الغزوة	٣٠٦
الدروس المستفادة من غزوة تبوك	٣٠٩

التعريف بغزوة تبوك

أولًا: أسماؤها:

ورد في كتب السيرة أكثر من تسمية لهذه الغزوة المباركة، وسوف أذكر هذه الأسماء وحكمة التسمية فيما يأتي:

١. غزوة تبوك.

وقد ورد هذا الاسم في أحاديث صحيحة، ففي صحيح مسلم عن معاذ بن جبل قال: (خرجنا مع رسول الله عام غزوة تبوك، فكان يجمع الصلاة، ثم قال: (إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار)[(١)].

وتسمية الغزوة بهذا الاسم واضح، فإنه المكان الذي انتهى إليه مسير المسلمين، وتبوك مدينة من مدن شمال الحجاز الرئيسية، بها إمارة الآن تعرف بإمارة تبوك، وهي تبعد عن المدينة ٧٧٨ كيلو مترًا على طريق معبدة تمر بخيبر وتيماء، وقد كانت وقتئذ من ديار قضاعة تحت سلطة الروم[(٢)].

٢. غزوة العسرة.

والعسرة: الشدة وضيق الحال والعدم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقد وردت هذه التسمية في سورة التوبة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] وساعة العسرة أي: وقت العسرة، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها[(٣)].

ووردت التسمية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (من جهز جيش العسرة فله الجنة)[(٤)].

ووردت التسمية عن جمع من الصحابة الكرام، منهم: أبو موسى الأشعري رضي الله عنه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم رقم ٢٢٨١ .
(٢) انظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق الحربي ص ٥٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٧٨.
(٤) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب المناقب باب مناقب عثمان ٥/ ١٣ ووصله الدارقطني في سننه ٥/ ٣٥٥، والبيهقي في سننه ٦/ ٢٧٦ وسنده حسن.

حيث قال: (أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك)[١].

ومنهم: يعلى بن أمية رضي الله عنه حيث قال: (غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم جيش العسرة، فكان من أوثق أعمالي في نفسي)[٢].

ومما سبق يتضح أن التسمية كانت مشهورة بين الصحابة الكرام؛ لورودها في القرآن الكريم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولأنهم كانوا يرون العسرة أمام أعينهم وليس بعد العيان بيان.ومن الشواهد الواردة على العسرة في الغزوة ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد؛ حتى ظننا أن رقابنا ستقطع؛ حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه)[٣].

ونحوه عن محمد بن عبد الله بن عقيل، وفيه تفصيل للعسرة حيث قال: «خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير، وخرجوا في حر شديد فأصابهم يومًا عطش؛ حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعتصرون أكراشها ويشربون ماءها، فكان ذلك عسرة من الماء، وعسرة من النفقة، وعسرة من الظهر»[٤].

٣. الفاضحة.

قال الزرقاني: «وتعرف بالفاضحة لافتضاح المنافقين فيها»[٥]. ومن المعلوم أن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما كان يسمي سورة التوبة بالفاضحة، قال: «التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لن تبقي أحدًا منهم إلا ذكر فيها»[٦].

وقد نزلت سورة التوبة وفيها التعقيب على غزوة تبوك ففضحت سرائر المنافقين في الغزوة، وأظهرت ما كان خفيًا من سوء باطنهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي باب غزوة تبوك وهى غزوة العسرة رقم ٤٤١٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة باب الأجير في الغزو برقم/ ٢٢٦٥.
(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، ١/ ٥٢، والحاكم في المستدرك ١٧/ ٣٦٢ وصححه على شرطهما ولم يتعقبه الذهبي.
وجود ابن كثير إسناده في .البداية والنهاية ٥/ ٩.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٩٨ رقم ١٠٠٨١، دلائل النبوة، البيهقي رقم ١٩٨١.
(٥) شرح المواهب اللدنية ٤/ ٦٦.
وانظر: إمتاع الأسماع، المقريزي ٨/ ٣٩١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الحشر، رقم ٢٨٨٢.

ثانيًا: زمان الغزوة:

اتفق أرباب السير على أن غزوة تبوك كانت في رجب من العام التاسع للهجرة[1].

قال ابن عباس: «لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من الطائف ستة أشهر، ثم أمره الله بغزوة تبوك، وهي التي ذكر الله ساعة العسرة»[2].

قال ابن حجر: «وليس مخالفًا لقول من قال: في رجب، إذا حذفنا الكسور؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قد دخل المدينة من رجوعه من الطائف في ذي الحجة»[3].

وقد ذكروا أن خروجه صلى الله عليه وسلم إلى تبوك كان يوم الخميس، عن كعب بن مالك قال: «إن ا لنبي صلى الله عليه وسلم خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس»[4].

قال العامري: «لخمس خلون من رجب»[5].وأقام رسول الله في تبوك عشرين ليلة[6].

أما تحديد زمنها بالتقويم الشمسي فلا شك أنه كان في وقت اشتداد الحر في موسم الصيف، وهذا ما يظهر بوضوح في قوله تعالى مخبرًا عن المنافقين: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة:٨١].

وقد ذهب بعض المصنفين في السيرة إلى أنها كانت في نوفمبر، والأقرب ما ذكره بعضهم من أنها كانت في شهر إبريل والله أعلم»[7].

وكان عدد المسلمين ثلاثين ألفًا منهم عشرة آلاف فارس[8]، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، وعهد إلى علي بن أبي طالب القيام على أمور أهل بيته.

ثالثًا: حكمة ذكر غزوة تبوك في سورة التوبة:

سورة التوبة من السور المدنية التي تأخر نزولها، بل ورد عن البراء رضي الله عنه أنه قال:

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد ٢/ ١٦٥، عيون الأثر ٢/ ٢٦٨، زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٥٢٦.
(٢) تاريخ دمشق، ابن عساكر ٢/ ٢٨.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ١١١
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير باب من أراد غزوة فورَّى بغيرها، ومن أحب الخروج يوم الخميس، رقم ٢٩٤٩، ٤/ ٤٨.
(٥) بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، يحيى العامري ٢/ ٣١.
(٦) مغازي الواقدي ٣/ ١٠١٥.
(٧) انظر: السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي ص ٤٨٧.
(٨) مغازى الواقدي ٣/ ١٠٠٢، دلائل النبوة، البيهقي ٥/ ٢١٩، عيون الأثر ٢/ ٢٦٨.

«آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وآخر سورة نزلت براءة»[1].

وفيها كثير من الأمور المحكمة التي لم تنسخ ومنها أحكام الجهاد، فمن خلال تتبع أحكام القتال ومراحل تشريعه وجدنا أن سورة التوبة قد ذكرت الموقف النهائي من كل الطوائف، قال ابن القيم: «ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان»[2].

ففي السورة الأحكام النهائية للجهاد، وفيها المثال العملي بتفاصيل آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيان ما حدث فيها من المؤمنين والمنافقين. وما استحقوه من جزاء رباني.

ومقصود السورة يشير إلى هذا، فقد ذكر البقاعي أن مقصود السورة: «معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية، من اتباع الداعي إلى الله في توحيده، واتباع ما يرضيه، وموالاة من أقبل عليه»[3].

ولما كانت سورة التوبة من آخر السور نزولا فقد جاءت بالقول الفصل في كثير من الأحكام المتعلقة بالآخر، فقد ورد فيها تفصيل القول في عهود المشركين وأقسامهم، وورد فيها تفصيل الموقف من أهل الكتاب ومن المنافقين. وكلا الموضوعين مرتبط بغزوة تبوك.

لقد كانت غزوة تبوك مع نصارى الروم، وقد تعرضت السورة للكلام عن أهل الكتاب وموقفهم من الدعوة الإسلامية وذلك من الآية (٢٩)إلى الآية (٣٤) وكان هذا الحديث تمهيدا للحديث عن غزوة تبوك من أول الآية (٣٨)إلى الآية (١٢٧) وفيها حديث مطول

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (براءة من الله ورسوله)، ٨/ ١٦٨، رقم ٤٦٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، ٣/ ١٢٣٧.
والراجح أن سورة النصر آخر سورة نزلت كاملة، وأن التوبة تأخر نزول معظمها إلا أن فيها ما نزل في سنة تسع وهو صدر السورة.
وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٧٣٤.

(٢) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٤٣- ١٤٤.

(٣) مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور، البقاعي ٢/ ١٥٣.

عن المنافقين ومواقفهم قبل الغزوة وأثناءها وبعدها، وإذا كان الحديث عن المنافقين قد ورد في كثيرمن السور المدنية إلا أن أطول حديث وأشده كان في سورة التوبة، إن الغزوة كانت الفرصة الأخيرة والامتحان النهائي للصف المسلم قبل أن يلحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، فكان لابد أن تتمايز الصفوف ويعرف كل فرد مكانه، ويميز الله الخبيث من الطيب وينكشف أمر النفاق انكشافًا تامًّا.

وأسلوب السورة فيه القوة والشدة معهم، فلم يعد هناك مجال أو وقت للملاينة بعد أن ظهر نفاقهم سافرًا في تبوك؛ ولذلك جاءت أسماء السورة تحمل هذه المعاني، فهي براءة من الكفار ومن على شاكلتهم، وهي الفاضحة التي نزلت بفضيحة المنافقين، وهي سورة العذاب التي نزلت بالعذاب على المنافقين، وهي المقشقشة التي تشفي قلب المؤمن من النفاق، وهي المثيرة والحافرة التي تكشف خبيئات المنافقين، وهي المبعثرة المخزية، المنكلة، المشردة، المدمدمة، الكاشفة، العاصفة، الفارقة، المحرضة[1].

ومع هذه الشدة والغلظة في جهاد المنافقين الذي يعتمد على الكلمة لا على القوة وعلى اللسان لا على اليد، نجد مع هذا أن السورة هي سورة التوبة وأنها أكثر سورة في القرآن ورد فيها لفظ التوبة بمشتقاته المتعددة: (تاب، تابوا، تبتم، يتوب، التواب، يتوبوا، ليتوبوا، يتوبون، التوبة، التائبون) ولم يتكرر لفظ التوبة في أي سورة من القرآن كما تكرر في هذه السورة. وذلك حتى يظل باب المغفرة مفتوحًا لمن ندم وأناب ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة:٧٤].

وقد تحدثت السورة عن جهاد المال، وقرنت بين الجهاد بالمال والنفس في خمس آيات، وبينت فضيلة الإنفاق وثواب المنفقين وعقوبة الكانزين، وفصلت مصارف الزكاة، وهذا الحديث مرتبط أيضا بغزوة تبوك، غزوة العسرة والشدة التي وعدت بالخيرات من جاهد بماله ونفسه، وكما كشفت السورة المنافقين فإنها كذلك نوَّهت بقدر المؤمنين وبإنفاقهم أموالهم في سبيل الله.

رابعًا: أسباب تصريح الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج لغزوة تبوك:

كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعمل التورية إذا أراد الخروج في غزوة؛ وذلك لكي يبغت العدو ويفجأهم فلا يأخذوا أهبتهم للقتال؛ وكان هذا الأمر مطَّردًا

(١) انظر في ذلك: الكشاف ٢/ ٢٤١، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٣٤٣.

في كل الغزوات إلا غزوة تبوك، وهذا ما صرح به كعب بن مالك رضي الله عنه، حيث قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلَّما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل غزو عدوكثير، فجلَّى للمسلمين أمرهم، ليتأهَّبوا أهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد)[1].

فالإسرار من قبيل الخداع المحمود في الحرب، أما خصوصية تبوك في عدم التورية وفي صريح الإعلان عنها فإن ذلك راجع لعدة أساب؛ منها ما ذكره المهلب بقوله: «وأخبرهم صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك لطول المدة؛ ليتأهبوا -كما ذكر فى الحديث- ولأنه آمن ألا يسبقه إليها الخبر لبعد الشقة التي بينه وبينها وقفرها»[2].

ومنها ما ذكره اللواء محمود خطاب، حيث قال في تعليل التصريح: «لأن المسافة طويلة يجب قطعها صيفا، فلا بد من إكمال المؤنة والنقلية للمجاهدين قبل الحركة،حتى لايؤدي نقص القضايا الإدارية إلى إخفاق المسلمين في تحقيق هدفهم المنشود.وليس من السهل تجهيز قوات المسلمين الكبيرة بما تحتاجه من مؤنة ونقلية وأسلحة، مالم يشارك أغنياء المسلمين في تجهيز هذا الجيش مشاركة فعالة، فأقبل هؤلاء الأغنياء على بذل أموالهم بسخاء وعن طيبة خاطر»[3].

ونستخلص من هذا أن للتصريح بالغزوة أسبابا عديدة نجملها فيما يأتي:

١. ما صرح به كعب بن مالك رضي الله عنه في الحديث من أن ذلك التصريح كي يأخذ المسلمون أهبتهم ويستعدوا نظرا لبعد الطريق وقلة المؤنة.

٢. ولكي يستعد أهل الغنى من المؤمنين فيكثروا من النفقة؛ لتدبير احتياجات الجيش المسلم، وقد أنفق الكثيرون من ذوي اليسار لتجهيز المعسرين، ومر بنا حديث عثمان ووعده بالجنة لتجهيزه جيش العسرة.

٣. أن هذه الغزوة تعتبر اختبارًا نهائيًّا -إن صح التعبير- فهي آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من حكم الله تعالى أن تكون هذه الغزوة كاشفة لأحوال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورى بغيرها، رقم ٢٩٤٨، ٤/ ٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم ٢٧٩٦ ، ٤/ ٢٢١٨.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ١٢٣.

(٣) الرسول القائد، محمود شيت خطاب ص٣٩٨.

الصادقين من المؤمنين وأحوال المنافقين، فهي آخر غزوة، ولن يجدي الآن سوى أسلوب التصريح الكامل، والطلب المباشر من الجميع أن ينفر على كل حال من الخفة أو الثقل؛ ولهذا كان التصريح الواضح بالوجهة، ومما يقوي وجهة النظر في أن الغزوة كان من جملة أهدافها الاختبار أنه لم يحدث فيها أي قتال، بل ذهب المؤمنون الصادقون وعادوا ولم يتتبعوا عدوًّا أو يقاتلوا أحدًا، وإنما اتبعوا رضوان الله فعادوا بتوبة ورضوان ورب غير غضبان.

أسباب الغزوة

لقد ذكر كُتَّاب السِّير عدَّة أسباب لغزوة تبوك، منها:

قال ابن سعد: «بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج»[(١)].

ولم يأت هذا القول مسندًا، لكن ورد في السنة الصحيحة أن الصحابة كانوا يترقبون مجيء قبائل الروم إلى المدينة، فقد ورد عن عمر رضي الله عنه قال: «وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن نتخوف ملكًا من ملوك غسان، ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح افتح. فقلت:جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه»[(٢)].

وقال اليعقوبي: «وغزاة تبوك غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمع كثير من أرض الشام، يطلب بدم جعفر بن أبي طالب»[(٣)].

ويرى آخرون أن السبب المباشر مقتل فروة بن عمرو الجذامي الذي كان قائدًا من قوَّاد الروم، وواليا لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام. فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه وقتلوه[(٤)].

ومن الثابت أن مقتل جعفر رضي الله عنه كان في غزوة مؤتة سنة ثمان من الهجرة، وقد يكون هذا من جملة الأسباب الداعية إلى غزوة تبوك، ولكنه لا يرقى بمفرده أن يكون سببًا للغزوة. ويقال هذا في مقتل فروة أيضًا، والله أعلم.

وروي عند ابن عساكر عن عبد الرحمن ابن غنم رضي الله عنه أن اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقًا أنك نبي فالحق بالشام؛ فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ١٦٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تبتغي مرضات أزواجك، رقم٤٩١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الإيلاء واعتزال النساء، رقم ١٤٧٩.
(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٦٧.
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩١-٢٩٢.

مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٧٦: ٧٧][1].

وفي الإسناد ضعف، والظاهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخرج للغزوة بسبب قول اليهود، بالإضافة إلى أن الآية مكية[2].

وروى الطبري عن مجاهد قال: «قال المؤمنون: كنا نصيب من متاجر المشركين. فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله عوضًا لهم بأن لا يقربوهم المسجد الحرام. فهذه الآية من أول براءة في القراءة، ومن آخرها في التأويل: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] إلى قوله: ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩]. حين أمر محمد وأصحابه بغزوة تبوك»[3].

ومع أن النصوص النبوية تشير إلى أن الجهاد باب من أبواب الرزق كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (وجعل رزقي تحت ظل رمحي)[4].

إلا أن حمل الآية على العموم أولى، فقد فتح الله أبواب الرزق للمسلمين من أكثر من وجه، وليس فقط من وجه الغنائم بدليل أنهم لم يغنموا شيئًا كثيرًا من تبوك، ولم يكن هدف المؤمنين من الغزو التربح فقط، بل هدفهم الأساس تعبيد الناس لربهم.

والظاهر أن الغزوة كانت امتثالًا نبويًّا لأمر الله بقتالهم؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:١٢٣].

قال الطبري: «يقول لهم ابدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم دارًا دون الأبعد فالأبعد، وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ الروم؛ لأنهم كانوا سكان الشام يومئذ»[5].

وحكمة قتال الروم تتضح من الآية، وهي أن يجدوا في المؤمنين غلظة، فيرهبوهم ويقيموا لهم شأنًا، وهذا ما حدث في الغزوة، فلم يخرج الروم لقتال المسلمين ولم يواجهوهم، ولم يكن قصد إرهاب الكفار قاصرًا على الروم وحسب؛ بل امتد ليشمل القبائل المتنصرة المتحالفة معهم.

والملاحظ أن هذه الغزوة مع سابقتها (مؤتة) كانت متوجهة لقتال الروم بعد إخضاع الجزيرة العربية لسلطان الإسلام

(١) تاريخ دمشق، ابن عساكر ١/ ٧٩، دلائل النبوة، البيهقي ٥/ ٢٥٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٠٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٠٣، تفسير أبن أبي حاتم ٦/ ١٧٧٧.
(٤) أخرجه البخاري تعليقًا عن ابن عمر، كتاب الجهاد والسير باب ما قيل في الرماح، ٤/ ٤٠، ووصله أحمد في مسنده ٤/ ٥١٥.
(٥) جامع البيان ١٢/ ٨٥.

وفتح مكة ودخول كثير من العرب في الإسلام، وكذلك بعد انتهاء خطر اليهود من الجزيرة وإخلاء آخر معاقلهم في خيبر بعد الفتح، فجاءت هذه المرحلة الجديدة تمهيدًا لفتوح إسلامية تدك معاقل الرومان في شبه الجزيرة العربية وما حولها، واستجابة للأمر الإلهي في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة:٢٩].

قال الطبري: «وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره بحرب الروم، فغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزولها غزوة تبوك»[(١)].

ومن أسباب الغزوة أيضًا: إدخال الرعب في قلوب القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام في جزيرة العرب، والقبائل العربية المتنصرة الخاضعة لنفوذ الإمبراطورية الرومانية، والتابعة لها، وإتاحة الفرصة لها للتفكير في أهمية الدين الإسلامي جديًّا، وأنه ليس من الأمور التي تعلو سطح الماء ثم تغيب، وأن له مستقبلًا زاهرًا، لعل ذلك يفتح لها الطريق في الدخول في الإسلام، الذي ظهر في أرضهم وبلادهم[(٢)].

(١) المصدر السابق ١٤/ ٢٠٠.
(٢) السيرة النبوية، الندوي ص٤٨٦.

موقف المؤمنين في الغزوة

كانت غزوة تبوك ميدانا للمنافسة واختبارًا شاقًا يتمحص به إيمان المؤمنين ويظهر صدقهم، وقد تعددت المواقف الإيمانية العظيمة في هذه الغزوة والتي نجملها فيما يأتي:

أولًا: الاستجابة للأمر بالنفير:

لقد تفاوتت درجات الناس في هذه الغزوة، فكان منهم السابق بالخيرات بإذن الله، وهم المؤمنون الصادقون الذين خرجوا استجابةً للأمر الإلهي بالنفير.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة:٣٨].

وفي الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين وحث لهم على الخروج للقتال، وفي ﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام يفيد معنى التوبيخ والعتاب واللوم لمن تثاقل عن الجهاد، واللفظة «تمثل الجسم المسترخي وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل»[(٣)].

والاستفهام في: ﴿مَا لَكُمْ﴾ للإنكار والتوبيخ، وكيف يرضى بالدنيا من رضي بالله ربا؟ وما متاع الدنيا بجوار الآخرة إلا

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٦٥٥

كغمسة الأصبع في البحر المتلاطم الأمواج فماذا تأخذ وبم ترجع؟!

وقوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة:٣٩].

يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أصحاب رسوله متوعدًا لهم على ترك النفير إلى عدوهم من الروم: إن لم تنفروا أيها المؤمنون إلى ما دعاكم إليه نبيه صلى الله عليه وسلم يعذبكم الله عذابًا موجعًا، ويستبدل الله بكم نبيه قومًا غيركم ينفرون إذا استنفروا ويجيبونه إذا دعوا، ولا تضروا الله بترككم النصر شيئًا؛ لأنه لا حاجة إليكم، بل أنتم أهل الحاجة إليه، والله على إهلاككم واستبدال قوم غيركم بكم وعلى كل ما يشاء من الأشياء قدير[(١)].

ثم تذكرهم الآية بموقف مر على حصوله تسع سنين، لم يذكره القرآن ولم يعقب عليه من قبل طيلة هذه المدة، على خلاف العادة القرآنية في التعقيب المباشر على الحدث، يدخر القرآن التعقيب على هجرة الرسول وصاحبه وإخراجهما من مكة إلى أن يأتي الأوان؛ لتذكر هذا الحدث العظيم، وذلك لتشابه المقدمات والأسباب، فالأسباب البشرية ضعيفة والظروف عصيبة وشديدة، ولكن متى كانت هذه الملابسات تفت في عضد المؤمنين؟!

إن التأييد الإلهي الذي حدث عند إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة وهما اثنان لا ثالث لهما إلا الله لهو قابل للتكرار في غزوة تبوك، فتذكروا -إن تراخيتم وتكاسلتم- فقد نصره الله وقت أن أخرجه الكفار هو صاحبه وهما في الغار ويطمئن النبي قلب أبي بكر بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فأنزل الله السكينة والأمن والاطمئنان وأيدهم بالثقة واليقين وجعل كلمة الذين كفروا السفلى. ودومًا كلمة الله هي العليا وهو سبحانه الغالب الذي يدبر الأمور بحكمته سبحانه.

ثم تأمر الآيات المؤمنين أن ينفروا إلى غزاة تبوك على كل حال من الخفة والثقل «ومعنى الخفة والثقل هنا مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة ومن يمكنه بصعوبة»[(٢)]، فيشمل الغني والفقير والشيخ والصغير ونحو ذلك.

وتأمرهم الآيات بالجهاد وإنفاق الأموال والأنفس رخيصة في سبيل الله، وقدم الأموال إذ هي أول ما يحتاجه المجاهد وقت التجهيز والإعداد للغزو، ثم شوقهم إلى ثواب ذلك وعظيم فضله فقال: ذلكم خير عظيم لكم إن كنتم تعلمون أنه خير.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٥١.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٧.

وفي موضع آخر من السورة جاء الثناء على المؤمنين في استجابتهم لأمر رسول الله وذلك في قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨- ٨٩].

وقد جاءت الآية الكريمة بعد الحديث عن مواقف المنافقين وعدم خروجهم للجهاد، فهم لم يجاهدوا، لكن الرسول والذين آمنوا معه وكانوا ملازمين له فلم يتخلفوا عنه جاهدوا بأموالهم فأنفقوها وجاهدوا بأنفسهم فقدموها وبذلوها في مرضاة الله، فأولئك لهم الخيرات وهي جمع خيرة وتشمل كل خير في الدنيا والآخرة، وهم المفلحون فلاحًا حقيقيًّا، وأعظم الفلاح ما أعده الله لهم من جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها لا يموتون ولا هم عنها يتحولون وأعظم به من فوز وفلاح في الدنيا والآخرة!

ومن جزائهم الحسن أيضًا في السورة ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

فقد تاب الله على نبيه صلى الله عليه وسلم، والتوبة معناها الرجوع، وهي في حق النبي صلى الله عليه وسلم رجوع من حال طاعة إلى أكمل منها، فقد رجع صلى الله عليه وسلم من حاله قبل تحصيل الغزوة وتحمل مشاقها إلى طاعة أكمل منها بعد ذلك، ويحتمل أن يكون جدد التوبة من غير أن يكون هفوة، ويكون لذلك حكم التجديد أو الثبات كسؤال الهدى وهم على الهدى، أو رده من حالة الغفلة إلى حالة الذكر[(١)].

وكذلك تاب الله على المهاجرين والأنصار الذين خرجوا فلم يتثاقلوا ولم يخالفوا، بل اتبعوه صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة الشديدة العسيرة من بعد ما كاد قلب بعضهم أن يزيغ كأبي خيثمة، لكن الله عصمهم ثم قبل توبتهم، إنه سبحانه صاحب الرحمة السابقة والمستقبلة، وافتتح بالتوبة واختتم بها فهي: «نهاية كل عارف، وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية فجعل الله سبحانه التوبة عليهم شكرانًا لما تقدم من تلك الأعمال وذلك الجهاد»[(٢)].

وإذا كان المعذرون قد اعتذروا ليؤذن لهم، فإن المؤمنين ما كان لهم أبدًا أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٩٢، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٥٠٣، أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٥٩٥.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٤٠٣.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

فلم يكن لساكني المدينة ولا لمن سكن حولها من أهل البوادي والأعراب أن يتأخروا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فيطلبوا ويرغبوا نفع أنفسهم بالأمن والدعة والراحة دون نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتركونه في الحر والمشقة.

قال الزمخشري: «أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علما بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولايكترث لها أصحابها ولايقيموا لها وزنًا، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلًا عن أن يربؤوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهى بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية»[1].

وعلل النهي ببيان أنهم لا يصيبهم عطش ولا تعب بدن ولا شدة جوع في سبيل مرضاة الله، ولا يضعون أقدامهم موضعًا يغيظ الكفار ولا يصيبون من الكفار أي إصابة في أنفسهم أو أموالهم قليلة كانت أو كثيرة إلا كتبه الله لهم عملًا صالحًا، فهو سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولا ينفقون نفقة في سبيل الله صغيرة ولا كبيرة ولا يتجاوزون واديًا في طريقهم إلا كتب لهم ليجزيهم بقدر عملهم ويزيدهم حتى يصير الثواب أحسن من عملهم، أو ليجزيهم الأحسن من أعمالهم.

وفي هذه الغزوة العظيمة نماذج طيبة لحرص الصحابة على عدم التخلف ومن أمثلة ذلك:

- **موقف أبي خيثمة رضي الله عنه:**

يقص أبو خيثمة موقفه في غزوة تبوك فيقول: (تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، حتى مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخلت حائطًا، فرأيت عريشًا قد رش بالماء، ورأيت

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢١.

زوجتي، فقلت: ما هذا بالإنصاف، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السموم والحميم، وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح فاحتقبته، وإلى تميرات فتزودتها، فنادت زوجتي: إلى أين يا أبا خيثمة؟ فخرجت أريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كنت ببعض الطريق لحقني عمير بن وهب الجمحي، فقلت: إنك رجل جريء، وإني أعرف حيث النبي صلى الله عليه وسلم، وإني رجل مذنب، فتخلف عني حتى أخلو برسول الله صلى الله عليه وسلم، فتخلف عني عمير، فلما اطلعت على العسكر، فرأى الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كن أبا خيثمة)، فجئت فقلت: كدت أهلك يا رسول الله، فحدثته حديثي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرًا، ودعا لي)[1].

وفي القصة سرعة رجوع أبي خيثمة ولومه لنفسه على التأخير، وجلده على تحمل مشاق الطريق مع قلة الزاد وبعد الشقة، وفيها معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه الكرام وصدق فراسته فيهم.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٦/ ٣١، رقم ٥٤١٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٢٢٣.
وإسناده ضعيف، وأصل القصة في الصحيحين في حديث توبة كعب بن مالك.

موقف أبي ذر رضي الله عنه:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك جعل لا يزال يتخلف الرجل فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: (دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه) حتى قيل: يا رسول الله، تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه).

فتلوم أبو ذر رضي الله عنه على بعيره فأبطأ عليه، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره، فخرج يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيًا، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض منازله، ونظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله، هذا رجل يمشي على الطريق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كن أبا ذر) فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده)[2].

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب المغازي والسرايا، ٣/ ٥٢، وصححه وقال الذهبي: فيه إرسال، وهو عند ابن إسحق في السيرة ٢/ ٥٢٣.

وفي القصة وضوح أسلوب الحسم النبوي في هذه الغزوة، وهذا واضح في كل أمورها، فلم يعط صك الأمان والخيرية لأحد، بل كانت الخيرية منوطة بالخروج وحسب، أما من لم يخرج فقد أراح الله منه عباده ووكل بالجهاد قوما يحبهم ويحبونه، وفي القصة تتجلى عزيمة أبي ذر رضي الله عنه وصبره الجميل على تحمل وعثاء الطريق ماشيًا حاملًا متاعه على ظهره، ويالها من مشقة تهون بمعرفة البشارة النبوية الكريمة له.

ثانيًا: المسارعة بالإنفاق في سبيل الله:

جاء تقديم الجهاد بالمال على النفس في سورة التوبة في خمس آيات هي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[التوبة: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة:٤١].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة:٨١].

وقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾[التوبة: ٨٨][(١)].

وما ذاك إلا لأهمية المال، فهو عصب الجهاد، وبذل المال مقدمة لبذل النفس، فمن هان عليه ماله هانت عليه نفسه، قال مسلم بن الوليد[(٢)]:

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ودائرة الجهاد بالمال ربما تكون أوسع من دائرة الجهاد بالنفس، إذ هي متاحة لكل رجل وامرأة، وبالقليل والكثير، فالنفقة الصغيرة مكتوبة ولن يضيع عند الله أجرها.

وقد حفلت غزوة تبوك بصور رائعة للإنفاق في سبيل الله ومن ذلك:

- **إنفاق أبي بكر الصديق رضي الله عنه:**

وقد تحدث عنه عمر رضي الله عنه فقال: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك عندي مالًا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أبقيت لأهلك؟) قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: (يا أبا

(١) وفي أربعة مواطن أخرى في القرآن: في النساء آية ٩٥، والأنفال آية ٧٢، والحجرات آية ١٥، والصف آية ١١ .

(٢) شرح ديوان المتنبي، العكبري ٣/ ٣٩.

بكر ما أبقيت لأهلك؟) قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبدًا)[1].

وهذا دليل عمليٌّ على استحقاقه منزلة الصديقية، فهي من كمال التصديق، والصدقة برهان على كمال الإيمان فكيف بالتصدق بكل المال؟! قال ابن تيمية: «فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة، لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل منه، وهو أنه خالٍ من المنافسة مطلقًا لاينظر إلى حال غيره»[2].

❁ إنفاق عمر رضي الله عنه:

من نص الرواية السابقة نعلم أنه أخرج نصف ماله، وقد جاء تقدير ذلك في بعض الروايات عن عبد الله بن عباس فقال: وأنفق عمر مائة أوقية[3].

❁ إنفاق عثمان رضي الله عنه:

كانت نفقة عثمان في هذه الغزوة أعظم النفقات.

قال ابن إسحاق: «وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها»[4].

وقد وردت في ذلك روايات عدة أجتزئ منها ما ورد عن عبد الرحمن بن سمرة قال: (جاء عثمان بن عفان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار في ثوبه، حين جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم، يقلبها بيده، ويقول: (ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم) يرددها مرارًا[5].

وعن عبد الرحمن بن خباب السلمي، قال: (خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحث على جيش العسرة. فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث. فقال عثمان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث. فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقول بيده هكذا يحركها. وأخرج عبدالصمد يده كالمتعجب: (ما على عثمان ما عمل بعد هذا)[6].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك، رقم ١٦٧٨، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق، رقم ٣٦٧٥.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١١٧.
(٣) تاريخ دمشق، ابن عساكر ٢/ ٢٨.
(٤) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٥١٨.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/ ٢٣٢، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان، رقم ٣٧٠١.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٧/ ٢٤٧، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في مناقب عثمان رقم ٣٧٠٠.
قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث السكن بن المغيرة.
ومعنى بأحلاسها وأقتابها: بأكسيتها.
انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير

من إنفاق باقي الصحابة:

أنفق عبد الرحمن بن عوف كثيرًا من ماله فقد ورد أنه جاء بأربعة آلاف درهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف، جئتك بأربعة آلاف، فاجعلها في سبيل الله، وأمسكت أربعة آلاف لعيالي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بارك الله فيما أعطيت، وفيما أمسكت)[1].

وجاد كلٌّ بما عنده، ولم يك أمر الإنفاق قاصرًا على الرجال فقط بل شارك فيه النساء بقوة.

روى الواقدي عن أم سنان الأسلمية قالت: «لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة رضي الله عنها فيه مسك، ومعاضد، وخلاخل وأقرطة وخواتيم، وخدمات، مما يبعث بها النساء يعن به المسلمين في جهازهم. والناس في عسرة شديدة»[2].

إن مواقف الشدة هي التي تبين أقدار العظماء، ولما كانت غزوة تبوك في حالٍ من العسرة والضيق فإنها بينت بصدق معادن أولئك الصنف من الناس الذين تهون عليهم في المعالي أموالهم فيبذلونها ابتغاء وجه الله الأعلى.

ثالثًا: موقف الفقراء:

أنفق كثير من الصحابة كما أسلفت، لكن العدد كبير، والنفقة قاصرة، وليس في الإمكان في هذا الأوان سوى ما كان، فتخلف جمع من الصحابة، ما حبسهم إلا العذر والفقر، أرادوا الجهاد فلم يجدوا نفقة فأنفقوا الدمع ساخنًا أسفًا منهم على فوات نصيبهم من مقارعة الكفار، فأنزل الله في شأنهم قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩١- ٩٢].

وقد رفعت الآية الكريمة الحرج عن ثلاثة أصناف من المؤمنين:

أولهم: الضعفاء وهم أصحاب الأمراض المزمنة التي يصعب معها الجهاد والذين هم ضعفاء في أصل خلقتهم ونحوهم الصبيان والنساء.

وثانيهم: المرضى الذين بهم علة تحول بينهم وبين الخروج للجهاد.

أما الصنف الثالث: فهم الذين لا يجدون الزاد والراحلة؛ كي يخرجوا للجهاد مع

١/ ٤٢٤.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٩١.

(٢) انظر: مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٧.

المؤمنين، قيل: هم من مزينة وجهينة وبني عذرة[1].

وكل هؤلاء ومن كان على شاكلتهم ليس عليهم من إثم أو حرج طالما كانوا ناصحين لله ورسوله، والنصح «تحرِّي فعل أو قول فيه صلاح صاحبه وهو من الإخلاص والإحكام»[2].

فيكون المعنى: لا حرج ولا لوم على هؤلاء إذا أخلصوا لله تعالى في الإيمان ولرسوله صلى الله عليه وسلم في الطاعة والانقياد وهذا نصح العمل، ونصح القول بأداء واجب النصيحة، فهي من مهمات الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[3].

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ لرفع الحرج عنهم؛ لأنهم حينئذ من أهل الإحسان، وما على المحسنين من سبيل «أي: لا يمر بهم العتاب ولا يجوز في أرضهم فما أبعد العتاب عنهم، وهو جار مجرى المثل»[4].

ثم يأتي تذييل الآية بأن الله ذو المغفرة والرحمة التي وسعت كل شيء، ولا ينفك عن الاحتياج لها قادر أو عاجز.

ومن هؤلاء من تصدق بصدقة عجيبة غير مسبوقة، وهو علبة بن زيد الذي خرج من الليل فصلى ما شاء الله ثم بكى، وقال: (اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أين المتصدق في هذه الليلة؟) فلم يقم أحد، ثم قال: (أين المتصدق في هذه الليلة؟ فليقم ولا يتزاهد ما صنع هذه الليلة) فقام إليه فأخبره. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة)[5].

لقد شغله أمر البذل والتضحية، ولم يكتف بإراقة الدمع، بل قام خاليًا وتفتق ذهنه عن أمر رآه في مكنته، فبذل عرضه صدقة بينه وبين ربه، فتقبلها ربه، ونزل الوحي بذلك وأتته البشرى في فلق الصباح.

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ١٦٥، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٠٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب ص ٨٠٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، عن تميم الداري، رقم ٥٥، ١/ ٧٤.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٥/ ٣٤٦.
(٥) انظر: الروض الأنف، السهيلي ٧/ ٤٠١، الإصابة، ابن حجر ٤/ ٤٥٠.

موقف المنافقين في الغزوة

لقد تعددت مواقف المنافقين في هذه الغزوة، وسوف أذكرها مع التعقيب القرآني عليها وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: استئذان المنافقين للقعود عن الجهاد:

بعد أن أمر الله المؤمنين بالجهاد ورغبهم فيه، وعنف من تثاقل عن الداعي التفت الخطاب القرآني إلى المنافقين بصيغة الغيبة تنزيها عن خطابهم بصورة الحاضر، فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[التوبة: ٤٢].

أي: لو كان ما تدعوهم إليه أمرًا من أمور الدنيا التي هي سهلة المنال قريبة المأخذ، أو سفرًا هيِّنًا غير شاق؛ لأسرعوا في اتباعك والسير وراءك.

ولكنهم يؤثرون السلامة ويرون أن الشقة بعيدة عليهم، وما عرفوا أن مصيبتهم الكبرى ليست في بعد الطريق أو شدة الأمر، ولكن مصيبتهم الكبرى في نفوسهم التي زينت لهم القعود والركون، فلو فارقوا أنفسهم الأمارة خطوة لسهل عليهم كل أمر.

وما كان هؤلاء المنافقون ليفارقوا أنفسهم وراحتها إلى الجهاد وتبعاته؛ لأنهم لا يحركهم إلا المغنم العاجل، وهذا النموذج البشري موجود بكثرة، نموذج أولئك الذين يكثرون عند الطمع ويقلون ويفرون عند الفزع، وما ينكشف أمرهم إلا عند حلول البأس.

وإنهم ليتذرعون بالحجج الباطلة فيرهنون أمر الجهاد بالاستطاعة. وقد سجل القرآن هذا الأمر عليهم قبل أن يقولوه: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ليس لدينا من مال أو صحة أو زاد أو راحلة، أي حجة أو عذر، المهم أن لا يهلكوا أنفسهم بالقتال. وما درى هؤلاء أن الهلاك الحقيقي بترك الجهاد بالحلف الكاذب كما قال صلى الله عليه وسلم: (اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع)[1].

وليس أمرهم بخاف على ربهم، فهو سبحانه يعلم أنهم مستطيعون وما منعهم إلا نفاق قلوبهم.

ثم تتوجه الآيات بالخطاب إلى النبي وتبدأ بهذا الخطاب الرقيق: ﴿عَفَا اللَّهُ

(١) أخرجه البيهقي في سننه ١٠/ ٣٥ عن أبي هريرة.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٥٠، رقم ٥٣٩١.
وبلاقع: جمع بلقع وهي الأرض القفر التي لاشيء بها،يريدأن الحالف بها يفتقر ويذهب ما في بيته من الرزق.
انظر: النهاية، ابن الأثير ١/ ١٥٣.

﴿عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وفيه بيانٌ لفضيلة النبي صلى الله عليه وسلم وكرامته على ربه، حيث بدأ بالعفو قبل المعاتبة.وقيل: هي افتتاح كلام كما تقول: أصلحك الله وأعزك الله. وعلى هذا فلا يكون في الآية أي عتاب[1].

والذي يقتضيه النظر الصحيح للآية، أن الإذن للمنافقين في التخلف لم يكن محظورًا قبل الآية حتى يكون فيه مخالفة، بل كان أمرًا متروكًا إلى الاختيار كما نقل القاضي عياض: «كان مخيَّرًا في أمرين، وقد كان له أن يفعل ما شاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي»[2] فليس في الإذن ذنب، بل غايته أنه اجتهاد فيما لا نص فيه، وهذا جائز في حق الأنبياء، فقد نص علماء الأصول على جواز الاجتهاد في حق الأنبياء فيما لا نص فيه، لكن الوحي يصوب لهم اجتهادهم، ولا ضير في ذلك[3].

وقد أوضحت الآية الحكمة في عدم الإذن لهم: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ وحتى للغاية، أي: هلا تأنيت إلى أن يظهر لك الصادق في إيمانه وفي وعده من الكاذب.

قال ابن عباس: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ استئناف بياني قصد به إظهار الفرق بين المؤمن والمنافق، فالمؤمن لا يستأذن في الخروج للجهاد بل دأبه المبادرة والمسارعة دومًا. كما ورد في الحديث: (من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه)[5].

فالمؤمن الحق يخرج إلى الجهاد ولا يحتاج إلى استئذان، قال صاحب الكشاف: «وكان الخلص من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي صلى الله عليه وسلم أبدًا في الجهاد، ولنجاهدن أبدًا معه بأموالنا وأنفسنا»[6].

وإذا كان المؤمنون لا يستأذنون في القيام بالجهاد، فإنهم لن يستأذنوا في تركه من باب أولى.

وفي مقابل هؤلاء المؤمنين جاء ذكر

(١) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٣٠١٢.
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢/ ١٥٨.
(٣) انظر: المستصفى، الغزالي ص٣٥٩، شرح التلويح على التوضيح، التفتازاني ٢/ ٢٣٩.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٥٥.
قال رشيد رضا في المنار ١٠/ ٤٠٤: والظاهرأن مراده لم يكن يعرفهم كلهم، ويعرف شؤونهم بمثل ما في هذه السورة من التفصيل.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، رقم ١٨٨٩ عن أبي هريرة مرفوعًا.
(٦) الكشاف ٢/ ٢٧٥.

المنافقين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، والذين يحرصون على الاستئذان في ترك الجهاد والغزو، فوصفهم الله بعدم الإيمان، لأن الإيمان هو الباعث المحرك للنفس.

ثم بينت الآيات الكريمة أن المنافقين ما كانوا بذوي أعذار؛ لأنهم لم ينووا الخروج أصلًا، ولو نووا الخروج لأعدوا له عدة، والعدة أولًا عدة نفسية بالتهيؤ وصدق العزم، ثم عدة عسكرية تشمل كل ما يحتاجه المجاهد من مؤن وسلاح، وكان منهم عبد الله بن أُبي، وعبد الله بن نبتل، وأوس بن قيظي، ورفاعة بن التابوت، وغيرهم كما ورد عن مجاهد[1]، وقد كانوا ذوي مال وبأس، ولن يعجزهم إعداد العدة، لكنهم ما أرادوا وما خرجوا.

لم يخرج هؤلاء المنافقون بل ثبطهم الله وكسلهم وثقل عليهم الخروج لكراهة انبعاثهم، وقيل لهم: ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾. والقائل: يحتمل أن يكون قول بعضهم لبعض، ويحتمل أن يكون من قول الرسول صلى الله عليه وسلم غضبًا عليهم، ويحتمل أن يكون من قول الشيطان لهم بالوسوسة، أو من قول الله تعالى أو هو خذلان أوقعه الله تعالى في قلوبهم[2].

والقاعدون هم الذين تخلفوا بعذر كالنساء والأطفال، وفي لفظ: ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ زيادة مذمة لهم بإلحاقهم بهذه الأصناف التي لا تخرج ولا يطلب منها خروج.

فإن قيل: إذا ما كان الأمر كذلك، فلم عوتب النبي صلى الله عليه وسلم على إذنه لهم بالقعود، ولا فائدة في خروجهم أصلًا؟

وللجواب نقول: لا شك أن المفسدة تحصل بخروجهم مع الجيش، لكن وجه العتاب كان للإذن قبل أن ينكشف أمرهم انكشافًا تامًّا، فقد كانت المصلحة تقتضي عدم الإذن لهم حتى يظهر الصادق من الكاذب[3]. هذا هو الوجه.

أما خروجهم فلا فائدة منه أصلًا، بل إنه كما قال ربنا: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة:٤٧].

أولها: أنهم لن يزيدوا الصف المسلم شيئًا من القوة أو العزة، بل يزيدونكم خللًا في النظام واضطرابًا في الرأي، وفسادًا في القتال، فوجودهم لا خير فيه، والاستثناء على هذا الوجه متصل؛ لأنه مستثنى من أعم الأشياء[4].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٨٤.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٨، حاشية الشهاب على البيضاوي ٤/ ٥٧٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٦.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٧٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٤١٤.

والمفسدة الثانية المترتبة على خروجهم: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي: لأسرعوا في السعي بالنميمة وتفريق الصف، وتخذيل المجاهدين، وبث الأراجيف والتخويف من العدو،ويبغونكم الفتنة يعني: يطلبون لكم ما تفتنون به عن الخروج إلى الغزو. وفيكم من الضعاف الذين يكثرون من سماع كلامهم ويتأثرون بهم فتضعف همتهم عن القتال، يقول قتادة: وفيكم من يسمع كلامهم[1].

وتفسير السماع بالتأثر والقبول هو ما عليه جمهور المفسرين[2].

ثم تختتم الآية بهذا الوعيد والتهديد لهم: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو سبحانه عالم بدخائل نفوسهم مطلع عليها وسيجازيهم عليها، وهل الظالمون هنا المنافقون فقط أم المنافقون والسماعون؟ الظاهر الأول ولعله يشمل الثاني.

وليس هذا الفعل بجديد عليهم، فقد أرادوا وحاولوا التخذيل من قبل وذلك في غزوة أحد، فعندما وصل المسلمون إلى موضع بستان بين المدينة وأحد يسمى الشوط انسحب عبد الله بن أبي بثلاثمائة من المنافقين قائلًا: أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا؟[3].

وكان مقصده من ذلك زلزلة الصف المسلم، حتى كادت طائفتان من المسلمين أن تفشلا وهما بنو سلمة وبنو حارثة وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران:١٢٢].

وقوله: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ يعني: أنهم أعملوا الحيل والمكايد، ودبروا الأمور وقلبوها على كل أوجهها، وحاولوا بكل جهدهم أن يفشلوا أمرك، ولكن الله أخزاهم؛ فجاء الحق وفتحت مكة وتم النصر وظهر دين الله وهم كارهون.

وبعد أن ذكرت الآيات السابقة موقف المنافقين من الجهاد واستئذانهم ومفاسد خروجهم على وجه الإجمال، جاءت هذه الآيات لتفصل القول في مواقفهم التي قاموا بها قبل الغزوة وأثناءها. وتذكر أمثلة عملية لأعذارهم الكاذبة في التخلف عن الجهاد.

عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لجد بن قيس: **(يا جد هل لك في جلاد بني الأصفر؟)** قال جد: أتأذن لي يا رسول الله؟ فإني رجل أحب النساء، وأخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر أن أفتتن. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عنه: **(قد أذنت**

وأبو حيان يوجه اتصال الاستثناء بأنه كان في الغزوة منافقون ولهم خبال فلو خرج هؤلاء لزاد الخبال.
انظر: البحر المحيط ٥/ ٤٩.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠٢.

(٢) انظر:المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤١.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٤.

لك). فأنزل الله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

جاء أحد المنافقين وهو الجد يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم ويذكر عذرًا هو في حد ذاته ذنب فيقول: ائذن لي في القعود وعدم الذهاب ولا تفتني، أي: لا تؤثمني بأمرك إياي في الخروج، وذلك غير متيسر لي فآثم، فإذنك لا يوقعني في الإثم.

وجاء الرد القرآني على شبهته الواهية: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ وألا الاستفتاحية تفيد التنبيه لما يأتي بعدها، والسقوط يفيد معنى الهوي والضياع والتمكن في الوقوع، يقول سيد قطب: «والتعبير يرسم مشهدًا كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون، وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم، وتأخذ عليهم المنافذ والجهات فلا يفلتون، كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة وعن انتظار العقاب عليها حتمًا جزاء الكذب والتخلف والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير»[2].

إن فتنته الحقيقية ليست في ذهابه إلى بلاد الروم كما زعم، ولكن فتنته في تخلفه، وقبيح اعتذاره، وهذه هي الفتنة التي أصابته قبل أن يذهب. ثم يأتي التهديد القرآني له ولأمثاله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلن يستطيعوا منها فكاكًا ولن يجدوا عنها مهربًا.

ثم تذكر الآيات موقفًا آخر يبين سوء بواطنهم وخبث ضمائرهم ومحبتهم إلحاق الأذى بالمسلمين فيقول تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ والحسنة نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم.

وورد في نزولها عن جابر قال: «جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار السوء، يقولون: إن محمدًا وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فساءهم ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾»[3].

ثم يعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم طريق الرد على هؤلاء بقوله: قل لهم يا محمد، لن يأتينا إلا ما قدره الله عز وجل وقضاه في اللوح المحفوظ، واللام تفيد الاختصاص أي: إن هذه الإصابة لصالحنا ولخيرنا. وقوله: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: هو ناصرنا ومتولي أمورنا لا ولي لنا غيره؛ ولذلك فلن نتوكل إلا عليه، ولن نستعصم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٨٩ رقم ٩٦٠٠، وله طريق آخر عن ابن عباس عند الطبراني في الكبير رقم ١٢٦٥٤ والأوسط رقم ٥٦٠٠، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٢١٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٤.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨١٠، رقم ١٠٣٠٦.

إلا بحبله المتين.

ويأتي تلقين الجواب الثاني على ما قام به المنافقون فيقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ وهل للاستفهام وتفيد معنى التقرير، وفيه توبيخ للمنافقين، والمعنى: ما تنتظرون بنا إلا أحد أمرين كل منهما أحسن من العواقب الأخرى ومن عاقبة أمركم: أما أولهما فالنصر والفتح من الله، وفي ذلك عز الدنيا والآخرة. وثانيهما: الشهادة والمنزلة الرفيعة عند الله، ولا أفضل منهما، ولن يأتينا غيرهما.

أما أنتم أيها المنافقون فإنا نتربص بكم إحدى سوأتين: إما أن يأتيكم عذاب من الله في الدنيا فيهلككم كما أهلك الأولين والسابقين، أو يجعلنا الله أداة لقدرته فيهلككم بأيدينا، ولننتظر نحن وأنتم موعود الله بنا وبكم، فنحن على ثقة من نصره سبحانه، قال الحسن: تربصوا مواعيد الشيطان إنا معكم متربصون مواعد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه[1].

ثم تأتي الآيات بعد ذلك لتبين أنه لا فائدة من نفقتهم؛ لأنها بنيةٍ مدخولةٍ ولن يكون مالهم إلا حسرة عليهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: لا فائدة من نفقتكم، فإن أنفقتموها طائعين باختياركم أو مكرهين من رؤسائكم فالأمران مستويان في عدم القبول، فالأمر بالإنفاق بمعنى التسوية.

وقد روي في سبب نزول الآية أن الجد ابن قيس قال: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن، ولكن أعينك بمالي. ففيه نزلت الآية[2]. لكن السبب ضعيف، وبفرض صحته فالآية تذكر أمرًا عامًّا بصيغة الجمع يصدق عليه وعلى غيره.

وقوله: ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: لن يتقبلها منكم رسول الله ويأخذها، ويحتمل: لن يتقبلها الله منكم.

ثم تذكر الآية علة عدم قبول نفقتهم ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ والفسق مطلق الخروج ويراد به الكفر والمعاصي.

والظاهر إرادة المعنى الأول هنا بدليل التفصيل الوارد في الآية التي بعدها ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

والمعنى: الذي منع قبول نفقاتهم في أي شيء من الأشياء في هذه الغزوة وفي غيرها ثلاثة أسباب:

أولها: الكفر بالله وبرسوله، ومعلومٌ أن العمل لا يقبل ولا يزكو إلا بالإيمان؛ فلا

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٠٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠٦.

يتقبل الله إلا من المتقين.

والأمر الثاني: أنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم على حال من الكسل والفتور والتراخي، وجاء التعبير بصيغة الحصر للدلالة على أن هذا شأنهم في كل صلاة يصلونها؛ إذ هم لا يرجون بها ثوابًا ولا يخافون عقابًا.

والسبب الثالث: أنهم لا ينفقون إلا وأنفسهم غير راضية؛ فهم يعدون النفقة مغرمًا وبها تنقص أموالهم.

والتعبير بلفظ: ﴿كَٰرِهُونَ﴾ للدلالة على أن مجرد الأمر لهم بالنفقة إكراه لهم، وقد جاء ذكر عدم الصلاة الصحيحة، وعدم الإنفاق الصادق بعد الكفر -وإن كان الكفر وحده سببًا كافيًا لعدم القبول- إشارة إلى أن فعل الصلاة والإنفاق منهم لا يدل على إيمان، وإنما يدل على تمكن النفاق في القلب؛ لأنها صلاة بلا روح ونفقة بلا رغبة، والله أعلم.

وقد كان هؤلاء المنافقون من ذوي السعة في المال، فجاءت الآية على سبيل التعليم للنبي والأمة ألا يعجبوا بكثرة المال والولد، فإنه مصدر شقاء لهم في الدنيا والآخرة ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

والمعنى: لا تظنن أن كثرة المال والولد مصدر سعادة وهناء لهؤلاء القوم، بل هي مصدر شقاءٍ وغمٍّ وهمٍّ وحسرةٍ في الدنيا قبل الآخرة، فقد قضى الله قضاءً لا يرد أن من أحب شيئًا من دون الله عُذِّب به في الدنيا قبل الآخرة، ومن استعز بغير الله أتاه الذل من مبتغاه.

ثم تفضح الآيات دخائل نفوسهم وتبين كذبهم في حلفهم وقولهم إنهم لمن المؤمنين، وتبين أن الذي دفعهم إلى ذلك أنهم قوم يخافون الإخراج من الديار، أو يخافون قتال المؤمنين لهم، فيهرعون إلى الحلف وإلى التأكيد بأكثر من مؤكد أنهم من المؤمنين، وأنهم ينسبون إليهم في الدين وفي طاعة الله والرسول، والحق أنهم ليسوا كذلك ولكنهم يتظاهرون بذلك؛ لأنهم قوم يفرقون.

وتأتي الآية التي تليها لتفصل فرقهم وشدة جزعهم وخوفهم، وأنهم لو وجدوا مكانًا حصينًا أو كهفًا في جبل، أو مغارة وسربًا تحت الأرض لفرُّوا إليها مسرعين لا يلوون على شيء، وما ذاك إلا لتماديهم في كراهيتكم وكراهية المعيشة معكم؛ ولفرقهم من اكتشاف نفاقهم. وفي الآية تصوير بليغ لموقف نفوسهم، وحركة أبدانهم وإسراعهم نحو التخفي، وهم على شر حال من الذعر والجبن والفزع حتى لكأنك تتمثل موقفهم هذا كالعيان أمامك.

ثانيًا: تثبيط المنافقين للمؤمنين عن الخروج للجهاد:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة:٨١- ٨٧].

روي عن ابن عباس قال: «وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجال: يا رسول الله، الحر شديد، ولا نستطيع الخروج فلا تنفر في الحر ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ فأمره الله بالخروج»[1].

بينت الآية السابقة أن المنافقين هم أهل الفسق، وجاءت الآيات التي بعدها لتذكر الأدلة العملية على فسقهم ومنها: فرحهم بالقعود وكراهة القتال ثم بينت أن ما فعلوه كان سببًا لعدم خروجهم مع الصف المسلم مرة أخرى.

وقد سجلت الآيات الكريمة ثلاثة مواقف لأهل النفاق:

أولها: فرحهم بالقعود في المدينة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بالمخالفة له، وفي وصفهم بالمخلفين بالبناء للمفعول مزيد ذم وتحقير لهم، فإن الذي خلفهم نفاقهم وشيطانهم وضعف همتهم، وسوء فعالهم وضعف إيمانهم، ويجوز أن يكون المخلف والمثبط لهم هو ربنا ومولانا، ذلك أنه تعالى كره انبعاثهم، أو يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أذن لهم في التخلف، ولفظ مقعدهم يوحي بأسوأ الحالات عند الجهاد وهي حالة القعود، وما فرحهم إلا دلالة على خبث باطنهم.

وثاني الأمور: كراهيتهم الجهاد في سبيل الله، وهذا من العجب، فالجهاد شرف يحبه المؤمن؛ لأنه يرفع درجته عند الله، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٩، تفسير ابن أبي حاتم في التفسير ٦/ ١٨٥٥، رقم ١٠٥٠٤.

(موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود)[1] أرأيت كيف يكون ثواب وقوف ساعة واحدة؟ أفلا يحرك هذا الهمم ويحدو بالأرواح إلى بلاد الأفراح، فإذا كره إنسان الجهاد دل ذلك على أنه ما يؤثر إلا راحة بدنه وحفظ ماله.

وثالثة أثافيهم: أنهم قالوا: -تثبيطًا لأنفسهم وللمؤمنين- لا تخرجوا للقتال في الحر، ويدل ذلك على شدة تبجحهم وغلظة نفوسهم فهم مناعون للخير، أولم يعلموا أن حر جهنم أضعاف أضعاف حر الدنيا؟!

وإذا تحقق لهم شيء من الضحك والفرح بسبب عدم الخروج فإنه ضحك قليل في الدنيا وبكاء كثير في الآخرة[2].

فصيغة الأمر هنا خرجت مخرج الإخبار عن صنيعهم كما يقول جمهور المفسرين، وفائدة لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب، والمعنى: إنكم فرحون في هذه الدنيا وسيكون في الآخرة بكاء شديد.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ جمع في الآية بين صيغة الماضي والمضارع فهم كانوا وما زالوا يكسبون الإثم ويقترفونه.

وإذا كان أمرهم وحالهم كذلك فإنه يلزم أن ينبذوا بعيدًا عن الصف المجاهد إذ لا فائدة منهم؛ لأن الجهاد لا يكون إلا بذوي الهمم العالية الذين يكثرون عند الفزع؛ ولذلك فإن الله يوصي نبيه: إن رجعت إلى المدينة بعد هذه الغزوة وأرادت طائفة منهم أن تستأذنك للخروج فقل لهم: فات أوانه. لن تخرجوا أبدًا.

وقوله: ﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ انتقال من الشاق إلى ما هو أشق منه فإن القتال أشد من الخروج؛ أو لأن الأول موافقة لسؤالهم والثاني أصرح في التأكيد؛ لأن القتال هو موضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة، وقيل: بينهما عموم وخصوص إذ ربما يقاتلون العدو بلا خروج كما في الأحزاب[3].

وعلة عدم الإذن لهم مرة أخرى أنهم دعوا من قبل فلم يلبوا، وكانت الحاجة إليهم أمس، فليس لهم بعد ذلك نصيب في الخير، وقد كان أمامهم فرفضوه، ولا يتحمل أمر الجهاد إلا رجال. فليكن مكانهم إذن مع الخالفين الذين لا خير فيهم في دنيا ولا دين.

وإذا كان الشهيد لا يصلى عليه تكريمًا له لأنه قتل في المعركة فإن هؤلاء الذين فروا من المعركة لا يصلى عليهم من باب الإهانة

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٠/ ٤٦٢عن أبي هريرة مرفوعًا.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢٧، رقم ٦٦٣٦.

(٢) انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ١٦٠.

(٣) انظر:روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢٢٢، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٩٣.

لهم،فجاء النهي الإلهي عن الصلاة عليهم وعن الوقوف على قبرهم لدفنهم والدعاء لهم. ثم عللت الآيات النهي عن الصلاة عليهم والدعاء بأنهم كفروا بالله وبرسوله، وظلوا على عتوهم وخروجهم حتى ماتوا، والآية عامة وإن كان سببها خاصا إلا أنها تشمل من مات منهم ومن سيموت.

وإذا كان التكريم المادي لم يلحقهم فإنهم لن ينالوا كذلك أي تكريم معنوي حتى الإعجاب بهم، وقد سبقت آية قريبة من هذه؛ فإما أن يكون التكرار لتأكيد الأمر وبيان خطورة الإعجاب بهم وبحالهم؛ لأن الفتنة بالمال والولد ليست هينة، أو لأنها نزلت في قوم آخرين.

وأموالهم وأولادهم لا وزن لها في ضمير المؤمن؛ لأنهم كأشباه الرجال وليسوا برجال، فإذا أنزلت سورة كاملة أو بعض سورة تأمرهم بالإيمان بالله وبالجهاد مع رسوله فر أولو الطول ليستأذنوا، وأولو الطول هم أهل الغنى، وهم الملأ المترفون الذين لا يوفقون إلى خير في الغالب، وذلك لأنهم ألفوا معيشة النعيم وغذوا بها.

ثم تسجل الآيات عليهم أنهم لم يكتفوا بالاستئذان وإنما قالوا: دعنا ننعم مع هؤلاء القاعدين من النساء وغيرهم، فرضوا لأنفسهم بالمهانة، فكان جزاؤهم أن طبع الله على قلوبهم فلا يصل إليها خير أبدًا، وتأمل الفرق بين «مع» الأولى والأخيرة، فأمامهم معية الرسول في الجهاد لكنهم تركوها إلى معية القاعدين الخالفين؛ ولذلك فهم لا يفقهون أوامر الله، ولا يفقهون حكمة الجهاد.

ثالثًا: لمز المنافقين للمؤمنين:

ذكرت سورة التوبة أكثر من موقف فيه لمز من المنافقين للمؤمنين، وقد فضحهم الله فيما قالوا وفعلوا ومن هذه المواقف ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾[التوبة:٦٥- ٦٦].

عن عبد الله بن عمر: (قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا، وأكذب ألسنة وأجبننا عن اللقاء. فقال رجل في المسجد (في رواية الطبري هو عوف بن مالك): كذبت ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك رسول الله ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه متعلقًا بحقب (بحبل) ناقة رسول الله تنكبه الحجارة يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أبالله

وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟) ما يزيده)[1].

والمعنى: لئن سألتهم عما قالوه ليقولن -على سبيل الاعتذار-: إنما كنا نقول ذلك هزلًا لا جدًّا، ولعبًا لا صدقًا وحقًّا، فقل لهم مستنكرًا وموبخًا: أما كان أمامكم غير الله وشرعه وأحكامه لتستهزئوا بها؟ إن العذر أقبح من الذنب؛ فلا لعب ولهو مع أحكام الله ودينه، وليس ثمة إلا الكفر بعد الإيمان، فمن تاب تاب الله عليه، وإلا فهو من المجرمين المعذبين.

ومن جملة لمزهم في الغزوة ما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة: ٧٩-٨٠].

عن أبي مسعود قال: لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعل الآخر إلا رئاء فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾[2].

لم يكتف أهل النفاق بمنع المال وإنما تعدى بهم الأمر إلى لمز المتصدقين والسخرية منهم، وكان هذا في غزوة تبوك فنزلت الآيات؛ لتبين موقفهم من الصدقة التي تطلب منهم وموقفهم من الصدقة التي يدفعها غيرهم عن طيب خاطر.

لقد ندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الصدقة وحثهم عليها، فجاء كل امرئ بما يستطيع، وقدم عبد الرحمن بن عوف مالًا كثيرًا، وجاء رجل من الأنصار اسمه الحبحاب بمال قليل، وكان هذا طاقته وقدرته، فانتهزها المنافقون فرصة للمز والعيب والطعن على الصحابة، فصاحب الصدقة الكبيرة يتهمونه بالرياء وصاحب الصدقة اليسيرة ينالونه بالأذى: كيف يتصدق وهو محتاج؟ إن الله لغني عن صدقته! ما فائدة صدقته هذه؟ وما درى هؤلاء أن درهمًا واحدًا قد سبق ألف درهم، قال صلى الله عليه وسلم: (سبق درهم مائة ألف درهم قالوا: وكيف ذلك؟ قال: رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف ورجل ليس له إلا درهمان، فأخذ أحدهما فتصدق به)[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١١٩، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب الذين يلمزون المطوعين، ٨/ ١٨١، رقم ٤٦٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، ٢/ ٧٠٦، رقم ١٠١٨.

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، ٤/ ٩٩، وابن حبان في صحيحه، ٨/ ١٣٥، والحاكم في

وإفراد: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ وعطفها على ما قبلها من باب عطف الخاص على العام تطييبًا لخاطرهم وتنويهًا بما قاموا به؛ ذلك أن السخرية منهم تكون أشد، فلما اختصوا بمزيد سخرية اختصهم الله بالذكر، وكانت عقوبة هؤلاء الساخرين أن عاملهم الله بجنس ما يستحقون فسخر منهم، ويا لها من سخرية توجب ضياع الدنيا والآخرة.

ولأن ذا القلب الرحيم الرؤوف عليه السلام كان يتألف قلوب الناس ويستغفر لهم ويطيب قلوب أهليهم من المؤمنين، فإن ربه تبارك وتعالى خاطبه، وبيَّن له أن الاستغفار لهم وعدمه سواء، فهذا أمر في معنى الخبر، والمعنى: إن استغفرت أو لم تستغفر فلا فائدة، وقد ورد في القرآن الكريم التسوية بين الأمرين بلفظ الخبر صراحة، قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦].

والظاهر أن لفظ أو يحتمل التخيير[(١)].

وهذا ما فهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ففي الصحيح عن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك عن أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيده على السبعين)[(٢)].

ثم بينت الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لو زاد على السبعين في الاستغفار لهم فلن تلحقهم مغفرة، وسبب ذلك أنهم كفروا بالله وبرسوله، وما كان الله ليوفق أهل الكفر إلى طاعته والإيمان به ومرضاته، فهم الذين يستحقون ذلك بسبب أفعالهم.

رابعًا: مسجد الضرار:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ

المستدرك، ١/ ٥٧٦. وصححه على شرط مسلم.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٦٤، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٧٦، روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم)، ٨/ ١٨٤، رقم ٤٦٧٠.

﴿بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠].

عن أبي رهم الغفاري قال: أتى من بنى مسجد الضرار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متجهز إلى تبوك، فقالوا يا رسول الله، إنا بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة، والليلة الشاتية والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: (إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه) فلما رجع نزل بذي أوان على ساعة من المدينة، فأنزل الله في المسجد: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي فقال: (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه) ففعلا[1].

يمكن أن تكون الآية متصلة بالحديث عن القوم الذين مردوا على النفاق، أي: تمرنوا عليه واستلان لهم، فيكون من جملة كيدهم الخفي بناء مسجدٍ للضرار، وسيكون هدم المسجد من جملة التعذيب الذي يجدونه في الدنيا، ويحتمل أن تكون الآية موصولة الحديث عن مكائد المنافقين عامة وهي كثيرة في السورة.

لقد اتخذ جماعة من بني غنم بن عوف[2] مسجدًا ليصلوا فيه ويتركوا مسجد قباء وقد كان قريبًا منهم، وقد تعللوا بعلل كاذبة لإنشائه، لكن الآيات كشفت سرائرهم.

وبيَّنت أنهم اتخذوه لأربعة أهداف:

أولها: إيقاع الضرر بالمؤمنين؛ وذلك ببناء مسجد بجوار مسجد، ولا فائدة من البناء الثاني.

وثانيها: الإتيان بالكفر، أو تقوية ما هم عليه من الكفر؛ وذلك بتدبير الطعن والمكائد للمسلمين والتشاور في ذلك، وقد يكون كفرهم بالاعتقاد، قال ابن العربي «لما اتخذوا المسجد ضرارًا لاعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قباء ولا لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم كفروا بهذا الاعتقاد»[3].

وثالثها: التفريق بين المؤمنين؛ فقد كانوا يجتمعون في المسجد للصلاة، فتزداد ألفتهم وتجتمع كلمتهم إثر اجتماع قلوبهم وأبدانهم، وهذا مقصد كبير من مقاصد صلاة الجماعة، فإن تعددت المساجد بلا داع تفرقت الكلمة.

ورابعها: إعداد المكان انتظارًا لوصول أبي عامر الراهب؛ وقد كان من مُتنصِّرة العرب، وقد كان يطمع أن يكون زعيمًا

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق ٥/ ٢١١، السيرة الحلبية، الحلبي ٣/ ١٢٣.

(٢) انظر: تفسير عبدالرزاق ٢/ ١٦٥، جامع البيان ١١/ ١٩، تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ٩٥.

(٣) أحكام القرآن ٢/ ١٠١٣.

في قومه، فلما رأى نصر المسلمين فرَّ إلى المشركين وألبهم على المسلمين، فلما كانت وقعه أُحد حاول أن يستزل بعض الأنصار فقال: أنا أبو عامر. فقالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق. فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ثم قاتلهم قتالًا شديدًا ورماهم بالحجارة، وظل يقاتل المسلمين في كل حرب حتى يوم حنين فيئس. ثم انقطع وخرج إلى ملك الروم، فوعده بالجند فأرسل إلى قومه أن يبنوا معقلًا يقوم عليهم فيه، ومنَّاهم بجيش يقاتل فيه المسلمين، فبنوا المسجد وأعدوه قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، فكان هذا إرصادهم لمن حارب الله ورسوله من قبل.

عن عبد الله بن عباس قال: «وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فلآتي بجند من الروم فأخرج محمدًا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة فأنزل الله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1].

ثم يبين القرآن أنهم سيحلفون: أنهم ما قصدوا بالبناء إلا أفضل شيء حسن، وهو التوسعة على المسلمين والمنفعة لهم، وتيسير أمر الصلاة على الضعفاء والعجزة وغيرهم إذا جاء السيل يقطع الطريق ويحول بين الناس وبين الصلاة، أو يكون مقصدهم بالحسنى الجنة؛ أي: ما أردنا بعملنا هذا إلا دخول الجنة، وهذا قول ظاهره الخير وباطنه الشر والسوء، فسجل القرآن عليهم كذبهم، وكشف باطنهم، وكذبهم في قولهم.

ولأن هذا المسجد لم يُبْن على أساس من الطاعة، فقد نهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصلي فيه؛ وذلك لأن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم تعد تزكية للمكان ولأهله، ولربما ينخدع بذلك بعض الناس، وليس معنى ترك الصلاة فيه أن الصلاة ستتأخر عن وقتها، فها هو الأصل موجود؛ المسجد الذي تأسس على تقوى الله من أول يوم أقيمت فيه الصلاة بالمدينة، وظاهر سياق الآيات ومعرض الحديث أنه مسجد قباء، وعلى ذلك ابن عباس وعروة وقتادة وغيرهم، لكن ورد عن أبي سعيد الخدري قال: (دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ١٩، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٧٨.

الله: ما المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض فقال: (هو مسجدكم هذا) لمسجد المدينة)[1].

وسياق القصة يشهد لمسجد قباء، لكن إذا صح الحديث فلا محيد عنه، وهو كما ترى صحيح، وقد ذهب جمع من العلماء إلى التوفيق، فقال السهيلي: «وليس بين الحديثين تعارض، وكلاهما أسس على التقوى»[2]؛ فكلاهما مراد من الآية ولا مانع من ذلك؛ فقولك: لرجل صالح أحق أن تجالسه، فلا يقتصر على هذا الشخص فقط.

ثم مدح الله أهل هذا المسجد بأن فيه رجالًا يحبون أن يتطهروا، وقد ورد في بعض الروايات أن المقصود الطهارة الحسية، ولا شك أن الطهارة الحسية دليل على طهارة الباطن وسلامته، فهم يتطهرون من الآثام الحسية والمعنوية؛ لينالوا أعظم ما يفوز به مسلم وهو محبة الله.

ثم تأتي المقابلة بين من بنوا المسجدين وبين بناء المسجدين، والاستفهام للتقرير، والمعنى: أفمن ابتدأ أساس بنيانه على رضوان الله تعالى وابتغاء محبته وجنته خير أم من ابتدأ البنيان على أضعف قاعدة وأهزلها، فهي على حافة منهارة لا تثبت أمام أي نائبة؟ فلا بد أن تكون النتيجة هي الانهيار والبوار والخسار والعار والشنار، كالشجرة الخبيثة ليس لها على الأرض قرار. وهذا مثل عجيب يكشف وضع المنافقين المادي والمعنوي، فهم على أضعف حال.

وهل الآية على سبيل التمثيل لحال المنافقين؟ يحتمل، ولا مانع من إرادة المعنى الظاهر، فيكون الانهيار الذي أصاب بنيانهم الهزيل قد أدى به في النار، وفي ذلك روايات: قال جابر: لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

وبنحوه عن قتادة والسدي وسفيان والضحاك وغيرهم، وقد قام بعض أصحاب رسول الله بهدمه بعد نزول الأمر الإلهي، فصلى أهله فيه الجمعة والسبت والأحد فقط، وهُدم يوم الإثنين[4].

ثم تختتم الآية بسنة الله عز وجل مع أهل الظلم؛ فالله تعالى لا يوفقهم إلى خير ولا يرشدهم إلى طاعة؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بصنائعهم وما اقترفوه.

ويبقى وزر هؤلاء القوم ممتدًّا، وتظل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، رقم ١٣٩٧، ٢/ ٨٣٦.

(٢) انظر: الروض الأنف، السهيلي ٢/ ٢٤٦.
وعليه جماعة من المفسرين انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٧٧، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٣٤.

(٣) أخرجه الحاكم وصححه ٤/ ٦٣٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٦٩٧.

معرَّة فعلهم لا تغادرهم، ولا يزال هذا البناء الذي بنوه ريبة في قلوبهم، أي: شكًّا[1] عند بنائه، لخوف انفضاح أمرهم، وشكًّا عند هدمه لظهور نفاقهم أمام الكل، وحزازة في نفوسهم بعد ذلك لن يخرجها إلا تقطع قلوبهم بالموت والهلاك، والله عليم بأحوالهم حكيم في صنعه بهم. وقيل: إلا أن تقطع قلوبهم بالتوبة، وعندئذ يقبلهم ربهم ويعفو عنهم؛ فهو العليم بأحوال عباده جميعًا.

إن ما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انقطع لا محالة وانفصل، ومن فعل أمرًا بنية صالحة زكاه له ربه وبارك فيه، وأعلى قدر ما صنع، أما من عمل عملًا حتى وإن كان ظاهره عمل خير، لكن نيته فيه غير سليمة، فإن عمله سينقلب عليه ويبوء بإثمه ولا يبارك له فيه، وبناء مسجد الضرار ثم هدمه وتحريقه خير شاهد على ما نقول.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[الرعد:١٧].

وفي الآيات إشارة إلى عدم تكثير سواد أهل الكفر والنفاق فلا تحضر مجالسهم ومنتدياتهم، حتى وإن كان ظاهرها الخير، فمن كثر سواد قوم فهو منهم، ولربما ينخدع بعض الناس بمعسول حديثهم فيكون من ذلك فتنة.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٥.

ومن فوائد القصة ما ذكره القرطبي: «كل مسجد بني على ضرار أو رياء أو سمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه»[2]. ومنها: استحباب الصلاة في المساجد المؤسسة على الطاعة، المعمورة بأوتادها من أهل الخير والذكر والصلاح، وأن المسجد لا يمدح بأثاثه أو مفروشاته أو غير ذلك، وإنما يمدح بالرجال الذين يقيمون فيه ويتربون على هديه، وتتعلق قلوبهم وأرواحهم به، وتنطلق تصوراتهم وأفكارهم من خلال هديه ومنهجه.

خامسًا: محاولة قتل النبي صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ٧٤].

ذهب جمع من المفسرين[3] إلى أن الهمَّ الذي لم ينالوه هنا هو محاولتهم قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ورد في هذا

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٥٤.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٨١.

روايات صحيحة منها ما رواه أحمد عن أبي الطفيل، قال: (لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أمر مناديًا فنادى: إن رسول الله أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوده حذيفة ويسوق به عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، غشوا عمارا وهو يسوق برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة: **(قد، قد)** حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل ورجع عمار، فقال: **(ياعمار، هل عرفت القوم؟)** فقال: قدعرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون، قال: **(هل تدري ما أرادوا؟)** قال: الله ورسوله أعلم، قال: **(أرادوا أن ينفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فيطرحوه)**[1].

يتعمد المنافقون الحلف الكاذب؛ فيحلفون ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا وهموا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وتلك جريمة شنيعة سجل القرآن عليهم وزرها وعارها إلى يوم الدين، والعجب العجاب أنهم بادلوا إحسان رسول عليهم بأشد ألوان الإساءة؛ فقد كانوا عالة فقراء لا يجدون مالًا فأغناهم الله بالغنائم وأغناهم رسوله من عطاياه لهم حتى صاروا من أهل اليسار فهل هذا هو ما ينقمون به على الإيمان؟!

(١) أخرجه مسند أحمد في مسنده، ٣٩/ ٢١٠، قال محققه: إسناده قوى على شرط مسلم.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٩٥: رجاله رجال الصحيح.

المخلفون عن الغزوة

أولًا: أنواع المخلفين:

لقد تعددت أسباب التخلف عن غزوة تبوك، واختلف الموقف مع كل حالة، وقد أجمل ابن كثير أنواع المخلفين في أربعة أنواع فقال: «كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام مأمورون مأجورون، كعلي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وابن أم مكتوم. ومعذورون وهم الضعفاء والمرضى والمقلون، وهم البكاءون. وعصاة مذنبون، وهم الثلاثة، وأبو لبابة وأصحابه المذكورون. وآخرون ملومون مذمومون وهم المنافقون»[1].

أما النوع الأول فقد ورد في شأنهم أحاديث تبين أنهم تخلفوا بإذن سابق؛ ففي الصحيح: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى تبوك واستخلف عليا فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: (ألا ترضى أن تكون مني في منزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي)[2].

وسنفصل القول في الأقسام الثلاثة الأخرى؛ لأنه قد ورد فيها عظات قرآنية.

١. المعذورون.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة: ٩١-٩٢].

وقد سبق التعرض للآية عند الحديث عن إنفاق الفقراء وبيان أنه لا حرج على المعوزين ولا لوم،ولا حرج كذلك على من «ملكوا قدر النفقة إلا أنهم لم يجدوا المركوب»[3].

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بأعينهم تفيض من الدمع حزنًا، وذلك لأجل أنهم لا يجدون ما ينفقون.

لقد أعطى الله من فضله ورسوله قوما من المعوزين فوجدوا حمولة تحملهم ومن هؤلاء الأشعريون الذين روى قصتهم أبو موسى حيث قال: (أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك فقلت: يانبي الله، إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال:

(١) السيرة النبوية، ابن كثير ٤/ ٥٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، رقم ٤٤١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي، ٤/ ١٨٧٠، رقم ٢٤٠٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٢٢.

(والله لا أحملكم على شيء) ووافقته، وهو غضبان ولا أشعر ورجعت حزينًا من منع النبي صلى الله عليه وسلم، ومن مخافة أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وجد في نفسه علي.

فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم، فلم ألبث إلاسويعة، إذ سمعت بلالًا ينادي: أي عبدالله بن قيس، فأجبته، فقال: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك، فلما أتيته قال: **(خذ هذين القرينين، وهذين القرينين -لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد-، فانطلق بهن إلى أصحابك، فقل: إن الله، أو قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملكم على هؤلاء فاركبوهن)**. فانطلقت إليهم بهن، فقلت: إن النبي صلى الله عليه وسلم يحملكم على هؤلاء)[1].

ولم تكف النفقة أقواما آخرين فعادوا باكين حزنين على فوات نصيبهم من الخير، ولشدة حزنهم وبكائهم عرفوا بهذا الاسم: (البكائين) في كتب التفسير والسير، وقد حفظت الكتب أسماءهم.

قال ابن إسحاق: «البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعلبةبن زيد، أخو بني حارثة، وأبوليلى عبدالرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن حمام بن الجموح، أخو بني سلمة، وعبدالله بن المغفل المزني-وبعض الناس يقول:بل هو عبدالله بن عمرو المزني- وهرمي بن عبدالله، أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري»[2].

٢. المؤمنون الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٢-١٠٣].

هذا نوع آخر من الذين تخلفوا في هذه الغزوة،والآية معطوفة على ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾[التوبة:١٠١].

فهم ليسوا منافقين، ولكنهم قوم مؤمنون استزلهم الشيطان فقعدوا عن الغزو فخلطوا بين العمل السيء وهو ترك الغزو، وبين العمل الصالح وهو التوبة والاعتذار والندم؛ فاعترافهم بالذنب ومعرفتهم قبحه أرجى لقبول التوبة، وهم إن شاء الله أهل لأن يتوب الله عليهم إنه هو الغفور الرحيم.

عن ابن عباس قال: (كانوا عشرة رهطٍ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، رقم ٤٤١٥.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٥١٨.

تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع النبي صلى الله عليه وسلم، أوثق سبعةٌ منهم أنفسهم بسواري المسجد، فكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم إذا رجع في المسجد عليهم. فلما رآهم قال: (من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري؟) قالوا: هذا أبولبابة وأصحابٌ له تخلفوا عنك يارسول الله، وحلفوا لايطلقهم أحد حتى تطلقهم وتعذرهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم، حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين!) فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله الذي يطلقنا! فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم)[1].

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم من تكاسلهم وتزكي نفوسهم، وهذا علاج قرآني مستمر لكل من خلط بين عمل صالح وغيره، وباب التوبة مفتوح على مصراعيه في سورة التوبة.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٦٥١، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٧٢.

٣. المتخلفون من المنافقين.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة:٩٣- ٩٦].

ذكرت الآيات السابقة حال القوم المؤمنين الذين لم يجدوا ما ينفقون فأنفقوا الدمع الهتون في سبيل الله، وأمثال هؤلاء معذورون لأنهم لم يجدوا فلا مؤاخذة عليهم، إنما المؤاخذة على الخلي المليء؛ إذ لا عذر له في الحقيقة، وإن اجتهد في تلمس كواذب الأعذار. فجاءت هذه الآيات لتقطع عذرهم،ولتحدث المقارنة بينهم وبين المؤمنين الصادقين.

ما من سبيل على الضعفاء وغير الواجدين؛ لأنهم بذلوا وسعهم ولم يقصروا، إنما المؤاخذة والمعاتبة

والمعاقبة على أولئك الذين يستأذنون في ترك الجهاد وهم ذوو يسار، وليس بهم ما يحول دون الخروج.

ولعل سائلًا يسأل: ما الذي دفعهم إذًا إلى الجبن والنكول؟ فيكون الجواب: ما دفعهم إلى ذلك إلا دناءة نفوسهم، ورضاهم بالدون والمذلة، فسلكوا أنفسهم في مسلك العجزة والنساء والأطفال، وما كان ذلك إلا بسبب خذلان الله لهم، حيث طبع على قلوبهم فلم يعلموا عاقبة الجهاد وفائدته في الدين والدنيا، وتلك نتيجة حتمية للكسل وحسب السلامة والنوم الذي يعقبه اللوم.

ثم ينبئ الله نبيه بما سيصنع هؤلاء المنافقون إذا رجع المسلمون إليهم وفي ذلك إعجاز غيبي بذكر المستقبل وبكشف المخبوء من نفوسهم، فإنهم سيأتون ليعتذروا للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه، وذلك ليكونوا رأيًا عامًا يناصرهم ويغض الطرف عن فعلتهم الشنيعة، لكن الآيات تنبه القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي سيقول الكلمة الفصل في هذا الأمر وتقول له: قل لهم إن اعتذاركم كلا اعتذار، فلا تعتذروا، لأننا لن نصدقكم، لن نؤمن لكم، لن تنطلي علينا خديعتكم، فقد فضحكم الوحي، لقد أعلمنا الله علمًا مؤكدًا بما كان في نفوسكم من السوء والقبح، وسيرى ويعلم عملكم كله الآتي في المستقبل.

وفي هذا إمهال لهم وإغراء بالعودة والإنابة، وبعد ذلك ستعودون إليه، ويومها: سيجازيكم على كل عملكم، وقد عدل التعبير القرآني عن لفظ الجلالة إلى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لكي يعلموا أنه تعالى مطلع على خفيات نفوسهم وفي هذا تهديد لهم،والتنبئة يقصد بها نتيجتها وهي الجزاء على عملهم وجاءت بلفظ الإنباء لتوافق ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا﴾ وفيه إشارة إلى أنهم قد تخفى عليهم بعض أعمالهم لكنها لا تخفى على الخبير سبحانه.

وقد حدث ما أخبر القرآن؛ فقد أتوا يعتذرون.

ويروي كعب بن مالك في حديثه الماتع موقفهم فيقول: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك جلس للناس فلما فعل ذلك جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله وصدقته حديثي، قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك

الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

ولم يكتف هؤلاء المنافقون بالأعذار المنحولة المفتراة وإنما بالغوا في تأكيدها بالحلف، وقد نبأ القرآن عن ذلك قبل أن يحلفوا، وسيكون حلفهم إذا رجع المسلمون إليهم، وهدفهم من الحلف أن يعرض المؤمنون عن إيذائهم وأن يغضوا الطرف عن فعلتهم.

فيجيء التوجيه القرآني للمؤمنين ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ هم أرادوا إعراض الستر والإغضاء فأعرضوا إعراض البغض والازدراء، والمقت والبغضاء.

وهذا هو الذي يستحقونه؛ لأنهم رجس، فدعوا معاتبتهم؛ إذ المعاتبة لمن تريد أن تستبقي وده أما هؤلاء فلا، لن تطهرهم المعاتبة لأنهم نجس وقذر، فهذا تعليل الإعراض؛ يعني: أعرضوا لأنهم لا فائدة منهم، فقد تلبسوا بالنجاسة المعنوية حتى صارت علمًا عليهم وبالتالي فلن يكون لهم من مأوى إلا نار جهنم وفاقًا بما صنعوا، وقد يحتمل المعنى: أعرضوا عنهم ولا تقتربوا منهم لأنهم رجس إذ الطبع يعدي. والأول أوفق عندي.

وبعد أن حاولوا بحلفهم أن يعرض المؤمنون عنهم فإنهم يحاولون أن يرتقوا مرتقى أصعب ليرضى عنهم المؤمنون، فيحلفون جهد أيمانهم لإرضاء المؤمنين، فإن توهم متوهمهم أن المؤمنين سيرضون عنه فهل يدل هذا على رضا الله؟ كلا وحاشا.

وهناك صنف آخر من المنافقين وهم الأعراب، فقد جاؤوا يعتذرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة:٩٠].

ولفظ المعذرون يفيد أن عذرهم غير حقيقي.

قال الفراء: «وأماالمعذر على جهة المفعل فهو الذي يعتذر بغير عذر»[2].

فهؤلاء اعتذروا وقبل عذرهم، أما المنافقون فقد قعدوا ومنهم من لم يعتذر؛

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الثلاثة الذين خلفوا، رقم ٤٤١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم ٢٧٦٩.

(٢) معاني القرآن، الفراء ١/ ٤٤٨.

قال أبوعمرو بن العلاء: «كلا الفريقين كان مسيئا: قوم تكلفوا عذرا بالباطل، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ وقوم تخلفوا عن غير تكلف عذر فقعدوا جرأة على الله تعالى، وهم المنافقون فأوعدهم الله بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وهذا الوعيد للكفار من كلا الصنفين: المعتذرين والقاعدين.

ولأن سورة التوبة من أواخر السور نزولا فقد بينت مراتب وطبقات المجتمع ومنها طبقة أولئك الأعراب الذين يقيمون في البوادي، فتورثهم هذه الإقامة غلظة في الطباع، إنهم أشد كفرًا ونفاقًا من أهل الحضر في القرى والأمصار، وكانوا أخلق الناس وأولاهم بقلة المعرفة لحدود الله، ومن جنس هؤلاء الأعراب فريق آخر، يرون نفقتهم في الواجبات والمندوبات مغرمًا ثقيلًا ملازمًا لهم لا يستطيعون الفكاك منه، فهم ينفقون ولا يرجون لنفقتهم ثوابًا ولا يخشون بها عقابًا؛ لأنهم مكرهون عليها ولذا فهم يتربصون إصابة المسلمين بمكروه وسوء حتى لا يؤدوا المال.

وتعود الآيات مرة أخرى للحديث عن منافقي المدينة وما حولها بعد الحديث عن منافقي البادية، وذلك ليحذر المؤمنون منهم، فتبين الآيات أن في المدينة منافقين وكذا حولها من أهل الأعراب الذين أسلموا، ومنهم من مرد على النفاق، أي: توطن عليه وصار النفاق لهم سجية وخلقًا وطبعًا حتى لان لهم، وأسروه عن أعين الناس لمهارتهم في التخفي، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الفطن اللبيب ليخفى عليه حال هؤلاء القوم لكن الله عز وجل يعلمهم وسيعذبهم.

ثانيًا: قصة الثلاثة الذين خلفوا:

قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٦].

وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[التوبة:١١٨].

نزلت هاتان الآيتان في حديث الثلاثة الذين خلفوا، أما أولاهما فليست صريحة الدلالة عليهم إلا أن جمهور المفسرين على نزولها في شأنهم، وأما الثانية فهي نصٌّ واضح فيهم.

قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾

المعنى: وآخرون من المتخلفين مرجون أي: مؤخرون وهي من الإرجاء أي التأخير

(١) معالم التنزيل، البغوى ٤/ ٨٤.

ومنه: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾[الأعراف:١١١].

أي: أخرهما حتى ننظر في أمرهما. وقد قرئت بالهمزة والتسهيل[(١)].

وهم مرجئون لأمر الله إما أن يعذبهم الله أو يتوب عليهم،فظل أمرهم معلقا بين الخوف والرجاء، وهو سبحانه العليم بحالهم الذي يفعل أموره كلها على مقتضى الحكمة.وإلى كونها نزلت في الثلاثة الذين خلفوا ذهب جمع من أهل التفسير؛ فهو قول مجاهد، وقتادة والضحاك ومقاتل[(٢)] ورجحه جمهور المفسرين[(٣)].

أما الآية الثانية فهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[التوبة: ١١٧].

والمعنى: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصاروعلى الثلاثة الذين خلفوا عن الغزوة، حتى ضاقت الأرض بما وسعت عليهم بسبب ندمهم وحزنهم على ما بدر منهم، وضاقت عليهم أنفسهم لما نالهم من الكرب والغم والهم، وأيقنوا أن لا ملجأ لهم من الله إلا إليه، ثم رزقهم الله تعالى الإنابة إليه والرجوع إلى مرضاته إنه هو الموفق عباده للتوبة.

والآية نزلت في كعب بن مالك السلمي وهلال بن أمية الواقفي ومرارة بن الربيع العامري، وجاءت الآية بالخبر المؤكد بأداة القسم (اللام) ودخول حرف التحقيق(قد) على الماضي لتبين عظيم فضله وسابغ نواله وإحسانه على هؤلاء الصادقين الذين كانوا مع النبيصلى الله عليه وسلم، وعطف عليهم هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا، وصيغة:(خلفوا) بالبناء للمفعول، والمعنى إما أن يكون خلفوا عن الغزوة لا نفاقًا بل تكاسلًا، أو خلفوا عن قبول التوبة، فكأنهم خلفوا عن المعتذرين الذين قبل الرسول صلى الله عليه وسلم عذرهم، والثاني: أرجح، لأن (إذا ضاقت) غاية للتخفيف، ولم يكن ذلك عن تخليفهم عن الغزو، وإنما ضاقت عليهم الأرض عن تخليفهم عن قبول العذر»[(٤)].

وهذا هو الذي نص عليه كعب بن مالك، حيث قال في تفسير الآية، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه»[(٥)].

(١) قرأها بالهمز ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبوبكر عن عاصم.وقرأالباقون بدون همز.
انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٤٠٦.

(٢) انظر: تفسير عبدالرزاق الصنعاني ٢/ ١٦٥، وجامع البيان، الطبري ١١/ ٦٧٠.

(٣) ورجحه الفراء في معاني القرآن١/ ٤٥١، والسمرقندي في تفسيره ٢/ ٨٧، والثعلبي في الكشف والبيان ٥/ ٩١.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٩٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم

ثم ذكرت الآية الكريمة أنه بسبب تأخر التوبة حصل لهم ثلاثة أشياء:

أولها: أنه ضاقت عليهم الأرض على اتساعها ورحابتها.

وثانيها: أنه ضاقت عليهم أنفسهم.

وثالثها: أنهم أدركوا يقينا ألا مفر من الله إلا إليه. ثم وفقهم الله لتوبة وقبلها منهم بفضله وجوده وكرمه.

وفي الصحيحين تفصيلٌ من كعب لأحداث التخلف وما بعدها وهو حديث طويل غزير الفوائد وسبق طرف منه، ومن فوائد القصة: لحوق اللوم بكل فرد تخلف، وترك قتل المنافقين، وعظم أمر المعصية، وأن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف في الدين، وجواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه، وأن المرء إذا لاحت له فرصة في الطاعة فحقه أن يبادر إليها ولايسوف بها لئلا يحرمها،واستحباب بكاء العاصي أسفا على ما فاته من الخير وفيها إجراء الأحكام على الظاهر وفيها عظم مقدار الصدق في القول، وجواز الزجر بالهجر إلى غير ذلك من الفوائد[1].

القيادة النبوية في الغزوة

كانت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين الصادقين في تبوك قيادة عظيمة، وقد ظهر أثر هذه القيادة في أمور أوجزها فيما يأتي:

١. الاهتمام بمواطن العبرة عند المرور عليها.

فعن عبدالله بن عمر (أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال: **(لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ماأصابهم)** ثم تقنع بردائه وهوعلى الرحل)[2].

وما ذلك إلا ليأخذ القوم العظة بما حل وأصاب المكذبين قبلهم، ولتكون النفس المؤمنة على وجل من العقوبة الدنيوية، وليفقه القوم حكمة المرور على أماكن العذاب.

٢. الاهتمام بالجند أحياء وأمواتًا.

وتجلى ذلك في قصة ذي البجادين؛ ويرويها عبدالله بن مسعود فيقول: (قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، قال: فرأيت

٤٤١٨.

(١) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (وإلى ثمود أخاهم صالحا)، رقم ٣٣٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهدوالرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم ٢٩٨٠.

شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر وعمر، وإذا عبدالله ذوالبجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرته، وأبوبكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: أدنيا إلي أخاكما، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: **(اللهم إني أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه)**. قال: يقول عبدالله بن مسعود: ياليتني كنت صاحب الحفرة)[1].

وفيها الاهتمام النبوي بأمر الجنود جميعا، والعناية البالغة بالفقراء المخلصين من الصحابة في حياتهم ومماتهم.

٣. حدبه صلى الله عليه وسلم وحرصه على سلامة أصحابه من أي أذى.

عن أبي حميد قال: (وانطلقنا، حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلايقم فيها أحد منكم فمن كان له بعير فليشد عقاله)** فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيئ)[2].

وفيها من دلائل نبوته: إخباره بالريح قبل هبوبها، وفيها: الحرص البالغ على سلامة الصحابة وتحذيرهم من التعرض للهلاك.

٤. أسلوب الحزم والجدية.

ويتضح ذلك في الغزوة من مواقف متعددة؛ منها الحزم مع من تأخر، والعقوبة على من تخلف من المؤمنين.

٥. ومن بركات القيادة النبوية في هذه الغزوة: تكثير الماء والطعام.

وهذا من دلائل النبوة. وقد ورد في هذا أكثر من رواية، فعن معاذ بن جبل قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنكم ستأتون غدا، إن شاء الله، عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي) فجئناها وقدسبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، قال: فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل مسستما من مائها شيئا؟) قالا:نعم، فسبهما النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لهما ما شاء الله أن يقول.

قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلًا قليلًا، حتى اجتمع في شيء، قال: وغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر أو قال: غزير -شك أبوعلي أيهما قال- حتى استقى الناس، ثم قال: (يوشك، يامعاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هاهنا

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٥٢٨.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب في معجزات النبي، رقم ١٣٩٢، ٤/ ١٧٨٥.

قد ملئ جنانًا)[1].

وفي الحديث يتضح أسلوب الحسم والقوة في معاتبة من خالف الأمر النبوي، وهو عنوان بارز في هذه الغزوة، وفيه بركة النبي صلى الله عليه وسلم وإخباره بالغيب الذي تحقق واقعًا. وحدث مثل ذلك في الطعام؛ فقد (طلب عمر من رسول الله أن يدعو بفضل الزاد ثم يدعو الله عليه بالبركة فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه بالبركة، ثم قال: (خذوا في أوعيتكم)، قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلاملئوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة)[2].

وفي الحديث رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه وقبول مشورة عمر، والحرص على تموين الجيش بالطعام وفيه أيضا شاهد من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

٦. السير ليلًا.

ومن معالم القيادة النبوية الرشيدة في هذه الغزوة: أن قطع المسلمون أكثر المراحل بين المدينة وتبوك ليلا، ليتخلصوا من الحرالشديد. إن الحركة ليلا في موسم الحر ضرورية جدا خاصة في الصحراء؛ وهذا ما تطبقه الجيوش الحديثة في العصر الحاضر. إن غزوة تبوك تدريب عنيف للمسلمين، كان غرض النبي صلى الله عليه وسلم منه إعدادهم لرسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية وتكوين الدولة الاسلامية المترامية الأطراف؛ فقدكانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم فلا بد من الاطمئنان إلى كفاية جنوده قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى[3].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي، ٤/ ١٧٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم ٤٥، ١/ ٥٦ عن أبي سعيد الخدري.

(٣) الرسول القائد، الواء محمود شيت خطاب ص٤١٥.

الدروس المستفادة من غزوة تبوك

لم يحارب المسلمون في تبوك؛ بل مكثوا عشرين يوما صالحهم فيها حكام البلدان الشامية ودفعوا الجزية، ومن هؤلاء ملك أيله وملك دومة الجندل الذي أسره خالد بن الوليد فافتدى نفسه بألفي بعير، وثمان مئة رأس،وأربع مئة درع ودفع الجزية، وصالح المسلمون أهل جرباء وأذرح وتعاهدوا على دفع الجزية[1]، وإذا كان الأمر قد تم بدون خسائر مادية ومعنوية للمسلمين، فإن الغزوة في الواقع كان لها آثار عظيمة على المسلمين داخليًا وخارجيًا.

فقد كان للغزوة أثر خارجي تمثل في إبراز قوة المسلمين، وتأكيد سيطرتهم على الحدود الشمالية للجزيرة العربية، وإرهاب متنصرة العرب الذين كانوا خاضعين للروم؛ فقد أدركوا يقينا أن هناك قوة صاعدة لن يقف أمامها أحد ولابد لهم أن يعيدوا النظر في ولائهم للروم.

أما فوائدها وآثارها على الجماعة المسلمة فقد كانت جمة وافرة، انتفع بها الأولون، ولا زال معينها عذبا ينتفع منه كل وارد، ومن هذه العظات والعبر ما يأتي:

١. أنه لم يؤت المسلمون إلا من قبل خيانة الداخل، فالمنافقون أضر على الأمة من عدوها الظاهر،إذ هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا؛ فخطرهم أشد وطعنتهم أسد.

٢. على قائد الصف المسلم أن ينقي الصف من هؤلاء المنافقين وأمثالهم، وقد استنبط الإمام الشافعي رحمه الله هذا الحكم من آيات سورة التوبة؛ فبعد أن ذكر مواقف المنافقين في أحد والخندق وبني المصطلق وتبوك قال: «فمن شهر بمثل ما وصف الله تعالى المنافقين لم يحل للإمام أن يدعه يغزو معه .لأنه ممن منع الله أن يغزو مع المسلمين؛ لطلبه فتنتهم،وتخذيله إياهم، وأن فيهم من يستمع له بالغفلة والقرابة والصداقة، وأن هذا قد يكون أضر عليهم من عدوهم»[2]. وفي المغني لابن قدامة: «ولا يستصحب الأمير معه مخذلا وهو الذي يثبط الناس عن الغزو . ولا مرجفا. ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار، ولا من يوقع العداوة بين المسلمين ويسعى بالفساد لقول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٥٢٥.

(٢) الأم، الإمام الشافعي ٤/ ١٧٥.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[1].

٣. إنما يفتتن المفتون. كلمة صحيحة؛ فما أوقعه في الفتنة إلا قابليته لها واستعداده الداخلي.

٤. وقد كشفت الغزوة كثيرًا من خصائص المنافقين؛ فهم قوم يفرقون. هكذا سجل القرآن عليهم هذه الصفة، ولذا فإنهم يحسبون كل صيحة عليهم، وإذا جاء الخوف تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، وعند ذكر القتال ينظرون نظر المغشي عليه من الموت، وما هذا كله إلا بسبب جبنهم وفرقهم ولولا ذلك لأعلنوا كفرهم صراحة. وهم يريدون إيقاع الفتنة وزيادة الخبال ويتذرعون بالأعذار الكاذبة، ويلمزون المؤمنين، ويكثرون الحلف الكاذب، ويخوضون ويلعبون ويستهزئون بآيات الله وبرسوله، ويفرحون بالجبن والقعود، ويتفننون في إخفاء نفاقهم، ويستخدمون المساجد وأماكن الطاعة في تقوية باطلهم.

٥. ومن دورس الغزوة أن الجهاد هو محك التمييز بين المؤمن والمنافق، فالمنافق قد يظهر بعض الطاعات لكنه لا يتحمل التضحية بنفسه وماله لأنه متعلق بحب الدنيا؛ فالدنيا بأعراضها القريبة تغري أهل النفاق فيتحمسون ويخرجون.

٦. لابد أن يفتضح أمر الكاذب، وإن ظل فترة يداهن أو ينافق، فلا بد أن تظهر خبيئته على فلتات لسانه وسيماء وجهه وفعله.

٧. أسوأ خصلتين يتحلى بهما إنسان الجبن والبخل، وقد جمع أهل النفاق بين الأمرين فهم جبناء بخلاء، ولا أسوأ من اجتماعهما في شخص.

٨. لا حرج على المرء إن بذل ما في وسعه وطاقته حتى وإن كان يسيرًا، فإن الله يبارك له فيه ويربيه له، وقد سئل الرسول عليه السلام: أي الصدقة أفضل؟ فقال: (جهد المقل)[2]. وعليه فلا يحوز السخرية بالمؤمنين، ولا احتقار عملهم في الخير أيًا كان قدره، ومن سخر بمؤمن كوفيء بنفس عمله.

٩. لا يجوز الاستغفار لمن علم نفاقه، وظهر من أقواله وأفعاله ما يلحقه بهذه الطائفة.ومن بدأ بالفسق فلن يصل للهداية، ومن زاغ أزاغ الله قلبه، ومن كان في الضلالة أمده الله على ما هو عليه.

(١) المغنى، ابن قدامة ٩/ ٢٠١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٣٢٤، وأبو داود في سننه، كتاب الزكاة، رقم ١٦٧٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤٩، رقم ١١١٢.

١٠. من علامات الإيمان الصادق حب الجهاد، والتحرق شوقًا للبذل والاستشهاد،حتى يبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد فيضان البكاء أسفًا وحزنًا على فوات نصيب الخير.

١١. المسلم يحرص على مجاهدة نفسه وهواه، وان زينت له قعودا يتمناه، فأبو خيثمة يترك معافسة الأهل وينطلق مسرعا، عندما قارن حاله بحال المجاهدين الصادقين.

١٢. جواز القتال في الأشهر الحرم.

١٣. خطورة الاستهزاء بالدين والصالحين.

١٤. الاتعاظ بآثار السابقين، وأخذ العبرة منها، فلا يمر المرء عليها مر الغافلين، بل يتذكر مصير أولئك الذين تنكبوا طريق الهداية وظلوا في عماية، كي يحذر طريقهم فينجو ويفوز بما يرجو.

١٥. أهمية الشورى: وقد تجلى ذلك فى مواقف كثيرة منها: قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش لعطش شديد، قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة، قبول مشورة عمر في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة.

١٦. أن الإمام إذا استنفر الجيش لزمهم النفير، ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه، ولا يشترط في وجوب النفير تعيين كل واحد منهم بعينه، بل متى استنفر الجيش، لزم كل واحد منهم الخروج معه، وهذا أحد المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرض عين. والثاني: إذا حضر العدو البلد. والثالث: إذا حضر بين الصفين.

١٧. تركه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكارًا، فهو توبة وإقلاع.

١٨. تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسول الله مسجد الضرار، وأمر بهدمه، وهو مسجدٌ يصلى فيه، ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه، فواجب على الإمام تعطيله، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له[1].

موضوعات ذات صلة:

غزوات الرسول مع اليهود، غزوة أحد، غزوة الأحزاب، غزوة بدر

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٥٠٠.

الغضب

عناصر الموضوع

مفهوم الغضب	٣١٤
الغضب في الاستعمال القرآني	٣١٥
الألفاظ ذات الصلة	٣١٦
أقسام الغضب	٣١٨
الأسباب الموجبة لغضب الله تعالى	٣٢٤
المغضوب عليهم	٣٢٩
أثر الغضب في الدنيا والآخرة	٣٣٥

مفهوم الغضب

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الغين، والضاد، والباء، أصل صحيح يدل على شدة وقوة. يقال: إن الغضبة: الصخرة الصلبة. قالوا: ومنه اشتق الغضب، لأنه اشتداد السخط»[(١)].

وعرف ابن منظور الغضب: بـأنه «نقيض الرضا»[(٢)].

يقال: رجل غضوب: شديد الغضب. والغضوب: الحية الخبيثة. والغضوب: الناقة العبوس. والمغضوب: الذي ركبه الجدري، فإذا غطى الجدري جلد المجدور، قيل: أصبح جلده غضبة واحدة. والغضابي: الكدر في معاشرته، مأخوذ من الغضاب، وهو: القذى في العينين[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

اختلفت عبارات العلماء في تعريف الغضب، لكنها جميعًا تدور حول فكرة واحدة ومعنى واحد، وهي تتقارب كثيرًا مع معنى هذه اللفظة في معاجم اللغة.

فقد عرفه الغزالي بأنه: «غليان دم القلب بطلب الانتقام»[(٤)].

وعرفه الثعالبي بأنه: «غليان القلب بسبب ما يؤلم»[(٥)].

وقال الجرجاني: «الغضب تغير يحصل عند غليان دم القلب ليحصل عنه التشفي للصدر»[(٦)].

وقد عرف الطبري رحمه الله غضب الله بأنه: «إحلال عقوبته بمن غضب عليه، إما في دنياه وإما في آخرته»[(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٢٨
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٤٨
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٤٨، الصحاح، الجوهري ١/ ٢١٤ .
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي ٣ / ٢٢٤.
(٥) الجواهر الحسان، الثعالبي ص٥٤ .
(٦) التعريفات، الجرجاني ص٢٠٩ .
(٧) جامع البيان، الطبري ١/ ٨٠ .

الغضب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غضب) في القرآن الكريم (٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:١٣]
المصدر	١٤	﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝١﴾ [البقرة:٩٠]
اسم الفاعل	١	﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]
اسم المفعول	١	﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٧]
الصفة المشبهة	٢	﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه:٨٦]

وجاء الغضب في القرآن الكريم بمعناه اللغوي الدال على ثوران دم القلب وإرادة الانتقام، وإذا أضيف إلى الخالق سبحانه فهو صفة له لائقة بذاته سبحانه، ومن لوازمها الانتقام والعقاب[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٩٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الغين ص٨٤٩.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٣/ ١٦٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٣٥-١٣٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ السخط:

السخط لغة:

الكراهية للشيء، وعدم الرضا به[١].

السخط اصطلاحًا:

الغضب الشديد المقتضي للعقوبة[٢].

الصلة بين السخط والغضب:

الغضب يكون من الصغير على الكبير ومن الكبير على الصغير، والسخط لا يكون إلا من الكبير على الصغير[٣].

٢ الانتقام:

الانتقام لغة:

أصل هذه المادة يدل على إنكار شيءٍ وعيبه، يقال: لم أرض منه حتى نقمت وانتقمت، إذا كافأه عقوبةً بما صنع. والنقمة العقوبة، وانتقم الله منه أي: عاقبه[٤].

الانتقام اصطلاحًا:

هو إنزال العقوبة مصحوبًا بكراهية تصل إلى حد السخط[٥].

والمنتقم «هو المبالغ في العقوبة لمن يشاء. وهو مفتعل من نقم ينقم إذا بلغت به الكراهة حد السخط»[٦].

الصلة بين الانتقام والغضب:

الانتقام له صلة بالغضب؛ لأن الغضبان يتوق إلى الانتقام ممن يغضب منه غالبًا.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣١٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ٤٠٢.
(٣) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٢٤٦.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٤٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٦٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٩٠.
(٥) نضرة النعيم ٩/ ٤٠٠٧.
(٦) النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير ٥/ ٢٣١.

٣ الغيظ:

الغيظ لغةً:

الغيظ: الغضب، وقيل: هو أشد من الغضب، وقيل: هو سورته وأوله[١].

الغيظ اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قال الأصفهاني: الغيظ: أشد الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه[٢].

الصلة بين الغيظ والغضب:

قال ابن دريد: «الغيظ فوق الغضب؛ وقد فصل قومٌ من أهل اللغة بين الغيظ والغضب فقالوا: الغيظ أشد من الغضب؛ وقال قوم: الغيظ سورة الغضب وأوله»[٣].

وقال أبو هلال العسكري في التفريق بين الغيظ والغضب: «الإنسان يجوز أن يغتاظ من نفسه ولا يجوز أن يغضب عليها، وذلك أن الغضب إرادة الضرر للمغضوب عليه ولا يجوز أن يريد الانسان الضرر لنفسه، والغيظ يقرب من باب الغم»[٤].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٥٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦١٩.
(٣) جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٢٣.
(٤) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٢٦٩.

أقسام الغضب

أولًا: غضب الله سبحانه وتعالى:

الغضب صفة من صفات الفعل الثابتة لله عز وجل على الوجه اللائق به[(١)].

يقول الشنقيطي: «اعلم أن الغضب صفة وصف الله بها نفسه إذا انتهكت حرماته، تظهر آثارها في المغضوب عليهم. نعوذ بالله من غضبه جل وعلا. ونحن معاشر المسلمين نمرها كما جاءت؛ فنصدق ربنا في كل ما وصف به نفسه، ولا نكذب بشيء من ذلك مع تنزيهنا التام له جل وعلا عن مشابهة المخلوقين سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا»[(٢)].

وهذه الصفة ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

وثبت في حديث الشفاعة الطويل عندما يفزع الناس إلى الأنبياء، يطلبون منهم الشفاعة، فكل نبي يأتونه يقول لهم: (إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله)[(٣)].

وما رواه ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: (اشتد غضب الله على من قتله النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل الله اشتد غضب الله على قومٍ دموا وجه نبي الله صلى الله عليه وسلم)[(٤)].

وذكر شيخ المفسرين أقوال العلماء في إسناد الغضب إلى الله تعالى، فقال: «واختلف في صفة الغضب من الله جل ذكره. فقال بعضهم: غضب الله على من غضب عليه من خلقه، إحلال عقوبته بمن غضب عليه، إما في دنياه وإما في آخرته، كما وصف به نفسه جل ذكره في كتابه فقال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وكما قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال بعضهم: غضب الله على من غضب عليه من عباده، ذمٌّ منه لهم ولأفعالهم، وشتمٌ لهم منه بالقول. وقال

(١) شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص١٨٧.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٧٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل: (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه)، ٢/ ١٣٥، رقم ٣٣٢٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الجراح يوم أحدٍ، ٥/ ٧١، رقم ٤٠٧٤.

بعضهم: الغضب منه معنى مفهوم كالذي يعرف من معاني الغضب، غير أنه وإن كان كذلك من جهة الإثبات، فمخالف معناه منه معنى ما يكون من غضب الآدميين الذين يزعجهم ويحركهم ويشق عليهم ويؤذيهم. لأن الله جل ثناؤه لا تحل ذاته الآفات، ولكنه له صفة، كما العلم له صفة، والقدرة له صفة، على ما يعقل من جهة الإثبات، وإن خالفت معاني ذلك معاني علوم العباد، التي هي معارف القلوب، وقواهم التي توجد مع وجود الأفعال وتعدم مع عدمها»[1].

ومعظم الآيات القرآنية التي تحدثت عن الغضب أسندت الغضب إلى الله عز وجل كما بينا سابقًا، كما في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

قال الآلوسي: «وباؤا بغضب من الله؛ أي نزلوا وتمكنوا بما حل بهم من البلاء والنقم في الدنيا، أو بما تحقق لهم من العذاب في العقبى، أو بما كتب عليهم من المكاره فيهما، أو رجعوا بغضب أي: صار عليهم، ولذا لم يحتج إلى اعتبار المرجوع إليه أو صاروا أحقاء به أو استحقوا العذاب بسببه وهو بعيد. وأصل البواء بالفتح والضم، مساواة الأجزاء ثم استعمل في كل مساواة فيقال: هو باء فلان أي كفؤه، ومنه بؤ لشسع نعل كليب وفي وصف الغضب بكونه من الله تعالى تعظيم لشأنه بعد تعظيم وتفخيم بعد تفخيم»[2].

ثانيًا: غضب الإنسان:

«الغضب من شيم بني آدم، فلا يذم، ولا يمدح إلا من جهة آثاره ومقاصده»[3].

ومعنى ذلك: أن الغضب ظاهرة انفعالية وعاطفة شعورية طبيعية لدى الإنسان، وهو صحي إذا تم توجيهه بالطريقة الصحيحة، ولم يحصل فيه خروج عن ضوابط الشرع والعقل. ولكن عند فقدان السيطرة والقدرة على التحكم، يصبح الغضب مدمرًا ومؤديًا إلى مشاكل جمة في العلاقات الإنسانية.

قال ابن منظور: «قال ابن عرفة: الغضب من المخلوقين شيء يداخل قلوبهم ومنه محمود ومذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق، وأما غضب الله فهو إنكاره على من عصاه فيعاقبه»[4].

ومن هنا فإن الغضب المتعلق بالإنسان

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ١٨٨-١٨٩.

(٢) روح المعاني، الألوسي ١/ ٢٧٦.

(٣) قواعد وفوائد من الأربعين النووية، ناظم سلطان، ص ١٤٨.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٤٩.

ينقسم إلى قسمين[1]:

الأول: الغضب المذموم.

وهو الغضب الدنيوي، الذي يكون في غير الحق. وإنما يكون لهوى النفوس، يتجاوز فيه العبد بقوله، فيشتم ويقذف، ويجرح الآخرين بكلمات مؤذية، ويتجاوز فيه بفعله، فيضرب ويتلف أموال الآخرين وأملاكهم.

وإذا أطلق الغضب فإنما يطلق على هذا النوع في الأغلب الأعم، لهذا حذر منه الإسلام أيما تحذير، واعتبره أساس كل مصيبة وبليه، وسببًا لجلب الدمار والخراب، والقتل والأعمال العدوانية.

فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: (إن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني: قال: **(لا تغضب)**، فردد مرارًا قال: **(لا تغضب)**[2].

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما (أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يباعدني من غضب الله عز وجل؟ قال: **(لا تغضب)**[3].

وقد أشارت الآيات القرآنية إلى هذا النوع من الغضب، في سياق الحديث عن صفات المؤمنين، الذين يتصفون بالعفو والمسامحة، ولا يجعلهم الغضب يظلمون الآخرين ويتجاوزون في العقوبة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

«يعني: إذا غضبوا على أحد يتجاوزون ويكظمون الغيظ»[4].

ففي هذه الآية يمدح الله عز وجل عباده المؤمنين الذين «من شيمتهم المغفرة عند الغضب؛ أي: إمساك أنفسهم عن الاندفاع مع داعية الغضب فلا يغول الغضب أحلامهم»[5].

وقريب من هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الثاني: الغضب المحمود.

وهو الذي يكون لله، ومن أجل الله، وإذا انتهكت محارم الله. ويكون للحق إذا اعتدي على الإنسان بدون وجه حق على ماله، أو نفسه، أو عرضه، أو ولده. فهذا الغضب يكون مستساغًا شرعًا، وقد يكون

(١) انظر لمزيد من التفصيلات حول أقسام الغضب: الغضب، سناء سليمان، ص٣٤-٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٣/ ١٦١، رقم ٦١١٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢ / ١٧٥. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٢٧٤٧.

(٤) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٣٣.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١١١.

واجبًا، لكن يجب أن يتصرف أثناء غضبه هذا بحدود دينه، وبما يوافق الحق والعدالة.

قال ابن حبان: «والخلق مجبولون على الغضب والحلم معا فمن غضب وحلم في نفس الغضب فإن ذلك ليس بمذموم ما لم يخرجه غضبه إلى المكروه من القول والفعل»[1].

ويقول صاحب الظلال: «الغضب انفعال بشري ينبع من فطرته. وهو ليس شرا كله. فالغضب لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير. ومن ثم لا يحرم الغضب في ذاته ولا يجعله خطيئة. بل يعترف بوجوده في الفطرة والطبيعة، فيعفي الإنسان من الحيرة والتمزق بين فطرته وأمر دينه. ولكنه في الوقت ذاته يقوده إلى أن يغلب غضبه، وأن يغفر ويعفو، ويحسب له هذا صفة مثلى من صفات الإيمان المحببة. هذا مع أنه عرف عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أنه لم يغضب لنفسه قط، إنما كان يغضب لله، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه شيء. ولكن هذه درجة تلك النفس المحمدية العظيمة لا يكلف الله نفوس المؤمنين إياها. وإن كان يحببهم فيها. إنما يكتفي منهم بالمغفرة عند الغضب، والعفو عند القدرة، والاستعلاء على شعور الانتقام، ما دام الأمر في حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد»[2].

وغضب الأنبياء عليهم السلام من هذا القسم المحمود، فقد كانوا لا ينتقمون لحظوظ أنفسهم، وإنما يغضبون حين تنتهك محارم الله، وهذا ما تدل عليه الآيات القرآنية التي أسندت الغضب لموسى ويونس عليهما السلام. وفيما يلي بيان ذلك:

١ . غضب موسى عليه السلام.

ذكر القرآن الكريم انفعال موسى عليه السلام وغضبه الناتج عن عبادة قومه للعجل في موضعين اثنين:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَٰحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦].

ففي هذين الموضعين بين الحق سبحانه وتعالى أن السبب الذي أدى إلى انفعال الغضب عند موسى عليه السلام، هو اتخاذ

(١) روضة العقلاء ابن حبان البستي ١/ ١٤١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٦٤.

قومه عجلًا يعبدونه ويعكفون عليه، وهذا الغضب من القسم المحمود الذي يؤجر عليه فاعله، ولا يلام عليه، وليس مخطئًا فيه «فغضب موسى عليه السلام إنما هو لله، وغيرة على دين الله، ورفضًا للباطل والمنكر، والكفر والضلال، وهو مأجور على هذا الغضب»[(١)].

٢. غضب يونس عليه السلام.

ذكر القرآن الكريم غضب يونس عليه السلام في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فقد غضب يونس عليه السلام من قومه، فحين دعاهم إلى الله تعالى وحذرهم من غضبه وعقابه، أبوا الاستجابة لدعوته، وأصروا على كفرهم وعنادهم، وتمردهم وطغيانهم، فتوعدهم بالعذاب، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ اختلف أهل التفسير فيها على أقوال ثلاثة هي:

القول الأول: مغاضبًا بمعنى: غضبان، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكًا، نحو قولك: عاقبت اللص، وسافرت، وشارفت الأمر. وكأنه استعمل هنا للمبالغة. وغضبه كان على قومه «لشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم مع طول دعوته إياهم»[(٣)]. وهذا الذي رجحه ابن الجوزي[(٤)]، والآلوسي[(٥)].

القول الثاني: مغاضبًا بمعنى: مغاضبًا لقومه، أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب. وهي من المفاعلة التي تقتضي اشتراكًا. وهذا الذي رجحه الزمخشري[(٦)]، والقاسمي[(٧)]. ومن المعاصرين الشعراوي[(٨)]، والدكتور فضل عباس[(٩)].

القول الثالث: مغاضبًا بمعنى: مغاضبًا لربه، أي: مغاضبًا من أجل ربه. كما تقول غضبت لك، أي: من أجلك. والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصي. وهذا قول ابن مسعود من الصحابة، وقول الحسن وابن جبير من التابعين، وهو القول الذي رجحه

(١) مواقف الأنبياء في القرآن، صلاح الخالدي ص٢٣١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٥٨٦.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ٨٣.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٥ / ٢٦٣.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ٨٤.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٨١.
(٧) محاسن التأويل، القاسمي ١١/ ٤٣٠٠.
(٨) تفسير الشعراوي ١٥ / ٩٦٢٢.
(٩) القصص القرآني، فضل عباس ٣٤٨.

الطبري[1]، والقرطبي[2].

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة على النحو التالي: إن يونس عليه السلام غضب من عدم استجابة قومه لدعوة الله. فكان غضبه لله، ومن أجل الله، وحصل بينه وبين قومه مغاضبة بسبب توعده لهم بالعذاب، وخرج من عند قومه وهو غضبان. ففسر كل فريق كلمة مغاضبا من خلال غضب يونس عليه السلام في مراحله الثلاث. عند مناظرة قومه، وعند خروجه من عندهم، وعند عدم أخذه الإذن من الله في الخروج.

وهذا الموضع بين أن غضب يونس عليه السلام كان لله، وكرهًا وبغضًا لعبادة الأصنام التي أصر عليها قومه. كما بين خطأ يونس عليه السلام في سرعة خروجه من عند قومه دون إذن من ربه. ولذا طلب المغفرة من ربه قائلا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهذا الخروج السريع ليونس عليه السلام عجل من توبة قومه، ورجوعهم إلى الله سبحانه. فما إن خرج يونس عليه السلام مغضبًا من عند قومه، وتحققوا أن العذاب واقع بهم لا محالة، «خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم، وأنعامهم، ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها. ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه»[3].

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٧٥٠-٧٥١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٢٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٨٦.

الأسباب الموجبة لغضب الله تعالى

بالنظر في الآيات القرآنية التي أسندت الغضب إلى الله تعالى، فإنه يتبين أن أسباب غضب الله عز وجل، هي: الكفر والنفاق، وارتكاب كبائر الذنوب. وهذا ما سنقف عليه في النقاط الآتية:

أولًا: الكفر والنفاق:

بينت الآيات القرآنية التي تحدثت عن غضب الله عز وجل، أن أهم أسباب هذا الغضب هو الكفر بالله تعالى وبآياته، وبالنظر في الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا السبب، نجدها جميعًا تتعلق باليهود. وجاء ذلك في مواضع ثلاثة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

تبين هذه الآية أن غضب الله تعالى الذي حل باليهود، كان بسبب عصيانهم وكفرهم بآيات الله. يقول القاسمي: «﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا به أو صاروا أحقاء به. من قولهم: باء فلان بفلان، أي: صار حقيقًا أن يقتل بمقابلته. والبوء بالغضب العظيم بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله الباهرة التي ظهرت على يدي عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ويقتلون النبيين بغير الحق كزكريا ويحيى عليهما السلام. وقتل الأنبياء في بني إسرائيل كان ظاهرًا»[1].

وقال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

قوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي: أن غضب الله تعالى عليهم كان بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين أولًا، ثم بسبب كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم[2].

يقول سيد قطب: «لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل. أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع. وإن بدا تمثيلًا وتصويرًا. لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز، ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٣١٥.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ١٧٣.

من العذاب المهين. وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه! وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. وكان هذا بغيًا منهم وظلمًا فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب وهناك ينتظرهم عذاب مهين، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم»[1].

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وهذه الآية تؤكد أيضًا أن وقوع غضب الله تعالى على اليهود، إنما كان بسبب كفرهم وعصيانهم.

ومما يتصل بالكفر بالله تعالى، الردة عن دين الله، وقد بينت آيات القرآن الكريم أن الردة عن الإسلام جريمة عظيمة تستوجب غضب الله تعالى، ويظهر ذلك جليًا في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

فمن اختار الكفر على الإيمان بعد أن عرف الإيمان وعرف ما فيه من خير له وللبشرية جمعاء، فقد استحق غضب المولى عز وجل؛ لأن «القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه، لا يمكن أن يرتد ارتدادًا حقيقيًا أبدًا»[2].

ويتعلق غضب الله تعالى كذلك بالمنافقين الذين ارتدوا سرًّا من بعد ما تبين لهم الهدى، وما ذلك إلا لأن الشيطان قد زين لهم الكفر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

وهذه الآية نزلت في شأن المنافقين[3].

«أي: إن الذين فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، من بعد ما ظهر لهم الهدى بما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات الظاهرة والدلائل الواضحة، زين لهم الشيطان خطاياهم، وسهل لهم الوقوع فيها، وحسن لهم الكفر، وخدعهم وغرهم بالأماني والآمال، ووعدهم بطول العمر ومد الأجل»[4].

(١) في ظلال القرآن ١/ ٩٠.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٢٨.

(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٤/ ١٤٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١١٢، التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٢٣.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٢٣.

ثانيًا: كبائر الذنوب:

من أسباب غضب الله على العبد ارتكاب المعاصي العظيمة والوقوع في الكبائر. ولا شك أن غضب الله عز وجل شيء عظيم وليس هينًا، لذا نجد أنه جاء متعلقًا بكبائر الذنوب، وكل المعاصي التي اقترنت بغضب الله تعالى هي من الكبائر التي ينبغي على المسلم أن يحذر من الوقوع فيها. وأهم المعاصي التي جاءت مقترنة بغضب الله تعالى:

١. الشرك بالله.

«الشرك هو اتخاذ ند من دون الله، يدعوه كما يدعو الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله، ويحبه كما يحب الله»[(١)]. ويترتب على ذلك التوجه لغير الله تعالى بالعبادة، ولا شك أن هذا من أعظم الذنوب ومن أكبر الكبائر، لأن الله تعالى هو خالق الخلق، وهو وحده الحقيق بهذه العبادة، فمن عبد غيره فقد انحرف عن الطريق القويم، وضل السبيل. ومن هنا فقد استحق من يشرك بالله تعالى غضبه ومقته، كما تدل على ذلك الآيات القرآنية.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]

فهذه الآية تدل على نزول غضب الله تعالى على قوم هود عليه السلام، بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم الأصنام، مع أنها أصنام لا تضر ولا تنفع، وهم الذين اخترعوها وجعلوها آلهة من دون الله.

وممن استحق غضب الله تعالى بسبب الشرك بالله اليهود، الذين عبدوا العجل بعد أن صنعه لهم السامري بيديه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

والمقصود بغضب الله على بني إسرائيل الذي أصابهم بسبب عبادتهم للعجل، كما يقول الزمخشري: «الغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم. والذلة: خروجهم من ديارهم لأن ذل الغربة مثل مضروب. وقيل: هو ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير، من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن الذلة بضرب الجزية المفترين المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري: هذا إلهكم وإله موسى. ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا

(١) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن عيسى ٢/٢٦٦.

بغضب من الله»[1].

ويرى الشوكاني أن الغضب يشمل الدنيا والآخرة، فهو يتضمن «ما نزل بهم من العقوبة في الدنيا بقتل أنفسهم، وما سينزل بهم في الآخرة من العذاب»[2].

٢. القتل.

مما لا شك فيه أن قتل النفس بغير حق جريمة بشعة يندى لها الجبين، وهي من الكبائر التي يستحق فاعلها غضب الله تعالى والطرد من رحمته.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ويلاحظ أن الله تعالى رتب على كبيرة القتل وعيدًا عظيمًا وعذابًا شديدًا.

يقول السعدي: «وذكر هنا وعيد القاتل عمدًا، وعيدًا ترجف له القلوب وتنصدع له الأفئدة، وتنزعج منه أولو العقول. فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعياذًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته»[3].

٣. التولي يوم الزحف.

جعل الإسلام الفرار من المعركة من الكبائر، والذي يترتب عليه غضب الله تعالى. وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى في الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: (**اجتنبوا السبع الموبقات**)، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: (**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**)[4].

فهذا الحديث يدل على أن التولي يوم الزحف من الكبائر، لذلك ترتب عليه غضب الله، كما يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

ففي هذه الآية «نهى الله المؤمنين عن التولي يوم الزحف، وتوعدهم عليه، والنهي

(١) الكشاف ٢/ ١٦٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٧٦٦، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى)، ٤/ ١٠.

والتوعد يدلان على أن الثبات واجب»[1].

«فالتولي يوم الزحف من أكبر الكبائر، وأفحش الأمور، لأنه يدل على الجبن، والضعف والخور، والإسلام يربي المسلم على الشجاعة والثبات والعزة، ولأن الفرار أمام الأعداء عند اللقاء يسلب الأمة عزتها وكرامتها وشرفها، ويجعل السلطة لأعداء الإسلام والدين، وذلك موت أدبي للأمة فإما أن نعيش كرامًا أعزاء، وإما أن نموت أحرارًا شهداء، والاستشهاد في سبيل الله والوطن حياة كريمة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩].

لهذا أمرنا الله تعالى بالثبات أمام الأعداء مهما كانت عدتهم، وقدرتهم، ونهانا عن الفرار من الزحف وعده من أعظم الكبائر التي تجلب غضب الله تعالى، وتحبط الأعمال، وتودي بصاحبها في نار جهنم وبئس القرار فأمر الله المجاهدين بالصبر والثبات أمام الأعداء، لأن التولي فيه إضعاف لصفوف المسلمين، وتثبيط لعزائم المقاتلين، وإحداث فرقة بين صفوفهم، وفي ذلك صد عن سبيل الله عز وجل وتقوية للعدو، وكفى بذلك إثمًا وعارًا في الدنيا والآخرة، لذلك أمرنا بالصبر وذكر الله تعالى أنه يعاقب الفارين بأشد أنواع العذاب. وأنه يكرم الشهداء في سبيله أعظم أنواع الإكرام والعزة»[2].

(١) الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٤٣٤.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة، ابن الجزيري ٥/ ٣٩٠.

المغضوب عليهم

يتناول هذا المبحث أصناف الناس الذين غضب الله عليهم كما ورد في آيات القرآن الكريم.

أولًا: عبدة الأوثان:

لا شك أن عبادة الأوثان معصية ممقوتة، وموجبة لغضب الله تعالى، لأنه لا بد من «العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده»[1].

والأنبياء جميعًا كانوا يدعون أقوامهم لعبادة الله وحده وعدم الإشراك به، وكانوا يخاطبوهم قائلين: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ولكن هناك من لم يستجب لهذه الدعوة وانحرف عن المنهج القويم فعبد الأوثان بدلًا من أن يعبد الله سبحانه وتعالى. ومن هؤلاء قوم هود عليه السلام، الذين قال الله عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠-٧١].

فهؤلاء قد استحقوا غضب الله تعالى لأنهم عبدو الأوثان وأصروا على عبادتها وتجاهلوا آيات الله عز وجل.

يقول البيضاوي: «﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ قد وجب وحق عليكم، أو نزل عليكم على أن المتوقع كالواقع، ﴿مِّن رَّبِّكُم رِجۡسٞ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب. ﴿وَغَضَبٌ﴾ إرادة انتقام.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾ أي: في أشياء سميتموها آلهة وليس فيها معنى الإلهية، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأنها لو استحقت كان استحقاقها بجعله تعالى إما بإنزال آية أو بنصب حجة، بين أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمى.

وإسناد الاطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهارا لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم.

واستدل به على أن الاسم هو المسمى وأن اللغات توقيفية إذ لو لم يكن كذلك لم يتوجه الذم والإبطال بأنها أسماء مخترعة لم ينزل الله بها سلطانا وضعفهما ظاهر»[2].

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي ص١٧.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩.

ثانيًا: اليهود:

صدر عن اليهود الكثير من الأعمال والمعاصي الشنيعة، التي جعلت أنبياءهم يتبرؤون منهم ويلعنونهم، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

ولا شك أن هذه الأعمال التي فعلوها هي التي جلبت غضب الله عليهم.

قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

والمغضوب عليهم هم اليهود كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم[(١)].

وإنما وصف اليهود بهذا الوصف لأن «المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به، والذين بلغهم شرع الله ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه، انصرافًا عن الدليل، ورضاء بما ورثوه من القيل، ووقوفا عند التقليد، وعكوفا على هوى غير رشيد»[(٢)].

فقد خص الله تعالى اليهود بالغضب، لأنهم قاصدون للمعصية، فقد عرفوا الحق الذي أمرهم الله به، ولكنهم تركوا العمل به واتبعوا الباطل[(٣)].

ومن الممارسات التي فعلها اليهود واستحقوا عليها غضب الله تعالى:

١. الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو ألصقت بهم، من ضرب الطين على الحائط، مجازاة لهم على كفران النعمة. واليهود في غالب الأمر أذلاء مساكين، إما على الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ رجعوا به، أو صاروا أحقاء بغضبه، من باء فلان بفلان إذا كان حقيقا بأن يقتل به، وأصل البوء المساواة. ذلك إشارة إلى ما سبق من ضرب

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ١٩٣٨١، ٢٣/ ١٢٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ٧٨١.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٥٧.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ١١.

الذلة والمسكنة والبوء بالغضب. بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق بسبب كفرهم بالمعجزات، التي من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر، وإظلال الغمام، وإنزال المن والسلوى، وانفجار العيون من الحجر. أو بالكتب المنزلة: كالإنجيل، والفرقان وقتلهم الأنبياء فإنهم قتلوا شعياء وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم، وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا كما أشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: جرهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات[1].

٢. الكفر بما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩-٩٠].

فاليهود كفروا حسدًا على خروج النبوءة منهم إلى العرب، «والظاهر أن المراد ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ الغضب الشديد، على حد قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].أي: نور عظيم»[2].

«إن الحسد ليأكل صدورهم، وإن الشره ليعمي أبصارهم، حتى إنهم ليهلكون أنفسهم، ويحرمونها موارد الخير، لأن غيرهم قد سبقهم إلى هذا الخير ونال منه. وهو خير لا ينفد أبدًا، يسع الناس جميعًا، ومع هذا فهم يريدونه خالصًا لهم من دون الناس، لا ينال أحد شيئًا منه وقد غضب الله عليهم غضبًا بعد غضب، غضب عليهم أولًا، لأنهم عرفوا الحق ولم ينصروه، بل خذلوه ومكروا به وحاربوه وغضب عليهم ثانيًا، لأنهم نقضوا الميثاق الذي أخذه الله عليهم فى الكتاب الذي بين أيديهم، ثم حرفوا فى كتابهم هذا وبدلوا، واستباحوا حرمته، وهذا كفر بكتابهم بعد كفرهم بمحمد وبما نزل عليه. وهذا ما جعلهم بمعرض من غضب الله، حالًا بعد حال، ومرة بعد مرة»[3].

٣. عبادة العجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٠٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١/ ١٩-١١٠.

وتقرر هذه الآية أن اليهود الذين عبدوا العجل من دون الله، قد استحقوا غضب الله تعالى، وستنالهم الذلة في الحياة الدنيا.

إن الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل إلها ومعبودا بعد غيبة رسولهم موسى عليه السلام، وبقوا على تأليهه واستمروا على عبادته كالسامري وأتباعه، سيصيبهم عذاب شديد من ربهم، وهو المذكور في سورة البقرة، وهو أن الله تعالى لن يقبل توبتهم حتى يقتتلوا، ويقتل بعضهم بعضا: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وسينالهم أيضًا ذلة وصغار في الحياة الدنيا، بخروجهم من ديارهم وتشردهم، وهوانهم على الناس واحتقارهم لهم، وتهالكهم على حب الدنيا، فهم الماديون المنبوذون المكروهون في كل أمة، وتلك هي ذلة عظيمة المعنى وأما قيام دولتهم في فلسطين فهي محنة للمسلمين، فربما أناس سلط عليهم من هو شر لهم، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن بقاء دولة الصهاينة في فلسطين شيء مستحيل، ولا تؤيده الظروف والقرائن المشاهدة، وقد بشرت الأحاديث النبوية بقتلهم وطردهم منها، ولكل أجل كتاب[1].

٤ . الطغيان.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۚ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨١].

والطغيان هو تجاوز الحد في العصيان[2].

ولا شك أن اليهود قد بلغوا أبعد مدى في الظلم والمعصية، وتجاوزوا في ذلك كل الحدود.

قال ابن عاشور: «والطغيان: أشد الكبر. ومعنى النهي عن الطغيان في الرزق: النهي عن ترك الشكر عليه وقلة الاكتراث بعبادة المنعم. وحرف (في) الظرفية استعارة تبعية شبه ملابسة الطغيان للنعمة بحلول الطغيان فيها تشبيها للنعمة الكثيرة بالوعاء المحيط بالمنعم عليه، والحلول: النزول والإقامة بالمكان شبهت إصابة آثار الغضب إياهم بحلول الجيش ونحوه بديار قوم، وهوى: سقط من علو، وقد استعير هنا للهلاك الذي لا نهوض بعده وهو الهوي من جبل أو سطح بقرينة التهديد»[3].

ثالثًا: المرتدون:

الردة: «هي قطع الإسلام، ويحصل ذلك

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ١٠٦.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٢٠.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٧٦.

تارة بالقول الذي هو كفر، وتارة بالفعل. والأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن تعمد واستهزاء بالدين، صريح كالسجود للصنم أو للشمس، وإلقاء المصحف في القاذورات، والسحر الذي فيه عبادة الشمس ونحوها»[1].

والردة تؤدي إلى حبوط العمل، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

والمرتدون الذين عرفوا الإسلام ثم خلفوه وراء ظهورهم، استحقوا بفعلهم هذا غضب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٦ -١٠٧].

«أي: إن من كفر بالله بعد الإيمان والتبصر فعليه غضب من الله إلا إذا أكره على ذلك وقلبه ملىء بالإيمان بالله والتصديق برسوله، فلا تثريب عليه كما فعل عمار بن ياسر، ولكن غضب الله وشديد عقابه لمن طابت أنفسهم بالكفر، واعتقدوه طائعين مختارين، لعظيم جرمهم، وكبير إثمهم. ثم بين سبب هذا الغضب فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ذلك الغضب من الله، والعذاب العظيم من أجل أنهم آثروا الحياة الدنيا وزينتها على نعيم الآخرة»[2].

ويشير هذا النص القرآني «إلى هذا الوعيد الذي توعد الله به سبحانه، أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم، وعادوا إلى الكفر الذي كانوا فيه، وأنسوا إليه كما يأنس الغريب بلقاء أهله، بعد غيبة وفراق، فلم يقع فى نفوسهم وحشة للكفر، ولا تكره له. فهذا الغضب الذي صبه الله عليهم، وهذا العذاب العظيم الذي أعده لهم، إنما هو بسبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وآثروا العافية مع الكفر، على البلاء مع الإيمان»[3].

رابعًا: المنافقون.

«النفاق: هو إظهار الإسلام والخير، وإبطان الكفر والشر. وهو مخالفة الباطن للظاهر، وإظهار القول باللسان، أو الفعل؛ بخلاف ما في القلب من الاعتقاد. والمنافق:

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين، النووي ١٠/ ٦٤.

(٢) تفسير المراغي ١٤/ ١٤٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٧/ ٣٧٩.

يخالف قوله فعله، وسره علانيته؛ فهو يدخل الإسلام من باب، ويخرج من باب آخر، ويدخل في الإيمان ظاهرًا، ويخرج منه باطنًا؛ فهذا هو النفاق الأكبر»[1].

فالمنافقون الذين يسعون إلى إضعاف المسلمين والكيد للإسلام وأهله، قد استحقوا غضب المولى عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

«ويلاحظ في الآية تقديم المنافقين على المشركين، وذلك لأن المنافقين أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر، لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وهو كان يفشي أسراره، وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)[2].

والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأتي الإنسان على أني عدوك، وإنما يأتيه على أني صديقك، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه، ولأن المنافق كان يظن أن يتخلص للمخادعة، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق»[3].

«وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين. وفي أنهم جميعا ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ فهم محصورون فيها، وهي تدور عليهم وتقع بهم. وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم، وفيما أعده لهم من سوء المصير ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءا، بل إنها أحط ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات، وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه»[4].

(١) الإيمان، عبد الله بن عبد الحميد الأثري ص٢٤٧.
(٢) قال عنه الألباني موضوع.
انظر: السلسلة الضعيفة ٣/ ٣٠٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٧٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣١٩.

أثر الغضب في الدنيا والآخرة

من خلال تتبع الآيات القرآنية التي أسندت الغضب لله عز وجل، يتبين أنه يترتب على الغضب مجموعة من الآثار في الدنيا والآخرة، وفيما يأتي بيان أهم هذه الآثار:

أولًا: أثر الغضب في الدنيا:

يتضح من خلال الآيات القرآنية التي تحدثت عن الذين وقع عليهم غضب الله تعالى، أن هذا الغضب كان له آثار سلبية في الدنيا على المغضوب عليهم، وأهم هذه الآثار:

١. الذل والهوان.

قال تعالى في شأن اليهود: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وتدل الآيتان السابقتان على أن الذلة ملازمة لليهود أينما حلوا، لا تفارقهم في أي زمان ومكان، والذي ضربها عليهم وأوقعها بهم هو الله الحكيم، وكذلك المسكنة وهي الهوان والضعف والجبن والإذلال، فهم في ذلة ومسكنة، حيثما حلوا وأقاموا، سواء كانوا مضطهدين مستضعفين مطاردين، أو كانوا مسيطرين متمكنين حاكمين، وسواء عاشوا مشتتين في بقاع الأرض، أو كانول في عز وسلطان وكيان على أرض فلسطين.

«وتوحي لنا كلمة ﴿ثُقِفُوٓا﴾ المبنية للمجهول أن تاريخ اليهود كله يقوم على المطاردة والملاحقة، فهم دائمًا مطاردين من قبل الأمم والشعوب التي تحرص على أن (تثقفهم) وتدركهم وتمسك بهم، فإذا ما ﴿ثُقِفُوٓا﴾ فهم في ذلة ومسكنة، وجبن وضعف وهوان قد ينجون من الذلة فترة، وقد ترفع عنهم مدة، ولكن ذلك موقوت محدد قصير، ثم يعودون إلى الذلة المضروبة عليهم، المحيطة بهم، والملازمة لهم»[1].

٢. المسخ.

من آثار غضب الله تعالى في الدنيا المسخ، وهذا أيضًا متعلق باليهود الذين غضب الله تعالى عليهم، فكانت النتيجة أن مسخهم قردة وخنازير.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ

(١) حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية، صلاح الخالدي ص٩٤.

﴿مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

فهذه العقوبة الإلهية السريعة علامة على الغضب الإلهي على اليهود، يقول الطبري: « وجعل منهم المسوخ القردة والخنازير، غضبًا منه عليهم وسخطًا، فعجل لهم الخزي والنكال في الدنيا»[(١)].

«وجمهور المفسرين على أن معنى ذلك أنهم مسخوا فكانوا قردة وخنازير حقيقة، وانقرضوا؛ لأن الممسوخ لا يكون له نسل»[(٢)].

٣. الهلاك.

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨١].

ومعنى هوى «أي: تردى وهلك. وقيل: وقع في الهاوية»[(٣)].

قال الزمخشري: «هوى هلك. وأصله أن يسقط من جبل فيهلك ويقولون: هوت أمه. أو سقط سقوطًا لا نهوض بعده»[(٤)].

ويرى الزجاج أن الهلاك إنما يكون في الآخرة، يقول في معنى (هوى): «أي: هلك وصار إلى الهاوية، وهي قعر نار جهنم»[(٥)].

ويرى الباحث أن الهلاك الذي تتحدث عنه الآية يمكن أن يكون في الدنيا ويمكن أن يكون للآخرة، فإن غضب الله تعالى يهلك المغضوب عليه في الدنيا قبل الآخرة.

ثانيًا: أثر الغضب في الآخرة:

توعد الله سبحانه وتعالى المغضوب عليه بالعذاب في الآخرة فقال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

وصيغة ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ تدل على الوعيد بالعذاب.

ومعظم الآيات القرآنية التي تحدثت عن غضب الله تعالى، أشارت لما يترتب على هذا الغضب في الآخرة، وما ينتظر المغضوب عليهم من عذاب يوم القيامة، ونجد أن الآيات القرآنية وصفت هذا العذاب بأنه: عظيم، وشديد، ومهين. وورد الحديث عن عذاب الآخرة في الآيات الآتية:

١. العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٣٧.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٧١.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٣٣.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٧٩- ٨٠.
(٥) معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٣٧٠.

٢. العذاب العظيم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

٣. العذاب الشديد.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٤ – ١٥].

٤. عذاب جهنم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

موضوعات ذات صلة:

الرضا، السماحة، المحبة

الغفلة

عناصر الموضوع

مفهوم الغفلة	٣٤٠
الغفلة في الاستعمال القرآني	٣٤١
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٢
نفي الغفلة عن الله سبحانه	٣٤٤
أنواع الغفلة	٣٤٦
إسناد الغفلة للرسول الكريم	٣٥٥
أسباب الغفلة	٣٥٨
الآثار المترتبة على الغفلة	٣٦٣
منهج القرآن الكريم في علاج الغفلة	٣٦٦

مفهوم الغفلة

أولًا: المعنى اللغوي:

«الغين والفاء واللام، أصل صحيح يدل على ترك الشيء سهوًا، وربما كان عن عمد»[(١)].

وعلى هذا فإن الغفلة تعني في اللغة: الترك والسهو، فيقال: «غَفَلَ عَنْهُ يَغْفُلُ غُفولًا وغَفْلَةً، وأَغْفَلَهُ عَنْهُ غَيْرُهُ وأَغْفَلَهُ: تركه وسها عنه»[(٢)].

وقال الراغب الأصفهاني: «وأرض غفلٌ: لا منار بها، ورجل غفلٌ: لم تسمه التجارب، وإغفال الكتاب تركه غير معجم»[(٣)].

ويتضح مما سبق أن مادة غفل تدور حول معنى: ترك الشيء سهوًا، وإذا أضيفت إليها الهمزة لتصبح أغفل، فإنها تكون بمعنى ترك الشيء عمدًا.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها الراغب الأصفهاني بأنها: «سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ»[(٤)].

وعرفها الجرجاني بأنها: «متابعة النفس على ما تشتهيه»[(٥)]، ثم ذكر تعريفًا ثانيًا لأحد السلف الصالح، بقوله: «الغفلة: إبطال الوقت بالبطالة»[(٦)].

وعرفها المناوي بأنها: «فقد الشعور بما حقه أن يشعر به»[(٧)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٩٧.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٠٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص١٦٢.
(٦) المصدر السابق.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٥٢.

الغفلة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غفل) في القرآن الكريم (٣٥) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨]
الفعل المضارع	١	﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء:١٠٢]
اسم الفاعل	٢٨	﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤]
مصدر	٥	﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء:١]

وجاءت الغفلة في القرآن بمعناها في اللغة، وهي مصدر غفل، أي: ترك الشيء سهوًا، وربما كان عن عمد[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٠٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٣٨٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ السهو:

السهو لغةً:

هو النسيان والغفلة، وحملت المرأة ولدها سهوًا، أي: على حيض، والسهو: السكون، والمساهاة: حسن المخالفة[١].

السهو اصطلاحًا: «ذهول عن المعلوم إن خطر على البال، ويتنبه صاحبه بأدنى تنبيه»[٢].

الصلة بين السهو والغفلة:

من خلال التعريفين: اللغوي، والاصطلاحي للسهو يتبين صحة ما ذهب إليه الأحمد نكري بأن السهو حالة متوسطة بين الإدراك والنسيان[٣]، أما الغفلة فقد تكون عن إدراك أو نسيان أو حالة متوسطة بينهما، وعلى هذا فإن الغفلة أشمل من السهو.

٢ النسيان:

النسيان لغة:

ترك الإنسان ضبط ما استودع؛ إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصدٍ؛ حتى ينحذف عن القلب ذكره[٤]. فالنسيان ضد الذكر والحفظ، والنسيان: الترك والتضييع والتفريط[٥].

النسيان اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النسيان والغفلة:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للنسيان يتبين أن النسيان هو الغفلة عن الذي لا يأثم عليه المسلم، ولا يثاب على تركه أيضًا، أما الغفلة فقد تكون عن إدراك أو نسيان أو حالة متوسطة بينهما، وعلى هذا فإن الغفلة أشمل من النسيان.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٢٩٨، مجمل اللغة، ابن فارس ص٤٧٥.
(٢) مقاليد العلوم، السيوطي ص٦٥.
(٣) انظر: جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ٢/ ١٣٩.
(٤) المفردات ٢/ ٦٣٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٥٥، إصلاح الوجوه والنظائر ص ٤٥٤-٤٥٥، نزهة الأعين النواظر ص ٥٧٩-٥٨٠.

٣ الذكر:

الذكر لغة:

«ضد النسيان، ذَكَرْتُ الشَّيءَ أَذْكُرُهُ ذِكْرًا وذُكْرًا، وهُوَ مِنِّي عَلَى ذِكْرٍ وعَلَى ذُكْرٍ، والضم أعلى، وذكرته ذكرًا حسنًا. وذكَّرتُكَ الله أن تفعل كذا وكذا كالقسم»[(١)].

الذكر اصطلاحًا:

استحضار الله تعالى في سكنة من السكنات، أو في حركة من الحركات.

الصلة بين الذكر والغفلة:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للذكر يتبين أنه مرتبط بالغفلة، من حيث إن من ترك الذكر فقد دخل في وحل الغفلة، التي هي محل ترك معية الله تعالى ونصرته، أما الغفلة فهي متابعة النفس على ما تشتهيه، فلا يتداخل الذكر مع الغفلة، فهما نقيضان.

٤ السمد:

السمد لغةً:

اللهو، فالسامد هو اللاهي؛ لأن اللاهي يمضي في أمره غير معرجٍ ولا متمكثٍ[(٢)].

السمد اصطلاحًا:

لهوٌ يعترض من يمضي في طريقه غير متريث ولا عالم بما يريد، ولا ما سيحل له.

الصلة بين السمد والغفلة:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للسمد تبين أنه يفيد اللهو بسبب عدم معرفة الواقع، وعدم معرفة عواقب الأمور، أما الغفلة فقد تكون عن إدراك أو نسيان، أو حالة متوسطة بينهما، وعلى هذا فإن الغفلة أشمل من السمد.

(١) جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٦٩٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٠٠.

نفي الغفلة عن الله سبحانه

نزه الله تعالى نفسه الكريمة عن الغفلة في كتابه، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: حفظ الله لأعمال العباد:

ورد في القرآن الكريم ما فيه تنزيه لله تعالى عن غفلة أعمال العباد في الدنيا، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٠].

فقد زعمت اليهود والنصارى أن هؤلاء الأنبياء -عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- كانوا هودًا أو نصارى، فيخاطب الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم؛ ليقول لهم: هل أنتم أعلم بهؤلاء الأنبياء أم الله تعالى المنزه عن كل نقص. ثم تبين الآية الكريمة -بصيغة الاستفهام التقريري- أنه ليس هناك أظلم ممن كتم الإسلام وهو يعلم أنه دين الله تعالى، وكتم محمدًا صلى الله عليه وسلم وهو يعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاليهود والنصارى يجدون ذلك مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ومع ذلك يتبعون الأهواء[1]، وجاءت الفاصلة في الآية الكريمة بالنفي المحض للغفلة في حق الذات العلية المنزه عن أية منقصة، ولعل السبب في التذييل بنفي الغفلة عن عملهم أنهم لم يكتفوا بالقول والكتم في القلب؛ بل إن ذلك الافتراء منهم تعدى إلى جوارحهم، والله أعلم.

وقد وردت آية كريمة تبين أن الله تعالى قد جعل درجات لعمل الخلق، وأنه ليس بغافل عنهم، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٣٢].

والمعنى: إن الآية السابقة بينت أن الله تعالى لا يهلك أمة بظلم فعلته وهم غافلون، وليس ربك الله المالك المتصرف في شؤون خلقه بغافلٍ عما يعمل خلقه من الثقلين: الإنس والجن، فيجزي من استحق النار بالنار، ويثيب من استحق الجنة بالجنة رحمةً منه -تبارك وتعالى-، والدليل على أن الجن لهم ثواب وعقاب الإنس نفسه هو قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٨-١٩][2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ٢٤٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، حيث قرأ ابن عامر وحده: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على الخطاب، وقرأ الباقون: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وحجة كافة القراء عدا ابن عامر أن الآية السابقة في سياق الغيبة[1].

ثانيًا: توفية الجزاء من الله لعباده:

وقد ورد في القرآن الكريم ما يثبت أن الله تعالى يوفي الجزاء لعباده على جميع الأعمال خيرها وشرها، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فإن هذه الآية الكريمة وردت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، حيث أخذ الله عليهم العهد الموثق بالأيمان ألا يسفك بعضهم دماء بعض، وألا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، ثم أقروا على أنفسهم، وحال يهود عصر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أنهم يشهدون على هذا الإقرار، وقد وردت في سياق شهادة هؤلاء اليهود في عصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على هذا الميثاق الذي أخذ على أسلافهم، تأنيبًا لهم على تضييع أحكام ما في أيديهم من التوراة التي كانوا يقرون بحكمها، ثم هم أمام هذا العهد الموثق بالأيمان (الميثاق) ينقضونه بطريقة سيئة، ولا يلتزمون بأيٍ من بنوده، وليس الأمر إلى هذا الحد، بل إنهم يعلقون هذا الإخلال بأنه -زعمًا منهم- حكم التوراة، والله تعالى يسألهم؛ تأنيبًا لضمائرهم: أفتؤمنون ببعض التوراة، وتكفرون بالبعض الآخر، فتؤمنون بمفاداة الأسرى التي في التوراة، ولكن في التوراة أيضًا عدم القتل لأنفسهم، وعدم الإخراج من الديار، من يشرك بالله تعالى، ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض من عرض الدنيا، فبهذا كله يكفر اليهود رغم أنه في التوراة أيضًا، وهم يعلمون ذلك[2].

ويبين الله تعالى أن من يفعل فعلة بني إسرائيل القدامى، كما فعل اليهود في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حينما غدروا ونكثوا عهودهم، فإن لهم عقوبة الخزي في الحياة الدنيا، كإخراج بني النضير إلى الشام، وقتل بني قريظة، وقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم، والأمر الأصعب هو أن

٧/ ٨٧، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٥٩.

(١) انظر: حجة القراءات، ابن زنجلة ص٢٧٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٠٣، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ١٥٧.

الذي أصابهم في الدنيا من الخزي والعقوبة لم يكن كفارة لذنوبهم ولكنهم: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ ولا يخفى على الله تعالى من أعمالهم شيء، فيجازون بأعمالهم.

ثم تستأنف الآية التالية لها ببيان صفاتهم، ومن ثم حالهم، بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ يعني: اختاروا الدنيا على الآخرة؛ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: ليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله تعالى في الآخرة[1].

أنواع الغفلة

ذكر القرآن الكريم نوعين من الغفلة: الغفلة الممدوحة، والغفلة المذمومة، وسوف نتناولهما بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الغفلة الممدوحة:

الغفلة إذا أطلقت فإنها تعني تلك الصفة المذمومة التي هي السهو والنسيان وقلة من التحفظ والتذكر، لكن القرآن الكريم بين أن الطهارة والعفة هما بمثابة غفلة عن الحرام وغضب الله تعالى، كما ورد ذلك في شأن المؤمنات الطاهرات اللاتي يقع عليهن الإيذاء من الأفاكين الذين يشيعون الفحشاء والمنكر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وهذه الآية تأتي في سياق بيان طهارة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فبعد أن ذكرت الآية السابقة تحبيب العفو والصفح من أبي بكر الصديق رضي الله عنه على مسطح؛ رجاء مغفرة الله تعالى ورحمته، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يكرمه بما أعطاه الله، وحينما قذف ابنته زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنا عائشة رضي الله عنها، وأقيم عليه حد القذف، منعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٧١، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٠٤.

من عطاء الله الذي آتاه، فلما نزلت الآية الثانية والعشرون من السورة قال: بلى أحب أن يغفر الله لي، ورجع إلى وصل مسطح، ثم تأتي الآية التالية؛ لتبين أن من يقذف الطاهرات العفيفة كأم عبد الله عائشة رضي الله عنها فعليه لعنة في الدنيا والآخرة، ويضاف إلى اللعنة ﴿عَذَابٌ﴾، وصفته الآية بأنه ﴿عَظِيمٌ﴾.

ورغم أن هذه الآية الكريمة نزلت في حق أمنا عائشة رضي الله عنها، إلا أنها عامة في حق كل غافلة عن الفواحش، وعقاب من يقذفهن[1]؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ابتلي هذا الابتلاء العظيم في أهل بيته؛ لتترسخ في شريعتنا مبادئ الغفلة المحمودة، الدالة على سماحة الإسلام الحنيف، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يتهم في عرضه، فعائشة رضي الله عنها زوجه، وأبوها الصديق، ومن اتهمت فيه لم يعهد عليه إلا كل خيرٍ، والصحابة رضي الله عنهم في حيرة من أمرهم، والوحي انقطع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرًا.

إن كل أحداث ذلك الابتلاء إنما كان لأجل ترسيخ المبادئ العامة للغفلة المحمودة، التي تظل فاعلةً في كل زمان ومكان، ومن هذه المبادئ:

١. أن يترسخ في القلوب والأذهان بأن ذلك الابتلاء هو عين الخير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

فقد سمي من هؤلاء الذين جاؤوا بالإفك: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش[2].

ومع ذلك فإن هؤلاء الصحابة استمروا على إيمانهم، ويوصفون بأنهم الرعيل الأول، وهذا يعلم الأمة جميعًا أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وأنه ليس بأفضل من طاعة الله تعالى فيمن عصى الله في ذلك المطيع، كما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من رموا أم المؤمنين رضي الله عنها وصفوان بن المعطل رضي الله عنه، وكما كان من أبي بكر الصديق رضي الله عنه في التعامل الطيب الكريم مع مسطح بن أثاثة بعد الخطاب القرآني: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢][3].

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٨١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥٠٥٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٦٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١١٩.

(٣) انظر: فتح البيان، صديق خان ٩/ ١٨٩.

وإن مثل هذا الخلق الرفيع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه إنما له صفة التغافل في القلب واللسان لمصلحة الدعوة الإسلامية، وهو جزء لا يتجزأ من الغفلة المحمودة.

٢. حسن الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهل بيته، والمؤمنين بعضهم لبعض.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وهي معاتبة إلهية لأولئك المؤمنين؛ لأنهم لم يتحركوا التحرك الذي ينشر حسن الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته والمؤمنين جميعًا، فلو أنهم بمجرد سماعهم لهذا الخبر أحسنوا الظن بإخوانهم كلهم خيرًا، وبينوا أن هذا الحدث إنما هو كذبٌ بين، ويبين الله تعالى أن ذلك التصرف الذي كان يتوجب على المؤمنين بدهيٌ ولا يحتاج إلى مزيد كلفة من التفكير؛ فلا يوجد أربعة شهداء، فإذ لم يوجد شهداء فمن قذف هو الكاذب[(١)].

ولا شك أن هذا الأمر هو من أهم مبادئ وأسس الغفلة المحمودة، فإحقاق الحق وإبطال الباطل إنما ذلك إغفال للشر، وإظهار الخير، كما أن القرآن الكريم يبين أن المؤمنين بسبب سلبيتهم وغفلتهم عن ذلك الدور المنوط بهم، فقد وقعوا في الحرج في أخص خصوص الدين، وهو عرض الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وهذا يعلم المؤمنين جميعًا على اختلاف أزمانهم وأماكنهم أن يقوموا بواجبهم في الدفاع عن الدين، وليس بردود الأفعال التي قد تكون ملاحقة لخيوط الشر، ومن ثم الوقوع في فخوخه.

وأما تفسير قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

فقد ذكر القرآن الكريم أن من وقفوا موقف الحديث بغير علم والتكلم باللسان دون التفكير بالقلب تجاه هذا الانتهاك الصارخ تجاه عرض الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بأنهم يذكرهم الله تعالى بآيات الكتاب المبين؛ حتى لا يعودوا لمثل الفعل الذي فعلوه، ثم تذيل الآية بأسلوب الإلهاب والإغراء لصفة الإيمان، فيقول تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم تعتبرون وتتعظون بعظات الله تعالى، وتأتمرون لأمره، وتنتهون عن نهيه[(٢)].

فإن كنتم كذلك فلا تعودوا لما وقعتم به. وعدم الشعور الصادق بحجم مصاب المسلمين هو بحد ذاته غفلة؛ ولذلك وجد

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٢٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٣.

من الصحابة من تحرك تجاه هذا المصاب الأليم، وهذه بعض مواقف منهم:

الموقف الأول: شهادة أسامة بن زيد رضي الله عنه بأنه لم يعلم عنها إلا كل خير، فقد جاء في صحيح البخاري: (فأما أسامة فقال: أهلك ولا نعلم إلا خيرًا)[1].

الموقف الثاني: موقف الجارية بريرة، وذلك فيما روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حيث قالت: (وقالت بريرة: إن رأيت عليها أمرًا أغمصه أكثر من أنها جاريةٌ حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن، فتأكله)[2].

الموقف الثالث: قول الرسول صلى الله عليه وسلم عمن آذاه في أهل بيته، وردة فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قال عليه السلام: (من يعذرنا في رجلٍ بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت من أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا)[3].

إن كل ما حدث في هذه الحادثة الصعبة على المسلمين عامةً، إنما كانت بتقدير الله تعالى وعلمه؛ حتى تترسخ في الأذهان والقلوب وجوب الذب عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، ومن ثم التقدير والتبجيل والاحترام لهم في شتى المنابر، ومن أعظم أنواع الاحترام لهم السير على نهجهم، فهم السلف الصالح، وهم خير القرون، وإن اتباع هذا المنهج، والانسلاخ عن منهج الباطل والإغفال عنه، هو قمة الالتزام بشرع الله تعالى.

ثانيًا: الغفلة المذمومة:

سبقت الإشارة أن الغفلة في السياق القرآني -غالبًا- تكون مذمومة، باستثناء ما ذكر في ذلك الكلام السابق، وسيتم التركيز -إن شاء الله تعالى- فيما سيأتي على أنواع الغفلة المذمومة، وذلك كالآتي:

٣. الغفلة عن التفكر في آيات الله الكونية والشرعية.

ورد ذلك في آيات، منها: قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

والمعنى: رغم كل الآيات الكونية والشرعية التي نزلت إلى فرعون وقومه، بما من شأن أي إنسان يراها ويلمسها أن يؤمن بالله تعالى، إلا أنهم بارزوا الله تعالى بالكفر،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا عدل رجل أحدًا، فقال: لا نعلم إلا خيرًا، أو قال: ما علمت إلا خيرًا ٣/ ١٦٧، رقم ٢٦٣٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا عدل رجل أحدًا، فقال: لا نعلم إلا خيرًا، أو قال: ما علمت إلا خيرًا ٣/ ١٦٧، رقم ٢٦٣٧.

ونكث العهود لمرات عديدة، فاستحقوا النكال، بانتقام الله تعالى منهم انتقامًا ليس كذلك الذي كان الله تعالى يؤذيهم به، بل انتقام إهلاك؛ لأنهم وصلوا إلى محض العناد، وهذا الانتقام هو الإغراق في البحر؛ بسبب أنهم كذبوا بآيات الله تعالى الشرعية والكونية، على ما لها من العظمة بما عرف من صحة نسبتها إلى الله تعالى، ودل سبحانه على أنهم كذبوا بغير شبهةٍ عرضت لهم، بل عنادًا بقوله: ﴿وَكَانُوا﴾ أي: جبلةً وطبعًا عن هذه الآيات ﴿غَٰفِلِينَ﴾، فحالهم بعد هذه الآيات التي نزلت، كحالهم قبلها؛ فكأن هذه الآيات لم تأتهم أصلًا، فاستحقوا الأخذ بالعقاب[1].

٤. الغفلة عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء.

ورد ذلك في آيات، منها: ما ورد في كتاب الله تعالى ما يبين أن الكفار يقتصر فهمهم على ظاهر الحياة الدنيا، وأن الآخرة ليست في حسابات هؤلاء الكفار، فهم عنها غافلون، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

فقد بين الله تعالى في الآيات السابقة أنه وعد المؤمنين بنصر الله، وأن وعد الله لا خلف فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة هذا الوعد، وتبين هذه الآية سبب عدم علمهم بوعد الله تعالى، وهو أن «علمهم منحصرٌ في الدنيا، وأيضًا لا يعلمون الدنيا كما هي، وإنما يعلمون ظاهرها، وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها»[2]، وهم عن الدار الآخرة غافلون غفلةً هم سببها؛ إذ إن جميع جوانب الهداية حاصلة عندهم، وفي ذاكرتهم، ومع ذلك فإنهم قد آثروا أن يكونوا في غفلةٍ عن الخير؛ بدافع أهوائهم[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

ورد في تفسيرها حديث شريف، وهو ما أورده أبو سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، و يا أهل النار خلودٌ فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٤٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٨١.

(٣) انظر: المصدر السابق.

﴿غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]. وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩])[١].

وفي رواية مسلم: (وأشار بيده إلى النار)[٢].

وهذا التفسير يبين خطر الغفلة التي تحل على من يقضي حياته في غير الإيمان بالله، بل ولربما يكذب ويحارب هذا الغافل دين الله تعالى، فربط الغفلة بالآخرة أمر مهم؛ حتى يذكر هذا الغافل بالله تعالى، وأنه سيبعث بعد موته لهذه الدار الآخرة: إما إلى جنة أو إلى نار، وعندما يذبح الموت، ويخلد من استقر في النعيم على ما هو عليه، فلا موت لنعيمه فضلًا عن حياته، وهكذا أهل النار يخلدون فيها، فلا موت لتعذبهم فضلًا عن حياتهم.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين اقتراب الوعد الحق الذي هو القيامة، مع بيان طبيعة حال الكافرين يومئذٍ وتحسرهم؛ لأنهم كانوا في غفلة من ذلك اليوم، واعترافهم الواضح بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم، ومتجاوزين لكل الحدود، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

يا ويلنا قد كنا نغفل عن ذلك اليوم رغم أنه الحق، بل إننا كنا ظالمين لأنفسنا بمعاصينا، ووضعنا العبادة في غير مواضعها[٣].

ومن المعلوم أن هذه الآية ذكرت في سياق بيان حكمة الله تعالى في خلقه الكافرين الذين حق عليهم الهلاك، فهم لا رجعة لهم إلى الدنيا، ثم بيان بعض علامات الساعة، ومنها يأجوج ومأجوج الذين هم من كل حدب ينسلون، فإن هذه الشواهد وغيرها مما ذكر سابقًا في الآية المذكورة يدلل على مدى الغفلة التي وقع فيها أولئك الكافرون، فلم يملكوا إلا الاعتراف الصريح بغفلتهم وعدم انتباههم لكل الإشارات التحذيرية التي كانت تساق إليهم؛ لعلهم يرجعون عن ظلمهم وتجاوزهم للحدود.

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

فهذه الآية توضح أن الإنسان الكافر بعد أن يرى بعضًا من أهوال يوم القيامة يخاطبه الله تعالى بقوله: «لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم -أيها الإنسان- من الأهوال والشدائد، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وأنذرهم يوم الحسرة)، ٦/ ٩٣، رقم ٤٧٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم ٢٨٤٩، ٤/ ٢١٨٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٤٢، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٨٨.

يقول: فجلينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيته وعاينته، فزالت الغفلة عنك»[1].

٥. الغفلة عن الذكر وتدبر كتاب الله تعالى.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين خطر الغفلة عن الدعاء الذي هو العبادة والذكر في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

فلا أحد أشد ضلالة من الذي يدعو من دون الله تعالى «حجرًا لا يستجيب له إذا دعاه أبدًا، ولا ينفعهم، وتلك الحجارة التي يعبدونها غافلة عن دعاء هؤلاء الكفار، لا تعقل ولا تفهم»[2].

إن هذه الآية الكريمة بينت وحذرت أولئك الغافلين بأن ما يعبدون من دون الله تعالى هي أصلًا غافلة عما يدعو هؤلاء الكفار، فإنهم قد فعلوا ما ينكره العقل ابتداءً فضلًا عن عدم تلبيتهم نداء ربهم، فإن هؤلاء الكفار قد دخلوا في وحل الغفلة من أوسع أبوابها، فاستحقوا أن يوصفوا بأنهم أشد الخلق ضلالةً.

٦. الغفلة عن عهد الله تعالى وميثاقه.

وقد ورد ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ – ١٧٤].

فإن هذه الآيات الكريمة تبين الميثاق الأول الذي أخذ على بني آدم، وهم في عالم الذر، فيقول الله تعالى: واذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم حين «استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به»[3].

فقال الله تعالى لهم: ألست بربكم الذي يستحق العبادة وحده؟ فقالوا جميعًا: بلى، شهد بعضنا على بعض، فأقروه بذلك والتزموا، ثم يذكر الله تعالى عذرين باطلين لهما، الأول: القول من المقرين بوحدانية الله تعالى إنا كنا لا نعلم ذلك، وكنا في عدم انتباه من ذلك، فهذا باطل؛ لأنهم مشهود عليهم بما أقروه وهم في عالم الذر؛ فهم مولودون على هذه الفطرة، ولا مجال لهم للتذرع بالغفلة. والعذر الآخر قول هؤلاء المقرين في عالم الذر بوحدانية الله تعالى: إنما ولدنا فوجدنا آباءنا مشركين، فاتبعنا منهاجهم، أفتهلكنا يا ربنا بإشراك من أشرك

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٥٠.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٦٨١٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٢٢.

من آبائنا، واتباعنا منهاجهم على جهل منا بالحق؟!(١).

٧. الغفلة عن تربص الأعداء.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

أخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي عن أبي عياش الزرقي قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان، فاستقبلنا المشركون، عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاةٌ هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذوا السلاح، قال: فصففنا خلفه صفين. قال: ثم ركع وركعنا جميعًا، ثم رفع، فرفعنا جميعًا، ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا، جلس الآخرون، فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، قال: ثم ركع، فركعوا جميعًا، ثم رفع، فرفعوا جميعًا، ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم والصف الذي يليه، والآخرون قيامٌ يحرسونهم، فلما جلس، جلس الآخرون فسجدوا ثم سلم عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين: مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم)(٢)(٣).

ومن الآية وسبب نزولها تعرف كيفية صلاة الخوف، ويتبين أيضًا أن من أساسيات الالتزام بالدين ألا يغفل المؤمن عن تربص الأعداء؛ ولذا شرعت صلاة الخوف لأهداف عظيمة، منها: اغتنام فرصة وجود

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢١٨.

(٢) أخرجه الإمام في مسنده، ٢٧/ ١٢٠، رقم ١٦٥٨٠، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، تفريع صلاة المسافر، باب صلاة الخوف، ٢/ ١١، رقم ١٢٣٦، والنسائي في سننه، كتاب صلاة الخوف، ٣/ ١٧٦ رقم ١٥٤٩.
قال محقق المسند: «إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، غير أن صحابيه لم يخرج له سوى أبي داود والنسائي».

(٣) المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ١/ ٤٣٤.

النبي محمد صلى الله عليه وسلم في المعركة، ومن ثم الفوز بالجماعة خلفه، ومن الأهداف: بيان أهمية الجماعة حتى في المعارك، ولكن في حالة الخوف، بكيفية تضمن -بعد توفيق الله تعالى- عدم ميل الأعداء على المؤمنين ميلةً واحدةً، ومن هنا يتبين أن الغفلة عن تربص الأعداء مذمومة بكل المقاييس، وليس أدل على هذا من تذييل الآية بقوله: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ ثم بيان أن الله تعالى أعد وهيأ للكافرين عذابًا سيهينهم بإذنه تعالى[1].

إن أعداء الله تعالى قد دأبوا على النيل من الموحدين، فهم يسعون لإضعاف المؤمنين، والاجتهاد في نزع سلاح المجاهدين، الذين هم تحت راية الإمام، والذين هم يدافعون عن دين الله تعالى؛ ولذا فإن الله تعالى شرع صلاة الخوف، وبين خطر الغفلة عن السلاح؛ حتى لا يقع المسلمون فريسةً سهلة للكفار.

يقول تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

٨. الغفلة عن الاعتبار من سير السابقين.

إن قصص القرآن وكذلك أمثاله وأقسامه دلت باستفاضة على وجوب الاتعاظ، وإن من أعظم ما دل على ذلك قوله تعالى عن فرعون وجثته: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

حيث إن هذه الآية دلت على أن غالبية الناس يغفلون عن آيات الله تعالى التي هي مدعاة للحجر والشجر أن يصدع لها من خشية الله تعالى، رغم أن قصة فرعون وبقاء جثته خير دليلٍ وآيةٍ على قدرة الله تعالى.

٩. الغفلة عن حسن التعامل مع الخلق.

وقد ورد ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

حيث يأمر الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يستفهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لغرض الزجر والاتعاظ: فلم هؤلاء يصدون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا سئلوا عنه، قالوا: لا نجده، كذبًا منهم وصدودًا، وهم يرجون بمكة غير الإسلام؛ بل يريدون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم هلاكًا؟![2].

والمشكلة فيهم، هي أنهم يشهدون على ذلك الصد والافتراء؛ ولذلك حسن أن تكون الخاتمة بتنزيه الله تعالى عن الغفلة؛

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٦١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧١٧.

لأن أهل الكتاب غارقون في الغفلة، غير متنبهين لما سيؤولون إليه من العناء والشدة، إن هم أصروا على إجرامهم.

إسناد الغفلة للرسول الكريم

تنبغي الإشارة إلى أن الغفلة المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليست تلك التي يحاسب المرء عليها، أو التي هي منقصة تحل بالمرء إن وصف بها، فهي خارجة عن إرادة البشر ومعرفتهم عمومًا؛ إذ إنها مرتبطة بالفطرة من جهة، وبما حدث قبل ولادته صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى.

وسنذكر -إن شاء الله- آيات الغفلة المنسوبة إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، من خلال ثلاث نقاط، وذلك فيما يأتي:

١. **الغفلة قبل إرساله صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه.**

وقد ورد ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

فإن سورة يوسف عليه السلام من أولها إلى نهايتها تتحدث عن قصة ذلك النبي الذي خلد القرآن الكريم ذكره في اسم هذه السورة، فإن هذه الآية تذكر أن الله تعالى القدوس يقص على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن ثم على أمته أحسن القصص من خلال هذا القرآن الكريم الموحى إليه،

ثم تأتي الفاصلة ببيان أن هذه القصص الفضلى في حسنها وإحكام دلائلها وعبرها، ما كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم لينتبه إليها، أو أن يعلمها إلا بعد ذكرها في القرآن الكريم[1]، فإن هذه الآية الكريمة تبين أن الغفلة مفهوم دقيق، ينتسب إليه كل الخلق، ولو نجا منه أحدٌ لكان الأولى بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، مع التذكير بأن غفلة الرسول صلى الله عليه وسلم مما لا يحاسب عليه الخلق، ولا ينسب عيبًا.

وقد بينت آية أخرى أن مما غفل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة دقائق ما ذكره القرآن الكريم قبل إنزاله؛ لبيان عجز الخلق، وأنه ما علا شأن مخلوق فإنه يبقى بحاجة إلى خالقه.

فقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وتبين هذه الآية الكريمة أن أعظم طرق الوصول إلى الله هو التمسك بذلك القرآن الكريم الذي هو روحٌ من لدن رب العالمين، فهو الهادي للتي هي أقوم، فقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم غافلًا عن ذلك القرآن وذلك الإسلام، ولكنه ضياء من الظلمات بشتى صورها؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم ملتزم بتبليغ دعوة الله تعالى بما في ذلك النور الذي يشع من القرآن الكريم، فقد وصف صلى الله عليه وسلم بأنه يرشد إلى الاستقامة[2].

٢. نهيه عليه السلام ومن تبعه عن الغفلة.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدلل على أن الله تعالى نهى سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الغفلة بشتى صورها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

حيث أمرت الآية السابقة المؤمنين كافة أن يحسنوا الاستماع والإنصات للقرآن الكريم إذا قرئت آياته المتلوة، وبينت أن ذلك سبب الرحمة الواسعة من الله تعالى، وتأمر هذه الآية الكريمة الرسول محمدًا صلى الله عليه وسلم ومن ثم جميع أمته أن يستحضروا الله تعالى في أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، وأن تكون حال ذلك الاستحضار بتضرع وخيفة، وأيضًا تكون القراءة غير مجهور بها في فترة الغدو والآصال، ثم تذيل الآية بنهي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ثم أمته

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٧٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ١٧٤.

عن الغفلة، فإن ترك الذكر غفلةٌ[1]، والنهي للرسول صلى الله عليه وسلم عن الغفلة لا يقتضي أنه صلى الله عليه وسلم قد وقع بها؛ وإنما يأتي التحذير لبيان أن القدوة الحسنة المعصوم إذا كان منهيًّا عن تلك الغفلة، فمن باب أولى أن تنتهوا أيها الناس عمومًا عنها.

٣. نهيه عليه السلام ومن تبعه عن اتباع الغافلين.

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية والتي قبلها، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: جاء المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس وأهاليهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم -يعنون سلمان، وأبا ذر، وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها- جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والتي قبلها، والتي بعدها[2]، وعلى هذا فإن الآية تأمر رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم، بأن يحبس نفسه مع هؤلاء الفقراء الداعين إلى الله تعالى حبس ملازمة لهم، فهم الذين لا ينفكون عن الدعاء إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، يبتغون وجه الله تعالى، ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تعرض عنهم، ولو بأن تنتبه إلى غيرهم تريد زينة زائفة من هؤلاء المستكبرين الكفار[3].

يقول ابن عاشور: «وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة، وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية، فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة، وجعلوا همهم الصور الظاهرة»[4].

ثم يذكر القرآن الكريم في آية قرآنية أخرى ما يحصن هؤلاء المستضعفين، وبقاءهم في حصن الدعوة، وذلك بأسلوب النهي عن طردهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٤٧.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٩٧، لباب النقول، السيوطي ص١٣٠.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦٣.

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٠٥.

حيث تنهى هذه الآية الكريمة نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يطرد الفقراء المسلمين الداعين إلى الله تعالى صباح مساء مبتغين وجه الله تعالى عن مجالسته، فكلٌّ له حسابه عند الله تعالى، ولست من يحاسبهم، أو يحاسب عنهم، فإن طردتهم فإنك ساعتها تكون من الظالمين[1].

ولا شك أن هذه الألفاظ صعبةٌ على النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم لمجرد أن نفسه حدثته بمجاملة سادة قريش طمعًا في إسلامهم، ومن هنا يتبين أن الغفلة باب واسع، قد يقع به خير الناس إن اجتهد في خدمة الدعوة وأعمل عقله لحظةً، وجامل من لا يستحق المجاملة، أو انفك عمن يؤمر الداعية بملازمته من أولئك الداعين إلى الله تعالى، الغيورين على دينه؛ ولذلك فإن كلمات الآية حاسمة في وجوب الانفكاك عمن أغفل الله تعالى قلبه عن ذكر الله تعالى، وكان أسير هواه، وكان أمره ضياعًا[2].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٥٧.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٨.

أسباب الغفلة

سبقت الإشارة إلى أن الغفلة في عمومها مذمومة، وأنها نقيض ذكر الله تعالى، وينجم عنها كثير من المتاعب وإحلال غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه، وسنستعرض -إن شاء الله تعالى- الأسباب التي تؤدي إلى الغفلة؛ حتى ينتبه لها، ويحذر منها، وهي تتلخص في سبعة أسباب:

١. الكفر.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدلل على ذلك صراحةً، في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦].

فقد ذكرت الآيات السابقة أن الله تعالى خاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم مقررًا أنه من المرسلين، وأنه على صراط مستقيم، فهو الهادي إليه بإذن ربه تعالى؛ لأن هذا الصراط المستقيم الذي هو منهاج ودين، إنما هو منزلٌ من الله العزيز الرحيم؛ ثم تبين هذه الآية الكريمة أن هذا المنهاج المنزل من العزيز الرحيم إنما هو ليحذر العرب الذين لم يأت إليهم من ينذرهم ويحذرهم مما هم فيه من غرق في الكفر، من عبادة الأصنام والأوثان وعدم وجود شريعة الله تعالى بينهم[3]، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة: عبارة

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٦٣.

عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد[1]، فلما كانت تلك حالهم، وصفهم الله تعالى بأنهم غافلون غير منتبهين لسبب وجودهم، ولا لعاقبة أمرهم، وهذه الآية هي شاهدٌ على أن الكفر سبب للغفلة في عمومها، رغم أن العرب كانوا جهلةً لا يعرفون، إلا أن هذه الآية تبين جانبًا تأصيليًّا تعريفيًّا، وليس الحكم على العرب بعيب عندهم فحسب، وما يدل على ذلك الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

٢. الظلم.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٤-١٤٥].

وإن هذا الخطاب القرآني يبين أن الله تعالى قد رأى كثرة توجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء لعل سيدنا جبريل عليه السلام يأتي بخبر من الله تعالى يأمر بتحويل القبلة؛ حيث إن حبها للنبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن عاطفيًّا؛ لكنه كان حبًّا شرعيًّا بعدما عيرته اليهود بأنه لجأ إلى قبلتهم، واتخذت ذلك فرصةً للصد عن النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته الربانية، ولما كان هذا التوجه من القلب والجوارح فقد استجاب الله تعالى لنبيه طلبه الذي لم ينطق به تأدبًا منه عليه السلام، فقد كان يقلب وجهه إلى السماء، فتم تحويل القبلة، ثم بين أن أهل الكتاب يعلمون علم اليقين بأن ذلك حقٌّ من عند ربهم.

وذيلت الآية الكريمة بتنزيه الله تعالى عن الغفلة عما يعمل أهل الكتاب من تحريض على دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، وهذا التذييل يدلل على مدى الغفلة التي يعيشها أهل الكتاب؛ فرغم أنهم يعلمون علمًا لا شك فيه ولا ريب، بأن ما حدث هو من عند الله تعالى، وأن الدعوة إلى الله تعالى أصلًا هي من عند ربهم، إلا أنهم غفلوا عن معرفة ما سيؤولون إليه من غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه.

ثم تأتي الآية الكريمة لتفصل غفلتهم الكبيرة، وهي متابعة النفس لما تشتهيه، فهم إن جاء إليهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بكل معجزةٍ دالةٍ على نبوته ما توجهوا إلى

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٤٤.

القبلة نحو المسجد الحرام؛ لأنهم يعلمون -بدون معجزات- أنه صلى الله عليه وسلم على حق، ولكنهم لا يريدون التبعية له صلى الله عليه وسلم، فهم قد استغلوا توجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى القبلة نحو المسجد الأقصى ليبينوا أنه تبعٌ لهم.

ثم تذيل الآية الكريمة ببيان أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم إن اتبع أهواءهم، فصار يبحث عما يرضيهم، رغم أن الله تعالى قد بين له صلى الله عليه وسلم كل الدلائل التي تجعله يحذر من مكرهم، فعند ذلك كله إن سار في ركبهم -وحاشاه أن يكون كذلك- يكون من الذين تجاوزا الحدود، فوصف عندها من الظالمين، ووصف الظالمين؛ ليبين أن من يسير في ركب أهل الكتاب يكون من الظالمين، الذين غفلوا عن الحق وانصاعوا للباطل، واتبعوا ما تشتهيه أنفسهم، وإن من اتبع الغافلين كان منهم[1].

وإن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه من الظالمين إن اتبع أهواءهم «فيه لطفٌ للسامعين، وتحذير لهم عن متابعة الهوى، فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهي عنه، ورتب على فرض وقوعه ما رتب من الانتظام في سلك الراسخين في الظلم فما ظن من ليس كذلك؟!»[2].

ومن هذا الخطاب القرآني يتبين أن الظلم الذي هو تجاوز للحدود رغم معرفة الحق، هو سبب مباشر من أسباب الغفلة التي هي متابعة النفس على ما تشتهيه، ويبرز ذلك عند معرفة أن الظالمين المحرضين ضد الحق حينما يوصفون بالغفلة، فقد غفلوا عن أن الله تعالى منزهٌ عن ذلك، فإذا فهم ذلك فعندها يكون من يتبع الباطل ظالمًا، وغارقًا في وحل الغفلة.

٣. الإعراض عن الوحي.

وقد ورد ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

ويتبين من هاتين الآيتين أن الفطرة السليمة تعي حجم الغفلة التي يقع بها الخلق عندما يحذرهم الله تعالى من الحساب، وتساق الأدلة على ذلك، ويتبين أيضًا أن هذا الخطاب القرآني يعظ الناس عمومًا، فيذكرهم بما سيؤولون إليه من جزاء، وعليهم أن ينتبهوا من غفلتهم وإعراضهم الذي هو حقٌّ.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٢١٧.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٧٦.

وتفصل الآية التي بعدها سبب الإعراض عن الوحي وهو أنهم ما إن يأتهم شيء من القرآن محدثٌ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة، إلا استمعوه وهم في حالة استهزاء به، فقلوبهم غافلةٌ غير منتبهة إلى وعد الله الحق[1].

٤. الرضا بالحياة الدنيا والركون إليها.

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

والمعنى: إن الذين لا يخافون لقاء الله تعالى يوم القيامة، فهم لذلك مكذبون بالثواب والعقاب، متنافسون في زين الدنيا وزخارفها، راضون بها عوضًا من الآخرة، مطمئنين إليها، والذين هم عن آيات الله، وهي أدلته على وحدانيته وحججه على عباده في إخلاص العبادة له ﴿غَٰفِلُونَ﴾، معرضون عنها لاهون، لا يتأملونها تأمل ناصح لنفسه، فيعلموا بها حقيقة ما دلتهم عليه، ويعرفوا بها بطول ما هم عليه مقيمون، هؤلاء الذين هذه صفتهم مصيرهم إلى النار؛ لأنهم كانوا لا يتحرون الكسب الحق، سواء أكان هذا الكسب قولًا أو فعلًا[2].

ومن هذه الآية الكريمة يتبين أن الإنسان إذا عاش في الدنيا محبًا لها، معتقدًا أنه مخلدٌ فيها، يجتهد في جمع المال والجاه فيها، فإنه يكون قد غفل عن سبب وجوده في الدنيا، وهو عبادة الله تعالى وحده، فالدنيا لا تكون خيرًا إلا إذا اعتبرها الإنسان مسجدًا للصلاح، ومنطلقًا للخير ورضا الله تعالى، فإذا غفل الإنسان سبب وجوده فإنه يغفل ما سيؤول إليه بعد الحياة، وهو الممات، فلا يعمل له، ولا يتزود له، وحينها فإنه سيلقي الله تعالى خاوي اليدين، وعاقبة أمره ذلٌّ وهوانٌ، وسيخسر الآخرة، وإن ظن أنه ربح الدنيا فهو أيضًا غافل؛ لأن التقوى هي السعادة وفيها راحة البال، والجميع حينها يحبه، والمتقي لله تعالى يكثر من الذكر، والذكر نقيض الغفلة، فإنه يتحصن منها.

٥. الكبر.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فالله تعالى بين في هذه الآية الكريمة

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٥٤، الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٦١٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٥.

أن المتكبرين في الأرض بالباطل، الذين يرون الحق والباطل، فيصرون على باطلهم طريقًا ومنهجًا سوف يصرفهم الله تعالى عن التفكر في آياته الكونية والشرعية وقبولها، والسبب أنهم كذبوا بهذه الآيات بنوعيها، وتذييل الآية بأنهم غافلون مناسب لما بينته من رؤية طريقي الحق والباطل، ومع ذلك لم يتعظوا[1].

والغفلة في هذه الآية تحتمل المعنى الأشمل، وهو: متابعة النفس لما تشتهيه؛ لأن الأهواء سلاح إبليس، وهي الذنوب التي قد يغفل الإنسان عن التوبة منها؛ لأنها تكون ضمن ما تشتهي نفسه، ويتابع ما تطلبه تلك النفس، فإن الإنسان قد يعرف الحق، لكن الشهوات قد تغشي قلبه عن نعمة الانصياع القلبي والقولي والفعلي لما يطلب الشرع منه، وهذا الأمر هو الغفلة التي قد توصل إلى التكبر في الأرض؛ لاعتقاد هذا المتكبر أنه بيده مقاليد كل شيء.

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أنها جعلت من يرى طريق الحق وما يرشد إليه، وطريق الباطل وما يوصل إليه، ومع ذلك يلتزم الباطل، فإنه يكون في صف المتكبرين، الذين غفلوا حقيقة وجودهم وما سيؤولون إليه.

٦. تعطيل الحواس بعدم التفكر والتدبر والسمع والإبصار.

إن الله تعالى قد بين في كتابه العزيز أن الحواس مسؤول عنها ذلك الإنسان؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

«فلا تقل: سمعت، ولم تسمع، ولا تقل: رأيت، ولم تر، فإن الله سائلك عن ذلك كله»[2].

وإن المسلم يستحضر بقلبه ذكر الله، ثم يقر اللسان بمقتضى ذلك، ثم يستمع الحق ولا يستمع الباطل ولا يكذب بقوله سمع وهو لا يسمع، وكذلك لا يقول رأيت وهو لا يرى، أما إذا اتبع هواه، وعطل حواسه عن واجباتها في التعرف إلى الله وذكره، فعندها من المؤكد أنه ستحل عليه الغفلة المذمومة، التي تمحق الحسنات، وتربي السيئات بعدم انتباه ذلك المسلم إلى واجباته، واستبدال ذلك بالفجور والعصيان.

٧. صحبة الأشرار.

إن صحبة الأشرار تؤدي إلى الغفلة من أوسع أبوابها؛ فقد تودي بالإنسان إلى غضب الله تعالى ومن ثم عقابه.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٧، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٣٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٣١.

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۚ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

أي: «ويوم يعض الظالم نفسه المشرك بربه على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صدَّهُ عن سبيل ربه، يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلًا، يعني: طريقًا إلى النجاة من عذاب الله»[1].

ويبقى هذا الكافر الظالم يصاحبه الندم على ما فرط في جنب الله؛ فقد جاءه القرآن الكريم وذُكِّرَ بالله تعالى بما فيه الكفاية للطاعة وعدم الغفلة عنها، ومع ذلك فقد غفل عن الحق، واتبع هواه بالاستماع إلى صحبته الشريرة، فاستحق غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه في الدنيا بفضيحته ومعيشته النكدة، وفي الآخرة بالندم البالغ، ومن ثم دخول النار.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٢.

الآثار المترتبة على الغفلة

تبين من خلال الدراسة أن الغفلة في عمومها مذمومةٌ، وأنها تكون سببًا مباشرًا لغضب الله تعالى، ومن ثم عقابه.

وسنركز على الآثار المترتبة على الغفلة في الدنيا والآخرة، وذلك بالاستقصاء في آيات الله تعالى، والله الموفق والمستعان.

أولًا: الآثار الدنيوية:

وردت آيات عديدة تدلل على وبال العاقبة للغافلين في الدنيا قبل الآخرة، وذلك من خلال بيان العواقب الآتية:

١. البعد عن أهل الحق فقراء كانوا أم أغنياء.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

فقد يغفل المسلم الداعية عن بعض الجوانب المهمة من الدين، كالإعراض ولو لحظة عن أهل الحق، حتى ولو كان ذلك بسبب نصرة الدعوة، فإن الغفلة عنهم تعني ركونًا إلى العقل في جلب الناس، والدخول في مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة)، وقد جاء في الحديث الشريف عن مصعب بن سعدٍ، قال: رأى سعدٌ رضي الله عنه،

أن له فضلًا على من دونه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟!)[1].

٢. ضياع أمر الغافل.

ومعنى الآية في هذا السياق: «جعلناه غافلًا بالختم عليه، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طاعة من جعل الله قلبه غافلًا عن ذكره، كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه، فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وهم غافلون عن ذكر الله»[2].

٣. الانتقام من الغافلين عن آيات الله في الدنيا.

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

حيث جاءت هذه الآية بعد سرد كل الآيات البينات الدالة على صدق سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد غرقوا في الغفلة؛ ولذلك استحقت إرادة الله تعالى بالانتقام منهم، فأغرقهم الله في البحر بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى، والغفلة عنها[3].

٤. صرف الغافلين عن تدبر آيات الله تعالى والتأمل فيها.

فقد قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

حيث إن الغافلين - الذين كذبوا بآيات الله تعالى فهم المتكبرون- سيحل بهم عقاب، وهو إيجاب عدم القدرة على التفكر في آيات الله تعالى والاعتبار فيها، وسيرون الحق وما فيه من نجاة، وسيرون الباطل وما فيه من هلاك، ومع ذلك فإن أبوا إلا الانغماس في الباطل، وعميت بصيرتهم، وما عادوا يتفكرون فيما ينجيهم[4].

٥. الغافلون سيتصفون في الدنيا بأنهم جهلة.

فقد قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

فمن يغفل عن الآخرة، يكن من الذين لا يعرفون سبب وجودهم في الحياة الدنيا، فلا يعرف نفسه حق المعرفة، ولا يفقه هؤلاء الغافلون من الحياة إلا «معايشهم، متى يغرسون؟ ومتى يزرعون؟ ومتى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، ٤/ ٣٦، رقم ٢٨٩٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٣٤.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٦٦.
(٤) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٥٦٢.

يحصدون؟»[1].

٦. لهو القلب عند الغافلين.

فقد قال -تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

حيث إن هذه الآية تبين حال الغافلين من الناس، لاهية قلوبهم، وبأنهم يصدون عن الحق بالتناجي فيما بينهم بسرية متناهية[2].

ثانيًا: الآثار الأخروية:

إن للغفلة آثارًا كبيرة على من يغرق في وحلها في الآخرة، يوم لقاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

فقد بينت تلكما الآيتان أن الذي يغفل عن لقاء الله تعالى، ويركن إلى الدنيا ويرضى بمتاعها الزائل، فإن بيته الخالد يوم القيامة سيكون النار، وهذا بما كسب قلبه وقوله وعمله، فالغافلون هم من يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد[3]، ومن هذه الآية يتبين أن من آثار الغفلة في الآخرة الدخول في النار.

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وقد تقدم الحديث عن هذه الآية، ويمكن القول: إن يوم القيامة سمي يوم الحسرة في هذه الآية؛ لأنه إذا ذبح الموت، ونودي بالخلود لأهل النار كما الجنة، عندها ينتهي أيُّ أملٍ في النجاة عند أهل النار، فهي الحسرة التي لا تعدلها حسرة فهو بالفعل «يوم الحسرة المُعَدَّة للجزاء بحيث لا يمكن فيها التلافي والتدارك على ما فات سوى الحسرة والندامة غير المفيدة؛ إذ قضي الأمر ونزل العذاب، وقد مضى زمان امتثال المأمور به»[4].

ومن هذه الآية يتبين أن من آثار الغفلة في الآخرة الحسرة الكبيرة؛ لعلمهم اليقيني بأنهم مخلدون في النار.

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٦٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٨٥.
(٤) الفواتح الإلهية، الشيخ علوان ١/ ٥٠٠.

منهج القرآن الكريم في علاج الغفلة

إن القرآن الكريم لا يذكر ذنبًا ولا معصية ولا مرضًا قلبيًّا إلا ويذكر العلاج الكافي والمناسب له، وإن الغفلة مرض يكاد يفتك بمن أصيب به، واستحكم قلبه وعقله وحياته، وعند المتابعة في آيات القرآن الكريم يتضح أنها عالجت ذلك المرض القاتل من خلال أمور عديدة، أهمها:

١. ذكر الله تعالى وعبادته.

قال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٤- ١٦].

فالله تعالى يقول لنبينا موسى عليه السلام: إنني أنا الله لا معبود بحق إلا أنا فأطعني واعبدني عبادة لا تنساني أبدًا من خلالها، والمقصود الإقامة والمكث الأبدي على تلك الصلاة وتلك العبادة، ثم التذكير بالساعة؛ للتذكير بالعاقبة فإما إلى نار وإما إلى جنة، فلا يحرفنك يا موسى عليه السلام الذي لا يصدق إتيانها، اتباعًا لهواه، فهو الرَّديُّ إلى الهاوية[(١)].

ولا شك أن هذا الذكر الأبدي والإقامة الدائمة على الصلاة، والتذكر الدائم للساعة وما فيها من أهوال، كل ذلك يحصن الإنسان المسلم من الغفلة.

٢. التوكل والتفكر والتدبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

فإن مبدأ التفكر في خلق السماوات والأرض وما فيها من آيات كونية دالة على قدرته -جل جلاله-، واختلاف الليل والنهار، وما ينتج عن ذلك من فصول السنة وتغير المناخات، إن كل ذلك معجزات دالة على وجود الله تعالى، ومن ثم يصطحب الإنسان ذلك التأمل في تلك المخلوقات؛ ليعيش مع كمال الخوف مع كمال الحب لله تعالى، وإن الله تعالى قد وصف من يكون من المتفكرين في مخلوقات الله تعالى بأنهم أصحاب العقول النيرة[(٢)].

كيف لا؟! وهم الذاكرون لله تعالى بشتى أنواع الذكر ومزيد التوكل على الله تعالى حق توكله، والمتفكرين في خلق السماوات والأرض فيحملهم ذلك على الخوف من الله تعالى، ربنا ما خلقت هذا

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣٩١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٣٤١.

باطلًا، ننزهك يا ربنا، وأنت غنيٌّ عن تنزيهنا لك، فأجرنا يا ربنا من النار، ولا شك أن هذه المشاعر تجعل من المسلم أنموذجًا تطبيقيًّا لهدي القرآن؛ فيجتنب الغفلة التي ذمها الله تعالى، والتي هي سبب دخول النار وقبل ذلك غضبه عز وجل.

٣. صحبة الصالحين ومجالسة الذاكرين.

قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

فإن كلا الجنسين من المؤمنين المصدقين بالله ورسوله، والمؤمنات المصدقات بالله ورسوله، ولاؤهم جميعًا مبني على الأمر بالمعروف الذي فيه تعاون على الخير لأجل رضا الله تعالى، وأيضًا على النهي عن المنكر الذي فيه تعاون على اجتناب المنكر، وعلى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن من تكون حاله كذلك، فإنه يبقى متصلًا بالله تعالى، كثير الذكر له جل جلاله، متجنبًا الغفلة بكافة أنواعها وأسبابها، وهؤلاء المؤمنون والمؤمنات المتصفون بذلك يستحقون رحمة الله تعالى[1].

٤. اليقظة والحذر، والعلم والعمل.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١].

فالله تعالى ينادي المؤمنين بأحب النداءات، وذلك بوصفهم مؤمنين، فيقول: يا من آمنتم بي وصدقتموني، احذروا واحترزوا من عدوكم، ولا تمكنوه من أنفسكم؛ فخذوا السلاح والعدة لقتال عدوكم[2].

ولا شك أن هذا يتطلب خبرة علمية وعملية، ومن قبل ذلك يقظة بالغة، وقبل وبعد كل شيء اصطحاب معية الله تعالى، فإن من يفعل كل ذلك فقد نجا من الغفلة التي هي نذير عقاب الله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

التفكر، الذكر، العبرة، اللعب، اللهو، النسيان

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٣٠٦٦.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٩٨.

الغُلُوّ

عناصر الموضوع

مفهوم الغلو	٨
الغلو في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
أضرار الغلو	١٢
أنواع الغلو	١٦
أسباب الغلو	٢٠
مظاهر الغلو	٢٥
علاج الغلو	٣٢

مفهوم الغلو

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (غلو) تدل على ارتفاع ومجاوزة قدرٍ. يقال: غلا السعر يغلو غلاءً، وذلك ارتفاعه. وغلا الرجل في الأمر غلوًا، إذا جاوز حده[١].

ويقال: «غلا في الأمر والقول والدين غلوًا: جاوز القدر»[٢].

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (إياكم والغلو في الدين)[٣]، أي: التشدد فيه ومجاوزة الحد، والحديث الآخر: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق)[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه بعض العلماء بأنه: «مجاوزة الحد، بأن يزاد في الشيء، في حمده أو ذمه على ما يستحق»[٥].

وعرفه الحافظ ابن حجر بأنه: «المبالغة في الشيء، والتشديد فيه بتجاوز الحد»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق باب أي الرقاب أفضل، ١/ ١٤٤، رقم ٢٤١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، ١/ ٨٩، رقم ٨٤.

(٢) كتاب الأفعال، ابن القطاع ٢/ ٤٤٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، رقم ٢٩٣٠، ٢/ ١٠٠٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٢٢، رقم ٢٦٨٠.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٤٦، رقم ١٣٠٥٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٤٧، رقم ٢٢٤٦.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية١/ ٢٨٩.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٢٧٨.

الغلو في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غلو) في القرآن الكريم مرتين فقط[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١]

وجاء الغلو في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو الإفراط ومجاوزة الحد[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧]

أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق[3].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٠٤.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٦٠)، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٦٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ١٥٩).

الألفاظ ذات الصلة

١ الطغيان:

الطغيان لغة:

كل شيء يجاوز القدر فقد طغى، مثل ما طغى الماء على قوم نوحٍ، وكما طغت الصيحة على ثمود. والطاغية: الجبار العنيد[(١)].

الطغيان اصطلاحًا:

تجاوز الحد في العصيان[(٢)].

الصلة بين الطغيان والغلو:

ومن خلال النصوص السابقة تتبين أن الطغيان هو مجاوزة القدر والحد الواجب؛ وهو بهذا لا يكاد يفترق عن الغلو إلا بما يصاحبه - غالبًا - من الاستعلاء والتكبر والتجبر كتكبر وطغيان فرعون. أما الغلو فلا يلزم معه تكبر أو استعلاء، فكثيرًا ما يغالي في دين الله تعالى قوم ضعاف من الفقراء أو العامة ونحوهم.

٢ البغي:

البغي لغة:

هو الظلم وقصد الفساد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [البقرة:١٧٣].

«أي غير باغ على المسلمين، مفارق لجماعتهم، ولا عاد عليهم بسيفه. ويقال: غير عاد في الأكل حتى يشبع ويتزود»[(٣)].

البغي اصطلاحًا:

البغي: طلب الاستعلاء بغير حق[(٤)].

الصلة بين البغي والغلو:

البغي هو قصد الفساد بإجماع أهل اللغة كما ذكر الزجاج، وكأن الذي يفرقه عن الاعتداء أن الاعتداء فيه قصد المجاوزة وإن لم يبغ فسادا، أما البغي فهو قصد الفساد ابتداء.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٤٣٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٢٠.
(٣) غريب القرآن، ابن قتيبة ص٦٥.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٨١.

٣ الوسطية:

الوسطية لغة:

ما بين طرفي الشيء أو هو النصف، يقال: جلس فلان وسط القوم، أي صار في وسطهم. وشيء بين الجيد والرديء، والشجاعة وسط بين التهور والجبن، والاعتدال في النفقة: وسط بين الإسراف والتقتير أو البخل، والتوسط بين الناس: الوساطة[١].

الوسطية اصطلاحا:

الوسطية تعني الاعتدال والتوازن، ويعنى بها التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بدون إفراط أو تفريط بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه، وهذه الوسطية هي العدل والطريق الأوسط الذي تجتمع عنده الفضيلة[٢].

الصلة بين الوسطية والغلو:

الوسطية تعني الاعتدال بين الغلو والتساهل، والغلو تمسك بالطرف المتشدد.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٦٧، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٥٨، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٢٦.

(٢) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية، ص ١٥٦.

أضرار الغلو

للغلو في الدين أضرار كثيرة بينها القرآن الكريم وهذه الأضرار يعود أثرها على الخلق، كما تعود على الدين نفسه بالتشويه والنقص، وهي على نوعين:

أولًا: أضرار دينية:

الغلو ضلال عن الحق، وقول على الله بغير علم، وابتداع في الدين، وتشويه لصورته، وتنفير للناس منه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء:١٧١].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة:٧٧].

فبين سبحانه في هذه الآية أن هذا الغلو من أهل الكتاب إنما هو ضلال وقول بغير الحق وابتداع لا ينطلق من شرع الله؛ وإنما ينطلق من اتباع الهوى والتقليد بغير بينة، وتكرار مادة الضلال فيه ثلاث مرات يؤكد أن الغلو إمعان في الضلال.

قال الطبري: «﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، يقول: لا تفرطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل»[1].

فتبين بذلك أن الغلو تجاوز الحق إلى الباطل، وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢].

فالمغالي متزيد على الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم لأنه يستحسن شرعا لم يأت به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فكأنه يعتقد نقصان الشرع فراح يستدرك عليه، أو يعتقد تمامه وكماله فيلزمه اعتقاد تقصير محمد صلى الله عليه وسلم في التبليغ أو كتمانه ما أمر بتبليغه؛ ومن ثم «قال ابن الماجشون سمعت مالكًا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة:٣].

فما لم يكن يومئذٍ دينا لا يكون اليوم دينا. وقال الشافعي رحمه الله: من استحسن -يعني: بدعة- فقد شرع. وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بهم وترك

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٨٧.

البدع، وكل بدعة فهي ضلالة»[1].

«وتدلنا هذه الآية أيضًا أن ضلالهم هذا كان آتيًا من غلوهم في الدين. وها نحن نرى بعد ذلك كيف يفصل القرآن هذا الإجمال:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:٧٢].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ... وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة:٧٣-١١٦].

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠]»[2].

ثانيًا: أضرار على الخلق:

للغلو أضرار كثيرة على العباد؛ وهو من ضروب الفساد التي نهى الله تعالى عنها في كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

وهذه الأضرار؛ منها أضرار مجتمعية تعود على المجتمع بالخراب والدمار ويصطلي الناس بنارها، ومنها أضرار عالمية تعود على الناس كافة بصدهم عن سبيل الله تعالى، ومنعم من الدخول في رحمة الله وفضله بصدهم عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم الذي جعله الله تعالى رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

ومن ثم يمكننا أن نقسم هذه الأضرار التي تعود على البشر من جراء الغلو إلى:

١. أضرار مجتمعية محلية.

فمن هذه الأضرار المجتمعية المحلية:

- **تفريق الأمة، وإضعاف قوتها.**

ذم القرآن التفرق ونهى عنه وبين سوء عاقبته؛ قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

ومما لا شك فيه أن اعتقاد طائفة من الناس أنهم قد اختصوا بفهم زائد في الدين

(١) السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، الشقيري ص ٦.
(٢) المصطلحات الأربعة في القرآن، محمد عاصم الحداد ص ٤٨.

فوق ما عليه السواد الأعظم من أهل العلم وأولي الأمر منهم ممن تجب طاعتهم على عامة الأمة فإن ذلك سيؤدي بلا شك إلى تفريق الأمة وتمزيقها بين من يتبع هؤلاء الخارجين على أهل العلم وأولي الأمر، وبين من يتمسك بما عليه سواد الأمة، وهذا التفرق والتشرذم مما يضعف قوة الأمة ويذهب قوتها؛ كما هو واضح من نص الآية السابقة.

فبين الله تعالى أن عاقبة التفرق والتنازع الفشل وذهاب الريح وضعف القوى؛ «فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم،، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال»[1].

- إيقاع الناس في الحرج.

يحدث هذا عندما يدعي طائفة من الناس - هم المغالون في الدين - أن ما هم عليه من الغلو هو الدين الحق، وهو - بلا شك - ليس في استطاعة كل واحد من الناس - هذا على فرض كونه في أصله من الحق - فما بالكم إذا كان ذلك فهما مغلوطا في أغلبه يلبس فيه الحق بالباطل لموافقة الأهواء المريضة؛ فحينئذ قد يشعر غير القادرين على متابعة هؤلاء الغلاة - وهم جمهور الأمة وسوادها الأعظم - بالحرج ظنا منهم أنهم واقعون في التقصير، والحق أن الغلاة هم الخارجون على الشرع، وهم أولى بالحرج وأحق به ولا حرج على من سلك سبيل القصد والتوسط والاعتدال.

وهؤلاء المغالون يزعمون أنهم على الحق ويدعون الناس لاتباع ما هم عليه من الغلو والابتداع، كما حكى الله تعالى عن اليهود والنصارى؛ حيث لم يكتفوا بتحريف ملة إبراهيم بل يزعمون أنهم هم وحدهم على الهدى ويدعون الناس للدخول في ملتهم حتى يحصلوا الهدى على زعمهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٢.

مُخْلِصُونَ ﴿١٣٦﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة:١٣٥-١٤٠].

استحلال الدماء والأموال، وإشاعة الفوضى وعدم الاستقرار:

يترتب على الغلو آثار عديدة منها استحلال دماء الناس وأموالهم بناء على اعتقاد كفرهم ممن يغالي بتكفير المسلمين بالمعاصي كما هي عقيدة فرق الخوارج والمكفرة قديمًا وحديثًا.

وإذا كان الخوارج المعاصرون يغالون فيعتقدون أنهم أفضل وأعلم وأفهم من أهل العلم في زمانهم - فيسارعون بتخطئتهم بل وتكفيرهم في إنكارهم عليهم اعتقادهم الباطل بتكفير عصاة المسلمين مما ينتج عنه استحلال دمائهم وأموالهم - فلقد سبق أسلافهم فخطئوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واتهموه بالعصيان وأمروه بتقوى الله.

فعن أبي سعيدٍ رضي الله عنه، قال: (بعث عليٌّ رضي الله عنه، إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهيبةٍ فقسمها بين الأربعة الأقرع بن حابسٍ الحنظلي، ثم المجاشعي، وعيينة بن بدرٍ الفزاري، وزيدٍ الطائي، ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بني كلابٍ، فغضبت قريشٌ، والأنصار، قالوا: يعطي صناديد أهل نجدٍ ويدعنا، قال: (إنما أتألفهم). فأقبل رجلٌ غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية محلوقٌ، فقال: اتق الله يا محمد، فقال: (من يطع الله إذا عصيت؟ أيأمنني الله على أهل الأرض فلا تأمنوني) فسأله رجلٌ قتله، - أحسبه خالد بن الوليد - فمنعه، فلما ولى قال: (إن من ضئضئ هذا، أو: في عقب هذا قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ)[1].

❁ عدم التوقير والطاعة لمن تلزم طاعتهم.

فأمثال هؤلاء الغلاة الذين لا يوقرون كبيرا، ولا يطيعون إماما هم الذين (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان)، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ويشيعون الفوضى والفساد في الأرض، لا يرجعون إلى إمام عدل، ولا يوقرون عالمًا ولا أحدًا من أولي الأمر.

وماذا يرجا من انصياعهم لإمام أو توقير لعالم وقد انتقصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجابهوه بما يؤذيه وما لا يليق ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإلى عادٍ أخاهم هودًا)، ٤/ ١٣٧، رقم ٣٣٤٤.

[التوبة:٦١].

٢. أضرار إنسانية عالمية.

تتخطى أضرار الغلو وآفاته الصعيد المحلي إلى الصعيد العالمي؛ فصاحب الغلو لا يقتصر غلوه على بني وطنه؛ بل يتعداه بالفساد إلى الناس جميعا؛ لأجل ذلك تراه يعيث في الأرض فسادًا، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة:٢٠٥].

حيث الكراهية الشديدة للآخر المخالف في العقيدة كراهية تخرج عن حد الكراهية لأجل الكفر؛ بل تتعدى ذلك إلى كراهية الخلق والرغبة في التعجيل بهم إلى النار عن طريق القتل وإزهاق الأرواح، دون تأن بهم لهدايتهم أو لإتاحة الفرصة لهم لرؤية سماحة الإسلام وصورته الغراء التي تغري باعتناقه والدخول فيه أو حسن الظن بأهله.

كل ذلك يشوه صورة الإسلام عند من لا يعرفه من الآخرين، ويصدهم عن الإيمان به، ويحرمهم من الدخول في رحمة الله: الرحمة المهداة للعالمين؛ وذلك بسبب ما يقوم به ذلك المغالي في بلاد غير المسلمين من تخريب أو تدمير بسبب كفرهم ظنا منه أن الحرب إنما شرعت لأجل قتل الناس لا لأجل دعوتهم وهدايتهم بصد صناديد الكفر الذين يصدون الناس عن دين الله تعالى، ويمنعون وصول الدعوة والهداية إليهم.

أنواع الغلو

الغلو في الدين يأخذ أشكالا متعددة فهناك الغلو في الاعتقاد، والغلو في العبادة، والغلو في السلوك، والاعتقادي منه الكلي والجزئي.

أولًا: الغلو الاعتقادي:

فالمراد بالغلو الاعتقادي الكلي ما يتعلق بكليات الشريعة وأصولها كالغلو في الأولياء الصالحين بما يصل إلى الكفر كاعتقاد معرفتهم الغيب، أو قدرتهم على ما لا يقدر عليه غير الله كإغاثة المضطر وقضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يعتقده الجهلة والمبتدعة، والغلو في عقيدة الولاء والبراء بالبراءة من العاصين، والغلو بتكفير العصاة، و وهذا النوع هو أشد أنواع الغلو.

وقد ذكر الله ما كان من المشركين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم من غلو في الأولياء والأنبياء والصالحين - شابههم فيه بعض أهل الغلو في زماننا؛ فقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس:١٨].

فقول هؤلاء المشركين كقول غيرهم من غلاة أهل زماننا «فيمن يتخذونهم وسطاء

بينهم وبين الخالق: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾»[1].

أما الاعتقادي فهو ما يخشى فيه من فساد الاعتقاد كالغلو في الأولياء الصالحين بما لا يصل إلى الكفر كاعتقاد وجوب شد الرحال لزيارتهم مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم[2]، ونحو ذلك.

ومن الغلو العقدي: ما حكاه القرآن الكريم من غلو اليهود والنصارى، وسبقت الإشارة إليه في شواهد الغلو في مواضع عديدة.

ثانيًا: الغلو التعبدي:

وهو الغلو بأحكام الشريعة العملية مثل العبادات بمختلف أشكالها القولية والفعلية، ولا شك أن هذا النوع أقل خطرًا، لكنه مدخلٌ بعد ذلك للنوع الأول «ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات، فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثيرٍ من الشريعة بالمعارضة، كما تصير القاعدة الكلية معارضةً أيضًا»[3].

فمن ذلك ما كان يفعله أهل الجاهلية من طوافهم بالبيت عراة، وإدخال الصفير والتصفيق في طوافهم بالبيت، ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٣٣].

وفي تفسيرها يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من ثيابهم للطواف بالبيت، ويحرمون أكل طيبات ما أحل الله لهم من رزقه: أيها القوم، إن الله لم يحرم ما تحرمونه، بل أحل ذلك لعباده المؤمنين وطيبه لهم، وإنما حرم ربي القبائح من الأشياء وهي ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، فكان علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، منها فكان سرًا في خفاء»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥].

قال ابن عباسٍ والحسن: المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. قال ابن عباسٍ: كانت قريشٌ تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون»[5].

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٨٠.
(٢) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ٢/ ٦٠، ١١٨٩: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى).
(٣) الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٧١٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٠٢.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٩١.

ثالثًا: الغلو السلوكي:

فمن ذلك الغلو بالتشدد في معاملة الناس؛ بحيث لا يصبر على أخطائهم وزلاتهم، ولا يقبل أعذارهم، ولا يقيل عثراتهم، ولا يرضى منهم إلا بمثالية واستقامة تامة لا تكون إلا في النبيين والصديقين.

والناظر في كتاب الله تعالى يجد أن الله تعالى قد أمر بالتوسط والاعتدال في كل شيء؛ وهذا هو المفهوم من إطلاق الوصف بالوسطية في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وأمر تعالى بالاعتدال في معاملة الناس فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩].

«قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم، وقال: أمر بذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم في المشركين»[1].

وأمر بالاعتدال في الإنفاق فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء:٢٩-٣٠].

وقال في صفات عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان:٦٧].

فالاعتدال والتوسط والقيام بالحق والقسط - إن لم يكن العفو والصفح والإحسان - مطلوب في كل شيء لا سيما في معاملة المرء لإخوانه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء:١٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة:١٠٩].

وادعاء النسخ في مثل هذه الآيات لا ينافي العمل بها في سياقات مشابهة لما نزلت فيه من حيث حال الداعين والمدعوين والظروف المحيطة بالدعوة.

وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٢٩.

﴿عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٠-٤٣].

وليس ثمة أفضل من طريقة القرآن في بيان العدل والتوسط والإحسان في معاملة الناس؛ فقد ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: تقتضي الإصلاح والعفو عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يجزيه أجرا عظيما، وثوابا كثيرا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: لا حرج عليهم في ذلك.

ودل قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ وقوله: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديبا يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وَغَفَرَ﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه»[1].

وهذا كما بينا مع جميع الناس فقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

وإذا كان المرء مأمورًا بالعفو والصفح والإحسان مع جميع الخلق فمع إخوانه من باب أولى.

أسباب الغلو

أولًا: أسباب ذاتية:

للغلو أسباب ذاتية ترجع إلى الغالي نفسه منها:

١ . اتباع الهوي.

قال سبحانه في آية المائدة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

«والغلو نقيض التقصير. ومعناه الخروج عن الحد، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله بين الغلو والتقصير. وقوله غير الحق صفة المصدر، أي لا تغلوا في دينكم غلوًا غير الحق، أي غلوًا باطلًا، لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حقٍ، وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلو باطلٍ وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل، وذلك الغلو هو أن اليهود لعنهم الله نسبوه -أي: عيسى عليه السلام- إلى الزنا. وإلى أنه كذابٌ، والنصارى ادعوا فيه الإلهية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾. الأهواء

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٠.

هاهنا: المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة. قال الشعبي: ما ذكر الله لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ [النجم:٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

قال أبو عبيدة: لم نجد الهوى يوضع إلا في موضع الشر. لا يقال: فلانٌ يهوى الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه. وقال بعضهم: الهوى إلهٌ يعبد من دون الله. وقيل: سمي الهوى هوًى لأنه يهوي بصاحبه في النار، وقال رجل لا بن عباسٍ: الحمد لله الذي جعل هواي على هواك، فقال ابن عباسٍ: كل هوًى ضلالةٌ[1].

فنلاحظ أن الله تعالى ربط بين الغلو واتباع الهوى فقال: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ فكأن الجملة الثانية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ قد وقعت بمثابة عطف البيان من الجملة الأولى ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ «جملة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾: لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء»[2]؛ ذلك أن الغلو اتباع للهوى.

٢. اتباع خطوات الشيطان.

لا شك أن أهم أسباب الغلو بجميع أنواعه هو اتباع الشيطان؛ فهو الذي يزين الباطل لأتباعه، وهو الذي يأمر الناس بالسوء والفحشاء والضلال في العقيدة بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩].

فقد أخبر ربنا سبحانه أن من أهم أسباب الغلو اتباع الشيطان فهو الذي يتدرج بالمرء خطوة خطوة نحو الضلال حتى يوقعه في الكفر بأن يتقول على الله ما لا يعلم؛ فينسب له سبحانه الولد والشريك ويصفه بما لا يليق به مما تنزه عنه ربنا سبحانه وتعالى جده.

قال الرازي: «احذر أن تتعداه إلى ما يدعوك إليه الشيطان، وزجر المكلف بهذا الكلام عن تخطي الحلال إلى الشبه كما زجره عن تخطيه إلى الحرام لأن الشيطان إنما يلقي إلى المرء ما يجري مجرى الشبهة

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤١١.

(٢) الجدول في إعراب القرآن، محمود صافي ٦/ ٤٢٥.

فيزين بذلك ما لا يحل له فزجر الله تعالى عن ذلك، ثم بين العلة في هذا: التحذير، وهو كونه عدوا مبينا أي متظاهرٌ بالعداوة، وذلك لأن الشيطان التزم أمورًا سبعةً في العداوة.

أربعةٌ منها في قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١١٩].

وثلاثةٌ منها في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

فلما التزم الشيطان هذه الأمور كان عدوًا مظاهرًا بالعداوة فلهذا وصفه الله تعالى بذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا كالتفصيل لجملة عداوته، وهو مشتملٌ على أمورٍ ثلاثةٍ:

أولها: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾، وهو متناولٌ جميع المعاصي سواءٌ كانت تلك المعاصي من أفعال الجوارح أو من أفعال القلوب.

وثانيها: ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهي نوعٌ من السوء، لأنها أقبح أنواعه، وهو الذي يستعظم ويستفحش من المعاصي.

وثالثها: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وكأنه أقبح أنواع الفحشاء، لأنه وصف الله تعالى بما لا ينبغي من أعظم أنواع الكبائر، فصارت هذه الجملة كالتفسير لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فيدخل في الآية أن الشيطان يدعو إلى الصغائر والكبائر والكفر والجهل بالله»[1]

٣. الجهل.

هو سبب كل بلاء وسبب الغلو بصفة خاصة مع ركوب الهوى، وهو سبب كل مظاهر الغلو في حياتنا.

فالخروج على المسلمين بتكفيرهم وتقتيلهم ونحو ذلك إنما هو راجع إلى الجهل بالضبط الشرعي للأمر، وتشديد النصوص في أمر تكفير المسلم، واستحلال ماله ودمه.

وكذلك الغلو في الأولياء والصالحين بعبادتهم من دون الله إنما يرجع للجهل بما يجب نحوهم من المحبة والاقتداء دون اعتقاد قدرتهم عل التصرف في الأمور، وغيره من العقائد الفاسدة التي أورثها الجهل بالعقيدة الصحيحة.

وقد بين القرآن الكريم أن هذا الجهل كان هو السبب الأعظم في ضلال من ضل من الأمم السابقة، وفيما وقعو فيه من شرك بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٨٦.

﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف:١٣٨-١٣٩].

«يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فَأَتَوْا﴾ أي: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم.

قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصنامًا على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهةً لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: هالكٌ ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[1].

فظهر من الآية أن سبب غلو بني إسرائيل في عبادة تلك الأصنام إنما كان بسبب جهلهم عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل.

٤. التقليد.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف:١٥-٢٥].

«ذكر الله تعالى احتجاج الكفار لمذهبهم ليبين فساد منزعهم، وذلك أنهم جعلوا إمهال الله لهم وإنعامه عليهم وهم يعبدون الأصنام، دليلا على أنه يرضى عبادة الأصنام دينا، وأن ذلك كالأمر به، فنفى الله عن الكفرة أن يكون لهم علم بهذا وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك، وإنما هم يظنون ويخرصون ويخمنون، وهذا هو الخرص والتخرص.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٦٧.

وقرأ جمهور الناس: «على أمةٍ» بضم الهمزة، وهي بمعنى الملة والديانة، والآية على هذا تعيب عليهم التقليد»[1].

فالجهل وتقليد الآباء هو ما أوقعهم فيما هم فيه من الغلو في نسبة الولد إلى الله، وادعائهم أن الملائكة بنات الله وغير ذلك من صنوف الشرك.

٥. الخوض في المتشابهات.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران:٧-٩].

فبين ربنا سبحانه أن سبب ضلال هؤلاء إنما جاء من قبل خوضهم في المتشابه: إما ابتغاء الفتنة، وإما ابتغاء تأويله، وهذا غالب حال أهل الغلو.

ثانيًا: أسباب مجتمعية وعالمية:

لعل من الإنصاف أن نقول أيضا: إن من أسباب الغلو كذلك: العوامل والظروف المجتمعية والعالمية مثل: محاربة الدين، المحن والابتلاء، انتشار المعاصي والفتن، ترك الحكم بما أنزل الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

وقال تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩﴾ [البقرة:١٠٩].

وهذا يكشف لنا مقدار ما يضمر أعداؤنا لنا من الحسد والحقد والبغض والعداوة؛ ولا شك أن ذلك كله مما يهيج مشاعر الغلاة؛ فيشتطون غضبا ويزدادون في تعنتهم وغلوهم، ويتخذون من تلك العداوة التي تظهر بين الحين والحين في صور شتى أيسرها ما يبدو من أفواههم من البغضاء من فلتات الألسن، وأكثرها ضررا ما يلحقون ببلاد المسلمين من غدر وتخريب وتدمير وقتل وإزهاق لنفوس الأبرياء، ولكن هذا كله لا ينبغي أن يواجه بأفعال الطيش والحماقة والتهور، وإنما يواجه بالإعداد الجيد دون

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٥٠.

استفزاز أو استنفار للعدو في وقت لا يكون للمسلمين طاقة بمواجهة أولئك الأعداء.

لكن أهل الغلو لا ينطلقون إلا من تلك المحاذير - لا يحركهم غيرها: الطيش والحماقة والتهور.

مظاهر الغلو

للغلو مظاهر عديدة كلها تدل على التشدد والمغالاة والتطرف والانحراف عن وسطية الإسلام السمحة؛ فمن ذلك: التكفير، الابتداع في الدين، الاعتداء على الناس وأموالهم، ادعاء العلم والتدين والغلو في المحبة أو الكراهية.

قال سبحانه في آية المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

قال ابن العربي في هذه الآية «نهى الله سبحانه أهل الكتاب عن الغلو في الدين من طريقيه: في التوحيد، وفي العمل؛ فغلوهم في التوحيد نسبتهم له الولد سبحانه، وغلوهم في العمل ما ابتدعوه من الرهبانية في التحليل والتحريم والعبادة والتكليف. وقال صلى الله عليه وسلم: (لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه»[1]. وهذا صحيحٌ لا كلام فيه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، ٩/ ١٠٣، رقم ٧٣٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم ٢٦٦٩.

وقد ثبت في الصحاح (أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع امرأةً من الليل تصلي، فقال: من هذه؟ قيل: الحولاء بنت تويتٍ لا تنام الليل كله. فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرفت الكراهية في وجهه، وقال: إن الله لا يمل حتى تملوا، اكلفوا من العمل ما تطيقون)[(١)(٢)].

فدل ذلك على شمول الغلو للاعتقاد والعمل؛ فغلوهم في الاعتقاد نسبتهم له الولد سبحانه، وغلوهم في العمل ما ابتدعوه من الرهبانية في التحليل والتحريم والعبادة والتكليف.

أولًا: التكفير:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة:١١٣].

فأخبر سبحانه أن كل واحد من الفريقين يكفر الآخر، وينكر ما معه من الحق، وهذا من الغلو الذي شابههم فيه أصحاب الفرق المبتدعة من المسلمين؛ حيث يتبرأ كل فريق من مخالفيه؛ وإن كانوا من أهل الملة يشاركونهم في أصول الدين وقواعده، وهذا من الظلم الواضح البين.

ويتدرج ذلك إلى الغلو في التكفير كما هو حال الخوارج وغيرهم من جماعات التكفير في تكفير عصاة المسلمين وإخراجهم من دائرة الإسلام إلى الكفر.

ثانيًا: الابتداع في الدين:

لما كان أهل الغلو هم الذين غالوا فانحرفوا عن سواء السبيل وقصده، وعن الصراط المستقيم الذي أمروا بلزومه لزمهم بذلك أن يكونوا من أهل البدع في الدين.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

«فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسبل هي سبل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع، وليس المراد سبل المعاصي؛ لأن المعاصي من حيث هي معاصٍ لم يضعها أحدٌ طريقًا تسلك دائمًا على مضاهاة التشريع، وإنما هذا الوصف خاصٌ بالبدع المحدثات.

ويدل على هذا ما روى إسماعيل عن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من أحب الدين إلى الله أدومه، ١/ ١٧، رقم ٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته، ١/ ٥٤٢، رقم ٧٨٥.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ١٤١.

سليمان بن حربٍ، قال: حدثنا حماد بن زيدٍ عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائلٍ عن عبد الله قال: (خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا خطًا طويلًا، وخط لنا سليمان خطًا طويلًا، وخط عن يمينه وعن يساره، فقال: هذا سبيل الله ثم خط لنا خطوطًا عن يمينه ويساره وقال: هذه سبلٌ وعلى كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ يعني الخطوط ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾)[1].

قال بكر بن العلاء: «أحسبه أراد شيطانًا من الإنس، وهي البدع، والله أعلم».

وعن عمر بن سلمة الهمداني ؛ قال: «كنا جلوسًا في حلقة ابن مسعودٍ في المسجد وهو بطحاء قبل أن يحصب، فقال له عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وكان أتى غازيًا: ما الصراط المستقيم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هو ورب الكعبة الذي ثبت عليه أبوك حتى دخل الجنة.

ثم حلف على ذلك ثلاث أيمانٍ ولاءً، ثم خط في البطحاء خطًا بيده، وخط بجنبيه خطوطًا، وقال: تركككم نبيكم صلى الله عليه وسلم على طرفه، وطرفه الآخر في الجنة، فمن ثبت عليه، دخل الجنة، ومن أخذ في هذه الخطوط هلك.

وفي روايةٍ: «يا أبا عبد الرحمن! ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جوادٌ وعن يساره جوادٌ، وعليها رجالٌ يدعون من مر بهم: هلم لك! هلم لك! فمن أخذ منهم في تلك الطرق؛ انتهت به إلى النار، ومن استقام إلى الطريق الأعظم؛ انتهى به إلى الجنة، ثم تلا ابن مسعودٍ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الآية كلها.

وعن مجاهدٍ في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، قال: البدع والشبهات.

وعن عبد الرحمن بن مهدي: قد سئل مالك بن أنسٍ عن السنة؟ قال: هي ما لا اسم له غير السنة، وتلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

قال بكر بن العلاء: يريد إن شاء الله حديث ابن مسعودٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم خط له خطًا»، وذكر الحديث.

فهذا التفسير يدل على شمول الآية لجميع طرق البدع، لا تختص ببدعةٍ دون أخرى.

ومن الآيات قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ [النحل:٩].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٧/ ٢٠٨، رقم ٤١٤٢، والنسائي في الكبرى، ١٠/ ٩٥، رقم ١١١٠٩.

فالسبيل القصد هو طريق الحق، وما سواه جائرٌ عن الحق؛ أي: عادلٌ عنه، وهي طرق البدع والضلالات، أعاذنا الله من سلوكها بفضله، وكفى بالجائر أن يحذر منه، فالمساق يدل على التحذير والنهي.

وذكر ابن وضاح ؛ قال: «سئل عاصم بن بهدلة، وقيل له: أبا بكرٍ!، هل رأيت قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ [النحل:٩]؟ قال: حدثنا أبو وائلٍ عن عبد الله بن مسعودٍ ؛ قال: (خط عبد الله خطًا مستقيمًا، وخط خطوطًا عن يمينه وخطوطًا عن شماله، فقال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا، فقال للخط المستقيم: هذا سبيل الله، وللخطوط التي عن يمينه وشماله: هذه سبلٌ متفرقةٌ، على كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه ؛ والسبيل مشتركةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ إلى آخرها).

عن التستري: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾: طريق السنة، ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾؛يعني: إلى النار، وذلك الملل والبدع».

وعن مجاهدٍ: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ ؛ أي المقتصد منها بين الغلو والتقصير، وذلك يفيد أن الجائر هو الغالي أو المقصر، وكلاهما من أوصاف البدع[1].

وكلام الشاطبي هنا فيما قرره واضح في أن أهل البدع هم أهل الغلو والجور والانحراف عن قصد السبيل، وقد أيد ذلك بما نقله عن الصحابة والتابعين من أهل العلم، قال: «وعن عليٍ رضي الله عنه أنه كان يقرؤها أي﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾: (فمنكم جائرٌ) ؛ قالوا: يعني هذه الأمة، فكأن هذه الآية مع الآية قبلها يتواردان على معنًى واحدٍ.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝١٥٩﴾ [الأنعام:١٥٩].

هذه الآية قد جاء تفسيرها في الحديث من طريق عائشة رضي الله عنها، قالت:

(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ من هم؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: هم أصحاب الأهواء، وأصحاب البدع، وأصحاب الضلالة؛ من هذه الأمة، يا عائشة إن لكل ذنبٍ توبةً، ما خلا أصحاب الأهواء والبدع، ليس لهم توبةٌ، وأنا بريءٌ منهم وهم مني برآءٌ.)[2].

قال الشاطبي: «قال ابن عطية: هذه الآية

(١) الاعتصام ١/ ٧٦.

(٢) نوادر الأصول، الحكيم الترمذي ٢/ ٢٤٥. والحديث ذكره الدارقطني في العلل، ٢/ ١٦٣، وابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، ١/ ١٣٧.

تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدال والخوض في الكلام، هذه كلها عرضةٌ للزلل ومظنةٌ لسوء المعتقد.

ويريد والله أعلم بأهل التعمق في الفروع ما ذكره أبو عمر بن عبد البر في فصل ذم الرأي من «كتاب العلم» له»[1].

وحاصل الأمر أن المبتدع يغالي فيشق على نفسه ويلزمها ما رفعه الله تعالى عنه من الحرج والتكليف بما فيه مشقة زائدة؛ قال الشاطبي: «وحاصله أن الشارع طالبه برفع الحرج، وهو يطالب نفسه بوضعه وإدخاله على نفسه وتكليفها ما لا يستطاع، مع زيادة الإخلال بكثيرٍ من الواجبات والسنن التي هي أولى مما دخل فيه، ومعلومٌ أن هذه بدعةٌ مذمومةٌ»[2].

ثالثًا: الاعتداء على الناس وأموالهم:

فهم يعتدون على جميع الناس، غلوا منهم وتشددا ورغبة في الانتقام منهم، وتعجيل عقوبتهم بدلا من الصبر على دعوتهم والترفق بهم لهدايتهم، وحالهم في ذلك حال من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة:٢٠٥].

وإذا كانوا كذلك مع الناس جميعا فإنهم لشططهم وغلوهم تجدهم مع أهل الإسلام أشد غلوا وعداوة، منا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ)[3].

رابعًا: ادعاء العلم والتدين:

المبتدعة يدعون لأنفسهم علما لدنيا باطنيا يتميزون به عن الأمة؛ وذلك حتى لا يكون لأحد عليهم حجة؛ لأن العلم الظاهر الذي أنزله الله على رسوله وجعل فيه الحجة - لا يشهد لهم في شيء مما هم عليه من الباطل، وهم لا يستجيبون لما جاء به الله ورسوله فيما لا يوافق أهواءهم؛ وأخبر تعالى أنه لا يمنع من اتباع الهدى إلا اتباع الهوى، وأن عدم الاستجابة للهدى دليل على اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:٥٠].

لذا لجئوا - كذبا وزورا منهم وافتراء على الله ورسوله - إلى ادعاء علم مؤداه أن الله تعالى قد اختصهم به دون خلقه جميعا

(١) الاعتصام ١/ ٧٦.
(٢) المصدر السابق ١/ ٤١٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر)، ٤/ ١٣٧، رقم ٣٣٤٤.

بما في ذلك أشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول أحد محققيهم[1]: «لقد فنى الصوفيه في حب مولاهم وتخلقوا بأخلاقه وتأدبوا بآدابه وتربوا في محاربيه وعاشوا في ذكره ومناجاته فعلمهم وطهرهم وزكاهم واصطفاهم واجتباهم وأحبهم ورضى عنهم ففتح لقلوبهم ملكوت السموات والأرض يريهم عجائب كونه وبدائع قدرته وبدائع قدرته وأسرار خليقته وأفاض عليهم هداياه وعطاياه علوما وأذواقا أو كما يقول الصوفيه أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت.

ومن هذا الفناء جاءهم الخلود وبهذا التخلق أصبحوا ائمة يهدون إلى الله بأمره ويقفون حراسا على آياته ومشاهده مبشرين بكلماته متحدثين عن حضراته داعين إلى محبته ومناجاته مترنمين في آفاقه وجدا وشوقا بتسبيحه وذكره.

يقول العلامة الإمام الكلاباذي واصفًا لمقاماتهم وأحوالهم سبقت لهم من الله الحسنى وألزمهم كلمة التقوى وعزف بنفوسهم عن الدنيا صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة وخلصت علها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثه وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم أنارت أعلامهم فهموا عن الله وساروا إلى الله وأعرضوا عما سوى الله خرقت الحجب أنوارهم وجالت حول العرش أسرارهم وجلت عند ذي العرش أخطارهم وعميت عما دون العرش ابصارهم فهم أجسام روحانيون وفي الأرض سماويون ومع الخلق ربانيون»[2].

وهذا الذي ذكرناه قطرة من بحر ما ورد عن الصوفية من ادعاء باطل للعلم لا ينازعون فيه أهل العلم وحدهم؛ بل ينازعون في ذلك رب العرش العظيم في صفة علام الغيوب.

ولا يقصر أهل التشيع عن هذا الغلو الصوفي بل يزيدون عليه ويتجاوزونه بمراحل كبيرة تطفح بها كتبهم المعتمدة لديهم، وليس المجال مجال النقل عنهم في ذلك[3].

وكذلك بقية الفرق من الخوارج والمرجئة وغيرهم ممن اختص ببدعة في دين الله تعالى إنما يدعون جهلا واتباعا للهوى علما تميزوا به عن سائر الخلق.

خامسًا: الغلو في المحبة:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي الحنفي ص ٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: أصول الكافي ص ١٣٤، ١٥٨-١٥٩.

﴿ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥﴾ [البقرة:١٦٥].

«من الناس من يتخذ من دون الله أندادًا أي: أمثالا. مع أن الآيات منعت من أن يكون له ند واحد فضلا عن جماعتها يسوون بينهم وبين الله إذ يحبونهم كحب الله أي: يعظمونهم ويخضعون لهم كتعظيم الله والخضوع له.

والأنداد: إما الأوثان التي اتخذوها آلهة لتقربهم إلى الله زلفى، ورجوا منها النفع والضر، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور وقربوا لها القرابين. وإما رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون، لا سيما في الأوامر والنواهي. ورجح هذا، لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦].

وذلك لا يليق إلا بمن اتخذ الرجال أندادا وأمثالا لله تعالى يلتزمون من تعظيمهم والانقياد لهم ما يلتزمه المؤمنون من الانقياد لله تعالى والذين آمنوا أشد حبًا لله من المشركين لأندادهم، لأن أولئك أشركوا في المحبة، والمؤمنون أخلصوها كلها لله، ولأنهم يعلمون أن جميع الكمالات له ومنه، ولأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره، بخلاف المشركين فكانوا يعبدون الصنم زمانا ثم يرفضونه إلى غيره أو يأكلونه، كما أكلت باهلة إلهها من حيس، عام المجاعة»[1].

ومثل هذا الذي ذكره القاسمي ما يفعله العامة الذين قصدوا قبور الأولياء من ألوان الغلو فيهم؛ حيث رجوا منها النفع والضر، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور وقربوا لها القرابين، وغير ذلك مما دعاهم إليه مغالاتهم في محبتهم باعتقاد ما لا يجوز فيهم ووصفهم بما لا يصح إلا لله تعالى؛ فدعاهم هذا الغلو الاعتقادي إلى غلو في السلوك ينافي ما أمرهم الله تعالى به من توحيده وعدم الإشراك به.

وفي هذه الآيات بين الله تعالى أن الغلو في محبة المتبوعين يفضي إلى الاتباع بغير هدى من الله، وهو يفضي بصاحبه إلى الشرك بالله؛ لأن مرجعه إلى الإشراك في محبة الله تعالى؛ بله الغلو في محبة المتبوعين أكثر من محبته سبحانه، وبين ما يؤول إليه أمرهم في الآخرة من تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، وما آل إليه أمرهم من العذاب والحسرات التي لا تنقضي، والأمنيات الباطلة بأن يعودوا إلى الدنيا فيتبرئوا من هؤلاء المتبوعين كما تبرئوا منهم، ثم بين حالهم في الدنيا، وكيف أنهم كانوا يتركون اتباع ما انزل الله تعالى لاتباع ما وجدوا عليه آباءهم بغير دليل ولا بينة معرضين عن هدي الله تعالى تقليدا لآبائهم وأوليائهم.

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٦١.

علاج الغلو

١. ترك اتباع الهوى والتجرد لطلب الحق.

التجرد في طلب الحق أصل مكين من أصول الهداية، وذلك أن الهوى هو الميل النفسي إلى الشيء؛ فإن وافق الهدى، وإلا هوى بصاحبه.

قال الراغب: «الهوى: ميل النفس إلى الشهوة. وقيل: سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، والهوي: سقوط من علو إلى سفل»[(١)].

ولذا نهى الله تعالى في كتابه في نصوص كثيرة عن اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء:١٣٥].

وقال تعالى: ﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾ [ص:٢١] الآيات إلى قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص:٢٦].

فهذا حوار جرى بين نبي الله داود عليه السلام وهذين الخصمين، وعاتبه الله تعالى فيه لميله لأحد الخصمين مأخوذا بقوة حجته فسارع إلى الحكم له بقوله ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾ دون استماع للخصم الآخر، «والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يحتمل التأويل.

ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثًا، ولم يطلب إليه بيانًا، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ (أي الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض) ﴿لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾.

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان: فقد كانا ملكين جاءا للامتحان! امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس، ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم»[(٢)].

فيمكن أن يقال: إن الله عد تسرع داود عليه السلام بالحكم دون سماع حجة الآخر من الهوى - وهو وإن كان ميلا غير مقصود بتأثير عارض سحر بيان الخصم - فإنه مما

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٥٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٢٠٨.

لا يتسامح فيه في حق الأنبياء والمصطفين الأخيار؛ فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين [1]؛ فحذر الله تعالى نبيه من اتباع الهوى لما يفضي إليه من الضلال عن الحق.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣].

وأخبر تعالى أنه لا يمنع من اتباع الهدى إلا اتباع الهوى، وأن عدم الاستجابة للهدى دليل على اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:٥٠].

وترك اتباع الهوى يقتضي الإخلاص والتجرد لله في طلب الحق والانصياع له، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ:٤٦].

(١) هذا هو ما ندين الله به مما يليق بحق الأنبياء، لا ما ورد في كثير من كتب التفسير من الإسرائيليات من أن القصة تعريض بنبي الله داود عليه السلام من أنه أراد أن يتزوج بامرأة أوريا فقدمه في الغزو وعرضه للقتل ليتزوج امرأته، فمثل هذا لا يصح به أثر بحمد الله تعالى.
انظر: لباب التأويل، الخازن ٥/ ٢٨٧.

«والقيام في قوله: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟﴾ مراد به المعنى المجازي وهو التأهب للعمل والاجتهاد فيه كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء:١٢٧].

واللام للتعليل، أي لأجل الله ولذاته، أي جاعلين عملكم لله لا لمرضاة صاحب ولا عشيرة، وهذا عكس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ [العنكبوت:٢٥].

أولأجل معرفة الله والتدبر في صفاته»[2].

٢. ترك التقليد بغير دليل.

ترك التقليد بغير بينة أصل مكين كذلك من أصول الهداية في القرآن الكريم؛ ومن أجل ذلك نعى الله على أولئك الغلاة الذين يتبعون آباءهم أو علماءهم أو أحبارهم ورهبانهم أو سادتهم ورؤساءهم دون هدى من الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٤٢١.

اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان:٢١].

فبين الله تعالى في هذه الآيات أن الاتباع بغير هدى من الله يفضي بصاحبه إلى الشرك بالله؛ لأن مرجعه إلى الإشراك في محبة الله تعالى.

٣. ترك التكلم بغير علم.

من وسائل الهداية كذلك لترك الغلو: ترك التكلم بغير علم، قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام:٥٠].

فالنبي صلى الله عليه وسلم أمره الله تعالى أن يخبر محاوريه بذلك، ويبين لهم أنه لا يتكلم بشيء من قبل نفسه بل يتبع ما يوحى إليه.

قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣-١٤٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام:١٤٤-١٤٥].

فعظم سبحانه إثم من يحل أو يحرم من قبل نفسه فيضل الناس بغير علم، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم في الوقت نفسه أن يعلم محاوريه بوقوفه صلى الله عليه وسلم عند حدود ما أنزل الله إليه فلا يحرم إلا ما حرم الله تعالى.

ولذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحاج محاوريه بسؤالهم عن دليل قولهم فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام:١٤٨-١٥٠].

٤. ترك الأخذ بمجرد الظن والشك.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء:١٥٥-١٥٨].

فنعى الله سبحانه على أهل الكتاب اعتقادهم قتل المسيح وصلبه بمجرد الظن دون بينة يكونون بها على يقين من أمرهم.

وربط تعالى بين اتباع الظن والوقوع في الضلال واتباع الهوى، فقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٦-١١٩].

فبين سبحانه أن ضلال أكثر الناس من الغلاة إنما هو بسبب اتباع الظن، واتباع الهوى بغير دليل ولا بينة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس:٣٦].

٥. الالتزام بالكتاب والسنة النبوية.

الالتزام بالكتاب والسنة هما طريق النجاة الأوكد، وسبيله الأوحد فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض)[1].

عن العرباض بن سارية، قال: (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا بعد صلاة الغداة موعظةً بليغةً ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجلٌ: إن هذه موعظة مودعٍ فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدٌ حبشيٌ، فإنه من يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالةٌ فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ)[2].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ١/ ١٧٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٦٧، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة، ٥/ ٤٤، رقم ٢٦٧٦. قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

فالالتزام بالكتاب والسنة هما سبيل النجاة من الغواية ومن كل غلو وإفراط أو تفريط.

٦. سؤال أهل العلم.

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما شفاء العي السؤال)[1]

وقديما قالوا: «السؤال نصف العلم»؛ فمن ثم وجب على كل من التبس عليه شيء في دين الله تعالى أن يسأل عنه أهل العلم المشهورين العاملين به.

٧. محاورة الغلاة والرد على شبهاتهم.

قال تعالى مقررا مبدأ الحوار والجدال مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت:٤٦].

وقال تعالى معلمًا المؤمنين ما ينصحون به أهل الكتاب في محاورتهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

وإذا كان ذلك مع المخالف من أهل الملل الأخرى فلا شك أنه مع الموافق في الدين والعقيدة أولى وأنجع، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتناصح والتشاور والتخاطب بالتي هي أحسن؛ فقال عز من قائل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء:٥٣].

ولا شك أنه لا بديل للحوار الجاد الذي تصدق فيه النوايا إلا المزيد من التباعد والفرقة؛ وذلك أن الحوار هو المتنفس الطبيعي لإخراج ما تكظمه الصدور، ومن ثم فإن انقطاع الحوار يؤدي حتما إلى الانفجار الرافض لتكميم الأفواه أو صمم الآذان عن الاستماع إلى الآخر ومحاورته وتفهمه، وما تلك الثورات التي عجت بها المنطقة العربية كلها أخيرا إلا نتيجة حتمية لضعف الحوار بين أولي الأمر وطوائف الشعب.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٩، رقم ٢٥٤٩.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، ١/ ٩٣، رقم ٣٣٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٠٥، رقم ٤٣٦٣.

٨. الاعتبار بحال الغلاة والمخالفين للكتاب والسنة ومصيرهم.

ينبغي على أهل العلم أن يلفتوا هؤلاء الغلاة للاعتبار بحال ومآل من سبقهم من الغلاة والمخالفين في الكتاب والسنة؛ فيتأملون ما نزل بأهل الكتاب قبلهم من سخط الله وغضبه بسبب غلوهم، وكيف كان التشديد سببا لتشديد الله عليهم فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في حق بني إسرائيل والبقرة (لو اعترضوا أدنى بقرة لكفتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم)[1]

٩. استثمار الوقت بالعمل الصالح.

وذلك أن من أسباب وقوع الغلاة فيما هم فيه من الغلو والتشديد والتنطع ما يعانيه البعض منهم من فراغ يحدو بعضهم إلى زيادة التعمق فيما لا يجب عليه، والبحث عما لم يوجب ربنا علينا علمه من المتشابه، أو الميل إلى المزيد من التعبد بما لم يأت به الشرع، ونحو ذلك مما هو من آفة فراغ العقول.

وعلاج ذلك أن يعلم العبد أهمية الوقت، وأنه قد خلق لأمر عظيم وغاية شريفة، وهي ما أخبر الله تعالى عنه في كتابه حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٩].

ومما يدل على أهمية الوقت كثرة إقسام الله تعالى به في كتابه الكريم؛ ككقسمه تعالى بالفجر، والضحى، والليل، والعصر.

والعبادة ليست منحصرة في الصلاة والصيام والزكاة والحج وتلاوة القرآن، بل تشمل سائر الفروض والواجبات التي أمرنا الله تعالى بها.

وجملة القول في ذلك، أن تعلم أن العبادة منهج شامل للحياة كلها، يقتضي أن تكون حياتك كلها وفق منهج الله تعالى، وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وليس وفق ما تهواه نفسك.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

(١) قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف ١/ ٦٦: «قلت غريب، وأخرجه الطبري في تفسيره موقوفا على ابن عباس...وكذلك أخرجه أيضا من كلام أبي العالية، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره من كلام عبيدة السليماني، وعزاه ابن كثير في تفسيره لابن مردويه في تفسيره عن سرور بن المغيرة عن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن حديث أبي رافع عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن بني إسرائيل قالوا وإنا إن شاء الله لمهتدون ما أعطوه أبدا ولو أنهم اعترضوا...إلى آخره..وروى البزار في مسنده من حديث عباد بن منصور عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أن بني إسرائيل لو أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم.انتهى.
والأظهر: وقف الأثر على ابن عباس، رضي الله عنه.

فما من لحظة من لحظات حياتك إلا ولله تعالى عليك فيها أمر أو نهي فالتكليف شامل للأوقات كلها وللعمر كله، لا تخلو لحظة من لحظات الحياة عن تكليف لله تعالى كلفنا به إما على سبيل الوجوب أو على سبيل الندب والاستحباب، وإن كنا قد صرنا في زمان قد وجبت علينا فيه واجبات كثيرة، تكاد تمنع المرء من فعل كثير من المستحبات، فضلًا عن أن ينشغل عنها بالمباحات أو المكروهات، وأعاذنا الله من المحرمات أن نقع فيها ونتلهى بها عما أمرنا به من الطاعات وما أحله لنا من المباحات.

فالعجب كل العجب بعد ذلك لمن يبحث عن مزيد من الواجبات لم يوجبها الشرع، أو استحباب أمور متكلفة زائدة على ما استحبه الشرع الحنيف.

فاعلم يا عبد الله أنك لن تزول قدماك يوم القيامة من عند ربك حتى يسألك عما عملت في هذه الأوقات.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

وقال أيضًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النمل:٨٤].

وقال سبحانه في بيان سؤاله المجرمين عن مدة لبثهم في الأرض وما عملوا فيها: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٦].

فسوف يسأل الله سبحانه عباده لا محالة عن أعمارهم وأوقاتهم وما عملوا فيها، ففي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وماذا عمل في علمه)[1].

فليسأل كل نفسه: ماذا أعد لهذا السؤال؟ وبماذا سوف يجيب يومئذ وهو موثق بالأغلال أمام ذي الجلال، فيومئذ لن ينفعه غلوه وتنطعه، ولن ينفعه إلا ما وافق فيه هدي الحبيب صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر:٣٨-٣٩].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب يوم القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، ٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٦.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٢٠، رقم ٧٢٩٩.

(من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ)[1].

١٠. البيئة الصالحة التي ينشر فيها العدل والحق ويؤخذ على يد الظالم.

بعد كل ما سبق، وقبل كل ما سبق تأتي قيمة البيئة الصالحة؛ فلا شك أن من أسباب انتشار الغلو ما يعانيه الغلاة من شعور بالتناقض بين ما ينبغي أن يكون في مجتمعاتهم من معاني الإسلام السامية وبين ما هو واقع فعلا من مخالفات جسيمة تعم كافة المجالات والمستويات؛ فينشأ لديهم من جراء ذلك ردة فعل عنيفة تدعوهم إلى المبالغة في كل ما فرط فيه أبناء مجتمعاتهم، حتى يؤول أمرهم إلى الغلو والتشدد واعتياد ذلك في كل شيء من قول أو فعل أو اعتقاد.

وليس أدل على أهمية عامل البيئة الصالحة وأثرها في تقويم أهلها، ومساعدة الناس على لزوم الجادة من حديث النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عمن سبقنا من قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا، وراح يسأل عن توبة فدله العالم على ضرورة الانتقال إلى بيئة صالحة تعينه على التوبة. (فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوءٍ)[2].

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف:٥٨].

موضوعات ذات صلة:

الاستقامة، الطغيان، الهداية، الوسطية

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الاعتصام، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ، ٩/ ١٠٧، وأخرجه موصولًا مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ٣/ ١٣٤٣، رقم ١٧١٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، ٤/ ٢١١٨، رقم ٢٧٦٦.

الغم

عناصر الموضوع

مفهوم الغم	٤٢
الغم في الاستعمال القرآني	٤٣
الألفاظ ذات الصلة بالغم	٤٤
الغم طبيعة بشرية	٤٦
أسباب الغم	٥٣
الغم بين التطهير والعقاب	٥٦
وسائل النجاة من الغم	٦٤

مفهوم الغم

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الغين والميم أصلٌ واحد صحيح يدل على تغطية وإطباق. تقول: غممت الشيء أغمه، أي غطيته وغم الهلال، إذا لم ير. وفي الحديث: (فإن غم عليكم فاقدروا له)[1]. أي: غطي الهلال. ويقال: يومٌ غمٌ وليلة غمة، إذا كانا مظلمين. وغمه الأمر يغمه غمًا، وهو شيء يغشى القلب»[2].

يقال: أمرٌ غمة، أي مبهمٌ ملتبسٌ[3].

و«الغم: ضد الفرج، والغمة: الضيقة»[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه أبو هلال العسكري بقوله: «الغم معنىً ينقبض القلب معه، ويكون لوقوع ضرر قد كان، أو توقع ضرر يكون، أو يتوهمه. وقيل: الغم: ما لا يقدر الإنسان على إزالته كموت المحبوب»[5].

وقال ابن حجر: «هو ما يضيق على القلب»[6].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان، ومن رأى كله واسعا، ٣/ ٢٥، رقم ١٩٠٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، ٢/ ٧٥٩، رقم ١٠٨٠.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٧٧.

(٣) الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٩٨.

(٤) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ١٦٠.

(٥) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص ٥٦٠.

(٦) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٢٥٤.

الغم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غمم) في القرآن الكريم (٧) مرات [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٦	﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [آل عمران:١٥٣]
الاسم	١	﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس:٧١]

وجاء الغم في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: الكرب أو الحزن يحصل للقلب بسببٍ ما، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس:٧١]. وذلك من الغم؛ لأن الصدر يضيق به [(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٥٠٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب العين ص٨٥٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٢٣٣.

الألفاظ ذات الصلة بالغم

١ الهم:

الهم: لغة:

ما هممت به في نفسك. تقول: أهمني هذا الأمر. والهم: الحزن. والهمة: ما هممت به من أمرٍ لتفعله. ويقال: أهمني الشيء، أي: أحزنني. والمهمات من الأمور: الشدائد[١].

الهم اصطلاحًا:

الهم الحزن الذي يذيب الإنسان. يقال: هممت الشحم فانهم، والهم: ما هممت به في نفسك، وهو الأصل[٢].

الصلة بين الهم والغم:

قال المناوي: «وقيل: الهم والغم والحزن من واد واحد؛ وهي ما يصيب القلب من الألم من فوات محبوب، إلا أن الغم أشدهما، والحزن أسهلهما»[٣].

٢ الحزن:

الحزن لغة:

أصل مادة (حزن) تدل على خشونة الشيء وشدةٌ فيه[٤].

والحُزْن والحَزَن: خلاف السرور[٥].

الحزن اصطلاحًا:

«عبارة عما يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي»[٦].

الصلة بين الحزن والغم:

قال المناوي: «وقيل: الهم والغم والحزن من واد واحد؛ وهي ما يصيب القلب من الألم من فوات محبوب، إلا أن الغم أشدهما، والحزن أسهلهما»[٧].

---

(١) العين، الفراهيدي ٣/ ٣٥٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصبهاني ص ٨٤٥.
(٣) انظر فيض القدير، المناوي ٥/ ١٤٨.
(٤) انظر: مقاييس اللغة ٢/ ٥٤.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٩٨.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص ١١٧.
(٧) فيض القدير ٥/ ١٤٨.

٣ الكرب:

الكرب لغة:

في الصحاح: «الكربة بالضم: الغم الذي يأخذ بالنفس، وكذلك الكرب. تقول منه: كربه الغم، إذا اشتد عليه. والكرائب: الشدائد، الواحدة كريبة»[١].

الكرب اصطلاحًا:

قال الراغب: «الكرب: الغم الشديد. قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الأنبياء: ٧٦].

والكربة كالغمة، وأصل ذلك من: كرب الأرض، وهو قلبها بالحفر، فالغم يثير النفس إثارة ذلك»[٢].

الصلة بين الغم والكرب:

أن الكرب تكاثف الغم مع ضيق الصدر ولهذا يقال لليوم الحار يوم كرب أي كرب من فيه وقد كرب الرجل وهو مكروب وقد كربه إذا غمه وضيق صدره»[٣].

٤ السرور:

السرور لغة:

يقال: سررت برؤية فلانٍ وسرني لقاؤه، وقد سررته أسره أي فرحته، السرور خلاف الحزن؛ تقول: سرني فلانٌ مسرةً، والسرور: ما ينكتم من الفرح[٤].

السرور اصطلاحًا:

«حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد وعلم أو ظن لحصول شيء لذيذ»[٥].

وقيل: هو انشراح الصدر بلذة فيها طمأنينة الصدر عاجلًا وآجلًا[٦].

الصلة بين السرور والغم:

بينهما تضاد، فالسرور خلاف الحزن، والغم انقباض القلب مع الحزن.

---

(١) الصحاح، الجوهري ١/ ٢١١.
(٢) المفردات ص ٧٠٦.
(٣) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص١٨٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦١.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٣.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٢٨.

الغم طبيعة بشرية

نص القرآن الكريم على أن أنبياء الله عليهم السلام أصابهم الغم كما قال عن يونس: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٨].

فهو عليه السلام لم ينج من الغم إلا لأنه كان قد أصيب به من جراء ما حل به من البلاء.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحزن لإصرار المشركين على عنادهم وكفرهم الذي فيه هلاكهم، فينزل عليه نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨].

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء:٣]: أي: لعلك «مهلك ﴿نَّفْسَكَ﴾ أي: مما تحرص عليهم وتحزن عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، وهذه تسلية من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨].

قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وعطية، والضحاك: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتل نفسك»[1].

وبيانه كذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف:٦].

فقد دلت الآية على أن سبب حزنه صلى الله عليه وسلم عدم إيمان هؤلاء المشركين، «وقوله ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تقرير وتوفيق بمعنى الإنكار عليه أي لا تكن كذلك، و «الباخع نفسه» هو مهلكها وجدا وحزنا على أمر ما وقوله ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾: استعارة فصيحة، من حيث لهم إدبار وتباعد عن الإيمان، وإعراض عن الشرع فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في آثارهم يحزن عليهم، وقوله ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: أي بالقرآن الذي يحدثك به، ﴿أَسَفًا﴾ نصب على المصدر، قال الزجاج: و «الأسف» المبالغة في حزن أو غضب»[2].

واختار ابن عطية أن «الأسف» في الآية بمعنى الحزن لا الغضب لأنه بسبب شيء لا يملكه ولا تصرف له فيه، قال: «و «الأسف» في هذا الموضع الحزن، لأنه على من لا يملكه ولا هو تحت يد الأسف، ولو كان الأسف من مقتدر على من هو في قبضته وملكه لكان غضبا، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف:٥٥]: أي أغضبونا وإذا تأملت هذا في كلام العرب اطرد، وذكره منذر بن سعيد. وقال قتادة: هنا ﴿أَسَفًا﴾:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٣٥.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٩٦.

غضبًا، قال مجاهد ﴿أَسَفَا﴾: جزعا، وقال قتادة أيضا: حزنا»[1].

ودلت الآيات على أن أنبياء الله عليهم السلام ومنهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد أصابهم الغم، وما ذلك إلا لأنهم بشر يصيبهم ما يصيب البشر.

ومما هو صورة جلية للحزن ما قصه القرآن الكريم من خبر نبي الله يعقوب عليه السلام الذي أصابه من فراق ابنه يوسف ثم أخيه بنيامين حزن عظيم بلغ به حدا فقد معه بصره، كما قال سبحانه وتعالى مخبرًا عن حاله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٤-٨٧].

والمعنى: «وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك.﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى. فقال له أولاده متعجبين من حاله: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك. ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: فانيا لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدا. ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى﴾ أي: ما أبث من الكلام ﴿وَحُزْنِىٓ﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم»[2].

وتضمنت الآيات أن يعقوب عليه السلام أصابه من فراق ابنه يوسف حزن عظيم -كما تقدم- ودل على ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: «والأسف أشد الحزن، أسف كحزن. ونداء الأسف مجاز. نزل الأسف منزلة من يعقل فيقول له: احضر فهذا أوان حضورك، وأضاف الأسف إلى ضمير نفسه لأن هذا الأسف جزئي مختص به من بين جزئيات جنس الأسف. والألف عوض عن ياء المتكلم فإنها في النداء تبدل

(١) المصدر السابق.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٠٤.

ألفا»[1].

وصور القرآن الكريم آثار هذا الحزن في فعله عليه السلام وقوله: فأما فعله فهو أنه أعرض عن أبنائه، وأما قوله فقد تقدم.

قال الرازي: «واعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جدًا وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد إليهم. أما المقام الأول: وهو أنه أعرض عنهم، وفر منهم فهو قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام: وقال يا أسفى على يوسف»[2].

كما أن هذا الحزن قد أثر عليه تأثيرًا بينا بدا عليه ومن ذلك ابيضاض عينيه، «﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾: قيل: لم يبصر بهما ست سنين، وأنه عمي، قاله مقاتل. وقيل: قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية، والله أعلم بحال يعقوب»[3].

وقد يؤيد أن بصره قد ذهب قوله تعالى على لسان يوسف: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف:٩٣].

وتضمنت الآية أن سبب ابيضاض عينيه حزنه، قال ابن عاشور: «ومن في قوله: ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ سببية. والحزن سبب البكاء الكثير الذي هو سبب ابيضاض العينين. وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار وأن الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر. فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عمل عصب الإبصار»[4].

ودل ابيضاض عينيه على أنه ما زال يشعر بهذا الحزن منذ أمد طويل، ثم إن بعض الحوادث قد تؤدي إلى تجدد هذا الحزن وتجدد الشعور بألمه كما حدث له من فقد ولده الثاني «بنيامين» الذي ذكره ما أصابه من الحزن بفقد يوسف فكان الحزن على الثاني مجددا للحزن على الأول مع ما انضم إليه من مكوث الثالث أيضا بأرض مصر: «وإنما ذكر القرآن تحسره على يوسف عليه السلام ولم يذكر تحسره على ابنيه الآخرين لأن ذلك التحسر هو الذي يتعلق بهذه القصة فلا يقتضي ذكره أن يعقوب عليه السلام لم يتحسر قط إلا على يوسف، مع أن الواو لا تفيد ترتيب الجمل المعطوفة بها»[5].

وأفاض الرازي في ذكر علة الاقتصار على النص على الحزن على يوسف وحده فقال: وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٤٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٩٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٤٨.
(٤) التحرير والتنوير ١٣/ ٤٣.
(٥) المصدر السابق ١٣/ ٤٢.

الوجه الأول: أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع.

والوجه الثاني: أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

الوجه الثالث: أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا، وكان الأسف عليه أسفا على الكل.

الوجه الرابع: أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها. وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكروه، وأما السبب الحقيقي فما كان معلوما له، وأيضا أنه عليه السلام كان يعلم أن هؤلاء في الحياة وأما يوسف فما كان يعلم أنه حي أو ميت، فلهذه الأسباب عظم وجده على مفارقته وقويت مصيبته على الجهل بحاله[1].

والخلاصة أن يعقوب عليه السلام أصابه غم وحزن عظيم لشدة ما نزل به من البلاء حتى بدا ذلك على بدنه وفعله وقوله وهو ما قصه القرآن الكريم، قال الرازي: «واعلم أن أشرف أعضاء الإنسان هذه الثلاثة، فبين تعالى أنها كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله: يا أسفى والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شد ولا يمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم»[2].

وهذا الذي بدا منه عليه السلام غير مستغرب لأنه جار على الطبيعة التي فطر عليها البشر كلهم، وما كان الأنبياء إلا بشرا كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء:٧-٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ۝٢٠﴾ [الفرقان:٢٠].

قال القرطبي: «فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة:

منها: أن يعقوب صلى الله عليه وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حي خاف على دينه، فاشتد حزنه لذلك.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٩٦، باختصار.

(٢) المصدر السابق ١٨/ ٤٩٩.

وقيل: إنما حزن لأنه سلمه إليهم صغيرا، فندم على ذلك.

والجواب الثالث: وهو أبينها، هو أن الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب)[1]»[2].

فكان حزنه جاريًا على ما فطر الله عليه البشر، ومثل ذلك لا يتعلق به حكم شرعي وإلا كان تكليفًا بما لا يطاق.

قال الشاطبي: «الأوصاف التي طبع عليها الإنسان كالشهوة إلى الطعام والشراب لا يطلب برفعها، ولا بإزالة ما غرز في الجبلة منها، فإنه من تكليف ما لا يطاق، كما لا يطلب بتحسين ما قبح من خلقة جسمه، ولا تكميل ما نقص منها فإن ذلك غير مقدور للإنسان، ومثل هذا لا يقصد الشارع طلبًا له ولا نهيًا عنه، ولكن يطلب قهر النفس عن الجنوح إلا ما لا يحل، وإرسالها بمقدار الاعتدال فيما يحل، وذلك راجع إلى ما ينشأ من الأفعال من جهة تلك الأوصاف مما هو داخل تحت الاكتساب»[3].

وقال: «إن ثبت بالدليل أن ثم أوصافا تماثل ما تقدم في كونها مطبوعا عليها الإنسان، فحكمها حكمها لأن الأوصاف المطبوع عليها ضربان:

منها: ما يكون ذلك فيه مشاهدا ومحسوسا كالذي تقدم.

ومنها: ما يكون خفيا حتى يثبت بالبرهان فيه ذلك، ومثاله العجلة، فإن ظاهر القرآن أنها مما طبع الإنسان عليه، لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧].

وإذا ثبت هذا، فالذي تعلق به الطلب ظاهرا من الإنسان على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما لم يكن داخلا تحت كسبه قطعا، وهذا قليل، كقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

وحكمه أن الطلب به مصروف إلى ما تعلق به.

والثاني: ما كان داخلا تحت كسبه قطعا، وذلك جمهور الأفعال المكلف بها التي هي داخلة تحت كسبه، والطلب المتعلق بها على حقيقته في صحة التكليف بها سواء علينا أكانت مطلوبة لنفسها أم لغيرها.

والثالث: ما قد يشتبه أمره، كالحب والبغض وما في معناهما، فحق الناظر فيها أن ينظر في حقائقها، فحيث ثبتت له من القسمين حكم عليه بحكمه، والذي يظهر من أمر الحب والبغض والجبن والشجاعة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه، ٤/ ١٨٠٧، رقم ٢٣١٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٤٨.
(٣) الموافقات الشاطبي ٢/ ١٧٥.

والغضب والخوف ونحوها أنها داخلة على الإنسان اضطرارا، إما لأنها من أصل الخلقة، فلا يطلب إلا بتوابعها، فإن ما في فطرة الإنسان من الأوصاف يتبعها بلا بد أفعال اكتسابية، فالطلب وارد على تلك الأفعال لا على ما نشأت عنه، كما لا تدخل القدرة ولا العجز تحت الطلب، وإما لأن له باعثا من غيره فتثور فيه فيقتضي لذلك أفعالا أخر، فإن كان المثير لها هو السابق وكان مما يدخل تحت كسبه، فالطلب يرد عليه كقوله: (تهادوا تحابوا)[1]»[2].

وعليه فيكون النهي في ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[فاطر:٨]. و﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٩]. متوجهًا لا إلى الحزن نفسه، بل إلى ما يعقبه وينتج عنه من أقوال وأفعال.

قال في التحرير: «على أن البكاء من الحزن أمر جبلي فلا يستغرب صدوره من نبيء، أو أن التصبر عند المصائب لم يكن من سنة الشريعة الإسرائيلية بل كان من سننهم إظهار الحزن والجزع عند المصائب. وقد حكت التوراة بكاء بني إسرائيل على موسى عليه السلام أربعين يوما، وحكت تمزيق بعض الأنبياء ثيابهم من الجزع. وإنما التصبر في المصيبة كمال بلغت إليه الشريعة الإسلامية»[3].

وما ذكره ابن عاشور من أن سنة بني إسرائيل كانت إظهار الحزن والجزع وما نقل من تمزيق الأنبياء ثيابهم غير مسلم، وإذا لم نعده شيئا مفترى لا يليق بأنبياء الله فأكبر شأنه أن يكون من الإسرائيليات التي أمرنا ألا نصدقها ولا نكذبها وأن نكل علمها إلى الله لئلا نكذب بحق أو نصدق بباطل. بل إن رائحة الافتراء تفوح من مثل هذا لأن مثله لا يليق بأنبياء الله عليهم السلام. وقد نقل بعض المفسرين ذلك في معرض الرد على من ظن أن يعقوب عليه السلام جاء بما لا يليق من الجزع والشكوى.

قال الرازي: «من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال: لأن هذا إظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وأنه لا يجوز، والعلماء بينوا أنه ليس الأمر كما ظنه هذا الجاهل»[4].

وربما كان وراء هذا الزعم بعض الإسرائيليات والروايات المنكرة ومنها ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كان ليعقوب النبي

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٥/ ١٤١، رقم ٩٢٥٠.
وحسنه الألباني في إرواء الغليل ٦/ ٤٤.
(٢) الموافقات، الشاطبي ٢/ ١٧٦.
(٣) التحرير والتنوير ١٣/ ٤٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٩٧

عليه السلام، أخ مؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذي أذهب بصرك وقوس ظهرك؟ قال: الذي أذهب بصري البكاء على يوسف، وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا يعقوب، إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أما تستحيي أن تشكوني إلى غيري؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله. فقال جبريل، عليه السلام: الله أعلم بما تشكو)[1].

ثم رد الرازي على ذلك فقال: «وتقريره أنه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه، وهو المراد من قوله: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ ثم أمسك لسانه عن النياحة، وذكر مالا ينبغي، وهو المراد من قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ ثم إنه ما أظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فإنه صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم.

روي أن يوسف عليه السلام سأل جبريل هل لك علم بيعقوب؟ قال نعم قال: وكيف حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد ثم يموت. قال: فهل له فيه أجر؟ قال: نعم أجر مائة شهيد[2]»[3].

وقال أيضًا: «وأما البكاء فليس من المعاصي. وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام: بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال: (إن القلب ليحزن والعين تدمع، ولا نقول: ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون)[4].

وأيضًا فاستيلاء الحزن على الإنسان ليس باختياره، فلا يكون ذلك داخلا تحت التكليف وأما التأوه وإرسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه، وأما ما ورد في الروايات التي ذكرتم فالمعاتبة فيها إنما كانت لأجل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأيضا ففيه دقيقة أخرى وهي أن الإنسان إذا كان في موضع التحير والتردد لا بد وأن يرجع إلى الله تعالى، فيعقوب عليه السلام ما كان يعلم أن يوسف بقي حيا أم صار ميتا، فكان متوقفا فيه وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع إلى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ما سوى الله تعالى إلا في هذه الواقعة»[5].

(١) عزاه ابن كثير في تفسره ٤/ ٤٠٦ إلى ابن أبي حاتم، وقال: وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٢٧-٢٢٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٩٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنا بك لمحزونون)، ٢/ ٨٣، رقم ١٣٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٠٧، رقم ٢٣١٥.

(٥) المصدر السابق ١٨/ ٤٩٨.

أسباب الغم

إن من أسباب الغم إما فوات المحبوب أو توقع فواته، وإما حصول مكروه أو توقع حصوله. والقلوب تتفاوت في الهم والغم كثرة واستمرارًا بحسب ما فيها من الإيمان أو الفسوق والعصيان «فهي على قلبين: قلب هو عرش الرحمن، ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير، وقلب هو عرش الشيطان، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم. فهو حزين علي ما مضى، مهموم بما يستقبل، مغموم في الحال»[1].

ويشهد لهذا المعنى قوله سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج:١٩-٢١].

أي: أنه «يحب ما يسره ويهرب مما يكره»[2]؛ فإذا فات ما يحبه أو توقع فواته، أو حصل ما يكره أو توقع حصوله حزن.

والناس يتفاوتون في الغموم بتفاوت بواعثهم وأحوالهم وما يحمله كل واحد منهم من المسئوليات.

فمن الغموم التي تدخل في فوات المحبوب أو توقع فواته، غموم سامية، ذات دلالات طيبة؛ كالحزن الذي أشار القرآن الكريم إلى نزوله بالأنبياء بسبب إعراض من يدعونهم إلى الحق وإهلاكهم أنفسهم بالصد والتكذيب كالذي دل عليه قوله عز وجل: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨].

وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف:٦].

ويلحق بذلك غموم العالم في حل المعضلات التي يحتاج المسلمون فيها إلى جواب، وخصوصًا إذا استعصت المسألة واستغلقت، وكذلك غم إمام المسلمين بمشكلات رعيته. «قال مولى لعمر بن عبد العزيز له حين رجع من جنازة سليمان: مالي أراك مغتمًا؟ فقال عمر: لمثل ما أنا فيه يغتم؛ ليس أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في شرق ولا غرب، إلا وأنا أريد أن أؤدي إليه حقه، غير كاتب إلي فيه، ولا طالبه مني»[3].

ومن الغموم الشريفة غم الداعية في نشر الدين وحمل الرسالة، والأخذ بيد المدعو إلى طريق الهداية، وغموم العابد في تصحيح عبادته في القصد والأداء، وغم المسلم بما يصيب إخوانه في أقطار الأرض.

ومن الغموم التي تدخل في حصول مكروه أو توقع حصوله، ما يكون ناشئًا عن

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٢٧.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٤١.
(٣) انظر: الهم والحزن، ابن أبي الدنيا ص ٤٩.

المعاصي، كالغموم التي تصيب المذنب بعد ذنبه، مثل الذي يحدث في غم من أصاب دمًا حرامًا، أو غم الزانية بحملها، وهو داخل ضمن عموم المصائب التي هي أثر للمعاصي، قال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى:٣٠].

ومن الغموم ما يكون بسبب ظلم الآخرين خاصة الأقرباء، كما قال الشاعر[1]:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

ولهذا كان الظالمون فتنة وامتحانا للمستضعفين بما ينالهم منهم من أذى نفسي وبدني، كما كانوا هم فتنة للظالمين بأن حملهم كبرهم وظلمهم عن النهي عن الحق والنأي عنه.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام:٥٣].

ومن ذلك الغموم الحاصلة بسبب مصائب الدنيا، كالأمراض المزمنة والخطيرة، وعقوق الأبناء وتسلط الزوجة، واعوجاج الزوج.

ومن الغموم ما يكون بسبب الخوف من المستقبل وما يخبئه الزمان، كغموم الأب بذريته من بعده، وخاصة إذا كانوا ضعفاء وليس لديه ما يخلفه لهم. وهكذا تتنوع الغموم والهموم[2].

ولقد أشار ابن القيم في بعض كتبه إلى هذه الأسباب، فقال: «والفرح لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور، كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقده تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم»[3].

ويقول كذلك: «فالحزن يتولد من مفارقة المحبوب ليس له سبب سواه، وإن تولد من حصول مكروه، فذلك المكروه إنما كان كذلك لما فات به من المحبوب، فلا كان حزن إذا ولا هم ولا غم ولا أذى ولا كرب إلا في مفارقة المحبوب؛ ولهذا كان حزن الفقر والمرض والألم والجهل والخمول والضيق وسوء الحال ونحو ذلك على فراق المحبوب، من المال والوجد والعافية والعلم والسعة وحسن الحال؛ ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى مفارقة المشتهيات من أعظم العقوبات، فقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ٥٤﴾ [سبأ:٥٤].

فالفرح والسرور بالظفر بالمحبوب،

(١) هو طرفة بن العبد، انظر ديوانه ص ١٨.

(٢) انظر: علاج الهموم، محمد المنجد ص ١.

(٣) مدارج السالكين ٣/ ١٥٧.

والهم والغم والحزن والأسف بفوات المحبوب، فأطيب العيش عيش المحب الواصل إلى محبوبه، وأمر العيش عيش من حيل بينه وبين محبوبه»[1].

وفي هذا المعنى يقول أبو حامد الغزالي: «الغم لا يخلو من أربعة أوجه: إما لشهوة بطنه وفرجه، وإما على ما يخلفه من ماله، وإما على جهله بحاله بعد الموت ومآله، وإما لخوفه على ما قدمه من عصيانه. فإن كان ذلك لشهوة بطنه وفرجه، فهو كمشتهي داء ليقابله بداء مثله، فإن معنى لذة الطعام إزالة ألم الجوع، ولذلك إذا زال الجوع وامتلأت المعدة، كره عين ما اشتهاه، كمن يشتهي القعود في الشمس ليناله الحر، حتى يتلذذ بالرجوع إلى الظل، وكمن يشتهي الحبس في حمام حار، ليدرك لذة ماء الثلج، إذا شربه، وهو عين الرقاعة والخرق. وإن كان ذلك على ما يخلفه من ماله، فهو بجهله بخساسة الدنيا وحقارتها، بالإضافة إلى الملك الكبير والنعيم المقيم الموعود للمتقين.

وإن كان ذلك لجهله بعاقبة أمره بعد الموت، فعليه أن يطلب العلم الحقيقي، الذي يكشف له حال الإنسان بعد موته، كما قال حارثة للنبي صلى الله عليه وسلم: (كأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتلاعنون فيها)[2].

وهذا العلم إنما يحصل بالبحث عن حقيقة النفس وماهيتها، ووجه علاقتها بالبدن، ووجه خاصيتها التي خلقت لها، ووجه التذاذه بخاصيته وكماله، مع معرفة الرذائل المانعة له من كماله، وقد نبه الشرع عليه في مواضع كثيرة، وأمر بالتفكر في النفس، كما أمر بالتفكر في ملكوت السموات والأرض. وإن كان ذلك لما سبق من عصيانه، فلا ينفع الغم فيه، بل المداواة، وهو المبادرة إلى التوبة وإصلاح ما فرط من أمره»[3].

وتلك المعاني التي ذكرها ابن القيم والغزالي دل عليها عموم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

ويلزم من ذلك أن العبد إذا أعرض عن ذكر الله أحاطت الغموم بقلبه من كل جانب.

قال ابن الجوزي: «لا يجتمع حب الدنيا وحب الآخرة. رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن الله عز وجل والإقبال على

(١) المصدر السابق ٣/ ١٨٨.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٣/ ٢٦٧، رقم ٣٣٦٧، وعبد بن حميد في مسنده، ١/ ١٦٥، رقم ٤٤٥.

(٣) انظر: ميزان العمل، أبو حامد الغزالي ص ١٢٧.

الدنيا، وكلما فات منها شيء وقع الغم لفواته»[1].

وجاء في بحر الفوائد للكلاباذي: «إن الإنسان إذا أصابه غم، فأحب أن يتسلى بشيء، أو ضاق صدره من أمر، فأراد أن يفرح، أو أصابته وحشة، فأحب إزالتها عنه، ربما يغني، وهو أن ينغم ويرجع صوته لشيء من الشعر والزجل والمنظوم من الكلام، يطلب بذلك راحة وفرحة، مما هو فيه من الوحشة أو الكرب والغم. والأنبياء والرسل وأفاضل الأولياء والصديقون همومهم هم المعاد، وكربهم كرب الدين، ووحشتهم مما دون الله، وضيق صدورهم عما يشغلهم عن الله، فهم لا يتفرحون من كربهم إلا بذكر ربهم، ولا ينسلون عن غمومهم وهمومهم إلا بمولاهم، فيرجعون أصواتهم بقراءة القرآن، الذي من محبوبهم بدأ وإليه يعود، وبخشيته من قلوبهم، ورقة من أفواه أفئدتهم، ويزان محبته بين ضلوعهم، وماء الاشتياق يجري على خدودهم، فتحسن لذلك أصواتهم؛ لأن حسن الصوت بالقرآن هو قراءته على خشية من الله»[2].

الغم بين التطهير والعقاب

خلق الله العباد وجعلهم يبتلون ويمتحنون ليميز الخبيث من الطيب، وليعلم المجاهدين والصابرين ومن يخافه بالغيب، وليختبرهم أيهم أحسن عملا؛ فالخير والشر يصيب الناس جميعًا في هذه الحياة الدنيا ليس يسلم منه أحد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:٣٥].

فقوله جل وعلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: «يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم، ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦]»[3].

وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ

(١) صيد الخاطر ص ١١٠.
(٢) بحر الفوائد ص ٢١٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٣.

﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

«أي: لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه، إن كان في دينه صلابة زيد في البلاء»[1].

ومن الابتلاء بالشر ما يصيب المؤمنين من غم بسبب ما ينالهم من أذى على ألسنة المشركين كما قال سبحانه: ﴿۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦].

و«هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته والمعنى: لتختبرن ولتمتحنن في أموالكم بالمصائب والأرزاء بالإنفاق في سبيل الله وسائر تكاليف الشرع. والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب. وبدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بها»[2].

و«اللام لام القسم تقديره والله لتبلون أي لتختبرن فتوقع عليكم المحن ليعلم المؤمن من غيره. والاختبار طلب المعرفة ليعرف الجيد من الرديء وذلك في وصف الله محال لأن الله تعالى عالم بحقائق الأشياء كلها قبل أن يخلقها فعلى هذا يكون معنى الاختبار في وصف الله تعالى أنه يعامل العبد معاملة المختبر ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ يعني بالابتلاء في الأموال بالنقصان منها وقيل بأداء ما فرض فيها من الحقوق، ﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾: يعني بالمصائب والأمراض والقتل وفقد الأقارب والعشائر خوطب بهذه الآية المسلمون ليوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى وما سيلقون من الشدائد والمصائب ليصبروا على ذلك حتى إذ لقوها لقوها وهم مستعدون بالصبر لها لا يرهقهم ما يرهق غيرهم ممن تصيبه الشدة بغتة فينكرها ويشمئز منها»[3].

وأما الأذى المنصوص عليه في الآية فهو ما يصيب المؤمنين من الغم والحزن بسبب ما ينالهم من استهزاء وسب وتشكيك واستخفاف بهم وبدينهم على ألسنة المشركين، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾ [البقرة:٢١٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٠٣.
(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٢٩.

﴿٣٢﴾ [المطففين:٢٩-٣٢].

«وهو الضر بالقول كقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران:١١١].

ولذلك وصفه هنا بالكثير، أي الخارج عن الحد الذي تحتمله النفوس غالبا، وكل ذلك مما يفضي إلى الفشل، فأمرهم الله بالصبر على ذلك حتى يحصل لهم النصر، وأمرهم بالتقوى أي الدوام على أمور الإيمان والإقبال على بثه وتأييده»[(١)].

وعطف «الأذى الكثير» في الآية على البلاء في الأموال والأنفس يدل على أنه جزء من البلاء الذي يقصد منه التمحيص ورفع منزلة العبد عند الله وتطهيره من الذنوب والآثام، وقد وقع ذلك صريحا في ما روى البخاري بسنده من طريق عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه)[(٢)].

و«أصل المصيبة الرمية بالسهم ثم استعملت في كل نازلة.

وقال الراغب: أصاب يستعمل في الخير والشر قال الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة:٥٠] الآية.

قال: وقيل الإصابة في الخير مأخوذة من الصوب: وهو المطر الذي ينزل بقدر الحاجة من غير ضرر، وفي الشر مأخوذة من إصابة السهم[(٣)].

وقال الكرماني: المصيبة في اللغة: ما ينزل بالإنسان مطلقا، وفي العرف: ما نزل به من مكروه خاصة وهو المراد هنا»[(٤)].

و«الوصب: الوجع اللازم ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾[الصافات:٩].

أي: لازم ثابت. والنصب: التعب وقد نصب ينصب نصبا -كفرح يفرح فرحا-، ونصبه غيره وأنصبه لغتان»[(٥)].

والمعنى: «(ما يصيب المسلم من نصب) تعب (ولا وصب) مرض أو مرض دائم ملازم (ولا هم) بفتح الهاء وتشديد الميم (ولا حَزَن) بفتحتين، ولغير أبي ذر (ولا حُزْن) بضم فسكون، هما من أمراض الباطن، ولذلك ساغ عطفهما على الوصب.

وقيل الهم يختص بما هو آت والحزن بما مضى (ولا أذى) يلحقه من تعدي الغير

(١) التحرير والتنوير ٤/ ١٩٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ٧/ ١١٤، رقم ٥٦٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، ٤/ ١٩٩٢، رقم ٢٥٧٢.
(٣) المفردات ص ٤٩٥.
(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ١٠٤.
(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٦/ ١٣٠.

عليه (ولا غم) -بالغين المعجمة- وهو ما يضيق على القلب، وقيل: إن الهم ينشأ عن الفكر فيما يتوقع حصوله مما يتأذى به والحزن يحدث لفقد ما يشق على المرء فقده والغم كرب يحدث للقلب بسبب ما حصل. وقال المظهري: الغم الحزن الذي يغم الرجل، أي: يصيره بحيث يقرب أن يغمى عليه والحزن أسهل منه»[1].

وظاهر الحديث أن الله سبحانه وتعالى يحط عن المؤمن ذنوبه بسبب ما يصيبه من هم وتعب وأذى ومصائب وهو ما رجحه ابن حجر فقال: «وفي هذا الحديث تعقب على الشيخ عز الدين بن عبد السلام حيث قال: ظن بعض الجهلة أن المصاب مأجور، وهو خطأ صريح فإن الثواب والعقاب إنما هو على الكسب، والمصائب ليست منها، بل الأجر على الصبر والرضا.

ووجه التعقب أن الأحاديث الصحيحة صريحة في ثبوت الأجر بمجرد حصول المصيبة، وأما الصبر والرضا فقدر زائد يمكن أن يثاب عليهما زيادة على ثواب المصيبة. قال القرافي المصائب كفارات جزما سواء اقترن بها الرضا أم لا لكن إن اقترن بها الرضا عظم التكفير وإلا قل، -كذا قال- والتحقيق أن المصيبة كفارة لذنب يوازيها وبالرضا يؤجر على ذلك، فإن لم يكن للمصاب ذنب عوض عن ذلك من الثواب بما يوازيه. وزعم القرافي أنه لا يجوز لأحد أن يقول للمصاب جعل الله هذه المصيبة كفارة لذنبك لأن الشارع قد جعلها كفارة فسؤال التكفير طلب لتحصيل الحاصل وهو إساءة أدب على الشارع -كذا قال-، وتعقب بما ورد من جواز الدعاء بما هو واقع كالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وسؤال الوسيلة له، وأجيب عنه بأن الكلام فيما لم يرد فيه شيء وأما ما ورد فهو مشروع ليثاب من امتثل الأمر فيه على ذلك»[2].

وقال في إرشاد الساري: «وفيه رد على قول القائل إن الثواب والعقاب إنما هو على الكسب، والمصائب ليست منه بل الأجر على الصبر عليها والرضا بها، فإن الأحاديث الصحيحة صريحة في ثبوت الثواب بمجرد حصولها، وأما الصبر والرضا فقدر زائد لكن الثواب عليه زيادة على ثواب المصيبة»[3].

فهذه النصوص القرآنية وما يسندها من الأحاديث النبوية تدل على أن الغم قد يكون بلاء يبتلى به المؤمن ترفع به درجاته وتحط عنه بها سيئاته ويعظم به أجره.

غير أن النصوص القرآنية قد دلت أيضا على أن كل شر يصيب العبد سببه

(١) إرشاد الساري، القسطلاني ٨/ ٣٤٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ١٠٥.

(٣) إرشاد الساري، القسطلاني ٨/ ٣٤١.

شيء كسبته يداه، قال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى:٣٠].

ففي هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: وما يصيبكم أيها الناس من مصيبة في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ يقول: فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من الله لكم بما اجترمتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم ويعفو لكم ربكم عن كثير من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها»[1].

ولا ريب في أن الهم من هذه المصائب، وهو أثر لها أيضًا؛ فإن الإنسان يصيبه الهم والحزن لما يحل به من بلاء ومصائب.

وعن أبي قلابة، قال: نزلت: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وأبو بكر رضي الله عنه يأكل، فأمسك فقال: (يا رسول الله إني لراء ما عملت من خير أو شر؟ فقال: (أرأيت ما رأيت مما تكره فهو من مثاقيل ذر الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة)، قال: قال أبو إدريس: فأرى مصداقها في كتاب الله، قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾»[2].

وعن ابن عباس قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾. الآية، قال: «يعجل للمؤمنين عقوبتهم بذنوبهم ولا يؤاخذون بها في الآخرة»[3].

وظاهر هذه النصوص أن المصائب عقوبات على الذنوب والمعاصي والآثام.

قال ابن عطية: «وأما معنى الآية فاختلف الناس فيه، فقالت فرقة: هي إخبار من الله تعالى بأن الرزايا والمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرء وخطاياه، وأن الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر»[4].

وقال عمران بن حصين -وقد سئل عن مرضه-: إن أحبه إلي أحبه إلي الله، وهذا بما كسبت يداي، وعفو ربي كثير. وقال مرة الهمداني: رأيت على ظهر كف شريح قرحة فقلت: ما هذا؟ قال هذا بما كسبت يدي

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣٨.
(٢) المصدر السابق ٢١/ ٥٣٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم....الآية»ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:»لا يصيب ابن آدم خدش عودٍ، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرقٍ إلا بذنب، وما يعفو عنه أكثر» جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣٩.وهو مرسل كما هو واضح.

﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، وقيل لأبي سليمان الداراني: ما بال الفضلاء لا يلومون من أساء إليهم؟ فقال لأنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي ابتلاهم بذنوبهم. وروي عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله أكرم من أن يثني على عبده العقوبة إذا أصابته في الدنيا بما كسبت يداه)[1].

وقال الحسن بن أبي الحسن، معنى الآية في الحدود: أي ما أصابكم من حد من حدود الله، وتلك مصائب تنزل بشخص الإنسان ونفسه، فإنما هي بكسب أيديكم ويعفوا عن كثيرٍ، فستره على العبد حتى لا يحد عليه»[2].

ومن هذا الباب أيضًا قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٣-١٢٤].

وظاهر الآية أن كل سوء عمله المرء جزي به يستوي في ذلك المؤمن والكافر، قال القرطبي: «قال الجمهور: لفظ الآية عام، والكافر والمؤمن مجازى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار، لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيا»[3].

ثم استدل على ذلك بما في صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: (لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قاربوا، وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يشاكها)[4].

وفي مسند أحمد عن أبي بكر بن أبي زهير، قال: أخبرت أن أبا بكر قال: (يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ فكل سوء عملنا جزينا به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء[5]؟) قال: بلى. قال:

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٧٨، رقم ٦٤٩، والترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن، ٥/ ١٦، رقم ٢٦٢٦.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٧٨٣، رقم ٥٤٢٣.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٩٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، ٤/ ١٩٩٣، رقم ٢٥٧٤.

(٥) الأذى.

(فهو ما تجزون به)[1].

والآثار في هذا الباب كثيرة[2].

وعليه فالهم والحزن ونحوها مترددة بين كونها بلاء أو عقوبة:

- فهي عقوبة عاجلة يعاقب بها الكافر في الحياة الدنيا، وما أعد الله له يوم القيامة من العذاب المهين أشد وأبقى.
- وهي شيء من العقاب الذي يصيب المؤمن في الحياة الدنيا فيحط عنه العذاب في الآخرة لأن الله لا يجمع عليه العقاب مرتين.
- وهي كذلك من البلاء الذي يرفع من درجة المؤمن عند الله ويزيد في أجره، وليس بين بلاء المؤمن وعقابه فارق إلا إن تصورنا عبدا ليس له ذنب: فبالنظر إلى أنها شيء يحط عنه عقوبة الآخرة فالغم والحزن عقاب، وبالنظر إلى أنه يعظم أجره ويرفع درجته فهو بلاء، والله أعلم.

وقد أخرج الترمذي الحكيم في نوادر الأصول عن حيان قال: صحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة فقال لنافع: لا تمر بي على المصلوب -يعني ابن الزبير-، قال: فما فجئه في جوف الليل أن صك محمله جذعه[3]، فجلس يمسح عينيه ثم قال: يرحمك الله أبا خبيب إن كنت وإن كنت، ولقد سمعت أباك الزبير يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعمل سوء يجز به في الدنيا أو في الآخرة)، فإن يك هذا بذاك فهيه هيه، قال الله تعالى ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾»[4].

قال الترمذي: «وهذا عام، ثم ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يجز به في الدنيا أو الآخرة) وليس يجمع الجزاء في الموطنين»[5].

وقال القرطبي: «فدخل فيه البر والفاجر والعدو والولي والمؤمن والكافر، ثم ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بين الموطنين فقال: (يجز به في الدنيا أو في الآخرة) وليس يجمع عليه الجزاء في الموطنين»[6].

قال: «ثم ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر بين الفريقين عن

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٢٣٠، رقم ٦٨. وصححه بن حبان، كما في فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ١٠٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٩٦-٣٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٧-٤٢١.

(٣) أي: اصطدم به، وكان لا يريد أن يمر عليه.. ومعنى صك: ضرب، والمحمل: شقان على البعير يحمل فيهما، والحبل الذي يعلق به السيف.
انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٨/ ٣٤٦.

(٤) نوادر الأصول، الحكيم الترمذي ٢/ ١٦.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٣٩٧.

يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي قال: (لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما هذه بمبقية منا، قال: (يا أبا بكر إنما يجزى المؤمن بها في الدنيا ويجزى بها الكافر يوم القيامة)»[1].

والمعنى: أن ما يصيب الكافر من بأساء وضراء في الحياة الدنيا لا يضع عنه عقوبة الآخرة كما توضع بذلك عن المؤمن.

قال الحكيم الترمذي تعليقًا على حديث ابن عمر السابق: «فلما رأى ابن عمر فعله ثم رآه مصلوبًا، ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ذلك، وذلك لأن المؤمن من يجزى بالسوء في الدنيا بالنصب والتعب ونوائب الدنيا والحزن والغم، والكافر يصيبه ذلك وليس ذاك جزاء له بالسوء الذي قد عمل، وادخر جزاؤه إلى يوم القيامة؛ لأن جميع ما يصيب الكافر من المصائب لا يصبر فيها، وإن صبر فصبره تجلد لا حسبة وتسليم.

والمؤمن في كل ذلك صابر محتسب مذعن، والكافر ساخط على ربه مضمر على عداوته، لأن المؤمن حبب إليه الإيمان وزين في قلبه فالتذت نفسه وطابت فلان القلب ورق الفؤاد وراحت النفس وطابت بلذتها فانقاد له واستسلم وألقي بيديه سلمًا، فإن جاءته أحوال المكاره تحملها وهو في ذلك راض عنه طيب النفس يحمده بلسانه ويرجوه بقلبه وطابت نفسه بما يرى من رحمة الله تعالى عليه بأنه قد محصه وطهره، وإذا خرج من الدنيا انقطع رجاؤه من جميع الخلق وكان متعلق رجائه خالقه.

فإذا أعطى صحيفته يوم القيامة فأتى على سيئاته قيل له تجاوز عن قراءتها فقد تجاوزنا عنك بما أصابك في الدنيا»[2].

(١) المصدر السابق.

(٢) نوادر الأصول، الحكيم الترمذي ٢/ ١٧.

وسائل النجاة من الغم

لقد وصف القرآن الكريم للغم أدوية ربانية تداوي آلامه وتبدل مكانها رضا وطمأنينة وتسليمًا، ويمكن إجمالها في ما يأتي:

أولًا: الإيمان بالله:

وهو من أنفع الأدوية في النجاة من الغم وعلاجه، وقد قرر القرآن الكريم أن الإيمان بالله سبب لهوان المصائب إذا ما نزلت كما هي سبب لكبح النفس عن الطغيان في حال النعمة.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

وإننا -إذا تأملنا نصوص القرآن الكريم- نلمح أن هوان هذه المصائب ينتج عن أمرين:

أحدهما: ما ينبني على الإيمان من اعتقاد العبد أنه ملك لله المتصرف في شؤون خلقه بقدرته وحكمته وتدبيره، وإيمانه بأن المرجع إليه يوم القيامة الذي يعد الفوز فيه هو الفوز المبين، والخسران فيه هو الخسران العظيم، ولا تعد الدنيا كلها -إذا ما قيست به- إلا متاعًا قليلًا.

كما قال جل وعلا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

«ففي قول العبد إنا لله وإنا إليه راجعون تفويض منه إلى الله وأنه راض بكل ما نزل به من المصائب»[1].

وهذا القول إنما يصدر عن الذين تخلقوا بالصبر واستداموه حتى صار وصفا راسخا لهم، ولذلك «وصف الصابرين بأنهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا﴾ لإفادة أن صبرهم أكمل الصبر.

إذ هو صبر مقترن ببصيرة في أمر الله تعالى، إذ يعلمون عند المصيبة أنهم ملك لله تعالى يتصرف فيهم كيف يشاء، فلا يجزعون مما يأتيهم، ويعلمون أنهم صائرون إليه فيثيبهم على ذلك.

فالمراد من القول هنا القول المطابق للاعتقاد، إذ الكلام إنما وضع للصدق، وإنما يكون ذلك القول معتبرًا إذا كان تعبيرًا عما في الضمير، فليس لمن قال هاته الكلمات بدون اعتقاد لها فضل، وإنما هو كالذي ينعق بما لا يسمع.

وقد علمهم الله هذه الكلمة الجامعة

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٤.

لتكون شعارهم عند المصيبة، لأن الاعتقاد يقوى بالتصريح لأن استحضار النفس للمدركات المعنوية ضعيف يحتاج إلى التقوية بشيء من الحس، ولأن في تصريحهم بذلك إعلانا لهذا الاعتقاد وتعليما له للناس»[1].

وهم إذا قالوا ذلك هانت المصائب في نفوسهم وخفت ألمها، ولهم فوق ذلك منحة أخرى: وهي أن يبدلهم الله خيرا مما فقدوا، فقد روى مسلم في صحيحه عن أم سلمة، أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها)[2].

والثاني: ما وعد الله عز وجل -ووعده الحق- من أن يلقي في نفس المؤمن الهدى، قال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن:١١].

وقد تضمن مطلع الآية تذكيرا بأن كل ما يصيب العبد من خير أو شر إنما هو بأمر الله، ومن علم ذلك سلم أمره لله، «وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يحتمل أن يريد المصائب التي هي رزايا وخصها بالذكر بأنها الأهم على الناس والأبين أثرًا في أنفسهم، ويحتمل أن يريد جميع الحوادث من خير وشر، وذلك أن الحكم واحد في أنها ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، والإذن في هذا الموضع عبارة عن العلم والإرادة وتمكين الوقوع»[3].

وتكرر هذا في سور أخرى فأخبر سبحانه في هذه الآية «بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢].

وهكذا قال هاهنا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينا صادقا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرا منه»[4].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ قال فيه المفسرون المعنى: ومن آمن وعرف أن كل شيء بقضاء

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٥٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، ٢/ ٦٣١، رقم ٩١٨.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٣٧.

الله وقدره، وعلمه، هانت عليه مصيبته وسلم الأمر لله تعالى»[1].

فعلى هذا القول تكون الهداية هداية الإرشاد إلى معرفة الله والإيمان بقدره وحكمته. وقد دلت الآية على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يلقي الهداية في نفس العبد ويؤيده ما «قرأ سعيد بن جبير وطلحة بن مصرف: «نهد» بالنون»[2].

«وقرأ أبو بكر الصديق، وعاصم الجحدري، وأبو نهيك: «يهد» بياءٍ مفتوحة. ونصب الدال «قلبه» بالرفع. قال الزجاج: هذا من هدأ يهدأ: إذا سكن. فالمعنى: إذا سلم لأمر الله سكن قلبه»[3].

ومعناه حصول الطمأنينة فيه.

ومن لوازم الإيمان بالله الإيمان بالقدر خيره وشره.

ثانيًا: الإيمان بالقدر:

إذا حقق المغموم الإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره، وآمن أن كل شيء بقضاء الله وقدره، ولا راد لما قدر وقضى من أحدٍ من مخلوقاته، ووقف وقفة مع نفسه عند حلول الهم والحزن بسبب ما نزل به، وتذكر بأن الذي قدر هو رب الأرض والسماء، ورب العرش العظيم، ورب الخلق أجمعين، وعرف أن هذا من تمام أركان الإيمان ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

(وتؤمن بالقدر خيره وشره)[4]؛ نزل في قلبه الطمأنينة والسكينة، وزال عنه ما حل به الغموم والهموم والأحزان.

قال ابن القيم: «وقيل: أكثر الناس همًا بالدنيا أكثرهم همًا في الآخرة، وأقلهم همًا بالدنيا أقلهم همًا في الآخرة. فالإيمان بالقدر والرضى به: يذهب عن العبد الهم والغم والحزن»[5].

وينتج عن الإيمان بالله وبالقدر خيره وشره قناعة العبد بما قسم الله له من رزق وصحة ونحوها.

ثالثًا: القناعة:

القناعة هي قبول الحظ المقسوم للإنسان من الرزق والمال والأولاد والقوة والصحة والمتاع، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس)[6].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣١٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٩٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢١٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، ١/ ٣٦، رقم ٨.
(٥) مدارج السالكين ٢/ ٢٢١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، ٨/ ٩٥، رقم ٦٤٤٦،

وأثر القناعة كسبب لدفع الهموم هام جدًا، إذ إن كل قنوع غير متشوف لما في أيد الناس، وغير ساخط على حاله من الفقر أو الصحة أو غيره. لذلك وصف الله أهل السعادة بالصبر حال البلاء والجود حال العافية، وجعلها خلقا لهم من دون سائر الناس.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود:٩-١١].

ويروى: (الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة في الدنيا تطيل الهم والحزن)[١].

قيل لبعض الحكماء: «فما سرور الدنيا؟ قال: الرضاء بما رزقت. قال: فما غمها؟ قال: الحرص على ما لعلك لا تناله»[٢].

وقال ابن القيم: «وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين، أحداهما: الرغبة في الدنيا والحرص عليها. والثاني: التقصير في أعمال البر والطاعة»[٣].

وقال أيضًا: «الرابع عشر (من استواء النعمة والبلية عند المؤمن في الرضى بهما؛ لأنهما من الرضى عن الله): أن السخط باب الهم والغم والحزن، وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله، والرضى يخلصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة»[٤].

رابعًا: طاعة الله ورسوله:

وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فرع عن الإيمان بالله، وهو أنجح وسيلة للنجاة من الغم والهم والحزن والشفاء منه، وذلك بالالتزام بما أمر الله به ورسوله، والانتهاء عما نهى الله عنه ورسوله، ففيهما كمال السعادة، وذهاب الغموم والهموم

ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، ٢/ ٧٢٦، رقم ١٠٥١.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٦/ ١٧٧، رقم ٦١٢٠ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الزهد في الدنيا يريح القلب، والجسد). ثم قال:لم يرو هذا الحديث عن علي بن زيد إلا أشعث بن براز، تفرد به يحيى بن بسطام.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٦: وفيه أشعث بن نزار ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم.
وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/ ٢٨٨ عن عبد الله الداري قال:» كان أهل العلم بالله والقبول منه يقولون: إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن وإن الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن وإن الشبع يقسي القلب ويفتر البدن».

(٢) انظر: سراج الملوك، الطرطوشي ص ١٥٧.

(٣) عدة الصابرين ص ٢٢٧.

(٤) مدارج السالكين ٢/ ٢٠٧.

والأحزان.

قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة:٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور:٥٤].

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الله قد ضمن السعادة لمن أطاعه وأطاع رسوله، وتوعد بالشقاء لمن لم يفعل ذلك، فمناط السعادة طاعة الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩]»[1].

وقال ابن القيم: «قال بعض العلماء: فكرت في سعي العقلاء فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم؛ فهذا في الأكل والشرب، وهذا في التجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب. فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل الى ضده، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقًا موصلًا اليه.

بل لعل أكثرها إنما يؤثر إلى الإقبال على الله وحده، ومعالمته وحده، وإيثار مرضاته على كل شيء، فإن سالك هذا الطريق فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاته فاته كل شيء، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنى الوجوه، فليس للعبد أنفع من هذا الطريق، ولا أوصل منه إلى لذته وبهجته وسعادته. وبالله التوفيق»[2].

وقال أيضًا في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٩].

«وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، والرد إلى

(١) منهاج السنة ٣/ ٢٤٤.

(٢) الجواب الكافي ص ١٣٦.

سنته بعد وفاته؛ سعادة الدارين. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: أي هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولياء الأمر، ورد ما تنازعتم فيه إلي وإلى رسولي، خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خير لكم، وأحسن عاقبة.

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله، وتحكيم الله ورسوله، هو سبب السعادة عاجلًا وآجلًا، ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه، علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول، والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول، وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها، إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه.

فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط، وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة، والمصائب الواقعة في الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول؛ ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين؛ فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم والخروج عنه، وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا: بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم علمًا، والقيام به عملًا كمال السعادة»[1].

وقد خص القرآن الكريم في هذا الباب من عموم الطاعات ثنتين: الصبر والصلاة.

خامسًا وسادسًا: الصبر والصلاة:

أمر القرآن الكريم المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما أمر بني إسرائيل بأن يستعينوا على ما نزل بهم من البلاء بالصبر والصلاة، فقال سبحانه مخاطبا بني إسرائيل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

قال ابن جرير: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾: استعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتموني في كتابكم من طاعتي واتباع أمري، وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمري، واتباع رسولي محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر عليه والصلاة»[2].

و«الصبر: الإمساك في ضيق، يقال: صبرت الدابة: حبستها بلا علف، وصبرت

(١) زاد المهاجر إلى ربه ص ٤٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ١٠.

فلانًا: خلفته خلفة لا خروج له منها.

والصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبرا لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتمانا، ويضاده المذل، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبرًا»[1].

ولما عطف الصبر على الصلاة قال بعض المفسرين إن المقصود به الصيام، وذلك لتضمن الصيام للصبر.

قال ابن جرير: «وقد قيل: إن معنى «الصبر» في هذا الموضع: الصوم، و«الصوم» بعض معاني «الصبر». وتأويل من تأول ذلك عندنا أن الله تعالى ذكره أمرهم بالصبر على ما كرهته نفوسهم من طاعة الله، وترك معاصيه. وأصل الصبر: منع النفس محابها، وكفها عن هواها؛ ولذلك قيل للصابر على المصيبة: صابر، لكفه نفسه عن الجزع؛ وقيل لشهر رمضان «شهر الصبر»، لصبر صائميه عن المطاعم والمشارب نهارا، وصبره إياهم عن ذلك: حبسه لهم، وكفه إياهم عنه، كما تصبر الرجل المسيء للقتل فتحبسه عليه حتى تقتله. ولذلك قيل: قتل فلان فلانًا صبرًا، يعني به: حبسه عليه حتى قتله، فالمقتول «مصبور»، والقاتل «صابر»»[2].

ويحتمل أن يكون الصبر على إطلاقه وحينئذ «ففيما أمروا بالصبر عليه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أداء الفرائض، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنه ترك المعاصي، قاله قتادة. والثالث: عدم الرئاسة»[3].

وأما الأمر الثاني الذي أمروا أن يستعينوا به فهو الصلاة: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

و«خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها وكان عليه السلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»[4].

قال ابن جرير: «فإن قال لنا قائل: قد علمنا معنى الأمر بالاستعانة بالصبر على الوفاء بالعهد والمحافظة على الطاعة، فما معنى الأمر بالاستعانة بالصلاة على طاعة الله، وترك معاصيه، والتعري عن الرياسة، وترك الدنيا؟ قيل: إن الصلاة فيها تلاوة كتاب الله، الداعية آياته إلى رفض الدنيا

(١) المفردات ص ٤٧٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ١١.

(٣) زاد المسير ١/ ٦١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٧١.

وهجر نعيمها، المسلية النفوس عن زينتها وغرورها، المذكرة الآخرة وما أعد الله فيها لأهلها. ففي الاعتبار بها المعونة لأهل طاعة الله على الجد فيها، كما روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1]»[2].

هذا ومع أن الله عز وجل قد أمر بالاستعانة بالصبر والصلاة، غير أنه أخبر أنها ستثقل على كثير من الناس: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾: «﴿وَإِنَّهَا﴾: يعني الصلاة وقيل الاستعانة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ يعني المؤمنين، وقيل: الخائفين، وقيل: المطيعين المتواضعين لله، وأصل الخشوع السكون؛ فالخاشع ساكن إلى الطاعة، وقيل: الخشوع الضراعة، وأكثر ما تستعمل في الجوارح.

وإنما كانت الصلاة ثقيلة على غير الخاشعين لأن من لا يرجو لها ثوابًا ولا يخاف على تركها عقابًا فهي ثقيلة عليه. وأما الخاشع الذي يرجو لها ثوابا ويخاف على تركها عقابا فهي سهلة عليه»[3].

فلما كان الصبر والصلاة عونا على البلاء بأنواعه ومخففا لوقعه في النفس «أمر الله جل ثناؤه الذين وصف أمرهم من أحبار بني إسرائيل أن يجعلوا مفزعهم في الوفاء بعهد الله الذي عاهدوه إلى الاستعانة بالصبر والصلاة كما أمر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال له: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه:١٣٠].

فأمره جل ثناؤه في نوائبه بالفزع إلى الصبر والصلاة»[4].

وكما توجه هذا الأمر لأهل الكتاب، فقد أمر به المسلمون أيضا كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة:١٥٣-١٥٤].

وهو ما يؤكد أن هذه الوصية الإلهية قد توجهت إلى المؤمنين من أتباع جميع أنبياء الله عليهم السلام.

سابعًا: الدعاء:

في معرض خبره سبحانه عن الذين أمرنا أن نقتدي بهم من الأنبياء، قص القرآن الكريم دعوة يونس عليه السلام في بطن

(١) عن حذيفة قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة). أخرجه أبو داود في سننه، أبواب قيام الليل، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل، ٢/ ٣٥، رقم ١٣١٩، وأحمد في مسنده، ٣٨/ ٣٣٠، رقم ٢٣٢٩٩.وحسنه الألباني.

(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ١٢.

(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٣.

(٤) جامع البيان، الطبري ١/ ١٤.

الحوت.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

أما «النون» فهو: الحوت ولقب به يونس لأنه التقمه ولبث في بطنه[(١)].

ومعنى أنه ذهب مغاضبًا: أي لقومه، «وذلك أن يونس بن متى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية «نينوى»، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم»[(٢)].

قال السعدي: «والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك، ظن أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، من يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابت القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزهه عن كل نقص، وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنايته. قال الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

ولهذا قال هنا: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ أي الشدة التي وقع فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم أن الله تعالى سينجيه منها ويكشف عنه ويخفف لإيمانه كما فعل بـ«يونس» عليه السلام»[(٣)].

وقد تضمنت الآية أن يونس عليه السلام قد أصابه من البلاء الذي نزل به غم فكشفه عز وجل عنه بكشف أسبابه حين توجه إليه داعيا مخلصا، كما تضمنت أن هذا الدعاء مستجاب من جميع المؤمنين كما استجيب منه عليه السلام.

وقد وقع النص على ذلك صراحة في ما روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)[(٤)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٦٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٩.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٢٩، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح

وفي رواية للحاكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ الدعوة التي دعا بها يونس حيث ناداه في الظلمات الثلاث، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين). فقال رجل: يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا تسمع قول الله عز وجل: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾)[1].

وعليه فالدعاء من أعظم أسباب علاج الغم وتفريج الكربة لمن توجه إلى الله مخلصًا متضرعًا. وقد تضمنت السنة -في هذا الباب- أدعية نبوية مأثورة كثيرة جدًا مبثوثة في كتب الأدعية والأذكار، منها:

١. ما روى الشيخان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع، ورب الأرض رب العرش الكريم)[2].

٢. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال)[3].

٣. وعنه كذلك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمرٌ قال: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث)[4].

٤. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت)[5].

والذكر، ١/ ٦٨٤، رقم ١٨٦٢. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي. وصححه الألباني.

(١) المستدرك على الصحيحين، ١/ ٦٨٥، رقم ١٨٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب، ٨/ ٧٥، رقم ٦٣٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الدعاء عند الكرب، ٤/ ٢٠٩٢، رقم ٢٧٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة، ٤/ ٣٦، رقم ٢٨٩٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم، ٥/ ٥٢٠، رقم ٣٤٨٤.
وحسنه الألباني في الكلم الطيب ص ١١٦.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب النوم، باب ما يقول إذا أصبح، ٤/ ٣٢٤، رقم ٥٠٩٠.
وحسنه الألباني في الكلم الطيب ص١١٧.

٥. وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أعلمك كلماتٍ تقولينهن عند الكرب أو في الكرب: الله الله ربي لا أشرك به شيئًا)[١]. وفي رواية أنها تقال سبع مرات.

٦. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما قال عبدٌ قط إذا أصابه همٌّ وحزنٌ: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدله مكانه فرحًا)[٢].

٧. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فإنه لم يدع بها مسلمٌ ربه في شيءٍ قط إلا استجاب له)[٣].

٨. وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: (يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه). قال أبيٌّ: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: (ما شئت). قال: قلت الربع؟ قال: (ما شئت، فإن زدت فهو خيرٌ لك). قلت: النصف؟ قال: (ما شئت، فإن زدت فهو خيرٌ لك). قال: قلت فالثلثين؟ قال: (ما شئت فإن زدت فهو خيرٌ لك). قلت: أجعل لك صلاتي كلها. قال: (إذًا تكفى همك ويغفر لك ذنبك)[٤].

ثامنًا: الذكر والاستغفار والتوبة:

من أسباب النجاة من الغم: المداومة

(١) أخرجه أبو داود في سننه، باب في الاستغفار، ٢/ ٨٧، رقم ١٥٢٥.
وصححه الألباني في الكلم الطيب ص ١١٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٢٤٦، رقم ٣٧١٢.
وصححه الألباني في الكلم الطيب ص ١١٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٦٥، رقم ١٤٦٢.
وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٩٩.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٦٣٦، رقم ٢٤٥٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٩٥٤.

على الذكر الشرعي: كقراءة القرآن الكريم مع التدبر والتفكر، والإكثار من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والتوبة والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، مصحوبًا كل ذلك بالتذلل والخضوع لمالك الملك، ومفرج الكروب، وكاشف الهم والغم، الرب العظيم الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، وذلك في كل حال من الأحوال، وفي كل وقت من الأوقات، ليلًا ونهارًا؛ فيزيل بذلك الهم والغم عن القلب، ويجلب له الفرح والسرور والبسط.

ويشهد لذلك قوله سبحانه عن يونس: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

أي: «واذكر قصة صاحب الحوت، وهو يونس بن متى عليه السلام، أرسله الله إلى قومه فدعاهم فلم يؤمنوا، فتوعدهم بالعذاب فلم ينيبوا، ولم يصبر عليهم كما أمره الله، وخرج من بينهم غاضبًا عليهم، ضائقًا صدره بعصيانهم، وظن أن الله لن يضيق عليه ويؤاخذه بهذه المخالفة، فابتلاه الله بشدة الضيق والحبس، والتقمه الحوت في البحر، فنادى ربه في ظلمات الليل والبحر وبطن الحوت تائبًا معترفًا بظلمه؛ لتركه الصبر على قومه، قائلا: لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له دعاءه، وخلصناه من غم هذه الشدة، وكذلك ننجي المصدقين العاملين بشرعنا»[1].

وقد روى ابن جرير بسنده عن سعد بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى، قال: فقلت: يا رسول الله، هي ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس بن متى خاصةً، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تبارك وتعالى (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) فهو شرط الله لمن دعاه بها)[2].

هذا ومع تضمن كلام يونس عليه السلام لمعنى الدعاء فإنه لم يكن صريحًا.

كما نص على ذلك القرطبي في تفسير الآية، قال: «وليس هاهنا صريح دعاء وإنما هو مضمون قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاعترف بالظلم فكان تلويحا»[3].

وقد نص القرآن الكريم على أنه تسبيح

(١) التفسير الميسر ص ٣٢٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥١٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٤.

في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

وتضمنت كلام يونس عليه السلام السالف إشارة إلى التوبة والاعتراف بالتقصير أيضا فإنها سبب في زوال الغموم.

وهو نص على أن الذكر والاستغفار سبب لرفع الكروب ورفع أسبابها.

وذكر ابن القيم رحمه الله خمسة عشر نوعًا من الدواء يذهب الله بها الهم والحزن وهي[1]:

الأول: توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الإلهية.

الثالث: التوحيد العلمي الاعتقادي.

الرابع: تنزيه الرب تعالى عن أن يظلم عبده، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك.

الخامس: اعتراف العبد بأنه هو الظالم.

السادس: التوسل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء، وهو أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات: الحي القيوم.

السابع: الاستعانة به وحده.

الثامن: إقرار العبد له بالرجاء.

التاسع: تحقيق التوكل عليه والتفويض إليه، والاعتراف له بأن ناصيته في يده، يصرفه كيف يشاء، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

العاشر: أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويجعله لقلبه كالربيع للحيوان، وأن يستضيء به في ظلمات الشبهات واللهوات، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، ويستشفي به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه.

الحادي عشر: الاستغفار.

الثاني عشر: التوبة.

الثالث عشر: الجهاد.

الرابع عشر: الصلاة. الخامس عشر: البراءة من الحول والقوة، وتفويضهما إلى من هما بيده.

موضوعات ذات صلة:

البشرى، البكاء، الحزن، الرضا، السعادة، الفرح، اليأس

(١) انظر: زاد المعاد ٤/ ١٨٠.

الغيب

عناصر الموضوع

مفهوم الغيب	٧٨
الغيب في الاستعمال القرآني	٧٩
الألفاظ ذات الصلة	٨٠
منزلة الإيمان بالغيب	٨٢
أنواع الغيب ومفاتحه	٩٥
ادعاء علم الغيب	١١٠
نتائج الإيمان بالغيب أو إنكاره	١٢٧

مفهوم الغيب

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (غيب) تدل على تستر الشيء عن العيون، فالغيب: ما غاب، مما لا يعلمه إلا الله، ويقال: ووقعنا في غيبةٍ وغيابة، أي: هبطة من الأرض يغاب فيها، والغابة: الأجمة[1].

والغيب: خلاف الشهادة، واستعمل في كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى: الغائب، وكل مكان لا يدرى ما فيه فهو غيبٌ، وجمعه غيوب.

والغيب: المطمئن من الأرض؛ لأنه غاب عن الأبصار، و(الغيبة): الوقيعة في الناس؛ لأنها لا تقال إلا في غيبة، مأخوذة من الاغتياب، ويقال: اغتاب فلانٌ فلانًا يغتابه اغتيابًا وغيبة، وقال بعضهم: بدا غيبان الشجرة، وهي عروقها التي تغيبت في الأرض، فحفرت عنها حتى ظهرت[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الواحدي: «الغيب هو ما غاب علمه عن الحس والضرورة، مما يدرك بالدليل»[3].

وقال الراغب الأصفهاني: «هو مالا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداهة العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام، وبدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد»[4].

وقال المناوي: «الغيب ما غاب عن الحس، ولم يكن عليه علم يهتدي به العقل، فيحصل به العلم»[5].

إذًا فالغيب: ما غاب عن الحواس، أو ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداهة العقول، بحيث لا يدرك بواحدٍ منهما ابتداء، ونتوصل إلى معرفته بالخبر الصادق، وبالآثار التي تدل عليه.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٠٣.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ١٩٦، تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٨٣، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٢٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٥٤، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣/ ٤٣١، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٤٩٨-٥٠٢.

(٣) التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٦٩.

(٤) المفردات ص ٣٦٦.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٥٣.

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٥٤٤.

الغيب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غيب) في القرآن الكريم (٥٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم فاعل	٤	﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف:٧]
مصدر	٥٣	﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦﴾ [الجن:٢٦]
اسم	٢	﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف:١٠]

وذكر بعض أصحاب الوجوه والنظائر أن الغيب في القرآن على أحد عشر وجهًا[٢]، لكن بالتأمل في هذه الوجوه نجد أن الغيب في الاستعمال القرآني يرجع إلى وجهين:

الأول: كل ما غاب عن العيون: سواء كان محصلًا في القلوب أو غير محصل، مما لا يعلمه إلا الله[٣]، قال الله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١]. أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه[٤]؛ لأنهم لم يروها ولم يعاينوها، فهي غيب لهم[٥].

الثاني: الظن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٥٣]. يعني: يرمون بالظن.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٠٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٣٥٠، ٣٥١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٤٥٧-٤٥٨.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٠٣، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٥٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٦.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٧٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ القضاء:

القضاء لغة:

قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء: إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى: الخلق، والقضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، القضاء المقرون بالقدر، والمراد بالقدر التقدير، وبالقضاء الخلق[١].

القضاء اصطلاحًا:

«عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد»[٢].

وقيل: تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته[٣].

الصلة بين الغيب والقضاء:

القضاء جزء من الأمور الغيبية، فالغيب أعم من القضاء.

٢ القدر:

القدر لغة:

من القدرة، فالله القادر والمقتدر والقدير، يقال: قدر الإله كذا تقديرًا، وإذا وافق الشيء الشيء قلت: جاءه قدره، والقدر القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور[٤].

القدر اصطلاحًا:

«القدر خروج الممكنات من العدم إلى الوجود، واحدًا بعد واحد، مطابقًا للقضاء، والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال»[٥].

وقيل: هو علم الله تعالى بالأشياء وكتابته لها قبل كونها، على ما هي عليه، ووجودها على

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٨٦.
(٢) التعريفات، الجرجاني ١/ ١٧٧.
(٣) انظر: رسائل في العقيدة، ابن عثيمين ص٣٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٧٤.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ١٧٤.

ما سبق به علمه، وكتابته بمشيئته وخلقه[1].

الصلة بين الغيب والقدر:

الغيب أعم من القدر، فالقدر جزء من الغيب.

٣ الشهادة:

الشهادة لغة:

أصل معنى الشهادة في اللغة يدل على حضور وعلم وإعلام، والشاهد هو الحاضر[2].

الشهادة اصطلاحًا:

والمشاهدة هي الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة أو الباطنة، والمشاهدات هي المحسات، أي: الأمور التي نحكم عليها بإحدى الحواس، والمراد بـعالم الشهادة: كل ما هو حاضر مشاهد، نستطيع أن ندركه بحواسنا ونحكم عليه بها[3].

الصلة بين الغيب والشهادة:

هما ضدان، فالغيب مالا يقع تحت الحواس، والمشاهد المحسوس.

(١) انظر: تعريف القضاء والقدر وحكم الإيمان به، محمد الشاوي، شبكة الألوكة.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢١.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ١/ ٢٠٨، التعريفات، الجرجاني ص ١٠٩، كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ١/ ١٠٤٣.

منزلة الإيمان بالغيب

إن القرآن الكريم دعوةٌ للناس جميعًا على اختلاف حظوظهم من العقل والقدرة على التفكير؛ لذا كان منه ما يتجه للقلب ليتفتح للموعظة، وكان منه ما يتجه للعقل ليذعن للمنطق والدليل، وكان منه -بجانب هذا وذاك- ما يشتمل على الحقيقة سافرةً يفهمها الجميع، وكان منه ما يجيء في شكل أمثالٍ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وهذا «لأن الأمثال والتشبيهات هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار»[(١)].

فكان لابد إذًا من أن يتجه القرآن الكريم لتصحيح العقيدة قبل كل شيء، وبيان منزلة الإيمان بالغيب والحث عليه، ولبيان الحق في هذه القضية العقدية الخطيرة المؤثرة في الحياة البشرية، بوسائل وأساليب متنوعة، ونهج في ذلك منهجًا متكاملًا متوافقًا مع الفطرة والعقل[(٢)].

ويمكن إجمال هذه الأساليب في الآتي:

أولًا: اختصاص الله تعالى وحده بعلم الغيب:

تضافرت الآيات القرآنية الكريمة في بيان اختصاص الله تعالى وحده بعلم الغيب المطلق، بما لا يدع مجالًا للشك والريب، فهو سبحانه وحده الذي يعلم ذلك ويحيط به إحاطة شامله، وما كان لأحدٍ أن يطلع على شيء منه إلا باطلاع الله تعالى له عليه وفق حكمته ومشيئته. وسنجتزئ هنا ببعض النصوص الكريمة في ذلك، وسيأتي مزيد بيانٍ ينطوي على جملة من الأحاديث.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال إمام المفسرين أبو جعفرٍ الطبري رحمه الله: «اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية؛ فقال السدي: وما كان الله ليطلع محمدًا على الغيب، ولكن الله اجتباه فجعله رسولًا.

وقال ابن إسحاق: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ فيما يريد أن يبتليكم به، لتحذروا ما يدخل عليكم فيه ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فيصطفيه ويعلمه.

ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بتأويله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ على ضمائر قلوب عباده، فتعرفوا المؤمن منهم من المنافق

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٩١.
(٢) انظر: لعقيدة الإسلامية في القرآن الكريم، عثمان جمعة ضميرية، ص٢٦-٦٢.

والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء -كما ميز بينهم بالبأساء يوم أحد- وجهاد عدوه، وما أشبه ذلك من صنوف المحن، حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، غير أنه -تعالى ذكره- قال: ﴿يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيصطفيه، فيطلعه على بعض ما في ضمائر بعضهم، بوحيه ذلك إليه ورسالته»[1].

ولئن ذكر الطبري رحمه الله بعضًا مما تصدق عليه الآية الكريمة، فإنها تبقى أبعد مدىً في الدلالة والشمول، قال ابن سعدي رحمه الله: «ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميز ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

ولم يكن في حكمته أيضًا أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله، وأمر بطاعتهم، والانقياد لهم، والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم. فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين؛ ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله، وحكمته لخلقه»[2].

ثم جاءت آية مفاتح الغيب تحصر علم الغيب بالله تعالى[3]، فقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلًا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٥٨.
وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير ٤/ ١٧٩: «﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ يعني: أنه أراد أن يميز لكم الخبيث فتعرفوا أعداءكم، ولم يكن من شأن الله إطلاعكم على الغيب، فلذلك جعل أسبابًا من شأنها أن تستفز أعداءكم فيظهروا لكم العداوة فتطلعوا عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، لأنه تعالى جعل نظام هذا العالم مؤسسًا على استفادة المسببات من أسبابها، والنتائج من مقدماتها».

(٣) وليس في الآية الكريمة أداة حصر، كما في حديث مفاتح الغيب خمس، ثم قرأ الآية الكريمة كما سيأتي.ووجه الحصر في هذه الأمور الخمسة: أن الفعل إذا كان عظيم الخطر، وما ينبني عليه الفعل رفيع الشأن، فهم منه الحصر على سبيل الكناية، لاسيما إذا لوحظ فيه ما ذكر في أسباب النزول من أن العرب كانوا يدعون علم نزول الغيث، فيشعر بأن المراد من الآية نفي علمهم بذلك واختصاصه بالله سبحانه وتعالى وحده، وفي تقديم قوله: ﴿وَعِندَهُۥ﴾ ما يشعر بذلك أيضًا. انظر:فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٢٤، عمدة القاري، العيني ٢/ ٢٩٣.

كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثيرٌ منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلًا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

ولما طلب كفار قريش من النبي صلى الله عليه وسلم آية تدل على صدقه عندما ظنوا أنه غير مؤيد من الله، أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن اقتراحهم بما هو الحقيقة المرشدة -وإن كانت أعلى من مداركهم- جوابًا فيه تعريض بالتهديد لهم.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

أي: إن الأمور المغيبة لا يقدر عليها إلا الله تعالى وحده.

وجاء الكلام بصيغة القصر للرد عليهم في اعتقادهم أن في مكنة الرسول الحق أن يأتي بما يسأله قومه من الخوارق، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة على أنه ليس برسول من الله، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر الدالة على أن الرسول ليس له تصرف في إيقاع ما سألوه من أمور الغيب؛ ليعلموا أنهم يرمون بسؤالهم إلى الجراءة على الله تعالى بالإفحام[1].

ثم جاء الحصر والقصر بأسلوب آخر في موضع آخر، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: ولله ملك كل ما غاب عنك في السموات والأرض فلم تطلع ولم تعلمه، كل ذلك بيده وبعلمه، لا يخفى عليه منه شيء، وهو عالم بما يعمله مشركو قومك، وما إليه مصير أمرهم، من إقامة على الشرك، أو إقلاعٍ عنه وتوبة، وإلى الله معاد كل عاملٍ وعمله، وهو مجازٍ جميعهم بأعمالهم[2].

ففي الآية الكريمة بيان اختصاص الله تعالى بعلم الغيب لأن اللام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ هي لام الملك، وهو ملك إحاطة العلم، أي: لله ما غاب عن علم الناس في السماوات والأرض. وهذا كلام يجمع بشارة المؤمنين بما وعدوا من النعيم المغيب عنهم، ونذارة المشركين بما توعدوا به من العذاب المغيب عنهم في الدنيا والآخرة. وتقديم المجرورين في

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٤٤-٥٤٥.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ لإفادة الاختصاص، أي: إن الله تعالى لا غيره، يملك غيب السماوات والأرض؛ لأن ذلك مما لا يشاركه فيه أحد[1].

ثم يخبر الله تعالى في آية أخرى بأنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض، فيقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فالغيوب كلها -كتلك التي تقدمت الإشارة إليها في الآيات السابقة- اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له[2].

وقد تقتضي حكمة الله تعالى أن يطلع أحد رسله على طرف من هذا الغيب، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وذلك لأن علم الغيب لله وحده، فلا يطلع على غيبه الذي يعلمه أحدًا من الناس ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾؛ لأن من الدليل على صدق الرسل إخبارهم بالغيب. والمعنى: أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من غيبه ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الذي يطلع عليه الرسول، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: من بين يدي الرسول، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أي: يجعل له حفظةً من الملائكة يحفظون الوحي من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة، فيتكلمون به قبل أن يخبر النبي صلى الله عليه وسلم الناس. وقال الزجاج: «﴿يَسْلُكُ مِن بَيْنِ﴾ يدي الملك ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾. وقيل: يسلك من بين يدي الوحي. فـ (الرصد) من الملائكة يدفعون الشياطين عن أن تستمع ما ينزل من الوحي»[3].

ثانيًا: الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين:

يصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين في مواضع كثيرة من القرآن بأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فيجعل هذه الصفة قاعدةً من قواعد الإيمان الأساسية وركنًا من أركانه، وهذا منهج قرآني ونبويٌّ، فكثيرًا ما يجعل الركن صفةً للمؤمنين ملازمة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٢/ ١٩٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٠٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٨٤.

﴿لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

وهذا مشهد وديع أليف، رضي جميل، ترسمه الآيات الكريمة. إنه مشهد الجنة، تقرب من المتقين؛ حتى تتراءى لهم من قريب، مع الترحيب والتكريم: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٠-٣٣].

والتكريم في كل كلمة وفي كل حركة، فالجنة تقرب وتزلف، فلا يكلفون مشقة السير إليها، بل هي التي تجيء: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوابون، حفيظون، يخشون الرحمن ولم يشهدوه، منيبون إلى ربهم طائعون[1].

قال محيي السنة الإمام البغوي رحمه الله: «﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ قربت وأدنيت، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشرك، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ينظرون إليها قبل أن يدخلوها. ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ ابن كثير بالياء والآخرون بالتاء، يقال لهم: هذا الذي ترونه ما توعدون على ألسنة الأنبياء عليهم السلام، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاع إلى الطاعة عن المعاصي.

قال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

وقال الشعبي ومجاهد: الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها.

وقال الضحاك: هو التواب.

وقال ابن عباس وعطاء: المسبح.

ومعنى الآية: من خاف الرحمن وأطاعه بالغيب ولم يره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد. قال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب. ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مخلصٍ مقبلٍ إلى طاعة الله.

﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لأهل هذه الصفة: ادخلوها. أي: ادخلوا الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ بسلامة من العذاب والهموم. وقيل بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾، وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما شاؤوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، يعني: الزيادة لهم في النعيم ما لم يخطر ببالهم. وقال جابر وأنس: هو النظر إلى وجه الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٦٥.

الكريم»[1].

وهو المعنى نفسه يتكرر في آيات أخرى تجعل الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين والمؤمنات، وترتب على ذلك آثاره الهائلة العظيمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩].

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

ثالثًا: التلازم بين أركان الإيمان والغيب:

والإيمان بالله سبحانه وتعالى وهو أعظم أركان الإيمان وأصلها، هو إيمانٌ بالغيب.

فذات الله سبحانه غيب بالقياس إلى البشر، فإذا آمنوا به فإنما يؤمنون بغيب، يجدون آثار فعله، ولا يدركون ذاته، ولا كيفيات أفعاله.

والإيمان بالآخرة كذلك، هو إيمان بالغيب؛ فالساعة بالقياس إلى البشر غيب، وما يكون فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب كله غيب يؤمن به المؤمن، تصديقًا لخبر الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

والإيمان بالملائكة عليهم السلام إيمان بالغيب، لا يعرف عنهم البشر إلا ما يخبرهم به الله تعالى، على قدر طاقتهم وحاجتهم، وما كان البشر حاضرين شاهدين على خلق الملائكة وإيجادهم: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٤].

والغيب الذي يتحقق الإيمان بالتصديق به يشمل حقائق أخرى يذكرها القرآن الكريم في وصف واقع المؤمنين وعقيدتهم الشاملة كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا

(١) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٦٢-٤٦٣.

﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فنجد في هذا النص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، كلٌّ آمن بالله -وهو غيب- وآمن بما أنزل الله على رسوله، وما أنزل الله على رسوله فيه جانب من اطلاعه صلى الله عليه وسلم على جانب من الغيب بالقدر الذي قدره الله سبحانه كما قال في الآية الأخرى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

ويبقى من الغيب الذي لا يقوم الإيمان إلا بالتصديق به: قدر الله -وهو غيب لا يعلمه الإنسان حتى يقع- كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وهذا التلازم بين الإيمان بالغيب وسائر أركان الإيمان يدل عليه أيضًا ويؤكده: أن الله تعالى جعل الكفر بشيء من الأركان، وهو أيضًا غيب، جعله كفرًا بالله تعالى يستحق صاحبه العذاب المهين[1].

فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

رابعًا: حسن عاقبة الذين يؤمنون بالغيب:

قال سبحانه وتعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦١ - ٦٣].

قال السمين الحلبي في (الدر المصون): «قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن الباء حاليةٌ. وفي صاحب الحال احتمالان، أحدهما: ضمير الجنة وهو عائدٌ الموصول، أي: وعدها، وهي غائبةٌ عنهم لا يشاهدونها. والثاني: أن يكون من ﴿عِبَادَهُ﴾، أي: وهم غائبون عنها لا يرونها، إنما آمنوا بمجرد الإخبار منه. والوجه الثاني: أن الباء سببيةٌ، أي: بسبب تصديق الغيب، وبسبب الإيمان به»[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٥٢-٣٥٣، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٨٥، دراسات قرآنية، محمد قطب، ص ١٠٢، الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى، عثمان ضميرية، ص٢٢-٢٥.

(٢) انظر: الدر المصون ٧/ ٦١٢.

وهذا الوجه الثاني ألصق وأوضح في الدلالة علة ما نريد في هذه السطور، فإن إيمانهم بالغيب، وهو أول صفات المؤمنين المتقين المهتدين، هو سبب دخولهم تلك الجنة التي وعدها الله تعالى عباده المؤمنين.

و لابأس بمقتطفات من أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم، هي ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ أي: إقامة ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولٗا﴾ [المزمل: ١٨].

أي: كائنًا لا محالة. وقوله هاهنا: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ أي: العباد صائرون إليه، وسيأتونه»[(١)].

ثم يأتي البيان بأن عاقبة الإيمان بالغيب هي دخول الجنة التي يورثها الله عباده الصالحين المتقين. ولا نزال نذكر أن مفتتح سورة البقرة جعلت الكتاب الكريم هدىً للمتقين الذين يأتي في أول صفاتهم صفة الإيمان بالغيب. وهنا يأتي قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعدًا غائبًا، لم يشاهدوه ولم يروه فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا! ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع.

ويحتمل أن تكون متعلقة بـ﴿عِبَادَهُۥ﴾، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حبًا، وأجل شوقًا! ويحتمل أيضًا أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٧-٢٤٨.

والمعاني كلها صحيحة ثابتة»[1].

ولا يقتصر حسن عاقبة المؤمنين على ما تستقيم به حياتهم الأخروية فحسب، بل إن العاقبة الحسنة تظهر وتبرز هنا في الدنيا قبل الآخرة، فالمؤمنات الصالحات القانتات الحافظات للغيب، تستقيم حياتهن مع أزواجهن في بيوتهن، وهن موضع عناية ووصية يوصي الله تعالى بها الأزواج رعيةً لهن بما حفظن بالغيب.

قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

فإنه يعني: حافظات لأنفسهن عند غيبة أزواجهن عنهن، في فروجهن وأموالهم، وللواجب عليهن من حق الله في ذلك وغيره، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير النساء امرأةٌ إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك). قال: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية)[2].

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله: «وهذا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على صحة ما قلنا في تأويل ذلك، وأن معناه: صالحاتٌ في أديانهن، مطيعاتٌ لأزواجهن، حافظات لهم في أنفسهن وأموالهم. وفي الكلام متروك استغني بدلالة الظاهر من الكلام عليه من ذكره، ومعناه: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

فأحسنوا إليهن وأصلحوا. قال ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾، يعني: إذا كن هكذا، فأصلحوا إليهن»[3].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله: «هذا تفصيل لحال النساء في هذه الحياة المنزلية التي تكون المرأة فيها تحت رياسة الرجل، ذكر أنهن فيها قسمان: صالحات وغير صالحات.

وأن من صفة الصالحات القنوت، وهو السكون والطاعة لله تعالى، وكذا لأزواجهن بالمعروف وحفظ الغيب. أي: حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين، فلا يطلع أحد منهن على شيء مما هو خاص بالزوج.

ويدخل في هذا وجوب كتمان ما يكون

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٩٦.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، ص ٣٠٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٦١، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٩٥-٢٩٨، ومعالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٠٧-٢٠٨.

بينهن وبين أزواجهن في الخلوة، ولا سيما حديث الرفث، فما بالك بحفظ العرض، و هذه العبارة هي أبلغ ما في القرآن من دقائق كنايات النزاهة، تقرؤها خرائد العذارى جهرًا، ويفهمن ما تومئ إليه مما يكون سرًا، وهن على بعد من خطرات الخجل أن تمس وجدانهن الرقيق بأطراف أناملها، فلقلوبهن الأمان من تلك الخلجات التي تدفع الدم إلى الوجنات.

ناهيك بوصل حفظ الغيب بما حفظ الله، فالانتقال السريع من ذكر ذلك الغيب الخفي إلى ذكر الله الجلي، يصرف النفس عن التمادي في التفكر فيما يكون وراء الأستار من تلك الخفايا والأسرار، وتشغلها بمراقبته عز وجل.

والمعنى: حافظات للغيب بحفظ الله أي: بالحفظ الذي يؤتيهن الله إياه بصلاحهن، فإن الصالحة يكون لها من مراقبة الله تعالى وتقواه ما يجعلها محفوظة من الخيانة، قوية على حفظ الأمانة، أو حافظات له بسبب أمر الله بحفظه، فهن يطعنه ويعصين الهوى، فعسى أن يصل معنى هذه الآية إلى نساء عصرنا اللواتي يتفكهن بإفشاء أسرار الزوجية، ولا يحفظن الغيب فيها».

وقال العلامة المفسر أبو السعود العمادي رحمه الله: «﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ شروع في تفصيل أحوالهن وبيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن، أي: فالصالحات منهن ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ أي: لمواجب الغيب، أي: لما يجب عليهن حفظه في حال غيبة الأزواج من الفروج والأموال. وقيل: حافظات لأسرارهم.

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ ما مصدرية، أي: بحفظه تعالى إياهن بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو موصولة أي: بالذي حفظ الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن.

وقرئ ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهَ﴾ بالنصب على حذف المضاف أي: بالأمر الذي حفظ حق الله تعالى وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال»[1].

وفي هذا المعنى نفسه تتضافر الآيات الكريمة، في بيان ما ينتظر المؤمنين بالغيب من نعيم دائم لا ينقطع، ومن مزيد لهذا النعيم مما ادخره الله تعالى لهم من رؤية الله تعالى، وهي من أعلى وأعظم أنواع النعيم بعد دخول الجنة، مع ما أكرمهم الله تعالى به من الفوز والمغفرة والأجر الكريم، فقال

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٧٧.
وأفاض في هذا المعنى السيد رشيد رضا في المنار ٥/ ٥٥-٥٨.

الله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٣-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

خامسًا: طريقة القرآن في عرض علم الله الشامل للغيب:

السياق القرآني يعرض المؤثرات العميقة التأثير في القلب البشري، كهذه المؤثرات الغيبية، في رقعة فسيحة هائلة، رقعة فسيحة في الزمان والمكان، وفي الحاضر الواقع، والمستقبل المنظور، والغيب السحيق، وفي خواطر النفس، ووثبات الخيال: ما بين الساعة البعيدة المدى، والغيث البعيد المصدر، وما في الأرحام الخافي عن العيان، والكسب في الغد، وهو قريب من الزمان ومغيب في المجهول، وموضع الموت والدفن، وهو مبعد في الظنون.

إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء، ولكن اللمسات التصويرية العريضة بعد أن تتناولها من أقطارها، تدق في أطرافها، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول، وتقف بها جميعا أمام كوة صغيرة مغلقة، لو انفتح منها سم الخياط لاستوى القريب خلفها بالبعيد، و لانكشف منها القاصي والداني، ولكنها تظل مغلقة في وجه الإنسان ووراء علم الإنسان، تبقى خالصة لله لا يعلمها غيره، إلا بإذن منه وإلا بمقدار[1].

«وفي مجال الغيب المكنون، كما في كل مجال من مجالات الكون وآفاقه وآماده، يحيط علم الله سبحانه، وهو العليم بكل شيء، بكل ما في الوجود، كبيره وصغيره، ظاهره وخفيه، دقه وجله، في مجال الزمان: ماضيًا وحاضرًا مهما بلغت كثرة وعظمة، ذاك كله يحيط الله سبحانه وتعالى به علمًا: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في الزمان والمكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حيٍ وميت ويابس ورطب، ولكن أين هذا الذي نقوله نحن -بأسلوبنا البشري المعهود- من ذلك النسق القرآني العجيب؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد، من ذلك التصوير العميق الموحي؟

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح،

(١) في ظلال القرآن ٢١/ ٢٧٩٩.

ووراء حدود هذا الكون المشهود، وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فجٍ ووادٍ، وهو يرتاد -أو يحاول أن يرتاد- أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل البعيد الآماد والآفاق والأغوار، مفاتحها كلها عند الله، لا يعلمها إلا هو، ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله. ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عدٌّ، وعين الله على كل ورقة تسقط هنا وهناك. ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب ويابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط.

إنها جولة تدير الرؤوس، وتذهل العقول. جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول، جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يعيا بتصرف آمادها الخيال، وهي ترسم هكذا دقيقةً كاملة شاملة في بضع كلمات، ألا إنه الإعجاز!

وننظر في هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن.

ننظر إليها من ناحية موضوعها، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر، فليس عليه طابع البشر، إن الفكر البشري -حيث يتحدث عن مثل هذا الموضوع: موضوع شمول العلم وإحاطته- لا يرتاد هذه الآفاق، إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر، ولها حدود، إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته، فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط في أنحاء الأرض، ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبأة في ظلمات الأرض؟ إن أقصى ما يحفل به بنو البشر هو الحب الذي يخبؤونه هم في جوف الأرض ويرتقبون إنباته، فأما تتبع كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض، فما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به ولا أن يلحظوا وجوده، ولا أن يعبروا به عن العلم الشامل! إنما الحب المخبوء في ظلمات الأرض شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

وما اهتمام الفكر البشري بهذا الاطلاق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس ما بين أيديهم، فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشامل، فهذا ليس من المعهود في اتجاه

البشر وتعبيراتهم كذلك! إنما كل رطب وكل يابس شأنٌ يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق!

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة وكل حبة مخبوءة، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين، وفي سجل محفوظ، فما شأنهم بهذا، وما فائدته لهم؟ وما احتفالهم بتسجيله؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك، الذي لا يند عنه شيء في ملكه الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

إن هذا المشهد الواسع العميق الرائع، مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعًا، والحب المخبوء في أطوار الأرض جميعًا والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعًا، إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري، وكذلك لا تلحظه العين البشرية ولا تلم به النظرة البشرية، إنه المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده المشرف على كل شيء المحيط بكل شيء الحافظ لكل شيء الذي تتعلق مشيئته وقدرته بكل شيء، الصغير كالكبير، والحقير كالجليل والمخبوء كالظاهر والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بني البشر يدركون جيدًا حدود التصور البشري وحدود التعبير البشري أيضًا، ويعلمون -من تجربتهم البشرية- أن مثل هذا المشهد لا يخطر على القلب البشري، كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضًا والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله؛ ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه أصلًا!»[1].

(١) في ظلال القرآن ٧/ ١١١١-١١١٣.

أنواع الغيب ومفاتحه

الغيب نوعان رئيسان:

- نوعٌ أقام الله تعالى عليه دليلًا عقليًا أو سمعيًا، كالخالق وصفاته تبارك وتعالى، واليوم الآخر وأحواله. وهو المراد بالغيب في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.
- ونوعٌ لم يجعل عليه دليلًا، لا عقليًا ولا سمعيًا، وهذا هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾.

وكل منهما يندرج تحته مراتب فرعية، من حيث إمكانية الاطلاع عليه ومعرفته، وعدم إمكانية ذلك[1].

وفيما يلي إيجاز لهذين النوعين الرئيسين، وما يتفرع عنهما، ثم بيان مفاتح الغيب. وذلك فيما يأتي:

أولًا: الغيب المطلق الحقيقي:

وهو ما يغيب عن الحواس والعقول معًا، ولا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، فهو محجوب عن الخلق جميعًا، ولا يمكن لمخلوق أن يعلمه.

وهذا هو الغيب الذي تتناوله الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النمل: ٦٥].

وقال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ثم إن الغيب من هذا النوع ينطوي على مرتبتين اثنتين:

المرتبة الأولى: ما ورد فيه نصٌّ صريح بأن الله تعالى قد كتمه عن الخلق جميعًا، حتى الأنبياء والملائكة، كعلم قيام الساعة، وسائر الأمور الخمسة التي هي مفاتح الغيب.

فهذا النوع لا سبيل إلى علمه بالوحي ولا بغير الوحي، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وهذه الآية الكريمة من سورة لقمان تفسيرٌ لآية سورة الأنعام السابقة: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الآية ٥٩].

وقد جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله؛ لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ٣/ ١٠٩٠، وأصله في أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٨.

متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)[1].

وعنه أيضًا رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مفاتح الغيب خمسٌ، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾)[2].

وعن بريدة رضي الله عنه مرفوعًا: (خمسٌ لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾)[3].

ومفاتح الغيب هذه، التي جاءت في سورة لقمان، وفي الأحاديث السالفة، لا مطمع لأحدٍ في علم شيء منها، فمن ادعى علم شيء منها غير مسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كاذبًا في دعواه[4].

وعلى هذه المرتبة من الغيب يحمل نفي العلم الذي جاء في سورة النمل، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ فهو محجوب حتى عن أنبياء الله تعالى ورسله وملائكته المقربين. وسيأتي فيما بعد إن شاء الله تعالى أن هذا العموم قد يدخله التخصيص في بعض الحالات والمراحل.

المرتبة الثانية: ما لم يرد فيه نصٌ صريح في أن الله كتمه عن الخلق جميعًا، فلله سبحانه وتعالى أن يطلع من شاء من رسله على ما شاء منه، ولا يطلع على هذا النوع أحدًا غير الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عمر مرفوعًا، وعن ابن مسعود موقوفًا رضي الله عنهم قال: (أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شيءٍ غير الخمس)[5].

وأخرج الطيالسي في (مسنده) عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر: (أوتي نبيكم مفاتيح الغيب إلا الخمس)[6].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد ١٣/ ٣٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ١/ ٣٩-٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، ٨/ ٢٩١، رقم ٥١٣-٥١٤.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٣٥٣، والبزار ١٠/ ٢٥، ورجال أحمد رجال الصحيح، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٠-٨٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٢٤.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٨.و الطيالسي، ص٥١ و٢٤٩.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٣: «أخرجه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح».

(٦) مسند الطيالسي، ص٢٤٩ رقم ١٨٠٩.
وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٥١٤، وذكره ابن كثير في التفسير: ٣/ ٤٥٥، وقال:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: (أوتيت مفاتيح كل شيءٍ إلا الخمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية)[1].

وهذا النوع من الغيب هو الذي يشير إليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾[الجن: ٢٦-٢٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

والمراد بالاطلاع على الغيب -في الآية الكريمة- علم ما سيقع قبل أن يقع على تفصيله، فلا يدخل في هذا ما يكشف لهم عن الأمور المغيبة عنهم[2].

فالمدعى في هذا النوع شيئان:

- أنه لا سبيل إلى علمه من غير إخبار الله تعالى.
- أنه لا يصل إلى علمه عن الله تعالى أحدٌ غير الأنبياء.

وعلى هذا الفهم لهذا النوع من الغيب بحصر معرفته بإعلام الله تعالى لمن ارتضى من أنبيائه ورسله ينزل قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام فيما أعطاه الله من المعجزات: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وكذلك إخباره عليه السلام عن أشياء كثيرة مما أطلعه الله تعالى عليه من فتوحاتٍ إسلامية وقعت كما أخبر بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واستشهاد بعض الصحابة، والشهادة لبعضهم وبشارتهم بالجنة، وما يكون من علامات بين يدي الساعة، في أمور كثيرة جدًا واردة في الصحاح وغيرها[3].

ثانيًا: الغيب النسبي أو الإضافي:

وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض، أو غاب عنهم في حال دون حال، بحيث يمكن التعريف به في الدنيا، إما

«هذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه».

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٨٥، وأبو يعلى في المسند رقم ٥١٥٣. ويشهد له ما في الصحيحين كما تقدم.

(٢) انظر: فتح الباري ١٣/ ٣٦٤.

(٣) انظر: المختار من كنوز السنة، محمد عبد الله دراز ص ٢٩٨-٣٠٠، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢٢-٤٢٦ وما بعدها، الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص ٢٠٨.

مطلقًا، أو بشروط واستعدادات لذلك. وهو ينطوي على أربع مراتب.

المرتبة الأولى: أن يغيب الشيء عن حواسك، ولكن يتناوله غيرك بالمشاهدة، كالعلم بالأقطار النائية، والطبقات الأرضية، والأجهزة الداخلية للإنسان والحيوان.

فهذا غيب بالنسبة لبعض الخلق دون بعض، وقد يعلمه الغائب عنه بسماع أخباره المتواترة عمن شاهده وعلمه، فيمكن معرفة هذا النوع مطلقًا، وعندئذ لا يكون غيبًا، أي: بعد هذه المعرفة[1].

المرتبة الثانية: أن يغيب الشيء عن الحواس، ولا يمكن التعريف به في الدنيا بحال من الأحوال؛ إذ تختلف طبيعته عما عرفناه نحن في حياتنا الدنيا، كالحياة البرزخية وما فيها.

فهذا غيبٌ عنا، ولا نستطيع أن نتعرف عليه حاليًا، بل نعقل وجوده بالخبر الصادق، ولم نمر بتجربة أو حال تعرفنا على هذا النوع من عالم الغيب، فهذا يعرفه من يعيش في العالم البرزخي، وكذلك كل ما يعلمه الملائكة عليهم الصلاة والسلام من أمر عالمهم، لا يعلمه البشر مثلًا.

المرتبة الثالثة: أن يغيب الشيء عن حواسنا، ولا يمكننا التعرف عليه في الدنيا إلا على وجه مجمل، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: أن في الجنة لحمًا ولبنًا وعسلًا وخمرًا، ونحو ذلك. وهذا يشبه ما في الدنيا لفظًا ومعنى، ولكنه ليس مثله ولا هو حقيقته. والإخبار عن الغائب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في عالم الشهادة، و هذه يعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد، مع العلم بالفارق المميز بينهما، وأن ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم في عالمنا المشاهد. وفي الغائب ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر[2].

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾)[3].

فما لا يخطر بالقلوب، إذا عرفت به لم تعرفه إلا إذا كان له نظير، وإلا لم يمكن

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٥/ ٧٣، والمنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢٢، وفتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٣٦٥، و المختار من كنوز السنة، محمد عبد الله دراز، ص ٢٩٨.

(٢) الرسالة التدمرية، ابن تيمية، ص٦١-٦٢، وهي في مجموع الفتاوى أيضًا ٣/ ١-١٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٦/ ٣١٨، وفي التفسير ٨/ ٥١٥، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٤/ ٢١٧٤.

التعريف به على وجهه[1].

المرتبة الرابعة: أن يغيب الشيء عن حس الناس جميعًا، ولكنه يكون في متناول عقولهم، يعرفونه بشروط واستعدادٍ لذلك؛ فإن لبعض الغيوب أسبابًا قد يستدل بها عليها.

ومن هذه الشروط والأسباب:

١. التجربة والمقايسة.

كعلم ما سيقع في العام أو الأعوام المقبلة من الكسوف والخسوف، والشروق والغروب، ومنازل الشمس والقمر، ونحو ذلك، استنباطًا من التجارب الكونية، التي أجرى الله تعالى بها سنته في سير الكواكب، وقال في شأنها: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

٢. الاستدلالات العقلية.

كما نعلم حياة الجنين بتجربته، وكما نستدل على عقل الرجل بمنطقه، أو بالخلق على خالقه.

فهذا كله من الغيب الذي يتناوله العلم، بل يتناوله الإيمان الذي هو أخص من العلم؛ فإنه علمٌ يطمئن إليه القلب ويرتاح له الوجدان[2].

مفاتح الغيب:

إن مفاتح الغيب التي سبقت الإشارة إليها، هي الطرق والوسائل التي يتوصل بها للغيب أو على خزائن الغيب؛ لأن علمها كلها خاصٌ به تعالى، وأما الأمور التي لها أمارات، مثل: أمارات الأنواء، وعلامات الأمراض عند الطبيب، فتلك ليست من الغيب، بل من أمور الشهادة الغامضة، وغموضها متفاوت، والناس في التوصل إليها متفاوتون، ومعرفتهم بها من قبيل الظن لا من قبيل اليقين، فلا تسمى علمًا.

وقيل: المفاتح جمع مفتح -بفتح الميم- وهو البيت أو المخزن الذي من شأنه أن يغلق على ما فيه ثم يفتح عند الحاجة إلى ما فيه. ونقل هذا عن السدي، فيكون استعارة مصرحة، والمشبه هو العلم بالغيب، شبه في إحاطته وحجبه المغيبات ببيت الخزن تشبيه

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/ ٧٣.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/ ٧٣، ويقول أيضًا في مجموع الفتاوى ٢٤/ ٢٥٦: «أما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف، فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما، وليس خبر الحاسب بذلك من باب علم الغيب ولا من باب ما يخبر به من الأحكام التي يكون كذبه فيها أعظم من صدقه، فإن ذلك قول بلا علم ثابت وبناء على غير أصل صحيح».وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٣٦٥، المختار من كنوز السنة، د.محمد عبد الله دراز ص ٢٩٨، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري ١/ ٦٢.

معقولٍ بمحسوس[1].

وقد جاء النص صريحًا أن هذه المفاتح لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، يقف الإنسان -مهما أوتي من العلم- عاجزًا عن إدراك شيء منها، بل إن أحدًا من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين عليهم الصلاة والسلام لا يعرف عنها شيئًا[2].

فقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن رجل من بني عامر أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: (فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ قال: (قد علمني الله عز وجل خيرًا، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل: الخمس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية)[3].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: (جاء رجل من أهل البادية إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن امرأتي حبلى، فأخبرني متى تلد؟ وبلادنا مجدبةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾)[4].

وفيما يلي إلماعة موجزة إلى كل هذه المفاتح، وبالله التوفيق.

٣. علم الساعة.

كانت قضية البعث وقيام الساعة وما فيها أمرًا من أشد الأمور غرابة على حس المشركين الذين واجههم النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن ابتعدوا عن دين إبراهيم الخليل عليه السلام دين التوحيد، وكانوا يستبعدون وقوعها، ويعجبون لذلك أشد العجب، ويستنكرون ذلك أشد الاستنكار، وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧-٨].

ولقد أنفق الرسول صلى الله عليه وسلم جهدًا كبيرًا في تقرير حقيقة البعث والقيامة في نفوس الناس؛ إذ لا تستقيم حياة أمة من الأمم ما لم يستقم أمر الآخرة، عقيدةً راسخةً في ضميرها.

وفي هذا يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إن العقيدة في الآخرة فسحة التصور،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٦/ ١٣٦.

(٢) ولا يفهم من هذا أن الغيب محصور في تلك الخمس التي ذكرها الله تعالى من سورة لقمان وفسر بها النبي عليه الصلاة والسلام مفاتح الغيب، فقد صرح الله تعالى في القرآن الكريم بغيرهن في مواطن كثيرة من ذلك: حقيقة الروح، وتفصيل بدء الخلق وتفصيل النشأة...إلى غير ذلك. وإنما اقتصرت الآية على تلك الخمس؛ لأن النفوس كلها تتطلع وتتشوق إلى معرفتها، ولأنها وردت مجموعة في سؤال الناس للنبي كما سيأتي في السياق.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٨/ ٣٠٧، والنسائي في عمل اليوم والليلة، رقم ٣١٦. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٤٧٧، رقم ٢٧١٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٨٨.

وسعة النفس، وامتداد في الحياة ضروريٌ في تكوين النفس البشرية ذاتها لتصلح أن تناط بها وظيفة القيادة للبشرية والشهادة عليها.

كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة، ولا تقعدها التضحيات الأليمة عن المضي في التبشير بالخير وفعل الخير، والقيادة إلى الخير على الرغم من النتائج القريبة والتضحيات الأليمة، وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة.

والاعتقاد في الآخرة مفرق الطريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس الإنسان، وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك الحيوان، وما يصلح إدراك الحيوان في قيادة البشرية والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة»[1].

والساعة غيبٌ اختص الله تعالى به واستأثر بعلمه، فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه جميعًا، بما فيهم الأنبياء المرسلون والملائكة المقربون، رغم ما كان من إكثار المشركين من السؤال عنها، استبعادًا لوقوعها وتعنتًا منهم وجحودًا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٥].

وعندما سأل جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ قال: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم، في البنيان في خمسٍ لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا النبي عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾)[2].

وإذا استأثر الله سبحانه وتعالى بعلم الساعة، فلا فائدة تتحقق من وراء البحث عن زمن وقوعها؛ لأن هذا خارج عن طوق

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ١٠٦٨-١٠٧٣، ٩/ ١٤٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ١٩، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ٤٠، رقم ١٠.

العلم البشري، فحريٌّ بالعاقل أن يكون على استعداد لها وتهيؤ، فما كان إخفاؤها إلا لحكمة كبرى، فلا يتشاغل الناس عنها إذا كانت بعيدة عنهم، ولا ينصرفون عن العمل للحياة الدنيا إذا كانت قريبة لهم. ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لمن يسأله عن الساعة: (ويحك! إن الساعة آتيةٌ، فما أعددت لها؟)[1].

ولئن حجب الله تعالى علم الساعة عن الخلق، فإن حكمته جل شأنه اقتضت أن يكون بين يدي الساعة أمارات وأشراط، تأتي مقدمة لها بين يديها؛ إيقاظًا للغافلين وحثًا لهم على التوبة والاستعداد، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢-٤٣].

فبعثة الرسول محمدٍ صلى الله عليه وسلم من علامات الساعة و أشراطها؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر عن علامات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه، بما لم يؤته نبيٌّ قبله؛ ولهذا جاء في أسمائه عليه السلام: نبي التوبة ونبي الملحمة، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، و العاقب الذي ليس بعده نبيٌّ.

وهذه العلامات إما أن تكون علاماتٍ على قرب الساعة ووقوعها، وإما على حصولها.

فمن النوع الأول: الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، والخسف

ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس[2].

وهذه العلامات والعلم بها لا ينافي ما سبق من اختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم الساعة؛ لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معينًا.

وكذلك فإن معرفة هذه العلامات لا تعطي الإنسان علمًا بوقت وقوعها متى يكون؟ فهي تأتي بغتة تفجأ الناس وتبغتهم، وهم عنها غافلون.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر رضي الله عنه، ٥/ ١٢، رقم ٣٦٨٨.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣٥٢-٣٥٣.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)[١].

وروى سهل وأنس وأبو هريرة رضي الله عنهم أن الرسول عليه السلام قال: (بعثت أنا والساعة كهاتين) يشير بإصبعيه)[٢].

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بعثت في نفس الساعة فسبقتها، كما سبقت هذه لهذه) لأصبعيه السبابة والوسطى)[٣].

وعن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابةٌ كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دارٍ لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم»[٤].

٤. إنزال الغيث.

والمفتاح الثاني من مفاتح الغيب بعد علم الساعة هو إنزال الغيث، وهو آية الله في خلقه على إمكانية قيام الساعة حيث يحيي به الأرض بعد موتها.

والله سبحانه وتعالى وحده الذي ينزل الغيث ويختص بالقدرة على إنزاله، ويختص بعلمه علمًا كاملًا شاملًا. فهو ينزله في إبانه من غير تقديم و لا تأخير في بلد لا يتجاوزه به، وبالقدر الذي يريده وتقتضيه حكمته، فهو اختصاص قدرة واختصاص علم.

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها، ٨/ ١٠٦، رقم ٦٥٠٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب قرب الساعة، ٤/ ٢٢٧٠، رقم ٢٩٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي: (بعثت أنا والساعة كهاتين)، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن، باب قرب الساعة، ٤/ ٢٢٦٨، رقم ٢٩٥١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب القدر، باب ما جاء في قول النبي: (بعث أنا والساعة كهاتين)، ٤/ ٤٩٦، ٢٢١٣.
قال الترمذي: «هذا حديث غريب».
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٣٤٥، رقم ٢٣٣٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، ٤/ ٢٢٧٨، رقم ٢٩٦٧.

﴿٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

وقد تجري بعض المحاولات البشرية، فيما أسموه (المطر الصناعي)، والمقصود منه حتى الآن هو: عصر السحب الممطرة أو القابلة للإمطار، وذلك بتوليد حالات من فوق التشبع داخلها بطرق صناعية، كقذف بلورات من الثلج الجاف مباشرة بواسطة الطائرات أعلى السحب الركامية، لا تلبث أن تسقط إلى المناطق الوسطى من تلك السحب لتبدأ قصة سقوط المطر الصناعي. أو بقذف مسحوق بدلًا من بلورات الثلج، أو حرقه بحيث يكون سحبًا كثيفة، أو برش نقاط من الماء أسفل السحب وأعلاها. ولكلٍ من هذه الطرق ظروفها الخاصة[1].

وهذا لا يعني أن البشر يستطيعون إنزال الغيث، أو أن ذلك بمقدورهم، فالله تعالى وحده هو الذي خلق الأسباب الكونية لإنزال المطر، وجعل تلك الخصائص للسحب وتركيبها بعامة، والسحب الركامية خاصة، التي خصها الله تعالى بنزول البرد ونشوء الرعد والبرق، وكذلك توفير الظروف المناخية لنزول الغيث، والهواء الصاعد المحمل ببخار الماء، كل هذا خلقه الله تعالى وليس بإمكان البشر ذلك.

فكان إنزال الغيث مختصًا بالله تعالى وحده. وليس هنالك عاقل يزعم أن ذلك بمقدوره، وحتى الكفار قديمًا حكى الله تعالى إقرارهم بذلك فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

ولئن حاول بعض الناس التعرف بالتجارب والمقاييس والعادات قرب نزول المطر، ظنًا لا علمًا يقينيًا، إنهم لا يقدرون على علم ذلك يقينًا؛ إذ إن التنبؤات الجوية كثيرًا ما تخيب، والتجارب كثيرًا ما تختلف، والعادة قد تخرق، والظنون تخطئ.

فلا يستطيع البشر أن يجزموا بشيء في موعد نزول المطر وكميته أو عمومه على الأرض، أو خصوصه لبقعة معينة، أو غير ذلك من الصفات في إنزال المطر. ويبقى العلم اليقيني لله وحده. وشتان بين علم الله المحيط الشامل اليقيني وأوهام البشر وظنونهم!

ولكن إن حجب الله تعالى هذا العلم عن الخلق قبل إعلام الملائكة الموكلة بالمطر، فإنه إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله تعالى من خلقه، فلا

(١) انظر: الله والكون، محمد جمال الدين الفندي، ص١٧٩.

يكون عندئذ بعد هذا الإعلام غيبًا بالنسبة لمن أعلمه الله تعالى به.

ويلاحظ أن الآية الكريمة عن مفاتح الغيب قال الله تعالى فيها: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فصيغة الآية لا تنفي أن أحدًا غير الله تعالى يعلم إنزاله، بخلاف أول الآية في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الذي يفيد الاختصاص. ولكن جاء الحديث الصحيح وفسر ذلك، حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الخمس في سورة لقمان بأنها هي مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن هنا جاء التشديد عن النبي صلى الله عليه وسلم على من يزعم معرفة شيء من ذلك لمعرفته بالأنواء، فينسبه إلى منازل القمر مثلًا، ففي حديث زيد بن خالد أنه قال: (صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماءٍ كانت من الليلة، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس فقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟). قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (قال أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا. فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب)[1].

والخلاصة: أن علم البشر متى يكون نزول المطر هو أمرٌ مستحيل. ولا يرد على ذلك أن بعض الناس يدرك نزول المطر متى انعقدت أسبابه، بحيث يغلب على الظن ذلك، إذا نشأ السحاب الممطر عادة، وهبت الرياح التي يصاحب هبوبها نزول المطر، وتهيأ الجو المشبع بالرطوبة، والذي تعتمد عليه -وعلى غيره من الأسباب الأخرى- الأرصاد الجوية في حدسها وظنونها، وما لم تنعقد هذه الأسباب فلا أحد يعلم متى ينزل المطر.

٥. ما في الأرحام.

والمفتاح الثالث من مفاتح الغيب هو علم الأجنة. فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلم علمًا يقينيًا محيطًا شاملًا بما في الأرحام، في كل لحظة وفي كل طور، فيعلم قبل تلقيح البويضة بالحيوان المنوي، يعلم نوع الجنين الذي يقدر الله تعالى خلقه: هل هو ذكر أو أنثى؟ وهل هو تام الخلقة أم ناقص الخلقة؟ وهل هو سليم من التشوهات أو غير سليم؟ هل هو واحد أو أكثر؟ وما هي طبائع هذا الجنين بعد الولادة؟ إلى ما هنالك من اختلاف في المقادير والصفات والطبائع والأخلاق والشمائل والكسب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الاستسقاء، باب قول الله: (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)، ٢/ ٣٣، رقم ١٠٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، ١/ ٨٣، رقم ٧١.

والصنائع، والتقلبات في مقدار العمر والرزق والأوقات والأماكن، وغير ذلك من الأحوال التي لا يحصيها إلا بارئ النسم ومحيي الرمم سبحانه.

ولما كانت للخلق في ذلك -لكثرة الملابسات والمعالجات- ظنون في وجود الحمل أولًا، ثم في كونه ذكرًا أو أنثى ثانيًا، ونحو ذلك بسبب ما أقام الله تعالى من الأمارات الناشئة عن طول التجارب وكثرة الممارسة عبر بالعلم فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي: من ذكر أو أنثى، حيٍ أو ميت وغير ذلك، وبصيغة المضارع التي تدل على التجدد وحدوث الفعل شيئًا فشيئًا، ووقتًا بعد وقت[1].

٦. الكسب بالمستقبل.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، هذا هو المفتاح الرابع، الكسب فيما يستقبل من الزمن، من خير، أو شرٍ، من شقاء أو سعادة، ومن كسبٍ ماديٍ أو معنويٍ، ومن صداقة أو عداوة، ومن صحة أو مرض، ومن أحوال الناس وتقلباتهم في معاملته لهم ومعاملتهم له، وغير ذلك من الأحوال والكسب بعامة، لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وقد جعل الله كل ذلك غيبًا مغلقًا أمام الإنسان، يتطلع المرء لمعرفة شيء منه، ولكنه لن يستطيع أن يعود من ذلك بشيء - إلا أن يكون ذلك الشيء جملة من الأوهام والظنون، مهما حاول بكل وسيلة، ومهما أوسع الحيلة ليتعرف على ما يتشوق إليه من ذلك الغيب المجهول الذي يحيط به.

يقول الإمام البقاعي رحمه الله: «ولكون الإنسان -مع أنه ألصق الأشياء وألزمه له- لا يعلمه مع إيساعه الحيلة في معرفته، عبر فيه بالدراية؛ لأنها تدل على الحيلة بتصريف الفكر وإجالة الرأي -كما تقدم في سورة يوسف عليه السلام أن مادة (درى) تدور على الدوران، ومن لوازمه إعمال الحيلة وإمعان النظر، فهي أخص من مطلق العلم فقال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ أي: من الأنفس البشرية وغيرها ﴿ما﴾ وأكد المعنى بـ﴿ذا﴾ وتجريد الفعل فقال: ﴿مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي: في المستقبل من خير أو شرٍ بوجه من الوجوه، وفي نفي علم ذلك من العبد -مع كونه ألصق الأشياء به- دليلٌ ظاهر على نفي علم ما قبله عنه؛ لأنه أخفى منه، وقد تقدم إثبات علمه له سبحانه وتعالى، فصار على طريق الحصر، وعلم أيضًا أنه لا يسند إلى العبد إلا على طريق الكسب؛ لأنه لو كان مخلوقًا له لعلمه قطعًا، فثبت أنه سبحانه وتعالى خالقه، فعلم اختصاصه بعلمه من هذا الوجه أيضًا»[2].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ٢١٧.

(٢) المصدر السابق ١٥/ ٢١٨-٢١٩.

٧. مكان الموت.

وهذا هو المفتاح الخامس من مفاتح الغيب: مكان الموت و نهاية المرحلة في هذه الحياة الدنيا، وهي المصير المحتوم لكل مخلوق، ومع ذلك لا يستطيع الإنسان ولا تستطيع أي نفس كانت أن تدري مكان موتها، هل هو في الأرض التي ولدت فيها أم في غيرها؟ في هذا البلد أو ذاك من بلاد الله الواسعة المترامية الأطراف، وفي أي بقعة أو مكان من هذا البلد أو ذاك؟ و هل يكون ذلك في بر أو بحر أو سهل أو جبل.، إلى غير ذلك مما يقف الإنسان أمامه عاجزًا، إذ لا يعلم ذلك كله إلا الخالق سبحانه الذي أحاط بكل شيء علمًا.

وقد جاء في الحديث: (إذا أراد الله قبض روح عبدٍ في أرضٍ جعل له فيها -أو قال بها- حاجةً)[١].

ولما كان علم مكان الموت، لا يعلمه أحد من الناس بنوع حيلة، مع شدة حذره منه وحبه -لو أنفق جميع ما يملكه لكي يعلمه- عبر عنه بما عبر عن الذي قبله، فقال مؤكدًا بإعادة النافي والمسند: ﴿وَمَا تَدْرِي﴾ وأظهر؛ لأنه أظهر وأليق بالتعميم فقال: ﴿نَفْسٌ﴾ أي: من البشر وغيره ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾، ولم يقل: بأي وقت؛ لعدم القدرة على الانفكاك عن الوقت، مع القدرة على الانفكاك عن مكان معين، وإحاطة العلم بكراهة كل أحد للموت، فكان ذلك أدل دليل على جهله بموضع موته؛ إذ لو علم به لبعد عنه ولم يقرب منه[٢].

الحكمة في أن للغيب مفاتح:

وقد تلمس بعض العلماء الحكمة فيما جاء في الآية الكريمة وفي الحديث الشريف من التعبير عن هذه الغيوب وأصولها بـ (المفاتح)، فذكر الشيخ ابن أبي جمرة الأندلسي[٣] أن الحكمة في أن للغيب مفاتح تظهر في أمور، منها:

- تقريب الأمر على المخاطب؛ لأن أمور الغيب لا يحصيها أحدٌ إلا عالمها، وكل شيء حيل بينك وبينه فهو غيب. وأقرب الأشياء في ذلك هي الأبواب، والأبواب أقل ما يحبسها عن الفتح وأيسرها المفاتيح، فإذا كان أيسر الأشياء التي يعرف بها الغيب لا يعرف لها أحدٌ موضعًا، فكيف يقدر أن يعرف ما هو أكبر ومن ذلك؟ هذا محال. وهذا

وانظر فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٢٤، روح المعاني، الألوسي ٢١/ ١١.

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٣/ ٤٢٩، والبخاري في الأدب المفرد ص٣٧٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١١٨، رقم ٣١١.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ٢١٩.

(٣) في كتابه: بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها ٤/ ٢٧١.

من أبلغ البيان وأخصره.

❁ أنه أراد بالغيب: الغيب الذي لا يعلمه أحدٌ حقيقة؛ لأن الغيوب على ما هي عليه، وإن كانت لبعض الغيوب أسبابًا قد يستدل في بعض المراد بها عليه أن بذلك ليس حقيقيًا في علم تلك الغيوب، وأما حقيقتها فلا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. ويشهد لهذا التوجيه: قوله صلى الله عليه وسلم كنايه عن الله سبحانه: (أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا. فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب)[1].

حكمة حصر الغيب بهذه المفاتح:

وأمور الغيب ليست محصورة في هذه الخمس التي جاءت في سورة لقمان وفي حديث مفاتيح الغيب -الذي سبق- فهي لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى الذي يعلمها كلها، بكلياتها وجزئياتها، وظواهرها وبواطنها. فهي ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، لا على معنى أن الغيب محصور فيهن -كما زعمه بعضهم- فقد صرح القرآن الكريم بغيرهن في مواطن كثيرة؛ من ذلك: معرفة حقيقة الروح، و تفصيل بدء الخلق، و تفاصيل النشأة الآخرة، و جنود الله، إلى غير ذلك. وإنما اقتصر في الحديث على الأمور المجموعة في آية لقمان المذكورة؛ لأن النفوس كلها تتشوق لمعرفتها، ولأنها وردت مجموعة في سؤال الناس للنبي صلى الله عليه وسلم على ما روي في سبب النزول، وقد تقرر أن العدد لا مفهوم مخالفة له، بل يثبت مضمونه ولا ينفي ما زاد عنه[2].

ولتقريب هذا إلى الأذهان جاء التعبير بـ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾؛ إذ أن أقرب الأشياء إلى الاطلاع على ما غاب عن الإنسان هو الأبواب، والمفاتح أيسر الأشياء لفتح الباب، فإذا كان أيسر الأشياء لا يعرف مكانها فما فوقها أحرى أن لا يعرف ولا يعلم علمًا حقيقيًا. وإن كان لبعض الغيوب أسبابًا قد يستدل بها عليها، لكن ليس ذلك حقيقيًا، ولما كان جميع ما في الوجود محصورًا في علمه شبهه بالمخازن، واستعار المفتاح لأبواب تلك المخازن.

وتلمس العلامة ابن أبي جمرة الأندلسي رحمه الله الحكمة في حصر أمور الغيب في هذه الخمسة، فوجدها في الإشارة إلى حصر العوالم في هذه الخمس من المفاتح:

فالمفتاح الأول: ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فيه إشارة إلى علوم الآخرة كلها، ويوم القيامة

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) انظر: المختار من كنوز السنة، محمد عبدالله دراز، ص ٢٩٧.

أولها، وهو مفتاح علومها. وإذا انتفى علم الأقرب انتفى ما بعده من باب أولى.

والمفتاح الثاني: (إنزال الغيث) إشارة إلى علوم العالم العلوي، وخص منه المطر مع أن له أسبابًا قد تدل بمجرى العادة وسنة الله الكونية على وقوعه وإنزاله، لكنه من غير تحقيق وعلم يقيني.

والمفتاح الثالث: (علم ما في الأرحام) إشارة إلى ما يزيد في النفس وينقص، وخص الرحم بالذكر لكون الأكثر يعرفونها بالعادة، ومع ذلك نفى أن يعرف أحد حقيقتها، فغيرها منفيٌ بطريق أولى.

والمفتاح الرابع: (علم ما في غد) إشارة إلى أنواع الزمان وما فيها من الحوادث والكسب، وعبر بلفظ: (غد) لتكون حقيقته أقرب الأزمنة، وإذا كان -مع قربه- لا يعلم حقيقته وحقيقة ما يقع فيه -مع إمكان الأمارة والعلامة الدالة عليه-، فما بعده أولى أنه لا يعرف.

والمفتاح الخامس: (علم مكان الموت) إشارة إلى أمور العالم السفلي، مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده، ولكن ليس ذلك حقيقة، بل لو مات في بلده، لا يعلم في أي بقعة يدفن فيها، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه الماضين، بل ولو كان له قبر أعده لنفسه[1].

وقال السيد محمد رشيد رضا: «العوالم ثلاثة:

الأول: القريب الداني الذي نقيم فيه قبل الموت.

الثاني: الذي نقيم فيه بعد الموت أبدًا إلى غير نهاية.

الثالث: الوسط بينهما، وهو ما نقيم فيه بين العالمين حتى يتم جمعنا بانتهاء الدنيا، ونفد على الله جميعًا.

فالثاني والثالث: من الغيب الذي ليس مشهودًا لنا، ولا يحصل فيه زيادة يبرزها الله تعالى من العدم، كالأحجار والمعادن ونحوها من الموجودات، التي وجدت في الكون تدريجيًا، أو دفعة واحدة، ومنه ما هو غيب، وهو ما يتجدد بصورة مخصوصة لم تكن مشهودة، وهو النبات ومفتحة الغيث، والحيوان ومفتحة الأرحام غالبًا، أو عبر بها عنه، وكسب الحيوان وعمله وهو مفتح وخزانة من خزائن الغيب»[2].

(١) بهجة النفوس شرح مختصر البخاري، ابن أبي جمرة ٤/ ٢٧١.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٦٨-٤٦٩.

ادعاء علم الغيب

استأثر الله سبحانه وتعالى بعلم الغيب، واختص به نفسه، فليس لأحد من الخلق أن يزعم أنه قادر على معرفة ما استأثر الله تعالى به، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

ومفاتح الغيب هذه هي التي أشار الله تعالى إليها وفصلها في سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولم يطلع الله تعالى أحدًا على الغيب إلا من اختاره من رسله لإطلاعه على بعض أنواع الغيوب، مما شاءت حكمة الله تعالى أن يعلمه لهم في مرحلة من مراحل الغيب -على ما سبق بيانه في أنواع الغيب- فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال أيضًا: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧].

وما استأثر الله تعالى بعلمه، فلا يعلمه أحد من الخلق حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية؛ والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

ولذلك ينبغي أن نتعرف على حكم من يدعي شيئًا من علم الغيب الذي استأثر الله تعالى به، أو لم يستأثر به، ولكن لم يهيئ للخلق أسباب المعرفة له. ويدخل في ذلك حكم التنجيم والكهانة والعرافة.

أولًا: حكم ادعاء علم الغيب والاستسقاء بالنجوم والكواكب:

وفيما يلي إشارة إلى حكم ذلك كله، كما ذكره علماء الإسلام في كتب التفسير، وكتب التوحيد، وكتب الفقه، ونجتزئ ببعض النصوص الدالة على ذلك من المذاهب الفقهية المختلفة. وبالله التوفيق:

يقول ابن أبي العز الحنفي: «ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين. قال الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/ ١٥٩، رقم ١٧٧.

تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته. ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات، التي لا يعلم منها إلا المضرة -لم ينف أن يكون الله تعالى خالقًا لها-، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا؛ لأن عدم العلم لا يكون علمًا بالمعدوم»[(١)].

ويقول ابن عابدين الحنفي: «إن دعوى علم الغيب معارضةٌ لنص القرآن الكريم، فيكفر بها، إلا إذا أسند ذلك صراحةً أو دلالةً إلى سببٍ من الله تعالى، كوحيٍ أو إلهام، وكذا لو أسنده إلى أمارة عادية بجعل الله تعالى. وقال أيضًا: وأما ما وقع لبعض الخواص كالأنبياء والأولياء بالوحي والإلهام فهو بإعلام من الله تعالى، فليس مما نحن فيه»[(٢)].

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٣٤٣.
(٢) حاشية ابن عابدين ٤/ ٢٤٢-٢٤٣.

ويقول القرطبي المالكي: «قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آيةٍ من كتابه إلا من اصطفى من عباده، فمن قال: إنه ينزل الغيث غدًا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا. وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النوء ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر، إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيهًا بكلمة أهل الكفر، وجهلًا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرةً بنوء كذا، ومرةً دون النوء. قال الله تعالى في الحديث القدسي: (أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ)»[(٣)].

وقال أيضًا: «فلا مطمع لأحدٍ في علم شيء من الأمور الخمس، ولا طريق لعلم شيء من ذلك إلا أن يعلم الله تعالى بذلك -أو بشيء منه- أحدًا ممن شاءه، فمن ادعى علم شيء من هذه الأمور، كان في دعواه كاذبًا، إلا أن يسند ذلك إلى رسولٍ بطريقةٍ تفيد العلم القطعي، ووجود ذلك متعذر بل ممتنعٌ. وأما ظن الغيب: فلم يتعرض شيء من الشرع لنفيه ولا إثباته؛ فقد يجوز أن يظن المنجم -أو صاحب خط الرمل، أو نحو هذا- شيئًا مما يقع في المستقبل، فيقع على ما ظنه، فيكون ذلك ظنًا صادقًا، إذا كان

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢.

عن موجبٍ عاديٍ يقتضي ذلك الظن، وليس بعلم، فتفهم هذا؛ فإنه موضعٌ غلط بسببه رجال، وأكلت به أموال»[1].

وقال أبو بكرٍ ابن العربي المالكي: «مقامات الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله لا أمارة عليها، ولا علامة عليها، إلا ما أخبر به الصادق المجتبى لاطلاع الغيب من أمارات الساعة، والأربعة سواها لا أمارة عليها، فكل من قال: إنه ينزل الغيث غدًا فهو كافرٌ، أخبر عنه بأماراتٍ ادعاها، أو بقولٍ مطلق.

ومن قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فأما الأمارة على هذا فتختلف، فمنها كفرٌ، ومنها تجربةٌ. والتجربة منها أن يقول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر، وإن كان ذلك في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فهو ذكرٌ، وإن وجدت الجنب الأشأم (الأيسر) أثقل فالولد أنثى، وادعى ذلك عادة لا واجبًا في الخلقة لم نكفره، ولم نفسقه.

فأما من ادعى علم الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن الجملية أو المفصلة فيما يكون قبل أن يكون، فلا ريبة في كفره أيضًا.

فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر، فقد قال علماؤنا: يؤدب ويسجن ولا يكفر. أما عدم تكفيره: فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب، وتقدير المنازل، حسبما أخبر الله سبحانه في قوله جل وعلا: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس:٣٩].

فلحسابهم له، وإخبارهم عنه، وصدقهم فيه، توقفت علماؤنا عن الحكم بتكفيرهم.

وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على العامة في تعليق العلم بالغيب المستأنف، ولا يدرون قدر الفرق بين هذا وغيره، فتشوش عقائدهم في الدين، وتتزلزل قواعدهم في اليقين فأدبوا حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به»[2].

وقال الوزير عون الدين بن هبيرة: «ما يدعيه المنجمون من أنهم يعرفون الكسوف قبل كونه من طريق، فلا يختص بهم دون غيرهم ممن يعرف الحساب، بل هو مما إذا حسبه الحاسب عرفه، وليس مما يدل على أنهم يتخصصون فيه، مما يجعلونه حجة في دعواهم علم الغيب مما تفرد الله سبحانه بعلمه، فإنه لا دلالة لهم على ذلك، ولا فيما تعلقوا به من هذا الاحتجاج على ما أرهجوا به»[3].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله آل

(١) نقله عنه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ١/ ١٢٣-١٢٤.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٧٣٨-٧٣٩.

(٣) الفروع، ابن مفلح ٣/ ٢٢٤.

الشيخ: «الاستسقاء بالنجوم نوعان:

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، فهذا كفرٌ ظاهر؛ إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له، إلا أنه سبحانه وتعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور النجم، فحكى ابن مفلح خلافًا في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب الشافعي بجوازه.

والصحيح أنه محرم؛ لأنه من الشرك الخفي، وهو الذي أراده النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله بقوله صلى الله عليه وسلم: (أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)[١].

وهو الذي كان يزعم المشركون، ولم يزل موجودًا في هذه الأمة إلى اليوم»[٢].

وعندما ينسب المطر إلى الأنواء ومنازل القمر وغير ذلك، يدعي بهذا علمًا للغيب؛ إذ إنه عندما يرى هذه المظاهر والأسباب يدعي نزول المطر، وقد سبق أن هذا مما اختص الله تعالى به، وإن كان قد يعلمه الإنسان ظنًا في مرحلة انعقاد أسبابه، كما سبق بيانه في مفاتح علم الغيب، والله سبحانه أعلم.

ثانيًا: الكهانة وصور ادعاء علم الغيب:

ومما يدخل في باب ادعاء علم الغيب: العرافة، والتنجيم، والكهانة، والطرق بالحصى، وقد يطلق عليها جميعها اسم الكهانة[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]: «وممن يدخل في ذم السحرة: الكهان والعرافون والمنجمون والذين يخطون في الرمل،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، ٢/ ٦٤٤، رقم ٩٣٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله آل الشيخ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

(٣) قال المناوي: «العراف الكاهن، لكن العراف يختص بالأحوال المستقبلية، والكاهن يخبر بالماضي».وقيل غير ذلك.والمنجم الذي يترصد النجوم ثم استعمل بمعنى الذي يحسب سير النجوم وعلاقتها بالأفعال البشرية.وفي الفرق بين هذه الألفاظ انظر: الكليات، الكفوي: ٤/ ١٢٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٥٠٩، المفردات، الراغب، ص ٧٢٨، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي، ص ٥٠٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي: ٤/ ٣٩٨.

(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٤٢.

وكل هؤلاء يدعون علم الغيب، وهم كفرة خارجون عن الإسلام بادعائهم الغيب. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ومن صدقهم في دعواهم فهو كافرٌ بالله مشركٌ. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أتى حائضًا، أو امرأةً في دبرها، أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمدٍ)[(١)].

وسنفرد أهم هذه الصور بكلمة موجزة، نبين من خلالها حكم من يدعي شيئًا من ذلك أو يفعله أو يصدقه.

الكهانة:

قال ابن سيده: «كهن يكهن ويكهن، وتكهن يتكهن تكهنًا و تكهينًا: قضى له بالغيب. ورجلٌ كاهنٌ من قوم كهنةٍ وكهانٍ. وكهن كهانةً صار كاهنًا، وحرفته الكهانة»[(٢)].

والمراد من علم الكهانة مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة من الجن والشياطين، والاستعلام بهم عن الأحوال الجزئية الحادثة في عالم الكون المخصوصة بالمستقبل. فالكهانة هي: ادعاء علم الغيب أو القضاء به، كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب. والأصل فيه: استراق الجني السمع من كلام الملائكة، فيلقيه في أذن الكاهن.

والكاهن لفظ يطلق على العراف، والذي يضرب بالحصى، والمنجم، ويطلق على من يقوم بأمر آخرٍ، ويسعى في قضاء حوائجه. والعرب تسمي كل من آذن بشيء قبل وقوعه كاهنًا. فهو يخبر عما يكون في المستقبل ويدعي معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب[(٣)].

قال الخطابي[(٤)]: «الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية، فألفتهم الشياطين؛ لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه. فالكاهن هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن».

وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/ ٤٢٩، ٤٧٦، وأبو داود في سننه، كتاب الطب، باب الكاهن، ٥/ ٣٧٠، والترمذي في سننه، أبواب الطهارة، باب ما جاء في كراهية اتيان الحائض، ١/ ٤١٨-٤١٩.
قال الترمذي: «لا نعرف هذا حديث حكيم الأثرم عن ابن تميمة الهجمي عن أبي هريرة وضعف محمدٌ البخاري، هذا الحديث قبل إسناده».
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ٦٨، رقم ٢٠٠٦.

(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٤/ ١٤٣، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٦٢-٣٦٣.

(٣) انظر: أبجد العلوم، محمد صديق خان ٢/ ٤٥٣، مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده ١/ ٣٤٠-٣٤١.

(٤) كما نقله ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢١٧.

خصوصـًا في العرب؛ لانقطاع النبوة فيهم، وهي على أربعة أصناف:

الأول: ما يتلقونه من الجن، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء، فيركب بعضهم بعضـًا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام، فيلقيه إلى الذي يليه، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام، ونزل القرآن، حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشُّهب، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى، فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدًا، كما جاء في أخبار شق وسطيح ونحوهما، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جدًا حتى كاد يضمحل، ولله الحمد.

والثاني: ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره، مما لا يطلع عليه الإنسان غالبـًا، أو يطلع عليه من قـرب منه لا من بـعد عنه.

والثالث: ما يستند إلى ظنٍ وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة، مع كثرة الكذب فيه. وإذا كان كذلك فسؤالهم عن غيب ليخبروا عنه حرامٌ، وما يأخذون على ذلك حرامٌ، ولا خلاف فيه؛ لأنه حلوان الكاهن المنهي عنه.

والرابع: ما يستند إلى التجربة والعادة، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك. ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر، وقد يعتضد بعضهم في ذلك بالزجر والطرق والنجوم، وكل ذلك مذموم شرعـًا[(١)].

ونقل القرطبي عن علماء المالكية أنه «يجب على من ولي الحسبة أن يقيم هؤلاء الكهنة من الأسواق، وينكر عليهم أشد النكير، ولا يدع أحدًا يأتيهم لذلك، وإن ظهر صدق بعضهم في بعض الأمور، فليس ذلك بالذي يخرجهم عن الكهانة، فإن تلك الكلمة إما خطفة جني، أو موافقة قدر ليغتر به بعض الجهال، ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين، فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد، والضلال»[(٢)].

وورد في ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أتى حائضًا، أو امرأةً في دبرها، أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمدٍ)[(٣)].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ١٨/ ١٠٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣-٤.
(٣) سبق تخريجه قريبًا.

وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين، أخرجهما البزار بسندين جيدين، ولفظهما: (من أتى كاهنًا فصدقه)[1].

وأخرجه مسلم من حديث امرأةٍ من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم -ومن الرواة من سماها حفصة- بلفظ: (من أتى عرافًا)[2].

وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يقال بالرأي، ولفظه: (من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا)[3].

واتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبي هريرة، إلا حديث مسلم فقال فيه: (لم يقبل لهما صلاة أربعين ليلة).

ووقع عند الطبراني من حديث أنس بسند لين مرفوعًا بلفظ: (من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد برئ مما نزل على محمدٍ، ومن أتاه غير مصدقٍ له لم تقبل صلاته أربعين يومًا)[4].

والأحاديث الأول مع صحتها وكثرتها، أولى من هذا. والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين من الآتي[5].

فما أعظم ضلال أولئك الذين يدعون معرفة الغيب بالكهانة! وما أشدَّ عقوبة أولئك الذين يأتونهم ويصدقونهم فيما يزعمون، حتى إن الشكوى ارتفعت على ألسنة كثير من العلماء في قرون سلفت، عم فيها ذلك الضلال.

فقال القرطبي رحمه الله: «وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان -زمان القرطبي- بإتيان المنجمين والكهان لاسيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين، فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من الكبائر؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)

---

(١) أخرجه البزار في مسنده، ٥/ ٢٥٦و٣١٥، و١٦/ ٢٩٤.
قال الهيثمي في المجمع ٥/ ١١٧: «رجاله رجال الصحيح خلا عقبة ابن سنان، وهو ضعيف».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ٤/ ١٧٥١، رقم ٢٢٣٠.

(٣) أخرجه أبو يعلى في المسند، رقم ٥٤٠٨.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٧/ ٣٤٧، رقم ٦٦٦٦، والبزار في مسنده، ٥/ ٢٥٦.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١١٨: رجال الكبير والبزار ثقات.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢١٧.
وانظر: مرقاة المفاتيح، ملا علي القاري ٩/ ١٦-١٧.

فكيف بمن اتخذهم وأنفق عليهم معتمدًا على أقوالهم؟»[1].

روى مسلم رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أناس عن الكهان؟ فقال: (إنهم ليسوا بشيء) فقالوا يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحيانًا بشيء فيكون حقًا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها[2] في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون معها مائة كذبةٍ)[3].

وأخرجه البخاري أيضًا من حديث أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، عن عروة، عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب - فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبةٍ من عند أنفسهم)[4].

العرافة:

هي معرفة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية التي تكون بينهما، أو الاختلاط أو الارتباط، على أن يكونا معلولي أمر واحد، أو يكون ما في الحال علة لما في الاستقبال. وشرط كون الارتباط المذكور خفيًا أن لا يطلع عليه إلا الأفراد، وذلك إما بالتجارب أو بالحالة المودعة في أنفسهم عند الفطرة[5].

والعراف هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور الغيبية بمقدمات وأسباب قولية أو فعلية يستدل بها على مواقعها، كالشيء يسرق، فيعرف المظنون به السرقة، وتتهم المرأة بالزنا فيعرف من صاحبها[6].

وقال ابن تيمية: «العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، كالحازي الذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف». وقال أيضًا: «والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء»، وعند آخرين: «هو من جنس الكاهن وأسوأ حالًا منه، فيلحق به من جهة المعنى». وقال الإمام أحمد: «العراف طرف من السحر، والساحر أخبث»[7].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣.
(٢) القر: ترديد الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ٤/ ١٧٥٠، رقم ٢٢٢٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢١٠.
(٥) انظر: أبجد العلوم، صديق خان ٢/ ٣٧٩، ومفتاح السعادة، طاشكبري زاده ١/ ٣٣٢.
(٦) معالم السنن، لخطابي، بهامس مختصر سنن أبي داود للمنذري ٥/ ٣٧٠.
(٧) انظر: تيسير العزيز الحميد ص ٤١٢.

وقال ابن الأثير: «العراف: المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب وقد استأثر الله تعالى به»[(١)].

وقال ابن القيم: «من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفًا وعرافًا»[(٢)].

والمقصود من هذا: معرفة أن من يدعي علم شيء من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف، ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل، والزجر والطير، والضرب بالحصى، والخط في الأرض، والتنجيم، والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية. ونعني بالجاهلية: كل من ليس من أتباع الرسل، كالفلاسفة والكهان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، فإن هذه من علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهنًا وعرافًا، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد.

وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وادعوا أنهم أولياء، وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل عليها بإخباره ببعض المغيبات، فهو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن.

إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن المتقي، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدره له عليها، بخلاف من يدعي أنه ولي لله، ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات، فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكر -آنفًا- من الأسباب، وإن كانت أسبابًا محرمة كاذبة في الغالب.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الكهان: «فيكذبون معها مائة كذبة» فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة. وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٣].

وليس هذا من شان الأولياء، بل شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم.

فكيف يأتون الناس ويقولون: اعرفوا أنا أولياء، وأنا نعلم الغيب. وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق، واقتناص

(١) النهاية، ابن الأثير ٣/ ٢١٨.
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ٢/ ٢٢٩.

الدنيا بهذه الأمور، وحسبك بحال الصحابة والتابعين، وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء؟

لا والله، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن كالصديق، وكان عمر يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فيمرض منها ليالٍ يعوده الناس، وكان تميم الداري يتقلب في فراشه، لا يستطيع النوم إلا قليلًا، خوفًا من النار، ثم يقوم إلى صلاته.

ويكفيك في صفات الأولياء: ما ذكر الله تعالى من صفاتهم في سورة الرعد، والمؤمنين، والفرقان، والذاريات والطور، فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى والكذب، ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة، وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعي لذلك وليا لله؟

ولقد عظم الضرر، واشتد الخطب بهؤلاء المفترين، الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش البصائر. نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة[1].

التنجيم:

وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدركًا من مدارك علم الغيب يلجئون إليه للتعرف على ما سيقع مستقبلًا، وهو التنجيم. وهو علم يعرف به الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية[2].

والمنجمون هم القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك، وآثارها في العناصر، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر، ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء، وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء، إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير والنجومية، وحصول المزاج منه للهواء، مع مزيد حدس، يقف به الناظر على تفصيل في الشخصيات في العالم، وذلك كله باطل[3].

حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبةً من السحر زاد ما زاد)[4].

---

(١) تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله، ص ٤١٢-٤١٤.

(٢) انظر: كشف الظنون، حاجي خليفة ٢/ ١٩٣-١٩٤، أبجد العلوم صديق خان ٢/ ٥٥١-٥٥٩.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون ١/ ١٩٥.وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية وبين خطأهم، كما في مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ١٧٢-١٧٣.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في النجوم ٥/ ٣٧١، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب تعلم النجوم ٢/ ١٢٢٨. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٩، رقم ٦٠٧٤.

قال الإمام الخطابي: «علم النجوم المنهي عنه: هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع، وستقع في المستقبل، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، وما كان في معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، وباجتماعها واقترانها، ويدعون لها تأثيرًا في السفليات، وأنها تتصرف على أحكامها، وتجري على قضايا موجباتها. وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطٍ لعلمٍ استأثر الله سبحانه به، لا يعلم الغيب أحد سواه.

فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس، كالذي يعرف به الزوال، ويعلم به جهة القبلة، فهو غير داخل فيما نهي عنه. وذلك: أن معرفة رصد الظل ليس شيئًا بأكثر من أن الظل ما دام متناقصًا، فالشمس بعد صاعدةٌ نحو وسط السماء في الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي.

وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه، بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصده.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة: فإنما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به عنها. مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشاهدوها في حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم: الدلالة عنها بالمعاينة، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم؛ إذ كانوا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في معرفتهم»[1].

وقال الحافظ ابن رجبٍ الحنبلي: «والمأذون في تعلمه: علم التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرم، قليله و كثيره. أما علم التسيير، فإذا تعلم ما يحتاج إليه للاهتداء، ومعرفة القبلة والطريق كان جائزًا عند الجمهور. وما زاد عليه فلا حاجة إليه، وهو يشغل عما هو أهم منه، وربما أدى تدقيق النظر فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين في أمصارهم، كما وقع ذلك كثيرًا من أهل هذا العلم قديمًا وحديثًا، وذلك يفضي إلى اعتقاده خطأ الصحابة والتابعين في صلاتهم في كثير من الأمصار، وهو باطل»[2].

ونقل ابن عابدين الحنفي عن (مختارات النوازل) أن علم النجوم في نفسه حسنٌ غير مذموم؛ إذ هو قسمان:

(١) معالم السنن، الخطابي ٥/ ٣٧١-٣٧٢، مع مختصر المنذري.
(٢) فضل علم السلف على علم الخلف، ابن رجب الحنبلي، ص٣٤-٣٥.

أحدهما: حسابيٌّ وهو حق، وقد نطق به الكتاب، قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]. أي: سيرهما بحساب.

والثاني: استدلاليٌّ بسير النجوم وحركة الأفلاك على الحوادث بقضاء الله تعالى وقدره، وهو جائز، كاستدلال الطبيب بالنبض على الصحة والمرض.

ولو لم يعتقد بقضاء الله تعالى أو ادعى علم الغيب بنفسه يكفر. ثم إن تعلم ما يعرف به مواقيت الصلاة والقبلة: لا بأس به[١].

وأما الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ، فقد جعل التنجيم ثلاثة أقسام:

الأول: وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة. وهو قول الصابئة المنجمين الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام. وهذا كفر بإجماع المسلمين.

الثاني: الاستدلال على الحوادث الأرضية بمسير الكواكب، واجتماعها وافتراقها، ونحو ذلك. ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته، فلا ريب في تحريم ذلك. واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك، وينبغي أن يقطع بكفره؛ لأنها دعوى لعلم الغيب، الذي استأثر الله تعالى بعلمه، بما لا يدل عليه.

الثالث: وهو تعلم منازل القمر والشمس؛ للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول[٢].

ثالثًا: معرفة نوع الجنين وعلم الغيب:

تقدمت الإشارة في مفاتح الغيب إلى اختصاص الله سبحانه وتعالى بعلم ما في الأرحام، وقد يقع في أذهان بعض الناس أن البشر يستطيعون أن يعلموا ما في الأرحام بمعرفة جنس الجنين هل هو ذكر أو أنثى؟ وذلك عندما يمكن أن تغرز إبرة لسحب نقطة من السائل الامنيوسي لفحص خلال الجنين، هل تحمل شارة الذكورة أو الأنوثة، ويكون ذلك بعد مضي أربعة أشهر على الأقل من الحمل[٣].

وقد يخيل لبعضهم أن في هذا معرفةً للغيب الذي اختص الله تعالى به. وهنا ينبغي أن نلاحظ جملة أمور لا يجوز أن تغيب عن أذهاننا؛ إذ هي تلقي ضوءًا على ذلك، وتحرر محل الخلاف، وتحدد الإجابة، وتنفي الشبهة والظن إن شاء الله تعالى.

١. إن الله تعالى يعلم علمًا يقينيًا قاطعًا منذ الأزل بكل التفاصيل والأحوال

(١) حاشية ابن عابدين ١/ ٤٣-٤٤ و٤/ ٢٤٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد، ص٤٤١-٤٤٨.

(٣) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد علي البار، ص ٢٩٧- ٢٩٩.

للجنين، من ذكورة وأنوثة، وصفات أخرى كالتمام والنقص في الخلقة والعدد إلخ. فهو بالنسبة لله تعالى علمٌ يقينيٌ شامل حتى قبل أن يوجد الجنين نفسه.

٢. إن الطريقة التي سبقت الإشارة إليها في معرفة نوع الجنين إنما تكون بعد مضي أربعة أشهر، وأما قبل ذلك فلا تكون متيسرة إن لم تكن مستحيلة. أما الجنين ذاته فإنه لا يمكن تمييزه ولو نزل سقطًا وشرح تشريحًا كاملًا، فلا يعرف جنسه؛ لأن الغدة التناسلية لم تتميز؛ إذ هي لا تتميز قبل نهاية الأسبوع الرحمي السادس حتى تعرف هل هي خصية أو مبيض[(١)]. ولم يخف على الله تعالى العلم للجنين حتى في هذه المرحلة.

٣. وكذلك عندما يستخرجون نقطة من السائل الامنيوسي بعد المدة السالفة تكون قد أصبحت أمامهم في عالم الشهادة، أي: لم تعد غيبًا، ولم يعد معرفة ما يتعلق بالجنين في هذه الحال غيبًا. والكلام منصبٌ على معرفة الغيب، لا على معرفة الشيء في عالم الشهادة والحس.

٤. ثم إن معرفة البشر رغم ذلك معرفة ظنية قابلة للخطأ والصواب، ومعرفة جزئية مبتورة ناقصة، فهي ظنٌ وليست علمًا يقينيًا.

وفي خلال المدة التي تعقب الشهور الأربعة الأولى من بدء الحمل لا يكون الجنين في مرحلة الغيب المطلق الذي حجبه الله تعالى عن الخلق جميعًا، بل إن الملك الموكل يعرف ذلك بإخبار الله تعالى.

كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغةً مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلماتٍ: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌ أو سعيدٌ، فو الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)[(٢)].

(١) المصدر السابق، ص ٢٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه،

وفي بعض طرق الحديث: (ثم يبعث الله ملكًا بأربع كلماتٍ: فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم ينفخ فيه الروح) الحديث[1].

وفي حديث حذيفة بن أسيد، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقيٌّ أو سعيدٌ؟ فيكتبان، فيقول: أي رب أذكرٌ أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص)[2].

ففي هذه المرحلة قد أعلم الله تعالى الملك الموكل بالنطفة بالكلمات السابقة، فأصبح الملك يعرفهم، فخرجت عندئذ عن كونها من الغيب المطلق الذي اختص الله به، ولا مانع بعد ذلك أن يهيئ الله تعالى للإنسان أداة أو وسيلة للتعرف على شيء من ذلك ظنًا أو يقينًا، وكأن عموم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى قد دخله التخصيص بحديث ابن مسعود وحديث حذيفة بن أسيد، فيقبل أيضًا تخصيصًا آخر بدليل ظني.

وأما المرحلة السابقة لإعلام الله تعالى الملك بذلك فإنها محجوبة قطعًا عن كل الخلق، ولا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

قال ابن قيم الجوزية: «والتحقيق في معنى الآية: أنه يعلم مدة الحمل وما يحدث فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى؟ وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما في (الصحيح) عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت إلا الله)[3].

فهو سبحانه المتفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه، وما ينقص. وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه، كالسقط التام، ورؤية الدم، وانقطاعه»[4].

٤/ ٢٠٣٦، رقم ٢٦٤٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم، ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، ٤/ ٢٠٣٧، رقم ٢٦٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب لا يعلم متى يجيء المطر إلا الله، ٢/ ٣٣، رقم ١٠٣٩.

(٤) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم، ص ٣٨١-٣٨٢.

وقال أبو بكر الجصاص: «لا يعلم أحدٌ الفرق بين العلقة التي يكون منها الولد وبين ما لا يكون منها الولد إلا أن يكون قد شاهد علقًا كان منه الولد وعلقًا لم يكن منه الولد، فيعرف بالعادة الفرق بين ما كان منه ولد وبين ما لم يكن منه ولد بعلامة توجد في أحدهما دون الآخر في مجرى العادة وأكثر الظن، كما يعرف كثير من الأعراب السحابة التي يكون منها المطر والسحابة التي لا يكون منها المطر، وذلك بما قد عرفوه من العلامات التي لا تكاد تتخلف في الأعم الأكثر.

فأما العلقة التي كان منها الولد فمستحيل أن يشاهدها إنسان قبل كون الولد منها متميزة من العلقة التي لم يكن منها ولد، وذلك شيء قد استأثر الله بعلمه إلا من اطلع عليه من ملائكته حين يأمره بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾. وهو عالم بكل شيء سبحانه وتعالى ولكنه خص نفسه بالعلم بالأرحام في هذا الموضع إعلامًا لنا أن أحدًا غيره لا يعلم ذلك، وأنه من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ومن ارتضى من رسول. قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]. والله أعلم»[(١)].

وأيضًا: إن علم ما في الأرحام الذي لا يعلمه إلا الله هو علم ما تغيض الأرحام، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عدد ومسمى مفاتح الغيب في صيغتين: الصيغة الأولى: تشير إلى القضايا التي وردت في آية سورة لقمان، ففي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مفاتح الغيب خمسٌ، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾)[(٢)].

وفي الصيغة الثانية: عن ابن عمر أيضًا، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)[(٣)].

فنحن الآن أمام حديثين وردا بصيغتين

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: (إن الله عنده علم الساعة)، ٦/ ١١٥، رقم ٤٧٧٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا)، ٩/ ١١٦، رقم ٧٣٧٩.

مختلفتين، في موضوع واحد، هو تحديد عدد ومسمى مفاتح الغيب، وصيغة الحديث الأول تماثل صيغة الحديث الثاني، في ثلاث قضايا هي: علم الساعة، وعدم دراية الأنفس لكسبها، ومكان موتها.

وهذه الثلاثة غيب حقيقيٌ لا يعلمه إلا الله باتفاق العلماء، لكن الحديثين يختلفان في مسمى قضية إنزال المطر، وقضية ما في الأرحام.

فالحديث الأول: أشار إلى أن الصيغة العامة لهما هي مفتاح الغيب، في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾.

وأما الحديث الثاني: فقد عدل عن صيغة العموم إلى صيغة الخصوص، فقد سماهما النبي صلى الله عليه وسلم بألفاظ مخصوصة محددة فقال: (ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله).

وبالجمع بين الروايتين يصير (غيض الأرحام)، وزمن مجيء المطر، هما الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومن ثم يصبح مراد النبي صلى الله عليه وسلم في اللفظ العام في آية سورة لقمان بناء على الحديث الأول، هو المعنى المحدد باللفظ الخاص في الحديث الثاني، وبهذا تتوافق النصوص وينتهي الإشكال، و يكون (غيض الأرحام) هو أحد مفاتح الغيب الخمس، لا الذكورة ولا الأنوثة ولا العلم بصفات الجنين، ويكون أيضًا العلم بوقت نزول المطر الوارد في الحديث هو أحد مفاتح الغيب الخمس، لا مطلق إنزال الغيث الوارد في الآية الكريمة[1].

وهنا يرد السؤال ما هو (غيض الأرحام)؟

يطلق الغيض في اللغة على: النقص والغور، والذهاب، والنضوب. وقد جاء في المعاجم اللغوية: غاض الماء غيضًا ومغاضًا ومغيضًا: قل ونقص، أو غار فذهب، أو قل ونضب، أو نزل في الأرض وغاب فيها. وغاضت الدرة: احتبس لبنها ونقص[2].

وقد دار تفسير العلماء لـ (غيض الأرحام) حول معنيين:

الأول: الدم الذي ينزل على المرأة الحامل.

والثاني: هو السقط الناقص للأجنة قبل تمام خلقها.

إذن يمكننا القول بأن السقط المفسر للغيض والمراد في كلام علماء اللغة والتفسير هو: الجنين الذي سقط من بطن أمه قبل اكتمال خلقه، أو هو الجنين الذي

(١) مفاتح الغيب وعلم ما في الأرحام، مقال للدكتور عبد الجواد محمد الصاوي، بمجلة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تصدرها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، العدد ٢٨ ص٣٣.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٦٨-٦٦٩.

يهلك في الرحم، ويتحلل ويغور وتختفي آثاره منها، ويصدق عليه أن الرحم تبتلعه كما تبتلع الأرض الماء[1].

وعلم الأجنة الحديث يجلي الحقيقة؛ حيث يقول علماء الأجنة: عندما تهلك الأجنة في الأسابيع الثمانية الأولى من عمرها، إما أن تسقط خارج الرحم، أو تتحلل وتختفي تماما من داخله، ويسمي علماء الأجنة هذا الهلاك بصورتيه: الإسقاط التلقائي المبكر. وهو متوافق تمامًا مع أقوال علماء اللغة والتفسير في تعريفهم للغيض.

وعليه يمكننا أن نقول: إن (غيض الأرحام) هو الإسقاط التلقائي المبكر. وهو الذي يحدث خلال الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل، وهو ظاهرة شائعة، ونسبة حدوثه كبيرة، إذ تصل إلى حوالي ٦٠٪، في الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل.

وفي عدة مشاهدات للسقط المبكر لم يكن الجنين موجودًا، أي: إن الجنين قد تحلل واختفى داخل الرحم. وعدم رؤية جنينٍ في حويصلة الحمل، يسمى: (كيس الحمل الفارغ).

وتمثل هذه الحالات حوالي نصف حالات السقط التلقائي المبكر، وبعد اكتشاف جهاز الأشعة فوق الصوتية واستخدامه في تشخيص الحمل ومتابعته، تأكدت حالات غور الأجنة واختفائها من داخل الأرحام[2]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٥٩-٣٦٥، ومعالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٩٧-٢٩٨.
وانظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد علي البار، ص ٦٩-٨٢.

(٢) مجلة الإعجاز العلمي في القرآن، مقال الدكتور عبد الجواد الصاوي ص ٣٥، و له أيضًا: غيض القرآن بمجلة الفرقان الأردنية، العدد ٥٢، جمادى الأولى ٢٠٠٦م.

نتائج الإيمان بالغيب أو إنكاره

إن الإيمان بكل الأركان وعلى رأسها الركن الأول والأعظم فيها وهو الإيمان بالله تعالى، إنما هو إيمان بالغيب. إن هذا الإيمان يثمر في نفس الإنسان ثمراتٍ كثيرةً، وله آثاره العظيمة، على مستوى الفرد والأسرة والجماعة، في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة، فكل آثار الإيمان بالله تعالى وتوحيده هي آثار للإيمان بالغيب، و كل ما نجده من خير واستقامة وسعادة وتقدم و إبداع، وكل ما يتطلع الإنسان إليه من القيم و الأخلاق العالية كالتوكل على الله، و اليقين، والعلم، والصدق، والخوف من الله، والرضا، والرجاء، وغير ذلك، هذا كله وأضعافه، إنما هو أثر من آثار الإيمان بالغيب!

وعلى الجانب الآخر؛ عندما يتنكر الإنسان للإيمان بالغيب، تختلف الصورة، وتختلف النتيجة، فكل ما تعاني منه البشرية، على مستوى الفرد والجماعة والأمة، في كل المجالات، من أمراض ومساوئ ومفاسد وأدواء، كاتباع الشهوات والركون للدنيا، والشقاء والاضطراب النفسي و الاجتماعي، والقلق ونحوه، علاوة على التمزق النفسي والضياع والتيه، وإطفاء نور الفطرة التي فطر الله تعالى الإنسان عليها، مع ما ينتظره من الخلود في النار في الآخرة. كل هذا وغيره، إنما هو أثر ونتيجة لهذا الإنكار والإلحاد.

وفيما يلي نتحدث عن: ثمرات الإيمان بالغيب، وبعض نتائج إنكار الغيب، بحسب ما يسمح به المقام.

أولًا: ثمرات الإيمان بالغيب:

١ . تحقيق إنسانية الإنسان وكرامته.

جعل الله تعالى الإنسان أكرم المخلوقات وفضله عليها جميعها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا التكريم الإلهي للإنسان يتجلى في صور كثيرة، يأتي على رأسها فطرة الإيمان بالغيب ومالا تدركه الحواس، والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس -أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس-.

وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء

الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود. وأن وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه، وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة، ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان -كجماعة الماديين في كل زمان- يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى، إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا (تقدمية)، وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة، صفة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣][(١)].

٢. الاستقامة وتربية الشعور الديني.

الإيمان بالغيب هو الأساس والركن الذي يقوم عليه الشعور الديني والمراقبة لله تعالى والالتزام بالأحكام الشرعية والأوامر الإلهية، وذلك يؤهل المؤمن للوقوف أمام محكمة الضمير أو النفس اللوامة التي أقسم الله تعالى بها، وهو سبحانه لا يقسم إلا بما هو عظيم، فقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢].

وهي محكمة باطنية، بينما محكمة المجتمع محكمة سطحية ظاهرية لا تتناول من أعمالنا إلا ما يقع تحت السمع والبصر، و لا تتناول من هذه الأعمال إلا ما يصل إلى علمها، فهل هناك محكمة تحيط بظواهرنا و بواطننا، ولا يخفى عليها شيء من أمرنا، و إن بعدنا عن أعين الرقباء؟ نعم! تلك هي المحكمة الإلهية العليا[(٢)].

إن تربية الشعور الديني هي الدافع للاستقامة وحسن السلوك، وهي الضابط الذي يعصمنا من الجريمة ومن ارتكاب الحرام ومن مخالفة الأوامر، فاستقرار الإيمان في النفس البشرية هو سببٌ واضح في عدم مخالفة الأوامر التي يأمر بها الشارع

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١١٨-١١٩.
(٢) دراسات إسلامية، محمد عبد الله دراز، ص٧٣-٧٨.

وهو الله -عزوجل-، حتى إن لم يكن هناك أي رقابة خارجية، فالإيمان بالله ومراقبته في السر والعلن والالتزام بأوامره تقوي علاقة الإنسان بربه، وتجعله يستشعر مراقبة الله تعالى له في كل تصرف من تصرفاته.

وهناك أمثلة من الواقع التاريخي تدل على سلطة الايمان في الاستقامة والبعد عن المأثم. ونذكر هنا مثالًا على ذلك، وهو تحريم الخمر في الإسلام، وذلك بمجرد نزول الأمر القاطع في ذلك، بينما فشلت في ذلك أكبر النظم المعاصرة رغم تقدمها المادي والعلمي؛ لأنها لا تقوم على الإيمان، أو لا تنظر إلى حلال أو حرام فيما تشرعه من قوانين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩٣].

لقد تمت هذه المعجزة التشريعية؛ لأن المنهج الرباني أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة، أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته، وبحضور الله سبحانه فيها حضورًا لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان أخذها جملة لا تفاريق، وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة[1].

٣. محاسبة النفس والاستعداد للحساب.

إن إيمان المرء بالله تعالى، وإيمانه بكل ما ينطوي عليه من أمر الغيب، له أثره في عمق الشعور بتقوى الله وخشيته، والخوف من حسابه يوم القيامة، ويترتب على ذلك انضباط السلوك وحساسية الضمير تجاه مسئولية الإنسان عن أعماله. فإن الإسلام يرسي قاعدة المسئولية بأوسع معانيها، فهي تشمل الفرد و الجماعة، والحاكم والمحكوم، وتكون هذه المسئولية أمام محكمة الضمير أو الوجدان، كما تكون أمام الرأي العام في الجماعة، وأعلى من هذا كله المسئولية أمام الله تعالى، وهي تقتضي الاستعداد لهذا الحساب الدقيق.

وللدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله كلمةٌ في بيان المحكمة التي سنقف أمامها للمسئولية ونقدم فيها الحساب لمعرفة أثر ذلك في التربية والتهذيب والاستقامة. يقول

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسمين، أبو الحسن الندوي، ص ٩٣، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٦٣-٦٦٦.

رحمه الله: «إن القرآن الكريم يضعنا أمام سلطة ثلاثية كأنه يقول لنا: تصوروا أنفسكم في نقطة مركزية تحيط بكم ثلاث دوائر مدرجة الاتساع، و تصوروا أنه قد خرج من كل دائرة سهام أو أنصاف أوتار متجهة نحو هذا المركز، هي أشعة العين التي تراقبكم. انظروا في أنفسكم تجدوا محكمة، وانظروا من حولكم تجدوا محكمة، وانظروا فوقكم تجدوا محكمة، محكمة الضمير في قلوبكم، ومحكمة البشر من حولكم، ومحكمة السماء من فوقكم، و لكل واحدة منها أمانة في أعناقكم سنحاسبكم عليها»[1].

اقرءوا -إن شئتم- قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهذا الاستعداد للحساب لا يقتصر على الحياة الفردية، بل يمتد ليشمل مستوياتٍ أوسع وأعلى، فإن إمام المسلمين، أو رئيس الدولة بالتعبير المعاصر، كذلك يكون أكثر محاسبة للنفس واستعدادًا للحساب يوم القيامة؛ لأنه يشعر بعظم المسئولية وأهمية الولاية، فإن الولاية العامة أمانةٌ توجب المسئولية الدينية أمام الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وهذا الذي جعل الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقف ليحاسب نفسه وليعلن أنه مسئول، في كلمات كثيرة مأثورة عنه، و في وقائع عملية شاهدة. وحسبنا ما قاله لجرير بن عبد الله البجلي: «يا جرير إني قاسمٌ مسئولٌ، ولو أن سخلةً بالعراق عثرت لخفت أن يسألني الله عنها: لم لم تسو لها الطريق»[2]. وغيرها من النصوص عن الخلفاء الراشدين كثيرة متوافرة، و الوقائع العملية التطبيقية شاهدة ناطقة. وما ذاك إلا ثمرة من ثمرات الإيمان بالله تعالى و بالحساب والجزاء.

٤. أثره في سلوك الفرد والجماعة: القيم والغايات.

(١) انظر: دراسات إسلامية، محمد عبد الله دراز، ص٧٣-٧٨.

(٢) أخرجه أبو يوسف في الخراج، ص١٢٧، وابن الجوزي في سيرة عمر بن الخطاب، ص١١٣.

حين يؤمن الإنسان بالغيب، فيؤمن باليوم الآخر وهو غيب، ويؤمن بالجنة والنار، وهو إيمان بالغيب -كما تقدم- ويؤمن بالجزاء والحساب، حين يؤمن بهذا كله إيمان اليقين، نستطيع أن ندرك أهمية هذا فى سلوك الفرد وسلوك الجماعة إذا عرفنا نفسية الشخص الذى لا يؤمن بالآخرة وطبيعة تصوره للحياة الدنيا وطريقة شعوره بها. إن الحياة الدنيا فى حسه هى الأولى والأخيرة، والعمر فرصة واحدة إن لم تنتهب فسوف تضيع! وإذا كان العمر -مهما طال - محدودًا بسنوات، ولذائذ الحس كثيرة ومتنوعة، فالبدار البدار!

هكذا تكون القضية فى حس الذى لا يؤمن باليوم الآخر. فرصة وحيدة محدودة ينبغى أن تنتهز ويؤخذ فيها أكبر قدر من الملذات؛ ولذلك تتكالب الجاهليات دائمًا على متاع الأرض وتتصارع عليه، وتنحصر اهتماماتها فى حدود الدنيا.

والجاهلية المعاصرة نموذج لما نقول، فما الذى يشغل الأفراد فيها ويشغل الجماعات؟

أما الفرد فهو يعمل وينتج ليحصل على أكبر قدر يستطيع الحصول عليه من المال، ثم ينفق هذا المال فى الحصول على أكبر قدر من المتاع، يستوى فى حسه أن يكون من المتاع الحلال أو الحرام! بل إن فكرة الحرام لا تخطر على باله على سبيل الجد! فالأصل عنده هو الاستمتاع، قبل أن تفوت الفرصة التى إن مضت لا تعود! فما معنى الحرام فى حسه؟! إنه ليس إلا قيدًا على المتاع! وهو قيد - فى نظره- غير معقول ولا موجب له؛ لأنه يضيع الفرص المحدودة التى لن تعود!

لذلك أيضًا فإن قيد الأخلاق وقيد الضمير وقيد المشاعر الإنسانية كلها قيود غير معقولة، كقيد الحرام سواء بسواء! ومن ثم تفسد الأخلاق فى الجاهليات، ويضعف وازع المضير وتحل المصلحة محله. أما المشاعر الإنسانية والقيم العليا فتعد سخفًا وسذاجة لا تليق بإنسان عاقل، إذا هى فوتت عليه فرصة المتاع!

أما الأمم والجماعات، فقصتها لا تختلف كثيرًا عن قصة الفرد، فكل جماعة همها الحصول على أكبر قدر من المتاع (أو المزايا بتعبيرهم!) على حساب جماعة أخرى! وكل أمة همها أن تتغلب على أمة أخرى؛ لتسلبها حظها من المتاع وتأخذه لنفسها فتنشأ من ذلك الصراعات والحروب.

وأين القيم العليا؟ وأين حقوق الإنسان؟ وأين الضمير العالمي؟ وأين العهود والمواثيق؟ وأين التعاون فى سبيل الخير؟ وأين العدل؟ وأين الإخاء والمساواة؟

إنها كلها -فى الجاهلية- ألفاظ! يلوكها الناس نفاقًا ورياء، فإذا ﴿خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]! لأنها كلها معوقات عن المتاع فى الفرصة والوحيدة المتاحة للمتاع!

ويتقاتل الناس، ويموت منهم من يموت، ولكنهم يموتون وهم يقاتلون فى سبيل هذا المتاع الأرضي، فإذا قيل لهم: تعالوا قاتلوا فى سبيل الله، أو فى سبيل الحق المجرد الذى لا مصلحة لهم فيه مباشرة، هزوا أكتافهم وأعرضوا عنك، إن لم يهبوا لمقاتلتك أنت؛ لأنك تدعوهم إلى شيء يفسد عليهم مصالح الدنيا ومتاع الأرض!

ومن ثم تهبط القيم فى الجاهليات وتنحصر الآفاق، كما يضعف الضمير وتفسد الأخلاق. إنه لا شيء يرفع الإنسان من ثقلة الأرض -بعد الإيمان بالله- إلا الإيمان باليوم الأخر. الإيمان بأن كل متاع زائد يتنازل عنه الإنسان فى الحياة الدنيا -طاعة لله والتزامًا بأمره- يعوض عنه فى الآخرة متاعًا أشف وأعلى وأخلد وأبقى. والإيمان فى ذات الوقت بأن كل خروج على أمر الله فى الحياة الدنيا -من أجل متاع الأرض الزائل- سيجازى عليه فى الآخرة عذابًا ليس فى طوق البشر احتماله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

أما حين يؤمن الإنسان بالغيب، فيؤمن باليوم الآخر وبما أعد الله تعالى للمؤمنين في الجنة، فإن القضية تحسم فى حسه حسمًا كاملًا وتستقر الأمور، فكل نعيم فى الدنيا لا يقاس إلى نعيم الآخرة، ولا يساوي من جهة أخرى غمسةً واحدة فى العذاب من أجله، وكل عذابٍ فى الدنيا -فى سبيل الله- لا يقاس إلى عذاب الآخرة ولا يوازي من جهة أخرى غمسة واحدة من أجله فى النعيم. وعندئذ يقدر الإنسان على موازنة ثقلة الأرض، ويقدر على الارتفاع إلى القيم العليا والأخلاق الفاضلة والمثل الرفيعة؛ لأن يوقن بالجزاء الذى سوف يناله على ذلك كله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

٥. الخلود في جنات النعيم.

إن أعظم ثمرات الإيمان بالغيب، -وأركان الإيمان إنما هي في حقيقة الأمر إيمان بالغيب- هي دخول النعيم والخلود فيها أبدًا، ويرسم القرآن الكريم صورًا وضيئة وجميلة للمؤمنين يعرض فيها خصالهم وأحوالهم، وأثر الإيمان فى قلوبهم

وسلوكهم، تجعلنا نحبهم ونحب أن نكون منهم؛ لتنطبق علينا تلك الأوصاف الجميلة، ولنحظى برضا الله فى الدنيا والآخرة.

وهذه الصور والأوصاف كثيرة فى القرآن؛ لأن فيها دروسًا تربوية يربينا بها الله سبحانه وتعالى حتى تستقيم فطرتنا ويستقيم سلوكنا وتصلح أحوالنا. وإليك بعض النماذج منها:

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩-٢٤].

تبدأ الآيات بموازنة بين المؤمنين والكافرين يتبين منها لأول وهلة أنهم مفترقون بعضهم عن بعض فى صفاتهم ومقومات حياتهم وفكرهم. والقرآن يصف المؤمنين بأنهم هم الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق، بينما يصف الأخرين بأنهم عمى. ثم يسأل هذا السؤال الإنكاري (أي الذى جوابه دائمًا: لا) ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]؟ والجواب لابد أن يكون: لا! فمن يقول: إن الأعمى كالبصير، وإن من يعلم كمن لا يعلم؟!

والتعبير القرآنى الجميل يوحي إلينا بأن من يعلم أن القرآن والوحي حق هو المبصر، الذى يسير فى الطريق على نور، ولا يتخبط فى سيره؛ لأنه يرى ما حوله، بينما الذى يشك فى الوحي ولا يتبعه هو الأعمى الذى يتخبط فى الطريق؛ لأنه لا يراه. وهذه حقيقة، فإن المؤمن يعرف -من وحي إيمانه- ما هى غايته فى الحياة، وما الطريق الذى ينبغي أن يسلكه ليصل إلى غايته. فغايته هى إرضاء الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه، ووسيلته هي الأعمال الصالحة، هي الطاعة لأوامر الله. بينما الكافر لا يعرف لماذا يعيش، إلا لإرضاء ملذاته القريبة، غافلًا عن النهاية التي تنتظره فى آخر الطريق.

ثم تجيء الصفات التي يتصف بها هؤلاء المؤمنون الذين يستحقون دخول الجنة، إن الصفة الكبرى التى يتصف بها أولئك العالمون بأن القرآن حق هى أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ولا تحدد الآية عهدًا معينًا ولا ميثاقًا معينًا، إنما تشمل كل عهد وكل ميثاق مع الله. والعهد الأكبر هو الذي أودعه الله في الفطرة وأشهد الفطرة عليه، وهو عبادة الله الواحد بلا شريك:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا تنتهي صفة المؤمنين بأنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، بل يستمر السياق فيصفهم بأنهم: يصلون كل ما أمر الله به أن يوصل بإطلاق وعموم وشمول، ومع القيام بهذه الصلات التى أمر الله بوصلها فهم يخشون ربهم، وهي خشية بالغيب، وهذه الخشية تجعلهم يتصرفون فى أمورهم بما يرضي الله، فيتعاملون بالصدق والأمانة والإخلاص؛ خشية أن يغضب الله عليهم، وكذلك يخافون سوء الحساب، فيتجنبون الأعمال والأقوال التى تعرضهم للحساب الشديد، مع سائر ما وصفهم الله تعالى به من صفات.

ثم يرتب الله تعالى على ذلك كله هذا الجزاء العظيم الذي يتطلع إليه المؤمنون، وياله من جزاء! ويالها من جائزة جميلة على السلوك الجميل! تتجاوزهم لتصل إلى من صلح من الآباء والأزواج و الذريات. ثم يكون التكريم والفضل الآخر العظيم والاحتفاء الكبير: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢-٢٤].

وحسبنا في هذا المقام هذه الإشارة التي تومئ إلى الآيات الكريمة التي تتضافر لتدل على هذا الأثر للإيمان في الخلود بجنات النعيم، ونسأله تعالى الجنة وما يقرب إليه من قول أو عمل أو اعتقاد.

ثانيًا: نتائج إنكار الغيب:

١. إنكار الغيب إلحادٌ ونقصٌ في العلم، وعائقٌ أمام التقدم العلمي.

إن التنكر للغيب وجحوده من قبل الماديين، يبدو في مفهوم العلم المادي الحديث جهلًا وضلالًا وبعدًا عن العلم والحق؛ لأن العلم المادي لا يستطيع أن يحكم على الغيب؛ لأنه خارج عن مجاله، فلا يجوز علميًا إنكار شيء لأجل أنه غير مشاهد أو غير محس، أو لأنه غير قابل للتفسير.

يقول الدكتور ألكسيس كاريل: «وإذن فقد سجن الإنسان نفسه بطريقة تحكمية في حدود حواسه الخمس منذ عصر النهضة (الأوربية). أما اليوم: فنحن نعرف الكثير من ظواهر التليباثي أو (انتقال الأفكار) التي لا تقبل النقض[1]. ولا شك أن طبيعة

(١) كنداء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة المنورة لسارية بن زنيم في العراق عندما كان على رأس جيش الفتح لبعض البلاد.فبينما عمر يخطب جعل ينادي: «يا

التليباثي ورؤية الماضي والتنبؤ بالمستقبل لا تزال غير معروفة في أيامنا هذه، كما كانت في عهد أرسطو، ولكنا نعلم أنه لا يجوز لنا بحالٍ ما أن ننكر ظاهرة لمجرد أنها غير قابلة للتفسير أو عسيرة على الملاحظة»[1].

وبمقدار ما وهب الله تعالى الإنسان من القدرة على إدراك قوانين المادة، و التعرف على طاقات الكون ومذخوراته، بمقدار ما حجب عنه من أسرار هذا الوجود وخفاياه؛ ولذلك نجد الذين يتشدقون بالعلم والمنهج العلمي اليوم، لينكروا الغيب أو ما وراء عالم الحس والمادة، نجدهم متناقضين مع العلم الذي يفرحون به؛ لأن العلم نفسه يقف أمام كثير من الظواهر لا يستطيع لها تفسيرًا ماديًا، وإنما يخضعون فيها لقدر غيبي، جعله الله تعالى جزءًا من نواميس الكون.

ويؤكد هذا ويوضح مبدأ عدم التأكد (نظرية هيزنبرغ) الذي أسهم بمشاركة مهمة في تركيب الذرة، فقد توصل من خلال أبحاثه النظرية على التركيب الذري، إلى مبدأ عدم التأكد الذي ينص على «استحالة تعيين موقع الإلكترون وسرعته معًا وبدقة». وفي ضوء هذا المبدأ يلاحظ أن المنهج العلمي التجريبي نفسه يقوم على الاحتمال، فهو يفترض أشياء وتجارب خيالية مستحيلة ثم يبني عليها نظريات معينة[2].

وهذا كله وغيره أيضًا يؤكد أن إنكار الغيب إلحادٌ ونقصٌ في العلم وعائق أمام التقدم العلمي، فلو كان الإيمان بالغيب والتطلع إليه عنصرًا من عناصر الفكرة الدينية أو العقيدة وحدها، لكان الإنكار للغيب وما وراء الحس إلحادًا فحسب، ولو كانت هي النتيجة الختامية لتقدم العلوم واتساع أفقها لكان هذا الإنكار نقصًا في العلم وقصرًا في النظر وكفى. ولكن تلك الفطرة للإيمان بالغيب بنت الغريزة و الجبلة، فالأمر أعظم من النقص في العلم، إنه نكسة في فطرة الإنسان ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم[3].

٢. اتباع الهوى والشهوات والركون للدنيا.

ساري الجبل ثلاثًا! ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديًا: يا سارية الجبل، ثلاثًا، فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله.فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك».
انظر:البداية والنهاية، ابن كثير ٧/ ١٣١، والسلسلة الصحيحة، الألباني ٣/ ١٠١.

(١) تأملات في سلوك الإنسان، إلكسيس كاريل، ص ١٦٢.

(٢) انظر: الكيمياء العامة تفاعل المادة، الطاقة، الإنسان، تأليف فريدريك لونجو، ترجمة مروان كمال ومجموعة أساتذة جامعيين، ص ٦٦-٦٨، عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي، عثمان جمعة ضميرية، ص٥٧-٦١.

(٣) انظر: الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، ص٩٥.

عندما يغيب الإيمان بالغيب، وعندما يغفل الإنسان عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، عندئذ يقع الإنسان فريسة الأمراض التي تصيب الفطرة البشرية، فيغلب عليه اتباع الهوى والشهوات التي تجعل الإنسان عبدًا لها، وتسيطر عليه فلا يستطيع الخلاص منها، وهي التي تورده المهالك وتنزل فيه بالدركات.

ذلك أن دين الله المنزل يشمل دائمًا أحكامًا إلهية يأمر الله تعالى البشر أن يلتزموا بها وينفذوها؛ لتستقيم حياتهم وتتوازن. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ولكن حين يغلب عليها الهوى وحب الشهوات فإنها تضيق بما أنزل الله، وتحب أن تتبع شهواتها. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومن أجل هذه الشهوات يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كما يصفهم الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٧-١٠٨].

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وهؤلاء يرفضون الهدى الرباني، ويرفضون أن يعترفوا بالوحي المنزل من عند الله تعالى، ولو استيقنوا في دخيلة أنفسهم أنه الحق؛ لأنهم لو اعترفوا لكان عليهم أن يلتزموا، وهم يكرهون الالتزام بما أنزل الله؛ لأن شهواتهم تغلبهم وتثقل في حسهم؛ لذلك ينكرون أن ما جاء من عند الله هو الحق، ويجادلون فيه بالباطل، ويضعون قواعد وموازين للحياة وللأعمال غير ما قرر الله، ثم يزعمون أنهم هم الذين على الحق، وأن ما يتبعونه من نظم وقواعد وموازين أحق أن يتبع مما أنزل الله، فيقعون

بذلك في الشرك -شرك الاتباع-.

وعلى هذه الصورة، كانت الجاهلية العربية التي ذكرها الله في القرآن ذكرًا مفصلًا في كثير من الآيات الكريمة في السور المكية بخاصة. وعلى هذه الصورة كذلك نجد نماذج كثيرة من الجاهلية المعاصرة التي غرقت في الشهوات إلى أذنيها، ورفضت الاعتراف بالوحي الرباني؛ لأنها تريد أن تتبع أهواءها، ولا تريد أن تلتزم بما أنزل الله[1].

٣. الخلود في النار.

تقدم آنفًا أن أعظم ثمرات الإيمان بالله تعالى والإيمان بالغيب هو دخول جنات النعيم، مع ما أعده الله تعالى للمؤمنين من أنواع مما لا يخطر على قلب بشر. وعلى الضفة الأخرى: فإن إنكار الغيب وجحوده -الذي هو في حقيقته إنكار لله تعالى وإنكار لما أخبر الله به من الغيوب، كالجنة والنار والملائكة- يترتب عليه الخلود في نار جهنم، ولن تنفعه تلك الأعمال التي كان يعملها، ويظن أنها تدفع عنه شيئًا، أو أنها تقبل مع ما هو عليه من ضلال وجحود.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وأبان الله تعالى عن مصيرهم وخلودهم في النار، فقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١- ٧٢].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «لما ذكر الله تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: سوقًا عنيفًا، يضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور.

ويساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي: فرقًا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضًا، ويبرأ بعضهم من بعض. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم

(١) انظر: ركائز الإيمان، محمد قطب، ص ٧٨.

أي: لأجلهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ لقدومهم وقرى لنزولهم. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قَالُوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

فـ﴿قِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس المقر، النار مقرهم؛ وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل، والخزي»[1].

وفي آيات كثيرة جاء النص بصيغة التأبيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨ - ١٦٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٣ - ٦٥].

وفي هذه الآية الكريمة الأخيرة إشارة إلى أن كفر هؤلاء الكفار وما ترتب عليه من تخليد في النار على جهة التأبيد، وليس على جهة المكث الطويل، كما قد تفيده العبارة أحيانًا. في هذا إشارة إلى أن هذا الحكم عليهم بالكفر إنما هو نتيجة تكذيبهم بالساعة، وهي غيب من غيوب كثيرة. والله أعلم.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التقوى، التوحيد، اليوم الآخر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٣٠.

الفتنة

عناصر الموضوع

مفهوم الفتنة	١٤٠
الفتنة في الاستعمال القرآني	١٤١
الألفاظ ذات الصلة	١٤٣
أنواع الفتنة	١٤٥
مجالات الفتنة	١٧٠
الحكمة من الفتنة وسبل النجاة منها	١٨٤
سبل النجاة من الفتن	١٩٣

مفهوم الفتنة

أولًا: المعنى اللغوي:

«الفاء والتاء والنون أصل صحيح يدل على الابتلاء والاختبار»[(١)]، ومن هذا الأصل يقال في اللغة:فتنت الذهب، إذا أدخل النار لينظر ما جودته، وهو مفتون وفتين[(٢)]، ويسمى الصائغ:الفتان لإذابته الذهب والفضة في النار[(٣)].

وقد وردت الفتنة في كلام العرب، وأريد بها عدة معانٍ، منها:الامتحان والاختبار، وتطلق غالبًا على الاختبار من المكروه، والإثم، والكفر، والقتال، والإحراق، والإزالة، والصرف عن الشيء، والمال، والأولاد، واختلاف الناس بالآراء، وتطلق كلمة الفتان على الشيطان[(٤)].

قال الأزهري: «جماع معنى الفتنة في كلام العرب:الابتلاء، والامتحان، وأصلها مأخوذ من قولك:فتنت الفضة والذهب، أذبتهما بالنار ليتميز الردي من الجيد»[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي لكلمة الفتنة عن المعنى اللغوي، ويفهم من معاني الفتنة الواردة في لغة الفصحاء، وفي القرآن والسنة:الاختبار والابتلاء بالعذاب والقتل، والضلال، والكفر، والإثم، والجنون، والإعجاب بالشيء والمرأة[(٦)].

قال الإمام الجرجاني: «الفتنة:ما يتبين به حال الإنسان من الخير والشر»[(٧)]. ويمثل ذلك قال ابن حجر: «وأصل الفتنة الامتحان والاختبار، واستعملت في الشرع في اختبار كشف ما يكره»[(٨)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٧٢.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢١٧٥.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٢٩٨.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٣/ ٤١٠، فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٢٣، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣١٨.
(٥) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٩٦.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣١٧.
(٧) التعريفات، الجرجاني ص٢١٢.
(٨) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ١٧٦.

الفتنة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فتن) في القرآن الكريم (٦٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام:٥٣]
الفعل المضارع	١٢	﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف:٢٧]
اسم الفاعل	١	﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الصافات:١٦١-١٦٢]
اسم المفعول	١	﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ [القلم:٥-٦]
المصدر	٣٥	﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]

وجاءت الفتنة في الاستعمال القرآني على (١٠) أوجه[٢]:

الأول: الكفر والشرك: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣]. يعني: لا يكون شرك. وقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:٤٨]. يعني: ابتغوا الكفر.

الثاني: العذاب في الدنيا: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]. يعني: جعل عذاب الناس في الدنيا كعذاب الله.

الثالث: البلاء: ومنه قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت:٢]. يعني: وهم لا يبتلون في إيمانهم.

الرابع: الحرق بالنار: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج:١٠]. يعني: أحرقوا المؤمنين والمؤمنات في الدنيا.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الفاء، ص٨٦٥-٨٦٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان، ص٦٣-٦٥، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٦٤-٣٦٥.

الخامس: القتل: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:١٠١]. يعني: يقتلكم.

السادس: الصد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩]. يعني: أن يصدوك.

السابع: الضلالة: ومنه قوله تعالى: ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات:١٦٢-١٦٣]. يعني: بمضلين.

الثامن: المعذرة: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام:٢٣]. يعني: ثم لم تكن معذرتهم.

التاسع: الفتنة بعينها: ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:٨٥]. أي: لا تسلط علينا فرعون وقومه فيقولون: لولا أنا أمثل منهم ما كنا سلطنا عليهم، فيكون ذلك فتنة.

العاشر: الجنون: ومنه قوله تعالى: ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ [القلم:٦]. يعني: أيكم المجنون.

الألفاظ ذات الصلة

١ الابتلاء:

الابتلاء لغةً:

التجريب والاختبار، وابتلاه:اختبره، والتبالي:الاختبار[١].

الابتلاء اصطلاحًا:

الاختبار من الله تعالى للعبد المؤمن في حياته ومعاشه؛ حتى يزداد قدره وأجره، إن صبر واحتسب ورضي بقضاء الله تعالى.

وقيل: وهو:اختبار من الله سبحانه وتعالى في أي جهة تخصه، أو تلزمه، وقد يكون في الخير أو الشر، ففي الخير يكون منحة فيتطلب الشكر من الله، وفي الشر يكون محنة فيتطلب الصبر.

الصلة بين الابتلاء والفتنة:

الابتلاء هو الاختبار من الله تعاليللعبد المؤمن، والفتنة أعم من ذلك وأشمل؛ إذ إنها قد تكون من الله تعاليبلا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، وقد تكون من الكافر، كقصة أصحاب الأخدود في فتنة المؤمنين، كما أن الاختبار والابتلاء بالجملة جزء لا يتجزأ من معنى الفتنة ومدلولها.

٢ الاشتباه:

الاشتباه لغة:

التشابه والاشتباه، إذا أشبه كلٌ منهما الآخر؛ حتى التبسا[٢].

الاشتباه اصطلاحًا:

حصول التباس نتيجة تشابه شيئين في أمر ما.

الصلة بين الاشتباه والفتنة:

الاشتباه قد يكون له تأثير سلبي وقد لا يكون، كما أنه من العبد، إضافة إلى أن معناه جزء من المعنى العام للفتنة.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٨٥.

(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٢٤٧.

٣ الحق:

الحق لغة:

هو نقيض الباطل وخلافه، وهو مصدر من حق الشيء إذا ثبت وكان واجبا[١]، ولا يصح إنكاره، يقول ابن فارس: «يدل على إحكام الشيء وصحته[٢]».

الحق اصطلاحًا:

«هو الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل»[٣].

الصلة بين الحق والفتنة:

الحق لا يكون إلا خيرًا واضحًا ناصعًا، والفتنة قد تأتي بخير إذا كانت من عند الله تعالى، وقد تأتي بسوء إذا كانت من العباد، كما أن الفتنة غامضة فيها بين الحق والباطل.

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٦، المصباح المنير، الفيومي ص١٤٣.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٥-١٧ بتصرف.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص٨٩.

أنواع الفتنة

الفتن والمحن بالشر والخير:

دلت النصوص القرآنية أن سنة الفتنة والابتلاء تكون في الخير والشر، كالفقر والغنى، والصحة والمرض، والخوف والأمن.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:٣٥].

قال الزمخشري: «أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر وفتنة: مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه»[(١)].

وقال ابن كثير: «أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط.

قال ابن عباس: «أي بالشدة والرخاء والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال»[(٢)].

ومما يدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر:١٥-١٦].

فجعل الإكرام والنعمة ابتلاء كالتضييق في الرزق سواء، فالمنحة والمحنة كلاهما بلاء

والمؤمن يحتاج إلى الصبر على الاثنين، بل القدرة على البلاء في النعمة أشد، «فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر»[(٣)].

وقال بعض العارفين: «البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي (جمع عافية) لا يصبر عليها إلا صديق»[(٤)].

وقال الإمام الغزالي: «وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة ألا تقدر والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء»[(٥)].

وبهذا يقول المرحوم سيد قطب: «إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث

(١) الكشاف ٣/ ١١٦.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ٢/ ٥٠٧.
(٣) المفردات، الأصفهاني، ص٦١.
(٤) انظر: الصبر في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، ص٤٢.
(٥) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١/ ٧.

المقاومة ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة.

ولذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء، وذلك شأن البشر إلا من عصم الله، فكانوا ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)[1] وهم قليل.

فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر، والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان»[2].

أولًا: الفتنة بالخير:

الابتلاء بالشر معروف ولكن الابتلاء بالخير يحتاج إلى فهم دقيق لا يناله إلا ذوو الألباب.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾ [الزمر:٤٩-٥٠].

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله ويدعوه، وإذا خوله نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ أي: لما يعلم الله استحقاقي له، قوله: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي[3]؟

وقد قالها الذين سبقوهم قالها قارون وكل مخدوع غافلين أنها فتنة للاختبار.

ولعل فتنة الخير تعود كلها إلى «زينة الدنيا» التي تجمع كل خير قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

ذهب الإمام القرطبي إلى «أن الزينة تشمل كل ما على وجه الأرض من جهة خلقه وصنعه وإحكامه»[4].

وما ذاك إلا الابتلاء والاختبار في الزهد بهذه الزينة وعدم الاغترار بها واتخاذها غرضًا للشكر وليس للشهوات والأغراض الفاسدة لأنها زائلة بدليل التعقيب على الآية ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف:٨].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ٣/ ٢٢٩٥، رقم ٢٩٩٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٧٨.
(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ٣/ ٢٢٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٤/ ٣٠٥٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٣١٧-٣١٨.

وزينة الدنيا تعم جميع البشر فالدنيا يهبها الله للمؤمن والكافر ولكن الآخرة للمؤمن فقط، ومن ذلك فتنة العطاء قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:٢٠].

وأكثر المفسرين ومنهم القرطبي والرازي على أن المراد من قوله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنون والكافرون[(١)].

١. فتنة المال.

جاءت فتنة المال متمثلة بمجموعة المشكلات والانحرافات حول تدبير المال والتي تنعكس على حياة البشر أفرادًا ودولًا مسببة فتنًا ومحنًا شتى وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال)[(٢)].

المال والتملك في نظرة الإسلام غريزة فطرية عند الإنسان وهي من أقوى الغرائز لديه، وبدافع هذه الغريزة يسعى الإنسان ويعمل لإشباعها والحصول على ما ترغب فيه.

والمال في نظر الشريعة زينة الدنيا ومتاعها كما أنه وسيلة لا غاية في حد ذاته، أي وسيلة لتحقيق غايات في مقدمتها طاعة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

ولما كان الإنسان بفطرته يحب المال ويسعد بتملكه فإنه لا يشبع منه، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر:٢٠].

وبذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (منهومان لا يشبعان: منهومٌ في العلم لا يشبع منه ومنهومٌ في الدنيا لايشبع منها)[(٣)]، وقال في حديث آخر: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب)[(٤)].

ذكر المال في القرآن الكريم ستًا وسبعين مرة وهذا يدل على اهتمام الإسلام به، كما أنه ذكر مقترنًا بالأولاد والأنفس وهو دليل على أنه لايقل عنهما أهمية يقول تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٤١].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٢١٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٨١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، ٤/ ٥٦٩، رقم ٢٣٣٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٣٠، رقم ٢١٤٨.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب فضل العلم والعالم، ١/ ٨١، رقم ٣٣٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢٥، رقم ٦٦٢٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا، ١/ ٧٢٥، رقم ١٠٤٨.

ويقول تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء:٩٥].

بل ورد ذكر المال قبل النفس في الآيات كلها التي وردا فيها، ولم يتأخر إلا في واحدة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[التوبة:١١١].

وهذا إلفاتٌ صريحٌ إلى أن منزلة المال فوق منزلة النفس، وقد أخر في موضع واحد لأنه في مقام البذل، فالمرء في مجال التضحية يجعل آخر شيء هو أعزشيء عنده![1].

ومع أن المال نعمة إلا أنه - كما أثبتت النصوص - من أشد متع الدنيا فتنةً فتميل النفس إلى الإفراط والاستكثار منه.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

والله الذي فطر الناس يعلم سلطان المال على القلوب فعلى هذا جاءت دعوات الأنبياء إلى القناعة والتخفف من سطوة المال، وجاء التحذير منه مقرونًا بالأجر العظيم في الآخرة، ولكن لايفهم التحذير المتكرر من فتنة المال في القرآن والسنة أن الإسلام عدو له، أو ينظر إليه على أنه شر، أو خطر يجب اجتنابه كما فهم البعض[2].

وقد حدد الإسلام صلة الإنسان بالمال بشكلٍ يجعل منه نعمةً كبرى ووسيلة لإسعاده في الدنيا والآخرة، فأعطاه الحق والحرية في اكتسابه بالطرق المشروعة بالسعي والعمل ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم:٣٩-٤٠].

فهو إذن أداة خاضعة لتصرف الإنسان إن شاء جعله نعمة وفضلًا ورزقًا طيبًا وإن شاء جعله عكس ذلك.

وبالجملة فالإسلام ينظر للمال على أن ملكيته الحقيقية لله، وأن وضع يد الإنسان عليه وضع استخلافٍ وتوكيل، توجب عليه أن يراعي الله فيه من حيث استثماره وإنفاقه على السواء، وذلك بأن يكون المال قوام الأمة كلها وليس لمالكيها فقط، وأن يتخذ وسيلة لقوة الأمة وتماسكها ضد الأعداء،

(١) انظر: السياسة المالية في الإسلام، الخطيب، عبد الكريم، ص ٤٦- ٤٧ ط٢ دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٦م.

(٢) انظر: تلبيس إبليس، ابن الجوزي، ص ١٧١- ١٧٧.
وقد رد على استدلال الحارث المحاسبي والذي تابعه فيه أبوحامد الغزالي بحديث أبي ذر مع كعب الاحبار عند موت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وقال إن الحديث غير صحيح لأن أبا ذر توفي سنة ٢٥هـ وعبدالرحمن بن عوف توفي سنة ٣٢هـ.

وهناك آيات تدل على أن صلاح الأمة مرتبطٌ برعاية الله في شؤون المال قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥].

وفتنة المال تكون بالخير والشر، وأهم فتن المال:

- فتنة الغنى وآثاره.

الغنى هو امتلاك المال الفائض عن الحاجة، والمال نعمة من الله بها على عباده فقال: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٢].

كما سماه القرآن خيرًا فقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة:١٨٠].

وفي الغنى فوائد دينية ودنيوية، فهو عونٌ على الدين، فالغني ينفق على نفسه ويستعين بالمال على العبادة كالحج والجهاد، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة، كما أن الغني يتصدق على غيره وينفع عامة المسلمين كبناء المساجد والقناطر والوقف، وكان بعض السلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء، وإنما قنع بعضهم باليسير منه إيثارًا للعبادات.

والمال نعمة خصوصًا عندما يكون في يدٍ تعرف حقه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[1].

ولكن قد يكون الغنى فتنة ونقمة، وهو الغالب، يدل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال)[2]. وهذه الفتنة تكون من وجوه:

١. توهم رضا الله عنه.

فقد يخيل للغني أن غناه منحة إلهية تدل على الرضا العالي وأن السعادة لاتقوم إلا به، وقد نفى القرآن ذلك وسمى كلًا من الغنى والفقر ابتلاء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر:١٥-١٦].

كما بين القرآن أنه لولا الفتنة على ضعاف النفوس لقصر الغنى والجاه على الكفار، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ١٩٧.
وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة، رقم ٣٧٥٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، ٤/ ٥٦٩، رقم ٢٣٣٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٣٠، رقم ٢١٤٨.

﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥].

ومن هنا يتبين أن «ليس للمال دلالة معنوية مجردة على خير أو شر وإن كان من الممكن أن يكون خيرًا، ومن الممكن أن يكون شرًا على حسب الطرق التي يؤخذ منها أو ينفق فيها»[1] وصدق القائل: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

٢. عدم أداء حق المال.

وذلك في حالات:

- إمساك المال وعدم إنفاقه: وإمساك المال ممحقٌ للمال مذهبٌ للبركة يؤيده قوله صلى الله عليه وسلم: (ما نقص مال من صدقه)[2]. وقد يؤدي إمساك المال بصاحبه إلى عدم أداء حقه وقد يكون ذلك سببًا في محقه.
- كنز المال: هو جمع المال وادخاره، والكنز: المال المدفون، وقال الراغب: الكنز: جعل المال بعضه على بعض وحفظه[3].

وقد حذر القرآن منه فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة:٣٤-٣٥].

وتدل الآية على حرص الإسلام على تداول الثروة في المجتمع وعدم حبسها لتعم منفعتها الجميع لقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:٧].

٣. اللهو والصرف عن العبادة.

وإن كان الإسلام يعد العمل عبادة، إلا أن الإفراط في حب المال وجمعه بحيث يطغى على القلب فيجر صاحبه للتقصير حتى في أداء الفروض، وهذا هو موطن الفتنة، أو يصبح المال كل همه وتفكيره دون ذكر الله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

٤. البطر والتجبر والطغيان.

كما قال تعالى في المال عندما يفيض فيغرق صاحبه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق:٦-٧].

والله العارف بمن خلق يعلم بغي الغني فيقول: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧].

(١) الإسلام وأوضاعنا الإقتصادية، محمد الغزالي، ص ١٥٤.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/٥٦١، رقم ١٨٠٣١، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/٥٨، رقم ٣٠٢٤.
(٣) انظر المفردات، الراغب ص ٧٢٧.

٥. الإغراء بالمعاصي.

لأن فيه القدرة على ذلك والمال نوع من القدرة وخصوصًا عند ضعاف الإيمان وهنا يثبت الابتلاء حيث فتنة السراء أعظم من الضراء فقد يجمع الغني بين كثير مما ذكرنا فيصل إلى حد المترفين الذين يشكلون خطرًا على المجتمع.

وقد نبه القرآن إلى خطورة هؤلاء فذكر أن أول عاداتهم المسارعة في تكذيب الحق والرسل ورد الحق الذي جاءوا به استدلالًا بما لديهم فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ:٣٤-٣٦].

قال ابن كثير: «وهم أولو الحسب والنعمة والثروة والرياسة»[(١)]، أي أن حجتهم في التكذيب أنهم أكثر من غيرهم أموالًا وأولادًا وهذا دليل على كرامتهم على الله فرد عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ﴾ وقال في أخرى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ:٣٧].

وتكرار مثل هذه الآيات يدل على أن تكذيب الرسل من قبل المترفين سنة مطردة، وقد فصل القرآن مواقفهم هذه تجاه كل نبي فقد تشابه ردهم وكأنهم يشعرون بعاطفة واحدة ويدافعون عن مصلحة واحدة[(٢)].

كما قرر القرآن الكريم أن الترف سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء:١٦].

قال الزمخشري: «والأمر مجاز: لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبًا فجعلوها ذريعة الى المعاصي واتباع الشهوات وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير فلما فسقوا حق عليهم القول فدمرهم»[(٣)].

٦. فتنة سوء استخدام المال.

ويظهر ذلك في ناحيتين:

أ. الفتنة في سوء الكسب.

ويتمثل في الحالات الآتية:

١. كسب المال بغير حق.

وذلك مثل السرقة والنهب والغصب والسطو وقطع الطريق والغلول (وهو سرقة أموال العامة)[(٤)]، ولكل ذلك أدلته في

(١) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني ٣/ ١٣٢-١٣٣.

(٢) انظر الإسلام وأوضاعنا الإقتصادية، الشيخ الغزالي، ص٤٤-٥٧.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٥٤.

(٤) ويطلق في الاصل على سرقة غنائم الحرب

التحريم والنهي، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة:٣٨].

وقد جمع ذلك كله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

ويدخل في ذلك الغش والاحتيال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من غشنا فليس منا)[1].

ومثله تطفيف الكيل والميزان لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ [المطففين:١].

ومنه أكل مال اليتيم حيث شدد الشرع في تحريمه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠].

وكذلك الاحتكار، ومثله التلاعب بالأسعار من قبل التجار وفي هذه الحالة تقدم مصلحة المجموع ويباح التسعير لوقاية المجتمع من المستغلين الجشعين ومعاملتهم بنقيض مقصودهم كما تقر القواعد والأصول[2].

٢. الكسب غير المشروع ولو برضا الطرفين.

وذلك مثل:

- الرشوة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة:١٨٨].

وعن ثوبان قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي)[3].

- القمار والميسر.

وحرم لأنه تملك مال غير مقترن بجهد، ورضا الطرف الآخر لا عبرة به، لأن كلًا من الطرفين قصد الربح، فيسبب العداوة والبغضاء ويصد عن واجبات الإسلام لأن هدفه الربح بأقرب الطرق وغالبًا ما يخالطه المجون والفساد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ

قبل أن تقسم على المجاهدين من قبل الحاكم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «من غشنا فليس منا»، رقم ١٦٤، ١/ ٩٩.

(٢) الحلال والحرام في الإسلام، القرضاوي، ص ٢٣٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في كراهية الرشوة، ٢/ ٩، رقم ٣٥٨٠، والترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، ٣/ ٦٢٢، رقم ١٣٣٦، وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب التغليض في الحيف والرشوة، ٢/ ٧٧٥، رقم ٢٣١٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩١٠، رقم ٥١١٤.

عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وكذلك اليانصيب وما شاكله هو ضرب من القمار.

٣. العقود المحرمة.

إن الأصل في العقود والشروط والبيوع الجواز والصحة، ولا يحرم و يبطل منها إلا ما دل على ذلك نص أو قياس[١]، والعقود المنصوص على حرمتها مجالها كتب الفقه.

٤. الكسب مقابل فعلٍ محرم.

مثل التجارة بالمحرمات كالخمور والمخدرات إنتاجًا وبيعًا وترويجًا، وبيع الخنزير، وكل عمل محرم كامتهان الكهانة والترويج للفاحشة عن طريق الصحف والمجلات ووسائل الدعاية الأخرى. ولاشك أن كل ذلك يؤثر في فساد الأخلاق والأمراض والتفكك الإجتماعي، وأكل أموال الناس بالباطل وإثراء فئة ضالة.

٥. تزييف العملة وترويجها.

وقد نبه إلى ذلك حجة الإسلام الإمام الغزالي عند ذكره لانواع الأمور المحرمة[٢].

ب. الفتنة في الإنفاق.

إن قضية الإنفاق وكيفيته ووجوهه لا تقل أهمية عن قضية الكسب ووسائله، وذلك لأن إنفاق المال يحتاج الى الحكمة والعقل التي يحتاجهما في كيفية الحصول عليه

فالذي يتحرى الحلال والكسب الطيب عليه كذلك أن ينفقه في وجوه وطرق سليمة نافعة وغير ضارة، ولا يتأتى ذلك إلا بمعرفة أحكام الإسلام ونظرته إلى المال على أنه مال لله وهو الوكيل والمستخلف فيه، ومحاسبٌ على إنفاقه، وأنه نعمة إذا لم يحسن التصرف فيها تنقلب نقمة وفتنة تستوجب الحساب في الآخرة وزوالها محتمل في الدنيا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن ماله مم اكتسبه وفيم أنفقه)[٣].

ويقول الحسن البصري رضي الله عنه: «إذا أردتم أن تعرفوا من أين اكتسب الرجل ماله فانظروا فيم أنفقه»[٤].

وفي طرق الإنفاق التي حددها الإسلام يكون قد وضع الأسس والضوابط القويمة للحفاظ على المال والمكتسبات بإنفاقها

(١) انظر: النظرية الإقتصادية في الإسلام، فكري أحمد نعمان، ص ٢٩٤.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الامام الغزالي، ٢/ ١١٧.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ٤/ ٩٥ رقم ٢٥٣٢ وقال: هذا حديث صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٢١، رقم ٧٣٠٠.

(٤) السياسة المالية في الإسلام وصلتها بالمعاملات المعاصرة، عبد الكريم الخطيب، ص٢١٢.

في محلها المشروع وهذه الأسس هي[1]:

١. تطهيرها بالزكاة بالإنفاق على الفقراء وذوي الحاجات.

ويكون الإنفاق من الكسب الطيب كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة:٢٦٧].

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيب لا يقبل الا طيبًا)[2].

٢. الإنفاق على الأهل.

من الوالد والولد وذوي القربى بحسب القدرة والحاجة التي تدور بين الضرورات والحاجيات والتحسينات، ولا يتوسع بها لحد الترف المؤدي للضياع.

٣. الصدقة الموصولة على أصحاب الحاجات.

وإذا ساءت الأحوال فعليهم أن يسدوا خلة إخوانهم كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

٤. الاعتدال في الإنفاق.

كما دعت اليه النصوص الكثيرة والتي تمثل الوسطية ومثالية الإسلام، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان:٦٧].

وفي الحديث: (كلوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة)[3].

ويدخل في ذلك تحريم كنز المال الذي سبق الكلام عنه. وإذا كان الاعتدال مطلوبًا على مستوى الأفراد ففي الأموال العامة أكثر أهمية، وأولياء الأمر أمناء عليه.

٥. الرشد والأمانة فيمن يتولى الإنفاق.

والرشد ضد السفه قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء:٥].

ولذلك منع القرآن إعطاء اليتامى الصغار أموالهم حتى يبلغوا الرشد فقال: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦].

إن اتباع الأسس السابقة يقود إلى الإنفاق المشروع وهذا هو الأصل من كلمة (إنفاق)

---

(١) انظر بعض هذه الاسس في: السياسة المالية في الإسلام، الخطيب، عبد الكريم، ص ٢١٢، وانظر: مشكلة الفقر وسبل علاجها في ضوء الإسلام، عبد الرحمن آل سعود، ١/ ٢٤٦-٢٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، ١/ ٧٠٣ رقم ١٠١٥. الدارمي، كتاب الرقاق، باب في أكل الطيب، ٥/ ٦٠٨ رقم ٢٧٢٠.

(٣) أخرجه معلقًا البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، ٧/ ١٤٠، ووصله ابن ماجه في سننه، كتاب اللباس، باب إلبس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة، ٢/ ١١٩٢، رقم ٣٦٠٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣٠، رقم ٤٥٠٥.

حتى إذا ما أطلقت أريد بها ذلك، أو أخص بأنه: بذل المال في سبيل الله والذي شجع عليه الشرع لما له من الأثر في شخصية المسلم[1].

أما الفتنة في الإنفاق فتكون بوضع المال في غير محله مما يؤدي الى ضائقة إقتصادية، أو فساد خلقي على المستوى الفردي والجماعي ويتمثل في الوجوه الآتية:

- وجود المال في أيدي غير آمنة أو غير قادرة على حفظه واستثماره كما مر في السفيه.
- عدم أداء حق الله في المال وشكره بدفع الزكاة والصدقات في وجوه البر المختلفة.
- الإسراف والتبذير والترف، والمقصود بها الإفراط في الإنفاق فيما لا يحتاج إليه، وقد يصل الإسراف والتبذير لحد الترف الذي تكلمنا عن آثاره الخطيرة
- الشح والبخل: وكما نهى الإسلام عن الإسراف نهى عن البخل والتقتير فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء:٢٩]. وفي آية أخرى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٠].
- الإنفاق في المحرمات والمكروهات: وذلك مثل اقتناء الأشياء المحرمة كالتماثيل، وعلى الملاهي وشرب الخمر والميسر أو إهلاك المال في الفساد وفي المخدرات بأنواعها بالقياس والنص[2]، وذلك لأنها كالخمر في التأثير وعلة التحريم قال ابن تيمية: «إن من غاب عقله منها يجب أن يقام عليه الحد ثمانون جلدة كحد الشرب من الخمر سواء بسواء»[3].

٢. فتنة الزوج والولد.

أشار القرآن الكريم إلى إمكانية وجود هذه الفتنة.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن:١٤].

(١) انظر: الإنفاق وأثره في بناء شخصية المسلم، أحمد محمد عبد الخالق، حيث ذكر ثمانية آثار وهي:١- انه يربي المسلم على الثقة بالله،٢- الثقة في وعده بالمضاعفة الى سبعمائة ضعف، ٣-على الصدق مع الله، ٤- على تزكية النفس وتطهيرها من الشح والبخل، ٥- على تحري الحلال، ٦- الإحساس بالاخرين، ٧- على الإخلاص،٨- الاستعداد للقاء الله، بحث منشور في مجلة الخيرية العدد٦٨ رجب ١٤١٦هـ-السعودية ص ٢٤-٢٧.

(٢) انظر: الحلال والحرام في الإسلام، أحمد عساف، ص ٢٩٢.

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٣.

وفي هذه الآيات نلمح الإعجاز التربوى فى النص الكريم، فمن معانى هذه الآية أن من الأزواج والأبناء من يمكن أن يكون عدوا للعبد المؤمن لأنهم يشكلون عائقا بينه وبين عمل الخير ويحولون بينه وبين القيام بواجبات الطاعة لله تعالى بل قد يدفعونه إلى السعى فى اكتساب الحرام وارتكاب الآثام من أجل تحقيق رغباتهم المادية العاجلة بأي ثمن، وذلك انطلاقا من فرط محبته لهم، ومن شدة تعلقه بهم، ولذلك تأمر الآية الكريمة بضرورة الحذر من هذا النوع من الزوجات والأولاد، وذلك بعدم الاستجابة لرغباتهم، أو الطاعة العمياء لأهوائهم، وجاء سبب النزول ليؤكد هذا المعنى.

فعن ابن عباس سأله رجل عن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ قال هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأوا أصحابهم قد فقهوا في الدين، هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾[1].

ولذا جاء هذا التحذير من إمكانية هيمنة الأزواج والأولاد على العبد المؤمن لصرفه عن طاعة الله تعالى انطلاقا من الحرص على الأموال أو المحافظة على السلامة لأن ذلك مدخل من مداخل الشيطان الذى يستغل العاطفة بين الزوجين وتلك التى تربطهما بأبنائهما لتحقيق غايته ولذلك اتبعت هذه الآية الكريمة بقوله وتعالي: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ [التغابن:١٥-١٦].

وهذه الآيات الثلاث فى سورة التغابن تنبه العبد المؤمن إلى إمكانية أن يكون له من زوجه وولده عدوا له يصرفه عن البذل فى سبيل الله حرصا على المال، أو يثبطه عن الجهاد فى سبيل الله حرصا على النفس، أو يستغل نفوذه إذا كان صاحب نفوذ للإفساد فى الأرض.

وقد تكون زوج الرجل والأبناء فى طريق غير طريق الزوج المؤمن، فيحاولون جاهدين صرفه عن طريقه السوي إلى طرقهم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التغابن، ٥/ ٤١٩، رقم ٣٣١٧.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

الملتوية فيهلكوه، أو أن يستغلوا جاهه وسلطانه فى غير ما يرضى الله فيدمروه، وقد اقتضى كل ذلك هذا التحذير الإلهى الشديد لكل عبد مؤمن من إمكانية الوقوع فى موقف يعجز فيه عن المفاصلة بينه وبين زوجه وأبنائه إذا وقفوا عائقا حقيقيا دون تحقيق عبوديته لخالقه، ثم كررت الآيات فى السورة هذا التحذير فى صورة أخرى هى فتنة الأموال والأولاد، بمعنى بمعنى الافتتان حتى الوقوع فى عدد من المخالفات الشرعية سواء كانت صغيرة أو كبيرة ولذلك قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن:١٥].

هذه العداوة ليست قاصرة على الزوجة والأولاد، بل ربما تكون عداوة الزوج لزوجته وأولاده وفتنته لهم أشد وأنكى، فقد يمنع الزوج زوجته من البر بأقرب الناس أو حتى الإنفاق فيما تملك.

وفتنة الأهل والولد درجات، فقد تصل الفتنة إلى درجة الكفر، وقد تقصر عن ذلك: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف:٨٠].

وإذا أردنا أن نخص فتنة الأزواج فقد تدخل فتنة الزوجة ضمن فتنة النساء التي حذر منها الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع نظرة الإسلام للمرأة نظرة تكريم إلا أنه عدها من زينة الدنيا التي تفتن الرجل.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤].

فإذا كانت المرأة صالحة كانت خير متاعها، وإلا فلا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)[(١)].

ومن جانب آخر نجد أحاديث تحذر من فتنة النساء كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل في النساء)[(٢)].

وفي حديث آخر: (فما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)[(٣)].

وتتجلى فتنة النساء في المظاهر الآتية: كيد النساء، لما في طبيعة المرأة وفطرتها من الكيد الذي تستعمل فيه وسائل التأثير على الغير، حب المرأة للمظاهر والنعيم، والميل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، ٢/ ١٠٩٠ رقم ١٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة..وبيان الفتنة بالنساء ٣/ ٢٠٩٨ ح ٢٧٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم النساء، ٦/ ١٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وبيان الفتنة بالنساء، رقم ٢٧٤٠- ٢٧٤١، ٣/ ٢٠٩٧.

المفرط من جانب المرأة لذلك قد يوقع الرجل الضعيف في فتنة الكسب الحرام أو المشبوه لإرضاء تطلع المرأة، تسلط النساء على الرجال: وهي أن تنقلب الموازين فتصبح الكلمة للمرأة دون الرجل، وهو خلاف الفطرة والشرع، وقد يقع هذا التسلط في مجال الإسرة، وهو خلاف القوامة، كما أنها قد تفسد علاقته بالآخرين وأقرب الناس إليه فتوصله إلى قطيعة الرحم وعقوق الوالدين، وهي فتنة تعاني منها أغلب المجتمعات اليوم، وفي مجال السياسة: تأثير المرأة على الرجل الذي يتولى الأمر في قرارات خطيرة تتعلق بأمور المسلمين وقد حدثنا التاريخ كيف أثرت النساء في هذا المجال والأمثلة كثيرة لا مجال لذكرها.

أما فتنة الولد، فإن الله تعالى عالم بمواطن الضعف في الإنسان، ويعلم أن الحرص على الأولاد من أعمق تلك المواطن، وتكون الفتنة فيهم من وجوه:

١. عدم أداء حق الله وشكره على نعمة الأولاد.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٨].

فقد قرن الأولاد بالمال وكلاهما ابتلاء وامتحان من الله، فمن أطاع الله فيهما وشكر فقد فاز ومن شغل بهما فقد خسر.

وقد ورد في التفاسير أن هذه الآية متعلقة بما قبلها، وهي التي نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الذي خان الأمانة وأفشى السر ليهود بني قريظة، وكان مناصحا لهم لأن عياله وماله في أيديهم فندم فنزلت الآية لتعلمهم أن الأمانة مع الله ورسوله فوق كل شيء، حتى ولو كان المال والولد، فقال الزمخشري فيها: «جعل الأموال والأولاد فتنة لأنهم سبب الوقوع في الفتنة، أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده»[(١)]، فالأمانة تقتضي الاستعلاء على فتنة الأولاد، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)[(٢)].

٢. الانشغال بهم عن الطاعات والقربات من العمل الصالح وذكر الله بل وربما الانشغال بهم عن أداء الفروض الموجب تركها الإثم والعقوبة كالجهاد.

والفتنة في هذا الجانب كبيرة كما أشار النص السابق ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ حيث يعالج القرآن ذلك محذرا من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان

(١) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٢١٣ - ٢١٤

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٦، ١/ ١٤.

كما نبه عن الانشغال بهم عن ذكر الله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون:٩].

وقد شدد في التحذير منهم حتى جعلهم كالأعداء إذا صدوا عن مسألة خطيرة تتعلق بمصالح الأمة حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:١٤].

وقد سأل رجل ابن عباس عن الآية فقال: «فهؤلاء الرجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾[1]. وقال الزمخشري: «إن من الأزواج أزواجًا يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ويجلبن عليهم، ومن الأولاد أولادًا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى فاحذروهم لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عداء، فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم.»[2] وهي عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد.

٣. ومن مواطن الفتنة التنافس والتكاثر بهم للتفاخر والزينة.

قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر:١-٢].

وجاءت آيات كثيرة تعيب على الذين يتباهون بكثرة الأولاد وخصوصا البنين منهم، لأنهم سوف يأتون يوم القيامة فرادى ولن تنفعهم أولادهم بل هي أعمالهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠﴾ [آل عمران:١٠].

٤. ومن فتنة الأولاد التقصير في تربيتهم وتوجيههم ونصحهم.

وقد نبه القرآن إلى ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦].

ويتضمن ذلك عدم المساواة بينهم في العطاء وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: (اتقوا الله واعدلوا في أولادكم)[3].

ومن ذلك تفضيل البنين على البنات وعدم المساواة بينهم في المحبة والعطاء والتربية، وقد عد الإسلام ذلك من الجاهلية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ

(١) مختصر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الصابوني، ٣/ ٥١٠.
والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢/ ٥٣٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥٥٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة، ٢/ ١٢٤٢، رقم ١٦٢٣.

﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ [النحل:٥٨].

فحث الرسول صلى الله عليه وسلم على رعايتهن وجعلها سببا لدخول الجنة، ومع ذلك فإن هذه الفتنة ما زال يقع فيها الكثير حتى ممن يدعى الثقافة، والعلم الشرعي!!

ومنها القسوة في معاملة الأولاد، وقد حث الرسول على الرفق معهم وخفض الجناح والملاطفة، وكان صلى الله عليه وسلم قدوة في ذلك، ولنا في وصايا لقمان الحكيم لابنه التي قصها القرآن نموذج للتربية الصالحة.

٣. فتنة الجاه والسلطان.

حب الجاه: أصل الجاه: انتشار الصيت والاشتهار، وهو مذموم إذا قصده المرء، كما أنه من أعظم مظاهر الحياة الدنيا، لذا كانت فتنة الجاه من أعظم الفتن.

ومعناه: «هو قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال في شخص، إما من علم، أو عبادة، أو نسب، أو قوة، أو حسن صورة، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالًا، فبقدر ما يعتقدون له من ذلك، تذعن قلوبهم لطاعته، ومدحه وخدمته، وتوقيره»[(١)].

ويقترن حب الجاه بحب المال، وهما على رأي الإمام الغزالي ركنا الدنيا، وعلى هذا فالجاه محبوب بالطبع، وقد يفوق حب المال، لأن المال ليس هدفًا بذاته بل وسيلة متاع الدنيا، وقد يكون الجاه طريقًا إلى المال

وهذا لا يعني أن الجاه مذموم جملة وتفصيلًا، بل فيه ما يحمد، وفيه ما يذم وهو الغالب فحب المرء أن يكون له منزلة في قلوب من حوله لضرورة التعايش معهم ليس بمذموم، أو لصفة هي فيه لغرض نافع فهو مباح، كقول يوسف عليه السلام ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف:٥٥].

أو قصد إخفاء ما لا يليق لأن الستر على القبائح جائز.

والمحظور أن يطلب الجاه لذاته أو بما ليس فيه كالعلم والورع والنسب، وأن يكون ذلك كل همه، فتظهر الفتنة فيمن غلب على قلبه ذلك فيعمد لتحقيقه بارتكاب المعاصي كالكذب والخداع، أو بالعبادة فيدخل في الرياء المحرم، وربما بالنفاق كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (حبك المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل)[(٢)].

وحب الجاه يؤدي بصاحبه إلى حب المدح وإن كان بما ليس فيه، وكان أهل الصلاح يفرون من الشهرة والجاه، كما روي

(١) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي، ٣/ ٤٣٢، مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ص ٢٧٠.

(٢) إتحاف السادة المتقين، الزبيدي، ٨/ ١٤١.

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من منزله فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: «علام تتبعوني فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان» وفي لفظ آخر أنه قال: «ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع»[1].

وقد قرن تعالى بين إرادة العلو والفساد فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣].

أما فتنة السلطان فهي الأشد ولذلك سأقف عليها ببعض التوضيح:

ومن المعروف أن الإسلام دين ودولة، ولا يمكن أن تطبق تعاليم الإسلام من غير وجود دولة ورئيس لها وقد تختلف الألقاب لمن يتولى أمر المسلمين كالخليفة والسلطان، والأمير وكلها مسميات لمعنى واحد. أما وسيلة إسناد السلطة فهي «البيعة» وهي: «عقد رضائي بين الأمة والحاكم ملزم للجانبين، يلتزم فيه الأمير بأن يسير بالأمة وفقًا للكتاب والسنة، وأن يقوم بفروض الإمامة وتلتزم فيه الأمة بتقديم الطاعة والنصرة له ما لم يتغير حاله»[2].

وبما أن الحاكم نائب عن الأمة ووكيلها، فإن سلطته مقيدة بحدود تلك الوكالة وهو مقيد بما تقيد به الأمة في الأصل، فلا يملك أكثر مما يملكه الأصيل[3].

وللحاكم واجبات أهمها تطبيق الشرع، وقد فصل العلماء في ذلك[4]، وهي «رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم»[5]، والتي يجمعها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[6].

وفتنة السلطان تتمثل في مشكلة تجاوز السلطة لحدودها: بما أن وجود الحاكم

(١) راجع إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٢٧٦.
(٢) النظام السياسي الإسلامي مقارنًا بالدولة القانونية، منير حميدالبياتي ص٢٠٩.
وانظر: الحاكم وأصول الحكم، صبحي عبد سعيد ص٤٧-٥٠.

(٣) انظر: النظام السياسي الإسلامي، منير حميد البياتي، ص٢٤٠.
(٤) فصلت كتب السياسة الشرعية حقوق وواجبات الحاكم كالماوردي، والأحكام السلطانية، أبو يعلى وابن تيمية والشهرستاني، وابن خلدون، وعبد الوهاب خلاف وانظر: فقه المسؤولية في الإسلام، لعلي عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥، ص٢٥٠-٢٧٧.
(٥) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي، حسن إبراهيم حسن، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤، ١/ ٤٦٤.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب تأويل قوله تعالى: (من بعد وصية...)، ٣/ ١٨٩، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ٢/ ١٤٥٩.

واجب لا بد منه، فإن وجود السلطة يقسم الجماعة إلى حاكم ومحكوم، وآمر ومطيع، ولكي تقوم السلطة بمهمتها الداخلية والخارجية دون التعرض لحقوق الأفراد وحرياتهم وصيانتها، ودون ظلم لأحد الطرفين، فقد تكفل الإسلام ـ وهو النظام الرباني ـ بحل ذلك بأن قيد سلطة الحاكم بالشرع، فإذا تجاوز ذلك وانحرف فقد فتح باب المشكل السياسي والذي هو «مشكلة شعب في مواجهة سلطة»[1].

وذلك لأن الأمة مسؤولة أمام الله في اختيارها للحاكم، وعليها ألا تسكت أمام إنحرافات السلطة، كما أن الفرد والأمة مسؤولون في طاعة الحاكم بالمعصية والتي تستحق العذاب عليه بالنار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب:٦٧]، كما تثبت مسؤولية الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال:٢٥].

ولقد حذر القرآن الكريم من الوقوع في فتنة الصراع بسبب السلطة، وضرب لنا الأمثلة على الطغاة المستبدين الذي غرهم سلطانهم فضلوا وأضلوا وذلك لأخذ العبرة منهم، لأن فتنة المال وشهوة الحكم جذورها عميقة في أعماق النفس البشرية، وقد ذكر لنا القرآن أبرز مثل في فرعون الذي استعبد الناس، وبلغ من تجبر هذا الطاغية أن استخف بدعوة موسى عليه السلام وقال القرآن عنه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف:٥١].

والأكثر من ذلك ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٣-٢٤].

ومن أهم أسباب ذلك الانحراف هو حب السلطة والمنصب والجاه: ومن المعروف أن للمنصب عند البعض نشوة تلعب بالرؤوس لا تعادلها نشوة، فتساعد على الغطرسة والاستعلاء والبطش، وتزين لصاحبها أنه على الحق والصواب[2].

وقد تنبأ الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هؤلاء الحكام المسببين للفتن فقال: (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع في أمتي السيف لم يرفع إلى يوم القيامة)[3].

(١) الحريات العامة في الدولة الإسلامية، راشد الغنوشي ص٢٧.

(٢) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، أبو زهرة، محمد، ١/ ٢٨.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الأئمة المضلين، ٤/ ٥٠٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن، رقم ٣٩٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٦٤، رقم ١٧٧٣.

كما تنبأ بوجود الحاشية الفاسدة لهم فقال: (أخوف ما أخاف على أمتي رجل منافق عليم اللسان غير حكيم القلب، يغيرهم بفصاحته وبيانه ويضلهم بجهله)[1].

وعلى هذا واجه الحكام المعارضين بالقمع، وخصوصا لمن كان عنده الاستعداد الشخصي للانحراف عند بعض الحكام: فالنزوع إلى إساءة استعمال السلطة إنما هو نزعة سلوكية واعوجاج في سلوك الإنسان، وقد عالج الإسلام ذلك بربط أصول الحكم بالعقيدة والأخلاق ـ حماية للحاكم من الاستبداد ـ باعتباره منفذًا للشريعة وليس له سن القوانين، كما حث الإسلام على تولية الكفء الأمين ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

ثم العقاب الدنيوي بالخلع وعقاب الله بالآخرة[2].

ومن العوامل المساعدة على الانحراف وزيادة الفتنة وجود بطانة السوء المحابين لذوي السلطة وهم أصناف منهم الأقارب (العصبية): ويكون لهؤلاء تأثير إيجابي، ولكن الغالب أن يكون لهم تأثير سلبي للاستئثار بالمناصب والجاه والمالومنهم الأعوان من ذوي المراكز: كالوزراء والولاة والقادة، ومنهم كذلك بعض الأغنياء وأصحاب المصالح الذين يتقربون للحاكم وذويه حفاظًا على ثرواتهم وخصوصًا ذوي الكسب غير المشروع، فيستغلهم بالمقابل لجمع المؤيدين وتضليل الناسومنهم الأدباء المداحون: وهم يمثلون (وسائل الإعلام في الوقت الحاضر).

ونرى من يبالغ فيجعل للخليفة صفات الله ومقام النبوة، فهذا ابن هانئ الأندلسي يمدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قائلًا[3]:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد
وكأنما أنصارك الأنصار

ومنهم العلماء (فقهاء السلاطين): وإذا وضعنا تأثير الأصناف السابقة في فتنة الأمة في كفة، نضع في الكفة المقابلة تأثير العلماء، لاقتداء العامة بهم.

وعلى هذا كان لفتنة الحكم والسلطة أثر في التراجع الحضاري للأمة الإسلامية وجرت عليها السنن الإلهية التي تصيب من نكص عن اتباع الرسالات السماوية ولا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٢٨٩، رقم ١٤٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٣٩.

(٢) انظر: النظام السياسي الإسلامي، منير حميد البياتي، ص١٦٣-١٦٤.

(٣) ديوان محمد هانئ الأندلسي، تحقيق محمد اليعلاوي ص١٨١.

أمل إلا بالرجوع إلى حكم الله والاعتبار بالأمثلة القرآنية الواقعية في هذا المجال، وأهمها العمل بالشورى، وفتنة السلطة قد تكون بنهج صاحبها للظلم وعدم المساواة، والنصوص الشرعية في تحريم الظلم كثيرة جدا وهي تتحدث عن ظلم الإنسان لنفسه وغيره ومقرونة بالتهديد والعذاب والخسران.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام:٢١].

كما عرف القرآن الظلم فقال: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

فيكون الظلم وضع الشيء في غير موضعه الشرعي[(١)]. وفي الحديث القدسي كما يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)[(٢)].

ونتبين موقف الإسلام في تحريم الظلم في نصوص وجوب العدل نقيضه في آيات كثيرة، فالعدل شرعا: «وضع الشيء موضعه الشرعي وإعطاء كل شيء حقه من المكانة أو المنزلة أو الحكم أو العطاء»[(٣)].

فالعدل ميزان الله في الأرض، وهو قوام الدين والدنيا، والآيات التي توجب العدل والقسط كثيرة منها قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

فالأمر بالعدل نهي عن الظلم كما أن نصوص السنة زاخرة بالدعوة إلى العدل، بل إن أول وثيقة دستورية أعلنها النبي الكريم في المدينة تكرر فيها كلمة القسط والعدل أكثر من تسع مرات[(٤)].

ولما كان من السنن الإلهية أنه لا يفلح الظالمون، فقد أدت إلى زوالهم، كما أكدت القصص القرآنية هلاك الأمم الظالمة، ولذلك يقول العلماء: «إن الدولة تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٧].

يقول الرازي: «إن المراد من الظلم في هذه الآية، الشرك، والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم»[(٥)].

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٥/ ٩٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٣/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.
(٣) السنن الإلهية، عبد الكريم زيدان، ص١١٥.
(٤) النظام السياسي الإسلامي مقارنا بالدولة القانونية، منير حميد البياتي، ص١٤٩-١٥٠.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٨/ ٧٦.

ثانيًا: الفتنة بالشر:

١. الفتنة بالإيذاء.

ولهذه الفتنة صور كثيرة منها الأذى بالبدن، وقد يكون قدريا من الله وقد يكون الأذى مسلطًا على فرد أو جماعة، وتكمن الفتنة في الثانية، فقد يسلط أهل الباطل على أهل الحق بالإيذاء النفسي والبدني، ولنا أمثلة من الإيذاء النفسي الذي واجهه الأنبياء عامة والرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، فرميه بالكذب - وهو الصادق الأمين- تارة وبالجنون تارة، وبالكهانة والسحر أخرى كان إيذاءا شاقا على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر القرآن تلك الاتهامات في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٥].

وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات:٣٦].

أما الأذى البدني فقد كان الأنبياء لهم منه نصيب، فقد رمي إبراهيم عليه السلام بالنار، وأوذي محمد صلى الله عليه وسلم بدنيا وعذب صحابته من قبل مشركي قريش، من مثل بلال وعمار وخباب رضي الله عنهم، وهذا هو فعل الطواغيت حين يعجزون عن صرف المؤمنين عن دينهم، ومن أصاف الأذى البدني التذيب بالنار، والخنق، ونزع اللحم عن العظم، والنشر بالمنشار[1].

وقد يبتلى الفرد ببدنه بعاهة أو عوق، وليس له إلا الصبر ليؤجر على ذلك فثواب الصبر مفتوح بغير حساب، وهذا الأسلوب ما زال يتبع وبوسائل كثيرة في العصر الحاضر.

أما فتنة المرض فقد تعرض لكل الناس، وهو فتنة بالشر لأن الإنسان خلق ضعيفا، والمؤمن يصبر أمام فتنة المرض حين يستحضر الأجر منه إذا صبر عليه، فالأمراض والأسقام وإن كانت ذا مرارة إلا أن الله جعل فيها حكما، فهو يكون في حالة الفقر إلى بارئه فيلجأ إليه، فقد ابتلى الله يعقوب في بنيه وفراق يوسف وأخيه وكف بصره ثم رده الله إليه بعد صبر طويل، وفي قصة أيوب امتحنه الله امتحانًا خاصًا في نفسه وولده وماله فضرب مثلًا أعلى في الصبر ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤].

وقد كشف الله عنه البلاء وعوضه خيرًا

وأمرض القلوب فتنة أكبر، فقد أثبت القرآن الكريم أن للقلوب أمراضًا هي أشد من أمراض الجسد.

قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ

(١) انظر: الفتنة وموقف المسلم منها، عبد الحميد السحيباني، ٢١٣-٢١٦.

﴿مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

هذه الأمراض تتسبب في فتن اجتماعية للمسلمين، منها: غلظة القلوب، والفتنة في ذلك أن الناس ينفرون من الفظ الغليظ القلب حتى ولو كان ناصحًا، ولذلك عصم الله سبحانه وتعالى الأنبياء من هذه الصفة فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والحقد والحسد وهما مرضان قديمان، وأوله حقد إبليس على آدم عليه السلام، ولم تهدأ ثائرة حسده بإخراج آدم وزوجه من الجنة، فطلب أن يتبعهما وذريتهما في الدنيا ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء:٦٢].

وآثار الحسد سيئة على الفرد والمجتمع، إذا خالط قلبًا عجز عن ضبطه وكتمانه حتى يغلب على من اتصف بالدهاء فتظهر في كلامه وفلتات لسانه وأسارير وجهه، كما أنه مضر بالجسد والنفس.

وقد يكون مرض القلب همًا يعاني منه المرء لسبب من الأسباب، يعان عليه بالدعاء المأثور (اللهم إني أعوذ من الهم والحزن والعجز)[1].

أما القتل والخوف فكل منهما فتنة تظهر وتزداد لأسباب كثيرة، منها السياسية والطائفية وغير ذلك، وقد يتعرض لها أصحاب الدعوة الحق بعد فشل المساومات معهم، لأن العقيدة لا تخضع للمساومة والابتزاز، فقد قتل أنبياء ودعاة.

وكانت هناك محاولات من قبل اليهود والمشركين لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم، والقتل وكثرته من علامات الساعة التي نراها واضحة في زماننا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس بيده لا تذهب الدنيا، حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل؟! فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال:) الهرج، القاتل والمقتول في النار)[2].

وفتنة الخوف ملازمة لما قبلها، فالأمن والسلام نعمة امتن الله بها على قريش ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش:٣-٤].

ولذلك جعلت التحية في الإسلام بلفظ السلام، وهذه النعمة لا يدركها إلا من افتقدها، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الأمن من أركان الحياة الثلاث فقال:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب التعوذ من الفتن،رقم ٦٠٠١، ٥/ ٢٣٤٠، وباب الحبس ٥١٠٩/ ٥/ ٢٠٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٢٩٠٨، ٤/ ٢٢٣١-٢٢٣٢..

(من أصبح منكم آمنًا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)[1].

والخوف قد يكون ابتلاءً وامتحانا من الله كما ذكر في كتابه الكريم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:١٥٥].

وقد يكون الخوف نوع عقوبة من الله تبارك وتعالى على معاصي ارتكبها الإنسان، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

والخوف المحمود هو الخوف من الله تعالى، أما المذموم فهو الذي يوقع الإنسان في مخافة الناس على حساب مرضاة الله وهو الذي يدفع بالإنسان إلي الانهزام والتخلي عن المعتقد أو الحقوق، ويفسح المجال أمام العدو ليعيث في الأرض الفساد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

٢. الفتنة في المال والأهل.

الأرزاق من الله يقدرها بحكمته وفق مصالح العباد، كما قال تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:٢٢].

وعلى العبد السعي في تحصيل رزقه وماله أخذًا بالأسباب.

وقد يصاب الإنسان بفتنة نقص المال أو ضياعه، وهو نوع من الابتلاء الذي يمتحن به الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:١٥٥].

وطلبت منه الصبر على البلاء وللصابر البشرى، وسأتناول فتنة الفقر، وآثارها على الفرد والمجتمع.

وأثر الفقر في مجال الأسرة: ويظهر أثره في الأمور الآتية:

في تكوين الاسرة ابتداءً لأن الفقر يعيق الشباب عن الزواج وتحمل تبعاته من مهرٍ ونفقة البيت والأولاد هذه العوائق الإقتصادية قد تؤدي بضعاف الإيمان إلى جريمة الزنا فجاءت النصوص لتوجيه الشباب إلى الصبر فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ٣٠٠، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، ٤/ ٥٧٤، رقم ٢٣٤٦.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤٢.

[النور:٣٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[1]، أي: وقاية وعلاج وفي الصوم يتحقق الصبر.

والفقر خطر على تماسك الأسرة وتكاثرها حيث تقدم الأسرة على تحديد النسل وتقليله، والأكثر من ذلك قتل الأولاد بطرق جديدة كالإجهاض خشية الفقر، وقد نهى الله سبحانه و تعالى عنه فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]. ومثلها في المعنى [الإسراء:٣١].

أما فتنة النقص في الولد عند الحرمان منهم بسبب العقم أو غيره، فتكون فتنة في الشر، لأن الأولاد من زينة الدنيا المحببة للنفوس، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤].

والحرمان منها يقتضي الصبر والاحتساب وإلا أصاب النفوس العنت، وأوقعها في فتنة الجزع والحسد والحقد وغير ذلك ولذلك بعد ذكرهم الله بأنهم زينة: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لم يجعلها قيمة للإنسان بل مجرد زينة ولهو، فلذلك عقب بالقول ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

وهي تتبع فتنة الأهل فهي بما يصيبهم من نقص أو خلل أسري ولها أشكال وصور كالعقوق والنشوز والاختلاف عقائدي، زقد وضع الإسلام وقاية وعلاجا لكل هذه الحالات، وعلى العموم تواجه جميعها بالصبر ولاحتساب والدعاء.

٣. فتنة الإخراج من الأوطان.

والمقصود هنا الإخراج القسري المجبر عليه الإنسان وليس الخروج الطوعي، وقد نال من تلك الفتنة أكثر الأنبياء عليهم السلام، ولكنهم استطاعوا أن يستثمروا تلك الفتنة والنقمة وتحويلها إلى نعمة بفضل الله ومثابرتهم على مواصلة الدعوة.

وقد ضرب القرآن الكريم مثلا بهجرة إبراهيم عليه السلام وغيره من الأنبياء، وبخروج أصحاب الكهف فرارا بدينهم فحفظهم الله من عبث المفسدين.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، ٢/٢٢٨-٢٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه ووجد مؤونته، ٢/١٠١٨، رقم ١٤٠٠.

عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٠-١٦].

ومن المعلوم يعلم أن طريق الهجرة وعرة المسلك، ومليئةٌ بالمنغصات، وتبقى ساعة الوداع مؤثرة، والوقوف على الأطلال يرافقه البكاء، حتى النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة قال: **(والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك لما خرجت)**[1].

وكذلك الصحابة رضي الله عنهم، عندما هاجروا إلى المدينة - كما تذكر عائشة رضي الله عنها - تذكروا مكة وجبالها، وخاصة أن المدينة أوبأ أرض الله من الحمى، وقد أصابت الحمى بعض الصحابة، وكان بلالٌ إذا أقلع عنه الحمى اضطجع بفناء البيت ثم يرفع صوته:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً
بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليل
وهل أردن يومًا مياه مجنةٍ
وهل يبدون لي شامةٌ وطفيل

قالت عائشة رضي الله عنها: ثم إني دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فقال: **(اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة، اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل حماها واجعلها بالجحفة)**[2]، فغرس الله بعد ذلك حب المدينة في قلب الصحابة ومن بعدهم أبد الدهر.

فالإخراج من الأوطان فتنة تقتضي الصبر والاحتساب والحفاظ على العقيدة، ونشر الدعوة، والاقتداء بالمثل الصالح من الأنبياء والسلف الصالح.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣١/ ١٠، رقم ١٨٧١٥، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في فضل مكة، ٥/ ٧٢٢، رقم ٣٩٢٥، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسب، باب فضل مكة، ٢/ ١٠٣٧، رقم ٣١٠٨.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٩٢، رقم ٧٠٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة، ٥/ ٦٦، رقم ٣٩٢٦.

مجالات الفتنة

أولًا: الفتنة في الدين والعبادات:

١ . الفتنة في الدين.

الفتنة في الدين قد تعرض للفرد والمجتمع والأمم، ولها أسباب كثيرة وصور متعددة، وتحصل بإحدى طريقتين:

الأولى: أن الإنسان يبتلى في دينه من قبل نفسه الأمارة بالسوء، فهو اختارها طواعية لنفسه، كأن أصيب الإنسان في دينه بانحراف أو شبهة أو شهوة فذلك أعظم المصائب، وإنها لخسارة الدنيا والآخرة.

والثانية: أن يسلط على المرء أو الجماعة من يفتنهم إكراها عن دينهم، وخصوصا ما حصل للأنبياء والصالحين والدعاة على مر الأزمان، وقد أجبر المسلمون الذين بقوا في الأندلس بعد سقوطها لتبديل دينهم وتنصيرهم كرها.

فقد يستدرج الإنسان أو المجتمع للفتنة في الدين فيقع طواعية أو يجبر إكراها، ولكل الحالات صور وأسباب كثيرة، وهي في أزماننا شاخصة واضحة يجمعها دعاء الرسول في التعوذ منها في قوله: (ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا)[1].

وأشد تلك الفتن: الشرك والكفر، وذلك بصد الناس عن دينهم الحق.

قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١].

فقد فسرها ابن عباس صلى الله عليه وسلم هنا بالكفر[2].

قال الطبري: قد كانوا يفتنون عن دينه حتى يردوه لى الكفر بعد إيمانه، وذلك أكبر عند الله من القتل»[3].

وقد تصل هذه الفتنة إلى الإكراه بشتى الوسائل، كالأذى الجسمي والنفسي والاقتصادي وغير ذلك.

وقد تكون الفتنة في الدين بطرق ناعمة قد لا يلتفت إليها مثل فرض الأنظمة والأوضاع الفاسدة ومحاربة المسلمين في ديارهم.

ومنها: نشر الإلحاد والتشجيع عليه بتخطيط ممنهج، وقد بذلوا في سبيل ذلك كل الوسائل وكان من نتيجتها إلزامهم بالتحاكم إلى قوانين وضعية وغير ذلك.

ومنها: ظهور الفرق الكلامية قديما التي كانت نتيجة لترجمة الفلسفة اليونانية، وكان

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٢٨، رقم ٣٥٠٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٢، رقم ١٢٦٨.
(٢) انظر مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٤١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٣٦١.

هدف بعضها الدفاع عن الإسلام بطرق فلسفية، وبعضها استهدفت الإسلام والنيل منه، والمهم أنها أحدثت فتنة دينية وفرقت المسلمين، كما ظهرت فرق حديثة بعضها اتخذت من الدين ستارا لهم، وبعضها جاهرت بالعداء له.

وهذه الفتن يتعرض لها المؤمنون قديما وحديثًا بصورة عامة والدعاة بصورة خاصة سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، نتيجة للصراع بين الحق والباطل، بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فتلحق بهم فتن لها صور كثيرة منها:

- حملات التشويه للمخلصين وتنفير الناس منهم.

وحث الناس على عدم التعاون والتعاطف معهم، مع التشكيك بصدقهم، وهو جزء من الحرب النفسية الإعلامية عن طريق الاستهزاء والسخرية، وقد كانت هذه أحد أساليب قريش ضد الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء:٣٦].

و قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان:٤١].

ومثلها في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام:١٠].

ثم جاء الاستهزاء من قبل المنافقين في المدينة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة:١٤].

ويشمل هذا الاستهزاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وأسلوب المستهزئين واحد في كل العصور بل تفننت وسائل الإعلام في العصر الحاضر بذلك كما نسمع ونرى.

- اتهام المتدينين المخلصين بالكذب لتشويه صورهم وإثارة الشكوك حولهم.

والقرآن حافل بالآيات في اتباع الظلمة لهذا الأسلوب القبيح كما جاء في القرآن عنهم: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص:٤].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤].

وكا حص مع الأنبياء السابقين ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥].

- الاتهام بالجنون، للتشكيك بقدراتهم العقلية.

كما جاء عن اتهام النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر:٦].

❁ الاتهام بالسفاهة.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة:١٣].

وهو ما قيل في حق هو عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف:٦٦].

ومثل ذلك الاتهام بالسحر والكهانة مما وصفت به الأقوام المشركة الأنبياء، وفي العصر الحاضر يتهم المتدينون بالرجعية والجمود والتحجر.

❁ التهديد بالأذى، كالتهديد بالضرب والرجم.

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء:١١٦].

❁ التهديد بالسجن.

كتهديد فرعون لموسى ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩].

❁ التهديد بالقتل والتشريد.

فقد حكى القرآن عن قوم شعيب هددوه ومن معه بذلك ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

حصل لنبينا صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَآ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء:٧٦].

❁ التهديد بالقتل.

وقد حصل لكل الأنبياء، وبقطع الرزق وبها تعلل المشركون حين قالوا: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص:٥٧].

ومنها الإغراء بالمال والجاه والسلطان، وهي وسيلة قد تسقط الكثيرين ممن ثبتوا أمام الحملات الإعلامية والتهديد بالأذى، ولكنهم قد يتراجعون أمام الإغراءات الدنيوية، يصبر في الشدائد ولكن يتهاوى أمام حظوظ الدنيا، ولقد حاولت قريش اتباع هذا الأسلوب مع النبي صلى الله عليه وسلم، حين عرضت عليه المال الجاه والسلطة ولكنها فشلت أمام العقيدة الراسخة التي لا تقبل المساومة.(١)

ومن مظاهر الفتنة في الدين كما هو مألوف هو موالاة الكفار على حساب المسلمين، وهو ما نهى الله تعالى عنه ورسوله بنصوص كثيرة، وهو نتيجة لضعف الإيمان.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟

(١) انظر، الابتلاء في الدعوات، عبد القادر أبو فارس، ص٤١ -٨٩.

﴿الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١].

وعلة ذلك لأنهم لا يألون جهدا في إفساد أحوال المسلمين، وإن لم يكن ظاهرا فبالمكر والخديعة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران:١١٨].

ويعود ذلك كله لضعف الإيمان وحب الدنيا، فإذا ما أدمن الإنسان على المعاصي اتبع الفتن، فيصل لدرجة لا يميز بين الحق والباطل والخير والشر، ولذلك فالعواصم من الفتنة في الدين الإيمان، فقد يتبين للمؤمن ما لا يتبين لغيره، فالمؤمن كيس فطن، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

٢. الفتنة عن العبادات.

العبادات هي التطبيق العملي للعقائد، والعبادات بمفهومها الكبير تشمل كل نظام الحياة، كما أنه يشمل كل عمل خير، ونظام العبادات في الإسلام هو النظام الوحيد المؤهل لإسعاد البشرية وتجنيبها الفتن والاضطرابات والحروب، لأنه من لدن حكيم خبير، يعلم ما يصلح الناس وما يناسب ما خلقهم عليه[١].

فالعقيدة تعمل على إصلاح باطن الإنسان وتصحيح اعتقاده وتصوره للكون والحياة والخالق، فيأتي دور العبادت الشرعية العملية قولية وفعلية لتكمل ذلك، فتجعله على صلة بالله من خلالها، فيقدم على الطاعات بأنواعها من تزكية النفس وتهذيبها، وتنعكس على أخلاقه، كما أن العبادات تربي الفرد والجماعة على محبة وموالاة بعضهم لبعض، وتدعوهم على تماسك صفوفهم لدرء الفتنة فتعصم الأمة من كثير من الشرور.

وعليه فإن ترك العبادات كفيل بأن يوقع الإنسان في فتن خاصة وعامة نذكر منها:

- الإقبال على المعاصي والشهوات.

فمن مصائب الدين أن يترك المسلم العبادات التي شرعها الله، ويقبل على الملذات والمعاصي والشهوات، فترك الصلاة مثلا من أكبر المصائب، وترك صلاة الجماعة خصوصًا كذالك من أعظم الفتن، ولو أديت هذه الفريضة كما وجبت لتجنب الفرد والمجتمع كثيرًا من المزالق، فهي بنص القرآن تنهى عن الفحشاء والمنكر.

قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥].

فهي تنجي من فتنة السراء بشكر المنعم

(١) انظر: فقه الفتن، الأدريسي ص٣١٧.

والضراء بالصبر عليها واحتسابها، كما أنها الملاذ للعبد مما يهمه في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥].

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها)[١].

ولأهميتها لم يرخص الشرع لأحد بتركها وللقادر كذلك أن يترك صلاة الجماعة، فقد روى أن رجلًا أعمى قال: (يا رسول الله، ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له، فلما ولى دعاه فقال: (هل تسمع النداء ؟ قال: نعم، قال: فأجب) وفي رواية قال: (لا أجد لك رخصة)[٢].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح يعدون ترك صلاة الجماعة مصيبة تستحق التعزية، وقال حاتم الأصم: مصيبة الدين أعظم من مصيبة الدنيا، ولقد ماتت لي بنت فعزاني أكثر من عشرة آلاف وفاتتني صلاة الجماعة فلم يعزني أحد.

ومن مصائب الدين الإقبال على المعاصي وإلفها، والتفاخر والمجاهرة بها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل العبد بالليل عملا، ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان! قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه)[٣].

قال أبو الدرداء: (من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها)[٤].

ومثل ذلك بقية العبادات ففي الزكاة والصيام والحج فوائد وحكم لا تحصى على مستوى الفرد والجماعات والأمة، فنرى كل عبادة لها طابع اجتماعي، فعلاوة على الفوائد الروحية والصحية فهي كلها تزيد من رابطة الإخاء بين المسلمين في كل بقاع الأرض، وهي من مقومات وحدة الأمة لما فيها من توحد المشاعر والشعائر التي تشعر الجميع بالمساواة والعدل وتلغي فوارق ومقاييس المجتمعات الأخرى، وتجعل المسلم فخورا بدينه، وهذه نعمة لا يدركها

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، رقم ٤٣٣٣.
وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة، رقم ١٢٥٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، رقم ٥٥٢، ١/ ١٥١.
قال النووي في المجموع ٤/ ١٩١: إسناده صحيح أو حسن.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم ٥٧٢١، ٥/ ٢٢٥٤، ومسلم في صحيحه، كتب الزهد والرقائق، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم ٢٩٩٠، ٤/ ٥٥٩١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٤١٥.

إلا من ابتعد عنها بترك تلك العبادات.

وبما أن العبادات بمفهومها الواسع تشمل كل عمل صالح، وليس فقط بالمفهوم الضيق بما هو مشهور للعبادات المحضة، فترك العمل الصالح ينعكس على الفرد والمجتمع ويعرضهم للفتن بجميع أنواعها فيقبلون على المعاصي ومن ثم نجد للذنوب والمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله فمن ذلك:

١. حرمان العلم.

فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفئ ذلك النور، يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ومثلها حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبة فكفاه أنه صد عن طاعة الله فالعاصي يقطع عليه طاعات كثيرة كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

٢. هوان العبد على ربه.

لأن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها كما قال بعض السلف في قول الله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤].

الران: هو الذنب بعد الذنب.

ثانيًا: الفتنة عن الجهاد ووحدة الصف:

١. الفتنة عن الجهاد.

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وحامي حماه، بل لا قيام لهذا الدين في الأرض إلا به، وبه نال المسلمون العز والتمكين في الأرض، وبسبب تعطيله حصل للمسلين الذل والهوان والصغار، واستولى عليهم أعداءهم، بل تداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، وأصبحوا مع كثرتهم غثاءٌ كغثاء السيل، نزع الله المهابة من قلوب أعدائهم ووضعها في قلوبهم.

ولقد حرص الأعداء على تشويه صورة الجهاد والمجاهدين وتخذيل المسلمين عنه، ووضع العراقيل دونه، وقد دل القرآن الكريم على توقي الفتنة بالجهاد فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة:٣٩].

وهو من فروض الكفاية لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

قال ابن تيمية رحمه الله: «ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يعرض به المرء للفتنة صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة كما قال عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤٩].

فإعراضه عن الجهاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد فتنة عظيمة قد سقط فيها فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟ والله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة: فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده وتركه ما أمر الله به من الجهاد[1].

وقد وردت في الكتاب والسنة فضائل كثيرة للجهاد منها:

١. الثواب العظيم للمجاهد من حين يخرج من بيته، قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة:١٢٠-١٢١].

٢. أنه أفضل من نوافل العبادات، قال تعالى ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة:١٩-٢٢].

٣. أنه سبب لدخول الجنة، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ١٦٥- ١٦٧.

التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة:١١١].

٤. أنه سبب للفلاح، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة:٣٥].

٥. أنه سبب لتحقيق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال:٧٤].

٦. أنه سبب لحفظ الحق وتمكينه ودفع الباطل، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج:٤٠]. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

ومما سبق نستخلص عظم الفتنة في ترك الجهاد مع القدرة عليه لأن:

- ترك الجهاد سبب للهلاك في الدنيا والآخرة، أما هلاك الدنيا فبالذلة والاستعباد وتسلط الكفار عليهم، وأما هلاك الآخرة فمعلوم.

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة:٣٨-٣٩].

- ترك الجهاد سبب لعذاب الله وبطشه.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة:٣٩].

- ترك الجهاد والفرح بالقعود من صفات المنافقين.

قال الله تعالى مبينًا أنه لا يترك الجهاد إلا المنافقين والذين في قلوبهم مرض:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ

يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ [التوبة:٤٤- ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة:٨١-٨٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبةٍ من نفاقٍ)[1].

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن تبوك: (فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء)[2].

- ترك الجهاد سبب لإفساد أهل الأرض بالقضاء على دينهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة:٢٥١].

وقال سبحانه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج:٤٠].

- ترك الجهاد يفوت مصالح عظيمة وفضائل جمة منها الأجر والثواب والشهادة والمغنم والتربية ودفع شر الكفار وإذلالهم، ورفع شأن المسلمين وإعزازهم.
- ترك الجهاد قد يعرض لعقوبة عاجلة تنزل بالقاعدين عن الجهاد.

كما قص الله تعالى من خبر بني إسرائيل لما طلب إليهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة فقالوا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة:٢٤-٢٦].

وقد وعى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدرس جيدًا، ففي يوم بدر لما استشارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال؛ قال له المقداد: (يا رسول الله: إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغزو. رقم ١٩١٠، ٣/١٥١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب، رقم ٤١٥٦، ٤/١٦٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم ٢٧٦٩، ٤/٢١٢٠.

لموسى فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن امض ونحن معك)[1].

- ترك الجهاد سبب للذل والهوان.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة:٣٩].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[2].

٢. الفتنة عن وحدة الصف.

إن من أهم وأخطر الفتن هو تفرق الأمة وتشتت جمعها وكلمتها، فوحدة الصف ضرورة أجمع عليها العقلاء من الناس، والائتلاف مطلب ضروري لا غنى عنه لأمة تريد الفلاح.

حثت النصوص على لزوم الجماعة والحذر من الفرقة والاختلاف بشكل عام وفي وقت الفتن بشكل خاص. قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقد جاءت تفاسير عديدة لمعنى الحبل لا تعارض بينها، منها لزوم الجماعة.

قال البغوي: «الحبل: السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وسمي الإيمان حبلًا لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف»[3].

كما جاء ت أحاديث نبوية تؤكد لزوم الجماعة منها قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار)[4].

وقوله تعالى في الآية «ولا تفرقوا» «أي ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلف اليهود والنصارى أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة»[5]

كما جاءت آيات تحث على لزوم الجماعة محذرة من الفرقة والاختلاف في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (فاذهب أنت وربك فقاتلا)، ٦/ ٥١، رقم ٤٦٠٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، رقم ٣٤٦٢، ٣/ ٢٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٣٦، رقم ٤٢٣.

(٣) معالم التنزيل ١/ ٣٩١.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم ٢١٦٧، ٤/ ٤٦٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٧٨، رقم ١٨٤٨.

(٥) الكشاف، الزمخشري، ص٣٩٤-٣٩٥

كما برأ الله ورسوله من مثل هؤلاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام:١٥٩].

ولأجل الحفاظ على الجماعة دون التفرق، نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدم الخروج على أولي الأمر وأداء النصح لهم إن اقتضى الأمر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث لا يغل عليهن صدر مسلم: إخلاص العمل لله عز وجل و مناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين)[١].

وقال كذلك: (إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثًا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا وأن تناصحوا من ولى الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثًا، قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال)[٢].

كما حذرت أحاديث من مفارقة الجماعة فقال صلى الله عليه وسلم: (من فارق الجماعة شبرًا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه)[٣].

وفي آخر: (ومن فارق الجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية)[٤].

وفي حديث آخر قال: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[٥].

وحرصًا على الجماعة فإنه ينبغي الموالاة والنصرة و الإيواء لكل المسلمين ويعكسه البراء من الأعداء والعصاة المشركين قال تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

ومن لوازمها كذلك إصلاح ذات البين وتحكيم كتاب الله فيما شجر من التنازع وإحياء مفهوم الأمة.

ومن الفتن التي تترتب على الخروج عن وحدة الصف وتفرق الكلمة:

١. ضعف الأمة وفشلها في تحقيق مصالحها العليا.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ١٨٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٤٠٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثر المسائل بدون حاجة، ٣/ ١٣٤٠، رقم ١٧١٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب سترون بعدي أمورا، ٢/ ٨٧، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم ١٨٤٨، ٢/ ١٤٧٦.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٠/ ٣٠٨، رقم ٦١٦٦.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٧٥١، رقم ٩٨٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس بالبهائم، ٧/ ٧٧-٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٣/ ١٩٩٩، رقم ٢٥٨٦.

يقول الله تعالي: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

ويقول الله تعالي: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣].

ولهذا أصبحت الجماعة والاجتماع علي الخير والطاعة من ضروريات الدين ومحكماته، والعبادات العامة كالصلاة، والصوم والحج، والأعياد وغيرها دليل عملي علي ذلك.

إن الفرقة والاختلاف داءان وبيلان يقعدان بالأفراد والأمم عن الإصلاح والبناء، ويمكنان للهدم والفساد، ويسببان ظلمة القلوب، وفساد الألسن، والطعن في الناس، وقد يؤديان إلى الاحتراب والتقاتل.

٢. التنافر وفقدان الإلفة بين المجتمع الواحد.

وقد امتن الله على المسلمين الأوائل بتأليف قلوبهم حين وحدهم بالإسلام فقال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠٣﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٣﴾ [الأنفال:٦٣].

ولأن تأليف القلوب ميزة خصها الله تعالي بالمؤمنين، فقد وصف الله تعالي اليهود بأن قلوبهم متفرقة فقال: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ۝١٤﴾ [الحشر:١٤].

ولذلك أكد الإسلام على ضرورة الأخوة في العقيدة والتي تثمر المحبة والموالاة، وإلا لانتفت صفة الإيمان منهم كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[1].

ويعود ذلك لاضطراب مفهوم الولاء والبراء عند كثير من المسلمين.

٣. تشجيع أعداء الأمة في الداخل والخارج للتدخل بشؤون المسلمين.

فالمستفيد الأول من حالة التنازع ما بين المسلمين بشكل عام هم أعداء هذا الدين، سواء من الداخل أم من الخارج، فتشتيت الجهود غاية كل أفاق، وأمل كل أفاك، فالجهود المتفرقة غير موجعة، والكن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب، رقم ١٣، ١/ ١٤.

الجهود المتوحدة قوية لا شك أنها ضربة قاصمة رادعة، توقف المنافقين ومبتغي الفتن عند حدودهم، وتردعهم عن مزيد من حملات تشويه الصورة وإسقاط الرموز.

كما أن في الفرقة تشويه صورة المسلمين أمام العالم، وإظهارهم بمظهر الأمة المشتتة والمتعصبة لشتى الولاءت وبذلك لا يستحقون التقدير والاحترام، وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠].

ويضاف إليها تضخيم مواطن الخلاف، فيظهر التنابز بالألقاب والسعي بالغيبة والنميمة بين أبناء الدين الواحد والقبلة الواحدة، فتتشتت جهودهم في كيل التهم لبعضهم، والتنظير لإثبات مخالفة فريق ما لقواعد الإسلام وأصوله، حتى يضيع وقت الأمة في قيل وقال، بدلًا من أن تصرف الأوقات للدعوة إلى التوحيد والأخلاق الفاضلة والسعي في الأرض والإنتاج والتقدم والنهضة.

٤. الفرقة مدعاة لسخط الله والحرمان من رحمته.

فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات:١٠].

ومن أسباب هذه الفرقة الموجبة لذلك عدوم اتباع السنة، فالابتداع في الدين، والميل إلى الهوى، والغرور بالدنيا هو سبب التفرق والاختلاف.

٥. التخلف الحضاري وسقوط الدول تحت الاستعمار.

وهو نتيجة للولاء لأعداء الأمة والاتكال عليهم في أمورنا وخلافاتنا، وحل مشاكلنا، ولذلك يذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم ما يمكن به أن نتجنب ذلك ويعصمنا من هذه القواصم، وجاءت النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم ترسخ هذه الأخوة، وتدعو إلى ما يعززها ويقويها، وتنهى عما يضعفها ويصدعها، قال صلى الله عليه وسلم: (**إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس**)[(١)].

وفي جانب النصرة وعدم الخذلان قال صلى الله عليه وسلم (**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**)[(٢)].

ومن أساليب القرآن في الحث على

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٥١٧، رقم ٢٢٨٧٧.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٣٠، رقم ٦٦٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم، رقم ٢٣١٠، ٢/ ٨٦٢، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٠، ٤/ ١٩٩٦.

الجماعة أن الله جعل من أخص صفات المؤمنين أنهم أولياء بعض؛ فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

والولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)[(١)].

ومن أساليب الشريعة في الحث على الوحدة بين المسلمين: تحذيرها من الشذوذ ومفارقة الجماعة، ففي سنن الترمذي عن ابن عمر قال: (خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس: إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا، ثم ذكر خطبة جاء فيها: (عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته، فذلكم المؤمن)[(٢)].

إن إعادة قراءة التاريخ الإسلامي، والوقوف على مواطن القوة فيه، والتي كان من أهم أسبابها وحدة المسلمين قلبًا وقالبًا، وانضواؤهم تحت راية واحدة هي راية الإسلام، وعدم تخوين بعضهم بعضًا، هي الاستفادة الحقيقية من التاريخ، فليس التاريخ مجرد قصص وحكايات تقضى بها الساعات وتقتل بها الأوقات، وليست عيشًا في الماضي، وإنما هي دروس وعبر تدفع الأمة دفعًا نحو المستقبل، بفكر واعٍ وقلب نابض بالحياة.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم ٤٦٧، ١/ ١٨٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، والنسائي في السنن الكبرى، رقم ٩١٧٥، ٥/ ٢٨٤.
وصححه الألباني في الإرواء، ٦/ ٢١٥.

الحكمة من الفتنة وسبل النجاة منها

أولًا: التمحيص والتمييز ورفع المنزلة:

في الفتن يظهر الناس على حقيقتهم، ففي التجربة تتبين حقيقة الفرد فليس كل من يدعي الصبر هو صابر، أو يدعي الزهد هو زاهد، والطريق لكشف هذه الحقائق حقائق الناس هو الفتن ويظهر التمييز في أمور مهمة منها:

١. تمييز الصادقين من الكاذبين.

وذلك لأن الصدق أساس الإيمان، ويترتب الثواب عليه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة:١١٩].

والحكمة في تمييز الصادق من الكاذب يدل عليه قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣].

قال الزمخشري: «والفتنة الامتحان بشدائد التكليف، من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، هجر الشهوات والملاذ، وبالفقر والقحط، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال، وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم، والمعنى: أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمتحنهم الله بضروب المحن حتى يبلو صبرهم، وثبات أقدامهم، وصحة عقائدهم، ونصوع نياتهم، ليميز المخلص من غير المخلص، والراسخ في الدين من المضطرب، والمتمكن من العابد على حرف»[1].

ومن الفتن التي يتميز فيها الصادقون من الكاذبين فتنة الحرب والقتال، فيتوعد الله الجبناء المنهزمين بقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٦﴾ [الأنفال:١٦].

والتمييز في الفتن التي تصيب الأمة في عقائدها، ويوم تقلب الحقائق، هنا يظهر الصادقون الذي يراقبون الله في كل حال ويقولون كلمة الحق ولو اجتمعت الدنيا ضدهم، وعلى النقيض يظهر الكذابون الدجالون الذين شغلتهم الدنيا عن الدين، وتزداد الفتنة بهم، وتشتد بهم محنة الصادقين:

وفي فتنة الابتلاء بالغنى والسعة في الرزق، كما أخبرنا بذلك تعالى فقال: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾

(١) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤٣٩.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

فالآيات تتحدث عن طائفة من الناس الذين تظهر الفتنة بالغنى نفاقهم، فقد ادعوا إن أغناهم الله أن يتصدقوا، فلما رزقوا نكصوا وكذبوا فحرمهم الله ما هو أعز من المال، وذلك بأن ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة:٧].

٢. تمييز الصابرين من القانطين.

فالفتنة إذا حلت ميزت الناس على هذين المستويين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ۖ أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠].

قال البغوي في تفسير الآية: «﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: بلية، فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير: ما لي لم أكن مثله، والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع، وقال ابن عباس: أي جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى، وقيل نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقال: أسلم بعده فيكون له علي السابقة والفضل فيقيم على كفره، ويمتنع من الإسلام، فذلك افتتان بعضهم ببعض»[1].

إن فتنة المؤمنين بالكافرين وأذاهم تميز الصابر الذي لا يفت في عضده سخرية جاهل أو بطش كافر أو كيد منافق يتميز هؤلاء من صنف آخر إيمانه ضعيف وعقيدته مهزوزة يفقد زمام الصبر عند تسلط الكفار، ويقنط وييأس، وقد يصل إلى الردة وقد ذم الله تلك الطائفة فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠].

وقال ابن عباس في الآية: «فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله، وكذا قال غيره من علماء السلف»[2].

وهي كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج:١١].

إذن لا بد من الفتنة ليتحقق الإيمان، ويدل عليها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت:١-٢].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على الصبر ويحذرهم القنوط، وفي حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، وقد لقينا

(١) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٩٧.
(٢) مختصر ابن كثير، الصابوني ٣/ ٣٠.

من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: (لقد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دين، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه)[1].

وما هذا التحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لأن القنوط واليأس يؤدي للاستسلام للعدو، والحذر من ذلك هو ما تحتاجه الأمة وخصوصًا في هذا العصر الذي اجتمعت فيه كل القوى ضد المسلمين وتكالبوا عليها واستسلم الكثير بعدما غفلوا عن ضرورة الصبر في مواجهة الكفار.

٣. تميز الشاكرين من الجاحدين.

والشكر اعتراف بنعمة الله وكرمه وإحسانه، فالشاكر لسانه رطب بحمد الله، وشكر الله من قبل الإنسان في حال الفتنة بالسراء والنعمة هو كذلك فضل من الله يحتاج إلى شكر آخر ومن الشكر استعمال نعمة الله فيما يحب، والكفر والجحود نقيض ذلك باستعمال نعمة الله فيما يكرهه سبحانه، وذلك باتباع الشرع واستعمال كل شيء في موضعه الذي وضعه الله تعالى له، وبعكسه يكون قد جحد النعمة

ومن الفتنة في هذا المجال أن الإنسان لا يحدث بالنعمة بينما يعدد المصائب، وهو الجحود بعينه وقال عنهم تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات:٦].

ومن شكر المنعم ذكر آلائه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى:١١].

كما أن الاستهزاء بدل الشكر جحود وأعظم كفرا، فقد قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾[البقرة:٥٨-٥٩].

وهناك من يلجأ إلى الله ساعة الخطر، فإذا زال تنكر كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾[لقمان:٣٢].

فيتبين حال الجاحد والكافر عند انكشاف الفتنة وزوال البلاء، فهو يجحد ويطعن وينسب الفضل في كشف ذلك لنفسه كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود:١٠].

أما الحكمة الأخرى في رفع المنزلة فتتمثل في عدة جوانب:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ٦/ ٦١٩، رقم ٣٦١٢.

٤. الرضا الموجب لرضوان الله تعالى.

فالمصائب تنزل بكل الناس فالساخط يخسر الدنيا والآخرة، أما من رضيها فله الرضا من الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

٥. تكفير السيئات.

وذلك يعني التمحيص للذنوب والخطايا، فقد دلت نصوص كثيرة على أن ما يتعرض له الإنسان في حياته من فتن ومحن وابتلاءات تكون بمثابة كفارات للذنوب، إذا هو صبر عليها واحتسب، ومن ثم ييسر له الله الخيرومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران:١٤١].

قال الشوكاني: «والتمحيص: التطهير، أي ليخلص المؤمنين من ذنوبهم فتبقى صحائفهم نقية، ليس فيها إلا الحسنات»[(١)].

وهناك أحاديث كثيرة كلها تفيد تكفير السيئات للعبد المبتلى بالفتن والمحن صغيرها وكبيرها، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ولا يصيب المؤمن من وصب ولا نصب حتى الهم يهمه، والشوكة يشاكها إلا كفر به عن سيئاته)[(٢)].

٦. الثواب في الدنيا والآخرة.

من كرم الله سبحانه وتعالى أن يكافئ من يبتليه في الحياة الدنيا ويعوضه ما فقده، كما حصل للنبي أيوب عليه السلام فقد أعاد له أهله ومثلهم، وكما عوض الله أم سليم زوج الصحابي أبي طلحة حين صبرت على فقدها ولدها.

والأجر في الدنيا ثابت في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

وفضلًا عن مكافأة الدنيا فللابتلاء ثواب في الآخرة، ويكون الأجر حسب درجة الابتلاء، وليس المقصود هو الأجر على المصيبة بل على الصبر والرضا، لأن الأجر يترتب على الفعل المكتسب «وإن رضي بها ـ أي المصيبة كان له أجر الراضين، ولا يؤجر على نفس المصيبة لأنها ليست مني عمله فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور:١٦][(٣)].

كما يكون الابتلاء بالفتن والمحن وسيلة لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢].

٧. اتخاذ الشهداء.

(١) زبدة التفسير من فتح القدير، الأشقر، ص٨٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى والطب، باب ما جاء في كفارة المرض، ٧/ ١١٤، رقم ٥٦٤١.
(٣) فوائد البلوى، العز بن عبد السلام، ص١٥.

أن الله سبحانه وتعالى هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالفتن فقيض الله لهم الأسباب التي توصلهم إليها، ومن تلك المنازل «الشهادة» وقد رتب الله ذلك بعدما أوضح أن ذلك من حكم الابتلاء: ﴿إِن وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

أي: وليكرم فئة منكم بالشهادة ليمنحها عنده كرامة الشهداء ما دامت أعمارهم قد انتهت، وآجالهم قد حلت فلئن يموتوا شهداء خير لهم»[(١)].

وفي هذه الآية بيان الحكمة من ابتلاء المؤمنين بظهور الكفار يوم أحد فمنها تمييز أهل الإيمان والصبر، ومنها إدراك بعض المؤمنين الشهادةكما وضحت آية أخريالحكمة من ابتلاء المؤمنين بالجهاد ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

فقوله «ليبلو بعضكم ببعض» أي «فيصير من قتل من المؤمنين إلى الثواب، ومن قتل من الكفار الى العذاب»[(٢)]، ثم بين بعد ذلك الثواب وهو الجنة التي عرفها لهم.

ثانيًا: تمييز الخبيث من الطيب واختيار القيادات الراشدة:

١. تمييز الخبيث من الطيب.

في الفتن وخصوصًا الفتن الجماعية تظهر معادن الناس وصفاتهم من الصبر والشجاعة والزهد والتواضع والثبات والكرم، مما يناقضها كالشح والجبن والجشع والكبرياء وغيره.

وتنكشف حقيقة النفوس المدعية، فمدعي الإيمان والثبات قد يولي هاربًا ويتراجع عن كل شيء فتقام عليه الحجة.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

وفي الفتنة يثبت من عصمهم الله بالإيمان، فيتحملون الأمانة الكبرى، وبذلك يتم نفي الخبث عن الدعوة[(٣)]، بأن يسقط المنافقون والمداهنون ويتنحون عن المؤمنين، وهؤلاء لا يجدون عند الناس إلا الاستخفاف، بينما يكبر في أعين الناس وقلوبهم أولئك المجاهدون المضحون في سبيل الدعوة، بل حتى في نظر خصومهم

ومن حكمة الله تعالى عدم دخول المتكبرين المتطلعين إلى الزعامة في الإسلام ابتداءً، ولو دخلوا خلال الصف

(١) بصائر المسلم المعاصر، الميداني ص ٣٨٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٧٥.
(٣) انظر: فقه السيرة النبوية، منير محمد غضبان، ص١٩١.

المؤمن لخذلوهم، وفرقوا بينهم.

وهكذا فالجماعات تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث وتجمع قواها فيشتد عودها ويصلب، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا وأقواها طبيعة وأشدها اتصالًا بالله وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية[1].

وإن المحن تساعد على تنقية الصف المؤمن من أعدائه الباطنيين المتغلغلين بين صفوفه[2]، فقد يدخل الصف المؤمن وقت الرخاء من يتظاهر بالإسلام فيكون الابتلاء وسيلة لمعرفتهم ثم تنقية الجماعة المؤمنة منهم، وهذا ما حدث أثناء حروب الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة حيث حاول المنافقون تثبيط المسلمين عن الخروج للقتال، فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

قال ابن كثير: «أي: لابد أن يعقد شيئًا من المحنة يظهر فيه وليه ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وهتك به ستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم»[3].

وقيل: «أي ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم»[4].

ونجد كثيرًا من الآيات تربط بين الفتنة الجماعية والنفاق،وذلك لأنهم حريصون على بث الفتن والمحن والشر بين المؤمنين كما أن هناك تلازمًا بين كلمتي الفتنة والنفاق[5].

وقد كشف القرآن عن صفات المنافقين كي لا ينخدع بهم المؤمنون، وذلك في سورة التوبة التي تظهر كيدهم حيث يقول تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤٧-٤٩].

كما يقول تعالى في نفس السورة: ﴿وَأَمَّا

(١) انظر: الظلال،سيد قطب، ٥/ ٢٧٢١.
(٢) الابتلاء والمحن في الدعوات، أبو فارس محمد عبد القادر، ص١٣٧.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ١/ ٣٤٠.
(٤) زبدة التفسير، الأشقر، ص ٩٢.
(٥) انظر: الفتنة وموقف المسلم منها، عبد الحميد السحيباني، ص٣٧٥.

﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة:١٢٥-١٢٦].

يوضح تعالى حال المنافقين حين التعرض للفتنة والابتلاء واستعدادهم للكفر مع أنهم مع المسلمين يرون دلائل صدق النبوة ! وتمر الأعوام وهم يرون صدقه وخذلان أعدائه فلا يتعظون، مما يدل على فساد فطرتهم فلا يعظهم الابتلاء ولا يردهم الامتحان.

يقول الشوكاني: «وأما الذين في قلوبهم مرض: وهم المنافقون فزادتهم السورة المنزلة رجسًا إلى رجسهم أي: خبثًا إلى خبثهم، الذي هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد فتشددوا فيه ورسخوه في أنفسهم واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفارًا منافقين. و«يفتنون» يختبرون ويبتليهم الله سبحانه بالقحط والشدة وبالأمراض والأوجاع أو بأمرهم بالغزو والجهاد مع النبي «ثم لا يتوبون» بسبب ذلك «ولا هم يذكرون» وهذا تعجيب من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق»[1].

ومن الأمور التي كشفها الله من أعمال المنافقين مسجد ضرار الذي بناه المنافقون قرب مسجد قباء، والذي أرادوا به فرقة المسلمين.

وبعد أن ذكرت الآيات العشر الأوائل من سورة العنكبوت أنواعًا للفتن التي يواجهها المؤمنون، قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت:١١].

أي: ليكشف المؤمنين الذين صدقوا بالجهاد والصبر من ضعفاء الإيمان والمنافقين، فالبلايا كواشف، فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون.

٢. اختيار القيادات الراشدة.

وتمر بمراحل أهمها:

١. الإيقاظ من الغفلة.

إن الفتن التي تصيب العبد قد تصاحبها هزة وجدانية تجعله يتيقظ ويستدرك أخطاءه وخصوصا لمن شغلته الدنيا عن الآخرة، فيفيق بالفتن وبذلك يقول ابن ناصر الدمشقي: «ومن فوائد الابتلاء مقت الدنيا لأنكادها وبعث النفس على العمل ليوم معادها، فإنه إذا تفكر في ذهاب أحبابه علم أنهم شربوا بكأس لا بد له من شرابه»، ويقول: «تيقظ المبتلي من غفلته، وطيب نفسه ببره وإخراج صدقته»[2].

ويجعلها ابن قيم الجوزية أول منازل العبودية فاليقظة: «وهي انزعاج القلب لروعة

(١) زبدة التفسير، الأشقر، ص٢٦٤.

(٢) برد الأكباد، ابن ناصر الدمشقي، ص٦٨.

الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة أو ما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها على السلوك وكأنها هي القومة لله المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦].

فالقومة لله هي اليقظة من سنة الغفلة وأول أنوارها: لحظ القلب إلى النعمة على اليأس من عدها والوقوف على حدها والتفرغ إلى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير في حقها»[(١)].

وتتبع اليقظة خطوات أولها إعمال الفكر إلى الوجهة المطلوبة، فإذا استحكمت يقظته أوجب له الفكرة، وإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة من إدراك الوعد والوعيد، والبصيرة تنبت في القلب الفراسة الصادقة التي تفرق بين الحق والباطل، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل) ثم قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر:٧٥][(٢)].

ثم بعد ذلك يأخذ في القصد والعزم[(٣)].

(١) تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم صالح، ص١٠١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب من سورة الحجر، ٥/ ٢٩٨، رقم ٣١٢٧.

(٣) انظر: تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم صالح ص١٠١-١١١.

ويكون من ثمرات اليقظة من الغفلة أن يحصل أمران:

الأول: الحذر من الشيطان وكيده، وأغراء الشيطان يكون للفرد وللجماعة الغافلة فكثير من الفتن التي حولنا لا نجد لها تفسيرا إلا تحريض الشيطان، ولعل الواقع المرير ومصائبه أيقظت الكثير من الغافلين ولا يعصمهم منه إلا اللجوء إلى الله والاعتصام بشرعه.

والثاني: حصول التوبة: ومن ثمرات اليقظة من الغفلة أن يتعرف الإنسان على ذنبه فيتوب منه، والفتن والمحن طريق لذلك:

يقول ابن قيم الجوزية: «فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يتصور وجودها بدونهما»[(٤)].

٢. تقوية الصف المسلم.

وذلك عند الخروج من الفتن بتعميق المحبة بينهم بعد تنقية صفهم من الأعداء فيخرج قويًا متماسكًا يصعب اختراقه وهدمه. فالابتلاء يؤلف بين القلوب ويتأسى بعضهم ببعض فتزداد المودة، لأن جو الفتن قد يسوده التراحم والتعاطف حين يرى بعضهم عنت البعض الآخر. والشدائد تزيد الجماعات تماسكا واقترابًا، وقد شبه بعض الدعاة الجماعات حين تعرضها للابتلاء

(٤) المصدر السابق ص١١٥.

بقطعة الاسفنج التي كلما زاد الضغط عليها قل حجمها وتقاربت أجزاؤها وطردت الهواء من فجواتها، فالصف المسلم يقل عدده لكنه يشتد صلابة لأنه فرغ من أصحاب الأفئدة الهواء»[1].

ويترتب على ذلك فوائد منها:

- **إغاظة الأعداء:** ولا شك في أن خروج المسلمين من محنهم ثابتين أقوياء في عقيدتهم وأصلب تماسكًا رغم ما أصابهم، فيه إغاظة للمشركين وكل أعداء الصف المؤمن.
- **ظهور القدوة الحسنة والقيادة الراشدة:** فحين تظهر الفتنة أناسا صابرين، وينالون من المكافأة والرفعة عند الله فسيكونون قدوة لغيرهم، ومثل ذلك في بقية الشيم التي تظهر في الفتنة فلا زال شهداء الأمم من الرعيل الأول قدوة للمسلمين يذكرون صبرهم عند الشدائد وفي مقارعة الأعداء سواء في معارك الأعداء أو المعارك الفكرية، فمن ذلك من صمد في محنة العقيدة كالإمام مالك وابن تيمية والغزالي، وغيرهم كثير هم قدوة ومنارة يهتدى بها على الطريق الصحيح، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١].

وبعد ظهور القيادات الراشدة واختيارها يحصل التمكين للأمة، الفتن وسيلة تربوية للإعداد وترسيخ الإيمان، والتحلي بالصبر وكظم الغيظ، وذلك لأخذ الأهبة والاستعداد لأداء الأمانة رحمة من الله بالجماعة وتعهده لها بالرعاية، واعداد الخلف من بعدهم، وعلى هذا نرى الرعيل الأول الذي تخرج من مدرسة الأنبياء يقومون بأعباء الدعوة بعد أن ورثوا تركتها الثقيلة حيث أدخلهم الله مدرسة الابتلاء مع أنبيائهم مسخراً أعداءه ليربي بهم أولياءه ليعدهم لحمل الأمانة

وعلى هذا فالابتلاء يسبق التمكين حيث تمتحن الجماعة المؤمنة حتى يكون من يستخلفهم الله أقوياء أمناء لا يخونون ولا يفرطون، فيوسف عليه السلام يخرج من السجن ليتبوأ على عرش مصر وخزائنها، ومع ذلك يظل مراقبًا لربه يجوع يومًا ويشبع يومًا، وهنا يتجلى الفارق بين من يخرج من السجن ليتولى الحكم، ومن يخرج من الحكم إلى السجن وهم كثير.

ويندرج تحت هذه حكمة الله في ابتلاء هذه الأمة حيث لم يبتل أمة كما ابتليت أمة الإسلام بأعدائها لوعده تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فالشهادة على الناس

(١) انظر: الجوانب المشرقة للابتلاء، إبراهيم حجازي، مجلة المجتمع، العدد، ١٢١٩، ١/١٠/١٩٩٦، الكويت ص٥٨.

تكون من التمكين، والاجتباء للأمة لتبليغ رسالة الإسلام كما إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اجتباه الله لتبليغ الناس ولا يصلح لمثل ذلك إلا بعد التمحيص بأنواعه، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٨].

«والظاهر أن الأمر بالجهاد في هذه الآية يبرز فيه بوضوح جهاد الدعوة لا جهاد القتال»[(١)].

سبل النجاة من الفتن

أولًا: الدعاء والصبر:

١. الدعاء مع الفتنة.

إن اللجوء إلى الله بالذكر والدعاء في أيام الفتن من أقوم السبل للنجاة منها كبيرها وصغيرها، ففتنة زينة الدنيا وشهواتها تصد العبد عن ربه وتوصله للغفلة، فلا بد من لجوئه إلى يالله أن يصرف عنه فتنتها، ومن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم (وأعوذ بك من فتنة المحيا)[(٢)].

ولما كان الأولاد والأزواج من أعظم فتن الدنيا كما مر، نجد القرآن الكريم إن من صفات عباد الرحمن الدعاء بأن يجعلهم قرة عين كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان:٧٤].

والدعاء من عدو الإنسان الأول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨].

وفي فتنة لقاء العدو وقتال الكفار ذكر القرآن الكريم دعاء أصحاب طالوت ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ

(١) بصائر المسلم المعاصر، عبد الرحمن حبنكة، ص ٣٩١.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من المحيا والممات، رقم ٦٣٦٧، ١١/ ١٧٦.

عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ [البقرة:٢٥٠].

ومن أمثلة الدعاء من فتنة الدين دعاء أصحاب الكهف حين لجوءهم إليه ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف:١٠].

وذكر الله والتماس العون منه مع الأخذ بالأسباب والتوكل على الله في حصول نفعها، فقد قال تعالى حاكيًا عن ابراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء:٨٠].

ويلاحظ فيها أدبه مع الله بنسبة المرض لمن وقع عليه ونسبة الشفاء لله، والرقى من القرآن والأدعية المأثورة من أنفع الأسباب في التطبب، وقد صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ابتلاء أيوب عليه السلام بمرضه أعظم أسوة، وقد حكى عنه القرآن قوله: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء:٨٣].

ويلاحظ التلطف في دعائه حيث اكتفى بتقرير حاله واظهارعجزه وحاجته بأوجز وأوضح معنى، فكانت الإستجابة ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٤].

وللدعاء أثر كبير في مواطن الاضطرار في صرف البلاء، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢].

والتماس العون من الله دليل التوكل عليه قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣].

فإذا علم الله من العبد صدق التوجه هيأ له الأسباب للخير ما لم تكن في حسبانه. ومن الأمور التي تعين على الصبر ذكر الله تعالى، بالدعاء في مواطن الشدة، ولنا في أصحاب فرعون السحرة مثلًا حين عرفوا الحق فآمنوالم يرهبوا وعيد فرعون، بل لجأوا إلى الله ليثبتهم ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٦].

٢. الصبر عند الفتنة.

إذا كان الصبر واجبًا تجاه الابتلاءات الفردية، فهو آكد في مجال الفتن والمحن العامة لأن نفعه وعاقبته يعود على الأمة جمعاء، حيث يكون من أعظم الأسلحة النافعة للثبات وعدم التخبط، ومن ثم النهوض، وإخراج الأمة من جديد وإلا فعند عدمه يقع ما هو أكبر منه.

للصبر أهمية في تربية النفوس ليكون بها من قوة الإيمان ما تواجه به فتنة السراء والضراء كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا

﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣].

بعد أن بين إن ما يصيب الإنسان من الله وقدره، قال الشوكاني: «أي أخبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، ولا تفرحوا بما أعطاكم منها فإن كل ذلك يزول عن قريب، وكل زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله ولا يحزن على فواته»[(١)]، «وقيمة هذه الحقيقة في النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعًا وتذهب معه حسرات عند الضراء، ولا تفرح الفرح الذي تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء»[(٢)].

وإذا كانت الفتنة تدعو إلى الحرص على الجماعة التي هي خير من العزلة فإن ذلك مجاهدة تحتاج إلى صبر ومصابرة للقيام بمهمة الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والصبر مطلوب في كل فتنة وفي كل مجال فالصبر على الطاعة والصبر على المعصية في زمن انتشار المفاسد والمعاصي وخصوصًا في زماننا هذا حيث تفشي المنكرات والمجاهرة بالفسق والفجور حتى أصبح الماسك على دينه كالقابض على الجمر، فكلما زادت هذه الفتنة وواجهها الإنسان بالصبر زاد أجره وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: (يأتي على الناس زمانٌ الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر)[(٣)].

ومن الفتن العامة التي تحتاج إلى الصبر مايلاقيه الدعاة إلى الله قديمًا وحديثًا، فطريق الدعوة شاق طويل كثير المتاعب فلذا يحتاج إلى همة عالية وصبر شديد، لأن الداعية يطلب من الآخرين تغييرًا قد لا تطيقه نفوسهم كتجردهم من الأهواء والشهوات والوقوف عند حدود ما أمر الله به.

ولا شك أن الداعية يثقل عليه إعراض الناس، ولكن ربما التحديات تزيده صلابة وهذا شأن أولياء الله، وإعراض الكثير عن دعوة المرسلين سنة لا تتغير.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت:٤-٥].

ويدعو القرآن للصبر تجاه المعرضين، لأن محنة الداعية قد تتعدى وتتجاوز القول إلى الفعل وهو أمر قديم وحديث ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ

(١) زبدة التفسير، الأشقر، ص٧٢٢
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٤٩٣.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، ٤/ ٥٢٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٩٥٧.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦].

والآية وصفت الأذى المسموع بالكثرة، وهو الحرب الكلامية على أهل الإيمان من التشويه والتشويش والإفتراء والتحريف فلا بد من إحتمالها بالصبر والتقوى التي لا بد منها، فالصبر للثبات في وجه الباطل والتقوى للتعفف من مقابلة الخصم بأسلحته الخبيثة، كما قرن تعالى بين أهل الكتاب والمشركين لإتفاقهم على عداوة الإسلام[(١)].

ومن مجالات الصبر في فتنة الأمة استبطاء النصر وهي فتنة عظيمة، فالله تعالى وعد المتقين بالنصر بعد الصبر وكتب لهم التمكين في الأرض ليكون الدين كله لله، وهذه المنزلة لا يبلغها المؤمنون سريعًا إلا بعد الشدائد حين تزيغ الإبصار وتبلغ القلوب الحناجر ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤].

فقولهم: متى نصر الله؟ استبطاءً له واستعجالًا وكلما اشتد الكرب كان الفرج قريبًا فجاءهم الجواب بأن النصر قريب حين نجحوا في الابتلاء، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف:١١٠].

ومع اشتداد الفتن يحتاج العبد إلى مزيد من الصبر والمجاهدة ضد الشيطان كي لا يقنطه ولا يسخطه ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي فيدع الدعاء)[(٢)].

والصبر مطلوب عند البأس وملاقاة العدو، لأن الفرار كبيرة، فالصبر هنا شرط أساسي للنصر.

قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

«وإنما نصب الصابرين على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته»[(٣)].

وذلك لأن المفاجآت في الحروب

(١) انظر: الصبر الجميل، سليم الهلالي، ص٤٠-٤١

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد مالم يعجل، ٧/ ١٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، رقم ٢٧٣٥، ٣/ ٢٠٩٥.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ١/ ١٥٥.

تحتاج إلى صبر وثبات فقد يختل الصف بسبب الإشاعات المثبطة للهمم وهو ما سمي حديثًا ب(الحرب النفسية) فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا)[(١)].

وفتن الحروب لا تخص المقاتلين وحدهم بل تعم الأمة بالبلاء وربما تجتمع الابتلاءات فيها من الخوف والجوع ونقص الأنفس والثمرات.

والصبر على الأخوة في الله للحفاظ على بنيان المجتمع وتقوية روابط المحبة أمر مهم، فلا تقابل الإساءة بالإساءة فيكون عونًا للشيطان بل تقابل بالصبر والحلم بأن يدرأ بالحسنة السيئة فيعود المخطأ إلى صوابه.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[فصلت:٣٤-٣٥].

ونحن في زمن الفتنة وتكالب الأعداء ما أحوجنا لذلك بأن يصبر المسلم على زلة أخيه وأن يحتسب ذلك لله

فقد أخبر الله أن الصبر يورث درجة الإمامة فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:٢٤].

«أي: جعلناهم أئمة لصبرهم على مشاق التكليف والهداية للناس»[(٢)].

وإذا كان الصبر مثابًا عليه في كل مجالاته فهو عند وقوع الفتن والاختلاف والأهواء أكثر ثوابًا وذلك بإسداء النصح والأمر بالمعروف الذي يحتاج إلى معاناة كبيرة في مثل تلك الظروف يدل عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحًا فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجل يعملون مثل عملكم)[(٣)].

والصبر كله خير وبه يستعان على كيد الأعداء والمتربصين بالأمة كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[آل عمران:١٢٠].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ١٩، رقم ٢٨٠٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٥١، رقم ٦٨٠٦.

(٢) زبدة التفسير، الأشقر، ص٥٤٧

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المائدة، ٥/ ٢٥٧، رقم ٣٠٥٨.
قال الترمذي: حسن غريب.
وصحح الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٤٩٤.

ثانيًا: الالتزام بهدايات الوحي وتجنب العجب والغرور:

١. الالتزام بهدايات الوحي.

بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم انه لا سلامة من الفتن كلها إلا بالتمسك بهدايات الوحي وهما الكتاب والسنة، والأدلة على ذلك من القران الكريم كثيرة، فإذا أردنا النهوض بالأمة من جديد في عصر تلاطمت فيه الفتن فلا بد من دراسة ظروف ميلادها الأول، عند ذلك ندرك أهمية الاهتداء بالكتاب والسنة وتطبيقات السيرة في عملية البعث الإسلامي أو إخراج الأمة ونهوضها من جديد.

والاعتصام بالكتاب والسنة جاء ضمنًا في سياق الأمر بطاعة الله ورسوله بأسلوب الترغيب حيث رتب الرحمة عليها والثواب فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٢].

وقال كذلك: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩].

وحذر تعالى من عدم الطاعة فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة:٩٢].

ومن متممات الطاعة رد الحكم لله والرسول قرانا وسنة في الأمر كله، ولا نجاة للأمة إلا بإتباعهما، فهما المصدران الأساسيان وفيهما المنهج الكامل للحياة فمتى ما عصفت بالأمة الفتن علم أنها زاغت عن الطريق وحادت عن المنبع الأصلي، وبعدت عن هذين المصدرين و ما عليها إلا الرجوع إليهما

وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تركت فيكم أمرين لا تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله و سنة نبيه)[(١)].

وفي حديث آخر قال: (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)[(٢)].

وقد وعظ الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقيل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا فقال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، ٢/ ٨٩٩، والحاكم في المستدرك، ١/ ٩٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٦٦، رقم ٢٩٣٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٦٧، رقم ١٧١٤٢، وابن ماجه في سننه، كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، ١/ ١٦، رقم ٤٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٠٥، رقم ٤٣٦٩.

عليكم عبد، و إنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)[1].

فالرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد بمثل هذه الأحاديث أن جميع الفتن عائدة إلى اختلال في تطبيق هذين المصدرين، وإن الاكتفاء بواحد منها لا يكفي لأن السنة شارحة وموضحة ومقيدة للكتاب، فضلًا عن أحكام مضافة في السنة فالادعاء بالاكتفاء بالقرآن كما ذهب إلى ذلك فرق مبتدعة قديمًا وحديثًا ـ ضياع للقرآن وللإسلام وانحراف عنهما.

كما يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك إلى الاقتداء بالخلفاء الراشدين المهديين من بعده، لأن عصورهم شهدت تطبيقًا حيًا للقران والسنة.

ويلاحظ كذلك من الأدلة أن الالتزام والاعتصام بالكتاب يعني التطبيق الكامل لهما، وليس الاقتصار على النسك والعبادة وبعض المظاهر، والعودة إلى الشريعة تقتضي ذلك وفي جميع نواحي الحياة، ولذلك فإن جميع ما سنذكره من الضوابط اللاحقة عائدة إلى هذا الأصل وهو الاعتصام بالكتاب والسنة. وبما أن القرآن حذرنا من فتنة عامة فقال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥].

بعد أن أمر بالاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم إذن فالعودة ـ استجابة للرسول ـ ترفع عنا الفتن و المحن.

ومن ثمرة الالتزام بهذا الضابط مواجهة الفتن والابتلاءات بخلق إسلامي نتعلمه من الكتاب والسنة، فمن ذلك التزام الرفق و التأني والحلم و الحكم بالعدل[2].

ويسبب الابتعاد عن اتباع منهج الكتاب والسنة حدثت الفتن في ماضي المسلمين وحاضرهم و ازدادت كلما ابتعدوا حتى غدت النكبات والمحن نصيب المسلمين، وإذا تدبرنا الأمر نجد مرد ذلك للتقصير في كثير من الفرائض والسنن التي أدت إلى تخاذل المسلمين وطمع الاعداء فيهم، ولا بد من إحياء فريضتيين مهمتين اقصيت من حياة المسلمين و لا بد من الالتزام بها في مواجهة الفتن و المحن و هما: إحياء رسالة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، وإحياء فريضة الجهاد و إعداد القوة.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب لزوم السنة، ٥/ ١٣، رقم ٤٦٠٧، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ماجاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ٥/ ٤٤، رقم ٢٦٧٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٩، رقم ٢٥٤٩.

(٢) انظر: الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن محاضرة، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ص ١٥.

٢. تجنب العجب والغرور والكبر.

من العواصم من الفتن وخصوصا الفتن الاجتماعية تجنب العجب والغرور لأنهما داءان مهلكان يظهر أثرهما في أعمال تصدر وتسيء للآخرين، ولذلك فقد ذم الله الكبر والمتكبر بأنه مصروف عن الحق فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦].

كما نهت عنه أحاديث كثيرة لأنه من الصفات الخاصة بالله سبحانه وتعالى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدة فيهما ألقيته في جهنم ولا أبالي)[١].

والتكبر درجات أعلاها وأهلكها التكبر على الله سبحانه وتعالى بدافع الجهل والطغيان مثل فرعون، ثم التكبر على الرسل وعدم طاعتهم، ثم التكبر على العباد بأن يعظم نفسه ويستحقر غيره، وكان الكبر والعجب سببا ودافعا لكل المناهضين والمكذبين للأنبياء عليهم السلام، وخاصة زعماء قريش.

كما أن العجب مذموم في كل الحالات ومنها الحرب، وكان سببا في تراجع جيش المسلمين في بداية معركة حنين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[التوبة:٢٥][٢].

وقد يعجب الإنسان بنفسه وهو مخطئ، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ مهلكات شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)[٣].

وقد يكون العجب بالنفس، وبالمال، وبالأتباع والأولاد والعشيرة، وبالقوة، وبالنسب، وبالرأي والعلم - وقيل: آفة العلم الخيلاء - وبالعمل والعبادة.

والكبر والعجب يورث بعضهما البعض، ويورثان الغرور، فتظهر آفة الكبر في إعجاب المرء بنفسه وتعاليه، كما أن العجب يورث التكبر ويؤدي إلى الطغيان والتجبر، وكلاهما يسبب الخصام والحسد والبغضاء لأن العجب يظهر في التفاخر، واستجهال الناس، والاستبداد بالرأي والسفه عليهم[٤]، ومن ثم سخط الله سبحانه وتعالى وعقوبته،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، رقم ٢٦٢٠، ٤/ ٢٠٤٣.

(٢) التوبة ٩: ٢٥ ومثلها الحشر ٥٩: ٢، الكهف ١٨: ١٠٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ٥١٢، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المائدة، رقم ٥٠٥١، ٥/ ٣٢٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم)، رقم ٤٠١٤، ٢/ ١٣٣٠- ١٣٣١. و حسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٨٤، رقم ٣٠٤٥.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٣/ ٥٢٠- ٥٤٦، ٥٧١- ٥٨٥.

فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣][1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبرٍ)[2].

وفي آخر: (قالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين)[3].

[انظر: الابتلاء: المعينات على اجتياز الابتلاء]

موضوعات ذات صلة:

الابتلاء، الأذى، الاستهزاء، الإكراه، الثبات

(١) النحل: ٢٣، ومثلها غافر: ٣٥ن ٦٠، إبراهيم: ١٥، الفرقان: ٢١

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٢، رقم ٩١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء رقم ٢٨٤٦، ٣/ ٢١٨٦.

الفرح

عناصر الموضوع

مفهوم الفرح	٢٠٤
الفرح في الاستعمال القرآني	٢٠٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٠٦
حقيقة الفرح	٢٠٨
أنواع الفرح	٢١٣
دوافع الفرح	٢٢٧
أساليب القرآن في الحديث عن الفرح	٢٣٥
ضوابط الفرح	٢٤٢
الفرح بين القرآن وعلم النفس	٢٤٨

مفهوم الفرح

أولًا: المعنى اللغوي

الفرح: مصدر قولهم: فرح يفرح، هو خلاف الحزن يقال: فرح بكذا فهو فرح، ويطلق الفرح أيضًا: على البطر، ويقال: رجل فَرِح وفَرْحَان وامرأة فَرِحة وفَرْحَى[(١)].

والمفراح: الذي يفرح كلما سره الدهر. وهو الكثير الفرح، وقد أفرحه وفرحه.

والفَرْحة: المسرة، والفرحة أيضًا: ما تعطيه المفرح لك أو تثيبه به مكافأة له. وفي حديث التوبة: (لله أشد فَرَحًا بتوبة عبده)[(٢)]، وصفة الفرح ثابتة لله عز وجل كما يليق بجلاله وكماله[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون في اللذات البدنية والدنيوية[(٤)].

وقال المناوي: «الفرح: انفتاح القلب بما يلتذ به»[(٥)].

وقال الكفوي: «الفرح ما يورث أشرا أو بطرا، ولذلك كثيرا ما يذم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]. ويتولد هذا عن القوة الشهوية. وقيل: شرح الصدر بلذة عاجلة، وقيل: لذة القلب لنيل المشتهى»[(٦)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٤١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٣، رقم ٢٧٤٤.

(٣) انظر: تهذيب اللغة ٥/ ٢٠، الصحاح، الجوهري ١/ ٣٩٠، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٩٩، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٤١.

(٤) المفردات، ص ٣٧٥، الذريعة في مكارم الشريعة، الراغب الأصفهانى ص ٣٣٩.

(٥) التوقيف على مهمات التعريف ص ٢٥٨.

(٦) الكليات، الكفوي ص ٥٠٨.

الفرح في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (فرح) في القرآن الكريم (٢٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧	﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٨١]
الفعل المضارع	٩	﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم:٤] ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود:١٠].
صفة مشبهة	٦	﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم:٣٢]

وجاء الفرح في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: البطر: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:١٠]. يعني: بطر فخور.

الثاني: الرضا: ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد:٢٦]. يعني: رضوا بها.

الثالث: السرور: ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس:٢٢]. يعني: سروا بها.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥١٤.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٥٩-٣٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ السرور:

السرور لغة:

يقال: سررت برؤية فلانٍ وسرني لقاؤه، وقد سررته أسره أي فرحته، السرور خلاف الحزن؛ تقول: سرني فلانٌ مسرةً، والسرور: ما ينكتم من الفرح [(١)].

السرور اصطلاحًا:

«حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد وعلم أو ظن لحصول شيء لذيذ»[(٢)].

وقيل: هو انشراح الصدر بلذة فيها طمأنينة الصدر عاجلًا وآجلًا[(٣)].

الصلة بين الفرح والسرور:

هناك تقارب في المعنى بين الفرح والسرور إلى حد كبير، بحيث يصعب التفريق بينهما وفرق أبو هلال العسكري بينهما فقال: «الفرق بين السرور والفرح؛ أن السرور لا يكون إلا بما فيه نفع أو لذة على الحقيقة، وقد يكون الفرح بما ليس بنفع أو لذة: كفرح الصبي بالرقص والعدو والسباحة وغير ذلك مما يتعبه ويؤذيه، ولا يسمى ذلك سرورًا»[(٤)].

٢ الحبور:

الحبور لغة:

هو السرور. الحبرة: النعمة التامة[(٥)].

والحبور من الحبرة وهو الفرح، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾[الروم:١٥][(٦)].

الحبور اصطلاحًا:

المبالغة فيما وصف بجميل[(٧)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦١.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٣.
(٣) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٦٢٨.
(٤) انظر: الفروق اللغوية ص ٢١٩.
(٥) الصحاح، الجوهري ٢/ ١٨٣، تاج العروس، مرتضى، الزبيدي ١٠/ ٥٠٦.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٧.
(٧) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ٣١٦.

الصلة بين الحبور والفرح:

قيل: الفرح: انبساط القلب لنيل محبوب أو توقعه، والحبور: السرور الذي يظهر في الوجه أثره، فهو أشد من الفرح، ولذا خاطب الله تعالى أهل الجنة بقوله ﴿ ٱدۡخُلُوا۟ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزخرف:٧٠].[1].

٣ البشرى:

البشرى لغة:

هي الخبر السار وكذلك البشارة، يقال: بشرته فأبشر واستبشر وتبشر وبشر فرح[2].

البشرى اصطلاحًا:

اسم لخبر يغير بشرة الوجه مطلقا سارا كان أو محزنا إلا أنه غلب استعماله في الأول وصار اللفظ حقيقة له بحكم العرف حتى لا يفهم منه غيره[3].

الاستبشار في الاصطلاح:

البشارة: هي الخبر الصدق السار الذي ليس عند المخبر به علمه[4] ووجود المبشر به وقت البشارة ليس بلازم بدليل قوله تعالى ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ ﴾ [الصافات:١١٢].

الصلة بين البشرى والفرح

البشارة إذا كانت في الخير، فإنه تورث الفرح والسرور.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٩٧.
(٢) انظر: المحكم والمحيط، ابن سيده ٨/ ٥٩، المصباح المنير، الفيومي ص ٣١
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص ٢٣٩
(٤) انظر: المصدر السابق.

حقيقة الفرح

أولًا: صفة الفرح في حق الله تعالى:

من الصفات الثابتة لله تعالى صفة الفرح فهي صفةٌ فعليةٌ خبريةٌ ثابتةٌ بالأحاديث الصحيحة، أثبتها النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الصفة من صفات الله تعالى لها معنى وأثرٌ.

جاء في صحيح مسلم عن الحارث بن سويدٍ، قال: دخلت على عبد الله أعوده وهو مريضٌ، فحدثنا بحديثين: حديثًا عن نفسه، وحديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن، من رجلٍ في أرضٍ دويةٍ مهلكةٍ، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده) [(١)].

فصفة الفرح من الصفات الفعلية الخبرية التي انفردت بها السنة دون الكتاب، وهي ثابتة بالسنة الصحيحة التي تلقاها أهل السنة بالقبول، وعقد إجماعهم استنادًا إليها على إثباتها، وهذه الصفة تدل بالتضمن على لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث يوفق من يشاء من عباده ليتوبوا فإذا تابوا تقبل توبتهم وفرح بها فرحًا شديدًا ولطيفًا في وقت واحد، إذ يرد إليه عباده الشاردين من طاعته لئلا يضيعوا، وهو الذي لا تضره معصيتهم ولا تنفعه طاعتهم [(٢)].

ففي هذا الحديث إثباتٌ لصفة الفرح لله تعالى، وشبه النبي صلى الله عليه وسلم فرح الله تعالى بتوبة عبده بفرح الذي ضلت راحلته وعليها طعامه وشرابه في أرض صحراء مهلكة، لا ماء فيها ولا طعام، فأيس منها، فنام وأيقن بالموت والهلاك، فاستيقظ فوجدها قائمة عند رأسه، فالله أشد فرحا من هذا براحلته.

قال ابن القيم: «والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة» [(٣)].

قال الهراس: عند شرحه لهذا الحديث «وفي هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل، والكلام فيه كالكلام في غيره

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٣، رقم ٢٧٤٤.

(٢) انظر: الصفات الإلهية في الكتاب، محمد أمان بن علي جامي علي ص٢٩٧.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ١٥٨.

من الصفات، أنه صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته، فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يحدث عبده المثوبة والإنابة إليه، وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب، وقبوله توبته.

وإذا كان الفرح في المخلوق على أنواع، فقد يكون فرح خفة، وسرور، وطرب، وقد يكون فرح أشرٍ وبطر، فالله عز وجل منزه عن ذلك كله، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه، لا في ذاته، ولا في أسبابه، ولا في غاياته، فسببه كمال رحمته وإحسانه التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين»[1].

وأما تفسير الفرح بلازمه، وهو الرضا، وتفسير الرضا بإرادة الثواب، فكل ذلك نفيٌ وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم، حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه كما هي في المخلوق، تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم[2].

قال المناوي: «في الحديث إظهار صفة الكرم والحلم والغفران، ولو لم يوجد لانثلم طرفٌ من صفات الألوهية، والإنسان إنما هو خليفة الله في أرضه، يتجلى له بصفات الجلال والإكرام والقهر واللطف»[3].

فمن صفات الله تعالى الفرح والغضب والسخط. وغيرها، واحتجاج أصحاب الفرق الضالة، بأن هذا انفعال وتأثير من العبد، والمخلوق لا يؤثر في الخالق، فلو أغضبه أو فعل ما يفرح به لكان المحدث قد أثر في القديم.

فالله تعالى خالق كل شيء، وربه ومليكه، فهو سبحانه خالق الأسباب التي ترضيه وتغضبه، وتسخطه وتفرحه، فهو سبحانه خالق ذلك كله، والمخلوق أعجز من أن يؤثر فيه[4].

فالسلف الصالح لا يؤولون ولا يلحقون صفة بأخرى، وإنما يثبتونها لله تعالى كما هي، وما أثبتها الله تعالى لنفسه، وكما أثبتها له رسوله.

قال البغوي «فهذه ونظائرها صفاتٌ لله تعالى ورد بها السمع، يجب الإيمان بها وإمرارها على ظاهرها، معرضا فيها عن التأويل، مجتنبا عن التشبيه، معتقدا أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات، قال الله سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]»[5].

فالفرقة الناجية، من أهل السنة والجماعة،

(١) شرح العقيدة الواسطية ص ١٦٦
(٢) انظر: عقيدة السلف أصحاب الحديث، الصابوني ص ٥.
(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥/ ٣٠٥.
(٤) انظر: الصواعق المرسلة ٤/ ١٤٦٣
(٥) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٨.

يؤمنون به من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهؤلاء هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة المرحومة هي الوسط في الأمم، فهم وسط الأمة في باب الصفات بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة»[(١)].

ومن الصفات القريبة لصفة الفرح، البش فعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (ما توطن رجلٌ مسلمٌ المساجد للصلاة والذكر، إلا تبشبش الله له، كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم)[(٢)].

فقال ابن حبان «العرب إذا أرادت وصف شيئين متباينين على سبيل التشبيه أطلقتهما معا بلفظ أحدهما، وإن كان معناهما في الحقيقة غير سيين. فتبشبش الله جل وعلا لعبده الموطن المكان في المسجد للصلاة والخير؛ إنما هو نظره إليه بالرأفة الرحمة والمحبة لذلك الفعل منه»[(٣)].

والبشبشة؛ معناها يقارب معنى الفرح، والعرب تقول: رأيت لفلان بشاشة وهشاشة وفرحًا، ويقولون: فلان هش بش فرح، إذا كان منطلقًا، فيجوز إطلاق ذلك كما جاز إطلاق الفرح[(٤)].

وقال المباركفوري: «إن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته وما يليق بعز جلاله»[(٥)].

وقد فهم معنى أمثال هذه الصفات، الرجل الأعرابي الذي قال حينما سمع أن الله تبارك ينظر إليكم الرب قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب[(٦)].

فقال له أبو رزين العقيلي يا رسول الله أو يضحك الرب؟ (قال: نعم قال: لن نعدم من ربٍ يضحك خيرًا)[(٧)].

فجعل الأعرابي العاقل - بصحة فطرته - ضحكه دليلًا على إحسانه وإنعامه؛ فدل على أن هذا الوصف مقرونٌ بالإحسان المحمود وأنه من صفات الكمال والشخص العبوس الذي لا يضحك قط هو مذمومٌ بذلك وقد قيل في اليوم الشديد العذاب: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن

(١) شرح العقيدة الواسطية، هراس ص١٨٢
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، ٢/ ٩٩، رقم ٨٠٠.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٨١، رقم ٥٦٠٤.
(٣) صحيح ابن حبان ٤/ ٤٨٥.
(٤) انظر: صفات الله عز وجل، علوي السقاف ص٨٦.
(٥) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري ٨/ ٦.
(٦) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبد الله بن محمد الغنيمان ٢/ ٩٠.
(٧) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله، باب فيما أنكرت الجهمية ١/ ١٨٣ رقم ١٧٩.
وحسنه ابن تيمية، كما في مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ١٣٩.

﴿رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان:١٠][1].

والمسلم حين يعلم أن من صفات الله تعالى الفرح والبش، والضحك فعليه أن يزداد إيمانا بربه، ويزداد حبا وتقربا إليه، ويكون لسان حاله يقول كما قال الأعرابي «لن نعدم من رب يضحك خيرًا».

ثانيًا: الفرح طبيعة إنسانية.

الفرح هو واحد من تلك العواطف والمشاعر القلبية، ولازم من لوازم الطبيعة الإنسانية فقد اعتنى القرآن ببيان أحواله، واعتنى بتوجيهه وضبط مساره، بل إن القرآن قد ارتقى به إلى مصاف الأعمال القلبية المطلوبة من أهل الإيمان.

فقد وجه القرآن الكريم المشاعر القلبية توجيهًا صحيحًا، ونظمها على أساس من التوازن والفاعلية المثمرة والفرح واحد من عدة انفعالات أساسية للنفس البشرية، وهي: الفرح، والحزن، والحب، والكره، والرغبة، والتعجب[2].

والفرح الفطري المعروف، كغيره من الانفعالات التي خلقت مع الإنسان، وجبلت عليها النفس، فما من إنسان إلا وهو يفرح ويحزن[3].

والإنسان بصفة عامة غير متزن تجاه انفعالاته، وما يعرض له، ويتأثر به، وهذ ما أكده القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج:١٩-٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم:٣٦].

لقد عزى الله تعالى المؤمنين رحمة بهم في مصائبهم وزهدهم في رغائبهم بأن أسفهم على فوت المطلوب لا يعيده، وفرحهم بحصول المحبوب لا يفيده، وبأن ذلك لا مطمع في بقائه إلا بإدخاره عند الله تعالى وذلك بأن يقول: المصيبة قدر الله تعالى وما شاء فعل ويصبر؛ وفي النعمة هكذا قضى وما أدري مآله هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر فلا يزال خائفًا عند النعمة قائلًا في الحالين ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن، وأكمل من هذا أن يكون مسرورًا بذكر ربه في كلتا الحالتين، وقيمة الرجال إنما تعرف بالواردات المغيرة فمن لم يتغير بالمضار ولم يتأثر بالمسار فهو سيد وقته.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرًا وغنيمته شكرًا والحزن

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٦/ ١٢١.
(٢) انظر: انفعالات النفس، ديكارت ص٥١.
(٣) انظر: المدخل إلى عالم النفس الإسلامي، سبيعي ٢/ ٣٤.

والفرح المنهي عنهما هما اللذان تتعدى فيهما إلى ما لا يجوز»[1].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

فالله تعالى بقدرته يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن التي تسير على وجه الماء، حتى إذا كنتم في البحر على ظهور هذه السفن وجرين بهم بالريح اللينة الطرية التي تسير السفن فمن فطرتهم فرحوا بها، وفجأة جاءتها ريح عاصف أي: جاءتها الريح الشديدة العاصفة المدمرة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي أيقنوا بالهلاك رجعوا إلى طبيعتهم فدعوا الله مخلصين له الدين، أي: أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون[2].

قال القرطبي: «وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافرًا، لانقطاع الأسباب، ورجوعه إلى رب الأرباب، ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك، والعاملين بطاعتك ومرضاتك»[3].

ومعنى الإخلاص إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها وقال الحسن: مخلصين لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جاريًا مجرى الإيمان الاضطراري ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[يونس:٢٣].

أي: فلما خلصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي قال ابن عباس: يبغون بالدعاء فيدعون غير الله ويعملون بالمعاصي[4].

من طبيعة الناس إظهار الفرحة في المناسبات ومنه إظهار السرور في العيدين فهو من شعار الدين وإعلاء أمره، وفيه دليل أن العيد موضوع للراحات وبسط النفوس إلى ما يحل من الدنيا والأكل والشرب والجماع ألا ترى أنه أباح الغناء من أجل عذر العيد، فيجوز لهم إظهار الفرحة في مثل هذا اليوم[5].

(١) انظر: السراج المنير، الشربيني ٤/ ٢٢٣.
(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٥٤٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٢٥.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣٤.
(٥) انظر: الكواكب الدراري، الكرماني ٢/ ٦٢، حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/ ٥٨٧.

فعن عائشة قالت: (دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنيتين. فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا بكر، إن لكل قوم عيدا، وهذا عيدنا)[1].

فالفرح: انفعال جبل عليه الإنسان وتلبس به، ومن الخذلان بقاء النفس على ما جبلت عليه، فلابد من مقابلة هذا الفرح الفطري بشيء مكتسب؛ ليضبط هذا الانفعال، وهذا متوافر في توجيهات الشرع، وهي تؤدي هذه المهمة خير أداء، هذه المهمة التي أوكلها الفلاسفة وعلماء النفس إلى الإرادة، أو المكابدة، أو قوة التفكير فحرص الإسلام على تهذيب الفرح وتوجيهه؛ لإبراز الجانب الإيجابي منه، ولاستثماره بما يعود على النفس بالخير والسعادة[2].

أنواع الفرح

بين القرآن الكريم أنواع الفرح فمنه ما يمدح أو يذم بحسب السياق الذي ورد فيه، وهذا يعني أن للفرح أنواعًا ثلاثة:

النوع الأول: المحمود، وهو ما يتعلق بالدين، وله آثاره الإيجابية.

النوع الثاني: المذموم، وقد تحدث عنه القرآن الكريم، فذكر صورًا منه، صدرت عن اليهود والمنافقين والكافرين والمترفين، وله آثار سلبية كثيرة.

النوع الثالث: الفرح المباح: هذ ينسجم مع طبيعة الإنسان السوية، مع ضرورة الاحتراز منه؛ لكيلا يؤدي التساهل فيه إلى الفرح المذموم.

أولًا: الفرح الممدوح:

إن أسمى درجات الفرح وأفضلها هو الفرح بالإسلام، فأمر الله به وأثاب عليه، ومن أعرض عنه كان له الضنك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس:٥٧-٥٨].

وعن أبي سعيد الخدري، في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، قال: «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، ٢/ ٦٠٧، رقم ٨٩٢.
(٢) انظر: الضوء المنير، ابن القيم ٣/ ٤٧٩.

أهله»[1].

قال ابن القيم: «يريد بذلك أمرين؛ الأول: الفضل في نفسه، والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات، فيتم المقصود بالفضل وقبول المحل له.

وهذا الفرح الذي يقتضيه اللفظ؛ هو بفضل الله وهو هداية الناس للقرآن، والرحمة هي التوفيق إلى اتباع السنة التي هي الرحمة في الدنيا والآخرة»[2].

قال الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾: «يفيد الحصر؛ فيجب أن لا يفرح الإنسان إلا بذلك. فثبت أن الفرح باللذات الجسمانية فرح باطل»[3].

فالتعبير في الآية غاية في البلاغة؛ لما فيه من التأكيد والمبالغة في التقرير؛ فإن أصل المعنى بدونهما: قل ليفرحوا بفضل الله وبرحمته، فأخر الأمر وقدم متعلقة؛ لإفادة الاختصاص، كأنه قال: إن كان في الدنيا شيء يستحق أن يفرح به؛ فهو فضل الله ورحمته[4].

والفرح بفضل الله وبرحمته أفضل وأنفع لهم مما يجمعونه من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، وسائر متاع الدنيا مع فقدهما، لا لأنه سبب سعادة الآخرة الباقية المفضلة على الحياة الدنيا الفانية - كما اشتهر فيما خطته الأقلام ولاكته الألسنة - بل لأنه هو الذي يجمع بين سعادة الدارين، كما حصل بالفعل؛ إذ كانت هداية الإسلام بفضل الله وبرحمته سببًا لما ناله المسلمون في العصور الأولى من الملك الواسع، والمال الكثير، مع الصلاح والإصلاح، والعدل والإحسان، والفوز الكبير، فلما صار جمع المال، ومتاع الدنيا، وفرح البطر به هو المقصود لهم بالذات، وتركوا هداية الدين في إنفاقه والشكر عليه؛ ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم[5].

إن الآيات هدفت أول ما هدفت إلى التنويه بالقيمة العليا لهذا الدين، الذي أخرج من آمن به من عالم الأموات إلى عالم الأحياء، وجعلهم يدركون أن للحياة معنى أسمى وأعظم مما يتصوره الكافرون الجامعون لمتاعها.

فبهذا الفضل الذي آتاه الله عباده، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان، فبذلك - وحده - فليفرحوا، فهذا هو الذي يستحق الفرح، لا المال، ولا أعراض

(١) المعجم الأوسط، الطبراني ٥/ ٣٤٧، رقم ٥٥١٢.
(٢) الضوء المنير، ابن القيم ٣/ ٤٥٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ١٢٣-١٢٤.
(٤) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١١/ ٤٠٦.
(٥) انظر: المصدر السابق ١١/ ٤٠٦.

هذه الحياة، إن ذلك هو الفرح العلوي، الذي يطلق النفس من المطامع الأرضية والأعراض الزائلة، فيجعل هذه الأعراض خادمة لا مخدومة، ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها، لا عبدًا خاضعًا لها»[(١)].

ومن الفرح الممدوح فرح الصحابة الكرام عندما سمعوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي سأله عن الساعة: (أنت مع من أحببت)، فيقول أنس: «فما رأيت فرح المسلمين بعد الإسلام فرحهم أشد مما فرحوا به»، وفي حديث آخر جاء قوله: «فما فرحنا بشيء بعد الإسلام فرحنا بقول النبي - صلى الله عليه وسلم: (أنت مع من أحببت)»[(٢)].

وكذلك عندما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم أنسًا بفضل انتظاره لصلاة العشاء؛ قال: (فما فرحت بعد الإسلام فرحي به)[(٣)].

فالصحابة كانوا يفرحون مما يستحق الفرح - ففرحهم بالإسلام؛ جعلهم يشعرون م بالنقلة التي نقلهم الإسلام إليها حين أخرجهم من الظلمات إلى النور.

وعن عقبة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، قال: سمعت أيفع بن عبدٍ الكلاعي يقول: لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه خرج عمر ومولًى له، فجعل عمر يعد الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: «الحمد لله تعالى» ويقول مولاه: «هذا والله من فضل الله ورحمته»، فقال عمر: «كذبت، ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨][(٤)].

فالفرح بالقرآن، وبالإسلام، وبالرحمة فرحٌ محمود؛ لأن هذه الأمور ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: يجمع الكافرون من متاع وضياع، وهم في غيهم سامدون. فما جمع من مال بين يدي عمر صعب عليه إحصاؤه يستدعي الفرح ولا شك، لكنه رضي الله عنه مهما كان لا يرقى بحال إلى أن يفرح به كفرحه بالإسلام، الذي كان سببًا في هذا الخير.

وفي قوله تعالى ﴿يَجْمَعُونَ﴾، قرأ رويس بتاء الخطاب (تجمعون)؛ خطابًا للمسلمين، والباقون بياء الغيبة، (يجمعون) والمقصود الكفار، [(٥)] أي: خيرٌ كذلك مما تجمعون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٨٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل، ٨/ ٤٠، رقم ٦١٧١.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب من أحق بالإمامة، ١/ ٢٢٨، رقم ٥٨٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣١١، رقم ١٤٨٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧٥.
(٥) انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، القاضي ص ١٤٩، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٧٠.

أنتم أيها المسلمون، ولعل هذا ما يشير إليه قول عمر رضي الله عنه.

قرئ فلتفرحوا بالتاء، قال الفراء: وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ بالتاء وقال: معناه فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار، قال وقريب من هذه القراءة قراءة أبي فبذلك فافرحوا والأصل في الأمر للمخاطب والغائب اللام نحو لتقم يا زيد وليقم زيد، وذلك لأن حكم الأمر في الصورتين واحد، إلا أن العرب حذفوا اللام من فعل المأمور المخاطب لكثرة استعماله، وحذفوا التاء أيضا وأدخلوا ألف الوصل نحو اضرب واقتل ليقع الابتداء به وكان الكسائي يعيب قولهم فليفرحوا لأنه وجده قليلا فجعله عيبا إلا أن ذلك هو الأصل[1].

إن الفرح بالإسلام يقتضي الفرح بمن أنزله، وتفضل به على خلقه، ولهذا يفرح المسلمون بالله، وتطمئن قلوبهم بذكره وتأنس، ويفرح المسلمون أيضًا برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي حمل لهم الإسلام من الله، فعن البراء بن عازب في الهجرة، (أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرئاننا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى في سور مثلها)[2].

قال ابن القيم: «الفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء - عند حصوله له - على قدر محبته له ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء، لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته؛ فالفرح تابع للمحبة والرغبة»[3].

وهنا فرح محمود آخر وهو أهل الكتاب بالإسلام، وقد أشار إليه قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦].

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بالقرآن والإسلام، وأهل الكتاب هنا من أسلم منهم، كعبدالله بن سلام رضي الله عنه.

قال السعدي: «الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم.

(١) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٨٥، مفاتيح الغيب ١٧/ ٢٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (لتركبن طبقًا عن طبقٍ)، ٦/ ١٦٨، رقم ٤٩٤١.

(٣) الضوء المنير، ابن القيم ٣/ ٤٥٥-٤٥٦.

وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي صلى الله عليه وسلم، وخلفائه، ومن بعده و «كعب الأحبار» وغيرهما»[1].

وهذه بعض صور من الفرح المحمود:

١. الفرح بنصر الله.

قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم:٢-٥].

احتربت الروم وفارس بين أذرعات[2] وبصرى[3]، فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين؛ لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فنزلت فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: لا يقرر الله أعينكم، فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبي بن خلف: كذبت يا أبا فصيل، اجعل بيننا أجلًا أناحبك عليه. والمناحبة: المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر وماده في الأجل، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ظهرت الروم على فارس، وذلك عند رأس سبع سنين، وقد ورد أن هذا النصر تزامن مع غزوة بدر؛ فتكون الإشارة إلى فرح المسلمين بالانتصار على كفار مكة، وهي بشرى بفرح آجل، وقد تحقق، وهذا يجعل فرح المسلمين مضاعفًا، حين فرحوا بانتصارهم على كفار مكة، ثم فرحوا بانتصار الروم على الفرس[4].

فأنزل الله تعالى هذه الآيات مشيرةً إلى هزيمة الروم وأن الفرس سيهزمون في معركتهم القادمة مع الروم، وسيكون هذا بعد بضع سنين، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾، وقد تحقق وعد الله.

قوله تعالى: (غلبت) قرئت بالفتح

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٧٣.
(٢) بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمان، ينسب اليه الخمر.معجم البلدان، ياقوت الحموي ١/ ١٣٠.
(٣) من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران. معجم البلدان، ياقوت الحموي ١/ ٤٤١.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٦٦.

على البناء للمعلوم، والروم فاعل، وقرئت (سيغلبون) بالمبني للمجهول، أي: سيغلبهم المسلمون فيما بعد، ويفرحون بهذا النصر»[1].

فالمسلم مأمور بأن يفرح، حين ينتصر الحق على الباطل، في أيٍ من ميادين الصراع، وهو فرح محمود يثاب عليه.

٢. فرح الشهداء بلقاء الله تعالى.

لقد ذكر القرآن الكريم فرح الشهداء، أولئك الذين فرحوا بالإسلام في الدنيا؛ فهانت عليهم أرواحهم في سبيله؛ فماتوا من أجله؛ فامتد فرحهم في الآخرة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن (أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة في حواصل طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم ترجع إلى قناديلها فيشرف عليهم ربهم فيقول ألكم حاجة تريدون شيئا فيقولون لا إلا ان نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى)[2].

قال ابن القيم: «حين يلقى المؤمن أهله وأصحابه، فيفرحون به ويفرح بهم، فرح الغائب يقدم على أهله، وهذا كله قبل الفرح الأكبر، يوم حشر الأجساد، بجلوسه في ظل العرش، وشربه من الحوض»[3].

إن فرح المؤمن بلقاء الله عندما يقال له: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

فلو لم يكن له إلا هذه الفرحة وحدها، لكان العقل يأمر بإيثارها، فكيف ومن بعدها؛ أنواعٌ من الفرح؟ ويظهر هذا على الناجي يوم القيامة فيأخذ كتابه بيمينه، وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٠][4].

وآخر فرح هو الفرح برؤية وجه الله تبارك وتعالى، فعن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ يقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ١٦١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، ٣/ ١٥٠٢، رقم ١٨٨٧.
(٣) الروح، ابن القيم ص٣٩٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٧٦.

[يونس:٢٦][(١)].

إن الفرح المحمود الطيب بآثاره، والمثاب صاحبه عليه - له حلاوة لمن تذوقها فلا يلقي بالًا لغيرها، وهذا الفرح المحمود من أسمى أقسام الفرح وأكملها، وتخلو صوره كلها من المكدرات والشوائب، ومن المزاحمات، فلا شحناء ولا تحاسد[(٢)].

ثانيًا: الفرح المذموم:

عرض القرآن الكريم الفرح المذموم، فذكر منه صورًا، أسندها إلى طوائف من الناس صدر عنهم هذا الفرح، وكان هذا الفرح المذموم له أسبابه، ودوافعه، آثاره. والمتأمل في الآيات القرآنية - التي تحدثت عن هذا الفرح المذموم، نجد أن أكثرها في اليهود والمنافقين والكافرين والمترفين.

وهذه بعض صور الفرح المذموم من خلال الآتي:

١. فرح اليهود.

قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران:١٨٨].

قال مروان لرافع بوابه: اذهب إلى ابن عباس وقل له: لئن كان امرؤ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل عذب، لنعذبن أجمعين، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذا، إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه، ثم قرأ ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧][(٣)].

التبس على مروان بن الحكم معنى هذه الآية، وكان قد غفل عن سبب نزولها، ورأى أن فيها وعيدًا وتهديدًا لمن يفرح ويحب الثناء، وعلى هذا لن ينجو أحد من العذاب؛ فكل الناس يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

فكان اليهود يخالطون الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة أحيانًا، وحدث أن سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم سؤال اختبارٍ وكشف نياتٍ، فكذبوا عليه، ثم فرحوا بهذا الكذب، ثم أشعروا الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم يستحقون منه المدح والثناء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١/ ١٦٣ رقم ١٨١.

(٢) انظر: مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة ص ٢١٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا ٦/ ٤٠، رقم ٤٥٦٨.

على تجاوبهم.

قال الضحاك: «كتب يهود المدينة إلى يهود العراق واليمن ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الارض كلها إن محمدا ليس نبي الله فاثبتوا على دينكم وأجمعوا كلمتكم على ذلك، فأجمعت كلمتهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففرحوا بذلك وقالوا: الحمد لله الذي جمع كلمتنا ولم نتفرق ولم نترك ديننا، وقالوا: نحن أهل الصوم والصلاة ونحن أولياء الله، فلذلك قول الله تعالى يفرحون بما أتوا - بما فعلوا - ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا - يعني بما ذكروا من الصوم والصلاة والعبادة»[1].

وقد توعد الرسول صلى الله عليه وسلم من يكذب؛ من أجل أن يضحك الناس، ويدخل الفرح إلى قلوبهم[2]، فالكاذب يفرح؛ لأنه استطاع أن يضحك الناس، وهم يضحكون ويفرحون بما يسمعون.

٢. فرح المنافقين.

إن الصلة وثيقة بين المنافقين واليهود؛ فإن اليهود احتضنوا بذرة النفاق ورعوها، وكان منهم منافقون.

قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحشر:١١].

فالكذب أبرز صفة في المنافقين، وهو الذي يميزهم عن أهل الكفر الصريح، فهو عندهم منهج حياة؛ فكان أول وعيدٍ للمنافقين على كذبهم: بقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠].

وعن أبي سعيد الخدري: (أن رجالًا من المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو، تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزو اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا ﴾ [آل عمران:١٨٨][3].

وهناك آياتٌ صريحةٌ في الحديث عن فرح المنافقين المذموم، والذي ظهر منهم في تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [التوبة:٨١].

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي ص٩٢

(٢) انظر: سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس ٤/ ٥٥٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، ٤/ ٢١٤٣، رقم ٢٧٧٧.

فقول الله تعالى ذاما للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ معه ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ﴾ أي: بعضهم لبعضٍ: وقالوا ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾؛ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله: قل لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرّٗا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حرًا من النار[1].

فتخلف المنافقون عن مشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام في الخروج للغزو، ثم جاؤوا يعتذرون، فعذرهم الرسول إهمالًا لهم، وتقليلًا من شأنهم، ففرحوا حينئذٍ بعدم الخروج، وفرحوا بإعذار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم.

قال تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤﴾ [التوبة:٩٤].

كشف هذا الفرح عن كذب المنافقين، وكشف كذلك عن كراهيتهم لهذا الدين؛ إذ لو كان في قلوبهم إيمان، لبكوا بسبب تخلفهم عن الغزو مع الرسول صلى الله عليه وسلم كما حصل مع فقراء المسلمين.

قال تعالى: ﴿إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾ [التوبة:٩٢].

إن البكاء من هؤلاء بسبب عدم الخروج علامة صدق وإيمان، كما كان الفرح من أولئك للسبب نفسه - وهو عدم الخروج - علامة كفر ونفاق، وقد توعدهم الله تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [التوبة:٨٢].

والضحك هنا كناية عن الفرح، أو أريد ضحكهم فرحًا؛ لاعتقادهم ترويج حيلتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال[2].

وكذلك يفرح المنافقون، إذا مس المسلمين قرح، أو نزلت بهم نكسة، وتبدو عليهم مظاهر الإعجاب؛ قال تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٨٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٠٠.

﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ [التوبة:٥٠].

وقد أظهر إخوانهم اليهود من قبل الفرح بمصائب المسلمين، حيث ذكر القرآن الكريم في سياق الحديث عن قبائح أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠].

فالطائفتان تفرحان بمصاب المسلمين، وكذلك فرح كفار قريش بانتصار الفرس على الروم، مع أنه لم تكن هناك مودة أو تعاون بينهما، فالتشابه في المشاعر بين اليهود والمنافقين والكفار ليس بمستغرب؛ فالكفر ملة واحدة، والقواسم المشتركة في عداوة الجميع لهذا الدين وأهله، لذا حريٌّ بالمسلمين أن يجمعهم الفرح المحمود وميادينه، كما جمع الفرح المذموم أعداءهم[(١)].

٣. فرح الكافرين.

ذكر القرآن الكريم فرح الكافرين في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود:٩-١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ [الروم:٣٦].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى:٤٨].

وتشير الآيات إلى الإنسان الكافر باعتبار أنه جبل على عدم الاتزان، فالكافر أبرز أفراد النوع الإنساني في هذا المجال؛ لأن هذا الخلق هو عدم التوازن[(٢)] لا يزيله إلا الإسلام؛ فالذين لم يسلموا باقون عليه[(٣)].

إذا أذاق الله تعالى الإنسان رحمة فرح بها أي: إذا أعطاه رخاء وصحة وغنى فرح بها بطرًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨]أي: بلاء وشدة ومرض بما قدمت أيديهم من الذنوب فإن الإنسان كفور أي: كثير الكفر لما أنعم به عليه من نعمه، غير شكور له عليها، وهذا باعتبار غالب جنس الإنسان[(٤)].

لقد كان لعدم توازن الكافر في انفعالاته مظاهر وآثار منها: أن فرحه محصور في الدنيا، ولا يلتفت إلى الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٥٧.

(٢) انظر: السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية، العامري ٢٥/ ١٣٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٢١.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٢٣.

﴿ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦].

إن في الدنيا أشياء مفرحة تغري بالإنسان، ويبش لها؛ ولكنها قليلة زائلة، يخالطها الكدر والشوائب، وهي لا شيء إذا ما قيست بما في الآخرة من نعيم مقيم يفرح، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لولا أن كتب الله الخلود على أهل الجنة، لماتوا فرحًا)[(١)].

إن فرح الكافر مذموم، حين حصره في الدنيا على حساب الآخرة، وما نعيم الدنيا إلا مجرد ذوق، كما أشارت الآيتان السابقتان ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾[(٢)].

وفي قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، نموذجان لفرح المؤمن وفرح الكافر: لقد فرح أهل سبأ بهديتهم التي حملت إلى سليمان، وهي شيء تافه إذا ما قيست حتى بنعيم الدنيا، وقد ظنوا أن نبي الله سليمان سيفرح بالهدية كما فرحوا: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل:٣٥-٣٦].

أجابهم سليمان عليه السلام: أنتم وحدكم الذين تفرحون بمثل هذه الأشياء، أما نحن، فإنا نفرح بما آتانا الله من إيمان؛ فهو مصدر الفرح الحق.

فالفرح بالرحمة مأمور به، وفرحوا برحمة الله، وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيفا على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الأمير به، ولو أعطى الملك فقيرا غير ملتفت إليه رغيفًا أو زبدية طعام أيضًا يفرح لكن فرح الأمير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفًا وزبدية[(٣)].

إن الفرق ظاهر بين حال الكافر في فرحه وحال المؤمن، فارتباط فرح الكافر بالنعمة ذاتها يفسر عدم توازنه؛ لأنه يفرح بها فرح البطر إذا أقبلت، ويحزن حزنًا شديدًا إذا فقدها؛ لافتقاره للضابط المكتسب، الذي يكبح انفعالاته.

أما المؤمن، فإنه حين ترتبط النعمة عنده بالله تعالى؛ فإنه يفرح بها فرح المقر بفضل الله الوهاب لها، فلا يبطر؛ لأن المعطي فوقه يرقب فعله، وإن نزعت منه النعمة، أو فاته الحصول عليها يصبر؛ لاعتقاده أن ما حصل كان بقضاء الله وقدره، وقد تعود إليه، ويظفر بها مرة أخرى ما دام أمرها بيد الله تعالى.

هذا التوازن هو الذي يفتقر إليه الكافر؛

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب، ومن سورة مريم، ٥/ ٣١٥، رقم ٣١٥٦.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٥، رقم ٧٩٩٨.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٢/ ١٥

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٠١.

إعجابًا منه بما هو عليه، وتجاهلًا لأي صوت آخر؛ ولهذا كان فرحه فيما لا ينبغي، وعلى الوجه الذي لا ينبغي.

إن هذا المسلك الذي ارتضاه الكافرون أغرى بهم، فجعلهم يعرضون عن دعوة الرسل فرحًا بما عندهم وقناعةً به، وزهدًا بما وراءه، ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر:٨٣].

وقال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣].

ويلحظ في الآية قوله تعالى: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم﴾، وفي الآية الثانية ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، فهذا الذي يفرحون به من بدعهم هم، أو مما توارثوه واعتادوا عليه، وهو لا يغني من الحق شيئا، أما المؤمنون فإنهم يفرحون بما جاءهم من عند الله؛ فهو الرحمة والشفاء.

ناسب أن يأتي بعد قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [المؤمنون:٥٤].

وذلك تمثيل لحال اشتغالهم بما هم فيه من الازدهار وترف العيش، عن التدبر فيما يدعوهم إليه الرسول لينجيهم من العقاب بحال قوم غمرهم الماء، فأوشكوا على الغرق، وهم يحسبون أنهم يسبحون[1].

فأبواب التيه والخسران في الدنيا والآخرة فتحت على الكافرين، وكان سببها الفرح الباطل المذموم.

٤. فرح المترفين.

إن فرح المترفين أمثال قارون ومن على شاكلته، جعله نموذجًا لكل المترفين أمثاله، الذين صدر منهم الفرح المذموم؛ فقارون من اليهود الذين عرف عنهم حب المال وعبادته، وتقديم الفرح به على كل شيء.

فعن قتادة قوله: «كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله»[2].

وفي القرآن الكريم إشارة إلى كفر قارون، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٤].

فكفر قارون ظاهرٌ، لا إشكال فيه.

يبدو من خلال المحاورة بين قارون وقومه أنه كان مؤمنًا، كقولهم له: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٧].

فقارون تنقل بسبب فرحه ومرحه من

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٧٣.

(٢) انظر: فسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٣.

حالة إلى أخرى أسوأ منها، وهذا من آثار الفرح المذموم، الذي يستدرج صاحبه، ويغري به حتى يورده النار.

إن ترف قارون ومرحه جعله أنموذجًا لكل أصناف الفرح المذموم؛ فقارون عرف عنه حب المال وعبادته، وتقديم الفرح به على كل شيء. وقد كان من بني إسرائيل، قوم موسى، فآتاه الله تعالى مالًا كثيرًا، فرح به فرحًا جعله يتجاوز الحد، فتطاول على قومه، وأعرض عن الاعتراف بفضل الله، وتجاهل الحقوق الواجبة عليه، فاستحق بذلك ما استحق[1].

فقارون بغى على قومه، وانحاز إلى فرعون، فاستدرجه الله تعالى بأن آتاه مالًا كثيرًا، فلما فتن به وفرح، أهلكه الله.

فالفرح أمر قد وقع، فالمعنى: لا يظهر عليهم بركته، ولا يعمهم رحمته. ولما نهوه عن الفرح المطغى، أمروه بأن يطلب، فيما آتاه الله من الكنوز وسعة الرزق، ثواب الدار الآخرة، بأن يفعل فيه أفعال البر، وتجعله زادك إلى الآخرة[2].

ونقل الطبري عن ابن عباس: الفرحين: المرحين، وعن مجاهد: المتبذخين، الأشرين، البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم[3].

إن أصحاب الفرح الباطل فتنةٌ لغيرهم من الناس، بخاصة أولئك الذين تعلقت نفوسهم بالدنيا ومتاعها، فكانوا بحاجة إلى تقريع يعيد لهم صوابهم، وهو ما قامت به الفئة المؤمنة، التي تستحق الوصف بالوصف المتقدم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [القصص:٨٠].

كان هلاك قارون مؤذنًا بأن الترف لا ينجي من عذاب الله تعالى، وكان في هلاكه وعيد شديد، لمن هم على شاكلته من المترفين المنحرفين، وتسلية للمؤمنين.

فالفرح المذموم له آثارٌ سلبية، فهو يجعل صاحبه يسيء الظن بالله؛ لأنه يخشى أن ينزع الله منه الأشياء المفرحة، والفرح المذموم - الذي لا ضابط له - يؤدي إلى حزن مذموم لا ضوابط له عند فوات نعمة، أو حصول نقمة، وهذا الشعور يفضي إلى التسخط، وعدم الرضا بالقضاء والقدر؛ وهذا هو الخسران بعينه.

والفرح المذموم يلهي عن شكر المنعم؛ لانشغال صاحبه بالفرح وآثاره المتمثلة بالمرح بأنواعه، ولاعتقاده بأن لا فضل لأحد عليه، ولقد قالها قارون من قبل حين دعي إلى الشكر: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ١٠/ ٣٨٣.

(٢) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٨/ ٣٢٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٢٣.

إن عدم الشكر سبب مباشر لنزع النعم، ولعذاب الله ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

ومن آثار الفرح المذموم الركون إلى الدنيا، والرضا بها، والحرص عليها؛ خشية أن يفوته بعض ما فيها من وسائل الفرح ودواعيه، وهذا يشغله - ولا شك - عن الآخرة والعمل لها.

يورث الفرح المذموم صاحبه العجب؛ بسبب حصوله على ما يفرح، والعجب مدعاة للاستهزاء بالآخرين، والبغي عليهم، كما فعل قارون.

ثالثًا: الفرح المباح:

الفرح لا تكاد تخلو منه نفس بشرية؛ فإنها تفرح، وتبدي سرورها ورضاها، حين تباشر ما من شأنه أن يفرحها في العادة، على اختلاف في الأشياء المفرحة بين إنسان وآخر، فقد يطير إنسان ما فرحًا بشيء، لا يحرك هذا الشيء نفسه ساكنًا عند آخر، ولا عجب، فإن المفرحات أشياء مكتسبة، بخلاف الفرح نفسه، هذا مع الإقرار بوجود أشياء يفرح عامة الناس بها؛ كالمال، والنجاح، والحياة، والتميز، وما شابه ذلك.

إن الفرح مباح، معفو عنه؛ كونه انفعالًا، ما لم يطرأ عليه مؤثر خارجي يحيله إلى فرح محمود، أو مذموم، ومن هنا وجه الشرع عنايته إلى تهذيب الفرح وضبطه.

إن المسلم أولى الناس بهذا الفرح؛ فإن فيه إظهارًا لنعمة الله تعالى عليه، وانسجامًا مع طبيعة النفس السوية. لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضحك ضحك الفرح عندما يرى ما يسره، وكان يضحك مما يضحك الناس، وكان يتعجب مما يتعجب من مثله، ويستغرب وقوعه[(١)].

فلما قدم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من الحبشة إلى المدينة، يوم أن فتح الرسول صلى الله عليه وسلم خيبر، فتلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل جبهته، وقال: **(والله ما أدري بأيهما أفرح: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر)**[(٢)].

فالرسول صلى الله عليه وسلم يفرح، ويسعى؛ ليفرح أصحابه معه، فقد جاء في حديث الدجال قوله صلى الله عليه وسلم: **(لكن تميمًا أتاني، فأخبرني خبرًا منعني القيلولة؛ من الفرح وقرة العين، فأحببت أن أنشر عليكم فرح نبيكم)**[(٣)].

---

(١) انظر: زاد المعاد في هدى خير العباد، ابن القيم ١/ ١٧٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ٢/ ٦٨١، رقم ٤٢٤٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج، ومأجوج ٢/ ١٣٥٤ رقم ٤٠٧٤. وصححه الألباني

وكان الصحابة الكرام إذا رأوا الغيم، فرحوا[1]؛ استبشارًا بنزول المطر وإنبات الأرض، وما يتبع ذلك من خيرات تتمناها النفس، وتفرح بها.

إن توبيخ الله تعالى للكافرين بقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [غافر:٧٥]- دليلٌ على أن الفرح بالحق ممكن أن يكون محمودًا أو مباحًا جائزًا.

فالفرح المباح قد يشتد، فيوقع صاحبه في أخطاء غير مقصودة، في أثناء تعبيره عن هذا الفرح، أي: تجاوز الصواب، وهو قول العبد الذي أضل راحلته: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح)[2]؛ فلما اشتد عليه الفرح منع صاحبه من إدراك البديهيات، فضلًا عن غيرها.

دوافع الفرح

راعي الإسلام طبيعة الفطرة الإنسانية: فنجد أن هناك فرحًا مشروعًا شاملًا لجميع حاجات ودوافع الإنسان التي تتطلبها جوانبه المختلفة مثل (الروح، والعقل، والجسد) مما يدل على أن من خصائصه العموم والشمول ومراعاة الفطرة.

لقد خلق الله الإنسان من طين، ونفخ فيه من روحه، وجعل لكل من الجسد والروح مطالبه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

والإنسان نفس ومزاج وأعصاب وإحساس، وهي وإن لم تكن ظاهرة إلا أن لها الدور الأعظم في صحة الجسد، وانتشاله من كثير من الأمراض، ولو تأمل الإنسان القرآن العظيم الذي ما فرط في شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

فالقرآن ذكر أمورًا وأشياء تدخل السعادة على النفس، إضافة إلى أمور أخرى تنبع من داخل النفس والذات الإنسانية.

وهذه الدوافع على أنواع نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: دوافع فكرية:

الفرح من الانفعالات الإنسانية الفطرية التي لابد أن تنتاب كل أحد منا في فترة من

في صحيح الجامع، ١/ ٤٩١، رقم ٢٥٠٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم)، ٦/ ١٣٣، رقم ٤٨٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، بابٌ في الحض على التوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٤، رقم ٢٧٤٧.

الفترات، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم:٤٣].

لقد بين لنا القرآن الكريم المنهج السليم الذي يجب أن يقوم عليه الفرح لدى الفرد، فالفرح أمر نسبي يتوقف على أهداف الإنسان في الحياة، فمن كان هدفه الحصول على شيء من متاع الدنيا فقط وهذا حال الكثيرين ومنهم الكفار، كان نجاحه في تحقيق أهدافه باعثا على فرحه وسروره قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦].

وهذا النوع لا ينعم في الواقع بالحياة السعيدة المطمئنة المستقرة، فإذا أنعم الله عليه بنعمة الصحة وسعة الرزق ووفرة المال شعر بالفرح والسعادة، وإذا ما أصابه ضرر أو بلاء وفقد بعض النعم التي كان يتمتع بها أو عجز عن تحقيق هدف يأمل به تملكه الاكتئاب واليأس والاضطراب وجحد بالنعم الأخرى [(١)].

والدوافع الفكرية تنقسم إلى قسمين:

- دوافع فكرية حسية.
- دوافع فكرية غير حسية.

وهذا ما سيتم الحديث عنه في النقاط الآتية:

١ . دوافع فكرية حسية.

الدوافع الفكرية الحسية الخارجية للفرح، مثل: النظر في الألوان.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر:٢٧]].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه:١٠٢]وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس:٨٠].

وقال سبحانه ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة:٦٩].

من دوافع الفرح الفكرية النظر إلى الألوان لما لها التأثير على فرح لإنسان، فهي تعالج النفس، وتعدل الطبع والمزاج، وتسمو بالأرواح، وتغذي الأعصاب وتفيد الإحساس بالراحة [(٢)].

وتأثير اللون في حياة البشر اليومية لا يخفى على أحد، فهناك ألوان تبعث السرور في النفس، وتشيع السعادة في حياة الفرد، ومنها ما ينفر منه المرء، وتشعره بالكآبة

(١) انظر: القرآن وعلم النفس، نجاتي ص٨٦.

(٢) انظر: مجلة العلم عدد ٢٨١، فبراير ٢٠٠٠، ص ٢٢.

والملل والاضطراب النفسي، وهناك ألوان ترفع معنويات الفرد، وأخرى تثبطها، ومنها ما يوحي بدفء المشاعر، ومنها ما يوحي ببرودها وجمودها.

وذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة الألوان وهي: الأبيض والأخضر والأصفر والأحمر والأسود واللون الأزرق.

فاللون الأبيض، ذكر للصفاء، والقلوب الطيبة التي لا تخفى أضغانًا، كالمرآة تعكس ما يقع عليها، لذا كان علامة على وجوه أهل السعادة يوم القيامة، وهو لون شرابهم وكؤوسهم وأنهارهم، ولون نسائهم، هو اللون العاكس لحال السعداء.

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝٤٦﴾ [الصافات: ٤٥-٤٦].

قوله: ﴿بَيْضَاءَ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ [الإنسان:١٦]

أي: قوارير كأنها في بياضها من فضة، فهن إضاءات صافيات الغلائل فيها أنها في طيب الرائحة وسطوعها، وأرجها كأرج المسك والكافور[1].

قال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ «أي خمر جارية ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ قال الحسن خمر الجنة أشد بياضا من اللبن»[2].

وأما اللون الأسود: ورد ذكره في القرآن الكريم في جزاء الفرح المذموم، و حال الكفار في عرصات يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦﴾ [آل عمران:١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ [الزمر:٦٠].

فللون الأسود في تلك الآيات الكريمة، لون الحزن والهم والغم والكآبة في الدنيا، وكذلك هو لون جهنم، كما في حديث أبي هريرة قال: (أوقد على النار ألف سنةٍ حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنةٍ حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنةٍ حتى اسودت فهي سوداء مظلمةٌ)[3].

وأما اللون الأزرق: قال تعالى ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢﴾ [طه:١٠٢].

يقول أبوالسعود: «يحشر المجرمون

(١) انظر: الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي ١/ ٢٩٣.

(٢) معاني القرآن، أبو جعفر النحاس ٦/ ٢٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة جهنم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٧١٠، رقم ٢٥٩١.
وصحح الترمذي وقفه على أبي هريرة.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٣/ ٤٧٠، رقم ١٣٠٥.

زرقًا أي: حال كونهم زرق العيون وإنما جعلوا كذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب فإن الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرقٌ ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق العين أو عميًا لأن حدقة الأعمى تزرق»[1].

يأتي اللون الأخضر في الجمال في المرتبة الثانية فقبله الأبيض ثم الأخضر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الأنعام:٩٩].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس:٨٠].

وعند العرب الأخضر يطلق على كل جميل فيقال: الأخاضر للذهب واللحم ويكنى عن المرأة السوداء بالخضراء تفائلًا، وكذا عن الحسناء.

واللون الأخضر لون النباتات والزروع التي نشاهدها يوميًا والتي تدخل على النفس كثيرًا من البهجة والسرور، ولون الخضرة يقوي النظر ويزيد في حاسة البصر، وسبب ذلك فيما يقوله أهل الطب أن الأخضر يجمع الروح الباصر جمعًا رفيقًا مستلذًا غير عنيف.

يقول سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل:٦٠]: «حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة، ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية، وتأمل هذه البهجة والجمال الناضر والحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب، وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب، وأن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر، وأن تموج الألوان، وتداخل الخطوط، وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث، فضلًا عن معجزة الحياة النامية في الشجر وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر»[2].

وأما اللون الأصفر: قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة:٦٩].

طلبوا من موسى عليه السلام زيادة في التعنت وكثرة السؤلات وصفًا آخر لهذه البقرة التي أمروا بذبحها، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ فأجابهم الله

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٤١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٥٦.

تعالى على لسان موسى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي صفراء اللون: وهذا أجمل لون؛ كشعاع الشمس الذهبي عند الغروب.

قال ابن عباس: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض وقوله: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: أي: تعجبهم من حسن منظرها وجمال لونها[(١)].

قال ابن عباس: «من لبس نعلًا صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها، وذلك قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾»[(٢)].

يقول الكسائي: فقع لونها إذا خلصت صفرته وعن كون اللون الأصفر باعثًا للسرور[(٣)].

قيل: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ شديد الصفرة تكاد من صفرتها تبيض، وقيل: صافية اللون، وهي تسر الناظرين، لأنك إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها[(٤)].

وأما الدافع الفكري الثاني للفرح هو الحلي والأحجار الكريمة.

فقد تعددت الآيات الكريمة التي تحدثت عن تحلي المؤمنين يوم القيامة بألوان الحلي المختلفة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، إضافةً إلى الآيات التي أكدت على كون الذهب والفضة من شهوات الحياة الدنيا المحببة إلى النفس، والتي تدخل الفرح في من اقتناها. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤].

الذهب مؤنث، ولذلك يصغر على ذهيبة، ويجمع على أذهاب وذهوب، واشتقاقه من الذهاب، ويقال: رجل ذهب بكسر الهاء-رأى معدن الذهب فدهش و «الفضة» تجمع على فضض، واشتقاقها من انفض إذا تفرق[(٥)].

قال القرطبي: «والذهب مكيالٌ لأهل اليمن، قال: واشتقاق الذهب والفضة، يشعر بزوالهما وعدم ثبوتهما كما هو مشاهد في الوجود»[(٦)].

والذهب والفضة: إنما كانا محبوبين يبعثان على الفرح لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء، فمالكها كالمالك لجميع الأشياء[(٧)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ١٣٨.
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ١٦٤.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ١١٥.
(٥) انظر: اللباب في علوم الكتاب، بن عادل ٥/ ٧٦.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٢
(٧) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٧٦.

وأما الأحجار الكريمة فقد ذكرت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، على سبيل وصفها مصدرًا للجمال، ومصدرًا للفرح، وعلى أنها باعثة على البهجة والانشراح والمتعة.

قال تعالى واصفًا الحور العين في الجنة: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ [الرحمن: ٥٨].

أي: كأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحمرتهن قال قتادة: كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان، لو أدخلت في الياقوت سلكًا ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه[(١)].

وقال تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ [الواقعة: ٢٣].

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣﴾ [فاطر: ٣٣].

الأساور: جمع أسورة التي هي جمع سوار فالأساور جمع الجمع، وهي حلية تلبسها النساء الآن في معاصمها، ولؤلؤًا هو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف[(٢)].

ترتبط الأحجار الكريمة في أذهان الناس بالفرح والجمال، ويعتقد البعض أن لها أثرًا علاجيًا في العديد من الأمراض الجسدية والنفسية.

٢. دوافع فكرية غير حسية.

الدوافع الفكرية غير الحسية للفرح، مثل: الفرح بما عند الإنسان الجاهل من العلم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨٣﴾ [غافر: ٨٣].

أخبر الله تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما أثروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله ما لا قبل لهم به[(٣)].

فحين جاءتهم الرسل إلى هؤلاء الجاهلين، فرحوا بما لديهم من العلوم الدنيوية كالتجارة والزراعة، واغتروا بتلك القشور التي كانوا يسمعونها ممن كانوا يزعمون أنهم على شيء من العلم الديني، واستهزءوا بما جاءهم به الرسل من علوم تهدى إلى الرشد، وتدعو إلى إخلاص

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٢٨٣.
(٢) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ٢/ ٥٦٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٠.

العبادة لله، واعتقدوا- لغبائهم- وانطماس بصائرهم- أنه لا علم أنفع من علومهم ففرحوا بها[1].

ذكر الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ قال فيه وجوه:

الأول: أنه أراد العلم الوارد على سبيل التهكم في قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾[النمل:٦٦].

وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون لا نبعث ولا نعذب.

والثاني: أن يريد علم الفلاسفة والدهريين عن بني يونان، وكانوا إذا سمعوا بوحي الله: دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم.

والثالث: فرحوا بعلمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾[الروم:٧].

فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات، لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزءوا بها، واعتقدوا أنه لا أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به[2].

ثانيًا: دوافع نفسية:

لقد بين القرآن أن الفرح والسرور والسعادة الحقة ذلك الذي يكون نتاج العمل الصالح. وأن تمسك الإنسان بالإيمان والتقوى والعمل الصالح هو السبيل للحصول على السعادة في الحياة الآخرة والأمن والطمأنينة والسرور والفرح الدائم.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[النحل:٩٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[يونس:٥٧-٥٨].

كثيرًا ما نسمع من يقول عن شخص ما: نكدي، وآخر مرح، فلو ملك الأول المال والعقار وحصل الوضع الاجتماعي المناسب. هل يتغير طبعه، ولو تعرض الثاني لمتاعب الزمان هل يتغير طبعه؟ أم الفرح يورث كالمال تمامًا!

فالقرآن الكريم وضح أن الفرح والشقاوة تورث كالصفات والأخلاق والأحاسيس والتدين والكفر كما تورث الصفات الحسية من طول أو قصر أو لون بشرة أو لون شعر؛ لنرى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى

(١) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٢/ ٣١٧.
(٢) الكشاف ٤/ ١٨٢.

﴿الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

لو تأملنا في قوله تعالى الآية الكريمة ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ نجدها تشير إلى أن الكفار يضلون غيرهم من عباد الله، إضافة إلى أنهم يلدون الفجار الكفار أمثالهم. فقد أشارت الآية أن مواليدهم الخارجة من بطون أمهاتهم فجارًا كفارًا، فجرهم وكفرهم معهم مصاحبًا لهم، موروثًا عن آبائهم وأجدادهم يسري في عروقهم لا ينفك عنهم، بل هو من أصل خلقتهم كلون بشرتهم، أو عيونهم أو هيئة شعرهم لذلك لا خير فيهم، ولا يستحقون البقاء الذي لا ينتج إلا أمثالهم، فلا بد من استئصال بذور الشر التي فقدت الغاية من سبب وجودها على هذه الأرض.

وجاء في الأمثال «تكاد المرأة أن تلد أخاها» دليلٌ على توارث الصفات الخلقية. وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: للرجل الذي سأل عن غلامه الذي ولد أسودًا، فقال له: (هل لك من إبل. قال: نعم، قال: ما ألوانها. قال: حمر، قال: هل فيها من أورق قال: نعم، قال: فأنى ذلك. قال: لعله نزعه عرق، قال: فلعل ابنك هذا نزعة)[1].

وعن مريم عليها السلام نجد القرآن الكريم يصفها بحسن المنبت قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧].

وفي هذا يقول الإمام علي: «إذا كرم أصل الرجل كرم مغيبه ومحضره»[2] أي: من كان ينتمي إلى نسب عريق في الفضائل.

فالفرح: يشمل كل ألوان الخير والراحة والرفاه والبركة.

والشقاء: يشمل جميع صنوف القلق والضيق والشدة.

وجينات يرثها الإنسان بتقدير الله وإرادته مصداقًا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم (أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا أو أربعين ليلةً ثم يكون علقةً مثله ثم يكون مضغةً مثله ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلماتٍ فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقيٌّ أم سعيدٌ ثم ينفخ فيه الروح فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراعٌ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراعٌ فيسبق عليه الكتاب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، ٧/ ٥٣، رقم ٥٣٠٥.

(٢) انظر: غرر الحكم و درر الكلم، الآمدي ص ١٤٤

فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها)[1].

وعن سعد ابن أبي وقاصٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربعٌ من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء والمرأة السوء والمركب السوء والمسكن الضيق)[2].

مما سبق يتبين أن الصفات التي لها قابلية الانتقال من الآباء إلى الأبناء عديدة مثل لون البشرة والعين والشعر، وكذلك السجايا الخلقية والصفات الحميدة كالشجاعة والكرم والبشاشة والتفاؤل، أو الرذيلة كالكفر والفجور والكآبة والشقاء والتشاؤم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين)، ٩/ ١٣٥، رقم ٧٤٥٤.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٩/ ٣٤٠، رقم ٤٠٣٢.
وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٨٢.

أساليب القرآن في الحديث عن الفرح

أولًا: الحديث عن الفرح الممدوح:

القرآن الكريم سيبقى المعجزة الخالدة الدائمة في اللفظ والمضمون والأسلوب، فقد كانت معجزات الأنبياء السابقين متفوقةً عاليةً على تحديات عصورهم وأممهم. أما القرآن فهو معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين، الخالدة الباقية على البشرية وعلى العالمين على مر العصور والدهور.

فأساليب القرآن الكريم في عرض الفرح، تعد عنايةً فائقةً بتنوع أساليب النصوص القرآنية وتدبرها وتأملها، واستنباط الأسلوب الذي يسري في نسقها، وجوانب الجمال الذي تتسم به.

١ . الأسلوب القصصي.

فأشار القرآن الكريم إلى أن القصص القرآنية وسيلةٌ من الوسائل الكثيرة إلى تحقيق الهدف الأصيل، والعناصر في القصة القرآنية تابعةٌ للهدف منها، وللعبرة التي سيقت من أجلها.

وقصة فرح قريش بنصر فارس على الروم وفرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصر الله.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ

﴿٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٥﴾ [الروم:١-٥].

٢. الأسلوب المباشر والأسلوب غير المباشر.

عرض القرآن الكريم الفرح بالأساليب المباشرة وغير مباشرة فمن الأساليب المباشرة فرح المؤمنين بما من الله عليهم من الهداية ومعرفة الحق.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس:٥٨].

ومن الأساليب غير مباشرة فرح مؤمني أهل الكتاب، كعبدالله بن سلام بما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦].

فقد ذكر الله تعالى فرح الذين آتيناهم الكتاب ولم يذكر من هم بالأسلوب المباشر إنما كنى عنهم.

والأسلوب غير المباشر هو ذكر الشيء بذكر لوازمه، للتعبير عن المعنى، وهي باب من أبواب المجاز، وقد استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم في وصف أبي الجهم حين استشارته فاطمه بنت قيس في خطبة أبي الجهم لها؟

فقال صلى الله عليه وسلم عنه: (أما أبو جهم، فلا يضع عصاه عن عاتقه)[1]، كناية عن كثرة ضربه للنساء.

٣. أسلوب الوعد.

وهو فرح المؤمنين في الجنة بما أكرمهم الله به من الرضوان والنعيم المقيم.

قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧٠﴾ [آل عمران:١٧٠].

وقال سبحانه: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ٧٠﴾ [الزخرف:٧٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥﴾ [الروم:١٥].

٤. أسلوب الترغيب.

القرآن الكريم ربى الأمة الإسلامية من خلال الترغيب في ثواب الله وجنته ورضوانه، رباهم على التخلص من الشح، وأن ينفقوا في سبيل الله، ويؤثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن خلال الترهيب من غضب الله وعذابه، رباهم على التخلص من شهواتهم، وقد سلك في آياته أساليب متعددةً لتحقيق أهدافه، واتخذ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها، ٢/ ١١١٤، رقم ١٤٨٠.

وسائل متنوعةً للوصول إلى غاياته.

ومن اساليب الترغيب، قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨].

ففضل الله ورحمته: القرآن والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروحٍ به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه [(١)].

والفرح الإيماني هو فرح أهل الإيمان بما بعث الله به رسوله من الهدى والحق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦].

وهذا الفرح يعد من أعمال القلوب المطلوبة، ومن أعظم مقامات الإيمان.

يقول ابن تيمية: «أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦]» [(٢)].

ومما يدخل في هذا الفرح فرح المؤمن بالطاعة إذا عملها، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك، فأنت مؤمن)[(٣)].

والمتأمل في الشريعة يرى أنها ربطت الفرح بالطاعات، فكان عيد الفطر بعد الفراغ من صيام رمضان وقيامه، وكان عيد الأضحى عقب أداء مناسك الحج.

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (يقول الله عز وجل: الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي، والصوم جنةٌ، وللصائم فرحتان: فرحةٌ حين يفطر، وفرحةٌ حين يلقى ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)[(٤)].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله عن هذا الفرح: «وهذا فرح محمود غير مذموم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨].

ففضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن، وهو يحب من عبده أن يفرح بذلك ويسر به، بل يحب من عبده أن يفرح بالحسنة إذا عملها، وأن يسر بها، وهو في الحقيقة فرح بفضل الله حيث وفقه الله لها، وأعانه عليها، ويسرها له، ففي الحقيقة إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان الفرح

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٤٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٤٧٩، ٢٢١٦٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٦٤، رقم ٦٠٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله)، ٩/ ١٤٣، رقم ٧٤٩٢.

بالله، والسرور به، فيفرح به إذ هو عبده ومحبه، ويفرح به سبحانه ربًا وإلهًا ومنعمًا ومربيًا»[1].

ثانيًا: الحديث عن الفرح المذموم:

١. الأسلوب القصصي.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص:٧٦].

هذه هي قصة المال والغرور بالعلم وكيف كان مآلهما بعد قصة الملك والسلطان وكيف كانت نهايتهما.

قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم مع أنه منهم، وعاش معهم ولكنه لم يرع لذلك كله حرمة أو جوارا، وبغى عليهم حتى جمع ذلك المال الوفير، وبغى عليهم بتكبره وطغيانه وظلمه لهم.

وآتاه الله من الأموال المنقولة والثابتة ما إن علمه والإحاطة به والمحافظة عليه لتنوء به العصبة من أولى العلم والقوة وكان قارون من قوم موسى، وكان ذا مال وفير، فقال له الصالحون من قومه لا تفرح وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض.

لا تفرح بدنياك فرحا مصحوبا بالبطر والأشر، والفتنة والغرور فالدنيا عرض زائل، وعارية مستردة يربح فيها من عرفها، ويخسر من اغتر بها لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم. إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة نعم فالدنيا طريق الآخرة، هي المزرعة للباقية من زرع فيها الخير حصد، ومن أضاع عمره فيما لا يرضى ربه ندم والعاقل من طلب بدنياه آخرته، ومن ابتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة والله سبحانه لا يطالبك بأن تعطى مالك كله، بل إن تنفق القليل طلبا لرضا الرب الجليل، ترجع بالخير الكثير والجزاء الجزيل.

ولا تنس نصيبك من الدنيا نعم فهذا هو الطريق الوسط والرأي الرشد، أن تعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، وتعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، فليس من الدين الزهد في الدنيا حتى تتركها وتعيش عالة على غيرك، بل الدين يطالبك بالعمل والجد والغنى من طريق الحلال، فإذا جمعت المال فأعط حق الله فيه، ولا تنس نصيبك من الدنيا، أي: تمتع ببعضه بلا إسراف ولا تقتير، انظر إلى هذا النظام المحكم الدقيق الذي وضعه الحكيم البصير! وأحسن كما أحسن الله إليك والإحسان هو الإتقان في العمل، وهو يقتضى إعطاء كل ذي حق حقه.

ولا تبغ الفساد في الأرض بالظلم أو

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ١١١.

العسف أو الكبر أو الإضرار بالناس فكل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها، إن الله لا يحب المفسدين بأي شكل كان.

انظر إلى قارون وقد أبى أن يقبل هذا النصح- لأنه غير موفق- بل زاد عليه بقوله: قال: إنما أوتيته على علم عندي!! بمعنى أنه أوتى هذا المال لفضل علمه وكمال استحقاقه له، أو المعنى أنه أوتيه على علم عنده بوجوه الكسب وطرق الزيادة، وإنماء المال، كأنه قال إنما أوتيت هذا المال لفضل علمي وتمام مجهودي وتجاربي، فليس لأحد حق له في هذا المال، وكأنه ينكر إنعام الله عليه بتلك الأموال لاستحقاقه لها عن جدارة فهو حر التصرف. ولقد رد الله عليه أبلغ رد حيث بين له حقيقة الأمر.

أعنده مثل هذا العلم الذي افتخر به وتعاظم، ورأى نفسه مستوجبة لكل نعمة، ولم يعمل به حتى يقي به نفسه مصارع السوء التي أهلك الله بها الطغاة المتجبرين الذين هم أشد منه قوة، وأكثر مالا وعددا، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون، وهكذا يجب على الإنسان ألا يغتر بماله، وأولاده وجموعه مهما كانت، فإن الله إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون، وليعلم المسلم أن الأيام دول، وأن الدهر قلب، وليعتبر بما حصل في الماضي، وليحصن ماله بالإنفاق.

هذا حال قارون مع ماله، وموقفه ممن وعظه، وغروره بنفسه واستمع إلى الناس، وقد انقسموا إلى فريقين: فريق ينظر نظرة سطحية، فتعميه الدنيا وزخارفها عن الوضع السليم والطريق المستقيم وآخر قد نور الله بصيرته فهو ينظر إلى الدنيا بعين العبرة والعظة، عين الرجل الفاهم للحقائق الذي لا تخدعه المظاهر الخلابة.

وقد جاءت نهاية قارون مؤيدة لما ذهب إليه أهل العلم والبصر بالدنيا والآخرة فخسف الله بقارون وبداره وبماله وبجموعه الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، ويمنعون عنه بأس الله وبطشه، حيث لم يعمل عملا صالحا يقربه إلى ربه، ولم يحصن ماله بالصدقة والزكاة، ولم يتقرب إلى الله وإلى الناس بترك الكبر والغرور والغطرسة، ولهذا كله كانت النتيجة أن ضاعت دنياه، وخسف الله به الأرض، والله على كل شيء قدير، وبعباده خبير بصير[1].

٢. الأسلوب المباشر والأسلوب غير المباشر.

من الأسلوب المباشر قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى

(١) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ٢/ ٨٤٨.

﴿الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

من الأسلوب غير المباشر قوله تعالى وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٦].

وإذا رسخ في قلب المسلم الاعتقاد الذي تقرره هذه الآية الكريمة والآيات الأخرى التي في معناها فلن يفرح فرح أشر وبطر بحصول النعمة ولكن فرح شكر وامتنان واعتراف بالفضل لمن أسداها وهو المولى سبحانه وتعالى، ولن يأسى على فوات أو زوال النعمة أسىً يذهب به كل مذهب، ويجعل الدنيا تضيق عليه بما رحبت، ولكنه سوف يسلم لله ويرضى بما قضاه، ولنفسه العزاء الأكبر.

٣. أسلوب الوعيد.

توعد الله الذين يفرحون بالباطل، فقال سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران:١٨٨].

وهناك نوع آخر من الفرح المذموم، وهو أحد العلامات الدالة على النفاق، قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٨١].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (أن رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾)[1].

٤. أسلوب الترهيب.

استخدم القرآن الكريم اسلوب الترهيب للدلالة على الفرح المذموم، وأهله أولئك المعاندون للرسل عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا النوع من الفرح.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر:٨٣].

ويقول سبحانه: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا)، ٦/ ٤٠، رقم ٤٥٦٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين، ٤/ ٢١٤٢، رقم ٢٧٧٧.

﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون:٥٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم:٣١-٣٢].

وفي هذه الآيات يخبر المولى عز وجل عن المعاندين لرسله، وكيف أنهم أعرضوا عما جاءت به الرسل من الحق فرحين بما عندهم من العلم الذي هو في حقيقته جهل، وبما لديهم من شبهات وأباطيل يعارضون بها دعوة الحق التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام [(١)].

٥. الإخبار بحال الكافرين والمنافقين.

أخبر القرآن الكريم عن فرح الكافرين والمنافقين بما يصيب المؤمنين من مصائب الدنيا.

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة:٥٠].

هذا أسلوب من نوع آخر من كيد المنافقين ومن خبث بواطنهم للإسلام والمسلمين، والمعنى: إن تصبك في بعض الغزوات حسنة سواء كان ظفرا، أو كان غنيمة، أو كان انقيادا من بعض ملوك الأطراف لك، يسؤهم ذلك، وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ومصيبة ومكروه يفرحوا به، ويقولوا قد أخذنا أمرنا الذي نحن مشهورون به، وهو الحذر والتيقظ والعمل بالحزم، من قبل أي قبل ما وقع وتولوا عن مقام التحدث بذلك، والاجتماع له إلى أهاليهم، وهم فرحون مسرورون [(٢)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣١٣، ٧/ ١٥٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦٦، الموسوعة القرآنية، الإبياري ١٠/ ٢٣

ضوابط الفرح

الأصل في الفرح الإباحة: لقوله صلى الله عليه وسلم (ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم، فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله العافية، فإن الله لم يكن نسيًا، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤])[١].

فالأصل في الأشياء الإباحة حتى يدل الدليل على التحريم[٢].

وأما الضوابط الشرعية في الفرح:

أولًا: ألا يكون الفرح فيه استهزاء بالدين:

الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه ويجعله مرتدًا عن الإسلام[٣].

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فبعض المسلمين يطلقون نكتة أو نادرة فيها استهزاء ببعض شعائر الإسلام وفرائضه، أو يتمازح وهو في معصية دون أن يعلم أن ذلك جرمٌ عظيمٌ قد يؤدي به إلى الكفر والعياذ بالله، مثل الاستهزاء ببعض السنن على سبيل المزح، وببعض الأحكام الشرعية كتقصير الثوب وإعفاء اللحية أو الصلاة والصوم وغيرها.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «من أذنب ذنبًا وهو يضحك دخل النار وهو يبكي»[٤].

ثانيًا: أن يكون صادقًا في إفراح الناس ولا يكذب عليهم:

اعتاد بعض الناس ذكر الطرائف الكاذبة بقصد إضحاك الناس. قال رسول صلى الله عليه وسلم: (ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له)[٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها جلساءه يهوي بها في النار أبعد من الثريا)[٦].

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه، ٢/ ١٣٧، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٣٧٥.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١/ ٢٢١.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٧/ ٢٧٣..

(٤) انظر: الحلية، أبو نعيم ٤/ ٩٦.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، ٤/ ٤٥٤، رقم ٤٩٩٢.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٩٩، رقم ٧١٣٦.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ١٥/ ١٢٠، رقم ٩٢٢٠.
وحسه الألباني في التعليقات الحسان ٨/ ٢٢٣.

ولا شك أنهم وقعوا في ذلك بسبب الفراغ وضعف الإيمان والبعد عن ذكر الله تعالى، ومصاحبتهم لجلساء السوء الذين يزينون لهم بعض المحرمات.

عن جابر بن سمرة كنت أجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرًا، وكان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام، فكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم[(١)].

فالنبي صلى الله عليه وسلم قدم عبادة الله تعالى على الفرح كما ظهر من الحديث.

ثالثًا: ألا يكون في فرحه سخرية واستهزاء بالناس:

السخرية والاستهزاء بالناس من الكبائر، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنَّهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات:١١].

قال ابن كثير: «المراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم والاستهزاء بهم، وهذا حرام، ويعد من صفات المنافقين»[(٢)].

ويقول الطبري: «اللمز باليد والعين واللسان والإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان»[(٣)].

وعن الحسن: (إن المستهزئين بالناس ليفتح لأحدهم باب الجنة فيقال: هلم، فيجيء بكربه وغمه، فإذا جاء أغلق دونه)[(٤)].

ولقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السخرية بالمسلمين فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخوانًا المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا) ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ (بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ، دمه، وماله، وعرضه)[(٥)].

رابعًا: أن لا يكون في فرحه ترويع للمسلمين:

قال ابن أبي ليلى: «حدثنا أصحاب محمد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، ١/ ٤٦٣، رقم ٦٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٧٦.

(٣) جامع البيان ٢٤/ ٥٩٧.

(٤) انظر: شعب الإيمان، البيهقي ٥/ ٣١٠، رقم ٦٧٥٧.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، ٤/ ١٩٨٦، رقم ٢٥٦٤.

صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا)[1].

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعبًا ولا جادًا)[2].

لقوله: صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار)[3].

والقاعدة الشرعية: إذا اجتمع الحلال والحرام غلب الحرام[4].

خامسًا: ألا يكثر من الفرح المباح:

ينبغي ألا يداوم على الفرح؛ لأن الجد سمات المؤمنين، وما الفرح إلا رخصة وفسحة لاستمرار النفس في أداء واجبها، فبعض الناس لا يفرق بين وقت الجد واللعب. فمن الغلط العظيم أن يتخذ الفرح حرفة»[5].

قال تعالى: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ [النجم:٦٠].

والمذموم من الضحك ما كان مصحوبًا بصوت ويسمى القهقهة، وذلك لما يترتب عليه من آثار سيئة، كموت القلب وذهاب الهيبة وضياع الوقت.

قال الماوردي: «وأما الضحك فإن اعتياده شاغل عن النظر في الأمور المهمة، مذهل عن الفكر في النوائب الملمة وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار، ولا لمن وصم به خطر ولا مقدار»[6].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من كثر ضحكه قلت هيبته. وقال علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: إذا ضحك العالم ضحكةً مج من العلم مجةً[7].

وعن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: مال هذا الكتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩].

«إن الصغيرة الضحك»[8].

سادسًا: ألا يكون الفرح فيه غيبة:

قال النبي صلى الله عليه وسلم في

(١) أخرجه أبو داود في سننه،كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، ٤/ ٤٥٨، رقم ٥٠٠٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٦٨، رقم ٧٦٥٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، ٤/ ٤٥٨، رقم ٥٠٠٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٥٧، رقم ٧٥٧٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٤٣٨، رقم ٢٢٧٧٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٤٩٨.

(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ١١٩.

(٥) إحياء علوم الدي، الغزالي ٣/ ١٢٩.

(٦) أدب الدنيا والدين ص ٣١٣

(٧) المصدر السابق.

(٨) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٢١.

تعريف الغيبة (ذكرك أخاك بما يكره)[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات:١٢].

وما أروع هذا التمثيل حيث يقول الله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾ وحقا من ولغ في العرض فكأنه أكل اللحم من أخيه وهو ميت لا يقدر على رده، وكذلك المغتاب في غيبة أخيه ينهش من عرضه وهو لا يستطيع رده، فهذا أسلوب غاية في التنفير من الغيبة، ثم أتبع ذلك ربنا جل جلاله بقوله: فكرهتموه فقد صور المغتاب بصورة من يحب شيئا، حقه أن يكون في غاية الكراهية وهو أكل لحم الأخ، وزاده أن صوره بصورة الميت، وحقه أن يكون منه أنفر[2].

فالغيبة عادة مرذولة، وصفة مستهجنة، كثيرا ما أودت بالصلات، وأثارت الأحقاد، وشتتت من جمع، وفرقت من شمل، وهي مع هذا عذابها شديد وعقابها أليم، وهي بالفساق أولى فاتقوا الله واجتنبوها وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم[3].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا؛ فإنما نحن بك: فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)[4].

«الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها وهو ستة أسباب فهو سماها غيبة يقول: تباح، لكن في الحقيقة هي ليست غيبة هذه: نصيحة، لكن لما كان بعض الناس يرى أنها غيبة تسامح في إطلاق الغيبة عليها وعلى فرض أنها غيبة فإنها مباحة بل واجبة.

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلان بكذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه ونحو ذلك ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، ٤/ ٢٠٠١، رقم ٢٥٨٩.

(٢) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ٣/ ٥١٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، ٤/ ٦٠٨، رقم ٢٤٠٧.
وحسنه الالباني في صحيح الجامع، ١/ ١٢٤، رقم ٣٥١.

ذلك كان حرامًا.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلان بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص، أو زوج، كان من أمره كذا، فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ومع ذلك، فالتعيين جائز كما سنذكره في حديث هند إن شاء الله تعالى.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه:

منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها: المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساوىء التي فيه بنية النصيحة.

ومنها: إذا رأى متفقها يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه. وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحة فليتفطن لذلك.

ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بأن لا يكون صالحا لها، وإما بأن يكون فاسقا، أو مغفلا، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهرا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس؛ وجباية الأموال ظلما وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به؛ ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفا بلقب، كالأعمش، والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن تعريفهم بغير ذلك كان أولى»[1].

سابعًا: ألا يكون الفرح في تبذير للمال:

قال تعالى ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧].

(١) رياض الصالحين، النووي ص٤٣٢.

وهذا في أمر واجب وهو الإنفاق على ذي القربى والمسكين وابن السبيل فكيف الحال في الأفراح التي ينفق فيها المال على المنكرات.

ثامنًا: ألا يكون الفرح في اختلاط بين الرجال والنساء:

وهذا يفضي إلى من النظر المحرم، والخلوة المحرمة، بالإضافة إلى أنه قد يكون ذريعة لمخالفات شرعية أكبر، والله تعالى قد نهى عن مجرد قرب الزنا ولم يقتصر على تحريم الزنا، بل القربان فقد قال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١].

وكذلك يجب على أفراحنا أن تخلو من المعازف لقوله صلى الله عليه وسلم: (ليكونن من أمتي أقوامٌ، يستحلون الحر والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوامٌ إلى جنب علمٍ، يروح عليهم بسارحةٍ لهم، يأتيهم - يعني الفقير - لحاجةٍ فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة)[1].

تاسعًا: ألا يكون الفرح في الميسر:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة:٩٠].

قال صلى الله عليه وسلم (من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم الخنزير)[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، ٧/ ١٠٦، رقم ٥٥٩٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب اللعب بالنرد، ٢/ ١٢٣٧، رقم ٣٧٦٢. وحسنه الالباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١١٣، رقم ٦٥٢٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر، باب تحريم اللعب بالنردشير، ٤/ ١٧٧٠، رقم ٢٢٦٠.

الفرح بين القرآن وعلم النفس

الفرح انفعال فطري محله القلب، يمدح ويذم بحسب تعلقه، لذا اهتم الإسلام به؛ ليجعله فرحًا محمودًا.

إن مفهوم الفرح لم يستطع أحد من علماء النفس، أن يقدموا له تعريفًا جامعًا مانعًا، فعبروا عنه أحيانًا بأنها ضد الشقاوة، أو ضد التعاسة، أو قالوا ضد النحوسة، ولكن اتفقوا بما فيهم فلاسفة المسلمين على أن الفرح هو جنة الأحلام التي ينشدها كل بشر، وزاد المسلمون على أنها تتحقق من خلال اتباع منهج الإسلام الذي يأمر بالسيطرة على الشهوات البدنية ومجاهدة النفس.

١. يرى سقراط أن الفرح يتحقق بالسير في طريق الفضيلة.

٢. وقال أفلاطون الفرح سلامة النفس وليس في سلامة البدن، وهي في فضائل الحكمة والشجاعة والعفة والعدل.

٣. وأما أرسطو فيعتبر الفرح هبة من الله يحصل عليها الإنسان عندما يسير في طريق الفضيلة ويعمل الخير[(١)].

وأما علماء النفس من المسلمين:

قال ابن سينا اعتقد أن السعيد في الدنيا سيكون سعيدًا في الآخرة، لأن سعادة الدنيا وإن كانت أدنى من الآخرة إلا أنها توصل إليها وتتكون سعادة الإنسان في الدنيا من نوعين من اللذات: لذات حسية مرتبطة بشهوات البدن، ولذات معنوية مرتبطة بحاجات النفس وهي أفضل وأرقى، وعرف الفرح: بأنها البقاء السرمدي في الغبطة الخالدة في جوار من له الخلق والأمر تبارك وتعالى[(٢)].

دعا الكندي إلى الرضا في كل الأحوال من أجل الفرح، والسرور، والقناعة بأخذ القدر الذي يحتاجه الإنسان من مطالب البدن دون ألم على ما فاته[(٣)].

رأى ابن مسكويه أن الفرح تتحقق في تحصيل اللذات المادية والمعنوية معًا، وبصحة النفس وصحة الجسم معًا، وقسم الفرح إلى نوعين: أهمهما الفرح الأخلاقية، ويحصل عليها الإنسان عندما يعيش في خير دائم مطلق[(٤)].

وعرف ابن مسكويه الفرح فقال: هي تمام الخيرات وغاياتها، والتمام: هو الذي إذا بلغنا إليه لم نحتج معه إلى شيء آخر[(٥)].

وقسم أبو حامد الغزالي: الفرح إلى

(١) انظر: تحصيل السعادات، الفارابي ص٤٩.

(٢) انظر: السعادة وتنمية الصحة النفسية، كمال مرسي ١/ ٢٥-٢٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) الموسوعة الفلسفية العربية والاصطلاحات والمفاهيم، د.معن زيادة ٢/ ٤٧٨.

قسمين:

٤. الملذات الحسية أو المادية والمرتبطة بإشباع حاجات الجسم.

٥. الملذات النفسية أو المعنوية: وهي أرقى من الملذات الحسية، ويحصل عليها الإنسان من إشباع حاجاته النفسية والاجتماعية والدينية، ويرى الغزالي أن أسعد الناس في الدنيا أكثرهم معرفة بالله، والفرح الحقيقي عنده هو الفرح الأخروي فهو الفرح الدائم والسرور الذي لا غم فيه، والعلم الذي لا جهل فيه [(١)].

وخلاصة القول في الفرح عند علماء النفس أنه ليس بالأمر الهين، أن نعثر على الفرح فهو أمر داخلي يتأثر بما يدور حوله في الخارج.

فالفرح: هو ذلك الشعور المستمر بالغبطة والطمأنينة والأريحية والبهجة، هذا الشعور يأتي نتيجة الإيمان بالله والرضا عن الله وقضائه وقدره بقناعة وصبر في شعارنا الدائم«إنا لله وإنا إليه راجعون» وبذلك يكون الإنسان في حالة صلح مع خالقه ومع نفسه، ثم مع الناس في طهر ونور وخير وأمل وحلم. لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ٩٧٨-٩٧٩.

وأما في القرآن الكريم فقد ذكر السبب الأول في جلب الفرح الحقيقي للإنسان في الدنيا والآخرة.

فقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود:١٠٥-١٠٨].

وقال الألوسي نقلًا عن الراغب: في الفرح هو «معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير ويضادها الشقاوة، وفسر الشقاوة بنكد العيش وسوئه، فالشقي والسعيد هما المتصفان بما ذكر وفسر غير واحد الأول: بمن استحق النار بمقتضى الوعيد، والثاني: من استحق الجنة بموجب الوعد، وهذا هو المتعارف بين الشرعيين، وتقديم الشقي على السعيد لأن المقام مقام الإنذار والتحذير» [(٢)].

فالشقاوة قوة أسباب البلاء، والفرح: «قوة أسباب النعم، ومعنى الآية ها هنا عند أهل السنة، فمنهم شقي سبقت له الشقاوة، ومنهم سعيد سبقت له الفرح، وقال بعضهم: إن الفرح والشقاء ها هنا في الرزق والحرمان

(٢) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٣٣٥.

وفسر بعضهم: الشقاوة بالعمل السيء والفرح بالعمل الحسن والمأثور الصحيح هو الأول [1].

قال لبيد [2]:

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه
ومنهم شقي بالمعيشة قانع

قال سيد قطب «ونشهد الذين سعدوا، نشهدهم في الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع» [3].

ويقول السعدي في تفسير قوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ «والأشقياء هم الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم المؤمنون المتقون» [4].

وأما الشعراوي فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾: جاء بالاسم المحدد لكل من القسمين شقي وسعيد، لأن الاسم يدل على الثبوت، فالشقاء ثابت لمن نعت بالشقي، والفرح ثابتة لمن نعت بالسعيد [5].

والفرح حقيقة نفسية في القلوب الصافية، وهو فرح الالتقاء على الحق، وزيادة اليقين بصحة ما لديهم، ومؤازرة الكتاب الكريم له.

موضوعات ذات صلة:

البشرى، البكاء، الحزن، الرضا، السعادة، الغم

(١) انظر: تفسير السمعاني ٢ / ٤٥٨-٤٥٩.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٥٠.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩٢٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٦
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٦٨٢.

فرعون

عناصر الموضوع

التعريف بفرعون	٢٥٢
وصف القرآن لفرعون	٢٥٤
فرعون وموسى عليه السلام	٢٦٥
أساليب فرعون في مواجهة دعوة موسى	٢٦٩
دعائم ملك فرعون	٢٧٢
امرأة فرعون	٢٧٧
مؤمن آل فرعون	٢٨٠
العقوبات الإلهية لفرعون	٢٨٥
الدروس المستفادة من قصة فرعون	٢٨٨

التعريف بفرعون

أولًا: اسمه ونسبه:

لقد اختلف في اسم فرعون اختلافًا كثيرًا، وسنتعرض لبعض أقوال المفسرين في ذلك، ثم نستعرض النظريات التي تحدثت عن حقيقة فرعون واسمه، لنستخلص أصح الأقوال في ذلك.

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة:٤٩].

«واسم فرعون يومئذ أبو فيس أو أبيبي وأهل القصص ومن تلقف كلامهم من المفسرين سموه ريان بن الوليد وهذا من أوهامهم وكان ذلك في حدود سنة ١٧٣٩ قبل ميلاد المسيح»[(١)].

وقال الرازي: «واختلفوا في فرعون من وجهين، أحدهما: أنهم اختلفوا في اسمه فحكى ابن جريج عن قوم أنهم قالوا: مصعب بن ريان، وقال ابن إسحق: هو الوليد بن مصعب، وذكر وهب بن منبه أن أهل الكتابين قالوا: إن اسم فرعون كان قابوس وكان من القبط، الثاني: قال ابن وهب: إن فرعون يوسف عليه السلام هو فرعون موسى وهذا غير صحيح، إذ كان بين دخول يوسف مصر وبين أن دخلها موسى أكثر من أربعمائة سنة، وقال محمد بن إسحق: هو غير فرعون يوسف وأن فرعون يوسف كان اسمه الريان بن الوليد»[(٢)].

ولسيد قطب كلامٌ نفيس حيث يقول: «ولا يعرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذي تجري حوادث القصة في عهده، فالتحديد التاريخي ليس هدفًا من أهداف القصة القرآنية ولا يزيد في دلالتها شيئًا، ويكفي أن نعلم أن هذا كان بعد زمان يوسف عليه السلام الذي استقدم أباه وإخوته، وأبوه يعقوب هو إسرائيل، وهؤلاء كانوا ذريته. وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعبا كبيرًا»[(٣)]. وهذ ما يميل إليه الباحث.

ثانيًا: زمانه ومكانه:

قال ابن عاشور: «جاء في التاريخ أن مبدأ استقرار بني إسرائيل بمصر كان سببه دخول

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٩٠
(٢) مفاتيح الغيب ٣/ ٥٠٥.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٧٧.

يوسف عليه السلام في تربية العزيز طيفار كبير شرط فرعون، وكانت مصر منقسمة إلى قسمين مصر العليا الجنوبية المعروفة اليوم بالصعيد لحكم فراعنة من القبط وقاعدتها طيوة، ومصر السفلى وهي الشمالية وقاعدتها منفيس وهي القاعدة الكبرى التي هي مقر الفراعنة وهذه قد تغلب عليها العمالقة من الساميين أبناء عم ثمود وهم الذين يلقبون في التاريخ المصري بالرعاة الرحالين والهكسوس في سنة ٣٣٠٠ أو سنة ١٩٠٠ قبل المسيح على خلاف ناشىء عن الاختلاف في مدة بقائهم بمصر الذي انتهى سنة ١٧٠٠ ق م عند ظهور العائلة الثامنة عشرة، فكان يوسف عند رئيس شرط فرعون العمليقي وكان ذلك في حدود سنة ١٧٣٩ قبل ميلاد المسيح، ثم كانت سكنى بني إسرائيل مصر بسبب تنقل يعقوب وأبنائه إلى مصر حين ظهر أمر يوسف وصار بيده حكم المملكة المصرية السفلى. وكانت معاشرة الإسرائيليين للمصريين حسنة زمنا طويلا غير أن الإسرائيليين قد حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم فلم يعبدوا آلهة المصريين وسكنوا جميعا بجهة يقال لها أرض (جاسان) ومكث الإسرائيليون على ذلك نحوا من أربعمائة سنة تغلب في خلالها ملوك المصريين على ملوك العمالقة وطردوهم من مصر حتى ظهرت في مصر العائلة التاسعة عشرة وملك ملوكها جميع البلاد المصرية ونبغ فيهم رمسيس الثاني الملقب بالأكبر في حدود سنة ١٣١١ قبل المسيح، وكان محاربا باسلا وثارت في وجهه الممالك التي أخضعها أبوه ومنهم الأمم الكائنة بأطراف جزيرة العرب، وتقول التوراة إنهم بنوا لفرعون مدينة مخازن (فيثوم) ومدينة (رعمسيس) ثم خشي فرعون أن يكون الإسرائيليون أعوانا لأعدائه عليه فأمر باستئصالهم فكان يأمر بقتل أبنائهم وسبي نسائهم وتسخير كبارهم ولا بد أن يكون ذلك لما رأى منهم من التنكر، أو لأن القبط لما أفرطوا في استخدام العبرانيين علم فرعون أنه إن اختلطت جيوشه في حرب لا يسلم من ثورة الإسرائيليين فأمر باستئصالهم»[(١)].

ويقول أيضًا: «والأرض: هي أرض مصر، فالتعريف فيها للعهد؛ لأن ذكر فرعون يجعلها معهودة عند السامع؛ لأن فرعون اسم ملك مصر»[(٢)].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٩٠.
(٢) المصدر السابق ٢٠/ ٦٧.

وصف القرآن لفرعون

لقد وصف القرآن الكريم فرعون وصفًا دقيقًا في كثيرٍ من الآيات؛ فقد وصفه بالعلو والاستكبار، والطغيان، والإفساد، والإسراف، والكيد، والإضلال، والغرور، والاستبداد، وفيما يلي بيان ذلك.

أولًا: العلو والاستكبار:

إن فرعون تجبر في أرض مصر وتكبر، وعلا أهل مصر وقهرهم، حتى أقروا له بالعبودة[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

قال القرطبي: «أي استكبر وتجبر، قاله ابن عباس والسدي وقال قتادة: علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادعى الربوبية وقيل: بملكه وسلطانه فصار عاليا على من تحت يده»[2].

وفي سورة المؤمنون يصفه الله عز وجل بالاستكبار والعلو أيضًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٦].

قال السمعاني: «أي: طالبين للعلو بغير الحق، والاستكبار طلب التكبر، ويقال: عالين، قاهرين لمن تحتهم بالظلم»[3].

وفي سورة يونس قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس:٧٥].

وكان استكبارهم مجلبة للإثم والوزر عليهم كما قال الطبري: «يقول: فاستكبروا عن الإقرار بما دعاهم إليه موسى وهارون، وكانوا قومًا مجرمين، يعني: آثمين بربهم؛ بكفرهم بالله»[4].

وفي سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٣].

قال المراغي: «فاستكبروا عن الإيمان بها (الآيات التسع) لرسوخهم في الإجرام والإصرار على الذنوب وإن كانوا يعتقدون صدق دعوته وصحة رسالته»[5].

وقال السعدي: «فاستكبروا لما رأوا الآيات وكانوا في سابق أمرهم قومًا مجرمين فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبقاهم على الغي والضلال»[6].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٤٨.
(٣) تفسير القرآن ٣/ ٤٧٦.
(٤) جامع البيان ١٥/ ١٥٥.
(٥) تفسير المراغي ٩/ ٤٣.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٠١.

وأكد هذا المعنى الزمخشري في تفسيره: فاستكبروا عن قبول الآيات التسع، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها، ويتعظموا عن تقبلها وكانوا قومًا مجرمين كفارًا ذوى آثام عظام، فلذلك استكبروا عنها واجترءوا على ردها[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:٣٩].

قال الرازي: «فاستكبروا أي عن عبادة الله وقوله: في الأرض إشارة إلى ما يوضح قلة عقلهم في استكبارهم، وذلك لأن من في الأرض أضعف أقسام المكلفين، ومن في السماء أقواهم، ثم إن من في السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته، فكيف يستكبر من في الأرض»[(٢)].

ولم يكن استكبارهم عن جهل ولكن كانوا على علم وفهم؛ قال ابن عاشور: «وأومأ قوله تعالى فاستكبروا في الأرض إلى أنهم كفروا عن عناد وكبرياء لا عن جهل وغلواء كما قال تعالى ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]»[(٣)].

ثانيًا: الطغيان:

ومن صفات فرعون الطغيان؛ حيث قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه:٢٤].

يقول الطبري: «إنه تجاوز قدره، وتمرد على ربه»[(٤)].

ويقول الزمخشري: «لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي لعنه الله عرف أنه كلف أمرًا عظيمًا وخطبًا جسيمًا يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح»[(٥)].

قال المراغي: «أي اذهب إليه بما رأيته من آياتنا الكبرى، وادعه إلى عبادتي، وحذره نقمتي، فإنه قد تجاوز قدره، وتمرد على ربه، حتى تجاسر على دعوى الربوبية، وقال: أنا ربكم الأعلى»[(٦)].

وقد ذهب إلى هذا المعنى ابن كثير ومدعمًا كلامه بقول وهب بن منبه فقال: «وقوله ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرجت فارا منه هاربًا، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى»[(٧)].

(١) انظر: الكشاف ٢/ ٣٦١.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٥/ ٥٦.
(٣) التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٥٠.
(٤) جامع البيان ١٨/ ٢٩٩.
(٥) الكشاف ٣/ ٦٠.
(٦) تفسير المراغي ١٦/ ١٠٥
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٨٠.

قال وهب بن منبه: قال الله لموسى: انطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي، وإني معك أيدي ونصري، وإني قد ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جندي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا عني، حتى جحد حقي، وأنكر ربوبيتي، وزعم أنه لا يعرفني، فإني أقسم بعزتي لولا القدر الذي وضعت بيني وبين خلقي، لبطشت به بطشة جبار، يغضب لغضبه السموات والأرض، والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان علي، وسقط من عيني، ووسعه حلمي، واستغنيت بما عندي، وحقي إني أنا الغني لا غني غيري، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذكره أيامي وحذره نقمتي وبأسي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي، وقل له فيما بين ذلك قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى»[1].

قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢﴾ [الفجر: ١٠-١٢].

قال الرازي: «طغوا في البلاد أي عملوا المعاصي وتجبروا على أنبياء الله والمؤمنين ثم فسر طغيانهم بقوله تعالى: فأكثروا فيها الفساد ضد الصلاح فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم، فمن عمل بغير أمر الله وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد»[2].

وقال الطبري: «وقوله: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿الَّذِينَ﴾: عادًا وثمود وفرعون وجنده، ويعني بقوله ﴿طَغَوْا﴾: تجاوزوا ما أباحه لهم ربهم، وعتوا على ربهم إلى ما حظره عليهم من الكفر به. وقوله: ﴿فِي الْبِلَادِ﴾: التي كانوا فيها»[3].

وقد تناول طغيانهم في البلاد جميع أنواع الإثم كما قال الخازن: «الذين طغوا في البلاد يعني عادًا وثمودًا وفرعون عملوا بالمعاصي، وتجبروا، ثم فسر ذلك الطغيان بقوله فأكثروا فيها الفساد يعني القتل والفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر فكذلك الفساد يتناول جميع أقسام الإثم»[4].

ومما سبق يتضح أن فرعون تجاوز الحد في الظلم حتى تعدى حده.

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، محمد بن أحمد الملطي ص١٢٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٣١/ ١٥٤.

(٣) جامع البيان ٢٤/ ٤١٠.

(٤) لباب التأويل ٤/ ٤٢٦.

ثالثًا: الإفساد:

وصف الله فرعون وقومه بالفساد والإفساد في كثيرٍ من الآيات؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف:١٠٣].

فلقد حل بهم العذاب نتيجة حتمية لفسادهم في الأرض قال ابن كثير: «وذلك لما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله»[(١)].

وكان لورد تلك الفاصلة القرآنية ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وقعٌ شديد وبلاغة رفيعة، قال البقاعي: «ولما كان للتعميم بعد التخصيص والتفصيل بعد الإجمال من الموقع في النفوس ما لا يخفى، وكان النهي عن الإفساد بالصد عن سبيل الله هو المقصود بالذات لأنه ينهى عن كل فساد، خصه بالذكر إشارة إلى أنه زبدة المراد بعد التعميم»[(٢)].

وقد عد الشوكاني تكذيب الرسل من أشد أنواع الفساد؛ وهذا ما وقع فيه فرعون وقومه، قال الشوكاني: «فانظر كيف كان عاقبة المفسدين أي: المكذبين بالآيات الكافرين بها وجعلهم مفسدين لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد»[(٣)].

وقال تعالى مخاطبًا فرعون: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس:٩١].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره، معرفًا فرعون قبح صنيعه أيام حياته وإساءته إلى نفسه أيام صحته، بتماديه في طغيانه، ومعصيته ربه، حين فزع إليه في حال حلول سخطه به ونزول عقابه، مستجيرًا به من عذابه الواقع به، لما ناداه وقد علته أمواج البحر، وغشيته كرب الموت: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ له، المنقادين بالذلة له، المعترفين بالعبودية: الآن تقر لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهة، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض، الصادين عن سبيله؟ فهلا وأنت في مهلٍ، وباب التوبة لك منفتح، أقررت بما أنت به الآن مقرٌ[(٤)].

وقال تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

وقد خص الزمخشري الإفساد بالقتل فقال: «وقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بيان

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٧.
(٢) نظم الدرر ٧/ ٤٦١.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٦٣.
(٤) انظر: جامع البيان ١٥/ ١٩٤.

أن القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب، لأنه فعل لا طائل تحته[1].

بينما أجمل الطبري كيف كان إفساد فرعون فقال: «وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يقول: إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله من لا يستحق منه القتل، واستعباده من ليس له استعباده، وتجبره في الأرض على أهلها، وتكبره على عبادة ربه»[2].

قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾ [الفجر:١٠-١٢].

وقد تناول طغيانهم في البلاد جميع أنواع الإثم والفساد والإفساد قال الخازن: «ثم فسر ذلك الطغيان بقوله فأكثروا فيها الفساد يعني القتل والفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر فكذلك الفساد يتناول جميع أقسام الإثم»[3].

رابعًا: الإسراف:

لقد أسرف فرعون؛ فادعى الربوبية، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣﴾ [يونس:٨٣].

وقد عد الواحدي ادعاء الربوبية هو الإسراف حيث قال: «وإنه لمن المسرفين: حيث كان عبدًا فادعى الربوبية»[4].

بينما النسفي فقد أضاف الظلم والكبر لادعائه الروبية فقال: «وإنه لمن المسرفين في الظلم والفساد وفي الكبر والعتو بادعائه الربوبية»[5].

بينما اعتبر الشيخ الشعراوي الإسراف تجاوز الحد بادعاء الألوهية فقال: «والمسرف: هو الذي يتجاوز الحدود، وهو قد تجاوز في إسرافه وادعى الألوهية، وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

وقال الحق سبحانه أيضًا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

وعلا فرعون في الأرض علو طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين، وقال الحق سبحانه على لسان فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف:٥١].

إذن: فقد كان فرعون مسرفًا أشد الإسراف»[6].

أما الطبري فقد فصل كيف كان إسراف فرعون فقال: «﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وإنه

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٢.
(٢) جامع البيان ١٩/ ٥١٧.
(٣) لباب التأويل ٤/ ٤٢٦.
(٤) الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز ص٥٠٥.
(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٢/ ٣٦.
(٦) تفسير الشعراوي ١٠/ ٦١٥١.

لمن المتجاوزين الحق إلى الباطل، وذلك كفره بالله وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وادعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حلها»[1].

وقال تعالى: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان:٣١].

قال أبو السعود: «كان رفيع الطبقة من بين المسرفين فائقًا لهم بليغًا في الإسراف»[2]، ولقد أسرف فرعون فاجترأ على محارم الله، قال السعدي: المفسدون هم المتجاوزون لحدود الله المتجرئون على محارمه[3].

قال الطبري: «إنه كان جبارا مستعليًا مستكبرًا على ربه، ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: من المتجاوزين ما ليس لهم تجاوزه. وإنما يعني جل ثناؤه أنه كان ذا اعتداء في كفره، واستكبار على ربه جل ثناؤه»[4].

قال الزحيلي «إن فرعون كان جبارا عنيدًا، مسرفًا في التمرد والعتو متجاوزًا الحد في الظلم والفساد، شديد البطش والفتك، حتى إنه ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا»[5].

ففرعون في إسرافه تجاوز كل حدود العقل كما قال محمود حجازي: «وإن فرعون لمن المسرفين المتجاوزين حدود العقل والإنسانية، وهكذا كل جبار عتيد»[6].

خامسًا: الكيد:

الكيد هو المكر[7]، وقد كاد فرعون ومكر لموسى كثيرًا؛ فقد أمر هامان ببناء صرحًا له كي يبلغ أبواب السماء فيطلع إلى إله موسى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

قال ابن عاشور: «والمراد بكيده ما أمر به من بناء الصرح والغاية منه»[8].

وقال السمعاني: «أي: وما حيلة فرعون ومكره إلا في هلاك وخسران»[9].

وقد قال الرازي: «وما كيد فرعون إلا في تباب والتباب الهلاك والخسران، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١].

وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ

(١) جامع البيان ١٥/ ١٦٧.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٦٣.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٧٣.
(٤) جامع البيان ٢٢/ ٣٧.
(٥) التفسير المنير ١١/ ٢٤٤.
(٦) التفسير الواضح ٢/ ٨٤.
(٧) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٣٣.
(٨) التحرير والتنوير ٢٤/ ١٤٨.
(٩) تفسير القرآن ٥/ ٢١.

﴿١﴾ [المسد:١]»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٥].

قال الطبري: «وما احتيال أهل الكفر لأهل الإيمان بالله إلا في جوز عن سبيل الحق، وصد عن قصد المحجة، وأخذ على غير هدى»[2].

أما الرازي فقال: «﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ومعناه أن جميع ما يسعون فيه من مكايدة موسى ومكايدة من آمن معه يبطل، لأن ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها»[3].

وقال الشوكاني: «في خسران ووبال، لأنه يذهب باطلا، ويحيق بهم ما يريده الله عز وجل»[4].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه:٦٠].

قال الواحدي: «أي: حيله وسحرته»[5].

(١) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٥١٧.
(٢) جامع البيان ٢١/ ٣٧٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٥٠٦.
(٤) فتح القدير ٤/ ٥٦٠.
(٥) الوجيز الواحدي ٦٩٨.

قال الرازي: «ودخل تحت قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات»[6].

وقد أوضح ابن عاشور كيف جمع فرعون كيده فقال: «ومعنى جمع الكيد: تدبير أسلوب مناظرة موسى، وإعداد الحيل لإظهار غلبة السحرة عليه، وإقناع الحاضرين بأن موسى ليس على شيء، وهذا أسلوب قديم في المناظرات: أن يسعى المناظر جهده للتشهير ببطلان حجة خصمه بكل وسائل التلبيس والتشنيع والتشهير، ومبادأته بما يفت في عضده ويشوش رأيه حتى يذهب منه تدبيره»[7].

وقد فسر الشنقيطي هذا الكيد بنظيره من القرآن فقال: «وقوله تعالى: فجمع كيده الظاهر أن المراد بـ ﴿كَيْدَهُ﴾ ما جمعه من السحر ليغلب به موسى في زعمه، وعليه فالمراد بقوله فجمع كيده هو جمعه للسحرة من أطراف مملكته، ويدل على هذا أمران: أحدهما تسمية السحر في القرآن كيدًا، كقوله ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ [طه:٦٩].

وقوله تعالى عن السحرة: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ [طه:٦٤].

(٦) مفاتيح الغيب ٢٢/ ٦٤.
(٧) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٤٧.

وكيدهم سحرهم، الثاني أن الذي جمعه فرعون هو السحرة كما دلت عليه آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في «الأعراف»: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف:١١١-١١٢].

وقوله ﴿حَاشِرِينَ﴾ أي: جامعين يجمعون السحرة من أطراف مملكته.

وقوله في «الشعراء»: ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الشعراء:٣٦-٣٨].

وقوله في «يونس»: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس:٧٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي: جاء فرعون بسحرته للميعاد ليغلب نبي الله موسى بسحره في زعمه»[1].

سادسًا: الإضلال:

لقد أعطى الله فرعون وملأه الزينة والأموال، لكنهم استغلوها في إضلال الناس، ولم ينتفعوا بها في مرضات الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

قال سيد قطب: «ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك، إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين، وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم»[2]، فكانت العاقبة أن طمس الله على أموالهم، وشد على قلوبهم؛ بل وأصبحوا أئمة يدعون إلى النار، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص:٤١].

قال المراغي: «أي وجعلنا فرعون وقومه أئمة يقتدى بهم أهل العتو والكفر بالله، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصي، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام التي تلقى بفاعلها في النار، وما كفاهم أن كانوا ضالين كافرين بالله ورسوله، بل دأبوا على إضلال سواهم وتحسين العصيان لهم، وبذا قد ارتكبوا جريمتين، فباءوا بجزاءين: جزاء الضلال وجزاء الإضلال»[3].

ولقد وصفه الله بالإضلال بصريح الآية فقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه:٧٩].

قال ابن عاشور: «إن فرعون أوقع قومه في الجهالة وسوء العاقبة بما بث فيهم

(١) أضواء البيان ٤/ ٣٢.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٨١٧.

(٣) تفسير المراغي ٢٠/ ٦٢.

من قلب الحقائق والجهل المركب، فلم يصادفوا السداد في أعمالهم حتى كانت خاتمتها وقوعهم غرقى في البحر بعناده في تكذيب دعوة موسى عليه السلام»[1].

وإلى هذا ذهب الطبري فقال: «يقول جل ثناؤه: وجاوز فرعون بقومه عن سواء السبيل، وأخذ بهم على غير استقامة، وذلك أنه سلك بهم طريق أهل النار، بأمرهم بالكفر بالله، وتكذيب رسله ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ يقول: وما سلك بهم الطريق المستقيم، وذلك أنه نهاهم عن اتباع رسول الله موسى، والتصديق به، فأطاعوه، فلم يهدهم بأمره إياهم بذلك، ولم يهتدوا باتباعهم إياه»[2].

وقال أبو السعود مبينا المعنى: «أي سلك بهم مسلكًا أداهم إلى الخيبة والخسران في الدين والدنيا معًا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوي المتصل بالعذاب الخالد الأخروي وقوله تعالى ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي ما أرشدهم قط إلى طريق موصلٍ إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقريرٌ لإضلاله وتأكيدٌ له إذ رب مضلٍ قد يرشد من يضله إلى بعض مطالبه، وفيه نوع تهكم به في قوله ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

فإن نفي الهداية عن شخص مشعرٌ بكونه ممن يتصور منه الهداية في الجملة، وذلك إنما يتصور في حقه بطريق التهكم وحمل الإضلال والهداية على ما يختص بالديني منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيوي، وجعلهما عبارةً عن الإضلال في البحر والإنجاء منه مما لا يقبله العقل السليم»[3].

سابعًا: الغرور:

سيطر الغرور على قلب فرعون فأضله ضلالًا بعيدًا، واغتر بما آتاه الله من النعم.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف:٥١-٥٢].

قال المراغي: «نادى: إني غني كثير المال عظيم الجاه، فلي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، وموسى فقير مهين وليس له بيان ولا لسان»[4].

وقال الخازن مبينًا غرور فرعون: «أفلا تبصرون أي عظمتي وشدة ملكي»[5].

وقد بين القشيري أن غروره كان سبب هلاكه فقال: «تعزز بملك مصر، وجرى النيل بأمره! وكان في ذلك هلاكه ليعلم أن

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٧٢.
(٢) جامع البيان ١٨/ ٣٤٥.
(٣) إرشاد العقل السليم ٦/ ٣٢.
(٤) تفسير المراغي ٢٥/ ٩٦.
(٥) لباب التأويل ٤/ ١١١.

من تعزز بشيء من دون الله فحتفه وهلاكه في ذلك الشيء»[1].

وقد أشار ابن كثير إلى غرور فرعون وعتوه وكفره في مقولته تلك فقال: «يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾»[2].

ولقد وصل الغرور بفرعون أن يدعي الألوهية ويأمر قومه بعبادته.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَىٰ الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨].

«فتضمن كلامه نفي إلهية غيره وإثبات إلهية نفسه»[3]، ولقد أمر هامان أن يبني له قصرًا منيفًا ليظهر غروره بادعائه الألوهية كما قال ابن كثير: «فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون»[4].

بل وهدد وتوعد موسى بأن يسجنه أن لم يعبده ويتخذه إلهًا؛ قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩].

قال النسفي: «أي لأجعلنك واحدًا ممن عرفت حالهم في سجوني وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فردًا لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل ولو قيل لأسجننك لم يؤد هذا المعنى وإن كان أخصر»[5].

ثامنًا: الاستبداد:

إن مقومات استبداد فرعون: ادعاء الربوبية، وأداء الألوهية. أما ادعاء الربوبية كما في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] وقوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[الزخرف:٥١]؛ فيدعي لنفسه صفات الربوبية التي وردت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[البروج:١٢-١٦].

وأما ادعاء الألوهية كما ورد في قوله تعالى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨].

فيدعي صفة الألوهية التي جاءت في قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٣٧٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣١.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٢٦٠
(٤) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٣٨.
(٥) مدارك التنزيل ٢/ ٥٦٠.

﴿دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٢٦]؛ فالحاكم المستبد يبدأ فيدعي بأن كل البلد ملكه الشخصي، ويتصرف على هذا الأساس ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ ثم ينتقل إلى التصرف على أساس أن الناس العقلاء ملكه أيضا، تمهيدًا للادعاء الثاني، وهو ادعاء الألوهية، الذي يختص بالعاقل فقط كما في قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء:٢٣].

فالألوهية تتضمن الطاعة الكاملة من الناس لفرعون، بألا يتصرفوا بشيء بقناعاتهم الشخصية دون إذن منه، لذا قال فرعون للسحرة ﴿ءَامَنتُمۡ بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾ [الأعراف:١٢٣].

وأنزل بهم العقوبة بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤﴾ [الأعراف:١٢٤]؛ لا لأنهم آمنوا برب موسى وهارون، وإنما لأنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم، ولو أنهم استأذنوه لكان من الأرجح أن يأذن لهم، لأنهم باستئذانهم له، لا يتحدونه في ألوهيته.

وقد استبد فرعون لدرجة أنه لم يتفرد برأيه فقط بل ألزم قومه أن لا يروا إلا ما يرى، لاسيما في قتل موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

قال الزمخشري: «أي: ما أشير عليكم برأي إلا بما أرى من قتله، يعني لا أستصوب إلا قتله، وهذا الذي تقولونه غير صواب وما أهديكم بهذا الرأي إلا سبيل الرشاد»[(١)].

وقد استنكر على السحرة أن يؤمنوا بالله قبل أن يأذن لهم؛ حتى الإيمان بالله لا يفترض إلا أن يكون بإذن منه.

قال تعالى: «﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُمۡ بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾ [الأعراف:١٢٣].

قال الواحدي: «أصدقتم موسى من قبل أمري إياكم»[(٢)].

(١) الكشاف ٤/ ١٦٤.
(٢) الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز ص ٤٠٧.

فرعون وموسى عليه السلام

لقصة فرعون مع موسى فصولٌ كثيرة ومحطاتٌ عديدة، وسنتوقف عند بعض تلك المحطات؛ فالمحطة الأولى هي تربية فرعون لموسى عليه السلام.

أولًا: تربية فرعون لموسى عليه السلام:

يقول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة:٤٩].

كان من شأن فرعون أنه رأى في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه -يعنون بيت المقدس- رجل يكون على وجهه هلاك مصر؛ فأمر ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلا تركت[1].

ولقد ولد موسى في تلك الظروف، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص:٧].

فانصاعت لأمر ربها، وكانت النتيجة أن أخذه فرعون ليربيه في قصره تلبية لرغبة زوجته، وقر عين أمه بأن حرم عليه المراضع إلا هي.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكِ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكِ إِلَىٰ أُمِّكِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكِ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه:٤٠].

قال المراغي: «فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها العطاء الجزيل، ثم سألتها أن تقيم عندها وترضعه فأبت ذلك عليها وقالت إن لي بعلا وأولادًا ولا أستطيع المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها إلى ما طلبت، وأجرت عليها النفقة والصلات والكسا وجزيل العطايا ورجعت بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا وهي موفورة العز والجاه والرزق الواسع»[2].

ومما يستنتج من تربية فرعون لموسى:

١. قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]. فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة.

(١) انظر: جامع البيان ٢/ ٤٤.

(٢) تفسير المراغي ٢٠/ ٤١.

٢. أن الله إذا أراد شيئا هيأ أسبابه، وأتى به شيئا فشيئًا بالتدريج لا دفعة واحدة.

٣. أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي أن يستولي عليها الكسل عن السعي في حقوقها.

٤. أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تطالب بحقها لا يقوم لها أمر دينها، كما لا يقوم لها أمر دنياها.

٥. أن من أعظم نعم الله على العبد تثبيت الله له عند المقلقات والمخاوف.

٦. أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق، وأن وعد الله نافذ لا بد منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع.

٧. جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، كما فعلت أم موسى، فإن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد من شرعنا ما ينسخه[(١)].

ثانيًا: آيات موسى عليه السلام إلى فرعون:

أيد الله موسى بآيات كثيرة، علها تثني فرعون عن كفره وتجعله يؤمن بالله وحده، ولكنه أبى واستكبر وكان من العالين، واتهم موسى بأنه رجلٌ مسحور.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء:١٠١].

قال الطبري: «التسع الآيات البينات: يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات»[(٢)].

وآيات موسى ذكرت كثيرًا في القرآن، وقد اختلف المفسرون في تحديدها اختلافًا كثيرًا، وهناك كلامٌ نفيس للرازي يجمع فيه بين الأقوال جميعًا حيث قال في تبينها:

أحدها: أن الله تعالى أزال العقدة من لسانه قيل في التفسير ذهبت العجمة وصار فصيحًا.

وثانيها: انقلاب العصا حية.

وثالثها: تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها.

ورابعها: اليد البيضاء.

وخمسة أخر وهي: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

والعاشر: شق البحر، وهو قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة:٥٠].

والحادي عشر: الحجر، وهو قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الأعراف:١٦٠].

الثاني عشر: إظلال الجبل، وهو قوله

(١) انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ص٢٢٧.

(٢) جامع البيان ١٧/ ٥٦٤.

تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف:١٧١].

والثالث عشر: إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه.

والرابع عشر والخامس عشر: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف:١٣٠].

والسادس عشر: الطمس على أموالهم من النحل والدقيق والأطعمة والدراهم والدنانير، إذا عرفت هذا فنقول إنه تعالى ذكر في القرآن هذه المعجزات الستة عشر لموسى عليه الصلاة والسلام وقال في هذه الآية: ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات وتخصيص التسعة بالذكر لا يقدح فيه ثبوت الزائد عليه لأنه بينا في أصول الفقه أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد بل نقول إنما يتمسك في هذه المسألة بهذه الآية ثم نقول: أما هذه التسعة فقد اتفقوا على سبعة منها وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وبقي الاثنان ولكل واحد من المفسرين قول آخر فيهما[1].

ثالثًا: دعاء موسى عليه السلام على فرعون:

بعد أن طال السجال بين موسى عليه السلام وفرعون، دعا موسى عليه السلام على فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

فالوارد في كثيرٍ من الآثار أن أستجيب له بعد أربعين عامًا، لا أنه مكث أربعين عامًا يدعوا عليهم.

قال السيوطي في الدر المنثور: «أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله، وأخرج الحكيم الترمذي عن مجاهد ـ رضي الله عنه ـ في قوله: قال قد أجيبت دعوتكما ـ قال: بعد أربعين سنة»[2].

وقال الزمخشري: «المعنى: إن دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن، ولكن في وقته فاستقيما فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلا، ولا تستعجلا، قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة»[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢١/ ٤١٤.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٨٥.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٦٦.

وقال السمرقندي: «قال مقاتل: فمكث موسى بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وهكذا روى الضحاك: أن الإجابة ظهرت بعد أربعين سنة، وقال بعضهم: بعد أربعين يومًا، وقال بعضهم: كان هذا الدعاء حين خرج موسى ببني إسرائيل وأيس من إيمانهم»[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٩].

قال السمعاني: «أنه كان بين دعاء موسى وإجابته أربعون سنة، وكذلك كان بين دعاء يعقوب وإجابته أربعون سنة»[2].

وقد بين ابن عاشور كيف كانت استجابة دعوة موسى وهارون على فرعون وقومه فقال: «ومعنى إجابة الدعوة إعطاء ما سأله موسى ربه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم، ويوالي عليهم المصائب حتى يسأموا مقاومة دعوة موسى وتنحط غلواؤهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف:١٣٠].

وقال أيضًا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٣]»[3].

ومن هدايات هذه الآيات أن استجابة الدعاء لا يلزم أن يكون فوريًا، وإنما يكون في الوقت الذي تقتضيه حكمة الله، فلا ينبغي للداعي أن يستعجل.

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ١٢٩.
(٢) تفسير القرآن ٢/ ٤٠١.
(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٢٧٢.

أساليب فرعون في مواجهة دعوة موسى

للطغاة على مر العصور أساليب في مواجهة الحق الذي يزلزل أركان دولهم، ولقد انتهج فرعون مع نبي الله موسى عليه السلام أساليب شتى لمواجهته؛ فقد ادعى الألوهية والربوبية، واتهم موسى اتهامات كاذبة ما أنزل الله بها من سلطان، كالسحر والجنون وادعاء المؤامرة، وفيما يأتي بيان ذلك.

أولًا: دعوى الألوهية:

لقد طغى فرعون وتجبر لدرجة ادعاءه الألوهية،؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨].

ولقد أوضح الرازي أسلوب فرعون في مواجهة دعوة موسى عليه السلام فيقول: «اعلم أن فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى أن يتعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه»[(١)].

قال السعدي في معنى قوله هذا: «أي: أنا وحدي، إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري، لعلمته»[(٢)].

لقد نفى علمه بآلهة أخرى ولم ينف وجودها أصلًا، لذلك هدد موسى عليه السلام قائلًا: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩].

وفي سورة طه يسأل موسى عن ربه قائلًا: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه:٤٩].

وفي سورة النازعات ظهر تجبره وطغيانه في ادعائه الربوبية، حيث قال: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات:٢٥-٢٦].

يقول السمرقندي: «ويقال: الآخرة والأولى. يعني: العقوبة بالكلمة الأولى، والكلمة الأخرى، فأما الأولى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ ما والأخرى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وكان بين الكلمتين أربعون سنة، ويقال: قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ كان في الابتداء، حيث أمرهم بعبادة الأصنام، ثم نهاهم عن ذلك، وأمرهم بأن لا يعبدوا غيره»[(٣)].

ويقول سيد قطب: «فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان، ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، وما كان ليقولها أبدًا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء،

(١) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٥٩٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦١٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٤٣.

وإن يسلبه الذباب شيئا لا يستنقذ من الذباب شيئا! وأمام هذا التطاول الوقح، بعد الطغيان البشع، تحركت القوة الكبرى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾»[1].

وقد خلد القرآن الكريم قوله ذلك ليبقى لعنة عليه إلى قيام الساعة، ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

ثانيًا: الاتهامات الكاذبة:

منهج الطغاة في كل عصرٍ من العصور، إعراضٌ، ثم تكذيبٌ، فتشهير، فإيذاء، فقتل أو حبس، وقد لجأ فرعون الطاغية لأسلوب الاتهامات الكاذبة؛ والتي تتهم موسى بالكذب، والتشهير به؛ بأنه ساحر أو مجنون.

قال تعالى على لسان فرعون عندما عجزت الحجة أمام دعوة موسى عليه السلام وآياته البينة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء:١٠١].

فقد كذب فرعون تلك المعجزات الباهرات والآيات البينات، واعتبرها عجائبًا سحرية مكذبًا موسى ومتهمًا له بالسحر؛ قال الطبري: «فقال لموسى فرعون: إني لأظنك يا موسى تتعاطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك»[2].

وكلام الذين يكيلون الاتهامات الكاذبة غير متزن فضلًا عن تناقضه؛ فقد اتهم فرعون موسى بالسحر والجنون.

قال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات: ٣٨-٣٩].

«قال أهل العلم: هذا تناقض؛ لأن السحر لا يكون إلا بعقل كامل، والمجنون هو الذي لا عقل له»[3].

ولما فشلت الاتهامات الكاذبة التي كالها لموسى انتقل لمرحلة التهديد بالقتل؛ فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر:٢٦].

مدعيًا خوفه على دينهم من التبديل؛ وما ذلك إلا للضعف حيلته وحجته؛ قال ابن عاشور: «وقد حمله غروره وقلة تدبره في الأمور على ظن أن ما خالف دينهم يعد فسادًا إذ ليست لهم حجة لدينهم غير الإلف والانتفاع العاجل»[4].

ثالثًا: ادعاء المؤامرة:

كلما زاد البغي والطغيان على الدعاة إلى الله زادت الأتباع، هذه سنة إلهية؛ فبعدما فشلت الاتهامات الكاذبة والتهديد، وفشله بمقارعة موسى عليه السلام بالحجة؛ فهم

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٥.
(٢) جامع البيان ١٧/ ٥٦٨.
(٣) تفسير السمعاني ٥/ ٢٦٠.
(٤) التحرير والتنوير ٢٤/ ١٢٥.

أهل السحرة، والسحرة هم أحد أركان ملكه، بعد فشله في تحدي السحرة لموسى وانقلابهم عليه، اتهم موسى عليه السلام والسحرة بالمؤامرة عليه، هذا هو ديدن الطغاة وأساليبهم في مواجهة الحق.

وقد خلد الله هذه القصة فقال: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف:١١٣-١٢٣].

قال الزمخشري: «إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بنى إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون تمويها على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، وروى أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتك؟ قال لآتين بسحر لا يغلبه سحر»[1].

وقد فند ابن كثيرٍ هذه الشبهة فقال: إن غلبه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل كقوله في الآية الأخرى ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء:٤٩].

فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترا وتدليسا على رعاع دولته وجهلتهم[2].

(١) الكشاف ٢/ ١٤١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٥٨.

دعائم ملك فرعون

لكل طاغية متجبر بطانة سيئة، تزين له الباطل وتنافقه أو تتبعه، رجاء جاهٍ أو منصبٍ، أو عرضٍ زائل، لتكون دعامة من دعائم دولة الكفر والطغيان؛ وقد كانت دعائم دولة فرعون تتمثل في التالي: علية القوم، والسحرة، والجنود، وأصحاب الأموال، تفريق قومه، عملًا بقاعدة: فرق تسد؛ ففرق قومه لتبقى سيادته قائمة، فيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: علية القوم:

أولى دعائم ملك فرعون علية القوم، وهم علية القوم؛ «وعلية القوم: أشرافهم وصفوتهم وأرفعهم قدرًا وأسماهم مكانةً»[1].

ولقد أطلق القرآن عليه لفظ الملأ، قال الشعراوي: «الملأ: هم علية القوم، الذين يملأون العيون، ويتصدرون المجالس»[2].

وقال ابن الأثير: «الملأ: أشراف الناس ورؤساؤهم، ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم. وجمعه: أملاء»[3].

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠].

يقول سيد قطب معلقًا على كلمة الملأ: «لقد عرف الملأ من قوم فرعون، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلة موسى»[4].

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الأعراف:١٠٩-١١١].

قال ابن كثير: «أي قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون»[5].

وقال سيد قطب: «وأشار عليه الملأ وقد خدعتهم مكيدته، وهم شركاء فرعون في باطله، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير، حين ترى معجزتي موسى وتسمع إلى ما يقول أشاروا عليه أن يلقى سحره بسحر مثله، بعد التهيئة والاستعداد»[6].

ثانيًا: السحرة:

لقد كان السحرة بمثابة اليد الضاربة،

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١٥٤٨/٢.
(٢) تفسير الشعراوي ١٠٥٦٣/١٧.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٥١/٤.
(٤) في ظلال القرآن ٢٦٨٥/٥.
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٤١/٢.
(٦) في ظلال القرآن ٢٥٩٤/٥.

والمعول الذي سيقضي على دعوة موسى من جذورها؛ فبعد تكذيب موسى والتشهير به ونسبه إلى الجنون لم يجد فرعون بدًا من المواجهة الحقيقية مع موسى، لذا فقد استخدم الدعامة الضاربة التي يبني ملكه عليها، ألا وهي السحرة، فجمعهم ثم أتى موسى.

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه:٦٠].

قال الرازي: «فجمع كيده، السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحرًا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر من ذلك»[1].

ولكن كيد فرعون في تباب وهلاك، ولقد انقلب السحر على الساحر قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

فقد جمع فرعون السحرة وأفق عليهم الأموال لجمعهم، ووعدهم بالعطايا والمكافآت، ولكن هي سنة الله فلقد انكفأت تلك القوة على صاحبها، وآمنت بالله إيمانًا حقيقيًا.

قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء:٣٨-٤٨].

وهكذا انقلب السحرة المأجورون، مؤمنين من خيار المؤمنين. على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه ولا بد أن كان لهذا الانقلاب المفاجئ وقع الصاعقة على فرعون وملئه. فالجماهير حاشدة، فها هم أولاء يرون السحرة يلقون ما يلقون باسم فرعون وعزته. ثم يغلبون حتى ليقرون بالغلب ويعترفون بصدق موسى في رسالته من عند الله، ويؤمنون برب العالمين الذي أرسله، ويخلعون عنهم عبادة فرعون، ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين، رب موسى وهارون، إن لنا أن نقدر ذعر فرعون لهذه المفاجأة، وذعر الملأ من حوله، عندئذ جن جنون فرعون، فلجأ إلى التهديد البغيض

(١) مفاتيح الغيب ٢٢/ ٦٤.

بالعذاب والنكال[1].

وقد كان السحرة قد أقسموا جهد أيمانهم أن ينصروه؛ قال الزمخشري: «وذلك أن الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شيء: لم يقبل منه، ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه، فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف»[2].

ثالثًا: الجنود:

الجيم والنون والدال يدل على التجمع والنصرة والجنود: جمع جند وهو العسكر المتجمع للقتال، وأطلق على الأمم التي تجمعت لمقاومة الرسل[3].

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف:٥٤-٥٥].

وقال أيضًا: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: ٣٩-٤٠].

من الآيات السابقة يتضح لنا أن الله قد أغرق قوم فرعون، وأنه أغرق جند فرعون؛ وهذا يعطي دلالة واضحة بأن قوم فرعون كان عبارة عن الملأ والجنود، بمعنى أن كل قوم فرعون غير الملأ هم جنود فرعون.

لـما علم فرعون بخروج بني إسرائيل مع موسى، أرسل في المدائن يجمع الجنود؛ قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء:٥٢-٥٣].

يقول سيد قطب: «وعلم فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة، فأمر بما يسمى «التعبئة العامة» وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له الجنود، ليدرك موسى وقومه ويفسد عليهم تدبيرهم وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير! وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند»[4].

ولقد استكبر فرعون وعلا في الأرض وزاده في ذلك غروره بقوة جنوده.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص:٣٩].

فماذا كانت العاقبة.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص:٤٠].

قال الطبري: «فجمعنا فرعون وجنوده

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٦.
(٢) الكشاف ٣/ ٣١٢.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٨٥.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٧.

من القبط فألقيناهم جميعهم في البحر فغرقناهم فيه»[1].

وقد قضى الله في كتابه أن فرعون وجنوده كانوا خاطئين في حساباتهم وتقديرهم للأمور وأن الغلبة دائمًا حليف المؤمنين الصابرين المحتسبين وأن هلاكهم سيكون على يد من ربوه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨].

«كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم»[2]، وهذه نهاية طبيعية لكل ظالمٍ مستبد.

رابعًا: أصحاب الأموال:

القوة المستبدة، والسياسة المضللة، وسطوة المال، أساسات أصيلة وأركان ركينة لكل دولة ظلمٍ وطغيان، فقد تجسدت هذه الأركان بوضوح في دولة فرعون الطاغية.

قال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩].

فقد تجسدت القوة والاستبداد في فرعون والذي اقترن اسمه بالجنود؛ فذكر فرعون وجنوده تلك القوة التي جعلته يستخف بالشعب ويوهمه أنه من يملك الارض والأنهار وأن الخير مقرون به وبدونه تعم الفوضى والفقر، وهامان تجسيد للإرادة السياسية لفرعون، تجسيد لحكومة المستبد تلك الحكومة التي تسخر كل ثروات الوطن ومقدراته لخدمة رغبات الفرعون فهامان يبني لفرعون البناء الذي اراده ويصوغ شريعة للظلم ويجسد طبقة رجال دولة الطاغوت؛ فالقوة العسكرية والجنود التي يتحكم بها فرعون لا تقدر على إقامة دولة شمولية لولا هامان وأمثاله، وقارون تجسيد طبقة رجال الأموال، طبقة نسيت كافة الاخلاق والمثل وبغت على الناس بأموالها وتسلطت عليهم بقربها من مركز الحكم فكنزت الاموال وادعت أنها جمعتها على علمٍ عندها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨].

إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم زينة من الحلي والحلل والآنية والماعون والأثاث والرياش، وأموالا كثيرة الأنواع والمقادير، يتمتعون بها وينفقون منها في حظوظ الدنيا من العظمة الباطلة

(١) جامع البيان ١٩/ ٥٨٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٨٠.

والشهوات البدنية بدون حساب، لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح[1].

قال المراغي: «جرت سنة الله بأن كثرة الأموال تورث الكبرياء والخيلاء والبطر والطغيان وتخضع رقاب الناس»[2].

خامسًا: تفريق قومه:

شأن الطغاة في كل العصور تفريق أقوامهم حتى لا يجتمعوا عليهم فيهددوا سلطانهم، فالقاعدة عندهم هي: فرق تسد، وها هو فرعون يجسد تلك القاعدة واقعًا حقيقيًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص:٤].

قال الطبري: «أي فرقًا يذبح طائفة منهم، ويستحيي طائفة، ويعذب طائفة، ويستعبد طائفة»[3].

قال ابن عاشور: إن فرعون جعل أهل المملكة شيعًا وفرقهم أقسامًا وجعل منهم شيعًا مقربين منه، ويفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة؛ لأنه يثير بينهما التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدح الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة فيحلوا محل الآخرين، وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض فتنة، ولقد كان يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها؛ لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشئوا فيها[4].

وقد بدىء بالحديث عن فرعون، فكشف عن شخصه الذي يكشف عن إنسان يلبس ثوب الجبروت والطغيان؛ فقد علا في الأرض، وجعل الناس شيعًا، وهم أمة واحدة، من طينة واحدة؛ فهو بعلوه واستكباره قد انعزل عن الناس، فكان رأسًا، وكان الناس جميعًا أرجلًا، كان سيدًا، وأصبح الناس كلهم في سلطانه عبيدًا، كان إلهًا، وصار الناس له مألوهين، ثم إنه بعمله هذا قد صنف الناس أصنافًا، ورتبهم طبقات، وبذلك تسلطت كل طبقة على من

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٣٨٦.
(٢) تفسير المراغي ١١/ ١٤٨.
(٣) جامع البيان ١٩/ ٥١٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٦٨.

هي تحتها وبذلك أغرى الناس بالناس، وشغل بعضهم ببعض[1].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٠/ ٣٠٩.

امرأة فرعون

امرأة فرعون: اسمها آسيا بنت مزاحم، وهي زوجة فرعون[2]، مدحها النبي صلى الله عليه وسلم؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[3].

أولًا: محبتها لموسى عليه السلام:

لقد قذف الله تعالى حب موسى منذ طفولته في قلب من يراه، لاسيما امرأة فرعون، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

قال الطبري: «فحببه إلى آسية امرأة فرعون، حتى تبنته وغذته وربته، وإلى فرعون، حتى كف عنه عاديته وشره، وقد قيل: إنما قيل: وألقيت عليك محبة مني، لأنه حببه إلى كل من رآه»[4].

ولما ألقته أمه في اليم والتقطه آل فرعون وأتوا به إلى زوجته، تحركت محبتها تجاهه، قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ١٩٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب فضل عائشة رضي الله عنها، رقم ٣٧٦٩، ٥/ ٢٩.
(٤) جامع البيان ١٨/ ٣٠٣.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص:٨-٩].

قال ابن كثير: «فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها»[(١)].

ثانيًا: ثباتها على الإيمان:

كانت تعيش في أعظم القصور وأفخمها، وقد كان قصرها مليئًا بالجواري والعبيد والخدم فلقد كانت حياتها مترفة منعمة.

ولما دعا موسى عليه السلام إلى توحيد الله تعالى آمنت به وصدقته، ولكنها في البداية أخفت ذلك خشية فرعون وما لبثت حتى أشهرت إسلامها واتباعها لدين موسى عليه السلام، وجن جنون الفرعون لسماعه هذا الأمر المروع بالنسبة له، وحاول عبثًا ردها عن إسلامها وأن تعود كما كانت في السابق.

فتارة يحاول إقناعها بعدم مصداقية ما يدعو له موسى عليه السلام وتارة يرهبها بما قد يحل بها من جراء اتباعها لموسى عليه السلام ولكنها كانت ثابتة على الحق ولم يزحزحها فرعون في دينها وإيمانها مقدار ذرة[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١﴾ [الفجر:١٠-١١].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في قوله عز وجل: ﴿ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ قال: (وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحًى عظيمًا حتى ماتت)[(٣)].

قال السمعاني: وهي آسية بنت مزاحم، وكانت آمنت بالله وبموسى عليه السلام سرا ثم أظهرت، فعذبها فرعون وعاقبها، وقد وتدها بأربعة أوتاد من حديد، فصبرت على ذلك، فأظهرت حينئذ آسية إيمانها[(٤)].

ولقد خلد الله ذكرها وجعلها مثلًا للثبات والإيمان إلى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝١١﴾ [التحريم:١١].

قال سيد قطب: «وإفراد امرأة فرعون

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٢٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٣.

(٣) أخرجه الحاكم، في المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، باب تفسير سورة والفجر، رقم ٣٩٢٩، ٢/ ٥٦٨.

(٤) انظر: تفسير القرآن ٥/ ٤٧٩.

بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر، وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة»[١].

وقال أبو السعود: «أي جعل حالها مثلًا لحال المؤمنين في أن وصلة الكفرة لا تضرهم حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله وهي في أعلى غرف الجنة»[٢].

فلقد عذبها فرعون عذابًا شديدًا، لكنها استعانت بالله طالبة منه ثلاثة أمور:

أولاها: أن يبني لها بيتًا في الجنة، وقد أراها الله بيتها في الجنة قبل موتها تحت العذاب.

وثانيها: أن ينجيها من أعمال فرعون الوثنية الخبيثة[٣].

وثالثها: أن ينجيها من القوم الظالمين، قوم فرعون، وظلمهم هو شركهم بالله؛ فقد دعت بأن ينجيها الله من شركهم[٤].

قال ابن القيم: «فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة فإن الجار قبل الدار»[٥].

وهذا يدل دلالة واضحة على ثبات إيمانها وصدقها، قال المراغي: «وفي هذا دليل على أنها كانت مؤمنة مصدقة بالبعث»[٦].

وقال ابن عاشور: «فكانت امرأة فرعون مثلا لمتانة إيمان المؤمنين»[٧].

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٢٢.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٧٠.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ١٦٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٧.
(٥) الفوائد ١٩٧.
(٦) تفسير المراغي ٢٨/ ١٦٩.
(٧) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٧٦.

مؤمن آل فرعون

لقد قيض الله لموسى عليه السلام رجلًا من آل فرعون يدافع عنه، لتسكين الفتنة وإزالة الشر، ذلك الرجل الذي حمل هم الدعوة إلى الله، متبعا ومقتديا بموسى وهارون، وفيما يلي تفصيل قصته.

أولًا: التعريف به:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر:٢٨].

قال الزمخشري: «كان قبطيًا ابن عم لفرعون: آمن بموسى سرًا وقيل كان إسرائيليًا ومن آل فرعون صفة لرجل، أو صلة ليكتم، أي: يكتم إيمانه من آل فرعون، واسمه: سمعان أو حبيب، وقيل: خربيل، أو حزبيل، والظاهر: أنه كان من آل فرعون»[(١)].

وقيل: هو ذلك الرجل الذي حذر موسى من المؤامرة في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢٠﴾ [القصص:٢٠].

قال السمعاني: «يقال: كان اسمه شمعون، ويقال: شمعان، وقيل: هو حزقيل مؤمن من آل فرعون»[(٢)].

قال القشيري: ومن جعله إسرائيليًا ففيه بعد؛ لأنه يقال: كتمه أمر كذا، ولا يقال: كتم منه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢].

وأيضًا ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول، يعني: كونه تكلم بهذا الكلام أمام فرعون، وجهر بكلمة الحق ونصر موسى نصرًا مؤزرًا، ودعا الناس إلى الإيمان بالله عز وجل، وخوف فرعون وقومه من أيام الأحزاب التي هلك فيها عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم، لو كان من قوم من بني إسرائيل قوم موسى لما كان يحتمل منه فرعون هذا الكلام فهو من قوم فرعون كما تدل الآية[(٣)].

وخلاصة الأمر أن هذا الرجل قد سماه الله مؤمنًا، وقد حمل رسالة للدفاع عن نبي الله موسى ودعوته؛ فقد خلد الله ذكره إلى يوم القيامة، دون النظر لاسمه أيًا كان.

ثانيًا: نهيه عن قتل موسى عليه السلام:

لقد كانت المهمة الأساسية لهذا الرجل المؤمن الصادق أن يوقف جريمة نكراء، ألا وهي قتل نبي الله موسى، فلقد أفصح عن إيمانه بموسى عليه السلام، معرضًا نفسه للقتل والإيذاء، متحديًا جبروت فرعون قائلًا: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ

(١) الكشاف ٤/ ١٦٢.
(٢) تفسير القرآن ٤/ ١٢٩.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٦٠.

﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨].

ولم يكتم هذا الرجل المؤمن إيمانه خوفًا؛ لذلك أظهر إيمانه في أحرج الأوقات، عندما قال فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

فعند ذلك أظهر هذا الرجل المؤمن إيمانه، فلو كان يكتم إيمانه خوفًا من فرعون لكان أجدر به أن يستمر على كتم إيمانه، وقد وصل الحال مع فرعون إلى أنه هدد بقتل موسى، وقال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

والحق أنه كان لهذه الكلمة: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ تأثير عظيم في نفس فرعون.

وقد كررها أبو بكر في محاولة عقبة بن أبي معيط خنق رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخرج البخاري عن عروة بن الزبير قال: (قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أتقتلون رجلا أن يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟)[1][2].

ثالثًا: تحذيره لفرعون وقومه من عذاب الله في الدنيا:

لقد كان ناصحًا أمينًا حكيمًا لا يخاف في الله لومة لائم؛ فبدأ بتذكيرهم نعم الله عليهم، ثم خوفهم بحال الأمم السابقة.

قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر:٢٩-٣١].

يذكرهم بأنهم الآن ظاهرون في الأرض، وهذا الظهور ظهور وقتي، ويذكر أيضًا بأن الدولة التي تحارب الدين يؤذن بزوالها، قال ابن كثير: يحذرهم أن يسلموا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرضت الدولة للدين إلا سلبوا ملكهم، فأي دولة تحارب شرع الله لابد أن تزول وأن تذل بعد عز[3].

ولقد حذر هذا الرجل المؤمن الصالح

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذا خليلا)، رقم ٣٦٧٨، ٥/ ١٠.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١١٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤٠.

قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة، فبدأ بتخويف العذاب الدنيوي، فقال: يا قومي، إني أخشى عليكم إن كذبتم موسى أن يصيبكم مثلما أصاب الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوا رسلهم من الأمم الماضية، كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم كقوم لوط، فقد حل بهم بأس الله، ولم يجدوا لهم ناصرا ينصرهم، ولا عاصما يحميهم، فقوله: مثل دأب، أي مثل حالهم في العذاب، أو مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب[1].

رابعًا: تحذيره لفرعون وقومه من عذاب يوم القيامة:

أعقب تخويفهم بعقاب الدنيا الذي حل مثله بقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم بأن خوفهم وأنذرهم عذاب الآخرة عاطفًا جملته على جملة عذاب الدنيا[2].

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ [غافر:٣٢-٣٣].

في ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة؛ فالتنادي واقع في صور شتى، وتسميته ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾، تلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصور يوم زحام وخصام. وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾، وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم، أو محاولتهم الفرار، ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار. وصورة الفزع والفرار هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض، أصحاب الجاه والسلطان، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾، ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[3].

خامسًا: دعوته لقومه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١١٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٣٦.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٨٠.

﴿الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر:٣٨-٤٤].

قال الزمخشري: «قال أهدكم سبيل الرشاد فأجمل لهم، ثم فسر فافتتح بذم لدنيا وتصغير شأنها، لأن الإخلاد إليها هو أصل الشر كله، ومنه يتشعب جميع ما يؤدى إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة، وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هي الوطن والمستقر، وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما، ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين: دعوة إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وحذر، وأنذر، واجتهد في ذلك واحتشد»[(١)].

وقد أجمل المراغي قول الرجل المؤمن لقومه فقال: «اعلم أن هذا المؤمن لما رأى تمادى قومه في تمردهم وطغيانهم أعاد إليهم النصح مرة أخرى، فدعاهم أولًا إلى قبول هذا الدين الذي هو سبيل الخير والرشاد، ثم بين لهم حقارة الدنيا وعظم شأن الآخرة، وأنها هي الدار التي لا زوال لها، ثم ذكر أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله الذي يوجب النجاة والدخول في الجنات، وهم يدعونه إلى الكفر الذي يوجب الدخول في النار، ثم أردف هذا بيان أن الأصنام لا تستجاب لها دعوة، فلا فائدة في عبادتها، ومرد الناس جميعا إلى الله العليم بكل الأشياء، وهو الذي يجازى كل نفس بما كسبت، وأن المسرفين في المعاصي هم أصحاب النار ثم ختم نصحه بتحذيرهم من بأس الله وتفويض أمره إلى الله الذي يدفع عنه كل سوء يراد به»[(٢)].

سادسًا: عاقبة أمره:

لقد كانت العاقبة للمتقين في هذه القصة، كما هي العاقبة دائمًا، قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر:٤٥].

وكانت نهاية مؤمن فرعون تختلف عن نهاية مؤمن آل يس، فمؤمن آل يس قتلوه، ورجموه بالحجارة كما تهددوا الرسل، وانتقل من دار البلاء إلى رحمة الله عز وجل، ولما عاين الكرامة: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس:٢٦-٢٧].

وأما مؤمن آل فرعون ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾؛ فالمؤمن دائمًا رابح

(١) الكشاف ٤/ ١٦٨.

(٢) تفسير المراغي ٢٤/ ٧٤.

سواء قتل فانتقل إلى كرامة الله ورحمته وما عند الله خير، أو انتصر في الدنيا فوقاه الله سيئات ما مكروا.

فمن يعمل مع الله عز وجل، ويتاجر معه لا يمكن أن يخسر بحال من الأحوال، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر:٢٩].

وقال سبحانه: ﴿۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء:٧٤].

فالمؤمن رابح في كل الأحوال سواء انتصر أو استشهد، بخلاف الكافرين والمكذبين، الذين يحاربون شرع الله عز وجل، هم في خسارة وبوار في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

فتجارتهم خاسرة في الدنيا والآخرة.

قال السمعاني: اختلف القول في نجاته، منهم من قال: نجا حين نجا موسى وبنو إسرائيل، وذلك عند مجاوزة البحر، والقول الثاني: أن مؤمن آل فرعون لما قال هذه الأقوال، ونصح هذه النصيحة طلبه فرعون ليقتله فهرب، فبعث في طلبه جماعة، فوجدوه في جبل يصلي وحوله السباع يحرسونه ففزعوا ورجعوا[1].

(١) تفسير السمعاني ٥/ ٢٣.

العقوبات الإلهية لفرعون

تعرض فرعون وقومه جراء كفره وادعائه الربوبية والالوهية، لأنواعٍ شتى من العقاب؛ فهناك العقاب الدنيوي، كالقحط والجدب، ونقص الثمرات، والموت غرقًا، وهناك العقاب البرزخي المتمثل في عرضه وقومه على النار غدوًا وعشيًا، ثم العذاب الأخروي، ألا وهو العذاب الشديد في نار جهنم، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولًا: العقوبات في الدنيا:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

[الأعراف: ١٣٠-١٣٦].

ولقد اختبرنا قوم فرعون وأتباعه على ما هم عليه من الضلالة بالسنين، أي بالجدب سنة بعد سنة، والقحط، يقال منه: «أسنت القوم»، إذا أجدبوا، ونقص من الثمرات، واختبرناهم مع الجدوب بذهاب ثمارهم وغلاتهم إلا القليل لعلهم يذكرون، عظة لهم وتذكيرًا لهم، لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة[1].

قال الزمخشري: «أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم. وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم»[2].

قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

[الأعراف: ١٣٣].

أي: فأرسلنا عليهم عقوبة على جرائمهم تلك المصائب والنكبات، وهي آيات بينات على صدق رسالة موسى، إذ قد توعدهم بوقوع كل واحدة منها على وجه التفصيل، لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل تأويلًا بأنها وقعت لأسباب لا ارتباط لها برسالته، فاستكبروا عن الإيمان بها لرسوخهم في الإجرام والإصرار على الذنوب وإن كانوا يعتقدون صدق دعوته

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٥.
(٢) الكشاف ٢/ ١٤٤.

وصحة رسالته.

وقد عدد سبحانه هنا من الآيات خمسًا وفي سورة الإسراء تسعًا وهي:

١. الطوفان: فقد نزلت عليهم أمطار أغرقت أرضهم وأتلفت زرعهم وثمارهم.
٢. الجراد: وقد أكل الأخضر واليابس.
٣. القمل: وقد امتلأت بها أجسادهم وملابسهم.
٤. الضفادع: وقد امتلأت بها مياههم وأوانيهم وفراشهم وأسرتهم.
٥. الدم: فقد كانت مياه المصريين تتحول إلى دم[(١)].

ثم كان الانتقام بالغرق؛ قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف:١٣٦].

قال الشعراوي: «يوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب في ذواتهم، وفي مقومات حياتهم، وفي معكرات صفوهم لم يبق إلا أن يهلكوا؛ لأنه لا فائدة منهم؛ لذلك جاء الأمر بإغراقهم، لا عن جبروت قدرة، بل عن عدالة تقدير؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم»[(٢)].

ويلاحظ هنا أن أهم ما في القضية وهو الإغراق، فقد ذكر على هيئة الإيجاز، وهو الحادث الذي جاء في سورة أخرى بالتفصيل.

ثانيًا: العقوبات في القبر:

قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦].

«ومعنى عرضهم على النار أن أرواحهم تشاهد المواضع التي أعدت لها في جهنم، وقوله: غدوًا وعشيًا كناية عن الدوام لأن الزمان لا يخلو عن هاذين الوقتين»[(٣)].

قال الجزائري: «إخبار بأن أرواح آل فرعون تعرض في البرزخ على النار غدوًا وعشيًا وذلك بأن تكون في أجواف طير سود على خلاف أرواح المؤمنين فإنها تكون في أجواف طير خضر ترعى في الجنة. إلى يوم القيامة»[(٤)].

والتحقيق أن فرعون يعذب هو وقومه بعد موتهم وقبل قيام الساعة، قال القرطبي: «والجمهور على أن هذا العرض في البرزخ»[(٥)].

وقال الزحيلي: «إن أرواح فرعون وقومه بعد موتهم في عالم البرزخ، وقبل مجيء القيامة تعرض على النار وتحرق فيها صباحًا

(١) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٤٣.
(٢) الخواطر ٧/ ٤٣٢٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٥٩.
(٤) أيسر التفاسير ٤/ ٥٣٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣١٨.

ومساء إلى قيام الساعة»[1].

وقد أخرج البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة)[2].

ثالثًا: العقوبات في الآخرة:

قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر:٤٥].

قال الشنقيطي: «وحاق بآل فرعون سوء العذاب معناه: أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن وقاه الله مكرهم، ورد العاقبة السيئة عليهم، فرد سوء مكرهم إليهم، فكان المؤمن المذكور ناجيا في الدنيا والآخرة، وكان فرعون وقومه هالكين في الدنيا والآخرة والبرزخ»[3].

لقد انهت الآيات قصة فرعون بفاصلة تناسب نهايته البغيضة.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦].

قال ابن عاشور: «هذا ذكر عذاب الآخرة الخالد، أي يقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وعلم من عذاب آل فرعون أن فرعون داخل في ذلك العذاب بدلالة الفحوى»[4].

ويقول الزحيلي: «ثم أوضح الله تعالى ذلك العذاب السيء، فقال: النار يعرضون عليها غدوا وعشيا، ويوم تقوم الساعة، أدخلوا آل فرعون أشد العذاب أي إن أرواح فرعون وقومه بعد موتهم في عالم البرزخ، وقبل مجيء القيامة تعرض على النار وتحرق فيها صباحًا ومساء إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ويقال للملائكة: أدخلوا آل فرعون في جهنم، حيث يكون العذاب فيها أشد ألمًا وأعظم نكالًا»[5].

ويجوز أن يعذب فرعون وقومه في المكان الذي يعذب به المنافقين كما قال الأخفش: «قال ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وقال ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فيجوز أن يكون آل فرعون أدخلوا مع المنافقين في الدرك الأسفل وهو أشد العذاب»[6].

ويؤكد الرازي هذا المعنى نقلًا عن ابن الأنباري فيقول: «إنه تعالى قال في صفة

(١) التفسير المنير ٢٤/ ١٣١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده، رقم١٣٧٩، ٢/ ٩٩.
(٣) أضواء البيان ٦/ ٣٨٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٤/ ١٥٩.
(٥) التفسير المنير ٢٤/ ١٣١.
(٦) معاني القرآن ٢/ ٥٠٢.

المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقال في آل فرعون ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، فأيهما أشد عذابًا، المنافقون أم آل فرعون؟ وأجاب بأنه يحتمل أن أشد العذاب إنما يكون في الدرك الأسفل، وقد اجتمع فيه الفريقان»[1].

الدروس المستفادة من قصة فرعون

لقد اشتملت قصة فرعون مع موسى على هداياتٍ جمة، نقتطف بعضًا منها كما يلي:.

- من كان مع الله فلن يضره ضعفه، ومن لم يكن مع الله فلن تنفعه قوته، مفارقة عجيبة في هاتين الآيتين: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].
- وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [القصص:٤٠]؛ فالأولى يلقى موسى في اليم وهو الطفل الضعيف والذي لا حول له ولا قوة فينجو، بينما في الثانية فرعون وجنوده وطواغيته يلقون في اليم رغم قوتهم وجبروتهم فيهلكون.
- إن قصة موسى ونجاته من كيد عدوه فرعون وهو حملًا في بطن أمه، ثم طفلًا وشابًا ورجلًا قبل أن يكون رسولًا، لأعظم آية على حفظ الله لأوليائه ودفاعه عنهم ونصره لهم.
- إذا توجهت عناية الله إلى أمرٍ غير ذي قيمة جعلته آية ومعجزة؛ فقد توجهت إلى عصا موسى؛ فأصبحت معجزة

(١) مفاتيح الغيب ١١/ ٢٥١.

خالدة بانقلابها إلى حية تسعى، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه:٢٠].

- وضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، قال تعالى: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة:٦٠].
- وضرب بها البحر فانفلق شقين، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء:٦٣].
- المؤمن الصادق يؤيده الله بأمور لا تخطر على باله، وكلما زاد في الصدق مع الله والإخلاص له أتاه تأييد الله ونصره وفرجه من حيث لا يحتسب، قال تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦٢].
- أهمية صفتي الأمانة والقوة، فبهما تصلح الدنيا والدين، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص:٢٦].
- صفة الحذر من صفات أهل الإيمان والعقل والحكمة، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨].
- والخوف هنا خوف الحذر وليس خوف الجبن.
- نصرة المظلوم واجبة، كما في موقف الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يحذر موسى، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠].
- وموقف مؤمن آل فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر:٢٨].
- الظلم سبب زوال النعم وحلول النقم، كما بين الله في سبب هلاك آل فرعون، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص:٤٠].
- دخول المعركة من أجل عرض قليل من الدنيا الفانية عنوانٌ للفشل وإعلان للهزيمة الساحقة، كما هو حال السحرة، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف:١١٣].
- فكانت عاقبتهم الغلبة، قال تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف:١١٩].
- أهمية اللين والحكمة والهدوء في الدعوة والإقناع والحوار وحل

المشاكل، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه:٤٤].

وقد فعلا عليهما الصلاة والسلام.

- إن الفصاحة والإعراب من دواعي قبول قول الداعي، قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ [القصص:٣٤]؛ فقد كان هارون أفصح من موسى، وكان موسى هو الرسول ويساعده هارون النبي.
- العلو في الأرض له نهاية مؤلمة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص:٤].
- هذا الذي جعل فرعون ينتهي سلطانه، فالعلو في الأرض، من أعظم الذنوب عند الله.
- الإمامة لا تنال إلا بالصبر واليقين؛ ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة:٢٤].
- إن الدعاء وحده دون العمل لا يكفي لجلب نصرة الله؛ فبني إسرائيل دعوا الله فترة طويلة دون أن يرتفع الظلم عنهم؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [يونس:٨٥-٨٦].
- ولما أمرهم موسى بالتغيير وأطاعوه ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾ [يونس:٨٧].
- ثم كان دعاء موسى بعد التغير، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس:٨٨].
- فكانت النتيجة، قال تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [يونس:٨٩].
- بيان حسن تدبير الله تعالى في منع موسى من سائر المرضعات حتى يرده إلى أمه، قال تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص:١٢].
- التحذير من تزيين الأعمال القبيحة نتيجة الإدمان عليها والاستمرار على فعلها، فإن من زينت له أعماله السيئة فأصبح يراها حسنة هلك والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ

﴿فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧].

- التحذير من الاغترار بالدنيا والغفلة عن الآخرة؛ إذ الأولى زائلة والآخرة باقية واختيار الباقي على الفاني من شأن العقلاء، قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر:٣٩].
- مشروعية التذكير بالحساب والجزاء وما يتم في دار الآخرة من سعادة وشقاء، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر:٤٠].
- إثبات عذاب القبر ونعيمه، إذ آل فرعون تعرض أرواحهم على النار صباح ومساء، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٦].
- يشترك الأنبياء في أمور، وهي تأييدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وإعراض أقوامهم عنهم، واتهامهم بالكذب والتمويه والسحر، والتهديد بالطرد والتشريد أو القتل والتعذيب، ولكن النصر في النهاية للأنبياء والمؤمنين.
- تحقق نصر الله تعالى لموسى عليه السلام، وأحبط مكائد فرعون وقومه، وجعل مكرهم في خسران وضياع.
- لقد كان دفاع هذا الرجل المؤمن الصالح من آل فرعون في مجلس فرعون وسلطانه في غاية القوة والجرأة والعقل والمنطق.
- كان مؤمن آل فرعون في نصحه لقومه من أشد الناس إخلاصًا لهم وحبًا وحرصًا على إنقاذهم من ورطة الكفر، والدخول في ساحة الإيمان بالله عز وجل وحده لا شريك له.
- لا عذر للناس في تكذيب الرسل والكفر بهم بعد أن يأتوهم بالمعجزات الباهرات والأدلة الواضحات على صدقهم.
- إن الله تعالى لا يهدي أبدًا إلى الحق أهل الإسراف في المعاصي والكذب، وإنه تعالى أعطى موسى الآيات المعجزات الباهرة، ومن أيده الله بذلك لا يكون مسرفًا كذابًا، وهذا يدل على أن موسى عليه السلام ليس من الكاذبين.
- إن من المستغرب حقا أن يخشى أصحاب السلطان والقهر المعتمدين على الجند أو الجيش أو العسكر المدجج بأنواع الأسلحة الفتاكة، من

الأنبياء والرسل والقادة المصلحين الذين ليس لهم إلا البيان القوي، والحجة الهادفة، والكلمة المؤثرة، وما ذاك إلا لأن الحق فوق القوة وأثبت منها وأنفذ، لذا تهتز العروش بصوت الحق، ولا يتأثر أصحابها ببأس الأقوياء، وقوة الشجعان، فهذا فرعون الطاغية ملك مصر يحذر رجلا عاديًا هو موسى عليه السلام لا سند له من قوة مادية أو سلاح أو عسكر.

- لقد كانت الكلمات التي ختم بها مؤمن آل فرعون حججه وبراهينه دستور الحق، وسنة الله، وسبيل إقامة العدل، وأساس الحساب في الدار الآخرة.
- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر:٢٨]. إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض، أو إلى أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعاء الألوهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يدمره ويهدم بنيانه.
- قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر:٣١]. يعني أن تدمير الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل، فكذبوهم وكفروا بهم، كان عدلًا، لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء.
- قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ [غافر:٣٣]. تنبيه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم بعد أن أكد التهديد بقوله: ما لكم من الله من عاصم.
- قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ [غافر:٣٤]. كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب، أي مثل ذلك الضلال في الآباء والأجداد يضل الله من هو مشرك، شاك في وحدانية الله تعالى[1].

موضوعات ذات صلة

الاستدراج، بنو إسرائيل، موسى

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٣، التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١١٨.

الفساد

عناصر الموضوع

مفهوم الفساد	٢٩٤
الفساد في الاستعمال القرآني	٢٩٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٦
مجالات الفساد ومظاهره	٢٩٨
الأساليب القرآنية في محاربة الفساد	٣١٥
عاقبة المفسدين	٣٢١

مفهوم الفساد

أولًا: المعنى اللغوي:

«الفاء والسين والدال كلمة واحدة، فسد الشيء يفسد فسادًا وفسودًا وهو فاسد وفسيد»[1]، وفسد: كنصر وعقد وكرم، ضد صلح فهو فاسدٌ، والفساد: أخذ المال ظلمًا. والمفسدة: ضد المصلحة[2].

والفساد: «خروج الشيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج أو كثيرًا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الفساد في الاصطلاح خلقٌ كثيرون، ولكن هذا البحث سيتناول هذا المصطلح بما يتفق مع طبيعته القرآنية، حيث جاء في تعريفه الآتي:

١-تعريف الجرجاني للفساد بأنه: «زوال الصورة عن المادة بعد أن كانت حاصلة»[4].

٢-تعريف الشيخ محمد رواس قلعه جي بأنه: «إخراج الشيء عن أن يكون منتفعًا به منفعة مطلوبة منه عادة»[5].

وبالنظر إلى التعريفين السابقين يتبين أن التعريف الثاني أكثر وضوحًا وانسجامًا مع الدراسة القرآنية، خاصة أنه يشمل كل ما من شأنه تخريب وإفساد، وأيضًا يتفق مع أصل الفساد لغةً.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ص٧٤٨.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٠٦.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٩.
(٤) التعريفات ص١٦٦.
(٥) معجم لغة الفقهاء ١/ ٤١.

الفساد في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فسد) في القرآن الكريم (٥٠) مرة [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]
الفعل المضارع	١٤	﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء:١٥٢]
المصدر	١١	﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال:٧٣]
اسم الفاعل	٢١	﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة:١٢]

وورد الفساد في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: تغير الشيء عما كان عليه من الصلاح، وقد يقال في الشيء مع قيام ذاته، ويقال فيه مع انتقاضها، ويقال فيه إذا بطل وزال بالكلية؛ فيشمل الخراب والهلاك والقتل وغير ذلك من المعاني التي تندرج تحت معنى الفساد. ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى [(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥١٨-٥١٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الفاء ص٨٧٦-٨٧٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٦١-٣٦٢، نزهة الأعين النظائر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٤٦٩-٤٧٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٩٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الظلم:

الظلم لغةً:

الظلمة: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه[١].

الظلم اصطلاحًا:

مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز؛ ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير[٢].

الصلة بين الظلم والفساد:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي يتبين أن الفساد أعم وأشمل من الظلم؛ إذ إن الظلم هو مجاوزة الحد فقط، والفساد هو خروج عن الاعتدال.

٢ الفسق:

الفسق لغة:

تعريف الفسق لغةً: (فسق: الفسق: العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق، وقيل: الفسوق الخروج عن الدين، وكذلك الميل إلى المعصية كما فسق إبليس عن أمر ربه. وفسق عن أمر ربه أي جار ومال عن طاعته)[٣]

الفسق اصطلاحًا:

(العصيان وترك أمر الله تعالى، والخروج عن طاعته، وعن طريق الحق. ورجل فاسق: أي عصى وجاوز حدود الشرع)[٤].

الصلة بين الفسق والفساد:

الفسق هو خروج عن حجر الشرع، والفساد هو خروج عن أي اعتدال، وعلى هذا فإن الفسق أعم من الكفر، لكن الفساد أعم منه.

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٧.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، ١٠/ ٣٠٨.
(٤) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه، عبدالله الأثري ص ٢٤٠.

٣ الطغيان:

الطغيان لغةً:

«تجاوز الحد في العصيان»[١].

الطغيان اصطلاحًا:

قال القرطبي: «الطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه؛ وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى»[٢].

الصلة بين الطغيان والفساد:

الفساد أعم وأشمل؛ إذ إنه خروج عن الاعتدال، والطغيان هو تجاوز للحدود في العصيان.

٤ البغي:

البغي لغة:

مصدر بغى يبغي بغيًا إذا تعدى وظلم.[٣].

البغي اصطلاحًا:

طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى، سواء تجاوزه حقيقة أم لم يتجاوزه[٤].

الصلة بين البغي والفساد:

الفساد أعم وأشمل؛ إذ إن البغي قد لا يقتضي فعلًا، إنما هو طلب، والفساد هو كل خروج عن الاعتدال سواء أكان قلبًا أو قولًا أو فعلًا.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٢٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٤٥.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٧٧.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٣٧.

مجالات الفساد ومظاهره

تعددت مجالات الفساد كما عرضها القرآن الكريم، وسنبينها فيما يأتي:

أولًا: الفساد في مجال العقائد:

١. الشرك.

من الأسباب الرئيسة في فساد البشرية: الشرك وهو الذ ي يترتب عليه فساد نظام الحياة الكونية والبشرية، وهو القائم على عبادة العباد بدلًا من عبادة رب العباد.

ومما ذكره القرآن الكريم في معرض حديثه عن أسباب الفساد قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢].

أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة أخرى ولم يكن جميع من فيها ملكًا لله وعبادًا له لفسدت السماوات والأرض واختل نظامها الذي خلقتا به. وهذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين؛ إذ زعموا أن الله جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق، أي: أنه بعد أن خلق السماوات والأرض أقام في الأرض شركاء له؛ ولذلك كانوا يقولون في التلبية في الحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك،ـ تملكه وما ملك. وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء.

والآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله بعد خلق السماوات والأرض؛ لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله خالق السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزمر: ٣٨].

فهي مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع؛ إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين، ولا لإثبات انفراده بالخلق؛ إذ لا نزاع فيه كذلك، ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم.

والفساد المترتب على الشرك: هو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء. ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا متسقتي النظام بأن يبطل الانتفاع بما فيها. فمن صلاح السماء نظام كواكبها، وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها، ونظام النور والظلمة. ومن صلاح الأرض مهدها للسير، وإنباتها الشجر والزرع، واشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب، وفساد كل من ذلك ببطلان نظامه الصالح.

ووجه انتظام هذا الاستدلال أنه لو تعددت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفًا بصفات الإلهية المعروفة آثارها،

وهي الإرادة المطلقة والقدرة التامة على التصرف. وفرع على هذا الاستدلال إنشاء تنزيه الله تعالى عن المقالة التي أبطلها الدليل بقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يصفونه به من وجود الشريك[1].

وهذا الكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله، إلا أن يكون هناك إله واحد، يدبر أمره، وما يقع الفساد في الأرض كما يقع عند تتعدد الآلهة، عندما يتعبد الناس الناس، عندما يدعي عبد من العبيد أن له على الناس حق الطاعة لذاته، وأن له فيهم حق التشريع لذاته، وأن له كذلك حق إقامة القيم والموازين لذاته، والإقرار به هو الشرك بالله أو الكفر به، وهو الفساد في الأرض أقبح الفساد.

٢. النفاق.

من الأسباب الرئيسة في فساد البشرية النفاق:

فأهل النفاق سبب كل بلية أصيبت بها الأمة، وسبب تسليط العدو عليها، بل هم العدو الحقيقي، فهم الذين يكشفون أسرار الأمة لعدوهم، وهم الذين يدلون العدو على مواضع الضعف، وهم الذين يتربصون بالأمة الدوائر، ويبطئونها عن الجهاد، ويوالون الكفار حتى حدث بسبب ذلك فساد كبير أصاب الأرض وما عليها.

ومما ذكره القرآن الكريم في معرض حديثه عن أسباب الفساد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة:١١-١٢].

فأهل النفاق: مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه وشكهم في دين الله الذي لا يقبل من أحد عملًا إلا بالتصديق به، والإيقان بحقيقته وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، وبمالئتهم الكفار على المسلمين، بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم؛ مما يؤدى إلى هيج الفتن بينهم.

وفي الآيات: «محاورة جرت بين المؤمنين والمنافقين، فقال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض، فأجابهم المنافقون بقولهم: إنما نحن مصلحون، فكأن المحاورة انقطعت بين الفريقين ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وأن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد، فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن سجل على المنافقين أربعة أمور:

أحدها: تكذيبهم.

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ٣٣.

والثاني: الإخبار بأنهم مفسدون.

والثالث: أنهم أولى بالفساد.

والرابع: نفي الشعور عنهم بكونهم مفسدين.

وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع ثم نفى العلم في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل، أن يكون الرجل مفسدًا، ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه، وكذلك كونه سفيهًا، والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله ونفى الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الأيتان الإسجال عليهم بالجهل وفساد آلات الإدراك بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرًا»[1].

والعلاقة بين الفساد والنفاق: أن النفاق أدى إلى فساد آلات الإدراك عند المنافقين، والتي بدورها أدت إلى اختلال موازين الحكم على الأشياء.

وفي هذا المعنى قال سيد قطب رحمه الله: «والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: إنهم يصلحون، كثيرون جدًا في كل زمان، يقولونها؛ لأن الموازين مختلة في أيديهم، وإذا اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم، والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم؛ لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية»[2].

٣. موالاة غير المؤمنين.

أمر عز وجل المؤمنين بولاية بعضهم بعضًا، وإلا حدثت الفتنة والفساد الكبير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم، ٤/ ٩٤٢.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٨.

٧٢-٧٣].

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، ثم قال: إن لم تجانبوا المشركين وتولوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس، أي: محنة بالحرب، وما يتبعها من الغارات والجلاء والأسر والفساد الكبير الذي يترتب عليه من الشر مالا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم إقامة كثير من العبادات الكبار كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض؛ لأنهم بهذه الولاية يستطيعون أن يواجهوا المجتمع الجاهلي الموالي بعضهم بعضًا.

«فإن لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضهم لبعض، فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلي؛ لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلي المتكافل أفرادًا، وتقع الفتنة في الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده.

ويقع الفساد في الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام، وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله، ووقوع الناس عبيدًا للعباد مرة أخرى وهو أفسد الفساد. ولا يكون بعد هذا النذير نذير، ولا بعد هذا التحذير تحذير، والمسلمون الذين لا يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوي الحركي ذي الولاء الواحد والقيادة الواحدة، يتحملون أمام الله -فوق ما يتحملون في حياتهم ذاتها- تبعة تلك الفتنة في الأرض، وتبعة هذا الفساد الكبير»[1].

ومن يقف على تاريخ الدول الإسلامية التي سقطت وبادت، والتي ضعفت بعد قوة يرى أن السبب الأعظم لفساد أمرها ترك ولاية المؤمنين أو استبدالها بولاية غير المؤمنين.

فالمؤمن لا يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله، وما أحوج ناسًا ممن يدعون الإسلام، ويتسمون بأسماء المسلمين، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض، أن يتدبروا هذا القرآن، فالحمية للدين لتكبت في أول الأمر عمدًا، ثم تهمد ثم تخمد، ثم تموت.

ثانيًا: الفساد في مجال العبادات:

١ . عبادة غير الله.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٦.

﴿لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٨٥].

«إن الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله الواحد، والعبودية لإله واحد، وإن الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبودية لله في حياة الناس. إن العبودية لله وحده معناها أن يكون للناس سيد واحد، يتوجهون إليه بالعبادة وبالعبودية كذلك، ويخضعون لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة، وشهوات البشر الصغيرة.

إن الفساد يصيب تصورات الناس كما يصيب حياتهم الاجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد -من دون الله- وما صلحت الأرض قط ولا استقامت حياة الناس إلا أيام أن كانت عبوديتهم لله وحده -عقيدة وعبادة وشريعة- وما تحرر الإنسان قط إلا في ظلال الربوبية الواحدة»[1].

٢. مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد أرسل الله الرسل؛ ليطاعوا فيما أمروا ونهوا.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[النساء: ٦٤].

وأقسم سبحانه وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا يتحقق إيمان العباد حتى يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمًا فيما وقع بينهم من نزاع في حياته، ويتحاكموا إلى سنته بعد مماته، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما انتهى إليه حكمه، وينقادوا مع ذلك انقيادًا تامًا.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥].

ومما ذكره القرآن في معرض الحديث عن أسباب الفساد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «من تدبر العالم والشرور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول، والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول، وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط، وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في

(١) في ظلال القرآن ٣/ ٧٥٣.

الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين»[1].

٣. الحكم بغير ما أنزل الله.

بين الله في كتابه الكريم وجود صنف من البشر إذا صار حاكمًا أفسد في الأرض بالظلم والقتل وفعل المعاصي والرشا وقطع الأرحام العامة والخاصة.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[محمد: ٢٢].

اختلف في معنى: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾.

فقيل: «هو من الولاية: قال أبو العالية رحمه الله: المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكامًا أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشا. وقال الكلبي رحمه الله: أي: فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. وقال ابن جريج رحمه الله: المعنى: فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام. وقال كعب رحمه الله: المعنى: فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضًا.

وقيل: من الإعراض عن الشيء: قال قتادة رحمه الله: أي: فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامكم». وقيل: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي: فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم»[2].

والمعنيان من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، وللجمع بينهما نقول: إن القرآن قد شمل كل ما يحتاجه الحاكم الصالح في إرساء دعائم الحكم الصالح.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[البقرة: ٢٠٥].

والمراد بـ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ صار واليًا له حكمٌ ينفذ وعملٌ يستبد به، وإفساده حينئذٍ يكون بالظلم مخرب العمران وآفة البلاد والعباد، وإهلاكه الحرث والنسل يكون إما بسفك الدماء والمصادرة في الأموال، وإما بقطع آمال العاملين من ثمرات أعمالهم وفوائد مكاسبهم. ومن انقطع أمله انقطع عمله، إلا الضروري الذي به حفظ الدماء، ولا حرث ولا نسل إلا بالعمل. وقد شرحت لنا حوادث الزمان وسير الظالمين هذه الآية فقرأنا وشاهدنا أن البلاد التي يفشو فيها الظلم تهلك زراعتها، وتتبعها ماشيتها، وتقل ذريتها، وهذا هو الفساد والهلاك الصوريان،

(١) الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه ١/ ٤٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٤٦.

ويفشو فيها الجهل، وتفسد الأخلاق، وتسوء الأعمال حتى لا يثق الأخ بأخيه، ولا يثق الابن بأبيه فيكون بأس الأمة بينها شديدًا ولكنها تذل وتخنع للمستعبدين لها. وهذا هو الفساد والهلاك المعنويان، وفي التاريخ الغابر والحاضر من الآيات والعبر، ما فيه ذكرى ومزدجرٌ[(١)].

ثالثًا: مجال الأخلاق:

١. اتباع الأهواء.

من الأسباب الرئيسة في فساد البشرية اتباع الهوى: فما من مجتمع ولا دولة تعرض عن شريعة الله التي اختارها عز وجل؛ لتحكم حياة البشر، إلا ويتبع أهواء الذين لا يعلمون، فهما طريقان لا ثالث لهما: إما اتباع شريعة الله؛ فيكون الإصلاح الشامل والحياة الطيبة، وإما اتباع أهواء الذين لا يعلمون؛ فيكون الفساد الشامل للأرض وما عليها.

قال الشاطبي رحمه الله المقصد الشرعي من وضع الشريعة: «إخراج المكلف عن داعية هواه؛ حتى يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد له اضطرارًا»[(٢)]، ويدلل على ذلك بأدلة منها:

الأول: النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله سبحانه وتعالى والدخول تحت أمره و نهيه[(٣)].

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يجتمع وضع الشريعة على وفق أهواء الناس مع عبادة الله تعالى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[المؤمنون: ٧١].

الثاني: ما دل على ذم مخالفة هذا القصد: من النهي أولًا عن مخالفة أمر الله، وذم من أعرض عن الله، وإيعادهم بالعذاب العاجل من العقوبات الخاصة بكل صنف من أصناف المخالفات، والعذاب الآجل في الدار الآخرة، وأصل ذلك اتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة، والشهوات الزائلة[(٤)].

الثالث: ما علم بالتجارب والعادات من أن المصالح الدينية والدنيوية لا تصلح مع الاسترسال في اتباع الهوى، والمشي مع الأغراض؛ لما يلزم في ذلك من التهارج والتقاتل والهلاك وهو مضاد لتلك المصالح، وهذا معروف عندهم بالتجارب والعادات المستمرة[(٥)].

ولحصول هذه الاختلافات الكثيرة اقتضى الأمر جعل المرء يسير تبع الشريعة

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١٩٩٩.
(٢) الموافقات، الشاطبي ٢/ ١٦٨.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٦٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٧٠.

لا تبع هواه؛ لأن الشريعة وضعت على وفق المصالح المطلقة، دون النظر إلى الأفراد موافقة أو مخالفة، وبذلك تنضبط الأمور وتسير[1].

ومما ذكره القرآن في معرض حديثه عن أسباب الفساد قوله تعالى في اتباع الأهواء: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[المؤمنون: ٧١].

أي: «لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك؛ لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، أي: لفساد أهوائهم واختلافها»[2].

«ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر وفساد الأخلاق، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض لفساد التصرف والتدبير، المبني على الظلم وعدم العدل؛ فالسموات والأرض ما استقامتا إلا بالحق و العدل»[3].

فالأهواء الفاسدة المختلفة لا يمكن أن يقوم عليها نظام السماء والأرض ومن فيهن، بل لو كانت هي المتبعة لفسد الجميع.

«فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة، وبالحق الواحد يدبر الكون كله، فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض، ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة، ولو خضع الكون للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع واختلت الموازين والمقاييس، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضا، والكره والبغض، والرغبة والرهبة، والنشاط والخمول، وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات.

وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم، لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد. ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره، جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءًا من الناموس الكوني تتولاه اليد التي تدبر الكون كله وتنسق أجزاءه جميعًا.

والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير؛ فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله، ويدبره في تناسق عجيب. بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد، إنما يخضع للحق الكلي، ولتدبير صاحب التدبير»[4].

٢. الطغيان.

ومن صور الفساد الرئيسة: الطغيان. فليس وراء الطغيان إلا الفساد.

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٥٦ بتصرف.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٤٥.

قال تعالى في معرض حديثه عن سبب فساد قوم عاد وثمود وفرعون: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾[الفجر: ٦-١٢] أي: تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس[(١)].

قال السعدي رحمه الله: «هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وآذوا عباد الله، في دينهم ودنياهم، وهو العمل بالكفر وشعبه، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله»[(٢)].

ومعنى طغيانهم في البلاد: أن كل أمة من هؤلاء طغوا في بلدهم، ولما كان بلدهم من جملة البلاد (أي: أراضي الأقوام) كان طغيانهم في بلدهم قد أوقع الطغيان في البلاد؛ لأن فساد البعض آيل بفساد الجميع بسن سنن السوء؛ ولذلك تسبب عليه ما فرع عنه من قوله: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾؛ لأن الطغيان يجرئ صاحبه على دحض حقوق الناس، فهو من جهة يكون قدوة سوء لأمثاله وزملائه، فكل واحد منهم يطغي على من هو دونه.

وذلك فساد عظيم؛ لأن به اختلال الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية الصالحة، وهو من جهة أخرى يثير الحفائظ والضغائن في المطغي عليه من الرعية، فيضمرون السوء للطاغين، وتنطوي نفوسهم على كراهية ولاة الأمور، وتربص الدوائر بها فيكونون لها أعداء غير مخلصي الضمائر، ويكون رجال الدولة متوجسين منهم خيفة فيظنون بهم السوء في كل حال، ويحذرونهم.

فتتوزع قوة الأمة على أفرادها عوضًا عن أن تتحد على أعدائها فتصبح للأمة أعداء في الخارج وأعداء في الداخل؛ وذلك يفضي إلى فساد عظيم، فلا جرم كان الطغيان سببًا لكثرة الفساد[(٣)].

فليس وراء الطغيان إلا الفساد؛ «فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء. كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة. ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال. إنه يجعل الطاغية أسير هواه؛ لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد ويتخذ له مكانًا في الأرض غير مكان العبد المستخلف وكذلك قال فرعون: ﴿أَنَا

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٩٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٢٣.
(٣) التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٨٤.

﴿رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد.

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحقد الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية. والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن، وتصبح مرتعًا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة، وميدانًا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك، وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد.

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة؛ لأنها خطر على الطغاة والطغيان. فلابد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات؛ كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة. وهو فساد أي فساد.

فلما أكثروا في الأرض الفساد، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد[1].

٣. المعاصي.

المعاصي سبب من أسباب الفساد في الأرض، والطاعات سبب من أسباب صلاح الأرض.

لقد نهى الصالحون من قوم موسى عليه السلام قارون عن العمل بالمعاصي، والتي منها إنفاق ماله في غير وجهه، وإمساكه عن وجهه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧] أي: لا تعمل فيها بمعاصي الله[2].

ومن صور الفساد بالمال: البغي والظلم، والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة، والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء، والفساد بالنقص في الثمار والزروع ومحق البركات من السماء والأرض.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]، أي: فشا الفساد، وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا بسبب المعاصي والذنوب.

وفساد البر: يكون بفقدان منافعه وحدوث مضاره، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي موتان الحيوان المنتفع به، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض.

وفساد البحر: كذلك يظهر في تعطيل

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٢٢.

منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان وغير ذلك، وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس.

ومن مظاهر الفساد بسبب المعاصي الحروب والغارات، بالجيوش والطائرات، والسفن الحربية والغواصات، بما كسبت أيدي الناس من الظلم وكثرة المطامع، وانتهاك الحرمات، وعدم مراقبة الخلاق، وطرح الأديان وراء ظهورهم، ونسيان يوم الحساب، وأطلقت النفوس من عقالها، وعاثت في الأرض فسادًا، إذ لا رقيب من وازع نفسي، ولا حسيب من دين يدفع عاديتها، ويمنع أذاها.

ومن مظاهر الفساد بسبب المعاصي: ما يحل بها من الخسف والزلازل، ويمحق بركتها، وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن لا يعلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح؛ لتأثير شؤم المعصية في الماء، روى مسلم بسنده عن نافعٍ أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أخبره: (أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة)[1].

والله سبحانه وتعالى يريد الصلاح في الأرض، وتطهيرها من الفساد والمفسدين.

٤ . جحود نعم الله.

من الأسباب الرئيسة في الفساد: جحود نعم المنعم إنكارًا باللسان، رغم اليقين بالجنان.

وجحود النعم يصدر من الفرد ويصدر من الأمة.

فمما حكاه القرآن الكريم عن الفرد ما حكاه عن قارون لما وعظه الصالحون من قومه رد عليهم قائلًا: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[القصص: ٧٧]. أي: إنما أعطيت هذه الكنوز بما عندي من العلم والقدرة.

فالآية دالة عن أن من أعظم الفساد جحود نعم الله، وإسناد الحصول عليها لعلم العبد وقدرته ونسيان المنعم الكريم، واستخدامها في البغي والظلم والقتل والصد عن سبيل الله، كما يحدث في الوقت المعاصر.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق؛ باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، رقم ٢٩٨١.

ومما حكاه القرآن عن جحود الأمم ما حكاه عن قوم موسى عليه السلام وهم نموذج لمن كذب الرسل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[النمل: ١٣-١٤]. أي: فلما جاءت فرعون وقومه أدلتنا الواضحة المنيرة الدالة على صدق الداعي أنكروها وقالوا: هذا سحر بين لائح يدل على مهارة فاعله وحذق صانعه، وكذبوا بها بألسنتهم وأنكروا دلالتها على صدقه وأنه رسول من ربه، لكنهم علموا في قرارة نفوسهم أنها حق من عنده، فخالفت ألسنتهم قلوبهم؛ ظلمًا للآيات، إذ حطوها عن مرتبتها العالية وسموها سحرًا؛ ترفعًا عن الإيمان بها[1].

فالآيتان تدلان على أن الجحود سبب للفساد.

وحكى القرآن عن قوم صالح عليه السلام حيث ذكرهم بنعم الله عليهم سواء كانت الخاصة أو العامة.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٧٤]، أي: فتذكروا نعم الله تعالى عليكم في ذلك كله واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة، واستعمالها فيما فيه صلاحكم، ولا تستبدلوا الكفر بالشكر فتعثوا في الأرض مفسدين. والمعنى: ولا تتصرفوا في هذه النعم تصرف عثيانٍ وكفرٍ بمخالفة ما يرضي الله فيها حال كونكم متصفين بالإفساد ثابتين عليه[2].

ومما ذكر صالح به قومه: أولًا: نعمًا خاصة وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم، وذكرهم بما اختصوا به من اتخاذ القصور من السهول ونحت الجبال بيوتًا. ثم ذكر نعمًا عامة بقوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ ومعنى ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أنزلكم بها وأسكنكم إياها.

فالحق لا يجحده الجاحدون؛ لأنهم لا يعرفونه، بل لأنهم يعرفونه. يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم؛ لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم، أو الخطر على أوضاعهم، أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم. فيقفون في وجهه مكابرين، وهو واضح مبين. وهذا ظلم لأنفسهم وظلم للناس؛ لأنهم حجبوا أنفسهم عن الحق الجلي الذي يقود النفوس إلى الصلاح والإصلاح، واستبدلوه بالفساد الذي حرم العباد من استنشاق عبير الحق، والتمتع بالأمن والسعادة في ظل الحرية التي يتيحها الإسلام وفق ضوابط الشريعة.

(١) تفسير المراغي ١٩/ ١٢٥.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٤٨.

رابعًا: الفساد في مجال العمل:

١. قتل النفس ظلمًا.

لقد كانت فعلة ابن آدم، وقتل أخيه ظلمًا وعدونًا، وسنه القتل لمن بعده، سببًا من أسباب الفساد في الأرض.

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[المائدة: ٣٢]. أي: بسبب جناية القتل هذه شرعنا لبني اسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض بأي نوع من أنواع الفساد، الموجب للقتل كالشرك والمحاربة فكأنما قتل الناس جميعًا فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله، وأنه من امتنع عن قتل نفس حرمها الله فكأنما أحيا الناس جميعًا؛ فالحفاظ على حرمة إنسان واحد حفاظ على حرمات الناس كلهم.

وقال سيد قطب رحمه الله: «من أجل وجود هذه النماذج في البشرية، من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شرًا ولا عدوانًا، ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر، وأن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس، جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعًا وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملًا عظيمًا يعدل إنقاذ الناس جميعًا، وكتبنا ذلك على بني إسرائيل فيما شرعنا لهم من الشريعة».

إن قتل نفس واحدة -في غير قصاص لقتل، وفي غير دفع فساد في الأرض- يعدل قتل الناس جميعًا؛

لأن حق الحياة واحد ثابت لكل نفس. فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته الحق الذي تشترك فيه كل النفوس. كذلك دفع القتل عن نفس، واستحياؤها بهذا الدفع -سواء كان بالدفاع عنها في حالة حياتها أو بالقصاص لها في حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل على نفس أخرى- هو استحياء للنفوس جميعًا؛ لأنه صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعًا[(١)].

وقد تحمل ابن آدم مثل وزر من يرتكب القتل من بعده؛ لأنه أول من سن القتل، روى مسلم بسنده عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٧٨.

وسلم: (لا تقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها لأنه كان أول من سن القتل)[1].

٢. ذبح الأبناء واستحياء النساء.

من صور الفساد الرئيسة ذبح الأبناء واستحياء النساء، وهذا الفعل يؤدي إلى الفساد؛ لأنه يؤدي إلى وقف نمو الجيل الذي آمن، مما يؤدي إلى انقراض المؤمنين المتمسكين بهذا الدين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[الأعراف: ١٢٧].

الملأ: الرؤساء سموا بذلك؛ لأنهم ملاءٌ بما يحتاج إليه، وقيل أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم[2].

«فالإفساد في الأرض -من وجهة نظرهم- هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده؛ حيث يترتب عليها تلقائيًا، بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله؛ إذ أن هذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون بأمره أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه، وإذن فهو -بزعمهم- الإفساد في الأرض بقلب نظام الحكم، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر، وإنشاء وضع آخر مخالف تمامًا لهذه الأوضاع الربوبية فيه لله لا للبشر، ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلهته التي يعبدها هو وقومه»[3].

ولما حرض الملأ فرعون على قتل موسى عليه السلام ومن آمن معه قال لهم فرعون: «سنقتل أبناء قومه تقتيلًا ما تناسلوا -فتعبيره بالتقتيل يدل على التكثير والتدريج- ونستبقي نساءهم أحياءً كما كنا نفعل من قبل ولادته؛ حتى ينقرضوا، وإنا فوقهم قاهرون، وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان»[4].

وهدف فرعون من قتل الأبناء وإبقاء النساء واستعمالهن في الخدمة، حتى لا يستطيع موسى عليه السلام من نشر دعوة رب العالمين بواسطة الرهط والشيعة الذين آمنوا معه؛ فلذلك عزم على تقليل رهطه وشيعته.

إنها طبيعة الطغيان وأساليبه في مواجهة أهل الحق في كل مكان وفي كل زمان. لا فرق بين وسائله اليوم ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام!.

٣. أكل مال اليتيم بغير حق.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات؛ باب بيان إثم من سن القتل، رقم ١٦٧٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ١/ ١٥٨.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٤.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٧٠.

أوصى الله المؤمنين باليتامى حتى ملكت عليهم نفوسهم، فتركتهم في حيرة وحرج من أمر القيام على اليتامى، واستغلال أموالهم؛ خوفًا من أن ينالهم شيء من الظلم، وتأثم الصحابة من مخالطة اليتامى، فكان بعضهم يأبى القيام على اليتيم، وبعضهم يعزل اليتيم عن عياله، فلا يخالطونه في شيء حتى إنهم كانوا يطبخون له وحده.

ثم فطنوا إلى ما في هذا من الحرج مع عدم المصلحة لليتيم، بل فيه مفسدة له في تربيته وضياع ماله، إلى ما في ذلك من الاحتقار والإهانة له، ومن ثم احتاجوا إلى السؤال عما يجمع بين المصلحتين: مصلحة اليتيم؛ ليعيش في بيت كافله عزيزًا كأحد عياله، ومصلحة الكافل فيسلم من أكل ماله بغير حق، فأجيبوا ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٢٠].

روى أبو داود بسنده، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾[النساء: ١٠]، انطلق من كان عنده يتيمٌ فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه[(١)].

«أي: قل لمن يسأل عن المصلحة في معاملة اليتامى من عزل أو مخالطة: إن كل ما فيه صلاح لهم فهو خير، فعليكم أن تصلحوا نفوسهم بالتربية والتهذيب، وأموالهم بالتنمية والتثمير، ولا تهملوا شئونهم فتفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم، ولا وجه للتأثم من مخالطتهم في المأكل والمشرب والكسب، فهم إخوانكم في الدين، ومن شأن الإخوة أن يكونوا خلطاء في الملك والمعاش، وفي ذلك منفعة لهم لا ضرر عليهم، إذ كل واحد منهم يسعى في خير الجميع، والمخالطة مبنية على المسامحة؛ لانتفاء مظنة الطمع، فيكون اليتيم في البيت كالأخ الصغير تراعى مصلحته، ويتحرى له رجحان كفته.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ أي: والله يعلم ما تضمره القلوب، وتميل إليه من قصد الإفساد أو الإصلاح في هذه المخالطة، وسيحاسبكم على الدقيق والجليل من الأمور، وإنما نبه القلوب إلى

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، رقم ٢٨٧٣.

ذكر علمه تعالى؛ لتلاحظ ذلك حين العمل، وترقب الجزاء على ما تعمل؛ حتى تأمن الزلل، وتبتعد عن مواطن الشبهة، فشهوة الطمع كثيرًا ما تسول للإنسان أكل مال اليتيم، كما تزين له أكل مال أخيه الضعيف ولا وازع ولا زاجر إلا تقوى الله، ومراقبته في السر والعلن.

فالله مطلع على ضمائركم عالم بما في قلوبكم، وهذا تهديد عظيم، والسبب أن اليتيم لا يمكنه رعاية الغبطة لنفسه، وليس له أحد يراعيها، فكأنه تعالى قال: لما لم يكن له أحد يتكفل بمصالحه فأنا ذلك المتكفل وأنا المطالب لوليه، وقيل: والله يعلم المصلح الذي يلي من أمر اليتيم ما يجوز له بسببه الانتفاع بماله، ويعلم المفسد الذي لا يلي من إصلاح أمر اليتيم ما يجوز له بسببه الانتفاع بماله، فاتقوا أن تتناولوا من مال اليتيم شيئًا من غير إصلاح منكم لمالهم»[1].

واليوم نرى بعضًا من الأوصياء على الأيتام يظهرون العفة والزهد في أكل أموالهم، وهم يلتهمونها التهامًا، فتراهم بعد قليل أصبحوا من ذوى الثراء، وأجرهم المفروض ليس فيه الغناء، فلا نرى منهم إلا الفساد والإفساد، دون مراقبة لله في أعمالهم، ومراجعة نفوسهم في أفعالهم، غير ناظرين إلى الوعيد الشديد الذي تقشعر الجلود. ويبدأ بالمفسد أولًا؛ ليقع الإمساك عن الإفساد.

وفي الآيات دليل على:

١. جواز أنواع المخالطات، في المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة، لطف من الله سبحانه وتعالى وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وقد اكتنف هذه المخالطة الإصلاح قبل وبعد، فقبل، بقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. وبعد بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ فالأولى أن يراد بالمخالطة ما فيه إصلاح لليتيم بأي طريق كان.

٢. النظر في مصالح الأيتام من أهم مقاصد الشريعة.

٣. ليس من المصلحة أن يعرض الناس عن النظر في أموال اليتامى اتقاء لألسنة السوء، وتهمة الظن بالإثم، فلو تمالأ الناس على ذلك وقاية لأعراضهم لضاع اليتامى، وليس هذا من شأن المسلمين.

٤. لما أذن الله عز وجل في مخالطة الأيتام مع قصد الإصلاح بالنظر إليهم وفيهم، كان ذلك دليلًا على جواز التصرف في مال اليتيم تصرف الوصي في البيع، والقسمة، وغير ذلك على الإطلاق لهذه الآية.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٦.

٤. إهلاك الحرث والنسل.

من صور الفساد إهلاك الحرث والنسل؛ لأن بهما عمارة الكون وتحقيق خلافة الله في الأرض، وإهلاكهما سبب في تعطيل حكمة الله في الكون، والله لا يحب من هذا صفته وهذا فعله.

والحرث: إلقاء البذر في الأرض وتهيؤها للزرع، والنساء زرع ما فيه بقاء نوع الإنسان، كما أن بالأرض زرع ما به بقاء أشخاصهم[١].

والنسل: الولد؛ لكونه ناسلًا عن أبيه. قال تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وتناسلوا: توالدوا[٢].

ومما ذكره الله في ذكر أسباب الفساد قوله تعالى في صفة المنافق: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[البقرة: ٢٠٥].

قال مجاهد رحمه الله: «إذا سعى في الأرض إفسادًا منع الله القطر، فهلك الحرث والنسل. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك»[٣].

وقال سيد قطب رحمه الله: «هذا الذي يتناقض ظاهره وباطنه ويتنافر مظهره ومخبره، هذا الذي يتقن الكذب والتمويه والدهان حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء، وانكشف المستور، وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغي والحقد والفساد، وإذا انصرف إلى العمل كانت وجهته الشر والفساد في قسوة وجفوة ولدد تتمثل في إهلاك كل حي من الحرث الذي هو موضع الزرع والإنبات والأثمار، ومن النسل الذي هو امتداد الحياة بالأنسال، وإهلاك الحياة على هذا النحو كناية عما يعتمل في كيان هذا المخلوق النكد من الحقد والشر والغدر والفساد مما كان يستره بذلاقة اللسان ونعومة الدهان والتظاهر بالخير والبر والسماحة والصلاح ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ولا يحب المفسدين الذين ينشئون في الأرض الفساد والله لا تخفى عليه حقيقة هذا الصنف من الناس، ولا يجوز عليه الدهان والطلاء الذي قد يجوز على الناس في الحياة الدنيا فلا يعجبه من هذا الصنف النكد ما يعجب الناس الذين تخدعهم الظواهر وتخفى عليهم السرائر.

إن هذا النموذج تراه حيًا يتحرك، تقول في غير تردد: هذا هو، هذا هو الذي عناه القرآن، وأنت تراه أمامك ماثلًا في الأرض الآن وفي كل آن»[٤].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٢٦.
(٢) المصدر السابق ص ٨٠٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٢٥٤.
(٤) في ظلال القرآن، ١/ ١٩٨-١٩٩. باختصار.

الأساليب القرآنية في محاربة الفساد

تنوعت الأساليب القرآنية في محاربة الفساد، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: النهي عن الفساد وإنكاره:

يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وسائل دفع الفساد داخل المجتمع، وإذا خلا منه مجتمع عم الفساد، وانتشرت المنكرات، وعم الله المجتمع بالعذاب والهلاك.

ولذلك اهتم القرآن الكريم بهذه القضية، بل جعلها من أهم سمات الخيرية في الأمة الإسلامية.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠].

ومما ذكره القرآن في معرض الحديث عن مقاومة الفساد قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[هود: ١١٦].

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «جاءت هذه الآية بعد بيان إهلاك الأمم بظلمهم وفسادهم في الأرض للإعلام بأنه لو كان منهم جماعات وأحزاب أولي بقية من الأخلاق والفضائل والقوة في الحق ينهونهم عن ذلك لما فشا فيهم وأفسدهم، وإذن لما هلكوا، فإن الصالحين المصلحين في الأرض هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من الهلاك ما داموا يطاعون فيها بحسب سنة الله.

كما أن الأطباء هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من فشو الأمراض والأوبئة فيها، ما دامت الجماهير تطيعهم فيما يأمرون به من أسباب الوقاية قبل حدوث المرض، أو من وسائل العلاج والتداوي بعده، فإذا لم يمتثل الجمهور لأمرهم ونهيهم فعل الفساد فعله فيهم، والله لا يحفظ الأمم لذوات الصالحين، وبركة أجسادهم، ولا بعبادتهم الشخصية العائد نفعها عليهم، بل بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وطاعة الأمة لهم»[(١)].

وقد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرًا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته[(٢)].

«فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله في صورة من الصور فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٨١.

بالعذاب والتدمير، أما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال والاختلال.

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره عز وجل، هم صمام الأمان للأمم والشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صورة، فهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع»[1].

وأمر شعيب عليه السلام قومه بعدم العيث في الأرض مفسدين، وتكرر هذا الأمر في القرآن في ثلاث آيات؛ لأنهم كانوا من أشد الأمم فسادًا في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[الشعراء: ١٨٣].

وقال عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

بخس: البخس النقص بخسه حقه يبخسه بخسًا إذا نقصه، والبخس من الظلم[2].

«نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد وهو السعي فيها والبغي على أهلها وذلك أنهم: كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله»[3].

وبينت الآية: «أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض»[4].

ولما نهاهم شعيب عن ذلك قالوا له في استهزاء: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[هود: ٨٧].

وفي هذه الآية ربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء، وبين العقيدة؛ للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشريعة، وبين العبادة والمعاملة، في أنها كلها من مقومات هذا الدين، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٤٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٧٤.

وقد أمرهم شعيب عليه السلام بثلاثة أمور:

أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر.

وثالثها: صلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا يفسدوا في الأرض.

ووسط بينهما الثاني: وهو شيء من صلاح العمل خص بالنهي؛ لأن إقدامهم عليه كان فاشيًا فيهم حتى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان، فابتدأ بالأمر بالتوحيد؛ لأنه أصل الصلاح، ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم وهي خيانة المكيال والميزان، وهي مفسدة عظيمة؛ لأنها تجمع خصلتي السرقة والغدر[1].

وهذا المنهج ينبغي أن يقتدي به المصلحون في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ثانيًا: سنة التدافع:

إن الذين يطمعون في الإصلاح ودرء الفساد عن الأمة بدون الأخذ بسنة التدافع إنما يخالفون منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، وإن الذين يؤثرون السلامة والخوف من عناء مدافعة الفساد وأهله، يقعون في مشقة أعظم وعناء أكبر يقاسونه في دينهم، وأنفسهم وأعراضهم، وأموالهم وهذه ضريبة القعود عن مدافعة الفساد، وإيثار الحياة الدنيا.

قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١].

وقال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠].

هاتان الآيتان دستور التدافع بين الحق والباطل، وهما يكشفان عن حكمة الله عز وجل العليا في الأرض من تدافع القوى وتنافس الطاقات، وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار، وهنا تكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات، ومن ورائها تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعًا، وتقود الركب المتزاحم المتصارع المتسابق، إلى الخير والصلاح والنماء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ﴾ العدو بجنود المسلمين، لغلب المشركون، فقتلوا المؤمنين، وخربوا البلاد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢١٣.

والمساجد»[1].

قال الطبري رحمه الله: «ولولا أن الله يدفع ببعض الناس وهم أهل الطاعة له والإيمان به، بعضًا وهم أهل المعصية له، والشرك به لفسدت الأرض، بمعنى: لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم، ففسدت بذلك الأرض، ولكن الله تعالى ذو منٍ على خلقه، وطولٍ عليهم بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم»[2].

«لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها تعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة؛ لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب، وتتدافع، تنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة.

وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء، يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة، تعرف الحق الذي بينه الله لها، وتعرف طريقها إليه واضحًا، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض، وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه، وهنا يمضي الله أمره، وينفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه، وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة الواثقة بالله تغلب في النهاية، وتنتصر؛ ذلك بأنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح في الحياة، إنها تنتصر؛ لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار»[3].

ويدفع الله عز وجل «شر الطائفتين بخيرهما، كما دفع المجوس بالروم النصارى، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١]»[4].

«ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١١٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٠٣.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٦٤- ٢٦٥.
(٤) الجواب الصحيح، ابن تيمية ٢/ ٢١٦.

الأرض»[1].

ثالثًا: الكشف عن عمل المفسدين:

كشف الله سبحانه وتعالى عن المفسدين في كتابه الكريم؛ لأنه عليم بهم.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[آل عمران: ٦٣].

وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٤٠].

وممن كشف الله سبحانه وتعالى عنهم للمؤمنين اليهود وعملهم بالفساد، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤].

فكشف الله سبحانه وتعالى للمؤمنين عن سجايا اليهود حتى يكونوا على بينة منهم، فمن طبيعتهم وأخلاقهم وأعمالهم أنهم كلما عقدوا أسبابًا يكيدون بها للإسلام وأهله، وكلما أبرموا أمورًا يحاربون بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحيق مكرهم السيئ بهم، ومن سجيتهم أنهم -دائمًا- يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته، «وعلة عدم محبة الله سبحانه وتعالى لهم أنهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم، ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش»[2].

وإيقاد نيران الحرب والفتن والقتال بمحاولة منع اجتماع كلمة العرب، وخروجهم من الأمية إلى العلم، ومن الوثنية إلى التوحيد، وبالكيد للمؤمنين، وتشكيكهم في الدين؛ حسدًا لهم، وحبًا في دوام امتيازهم عليهم، والله لا يحب المفسدين في الأرض، فلا يصلح عملهم، ولا ينجح سعيهم؛ لأنهم مضادون لحكمته في صلاح الناس وعمران البلاد[3].

وإذا رأينا اليوم اليهودية العالمية توقد نار الحرب على البلاد الإسلامية، وتسعى في الأرض فسادًا وتفلح! فينبغي ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان، ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة. فمفتاح الموقف كله في وجود العصبة المؤمنة، التي يتحقق لها وعد الله. فأين هي العصبة المؤمنة اليوم، التي تتلقى وعد الله، وتقف ستارًا لقدر الله، ويحقق الله بها في الأرض ما يشاء؟

ويوم تفيء الأمة المسلمة إلى الإسلام، تؤمن به على حقيقته، وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته،

يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله. واليهود يعرفون هذا، ومن ثم يسلطون كل ما في جعبتهم من شر وكيد، ويصبون كل

(١) الكشاف ١/ ١٤٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٣١٩.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٨٠.

ما في أيديهم من بطش وفتك، على طلائع البعث الإسلامي في كل شبر من الأرض، ويضربون -لا بأيديهم ولكن بأيدي عملائهم- ضربات وحشية منكرة، لا ترعى في العصبة المؤمنة إلًا ولا ذمة. ولكن الله غالب على أمره. ووعد الله لابد أن يتحقق.

إن هذا الشر والفساد الذي تمثله يهود، لابد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه، فالله لا يحب الفساد في الأرض، وما لا يحبه الله لابد أن يبعث عليه من عباده من يزيله[1].

وإنا لنرى بفضل الله سبحانه وتعالى هذه العصبة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، تنمو وتزداد وتقوى شوكتها، وهي -بإذن الله- الأمل بعد رعاية الله وحفظه لها في القضاء على اليهود، وتطهير الأرض منهم، ومن فسادهم ومن أمثالهم، فنسأل الله لهم العون والتأييد.

وفي معرض حديث القرآن عن المنافقين، واعتقادهم الباطل أنهم مصلحون، أخبر الله عنهم أنهم هم المفسدون، وأعلم المؤمنين أن المنافقين مفسدون.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة: ١١-١٢].

فقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ إثبات لفسادهم وفضح لسعيهم؛ لأن الكفر فساد في الأرض؛ إذ فيه كفران نعمة الله، وإقدام كل أحد على ما يهواه؛ لأنه إذا كان لا يعتقد وجود الإله ولا يرجو ثوابًا ولا عقابًا تهارج الناس، ومن هذا ثبت أن النفاق فساد.

ودخول أداة الاستفتاح (ألا) على الجملة تنبه السامعين على الاهتمام بالخبر وإشاعته وإعلانه.

فوجب على المصلحين كشف فساد المنافقين وإعلانه وإشاعته بين الناس؛ حتى يأخذوا حذرهم، ولا يفتنوا بحلو كلامهم، ويعاملوهم معاملة العدو المتربص، كما قال الله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[المنافقون: ٤].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٣٠.

عاقبة المفسدين

إن سنة الله عز وجل في الأفراد والجماعات قد مضت بأن يذوق المفسدون سوء عاقبة فسادهم.

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الحشر: ١٥]، أي: ذاقوا سوء أعمالهم. فالفرد إذا أفسد وظهر عليه آثار الفساد، ولم ينزل به العقاب الإلهي عقب فساده، فإنه يزداد غيًا وفسادًا، ولا يحسب للعواقب حسابًا، فيسترسل في ظلمه وفساده إلى أن يحيق به عذاب الله الشديد.

ولقد أمرنا الله عز وجل أن ننظر لتأمل عاقبة المفسدين، وما حل بهم من الخزي والنكال، وأيضًا وجه أنظار وعقول المفسدين؛ ليعتبروا بما حدث للمفسدين من الأمم السابقة؛ حتى يكون رادعًا لهم عن العصيان والفساد.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[النمل: ١٤].

فالخطاب في الآيتين تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ولمن بعده وسار على نهجه «بما حل بالمكذبين بالرسل»[(١)] من عاقبة أمرهم: «إذ نصر عبده ورسوله موسى عليه السلام عليهم، وهو فرد من شعب مستضعف مستعبد لهم، وهم أعظم أهل الأرض دولة وصولة وقوة، نصره عليهم: بإبطال سحرهم، وإقناع علمائهم، وسحرتهم بصحة رسالته و كون آياته من الله، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد، ثم بإنقاذ قومه، وإغراق فرعون، ومن اتبعه من ملئه و جنوده.

وهذه عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدة الدهر، على القائلين إنما الغلب للقوة المادية على الحق، ولاسيما المغرورين بعظمة دول -أمريكا وبريطانيا وأوربا وإسرائيل- الظالمة لمن استضعفتهم من أهل الشرق، وعلى أولئك الباغين بالأولى، فأولى لهم أولى، ثم أولى لهم أولى!»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

والخطاب في هذه للمفسدين أي: «وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٠٦٠.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٤٠.

حين عتوا على ربهم، وعصوا رسله من المثلات، والنقمات، وكيف وجدوا عقبى عصيانهم إياه»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ المقصود منها أنهم إذا تذكروا نعم الله عليهم انقادوا وأطاعوا، وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ المقصود منها: «إنهم إذا عرفوا عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الخزي والنكال، احترزوا عن الفساد والعصيان وأطاعوا، فكان المقصود من هذين الكلامين حملهم على الطاعة بطريق الترغيب أولًا والترهيب ثانيًا»[2].

فالقرآن الكريم يدعو المسلمين إلى دراسة سنن الله في الأرض من أجل أن: «يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعًا في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق»[3].

ولقد أخذ الله الأمم المفسدة بذنوبهم، واختلفت سوء العاقبة بحسب عظمة الذنب، فكلما كان الذنب عظيمًا كان العقاب عظيمًا، وكلما خف الذنب خف العقاب.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فأخذ عز وجل هذه الأمم بالإتلاف والإهلاك؛ لأنهم من أشد الأمم فسادًا في الأرض، فالحاصب ما أصاب عادًا، والذين أخذتهم الصيحة هم ثمود، والذين خسفت بهم الأرض قارون وأهله، والذين أغرقهم: فرعون وهامان ومن معهما من قومهما.

فالفساد له عواقب دنيوية، وأخروية، وهذا بيانها:

أولًا: العواقب الدنيوية:

١. حرمان التأييد الإلهي.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

«ليس المراد بعدم إصلاح عملهم

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٤٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٨٣.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٧٢.

عدم جعل فسادهم صلاحًا، بل عدم إثباته وإتمامه، أي: «لا يثبته، ولا يكمله، ولا يديمه، بل يمحقه ويهلكه، ويسلط عليه الدمار»[(١)].

قال الألوسي رحمه الله: «المراد بعدم إصلاح ذلك عدم تقويته بالتأييد الإلهي»[(٢)].

٢. التدمير والهلاك.

أخبر الله عن التسعة رهط المفسدين من قوم صالح ومكرهم بنبيهم وتبيتهم لقتله، وسوء عاقبتهم.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٤٨-٥١]. فالله دمر التسعة الرهط، ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك، ولم يشذ منهم أحد، ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم.

٣. الإصابة بالآفات والعلل.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال ابن القيم رحمه الله: «لم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام والأمراض والأسقام والطواعين، والقحوط والجدوب، وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها، وسلب منافعها أو نقصانها أمورًا متتابعة يتلو بعضها بعضًا، فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ونزل هذه الآية على أحوال العالم وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان؟ وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض؟ وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم، ومياههم، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم، وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم»[(٣)].

٤. الإبعاد من الرحمة، وسوء العاقبة والمآل.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٧٠.
(٢) روح المعاني ١١/ ١٦٧.
(٣) زاد المعاد ٤/ ٣٢٦.

بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]. أي: البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين، والجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

٥. الخسران.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]. فحصر الخسارة فيهم؛ لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له.

٦. إقامة حد الحرابة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «روى الشافعي رحمه الله في سننه، عن ابن عباس رضي الله عنه في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال، قتلوا وصلبوا. وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال، قتلوا ولم يصلبوا. وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا، قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف. وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالًا نفوا من الأرض، وهذا قول كثير من أهل العلم.

فمن كان من المحاربين قد قتل فإنه يقتله الإمام حدًا، ولا يجوز العفو عنه بحال بإجماع العلماء، ولا يكون أمره إلى ورثة المقتول، بخلاف ما لو قتل رجلٌ رجلًا لعداوة بينهما أو خصومة أو نحو ذلك من الأسباب الخاصة، فإن هذا دمه لأولياء المقتول إن أحبوا قتلوا، وإن أحبوا عفوا، وإن أحبوا أخذوا الدية؛ لأنه قتله لغرض خاص. وأما المحاربون فإنما يقتلون لأخذ أموال الناس، فضررهم عام بمنزلة السراق، فكان قتلهم حد الله، وهذا متفق عليه بين الفقهاء»[(١)].

«فالمنهج الرباني لا يأخذ الناس بالقانون وحده. إنما يرفع سيف القانون ويصلته؛ ليرتدع من لا يردعه إلا السيف. فأما اعتماده الأول فعلى تربية القلب، وتقويم الطبع، وهداية الروح، ذلك إلى جانب إقامة المجتمع الذي تنمو فيه بذرة الخير وتزكو، وتذبل فيه نبتة الشر وتذوي»[(٢)].

ودلت الآية على أمرين: أحدهما: التخيير في جزاء المحاربين، والأمر الثاني: أن هذه

(١) السياسة الشرعية، ابن تيمية ١/ ١٠٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٨١.

العقوبات هي لأجل الحرابة، وليست لأجل حقوق الأفراد من الناس، ولذلك فلو أسقط المعتدى عليهم حقوقهم لم يسقط عن المحارب عقوبة الحرابة.

ثانيًا: عاقبة الأقوام المفسدين في الآخرة:

١. حرمان النعيم الأخروي.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

قال الطبري رحمه الله: «تلك الدار الآخرة يجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرًا عن الحق في الأرض وتجبرًا عنه، ولا ظلم الناس بغير حق، وعملًا بمعاصي الله فيها»[(١)].

وإن حصل لهم بعض القهر والراحة فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب، وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم فيها حظ[(٢)].

وقال سيد قطب رحمه الله: «فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها. إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم؛ ليملأها النور بالله، ومنهجه في الحياة، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابًا، ولا يبغون فيها كذلك فسادًا. أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة، تلك الدار العالية السامية»[(٣)].

٢. الزيادة في العذاب.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

«قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل، وبعضها في النهار»[(٤)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «هذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في درجاتهم في الجنة ودرجاتها كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]»[(٥)].

وقال سيد قطب رحمه الله: «فالكفر فساد، والتكفير فساد، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم، وجريمة صد غيرهم عن الهدى،

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١١٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٩.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣.
(٥) المصدر السابق.

فضوعف لهم العذاب جزاء وفاقًا»[1].

فإذا قيل: إنا نرى المفسد الظالم الباغي قد يزداد في دنياه مالًا وولدًا، ويتمتع بصنوف اللذات، من الدور والقصور، والفراش الوثير، والسكن في الجنات، ويركب فاره الخيول المطهمة والمراكب الفاخرة، ويشار إليه بالبنان، بينا نرى المطيع لربه، المظلوم من بنى جنسه قد يعيش عيش الكفاف، ولا يجد ما يقيم به أوده، ويسد به مخمصته، أفيكون من حكمة الحكيم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة أن يترك الناس سدى يفعلون ما شاءوا بلا حساب ولا عقاب، أو ينتصف للمظلوم من الظالم ويرجع الحق إلى صاحبه، وربما لا يحصل هذا في الدنيا؟!

الجواب: لابد من دار أخرى يكون فيها العدل والإنصاف، والكيل بالقسط والميزان، وتلك هي الدار التي وعد بها الرحمن، على ألسنة رسله الكرام، صدق ربنا، وإن وعده الحق، وإن هذا اليوم آت لاشك فيه؛ لتجزى كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم[2].

موضوعات ذات صلة:

الإصلاح، التغيير، الدفع، الصلاح

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٨.
(٢) تفسير المراغي ٢٣/ ١٠٥.

الفِطْرَة

عناصر الموضوع

مفهوم الفطرة	٣٢٨
الفطرة في الاستعمال القرآني	٣٢٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٣٠
الله تعالى فاطر الموجودات	٣٣٢
الفطرة والإيمان بالله	٣٣٧
الانحراف عن الفطرة	٣٤٤
الاستقامة على الفطرة	٣٥٤

مفهوم الفطرة

أولًا: المعنى اللغوي:

يدل أصل مادة (فطر) على فتح شيء وإبرازه، من ذلك الفطر من الصوم. يقال: أفطر إفطارًا. وقومٌ فطرٌ أي مفطرون. ومنه الفطر، بفتح الفاء، وهو مصدر فطرت الشاة فطرًا، إذا حلبتها[(١)].

والفطرة: الاستقامة على التوحيد[(٢)].

وفطر: اخترع وأنشأ[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الفطرة: «الجبلة المتهيئة لقبول الدين» [(٤)].

وقيل: «الخلقة؛ لأن من معاني الفطرة الخلقة [(٥)]، التي خلق الله عباده عليها وجعلهم مفطورين عليها: على محبة الخير وإيثاره، وكراهية الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله، والتقرب إليه» [(٦)].

قال النبي صلى الله عليه وسلم [(٧)]: (ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠])[(٨)].

وولادة المولود في سياق هذا الخطاب النبوي يكون معناها «أي على الجبلة القابلة لدين الحق»[(٩)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥١٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٦/ ٢٥٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٩٥.
(٤) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني ص ١٦٨.
(٥) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار ٣/ ٤٦.
(٦) بهجة قلوب الأبرار، السعدي ص ٥٩.
(٧) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٣/ ٣١٠.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨.
(٩) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٢٠٠.

الفطرة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فطر) في القرآن الكريم (١٩) مرة، ويخص موضوع البحث منها (١٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام:٧٩]
اسم الفاعل	٦	﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٤]
المصدر	١	﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]

ووردت الفطرة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: إيجاده الشيء وإبداعه[٢]. ولم تخرج في الاستعمال القرآني عن معناها اللغوي.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الفاء، ص٨٨٠-٨٨١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٦٤٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ النشأة:

النشأة لغة:

أصل مادة (نشأ) يدل على ارتفاعٍ في شيءٍ وسموٍ. ونشأ السحاب: ارتفع. وأنشأه الله: رفعه[١]، ويقال: «أنشأه الله: خلقه. وأنشأ الله الخلق أي: ابتدأ خلقهم[٢].

النشأة اصطلاحًا:

الدلالة الاصطلاحية لمصطلح الإنشاء هي (الابتكار).

الصلة بين النشأة والفطرة:

دلالة مصطلح النشأة على الابتكار لها صلة بإحدى معاني الفطرة وهي (الإبداع)؛ لأن الله عز وجل ينشأ الفطرة في الإنسان ويبدعها من العدم.

٢ الغريزة:

الغريزة لغة:

أصل مادة (غرز) على الإدخال والقرب والحبس [٣]. وأقرب المعاني اللغوية لدلالة لفظة (الغريزة) اصطلاحًا نفسيًا هو معنى (الحبس) فكأن الغريزة محبوسة في الإنسان كحبس اللبن في جسم الناقة فغرز ولم يخرج.

الغريزة اصطلاحًا:

«سجية، فطرة، طبيعة من خير أو شرٍ تصدر عنها صفات ذاتية»انقاد لغريزته- مكافحة الغرائز البهيمية» [٤]، «هي ملكة تصدر عنها صفات ذاتية» [٥] ومن معانيها الطبيعة [٦].

الصلة بين الغريزة والفطرة:

الغريزة أخص من الفطرة فبينهما عموم وخصوص، فالغريزة إحدى جوانب الفطرة.

---

(١) انظر: قاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٢٨ - ٤٢٩.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٧٠.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤١٦.
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٦٠٧.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٦٧١.
(٦) انظر: شمس العلوم، الحميرى ٨/ ٤٩٣١.

٣ الجبلة:

الجبلة لغة:

الفطرة. جبل الله عز وجل الخلق يجبلهم ويجبلهم. وهذه جبلة فلان أي خليقته التي خلق عليها «[١]، «وجبلة الوجه: بشرته» [٢].

الجبلة اصطلاحًا:

إن الجبلة تعني الخلق [٣] و«الجبلة: الطبيعة والخلقة المركوزة في أصل الخلقة» [٤].

الصلة بين الجبلة والفطرة:

الجبلة تعطي معنى من معاني الفطرة (الخلقة).

(١) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٢٦٩.
(٢) العين، الفراهيدي ٦/ ١٣٦.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص ٣٥٨.
(٤) معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي ١/ ١٦٠.

الله تعالى فاطر الموجودات

إن من أهم ركائز الفطرة الصحيحة الإيمان بالله جل وعلا الفاطر أي فاطر الموجودات كيف لا وهو مبدعها صغيرها وكبيرها، ومن أسمائه (الفاطر)، وهو فاطر أعظم شيئين في الكون وهما السموات والأرض، وهو فاطر الخلق؛ لكن بعض الناس جحدوا فطرة الله سبحانه وتعالى وراحوا يؤلفون مناهج أرضية إنسانية قاصرة بحجة أن الله عاجز عن تدبير شؤون خلقه، فحول ملاحدة الشيوعية الشهادة لله بالوحدانية إلى ضلالة.

فبدلوا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بكلمة أخرى وهي (لا إله والكون مادة)، هذا بالنسبة للشيوعية، وأما بالنسبة لمتزعمي الرأسمالية في أمريكا وأوربا فإنهم مشركون ووثنيون: يعتقدون بآلهة ثلاثة: «الأب والإبن و روح القدس»، ويقدسون الصليب، وعبدوا المادة التي خلقها الله فضلوا وأضلوا، سنتناول في جو هذا المبحث المحاور التي ذكرناها وهي (اسم الله الفاطر ودلالته، والله فاطر السموات والأرض، والله فاطر الخلق).

أولًا: اسم الله الفاطر ودلالته:

ودليله قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١].

وتعني لفظة «الفاطر: الخالق، المنشئ للخلق»[(١)].

فأغلب مواضع لفظة (فاطر) في القرآن الكريم تعني الخالق[(٢)].

وهي «المخترع المبتدي، وسوق هذه الصفة احتجاج على الشاكين يبين التوبيخ، أي أيشك فيمن هذه صفته؟ فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك»[(٣)].

وأما اشتقاقه «فاشتقاقه من الفطر وهو الشق، ويشبه أن يكون معناه هو الإحداث دفعةً»[(٤)].

ودلالة «كونه فاطرًا فهو عبارةٌ عن الإيجاد والابداع، فكونه تعالى خالقًا إشارةٌ إلى صفة العلم، وكونه فاطرًا إشارةٌ إلى صفة القدرة»[(٥)].

«فثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكل ما سواه من الموجودات»[(٦)].

و«أن لفظ الفاطر قد يظن أنه عبارةٌ عن تكوين الشيء عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذي ذكرناه، إلا أن الحق أنه لا

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٩١.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٦٧٤.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ١٢٧.
(٥) المصدر السابق ١٢/ ٤٧٤.
(٦) المصدر السابق ١٢/ ٤٩٢.

يدل عليه ويدل عليه وجوهٌ:

أحدها: أنه قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

ثم بين تعالى أنه إنما خلقها من الدخان حيث قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١].

فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشيء من العدم المحض.

وثانيها: أنه قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

مع أنه تعالى إنما خلق الناس من التراب. قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

وثالثها: أن الشيء إنما يكون حاصلًا عند حصول مادته وصورته مثل الكوز، فإنه إنما يكون موجودًا إذا صارت المادة المخصوصة موصوفةً بالصفة المخصوصة، فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجودًا، وبإيجاد تلك الصورة صار موجدًا لذلك الكوز فعلمنا أن كونه موجدًا للكون لا يقتضي كونه موجدًا لمادة الكوز، فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجدًا للأجزاء التي منها تركبت السموات والأرض، وإنما صار إلينا كونه تعالى موجدًا لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن»[1].

وقال آخرون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة) يعني البدأة التي ابتدأهم عليها يريد أنه مولود على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ من قبولهم عن آبائهم اعتقادهم. قالوا والفطرة في كلام العرب البداءة والفاطر المبدئ والمبتدئ، فكأنه قال: صلى الله عليه وسلم يولد على ما ابتدأه الله عليه من الشقاء والسعادة وغير ذلك مما يصير إليه وقد فطره عليه واحتجوا بقوله تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩ - ٣٠].

وروى بإسناده إلى ابن عباس قال: لم أدر ما فاطر السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي: ابتدأتها[2] «وكونه تعالى هو الفاطر للموجودات يستحق إفراده بالعبادة و﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توقيفٌ على استحالة الألوهية لغير الفاطر»[3].

وقال تعالى على لسان الرجل الذي جاء من أقصا المدينة يدعوهم: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس: ٢٢].

«أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع

(١) المصدر السابق ١٨/ ٥١٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٨/ ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٦٦.

إليهم؛ لأن الفطرة أثر النعمة فكانت عليه أظهر، وفي الرجوع معنى الزجر فكان بهم أليق»[1].

ثانيًا: الله تعالى فاطر السماء والأرض:

من خلال البحث في القرآن الكريم لغرض معرفة مواضع ورود لفظ ﴿فَاطِرِ﴾ مقترنًا بلفظي ﴿السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ نجده في عدة مواضع ترد في سياق بيان القدرة الباهرة لله عز وجل من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤].

وفاطر السماوات أي: «مبتدئهما»[2]، و«يعني خلقكم خالق السموات والأرض»[3].

كذلك نجد موضعًا آخر في سياق سورة يوسف عليه السلام لبيان النعم الإلهية في قوله - جل وعلا: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

(١) السراج المنير، الشربيني ٣/ ٣٤٥.
(٢) غريب القرآن، ابن قتيبة ص١٥١.
(٣) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، الملطي ص ٧٣.

وقال تعالى: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١].

«يعني أنه بدأ خلقها فقوله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة) يعني على تلك البداية التي ابتدأ الله - عز وجل خلقه بها، وأخذ مواثيقهم عليها من الاقرار له بالربوبية، ثم يعرب عنه لسانه بما يلقنه أبواه من الشرائع والأديان، فيعرب بها، وينسب إليها»[4].

وفطر السموات والارض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها، فذكر كونه فاطر السموات والارض، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له، فذكر علمه سبحانه وتعالى بالغيب والشهادة، وإن من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه، وهو بمنزلة التوسل إلى الغني بغناه

(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ابن بطة العكبري ٢/ ٧٢.

وسعة كرمه أن يعطي عبده شيئا من ماله»[1]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

ثالثًا: الله تعالى فاطر الخلق:

إن الإنسان بكل إدراكاته الحسية والعقلية يؤمن بأن له خالقًا عظيمًا بالفطرة، فالله تبارك وتعالى - فاطر الخلق، وقد وردت عدة آيات كريمات بهذا الخصوص تبين بأن الله سبحانه وتعالى هو فاطر الخلق. وهاهنا وضمن هذا السياق يعني مفهوم الفطرة: (البداية)؛ فالله هو الذي يبدئ الأشياء بدلالة قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس: ٣٤].

«وهذا مقام تقرير وتعديد الاستدلال، وهو من دواعي التكرير وهو احتجاج عليهم بأن حال آلهتهم على الضد من صفات الله تعالى؛ فبعد أن أقام عليهم الدليل على انفراد الله تعالى بالرزق وخلق الحواس وخلق الأجناس وتدبير جميع الأمور، وأنه المستحق للإلهية بسبب ذلك الانفراد، بين هنا أن آلهتهم مسلوبة من صفات الكمال، وأن الله متصف بها»[2]؛ فهو قادر على إعادتهم لأنه هو الفاطر المبدع[3].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦].

ونجد بأن «المعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى ﴿شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك، وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلق الله تعالى، واستحقوا بذلك العبادة كما استحقها سبحانه؛ ليكون ذلك منشأ لخطئهم، بل إنما جعلوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلًا عما يقدر عليه الخالق، والمقصود هو الإنكار والنفي هو والمقيد على ما نص عليه غير واحد من المحققين، وفي الانتصاف أن ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ في سياق الإنكار جيء به للتهكم؛ فإن غير الله تعالى لا يخلق شيئًا ولا مساويًا ولا منحطًا، وقد كان يكفي في الإنكار لولا

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٨٤.

(٢) التحرير والتنوير ١١/ ١٦٠ - ١٦١.

(٣) انظر: فتح القدير ٦/ ٤٦٠.

ذلك أن الآلهة التي اتخذوها لا تخلق.»[1].

ففي ذلك دلالة واضحة جد الوضوح على القدرة الباهرة لله تبارك وتعالى.

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٧].

ففي ذلك انتقال من الاستدلال بخلق الإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢].

إلى الاستدلال بخلق العوالم العلوية؛ لأن أمرها أعجب وأغرب، وإن كان خلق الإنسان إلى نظره أقرب؛ وذلك للتنبيه على أن الذي خلق هذا العالم العلوي ما خلقه إلا لحكمة بالغة، وأن الحكيم لا يهمل ثواب الصالحين على حسناتهم، ولا جزاء المسيئين على سيئاتهم، وأن جعله تلك الطرائق فوقنا بحيث نراها ليدلنا على أن لها صلة بنا؛ لأن عالم الجزاء كائن فيها، ومخلوقاته مستقرة فيها، والمراد بها هنا طرائق سير الكواكب السبعة وهي أفلاكها، أي الخطوط الفرضية التي ضبط الناس بها سموت سير الكواكب[2].

ومن ذلك أيضًا قوله جل وعلا: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت: ١٩].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠]

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ١١].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

(١) روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٢٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٢٦ - ٢٧.

الفطرة والإيمان بالله

يعالج هذا المحور إحدى القضايا الجوهرية، وهي قضية دور الفطرة وما حققته من مكتسبات في بنية الإنسان؛ فبعد ما آمن الإنسان بأن الله عز وجل فاطر الموجودات وأقر إقرارًا يقينيًا بذلك لا يشوبه غبار الشرك والالحاد، وإن لهذا الفاطر سبحانه حقوقًا وواجبات يؤديها المخلوق، يأتي الإنسان وقد وصل إلى الدرجة القصوى من الإيمان بذلك، فينعكس عليه ويكون موثرًا في بنائه الكلي الحسي والمعنوي، فنجد هاهنا دور الفطرة في الإيمان بالله تبارك وتعالى واقعًا سلوكيًا ملموسًا.

أولًا: الفطرة والإيمان بالله:

إن صاحب الفطرة السليمة يجب أن يكون مؤمنًا بالله - سبحانه وتعالى بوصفه الخالق لكل شيء؛ لذلك نجد بأن «كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها»[(١)].

و«أنه إذا ثبت أن في الفطرة قوة تقتضي طلب معرفة الحق وإيثاره على ما سواه فلقد ركز في فطرته الإقرار بالخالق، وهو التوحيد، ومحبة القصاص وهو العدل، وإذا ثبت ذلك ثبت أن الفطرة نفسها مقتضية لمعرفته سبحانه ومحبته وإجلاله وتعظيمه والخضوع له من غير تعليم ولا دعاء إلى ذلك، وإن لم تكن فطرة كل أحد مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج كثير منهم إلى سبب معين للفطرة مقوٍ لها، وقد بينا أن هذا السبب لا يحدث في الفطرة ما لم يكن فيها، بل يعينها ويذكرها ويقويها، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين يدعون العباد إلى موجب هذه الفطرة.

فإذا لم يحصل مانع يمنع الفطرة عن مقتضاها استجابت لدعوة الرسل، ولابد بما فيها من المقتضي لذلك، كمن دعا جائعًا أو ظمآنًا إلى شراب أو طعام لذيذ نافع، لا تبعة فيه عليه، ولا يكلفه ثمنه، فإنه ما لم يحصل هناك مانع فإنه يجيبه ولا بد ومن المعلوم إن كل نفس قابلة لمعرفة الحق وإرادة الخير، ومجرد التعليم لا يوجب تلك القابلية، فلولا أن في النفس قوة تقبل ذلك لم يحصل لها القبول، فإن لحصوله في المحل شروطًا مقبولة، وذلك القبول هو كونه مستعدًا مهيئًا له مستعدًا لحصوله فيه»[(٢)].

وأما بالنسبة لقضية «دلالة الفطرة على ثبوت صفات الكمال لله؛ فلأن النفوس السليمة مجبولة ومفطورة على محبة الله،

(١) شرح ثلاثة الأصول، ابن عثيمين ص٨٠.

(٢) الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، الجربوع ٢/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

وتعظيمه، وعبادته، وهل تحب وتعظم وتعبد إلا من عرفت أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وألوهيته»[١].

و«الله تعالى فطر الخلق كلهم: العرب، والعجم حتى البهائم على الإيمان به ويعلوه، فما من عبد يتوجه إلى ربه بدعاء أو عبادة إلا وجد من نفسه ضرورة بطلب العلو، وارتفاع قلبه إلى السماء لا يلتفت إلى غيره يمينًا، ولا شمالًا، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من اجتالته الشياطين والأهواء»[٢].

والإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوحدانيته، واستحقاقه للعبادة أيضًا؛ لأن وجوده جل وعلا لا شك فيه ولا ريب، وقد دلت على وجوده سبحانه وتعالى: الفطرة، والعقل، والشرع، والحس[٣].

وإن «أمر الدين غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه، بعد معاونة الفطرة السليمة له، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهًا قاهرًا دبره، وأنه لم يخلقه باطلًا، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة. فلابد أن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيرًا وإن شرًا»[٤].

وإن «نداء الإيمان محبب إلى قلوب المؤمنين الصادقين العاملين المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه نداء الفطرة، ويحمل أعظم رسالة، ويؤدي أفضل وظيفة، إنه الداعي إلى الله تبارك وتعالى وإلى الخير كله، وإلى النور والطمأنينة، والحياة السعيدة في الدنيا، ويبشر بالحياة الكريمة الأبدية في الآخرة»[٥].

فله جزاء عاجل (دنيوي) وجزاء آجل (أخروي)؛ فالإيمان بالله - سبحانه وتعالى إلهًا يستحق الخضوع أمر ثابت مستقر في النفوس في أصل الفطرة الإنسانية؛ ذلك لأن من الفطرة الإيمان بالله تبارك وتعالى، فالفطرة فطرتان، فطرة تتعلق بالقلب وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره على ما سواه من الموجودات، وفطرة عملية عبارة عن مجموعة خصال أخلاقية، فالأولى تزكي الروح وتطهر القلب بالإيمان بالله، والثانية تطهر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها[٦].

وفي حال استعمل الإنسان عقله وحسه يدرك بأن معرفة الله - جل وعلا - فطرية، والمقصود بهذا أن كل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بأن له خالقًا مدبرًا، وتستوجب إيمانه المطلق به، وهي صفة

(١) فتح رب البرية، ابن عثيمين ص٢٦.
(٢) المصدر السابق ٤٢.
(٣) انظر: الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه، عبدالله الأثري ١/ ١١٤.
(٤) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص٤٠.
(٥) المصدر السابق ص١٧٦.
(٦) تحفة المودود، ابن القيم ص١٦١.

في حد ذاتها مغروزة في الإنسان، تقتضي اعتقاده للحق دون الباطل، وإرادته للنافع دون الضار، وفي الوقت الذي يعلم فيه علم اليقين بالبراهين القاطعة أن وجود الخالق هو أعظم الحقائق والتأله له أعظم المنافع، يتعين بذلك أن يكون في الفطرة ما يقتضيه معرفة الصانع والإيمان به[1].

وقال في ذلك ابن أبي العز الحنفي في معرض تعليقه على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة) «وهذا الذي أخبر به صلى الله عليه وسلم هو الذي تشهد الأدلة العقلية بصدقه. منها، أن يقال: لا ريب أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقًا، وتارةً ما يكون باطلًا، وهو حساسٌ متحركٌ بالإرادات، ولا بد له من أحدهما، ولا بد له من مرجحٍ لأحدهما.

ونعلم أنه إذا عرض على كل أحدٍ أن يصدق وينتفع وأن يكذب ويتضرر، مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع، وحينئذٍ فالاعتراف بوجود الصانع الإيمان به هو الحق أو نقيضه، والثاني فاسدٌ قطعًا، فتعين الأول، فوجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به»[2].

وأدلة ذلك كثيرة في الخطاب القرآني منه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

«أي: ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾ فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل.

ويدل عليه قوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي كراهة أن تقولوا. ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لم ننبه عليه بدليل»[3].

لذا فإن «الفطرة هي العهد الذي أخذ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾، وكلٌ مقرٌ بأن له صانعًا مدبرًا، وإن عبد ما سواه ظنًا منه أنه يقربه إليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقالوا: أي الذين اتخذوا من دونه أولياء ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وكل مولودٍ في العالم على ذلك الإقرار،

(١) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٨/ ٤٥٨.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ١/ ٣٤.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤١.

وهو الحنيفية التي وقعت الخلقة عليها»[1].

فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤].

و«المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية»[2].

وكذلك «الإشهاد على الأنفس يطلق على ما يساوي الإقرار أو الحمل عليه، وهو هنا الحمل على الإقرار، واستعير لحالة مغيبة تتضمن هذا الإقرار يعلمها الله لاستقرار معنى هذا الاعتراف في فطرتهم»[3].

وقال تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: ٩٠].

أي: صدقت والإيمان لا ينفع حينئذٍ، والتوبة مقبولةٌ قبل رؤية البأس[4].

و«هو أنه إنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة، فما كان مقصوده من هذه الكلمة الإقرار بوحدانية الله تعالى، والاعتراف بعزة الربوبية وذلة العبودية، وعلى هذا التقدير فما كان ذكر هذه الكلمة مقرونًا بالإخلاص، فلهذا السبب ما كان مقبولًا»[5].

و«أن ذلك الإقرار كان مبنيًا على محض التقليد، ألا ترى أنه قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله، إلا أنه سمع من بني إسرائيل أن للعالم إلهًا، فهو أقر بذلك الإله الذي سمع من بني إسرائيل أنهم أقروا بوجوده، فكان هذا محض التقليد.

فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولةً منه، ومزيد التحقيق فيه أن فرعون على ما بيناه في سورة طه كان من الدهرية، وكان من المنكرين لوجود الصانع تعالى، ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته، إلا بنور الحجج القطعية، والدلائل اليقينية، وأما بالتقليد المحض فهو لا يفيد، لأنه يكون ضمًا لظلمة التقليد إلى ظلمة الجهل السابق»[6].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ٤٧﴾ [الشورى: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ

(١) شرح السنة، البغوي ١/ ١٥٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٨٩.
(٣) التحرير والتنوير ٩/ ١٦٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٧٧.
(٥) مفاتيح الغيب ١٧/ ٢٩٦.
(٦) المصدر السابق ١١/ ١٣٨.

﴿٢١﴾ [البقرة: ٢١].

فإن «معنى ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾: وحدوا ربكم أن معنى العبادة: الخضوع لله بالطاعة»[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣].

أي: «ذلوا يا قوم لله بالطاعة ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ يقول: ما لكم من معبود يجوز لكم أن تعبدوه غيره، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يقول: أفلا تخشون بعبادتكم غيره عقابه أن يحل بكم»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويأتي دور الفطرة المركزي في حياة الإنسان ويتضح مدى إيمانه بربه إذا ما نزل به كرب أو حلت به مصيبة، فيلجأ مؤمنًا بالله تبارك وتعالى بقلب منكسر خاشع سائلًا ربه أن ينجيه ويخلصه من هذا الكرب أو تلك المصيبة، بدلالة قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

وتعني «أمن يجيب المكروب المجهود الذي مسه الضر فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه؟

﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي ويكشف عنه الضر والبأساء؟

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلًا بعد جيل، وأمةً بعد أمة.

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟ أي: أإله مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه؟

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون؟

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؟

برهان رابع أي أم من يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس، في البراري، والقفار، والبحار؟ والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار؟

﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؟ أي: ومن الذي يسوق الرياح مبشرةً بنزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد؟ ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ ؟ أي أإلهٌ مع الله يقدر على شيءٍ من ذلك؟ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعظم وتمجد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق»[٣].

«فيلمس وجدانهم، وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم، وواقع أحوالهم، فالمضطر

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٣٦٢.
(٢) المصدر السابق ١٩/ ٢٥.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٣٨٠ - ٣٨١.

في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله، يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء، ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأسناد، وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص لا قوته، ولا قوة في الأرض تنجده. وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه، أو تخلى، وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة، فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله، ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

هو وحده دون سواه يجيبه ويكشف عنه السوء، ويرده إلى الأمن والسلامة، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق، والناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء، وفترات الغفلة، يغفلون عنها، فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض الهزيلة.

فأما حين تلجئهم الشدة، ويضطرهم الكرب، فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة، ويرجعون إلى ربهم منيبين، مهما يكونوا من قبل غافلين، أو مكابرين، والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة في فطرتهم، ويسوقها لهم في مجال الحقائق الكونية التي ساقها من قبل، حقائق خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق البهيجة، وجعل الأرض قرارا، والجبال رواسي، وإجراء الأنهار، والحاجزين البحرين. فالتجاء المضطر إلى الله، واستجابة الله له دون سواه حقيقة كهذه الحقائق. هذه في الآفاق وتلك في الأنفس سواء بسواء»[1].

و«﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ معناه بشرط إن شاء على المعتقد في الإجابة، لكن المضطر لا يجيبه متى أجيب إلا الله عز وجل، والسوء عام في كل ضر يكشفه الله تعالى عن عباده»[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزخرف: ٥٠].

لذلك أثبت «في الفطرة حسن العدل

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٦٥٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣١٧.

والانصاف، والصدق والبر، والاحسان والوفاء بالعهد، والنصيحة للخلق، ورحمة المسكين، ونصر المظلوم، ومواساة اهل الحاجة والفاقة، وأداء الامانات، ومقابلة الاحسان بالإحسان، والاساءة بالعفو والصفح، والصبر في مواطن الصبر، والبذل في مواطن البذل، والانتقام في موضع الانتقام، والحلم في موضع الحلم، والسكينة والوقار، والرأفة والرفق، والتؤدة، وحسن الاخلاق، وجميل المعاشرة مع الاقارب والاباعد، وستر العورات، وإقالة العثرات، والايثار عند الحاجات، واغاثة اللهفات، وتفريج الكربات، والتعاون على انواع الخير والبر، والشجاعة والسماحة، والبصيرة والثبات، والعزيمة، والقوة في الحق، واللين لأهله، والشدة على أهل الباطل والغلظة عليهم، والاصلاح بين الناس، والسعي في إصلاح ذات البين، وتعظيم من يستحق التعظيم، وإهانة من يستحق الاهانة، وتنزيل الناس منازلهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، وأخذ ما سهل عليهم، وطوعت به أنفسهم، من الأعمال والأموال والأخلاق، ولإرشاد ضالهم، وتعليم جاهلهم، واحتمال جفوتهم، واستواء قريبهم وبعيدهم في الحق، فأقربهم إليه أولاهم بالحق، وإن كان بعيدًا، وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان حبيبًا قريبًا.

إلى غير ذلك من معرفة العقل الذي وضعه بينهم في المعاملات، والمناكحات، والجنايات، وما اودع في فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لا شريك له وإن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم في شكره والتقرب إليه وإيثاره على ما سواه واثبت في الفطر علمها بقبيح اضداد ذلك ثم بعث رسله في الأمر بما اثبت في الفطر حسنه وكماله والنهي عما اثبت فيها قبحه وعيبه وذمه فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكلمة مطابقة التفصيل بجملته، وقامت شواهد دينه في الفطرة تنادي للإيمان»[1].

وإن لأهمية الفطرة ودورها الإيماني كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح أو أمسى: (أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين)[2].

تقريرًا لمكانة الفطرة وأنه لا يمكن لها إذا كانت صحيحة نقية أن تشوبها عوارض الأهواء ونوازع ووساوس الشيطان «فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨١.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤/ ٧٧، رقم ١٥٣٦٠، والنسائي في الكبرى، ٩/ ٥، رقم ٩٧٤٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ١٩٠.

وتأليهه. فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة، ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها، وردها إلى حالتها، التي خلقت عليها، فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها»[1].

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٥٨.

الانحراف عن الفطرة

عند التأمل في قضية الفطرة الإنسانية التي فطر الله تبارك وتعالى العباد عليها نجدها متكاملة، ترتقي بالإنسان إلى أعلى مراتب الرقي والتقدم؛ ولكن في حال سار عليها، ولم يعكر صفوها بالانحرافات والضلالات الشيطانية، ولهذا الانحراف بالفطرة عن مسارها الإلهي أسباب. وقد وردت هذه الأسباب في الخطاب القرآني في عدة مواضع بشكل أو بآخر، وبعد ذلك يشعر الإنسان بنتائج الانحراف الذي مارسه على الفطرة؛ لذا يكون له آثار جوهرية في حياة الإنسان.

أولًا: أسباب الانحراف عن الفطرة:

إن من أهم أسباب الانحراف عن الفطرة «القلق الناتج عن مخالفة الفطرة بالعصيان لقد خلق الله عباده على فطرة سوية، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس:٧][2].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة»[3].

وفي ذلك إشارة لصفة التسوية في مقادير تكوين الفطرة الإنسانية التي أودعها الله -

(٢) انظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية، الجربوع ٢/ ٤٥٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٩٩.

عز وجل في النفس الإنسانية؛ فعندما يتدخل الإنسان بتغيير هذه الصفة أي: صفة التسوية القويمة، يعصي خالقه ويعرض نفسه لمخاطر غضب الله تعالى عليه في الدنيا والآخرة. لقد أرشد الله تبارك وتعالى هذه النفس إلى فجورها وتقواها وبين لها ذلك وهداها إلى ما قدر لها [(١)].

والأصل في الإنسان هو التوحيد «وإذا كان الفقه هو معرفة الرخصة عن دليل فإن التوحيد هو الفطرة من غير تبديل» [(٢)].

ومن أنكر وجحد الله تعالى فإنما أنكره لفساد فطرته بطارئ ما، حال بينها وبين مقتضاها، وقد جاء التصريح بذلك في الخطاب القرآني بأن الكفار في قرارة أنفسهم يعرفون الحق، وإن لم يذعنوا له، كما قال تعالى في شأن فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

«والمقصود: أننا آتينا موسى عليه السلام تسع آيات بينات الدلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه وزعموا ذلك سحرًا، ففي ذلك مثلٌ للمكابرين كلهم وما قريش إلا منهم. ففي هذا مثل للمعاندين وتسلية للرسول» [(٣)].

وقال في أهل النار: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال عن كفار قريش: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

بل إن كلمة (كفر) مأخوذة من الستر والتغطية، وهذا أصل معناها في لسان العرب؛ لأنه يستر ويغطي مقتضيات فطرته بحجب الشبهات والشهوات. ومن أهم أسباب انحراف الفطرة في القرآن الكريم [(٤)]:

١. الغفلة والنسيان.

وقد بينت النصوص القرآنية ذلك بأن حالتي الغفلة والنسيان من أهم ما يطرأ على الفطرة، حتى يترك العبد الميثاق الأول والآخر بينه وبين ربه بدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

«أن هناك عهدًا من الله على فطرة البشر أن توحده، وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة، يخرج بها كل مولود إلى الوجود، فلا يميل عنها إلا أن يفسد

(١) انظر: المصدر السابق ٨/ ٣٩٩.
(٢) معارج القبول، الحكمي ١/ ٧.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٢٥.
(٤) انظر: إعجاز القرآن في دلالة الفطرة على الإيمان، الشهراني ص ٢٥ - ٢٧.

فطرته عامل خارجي عنها! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال. وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود ملابسات وظروف. إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة «الإنسان» وحده ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله- وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله، موصولة به غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه- بينما هي تتلقى كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبرة عن تأثره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة»[(١)].

ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

والمعنى: وأقسم قسمًا لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها، وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهى عنه، وتوعد في ارتكابه مخالفتهم، ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إن أساس أمر بني آدم على ذلك، وعرقهم راسخ فيه. فإن قلت: ما المراد بالنسيان ؟

قلت: يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة، ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس، حتى تولد من ذلك النسيان. وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٤].

«فنسوا حظًا مما في التوراة قاله مجاهد. وقيل: أنساهم نصيبًا من الكتاب بسبب معاصيهم، وعن ابن مسعود: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣ / ١٣٩٤.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٦٦.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٩١.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٤٦٢.

[الأنعام:٤٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١].

٢. التربية على العقائد الباطلة.

وقد حكى القرآن الكريم عن ذلك في معرض حديثه عن المشركين بأنهم اتبعوا آثار آبائهم، وأنهم تمسكوا بذلك، واعتبروه دينًا يعبد بلا حجة ولا برهان، واليوم في وقتنا الحاضر اتبعت الشعوب الإسلامية مناهج الملاحدة الوضعية، ومن هذه المناهج (الشيوعية).

«إنها جناية كبرى ارتكبتها الشيوعية في حق الأخلاق والقيم، وخالفوا الفطرة التي جبل عليها البشر على امتداد تاريخهم من حب الخير وبغض الشر، وما يتبعهما من صفات وسلوك فاضل»[(١)].

و«إن الإنسان حينما يقف عاجزًا عن معرفة سر هذا الكون، ويتفكر في خلق الله والأرض والنجوم وسائر الأفلاك، وتتابع الليل والنهار، والحياة والموت، وسائر ما أوجده الله في هذا الكون، إذا فعل الإنسان ذلك يجد نفسه عاجزًا عن إدراك كل هذا، وحينئذ يعرف بفطرته أن هناك موجد عظيم لهذا الكون هو أقوى منه، يستحق أنه يخضع له، وأن يعبده ويرجو ثوابه ويخاف عقابه، لا أن يعتقد أن المادة خلقته؛ فإن التفكر في كل ذلك يهدي إلى الاعتراف بخالق عظيم قدير حكيم، لا أن للمادة معه مشاركة؛ بل هي مخلوقة له حدثت بعد أن لم تكن، وهذا هو ما اعترف به الملاحدة في أنفسهم، وجحدوه ظاهرًا تعصبًا لنظرياتهم الفاسدة، وقد ذكر الله عز وجل كثيرًا من عجائب هذا الكون، ورغب الناس في التفكر فيه واستخلاص العبر»[(٢)].

ونجد بأن «الفطرة التي فطر الله الناس عليها، تؤمن بوجود الله خالقها ومدبرها، ومن أنكر ذلك فإنما يغالط نفسه ويشقيها، فالشيوعي - مثلًا - يعيش في هذه الحياة تعسًا، ومصيره بعد الموت إلى النار، جزاء تكذيبه بربه الذي خلقه من العدم، ورباه بالنعم إلا إن تاب إلى الله، وآمن به وبدينه ورسوله»[(٣)].

لذا «هكذا كانت البشرية الأولى على الفطرة والتوحيد لقرب عهدها بربها تعالى، ثم اختلطت بعد ذلك الينابيع وتضافرت العوامل التي أدت إلى الانحراف عن التوحيد، فكان ظهور الشرك طارئًا بعد ذلك

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة، غالب عواجي ٢/١١١٨.

(٢) المصدر السابق ٢/١١٨٣.

(٣) دين الحق، عبد الرحمن آل عمر ص١٠.

التوحيد، وكان انحرافًا عنه»[1].

«ففي الجانب الديني تجد الناس إما أن ارتدوا عن الدين، أو خرجوا منه، أو لم يدخلوا فيه أصلا، أو وقعوا في تحريف الديانات السماوية وتبديلها، وأما في الجانب التشريعي، فإن الناس نبذوا شريعة الله وراءهم ظهريًا، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل وتختلف مع الفطرة»[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

٣. إتباع سبل الشيطان.

قال تعالى في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨].

«قال ابن عباسٍ: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ «أعماله»[3]، لا تجعلوها تجركم.

«أي: لا تقتدوا بها في اتباع الهوى، فإنه صريحٌ في أن الخطاب للكفرة كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تزهدا ليس من باب اتباع خطوات الشيطان، فضلًا عن كونه تقولًا وافتراءً على الله تعالى، وإنما نزل فيهم»[4].

نهي مقصود ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ الضمير للناس لا محالة وهم المشركون المتلبسون بالمنهي عنه دومًا، وأما المؤمنون فحظهم منه التحذير والموعظة»[5].

ونجد بأن «اتباع الخطوات» معناه: أن يتابع الإنسان غيره في عمله، كمتبع الأثر الذي يتبع أثر البعير، وأثر الدابة، وما أشبهها.

و﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: أعماله التي يعملها، ويخطو إليها؛ وهو شامل للشرك فما دونه؛ فإن الشيطان يأمر بالفحشاء، والمنكر[6].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

والمقصود «أن كيد الشيطان كان ضعيفًا، لأن الله ينصر أولياءه، والشيطان ينصر أولياءه، ولا شك أن نصرة الشيطان، لأوليائه أضعف من نصرة الله لأوليائه، ألا ترى أن أهل الخير والدين يبقى ذكرهم الجميل على

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د.عثمان جمعة ضميرية ١/ ٢٢٠.
(٢) السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث: ١/ ١٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٢٠٨.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٧.
(٥) التحرير والتنوير ٢/ ١٠٢.
(٦) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة ٢/ ٢٣٣.

وجه الدهر، وإن كانوا حال حياتهم في غاية الفقر والذلة، وأما الملوك والجبابرة فإذا ماتوا انقرض أثرهم، ولا يبقى في الدنيا رسمهم ولا ظلمهم، والكيد السعي في فساد الحال على جهة الاحتيال عليه يقال: كاده يكيده إذا سعى في إيقاع الضرر على جهة الحيلة عليه. وفائدة إدخال كان في قوله: كان ضعيفًا للتأكيد لضعف كيده، يعني أنه منذ كان موصوفا بالضعف والذلة»[1].

«إنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه ومتابعته؛ فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته، ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك»[2].

«ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان ثم شجعهم بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين، ضعيف لا يؤبه به، فلا تخافوا أولياءه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه»[3].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

خطاب مباشر «﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ لا يمحننكم بأن يمنعكم دخول الجنة بإغوائكم. ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيهم عن اتباعه والافتتان به. ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾»[4].

«تحذير من فتنته، بأنه بمنزلة العدو المداجي يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون»[5].

وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

«تعليلٌ لخذلانه أو تحقيقٌ لضلالتهم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيه دلالةٌ على أن الكافر المخطىء والمعاند سواءٌ في استحقاق الذم وللفارق أن يحمله على المقصر في النظر»[6].

«والفريق الذي هداه الله هم المؤمنون

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٤٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٧.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٨٣ - ٨٤.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٩٤.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٢٤.

بالله المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حقت عليه الضلالة: هم الكفار. قوله: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تعليلٌ لقوله: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله، ومع هذا فإنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة وهذا أشد في تمردهم وعنادهم»[1].

ثانيًا: نماذج قرآنية في الانحراف عن الفطرة:

١ . عبادة الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: ٤٤].

«أي: لا تطعه، فإن عبادة الأصنام هي من طاعة الشيطان، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ حين ترك ما أمره به من السجود لآدم، ومن أطاع من هو عاصٍ لله سبحانه فهو عاصٍ لله، والعاصي حقيقٌ بأن تسلب عنه النعم، وتحل به النقم.

قال الكسائي: العصي والعاصي بمعنًى واحدٍ. ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ قال الفراء: معنى أخاف هنا أعلم.

وقال الأكثرون: إن الخوف هنا محمولٌ على ظاهره لأن إبراهيم غير جازمٍ بموت أبيه على الكفر، إذ لو كان جازمًا بذلك لم يشتغل بنصحه، ومعنى الخوف على الغير: هو أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير.

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه في النار واللعنة، فتكون بهذا السبب مواليًا، أو تكون بسبب موالاته في العذاب معه، وليس هناك ولاية حقيقية»[2].

ونجد بأن «المراد بعبادة الشيطان عبادة الأصنام؛ عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحًا عن فسادها وضلالها، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه، ففي الكلام إيجاز لأن معناه: لا تعبد الأصنام لأن اتخاذها من تسويل الشيطان للذين اتخذوها ووضعوها للناس، وعبادتها من وساوس الشيطان للذين سنوا سنن عبادتها، ومن وساوسه للناس الذين أطاعوهم في عبادتها، فمن عبد الأصنام فقد عبد الشيطان وكفى بذلك ضلالًا معلومًا»[3].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

ويكون علاج هذا الانحراف بالرجوع

(١) فتح القدير ٢/ ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٩٦.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١١٦.

إلى الصراط المستقيم بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

«فدخل فيه كل ما بينه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من دين الإسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم فاتبعوا جملته وتفصيله، ولا تعدلوا عنه فتقعوا في الضلالات»[1].

و«هو تعقيب على تلك النواهي والأوامر التي أمر الله سبحانه النبى الكريم أن يتلوها على الناس. فهذه المأمورات وتلك المنهيات هي شريعة لله، وهى الصراط المستقيم الذي دعا لله عباده إلى الاستقامة عليه، فمن اجتنب المنهيات، وأتى المأمورات، فهو على صراط الله، وعلى شريعة الله، ومن انحرف عن هذا الصراط، فقد ضل وغوى، وكان من الهالكين وفى قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أمر بإتيان الأوامر وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ نهى عن إتيان المنهيات وفى التعبير عن سبيل الله «بالصراط» والتعبير عن الطرق الخارجة عنه بالسبل- إشارة إلى أن طريق الله «صراط» أي طريق معد ومهيأ للسالكين، تقوم عليه منارات هدى، وإشارات هداية أما هذه السبل التي لا تستقيم على هذا الصراط، فهي طرق لا معلم فيها، ولا شارة عليها، يركبها الراكب فيتخبط، ويتعثر، ويضل ولهذا جاء التعبير عن صراط الله بلفظ المفرد، لأنه واحد لا غير، إذ الحق حق وجهه واحد، وطريقه واحدة، وأما الباطل، فهو أباطيل متعدد الوجوه، مختلف السبل»[2].

٢. الغلو في الدين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

نلحظ أن «الغلو في الدين أن يظهر المتدين ما يفوت الحد الذي حدد له الدين. ونهاهم عن الغلو لأنه أصل لكثير من ضلالهم وتكذيبهم للرسل الصادقين. وغلو أهل الكتاب تجاوزهم الحد الذي طلبه دينهم منهم: فاليهود طولبوا باتباع التوراة ومحبة رسولهم، فتجاوزوه إلى بغضة الرسل كعيسى ومحمد عليهما السلام،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٨٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٣٤٨.

والنصارى طولبوا باتباع المسيح فتجاوزوا فيه الحد إلى دعوى إلهيته أو كونه ابن الله، مع الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم»[1].

و«إنما معناه في الدين الذي أنتم مطلوبون به فكأنه اسم جنس وأضافه إليهم بيانا أنهم مأخوذون به، وليست الإشارة إلى دينهم المضلل، ولا أمروا بالثبوت عليه دون غلو وإنما أمروا بترك الغلو في دين الله على الإطلاق، وأن يوحدوا، ولا يقولوا على الله إلا الحق، وإذا سلكوا ما أمروا به فذلك سائقهم إلى الإسلام، ثم بين تعالى أمر المسيح وأنه «رسول الله وكلمته»[2].

٣. المبالغة في طلب الرزق.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧].

«معناه: وسع. وبسط الشيء نشره. وبالصاد أيضًا ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ طغوا وعصوا»[3].

«﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتكبروا وأفسدوا فيها بطرًا، أو لبغى بعضهم على بعض استيلاء واستعلاء، وهذا على الغالب، وأصل البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى كمية أو كيفية.

ولكن ينزل بقدرٍ بتقدير، ما يشاء كما اقتضته مشيئته. إنه بعباده خبيرٌ بصيرٌ يعلم خفايا أمرهم وجلايا حالهم؛ فيقدر لهم ما يناسب شأنهم»[4].

٤. التمسك بالدنيا.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

لقد «زين للناس حب الشهوات أي المشتهيات سماها شهوات مبالغة وإيماء على أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهوتها»[5].

«حب الشهوات: يعني المشتهيات لأن الشهوة توقان النفس إلى الشيء المشتهى من النساء.

إنما بدأ بذكر النساء لأن الالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، ولأنهن حبائل الشيطان، وأقرب إلى الافتتان، وقوله: ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ إنما خص البنين بالذكر لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى، ووجه حبه ظاهر لأنه يتكثر به، ويعضده، ويقوم مقامه. وقد جعل الله تعالى في قلب

(١) التحرير والتنوير ٦/ ٥١.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٦٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٧.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٨١.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٨.

الإنسان حب الزوجة والولد لحكمة بالغة وهي بقاء التوالد، ولو زالت تلك المحبة لما حصل ذلك.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ جمع قنطار وسمي قنطارا من الإحكام والعقد يقال: قنطرته إذا أحكمته، ومنه القنطرة المحكمة الطاق، واختلفوا في القنطار هل محدود أو غير محدود؟ على قولين:

أحدهما: أنه محدود، ثم اختلفوا في حده، فروي عن معاذ بن جبل أن القنطار ألف ومائتا أوقية. وقال ابن عباس: ألف ومائتا مثقال وعنه أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار دية أحدكم، وبه قال الحسن، وقال سعيد بن جبير: هو مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، وقال سعيد بن المسيب وقتادة: هو ثمانون ألفا وقال مجاهد: سبعون ألفا. وقال السدي: هو أربعة آلاف مثقال.

والقول الثاني: إن القنطار ليس بمحدود. وقال الربيع بن أنس: القنطار مال الكثير بعضه على بعض، وروي عن أبي عبيدة أنه حكي عن العرب أن القنطار وزن لا يحد، وهو اختيار ابن جرير الطبري وغيره.

وقال الحاكم القنطار ما بين السماء والأرض من مال.

وقال أبو نصرة: القنطار ملء مسك ثور ذهبًا أو فضة، وقال القنطار من المال ما فيه عبور الحياة تشبيها بعبور القنطرة المقنطرة أي المجموعة.

وقيل: المضاعفة لأن القناطير جمع وأقله ثلاثة، والمقنطرة المضاعفة أن تكون ستة أو تسعة، وقيل المقنطرة المسكوكة المنقوشة من الذهب والفضة. إنما بدأ بهما من بين سائر أصناف الأموال لأنهما قيم الأشياء، وإنما كانا محبوبين لأن المالك لهما مالك قادر على ما يريده، وهي صفة كمال وهي محبوبة.

وقيل: سمي الذهب ذهبًا لأنه يذهب ولا يبقى، والفضة لأنها تنفض أي تتفرق.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ الخيل جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط، سميت الأفراس خيلا لاختيالها في مشيتها، وقيل: لأن الخيل لا يركبها أحد إلا وجد في نفسه مخيلة عجبًا.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي: المرجع، فيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

وقيل: فيه إشارة إلى أن من أتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها فيما يكون فيه صلاحه في الآخرة لأنها السعادة القصوى»[1].

(١) لباب التأويل ١/ ٢٣١.

الاستقامة على الفطرة

في هذا المبحث نجد بأن المفاهيم تغيرت عن مفاهيم المبحث السابق بخصوص الفطرة، فهناك تناولنا الانحراف عن الفطرة: أسبابها، ونماذجها، وأثرها في القرآن الكريم، أما هنا فنعالج وسائل الاستقامة والمحافظة على الفطرة الإلهية نقية طاهرة من الأدران، وأثر هذه الاستقامة في بناء الإنسان مع بيان نماذج من وجوه الاستقامة على الفطرة في العباد.

أولًا: وسائل الاستقامة على الفطرة:

على المسلم أن يحسن الظن بالناس، ولا يستغرب وجود الاستقامة على الفطرة فيهم؛ لأن «الفطرة السلامة والاستقامة»[(١)].

وكذلك فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى يوجب سلامة الفطرة الإنسانية وحسن قصدها؛ ولكن هناك عدة وسائل للاستقامة على الفطرة السليمة، تبدأ:

١ . التربية الصالحة.

إن التربية الصالحة تنطلق من حسن اختيار الزوجة الصالحة؛ لأن الزوجة الصالحة تعد تربة طيبة لبذور صالحة، فإذا وضعنا هذه البذور الصالحة في تربة صالحة، نضمن بإذن الله تبارك وتعالى وجود ذرية صالحة؛ ولذا لا نعجب من تركيز الإسلام ممثلًا بخطابه القرآني على اختيار الزوجة بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

ونجد استمرار الحث على حسن اختيار الزوجة في الخطاب النبوي الشريف؛ فقد ورد ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك)[(٢)].

فهو يخاطب النفس الإنسانية بحسب ما تفكر به، فالنفس ترغب بالمال والحسب والجمال، وآخر شيء تفكر فيه الدين، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل الدين هو المعيار في الاختيار، وإن تأخر، فجعل الظفر لا يكون إلا به بأسلوب التشكيل الاستعاري في قوله: (تربت يداك) أي افتقرت، ثم بعد ذلك يأتي دور التربية ابتداء من سن الطفولة التي يقول علماء النفس وعلماء الاجتماع عنها: إن السن السابعة هي السن المناسبة

(١) التمهيد، ابن عبد البر ١٨/ ٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب باب الأكفاء في الدين، ٧/٧، رقم ٥٠٩٠.

لتربية الأطفال في البيت وفي المسجد أيضًا.

ويؤيد ذلك الحديث النبوي الشريف عن عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه، عن جده، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها)[1].

ثم لا يزال يلزم الأب أن يتعاهد الذرية تربية وإعدادًا وتجهيزًا وإصلاحًا حتى يأتي سن العاشرة، فلابد من أن يزيد في أمره لأولاده بالصلاة حتى يعيشوا مع الصالحين في المساجد وإذا بلغ احدهم الحلم فلابد أن يكون جاهزًا ليميز المعيار الواضح بين الكفر والإيمان.

فالأب مسؤول عن تربية أولاده، وإدامة الفطرة السليمة فيهم بدلالة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠][2].

فلا تترك الفطرة عرضة لهوى النفس، فتضبط حاجاتها وغرائزها من الآباء «فأخبر أن أصل ولادتهم ونشأتهم على الفطرة، وأن التهويد والتنصير والتمجيس طارئٌ طرأ على الفطرة وعارضٌ عرض لها، واقتضى هذا العارض الذي عرض للفطرة أمورًا استلزمت ترتيب آثارها عليها بحسب قوتها وضعفها، فالآلام المترتبة على ذلك من جنس الآلام والعقوبات المترتبة على خروج البدن عن صحته، وهو إنما خلق على الصحة والاعتدال، فإذا استمر على ذلك لم يعرض له ألمٌ.

وكذلك القلب فطر على الفطرة الصحيحة، فلما عرض له الفساد ترتب على ذلك العارض أثره من الآلام والعقوبات، ولا ريب أن ذلك العارض ليس في أصل الفطرة بحيث يستحيل زواله، بل هو ممكن الزوال، والناس في زواله، فحين عاد إلى موجب الفطرة أجاب الداعي من غير توقفٍ.

ومنهم من توقف لقوة العارض فاحتاج مع الدعوة إلى موعظةٍ تتضمن ترهيبه وترغيبه.

ومنهم من غلبت عليه المادة الفاسدة فاحتاج مع ذلك إلى المجادلة.

ومنهم من كان العارض أشد من ذلك

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، ١/ ١٣٣، رقم ٤٩٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٢١، رقم ٥٨٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨.

فعدل معه إلى الجلاد والمحاربة ونوع من العقوبة، فأزال ذلك تلك المادة وأعاد الفطر إلى صحتها.

ومنهم من كان فساد فطرته قد استحكم وتمكن، فصار له بمنزلة الصفة الثابتة، ولم يكن بدٌّ من أن يحتمي عنه ليزول ذلك الخبث ويتخلص منه، ويعود على ما خلق عليه أولًا؛ ولهذا لما خرج خبث الموحدين من أهل الكبائر بسرعةٍ؛ تعجل خروجهم من النار، وعاد إلى ما خلقوا عليه أولًا من كمال النشأة وزوال موجب هذا العذاب، فلم يبق لهم مصلحةٌ في التعذيب بعد ذلك.

وأما المشركون: فلما كان العارض استحكم فيهم، وصار كالهيئة والصفة استمروا في النار، تحمى عليهم أشد الحمو لقوة ذلك الخبث»[1].

٢. التمسك بالقرآن والسنة.

إن التمسك بالوحي هو أول أسباب المحافظة على الفطرة «فإن الفطرة -وهي طريق صحيح ومصدر معتبر في ذلك- قد يطرأ عليها ما يغشيها ويحرفها عن صوابها، فتحتاج إلى ما يجلوها، ويصحح مسارها، ويمنعها من الانحراف، وذلك هو الوحي»القرآن والسنة» الذي تكفل الله تعالى بإنزاله هداية للناس ورحمة بهم»[2].

(١) مختصر الصواعق المرسلة ١/ ٢٥٧.
(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د.عثمان جمعة ضميرية: ١/ ١٦٠.

من ذلك قول الله سبحانه وتعالى بعد أن أمر آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض بعد أن وسوس الشيطان لهما فأكلا من الشجرة: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي، وفي موضع آخر نجد قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

وقد رتب على هداه عدة أشياء: نفي الخوف والحزن والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا، أحدث الخوف، فنفاهما عمن أتبع هداه، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة.

أما من ضل وكفر فتوعده الله بالعذاب في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٩].

و(أصحاب النار) أي: الملازمون لها، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب، ولا هم ينصرون [(١)].

ويطالعنا حديث نبوي شريف في السياق نفسه فيه دلالة قاطعة على وجوب التمسك بالله - عز وجل والخضوع له قول الرسول صلى الله عليه وسلم: عن البراء بن عازبٍ، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به). قال: فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولك، قال: (لا، ونبيك الذي أرسلت)[(٢)].

إن من عواصم الفطرة من التغير والانتكاسة لزوم شريعة الإسلام، وعدم الحيدة عنها قليلًا كان ذلك الحيد أو كثيرًا؛ فإن طريق النجاة في لزومها علمًا وعملًا، ونظرية وتطبيقًا في الأمن والخوف، والسلم والحرب، فالشريعة موضوعة لسير الناس عليها بوصفها منهج حياة، وهي مستقيمة لا تنحرف وواسعة لا تضيق، بدلالة قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

إن إتباع شرع الله تعالى والتقيد بالمنهاج الرباني، وترك ما سواه من السبل والمناهج الجاهلية الإلحادية الخارجة عن الفطرة السليمة التي أنكرت وجود إله قادر على تدبير شئون عباده، أو أشركت معه غيره، وقامت على مناهج عقلية وفلسفية قاصرة؛ لأن الكمال لله، وزعموا الاستغناء عن خالقهم ومدبر شؤونهم فاستغنى الله عنهم.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب باب فضل من بات على الوضوء، ١/ ٥٨، رقم ٢٤٧.

فجعلت الشيوعية شعارها (لا إله والكون مادة)، ونفت بالكلية وجود الإله، وتعتنق معظم الشعوب الرأسمالية عقيدة التثليث والإيمان بثلاثة آلهة (الأب والابن وروح القدس)، وتتخذ العلمانية منهج حياة، أي تقر بوجود إله خالق للعباد ولكنه عاجز عن تدبير شؤون عباده - حاشا لله، وللأسف الشديد نجد كثيرًا من المجتمعات الإسلامية التي تدعي الإسلام ادعاء تمارس هذه المناهج وتتخذها منهج حياة.

لقد شرع الله عز وجل أفضل الشرائع، وهدى الناس لأقوم السبل بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولا شك بأن الشريعة الإسلامية هي وحدها الكفيلة بإصلاح الدين والدنيا، وإسعاد الإنسان في الآخرة والأولى، وذلك لما تنفرد به من العقيدة الصحيحة والشعائر الجليلة والشريعة العادلة.

ونجد أن من أعرض عن هذه الشرعة والمنهاج توعده الله بالعقوبة قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

ومن فطرة الإنسان أن يتبع ما يهديه للحق، ويجلب له المصلحة، فمتى أبصر طريقًا أيقن أو ظن بأنها موصلة إلى مقصود لم يتركها إلى غيره، وقد أدرك السلف الصالح بأن من الفطرة أن يلزم المسلم شرع الله تعالى، ولا ينحرف عنه قيد أنملة، سواء أكان ذلك الانحراف بسبب الجهل أم بداعي التقصير، فمثلًا أداء الصلاة في وقتها من الفطرة السليمة، والعقيدة الإسلامية تقضي بأن توقيت العبادات من حقوق الله تعالى.

فجميع العبادات الزمانية والمكانية كلها لله عز وجل والتقيد بوقتها مظهر من مظاهر الفطرة. ويمكننا قياس ذلك على بقية الشرائع التي جاء بها الإسلام، كالحدود والمعاملات والمرافعات وغيرها، وهي تنفع الناس، والله يعلم ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

ودليل ذلك نجده في قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

«فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه ؟» (١).

٤ . جهاد الشيطان.

إن الشيطان يلقي في القلوب من

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧٦.

الوساوس والخواطر الفاسدة ما لا يعلم خطورتها إلا الله تعالى، والمؤمن الموقن هو من يدفع تلك الوساوس والوسائل (الشيطانية) ويصون قلبه أن يدخله شيء من تلك الوساوس والخواطر. وجهاد الشيطان مرتبتان: إحداهما: الجهاد من خلال دفع ما يلقى إلى العابد من الشبهات والريب القادحة بالإيمان، والثانية: الجهاد المتمثل في دفع ما يلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فإن الجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر [(١)].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

ثانيًا: نماذج قرآنية في الاستقامة على الفطرة

١. التوحيد والاستقامة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣].

، «اعلم أنه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوة، وذكر شبهات المنكرين، وأجاب عنها، ذكر بعد ذلك طريقة المحققين والمحققين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة السجدة، والفرق بين الموضعين أن في سورة السجدة ذكر أن الملائكة ينزلون ويقولون ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

وهاهنا رفع الواسطة من البين، وذكر أنه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما أن الملائكة يبلغون إليهم هذه البشارة، وأن الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة أيضًا من غير واسطةٍ، واعلم أن هذه الآيات دالةٌ على أن من آمن بالله وعمل صالحا فإنهم بعد الحشر لا ينالهم خوفٌ ولا حزنٌ، ولهذا قال أهل التحقيق إنهم يوم القيامة آمنون من الأهوال» [(٢)].

و«﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة في الأمور التي هي منتهى العمل، وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل، وتوقف اعتباره على التوحيد. فلا خوفٌ عليهم من لحوق مكروه. ولا هم يحزنون على فوات محبوب، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٣.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف:١٤]. من اكتساب الفضائل العلمية والعملية»[1].

٢. الإيمان والعمل الصالح.

إن للإيمان والعمل الصالح أثر في الاستقامة على الفطرة في الخطاب القرآني؛ لذلك نجد اقترانهما في أغلب المواضع القرآنية.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

و«مناسبة الآية لما قبلها أن الله لما ذكر وعيد الكافرين المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم ذكر وعد المؤمنين به، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾ الآية، و«البشارة» هي الإخبار بما يسر؛ وسميت بذلك لتغير بشرة المخاطب بالسرور؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره استنار وجهه، وطابت نفسه، وانشرح صدره؛ وقد تستعمل «البشارة» في الإخبار بما يسوء، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

إما تهكمًا بهم؛ وإما لأنهم يحصل لهم من الإخبار بهذا ما تتغير به بشرتهم، وتسود به وجوههم، وتظلم، كقوله تعالى في عذابهم يوم القيامة: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٨- ٤٩].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾ إما للرسول صلى الله عليه وسلم؛ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب. يعني بشر أيها النبي؛ أو بشر أيها المخاطب من اتصفوا بهذه الصفات بأن لهم جنات قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به، ورسوله.

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أصول الإيمان بأنها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصديق بها؛ بل لا بد من قبول، وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي عملوا الأعمال الصالحات. وهي الصادرة عن محبة، وتعظيم لله - عز وجل المتضمنة للإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله؛ فما لا إخلاص فيه فهو فاسد»[2].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١١٣.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة، ١/ ٩٠.

﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٧].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٥٧].

٣. الإيمان والابتعاد عن سبل الضلالة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: ١٠٥].

«إن هؤلاء الجهال مع ما تقدم من أنواع المبالغة في الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب لم ينتفعوا بشيءٍ منه بل بقوا مصرين على جهلهم مجدين على جهالاتهم وضلالتهم، فلا تبالوا أيها المؤمنون بجهالتهم وضلالتهم، بل كونوا منقادين لتكاليف الله مطيعين لأوامره ونواهيه، فلا يضركم ضلالتهم وجهالتهم.

فلهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ قوله ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب»[(١)].

٤. تلبية دعوة الله والرسول.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

أن «﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ على هذا المعنى كان هذا جاريًا مجرى إيضاح الواضحات وأنه عبثٌ، فوجب حمله على فائدةٍ زائدةٍ، وهي الوجوب صونًا لهذا النص عن التعطيل، ويتأكد هذا بأن قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ جارٍ مجرى التهديد والوعيد، وذلك لا يليق إلا بالإيجاب»[(٢)]، و«المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية»[(٣)].

٥. اقامة الصلاة والإنفاق.

وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٤٨.
(٢) المصدر السابق ١٥/ ٤٧١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨٩٣.

﴿وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم: ٣١].

«أي إن أهل مكة بدلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقق عبوديته أن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس، أي قل لهم أقيموا، والأمر معه شرطٌ مقدرٌ، تقول: أطع الله يدخلك الجنة، أي إن أطعته يدخلك الجنة، هذا قول الفراء»[1].

و«يقول تعالى آمرا عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم من قبل أن يأتي يومٌ وهو يوم القيامة لا بيعٌ فيه ولا خلالٌ أي ولا يقبل من أحدٍ فديةٌ بأن تباع نفسه»[2].

٦. التقوى والقول السديد.

لقد قال تعالى في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠] «يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا قولًا سديدًا أي مستقيمًا، لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧١].

وذلك أنه يجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم»[3].

و«﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ارتكاب ما يكرهه فضلًا عما يؤذي رسوله. ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قاصدًا إلى الحق من سد يسد سدادًا، والمراد النهي عن ضده كحديث زينب من غير قصد ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة، أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعمل. ومن يطع الله ورسوله في الأوامر والنواهي. فقد فاز فوزًا عظيمًا يعيش في الدنيا حميدًا وفي الآخرة سعيدا»[4].

ثالثًا: أثر الاستقامة على الفطرة:

إن التربية الإسلامية تسعى إلى تحقيق غاية عظمى، تتمثل في استقامة النفس

(١) المصدر السابق ٩/ ٣٦٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٤/ ٤٣٨.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٤٣٠.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٠.

الإنسانية على نهج الإيمان الواضح الصحيح الذي لا تشوبه شائبة؛ وذلك أمر لا يمكن تحقيقه إلا بممارسة شرائع الإسلام وإتباع تعاليمه، والانقياد لأوامره، والابتعاد عن نواهيه؛ فالاستقامة إذن مرحلة ثانية بعد الإيمان؛ لأنها أثر من آثاره، ونتيجة من نتائجه، فهي بمثابة التربية النقية الضابطة لكل متعلقات فطرة الله سبحانه وتعالى تؤدي في المحصلة النهائية إلى تطهير القلب والنية لترسم السلوك الإنساني.

فطهارة الخارج تدعو أولًا إلى طهارة الداخل، وطهارة الإنسان الفرد مدعاة لطهارة المجتمع عمومًا؛ لأنه صورة مصغرة لهذا المجتمع، فالاستقامة على الفطرة تبني إنسانًا مثاليًا كما أراده الله، وبخلافه نجد إنسانًا تعلوه المعاصي وأوهام الدنيا وزينتها الخداعة؛ لأنها زائلة ومتاعها غرور.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

فقد «قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان»[(١)].

وقد ورد عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك - وفي حديث أبي أسامة غيرك - قال: (قل: آمنت بالله، فاستقم)[(٢)].

فهذه الاستقامة الإيمانية لا تتحقق إلا من خلال التفقه بالدين ومعرفة أموره، والاحاطة بتعاليمه، ورعاية الأخلاق وتطبيقها في الواقع، ليصبح بذلك قدوة صالحة وأسوة

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٢/ ٣٦٩.
(٢) اخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، ١/ ٦٥، رقم ٣٨.

حسنة، ومن يتمتع بكل ما ذكرنا يحصل على السعادة وعدم الحزن والبشرى بالجنة بدلالة قوله مسلم تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

يقول تعالى في هذا السياق ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله من شريعة لهم ولم يشركوا به شيئًا[1].

موضوعات ذات صلة:

الأسرة، الإسلام، الألوهية، التوحيد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٧/ ١٦١.

الفقه

عناصر الموضوع

مفهوم الفقه	٣٦٦
الفقه في الاستعمال القرآني	٣٦٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٦٨
الفقه نعمة ربانية	٣٧٠
نسبة الفقه للقلوب	٣٧٤
مجالات الفقه	٣٧٧
وسائل تحصيل الفقه	٣٩٠
موانع الفقه	٣٩٥
أثر الفقه الصحيح على الفرد والأمة	٤٠٠

مفهوم الفقه

أولًا: المعنى اللغوي:

يدل أصل مادة (فقه) على إدراك الشيء والعلم به، تقول: فقهت الحديث أفقهه، وكل علمٍ بشيءٍ فهو فقهٌ، ثم اختص بذلك علم الشريعة، فقيل لكل عالمٍ بالحلال والحرام: فقيهٌ[(١)].

والفقه: العلم في الدين، يقال: فقه الرجل يفقه فقهًا فهو فقيهٌ، وفقه يفقه فقهًا إذا فهم، وأفقهته: بينت له، والتفقه: تعلم الفقه[(٢)].

والفقه: العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم، كما غلب النجم على الثريا[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: الفقه: في الاصطلاح: «هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية، وقيل: هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم، وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل»[(٤)]، والفقه: هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم[(٥)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٤٢.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٧٠، تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٢٦٣

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٥٢٢، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٤٣، المخصص، ابن سيده ١/ ٢٦٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٩٨.

(٤) التعريفات، الجرجاني ص ١٦٨.
وانظر: الإبهاج في شرح المنهاج، البيضاوي ١/ ٢٨، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، تاج الدين السبكي ص ٢٤٤.

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصبهاني ص ٦٤٢- ٦٤٣.

الفقه في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فقه) في القرآن الكريم (٢٠) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢٠	﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ [طه:٢٧-٢٨]

وجاء الفقه في الاستعمال القرآني بمعناه في اللغة، وهو إدراك الشيء والعلم به[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٢٥.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٤٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ العلم:

العلم لغةً:

نقيض الجهل، والمعرفة، واليقين، والعلامة: النسابة، وهو من العلم[١]، ويقال: «علمت الشيء أعلمه علمًا: عرفته»[٢].

العلم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني: «العلم: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، ونقل عن الحكماء فقال: هو حصول صورة الشيء في العقل»[٣].

الصلة بين العلم والفقه:

الفقه هو العلم، وهو العلم النافذ الذي يخترق العوائق لإدراك لب الدين[٤].

٢ الفهم:

الفهم لغة:

العلم بالشيء ومعرفته[٥].

وفي لسان العرب: الفهم معرفتك الشيء، وهو حسن تصور المعنى[٦].

الفهم اصطلاحًا:

هو تصور الشيء من لفظ المخاطب، والقدرة على التفسير والشرح وإدراك المعلومات التي تعرض، أو إدراك ما يعنيه شخص بالقول أو بالعمل أو بالاستنباط[٧].

الصلة بين الفهم والفقه:

الفقه والفهم بمعنى واحد[٨].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٤١٨، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٠٨٣.
(٢) الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٩٠.
(٣) التعريفات ص ١٩١.
(٤) انظر: زهرة التفاسير ٧/ ٣٤٨٤.
(٥) انظر: المعجم العربي الأساسي، ص ٩٥٣.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٥٩.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٤٢٠.
(٨) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٤٣.

٣ الإدراك:

الإدراك لغةً:

أدرك المعنى بعقله:فهمه وتصوره عقله على الوجه الصحيح[١].

الإدراك اصطلاحًا:

قال الجرجاني: « الإدراك:إحاطة الشيء بكماله»[٢].

الصلة بين الإدراك والفقه:

الإدراك يكون من خلال الإحاطة بالشيء بكماله، ولا يشترط ذلك في الفقه.

٤ الاستنباط:

الاستنباط لغةً:

كلمة تدل على استخراج شيء. واستنبطت الماء:استخرجته[٣].

الاستنباط اصطلاحًا:

هو استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح[٤].

الصلة بين الاستنباط والفقه:

الاستنباط كالفقه يحتاج إلى فهم وتدبر، إلا أن الإستنباط فيه مبالغة وشدة عنه في الفقه.

٥ الجهل:

الجهل لغة:

ضد العلم، والجهالة:أن تفعل فعلًا بغير علم، وجهلت الشيء:إذا لم تعرفه[٥].

الجهل اصطلاحًا:

«أن تعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه»[٦].

الصلة بين الجهل والفقه:

الجهل نقيض العلم أي عدم العلم بالشيء، وأما الفقه فيعني العلم به.

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ١/ ٧٤٠.
(٢) التعريفات ص ١٤.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٨١.
(٤) انظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، مساعد الطيار ص١٦٠.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٢٩، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٣٢٢.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٠٩.
وانظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٩٠.

الفقه نعمة ربانية

كثير من الناس يعاني من سقم الفهم للقضايا والأحداث والأشخاص، فيقع بسبب ذلك في أخطاء الحكم على الآخرين، أو التفسير للمواقف والأحداث، وإذا كان سوء الفهم سببًا في كثير من الأخطاء والخلافات، فإن حسن الفهم، وصحته من أهم أسباب سلامة الموقف، والبعد عن الخلافات.

إن فهم ما يقول غيرنا ضروري لتحديد الموقف الصحيح منهم، وهذا يحتاج إلى عمق التفكير وصدق التأمل، وعدم التسرع في الحكم على الأشياء، وفي حياتنا اليومية مواقف محتدمة لا سبب لاحتدامها إلا سوء الفهم للموقف، أو الرأي، أو الكلمة، مع ما يصحب ذلك ويتبعه من سوء الظن، وعدم سلامة الصدر.

قال ابن القيم: «صحة الفهم وحسن القصد من اعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده بل ما اعطي عبد عطاء بعد الاسلام أفضل، ولا أجل منهما بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة.

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية»[1].

قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء:٧٩]

لن ينسى التاريخ الإنساني الدور القيادي العظيم والجهاد والتضحيات للرسل والأنبياء عليهم السلام، فلولاهم لكان الناس في حيرة وضلال، ونزاع مستمر واقتتال، ربما أدى إلى انقراض النوع البشري، وكان من فضل الله وإنعامه: أنه أعد هؤلاء الصفوة القادة إعدادا رائعا خاصا، ليكونوا أهلا للقيادة، وأسوة حسنة للبشرية، وأمدهم بنعم كثيرة، فضلا عن نعمة النبوة والرسالة، منها الحكم والقضاء بين الناس، والعلم والمعرفة السديدة، وعزة النفس وقوة الإرادة، ووسائل الكسب الشريف.

ومن هذه النعم على داود وسليمان عليهما السلام قضية الحكم في رعي راع زرع قوم، في جنح الليل، وكان الله عالما

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٦٩.

تام العلم بالقضاء والمقضي فيه، شاهدًا بما حكم به داود وسليمان، لا تخفى عليه خافية، وكان القضاء صادرا من الأب داوود، والابن سليمان، اللذين كان كل منهما ملكًا عدلًا، نبيًا، يحكم بالحق بين الناس.

واتجه كل من داوود وسليمان في حكمه وجهة معينة من النظر السديد، فإن داوود عليه السلام قضى بتملك الغنم لصاحب الزرع، وسليمان عليه السلام قضى بتسليم الغنم مدة عام إلى صاحب الحرث (الزرع) ينتفع بألبانها وأولادها وأصوافها، وتسليم الزرع للراعي، يستفيد مما تنتجه الأرض، ويتعهدها بالسقاية والخدمة، حتى يعود الزرع إلى ما كان عليه قبل الرعي، وكان قضاء سليمان أولى وأرفق وأحكم[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء:٤٥-٤٦].

يبين المولى عز وجل في هذه الآيات كيف حرم الكفار من نعمة الفهم بسبب كفرهم بالله، وعدم إيمانهم فبين سبحانه أنه يحمي نبيه صلى الله عليه وسلم من مشركي مكة الذين كانوا يؤذونه، في وقت قراءته القرآن وصلاته في المسجد الحرام، ويريدون مد اليد إليه، فلا تخف أيها النبي، فإنك إذا قرأت القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالآخرة، جعلنا بينك وبينهم حجابًا مستورًا، أي حائلًا حاجزًا، يمنع قلوبهم من فهم القرآن وتدبر آياته، ومستورًا على أعين الخلق، فلا يدركه أحد برؤية كسائر الحجب بقدرة الله وكفايته، وجعلنا على قلوبهم أغطية، بحيث لا يتسرب إليها فهم مدارك القرآن، ومعرفة أسراره وغاياته، وجعلنا في آذانهم ثقلًا، أو صمما يمنع من سماع الصوت، وهذه كلها استعارات للإضلال الذي حفهم الله به، فعبر عن كثرة ذلك وعظمه بأنهم بمثابة من غطي قلبه، وصمت أذنه، والإضلال بسبب الضلال الذي سلكوه، وساروا في فلكه بغيًا وعنادًا[2].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة:١١].

لا شبهة أن للعالم منزلة عظيمة عند الله لا تكون لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩].

ولذلك فإنه يقتدي بالعلم في كل أفعاله،

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٦٠٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٣٥٣.

ولا يقتدى بغير العالم؛ لأنه يعلم من كيفية الاحتراز عن الحرام والشبهات، ومحاسبة النفس مالا يعرفه الغير، ويعلم من كيفية الخشوع والتذلل في العبادة مالا يعرفه غيره، ويعلم من كيفية التوبة وأوقاتها وصفاتها مالا يعرفه غيره، ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق مالا يتحفظ منه غيره[1].

عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيةٌ، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلًا، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[2].

قال الإمام البغوي: «فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل مثل العالم كمثل المطر، ومثل قلوب الناس فيه، كمثل الأرض في قبول الماء، فشبه من تحمل العلم والحديث، وتفقه فيه بالأرض الطيبة، أصابها المطر فتنبت، وانتفع بها الناس، وشبه من تحمله ولم يتفقه بالأرض الصلبة التي لا تنبت، ولكنها تمسك الماء، فيأخذه الناس، وينتفعون به، وشبه من لم يفهم، ولم يحمل بالقيعان التي لا تنبت، ولا تمسك الماء، فهو الذي لا خير فيه»[3].

قال ابن القيم: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان قوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر؛ فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرًا؛ فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله، كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر إلى معرفة براءته وصدقه[4].

وكما توصل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بقوله للمرأة التي حملت كتاب

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٩٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل من عَلِم وعَلم، ١/ ٢٧، رقم ٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب القضائل، باب مثل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٢٨٢، ٤/ ١٧٨٧.
(٣) انظر: شرح السنة ١/ ٢٨٩.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٩٦.

حاطب ما أنكرته: (لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها)[1].

إلى استخراج الكتاب منها[2].

وعن أبي جحيفة، قال: قلت لعلي بن أبي طالبٍ: هل عندكم كتابٌ؟ قال: (لا، إلا كتاب الله، أو فهمٌ أعطيه رجلٌ مسلمٌ، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلمٌ بكافرٍ)[3].

وهنالك ضوابط يتحقق بها الفهم الصحيح، حينما يحرص عليها الإنسان سيكون قادرًا على الإفادة من هذه النعمة العظيمة في حياته، ومن تلك الضوابط:

- التريث وعدم الاستعجال في تفسير ما يسمع المرء، أو يقرأ من الأقوال.
- التأمل فيما سمع أو قرأ حتى يتمكن من الوصول إلى المعنى المراد.
- إعادة الاستماع، أو القراءة أكثر من مرة، حتى يتمكن الإنسان من الفهم الصحيح.
- استخدام ميزان (حسن الظن) و(سلامة الصدر) في الحكم على الأقوال والأفعال.
- مراقبة الله عز وجل والخوف منه، وهذا ضابط مهم يكتنف الضوابط الأخرى ويوجهها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، ٤/ ٥٩، رقم ٣٠٠٧، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أهل بدر، ٤/ ١٩٤١، رقم ٢٤٩٤.

(٢) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ١/ ٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم ١١١، ١/ ٣٣.

نسبة الفقه للقلوب

لقد نسب الله الفقه للقلوب في أكثر من آية، ليدلل على أن محل الفقه والفهم والتدبر هي القلوب، ومن هذه الآيات:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩].

يبين المولى عز وجل في هذه الآية كيف أنه خلق النار-التي يعذب الله فيها من يستحق العذاب في الآخرة-كثيرًا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يعقلون بها، فلا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته، ولهم آذان لا يسمعون بها آيات كتاب الله فيتفكروا فيها، هؤلاء كالبهائم التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تفهم ما تبصره، ولا تعقل بقلوبها الخير والشر فتميز بينهما، بل هم أضل منها؛ لأن البهائم تبصر منافعها ومضارها وتتبع راعيها، وهم بخلاف ذلك، أولئك هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته[1].

قال المراغي في تفسيره: «أي إنهم لا يفقهون بقلوبهم ما تزكو به أنفسهم من توحيد الله المبعد لها عن الخرافات والأوهام وعن الذلة والصغار، فإن من يعبد الله وحده تسمو نفسه بمعرفته فلا تذل بدعاء غيره ولا الخوف منه ولا الرجاء فيه والاتكال عليه، بل يطلب من الله ما يحتاج إليه، فإن كان مما أقدر الله عليه خلقه بإعلامهم بأسبابه وتمكينهم منها طلبه بسببه مع مراعاة سننه في خلقه، وإن لم يكن كذلك توجه إلى الله لهدايته إلى العلم بما لم يعلم من سببه وإقداره على ما يقدر عليه من وسائله أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه كالأطباء لمداواة الأمراض، وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال، والعلماء الراسخين للفتوى في المسائل العلمية وحل إشكال ما غمض من حقيقتها، ولا يتوجه في طلبه إلى غير ما يعرف البشر من الأسباب المطردة كالرقى والعزائم والتبخيرات وكرامات الصالحين من الأحياء والأموات والدعاء إليهم بما يعد من العبادات فالله يقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

ويقول: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام:٤١].

كما لا يفقهون بقلوبهم الحياة الروحية واللذات المعنوية الموصلة إلى السعادة الأبدية: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم:٧].

.ولا يفقهون أن ترك الشرور والمنكرات

(١) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص١٧٤.

والحرص على فعل الخيرات هو مناط السعادة فى الدنيا والآخرة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتربية البدنية الصحيحة. ولا يفقهون سنن الله فى الاجتماع وتأثير العقائد الدينية فى جمع الكلمة وقوة الجماعة ولا سيما فى عهد النبوات ورمن المعجزات، ولا يفقهون معنى الآيات الإلهية فى الأنفس والآفاق ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علمية وكونية وما أودعه منها كتابه»[1].

وقال الزمخشري في تفسيره: « ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسماعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان، وجعلهم -لإعراقهم في الكفر وشدة شكائمهم فيه، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار- مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار»[2].

وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن محل العلم هو القلب؛ لأنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم في معرض الذم، مما يدل على أن محل الفهم والفقه هو القلب[3].

وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون:٣].

يبين المولى عز وجل حال هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم بالله ورسوله جنة، ثم كفروا بشكهم في ذلك وتكذيبهم به[4].

أي: ما نعي عليهم من مساوئهم بأنهم آمنوا أي ظاهرًا ثم كفروا أي سرًا فطبع على قلوبهم أي ختم عليها بما مرنوا عليه من التلون والتذبذب ورسوخ الهيئات المنكرة، فحجبوا عن الحق فهم لا يفقهون أي حقية الإيمان، وحكمة الرسالة والدين[5].

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

تبين الآية أن الذي ينفع عند الله والذي ينجو به العبد من العقاب ويستحق جزيل الثواب يوم القيامة القلب السليم، ومعناه الذي سلم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته

(١) تفسير المراغي ٩/ ١١٣- ١١٤.
(٢) الكشاف ٢/ ١٧٩.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ١٧١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٩٤.
(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٢٣٥.

تابعة لمحبة الله وهواه تابعًا لما جاء عن الله[1].

وعن النعمان بن بشيرٍ، قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ألا وإن في الجسد مضغةً:إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[2].

فيه أن العقل والفهم إنما هو فى القلب وموطنه، وما فى الرأس منه إنما هو عن القلب ومنه سببه[3].

وجاء في شرح هذا الحديث «فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه المحرمات واتقاءه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإذا كان قلبه سليما، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوق للشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات.

وإن كان القلب فاسدًا، قد استولى عليه اتباع هواه، وطلب ما يحبه، ولو كرهه الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب، ولهذا يقال:القلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له، منبعثون في طاعته، وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحا كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدًا كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم»[4].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم ١٥٩٩، ٢/١٢١٩.

(٣) انظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال ١/١١٧.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/ ٢١٠.

مجالات الفقه

إن مجالات الفقه متعددة ومتنوعة، ومن هذه المجالات:

أولًا: عظمة الله والإيمان به:

لا شك أن من أعظم مجالات الفهم والمعرفة التفكر في عظمة الله تعالى وتقديسه وتنزيهه عن كل ما لايليق به سبحانه، والإيمان به.

قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤].

ففي هذه الآية ينزه الله عز وجل نفسه عما وصفه به المشركون من خلال بيان أن السماوات السبع والأرض ومن فيهن من المؤمنين به من الملائكة والإنس والجن، يعظمون الله ويجلونه، وأنتم أيها المشركون مع إنعامه عليكم، وجميل أياديه عندكم، تفترون عليه بما تفترون، وأنه ما من شيء من خلقه إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ما عدا تسبيح من كان يسبح بمثل ألسنتكم.

ثم بين المولى عز وجل حلمه فهو لا يعجل بالعقوبة على خلقه، الذين يخالفون أمره، ويكفرون به، ولولا ذلك لعاجل هؤلاء المشركين الذين يدعون معه الآلهة والأنداد بالعقوبة فهو الحليم الغفور الذي يستر عليهم ذنوبهم، إذا هم تابوا منها بالعفو منه لهم[1].

وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

أي:الله هو الذى يستحق أن يعبد دون سواه، وهو الباقى القائم على شئون خلقه دائمًا، الذى لا يغفل أبدًا، فلا يصيبه فتور ولا نوم ولا ما يشبه ذلك لأنه لا يتصف بالنقص فى شئ، وهو المختص بملك السموات والأرض لا يشاركه فى ذلك أحد، وبهذا لا يستطيع أى مخلوق كان أن يشفع لأحد إلا بإذن الله، وهو سبحانه وتعالى محيط بكل شئ عالم بما كان وما سيكون، ولا يستطيع أحد أن يدرك شيئًا من علم الله إلا ما أراد أن يعلم به من يرتضيه، وسلطانه واسع يشمل السموات والأرض، ولا يصعب عليه تدبير ذلك لأنه المتعالى عن النقص والعجز، العظيم بجلاله وسلطانه[2].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٥٥.

(٢) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص ٦١.

ثانيًا: القرآن:

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأول والمرجع الأساس في الفقه والعلم والمعرفة؛ لأنه كلام الله الذي لا يدانيه كلام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء:٩].

« هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقوامًا وأجيالًا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان. يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة.

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض:أفرادا وأزواجا، وحكومات وشعوبًا، ودولًا وأجناسًا، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض، الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها، وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام»[1].

ولهذا نجد أن المولى عز وجل عاقب

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢١٥.

الكفار والمشركين بأن جعل على قلوبهم أغطية حتى لا تفقه القرآن؛ لأنهم لا يستحقون هذه النعمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام:٢٥].

والمعنى والمقصد من هذه الآية أن مشركي مكة كانوا في أعجز موقف، حين حاولوا رد الحق القرآني بالدعوى المجردة، ومنهم فريق كانوا يستمعون للنبي صلى الله عليه وسلم وهم في أشد حالات الغباء وصمم الآذان، يرون الآيات الناطقة بالحق فلا يؤمنون بها.

وإذا جاؤوا للمجادلة أي المقابلة في الاحتجاج، قابلوا بدعوى مجردة فارغة من البرهان المقبول، والعقل السليم لأن الله تعالى -بسبب عنادهم وإصرارهم على شركهم- جعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن، وفي آذانهم ثقلا أو صمما عن السماع النافع لهم، كما شبههم القرآن بحال الطيور الناعقة بما لا تعي ولا تفهم.

لقد حُجِزُوا عن فهم القرآن وقبوله وتدبر معانيه بسبب التقليد الأعمى للأسلاف، وإعراضهم الناشئ عن تصميم وعناد وحزم ألا ينظروا فيما يسمعون نظرة تأمل وإمعان، ليميزوا بين الحق والباطل[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة:١٢٧].

أي: «وإذا أنزلت سورة قرآنية فيها فضيحة أسرارهم، تعجبوا وتأملوا وتسللوا من مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وتلفتوا متغامزين قائلين:هل يراكم الرسول أو المؤمنون إذا خرجتم؟! ثم ينصرفون عن طريق الاهتداء، ويتولون عن الحق، فهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه، ولا يفهمون شيئا عن الله ولا عن رسوله، ومن أعرض عن ساحة الإيمان والخير، أعرض الله عنه، وصرف الله قلوبهم عن الحق والإيمان، وعن الخير والنور، وهذا إما دعاء عليهم به، أو إخبار عن أحوالهم، وذلك الصرف الإلهي بسبب أنهم قوم لا يفهمون الآيات التي يسمعونها، ولا يريدون فهمها، ولا يتدبرون فيها حتى يفقهوا، بل هم في شغل عن الفهم ونفور منه»[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء:٤٦].

أي: صيرنا وأنشأنا أكنة تكون غلافًا

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٥٣٩.
(٢) المصدر السابق ١/ ٩٣٤.

مانعًا قلوبهم عن أن تدرك وتصل إلى النور، وجعلنا في آذانهم صممًا وثقلًا يمنعها من أن تستمع إلى القرآن الحق، فالأكنة تمنع أن يفقهوه لأن غلافًا وضع بينها وبين النور، فلم تدرك وتتدبر في بلاغته، ومعانيه، وقصصه، وعبره، وما فيه من نور الحق فلا تراه، وجعلنا في آذانهم وقرًا عن سماع القرآن وتذوق ألفاظه ونغمه، وجمال عباراته ونسق بيانه.

ويصح أن نقول إن الكلام السامي ممثل لحالهم في عدم فقههم للقرآن، وعدم سماعهم لآياته سماع فهم وتدبر وتعرف لبلاغته بحال من جعل الله تعالى على قلبه غشاوة فلا يصل إلى الحق، وحال من في آذانه ثقل فلا يسمع[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٧].

ولا أحد أشد ظلمًا ممن وعظ بآيات ربه الواضحة، فانصرف عنها إلى باطله، ونسي ما قدمته يداه من الأفعال القبيحة فلم يرجع عنها، إنا جعلنا على قلوبهم أغطية، فلم يفهموا القرآن، ولم يدركوا ما فيه من الخير، وجعلنا في آذانهم ما يشبه الصمم، فلم يسمعوه ولم ينتفعوا به، وإن تدعهم إلى الإيمان فلن يستجيبوا لك، ولن يهتدوا إليه أبدًا[2].

جاء في تفسير الشعراوي: «﴿يَفْقَهُوهُ﴾ يفهموه، يفهموا آيات الله؛ لأنهم سبق أن ذكروا بها فأعرضوا عنها، فحرمهم الله فقهها وفهمها، وقوله تعالى: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا..﴾ أي:صمم فلا يسمعون، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ وهذا أمر بدهي، بعد أن ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم، وسد عليهم منافذ العلم والهداية؛ لأن الهدى ناشئ من أن تسمع كلمة الحق، فيستقبلها قلبك بالرضا، فتنفعل لها جوارحك بالالتزام، فتسمع بالأذن، وتقبل بالقلب، وتنفعل بالجوارح طاعةً والتزامًا بما أمرت به، وما دام في الأذن وقر وصممٌ فلن تسمع، وإن سمعت شيئًا أنكره القلب، والجوارح لا تنفعل إلا بما شحن به القلب من عقائد»[3].

ثالثًا: كلام الرسل:

إن كلام الرسل يعتبر من أعظم المجالات للفقه والفهم والاعتبار والاتعاظ كيف لا وهم خير خلق الله، وقد أمرنا الله سبحانه

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٣٩٣-٤٣٩٤.

(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٣٠٠.

(٣) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٤٤.

وتعالى باتباعهم والإيمان بهم، وعدم التفريق بينهم، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

وعن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فضلت على الأنبياء بستٍ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافةً، وختم بي النبيون)[1].

قال الله تعالى وهو يبين كفر قوم شعيب حين ردوا على نبيهم عليه السلام قوله واستخفوا به، فكانت سببًا في انتقام الله منهم.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود:٩١].

في هذه الآية يحدثنا المولى عز وجل عن رد قوم شعيب عليه السلام عليه حين دعاهم للإيمان والتوحيد، فقالوا يا شعيب ما نفهم كثيرًا مما تقول كوجوب التوحيد، وحرمة البخس، وما ذكرت دليلًا عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكرهم، وقيل قالوا ذلك استهانة بكلامه، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم عنه، وأنك ضعيف لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوءًا، أو مهينًا لا عز لك، ولولا قومك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم، فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى التسعة، لقتلناك برمي الأحجار أو بأصعب وجه، وما أنت علينا بعزيز فتمنعنا عزتك عن الرجم، وهذا ديدن السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب، والتهديد[2].

وقال الله تعالى وهو يبين دعوة موسى عليه السلام ربه أن يحل عقدة من لسانه من أجل أن يفقه القوم قوله، فقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٧-٢٨].

وكان في لسانه عليه السلام ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون، وقد أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام قوله: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤].

فسأل الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة، والبيان عن المعاني[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد، ٩/ ٣٦، رقم ٧٠١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ١/ ٣٧١، رقم ٥٢٣.

(٢) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٣/ ١٤٦.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص

قال ابن كثير: «وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢]. أي:يفصح بالكلام»[1].

وقال تعالى في معرض حديثه عن نوح عليه السلام وهو يدعو قومه قائلا لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف:٦١-٦٢].

فقال: « ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي: لست ضالًا في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه، أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة.

ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي:ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربى جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلا تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها.

ولهذا قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي:وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيده وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون[2].

وقال تعالى وهو يتحدث عن النبي صالح عليه السلام: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١].

أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا، فقال لهم:يا قوم اعبدوا الله وحده ليس لكم من إله يستحق العبادة غيره جل وعلا، فأخلصوا له العبادة، هو الذي بدأ خلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم منها، وجعلكم عمارا لها، فاسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم، وارجعوا إليه بالتوبة النصوح. إن ربي قريب لمن أخلص له العبادة، ورغب إليه في

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٨٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٩٣.

التوبة، مجيب له إذا دعاه[1].

وقال تعالى مبينا كيفية مناظرة إبراهيم عليه السلام للنمرود فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨].

ألم تر إلى من عمى عن أدلة الإيمان وجادل إبراهيم خليل الله فى ألوهية ربه ووحدانيته، وكيف أخرجه غروره بملكه -الذى وهبه ربه- من نور الفطرة إلى ظلام الكفر فعندما قال له إبراهيم:إن الله يحيى ويميت، بنفخ الروح فى الجسم وإخراجها منه، قال:أنا أحيى وأميت بالعفو والقتل، فقال إبراهيم ليقطع مجادلته:إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب إن كنت إلها كما تدعى.

فتحير وانقطع جدله من قوة الحجة التى كشفت عجزه وغروره، والله لا يوفق المصرين المعاندين لاتباع الحق[2].

وهكذا نجد أن في أقوال الرسل مجالا واسعًا للعلم والمعرفة والهداية لأحسن السبل، كما أن فيها العبرة والموعظة الحسنة في جميع مناحي الحياة.

رابعًا: الآيات الكونية:

النظر في الآيات الكونية والتفكر والتدبر فيها يعتبر من مجالات الفقه والمعرفة، كما قال تعالى في آخر سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران:١٩٠].

قال الرازي في تفسيره: « اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال، فذكر هذه الآية»[3].

قال ابن عميرٍ لعائشة رضي الله عنها: (أخبرينا بأعجب شيءٍ رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلةٌ من الليالي، قال: (يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي) قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم

(١) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٢٢٨.

(٢) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ٦٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٥٨.

يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلالٌ يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟، قال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آيةٌ، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩٠]) الآية كلها[1].

وكما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

قد تعددت تأويلات المفسرين في هذه الآية حيث قالوا: إنها عنت آيات الله ودلائل وحدانيته وربوبيته في مختلف مشاهد الكون ونواميسه، وفي تركيب أجسامهم أنفسهم، كما قالوا إنها عنت ما تحقق من وعد الله ووعيده بما كان من هلاك طواغيت الكفر منهم في بدر وغيرها وفتح مكة، واعتراف جمهور العرب بأن الإسلام هو دين الحق، ودخولهم فيه ثم انتصار الإسلام، وانتشاره في آفاق الدنيا.

وكلا القولين وجيه ووارد، والقول الثاني متسق مع البشائر والتطمينات القرآنية العديدة[2].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام:٦٥].

يبين المولى سبحانه وتعالى أنه هو وحده القادر على أن يبعث عليكم في أي وقت يريده عذابًا من فوقكم بإسقاط السماء قطعًا أو شيء منها كالحجارة التي حصب بها قوم لوط وأصحاب الفيل أو بتسليط أكابركم، أو من تحت أرجلكم بالخسف أو إثارة الحيات أو غيرها من الأرض كما وقع لبعض من سلف، أو بتسليط سفلتكم وعبيدكم عليكم، أو أن يجعلكم متفرقين، كل شيعة على هوى، فيكون ذلك سببًا للقتل فيساوي في ذلك بين الحرم وغيره، ويصير التخطف بالنهب والغارات عامًا، كل هذا التصريف في الوجوه البديعة النافعة البليغة ليكون حالهم حال من يرجى فهمه وانتفاعه به، كان هذا العذاب أو القرآن المشتمل على الوعد والوعيد والأسباب المبينة للخلق جميع ما ينفعهم ليلزموه وما يضرهم ليحذروه[3].

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب التوبة، رقم ٦٢٠، ٢/ ٣٨٦.
وجود إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ١٤٧.

(٢) انظر: التفسير الحديث، عزة دروزة ٤/ ٤٣٣.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٧/ ١٤٣- ١٤٥.

﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام:٩٨].

أي: الله هو الذي أنشأكم من نفس واحدة هو آدم عليه الصلاة والسلام، فلكم استقرار في الأصلاب، أو فوق الأرض واستيداع في الأرحام، أو تحت الأرض أو موضع استقرار واستيداع، فمنكم قار ومنكم مستودع، لأن الاستقرار منا دون الاستيداع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ذكر مع ذكر النجوم يعلمون لأن أمرها ظاهر، ومع ذكر تخليق بني آدم يفقهون لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر[1].

وقال الله تعالى وهو يحدثنا عن نوح عليه السلام وهو يدعو قومه للتوحيد: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح:١٥-٢٠].

«ما لكم لا تخشون الله وقدرته على كل شيء؟ وما لكم لا ترهبون سطوته فتؤمنوا به وتصدقوا برسله؟ وهو القادر على كل شيء، وهو الذي خلقكم في أطوار مختلفة وفي أحوال تكاد تكون متباينة، ألم يخلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم أخرجكم أطفالا ثم كنتم شيوخا، أليس صاحب هذا بقادر على كل شيء فما لكم لا تخافون عظمة الله؟ ولا تؤمنون بيوم القيامة! ثم لفت نظرهم إلى هذا الكون بعد أن نبههم إلى ما في أنفسهم من آيات فقال:ألم تروا السماء كيف خلقت؟ لقد خلقها الله سبع سموات طباقا، ما ترى فيها من نقص ولا تفاوت، وجعل القمر في إحداهن نورًا، وجعل الشمس في أخرى سراجًا وهاجًا.

يا سبحان الله لقد جعل الحكيم العليم للقمر نورًا، وللشمس سراجًا، لأن الدنيا ستصبح بنور الشمس على أنه نور قوى شديد، ونور القمر بسيط يضيء في الليل نوعا ما، وهو نور منعكس ليس من ذات القمر، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس:٥].

وقد توصل العلم إلى بعض الحقائق الثابتة في كتاب الله ثم لفت نظرهم إلى أنفسهم فقال: والله أنبتكم من الأرض نباتًا نعم هو خلقنا من تراب، فعناصرنا المادية تراب مخلوط بماء، ثم كانت النطفة، والنطفة خلاصة الدم، والدم من الغذاء والغذاء من الأرض، فالله سبحانه أنبت

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ١٧٤.

الإنسان من الأرض نباتا كالشجر، ولكنه ميزه عنه بالحياة الحيوانية، ثم كمله بالعقل والتفكير، وشرفه بالرسالات الإلهية، فما لكم لا تؤمنون، لأى سبب تكفرون.

ثم بعد هذا يعيدكم إلى الأرض أمواتا، ثم يخرجكم منها إخراجا للبعث والجزاء ثم لفت نظرهم إلى الأرض التي أقلتهم فقال:لقد جعلت لكم الأرض بساطًا، فهي ممهدة للعيش، ميسرة سهلة للانتقال، لتسلكوا منها طرقا واسعة توصلكم إلى أغراضكم»[1].

وقال الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمن:١٩-٢١].

والمراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر الملح. والبرزخ: الحاجز الذي يحجز بينهما، بقدرة الله تعالى. والمعنى: خلق الله تعاليالبحرين، وأرسلهما بقدرته في مجاريهما، بحيث يلتقيان ويتصل أحدهما بالآخر، ومع ذلك لم يختلطا، بل يبقى المالح على ملوحته. والعذب على عذوبته، لأن حكمة الله قد اقتضت أن يفصل بينهما، بحواجز من أجرام الأرض، أو بخواص في كل منهما، تمنعهما هذه الخواص وتلك الحواجز، من أن يختلطا، ولولا ذلك لاختلطًا وامتزجًا، وهذا من أكبر الأدلة على قدرة الله تعالى، ورحمته بعباده، إذ أبقى الله تعاليالمالح على ملوحته، والعذب على عذوبته، ليتنفع الناس بكل منهما في مجال الانتفاع به فالماء العذب يتنفع به في الشراب للناس والدواب والنبات والماء الملح ينتفع به في أشياء أخرى، كاستخراج الملح منه، وفي غير ذلك من المنافع ومن بديع صنع الله في هذا الكون، أنك تشاهد البحار الهائلة على سطح الأرض، والأنهار الكثيرة، ومع ذلك فكل نوع منهما باق على خصائصه، مع أن كلا منهما قد يلتقي بالآخر. والمراد بالبرزخ بينهما: الفاصل بين الماءين: الحلو والملح بحيث لا يغير أحد البحرين طعم الآخر بجواره وذلك بسبب ما في كل منهما من خصائص تدفع عنه اختلاط الآخر به وهذا من مسائل الثقل النوعي[2].

قال سيد قطب في تفسيره: «والبحران المشار إليهما هما البحر المالح والبحر العذب، ويشمل الأول البحار والمحيطات، ويشمل الثاني الأنهار. ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان، ولكنهما لا يبغيان، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر، ووظيفته المقسومة، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله.

وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ٧٥٤-٧٥٥.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٣٦.

الأرضية لم يجئ مصادفة ولا جزافا. فهو مقدر تقديرا عجيبا. الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ويشغل اليابس الربع. وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائما صالحا للحياة. وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور-ومعظمها سام-فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع-ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء-أي المحيط-ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس وهي التي تعود فتسقط أمطارا يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله. وأعظمها الأنهار.

والتوافق بين سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذي ينشأ عنه المطر الذي تتكون منه كتلة الماء العذب. وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة، من نبات وحيوان وإنسانوتصب جميع الأنهار-تقريبا-في البحار. وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها. ومستوى سطوح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح، فيحولها عن وظيفتها ويبغي على طبيعتها! وبينهما دائما هذا البرزخ من صنع الله. فلا يبغيان»[1].

وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات:٢٧-٣٣].

أي: أبعثكم -أيها الناس- بعد الموت أشد في تقديركم أم خلق السماء؟ رفعها فوقكم كالبناء، وأعلى سقفها في الهواء لا تفاوت فيها ولا فطور، وأظلم ليلها بغروب شمسها، وأبرز نهارها بشروقها. والأرض بعد خلق السماء بسطها، وأودع فيها منافعها، وفجر فيها عيون الماء، وأنبت فيها ما يرعى من النباتات، وأثبت فيها الجبال أوتادًا لها. خلق سبحانه كل هذه النعم منفعة لكم ولأنعامكم.

إن إعادة خلقكم يوم القيامة أهون على الله من خلق هذه الأشياء، وكله على الله هين يسير[2].

خامسًا: الأحكام الشرعية:

تعتبر الأحكام الشرعية مجال من مجالات الفقه والفهم والتدبر لما تضمنته

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٥٢- ٣٤٥٣.
(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٥٨٤.

من حكم وفوائد وعلل.

ففي فريضة الصلاة: قال الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥]

أي: اتل ما أنزل إليك من هذا القرآن، واعمل به، وأد الصلاة بحدودها، إن المحافظة على الصلاة تنهى صاحبها عن الوقوع في المعاصي والمنكرات؛ وذلك لأن المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها، يستنير قلبه، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، ولذكر الله في الصلاة وغيرها أعظم وأكبر وأفضل من كل شيء. والله يعلم ما تصنعون من خيرٍ وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه[1].

وفي فريضة الصيام: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣]

أي:يا أيها الذين آمنوا فرض عليكم الصيام كما فرض على الذين من قبلكم حيث كان الصوم مفروضًا على من تقدمنا من الأمم لعلكم بسبب هذا الصيام تتقون الله تعالى، وتخشون غضبه، وتعملون بأوامره؛ ومن هذا يعلم أن الصيام يبعث على الإيمان الصادق، ويرقق القلب، ويصفي النفس، ويعين على خشية الله تعالى؛ ولذا استعان به الأنبياء في تحقيق مآربهم، والأولياء في تهذيب نفوسهم، والخاصة في شفاء قلوبهم، والعامة في شفاء جسومهم[2].

وفي حكم القصاص قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة:١٧٩]

أي: وفي شرع القصاص لكم-وهو قتل القاتل-حكمة عظيمة لكم، وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة النفوس. وفي الكتب المتقدمة:القتل أنفى للقتل. فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز[3].

وفي مجال تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة:٩٠]

أي: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إنما الخمر:وهي كل مسكر يغطي العقل، والميسر:وهو القمار، وذلك يشمل المراهنات ونحوها، مما

(١) انظر: المصدر السابق ص ٤٠١.

(٢) انظر: أوضح التفاسير ص ٣٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٢.

فيه عوض من الجانبين، وصدٌّ عن ذكر الله، والأنصاب:وهي الحجارة التي كان المشركون يذبحون عندها تعظيمًا لها، وما ينصب للعبادة تقربًا إليه، والأزلام:وهي القداح التي يستقسم بها الكفار قبل الإقدام على الشيء، أو الإحجام عنه، إن ذلك كله إثمٌ من تزيين الشيطان، فابتعدوا عن هذه الآثام، لعلكم تفوزون بالجنة[1].

وفي مجال آداب الاستئذان: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾ [النور:٢٧].

النداء للذين آمنوا، وفي ذلك إشارة إلى ما يطلبه سبحانه من خواص أهل الإيمان، وهو من الأدب الذي يناسب إيمانكم وهو عدم التهجم على الأسر، وتكشف أستارها، وتحاشى إزعاجها، فعليكم أن تطلبوا الأنس بأهلها وتزيلوا الوحشة التي تحدثها المفاجأة، والسين والتاء للطلب، وقيل حتى تستأذنوا ونقول:الاستئناس أدق في التعريف وأدل على الاستعلام، لأن الاستئذان الإذن المجرد، وتتحقق الإجابة بالإذن، أما الاستئناس فطلب الأنس وإزالة الوحشة، وذلك لا يتحقق بمجرد الإذن بل لابد لتحققه من إيجاد الألفة، وهو يتضمن في تحقيق طلب الإذن، والاستجابة بالإذن فعلًا.

وإن هذا يتضمن في معناه ومغزاه النهي عن التجسس والتحسس، وظن السوء، وأنه يجب أن يظن خيرًا.

وإنه من تمام الاستئناس السلام، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يدخل بيتا سلم ثلاث مرات، ولا يكتفي بسلام واحد إعلامًا لمن يدخل عليهم، واستئناسًا لهم، وإزالة لوحشة المفاجأة[2].

كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الاستئذان ثلاثٌ، فإن أذن لك، وإلا فارجع)[3].

وفي مجال أحكام القتال: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ ﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

أي:إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفًا فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزمًا إلا في حال التوجه إلى

(١) انظر: التفسير الميسر ص ١٢٢.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٧٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب الإستئذان، ٣/ ١٦٩٦، رقم ٢١٥٤.

قتال طائفة أخرى، أو بالفر للكر بأن يخيل إلى عدوه أنه منهزم ليغره مكيدة وهو من باب «الحرب خدعة» أو منضمًا إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم فقد رجع بسخطٍ عظيم ومقره ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم وبئس المرجع والمآل[1].

وسائل تحصيل الفقه

وسائل تحصيل الفقه متعددة وكثيرة يمكن تلخيصها في الآتي:

١. التعلم على أيدي الراسخين في الفقه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

أي: وما كان ينبغي للمؤمنين في غير النفير العام أن يخرجوا جميعًا للقتال، فلولا نفر وخرج للقتال من كل فرقة كبيرة كالقبيلة أو البلد جماعة قليلة يقدر عددها بقدر الظروف والملابسات، وذلك ليتأتى للمؤمنين في جملتهم التفقه في الدين والوقف على أسرار التنزيل، فيكون حول النبي صلى الله عليه وسلم جماعة يتعلمون منه الأحكام، ويأخذون عنه القرآن حتى إذا ما رجع المجاهدون من الميدان بلغوهم ما نزل من القرآن وأوقفوهم على ما جد من الأحكام، وذلك كله رجاء أن يحذروا عقاب الله ويخافوا بطشه.

ومن هنا نعلم أن الآيات تشير إلى وجوب الجهاد العام إذا ما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وكذا الحاكم العام للغزو،

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٤٦١.

أي: في حالة النفير العام وهذه تقدر بظروفها أما في غيرها فيخرج للجهاد بعض الشعب لا كله، وتشير الآية إلى أن تعلم العلم أمر واجب على الأمة جميعًا وجوبًا لا يقل عن وجوب الجهاد والدفاع عن الوطن واجب مقدس، فإن الوطن يحتاج إلى من يناضل عنه بالسيف وإلى من يناضل عنه بالحجة والبرهان، بل إن تقوية الروح المعنوية، وغرس الوطنية وحب التضحية، وخلق جيل يرى أن حب الوطن من الإيمان، وأن الدفاع عنه واجب مقدس. هذا أساس بناء الأمة، ودعامة استقلالها.

وتشير الآية الكريمة إلى أن غاية طلب العلم هو التفقه في الدين، وفهم أسراره فهما تصلح به نفس العالم حتى يكون ربانيًا وقرآنيًا، وأن أثر ذلك في الخارج هو الدعوة إلى الله، وإنذار قومك إذا رجعت إليهم، فتعلمهم، وتثقفهم، وتهديهم، وتربيهم على حب الخير، وعلى حب العمل والجد، وأن الله يحب المؤمن القوى في نفسه وعقله وخلقه وعلمه وبدنه، وهذه هي مهمة الرسل الكرام.

وإن وضع الآية التي تشير إلى العلم والتعلم في وسط آيات الجهاد والقتال لمن المعجزات التي كشف عنها هذا العصر، فإن الحروب اليوم تعتمد على العلم والفقه الحربي أكثر مما تعتمد على السلاح[1].

وفي هذه الآية أيضا دليل وإرشاد وتنبيه لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدا واحدا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور[2].

دلت الآية على الأحكام التالية:

١. الجهاد فرض كفاية، وليس فرض عين، إذ لو نفر الكل لتعطلت مصالح الأمة، وتضررت الأسر والأولاد، فليخرج فريق من المسلمين للجهاد، وليقم فريق يتفقهون في الدين، ويحفظون الحريم، ويصونون مصلحة البلاد، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع.

٢. وجوب طلب العلم، والتفقه في القرآن والسنة، وهو فرض على الكفاية لا على الأعيان بدليل قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي ٢/ ٣٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٥.

[النحل:٤٣]، وعن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضةٌ على كل مسلمٍ)[١]. والطائفة وإن أطلقت على الاثنين والواحد في اللغة، فلا شك إن المراد بها هنا جماعة لقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ فجاء بضمير الجماعة، ولأن العلم لا يتحصل بواحد في الغالب.

٣. يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق، وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم لأن الآية أمرت بإنذارهم إلى الدين الحق، وعليهم أن يحذروا الجهل والمعصية، ويرغبوا في قبول الدين، فغرض المعلم الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلم اكتساب الخشية.

وطلب العلم ينقسم قسمين:

- فرض على الأعيان؛ كالصلاة والزكاة والصيام.
- وفرض على الكفاية؛ كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه.

وطلب العلم فضيلة عظيمة، ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل، عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)[٢].

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍ وافرٍ)[٣][٤].

٢. التفكر والتدبر.

ومنه قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

القرآن فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم ٢٢٤، ١/ ٨١. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٢٧، رقم ٣٩١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم ١٠٣٧، ٢/ ٧١٨.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل العلم على العبادة، رقم ٢٦٨٤، ٥/ ٤٨.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١١/ ٧٨-٨٠.

إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله.

أنزله الله ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

وأولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب[1].

٣. الجد والاجتهاد.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم:١٢].

أي: يا يحي خذ الكتاب بجد واجتهاد، وتفهم لمعناه على الوجه الصحيح، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب، فإن بركة العلم في العمل به، وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا فهم الكتاب، والعمل بأحكامه[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩].

أي: الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، لنرشدهم إلى الطرق الموصلة إلينا.

دلت الآية على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين[3].

٤. الدعاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه:١١٤].

ولما كانت عجلته صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الطنطاوي ٩/ ٢٠.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٦.

على تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير وكثرة الخير مطلوبة وهي من الله والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت[1]، قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: (اللهم فقهه في الدين)[2].

٥. التخلي عن الذنوب والمعاصي.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

أي: واتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، وهو سبحانه يعلمكم ما فيه صلاح حالكم في الدارين وحفظ أموالكم، ولولا هديه لكم لم تعلموا شيئا، وهو العليم بكل شيء، فإذا شرع شيئًا من الأحكام فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد، وجلب المصالح لمن اتبع شرعه وهداه[3].

جاء في تفسير الماتريدي: « علم الموهبة، ويقصد به العلم اللدني الرباني، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف:٦٥].

الذي يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، ويفتح قلبه لفهم أسراره، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فهو ثمرة التقوى والإخلاص، ولا ينال هذا العلم من كان في قلبه بدعة أو كبر أو حب للدنيا أو ميل إلى المعاصي، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦].

وما أجمل قول الشافعي رحمه الله:قال الإمام الشافعي رضي الله عنه ورحمه:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي»[4].

(١) انظر: المصدر السابق ص ٥١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، ١/ ٤١، رقم ١٤٣.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٣/ ٧٧.

(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٢٧٥.

موانع الفقه

لا شك أن الفقه نعمة من الله عز وجل لا يعطاها إلا من أخلص العبادة لله والتزم الطاعات واجتنب المحرمات، ولهذا ينبغي لمن أراد الحصول على الفقه والفهم أن يبتعد عن كل أسباب وموانع الفقه وهي كثيرة ومتعددة يمكن أن نجملها في الأمور الآتية:

١. الكفر.

إن أعداء الإسلام من كفار ومشركين في كل زمان ومكان قد حرموا من نعمة الفقه والفهم؛ لأنهم يعادون الله ويحاربون أوليائه ظنًا منهم أنهم بهذا يحققون السعادة لأنفسهم من خلال استغلال ثروات بلاد المسلمين واستعمارها، وقد غفل هؤلاء أن الحرب على الله ورسله هي حرب خاسرة وأن معيشتهم ستكون ضنكا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال:٦٥].

يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال، وحثهم عليه حثًا شديدًا حتى يبذلوا النفس والنفيس في سبيل الله طيبة نفوسهم بهذا، وذلك ببيان فضيلة الجهاد وأنهم ينتظرون في الجهاد إحدى الحسنيين:إما الشهادة، ويا لها من شرف!! وإما الغنيمة والنصر. واعلموا أن الواجب عليكم أن الواحد يقاتل عشرة من الكفار، إذ هناك فرق شاسع بين من يقاتل عن عقيدة ثابتة ونفس مطمئنة، وبين من يقاتل مكرها أو مأجورا أو لغرض دنيوى بسيط.

إن يكن منكم عشرون صابرون محتسبون أجرهم عند الله يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة صابرة على هذا الشرط يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بالله وبرسوله، ولم يؤمنوا بالبعث والجزاء، ذلك بسبب أنهم قوم لا يفقهون الأسرار الحربية ونظامها الذي يكفل النجاح، وهم قوم لا يفقهون عن عقيدة وحجة، ثم هم لا يؤمنون بالبعث[1].

ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال:٦٦].

فأصبح على المجاهد أن يثبت أمام اثنين.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي ١/ ٨٤٣.

[المنافقون:٣].

تبين الآية كيف أن المنافقين حين ارتدوا عن الإيمان وأصبحوا كافرين حرموا من نعمة الفقه، أي:ما نعي عليهم من مساوئهم بأنهم آمنوا، أي:ظاهرًا ثم كفروا، أي:سرًا (فطبع على قلوبهم) أي: ختم عليها بما مرنوا عليه من التلون والتذبذب ورسوخ الهيئات المنكرة، فحجبوا عن الحق فهم لا يفقهون، أي:حقية الإيمان، وحكمة الرسالة والدين[(١)].

٢. النفاق.

إن ظاهرة النفاق من أخبث الظواهر وشرها لما يشكله المنافقون من خطر على الإسلام من حيث مشابهتم للكفار في كفرهم والزيادة عليهم في أنهم يخادعون الله والذين آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة:٨-٩].

وقال الله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقون:٧].

وهذا من شدة عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، والمسلمين لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم، قالوا بزعمهم الفاسد:لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجب، أن يدعى هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور فبين تعالى أنه يؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء، ولكن المنافقين لا يفقهون فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم[(٢)].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٢٧﴾ [التوبة:١٢٧].

وإذا أنزلت سورة قرآنية فيها فضيحة أسرارهم، تعجبوا وتأملوا وتسللوا من مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وتلفتوا متغامزين قائلين:هل يراكم الرسول أو المؤمنون إذا خرجتم؟! ثم ينصرفون عن طريق الاهتداء، ويتولون عن الحق، فهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٢٣٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٥.

يقبلونه ولا يفهمونه، ولا يفهمون شيئًا عن الله ولا عن رسوله، ومن أعرض عن ساحة الإيمان والخير، أعرض الله عنه، وصرف الله قلوبهم عن الحق والإيمان، وعن الخير والنور، وهذا إما دعاء عليهم به، أو إخبار عن أحوالهم، وذلك الصرف الإلهي بسبب أنهم قوم لا يفهمون الآيات التي يسمعونها، ولا يريدون فهمها، ولا يتدبرون فيها حتى يفقهوا، بل هم في شغل عن الفهم ونفور منه[1].

وقال الله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة:٨٧].

وإذا كان أولو الطول والسعة والقوة في أبدانهم قد قالوا ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ولا تستنفرنا في جهادك الذي بعدت فيه الشقة، وعظمت فيه المشقة، فقد ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾، والخوالف جمع خالفة، وهي المرأة المتخلفة عن الجهاد، ويطلق على ما لا خير فيه، أي أنهم رضوا أن يكونوا كالنساء القاعدات في البيوت، والأشياء التي لا خير فيها ولا منفعة، أي رضوا بحياة الدعة والاسترخاء ولو كان معها الذلة، وتركوا حياة الكد والتعب ولو كان فيها العزة.

وقال تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي أنه بهذه الحال وأخواتها، مما فروا فيها من الجهاد فرار الجبناء، فسدت نفوسهم، وأغلقت قلوبهم عن حب الخير والعيش الكريم، وبني للمجهول للإشارة إلى الأسباب المتراكمة التي توالت على نفوسهم، وطبعتها على النفاق، فطبع مع النفاق الذلة والاستهزاء والكذب، وإخلاف الوعد، وإن مدوا أعناقهم للذلة.

إن النفاق يولد الجبن، والجبن يولد المذلة والكذب وكل قبائح النفس، ولذا قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ و (الفاء) تفيد ترتب ما بعدها على ما قبلها؛ لأن طبع القلب على النفاق يفسد الفكر، فلا ينظر إلى عواقب الأمور، ولا ما تنتهي إليه، وأعيد الضمير في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ﴾ لتأكيد وصفهم، وثبوت حالهم، والفقه كما ذكرنا هو العلم بلباب الأمور وغايتها، فهم لم يعرفوا أن موقفهم لو سلك المؤمنون مسلكه لذلوا، ولذهبت ريحهم، ولم يدركوا أنهم بما يفعلون يقون أنفسهم من مشقة الجهاد، ولكن يكونون مهينين في الدنيا، وتنالهم جهنم وبئس المصير[2].

٣. الطبع على القلوب.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٩٣٤.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤٠٣.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام:٢٥].

والمعنى والمقصد من هذه الآية أن مشركي مكة كانوا في أعجز موقف، حين حاولوا رد الحق القرآني بالدعوى المجردة، ومنهم فريق كانوا يستمعون للنبي صلى الله عليه وسلم وهم في أشد حالات الغباء وصمم الآذان، يرون الآيات الناطقة بالحق فلا يؤمنون بها، وإذا جاؤوا للمجادلة أي المقابلة في الاحتجاج، قابلوا بدعوى مجردة فارغة من البرهان المقبول، والعقل السليم لأن الله تعالى-بسبب عنادهم وإصرارهم على شركهم-جعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن، وفي آذانهم ثقلا أو صمما عن السماع النافع لهم.

فمهما رأوا من الآيات البينات والبراهين الصادعة بالحق لا يؤمنوا بها، وصاروا بلا فهم ولا إنصاف، وإذا جاؤوا يحاجون النبي ويناظرونه في الحق وفي دعوته، قالوا قولًا تافهًا: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من أخبار الأولين وأقاصيصهم التي تسطر وتحكى ولا تحقق كالتواريخ، وما هي إلا نوع من خرافات وأباطيل القدماء، وهم بهذا الموقف اللاعقلاني والدعائي بمجرد الأقاويل المبطلة، ينهون الناس عن اتباع الحق الأبلج وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم والانقياد للقرآن، ويبعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون، ولا يتركون غيرهم ينتفع[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦﴾ [الإسراء:٤٦].

أي: صيرنا وأنشأنا أكنة تكون غلافا مانعا قلوبهم عن أن تدرك وتصل إلى النور، وفي آذانهم صمما وثقلا فيها يمنعها من أن تستمع إلى القرآن الحق، فالأكنة تمنع أن يفقهوه؛ لأن غلافا وضع بينها وبين النور، فلم تفقه أي لم تدرك وتتدبر في بلاغته، ومعانيه، وقصصه، وعبره، وما فيه من نور الحق فلا تراه، وجعلنا في آذانهم وقرا عن سماع القرآن وتذوق ألفاظه ونغمه، وجمال عباراته ونسق بيانه.

وإذا ذكرت ربك الذي خلقك وخلقهم وربهم وحده من غير ذكر آلهتهم على أنه المتفرد وحده بالألوهية اعتراهم إعراض أشد، فأعرضوا سائرين على أدبارهم نافرين من الحق، يسارعون بالتولي والإعراض نافرين مدبرين، سائرين بظهورهم لا بإقبالهم، وهذا النص يصور شخصًا رأى شيئًا فهاله ما رأى فولى مدبرًا، رجع مدبرًا نافرًا كأنه رأى شيئًا مخيفًا، اقشعر له بدنه، وهذا يصور مقدار نفورهم من التوحيد

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٥٣٩.

الحق، وإقبالهم على الوثنية الباطلة، فالأوهام التي استكنت في نفوسهم صورت لهم الحق مخوفا مرهوبا، والباطل طيبا حسبوا فيه السلامة وما وراءه إلا الحسرة والندامة وساء ما كانوا يصنعون[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٧].

أي: لا أحد أشد ظلمًا ممن وعظ بآيات ربه الواضحة، فانصرف عنها إلى باطله، ونسي ما قدمته يداه من الأفعال القبيحة فلم يرجع عنها، إنا جعلنا على قلوبهم أغطية، فلم يفهموا القرآن، ولم يدركوا ما فيه من الخير، وجعلنا في آذانهم ما يشبه الصمم، فلم يسمعوه ولم ينتفعوا به، وإن تدعهم إلى الإيمان فلن يستجيبوا لك، ولن يهتدوا إليه أبدًا[2].

٤. عجمة اللسان.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف:٩٣].

قال المفسرون: ذهب ذو القرنين متوجهًا من المشرق، قاصدًا للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، سدًا بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، وجد من دون السدين قومًا، لا يكادون يفقهون قولًا لعجمة ألسنتهم، واستعجام أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية، ما فقه به ألسنة أولئك القوم وفقههم، وراجعهم، وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما أمتان عظيمتان من بني آدم[3].

قال الشعراوي في تفسيره: « أي:لا يعرفون الكلام، ولا يفقهون القول؛ لأن الذي يقدر أن يفهم يقدر أن يتكلم، وهؤلاء لا يقولون كلامًا، ولا يفهمون ما يقال لهم، ومعنى: ﴿لَّا يَكَادُونَ﴾ لا يقربون من أن يفهموا، فلا ينفي عنهم الفهم، بل مجرد القرب من الفهم، وكأنه لا أمل في أن يفهمهم، لكن يكف نفى عنهم الكلام، ثم قال بعدها مباشرة: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف:٩٤]. فأثبت لهم القول؟

يبدو أنه خاطبهم بلغة الإشارة، واحتال على أن يجعل من حركاتهم كلامًا يفهمه وينفذ لهم ما يريدون، ولا شك أن هذه العملية احتاجت منه جهدًا وصبرًا حتى

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٣٩٣.
(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٣٠٠.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٦.

يفهمهم ويفهم منهم، وإلا فقد كان في وسعه أن ينصرف عنهم بحجة أنهم لا يتكلمون ولا يتفاهمون، فهو مثال للرجل المؤمن الحريص على عمل الخير، والذي لا يألو جهدًا في نفع القوم وهدايتهم.

والإشارة أصبحت الآن لغة مشهورة ومعروفة، ولها قواعد ودارسون يتفاهمون بها، كما نتفاهم نحن الآن مع الأخرس»[1].

ولهذا ينبغي على الداعية أن يحسن الكلام، وأن يكون الكلام مطابقًا لواقع الحال كما هو مفهوم البلاغة.

ولهذا نجد أن نبينا صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم كما جاء في الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فضلت على الأنبياء بستٍ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافةً، وختم بي النبيون)[2].

(جوامع الكلم): القرآن، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة وكلامه صلى الله عليه وسلم كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني[3].

(١) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٨٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد، ٩/ ٣٦، رقم ٧٠١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ١/ ٣٧١، رقم ٥٢٣.
(٣) انظر: شرح النووي على مسلم ٥/ ٥.

أثر الفقه الصحيح على الفرد والأمة

ما من شك في أن للفقه الصحيح أثرًا كبيرًا وفعالًا على الفرد والأمة، ولهذا نجد أن أول آيات القرآن نزولًا، كانت دعوة صريحة للقراءة والعلم والتعلم، كما قال تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:١-٥].

وما يستتبع ذلك من تطبيق لما نتعلمه ونتوصل إليه، وآثار ذلك على الفرد والأمة.

ومن هذه الآثار:

١. الاستقام والمسؤلية الفردية، قال الله تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥].

٢. عدم الاغترار بالدنيا والركون إليها، قال الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحديد:٢٠]

٣. تبني مجتمعًا موحدًا ومتماسكًا ومستقيمًا، قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ

﴿لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤].

٤. الفقه الصحيح يشعر الإنسان أن الكون كله مسبح لله مما يدفعه إلى التمسك بهذا الدين، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤]

٥. ترسخ مفهوم القضاء والقدر، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء:٧٨].

٦. الفقه الصحيح يشعر الإنسان أن ما أخطأه لم يكن يصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطؤه فلا يجزع، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة:٥١]

٧. ترسخ مفهوم المساواة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام:٩٨].

٨. الفقه الصحيح يرسخ مفهوم المساواة بين الشعوب من حيث الإنسانية فكلنا خلقنا من آدم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١]

٩. الصبر والثبات عند ملاقاة الأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال:٦٥].

١٠. الفقه الصحيح يزرع في نفس الإنسان الشجاعة والصبر والثبات عند ملاقاة الأعداء، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال:١٥]

١١. الفقه الصحيح يحذر من التخلف، والتقاعس عن فريضة الجهاد، ومحاربة أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

[التوبة:٨١]، وقال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة:٨٧].

١٢. البذل والعطاء بلا خوف ولا وجل، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون:٧].

١٣. الفقه الصحيح يدفع صاحبه إلى البذل والعطاء في سبيل الله دون خشية من فقر أو عوز، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١]

١٤. نشر العلم بين أبناء المجتمع، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

١٥. الفقه الصحيح يدعو إلى العلم والتعلم، وبيان فضل العلماء وعظيم أجرهم عند الله، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١].

موضوعات ذات صلة:

الجاهلية، الحكمة، السؤال، العلم

الفلاح

عناصر الموضوع

مفهوم الفلاح	٤٠٤
الفلاح في الاستعمال القرآني	٤٠٥
الألفاظ ذات الصلة	٤٠٦
منزلة الفلاح	٤٠٨
أسباب الفلاح	٤٠٩
صفات المفلحين	٤٢٢
موانع الفلاح، وأسباب حرمانه	٤٢٧
ثواب المفلحين	٤٣٥

مفهوم الفلاح

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (فلح) تدل على معنيين:

أحدهما: يدل على شقٍ.

والآخر: على فوزٍ وبقاء[(١)].

فمن إطلاقات المعنى الأول: الفلح: الشق والقطع. والفلح: الشق في وسط الشفة السفلى، فيقال: رجلٌ أفلح، وامرأةٌ فلحاء. وسمي الأكار فلاحا؛ لأنه يشق الأرض، ومنه قولهم: إن الحديد بالحديد يفلح[(٢)]، والفلح: النجش، وهو زيادة المكتري ليزيد غيره فيغر به[(٣)].

ومن إطلاقات المعنى الثاني: الفلاح: البقاء في الخير، وفلاح الدهر: بقاؤه. ومنه (حي على الفلاح) أي: هلم على بقاء الخير[(٤)]، وقيل: الفوز بالبقاء الدائم[(٥)]. وقيل: النجاة[(٦)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الفلاح اصطلاحًا: اسمٌ جامع للظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب[(٧)].

فلفظ الفلاح إذًا يعم كل فلاح في الدنيا والآخرة، ومن ثم لم يكن «في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة من كلمة الفلاح»[(٨)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٥٠.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٢٣٣، جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٥٥٥.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٤٧.
(٤) العين، الفراهيدي ٣/ ٢٣٣.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٤٦.
(٦) الصحاح، الجوهري ١/ ٣٩٢.
وانظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ١٨٦.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٨٢.
(٨) شرح السنة، البغوي ١٣/ ٩٤.

الفلاح في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فلح) في القرآني الكريم (٤٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون:١]
الفعل المضارع	٢٣	﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام:٢١]
اسم الفاعل	١٣	﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:٥]

وجاء الفلاح في الاستعمال القرآني بمعنى البقاء والفوز والسعادة[٢]، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]. أي: «قد أدرك الذين صدقوا الله ورسوله الخلود في جنات ربهم، وفازوا بطلبتهم لديه»[٣]. وقال ابن كثير: «قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح»[٤].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٢٦.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٥٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٦١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الفوز:

الفوز لغة:

الفاء والواو والزاء كلمتان متضادتان. فالأولى النجاة والأخرى الهلكة، فمن الأولى قولهم: فاز يفوز، إذا نجا، وهو فائز، وفاز بالأمر: إذا ذهب به وخلص، ويقال هذا لمن ظفر بخير وذهب به، والكلمة الأخرى قولهم: فوز الرجل، إذا مات وهلك [(١)].

الفوز اصطلاحًا:

«الظفر بالخير مع حصول السلامة» [(٢)].

الصلة بين الفوز والفلاح:

الفوز قريب لمعنى الفلاح، إلا أن لفظ الفلاح يختص بنوع من الفوز: وهو الفوز بالأمر العظيم الذي يغتبط به [(٣)]، ويتطلب اجتهاد في تحصيله، ويلحظ فيه معنى البقاء والدوام.

٢ النصر:

النصر لغة:

النون والصاد والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على إتيان خيرٍ وإيتائه. ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم [(٤)].

النصر اصطلاحًا:

العون. ويختص لفظ النصر بأنه إعانة في مقابل العدو المتربص، إما بالظفر عليه، وإما بدفع مضرته [(٥)].

وقيل: هو الفوز والغلبة على الأعداء.

الصلة بين النصر والفلاح:

أن النصر أخص من الفلاح؛ فالنصر الظفر على العدو، والفلاح أعم من ذلك.

---

(١) مقاييس اللغة ٤/ ٣٦٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٨٧.
(٣) معاني القرآن، الزجاج ١/ ٤٣٥.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٥.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٠٨، الفروق اللغوية، العسكري ص١٨٩، الكليات، الكفوي ص ٩٠٩.

٣ النجاة:

النجاة لغة:

«أصل النجاء: الانفصال من الشيء، ومنه: نجا فلان من فلان وأنجيته، ونجيته»[١].

فالنجاة هي الخلاص من كل مخوفٍ مرهوبٍ ونظيرها السلامة[٢].

النجاة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النجاة والفلاح:

النجاة جزء من معنى الفلاح، المشتمل على الظفر بالمحبوب والسلامة من المرهوب.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٩٢.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢١٠.

منزلة الفلاح

تنوعت أساليب القرآن الكريم في الحديث عن منزلة الفلاح، والترغيب في تحصيله، ومن ذلك:

١. ذكر الأسباب التي تعين على تحصيل الفلاح.

قال جل وعز: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

٢. التنويه بصفات عباد الله المفلحين.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

٣. التنويه بذكر الثواب العظيم المقارن للفلاح في الدنيا والآخرة.

قال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

٤. ذكر نماذج مشرقة ممن اتصفوا بصفات الفلاح.

كالصحابة رضي الله عنهم عمومًا، ويلحق بهم من صنع صنيعهم ممن جاء بعدهم. قال جل ثناؤه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكالأنصار خصوصًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

٥. الترهيب من الأعمال التي تمنع من تحقق الفلاح، وتكون سببًا من أسباب حرمانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

٦. التخويف من نقيض وصف الفلاح ومقابله وهو الخيبة والخسران في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

وقال جل وعز: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

٧. التخويف من الآثار السيئة لمخالفة بعض أسباب الفلاح، كالاختلاف والفرقة والتنازع.

قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤-١٠٥].

أسباب الفلاح

الأسباب: جمع سبب، وهو كل شيء يتوصل به إلى غيره[١]. والمقصود به هنا الأعمال التي توصل إلى تحقيق الفلاح بإذن الله، وهي على ضربين: أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

أولًا: أعمال القلوب:

وهي حركة القلب وإرادته الموافقة لما استقر فيه من العلم والتصديق[٢].

وضرب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لذلك مثالًا بقوله: «فأما قول القلب: فهو التصديق الجازم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم... وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول، وتوقيره، وخشية الله، والإنابة إليه، والإخلاص له، والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة للمعلول»[٣].

ومن أعمال القلوب التي جعلها الله جل

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٥٨.
(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٥٢٨، ٦٧٢، ١٠/ ٢٧١، ٧٣٦.
(٣) المصدر السابق ٧/ ٦٧٢.

ثناؤه سببًا في تحقق أصل الفلاح وكماله:

١. الإيمان.

وهو السبب الأعظم في كل فلاح دنيوي وأخروي، فكلما قوي الإيمان في قلب العبد واستحكم، كلما كمل فلاحه، وقد ذكر هذا السبب في موضعين من القرآن الكريم، وجاء ذكره فيهما في سياقين مختلفين:

السياق الأول: ذكر فيه الإيمان المطلق، والمراد به الدين جميعه، فهو بمعنى الإسلام، ويدخل فيه حينئذ الأعمال الظاهرة والباطنة. وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

والسياق الثاني: ذكر فيه الإيمان مقرونًا بالعمل الصالح، في قوله جل ثناؤه: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

والمراد به أصل الإيمان في القلب، وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره[(١)].

وقد نص الله جل وعز في مواطن من كتابه الكريم على بعض أصول هذا الإيمان بمفردها، وعلق عليها تحقق ذلك الفلاح، ومنها:

٨. الإيمان بالغيب.

فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣-٥].

والمقصود به التصديق بكل ما غاب عن العبد مما لا تدركه الحواس ولا العقول وحدها؛ لأنه لا يعرف إلا بوحي الله إلى رسله، ومن ذلك ما أخبر الله به في كتابه العزيز، من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنته وناره، ولقائه، والإيمان بالحياة بعد الممات[(٢)].

٩. الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

والمعنى أي: يصدقون بما جئت به من الله جل وعز، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربهم[(٣)].

وقد أمر الله جل ثناؤه بذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وأخبر تبارك وتعالى أن الرسول صلى

(١) المصدر السابق ٧/ ٥٥١ وما بعده.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٤٢.

(٣) روي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما، انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٥٠.

الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذا الأصل العظيم، ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفي قرن المؤمنين هنا بالرسول صلى الله عليه وسلم، والإخبار عنهم جميعا بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين[(١)].

١٠. الإيمان باليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

والآخرة: اسم لما يكون بعد الموت، واليقين: هو العلم التام الذي لا يتطرق إليه شك. والمعنى: يوقنون بكل ما أعده الله لخلقه يوم القيامة، فهم موقنون بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان، والثواب والعقاب. وخص الإيمان باليوم الآخر بالذكر مع دخوله في عموم الإيمان بالغيب، والإيمان بما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أحد أركان الإيمان؛ وأعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل[(٢)].

١١. الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، ونصرته، وإتباع ما جاء به.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

اشتملت هذه الآية على أربعة أفعالٍ، هي من أسباب حصول الفلاح في الدنيا والآخرة، وهي:

تصديق النبي الأمي صلى الله عليه وسلم، والإقرار بنبوته، وتوقيره وتعظيمه، ونصرته على من يعاديه، ويلحق به تعظيم سنته صلى الله عليه وسلم ونصرتها، ثم إتباع القرآن وما تضمنه من شرائع الإسلام التي أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي هذه الآية أيضًا تنويه بعظيم فضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم؛ لأنهم أول وأعظم من تحققت فيهم هذه الصفات، ويلحق بهم من نصر دينه من بعدهم[(٣)].

ويدخل تحت هذا الأصل من أصول الإيمان: التسليم الكلي، والانقياد التام ظاهرًا وباطنًا لحكم الله جل ثناؤه، وحكم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٦١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٥٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٠.
(٣) التحرير والتنوير ٥/ ٤٨٣.

رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

فإن من صفات المؤمنين الصادقين، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم، أنهم حين يدعون إلى ما جاء في كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم بذلك، سواء وافق ذلك الحكم أهواءهم، أم خالفها = يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج، وبدون أدنى تردد أو تباطؤ[(١)]. وهذا شرط الإيمان، قال جل وعز: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

٢. التقوى.

وهي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من غضب ربه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، بفعل كل ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم، وترك كل ما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم[(٢)].

وقد تكرر هذا السبب خمس مرات، في سياقات متنوعة:

١. تقوى الله في مجانبة عادات الجاهلية، وخطوات المبتدعين الذين زادوا في الحج ما ليس من شرع إبراهيم عليه السلام[(٣)]، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

٢. تقوى الله في مجانبة ما حرمه الله من المعاملات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٣. تقوى الله في ملازمة الصبر، والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٤. تقوى الله في ملازمة فعل الطاعات، وترك المحرمات، والجهاد في سبيل الله، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٢.
(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٧/ ٣٩، جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/ ٣٩٨.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٦٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٦٧.

﴿تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

٥. تقوى الله في مجانبة كل ما كان صفته الخبث والرداءة، والخسة والفساد، من الاعتقادات، والأقوال، والأعمال القبيحة، والنفوس الخبيثة، والأموال المحرمة[١]، قال جل ثناؤه: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وتقوى الله لما كانت جماع كل خيرٍ، وكانت تجمع حقوق الله وحقوق العباد؛ علق الفلاح عليها في جميع هذه الآيات تعلق المسبب بسببه؛ إيذانًا بأن تحقق التقوى سببٌ في تحقق الفلاح، وأن العبد كلما جاهد نفسه، واجتهد في تحقيق تقوى مولاه، كان فلاحه أكمل، وسعادته أعظم.

٣. الصبر والمصابرة.

الصبر من خصال الخير عظيمةٌ، التي لا يعلم جزاءها إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

من هدي إليه فقد هدي إلى خير عظيم، قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وقد جاء في موطنٍ واحدٍ تعليق الفلاح على مجموعة أمورٍ منها الصبر والمصابرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والمراد بالصبر هنا الصبر على جميع معاني طاعة الله جل ثناؤه، فيما أمر به، وفيما نهى عنه، فيدخل فيه الصبر على الجهاد، والصبر على الصلوات وفرائض الإسلام، والصبر على المصائب، والصبر على فعل الخير. فلا يدع ذلك الدين، وتلك الطاعة لشدةٍ تعتريه ولا لرخاء حتى يأتيه اليقين. أما المصابرة فهي مصابرة أعداء الله، أهل الكفر والضلال، مع النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته، حتى يتحقق موعود الله، بإعلاء كلمته ودينه، والظفر والنصر لعباده للمؤمنين، والخزي لأعدائهم[٢].

٤. مطالعة آلاء الله ونعمائه[٣].

وهو من الذكر القلبي الذي يدخل تحت عموم قوله سبحانه: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

إذ علق الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة على تذكر نعم الله والتفكر فيها، وفي ذلك سرٌّ لطيفٌ، وهو أن ذكر النعم، وإدامة النظر فيها، واستشعار عظمتها، يبعث في النفس تعظيم المنعم سبحانه، ومحبته، والخضوع له، والمداومة على شكره بالقلب واللسان

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٠٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٣٦، تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٧.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٩٥.

والجوارح، فتقابل تلك النعم حينئذٍ بالطاعات.

٥. التوبة.

وقد علق الفلاح بالتوبة تعلق المسبب بسببه في موضعين اثنين، وتنوع المراد بالتوبة في هاتين الآيتين لتنوع الخطاب والسياق القرآني فيهما:

أولًا: التوبة من الشرك: وجاء ذلك في آية مكية كان الخطاب فيها للمشركين، قال جل ثناؤه: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾[القصص: ٦٤-٦٧].

فذكر تعالى في هذه الآية: صورة التوبة التامة، التي يكون فيها الجمع بين ترك القبيح، وتحري الجميل[(١)]. فهو جمع بين ترك الشرك، وبين الإيمان وإخلاص العبادة لله، مع قيامه بالعمل الصالح.

ثانيًا: التوبة من التقصير والغفلة[(٢)]، التي لا يسلم منها إنسانٌ، وجاء ذلك في آيةٍ مدنية، كان الخطاب فيها لأهل الإيمان، فقال عز من قائل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فخاطب الله تعالى خيار خلقه أن يتوبوا إليه؛ بالرجوع إلى طاعته سبحانه في امتثال ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وبالرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا. وفي خطاب المؤمنين وأمرهم بالتوبة الدليل على أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، وفي قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾، الحث على الإخلاص في أن تكون التوبة لله وحده، لا لأجل مقاصد فاسدة كالسلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك[(٣)].

٦. الإخلاص.

وقد جاء في سياق آيات الفلاح في القرآن الكريم التنبيه على مثال له: بالإخلاص في النفقة، فقال عز من قائل: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وذلك بأن يتوخى المسلم بنفقته -يوم يعطي ويطعم- إرضاء الرب جل ثناؤه، والطمع فيما عنده، فلا الرياء مقصده ولا السمعة، ولا الفخر باعثه ولا الشهرة، ولا مكافأة يد سابقة، قال جل ثناؤه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾

(١) المصدر السابق.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٧.

[الليل: ١٧- ٢٠].

إنما يبغي بذلك كله وجه الله، لا يريد جزاءً ولا شكورا، قال جل وعز: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

٧. الخشوع.

وقد علق الفلاح عليه في موطن واحد، في قوله جل ثناؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

والخشوع في الصلاة إنما يتحصل لـمن فرغ قلبه للصلاة، واشتغل بها عما عداها، فأحضر قلبه بين يدي مولاه، واستحضر قربه وعظمته جل جلاله، وتدبر جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، فتنتفي بذلك الخواطر والأفكار الرديئة[(١)].

وإنما ذكر الخشوع مع الصلاة؛ لأنه بها أعلق، فهي أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته؛ ولذلك قدم هذا الوصف على بقية أوصاف المؤمنين، وفيه التنويه بشأن الخشوع، ومجيء ذلك في صورة الجملة الاسمية دلالة على ثبات الخشوع لهم ودوامه، وأنه أصبح لهم خلقًا[(٢)].

٨. موالاة الله ورسوله والمؤمنين، والبراءة ممن حاد الله ورسوله.

لما كان الحب في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان؛ أخبر الله جل ثناؤه أن الاتصاف بوصف الإيمان مانع من موادة الكفار ومحبتهم ولو كانوا أقرب الناس[(٣)]، وأنه لا يجتمع في قلب المؤمن محبة الله، ومحبة من حاد الله ورسوله، وخالف أمر الله ونهيه، فقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ومن لوازم نهي المؤمنين عن مودة الكفار وموالاتهم؛ أن يكون ولاء المؤمن لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال جل وعز: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وعلق سبحانه على تحقق هذه الصفة كل فلاح دنيوي وأخروي، فقال عز من قائل: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٦١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٧.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٨/ ٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٠.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١١٥.

مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ثانيًا: أعمال الجوارح:

التوبة والإيمان والعمل الصالح، هذه ثلاثة أسباب علق الله جل ثناؤه عليها جميعًا الفلاح، وجمع بينها في آيةٍ واحدة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

والمتأمل فيها يتبين مدى الترابط بينها؛ فالإيمان كلما قوي بعث في النفس روح الأمل، فتجد العبد يعيش روحانية عالية تجذبه جذبًا إلى المبادرة للتوبة، والمسابقة في الأعمال الصالحات. فهو يعيش بين لحظات ندمٍ على ما مضى، يكفرها بتوبةٍ وضراعة لمولاه، ويعيش فرحة أملٍ تدفعه لحياةٍ أفضل، يغتنم فيها عمره.

والعمل الصالح هو أن يعمل بما أمره الله بعمله في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم [(١)]، فيؤدي الفرائض، ويكثر من النوافل، ويجتنب المعاصي، وكلما كانت حاله أكمل، كان فلاحه وفوزه وسعادته في الدنيا والآخرة أكبر. وقد اشتملت آيات القرآن الكريم على أفعال للجوارح علق الله جل وعز عليها معاقد الفلاح، وفيما يلي ذكرها:

١. الصلاة.

وهي من أعظم مباني الإسلام، التي علق عليها الفلاح، وقد جاء ذلك في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وتنوعت أساليبه في ذلك:

٦. علق الفلاح على إقامة الصلاة.

قال جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣-٥].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ٤-٥].

وإقامة الصلاة؛ إقامتها ظاهرًا وباطنًا، إقامتها ظاهرا: بأداء حدودها، وفروضها، والواجب فيها، على ما فرضت عليه[(٢)]. وإقامتها باطنا: بحضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان من صلاته، إلا ما عقل منها[(٣)].

وقد جاء التنبيه على أن هذه الإقامة

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٩٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٤٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١.

الظاهرة والباطنة للصلاة هي من أسباب تحقق الفلاح وذلك في قوله جل وعز: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

٧. علق الفلاح على الركوع والسجود.

قال جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وخصا بالذكر من بين سائر أعمال الصلاة؛ لأنهما أعظم أركانها وأشرفها؛ إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية، وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات في قوله: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ تنبيه على أن الصلاة أهم العبادات، فهي عماد الدين[١].

٨. علق الفلاح على تعلق القلب بالصلاة واهتمامه بها.

وهذا من الرباط الذي يدخل تحت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقد فسر الرباط في قولٍ بأنه انتظار الصلاة بعد الصلاة؛ لأن كل من صبر على أمرٍ، ولازمه وثبت عليه، يقال: ربط قلبه عليه، وربط نفسه[٢]. ويدل له ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات)؟. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط)[٣].

٢. النفقة في سبيل الله.

وعلق الفلاح عليها في موضعين من القرآن الكريم، في قوله جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣-٥].

ولفظ النفقة في الآية عامٌ في جميع النفقات الممدوح بها، والمحمود عليها[٤]، ويشمل ذلك النفقات الواجبة والمستحبة، التي تبذل احتسابا وتقربًا إلى الله جل وعلا، على قدر ميسورهم وجهدهم. وأعلى تلك النفقة قدرًا الزكاة، فإن أحب الأعمال إلى الله الفرائض.

وقد بين سبحانه ذلك في سورة لقمان فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ٣٢٥.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٥٣٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٧٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم ٢٥١، ١/ ٢١٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٥٠.

وإنما علق الفلاح على الزكاة والنفقة في سبيل الله؛ لما اجتمع فيها من تزكية للنفس وتطهيرها من الصفات الرذيلة، والإحسان إلى الخلق، وبها يتبين أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال، فيخرج محبوبه من المال، لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله[1].

٣. ذكر الله تعالى.

وقد علق الفلاح على ذكر الله في أربعة مواضع من القرآن الكريم، ثلاثة منها جاء ذكره فيها مقرونًا بعبادات هي من أعظم العبادات في الإسلام، فقد جاء مقرونًا بالجهاد في قوله جل وعز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وبالصلاة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

ومقرونًا بالإيمان وطهارة النفس من الشرك وبالصلاة معًا في قوله جل ثناؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤- ١٥].

وكثرة الذكر جاء بيانها في القرآن الكريم بأن يذكر العبد ربه في كل أحواله، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

والذكر تربية للروح، به تتصل بخالقها، وفيه تظهر قوتها، وبسببه يتنزل المدد من خالق الأرض والسماء، وبأخذ الأسباب المادية والروحية يتحقق النصر والظفر على الأعداء، والإنسان المسكين إذا فقد حظه من ربه خسر كل شيءٍ من أمره[2].

وكثرة الذكر سببٌ في انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وزوال الهم والغم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والموطن الرابع الذي علق فيه الفلاح على ذكر الله، كان الذكر فيها خاصًا، وهو ذكر آلاء الله ونعمه، قال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

إذ يستشعر العبد بقلبه عظيم منن الله عليه، فيعظم حبه ورجاءه له، وينطلق لسانه بالثناء على النعماء، وتقبل جوارحه على

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤٦.

(٢) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ٥٤٧، ٥/ ٧٨.

الطاعة، فهو يذكر فيشكر، ويتحدث بفضل الله تعالى عليه، كما في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

٤. الجهاد في سبيل الله.

وهو من أجل الطاعات وأفضل القربات؛ لما فيه من المصالح العاجلة، والمنافع الآجلة؛ إذ فيه محقٌ لأعداء الله، وإعزاز للدين، وصون لدماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، مع ما فيه من المشقة العظيمة، من بذل للنفوس والأموال، ومفارقة للأهل والأوطان[١].

ولما كان الجهاد في سبيل الله كذلك وعد بالفلاح وعلق عليه في القرآن الكريم وعلى بعض أحواله وصفاته، في أربعة مواضع منه، وتنوعت الأساليب في ذلك:

١. علق الفلاح على الرباط في سبيل الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. والمرابطة في الآية: «مرابطة الغزو في نحور العدو، وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين»[٢]، وقد وردت الأخبار في بيان ثوابه، والترغيب فيه، فروى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)[٣]. وروى مسلم، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، عن رسوله الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان)[٤].

٢. علق الفلاح على فعل الجهاد في سبيل الله مقرونا بغيره من الأعمال الصالحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]. والجهاد: بذل الجهد في قتال الأعداء من الكفار والمشركين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي التام في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد[٥]. ويدخل تحت لفظ الجهاد بذل الجهد واستفراغ

(١) أحكام الجهاد وفضائله، العز بن عبد السلام، ص٥٣، ٥٤، ٥٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم ٢٧٣٥، ٣/ ١٠٥٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله، رقم ١٩١٣، ٣/ ١٥٢٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٠.

الوسع في مجاهدة الشيطان وخطواته، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء لحملها على فعل الطاعة وترك المعصية[1].

٣. علق الفلاح على الثبات عند لقاء الأعداء، وهو من عوامل الظفر والفوز في الدنيا، وقد جاء ذكر هذا السبب في موضع واحدٍ، مقرونًا بالإكثار من ذكر الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٤. وعد الله المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بكل خير وفلاح في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

٥. فعل الخير والدعوة إليه.

وقد جاء عد ذلك من أسباب تحقق الفلاح في الدنيا والآخرة، في قوله جل ثناؤه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

والخير «اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه»[2]، وروي عن مقاتل بن حيان تفسير الدعوة إلى الخير بالدعوة إلى الإسلام[3]، ومراده بالدعوة إليه: الدعوة إلى خصال الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده[4].

وفعل الخير والدعوة إليه صورة من صور تكاتف الأمة وتلاحمها في السعي إلى الرقي بأبنائها في مدارج الكمال، وتكميل جوانب النقص والحرمان، والجمع بينهما سبيل الأنبياء والمصلحين.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٠٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٢.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٢٧.
ونقل ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣١٢ قول أبي سليمان الدمشقي في تفسير الخير: بالعمل بطاعة الله. وهو من قبيل اختلاف العبارة والمعنى واحد، فطاعة الله في أمره ونهيه هو امتثال لشرائع الإسلام.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٦١، التحرير والتنوير ٤/ ٤٠.
واستدل ابن عاشور رحمه الله على أن الخير اسمٌ يجمع خصال الإسلام، بقول حذيفة اليمان رضي الله عنه بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشرٍ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟» الحديث. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، رقم ٦٦٧٣، ٦/ ٢٥٩٥. ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، رقم ١٨٤٧، ٣/ ١٤٧٥.

دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

٦. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جاء في موضع واحد عده من أسباب تحقق الفلاح في الدنيا والآخرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علامة لأهل الخير والطاعة، وتركه مع القدرة سبب في حلول العقاب، ومنع إجابة الدعاء، والسؤال عنه يوم القيامة.

وهو صفة الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين، قال جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

«والمعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه، والمنكر: ما ينكر بهما»[(١)].

والمقصود به الأمر بكل ما يقرب العباد إلى الجنة، ويبعدهم من النار، والنهي عن كل ما يقربهم إلى النار ويبعدهم من الجنة.

ومن أعظم الأمر بالمعروف: الدعوة إلى الله وحده، وعبادته لا شريك له، والدعوة إلى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ودينه الذي جاء به من عند الله. وأعظم النهي عن المنكر: النهي عن الكفر بالله، والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله، ثم الأمر بعد ذلك درجات، فيؤمر بكل ما هو طاعة لربهم، وينهى عن كل ما هو معصية لربهم[(٢)].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٦١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٦١، تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٢٧، محاسن التأويل القاسمي ٥/ ١٩٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٢.

صفات المفلحين

أولًا: زكاة النفس، ووقايتها من الشح:

من صفات المفلحين أن أنفسهم أنفس زكية؛ لأنهم يسعون في تهذيبها وتزكيتها، قال جل ثناؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

ومادة زكى في اللغة تدل على النماء والطهارة[(١)].

ولفظ التزكية في الآيات عامٌ يدخل فيه تزكية النفس وتطهيرها بالإيمان الذي هو ضد الكفر، وبالطاعة التي هي ضد المعصية، وبالأخلاق الحميدة التي هي ضد الأخلاق الرذيلة، ويدخل فيه تزكية العمل بمتابعة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ومن الصفات التي لها آثارٌ ذميمة، وجاءت النصوص بذمها، والثناء على من زكى نفسه فتطهر منها، وتحلى بضدها صفة الشح؛ وقد جاء التصريح بأن توقي شح النفس من صفات المفلحين.

قال عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وفي إضافة الشح إلى النفس، دلالة على أنه من طباع النفوس وغرائزها، ويدل لذلك قوله سبحانه: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

وفي قول: ﴿وَمَن يُوقَ﴾ إشارة إلى إمكان التوقي منه[(٢)]، ودفعه بمجاهدة النفس.

و«الشح هو شدة الحرص على الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه»[(٣)].

ويترتب على ذلك ضيق النفس وعدم إرادتها بل وكراهتها وصول الخير إلى الغير. وهذا أساس الشر والهلاك الظاهر والباطن؛ إذ يحمل صاحبه على البخل؛ بامتناعه عن نفع غيره، وعلى الظلم بإلحاق الضرر بالـمنعم عليه في نفسه وماله وعرضه، ويحمل على الحسد وهو كراهة ما اختص به الغير وتمني زواله، والذي يجمع بين سيئتي البخل والظلم، فإذا كان الحال كذلك بين الأقارب كانت قطيعة الرحم[(٤)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٧، غريب القرآن، ابن قتيبة ص٣١.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٢٥٦.

(٣) الوابل الصيب، ابن القيم ص٧٥.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٣٣٤، ٢٨/ ١٤٤. ويدل لذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٨، ٤/ ١٩٦٦ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والظلم، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم،

وأعظم نفوسٍ برئت من هذه الصفة، هي نفوس الأنصار أهل الدار، أنصار النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقد زكاهم الله جل ثناؤه في كتابه الكريم بذلك، فقال عز من قائلٍ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثانيًا: المسارعة إلى الخيرات:

حث الله عزو جل عباده المؤمنين على فعل الخير، والسعي في طلب كل وسيلة تقرب إليه سبحانه، من الإيمان به، ومحبته، وطاعته، والعمل بما يرضيه، وعلق على هذا تحقق الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وقال عز من قائلٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وجاء الحث فيهما بصورة الأمر في قوله: ﴿وَابْتَغُوا﴾ وقوله: ﴿وَافْعَلُوا﴾، الذي يتضمن معنى المسارعة والسابقة إلى فعل الطاعات والاستكثار من الخيرات[1].

وفي هذا دلالة أن من صفات المؤمنين المفلحين: المسابقة والمسارعة إلى ثواب الله وجنته بالأعمال الصالحة. وقد ندب الله جل وعلا إلى هذه الصفة، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وأثنى الله جل ثناؤه على أنبياءه عليهم السلام، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وأثنى سبحانه على عباده المؤمنين من أهل الكتاب بهذه الصفة فقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

وعلى المؤمنين من هذه الأمة فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

ومن لازم هذه المسارعة في الخيرات الاستكثار من الأعمال الصالحة، قال جل ثناؤه : في وصف عباده المفلحين: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

ثالثًا: أداء الأمانات والحقوق:

عظم الله جل ثناؤه شأن الحقوق وأمر

حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم).

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٧١.

بالقيام بها، ومن ذلك قوله جل وعز: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[الإسراء: ٢٣].

وقوله بعد ذلك: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وعظم سبحانه شأن من يرعى هذه الحقوق ويقوم بحقها، وجعل ذلك مناطًا للمدح في كتابه الكريم، فجاء في موطنين وصف المؤمنين المستحقين للفلاح بهذه الصفة.

الآية الأولى: قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

ثم ذكر من صفاتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

فاشتملت هذه الآية على صفتين من صفات عباد الله المفلحين:

١. أداء الأمانة.

وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، من فرائضه التي ائتمن الناس عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢][1]، «وهي أمانة التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله»[2]. فجميع ما أوجبه الله على عبده فهو أمانة.

ومنها الاستجابة التامة، والسمع والطاعة المطلقة لحكم الله، وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

ويدخل في الأمانة أيضًا حفظ الجوارح من كل ما لا يرضي الله تعالى[3]. ومنها حفظ ما أؤتمن عليه من أمانات الناس الحسية كالأموال، والمعنوية كالأسرار، وتعاهدها بالرعاية، والمحافظة وعدم التضييع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨][4].

٢. الوفاء بالعهد.

وهو «حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال، وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهدًا»، والوفاء به إتمامه وعدم نقض حفظه[5].

ولفظ الآية عام في جميع ما أخذ على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٧٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٩.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣١٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٧.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٩١، ٨٧٨.

الإنسان العهد بحفظه من حقوق الله -جل وعلا-، قال سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

«وذلك أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم »[(١)]، ومن الوفاء بالعهد حفظ ما بينه وبين الناس من حقوق والتزامات، يجب عليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه إهمالها والتفريط فيها[(٢)].

الآية الثانية: قال تبارك وتعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

فجعل الله جل ثناؤه من صفات عباده المفلحين القيام بحق القريب في الصلة والإحسان إليه بوجوه البر المتنوعة، وحق المحتاج والغريب المنقطع به الطريق في الزكاة والصدقة. فإن لم يكن عنده مالٌ يؤتيه للقريب والمحتاج فلا أقل من أن يرفق بهم بفعله وقوله، بكلام لين سهل، فيقول لهم معروفًا، ويعدهم خيرًا.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ٦٦٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٧٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٤٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣١٩.

رابعًا: البعد عن المحرمات، وحفظ الفروج:

١. البعد من المحرمات.

وقد تنوعت الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في التنبيه والدلالة على هذه الصفة:

- جعل التقوى من أسباب حصول الفلاح للعبد، وتقوى الله «هو الامتناع عن المحارم، وتحري الواجبات»[(٣)]، وذكر الله في كتابه الكريم صورًا لبعض تلك المحرمات، منها: اتباع خطوات المبتدعين في الدين، كحال أهل الجاهلية الذين زادوا في الحج ما ليس من شرع إبراهيم عليه السلام، ومقارفة الخبيث والرديء من الاعتقادات، والأقوال، والأعمال، ومجانبة ما حرمه الله من المعاملات كالربا.
- جاء التصريح بنفي أصل الفلاح أو كماله عمن ارتكب بعض المحرمات، كالكفر والردة عن الدين، والخمر، والميسر، والربا، والزنا. وفي هذا دلالة على أن من أخص صفات المفلحين البعد عن المحرمات.
- أن الله جل ثناؤه أثنى على المؤمنين بهذه الصفة فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٣٣٨.

﴿خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٣].

«واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح»[١]، فيدخل فيه الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال[٢]. والإعراض عن اللغو هو بالبعد عنه، بأن لا يفعله، ولا يرضى به، ولا يخالط من يأتيه، كما قال -عز من قائل-: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢][٣]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

❁ جاءت هذه الصفة في سياق شرطي، وأنه كلما تحققت هذه الصفة؛ عظم الفلاح في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. ويدخل تحت معنى هذه الآية، أن النفس جبلت على التطلع والحرص على ما تهواه وتشتهيه، فمن تابع نفسه في هواها، ولم يحجزه إيمانه، يوشك أن يقع في الحرام، فتزين له نفسه الزنا، والسرقة، وأكل أموال الناس ظلمًا[٤]. ومن وفقه الله ووقاه حرص نفسه، فألجمها بلجام الإيمان، لم يحمله ذلك الشح على فعل الحرام، بل كان هو أشد مباعدة له، وتحقق له موعود الله، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

٢. حفظ الفروج.

فقد أمر الله جل ثناؤه بحفظ الفروج، فقال جل وعز: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ [النور: ٣٠].

وأثنى سبحانه على الحافظين لها، فقال: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

«ولما كانت هذه الشهوة أغلب الشهوات على الإنسان، وأعصاها عند الهيجان على العقل»[٥]، ضمن النبي صلى الله عليه وسلم لمن حفظ فرجه الجنة، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من توكل لي ما بين رجليه، وما بين لحييه، توكلت له بالجنة)[٦]. وأعظم الناس حفظًا

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٢٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٦٢.
(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٥/ ١٠٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٢٨، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٨٨.
(٥) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي ١٠/ ٣١٢١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب

لفروجهم هم المفلحون من عباد الله؛ لذلك وصفهم الله جل وعز به، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وذكر من صفاتهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

ومفهوم الآية يتضمن أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين. ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم. فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك[١]، فكيف بجميعه.

وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: ٢٩ - ٣٠].

وتارة يكون بحفظه من النظر إليه[٢]، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)[٣].

موانع الفلاح، وأسباب حرمانه

نفي مطلق الفلاح عن الحي المعين مهما بلغ في ظلمه وكفره، ومشاقته لله ورسوله صلى الله عليه وسلم حق لله وحده جل ثناؤه ؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا هو سبحانه، وهو يعلم خاتمة كل أحدٍ، ورحمته وسعت كل من أقبل إليه بالإيمان.

ويدل لهذا المعنى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله)؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨][٤].

وبالتتبع والاستقراء لآيات الفلاح في القرآن الكريم يمكن حصر موانع الفلاح وأسباب حرمانه، وتصنيفها فيما يلي:

المحاربين من أهل الكفر والردة، باب فضل من ترك الفواحش، رقم ٦٤٢٢، ٦/ ٢٤٩٧.

(١) الداء والدواء، ابن القيم ص٣٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٣٣/ ٢٣٥، وأبو داود في سننه، كتاب الحمام، باب النهي عن التعري، رقم ٤٠١٧، ٦/ ١٣٤، والترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في حفظ العورة، رقم ٢٦٧٠، ٥/ ٩٧، وابن ماجه في سننه، كتاب أبواب النكاح، باب التستر عند الجماع، رقم ١٩٢٠، ٣/ ١٠٦.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، رقم ١٧٩١، ٣/ ١٤١٧.

أولًا: الكفر والردة:

١. الكفر.

وقد جاء التصريح بعده من موانع الفلاح في موضعين من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

وإنما كان الكفر من موانع الفلاح؛ لأنه أعظم ما ينافي الإيمان وتوحيد الله الذي من أجله خلق الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب. ولفظ الكفر في هاتين الآيتين يشمل شرك من يدعو مع الله إلهًا آخر، لا برهان له به، والتكذيب بالرسل عليهم السلام، وبما وعدوا من ثواب الآخرة كما هو شأن قارون، وهذا أعظم الكفر. ويشمل كذلك الكفران بنعمة الله وجحودها[(١)].

وقد بين الله تعالى في موطن آخر أن هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي من عمل الشيطان، وعلق سبحانه الفلاح والفوز على البعد عن هذه المعبودات واجتنابها، وصرف العبادة له وحده، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

٢. الردة.

وهي الرجوع من الإسلام إلى الكفر[(٢)]، وجاء التصريح بنفي الفلاح عمن ارتد عن دينه في موضع واحدٍ، قال الله جل ثناؤه في قصة الفتية الذين آمنوا بالله، وفروا بدينهم: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠]. أي ولن تدركوا السعادة والفوز في الدنيا والآخرة إن عدتم إلى الكفر بعد إذ أنقذكم الله منه؛ لأن الكفر يحبط العمل ويوجب الخلود في النار، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ثانيًا: ارتكاب الكبائر:

الكبائر: جمع كبيرة، وهي كل ذنب ترتب عليه حدٌّ في الدنيا، أو وعيدٌ في الآخرة[(٣)]. والتلبس بهذه الكبائر من أعظم الموانع التي تحرم العبد كمال الفلاح في الدنيا والآخرة،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٣٤، تفسير البيضاوي ٤/ ١٨٦.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٤٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٥٠.

وفيما يلي ذكر لتلك الكبائر:

١. الخمر والميسر.

الخمر: كل مسكر خامر العقل وغطاه، من أي نوع كان. والميسر: كل المغالبات القولية أو الفعلية التي يكون فيها العوض من الطرفين[(١)]. وقد علق الفلاح على اجتناب الخمر والميسر في قوله جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وإنما كانت الخمر والميسر مانعة من تحقق كمال الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة لما اشتملت عليه من الآثار السيئة والآثام الكبيرة.

قال تعالى: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

ففيها فتح لأبواب الشر والفساد بوقوع العداوة والبغضاء، والفرقة والاختلاف، وربما آلت بأصحابها إلى القتل والنهب والعقوق والقطيعة، وهذا عنوان الشقاء، وفيهما أيضًا صدٌّ عن سبل الفلاح، وعن أبواب الخير العظيمة، وهذا عنوان الحرمان والخيبة.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٨ وذكر أنه استثني من ذلك مسابقة الخيل والإبل والسهام، فهي مباحة؛ لكونها معينة على الجهاد؛ ولهذا رخص فيها الشارع.

قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١].

٢. الربا.

وهو الزيادة في أشياء مخصوصة، والزيادة على الدين مقابل الأجل[(٢)]، وهو من كبائر الذنوب التي تحول بين العبد وبين الفلاح.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

أي: واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ومنه ترك الربا، كي تنجو من عقابه، وتظفروا بالخلود في جناته. وفيه إشارة إلى أن من لم يترك الربا لم يحصل له كمال الفلاح في الدنيا والآخرة. وإنما كان الربا من موانع كمال الفلاح؛ لأن المتعامل به فاته الاتباع والانقياد لأمر الله، وهذا أعظم خصال أهل الإيمان.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وصاحب الربا على خطرٍ من شؤم مخالفته لأمر الله جل ثناؤه، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم.

(٢) الربا في المعاملات المصرفية، عمر المترك ص٤٣.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فهو متوعد في الدنيا بنقص المال وذهاب بركته.

قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوا﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ومتوعد في الآخرة بحرمان نعيم الجنان ودخول النار.

قال جل وعز: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٣. التعدي على أعراض الناس بالزنا والفجور.

الزنا من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ومانع من موانع كمال الفلاح في الدنيا والآخرة، قال سبحانه في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، جملة تعليلية، وهي التعليل الثاني الذي يعلل به يوسف عليه السلام سبب امتناعه عما تطلبه منه امرأة العزيز.

ونفي الفلاح عن الظالمين يعم كل ظالمٍ، وأولى من يدخل تحته في هذا السياق من قابل الإحسان بالإساءة، فخان من أحسن إليه، وتعدى على عرضه وشرفه. وسمي ذلك ظلمًا؛ لأنه فعل ما ليس له فعله، فتجاوز ما أحله الله إلى ما حرمه، ووضع الشيء في غير موضعه.

قال جل وعز: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

وإنما كان الزنا من موانع كمال الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لأنه بفعله لهذه الفاحشة قد تعدى حدود الله، وانتقص من إيمانه بقدر هذه المعصية، ولأن الله جل ثناؤه قد رتب على الزنا أنواع العقوبات الدنيوية والأخروية، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

وعقوبته مغلظة، فيقتل بأشنع القتلات، الرجم حتى الموت، أو الجلد بمشهدٍ من المؤمنين في موقف لا تأخذهم الرحمة له

من إقامته عليه، قال سبحانه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

ثالثًا: الظلم، افتراء الكذب على الله، الاجرام:

١. الظلم.

وهو وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدولٍ عن وقته أو مكانه، والظالم هو الذي أزال الحق عن جهته وأخذ ما ليس له، ويطلق الظلم على كثير التجاوز وقليله[(١)].

وهو من أعظم موانع الفلاح في القرآن الكريم، وقد جاء التصريح به في أربعة مواضع:

ثلاثة منها أطلق فيها الظلم وأريد به الكفر بالله، وهو أعظم الظلم على الإطلاق. وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧].

وأما الموطن الرابع فأطلق الظلم فيه وأريد به فاحشة الزنا، وذلك في قوله جل ثناؤه: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وتنوع المراد بالظلم في هذه الآيات؛ إيذانٌ بأن الفلاح المنفي عن الظالم تتفاوت درجته بتفاوت الظلم نفسه، فالكافر المتصف بأعظم أفراد الظلم ينفى عنه أصل الفلاح المقتضي للخلود في النار، والحرمان من دخول الجنة، بينما نفي الفلاح عن أفراد الظلم التي هي دون الكفر هو من باب نفي كمال الفلاح الدنيوي والأخروي.

وعموم نفي الفلاح عن الظالم سنة ربانية لا تتخلف ولا تتبدل أبدًا، فالظالم وإن تمتع في دنياه بما تمتع به، فنهايته فيه الاضمحلال والتلف[(٢)]، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته)[(٣)].

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص٢٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة)، رقم ٤٤٠٩، ٤/١٧٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب

٢. افتراء الكذب على الله.

«الفري: قطع الجلد للخرز والإصلاح، والإفراء للإفساد، والافتراء فيهما معًا، وفي الإفساد أكثر، وكذلك استعمل في القرآن الكريم في الكذب والشرك والظلم»[(١)].

وافتراء الكذب على الله تعالى والتكذيب بآياته من أعظم صور الظلم؛ لذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقد جاء التصريح بعده من موانع الفلاح في موضعين اثنين من القرآن الكريم:

الأول: في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩].

وافتراء الكذب على الله في الآية عامٌّ يشمل جميع صوره، وأقربها من جهة السياق من اختلق على الله الكذب في نسبة الولد له سبحانه، وفي ادعاء الشريك والشفيع له.

والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وافتراء الكذب على الله هو بتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، ثم نسبة ذلك إليه سبحانه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

والخطاب في هاتين الآيتين للكفار، والفلاح المنفي عنهم هو مطلق الفلاح الدنيوي والأخروي، والمقتضي للخلود في النار، والحرمان من دخول الجنة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وقد ذكر الله جل ثناؤه بعض وجوه نفي الفلاح الدنيوي عن المفترين الكذب عليه سبحانه، فهم متوعدون بالغضب والذلة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وهم أيضًا متوعدون بعذاب يستأصلهم، قال سبحانه: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ

تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٣، ٤/ ١٩٩٧.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٣٤.

﴿خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

ولما كان نفي الفلاح الدنيوي عن الذين يفترون على الله الكذب عامٌّ، بين جل ثناؤه أن ما قد يحصل لبعضهم من صور التنعم الظاهر في الدنيا، هو متاعٌ قليلٌ على سبيل الاستدراج والإملاء[١]، فقال جل وعز: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝١١٦ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧].

ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٢٣ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤].

٢. الإجرام.

الجيم والراء والميم أصلٌ واحد بمعنى القطع، ومنه قولهم: جرم، أي كسب؛ لأن الشيء الذي يحوزه كأنه يقتطعه[٢]. ثم أطلق الفعل على كل اكتسابٍ مكروه، ولا يكاد يستعمل في الكسب المحمود[٣].

وقد جاء عده من موانع الفلاح في موضع واحد، في قوله جل ثناؤه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

والمراد بالمجرمين هنا الكفار[٤] الذين اكتسبوا الإثم بكفرهم بالله. ولفظ افتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته في الآية عام، ومنه تحريف كلام الله ثم نسبته إليه سبحانه، وادعاء النبوة والوحي من الله[٥]، والتكذيب بآيات القرآن التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ تذييل للوعيد يتنزل منزلة التعليل، أي لا ينجح ولا يفوز بحاجته من اتصف بصفة الإجرام. وهذا النفي للفلاح يختلف بحسب حال الفاعل للإجرام، فإن كان كافرًا، قد اكتسب بكفره وتكذيبه الآثام كما في سياق هذه الآية، فالمراد بنفي الفلاح عنه؛ نفي أصله، وإن كان من اتصف بصفة الإجرام قد اكتسب من الذنوب واجترح من السيئات التي لم تبلغ درجة الكفر والتكذيب، فهو على خطر الوعيد، وحقيق بأن يدخل تحت هذا القدر من الآية، ويكون المراد بنفي الفلاح عنه نفي كماله.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٨٣.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٩٧.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٩٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٥٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٤١.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٥٤، محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٣.

رابعًا: السحر:

السحر في اللغة صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، ويطلق على كل ما لطف مأخذه ودق[1]. والسحر أنواعٌ فمنه ما هو تخييل، ومنه ما له حقيقة وتأثير، وهو محرمٌ بالإجماع[2]، وما كان منه من نوع السحر الحقيقي فهو من الكفر البين؛ لأنه لا يتحقق إلا بالوقوع في الشرك، كمعاونة الشياطين للساحر مقابل ما يقدمه لهم من طاعة وخضوع في مخالفة الشرع[3]. والسحر من موانع تحقق الفلاح الدنيوي والأخروي، وقد جاء التصريح بذلك في موضعين من القرآن الكريم:

الأول: في قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

وذلك في سياق الرد على فرعون وملئه المكذبين بما أوتي موسى عليه السلام من الآيات، والقائلين له: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦].

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ منكرًا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ وضمن ذلك معنى التكذيب والتوبيخ والتجهيل لقولهم[4]، ثم لما نفى موسى عليه السلام عن آيات الله أن تكون سحرًا، ارتقى فأبان لهم فساد السحر نفسه، وسوء عاقبة معالجيه تحقيرًا لهم؛ لأنهم كانوا يعظمون شأنه، فقال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾[5].

والموضع الثاني: في قوله سبحانه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰٓ﴾ [طه: ٦٩].

أي: لا يظفر الساحر ولا يحصل له مقصوده بالسحر أينما كان، وقيل عدم فلاحه: بأن يقتل الساحر حيث وجد، وهو من التفسير باللازم[6].

ونفي الفلاح في هاتين الآيتين يعم نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد سبحانه ذلك بالتعميم في كل الأمكنة بقوله: ﴿حَيْثُ أَتَىٰٓ﴾، وذلك دليل على كفره؛ لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفيًا عامًا إلا عمن لا خير فيه، وهو الكافر[7].

وإنما كان السحر الحقيقي من موانع الفلاح؛ لأنه قد انتفى عنه بسحره هذا أصل

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٧٠، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٨٤.
(٢) انظر: المغني، ابن قدامة ١٢/ ٣٠٠، شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/ ١٧٦.
(٣) تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص٣٨٤، السحر، أحمد الحمد ص١٨٤.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٩/ ٧٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٦٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٥٠.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٠٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١١/ ٨٧.
(٧) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٩.

الإيمان الموجب لكل فوز وسعادة في الدنيا والآخرة، فليس للسحرة في الآخرة حظ ولا نصيب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وأما حظهم في الدنيا فالذلة والصغار، وعدم تحقق ما يسعون إليه ويهدفون، قال سبحانه عن حال سحرة فرعون قبل إيمانهم وسجودهم لرب العالمين: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١١٩].

ثواب المفلحين

أثنى الله تبارك وتعالى على عباده الذين قاموا بأسباب الفلاح، واتصفوا بصفات المفلحين، وبين في مواطن من كتابه الكريم عظم ذلك الثواب الذي ظفروا بطرف منه وهم أحياء في الدنيا، وينتظرون الفوز الأكبر به في الآخرة، ويمكن النظر إلى ماهية ذلك الثواب من خلال ما يلي:

أولًا: ثواب المفلحين في الدنيا:

١. الاهتداء إلى الطريق المستقيم.

من أعظم النعم التي امتن الله بها على عباده المؤمنين نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم. قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وسؤال هذه الهداية من الله عز وجل من أعظم مطالب العباد، واضطرارهم إليها فوق كل ضرورة[(١)].

وقد أكرم الله جل ثناؤه المتقين من عباده والمحسنين؛ القائمين بأسباب الفلاح الظاهرة والباطنة على الكمال، أن وفقهم للهداية التامة فقال جل وعلا: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٢.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

فمن الهداية التامة: هداية الدلالة والبيان المتضمنة تعليم المؤمن ما لا يعلم من الحق إجمالًا وتفصيلًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والمعنى: «لنبصرنهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة»[(١)].

ومن الهداية التامة: هداية التوفيق والإلهام، والمتضمنة إلهامه الحق، والتوفيق لإتباعه، والعمل بعلمه، والثبات عليه إلى الممات[(٢)]. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]. «والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: ألهمهم رشدهم»[(٣)].

٢. الحصول على الخيرات والذكر الحسن.

أثنى الله جل وعز على عباده المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح في الجهاد بالمال والنفس، ووصفهم بأنهم المفلحون الفلاح المطلق، الذي تكاملت فيه أسبابه، وتحققت صفاته، فهم الذين ظفروا وفازوا بكل مطلوب لهم في الدنيا والآخرة، ومنه الحصول على الخيرات الكثيرة المتتابعة، كما في قوله جل وعلا: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩].

والخيرات جمع خيرة، وهو المستحسن من كل شيء[(٤)]، واللام فيه للاستغراق؛ للدلالة على كثرة وتنوع ما يمنحون من المحاسن والفضائل في الدنيا والآخرة، وأولاها بالذكر والدخول تحت عموم هذا اللفظ تلكم الخيرات المتعلقة بالإيمان والجهاد في سبيل الله، كالعزة، والنصر على الأعداء، وإقامة الحق والعدل بدين الله، والتمتع بالغنائم، والسيادة في الأرض، ومنها الذكر في الدنيا، والثناء الحسن، وسلوك الناس طريقهم[(٥)].

ثانيًا: ثواب المفلحين في الآخرة:

١. ثقل الموازين يوم القيامة.

تجازى الخلائق في الآخرة بأعمالها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فمن ثقلت

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٦.
(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٢، الوعد الأخروي، عيسى السعدي ١/ ٨٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٥.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٢٤٩.
(٥) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٥٠٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٩١.

موازينه بالأعمال الصالحة، ورجحت حسناته على سيئاته، فهو من تحقق له الفوز بالنجاة من النار ودخول الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران: ١٨٥].

وقد أخبر الله جل ثناؤه في موضعين اثنين من كتابه الكريم أن ثقل الموازين بالحسنات يوم القيامة وما ترتب عليه، هو من الفلاح الذي ظفر به المفلحون من عباده فقال عز من قائل: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

٢. وراثة الفردوس.

وعد الله جل ثناؤه عباده المؤمنين الذين حققوا أسباب الفلاح في الدنيا بالظفر والفوز بالنعيم المقيم في الآخرة، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]. أي: هم الأحقاء بأن يسموا وراثًا دون من عداهم ممن لم يتصف بتلك الصفات من المؤمنين[(١)].

(١) روح المعاني، الألوسي ١٨/ ١٢.

ثم بين الله جل وعز ما يرثونه على سبيل التفخيم والتأكيد[(٢)]، فقال: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١].

والفردوس هو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر[(٣)]. وهو أوسط الجنة وأعلاها منزلًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)[(٤)]. ووراثة عباد الله المفلحين لجنة الفردوس بأن يرثوا منازل أهل النار في الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله) فذلك قوله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾[(٥)].

موضوعات ذات صلة:

الخسران، الصلاح، النجاة، النصر

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨٣.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء)، رقم ٦٩٨٧، ٦/ ٢٧٠٠.
(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب صفة الجنة، رقم ٤٣٤١، ٥/ ٣٨٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠١٠، رقم ٥٧٩٩.

الفواحش

عناصر الموضوع

مفهوم الفواحش	٨
الفواحش في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
تنزيه الله تعالى عن الأمر بالفواحش	١٢
أنواع الفواحش	١٤
أسباب ارتكاب الفواحش	٢٦
الوقاية من الوقوع في الفواحش	٣٤
أثر انتشار الفواحش في المجتمع	٤٥
الإعجاز التشريعي في تحريم الفواحش	٤٨

مفهوم الفواحش

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (فحش): تدل على قبحٍ في شيءٍ وشناعةٍ[١].

و«الفحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال»[٢].

يقال: فحش الأمر فحشًا: جاوز حده، فهو فاحشٌ، وفحش القول أو الفعل فحشًا وفحاشةً: اشتد قبحه، والفاحشة مؤنث الفاحش القبيح الشنيع من قولٍ أو فعلٍ، والجمع: فواحش[٣].

وقيل: «المتفحش الذي يتكلف سب الناس ويتعمده، والفحش والفاحشة هو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي»[٤].

والفاحش: السيئ الخلق المتشدد البخيل[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الفاحشة هي التي توجب الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة»[٦].

قال ابن فارس: «كل شيءٍ جاوز قدره فهو فاحشٌ، ولا يكون ذلك إلا فيما يتكره»[٧].

وقال الراغب: فَحُشَ فلانٌ: صار فاحشًا، والمتفحش الذي يأتي بالفُحش»[٨].

قال ابن الأثير: «وكثيرًا ما ترد الفاحشة بدلالة الزنا، ويسمى الزنا فاحشةً»[٩].

وقال الغزالي: «الفحش: هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز؛ فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها»[١٠].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٧٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٧٣.
(٣) المعجم الوجيز ص ٤٦٣.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٣٥٥.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٧٨.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص ١٧١.
(٧) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٧٨.
(٨) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٧٣.
(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٤١٥.
(١٠) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١/ ١٠١.

الفواحش في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فحش) في القرآن الكريم (٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٢٤	﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١]

وجاءت الفاحشة في القرآن الكريم على أربعة أوجه[٢]:

الأول: المعصية: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾[الأعراف: ٢٨] يعني: المعصية.

الثاني: الزنا: ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ﴾[النساء: ١٥] يعني الزنا.

الثالث: اللواط: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾[العنكبوت: ٢٨] يعني: إتيان الرجال.

الرابع: نشوز المرأة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾[النساء: ١٩] يعني: العصيان والنشوز[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ٨٦٧-٨٦٨.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٦٦-٤٦٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١١٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإثم:

الإثم لغةً:

هو الذنب [(١)]، وقيل: أن يعمل ما لا يحل له.

الإثم اصطلاحًا:

الإثم: استحقاق العقوبة[(٢)]. والإثم ما يجب التحرر منه شرعًا وطبعًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ [البقرة:٢٠٦].

الصلة بين الفاحشة والإثم:

أن كل فاحشةٍ إثمٌ، وأن فاعلهما يستحق العقوبة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

٢ الذنب:

الذنب لغةً:

الإثم والجرم والمعصية، وعلى هذا يكون الذنب مرادفًا للإثم والفاحشة.

الذنب اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الفاحشة والذنب:

أن الفاحشة والذنب كليهما يشعران المرتكب لهما بالخزي والبعد عن رضا الله.

٣ الزنا:

الزنا لغة:

الزنا معناه الفجور، يقال: زنا يزني زنًا: فجر.

الزنا اصطلاحًا:

عرفه الحنفية بأنه وطء الرجل المرأة في القبل في غير الملك وشبهته».

الصلة بين الفاحشة والزنا:

الزنا إحدى الفواحش التي يعاقب فاعلها في الدنيا والآخرة.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٨.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت ١/ ٢٥٠.

٤ المنكر:

المنكر لغةً:

خلاف المعروف ، والمنكر: الأمر القبيح، وأنكرت عليه فعله إذا عبته ونهيته[١].

المنكر اصطلاحًا:

ما ليس فيه رضا الله من قولٍ أو فعلٍ ، وهو ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها، وقيل: هو الشرك.

الصلة بين الفاحشة والمنكر:

أن المنكر أعم من الفاحشة؛ لأنه يعم جميع المعاصي والرذائل.

٥ الكبائر:

الكبائر لغة:

الكبائر جمع كبيرةٍ، وهي لغةً: الإثم.

الكبائر اصطلاحًا:

كل ذنبٍ عظم الشرع التوعد عليه بالعقاب وشدده، أو عظم ضرره في الوجود، وهي ما كان حرامًا محضًا شرع عليه عقوبة محضة بنصٍ قاطعٍ في الدنيا والآخرة[٢].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [الشورى:٣٧].

﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ هي الآثام العظيمة التي نهى الشرع عنها، وتوعد فاعلها بعقاب الآخرة، نحو القذف، وقيل: «الكبائر هي كل ما توعد فيه بالنار، وقال الضحاك: أو كان فيه حدٌّ من الحدود. وقال علي وابن عباس: هي كل ما ختمه الله بنارٍ أو غضبٍ أو لعنةٍ أو عذابٍ»[٣].

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٥٣٩.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ١٩٣.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩.

تنزيه الله تعالى عن الأمر بالفواحش

لا يختلف العقلاء في أن الله سبحانه وتعالى جعل من أجل مقاصد الشريعة الإسلامية السمحة حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح الإنسان في هذا النظام، ويشمل صلاح عقله وصلاح عمله، ومن يقولون بغير ذلك فلا خلاق لهم.

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء:٤٣].

بيد أن حصول الأخطاء وارد على الناس كافة، وهذه طبيعة من تكوين البشر، ومن الناس من يقر بالخطأ ويتوب إلى الله؛ فيتقبل الله توبته؛ وجاء في الحديث «عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)[1].

ومن الناس من يجيد تبرير الأخطاء، فكل خاطئ يبرر ما شاء له أن يبرر، ومن ثم يلقون باللائمة والخطأ على الغير، فترى هؤلاء الكفرة يدعون على الله الكذب ويقولون على الله ما لا يعلمون.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف:٢٨].

قيل: (فاحشة): «كانت النساء تطوف بالبيت عراة عليهن الرهاط» وفي الطبري: «كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على قبلها النسعة»[2].

فتلك الفاحشة التي وجدوا عليها آباءهم الطواف عرايا، ثم جاء الرد من الله فقد كذبهم الله؛ لأن الله لا يأمر بالقبيح من الأفعال.

قال القرطبي: «الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عراة، وقال الحسن:هي الشرك والكفر، واحتجوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم، وبأن الله أمرهم بها، وقالوا: لو كره الله ما نحن عليه لنقلنا عنه. ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ بين أنهم متحكمون، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ادعوا».

وفيه كشف لباطل الكافرين، ونقض لدعواهم أن الله أمرهم بتلك الفواحش، ومما يدحض كذبهم أن الله طيب لايقبل إلا طيبًا، وفي الحديث: عن عبد الله بن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء، رقم ٧٥٨.

(٢) النسعة: قطعة من الجلد مضفورة. والرهط جلد يقد سيورا عرض السير أربع أصابع أو شبر، تلبسه الجارية الصغيرة قبل أن تدرك، وتلبسه أيضا وهي حائض.

مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس)[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ يعني: القمص، واحدها سربال، قوله تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني: الدروع التي تقي الناس في الحرب».

فقد ذكر الله النعمة التي اختصهم بها، وهي ملابس تقيهم الحر، ثم بين نعمته عليهم بلبس الدروع التي تقيهم الجرح من السيف أو الرمح.

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ هو خطاب لجميع العالم، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانا، فإنه عام في كل مسجد، لأن العبرة للعموم لا للسبب.

وقال تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل:٩٠].

الفحشاء: الفحش، وهو كل قبيح من قول أو فعل، قال ابن عباس: هو الزنا. والمنكر ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي: الرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها، وقيل: هو الشرك، والبغي هو الكبر والظلم والحقد والتعدي، وحقيقته تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر، ولكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣].

قال: «لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت وعيَّرهم المشركون نزلت هذه الآية، والفواحش: الأعمال المفرطة في القبح ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ نكاح الأمهات في الجاهلية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا، وقيل: سرها وعلانيتها».

وقال الزمخشري: «﴿الْفَوَاحِشَ﴾: ما تفاحش قبحه، أي: تزايد، وقيل: هي ما يتعلق بالفروج»[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، رقم ٩١.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٣٩.

أنواع الفواحش

تتعدد أنواع الفواحش التي يوسوس بها الشيطان للإنسان، فالشيطان لا ييأس من محاولة إغواء الإنسان ليقع فيما حرم عليه، ويتسرب إليه من خلال الشهوات الحيوانية الدنيئة والرذائل والقاذورات التي نهى الله عنها ليحيا المجتمع نقيًّا طاهرًا منها، وهي: (الزنا، واللواط، البذاءة، والقذف)، وغيرها مما ينكره الطبع السليم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١].

في الآية الكريمة نهي عن مقاربة أو ملابسة جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي، وقيل: «قوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ نهي عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي، و﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما عقد عليه القلب من المخالفة، وظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له الأشياء»؛ لأن الله تعالى قد أمر خلقه بترك ظاهر الإثم وباطنه، وذلك سره وعلانيته، والإثم كل ما عصي الله به من محارمه، وقد يدخل في ذلك سر الزنا وعلانيته وكل معصية لله فيها أمر باجتنابها، فيكون الأمر عاما بالنهي عن كل ما ظهر أو بطن من الفواحش.

والفاحشة: الفعلة الشديدة السوء، بهذا غلب إطلاقها، والجمع الفواحش، وتشمل:

١. الزنا.

قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ [النساء:١٥].

الفاحشة في هذا الموضع الزنا، بدليل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾، فجعل الله الشهادة على الزنا خاصة أربعة تغليظا على المدعي وسترا على العباد.

والزنا: الوطء في قبل خال عن ملك وشبهة.

لا شك أن الزنا فاحشة من أبشع الفواحش التي نهى الإسلام عنها وتوعد من يقترفها بالعذاب الشديد؛ لأنها تؤدي إلى اختلاط الأنساب التي حفظها الإسلام، كما أنها تؤدي إلى كشف العورات التي أمرنا الله تعالى بسترها وعدم الاقتراب منها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

قال الزمخشري: «﴿فَاحِشَةً﴾ قبيحة زائدة على حد القبح، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وبئس طريقا طريقه، وهو أن تغضب على غيرك امرأته أو أخته أو ابنته من غير سبب»[1].

في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥١٥.

يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن)[1].

فآفة الزنا فاحشة حرم إتيانها، ونهى الله عن الاقتراب منها في آيات القرآن الكريم والحديث الشريف.

والإسلام حرم الانحراف عن السلوك القويم الذي يمثل خروجا عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وشرع العلاج لمن يرتكب الفاحشة وينتهك المحارم حتى ينتهي عن ذلك، ووضع لها الحدود الرادعة التي تتناسب وخطورة الذنب وقاية للمجتمع من الضياع والفساد.

وقد حرم الله الزنا لمنع الإفساد واختلاط الأنساب، وجعل حد الزنا قاسيا لما يصيب المجتمع من الأمراض الأخلاقية والنفسية التي تهتك ستر المجتمع وتمزق أوصاله وتؤدي به إلى الهلاك، فكانت حكمة الله من تحريم الزنا وفرض العقوبات الرادعة لمقترفيها، فقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور:٢-٣].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢].

هذ نعت للمحسنين، أي: هم الذين لا يرتكبون كبائر الإثم، وهو الشرك؛ لأنه أكبر الآثام.

والفواحش الزنا، وقال مقاتل: كبائر الإثم كل ذنب ختم بالنار، والفواحش كل ذنب فيه الحد، ﴿اللَّمَمَ﴾: هي صغائر الذنوب التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه».

قال الزمخشري: «الكبائر» الذنوب التي لايسقط عقابها إلا بالتوبة، «والفواحش» مافحش من الكبائر[3].

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل:٩٠].

قال ابن عطية: ﴿الْفَحْشَاءِ﴾ الزنا، قاله ابن عباس، وغيره من المعاصي التي شناعتها ظاهرة وفاعلها أبدا مستتر بها، وكأنهم خصوها بمعاني الفروج، والمنكر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، رقم ٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم ١٦٩٠.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٥/ ٦٤٥.

أعم منه؛ لأنه يعم جميع المعاصي والرذائل»

وتشمل اللواطة، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠].

قال ابن عطية: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ هنا إتيان الرجال في الأدبار، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أمم قبلهم، وأنهم كانوا يأتي بعضهم بعضًا، وروي أنهم إنما كانوا يأتون الغرباء»[1].

٢. اللواط.

اللواط: إتيان الذكور في الدبر، وهو عمل قوم نبي الله لوط عليه السلام، وتعد أبغض الفواحش؛ لأنها تفسد الدين والدنيا معًا، وتهدم الأخلاق، وتمحق الرجولة، وتذهب الخير من حياة مقترفيها، ومن ثم يلحق مرتكبيها الخزي والعار؛ لأن اللواط ضرر عظيم للفرد والمجتمع، ومتى انتشرت هذه الآفة في مجتمع عاقبه الله بأمراض تنتشر فيه.

وقد بين القرآن الكريم جريمة اللواط، وما حل بقوم لوط عليه السلام الذين فعلوا الفواحش.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل:٥٤-٥٥].

وفيها ينكر الله على قوم لوط إتيانهم للفاحشة، وعدم إنكارهم لها؛ فهم يبصرون المنكر، ولا ينكرونه، وهم يأتون الرجال شهوة، ويفسدون الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وهي استمتاع الرجل بالمرأة.

قال النحاس: «أي: وأنتم تعلمون أنها فاحشة فذلك أعظم لذنبكم. وقيل: يرى بعضكم ذلك من بعض ولا يكتمه منه. وقيل: المراد بالبصر العلم بقبح هذا الصنيع. وقيل: كانوا يتناكحون أمام أنظار المشاهدين كما تفعل الكلاب والحمير؛ فالرؤية إذًا بصرية، أي: يرى بعضهم بعضًا دون خجل ولا حياء»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف:٨٠-٨١].

فهؤلاء القوم أحدثوا فاحشة استمتاع الرجال بالرجال، فأمر الله لوطا عليه السلام لما نزل بقريتهم سدوم في رحلته مع عمه إبراهيم عليه السلام أن ينهاهم، ويغلظ عليهم، والإتيان المستفهم عنه والعمل، أي: أتعملون الفاحشة؟! وكني بالإتيان على العمل المخصوص، وهي كناية مشهورة، والفاحشة: الفعل الدنيء الذميم، والمراد

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٤.

(٢) معاني القرآن، أبو جعفر النحاس، ٥/ ١٤٢.

هنا فاحشة معروفة، فالتعريف للعهد، وأنكر عليهم إتيان الفاحشة، وعبر عنها بالفاحشة التي لم تكن معروفة في البشر.

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لتفظيع فعل هذه الفاحشة، وتسمية هذا الفعل فاحشة؛ لأنه يشتمل على مفاسد كثيرة، منها استعمال الشهوة في غير ما خلقت له؛ لأن الله خلق في الإنسان الشهوة لإرادة بقاء النوع؛ ولأن ذلك الفعل يجلب أضرارا للفاعل والمفعول بسبب استعمال محلين في غير ما خلقا له.

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٢٩].

قطع السبيل: الطريق، يفعلون هذا مع فساد أخلاقهم وانتكاس فطرتهم.

قال ابن كثير: «فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا»[1].

وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء:١٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر:٣٧].

«قوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ قال أبو عبيدة: مطموسة بجلد كالوجه. وقال ابن عباس والضحاك: استعارة، وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ولم يروا شيئًا، فجعل ذلك كالطمس»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء:٧٤].

ومما سبق من الآيات نجد أن قوم لوط، قد وصفوا بعدد من الأوصاف نوجزها فيما يلي:

أنهم جاؤوا بفعل لم يسبقوا إليه، وأنهم مسرفون في ضلالهم؛ فقد جمعوا بين الشرك والرذيلة.

وأنهم أصحاب فطرة فاسدة؛ فهم مفسدون ظالمون؛ لإتيانهم الرجال؛ ولأنهم صاروا يرون القبيح حسنا والحسن قبيحا، فهم قوم سوء فاسقون، بل قوم مجرمون فاجرون، فهم لا يتناهون عن منكر فعلوه، فقد جمعوا بين أصناف المنكرات والرذائل، وهذه الأصناف كلها تدخل في إطار الفاحشة.

وإتيان المرأة في دبرها، منهي عنه.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٨.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢١٩.

قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣].

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ قال جابر: سببها أن اليهود قالت: إن الرجل إذا أتى المرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول. وعابت على العرب ذلك، فنزلت الآية تتضمن الرد على قولهم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وانتشر كلام الناس، فنزلت الآية مبيحة الهيئات كلها، إذ كان الوطء موضع الحرث، فلفظة (الحرث) تعطي أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاصة؛ إذ هو المزدرع»[1].

تحريم فاحشة اللواط: إن اللواط أفحش فاحشة وشر رذيلة، وهو شر من الزنا؛ لهذا حرمت النصوص الشرعية هذه الفاحشة، ورهبت منها ترهيبًا عظيمًا، إن الله لما ذكر الزنا:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

فجاءت ﴿فَٰحِشَةً﴾ نكرة، ولما ذكر اللواط.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل:٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت:٢٨].

فتعريف الفاحشة في اللواط إنما يدل على أنه أفحش من الزنا.

ولا خلاف أن عمل قوم لوط أعظم من الزنا.

قال ابن القيم: «ومن تأمل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وقوله تعالى في اللواط: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ تبين له تفاوت ما بينهما؛ فإنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنا، أي هو فاحشة من الفواحش، وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، أي: تأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها»[2].

والمسلم مأمور باجتناب الفواحش، فكل آية في القرآن تحرم علينا الفاحشة، فهي محرمة لفعل قوم لوط، وقد عاقب الله أهل هذه القرية بالهلاك، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوهم، ونكسوا في العذاب على رؤوسهم، فالجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف:٨٤].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٩٩.

(٢) الداء والدواء، ابن القيم ص٣٩٧.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٨٢-٨٣].

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عن مقارفة هذه الفاحشة اللعينة، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم دواعيها وما يؤدي إلى ملابستها، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد)[1].

ففي الحديث تجد النهي عن نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وكذا نظر الرجل إلى عورة المرأة والمرأة إلى عورة الرجل حرام بالإجماع، أما قوله صلى الله عليه وسلم: (ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد) وكذا المرأة مع المرأة؛ فهو نهي تحريم إذا لم يكن بينهما حائل، وفيه دليل على تحريم لمس عورة غيره بأي موضع من بدنه؛ لأن ممارسة الفواحش (الزنا واللواط) تؤدي إلى الإصابة بالأمراض المهلكة، إذ تنتقل الأمراض التناسلية عن طريق الاتصال الجنسي غير المشروع، ومنها: الإيدز، الزهري، السيلان.

الإيدز: يعني فقدان جسم الإنسان القدرة على مقاومة الأمراض، وينتقل المرض عن طريق الاتصال الجنسي المحرم بين الذكور والذكور (اللواط)، أو بين الذكور والإناث (الزنا).

الزهري: وهو مرض خطير ينتج عن ممارسات الجنس الشاذة.

السيلان: مرض ينتشر في أوساط الفسقة الفجرة لارتباطه بارتكاب الفاحشة، فهو غالبا ما يصيب الجهاز البولي والتناسلي للرجل والمرأة، وتنتقل العدوى من الشخص المصاب إلى السليم عن طريق المباشرة باللواط أو عند الزنا بالنساء، وغير ذلك.

وأما حد جريمة اللواط: فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الفاعل والمفعول به، ففي الحديث: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات، رقم ٣٣٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، ٤/ ١٥٨، رقم ٤٤٦٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢١، رقم ٦٥٨٩.

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل الفاعل والمفعول به؛ لأنه لا خير في بقائهما؛ لفساد طويتهما، فمن كان بهذه المثابة فلا خير للخلق في بقائه، فلا حياء ولا كرامة ولا إيمان لهؤلاء.

ولما كان الجرم شديدًا والعاقبة وخيمة وجب دعاء الله تبارك وتعالى والتضرع إليه؛ لأن الله لا يرد من طلب معونته بالصدق معه، والبعد عن أسبابها، وما يذكر المرء بها، والابتعاد عن أصحاب السوء، وأن يشغل المرء نفسه بالطاعة، فالنفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، فالعاقل من يفكر في كل عمل يقوم به، فيدرك أن النشوة المحرمة تعقبها منغصات وآلام وندم وقلق يلازمه دائمًا.

ومن ثم فإن عليه المبادرة بالزواج، فإن لم يستطع فالإكثار من الصوم، فالصوم جنة؛ لأنه يكبح جماح الشهوات، والخشوع في الصلاة، والإقبال على الله؛ فإنها تنهى عن كل فاحشة وكل منكر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥].

ومن ثم فإنه يجب أن يدرك الناس أن الله يغفر الذنوب جميعا.

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، وهذا في حق التائبين خاصة.

٣. البذاءة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١].

قال ابن عطية: «قال بعض الناس: الفاحشة متى وردت في القرآن معرفة فهي الزنا، ومتى وردت منكرة فهي المعاصي، يراد بها سوء عشرة الزوج، ومرة غير ذلك»(١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ الفاحشة: الفعلة الشديدة السوء، بهذا غلب إطلاقها، وهي متى وردت منكرة فهي المعاصي، ووصفها بـ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ يراد به أنها واضحة في جنس الفواحش، أي: فاحشة عظيمة، وقد اختلف في المراد من الفاحشة هنا، وفي معنى الخروج لأجلها، قال القرطبي: «قال ابن عباس وابن عمر والحسن والشعبي ومجاهد: هو الزنا، فتخرج ويقام عليها الحد. وعن ابن عباس

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٩٨.

أيضًا والشافعي أنه البذاء على أحمائها، فيحل لهم إخراجها»[1].

وقال ابن عطية: «قال ابن عباس: ذلك النداء على الأحماء، فتخرج ويسقط حقها في السكنى»[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ [الأحزاب:٣٠].

يخاطب الله نساء النبي؛ لأنهن صرن على عهد مع الله أن يؤتيهن أجرا عظيما، ويحذرهن من المعاصي، وجعل عذاب المعصية على فرض أن تأتيها إحداهن عذابا مضاعفا، والمراد بالنساء هنا الحلائل، والفاحشة المعصية، وكلما وردت الفاحشة في القرآن نكرة فهي المعصية، وإذا وردت معرفة فهي الزنا ونحوه.

وقال ابن عطية عن (الفاحشة): «إذا وردت موصوفة بالبيان فهي عقوق الزوج وفساد عشرته، ولذلك يصفها بالبيان، إذ لا يمكن سترها»[3].

وقد تطلق الفاحشة على الأعمال السئية عمومًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف:٢٨] قيل: (فاحشة) «كانت النساء تطوف بالبيت عراة عليهن الرهاط»[4].

كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على قبلها النسعة، فتلك الفاحشة التي وجدوا عليها آباءهم الطواف عرايا.

وقال القرطبي: «الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عراة، وقال الحسن:هي الشرك والكفر»[5].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [النساء:١٩].

قال ابن عطية: «واختلف الناس في معنى الفاحشة هنا، فقال الحسن بن أبي الحسن: هو الزنا. وقال ابن عباس رضي الله عنه: الفاحشة في هذه الآية البغض والنشوز. وقاله الضحاك وغيره»[6].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣].

«قال الكلبي: لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيرهم المشركون؛ فنزلت هذه الآية. والفواحش الأعمال المفرطة في القبح، ما ظهر منها وما بطن، وعن مجاهد قال: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ نكاح الأمهات

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٦٨٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٩٨.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٩٨.
(٤) معاني القرآن الكريم، أبو جعفر النحاس ٣/ ٢٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٢.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٩٨.

في الجاهلية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا. وقال قتادة: سرها وعلانيتها»[1].

٤. نكاح المحارم.

من الإعجاز التشريعي في القرآن أن الله تبارك وتعالى أنزل فيه تحريم الزواج بين بعض الأفراد، وهذا المنع إما لشدة القرابة بين الذكر والأنثى، التي من شأنها أن تأبى على كل واحد منهما أن يعاشر الآخر معاشرة الأزواج، لما في ذلك من منافاة للفطرة، ولما قد ينعكس عن ذلك من آثار غير حميدة على أبناء المجتمع، كما يكون له تأثير على النسل، إلى جانب ما يكون هناك من موروثات تنتقل من فرد إلى فرد من أفراد الأسرة القريبين من بعضهم كل القرب، ومن ثم نص القرآن على حرمة التزوج بالمحارم: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الإخوة، وبنات الأخوات، وهو ما يعرف بنكاح المحارم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء:٢٢].

يقال: كان الناس يتزوجون امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، فصار حرامًا في الأحوال كلها؛ لأن النكاح يقع على الجماع والتزوج؛ فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح حرمت على ابنه[2].

وقيل: «الصحابة تلقت الآية على ذلك المعنى؛ ومنه استدلت على منع نكاح الأبناء حلائل الآباء، وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه[3].

وكانت في قريش مباحة مع التراضي، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: تقدم ومضى، أي: لكن ما قد سلف فاجتنبوه ودعوه، فإن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون إلا ما قد سلف، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ عقب بالذم البالغ المتتابع، وذلك دليل على أنه فعل انتهى من القبح إلى الغاية.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٥٤٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٤٣.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٤٤٥.

عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٣-٢٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، وتلا هذه الآية[١].

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ فحرم نكاح أمهاتكم ونكاح بناتكم، فقد بين في هذه الآية ما يحل من النساء وما يحرم، كما ذكر تحريم حليلة الأب، فحرم الله سبعا من النسب وستا من رضاع وصهر، وألحقت السنة المتواترة سابعة، وذلك الجمع بين المرأة وعمتها، ففي الحديث: (عن قبيصة بن ذؤيب أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها والمرأة وخالتها؛ فنرى خالة أبيها بتلك المنزلة؛ لأن عروة حدثني عن عائشة قالت: حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب)[٢].

فالسبع المحرمات من النسب: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فعطف على المحرمات المذكورات قبلها، وقد اختلف في تأويلها، فقيل: «المراد بالمحصنات هنا المسبيات ذوات الأزواج خاصة، أي: هن محرمات، إلا ما ملكت اليمين بالسبي من أرض المعركة، وفي قول آخر: هن ذوات الأزواج؛ ويرجع ذلك إلى أن الله حرم الزنا. وقيل: يراد به العفائف، أي: كل النساء حرام، وألبسهن اسم الإحصان، من كان منهن ذات زوج أو غير ذات زوج»[٣].

والسبع المحرمات بالصهر والرضاع: الأمهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء، والربائب: ابنة زوجه، وحلائل الأبناء -الحلائل جمع حليلة، وهي زوج الابن- والجمع بين الأختين، وألا يتزوج الابن امرأة أبيه، أي: من سبق للآباء الزواج منهن.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ أي: اللاتي دخلتم بهن.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: لا يحل له الزواج من ابنة زوجته التي دخل بها.

وقال ابن عطية: «اختلف العلماء في

(١) المصدر السابق.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، رقم ٥١٠٨، ص ١٠١٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٤٣.

معنى قوله: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ فقال ابن عباس وطاوس وابن دينار: الدخول في هذا الموضع الجماع، فإن طلق الرجل بعد البناء وقبل الوطء؛ فإن ابنتها له حلال. وقال جمهور من العلماء منهم مالك ابن أنس وعطاء بن أبي رباح وغيرهم: إن التجريد والتقبيل والمضاجعة وجميع أنواع التلذذ يحرم الابنة كما يحرمها الوطء»[1].

وقد جاء النهي صريحًا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالبنت أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج البنت)[2].

وعن مالك عن غير واحد أن عبد الله بن مسعود استفتي وهو بالكوفة عن نكاح الأم بعد الابنة إذا لم تكن الابنة مست فأرخص في ذلك، ثم إن ابن مسعود قدم المدينة فسأل عن ذلك فأخبر أنه ليس كما قال وإنما الشرط في الربائب، فرجع ابن مسعود إلى الكوفة، فلم يصل إلى منزله حتى أتى الرجل الذي أفتاه بذلك فأمره أن يفارق امرأته.

قال مالك في الرجل تكون تحته المرأة ثم ينكح أمها فيصيبها: إنها تحرم عليه امرأته ويفارقهما جميعا ويحرمان عليه أبدًا إذا كان قد أصاب الأم، فإن لم يصب الأم لم تحرم عليه امرأته وفارق الأم.

وقال مالك في الرجل يتزوج المرأة ثم ينكح أمها فيصيبها: إنه لا تحل له أمها أبدًا، ولا تحل لأبيه ولا لابنه، ولا تحل له ابنتها وتحرم عليه امرأته. قال مالك: فأما الزنا فإنه لا يحرم شيئا من ذلك؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ فإنما حرم ما كان تزويجًا ولم يذكر تحريم الزنا، فكل تزويج كان على وجه الحلال يصيب صاحبه امرأته فهو بمنزلة التزويج الحلال، فهذا الذي سمعت والذي عليه أمر الناس عندنا[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾، وهي في التحريم نحو ما جاء في الحديث الشريف:

عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (جاء عمي من الرضاعة فاستأذن علي، فأبيت أن آذن له حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فقال: إنه عمك فأذني له.

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب فيمن يتزوج المرأة ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، ٣/ ٤١٧، رقم ١١١٧.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ٢٢٤٢.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب النكاح، باب ٣/ ٢٠٤.

قالت: فقلت: يا رسول الله، إنما أرضعتني المرأة، ولم يرضعني الرجل؟! قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه عمك فليلج عليك. قالت عائشة: وذلك بعد أن ضرب علينا الحجاب. قالت عائشة: يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة)[1].

فإذا أرضعت المرأة طفلًا حرمت عليه؛ لأنها أمه، وبنتها؛ لأنها أخته، وأختها؛ لأنها خالته، وأمها؛ لأنها جدته، وبنت زوجها؛ لأنها أخته، وأخته؛ لأنها عمته، وأمه؛ لأنها جدته، وبنات بنيها وبناتها؛ لأنهن بنات إخوته وأخواته.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ أي: حرم جمع الزوجتين بعقد النكاح، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن) كما جاء في الحديث.

عن عروة بن الزبير أن زينب بنت أبي سلمة أخبرته أن أم حبيبة بنت أبي سفيان أخبرتها أنها قالت: (يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان. فقال: أوتحبين ذلك؟ فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن ذلك لا يحل لي. قلت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة. قال: بنت أم سلمة؟ قلت: نعم. فقال: لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن. قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبي صلى الله عليه وسلم، فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة. قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة)[2].

ومن المحارم، كذلك تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو بين المرأة وخالتها، فقد جاء في الحديث: (عن قبيصة بن ذؤيب أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها والمرأة وخالتها، فنرى خالة أبيها بتلك المنزلة؛ لأن عروة حدثني عن عائشة قالت: حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب)[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، رقم ٥١٠٨، ص ١٠١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف)، رقم ٥١٠٧، ص ١٠١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، رقم ٥١٠٨، ص ١٠١٤.

أسباب ارتكاب الفواحش

تتنوع أسباب ارتكاب الفواحش تبعا لاختلاف الأفراد في المجتمع، فتجد لكل عاص أسبابه الخاصة التي تدفعه لارتكاب الفاحشة، فقد تكون هذه الأسباب بسبب عصيان أوامر الله أو اجتناب نواهيه، وكل عصيان لله يكون بتتبع خطوات الشيطان، واتباع هوى النفس بممارسة الفاحشة، أو تقليد أصحاب السوء؛ لذلك كان الأمر من الله تعالى بعدم الاقتراب من الفواحش على نحو ما سنبينه.

أولًا: عصيان أوامر الله تعالى:

المعصية: مخالفة الأمر قصدًا[1].

وهي نوعان:

- إما أن لا تفعل أمرًا، فتتمرد عليه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ [الكهف:٦٩].
- وإما أن ترتكب أمرًا منهيًا عنه، نحو قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٦].

وهذه تحدث وقت صدور الأمر بافعل أو لا تفعل، ويقال لك: افعل فلا تفعل، أو يقال لك: لا تفعل فتفعل، ولا تسمى عاصيًا إلا إذا لم تطبق الأمر ساعة صدوره إليك، فقد خلق الله الكون لحكمة يعلمها، وخلق الإنسان ليعبده ويمجده ويسبح بحمده ويفعل ما يأمره به، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

قال ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: المعنى: وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي، وليقروا لي بالعبودية، فعبر عن ذلك بقوله ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ إذ العبادة هي مضمون الأمر[2].

لذلك فإن الإنسان إذا ما سولت له نفسه عصيان أوامر الله تعالى وطاعة الشيطان فلا يلومن إلا نفسه.

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [الأنعام:١٥].

قال تعالى: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾ [الشعراء:٢١٦].

فقد حذرنا الله تعالى من مغبة المعصية وعواقبها الوخيمة، وحذرنا من التمادي فيها.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [النساء:٤٢].

قال: «والمعنى: لو يسوي الله بهم الأرض، أي: يجعلهم والأرض سواء. تمنوا لو لم يبعثهم الله وكانت الأرض مستوية عليهم؛ أنهم من التراب نقلوا»[3].

(١) التعريفات، الجرجاني ص ٢٣٠.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٨٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٥٢.

وذلك لأنهم عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

ولقد لعن العصاة المعتدون بسبب عصيانهم؛ ولأنهم لم يكونوا ينهون أنفسهم عن ارتكاب المعاصي.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ «أي: لا ينهى بعضهم بعضا، وقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ذم لتركهم النهي، وكذا من بعدهم يذم من فعل فعلهم»[1].

ذم الله تعالى هذه الفرقة الملعونة؛ لأنهم كانوا يتجاهرون بالمعاصي، وإن نهى منهم ناه فعن غير جد، بل كانوا لا يمتنع الممسك منهم عن مواصلة العاصي ومؤاكلته وخلطته.

وقال ابن عطية: «والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه»[2].

ثانيًا: اتباع خطوات الشيطان:

كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان، وخطوات الشيطان هي نزغات الشيطان، فالشيطان يدعو البشر إلى الانغماس في الشهوات وعمل المنكرات والوقوع في الفحشاء، والخطوات التي يقع فيها البشر كثيرة، وقد توعد الشيطان الإنسان بأن يفسد عليه إيمانه وطاعته لله، ليس فقط على سبيل الخطايا وحدها، أو السبل وحدها، بل هو تعبير لما يريده الشيطان من الإنسان منذ تكليفه إلى حين خروج الروح من الجسد، فالشيطان يسلب الإنسان دينه من حيث لا يدري لا يكاد المرء يميز بين مراحله كحال الخطوة التي تتبعها الخطوة، وطريق الشيطان يبدأ بالوسوسة، فتسول له نفسه، أو التزيين بالتحسين تارة أخرى غير ذلك، ثم تتوالى الخطوات حتى يتم الزلل؛ فيقع الإنسان في المعصية، وهذا ما يتضح من خلال السياق القرآني، فالله يبين أن تلك الخطوات إنما هي أوامر شر وفحش وسوء، ولذا جاء النهي عن اتباع خطوات الشيطان.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ

(١) المصدر السابق، ٣/ ٣٤٦.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٢٤.

﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور:٢١].

يأمر الله تعالى المؤمنين بألا يتبعوا خطوات الشيطان، وما يأمر به أولياءه، والشيطان إنما يأمر أولياءه بفعل الفاحشة وإشاعتها وارتكاب المنكرات، فمن اتبع خطوات الشيطان جره إلى ارتكاب هذه الموبقات.

أما خطوات الشيطان، فقيل: آثاره. وقيل: عمله. وقيل: طرقه التي يدعوهم إليها. وقال قتادة والسدي: «كل معصية لله، فهي من خطوات الشيطان»[(١)].

وقال ابن عطية: «وكل ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصي فهي خطوات الشيطان»[(٢)].

واتباع خطوات الشيطان إنما يقصد بها اتباع ما يصد عن سبيل الله، وقد تكرر النهي في القرآن الكريم عن اتباع خطوات الشيطان، ولم يقل: لا تتبعوا الشيطان. وجاء ذكر خطوات الشيطان في أربعة مواضع، كلها بصيغة النهي عن اتباعها، وهذه المواضع:

ذكر خطوات الشيطان في موضعين:

- في سياق ذكر الطعام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة:١٦٨].

- القول على الله بلا علم، وهذا يكون بالخوض في الشريعة وأحكامها بجهل كما يقع في ذلك كثير من الناس الذين يبيحون المحرمات، ويسقطون الواجبات، وينتهكون حمى الشريعة، ويهونون أحكامها لدى العامة بما يستحسنونه من آرائهم وأفكارهم.

ومنهم من يفتون الناس بغير علم، ووجه دخوله في القول على الله بلا علم؛ لأنه لو علم عظمة الله لما اجترأ على انتهاك شريعته، وقال تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام:١٤٢].

وخطوات الشيطان مع الإنسان فيما يتعلق بالطعام لها مسلكان: تحريم حلال، أو إباحة حرام.

إذ يزين الكسب المحرم بحيث يصير ما يشترى به الطعام مالا حرامًا، وقد يكون الدافع للكسب الحرام خوف الفقر والجوع، وهذا هاجس من الشيطان، وعلى أن خطوات الشيطان لا تقتصر على إباحة المحرم فقط، بل تكون كذلك في تحريم الحلال من الطعام أو غيره. «وعن مسروق قال: أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح،

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٨٠.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٣٧.

فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريده. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن آكل ضرعًا أبدًا. فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فأطعم وكفر عن يمينك»[1].

وجاء ذكر خطوات الشيطان في سياق الأمر بأخذ شرائع الإسلام كلها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [البقرة:٢٠٨].

فمن اتبع خطوات الشيطان في الترخيص للناس وإرضائهم بغير حق، فإنه ينتهي به المطاف إلى إباحة المحرمات وإسقاط الواجبات؛ لأن الله لما أمر بالدخول في الإسلام كافة وأخذ الشرائع كلها، نهى عن اتباع خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يصد الناس عن الأخذ بالشرائع كلها.

وجاء ذكر خطوات الشيطان في سياق النهي عن الفواحش، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النور:٢١].

وجاء ذكر خطوات الشيطان في سياق النهي عن الفواحش، وهي طريقة الشيطان في استدراج الإنسان إلى المعاصي بأخذهم إليها شيئا فشيئا، حتى يقعوا في الفاحشة؛ لذا حذرنا الله من اتباع خطوات الشيطان باختلاق الذرائع إلى الفواحش والمنكرات التي يأمر بها الشيطان.

قال ابن عاشور: «ومن يتبع خطوات الشيطان يفعل الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر الناس بالفحشاء والمنكر، أي: بفعلهما، فمن يتبع خطوات الشيطان يقع في الفحشاء والمنكر؛ لأنه من أفراد العموم، والفحشاء كل فعل أو قول قبيح»[2].

والشيطان في تحقيق عداوته للإنسان يسلك بخطواته كل طريق للإغواء، ويأتي الإنسان من كل مكان.

لذا كان واجبا على الإنسان أن يجعل الشيطان عدوا له، فلا يستسلم لوساوسه؛ لئلا يقوده إلى المحرمات.

ثالثًا: اتباع الهوى:

إن المتأمل لآيات القرآن الكريم يجد أن الله تعالى قد حذرنا من هوى النفس، فنهى عن اتباعه، وبين خطورته على الفرد والمجتمع؛ لأن اتباعه في غير طاعة الله إثم عظيم، وآفة تتطلب اليقظة والحذر، ومن ثم فإنه إذا تمكن الهوى من النفس حملها بما تهوى، وجعل الشهوة قائدها إلى كل شر ورذيلة، وينهاها عن كل خير وفضيلة، فهوى

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٨٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ١٨٧.

النفس يزين للشخصية المريضة المنكر، ويجمل لها الباطل، ويقلب لها المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا؛ فترى صاحب الهوى يتبع هوى نفسه، فهي الآمرة بالشر الناهية عن الخير.

وقد حرص الإسلام على تخويف النفس من الله، فلا يعصيه من خلال منع النفس عن هواها.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات:٤٠].

«قال ابن عباس: المعنى خافه عند المعصية؛ فتنهى عنها و(الهوى) شهوات النفس وما جرى مجراها، وأكثر استعماله إنما هو في الشهوات»[(١)].

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾ [الفرقان:٤٣].

«قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ معناه: جعل هواه مطاعًا فصار كالإله، والهوى قائد إلى كل فساد؛ لأن النفس أمارة بالسوء، وإنما الصلاح إذا ائتمرت للعقل، وقال ابن عباس: الهوى يعبد من دون الله»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ جعلناه غافلا، وقيل: من ظننا غافلين عنه، و(الفرط) يحتمل أن يكون بمعنى التفريط والتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلتزم، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦].

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ﴾ معناه لازم وتقاعس وثبت، وقوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يحتمل أن يراد إلى شهواتها ولذاتها وما فيها من الملاذ، ويحتمل أن يراد بها العبارة عن الأسفل والأخس، قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ قال الجمهور: إنما شبه به في أنه كان ضالا قبل أن يؤتى الآيات ثم أوتيها فكان أيضا ضالا لم تنفعه، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهث في حال حمل عليه، وتحرير المعنى فالشيء الذي تتصوره النفس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب»[(٤)].

فالحيرة والتخبط من أهم صفات هوى النفس في القرآن الكريم، وقد حذرنا الإسلام من اتباع هوى النفس.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٣٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢١٢.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٥١٢.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٤٨٧.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥].

قال ابن عطية: «وجملة ما عليه أهل العلم في هذا: الأمر بالمعروف متعين متى رجي قبول أو رجي رد الظالم ولو بعنف، ما لم يخف المرء ضررا يلحقه في خاصيته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشق عصا الطاعة وإما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم، محكم واجب يوقف عنده»[1].

لذا فالعاقل من علم ما أعد الله تعالى من الثواب لمن نهى النفس عن الهوى واستحضر عاقبة اتباع الهوى.

رابعًا: التقليد:

يقع كثير من الناس في المعصية ويرتكبون الفواحش بسبب التقليد الأعمى، أو التقليد عن جهل بالأمور، فقد يرتكب المرء الفاحشة رغبة في تقليد أصحاب السوء، فيكون في هذه الحالة إمعة لا رأي له، ولعل هذا ما نهينا عنه، وقد يكون التقليد لأسباب عقائدية، أو لعدم الرغبة في الدخول في دين الله وإنكارهم له.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة:١٦٨-١٧٠].

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ نهي للمشركين المتلبسين بالمنهي عنه، وأما المؤمنون فتحذير وموعظة، واتباع الخطوات يراد به اتباع ذلك المسلك منه، فجعل المقتدي الذي لا دليل له سوى المقتدى به وهو يظن مسلكه مؤديا للصواب كالذي يتبع خطوات المقتدى به، والاقتداء بالشيطان خضوع النفس للعمل بما يوسوسه لها من الخواطر المؤذية لاتباعها، ولم يردعها بما له من الإرادة والعزيمة التي وهبها الله له، ولذلك أودع الله فينا العقل والإرادة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: إنه لا يأمركم إلا بالسوء، أي: يحسن لكم ما فيه مضرتكم؛ لأن عداوته أمر خفي عرفناه من آثار أفعاله، والأمر في الآية للتعبير عن وسوسة الشيطان، وفي تلقيهم ما يوسوس لهم بأنهم لا إرادة لهم ولا يملكون أمرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يشير إلى ما اختلقه المشركون وأهل الضلال من نسبة أشياء ما أمر الله

(١) المصدر السابق ٢ / ٢٤٩.

بها، وسمي (الفحشاء) لاشتماله على أكبر الكبائر، وهو الشرك والافتراء على الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠].

فإن المقصود بالخطاب في ذلك هم المشركون؛ فإنهم الذين ائتمروا لأمره بالسوء والفحشاء، وخاصة بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، وفي هذه الآية زيادة تفظيع لحال أهل الشرك، فبعد أن أثبت لهم اتباعهم خطوات الشيطان فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات أعقب ذلك بذكر إعراضهم عمن يدعوهم إلى اتباع ما أنزل الله، وتشبثوا بعدم مخالفتهم ما ألفوا عليه آباءهم، وأعرضوا عن الدعوة دون تأمل ولا تدبر، وبدون حجة إلا بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم، ما وجدوهم عليه من أمور الشرك، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

قال ابن عطية: ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ وهي بمعنى الملة والديانة، والآية على هذا تعيب عليهم التقليد، وقرأ مجاهد ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: على نعمة؛ فالآية على هذا استمرار في احتجاجهم؛ لأنهم يقولون: وجدنا آباءنا في نعمة من الله، وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضا الله عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إنما هو للرد على قولهم: ﴿نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ ويقصد منه الرد ثم التعجيب والتخطئة، هذه الآية ذم للذين أبوا أن يتبعوا ما أنزل الله وأصروا على تقليد العصاة، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

والتقليد الذي يرفضه الإسلام هو التقليد الذي يمارسه الإنسان بدون تفكير، وهذه الآية لإبطال التقليد الذي تعيبه على المشركين هو تقليدهم من ليسوا أهلًا لأن يقلدوا؛ لأنهم لا يرتفعون عن رتبة مقلديهم إلا بأنهم أقدم جيلًا وأنهم آباؤهم، ولأن التقليد الذي رفضه الإسلام عليهم هو تقليد في أعمال الفساد، والتقليد في الفساد يستوي فيه التابع والمتبوع، وقد رد الله عملهم تلك الفواحش للضلال والغرور واتباع الشياطين أوليائهم من أئمة الكفر، فإن قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ دعوى باطلة؛ إذ لم يبلغهم الله بها.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٥٠.

خامسًا: الاقتراب من دواعي الفواحش:

لاشك أن لكل جريمة أسبابها ودوافعها المؤدية إليها، وحتى يأمن المجتمع وقوع أي فاحشة فلا بد أن يسعى جادا إلى منع الأسباب المؤدية إليها؛ لأنه متى وجدت الأسباب والدوافع وجدت النتيجة، لذا جاء الإسلام بالقول الفصل بالبعد عن تلك الأسباب والدوافع التي تؤدي إلى كل شر وتدفع للهاوية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١].

قال ابن عطية: «نهي عام عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي و(ظهر وبطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء»[(١)].

والنهي عن مجرد الاقتراب يحمل في طياته دلالة؛ لأنه لا يوجد حكم شرعي في كتاب الله أو السنة إلا وله حكمة مقصودة منه، وأحكام الشرع تجلب المصالح، دنيوية أو أخروية، وتدرأ المفاسد بكل أنواعها؛ لأن الفواحش معاص يستحى منها؛ لأنها تشمل الإباحية، والانحلال الخلقي، والزنا، وخيانة الأمانة، والمال الحرام، والسرقة، هذه كلها فواحش، إذا انتشر خبرها كان فضيحة، لذا كان النهي عن الاقتراب منها، فلا تقربوا الظاهر من الأشياء المحرمة عليكم، فـ(ما ظهر) هي الأمور العلانية بين الناس، والباطن منها ما كان بين الإنسان وربه، وهي الأمور التي تأتونها سرا في خفاء لا تجاهرون بها، فإن كل ذلك حرام لأن النهي من الله جاء عن ظاهر كل فاحشة وباطنها، والفواحش الباطنة كبائر القلوب تقترف في السر، والفاحشة الظاهرة ما تقترفه الجوارح، العين تزني، وزناها النظر، الأذن تزني، وزناها سماع ما لا يحل لك سماعه، اليد ترتكب فاحشة باللمس أو الضرب، والرجل ترتكب فاحشة بالسير إلى المحرمات، واللسان يرتكب فاحشة بذكر العورات والخوض في الأعراض، وجاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)[(٢)].

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٦٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا، رقم ٢٦٥٧.

الوقاية من الوقوع في الفواحش

لقد أعطى الإسلام الجانب الأخلاقي والسلوكي للمسلم الأهمية القصوى، إذ غرس معاني الخير والفضيلة والإيمان والتقوى في نفوس المسلم؛ لأن هذه المعاني تدفع نحو كل خير، وتمنع كل شر، وتجعل المؤمن مراقبا لله في السر والعلن، وتصقل الإنسان بأخلاق الإسلام وآدابه وأحكامه وتعاليمه.

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة:١٣٨].

إن المنهج الإسلامي فيه وقاية من الفواحش والرذائل، وجعل للمحافظة على المجتمع الإسلامي؛ ليكون طاهرا نقيا عفيفا يتحلى بالفضائل منهجا وسلوكا وتعاملا، وليتخلى عن الرذائل في مناحي الحياة كافة.

وقد جاءت رسالة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم؛ لتتم مكارم الأخلاق؛ ولهذا اهتم الإسلام بجملة من التدابير الواقية من الفواحش بنوعيها: القولية والفعلية، فجعل من صفات عباد الرحمن أنهم لا يقترفون فاحشة الزنا.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان:٦٨].

وتتعدد وسائل الوقاية من الفواحش التي بينها الله تعالى في القرآن الكريم ووضع الضوابط التي ينبغي علينا التمسك بها، فجعل من بينها إقامة الحدود؛ لأن الإنسان إذا ما علم أنه إذا ما أجرم في حق الناس وأيقن أن المجتمع سيقيم عليه الحد فإنه سيفكر كثيرا قبل الإقدام على المعصية.

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقد زودنا الله تعالى بعدد من النواهي، فنهانا عن مجرد الاقتراب من كل ما من شأنه أن يوقعنا في المعصية الموجبة للحد.

١. منع وسائل الوقوع في الفواحش.

لعل أول الوسائل الوقائية من الوقوع في الفواحش التربية الإيمانية التي تدفع المؤمن إلى فعل الطاعات وترك المعاصي وتقيه من المعصية، وإذا ما وقع في الذنب بادر إلى التوبة بالندم على فعله والإقلاع عنه والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى، ليحقق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

إذ من صفات المؤمنين أنهم إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار، وفي

الآية دلالة على أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين، فعن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، أذنبت ذنبًا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أذنبت فاستغفر ربك)، قال: فإني أستغفر، ثم أعود فأذنب. قال: (فإذا أذنبت فعد فاستغفر ربك) فقالها في الرابعة، فقال: (استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور)[1].

وقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يغفرها أحد سواه، وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[3].

وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: (أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك. قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة: اعمل ما شئت)[4].

في الحديث دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب؛ لأن التوبة الأولى طاعة، وقد انقضت وصحت، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه أضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم، وإنه لا غافر للذنوب سواه سبحانه وتعالى.

وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)[5].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٢٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٦٣٠٧، ص ١٢١٣.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم ٢٧٥٨، ص ١٢٦٤.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب

وهذا يدل على أن باب التوبة مفتوح أمام الناس كافة، ومن ثم يستطيع الإنسان أن يتوب إلى الله.

وقال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف:٢٣].

فحسن إيمان يوسف عليه السلام منعه من الوقوع في الفاحشة التي حاولتها التي هو في بيتها.

وفي الحديث: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)[1].

٢. غض البصر.

وهذا الأمر ليس قاصرًا على الرجال دون النساء، إنما هو مطلوب من الجنسين الرجال والنساء.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ [النور:٣٠-٣١].

في الآية بيان آداب ما تقتضيه المجالسة بعد دخول المرء المنزل، بألا يكون الداخل إلى البيت محدقا بصره إلى امرأة فيه، بل إذا جالسته غض بصره، واقتصر على الكلام، ولا ينظر إليها إلا النظر الذي يعسر صرفه؛ لأن الغض التام لا يمكن، ومن المفهوم أن المأمور بالغض فيه هو ما لا يليق تحديق النظر إليه، ويشمل غض البصر عما اعتاد الناس كراهية التحقق فيه، كالنظر إلى خبايا المنازل، بخلاف ما ليس كذلك.

وفي هذا الأمر بالغض أدب شرعي عظيم ويكون من الحياء، وجاء الأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار؛ لأن النظر رائد الزنا، فالمراد بحفظ الفروج حفظها من أن تباشر غير ما أباحه الدين.

٣. ترك النساء إبداء الزينة.

نهى الله النساء عن إبداء زينتهن لما للزينة من أثر في إثارة الشهوات، فتكون سببًا لارتكاب الفاحشة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم ٢٧٤٩، ص ١٢٦٠.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش، رقم ٦٨٠٦، ص ١٢٩٨.

﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

وكذلك منعهن من الضرب بالأرجل؛ لأن من النساء من كن إذا لبسن الخلخال ضربن بأرجلهن في المشي بشدة لتسمع قعقعة الخلاخل غنجًا وتباهيًا بالحسن، فنهين عن ذلك مع النهي عن إبداء الزينة؛ لأن سماع هذه الزينة أشد تحريكًا للشهوة من النظر للزينة، وهذا يقتضي النهي عن كل ما من شأنه أن يذكر الرجل بلهو النساء ويثير منه إليهن من كل ما يرى أو يسمع من زينة أو حركة، لئلا يثير ذلك دواعي الشهوة منهن إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

٤. عدم وصف المرأة.

وضع الإسلام آدابا يلتزم بها المسلمون، فلا يجوز للمرأة أن تصف لزوجها ما تراه من محارم النساء، ففي الحديث: عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها)[(١)].

ولا يخفى أن ذلك إنما سدا للذريعة، وحماية عن مفسدة وقوعها في قلبه وميله إليها بحضور صورتها في نفسه.

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

٦. تيسير الزواج.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١].

فقد جعل الله تعالى الزواج حماية للإنسان من الوقوع في الفاحشة؛ فكان الحض على النكاح؛ لأن فيه سترا للمسلم، ومن ثم كان الأمر بالاستعفاف لمن لا يجد النكاح، وفي الحديث: عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء)[(٢)].

٧. عدم اللمس المباشر بين الجنيسين.

فقد حرم الإسلام تحريم المصافحة بين الرجال والنساء الأجنبيات، فقد كانت بيعة النساء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالكلام دون مصافحة، وما مست يد رسول الله يد امرأة إلا زوجة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة:١٢].

قال ابن عطية «اختلفت هيئة مبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، رقم ٥٢٤٠، ص ١٠٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة، رقم ٥٠٦٦، ص ١٠٠٥.

بعد الإجماع على أنه لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط، فروي عن عائشة رضي الله عنها وغيرها أنه صلى الله صلى الله عليه وسلم بايع باللسان قولًا»[1].

٨. عدم النوم في فراش واحد.

ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد)[2].

٩. مصاحبة الصالحين.

لاشك أن مصاحبة الصالحين من علامات الأبرار، ومصاحبة الأخيار والصالحين من الإسلام؛ لأن الإنسان يحتاج دائما لمن يرشده، لذلك يجب علينا مصاحبة الصالحين، فمن عقل المرء أن يختار مصاحبة الصالحين فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، فالصديق الصالح هو الذي يرشد صاحبه إلى طاعة الله، فالمتقون يجتمعون على طاعة الله لا يغش بعضهم بعضًا، ولا يدل بعضهم بعضًا إلى ضلالة أو فاحشة أو ظلم، وإذا وجد صاحبه على ظلم رده عن ظلمه، وإن حصل من أحدهما معصية ينهاه أخوه ويزجره عنها، حتى لا يندم يوم لا ينفع الندم.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

ولا شك أن مصاحبة الصالحين وسيلة لاكتساب الأخلاق الإسلامية الفاضلة، كالإيثار والمروءة، والمسلم يحرص على مصاحبتهم والجلوس معهم للنجاة يوم القيامة من فزع ذلك اليوم.

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف:٦٧-٦٨].

فإذا كان معهم في الدنيا نجا من الفزع، وفي الحديث: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا منتنة)[3].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٢٩.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات، رقم ٣٣٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم ٢٦٢٨.

في الحديث حث على مجالسة أهل الخير، والتحذير من مجالسة أهل الشر، فمن خالط صحبة السوء ناله نصيب من أخلاقهم، إلا من رحمه الله، ومن خالط الصالحين وجالس ذوي التقوى والمروءة وأصحاب مكارم الأخلاق؛ فإنه غالبا ما تناله نفحة طيبة بصحبتهم، فيسلك مسالكهم.

١٠. اجتناب مواطن الفواحش.

يجب على المسلم أن يتجنب مواطن الفواحش ولا يقترب منها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى:٣٧].

هذه صفات للمؤمنين الذين يجتنبون كبائر الإثم، وهي الآثام العظيمة التي نهى الشرع عنها، وتوعد فاعلها بعقاب الآخرة، نحو القذف والاعتداء والبغي، والفواحش جمع فاحشة، وهي الفعلة القبيحة التي شدد الدين في النهي عنها وتوعد عليها بالعذاب أو وضع لها عقوبات في الدنيا للذي يظهر عليه من فاعليها، مثل قتل النفس والزنا والسرقة والحرابة.

وكبائر الإثم والفواحش قد تدعو إليها القوة، ولما كان كثير منها متسببا عن قوة الغضب، كالقتل والجراح والشتم والضرب؛ فقد أثنى على الذين يجتنبونها، فبين أن من صفاتهم المغفرة عند الغضب.

لذا فليحرص المسلم على الحياء الذي يجنبه السقوط في المعصية، ففي الحديث: عن أبي السوار العدوي، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**الحياء لا يأتي إلا بخير**)[(١)].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**)[(٢)].

والصدق مع النفس وتطهيرها من ظن السوء بالمؤمنين بفعل الفاحشة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

قال ابن عطية: «أمر الله تعالى المؤمنين باجتناب كثير من الظن، وألا يعملوا ولا يتكلموا بحسبه لما في ذلك وفي التجسس من التقاطع والتدابر، وحكم على بعضه بأنه إثم»[(٣)].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحياء، رقم ٦١١٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم ٦٢٤٣.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٥١.

إخوانا)[1].

١١. الانشغال بالعبادات.

إن عبادة الله هي المحرك الأساسي لحياة الأمة، والباعث لحضارتها، والضابط لمنظومة قيمها الإنسانية، إذ يهتم الإسلام بحياة المسلمين وعباداتهم الدينية، وفي علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بالإنسان الآخر، وهو ما يمكن من خلاله تحديد مدى فهم المسلم لدينه وتطبيقه لتعاليمه والعمل بقيمه وفضائله واجتناب نواهيه، والابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ومفهوم العبادة في الإسلام مفهوم واسع شامل، ذكرها الله سبحانه وتعالى في معرض بيان وظيفة الإنسان في هذه الحياة، فجعلها الغاية من خلقه، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

قال ابن عطية: «اختلف الناس في معناه مع إجماع أهل السنة على أن الله تعالى لم يرد أن تقع العبادة من الجميع؛ لأنه لو أراد ذلك لم يصح وقوع الأمر بخلاف إرادته، فقال ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: المعنى ما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي، وليقروا لي بالعبودية، فعبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ إذ العبادة هي مضمن الأمر»[2].

ولهذا كانت حياة المسلم كلها كما أرادها الله عبادة خالصة له سبحانه في جميع جوانبها، فالمسلم عبد لله في كل تحرك وسكون.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام:١٦٢].

قال ابن عطية: «أمر من الله عز وجل أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته وذبيحته وغيرها وقصر تصرفه مدة حياته وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله وإرادته وطلب رضاه، وفي إعلان النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل»[3].

ومتى اهتم المسلم بالعبادات التي فرضها الله عليه سلم من الوقوع في الخطيئة، إذ يجب توطيد العلاقة بين العبادة والمعاملة، حتى لا نجد من يؤدي فروض الإسلام كاملة تامة ولكنه يسقط أمام أول اختبارات المعاملة في خطابه للآخر، أو تعامله معه، أو أدائه الوظيفي، أو واجبه الأسري نحو أسرته وحمايتها.

والعبادات تقرب الإنسان مما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم ٦٠٦٤ ص ١١٧٢.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٨٢.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٦٩.

والظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانات، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، وأمثال ذلك من العبادة.

ولم يترك الله سبحانه وتعالى عبده إذا وقع في المعصية، بل جعل له مخرجا منها، فجعل الصلاة هي السبيل.

قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥].

قال ابن عطية: «أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنفوذ لأمره وتلاوة القرآن الذي أوحى إليه، وإقامة الصلاة، أي: إدامتها والقيام بحدودها، ثم أخبر حكما منه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ﴾ صاحبها ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وتذكر الله تعالى وتوهم الوقوف بين يدي العظمة وأن قلبه وإخلاصه مطلع عليه مرقوب صلحت لذلك نفسه، تذللت وخامرها ارتقاب الله، فاطرد ذلك في أقواله وأعماله، وانتهى عن الفحشاء والمنكر»[1].

ومن ثم تجد أن من يخلص في العبادة لله ينل البركة والطمأنينة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة.

١٢. عدم إشاعة أخبار الفواحش.

الإشاعة هي الإظهار والنشر للأخبار من غير تثبت وتحر للصواب، ولقد نهى الإسلام عن إشاعة أخبار الناس وبث الشائعات بألوانها المختلفة عنهم، ومن ثم عدم الخضوع لمبرراتها المصحوبة بالكذب والخداع وما تحمله من بث لبذور الفتنة في المجتمعات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات:٦].

فقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي: فتثبتوا، التبين: التعرف والتفحص، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد إليكم حتى يتضح ويظهر، ومشاورة المختصين والرجوع إلى المصادر الموثوقة قبل نشر الخبر، فمن الخطر الجسيم إعادة نشر أي خبر قبل التثبت من مصدره ومن مضمونه والهدف منه، ولا سيما إذا كان هذا الخبر يتعلق بما ينال إنسانًا من رميه بالفاحشة وما قد يترتب عليه.

لذا فإن الله سبحانه وتعالى ذم المنافقين بإذاعة الأخبار الكاذبة على غير الحقيقة لأغراض خفية في نفوسهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ

(١) المصدر السابق ٤/ ٣١٩.

﴿أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣].

في الآية إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، وفيها توبيخ للمنافقين ولوم لمن يقبل مثل تلك الإذاعة من المسلمين لما أخبروا به وأفشوا.

لذلك فمن الواجب على المسلم الحذر والتحري قبل إشاعة الأخبار، وعدم التحدث بكل ما يسمعه، جاء في الحديث عن حفص بن عاصم رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع)[1].

وذلك إذا لم يتثبت من الخبر؛ لأنه يسمع عادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع لا محالة يكذب، والكذب الإخبار عن الشيء على غير ما هو عليه وإن لم يتعمد ذلك.

وفي الإشاعة أضرار كثيرة، فإذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد له عذرًا فقل: لعل له عذرًا. فالستر مطلوب للناس، وهو أنفع من التشهير حتى مع فرض صحة الخبر، ولا شك أن التماس العذر للآخرين من محاسن الأخلاق، وقد بين القرآن الكريم والسنة النبوية طريقا واضحا للتعامل مع الشائعة يتمثل في التثبت والتبين دون قبول مضمون ما في الشائعة وعدم العمل بمقتضاها.

والمسلم مطالب بعدم الانسياق وراء الإشاعات مهما كانت، وأن يتحرى الصدق، وأن يتذكر قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وعلى كل عاقل أن يتروى ويتثبت في كل ما يقال وينقل، وألا يبادر بالتصديق، فإن الأصل في الإنسان البراءة، ولتتذكر دائما قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق:١٨].

فكل إنسان محاسب على ما يقول، ومن ثم فإنه لا يجوز إشاعة أخبار الفواحش، ويجب على المسلم أن يتثبت من الأخبار والشائعات، ويعلم مصدرها والهدف منها قبل أن يشارك في نشرها، ففي الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة)[2].

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم ٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم ٢٤٤٢.

يعيب إنسانا أو يفضحه لقول قاله أو لرأي، ولم يكن ليعنفه لذلك.

وفي الحديث عن ابن عمر قال: (صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع فقال: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله. قال: ونظر ابن عمر يوما إلى البيت أو إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك)[1].

١٣. إقامة الحدود.

إن نعمة الله علينا تكمن في ديننا القويم من جميع الوجوه، في العبادة والأخلاق، والسلوك في المعاملات، وفي حقوق الله وحقوق العباد، فهو دين يجمع بين الرحمة والحكمة، إذ من طبيعة البشر أن تكون لهم إرادات متباينة، فمنهم من ينزع إلى الخير، ومنهم من ينزع إلى الشر، ولذلك فرض الله الحدود وأوجب على ولاة الأمور إقامتها، وقد أنزل الله تعالى الآيات للناس لتبين للناس ما يترتب على الشر من المفاسد في الدنيا والعذاب في الآخرة، وما يترتب على الخير من المنافع في الدنيا والثواب في الآخرة، وقد فرض الله بحكمته عقوبات دنيوية محددة أو مفوضة إلى ولاة الأمور، فأحكام الحدود هي من أعمال القضاء، إذ عليها يكون حفظ الضروريات، ففي حد الردة حفظ الدين، وفي حد الزنا حفظ الأنساب، وفي حد الخمر حفظ العقل، وفي حد القذف حفظ العرض، وفي حد السرقة حفظ المال.

قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور:١-٢].

في الآيتين دليل واضح على أن الحدود فريضة فرضها الله على عباده، ويجب على ولاة الأمور أن ينفذوا ما فرض الله عليهم، وعليهم أن يقيموا فرائض الله التي فرضها عليهم في عقوبة المجرمين، حتى لا تعم فوضى لا يحدها حد، وقد اقتضت حكمة الله أن تتنوع هذه العقوبات بحسب الجرائم، لتردع المعتدين وتمحو الفساد، وتقيم أود الأمة وتكفر جريمة المجرم فلا يجمع له بين عقوبة الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، ٤/ ٣٧٨، رقم ٢٠٣٢.
قال الترمذي: حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٩٨٥.

ولا شك أن إقامة الحدود فرض واجب يقيمه ولي الأمر، لتستقيم حياة الناس، إذ يجب إقامة الحد على من اقترف إثما مما يوجب الحد، وقد شرع الله إقامة الحدود صونا للأعراض، ودفعا للفساد، وحماية للحقوق، وردعا للمجرمين، حتى تستقيم الحياة وتعم الطمأنينة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨].

حد الزنا: الزنا هو فعل الفاحشة في قبل امرأة لا تحل له، وهو فاحشة عظيمة من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله وقتل النفس بغير حق.

والزنا درجات متفاوتة في القبح، فالزنا بامرأة ذات زوج من أعظم الفواحش، والزنا بحليلة الجار أعظم، والزنا بذات محرم أشد وأعظم، غير أنه في كل الأمور فاحشة ممقوتة تستحق إقامة الحد، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:2].

قال ابن عطية: «قدمت (الزانية) في اللفظ من حيث كان في ذلك الزمن زنا النساء أفشى، وكان لأمراء العرب وبغايا الوقت رايات، وكن مجاهرات بذلك، وإذا العار بالنساء ألحق إذ موضعهن الحجبة والصيانة فقدم ذكرهن تغليظا واهتماما. وهذه الآية باتفاق ناسخة لآية الحبس وآية الأذي اللتين في النساء»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المقصود بالآية الكريمة الإغلاظ والتشديد على الزناة والتوبيخ بحضرة الناس، فلا خلاف أن الطائفة كلما كثرت فهو أليق بامتثال الأمر.

ومن رحمة الله بعباده وما اقتضت حكمة الله تعالى التدرج في إنزال العقوبة بفاعل الزنا، فكان في أول الأمر عقوبة الزنا بالإيذاء والتوبيخ والتعنيف، ثم تدرج الحكم بالعقوبة من ذلك إلى الحبس في البيوت بقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء:١٥-١٦].

ثم استقر الأمر وجعل السبيل، فجعل عقوبة الزاني البكر مائة جلدة والرجم للثيب حتى يموت، وهذا التدرج يأخذ به إلى العفاف والطهر، وحتى لا يشق على الناس هذا الانتقال فلا يكون عليهم في الدين حرج، وذلك كما في الحديث عن عبادة

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠.

ابن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[1].

أثر انتشار الفواحش في المجتمع

الإسلام دين يحث على الفضيلة وينفر من الرذيلة، ولقد حرص الإسلام على محاربة العادات التي تتسم بالفواحش، لما تسببه من مفاسد، وتلحق أضرارا بالمجتمع، فانتشار الفواحش في أي مجتمع يعد تدميرًا له.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١].

قال ابن عطية: «ظهور الفساد فيهما هو بارتفاع البركات ونزول رزايا، وحدوث فتن، وتغلب عدو كافر، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر، وقال ابن عباس: الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم، وقلما تجد أمة فاضلة مطيعة مستقيمة الأعمال إلا يدفع الله عنها هذه، والأمر بالعكس في أهل المعاصي وبطر النعمة، وكذلك كان أمر البلاد في وقت مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان الظلم عم الأرض برا وبحرا، وقد جعل الله هذه الأشياء ليجازي بها عن المعاصي فيذيق الناس عاقبة أذنابهم لعلهم يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة الله»[2].

ولقد توعد الله الذين يتتبعون عورات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنا، رقم ١٩٦٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠.

الناس ويحبون أن يلصقوا بهم الشائعات الفاسدة بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور:١٩].

قال ابن عطية: «الآية عامة في كل قاذف منافقا كان أو مؤمنا، فالقاذف المؤمن لا يتصف بحب شياع الفاحشة في المؤمنين جملة، لكنه يحبها لمقذوفه، وكذلك آخر لمقذوفه وآخر حتى تشيع الفاحشة من مجموع فعلهم»[1].

وقد حرم الله ذلك لأن نشر الفاحشة في المجتمع طريق لهدم الأسرة والمجتمع بهذه الوسائل، ومن ثم تجد أعداء الله هم أحرص الناس على نشر الرذيلة وهدم الفضيلة بين المسلمين، وتراهم يمكرون بهم.

وكان من الأحرى بهم أن يأخذوا بيد الإنسان وإن كان عاصيًا؛ بهدف البقاء عليه.

ففي كل يوم تطالعنا بعض وسائل الإعلام بنشر أخبار الفساد التى تلقى قبولا يوما بعد يوم من الناس التي تتشوق لهذه الأخبار التي قد تحمل في طياتها تشهيرا بإنسان صدقا أو كذبا، وربما يتسبب هذا الخبر الذي يحمل تشهيرًا في تشويه سمعة إنسان بغير حق، وهذا التصرف ليس من الإسلام في شيء.

فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تتبع سقطات الناس في المجتمع، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يشهر بإنسان أخطأ في أمر ما؛ وإنما كان عندما يغضب من فعل شخص أو لا يعجبه قوله ويخشى أن ينتشر هذا القول أو الفعل بين الناس فى المجتمع المسلم كان صلى الله عليه وسلم يصعد المنبر، ويخطب الناس، ويقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا»، ولا يذكر اسم الفاعل حتى لا يشعره بحرج، أو يجعله مسار تندر أو سخرية في المجتمع، فالإنسان وإن كان فاحشا؛ فإنه يجب الإبقاء عليه بحيث يمكن علاجه، ولا نكون سببًا في انحرافه، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستر على مرتكب الجريمة؛ لعله يتوب بينه وبين نفسه أو يعود إلى الله.

ويجب على من ابتلي بشيء من الأذى والفساد والفسق وعدم المبالاة ألا يجاهر بما ارتكب من الفاحشة، إذ عليه أن يستر نفسه، وألا يعين الشيطان على نفسه، وليشعر بشيء من الحياء، فقد جاء في الحديث: «عن سالم بن عبد الله قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١.

وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه)[1].

بل إن الإسلام حرم حتى على الزوج أن يذكر فحولته وقدرته على الجماع مع زوجه، لما في ذلك من خصوصية لا ينبغي لأحد غير الزوجين أن يطلع عليها؛ لأنه ذريعة إلى تحريك النفوس، وقد لا يكون عند الرجل من يغنيه عن الحلال، فيتخطى إلى الحرام، ومن هذا كان المجاهرون خارجين عن منهج الله لأنهم متحدثون بما فعلوه من المعاصي.

ولا شك أن انتشار الفاحشة في المجتمع يؤدي إلى انتشار المفاهيم الخاطئة؛ لأن الناس إذا اعتادوا أن يروا الفواحش ليل نهار دون رادع فسوف يترسخ فى أذهانهم مفاهيم خاطئة عن المجتمع وأفراده، فيتخيل كل واحد منهم أن تلك الممارسات الفاحشة هي أمور طبيعية، وذلك حسب ما تكون لديه من أفكار ومفاهيم خاطئة، بل قد يقع فى تلك الرذائل والموبقات والفواحش دون إحساس أو وازع من ضمير.

لقد حرص الإسلام على محاربة فاحشة الزنا لما تسببه من مفاسد كبيرة تلحق أضرارًا بالغة في المجتمع، ومن ثم نرى أن فاحشة الزنا من أكبر المفاسد وأشدها خطرا على المجتمعات التي تنتشر فيها؛ لأن الزنا مناقض لصلاح المجتمع في حفظ الأنساب والأعراض والفروج، والزنا يجمع صفات الشر كلها، ويفتح على الناس أبواب المعاصي كلها، من ظلم الخلق، وإضاعة أهله وأمواله، وكسب الحرام، ويولد الأمراض، ويورث الفقر والمسكنة، وهذا الداء يورث نفرة الناس ووحشتهم منه، وسقوطه من أعينهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم ٦٠٦٩.

الإعجاز التشريعي في تحريم الفواحش

الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم عبارة تشمل كل ما شرعه الله لعباده، وهو المنهج الذي أراده الله لعباده أن يسلكوه ويأتمروا به قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

فالقرآن الكريم مصدر التشريع للمسلمين ثم يأتي بعده الحديث الشريف، وكلاهما مصدر تشريع، وبيان لكل من آمن بالله وباليوم الآخر، فالله يعلم ما يصلح لعباده، هذا ما تقر به الفطرة السليمة؛ لأن الله أعلم بما خلق، فينهاه عما يضره، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

وفيما يتعلق بالإعجاز التشريعي في تحريم الفواحش، فقد جاء القرآن هداية للناس أجمعين، واشتمل على أحكام تشريعية تكفل سعادة الناس في الدنيا والآخرة، وتصون أعراضهم، وتحقق لهم الأمن والطمأنينة والسكينة، وتضمن لهم الحقوق في الوفاء باحتياجاتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٩].

ومن ثم نرى أن منهج الإسلام في مكافحة الجريمة يقوم على أمرين: الأول هدفه منع وقوع الجريمة أصلًا، إذ يبين لهم مخاطرها وعواقب ارتكاب ما نهى عنه، باعتبار أن الوقاية خير من العلاج، فحرم الله الزنا، وشدد في عقوبة الزناة، ولم يدان منه عقوبة، بل حرم حتى الاقتراب من الزنا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:٣٢-٣٣].

فكل ما يقرب من الزنا فهو حرام، كالقبلة والتبرج وإظهار الزينة المثيرة للشهوة والملامسة، ونشر الصور البذيئة، وقول الشعر الماجن، وغير ذلك من مثيرات الشهوات وما يقرب من ارتكاب الفاحشة.

أما الثاني فهو يأتي بعد وقوعها، وهدفه منع تكرارها سواء من فاعلها أو من غيره، ويسمى عقابًا.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢].

كذلك حرم الله قذف المحصنات؛ لأن ذلك الجرم من الجرائم الاجتماعية التي تشيع الفاحشة بين المسلمين وتنزع الحياء من المجتمع، وتورث الضغائن والأحقاد، وربما تؤدي إلى ارتكاب الجرائم، وقد لعنهم الله في الدنيا والآخرة، وتوعدهم في الآخرة بعذاب شديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور:٢٣].

وترى الإعجاز التشريعي في محاربة الإسلام للفاحشة التي فعلها قوم لوط عليه السلام، فقد فضح الذين ارتكبوا الفاحشة؛ لأن في فعلهم هذا مخالفة للفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

فهذه الفاحشة تنقل الأمراض الخبيثة عن طريق الاتصال الجنسي غير المشروع، ومنها: الإيدز، والزهري، السيلان، وغير ذلك، فالأمراض الجنسية هي الحصاد الطبيعي للإباحية البعيدة عن الأخلاق القويمة.

وترى الإعجاز التشريعي في حد اللواط وبيان عقوبته، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الفاعل والمفعول به، ففي الحديث: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)**[1].

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل الفاعل والمفعول به؛ لأنه لا خير في بقائهما؛ لفساد طويتهما، فمن كان بهذه المثابة فلا خير للخلق في بقائه.

فالتشريع يهدف لتحقيق حفظ النسل، وحفظ النسل من أعظم أسباب البقاء، ومن أسباب عمارة الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠].

واستخلاف الله في الأرض بحفظ النسل بالترغيب بما يحصل به استمرار النسل وبقاؤه، بالنكاح الشرعي، بتحريم فاحشة اللواط، والمعاقبة على اقترافها.

وقد جعل الإسلام الإصلاح ذاتيا، بتزكية النفس، والقلب السليم هو أداة تطبيق هذه المرحلة، وإن كان وجوده لازما ليتميز به العاقل من غيره؛ لأن الإنسان في مرحلة الإصلاح الذاتي بحاجة لأن يختار من بين النصائح ما يملى عليه القرار المناسب، وما يصاحبه من عوامل وأسباب تكون مجموع المبادئ التي يجعلها العاقل نبراسا لا يحيد عنه؛ لأن أول ما جاء به الإسلام هو تغيير النفوس.

هذا الإصلاح يؤدي لصلاح المجتمع، ويحافظ على التقاليد التي تربط العلاقات بين أفراد المجتمع، وقد أشركت الشريعة المجتمع كله في الإصلاح، ليؤدي العمل الذي يعجز عنه الفرد مع نفسه، فالمجتمع لا يخلو من ضعاف النفوس الذين لا ينتفعون بالإيمان، والمجتمع الذي يريده الإسلام هو الذي يسود فيه الأمن والطمأنينة، ولذلك دعت الشريعة إلى الأمر بالمعروف والنهي

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، ٤/١٥٨، رقم ٤٤٦٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/١١٢١، رقم ٦٥٨٩.

عن المنكر من غير عنف ولا غلظة.

وقد أوجب الإسلام تغيير المنكر على كل أفراد المجتمع، كل حسب طاقته، وهو فرض كفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من الناس، ويدل على ذلك الوجوب قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وجاء في الحديث الشريف الأمر بتغيير المنكر، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[1].

وقد ربط الإسلام هذا الواجب بحقيقة المسلم، وهي الإيمان، وهي أكثر حثا للمؤمن على الفعل.

ولا يخفى ما للإعجاز التشريعي في تحريم الفواحش من أهمية قصوى في القضاء على ممارسة الفاحشة، بل إن التشريع هو رأس الأمر ومناط التكليف، وبدونه تصير شريعة الغاب هي الغالبة، ويفجر أصحاب الأهواء، قال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

لقد حرم الإسلام بعض السلوكيات لما تفضي إليه من جرائم، والمتأمل في العقوبات الشرعية يلاحظ وجود الرادع، فمن يرتكب فاحشة الزنا ويشاهد عقوبتها؛ فإنه سيتحاشاها، ويفهم الردع جيدًا، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور:٢].

فالردع قد يمنع المجرم من العود، وعقوبة القصاص التي تطبق في الجرائم العمدية ليس فيها عفو من جانب الأولياء، وتجد العقاب بالجلد على الجرائم الحدية، كما هو الحال في القذف والزنا لغير المحصن، هذه العقوبة تنطوي على فوائد متعددة، فهي تحقق الردع والزجر كونها تطبق أمام الناس.

إن التشريع القرآني يتميز بأن عقابه رادع زاجر مكفر عن الإثم الناتج عن الجرم، والأحكام التي نص عليها القرآن الكريم تحقق النتائج المرجوة، مما يدل على إعجاز القرآن التشريعي في تطهير المجتمع من الفاحشة.

وللتشريع الإسلامي مميزات تميزه وتساعد على دوامه بين الناس راضين بعدالته وتمشيه مع مصالح الأفراد في المجتمع، والشريعة الإسلامية لها مميزاتها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم ٤٩.

التي تجعل الناس تنقاد إليها عن قناعة؛ لأنها تتفق والفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وهي تخاطب العقول السليمة، وتحض على العمل، وتنادي بالتقوى ونبذ الفاحشة.

موضوعات ذات صلة:

الذنب، الربا، الزنا، المنكر

القبر

عناصر الموضوع

مفهوم القبر	٥٤
القبر في الاستعمال القرآني	٥٥
الألفاظ ذات الصلة	٥٦
القبر وكرامة الإنسان	٥٨
عذاب القبر	٦٠
أسباب عذاب القبر	٦٤
أحكام تتعلق بالقبر	٦٩
بناء القبور وزيارتها	٧١
القبر في المثل القرآني	٧٤
خروج الموتى من قبورهم للحساب	٧٧
المنجيات من عذاب القبر	٧٩
نعيم القبر	٨٢

مفهوم القبر

أولًا: المعنى اللغوي

القبر من مادة قبر أي: دفن ووارى بالتراب، والقبر للميت وهو مدفن الإنسان، يقال: قبرت الميت وأقبرته قبرًا أي: دفنته وجعلت له مكانًا يدفن فيه، أو أمرت بأن يقبر وأعنت على دفنه، وقيل: أقبرته أي: صيرت له قبرًا يدفن فيه ويوارى فيه، وفي الآية القرآنية: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾[عبس:٢١].

أي: ألهِم كيف يدفن، أو جعله ممن يقبر ولم يجعله يلقى للكلاب أو الطيور، وكأن القبر مما أكرم به بنو آدم. والقبر واحد، والجمع قبور، والمقبرة بفتح الباء وضمها واحد المقابر؛ وهو موضع القبور، يقال: نقلوا من القصور إلى القبور، ومن المنابر إلى المقابر [(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

لا يكاد المعنى الاصطلاحي للقبر يخرج عن معناه اللغوي، وقد وردت تعريفات منها: «القبر هو المكان الذي يدفن فيه الميت»[(٢)]، وهو «مقر الميت»[(٣)]، وقيل: «القبر هو الحفرة التي يستقر بها الميت، والمقبرة: اسم للمكان المشتمل على الحفرة وما ضمت»[(٤)].

وقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم القبر من الناحية المعنوية فقال: (إن القبر أول منازل الآخرة؛ فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج فما بعده أشد منه)[(٥)]، وهذا وصف لحال الميت في القبر.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٨٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٤٠، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤٧، لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٦٨.
(٢) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ١/ ٢٩٣.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٥١.
(٤) المتواري على تراجم أبواب البخاري، أبو العباس الجذامي، ١/ ٨٥.
(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، رقم ٤٢٦٧، ٢/ ١٤٢٦.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٧، رقم ١٦٨٤.

القبر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قبر) في القرآن الكريم (٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾ [عبس:٢١]
		﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة:٨٤].
الاسم	٧	﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج:٧]

وجاء القبر في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو مقر الميت[٢]، ولم تخرج عن معناها اللغوي، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢]. يعني: كما لا يسمع ولا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٢٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٩٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٤٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأجداث:

الأجداث لغة:

الأجداث جمع جدث، حيث يقال للقبر: جدث وجدف [١].

الأجداث اصطلاحًا:

هي القبور، أماكن دفن الميت [٢].

الصلة بين الأجداث والقبور:

مترادفتان.

٢ البرزخ:

البرزخ لغة:

وهو الحائل بين شيئين [٣].

البرزخ اصطلاحًا:

هو الفترة الممتدة من موت الإنسان إلى بعثه، حيث يقال للميت هو في البرزخ؛ لأنه بين الدنيا والآخرة [٤]. والبرزخ نوعان: زماني وهو الفترة الممتدة بين الموت والبعث، ومكاني وهو: القبر [٥].

الصلة بين القبر والبرزخ:

قد يأتي البرزخ مرادفًا للقبر من حيث إنهما مكان دفن الميت، ويأتي أحيانًا بمعنى الحياة داخل القبر.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٠/ ٣٣٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ١٨٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١/ ١٠٩.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي، ١/ ٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٣٠.

(٣) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد، ٢/ ١١١٦.

(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٧/ ٢٧١، ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، الباوردي، ١/ ٣٨٣، التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم، ١/ ٢٤٣.

(٥) انظر: مفاهيم إسلامية، مجموعة من علماء أوقاف مصر، ١/ ٦٩.

٣ الضريح:

الضريح لغة:

ضرح الضريح للميت يضرحه ضرحًا أي: حفر له ضريحًا، وسمي الضريح في القبر ضريحًا؛ لأنه انضرح عن جالي القبر فصار في وسطه [(١)].

الضريح اصطلاحًا:

الضريح هو الشق في وسط القبر، وقيل: الضريح القبر كله، وقيل: هو قبر بلا لحد [(٢)].

الصلة بين القبر والضريح:

القبر يطلق على كل مدفن للميت، أما الضريح يطلق على القبر كله والشق وسطه.

٤ اللحد:

اللحد لغة:

من لحد أي: مال عن الاستقامة، يقال: لحد للميت وألحد له أي: حفر له لحدًا في أحد جانبي الجدث[(٣)].

اللحد اصطلاحًا:

هو «حفرة مائلة عن الوسط» [(٤)]، وهو الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميت، وسمي باللحد؛ لأنه أميل عن وسطه إلى جانبه بأن يحفر في عرضه أو جانبه [(٥)].

الصلة بين القبر واللحد:

القبر اسم عام يطلق على كل مدفن للميت، أما اللحد فهو طريقة خاصة بأن يحفر في جانب القبر للميت.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٤/ ١٢٢، جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ١٥٦.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٣/ ١٢٧، اللطائف في اللغة، اللبابيدي، ١/ ٢٩٠.
(٣) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٠٨، المغرب في ترتيب المعرب، لأبي المكارم بن علي ١/ ٤٢٢.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١/ ٢٨٨.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٣٨٨، الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٢٨.

القبر وكرامة الإنسان

أولًا: القبر تكريم إلهي للإنسان عن باقي المخلوقات:

لقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان، وصان كرامته، وحمى حقوقه، وجعله خليفةً في الأرض، وخصه بخصائص لا مثيل لها تميز بها عن باقي المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الاسراء:٧٠].

ويستمر حفظه له وعنايته به منذ خلقه حتى بعد الممات بحفظ جسده بعد مماته، بأن جعله يقبر ويدفن فلا يرمى للسباع والحيوانات المفترسة والطيور، وهذا ما علمه الله للإنسان من زمن آدم عليه السلام؛ إكرامًا له وتفضلًا عليه، فجعل في غريزة نوعه وفطرته أن يواري ميته بالتراب[(١)].

لذلك سن الله سبحانه وتعالى القبر للإنسان، وامتن عليه به، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس:٢١].

أي: جعله ذا قبر يوارى فيه، وجعل مثواه جوف الأرض كرامة له ورعاية؛ لأن القبر مما أكرم به الإنسان[(٢)].

فهذه الآية تدل على وجوب دفن الأموات وإقبارهم؛ إكرامًا لهم، دون إحراقهم كما يفعل الكفار كالمجوس والهندوس، فالواجب على المسلمين احترام موتاهم، ودفنهم كما أراد الله سبحانه وتعالى.

ثانيًا: الدفن في القبر:

لقد شرع الله الدفن للميت تحت التراب، وألا يترك على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢].

أي: إذا جاء الأجل صرتم إلى المقابر ودفنتم فيها، فالآية فيها كناية عن الموت ودفن الموتى في المقابر، حيث يؤتى بالأموات ويدفنون في المقابر[(٣)]، وقد حث الإسلام على دفن الميت في القبر؛ لأن فيه تكريمًا للإنسان، فجعل الأرض وعاء للأحياء في المساكن والمنازل، وللأموات يدفنون في بطونها في القبور، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥][(٤)].

وهذا ما أجمع عليه المسلمون بأن دفن الميت ومواراة بدنه فرض، فبعد الفراغ من الصلاة على الميت ينبغي أن يدفن الميت في القبر، وهو الحفرة الخاصة ذات الصفات التي تحفظ حرمته، وتصونه من

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٣٧١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٩/ ٢١٩، تفسير المراغي، ٣٠/ ٤٥.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٧٠٣، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١/ ٥٨، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٨٣١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٤٧٣، التفسير الحديث، دروزة عزت، ٢/ ١٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ١٣٣.

الامتهان، وتجعله في مأمن من تناول السباع وخروج رائحة الجسد، حيث بعد دخوله القبر يوضع على شقه الأيمن ويوجه إلى القبلة، ثم يهال عليه التراب، ويسن أن يعمق القبر، وأن يوسع، وأن يلحد له فيه، وهو: أن يحفر في قاع القبر حفرة في جانبه إلى جهة القبلة، فإن تعذر اللحد فلا بأس بالشق، وهو أن يحفر للميت في وسط القبر، لكن اللحد أفضل؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (اللحد لنا، والشق لغيرنا) [(١)(٢)].

ثالثًا: تعليم الإنسان الدفن:

قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ [المائدة ٣١].

هذه الآية أصل في دفن الميت [(٣)]، حيث روي أنه لما قتل قابيل أخاه هابيل، ولم يعرف كيف يصنع به ويواري جثته، وتحير في ذلك؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم، بعث الله غرابًا يبحث في الأرض منقبًا في غذائه، أو يثيرها ليدفن غرابًا آخر ميتًا، فحفر حفرة، فرآه قابيل ففطن إلى مثل عمله، ففعل لأخيه مثلها ووارى بدنه فيها؛ لأن بدن الميت عورة، والجثة سوأة لا تطيقها النفوس، وبذلك تعلم الدفن للميت، ووارى سوأة أخيه [(٤)]، وفي قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ دليل أنه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن، فحين رأى القاتل الغراب يبحث في الأرض، تعلم منه سنة الدفن [(٥)].

ويقول القرطبي في تفسير الآية السابقة مبينًا هذا المعنى: «بعث الله الغراب حكمة، ليرى ابن آدم كيفية المواراة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس:٢١].

فصار فعل الغراب في المواراة سنة باقية في الخلق، فرضًا على جميع الناس على الكفاية، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين، وأخص به الأقربون الذين يلونه، ثم الجيرة، ثم سائر المسلمين» [(٦)].

إن في مشهد تعلم الإنسان الدفن من الغراب، والذي صورته الآية الكريمة لعبرة للخلق «فهذا المشهد العظيم هو مشهد أول حضارة في البشر، وهي من قبيل ستر المشاهد المكروهة، وهو أيضًا مشهد أول

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الجنائز، باب ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: اللحد لنا، ٣/ ٣٥٤، رقم ١٠٤٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٦٤، رقم ٥٤٨٩.

(٢) انظر: تحفة الفقهاء، السمرقندي، ١/ ٢٥٥، الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة، مجموعة من المؤلفين، ١/ ١١٨.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ١١٢.

(٤) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٥٠٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢٨، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٨٧٧.

(٥) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ١٠١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ١٤٣.

علم اكتسبه البشر بالتقليد وبالتجربة، وهو أيضًا مشهد أول مظاهر تلقي البشر معارفه من عوالم أضعف منه»[1].

عذاب القبر

إن عذاب القبر حق، وهو ثابت بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالله يعذب من استحق العذاب إن شاء، وإن شاء عفى عنه، وقد دلت الآيات القرآنية على عذاب القبر في مواضع كثيرة منها:

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:١-٤].

حيث فسر ابن عباس الوعيد في الآية بما ينزل من العذاب في القبر، ففي الآيات وعيد بعد وعيد، وردع وتنبيه لمن ألهتهم الدنيا عن العمل الصالح والاستعداد للآخرة، بأن ليس الأمر بالتفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد، حتى إذا قبرتم عوقبتم بالعذاب، فهذا وعيد من الله بأنهم سوف يعلمون عاقبة فعلهم بعذاب في القبر، وما يحل بعده من عذاب في الآخرة[2].

يقول القرطبي في تفسير سورة التكاثر: «فتضمنت السورة القول في عذاب القبر، وإن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم، حسبما أخبر به الصادق، وأن الله سبحانه وتعالى يحيي العبد المكلف في قبره برد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ١٧٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ١٧٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٩/ ١٩٤، التفسير المنير، الزحيلي، ٣٠/ ٣٨٨.

الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يسأل عنه، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أعد له في قبره من كرامة وهوان، وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

هذه الآية الكريمة من الآيات الدالة على عذاب القبر، فقد فسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق على المعرض عن الله قبره، ويحصر فيه ويعذب، جزاء إعراضه عن ذكر ربه[2].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (المؤمن في قبره في روضةٍ، ويرحب له قبره سبعين ذراعًا، وينور له كالقمر ليلة البدر، أترون فيما أنزلت هذه الآية) قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

قال: (أتدرون ما المعيشة الضنك؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليهم تسعةٌ وتسعون تنينًا، أتدرون ما التنين؟) قال: (تسعةٌ وتسعون حيةً لكل حيةٍ سبعة رؤوسٍ ينفخون في جسمه ويلسعونه، ويخدشونه إلى يوم القيامة)[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

هذه الآية خطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولو ترى يا محمد صلى الله عليه وسلم أولئك الطغاة في ساعة الاحتضار وهم في خضم الشدائد وغمرة السكرات، وحولهم الملائكة الذين كانوا يتعجلون نزولهم، فها هم قد حل الموت بهم وجاءهم العذاب الذي لا رجعة فيه، وغشيتهم سكرات الموت، وحضرتهم ملائكة العذاب، يستعجلون خروج أرواحهم الخبيثة، ولو تراهم وهم على هذه الحال لرأيت أهوالًا عظامًا[4].

والملائكة تقول لهم عند قبض أرواحهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال،

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/ ١٧٣.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥١.
(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند أبي هريرة، ١١/ ٥٢١، رقم ٦٦٤٤.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٢١٧.
(٤) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٢/ ٥٠٨.

والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾[1].

وفسر القرطبي بسط الملائكة أيديهم أي: بالعذاب ومطارق الحديد أو لقبض أرواحهم[2].

ولقد ذكر بعض العلماء أن هذه الآية تصف حال الكافر عند القبض، وعذاب القبر، وأن هذا الخطاب والعذاب الموجه من الملائكة إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده[3].

ويقول الشيخ الفوزان: «وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبر الملائكة -وهم الصادقون- أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صح أن يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ فدل على أن المراد به عذاب القبر»[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

لقد وعد الله في هذه الآية الفسقة المكذبين بوعيده في الدنيا العذاب الأدنى، أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، واختلف أهل التأويل في بيان معنى العذاب الأدنى، فقال البعض: هو مصائب الدنيا. وقال آخرون: عذاب القبر. وقيل غير ذلك، وقد فسرها ابن عباس بعذاب القبر[5].

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] هذه الآية تدل على عذاب القبر، وقد احتج بعض أهل العلم بهذه الآية في تثبيت عذاب القبر.

ونقل القرطبي أن الجمهور على أن العرض المذكور في الآية في البرزخ؛ لأنه بين ما لهم في الآخرة فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟﴾[6].

قال السيوطي: «وفي (العجائب للكرماني): في هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر؛ لأن المعطوف غير المعطوف عليه»[7].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٣٠٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٤١.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ٤٣٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٦٤.
(٤) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ص ٢٧٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ١٩١، تفسير ابن عباس، الفيروزآبادي، ١/ ٣٤٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٣١٩، زاد المسير، الجوزي، ٤/ ٤٠، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٨٥.
(٧) الإكليل في استنباط التنزيل، ص ٢٢٦.

ويعني قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي: هذا العرض ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة يقال لهم: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وهو عذاب جهنم[1].

ويقول سيد قطب في تفسير هذه الآية: «والنص يلهم أن عرضهم على النار غدوا وعشيا، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة، وقد يكون هذا هو عذاب القبر، إذ أنه يقول بعد هذا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فهو إذن عذاب قبل يوم القيامة، وهو عذاب سيئ، عرض على النار في الصباح وفي المساء، إما للتعذيب برؤيتها وتوقع لذعها وحرها- وهو عذاب شديد- وإما لمزاولتها فعلًا، فكثيرًا ما يستعمل لفظ العرض للمس والمزاولة، وهذه أدهى ثم إذا كان يوم القيامة أدخلوا أشد العذاب»[2].

ويدل على ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة)[3].

وإن من الأدلة على ثبوت عذاب القبر من السنة النبوية، ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلم الصحابة رضي الله عنهم الاستعاذة من عذاب القبر، ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء، كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: (قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات)[4].

إن أهل السنة يصدقون بأن الله سبحانه وتعالى يعذب هذا في قبره، أو ينعم هذا في قبره، كما وردت في ذلك أدلة مجملة ومفصلة، ولكن الكيفية محجوبة عنا، حتى ولو لم ندرك ذلك فقد أدركه الأنبياء، ولو كشفنا عن الميت ورأيناه كما وضع فإنا لا ننفي أنه يعذب أو ينعم، أو يضيق عليه قبره أو يوسع عليه؛ وذلك لأن هذا من علم الآخرة، وأهل الدنيا ليسوا مطلعين على أمور الآخرة، وقد أنكر الملاحدة والزنادقة عذاب القبر ونعيمه اعتمادًا على عقولهم وحواسهم؛ لأنهم لا يشاهدون شيئا من ذلك، ونرد عليهم بأن عذاب القبر

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٣١٢.
(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٨٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده، رقم ١٣٧٩، ٢/ ٩٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم ١٣٤، ١/ ٤١٣.

من علم الغيب الذي يعتمد على النصوص الصحيحة، وليس للعقل ولا الفكر دخل فيه، وأحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، وعدم إدراك الإنسان للشيء لا يدل على عدم وجوده، والله أعلم [(١)].

ولابن القيم في إثبات عذاب القبر كلام نفيس، فقد ذكر بأن الله تعالى قد جعل الدور ثلاثًا، وهي دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة، وجعل الله لكل دار أحكامًا تختص بها، فجعل الله الأحكام في دار الدنيا تسري على الأبدان والأرواح تبع لها، وجعل الأحكام في دار البرزخ تسري على الأرواح والأبدان تبع لها، وجعل الأحكام في دار القرار تسري على الأرواح والأبدان معًا، ثم بين أن سعة القبر وضيقه ونوره وناره ليس من جنس المعهود للناس في عالم الدنيا [(٢)].

أسباب عذاب القبر

إن أسباب عذاب القبر كثيرة:

١. الكفر.

فللكافر نصيبٌ من العذاب، ومبدأ ذلك حاصلٌ في القبر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠].

٢. النفاق.

قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١].

وأغلب ما ورد من أقوال المفسرين أن إحدى المرتين هو عذابهم في البرزخ قبل الآخرة.

٣. الأعمال السيئة، وسائر المعاصي والذنوب.

وقد ذكر بعضها في أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، كالذي روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال: (إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان

(١) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان، ص ٢٨٣.
(٢) انظر: الروح، ١/ ٦٣.

يمشي بالنميمة)[1].

وحديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه: (هل رأى أحد منكم من رؤيا؟) قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال ذات غداة: (إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى) قال: (قلت لهما: سبحان الله ما هذان؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق) قال: (فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه -قال: وربما قال أبو رجاء: فيشق-).

قال: (ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى) قال: (قلت: سبحان الله ما هذان؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا، فأتينا على مثل التنور - قال: فأحسب أنه كان يقول - فإذا فيه لغط وأصوات) قال: (فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا) قال: (قلت لهما: ما هؤلاء؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق).

قال: (فانطلقنا، فأتينا على نهر -حسبت أنه كان يقول- أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فيفغر له فاه فيلقمه حجرًا فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجرًا) قال: (قلت لهما: ما هذان؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق) قال: (فانطلقنا، فأتينا على رجل كريه المرآة، كأكره ما أنت راء رجلا مرآة، وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها) قال: (قلت لهما: ما هذا؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق).

فانطلقنا، فأتينا على روضة معتمة، فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط) قال: (قلت لهما: ما هذا ما هؤلاء؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق).

قال: (فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم ٢١٨، ١/ ٥٣.

لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن) قال: (قالا لي: ارق فيها) قال: (فارتقينا فيها، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها، فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء) قال: (قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر) قال: (وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة) قال: (قالا لي: هذه جنة عدن وهذاك منزلك) قال: (فسما بصري صعدا فإذا قصر مثل الربابة البيضاء) قال: (قالا لي: هذاك منزلك) قال: (قلت لهما: بارك الله فيكما ذراني فأدخله، قالا: أما الآن فلا، وأنت داخله).

قال: (قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجبا، فما هذا الذي رأيت؟) قال: (قالا لي: أما إنا سنخبرك، أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق، وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر، فإنه آكل الربا، وأما الرجل الكريه المرآة، الذي عند النار يحشها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنم، وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة) قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأولاد المشركين، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسنا وشطر قبيحا، فإنهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، تجاوز الله عنهم)[1].

وقد ذكر الإمام ابن القيم والعلامة السفاريني الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: مجمل ومفصل:

أما المجمل: فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وعدم إطاعتهم لأمره، وارتكابهم معاصيه، فلا يعذب الله روحًا عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار بارتكاب مناهيه ولم يتب ومات على ذلك؛ كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقل، ومستكثر، ومصدق، ومكذب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم ٧٠٤٧، ٩/ ٤٤.

وأما المفصل: ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبورهما؛ لأن أحدهما كان يمشي بالنميمة بين الناس، والآخر كان لا يستتر من البول، فهذا ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس، وهذا ترك الطهارة الواجبة، وعمن يعذب لكونه مر على مظلوم فلم ينصره، ومن يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به في النهار، وتعذيب الزناة والزواني وأكلة الربا، والذين تثاقل رؤوسهم عن صلاة الفجر، وأهل الغلول، وتعذيب الذين يمنعون الزكاة، والذين يوقدون الفتنة بين الناس، والجبارين، والمتكبرين، والمرائين، والهمازين، واللمازين [1].

«فعذاب القبر عن معاصي القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله: فالنمام، والكذاب، والمغتاب، وشاهد الزور، وقاذف المحصن، والموضع في الفتنة، والداعي إلى البدعة، والقائل على الله ورسوله ما لا علم له به، والمجازف في كلامه، وآكل الربا، وآكل أموال اليتامى، وآكل السحت من الرشوة وغيرها، وأكل مال أخيه المسلم بغير حق، أو مال المعاهد، وشارب المسكر، والزاني، واللوطي، والسارق، والخائن، والغادر، والمخادع، والماكر، وآخذ الربا ومعطيه وكاتبه وشاهداه، والمحلل والمحلل له، والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه، ومؤذي المسلمين ومتتبع عوراتهم، والحاكم بغير ما أنزل الله، والمفتي بغير ما شرع الله، والمعين على الإثم والعدوان، وقاتل النفس التي حرم الله، والملحد في حرم الله، والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها، والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والنائحة والمستمع إليها، ونواحو جهنم، وهم المغنون الغناء الذي حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم؛ والذين يبنون المساجد على القبور، ويوقدون عليها القناديل والسرج، والمطففون في استيفاء مالهم إذا أخذوه، وهضم ما عليهم إذا بذلوه، والجبارون، والمتكبرون، والمراؤون، والهمازون واللمازون، والطاعنون على السلف، والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم، وأعوان الظلمة الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، والذي خوفته بالله وذكرته به فلم يرعو ولم ينزجر، فإذا خوفته بمخلوق مثله خاف وارعوى وكف عما هو فيه، والذي يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدي، ولا يرفع به رأسًا، فإذا بلغه عما يحسن به الظن ممن

(١) انظر: الروح، ابن القيم، ص٧٧، لوامع الأنوار البهية، السفاريني، ٢/ ١٩.

يصيب ويخطىء عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه.

والذي يقرأ القرآن فلا يؤثر فيه، وربما اشتغل به، فإذا استمع قراءة الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعي الطرب، وود أن المغني لا يسكت، والذي يحلف بالله ويكذب، فإذا حلف بالولي أو برأس شيخه أو أبيه أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعوقب، والذي يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين أقرانه، وهو المجاهر، والذي لا تأمنه على مالك وحرمتك، والفاحش اللسان الذي تركه الخلق إتقاء شره وفحشه، والذي يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلًا، ولا يؤدي زكاة ماله طيبة بها نفسه، ولا يحج مع قدرته على الحج، ولا يؤدي ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها.

ولا يتورع من لحظه ونظره ولا من لفظه ولا أكله ولا خطوه، ولا يبالي بما حصل من المال من حلال أو حرام، ولا يصل رحمه، ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم، ولا يرحم الحيوان البهيم، بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، ويرائي للعالمين، ويمنع الماعون، ويشتغل بعيوب الناس عن عيبه، وبذنوبهم عن ذنبه، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم، بحسب كثرتها وقلتها، وصغرها وكبرها، ما لم يغفر الله لهم ويتجاوز عنهم بتوبة أو رحمة منه تعالى»[1].

(١) الروح، ابن القيم، ص٧٨.

أحكام تتعلق بالقبر

أولًا: الصلاة على المؤمنين:

إن الصلاة على المؤمنين فرض كفاية، وهي من خصائص هذه الأمة، وقد صلى الصحابة رضي الله عنهم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما رغب النبي صلى الله عليه وسلم بل أمر بذلك فقال: (صلوا على صاحبكم)[1] فهذا أمر، والأمر يدل على الوجوب[2]، ودل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم يوم موت النجاشي: (إن أخًا لكم قد مات، فقوموا، فصلوا عليه)[3].

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الصلاة على الكافرين والمنافقين؛ لأنهم كفروا وماتوا على الفسق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٨٤].

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقررًا في المؤمنين[4].

وقد استدل البعض بهذه الآية على وجوب الصلاة على المؤمنين، بدليل أن النهي عن الشيء أمر بضده فالنهي عن الصلاة على المنافقين للتحريم فضده وهو الأمر بالصلاة على المؤمنين للوجوب، واعتبرها البعض دليل فقط على المشروعية وعدم تحريم الصلاة على المؤمنين، وأنه مما يستفاد من الآية الصلاة على المؤمنين وليس الأمر بالوجوب[5].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ نص في الامتناع من الصلاة على الكفار، واختلفوا هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصلاة على المؤمنين؟ فقيل: يؤخذ؛ لأنه علل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإذا زال وجبت الصلاة، ويكون هذا نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

يعني: الكفار، فدل على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون، وقيل: إنما تؤخذ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب من ترك مالا، رقم ١٦١٩، ٣/ ١٢٣٧.
(٢) انظر: فقه السنة، سيد سابق، ١/ ٥٢١، الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة، مجموعة من المؤلفين، ١/ ١١٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب في التكبير على الجنازة، رقم ٩٥٢، ٢/ ٦٥٧.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٤٧.
(٥) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٤١٣، تفسير ابن عرفة، ابن عرفة، ٢/ ٦٣٥، الفروق، القرافي، ٢/ ٥١.

الصلاة من دليلٍ خارجعن الآية، وهي الأحاديث الواردة في الباب، والإجماع»[1].

والخلاصة أن الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، سواء بالوجوب أو الاستحباب، وقد أكدت الأحاديث على الوجوب وكذلك الإجماع.

وذكر الرازي في تفسيره الحكمة من النهي عن الصلاة على الكفار والمنافقين، حيث أشار إلى أن السبب في منع الرسول صلى الله عليه وسلم من أن يصلي على من مات منهم؛ هو إذلالهم وتخذيلهم وإهانتهم[2].

«وصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ميت هي رحمة له، وغفران لذنوبه؛ لأن الصلاة على الميت أن تطلب له الرحمة والمغفرة، وأن تطلب له من الله أن يلحقه بالصالحين، وإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام، ودعا بهذا الدعاء، فإن دعوة رسول الله مستجابة من الله، وهكذا حرمهم الله سبحانه وتعالى من رحمة يكون الإنسان في أشد الحاجة إليها حين ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ»[3].

ثانيًا: الوقوف على قبورهم والدعاء لهم:

لقد شرع الله للمسلمين الوقوف عند قبور المؤمنين والدعاء لهم، كما نهى عن الوقوف على قبور الكفار والمنافقين والدعاء لهم.

يقول تعالى مخاطبًا للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٨٤].

في هذه الآية نهي من الله للنبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي على من مات من الكفار والمنافقين، وألا يتول دفنهم وتقبيرهم، وألا يدعو لهم أو يستغفر لهم، أو يقف على قبورهم للزيارة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت، وقف على قبره ودعا له بالتثبيت فنهي عن ذلك في حق المنافقين، والعلة في ذلك أنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا، والحال أنهم فاسقون خارجون عن دائرة الإسلام[4].

يقول الطاهر ابن عاشور: «ومعنى ولا تقم على قبره، لا تقف عليه عند دفنه؛ لأن المشاركة في دفن المسلم حق على المسلم على الكفاية، كالصلاة عليه، فترك

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٢٢١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ١٦/ ١١٥.
(٣) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٣٨٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٤٠٥، زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٢٨٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٢٢٣، البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٤١٣.

النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عليهم وحضور دفنهم، إعلان بكفر من ترك ذلك له»[1].

قال السيوطي: إن في الآية السابقة تحريم للصلاة على الكافر، والوقوف على قبره، ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه، ومشروعية الوقوف على قبره، والدعاء له، والاستغفار[2].

إن الوقوف على قبر المؤمن سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم فعلها ودعا إليها ففي الحديث عن عثمان بن عفان قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم، إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: (استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل)[3].

(١) التحرير والتنوير، ١٠/ ٢٨٥.
(٢) انظر: الإكليل، السيوطي، ١/ ١٤٣، محاسن التأويل، القاسمي، ٥/ ٤٧٢.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، رقم ٣٢٢١، ٣/ ٢١٥.

بناء القبور وزيارتها

أولًا: بناء القبور:

إن ديننا الحنيف شرع للمسلمين دفن موتاهم في المقابر وفق سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هديه صلى الله عليه وسلم حفر القبور لا بناؤها، فقد ثبت نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن بناء القبور ففي الحديث عن أبي الزبير أنه سمع جابرًا يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (نهى أن يقعد على القبر، وأن يقصص ويبنى عليه)[4].

وفي رواية عند مسلم (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه)[5].

فلا يجوز بناء القبور، ولكن يحفر في الأرض ويجعل فيه لحد من جهة القبلة بقدر الميت، ويكون القبر عميقا بقدر نصف الرجل؛ حتى يكون بعيدا عن السباع والكلاب، ويكون أبعد عن الروائح الكريهة التي قد تخرج من القبر، وإذا دعت الضرورة إلى البناء، بأن كانت الأرض صلبة ولا

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في البناء على القبور، رقم ٣٢٢٥، ٣/ ٢١٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٥٥، رقم ٦٨٤١.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب النهي عن تجصيص القبور والبناء عليها، رقم ٩٤، ٢/ ٦٦٧.

يستطيعون الحفر فلا مانع من جعله بين أحجار، يبنى أحجار ويجمع بينها، ثم يوضع فوقها ألواح وغيرها حتى تستره عن السباع وعن الكلاب ونحو ذلك، ويوضع عليها أحجار تستره عن ذلك حسب الطاقة من دون حاجة إلى بناء إلا عند الضرورة[(١)].

يقول ابن القيم: «ولم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم تعلية القبور ولا بناؤها بآجر، ولا بحجر ولبن ولا تشييدها، ولا تطيينها، ولا بناء القباب عليها، فكل هذا بدعة مكروهة، مخالفة لهديه صلى الله عليه وسلم، وكانت قبور أصحابه لا مشرفة، ولا لاطئة، وهكذا كان قبره الكريم، وقبر صاحبيه، فقبره صلى الله عليه وسلم مسنم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء لا مبني ولا مطين، وهكذا كان قبر صاحبيه، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدا، ولعن زورات القبور، وكان هديه أن لا تهان القبور وتوطأ، وألا يجلس عليها، ويتكأ عليها، ولا تعظم بحيث تتخذ مساجد فيصلى عندها وإليها، وتتخذ أعيادا وأوثانا»[(٢)].

(١) انظر: فتاوى نور على الدرب، ابن باز، ١٤/ ٩٥.

(٢) زاد المعاد، ١/ ٥٠٤.

ثانيًا: زيارة القبور:

يشرع للإنسان أن يزور القبور على سبيل الاتعاظ والتذكر بما أمامه، والإحسان إلى المقبور نفسه كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، فهذا أمر مطلوب؛ لأنه جاء في الحديث عن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها)**[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **(زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال صلى الله عليه وسلم: (استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت)**[(٤)].

إن هدي النبي صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور أكمل الهدي وأحسنه.

يقول ابن القيم: «كان إذا زار قبور أصحابه يزورها للدعاء لهم، والترحم عليهم، والاستغفار لهم، وهذه هي الزيارة التي سنها لأمته، وشرعها لهم، وأمرهم أن يقولوا إذا زاروها: **(السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن**

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه، رقم ١٠٦، ٢/ ٦٧٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه، رقم ١٠٨، ٢/ ٦٧١.

شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية)[1].

وكان هديه أن يقول ويفعل عند زيارتها، من جنس ما يقوله عند الصلاة على الميت، من الدعاء والترحم والاستغفار، فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإشراك به، والإقسام على الله به، وسؤاله الحوائج، والاستعانة به، والتوجه إليه، بعكس هديه صلى الله عليه وسلم، فإنه هدي توحيد وإحسان إلى الميت، وهدي هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم، وإلى الميت، وهم ثلاثة أقسام: إما أن يدعوا الميت، أو يدعوا به، أو عنده، ويرون الدعاء عنده أوجب وأولى من الدعاء في المساجد، ومن تأمل هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، تبين له الفرق بين الأمرين»[2].

فزيارة القبور شرعت لشيئين:

- إما أن يتذكر الإنسان بزيارتها مآله؛ لأنه سيصير مثلما صار هذا المقبور، فيتوب ويجتهد في العمل، ويتذكر الآخرة، ويتذكر ما أمامه، ويستعد لهذا اليوم ويأخذ أسباب الرحيل، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].
- أو أن يحسن إلى الميت بالدعاء له، فإنه في أمس الحاجة إلى دعوة صادقة، أما أن تنعكس القضية، ويصبح الإنسان يزور القبر ليسأل صاحبه، فهذا عكس ما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولهذا قسم العلماء زيارة القبور على وجهين:

- زيارة شرعية.
- وزيارة بدعية.

فالزيارة الشرعية: أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت؛ كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له، حيث الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره، فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم، وكذلك الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافرًا، بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع إلا في حق المؤمنين.

وأما الزيارة البدعية: فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء، فالزيارة على هذه الوجوه مبتدعة لم يشرعها النبي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب ما يقال عند دخول القبور، رقم ١٠٤، ٢/ ٦٧١.
(٢) زاد المعاد، ١/ ٥٠٧.

صلى الله عليه وسلم ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا عند غيره، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك[1].

إن من البلايا التي وقع الناس فيها اليوم، تعظيم القبور، بالبناء عليها وتجصيصها، أو اتخاذ المساجد عليها، والصلاة عندها، أو الطواف بها، وإضاءتها وإيقاد السرج عليها، وتعليتها ورفعها، واتخاذها عيدًا، والاستغاثة بأهلها، فكل هذا من المنكرات التي يجب الحذر منها والتحذير منها.

القبر في المثل القرآني

إن من الأساليب القرآنية التي استعملها القرآن الكريم لتقريب المعنى ضرب الأمثلة، ولقد مثل القرآن بالقبر والأموات المقبورين بأمثلة من أروع ما ضرب من الأمثال القرآنية دقة بيان وروعة أسلوب ووضوح معنى وهي:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

يضرب الله سبحانه وتعالى مثل المؤمن والكافر بالحي والميت، لا يستويان، فكما لا يتساوى الأحياء والأموات، لا يتساوى المؤمنون أحياء القلوب والنفوس والمشاعر، والكافرون أموات القلوب والحواس، لا يستوي أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة تنزيل الله، وأموات القلوب لغلبة الكفر عليها؛ حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال، لا يستوي من شرح الله صدره للإسلام، ومن أقام على الكفر والضلال، فالإيمان حياة القلوب ونور البصائر، وانشراح للصدور وبهجة للنفوس، وجلاء الأفهام وربيع الأكوان، أما الكفر فإنه ظلمة في القلب، ووحشة في النفس، وموت للروح، وغشاوة على البصيرة،

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ١/ ١٦٥.

وحيرة للعقول، وضيق في الصدور، نعم إن الكفر موت، موت في الضمير وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل، وانفصال عن الطريق الواصل [(١)].

وفي الآية تمثيل لحال الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي صلى الله عليه وسلم والوحي النازل عليه، فكما لا يقدر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسمع من في القبور كتاب الله فيهديهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا يقدر أن ينفع بمواعظ الله وبيان حججه من كان ميت القلب من أحياء عباده، عن معرفة الله، وفهم كتابه وتنزيله، وواضح حججه، فالكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع [(٢)].

«ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم وأنى لهم أن يسمعوا وقد قبروا وهم أحياء في غياهب الشرك ولحود الضلال، فلا سبيل إلى سماعهم وقد جعلوا بينهم وبين الحق برزخًا وحاجزًا من المكابرة والجحود والتقليد الأعمى والتعصب للأهواء» [(٣)].

فالله يهدي من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها، يسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته، وكما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم بالهداية والدعوة إليها، كذلك الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم لا ينتفعون، فالكفار بمنزلة أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه [(٤)].

وهذا ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات، وإشباع في إقناطه صلى الله عليه وسلم من إيمانهم [(٥)].

يقول الطاهر ابن عاشور: «لما كان أعظم حرمان نشأ عن الكفر هو حرمان الانتفاع بأبلغ كلام وأصدقه، وهو القرآن، كان حال الكافر الشبيه بالموت أوضح شبهًا في عدم انتفاعه بالقرآن وإعراضه عن سماعه» [(٦)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة:١٣].

في هذه الآية ينهي الله المؤمنين من موالاة اليهود، هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم، قد يئسوا من ثواب الله في الآخرة، وأن يبعثوا، كما يئس الكفار الأحياء

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٤٥٧، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٢/ ٢٥٥، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٩٣٩، التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٦/ ٢٦٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٤٥٨.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٦/ ٢٦٤.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣٤٠، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٤٥٦، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٢/ ٢٥٥.

(٥) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٥٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٥٠، محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ١٦٥.

(٦) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٩٥.

من أمواتهم الذين هم في القبور أن يرجعوا إليهم، فمثل يأس الكافر من ثواب الله في الآخرة كمثل يأس الكافر الحي من عودة الميت من قبره، وقال آخرون: بل معنى ذلك: قد يئسوا من الآخرة أن يرحمهم الله فيها، ويغفر لهم، كما يئس الكفار الذين هم أصحاب قبور قد ماتوا وصاروا إلى القبور من رحمة الله وعفوه عنهم في الآخرة؛ لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله لهم.

وقد رجح الطبري قول من قال: قد يئس هؤلاء الذين غضب الله عليهم من اليهود من ثواب الله لهم في الآخرة وكرامته؛ لكفرهم وتكذيبهم رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم على علم منهم بأنه لله نبي، كما يئس الكفار منهم الذين مضوا قبلهم فهلكوا، فصاروا أصحاب القبور، وعلل ترجيحه لهذا القول بأنه أولى القولين بتأويل الآية؛ لأن الأموات قد يئسوا من رجوعهم إلى الدنيا، أو أن يبعثوا قبل قيام الساعة -المؤمنون والكفار- فلا وجه لأن يخص بذلك الخبر عن الكفار، وقد شركهم في الإياس من ذلك المؤمنون[1].

لقد ضرب الله مثل يأس هؤلاء الكفار من الآخرة ومن ثواب الله فيها، حتى أصبحوا لا يوقنون بالبعث بسبب كفرهم وعنادهم، فانقطع رجاؤهم ويئسوا من نعيم الآخرة كمثل يأس الكفار من بعث موتاهم المقبورين أو من رحمة الله بهم لتيقنهم بعذاب الله لهم[2].

وقد ذكر الطاهر ابن عاشور صور التشبيه المحتملة من التعبير القرآني في الآية فقال: إذا كان اليهود لا ينكرون الآخرة كان معنى يأسهم من الآخرة محتملًا أن يراد به الإعراض عن العمل للآخرة، وتشبيه إعراضهم هذا بيأس الكفار من أصحاب القبور وجهه شدة الإعراض وعدم التفكر في الأمر، فشبه إعراضهم عن العمل لنفع الآخرة بيأس الكفار من حياة الموتى والبعث وفيه تشنيع المشبه، ومن أصحاب القبور على هذا الوجه متعلق بيئسوا.

ويجوز أن يكون من أصحاب القبور بيانًا للكفار، أي: الكفار الذين هلكوا ورأوا أن لا حظ لهم في خير الآخرة، فشبه إعراض اليهود عن الآخرة بيأس الكفار من نعيم الآخرة، ووجه الشبه تحقق عدم الانتفاع بالآخرة، والمعنى كيأس الكفار الأموات، والمشبه به معلوم للمسلمين بالاعتقاد، فالكلام من تشبيه المحسوس بالمعقول، وفي استعارة اليأس للإعراض ضرب من المشاكلة أيضًا.

ويحتمل أن يكون يأسهم من الآخرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٣٤٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٠٣، التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٨/ ١٢٠.

أطلق على حرمانهم من نعيم الحياة الآخرة، وذكر أن من المفسرين الأولين من جعل يأسهم من الآخرة هو إنكارهم البعث، وجعل تشبيه يأسهم من الآخرة بيأس الكفار من أصحاب القبور أن يأس الكفار الأحياء كيأس الأموات من الكفار، أي: كيأس أسلافهم الذين هم في القبور إذ كانوا في مدة حياتهم آيسين من الآخرة فتكون ﴿مِنَ﴾ بيانيةً صفةً للكفار، وليست متعلقة بفعل يئس فليس في لفظ الكفار إظهار في مقام الإضمار وإلا لزم أن يشبه الشيء بنفسه كما قد توهم [1].

وعلى جميع الأقوال وأيًا كان وجه التشبيه، فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن موالاة قوم غضب الله عليهم، بأبلغ أسلوب، وأحكم بيان، وهو ضرب المثل، حيث وصفت هؤلاء القوم بأنهم قد أحاط بهم غضب الله؛ بسبب فسوقهم عن أمره، وإعراضهم عن طاعته، وإنكارهم للدار الآخرة وما فيها من جزاء.

خروج الموتى من قبورهم للحساب

إن خروج الموتى للحساب والجزاء يكون من القبر، فبدء الحياة الآخرة للإنسان تكون بانتهاء حياة البرزخ، وقد جاءت الآيات القرآنية تتحدث عن البعث من القبور إلى دار الحساب والجزاء، وذلك في سياق إثبات البعث، والحديث عن أهوال القيامة.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٧].

يؤكد سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أن القيامة التي وعد أن يبعث فيها الموتى من قبورهم آتية لا محالة، فالله سيبعث من في القبور من الأموات أحياء إلى موقف الحساب ولا شك في ذلك ولا مراء [2].

فالله سبحانه الذي أوجد الإنسان والنبات والمخلوقات بأطوار مختلفة قادر على إعادة إحياء الموتى بعد موتهم وبعثهم وإخراجهم من القبور للحساب، فهو سبحانه الذي بدأ الخلق وهو يعيده، إنه على كل شيء قدير، «فلما أقام سبحانه وتعالى الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة، وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرًا على الإعادة وإذا ثبت الإمكان والصادق أخبر

(١) انظر: التحرير والتنوير، ٢٨/ ١٦٩، باختصار.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٥٧٢.

عن وقوعه، فلا بد من القطع بوقوعه»[1].

فإذا تأملنا في خلق الحيوان والنبات أمكننا أن نستدل بذلك على وجود الخالق وقدرته على إحياء الموتى، وعلى غيرها من الممكنات، وأن الساعة آتية لا شك فيها، وأنه يبعث من في القبور للحساب والجزاء، ولولا ذلك ما أوجد هذا العالم؛ لأن أفعاله سبحانه وتعالى مبنية على الحكم الباهرة، والغايات السامية[2].

وقد جاءت الآيات تتحدث عن خروج أهل القبور في سياق الحديث عن أهوال يوم القيامة، ففي سورة الانفطار تصور الآيات مشهد الاضطراب والزلزال الذي يصيب الكون، فالسماء تنفطر وتنشق، والكواكب تنتثر، والبحار تنفجر، والقبور تتبعثر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار:٤].

فالقبور يصير باطنها ظاهرها، والتراب الذي كان فيها يبعثر ويزال، ويخرج الموتى منها مسرعين للحساب والجزاء، «وبعثرة القبور إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة، وإما أن تكون حادثا بذاته يقع في ذلك اليوم الطويل، الكثير المشاهد والأحداث، فتخرج منها الأجساد التي أعاد الله إنشاءها- كما أنشأها أول مرة- لتتلقى حسابها وجزاءها»[3].

وفي سياق الوعيد لمن أنكر البعث، وللكافر الذي لا يعمل للآخرة، وأنكر نعم الله عليه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات:٩].

أي: ألا يعلم هذا الإنسان أن القبور ستبعثر، وأن الموتى سيخرجون منها لملاقاة الله، وللحساب والجزاء، وأن الله أعد ثوابًا وجنةً للمؤمن، وعقابًا ونارًا للكافر، أفلا يعتبر ويعد العدة ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويملأ صحيفته بالعبادة، ففي الآية «تهديدٌ ووعيدٌ، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أيفعل ما يفعل من القبائح؟ أو ألا يلاحظ فلا يعلم حاله إذا بعث من في القبور من الموتى؟!»[4].

«فالمعنى: لو علم الإنسان الكافر ما له في ذلك اليوم لزهد في الكفر، وبادر إلى الإسلام»[5].

إن الإنسان بغير إيمان حقير صغير، حقير المطامع، صغير الاهتمامات، ومهما كبرت أطماعه، واشتد طموحه، وتعالت أهدافه، فإنه يظل مرتكسًا في حمأة الأرض، مقيدًا بحدود العمر، سجينًا في سجن الذات، لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، وأعظم من

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٤/ ٢٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي، ١٧/ ٩٠.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٨٧٤.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٩/ ١٩١.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٤٨٢.

الذات، عالم يصدر عن الله الأزلي، ويعود إلى الله الأبدي، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء فاللفتة في الآية الكريمة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح؛ لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه، مع عرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب المال والدنيا، وتوقظ من غفلة البطر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ إنه مشهد اضطراب الكون، وهو مشهد عنيف مثير، بعثرة لما في القبور، بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير، وتحصيل لأسرار الصدور التي خبأتها بعيدا عن العيون، تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي، فالجو كله عنف وشدة وتعفير أفلا يعلم إذا كان هذا؟ ولا يذكر ماذا يعلم؟ لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر[1].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٩٥٧، بتصرف.

المنجيات من عذاب القبر

إن السلامة من عذاب القبر والنجاة منه، باتباع سبل وأسباب النجاة -أسأل الله لنا ولكم النجاة- وإن من أعظم سبل النجاة من عذاب القبر هو تحقيق التوحيد والاستقامة على طاعة الله واتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقد جاء في الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم إذا سئل في القبر: يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧][2].

ومن أنفع الأسباب كذلك للنجاة من عذاب القبر ما ذكره الإمام ابن القيم أن من أنفعها أن يتفكر الإنسان قبل نومه ساعة يحاسب فيها نفسه على ما خسره وما ربحه في يومه ويذكرها بعمله، فإن كان مقصرًا زاد في عمله، وإن كان عاصيًا تاب إلى الله،

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت)، رقم ٤٦٩٩، ٦/ ٨٠.

وليجدد له توبة قبل نومه بينه وبين الله فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة فإن مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلًا للعمل مسرورًا بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته، وفي ذلك نجاة من عذاب القبر، ومن عذاب النار[1].

فالذي ينجي المرء من عذاب القبر أن يكون الإنسان مستعدًا للموت، حتى إذا فاجأه الموت لم يعض أصبع الندم، ومن الاستعداد للموت الإسراع في التوبة، وقضاء الحقوق، والحذر من المعاصي، والإكثار من الأعمال الصالحة، فإن الإيمان والطاعات من الصلاة والصوم والزكاة والصدقة والحج والجهاد وبر الوالدين وصلة الأرحام وذكر الله عز وجل، وحضور مجالس العلم التي ضيعها الناس وانشغلوا عنها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من صالح الأعمال تحفظ العبد المؤمن، وتثبته في القبر، وبها يجعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا[2].

ففي الحديث الذي رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الميت يسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصوم عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخلٌ، ويؤتى من عن يمينه، فيقول الصوم ما قبلي مدخلٌ، ويؤتى من عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخلٌ، ويؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخلٌ.

فيقال له: اقعد فيقعد، وتمثل له الشمس قد دنت للغروب فيقال له: ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم، وما تشهد به؟ فيقول: دعوني أصلي، فيقولون: إنك ستفعل ولكن أخبرنا عما نسألك عنه قال: وعم تسألوني عنه؟ فيقولون: أخبرنا عما نسألك عنه، فيقول: دعوني أصلي. فيقولون: إنك ستفعل ولكن أخبرنا عما نسألك عنه، قال: وعم تسألوني؟ فيقولون: أخبرنا ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم وما تشهد به عليه؟ فيقول: محمدًا، أشهد أنه عبد الله، وأنه جاء بالحق من عند الله، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله.

ثم يفتح له بابٌ من قبل النار فيقال له: انظر إلى منزلك وإلى ما أعد الله لك، لو عصيت فيزداد غبطةً وسرورًا، ثم يفتح له بابٌ من قبل الجنة فيقال له: انظر إلى منزلك،

(١) انظر: الروح، ١/ ٧٩.
(٢) انظر: القيامة الصغرى، عمر الأشقر، ١/ ٦٨.

وإلى ما أعد الله لك فيزداد غبطةً وسرورًا)، وذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧])[١].

ومن المنجيات من عذاب القبر الرباط والشهادة في سبيل الله، ففي حديث فضالة ابن عبيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطا في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر)[٢].

وكذلك ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث المقدام بن معدي كرب خصال الشهيد، ومنها: أنه يجار من عذاب القبر حيث قال صلى الله عليه وسلم: (للشهيد عند الله ست خصالٍ: يغفر له في أول دفعةٍ، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه)[٣].

اللهم اجعلنا من أهل الرباط والشهادة في سبيلك.

وإن في المحافظة على قراءة سورة الملك لنجاة أيضًا من عذاب القبر، فقد ورد في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: (سورة الملك هي المانعة تمنع من عذاب القبر)[٤].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الجنائز، رقم ١٤٠٣، ١/ ٥٣٥.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٥٦١، ٣/ ٢١٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطا، رقم ١٦٢١، ٤/ ١٦٥.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ١٢١٨، ٢/ ٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد، رقم ١٦٦٣، ٤/ ١٨٧.
قال الترمذي: حديث صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ١٣٧٥، ٢/ ٦٧.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، رقم ٣٨٣٩، ٢/ ٥٤٠، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١١٤٠.

نعيم القبر

إن نعيم القبر للمؤمن ثابت كما أن عذاب القبر ثابت بالكتاب والسنة، فالقبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار، يقول ابن القيم: «مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا، ويحصل لها معه النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين»[(١)].

وإن أول نعيم يلقاه المؤمن في قبره أن الله سبحانه وتعالى يثبته عند سؤال الملكين.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فالله سبحانه وتعالى يثبت المؤمنين بالقول الثابت الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم في الحياة الدنيا فلا يزلون إذا افتتنوا في دينهم، فيجعلهم متمسكين بالحق، ثابتين عليه لا يصرفهم عنه صارف، وعند الموت يثبتهم على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وبعد الموت في القبر الذي هو منزل من منازل الآخرة، فلا يتلعثمون، ولا يضطربون إذا سألهم الملكان عن ربهم ودينهم ونبيهم، فيجيبون بالصواب عن معتقداتهم، وفي مواقف القيامة يثبتهم الله فلا تدهشهم أحوال القيامة الغريبة عنهم[(٢)].

وتحدث القرآن الكريم عن مقام الشهداء ونعيمهم في مرحلة البرزخ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فالآيات تنهى عن القول للشهداء أنهم أموات، بل هم أحياء في قبورهم حياة ذات معالم خاصة، يرزقون فيها على كيفية، الله أعلم بها، وفي هذا إشارة إلى أن المؤمن الذي يضحي بنفسه في سبيل نصر دينه ودعوة ربه هو من الشهداء الأبرار الذين يظفرون بجنان الخلد، وهم أحياء، أرواحهم في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت[(٣)].

كما ثبت في الحديث عن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية:

(١) الروح، ص ٥٢.

(٢) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ٢/ ٢٦٠، التفسير المنير، الزحيلي، ١٣/ ٢٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٢٥.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٤٠.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: (أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ، لها قناديل معلقةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعةً) فقال: (هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مراتٍ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرةً أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ تركوا)[1].

«إن الذي خص الله به الشهداء في ذلك، وأفاد المؤمنين بخبره عنهم تعالى ذكره، إعلامه إياهم أنهم مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في برزخهم قبل بعثهم، ومنعمون بالذي ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر، من لذيذ مطاعمها الذي لم يطعمها الله أحدًا غيرهم في برزخه قبل بعثه، فذلك هو الفضيلة التي فضلهم بها وخصهم بها من غيرهم، والفائدة التي أفاد المؤمنين بالخبر عنهم»[2].

فهل هناك أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله سبحانه وتعالى، وتمتعهم برزقه، والفرح، والاستبشار، وزوال كل خوف وحزن، إنه نعيم القبر، حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا[3].

إن حياة البرزخ إما حياة نعيم ينعم فيها المطيعون، أو حياة عذاب يعذب فيها العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠][4].

فهنيئًا لمن عد عدته، وأخذ أهبته، ليحظى بأكمل نعيم، فقد روي عن البراء بن عازب قال:(خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عودٌ ينكت في الأرض، فرفع رأسه، فقال: (استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين، أو ثلاثًا).

ثم قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه ملائكةٌ من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، رقم ١٢١، ٣/ ١٥٠٢.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٣/ ٢١٦.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ٢/ ٢٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٥.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥٩.

الموت، عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ). قال: (فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عينٍ حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسكٍ وجدت على وجه الأرض) قال: (فيصعدون بها، فلا يمرون، يعني بها، على ملإٍ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟

فيقولون: فلان بن فلانٍ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماءٍ مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارةً أخرى).

قال: (فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت، فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة).

قال: (فيأتيه من روحها، وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره). قال: (ويأتيه رجلٌ حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي، ومالي)[1].

موضوعات ذات صلة:

الثبات، الجزاء، العذاب، الموت، النجاة، اليوم الآخر

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٤٩٩، رقم ١٨٥٣٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

القِتَالُ

عناصر الموضوع

مفهوم القتال	٨٦
القتال في الاستعمال القرآني	٨٧
الألفاظ ذات الصلة	٨٨
مراحل تشريع القتال	٩٠
أصناف المقاتلين	١٠٠
أحكام القتال	١١٤
نتائج القتال وعواقبه	١٣٨

مفهوم القتال

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (قتل) تدل على إذلالٍ وإماتةٍ. وهما معنيان متقاربان[1].

وقال الراغب الأصفهاني: «أصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إن اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال: قتلٌ، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال: موتٌ. يقال: قتله قتلًا وتقتالًا. وقاتله مقاتلةً وقتالًا. والقتلة -بالكسر- الحال أو الهيئة التي يقتل عليها، يقال: قتله قتلة سوء. والقتلة -بالفتح- المرة الواحدة. والقتلى: جمع قتيل، على وزن فعيل بمعنى مفعول للمفرد المذكر والمؤنث»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

من المعلوم أن هناك فرقًا في الدلالة والحكم بين القتل والقتال، وقد بين ذلك الفرق بجلاء الشيخ الإمام محمد الصالح العثيمين رحمه الله، وذلك بقوله: «القتل أخص من القتال؛ فهناك فرق بين القتل والقتال، فليس كل من جاز قتاله جاز قتله، ولهذا نقاتل إحدى الطائفتين المقتتلتين حتى تفيء إلى أمر الله، مع أنها مؤمنة لا يحل قتلها. أما القتل فليس يلزم منه مقاتلة الجميع، فقد يكون واحدٌ من هؤلاء يستحق القتل فنقتله ولا نقاتل الجميع، فتبين بهذا أنه لا تلازم بين القتال والقتل، وأن جواز القتال أوسع من جواز القتل؛ لأن القتل لا يكون إلا في أشياء معينة»[3].

ومن هذا التفريق الدقيق بين المصطلحين يتبين دقة تعريف الإمام أبي بكر ابن العربي رحمه الله في قوله: «هو الصد عن الشيء بما يؤدي إلى القتل»[4].

وتستعمل كلمة: (القتال) اصطلاحًا بمعنى كلمة: (الجهاد) في اصطلاح الفقهاء، وهو قتال الكفار بالبدن ، وإذا أطلقت كلمة الجهاد فلا يراد بها إلا هذا المعنى عندهم[5].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٥٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٩٣.
(٣) الشرح الممتع شرح زاد المستقنع ٢/ ٤٨.
(٤) أحكام القرآن ٢/ ٤٢٨.
(٥) انظر: المقدمات الممهدات، ابن رشد ١/ ٣٤٢، أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام الشيباني ٢/ ٩٠٨.

القتال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قتل) في القرآن الكريم (١٧٠) مرة [(١)]، يخص موضوع البحث منها(٧١) مرة.

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٦	﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الفتح:٢٢]
الفعل المضارع	٢٨	﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ [التوبة:١٣]
فعل الأمر	١٤	﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤]
المصدر	١٣	﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥]

وجاء القتال في القرآن الكريم بمعنى: المقاتلة والمحاربة بين اثنين [(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٣٣-٥٣٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب القاف ص٩٢٢-٩٢٥.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٧٩٧-١٧٩٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٥٦-٥٧، المعجم الوسط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧١٥، نزهة الأعين النظائر، ابن الجوزي، ص٤٩٤-٤٩٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٢٣٨-٢٣٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجهاد:

الجهاد لغة:

الجهاد: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب، أو اللسان، أو ما أطاق من شيء، والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود[١].

الجهاد اصطلاحًا:

الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو[٢]، وزاد بعضهم وغلب استعماله شرعا في الدعوة إلى الدين الحق[٣].

الصلة بين الجهاد والقتال:

الجهاد أشمل من القتال من وجوه، أهمها: أن الجهاد يغلب عليه جهاد الحق ضد الباطل والقتال قد يكون من الحق على الباطل والعكس، وأن الجهاد مراتبه أربع، وهي: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد المنافقين، وجهاد الكافرين، والقتال يكون بالسلاح ضد الكفار.

٢ الحرب:

الحرب لغةً:

الحرب: نقيض السلم، ورجل محرب أي: شجاع، وفلان حرب فلان أي: يحاربه، وحربته تحريبًا أي: حرشته على إنسان فأولع به وبعداوته[٤].

الحرب اصطلاحًا:

«دفع بشدة عن اتساع المدافع بما يطلب منه الخروج؛ فلا يسمح به ويدافع عنه بأشد مستطاع»[٥].

الصلة بين الحرب والقتال:

القتال قد يقتضي هجومًا فتكون المقاتلة، وقد يقتضي الدفاع فتكون المقاتلة أيضًا، وهذا

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٣٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٠٨.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٣٣.
(٤) انظر:كتاب العين، الفراهيدي ٣/ ٢١٣.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٣٧.

بخلاف الحرب؛ الذي هو تكتيك إداري حينما يتطلب الدفع بشدة لاتساع المدافع بما يطلب منه الخروج.

٣ البأس:

البأس لغةً:

يطلق على العذاب، والشدة في الحرب، يقال: بؤس، ككرم[(١)].

البأس اصطلاحًا:

الشدة على العدو وغلبته في الحرب.

الصلة بين البأس والقتال:

البأس هو ناتج عن الحرب، التي هي جزء لا يتجزأ من مفهوم القتال.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٣١.

مراحل تشريع القتال

جاء تشريع القتال تحقيقًا للحكمة الربانية في مواجهة الواقع الذي عاصره النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه -رضوان الله تعالى عليهم- بأحكام مرحلية تواجه كل مرحلة بما تتطلبها وبما يتفق مع قدرة المسلمين وعلاقتهم مع الأعداء.

فقد نزل الأمر بالقتال مرتبًا متدرجًا وفق خطوات الإعداد التربوي لهذه الأمة التي حملها الله تعالى مسؤولية إبلاغ هذا الدين للعالمين. فقد كان القتال ممنوعًا في أول الإسلام، ثم صار مأذونًا فيه ردًا للعدوان، ثم مأذونًا فيه للدفاع عن النفس، ثم مأمورًا به أمرًا عامًا مطلقًا.

وقد أجمل العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله مراحل تشريع القتال بكلمات جامعة دقيقة في كتابه «زاد المعاد» فعقد فيه فصلًا بعنوان «ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل» قال فيه:

- أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. فنبأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأرسله بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين. فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.
- ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله.
- ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.
- ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة؛ وأهل حرب؛ وأهل ذمة.

فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده.

ولما نزلت: (سورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان[1].

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٤٣.

لذلك يتناول هذا المبحث التطور التاريخي للمراحل التي شرع فيها القتال. ويمكن أن نجملها بأربعة مراحل:

أولًا: مرحلة الكف عن القتال

بدأ الوحي يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن فاجأه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١].

ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ الرسالة والدعوة. ثم أمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ الرسالة وإنذار قومه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر:١-٢].

فبدأ بدعوة أهل بيته، ثم بدعوة عشيرته الأقربين وقومه بالحسنى والموعظة، وأمره مع ذلك بالصفح والإعراض عن المشركين، فقال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥-٨٦].

ثم أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالدعاء إلى الدين بالوعظ والمجادلة بالأحسن فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي هذه المرحلة -ويمكن أن نقول في هاتين المرحلتين المتصلتين في مكة المكرمة- لم يكن هناك أمر بقتال دفعًا أو هجومًا. ولذلك قال الإمام أبو بكر الرازي الجصاص: «لم تختلف الأمة أن القتال كان محظورًا قبل الهجرة»[1].

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

ولكن كبر على المشركين ما يدعوهم

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٥٧.

إليه، فناصبوه العداء، وتفننوا في صنوف الإيذاء والبلاء، يصبونهما على المؤمنين، حتى وصل بهم الأمر أن يتآمروا على النبي صلى الله عليه وسلم لتصفيته جسديًا.

كل هذا والقرآن الكريم يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بالصبر والصفح والكف، ولم يأذن له بقتال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا﴾ [النساء: ٧٧].

ولما قال عبدالرحمن بن عوف وأصحاب له: (يا رسول الله كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلاء! فقال عليه الصلاة والسلام: (إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم)[(١)].

وقد كانت نفوس بعض المسلمين تتشوف إلى الإذن بالجهاد ليميلوا على المشركين ميلة واحدة وليدفعوا عن أنفسهم العدوان الواقع عليهم؛ فقد قال العباس بن عبادة بن نضلة ليلة بيعة العقبة: (والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منىً غدًا بأسيافنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)[(٢)].

قال الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي رحمه الله: «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقًا. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دارٌ ومنعة وأنصار»[(٣)].

ويقف الأستاذ سيد قطب رحمه الله عند آية سورة النساء يتلمس حكمة هذا الموقف، والأمر بالكف عن القتال، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والصبر والاحتمال حتى وبعض المسلمين يلقى من الأذى والعذاب ما لا يطاق، وبعضهم يتجاوز العذاب طاقته فيفتن عن دينه. وبعضهم لا يحتمل الاستمرار في العذاب فيموت تحت وطأته يقول قولة المؤمن الذي يتحرز عن الجزم فيما لا يمكن الجزم به لئلا يقول على

(١) أخرجه النسائي في سننه، أول كتاب الجهاد، ٦/ ٣.
وصححه الحاكم على شرط البخاري، ٢/ ٦٦ و ٣٠٧، ولم يتعقبه الذهبي.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٤٦٢.
قال الهيثمي في المجمع: ٦/ ٤٥: رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.
وانظر: السيرة، ابن إسحاق ص ٤٤٨، الطبقات الكبرى، ابن سعد ١/ ٢٢٣، تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٣٦٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٥٩.

الله بغير علم، فحسبه أن يشير إلى ما يراه من حكمة ثم يكل العلم الحقيقي إلى الله تعالى.

أما حكمة هذا: فلسنا في حلٍ من الجزم بها؛ لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض على أوامره أسبابًا وعللًا، قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها، ويعلم سبحانه أن فيها الخير والمصلحة.

وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفرضيته في المدينة نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب على أنه مجرد احتمال وندع ما وراءه لله، لا نفرض على أمره أسبابًا وعللًا، لا يعلمها إلا هو ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح! إنها أسباب اجتهادية تخطئ وتصيب، وتنقص وتزيد، ولا نبغي بها إلا مجرد تدبر أحكام الله، وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان:

- ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة.
- وربما كان ذلك أيضًا، لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ، في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف والتي قد يدفعها القتال معها -في مثل هذه الفترة- إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة.
- وربما كان ذلك أيضًا، اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم، إنما كان ذلك موكولًا إلى أولياء كل فرد، يعذبونه هم ويفتنونه و«يؤدبونه»! ومعنى الإذن بالقتال -في مثل هذه البيئة- أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت، ثم يقال: هذا هو الإسلام! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في الموسم، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة: إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي في كل بيت وكل محلة؟
- وربما كان ذلك أيضًا، لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟!
- وربما كان ذلك، أيضًا، لأن النخوة

العربية، في بيئة قبلية، من عادتها أن تثور للمظلوم، الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع! وبخاصة إذا كان الأذى واقعا على كرام الناس فيهم وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة -في هذه البيئة - فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر -وهو رجل كريم- يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته.

- وربما كان ذلك أيضًا، لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة. أو بلغت أخبارها متناثرة حيث كانت القبائل تقف على الحياد، من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف.
- في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال ودفع الأذى. لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائمًا -وقتها- ومحققًا، هذا الأمر الأساسي هو «وجود الدعوة»[1].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٤-٧١٥.

ثانيًا: مرحلة الإذن بالقتال:

أذن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة، وبدأ بتأسيس المجتمع الإسلامي الجديد فيها، وبدأ عهدٌ للإسلام مجيد. ومع هذا لم يشرع القتال في أول العهد بالمدينة، وإنما كان هناك أيضًا أمرٌ بالكف والصبر الجميل، وعقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها، معاهدة عرفت بصحيفة المدينة[2].

ولعل الحكمة في عدم القتال في أول العهد في المدينة تظهر أيضًا -علاوة على ما سبق- في أمرين:

الأول: لأن هناك مجالًا للتبليغ والبيان، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة وبقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تصريف شؤونها السياسية. فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحًا ولا يثير حربًا، ولا ينشئ علاقة خارجية إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان واضحا أن السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة، فالمجال أمام الدعوة مفتوح، والتخلية بين

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٥٠١، زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٦٥-٦٦، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله ص٥٧.

الناس وحرية الاعتقاد قائمة.

الثاني: إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد التفرغ -في هذه المرحلة- لقريش التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى الواقفة في حالة انتظار لما ينتهي إليه الأمر بين قريش وبعض بنيها[1]!

ولكن هذا الموقف كان مما زاد في عناد المشركين وزاد في كيدهم وعدوانهم وتآمرهم. وعند ذلك أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال دفعًا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

فكانت هذه الآية الكريمة أول آية نزلت في الجهاد -كما قال غير واحد من العلماء- فيها إذنٌ بالقتال لدفع العدوان ورده عن المؤمنين، لم يكن فيها وجوبٌ ولا أمرٌ.

ونقل الإمام محيي السنة البغوي[2] عن المفسرين في هذه الآية أنهم قالوا: «كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل هذه الآية[3]. وهي أول آية أذن الله فيها بالقتال، فنزلت هذه الآية بالمدينة. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة، فكانوا يمنعون فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة».

ثالثًا: مرحلة القتال دفاعًا:

ثم فرض الله تعالى القتال على المسلمين بعد ذلك إذا كانت البداية من الكفار،

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣٩.

(٢) معالم التنزيل ٥/ ٣٨٨-٢٨٩.

(٣) قال ابن حجر في الكافي الشافي ص ١١٣: لم أجده هكذا.وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين، وهو منتزع من أحاديث، أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا)، وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتالهم بمكة، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنزل الله عليه: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا).

فأوجب الله تعالى قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم. فقال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله: «اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية: فقال بعضهم: هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك. وقالوا: أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمن كف عنهم، ثم نسخت بـ«براءة»[(١)].

فعن الربيع قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من يقاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت «براءة».

وقال آخرون: بل ذلك أمرٌ من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار، لم ينسخ. وإنما الاعتداء الذي نهاهم الله عنه، هو نهيه عن قتل النساء والذراري. قالوا: والنهي عن قتلهم ثابتٌ حكمه اليوم، فلا شيء نسخ من حكم هذه الآية. فعن يحيى بن يحيى الغساني، قال: كتبت إلى عمر بن عبد العزيز أسأله عن قوله: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»، قال: فكتب إلي: «إن ذلك في النساء والذرية ومن لم ينصب لك الحرب منهم».

ثم قال رحمه الله: «وأولى هذين القولين بالصواب، القول الذي قاله عمر بن عبد العزيز؛ لأن دعوى المدعي نسخ آيةٍ يحتمل أن تكون غير منسوخة، بغير دلالةٍ على صحة دعواه، تحكمٌ. والتحكم لا يعجز عنه أحد»[(٢)].

(١) أسرف بعض العلماء في قضية النسخ، وجعلوا آية سورة براءة -أو آية السيف كما يقولون- ناسخة لآيات كثيرة تأمر بالصفح أو تنهى عن المسالمة.وهذا مردود عند المحققين من العلماء.فقد قال الطبري رحمه الله في التفسير ١٠/ ١٣٥: إن الناسخ الذي لا شك فيه من الأمر، هو ما كان نافيًا كل معاني خلافه، الذي كان قبله.فأما ما كان غير ناف جميعه، فلا سبيل إلى العلم بأنه ناسخ إلا بخبر من الله جل وعز، أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، وليس في قوله: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) دلالةٌ على الأمر بنفي معاني الصفح والعفو.

وقال الزركشي، رحمه الله، في كتابه البرهان في علوم القرآن ٢/ ٤٣-٤٤: ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف من أنها منسوخة بآية السيف قول ضعيف، فهو من المنسأ - بضم الميم - بمعنى: أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، ليس بنسخ، إنما النسخ: الإزالة، حتى لا يجوز امتثاله أبدًا..فليس حكم المسايفة ناسخًا لحكم المسالمة، بل كل منهما يجب امتثاله في وقته.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦١-٥٦٣.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢١٢-٢١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٦٢،

فلم يأمر الله تعالى المسلمين بقتال من طلب مسالمتهم ولا من هادنهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

وينطوي في هذه المرحلة الأمر بالقتال في بعض الأزمنة والأمكنة دون غيرها:

فقد أمر الله تعالى بالقتال بشرط انسلاخ الأشهر الحرم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وقد اختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم؛ فقال قوم: كان كبيرًا ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

كأنه يقول: فيهن وفي غيرهن. وهو قول قتادة، وعطاء الخراساني، والزهري، وسفيان الثوري، وقالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين، وثقيفًا بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة.

وقال آخرون: إنه غير منسوخ. قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا فيها، وما نسخت[1].

ونهى عن القتال عند المسجد الحرام فقال: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

قال محيي السنة البغوي: «وكان هذا في ابتداء الإسلام، كان لا يحل بدايتهم بالقتال في البلد الحرام، ثم صار منسوخًا بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

هذا قول قتادة. وقال مقاتل بن حيان: قوله ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث أدركتموهم في الحل والحرم، صارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ ثم نسختها آية السيف في براءة، فهي ناسخة منسوخة. وقال مجاهد وجماعة: هذه الآية محكمة، ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم»[2].

رابعًا: مرحلة القتال مطلقًا:

ثم أمر الله تعالى المسلمين بالقتال مطلقًا للمشركين كافة، إذ هم يقاتلونهم كافة.

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٢-٥٢٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٩-٩٠.

(١) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٤٥.
(٢) المصدر السابق ١/ ٢١٤.

فقال الله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩١- ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢- ١٥].

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

فكانت هذه المرحلة الأخيرة التي استقر عليها أمر الجهاد، إذ إن سورة التوبة -وفيها آية السيف أو آية الجزية- من أواخر القرآن الكريم نزولًا[(١)].

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي: «فأمر بقتال المخالفين لدين الإسلام كافة، حتى لا يكون دين إلا دين الله تعالى الذي تعبد به عباده»[(٢)].

وهذا هو الذي خلص إليه أيضًا العلامة المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله حيث قال بعد أن تتبع السياق التاريخي لهدي النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل.

قال: «فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة.

ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة.

والمحاربون له خائفون منه. فصار

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ١/ ٢٥٦ - ٢٥٨، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ١٠٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٨.

(٢) اختلاف العلماء، الطحاوي، اختصار الجصاص ٣/ ٤٢٦.

أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلمٌ مؤمن به، ومسالمٌ له آمنٌ -أهل ذمة- وخائف محارب»[1].

وهذا النظر للمراحل التي مر بها تشريع القتال والجهاد يشير إلى الأحكام المرحلية ليست أحكامًا نهائية تنسخ غيرها مثلًا أو تتعارض معها، فإن الإسلام يواجه كل مرحلة بما يناسبها. يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تعريفه بسورة التوبة «براءة»: «هذه السورة مدنية، من أواخر ما نزل من القرآن- إن لم تكن هي آخر ما نزل من القرآن- ومن ثم قد تضمنت أحكامًا نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض والسورة- بهذا الاعتبار- ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته- حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها- وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج، وعن مدى حسمه كذلك.

وبدون هذه المراجعة تختلط هذه الصور والأحكام والقواعد كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكامًا مرحلية فجعلت نهائية ثم أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية وبخاصة في موضوع الجهاد الإسلامي، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى»[2].

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٦٠.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٩١.

أصناف المقاتلين

ألمحت فيما سبق إلى أن القتال ظاهرة اجتماعية، عرفتها البشرية منذ عهدها الأول، وإلى أن القتال في الإسلام الذي هو الجهاد في سبيل الله -كما تقدم- له غاية وهدف، ولذلك تنوع القتال بحسب أصناف المقاتلين، وفيما يأتي بيان لذلك بإيجاز، في النقاط الآتية:

أولًا: الكفار وأئمتهم:

إذا أطلقت كلمة القتال، فإن أول ما يتبادر إلى الأذهان هو قتال الكافرين والمشركين بعامة، وقد تواترت الآيات القرآنية الكريمة في ذلك، فقال الله تعالى مبينًا أن شأن الكفار هو قتال المؤمنين، فكان من الواجب قتالهم لرد العدوان ودرء الفتنة عن المسلمين: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩١- ١٩٣].

وهذا أمرٌ بقتالهم، أينما وجدوا في كل وقت، وفي كل زمان قتال مدافعةٍ، وقتال مهاجمةٍ، ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدؤوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاءً لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمته وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام، يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك، والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم. ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: «أنه يرتكب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما».

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به، سفك دماء الكفار، وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به: أن ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه، من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود، فلا قتل ولا قتال، ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: فليس عليهم منكم اعتداء، إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة، بقدر ظلمه[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٩.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: واقتلوا -أيها المؤمنون- الذين يقاتلونكم من المشركين حيث أصبتم مقاتلهم وأمكنكم قتلهم، وذلك هو معنى قوله: «حيث ثقفتموهم»أي: اقتلوهم في أي مكان تمكنتم من قتلهم، وأبصرتم مقاتلهم. وأما قوله: «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» فإنه يعنى بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ومنازلهم بمكة، فقال لهم تعالى ذكره: أخرجوا هؤلاء الذين يقاتلونكم - وقد أخرجوكم من دياركم - من مساكنهم وديارهم كما أخرجوكم منها والشرك بالله أشد من القتل[1].

وتأتي الآيات الكريمة لتأكيد هذا المعنى فيقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

يقول تعالى ذكره لفريق الإيمان به وبرسوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله من أهل الحرب، فاضربوا رقابهم حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى، فشدوهم في الوثاق كيلا يقتلوكم، فيهربوا منكم. فإذا أسرتموهم بعد الإثخان، فإما أن تمنوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن يفادوكم فداء بأن يعطوكم من أنفسهم عوضًا حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل[2].

قال الإمام البغوي رحمه الله: «واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هي منسوخة بقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٧].

وبقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥].

وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسدي وابن جريج، وهو قول الأوزاعي وأصحاب الرأي، قالوا: لا يجوز المن على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء.

وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة، والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم، فيطلقهم بلا عوض أو يفاديهم بالمال، أو بأسارى المسلمين، وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسن،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٥٣.

وعطاء، وأكثر الصحابة والعلماء، وهو قول الثوري، والشافعي، وأحمد وإسحاق.

قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾. وهذا هو الأصح والاختيار، لأنه عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده»[1].

ثم تتوارد الآيات الكريمة في الأمر بقتال الكفار عندما يتولون ويعرضون عن الدين والتزام الأمان والسلم، وعندما ينقضون العهود والمواثيق، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وهذه المعاني نصت عليها الآيات الأخرى، وخصت بالذكر أئمة الكفر وصناديده، وهم القادة في الكفر، من الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم، ولأن غيرهم تبعٌ لهم، وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر[2].

فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٧-١٣].

ثانيًا: أهل الكتاب:

وإذا كان القتال موجهًا في المطلب

(١) معالم التنزيل ٧/ ٢٧٨.

(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٠.

السابق للكفار بعامة ولأئمتهم وصناديدهم بخاصة، فإن الأمر كذلك توجه للمؤمنين بقتال صنف من الكفار، وهم أهل الكتاب، فإنهم استجمعوا من الصفات ما يسوغ قتالهم إلى أن يسلموا أو يدفعوا الجزية.

فقال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجًا واستقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفًا، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم؛ وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحرٍ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ أي: إن لم يسلموا ﴿عَن يَدٖ﴾ أي: عن قهر لهم ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء[1].

وقد أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر مع إظهارهم الإيمان بالنشور والبعث. وذلك يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون مراده لا يؤمنون باليوم الآخر على الوجه الذي يجري حكم الله فيه من تخليد أهل الكتاب في النار وتخليد المؤمنين في الجنة، فلما كانوا غير مؤمنين بذلك أطلق القول فيهم بأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ومراده حكم يوم الآخر وقضاؤه فيه، كما تقول: أهل الكتاب غير مؤمنين بالنبي، والمراد بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل فيه: إنه أطلق ذلك فيهم على طريق الذم؛ لأنهم بمنزلة من لا يقر به في عظم الجرم، كما أنهم بمنزلة المشركين في عبادة الله تعالى بكفرهم الذي اعتقدوه. وقيل أيضًا: لما كان إقرارهم عن غير معرفة، لم يكن ذلك إيمانًا، وأكثرهم بهذه الصفة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ فإن دين الحق هو الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٦.

وهو التسليم لأمر الله وما جاءت به رسله والانقياد له والعمل به، والدين يتصرف على وجوه: منها الطاعة، ومنها القهر، ومنها الجزاء. ودين اليهود والنصارى غير دين الحق لأنهم غير منقادين لأمر الله ولا طائعين له، لجحودهم نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل: فهم يدينون بدين التوراة والإنجيل معترفون به منقادون له؟

فالجواب على ذلك: في التوراة والإنجيل ذكر نبينا، وأمرنا بالإيمان واتباع شرائعه، وهم غير عاملين بذلك بل تاركون له، فهم غير متبعين دين الحق.

وأيضًا: فإن شريعة التوراة والإنجيل قد نسخت، والعمل بها بعد النسخ ضلال، فليس هو إذًا دين الحق.

وأيضًا: فهم قد غيروا المعاني وحرفوها عن مواضعها وأزالوها إلى ما تهواه أنفسهم دون ما أوجبه عليهم كتاب الله تعالى، فهم غير دائنين دين الحق[1].

والذي يتلخص بعد ذلك: أن هذه الآية الكريمة فيها أمرٌ بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيمانًا صحيحًا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم، ولا يحرمون ما حرم الله، فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه إما بين دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلًا، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس بسبب أنهم أهل كتاب. وغاية ذلك القتال ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كلٌّ على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: حتى يبذلوها في حال ذلهم وعدم اقتدارهم ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادما ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢٨٢.
وانظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٢١.

عليهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم ويوجب ذلهم وصغارهم[1]؛ وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم. وإلا بأن لم يفوا ولم يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا[2].

ثالثًا: المرتدون.

وهذا صنف ثالث من أصناف الذين يقاتلهم المسلمون، ويكون قتالهم جهادًا في سبيل الله؛ لأنه قتال لإعلاء كلمة الله تعالى، بل قد يكون قتالهم أولى من قتال الكفار الأصليين. وفي بيان حال المرتدين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

قال الإمام عبد الحق ابن عطية رحمه الله في بيان الردة وما يترتب عليها، في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«أي: من يرجع عن الإسلام إلى الكفر. قالت طائفة من العلماء: يستتاب المرتد فإن تاب وإلا قتل.

وقال عبيد بن عمير وطاووس والحسن -على خلاف عنه- والشافعي في أحد قوليه: يقتل دون أن يستتاب. وروي نحو هذا عن أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل.

ومقتضى قولهما أنه يقال له للحين: راجع. فإن أبى ذلك قتل، وقال عطاء بن أبي رباح: إن كان المرتد ابن مسلمين قتل دون استتابة، وإن كان أسلم ثم ارتد استتيب، وذلك لأنه يجهل من فضل الإسلام ما لا يجهل ابن المسلمين.

واختلف القائلون بالاستتابة: فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يستتاب ثلاثة أيام. وبه قال مالك وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي والشافعي في أحد قوليه.

وقال الزهري: يدعا إلى الإسلام، فإن تاب وإلا قتل.

وروي عن علي أبي طالب رضي الله عنه أنه استتاب مرتدًا شهرًا فأبى فقتله، وقال النخعي والثوري: يستتاب محبوسًا أبدًا. قال ابن المنذر: واختلفت الآثار عن عمر في هذا الباب.

قال القاضي أبو محمد: كان رضي الله

(١) قال الماوردي في تفسيره النكت والعيون ٢/ ٣٥٢ في معنى الصَغَار: فيه خمسة أقاويل: أحدها: أن يكونوا قيامًا والآخذ لها جالسًا، قاله عكرمة. والثاني: أن يمشوا بها وهم كارهون، قاله ابن عباس. والثالث: أن يكونوا أذلاء مقهورين، قاله الطبري. والرابع: أن دفعها هو الصغار بعينه. والخامس: أن الصغار أن تجري عليهم أحكام الإسلام، قاله الشافعي.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٣٤.

عنه ينفذ بحسب جرم ذلك المرتد أو قلة جرمه المقترن بالردة»[1].

رابعًا: الطائفة الممتنعة عن أداء أحد أركان الإسلام.

إن تتبع الأحكام الشرعية في قتال فئات وطوائف تتصف بصفة معينة أو تمتنع عن الالتزام بحكم من الأحكام الظاهرة أو تترك شعيرة من شعائره يجعلنا نخرج بحكم كليٍّ أو قاعدة عامة في قتال الطائفة الممتنعة عن أداء أحد أركان الإسلام، وهو وجوب قتالها حتى تعود إلى الإقرار والطاعة والالتزام، فتتمتع عندئذ بالعصمة، أو تعود إليها العصمة التي سقطت عنها بامتناعها عن أداء الركن.

وقد أبان عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله خير بيان وأوضحه، واستدل له بالآيات الكريمة الواضحة الدلالة فقال:

«أجمع علماء المسلمين على أن كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله، فلو قالوا: نصلي ولا نزكي، أو نصلي الخمس ولا نصلي الجمعة ولا الجماعة، أو نقوم بمباني الإسلام الخمس ولا نحرم دماء المسلمين وأموالهم، أو لا نترك الربا ولا الخمر ولا الميسر، أو نتبع القرآن ولا نتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نعمل بالأحاديث الثابتة عنه، أو نعتقد أن اليهود والنصارى خير من جمهور المسلمين وأن أهل القبلة قد كفروا بالله ورسوله ولم يبق منهم مؤمن إلا طائفة قليلة، أو قالوا: إنا لا نجاهد الكفار مع المسلمين، أو غير ذلك من الأمور المخالفة لشريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته وما عليه جماعة المسلمين؛ فإنه يجب جهاد هذه الطوائف جميعها كما جاهد المسلمون مانعي الزكاة، وجاهدوا الخوارج وأصنافهم، وجاهدوا الخرمية والقرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف أهل الأهواء والبدع الخارجين عن شريعة الإسلام.

وذلك لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

فلم يأمر بتخلية سبيلهم إلا بعد التوبة من جميع أنواع الكفر وبعد إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟

(١) المحرر الوجيز ١/ ٢٤١.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٣١٦-٣١٧، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٤٦.

﴿اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

فقد أخبر تعالى أن الطائفة الممتنعة إذا لم تنته عن الربا فقد حاربت الله ورسوله، والربا آخر ما حرم الله في القرآن فما حرمه قبله أوكد.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

فكل من امتنع من أهل الشوكة عن الدخول في طاعة الله ورسوله فقد حارب الله ورسوله، ومن عمل في الأرض بغير كتاب الله وسنة رسوله فقد سعى في الأرض فسادًا؛ ولهذا تأول السلف هذه الآية على الكفار وعلى أهل القبلة؛ حتى أدخل عامة الأئمة فيها قطاع الطريق الذين يشهرون السلاح لمجرد أخذ الأموال، وجعلوهم بأخذ أموال الناس بالقتال محاربين لله ورسوله ساعين في الأرض فسادًا، وإن كانوا يعتقدون تحريم ما فعلوه ويقرون بالإيمان بالله ورسوله. فالذي يعتقد حل دماء المسلمين وأموالهم ويستحل قتالهم، أولى بأن يكون محاربًا لله ورسوله، ساعيًا في الأرض فسادًا من هؤلاء. كما أن الكافر الحربي الذي يستحل دماء المسلمين وأموالهم ويرى جواز قتالهم، أولى بالمحاربة من الفاسق الذي يعتقد تحريم ذلك

وقد قال تعالى في كتابه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فكل من خرج عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته فقد أقسم الله بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن حتى يرضى بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع ما يشجر بينهم من أمور الدين والدنيا وحتى لا يبقى في قلوبهم حرج من حكمه. ودلائل القرآن على هذا الأصل كثيرة.

وبذلك جاءت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين؛ ففي «الصحيحين»[1]: عن أبي هريرة قال: (لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من ارتد من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١٣/ ٢٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله..رقم ٢٠، ١/ ٥١-٥٢.

الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم أموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)؟ فقال أبو بكر: ألم يقل إلا بحقها؟ فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. فقال عمر: فو الله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق). فاتفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال أقوام يصلون ويصومون إذا امتنعوا عن بعض ما أوجبه الله عليهم من زكاة أموالهم.

وهذا الاستنباط من صديق الأمة قد جاء مصرحًا به. ففي «الصحيحين»[1]: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها).

فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه أمر بقتالهم حتى يؤدوا هذه الواجبات. وهذا مطابق لكتاب الله. وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة، وأخرج منها أصحاب الصحيح عشرة أوجه ذكرها مسلم في «صحيحه» وأخرج منها البخاري غير وجهٍ، وقال الإمام أحمد رحمه الله صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه»[2].

خامسًا: الطائفة المعتدية على الأخرى من المؤمنين:

أقام الإسلام العلاقة بين المؤمنين على أساس العقيدة والإيمان والأخوة الإسلامية التي ينتفي معها القتال بين المؤمنين، لأن العصمة وحرمة الدم والمال والعرض ثابتة لكل منهم بإيمانه وإسلامه، فلا يجوز أن يكون القتال بين فئتين مسلمتين، أو بين دولتين مسلمتين -عندما توزعت الأمة الواحدة إلى دول- إلا أن الإسلام يعالج كل الاحتمالات والوقائع التي قد تطرأ فتحمل بعض الناس من المؤمنين على بغي أو عدوان على آخرين منهم، وهنا يجب المبادرة إلى الإصلاح ورفع العدوان والبغي الواقع من إحدى الطائفتين على الأخرى[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة، ١/ ٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ١/ ٥٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٤٦٩-٤٧٣.

(٣) انظر: المشروعية في النظام الإسلامي د.مصطفى كمال وصفي، ص٥٥، منهج الإسلام في الحرب والسلام عثمان ضميرية، ص١٤٦، الجهاد في سبيل الله عزة دروزة، ص١٧٤.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

وقد تضمنت الآيات تعليمًا رائع المدى بشأن ما قد يقوم من قتال بين فريقين من المؤمنين. والتعليم هنا موجه إلى فريق ثالث ليس طرفًا في القتال، يجب عليه ألا يقف موقف المتفرج، بل عليه أن يسارع إلى فض القتال والإصلاح بين المتقاتلين المسلمين الذين هم إخوة لا يجوز أن يقع بينهم قتال ولا نزال ولا بغي على أحد، ويعمل على إحقاق الحق لأهله بدون محاباة، ونصرة المظلوم ولو بالسلاح، إذا لم يرتدع الظالم ويقف عند الحق والعدل وحدود الله.

وقد روى المفسرون أن الآيتين نزلتا في مناسبة نزاع بين أسرتين أو عشيرتين أدى إلى قتال بينهما[1]، ولكن الحكم يبقى أوسع مدى من الواقعة التي نزلت الآيات بسببها؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول علماؤنا رحمهم الله تعالى.

وهذا يسوغ القول بأن الآيات الكريمة استهدفت تقريرا قاعدة عامة أوسع شمولًا، وينطوي في حكمها أن يكون القتال بين حكومتين إسلاميتين، أو فتنة قتالية بين حكومة إسلامية ورعيتها مع وجود حكومة أو حكومات إسلامية أخرى ليست طرفًا في النزاع والقتال، وأن التوجيه الذي احتوته الآيات هو وجوب تدخل هذه الحكومة أو الحكومات بين المتقاتلين لإصلاح الأمر وحل النزاع ووقف القتال على أساس الحق والعدل، ووجوب نصر من وقع عليه البغي -إذا أبى الباغي الإذعان لحكم الله- إلى أن يذعن له[2].

والمعنى الإجمالي العام للآيات الكريمة: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا فأصلحوا -أيها المؤمنون- بينهما بدعوتهما إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والرضا بحكمهما، فإن اعتدت إحدى الطائفتين وأبت الإجابة إلى ذلك، فقاتلوها حتى ترجع إلى حكم الله ورسوله، فإن رجعت فأصلحوا بينهما بالإنصاف، واعدلوا في حكمكم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله وحكم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٦/ ١٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٤٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٤٨، الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٥٦٠-٥٦١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٦٩٩٩.

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص١٧٤-١٧٥.

رسوله، إن الله يحب العادلين في أحكامهم القاضين بين خلقه بالقسط، فإنما المؤمنون إخوة في الدين، فأصلحوا بين أخويكم إذا اقتتلا وخافوا الله في جميع أموركم؛ رجاء أن ترحموا[1].

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل، فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله له، وعليه وتعدت ما جعل الله عدلًا بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما، فقاتلوا التي تعتدي، وتأبى الإجابة إلى حكم الله حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه؛ فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل يعني: بالإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلًا بين خلقه[2].

سادسًا: البغاة:

قد ترى جماعة من المسلمين في المجتمع المسلم رأيًا فتتمسك به وتدافع عنه، أو تتأول حكمًا تنفرد به وتتعصب له، وتدافع عنه بعنف حتى تبغي على غيرها، ويترابط أفرادها بعضهم مع بعضٍ حتى يخشى بأسهم، أو يصبحوا على حالة تؤدي إلى تفرق الكلمة، وتجزئة الصف، بل ربما تطمع تلك الحالة العدو بالمسلمين بعد إظهار خلع طاعة الإمام الحاكم، وهؤلاء هم البغاة الذين بغوا على أهل العدل، فسوغ ذلك قتالهم، فيما أسماه علماؤنا بـ «حروب المصالح»[3].

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

البغي في اللغة العربية: هو طلب الشيء، يقال: بغيت كذا إذا طلبته. ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف: ٦٤].

ثم اشتهر البغي عرفًا في التعدي وطلب ما لا يحل من الجور والظلم، وإن كانت اللغة لا تمنع أن يكون البغي بحق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ

(١) التفسير الميسر ص٥١٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٩٢.
(٣) عقد الماوردي الباب الثالث من الأحكام السلطانية للولاية على حروب المصالح، وهي الردة والبغي والحرابة.
وانظر: الجهاد في سبيل الله، محمود شاكر، ص٢٣١-٢٣٣، الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص١٧٤.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:٣٣][(١)].

ويختلف الفقهاء في تعريف البغي اصطلاحًا لاختلافهم في الشروط التي يجب توافرها في البغاة، ولمحاولة الفقهاء في أكثر من مذهب أن يجمعوا في التعريف بين أركان البغي وشروطه ورغبتهم أن يكون التعريف جامعًا مانعًا، ونستطيع أن نعرف البغي تعريفًا مشتركًا فيه كل المذاهب إذا اكتفينا بإبراز الأركان الأساسية في التعريف فنقول: إن البغي هو الخروج على الإمام مغالبةً[(٢)].

ومن تعريف البغي يؤخذ تعريف البغاة، وهي جمع لكلمة الباغي، وهو في الشرع: الخارج على الإمام العدل. فالبغاة هم طائفة من الناس جمعت بين ثلاثة أمور:

- الخروج على الإمام العدل. والمقصود هو مخالفة الإمام والعمل لخلعة، أو الامتناع عما وجب على الخارجين من حقوق، وأن يكون الخروج مغالبة.
- الخروج على الإمام مغالبة. أي أن يكون الخروج مصحوبًا باستعمال القوة، فإذا كان الخروج غير مصحوب باستعمال القوة فلا يعتبر بغيًا، كرفض مبايعة الإمام بعد أن بايعت له الأغلبية، ولو نادى الخارجون بعزل الإمام أو بعصيانه وعدم طاعته أو بالامتناع عن أداء ما عليهم من واجبات تقوم الدولة على استيفائها.
- القصد الجنائي في الخروج (قصد البغي)، فيشترط لوجود البغي أن يتوفر لدى الخارج القصد الجنائي العام؛ أي قصد الخروج على الإمام مغالبة، فإذا كان الخارج لم يقصد من فعله الخروج على الإمام أو لم يقصد المغالبة فهو ليس باغيًا[(٣)].

فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل بتأويل محتمل، ونصبوا إمامًا: فالحكم فيهم أن يبعث الإمام إليهم ويدعوهم إلى طاعته، فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم، وإن لم يذكروا مظلمة، وأصروا على بغيهم، قاتلهم الإمام حتى يفيئوا إلى طاعته.

ثم الحكم في قتالهم: أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم، ولا يجهز على جريحهم، فقد نادى منادي علي رضي الله عنه يوم الجمل: ألا لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح[(٤)].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٨١، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٧٥ ، المصباح المنير، الفيومي ص٥٦-٥٧.
(٢) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي ٢/ ٦٧١-٦٧٢.
(٣) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي ٢/ ٦٧١.
(٤) أخرجه البيهقي موقوفًا ٨/ ١٨١، وصححه الحاكم في المستدرك: ٢/ ١٥٥ ولم يتعقبه

وما أتلفت إحدى الطائفتين على الأخرى في حال القتال من نفس أو مال فلا ضمان عليه. قال ابن شهاب الزهري: كانت في تلك الفتنة دماء يعرف في بعضها القاتل والمقتول، وأتلف فيها أموال كثيرة، ثم صار الناس إلى أن سكنت الحرب بينهم، وجرى الحكم عليهم، فما علمته اقتص من أحد ولا أغرم مالًا أتلفه.

أما من لم يجتمع فيهم هذه الشرائط الثلاث بأن كانوا جماعة قليلين لا منعة لهم، أو لم يكن لهم تأويل، أو لم ينصبوا إمامًا فلا يتعرض لهم إن لم ينصبوا قتالًا ولم يتعرضوا للمسلمين، فإن فعلوا فهم كقطاع الطريق[1].

روي أن عليًا رضي الله عنه سمع رجلًا يقول في ناحية المسجد: «لا حكم إلا لله تعالى»، فقال عليٌّ: كلمة حق أريد بها باطل، لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدؤكم بقتال[2].

قال العلامة أبو بكر الجصاص رحمه الله: «قد اقتضى ظاهر الآية الأمر بقتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله، وهو عموم في سائر ضروب القتال، فإن فاءت إلى الحق بالقتال بالعصي والنعال لم يتجاوز به إلى غيره، وإن لم تفئ بذلك قوتلت بالسيف على ما تضمنه ظاهر الآية. وغير جائزٍ لأحد الاقتصار على القتال بالعصي دون السلاح مع الإقامة على البغي وترك الرجوع إلى الحق، وذلك أحد ضروب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذاك أضعف الإيمان)[3].

فأمر بإزالة المنكر باليد، ولم يفرق بين السلاح وما دونه، فظاهره يقتضي وجوب إزالته بأي شيء أمكن.

وذهب قوم إلى أن قتال أهل البغي إنما يكون بالعصي والنعال وما دون السلاح وأنهم لا يقاتلون بالسيف، واحتجوا بما روينا من سبب نزول الآية وقتال القوم الذين تقاتلوا بالعصي والنعال. وهذا لا دلالة فيه على ما ذكروا؛ لأن القوم تقاتلوا بما دون السلاح، فأمر الله تعالى بقتال الباغي منهما ولم يخصص قتالنا إياه بما دون السلاح وكذلك نقول متى ظهر لنا قتال من فئة على وجه البغي قابلناه بالسلاح وبما دونه حتى

الذهبي.
انظر: نصب الراية، الزيلعي ٣/ ٤٦٣، التلخيص الحبير، ابن حجر ٤/ ٤٣، إرواء الغليل، الألباني ٨/ ١١٣.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٤٢.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم ٧٨، ١/ ٦٩.

ترجع إلى الحق، وليس في نزول الآية على حال قتال الباغي لنا بغير سلاح ما يوجب أن يكون الأمر بقتالنا إياهم مقصورًا على ما دون السلاح مع اقتضاء عموم اللفظ للقتال بسلاح وغيره. ألا ترى أنه لو قال: «من قاتلكم بالعصي فقاتلوه بالسلاح» لم يتناقض القول به؟ فكذلك أمره إيانا بقتالهم؛ إذ كان عمومه يقتضي القتال بسلاح وغيره، وجب أن يجرى على عمومه وأيضا قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الفئة الباغية بالسيف»[1].

ثم أبان عن واجب الإمام في التعامل مع أهل البغي وما يبدؤهم به فقال[2]: «أمر الله عند ظهور القتال منهم بالإصلاح بينهما، وهو أن يدعوا إلى الصلاح والحق وما يوجبه الكتاب والسنة والرجوع عن البغي، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ يعني -والله أعلم-: إن رجعت إحداهما إلى الحق وأرادت الصلاح وأقامت الأخرى على بغيها وامتنعت من الرجوع فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. فأمر تعالى بالدعاء إلى الحق قبل القتال، ثم إن أبت الرجوع قوتلت. وكذا فعل علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- بدأ بدعاء الفئة الباغية إلى الحق واحتج عليهم، فلما أبوا القبول قاتلهم.

وفي هذه الآية دلالة على أن اعتقاد مذاهب أهل البغي لا يوجب قتالهم ما لم يقاتلوا؛ لأنه قال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾، فإنما أمر بقتالهم إذا بغوا على غيرهم بالقتال، وكذلك فعل علي بن أبي طالب مع الخوارج؛ وذلك لأنهم حين اعتزلوا عسكره بعث إليهم عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- فدعاهم، فلما أبوا الرجوع ذهب إليهم فحاجهم فرجعت منهم طائفة وأقامت طائفة على أمرها، فلما دخلوا الكوفة خطب فحكمت الخوارج من نواحي المسجد وقالت: «لا حكم إلا لله» فقال علي رضي الله عنه: «كلمة حق يراد بها باطل، أما إن لهم ثلاثًا: أن لا نمنعهم مساجد الله أن يذكروا فيها اسمه، وأن لا نمنعهم حقهم من الفيء ما دامت أيديهم مع أيدينا، وأن لا نقاتلهم حتى يقاتلونا»[3].

(١) أحكام القرآن ٣/ ٥٣٢-٥٣٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تقدم تخريجه قريبًا.

أحكام القتال

تنزلت الآيات الكريمة، وتواردت الأحاديث النبوية الشريفة وتواترت الوقائع العملية في السيرة النبوية في بيان أحكام القتال، والشروط الواجب توفرها فيمن يجب عليه القتال و الجهاد.

ثم رسمت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية صورة مزرية للمتقاعسين والمتخلفين عن القتال بدون عذر، أو المتلمسين للأعذار الكاذبة. واستتبع ذلك بيان الآثار المترتبة على القتال في الأنفس والأموال، فقد أبانت الآيات عن حكم الفيء والغنائم والجزية التي تؤخذ من الكفار، وحكم الأسرى الذين يقعون في أيدي المقاتلين المسلمين.

وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: حكم القتال وشروطه:

١ . حكم القتال.

الأصل العام والقاعدة المقررة أن قتال الكفار -أو الجهاد بمعناه الخاص- واجب على المسلمين إلا أنهم في سعة من ذلك حتى يحتاج إليهم. ويدل على أصل الوجوب أو الفرضية آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية كثيرة.

فمن الآيات الكريمة؛ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال عليه الصلاة والسلام: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام

وحسابهم على الله)[1].

والأمر المطلق في هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة يقتضي اللزوم. فاقتضى هذا أن القتال والجهاد فريضة محكمة يكفر جاحدها، وقد ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنةوالإجماع[2].

وقد أجمع علماء المسلمين وفقهاء الأمة الإسلامية -منذ العصور الأولى: على هذه الفرضية. ولكن وقع الخلاف بينهم -بعد ذلك- في نوع هذا الفرض وكيفيته، هل هو فرض عين أو فرض كفاية؟

والأمر فيه لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يكون النفير عامًا [3]، وإما أن لا يكون، لأن الكفار مستقرون ببلادهم لم يبدؤونا بالقتال، ولذلك نبحث حكم القتال في هاتين الحالتين:

١. إذا لم يكن النفير عامًا.

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الجهاد فرض كفاية إن لم يكن النفير عامًا، إذا قام به بعض المكلفين ممن يتأدى بهم الفرض، وتحصل بهم الكفاية، سقط الوجوب عن الباقين وكانوا في سعة من تركه، لأن المطلوب حصوله في نفسه من مجموع المكلفين. وإن لم يقم به أحد من المكلفين بقي الخطاب موجهًا إلى الجميع للقيام به، وعندئذ يأثم كل قادرٍ إن لم يجاهد. فالخطاب بالفرضية في ابتدائه موجه إلى الجميع من القادرين على القيام به كفرض العين، أو إلى مجموعهم ثم يختلفان في أن فرض الكفاية يسقط بفعل بعض الناس له، وفرض العين لا يسقط عن أحد بفعل غيره.

والدليل على أنه فرض كفاية: من القرآن الكريم ومن السنة النبوية ومن المعقول أيضًا.

فمن القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

فلو كان الجهاد فرضًا على كل أحد في نفسه لما كان القاعدون موعودين بالحسنى، بل كانوا يكونون مذمومين مستحقين للعقاب بتركه، لأن القعود عن القيام بالفرض يكون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة)، ١/ ٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ١/ ٥٣.

(٢) انظر: شرح السير الكبير، الشيباني ١/ ١٨٨، المبسوط، السرخسي ١٠/ ٣، أحكام القرآن الجصاص ٣/ ١١٤ - ١١٥.

(٣) معنى النفير أن يخبر أهل مدينة أن العدو قد جاء يريد أنفسكم أو ذراريكم أو أموالكم. فهو التحريض على الجهاد.والنفير العام: أن يحتاج إلى جميع المسلمين، فلا يحصل المقصود - وهو إعزاز الدين - إلا بالجميع. انظر: شرح السير الكبير ١/ ١١٢.

حرامًا[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فالآية تدل على أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية، إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد، وليقم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع وما تجدد نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم[2].

ومن السنة النبوية: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثًا إلى بني لحيان من هذيل، فقال: (لينبعث من كل رجلين أحدهما، والأجر بينهما)[3]. ولو كان الجهاد فرض عين في هذه الحال لكان لا يتوهم منه صلى الله عليه وسلم القعود عنه بحال، ولا أذن لغيره بالتخلف عنه بحال[4].

ومن المعقول: أن المراد من الجهاد والمقصود به هو دفع شر الكفار وكسر شوكتهم، وإعلاء كلمة الدين وإعزاز الإسلام والمسلمين، وأن يأمن المسلمون ويتمكنوا من القيام بمصالح دينهم ودنياهم، فهو مقصود في نفسه لا باعتبار الفاعل، فلو جعل فرضًا في كل وقت على كل واحدٍ عاد على موضوعه ومقصوده بالنقض والإبطال، إذ لو اشتغل الكل بالجهاد لم يتفرغوا للقيام بمصالح دينهم ودنياهم، وانقطعت مادة الجهاد ووسيلته من الكراع والسلاح والأقوات والتجارة، فيؤدي ذلك إلى تعطيل الجهاد وتركه للعجز عن القيام به، ولهذا ينبغي أن يتولى البعض الجهاد، والبعض التجارة والزراعة والصناعة التي تقوم بها المصالح، فكان فرض كفاية[5].

وجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أن الإمام مالكًا رحمه الله يقول: الجهاد فرض بالأموال والأنفس، فإن منعهم الضرر، أو عاهة بأنفسهم، لم يسقط عنهم الفرض بأموالهم[6].

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١١٦.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٤١- ٣٤٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٣- ١٧٥، روح المعاني، الألوسي ٥/ ١٢١- ١٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣٩.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١١١، أسباب النزول الواحدي، ص ٣٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي، ٣/ ١٥٠٧.

(٤) انظر: بدائع الصنائع، الصاغاني ٩/ ٤٣٠٠.

(٥) انظر: المبسوط السرخسي ١٠/ ٣، الكافي، ابن عبد البر ١/ ٣٩٨، روضة الطالبين، النووي ١٠/ ٢٠٨، المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٥٩- ٣٦٠.

(٦) مختصر اختلاف الفقهاء، الجصاص ٣/ ٥٠٩، التمهيد، ابن عبد البر ١٨/ ٣٠٣.

وفي هذا كله يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «فإذا كان فرض الجهاد على من فرض عليه محتملًا لأن يكون كفرض الصلاة وغيرها عامًا عينيًا.

ومحتملًا لأن يكون على غير العموم؛ فدل كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على أن فرض الجهاد إنما هو على أن يقوم به من فيه كفاية للقيام به حتى يجتمع أمران؛ أحدهما: أن يكون بإزاء العدو المخوف على المسلمين من يمنعه، والآخر: أن يجاهد من المسلمين من في جهاده كفاية، فإذا قام بهذا من المسلمين من فيه الكفاية به خرج المتخلف منهم من المأثم في ترك الجهاد، وكان الفضل للذين ولوا الجهاد على المتخلفين عنه.

قال الله عز وجل: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥].

وبينٌ إذ وعد الله عز وجل القاعدين غير أولي الضرر الحسنى أنهم لا يأثمون بالتخلف، ويوعدون الحسنى بالتخلف، بل وعدهم -لما وسع عليهم من التخلف- الحسنى إن كانوا مؤمنين لم يتخلفوا شكًّا ولا سوء نية وإن تركوا الفضل في الغزو.

وأبان الله عز وجل في قوله في النفير حين أمرنا بالنفير: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١].

وقال عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فأعلمهم أن فرض الجهاد على الكفاية من المجاهدين.

ولم يغز رسول الله صلى الله عليه وسلم غزاةً علمتها إلا تخلف عنه فيها بشرٌ؛ فغزا بدرًا وتخلف عنه رجال معروفون. وكذلك تخلف عنه عام الفتح، وغيره من غزواته صلى الله عليه وسلم، وقال في غزوة تبوك، وفي تجهيزه للجمع للروم: (ليخرج من كل رجلين رجل فيخلف الباقي الغازي في أهله وماله)[1].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيوشًا وسرايا تخلف عنها بنفسه مع حرصه على الجهاد على ما ذكرت. وأبان أن لو تخلفوا معًا أثموا معًا بالتخلف بقوله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا

(١) أخرج الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي، رقم ٥٠١٦ عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى بني لحيان ليخرج من كل رجلين رجل.ثم قال للقاعد: أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج.

﴿أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩].

يعني-والله تعالى أعلم- إلا إن تركتم النفير كلكم عذبتكم. ففرض الجهاد -على ما وصفت- يخرج المتخلفين من المأثم القائم بالكفاية فيه، ويأثمون معًا إذا تخلفوا معًا»[(١)].

وذهب سعيد بن المسيب رحمه الله إلى أن الجهاد فرض عين مطلقًا على كل مسلم، لقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق)[(٢)].

كما استدل بجميع أدلة الجمهور التي استدلوا بها على الكفاية، وحملها على الدلالة على فرض العين، وقال: إن القاعدين الموعودين بالحسنى ـ في آية سورة النساء السابقة ـ كانوا حراسًا في سبيل الله، فهم يقومون بفريضة الجهاد أيضًا.

وقال الداوودي: هو فرض عين على من يلي الكفار[(٣)].

وحكي عن ابن عمر وسفيان الثوري وابن شبرمة وعطاء وعبدالله بن حي: أن الجهاد تطوع وليس فرضًا، وأن القائمين به من المسلمين أنصار الله. وقال سحنون -من علماء المالكية-: صار الجهاد تطوعًا بعد فتح مكة.

واستدل بعضهم على هذا بأن قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ إنما هو على الندب لا الوجوب، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

فهي للندب. وبأن الآيات التي تدل على الوجوب مخصوصة، حيث خص النبي صلى الله عليه وسلم فئات لايجوزقتلها كالنساء والصبيان، وعلى هذا فالآيات بعد التخصيص لا تدل على الفرضية.

٢. أن يكون النفير عامًا.

وفي هذه الحالة اتفق جمهور العلماء على أن القتال أو الجهاد فرض عين على كل قادر مستطيع من المكلفين بالجهاد، لأن المقصود من الجهاد -وهو دفع الكفار- لا يحصل إلا بهم جميعًا، فالقادر على

(١) الأم، الشافعي ٤/ ٩٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز، رقم ٥٠٤٠.
(٣) انظر: القوانين الفقهية، ابن جزي ص ١٥١، المبدع، ابن مفلح ٣/ ٣٠٧، نهاية المحتاج، الشربيني ٨/ ٤٥ - ٤٦.

الجهاد يباشر الجهاد بنفسه، وغير القادر من المكلفين يخرج مع المجاهدين لتكثير سوادهم وإرهاب العدو. وعندئذ يخرج الابن بغير إذن والديه، والمرأة بغير إذن زوجها، لأن الخروج في مثل هذه الحال فرض عين على كل أحد.

وما يفوته بترك هذه الفريضة لا يمكنه استدراكه، أما ما قد يفوته بالخروج لها بغير إذن الوالدين -مثلًا- فيمكن استدراكه بعد هذا، فيشتغل بما هو الأهم. ولأن الضرر في تركه الخروج للجهاد أعم، فإن ذلك يتعدى إليه وإلى والديه وإلى غيرهم من المسلمين. ولأنه لا يحل لوالديه أن ينهياه عن هذا الخروج، فيكون له أن يخرج ليسقط به الإثم عنه وعنهما، ولا طاعة لهما عليه فيما كانا عاصيين فيه.

ويدل على ذلك كثير من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٢. شروط القتال.

وأما شروط القتال التي يجب أن تتحقق حتى يكون واجبًا على المكلفين المخاطبين بهذه الأحكام فهي شروط التكليف بعامة، ويختص القتال ببعض الشروط. وهي بجملتها: الإسلام والبلوغ والحرية والذكورة والقدرة البدنية والمالية للنفقة أو انتفاء العذر. وفيما يأتي إيجاز سريع لها استنباطًا من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية وقواعد الأصول[1].

١. الإسلام.

فإن الخطاب القرآني الكريم توجه للنبي صلى الله عليه وسلم ولأتباعه من المؤمنين المسلمين. فقال الله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: من الآية٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

٢. البلوغ والعقل.

وهما من شروط التكليف والمخاطبة بالأحكام الشرعية، فإن الصغير الذي لم يبلغ مبلغ الرجال، و المجنون الذي اختل

(١) انظر: فتح القدير، ابن الهمام ٥/ ٤٤٢، الأم، الشافعي ٤/ ١٦٣، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٣٦٥.

عقله، كلاهما غير مخاطب لأنه فاقد الأهلية للخطاب، والمجنون كذلك لا يتأتى منه الجهاد. فقد قال عليه الصلاة والسلام: (رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم)[(١)].

٣. الحرية.

لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع الأحرار على الإسلام والجهاد، ويبايع العبيد على الإسلام دون الجهاد[(٢)].

والعبد لا يملك المال و النفقة للجهاد، وهو مشغول بأمر سيده المالك له، فلا يجب عليه القتال. ويلاحظ أن الرق في عصرنا هذا انتهى وجوده -بعامة- فالبحث في هذا بحث تاريخي فقط.

٤. الذكورة.

فلا يجب القتال إلا على الرجال، ولا يلزم النساء، إلا أن يتطوعن فيه للحاجة، أو عندما يكون فرض عين لا فرض كفاية. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: (استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد، فقال: (جهادكن الحج)[(٣)].

٥. القدرة وسلامة البدن.

فلا يجب القتال على من فقد القدرة بسبب المرض أو العمى أو غير ذلك مما يتعذر معه القتال، أو يعجز صاحبه عنه كالعاجز و الشيخ الكبير في السن، وضعيف البنية، والمقعد والأعرج.

والله تعالى يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

٦. وجود النفقة.

فلا يجب القتال على من تعوزه النفقة

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم ٩٤٠، وأبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب المجنون يسرق أو يصيب حدًا، رقم ٤٤٠٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٥٩، رقم ٣٥١٢.

(٢) قال ابن الملقن في البدر المنير ٩/ ٣٩: هذا الحديث صحيح لا يحضرني من خرجه من هذا الوجه، ويغني عنه في الدلالة ما في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله قال: جاء عبدٌ فبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة ولم يشعر أنه عبد، فجاء سيده يريده فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: بعنيه، فاشتراه بعبدين أسودين، ثم لم يبايع أحدًا بعد حتى يسأله أعبدٌ هو ؟.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب جهاد النساء، رقم ٢٨٧٥، ٢٨٧٦.
قال الحافظ ابن حجر تعليقًا عليه: لهن أن يتطوعن بالجهاد، ولم يكن واجبًا عليهن، لما فيه من مغايرة المطلوب منهن من الستر ومجانبة الرجال. فتح الباري ٦/ ٧٦.

للجهاد[1]، فلا يجدها ولا يقدر عليها، وقد كان المجاهدون يخرجون للجهاد وينفقون على انفسهم ويشترون أدوات القتال والسلاح. وأما عندما تتكفل الدولة بالنفقات والأدوات و الأسلحة فإن فقد هذا الشرط لا يؤثر في الحكم.

وإلى هذا الشرط الإشارة في الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة: ٩١-٩٣].

ثانيًا: حكم الاعتذار والتخلف عن القتال:

ألمحت فيما سبق إلى بعض الآيات الكريمة التي تعلي من مكانة الجهاد، فهو ذروة سنام الإسلام، وأحد مبانيه العظام، وهو طريق العزة و الكرامة. وفي هذا المطلب إشارات إلى ما يقابل ذلك، حيث تنزلت آيات كثيرة فيها تحذير من التخلف عن القتال أو الاعتذار عنه مالم يكن للمرء عذر، وتنوعت أساليب القرآن الكريم في ذلك. وفيما يأتي طائفة منها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ – ١٦٨].

فهؤلاء المتخلفون عن القتال والجهاد بالنفس لم يحملهم على التخلف والتقاعس إلا النفاق والكذب والمراوغة، فإذا دعاهم الرسول والمؤمنون للجهاد والقتال، وقيل لهم: تعالوا قاتلوا ودافعوا عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن قالوا: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا، فقد علموا وتيقنوا، وعلم كل أحدٍ أن هؤلاء المشركين، قد ملئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم، وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم

(١) أعوز الرجل إعوازًا: افتقر.وأعوزه الدهر: أفقره. انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٣٧.

قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصًا وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل.

ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر، يروج على المؤمنين، فقال تعالى عنهم: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم[1].

وهذه نماذج أخرى غنية عن التعليق في بيان حكم المتخلفين والمعتذرين والآثار المترتبة على ذلك من وعيد وتهديد وذلة في الدنيا مع ما ينتظرهم من عذاب في الآخرة[2].

قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨١-٨٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ٩-١٥].

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٦.
(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص٣٨-٥٠ و١١٤-١٢٧.

﴿قَلِيلٌ ۝٧٧﴾ [النساء: ٧٧].

ثالثًا: حكم الفيء والغنيمة والأسر والجزية:

إذا قام القتال ونشبت الحرب وظهر المسلمون على أعدائهم، فإن هذا يرتب آثارًا في أموال الحربيين وأشخاصهم، فيتملك المسلمون الأموال والبلاد المفتوحة، وهذه هي الغنائم، وقد يأخذون أموالًا منهم بالصلح كالجزية، أو بدون حرب وهو الفيء، ويكون الأشخاص أسرى وسبايا إذا وقعوا في يد المسلمين بالقتال[١].

وفي هذا يقول العلامة علاء الدين الكاساني: «إذا ظهر الإمام على بلاد أهل الحرب، فالمستولى عليه لا يخلو من أحد أنواع ثلاثة: المتاع، والأراضي، والرقاب»[٢].

ويقول ابن رشد الحفيد: «وأما ما يجوز من النكاية في العدو؛ فإن النكاية لا تخلو أن تكون في الأموال، أو في النفوس، أو في الرقاب، أعني: الاستعباد والتملك»[٣].

هذه كلها آثار تترتب على قيام الحرب، ولذلك نتناولها في الفقرات الآتية:

(١) انظر: أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني، عثمان ضميرية ٢/ ١١٨٥-١٣٠٤.
(٢) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٩/ ٤٣٤٧.
(٣) انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد: ٢/ ٣٨٢.

١. الفيء.

الفيء في اللغة هو الرجوع. وفي الاصطلاح الفقهي: هو ما أخذ من أموال أهل الحرب صلحًا من غير قتال، أو بعد أن تضع الحرب أوزارها، كالخراج والجزية ونحو ذلك. وقد سمي هذا المال فيئًا؛ لأن الله أفاء به على المسلمين، ففاء إليهم -أي رجع- بلا قتال[٤].

وقد تنزلت الآيات الكريمة في بيان أحكام الفيء، فقال الله تعالى في بيان مشروعيتها وحكمتها: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٦-٨].

قال المفسرون: طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخمس أموال بني النضير لما أجلوا، فنزلت هذه الآية

(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٤٥، ٥٨٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٥٦٨، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية، نزيه حماد، ص٣٥٦.

تبين أنها فيءٌ لم تحصل لهم بمحاربتهم، وإنما هو بتسليط رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو له خاصة، يفعل فيه ما يشاء. فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منه شيئًا، إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم: أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة[1].

وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسمها بينهم، كما فعل بغنائم خيبر، فبين الله تعالى في هذه الآية أنها فيءٌ لم يوجف المسلمون عليها خيلًا ولا ركابًا، ولم يقطعوا إليها شقة ولا نالوا مشقة، ولم يلقوا حربًا، فجعل أموال بني النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة.

وروى البخاري عن مالك بن أوس بن الحدثان النضري، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعاه إذ جاءه حاجبه يرفأ فقال: هل لك في عثمان وعبد الرحمن والزبير وسعد يستأذنون؟ قال: نعم، فأدخلهم، فلبث يرفأ قليلًا ثم جاء فقال: هل لك في عباس وعلي يستأذنان؟ قال: نعم، فلما دخلا قال عباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا -وهما يختصمان في الذي أفاء الله على رسوله من بني النضير- فقال الرهط: يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر، قال: اتئدوا أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا نورث ما تركنا صدقة) يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه؟

قالوا: قد قال ذلك، فأقبل عمر على علي وعباس، فقال: أنشدكما بالله هل تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك؟ قالا: نعم. قال: فإني أحدثكم عن هذا الأمر، إن الله كان خص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفيء بشيء لم يعطه أحدًا غيره، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾.

وكانت هذه خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما احتازها دونكم ولا استأثرها عليكم، لقد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله، فعمل بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته، ثم توفي النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: أنا ولي

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٥٧.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٧٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٨٦.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبضها أبو بكر رضي الله تعالى عنه فعمل بها بما عمل به فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنتم حينئذ جميع.

وأقبل على علي وعباس فقال: تذكران أن أبا بكر فعل فيه كما تقولان، والله يعلم إنه فيها صادق بار راشد تابع للحق، ثم توفى الله أبا بكر، فقلت: أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فقبضتها سنتين من إمارتي أعمل فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر والله يعلم إني فيه صادق بارٌ راشد تابع للحق، ثم جئتماني كلاكما وكلمتكما واحدة، وأمركما جميع فقلت لكما: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا نورث ما تركنا صدقة).

فلما بدا لي أن أدفعه إليكما قلت: إن شئتما دفعته إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وبما عملت به فيها منذ وليتها وإلا فلا تكلماني فيها، فقلتما: ادفعها إلينا بذلك فدفعتها إليكما؟ أفتلتمسان مني قضاء غير ذلك؟ فو الله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا أقضي فيها قضاءً غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فادفعاها إلي فإني أكفيكما[1].

وقوله عز وجل ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: من أموال كفار أهل القرى، قال ابن عباس: هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. ومال الفيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته يضعه حيث يشاء وكان ينفق منه على أهله نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله[2].

وأما مصرف الفيء الذي أشارت إليه الآيات الكريمة، فقد اختلف فيه العلماء.

قال محيي السنة البغوي رحمه الله: واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال: قوم هو للأئمة بعده. وللشافعي فيه قولان: أحدهما: هو للمقاتلة، والثاني: لمصالح المسلمين، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح[3].

وأما مقدار ما يعطى وهل يخمس أم لا؟ فيقول فيه البغوي أيضًا[4]: واختلفوا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا نورث ما تركناه صدقة)، ١٢/ ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب حكم الفيء، رقم ١٧٥٧، ٣/ ١٣٧٧ - ١٣٧٩.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشافي ص١٦٦: ذكره الثعلبي بغير سند.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٣.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٥، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣١٧، أحكام القرآ، ابن العربي ٤/ ٢١٣-٢١٥.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٣.

في تخميس مال الفيء؛ فذهب بعضهم إلى أنه يخمس، فخمسه لأهل الغنيمة، وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح، وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل مصرف جميعه واحد، ولجميع المسلمين فيه حق، قرأ عمر بن الخطاب: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: هذه استوعبت المسلمين عامة، وقال: ما على وجه الأرض مسلم إلا له في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيمانكم[1].

وقوله تعالى: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ قرأ العامة بالياء، «دولة» نصب أي: لكيلا يكون الفيء دولة، وقرأ أبو جعفر: «تكون» بالتاء «دولة» بالرفع على اسم كان، أي: كيلا يكون الأمر إلى دولة، وجعل الكينونة بمعنى الوقوع وحينئذ لا خبر له. «والدولة» اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ يعني: بين الرؤساء والأقوياء، فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا اغتنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع، ثم يصطفي منها بعد المرباع ما شاء، فجعله الله لرسوله صلى الله عليه وسلم يقسمه فيما أمر به، ثم قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ أعطاكم من الفيء والغنيمة ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ الغلول وغيره ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾. وهذا نازل في أموال الفيء، وهو عام في كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ونهى عنه[2].

٢. الغنيمة.

أصل الغنيمة في اللغة: الربح والفضل. وفي الاصطلاح الفقهي: هي ما أخذ من أموال أهل الحرب عنوة، والحرب قائمة. وتجمع على غنائم[3].

وقد تناولت الآيات الكريمة أحكام الغنائم وتوزيعها على الغانمين، وربطت ذلك بالإيمان بالله تعالى والخضوع لأحكامه، وأبانت أن الغنائم ليست هي الهدف أو الغاية الأصلية من القتال، ولكن الله تعالى أحلها لهم. فقال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

أي: ما أخذتم من مال الكفار قهرًا بحقٍ،

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإمارة، باب في تدوين العطاء، ٤/ ٢١٤.
قال المنذري: وهذا منقطع، الزهري لم يسمع من عمر.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٤.

(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٤٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٥٤٢، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية، نزيه حماد ص٣٤٨.

قليلًا كان أو كثيرًا ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها. فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم: للراجل سهم، وللفارس سهمان لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله. فإذا لم يعين الله له مصرفًا، دل على أن مصرفه للمصالح العامة. والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب. وأضافه الله إلى القرابة دليلًا على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم. والخمس الثالث لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم. والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث. والخمس الخامس لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده.

وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك تبع للمصلحة وهذا هو الأولى[1].

قال الفقهاء: إن أموال الحربيين الذين لم يسلموا، إذا ظهر المسلمون عليهم في الحرب فغنموا أموالهم، فيجب على إمام المسلمين أن يقسم الغنيمة ويخرج خمسها للأصناف الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

ويقسم الأربعة الأخماس على الغانمين ولا خيار للإمام فيه، للنصوص الواردة في ذلك، وعليه انعقد الإجماع[2].

ولذلك لا يجوز للإمام أن يمن على هؤلاء بأموالهم المنقولة المجردة فيردها عليهم، لأنه لم يرد به الشرع في هذا المال، ولأنه لا يدوم بل ينقطع، والجواز باعتبار الدوام نظرًا لهم ولمن يجيء بعدهم. ولهذا لا يجوز أيضًا المن بالرقاب وحدها بدون الأرض، لأنه ينقطع بالموت والإسلام، وإنما يجوز تبعًا للأراضي ـ كما سبق ـ كيلا يشتغلوا بالزراعة عن الجهاد، ثم إذا من عليهم بالأراضي والرقاب فإنه يدفع إليهم من المنقول قدر ما يتهيأ لهم به العمل، لأن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢١-٣٢٢.

(٢) انظر: السير الكبير، الشيباني ٣/ ١٠٠٤، فتح القدير، ابن الهمام ٤/ ٣٠٥.

عمر رضي الله عنه ترك لهم ذلك، وهو القدوة في هذا الباب، ولأن منفعة الأرض بالزراعة، وهم لا يقدرون على الزراعة إلا بآلتها، فيكره له أن يكلفهم بها بدون الآلة[1].

وهو ما ذهب إليه جماهير العلماء واتفقوا عليه، فقد قال الإمام أبو جعفر الطبري: «أجمع الكل من الحجة لا خلاف بينها أن أربعة أخماس الغنيمة للمقاتلة»[2].

وكذلك نقل ابن حزم وابن هبيرة الاتفاق على أن أموال أهل الحرب كلها -عدا الأرض- تخمس، وتدفع الأربعة الأخماس للغانمين، فقال ابن حزم: «اتفقوا أن الخمس يخرج مما غنم عسكر المسلمين، أو عشرة من المسلمين الأحرار البالغين العقلاء الرجال، من الحيوان -غير بني آدم- ومما غنم من الأثاث والسلاح والمتاع كله الذي ملكه أهل الحرب، بعد أن يخرج منه سلب المقتولين، وما أكل المسلمون من الطعام أو احتملوه»[3].

وبعد هذا الإيجاز لحكم المسألة وأقوال العلماء فيما تدل عليه الآيتان الكريمتان؛ فإن الموقف لا يسمح بتفسير كل الآيات المتعلقة بذلك، فحسبنا أن نعرض بعضها لما فيها من توجيهات، كقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩].

وهذه الآية الكريمة افتتحها الله تعالى بحرف الفاء وهي تؤذن بتفريع هذا الكلام على ما قبله. وفي هذا التفريع وجهان:

أحدهما: الذي جرى عليه كلام المفسرين أنه تفريع على قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٨].

أي: لولا ما سبق من حل الغنائم لكم لمسكم عذاب عظيم، وإذ قد سبق الحل فلا تبعة عليكم في الانتفاع بمال الفداء. وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ [الأنفال: ٦٧].

أمسكوا عن الانتفاع بمال الفداء، فنزل قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وعلى هذا الوجه قد سمي مال الفداء غنيمة، تسمية بالاسم اللغوي دون الاسم الشرعي؛ لأن الغنيمة في اصطلاح الشرع هي ما افتكه المسلمون من مال العدو بالإيجاف عليهم.

والوجه الثاني: يظهر أن التفريع ناشئ على التحذير من العود إلى مثل ذلك في المستقبل، وأن المعنى: فاكتفوا بما تغنمونه ولا تفادوا الأسرى إلى أن تثخنوا في الأرض. وهذا هو المناسب لإطلاق اسم الغنيمة هنا إذ لا ينبغي صرفه عن معناه الشرعي. ولما تضمن قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ

(١) انظر: المصادر السابقة.
(٢) اختلاف الفقهاء، الطبري، ص ٦٨.
(٣) انظر: مراتب الإجماع، ابن حزم، ص ١١٤، الإفصاح، ابن هبيرة ٢/ ٢٧٦.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨].

امتنانًا عليهم بأنه صرف عنهم بأس العدو، فرع على الامتنان الإذن لهم بأن ينتفعوا بمال الفداء في مصالحهم، ويتوسعوا به في نفقاتهم، دون نكد ولا غصة، فإنهم استغنوا به مع الأمن من ضر العدو بفضل الله. فتلك نعمة لم يشبها أذى. وعبر عن الانتفاع الهنيء بالأكل؛ لأن الأكل أقوى كيفيات الانتفاع بالشيء، فإن الآكل ينعم بلذاذة المأكول وبدفع ألم الجوع عن نفسه- ودفع الألم لذاذة- ويكسبه الأكل قوة وصحة- والصحة مع القوة لذاذة أيضًا[1].

وقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

أي: سيقول المخلفون، إذا انطلقت -أيها النبي- أنت وأصحابك إلى غنائم «خيبر» التي وعدكم الله بها: اتركونا نذهب معكم إلى «خيبر»، يريدون أن يغيروا بذلك وعد الله لكم. قل لهم: لن تخرجوا معنا إلى «خيبر»؛ لأن الله تعالى قال لنا من قبل رجوعنا إلى «المدينة»: إن غنائم «خيبر» هي لمن شهد «الحديبية» معنا، فسيقولون: ليس الأمر كما تقولون، إن الله لم يأمركم بهذا، إنكم تمنعوننا من الخروج معكم حسدًا منكم؛ لئلا نصيب معكم الغنيمة، وليس الأمر كما زعموا، بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وما عليهم من أمر الدين إلا يسيرًا[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح: ٢٠ - ٢١].

والمعنى الإجمالي للآيات: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها في أوقاتها التي قدرها الله لكم فعجل لكم غنائم «خيبر»، وكف أيدي الناس عنكم، فلم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، ومن أن ينالوا ممن تركتموهم وراءكم في «المدينة»، ولتكون هزيمتهم وسلامتكم وغنيمتكم علامة تعتبرون بها، وتستدلون على أن الله حافظكم وناصركم، ويرشدكم طريقا مستقيما لا اعوجاج فيه. وقد وعدكم الله غنيمة أخرى لم تقدروا عليها، الله سبحانه وتعالى قادر عليها، وهي تحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، ولا بد من وقوع ما وعد به. وكان الله على كل

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٧٨-٧٩.

(٢) التفسير الميسر ص٥١٢.

شيء قديرًا لا يعجزه شيء. ولو قاتلكم كفار قريش بـ «مكة» لانهزموا عنكم وولوكم ظهورهم، كما يفعل المنهزم في القتال، ثم لا يجدون لهم من دون الله وليًا يواليهم على حربكم، ولا نصيرًا يعينهم على قتالكم[1].

ويجدر أن أختم هذه الفقرة عن الغنائم في العصر الحاضر بالقول: إن بعض العلماء المعاصرين يرى أن القرآن الكريم لم ينص على وجوب توزيع الغنائم الحربية -حتى المنقولة منها- بين المجاهدين الفاتحين، وإنما نصت آية الأنفال على مصارف معينة لخمس الغنائم، وأن توزيع الأخماس الأربعة على الغانمين إنما جاءت به السنة، وهو من السياسة الشرعية والتدابير المصلحية التي يفعلها النبي عليه الصلاة والسلام بصفة ولايته العامة في الحكم والإدارة، فلا تفيد حقًا تشريعيًا ثابتًا لا يتبدل.

بل إن كل من يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الولاية العامة أن يلجأ إلى تدبير آخر عند الحاجة، كما كان ذلك ممكنًا للنبي نفسه صلى الله عليه وسلم. فإذا تبدلت الظروف واقتضت الحاجة نظامًا آخر للجندية تقوم فيه حقوق الجيش المجاهد لا على اقتسام الغنيمة، بل على أساس إعاشةٍ ووظائف ماليةٍ مرتبة للجند، وتكون الغنائم الحربية كلها للدولة ولا حق فيها للمقاتلين، كما في زماننا وأنظمتنا اليوم، فذلك سائغ شرعًا، وهو من قبيل الاستصلاح في شؤون الإدارة العامة.

غير أن نظام توزيع الغنائم كان في صدر الإسلام هو التدبير الممكن من الوجهة المالية، وهو الأصلح أيضًا لسياسة الجهاد بالنسبة إلى العرب في ذلك الزمن من الوجهة العرفية[2].

٣. الجزية.

الجزية في اللغة: مشتقة من الجزاء -وهو المكافأة على الشيء- يقال: جزاه به وعليه جزاءً، وجازاه مجازاةً وجزاء. وهي على وزن فعلة لأنها تدل على الهيئة - أي هيئة أخذ المال- والجمع جزىً وجزيٌ وجزىً وجزاءٌ[3].

وفي الاصطلاح الفقهي: هي المال الذي يؤخذ من الكفار بعقد الذمة مقابل حمايتهم وعصمة دمائهم بخضوعهم لنظام الإسلام، وإقامتهم في دار الإسلام. سميت بذلك؛ لأنها تجزئ الذمي عن القتل، فإنه إذا قبلها سقط عنه القتل؛ لأن الله تعالى جعل إعطاءها -عند عدم الإسلام- سببًا لمنع

(١) المصدر السابق، ص ٥١٣.

(٢) المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا ١/ ١٨٢-١٨٣.
وانظر: آثار الحرب في الفقه الإسلامي د.وهبة الزحيلي، ص٦٣٥.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٠٢-٢٣٠٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٠٠.

القتل[1].

وكان وضع الجزية على الشعوب المغلوبة عادة مألوفة منذ عهد طويل قبل الإسلام، وقد سلك المسلمون سبيل من سبقهم في هذه الوسائل المالية بعد أن صبغها الإسلام بصبغة خاصة، وجعلها عنوانًا على الخضوع العام للنظام الإسلامي، وكان هذا يغلب على الجانب المالي، فكان المسلمون يصالحون الذميين على الجزية، ويعفون فريقًا منهم منها فيأخذونها باسم الصدقة -كبني تغلب- وقد يسقطونها عنهم لأسباب ومسوغات.

وفي مشروعية الجزية التي تترتب على عقد الذمة للكفار الذين يرتضون بها، يقول الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وأجمع العلماء على أن الجزية تؤخذ من الرجل البالغ العاقل الصحيح البدن الموسر إذا كان حرًّا. واختلفوا بعد ذلك في بعض الجزئيات والصور. وتسقط الجزية بعد وجوبها بأسباب أربعة: الإسلام و الموت؛ وحدوث آفة على الذمي تمنع وجوب الجزية، كأن صار أعمى أو فقيرًا لا يقدر على شيء، و إذا اجتمعت جزية سنين، فتسقط عنه[2].

والذي يذكر هنا أن الجزية على الذميين، ونظام الذمة الذي بحثه الفقهاء، انتهى العمل به في الواقع منذ نشأة الدولة القومية المعاصرة، وعدم قيامها على أساس الدين والعقيدة الدينية، وظهور الدولة المدنية ونظام المواطنة والجنسية المعاصرة، منذ أواخر عهد الدولة العثمانية.

٤. الأسرى.

الأسر في اللغة العربية هو الحبس والإمساك. أو هو الشد بالقيد، مأخوذ من قولهم: أسرت القتب، بمعنى شددته. ومنه سمي الأسير؛ لأنهم كانوا يشدونه بالقد وهو الإسار. ثم كثر استعماله حتى سمي كل من يؤخذ قهرًا: أسيرًا، وإن لم يشد أو يقيد[3].

ويعرف الفقهاء الأسرى بأنهم الرجال المقاتلون من الكفار الذين ظفر بهم المسلمون في الحرب. كما يطلق الأسير على الحربي الذي دخل دار الإسلام دون عهد أو أمان فوقع في يد المسلمين قبل أن

(١) انظر: فتح القدير، ابن الهمام ٤/ ٣٦٧، الشرح الكبير، الدردير ٢/ ٢٠١، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٤٢، كشاف القناع، البهوتي ٣/ ١٠٨.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢١، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٢٩-٢٣٠.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٢/ ٥٧٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٠٧، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٩ - ٢٠.

يسلم. ويقسم الفقهاء الأسرى إلى أقسام، ولكل منهم أحكام تخصه[1].

وحسبنا هنا الإشارة إلى الآيات الكريمة في الأسر وأحكام الأسرى ومعاملتهم، مع إضاءات سريعة حول ذلك من أقوال المفسرين وأهل العلم.

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ – ٦٩].

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، فكانت بيانًا لما هو الأجدر والأولى فيما ينبغي في شأن الأسرى وتقرير مصيرهم.

قال الإمام محيي السنة البغوي رحمه الله[2]: روى الأعمش عن عمر بن مرة، عن أبي عبيد، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تقولون في هؤلاء؟) فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم، واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية، تكون لنا قوة على الكفار.

وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك، قدمهم نضرب أعناقهم، مكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، ومكني من فلان -نسيب لعمر- فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارًا. فقال له العباس: قطعت رحمك. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم، ثم دخل.

فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (إن الله تعالى ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى حيث قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٨].

(١) انظر: شرح السير الكبير ٥/ ٢١٩٥ – ٢١٩٦، المبسوط، السرخسي ١٠/ ٦٤، الأحكام السلطانية، الماوردي، ص ١٣١، روضة الطالبين، النووي ١٠/ ٢٥٠.

(٢) معالم التنزيل ٣/ ٣٧٥-٣٧٦.

وإن مثلك يا عمر مثل نوح حيث قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦].

ومثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨].

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنتم اليوم عالة، فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق).

قال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي الحجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إلا سهيل بن بيضاء)[1].

قال ابن عباس: قال عمر بن الخطاب فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله تعالى هذه الآيات[2].

وأخبرهم أنه لأجل ما علم في قلوبهم من الخير غفر لهم فلم يعذبهم بتسرعهم إلى إسار من لم يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم للمفاداة دون توقف على إذنه، ورحمهم فأحسن إليهم فأحل لكم الغنائم ولما ساق سبحانه وتعالى هذه البشارة في النذارة، سبب عنها قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ أي: من الفدية وغيرها حال كونه ﴿حَلَالًا﴾ أي: لا درك ولا تبعة فيه من جهتي ﴿طَيِّبًا﴾ أي: شهيًّا لكم ملائمًا لطباعكم.

وهذا إذا كان مع الشروط التي أقمتها لكم من عدم الغلول والخيانة بوجه من الوجوه والاستئثار وشدة الرغبة السائقة إلى ما لا يليق من التنازع وغيره، ذلك فيما تقدمت فيه إليكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: الذي له جميع صفات الكمال في جميع ذلك، فلا تغلوا ولا تنازعوا ولا تقدموا إلا على ما يبيحه لكم الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي: المتصف بالجلال والإكرام ﴿غَفُورٌ﴾ أي: لمن يعلم من قبله أنه من أهل التقوى ﴿رَحِيمٌ﴾ له؛ لأنه أهل للرحمة، فلأجل

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، تفسير سورة الأنفال، ٨/ ٤٧٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٧٦.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٤٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٢٤.

ما علم في قلوبكم من الخير غفر لكم فلم يعذبكم بتسرعكم إلى إسار من لم يأمركم به الرسول صلى الله عليه وسلم للمفاداة دون توقف على إذنه، ورحمكم فأحسن إليكم فأحل لكم الغنائم[1].

وبعد هذا البيان والعتاب ثم الإقرار للتصرف و العفو عنهم فيما كان منهم خلاف الأولى و الأجدر، بعد هذا كله يلمس القرآن الكريم قلوب الأسرى لمسة تحيي فيها الرجاء، وتطلق فيها الأمل، وتشيع فيها النور، وتعلقها بمستقبل خير من الماضي، وبحياة أكرم مما كانوا فيه، وبكسب أرجح مما فقدوا من مال وديار. وبعد ذلك كله بالمغفرة والرحمة من الله.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وهذه الآية نزلت أيضًا في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى هذه الآية جبرًا لخاطره، ومن كان على مثل حاله، وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له -بعد ذلك- من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله[2].

وهذا الخير كله -وقد وعدهم الله به- معلق بأن تصلح قلوبهم، فتتفتح لنور الإيمان، فيعلم الله أن فيها خيرًا، والخير هو الإيمان حتى ما يحتاج إلى ذكر وتنصيص، الخير محض الخير، ولا يسمى الشيء ما خيرًا إلا أن يستمد منه وينبثق منه ويقوم عليه.

إن الإسلام إنما يستبقي الأسرى لديه، ليلمس في قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح، وليوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقي والتأثر والاستجابة للهدى. لا ليستذلهم انتقامًا، ولا ليسخرهم استغلالًا كما كانت تتجه فتوحات الرومان، وكما تتجه فتوحات الأجناس والأقوام! عن الزهري عن جماعة سماهم قال: بعثت قريش في فداء أسراهم، ففدى كل قوم

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٣٣١-٣٣٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٢٧.
قال أبو حيان في البحر المحيط: ٥/ ٣٥٥: نزلت هذه الآية عقيب بدر في أسرى بدر أعلموا أن لهم ميلا إلى الإسلام وأنهم يؤملونه إن فدوا ورجعوا إلى قومهم، وقيل: في عباس وأصحابه قالوا للرسول: آمنا بما جئت ونشهد أنك رسول الله لننصحن لك على قومنا.

أسيرهم بما رضوا[1].

وقال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: (يا رسول الله قد كنت مسلمًا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر): قال: ما ذاك عندي يا رسول الله!

قال: (فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، قلت لها: إن أصبت في سفري هذا فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم؟). قال: (والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله. إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك). ففدى نفسه وبني أخويه وحليفه، فأنزل الله عز وجل الآية. قال العباس رضي الله عنه: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبدًا كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل)[2].

وبعد نزول هذه الآيات الكريمة، نزلت في سورة محمد (وهي أيضًا سورة القتال) في إجراءات القتال وتحديد مصير الأسرى بعد انتهاء القتال.

فقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

والخطاب في هذه الآية الكريمة موجه إلى المسلمين كما هو المتبادر. وقد تضمنت أمرًا لهم بأن عليهم إذا لقوا الكافرين في الحرب أن يصدقوا في قتالهم، حتى إذا أكثروا فيهم القتل وقهروهم وضمنوا لأنفسهم الغلبة عليهم جنحوا إلى أسر ما بقي منهم، ويظل أمرهم معهم على هذا المنوال حتى تنتهي حالة الحرب، ويتخلص الناس من أعبائها. كما تضمنت تشريعا في حق الأسرى، فالمسلمون مخيرون فيهم بعد ذلك: فإما أن يمنوا ويتفضلوا عليهم فيطلقوهم بدون فداء وإما أن يطلقوهم بفداء[3].

قال البغوي رحمه الله: واختلف العلماء

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٣.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٧٨.

(٣) انظر: الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص١٣٨-١٣٩.

في حكم هذه الآية:

فقال قوم: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٧]. وبقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥].

وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسدي وابن جريج، وهو قول الأوزاعي وأصحاب الرأي، قالوا: لا يجوز المن على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء.

وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة، والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم، أو يسترقهم، أو يمن عليهم فيطلقهم بلا عوض، أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين، وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسن، وعطاء، وأكثر الصحابة والعلماء، وهو قول الثوري، والشافعي، وأحمد وإسحاق.

قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[1].

وهذا الذي قاله ابن عباس وأكثر الصحابة والعلماء هو الأصح والاختيار؛ لأنه عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده[2].

وبعد هذه الإشارات إلى تقرير مصير الأسرى، تأتي آيات كريمة في الدعوة إلى معاملة الأسير معاملة تشي بالأخلاق الإسلامية العالية والعدالة التي تسع الجميع، وبالإحسان بكل مظاهره، وبخاصة في الأمور المادية والمعيشية، وقرن الله تعالى فيها الإحسان إلى الأسير -ولوكان غير مسلم- بالإحسان إلى المسكين واليتيم، وكلاهما يستحق الرعاية والإحسان بمقتضى العقيدة والإيمان بالله تعالى[3].

وهذا كله في سياق صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة، مع رحمة ندية بعباده الضعاف، وإيثار على النفس، وتحرج وخشية لله، ورغبة في رضاه، وإشفاق من عذابه، تبعثه التقوى والجد في تصور الواجب الثقيل.

يقول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ [الإنسان: ٨-١٠].

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٨ لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٧٨.

(٣) قال الرازي في تفسيره مفاتح الغيب ٣٠/ ٧٤٦: اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: (يوفون بالنذر)، والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: (ويطعمون الطعام).

وهي تصور شعور البر والعطف والخير ممثلًا في إطعام الطعام، مع حبه بسبب الحاجة إليه[1].

فمثل هذه القلوب لا يقال عنها: إنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف المحتاجين على اختلاف أنواعهم، إلا أن تكون في حاجة هي إلى هذا الطعام، ولكنها تؤثر به المحتاجين بأريحية نفس، ورحمة قلب، وخلوص نية، واتجاه إلى الله بالعمل، يحكيه السياق من حالهم، ومن منطوق قلوبهم فهي الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة، تتجه إلى الله تطلب رضاه، ولا تبتغي بها جزاء من الخلق ولا شكرًا، ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء، كما تتقي بها يومًا عبوسًا شديد العبوس، تتوقعه وتخشاه، وتتقيه بهذا الوقاء[2].

أما الأسير فقد اختلفوا فيه على أقوال[3]:

والذي يناسب السياق هو ما قاله ابن عباسٍ، والحسن، وقتادة: إنه الأسير من المشركين، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يبعث الأسارى من المشركين ليحفظوا وليقام بحقهم، وذلك لأنه يجب إطعامهم إلى أن يرى الإمام رأيه فيهم من قتل أو فداء أو استرقاق، القتل في حال لا يمنع من الإطعام في حال أخرى، ولا يجب إذا عوقب بوجه أن يعاقب بوجه آخر، ولذلك لا يحسن فيمن يلزمه القصاص أن يفعل به ما هو دون القتل.

ثم هذا الإطعام على من يجب؟ فنقول: الإمام يطعمه، فإن لم يفعله الإمام وجب على المسلمين[4].

قال البقاعي رحمه الله: وقد نقل في غزوة بدر أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كان يؤثر أسيره على نفسه بالخبز، وكان الخبز إذ ذاك عزيزًا، حتى كان ذلك الأسير يعجب من مكارمهم حتى كان ذلك مما دعاه إلى الإسلام، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما دفعهم إليهم قال: «استوصوا بهم خيرًا» ومن حكم الأسير الحقيقي كل مضرور، يفعلون ذلك

(١) أحدها: على حب الطعام وقلته وشهوتهم له وحاجتهم، والثاني: على حب الله عز وجل. والثالث: على قلته، قاله قطرب. والرابع: قال الفضيل بن عياض: على حب إطعام الطعام. انظر هذه الأقوال وأصحابها في: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٩٦-٩٧، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٨.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٨١-٣٧٨٢.

(٣) قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء: هو المسجون من أهل القبلة. وقال قتادة: أمر الله بالأسراء أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك. وقيل: الأسير المملوك. وقيل: المرأة، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان». انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٩٧-٩٨، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٧٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٧٤٧.

والحال أنهم يقولون بلسان الحال أو القال -إن احتيج إليه- إزاحة لتوهم المن أو توقع المكافأة، مؤكدين إشارة إلى أن الإخلاص أمر عزيز لا يكاد أحد يصدق أنه يتأتى لأحد: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ أيها المحتاجون ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: لذات الملك الذي استجمع الجلال والإكرام؛ لكونه أمرنا بذلك[1].

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ١٣٩.
وانظر: شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، أبو الأعلى المودودي، ص ١٩٣-١٩٥.

نتائج القتال وعواقبه

للقتال والجهاد نتائج، ويعقبهما ثمرات في الفرد نفسه وفي الأمة، فهو يربي النفس على البذل والتضحية، ويشعر المسلم بالعزة الحقيقية الكاملة، ويدفع خطر الأعداء ويكسر شوكتهم، كما يدفع الفتنة وينشر الأمن في المجتمع، وفيه شفاء لصدور المؤمنين وإغاظة للكافرين والظالمين المعتدين.

وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: تربية النفس على البذل والتضحية:

في الجهاد والقتال يبذل المسلم المجاهد غاية الجهد والوسع، فهو يبذل نفسه وماله ووقته في سبيل الله تعالى لا يبتغي مكافأة من الناس ولا شكرًا منهم وحمدًا، ولا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا، فيرتفع إلى آفاق عالية من البذل والعطاء لخير البشرية وهدايتها وصيانتها من العدوان والظلم، لتشعر بحريتها الحقيقية في عبوديتها لله واستسلامها لشرعه وخضوعها له. وبذلك تتحقق الخيرية التي وصف الله تعالى بها هذه الأمة في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال أبو هريرة رضي الله عنه في تفسيرها:

«كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة، يبذلون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس، فهم خير الأمم للخلق. والخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس، وأفلح بذلك المقاتلون. وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من معنى كون محمدٍ صلى الله عليه وسلم ما أرسل إلا رحمة للعالمين، فهو رحمة في حق كل أحدٍ بحسبه، حتى المكذبين له هو في حقهم رحمةٌ أعظم مما كان غيره رحمة للناس[1].

وهذه بعض الآيات الكريمة التي تربي نفس المؤمن على البذل والتضحية و العطاء، قد تذكر نتيجة واحدة أو نوعًا واحدًا من هذه التربية، وقد تجمعها كلها في سياق واحد.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

واختلف المفسرون في تأويل هذه الآية الكريمة:

فقال بعضهم: هذا في البخل وترك الإنفاق. أي: لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى الهلاك بترك الإنفاق في سبيل الله. وهو قول حذيفة والحسن وقتادة وعكرمة وعطاء. وقال ابن عباس في هذه الآية: أنفق في سبيل الله وإن لم يكن لك إلا سهم أو مشقص[2]، ولا يقولن أحدكم: إني لا أجد شيئًا. وقال: السدي: أنفق في سبيل الله ولو عقالًا، ولا تقل: ليس عندي شيء. وقال: سعيد بن المسيب ومقاتل بن حيان: لما أمر الله تعالى بالإنفاق قال رجل: أمرنا بالنفقة في سبيل الله، ولو أنفقنا أموالنا بقينا فقراء، فأنزل الله هذه الآية. وقال مجاهد: لا يمنعنكم من نفقة في حقٍّ خيفة العيلة. قال أبو عبيدة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فسبعمائة، ومن أنفق نفقة على أهله فالحسنة بعشر أمثالها)[3].

وقيل: أنزلت الآية في ترك الجهاد، قال أبو أيوب الأنصاري: نزلت فينا معشر الأنصار؛ وذلك أن الله تعالى لما أعز دينه ونصر رسوله قلنا فيما بيننا: إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر الله نبيه، فلو رجعنا إلى أهلينا وأموالنا فأقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى هذه

(١) انظر: فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٣٨، و١٠/ ٥٩.

(٢) المشقص: سهم عريض له نصلٌ.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله: ٥/ ٢٥٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٣/ ١٤٤.

الآية. فـ«التهلكة» الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. فما زال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية فتوفي هناك ودفن في أصل سور القسطنطينية، وهم يستسقون به[1].

وهذان القولان متلازمان وهما غير متناقضين، فإنَّ ترك الجهاد فيه إلقاء بالنفس إلى الهلاك، وترك النفقة هو ترك للجهاد بالمال، وانشغال بالزرع والمادة والمال عن الجهاد. وهذا من اختلاف التنوع في التفسير، وليس من اختلاف التضاد[2].

ثم تأتي آيات أخرى في سورة البقرة توجيهًا للمنفقين في سبيل الله، وهم الذين جادوا بالمال ابتغاء وجه الله، فكأن الجهاد في سبيل الله والقتال لإعلاء كلمة الله يعود المقاتل على البذل والإنفاق، فالنفس والمال شقيقان، ومن يجود بنفسه لن يبخل بماله.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٣].

وهاتان آيتان من سورة البقرة في سياق البناء الاقتصادي والتكافل الاجتماعي، وقد تكررت الدعوة إلى الإنفاق في هذه السورة، والآن يرسم السياق دستور الصدقة في تفصيل وإسهاب، مظللًا بظلال حبيبة أليفة، ويبين آدابها النفسية والاجتماعية؛ الآداب التي تحول الصدقة عملًا تهذيبيًّا لنفس معطيها وعملًا نافعًا مربحًا لآخذيها، وتحول المجتمع عن طريقها إلى أسرة يسودها التعاون والتكافل، والتواد والتراحم، وترفع البشرية إلى مستوى كريم: المعطي فيه والآخذ على السواء.

ومع أن التوجيهات التي وردت في هذا الدرس تعد دستورًا دائمًا غير مقيد بزمن ولا بملابسات معينة، إلا أنه لا يفوتنا أن نلمح من ورائه أنه جاء تلبية لحالات واقعة، كانت النصوص تواجهها في الجماعة المسلمة يومذاك- كما أنها يمكن أن تواجهها في أي مجتمع مسلم فيما بعد- وأنه كانت هناك نفوس شحيحة ضنينة بالمال تحتاج إلى

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢١٦.
(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وغالب ما يصح عن السلف في التفسير من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. وذلك صنفان: أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر. و الصنف الثاني: أن يذكر كلٌّ منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه. انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٣٣.

هذه الإيقاعات القوية، والإيحاءات المؤثرة كما تحتاج إلى ضرب الأمثال، وتصوير الحقائق في مشاهد ناطقة كيما تبلغ إلى الأعماق! كان هناك من يضن بالمال. فلا يعطيه إلا بالربا. وكان هناك من ينفقه كارهًا أو مرائيًا. وكان هناك من يتبع النفقة بالمن والأذى. وكان هناك من يقدم الرديء من ماله ويحتجز الجيد، وكل هؤلاء إلى جانب المنفقين في سبيل الله مخلصين له، الذين يجودون بخير أموالهم، وينفقون سرًّا في موضع السر، وعلانية في موضع العلانية في تجرد وإخلاص ونقاء[1].

ونقل الإمام البغوي عن الكلبي: أن هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنهما- جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم صدقةً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كانت عندي ثمانية آلاف، فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف درهم، وأربعة آلاف أقرضتها ربي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بارك الله فيما أمسكت لك وفيما أعطيت)، وأما عثمان فجهز جيش المسلمين في غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها[2]، فنزلت فيهما هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان رضي الله عنه بألف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدخل فيها يده ويقلبها ويقول: (ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم)[3] فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا﴾ وهو أن يمن عليه بعطائه فيقول: أعطيتك كذا، ويعد نعمه عليه فيكدرها ﴿وَلَآ أَذًى﴾ أن يعيره فيقول: إلى كم تسأل؟ وكم تؤذيني؟ وقيل: من الأذى أن يذكر إنفاقه عليه عند من لا يحب وقوفه عليه[4].

ولذلك جاء التحذير من البخل بالنفقة في سبيل الله، فإن المؤمن لا يكون بخيلًا بماله وهو يجود بنفسه.

قال الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٠٣.

(٢) الأقتاب: جمع قتب، وهو الإكاف على قدر سنام البعير ليركب أو يحمل عليه. والأحلاس: جمع حلس، وهو كساء يجعل على ظهر البعير تحت رحله. وهو أيضًا: بساط يبسط في البيت.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٤٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، ١٠/ ١٩٣.
قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٢٥-٣٢٦.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٠٦-٣٠٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٣/ ٤١-٤٢.

﴿يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

أي: ها أنتم -أيها المؤمنون- تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه، فمنكم من يبخل بالنفقة في سبيل الله، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله تعالى هو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه، وإن تتولوا عن الإيمان بالله وامتثال أمره يهلكم، ويأت بقوم آخرين، ثم لا يكونوا أمثالكم في التولي عن أمر الله، بل يطيعونه ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم[1].

ثم جاءت التوجيهات الربانية في ظل الوقائع والأحداث التاريخية في حياة الأنبياء السابقين-على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم- تتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم الله تعالى فيها على القتال، وعلى الإنفاق في سبيل الله، واهب الحياة وواهب المال، والقادر على قبض الحياة وقبض المال، فهي تضحية بالنفس وبالمال.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

فإن القوم لما سألوا الله تعالى الصبر، وأخذوا بأسباب النصر، ثم برزوا لجالوت وجنوده استجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم بإذن الله، وقتل داود عليه السلام جالوت، أي: باشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره، عندئذ من الله عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان مَنْ قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك[2].

وفي آيات أخرى، في سور متعددة، تأتي الإشارة إلى أثر القتال في البذل والتضحية معًا، فتجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال. وهذا أثر من آثار عقيدة الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى، كقوله سبحانه:

(١) التفسير الميسر ص ٥١٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٨.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢١].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

ثانيًا: العزة والتمكين للمجتمع الاسلامي:

من نتائج القتال وثمراته أن يحافظ المسلمون على عزتهم وكرامتهم التي يستمدونها من عزة الله تعالى القوي العزيز: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق آيات بين الله تعالى فيها برهان الإيمان ودلائله من مشاهد الحياة النابضة في الموات، ثم انتقلت إلى معنى نفسي ومطلب شعوري، إلى معنى العزة والرفعة والمنعة والاستعلاء. وربطت هذا المعنى بالقول الطيب الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح الذي يرفعه الله، إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه، وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد، ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم، فكانوا ينحتون الأصنام، وكانوا يقولون: إن هذه آلهتنا، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم، وأية عزة فوق المعية مع المعبود! فهم كانوا يطلبون العزة -وهي عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له- فقال تعالى: إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة، فهي كلها لله، ومن يتذلل له فهو العزيز، ومن يتعزز عليه فهو الذليل. إن العزة كلها لله، وليس شيء منها عند أحد سواه. فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره. ليطلبها عند الله، فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد، ولا في أي كنف، ولا بأي سبب ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

وهذه حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية، وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل النهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب! ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب؛ لتقف به أمام الدنيا

كلها عزيزًا كريمًا ثابتًا في وقفته غير مزعزع، عارفًا طريقه إلى العزة، طريقه الذي ليس هنالك سواه! إنه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر، ولا لعاصفة طاغية، ولا لحدث جلل، ولا لوضع ولا لحكم، ولا لدولة ولا لمصلحة، ولا لقوة من قوى الأرض جميعًا. وعلام؟ والعزة لله جميعًا، وليس لأحد منها شيء إلا برضاه[1].

وجاءت الآيات الكريمة في مواضع أخرى تؤكد هذا المعنى، وهو أن العزة الحقيقية هي لله تعالى حقيقة وبالذات، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩].

فلله العزة في الحقيقة وبالذات، وهي لرسوله بواسطة القرب من العزيز وهو الله، وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨].

وقد جعل الله تعالى القتال في سبيله والجهاد لإعلاء كلمته سبيلًا لهذه العزة، وطريقًا للتمكين لهذا الدين والاستعلاء به، ولهذه الأمة المستعلية بإيمانها وبربها فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

فالجهاد من الإسلام ذروة سنامه، وهو واحدٌ من طرق العزة والكرامة، كان ولا يزال السبيل الذي تسلكه الأمم للحفاظ على كيانها، ورد عادية من يعتدي عليها، ما تركه قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما تمسك به قوم إلا أعزهم الله ونصرهم.

ولنا من تاريخ أمتنا أصدق شاهد وأقوى دليل على ذلك. فهي لما كانت متمسكة بالجهاد، تقاتل في سبيل الله من كفر بالله، يحج الفرد فيها عامًا ويغزو عامًا -كما نجد في تراجم كثير من العلماء والقادة في تاريخ الإسلام- كانت أمة قوية عزيزة مرهوبة الجانب، تجبى إليها الثمرات من كل مكان، ويخاطب الخليفة فيها السحابة قائلًا: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك!!

ولما تقاعست عنه، وبدأت تتلمس المعاذير للتقاعس، وتدعو إلى السلم

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٥-٢٢٦، في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٢٩-٢٥٣٠.

الرخيصة الذليلة، عند ذلك بدأ خط سيرها في التاريخ يرجع القهقرى، وأصبحت الأمم تتناوشها من كل جانب، فتضعف مكانتها وتزول هيبتها، وتخور عزيمتها، وبدأت تنسى رسالتها، ويتحقق فيها قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيما رواه ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا، وكراهية الموت)[1].

وليس هذا فحسب، بل راح بعضهم يحرف الكلم عن مواضعه، فيفسر الآيات على غير وجهها ويبترها عن سياقها، وأسباب نزولها لمواجهة الواقع، ويحرف الوقائع التاريخية، ويحملها ما لا تحتمل، كل هذا تسويغًا للقعود، وإمعانًا في التضليل والتحريف، ثم يدعي الحكمة ويتبجح بالتعقل لمواجهة الواقع، بحجة أننا في مرحلة ضعف لا نستطيع الجهاد والقتال. وبدلًا من إزالة أسباب الضعف الذي يدعيه، وبدلًا من الدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة، بدلا من هذا كله يدعو إلى ترك الجهاد[2].

ثالثًا: كسر شوكة الأعداء وشفاء صدور المؤمنين:

بعث الله تعالى رسله، وأنزل كتبه وشرائعه، ليقوم الناس بالقسط والعدل، وختم هذه الشرائع برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي اختصها الله تعالى باسم «الإسلام»، فكانت هي الدين الكامل، والنعمة التامة، وجعلها مهيمنةً على سائر الأديان، موجهة للناس كافة. وقد وسعت البشرية كلها بدعوتها إلى التوحيد، وحملت مشعل النور إلى العالمين، وأعادت للإنسان حريته وكرامته، وأرست دعائم الحضارة الإنسانية التي تقوم على الإيمان والأخلاق، والعلم والعمل، والحق والعدل.

ولكن القوم الكافرين- من وثنيين وكتابيين وغيرهم - وقفوا من هذه الدعوة ومن نبيها وأتباعه موقف العداء والصدود والتآمر، منذ فجر هذه الدعوة. وقد حكى الله تعالى في كتابه الكريم موقف القوم وعداءهم للإسلام والمسلمين وتحالفهم جميعًا لتحقيق مآربهم ومخططاتهم، ثم

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٨٢، رقم ٢٢٣٩٧، وأبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم، ٤/ ١١١، رقم ٤٢٩٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٥٩، رقم ٨١٨٣.

(٢) منهج الإسلام في الحرب والسلام عثمان ضميرية، ص ١١٥-١١٦.

جاء الواقع التاريخي العملي - في القديم والحديث - يؤكد ذلك ويصدقه. وما خبر الحروب الصليبية عنا ببعيد! وفي العصر الحاضر: العدوان الهمجي على المسلمين في البوسنة والهرسك، وفي الشيشان، وفي الفلبين، وفي تايلند، وفي الهند، وفي كشمير، وفي الصومال، وفي أفغانستان، وفي العراق. وقبل ذلك: حرب الإبادة الجماعية في الاتحاد السوفيتي، وفي الهند، وفي كشمير أيضًا، وفي يوغوسلافيا، وفي الحبشة وغيرها من الأصقاع التي يسيطر فيها غير المسلمين، أو يتغلبون فيها عليهم، سواء أ كانوا أقلية أو أغلبية أو أكثرية. وفي العصور السالفة: محاكم التفتيش في إسبانيا بعد سقوط دولة المسلمين في الأندلس، وحرب التتار وهجومهم على دار الإسلام والخلافة الإسلامية، وتآمر النصارى الصليبيين والمغول[1].

وفي العصر الحديث: يتعاون أهل الكتاب مع الملحدين أيضًا في المعسكر الشيوعي، ليواجهوا الإسلام، وليضربوا كل حركة إسلامية صادقة؛ فهم يتناسون كل خلاف يمكن أن يقوم بينهم إذا ما واجهوا الإسلام والمسلمين، فهم دائمًا متعاونون ضدنا، ومع ذلك يحاولون الخداع بالشعارات الزائفة والدعاوى العريضة الكاذبة[2].

وهذا الصراع بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، سنة قديمة وواقع غير منكور، وعندما يكون الأعداء غالبين فإنهم يستعبدون الناس ويفسدون في الأرض، فكان من الخير للبشرية كسر شوكتهم وقوتهم، وما يكون ذلك إلا بقتالهم لخضد هذه الشوكة والقوة الغاشمة، وفيها شفاء صدور قوم مؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ

(١) يقول المستشرق الأمريكي جون.ل.لامونت: فرحت أوربا، وهللت لانتصارات المغول، ولما كان المغول - بصورة عامة - مسالمين للنصارى، ولما كان بينهم عدد كبير من النساطرة...فقد اعتبر البابا وحكام أوربا الغربية المغول حلفاء لهم في صراعهم المشترك ضد الإسلام، وكان البابا يحلم طوال سنوات عديدة بإنشاء حلف عظيم بين المغول و أوربا يسحق الدولة الإسلامية سحقًا.
انظر بحث الكاتب المذكور عن الحروب الصليبية والجهاد في: كتاب دراسات إسلامية بقلم مجموعة من المستشرقين، ترجمة د.أنيس فريحة وزملائه من أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت، ص ١٣٥.

(٢) قال الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون حين عاد من جولة قام بها في أفغانستان لدراسة الأحوال هناك، فسأله الصحفيون: ماذا وجدت هناك؟ فقال: وجدت أن الخطر هو الإسلام! ويجب أن نصفي خلافاتنا مع روسيا في أقرب وقت، فروسيا -على أي حال- بلد أوروبي، والخلاف بيننا وبينها قابل للتسوية، أما الخلاف الذي لا يقبل التسوية فهو الخلاف بيننا وبين الإسلام. انظر: رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ١٦١.

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٣-١٥].

وهذه الآيات الكريمة في سياق التحضيض على قتال الكفار وأئمة الكفر، وفيها بيان ثلاثة بواعث تبعث على قتالهم.

أولها: نكثهم لأيمان عهدهم الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان في صلح الحديبية، عندما عاونوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم.

وثانيها: تآمرهم وهمهم بإخراج النبي والمؤمنين من مكة؛ لئلا يبلغ دعوة ربه تبارك وتعالى.

وثالثها: بدؤهم بالفتنة، والفتنة أشد من القتل، وبدؤهم بالقتال، إذ هاجموكم في بدر من غير ضرورة تلجئهم، ولا حاجة تدفعهم إلا أن تكون كراهة لدينكم[(١)].

وفيها أمر قطعي بقتال الكفار مع وعد صادق بإظهار المؤمنين عليهم أكمل الظهور وأتمه، وهذا الوعد من أخبار الغيب التفصيلية في حال معينة، فهو ليس كالوعد العام المجمل في نصر الله لرسله وللمؤمنين الذي يراد به أن العاقبة تكون لهم، ولا يمنع أن تكون الحرب قبلها سجالًا لتربية المؤمنين، وقد صدق وعده تعالى مجملًا ومفصلًا. فقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ معناه: باشروا قتالهم كما أمرتم فإنكم إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم بتمكينها من رقابهم قتلًا، ومن صدورهم ونحورهم طعنًا، يعقبهم في قلوبهم يأسًا، لا يدع في أنفسهم قوة ولا بأسًا[(٢)].

قال البقاعي رحمه الله: قاتلوهم لله لا لغرض غيره، يعذبهم الله -الذي أنتم مؤمنون بأنه المتفرد- بأيديكم، بأن تقتلوهم وتأسروهم وتهزموهم، ويخزهم بالذل في الدنيا والفضيحة والعذاب في الأخرى. ولما كان ذلك قولًا لا يقتضي النصر الذي هو علو العاقبة، قال تعالى: ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فترضوا ربكم بذلك لإذلاله من يعاديه بكم[(٣)].

وبعد هذا تجدر الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى بين ثمرات القتال، وذكرت الآيات منها:

١. كسر شوكة الأعداء بما يحل فيهم من عذاب الدنيا بالقتل.

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٧٤-١٧٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٠، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٢٤٦.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٧٧.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٣٩٦-٣٩٧.

وفيه أيضًا رد عاديتهم عن المؤمنين.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ وذلك بالإثخان فيهم. وصرح بقوله ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾، أي: إنها عذاب لهم تتولونه أنتم، فقوله ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ يراد بأنفسكم، وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية، وعبر بالأيدي؛ لأنها هي التي بها البطش، وهي التي تحمل السيوف والرماح والنبال.

وكان العذاب في الدنيا بأيدي أهل الحق لردع أهل الباطل، وكسر شوكته، ولكيلا يستشري الشر، وتستعلي الرذائل وتنخفض الفضائل، ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾[الحج:٤٠].

لهذا كان لا بد من عذاب الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

٢. الخزيُ لهم والإذلال لكبريائهم.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ﴾ أي: يخزهم بالأسر والاسترقاق، والتتبع في الأرض، وذهاب سطوتهم وقوتهم، وانخلاع العرب من ربقتهم، وذهاب سلطانهم المادي والأدبي بالأسر، فيجتمع في حقهم العذاب الحسي والمعنوي.

وفيه أيضًا نصر للمؤمنين: ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، فإن النصر بيد الله، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[الحج:٤٠].

ونصرة العبد لله بإطاعة أوامره، ومنها الأمر بالقتال، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى، ولا يكون النصر من الله إلا إذا اتُّخِذَت أسبابه من العبد واحتسب النية.

٣. شفاء صدور قوم مؤمنين وإذهاب غيظ قلوبهم.

فترتاح النفوس وتسكن وتغمرها الثقة والطمأنينة: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾. ذلك أن قلوب المؤمنين إذا رأت الكفر ناتئ الرأس، ولم يكن من يقمعه، ويرد كيده في نحره عراها الشك أو التردد، أو محاولة تعرف الحكمة في إهمال الكفر، وتركه في عنفوانه وإيذائه، فإذا نصر الله المؤمنين شفيت صدور قوم مؤمنين، وخرج ذلك التردد، وذهبت عنها تلك الحيرة، فالله -بقتال المؤمنين لأهل الكفر- يشفي تلك الصدور المؤمنة من تلك الحيرة الممضة التي قد تثير الريب، ومن ذلك الحزن والموجدة، وفيه إشارة إلى الوعد بالفتح[1].

(١) والقوم المؤمنون هنا هم: خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن قريشًا نقضوا العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعونتهم بكرًا على خزاعة.قاله مجاهد، والسدي.وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قاضى المشركين يوم الحديبية، أدخل بني كعب بن خزاعة معه في القضية، وأدخل المشركون بني بكر

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ والضمير في قوله تعالى ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعود إلى الذين تحتاج صدورهم إلى شفاء بنصر مؤزر يدفع الباطل ويزهقه، ويرفع الحق ويعليه. والغيظ انفعال النفس بالألم من رؤية الباطل عاليًا والحق مستكينًا أو مستخذيًا، فإذا انتصر الحق وعلا، ذهب ذلك الغيظ، واستقامت النفس على سواء الصراط، وارتاحت الضمائر المؤمنة.

وعبر الله في الغيظ بقوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأن الغيظ ليس داءً، ولكنه حال عارضة من أمر قابل للزوال، والنصر يزيله. وفيه إشارة إلى حصول الوعد وتحققه. أما التردد والحيرة، وبوادر الشك، فأمراض تلازم النفوس المريضة، فعبر عن زوالها بالشفاء؛ لأنها أمراض الإيمان، والله هو الذي يشفيها، ويودعها الاطمئنان.

وإن الحرب التي تختبر فيها النفوس، ويذهب فيها غرور الذين يغترون بأصنامهم، ويحسبون أنها تنصرهم في الشدة وتغيثهم في الكريهة، من شأنها أن تجعل النفوس تفكر فيما هي عليه، وفيما عليه الذين يحاربونها، فيعرفون الغث من السمين، والحق من الباطل، ويتعرفون ما عليه آلهتهم التي يزعمونها، وما نصر به الإله الحق أولياءه المؤمنين، فيهتدون بعد ضلالة، ولذا قال الله إن من آثار الحرب التي يدك فيها الشر أن يتوب الله على من يشاء من عباده، فقال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ فيهديه إلى الإسلام، كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو. أي: أنهم يحسون بقوة الحق، وضعف ما هم عليه من كفر، وضلال في الأوثان فيتوبون أي يرجعون إلى الله بعد أن بعدوا عن الإيمان. والآية تشير إلى أن هذه التوبة فيضٌ من الله عليهم وصلوا إليها بعد أن ذهب غرورهم بما هم عليه من عبادة الأصنام.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعلم النفوس وما يهديها، وما يوجهها إلى الحق، حكيم يضع الأمور في مواضعها، ويدبرها بحكمته، وهو العزيز الحكيم[1].

بن كنانة معهم في القضية، ثم إن المشركين أغاروا مع بني بكر بن كنانة على بني كعب، قبل انقضاء مدة العهد، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فقال: والله لأنتصرن لهم، فنصره الله عليهم يوم الفتح، وشفى صدور بني كعب.
انظر: الهداية إلى بلوغ الغاية، مكي ابن أبي طالب ٤/ ٢٩٤٤.

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٤٤٧.

رابعًا: دفع الفتنة وانتشار الأمن في المجتمع:

ومن ثمرات القتال والجهاد دفع الفتنة ومنع الفساد في الأرض، وهذا يقتضي انتشار الأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي والمادي في المجتمع.

والفتنة في أصلها اللغوي تدل على ابتلاء واختبار. وأصل الفتن: إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: ١٣].

وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فيستعمل فيه، نحو قوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

وتارة في الاختبار نحو: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنىً وأكثر استعمالًا[1].

وما ورد في القرآن الكريم من تفصيل عن معنى الفتنة يمكن إجماله فيما يلي:

فقد جاءت الفتنة بمعنى ظلم الضعفاء وسلب حقوقهم المشروعة، وسلب بيوتهم، وإيذاؤهم. كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وجاءت أيضًا بمعنى الاستعلاء بالقهر والاستبداد، ومنع الناس من قبول الحق، والصد عن دين الله تعالى، كما في قوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ثم جاء البيان بعدها بأن هذا فتنة يجب منعها ومجاهدة الكفار الذين يفتنون المؤمنين: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

كما جاءت الفتنة بمعنى محاولة إضلال الناس، واستخدام الخداع والغش والطمع والإكراه ضد الحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا

(١) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص٦٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٧٢-٤٧٣، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٢٣.

﴿إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

وقوله: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وجاءت أيضًا بمعنى غلبة الباطل وأهله على أتباع الحق، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وتلك المعاني للفتنة يندرج فيها الفساد والإفساد في الأرض، والصد عن دين الله الذي أنزله؛ ليكون منهجًا لتحرير الإنسان من العبودية للإنسان والهوى والشيطان؛ ليكون عبدًا لله تعالى وحده. ولذلك أمر الله تعالى بالقتال والجهاد لإزالة هذه الفتن والفساد واستئصالهما بالقوة، لإقامة دين الله تعالى وشرعه في هذه الأرض، وعندئذ تنعم البشرية بالخير والسعادة والاطمئنان والاستقرار، وتصان الحقوق والحريات بأدق المعايير الربانية[(١)].

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

قال الإمام شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا تكون فتنة = يعني: حتى لا يكون شركٌ بالله، وحتى لا يعبد دونه أحدٌ، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان، كما قال قتادة ومجاهد والسدي وابن عباس والحسن وابن زيد وأما «الدين» الذي ذكره الله في هذا الموضع فهو العبادة والطاعة لله في أمره ونهيه[(٢)].

وهو الذي ذهب إليه الإمام البغوي، وزاده بيانًا فقال في تفسير هذه الآية: وقاتلوا المشركين حتى لا يكون شرك. يعني قاتلوهم حتى يسلموا، فلا يقبل من الوثني إلا الإسلام، فإن أبى قتل، ويكون الدين: أي: الطاعة والعبادة لله وحده فلا يعبد شيء دونه.

قال نافع: جاء رجل إلى ابن عمر -رضي الله عنهما- في فتنة ابن الزبير فقال: ما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله تعالى قد حرم دم أخي. قال: ألا تسمع ما ذكره الله عز وجل ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]؟ قال يا ابن أخي: لأن أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل فيها: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء:٩٣].

(١) انظر: شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، أبو الأعلى المودودي، ص٧٦-٨٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٧٠-٥٧١.

قال: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان الإسلام قليلًا، وكان الرجل يفتن في دينه؛ إما يقتلونه أو يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. وعن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عمر: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: هل تدري ما الفتنة؟ كان محمد صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة وليس بقتالكم على الملك.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ أي: فلا سبيل ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قاله ابن عباس. يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ [القصص: ٢٨].

وقال أهل المعاني: العدوان الظلم، أي: فإن أسلموا فلا نهب ولا أسر ولا قتل ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين بقوا على الشرك. وما يفعل بأهل الشرك من هذه الأشياء لا يكون ظلمًا، وسماه عدوانا على طريق المجازاة والمقابلة، كما قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وكقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وسمي الكافر ظالمًا؛ لأنه يضع العبادة في غير موضعها[1].

ثم جاء هذا المعنى نفسه في سورة الأنفال، فقال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وهذا أمرٌ من الله عز وجل فرض به على المؤمنين أن يقاتلوا الكفار لمنع الفتنة. قال ابن عباس وغيره: معناها الشرك -كما تقدم آنفًا-. وقال ابن إسحاق: معناها حتى لا يفتن أحد عن دينه كما كانت قريش تفعل بمكة بمن أسلم كبلال وغيره. وهو مقتضى قول عروة بن الزبير في جوابه لعبد الملك ابن مروان حين سأله عن خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرًا. وأما قوله ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: لا يشرك معه صنمٌ ولا وثن، ولا يعبد غيره. وقال قتادة: حتى تستوسق كلمة الإخلاص لا إله إلا الله.

قال القاضي أبو محمد بن عطية[2]: «وهذه المعاني تتلازم كلها».

وقال الحسن: حتى لا يكون بلاء، وهذا يلزم عليه القتال في فتن المسلمين الفئة الباغية، على سائر ما ذكرناه من الأقوال يكون المعتزل في فسحة، وعلى هذا جاء

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣١٤-٣١٥.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٢٨.

قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أما نحن فقد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وأما أنت وأصحابك فتريدون أن نقاتل حتى تكون فتنة!.

قال القاضي أبو محمد[1]: فمذهب ابن عمر أن «الفتنة» هي الشرك في هذه الآية. وهو الظاهر، وفسر هذه الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)[2].

[انظر: الجهاد: مقاصد الجهاد]

موضوعات ذات صلة:

الثبات، الجهاد، الحرب، الدفع، السلم، القتل

(١) المصدر السابق.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة: ١/ ٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ١/ ٥٣.

القتل

عناصر الموضوع

مفهوم القتل	١٥٦
القتل في الاستعمال القرآني	١٥٧
الألفاظ ذات الصلة	١٥٨
القتل والقضاء والقدر	١٦٠
أنواع القتل	١٦٢
دوافع القتل	١٦٨
آثار القتل	١٧٦
عقوبة القتل بين القرآن والقوانين	١٨١
الإعجاز التشريعي في القصاص	١٨٨

مفهوم القتل

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (قتل) تدل على إذلالٍ وإماتةٍ. وهما معنيان متقاربان[١].

وقال الراغب الأصفهاني: «أصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إن اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال: قتلٌ، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال: موتٌ» [٢].

يقال: قتله يقتله قتلًا وتقتالًا، ورجلٌ قتيل: مقتول، وامرأة قتيل: مقتولة، وقتل فلان فلانًا أي: أماته[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف القتل بتعريفات عدة منها ما ذكره السيوطي أنه «فعل في محل يتعقبه زهوق روح المقتول به»[٤].

وعرفه المناوي بقوله: «القتل: أصله إزالة الروح كالموت، لكن إذا اعتبر بفعل المتولي له، يقال قتل، وإذا اعتبر بفوات الحياة يقال موت» [٥].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٥٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٩٣.
(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٣٣٢، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٥٤٧.
(٤) مقاليد العلوم، السيوطي ص٨٥.
(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٦٨، الكليات، الكفوي ص٧٢٩.

القتل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قتل) في القرآن الكريم (١٧٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (٩٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٦	﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]
الفعل المضارع	٤١	﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢]
فعل الأمر	١٠	﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٩]
المصدر	١٠	﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء:٣٣]
مصدر(قتل)	١	﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب:٦١]
اسم المفعول	١	﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة:١٧٨]

وجاء القتل في القرآن الكريم على وجهين[٢]:

الأول: الفعل المميت للنفس: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾[النساء: ٩٣]. يعني: الفعل المؤدي إلى الموت.

الثاني: اللعن: ومنه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾[الذاريات: ١٠]. يعني: لعنوا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٣٣-٥٣٦.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٩٥-٤٩٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الموت:

الموت لغة:

الميم والواو والتاء أصل صحيح، يدل على ذهاب القوة من الشيء، منه الموت: خلاف الحياة[١].

الموت اصطلاحًا:

للموت تعريفات عدة تدور كلها حول معنى زوال الحياة، فهو صفة وجودية خلقت ضدًا للحياة.

وقيل الموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار[٢].

وقيل الموت: مفارقة الروح للجسد[٣].

الصلة بين القتل والموت:

الموت ينفي الحياة مع سلامة البنية، ولا بد في القتل من انتقاض البنية، ويقال لمن حبس الإنسان حتى يموت أنه قتله ولم يكن بقاتل في الحقيقة لأنه لم ينقض البنية[٤].

٢ الوفاة:

الوفاة لغة:

جاء في كتب اللغة أن التوفي: الوفاة والمنية والموت، وتوفي فلانًا، وتوفاه الله، إذا قبض نفسه، أو قبض روحه[٥].

الوفاة اصطلاحًا:

الوفاة معناها: الموت، وأن أصله من توفية الشيء إذا أخذه كله[٦]. فالتوفي: الإماتة

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٨٣.
(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ١/ ١١٢.
(٣) انظر: المجموع، النووي ٥/ ١٠٥.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٤.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٥٢٦، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٤٠٠، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٢٢٠.
(٦) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، ص٣٣٩.

وقبض الروح[1].

الصلة بين الوفاة والقتل:

الوفاة لا تستعمل إلا في الإنسان فقط،أما القتل فيستعمل في الإنسان وفي غيره من الكائنات الحية.

والقتل ينسب للقاتل، والوفاة لا تنسب إلا إلى الله تعالى، فيقال: «فلان قتل فلانًا»، ولا يقال: «فلان توفى فلانًا».

٣ الذبح:

الذبح لغة:

الذبح لغة قطع الحلقوم من باطنٍ عند النصيل وهو موضع الذبح من الحلق، والذبح مصدر ذبحت الشاة يقال: ذبحه يذبحه ذبحًا فهو مذبوح وذبيح،والذباح القتل أيًا كان[2].

الذبح اصطلاحًا:

هو أحد أنواع الذكاة، وعرف بأنه«قطع جميع الحلقوم والودجين بآلة» [3] والمراد بالودجين العرقين(الشريانيين) اللذين يوصلان الدم لمخ الحيوان.

الصلة بين الذبح والقتل:

أن الذبح عمل معلوم، والقتل ضروب مختلفة ولهذا منع الفقهاء عن الإجارة على قتل رجل قصاصًا ولم يمنعوا من الإجارة على ذبح شاة؛ لأن القتل منه لا يدري أيقتله بضربة أو بضربتين أو أكثر؛ وليس كذلك الذبح[4].

(١) الكليات، الكفوي ص٣١٣.
(٢) انظر: لسان العرب ٢/ ٤٣٦.
(٣) انظر: مواهب الجليل، الحطاب ٣/ ٢٠٧، المجموع، النووي ٩/ ٩٠، الفروع، المرداوي ١٠/ ٣٩٣.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٤، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص٤٠٢.

القتل والقضاء والقدر

الأصل في كل ما يصيب المرء أنه من قضاء الله تعالى وقدره، استنادًا إلى العديد من النصوص القرآنية، منها قول الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ونحوهما من الآيات التي تثبت أن كل ما يصيب المرء إنما هو بقدر الله تعالى.

وفي معرض القتل خاصة جاءت آية من كتاب الله تعالى لتفصل في قضية تخلف المتقاعسين عن الجهاد بحجة الخوف من القتل، وتبين خطأهم وفساد عقيدتهم في هذا الجانب.

قال الله تعالى ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال النيسابوري: «لما أخبر عن هذه الطائفة بأنهم يظنون ظن الجاهلية، فسر ذلك الظن بأنهم يقولون هل لنا من الأمر من شيء؛ لأن هذا القول لا يصدر إلا عمن كان ظانًا بل شاكا في حقية هذا الدين، وفي المبدأ والمعاد وفي القضاء والقدر، فأزال ذلك الظن بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ بيده الإماتة والإحياء والفقر والإغناء والسراء والضراء. ثم لما كان سؤالهم ذلك مظنة أن يكون سؤال المؤمنين المسترشدين لا المعاندين المنكرين، أراد أن يكشف عن حالهم ويبين مقالهم كيلا يغتر به المؤمنون فقال: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي: ذلك القول إنما صدر عنهم في هذه الحالة»[1].

وذكر بعض المفسرين المتأخرين أن ظن القائلين بذلك هو ظنٌ باطلٌ، ومن التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبعا لهم، ويسمعون منهم، لما أصابهم القتل، ويكون النصر والظفر لهم. فأكذبهم الله عز وجل في هذا الظن الباطل، الذي هو ظن أهل الجاهلية، الذين يزعمون، بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري ٢/ ٢٨٦-٢٨٧.

من نفاذه، أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ فلا يكون إلا ما سبق قضاؤه وقدره، وجرى به علمه وكتابه السابق، وأن ما جرى عليهم من الهزيمة والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلى دفعه، سواء كان لهم من الأمر شيء أو لم يكن، وأنهم لو كانوا في بيوتهم، وقد كتب القتل على بعضهم، لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بد[1].

ومسألة كون المقتول ميتًا بأجله أم أن القاتل قد قطع أجله من مسائل العقيدة التي تناولها المحققون من علماء الأمة وفصلوا القول فيها على نحو ما هو معروف في موضعه عند الكلام عن القضاء والقدر، وخلاصة ما عليه جمهور السلف أن المقتول ميت بأجله الذي قدره الله تعالى له، خلافًا للمعتزلة ومن وافقهم الذين يقولون إن القاتل قد استعجل أجل المقتول.

قال صاحب الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية:

ومن يمت بقتله من البشر
أو غيره فبالقضاء والقدر
ولم يفت من رزقه ولا الأجل
شيء فدع أهل الضلال والخطل

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤٣٩.

قال السفاريني شارحًا قوله: (ومن يمت بقتله): «إن المراد أن المقتول ميت بأجله، أي: الوقت المقدر لموته، لا كما يزعم بعض المعتزلة من أن الله تعالى قد قطع عليه الأجل، والحق عند أهل الحق أن المقتول ميت في الوقت الذي قدره الله تعالى له وعلم أنه يموت فيه، لا كما زعمت المعتزلة أنه قد قطع عليه الأجل، يعني لم يوصله إليه، وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أمد هو أجله الذي علم الله تعالى موته فيه لولا القتل، فهم يقطعون بامتداد العمر لولا القتل»[2].

واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٨] ففي الآية دليل على أن المقتول يموت بأجله خلافًا لمن يزعم أن القتل قطع على المقتول أجله[3].

والقتل ليس شرًا محضًا، وإن كان الظاهر في القتل أنه شر للمقتول، ولكنه باعتبار علم الله تعالى، وقضائه وقدره، قد يشتمل على خير، والقتل في ذلك داخل في عموم كل ما يحصل للمرء، وينطبق عليه قول الله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ

(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني ١/ ٣٤٨-٣٤٩.

(٣) تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد، العجيلي ١/ ١٣٦.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم: «القتل هو استعمال الآلة القطاعة في تفريق اتصال البدن؛ فقوة الإنسان على استعمال الآلة خير وكون الآلة قابلة للتأثير خير وكون المحل قابلا لذلك خير، وإنما الشر نسبي إضافي؛ وهو وضع هذا التأثير في غير موضعه والعدول به عن المحل المؤدي إلى غيره وهذا بالنسبة إلى الفاعل؛ وأما بالنسبة إلى المفعول فهو شر إضافي أيضا وهو ما حصل له من التألم وفاته من الحياة؛ وقد يكون ذلك خيرا له من جهة أخرى وخير لغيره»[1].

أنواع القتل

ينقسم القتل باعتبارين أولهما: باعتبار موجبه إلى قتل بحق وقتل بغير حق، وثانيهما: باعتبار صفته إلى قتل عمدٍ وقتل خطأ، وقتل شبه خطأ على نحو ما هو معروف لدى العلماء بغض النظر عما في النوع الثالث من خلاف بينهم في إثباته أو نفيه، والذي يعنينا هنا هو تقسيم القتل إلى قتل بحق وقتل بغير حق، على هذا النحو:

أولًا: القتل بحق:

القتل بحق هو القتل المشروع، الذي جاءت نصوص القرآن الكريم مبيحة له على سبيل الوجوب؛ ويشمل أنواعًا متعددة تندرج تحت ثلاث حالات:

الحالة الأولى: القتل قصاصًا:

والكلام فيه مبسوط في عقوبة القتل، وعمدته من كتاب الله تعالى قوله جل شأنه ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

قال ابن تيمية: «فبين سبحانه وتعالى أنه سوى بين نفوسهم، ولم يفضل منهم نفسًا

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم ص١٨٢.

على أخرى، كما كانوا يفعلونه»[1]، وقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [الإسراء: ٣٣].

ولا أتوسع في الكلام عن القصاص هنا حيث الكلام مستفاض عنه في عقوبة القتل، وفي حكمة تشريع القصاص في مبحثين آتيين.

الحالة الثانية: القتل حدًا:

شرع الإسلام القتل في أربعة جرائم من جرائم الحدود، وهي: الحرابة والردة وزنا المحصن، وفي جرائم أخرى كالسحر والزندقة، وذلك من أجل الحفاظ على بعض الكليات الشرعية كالدين والنفس والعرض والمال.

وبعض هذه المشروعية جاء في القرآن الكريم، وبعضها جاء في السنة النبوية، فمما جاء في القرآن الكريم حد الحرابة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قطاع الطريق: «إذا قتلوا وأخذوا المال؛ قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال؛ قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا؛ قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا هربوا؛ طلبوا حتى يوجدوا، فتقام عليهم الحدود، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالًا؛ نفوا من الأرض»[2].

قال الشافعي رحمه الله: «وبهذا نقول، وهو موافق معنى كتاب الله تبارك وتعالى، وذلك أن الحدود إنما نزلت فيمن أسلم، فأما أهل الشرك فلا حدود فيهم إلا القتل، أو السباء، أو الجزية، واختلاف حدودهم باختلاف أفعالهم، على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما»[3].

وروي عن قتادة أنه كان يقول في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ حدودٌ أربعة أنزلها الله؛ فأما من أصاب الدم والمال جميعًا، صلب، وأما من أصاب الدم وكف عن المال، قتل، ومن أصاب المال وكف عن الدم، قطع، ومن لم يصب شيئًا من هذا،

(١) السياسة الشرعية، ابن تيمية ص١١٧.

(٢) أخرجه الشافعي بسنده في تفسيره ٢/ ٧٣٣، عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس.
وروي نحوه عن الحسن وقتادة والسدي، كما في النكت والعيون ٢/ ٣٣.

(٣) انظر: تفسير الإمام الشافعي ٢/ ٧٣٣.

نفي»[1].

ومما ذكر في القرآن الكريم كذلك حد الرجم، حيث نسخت تلاوته وبقي حكمه، وهذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين[2].

ويؤيده ما أخرجه البخاري بسنده عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمانٌ، حتى يقول قائلٌ: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضةٍ أنزلها الله، ألا وإن الرجم حقٌّ على من زنى وقد أحصن، إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف - قال سفيان: كذا حفظت - ألا وقد (رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده)[3].

قال القرافي: «وهو قول منتشر في الصحابة من غير مخالف فكان إجماعًا، وفعله عمر بجارية»[4].

وقال ابن قدامة: «وجوب الرجم على الزاني المحصن، رجلا كان أو امرأة، وهذا قول عامة أهل العلم من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم من علماء الأمصار في جميع الأعصار، ولا نعلم فيه مخالفا إلا الخوارج ثم قال: «وقد ثبت الرجم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله، في أخبار تشبه المتواتر، وأجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أنزله الله تعالى في كتابه، وإنما نسخ رسمه دون حكمه»[5].

وأما ما ذكر في السنة كقتل الساحر والزنديق فلا يتسع المقام لذكره في هذا البحث التفسيري، ويمكن الإشارة إلى حديث جندبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حد الساحر ضربةٌ بالسيف)[6].

الحالة الثالثة: القتل جهادًا في سبيل الله:

شرع الله تعالى القتال جهادًا في سبيله وإعلاء لكلمته، ونشرًا لدينه،ودفاعًا عن كليات الشرع من الدين والنفس والمال والعرض والعقل، وتواترت نصوص القرآن الكريم الدالة على مشروعية ذلك.

مثل قول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

فهذه الآية دالة على فرضية الجهاد كما ذكره غير واحد من أهل التفسير والفقه على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٥٩.
(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٢٩٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٨٥، السراج المنير، الشربيني ١/ ٢٨٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنا، رقم ٦٨٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا، رقم ١٦٩١.
(٤) الذخيرة، القرافي ١٢/ ٦٠.
(٥) المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٥ بتصرف.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحدود، باب ما جاء في حد الساحر، رقم ١٤٦٠. وصحح وقفه على جندب.

خلاف بينهم في كونها منسوخة بسورة براءة أو غير منسوخة[1].

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

ثانيًا: القتل بغير حق:

القتل بغير حق هو القتل الذي نهت عنه نصوص القرآن الكريم، وكذا السنة المطهرة، وهو ما لا تبيحه شريعة من الشرائع، ويترتب على ارتكابه عقوبة دنيوية، أو عذابًا في الآخرة.

وقد تضافرت الملل السماوية على ضرورة حفظ النفس، لأنها إحدى الكليات الخمس التي جاءت الشرائع بحفظها،وعلى حرمة إقدام المرء على قتل نفسه بأية وسيلة من الوسائل.

قال أبو حيان: «وتضافرت على تحريم قتل النفس الملل»[2].

وقال الشيخ محمد عليش: «حفظ النفس مجمع عليه، بل هو من الخمس المجمع عليها في كل ملة، ثم حكى عن ابن عرفة نقل الأصوليين إجماع الملل على وجوب حفظ الأديان والنفوس والعقول والأعراض والأموال[3].

وقد ورد في الكتاب العزيز آيات صريحة تنهى عن القتل بغير حق، وتشير إلى صفات عباد الرحمن الذين لا يقتلون النفس بغير حق، وتحكي عما أخذ على بني إسرائيل من العهود بعدم قتلهم النفس بغير حق، ومن ذلك:

قول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام:١٥١].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يعني بالنفس التي حرم الله قتلها، نفس مؤمن أو معاهد وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يعني بما أباح قتلها به: من أن تقتل نفسًا فتقتل قودًا بها، أو تزني وهي محصنة فترجم، أو ترتد عن دينها الحق فتقتل. فذلك«الحق» الذي أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التي حرم على المؤمنين قتلها به ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يعني: هذه الأمور التي عهد إلينا فيها ربنا أن لا نأتيها وأن لا ندعها، هي الأمور التي وصانا والكافرين بها أن نعمل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٥١.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٤٥٧.
(٣) شرح منح الجليل، محمد عليش ٩/ ٣.

جميعًا بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يقول: وصاكم بذلك لتعقلوا ما وصاكم به ربكم»[1].

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾[الإسراء:٣٣].

وقال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[الفرقان:٦٨].

وأكثر المفسرين على أن المقصود بالآية حرمة قتل النفس على جهة العموم نفس المؤمن والمعاهد إلا بالحق، وأن الحق المستباح به قتلها نحو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك الجماعة)[2][3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[البقرة:٨٤].

وفي معناها يقول الطبري: «نهوا عن أن يقتل بعضهم بعضًا، فكان في قتل الرجل منهم الرجل قتل نفسه، إذ كانت ملتهما واحدة، فهما بمنزلة رجل واحد»، وذكر معنى آخر فقال: أي لا يقتل الرجل منكم الرجل منكم، فيقاد به قصاصًا، فيكون بذلك قاتلًا نفسه؛ لأنه كان الذي سبب لنفسه ما استحقت به القتل، فأضيف بذلك إليه، قتل ولي المقتول إياه قصاصًا بوليه، كما يقال للرجل يركب فعلا من الأفعال يستحق به العقوبة، فيعاقب العقوبة: «أنت جنيت هذا على نفسك»[4].

وصور القتل بغير حق التي نهت عنها آيات القرآن كثيرة، أبرزها حرمة قتل أي نفس على جهة العموم على سبيل الاعتداء، كما هو مستفاد من الآيات السابق ذكرها، وهناك حالات أخرى منصوص عليها بعينها منها:

١. قتل الأنبياء والرسل.

ذم الله تعالى اليهود بسبب ارتكابهم جرائم عدة منها قتل الأنبياء والرسل، وألبسهم سبحانه وتعالى ثوب الذلة والصغار لهذه الأفعال، وقد جاء هذا الذم في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٢١-٢٢٢ بتصرف.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) انظر:جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٢٠، معاني القرآن، النحاس ٤/ ١٤٨، تفسير السمرقندي ١/ ٥١١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٥٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٨٦.
(٤) انظر:جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٠٠.

مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[آل عمران:١١٢].

قال الرازي: «الله تعالى ألصق باليهود ثلاثة أنواع من المكروهات أولها: جعل الذلة لازمة لهم، وثانيًا: جعل غضب الله لازمًا لهم، وثالثها: جعل المسكنة لازمة لهم، ثم بين في هذه الآية أن العلة لإلصاق هذه الأشياء المكروهة بهم هي: أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق»[(١)].

وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:١٥٥].

وقوله جل شأنه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[آل عمران:١٨١].

ومن اللطائف التي يشير إليها البيضاوي في تقييد القتل بغير حق قوله: «والتقييد بغير حق مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقا بحسب اعتقادهم أيضا»[(٢)].

وقال الألوسي: «قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إيذانًا بأنهما في العظم إخوان؛ وتنبيها على أنه ليس بأول جريمة ارتكبوها ومعصية استباحوها، وأن من أجترأ على قتل الأنبياء بغير حق في اعتقاده أيضا كما هو في نفس الأمر لم يستبعد منه أمثال هذا القول، ونسبة القتل إلى هؤلاء القائلين باعتبار الرضا بفعل القاتلين من أسلافهم»[(٣)].

٢. الانتحار.

والانتحار: «قيام الإنسان بقتل نفسه بوعيه أو بدون وعي، أو هو الفعل المقصود لقتل النفس أو زهق الروح عن سابق تصميم»[(٤)].

والانتحار محرم في الشريعة الإسلامية على جهة العموم، حيث لا يحل للمرء أن يقتل نفسه بأي حال من الأحوال، إذ هو قتل للنفس بغير حق، والدليل على ذلك ما يلي:

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الإسراء:٣٣].

حيث دلت الآية على حرمة قتل النفس على جهة العموم إلا بالحق، فيشمل ذلك قتل المرء نفسه وقتله غيره.

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[النساء:٢٩].

فهذه نصوص صريحة تحرم قتل النفس

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٠٨.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٧٩.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٤١.
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد ٣/ ٢١٧٦.

أو التسبب في إهلاكها، على تفصيل معروف لدى المفسرين.

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من تردى من جبلٍ فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسى سمًا فقتل نفسه، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدةٍ، فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا)[1].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه (الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به، رقم ٥٧٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم ١٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قاتل النفس، رقم ١٣٦٥.

دوافع القتل

أولًا: اختلاف الدين:

من دوافع القتل اختلاف الدين، فالمسلم شرع له قتل غير المسلم دفاعا عن دين الله عز وجل بعد أن يقيم عليه الحجة بالدعوة إلى الإسلام ثم الجزية، وقد نصت آيات القرآن الكريم على ذلك، على هذا النحو:

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩].

وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وللمفسرين في معنى ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ أقوال: أحدها: أنهم الروم قاله ابن عمر، الثاني: أنهم الديلم، قاله الحسن. الثالث: أنهم العرب، قاله ابن زيد. الرابع: أنه على العموم في قتال الأقرب فالأقرب والأدنى فالأدنى، قاله قتادة، الخامس: أن المقصود قتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها[3].

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤١٥-

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۚ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩١].

وقد ذكر الطبري اختلاف المفسرين فيها على قولين:

القول الأول: أن هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك. وقالوا: أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمن كف عنهم، ثم نسخت بـ«براءة»، وهذا قول الربيع، وابن زيد.

القول الثاني: أن ذلك أمر من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار، لم ينسخ. وإنما الاعتداء الذي نهاهم الله عنه، هو نهيه عن قتل النساء والذراري. قالوا: والنهي عن قتلهم ثابتٌ حكمه اليوم. قالوا: فلا شيء نسخ من حكم هذه الآية، وهذا قول ابن عباس وعمر بن عبد العزيز، ورجح الطبري أنها ليست منسوخة[1].

ولا ينبغي أن يفهم من هذه الآية أن اختلاف الدين يبيح للمسلم قتل غير المسلم هكذا بإطلاق بل الأمر له أحكامه وضوابطه المعروفة في بابها من كتاب الجنايات والجهاد.

ثانيًا: خوف الفقر:

اعتادت بعض قبائل العرب قتل أولادهم خشية الإملاق أي: الفقر، وجاءت آيات القرآن الكريم تنهى عن قتل الأولاد خشية الفقر، أو قتلهم بسبب الفقر، ومن ذلك ما يلي:

قال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قال ابن كثير: «والمراد النهي عن قتلهم بسبب حصول الفقر، قال ابن عباس، وقتادة، والسدي: هو الفقر، أي: ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة «سبحان» -أي الإسراء-: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ [الإسراء: ٣١].

أي: خشية حصول فقر، في الآجل؛ ولهذا قال هناك: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلا قال: ﴿نَّحۡنُ

٤١٦، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١١٣.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٢-٥٦٣.

﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه الأهم هاهنا»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٣١].

قال الجصاص: «هو كلام يتضمن ذكر السبب الخارج عليه، وذلك لأن من العرب من كان يقتل بناته خشية الفقر؛ لئلا يحتاج إلى النفقة عليهن وليوفر ما يريد إنفاقه عليهن على نفسه وعلى بيته، وكان ذلك مستفيضا شائعا فيهم»[2].

ثالثًا: خوف العار:

انتشر في العرب قبل الإسلام قتل البنات، أو وأدهن أحياء خشية الوقوع في السبي، مما يلحق العار بالآباء، ولما كان ذلك مرضًا عضالًا منتشرًا لديهم فقد جاء القرآن الكريم بتحريمه في آيات عدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[النحل:٥٨-٥٩].

فقد ورد في تفسيرها: «إن مضر وخزاعة وتميمًا كانوا يدفنون البنات أحياء، والسبب في ذلك إما خوف الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة أو الحمية فيخافون عليهن من الأسر ونحوه، أو طمع غير الأكفاء فيهن فكان الرجل من العرب في الجاهلية، إذا ولدت له بنت أراد أن يستحييها تركها حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر، وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية، قال لأمها: زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ويكون قد حفر لها حفرة في الصحراء، فإذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها: انظري إلى هذه البئر فإذا نظرت إليها دفعها من خلفها في تلك البئر، ثم يهيل التراب على رأسها وكان صعصعة عم الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه بإبل إلى والد البنت حتى يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر بذلك:

وعمي الذي منع الوائدات
فأحيا الوئيد فلم يوأد[3].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير:٨-٩].

قال الماوردي: «قال عز وجل توبيخًا لقاتلها وزجرًا لمن قتل مثلها ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ واختلف هل هي السائلة أو المسئولة، على قولين: أحدهما:وهو قول الأكثرين أنها هي المسئولة: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ فتقول: لا ذنب لي، فيكون ذلك أبلغ في توبيخ قاتلها وزجره، الثاني: أنها هي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٦٢.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢٣٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٨٣، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٩٧.

السائلة لقاتلها لم قتلت»[1].

والمعنى على الثاني: سألت الموؤودة الوائدين: بأي ذنب قتلوها. وهو مروي عن ابن عباس ومسلم بن صبيح[2].

رابعًا: الطغيان والفساد:

الطغيان والفساد دافعان من دوافع القتل على مر العصور، فالذي يقتل امرأ بدون وجه حق، يعتبر متعديًا عليه، ومفسدًا في الأرض، وبالتالي يستحق العقوبة الرادعة وهي القصاص، وهذا الذي ورد في كتاب الله تعالى عقيب قصة قابيل وهابيل في قوله جل شأنه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

فأبانت الآية أن الفساد في الأرض وقتل النفس البريئة سببان موجبان للقتل، وما سوى ذلك لا يجيز قتل المرء، فقاتل النفس يستحق القصاص، والمفسد في الأرض يستحق العقوبة التي شرعت في الحرابة في الآية التي تلي هذه الآية، وكلاهما -أي: قاتل النفس والمحارب- مفسدان في الأرض، الأول إفساده خاص بمن قتله تعديًا، والثاني إفساده عام يشمل المال والعرض والنفس.

قال القرطبي: «حرم الله القتل في جميع الشرائع إلا بثلاث خصال:كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس ظلما وتعديا»[3].

وقال ابن كثير في معناها: «من قتل نفسا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعا؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال: ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[4].

خامسًا: مقاومة الاعتداء:

قد يضطر الإنسان إلى قتل غيره مقاومة لعدوانه، ودفاعًا عن نفسه أو عرضه أو ماله، وهذا نوع من القتل المشروع عند الضرورة، فإذا تعرض إنسان لاعتداء وجب دفعه، ولكن مع مراعاة أن لا يلجأ إلى الأشد إلا بعد استنفاذ ما هو دونه من وسائل الدفاع، وهذا مستفاد من نصوص قرآنية وأخرى نبوية.

فمن نصوص القرآن الكريم قوله تعالى:

(١) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢١٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٣٦، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢١٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٤٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨٣.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

والآية وإن كانت واردة في القتال في سبيل الله، إلا أن عموم لفظها يجيز مقاومة الاعتداء.

ومن النصوص النبوية ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجلٌ يريد أخذ مالي؟ قال: (فلا تعطه مالك) قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: (قاتله) قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: (فأنت شهيدٌ)، قال: أرأيت إن قتلته؟ قال:(هو في النار)[1].

ومن نصوص السنة كذلك حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من قتل دون ماله فهو شهيدٌ)[2].

قال ابن بطال شارحًا له: «إنما أدخل هذا الحديث فى هذه الأبواب ليريك أن للإنسان أن يدفع عن نفسه وماله، فإذا كان شهيدا إذا قتل فى ذلك، كان إذا قتل من أراده فى مدافعته له عن نفسه لا دية عليه فيه، ولا قود. قال المهلب: وكذلك كل من قاتل على ما يحل له القتال عليه من أهل أو دين فهو كمن قاتل دون نفسه وماله فلا دية عليه ولا تبعة، ومن أخذ فى ذلك بالرخصة وأسلم المال أو الأهل أو النفس فأمره إلى الله، والله يعذره ويأجره، ومن أخذ فى ذلك بالشدة وقتل كانت له الشهادة بهذا الحديث»[3].

و«لا خلاف بين الفقهاء في مشروعية الدفاع عن كل ما ذكرنا، ولكن هل يجب على الإنسان هذا الدفاع بحيث يكون آثما إذا تركه؛ لأن هذا الدفاع أمر يمليه الشرع ويفرضه، أم أنه يجوز له ولا يجب عليه، فيكون من حقه المدافعة، إن شاء قام بها وإن شاء تركها؛ لأنه حق من حقوق العبد، ومن خصائص حق العبد حريته في الانتفاع به واختياره، أو بعبارة أخرى: هل مدافعة المعتدين هي من قبيل الواجبات أم قبيل الحقوق، أو من قبيل حق الله أو من قبيل حق العبد؟»[4].

وللفقهاء خلاف في حكم الدفاع عن النفس ضد الصائل عليها مداره على ثلاثة آراء:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حقٍ، كان القاصد مهدر الدم في حقه، وإن قتل كان في النار، وأن من قتل دون ماله فهو شهيدٌ، رقم ٢٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، رقم ٢٤٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره، رقم ١٤١.

(٣) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٦/ ٦٠٧.

(٤) الجنايات في الفقه الإسلامي، الشاذلي ص٢٥٨ بتصرف يسير.

الرأي الأول: أن دفع الصائل عن النفس واجب،وهو ظاهر مذهب الحنفية، ومشهور المالكية والشافعية[1].

الرأي الثاني: أن دفع الصائل عن النفس جائز وليس واجبًا، وهو الرأي المرجوح في مذهبي مالك والشافعي، والراجح عند الحنابلة.

الرأي الثالث: التفرقة بين حالة الفتنة وغيرها، فيكون الدفاع جائزًا مطلقًا في حالة الفتنة، أما في غير حالة الفتنة فهو واجب مطلقًا، وهو رأي بعض الشافعية والمالكية، وبعض الحنابلة[2].

ولكل رأي من هذه الآراء حجته ودليله، مما لا يتسع المقام لذكره هنا.

وللدفاع عن النفس مراتب، نص عليها بعض الفقهاء في القواعد الفقهية، حيث لا يلجأ للدفع الأقوى إلا بعد العجز عما هو دونه.

قال أبو المظفر الكرابيسي: «إذا خاف على نفسه من الجوع، ومع رفيقه طعام، فأبى أن يعطيه لا يحل له قتاله بالسلاح، ويقاتله بغير سلاح، وإن كان في البئر ماء، وهو محتاج إليه يخاف على نفسه، فمنعه صاحب البئر عن البئر جاز له أن يقاتله بالسلاح، والفرق أن الطعام ملك له، وله أن يدفع عن ملكه ويقاتل، ولو قتل كان شهيدا، بدليل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من قتل دون ماله فهو شهيد)[3].

وإذا كان هو شهيدا كان ذاك ظالما له، فكره له أن يقاتله بالسلاح، وقد اضطر في إحياء نفسه إلى ماله، فكان له أن يقاتله بغير السلاح، وأما الماء فليس بمملوك له، فإذا منعه كان متعديا في المنع، فكان له أن يقاتله بالسلاح، لأن هذا حقه، فإذا منع عن حقه كان له أن يقاتله بالسلاح، كما لو قاتله على مال»[4].

وتفريعًا على قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات) يجوز للمضطر أن يأكل من مال الغير ما يدفع به الهلاك عن نفسه جوعًا، ويدفع الصائل بما أمكن ولو بالقتل، ويضمن في المحلين، وإن كان مضطرًا، فإن الاضطرار يظهر في حل الإقدام، لا في رفع الضمان وإبطال حق الغير، ولو لم يضمن لكان من قبيل إزالة الضرر بالضرر، وهذا منافٍ وغير جائز، ويتعارض مع قاعدة «الضرر لا يزال بمثله»[5].

(١) انظر: حاشية ابن عابدين ٥/ ٤٨١، تحفة المحتاج، ابن حجر الهيتمي ٤/ ١٢٤، مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ٣٢٣.

(٢) حاشية الرملي على نهاية المحتاج ٤/ ١٦٨، أسنى المطالب، زكريا الأنصاري ٤/ ١٦٨، الروض المربع، البهوتي ٢/ ٢٥٣.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الفروق، الكرابيسي ٢/ ٢٨٣-٢٨٤.

(٥) انظر:القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، محمد الزحيلي ص٢٨٦.

سادسًا: الحسد:

قد يلجأ المرء إلى قتل غيره ظلمًا وعدوانًا بسبب الحسد له على نعمة أوتيها، أو منزلة بلغها، أو فضل تحصل عليه، وهذا من قبح الصنيع وسوء الطوية، ولقد كانت أول جريمة قتل باء بها أحد من بني آدم على ظهر الأرض بسبب الحسد، ألا وهي جريمة قتل قابيل لهابيل التي وردت في القرآن الكريم.

قال تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣٢].

وخلاصة القصة ما نصت عليه آيات القرآن الكريم، أن ابني آدم قدم كل واحد منهما قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فحسد المرفوض قربانه أخاه المقبول فقتله[(١)].

ولذلك فإن فرط الحسد قد يدفع بالحاسد إلى إيقاع الشر بالمحسود فإنه يتبع المساوىء ويطلب العثرات، وقد قيل إن الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء والأرض فحسد إبليس آدم حتى أخرجه من الجنة، وأما في الأرض فحسد قابيل بن آدم لأخيه هابيل حتى قتله[(٢)].

وبناء عليه فهذه كانت أول جريمة سفك دم على ظهر الأرض، ولهذا يتحمل القاتل جزءًا من كل جريمة قتل تقع على الأرض بعد ذلك، ويصدق هذا حديث عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تقتل نفسٌ إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ منها)[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٠٢-٢٠٤، تفسير السرقندي ١/ ٣٨٣-٣٨٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٤٨، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٨-٢٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧٨.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٣٧٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٢٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، رقم ٦٨٦٧.

سابعًا: السفه والطيش:

ذم القرآن الكريم العرب في قتلهم أولادهم تحت دوافع واهية وحجج لا اعتبار لها.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام:١٤٠].

وهذه الآية نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر سفهًا بغير علم لخفة أحلامهم، وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم، لا هم[(١)].

أخرج البخاري عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائةٍ في سورة الأنعام، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:١٤٠]»[(٢)].

قال ابن العربي معلقًا عليه: «وهذا الذي قاله كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة في تنويع الحلال والحرام سفاهة بغير معرفة ولا عدل، والذي تصرفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظم جهلا وأكبر جرما، فإن الاعتداء على الله تعالى أعظم من الاعتداء على المخلوقات. والدليل في أن الله واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في مخلوقاته أبين وأوضح من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام»[(٣)].

وقال القسطلاني: «﴿قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ أي بناتهم مخافة الفقر ﴿سَفَهًا﴾ نصب على الحال أي ذوي سفه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأن الفقر وإن كان ضررًا إلا أن القتل أعظم منه، وأيضًا فالقتل ناجز وذلك الفقر موهوم فالتزام أعظم المضار على سبيل القطع حذرًا من ضرر موهوم لا ريب أنه سفاهة وهذه السفاهة إنما تولدت من عدم العلم بأن الله رازق أولادهم، ولا شك أن الجهل من أعظم المنكرات والقبائح إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الحق ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

والفائدة في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ الإشارة إلى أن الإنسان قد يضل عن الحق ويعود إلى الاهتداء، فبين أنهم قد ضلوا ولم يحصل لهم الاهتداء قط، وهذا نهاية المبالغة في الذم»[(٤)].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢٧٢، الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٣٦٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب جهل العرب، رقم ٣٥٢٤.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٢٧٦.
(٤) إرشاد الساري، القسطلاني ٦/ ١٨.

آثار القتل

لما كان القتل على نوعين: قتلٌ بحقٍ وقتلٌ بغير حقٍ على نحو ما تقدم ذكره، فإنه تترتب بعض الآثار على كل نوع منهما بيانها على النحو الآتي:

أولًا: آثار القتل بحق:

تقدم ذكر صور القتل بحق، وأشير هنا إلى أبرز الآثار الدنيوية والأخروية التي تترتب عليه:

الأول: يترتب على القتل قصاصًا حفظ النفس، وهو أحد مقاصد الشريعة، مما يؤدي إلى تحقيق العدالة في المجتمع، وإحياء النفوس عن الإهدار، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩].

وفي المقصود بكلمة ﴿حَيَاةٌ﴾ في الآية معان وعبر ذكرها المفسرون:

منها: أن معناه بقاء يحجز بعضكم عن بعض ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني: من كان له لب أو عقل فذكر القصاص فيحجزه الخوف عن القتل ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني: لكي تتقوا الدماء مخافة القصاص[(١)].

ومنها: أن معناه في إيجاب القصاص حياة؛ لأن من هم بالقتل فذكر القصاص ارتدع فكان ذلك سببًا للحياة. روي عن مجاهد وقتادة وأكثر أهل العلم.

ومنها: أن معناه جعل الله هذا القصاص حياة وعبرة لكم،كم من رجل قد هم بداهية فمنعه مخافة القصاص أن يقع بها! وإن الله قد حجز عباده بعضهم عن بعض بالقصاص. قاله الربيع بن خيثم[(٢)].

الثاني: يترتب على القتل في حد الردة الحفاظ على الدين، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

ومن هنا فإن السنة النبوية قد نصت على أن عقوبة المرتد هي القتل ففي الصحيح عن عكرمة قال أتى عليٌّ رضي الله عنه بزنادقةٍ فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباسٍ فقال لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقتلتهم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من بدل دينه فاقتلوه)[(٣)].

الثالث: يترتب على قتل الساحر الحفاظ على الدين والعقل والنفس والعرض والمال، نظرًا لتأثير السحر على كل ذلك، وهذا الحكم مستنبط من القرآن الكريم والسنة النبوية.

فمما استنبطه بعض المفسرين من

(١) تفسير مقاتل ١/ ١٥٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٣٨٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين، باب حكم المرتد والمرتدة، رقم ٦٩٢٢.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ [البقرة:١٠٢].

حيث قال: «وهذا يدل على قتل الساحر إذا سحر وظفر به من غير استتابة، لأنه شيء يخفيه فلا يعلم بصحة توبته منه لو تاب»[(١)].

وفي السنة النبوية عن الحسن عن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حد الساحر ضربة بالسيف)[(٢)].

وأخرج مالك عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة انه بلغه:أن حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قتلت جارية لها سحرتها وقد كانت دبرتها فأمرت بها فقتلت. قال مالك: الساحر الذي يعمل السحر ولم يعمل ذلك له غيره هو مثل الذي قال الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ﴾ [البقرة:١٠٢].

فأرى أن يقتل ذلك إذا عمل ذلك هو نفسه[(٣)].

وقتل الساحر مروي عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين، وهو مذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والحنابلة[(٤)].

ثانيًا: آثار القتل بغير حق:

يترتب على القتل بغير حق آثار في الدنيا وآثار في الآخرة، بيانها على النحو الآتي:

الأول: القتل بغير حق يترتب عليه القصاص، على نحو ما هو مبسوط في موضعه من مبحث عقوبة القتل.

الثاني: يترتب على القتل بغير حق (القتل العمد) خمس عقوبات أخروية وردت في آية واحدة من كتاب الله تعالى وهي قوله جل شأنه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

وهذه الآية الكريمة اختلف المفسرون من السلف بشأنها هل هي محكمة أم منسوخة، وذهب الصحابيان ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما إلى القول بأنها

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٣٧٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الحدود، باب حد الساحر، رقم ١٤٦٠.
وصحح الترمذي وقفه على جندب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر، رقم ١٥٦٢.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٧.

محكمة، وأن القاتل العمد لا توبة له، وبنحو قولهم قال ابن عمر، والضحاك وآخرون[1].

وأخرج البخاري عن سعيد بن جبير، قال: «آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: «نزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء:٩٣]. هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء»[2].

وروي عن سالم بن أبي الجعد قال: «سأل رجلٌ ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن رجلٍ قتل مؤمنًا متعمدًا ثم تاب، وآمن، وعمل صالحًا، ثم اهتدى، قال: وأنى له الهدى؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يجيء المقتول يوم القيامة متعلقًا بالقاتل، تشخب أوداجه دمًا، فيقول: يا رب، سل هذا لم قتلني؟)[3].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «إنها لمحكمة، وما تزداد إلا شدة»[4].

ويرى بعض المفسرين أن رأي ابن عباس رضي الله عنهما هذا إنما هو في مستحل القتل العمد لا مجرد فاعله.

قال ابن عطية: «إن الأصح في تأويل قوله تعالى: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ ما قال ابن عباس:إنه أراد مستحلا، وإذا استحل أحد ما حرم الله عليه فقد كفر، ويدل على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنا نجد الله تعالى في أمر القتل إذا ذكر القصاص لم يذكر الوعيد، وإذا ذكر الوعيد بالنار لم يذكر القصاص، فيظهر أن القصاص للقاتل المؤمن العاصي، والوعيد للمستحل الذي في حكم الكافر، ومنها من جهة أخرى أن الخلود إذا لم يقرن بقوله: «أبدا» فجائز أن يراد به الزمن المتطاول، إذ ذلك معهود في كلام العرب، ألا ترى أنهم يحيون الملوك بخلد الله ملكك.

ومن ذلك قول امرئ القيس[5]:

وهل يعمن إلا سعيد مخلد
قليل الهموم ما يبيت بأوجال[6]

والكلام حول هذه الآية مما يطول المقام فيه، ويتشعب إلى مسائل عقدية، وفقهية واسعة.

الثالث: يترتب على القتل بغير حق الإفساد في الأرض لقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٦٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٣٢، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل٦/ ٥٧٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم)، رقم ٤٥٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، رقم ٣٠٢٣.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٤٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٣٣، رقم ٨٠٣١.
(٤) جامع البيان، الطبري ٩/ ٦٨.
(٥) البيت في ديوان امرئ القيس ص١٣٥.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦٥.

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

وفي المقصود بقتل الجميع وإحيائهم هنا أقوال:

القول الأول: ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عكرمة وعطية: «من قتل نبيًا وإمامًا عادلًا فكأنما قتل الناس جميعًا ومن عمل على عضد نبي أو إمام عادل فكأنما أحيا الناس جميعًا».

القول الثاني: ما قاله مجاهد: «من قتل نفسًا محرمة يصلى النار بقتلها كما يصلاها لو قتل الناس جميعا، ومن أحياها من سلم من قتلها فقد سلم من الناس جميعا».

القول الثالث: ما قاله السدي: «من قتل فكأنما قتل الناس جميعًا عند المقتول في الإثم ومن أحياها واستنقذها من هلكة من غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك فكأنما أحيا الناس جميعًا عند المستنقذ».

القول الرابع: ما قاله الحسن وابن زيد: «﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ يعني: إنه يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الذي نوى بقلبه لو كان قتل الناس جميعا ومن أحياها من عفا عمن وجب له القصاص منه فلم يقتله فكأنما أحيا الناس جميعًا».

القول الخامس: ما قاله قتادة والضحاك: «عظم الله قتلها أو عظم وزرها فمعناها من استحل قتل مسلم بغير حقه فكأنما قتل الناس جميعًا لأنهم لا يسلمون منه، ومن أحياها فحرمها وتورع من قتلها فكأنما أحيا الناس جميعًا لسلامتهم منه»[(١)].

الرابع: يترتب على القتل بغير حق قطع الأرحام بين الناس، قال الله تعالى ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ [محمد: ٢٢].

حيث فسر قتادة الفساد في الأرض هنا بسفك الدماء الذي ينشأ عنه قطع الأرحام، سواء كانت رحم النسب والقرابة أو رحم الجوار[(٢)]، وفسر الزجاج قطع الرحم هنا بوأد البنات الذي كان شائعًا في الجاهلية لكونه قتلا بغير حق[(٣)].

هذا وجرى خلاف بين المفسرين في المقصود بقوله: ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ هنا على أربعة أقوال مؤداها جميعًا إلى الفساد وقطع الأرحام[(٤)].

الخامس: يترتب على القتل بغير حق الحرمان من الميراث، وهذا لم يرد ذكره

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٣٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٥٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٧-١٧٨.
(٣) معاني القرآن، الزجاج ٥/ ١٣ بتصرف.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٠١.

في القرآن الكريم صريحًا، وانما استنبطه المفسرون من آيات الفرائض، ولكن ورد ذكره في السنة النبوية.

ففي قول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

يقول الرازي: «اعلم أن عموم قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ زعموا أنه مخصوص في صور أربعة:

أحدها: أن الحر والعبد لا يتوارثان.

وثانيها: أن القاتل على سبيل العمد لا يرث.

وثالثها: أنه لا يتوارث أهل ملتين، وهذا خبر تلقته الأمة بالقبول وبلغ حد المستفيض.

ورابعها: من تخصيصات هذه الآية ما هو مذهب أكثر المجتهدين أن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون، والشيعة خالفوا فيه»[(١)].

وقال القرطبي مستنبطًا من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]: «ولا خلاف بين العلماء أنه لا يرث قاتل العمد من الدية ولا من المال، إلا فرقة شذت عن الجمهور كلهم أهل بدع»[(٢)].

ومن لطائف الآية ما ذكره أحد المفسرين المعاصرين حول استنباط حكم ميراث القاتل قوله: «إن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل،والرقيق، والمخالف في الدين، والمبعض، والخنثى، والجد مع الإخوة لغير أم، والعول، والرد، وذوي الأرحام، وبقية العصبة، والأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟

قيل: نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يعسر فهمها على غير المتأمل تدل على جميع المذكورات، فأما (القاتل والمخالف في الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة بحسب قربهم ونفعهم الديني والدنيوي.

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء:١١].

وقد علم أن القاتل قد سعى لمورثه بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث. فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦].

مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن «من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه»[(٣)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥١٣ بتصرف.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٥٦.
(٣) تيسير الكريم المنان، السعدي ص١١٦٨.

عقوبة القتل بين القرآن والقوانين

لما كان القتل جريمة تهدم كيان الإنسان، الذي هو بنيان الله تعالى، فقد حرمته جميع الشرائع السماوية، وشرعت له العقوبة المناسبة بناء على تقسيمه إلى عمد وخطأ، وهو التقسيم الأساسي للقتل، وجعل بعض هذه العقوبات عقوبات أصلية وبعضها عقوبات تبعية، وجرمته القوانين الوضعية أيضا، وهذا ما سأبحثه فيما يأتي.

أولًا: عقوبة القتل العمد:

١. عقوبة القتل العمد في القرآن الكريم.

حرمت نصوص الشريعة الإسلامية القتل العمد، ورتبت عليه العقوبة الدنيوية والأخروية، ويؤكد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١].

وتواترت الأحاديث في هذا الشأن، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم (أول ما يقضى بين الناس بالدماء)[١].

ففيه دليل على عظم شأن دم الإنسان فإنه لا يقدم في القضاء إلا الأهم[٢].

ومنها حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم (لا يحل دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك الجماعة)[٣].

والعقوبة الأصلية للقتل العمد في الدنيا هي القصاص الوارد في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:١٧٨].

والقصاص في القتل العمد له شروط لاستيفائه (شروط في القتل وشروط في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم ٦٥٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب المجازاة بالدماء في الآخرة وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، رقم ١٦٧٨ من حديث ابن مسعود.

(٢) انظر: سبل السلام، الصنعاني ٣/ ٢٣٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله تعالى: (أن النفس بالنفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.

المقتول وشروط في القاتل)[1]، وهو - أي القصاص- حق لأولياء المقتول، إن شاءوا أخذوا به، وإن شاءوا اصطلحوا على قبول الدية المغلظة (تغليظا بالصفة وبالحلول دون التأجيل) من القاتل، وإن شاءوا عفوا عن القاتل على نحو ما هو معروف في مواضعه من كتب الفقه.

قال البغوي: «العمد المحض هو: أن يقصد قتل إنسان بما يقصد به القتل غالبا فقتله ففيه القصاص عند وجود التكافؤ، أو دية مغلظة في مال القاتل حالة»[2].

والأصل في القتل العمد القصاص، ثم يليه عند تعذر استيفائه - لسبب من الأسباب- عقوبة الدية، مضافًا إليها التعزير إذا رأت الهيئة الشرعية ذلك، فإذا امتنعت عقوبة الدية أو تعذر استيفاؤها كانت العقوبة هي التعزير، وهنا يلاحظ أن عقوبة التعزير تكون أحيانا بدلا عن القصاص، وأحيانا أخرى بدلا عن بدل القصاص، وهو الدية.

ولا يجوز الجمع بين العقوبة الأصلية وبدلها، ولكن يجوز الجمع بين بدلين، كما يجوز الجمع بين عقوبتين أصليتين، فمثلًا يجوز الجمع بين الدية والتعزير وكلاهما بدل من عقوبة القصاص، ويجوز الجمع بين القصاص والكفارة وكلاهما عقوبة أصلية، ولا جدال في أنه يجوز الجمع بين العقوبات الأصلية والعقوبات التبعية حيث لا يوجد ما يمنع من ذلك عقلًا وشرعًا.

ويترتب على أن القصاص أصل والدية والتعزير بدل أنه لا يجوز للقاضي أن يحكم بالعقوبة البدلية إلا إذا امتنع الحكم بالعقوبة الأصلية ولسبب من الأسباب الشرعية التي تمنع القصاص، فإذا لم يكن هناك مانع وجب الحكم بالعقوبة الأصلية والتعزير والكفارة على رأيٍ، ويلي التعزير الصيام، كعقوبة بدلية، أما العقوبات التبعية فهي الحرمان من الميراث والوصية[3].

ويلاحظ أن القصاص والدية والكفارة، عقوبات واردة في القرآن الكريم، أما التعزير والحرمان من الميراث والوصية فهي واردة في السنة النبوية على نحو ما هو معروف.

أما العقوبة الأخروية للقتل العمد فهي الواردة في قوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

على تفصيل كبير للمفسرين والفقهاء

(١) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ٢٣٢، التلقين، القاضي عبد الوهاب ٢/ ١٨٣، بداية المجتهد، ابن رشد ٢/ ٣٩٦، المجموع، النووي ١٨/ ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٦١، ٣٦٢، الإنصاف، المرداوي ٩/ ٣٤١.

(٢) معالم التنزيل ٢/ ٢٦٤.

(٣) انظر: التشريع الجنائي، عودة ٢/ ١١٣-١١٤، ٢/ ١٧٦، ٢/ ١٨٥.

وغيرهم في توبة القاتل وأثرها في ذلك.

٢. عقوبة القتل العمد في القوانين الوضعية.

راعت القوانين الوضعية على مر العصور إيجاد عقوبات للقتل اختلفت من أمة لأخرى ومن عصر لآخر، ولو ذهبنا نتتبع عقوبة القتل في القوانين المختلفة قديما وحديثًا لخرجنا عن المطلوب، ولكن يمكن الإشارة إلى ذلك الأمر بنوع من الاختصار فأقول:إن معظم القوانين الوضعية الحديثة تعترف بعقوبة القصاص؛ ولكنها تطبقها على جريمة القتل فقط، فتعاقب بالإعدام على القتل ولكنها لا تعاقب بالقصاص على الجراح، وتكتفي في عقاب الجارح بالغرامة والحبس أو بأحدهما.

ومن ناحية أخرى فإن بعض القوانين الوضعية لا تحكم بالقصاص على القاتل مباشرة، بل تتفاوت العقوبة ما بين القصاص أو الأشغال الشاقة المؤبدة طبقا لظروف وملابسات الجريمة.

وعلى سبيل المثال فإن قانون العقوبات المصري قد جعل عقوبة القتل العمد هي الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة حيث جاء في المادة ٢٣٤/ ١ع«وإذا اقترن القتل العمد بظروف مشددة كانت عقوبته الإعدام، والظروف المشددة التي أخذ بها المشرع المصري ستة: سبق الإصرار والترصد، والقتل بالسم، واقتران القتل بجناية، وارتباطه بجنحة، ووقوع القتل أثناء الحرب على الجرحى حتى من الأعداء»[(١)].

ومن هنا يفترق الفقه الإسلامي عن القانون، فالقانون يرى في هذه الحالة أن العقوبة هي الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة، بينما يرى الفقه الإسلامي أن عقوبته هي القصاص الذي يكون لصاحبه الحق في العفو عنه.

وبنظرة تحليلية لهذا القانون يرى بعض أساتذة الشريعة والقانون أن رأي الفقه الإسلامي أنجع في علاج الجرائم من علاج القانون؛ وذلك لأن السجن عقوبة لا تلائم نوع الجناية التي ارتكبت، فإن الجناية أفظع وأشد، إنها قتل نفس بغير حق، فإذا أوجبنا فيها هذه العقوبة ما كان ذلك محققا لعدالة العقاب؛ وبالتالي لا يشفى غليل أهل المجني عليه، ومن هنا يتكاثر ارتكاب الجرائم ويتفشى[(٢)].

وهذا ما عالجته الشريعة الإسلامية، فمن حيث عدالة العقاب أوجبت القصاص حتى يذوق الجاني نفس الكأس الذي أذاقه لغيره، ويتجرع المرارة التي جرعها لغيره، ولا شك

(١) انظر: قانون العقوبات المصري، باب القتل والضرب والجرح، والجنايات في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون، د حسن الشاذلي ص٣٤٧.

(٢) المصدر السابق.

أن هذا المسلك في العقوبة أكثر ردعا وزجرا؛ إذ به تتحقق الحياة لنفوس كثيرة قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ثانيًا: عقوبة القتل الخطأ:

١. عقوبة القتل الخطأ في القرآن الكريم.

عقوبات القتل الخطأ منها ما عقوبات أصلية كالدية والكفارة، ومنها هو ما بدل وهو التعزير والصيام، ومنها عقوبات تبعية مثل الحرمان من الميراث والحرمان من الوصية، وجاءت مشروعية الدية في موضعين من القرآن.

الموضع الأول يتضمن مشروعية الدية والكفارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

ودلالتها صريحة في مشروعية الدية والكفارة في القتل الخطأ، سواء كان المقتول مسلمًا، أو معاهدًا.

قال القرطبي عن ابن المنذر: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ فحكم الله جل ثناؤه في المؤمن يقتل خطأ بالدية، وثبتت السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وأجمع أهل العلم على القول به[(١)].

واختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وكان أخا أبي جهل لأمه قتل الحارث بن زيد من بني عامر بن لؤي، لأنه كان يعذب عياشًا مع أبي جهل واختلف أين قتله، فقال عكرمة ومجاهد: قتله بالحرة بعد هجرته إلى المدينة وهو لا يعلم بإسلامه، وقال السدي: قتله يوم الفتح وقد خرج من مكة وهو لا يعلم بإسلامه.

والقول الثاني: أنها نزلت في أبي الدرداء حين قتل رجلًا بالشعب فحمل عليه بالسيف، فقال: لا إله إلا الله، فبدر فضربه ثم وجد في نفسه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا شققت عن قلبه)[(٢)]

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣١٤.
(٢) رواه الطبراني في جامع البيان عن ابن زيد ٩/ ٣٣.

وهذا قول ابن زيد؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾[1].

والموضع الثاني يتضمن مشروعية الدية فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:١٧٨].

ووجه الدلالة منها- كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أن يقبل في العمد الدية[2]، ولم يرد ذكر للكفارة في هذا الموضع.

٢. عقوبة القتل الخطأ في القوانين الوضعية.

ينص قانون العقوبات المصري في المادة (٢٣٨) على أن: «من تسبب خطأ في موت شخص بأن كان ذلك ناشئا عن إهماله، أو رعونته، أو عدم احتراسه، أو عدم مراعاته القوانين والمقررات واللوائح والأنظمة يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ستة أشهر وغرامة لا تقل عن عشرين جنيها ولا تتجاوز مائتي جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين، وتكون عقوبة الحبس مدة لا تقل عن سنة ولا تزيد عن ست سنين، وغرامة لا تقل عن خمسين جنيها ولا تجاوز أربعمائة جنيه، أو بإحدى هاتين العقوبتين إذا وقعت الجريمة نتيجة إخلال الجاني بما تفرضه عليه أصول مهنته أو حرفته، أو كان عند ارتكابه الخطأ الذي نجم عنه الحادث متعاطيا عقاقير مخدرة أيا كان نوعها، أو كان في حالة سكر بين، أو لم يقدم المساعدة وقت الحادث لمن وقعت عليه الجريمة، أو لم يطلب هذه المساعدة مع تمكنه من ذلك، وتكون العقوبة الأشغال الشاقة لمدة لا تزيد على خمس سنين إذا نشأ عن الخطأ وفاة أكثر من خمسة أشخاص، فإذا توافر ظرف آخر من الظروف المشددة الواردة في الفقرة الثانية تكون العقوبة بالأشغال الشاقة المؤقتة»[3].

ومن هذا النص يتضح أن قانون العقوبات جعل عقوبة القتل خطأ عقوبة تعزيرية، سواء تمت بالحبس أو بالأشغال الشاقة أو بالغرامة، وهذا النوع من العقوبة سبق أن بينا أنه نوع من العقوبات التعزيرية في الفقه الإسلامي الذي يترك أمر تقديرها لاجتهاد الحاكم أو من يقوم مقامه[4].

ويلحظ أن الشريعة الإسلامية تميزت تميزًا واضحًا عن غيرها من الشرائع في عقوبة القتل بكل أنواعه، وبخاصة القتل الخطأ، حيث تجد أن الدية ليست بمثابة الثمن أو التعويض عن فقد المرء حياته، ولكنها نوع من المواساة، وجبر النقص الذي حصل لأهله وذويه بفقده، وفي

(١) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٧-٥١٨.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٢٥.
(٣) انظر: قانون العقوبات المصري، باب القتل والضرب والجرح.
(٤) انظر: الجنايات في الفقه الإسلامي، حسن الشاذلي ص٤٦٠.

تشريع الكفارة زجر للقاتل، وفي الحرمان من الميراث والوصية معاقبة للقاتل بنقيض قصده، وتشديدًا عليه كي يلحقه الندم على فعله.

ثالثًا: عقوبة القتل شبه العمد:

١. عقوبة القتل شبه العمد في الشريعة الإسلامية.

العقوبات المترتبة على القتل شبه العمد منها عقوبات أصلية، وهي الدية والكفارة، كما هو الحال في القتل العمد، ومنها عقوبات بدلية، وهي: التعزير والصيام، ومنها عقوبات تبعية، وهي: الحرمان من الميراث والوصية[1]. وأدلة هذه العقوبات التبعية والبدلية وردت في السنة النبوية المطهرة.

٢. عقوبة القتل شبه العمد في القانون.

ينص القانون الوضعي المصري على أن عقوبة الضرب المفضي إلى الموت في القانون هي: «الأشغال الشاقة أو السجن من ثلاث سنوات إلى سبع، هذا إذا لم يصاحب هذه الجناية ظرف سبق الإصرار أو الترصد، فإن صاحبها هذا الظرف كانت العقوبة الأشغال المؤقتة أو السجن؛ أي: من ثلاث سنوات إلى خمس عشرة سنة.

ويذكر بعض شراح القانون أن جريمة الضرب المفضي إلى الموت تتطلب توافر ركنين:

أحدهما: مادي، وهو يقوم على ثلاثة عناصر:

١. فعل الضرب أو الجرح أو إعطاء مواد ضارة.
٢. ثم موت المجني عليه.
٣. وقيام رابطة السببية بين الفعل والنتيجة «الموت».

وثانيهما: معنوي، وهو يقوم على أمرين: أحدهما إيجابي، والآخر سلبي:

أما الأول: فهو أن يكون لدى الجاني قصد ارتكاب الضرب.

وأما الثاني: فهو ألا يكون الجاني قد قصد ارتكاب القتل.

وبالنظر إلى العقوبتين نجد جعل عقوبة القتل شبه العمد مادية بصورها المتقدمة، ثم إن هذا الفقه لا يأبى إيقاع عقوبة التعزير على القاتل في هذه الجناية إذا رأى الإمام مصلحة في ذلك.

وهذا المنهج في العقوبة أعدل من منهج القانون من وجوه:

الأول: نترك العقوبة البدنية التي نص عليها القانون، فإنه يمكن إدخالها في عقوبة التعزير في الفقه الإسلامي بصورتها العادية أو المشددة، فلا مجال حينئذ للكلام في هذه الناحية سوى أنه يجب أن يراعى في تقديرها تحقيق مصلحة المجتمع.

(١) التشريع الجنائي، عودة ١/ ١٨٩.

الثاني: العقوبة المادية، وهي تتمثل في الفقه الإسلامي في: الدية والكفارة والحرمان من الميراث.

ويمكن أن نقول: إن هذا النوع من العقوبة -وخاصة الدية- يقابلها في القانون التعويض المدني -مع بعض التجاوز في تكييف كل من العقوبتين- إلا أن الفقه الإسلامي في هذا المجال -كما في غيره- يعلو على كل علاج لسد باب الجريمة وردع الجناة وزجر الآخرين [(١)].

و«فرق القرآن بين العامد والمخطئ في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وكرر الرسول عليه الصلاة والسلام هذا المعنى في قوله: (إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[(٢)]، والمقصود من عدم الجناح ومن رفع الخطأ هو تخفيف مسئولية المخطئ وعدم تسويته بالعامد، ولا يقصد من هذين التعبيرين محو المسئولية الجنائية كلية، وليس أدل على ذلك من أن الله جل شأنه جعل عقوبة القتل العمد القصاص، وجعل عقوبة القتل الخطأ الدية والكفارة، فغلظ مسئولية العامد وخفف مسئولية المخطئ ولم يمحها كلية، وذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وهكذا تتنوع المسئولية الجنائية وتتعدد درجاتها بحسب تنوع العصيان وتعدد درجاته، فإذا أردنا أن نعرف مدى تنوع المسئولية وتعدد درجاتها فعلينا أن نعرف مدى تنوع العصيان وتعدد درجاته[(٣)].

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد اعترفت بحق المجني عليه في أن يعفو عن عقوبة بعض الجرائم، فإن القوانين الوضعية تعترف بنفس هذا المبدأ وإن كانت لا تطبقه على نفس الجرائم التي ينطبق عليها في الشريعة[(٤)].

(١) الجنايات في الفقه الإسلامي، حسن الشاذلي ص ٣٧٠ و٣٧١ بتصرف.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره، رقم ٢٠٤٣، وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الإخبار عما وضع الله بفضله عن هذه الأمة، رقم ١٤٩٨، والحاكم في المستدرك، كتاب الطلاق ٢/ ٢١٦.
وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) التشريع الجنائي، عودة ١/ ٤٤٥.

(٤) التشريع الجنائي، عودة ١/ ٦٦٦- ٦٦٧.

الإعجاز التشريعي في القصاص

شرع الله عز وجل القصاص فيما يقع بين الناس من جنايات على النفس وعلى ما دون النفس، بنصوص صريحة في كتاب الله عز وجل، ورد فيها لفظ القصاص أربع مرات، مرتين منهما بصيغة التعريف «القصاص»، ومرتين بصيغة التنكير «قصاص» والآيات التي تتناول القصاص في النفس وفيما دون النفس على هذا النحو:

قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[البقرة:١٧٨].

وقال تعالى ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].

قال ابن العربي: «معنى (كتب) فرض وألزم، وكيف يكون هذا والقصاص غير واجب! وإنما هو لخيرة الولي؛ ومعنى ذلك كتب وفرض إذا أردتم استيفاء القصاص فقد كتب عليكم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩].

وهذه الآية من أبلغ آيات القرآن الكريم -والقرآن كله بليغ- حيث دلت على المقصود بأقل الألفاظ، وأغنت عما ذهب إليه الحكماء والبلغاء من نحو قولهم: «قتل البعض إحياء الجميع»، وقولهم: «القتل أقل للقتل»، و«القتل أنفى للقتل»، و«أكثروا القتل ليقل القتل» ونحو ذلك من الألفاظ الموجزة.

ولو تدبرنا قول الله تعالى ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ وما قاله حكماء العرب من عبارات في هذا الشأن نحو: (القتل أنفى للقتل)، و(القتل أمنع للقتل)[2] لوجدنا أن ما في القرآن أكثر فائدة وأوجز في العبارة وخال من التكلف بتكرار الجملة.

وكما قال الإمام الجصاص: «إذا مثلت بين الآية وبين الأقوال المذكورة لوجدت بينهما تفاوتا بعيدا من جهة البلاغة وصحة المعنى، من وجوه عدة، منها:أن قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ هو نظير قولهم: «قتل البعض إحياء للجميع» و«القتل أقل للقتل» وهو مع قلة عدد حروفه ونقصانها

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٢٩، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٢٢٩.

عما حكي عن الحكماء قد أفاد من المعنى الذي يحتاج إليه ولا يستغني عنه الكلام ما ليس في قولهم لأنه ذكر القتل على وجه العدل لذكره القصاص وانتظم مع ذلك الغرض الذي إليه أجرى بإيجابه القصاص وهو الحياة وقولهم: (القتل أقل للقتل)، و(قتل البعض إحياء الجميع)، و(القتل أنفى للقتل) إن حمل على حقيقته لم يصح معناه؛ لأنه ليس كل قتل هذه صفته بل ما كان منه على وجه الظلم والفساد فليست هذه منزلته ولا حكمه فحقيقة هذا الكلام غير مستعملة ومجازه يحتاج إلى قرينة وبيان في أن أي قتل هو إحياء للجميع فهذا كلام ناقص البيان مختل المعنى غير مكتف بنفسه في إفادة حكمه وما ذكره الله تعالى من قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ مكتف بنفسه مفيد لحكمه على حقيقته من مقتضى لفظه مع قلة حروفه»[1].

ولو ذهبنا نتتبع حكم تشريع القصاص لطال بنا الكلام، ولكن أشير إلى طرف من ذلك على هذا النحو:

١. القصاص نظام من أنظمة العقوبات في الشريعة الإسلامية؛ وإن بدا في ظاهره الصرامة والشدة إلا أنه بعيد كل البعد عن أن يكون تعذيبًا للجاني أو تنكيلًا به، فالقصاص من أنجع وسائل الردع العام وهو رحمة حازمة تحافظ على كيان المجتمع وتماسكه[2].

٢. من بعض حكمة الله سبحانه وتعالى أن شرع العقوبات في الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم على بعض، في النفوس والأبدان والأعراض والأموال، كالقتل والجراح والقذف والسرقة، فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الإحكام، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع[3].

٣. في تطبيق القصاص حياة للمجتمع وصيانة له، كما حكاه الطبري عن قتادة في هذه الآية يقصد قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]: «جعل الله هذا القصاص حياة ونكالًا وعظة لأهل السفه والجهل من الناس، وكم من رجل قد هم بداهية لولا مخافة القصاص، لوقع بها، ولكن الله حجز بالقصاص بعضهم عن بعض، وما أمر الله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح الدنيا والآخرة، ولا نهى الله عن أمر قط إلا وهو أمر فساد في الدنيا والدين، والله

(١) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٩٧ بتصرف.

(٢) القصاص دراسة في الفقه الجنائي المقارن، هاني السباعي ص٨.

(٣) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٣٩٣ بتصرف يسير.

أعلم بالذي يصلح خلقه»[1].

٤. القصاص جزاء وفاق للجريمة؛ فالجريمة اعتداء متعمد على النفس، والعدالة أن يؤخذ الجاني بمثل فعله إذ لا يعقل أن يفقد والد ولده، ويرى قاتله يروح ويغدو بين الناس، وقد حرم هو من رؤية ولده.

٥. تشريع القصاص بالقتل غير ممحض في الانتقام بل فيه ملاك التربية العامة وسد باب الفساد[2].

٦. ليس في العالم كله قديمه وحديثه عقوبة تفضل عقوبة القصاص، فهي أعدل العقوبات، إذ لا يجازى المجرم إلا بمثل فعله، وهي أفضل العقوبات للأمن والنظام؛ لأن المجرم حينما يعلم أنه سيجزى بمثل فعله لا يرتكب الجريمة غالبًا، والذي يدفع المجرم بصفة عامة للقتل والجرح هو تنازع البقاء وحب التغلب والاستعلاء، فإذا علم المجرم أنه لن يبقى بعد فريسته أبقى على نفسه بإبقائه على فريسته، وإذا علم أنه إذا تغلب على المجني عليه اليوم فهو متغلب عليه غدًا لم يتطلع إلى التغلب عليه عن طريق الجريمة[3].

موضوعات ذات صلة:

الثبات، الجهاد، الحياة، القدر، الموت

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ١١٤.
(٢) القصاص، هاني السباعي ص٤٧.
(٣) التشريع الجنائي، عودة ١/ ٦٦٤.

القدر

عناصر الموضوع

مفهوم القدر	١٩٢
القدر في الاستعمال القرآني	١٩٣
الألفاظ ذات الصلة	١٩٤
الإيمان بالقدر	١٩٦
الخلق والقدر	٢٠٩
التعامل مع القدر	٢١٤

مفهوم القدر

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (قدر) تدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، والقدر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها[١].

و«القدر والتقدير: تبيين كمية الشيء، يقال: قدرته وقدرته، وقدره بالتشديد: أعطاه القدرة، يقال: قدرني الله على كذا وقواني عليه، فتقدير الله الأشياء على وجهين:

أحدهما: بإعطاء القدرة.

والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص، حسبما اقتضت الحكمة»[٢].

«والقدير: هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائدًا عليه، ولا ناقصًا عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى»[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف ابن الأثير القدر بأنه: «عبارةٌ عما قضاه الله وحكم به من الأمور»[٤].

وقيل: «هو: تقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه -سبحانه- أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته سبحانه لذلك، ومشيئته لها، ووقوعها على حسب ما قدرها جل وعلا وخلقه لها»[٥].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٦٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٥٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٢٢.
(٥) الإيمان بالقدر. الصلابي ص ١٣.

القدر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قدر) في القرآن الكريم (١٣١) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٠٧) مرات[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات:٢٣]
الفعل المضارع	١	﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل:٢٠]
فعل الأمر	١	﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ:١١]
المصدر	٢٣	﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب:٣٨]
اسم الفاعل	١٨	﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام:٣٧]
اسم المفعول	١	﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب:٣٨]
الصفة المشبهة	٤٥	﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة:٢٠]

وجاء القدر في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[(٢)]:

الأول: العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١]. أي: ليلة العظمة.

الثاني: التصوير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات:٢٣]. أي: صورنا فنعم المصورون.

الثالث: الجعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس:٥]. أي: جعل له منازل.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٥٣٦-٥٣٨.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٨٣-٣٨٤، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٣٩٨-٣٩٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ القضاء:

القضاء لغة:

«أصل كل قضاء أمرٍ: الإحكام، والفراغ منه، ومن ذلك قيل للحاكم بين الناس: القاضي بينهم، لفصله القضاء بين الخصوم، وقطعه الحكم بينهم وفراغه منه به»[(١)].

القضاء اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين القدر القضاء:

قال الخطابي رحمه الله: «إنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»[(٢)].

٢ المشيئة:

المشيئة لغة:

المشيئة مهموزة: الإرادة، وقد شئت الشيء أشاؤه[(٣)].

المشيئة اصطلاحًا:

هي إرادة الله وأمره.

الصلة بين القدر والمشيئة:

القدر أعم من المشيئة، فالمشيئة جزء من القدر، وما قدره الله فقد شاءه.

٣ الإرادة:

الإرادة لغة:

وهي: نقيض الكراهة، أو هي: المشيئة، والمشهور ترادفهما[(٤)].

الإرادة اصطلاحًا:

إرادة الله النافذة.

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٤٢ باختصار.
(٢) معالم السنن، الخطابي ٤/ ٣٢٣.
(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٢/ ٥١٧.
(٤) التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص ٦٢.

الصلة بين القدر والإرادة لغة:

القدر أعم من الإرادة، فالإرادة جزء من القدر، وما قدره الله فقد أراده.

٤ الحكم:

الحكم لغة:

أصله في اللغة: المنع للإصلاح، والحكم بالشيء: أن تقضي بأنه كذا، أو ليس بكذا[١].

الحكم اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين القدر والحكم:

الحكم أصله: المنع بهدف الإصلاح، أما القدر: فهو تقدير الله تعالى الأشياء في الأزل.

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٢٤٨.

الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر شأنه عظيم، ومنزلته علية في الدين، وهو ليس على مرتبة واحدة؛ بل له مراتب، وللإيمان به فضائل وثمرات، نحاول في مطالب هذا المبحث أن نفصل - بما يقتضي المقام - هذه المسائل:

أولًا: منزلة الإيمان بالقدر:

قال الله تعالى مادحًا عباده المتقين بأول صفة من صفاتهم في أول سورة بعد الفاتحة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة:٣].

ومن أعظم الغيب الذي أخفاه الله عن الخلق هو: القدر سر الله المكتوم، فالإيمان بالقدر منزلته عظيمة من دين الإسلام؛ فهو ركن من أركان الإيمان التي يقوم عليها، ولا يصح إيمان أحدٍ لم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله من عند الله تعالى، يبين هذا بوضوح حديث جبريل الطويل، الذي رواه لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه: (قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)، قال: صدقت)[1].

ومما يشهد لذلك: كثرة ورود (القدر) في الآيات القرآنية كما مر في مبحث (الاستعمالات القرآنية للفظ القدر)، وفيها ترسيخ لمعانيه في قلوب المؤمنين به سبحانه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر فإن تكذيبه بالقدر نقض للتوحيد»[2].

فلا ينتظم أمر الدين ويستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل الشرع، كما قرر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه: (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة) قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ قال: (اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة)، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل:٥-١٠].

ثانيًا: مراتب القدر:

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة مراتب، من أقر بها جميعها فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملًا، ومن انتقص واحدًا منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر:

(١) المفردات، الراغب ص ٨٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم ٨.

المرتبة الأولى: العلم.

علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، وقد اتفق عليها الرسل من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليها جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة، وخالفهم مجوس الأمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان:٣٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣].

«قال أبو إسحاق: (أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه)، وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين فالمعنى: أضله الله عالما به وبأقواله، وما يناسبه ويليق به، ولا يصلح له غيره؛ قبل خلقه وبعده، وأنه أهلٌ للضلال وليس أهلًا أن يهدى، وأنه لو هدي لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه، والرب تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها؛ فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه الضلال»[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣].

«أي: ابتلينا واختبرنا بعضهم ببعض، فابتلى الرؤساء والسادة بالأتباع والموالي والضعفاء، فإذا نظر الرئيس والمطاع إلى المولى والضعيف أنفة، وأنف أن يسلم وقال: هذا يمن الله عليه بالهدى والسعادة دوني!! قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾؟! وهم الذين يعرفون النعمة وقدرها، ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت قلوبكم مثل قلوبهم تعرفون قدر نعمتي وتشكروني عليها، وتذكروني بها وتخضعون لي كخضوعهم، وتحبوني كحبهم؛ لمننت عليكم كما مننت عليهم، ولكن لمنني ونعمي محال لا تليق إلا بها، ولا تحسن إلا عندها»[2].

المرتبة الثانية: الكتابة.

إن الله تعالى كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

(١) انظر: السنة، عبد الله بن الأمام أحمد ٢/ ٤٢٢.
(٢) شفاء العليل، ابن القيم ص ٣٠.

﴿الصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنبياء:١٠٥-١٠٦].

«فـ﴿الزَّبُورِ﴾ هنا: جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، و﴿الذِّكْرِ﴾ أم الكتاب الذي عند الله، و﴿الْأَرْضَ﴾ الدنيا، وعباده الصالحون[1]: أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم، وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس:١٢].

فجمع بين الكتابين الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث، ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابته لها على ذلك فقال: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من خير أو شر فعلوه في حياتهم، ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ ما سنوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم، وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء، وكتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه»[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام:٣٨].

«أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحدًا من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان بريًا أو بحريًا، كما قال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦]أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها»[3].

وخير مفسر لكتاب الله تعالى هو كلام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فلنتأمل في هذا الحديث بيان رسول الله لمعنى مرتبة الكتابة؛ عن عبادة بن الوليد بن عبادة، قال: حدثني أبي قال: (دخلت على عبادة بن

(١) المصدر السابق ص ٣١.

(٢) قال التستري: «أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح، معناه: لا يصلح إلا ما كان خالصًا لي، لا يكون لغيري فيه أثر» تفسير التستري ص ١٠٥.

(٣) شفاء العليل.ابن القيم ص ٣٩-٤٠ باختصار.

الصامت وهو مريض يتخيل فيه الموت -أو يتبين- فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لن تطعم طعم الإيمان، ولن تبلغ حق حقيقة العلم حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، وكيف لي أعلم ما خير القدر من شره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما خلق الله عز وجل القلم قال: اكتب؛ فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار)[1].

المرتبة الثالثة: المشيئة.

إن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان:٣٠]«أي: لا يقدر أحدٌ أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعا ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾»[2]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود:١١٨].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢].

وقال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤].

وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال: نفاة المشيئة بالكلية، ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم، وهو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة أن ما لم يشأ لم يكن، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء ما عصي، وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى، وجعلهم أمة واحدة؛ فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته،

(١) تفسير القرآن العظيم.ابن كثير ٣/ ٢٥٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، أول كتاب السنة، باب في القدر، رقم ٤٧٠٠، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن رقم ٣٣١٩ مختصرًا.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ١/ ١٧٣.

وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه رب العالمين، وكونه القائم بتدبير عباده، فلا خلق ولا رزق، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط، ولا موت ولا حياة، ولا إضلال ولا هدى، ولا سعادة ولا شقاوة؛ إلا بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه؛ إذ لا مالك غيره، ولا مدبر سواه، ولا رب غيره، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

قال الشافعي في رواية الربيع عنه: «المشيئة إرادة الله، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان:٣٠]فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله»[(١)].

بقي أن ننبه هنا في آخر هذه المرتبة إلى أن «لفظ الإرادة ينقسم إلى: إرادة كونية؛ فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية؛ فتكون هي المحبة، إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧].

وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره؛ فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق، ونظير هذا لفظ: (الأمر) فإنه نوعان: أمر تكوين، وأمر تشريع، والثاني قد يعصي ويخالف، بخلاف الأول، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء:١٦]لا يناقض قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨]ولا حاجة إلى تكلف تقدير: أمرنا مترفيها فيها بالطاعة فعصونا وفسقوا فيها، بل الأمر ههنا أمر تكوين وتقدير لا أمر تشريع»[(٢)].

المرتبة الرابعة: الخلق.

فكل ما سوى الله تعالى فهو مخلوق له سبحانه، خلقه بعد أن علمه وكتبه وشاءه.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:١٠٢].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر:٣].

«الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ إنكاري فهو مضمن معنى النفي، والمعنى: لا خالق إلا الله وحده، والخالق هو المستحق للعبادة وحده»[(٣)].

«قال ابن الجوزي في (المقتبس): سمعت الوزير يقول في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩٥.

(٢) شفاء العليل، ابن القيم ص ٤٤-٤٥ باختصار.

(٣) المصدر السابق ص ٤٨.

﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ قال: فطلبت الفكر في المناسبة بين ذكر النعمة وبين قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾؛ فرأيت أن كل نعمة ينالها العبد فالله خالقها، فقد أنعم بخلقه لتلك النعمة، ويسوقها إلى المنعم عليه»[1].

«فلا خالق إلا الله، وأعمال عباد الله مخلوقة لله مقدورة له كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩٦].

والعباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئًا وهم يخلقون، كما قال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣].

وكما قال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان:٣].

وكما قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧].

وكما قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور:٣٥]وهذا في كتاب الله كثير»[2].

قال ابن القيم: «وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه التوحيد»[3].

«ولهذا كان من تمام الإيمان بالقدر أن تؤمن بأن الله تعالى خالقٌ لأفعال العباد كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩٦].

ووجه ذلك: أن فعل العبد من صفاته، والعبد مخلوق لله، وخالق الشيء خالق لصفاته، ووجهٌ آخر: أن فعل العبد حاصل بإرادة جازمة وقدرة تامة، والإرادة والقدرة كلتاهما مخلوقتان لله عز وجل، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

فإن قيل: كيف نجمع بين إفراد الله عز وجل بالخلق مع أن الخلق قد يثبت لغير الله، كما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]؟

فالجواب على ذلك: أن غير الله تعالى لا يخلق كخلق الله، فلا يمكنه إيجاد معدوم، ولا إحياء ميت، وإنما خلق غير الله تعالى يكون بالتغيير وتحويل الشيء من صفة إلى صفة أخرى، وهو مخلوق لله عز وجل، فالمصور مثلا إذا صور صورة فإنه لم يحدث شيئًا! غاية ما هنالك أنه حول شيئا إلى شيء، كما يحول الطين إلى صورة طير أو صورة جمل، وكما يحول بالتلوين الرقعة البيضاء إلى صورة ملونة، فالمداد من خلق الله عز وجل، والورقة البيضاء من خلق الله عز وجل، هذا هو الفرق بين إثبات الخلق بالنسبة إلى الله عز وجل، وإثبات الخلق

(١) أضواء البيان،الشنقيطي ٦/ ٢٧٨.
(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/ ٩٥.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٦/ ٦٥٦.

بالنسبة إلى المخلوق، وعلى هذا يكون الله سبحانه وتعالى منفردًا بالخلق الذي يختص به»[1].

ثالثًا: الاحتجاج بالقدر:

يجب على كل مؤمن بالله تعالى أن يوقن أنه سبحانه له الحكمة البالغة في كل خلقه، وأنه سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣].

فهو عز وجل: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤].

و﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

و﴿يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٤٧].

و﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦٩].

و﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

إذا عرف هذا فنقول:

إنه يحرم الاحتجاج على الله تعالى بالقدر؛ كأن يقول الزاني مثلًا: ما زنيت من تلقاء نفسي! وإنما قدر الله علي الزنا! أو يقول المريض مثلًا: لماذا يا رب قدرت علي هذا المرض! فإن الله سبحانه لم ولن يكلف أحدًا من خلقه ما لا طاقة له به، كما قال سبحانه: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

فقد أرشدنا القرآن إلى أن المؤمن إن أصابه بلاء أو مصيبة صبر وقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

وإن وقع في معصية لله تعالى قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦].

وأما الاحتجاج على الله تعالى بالقدر فإنما هو من سنن إبليس اللعين، حيث قال لله جل وعلا: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف:١٦].

مع أنه هو الذي أبى أن يسجد لآدم - مختارًا - كما أمره الله! وهذا الاحتجاج بالقدر هو أيضًا من سنن المشركين الذين حكى الله نبأهم أنهم قالو: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام:١٤٨].

وهذه شبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما

(١) شفاء العليل، ابن القيم ص ٦٥.

حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف:٢٠].

وكذلك الآية التي في «النحل» مثل هذه سواء، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال[1] عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي: فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال، والمراد بالظن هاهنا: الاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: تكذبون على الله فيما ادعيتموه[2].

لقد قال الله سبحانه عن أمثال هذا الصنف: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام:٢٥].

فبين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه جعل على قلوب الكفار أكنة -وهو ما يستر الشيء ويغطيه ويكنه- لئلا يفقهوا القرآن، أو كراهة أن يفقهوه، لحيلولة تلك الأكنة بين قلوبهم وبين فقه القرآن؛ أي: فهم معانيه فهمًا ينتفع به صاحبه، وأنه جعل في آذانهم وقرًا؛ أي صممًا وثقلًا لئلا يسمعوه سماع قبول وانتفاع.

وحتى لا يكون لهؤلاء الضلال حجة على الله في إضلالهم؛ بين سبحانه في مواضع أخر سبب الحيلولة بين القلوب وبين الانتفاع به، وأنه هو كفرهم، فجازاهم الله على كفرهم بطمس البصائر، وإزاغة القلوب، والطبع والختم والأكنة المانعة من وصول الخير إليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وقوله: ﴿بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:١٥٥].

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٥].

إلى غير ذلك من الآيات[3].

إن الاحتجاج بالقدر يتضمن تنزيه

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ١/ ١٨.
(٢) أدال الشيء: جعله مداولة، أي: تارة لهؤلاء وتارة للآخرين.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٥٧.

الجاني نفسه، وتنزيه ساحته، وهو الظالم الجاهل! ولو علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وأنها أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات:٦].

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: كفور جحود لنعم الله. وقال الحسن: هو الذي يعد المصائب، وينسى النعم.

فهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب، فما عليه أضر منه، ولا له أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه.

يحتج على ربه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأمته إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره، فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه، أو نهاه عن شيء فارتكبه، وقال: القدر ساقني إلى ذلك؛ لما قبل منه هذه الحجة، ولبادر إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك؛ فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقك؟! بل إذا أساء إليك مسيء، وجنى عليك جانٍ، واحتج بالقدر لاشتد غضبك عليه، وتضاعف جرمه عندك، ورأيت حجته داحضة، ثم تحتج على ربك به، وتراه عذرا لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟!»[1].

وبعد: فإن «الله خلق الإنسان من نطفة ثم جعل له سمعًا وبصرًا، ونصب الأدلة على وجوده وقدرته على بعث الموتى، ومن ثم مجازاتهم على أعمالهم، وأرسل إليه رسله، وهداه النجدين، ثم هو بعد ذلك إما شاكرٌ وإما كفورٌ، ولو احتج إنسانٌ في الدنيا بالقدر لقيل له: هل عندك علم بما سبق في علم الله عليك؟»[2].

فإن قال: نعم! فقد كذب، وإن قال: لا، قيل له: إذن فابذل الأسباب التي تجعلك من الفائزين بالجنة الناجين من النار.

ولا يعني ما سبق أن الاحتجاج بالقدر محرمٌ مطلقًا؛ بل المحرم ما كان فيه اعتراض على قدر الله تعالى، أو فيه دعوة للعاصي ليستمر في معصيته، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمرٍ قدر علي قبل أن أخلق)! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فحج آدم موسى) مرتين[3].

قال ابن عثيمين رحمه الله: «لهذا فإن

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٦٠.

(٢) المصدر السابق ٨/ ١٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى، وذكره بعد رقم ٣٤٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٢٦٥٢.

الاحتجاج بالقدر على المصائب لا بأس به، أرأيت لو أنك سافرت سفرًا وحصل لك حادث، وقال لك إنسان: لماذا تسافر؟! لو أنك بقيت في بيتك ما حصل لك شيء!

فستجيبه: إن هذا قضاء الله وقدره، أنا ما خرجت لأجل أن أصاب بالحادث، وإنما خرجت لمصلحة، فأصبت بالحادث»[1].

رابعًا: ثمرات الإيمان بالقدر:

من تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام وجد لها ثمارًا كبيرة طيبة، كانت ولازالت سببًا في صلاح الفرد والأمة، وسأحاول أن أذكر هنا بعض ثماره التي ظهرت خلال آيات القرآن الكريم:

١. تجنب الأسى والفرح المذمومين.

فالإيمان بالقدر يري الإنسان أن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا، فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع، وإذا حالفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح فرحًا يوصله للبطر والفخر.

وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

قال السعدي رحمه الله: «وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمرٌ عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير.

وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبر فظٍ غليظٍ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر:٤٩]»[2].

وهذا لا يعني أن الفرح بالنعم والحزن على المصائب محرم بإطلاق! بل يفرح بنعم الله فرحًا يقوده لشكر ربه، ويحزن على

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ٢/ ١٠٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٢.

المصائب حزنًا لا يخرجه إلى الاعتراض على القدر أو سب الدهر.

٢. طمأنينة القلب.

قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١].

قال ابن جني: قرأ عكرمة وعمرو بن دينار: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ مهموزًا[١] عن علقمة في هذه الآية قال: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[٢].

«وقوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: للتسليم لأمر الله، ونظيره قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

قال أهل المعاني: يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء»[٣].

وفي ضوء هذه الآية يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «اليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه، وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره»[٤].

٣. طريقٌ لشكر الله تعالى.

فحينما يعلم المسلم أن النعم التي يتقلب فيها هي من فضل الله تعالى قدرها وبسطها له؛ يدعوه ذلك لشكر ربه على تلك النعم، كما حكى الله تعالى عن عبده الملك الصالح ذي القرنين بعد أن وفقه الله لبناية سد عظيم على يأجوج ومأجوج فقال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف:٩٨].

«فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل؛ أضاف النعمة إلى موليها وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ أي: من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠]بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض؛ فإن النعم الكبار تزيدهم أشرًا وبطرًا.

كما قال قارون -لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة- قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]»[٥].

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، ابن جني ٢/ ٣٢٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٢١، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ١٨٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٥٥.
(٤) الإيمان، ابن تيمية ص ١٨٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٦.

وشكرهم هذا لله تعالى إنما هو نابع عن إيمانهم الراسخ بأن الله تعالى هو الذي قدر لهم تلك النعم وأقدرهم عليها، ومعلوم أن الشكر هو طريق المزيد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

٤. معرفة سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته.

فإن الله تعالى كثيرًا ما يختم آيات الخلق والقدر والمشيئة باسميه: العليم والقدير، من ذلك على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

«والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان، وهي قريبة من نفس الإنسان، والنفس شديدة الحساسية بها، فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق.

والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام، وكذلك ذكر: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فهي توكيد للإحياء النفسي المطلوب في هذا الموضع. ورد الإنسان، المحب للخير، إلى الله الذي يخلق ما يشاء مما يسر وما يسوء ومن عطاء أو حرمان.

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان: فهو ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ وهم كانوا يكرهون الإناث، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾، ويهب لمن يشاء أزواجا من هؤلاء وهؤلاء، ويحرم من يشاء فيجعله عقيما -والعقم يكرهه كل الناس-، وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله، لا يتدخل فيها أحد سواه، وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾»[1].

وقوله سبحانه: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام:٩٦].

قال الرازي: «والعزيز إشارة إلى كمال قدرته والعليم إشارة إلى كمال علمه، ومعناه أن تقدير أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة وهيئاتها المحدودة، وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة في البطء والسرعة لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات وعلم نافذ»[2].

وقوله جل وعلا: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٤].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن سعة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٦٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٧٩.

علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته، ابتدأ خلق الآدميين من ضعف؛ وهو الأطوار الأول من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة، إلى أن صار حيوانًا في الأرحام إلى أن ولد، وهو في سن الطفولية وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة، ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئًا فشيئًا حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ بحسب حكمته، ومن حكمته أن يري العبد ضعفه وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة لطغى وبغى وعتا.

وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه»[1].

٥. مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت[2].

يبين هذه الثمرة بجلاء: ما حكى الله تعالى من حال المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم كانوا يفرحون بما يصيبه من بلاء، ويحزنون لما يصيبه من نصر وخير، فقال سبحانه: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ [التوبة:٥٠].

وهنا يدل الله تعالى نبيه -وهو تعليم لجميع أمته- للتصرف الأمثل مع هؤلاء وأمثالهم فيقول سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة:٥١].

«أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ»[3].

قال ابن الجوزي في (المقتبس): سمعت الوزير يقول في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، قال: إنما لم يقل: «ما كتب علينا» لأنه أمرٌ يتعلق بالمؤمن، ولا يصيب المؤمن شيءٌ إلا وهو له، إن كان خيرًا، فهو له في العاجل، وإن كان شرا فهو ثواب في الآجل[4].

ويشير سيد قطب رحمه الله للفتة أخرى فيقول في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾: والله قد كتب للمؤمنين النصر، ووعدهم به في النهاية، فمهما يصبهم من شدة، ومهما يلاقوا من ابتلاء؛ فهو إعداد للنصر الموعود، ليناله المؤمنون عن بينة،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٤٤.
(٢) القضاء والقدر، الأشقر ص ١١٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٩.
(٤) انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٥٢٥.

ويعد تمحيص، وبوسائله التي اقتضتها سنة الله، نصرًا عزيزًا لا رخيصًا، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء، صابرة على كل تضحية»[1].

فانظر كيف علمهم الله أن يواجهوا الأزمات والمحن والصعاب بذلك الإيمان الراسخ العظيم بقدر الله تعالى وقضائه، وهكذا فليكن أهل الإيمان في كل زمان ومكان.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٦٤.

الخلق والقدر

الخلق هو المرتبة الرابعة من مراتب القدر، والخلق صفة من صفات الله تعالى الفعلية، فهو سبحانه يقول للشيء: (كن) فيكون كما يريده الله سبحانه، وفي الزمن الذي يريده، وبالكيفية التي يريدها، لا يتخلف عن قدرته سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء.

أولًا: القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى:

قضية القدر من أخطر القضايا وأغمضها، قال الله سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣].

قال الطحاوي: «فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيمًا، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرًا كتيمًا»[2] أي: طلب بوهمه في البحث عن الغيب سرًا مكتومًا، إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب، وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

وصح عن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم قوله: (إذا ذكر القدر فأمسكوا)[3].

(٢) العقيدة الطحاوية، الطحاوي ص ٥٣.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٠/ ١٩٨، رقم ١٠٤٤٨.
وحسن إسناده العراقي في المغني عن حمل الأسفار. العراقي ص ٣٩.

قال طاووس رحمه الله لرجل: «القدر سر الله تعالى، فلا تدخلن فيه»[1].

ولكن على المسلم النظر فيما بينه الله تعالى في كتابه ورسوله عليه الصلاة والسلام في سنته في شأن القدر، ولا يسترسل مع عقله في هذا الباب العظيم، ولا يطلق لنفسه العنان بالقراءة في كتب أهل الكلام أو غيرهم ممن لم يلتزموا الوحي في حديثهم عن القدر.

قال الطحاوي رحمه الله: «وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه[2]، ونهاهم عن مرامه[3]، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣].

فمن سأل - سؤال تكذيب وتعنت -: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين»[4]، أما من سأل سؤال راغبٍ في المعرفة طالبٍ للحق فنعم ما صنع؛ فقد أمر الله سبحانه بسؤال أهل العلم.

(١) الشريعة، الآجري ٢/ ٩٤٠.
(٢) خَلْقه.
(٣) طَلَبه.
(٤) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ص ٢٤٩.

ثانيًا: شمولية القدر لجميع المخلوقات:

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣].

«وهذا نص صريح أنه تعالى قد جعل لكل شيء من الأشياء -أيًا كان هو- قدرًا لا يتعداه لا بزيادة ولا بنقص، ولفظ (شيء) أعم العمومات.

وقد جاءت آيات كثيرة دالة على هذا العموم عامة وخاصة:

فمن الآيات العامة قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩]».

وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلهذا قال بعدها: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر:٥٠]»[5].

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨].

وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

«قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسقه

(٥) تيسير الكريم الرحمن،السعدي ص ٨٢٨.

مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير.

وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه، لما يدعو إلى الدهشة حقًا، وينفي فكرة المصادفة نفيًا باتًا.

ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره، في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير.

وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته؛ اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

يقول (أ. كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه بعنوان: «الإنسان لا يقوم وحده»[1]، «ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل، بالغًا هذه الدقة الفائقة، لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات، ولو كان الهواء أرفع كثيرًا مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية! وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق، ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكانت العاقبة مروعة!

أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيلٍ يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إربًا من مجرد حرارة مروره!»[2].

ومن التقدير الخاص قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٣٨-٤٠].

إنها قدرة باهرة وحكمة بالغة، وإرادة قاهرة، وسلطة غالبة، قدرة من أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، وقد قال علماء الهيئة: أن حساب مسير هذه الأفلاك في منازلها أدق ما يكون من مئات أجزاء الثانية، ولو اختلف جزءٌ من الثانية لاختل نظام العالم، ولما صلحت على وجه الأرض حياة! ونحن نشاهد حركة الليل والنهار ونقصانهما وزيادتهما وفصول السنة كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل:٢٠]وهو سبحانه وتعالى يحصيه.

(١) ترجمه محمود صالح الفلكي بعنوان: «العلم يدعو إلى الإيمان».

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٤٨.

وكذلك التقدير لوجود الإنسان قبل وبعد وجوده، قال تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾ [عبس:١٨-١٩].

أي: قدر خلقه وصورته ونوعه كما بين ذلك بقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

وقد جمع العام والخاص قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر:٢١]»[1].

ثالثًا: وقوع الأمر المقدر لا محالة:

الله سبحانه وتعالى غالب على أمره، فما شاء كان في الوقت والمكان وعلى الصفة التي شاءها سبحانه، وما لم يشأ لم يكن ولو اجتمع له من في السماوات والأرض من دونه سبحانه، قال الله تعالى حاكيًا قول جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ [مريم:٢١]أي: «وكان خلقه منك أمرًا قد قضاه الله، ومضى في حكمه وسابق علمه أنه كائنٌ منك»[2].

وفي هذا المعنى يقول سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]«أي: وكان أمره الذي يقدره كائنا لا محالة، وواقعا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»[3].

ويقول جل وعلا: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البقرة:١١٧]قال الشنقيطي رحمه الله: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه لا يتعاصى على قدرته شيء، وإذ يقول للشيء: «كن»؛ فيكون بلا تأخير، وذلك أن الكفار لما أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، ورد الله عليهم كذبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل:٣٨] بين أنه قادر على كل شيء، وأنه كلما قال لشيء: «كن»؛ كان.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله في الرد على من قال: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس:٨٢].

وبين أنه لا يحتاج أن يكرر قوله: «كن»، بل إذا قال للشيء: «كن» مرة واحدة، كان في أسرع من لمح البصر، في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر:٥٠].

ونظيره قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢١٣ بتصرف.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٦٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٢١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢٧.

﴿شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل:٧٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران:٥٩].

وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨].

إلى غير ذلك من الآيات»[١].

رابعًا: كل شيء بأجل معلوم:

قال الله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام:١-٢].

قال الطبري بعد أن استعرض الأقوال في معنى هذه الآية: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه: ثم قضى أجل هذه الحياة الدنيا، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام:٢].

وهو أجل البعث عنده، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب: لأنه تعالى نبه خلقه على موضع حجته عليهم من أنفسهم، فقال لهم: أيها الناس! إن الذي يعدل به كفاركم الآلهة والأنداد هو الذي خلقكم! فابتدأكم وأنشأكم من طين، فجعلكم صورًا أجسامًا أحياء بعد إذ كنتم طينًا جمادا، ثم قضى آجال حياتكم لفنائكم ومماتكم، ليعيدكم ترابًا وطينا كالذي كنتم قبل أن ينشئكم ويخلقكم، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام:٢] لإعادتكم أحياء وأجسامًا كالذي كنتم قبل مماتكم، وذلك نظير قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]»[٢].

وقال عن اليوم المشهود: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود:١٠٣-١٠٤].

أي: «وما نؤخر يوم القيامة عجزا عن ذلك، لكن القضاء السابق قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عنه ولا يتأخر»[٣].

وقال سبحانه عن الشمس والقمر: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢].

«والأجل: هو المدة التي قدرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتثرت العوالم وقامت القيامة.

والمسمى: أصله المعروف باسمه، وهو هنا كناية عن المعين المحدد، إذ التسمية تستلزم التعيين والتمييز عن الاختلاط»[٤].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ١٥٤.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٦.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٨١.

وهذا الأجل الذي جعله الله تعالى لكل شيء؛ قد جعله الله تعالى في كتاب عنده لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨]«وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال، وذلك أنه ليس كائنٌ منها إلا وله أجل في بدئه أو في خاتمته، وكل أجل مكتوب محصور، فأخبر تعالى عن كتبه الآجال التي للأشياء عامة»[1].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣١٦.

التعامل مع القدر

القدر لأنه ركن من أركان الإيمان بالله تعالى؛ فقد علمنا الله تعالى في كتابه الكريم كيف نتعامل معه، وسنلخص -بعون الله- في هذا المبحث طرق التعامل مع القدر التي دلنا القرآن الكريم عليها، من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الرضا بالقدر.

قال الله تعالى في أربعة مواضع يصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

قال ابن عطية: «قيل ذلك في الدنيا، فرضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه: هو رضاهم بجميع ما قسم لهم من جميع الأرزاق والأقدار، قال بعض الصالحين: رضى العباد عن الله رضاهم بما يرد من أحكامه، ورضاه عنهم أن يوفقهم للرضى عنه»[2].

الرضا بالقدر واجب؛ لأنه من تمام الرضا بربوبية الله، فيجب على كل مؤمن أن يرضى بقضاء الله، ولكن المقضي فيه تفصيل؛ فالمقضي غير القضاء: لأن القضاء فعل الله، والمقضي مفعول الله، فالقضاء الذي هو فعل الله يجب أن نرضى به، ولا يجوز أبدا أن نسخطه بأي حال من الأحوال.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٥٠٩.

وأما المقضي فعلى أقسام:

القسم الأول: ما يجب الرضا به.

القسم الثاني: ما يحرم الرضا به.

القسم الثالث: ما يستحب الرضا به.

فمثلا المعاصي من مقضيات الله، ويحرم الرضا بالمعاصي، وإن كانت واقعة بقضاء الله، فمن نظر إلى المعاصي من حيث القضاء الذي هو فعل الله يجب أن يرضى، وأن يقول: إن الله تعالى حكيم، ولولا أن حكمته اقتضت هذا ما وقع، وأما من حيث المقضي وهو معصية الله فيجب ألا ترضى به، والواجب أن تسعى لإزالة هذه المعصية منك أو من غيرك، قال نبي الله موسى عليه السلام بعد أن قتل ذلك الرجل خطأ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٦].

وقسم من المقضي يجب الرضا به: مثل الواجب شرعًا، لأن الله حكم به كونا، وحكم به شرعًا، فيجب الرضا به من حيث القضاء ومن حيث المقضي، كالصلاة والزكاة والحج.

وقسم ثالث: يستحب الرضا به، ويجب الصبر عليه، وهو ما يقع من المصائب، فما يقع من المصائب يستحب الرضا به عند أكثر أهل العلم ولا يجب، لكن يجب الصبر عليه، والفرق بين الصبر والرضا: أن الصبر يكون الإنسان فيه كارها للواقع، لكنه لا يأتي بما يخالف الشرع وينافي الصبر.

والرضا: لا يكون كارها للواقع، فيكون ما وقع وما لم يقع عنده سواء، فهذا هو الفرق بين الرضا والصبر؛ ولهذا قال الجمهور: إن الصبر واجب، والرضا مستحب[1]، قال الله تعالى عن المؤمنين الذين تحزبت عليهم قوى الكفر، حتى بلغت منهم القلوب الحناجر: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢]فرضوا وسلموا أمرهم لله تعالى، وزاد يقينهم بموعود الله ورسوله، بخلاف المنافقين الذين فروا وهربوا من الموت يستأذنون رسول الله في الرجوع لديارهم بعد أن عاهدوا الله لا يولون الأدبار!

ثانيًا: الصبر:

ومما يميز المؤمن عن غيره في موضوع القدر هو: الصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة للعبد.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) انظر: مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ٢/ ٩٢.

﴿ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

«قال سعيد بن جبير: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم تعط الأنبياء قبلها: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

ولو أعطيته الأنبياء لأعطيها يعقوب، إذ قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]»[1].

وقال سبحانه آمرًا عباده ومشوقًا لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣]ومن كان الله معه فقد زال عنه كل خوف، وزال عنه كل هم، وتأمل أخي المسلم كيف صدر الله هذه الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فكأنه سبحانه يستحث عباده الذين آمنوا به ربًا وآمنوا بالقدر خيره وشره أن يستعينوا بهاتين الطاعتين العظيمتين على كل ما يعانونه من أمورهم، أو يلاقونه من صعوبات ومحن في هذه الدنيا.

قال الرازي: «وإنما خصهما بذلك -الصبر والصلاة- لما فيهما من المعونة على العبادات، أما الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات وتحمل مشاق العبادات، وتجنب المحظورات والاستعانة بالصلاة لأنه يجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها وعلى ما يأتي فيها من قراءة، فيتدبر الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ومن سلك هذه الطريقة في الصلاة فقد ذلل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يعني في النصر لهم، كما قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]فكأنه تعالى ضمن لهم إذا هم استعانوا على طاعاته بالصبر والصلاة أن يزيدهم توفيقًا وتسديدًا وألطافًا، كما قال: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]»[2].

وعن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]: «لا والله ما هُناكم مكيال ولا ميزان»[3].

وقد عد الصبر من خصائص المؤمن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام فقال كما في حديث صهيب رضي الله عنه: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[4]، فليس هذا الفضل إذن إلا لأهل

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٦٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٤/ ١٢٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٢٩٩٩.

الإيمان الذين من أعظم صفاتهم: أنهم يؤمنون بالقدر خيره وشره.

ثالثًا: التفكر والاعتبار:

قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل:٢٠].

«أي: يقدر ساعاتهما وأوقاتهما»[(١)]، و«يأخذ هذا من هذا، أو هذا من هذا»[(٢)].

وقال تعالى عن القمر: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس:٥].

أي: جعل له منازل.

وقال عن الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت:١٠].

وقال عن كل شيء: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

هذه الآيات التي تبين قدرة الله تعالى على هذا الكون الواسع، وعلى عظيم تصرفه فيه وتقديره له؛ تحث كل عاقل على التأمل والتفكر في هذه القدرة الهائلة، والتقدير المذهل الدقيق المتقن لهذا الكون الفسيح على اختلاف المخلوقات فيه.

لهذا قال الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٨٩-١٩١].

فانظر كيف ختم الآية الأولى بقدرته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والآية الثانية بالعقول المتفكرة في عظيم صنعته وبديع قدرته وتقديره ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قال ابن كثير: «﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته، وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة، أو لي فيه عبرة». رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكر والاعتبار»[(٣)]، «وقال أبو الدرداء: تفكر ساعة خيرٌ من قيام ليلة»[(٤)].

وروى ابن عباس رضي الله عنهما في هذا مثلًا تطبيقيًا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر، قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ

(١) إعراب القرآن، النحاس ٥/ ٤٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٤.
(٤) الزهد، أحمد بن حنبل ص ١١٤.

﴿السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

رابعًا: الأخذ بالأسباب:

ومن التعامل الذي حث القرآن المؤمن أن يتعامل به مع القدر: أن يبذل الأسباب المشروعة في دفع الأقدار المؤلمة عنه قبل أن تقع، أو رفعها بعد وقوعها، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما عاتبه أبو عبيدة رضي الله عنه على فراره من الطاعون: «نفر من قدر الله إلى قدر الله»[2].

قال الله تعالى عن نبيه المبتلى أيوب عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص:٤١-٤٢].

فكان الله تعالى قادرًا أن يشفي نبيه أيوب بأن يقول لمرضه: «كن» فيكون؛ لكنه سبحانه يعلم عباده بذل السبب لدفع القدر فقال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾.

وقال ربنا تعالى عن مريم عليها السلام لما جاء بها المخاض إلى جذع النخلة: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم:٢٥]«قال القفال: الجذع من النخلة هو الأسفل»[3]، فقد «استدل بقوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٥]على التسبب في الرزق، وتكلف الكسب، وإليه أشار القائل[4]:

ألم تر أن الله قال لمريم
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه
إليها، ولكن كل شيء، له سبب

ولأجل هذا المعنى قال الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام عندما خرج مع قومه فارًا من فرعون وقومه، حتى أصبح البحر أمامهم، وفرعون وقومه خلفهم فقال له ربه: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣]مع قدرته سبحانه على فلق البحر بدون ضربه بالعصا؛ لكنه بذل السبب الذي يربينا عليه القرآن.

خامسًا: اختيار الحق:

يجب على المسلم أن يختار الحق، ويجتنب الباطل، ولا يحتج بالقدر في ترك الحق -كما مر سابقًا-؛ فإن الله تعالى قد بين له الطريقين -الخير والشر- فأمره باجتناب الشر واتباع الخير، وأنزل له من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾، رقم ٤٥٦٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم ٥٧٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، رقم ٢٢١٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٢٨.
(٤) انظر: محاسن التأويل ٧/ ٩٤.

أجل ذلك الكتب، وأرسل الرسل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:٣].

وقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد:١٠].

وجعل له مشيئة وإرادة فقال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

ثم خلق له عقلًا يستطيع به أن يميز بين الحق والباطل، قال الله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٧﴾ [الحديد:١٧].

حتى أن كلمة: (العقل) بتصريفاتها وردت في القرآن الكريم في تسعة وأربعين موضعًا.

ولم يتوقف إعذار الله تعالى لعباده عند هذا الحد؛ بل بث الله تعالى في هذا الكون الأدلة والآيات الباهرة التي تدل الإنسان على الخير والحق وعلى أن الله تعالى هو المعبود الذي لا شريك له، وبعدما بث الله الآيات في الكون حث العباد على النظر والتأمل والتفكر فيها لتدلهم على الهدى المستقيم والحق المبين؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩].

فانظر كيف كرر الله هنا على عبده هذا الأمر بالنظر ثلاث مرات في آية واحدة!

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق:٦-٨].

وبعد هذا من طلب الحق بصدق؛ وفقه الله تعالى له وهداه، كما قال الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

«قال السدي وغيره: نزلت هذه الآية قبل فرض القتال.

قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته»[1]، ومن أعظم الجهاد: البحث عن الحق وطلبه من الله تعالى بالدعاء، مع التأمل والتفكر في آيات الله الكونية والشرعية، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧﴾ [محمد:١٧].

وقال: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر:٣١].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٢٦.

فهؤلاء الذين يبذلون ما أعطاهم الله من العقل والبصيرة والعلم في طلب الحق والهدى واختياره؛ هم أهل هداية الله تعالى وتوفيقه وإرشاده.

كل هذه الأمور تدعو المسلم لأن يكون من تعامله مع القدر: اختيار الحق والسعي في طلبه، واجتناب الباطل والسعي في تركه.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التوكل، الرزق، الرضا، السعي، الصبر، الكتابة، الموت

القُدْوَةُ

عناصر الموضوع

مفهوم القدوة	٢٢٢
القدوة في الاستعمال القرآني	٢٢٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٢٤
أنواع القدوة	٢٢٥
أهمية القدوة وآثارها	٢٣٨
نماذج من القدوة في القرآن	٢٤٦

مفهوم القدوة

أولًا: المعنى اللغوي:

القدو: «أصل البناء الذي ينشعب منه تصريف الاقتداء»[١].

والقدوة، بضم القاف وكسرها: بمعنى الأسوة[٢]، وفي المصباح المنير: «الضم أكثر من الكسر»[٣]، وهي اسمٌ من: اقتدى به إذا فعل مثل فعله تأسيًا، وفلانٌ قدوةٌ، أي: يقتدى به، وتقدت به دابته: لزمت سنن الطريق[٤].

والقدوة أيضا: التقدم. ويقال: فلان لا يقاديه أحدٌ ولا يماديه ولا يباريه ولا يجاريه، وذلك إذا برز في الخلال كلها[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

القدوة: بالكسر والضم: «الاقتداء بالغير ومتابعته والتأسي به»[٦].

وعرفها الأصفهاني بأنها: «الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسنًا وإن قبيحًا، وإن سارًّا وإن ضارًّا»[٧].

وذكر الشنقيطي في أضواء البيان أن الأسوة والقدوة سواء، والمراد بهما: اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها حسنة أو قبيحة[٨].

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٩١.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٥، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٢٧٦.
(٣) المصباح المنير ٢/ ٤٩٤.
(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٥٣٤، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٩٤.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٩٢.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٦٩.
(٧) المفردات، الأصفهاني ص ٧٦.
(٨) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٨٥.

القدوة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قدو) في القرآن في موضعين[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الأمر	١	﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]
اسم الفاعل	١	﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف:٢٣]

وجاءت القدوة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الأسوة الذي يُقتدى به ويُتَّبَعُ ويُتَّخَذُ مثالًا يُسار على طريقته[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥١٨-٥١٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الفاء ص٨٧٦-٨٧٧.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ١٧١-١٧٢، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٦٦-٦٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأسوة:

الأسوة في اللغة:

الأُسوة والإِسوة بكسر الهمزة وضمها: القدوة [١]. وهي اسم من (أسا) أو (ائتسى)، بمعنى اقتدى واتبع [٢].

قال الأزهري نقلًا عن الليث: «فلان يتأسى بفلانٍ، أي: يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدى به، وكان في مثل حاله» [٣].

الأسوة في الاصطلاح:

هي: «الاتباع للفعل والاقتداء بالفاعل، وهذا الشيء أسوة هذا الشيء، أي: هو تبع له ومحكوم إلى حكمه» [٤].

الصلة بين القدوة والأسوة:

القدوة والأسوة بمعنى واحد، فهي مرادفة لها [٥].

٢ الاتباع:

الاتباع في اللغة:

أصل مادة (تبع) تدل على التُّلُوِّ والقُفُوِّ. يقال: تبعت فلانًا إذا تلوته واتبعته. وأتبعته إذا لحقته. والأصل واحدٌ [٦].

الاتباع في الاصطلاح:

قال الراغب: «تبعه واتبعه: قفا أثره، وذلك تارة بالجسم، وتارة بالارتسام والائتمار» [٧].

الصلة بين القدوة والاتباع:

بينهما تلازم، فمن يقتدي بشخص فإنه يتبعه، فإن لم يتبعه فهو غير مقتدٍ به.

---

(١) انظر: مجمع بحار الأنوار، الكجراتي ١/ ٥٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٦٣٥، مختار الصحاح، الرازي ص ١٨.
(٢) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، ابن المطرز ص ٢٦، و مجمع بحار الأنوار، الكجراتي ١/ ٥٩.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ٩٥.
(٤) تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي ص ٤٣.
(٥) الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ١/ ٤١.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٦٢.
(٧) المفردات، الأصفهاني ص ١٦٢.

أنواع القدوة

إن الإنسان في طبيعة خلقه مجبول على موازنة نفسه وأحواله بغيره من الناس، وبما جرت عليه أحوالهم، فإذا هو استثمر طبيعة نفسه هذه في النظر إلى من فُضِّلَ عليه في المال أو في الخلق عاد عليه بالضرر وكفران ما هو فيه من نعم الله، وربما حسد من رآه أفضل منه وحقد عليه، إلى آخر ما هنالك من مرذول الأخلاق![1]، وربما سره أن يكون مثله فسار على دربه وحذا حذوه للوصول إلى ما وصل إليه، مسيئًا كان المتأسى به أو محسنًا، ومن هنا كانت القدوة منقسمة إلى قسمين: إحداهما حسنة، وأخرى سيئة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: القدوة الحسنة:

يمكن القول: إن القدوة الحسنة هي اتباع الإنسان غيره في الخير، ومحاسن الأخلاق في الأقوال والأفعال، فبالقدوة الحسنة يكون المؤمن أسوة لأتباعه يقودهم بالفعل والقول، ويتأثرون بعمله الجميل ولفظه الحسن فيحذون حذوه، فإن كان الصدق مطلوبًا من كل إنسان فإنه في القدوة أكثر طلبًا، وإن كان الجد مطلوبًا من كل مسلم فإنه في القدوة أكثر حاجة؛ لأن الناس مجبولون على عدم الانتفاع بمن خالف قوله فعله، وأول علامة النجاح في القدوة أن يقوم بما يأمر به، وينتهي عما ينهى عنه[2].

وإذا تأملنا قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وجدنا أن الإنسان لا يكون مؤثرا في غيره إن هو لم يلتزم ما يأمر به غيره.

قال الشاعر[3]:

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلَّا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى
كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك تُعذر إن وَعظت ويُقتدى
بالقول منك ويُقبل التعليم
لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله
عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وتتجلى القدوة الحسنة في القرآن الكريم فيما يأتي:

١. الرسل والأنبياء.

الأنبياء والرسل هم صفوة الخلق ودعاة الحق، وقد حث الله تعالى على الاقتداء بهم

(١) انظر: الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، الرحيلي ص ٥٣.

(٢) انظر: موسوعة الأخلاق، الخراز ص ٤٢٤.

(٣) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣٤، ولطائف المعارف، ابن رجب ص ١٨، ولم يعزواه لأحد.

والسير على نهجهم وتتبع سننهم، والتأسي بأخلاقهم وأفعالهم.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

فلا يجوز لمسلم أن يحيد عن درب النبي عليه الصلاة السلام، وكل من خالف ما صح عنه عليه السلام فيما أمر به فقد خالف أمر ربه وباء بذنبه وفقد القدوة والهداية إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

لقد سطر الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- صورًا رائعة في القدوة والأسوة، ولا ينحصر الاقتداء به على جانب دون آخر، بل هي في كل جوانب حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه يقول ويفعل بأمر ربه لا بهوى نفسه.

وكما أن النبي الكريم أسوة لنا، كذلك هم الأنبياء السابقون قدوة حسنة ومثل أعلى لأقوامهم، وأسوة لنا في كل ما صح عنهم من الأقوال والأفعال: قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وفي سورة الأنعام بعد أن ذكر الله -عز وجل- نحو ثمانية عشر نبيا ورسولًا، أمر الله تعالى رسوله الكريم باقتفاء هديهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومما يدل على أهمية القدوة الحسنة، وأنها ركيزة أساسية في اقتناع الأقوام بدعوة أنبيائهم، ما قاله شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

[انظر: الاتباع: اتباع الوحي والأنبياء عليهم السلام]

٢. الصحابة والتابعون.

ممن وصفهم القرآن الكريم بأنهم أهل للقدوة الحسنة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن تتبع سيرتهم وجدها زاخرة بالخيرات ومملوءة بالبركات، وجديرة بالاقتداء في جليل الأعمال، وعظيم الأخلاق، خاصة سيرة المقربين من الرسول الأمين، وآل بيته الطيبين، والعشرة المبشرين، وعموم الأنصار والمهاجرين، ومن لحق بهم واستن بهديهم من التابعين.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

لقد دفعت القدوة الحسنة كثيرًا من الناس للإقبال سريعا على هذا الدين العظيم، فرب صفة واحدة مما يأمر به الدين تترجم حية على يد مسلم صالح يكون لها أثر لا يمكن مقارنته بنتائج الوعظ المباشرة؛ لأن النفوس قد تنفر من الكلام الذي تتصور أن للناطق به مصلحة، وأحسن من تلك الصفات التمسك بالأخلاق الحميدة التي هي أول ما يرى من الإنسان المسلم، ومن خلالها يحكم له أو عليه.

لقد دخل في هذا الدين الحنيف شعوب بكاملها لما رأوا القدوة الحسنة مرتسمة خلقًا حميدًا في أشخاص مسلمين صالحين، مارسوا سلوكهم الرشيد فكانوا كحامل مصباح يبدد ظلمة الظلم بنور الهداية[1]

لقد كان الصحابة والتابعون حملة لكتاب الله حفظًا وفهمًا وتطبيقًا.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

«قال ابن كيسان: يعني المهاجرين والأنصار، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء»[2].

٣. العلماء.

العلماء هم خير من يتأسى بالرسل الكرام؛ لأنهم فقهوا عنهم دينهم وترجموه في حياتهم العملية.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

أي: وشهد أولو العلم بأنه لا إله إلا هو قائمًا بالقسط، أي: بالعدل، واختلفوا في أولي العلم فقيل: هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم أعلم الخلق بالله تعالى، وقيل: هم علماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، وقيل: هم علماء مؤمني أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، وقيل: هم علماء جميع المؤمنين[3]، وهذا القول أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي الذي ذكر أنهم العلماء من الناس[4].

وما دامت الآية عامة فهي تشمل العلماء جميعا، فصفة العلم تشمل كل من ذكر.

قال ابن جرير: «المراد من الكلام، الخبر عن شهادة من ارتضاهم من خلقه فقدسوه: من ملائكته وعلماء عباده»[5].

وقال الرازي: «المراد من أولي العلم في

(١) انظر: موسوعة الأخلاق، للخراز ص ٤٢-٤٣.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ١١٢.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٣٤.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦١٧.
(٥) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٧٢.

هذه الآية الذين عرفوا وحدانيته بالدلائل القاطعة؛ لأن الشهادة إنما تكون مقبولة، إذا كان الإخبار مقرونا بالعلم»[1].

وفي الآية الكريمة دلالة واضحة صريحة على المكانة العالية الرفيعة التي أولاها الله تعالى للعلماء.

ومن الأحاديث التي تبين أن العلماء صورة في القدوة والأسوة عن الأنبياء، قوله صلى الله عليه وسلم: (إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا، ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ)[2].

ومن الآيات التي تبين شرف العلماء وأنهم أكمل الناس في الأخذ عن ربهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

إن التزام العلماء بهذا الدين العظيم يرسخ في نفوس الذين يأخذون عنهم الأسوة الحسنة، ذلك أن إيصال الخير إلى الناس بالقول والعمل أبلغ من إيصاله إليهم بالقول دون العمل؛ لأن الحالة الأولى فيها إشغال لحاستين عند الأتباع هما السمع والبصر، والعبرة بالبصر ربما كانت أبلغ من العبرة بالسمع وحده، فالناس يتأثرون بالأفعال أكثر من تأثرهم بالأقوال، ولا خير في عالم لا يعمل بعلمه.

٤ . الصالحون.

أهل الصلاح لايهدون الناس إلا إلى الخير والفلاح، كيف لا وهم الذين جعلوا هدي الأنبياء في قلوبهم، وخضعت جوارحهم وقلوبهم لعلام الغيوب!

ومن هؤلاء الصالحين ما أخبرنا به القرآن الكريم عن ذلك الرجل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٦٩.

(٢) أورده البخاري في ترجمة باب العلم قبل القول والعمل، من كتاب العلم، صحيح البخاري ١/ ٢٤، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب باب الحث على طلب العلم، رقم ٣٦٤١، ٣/ ٣١٧، وابن ماجه في سننه، في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم ٢٢٣، ١/ ٨١.
وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم ٢١٢، ١/ ٧٤.

يلاحظ في الآيتين السابقتين أن الرجل المذكور فيهما جاء داعيا للخير حريصا عليه، يفهم هذا من قوله تعالى في وصف حاله بـ﴿يَسْعَىٰ﴾، ولم يقل: يمشي، وفيه زيادة حرص، فمعنى يسعى: أي يسرع ويجد في مشيه[1].

وأكثر المفسرين على أن الرجل المذكور في آية القصص هو مؤمن آل فرعون كما ذكر الرازي[2]، وإن كان هذا القول لا يقطع به، فتبقى العبرة في أن الرجل جاء إلى موسى عليه السلام على وجه الإشفاق وأسرع إليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه، ونصحه بالخروج.

أما الرجل المذكور في آية سورة يس، فإن القوم جحدوا الرسل الذين أرسلوا إليهم وكذبوهم واجتمعت آراء أهل هذه المدينة على قتلهم، فجاء ذلك الرجل يسعى إليهم، وكان منزله أقصى المدينة، وكان مؤمنا[3].

لقد جاء ذلك الرجل من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين. وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته، ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها؛ إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة وهو لا يطلب أجرًا ولا يبتغي مغنمًا إنه لصادق، وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفا من الله؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم، وهو لا يجني من ذلك كسبا، ولا يطلب منهم أجرًا؟[4].

إن الصالحين هم خير من يسرع إلى الخير ويبينوه للناس متى لزم الأمر، فهم قدوة الناس إلى الخير والصلاح، وفي هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما حث الناس على الصدقة لما رأى فاقة في بعض أصحابه (فجاء رجلٌ من الأنصار بصرةٍ كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعامٍ وثيابٍ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل، كأنه مذهبةٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سن في الإسلام سنةً حسنةً، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ)[5].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٦١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٨٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٥.
(٤) في ظلال القرآن، قطب ٥/ ٢٩٦٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرةٍ، أو كلمةٍ طيبةٍ وأنها حجابٌ من النار، رقم ١٠١٧،

والسنة الحسنة في الحديث هي القدوة الحسنة؛ لأن الناس تابعته في التصدق، وفعلت مثل فعله.

٥. الآباء الصالحون.

الآباء هم قدوة الأبناء، حتى إن هذا الأمر قد درج في الأمثال نحو قولهم: من شابه أباه فما ظلم[(١)]، وقد نظموا هذا في الشعر، قال رؤبة بن العجاج[(٢)]:

بأبه اقتدى عدي في الكرم
ومن يشابه أبه فما ظلم

يصف الشاعر في هذا البيت عدي بن حاتم، بأنه اقتدى بأبيه، وسلك طريقه في الجود والكرم، فجاء على مثال أبيه.

فالقدوة بالآباء أعظم أساليب التربية في نظر الإسلام الذي يقيم منهجه التربوي على هذا الأساس، فلا بد للطفل من قدوة في والديه وأسرته لتنطبع في نفسه المبادئ والقيم الإسلامية، فإذا وجد الطفل القدوة الحسنة في والديه حذا حذوهم، وأصبح من الميسور تربيته طبقا لشريعة الإسلام.[(٣)]

إن الأب هو المعلم الأول، والأم هي المدرسة الأولى منهما ينهل الأبناء وعلى خطاهما يسيرون، فإن أحسنوا تربيتهم على الإيمان جمعهم الله بهم في الجنان.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور: ٢١].

أي: أن الأبناء إذا تبعوا آباءهم على الإيمان، وكانت مرتبتهم أدنى من آبائهم، فإنهم يلحقون بالآباء إذا كانت مراتب الآباء في الجنة أعلى من مراتبهم، ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئًا[(٤)].

وقال تعالى عن اقتداء يوسف عليه السلام بآبائه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[يوسف: ٣٨].

والآباء الذين أشار إليهم يوسف عليه السلام هم أنبياء الله الذين دعوا إلى توحيده الخالص، وبين أسماءهم من الأب الأعلى إلى الأدنى بقوله: ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا، وبين أساس ملتهم التي اتبعها وراثة

٢/ ٧٠٥.

(١) انظر: الأمثال، القاسم بن سلام ص ١٤٥، الأمثال، الهاشمي ١/ ٢٤٠، المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري ٢/ ٣٥٢، وقال: هو من قول كعب بن زهير.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١/ ٥٠، شرح الأشمونى لألفية ابن مالك ١/ ٥٠، حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك ١/ ١٠٥.

(٣) انظر: التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، السيد ص ٥٤.

(٤) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٢٠/ ٤٩٠.

وتلقينا فكانت يقينا له ولهم ووجدانا.[1]

واتباع يوسف لآبائه من القدوة الحسنة، قال القرطبي: «فلما كان آباؤه عليه وعليهم السلام أنبياء متبعين للوحي، وهو الدين الخالص الذي ارتضاه الله، كان اتباعه آباءه من صفات المدح».[2]

وبصلاح الآباء يحفظ الأبناء، فقد حكت لنا سورة الكهف قصة يتيمين حفظ الله تعالى لهما كنزهما بصلاح أبيهما.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[الكهف: ٨٢].

أراد الله تعالى إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما، ورعاية لحق صلاح أبيهما، فأمر الخضر عليه السلام بإقامة ذلك الجدار رعاية لهذه المصالح، وأضاف الخضر هذه الرعاية لأمر اليتيمين إلى الله تعالى، لأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا الله سبحانه وتعالى.[3].

٦. الصحبة الصالحة.

الصحبة هي: «الاقتران بالشيء في حالة ما، في زمان ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهي كمال الصحبة»[4].

والصحبة لها أثرها في المصاحب، فالصاحب الصالح عون لأخيه على فعل الخيرات والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف: ٢٨].

وعندما هاجر النبي عليه السلام إلى المدينة أمره ربه أن يتخذ أبا بكر صاحبًا.

قال تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠].

قال الواحدي: «قال المفسرون: وهذه الصحبة كانت بأمر الله؛ لأن جبريل لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج قال: ومن يخرج معي؟»[5].

قال ابن عادل: «وتخصيص الله إياه بهذا التشريف يدل على علو منصبه في الدين»[6].

وعلى هذا فإنه يستفاد من ذلك أن المسلم إذا أراد أن يتخذ صاحبا فعليه بصاحب الدين، فإنه أنفع له في دنياه، وأنصح له في دينه.

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١٢/ ٢٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٣.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٩٢-٤٩٣.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٥٨٧.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ١٠/ ٤٣٩، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم، ٦/ ١٧٩٩.
(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٩٦

قال ابن حبان: «والرجل لا يصاحب إلا مثله أو شكله، فإذا لم يجد المرء بدا من صحبة الناس تحرى صحبة من زانه إذا صحبه ولم يشنه إذا عرف به، وإن رأى منه حسنة عدها، وإن رأى منه سيئة سترها، وإن سكت عنه ابتدأه، وإن سأله أعطاه»[1].

ثانيًا: القدوة السيئة:

لما كانت القدوة الحسنة هي اتباع الإنسان غيره في الخير، فإن القدوة السيئة هي: اقتداء الإنسان بغيره في الشر والباطل وفعل المنكرات.

ولا يقف الحد عند الاتباع فحسب بل يتعدى ذلك إلى الدفاع عن أهل الباطل وتبرير أفعالهم، والتسويق لكفرهم أو فسقهم وفجورهم، ومن أنواع القدوة السيئة التي ذكرها القرآن الكريم ما يأتي:

١ . الشيطان وحزبه.

من أسوء أنواع القدوة أن يتتبع الإنسان سبيل الشيطان وحزبه، وأن يحذو حذوهم متناسيا أمر خالقه سبحانه في وجوب اتخاذه عدوًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

«أي: عادوه بطاعة الله ولا تطيعوه فيما يأمركم به من الكفر والمعاصي»[2] فإن مصير أتباعه أن يكونوا من أصحاب السعير.

إن الاقتداء بإبليس لا يجدي نفعا، ولا يكشف ضرا، بل يجلب الحسرة والخزي والندامة حين إن إبليس يتبرأ من متبعيه يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

يصدر هذا الاعتراف الصريح من إبليس يوم القيامة فيعترف أن الوعد الحق هو وعد الله على ألسنة رسله، وأنه وعد أتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدًا حقًّا، وخبرا صدقًا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، واعتذر إبليس لنفسه قائلًا: وما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، غير أنكم استجبتم لي بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، فلا

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان ص ١١٠

(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٥٣.

تلوموني اليوم، ولوموا أنفسكم، فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل[(١)].

«فيا للشيطان! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه!»[(٢)].

[انظر الاتباع: اتباع الشيطان]

٢. الكبراء والرؤساء.

إن نظرة كثير من الناس قاصرة، فهم ينظرون إلى عاجل أمرهم دن آجله، ولأجل ذلك ربما قدموا طاعة القادة والزعماء على طاعة الخالق سبحانه، وهذه الطاعة للقادة إما أن تكون خوفا من بطشهم وعقابهم، وإما أن تكون طمعا فيما بين أيديهم من الجاه والمال، وفي المقابل فإن خنوعهم وخضوعهم وتذللهم هذا يزيد القادة بطشا واستكبارا وغرورا، فيتمادوا في الباطل وينساق الاتباع خلفهم، وهذا ماحدث لفرعون حين استخف قومه ونصب من نفسه إلها من دون الله، واتبعه قومه على باطله، فكان بئس القدوة لمن اقتدى به.

قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٖ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٧ - ٩٨].

أي: يقودهم، فيمضي بهم إلى النار، حتى يوردهموها، ويصليهم سعيرها، وبئس الورد الذي يردونه[(٣)].

وهذا مصير أي ولاء يكون لغير الله، فإن القادة سيتخلون عن أتباعهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعٗا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٖۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١].

والضعفاء هم الضعفاء. هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين والطغاة. ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله. والضعف ليس عذرًا، بل هو الجريمة فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله. وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعًا عن نصيبه في الحريه -التي هي ميزته ومناط تكريمه- أو أن ينزل كارهًا. والقوة المادية -كائنة ما كانت- لا تملك أن تستعبد إنسانًا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية. فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٩.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٦٦.

الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أما الضمير. أما الروح. أما العقل. فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال! من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعًا للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة. فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهًا أو مالًا أو منصبًا أو مقامًا إنما هم ضعفاء؛ لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم

فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان! إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء[1].

وفي صورة أخرى من صور مخاصمة الأتباع لقادتهم يوم القيامة يوم الخزي والندامة للتابع والمتبوع على طريق الضلال.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧ – ٤٨].

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار، وتخاصمهم، فيقول الأتباع للقادة والسادة والكبراء: (إنا كنا لكم تبعا) أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، فهل تتحملونه عنا قسطا من العذاب؟. فكان الجواب من السادة: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال.[2].

٣. الآباء الكافرون.

القدوة السيئة بالآباء أخطر ما يهدد إيمان الأسرة وأمنها، فإذا رأى الولد في صغره سلوك أبيه قلده دون أن يدري ماذا يفعل، ويتحمل الأب هنا وزر القدوة السيئة، غير أن الإنسان لا عذر له بالاقتداء بالآباء بعد أن يصبح ناضجا، فعليه أن يعمل عقله، لا أن يلغي تفكيره ويتبع الآباء على ضلالاتهم ويصبح كالأنعام، ينساق خلف قائد القطيع بلا عقل ولا روية، وهذا ما نعاه الله تعالى على المشركين.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

والملاحظ في هذه الآية أنها جاءت في سياق آيات من سورة البقرة تحذر من القدوة

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤٩.

السيئة ومن تبعية السوء، فقبلها بخمس آيات كان الكلام عن اتخاذ الأنداد: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

فهؤلاء الناس قدموا محبة الأنداد وطاعتهم على طاعة الله، ثم تلتها براءة التابع والمتبوع من بعضهما ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦].

وبعدها جاء الكلام عن الشيطان وسبل إغوائه للإنسان ليصرفه عن القدوة الصالحة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ -١٦٩].

قال البيضاوي: «﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى فتحرموا الحلال وتحللوا الحرام»[(١)].

ثم عاد الكلام ليصرح بتبعية فاسدة أخرى هي تبعية الأبناء للآباء الضالين، واقتدائهم بهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[البقرة: ١٧٠].

وذكر الشيطان في وسط الآيات التي تتكلم عن التبعية والولاء والبراء فيه إشارة إلى أن هذه القدوات الباطلة ما هي إلا اتباع لوساوس الشيطان، وأنها سوء وفحشاء، وأن الاقتداء بالضالين والمفسدين من الآباء وغيرهم فيه تعطيل للعقل والحواس، واقتداء بالشيطان الرجيم.

وجاء اقتران مقولة هؤلاء الكفرة في الاقتداء بالآباء مع ذكر الشيطان في آية أخرى.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

وهذا يدل على أن الشيطان الرجيم يقف خلف تزيين القدوة السيئة للناس.

ومن الآيات التي نهت عن الاقتداء بالآباء في العبادات وسيء العادات:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[المائدة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[هود: ١٠٩].

«ومما يروى من نوادر العامة أن رجلا كان له ابن، ولما أسن وعجز عن العمل أخذه ابنه ذاك وذهب به إلى فلاة من الأرض، فطرحه تحت شجرة وتركه هناك حتى هلك. فلما كبر هذا الابن وبلغ مبلغ أبيه كان له ابن له

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١١٨.

وهو لا يعلم بالقصة، فأخذه أيضًا وذهب به إلى الفلاة وطرحه تحت شجرة كما فعل هو بأبيه. فلما تولى عنه التفت إليه فرآه يبتسم. فتعجب من ذلك ورجع إليه وقال له: مم تضحك، وقد أيقنت بالهلاك؟ فقال له أبوه: والله ما ضحكت إلا إنني تذكرت ما فعلت بأبي، وقص عليه القصة. فقال الولد حينئذ: لئن أنا تركته حتى مات ليفعلن بي عقبي مثل هذا. فأخذه ورده إلى بيته»[1].

[انظر: الاتباع: الآباء الكافرون]

٤. الصحبة السيئة.

مضى المثل بقولهم: الصاحب ساحب، وهو كذلك فهو إما أن يسحب صاحبه إلى الجنة وإما أن يسحب صاحبه إلى النار، وعندها تقع الحسرة والندامة للتفريط في الصحبة الصالحة.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[الفرقان: ٢٧-٢٨].

فالواضح من الآية الكريمة أن الصاحب الفاسد هو سبب هلاكه ودخوله النار. وقد يكون الصاحب من غير أهل الإسلام! والنهي في حق هذا أشد، وفيه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾[آل عمران: ١١].

أي: بطانة من غيركم من أهل الأديان الأخرى، وبطانة الرجل هم خاصة صحبه الذين يطلعون على داخل أمره[2].

وحتى يتجنب المرء الصحبة الفاسدة عليه أن يتحرى في صاحبه صفات الصاحب الصالح إذ ينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلا، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت قال علي رضي الله عنه:

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهلٍ أردى حليمًا حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه
وللشيء على الشيء مقاييسٌ وأشباه

وأما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة في صحبته؛ لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة؛ ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم، اليوسي ١/ ٢٤٤.

(٢) التيسير في أحاديث التفسير، الناصري ١/ ٢٥٨.

وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦].

وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق، وأما المبتدع، ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته، ومما قاله عمر رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق: واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين من القوم، ولا أمين إلا من خشي الله، فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى [(١)].

كما أن مشاهدة الفسق والفساق تهون أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها، وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء؛ بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة[(٢)].

ولما أن كان للصحبة أثر كبير في اقتداء كل منهما بصاحبه تعددت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوب اختيار الرفيق الصالح، والابتعاد عن رفيق السوء، ومن ذلك: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل) [(٣)].

إن الصحبة السيئة تجلب لصاحبها الشقاء السرمدي، فربما كان الإنسان مستقيمًا فيتعثر بصاحب السوء فيقلب له حياته رأسا على عقب، وتنقلب الطاعة إلى معصية، فلا يجد عند صاحب السوء إلا نار الدنيا قبل نار الآخرة، وما أجمل تشبيه النبي عليه الصلاة والسلام لصاحب السوء بكير الحداد الذي هو نار وحر ودخان في الدنيا ووباله في الآخرة كذلك، فعن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثةً)[(٤)].

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ١٧١-١٧٢.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٧٣.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٤/ ١٤٢. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٤، رقم ٣٥٤٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، بابٌ في العطار وبيع المسك رقم ٢١٠١، ٣/ ٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء، رقم ٢٦٢٨، ٤/ ٢٠٢٦.

أهمية القدوة وآثارها

أولًا: أهمية القدوة:

مما لا شك فيه أن القدوة لها تأثير كبير في المقتدي، والمقتدى به، فالأول متابع للثاني إن أحسن أحسن متبعوه، وإن أساء أساء متبعوه، فهم على دربه سائرون، أما المقتدى به فهو أحد اثنين، إما أن يبهره جاهه بعد أن أصبح مطاعا متبعا مشهورا يحاكى من الآخرين فينتظرون قوله ويترقبون فعله، فإنه وقت إذ ربما يفتن عن دينه وينحرف في أخلاقه، وقد تزهو نفسه فينالها العجب بدلا من التواضع، ويصبح همه الظهور والقشور، وإما أن يزداد تواضعا وخوفا من الله وخشية، ويزيد في شكر الله عز وجل على ما سخر له من أمور الدنيا وقلوب العباد.

للقدوة الحسنة أهمية بالغة، فهي دعوة الصالحين الدائمة في كل صلاة يتوجهون فيها إلى الله عند قراءة أم الكتاب، وذلك حين يردد المؤمن طالبا الهداية من رب العالمين بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

إنه يريد طريق الهداية متأسيا ومقتديا فيمن هداهم الله الصراط المستقيم: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧].

كلمات تغرس في قلب المؤمن وجوب القدوة الحسنة، مع كل صلاة بل مع كل ركعة يستفتح فيها بفاتحة الكتاب، وهو إذ يطلب من الله تعالى أن يرشده القدوة الحسنة يستعيذ به سبحانه من القدوة السيئة.

١. أهمية القدوة الحسنة[(١)].

إن حاجة الناس إلى القدوة نابعة من غريزة كامنة في النفوس هي التقليد والمحاكاة. فقد فطر الناس على افتقاد القدوة والبحث عن الأسوة، ليكون لهم نبراسا يضيء سبيل الحق، ومثالا حيا يبين لهم كيف يطبقون شريعة الله، لذلك لم يكن لرسالات الله من وسيلة لتحقيقها على الأرض إلا إرسال الرسل، يبينون للناس ما أنزل الله من شريعة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: ٤٣-٤٤].

تعد القدوة الحسنة أفضل أساليب التربية وأقربها إلى النجاح، فالإنسان في طبعه يميل إلى التقليد والمحاكاة، فإذا كان المحاكي قدوة تأصلت في المقتدي الخلال الطيبة والخصال الكريمة والقيم الرفيعة.

(١) انظر: التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، عاطف السيد ص ٥٣-٥٤. أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوي ص ٢٠٥-٢٠٨.

إن صاحب القدوة يحقق بأسلوبه وسلوكه كل الأسس والأساليب والأهداف التي يرجى أن يقوم عليها نموذج المجتمع القدوة، لذلك بعث الله النبي محمدا صلى الله عليه وسلم؛ ليكون قدوة حسنة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

فكان الرسول الكريم هاديا ومربيا بسلوكه الشخصي بالإضافة إلى الذكر الحكيم والسنة، وكان النبي ترجمة عملية حية لتعاليم وآداب القرآن، كما أن سيرة الصحابة والتابعين تعد نموذجا لتجسيد القدوة الحسنة للمجتمع المسلم.

ولا بد للناس من قدوة في مجتمعهم تجسد لهم شريعة الإسلام السمحة وتقاليده السامية؛ ليحملوا بصدق أمانة تربية الأجيال، ولا بد للمجتمع من قدوة فيمن يتولى أمره تتجسد فيه المبادئ الإسلامية فيتطلع المجتمع إليه ويسير على نهجه.

القدوة الحسنة في الإسلام هي لمن التزم بالمنهج الرباني، فنجاح الأثر التربوي للرسول عليه السلام يتوقف على الإيمان بأنه مؤيد بالوحي والإلهام من عند الله، فلا يقره الله على خطأ في التشريع، وأنه أمين قد بلغ رسالات ربه، فإذا تم هذا الإيمان شعر الإنسان بسعادة عظيمة كلما اقتدى بأمر من أوامر الرسول، أو أسلوب من أساليبه التربوية في الحياة، أما الفلاسفة والزعماء وعلماء التربية، فإنما يتبعون الظن، ويضعون النظريات [1]، لذلك كان الأنبياء والرسل في كل عصر قدوة للناس.

أهم ميادين القدوة: الأسرة والمدرسة، لذلك كانت الأسرة محط نظر الإسلام كونها اللبنة الأولى لبناء المجتمع، فلا بد للطفل من قدوة في والديه وأسرته لتنطبع في نفسه المبادئ والقيم الإسلامية. ومما لا شك فيه أنه إذا وجد الطفل القدوة الحسنة في والديه وفي معلمه حذا حذوهم، وأصبح من الميسور تربيته طبقا لشريعة الإسلام، لقد ذكر لنا القرآن الكريم حرص الأبناء البررة على اتباع الآباء المخلصين، قال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨].

وفي المقابل ذكر القرآن الكريم حرص الآباء المخلصين على هداية أبنائهم وإرشادهم كما جاء في بعض وصايا لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

إن أهم الأسس النفسية لاتخاذ القدوة هو دافع التقليد: والتقليد أمر غريزي يتجلى في الرغبة الملحة التي تدفع الضعيف،

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوي ص ٨١.

والمرؤوس إلى محاكاة سلوك القوي والرئيس، كما تدفع غريزة الانقياد في القطيع جميع أفراده إلى اتباع قائده، واقتفاء أثره، ويرتقي التقليد بارتقاء المجتمع، حتى يبلغ في التربية الإسلامية ذروته من الوعي، والسمو والهدف النبيل، والتقليد يرتكز على ثلاثة عناصر:

أولها: الرغبة في المحاكاة والاقتداء، فالشخص المقلد مدفوع برغبة خفية لا يشعر بها، نحو محاكاة من يعجب به في لهجة الحديث، وأسلوب الحركة والمعاملة والكتابة، ومعظم عادات السلوك، دون أن يقصد، وهذا التقليد غير المقصود لا يقتصر على حسنات السلوك، بل قد يتعداها إلى غيرها، فالشخص المتأثر يتقمص، عن طريق لا شعوري، شخصية المؤثر كلها أو جلها، ولذلك كان من الخطورة بمكان ظهور المساوئ في سلوك القدوة؛ لأنه بذلك يحمل وزر من يقلده فيها. لذلك نبه القرآن الآباء إلى أن الاستمتاع بالأطفال، والحنان والعطف عليهم، يجب ألا يشغلهم عن أن يكونوا قدوة صالحة لهم، فقال في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

فوصف عباد الرحمن بأنهم يرغبون في أن تقر أعينهم بالزواج والولد، كما يرغبون في أن يكونوا قدوة وإماما، كما نبه رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم البشرية عمومًا إلى ما يتحمله كل من يؤثر في سلوك الآخرين، من النتائج حين يقلدونه بخير أو شر، قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو عمر، وجرير بن عبد الله: (من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيء). وقد كان سبب ورود الحديث أنه جاء قوم مجتابي النمار يبدو عليهم الفقر، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة ليتصدقوا فلم يتقدم أحد، فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة، حتى قال صحابي: فجاء بوسق من تمر، ثم قلده الصحابة، فتتابعوا يجلبون مما عندهم فذكر الحديث.

الثاني: الاستعداد للتقليد: في كل مرحلة من العمر استعدادات، وطاقات محدودة لذلك لم يأمر الإسلام الأطفال بالصلاة قبل سبع سنين، ولا يمنع ذلك من ترك الطفل يقلد أبويه بحركات الصلاة قبل أن يبلغ سبع سنين، ولكن لا يؤمر بكل أذكارها. وعلى العموم يجب أن نحسب حسابا لاستعداد الطفل، وطاقاته عندما نطلب منه تقليد

أحد أو الاقتداء به. ومن الظروف التي تهب الناس عموما استعدادا للتقليد، والأزمات والآلام الاجتماعية والكوارث، هناك يخرج المجتمع مهيض الجناح، فيفتقد القائد القدوة ليجد فيه أبا عطوفا، وبطلا منقذا يحاكيه الناس في كل سلوك من حياته النفسية والاجتماعية، وفي آرائه وأفكاره ومن تلك الأسباب: الشعور بالضعف أمام القوة، فالمغلوب يقلد غالبه بعد أن يستكين ويخضع لحكمه، والمرؤوس يقلد رئيسه والطفل يقلد أباه، وقد نبه ابن خلدون على هذا المبدأ في مقدمته، وذكر أدلة ووقائع تاريخية على ذلك، بيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم حذرنا من مغبة هذا التقليد إذا كان بغير هدف، وكأنه انكشف له حجب الغيب، فتوقع الضعف الذي سينزل بهذه الأمة، فقال: (لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع).

الثالث: الهدف. لكل تقليد هدف قد يكون معروفا لدى المقلد وقد لا يكون، والهدف الحيوي «الغامض» الأول من غريزة التقليد، والانقياد لدى الأطفال، والجماعات هو غرض دفاعي، إنه الدفاع عن الكيان الفردي وكأنه انضواء في ظل الشخص القوي المرموق، يقلده شخص أضعف منه، لعله يستمد من هذا التقليد قوة وبأسا، من جنس قوة الشخص الذي حاز إعجابه فراح يحاكيه في كل شيء. فإذا ارتقى الوعي عند المقلد، عرف الهدف من التقليد، فأصبح هذا التقليد عملية فكرية، يمزج فيها بين الوعي والانتماء، والمحاكاة والاعتزاز، ويصبح لهذا بصيرة أي: معرفة بالغاية والأسلوب، وفي هذا المعنى يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

إن غياب القدوة الحسنة مدعاة لظهور الفساد والانحلال والبعد عن المنهج الحق. إن القدوة ترجمة عملية واقعية للمبادئ والأفكار تستطيع أن تجمع الناس حول المثل الأعلى، ولذا حين تفتقد المثل الأعلى، ويصبح الناس فرقا وجماعات ومذاهب، فيفقدون إرادة الفعل ويغرقون في التناطح، ويتترسون خلف متاريس الفكر، كل يحاول الانتصار لفكرته بالكلام والتراشق بالاتهامات، والتعصب الأعمى القائم على التقليد الأعمى[1].

إن مجتمعاتنا تشكو من فقر خلقي وعلمي وحضاري، وما ذلك إلا نتيجة لافتقادها للقدوة الصالحة ولو صحت عزائم الناس والعلماء منهم خاصة لأصبح كل واحد منهم قدوة حسنة في مجاله- فهو يملك مقوماتها- ولتحولت الأفكار

(١) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ١/ ١٤٩.

والمبادئ إلى فعاليات سلوكية صحيحة، وهذا ما نحتاجه فعلا، ولكن- وللأسف- ما زلنا نعيش مرحلة اجترار المبادئ والأفكار بدون فعالية، فنحن في أمس الحاجة إلى القدوة الصالحة بكافة أشكالها وبشروطها السابقة، ويوم أن توجد تلك القدوة نستطيع أن نمتلك الفعالية، وننتج الحضارة، ويكون لنا مكاننا العالمي عطاء وإبداعا[1].

فنحن في هذا الزمان بحاجة ماسة إلى دعاة مخلصين صادقين يغلبون هم الدين على المصالح الشخصية والأهواء. فأمثال هؤلاء الذين يوافق قولهم فعلهم طريقهم سهلة إلى قلوب الناس، وهم على اقتدار أن يحدثوا فيها التغير.

٢. مقومات القدوة الحسنة المؤثرة.

وهي تشمل:

- الأخلاق الحسنة، وهي تشمل كل أخلاق القرآن الكريم تأسيا برسول الله عليه الصلاة والسلام الذي كان خلقه القرآن، ولا يقتصر على خلق دون خلق.
- أن تكون هذه الأخلاق الحسنة مستمدة من الشرع، فربما كانت أخلاق مستحسنة عند أقوام وفيها مخالفة للشرع.
- الموافقة التامة بين الأقوال والأفعال، وإتباع القول العمل.
- التضحية وحب الآخرين.
- الإخلاص في الأقوال والأفعال.

الآثار التربوية للقدوة الصالحة على الفرد والمجتمع:

وتتمثل أهم آثار القدوة الصالحة على الفرد في الآتي[2]:

١. إن القدوة الصالحة تجعل المسلم على اتصال دائم بالخالق عز وجل؛ لأنه يذكره بالطاعة والإخلاص في النية والعمل، وإذا تمكن الإخلاص من القلب أصبح الإنسان يبتغي مرضاة الله ورضوانه في كل عمل يقوم به، ويجعل الله رقيبًا عليه في حركاته وسكناته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

٢. القدوة الصالحة تربي الشخصية المسلمة القوية ذات الشكيمة والإرادة الحديدية؛ لأنها تنشئ في روح الفرد العزة والكرامة ورفض الظلم والاحتلال، فلا تلين له قناة أمام الطغاة والمتجبرين؛ لأنه يعتز بقدوته التي جاءت بكل ما تملك من أجل تحقيق معاني الخير للمجتمع، فقدمت النفس

(١) المصدر السابق ١/ ١٤٩.

(٢) انظر: القدوة الصالحة وأثرها على الفرد والمجتمع، عصام العبد زهد، ص ١١-١٢.

والمال والنفيس في سبيل الله.

٣. تنمي القدوة الحسنة الفضائل والأخلاق الحميدة في نفوس الأفراد، ويتضح ذلك من خلال حديثنا عن صفات القدوة الحسنة حيث وجدناها تتصف بصفات أخلاقية وقيم عليا إذا تحققت في الفرد المسلم أصبح في قمة سامقة ينظر نظرة إنسانية إلى جميع القضايا التي تواجه الناس جميعًا.

٤. القدوة الحسنة تشحن الأفراد بالتقوى ومعرفة الله وتعزز في نفوسهم الثقة والأمل بالمستقل المستمد من نصر الله وثوابه للمؤمنين، فينطلق المؤمن بشحنات إيمانية مستمدة من قادته وقدواته يدفعه إلى فعل الخير والبر والإحسان وبالمقابل محاربة الفساد والمنكر وكل ضارٍّ في المجتمع.

٥. التربية بالقدوة تعمل عملها في تكوين الإنسان الصالح الذي يظهر عليه ملامح التقوى والخشوع والحياء، وهو المؤمن القوي الذي لا يدخل الوهن إلى قلبه، الإنسان الذي يحب لأخيه كما يحب لنفسه الحب الخالص الذي لا ينتظر جزاءً ولا شكورًا ولا يهدف إلا لكسب الحب في الله سبحانه [(١)].

٦. الاقتداء بالقدوة الصالحة ينشئ التوازن والاعتدال في سلوك الأفراد وشعوره؛ لأن طاقته في ظل المنهج الرباني كلها تعمل وتأخذ نصيبها من الحياة بحيث يصبح قوة فاعلة في المجتمع، فهو إيجابي واجتماعي حريص على مصلحة مجتمعه [(٢)].

٧. ومن آثار القدوة الصالحة أنه يبصرك بعيوبك ويرشدك إلى الأسلوب الأمثل في التخلص منها، من خلال مقارنة أعمالك وسلوكك بما عليه قدوتك الصالح فتتأسى به وتصلح تلك العيوب.

٨. ومنها أن القدوة الصالح يعلم الإنسان ويرشده إلى فعل الخيرات، فيدلك على أمور واجبة كنت غافلًا عنها أو متكاسلًا عن أدائها، ويشجعك على المشاركة في مشروعات الخير والبر والإحسان.

٩. إن القدوة الصالحة سببٌ في دخول الإنسان ضمن الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون يوم القيامة، وهي ضمانٌ لاستمرار الصحبة، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ١/ ٢٢٨.

(٢) القدوة الصالحة وأثرها على الفرد والمجتمع، عصام العبد ص١٢.

﴿ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨﴾ [الزخرف: ٦٧-٦٨].

وإذا كانت التربية بالقدوة لها الدور الكبير في إعداد الفرد الصالح، فإن ذلك يؤدي إلى النجاح في تكوين المجتمع الصالح؛ لأن الفرد نواة الأسرة، والأسرة هي نواة المجتمع، وبذلك نستطيع حصر هذه الآثار في الآتي[1]:

- إن القدوة الحسنة لا يعيش مشغولًا بذاته بل يمد يديه بالخير والعون ويعطي إلى المجتمع ما يزيده أمنًا وسلامًا؛ لأنه يعرف معنى الإنسانية ويدرك مسئوليات الأخوة في المجتمع، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة:٢].
- التربية بالقدوة تعمل على توحيد المجتمع الإسلامي بحيث يعمل أعضاؤه في بوتقة واحدة متضامنة في مواجهة الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهذا مطلب تربوي. إحياء المنهج الإسلامي من خلال جعل المسلمين جسمًا واحدًا يشعر الجميع بشعور واحد، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١].
- إن التربية بالقدوة تغرس الروح الجماعية في قلب الفرد المسلم من خلال أن الجميع يقتدون بقدوتهم الذي هو المثال الحي في البذل والعطاء والتضحية والفداء، وعندما أحب الناس القدوة الأول محمد صلى الله عليه وسلم قام المجتمع الإسلامي الفريد، مجتمع البذل والعطاء، مجتمع كل فرد فيه يشكل أمة؛ لأنه تربى على الينبوع الأساسي القرآن الكريم وأخذ منه توجيهاته الربانية.
- التربية بالقدوة تعمل على تربية الناس خلقيًا وروحيًا وتربطهم بالله رب العالمين، كما أنها تقوي المجتمع من الناحية الإرادية؛ لأن الجميع تربى على الصبر والمصابرة وتحمل الصعاب من أجل المبدأ والفكر الذي آمن به.

وعند النظر في واقع أمتنا، وفي الآيات التي تحدثت عن الاتباع والقدوة بشقيها، نجد أن أهم عوامل غياب القدوة الحسنة يتجلى في الآتي:

١. قلة وجود القدوة الحقيقية الصالحة القادرة على كسب قلوب الناس في المجتمع بشكل عام.
٢. الانشغال بلذات الدنيا، ومتاعها الزائل.
٣. طول الأمل وعدم التفكير بالموت

(١) المصدر السابق ص ١٣-١٤.

وسنن الحياة في مداولة الأيام بين الناس، وأن الدوام لله وحده.

٤. الغفلة عن نعيم الجنة لمن اقتدى بهدي الأنبياء.

٥. الغفلة عن عذاب النار لمن اقتدى بأئمة الكفر والضلال.

٦. غياب الجانب التوعوي في أهمية القدوة الحسنة على الفرد والمجتمع في الدنيا.

٧. عدم إدراك مخاطر القدوة السيئة على الفرد والمجتمع.

٨. غياب الشعور برقابة الله الدائمة على أعمال الإنسان.

٩. غياب الإعلام الإسلامي الهادف الذي يؤسس للقدوة الحسنة.

١٠. متابعة الفضائيات والمسلسلات التي تبث القيم الهابطة.

١١. تعلق الناس كثيرا بالمظاهر والنفاق الاجتماعي.

١٢. ضعف القدوة في مجالات الحياة المختلفة، الأب على أبنائه، المعلم على طلابه، البائع في تجارته، المدير في دائرته.

١٣. انشغال المرء بنفسه، وعدم تنبيه وتبصير الآخرين بعيوبهم.

١٤. غياب فكرة وحدة الأمة والجسد الواحد في التآخي والتناصح.

١٥. الانبهار بالحضارة الغربية والشعور بالدونية، مما يجعل الاقتداء بالغرب أكثر من التفتيش عن القدوة في مجتمعاتنا.

١٦. تولي الرويبضة -الذي ربض عن المعالي وقعد عن طلبها- في قيادة المسلمين وتولي أمورهم في كثير من شؤون حياتهم.

١٧. عدم الإلمام بسيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، حتى إنني أسأل طلابي في مدرجات يزيد عدد طلابها عن المائة والخمسين عن أسرة النبي عليه السلام عن أبنائه وبناته فلا يكاد يجيب إلا القليل.

١٨. تشويه صورة التاريخ الإسلامي، وصورة الخلفاء وقادة الحروب.

نماذج من القدوة في القرآن

إن النماذج التي عرضها القرآن للقدوة الحسنة وللقدوة السيئة كثيرة، وكان عرض الصور الحسنة منها للحث على الاقتداء بها، وفي المقابل كان عرض الصور السيئة للتحذير من الاقتداء بها والسير على طريقها، وسيتم عرض الموضوع في النقاط الآتية:

أولًا: نماذج من القدوة الحسنة في القرآن الكريم ومعالم الاقتداء بهم:

١ . إبراهيم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

ومعنى «كان أمة»، أي: إمامًا في الخير يقتدى به، ويتبع عليه[١].

قال ابن قتيبة: «أي: إماما يقتدي به الناس، لأنه ومن اتبعه أمة، فسمي أمة لأنه سبب الاجتماع.

وقد يجوز أن يكون سمي أمة: لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة. ومن هذا يقال: فلان أمة وحده، أي: هو يقوم مقام أمة»[٢].

والأمة من (أم)، أصلها في جميع تصريفاتها من القصد، يقال: أممت الشيء إذا قصدته، فمعنى الأمة في القرن من الناس: الذين يقصدهم مقصدًا واحدًا، ومعنى الأمة في الدين: إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه؛ ولذلك سميت النعمة أمة، ومعنى الأمة في الرجل: الذي لا نظير له: أن قصده منفرد من قصد سائر الناس[٣].

وهو متميز ومنفرد عن غيره، وقد جاز تسمية الواحد باسم الجماعة لاجتماع أخلاق الخير الذي يكون في الجماعة المفرقة فيمن سماه بـ «الأمة»، كما يقال: «فلان أمة وحده»، أي: أنه بمفرده يقوم مقام الأمة[٤].

وقد أمر رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام بالاقتداء بإبراهيم واتباع ملته.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

بل إن الدعوة للاقتداء بإبراهيم عليه السلام لم تكن لمحمد عليه السلام وحدة بل كانت للناس جميعا بما فيهم عبدة الأوثان من العرب، قال الرازي عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٦.
(٢) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٢٤٩.
(٣) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٧.

«فكأنه تعالى قال للعرب إن كنتم مقلدين لآبائكم على ما هو قولكم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ومعلوم أن أشرف آبائكم وأجلهم قدرا هو إبراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة الأوثان وإن كنتم من المستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها إبراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الأوثان وبالجملة فاتبعوا إبراهيم إما تقليدا وإما استدلالا»[(١)].

ومجالات القدوة بإبراهيم عليه السلام كثيرة جدا قال الفيروزآبادي: «وقد ذكر الله سبحانه إبراهيم بالتعريض والتصريح في كتابه بخمسين اسمًا»[(٢)].

ومن الأسماء التي أوردها مع دليلها من القرآن الكريم:

- المبتلى بقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾[البقرة: ١٢٤].
- والإمام بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[البقرة: ١٢٤].
- والمطهر بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[الحج: ٢٦].
- والحنيف والمسلم بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[آل عمران: ٦٧].
- والصالح بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[البقرة: ١٣٠].
- والحليم، والأواه، والمنيب بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٥].

وكثير مما ذكره الفيروزآبادي يصلح للاقتداء بإبراهيم عليه السلام، أذكر منه أنه عليه الصلاة والسلام كان:

١. قانتا لله.

وهي الصفة الأولى التي تلت وصفه بأنه كان أمة، قال تعالى: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾. وقانتًا تعني أنه عليه السلام كان مطيعا لله، أوهو القائم بأوامر الله[(٣)].

٢. حنيفًا.

أي: «مائلًا إلى ملة الإسلام ميلًا لا يزول عنه، وقيل حنيفًا: مستقيمًا على دين الإسلام. وقيل: مخلصًا»[(٤)].

٣. شاكرًا لأنعم الله.

قال الله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ يعني: أنه كان شاكرا لله على نعمه العظيمة التي أنعم بها عليه، فقد اجتباه ربه، أي: اختاره لنبوته واصطفاه لخلته وهداه إلى دين الإسلام؛ لأنه الصراط المستقيم والدين القويم[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٤٢.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٦/ ٣٣.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٠٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦١١.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ١٨٣.
(٥) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٠٥.

٤. أوَّاهًا.

تعددت أقوال المفسرين في معنى الأواه: فعن ابن مسعودٍ، أن: الأواه: الرحيم، وعن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، أنه الموقن[(١)].

وأخرج الطبري عن جماعة أن الأواه هو كثير الدعاء[(٢)] وأخرج عن ابن عباس قوله: «إن إبراهيم لأواه»، يعني: المؤمن التواب[(٣)]. وذكر الرازي أنه الخاشع المتضرع، وقال: «واعلم أن اشتقاق الأواه من قول الرجل عند شدة حزنه أوه، والسبب فيه أن عند الحزن يختنق الروح القلبي في داخل القلب ويشتد حرقه، فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق من القلب ليخفف بعض ما به هذا هو الأصل في اشتقاق هذا اللفظ»[(٤)].

ولخص ابن عاشور المعنى بقوله: إن الآية ثناء على إبراهيم. ولأواه يرجع إلى الشفقة إما على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار، وإما على الناس فتفيد الرحمة بهم والدعاء لهم.[(٥)]

٥. حليمًا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

«والحليم: صاحب الحلم. والحلم- بكسر الحاء-: صفة في النفس وهي رجاحة العقل وثباتة ورصانة وتباعد عن العدوان. فهو صفة تقتضي هذه الأمور، ويجمعها عدم القسوة. ولا تنافي الانتصار للحق لكن بدون تجاوز للقدر المشروع في الشرائع أو عند ذوي العقول»[(٦)].

ومن أوائل من اقتدى بحلمه ابنه إسماعيل عليه السلام، وأي حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ثم استسلم لذلك، فتبين أن ولده موصوف بالحلم، وأنه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة[(٧)].

وقد ذكر أهل التفسير في إتباع (لأواه) بوصف (حليم) والعكس، أي التقديم والتأخير بين اللفظين

أنه لموافقة الفواصل، أو للروي في السورتين[(٨)].

(١) انظر: تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٦٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٢٩.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٥٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ١١/ ٤٦.
(٦) المصدر السابق.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٤٥.
(٨) انظر: أسرار التكرار في القرآن، الكرماني ص ١٤٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ٢٥١.

٦. كريمًا.

قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤].

جمعت هذه الآيات آداب وكرم الضيافة التي هي من أعظم وأشرف الآداب، وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله في الكلام على آداب الضيافة لإبراهيم في هذه الآيات، فذكر لإبراهيم خمس عشرة منقبة في كرم الضيافة، وتابعه ابن كثير في إيراد معظمها، وهي تدل على آداب الضيافة؛ فإنه عليه السلام جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، ولم يقربهم إليه، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: (ألا تأكلون) على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل[(١)].

٧. صابرًا.

لقد ابتلي إبراهيم عليه السلام ابتلاءات عظيمة فصبر وشكر.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال ابن جرير: «وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم، اختبارا بفرائض فرضها عليه، وأمر أمره به. وذلك هو«الكلمات» التي أوحاهن إليه، وكلفه العمل بهن، امتحانا منه له واختبارا»[(٢)].

وقال الحسن: «ابتلاه بذبح ولده، وبالنار، والكواكب، والشمس والقمر»[(٣)].

وقد كان إبراهيم عليه السلام معلما للصابرين ومنارا للمقتدين، ولأجل ذلك أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالاقتداء به في مجال الصبر،قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

٨. متلطفا وبارا بوالده المشرك.

قص القرآن الكريم تلطف إبراهيم مع أبيه المشرك ومحاولاته المتكررة لهدايته إلى سواء السبيل رغم قسوة قلب أبيه وغلظته، وكان يخاطبه بأسلوب فيه تحبب وشفقة ومحبة: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

ومع إظهار إبراهيم الخوف على أبيه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢١، جلاء الأفهام، ابن القيم ص ٢٧٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢/ ٧.

(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ٢٨٩.

من النار إلا أنه لم يجد من أبيه إلا القسوة والغلظة، فكان جواب والده له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[مريم: ٤٦ -٤٧].

وكان إبراهيم عليه السلام يستغفر له ما دام أبوه حيًا، وكان يرجو أن يهديه الله عز وجل، فلما مات كافرًا، ترك الاستغفار له[١].

وكذا شأن المؤمن فعليه أن يقتدي بإبراهيم عليه السلام في الحرص على دعوة أهل بيته وعشيرته الأقربين، فهم أولى الناس بدعوته.

٩. سليم القلب.

إن صفاء القلب وسلامة السريرة من أهم المعالم في الاقتداء، وكذا كان إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات: ٨٣ - ٨٤].

الشيعة من معنى المشايعة، يعني: وإن ممن شايع نوحا على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم[٢].

وقوله بقلبٍ سليمٍ: أي خالص من الشرك والمعاصي، وعلق الدنيا المتروكة وإن كانت مباحة كالمال والبنين[٣].

١٠. محاورًا ومربيًا لأبنائه.

ساق القرآن الكريم حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل في أحلك الظروف، إنه يعرض عليه همه بذبحه بأسلوب فيه تلطف: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أراد إبراهيم أن يشرك ولده معه في تنفيذ أمر الله تعالى، قائلا له: (فانظر ماذا ترى) «لم يشاوره ليرجع إلى رأيه وإنما شاوره ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله تعالى وليعلم صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته ويثبت قدمه ويصبره إن جزع ويراجع نفسه ويوطنها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله»[٤].

وحري بالآباء أن يقتدوا بإبراهيم في محاورة أبنائهم في شؤون حياتهم، وأن تكون العلاقة بينهم وبين أبنائهم قائمة على الحوار البناء.

قال ثم إن إبراهيم عليه السلام دائم الدعاء لربه أن يحفظ له ذريته من الغواية والضلال.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٧٦.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٨.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٣٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٣.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٣.

[البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[إبراهيم: ٣٧].

ليقيموا الصلاة يعني: وفقهم ليتموا الصلاة، وإنما ذكر الصلاة خاصة؛ لأن الصلاة أولى العبادات وأفضلها[١].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وعلى الآباء في هذا المقام أن يتعلموا من إبراهيم دوام الدعاء لأبنائهم في كل فرصة وخلوة.

١١. محاورًا في دعوة الكفار إلى الإله الحق.

ذكر القرآن الكريم نماذج من حوار إبراهيم عليه السلام مع المشركين من قومه، وفيها دروس وعبر لمن أراد أن يسلك طريق الدعاة في كل عصر وزمان، ومن ذلك: حواره مع قومه بشأن الإله الحق.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾[البقرة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ٨٠].

وحواره معهم بشأن تحطيم الأصنام، قال تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣].

١٢. شجاعًا ومفاصلًا في العقيدة.

لم يكن إبراهيم عليه السلام جبانا ولا خوافا بل اتصف بالشجاعة رغم انعدام النصير من الناس، فقد خذله في دعوته أقرب المقربين إليه، وكان يتحدى بمفرده ويعلن البراء من الشرك وعبادة الأوثان، ويعلنه لقومه بكل صراحة ووضوح: ﴿أُفٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

وأعلن البراء من الأوثان: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦].

وتجاوز القول إلى الفعل فكان فردا عن أمة يتهدد ويتوعد أصنامهم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾ [الأنبياء: ٥٧].

إنها دروس في الشجاعة وقول الحق بلا خوف ولا وجل.

ومعالم الاقتداء بإبراهيم عليه السلام كثيرة جدا، وهي تتجلى بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أمر بالاقتداء بأبيه

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٦.

إبراهيم، فكان نعم المقتدي لخير مقتدى، فحاز أخلاق القرآن كلها.

٢. ذو القرنين.

ورد في شأن ذي القرنين روايات إسرائيلية كثيرة، والأصح الذي عليه الأكثرون أنه كان ملكا قويا صالحا عادلا، وأن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب، وهذا هو القدر المعمور من الأرض[(١)].

قال مجاهد: «ملك الأرض أربعة: اثنان مؤمنان واثنان كافران. أما المؤمنان: فسليمان بن داود وذو القرنين، وأما الكافران: فالنمرود بن كنعان وبختنصر»[(٢)].

إن ذا القرنين مثال للشباب المثابر في الجد والاجتهاد، في الصبر والمصابرة، في الجلد والقوة، في العلم والحكمة، فقد ذكر بعض المفسرين أنه كان في حدود العشرين من عمره[(٣)].

مجالات الاقتداء بذي القرنين كثيرة، منها:

١. عدم الفتنة بالملك.

فقد أنعم الله تعالى على ذي القرنين بملك عظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [الكهف: ٨٤ - ٨٦].

فظاهر الآية يشير إلى أن الله تعالى مكن له في الأرض، فأعطاه سلطانا وطيد الدعائم ويسر له أسباب الحكم والفتح. وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة[(٤)]. وهو مع ذلك لم يفتتن بملكه ولم يصب بالبطر والغرور وسائر أمراض القلوب، بل ظل متذكرا للآخرة راجيا رحمة ربه.

٢. إقامة العدل بين الناس.

كان عادلًا بين الناس بما يحقق لهم الأمن والاستقرار.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧ - ٨٨].

لقد أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه، ثم ذكرهم بعذاب الله الذي لا نظير له فيما يعرفه البشر. أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن، والمعاملة الطيبة، والتكريم والمعونة والتيسير[(٥)].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٥.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٦٠.
(٣) تفسير القاسمي ٧/ ٦٨.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٠.
(٥) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩١.

لقد كان ذو القرنين يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته فما حكي نهاية في العدل وغاية الإنصاف[1].

وهذا هو دستور الحكم الصالح. فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم.

والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء، وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسنًا ومكانًا كريمًا وعونًا وتيسيرًا، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة عندئذ يجد الناس أن عدل الحاكم يحفز الرعية إلى الصلاح والإنتاج. أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون.

فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد. ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد[2].

ولرفع الهمم يذكر ذو القرنين المحسنين بجزاءين: أخروي: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهو بذلك يربطهم بالعقيدة. ودنيوي: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ وهو بذلك يقيم فيهم الشريعة، وهذا تمام العدل.

وقد ذكر المفسرون أن الحسنى: الجنة، والقول اليسر أي: الخير، أو المعروف، أو القول الجميل[3].

٣. التواضع وعدم التكبر.

إن مجرد خطاب الناس له بـ ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٤].

يشير إلى تواضعه بين الناس، وأنه لا يفرض عليهم ألقابًا يحبها كل من ملك.

فذو القرنين يعد النموذج الطيب للحاكم الصالح الذي يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب فيجتاح الأرض شرقا وغربا ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ثم هو بعد ذلك يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله[4].

٤. الاستعفاف عما في أيدي الناس.

فعندما عرض القوم على ذي القرنين المال مقابل حمايتهم من بطش يأجوج ومأجوج لم يستغل ضعفهم وحاجتهم، بل استغنى بما آتاه الله.

(١) انظر: تفسير القاسمي ٧/ ٦٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩١.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٦٠٠، التفسير البسيط، الواحدي ١٤/ ١٣٧.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٣.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾[الكهف: ٩٤ – ٩٥].

أي: ما قواني به ربي خير من جعلكم ﴿فَأَعِينُونِي﴾ يعني: لا أريد منكم المال، بل أعينوني بأبدانكم وقوتكم ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي: سدًّا[(١)].

قال السعدي: «فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح؛ فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره»[(٢)].

إن من يستغني عما في أيد الناس يحبه الناس، وحتما سيكونون له عونًا وسندًا.

٥. إشراك الناس معه في القيام بالأعمال.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾[الكهف:٩٥].

أي: ما قواني عليه ربي خير من جعلكم، فأعينوني بأبدانكم وقوتكم، أجعل بينكم وبينهم ردما، والقوة التي طلبها منهم: فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل[(٣)].

فلم يعمل ذو القرنين لهم ذلك الردم، ولكن علمهم كيف يصنعون الردم، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز[(٤)].

٦. العلم، والقوة، والإصلاح، والإشراف على العمل بنفسه، وعدم الاتكال على الغير.

تظهر قوته من تمكين الله له في الأرض، ويتجلى إصلاحه بين الناس في إقامة الحق، ومحاربة المفسدين، وبناء السد، وأما العلم فتجليه الآية الكريمة: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[الكهف: ٩٦].

إن صناعة الفولاذ الذي أشارت إليه عمل فريد أشرف عليه ذو القرنين بنفسه فقد «قال للعملة: انفخوا بالكيران فى زبر الحديد التي وضعت بين الصدفين ففعلوا، ومازالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالا وتوهجا، فصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض، وسد الفجوات التي بين الحديد وصار جبلا صلدًا»[(٥)].

«وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا في تقوية الحديد فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته. وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسجله في كتابه الخالد سبقا للعلم البشري

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١١٢، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١٧.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٣١١٨.
(٥) تفسير المراغي ١٦/ ١٩.

الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله»[1].

وتظهر حكمة ذي القرنين في التعامل مع متطلبات المرحلة، فمن العجيب أن القرآن عندما يحكي أمرًا فهو لا يحكيه إلا لهدف، فهم طلبوا من ذي القرنين أن يبني سدًّا، لكنه اقترح أن يجعل لهم ردمًا، وثمة فرق بين الردم والسد، لقد تبين من العلم الحديث أن السد قد تحدث له هزة من أي جانب فينهدم كله، أما الردم فإن حدثت له هزة يزدد تماسكًا[2].

٧. الشكر لأنعم الله.

يعترف ذو القرنين بالفضل لله عز وجل قائلا: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[الكهف: ٩٨].

أي: هذا السد والاقتدار والتمكين من تسويته نعمة من الله ورحمة على عباده[3].

ويتعلم المرء من هذا الشكر لأنعم الله، فبالشكر تدوم النعم، وبالجحود والكفران تنزل النقم.

٣. امرأة فرعون.

ضرب الله تعالى بها مثلا للذين آمنوا، وما ضرب المثل بالصالحين في القرآن الكريم إلا لأخذ العبرة والعظة والتأسي والاقتداء الحسن ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم:١١].

وامرأة فرعون هي آسية بنت مزاحم ذكرها الله في مجال القدوة والأسوة لغيرها: «قال يحيى بن سلام: قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ضرب لهما مثلا بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران؛ ترغيبًا في التمسك بالطاعة والثبات على الدين»[4].

ومن معالم الاقتداء بها:

١. الصبر على البلاء، والثبات على المنهج.

قال المفسرون: كانت تعذب في الله لأجل إيمانها[5].

٢. التضرع إلى الله وقت الشدائد.

فقد وصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وكان سؤالها لربها من أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن[6].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٣.
(٢) تفسير الشعراوي ٥/ ٣١١٨.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٨، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٣٢٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٠٢.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٢٩.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران)[1]. وقولها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾«قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار»[2].

٣. إنكار المنكر والتبرؤ من الكفر والضلال.

إن امرأة فرعون، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون وحدها عن التبرؤ من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتا في الجنة. وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه. وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

قال ابن كثير: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ «أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله»[4].

٤. الترفع عن متاع الدنيا.

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره. فقد كان فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ، وكانت امرأته في قصر هو أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان. ولم تعرض عن هذا العرض فحسب، بل اعتبرته شرا ودنسا وبلاء تستعيذ بالله منه، وتتفلت من عقابيله، وتطلب النجاة منه[5].

٥. قوة شخصية المرأة.

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية وهذا فضل آخر عظيم. فالمرأة أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته. ولكن هذه المرأة وحدها في وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكي، في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكفر الطاغي، وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهواتف. ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد. الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملأ الأعلى[6].

٨٧٥.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون)، رقم ٣٤١١، ٤/ ١٥٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٢١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٢.

(٥) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٢٢.

(٦) انظر: المصدر السابق ٦/ ٣٦٢٢.

٦. العطف والرحمة.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: ٩].

عن قتادة ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ قال: ألقيت عليه رحمتها حين أبصرته[١].

٧. الإخلاص والتوقير للزوج.

ففي قولها لزوجها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فخاطبت المفرد بلفظ الجمع تعظيم لزوجها ولمقامه الملكي. ويستفاد إخلاص آسية بنت مزاحم لزوجها من قولها له: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فهي لم تنظر لمصلحتها فحسب في رعاية الطفل بل نظرت لمصلحة زوجها أيضا، وكان هذا قبل إيمانها وقبل أن تتبرأ من زوجها وعمله.

وذكر بعض المفسرين[٢] أن التي قالت: (لا تقتلوه) غير امرأة فرعون التي آمنت بموسى عليه السلام، غير أن الطبري أورد روايات متعددة أن التي أشارت إلى تبنيه هي آسية بنت مزاحم[٣].

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٢٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٢٥.

ثانيًا: نماذج من القدوة السيئة في القرآن الكريم ومعالم الاقتداء بهم:

١. فرعون.

ورد ذكر فرعون في القرآن الكريم أربعا وسبعين مرة، ولم يكن ذكره لمجرد سرد القصص بل كان لأخذ العبرة والعظة والتحذير من السير على طريقه في الظلم والاستبداد والكبر والغرور، وللإشارة إلى أن السير في هذا الدرب مصيره الهلاك والخسران، حتى إن الله تعالى نجى بدنه بعد إهلاكه ليكون عبرة لكل من اقتدى به، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

يعني: عبرة وموعظة، فأظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت فيعتبروا به؛ لأنه كان في غاية العظمة فصار إلى نهاية الخسة والذلة ملقى على الأرض لا يهابه أحد[٤].

وذكر بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمن وراءك من الناس علامة، وهم بنو إسرائيل، أو لمن يأتي بعدك من القرون، ومعنى كونه آية أن يظهر للناس عبوديته، وأن ما كان يدعيه من الربوبية محال، وأنه مع ما كان عليه من عظيم الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه

(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٦٣.

ربه، فما الظن بغيره؟!»[1].

قال أبو حيان: «وقرئ: لمن خلفك بفتح اللام أي: من الجبابرة والفراعنة ليتعظوا بذلك، ويحذروا أن يصيبهم ما أصابك إذا فعلوا فعلك»[2].

لقد حذر القرآن الكريم أشد تحذير من اتخاذ فرعون وأمثاله قدوة وأسوة، وبين أن الاقتداء بهم مصيره الوبال والخسران، وكان هذا التحذير صراحة في آيات مخصوصة تحذر من اتباعه، وجاء التحذير من السير وفق منهجه أيضا عقب ذكر قصته: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾، وسيأتي عرض هذه الآيات بعد قليل في مجالات القدوة بفرعون.

ومن الآيات التي جاء التحذير فيها صراحة من الاقتداء بفرعون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾[هود: ٩٦-٩٩].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن إرسال موسى، عليه السلام، بآياته وبيناته، وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنه الله، وهو ملك ديار مصر على أمة القبط ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: مسلكه ومنهجه وطريقته في الغي والضلال ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا، وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رداها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر»[3].

أما نماذج القدوة السيئة في شخصية فرعون فكثيرة جدا أذكر منها:

١. العلو.

العلو[4]: ضد السفل، والعلوي والسفلي المنسوب إليهما، والعلو: الارتفاع، وقد علا يعلو علوًا وهو عالٍ، و(علا) يقال في المحمود والمذموم، و (علي) لا يقال إلا في المحمود، والوارد بشأن فرعون هو من الأول، ومنه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ

(١) انظر: البحر المحيط ٦/ ١٠٤، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٣٩-٤٠.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٠٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٤٨.
(٤) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٥٨٢-٥٨٣.

﴿لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

وقوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون:٤٦].

أي: إن فرعون تجبر في أرض مصر وتكبر، وعلا أهلها وقهرهم، حتى أقروا له بالعبودية[(١)].

وقال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[النازعات: ١٧ – ٢٦].

لقد أعلن فرعون عن نفسه أنه إله من دون الله علوًا واستكبارًا في الأرض، فأهلكه الله (عبرةً لمن يخشى) أي: عظة لمن يريد أن يعتبر، ويسلم[(٢)].

وفيه تبصرة للمقتدين بأمثال فرعون والمتمسكين بعراهم أن هذه القدوة إلى بوار.

٢. الإسراف والغرور.

«السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر»[(٣)].

و«الغرور: هو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب»[(٤)].

قال تعالى: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ٣١].

أي: إن فرعون «مرتفعا على العالم، أو متكبرا مسرفا من المسرفين»[(٥)]، أي: من المتجاوزين الحق إلى الباطل، وذلك كفره بالله، وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وادعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حلها[(٦)].

وذكر المفسرون: أنه كان مسرفا لأنه كان من أخس العبيد فادعى الإلهية[(٧)].

٣. الإفراط والطغيان.

والإفراط: أن يسرف في التقدم، ومنه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

أي: إسرافًا وتضييعًا[(٨)].

طغوت وطغيت طغوانًا وطغيانًا، وأطغاه كذا: حمله على الطغيان، وذلك تجاوز الحد في العصيان[(٩)].

قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٦.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٤٣، تفسير السمعاني ٦/ ١٥٠.
(٣) المفردات، الأصفهاني ص ٤٠٧.
(٤) الكليات، الكفوي ص ٦٧٢.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٤٠٤.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٦٧.
(٧) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١١/ ٢٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٨٩.
(٨) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٦٣١.
(٩) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٥٢٠، التعريفات، الجرجاني ص ١٤١، الكليات، الكفوي ص ٥٨٤.

وقال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾﴾ [الفجر: ١١].

وأما الإفراط: «فهو الإسراف والإشطاط والتعدي، يقال منه: أفرطت في قولك: إذا أسرف فيه وتعدى»[١].

ومعنى ﴿أَن يَفْرُطَ﴾ هنا: «أن يبادر بعقوبتنا»[٢] أو «أن يطغى يتكبر ويستعصي علينا»[٣].

قال الرازي: «يفرط علينا بأن لا يسمع منا: أو أن يطغى بأن يقتلنا»[٤].

وقال سيد قطب: «والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى. وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما»[٥].

٤. الاستكبار.

والتكبر: هو أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره، والاستكبار: طلب ذلك بالتشبع وهو التزين بأكثر ما عنده، وإنما يستعمل الاستكبار حيث لا استخفاف، بخلاف التكبر فإنه قد يكون باستخفاف[٦].

والكبر والتكبر والاستكبار تتقارب، فالكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره. وأعظم التكبر التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة. والاستكبار المذموم، أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له،[٧] وبالنظر في أحوال فرعون فإننا نجده قد تمثل الأنواع الثلاثة.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٣٩-٤١].

وكان استكبار فرعون وجنوده بامتناعهم عن قبول الإيمان ترفعًا وتكبرًا[٨].

وكان استكبارهم في أرض مصر بالباطل والظلم، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون إلى الله بالبعث للجزاء.

وقد جعلهم الله قدوة وأئمةً وقادة في الكفر يأتم بهم العتاة يدعون إلى النار، لأن من أطاعهم دخلها[٩].

إن الاستكبار بالحق لا يكون إلا لله

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣١٤.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٠١.
(٣) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٤٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٥٤.
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٦.
(٦) الكليات، الكفوي ص ٢٨
(٧) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٦٩٧
(٨) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٢، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٧٠.
(٩) زاد المسير ٣/ ٣٨٥.

تعالى، وهو المتكبر في الحقيقة أي: المبالغ في كبرياء الشأن، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول الله سبحانه: (الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدًا منهما، ألقيته في جهنم)[2].

وفي هذا عظة وعبرة لكل مستكبر قال ابن جرير: «وجعلنا فرعون وقومه أئمة يأتم بهم أهل العتو على الله والكفر به، يدعون الناس إلى أعمال أهل النار»[3].

وقال الرازي: «وإنما جعلهم الله تعالى أئمة في هذا الباب، لأنهم بلغوا في هذا الباب أقص النهايات، ومن كان كذلك استحق أن يكون إماما يقتدى به في ذلك الباب»[4].

ومن الآيات الواردة في ذكر استكبار فرعون قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٦].

٥. الظلم.

والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، وهو على ثلاثة أنواع:

الأول: ظلمٌ بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشرك.

والثاني: ظلمٌ بينه وبين الناس.

والثالث: ظلمٌ بينه وبين نفسه[5].

والملاحظ أن فرعون حاز الأنواع الثلاثة بلا منازع.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٦٠٠، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٤٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، رقم ٤١٧٤، ٢/ ١٣٩٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٩٥، رقم ٤٣١١.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٣.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٦٠١.

(٥) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٥٣٧-٥٣٨.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٣٩ - ٤٣].

لقد كان فرعون وجنوده قاهرين غيرهم بالظلم[(١)]، والاستبداد، فأهلكهم الله وجعلهم بصيرة للناس وعبرة[(٢)].

والمعنى: «فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله»[(٣)].

قال مقاتل: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ في هلاك الأمم الخالية، بصيرة لبني إسرائيل، وغيرهم، وعلى هذا التقدير: أهلكناهم بصائر للناس؛ ليتبصروا ويعتبروا بهلاكهم[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

أي: شركًا وتكبرًا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى عليه السلام[(٥)].

٦. الإفساد.

الفساد: «خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة»[(٦)].

والفساد: أعم من الظلم، لأن الظلم النقص فإن من سرق مال الغير فقد نقص حق الغير، والفساد يقع على ذلك، وعلى الابتداع واللهو واللعب، والفاسد: مأخوذ من (فسد اللحم) إذا أنتن ويمكن الانتفاع به، والباطل: من (بطل اللحم)، إذا دود وسوس وصار بحيث لا يمكن الانتفاع به[(٧)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

أي: إن القتل ظلمًا إنما هو فعل المفسدين إذ لا طائل تحته صدق الكاهن أو كذب[(٨)].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣].

«يشير له قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي لعقائد الخلق، أفسد الله عليهم ملكهم، وآتاه أعداءهم، فأغرقهم عن آخرهم، وبمرأى من موسى وقومه»[(٩)].

٢. ابني آدم.

يحدثنا القرآن الكريم عن قصة عظيمة

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٢.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٦١٠.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٤٤.
(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٣٤٦، التفسير البسيط، الواحدي ١٧/ ٤٠٤.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٣٩، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٩٢.
(٦) المفردات، الأصفهاني ص ٦٣٦.
(٧) الكليات، الكفوي ص ٦٩٢.
(٨) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٢٨.
(٩) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٦٢.

سطرها ابن آدم الأول بيديه، وقصها القرآن الكريم علينا لنأخذ منها العبرة والعظة، فنحذر من جانب الأسوة السيئة المتمثلة فيها، إنها قصة اقتتال ابني آدم، قال ابن حجر: «هو قابيل قاتل أخيه هابيل»[1]، وكذا توافقت معظم كتب التفسير على تسميتهم، وهي إسرائيليات، فلم أقف على رواية صحيحة مسندة، تدل على هذه التسمية، وذكر ابن حجر: «أن سبب قتل قابيل لأخيه هابيل أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن من ولده بأنثى الآخر، وأن أخت قابيل كانت أحسن من أخت هابيل، فأراد قابيل أن يستأثر بأخته فمنعه آدم، فلما ألح عليه أمرهما أن يقربا قربانا، فقرب قابيل حزمة من زرع، وكان صاحب زرع، وقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب مواش، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل دون قابيل، وكان ذلك سبب الشر بينهما، وهذا هو المشهور»[2].

وتبقى هذه الروايات لمجرد الاستئناس لأنها لم ترد بروايات مسندة صحيحة، وقد ذكرهما القرآن الكريم ولم يسمهما.

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

ومن جمال التناسب والتآخي بين هذه الآية وسابقاتها، أن هذه الآية تتكلم عن أخوين متناحرين، وسابقتها تتكلم عن أخوين تحابا في الله، وتوحدا على طاعته، وتواثقا على الدعوة إليه، إنهما موسى وهارون ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

تذكر لنا كتب التفسير أن هابيل وقابيل كانا غلامين، وتحدد بعض كتب التفسير سنهما، وفيها:

«وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة»[3]، وأضاف ابن حجر أن هابيل قتل وله عشرون سنة ولأخيه القاتل خمس وعشرون سنة[4]، ومستند هذه الأقوال روايات إسرائيليه، فلا يؤخذ بها، وعلى الروايات التي اعتمدتها كتب التفسير في سبب الخلاف بينهما أنه الرغبة في الزواج من أخت لهما، فهما بناء على ذلك في مرحلة الشباب، غير أن تقييد هذه المرحلة بسن معينة مسألة تحتاج إلى دليل، ولا يوجد.

لقد ذكر القرآن الكريم صورة مختصرة

(١) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٢٩٦.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٦٩.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٠٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٢.

(٣) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ٥١، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٤١، وغرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٥٨٠، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٤.
(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ١٩٣.

للحوار بين الأخوين قبل أن تقع الجريمة النكراء، وكان الكلام فيها لهابيل وهو يخاطب قابيل مذكرا له بالله وعقابه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة:٢٨-٣٠].

قال ابن عباس: «خسر دنياه وآخرته، أما دنياه فإسخاط والديه، وبقي بلا أخ، وأما آخرته فأسخط ربه وصار إلى النار»[(١)].

وقد ترتب على هذه الجريمة أن يحمل القاتل الأول تبعات جريمته مع كل حالة اقتداء به، قال تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها، لأنه أول من سن القتل)[(٢)].

والكفل -بكسر الكاف-: الجزء والنصيب. وقيل: هو الضعف، وهذا الحديث من قواعد الإسلام، وهو أن كل من ابتدع شيئا من الشر كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به في ذلك العمل مثل عمله إلى يوم القيامة، ومثله من ابتدع شيئا من الخير كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة[(٣)].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي). قال: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده إليَّ ليقتلني؟ قال: (كن كابن آدم). وفي قوله عليه السلام: (كن كابن آدم)، وليس ابني آدم، إشارة لطيفة إلى أن هابيل المقتول المظلوم هو ابن آدم لا قابيل القاتل الظالم[(٤)]، كما قال تعالى في حق ولد نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: ٤٦].

ومن الأحاديث التي تتوافق في معناها مع الحديث السابق في أجر القدوة الحسنة ووزر القدوة السيئة قوله صلى الله عليه وسلم: (من سن في الإسلام سنةً حسنةً فله

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم ٣٣٣٥، ٤/ ١٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب بيان إثم من سن القتل،رقم، ١٦٧٧، ٣/ ١٣٠٣.
(٣) انظر: شرح النووي على مسلم ١١/ ١٦٦.
(٤) انظر: عون المعبود وحاشية ابن القيم، العظيم آبادي ١١/ ٢٢٥.

أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ»[1].

وورد الحديث من غير لفظ: (في الإسلام)، ونصه: (من سن سنةً حسنةً فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها، لا ينقص من أجورهم شيئًا، ومن سن سنةً سيئةً فعمل بها كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئًا»[2].

وفي الحديث دلالة واضحة على اجتناب البدع؛ لأن الذي يحدث البدعة ربما يتهاون بها ويستخف بأمرها في الأول ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة، وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده، إذ كان هو الأصل في إحداثها[3].

وذكر السمعاني عن السدى قال: «ما من كافر يدخل النار إلا وهو يلعن إبليس؛ لأنه أول من سن الكفر، وما من عاص يدخل النار إلا ويلعن قابيل؛ لأنه أول من سن المعصية»[4].

يتضح مما سبق أن مجالات القدوة السيئة بابن آدم تتجلى في: المعصية، والظلم، والحسد، وقد توج هذا بالقتل.

٣. امرأة لوط وامرأة نوح.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[التحريم: ١٠].

فالمعنى «ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط، إن الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا، أي: ليذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف، فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بيته وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين»[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرةٍ، أو كلمةٍ طيبةٍ، وأنها حجابٌ من النار، رقم ١٠١٧، ٢/ ٧٠٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٩٢٠٠، ٣١/ ٥٣٦، وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، رقم ٢٠٣، ١/ ٧٤.

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني ١٠/ ٣٢٩.

(٤) تفسير السمعاني ٥/ ٤٩.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٤

ويلاحظ في سورة التحريم أن ضرب المثل جاء بالنساء دون الرجال، فبعد ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط جاء الكلام عن امرأة فرعون، وبعده عن مريم ابنة عمران، وكأن الآيات تتكلم عن صنفين من النساء، فاسق خائن، ومؤمن صابر.

ولهذا المثل مناسبته وفائدته فهو مرتبط بأول سورة التحريم التي كان الكلام فيها عن أزواج النبي عليه الصلاة السلام، فهو تذكير لزوجات النبي عليه الصلاة السلام أن مجرد الاتصال بالنبي عليه الصلاة والسلام لا يجدي نفعًا إذا لم يقترن معه الإيمان والعمل الصالح، وفيه عبرة وعظة لجميع نساء المؤمنين.

يبين قتادة مناسبة ورود الآية: أنه تخويف لعائشة وحفصة بتظاهرهما على النبي صلى الله عليه وسلم فإنهما إن عصيا ربهما لم يغن محمد صلى الله عليه وسلم عنهما من الله شيئًا.

ثم قال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: المرأة المسلمة التي يتزوجها الكافر، فإن كفر زوجها لم يضرها مع إسلامها شيئا، يقول لعائشة وحفصة رضي الله عنهما: لا تكونا بمنزلة امرأة لوط في المعصية، وكونا بمنزلة امرأت فرعون ومريم في الطاعة[1].

أما عن طبيعة الخيانة التي بدرت منهما فحاصل ما ذكره المفسرون في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط، أن خيانتهما لم تكن في الزنا، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يبتليهم الله في نسائهم بفساد، وإنما كانت الخيانة في الدين، ومما جاء في ذلك:

عن ابن عباس: «كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط إذا نزل به الضيف بالليل أوقدت النار حتى يعلم قومه أنه قد نزل به ضيف، وإذا نزل به بالنهار دخنت»[2].

وروى الضحاك عنه قال: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين، وقال عكرمة: فخانتاهما في الدين[3].

وروى أن ابن عباس سئل عن قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ليس بالزنا، ولكن كانت امرأة نوح تخبر الناس أنه مجنون، وكانت امرأة لوط تدل على الأضياف[4].

وقد ذكرت امرأة لوط في آيات أخرى، منها:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٣٧٩.

(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٢٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٩٨، التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٢٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٩٧، والتفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٢٨.

﴿امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٢-٨٣].

«من الغابرين أي: الباقين في عذاب الله، قال ابن عباس وقتادة. غبر الشيء إذا مضى، وغبر إذا بقي. وهو من الأضداد»[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥٧-٦٠].

استثنى الله تعالى من آل لوط امرأته وذلك لأنها كانت كافرة فكانت من الغابرين.

وقال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الشعراء: ١٧٠-١٧١].

وقال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [النمل: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الصافات: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٢-٣٧].

ويلاحظ هنا أن الله تعالى قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: فأخرجنا لوطا وأهل بيته قصدا للتنويه بشأن الإيمان والإسلام، أي أن الله نجاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنهم أهل لوط، والمؤمن: هو المصدق بما يجب التصديق به. والمسلم المنقاد إلى مقتضى الإيمان، ولا نجاة إلا بمجموع الأمرين، فحصل في الكلام مع التفنن في الألفاظ الإشارة إلى التنويه بكليهما وإلى أن النجاة باجتماعهما.

والآية تشير إلى أن امرأة لوط كانت تظهر الانقياد لزوجها وتضمر الكفر وممالأة أهل القرية على فسادهم، فإن بيت لوط كان كله من المسلمين، ولم يكن كله من المؤمنين، فلذلك لم ينج منهم إلا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معًا[2].

ومما يلاحظ أيضا في معظم القصص التي فيها ذكر للقوم الخاسرين أن خاتمة الآيات تتحدث عن وجوب أخذ العبرة والعظة وعدم الاقتداء بهم، فقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٤٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٨.

﴿٣٧﴾ [الذاريات:٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف:٨٤].

فالقرية بقيت فيها معالم الخراب تحذيرا لمن خاف عقاب الله وعذابه.

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر:٧٤-٧٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الشعراء:١٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت:٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

أما قصة امرأة نوح فلم تذكر في القرآن في غير سورة التحريم، والذي يظهر أن نوحا لم يعلم بخونها؛ لأن الله سمى عملها خيانة[1].

وفي الختام: فإن الآيات واضحة في هلاك من اقتدى بهاتين المرأتين في الكفر، والخيانة، والفساد، والضلال، وأن الانحراف عن دعوة الأنبياء مصيره الخسران والبوار.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، التربية، التقليد

(١) انظر: المصدر السابق ٢٨/ ٣٧٤.

القرآن الكريم

عناصر الموضوع

مفهوم القرآن	٢٧٠
القرآن الكريم في الاستعمال القرآني	٢٧٢
الألفاظ ذات الصلة	٢٧٣
القرآن الكريم آية وهداية	٢٧٥
حفظ الله للقرآن	٢٨٤
القرآن حجة الله على الناس	٢٩٦
حديث القرآن عن مواقف الناس منه	٣٠٣
الأدب مع القرآن	٣٠٩
أثر القرآن على المكلفين والجمادات	٣١٩

مفهوم القرآن

أولًا: المعنى اللغوي:

القاف والراء والياء أصل صحيح يدل على الشيء المجموع، ومن هذا المعنى تطلق كلمة قرءٍ على الحيض وعلى الطهر، فهي من الأضداد، يقال: قرأت المرأة حيضةً أو حيضتين.

والقُرْءُ انقضاء الحيض، على قول البعض، وقال بعضهم: ما بين الحيضتين، والقارئ: الوقت، تقول: أَقْرَأَتِ الرِّيحُ: إذا دخلت في وقتها.

واستقرأ الجمل الناقة: إذا تاركها؛ لينظر ألقحت أم لا، وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته، وضممت بعضه على بعض، وقرأت الكتاب قراءةً وقرآنًا، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

حاصل ما تم دراسته من تعريفات مصطلح القرآن الكريم هو أنه: كلام الله تعالى القديم، المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، وهو غير مخلوق؛ إذ أنه جزء من صفة الذات العلية، وهو معجزٌ ببيانه، متعبدٌ بتلاوته، منقولٌ إلينا بالتواتر، مقروءٌ في المصاحف، مبدوء بسورة الفاتحة ومنتهٍ بسورة الناس[2].

وهذا التعريف شرحه على النحو الآتي:

(كلام الله تعالى القديم): خرج منه أي كلام غير كلام الله تعالى من قول النبي صلى الله عليه وسلم، أو غير ذلك، وهو قديم؛ إذ إنه أصيل من عند الله تعالى لا يعتريه نقص ولا مشكلة.

(المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم): خرج منه أية شبهة تقول بأنه أنزل جملة واحدة، أو أنه مخلوق؛ لأنه نزل من الله تعالى إلى قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

(بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام): ووساطة سيدنا جبريل عليه السلام تعني أن الكلمات القرآنية نزلت بأمر الله تعالى على لسان سيدنا جبريل عليه السلام، كما علمه الله تعالى.

(وهو غير مخلوق؛ إذ أنه جزء من صفة الذات العلية): بيان سبب أنه غير مخلوق، وهو أن

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٦٤، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٧٥٠.

(٢) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، صالح الفوزان ص٦٦، بحوث منهجية في علوم القرآن، موسى إبراهيم الإبراهيم ص١٤.

الكلام القرآني جزء من صفة الخالق، وليس منفكًّا عنه، وبالتالي فإن ما كان جزءًا من الخالق ليس مخلوقًا.

(وهو معجز ببيانه، متحدىً به، متعبدٌ بتلاوته): خرج منه الحديث القدسي، أو أي قولٍ لله تعالى غير القرآن؛ لأن القرآن -وحده- هو المعجز والمتحدى به، وبالذات في وجهه الأصيل وهو البيان، والقرآن -وحده- دون غيره يتعبد به في التلاوة.

(منقول إلينا بالتواتر): إن القرآن -وحده- دون غيره، هو الذي لا يقبل منه أية كلمة منه إلا إذا سمعتها الأمة عبر تواتر أجيال السند؛ إذ لا يكفي خبر الآحاد في النقل، ولو بوجه من وجوه أحكامه.

(مقروء في المصاحف): من هذه الفقرة يتبين أن هناك فرقًا بين القرآن الذي هو كلام الله تعالى، وبين المصحف الذي هو الأوراق المكتوب فيها كلام الله تعالى، أي: القرآن، وعلى هذا فإنه لا يجوز أن يجمع القرآن؛ لأنه واحد، وفي المقابل فإنه يجوز أن يجمع المصحف؛ لأنه أوراق بداخلها القرآن.

(مبدوءٌ بسورة الفاتحة، ومنتهٍ بسورة الناس): وفي هذا إشارة إلى أن القرآن الكريم يتكون من (١١٤) سورة، تبدأ من سورة الفاتحة، وتنتهي إلى سورة الناس، وترتيب السور القرآنية على الراجح توقيفي، أما ترتيب الآيات فإنه بالإجماع توقيفي.

ويظهر أن معنى الجمع والضم في اللغة يتناسب مع ما سمي به القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها، وهذه السور هي كلام الله عز وجل، بالتالي فالمعنى الاصطلاحي خص بأحد المعاني اللغوية للقرآن.

القرآن الكريم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قرأ) في القرآن الكريم (٨٨)مرة، يخص موضوع البحث منها (٦٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٦٨	﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]

وجاء القرآن في الاستعمال القرآني بمعنى: الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب القاف١، ص٩٣٧-٩٣٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٦٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكتاب

الكتاب لغةً:

الحكم، ومنه قوله: كتاب الله، أي: حكم الله، وكتاب الله: القرآن[١].

الكتاب اصطلاحًا:

«الحجة الثابتة من جهة الله تعالى»[٢]، وقد وردت في القرآن بمعنى التوراة واللوح المحفوظ، والقرآن.

الصلة بين الكتاب والقرآن:

الكتاب هو كلمة تشمل القرآن الكريم وغيره، أما القرآن فهو تلك المعجزة الخالدة، أما إذا عرف الكتاب بـ(الـ) التعريف، فإنها تكون معهودةً على القرآن الكريم.

٢ الكلام:

الكلام لغةً:

اسم جنسٍ يقع على القليل والكثير من الحديث[٣].

الكلام اصطلاحًا:

«إظهار ما في الباطن على الظاهر لمن يشهد ذلك بنحو من أنحاء الإظهار»[٤].

الصلة بين الكلام والقرآن:

الكلام الذي ورد في الاصطلاح لا ينطبق على القرآن؛ لأن القرآن ليس مخلوقًا مع أنه كلام؛ ولذلك فإن كلام الله تعالى ليس ككلام البشر، فهو جزء من صفة الذات العلية، كما أن القرآن الكريم هو محل التدبر والاتعاظ، ولا يكون هذا في كلام البشر.

٣ الذكر:

الذكر لغة:

مصدر ذكر الشيء يذكره ذِكرًا وذَكرًا، وأصل الذكر في اللغة التنبيه على الشيء، ومن

(١) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ١/ ٣٣٥.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٧٩.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٧٢.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المنّاوي ص٢٨٣.

ذكرك شيئا فقد نبهك عليه، وإذا ذَكَّرته فقد نبهته عليه[1].

الذكر اصطلاحًا:

قال ابن علان: «أصل وضع الذكر هو ما تعبدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه»[2].

الصلة بين الذكر والقرآن:

القرآن الكريم جزء من الذكر، وهو أشمل من الذكر في جزئية الإعجاز، والذكر أشمل من القرآن في جزئية أن كل ما تعبدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه، فيدخل فيه ما ورد في السنة المطهرة من النصوص الصحيحة الثابتة.

(١) تهذيب الأسماء واللغات، النووي ٣/ ١١١.
(٢) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ١/ ٣٩٦.

القرآن الكريم آية وهداية

اختصاص الله سبحانه وتعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم بآية من آياته كاف في الدلالة على نبوته قائم مقام معجزات من سواه من الأنبياء، جعله الله هداية لخلقه إلى كل خير، وهذا ما سنتناوله بالبيان فيما يأتي:

أولًا: القرآن الآية الشاهدة بالنبوة:

لما ابتعث الله رسله عليهم السلام إلى الناس يدعونهم إلى الحق ويهدونهم إليه أيدهم بآيات تدل على صدقهم كعصا موسى التي تنقلب حية، أو ناقة صالح التي أخرجت من الصخر[1]، غير أن هذه الآيات المصدقات كانت محدودة بالزمان والمكان، والسبب في ذلك أن رسالات هؤلاء الأنبياء كانت رسالات لقومهم خاصة، وأن الحجة تقوم عليهم بمعاينتها ثم بنقل خبرها إليهم نقلا لا يدع مجالا للشك فيها عمن عاينها، على قرب عهدهم بها. ثم إن هذه المعجزات تتناسب مع ما برع فيه كل قوم؛ لتكون الحجة أبين وأقوم.

قال الباقلاني: «جرت سنة الله في ابتعاث رسله إلى خلقه؛ لتبصيرهم بعظمته وجمعهم على عبادته، أن يؤيدهم بأمور حسية تخالف السنن الكونية، وتشذ عن النواميس الطبيعية، وتكون من قبيل ما استحكم في زمانهم، وغلب على خاصتهم، وعظم في نفوس عامتهم؛ لتكون معجزة الرسول المرسل إليهم مفحمة لأعجب الأمور في أنظارهم، ومبطلة لأقوى الأشياء في حسبانهم؛ ولئلا يجد المبطلون متعلقا يتشبثون به، ولا سبيلا يتخذونه إلى اختداع الضعفاء؛ فقد أيد الله -جل جلاله- موسى -عليه السلام- وكان عصره عصر سحر، بفلق البحر، وانقلاب العصا حية تسعى، وانبجاس الحجر الصلد بعيون الماء الرواء. وأيد عيسى -عليه السلام- وكان عهده عهد طب، بإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين، وإحياء الموتى بإذنه»[2].

ولما بعث الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، جعله الدرة الأخيرة في عقد النبوة، واللبنة المتممة لبنيانها؛ فهو النبي الخاتم الذي لا نبي بعده: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولذلك وجب حفظ كتاب نبوته من التبديل، وهو الرسول الذي تعم رسالته الناس جميعًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولذلك وجب أن تظل معجزته الدالة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٢٥.

(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ٥.

على صدقه قائمة بينهم يعاينونها ويشهدونها فتقوم عليهم الحجة بها. وهذا الأمر نص عليه النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[1].

فكانت معجزته صلى الله عليه وسلم عقلية لا حسية، ومستمرة لا آنية، ولذلك يبقى مفعولها دائمًا وتبقى الاستجابة لها مستمرة، قال السيوطي: «هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليراها ذوو البصائر، كما أنه صلى الله عليه وسلم قال: (ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة).

قيل: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه.

وقيل: المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًّا»[2].

وتجدر الإشارة إلى أنه عليه -الصلاة والسلام- قد جرت على يديه معجزات وخوارق كثيرة، غير أن الآية الوحيدة التي جعلت شاهدًا على صدقه ودليلًا على نبوته هي القرآن الكريم، فإنه سبحانه «لما أرسل رسوله محمدًا، صلى الله عليه وسلم، إلى الناس أجمعين، وجعله خاتم النبيين أيده بمعجزات حسية كمعجزات من سبقه من المرسلين، وخصه بمعجزة عقلية خالدة، وهي إنزال القرآن الكريم، الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ولم يقاربوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[3].

وقد وقع التحدي بهذا القرآن للخلق جميعًا، وما زال قائمًا إلى يوم القيامة، لا يجد الناس له معارضًا، ولو بالجزء الأيسر منه «سورة لا تجاوز ثلاث آيات قصيرات

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي إلى النبي صلى الله عليه، ٦/ ١٨٢، رقم ٤٩٨١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣.

(٣) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ٥.

من مثل سورتي العصر والكوثر».

ولقد نصت الآيات نصًّا صريحًا على أن القرآن الكريم كاف في الدلالة وحده على صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

فقوله: ﴿أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.. جواب لقولهم ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه فعجزوا، ولوا أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر، ونحن لا نعرف السحر[1]، وفي الآية إخبار: «بأن الكتاب آية من آياته كاف في الدلالة قائم مقام معجزات غيره وآيات من سواه من الأنبياء»[2].

ويلاحظ أن التحدي بالقرآن الكريم تدرج بصفة تنازلية على مستويات:

- فتحدوا أولًا أن يأتوا بمثله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]. «وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا»[3].
- ثم تحدوا أن يأتوا بعشر سور من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].
- ثم تحدوا أن يأتوا بسورة من عند أُمِّيٍّ مثله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].
- ثم تحدوا أن يأتوا بسورة مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

قال الخازن: «أي: قل لهم يا محمد إن كان الأمر كما تقولون: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يعني بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم، فأنتم عرب مثلي في الفصاحة والبلاغة.

فإن قلت: قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ وقال سبحانه وتعالى هنا: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما؟

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٥٥.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٣.

قلت: لما كان محمد صلى الله عليه وسلم أميًّا لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزًا في نفسه، فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعني: مع إنسان أُمِّيٍّ مثل محمد صلى الله عليه وسلم يساويه في عدم الكتابة والقراءة[1].

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: فأتوا بسورة تساوي سور القرآن في الفصاحة والبلاغة، وهو المراد بقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يعني: أن السورة في نفسها معجزة، فإن الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه، وهو المراد من قوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

وهذا التدرج في التحدي مبني على أن الآيات نزلت بهذا الترتيب، قال في الإتقان: «لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إليهم وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء، وتحداهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين، فلم يقدروا كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ﴾ ثم تحداهم بسورة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ الآية ثم كرر في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، الآية، فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن فقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾. هذا وهم الفصحاء اللد، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها؛ قطعًا للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه، بل عدلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا: (سحر) وتارة قالوا: (شعر) وتارة قالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ كل ذلك من التحير والانقطاع، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم وحرمهم واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنف شيء وأشده حمية، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم

(١) قال ابن عاشور رحمه الله: «فالتحدي على صدق القرآن هو مجموع مماثلة القرآن في ألفاظه وتراكيبه، ومماثلة الرسول المنزل عليه في أنه أمي لم يسبق له تعليم ولا يعلم الكتب السالفة».
انظر: التحرير والتنوير ١/ ٣٣٩.

(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٤٤.

لبادروا إليه؛ لأنه كان أهون عليهم»[1].

أما ابن عطية فعنده أن التحدي بالعشر مبني على التوسيع عليهم في كونها مفتريات؛ بمعنى المضاهاة في اللفظ من غير الالتفات إلى المعنى، وعليه فلا حاجة لكون التحدي بالعشر وقع قبل التحدي بالسورة.

قال: «ووقع التحدي في هذه الآية -آية سورة هود- ﴿بِعَشْرِ﴾؛ لأنه قيدها بالافتراء، فوسع عليهم في القدر؛ لتقوم الحجة غاية القيام، إذ قد عجزهم في غير هذه الآية ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ دون تقييد، فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه الحجة، ونظمه ووعده ووعيده وعجزوا في هذه الآية، بل قيل لهم: عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير والغرض واحد، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه، فهذه غاية التوسعة، وليس المعنى عارضوا عشر سور بعشر؛ لأن هذه إنما كانت تجيء معارضة سورة بسورة مفتراة، ولا تبالي عن تقديم نزول هذه على هذه، ويؤيد هذا النظر أن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب، ولا يزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة، وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فكلفوا نحو ما قالوا، ولا يطرد هذا في آية يونس. وقال بعض الناس: هذه مقدمة في النزول على تلك، ولا يصح أن يعجزوا في واحدة فيكلفوا عشرًا، والتكليفان سواء، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفتراة، وآية سورة يونس في تكليف سورة متركبة على قولهم: افتراه، وكذلك آية البقرة وإنما ريبهم بأن القرآن مفترى.

قال: وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين في كمال المماثلة مرة، ووقوفها على النظم مرة»[2].

والحاصل أن القرآن الكريم قد أعلن أن معجزته الشاهدة بصدقه قائمة فيه، وقال للمعارضين: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وأعلن أن إعجازه للخلق جميعا سيظل قائمًا مستمرًا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولا تعرف حجة أبلغ من هذه، ولا يعرف كتاب تحدى الناس على مر الزمن معلنًا عجزهم عن مضاهاته، بل مضاهاة الجزء اليسير منه.

ومن أعظم دلائل عظمته استغناؤه بذاته في الدلالة على صدقه من غير حاجة إلى شهادة غيره، ورغم أن التواتر حجة عقلية

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٥٥.

قاطعة عند العقلاء، إلا أن القرآن الكريم غير محتاج إليها في إثبات صدقه، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

أولًا: هدايات القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب الله الهادي إلى كل خير، وقد وصفته آياته بأن ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

قال الرازي: «الهدى عبارة عن الدلالة، وقال صاحب الكشاف: الهدى هو الدلالة الموصلة إلى البغية، وقال آخرون: الهدى هو الاهتداء والعلم. والذي يدل على صحة القول الأول وفساد القول الثاني والثالث أنه لو كان كون الدلالة موصلة إلى البغية معتبرًا في مسمى الهدى لامتنع حصول الهدى عند عدم الاهتداء؛ لأن كون الدلالة موصلة إلى الاهتداء حال عدم الاهتداء محال، لكنه غير ممتنع بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

أثبت الهدى مع عدم الاهتداء؛ ولأنه يصح في لغة العرب أن يقال: هديته فلم يهتد، وذلك يدل على قولنا»[(١)].

وعليه فالهداية بيان طريق الهدى بقطع النظر عن سلوك المهدي له أم لا، وتضمن القرآن الكريم لهدى واتصافه به ثابت له بقطع النظر عن استجابة الناس لذلك أم لا.

وقد وقعت الهداية في القرآن الكريم بأربعة معان:

«الأول: الهداية التى عم الله بها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، بل عم بها كل شيء حسب احتماله، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

الثاني: الهداية التى جعلت للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

الثالث: التوفيق الذى يختص به من اهتدى، وهو المعني بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾.

الرابع: الهداية فى الآخرة إلى الجنة، وهو المعنى بقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾.

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه. ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة»[(٢)].

هذا والقرآن الكريم هاد: «أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم سبب اهتداء للبشرية قاطبة، يرشدها لأقوم الطرق،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٢٦٦.

(٢) بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي ٥/ ٣١٤.

وأصح المناهج، وأعدل المسالك، وهي توحيد الله والإيمان برسله، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وأفضل مناهج الحياة»[1].

وقد ورد ذلك صريحًا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠].

«والمعنى: إن هذا القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى عليك يا محمد صلى الله عليه وسلم، يرشد الناس ويدلهم ويهديهم -في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية- إلى الملة التي هي أقوم الملل وأعدلها، وهي ملة الإسلام. فمنهم من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة، ومنهم من يعرض عنها فيبوء بالشقاء»[2].

وقد وقع المهدي إليه في الآية مضمرًا موصوفًا بأنه الأقوم من بين سائر ما يهدي إليه.

قال ابن عاشور: «و﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ صفة لمحذوف دل عليه ﴿يَهْدِى﴾ أي: للطريق التي هي أقوم؛ لأن الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملة الأقوم، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من جهة ومن التفخيم من جهة أخرى ما رجح الحذف على الذكر.

والأقوم: تفضيل القويم. والمعنى: إنه يهدي للتي هي أقوم من هدي كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكًا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضًا أو تحذيرًا، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة»[3].

وهذا الإضمار -كما يشير إليه ابن عاشور- أبلغ من التصريح، وذلك أنه لو وقع التصريح به لكان قصرًا لهدايته على بعض معانيها دون البعض الآخر، وذلك أن «هذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفارًا، وحسبك مثالًا لذلك أساليب القرآن في سد مسالك الشرك، بحيث سلمت هذه الآية في

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٢٩.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٣٠٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٤٠.

جميع أطوارها من التخليط بين التقديس البشري وبين التمجيد الإلهي، فلم تنزل إلى حضيض الشرك بحال، فمحل التفضيل هو وسائل الوصول إلى الغاية من الحق والصدق، وليس محل التفضيل تلك الغاية حتى يقال: إن الحق لا يتفاوت»[1].

على أن صاحب التحرير يميل في كلامه هذا إلى أن السعة في أساليب الدلالة على الهداية لا في الغاية المهدي إليها، وهو ما قد لا نوافقه عليه؛ لأن التفضيل في قوله سبحانه: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ واقع على المهدي إليه لا على أساليب الهداية، والأقرب أن نقول -والله أعلم-: إن هذا القرآن يهدي للأقوم من الأقوال والأفعال والمعتقدات، والتصورات والنظم، والأحكام والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وطرق فض النزاعات وإيصال الحقوق إلى أهلها، وحماية الضعفاء والرحمة بالمستضعفين من اليتامى والنساء والولدان، وغير ذلك مما لا سبيل إلى حصره. ولذلك شواهد يمكن التمثيل بها من سورة الإسراء نفسها التي وردت فيها هذه الآية؛ فإن السورة قد تضمنت هداية للناس جماعة كما تضمنت هدايتهم لأقوم السبل أفرادًا، وشملت هداياتها العلاقة بالوالدين، كما شملت أصول الأخلاق، والسبيل الأفضل في التصرف في المال، وما يجب وما يجتنب في العلاقات الأسرية، وأحكام الدماء رابطة لذلك كله بالحبل الأعظم: توحيد الله وقصد وجهه وطلب رضوانه، والحذر من عقابه:

فأما هداية الناس جماعة فشواهدها في السورة مخاطبة الجماعة في نحو: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾، ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾.

وأما هدايتهم أفرادًا فشواهدها خطاب الواحد خاصة في الأحكام المتعلقة بما يتفرع عن شيء في النفس كالكبر في نحو قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦-٣٧].

وأما الهداية لأقوم السبل في العلاقة بالوالدين فدل عليها قوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وفي الإحسان إلى الأقارب وأهل الحاجة: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾. ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ

(١) المصدر السابق.

﴿رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

ولأصول الأخلاق دل عليها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

وللسبيل الأفضل في التصرف في المال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ولما يجب وما يجتنب في العلاقات الأسرية: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وأحكام الدماء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

ويرتبط كل ذلك من قبل ومن بعد برباط عظيم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

ومن الهداية بيان صفات الموفقين؛ ليقتدى بهم: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

ومن الهداية بيان سبيل الشر وعاقبة أهله؛ ليجتنب: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧].

وبالجملة فقد حاولنا التمثيل لسعة أبواب الهداية التي تضمنها القرآن الكريم من سورة الإسراء التي ورد النص فيها على أنه يهدي للتي هي أقوم؛ للدلالة على كثرتها وسعتها وتعذر إحصائها، وأنه تضمن الإرشاد لكل خير. وتجدر الإشارة في ختام هذا الموضع إلى أن أغلب ما ذكر من الهدايات استنادًا إلى نصوص القرآن الكريم السابقة مرتبط بأمور الدنيا، وذلك يدحض فكرة سائدة تجعل الدين قسيمًا للدنيا، ويرسخ حقيقة أن العبادة الصحيحة هي إقامة الحياة وتقويمها وفق منهج القرآن وفي ذلك السعادة في الدنيا والآخرة.

حفظ الله للقرآن

عهد الله بحفظ الكتب السابقة إلى البشر فحرفوا فيها وانحرفوا عن تعليماتها، وتكفل سبحانه وتعالى بحفظ القرآن من التبديل والتغيير فبقي كما أنزل من عنده، وسيبقى إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وسوف نتناول حفظ القرآن عن سائر الكتب فيما يأتي:

أولًا: صفة حفظ الكتب السابقة:

نص القرآن الكريم على أن الكتب السابقة، خلافًا له، قد عهد بحفظها إلى البشر، وهم عرضة للغلط والهوى والانحراف.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فنصت الآية على أن حفظ التوراة أوكل للربانيين والأحبار ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾، قال ابن عاشور: «والاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب أمانة فهمه حق الفهم بما

دلت عليه آياته. استعير الاستحفاظ الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم والتبليغ للأمة على ما هو عليه. فالباء في قوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ للملابسة، أي: حكمًا ملابسًا للحق متصلًا به غير مبدل ولا مغير، ولا مؤوَّل تأويلًا لأجل الهوى»[1].

فالاستحفاظ -وفقًا لرأيه- هو في الأساس ائتمان على بيان المعاني الصحيحة، المرتبط والمتفرع عن كونهم متميزين عن عموم الناس بعلم الكتاب وتعليمه، ولكنه يعطف عليه أيضًا حفظ حرفه من التبديل فيقول: «ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأمر بحفظ ألفاظه من التغيير والكتمان.

ومن لطائف القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد ما حكاه عياض في (المدارك)[2]، عن أبي الحسن بن المنتاب، قال: كنت عند إسماعيل يوما فسئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال: لأن الله تعالى قال في أهل التوراة: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فوكل الحفظ إليهم. وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فتعهد الله بحفظه، فلم يجز التبديل على أهل القرآن. قال: فذكرت ذلك للمحاملي، فقال: لا أحسن من هذا الكلام»[3].

وعليه فالاستحفاظ كما كان على تبيين المعاني وترك تحريفها، كان على اللفظ وترك تبديله، والمستحفظون هم الربانيون والأحبار.

و«الربانيون: هم الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره، عن ابن عباس وغيره. وقال أبو رزين: الربانيون: العلماء الحكماء. وقال مجاهد: الربانيون: فوق العلماء. والألف واللام للمبالغة.

والأحبار: قال ابن عباس: هم الفقهاء: والحبر والحبر الرجل العالم، وهو مأخوذ من التحبير وهو التحسين، فهم يحبرون العلم، أي: يبينونه ويزينونه، وهو محبر في صدورهم. قال الجوهري: والحبر والحبر واحد أحبار اليهود، وبالكسر أفصح: لأنه يجمع على أفعال دون الفعول، قال الفراء: هو حبر بالكسر، يقال ذلك للعالم. وقال الثوري: سألت الفراء لم سمي الحبر حبرًا؟ فقال: يقال للعالم حبر وحبر فالمعنى: مداد حبر ثم حذف كما قال: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

أي: أهل القرية. قال: فسألت الأصمعي فقال: ليس هذا بشيء، إنما سمي حبرًا؛ لتأثيره، يقال: على أسنانه حبر أي: صفرة أو سواد. وقال أبو العباس: سمي الحبر الذي

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٩.
(٢) انظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض ٤/ ٢٨٣
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٩.

يكتب به حبرًا؛ لأنه يحبر به، أي: يحقق به. وقال أبو عبيد: والذي عندي في واحد الأحبار: الحبر -بالفتح-، ومعناه: العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه. قال: وهكذا يرويه المحدثون كلهم بالفتح»[1].

وكل من الأحبار والرهبان: «كانوا حفظة على كتاب الله وحراسا له من سوء الفهم وسوء التأويل، ويحملون أتباعه على حق فهمه وحق العمل به»[2]، ولكنهم بدلوه.

وأما دافع هذا التبديل فهو الخوف والطمع، وقد تضمنت الآية الإشارة إلى ذلك في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

قال ابن جرير في سياق بيان معناها: «يقول تعالى ذكره لعلماء اليهود وأحبارهم: لا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي الذي حكمت به على عبادي، وإمضائه عليهم على ما أمرت، فإنهم لا يقدرون لكم على ضر ولا نفع إلا بإذني، ولا تكتموا الرجم الذي جعلته حكمًا في التوراة على الزانيين المحصنين، ولكن اخشوني دون كل أحدٍ من خلقي، فإن النفع والضر بيدي، وخافوا عقابي في كتمانكم ما استحفظتم من كتابي»[3]. ثم روى بسنده عن السدي قال: «يقول: لا تخشوا الناس فتكتموا ما أنزلت»[4]. ولذلك عقب النص على استحفاظ الأحبار والرهبان على الكتاب (بجملة) ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ المتفرعة بالفاء على قوله: ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾؛ إذ الحفيظ على الشيء الأمين حق الأمانة لا يخشى أحدًا في القيام بوجه أمانته ولكنه يخشى الذي استأمنه»[5].

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: ولا تأخذوا بترك الحكم بآيات كتابي الذي أنزلته على موسى، أيها الأحبار، عوضًا خسيسًا، وذلك هو (الثمن القليل)، وإنما أراد تعالى ذكره، نهيهم عن أكل السحت على تحريفهم كتاب الله، وتغييرهم حكمه عما حكم به في الزانيين المحصنين، وغير ذلك من الأحكام التي بدلوها طلبًا منهم للرشى، كما قال ابن زيد: لا تأكلوا السحت على كتابي، وقال مرة أخرى: لا تأخذوا به رشوة. وعن السدي: ولا تأخذوا طمعًا قليلًا على أن تكتموا ما أنزلت»[6].

والخطاب في الآية متردد بين أن يكون موجهًا لليهود الذين كانوا معاصرين للنبي

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٨٩ بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢١٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٤٤.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢١٠.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٤٥.

صلى الله عليه وسلم أو الذين كانوا قبلهم، قال في التحرير: «فيجوز أن يكون الخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ ليهود زمان نزول الآية، والفاء للتفريع عما حكي عن فعل سلف الأنبياء والمؤمنين؛ ليكونوا قدوة لخلفهم من الفريقين، والجملة على هذا الوجه معترضة، ويجوز أن يكون الخطاب للنبيئين والربانيين والأحبار، فهي على تقدير القول، أي: قلنا لهم: فلا تخشوا الناس. والتفريع ناشىء عن مضمون قوله: بما استحفظوا من كتاب الله؛ لأن تمام الاستحفاظ يظهر في عدم المبالاة بالناس رضوا أم سخطوا، وفي قصر الاعتداد على رضا الله تعالى»[1].

وفي كلتا الحالتين ففي الآية وصية للصالحين، وهي حجة على المحرفين، وفيها بيان للدوافع التي حملت من حرف منهم على الجرأة عليه.

هذا ومع تطاول العهد، فقد نشأت منهم فئة فاجرة اشترت بآيات الله ثمنا قليلا ووطأتها لكل ظالم خوفًا أو طمعًا، بل إنهم استطابوا ذلك واستمرؤوه بما خالج قلوبهم من القسوة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وأصبح كثير منهم طلاب دنيا؛ يصدون عن سبيل الله حفاظا على مناصبهم ومصالحهم وما ينالهم من أموال الجهلة والدهماء الذين اتخذوهم أربابا من دون الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة ٣٤-٣٥].

هذا وكانت حكمته سبحانه قد قضت أن يعهد إليهم بحفظ كتب علم أنهم مبدلوها، ابتلاء لهم وامتحانًا، وقد سبق في علمه جل وعلا أن رسلًا آخرين سيأتونهم من بعد ذلك بالوحي من عنده، ولما تختم رسالته بعد. وهناك أمور قد وطأت لهذا التحريف وسهلته.

ثانيًا: أسباب التحريف في الكتب السابقة:

تقدم أن الله سبحانه وتعالى قد أوكل حفظ الكتب السابقة إلى الأحبار والرهبان

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢١٠.

واستحفظهم عليها، على خلاف القرآن الذي تولى هو جل وعلا حفظه.

ويلاحظ من ناحية الأسباب فرق أساس ميز الكتب السابقة عن القرآن الكريم؛ ففي الوقت الذي نزل هو منجما نزلت هي جملة واحدة، وكان نزوله منجمًا على أمة أمية تعتمد على الحفظ سببًا في وجوده عند عمومهم وجميعهم كما يأتي، فلا قدرة لأحد منهم على أن يستأثر به من دونهم فيزيد فيه أو ينقص دون أن يتنبهوا لذلك ويعلموا به، وأن يكونوا حجة على تحريفه، بينما كان ذلك الاستئثار في مقدور الأحبار والرهبان الذين كان الكتاب موجودًا عندهم من دون سائر الناس.

ولئن لم ينص نصًّا صريحًا على أن الكتب السابقة قد نزلت جملة واحدة، فقد وقع في نصوص القرآن ما يوحي بشيء من ذلك، كقوله تعالى في شأن ألواح موسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

والألواح: «التوراة. وروي في الخبر أنه قبض عليه جبريل -عليه السلام- بجناحه فمر به في العلا حتى أدناه حتى سمع صريف القلم حين كتب الله له الألواح. وقال مجاهد: كانت الألواح من زمردة خضراء. وابن جبير: من ياقوتة حمراء. وأبو العالية: من زبرجد. والحسن: من خشب، نزلت من السماء. وقيل: من صخرة صماء، لينها الله لموسى عليه السلام فقطعها بيده ثم شقها بأصابعه، فأطاعته كالحديد لداود»[1].

قال الرازي: «واعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح، وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوي، وجب القول به وإلا وجب السكوت عنه.

وأما قوله: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ فلا شبهة فيه أنه ليس على العموم، بل المراد من كل ما يحتاج إليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام والمحاسن والمقابح»[2].

ويهمنا في هذا المقام أن الآية دلت على أن التوراة نزلت جملة واحدة مكتوبة، ولازم ذلك أن النبي المنزلة عليه قارئ كاتب، وكذا من استحفظوا عليها من بعده.

وقد استنبط من قوله الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. أن الكتب السابقة نزلت جملة واحدة، قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ يقول: هلا نزل على محمد صلى الله عليه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٨١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٦٠.

وسلم ﴿ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة؟ قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ تنزيله عليك الآية بعد الآية، والشيء بعد الشيء؛ لتثبت به فؤادك نزلناه»[1].

ووجه استنباط ذلك أن المشركين كانوا في سؤالهم المبطن بالتعجب يقيسون على حالة سبق العلم بها عندهم، ثم إن القرآن الكريم أجابهم على خلاف أسئلتهم الأخرى ببيان وجه الحكمة لا بإخبارهم بأن هذا سنة الرسل من قبل.

قال القطان: «أما الكتب السماوية الأخرى -كالتوراة والإنجيل والزبور- فكان نزولها جملة، ولم تنزل مفرقة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقًا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجمًا، فمعنى قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾: هلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ وماله أنزل على التنجيم؟ ولم أنزل مفرقًا؟

ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنته في إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، وكما رد عليهم في قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾، بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾.

بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة في تنزيل القرآن منجمًا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: كذلك أنزل مفرقًا لحكمة هي: تقوية قلب رسول الله ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: قدرناه آية بعد آية، بعضه إثر بعض، أو بيناه تبيينًا، فإن إنزاله مفرقًا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم، وذلك من أعظم أسباب التثبيت»[2].

ولما نزلت هذه الكتب جملة واحدة على أنبياء يقرؤون ويكتبون، ثم كانت بيد الأحبار والرهبان من بعدهم مستأثرين بها من دون عامتهم، فقد كان بمقدورهم تحريفها إما خوفًا أو طمعًا، كما هو مدلول الوصية التي أنزلت إليهم: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٥.

(٢) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ١٠٦.

﴿وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد وقع منهم هذا التحريف حقًّا.

وإذا تأملنا نصوص القرآن الكريم وجدناها قد أشارت إلى ثلاث مستويات من هذا التحريف:

١. إظهار بعضه وكتمان بعضه.

وقد دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۚ قُلِ ٱللَّهُۙ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فنصت الآية على أنهم كانوا يفرقون الكتاب في صحف أو قراطيس، وقوله: ﴿تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ﴾ صفة لقراطيس، أي: تبدون بعضها وتخفون كثيرًا منها، ففهم أن المعنى: تجعلونه قراطيس لغرض إبداء بعض وإخفاء بعض. وهذه الصفة في محل الذم، فإن الله أنزل كتبه للهدى، والهدى بها متوقف على إظهارها وإعلانها، فمن فرقها؛ ليظهر بعضًا ويخفي بعضًا فقد خالف مراد الله منها»[(١)].

وجلي أن المقصود من ذلك: إظهار ما يوافق الهوى وكتمان ما يخالفه «أي: يجعلها حملتها قراطيس، أي: قطعًا يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون، ويقولون: ﴿هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله»[(٢)].

٢. كتابة ما ليس منه فيه ونسبته إلى الله.

وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

فـ: «توعد تعالى المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركًا يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبًا وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٦٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٠٠.

﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد»[1].

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾: «تأكيد وهذا الموضع مما يحسن فيه التأكيد كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبته بيمينك.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فالمراد: أن من يكتب هذه الكتابة ويكسب هذا الكسب في غاية الرداءة؛ لأنهم ضلوا عن الدين وأضلوا، وباعوا آخرتهم بدنياهم، فذنبهم أعظم من ذنب غيرهم، فإن من المعلوم أن الكذب على الغير بما يضر يعظم إثمه، فكيف بمن يكذب على الله ويضم إلى الكذب الإضلال، ويضم إليهما حب الدنيا والاحتيال في تحصيلها، ويضم إليها أنه مهد طريقًا في الإضلال باقيًا على وجه الدهر؟! فلذلك عظم تعالى ما فعلوه. (وقد) حكى عنهم أمرين. أحدهما: كتبة الكتاب، والآخر: إسناده إلى الله تعالى على سبيل الكذب».

٣. تأوله على غير معناه.

وشاهده قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

وفي معنى الأماني ثلاثة أقوال ترجع في جملتها إلى تأول اللفظ على غير معناه:

«أحدها: أنها الأكاذيب. قال ابن عباس: إلا أماني: يريد إلا قولًا يقولونه بأفواههم كذبًا. وهذا قول مجاهد واختيار الفراء. وذكر الفراء أن بعض العرب قال لابن دأب وهو يحدث: أهذا شيء رويته، أم شيء تمنيته؟ يريد: افتعلته.

والثاني: أن الأماني: التلاوة، فمعناه: لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم.

قال الشاعر[2]:

تمنى كتاب الله أول ليلة
تمني داود الزبور على رسل

وهذا قول الكسائي والزجاج.

والثالث: أنها أمانيهم على الله، قاله قتادة»[3].

٤. كتمانه والتواصي بذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٦-٧٧].

ومعنى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ «يعني: منافقيهم. قالوا آمنا بأنكم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٩٤، ولم يعزه لأحد.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٨١.

على الحق، وإن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا﴾ أي: الذين لم ينافقوا منهم عاتبين على من نافق ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أو الذين نافقوا أعقابهم، إظهارًا للتصلب في اليهودية، ومنعًا لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فينافقون الفريقين»[1].

وفي إنكار بعضهم على بعض هذا التحديث دليل على هذه الصورة من التواصي بالكتمان.

وقد تضافرت هذه الصور الأربعة على تحريف الكتاب وجعله في قراطيس يبدون بعضها ويكتمون بعضًا، وكتابتهم ما ليس من الوحي فيها، وتأولهم لصحيحها على غير مراد الله منه، أو كتمانهم للحق كتمانًا كاملًا والتواصي بذلك لا مجرد إظهار بعضه تضليلًا وكتمان بعض. ولقد سهل عليهم ذلك بسبب استئثارهم بها، أو استئثار فئة خاصة منهم بها من دون سائر الناس. فلما أنزل الله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته جعله محفوظًا في صدور صبيانهم قبل كتب علمائهم.

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨٩.

ثالثًا: أسباب حفظ القرآن الكريم:

على خلاف الكتب السابقة، نزل القرآن الكريم على أمة أمية تعتمد على الحفظ أكثر من الكتابة، ثم إن نزوله مفرقًا؛ ليقرأه النبي صلى الله عليه وسلم على الناس على مكث قد جعله محفوظًا عند عامتهم لا تستأثر به طائفة: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

أي: «قطعناه آيةً آية وسورةً سورة في عشرين سنة ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ تؤدة وترسلٍ؛ ليفهموه ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ نجومًا بعد نجوم وشيئًا بعد شيءٍ»[2].

وبناء على ذلك فقد علم بالحجة العقلية القاطعة الحاصلة من التواتر الذي لا يختلف فيه العقلاء «أن القرآن، الذى هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف، هو الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثًا وعشرين سنة.

والطريق إلى معرفة ذلك هو النقل المتواتر، الذي يقع عنده العلم الضروري به. وذلك أنه قام به في المواقف، وكتب به إلى البلاد، وتحمله عنه إليها من تابعه، وأورده على غيره ممن لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشتبه على أحد، ولا يخيل أنه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه، ويأخذه

(٢) الوجيز، الواحدي ص ٦٥٠.

على غيره، ويأخذه غيره على الناس، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها، وتعدى إلى الملوك المصاقبة لهم، كملك الروم والعجم والقبط والحبش، وغيرهم من ملوك الأطراف.

ولما ورد ذلك مضادًّا لأديان أهل ذلك العصر كلهم، ومخالفًا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر وقف جميع أهل الخلاف على جملته، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفاصيله، وتظاهر بينهم، حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير والصغير؛ إذ كان عمدة دينهم، وعلمًا عليه، والمفروض تلاوته في صلواتهم، والواجب استعماله في أحكامهم. ثم تناقله خلف عن سلف هم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله، حتى انتهى إلينا، على ما وصفناه من حاله. فلن يتشكك أحد، ولا يجوز أن يتشكك مع وجود هذه الأسباب، في أنه أتى بهذا القرآن من عند الله تعالى»[1].

ويؤيد ذلك أنه تحداهم به ولم يزل عجزهم عن معارضته قائمًا مع علمهم به واطلاعهم عليه، فلو جاز أن يكون القرآن الموجود بين أيدينا غير الذي تحدوا به؛ لنقل عنهم ذلك.

قال الباقلاني: «وإذا ثبت هذا الأصل وجودًا، فإنا نقول: إنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم على ترك الإتيان به، طول السنين التي وصفناها، فلم يأتوا بذلك، فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، ولم يأتوا بمثله.

وفي هذا أمران:

أحدهما: التحدي إليه.

والآخر: أنهم لم يأتوا له بمثل.

والذي يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين»[2].

ويضيف الباقلاني أن العدد العظيم من الناس الذين أخذوا القرآن وتعلموه لدواع مختلفة ولو كانوا غير مسلمين، قد دل اتفاقهم على هذا القرآن أنه هو نفسه الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله، ولا يمكن أن يتشكك في ذلك عاقل، كيف والعقلاء لا يجيزون ذلك في مثل شعر امرئ القيس الذي لو زيد فيه لفظ؛ لتبرأ منه أصحابه؟!

قال: «وإن قال قائل: لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدي، وإنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن، كان ذلك قولًا باطلًا، يعلم بطلانه بمثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا! وهو يبلغ حمل جمل! وأنه كتم، وسيظهره

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ١٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٨.

المهدي! أو يدعي أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان، رضي الله عنهما، حيث وضع المصحف، أو يدعي فيه زيادة أو نقصانًا.

وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ووعده الحق، وحكاية قول من قال ذلك يغني عن الرد عليه؛ لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي، وفي الأسفار والحضر، وضبطوه حفظًا، من بين صغير وكبير، وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم السهو والنسيان، ولا التخليط فيه والكتمان، ولو زادوا أو نقصوا أو غيروا؛ لظهر، وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يضبط كضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه إمساسها إلى القرآن لو زيد فيه بيت، أو نقص منه بيت، لا، بل لو غير فيه لفظ؛ لتبرأ منه أصحابه، وأنكره أربابه.

فإذا كان ذلك مما لا يمكن أن يكون في شعر امرئ القيس ونظرائه، مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن، مع شدة الحاجة إليه في الصلاة التي هي أصل الدين، ثم في الأحكام والشرائع، واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه، فمنهم: من يضبطه؛ لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها، وصحة أدائها، ومنهم: من يحفظه؛ للشرائع والفقه، ومنهم: من يضبطه؛ ليعرف تفسيره ومعانيه، ومنهم: من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة، ومن الملحدين: من يحصله؛ لينظر في عجيب شأنه.

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة -على كثرة أعدادهم، واختلاف بلادهم، وتفاوت أغراضهم- أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان؟! ويبين ذلك: أنك إذا تأملت ما ذكر في أكثر السور مما بينا، ومن نظائره في رد قومه عليه ورد غيرهم، وقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، وقول بعضهم: إن ذلك سحر، وقول بعضهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ إلى الوجوه التي يصرف إليها قولهم في الطعن عليه»[1].

فالحجة العقلية الحاصلة من التواتر تشهد بأن نصوص القرآن الكريم محفوظة من التبديل أو التزييف أو التحريف، ولقد هيئت له عناية إلهية خاصة منذ أزف نزوله واقترب، فإذا الجن تلحظ تغيرًا لم تألفه في السماء حين صارت تجد شهبًا قد ملئت بها جوانبها تترصدها كلما اقتربت على خلاف عهدها السابق: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا

(١) المصدر السابق.

مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠].

ثم إنهم علموا أنهم قد عزلوا عن السماع لأجل أمر عظيم: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء ٢١٠-٢١٢].

ولقد اختير لهذه المهمة العظيمة أمين كريم ذو قوة مكين ومطاع في أهل السماء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

وكما اختير أمين في السماء اختير أمين في الأرض، وتولى الله تنقية سريرته وتصفية أمانيه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

وأعلن في الناس أنه لو أراد أن يبدله أو يحرفه -وحاشاه أن يفعل- ما استطاع ذلك: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

كما وعد بجمعه في صدره ثم يقرأه على الناس فلا يخطئ منه حرفًا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

وأعلن سبحانه في العالمين أنه هو من يتولى حفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأن الباطل لا يقربه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وأن أحدًا لن يستطيع له تبديلًا: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

ولقد نزل منجمًا فحفظ ونقل تواترًا كما سلف، وهو الكتاب الأوحد الذي ما يزال دليل صدقه -إعجازه- قائمًا فيه.

القرآن حجة الله على الناس

بين الله في كتابه أن القرآن الكريم هو حجته الدامغة على الناس، وسوف نتناول بيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: القرآن منذر لمن بلغه:

لحكمةٍ ما شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون معجزة النبي عليه الصلاة والسلام وحيًا، وأن ينزل بلسان عربي، وأن يظل قائمًا ومحفوظًا، وأن يكون حجة على الناس جميعًا، وأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بسببه أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة، كما في الحديث: (ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[1].

قال ابن حجر -وهو يستعرض الأقوال في معنى الحديث-: «وقيل: المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وهذا أقوى المحتملات وتكميله في الذي بعده»[2] أي: قوله صلى الله عليه وسلم: (فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة).

وهذا الذي ذكره ابن حجر يفيد بأن الله عز وجل قد أودع في هذا القرآن ما يجعله معجزة مستمرة يتساوى في إدراكها السابق واللاحق، وقد نصت آية سورة الأنعام على أن لمن بلغه القرآن الكريم حكم من رأى النبي صلى الله عليه وسلم من قيام الحجة عليه بالبلاغ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ عقابه، وأنذر به من بلغه من سائر الناس غيركم، إن لم ينته إلى العمل بما فيه، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والإيمان بجميعه نزول نقمة الله به»[3].

ثم ذكر عن حسن بن صالح قال: «سألت ليثًا: هل بقي أحدٌ لم تبلغه الدعوة؟ قال:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/ ١٨٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٩/ ٧.

(٣) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٩٠.

كان مجاهد يقول: حيثما يأتي القرآن فهو داعٍ، وهو نذير. ثم قرأ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ﴾»[1].

وقال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم وسمع منه. وفي الخبر أيضًا: من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذ به أو تركه. وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له»[2].

وهذا المعنى مستفاد من قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾: فأما قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ فالمراد: أنه تعالى أوحى إلي هذا القرآن؛ لأنذركم به، وهو خطاب لأهل مكة، وقوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾: عطف على المخاطبين من أهل مكة، أي: لأنذركم به، وأنذر كل من بلغه القرآن، من العرب والعجم، وقيل من الثقلين، وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن، فكأنما رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا التفسير فيحصل في الآية حذف، والتقدير: وأوحي إلي هذا القرآن؛ لأنذركم به، ومن بلغه هذا القرآن، إلا أن هذا العائد محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، كما يقال الذي رأيت زيد، والذي ضربت عمرو»[3].

وحمل قوله: سبحانه ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ على أن المراد منه: من بلغه القرآن هو الأشهر والأوفق للسياق، ولذلك اقتصر عليه كثير من المفسرين ولم ينصوا على أنه قد يراد من الآية معنى غيره، «وقيل: ومن بلغ الحلم. ودل بهذا على أن من لم يبلغ الحلم ليس بمخاطب ولا متعبد»[4]. قال الرازي: «وفي تفسير قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ قول آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ أي: ومن احتلم وبلغ حد التكليف، وعند هذا لا يحتاج إلى إضمار العائد، إلا أن الجمهور على القول الأول»[5].

هذا ويستفاد من معنى الآية أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قائمة مقامه من بعده في تبليغ القرآن الكريم وبه تقوم الحجة على من بلغه، قال القرطبي: «وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغهما، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم: (بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار)[6].

كما ينبني على ذلك أيضًا أن رسالة محمد

(١) المصدر السابق.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٩٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٩٩.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.

صلى الله عليه وسلم ممتدة زمانًا ومكانًا خلافًا لرسالات الرسل قبله، فهي تعم من بلغه القرآن الكريم في سائر البلاد ولو لم ير النبي صلى الله عليه وسلم في وقت كونه صلى الله عليه وسلم حيًّا كالنجاشي الذي آمن به ولم يره وتوفي مؤمنًا وصلى عليه عليه الصلاة والسلام صلاة الغائب، كما تعم «كل من يبلغه القرآن في جميع العصور»[1].

ومن ذلك ما ذكر ابن جرير في تفسيره: «قال ابن زيد، في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ قال: النبي النذير. وقرأ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقرأ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ قال: رسل. قال: المنذرون: الرسل. قال: وكان نذيرًا واحدًا بلغ ما بين المشرق والمغرب، ذو القرنين، ثم بلغ السدين، وكان نذيرًا، ولم أسمع أحدًا يحق أنه كان نبيًّا. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ قال: من بلغه القرآن من الخلق، فرسول الله نذيره. وقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقال: لم يرسل الله رسولًا إلى الناس عامة إلا نوحًا، بدأ به الخلق، فكان رسول أهل الأرض كلهم، ومحمد صلى الله عليه وسلم ختم به»[2].

وعليه، فإن هذا القرآن حجة الله القائمة على خلقه إلى يوم القيامة، هو معجزة النبي -عليه الصلاة والسلام- شاء الله أن يظل قائمًا ومحفوظًا، ومن بلغه فكأنما رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأمته أمينة على تبليغه من بعده قائمة مقام نبيها، ولأجل ذلك فالمسلمون أكثر أتباع الأنبياء يوم القيامة.

ثانيًا: سماع القرآن وأثره في قيام الحجة:

نصت سورة التوبة على أن سماع القرآن الكريم كاف في إقامة الحجة على المشركين ورفع العذر عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

قال ابن جرير في بيان معناها: «يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحدٌ؛ ليسمع كلام الله منك -وهو القرآن الذي أنزله الله عليه- ﴿فَأَجِرْهُ﴾، يقول: فأمنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، يقول: ثم رده بعد سماعه كلام الله إن هو أبى أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن إلى مأمنه، يقول: إلى حيث

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٦٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٣٦.

يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان؛ ليسمعوا القرآن، وردك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم؛ من أجل أنهم قوم جهلة لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم بتركهم الإيمان بالله»[1].

والمقصود بسماعه: «فهم المقصود من دلالته على النبوة، وفهم المقصود به من التكليف، ولم يكن يخفى على العرب وجه الإعجاز فيه، وطريق الدلالة على النبوة، لكونه خارجًا عن أساليب فصاحة العرب في النظم والنثر، والخطب والأراجيز، والسجع والأمثال، وأنواع فصل الخطاب؛ فإن خلق الله له العلم بذلك، والقبول له صار من جملة المسلمين، فإن صد بالطبع، ومنع بالختم، وحق عليه بالكفر القول رد إلى مأمنه»[2].

ولئن مال أكثر المفسرين إلى أن هذا متحقق في شأن مشركي العرب خاصة؛ لما تهيأ لهم من معرفة وجه الإعجاز فيه، فإن سورة المائدة قد وصفت طائفة من القسيسين والرهبان بأنهم إذا سمعوه سارعوا إلى الاستجابة له، كما قال: جل وعلا: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

فقد وصفت الآية هؤلاء الذين هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا بجملة من الصفات:

«منها: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أي: علماء متزهدين، وعبادًا في الصوامع متعبدين. والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة؛ فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

ومنها: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتوٌّ عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي

(١) المصدر السابق ١٤/ ١٣٨.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٤٥٩.

تيقنوه، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب»[1].

ويهمنا في هذا المقام ما وصفتهم به الآية من أن أعينهم تفيض من الدمع الذي هو دليل معرفة وإذعان، «وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه»[2].

وتكرر هذا الوصف في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

فقد جعلت الآية من صفة هؤلاء الذين أوتوا العلم أنهم يخرون ساجدين وباكين حين تتلى عليهم آيات القرآن الكريم، وقد اشتملت الآية على وصفين ذكرا في الآية السابقة يتفرع أحدهما عن الآخر وينتج الثاني الأول، وهو حصول علم سابق يؤدي إلى البكاء والسجود، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾، وقال: ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: ففيض دموعهم، لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ[3].

وقد تضمنت آية سورة الإسراء أثرًا آخر وهو السجود، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

ومعنى الآية: «فـ: ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاريه شيئًا، وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن لله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له. ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عما لا يليق -بجلاله-، مما نسبه إليه المشركون.

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، ﴿لَمَفْعُولًا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لَمَفْعُولًا﴾ لا خلف فيه ولا شك. ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/٥٠٧.
(٣) المصدر السابق.

القرآن ﴿خُشُوعًا﴾»[1].

ويبدو أن سبب هذا السجود رغبة تلقائية تحصل في نفوسهم من استشعار عظمة منزل هذه الآيات. ومما يؤكد حصول هذه الرغبة التلقائية قصة سجود المشركين عند نزول آيات سورة النجم، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (أول سورةٍ أنزلت فيها سجدةٌ (والنجم)، قال: فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من ترابٍ فسجد عليه! فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا، وهو أمية بن خلفٍ)[2].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: (سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس)[3].

فالمشركون أنفسهم على كونهم مجاهرين بالعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومكذبين بالوحي، لم يتمالكوا أنفسهم حين سمعوه -عليه الصلاة والسلام- يتلو سورة النجم، فلما بلغ موضع السجدة منها سجد فخروا معه ساجدين، وهذا يدل على أن استشعار روعة هذه الآيات يحرك في نفس سامعها رغبة خفية في أن يخر ساجدًا باكيًا بين يدي بارئه وفاطره.

وعليه، فإن لسماع القرآن سرًّا يجعل سامعه أو طائفة من سامعيه يستشعرون عظمة منزله ويسارعون إلى الإيمان به، وقد يحصل له تأثير حتى على قلوب المعاندين له، وإن كان كبرهم يغلب عليهم في النهاية فيصرون على الصد عنه.

أما الذين زين الله قلوبهم بالإيمان وحلاهم بكماله وأذاقهم حلاوته فإن سماع القرآن يؤثر فيهم تأثيرًا خاصًّا، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

«أي: الله تعالى نزل بفضله ورحمته عليك -يا محمد- ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ أي: يشبه بعضه بعضًا في فصاحته وبلاغته، وفي نظمه وإعجازه، وفي صحة معانيه وأحكامه، وفي صدقه وهداياته وإرشاداته إلى ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم.

﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: تثنى وتكرر فيه القصص

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فاسجدوا لله واعبدوا)، ٦/ ١٤٢، رقم ٤٨٦٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فاسجدوا لله واعبدوا)، ٦/ ١٤٢، رقم ٤٨٦٢.

والمواعظ، والأمثال والأحكام والوعد والوعيد، كما تثنى وتكرر قراءته فلا تمل على كثرة الترداد، وإنما يزداد المؤمنون حبًّا وتعلقًا بتلاوته كلما أكثروا من هذه التلاوة.

وسمى سبحانه كتابه حديثًا؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث به قومه، ويخبرهم بما كان ينزل عليه منه. فلفظ الحديث هنا بمعنى المحدث به لا بمعنى كونه مقابلا للقديم.

ولفظ: ﴿كِتَٰبًا﴾: بدل من قوله: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾. وقوله: ﴿مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ صفتان للكتاب ووصف بهما وهو مفرد، وكلمة: ﴿مَّثَانِيَ﴾ جمع، باعتبار اشتماله على الكثير من السور والآيات والقصص والمواعظ والأحكام.

أي: الله تعالى أنزل أحسن الحديث كتابًا مشتملًا على السور والآيات والمواعظ. التي يشبه بعضها في الإعجاز، والتي تثنى وتكرر فلا تمل على كثرة التكرار.

وقوله: ﴿تَقۡشَعِرُّ﴾ من الاقشعرار، وهو الانقباض الشديد للبدن. يقال: اقشعر جسد فلان، إذا انقبض جلده واهتز، وهو هنا كناية عن الخوف الشديد من الله تعالى.

أي: أن هذا الكتاب العظيم عند ما يقرؤه أو يسمعه المؤمنون الصادقون الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم من شدة ما اشتمل عليه من زواجر ونذر. ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ما قرؤوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة والمغفرة»[1].

وبناء على ما سبق، فإن لسماع القرآن تأثيرًا خاصًّا يتفاوت باختلاف السامعين له، وأقل ذلك دلالته العقلية الظاهرة على الحق، وارتفاع الحجة عمن سمعه -والله أعلم-.

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٢١٥.

حديث القرآن عن مواقف الناس منه

تحدث القرآن عن مواقف الناس منه، وهذا ما سوف نوضحه فيما يأتي:

أولًا: المستجيبون له:

قد تقدم أن القرآن الكريم قد وصف الذين أوتوا العلم بالسجود والبكاء عند سماع آيات القرآن الكريم، وذلك منهم إقرار به وإذعان له.

قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

«ففيض دموعهم؛ لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ»[1]، وسجودهم إذعان منهم لمُنزله.

كما ورد هذا الوصف في حق طائفة من القسيسين والرهبان: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

قال مجاهد: «هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة، وروي عن عطاء نحو ذلك»[2].

وعن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي وفدًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا. قال: فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، إلى آخر الآية. قال: فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه، فأسلم النجاشي، فلم يزل مسلمًا حتى مات. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أخاكم النجاشي قد مات، فصلوا عليه! فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، والنجاشي ثم»[3].

وقد روي أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٧.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٨٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٩٩.

أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾» [القصص: ٥٢-٥٥]. نزل فيهم أيضًا.

واختار ابن جرير أن تكون الآية قد أخبرت بذلك عن قوم هذه صفتهم من غير تعيين ولا قصر على قوم مخصوصين أو في زمن مخصوص، قال: «والصواب في ذلك من القول عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أن ذلك إنما كان منهم؛ لأن منهم أهل اجتهاد في العبادة، وترهب في الديارات والصوامع، وأن منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين؛ لتواضعهم للحق إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه؛ لأنهم أهل دين واجتهاد فيه، ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد دربوا بقتل الأنبياء والرسل، ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه»[1].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨].

وقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]»[2].

وزيادة على إيمانهم به فقد أخبر القرآن عنهم أنهم يفرحون به، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد: ٣٦].

و«قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم مسلمو اليهود، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: هم عبد

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٤.

الله بن سلام وأصحابه.

والثاني: أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة.

والثالث: مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى، ذكره الماوردي: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ القرآن، فرح به المسلمون وصدقوه، وفرح به مؤمنو أهل الكتاب؛ لأنه صدق ما عندهم»[1].

وقد نص القرآن الكريم على أن الذين أوتوا العلم يرون نصوصه حقًّا وتنزيلًا من الله وهادية إلى صراطه، قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه، فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضًا أنه في أوامره ونواهيه ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عيانًا، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق والإخلاص وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنهى عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها»[2].

وقد دلت هذه الآيات على أن المتصفين بالعلم، الذين لم يعم الكبر والعناد قلوبهم، إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم شهدوا

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٩٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٥.

بصدقها وأقبلوا عليها خاشعين مذعنين مطيعين مستجيبين.

ثانيًا: الصَّادُّونَ عنه:

قص القرآن الكريم عن المشركين أنهم في خضم معاندتهم للحق وصدهم عنه قالوا إن قلوبهم مغلفة فلا يصل الحق إليها، وفي آذانهم صمم فلا يسمعون ما يتلو النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بينهم وبينه حجاب فلا يرونه.

قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١-٥].

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينون عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ أي: أغطية مغشاة ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ أي: صم فلا نسمع لك ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فلا نراك.

القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه، من كل وجه، وأظهروا بغضه، والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: كما رضيت بالعمل بديننا، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا»[1].

وكما أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يسمعون تيئيسًا للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد تواصوا بعدم السماع للقرآن الكريم وأمر بعضهم بعضًا بذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهي: عطف على جملة ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ عطف القصة على القصة، ومناسبة التخلص إليه أن هذا القول مما ينشأ عن تزيين قرنائهم من الإنس، أو هو عطف على جملة ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُمۡ﴾ وهذا حكاية لحال أخرى من أحوال إعراضهم عن الدعوة المحمدية بعد أن وصف إعراضهم في أنفسهم انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أساليب الإعراض، فالذين كفروا هنا هم أئمة الكفر يقولون لعامتهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾[2].

وعلى هذا فإنهم مع زعمهم أن القرآن الكريم لن يؤثر فيهم؛ لأنهم لا يسمعونه وقلوبهم مغلفة عن أن يصل إليها، فإنهم لم يستطيعوا الصبر عليه بحيث تواصوا باللغو

(١) المصدر السابق ص ٧٤٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٧٧.

فيه وتناهوا عن سماعه، وما ذلك منهم إلا مخافة لتأثيره في بعضهم: «فإنهم علموا أن القرآن كلام هو أكمل الكلام، شريف معاني وبلاغة تراكيب وفصاحة ألفاظ، وأيقنوا أن كل من يسمعه وتداخل نفسه جزالة ألفاظه وسمو أغراضه قضى له فهمه أنه حق اتباعه، وقد أدركوا ذلك بأنفسهم، ولكنهم غالبتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبروا تدبيرًا لمنع الناس من استماعه، وذلك خشية من أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن فصرفوهم عن سماعه.

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن يكمموا أفواه الناطقين بالحق والحجة، بما يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب وترغيب ولا يدعوا الناس يتجادلون بالحجة ويتراجعون بالأدلة؛ لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهض، فهم يسترونها ويدافعونها لا بمثلها ولكن بأساليب من البهتان والتضليل، فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق خشوا أن يعم نورها الناس الذين فيهم بقية من خير ورشد، عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة لعلهم يغلبون بذلك على حجج الحق، ويغمرون الكلام القول الصالح باللغو، وكذلك شأن هؤلاء. فقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ تحذيرًا واستهزاء بالقرآن، فاسم الإشارة مستعمل في التحقير كما فيما حكي عنهم ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وتسميتهم إياه بالقرآن؛ حكاية لما يجري على ألسنة المسلمين من تسميته بذلك. وتعدية فعل ﴿تَسْمَعُوا﴾ باللام؛ لتضمينه معنى: تطمئنوا أو تركنوا.

واللغو: القول الذي لا فائدة فيه، ويسمى الكلام الذي لا جدوى له لغوًا، فمعنى ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾: قولوا أقوالًا لا معنى لها أو تكلموا كلامًا غير مراد منه إفادة»[1].

في غمرة هذا العناد لم يشعر هؤلاء المعاندون أنه قد طبع على قلوبهم حقًّا وجعلت عليها أكنة وأغلفة مانعة من وصول الحق إليها فلا يفقهون معانيها، وأن آذانهم قد صمت عن سماع الحق، سماع من يستجيب له.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾

(١) المصدر السابق.

[الإسراء: ٤٥-٤٦].

«وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع (كنان)، الذي يغشى القلب ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به[1].

وهؤلاء يصل القرآن إلى آذانهم ولكنهم لا يسمعونه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ويصير القرآن الذي هو نور عمًى عليهم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولأجل ذلك فهم لا ينتفعون بما فيه من تذكير ومواعظ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

ولا تنشرح صدورهم لآياته: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

ويغضبون إذا تليت عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

وهؤلاء الصادون قد جحدوا بآيات الله، وقد استيقنتها قلوبهم بما خالطها من مرض وكبر وعناد، فهم يجادلون بكل باطل؛ ليدحضوا به الحق، فإذا تقطعت بهم السبل وأعيتهم الحجة انقلب كبرهم غضبًا وبطشًا، بل إن مجرد سماع آيات الله تتلى يستفز هذا الغضب في نفوسهم، فإذا هم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٢.

الأدب مع القرآن

بين القرآن بيانًا شافيًا أدب الناس مع القرآن.

أولًا: أدبهم مع صحفه:

وصف الحق سبحانه وتعالى كتابه بأنه في صحف مطهرة بأيدي سفرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦].

قال ابن عطية: «وقال بعض المتأولين: الصحف هنا اللوح المحفوظ، وقيل: صحف الأنبياء المنزلة، وقيل: مصاحف المسلمين، واختلف الناس في (السفرة)، فقال ابن عباس: هم الملائكة؛ لأنهم كتبة يقال: سَفَرْتُ أي: كتبت، ومنه السِّفْرُ، وقال ابن عباس أيضًا: الملائكة سفرة؛ لأنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أنبيائه، وقال قتادة: هم القراء، وواحد السفرة سافر، وقال وهب بن منبه: هم الصحابة؛ لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخبر والتعلم، والقول الأول أرجح»[1].

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠].

فهو محتمل لكونه خبرًا أو أمرًا، قال ابن العربي: «فقيل: لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي، وقيل: هو نفي. وكان ابن مسعود يقرؤها: (ما يمسه إلا المطهرون)؛ لتحقيق النفي»[2].

وتفريعًا على ما سبق، فقد اختلف في المراد بالمس: أهو المس بالجارحة أم لا؟ وفي المراد بالمطهرين: هل هم المطهرون من الحدث أم من شيء آخر؟ قال القرطبي: «اختلف في معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ هل هو حقيقة في المس بالجارحة أو معنى؟ وكذلك اختلف في ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جبير: لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة. وكذا قال أبو العالية وابن زيد: إنهم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم، فجبريل النازل به مطهر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مطهرون.

الكلبي: هم السفرة الكرام البررة، وقيل: معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ لا ينزل به ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء. وقيل: لا يمس اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهرون. وقيل: إن إسرافيل

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٣٨.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٤.

هو الموكل بذلك، حكاه القشيري»[1].

ويرى ابن العربي أن الملائكة لا تصل إلى اللوح المحفوظ، قال: «أما قول من قال: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فهو باطل؛ لأن الملائكة لا تناله في وقت، ولا تصل إليه بحال؛ فلو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه محل.

وأما من قال: إنه الذي بأيدي الملائكة من الصحف فإنه قول محتمل؛ وهو الذي اختاره مالك قال: أحسن ما سمعت في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أنها بمنزلة الآية التي في (عبس وتولى): ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ يريد: أن المطهرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة (عبس)[2].

وقيل: إن المراد المصحف الذي بأيدينا، قال الجصاص: «روي عن سلمان أنه قال: لا يمس القرآن إلا المطهرون فقرأ القرآن ولم يمس المصحف حين لم يكن على وضوء، وعن أنس بن مالك في حديث إسلام عمر قال: فقال لأخته: أعطوني الكتاب الذي كنتم تقرؤون، فقالت: إنك رجس وإنه لا يمسه إلا المطهرون! فقم فاغتسل أو توضأ، فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأه -وذكر الحديث-، وعن سعد أنه أمر ابنه بالوضوء لمس المصحف، وعن ابن عمر مثله، وكره الحسن والنخعي مس المصحف على غير وضوء»[3].

واختاره القرطبي، قال: «وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر. وقد روى مالك وغيره أن كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته: من محمد النبي إلى شرحبيل بن عبد كلال، والحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال قيل ذي رعين ومعافر وهمدان: أما بعد؛ وكان في كتابه: ألَّا يمس القرآن إلا طاهر. وقال ابن عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر).

وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ فقام واغتسل وأسلم، وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والأنجاس»[4].

ويلاحظ من الاستظهار على تقرير النهي عن مس المصحف بالأخبار السالفة أن دلالة الآية عليه محتملة وغير صريحة، قال الجصاص: «إنْ حُمل اللفظ على حقيقة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٦.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٥.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣٠٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٦، وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٥.

الخبر فالأولى أن يكون المراد القرآن الذي عند الله والمطهرون الملائكة، وإنْ حُمل على النهي وإن كان في صورة الخبر كان عمومًا فينا، وهذا أولى؛ لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في أخبار متظاهرة أنه كتب في كتابه لعمرو بن حزم: ولا يمس القرآن إلا طاهر، فوجب أن يكون نهيه ذلك بالآية؛ إذ فيها احتمال له»، واقتصر الكيا هراسي على النص على أنها تدل على وجوب الوضوء لمس المصحف من غير تفصيل للمسألة فقال: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ يدل على منع مس المصحف من غير وضوء»[1].

ويرى السايس أن منع المحدث من مس المصحف مستفاد من السنة، وذلك يغني عن تكلف إيجاد الدلالة عليه في الآية، قال: «من المفسرين من يريد إرجاع الضمير في: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ إلى القرآن الكريم، وأن من الآراء في ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ رأيًا يقول: هم المطهرون من الناس، وأن طهارتهم هي الطهارة الشرعية من الحدثين. على هذين الاعتبارين يقوم استدلال بعض الفقهاء بالآية على عدم مس المحدثين للمصحف، وعدم مس المحدث للمصحف أمر يكاد يجمع عليه، ومن أجازه من الفقهاء أجازه لضرورة التعلم، أو التعبد عند بعضهم، وقد يكون الحكم مُسلَّمًا لا اعتراض عليه، إنما الذي لا يسلم هو أن يكون الحكم مأخوذًا من هذه الآية، فإنك لمست ما فيها من احتمالات كثيرة، بل ويرجح بعض العلماء أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، وأن الضمير في ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ راجع إليه، وأنه حتى على فرض أن الكتاب القرآن، فليس هو المصحف، بل هو المصحف الذي بأيدي الملائكة، ولئن كان هو المصحف فالمطهرون يحتمل أن يراد منهم المؤمنون، ويراد من المس الإدراك، ويكون المعنى لا تفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلوب الملوثة أن تجد نور الإيمان. قال البخاري في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به»[2].

ثم يقول: «إذا كان المفسرون تبعا للفقهاء يستدلون بالآية من وجهها الذي استدل بها منه ابن تيمية على الحكم كان حسنًا، حيث قال: إن الآية تدل على الحكم من باب الإشارة والتنبيه؛ لأنه ما دامت صحف القرآن في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فالصحف التي بأيدينا كذلك ينبغي ألا يمسها إلا الطاهر»[3].

وبناء على ما سبق، يمكن أن نقول: إن

(١) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٣٩٩.

(٢) تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٧٢١.

(٣) المصدر السابق.

الطهارة عند لمس المصحف أدب يتأدب به المؤمن مشابهة للملائكة المطهرين، وهو يلقي في نفسه شعورًا بعظمة هذا الكتاب وجلال منزله والحفاوة التي صاحبت نزوله وتلاوته في الملأ الأعلى، فضلًا عن كونه واجبًا شرعيًا عند أكثر الفقهاء، قال القرطبي: «الجمهور على المنع من مسه (لغير المتوضئ)؛ لحديث عمرو بن حزم.

وهو مذهب علي وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد ابن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي. واختلفت الرواية عن أبي حنيفة، فروي عنه أنه يمسه المحدث، وقد روي هذا عن جماعة من السلف منهم ابن عباس والشعبي وغيرهما.

وروي عنه أنه يمس ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر. وقال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك. ولم يمنع من حمله بعلاقة أو مسه بحائل.

وقد روي عن الحكم وحماد وداود بن علي أنه لا بأس بحمله ومسه للمسلم والكافر طاهرًا أو محدثًا، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حمله. واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه.

وفي مس الصبيان إياه على وجهين: أحدهما: المنع اعتبارًا بالبالغ. والثاني: الجواز؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأن تعلمه حال الصغر، ولأن الصبي وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثًا»[1].

ثانيًا: أدبهم عند سماعه:

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يستمعوا وينصتوا إذا قرئ القرآن فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

«وقد وردت الآية هكذا عامة في وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل الأحوال، وعلى جميع الأوضاع خارج الصلاة وداخلها، كل ذلك يجب فيه الاستماع والإنصات للقرآن الكريم إذا قرئ»[2].

قال السعدي: «هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه،

(١) تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٧٢١.
(٢) المصدر السابق ص ٤٢٠.

ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير»[1].

لكن حمل الآية على ظاهرها بهذه الصورة المطلقة لم يجر على ألسنة المفسرين، وأغلبهم لا يناقش حتى هذا المفهوم المتبادر؛ فعقد ابن العربي مثلا للحديث عنها ثلاث مسائل تناول في أولها: سبب نزولها -وكأنه رآه مخصصًا ومبينًا لما يفهم من عمومها-، ثم تحدث في الثانية والثالثة عن حكم القراءة خلف الإمام[2].

وأما أبو بكر الجصاص فقد اقتصر في الحديث في أحكامه تحت الآية على مسألة القراءة خلف الإمام فقط[3]، وكذلك فعل الكيا هراسي الشافعي[4].

وقال الماوردي: «قوله عز وجل ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ أي: لقراءته. ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ أي: لا تقابلوه بكلام ولا إعراض ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

واختلفوا في موضع هذا الإنصات على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها نزلت في المأموم خلف الإمام ينصت ولا يقرأ، قاله مجاهد.

والثاني: أنها نزلت في خطبة الجمعة ينصت الحاضر لاستماعها ولا يتكلم، قالته عائشة، وعطاء.

والثالث: ما قاله ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة: سلام على فلان، سلام على فلان، فجاء القرآن من ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾»[5].

وأما القرطبي فرغم تمسكه بالعموم في الرد على كل من زعم قصر الآية على موضع مخصوص فقال: «قال بعضهم في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾: كان هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصًّا ليعيه عنه أصحابه. قلت: هذا فيه بعد، والصحيح: القول بالعموم؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والتخصيص يحتاج إلى دليل[6].

وقال أيضًا: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضًا أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبته هذه الآية وغيرها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.
(٢) انظر أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٣٦٤.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢١٥.
(٤) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٣/ ١٤٢.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٩٠.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٥٤.

من السنة في الإنصات. قال النقاش: أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة»[1].

بل وذكر أنه يفيد (في اللغة) ما هو أعم من ذلك، فنقل عن النحاس: أنه «في اللغة يجب أن يكون في كل شيء، إلا أن يدل دليل على اختصاص شيء»[2]، إلا أنه لم يصرح -بل ولم يناقش ولم يطرح مطلقًا- مسألة وجوب الإنصات خارج الصلاة.

وقد ذكر الخازن في تفسيره أن الحسن والظاهرية أجروا الأمر على ظاهره، فقال: «وظاهر الأمر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء في ذلك أقوال:

القول الأول: وهو قول الحسن وأهل الظاهر أن تجري هذه الآيات على العموم، ففي أي وقت وأي موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت.

والقول الثاني: إنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة.

القول الثالث: إنها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام»[3].

قال ابن عاشور: «هذه الآية مجملة في معنى الاستماع والإنصات، وفي مقتضى الأمر من قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾، يبين بعض إجمالها سياق الكلام والحمل على ما يفسر سببها من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، ويحال بيان مجملها فيما زاد على ذلك على أدلة أخرى.

وقد اتفق علماء الأمة على أن ظاهر الآية بمجرده في صور كثيرة مؤول، فلا يقول أحد منهم بأنه يجب على كل مسلم إذا سمع أحدًا يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع وينصت، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته، فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله، ولكنهم اختلفوا في محمل تأويلها:

فمنهم من خصها بسبب رأوا أنه سبب نزولها، فنزلت هذه الآية في أمر الناس بالاستماع لقراءة الإمام. وهؤلاء قصروا أمر الاستماع على قراءة خاصة دل عليها سبب النزول عندهم على نحو يقرب من تخصيص العام بخصوص سببه، عند من يخصص به، وهذا تأويل ضعيف؛ لأن نزول الآية على هذا السبب لم يصح، ولا هو مما يساعد عليه نظم الآية التي معها، وما قالوه في ذلك إنما هو تفسير وتأويل، وليس فيه شيء مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنهم من أبقى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم، ولكنهم تأولوه على أمر الندب، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية، ولو قالوا: المراد من قوله:

(١) المصدر السابق ٧/ ٣٥٣.
(٢) المصدر السابق ٧/ ٣٥٤.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٨٦.

﴿قُرِئَ﴾ قراءة خاصة، وهي أن يقرأه الرسول -عليه الصلاة والسلام- على الناس لعلم ما فيه والعمل به للكافر والمسلم، لكان أحسن تأويلًا»[1]. لكن هذا الذي يستحسنه قد اعترض عليه القرطبي -أيضًا- بعموم اللفظ كما تقدم.

وبعيدًا عن الحكم الفقهي فإن الآية قد جاءت بأمر معلل تضمن أدبًا أُدب به المؤمنون:

فأما الأدب فهو الاستماع للقرآن الكريم إذا تلي والإنصات له: ﴿وَإِذَا قُرِئَ﴾ عليكم أيها المؤمنون ﴿ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ يعني: أصغوا إليه بأسماعكم؛ لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه، ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ يعني: عند قراءته، والإنصات السكوت للاستماع. يقال: نَصَتَ وأَنْصَتَ وانْتَصَتَ بمعنى واحد[2].

وأما العلة: فهي رجاء المستمع المنصت أن تشمله رحمة منزله سبحانه وتعالى، وذلك حاصل من تدبر ما تضمنته آياته من معانٍ ودلائل ووصايا وأوامر ونواهٍ «فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم المقضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين»[3].

فإذا استبعدنا التفكير الفقهي الذي يربط المسألة بالإيجاب أو الندب، فإن محل الاتفاق أن الإنصات إلى آيات الذكر إذا تليت ليس أقل من أن يكون أدبًا عظيمًا يتأدب به العبد الراجي؛ لأن يكون من المشمولين برحمة منزله الرحمن الرحيم.

ثالثًا: أدبهم مع دلالاته ومعانيه:

في سياق مدحه لأوليائه، وصف الرحمن عباده المنسوبين تشريفًا إلى جلاله بأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًّا وعميانًا فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

عن قتادة قال: «لم يصموا عن الحق ولم يعموا عنه، هم قوم عقلوا عن الله فانتفعوا بما سمعوا من كتاب الله. وقال مجاهد: كم من قارىء يقرؤها بلسانه يخر عليها أصم

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٤٠.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٨٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٣٩.

أعمى»[1].

والمعنى: أنهم استمعوا إلى ما فيها من المواعظ وانتفعوا بها، قال أبو السعود: «﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنطوية على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: أكبوا عليها سامعين بآذانٍ واعيةٍ مجلين لها بعيون راعية، وإنما عبر عن ذلك بنفي الضد تعريضًا بما يفعله الكفرة والمنافقون»[2].

ومقصد الآية أن تثبت لهم الاتعاظ والانتفاع بعد حسن الإنصات والاستماع، فلما نفت ضده عنهم أضافت إلى ذلك معنى زائدًا، صورته الموازنة بين حالهم وحال المخذولين على جهة الترغيب في هذا، ونصبه في مقام القدوة، والترهيب من ذاك وبيان قبحه وتصويره في صورة النقيصة، «وإذا كان الكلام مقيدًا بقيد كما هنا، فإن النفي ينصب على ذلك القيد في غالب الاستعمال العربي. ونظيره: ما رأيت زيدًا راكبًا، نفيًا للركوب لا للرؤية. ولا يلقاني مُسلِّمًا نفيًا للسلام لا للقاء. فلم ينف عنهم الخرور، وإنما نفى عنهم الصمم والعمى عند الخرور»[3]. على أنه قد تقدم «وصفهم [هم أنفسهم]. فيما تقدم بإعراضهم عن الباطل، ومجانبتهم لأهله، وبعدهم عنه.

ثم وصفهم هنا بإقبالهم على الحق، وإكبابهم عليه، متفهمين مستبصرين»[4].

فأما (الخرور): فـ«هو السقوط كسقوط الساجد»[5]، و «هاهنا أمران: ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه. وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود؟ وهل المعنى: لم يكن خرورهم عن صمم وعمه. فلهم عليها خرور بالقلب خضوعًا، أو بالبدن سجودًا أو ليس هناك خرور، وعبر به عن القعود؟»[6] كلٌّ محتمل. وبناء على اختيار أحد المعنيين يكون حمل الخرور على وقوع السجود منهم حقيقة، أو وقوع الهيبة والشعور بعظمة منزل هذه الآيات في القلب، ولا ريب أن الأمرين واقعان، يقع منهم هذا مرة، ويقع هذا منهم أخرى، وقد يجتمعان معا.

و«(الأصم): فاقد حاسة السمع، أو الذي لا يتدبر ما يسمع فلا ينتفع به، وهو المراد هنا.

و(الأعمى): فاقد حاسة البصر، أو الذي لا يعتبر فيما يبصر فلا ينتفع به، ويكون الأعمى بمعنى فاقد الإدراك القلبي، وهو عمى البصيرة، وما هنا يحتمل الوجهين الأخيرين.

وعبر بـ (إذا)؛ لأن التذكير مما هو واقع محقق، كالذي يسمع من القرآن في الصلاة

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٣١.
(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٣٣.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤١٣.

ومن الخطب في الجمع. وبنى الفعل للنائب؛ لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مذكر كان»[1].

وعلى هذا فهؤلاء الموصوفون -على جهة المدح والتشريف- بأنهم عباد الرحمن من صفاتهم التي استحقوا بها المنزلة والثناء «أنهم إذا ذكرهم مذكر بآية ربهم التي أنزلها على نبيهم - صلى الله عليه وآله وسلم- بما فيها من ذكر مخلوقاته وإنعاماته، وأيامه في أوليائه وأعدائه، ووعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه- أقبلوا عليها، وأكبوا على سماعها، بآذان واعية، وأبصار راعية، وقلوب حاضرة، وعقول متدبرة. لا كمن يقبلون عليها ويكبون على سماعها، ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون؛ لأنهم لا يعقلون ولا يتدبرون»[2].

وعليه يكون الاتعاظ والانتفاع، والمبادرة والاستجابة والإسراع، من بعد حسن الإنصات والاستماع من أوجب الآداب التي يتأدب بها الطامع في رحمة ربه الراجي لها.

هذا وقد ذكر كثير من المفسرين أن قوله جل وعلا في السورة نفسها: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

شامل لتارك التدبر والنظر في آيات الله. أي: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ مناديًا لربه وشاكيًا له إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفًا على ذلك منهم: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم، ﴿اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه، قال الله مسليًا لرسوله ومخبرًا أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه يعارضونهم ويردون عليهم ويجادلونهم بالباطل[3].

وقد ذكر ابن كثير لهذا الهجر صورًا ومراتب فقال: «يقول تعالى مخبرًا عن رسوله ونبيه محمد -صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين- أنه قال: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، وكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه. فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضًا من هجرانه، وترك

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٣٣.
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٨٢.

الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره -من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره -من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار، على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب»[1].

وبناء على ما قال فلا يخرج العبد عن أن يعد في أهل هذه الشكوى حتى يكون تاليًا متفهمًا متدبرًا لآيات الكتاب مستأنسًا بها مؤثرًا لها على غيرها.

قال ابن باديس تحت عنوان (تحذير وتنبيه): «قد صورت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكب عليه، ويتلقاه بالقبول، ثم لا يتفهمه ولا يتدبره، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه؛ تقبيحًا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات، وتحذيرًا منه، وتنبيهًا على أن الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر، وتتسع به المدارك، وتتهذب به الأخلاق، وتتزكى به النفوس، وتتقوم به الأعمال، وتستقيم به الأحوال؛ إنما يكون بتفهمه، وتدبره، دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر»[2].

وحينئذ فإن «الناس عند تلاوة آيات القرآن على قسمين: معرضين، ومقبلين.

فالمعرضون غير المؤمنين.

والمقبلون على قسمين: مقبلين بظاهرهم دون باطنهم، ومقبلين بظاهرهم وباطنهم.

فالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم المنافقون.

والمقبلون بظاهرهم وباطنهم على قسمين: مستمعين، مستبصرين، حاضرين، متدبرين. وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصرين.

والأقسام كلها مذمومة إلا قسم المقبلين بظواهرهم وبواطنهم، المستمعين المستبصرين. وهذا القسم هو الذي وصف به عباد الرحمن، فكانوا مباينين لأهل الإعراض من الكافرين والمنافقين، ولأهل الغفلة، وعدم التدبر من المؤمنين»[3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٨.

(٢) تفسير ابن باديس ص ٢٣٥.

(٣) المصدر السابق.

أثر القرآن على المكلفين والجمادات

قد ورد أنه لو قدر لكلام أن يخلع الجبال عن أماكنها، ويقطع الأرض، أو أن يكلم الموتى في قبورهم به لكان هذا القرآن، وأن لآياته عظمة حقيقة بأن تخشع لها الجبال وتتصدع.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

فلعظمة القرآن وإعجازه كاد يحدث هذا الأثر العجيب في ما هو شديد من المخلوقات كالجبال، ومع ذلك فقد كفر به خلق وصدوا عنه.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مادحًا للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، ومفضلًا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له»[1].

فقد كادت آيات القرآن تخلع الجبال، وكذا فإنه لو أنزل عليها لتصدعت وخشعت مع أن قلوب البشر لا تفعل، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فتضمنت الآية تعظيمًا لأمره، وتبيينًا لعلو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟

ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، فمن تفكر علم أن في قلوب بعض الناس قسوة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٦٠.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٧٨.

تفوق قسوة الجبال.

وبناء على ما سبق، فإنه يفترض حصول الخشوع في قلوب الناس عند سماع القرآن الكريم، كما نصت على ذلك الآية التي اشتملت على أمر غير مباشر بتحقيق هذا الخشوع، فعن ابن عباس قال: يقول تعالى: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله، فأمر الله -عز وجل- الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

ونص على ذلك القرطبي أيضًا فقال: «قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾ حث على تأمل مواعظ القرآن، وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها، لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي: متشققة من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدع: المتشقق» (٢).

وهذا الخشوع أولى بأن يكون أثرًا في قلب المؤمن، وقد وصف القرآن الكريم حالة تحصل في نفس المؤمن تصاحب الخشوع سماها: (شرح الصدر) في قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣].

ودل سياق الآيات على أن حالة الانشراح هذه مصاحبة للخشوع: فقد قابلتها الآية بصورة القلب القاسي، قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم، ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣)، ثم أعقبت ذلك ببيان أثر القرآن على الجلود والقلوب.

ومعنى الآية: «أفمن فسح الله قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ يقول: فهو على بصيرة مما

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٠١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩٣.

هو عليه ويقين، بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك لأمر الله متبع، وعما نهاه عنه منته فيما يرضيه، كمن أقسى الله قلبه، وأخلاه من ذكره، وضيقه عن استماع الحق، واتباع الهدى، والعمل بالصواب؟

وترك ذكر الذي أقسى الله قلبه، وجواب الاستفهام اجتزاء بمعرفة السامعين المراد من الكلام، إذ ذكر أحد الصنفين، وجعل مكان ذكر الصنف الآخر الخبر عنه بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره، مذكرًا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدق بما فيه.

وقيل: ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والمعنى: عن ذكر الله، فوضعت (من) مكان (عن)، كما يقال في الكلام: أُتخمت من طعام أكلته، وعن طعام أكلته بمعنى واحد، هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مبين، لمن تأمله وتدبره بفهم أنه في ضلال عن الحق جائر»[1].

ومقابلة صورتي (منشرح الصدر مقشعر الجلد) و (قاسي القلب) تدل على أن هذا الانشراح مرتبط بالخشوع.

وكما نصت الآية على انشراح الصدر نصت أيضًا على لين القلب: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. «واللين: ضد الخشونة، وقوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فإشارة إلى إذعانهم للحق وقبولهم له بعد تأبيهم منه»[2].

وقد يكون هذا اللين هو المنصوص عليه في قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]: أي: «تسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله»[3].

«و(طمأنينة القلوب) هي الاستكانة، والسرور بذكر الله، والسكون به كمالًا به. ورضى بالثواب عليه وجودة اليقين»[4].

ودل قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ على أن الطمأنينة لا تحصل إلا بذكر الله وحده. فتكون هذه الحالة النفسية من انشراح الصدر ولين القلب وطمأنينته مصاحبة لهذا الخشوع أو أثرًا له.

وقد ذكرت آية سورة الزمر تأثيرًا آخر للقرآن الكريم على ما يظهر على أبدانهم فنصت على أن جلودهم تقشعر عند سماعه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٧٧.

(٢) المفردات، الراغب ص٧٥٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٣٢.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣١١.

﴿يَشَآءُ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

فـ «هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف»[١].

وهذه الحالة ترد عليهم أولًا، ثم تعقبها حالة أخرى هي لين الجلود والقلوب: «﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه.

قال السدي: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى وعد الله»[٢].

وفي قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ «دليل على أن هذه القشعريرة ناتجة عن شيء في القلب وهو الخشوع والخشية؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «الوجل في القلب كإحراق السعفة، أَمَا تجد له قشعريرة؟ قال: بلى! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك»[٣].

أي: إنها حالة متفرعة من الخشوع والخوف والوجل، وسائر ذلك مما يرد على قلب المؤمن عند سماعه آيات التنزيل تتلى.

موضوعات ذات صلة:

الإنجيل، التوراة، الكتب المنزلة، محمد صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣)

القراءة

عناصر الموضوع

مفهوم القراءة	٣٢٤
القراءة في الاستعمال القرآني	٣٢٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٦
منزلة القراءة في القرآن	٣٢٩
آداب القراءة	٣٣٣
سند قراءة القرآن	٣٤٦
مراتب الناس في القراءة	٣٤٩
ثمرات القراءة	٣٥٤
القراءة في الآخرة	٣٥٨
أثر القراءة في نهضة الأمة الإسلامية	٣٦٠

مفهوم القراءة

أولًا: المعنى اللغوي:

يقول ابن فارس: «القاف والراء والحرف المعتل: أصلٌ صحيح يدل على جمعٍ واجتماع، ومن ذلك: «القرية»، وسميت بذلك؛ لاجتماع الناس فيها، والمقراة: الجفنة، سميت بذلك؛ لاجتماع الضيف عليها»[(١)].

من: قرأ يقرأ قراءةً، فهي مصدر للفعل: «قرأ»، واسم الفاعل: «قارئ»، تقول: قرأ فلانٌ قراءة حسنة، ورجل قراءٌ حسن القراءة من قوم قرائين، والمفعول مقروء، تقول: صحيفة مقروءة، وقارأه مقارأةً وقراءً: دارسه، واستقرأه طلب إليه أن يقرأ، والقراء يكون من القراءة جمع قارئٍ، وقرأ عليه السلام يقرؤه عليه وأقرأه إياه أبلغه[(٢)].

والأصل في القراءة: الجمع والضم، تقول: «قرأت الكتاب قراءةً»، ضممت حروفه بعضها إلى بعض، وكل شيءٍ جمعته فقد قرأته، و«قرأت الشيء قرآنًا»: جمعته وضممت بعضه إلى بعضٍ[(٣)]. ومنه سمي القرآن قرآنًا؛ لأنه يضم القصص والأحكام، والآيات والسور بعضها إلى بعض.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى القراءة في الاصطلاح عن معناها في اللغة.

وقد عرف الكفوي القراءة بقوله: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، ولا يقال ذلك لكل جمع؛ بدليل أنه لا يقال للحرف الواحد إذا تفوه به قراءة[(٤)].

يقول ابن عاشور: «القراءة هي: تلاوة كلامٍ صدر في زمن سابق لوقت تلاوة تاليه، بمثل ما تكلم به متكلمه، سواء كان مكتوبًا في صحيفة، أم كان ملقنًا لتاليه بحيث لا يخالف أصله، ولو كان أصله كلام تاليه، ولذلك لا يقال لنقل كلام أنه قراءة إلا إذا كان كلامًا مكتوبًا أو محفوظًا»[(٥)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٧٨.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ١/ ٩٢، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧٨، لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٥٠، تاج العروس، الزبيدي ١/ ٣٠٦.
(٣) انظر: لسان العرب ١٢/ ٥١، تاج العروس ١/ ٣٠٧.
(٤) الكليات ص ٧٠٣.
(٥) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٥٣.

القراءة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قرأ) في القرآن الكريم (٨٨) مرة، يخص موضوع البحث منها(٨٧) مرة[(١)].
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف:٢٠٤]
الفعل المضارع	٥	﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦]
الفعل الأمر	٦	﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١]
المصدر	٧٠	﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ [القيامة:١٧-١٨]

الأصل في القراءة أنها بمعنى الجمع والضم؛ وكل شيء جمعته فقد قرأته؛ فالقراءة جمع الحروف والكلمات، والقرآن يجمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٣٩-٥٤٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب القاف ص٩٣٧-٩٣٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ١٢٨، تاج العروس، مرتضى الزبيدي، ص ٣٧٠-٣٧١، الفروق اللغوية، العسكري، ص١٤٠-١٤١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٢٦٢-٢٦٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ التلاوة:

التلاوة لغة:

مصدر الفعل: «تلا» بمعنى: «تبع»، تقول: «تلوته تلوًا» أي: تبعته، ويقال: «ما زلت أتلوه حتى أتليته»، أي: تقدمته وصار خلفي، وأتليته أي: سبقته، وتلا فلانٌ القرآن يتلو تلاوة، وتلا الشيء: تبعه تلوًا[١]. وتطلق التلاوة: على القراءة، تقول: تلا يتلو تلاوةً يعني: قرأ قراءةً؛ لأن القارئ في قراءته كأنه يتبع الحروف والكلمات بعضها بعضًا[٢].

التلاوة اصطلاحًا:

هي القراءة لكلام مكتوبٍ أو محفوظٍ من كلامٍ له أو لغيره، يحكيه لسامعه، وغلب استعمالها في: قراءة القرآن وتجويده وترتيله بتفكر وتدبر[٣].

الصلة بين التلاوة والقراءة:

التلاوة صورة من صور القراءة فهي إتباع الحروف والكلمات بعضها لبعض، وبينها وبين القراءة عموم وخصوص، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، وغلب استعمالها في قراءة القرآن خاصة.

يقول الراغب الأصفهاني: «والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب، فهي أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة»[٤].

ويقول أبو هلال العسكري: «الفرق بين التلاوة والقراءة: أن التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعدًا، والقراءة تكون للكلمة الواحدة يقال: قرأ فلان اسمه، ولا يقال تلا اسمه»[٥].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ١٣٤، الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢٩٠، لسان العرب، ٢/ ٢٣٥، تاج العروس، ٣٧/ ٢٤٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٦٩.
(٣) انظر: التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري ص ٥٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٥٦.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦٧.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص ١٤٠.

٢ الترتيل:

الترتيل لغة:

مصدر من: «رتل فلان كلامه إذا أتبع بعضه بعضا»، والرتل: حسن تناسق الشيء، وثغرٌ رتلٌ ورتلٌ: حسن التنضيد، مستوي الثنيات، وكلامٌ رتلٌ ورتلٌ أي: مرتلٌ حسنٌ على تؤدة، ورتل الكلام أحسن تأليفه، وأبانه وتمهل فيه[١].

وقيل الكلام المرتل: المفصل، يقال: فلانٌ يترتل في كلامه ويترسل: إذا فصل بعضه من بعض[٢]. والترتيل في القراءة: الترسل فيها، والتبيين من غير بغيٍ[٣].

والترتيل اصطلاحًا:

القراءة بتؤدة واطمئنان، وإخراج كل حرف من مخرجه، مع تدبر المعاني، ومراعاة الوقوف[٤].

الصلة بين الترتيل والقراءة:

أن الترتيل وصفٌ مخصوص لصورة من صور القراءة، فهو تحقيق لوصف التؤدة والطمأنينة في تلاوة القرآن خاصة.

٣ الكتابة:

الكتابة: لغة:

مصدر كتبت، والكتب: الجمع، يقول ابن فارس: «الكاف والتاء والباء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدل على جمع شيءٍ إلى شيءٍ، من ذلك: الكتاب والكتابة، يقال: كتبت الكتاب أكتبه كتبًا، ويقولون: كتبت البغلة، إذا جمعت شفري رحمها بحلقة»[٥].

والكتاب في الأصل: اسم للصحيفة المكتوب فيها، وسميت الكتابة لجمعها الحروف[٦].

الكتابة اصطلاحًا:

خطوطٌ موضوعةٌ مجتمعة تدل على المعنى المقصود، وأصلها: نقش الحروف في حجرٍ

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٢٢، الصحاح، الجوهري ٤/ ١٧٠٤، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٥٧٨.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ١١٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٥٧٨.
(٤) انظر: التحديد في الإتقان والتجويد، أبو عمرو الداني ص ٧٢.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٠٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٨.
(٦) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١/ ٣٦٣.

أو رق أو ثوبٍ[1].

ويعبر عن المقروء بالمكتوب، إذ القراءة والكتابة يشتركان في معنى الجمع والضم، فالقرآن الكريم هو المقروء المكتوب في المصاحف، فروعي في تسميته قرآنًا كونه مقروءًا بالألسن، وروعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه[2].

الصلة بين الكتابة والقراءة:

يتضح مما سبق: أن الكتابة هي رسم المقروء، الدال على المقصود، فالمكتوب يكون بالقلم والرسم، والقراءة باللسان والنطق، ويعبر بكلٍ منهما عن الآخر، من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه.

٤ الأمية:

الأمية لغة:

نسبةٌ إلى: «الأمي»، والأمي: هو الذي على خلقته لم يتعلم الكتابة ولا القراءة، فهو على جبلته التي خلق عليها[3].

الأمية اصطلاحًا:

الأمي الذي لا يحسن الكتابة ولا القراءة، قاله أبو العالية، والربيع، وقتادة، وإبراهيم النخعي، وغير واحد[4].

وقيل: الأمية: الصفة التي هي على أصل ولادة أمه لم يتعلم الكتابة ولا قراءتها، أو هو من لا يحسن الكتابة؛ لأنه لا يقدر عليها[5]. وقيل للذي لا يكتب: أمي؛ لأن الكتابة والقراءة مكتسبة؛ فكأنه نسب إلى ما ولد عليه من الجهل بهما.

الصلة بين الأمية والقراءة:

يتضح مما سبق: أن الأمي هو الذي لم يدرك الكتابة ولا القراءة خاصة، فالأمية لفظة مقابلة للقراءة، يزيد العلم بمفهومها إجلالًا وتعظيما للقراءة، إذ القراءة خصيصةٌ مكتسبة فوق أصل الخلقة.

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٢٧٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٣٥.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١/ ٣٦٣، النبأ العظيم، محمد دراز ص ١٢- ١٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٣٥، تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٢٣٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن، ابن كثير ١/ ٣١٠.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٨٢، محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٥٧.

منزلة القراءة في القرآن

جاء القرآن الكريم مشيدًا بالقراءة مناديًا بها في أول كلمة نزلت منه من السماء، ومستعملًا لاشتقاقاتها، مدللًا على منزلتها الرفيعة، ومكانتها السامية، يوضح ذلك ما جاء في النقاط الآتية:

أولًا: إسناد القراءة لله تعالى.

قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦﴾ [الأعلى:٦].

هذا إخبار من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه سيعلمه هذا القرآن ويحفظه عليه، وسيقرئه بقراءة جبريل عليه السلام عليه، فلا ينسى منها إلا ما شاء الله أن ينساه مما نسخ الله تلاوته من القرآن.

قال مجاهد: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل عليه السلام لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأولها مخافة أن ينساها، فأنزل الله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾»[1].

يقول القرطبي: «وهذه بشرى من الله تعالى، بشره بأن أعطاه آيةً بينةً، وهي أن يقرأ عليه جبريل عليه السلام ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه»[2].

ويقول أبو السعود: «والسين في: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ إما للتأكيد، وإما لأن المراد: إقراء ما أوحى الله إليه حينئذٍ وما سيوحى إليه بعد ذلك، فهو وعدٌ كريم باستمرار الوحي أو سنجعلك قارئًا بإلهام القراءة فلا تنسى أصلًا من قوة الحفظ والإتقان، مع أنك أميٌ لا تدري ما الكتاب وما القراءة ليكون ذلك آيةً أخرى لك»[3].

لقد أمن الله نبيه صلى الله عليه وسلم من النسيان في قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾، ولما كانت الآية توهم لزوم ذلك له صلى الله عليه وسلم، جاء الاستثناء بعدها: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، فنسيان النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد الله أن ينساه جائز.

يقول ابن حجر: «فإن المراد بالمنسي ما ينسخ تلاوته، فينسي الله نبيه صلى الله عليه وسلم ما يريد نسخ تلاوته»[4].

ويقول الألوسي: «وإسناد الإقراء إليه تعالى مجازي، أي: سنقرئك ما نوحي إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام»[5].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٧١، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٧٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٨.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود باختصار ٩/ ١٤٤.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ٩/ ٨١.

(٥) روح المعاني، الألوسي ٣٠/ ١٠٥

وإسناد قراءة القرآن وتلقيها لله عز وجل يعلو ذلك بشرفها، ويعظم بمكانتها، وأن مصدرها الوحي السماوي، والتلقي الإلهي، وأن طريقتها متلقاة من الله عز وجل لا صنعة فيه للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا لأحدٍ من الخلق، وإنما هي منزلة من عنده سبحانه وتعالى[1].

وقد استمر هذا الإسناد المبارك لقراءة القرآن الكريم موصولًا، فقد عرض القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعٌ من الصحابة رضي الله عنهم منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه، وأبى بن كعب رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وزيد بن ثابت رضي الله عنه، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وأبو الدرداء رضي الله عنه، وعليهم دارت أسانيد قراءة الأئمة العشرة.

فقراءة القرآن بقراءاته المتعددة توقيفية من الله عز وجل لا مجال فيها للاجتهاد والقياس: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

يقول ابن الجزري: «وكل ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ به فقد وجب قبوله، ولم يسع أحدًا من الأمة رده، ولزم الإيمان به، وإن كله منزل من عند الله»[2].

ويقول أبو عمرو الداني: «وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن، على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت لا يردها قياس عربية، ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة، يلزم قبولها والمصير إليها»[3].

ثانيًا: الأمر بالقراءة.

قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١].

إن أول أمرٍ أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وكلفه به، هو الأمر بالقراءة، فأول كلمة تلقها النبي صلى الله عليه وسلم من أمين الوحي جبريل عليه السلام حينما لقيه في غار حراء هي: ﴿ٱقْرَأْ﴾، بصيغةٍ تلفت النظر، وتجذب الانتباه، وتسترعي الاهتمام.

إن هذا الأمر ليوضح بجلاء أن مصدر القراءة في كافة مجالاتها الحسية الآلية منها والمعنوية الكونية هو الوحي الرباني، والذي استوعب المعاش والمعاد، والدنيا

(١) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٥١، النبأ العظيم، محمد دراز ص ٥٠.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ٥١.

(٣) جامع البيان في القراءات السبع، الداني ١/ ٥١.

والآخرة، والمبدأ والمنتهى[1].

ومجيء الأمر بها أولًا فيه تنويهٌ بشأنها، ودعوةٌ إليها؛ لأنها شعار دين الإسلام.

يقول القرطبي: «نبه على فضل علم القراءة والكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا»[2].

إن هذا الأمر بالقراءة لهو أمر تكليفي لابد من القيام به إما عينًا، وإما كفاية، ولا غرو في ذلك فالقراءة هي السبيل إلى المعرفة والعلم، وبناء العقل، والوصول بالإنسان إلى درجة التكريم والتفضيل.

فخص الله الإنسان بالقراءة دون سائر الحيوانات، وذلك لأن القراءة من لوازم العقل والإدراك، فتخصيص خلق الإنسان بالذكر دون سائر المخلوقات، ليدل على أن الإنسان هو المختص بالقراءة والعلم، المنفرد بتبعية التكليف، المخاطب بكل ما سوف ينزل به الوحي من كلمات الله[3].

يقول ابن تيمية: «﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾: ذكر سبحانه أنه خلق أكرم الأعيان الموجودة عمومًا وخصوصًا وهو الإنسان، وأنه المعلم للعلم عمومًا وخصوصًا: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

ثم قال: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: ذكر بعد الخلق تعليم الإنسان ما لم يعلم، فخص هذا التعليم الذي يستدل به على إمكان النبوة فإن النبوة نوع من التعليم، وليس جعل الإنسان نبيًا بأعظم من جعل العلقة إنسانًا حيًا عالمًا ناطقًا سميعًا بصيرًا متكلمًا قد علم أنواع المعارف»[4].

ويقول ابن عاشور: «وذكر العلقة التي هي مضغة الدم العالقة بالرحم: فيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق ثم مصيره إلى كمال أشده هو خلق ينطوي على قوى كامنة، وقابليات عظيمة، أقصاها قابلية العلم والقراءة والكتابة»[5].

ثالثًا: القراءة تكريم للإنسان:

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:٣-٥].

لما كانت القراءة هي الطريق للعلم والرفعة؛ والذي يرفع الإنسان ويخرجه من جهله وأميته التي خلق عليها؛ كان تخصيصه بالقراءة وأمره بها من أعظم النعم الموهوبه، والفضائل المهداة.

يقول الرازي: - مبينًا الترابط بين الأمرين:

(١) انظر: القراءة أولاً، محمد عدنان ص ١٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٢٠.
(٣) انظر: التفسير البياني، بنت الشاطئ ٢/ ١٤.
(٤) مجموع الفتاوى ابن تيمية، بتصرف يسير ٤/ ٣٨.
(٥) التحرير والتنوير، باختصار ٤/ ٤٣٨.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ و ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ فيقول: «أولًا: وصف نفسه سبحانه بأنه خلق الإنسان من علق، وثانيًا: بأنه علمه بالقلم، ولا مناسبة في الظاهر بين الأمرين، لكن التحقيق أن أول أحوال الإنسان كونه علقة، وهي أخس الأشياء، وآخر أمره هو صيرورته عالمًا بحقائق الأشياء، وهو أشرف مراتب المخلوقات، فكأنه تعالى يقول: انتقلت من أخس المراتب إلى أعلى المراتب فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة، ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات الإنسانية، فالأكرم هو الذي أعطاك العلم؛ لأن العلم هو النهاية في الشرف»[1].

ويقول الزمخشري: «الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم»[2].

و﴿الْأَكْرَمُ﴾ الذي لا يوازيه كريم، ولا يعادله في الكرم نظير، هو الذي يعطي بدون مقابل، ولا انتظار مقابل، فهو سبحانه كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم.

بل من كرمه سبحانه أنه جعل من القلم الذي هو قطعة جامدة من الحطب، أو الخشب، أداة للعلم والمعرفة، ففتح به على الإنسان أبواب العلوم والمعارف، وجعل من ثماره هذه الكتب التي حفظت ثمار العقول، فكانت ميراثًا للعلماء، يرثها الخلف عن السلف، وينميها ويثمرها العلماء جيلًا بعد جيل وبهذا تعلم الإنسان ما لم يكن يعلم، وبعلمه هذا المستفاد من سلفه، فتح أبوابًا جديدة من العلم يتلقاها عنه من بعده، ويفعل فعله، بما يفتح من أبواب جديدة للعلم وهكذا تتسع معارف الإنسان، ويزداد علمه على مدى الأجيال[3].

ومجيء الوصف هنا بالأكرم بدلًا من أي صفة أخرى؛ لما في هذه الصفة من تلاؤم للسياق، ما لا يناسب مكانها غيرها لعظم العطاء وجزيل المنة في أمرين:

فأولًا: رحمة الخليقة بهذه القراءة التي ربطت العباد بربهم.

وثانيًا: نعمة الخلق والإيجاد.

فهما نعمتان متكاملتان: الإيجاد من العدم بالخلق، والإيجاد الثاني من الجهل إلى العلم، ولا يكون هذا كله إلا من الرب الأكرم سبحانه[4].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢١٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٤٤/ ٧٧٦.
(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٦/ ١٦٢٥.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٧.

آداب القراءة

قراءة القرآن من أفضل القربات، وأشرف العبادات، ولذا جاء القرآن الكريم مرشدًا إليها، موضحًا الآداب التي ينبغي لقارئ القرآن أن يتأدب بها تعظيمًا للقرآن، وإجلالًا له، وهي كما يلي:

١. البدء بالبسملة.

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾: أي: أقرأ مبتدئًا بتسمية الله، قل: «باسم الله»، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبتدئ القراءة باسم الله تأدبًا، وبركةً، وثناءًا.

يقول أبو جعفر الطبري: «إن الله تعالى أدب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وجعل ما أدبه به من ذلك وعلمه إياه منه لجميع خلقه سنةً يستنون بها، وسبيلًا يتبعونه عليها، فبها افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم»[(١)].

ومحل «باسم ربك»: النصب على الحال، أي: اقرأ مفتتحًا باسم ربك[(٢)].

ويجوز أن تكون الباء زائدة، والتقدير: «اقرأ اسم ربك»، وقيل: الباء بمعنى: «على»، أي: «اقرأ على اسم ربك»، يقال: فعل كذا باسم الله، وعلى اسم الله، وعلى هذا فالمقروء محذوف، أي: اقرأ القرآن، وافتتحه باسم الله[(٣)].

يقول أبو الحسن القيرواني: «بسم الله افتتاح إيمان ويمن، وحمد عاقبة، ورحمة وبركة، وثناء، وتقرب إلى الله عز وجل ورغبة فيما عنده وهو أدب من آداب الدين، ومدح لله تعالى، وتعظيم وشعار للمسلمين، وتبرك للمستأنف، وإقرار بالعبودية، واعتراف بالنعمة»[(٤)].

ويقول الرازي: «والتسمية توجه القلب إلى هيبة جلال الله.

ثم قال: «قال: باسم ربك» ولم يقل: «اقرأ باسم الله» كما قال في التسمية المعروفة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وجوابه: أنه أمرٌ بالعبادة، فكان ذلك أبلغ في الحث على الطاعة»[(٥)].

فالقراءة مبدوءةً باسم الله تنتج حضارةً ربانية قرءانية، قلبها التوحيد، وطابعها اليمن والبركة والتزكية، وهدفها العمران والإصلاح في الأرض.

والبسملة عند قراءة القرآن مستحبة عند جمهور القراء، ومحلها البدء في السور.

يقول النووي: «وينبغي أن يحافظ على

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ١١٤.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٨١، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٦٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١١٩.
(٤) النكت في معاني القرآن وإعرابه، القيرواني ص ١٠٣.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٦٨.

قراءة: «بسم الله الرحمن الرحيم» في أول كل سورة«سوى براءة»[1].

وإذا ابتدأ قراءته أثناء السورة لا من أولها، فالأصح من مذاهب القراء أن القارئ مخير في الإتيان بها أو تركها.

قال أبو عمرو الداني: «فأما الابتداء برؤوس الأجزاء التي في بعض السور، فأصحابنا يخيرون القارئ بعد الاستعاذة بين التسمية وتركها في مذهب الجميع»[2].

ولفظ البسملة يتضمن الاستعانة بالله، فـ«بسم الله»، أي: أستعين بالله.

والاستعانة: هي طلب العون من الله، ولما كانت قراءة القرآن عبادة تحتاج إلى جهد وفهم، وتفريغ للقلب، كانت الاستعانة بالله عند القراءة مقوية للعبد ومعينة له عليها[3].

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

أي: اقرأ بعون ربك وتوفيقه، فالباء للاستعانة، والمفعول محذوف، تقديره: «اقرأ ما يوحي إليك مستعينًا باسم ربك»[4].

ومعنى الاستعانة باسم الله: أي: ذكر اسمه عند هذه القراءة، وذكر كلمة: «اسم» لأن الاستعانة بذكر اسمه تعالى لا بذاته، وهذا الوجه يقتضي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: باسم الله حين تلقى هذه الجملة[5].

يقول الراغب: «إنما قال «بسم الله» ولم يقل: «الله»؛ لأنه لما استحب الاستعانة بالله تعالى في كل أمر يفتتح به من قراءة وغيرها، فبعضهم يذكره بقلبه، وبعضهم يزيد عليه ويقوله بلسانه ويكون أبلغ، وذكر الله مستعمل في كل ذلك، وألفاظ الاستعانة نحو: «أستعين بالله» فصار لفظة «بسم الله» مستغنى به عن جميعها وقائمًا مقامها»[6].

إنها دلالة واضحة على أن القراءة التي تتضمن التوحيد والإخلاص، والتوكل على الخالق الباري، وستخرج هذا الإنسان بعون الله من جهله وضعفه إلى تفوقه وتقدمه، بل وتجعله يسير بنور رباني يكشف له حجب الغفلة والظلام.

٢. الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى.

أمر الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة قبل قراءة القرآن، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

أي: إذا أردت القراءة فاستعذ بالله،

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٨١.
(٢) جامع البيان في القراءات السبع، أبو عمرو الداني: ١/ ٤٠٥.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٣٦.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٦٨.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٥٣١٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٣٦.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٧.

واسأله سبحانه أن يعيذك من الشيطان الرجيم من أن يعرض لك أثناء قراءة القرآن فيصدك عن تدبره، فهي لدفع وسواس الشيطان.

وقراءة القرآن هي أشرف مقروء وأفضله، فيها صلاح القلوب، والشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها؛ فشرعت الاستعاذة لطلب الإعاذة والاعتصام بالله[1].

يقول ابن عاشور: «وإنما شرعت الاستعاذة عند ابتداء القراءة إيذانًا بنفاسة القرآن ونزاهته، إذ هو نازل من العالم القدسي الملكي، فجعل افتتاح قراءته بالتجرد عن النقائص النفسانية التي هي من عمل الشيطان، ولا استطاعة للعبد أن يدفع تلك النقائص عن نفسه إلا بأن يسأل الله تعالى أن يبعد الشيطان عنه بأن يعوذ بالله»[2].

وظاهر قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾: أن الاستعاذة واجبة عند القراءة؛ لأن صيغة: «افعل» للوجوب، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الأمر في الآية للندب والاستحباب[3].

يقول أبو شامة: «ووقت الاستعاذة ابتداء القراءة جرى على ذلك العمل في نقل الخلف عن السلف»[4].

٣. ابتغاء مرضاة الله.

قراءة القرآن عبادة رتب الله عليها الأجر والثواب إذا كانت خالصةً لله، وقصد بها القارئ ابتغاء مرضاة الله، وأداؤها بدون إخلاصٍ وصدق مع الله يجعلها لا قيمة لها ولا ثواب، بل صاحبها متعرض للوعيد الشديد.

يقول النووي: «يجب على القارئ الإخلاص، وأن يستحضر في نفسه أنه يناجي الله تعالى، ويقرأ على حال من يرى الله تعالى، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه»[5].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

أي: لا تطرد عنك، وعن مجالستك، أهل العبادة وقراءة القرآن والإخلاص، فعن مجاهد والحسن. قيل: المراد بالدعاء: الذكر وقراءة القرآن[6].

وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٩٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٣٩.
(٣) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٥٧.
(٤) إبراز المعاني في شرح حرز الأماني، أبو شامة ص ٦١.
(٥) التبيان في آداب حملة القرآن ص ١/ ٤.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٣٢.

وسلم يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ورجلٌ تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)[1].

فالإخلاص في قراءة القرآن تخليص للقلب من كل شائبة تشوبه من رياء، أو سمعة، أو تصدر مما يكدر صفاء النية، ويفسد مرادها، فيتجرد في القلب قصد التقرب لله فلا يكون فيه باعث سواه.

وقد أخبر الله أنه مطلع على عبده حال قراءته عالم بحاله، كاشف لقصده، قال سبحانه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك، فالله مطلع عليه وقت شروعكم فيه[2].

٤. السؤال عند عدم المعرفة.

لأهمية السؤال في التعلم والتعليم فقد أرشد الله إلى أهمية السؤال، فقال سبحانه: ﴿الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فأهل الذكر: هم أهل العلم والكتابة والقراءة، العارفون بكتاب الله، المفتون في أمور الدين وأحكامه.

وقد أشاد الله في كتابه بسؤال المؤمنين عما أشكل عليهم في أمور دينهم، آمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم بالإجابة عن ما سألوا عنه، فقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما شفاء العي السؤال)[3]، والعي: الجهل.

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم -زيادةً في طمأنته بشأن نبوته- أن يسأل أهل القراءة من أهل التوراة والإنجيل عن وجود هذه الحقيقة في كتبهم.

قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٦/ ٤٧، رقم ٥٠٢٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٦٧.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الطهارة، باب المجدور يتيمم، ١/ ٢٥٢، رقم ٣٣٦، وابن ماجه، كتاب الطهارة، باب المجروح تصيبه الجنابة فيخاف على نفسه إن اغتسل، ١/ ٣٦٢، رقم ٥٧٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٠٥، رقم ٤٣٦٤.

كما نهى الله سبحانه في المقابل عن كثرة الأسئلة التي لا فائدة فيها، أو الأسئلة التي يترتب عليها تشديد على الأمة، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

أي: لا تسألوا عما لا حاجة لكم بالسؤال عنه، ولا هو مما يعنيكم في أمر دينكم.

يقول ابن كثير: «﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾: فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، وإنما سألوا على وجه التعنت والعناد»[(١)].

فأهل القراءة هم أهل العلم والذكر الدائم والفهم الحي، والذي يجب على المسترشد أن يعرض عليهم شكه وتردده، وعدم علمه، بسؤالٍ يطلب فيه النفع، وليس التعنت، وبذلك يكون قد قطع الطريق الطويل الشاق في البحث عن المجهول.

٥. تعاهد القراءة.

تكرار المقروء وسيلة من وسائل حفظه، ورسوخه في العقل، وهو أسلوب من أساليب الفصاحة والبيان، فالكلام المكرور أوقع في النفوس، وأمتع للأذهان والعقول، وقد استخدمه القرآن وسيلة لتثبيت المعنى في نفوس قارئيه، وإقراره في أفئدتهم[(٢)]، وأشار إلى أهميته فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ فقد كرر الأمر بقوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾؛ لأن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة، وتكرار الأمر الإلهي يقوم مقام تكرار المقروء، وبذلك تصير القراءة ملكة[(٣)].

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى تعاهد تلاوة القرآن وتكرار قراءته حين قال في حديث ابن عمر رضي الله عنه: (**إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت**)[(٤)].

وقراءة القرآن كلما تقاربت أوقاتها، وكثر تكرارها كانت أقوى في رسوخ حفظ القرآن وفهم معانيه، ومن أجل ذلك كان السلف يحرصون على كثرة التلاوة والقراءة، ويحزبون القرآن، ويتواصون بذلك.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما**

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٠٧.
(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٩، من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١١٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ١٩٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، ٦/ ١٦٣، رقم ٥٠٣١.

قرأه من الليل)[1].

وهذا فيه الإشارة إلى أهمية التكرار والتعاهد للقرآن.

كما أن تكرار قراءة القرآن سبيل إلى إجادة تجويده وضبط أدائه، يقول ابن الجزري: «ولا أعلم سببًا لبلوغ نهاية الإتقان والتجويد، ووصول غاية التصحيح والتشديد، مثل رياضة الألسن، والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن»[2].

٦. التؤدة والتمهل.

القراءة بتمهل وتؤدة أقرب إلى الإجلال والتوقير للمقروء، وأشد تأثيرًا في القلب، وأدعى إلى التدبر والفهم.

وقراءة القرآن بتؤدة وتمهل أجل قدرًا، وأعظم شأنًا، ولذلك جاء الأمر بقراءته على هذه الصفة فقال سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وترتيله: قراءته على ترسل، وتفريقه آيةً بعد آيةٍ، قاله النخعي والحسن وقتادة، وقال ابن عباسٍ رضي الله عنه: «بينه بيانًا فيه ترتيلٌ وتثبيت»[3].

والتصريح بالتأني والتؤدة في القراءة ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

يقول ابن كثير: «قراءته على تمهل تكون عونًا على تدبره»[4].

ويقول النووي: «يستحب الترتيل؛ لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرًا في القلب»[5].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: (صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فافتتح البقرة فقرأها، ثم النساء فقرأها، ثم آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤالٍ سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ)[6].

ونهي في القراءة عن إفراط الإسراع فيها، ويسميه القراء: الهذرمة.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تهذوه هذ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»[7].

يقول ابن الجزري: «وليحترز -في: القراءة- عن بتر حروف المد، وذهاب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، ٢/ ١٤٢، رقم ٧٤٧.
(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ٢١٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٠.
(٥) التبيان في آداب حملة القرآن، مختصرا: ص ٩١.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، ١/ ٥٣٦، رقم ١٨٥٠.
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب في القراءة يسرع بها، ٦/ ١٤١، والبغوي في معالم التنزيل ٤/ ٤٠٧، والبيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٣٤٤.

صوت الغنة، واختلاس أكثر الحركات، وعن التفريط إلى غاية لا تصح بها القراءة، ولا توصف بها التلاوة، ولا يخرج عن حد الترتيل»[1].

وقد اختلف العلماء في هل الأفضل هو الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة مع كثرة القراءة؟ فذهب بعضهم إلى أن كثرة القراءة أفضل، واحتجوا بحديث ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها الحديث)[2].

يقول ابن الجزري: «والصحيح بل الصواب ما عليه معظم السلف والخلف، وهو أن الترتيل والتدبير مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها؛ لأن المقصود من القرآن فهمه، والتفقه فيه، والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه»[3].

وقال ابن حجر: «والتحقيق أن لكلٍ من الإسراع والترتيل جهة فضل، بشرط أن يكون المسرع لا يخل بشيء من الحروف، والحركات والسكون، والواجبات، فلا يمتنع أن يفضل أحدهما الآخر، وأن يستويان، فإن من رتل وتأمل، كمن تصدق بجوهرة واحدة مثمنة، ومن أسرع كمن تصدق بعدة جواهر، لكن قيمتها قيمة الواحدة، وقد تكون قيمة الواحدة أكبر من قيمة الأخريات، وقد يكون بالعكس»[4].

ولعل ما ذهب إليه ابن حجر يكون هو الأقرب للصواب، فقد أوضح علماء القراءات ومنهم ابن الجزري أن القراءة على مراتب، ومنها الحدر وهو القراءة بسرعة مع مراعاة أحكام التجويد، وهي مرتبة معتبرة، يقول ابن الجزري: «فالحدر يكون لتكثير الحسنات في القراءة، وحوز فضيلة التلاوة، وليحترز فيه عن بتر حروف المد، وذهاب صوت الغنة، واختلاس أكثر الحركات، وعن التفريط إلى غاية لا تصح بها القراءة، ولا توصف بها التلاوة، ولا يخرج عن حد الترتيل»[5].

٧. الأمانة في التلقي والإقراء.

إن المصدر الإلهي لقراءة القرآن الكريم بتلقي النبي صلى الله عليه وسلم لها من ربه

(١) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٠٧.

(٢) نقل الخلاف النووي في المجموع شرح المهذب ٢/ ١٦٥، وابن الجزري في النشر ١/ ٢٠٧، والسيوطي في الإتقان ١/ ٣٦٨.
والحديث أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، ٥/ ١٧٥، رقم ٢٨١٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٣٣٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٠٩.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ٩/ ٨٩.

(٥) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٠٧.

عز وجل لهو الحق، الذي ذكره الله بقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

تلك المصدرية التي تشعر بالطمأنينة وعدم الخوف على فوات شيء من القرآن، وقد وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بجمع القرآن في صدره، وعدم نسيانه، وأمره بمتابعة القراءة المتلقاة من الله، والاستماع إليها ثم القراءة على طريقتها، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨].

يقول ابن كثير: «هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في كيفية تلقيه الوحي من الملك»[(١)].

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغ ما يوحى إليه كما أنزل، من غير زيادة أو نقص فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

فأداه صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله عنهم كما تلقاه من ربه، وأدوه لمن بعدهم من التابعين.

يقول ابن كثير: «كانوا أحرص شيء على أداء الأمانات، وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعده،كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ففعل صلى الله عليه وسلم ما أمر به؛ ولهذا سألهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد، والصحابة رضي الله عنهم أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: (إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون)، فقالوا: نشهد إنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم، ويقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد، وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب)»[(٢)].

وقراءة القرآن إنما تؤخذ بالتلقي والمشافهة والتوقيف، اقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في تلقي القرآن عن جبريل عليه السلام مشافهة عن الله تعالى، والاعتماد في القراءة والإقراء على النص المتلقى بالتواتر عنه صلى الله عليه وسلم.

وهذا الذي سار عليه أئمة القراءات، واعتمدوه في النقل والرواية لقراءة القرآن.

يقول مكي بن أبي طالب: «يجب على طالب القرآن أن يتخير لقراءته ونقله وضبطه أهل الديانة والصيانة، والفهم في علوم القرآن، والنفاذ في علم العربية والتجويد، بحكاية ألفاظ القرآن، وصحة النقل عن الأئمة المشهورين بالعلم»[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٧٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٧.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٣٩، رقم ٣٠٠٩.

(٣) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب ص ٨٩.

٨. الصبر.

القرآن الكريم كلام الرب عز وجل، له وزنه وهيبته، ليس بالخفيف، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

أي: نوحي إليك هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتهيأ له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه، ويتحلى الصبر في قراءته وفهمه[١].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «قولًا ثقيلًا يعني: كلامًا عظيمًا»[٢].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعاني شدة عند نزوله وتلقيه من جبريل عليه السلام مما يدل على عظمة وهيبة الكلام المنزل.

تقول عائشة رضي الله عنها: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي صلى الله عليه وسلم في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[٣].

كما روي كذلك عن عائشة رضي الله عنها: (إن كان ليوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته، فتضرب بجرانها)[٤].

وقراءة القرآن وتدبره، والعمل به تحتاج إلى صبر ومجاهدة للنفس، وحبسٍ لها على مدارسة القرآن، وتلقي كيفية قراءته، وتصحيح تلاوته ومدارسة معانيه وأحكامه، فهو الكلام العظيم ذو الخطر والأثر، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١][٥].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ تعليل للأمر بقيام الليل، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أي: لا بد وأن تصير نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، وذلك بالصبر في صلاة الليل، فإن الإنسان إذا اشتغل بعبادة الله في الليلة الظلماء، وأقبل على قراءة القرآن والتضرع بين يديه، استعدت نفسه لإشراق وجلال الله فيه[٦].

يقول ابن عاشور: «ويستعار ثقل القول

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٣٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٣٨، البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٣١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٢، رقم ٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ١١٨، رقم ٢٥٥٠٨، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٩٤، رقم ٣٩٢٢.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٣٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٥٨.

(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٧/ ١١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٦٠.

لاشتماله على معانٍ وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر، وذلك بكمال هديه ووفرة معانيه، وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به، فكم غاصت فيه أفهام»[(١)].

٩. اختيار الوقت والمكان المناسب.

القراءة عمل يجتمع فيه القلب والبصر واللسان، وإقبال النفس عليها يحتاج إلى وقت يكون أزكى وأنفع، وقد أرشد الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى قراءة القرآن في قيام الليل، مخبرًا أن ذلك أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان، وأجمع على التلاوة؛ لانقطاع الأصوات فقال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

فناشئة الليل أي: أوقاته وساعاته، وأشد وطئًا: أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس، ولغط الأصوات، وأوقات المعاش[(٢)].

قال الفراء: «وأقوم قيلا»: قال: «أثبت قراءة»[(٣)].

وعن قتادة: «وأقوم قيلا»: أحفظ للقراءة[(٤)]، وقيل: أتم نشاطًا، وأتم إخلاصًا، وأكثر بركة[(٥)].

وقال ابن الجوزي: «وأقوم قيلًا» أي: «أخلص للقول وأسمع له، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات فتخلص القراءة، ويفرغ القلب لفهم التلاوة، فلا يكون دون سمعه وتفهمه حائل»[(٦)].

ومن تعظيم القرآن: قراءته في مكان طاهر، وأفضله المساجد، فهي بيوت الله التي أذن الله برفع ذكره فيها، وقد كانت المساجد محلًا للإقراء ومدارسة القرآن.

يقول الإمام النووي: «ويستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار، ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة في المسجد لكونه جامعًا للنظافة، وشرف البقعة»[(٧)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما جلس قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده)[(٨)].

ومن حرمته أن تجتنب القراءة في أماكن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٦٠.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٥٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٨٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤١.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٨٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤١.
(٦) زاد المسير ٤/ ٣٥٤.
(٧) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٤٤.
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، ٨/ ٧١، رقم ٧٠٢٨.

اللغط واللغو والنجاسات.

يقول القرطبي: «ومن حرمته ألا يقرأ في الأسواق، ولا في مواطن اللغط واللغو، ومجمع السفهاء، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراما، هذا لمرورٍ بنفسه، فكيف إذا مر بالقرآن الكريم تلاوةً بين ظهراني أهل اللغو ومجمع السفهاء»[(١)].

١٠. الاستماع والإنصات للقارئ.

الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن طريق الرحمة، ووسيلة الانتفاع والتدبر، وسبيل المؤمنين قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

فلما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا، ويتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة[(٢)].

قال الليث: «يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن، لقول الله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، و«لعل» من الله واجبة»[(٣)].

والاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن، ولما جاء به من إصلاح النفوس، وهذا ما يقود إلى الرحمة من الله سبحانه.

يقول الطبري: «ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آياته»[(٤)].

فالأمر بالاستماع والإنصات إرشاد إلى طريق الفوز بما أشير إليه من صفات القرآن: الهدى والرحمة، والمنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن.

والاستماع: أخص من السمع، لأنه إنما يكون بقصد ونية، أما السمع: فيحصل ولو بغير قصد، والإنصات: السكوت للاستماع حتى لا يكون شاغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ[(٥)].

يقول ابن سعدي: «والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٣٦، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٨٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٩.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٤٥.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٥٠، تفسير المراغي ٩/ ١٥٤.

ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير»[1].

يقول النووي: «ومما يعتنى به ويتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها فمن ذلك اجتناب الضحك، واللغط، والحديث في خلال القراءة إلا كلامًا يضطر إليه، وليمتثل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]»[2].

وقد ذكر الله حال الكافرين في تواصيهم بعدم سماع القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

و﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾: أي: إذا تلي لا تسمعوا له، قال مجاهد: يعني: الغوا بالمكاء، والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن»[3].

١١. الخشية والبكاء والسجود عند القراءة:

القرآن الكريم موعظة القلوب ومذكر النفوس، اشتمل على الترغيب والترهيب، والتذكير للإنسان بمصيره ومآله ورجوعه، فهو يرقق القلب ويبكي العين، ويزيد الإيمان، ويقوي الخشية.

وقد ذكر الله من صفات أهل خشيته، وطرائق أوليائه أنهم عند سماع القرآن وتلاوته توجل قلوبهم، وتقشعر جلودهم وتلين قلوبهم، ويخرون سجدًا وبكيًا، وهذا دليل على خوفهم من الله وتعظيمهم لكتابه، قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

يقول القرطبي: «وصفهم بالخشوع والبكاء وضم السجود إلى البكاء، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تعظيمهم لله تعالى وآياته»[4].

ويقول ابن كثير: «أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعًا واستكانة، وحمدًا وشكرًا على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي»: جمع باكٍ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعًا لمنوالهم»[5].

ووصف الله حالة أهل الخشية عند سماعهم القرآن بقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٤.
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٩٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٧٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٢٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٢.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فتقشعر منه جلودهم لما فيه من التخويف والترهيب، ثم تلين عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر[(١)].

وقد امتدح الله أهل العلم الذين إذا يتلى عليهم القرآن يخرون تعظيمًا له وتكريمًا، وعلمًا منهم بأنه من عند الله، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

يقول القرطبي: «هذه مبالغة في صفتهم، ومدحٌ لهم، وحقٌّ لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئًا أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل»[(٢)].

لقد كان شأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سماعهم القرآن وتلاوته الخشوع والبكاء والسجود، وقدوتهم وأسوتهم في ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ علي، قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل، قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

قال لي: كف -أو أمسك- فرأيت عينيه تذرفان»[(٣)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن، ٦/ ٢٤٣، رقم ٥٠٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، ٢/ ١٩٥، رقم ١٩٠٣.

سند قراءة القرآن

الإسناد معتمدٌ أصيل، وطريق متين، والقرآن الكريم أعظم المنقولات إسنادًا، وأقدسها اتصالًا، فهو وحي رباني، اتصل بالخالق سبحانه، ونقل عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام، ونزل على قلب إمام المنذرين، وسيد الخلق أجمعين، يوضح منزلة هذا الإسناد ما يلي:

أولًا: الإسناد إلى الله تعالى:

قراءة القرآن عظمت هيبتها، وعلت منزلتها، وازداد جلالها حينما اتصل سندها بالله عز وجل، فمصدرها طريقٌ إلهي، ووحيٌ رباني، وقد أشار الله في كتابه إلى هذا السند المعظم، والاتصال المقدس، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ – ١٩٤].

أي: أنزله الله إليك بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وجبريل تلقاه عن الله تعالى سماعًا.

فقد جاء في الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا، وخروا سجدا، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلما مر بسماء سأله أهلها ماذا قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أمر)[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

يقول ابن قتيبة: «أي: يلقى عليك القرآن فتلقاه أنت، أي: تأخذه من عند حكيم عليم»[2].

وأخبر الله أنه هو الذي سيقرئ نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأمره باتباع قراءته، ليتعلم كيفيتها وطريقتها، وهو المتكفل بحفظها له في صدره، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: إذا تلاه عليك جبريل عليه السلام عن الله عز وجل فاستمع لقراءته، ثم اقرأه كما أقرأك.

يقول ابن عاشور: «وقوله: فإذا قرأناه أي: إذا قرأه جبريل عنا، فأسندت القراءة إلى ضمير الجلالة على طريقة المجاز العقلي، والقرينة واضحة»[3].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ١/ ٣٣٦، رقم ٥٩١، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٣٩٠. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٤٧٥: أخرجه الطبراني عن شيخه يحيى بن عثمان بن صالح وقد وثق..وبقية رجاله ثقات.
(٢) غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٣٢٢.
(٣) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٤٩.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

فأسند سبحانه التلاوة إلى نفسه؛ لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بواسطة الملك، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغًا عنه سبحانه[١].

ثانيًا: الإسناد إلى جبريل عليه السلام:

أخبر الله بالواسطة بينه سبحانه وبين نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم في نقل القرآن أنه روح القدس، الملك القوي الكريم، جبريل الأمين عليه السلام، وأقسم سبحانه على فضله، ورفعة منزلته بين الملائكة، مشيدًا بعلو سند القرآن وجلالته فقال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٥ – ٢١].

يقول ابن سعدي: «وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على علو سند القرآن، وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهو: جبريل عليه السلام نزل به من الله تعالى، ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه»[٢].

قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

أي: نزل بالوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام، شديد القوة على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، وعلى إيصال الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الصفة التي كان يأتيه جبريل عليه السلام بالوحي عليها، فقد سأله الحارث بن هشام رضي الله عنه فقال: (يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول)، قالت عائشة رضي الله عنها: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[٣].

وهذه الحالة والتي يكون فيها جبريل عليه السلام على هيئته الملكية هي التي نزل القرآن الكريم جميعه عن طريقها.

يقول ابن حجر: «والصلصلة المذكورة صوت جبريل بالوحي والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه صلى الله عليه وسلم الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره»[٤].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٨٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩١٢.
(٣) سبق تخريجه قريبًا ص ٣٧.
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ١/ ٢٠.

ثالثًا: الإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

اصطفى الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وشرفه بتبليغ رسالته، وتلاوة كتابه، وأمره بإقراء أمته، فقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٠].

أي: لتبلغهم ما أرسلتك به إليهم من وحيي الذي أوحيته إليك، وتقرأ عليهم القرآن»[١].

وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩٢].

أي: وأن أتلوا القرآن على الناس، فحذف متعلق التلاوة لظهوره، فقام صلى الله عليه وسلم بمهمته خير قيام، وأقرأ صحابته رضي الله عنهم الكرام.

ووصفه الله بصفة تلاوة القرآن وقراءته تشريفًا وتكريمًا فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

يقول الرازي: «فقوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إشارة إلى كونه مبلغًا لذلك الوحي من عند الله إلى الخلق»[٢].

ويقول ابن عاشور: «وابتدأ بالتلاوة؛ لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثنى بالتزكية لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك، وما يعلق به من مساوئ الأعمال والطباع، وعقب بذكر تعليمهم الكتاب؛ لأن الكتاب بعد إبلاغه إليهم تبين لهم مقاصده ومعانيه وتعليم الحكمة هو غاية ذلك كله؛ لأن من تدبر القرآن وعمل به وفهم خفاياه نال الحكمة»[٣].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتولى تعليم أصحابه رضي الله عنهم قراءة القرآن، ويقرئهم بما أقرأه جبريل عليه السلام، ويقرأ عليهم، ويأمرهم بالقراءة عليه.

فقد ورد عن عثمان رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كان يقرئهم العشر الآيات، فلا يجاوزونها إلى عشرٍ أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فيعلمهم القرآن والعلم والعمل جميعًا)[٤].

يقول السخاوي: «كان القراء في الأمر الأول يقرأ المعلم على المتعلم اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يتلو كتاب الله عز وجل على الناس كما أمره الله عز وجل، كذلك كان جبريل عليه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٤٥، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٨١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤١٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٠٩.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٣٨/ ٤٦٦، رقم ٢٣٤٨٦، وابن أبي شيبة في مصنفه، ٦/ ٢٣٧.

السلام يعرضه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يلقنونه من يتعلمه خمسًا خمسًا، ويقولون: إن جبريل عليه السلام كذلك كان يلقنه رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

(١) جمال القراء، السخاوي ص ٥٣٠.

مراتب الناس في القراءة

لقد أشار القرآن الكريم إلى أقسام الناس في حالهم مع قراءة القرآن من حيث الانتفاع وعدمه، والإعراض والهجر مبينًا صفاتهم، وموضحًا أسباب كل حالٍ من أحوالهم ووسائله وموجباته، يوضح ذلك ما يلي:

أولًا: القراء المنتفعون بالقراءة:

أشار القرآن الكريم إلى أن المنتفعين بقراءة القرآن وتلاوته هم المؤمنون خاصة، فإذا قرؤوا القرآن وسمعوا قراءته زادتهم قوةً في التصديق، وشدةً في الإذعان، ورسوخًا في اليقين، ونشاطًا في الأعمال الصالحة، وسعةً في العلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

يقول ابن سعدي: «يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقًا إلى كرامة ربهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان»[2].

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٢].

يقول القرطبي: «خص المؤمنين لأنهم

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٥.

المنتفعون به»[1].

ومن صفات المنتفعين بقراءة القرآن أنهم أهل خشية وخوف من الله عز وجل، يظهر ذلك على جوارحهم.

قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ - ٣].

فخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم، لأنهم هم المنتفعون بها، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥][2].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

يقول ابن كثير: «كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المعلى في الدنيا والآخرة»[3].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٢].

وفيض دموعهم؛ لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حقٌّ.

ومن صفات المنتفعين بقراءة القرآن الكريم الاهتداء بهديه في السير على الطريق المستقيم في حياتهم الموصل إلى رضوان الله، قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

يقول ابن كثير: «ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة

وقال: وهذه صفة المؤمنين المنتفعين بالقرآن، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات»[4].

ثانيًا: القراء غير المنتفعين بالقراءة.

لقد أخبر الله في كتابه العزيز بأن الذين لا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢١٧.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير بتصرف يسير ٣/ ٦٨.

يؤمنون بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم لا ينتفعون بقراءة القرآن وتلاوته، ففي آذانهم ثقل عن استماعه، وفي قلوبهم عمى فلا يبصرون هدايته.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

يقول الطبري: «وهذا القرآن على قلوب هؤلاء المكذبين بها عمى عنه، فلا يبصرون حججه عليهم، وما فيه من مواعظه»[(١)].

قال قتادة: «عموا عن القرآن وصموا عنه، فلا ينتفعون به»[(٢)].

لقد أشار الله في كتابه إلى أن عدم الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم مانع قوي وعظيم من الانتفاع بالقرآن الكريم عند سماعه وقراءته؛ لأنه يطفئ نور القلب ويظلمه، ويرين عليه، ويحجبه، ويجعله في قفل وغطاء وأكنة، ويختم عليه، ويحمله على الإنكار، بل ويعطل الحواس من سمع وبصر وعقل عن الفهم والتدبر.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥ – ٤٦].

أي: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبين الكفار حجابًا يحول بينهم وبين فهمه وتدبره، والإيمان به، والأكنة: جمع: «كنان» وهو الغطاء الذي يغشى القلب فلا يفقه القرآن، ولا ينتفع به.

يقول ابن كثير: «أن يفقهوه، أي: لئلا يفهموا القرآن، ففي آذانهم الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به»[(٣)].

بل عاقبهم الله بالطبع على قلوبهم، وجعلها غلف كالأوعية المغلقة فلا تعي ولا تفقه ما تقرأه عليهم، قال تعالى: «﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٨ – ٥٩].

ولقد حذر الله في كتابه العزيز من مشابهة أهل الكتاب في قراءتهم للتوراة والإنجيل دون انتفاع بها، أو إيمان بما فيها.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨].

لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظٍ دون إدراك معانيها.

يقول ابن سعدي: «ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط»[(٤)].

وعن زياد بن لبيد رضي الله عنه قال: (ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا،

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٨٤.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٧٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦.

قال: (وذاك عند أوان ذهاب العلم، قال: قلنا يا رسول الله يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة، قال: ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجلٍ بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل فلا ينتفعون مما فيهما بشيء)[1].

ثالثًا: الهاجرون للقراءة:

جاء الذم في القرآن الكريم لهجر القرآن، ونقل الله عز وجل شكاية رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ربه من حال قومه في هجرهم للقرآن وإعراضهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ونقل الإمام الطبري عن ابن زيد قوله: «لا يريدون أن يسمعوه، وإن دعوا إلى الله قالوا لا، وقرأ: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾ [الأنعام: ٢٦].

قال: ينهون عنه، ويبعدون عنه».

وقال الطبري: وهذا القول أولى بتأويل ذلك، وذلك أن الله أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]. وذلك هجرهم إياه»[2].

قال القرطبي: «وقيل: معنى ﴿مَهۡجُورٗا﴾ أي: متروكًا. ونقل عن أنسٍ مرفوعًا: (من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهد، ولم ينظر فيه، جاء يوم القيامة متعلقًا به يقول يا رب العالمين إن عبدك هذا اتخذني مهجورًا فاقض بيني وبينه)[3].

وجاء الندب في السنة المطهرة إلى قراءة القرآن في البيوت، وعدم هجر قراءة القرآن فيها فتكون كالقبور، فالموتى في قبورهم لا يقرؤون قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)[4].

رابعًا: المعرضون عن القراءة:

قراءة القرآن هي الحياة للقلب، والسعادة في الدارين، والإعراض عنها، وعن تدبر القرآن، والعمل به سبب في عقوبات عظيمة:

١. المعيشة الضنك في الحياة الدنيا.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٢١٨، رقم ١٧٩١٩، والحاكم في المستدرك ٣/ ٦٨١، رقم ٦٥٠٠، والطبراني في الكبير ٥/ ٢٦٥، ٥٢٩١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، ٢/ ١٤٥، رقم ١٨٦٠.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «معيشةً ضنكا: الشقاء»[١].

يقول البغوي: «﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ يعني: القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه، فإن له معيشة ضنكا، ضيقا»[٢].

ويقول ابن كثير: «﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه في قلقٍ وحيرة وشك»[٣].

٢. يجيء يوم القيامة أعمى منسيًا، يحمل أوزارًا.

قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥ -١٢٦].

فالمعرض عن آيات الله يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة، في تناسٍ لحاله وعدم اعتبار به، فالجزاء من جنس العمل، فلما أعرض عن آيات الله، وعاملها معاملة من لم يذكره فكذلك يعامله الله معاملة من ينساه[٤]، بل يحمل حملاً ثقيلاً من الآثام والأوزار، وبئس الحمل حمله يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠٠ -١٠١].

٣. التعرض لانتقام الله عز وجل.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

أي: لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له، ثم بعد ذلك تركها وجحدها، وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها، وسينتقم الله ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

قال قتادة رحمه الله: «إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة، وأعوز أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب»[٥].

يقول ابن كثير: «وقد أدخل بعض المفسرين - نسيان القرآن في معنى الإعراض - فإن الإعراض عن تلاوة القرآن، وتعريضه للنسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير، وتفريط شديد، نعوذ بالله منه»[٦].

والمعرضون عن قراءة القرآن لا ينتفعون

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٩٠.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٧٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٢٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٢٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٧٠.
(٦) المصدر السابق ١/ ٧٣.

به فحالهم كحال الأموات الذين لا يسمعون، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

يقول ابن عاشور: «وإن عدم انتفاع المعرضين هو بسبب موت قلوبهم فكأنهم الأموات في القبور، وأنت لا تستطيع أن تسمع الأموات واستعير من في القبور للذين لم تنفع فيهم النذر، وعبر عن الأموات بمن في القبور لأن من في القبور أغرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات؛ لأن بينهم وبين المنادي حاجز الأرض»[(١)].

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٩٦.

ثمرات القراءة

أرشد القرآن الكريم إلى قراءته مرتبًا عليها ثمرات عظيمة، ومنافع عديدة، من حصول الأجر، وإصابة الحق، وبلوغ منزلة العلم والخشية لله عز وجل يوضح ذلك ما يلي:

أولًا: ثمرات قراءة القرآن:

قراءة القرآن عبادة عظيمة، ومنزلتها رفيعة، فقد أشار القرآن الكريم إلى ثمراتها، ومنها:

١. قراءة القرآن تجارة مع الله، فكلما ازداد العبد تلاوة للقرآن كلما ازداد أجرًا ومثوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

يقول البغوي: «﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعني: قرأوا القرآن يرجون تجارة لن تبور، لن تفسد ولن تهلك، والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب»[(٢)].

وروي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٩٤.

فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار)[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)[2].

٢. من ثمرات قراءة القرآن حصول الهداية باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وهذا حال المؤمنين إذ تلقوا القرآن وقرؤوه ودرسوه وتفقهوا فيه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

فهم الذين هداهم الله، ووفقهم للرشاد، وإصابة الصواب، فهم يميزون بين ما يؤمرون به، وبين ما ينهون عنه[3].

يقول ابن عاشور: «وقد دل ثناء الله على عباده المؤمنين الكمل بأنهم أحرزوا صفة اتباع أحسن القول الذي يسمعونه ويقرؤونه، على شرف النظر والاستدلال للتفرقة بين الحق والباطل، وللتفرقة بين الصواب والخطأ، ولغلق المجال في وجه الشبهة ونفي تلبس السفسطة»[4].

٣. من ثمرات قراءة القرآن حصول العلم النافع الذي يورث خشية الله والخوف منه، وحصول النفع بتدبره، والهدى بالعمل به.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

يقول السيوطي: «وتسن القراءة بالتدبر والتفهم فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب»[5].

وقال ابن سعدي: «هذه هي الحكمة من إنزاله ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمه، ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٣٥٢، رقم ٢٢٩٥٠، والحاكم في المستدرك وصححه، ١/ ٧٤٢، رقم ٢٠٤٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٣٧٥، رقم ١٨٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، ٥/ ١٧٥، رقم ٢٩١٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٣٣٤، رقم ١٧٨٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٨٢، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٥٦.

(٤) التحرير والتنوير، بتصرف ٢٣/ ٣٦٧.

(٥) الدر المنثور، السيوطي ١/ ٣٦٨.

مرة تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود، وأن هذا المقصود من التذكر»[1].

لقد وصف الله أهل العلم بانتفاعهم بقراءة القرآن وتلاوته وأن ذلك يثمر عندهم خشوعًا وبكاءًا وخشية فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

قال القرطبي: «قال الحسن: الذين أوتوا العلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا إذا تلوا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا»[2].

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «مدح الله العلماء في هذه الآية، والمعنى: أن الله تعالى يرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به»[3].

قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فأهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، يعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، فيؤمنون به[4].

يقول ابن عاشور: «هم الذين تمكنوا في علم الكتاب، ومعرفة محامله، وقام عندهم من الأدلة ما أرشدهم إلى مراد الله تعالى، بحيث لا تروج عليهم الشبه»[5].

وإذا كان الحق سبحانه حث على طلب القراءة فيما ينفع، ويحصل به العلم؛ ومن باب: «وبضدها تتميز الاشياء» ففي المقابل نجده سبحانه قد نعى على أولئك الذين يتعلمون ما فيه شرٌّ وضرر، قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره.

ثانيًا: ثمرات القراءة في كتاب الكون:

الكون كتاب مفتوح لكل قارئ له، فهو ميدان رحب للتفكر والتدبر فيما أودع الله فيه من آيات بينات، ودلائل واضحات، فإن الأرض والسماء، والبحار والجبال وما فيهما من مخلوقات عجيبة، وكائناتٍ حية، وما قامت عليه من نظام محكم دقيق؛ ليجعل المؤمن المتبصر يدرك صنع الله وقدرته وحكمته.

وقد أرشد الله الخلق في كتابه إلى قراءة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٤٠.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ٥٤٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٦٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٦٤.

هذا الكتاب بعين العقل والفكر والوجدان، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

يقول ابن عاشور: «أي: فادعهم إلى النظر في دلائل الوحدانية والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان، ودفع غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى النظر والاستدلال بما هو حول الإنسان من أحوال الموجودات، وتصاريفها الدالة على الوحدانية، مثل أجرام الكواكب، وتقادير مسيرها، وأحوال النور والظلمة والرياح والسحاب والمطر، وكذلك البحار والجبال»[(١)].

وجاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد نزلت علي الليلة آيةٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾) [البقرة: ١٦٤][(٢)].

فالقراءة في كتاب الكون المفتوح، وتتبع يد الله المبدعة، وهي تحرك هذا الكون، وتقلب صفحات هذا الكتاب هو عبادة لله من صميم العبادة.

فالكون ليس جامدًا ولا صامتًا، ولا أصمًا أبكمًا، ولكنه كتاب ناطق بالحجة والبرهان على وحدانية الله جل جلاله.

ومن سدت عيناه عن قراءة كتاب الكون، وكان في هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق، فهو في الآخرة أشد عمى، وأضل سبيلا.

قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

(١) التحرير والتنوير ١١/ ٢٩٥.
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب التوبة، ٢/ ٣٨٧، رقم ٦٢٠.

القراءة في الآخرة

اليوم الآخر تجتمع فيه الخلائق عند ربهم، ويقوم الناس لرب العالمين، وهو يوم الجزاء والحساب، ينشر الله فيه سجلات الأعمال، وصحائف الحسنات والسيئات فيعرف المرء عمله، فيكون المؤمن فرحًا مسرورًا يأخذ كتابه بيمينه، ويكون الكافر خائفًا وجلًا يأخذ كتابه بشماله.

ويوم القيامة يأمر الله المرء بقراءة كتابه، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

يقرؤه هو وغيره، فيه جميع ما عمله من أول عمره إلى آخره.

قال قتادة: «سيقرأ يومئذٍ من لم يكن قارئًا في الدنيا»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الكهف: ٤٩].

أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات.

وقد قرأ بعضهم[(٢)]: ﴿هُنَالِكَ تتلوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠].

قال ابن كثير: «فسرها بعضهم بالقراءة»[(٣)]، ويقول الطبري: «يتلو كتاب حسناته وسيئاته»[(٤)].

وقال بعض الصلحاء: «الكتاب يوم القيامة، لسانك قلمه، وريقك مداده، وأعضاؤك قرطاسه، أنت كنت المملي على حفظتك، ما زيد فيه، ولا نقص منه، ومتى أنكرت منه شيئًا يكون فيه الشاهد منك عليك»[(٥)].

فالقراءة يوم القيامة شاهد حي، ولسان ناطق، وباب من أبواب إقامة الحجة، فأمر الله بها يوم القيامة يذكر بالأمر بها في الدنيا، ففي الدنيا جاء الأمر: ﴿ٱقْرَأْ﴾ ويوم القيامة جاء الأمر: ﴿ٱقْرَأْ﴾ دلالة على ما بين الأمرين ماذا قرأ الإنسان وماذا حصل.

وينقسم الناس يوم القيامة في قراءتهم لكتاب أعمالهم إلى فريقين: فريق آخذ كتابه بيمينه، وفريق آخذ كتابه بشماله، واحد يوضع له كتابه فتجري على وجهه نضرة النعيم، وآخر يوضع له كتابه فتعلو وجهه ظلمة الجحيم.

فأهل اليمين: يقرؤون كتابهم مسرورين فرحين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

يقول ابن عطية: «يقرؤون كتابهم،

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٢٤.
(٢) قراءة: حمزة والكسائي وخلف العاشر.
انظر: السبعة، ابن مجاهد ص ٣٢٥، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٨١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٣٠.

عبارة عن السرور بها، أي: يرددونها ويتأملونها»[1]، ويقول ابن كثير: «أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته»[2].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

فدعوته الناس إلى القراءة علامة الفرح والنشاط وقوة العزيمة، أي: دونكم كتابي فاقرؤوه فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب[3].

وأما أهل الشمال: فيعطون كتاب أعمالهم السيئة بشمالهم، تمييزًا لهم وخزيًا وعارًا، فيضعه وراء ظهره حتى لا يطلع عليه أحد؛ لأنه يعلم أن هذا الكتاب مليء بالسيئات، فهو لا يريد أن يطلع الناس على ما عمله، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

يقول ابن عاشور: «وتمنى كل من أوتي كتابه بشماله أنه لم يؤت كتابه؛ لأنه علم من الاطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب، فيتمنى أن لا يكون علم بذلك إبقاء على نفسه من حزنها زمنًا فإن ترقب السوء عذاب»[4].

يقول صاحب الكشاف: «لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم، كأن أصحاب الشمال لا يقرؤون كتابهم؟.

قلت: بلى، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته، والاعتراف بمساويه، أما التنكيل به والانتقام منه، من الحياء والخجل والانخزال، وحبسه اللسان، والتتعتع، والعجز عن إقامة حروف الكلام، والذهاب عن تسوية القول، فكأن قراءتهم كلا قراءة.

وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[الحاقة: ١٩][5].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٩٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٨٣.
(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٣٥.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٨٢.

أثر القراءة في نهضة الأمة الإسلامية

إن القراءة من أهم وسائل اكتساب العلوم والمعارف المختلفة، والاستفادة من منجزات المتقدمين والمتأخرين وخبراتهم، فهي طريق التعلم والمعرفة، والحاجة لها لا تقل أهمية عن الحاجة إلى الطعام والشراب، فبالقراءة تحيا العقول، وتستنير الأفئدة، ويستقيم الفكر.

فهي من أعظم أسباب نهضة الأمة، وسمو مكانتها، وارتفاع شأنها لما يلي:

أولًا: تحصيل العلم الشرعي:

القراءة تعد وسيلة مهمة لتحصيل العلم الشرعي وإدراكه؛ من خلال تلاوة كتاب الله عز وجل وفهم معانية، والقراءة في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، شرحًا وتعليقًا، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة.

وقد أثنى الله على أهل العلم ورفع شأنهم وجعل لهم التكريم والتفضيل على سائر الخلق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

يقول ابن جماعه: - معلقًا على قوله صلى الله عليه وسلم: (العلماء ورثة الأنبياء) - «وحسبك هذه الدرجة مجدًا وفخرًا، وبهذه الرتبة شرفًا وذكرًا، فكما لا رتبة فوق رتبة النبوة، فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة»[(١)].

فالعلم والتعلم سلم المجد، وباب الترقي والنهوض، ولو نظرنا إلى واقع الأمم الصاعدة والمتقدمة نجد أنها اعتمدت التعليم أساسًا لتقدمها الحضاري، فحرصت على إشاعة العلم وتيسير أسبابه، وجعلت مفتاح ذلك: التشجيع على القراءة، والتحريض عليها، وترويجها بين فئات المجتمع المختلفة.

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [القلم: ٣ - ٤].

«وأن من كرمه تعالى: أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة»[(٢)].

روى سعيد عن قتادة قال: «القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بدر الدين بن جماعة ص ٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٧.

ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا»[1].

ثانيًا: توسيع المدارك وتعزيز الملكة الفكرية:

القراءة وسيلة لتوسيع المدارك والقدرات وتعزيز الملكة الفكرية؛ لأن المرء حينما يقرأ في علوم المقاصد وعلوم الوسائل، ويقرأ في ما ألف قديمًا وما ألف حديثًا؛ فإن ذلك مدعاة لتوسيع مداركه وإثراء عقليته، والاطلاع على الثقافات المختلفة والحضارات المتنوعة، والتجارب المتباينة، والتي يستفيد المرء من صوابها ويطلع على فضائلها، بل تفتح له بابًا في مجال الاجتهاد والتجديد، فباب الاجتهاد والتجديد إنما يتحرك انفتاحًا أو انغلاقًا بمقدار القراءة والاطلاع، فالقارئ الذي يتوغل بقراءته إلى أعماق التاريخ، ويجول ببصره في رحاب الواقع هو القادر على تقديم رؤى جديدة تستوعب الرؤى السالفة وتأخذ بأحسنها، ثم تضيف إليها[2].

ولذلك نقل عن أعلام السلف - والذين كان لهم إسهام في نهضة الأمة - كثرة كتبهم وسعة اطلاعهم، فالحافظ ابن القيم الجوزية كان مغرمًا بجمع الكتب فحصل منها ما لا يحصر، حتى كان أولاده يبيعون منها دهرًا طويلًا سوى ما اصطفوه لأنفسهم[3].

ونقل عن الجاحظ قوله: «ما وقع في يدي كتاب إلا وقرأته من أوله إلى آخره، أي كتاب كان»[4].

بل نقل شغفهم بالكتب واهتمامهم بها، يقول ابن المعتز في وصف الكتاب «الكتاب والج للأبواب، جريء على الحجاب، مفهمٌ لا يفهم، وناطق لا يتكلم، وبه يشخص المشتاق إذا أقعده الفراق، فأما القلم فمجهزٌ لجيوش الكلام، يخدم الإرادة ولا يمل الاستزادة، ويسكت واقفًا، وينطق سائرًا على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء».

ونقل الخطيب البغدادي عن محمد بن علي النحوي، قال: «ودع رجلٌ صديقًا له فقال له: استعن على وحشة الغربة بقراءة الكتب، فإنها ألسن ناطقة، وعيون رامقة»[5].

وفي المقابل فإن الشعوب التي لا تملك بنية معرفية صحيحة، وسعة فكرية سليمة فإنها تنعت بالتخلف، وتصبح في ذيل الأمم معرفةً وصناعةً وسلوكًا، وما ذاك إلا نتيجة طبيعية لانحسار ممارسة القراءة والعناية بها، وتقدير العلم والتعلم.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٠.
(٢) انظر: القراءة أولاً، محمد عدنان سالم ص ١٦.
(٣) انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر ٥/ ١٣٨.
(٤) تقييد العلم،الخطيب البغدادي ص ١٣٩.
(٥) المصدر السابق ص ١٢٠.

ومن المؤسف أن ترى في العالم الإسلامي من يستحوذ على ناشئة المسلمين وشبابهم، بإشغال أفكارهم، واستمال قلوبهم بسيل جرار من وسائل الترفيه، واللعب، مع ما يصحب ذلك من استحواذ الشاشات والفضائيات، وألعاب الكمبيوتر، والمحادثات الفارغة عبر وسائل التواصل كل ذلك على حساب الاستفادة من الوقت تعلمًا وقراءة، حتى صار الداعون للقراءة والمشتغلون بها غرباء في مجتمعهم[(١)].

موضوعات ذات صلة:

الأمية، التدبر، القرآن، الكتابة

ثالثًا: حفظ الوقت واستثماره:

القراءة وسيلة لاستثمار الوقت وحفظه، فحفظ الوقت من أعظم النفائس، وأجل الذخائر، وهو من أسباب رقي الأمة ونهضتها.

يقول ابن القيم: «فالوقت منقض بذاته، منصرم بنفسه، فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، وعظم فواته، واشتدت حسراته»[(٢)].

ولقد ضرب عظماء المسلمين ممن كانت لهم الريادة في رقي الأمة أروع الأمثلة في الاستفادة من الوقت في القراءة والتأليف، فقد نقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدي قوله: «أثقل الساعات علي: ساعة آكل فيها»[(٣)].

(١) انظر: الإضاءة في أهمية الكتابة والقراءة، خالد النصار ص ٦.
(٢) مدارج السالكين ٣/ ٥٠.
(٣) قيمة الزمن عند العلماء، أبو غدة ص ٦٦.

القسم

عناصر الموضوع

مفهوم القسم	٣٦٤
القسم في الاستعمال القرآني	٣٦٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٦٦
أنواع القسم في القرآن	٣٦٩
صيغ القسم	٣٧٦
أركان القسم	٣٨٢
أغراض القسم في القرآن	٣٩٤
كفارة القسم	٣٩٦

مفهوم القسم

أولًا: المعنى اللغوي:

بالنظر في المعاجم اللغوية يظهر أن مادة (القاف والسين والميم) تشمل عدة معانٍ، إلا أن القسم بالتحريك يرادف الحلف واليمين، قال ابن فارس: «القاف والسين والميم أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جمالٍ وحسن والآخر على تجزئة شيء. فالأول القسام، وهو الحسن والجمال، وفلانٌ مقسم الوجه، أي: ذو جمالٍ. والقسمة: الوجه، وهو أحسن ما في الإنسان والأصل الآخر القسم: مصدر قسمت الشيء قسمًا. والنصيب قسمٌ بكسر القاف. فأما اليمين فالقسم. قال أهل اللغة: أصل ذلك من القسامة، وهي الأيمان تقسم على أولياء المقتول إذا ادعوا دم مقتولهم على ناسٍ اتهموهم به»[(١)].

فالقسم، وهو المصدر، والجمع أقسام، وقد أقسم بالله واستقسم به وقاسمه: حلف له، وتقاسم القوم تحالفوا، والقسامة: الذين يحلفون على حقهم ويأخذونه، ويمين القسامة منسوبة إليهم، والمقسم: القسم، والمقسم: الموضع الذي حلف فيه، والمقسم: الرجل الحالف، أقسم يقسم إقسامًا [(٢)]، فالعلاقة بين القسامة والقسم وطيدة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو: «ربط العقد بالامتناع والترك أو بالإقدام على فعلٍ بمعنى معظمٍ حقيقةً أو اعتقادًا»[(٣)].

أو هو: «ربط النفس، بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا. وسمي الحلف يمينًا؛ لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف»[(٤)].

فالمعنى الاصطلاحي لا يختلف عن المعنى اللغوي كثيرًا إلا أنه قيد بتقييدات معينة.

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٨٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٢٤٢، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٧٨.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢١٦.
(٤) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص٣٠١.

القسم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أقسم) في القرآن الكريم (٢٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
فعل الماضي	٩	﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٖ﴾ [الأعراف:٤٩]
فعل المضارع	١٣	﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة:٧٥]
فعل الأمر	١	﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النمل:٤٩]
اسم مصدر	٢	﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾ [الفجر:٥]

وجاء القسم في القرآن بمعناه في اللغة وهو: الحلف، وأصله من (القسامة) وهي الأيمان تقسم على الأولياء في الدم[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٥٤٥.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٣٨٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحلف:

الحلف لغةً:

قال ابن فارس: «الحاء واللام والفاء أصلٌ واحد، وهو الملازمة. يقال: حالف فلانٌ فلانًا، إذا لازمه»[١].

الحلف اصطلاحًا:

هو «العهد بين القوم، والمحالفة المعاهدة والملازمة»[٢].

الصلة بين الحلف والقسم:

قال أبو هلال العسكري: «الصلة بين القسم والحلف: أن القسم أبلغ من الحلف؛ لأن معنى قولنا: أقسم بالله أنه صار ذا قسم بالله والمراد أن الذي أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم بالله، والحلف من قولك: سيفٌ حليف، أي: قاطع ماضٍ، فإذا قلت: حلف بالله، فكأنك قلت: قطع المخاصمة بالله، فالأول أبلغ؛ لأنه يتضمن معنى الآخر مع دفع الخصم، ففيه معنيان. وقولنا: (حلف) يفيد معنى واحدًا، وهو قطع المخاصمة فقط، وذلك أن من أحرز الشيء باستحقاق في الظاهر فلا خصومة بينه وبين أحد فيه، وليس كل من دفع الخصومة في الشيء فقد أحرزه»[٣]. وعلى هذا فالقسم أعم من الحلف.

٢ اليمين:

اليمين لغةً:

القسم، يقال: سمي بذلك؛ لأنهم كانوا إذا تحالفوا ضرب كل منهم يمين صاحبه[٤].

اليمين اصطلاحًا:

هو «عقد يقوى به عزم الحالف على الفعل والترك»[٥].

الصلة بين اليمين والقسم:

يظهر أنهما مترادفان في المعنى.

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٧٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٤٦.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص٤٢٩.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٢١.
(٥) الكليات، الكفوي ص٩٨٥.

٣ الميثاق:

الميثاق لغةً:

قال ابن فارس: «الواو والثاء والقاف كلمةٌ تدل على عقدٍ وإحكام. ووثقت الشيء: أحكمته، وناقةٌ موثقة الخلق. والميثاق: العهد المحكم. وهو ثقةٌ، وقد وثقت به»[١].

الميثاق اصطلاحًا:

«هو العقد المؤكد إما بوعيدٍ أو بيمينٍ»[٢]. قال صاحب المنار: «العهد ما يتفق رجلان أو فريقان من الناس على التزامه بينهما لمصلحتهما المشتركة، فإن أكداه ووثقاه بما يقتضي زيادة العناية بحفظه والوفاء به سمي ميثاقًا»[٣].

الصلة بين الميثاق والقسم:

أن الميثاق عهدٌ مؤكدٌ بالقسم، فالقسم أعم من الميثاق؛ إذ يشمل العهد المؤكد به، ويشمل القسم ما ليس بعهد، وقد نص ابن هشام على أن أخذ الميثاق قسم[٤]، أي: جزء من القسم.

٤ الحنث:

الحنث لغةً:

هو الإثم والحرج. يقال: حنث فلانٌ في كذا، أي: أثم. ومن ذلك قولهم: بلغ الغلام الحنث، أي: بلغ مبلغًا جرى عليه القلم بالطاعة والمعصية، وأثبتت عليه ذنوبه[٥].

الحنث اصطلاحًا:

هو «الذنب المؤثم، وسمي اليمين الغموس حنثًا لذلك»[٦].

الصلة بين الحنث والقسم:

هما نقيضان فلا يجتمعان، فالقسم إلزام النفس بفعل شيء أو تركه، والحنث نقض ذلك القسم.

---

(١) مقاييس اللغة ٦/ ٦٣.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٧.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٦٧.
(٤) مغني اللبيب، ابن هشام ص٥٣٢.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٠٨.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٤٨.

٥ النقض:

النقض لغةً:

من نقضت البناء نقضًا، والنقض اسم البناء المنقوض إذا هدم، ونقضت الحبل نقضًا: حللت برمه، وانتقضت الطهارة: بطلت، وانتقض الجرح بعد برئه، والأمر بعد التئامه: فسد، وتناقض الكلامان: تدافعا كأن كل واحد نقض الآخر، وفي كلامه تناقضٌ إذا كان بعضه يقتضي إبطال بعض[١].

النقض اصطلاحًا:

«الفسخ وفك التركيب»[٢].

الصلة بين النقض والقسم:

إذا كان القسم في إلزام النفس على فعل شيء أو تركه، فإن النقض هو فك ذلك الإلزام، وعدم الوفاء به، فكل منهما مناقض للآخر.

٦ النكث:

النكث لغةً:

نكث العهد، والحبل، ينكثه وينكثه: نقضه فانتكث، ونكث السواك: تشعث رأسه[٣].

النكث اصطلاحًا:

«هو ما نقض من غزل الشعر وغيره»[٤].

الصلة بين النكث والقسم:

هما ضدان، فالقسم في إلزام، والنكث نقض ذلك الإلزام.

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ص٣٢٠.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٢٩.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ١٧٧.
(٤) الكليات، الكفوي ص٢٠١.

أنواع القسم في القرآن

ذكر العلماء أن للقسم أنواعًا ثلاثة: (لغو، ومنعقدة، وغموس) وذهب البعض إلى أنهما نوعان فقط (لغو ومنعقدة) وفيما يلي نستجلي حقيقته، ونبين أحكامه المذكورة في القرآن الكريم:

أولًا: اليمين اللغو:

ذكر المولى سبحانه أنه لا يؤاخذنا باللغو في اليمين في قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

«اللغو: سقط الكلام الذي لا حكم له، ويستعمل في الهجر والرفث وما لا حكم له من الأيمان تشبيهًا بالسقط من القول، واختلف العلماء في اليمين التي هي لغو:

فقال ابن عباس وعائشة وعامر الشعبي وأبو صالح ومجاهد رضي الله عنهم: «لغو اليمين: قول الرجل في درج كلامه واستعجاله في المحاورة: لا والله، وبلى والله دون قصد لليمين».

وقال أبو هريرة وابن عباس أيضًا والحسن ومالك رضي الله عنهم وجماعة من العلماء: «لغو اليمين: ما حلف به الرجل على يقينه فكشف الغيب خلاف ذلك». قال ابن عطية: «وهذا اليقين هو غلبة ظن أطلق الفقهاء عليه لفظة اليقين تجوزًا».

وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الله وعروة ابنا الزبير رضي الله عنهم: «لغو اليمين: الحلف في المعاصي كالذي يحلف ليشربن الخمر أو ليقطعن الرحم، فبره ترك ذلك الفعل ولا كفارة عليه».

وقال ابن عباس أيضًا وطاووس رضي الله عنهما: «لغو اليمين: الحلف في حال الغضب».

وقال مكحول الدمشقي رضي الله عنه وجماعة من العلماء: «لغو اليمين: أن يحرم الرجل على نفسه ما أحل الله فيقول: مالي علي حرام إن فعلت كذا أو الحلال علي حرام».

وقال زيد بن أسلم وابنه رحمهما الله: «لغو اليمين: دعاء الرجل على نفسه؛ أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي هو مشرك إن فعل كذا».

وقال ابن عباس رضي الله عنه أيضًا والضحاك رحمه الله: «لغو اليمين: هو المكفرة، أي: إذا كفرت اليمين فحينئذ سقطت وصارت لغوًا ولا يؤاخذ الله بتكفيرها والرجوع إلى الذي هو خير».

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: «لغو اليمين: ما حنث فيه الرجل ناسيًا».

وقيل: «اللغو: أيمان المكره»[1].

هذه أقوال تسعة في تفسير لغو اليمين، إلا أننا إذا نظرنا في الآية الكريمة نجدها تصرح بأن اليمين اللغو هي التي لا كفارة فيها، فنص الآية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فقابل بين اليمين اللغو واليمين التي فيها كفارة، وهذا يسقط بعض الأقوال، فيسقط القول بأنها الحلف في المعاصي؛ لأنها -على فرض أنها لا كفارة فيها- فيها مؤاخذة.

والقول: بأنها دعاء الرجل على نفسه؛ لأن هذا دعاء وليس قسمًا، والقول: بأنها اليمين المكفرة؛ وذلك لأنه على هذا القول يكون قابل بين الشيء ونفسه.

وأما القول: بأنها اليمين في غضب فقد ذكر قائلوه حديثًا لم أقف عليه؛ لذلك تركت ذكره، ولو صح فليس بنص في أن هذا هو اليمين اللغو.

وأما القول بأنها: أن يحرم الرجل على نفسه ما أحل الله، فإن هذا فيه مؤاخذة؛ إذ فيه مخالفة صريحة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٨٧].

قال ابن عطية رحمه الله تعليقًا على الأقوال السابقة: «وطريقة النظر أن يتأمل لفظة: (اللغو) ولفظة: (الكسب) ويحكم موقعهما في اللغة، فكسب المرء ما قصده ونواه، واللغو: ما لم يتعمده أو ما حقه لهجنته أن يسقط، فيقوى على هذه الطريقة بعض الأقوال المتقدمة ويضعف بعضها، وقد رفع الله عز وجل المؤاخذة بالإطلاق في اللغو، فحقيقته ما لا إثم فيه ولا كفارة، والمؤاخذة في الأيمان هي بعقوبة الآخرة في الغموس، وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة، وبعقوبة الدنيا في إلزام الكفارة فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة؛ لأن المؤاخذة قد وقعت فيها، وتخصيص المؤاخذة بأنها في الآخرة فقط تحكم»[2].

قلت: وأقوى الأقوال فيها: القول بأنها قول الرجل: لا والله وبلى والله دون قصد لليمين. والقول بأنها ما حلف به الرجل على يقينه فكشف الغيب خلاف ذلك، وذلك أن الحالف في هاتين الحالتين لم يتعمد معصية، ففي القول الأول جرى لفظ القسم على لسانه دون معناه، وهذا أشبه بالساقط من الكلام؛ إذ اللغو -كما عرفه الراغب- «ما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن رويَّة وفكر فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصافير»[3].

(١) المحرر الوجيز: ١/ ٣٠٢ بتصرف.

(٢) المصدر السابق بتصرف.

(٣) المفردات ٢/ ٣٤٠.

وفي الثاني: تعمد القسم، ولكن لم يتعمد الكذب.

وأما القول: بأنها ما حنث فيه الرجل ناسيًا، والقول: بأنها أيمان المكره فلا يبعدان عن القولين السابقين، فالحنث ناسيًا غير مؤاخذ به؛ وذلك أن النسيان مرفوع عن هذه الأمة، وأيمان المكره كذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: (تجاوز الله عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه)[1].

وقد رجح أبو حيان رحمه الله القول بأنها ما لا يقصد به حقيقة اليمين، وإنما هو شيء يجري على اللسان عند المحاورة من غير قصد، قائلًا -بعد ذكره الأقوال-: «وهذه الأقوال يحتملها لفظ اللغو، إلا أن الأظهر هو ما فسرناه أولًا؛ لأنه قابله كسب القلب، وهو تعمده للشيء، فجميع الأقوال غيره ينطبق عليها أنها كسب القلب؛ لأن للقلب قصدًا إليها: ونفي الوحدة يدل على أنه لا إثم ولا كفارة، فيضعف قول من قال: إنها تختص بالإثم، ويفسر اللغو باليمين المكفرة»[2].

قلت: ولا مانع من أن يكون المعنيان مرادين؛ إذ اللغو في اليمين «الساقط الذي لا يتعلق به حكم»[3] ويكون هذا من باب ما يسمى عند البلاغيين بأسلوب الاستخدام، وما يسمى عند الأصوليين استخدام المشترك في معنييه، ويكون هذا من الإعجاز القرآني؛ إذ يشمل اللفظ القليل المعاني الكثيرة.

وقد ذهب الشيخ أبو زهرة رحمه الله لأبعد من هذا، فقال: «وأرى أن كل صور أيمان اللغو الواردة عن الصحابة تدخل في معنى يمين اللغو التي كان من فضل الله على عباده ورحمته بهم أن رفع عنهم إثمها، ولم يجعلها موضع مؤاخذة ولا اعتداد، فلا إثم ولا كفارة فيها»[4].

وأما حكم هذه اليمين فقد وضحت آيتا سورة البقر وسورة المائدة أنها لا مؤاخذة فيها.

ثانيًا: اليمين المنعقدة:

اليمين المنعقدة: هي على المستقبل التي يصح فيها الحنث والبر[5].

وعرفها ابن العربي بأنها: «ربط القول بالقصد القائم بالقلب، يعزم بقلبه أولًا متواصلًا منتظمًا، ثم يخبر عما انعقد من ذلك بلسانه»[6].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب، الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ٣/ ٢٠١، رقم ٢٠٤٥، الحاكم في المستدرك، كتاب الطلاق، ٢/ ٢١٦ رقم ٢٨٠١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٢) البحر المحيط ٢/ ١٩٠.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٧٠٥.

(٤) زهرة التفاسير ٢/ ٧٤٦.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٩١.

(٦) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢١٢.

ثم إن الأيمان المنعقدة -في نفسها- تنقسم إلى أقسام، فالأيمان المنعقدة التي تتكرر كأن تقول: أقسم بالله العظيم. أقسم بالله العظيم. أقسم بالله العظيم؛ أقوى من قولك: أقسم بالله -مرة واحدة-.

والأيمان التي تنشأ ابتداءً أقل رتبة في العظم من الأيمان المصبورة التي يحبس عليها صاحبها، والأيمان المصبورة التي حبس عليها صاحبها أيضًا تتفاوت في العظم، فمثلًا: إذا حبس شخص بعد الصلاة كما قال الله سبحانه: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

أي: صلاة العصر، فإذا حبس في مسجد ما ليس ذلك كمن يحبس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقواها رجل حبس على يمين بعد صلاة العصر عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذه أعظم من اليمين الأخرى، وإن كانت كلها أيمانًا منعقدة[(١)].

واليمين المنعقدة لا تكون إلا باسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته، فلو حلف بغير الله تعالى لا تعد يمينًا منعقدة، وقد ذكروا لانعقاد اليمين شروطًا:

١. أن يكون الحالف بالغًا عاقلًا؛ فلا تنعقد يمين الصبي والمجنون؛ لرفع المؤاخذة عنهما.

٢. ألا تكون اليمين لغوًا.

٣. أن يكون الحلف بذات الله تعالى مثل: أقسم بالله، أو بأحد أسمائه تعالى، مثل: أقسم بالرحمن أو برب العالمين، أو بصفة من صفاته تعالى مثل: أقسم بعزة الله، أو بعلمه أو بإرادته أو بقدرته[(٢)].

ثم إن لليمين المنعقدة أنواعًا:

النوع الأول: اليمين على ما هو متصور الوجود عادة، إذا كان المحلوف عليه أمرًا يتصور حدوثه بحسب العادة والإمكان، كأن يقول: (والله لآكلن هذا الرغيف).

النوع الثاني: اليمين على ما هو مستحيل غير متصور الوجود أصلًا، وهو المستحيل عقلًا مثل قول الشخص: (والله لأشربن الماء الذي في هذا الكوب) وليس في الكوب ماء.

النوع الثالث: اليمين على ما هو مستحيل عادة، وذلك إذا كان الأمر المحلوف عليه متصور الوجود في نفسه، ولكنه مستحيل بحسب العادة كالصعود في السماء، و الطيران في الهواء[(٣)].

واليمين المنعقدة يجب فيها الكفارة؛

(١) انظر: سلسلة التفسير، مصطفى العدوي ٥٠/ ٤.

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٤/ ١٨.

(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ١.

لنص الآية الصريح على ذلك: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وسيأتي تفصيل الحكم فيها -إن شاء الله-.

ثالثًا: اليمين الغموس:

اليمين الغموس: الحلف على فعلٍ أو تركِ ماضٍ كاذبًا، سميت به؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم[1].

قال الزمخشري: «اليمين الغموس تدع الديار بلاقع. هي اليمين الكاذبة تغمس في المآثم، وتقول العرب للأمر الشديد الغامس في الشدة والبلاء: غموس»[2].

وفي تسميتها بالغموس زيادة في تقبيحها، فكأنها سبب في إحاطة صاحبها بالذنوب وغمره بها، فكأنه انغمس فيها، إذ الغمس «إرساب الشيء في الشيء الندي في ماءٍ أو صبغٍ حتى اللقمة في الخل»[3].

واليمين الغموس وتسمى المصبورة؛ لأن صبرها مغالبة وقوة عليها، كما يصبر الحيوان للقتل والرمي[4].

واليمين الغموس عادة من عادات المنافقين، ذمهم الله تعالى عليها في كتابه، وتوعدهم عليها، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٤-١٨].

فهؤلاء المنافقون دأبهم الحلف الكاذب، وهذا هو اليمين الغموس، فهيأ الله لهم عذابًا شديدًا مؤلمًا، وكانوا يحلفون هذه الأيمان؛ ليتستروا بها، وليصدوا عن منهج الله تعالى، فكان مصيرهم عذاب مذل لهم، ولن ينفعهم كثرة الأموال والأولاد، وهم أصحاب النار الملازمون لها يوم القيامة حين يبعثهم الله ويخبرهم، فيحاولون أن يحلفوا أيمانًا كاذبة ظانين أن أيمانهم ستروج يوم القيامة كما كانت تروج في الدنيا، ولكن هيهات هيهات.

وقد كثرت الأحاديث الصحيحة، وكذلك الآثار التي تدل على أنها من الكبائر،

(١) أنيس الفقهاء، القونوي ص ١٧٢.
(٢) الفائق ٣/ ٧٦
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٧٢.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٩١.

فمن ذلك عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس)[(١)].

وورد تفسيرها في حديث آخر فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (جاء أعرابيٌّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: (الإشراك بالله) قال: ثم ماذا؟ قال: (ثم عقوق الوالدين) قال: ثم ماذا؟ قال: (اليمين الغموس) قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: (الذي يقتطع مال امرئٍ مسلمٍ هو فيها كاذبٌ)[(٢)].

وقد ورد في الوعيد عليها قوله صلى الله عليه وسلم: (من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان)[(٣)].

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، والذي نفسي بيده لا يحلف الرجل على مثل جناح بعوضة إلا كانت كية في قلبه يوم القيامة)[(٤)].

ومن الآثار في ذلك ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه: «كنا نعد من الذنب الذي لا كفارة له اليمين الغموس. فقيل: ما اليمين الغموس؟ قال: اقتطاع الرجل مال أخيه باليمين الكاذبة»[(٥)].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «كنا نعد اليمين الغموس من الكبائر»[(٦)].

وقد فسر الشعبي رضي الله عنه الحنث العظيم في قوله: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦].

بأنه اليمين الغموس[(٧)]. ومعنى الآية: أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون وكذبوا في ذلك[(٨)]. فعلى هذا تكون هذه اليمين سببًا لجعل صاحبها من أصحاب الشمال، ومن ذهب من العلماء إلى أنها لا تكفر -كما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس، ٦/ ٢٤٥٧، رقم ٦٢٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة، ٦/ ٢٥٣٥، رقم ٦٥٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، ١/ ١٢٢، رقم ٢٢٠.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الحظر والإباحة، ١٢/ ٣٧٤، رقم ٥٥٦٣.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الأيمان والنذور، ٤/ ٣٢٩، رقم ٧٨٠٩، والبيهقي في السنن الكبرى، ١٠/ ٣٨ رقم ١٩٦٦٨.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه فقد اتفقا على سند قول الصحابي. ولم يتعقبه الذهبي.

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٨/ ١٢٥، رقم ٢٥٦.

(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٤٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٥.

(٨) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٨.

سيأتي- ليس للتخفيف على صاحبها، بل؛ لأنها «أعظم من أن تكفر»[1].

وإنما كانت اليمين الغموس بهذه الدرجة؛ لأن صاحبها امتهن من حلف به؛ إذ الحلف يكون في أمر جد، أما هذا فجعل الهزل موطن الجد، فكأنه احتقر من حلف به، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اليمين يكون الغرض منها تأكيد الكلام وتوثيقه، مما يجعل المخاطب يصدق ما يقال له، ويذعن لخصمه في الوقت الذي هو كاذب محتال، فتضيع الحقوق، وتميع الحقائق، ويختلط الحق بالباطل، وهذه اليمين عادة المنافقين، وديدن الفاسقين، وعادة المستهترين، فما أجرأهم على اسم الله تعالى، حتى رأينا منهم في زماننا هذا من يقفون على أبواب المحاكم يشهدون زورًا، ويحلفون فجورًا، يتربحون بذلك، فيشترون الدنيا بالآخرة، يغدون في صباحهم على الحنث عازمين، وعلى الكذب مجترئين، ويروحون فرحين مسرورين، ولا يشعرون أنهم باؤوا بغضب عظيم، وسخط جسيم، لا يبالون بأن يقتل إنسان بسبب يمينهم، أو يسجن آخر جراء إجرامهم؛ لذلك كان رأي الجمهور أنها أعظم من أن تكفر بكفارة ضئيلة، ودراهم قليلة، بل أمرها إلى الله، فإذا أراد التوبة لا بد وأن يحسن توبته، ويظل يعيش بين خوف ورجاء، تؤرقه يمينه، وتنغص عليه حياته، فهي يمين مكر وخديعة، لا يرضى بها ذو مروءة، حسبنا الله ونعم الوكيل.

ورغم اتفاق العلماء على حرمة هذه اليمين، إلا أنهم اختلفوا فيها، هل لها كفارة أم لا، وسوف يأتي تفصيل القول في ذلك في موضعه إن شاء الله.

(١) تفسير ابن عرفة ٢/ ٥٢٣.

صيغ القسم

صيغ القسم نوعان:

- صريح.
- وكناية.

«فالصريح يكون مع الإتيان بلفظ الحلف، كقوله: أحلف بالله لأفعلن كذا، وأقسم بالله لأفعلن كذا، ومع الإتيان بحرف من حروف القسم، وهي الواو، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وبالتاء المثناة، كما في قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

إلى غير ذلك من الأدوات القسم -التي سيأتي ذكرها-، فإذا أتى باليمين بصيغة من هذه الصيغ انعقدت يمينه، نوى اليمين أو لم ينو.

والكناية كقوله: بالله -بحرف القسم- وتالله، ولعمر الله، وايم الله، وأشهد بالله، وأعزم بالله. فإذا أتى بصيغة من هذه الصيغ ونوى اليمين انعقدت، وإلا فلا.

وفي معنى ذلك تعليق التزام فعل أو تركه، بشرط أن يكون ذلك قربة، كقوله: إن فعلت كذا فعلي نذر كذا، أو يكون كفارة يمين، مثل أن يقول: إن فعلت كذا فعلي كفارة يمين[1].

والقسم إما ظاهر، وإما مضمر:

فالظاهر: هو ما صرح فيه بفعل القسم، وصرح فيه بالمقسم به، ومنه ما حذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاء بالجار من الباء أو الواو أو التاء.

والمضمر: هو ما لم يصرح فيه بفعل القسم، ولا بالمقسم به، وإنما تدل عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

أي: والله لتبلون[2].

والمضمر قسمان:

- قسم دلت عليه لام القسم، كقوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].
- وقسم دل عليه المعنى، كقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. تقديره: والله[3].

وبما أن معرفة التقسيمين السابقين يترتب على معرفة أشياء منها أدوات القسم، فلا بد من معرفة هذه الأدوات:

قال ابن سيده رحمه الله: «وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر فأكثرها

(١) صبح الأعشى، القلقشندي ١٣/ ٢٠٩.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، القطان ص ٣٠٤.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٤٣، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٥٥.

الواو ثم التاء وتدخل فيه اللام وأصل هذه الحروف الباء، والباء صلة للفعل المقدر أحلف أو أقسم أو ما جرى مجرى ذلك، فإذا قال: بالله لأضربن زيدًا، فكأنه قال أحلف بالله»[1].

وكانت الباء أصل هذه الأدوات «لأنها للإلصاق، فهي تلصق فعل القسم بالمقسم به»[2].

وجعلوا الواو بدلًا من الباء، وخصوا بها القسم؛ لأنها من مخرج الباء، واستعملوا الواو أكثر من استعمالهم الباء؛ لأن الباء تدخل في صلة الأفعال في القسم وغيرها، فاختاروا الواو في الاستعمال؛ لانفرادها بالقسم، وقد تدخل الباء في ثلاثة مواضع من القسم لا تدخلها الواو ولا غيرها:

أحدها: أن تضمر المقسم به كقولك إذا أضمرت اسم الله: (بك لاجتهدن يا رب)، وإذا ذكر اسم الله فأردت أن تكني عنه قلت: به لألزمن المسجد، كما نقول: بالله لألزمن المسجد.

والموضع الثاني: أن تحلف على إنسان كقولك إذا حملت عليه: بالله إلا زرتني، وبالله لما زرتني، ولا تدخل الواو ههنا[3].

والواو لا يظهر معها فعل القسم، بل يضمر وجوبًا، نحو: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢]. كما لا يظهر مع التاء واللام[4].

وأما الباء فلا يحذف معها الفعل إلا قليلًا، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢].

وقد ذكر الزركشي رحمه الله أن من هذا القليل قوله: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

على قول من ذهب إلى أن الباء للقسم، وليست متعلقة بـ ﴿تُشْرِكْ﴾ وكأنه قال: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿بِٱللَّهِ﴾ لا تشرك، وحذف شبه الجملة المتعلقة بـ﴿لَا تُشْرِكْ﴾؛ لدلالة الكلام عليه[5].

وقد ذكر ابن عاشور رحمه الله أن «القسم بالتاء يختص بما يكون المقسم عليه أمرًا عجيبًا ومستغربًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧]، فالإتيان في القسم هنا بحرف التاء مؤذن بأنهم يسألون سؤالًا عجيبًا بمقدار غرابة الجرم المسئول عنه»[6].

ومن أدوات القسم أيضًا: ايم وايمن، ولن نفصل فيهما؛ لأنهما لم يذكرا في القرآن الكريم.

وهناك ألفاظ جارية مجرى القسم، قال أبو علي الفارسي: الألفاظ التي جرت في

(١) المخصص ٤/ ٧١.
(٢) همع الهوامع، السيوطي ٢/ ٤٧٧.
(٣) المخصص، ابن سيده ٤/ ٧١.
(٤) انظر: همع الهوامع، السيوطي ٢/ ١٧٩.
(٥) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٤٣.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ١٣/ ١٤٦.

كلامهم مجرى القسم، حتى أجيبت بجوابه تستعمل على ضربين:

أحدهما: أن يكون كسائر الأخبار التي ليست بقسم، فلا يجاب كما لا يجاب.

والآخر: أن يجري مجرى القسم فيجاب كما يجاب القسم. فمما لم يجب بأجوبة القسم قوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

ومنه قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

فما جاء بعد من ذلك فيه ذكر الأول مما يجوز أن يكون حالًا احتمل ضربين: أحدهما: أن يكون حالًا، والآخر- أن يكون قسمًا، وإنما جاز أن تحمله على الحال دون جواب القسم؛ لأنه قد جاز أن يكون معرى من الجواب، وإذا جعلت ما يجوز أن يكون حالًا، فقد عريتها من الجواب. فمما يجوز أن يكون حالًا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا﴾ [البقرة: ٦٣].

فقوله: ﴿وَرَفَعْنَا﴾ يجوز أن يكون حالًا وتريد فيه (قد). وإن شئت لم تقدر فيه الحال[1].

ومن القسم الظاهر قوله تعالى:

- ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].
- ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].
- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣].

إلى غير ذلك، فهذا صرح فيه بلفظ القسم أو الحلف، وذكر المقسم به، وأداة القسم.

أما ما حذف فيه فعل القسم -كما هو الغالب- اكتفاء بالجار من الباء أو الواو أو

(١) الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي ٢/ ١٢١.

التاء، فهو أكثر من أن يحصى، ومنه:

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠].
- ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣].
- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٧٣].
- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].
- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].
- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨].
- ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].
- ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١-٣].
- ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ١-٤].
- ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٦].
- ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].
- ﴿حٰمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٢-٣].
- ﴿حٰمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٢-٣].
- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤].
- ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].
- ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ١-٥].
- ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢].
- ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧].
- ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١-٢].
- ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [المرسلات: ١-٧].
- ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١- ١٠].

- ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣].

وأما القسم المضمر فهو كثير جدًا ويصعب حصره لأمرين: الأول: أنه من الكثرة بمكان بحيث يجعل حصره شاقًا. والثاني: أن هناك مواطن كثيرة فيها اختلاف هل هي قسم أو غير قسم، ولكن عند التأمل نجد أن من المواطن المتفق عليها المواطن التي ذكر فيها (لقد) و (لئن) وهي من أكثر المواطن ورودًا في القرآن الكريم، ومن ذلك:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].
- ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ [آل عمران: ١٤٣].
- ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].
- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف: ١٠].
- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].
- ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].
- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].
- ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١].
- ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].
- ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١٢].
- ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].
- ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥].

ومن هذه الصيغ (لعمرك): ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

فكلمة ﴿لَعَمْرُكَ﴾ صيغة قسم، واللام الداخلة على لفظ: (عمر) لام القسم. و«العمر بفتح العين وسكون اللام أصله: لغة في العمر -بضم العين-، فخص المفتوح بصيغة القسم؛ لخفته بالفتح؛ لأن القسم كثير الدوران في الكلام. فهو قسم بحياة المخاطب به. وهو في الاستعمال إذا دخلت عليه لام القسم رفعوه على الابتداء محذوف الخبر وجوبًا. والتقدير: لعمرك قسمي»[1].

وذكر الطاهر رحمه الله أن من صيغ

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٥٤.

القسم: (أشهد الله) فقال: «لفظ (أشهد الله) من صيغ القسم، إلا أنه إن لم يكن معه معنى الإشهاد يكون مجازًا مرسلًا، وإن كان معه معنى الإشهاد -كما هنا- يقصد آية النور ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٨].

فهو كناية عن القسم مراد منه معنى إشهاد الله عليهم، وبذلك يظهر موقع قوله: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: أشهده عليكم. وقريب منه ما حكاه الله عن هود: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ [هود: ٥٤]»[(١)]

دخول حرف النفي على القسم:

وهو من صيغ القسم الواردة في القرآن، وقد ذكرت في القرآن تسع مرات:

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥].
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨].
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].
- ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢].
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥].
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦].
- ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١].

(١) المصدر السابق ٦/ ٤٦.

وقد اختلف العلماء فيها، هل هي قسم أم نفي للقسم، على قولين:

الأول: أنها نفي للقسم. والمعنى: لا أقسم؛ إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم[(٢)] واعترض على هذا القول بأنه «يأباه تعيين المقسم به وتفخيم شأن القسم به»[(٣)].

الثاني: أنها قسم، واختلف في توجيهها، فقيل: إن (لا) زائدة، وقيل: على بابها ونفى بها كلامًا تقدم منهم، كأنه قال: ليس الأمر كما قلتم من إنكار القيامة فـ ﴿أُقْسِمُ﴾ جواب لما حكي من جحدهم (البعث)؛ لأن القرآن يجري مجرى السورة الواحدة. قال الزركشي: وهذا أولى من دعوى الزيادة؛ لأنها تقتضي الإلغاء وكونها صدر الكلام يقتضي الاعتناء بها وهما متنافيان[(٤)].

قال الطاهر رحمه الله: «﴿لَا أُقْسِمُ﴾ صيغة تحقيق قسم، وأصلها أنها امتناع من القسم امتناع تحرج من أن يحلف بالمقسم به خشية الحنث، فشاع استعمال ذلك في كل قسم يراد تحقيقه، واعتبر حرف (لا) في هذا القسم إبطالًا لكلام سابق وأن فعل: ﴿أُقْسِمُ﴾ بعدها مستأنف»[(٥)].

وذهب بعضهم إلى أنها نفي لما بعد

(٢) أنوار التنزيل، البغوي ٥/ ٢٩٢.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٩٩.
(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٤/ ٣٥٩.
(٥) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٣٠.

القسم، أتى بالنافي قبل القسم للإشعار ابتداء بأن جوابه منفي. ولكن هذا القول فيه تكلف، ورده ابن هشام رحمه الله في المغني، فقال: «ورد بقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ الآيات، فإن جوابه مثبت، وهو: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ ومثله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[1].

وقيل: «هي مؤكدة تعطي في القسم مبالغةً ما، وهي كاستفتاح كلام شبهه في القسم، إلا في شائع الكلام القسم وغيره»[2].

وهذا القول يؤول إلى القول بزيادتها، وهو ضعيف؛ إذ القول بالزيادة فيه اختلاف كبير، والراجح: أنه لا يوجد في القرآن شيء يصح أن يسمى زائدًا، ثم إنه من القواعد المعمول بها عند العلماء أن التأسيس خير من التأكيد.

وقيل: «إنها لام أشبعت فتحتها، فتولدت منها ألف فالمعنى: فلأقسم، ويؤيده قراءة الحسن وعيسى -رحمهما الله-: فلأقسم ورجحه أبو حيان»[3].

قلت: وما ذهب إليه الزركشي رحمه الله أولى؛ لأنه في سورة الواقعة قال بعده: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦].

(١) مغني اللبيب ص ٣٢٩.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٥٠.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢١٢.

أركان القسم

للقسم أركان أربعة: مقسم، ومقسم به، ومقسم عليه، وأداة القسم، وسوف نتناول كل ركن منها بالدراسة المفصلة فيما يأتي:

أولًا: المقسم:

بالنظر في القرآن الكريم نجد أن الأقسام المذكورة إما أن تكون صادرة من الله تعالى أو صادرة من غيره، والأقسام الصادرة عن غيره تعالى إما أن تكون صادرة من رسول من رسل الله عليهم السلام، وإما أن تكون صادرة من المؤمنين، وإما أن تكون صادرة عن الشهود، أو المتلاعنين، وإما أن تكون صادرة عن غير المؤمنين كالمشركين، والمنافقين، وإبليس.

ومعظم أقسام القرآن صادرة من الله عز وجل ومن المقرر أن لله تعالى أن يقسم بما شاء على ما شاء، فأقسم بذاته المعظمة فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

وقال: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨].

وقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

وأقسم سبحانه بحياة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وهناك قسم صادر من الرسل عليهم السلام، وهو إما أن يكون قسمًا صادرًا منهم ابتداءً أو يكونوا أمروا من الله تعالى بالقسم، فمن الأول قسم آدم عليه السلام وزوجه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

وقسمه لهم أيضًا: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وقسمه عندما غاب القمر: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

وقول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقول موسى لفتاه: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

وقوله للخضر: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١].

وقوله له: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

وقسم داود عليه السلام لأحد الخصمين في القضية المشهورة: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ [ص: ٢٤].

ومن الثاني:

- ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].
- ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

ومن قسم المؤمنين قسم ابن آدم لأخيه: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

وقسم إخوة يوسف عليه السلام:

- ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤].
- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣].
- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].
- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١].
- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥].

وقسم بني إسرائيل: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

وقسم الذي دخل الجنة ودخل صاحبه النار: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٦].

وقسم أصحاب الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

وقسم المؤمنين في الآخرة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

ومن قسم الكفار قولهم وهم في النار: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

وقولهم عند الحساب -كما حكى القرآن الكريم-:

- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢- ٢٣].
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].
- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

وقسم الظالم: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٩].

ومن قسمهم في الدنيا:

- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ

﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣].
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].
- ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٢- ٨٣].
- ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨].

وقسمهم عند الشدائد على أنهم سيشكرون الله عندما ينجيهم: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

وقسم قوم إبراهيم عليه السلام له: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

وقسم أبيه له ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

وقسم قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

وقسم قوم لوط عليه السلام له: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

وقسم امرأة العزيز: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

وقسم قوم فرعون لموسى: عليه السلام ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وقسم فرعون لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقسم السحرة: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

وقسم اليهود للسيدة مريم عليها السلام: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧].

ومن قسمهم قسم الرهط التسعة من قوم صالح: عليه السلام ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل:

٤٩].

وقسم صاحب الجنتين: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

ومن قسم الشهود قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦-١٠٧].

ومن قسم الشهود كذلك قسم المتلاعنين، إذ أقيمت أيمانهم مكان الشهادة: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦-٩].

ومن قسم المنافقين ما حكاه الله تعالى عنهم عندما تحل بهم مصيبة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

وقسمهم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

وقسمهم عند تخلفهم عن غزوة تبوك: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥].

وحلفهم الذي ذكره المولى سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

وقسمهم ليهود المدينة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١٢].

وحلفهم طلبًا لإرضاء المؤمنين: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا

مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾[التوبة: ٧٤].

وقسم الشيطان، فقد أقسم على إغواء بني آدم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

وحلفهم في غزوة بني المصطلق: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقين: ٨].

ثانيًا: المقسم به:

وأما الركن الثاني من أركان القسم فهو المقسم به، وهو الذي تدخل عليه أداة القسم، وهو المعظم الذي نحلف به؛ لتوكيد الكلام، قد ورد النهي عن الحلف بغير الله في قوله صلى الله عليه وسلم: (من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)[1].

وقوله: (ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)[2].

قال العلماء: «السر في النهي عن الحلف بغير الله، أن الحلف بشيءٍ يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده، وظاهر الحديث، تخصيص الحلف بالله خاصةً، لكن قد اتفق الفقهاء: على أن اليمين تنعقد بالله وذاته وصفاته العلية. واختلفوا في انعقادها ببعض الصفات، وكان المراد بقوله: بالله الذات لا خصوص لفظ الله، وأما اليمين بغير ذلك فقد ثبت المنع فيها، وهل المنع للتحريم، قولان عند المالكية، كذا قال ابن دقيق العيد، والمشهور عندهم الكراهة، والخلاف أيضًا عند الحنابلة، لكن المشهور عندهم التحريم، وبه جزم الظاهرية وجمهور أصحابه على أنه للتنزيه»[3].

وهذا النهي خاص بالبشر، وأما الله تعالى فله أن يقسم بما شاء على ما يشاء، لذلك نجده سبحانه أقسم بما يلي:

أقسم بذاته العلية.

أقسم بصفاته وأقسم بالقرآن الكريم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف؟: ٢/ ٩٥١، رقم ٢٥٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم ١٦٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، ٦/ ٢٤٤٩، رقم ٦٢٧٠.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٥٣١.

أقسم بمخلوقاته.

فأقسم بحياة نبينا صلى الله عليه وسلم وأقسم بالشمس والقمر والنجم والسماء والأرض والملائكة والنفس وبيوم القيامة، وبالقارعة، وبالرياح، ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١].

وبالبحر وبالقلم وبالحاقة، وبالخيل، وأقسم بالأمكنة (بالبيت المعمور، وطور سيناء، ومكة) وأقسم بالأزمنة (بالليل والنهار، وبالفجر والليالي العشر، والشفع والوتر، والضحى والعصر).

وقد اختلف العلماء في القسم بهذه الأشياء، فقيل: أقسم بها؛ للتنبيه على عظمها وعظمة خالقها، وقيل: على تقدير حذف مضاف، كأنه قال: أقسم برب هذه الأشياء، فإذا قال ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فيقدر: ورب النجم، وإذا قال ﴿وَالطُّورِ﴾ يقدر: ورب الطور، وإذا قال: ﴿وَالشَّمْسِ﴾ يقدر: ورب الشمس.

فيتفرع ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المقسم به خالق هذه الأشياء؛ لنهيه صلى الله عليه وسلم عن الحلف بغير الله تعالى؛ ولأن الحلف في مثل هذا الموضع تعظيم للمحلوف به، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله تعالى، ففي ذلك إضمارٌ تقديره: ورب الصافات ورب الزاجرات ورب التاليات، ومما يؤيد هذا أنه تعالى صرح به في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٥: ٧].

الثاني: «-وعليه الأكثرون- أن المقسم به هذه الأشياء، لظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل، وأما النهي عن الحلف بغير الله تعالى فهو نهي للمخلوق عن ذلك، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ فإنه علق لفظ القسم بالسماء، ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء، ولو كان المراد بالقسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد، وهو لا يجوز، و أيضًا لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم الله تعالى بهذه الأشياء، التنبيه على شرف ذواتها»[1].

الثالث: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفونه[2].

والراجح: القول الثاني، وهو مع ذلك ليس يبعد عن الأول؛ إذ إن الله سبحانه وتعالى كما يقول ابن القيم: «يقسم بأمور على أمور، وإنما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته، فالقسم إما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣].

(١) السراج المنير ٣/ ٤٤٨.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٥٤.

وإما على جملة طلبية كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه، فيكون من باب الخبر، وقد يراد به تحقيق القسم، فالمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه، وذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها، فأما الأمور المشهورة الظاهرة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها، وما أقسم عليه الرب فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسمًا به ولا ينعكس[(١)].

وعلى أية حال فـ «المقصود من القسم التنبيه على جلالة المقسم به»[(٢)].

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «وما به سبحانه من حاجة إلى القسم، ولكن هذا القسم منه -جل جلاله- بالقرآن وحروفه، يخلع على المقسم به عظمة وجلالًا، فما يقسم الله سبحانه إلا بأمر عظيم، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين»[(٣)].

وأما بالنسبة لإبليس فقد أقسم بعزة الله، قد أقسم على إغواء بني آدم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

وأقسم بإغواء الله تعالى إياه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

فقد قال بعض العلماء: «هذا قسمٌ من إبليس بإغواء الله له على أنه يغوي بني آدم إلا عباد الله المخلصين»[(٤)] «وإقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لا ينافي إقسامه بهذا، فإنه فرعٌ من فروعها وأثرٌ من آثارها، فلعله أقسم بهما جميعًا فحكي تارة قسمه بهذا وأخرى بذاك»[(٥)].

والفرق بينهما أن العزة صفة ذات والإغواء صفة فعل، «والفقهاء قالوا: القسم بصفات الذات صحيح، أما بصفات الأفعال فقد اختلفوا فيه»[(٦)].

وعلى أية حال فلا إشكال في الآية؛ وذلك لأن هذا القسم صادر من إبليس وليس فعله تشريعًا، ثم إن بعض العلماء ذهب إلى أن الباء للسببية، والمعنى: بسبب إغوائك إياي.

ثم إن الكفار مع أنهم لا يلتزمون بمنهج إلا أن ما حكاه المولى عز وجل عنهم إما قسم بالله تعالى وإما قسم حذف المقسم به إلا ما حكاه عن سحرة فرعون

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن، ابن قيم الجوزية ص٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٢٣٣.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٥٨.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٧٦.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٨.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٤٧.

من حلفهم بعزة اللعين فرعون: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

العطف على المقسم به:

تكرر في القرآن الكريم العطف على المقسم به، قال أبو حيان رحمه الله: «والذي يظهر أن ما عطف بالفاء هو من وصف المقسم به قبل الفاء، وأن المعطوف بالواو وهو مغاير لما قبله، على أنه يحتمل أن يكون المعطوف بالواو ومن عطف الصفات بعضها على بعض»[(١)].

وبناءً على ذلك فإن العلماء قالوا: إنه قسم واحد بأشياء متعددة، أو بشيء واحد ذي صفات متعددة، نص المفسرون على ذلك، قال ابن عاشور عند تفسير سورة الصافات: «والمقسم به نوع واحد مختلف الأصناف، وهو طوائف من الملائكة كما يقتضيه قوله: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾»[(٢)].

وذهب بعضهم مذهبًا آخر وهو أنه «إذا كان المدلول متغايرًا، فتكون أقسامًا متعاقبة. وإذا كان غير متغاير، فهو قسم واحد، وهو من عطف الصفات»[(٣)].

ولعله يقصد بكونها أقسامًا متعاقبة كون كل واحد منها مقسمًا به، ولا يقصد أن لكل واحد منها جوابًا.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٣٣.

ثالثًا: المقسم عليه:

المقسم عليه هو جملة جواب القسم، وقد يحذف هذا الجواب إما للعلم به، وهذا قليل؛ نظرًا لأن المقصود الرئيس من القسم هو توكيد المقسم عليه، والذي يسوغ حذفه كون المقسم به والمقسم عليه شيئا واحدا ومنه قوله تعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

«وهو هذا القرآن، الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم ضرورة العباد إليه، فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقيه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه»[(٤)].

ثم إننا بالنظر نجد أن الموضوعات المقسم عليها في القرآن موضوعات كثيرة أهمها:

أصول الإيمان من التوحيد، كما في قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ١ - ٥].

فقد أقسم بالملائكة حين تصف نفسها، وحين تزجر الريح وحين تتلوا القرآن على أن إله هذا الكون إله واحد.

والرسالة وما يتعلق بها، فأقسم على نفي الجنون عن نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله:

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠٩.

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١ - ٢].

وذلك لمقابلة تأكيدات الكفار الكثيرة على أن الرسول مجنون، ومن ذلك قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وأقسم على أنه أرسل رسلًا كثيرين، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وأقسم على بعثة رسل بأعيانهم، فقال:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥].
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٩٦].
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥].
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

البعث واليوم الآخر وما يتعلق به، فأقسم على أنه سبحانه سيسأل جميع الناس، فقال سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ١ - ٦].

فأقسم بالرياح التي تذرو التراب، وتحمل السحاب، وبالسفن التي تجري في البحار بسهولة ويسر، وبالملائكة على أن ما وعدوا به من البعث والحساب واقع لا محالة. وقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

فأقسم أن الجميع سيسأل عن أعماله؛ ليجازى عليها. ثم أقسم في آية أخرى على نزول العذاب بالكافرين لا محالة في الآخرة: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ١ - ٨].

فأقسم بجبل الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وباللوح المحفوظ وبالبيت المعمور الذي هو في السماء السابعة حيال الكعبة، وبالسماء التي هي كالسقف فوقنا وبالبحر المملوء على أن عذابه واقع لا محالة، لا يدفعه دافع ولا يمنعه ممانع.

وقريب من هذا القسم أول سورة المرسلات والنازعات.

والكتب الإلهية من القرآن الكريم، كما في قوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١: ٣].

فقد أقسم بالكتاب المبين، وهو القرآن الكريم على أن القرآن نزل عربيًا؛ ليتعقله العرب الذين نزل عليهم «وفي جعل المقسم به -القرآن- بوصف كونه مبينًا، وجعل جواب القسم أن الله جعله مبينًا، تنويه خاص بالقرآن؛ إذ جعل المقسم به هو المقسم عليه، وهذا ضرب عزيز بديع؛ لأنه يومئ إلى أن المقسم على شأنه بلغ غاية الشرف، فإذا أراد المقسم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به؛ للتناسب بين القسم والمقسم عليه»[1].

وأقسم على أن القرآن وحي من عنده تعالى فقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١- ٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

وأقسم على إيتاء التوراة لموسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩].

وأقسم على أنه أعطى آل إبراهيم الكتاب، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وفي مجال الجهاد أقسم على نصرته للمؤمنين، ومن ذلك: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

وأقسم على أن المنافقين لا ينصرون أهل الكتاب ولو حاولوا ذلك لما استطاعوا: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٢- ١٣].

وأقسم على خلق الإنس والجن:

* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢١١.

* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].
* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].
* ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ١: ٥].

وأقسم على اختلاف عمل الناس: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١- ٤].

وأقسم على نفي الإيمان عن من لم يحكم رسوله صلى الله عليه وسلم أو حكمه ولم يرض بحكمه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وأقسم على كفران الإنسان لنعمة ربه وحبه للمال، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ١- ٨].

فأقسم بالخيل، أو بـ«رواحل الحجيج، فإن إثارة النقع يشعرون بها عند الوصول حين تقف الخيل والإبل دفعة، فتثير أرجلها نقعًا شديدًا فيما بينهما، وحينئذ تتوسطن الجمع من الناس»[1]. على أن الإنسان شديد الكفران لنعم ربه، وسوف يشهد على نفسه بذلك يوم القيامة، وما ذلك إلا لحبه الشديد للمال الكثير.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وهو سبحانه وتعالى يقسم على أصول الإيمان التي تجب على الخلق معرفتها، وتارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة يقسم على حال الإنسان»[2].

«والقسم إما على جملة خبرية -وهو الغالب- كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣].

وإما على جملة طلبية في المعنى كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣]؛ لأن المراد التهديد والوعيد»[3].

اتحاد المقسم به وجواب القسم:

«وفي جعل المقسم به القرآن بوصف كونه مبينًا، وجعل جواب القسم أن الله جعله مبينًا، تنويه خاص بالقرآن إذ جعل المقسم به هو المقسم عليه، وهذا ضرب عزيز بديع؛ لأنه يومىء إلى أن المقسم على شأنه بلغ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٤٢.
(٢) التبيان في أقسام القرآن، ص ٦.
(٣) مباحث في علوم القرآن، القطان ص ٣٠٦.

غاية الشرف فإذا أراد المقسم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به؛ للتناسب بين القسم والمقسم عليه»[1].

أغراض القسم في القرآن

القسم من أقوى مؤكدات الجملة، وذلك أن الخبر -كما يقول البلاغيون- ينقسم باعتبار حال المخاطب إلى ابتدائي؛ يساق مجردًا عن المؤكدات لخالي الذهن، وطلبي؛ يؤكد بمؤكد واحد يساق للمتردد، وإنكاري؛ يؤكد بأكثر من مؤكد، يساق للمنكر، وتكثر المؤكدات حسب درجة الإنكار، والقسم من أقوى ما يؤكد به الكلام[2].

إذًا فالغرض الرئيس للقسم هو توكيد الخبر وتحقيقه، حتى يكون أوقع في النفس، وأقرب للقبول، وأبعد عن الشك، وهناك أغراض متفرعة عن هذا الغرض الرئيس، منها:

١. تأكيد الخبر وتقريره، وذلك أن المقسم عليه كثيرًا ما يكون من الأمور الخفية الغائبة، فيقسم عليها لإثباتها، مثل إثبات الألوهية وإثبات البعث والحساب، فيأتي القسم؛ ليزيل ما عسى أن يعتري النفوس من شكوك، ويزيل الشبهات، ويقيم الحجة، ويقرر الحكم في أكمل صورة.

٢. بيان شرف المقسم به، وعلو قدره؛ حتى يعرف الناس مكانته عند الله ورفعة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢١١.

(٢) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني ٢/ ٢١٤.

منزلته لديه، كالقسم بحياة نبينا صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «ما خلق الله نفسًا أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾»[(١)]. قال ابن العربي رحمه الله: «وهذا كلامٌ صحيحٌ، ولا أدري ما الذي أخرجهم عن ذكر لوطٍ إلى ذكر محمدٍ، وما الذي يمنع أن يقسم الله بحياة لوطٍ، ويبلغ به من التشريف ما شاء؛ فكل ما يعطي الله للوطٍ من فضلٍ ويؤتيه من شرفٍ فلمحمدٍ ضعفاه؛ لأنه أكرم على الله منه. أو لا تراه قد أعطى لإبراهيم الخلة، ولموسى التكليم، وأعطى ذلك لمحمدٍ، فإذا أقسم الله بحياة لوطٍ فحياة محمدٍ أرفع، ولا يخرج من كلامٍ إلى كلامٍ آخر غيره لم يجر له ذكرٌ لغير ضرورةٍ»[(٢)]. وكالقسم بالقرآن الكريم: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

٣. توجيه النظر إلى الآيات الكونية؛ للتوصل منها إلى خالقها، والتأمل فيها تأملًا يبين مبلغ نعمتها، وأنها غير جديرة بالعبادة، وإنما الجدير بالعبادة هو خالقها، و«لفتٌ إلى وجوب التأمل في تلك المخلوقات، يستلهم منها الدلالة على قدرة خالقها، والاستدلال على تغير الأزمان، وحركة الأفلاك، وإحداث السماء بالبناء؛ أنه لا بد لهذا العالم من صانعٍ، ولا بد للمحدث المتجدد من فناءٍ وعدمٍ»[(٣)]. ونقل السيوطي رحمه الله عن أبي القاسم القشيري رحمه الله قوله: «القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لفضيلة، أو لمنفعة. فالفضيلة، كقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٢-٣]. والمنفعة كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]»[(٤)].

٤. إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إذ العرب كانت تعتقد أن الأيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع، وأنها تضر صاحبها. وقد كان إكثار النبي صلى الله عليه وسلم من الحلف بأمر الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]. ومع قسمه صلى الله عليه وسلم لم يصب بسوء، بل ارتفع شأنه وعلا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١١٨، تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٧٥.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٥/ ١٤٦.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٤١.
(٤) الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٥٥.

ذكره، فكان دليلا على صدقه.

٥. إبراز المعقول في صورة المحسوس، وذلك أن الأمر المعقول إذا صور في شيء حسي، فإن العقل يستوعبه، أكثر ما لو كان مجردًا عن الحس، ومثله تشبيه الوحي بالضحى في رائعة النهار، وتشبيه الباطل بالليل، وانتصار الحق بالنهار، إشارة إلى أن الليل البهيم، لابد وأن يعقبه صبح مشرق بهيج، يبدد ظلامه وظلماته، وكذلك ظلام الشرك والجهل، لابد وأن يعقبه نور الحق واليقين.

٦. تصحيح العقائد الباطلة، فالقسم بالنجم إذا هوى، وبالكواكب، وبالشمس، والقمر، فيه رد على من اعتقد أنها آلهة، وأن لها تصرفًا في العالم السفلي.

٧. لفت الأنظار إلى أحداث بارزة، كان لها أكبر الأثر في تاريخ البشر، وذلك الغرض يظهر في القسم بالأمكنة مثل (الطور)، فالقسم به فيه إشارة إلى ما كان عند ذلك الجبل من الآيات التي ظهرت لموسى[1].

كفارة القسم

تقدم القول بأن اليمين ثلاثة أنواع:

١. لغو.

٢. منعقدة.

٣. غموس.

فاللغو لا كفارة فيها باتفاق، كما قال المولى سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وأما اليمين المنعقدة فيخرج من عهدتها بواحدٍ من ثلاثة أشياء:

«الأول: إبرارها بفعل ما حلف عليه.

الثاني: الكفارة، وهي جائزةٌ قبل الحنث وبعده على التحقيق.

الثالث: الاستثناء بنحو إن شاء الله»[2].

واليمين المنعقدة فيها الكفارة باتفاق؛ لنص الآية الكريمة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ

(١) انظر: أسلوب القسم، سامي طه ص ٢٦.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٢٣.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وهي بنص الآية الكريمة إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو عتق رقبة، فإن تعذر واحد من هذه الثلاثة انتقل إلى صيام ثلاثة أيام، فهي مخيرة ابتداءً مرتبة انتهاءً.

ولا خلاف في أن كفارة اليمين على التخيير، قال ابن العربي: «ذكر الله عز وجل في الكتاب الخلال الثلاث مخيرًا فيها، وعقب عند عدمها بالصيام فالخلة الأولى هي الإطعام، وبدأ بها؛ لأنها كانت الأفضل في بلاد الحجاز لغلبة الحاجة فيها على الخلق، وعدم شبعهم.

ولا خلاف في أن كفارة اليمين على التخيير؛ وإنما اختلفوا في الأفضل من خلالها، وعندي أنها تكون بحسب الحال؛ فإن علمت محتاجًا فالإطعام أفضل؛ لأنك إذا أعتقت لم ترفع حاجتهم وزدت محتاجًا حادي عشر إليهم، وكذلك الكسوة تليه، ولما علم الله غلبة الحاجة بدأ بالمهم المقدم»[(١)].

والحكمة من تقديم الإطعام على العتق مع أن العتق أفضل:

أولًا: أن المقصود منه التنبيه على أن هذه الكفارة وجبت على التخيير لا على الترتيب؛ لأنها لو وجبت على الترتيب لوجبت البداية بالأغلظ.

ثانيًا: قدم الإطعام؛ لأنه أسهل، ولكون الطعام أعم وجودًا، والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى يراعي التخفيف والتسهيل في التكاليف.

ثالثًا: أن الإطعام أفضل؛ لأن الحر الفقير قد لا يجد طعامًا، ولا يكون هناك من يعطيه الطعام، فيقع في الضر.

وأما العبد فيجب على مولاه إطعامه وكسوته[(٢)].

واختلف الفقهاء في مقدار الإطعام، وربما تفاوت بتفاوت الأزمنة والأمكنة والأشخاص، والمراعى في ذلك أن يطعم عشرة مساكين طعامًا كافيًا من متوسط ما يطعمه أهله، وذلك يختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر ومن شخص لآخر.

ويقال في الكسوة ما قيل في الإطعام.

والإطعام يكون لمن توافرت فيه أوصاف خمسة هي:

١. أن يكونوا مساكين، فلا يدفع إلى غيرهم؛ لأن الله تعالى أمر بإطعام المساكين، وخصهم بذلك.
٢. أن يكونوا أحرارًا، فلا يجزئ دفعه إلى عبد ومكاتب.
٣. أن يكونوا مسلمين، فلا يجوز عند الجمهور صرفه إلى كافر، ذميًا كان أو

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢٣٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٦٤.

حربيًا. وأجاز الحنفية دفعه إلى الذمي؛ لدخوله في اسم المساكين، فيدخل في عموم الآية.

٤. أن يكونوا قد أكلوا الطعام في رأي الحنابلة والمالكية، فلا يجوز دفعه لطفل لم يطعم. وأجاز الحنفية والشافعية دفعه إلى الصغير الذي لم يطعم، ويقبضه عنه وليه. ويجوز بالاتفاق للمكفر أن يعطي من أقاربه من يجوز أن يعطيه من زكاة ماله. وكل من يمنع الزكاة من كالغني والكافر والرقيق يمنع أخذ الكفارة. إلا أن الحنفية أجازوا دفعها لذمي.

٥. أن يوزع الطعام على عشرة مساكين فعلًا، فلو أطعم واحدًا طعام عشرة لم يجزئه باتفاق الفقهاء، واختلفوا فيما لو أطعم واحدًا عشرة أيام، على النحو السابق بيانه[(١)].

وأما الكسوة، فلا تجوز إلا على سبيل التمليك؛ لأن الكسوة للوقاية من الحر والبرد، وهذه الحاجة لا تتحقق إلا بالتمليك، بخلاف الإطعام، فإنه لدفع الجوع، وهو يحصل بتناول الطعام، وتكون الكسوة للمساكين كالإطعام.

وأما قدر الكسوة: فاختلف فيه، فقال الحنفية: أدنى الكسوة ما يستر عامة البدن.

وقال الحنابلة: تتقدر الكسوة بما تجزئ الصلاة فيه؛ فإن كان رجلًا كساه ثوبًا تجزئ الصلاة فيه، وإن كانت امرأة كساها قميصًا وخمارًا؛ لأن الكسوة إحدى خصال الكفارة، فلم يجز فيها أدنى ما يطلق عليه اسم الكسوة؛ ولأن اللابس حينما لا يستر العورة يسمى عريانًا لا مكتسيًا.

وقال المالكية: أقل ذلك للرجل ثوب يستر جميع جسده، وللمرأة ما يجوز لها فيه الصلاة، وذلك ثوب وخمار.

وقال الشافعية: «يجزئ أقل ما يطلق عليه اسم الكسوة من إزار أو رداء أو جبة أو قميص أو ملحفة؛ لأنه يقع عليه اسم الكسوة؛ ولأن الله تعالى لم يذكر في الكسوة تقديرًا، فكل ما يسمى لابسه مكتسيًا يجزئ»[(٢)].

وبالنسبة للرقبة ففيها الخلاف المشهور، وهو أنه هل يشترط الإيمان أم يجزئ أي رقبة؟

وذلك مبني على الخلاف في حمل المطلق على المقيد، فقد أطلقت الرقبة هنا وقيدت بالإيمان في كفارة القتل الخطأ، فمن قال بحمل المطلق هنا على المقيد هناك اشترط الإيمان، ومن لم يحمل المطلق هنا على المقيد هناك ذهب إلى عدم اشتراط الإيمان.

قال الشوكاني رحمه الله: «والظاهر أنه

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٤/ ١٣٧.

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٣٨.

لا وجه للقول بالتقييد؛ لأن ذنب كفارة القتل مغلظ وذنب كفارة اليمين مخفف، ولا يقيد ما هو مخفف بما هو مغلظ، فإنه اختلاف يوجب بقاء المطلق على إطلاقه، ولا سيما مع اختلاف السبب، فإنه بمجرده مانع من التقييد»[1].

وبحث مثل هذه المسألة قليل الجدوى في زماننا هذا نظرًا لعدم وجود الرقيق، فلا نطيل فيها.

«واختلفوا في وجوب التتابع في هذا الصوم: فذهب جماعةٌ إلى أنه لا يجب فيه التتابع بل إن شاء تابع وإن شاء فرق، والتتابع أفضل وهو أحد قولي الشافعي، وذهب قومٌ إلى أنه يجب فيه التتابع قياسًا على كفارة القتل والظهار، وهو قول الثوري وأبي حنيفة، ويدل عليه قراءة ابن مسعودٍ رضي الله عنه: صيام ثلاثة أيامٍ متتابعاتٍ»[2].

وأما اليمين الغموس وهو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كذاب وهي التي في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩][3].

واختلفوا فيها، فقال مالك، وجماعة: لا تكفر، وهي أعظم ذنبًا من ذلك. وقال عطاء، وقتادة، والربيع، والشافعي: «تكفر، والكفارة مؤاخذة»[4].

والخلاف فيها نشأ من أنها فيها شبه بالمنعقدة وشبه باللغو.

فأما شبهها بالمنعقدة، فهو أن القلب عقد عليها، وأصر على فعلها، فهي من كسبه، وعلى ذلك فتدخل ضمن المؤاخذ عليها.

وأما شبهها باللغو، فهو أنها لم ينص على أن فيها كفارة.

فمن نظر إلى الأول حكم بالكفارة عليها.

ومن نظر إلى الثاني حكم بالثاني.

وقد حل ابن العربي هذا الإشكال، فقال: «وجه إشكالها أنها إن كانت لا كفارة فيها فهي في قسم اللغو، فلا تقع فيها مؤاخذةٌ، وإن كانت مما يؤاخذ بها فهي في قسم المنعقدة، تلزم فيها الكفارة.

وحله طويلٌ؛ اختصاره أن الآية وردت بقسمين: لغوٌ، ومنعقدةٌ خرجت على الغالب في أيمان الناس؛ فأما اليمين الغموس فلا يرضى بها ذو دينٍ أو مروءةٍ، ويحل الإشكال أيضًا أن الله سبحانه علق الكفارة على قسمي اليمين المنعقدة، فدع ما بعدها يكون مائة قسمٍ فإنه لم تعلق عليه كفارةٌ.

فإن قيل: اليمين الغموس منعقدةٌ، والدليل عليه أنها مكتسبةٌ بالقلب، معقودةٌ بخبرٍ، مقرونةٌ باسم الله تعالى. قلنا: عقد القلب إنما يكون عقدًا إذا تصور حله،

(١) السيل الجرار ١/ ٦٩٤.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٩٣.
(٣) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٧٥٠.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٩١.

واليمين الغموس مكرٌ وخديعةٌ. والدليل عليه أن هذا الذي صوره أصحاب الشافعي موجودٌ في يمين الاستثناء، ولا كفارة فيها؛ فثبت أن مجرد القصد لا يكفي في الكفارة»[1].

موضوعات ذات صلة:

الكفارات، الوفاء

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢١٥.

القلب

عناصر الموضوع

مفهوم القلب	٤٠٢
القلب في الاستعمال القرآني	٤٠٣
الألفاظ ذات الصلة	٤٠٤
أنواع القلوب في القرآن الكريم	٤٠٦
سنة الله في أصحاب القلوب	٤٤٥

مفهوم القلب

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «القاف واللام والباء أصلان صحيحان: أحدهما: يدل على خالص شيءٍ وشريفه، والآخر على رد شيءٍ من جهةٍ إلى جهة، فالأول القلب: قلب الإنسان وغيره، سمي بهذا؛ لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كل شيءٍ وأشرفه قلبه»[(١)].

ومنه: قلب النخلة وقلبها: لبها وشحمتها، وأجود خوصها وأشده بياضًا، ويقولون: هو عربي قلب، أي: محض خالص، ويقولون: القلب: تحويل الشيء عن وجهه، وقلب الأمور: بحثها ونظر في عواقبها، وتقلب في الأمور وفي البلاد: تصرف فيها كيف شاء، ورجل قلبٌ يتقلب كيف شاء وتقلب ظهرًا لبطنٍ وجنبًا لجنبٍ: إذا تحول، والقلب: مضغةٌ من الفؤاد معلقةٌ بالنياط، والجمع أقلبٌ وقلوبٌ[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «القلب: لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، ويسميها الحكيم: النفس الناطقة، والروح باطنه، والنفس الحيوانية مركبة، وهي المدرك، والعالم من الإنسان، والمخاطب، والمطالب، والمعاتب»[(٣)].

وقيل: هو محل النفس والعقل والعلم والفهم والعزم. وسمي قلبا لتقلبه في الأشياء بالخواطر والعزوم والاعتقادات والإرادات[(٤)]، وقيل معناه: الروح. ولم يرتض الراغب هذا التعريف فقال: فأما العقل فلا يصح عليه ذلك[(٥)].

فالقلب في المعنى الاصطلاحي يمكن أن يحمل على أصليه الصحيحين في اللغة.

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ١٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٧١٣.
(٣) التعريفات ص١٧٨.
(٤) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي: ص٤٨٢.
(٥) المفردات: ص٦٨٢.

القلب في الاستعمال القرآني

ورد (القلب) في القرآن الكريم (١٣٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	١٩	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧]
المثنى	١	﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤]
الجمع	١١٢	﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران:١٥١]

وجاء القلب في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: العقل: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧]. يعني: عقل.

الثاني: الرأي: ومنه قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤]. يعني: آراؤهم شتى.

الثالث: القلب بعينه الذي في الصدر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]. يعني: القلب الذي هو محل النفس.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٥٤٩- ٥٥١.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٤٨٣، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٣٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العقل:

العقل لغةً:

هذه المادة تدل على حبسة في الشيء، ومنه العقل: وهو الحابس عن ذميم القول والفعل، وهو نقيض الجهل، يقال: عقل يعقل عقلا، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله، وجمعه عقول. ورجل عاقلٌ وقوم عقلاء وعاقلون ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم وافر العقل[١].

العقل اصطلاحًا:

قال الراغب: «العقل: يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقلٌ»[٢].

وقيل: العقل آلة التمييز. وعرفه الجزائري: قوة باطنية يميز بها المرء بين النافع والضار، والصالح والفاسد[٣].

الصلة بين العقل والقلب:

ذهب الشافعي وأكثر المتكلمين إلى أن محل العقل هو القلب، وهو مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها[٤].

٢ الفؤاد:

الفؤاد لغةً:

التفؤد: التوقد. والفؤاد: القلب لتفؤده وتوقده، وهو مذكرٌ لا يأتي مؤنثًا[٥].

الفؤاد اصطلاحًا:

قال الراغب: «الفؤاد كالقلب لكن يقال له: فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد، أي: التوقد»[٦].

الصلة بين الفؤاد والقلب:

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥٦.
(٢) المفردات ص٥٧٧.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٥٠.
(٤) انظر: الكليات، أبو البقاء الكفوي ص٦١٩.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٢٨.
(٦) المفردات ص٦٤٦.

قيل: الفؤاد هو باطن القلب، وقيل: هو غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه، كما أن الفؤاد الرقيق تسرع إمالته، والقلب الغليظ القاسي لا ينفعل لشيء[١].

فالأفئدة توصف بالرقة، والقلوب باللين؛ لأن الفؤاد غشاء القلب إذا رق نفذ القول فيه وخلص إلى ما وراءه[٢].

٣ الصدور:

الصدور لغةً:

جمع (صدر) وصدر كل شيء: أوله، وصدر السهم: ما جاز من وسطه إلى مستدقه، وسمي بذلك؛ لأنه المتقدم إذا رمي. والصدر: الطائفة من الشيء، والصدرة من الإنسان: ما أشرف من أعلى صدره[٣].

الصدور اصطلاحًا:

قال المناوي: «الصدر: مسكن القلب، يشبه رئيس القوم، والعالي المجلس؛ لشرف منزلته على غيره من الناس»[٤].

الصلة بين الصدور والقلب:

يتبين أن القلب جزء من أجزاء الصدر وأعضائه.

(١) انظر: الكليات، أبو البقاء الكفوي ص٦٩٦.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٤٣٣.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٠٩.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص٢١٣.

أنواع القلوب في القرآن الكريم

أولًا: القلب السليم.

ويتصف هذا القلب السليم بعدة صفات، منها:

١. الاطمئنان.

وردت آيات متعددة تحمل وصف الاطمئنان لقلوب المؤمنين، من هذه الآيات قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومعني الآية الكريمة: اذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم حين طلب إبراهيم عليه السلام من ربه كيفية البعث، حيث سأل مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان؛ ولهذا خاطبه ربه سبحانه بقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي: أو لم تصدق بقدرتي على الإحياء، قال: بلى آمنت ولكن سألتك لأزداد يقينا على يقيني، وعلما لا مجال فيه لتشكيك، وليسكن قلبي بالمعاينة المضمومة إلى الاستدلال برؤية ذلك فكان ما كان من أمر الله عز وجل له.

والطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج[١].

يقول القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ الطمأنينة: اعتدال وسكون. فطمأنينة الأعضاء معروفة، وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد.

فاليقين في شأن خليل الرحمن موجود كائن، ولكنه صلى الله عليه وسلم يريد سكون قلبه بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان بأن الله قادر على ذلك، إذن فالقلب المطمئن هو الذي امتلأ سكونًا وهيبة من عظمة الله عز وجل، قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨][٢]

فبمعرفة الله والإكثار من عبادته يكتسب القلب سكونه، يقول الإمام الغزالي: «الطاعات تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقًا ونورًا وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين، وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر»[٣]. واستشهد بالآية الكريمة السابقة[الرعد ٢٨].

من معاني طمأنينة القلب في القرآن

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٣٠٠.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢.
قال بعض السلف: دواء القلب في خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.
انظر: القلوب، البيانوني ص١٤١.

الكريم:

١. يقين النفس.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران:١٢٤-١٢٦].

٢. الطمأنة والطمأنينة.

السكون وعدم الاضطراب، واستعيرت هنا ليقين النفس بحصول الأمر تشبيهًا للعلم الثابت بثبات النفس أي: عدم اضطرابها[١].

٣. السكون مع اليقين بالنصر.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال:٩-١٠].

قال الطبري: «لتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم، وتوقن بنصرة الله لكم»[٢].

٤. عدم تغيير العقيدة.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦].

ومعنى ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: لم تتغير عقيدته، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب[٣].

٢. السكينة.

من صفات القلوب السليمة «السكينة» وقد وردت في القرآن في مواضع متعددة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح:٤].

هذه الآية الكريمة تتحدث عن حدث له أهميته في حياة الإسلام والمسلمين، حيث معونة الله ونصرته لعباده الصادقين وقت الشدائد والمحن، وذلك أنه لما منع صلى الله عليه وسلم هو ومن معه من المسلمين من دخول مكة معتمرين كادت صفوف المسلمين تتفكك، وتذهب ريحهم لعظم أمر احتباسهم من المشركين والحيلولة دون دخول مكة. (فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟! قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٧٨.
(٢) جامع البيان، ٩/ ٢٥٥.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٥٧.

يحكم الله بيننا؟ فقال: يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدًا، فرجع متغيظًا فلم يصبر حتى جاء أبا بكرٍ فقال: يا أبا بكرٍ ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولن يضيعه الله أبدًا فنزلت سورة الفتح)[1].

فأصل السكينة: الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، بل يوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات؛ ولهذا أخبر سبحانه بإنزالها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب نحو:

- يوم الغار: قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

- يوم حنين: قال تعالى: ﴿لَّقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

- يوم الفتح: قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح:٢٦].[2].

أما السكون: فثبوت الشيء بعد تحرك.

وقد فسر الضحاك السكينة: بالرحمة.

وقيل السكينة: الوقار، وقيل: الملائكة، وهي بحسب ورودها تنتظم كل هذه المعاني.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، ٥/ ٢٦٤.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٧.

سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في البقرة ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة:٢٤٧-٢٤٨][1].

وقد فسرت بزوال الرعب وهذا لا يبعد عن الطمأنينة.

٣. الخشوع و الإخبات.

من صفات القلب السليم «الخشوع» قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

الآية الكريمة «تحمل عتابًا مؤثرًا من المولى الكريم الرحيم، واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله، فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها، ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور، وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصر ويحذر.

عتاب فيه الود، وفيه الحض، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله، والخشوع لذكره، وتلقي ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام، مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء، وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله، وحين لا تخشع للحق ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج»[2].

و﴿يَأْنِ﴾ كيحن: آن يئين، كحان يحين لفظًا ومعنى»[3].

﴿تَخْشَعَ﴾: أي: تلين، وتسكن، وتخضع تضرع وتذل، وتطمئن لذكر الله.

والخشوع الخوف الدائم في القلب، ومصدر الخشوع هو القلب[4].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٦٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٨٩.

(٣) انظر: حاشية الشهاب ٩/ ٩٩.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٤.

في ظلال هذه الآية يقول أديب العربية مصطفي صادق الرافعي: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ هذه الكلمة حث وإطماع وجدال وحجة، وهي في الآية تصرح أن خشوع القلب الذي تلك صفته هو كمال للإيمان، وأن وقت هذا الخشوع هو كمال العمر، وكيف يعرف المؤمن أنه سيأتي له أن يعيش ساعة أو ما دونها ؟!

إذن فالكلمة صارخة تقول: الآن الآن قبل ألا يكون آن، أى: البدار ما دمت في نفس من العمر فإن لحظة بعد «الآن» لا يضمنها الحي.

وإذا فني وقت الإنسان انتهى زمن عمله فبقى الأبد كله على ما هو، ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذي يدرك الحقيقة، وإن هو إلا اللحظة الراهنة من عمره التي هي «الآن» فانظر ـ ويحك ـ وقد جعل الأبد في يدك، انظر كيف تصنع به.

تلك هي حكمة اختيار اللفظة من معنى «الآن» دون غيره.

ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وهذا كالنص على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبهم لذكر الله ولا للحق، فلا تقوم بهم الفضيلة، ولا تستقيم بهم الشريعة، وعالمهم وجاهلهم سواء، لا يخشعان إلا للمادة، وكأن إنسانهم إنسان ترابي، لا يزال يضطرب على مكر الليل والنهار بين طرفين من الحيوان عيشه وموته، وما تقسو الحياة قسوتها على الناس إلا بهم، وما ترق رقتها إلا بالمؤمنين.

وجعل الخشوع للقلوب خاصة، إذ كان خشوع القلب غير خشوع الجسم، فهذا الأخير لا يكون خشوعًا، بل ذلًا، أو ضعة، أو رياء أو نفاقًا، أو ما كان.

أما خشوع القلب فلن يكون إلا خالصًا مخلصًا محصن الإرادة، واشترط القلب كأنه يقول: إنما القلب أساس المؤمن، وإن المؤمن ينبع من قلبه لا من غيره، متى كان هذا القلب خاشعًا لله وللحق، فإن لم يكن قلبه على تلك الحال، نبع منه الفاسق والظالم الطاغية وكل ذي شر.

ما أشبه القلب تتفرع منه معاني الخلق بالحبة تنسرح منها الشجرة، فخذ نفسك من قلبك كما شئت، حلوًا من حلو، ومرًا من مر.

وخشوع القلب لله وللحق معناه السمو فوق حب الذات، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة، وهذا يضع للمؤمن قاعدة الحياة الصحيحة، ويجعلها في قانونين لا قانون واحد.

ومتى خشع القلب لله وللحق، عظمت فيه الصغائر من قوة إحساسه بها، فيراها كبيرة وإن عمي الناس عنها، ويراها وهي بعيدة منه بمثل عين العقاب يكون في لوح الجو ولا يغيب عن عينه ما في الثرى.

وقد تخشع القلوب لبعض الأهواء

خشوعًا هو شر من الطغيان والقسوة فتقيد خشوع القلب «بذكر الله» هو في نفسه نفي لعبادة الهوى، وعبادة الذات الإنسانية في شهواتها، وما الشهوة عند المخلوق الضعيف إلا إله ساعتها)[1].

ومما يورث الخشوع: ترقب آفات النفس والعمل ومطالعة عيوب ونقائص النفس من العجب والكبر والرياء، وضعف الصدق وقلة اليقين[2].

الخشوع ـ بصفة عامة ـ في القرآن على أربعة أوجه:

الأول: التواضع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥]. يعني: المتواضعين.

الثاني: الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠]. يعني: خائفين.

الثالث: سكون الجوارح ورمي البصر إلى موضع السجود؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:١-٢].

الرابع: الذل والتذلل؛ لقوله تعالى في سورة طه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَٰتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨] يقول: ذلت كقوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ [الغاشية:٢].

مثلها في سورة القلم: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القلم:٤٣].

ونحوه في سورة القمر: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القمر:٧].

الإخبات:

ورد لفظ الإخبات في آيات ثلاث في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

يتحدث الحق جل وعلا عن حملة وحيه «الرسل» الذين يتمنون إيمان الناس بربهم وإسلامهم الوجه لله عز وجل، ويتحدث عن الشياطين وما جبلوا عليه من كراهية طريق

(١) انظر: وحي القلم ١/ ١٩٧،١٩٦.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ١/ ٣١٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٤٢.

الله عز وجل ووقوفهم وقفة الأعداء في وجه المرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام:١١٢].

جاءت هذه الآية تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم تقول له: «لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين، ثم يبين المولى عز وجل سنته أيضًا حيال مكر الشياطين، وأنه يبطله ثم يثبت آياته الدالة على وحدانيته، ويجعل وساوس الشياطين فتنة للمنافقين وللكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله، وإن الكافرين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله، وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق الحقيق بالإيمان فيؤمنوا به فتخبت له أي: «تخشع وتسكن قلوبهم» بخلاف من في قلبه مرض، وإن الله لمرشد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم.

والإخبات: نزول الخبت وهو المكان المنخفض، وتفسيره بالإخلاص؛ لأنه لازم للتواضع والتذلل[1].

وإخبات القلوب: يكون بالانقياد والخشية للقرآن على التخصيص، ولكل أوامر الله على التعميم[2]، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج:٣٤-٣٥].

ولقد ورد عن السلف تفسيراتٌ متعددة للمخبتين كلها ترجع إلى ما ذكرنا سابقًا وإن اختلفت العبارة.

قال سفيان: هم الراضون بقضاء الله، وقال الكلبي: المجتهدون في العبادة، وقال عمرو بن أوس: الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا[3].

هذا وقد وصف الله تعالى المخبتين بصفات ذكرها في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

والإخبات ورد في القرآن على وجهين:

الأول: الإخلاص ومنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود:٢٣].

يعني: أخلصوا ومثلها في سورة الحج ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤].

يعني: المخلصين، والإخلاص محله القلب.

الثاني: الإخبات بمعنى القبول ومنه

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٥١٧.
(٢) روح المعاني، الألوسي: ١٧/ ١٧.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٥٩.

قوله تعالى في سورة الحج: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٤].

يعني فتقبل له صدورهم[(١)].

٤. التقوى، الوجل، والإنابة، والخيرية، والطهر، والاهتداء.

التقوى:

من صفات القلوب السليمة «التقوى» وهي كنز عزيز إن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف، وعلقٍ نفيس، وخير كثير، ورزق كريم، وغنم جسيم وملك عظيم، فهي الخصلة التى تجمع خير الدنيا والآخرة، وعليها مدار القبول، وبها وصى سبحانه الأولين والآخرين فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء:١٣١].

ومن هنا علمنا أنها الغاية التى لا متجاوز عنها؛ لجمعها محض النصح والدلالة والإرشاد والتأديب والتعليم والتهذيب[(٢)].

والتقوى مشتقة من الوقاية وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وقاه وقيًا ووقاية: صانه.

والتوقية: الصيانة والحفظ.

والمتقي: هو من جعل بينه وبين المعاصي وقاية تحول بينه وبينها من قوة عزمه على تركها، وتوطين قلبه على ذلك؛ فلذلك قيل له: متق.

وتعريفها شرعًا: حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور وبترك بعض المباحات[(٣)].

وقد ذكر أهل التفسير أن التقوى في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها: التوحيد، ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء:١٣١].

وفي الحجرات: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣].

والثاني: الإخلاص، ومنه قوله تعالى في الحج: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢] أراد من إخلاص القلوب.

والثالث: العبادة، ومنه قوله تعالى في النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل:٢].

وفي المؤمنين: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

(١) الوجوه والنظائر، الدامغاني ١/ ٣٢٦.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٦١.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٠.

﴿وَحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٩٢].

وفي الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء:١٠-١١].

والرابع: ترك المعصية، ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩].

والخامس: الخشية، ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء:١].

وفي الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء:١٠٦] وكذلك في قصة هود وصالح وشعيب[(١)].

ومحل التقوى هو القلب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢].

والنكتة في تخصيص القلب في الآية بالتقوى، أن حقيقة التقوى في القلب وهو منشؤها؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (التقوى ها هنا وأشار إلى صدره).[(٢)]

أو للإشارة إلى أن التقوى تنقسم إلى قسمين: تقوى القلوب، وتقوى الأعضاء.

وتقوى القلوب: المراد بها التقوى الحقيقية الصادقة التي يتصف بها المؤمن الصادق وهي المثبتة هنا، وتقوى الأعضاء المراد بها التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي كثيرًا ما تخشع أعضاؤه وقلبه ساه لاه، وما في الآية شديد الشبه بقولهم: العفو من شيم الكرام، فمتى فهم منه كون العفو من أعظم أبواب الشيم فليفهم من ذلك كون التعظيم لشعائر الله من أعظم أبواب التقوى[(٣)].

الوجل:

وردت صفة الوجل في آيات كثيرة من القرآن العظيم، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

الوجل: استشعار الخوف، يقال: وجل يوجل وجلًا فهو وجلٌ[(٤)].

والوجل في الاستعمال القرآني لا يكون إلا للقلب قال تعالى في شأن المؤمنين حقًّا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢].

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٥٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٢٢٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، ٤/ ١٩٨٦، رقم ٢٥٦٤.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ١٥١.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٥٥.

يقول الشيخ زاده: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل هو الخوف والفزع وهو ههنا متفرع على مجرد ذكر الله تعالى وملاحظة عظمته وجلاله، فإن هذا الخوف لا يزول عن قلب من ذكر الله تعالى عالمًا بنعوت جلاله وصفات كماله، سواء أكان ملكًا مقربًا أم نبيًا مرسلًا أم مؤمنًا تقيًا، فإن كل واحد منهم عند ذكر الله تعالى يلاحظ عظمة الله تعالى واستغناءه عن جميع ما سواه ويعلم احتياجه إليه في جميع مهماته، فلا جرم يهابه ويقشعر جلده، وتغلب عليه الدهشة بحيث يكاد يفنى وجوده»[1].

وقال تعالى في شأن المتواضعين لربهم المبشرين على لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج:٣٥].

وقال تعالى في شأن المشفقين من خشية الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١].

وقال تعالى في شأن ضيف إبراهيم عليه السلام حين دخلوا عليه فسلموا، فرد عليهم السلام، ثم قدم لهم الطعام فلم يأكلوا، قال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: فزعون. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر:٥٢-٥٣].

وقد شبه الوجل في القلب باحتراق السعفة، فعن شهر بن شوحب، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: الوجل في القلب كاحتراق السعفة أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى. قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك[2].

وقال سفيان الثوري سمعت السدي يقول في الوجل -بالكسر-: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية. فيقال له: اتق الله فيجل قلبه»[3].

فالمؤمن الوجل هو المؤمن حقا كما قال عز من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

والوجل من الله ينقسم إلى قسمين:

- الخوف من عقابه سبحانه وهذا للعصاة.
- الخوف من عظمته وجلاله سبحانه وتعالى، وهذا لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين، سواء أكان ملكًا مقربًا

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٢/ ٢٩٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٣٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن، العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٧، الدر المنثور، السيوطي ٣/ ١٧٦.

أم نبيًا مرسلًا.

وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه، والمحتاج إذا حضر الملك الغني يهابه ويخافه، وليست تلك الهيبة من العقاب بل مجرد علمه بكونه غنيًا عنه، وكونه محتاجًا إليه يوجب تلك المهابة، وذلك الخوف[1].

الخطوات الموصلة إلى الوجل:

في سورة «المؤمنون» يبين الحق تبارك وتعالى الخطوات الموصلة إلى الوجل، فيقول عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

فالخطوة الأولى فهي: الإشفاق من جلال الله وعظمته والخوف من عذابه. وذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ ومثله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠].

أما الثانية فهي: التصديق بآيات الله القرآنية والكونية فكلها براهين على وجود الله عز وجل ينطق بذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾

أما الثالثة فهي: عدم الإشراك بالله تعالى والمراد نفي الشرك بعامة ونفي الشرك الخفي بصفة خاصة، وذلك بالإخلاص في عبادة الله طلبًا لرضوانه ينطق بذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾

أما الرابعة فهي: البذل والعطاء بسخاء، وذلك بإعطاء حق الله في الزكاة وغيرها بالتقرب بكل أنواع القربات مع الخوف أن لا يقبل الله منهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾

فالخوف يبعث على الاجتهاد لإزالة أسبابه مع الحذر من التقصير والإخلال، روى الترمذي أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال صلى الله عليه وسلم: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات)[2].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ١٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون، ٥/ ٣٠٥، رقم ٣٠٩٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٠٤، رقم١٦٢.

يقول الفخر الرازي: وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي، والصفة الثانية دلت على ترك الرياء في الطاعات، والصفة الثالثة دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين، رزقنا الله سبحانه الوصول إليها. آمين[1].

والإمام القرطبي له ملحظ جدير بي أن أنقله يخص أدعياء ظنوا أنفسهم أنهم من الوجلين الخائفين وهم واهمون في حالهم.

يقول الإمام القرطبي عن الخوف في الآية: فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير.

فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجدٌ وخشوع: إنك لم تبلغ أن تساوي حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك كانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله، والبكاء خوفًا من الله، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة:٨٣].

فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم، فمن كان مستنًا فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالًا، والجنون فنون[2].

مسألة يوهم ظاهرها الاختلاف والتناقض هي:

أنه جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] جاء في هذه الآية الوصف للمؤمنين بالاطمئنان وهو السكون والراحة، وجاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢].

الوصف بالوجل والخوف، وهو أيضًا للمؤمنين، فهل هناك اختلاف وتناقض؟

الجواب: إن المؤمنين إذا علموا ما أعده الله لهم في الجنة -دار الكرامة- مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر -إذا علموا ذلك- استبشروا وفرحوا واطمأنوا وتهيؤوا للنعيم المقيم، وعند هذا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣ / ١٠٧-١٠٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٦٦، ١٢/ ٥٩.

تكون الطمأنينة والسكينة.

وعلى المقابل: إذا علموا ما أعده الله للعاصين والظالمين في النار، التي ترمي بشرر كالقصر، وفيها من أصناف الإهانة ما فيها: المهل، والصديد، والمقامع من حديد، والتميز من الغيظ، والطمع في المزيد حتى يقول الله لها: هل امتلأت وتقول هل من مزيد ؟ فهي ممزوجة بغضب الجبار، أعاذنا الله منها.

إذا علم المؤمن ذلك خاف واقشعر واضطرب والتجأ إلى جناب الرحمن الرحيم ليقيه الشر والعذاب، وهنا يكون الوجل، والمؤمن الذي يحمل بين جنبيه قلبًا يطمع في رحمة الله ويخشى عذابه هو مؤمن تحققت فيه غاية أوصاف المؤمنين المتقين.

وقد جمع الله عز وجل هذه الأوصاف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

الإنابة:

من صفات القلوب السليمة «الإنابة» وهي كما يقول الراغب: «النوب: رجوع الشيء مرة بعد أخرى، يقال: ناب نوبًا ونوبة، وسميت النحل نوبًا لرجوعها إلى مقارها، والإنابة إلى الله تعالى: الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل[1].

ووصف القلب بالإنابة التي هي الرجوع إلى الله تعالى؛ لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب[2].

يقول الفخر: القلب المنيب هو القلب الخالي من الشرك، ومن سلم قلبه من الشرك ترك غير الله، ورجع إلى الله وحده فكان منيبًا. ومن أناب إلى الله برئ من الشرك فكان سليمًا[3].

ولم تقترن الإنابة بالقلب في الاستعمال القرآني إلا مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق:٣١-٣٣].

والمعنى: وقربت الجنة للمتقين إكرامًا واحتفاءً بهم على سبيل المبالغة، ويقال لهم: هذا الذي ترونه من النعيم هو ما وعده الله لكل أواب رجاع إلى الله، حافظ لعهده، خائف مطيع طاعة متيقن، يعلم أن الله حري بذلك، وجاء هذا الخائف ربه بقلب خاضع خاشع لله مقبل على طاعته مخلص، فلا يشوب توحيده شائبة.

وعلامة القلب المنيب كما يقول أبو بكر

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٨.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ١١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٧٧.

الوراق: أن يكون عارفًا لحرمة الله، وموالِيًا له، ومتواضعًا لجلاله وتاركًا لهوى نفسه[1].

إذن فالرجوع الدائم لجناب الحق عين الإنابة التي هي صفة عظيمة من صفات القلب السليم.

الخيرية:

من صفات القلب السليم «الخيرية»، والخير: ما يرغب فيه من المستحسنات كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع والخير يقابل به الشر مرة، والضر مرة أخرى، فمن الأول قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [الأنعام:١٧].

والخير يفسر على وجوه منها الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠﴾ [الأنفال:٧٠].

قال ابن عباس: إن يعلم الله في قلوبكم إيمانًا وتصديقًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم، نزلت في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة إلى بدر، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب؛ ليطعم بها إذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيئًا وبقيت العشرون أوقية من ذهب معه.

فلما أسر أخذت منه، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: (أما شيءٌ خرجت به لتستعين به علينا فلا نتركه لك). وكان العباس قد فدى أخاه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث، فقال العباس: يا محمد تتركني أتكفف قريشًا ما بقيت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأين الذهب الذي دفعته لأم الفضل وقت خروجك من مكة به وقلت لها: إني لا أدرى ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهذا المال لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم، يعنب بين بنيه). فقال العباس: وما يدريك يا ابن أخي؟ قال: (أخبرني به ربي). فقال العباس: أنا أشهد أنك صادق وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، فإني أعطيتها إياه في سواد الليل، ولم يطلع عليه أحد إلا الله، وأمر ابني أخيه عقيلًا ونوفل بن الحرث فأسلما، فذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم﴾ يعني: الذين

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢١.

أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يعني: إيمانًا وتصديقًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ يعني: من الفداء، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يعني: ما سلف منكم قبل الإيمان ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه، رحيم بأهل طاعته.

قال العباس: فأبدلني الله خيرًا مما أخذ مني عشرين عبدًا كلهم تاجر يضرب بمال كثير، أدناهم يضرب بعشرين ألفًا مكان العشرين أوقية، وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل[1].

الطهر:

الطهارة في الأصل: الوضاءة والنظافة. يقال من ذلك: تطهر يتطهر فهو متطهرٌ ومطهر، والطهور: الماء، ويقال: فلان طاهر الثياب إذا كان نقيا من الدنس والوسخ.

وقد ذكر أهل التفسير أن الطهارة في القرآن على ثلاثة عشر وجها:

منها ما يتعلق «بطهارة القلب من الريبة. ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة:٢٣٢] يريد أطهر لقلب الرجل والمرأة من الريبة. وفي الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب:٥٣].

أي: وإذا سألتم نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة من أواني البيت ونحوها فاسألوهن من وراء ستر؛ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن من الريبة والدنس؛ فالرؤية سبب الفتنة؛ لأن العين روزنة القلب، أي: موصل صورة الأشياء إلى القلب. فإذا لم تر العين لا يشتهي القلب، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر، ومن هنا كان فرض الحجاب، فالإسلام حريص على تجنيب أبنائه مخاطر الاختلاط إبعادًا لهم عن الريبة والتهمة، وذلك أحسن للحال، وأحصن للنفس[2].

وحيث إن الآية السابقة قد احتوت على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٦٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٢٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٦.

مطهرات القلوب؛ تعليمًا للمسلمين؛ وتبيينًا للموحدين؛ فإن آية سورة المائدة تبرز أوصاف قوم جنحوا إلى النفاق، واستقر في قلوبهم فكتب الله عليهم عدم طهارة القلب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة:٤١].

فالإشارة في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المذكورين من المنافقين واليهود، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفساد، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، أي: من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهماكهم فيهما، وإصرارهم عليهما، وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية بالكلية، كما ينبئ عنه وصفهم بالمسارعة في الكفر أولًا، وشرح فنون ضلالهم آخرًا.

والجملة استئنافية مبينة لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم، وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء[1].

يقول ابن القيم: فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق، وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله»[2].

فالقلب الطاهر ـ لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث ـ لا يشبع من القرآن ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

وقد دلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل المحرفين للحق لم يحصل لها طهارة.

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلابد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ٥٥.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٥٨.

الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه.

ولهذا حرم الله سبحانه وتعالى الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين؛ ولهذا يقال لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣].

أي: ادخلوها بسبب طيبكم، فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاسته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، والله سبحانه وتعالى بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك الجنة فيها طهارتان طهارة البدن، وطهارة القلب فطهارة البدن بالماء، وطهارة القلب بالتوبة، فالذي يجتمع له الطهران يصلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته[1].

وقد حمل جمهور المفسرين قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ [المدثر:١-٤].

حملوا الأمر بتطهير الثياب على تطهير القلب، يقول ابن القيم: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق[2].

إذًا فطهارة القلب من أعظم صفات المدح والثناء، وعدم طهارته من أعظم أسباب الشقاء والازدراء.

الاهتداء:

من صفات القلب السليم: الاهتداء أي: التسليم لله تعالى والرضا بحكمه سبحانه.

والهداية: دلالة بلطف، ومنه الهدية، وخص ما كان دلالة بهديت، وما كان إعطاء بأهديت.

فإن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

قيل: إن ذلك على سبيل التهكم والمبالغة في المعنى كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١][3].

وقد فسر العلماء هداية القلب على وجوه تختلف اختلاف تنوع فقالوا: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن١١].

أي: للثبات والاسترجاع عند حلول المصائب، وقد عمد البيضاوي إلى هذا التفسير؛ لأن المؤمن مهتد أصالة، وقال أهل المعاني: يهد قلبه للشكر عند الرخاء،

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ص٦٣-٦٤.

(٢) المصدر السابق ص٦٢.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٨.

والصبر عند البلاء[1].

عن ابن عباس قال: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[2].

وخلاصة القول: أن هداية القلب تعني: انفساحه ورضاه بكل ما قدره الله عامة، وما ينزل من المكروه خاصة، كالموت والمرض والفقر والقحط، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

وبهذه الصفة ننتهي من تناول صفات السلامة في القلب، لنشرع في تناول صفات القلب المريض.

ثانيًا: القلب المريض.

ويتصف هذا القلب المريض بعدة صفات، منها:

١. القسوة.

من صفات القلوب المريضة القسوة.

والقسوة: غلظ القلب، وأصله مأخوذ من قول القائل: هذا حجر قاسٍ، أي: صلب[3].

وقد وردت هذه الصفة في آيات متعددة من القرآن الكريم مرتبطة بالقلب:

مرتان (قست أشد قسوة) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤].

وردت هذه الآية الكريمة في معرض الحديث عن مخازي بني إسرائيل ومساويهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ أي: صلبت قلوبكم، فلا يؤثر فيها وعظ ولا تذكير ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد المعجزات الباهرة التي رأيتموها بأم أعينكم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة؛ لأن الحجارة قد تنصدع مسببة بذلك مصلحة للناس، أما قلوبكم فلا تلين ولا تتأثر.

والثالثة: في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

فبسبب نقض هؤلاء اليهود لعهودهم المؤكدة طردهم الله من رحمته، وجعل قلوبهم غليظة لا تلين للإيمان.

والرابعة: في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام:٤٣].

والخطاب في الآية الكريمة للأمم المكذبة الذين لم يلاقوا البلاء بالضراعة لله؛

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٢٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٥٧.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٧١.

ليرفع ما نزل بهم من بأس، بل لاقوه بالعناد والقسوة والصلابة.

والخامسة: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣﴾ [الحج:٥٢-٥٣].

والآيتان تثبتان أن الشيطان يلقي وساوسه أثناء قراءة كتاب الله على لسان كل نبي وكل رسول للصد عن اتباع الوحي، لكن الله يبطل كيد الشيطان ويثبت آياته، وما كان هذا الفعل من الشيطان إلا ليجعله الله اختبارًا للذين في قلوبهم شك ونفاق، ولقساة القلوب من المشركين الضالين.

والسادسة: في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣﴾ [المائدة:١٣].

والآية تتحدث عن بعض مخازي بني إسرائيل التي منها نقض الميثاق والتي تسببت في طرد الله إياهم من رحمته ولعنهم وجعل قلوبهم غليظة لا تلين للإيمان.

والسابعة: في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾ [الحديد:١٦].

الآية تحمل ترغيبا للمؤمنين على رقة القلب، والخشوع لله تعالى عند سماع وحيه الشريف، والحذر من التشبه باليهود والنصارى، في قسوة قلوبهم وغلظتها وفسقهم.

وقد أرشدنا العلماء إلى علاجٍ لهذا المرض العضال، ومن ذلك ما صوره العلامة الألوسي بقوله: «ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عباد، والناس رجلان مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية، ومن أحس بقسوة في قلبه فليهرع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، يرجع إليه حاله، كما أشار إليه قوله عز وجل: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

فهو تمثيل ذكر استطرادًا لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث؛ للترغيب في الخشوع، والتحذير عن القساوة»[1].

(١) روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ١٨١.

من آثار القسوة:

١. الاجتراء على تحريف كلام الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

٢. الغش: قرأ حمزة والكسائي: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَّةً﴾ مأخوذ من قولهم: درهم قسي: أي زيف، أي: قلوبهم مغشوشة، ليست خالصة.(١).

٣. عدم التذلل للخالق، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام:٤٣].

يقول المحقق الألوسي: «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، هذا محمول على التوبيخ والتنديم، وهو يفيد الترك وعدم الوقوع؛ ولذا ظهر الاستدراك والعطف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

والتضرع: التذلل بالتوبة من الكفر، وهو منفي هنا؛ لأن التضرع ناشئ من القلب، فنفيه نفيه.

فكأنه قيل: فما لانت قلوبهم ولكن قست(٢).

وهذا ليس بغريب على الكفار ولا على بني إسرائيل من لدن موسى عليه السلام وحتى عصرنا الحاضر، فلا عهد لهم ولا ميثاق ولا ذمة، الخيانة طبعهم، والنفاق صنيعهم، والغدر ديدنهم، والكفر أسهم وأصلهم.

مسألة: ذكر الله سبحانه وتعالى أن اطمئنان القلب لصيق الذكر ورفيقه، فكيف ينتج ذكر الله عز وجل قسوة، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

يجيب العلامة الفخر فيقول: «إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات، شديدة الميل إلى الطبائع البهيمية والأخلاق الذميمة فإن سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورةً.

وتقرير هذا الكلام بالأمثلة: فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل، كنور الشمس يسود وجه القصار، ويبيض ثوبه، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح، وقد نرى إنسانًا يذكر كلامًا واحدًا في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره، وما ذلك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس، ولما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[المؤمنون:١٢] وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإنسان آخر، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٢٧٠.
(٢) روح المعاني ١٧/ ١٧٤.

وسلم إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال كل واحد منهما: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اكتب فهكذا نزلت) فازداد عمر إيمانًا على إيمان، وازداد ذلك الإنسان كفرًا على كفره.

إذا عرفت هذا لم يبعد أيضًا أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية، ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية.

وإذا عرفت هذا فنقول: إن رأس الأدوية التي تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله سبحانه وتعالى، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله سببًا لازدياد مرضها فكان مرض تلك النفوس مرضًا لا يرجى زواله، ولا يتوقع علاجه، وكانت في نهاية الشر والرداءة؛ فلهذا المعنى قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢][1].

ولا غرابة أليس قد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر:٤٥].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

٢. الريب.

الريب في الأصل مصدر رابني الشيء إذا حصل فيك الريبة وهي قلق النفس واضطرابها، والريبة وإن اشتهرت في معنى الشك إلا أن معناها الأصلي قلق النفس واضطرابها إلا أنه عدل عن معناه المصدري واستعمل في معنى الشك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣].

وفي نظائره لكونه سببا لقلق النفس واضطرابها على طريق إطلاق اسم المسبب وإرادة السبب، والشك وقوف النفس بين شيئين متقابلين بحيث لا ترجح أحدهما على الآخر فتقع في الاضطراب والحيرة، ومن هنا فإنه لا ريب في القرآن صادر ممن آمن به؛ ولذلك نفى الله عز وجل عن المؤمنين الارتياب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر:٣١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥][2].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٦٦-٢٦٧.

(٢) حاشية زاده على البيضاوي ١/ ٧٥.

وقد جاء الريب مقترنا بالقلوب في مواضع كلها تخص المنافقين:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٥].

هذه الآية الكريمة تتحدث عن المنافقين إذ هم الذين كانوا يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الجهاد معه، من غير عذر بينٍ، وهم الذين شكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثوابه أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه فهم في شكهم متحيرون، وفي ظلمة الحيرة مترددون، لا يعرفون حقًا من باطل، فيعملوا على بصيرة.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور:٤٨-٥٠].

في شأن المنافقين بين سبحانه أن من خصالهم الذميمة أنهم إذا دعوا في خصوماتهم إلى ما في كتاب الله وإلى رسوله؛ ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرض لا يقبل حكم الله وحكم رسوله، مع أنه الحق الذي لا شك فيه. ثم يستفهم القرآن استفهاما إنكاريا قائلا: أسبب الإعراض ما في قلوبهم من مرض النفاق، أم شكوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟!

الثالث: قوله سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة:١٠٧-١١٠].

ولنا وقفة مع هذه الآية الكريمة التي بينت حال المنافقين وأظهرت دينهم وديدنهم ـ وهم أهل الريب وأس التشكيك والشك ـ من خلال هذه الفعلة الآثمة التي فعلوها مع نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم وسجلها الله عز وجل في قرآنه لنحذرهم، ونعد العدة لفضح مؤامراتهم وعدم تصديقهم أو السير في ركابهم، هذه الفعلة التي فعلوها ببنائهم مسجد الضرار، فقد بناه المنافقون بهدف مضارة المؤمنين وكيدهم ونصرة الكفرة والكافرين.

وهذا الهدف لم يظهروه فلا ننس أنهم منافقون، وليقسمن ما أردنا ببنائه إلا الخير، والله يعلم كذبهم في ذلك، ثم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ لأن هذا المكان لم يبن إلا ليكون معقلًا للنفاق وأهله، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى ما يتعلق بمسجد قباء، وما على شاكلته من بيوت الله الخالصة له وحده، فيقول: لمسجد أسس على التقوى من بداية أمره أحق أن تقوم فيه؛ لأن فيه رجالًا مؤمنين أطهارًا، والله يحب من كان كذلك، والله يحب المطهرين.

ثم يعقب ذلك باستفهام إنكاري: أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، كمن أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط فسقط به في نار جهنم؟! والله لا يوفق الظالمين إلى الرشاد، لا يزال بنيانهم الذي بنوه ريبة في قلوبهم.

يقول الفخر: المعنى: إن بناء ذلك البنيان صار سببًا لحصول الريبة في قلوبهم فجعل نفس ذلك البنيان ريبة لكونه سببًا للريبة؛ ولكونه سببًا للريبة وجوه:

منها: أن المنافقين عظم فرحهم ببناء مسجد الضرار، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازداد بغضهم له، وازداد ارتيابهم في نبوته[1].

وحاصل المعنى: لا يزال هدم بنيانهم الذي بنو سببًا للقلق والاضطراب والوجل في القلوب[2].

هذه الريبة تمكنت من قلوبهم، ولن تخرج إلا بعد مفارقة الروح للجسد، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تتصدع قلوبهم فيموتوا.

وذلك كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة:٤٦].

لأن الحياة تنقطع بانقطاع الوتين[3].

فالاستثناء في ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ من أعم الأوقات أو من أعم الأحوال، وما بعد ﴿إِلَّا﴾ في محل النصب على الظرفية، أي: لا يزال بنيانهم ريبة في كل وقت إلا وقت تقطع قلوبهم.

أو في كل حال إلا حال تقطعها، أي: تفرقها وخروجها عن قابلية الإدراك وإضمار الشرك بحيث لا يزول منها ما داموا أحياء إلا إذا انقطعت وفرقت، وحينئذ تخرج منها الريبة وتزول، وهو خارج مخرج التصوير والفرض.

وقيل: المراد بالتقطيع ما هو كائن بالموت من تفرق أجزاء البدن حقيقة،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٢٠٢.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٦٦.

وروي ذلك عن بعض السلف.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن أيوب، قال: كان عكرمة يقرأ: (إلا أن تقطع قلوبهم في القبور)[1].

وقيل: إلا بمعنى إلى، بدليل أنه قرئ بها شاذًا[2].

وهذه الآية تؤكد ثوابت هذا البحث من أن القلب هو محل أمور الإنسان، يقول الفخر: «وارتابت قلوبهم: يدل على أن محل الريب هو القلب فقط، ومتى كان محل الريب هو القلب كان محل المعرفة والإيمان ـ أيضًا ـ هو القلب؛ لأن محل أحد الضدين يجب أن يكون محلًا للضد الآخر؛ ولهذا السبب قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]وإذا كان محل المعرفة والكفر القلب، كان المثاب والمعاقب في الحقيقة هو القلب، والبواقي تكون تبعًا له[3].

٣. الغل.

من الصفات المذمومة التي تمرض القلب وتجعله ذا علة «الغل».

الغل بالكسر مصدر غل يغل بمعنى غش وحقد، والغين واللام أصلٌ صحيحٌ يدل على تخلل شيءٍ، وثبات شيء، كالشيء يغرز. من ذلك قول العرب، غللت الشيء في الشيء إذا أثبته فيه، كأنك غرزته، ومن الباب الغل، وهو الضغن ينغل في الصدر[4].

وقيد القرطبي الغل بالكمون في الصدر حيث قال: «الغل: الحقد الكامن في الصدر»[5].

وهو العداوة، وغل يغل: إذا خان، وأغل: أي: صار ذا أغلال، أي: خيانة[6].

وفي استعمال القرآن الكريم جاء الغل مرتبطا بالقلب صراحة في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر:٩-١٠].

وقد بين المولى سبحانه وتعالى في هذه الآية بعضًا من سجايا الأنصار وأخلاقهم، فيقول عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي: اتخذوا المدينة منزلًا وسكنًا، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه من قبل كثير من المهاجرين يحبون من هاجر إليهم فيمدونهم

(١) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٤.
(٢) انظر: حاشية الجمل ٣/ ٣٢٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٨٠.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٧٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٢٢]
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٣.

بالأموال وينزلونهم منازلهم ويحتفون بهم أيما احتفاء، وفوق هذا كله لا يجدون حزازة و لا غيظًا مما أعطى المهاجرون من الغنيمة دونهم، ويفضلون غيرهم بالمال وغيره، ولو كانوا في غاية الاحتياج إليه، ومن حماه الله من البخل والجشع والطمع فأولئك هم الموفقون في الدنيا، المفلحون في الآخرة، والذين جاؤوا من بعدهم وهم التابعون لهم بإحسان في كل زمان ومكان يدعون ربهم قائلين: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان بك، ولا تجعل في قلوبنا بغضًا ولا حسدًا لأحد من المؤمنين الموحدين، ربنا إنك رؤوف رحيم فاستجب وتقبل منا يا ربنا.

وهاتان الآيتان بفضل الله تعالى استوعبتا جميع شرائح المؤمنين في الدنيا.

يقول الفخر الرازي رحمه الله تعالى: «اعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين؛ لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار أو الذين جاؤوا من بعدهم، وبين أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين -وهم المهاجرون والأنصار- بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن كذلك، بل ذكرهم بسوء كان خارجًا من جملة أقسام المؤمنين حسب نص الآية»[1].

وفي الآية ذم للغل إذا كان على أحد من المؤمنين، وحث على الدعاء للصحابة، وتصفية القلوب من بغض أحد منهم.

سمع رجل وهو يتناول بعض المهاجرين، فدعي فقرأ عليه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر:٨] الآية.

ثم قيل له: هؤلاء المهاجرون أفمنهم أنت ؟ قال: لا، ثم قرأ عليه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ﴾ الآية. ثم قال أفمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو. فرد عليه: لا والله ليس من هؤلاء من سب هؤلاء، فكان أعظم ما تميز به الصحابة رضوان الله عليهم خلو قلوبهم من الغل.

وخلو القلب من الغل كان سببًا في أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حاروا في رجل وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة، وما كانت فيه ميزة أعظم من أنه يبيت وليس في قلبه غل ولا حقد ولا حسد لأحد من المسلمين.

(فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ـ في أيام ثلاثة ـ (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة) فطلع فيها رجل من الأنصار، فبات معه عبد الله بن عمرو بن العاص ثلاث ليال مستكشفًا حاله، فلم ير له كثير عمل، فأخبره الخبر، فقال له: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي غلًا لأحد من المسلمين، ولا أحسده على

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٨٩.

خير أعطاه الله تعالى إياه.

فقال له عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق.

وفي رواية أنه قال: لو كانت الدنيا لي فأخذت مني لم أحزن عليها، ولو أعطيتها لم أفرح بها، وأبيت وليس في قلبي غل على أحد.

فقال عبد الله: لكني أقوم الليل وأصوم النهار، ولو وهبت لي شاة لفرحت بها، ولو ذهبت لحزنت عليها، والله لقد فضلك الله تعالى علينا فضلًا بينًا)[1].

وبعـد:

فالغل من الأمراض الفتاكة بالقلوب، وعلاجه القناعة بقسم الله للعبد، وعدم التطلع إلى الغير؛ لأن ذلك يورث القلب همًا، والهم ينتج حقدًا وحسدًا، ولا يجوز لمسلم أن يحمل في صدره هذا الداء إلا في حالة واحدة، ويكون عين الداء أصل الدواء، هذه الحالة تكون عندما يوجه الحقد والغيظ والغل لأعداء الإسلام والمسلمين، لا من المسلم ضد أخيه المسلم.

٤ . الغلظة.

من صفات القلوب المريضة: الغلظة.

الغلظة ضد الرقة، يقال: غِلْظَةٌ وغُلْظَةٌ، وأصله يستعمل في الأجسام، لكن قد يستعار للمعاني، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة: ١٢٣] أي: خشونة أو قسوة[2].

وأحسن ما قيل في الغلظة ما قاله القرطبي: «وغلظ القلب: عبارة عن تجهم الوجه، وقلة الانفعال في الرغائب، وقلة الإشفاق والرحمة.

وقد وردت هذه المادة في آي القرآن الكريم، من ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هذه الآية الكريمة وردت في معرض الحديث عن غزوة أحد، وذلك في سورة آل عمران، هذه الغزوة التي أصيب فيها المسلمون بمصيبة عدم النصر؛ وذلك لأمور متعددة يعلمها الله عز وجل منها عدم تطبيق الصحابة رضوان الله عليهم أوامر النبي صلى الله عليه وسلم، فكان حاله صلى الله عليه وسلم بين العقاب والعتاب للمخالفين، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾ أي: فبسبب رحمة من الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ١٦٦، رقم ٢٥٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٥.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٤.

أودعها قلبك يا محمد صلى الله عليه وسلم فألنت جانبك لأصحابك مع مخالفتهم، ولو كنت جافي الطبع، قاسي القلب لتفرقوا عنك، ونفروا منك، فاعف عنهم، واصفح واطلب المغفرة لهم، وأعد إليهم ثقتهم بالله، ثم بأنفسهم وذلك بمشورتك إياهم في الأمر، فإذا عزمت وصممت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين عليه، والآية يحمل مضمونها نفيًا صريحًا لكل معايب الأخلاق عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنها الفظاظة والغلظة كما بين عبد الله ابن عمرو في حديث البخاري في وصف النبي صلى الله عليه وسلم من أنه (ليس بفظٍ ولا غليظٍ ولا سخابٍ في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر)[1].

الفظاظة: الجفوة في المعاشرة قولًا وفعلًا.

والله سبحانه وتعالى منع نبيه صلى الله عليه وسلم من الغلظة، وأمره بالغلظة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾ [التحريم:٩].

فهاهنا نهاه عن الغلظة على المؤمنين، وهناك أمره بالغلظة مع الكافرين، فهو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح:٢٩].

وتحقيق القول فيه: أن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان، والفضيلة وسط، فورود الأمر بالتغليظ تارة وأخرى بالنهي عنه إنما كان لأجل أن نتباعد عن الإفراط والتفريط فيبقى الأمر وسطا وكذلك جعلناكم أمة وسطًا[2].

والمراد بالوسطية العدل باستعمال الرأفة والرحمة من المؤمنين، والغلظة والشدة مع الكافرين لا سيما في الجهاد. إذن فالغلظة من أمراض القلوب التي يجب على المؤمن أن يتنزه عنها.

٥. اللهو.

من الصفات الممرضة للقلب: اللهو.

واللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. يقال: لهوت بكذا، ولهيت عن كذا: اشتغلت عنه بلهو قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:٣٦].

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:٦٤].

ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو. قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء:١٧].

وهو مأخوذ من قول العرب، لهيت عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه، ألهى لهيًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا)، الفتح ٨/ ٤٧٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٦٦.

ولهيانًا[1].

فاللهو: سهو وإعراض وتشاغل وذهول وغفلة عن الحق، وقد جاء اللهو مقترنا بالقلب في الاستعمال القرآني في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ [الأنبياء:١-٣].

مطلع سورة الأنبياء يحمل تخويفًا وترهيبًا وإنذارًا، تحسبًا لقرب وقت حساب الناس على أعمالهم، وهم مستغرقون في شهواتهم غافلون عن اليوم الذي تشيب له النواصي.

وغفلتهم وإعراضهم لكونهم لا يعبؤون بالقرآن، فما يأتيهم من شيء من القرآن متجدد النزول فيه عظة لهم وتذكير إلا استمعوه وهم يلعبون استهزاءًا ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ والمعنى: أنهم وإن فطنوا فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفطنوا أصلًا، وثبتوا على رأس غفلتهم وسهوهم وذهولهم عن التأمل والتبصر بقلوبهم[2].

فاللهو والتشاغل عن ذكر الله من صفات القلوب المريضة التي تحول بين القلب والجد، وإن كنا نرى اللهو في الجوارح، إلا أنه في الحقيقة لو لم يله القلب لما لهى عضو من أعضاء الجسد، أليس القلب رئيسه وسيده المطاع.

٦. الزيغ.

ورد الزيغ في القرآن العظيم في آيات متعددة بلغت ثمانيا منها أربعة متصلة بالقلب، ثنتان منها في سورة آل عمران هما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران:٧-٨].

والثالثة في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾ [التوبة:١١٧].

والرابعة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف:٥].

(١) انظر المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٤٨.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٦٢.

ومعنى الزيغ: الميل عن الاستقامة، والتزايغ: التمايل، ورجل زائغ وقوم زاغة وزائغون[1].

وعلى ذلك فالزيغ إذا أضيف إلى القلوب كان معناه ابتعادها عن الاستقامة، وابتعادها عن الاستقامة يعني: جنوحها إلى الضلال، وقد ورد دعاء المؤمنين ألا يميل سبحانه قلوبهم إلى الباطل بعد أن هداهم للإيمان الحق في قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران:٨].

ومعنى ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: امنحنا من فضلك وكرمك رحمة تثبتنا بها على دينك الحق، إنك أنت الوهاب المتفضل على عبادك بالعطايا والمنح.

وهذا الدعاء[2] يحتمل أن يكون من تمام مقالة الراسخين، ويحتمل أن يكون على معنى التعليم، أي: قولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه بعد إذ هديتنا إلى معالم الحق من التفويض في المتشابه أو الإيمان بالقسمين أو التأويل الصحيح.

يقول الألوسي: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي: لا تضلنا بعد الهداية؛ لأن زيغ القلوب في مقابلة الهداية، ومقابل الهداية الإضلال، وصحة نسبة ذلك إلى الله تعالى مذهب أهل السنة في أفعال العباد الظاهرة.

ومذهب أهل السنة: أن القلب صالح لأن يميل إلى الإيمان، وصالح لأن يميل إلى الكفر، ويمتنع أن يميل إلى أحد الجانبين إلا عند حدوث داعية وإرادة يحدثها الله تعالى، فإن كانت تلك الداعية داعية الكفر فهي الخذلان والإزاغة والصد والختم والطبع والرين والقسوة والوقر والكنان، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن.

وإن كانت تلك الداعية داعية الإيمان فهي التوفيق، والرشاد، والهداية، والتسديد، والتثبيت، والعصمة، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن الكريم.

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي الدرداء، قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقيني قال: اجلس بنا نؤمن ساعة. فيجلس نتذكر الله تعالى على ما يشاء، ثم قال: يا عويمر هذه مجالس الإيمان، إن مثل الإيمان ومثلك كمثل قميصك، بينا أنت قد نزعته إذ لبسته، وبينا أنت قد لبسته إذ نزعته، يا عويمر للقلب أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا[3].

والإزاغة عقوبة ربانية لكل من اجترأ على الله عز وجل. يقول القرطبي: «هذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٧.
(٢) .انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٩٣.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٣/ ٩٠.

وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران»[1].

ومن عدله سبحانه وإحسانه أن رتب عقابه بالإزاغة على إجرام العبد في حق نفسه بالزيغ ابتداءً. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

أي: فلما أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذي جاء به عليه الصلاة والسلام واستمروا عليه ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو العمى والضلال[2].

فهم أولًا مالوا عن الحق فكان المترتب عليه إمالة الله لقلوبهم عن الهدى.

وقيل: فلما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعة الرب خلق الله الضلالة في قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم[3].

وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى[4].

يقول العلامة الفخر: «اعلم أن تطهير القلب عما لا ينبغي مقدم على تنويره بما ينبغي، فهؤلاء المؤمنون سألوا ربهم أولًا أن لا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل والعقائد الفاسدة، ثم إنهم ابتغوا ذلك بأن طلبوا من ربهم أن ينور قلوبهم بأنوار المعرفة وجوارحهم وأعضائهم بزينة الطاعة[5].

ثالثًا: القلب الميت.

ويتصف هذا القلب المريض بعدة صفات، منها:

١. العمى.

من أمراض القلوب العمى، والعمى كما يقول الراغب: يقال في افتقاد البصر والبصيرة، ويقال في الأول: أعمى، وفي الثاني: أعمى وعمٍ، فمن الأول: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس:٢].

ومن الثاني: ما ورد من ذم العمى في القرآن، نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة:١٨].

وقوله: ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ [المائدة:٧١].

بل لم يعد افتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة عمى، وجمع أعمى: عميٌ وعميان، وهو يحتمل لعمى البصر والبصيرة معًا[6].

وعند ابن فارس: «العين والميم والحرف

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٣.
والمقصود بالآية في كلام القرطبي، آل عمران رقم ٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٨/ ٨٥.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٨٢.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣١٣.
(٥) المصدر السابق ٧/ ١٩٦.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٤٨.

المعتل أصل واحد يدل على ستر وتغطية[1].

وقد ورد العمى مقترنا بالقلب في الاستعمال القرآني في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

يخاطب المولى تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أهل مكة، وكل من على شاكلتهم، فيقول: أفلم يسيروا: أي: يسافروا ويرتحلوا ويسيحوا في الأرض؛ ليشاهدوا ما حل بالكافرين من هلاك ودمار فيعتبروا بهم وبما حل بديارهم، وهلا عقلوا ما يجب أن يعقل من الإيمان والتوحيد فتكون لهم آذان يسمعون بها المواعظ الزاجرة، فليس العمى على الحقيقة عمى البصر، ولكن العمى عمى البصيرة. فكم من مبصر حسيًا كزرقاء اليمامة[2] حدة في الإبصار، ولكنه أعمى في ذات الوقت فلا يرى الحق فيهتدي ولا الباطل فيجتنب.

ويعبر الإمام الغزالي بعباراته المتفردة عن العمى فيقول: «المعاصي دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبًا عن الله.

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين، ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا، ويصير مقصور الهم عليها، فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن، ولم يستقر في القلب، ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة:١٣]»[3]

أقوال العلماء في عمى القلب، أعاذنا الله منه.

يقول المحقق الألوسي أثناء تفسيره آية الحج السالفة: «لا يعتد بعمى الأبصار، وإنما يعتد بعمى القلوب، فكأن عمى الأبصار ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب، فالكلام تذييل لتهويل ما أبهم من عدم فقه القلب، وأنه العمى الذي لا عمى بعده، بل لا عمى إلا هو.

أو المعنى: أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها، وإنما العمى بقلوبهم، فكأنه قيل: أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب ذات بصائر، فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بإبصار عيونهم، وهي الآفة التي كل آفة دونها، فكأنه يحثهم على إزالة المرض،

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٣٣.
(٢) كانت امرأة عربية حادة البصر تنظر إلى مسافة بعيدة على غير قياس، فكانت مضرب المثل في قوة الإبصار.
انظر: خزانة الأدب ٢/ ٣١٩.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢.

وينعي عليهم تقاعدهم عنها»[1].

قال قتادة: البصر الناظر جعل بلغةً ومنفعة، والبصر النافع في القلب.

وقال مجاهد: لكل عين أربع أعين [يعني لكل إنسان أربع أعين] عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئًا، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئًا.

نتابع الكلام حول قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾[الإسراء:٧٢].

سبق تفسير هذه الآية بما قاله الإمام القرطبي «من أن من كان في هذه الدنيا أعمى بقلبه عن الإسلام وإبصار الحق فهو في الآخرة في النار، وهذا عين الإنصاف؛ لأنه لا ذنب للأعمى فيما حل به.

قال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال: اقرؤوا ما قبلها: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۚ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء:٦٦-٧٠].

قال ابن عباس رضي الله عنه: من كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يعاين أعمى وأضل سبيلًا.

قال الحسن: من كان في هذه الدنيا أعمى عن حجج الله البالغة بعثه الله يوم القيامة أعمى، كما قال سبحانه: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

وقيل: فهو في الآخرة أعمى: أي: أشد عمى؛ لأنه من عمى القلب، ولا يقال مثله في عمى العين[2].

بقيت فائدة تخص ذكر الصدور وكونها مكان القلوب قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ومعلوم أن القلب مكانه الصدر بداهة، فما الفائدة المترتبة على ذكر ﴿ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾؟

والجواب على ذلك يكفينيه جار الله الزمخشري طيب الله ثراه، فيقول:

«الذي قد تعورف عليه واعتقد أن العمى

(١) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ١٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٩٨.

على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب استعارة، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الإبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف؛ ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار، كما يقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت؛ لأن محل المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهوًا مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمدًا»[1].

إذن فذكر الصدر جاء على سبيل التأكيد وزيادة التعيين والتعريف، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران:١٦٧].

وقولك: «نظرت بعيني رأسي».

نخلص إلى حقيقة الحقائق، وهي أن العمى على سبيل الحقيقة الشرعية هو في القلب، ويكون حسيًا في العين، ولكن لا أثر له مع نور القلب، أعاذنا الله من العمى والعمه، ونسأله أن ينور بصائرنا بنوره.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

٢. الران.

مما يميت القلب ـ والعياذ بالله ـ تغشيه بالران، وللإمام الفخر الرازي تفصيلات تخص معنى الران ذكرها من خلال أهل اللغة وأهل التفسير فيقول: «ولأهل اللغة في تفسير لفظة الرين وجوه، ولأهل التفسير وجوه أخر.

أما أهل اللغة فقال أبو عبيدة: ران على قلوبهم: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرين على الميت فيذهب به.

قال الليث: ران النعاس والخمر في الرأس إذا رسخ فيه، وهو يرين رينًا وريونًا.

قال أبو زيد: يقال: رين بالرجل يران به رينًا إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه.

قال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يسود القلب من الذنوب، وهو كالصدأ يغشى القلب، ومثله العينين.

والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين.

والإقفال: أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب.

وأما أهل التفسير فلهم وجوه: منها: أنه هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه، فيموت القلب.

ومنها أن القلب كالكف فإذا أذنب الذنب انقبض، وإذا أذنب ذنبًا آخر انقبض وضم

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧.

أخرى ـ حتى ضم أصابعه كلها ـ ثم يطبع عليه، وهو الرين.

والإنسان إذا واظب على الإتيان ببعض أنواع الذنوب حصلت في قلبه ملكة نفسانية على الإتيان بذلك الذنب، ولا معنى للذنب إلا ما يشغلك بغير الله، وكل ما يشغلك بغير الله فهو ظلمة فإذن الذنوب كلها ظلمات وسواد، ولكل واحد من الأعمال السالفة التي أورث مجموعها حصول تلك الملكة أثرٌ في حصولها، فذلك هو المراد من قولهم: كلما أذنب الإنسان حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب، ولما كانت مراتب الملكات في الشدة والضعف مختلفة لا جرم كانت مراتب هذا السواد والظلمة مختلفة، فبعضها يكون رينًا، وبعضها يكون طبعًا، وبعضها إقفالًا.

قال القاضي الباقلاني: ليس المراد من الرين أن قلبهم قد تغير وحصل فيه منع، بل المراد أنهم صاروا لإيقاع الذنب حالًا بعد حال متجرئين عليه، وقويت دواعيهم إلى ترك التوبة وترك الإقلاع فاستمروا وصعب الأمر عليهم؛ ولذلك بين أن علة الرين لا تمنع من الإقلاع والتوبة[1].

ولقد فسرت السنة النبوية المطهرة الران بالسواد الذي يعلو القلب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾)[2].

إذن فالران ظلمة وسواد تحول بين القلب ومعرفة الحق أو الاعتراف به. نسأل الله العافية.

والران في الاستعمال القرآني جاء في معرض الحديث عن الفجار في قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين:٧-١٤].

تتحدث هذه الآيات عن الأشقياء الفجار، وتصور جزاءهم في الآخرة، فيقول الله عز وجل ردعًا وزجرًا للمطففين: ﴿كَلَّا﴾ وهي للردع والزجر لهم عن غفلتهم عن البعث والجزاء، إن كتاب الأشقياء لفي مكان ضيق سحيق ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ وهو مأخوذ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٩٥-٩٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة ويل للمطففين، ٥/ ٤٣٤، رقم ٣٣٣٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٢، رقم ١٦٧٠.

من السجن، وهو الضيق ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ وهل تعلم ما هو سجين ؟ استفهام في غاية التهويل والتعظيم. ثم يجيب سبحانه وتعالى ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ ومكتوب لا ينسى ولا يمحى.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هلاك ودمار للمكذبين الذين يكذبون بيوم الجزاء والحساب؛ لأنه لا يكذب به إلا كل متجاوز للحد في الكفر والضلال مبالغ في العصيان والطغيان.

هذا المكذب إذا تتلى عليه آيات القرآن قال: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: حكايات وأقاصيص وخرافات الأوائل سطروها وحبروها في كتبهم، ثم يأتي الردع لهذا المعتدي الأثيم عن قوله المتجرئ فيه على ربه تكذيبًا له: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ بيان ما أدى بهم إلى التفوه بتلك المقالة الباطلة: أي: ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها مثل تلك المقالة الباطلة، بل ركب قلوبهم وغلب عليها ما استمروا على اكتسابه من الكفر والمعاصي حتى صار كالصدأ في المرآة، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق؛ فلذلك قالوا ما قالوا[1].

نسأل الله معافاته.

٣. الكفر.

من أخطر أسباب موت القلب الكفر.

وقد وردت مادة الكفر في القرآن العزيز مرتبطة بالقلب في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾ [البقرة:٩٣].

هذه آية من آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن بني إسرائيل وفظائعهم الفاضحة، فقد أخذ الله عليهم العهد المؤكد ـ عن طريق رسله وأنبيائه ـ على العمل بما في التوراة، وقد تهددهم الله تعالى برفع الطور فوقهم فعلًا، قائلًا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ أي: بعزم وحزم، وإلا طرحنا الجبل فوقكم ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ سماع طاعة وقبول، فكان جوابهم: سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: خالط حب العجل قلوبهم حتى امتزج بدمائهم، ودخل السويداء، كما يدخل الصبغ في الثوب، والماء في العود الأخضر، كل ذلك بسبب ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ قل لهم يا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ كما تزعمون[2].

يقول الألوسي: «وذكر القلوب لبيان مكان الإشراب، وذكر المحل المتعين يفيد المبالغة في الإثبات.

(١) انظر: روح المعاني الألوسي ٣٠/ ٧٢.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٧٩.

وأشربوا من الشراب، ومن عادة العرب أنهم إذا عبروا عن مخامرة حب أو بغض استعاروا له اسم الشراب، إذ هو أبلغ منساغ في البدن؛ ولذا قال الأطباء: الماء مطية الأغذية والأدوية ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن[1].

وقريب منه «السلك» في الآية الأخرى، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر:١٢].

والسلك: إدخال الشيء في الشيء، كإدخال الخيط في المخيط.

والمعنى: كذلك نسلكه -أي: الضلال والكفر والاستهزاء والشرك- في قلوب المجرمين من قومك، قاله الحسن وقتادة، أو نسلك القرآن في قلوبهم فيكذبون به.

وأعظم أنواع الكفر: جحود الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، وهو ما ينطبق على الآية التي نحن بصددها، وعلى كلٍ فالكفر من أحط أمراض القلوب، فليس بعد الكفر ذنب، أعاذنا الله والمؤمنين منه[2].

٤. النفاق.

من الأمراض التى تقضي على القلب فتؤدي به إلى الموت: النفاق، والنفاق يطلق على الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧].

أي: الخارجون من الشرع، وجعل الله المنافقين شرًّا من الكافرين. فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥][3].

وقد وصف النفاق في الاستعمال القرآني بالمرض، والمرض يعرف بأنه: حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل، وقد يطلق المرض لغة على أثره، وهو الألم، وعلى ضعف القلب وفتوره، وعلى كل ما يعرض للمرء مما يخل بكمال نفسه، كالبغضاء، والغفلة، والغل، والحسد، وسوء الاعتقاد والهوى، وغير ذلك من موانع الكمالات المشابهة لاختلال البدن المانع عن الملاذ، والمؤدية إلى الهلاك الروحاني، الذي هو أعظم من الهلاك الجسماني.

والمنقول عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة وسائر السلف الصالح: حمل المرض في الآية على ما يخل بكمال النفس، ولا شك أن قلوب المنافقين كانت ملأى من تلك الخبائث التي منعتهم مما منعتهم، وأوصلتهم إلى الدرك الأسفل من النار[4].

(١) روح المعاني، الألوسي ١/ ٣٢٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧١٤.
(٣) المصدر السابق ص٨١٩.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١/ ١٤٩.

فالمرض: إما آفة في الإدراك، كسوء الاعتقاد والكفر، وإما الهيئة الباعثة على ارتكاب الرذائل، كالغل والحسد والبغض، أو المانعة عن اكتساب الفضائل، كالضعف والجبن والخور.

وكل ذلك كائن موجود في المنافقين، حيث تأصل فيهم سوء الاعتقاد الذي أدى إلى ارتكاب الرذائل، الذي يؤدي بدوره إلى المنع من اكتساب الفضائل، ففساد اعتقادهم أدى بهم إلى الحقد والغل والحسد لدرجة أن صدورهم كانت تغلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين غلًا وحنقًا، فهم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران:١٢٠].

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨].

ومن أفدح أنواع الأمراض وأخطرها مرض النفاق، وقد جاء في الاستعمال القرآني مقترنا بالقلب في آيات منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة:٨-١٠].

هذه الآيات من سورة البقرة جاءت عقب ذكر صنفين من الناس.

يقول القاضي البيضاوي: «لما افتتح الله تعالى بشرح حال الكتاب، وساق بيانه، ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهرًا وباطنًا، وثلث بالمذبذبين بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلًا للتقسيم، وهم أخبث الكفرة، وأبغضهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعًا واستهزاءً؛ ولذلك طول في بيان خبثهم وجهلهم واستهزأ بهم، وتهكم بأفعالهم، وسجل عليهم عمههم وطغيانهم، وضرب لهم الأمثال، وأنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]»[(١)].

فوائد مهمة متعلقة بالنفاق:

الفائدة الأولى: المرض جاء منونا في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠].

فما الحكمة من ذلك ؟ قلت: قال المحقق الألوسي: «جاءت كلمة ﴿مَّرَضٌ﴾ بالتنوين: للدلالة على أنه نوع غير ما يتعارفه الناس من الأمراض»[(٢)] وقد زاد الله مرضى القلوب بآفة النفاق مرضا ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ فما سبب هذه الزيادة

(١) أنوار التنزيل ١/ ٤٦١.
(٢) روح المعاني ١/ ١٤٩.

؟ قلت: الجواب: أنه كلما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعوه كفروا به فازدادوا كفرًا إلى كفرهم، أو كلما نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ازدادوا حسدًا وغلًا وبغضًا، وازدادت قلوبهم ضعفًا وخورًا، وهذا زيادة في المرض[1]

الفائدة الثانية: معلوم أن مرض النفاق مجمع على ظهوره بالمدينة، فكيف تناوله القرآن المكي ؟

قال سبحانه وتعالى في سورة المدثر المكية: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

والجواب: أن الله تعالى أخبر في هذه الآية المكية عما سيقع من المنافقين، وعلى هذا نعتبر هذه الآية معجزة؛ لأنه إخبار عن غيب سيقع، وقد وقع على وفق الخبر، فيكون معجزًا، ويجوز أن يراد بالمرض: الشك؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين، وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب.[2] ويمكن أن يكون المراد بالمرض ما هو مترتب على عداوة الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم من كراهية وغل وحقد وحسد وضغينة وحبٌ، لأن يغلب فكل هذه أمراض لا مانع من وجودها في القلب مع الكفر.

الفائدة الثالثة: كثيرًا ما يفسر النفاق بالشك في حين أن آية النور يقول منطوقها: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾ [النور:٥٠] ومعروف أن المرض مرض النفاق، فكيف نوفق بين حمل القرآن للمرض على أنه النفاق ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: نفاق، وبين تفسير النفاق بالشك مع وجود هذه الآية الكريمة؟

يقول الألوسي: «هذا ترديد لسبب الإعراض المذكور، فمدار الاستفهام ما يفهم من الكلام كأنه قيل: أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم أنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم، أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا في أمر نبوته صلى الله عليه وسلم مع ظهور حقيقتها، أم سببه أنهم يخافون أن يحيف ويجور الله تعالى شأنه عليهم ورسوله صلى الله عليه وسلم والاستفهام إنكاري»[3].

ويقول الرازي: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إشارة إلى النفاق ﴿ارْتَابُوا﴾ إشارة إلى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الإسلام في القلب[4].

ففسر المرض بمرض يقوم بأعيانهم، أو المرض: الكفر، والريب: النفاق، أو المرض: الكفر، والريب شيء حدث بعد تقرير الإسلام في القلب.

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ١٧٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٢٠٧.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٨/ ١٩٦.
(٤) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٢١.

الفائدة الرابعة: ما معنى ذكر النفاق والمرض في موضع واحد؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب:١٢].

وقال أيضًا: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب:٦٠].

وظاهر العطف أن الذين في قلوبهم مرض قوم لم يكونوا منافقين، فقيل: هم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم، وقيل: قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام.

وجوز أن يكون المراد بهم المنافقين أنفسهم، والعطف لتغاير الوصف كقولهم: «إلى الملك القرم وابن الهمام» سواء جعل العطف تفسيريًا، أو فسر مرض القلوب بالإحن والعداوات والشك مما هو غير النفاق، وعلى هذا فهم فريق واحد إلا أن لهم اعتبارات متعددة: المرض، الإرجاف، الارتياب، التردد.

وهذا نظير قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥].

حيث ذكر أصنافًا عشرة كلهم يوجد في واحد منهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار[1].

خلاصة القول: أن المرض من أعظم آفات القلوب فتكًا بمن تمكن منه، وأكثر ما يفسر بالنفاق والشك والشهوة، وغير ذلك، ولكنه غلب على النفاق نسأل الله معافاته.

(١) انظر: الكشاف الزمخشري ١/ ١٧٦، روح المعاني الألوسي ٢١/ ١٥٨.

سنة الله في أصحاب القلوب

أولًا: سنة الله في أصحاب القلوب السليمة:

تناولنا فيما سبق صفات القلوب في الاستعمال القرآني من حيث السلامة والمرض والموت، ومما لا شك فيه أن القلوب ليست هي الغايات بل أصحابها بنص القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

فالذي يحمل قلبا مخلصا لا شرك فيه ولا شبهة ينتفع به في الآخرة.

من هنا يجدر بنا أن نبين سنة الله وعادته في أصحاب القلوب على اختلاف أوصافها ليعيش المسلم بين الخوف والرجاء، الخوف من هلاك القلب وخسران صاحبه، والرجاء في مزيد من الطاعة ليفوز فوزًا عظيمًا.

وبناء على ما تقدم نستطيع استجلاء سنة الله وعادته مع أصحاب القلوب السليمة، وكونه سبحانه وتعالى يرزقهم من عطاياه الجزيل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيهبهم:

- الطمأنينة وسكون النفس وراحة البال.
- ويرزقهم الله عز وجل الخوف منه، فلا يقدمون على معصيته، ولا يجترئون على منكر.
- ويغرس فيهم الرأفة والرحمة والشفقة.
- ويمنحهم الله الطهر والنقاء وصفاء السريرة.
- كما يرزقهم الله الإخبات والخشوع والتذلل لجناب الحق - جل وعلا - ويغرس في قلوبهم الإيمان غرسًا.
- كما يحبوهم الله ألفة، وما أدراك ما الألفة ؟ إنه سمت المسلم وسمته.
- كما يعطيهم الله التقوى والإنابة وكثرة الرجوع إليه سبحانه.
- كذلك الهدى والرشاد، وكفى بهما ظفرًا لصاحبهما.
- كذلك يرزقهم الله القوة في الصدع بالحق، فلا يخافون من مخلوق البتة.
- كذلك يرزقهم الله ليونة وطواعية تجعل صاحب القلب السليم حيًا يتأثر بالمواقف وينفعل بها.
- كذلك الفقه، ونعمة الفهم، وأجزل بهما من عطاء لصاحب القلب السليم المستقيم.

هذه نعم حياتية نستطيع استشفافها من خلال آيات القرآن الكريم التي تقدم ذكرها في صفات القلوب السليمة من هذا البحث.

أما في الآخرة: فكفى صاحب القلب السليم شرفًا وفضلًا أن الله أعد له الجنة، وأعد له فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر، ومن كان جزاؤه الجنة فقد رضي الله عنه، وفاز فوزًا عظيمًا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ولما كان مآل أصحاب القلوب السليمة مفسرًا واضحًا فلا يحتاج إلى مزيد بيان وترغيب، اكتفيت بما ذكرته سابقًا مفصلًا، ولاحقًا مجملًا؛ لأسير على سنن القرآن وهديه، حيث إن الله عز وجل لم يفصل الحلال المباح ولكن فصل ما حرم علينا فحسب؛ لنتوقاه، وفي توقيه خروج من ضيق الحرام والمعصية إلى سعة الحلال الطيب.

ثانيًا: سنة الله في أصحاب القلوب المريضة:

اقتضت حكمة الله تعالى ألا يعاجل من عصاه بالنقمة، بل يمهله لعله يتوب ويتدارك أمره.

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧].

وفي الصحيحين: (إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته). ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢] الآية[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٨] فمن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:١١٠].

ومن أمن العقاب أساء الأدب وكان جزاؤه ما يستحقه.

ومرضى القلوب إن لم يتداركوا مرضهم فإن سنة الله تعالى فيهم أن يزيد علتهم عللًا، وأمراضهم مرضًا، ويطمس على بصيرتهم بتسليط الرجس، والصرف على قلوبهم مما يفضي إلى هلاكها.

١. الرجس.

وهو عقاب يصيب به الله تعالى أصحاب القلوب المريضة ليزيدهم به مرضا على مرضهم، وقد اقترن بالقلب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة)، رقم ٤٣١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٣.

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة ١٢٤-١٢٥].

في حق المنافقين نزلت هذه الآية وما بعدها، والمعنى: فإذا أنزلت سورة من سور القرآن فمن هؤلاء المنافقين من يقول استهزاءً: أيكم زادته هذه إيمانًا، فأما الذين آمنوا فزادتهم تصديقًا على ما فيهم من تصديق، وذلك بزيادة الأدلة والبراهين، وأما الذين في قلوبهم مرض النفاق والشك فزادتهم نفاقًا إلى نفاقهم وكفرًا إلى كفرهم، وماتوا على ذلك.

والقذر هنا في الاعتقاد الفاسد؛ لذا فسر الرجس في الآية بالعقائد الفاسدة الباطلة، أو الأخلاق المذمومة.

فإذا كان الأول كان المعنى: أنهم كانوا مكذبين بالسور النازلة قبل ذلك، والآن صاروا مكذبين بهذه السورة الجديدة، فقد انضم مرض عقدي إلى مرض عقدي.

وإن كان الثاني كان المراد أنهم كانوا في الحسد والعداوة واستبطان وجوه المكر والكيد، والآن ازدادت تلك الأخلاق الذميمة بسبب نزول هذه السورة الجديدة[1].

وكفى بالقذر نهاية للقلوب المريضة والعياذ بالله.

٢. الصرف.

الصرف مرض يصيب القلب ليزداد ضلالًا.

وقد اقترن الصرف بالقلوب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة:١٢٧].

والآية تخبر أن المنافقين كانوا إذا أنزلت سورة تفضح النفاق والمنافقين، وهم في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينظر بعضهم إلى بعض مستقرئين حال الجالسين، متحينين الفرصة للهرب والانصراف، فهم لا يطيقون سماع مذمتهم وفضيحتهم، فإذا وجدوا الأمر على ما يريدون انصرفوا وقاموا ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ وهذه جملة دعائية، أي: صرفها عن الهدى والإيمان ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الحق ولا يتدبرون.

فالصرف هنا: دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح بسبب أنهم قوم لا يفقهون[2].

وهو خذلان وإضلال للمنافقين ومن على شاكلتهم من أصحاب القلوب المريضة.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٢٣٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٢٣.

ثالثًا: سنة الله في أصحاب القلوب الميتة:

سنة الله في أصحاب القلوب الميتة أنه سبحانه وتعالى يذيقها من صفات العذاب ما يزيدها عزلة واحتجابًا، حتى أصحابها فمن الإرعاب إلى الطبع إلى الختم إلى القفل و الكنان.

١. الرعب.

الرعب: أصله التقطيع، من قولهم: رعبت السنام ترعيبًا إذا قطعته مستطيلًا، كأن الخوف يقطع الفؤاد، أو يقطع السرور بضده، ورعب السيل الوادي إذا ملأه، كأن السيل قطع السلوك فيه، أو لأنه انقطع إليه من كل الجهات [(١)].

وقد ورد الإرعاب مقترنا بالقلب كعقوبة لأصحاب القلوب الميتة في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال:١٢-١٣].

والمعنى: اذكر يا محمد وقت إيحاء الله للملائكة بقوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ثبتوا المؤمنين وقووهم، سأقذف في قلوب الكافرين الخوف والفزع حتى ينهزموا، فاضربوهم على الأعناق واضربوا منهم كل بنان، وهذا في غزوة بدر الكبرى.

والمعنى عليه: سنملأ قلوب المشركين خوفًا ورعبًا، هذا الخوف والرعب يكاد يقطعهم عن الحياة لقسوته.

يقول الفخر الرازي مبينًا وجه الربط بين سابق هذه الآية واللاحق: «وهذا من النعم الجليلة؛ وذلك لأن أمير النفس هو القلب، فلما بين الله سبحانه وتعالى أنه ربط قلوب المؤمنين بمعنى أنه قواها وأزال الخوف عنها، ذكر أنه ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين، فكان ذلك من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين [(٢)].

ومن فضل الله سبحانه وتعالى علينا جعله سبحانه الرعب في قلب كل من لا يسلم وجهه لله.

يقول الفخر: «وظاهر قوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران:١٥١].

يقتضي وقوع الرعب في جميع الكفار، فذهب العلماء إلى إجراء هذا العموم على ظاهره؛ لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه ضرب من الرعب من المسلمين،

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ١٣٩.

إما في الحرب وإما عند المحاجة»[1].

ومن الملاحظ أن الإلقاء في آية آل عمران ﴿سَنُلْقِي﴾ وآية الأنفال ﴿سَأُلْقِي﴾ مفسر بالقذف في سورة الأحزاب، قال تعالى في معرض حديثه سبحانه عن غزوة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب:٢٥-٢٦].

وأصل القذف: الرمي بقوة، أو من بعد، وعليه يكون المعنى: وأنزل الله الرعب في قلوب بني قريظة إنزالًا شديدًا كأنه قد قذف الحجارة فيها، وهذا ما حدث فعلًا عندما قذف الله الرعب في قلوب اليهود حتى أسلموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وأولادهم للأسر حسبما نطق القرآن العزيز: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب:٢٦].

وما في سورة الأحزاب هو ما ازداد وضوحًا وبيانًا في سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر:٢].

وقد كان هذا الإرعاب لليهود بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، وكان مقتله في ربيع الأول من السنة الثالثة، وكانت غزوة بني النضير في ربيع الأول من السنة الرابعة، وسبب قتله أنه لما رأى ما وقع في غزوة بدر من عز الإسلام والمسلمين ازداد اللعين غيظًا وحسدًا، وكان شاعرًا فصار يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين بشعره، وذهب إلى مكة محرضًا قريشًا على حرب المسلمين وحزبهم، فجاؤوا في وقعة أحد، فلما ظهر أمره للنبي صلى الله عليه وسلم أرسل له محمد بن مسلمة ومعه أربعة، وكلهم من الأوس، فقتلوه في حصنه غيلة وخديعة، فألقى الله الرعب في قلوب بني النضير، وخافوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفًا شديدًا، فغزاهم صلى الله عليه وسلم وأمكنه الله منهم.

وكان الإشراك سببًا لإلقاء الرعب وقذفه في قلوبهم، أليس الشرك من موجبات الخذلان، كما أن الإيمان من موجبات التوفيق والنصر؟![2].

والخلاصة أن الرعب يقذفه الله تعالى غالبا في قلوب أصحاب القلوب الميتة جزاءًا وفاقًا.

(١) المصدر السابق ٩/ ٣٣.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٨/ ٤١.

٢. الحسرة.

من سنن الله في أصحاب القلوب الميتة أن يجعل الحسرة والندامة صفة لهم تلازمهم، وذلك حين لا ينفع التحسر أو الندم، والحسرة: الغم على ما فاته، والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، أو انحسر قواه من فرط غم، أو أدركه إعياء من تدارك ما فرط منه [(١)].

وقد وردت الحسرة مقترنة بالقلب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران:١٥٦].

معنى الآية: لما كان من طبيعة المنافقين تعيير المؤمنين على جهادهم مع الكفار بقولهم: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ ثم إنه لما ظهر عند بعض المؤمنين فتور وفشل في الجهاد حتى وقع يوم أحد ما وقع، وعفا الله ـ بفضله ـ عنهم، ذكر في هذه الآية ما يدل على النهي عن أن يقول أحد من المؤمنين مثل مقالتهم، فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لمن يريد الخروج إلى الجهاد: لو لم تخرجوا لما متم، وما قتلتم، فإن الله هو المحي والمميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد، ومن قدر له الموت لم يبق، وإن لم يجاهد، وهو المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وأيضًا الذي قتل في الجهاد حتى يستوجب الثواب العظيم كان ذلك خيرًا له من أن يموت من غير فائدة.

وهو المراد من قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران:١٥٧] [(٢)].

وذكر القلوب مع أن الحسرة لا تكون إلا فيها لإرادة التمكن والإيذان بعدم الزوال [(٣)].

أو الاهتمام على فائت لم يقدر بلوغه قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر: ٥٦].

وإسناد الفعل إلى الله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ له نكتة، وهي كما يقول جار الله الزمخشري رحمه الله: «فإن قلتَ: ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟

قلتُ: معناه: أن الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم ويضيق صدورهم عقوبة، فاعتقادهم فعلتهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق الصدور فعل الله عز وجل كقوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٩.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٠١.

ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دل عليه النهي، أي: «لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم؛ لأن مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادتهم مما يغمهم ويغيظهم»[1].

فالحسرة والندامة عقوبة لازمة لمن مات قلبه.

٣. الشد.

الشد على القلب عقاب لمن مرض قلبه حتى أجهز عليه فمات.

ومعنى الشد على القلوب: الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان[2].

وقد جاء الشد مقرونًا بالقلب في الاستعمال القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٨-٨٩].

والمعنى: قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه زينة من متاع الدنيا وأنواعًا كثيرة من المال.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾: اللام: للعاقبة، أي: آتيتهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك، ربنا أهلك أموالهم وأزلها وبددها.

والطمس: إزالة أثر الشيء بالمحو.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اطبع عليها وقسها حتى لا تنشرح للإيمان فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وهذا دعاء عليهم بلفظ النفي، أي: اللهم فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم، ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم ولعلمه بالوحي أنهم لن يؤمنوا.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ على فرعون وأشراف قومه فكان الغرق لفرعون وقومه، وثبت الله موسى وأخاه هارون[3].

قال الجمل: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي: اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان[4].

وقال ابن عباس: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ امنعهم الإيمان.

وقيل: اطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان[5].

وكل هذه المعاني مختلفة اختلاف تنوع لا اختلاف تعارض بينها.

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٧٤.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٥٠.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٥٩٥.
(٤) الفتوحات ٣/ ٤٠٤-٤٠٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٧٤.

٤. الطبع.

من سنة الله في أصحاب القلوب الميتة أنه سبحانه يطبع عليها.

والطبع: يطلق على تأثير الشيء بنقش الطابع، وعلى الأثر الحاصل عن النقش، يقول الراغب: الطبع: أن تصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة وطبع الدراهم، وهو أعم من الختم وأخص من النقش، والأكثرون على تفسيره بالختم مرادًا به المنع.

وجاء الطبع بمعنى: الدنس، ومنه طبع السيف لصدئه ودنسه[(١)].

وقد سوى بعض العلماء بين الطبع والختم والرين كما يقول الفخر: «الطبع، والختم، والرين، والكنان، والغشاوة، والصد، والمنع، واحد»[(٢)].

قلت: لعله أراد التوحد من حيث انتظام هذه الأوصاف تحت شيء واحد، ألا وهو العقاب لأصحاب القلوب الميتة، أما من حيث دلالات الألفاظ وما تحمله، فمن المقطوع به أن كل لفظ له دلالته وظلاله التي اختص بها.

وقد ترتب على الطبع عدة آفات، منها:

- عدم السمع: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:١٠٠].
- عدم الفقه: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨٧].
- عدم العلم: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٩٣].

وبالتأمل وجدنا أن عدم السمع وعدم الفقه، وعدم العلم يعني: اتباع الهوى والغفلة التامة، والاعتداء على حدود الله، وذلك كله مردود إلى الطبع.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٦].

وقال سبحانه وتعالى في الغافلين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل:١٠٨].

وقال سبحانه وتعالى في المعتدين: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:٧٤].

وكل ذلك كائن عند الكافرين الذين استجمعوا كل صفات المهانة والقبح، فقال عز من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠١].

وقد ورد الطبع في الاستعمال القرآني في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٥٧.

﴿يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف:١٠٠-١٠١].

يخاطب الله سبحانه وتعالى كفار مكة وكل من يصلح له هذا الخطاب محذرًا بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي: أولم يتضح ويتبين للذين يخلفون الأرض من بعد هلاك أهلها الذين عمروها قبلهم أن لو أردنا إهلاكهم لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من كان قبلهم، ونطبع: أي نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يقبلون موعظة ولا تذكيرًا لتعطلها.

تلك القرى نقص عليك يا محمد صلى الله عليه وسلم من أخبارها وما حصل لأهلها من صنوف النكال والعذاب ليعتبر بذلك من يسمع، ولقد جاءتهم رسلهم بالحجج البينات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل؛ لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات، وبعد مجيئهم بها، فحالهم واحد في العتو والضلال.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين، فلا تكاد تؤثر فيهم النذر والآيات.

أعاذنا الله بفضله وكرمه من الطبع ومن كل ما يقرب إليه من قول أو عمل.

[انظر: الطبع على القلوب: أسباب الطبع - نتائج الطبع على القلوب]

٥. الختم.

من سنة الله تعالى في أصحاب القلوب الميتة «الختم عليها».

تناول المفسر القرطبي الختم تناولا لغويا فقال: «مصدر ختمت الشيء ختمًا فهو مختوم، ومختم» شدد للمبالغة «ومعناه: التغطية على الشيء بطابع ونحوه للاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه: ختم الكتاب والباب، وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه، والختم يكون محسوسًا، ويكون معنويًا.

وكما يكون الختم على القلوب الذي يعني: عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته، يكون على السمع: فيفسر بعدم السماع للحق، ويكون على الأبصار: ويفسر بعدم هدايتها للنظر في مخلوقات الله وعجائب مصنوعاته [(١)].

وسبب الختم استمراء المعاصي والولوغ فيها واستحسانها.

يقول الراغب: أجرى الله العادة أن الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل وارتكاب

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٨٦.

محظور فلا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي، وكأنما يختم بذلك على قلبه، وعلى ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل:١٠٨].

إطلاقات الختم:

يطلق الختم على: المنع، والطبع، والحفظ، وبلوغ الآخر.

٤. **المنع**: وذلك بالاستيثاق من الشيء والمنع منه اعتبارًا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [يس:٦٥]. أي: نمنع أفواههم من الكلام.

٥. **الطبع**: الحفظ: كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى:٢٤]. أي: يربط على قلبك ويحفظه وهذا المعنى ليس مرادًا هنا.

٦. **بلوغ الآخر**: ومنه ختمت القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين:٢٦]. أي: آخره[(١)].

وقد فسر الختم في آية الأنعام، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [الأنعام:٤٦].

بالطبع، فقال: طبع على قلوبهم فلم يعقلوا الهدى، أو أزال عقولكم حتى تصيروا كالمجانين، أو المراد بالختم الإماتة، أي: يميت قلوبكم، وكله في معنى الطبع[(٢)].

وقد وردت صفة الختم في آيات متعددة من القرآن الكريم مقترنة بالقلب، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٦-٧].

والمعنى: إن الذين جحدوا بآيات الله سبحانه وكذبوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم يتساوى عندهم تحذيرك يا محمد إياهم من عذاب الله وتخويفك وعدم تحذيرك، فهم لا يصدقون بما جئتهم به، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وقد جاء هذا على سبيل التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له.

ولما حكم سبحانه وتعالى عليهم بأنهم لا يؤمنون ذكر عقيبه ما يجري مجرى العلة الموجبة له، فقال سبحانه وتعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: طبع على قلوبهم فلا يدخلها نور ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ وغطاء فلا يبصرون الهدى ولا يسمعون ولا يفقهون؛ لذلك يرون الحق فلا

(١) انظر: الوجوه والنظائر ١/ ٣٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٣٩.

يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه، ولهم عذاب شديد لا ينقطع في الآخرة.

وقد شنع الإمام القرطبي على الفرق الضالة التي حادت عن الحق متنصرًا لأهل السنة والجماعة فيقول: «في هذه الآية أول دليل على أن الله سبحانه وتعالى خالق الهدى والضلال والكفر والإيمان، فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم، فإن الختم هو الطبع، فمن أين لهم بالإيمان ولو جهدوا؟! وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة. فمتى يهتدون؟! أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم؟! ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

وكان فعل الله ذلك عدلًا فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعه حقًا وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم؛ ولأن الأمة مجمعة على أن الله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[النساء:١٥٥]»[1].

وبناءً على ما تقدم نستطيع الجزم بأن الختم كما هو للحفظ والمنع يكون للطبع؛ عقوبة لصاحبه الذي أهمل قلبه حتى مات ثم استمرأ ذلك.

أعاذنا الله من الختم وما يقرب إليه من قول وعمل. آمين.

٦. الكنان.

من سنن الله سبحانه وتعالى في أصحاب القلوب الميتة أنه يضع الأغطية والأغلفة على هذه القلوب فلا تعي شيئًا من الخير البتة.

و الأكنة: الأغطية، جمع كنان، مثل: الأسنة والسنان، يقال كننت الشيء في كنه إذا صنته فيه، وأكننت الشيء أخفيته، والكنانة: معروفة جعبة السهام، والكنان للقلب كالجنة للنبل[2].

وقد ورد الكنان مقترنا بالقلب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء:٤٦].

المعنى: وجعلنا على قلوب الكافرين أغطية وأغلفة؛ لئلا يفهموا القرآن مجازاة لهم على كفرهم، وجعلنا في آذانهم صمما، وإذا وحدت الله وأنت تتلو القرآن فر المشركون من ذلك هربًا من استماع التوحيد.

فكأن الكنان الذي كان على قلوبهم هو في الحقيقة كنان العناد والمكابرة مع تهيؤ نفوسهم للإسلام، وإلا لو غطى الله عليها

(١) المصدر السابق ١/ ١٨٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٣٣٩، ٦/ ٤٠٤.

بغطاء الطبع أو الختم فقد لا يؤمنون البتة ويموتون على الكفر كما حدث لغير من آمن في الوارد ذكرهم في هذا السبب.

وأمرهم هنا -كما قال بعض المحققين- تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جيء بها بيانًا لعدم فقههم فصيح المقال[1].

والأكنة التي هي الأغطية هي هي الأغلفة التي ورد لها ذكر في موضعين من القرآن، منهما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٨].

والغلف: جمع أغلف، وهو الشيء المستور المغشى، قالها اليهود وقصدوا أننا جبلت قلوبنا على ذلك فلا يتوصل إليها بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فقلوبنا لا تفقهه، مستعار من الأغلف، وهو الذي لم يختن[2].

قال مجاهد: غلفٌ: عليها غشاوة. وقال عكرمة: عليها طابع[3].

وقد يكون قول اليهود تعاليًا على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليظهروا أنهم ليسوا في حاجة إلى علمه صلى الله عليه وسلم، ويؤيد هذا المعنى قراءة ﴿غُلُفٌ﴾ بضم اللام[4].

قال ابن عباس رضي الله عنه: أي: قلوبنا ممتلئة علمًا لا تحتاج إلى علم محمد صلى الله عليه وسلم ولا غيره[5].

وهذه الكلمة ﴿غُلْفٌ﴾ كقول المشركين: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥].

قصد بنو إسرائيل إقناط النبي صلى الله عليه وسلم عن الإجابة، وقطع طمعه عنهم بالكلية.

﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ لما قالوه، وتكذيب لهم فيما زعموه.

والمعنى: أنها خلقت على فطرة التمكن من النظر الصحيح الموصل إلى الحق، لكن الله سبحانه وتعالى أبعدهم وأبطل استعدادهم الخلقي للنظر الصحيح بسبب اعتقاداتهم الفاسدة وجهالاتهم الباطلة الراسخة في قلوبهم[6]، فالأكنة والأغلفة جعلها الله عز وجل لمن مات قلبه، كما رأينا في المشركين واليهود.

٧. القفل.

جعل الله القفل واليبس والصلابة عقوبة

(١) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٨٧.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٩٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥.
(٤) قراءة اللؤلؤي عن أبي عمرو. انظر: شواذ القرآن ص١٥.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥.
(٦) روح المعاني، الألوسي ١/ ٣١٨.

لأصحاب القلوب الميتة بالكفر

وأصل القفل: اليبس والصلابة، يقال لما يبس من الشجر: القفل، وأقفله الصوم: أي: أيبسه.

وفي الاستعمال القرآني ورد القفل مقترنا بالقلب في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤].

المعنى: أفلا يتفهمون القرآن فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام أم على قلوب أقفالها، أي: بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون.

فالأقفال هنا: إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوه عن الإيمان، أي: لا يدخل قلوبهم ولا يخرج منها الكفر؛ لأن الله طبع على قلوبهم.

وقال: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ بالتنكير؛ لتهويل حالها وتفظيع شأنها وأمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب منكرةٍ لا يعرف حالها، ولا يقادر قدرها في القساوة.

ولأنه لو قال: «على قلوبهم» لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة.

والمراد: أم على قلوب هؤلاء، وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها[1].

وإضافة الأقفال إليها ﴿أَقْفَالُهَا﴾ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة، وهي أقفال الكفر والعناد[2].

موضوعات ذات صلة:

التدبر، التفكر، الحياة، الذكر، الطبع على العقل، القلوب، الموت، الوحي

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٣٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٦.

القمر

عناصر الموضوع

مفهوم القمر	٨
القمر في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
القسم بالقمر في القرآن الكريم	١٣
القمر من مخلوقات الله عز وجل	١٤
القمر والشمس	١٧
القمر والحساب	٢١
القمر وقيام الساعة	٢٣

المجلد الثامن والعشرون

مفهوم القمر

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «القاف والميم والراء أصل صحيح يدل على بياض في شيء، ثم يفرع منه، من ذلك القمر: قمر السماء، سمي قمرًا لبياضه، وحمار أقمر، أي: أبيض، وتصغير القمر قمير، ويقال: تقمرته: أتيته في القمراء»[1].

وجاء في الصحاح في مادة (ق م ر): «(القمر) بعد ثلاث إلى آخر الشهر، سمي قمرا لبياضه، والقمر أيضا تحير البصر من الثلج، وقد (قمر) الرجل من باب طرب، و(القمري) منسوب إلى طير (قمر) بوزن حمر جمع (أقمر) وهو الأبيض، أو جمع (قمري) مثل رومي وروم، والأنثى (قمرية) والذكر ساق حر والجمع (قماري) غير مصروف، وليلة (قمراء) أي: مضيئة، و(أقمرت) ليلتنا أضاءت، وأقمرنا طلع علينا القمر»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

القمر: جرمٌ سماويٌ صغيرٌ يدور حول كوكب أكبر منه ويكون تابعًا له، ومنه القمر التابع للأرض، والأقمار التي تدور حول كواكب المريخ وزحل والمشتري[3].

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٢٥.
(٢) مختار الصحاح، الرازي، ١/ ٢٦٠.
(٣) انظر: القاموس الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧٥٨.

القمر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قمر) في القرآن الكريم (٢٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٢٧	﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس:٣٩]

وجاء القمر في القرآن بمعناه في اللغة وهو، قمر السماء، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[يونس: ٥][٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ٩٥٣-٩٥٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٦٨٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ النجوم:

النجوم لغة:

قال ابن فارس: «النون والجيم والميم أصل صحيح يدل على طلوع وظهور، ونجم النجم: طلع، ونجم السن والقرن: طلعا. والنجم: الثريا، اسم لها»[١].

وفي الحديث: هذا إبان نجومه، أي: وقت ظهوره، يعني النبي صلى الله عليه وسلم، يقال: نجم النبت ينجم إذا طلع، وكل ما طلع وظهر فقد نجم[٢].

مما سبق يمكن تعريف النجم لغة: هو كل شيء يظهر.

النجوم اصطلاحًا:

قال الكفوي: «كل طالع فهو نجم، يقال: نجم السن، والقرن، والنبت إذا طلعت»[٣] أو: «أحد الأجرام السماوية المضيئة بذاتها، ومواضعها النسبية في السماء ثابتة، وهو عبارة عن جسم كروي ضخم ولامع ومتماسك بفعل الجاذبية»[٤].

الصلة بين النجم والقمر:

من خلال النظر في التعريف اللغوي والاصطلاحي للنجم نجد أن هناك فرقا واضحا بين النجم والقمر، فالقمر يدور حول كوكب أكبر منه، أما النجم فهو من تدور حوله الكواكب.

٢ الكواكب:

الكواكب لغة:

قال ابن منظور: «الكوكب معروف، من كواكب السماء، ويشبه به النور فيسمى كوكبا، وقال ابن سيده: الكوكب والكوكبة: النجم، كما قالوا عجوز وعجوزة، وبياض وبياضة»[٥].

وقال الفيروزآبادي: «الكوكب: النجم، كالكوكبة، وبياض في العين، وما طال من النبات، وسيد القوم، وفارسهم، وشدة الحر»[٦].

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٣٩٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٦٨.
(٣) الكليات ص ٨٨٧.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٠٥.
(٥) لسان العرب، ١/ ٧٢٠.
(٦) القاموس المحيط ص ١٣١.

مما سبق يمكن تعريف الكوكب لغة بأنه النجم، وهو مقدمة كل شيء.

الكواكب اصطلاحًا:

قال الكفوي: «الكواكب: أجسام بسيطة مركوزة في الأفلاك، كالفص في الخاتم، مضيئة بذواتها، إلا القمر»[1]. أو: «جرم سماوي يدور حول الشمس ويستضيء بضوئها وأشهر الكواكب مرتبة على حسب قربها من الشمس عطارد الزهرة الأرض المريخ المشتري زحل يورانس نبتون بلوتون»[2].

الصلة بين الكوكب والقمر:

يعتبر الكوكب أكبر حجما من القمر، بل إن القمر هو جزء من الأقمار التي تدور حول الكوكب.

٣ الهلال:

الهلال لغة:

قال ابن فارس في مادة (هل): «الهاء واللام أصل صحيح يدل على رفع صوت، ثم يتوسع فيه فيسمى الشيء الذي يصوت عنده ببعض ألفاظ الهاء واللام. ثم يشبه بهذا المسمى غيره فيسمى به، والهلال الذي في السماء سمي به لإهلال الناس عند نظرهم إليه مكبرين وداعين، ويسمى هلالا أول ليلة والثانية والثالثة، ثم هو قمر بعد ذلك، يقال: أهل الهلال واستهل، ثم قيل على معنى التشبيه: تهلل السحاب ببرقه: تلألأ، كأن البرق شبه بالهلال»[3].

الهلال اصطلاحًا:

قال الكفوي: «القمر إلى ثلاث ليالٍ، وهو أيضا بقية الماء في الحوض»[4]، أو: «أول القمر إلى سبع ليالٍ من الشهر وآخره من ليلة السادس والعشرين»[5].

الصلة بين الهلال والقمر:

القمر هو الاسم الشامل في جميع أطواره، بينما تطلق تسمية الهلال على القمر إلى سبع ليالٍ من الشهر وآخره من ليلة السادس والعشرين.

---

(١) التعريفات ص ١٨٨.
(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩٣.
(٣) مقاييس اللغة، ٦/ ١١.
(٤) الكليات ص ٩٦٣.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٩٩٢.

٤ الشمس:

الشمس لغة:

الشين والميم والسين أصل يدل على تلون وقلة استقرار، فالشمس معروفة، وسميت بذلك؛ لأنها غير مستقرة، ويقال: شمس يومنا وأشمس، إذا اشتدت شمسه[(١)].

الشمس اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «الشمس هو كوكب مضيء نهاري»[(٢)]، أو: «النجم الرئيس الذي تدور حوله الأرض وسائر كواكب المجموعة الشمسية»[(٣)].

الصلة بين الشمس والقمر:

الشمس جسم مضيء، والقمر جسم معتم ونوره ليس نابع منه وإنما انعكاس عليه.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢١٢، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٥١١.
(٢) التعريفات ص ١٢٩.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٤٩٤.

القسم بالقمر في القرآن الكريم

وردت العديد من الآيات في القرآن الكريم يقسم الله عز وجل فيها بالقمر، أذكر بعضًا منها فيما يلي:

قال تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢].

بعدما أبطل سبحانه ما أنكره الذين في قلوبهم مرض، وما أنكره الكافرون مما جاء به القرآن الكريم، معبرًا عن ذلك بقوله (كلا) وهو حرف زجر وردع وإبطال لكلامهم السابق، والواو في قوله (والقمر) للقسم، والمقسم به ثلاثة أشياء: القمر والليل والصبح، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥].

أي: كلا، ليس الأمر كما أنكر هؤلاء الكافرون، من أن تكون عدة الملائكة الذين على سقر تسعة عشر ملكًا، أو من أن تكون سقر مصير هؤلاء الكافرين، أو من أن في قدرتهم مقاومة هؤلاء الملائكة، فقد أقسم سبحانه بهذه الأمور الثلاثة؛ لزيادة التأكيد، ولإبطال ما تفوه به الجاحدون[(١)].

قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٦-١٩].

أقسم سبحانه ببعض مخلوقاته على أن مشيئته نافذة، وقضاءه لا يرد، وحكمه لا يتخلف، وكان مما أقسم الله عز وجل به من مخلوقاته القمر، فقال: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ واتساق القمر: اجتماع ضيائه ونوره، وهو افتعال من الوسق، وهو الجمع والضم، وذلك يكون في الليلة الرابعة عشرة من الشهر، والمعنى: أقسم بالقمر إذا ما اجتمع نوره واكتمل ضياؤه وصار بدرًا متلألئًا[(٢)].

قال طنطاوي: «وفي القسم بهذه الأشياء دليل واضح على قدرة الله تعالى الباهرة، لأن هذه الأشياء تتغير من حال إلى حال، ومن هيئة إلى هيئة. فالشفق حالة تأتي في أعقاب غروب الشمس، والليل يأتي بعد النهار، والقمر يكتمل بعد نقصان، وكل هذه الحالات الطارئة دلائل على قدرة الله عز وجل»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢] أقسم الله تعالى في مطلع سورة الشمس بسبعة أشياء من ضمنها القمر، فقد أقسم الله عز وجل بالقمر المنير إذا تبع الشمس في الطلوع بعد غروبها، وبخاصة في الليالي البيض: وهي الليالي الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة وقت امتلائه وصيرورته بدرًا بعد غروب الشمس إلى الفجر، وهذا قسم بالضوء وقت الليل كله[(٤)].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٢١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٩٧.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٥/ ٥٤٨.

(٣) التفسير الوسيط، ١٥/ ٣٣٧.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٤٨٠.

القمر من مخلوقات الله عز وجل

إن القمر آية عظيمة من آيات الله، فهذا الكوكب العظيم بحجمه وشكله ونوره ومنازله ودورته وآثاره في الحياة وقيامه في الفضاء بلا عمد يدل دلالة بليغة على عظمة الخالق جل جلاله، وأن لهذا الكون إلهًا عظيمًا قويا قديرًا له صفات الكمال والجمال، فهذا النظام البديع للقمر، والحركة المتزنة له، والدقة الكاملة المتكاملة لبزوغه وطلوعه، والمنازل المتنوعة والمراحل المختلفة التي يمر بها في كل ليلة من لياليه يبدأ هلالًا وليدًا حتى يصير بدرًا منيرًا وقمرًا متكاملًا، وما ينشأ عنه من ظواهر الليل والنهار والشروق والغروب والخسوف والكسوف، وغيره من الدلائل الربانية والمعجزات الإلهية ما يدهش العقول ويحير الألباب ويوجب التأمل في مخلوقات الله عز وجل.

أولًا: القمر آية من آيات الله عز وجل:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

المراد بالآيات في هذه الآية العلامات الدالة دلالة واضحة على وحدانية الله تعالى وقدرته، والمعنى: ومن آياته على وحدانيته وقدرته تعالى وعلى وجوب إخلاص العبادة له وجود الليل والنهار والشمس والقمر بتلك الطريقة البديعة، حيث إن الجميع يسير بنظام محكم، ويؤدى وظيفته أداء دقيقا، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

فتكرار ذكر القمر في القرآن الكريم واعتباره آية من آيات الله عز وجل فيه إشارة عظيمة على وجوب التفكر والتأمل في هذا الكوكب الدري الذي يأخذ نوره من أشعة الشمس ثم يعود فيعكس هذا النور على الأرض[(١)].

ثانيًا: القمر مخلوق لله عز وجل:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

في هذه الآية دليل على قدرته ووحدانيته، فهو وحده سبحانه الذي خلق بقدرته الليل والنهار بهذا النظام البديع، وخلق الشمس والقمر بهذا الإحكام العجيب (كلٌّ) أي: كل واحد من الشمس والقمر يسير في فلكه وطريقه المقدر له بسرعة وانتظام، كالسابح في الماء[(٢)].

(١) انظر: تفسير المراغي، ٢٤/ ١٣٤، فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٥٩٤.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٢٢٣.

ثالثًا: سجود القمر لله عز وجل:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الحج: ١٨].

السجود في اللغة: التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وما يشبهه، وخص في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة، والمعنى هنا: دخول الأشياء جميعها تحت قبضة الله تعالى وتسخيره وانقيادها لكل ما يريده منا انقيادا تاما، وخضوعها له عز وجل بكيفية هو الذي يعلمها، فنحن نؤمن بأن هذه الكائنات تسجد لله تعالى ونفوض كيفية هذا السجود له سبحانه [(١)].

قال ابن تيمية: «والسجود من جنس القنوت، فإن السجود الشامل لجميع المخلوقات هو المتضمن لغاية الخضوع والذل، وكل مخلوق فقد تواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته، ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ووضع جبهة في رأس مدور على التراب، فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان، ومن الأمم من يركع ولا يسجد وذلك سجودها، كما قال تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨].

وإنما قيل: ادخلوه ركعا ومنهم من يسجد على جنب كاليهود، فالسجود اسم جنس، ولكن لما شاع سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد كما في لفظ القنوت» [(٢)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وهو سجود الذل والقهر والخضوع، فكل أحد خاضع لربوبيته ذليل لعزته مقهور تحت سلطانه تعالى» [(٣)].

والسجود للقمر ولباقي المخلوقات في الآية هو سجود حقيقي، وهذا ما يؤكده حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فعن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: (قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذرٍ رضي الله عنه حين غربت الشمس: (أتدري أين تذهب؟)، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]) [(٤)].

(١) انظر: الدر المصون، الحلبي، ٨/ ٢٤٥.

(٢) جامع الرسائل، ١/ ٢٨.

(٣) مدارج السالكين ١/ ١٠٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم ٣١٩٩، ٤/ ١٠٧.

رابعًا: النهي عن عبادة القمر:

قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

لما بين الحق سبحانه أن الشمس والقمر من آياته نهى عباده عن عبادتها، وأمرهم بأن لا يسجدوا للشمس، ولا للقمر؛ لأنهما مخلوقان من مخلوقاته، فلا يصح أن يكونا شريكين له في ربوبيته وعبادته؛ ولهذا أمرهم بالسجود له وحده جل وعلا؛ لأنه الخالق المبدع لهما ولكل شيء، إن كانوا يعبدونه حقيقة، ولما كان السجود أقصى مراتب العبادة ونهاية التعظيم ولا يليق إلا بمن كان أشرف الموجودات وأعظمها كان لا بد من تخصيصه به عز وجل، والنهي عن السجود لغيره.

وقيل: وجه تخصيصه به عز وجل أنه كان ناس يسجدون للشمس والقمر، كالصابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنهوا عن ذلك.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، فنهى عن السجود للشمس وللقمر، وإن كثرت منافعهما، ثم أمر سبحانه بالسجود له وحده؛ لأنه الخالق لهما ولكل موجود، فقال جل جلاله: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم موحدين، غير مشركين[(١)].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: ٧٧].

يبين سبحانه حالة من الحالات التي برهن بها إبراهيم على وحدانية الله عز وجل، فلما رأى إبراهيم القمر مبتدئا في الطلوع منتشرا ضوؤه من وراء الأفق قال هذا ربي. فلما أفل القمر كما أفل الكوكب من قبله قال مسمعًا من حوله من قومه: لئن لم يهدني ربي إلى جناب الحق وإلى الطريق القويم الذي يرتضيه لأكونن من القوم الضالين عن الصراط المستقيم، لأن هذا القمر الذي يعتوره الأفول أيضًا لا يصلح أن يكون إلهًا[(٢)].

قال طنطاوي: «وفي قول إبراهيم لقومه هذا القول تنبيه لهم لمعرفة الرب الحق وأنه واحد وأن الكواكب والقمر كليهما لا يستحقان الألوهية، وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب، ثم عرض بقومه بأنهم ضالون، لأن قوله «لأكونن من القوم الضالين» يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أنه لون

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٤٧٣، تفسير السمرقندي، ٣/ ٢٢٧.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ٦/ ٣٧٤٩.

من الضلال، وإنما استدل على بطلان كون القمر إلهًا بعد أفوله ولم يستدل على بطلان ذلك بمجرد ظهوره مع أن أفوله محقق لأنه أراد أن يقيم استدلاله على المشاهدة؛ لأنها أقوى وأقطع لحجة الخصم»[1].

(١) التفسير الوسيط، ٥/ ١١٠.

القمر والشمس

الشمس والقمر من مخلوقات الله عز وجل، وقد اجتمعا في القرآن الكريم (١٩) مرة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هناك علاقة قوية جدا تربطهما ببعضهما البعض، هذا ما سنتعرف عليه من خلال النقاط الآتية.

أولًا: التسخير والجريان:

قال ابن منظور: «سخرته بمعنى قهرته وذللته، قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]؛ أي: ذللهما، والشمس والقمر مسخران يجريان مجاريهما، أي: سخرا جاريين عليهما، والنجوم مسخرات، قال الأزهري: جاريات مجاريهن، وسخره تسخيرًا: كلفه عملًا بلا أجرة، وكذلك تسخره، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر، فذلك مسخر، وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

قال الزجاج: تسخير ما في السماوات تسخير الشمس والقمر والنجوم للآدميين، وهو الانتفاع بها في بلوغ منابتهم والاقتداء بها في مسالكهم، وتسخير ما في الأرض تسخير بحارها وأنهارها ودوابها وجميع منافعها؛ وهو سخرة لي وسُخْرِيّ

وسِخْرِيّ»[1].

الآيات التي تحدثت عن التسخير والجريان:

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ [النحل: ١٢].

قوله: (سخر) من التسخير بمعنى التذليل والتكليف، يقال، سخر فلان فلانا تسخيرًا، إذا كلفه عملا بلا أجرة، والمراد به هنا الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به، أي: ومن آياته سبحانه الدالة على وحدانيته وقدرته، أنه سبحانه سخر لكم (الشمس والقمر) يدأبان في سيرهما بدون كلل أو اضطراب، بل يسيران من أجل منفعتكم ومصلحتكم بنظام ثابت، وأنه سبحانه أوجد النجوم مسخرات بأمره وإذنه، لكي تهتدوا بها في ظلمات البر والبحر[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أي: وخلق الشمس والقمر والنجوم كونهن مذللات خاضعات لتصرفه، منقادات لمشيئته، كأنهن مميزات أمرن فانقدن، فتسمية ذلك أمرًا على سبيل التشبيه[3].

قال الألوسي: «ويصح حمل الأمر على الإرادة، أي: هذه الأجرام العظيمة والمخلوقات البديعة منقادة لإرادته. ومنهم من حمل الأمر على الأمر الكلامي وقال: إنه سبحانه أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة على الوجه المخصوص إلى حيث شاء، ولا مانع أن يعطيها الله إدراكا وفهما لذلك»[4].

وبنفس المعنى في الآيتين السابقتين قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الرعد: ٢].

أي: أن من مظاهر فضله أنه سبحانه سخر ذلك وأخضع لقدرته الشمس والقمر، بأن جعلهما طائعين لما أراده منهما من السير في منازل معينة، ولأجل معين محدد لا يتجاوزانه ولا يتعديانه، بل يقفان عند نهاية المدة التي حددها سبحانه لوقوفهما وأفولهما[5].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [فاطر: ١٣].

وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

بيان لدقة نظامه سبحانه في كونه، وأن

(١) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٥٣.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١١/ ١٢١.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٧/ ٤١٦١.
(٤) روح المعاني، ٤/ ٣٧٧.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٧/ ٣٨٩٠.

هذا الكون الهائل يسير بترتيب في أسمى درجات الدقة وحسن التنظيم، فلا يصح ولا يتأتى للشمس أن تدرك القمر في مسيره فتجتمع معه بالليل، وكذلك لا يصح ولا يتأتى أن الليل أن يسبق النهار بأنه يزاحمه في محله أو وقته، وإنما كل واحد من الشمس والقمر والليل والنهار يسير في هذا الكون بنظام بديع قدره الله تعالى له، بحيث لا يسبق غيره أو يزاحمه في سيره[1].

ثانيًا: الإضاءة والإنارة:

ذهب كثير من أئمة اللغة إلى أن الضوء في اللغة أقوى من النور من حيث الاستعمال، وأن الضوء ما كان صادرًا من ذات الشيء، وأن النور ما كان بالعرض والاكتساب من الغير، يقول الزبيدي: «الضوء أقوى من النور، قاله الزمخشري، وتبعه الطيبي، واستدل بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقيل: الضوء لما بالذات كالشمس والنار، والنور لما بالعرض والاكتساب من الغير»[2].

ويقول في موضع آخر: «وقيل: الضياء ذاتيٌ والنور عرضيٌ، وتخصيص الشمس بالضوء والقمر بالنور من حيث إن الضوء أخص من النور»[3].

ولم يختلف كلام المفسرين عن كلام أهل اللغة، فذهب كثير منهم إلى أن الضوء أقوى من النور، والضياء هو ما كان بالذات، والنور ما كان بالعرض.

وفي هذا يقول الشوكاني: «قيل: الضياء أقوى من النور، وقيل: الضياء هو ما كان بالذات، والنور ما كان بالعرض؛ ومن هنا قال الحكماء: إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس»[4].

وقال البيضاوي: «وقيل: ما بالذات ضوء وما بالعرض نور، وقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيرًا بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها»[5].

ويقول ابن كثير: «يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءًا، وجعل شعاع القمر نورًا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل»[6].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢١٤٩.
(٢) تاج العروس، ١/ ١٦٤.
(٣) المصدر السابق، ١/ ٣٥٧٨.
(٤) فتح القدير، ٢/ ٦١٥.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٨٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٥٣٥.

والمعنى: الله تعالى وحده هو الذي جعل لكم الشمس ذات ضياء، وجعل لكم القمر ذا نور، لكي تنتفعوا بهما في مختلف شئونكم[(١)].

قال الجمل: «وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء، ولأنهما إذا تساويا لم يعرف الليل من النهار، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر»[(٢)].

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

أي: جل شأن الله تعالى وتكاثرت آلاؤه ونعمه، فهو سبحانه الذي جعل في السماء (بروجا) أي: منازل للكواكب السيارة و (وجعل فيها) أي: في السماء (سراجا) وهي الشمس (وجعل فيها) أيضًا (قمرًا منيرًا) أي: قمرًا يسطع نوره على الأرض المظلمة، فيبعث فيها النور الهادي اللطيف[(٣)].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح:١٥-١٦].

قال الألوسي: «قوله: (وجعل القمر فيهن نورًا) أي: منورًا لوجه الأرض في ظلمة الليل، وجعله فيهن مع أنه في إحداهن- وهي السماء الدنيا- كما يقال: زيد في بغداد. وهو في بقعة منها. والمرجح له الإيجاز والملابسة بالكلية والجزئية، وكونها طباقا شفافة، (وجعل الشمس سراجًا) يزيل الظلمة، وتنوينه للتعظيم، وفي الكلام تشبيه بليغ، ولكون السراج أعرف وأقرب جعل مشبها به، ولاعتبار التعدي إلى الغير في مفهومه بخلاف النور كان أبلغ منه[(٤)].

وقال ابن عاشور: «وفي جعل القمر نورا إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته، فإن القمر مظلم، وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه، بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمام، هو أثر ظهوره هلالًا ثم بدرًا»[(٥)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٨.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين، ٢/ ٣٣٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢٨٨.
(٤) روح المعاني، ٢٩/ ٧٥.
(٥) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٠٤.

القمر والحساب

جاء الإسلام ليصحح نظرة البشر إلى الظواهر الكونية، فبعد أن كانت في الوثنيات آلهة تعبد، أصبحت عند المسلم مخلوقات خلقها الله بقدر وحساب، لتحقق الحكمة من وجودها، ولتقوم بوظيفة خلقها، ويبقى الإنسان هو الخليفة الذي سخرت له كل هذه المخلوقات وكل هذه القوانين، وما عليه إلا أن يستخدم عقله وفكره وقدراته لتحقيق وظيفته في الكون باعتباره الخليفة السيد، ويكون ذلك على أتم صورة عندما يوظف القوانين والسنن الكونية، وعندما يلتزم القوانين والسنن التشريعية.

أولًا: منازل القمر:

قبل الحديث عن الآيات التي تحدثت عن منازل القمر، هذه لمحة سريعة عن منازل القمر:

لوحظ من القدم أن القمر في دورته حول الأرض يتحرك في كل ليلة من ليالي الشهر القمري بين ثوابت من النجوم التي يسمي كل منها منزلًا من منازل القمر، وعلى ذلك فإن عدد منازل القمر هو ٢٨ بعدد الليالي التي يري فيها القمر، ولما كان القمر في جريه مع الأرض حول الشمس يمر عبر البروج السماوية الاثني عشر التي تمر بها الأرض فإن كل منزل من منازل القمر يحتل مكانا معينا في كل برج من هذه البروج، والقمر يقطع في كل ليلة ١٣ درجة تقريبا من دائرة البروج تلك، وعلى ذلك فإن البرج الواحد يقع فيه أكثر من منزل من منازل القمر، ويعتمد ذلك على مساحة البرج في السماء، وقد تعرف العرب على منازل القمر من قبل البعثة المحمدية المباركة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وعرفوا أهميتها في تحديد الزمن، وفي إعداد التقاويم الزراعية، وسموا الشمالية منها باسم المنازل الشامية، والجنوبية منها باسم المنازل اليمانية.

قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

المنازل جمع منزل، والمراد بها أماكن سير القمر في كل ليلة، وهي ثمان وعشرون منزلًا، تبدأ من أول ليلة في الشهر إلى الليلة الثامنة والعشرين منه، ثم يستتر القمر ليلتين إن كان الشهر تامًا، ويستتر ليلة واحدة إن كان الشهر تسعا وعشرين ليلة، والمعنى: أي: وقدرنا سير القمر في منازل، بأن ينزل في كل ليلة في منزل لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، إذ كل شيء عندنا بمقدار[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٨].

اتساق القمر: اجتماع ضيائه ونوره، وهو

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ١٦.

افتعال من الوسق، وهو الجمع والضم، وذلك يكون في الليلة الرابعة عشرة من الشهر، وهو منزل من منازل القمر، والمعنى: أقسم بالقمر إذا ما اجتمع نوره واكتمل ضياؤه وصار بدرًا متلألئًا[1].

ثانيًا: حساب الشهور والسنين:

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

الأهلة: جمع الهلال، وهو الكوكب الذي يبزغ في أول كل شهر، ويسمى هلالا لثلاث ليال أو لسبع ليال من ظهوره، ثم يسمى بعد ذلك قمرا إلى أن يعود من الشهر الثاني، والمواقيت: جمع ميقات بمعنى الوقت، وهو ما يقدر لعمل من الأعمال، وقيل: الميقات منتهى الوقت، والمعنى: يسألك بعض الناس عن الحكمة من خلق الأهلة، قل لهم يا محمد إن الله تعالى قد خلقها لتكون معالم يوقت ويحدد بها الناس صومهم، وزكاتهم، وحجهم، وعدة نسائهم، ومدد حملهن، ومدة الرضاع، وغير ذلك مما يتعلق بأمور معاشهم[2].

قال طنطاوي: «وخص الله المواقيت بالأهلة وأشهرها دون الشمس وأشهرها، لأن الأشهر الهلالية تعرف برؤية الهلال ومحاقه، وذلك ما لا يخفى على أحد من الخاصة أو العامة أينما كانوا، بخلاف الأشهر الشمسية، فإن معرفتها تنبنى على النظر في حركات الفلك وهي لا تتيسر إلا للعارفين بدقائق علم الفلك»[3].

وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

أي: الشمس والقمر يجريان في هذا الكون بحساب دقيق في بروجهما ومنازلهما، بحيث لا يشوب جريهما اختلال أو اضطراب، وبذلك يعرف الناس السنين والشهور والأيام، ويعرفون أشهر الحج والصوم، وغير ذلك من شئون الحياة، وبهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠][4].

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

أي: وجعل الشمس والقمر يجريان في الفلك بحساب مقدر معلوم لا يتغير ولا يضطرب حتى ينتهي إلى أقصى منازلهما بحيث تتم الشمس دورتها في سنة ويتم القمر دورته في شهر، وبذلك تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة وغيرها[5].

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٥/ ٥٤٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ٥٥٣.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٣٤١.
(٣) التفسير الوسيط، ١/ ٤٠٤.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٢٢٣.
(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٥٨.

القمر وقيام الساعة

من الحقائق المقررة في عقيدتنا وفي ديننا الإسلامي أن يوم القيامة آت لا ريب فيه، وقد أقام الله عز وجل علامات تدلنا على قرب الساعة ودنو أجلها، ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

ومن علامات الساعة التي قررها العلماء انشقاق القمر، هذا ما سنتناوله من خلال النقاط الآتية.

أولًا: من علامات الساعة:

قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

افتتحت سورة القمر بهذا الافتتاح الذي يبعث في النفوس الرهبة والخشية، فهو يخبر عن قرب انقضاء الدنيا وزوالها.

وقوله: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي: انفصل وانفلق القمر بعضه عن بعض فلقتين معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك بمكة قبل هجرته صلى الله عليه وسلم بنحو خمس سنين، وقد رأى هذا الانشقاق كثير من الناس، وقد ذكر المفسرون كثيرا من الأحاديث في هذا الشأن، وقد بلغت الأحاديث مبلغ التواتر المعنوي.

قال الإمام ابن كثير: «وهذا أمر متفق عليه بين العلماء- أي: انشقاق القمر- فقد وقع في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، وإنه كان إحدى المعجزات الباهرات»[(١)].

ثم ذكر رحمه الله جملة من الأحاديث التي وردت في ذلك، أخرج الإمام أحمد عن جبير بن مطعم عن أبيه قال: (انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار فرقتين: فرقةً على هذا الجبل، وفرقةً على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمدٌ، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم)[(٢)].

وروى الشيخان عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقتين، حتى نظروا إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اشهدوا)[(٣)].

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وقد جعل الله انشقاق القمر من علامات اقتراب الساعة كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وكان انشقاقه بمكة قبل

(١) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٤٧٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٧٥٠، ٢٧/ ٣١٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين...، رقم ٣٦٣٦، ٤/ ٢٠٦، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، رقم ٢٨٠٠، ٤/ ٢١٥٨.

الهجرة»[1].

ثانيًا: حال القمر عند قيام الساعة

قال تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٨-٩].

والمراد بخسوف القمر: انطماس نوره واختفاء ضوئه، والمراد بجمع الشمس والقمر اقترانهما ببعضهما بعد افتراقهما واختلال النظام المعهود للكون اختلالا تتغير معه معالمه ونظمه. وجواب فإذا قوله: ي﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: فإذا برق بصر الإنسان وتحير من شدة الفزع والخوف بعد أن رأى ما كان يكذب به في الدنيا[2].

قال ابن عاشور: «وخسوف القمر أريد به انطماس نوره انطماسا مستمرا بسبب تزلزله من مداره حول الأرض الدائرة حول الشمس بحيث لا ينعكس عليه نورها ولا يلوح للناس نيرا، وهو ما دل عليه قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.

فهذا خسوف ليس هو خسوفه المعتاد عند ما تحول الأرض بين القمر وبين الشمس. ومعنى جمع الشمس والقمر: التصاق القمر بالشمس فتلتهمه الشمس، لأن القمر منفصل من الأرض التي هي من الأجرام الدائرة حول الشمس كالكواكب، ويكون ذلك بسبب اختلال الجاذبية التي وضع الله عليها النظام الشمسي»[3].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، السماء، الشمس، النجوم، الليل

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة ص ١٠.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/ ٧٢٣.
وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٤٠١.
(٣) التحرير والتنوير، ٢٩/ ٣٤٥.

القوة

عناصر الموضوع

مفهوم القوة	٢٦
القوة في الاستعمال القرآني	٢٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٨
الأسلوب القرآني في عرض القوة	٣٠
مجالات القوة ومظاهرها	٤٢
آثار القوة	٥٥

مفهوم القوة

أولا: المعنى اللغوي:

المادة (ق و ي) لها أصلان متباينان في اللغة، الأول: يدل على الشدةِ وخلاف الضعف، والثاني: يدل على خلاف هذا وعلى قلة خيرٍ.

فمن الأول القوة، والقوي: خلاف الضعيف. وأصل ذلك من القوى، وهي جمع قوةٍ من قوى الحبل.

ومن الأصل الثاني القواء: الأرض لا أهل بها. ويقال: أقوت الدار: خلت. وأقوى القوم: صاروا بالقواء والقي، وأقوى الرجل: إذا فني زاده، والقوة: الطاقة من الحبل، وجمعها قوًى، ورجل شديد القوى، أي شديد أسر الخلق[1]. والقوة المقصودة هنا مأخوذة من الأصل الأول، فالقوة: خلاف الضعف.

فالناظر يرى أن معنى القوة في اللغة يدل على خلاف الضعف، والقدرة على فعل الشيء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «القوة هي تمكن الحيوان من الأفعال الشاقة، فقوى النفس النباتية تسمى قوى طبيعية، وقوى النفس الحيوانية تسمى قوى نفسانية، وقوى النفس الإنسانية تسمى: قوى عقلية. والقوى العقلية باعتبار إدراكاتها للكليات تسمى القوة النظرية، وباعتبار استنباطها للصناعات الفكرية من أدلتها بالرأي تسمى القوة العملية»[2].

وقال الطاهر ابن عاشور: «والقوة حقيقتها حالةٌ في الجسم يتأتى له بها أن يعمل ما يشق عمله في المعتاد، فتكون في الأعضاء الظاهرة، مثل قوة اليدين على الصنع الشديد، والرجلين على المشي الطويل، والعينين على النظر للمرئيات الدقيقة. وتكون في الأعضاء الباطنة، مثل قوة الدماغ على التفكير الذي لا يستطيعه غالب الناس، وعلى حفظ ما يعجز عن حفظه غالب الناس»[3].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٢٧٤، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٤٦٩، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٦-٣٧، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٠٦، القاموس المحيط، الفيروزآبادى ١٣٢٧، تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي ٣٩/ ٣٦٠.

(٢) التعريفات ص ١٧٩.
وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ٢٧٦، الكليات، الكفوي ص ٧١٧، دستور العلماء، الأحمد نكري ٣/ ٦٨.

(٣) التحرير والتنوير ٩/ ٩٩.

القوة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قوي) في القرآن الكريم (٤٢)، يخص موضوع البحث منها(٤١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
مصدر	٣٠	﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠]
صيغة المبالغة	١١	﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٥٢﴾[الأنفال:٥٢]

ذكر أهل الوجوه والنظائر أن القوة في القرآن على خمسة أوجه[٢]، لكن بالتأمل في هذه الأوجه نجد أنها كلها تعود إلى معنى واحد، وهو المعنى اللغوي، وهو الشدة، خلاف الضعف[٣].

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾[هود: ٨٠]. يعني: من أتقوى به من الجند، وما أتقوى به من المال[٤].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٨٧- ٥٨٨.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان ص٨٧-٨٨، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٣٨٧- ٣٨٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٤٨٩- ٤٩٠.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٦، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٠٦.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٤١٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشدة:

الشدة لغةً:

قال ابن فارس: «الشين والدال أصلٌ واحدٌ يدل على قوةٍ في الشيء، وفروعه ترجع إليه. من ذلك شددت العقد شدًا أشده. والشدة: المرة الواحدة»[١].

الشدة اصطلاحًا:

هي «اسم من الاشتداد»[٢].

الصلة بين الشدة والقوة:

أن الشدة في الأصل هي مبالغة في وصف الشيء في صلابة، وليست هي من قبيل القدرة، أما القوة فمن قبيل القدرة[٣].

٢ القسوة:

القسوة لغةً:

القسوة: الصلابة في كل شيءٍ، وحجر قاسٍ: صلب، وأرض قاسيةٌ: لا تنبت شيئًا، والقسوة في القلب تعني ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه. وقسا قلبه قسوة وقساوة وقساء، وهو غلظ القلب وشدته، وأقساه الذنب، ويقال: الذنب مقساةٌ للقلب[٤].

القسوة اصطلاحًا:

قال الراغب: «القسوة: غلظ القلب»[٥].

الصلة بين القسوة والقوة:

أن القسوة تستعمل فيما لا يقبل العلاج؛ ولهذا يوصف بها القلب وإن لم يكن صلبًا[٦]، أما القوة فهي ليست كذلك؛ بل هي القدرة على التمكن من فعل الشيء.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٣٩.
(٢) الكليات، الكفوي ص ٥٤٠.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٩٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٨٠.
(٥) المفردات، ص ٦٧١.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٢٩.

٣ الضعف:

الضعف لغةً:

«الضعف والضعف: خلاف القوة. وقد ضعف فهو ضعيفٌ، وأضعفه غيره. وقومٌ ضعافٌ وضعفاء وضعفةٌ. واستضعفه، أي: عده ضعيفًا»[١].

الضعف اصطلاحًا:

هو: «وهن القوة حسًّا أو معنى»[٢].

الصلة بين الضعف والقوة:

يتفقان في أن كلًّا منهما من فعل الله تعالى كما أن القوة من فعل الله تعالى، تقول: خلقه الله ضعيفًا أو خلقه قويًا[٣]. ولكنهما متناقضان، فالضعف خلاف القوة.

٤ الوهن:

الوهن لغةً:

هو الضعف وقد وهن ووهنه غيره، فالفعل يلزم ويتعدى[٤].

الوهن اصطلاحًا:

قال الراغب: «الوهن: ضعف من حيث الخلق، أو الخلق»[٥].

الصلة بين الوهن والقوة:

أن القوة هي القدرة على التمكن من فعل الشيء، والوهن أن يفعل الإنسان فعل الضعيف وهو قوي، فالوهن فيه انكسار للجسد بالخوف وغيره[٦]، إذن فهي خلاف القوة.

---

(١) الصحاح، الجوهري ٤/ ١٣٩٠.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٢٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٣٠.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٣٤٦.
(٥) المفردات ص ٨٨٧.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٣١.

الأسلوب القرآني في عرض القوة

أولًا: وصف الله نفسه بالقوة:

سمى الله تعالى ووصف نفسه بالقوة، وقد ورد تسمية الله تعالى بالقوي في القرآن في تسعة مواضع من الكتاب العزيز[(١)].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[هود: ٦٦].

وقال: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[الشورى: ١٩].

قال ابن جرير: «﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ [الأنفال: ٥٢]. لا يغلبه غالبٌ ولا يرد قضاءه رادٌّ، ينفذ أمره ويمضي قضاؤه في خلقه، شديدٌ عقابه لمن كفر بآياته وجحد حججه»[(٢)].

وقال الزجاج: «القوي هو الكامل القدرة على الشيء، تقول: هو قادر على حمله. فإذا زدته وصفا قلت: هو قوي على حمله. وقد وصف نفسه بالقوة فقال عز قائلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]»[(٣)].

قال ابن القيم[(٤)]:

وهو القوي بقوة هي وصفه
وعليك يقدر يا أخا السلطان

ويقترن اسم الله تعالى (القوي) باسميه تعالى (المتين، والعزيز).

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وقال: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[الشورى: ١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

قال الزجاج: «المتين أصله فعيل من المتن الذي هو العضو، ويقال: ماتنته على ذلك الأمر إذا قاويته مقاواة، وهو يفيد في الله سبحانه التناهي في القوة والقدرة»[(٥)].

---

(١) انظر: النهج الأسمى، محمد الحمود النجدي ص ٣٣٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٣٣.

(٣) تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٥٤.

(٤) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن عيسى ٢/ ١٢٦.

(٥) تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٥٥. وانظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٣٠٦.

وفي اللسان: «والمتين صفةٌ لقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ وهو الله تبارك وتقدس، ومعنى ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ ذو الاقتدار الشديد، والمتين في صفة الله القوي، قال ابن الأثير: هو القوي الشديد الذي لا يلحقه في أفعاله مشقةٌ ولا كلفة ولا تعبٌ، والمتانة: الشدة والقوة، فهو من حيث إنه بالغ القدرة تامها قوي، ومن حيث إنه شديد القوة متينٌ. قال ابن سيده: وقرئ (المتينِ) بالخفض على النعت للقوة، لأن تأنيث القوة كتأنيث الموعظة من قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾، أي: وعظٌ»[1].

يقول الرازي: «قال: المتين وذلك لأن ذو القوة كما بينا لا يدل إلا على أن له قوةً ما فزاد في الوصف بيانًا، وهو الذي له ثباتٌ لا يتزلزل، وهو مع المتين من بابٍ واحدٍ لفظًا ومعنًى، فإن متن الشيء هو أصله الذي عليه ثباته، والمتن هو الظهر الذي عليه أساس البدن، والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة؛ حيث ذكر الله تعالى في مواضع القوة مع العزة فقال: ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقال: ﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وفيه لطيفةٌ تؤيد ما ذكرنا من البحث في القوي وذي القوة، وذلك لأن المتين هو الثابت الذي لا يتزلزل والعزيز هو الغالب، ففي المتين أنه لا يغلب ولا يقهر ولا يهزم، وفي العزيز أنه يغلب ويقهر ويزل الأقدام، والعزة أكمل من المتانة، كما أن القوي أكمل من ذي القوة، فقرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه، ولو نظرت حق النظر وتأملت حق التأمل لرأيت في كتاب الله تعالى لطائف تنبهك على عناد المنكرين وقبح إنكار المعاندين»[2].

وقال البخاري: «باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]»[3].

وهذه الآية ونظائرها تدل بوضوح على أن الله تعالى موصوف بالصفات العليا، كما أنه مسمى بالأسماء الحسنى، فالقوة صفته، والرزاق اسمه، وتقدم أن كل اسم لابد أن يتضمن الصفة، وبذلك وغيره يرد على المنكرين للصفات[4].

ومن مظاهر قوة الله تعالى:

١. نصره سبحانه لرسله.

قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

ومن ذلك نصره لأهل الإيمان يوم الأحزاب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٩٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ٩/ ١١٥.

(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الغنيمان ١/ ٩٣.

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ
وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾
هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾

إلى أن قال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ
لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ
اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا
﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا
لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

[الأحزاب: ٩-٢٧].

٢. إهلاك الله تعالى للأمم الكافرة.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ
صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ
الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا
إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا
أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا
بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا
يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا
الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٣-١٨].

٣. قوة الله تعالى في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ
مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

٤. قوة الله تعالى في خلقه.

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ
مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فالواجب على العباد أن يركنوا إلى قوة الله تعالى، وأن لا يركنوا إلى الذين ظلموا، لا بد أن يركنوا إلى الركن الشديد سبحانه وتعالى، ولذلك فعن أبي موسى قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفرٍ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم) قال وأنا خلفه، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال (يا عبد الله بن قيسٍ، ألا أدلك على كنزٍ من كنوز الجنة؟)، فقلت: بلى، يا رسول الله. قال: (قل: لا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٤٢٠٥، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت

فإن المعنى: لا تحول للعبد من حالٍ إلى حالٍ ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمةٌ عظيمةٌ، وهي كنزٌ من كنوز الجنة، فالعبد محتاجٌ إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه.

ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولًا. كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه. ومن كلام بعض السلف: يا رب، عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك؟![1].

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معالجة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق، والدخول على الملوك ومن يخاف، وركوب الأهوال[2].

ثانيًا: وصف ملك الوحي بالقوة:

قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٥-٧][3].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: علم محمدًا صلى الله عليه وسلم هذا القرآن جبريل عليه السلام، وعنى بقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] شديد الأسباب، والقوى: جمع قوةٍ، وعنى بالمرة: صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات، والجسم إذا كان كذلك من الإنسان كان قويًا، وإنما قلنا: إن ذلك كذلك؛ لأن المرة واحدة المرر، وإنما أريد به: ذو مرةٍ سويةٍ، وإذا كانت المرة صحيحةً كان الإنسان صحيحًا»[4].

وقال ابن عاشور: «واتفق المفسرون على أن المراد به جبريل عليه السلام.

والمراد ب (القوى) استطاعة تنفيذ ما يأمر الله به من الأعمال العظيمة العقلية والجسمانية، فهو الملك الذي ينزل على الرسل بالتبليغ»[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١][6].

بالذكر، رقم ٢٧٠٤.

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ١/ ٤٨٢.

(٢) الوابل الصيب، ص ٧٧.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٣٠٠، ففيه كلام نفيس.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٨-١١.

(٥) التحرير والتنوير ٢٧/ ٩٥.

(٦) والرسول جبريل عليه السلام في قول جمهور

قال ابن عاشور: «ووصف ﴿رَسُولٍ﴾ بخمسة أوصافٍ:

الأول: ﴿كَرِيمٍ﴾ وهو النفيس في نوعه.

والوصفان الثاني والثالث: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ فالقوة حقيقتها مقدرة الذات على الأعمال العظيمة التي لا يقدر عليها غالبًا.

والمكين: فعيلٌ، صفةٌ مشبهةٌ من مكن بضم الكاف مكانةً، إذا علت رتبته عند غيره.

وتوسيط قوله: ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ بين ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ و﴿مَكِينٍ﴾ ليتنازعه كلا الوصفين على وجه الإيجاز، أي: هو ذو قوةٍ عند الله، أي جعل الله مقدرة جبريل تخوله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوة التدبير، وهو ذو مكانةٍ عند الله وزلفى.

الوصف الرابع: ﴿مُّطَاعٍ﴾ أن يطيعه من معه من الملائكة كما يطيع الجيش قائدهم.

والأمين[1]: الذي يحفظ ما عهد له به حتى يؤديه دون نقصٍ ولا تغييرٍ»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٥].

ثبت عن مسروقٍ قال: كنت متكئًا عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة، ثلاثٌ من تكلم بواحدةٍ منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين، أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣].

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض)[3].

وعن أبي إسحاق الشيباني قال: سألت زر بن حبيشٍ عن قول الله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٩-١٠]، قال: حدثنا ابن مسعودٍ: أنه (رأى جبريل، له ستمائة جناحٍ)[4].

المتأولين، وهو الصحيح.
انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٤.

(١) وهو الوصف الخامس.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٥-١٥٧، بتصرف شديد.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، وهل رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الإسراء؟ رقم ١٧٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨][(١)].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨].

قال: (رأى رفرفًا أخضر سد أفق السماء)[(٢)].

وعنه قال: (رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته، وله ستمائة جناحٍ، كل جناحٍ منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليمٌ)[(٣)].

ومن مظاهر قوة جبريل عليه السلام:

١. إهلاك الظالمين من قوم لوط.

وعن مجاهدٍ قال: «أخذ جبرائيل عليه السلام قوم لوطٍ من سرحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم»[(٤)].

وعنه قال: «أدخل جبرائيل جناحه تحت الأرض السفلى من قوم لوطٍ، ثم أخذهم بالجناح الأيمن، فأخذهم من سرحهم ومواشيهم ثم رفعها»[(٥)].

وعنه قال: «فحملها على خوافي جناحه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم قلبها، فكان أول ما سقط منها شرفها، فذلك قول الله: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢].

قال مجاهدٌ: فلم يصب قومًا ما أصابهم؛ إن الله طمس على أعينهم، ثم قلب قريتهم، وأمطر عليهم حجارةً من سجيلٍ»[(٦)].

قال قتادة: «وبلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم، ثم دمدم بعضها على بعضٍ، فجعل عاليها سافلها، ثم تبعتهم الحجارة»[(٧)].

٢. جهاده.

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحدٍ: (هذا جبريل آخذٌ برأس فرسه عليه أداة الحرب)[(٨)].

الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين، رقم ٣٢٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، بابٌ في ذكر سدرة المنتهى، رقم ١٤٧.

(١) انظر: جامع البيان ٢٢/ ٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (لقد رأى من آيات ربه الكبرى)، رقم ٤٨٥٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٣٧٤٨، ٦/ ٢٩٤.
وإسناده ضعيف، وصح بشواهده.

(٤) انظر: جامع البيان ١٢/ ٥٣٣.

(٥) انظر: المصدر السابق ١٢/ ٥٣٤.

(٦) انظر: المصدر السابق.

(٧) انظر: عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٩١، والطبري في التفسير ١٢/ ٥٣٥.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحدٍ، رقم ٤٠٤١.

وعن سعد بن أبي وقاصٍ قال: (لقد رأيت يوم أحدٍ عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره رجلين عليهما ثيابٌ بيضٌ، يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد)[1].

وعن عائشة قالت: أصيب سعدٌ يوم الخندق، رماه رجلٌ من قريشٍ يقال له: ابن العرقة، رماه في الأكحل، فضرب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمةً في المسجد يعوده من قريبٍ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق وضع السلاح، فاغتسل، فأتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: وضعت السلاح؟ والله، ما وضعناه اخرج إليهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأين؟) فأشار إلى بني قريظة، فقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إلى سعدٍ، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية والنساء، وتقسم أموالهم[2].

ثالثًا: الأمر بأخذ الأمور الحسنة بالقوة:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣].

ومعنى الآية: خذوا ما افترضناه عليكم في كتابنا من الفرائض فاقبلوه واعملوا باجتهادٍ منكم في أدائه من غير تقصيرٍ ولا توانٍ. وذلك هو معنى أخذهم إياه بقوةٍ بجدٍّ[3].

أمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة، وأن يعزموا فيه عزيمة، فأمر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة.. إنه عهد الله مع المؤمنين.. وهو جد وحق، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق.. وله تكاليف شاقة، نعم! ولكن هذه هي طبيعته، إنه أمر عظيم، فلا بد أن تقبل عليه النفس إقبال الجاد القاصد العارف بتكاليفه، المتجمع الهم والعزيمة المصمم على هذه التكاليف، ولا بد أن يدرك صاحب هذا الأمر أنه إنما يودع حياة الدعة والرخاء والرخاوة[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، رقم ٤٠٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، بابٌ في قتال جبريل وميكائيل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحدٍ، رقم ٢٣٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، رقم ٤١٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكمٍ عدلٍ أهلٍ للحكم، رقم ١٧٦٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٣.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٧٦.

وقال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم:١٢].

أي: بجدٍّ واجتهادٍ، وذلك بتفهم المعنى أولًا حتى يفهمه على الوجه الصحيح، ثم يعمل به من جميع الجهات، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بآدابه، ويتعظ بمواعظه، إلى غير ذلك من جهات العمل به[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥].

فأمر الله موسى عليه السلام أن يأخذ الشرع بقوة، وأن يبلغه لقومه، والواجب على هؤلاء أن يتحركوا لنشر هذا الدين وتبليغه للعالمين.

يقول الطاهر: «والقوة هنا في قوله: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ تمثيلٌ لحالة العزم على العمل بما في الألواح بمنتهى الجد والحرص دون تأخيرٍ ولا تساهلٍ ولا انقطاعٍ عند المشقة ولا مللٍ، بحالة القوي الذي لا يستعصي عليه عملٌ يريده. ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾[مريم:١٢].

وهذا الأخذ هو حظ الرسول وأصحابه المبلغين للشريعة والمنفذين لها، فالله المشرع، والرسول المنفذ، وأصحابه وولاة الأمور هم أعوانٌ على التنفيذ، وإنما اقتصر على أمر الرسول بهذا الأخذ لأنه من خصائصه من يقوم مقامه في حضرته وعند مغيبه، وهو وهم فيما سوى ذلك كسائر الأمة.

فقوله: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ تعريجٌ على ما هو حظ عموم الأمة من الشريعة وهو التمسك بها»[2].

رابعًا: الامتنان بالقوة، والتحذير من الاغترار بها:

امتن الله تعالى على قوم هود بنعمة القوة، ولذلك قال لهم هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود:٥٢].

يقول الرازي: «إنه عليه السلام قال: «إنكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم»، وهذا غاية ما يراد من السعادات، فإن النعم إن لم تكن حاصلةً تعذر الانتفاع، وإن كانت حاصلةً إلا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضًا، أما إذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها فههنا تحصل غاية السعادة والبهجة، فقوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٧٨.

(٢) التحرير والتنوير ٩/ ١٠٠.

﴿ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ إشارةٌ إلى تكثير النعم، لأن مادة حصول النعم هي الأمطار الموافقة.

وقوله: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة، ولا شك أن هذه الكلمة جامعةٌ في البشارة بتحصيل السعادات وأن الزيادة عليها ممتنعةٌ في صريح العقل، ويجب على العاقل أن يتأمل في هذه اللطائف ليعرف ما في هذا الكتاب الكريم من الأسرار المخفية»[1].

وقال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ [فصلت: ١٥].

وقال هاهنا: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم»[2].

فهذه نعم أنعم الله بها عليهم وامتن عليهم بها، ولكنهم طغوا وتجبروا، فأهلكهم الله كما أهلك غيرهم.

قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر:٦-١٤].

وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبابرة الذين عرفهم التاريخ

- ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ وكانت ثمود تسكن بالحجر في شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام، وقد قطعت الصخر وشيدته قصورا كما نحتت في الجبال ملاجئ ومغارات.
- ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾، وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار.

هؤلاء هم ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾، وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكانا في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد!

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحقد الكظيم؛ فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية، والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن، وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة، وميدانًا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك، وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد!

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة؛ لأنها خطر على الطغاة والطغيان، فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة وتراها مقبولة مستساغة.

فلما أكثروا في الأرض الفساد كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم، فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب، حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: يرى ويحسب ويحاسب ويجازي وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور

لكن بحقائق الأشياء[1].

وقد حذر الله من الاغترار بالقوة في غير ما آية، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦].

يقول الرازي: «والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعًا فما استعملوه في سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصارًا فما استعملوها في تأمل العبر، وأعطيناهم أفئدةً فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها؛ فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئًا.

ثم بين تعالى أنه إنما لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم لأجل أنهم كانوا يجحدون بآيات الله، وقوله: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾ بمنزلة التعليل، ولفظ إذ قد يذكر لإفادة التعليل، تقول: ضربته (إذ) أساء. والمعنى ضربته لأنه أساء. وفي هذه الآية تخويفٌ لأهل مكة، فإن قوم عادٍ لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم، فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا»[2].

ولما اغتر قارون بقوته قال الله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

يقول الطبري: «يقول جل ثناؤه: أولم يعلم قارون حين زعم أنه أوتي الكنوز لفضل علمٍ عنده علمته أنا منه فاستحق بذلك أن يؤتى ما أوتي من الكنوز أن الله قد أهلك من قبله من الأمم من هو أشد منه بطشًا، وأكثر جمعًا للأموال ولو كان الله يؤتي الأموال من يؤتيه لفضلٍ فيه وخيرٍ عنده ولرضاه عنه لم يكن يهلك من أهلك من أرباب الأموال الذين كانوا أكثر منه مالًا، لأن من كان الله عنه راضيًا فمحالٌ أن يهلكه الله وهو عنه راضٍ، وإنما يهلك من كان عليه ساخطًا»[3].

فالكلام تهديدٌ للمجرمين ليحذروا من أن يؤخذوا بغتةً، ويحتمل أن يكون السؤال بمعناه الحقيقي، أي: لا يسأل المجرم عن جرمه قبل عقابه؛ لأن الله قد بين للناس على ألسنة الرسل بحدي الخير والشر، وأمهل المجرم، فإذا أخذه أخذه بغتةً، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٣-٣٩٠٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٦.

(٣) جامع البيان ١٨/ ٣٢٦.

﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤][1].

وقال الله محذرا أهل مكة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣].

وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوةً من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟! فإن رفع عن كثيرٍ منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠][2].

وقال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة:٦٩].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:٩].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

فلما عرض وصف الأمم السابقة بأنهم أشد قوةً من قريشٍ في معرض التمثيل بالأولين تهديدًا واستعدادًا لتلقي مثل عذابهم أتبع ذلك بالاحتراس عن الطماعية في النجاة من مثل عذابهم بعلة أن لهم من المنجيات ما لم يكن للأمم الخالية، كزعمهم أن لهم آلهةً تمنعهم من عذاب الله بشفاعتها أو دفاعها، فقيل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هبكم أقوى من الأولين أو أشد حيلةً منهم أو لكم من الأنصار ما ليس لهم، فما أنتم بمفلتين من عذاب الله؛ لأن الله لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، كقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢][3].

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٨٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٢.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٣٨-٣٣٩.

مجالات القوة ومظاهرها

أولًا: القوة في الدين:

والقوة في الدين تشمل أمورا كثيرة، ومن ذلك:

١. أخذ الدين بقوة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣].

ومعنى الآية: خذوا ما افترضناه عليكم في كتابنا من الفرائض فاقبلوه واعملوا باجتهادٍ منكم في أدائه من غير تقصيرٍ ولا توانٍ. وذلك هو معنى أخذهم إياه بقوةٍ بجدٍ[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢].

أي: بجدٍّ واجتهادٍ، وذلك بتفهم المعنى أولًا حتى يفهمه على الوجه الصحيح، ثم يعمل به من جميع الجهات، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بآدابه، ويتعظ بمواعظه، إلى غير ذلك من جهات العمل به[(٢)].

٢. الثبات على الدين.

ومن القوة في الدين الثبات عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:٩٢].

يقول الطاهر: «وقد ذكر من قصتها أنها كانت امرأةً خرقاء مختلة العقل، ولها جوارٍ، وقد اتخذت مغزلًا قدر ذراعٍ وصنارة مثل أصبعٍ وفلكة عظيمة على قدر ذلك، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فتنقض ما غزلته، وهكذا تفعل كل يومٍ، فكان حالها إفساد ما كان نافعًا محكمًا من عملها وإرجاعه إلى عدم الصلاح، فنهوا عن أن يكون حالهم كحالها في نقضهم عهد الله وهو عهد الإيمان بالرجوع إلى الكفر وأعمال الجاهلية. ووجه الشبه الرجوع إلى فسادٍ بعد التلبس بصلاحٍ»[(٣)].

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها، إذا كان الوفاء بها برا، ويشمل أيضا ما تعاقد عليه هو وغيره، كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها[(٤)].

٣. تبليغه للناس.

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٣.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٧٨.
(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٦٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٤٧.

ومن القوة في الدين تبليغه للناس، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥].

فأمر الله موسى عليه السلام أن يأخذ الشرع بقوة، وأن يبلغه لقومه، والواجب على هؤلاء أن يتحركوا لنشر هذا الدين،وتبليغه للعالمين.

يقول الطاهر: «والقوة هنا في قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ تمثيلٌ لحالة العزم على العمل بما في الألواح بمنتهى الجد والحرص دون تأخيرٍ ولا تساهلٍ ولا انقطاعٍ عند المشقة ولا مللٍ، بحالة القوي الذي لا يستعصي عليه عملٌ يريده. ومنه قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[مريم:١٢].

وهذا الأخذ هو حظ الرسول وأصحابه المبلغين للشريعة والمنفذين لها، فالله المشرع، والرسول المنفذ، وأصحابه وولاة الأمور هم أعوانٌ على التنفيذ، وإنما اقتصر على أمر الرسول بهذا الأخذ لأنه من خصائصه من يقوم مقامه في حضرته وعند مغيبه، وهو وهم فيما سوى ذلك كسائر الأمة.

فقوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾[الأعراف: ١٤٥].

تعريجٌ على ما هو حظ عموم الأمة من الشريعة وهو التمسك بها»[(١)].

٤. أخذ الدين بشمولية.

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥].

فالأمر الإلهي الجليل لموسى عليه السلام أن يأخذ الألواح بقوة وعزم، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم.

هذا الأمر على هذا النحو فضلًا على أنه يشي بضرورة هذا الأسلوب في أخذ هذه الطبيعة الإسرائيلية التي أفسدها الذل وطول الأمد بالعزم والجد لتحمل تكاليف الرسالة والخلافة، فإنه - كذلك - يوحي بالمنهج الواجب في أخذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها.

إن العقيدة أمر هائل عند الله سبحانه وأمر هائل في حساب هذا الكون، وقدر الله الذي يصرفه، وأمر هائل في تاريخ الإنسان وحياته في هذه الأرض وفي الدار الآخرة كذلك.

والمنهج الذي تشرعه العقيدة في وحدانية الله سبحانه وعبودية البشر لربوبيته وحده منهج يغير أسلوب الحياة البشرية بجملتها، ويقيم هذه الحياة على أسلوب آخر غير الذي تجري عليه في الجاهلية،

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١٠٠.

حيث تقوم ربوبية غير ربوبية الله سبحانه، ذات منهج للحياة كلها غير منهج الله الذي ينبثق من تلك العقيدة.

وأمر له هذه الخطورة عند الله وفي حساب الكون وفي طبيعة الحياة وفي تاريخ الإنسان يجب أن يؤخذ بقوة، وأن تكون له جديته في النفس، وصراحته وحسمه، ولا ينبغي أن يؤخذ في رخاوة، ولا في تميع، ولا في ترخص، ذلك أنه أمر هائل في ذاته، فضلًا على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها من طبيعته الرخاوة والتميع والترخص أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر.

وليس معنى هذا - بطبيعة الحال - هو التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض! فهذا ليس من طبيعة دين الله.

ولكن معناه الجد والهمة والحسم والصراحة وهي صفات أخرى ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض!

ولقد كانت طبيعة بني إسرائيل - بصفة خاصة - بعدما أفسدها طول الذل والعبودية في مصر تحتاج إلى هذا التوجيه، لذلك نلحظ أن كل الأوامر لبني إسرائيل كانت مصحوبة بمثل هذا التشديد وهذا التوكيد، تربية لهذه الطبيعة الرخوة الملتوية المنحرفة الخاوية على الاستقامة والجد والوضوح والصراحة.

ومثل طبيعة بني إسرائيل كل طبيعة تعرضت لمثل ما تعرضوا له من طول العبودية والذل والخضوع للإرهاب والتعبد للطواغيت، فبدت عليها أعراض الالتواء والاحتيال، والأخذ بالأسهل تجنبًا للمشقة.

كما هو الملحوظ في واقع كثير من الجماعات البشرية التي نطالعها في زماننا هذا، والتي تهرب من العقيدة لتهرب من تكاليفها، وتسير مع القطيع لأن السير مع القطيع لا يكلفها شيئًا![1].

فالواجب على العباد أن يأخذوا التكاليف كلها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة:٢٠٨].

فتأويل ذلك دعاءٌ للمؤمنين إلى رفض جميع المعاني التي ليست من حكم الإسلام، والعمل بجميع شرائع الإسلام، والنهي عن تضييع شيءٍ من حدوده[2].

ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان، فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان، إما الدخول في السلم كافة، وإما اتباع خطوات الشيطان، إما هدى وإما ضلال، إما إسلام وإما جاهلية، إما طريق الله وإما

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧١.
(٢) هذا قول من الأقوال في الآية.
انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٦٠٠.

طريق الشيطان، وإما هدى الله وإما غواية الشيطان، وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه، فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات.

إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن ليختار واحدًا منها، أو يخلط واحدا منها بواحد، كلا! إنه من لا يدخل في السلم بكليته، ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة الله وشريعته، ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرع آخر، إن هذا في سبيل الشيطان، سائر على خطوات الشيطان.

ليس هنالك حل وسط، ولا منهج بين بين، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك! إنما هناك حق وباطل، هدى وضلال، إسلام وجاهلية، منهج الله أو غواية الشيطان، والله يدعو المؤمنين في الأولى إلى الدخول في السلم كافة ويحذرهم في الثانية من اتباع خطوات الشيطان، ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم، ويستثير مخاوفهم بتذكيرهم بعداوة الشيطان لهم، تلك العداوة الواضحة البينة التي لا ينساها إلا غافل، والغفلة لا تكون مع الإيمان[1].

إن الملاحظ في عامة أوساط الناس انحصار مفهوم الحديث في القوة الظاهرة المكتسبة في ظاهر بدن الإنسان، فتجد في الواقع أكثر الناس ممن لهم في ذلك الشأن أقوياء في البدن ضعفاء في الروح، بل ربما كانت هذه القوة مصدر شقاء هذه الأجساد في كثير من الأحيان، ترى ذلك في الواقع أكثر من أن تقدر على حصره.

وثمة معنى عظيم الأثر في تحقيق أثر الإنسان في الأرض، وأكبر حادٍ له إلى صناعة المجد، وأقوى الأسباب في تحقيق غايات الإنسان وبناء تاريخه في الدنيا، هذا المعنى يغفل عنه الناس، ولا يأخذ من حياتهم الحيز الذي شغله معنى القوة الظاهرية في بناء أنفسهم، وهو لا يكلفهم مالًا، ولا يتطلب منهم مجهودًا كما يتطلب منهم المعنى الأول، ألا وهو معنى الصلة بالله تعالى.

إن الصلة بالله تعالى تصنع في حياة الإنسان من النشاط والحركة والقوة والتأثير ما لا يصنعه بناء كمال الأجسام، ولا سبيل للمقارنة بين المعنيين، وأضرب لك لتقريب هذا المعنى الأمثلة التالية:

المثال الأول: حين أراد الله تعالى أن يرسل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم ليبلغ الناس هذا الدين أبلغه وصية نافعة وأرشده إلى الطريق الذي يتحمل به أعباء الدعوة، وشدد عليه في اعتناق ذلك المعنى بكل ما يملك، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢١١.

﴿الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل:١-٧].

وكل ذلك كان من أجل البلاغ، ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥] كأن الله تعالى يقول به: إنه لا سبيل لك للقيام بهذه المهمة الشاقة الصعبة إلا بحسن الصلة ووطيد العلاقة وقوة الحياة في قلبك واستمدادك للقوة التي تحملك لبلاغ دين الله تعالى في الأرض.

وكانت هذه الوصية فيما بعد هي زاد النبي صلى الله عليه وسلم الروحي والمعنوي الذي استوثق منه غاية وسعه، فاستقبل بعد ذلك الدعوة وهو في أوج روحه وعطائه وجهده، فذهب يعلي بها كلمة الله تعالى في الأرض، وما رحل من الدنيا حتى سجل أروع صور التاريخ أثرًا.

المثال الثاني: عن أبي هريرة، أن فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم تسأله خادمًا وشكت العمل، فقال: (ما ألفيتيه عندنا) قال: (ألا أدلك على ما هو خيرٌ لك من خادم؟ تسبحين ثلاثًا وثلاثين، وتحمدين ثلاثًا وثلاثين، وتكبرين أربعًا وثلاثين، حين تأخذين مضجعك)[1].

فتأمل هذه العلاقة بين شكوى فاطمة من الإرهاق الجسدي الذي تتعرض له كل يوم في بيتها وتأتي تسأل أباها عن ما يخفف تلك الآلام التي تعتري جسدها فلا يجد لها النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذه الوصية المعنوية الروحية يسلي بها خاطرها، ويسل بها أثر تعبها وخدمتها، ولولا أن لهذا الذكر فائدة كبرى في تقوية الإنسان على عمله وجهاده في الحياة لما كانت الوصية به في هذا المقام.

ثانيًا: الجهاد، والإعداد له، ومقاومة العدو:

الحق له قوة ذاتية نابعة منه ومن تجافيه عن الباطل، ويستطيع دعاة الحق أن يصلوا به إلى عقول الناس بما احتواه من الحجج والبراهين الدالة عليه، ولا يحتاج الحق في إقناع الناس به إلى قوة تجبرهم أو تكرههم على القبول به واختياره؛ فإن قوته فيه، ومتى ما احتاج الحق إلى الإكراه لتحقيق الاقتناع بأدلته وبراهينه لم يكن حقًا؛ لذا جاء النص بنفي الإكراه في الدين.

وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

فالإسلام دين حق عليه دلائل يقينية كل من اطلع عليها لا يملك غير التسليم بها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم ٢٧٢٨.

والإذعان لها؛ فلا حاجة إذن إلى الإكراه عليه. قال ابن كثير: «لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بينٌ واضحٌ جليٌ دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحدٌ على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينةٍ، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قومٍ من الأنصار، وإن كان حكمها عامًا»[1].

ولعل مجيء الآية بلفظ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ وليس بلفظ: لا إكراه على الدين، مما يوضح ذلك، ثم كان قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ كالتعليل لما سبق.

ورغم أن الحق منصور من داخله بأدلته وبراهينه، فلا بد له من قوة خارجية، لا لكي يفرض بها نفسه على الناس، وإنما يحتاج إليها لأمرين:

الأول: لكي تدافع عنه ضد عدوان المعتدين وصيال الصائلين الذين ختم الله تعالى على قلوبهم، وأصبح نهجهم العناد والمكابرة، والعدوان على المخالفين.

الثاني: جهاد الطغاة الظالمين الذين يصدون الناس بما لديهم من سلطان وقوة عن الاستجابة للنداء الحق، ويصرفونهم عن اتباعه، ويجبرونهم جبرًا وقسرًا على البقاء على دينهم الفاسد وعدم الإقبال على الدين الحق، ولأجل تلك الحقيقة شرع الله سبحانه الجهاد.

لقد كانت مكة عند بداية الدعوة إلى الله دار كفر وكان الغالب على أهلها الكفر بالله تعالى، واستمر ذلك زمنًا طويلًا؛ لذلك لم يكن هناك من فائدة لإعداد العدة والقوة الحربية؛ لأنها في ظل موازين القوى غير المتكافئة لن تستخدم، ويكون استخدامها في ذلك الوقت المبكر من عمر الدعوة مدعاة للقول بأن الإسلام جاء من أجل قتال الناس، ولو قدر له الانتصار لقالوا: إنما انتشر بقوة السيف ودخله الناس مكرهين ولم يدخلوا مؤمنين.

ثم إن ذلك قد يؤدي إلى أمر خطير لو قدر للدعوة أن تنهزم وهو استئصالها في مهدها ومنعها من النمو، كما أن شرع الجهاد في ذلك الوقت المبكر لن يساعد على تربية المسلمين الذين استجابوا لله والرسول ولدعوة الحق.

ومع أن الإعداد الحربي في ذلك الوقت غير ممكن وغير مراد، لكن كان يجري هناك إعداد أهم بكثير من الإعداد الحربي، بل لا يقوم الإعداد الحربي إلا عليه، فكان هناك إعداد أكثر أهمية يجري على أرض الواقع على بصيرة وجد واجتهاد، مع الروية

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٢.

وعدم العجلة، وهو بناء المسلم من داخله: عقيدته، وتصوراته، وعبادته.

وما إن انتقل المسلمون من دار الدعوة -مكة المكرمة- إلى دار الدولة -المدينة المنورة- حتى بدأت مرحلة جديدة من الإعداد وهو الإعداد الحربي، وجاء الأمر بذلك من الله -رب الخلق جميعهم-، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠].

قال ابن كثير: «أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ أي: مهما أمكنكم، ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾»[1].

وقال الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب وما يتقوون به على جهاد عدوه وعدوهم من المشركين من السلاح والرمي وغير ذلك ورباط الخيل. ولا وجه لأن يقال: عنى بالقوة معنًى دون معنًى من معاني القوة، وقد عم الله الأمر بها. فإن قال قائلٌ: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بين أن ذلك مرادٌ به الخصوص بقوله: (ألا إن القوة الرمي) قيل له: إن الخبر وإن كان قد جاء بذلك فليس في الخبر ما يدل على أنه مرادٌ بها الرمي خاصةً دون سائر معاني القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة؛ لأنه إنما قيل في الخبر: (ألا إن القوة الرمي) ولم يقل دون غيرها. ومن القوة أيضًا السيف والرمح والحربة، وكل ما كان معونةً على قتال المشركين، كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم وفي النكاية منهم»[2].

وقال ابن عاشور: «والإعداد التهيئة والإحضار، ودخل في ما استطعتم كل ما يدخل تحت قدرة الناس اتخاذه من العدة.

والخطاب لجماعة المسلمين وولاة الأمر منهم، لأن ما يراد من الجماعة إنما يقوم بتنفيذه ولاة الأمور الذين هم وكلاء الأمة على مصالحها.

فقوة الجيش شدة وقعه على العدو، وقوته أيضًا سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا، فاتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوة في جيوش العصور الماضية، واتخاذ الدبابات والمدافع والطيارات والصواريخ من القوة في جيوش عصرنا.

وبهذا الاعتبار يفسر ما روى مسلمٌ[3]

(١) المصدر السابق ٤/ ٨٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٤٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، رقم ١٩١٧.

عن عقبة بن عامرٍ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على المنبر ثم قال: (ألا إن القوة الرمي)، قالها ثلاثًا، أي أكمل أفراد القوة آلة الرمي، أي في ذلك العصر. وليس المراد حصر القوة في آلة الرمي.

وعطف رباط الخيل على القوة من عطف الخاص على العام، للاهتمام بذلك الخاص»[1].

فقد صار بالإمكان الآن - بعد تحيز المسلمين إلى دار تأويهم - استعمال العدة الحربية والاستفادة منها، وأصبح وجودها والتدرب عليها في هذه الحالة ضرورة لا بد منها حيث تحقق أهداف المسلمين، بعكس الحالة الأولى التي كان من الممكن أن تشكل عبئًا عليهم.

وقد أطلقت الآية في بيان القوة التي ينبغي إعدادها من غير تقييد حتى يسمح إطلاقها بقبول ما يجد من آلات القوة مع تغير الأزمنة، وهذا الأمر يفرض على جماعة المسلمين الجد والاجتهاد والمثابرة في تحصيل القوة الممكنة في عصرهم التي من شأنها أن تردع الكفار المحاربين أعداء الله ورسله والمؤمنين.

وفي الأمر بإعداد ما يستطاع من القوة نهي عن الإهمال والتقاعس عن امتلاك أقصى ما يمكن امتلاكه من القوة الحقيقية ووسائلها لا القوة الصورية أو الاستعراضية؛ فالأمة الإسلامية أمة رسالية، مطلوب منها تبليغ رسالة الله إلى العالمين.

وقد بين نص الآية السبب الذي لأجله أمر المسلمون بإعداد ما يستطاع من القوة، وهو قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فكان في إعداد القوة البالغة أمان للأمة من الأعداء المعروفين وغير المعروفين، حتى إنه ليخافها ويرهب جانبها من لا يعرفه المسلمون، مما يشكل رادعًا لمن تسول له نفسه مهاجمتهم أو التآمر عليهم، ويصير الإهمال في إعداد ما يستطاع من القوة مدعاة لأن يستخف بهم أعداؤهم ويتجرؤون عليهم.

هذا النص القرآني في وجوب إعداد القوة التي تخيف الأعداء، بغرض تأمين الدعوة إلى الله في أرض الله، وتأمين دار الإسلام ضد عدوان المعتدين، يفتح باب التصنيع الحربي أمام المسلمين على مصراعيه؛ لأن إعداد المستطاع من القوة لا يتم إلا بذلك، ومن القواعد المشهورة عند أهل العلم أن (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

وقد أشار القرآن إلى الصناعات الحربية في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ الآية، [الحديد: ٢٥].

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٥٥، بتصرف.

قال ابن كثير: «يعني: السلاح كالسيوف، والحراب، والسنان، والنصال، والدروع، ونحوها»[1].

والحديد لا يصير سيوفًا وحرابًا ونصالًا إلا بالتصنيع، وكذلك قال تعالى ممتنًا بتعليم الصناعة الحربية لعبده داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ يعني: اتخاذ الدروع بإلانة الحديد له، واللبوس عند العرب السلاح كله، درعًا كان أو جوشنًا أو سيفًا أو رمحًا»[2].

كما دلت النصوص على العناية بالمركبات الحربية التي يستخدمها المجاهدون، أو التي تنقلهم إلى ميادين الجهاد، مما يبين أن صناعة المركبات الحربية سواء كانت دبابات برية أو سفنًا وغواصات بحرية أو طائرات جوية، ينبغي أن تلقى العناية أيضًا؛ فإن الجهاد بغيرها متعذر أو مستحيل في أيامنا.

ومن النصوص التي تحدثت عن المركبات الحربية قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ فالخيل هي المركبات الحربية في زمن نزول القرآن.

فإذا كانت النصوص الشرعية قد دلت على العناية بصناعة الأسلحة والمركبات الحربية، وعمل بذلك سلفنا الصالح، فإنه يكون من أكبر التقصير الذي تقع فيه الأمة اليوم أن تظل تعتمد في سلاحها الذي تحفظ به أمنها وتنشر به دعوة الله المكلفة بإيصالها للعالمين، على عدوها الذي لا يألوها خبالًا كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ولا شك أن اعتماد الأمة في سلاحها على الشراء فقط دون التصنيع، له مفاسد كثيرة، منها: المبالغ الضخمة التي تدفع في هذه الأسلحة التي تفوق بمراحل كثيرة قيمتها الفعلية، ومنها أن تلك الأسلحة لا يمكن أن تكون أسلحة متقدمة متطورة تغني في مواقع النزال مع أعداء الأمة، بل إن موردي السلاح من دول النصارى لا يعطون الأمة إلا الأسلحة التي لا تخل بميزان القوى بين الأمة وبين عدوها، بحيث تضمن تلك الدول للعدو أن يحقق التفوق الحربي على الدول العربية مجتمعة أثناء القتال، ومنه منع الإمداد بالسلاح أو الذخيرة وقت الحاجة إليه، فتقف الجيوش عاجزة عن التحرك،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٢٠.

ويفرض على الأمة حينئذ ما يشاؤون من الحلول الانهزامية؛ وأمامنا ما حدث في قضية البوسنة والهرسك؛ حيث منع عنهم السلاح وهم يتعرضون للقتل الشديد من الصرب.

ومن مفاسد الاعتماد في التسليح على الغير أن يكون قرار الأمة مغلولًا غير قادر على التحرر والاستقلالية، وهذا الوضع يؤدي إلى استخفاف كثير من الدول بالمسلمين.

إن من الأمور الغريبة التي يعسر إيجاد تسويغ مقبول لها أن تكون الأمة التي جعل الله الجهاد في سبيله لتبليغ رسالة رب العالمين إلى الناس كافة أحد فرائض دينها، ثم هي تهمل آلته وما يساعد عليه، رغم امتلاكها لكل ما تحتاج إليه مما يمكن أن يقيم صناعة حربية متطورة تزود الدول الإسلامية جميعها بما تحتاج إليه.

لقد أدى هذا الوضع إلى أن تنتقص بلاد المسلمين من أطرافها، ويحتلها الكفار من اليهود والنصارى وهم مطمئنون إلى عدم قدرة هذه الدول على الدفاع عن نفسها؛ لأنها لا تملك سلاحها الذي تدافع به عن نفسها.

لقد تطورت صناعة الأسلحة بما فيها المركبات الحربية في أيامنا هذه تطورًا مذهلًا، وقد بات الآن من الأمور الواضحة في فقه السياسة الشرعية وجوب القيام بالتصنيع الحربي في جميع المجالات، وجوبًا لا يحتمل التأخير والمماطلة، وإذا كانت الأمة تعاني من تخلف كبير في هذا المجال فإنها يمكنها أن تتكامل في ذلك مع الدول الإسلامية المتقدمة في مجال التصنيع الحربي، وأن تبدأ من الآن، وتوجه الجهود، وتقيم مراكز الأبحاث، وترصد الأموال اللازمة، ومن سار على الدرب وصل ولو بعد حين.

إنه ليس هناك ما يسوغ لأحد التقاعس أو الإهمال في إعداد العدة المناسبة لعصرها، وقد تبين لنا جميعًا أنه لا يمكن الاعتماد أو الركون إلى ما يسمونه تطمينات أو وعود أو نحو ذلك؛ فالخطط معدة، والانقضاض على بلادنا ليس إلا مسألة ظرف مناسب؛ فالبدار البدار؛ فإن الندم بعد وقوع المصاب لا يجدي، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني[1].

(١) انظر: إعداد القوة...الواقع والمأمول، محمد بن شاكر الشريف، مقال منشور بمجلة البيان العدد ٢٢٣، ربيع الأول: ١٤٢٧ هـ.

ثالثًا: البناء والعمران، والإصلاح والأعمال:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

يقول الرازي: «وأما الحديد ففيه البأس الشديد فإن آلات الحروب متخذةٌ منه، وفيه أيضًا منافع كثيرةٌ منها قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ومنها أن مصالح العالم، إما أصولٌ، وإما فروعٌ، أما الأصول فأربعةٌ: الزراعة والحياكة وبناء البيوت والسلطنة، وذلك لأن الإنسان مضطرٌ إلى طعامٍ يأكله وثوبٍ يلبسه وبناءٍ يجلس فيه، والإنسان مدنيٌ بالطبع فلا تتم مصلحته إلا عند اجتماع جمعٍ من أبناء جنسه يشتغل كل واحدٍ منهم بمهمٍ خاصٍ، فحينئذٍ ينتظم من الكل مصالح الكلّ، وذلك الانتظام لا بد وأن يفضي إلى المزاحمة، ولا بد من شخصٍ يدفع ضرر البعض عن البعض، وذلك هو السلطان.

فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلا بهذه الحروف الأربعة، أما الزراعة فمحتاجةٌ إلى الحديد، وذلك في كرب الأراضي وحفرها، ثم عند تكون هذه الحبوب وتولدها لا بد من خبزها وتنقيتها، وذلك لا يتم إلا بالحديد، ثم الحبوب لا بد من طحنها وذلك لا يتم إلا بالحديد، ثم لا بد من خبزها ولا يتم إلا بالنار، ولا بد من المقدحة الحديدية، وأما الفواكه فلا بد من تنظيفها عن قشورها، وقطعها على الوجوه الموافقة للأكل ولا يتم ذلك إلا بالحديد.

وأما الحياكة فمعلومٌ أنه يحتاج في آلات الحياكة إلى الحديد ثم يحتاج في قطع الثياب وخياطتها إلى الحديد، وأما البناء فمعلومٌ أن كمال الحال فيه لا يحصل إلا بالحديد، وأما أسباب السلطنة فمعلومٌ أنها لا تتم ولا تكمل إلا بالحديد، وعند هذا يظهر أن أكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد.

ويظهر أيضًا أن الذهب لا يقوم مقام الحديد في شيءٍ من هذه المصالح فلو لم يوجد الذهب في الدنيا ما كان يختل شيءٌ من مصالح الدنيا، ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا، ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدةً، جعله سهل الوجدان، كثير الوجود، والذهب لما قلت الحاجة إليه جعله عزيز الوجود، وعند هذا يظهر أثر وجود الله تعالى ورحمته على عبيده، فإن كل ما كانت حاجتهم إليه أكثر، جعل وجدانه أسهل.

ولهذا قال بعض الحكماء إن أعظم الأمور حاجةً إليه هو الهواء، فإنه لو انقطع وصوله إلى القلب لحظةً لمات الإنسان في

الحال، فلا جرم جعله الله أسهل الأشياء وجدانًا...»[1].

وممن ذكر الله قوتهم في البنيان والعمران، الجن في عهد سليمان عليه السلام.

يقول سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٢-١٣].

فمنهم من هو مستعملٌ في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدورٍ راسياتٍ إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفةٌ غواصون في البحار يستخرجون مما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها[2].

ومن استخدام القوة في البنيان والإصلاح، ما قصه الله علينا في قصة ذي القرنين.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٣-٩٨].

والإشارة بهذا إلى الردم، وهو رحمةٌ للناس لما فيه من رد فساد أمة يأجوج ومأجوج عن أمةٍ أخرى صالحة[3].

فقد استخدم ذو القرنين قوته في بناء السد العظيم، وفي ذلك من الإصلاح والعمران، والحفاظ على هؤلاء الصالحين ما فيه.

رابعًا: القوة الجسمية والنفسية:

قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

فهنا اجتماع القوتين، النفسية والجسمية، فالأولى المتمثلة في (الأمانة)، والثانية المتمثلة في (القوة).

يقول الزمخشري: «والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٧٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٧٣.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٩.

لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتي من البطش والقوة وما لم يغفل عنه، على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب، ترغيب في الخير، وانتهاز فرصه، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم»[1].

وقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فهم طعنوا في استحقاقه للملك بأمرين:

أحدهما: أنه ليس من أهل بيت الملك.

الثاني: أنه فقيرٌ.

والله تعالى بين أنه أهلٌ للملك وقرر ذلك بأنه حصل له وصفان أحدهما: العلم والثاني: القدرة، وهذان الوصفان أشد مناسبةً لاستحقاقه الملك من الوصفين الأولين وبيانه من وجوه:

أحدها: أن العلم والقدرة من باب الكمالات الحقيقة، والمال والجاه ليسا كذلك.

والثاني: أن العلم والقدرة من الكمالات الحاصلة لجوهر نفس الإنسان والمال والجاه أمران منفصلان عن ذات الإنسان.

الثالث: أن العلم والقدرة لا يمكن سلبهما عن الإنسان، والمال والجاه يمكن سلبهما عن الإنسان.

والرابع: أن العلم بأمر الحروب، والقوي الشديد على المحاربة يكون الانتفاع به في حفظ مصلحة البلد، وفي دفع شر الأعداء أتم من الانتفاع بالرجل النسيب الغني إذا لم يكن له علمٌ بضبط المصالح، وقدرةٌ على دفع الأعداء، فثبت بما ذكرنا أن إسناد الملك إلى العالم القادر، أولى من إسناده إلى النسيب الغني[2].

(١) الكشاف ٣/ ١٠٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٥٠٤.

آثار القوة

أولًا: القوة وسيلة للوصول إلى غايات:

إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان.

وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة: أن تُؤَمِّنَ الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.

والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة.

والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» كله في «الأرض» كلها.

والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده[1].

يقول عبد الرحمن حبنكة عن الجهاد - وهو نوع من أنواع القوة -: إن الجهاد المقدس يهدف إلى غاية نبيلة مثالية، هي العمل على نشر عقيدة دينية ربانية بين الناس، آمنت بها أمة، ودعاها إيمانها بها إلى أن تسعى في نشرها وتعميمها على الناس، حبًّا للخير، وغيرة على بني الإنسان، وطاعة لله، وهي أيضًا تمكين المؤمنين بها من إقامة الحق والعدل بين الناس، والحكم بينهم بما أنزل الله، والسعي في جلب الخير لهم، على حب ورحمة وإخاء.

هذه هي غاية الجهاد المقدس في أصول تعاليم الأديان الربانية كلها، وليست غايته الأساسية طلبًا لثراء المؤمنين، أو رغبة بانتصارهم أو غلبتهم، أو سعيًا وراء السلطان والعلو في الأرض، إلا أن تكون هذه الأمور وسيلة للغاية الأساسية.

وبناء على هذه الغاية الأساسية للجهاد المقدس يغدو المستجيبون الجدد لدعوته مثل المجاهدين الفاتحين، دون أي فروق بين حامل العقيدة الأول وحامل العقيدة الجديد، إلا الفروق التي تقتضيها طبيعة الأمور لدى كل أمة، وهي الفروق التي تعتمد على التفاوت في مقدار الثقة، والكفاءات الذاتية أو العلمية أو المكتسبة بالخبرات والمهارات العملية.

ويدل على إقرار اعتبار ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٤-٧٥].

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٥٩-٢٦٠.

فهذا يشعر باعتبار فروق العمل لدى قياس نسب التفاوت بين الأفراد، ويدل عليه بوضوح أيضًا قول الله: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٥].

أما عند الله تعالى فالتفاوت في التكريم يستند إلى مقدار التفاوت في تقوى الله لا غير، وهو المقياس الذي يقاس به الجزاء الرباني يوم القيامة.

ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

فأفضلية التكريم عند الله متناسبة طردًا مع أفضلية نسبة التقوى، ويلزم من ذلك عقلًا أن تتنازل الأفضلية بمقدار تنازل درجات التقوى.

والغاية المثالية العظيمة التي هي هدف الجهاد المقدس لا يخدشها ما يلزم عنه من أمور مادية ترافق حركته، دون أن تكون مقصودة في الأصل لرسالته.

فقد يفضي الجهاد إلى تحقيق بعض المغانم المادية، وقد يفضي إلى ضرورة بسط سلطان المجاهدين الفاتحين، لإقامة الحق والعدل والدعوة إلى الخير، وفعل الخير، وتأمين حرية انتشار دين الله، نظرًا إلى طبيعة الأحوال الإنسانية التي تقتضيها ظروف الجهاد والفتح من جهة، وظروف عناد أعداء دين الله وصراعهم للحق وكيدهم له من الجهة المضادة، مع إلحاح الدواعي المثالية التي توجب إضعافهم كبحًا لجماح الشر والفتنة.

ومع ذلك فإن رسالة الجهاد المقدس تظل في جميع الأحوال رسالة مثالية، لا تهدف في أساسها إلى إرضاء شهوة الحكم عند أمة ضد أخرى، أو كسب مغانم لها، أو تسليط شعب على شعب.

ومتى تحول الجهاد عن غايته الربانية إلى الغايات الإنسانية الأخرى، المتصلة بالمطامع المادية أو الغرائز النفسية، أمسى شكلًا من أشكال محاولات سيطرة بعض الشعوب على بعض. ولقد عرف التاريخ منها في بحر الزمن أمواجًا كثيرة مقبلة أو مدبرة، تبعًا لرياح المطامع والشهوات الإنسانية، مع الشعور بالقوة القادرة على التغلب والاستيلاء.

وحينما ينحرف الجهاد عن غايته التي حددها الله في رسالاته، يكل الله القائمين به إلى أنفسهم، وإلى إمكاناتهم الإنسانية البحتة، ويحجب عنهم العون والمدد والتأييد، ويقذف في قلوبهم الرعب، ويطرحهم مع حشد الأمواج البشرية التي

تتلاطم في حدود إمكاناتها المادية الخالية من القوى المعنوية المؤثرة الغلابة. وكذلك حينما يستثمر المجاهدون الفتح والنصر لغير الغاية التي قام الجهاد المقدس من أجلها، فإن الله يكل الفاتحين إلى أنفسهم، ويرفع عنهم يد التثبيت والمعونة، فتموج بهم الأرض التي فتحوها، وترتج بهم العروش التي اعتلوها، وتأتيهم إنذارات الانهيار، ليصلحوا نياتهم وأعمالهم، فإذا استمروا في الانحراف عن الطريق الذي حدده الله لهم، آذنهم بنقمته، وأنزل بهم عذابه، فدالت دولتهم، وانهارت قوتهم، وظفر بهم عدوهم[1].

ومن الغايات: التي يستخدم الإسلام القوة من أجلها.

١. حماية الدين، وحراسة الأمة، وإرهاب الأعداء.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠].

دلت الآية على وجوب إعداد القوة الحربية للدفاع عن الدين وعن الوطن وعن كل ما يجب الدفاع عنه؛ لأن أعداء الإسلام إذا ما علموا أن أتباعه أقوياء هابوهم، وخافوا بأسهم، ولم يجرؤوا على مهاجمتهم.

قال القرطبي: «أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوة للأعداء بعد أن أكد تقدمة التقوى. فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل في وجوههم وبحفنةٍ من ترابٍ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

ولكنه أراد أن يبتلي بعض الناس ببعضٍ بعلمه السابق وقضائه النافذ»[3].

وقال بعض العلماء: دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية، اتقاء بأس العدو وهجومه، ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزًا، عظيمًا، أبِيَّ الضيم، قويَّ القنا، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار.

أما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف، فأهملوا فرضًا من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض، ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني.

وكيف لا يطمع العدو في بلاد الإسلام، وهو لا يرى فيها معامل للأسلحة، وذخائر

(١) أجنحة المكر الثلاثة ٦٩٩-٧٠١.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٦٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٥.

الحرب، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو؟.

أما آن لها أن تتنبه من غفلتها، فتعد العدة التي أمر الله بها لأعدائها، وتتلافى ما فرطت قبل أن يداهم العدو ما بقي منها بخيله ورجله.. ؟

إن القوة التي طلب الله من المؤمنين إعدادها لإرهاب الأعداء، تتناول كل ما من شأنه أن يجعل المؤمنين أقوياء. كإعداد الجيوش المدربة، والأسلحة المتنوعة التي تختلف بحسب الأزمنة والأمكنة.

إن المقصود من إعداد العدة في الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا في الاعتداء على المسلمين، وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين في ديارهم، وحتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالة الله إلى خلقه من الناس دون أن يخشوا أحدا سواه عز وجل.

وليس المقصود بإعداد العدة إرهاب المسالمين، أو العدوان على الآمنين، أو القهر والإذلال للناس واستغلالهم فيما يغضب الله سبحانه.

ولذلك وجدنا الآية صريحة في بيان المقصود من هذا الإعداد، وهو كما عبرت عنه: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

والخلاصة: إن من تتبع آيات القرآن الواردة في القتال يجدها جميعها تقرر أن سبب القتال في الإسلام ينحصر في رد العدوان، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها وتثبيت حرية العقيدة، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان[1].

إذًا: فالغرض الأول من إعداد القوة: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض، الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم، وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم، والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة؛ ليكونوا مرهوبين في الأرض ولتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله[2].

٢. تعمير الأرض، وتحقيق الاستقرار.

قال تعالى عن هود عليه السلام وهو يدعو قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود:٥٢].

والاستقرار يؤدي إلى القوة، ومن ثم النعيم والهناء، فإن كثرة الأموال لها أسبابٌ

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ٦/ ١٤١-١٤٤. بتصرف.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٥٤٤.

كثيرةٌ: منها طيب الأرض للزرع والغرس، ورعي الأنعام والنحل، ومنها وفرة التجارة بحسن موقع الموطن بين مواطن الأمم، ومنها الاقتراب من البحار للسفر إلى الأقطار وصيد البحر، ومنها اشتمال الأرض على المعادن من الذهب والفضة والحديد والمواد الصناعية والغذائية من النبات، كأشجار التوابل ولحاء الدبغ والصبغ والأدوية والزراريع والزيوت.

وكثرة الأولاد تأتي من الأمن بسبب بقاء الأنفس، ومن الخصب المؤثر قوة الأبدان والسلامة من المجاعات المعقبة للموتان، ومن حسن المناخ بالسلامة من الأوبئة المهلكة، ومن الثروة بكثرة الأزواج والسراري والمراضع[1].

وكل ذلك لا بد له من قوة تحميه، وتقوم عليه، بل تأتي به.

ثانيًا: صور من استعمال القوة في الخير، وآثارها:

إن صور استعمال القوة في الخير كثيرة جدًّا، فالحقيقة أن أي عمل صالح، يحتاج إلى قوة، فإذا استخدم الإنسان تلك القوة في ذلك العمل، فهو نوع من استعمال القوة في الخير.

١. التضحية في سبيل نشر الدين.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

ومن الأمثلة الرائعة في ذلك:

عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدرٍ، فقال: (يا رسول الله غبت عن أول قتالٍ قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع)، فلما كان يوم أحدٍ، وانكشف المسلمون، قال: (اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني: أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، - يعني: المشركين - ثم تقدم).

فاستقبله سعد بن معاذٍ، فقال: (يا سعد بن معاذٍ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحدٍ)، قال سعدٌ: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنسٌ: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربةً بالسيف أو طعنةً برمحٍ، أو رميةً بسهمٍ، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحدٌ إلا أخته ببنانه.

قال أنسٌ: (كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٢٥٧.

إلى آخر الآية)[1].

٢. الرحمة بأهل الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤].

وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

يقول الألوسي: «والمعنى أن فيهم غلظة وشدة على أعداء الدين ورحمة ورقة على إخوانهم المؤمنين، وفي وصفهم بالرحمة بعد وصفهم بالشدة تكميل واحتراس فإنه لو اكتفى بالوصف الأول لربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر، فيتوهم الفظاظة والغلظة مطلقا فدفع بإرداف الوصف الثاني، ومآل ذلك أنهم مع كونهم أشداء على الأعداء رحماء على الإخوان»[2].

٣. مساعدة المحتاج، ونصرة المظلوم.

قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥].

فلما ظن موسى عليه السلام أن الرجل مظلوم وقف بجانبه إذ كانت القوة معه، وهكذا يجب على صاحب القوة أن ينصر المظلوم، بل وأن ينصر الظالم بحجزه عن ظلمه.

وفي مساعدة المحتاج، والوقوف بجانب الضعيف قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:٢٣].

قال الزمخشري: «والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة، وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتي من البطش والقوة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)، رقم ٢٨٠٥، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم ١٩٠٣.

(٢) روح المعاني ١٣/ ٢٧٦.

وما لم يغفل عنه، على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب، ترغيب في الخير، وانتهاز فرصه، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم»[1].

وروى ابن أبي شيبة[2] عن عن عمر بن الخطاب، أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجالٍ، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فأخبرتاه، فأتى الحجر فرفعه ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم، ورجعت المرأتان إلى أبيهما فحدثتاه، وتولى موسى عليه السلام إلى الظل فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

قال: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥]. واضعةً ثوبها على وجهها، قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، قال لها: امشي خلفي وصفي لي الطريق، فإني أكره أن تصيب الريح ثوبك فيصف لي جسدك، فلما انتهى إلى أبيها وقص عليه ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

قال: يا بنية ما علمك بأمانته وقوته؟ قالت: أما قوته فرفعه الحجر ولا يطيقه إلا عشرةٌ، وأما أمانته فقال لي: امشي خلفي وصفي لي الطريق؛ فإني أخاف أن تصيب الريح ثوبك فتصف جسدك، فقال عمر: فأقبلت إليه ليست بسلفعٍ[3] من النساء لا خراجةٌ، ولا ولاجةٌ[4]، واضعة ثوبها على وجهها.

فقد ساعد نبي الله موسى هاتين المرأتين لما رأى من ضعفهما، وهكذا ينبغي أن يكون كل قوي.

وقال تعالى، عن عبده ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٣-٩٥].

قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السد بينكم وبين هؤلاء القوم ربي ووطَّأَهُ لي، وقواني عليه، خيرٌ من جُعْلِكُم والأجرة التي تعرضونها علي لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٠١.
(٢) في مصنفه، كتاب الفضائل، باب ما ذكر في موسى عليه السلام من الفضل، رقم ٣١٨٤٢، ٦/ ٣٣٤.
وصححه ابن كثير في تفسيره ٦/ ٢٢٦.

(٣) السلفعة: البذيئة الفحاشة القليلة الحياء. ورجلٌ سلفعٌ: قليل الحياء جريءٌ.
انظر: لسان العرب، ٨/ ١٦١.
(٤) أي: لا تكثر الخروج والدخول من البيت.

بقوةٍ، أعينوني بفعلةٍ وصناعٍ يحسنون البناء والعمل[1].

يقول سيد قطب: «ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين «بين السدين» ولا ما هما هذان السدان، كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين، أو بين سدين صناعيين، تفصلهما فجوة أو ممر، فوجد هنالك قوما: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾.

وعندما وجدوه فاتحًا قويًا، وتوسموا فيه القدرة والصلاح عرضوا عليه أن يقيم لهم سدًّا في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين، ويغيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون في أرضهم فسادا ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم، وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم.

وتبعًا للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الأرض، فقد رد عليهم عرضهم الذي عرضوه من المال وتطوع بإقامة السد، ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين فطلب إلى أولئك القوم أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾، فجمعوا له قطع الحديد، وكومها في الفتحة بين الحاجزين، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما، ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ وأصبح الركام بمساواة القمتين ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ على النار لتسخين الحديد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ كله لشدة توهجه واحمراره ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: نحاسًا مذابًا يتخلل الحديد، ويختلط به فيزيده صلابة.

بذلك التحم الحاجزان، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ ويتسوروه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[الكهف:٩٧].

فينفذوا منه، وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف. فأمنوا واطمأنوا.

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به، فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه، وتبرأ من قوته إلى قوة الله، وفوض إليه الأمر، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحا أجرد مستويا.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨].

وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين، النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب،

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٠٣.

فيجتاح الأرض شرقًا وغربًا ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغُنْم الماديِّ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المحتاجين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق، ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله»[1].

فقد ساعد الرجل القوي القوم الضعفاء على أعدائهم الذين ظلموا وطغوا وتجبروا، فهو استعمال للقوة فيما يحب الله تعالى.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

فهذا دليل على استعمال القوة ضد الباغي الجائر.

٤. صد أهل الباطل، ودحض باطلهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨].

فها هو موسى عليه السلام قد استخدم قوته في رد الباطل الذي نشره السامري، فيجب على أهل الحق أن يحصلوا القوة التي بها يردعون الباطل وحزبه.

٥. الانتصاف للنفس.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤١].

فالإنسان لا ينبغي أن يرضى بالضيم بل يعفو عن قوة ومقدرة، لئلا يستهين به أحد، بل يكون قويًّا مهابًا في حلم ولين.

فهذه صور لاستعمال القوة في الخير، فالواجب علينا أن نعيد القوة إلى أهلها الذين هم أهلها، لكي يستخدموها فيما ينفع الناس في دنياهم وأخراهم.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٢.

ثالثًا: صور من استعمال القوة في الشر، ونتائجها:

١. الاغترار بالجاه والسلطان، وسوء عاقبته.

قال تعالى عن فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥١-٥٦].

افتخر بملكه مصر عدو الله، وما قد مكن له من الدنيا استدراجًا من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده وحوله، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة محتجًّا على جهلة قومه بأن موسى عليه السلام لو كان محقًّا فيما يأتي به من الآيات والعبر، ولم يكن ذلك سحرًا، لأكسب نفسه من الملك والنعمة، مثل الذي هو فيه من ذلك، جهلًا بالله واغترارًا منه بإملائه إياه[1].

وحاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه[2].

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون، لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يَزِنونَ بميزان الإيمان. فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح. ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

ثم انتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير وعلم الله أن القوم لا يؤمنون، وعمت الفتنة، فأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهي في خيلاء، وعشت عن الآيات البينات والنور، فحقت كلمة الله وتحقق النذير: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾، يتحدث الله

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦١٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٣٧.

سبحانه عن نفسه في مقام الانتقام والتدمير، إظهارا لغضبه ولجبروته في هذا المقام. فيقول: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا أشد الغضب ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني فرعون وملأه وجنده[1].

٢. تكذيب الرسل.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٥-١٦].

وهذا الاستكبار فيه وجهان، الأول: إظهار النخوة والكبر، وعدم الالتفات إلى الغير والثاني: الاستعلاء على الغير. واستخدامهم، ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالوا: من أشد منا قوةً وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام وشدة القوة، ثم إنه تعالى ذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني: إنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم، فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوةً، فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل، فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى، خاضعين لأوامره ونواهيه[2].

فلما طغوا وتجبروا أخذهم الله تعالى، وأخذه أليم شديد.

٣. البغي والتكبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٥٢.

﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨٢].

فلما أحس قارون بأن معه المال الذي يستتبع القوة والسلطان = بغى وتجبر، وتكبر على الله ثم على خلقه، فكانت عاقبته خُسْرًا.

٤. الاستخفاف بالأعداء.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

وقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

فلا ينبغي للإنسان المسلم ولا الجماعة المسلمة أن تركن إلى القوة المادية فحسب، بل عليها أن تُحَصِّلَ القوتين معًا المادية والمعنوية، بالإيمان بالله وحده سبحانه وتعالى.

٥. التكبر على الخلق.

فمن أسباب الكبر القوة البدنية وشدة البطش و الأخذ بالعنف، والتكبر بها جهلٌ أيضًا؛ إذ الحمار والبقر والجمل والفيل كل ذلك أقوى من الإنسان، ولو صلح ذلك لذلك لحريٌّ تلك البهائم أن تتكبر على الكل، وأما ذلها للإنسان فلقوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ [يس: ٧٢] الآية.

فمن نعمه تعالى التي توجب التواضع للشكر، وأي افتخارٍ في صفةٍ يسبقك البهائم فيها، ثم إنها تزول بحمى يومٍ ونحوها، فلا تنجبر في مدةٍ، بل لو توجع عرقٌ واحدٌ في يدك لصرت أعجز من كل عاجز، وأذل من كل ذليلٍ وأنه لو سلب الذباب منك شيئًا لا تستنقذه، وإن بقةٌ لو دخلت أنفك أو نملةٌ دخلت أذنك لقتلتك، وإن شوكةٌ لو دخلت رجلك لأعجزتك، فمن لا يطيق دفع أمثال هذه، فكيف ينبغي له أن يفتخر بقوته كما في الإحياء: (فلا تقدر على حفظها) أي: القوة. وقد قيل: حمى يومٍ تذهب نعيم سنةٍ (ولا على تحصيلها) بعد الزوال بأدنى علةٍ (بل هي كظلٍ زائلٍ) بالوصف (ونوم نائمٍ) في سرعة التقضي وعدم الحفظ[1].

٦. الإفساد في الأرض.

قال تعالى عن نبيه صالح عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟

(١) بريقة محمودية، أبو سعيد الخادمي الحنفي ٢/ ٢١٩.

﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

وقال عن هود ينصح قومه: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١].

فها هم أنبياء الله مَحَّضوا النصح لأقوامهم أن لا يغتروا بقوتهم، إذ هناك من هو أقوى منهم وأشد، وأن لا يستخدموا هذه القوة في الإفساد في الأرض، بل عليهم أن يتقوا الله تعالى.

٧. الاغترار بالقوة، وبالعدد والعدة.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

فبين الله تعالى أن الاغترار بالكثرة مهلكة؛ ولذلك أكد على نصر الفئة القليلة إن كانت مؤمنة صابرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩-٢٥١].

فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله.

القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة؛ لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار، ولكنها تكون الغالبة؛ لأنها تتصل بمصدر القوى، ولأنها تمثل القوة الغالبة، قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين[1].

إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله، قائم في كل لحظة، ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة -

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٦٩.

ولو قل عددها - قائم كذلك في كل لحظة، وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف.

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة، وتثق في ذلك الوعد، وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة، وتصبر حتى يأذن الله، ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة[1].

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، التمكين، الحرب، الضعف، العزة، النصر، الوهن

(١) المصدر السابق ١/ ٣٧٢.

الكتابة

عناصر الموضوع

مفهوم الكتابة	٧٠
الكتابة في الاستعمال القرآني	٧١
الألفاظ ذات الصلة	٧٢
إسناد الكتابة لله تعالى	٧٤
مقاصد الكتابة	٨٦
ضوابط الكتابة	٩٨
أساليب القرآن في الحث على الكتابة	١٠٧

مفهوم الكتابة

أولًا: المعنى اللغوي:

(ك ت ب) الكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد، يدل على جمع شيء إلى شيء[١]. والكتابة لغة: الضم والجمع[٢]. يقال: كتبت الكتاب أكتبه كتبًا[٣]. ومن ذلك الكتيبة: وهي الطائفة من الجيش العظيم[٤]. وتكتبت الخيل، أي: تجمعت.

وتكتبوا: تجمعوا. ومنه: الكتب لجمع الحروف في الخط[٥]. ومنه: المكاتبة: وهي أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مالٍ ينجمه عليه، ويكتب عليه أنه إذا أدى نجومه في كل نجمٍ كذا وكذا فهو حرٌّ[٦]. وإنما سمي هذا العقد بالكتابة لأنها بمعنى الجمع، ففي المكاتبة ضم حرية اليد إلى حرية الرقبة، أو لأن فيه جمعًا بين نجمين فصاعدًا، أو لأن كل واحد من العاقدين -أي: المولى والمملوك- يكتب الوثيقة عادة، وهو أظهر[٧].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الكفوي الكتابة بقوله: جمع الحروف المنظومة وتأليفها بالقلم[٨].

وجاء في معجم لغة الفقهاء: الكتابة: بكسر الكاف مصدر، (كتب) الكتاب خطه، ما يكتب في القرطاس من الكلام[٩]. وهذه التعاريف للكتابة كصناعة وعلم.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٨.
(٢) أنيس الفقهاء، القونوي ص٦١.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٨.
(٤) أنيس الفقهاء، القونوي ص٦١.
(٥) أنيس الفقهاء، القونوي ص٦١.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٠٠.
(٧) دستور العلماء، الأحمد نكري ٣/ ٨٣-٨٤.
(٨) الكليات ص ٧٦٧.
(٩) معجم لغة الفقهاء، قلعجي ص ٣٧٧.

الكتابة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كتب) في القرآن الكريم (٣١٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٠	﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]
الفعل المضارع	١٦	﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٢]
فعل الأمر	٥	﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]
اسم الفاعل	٦	﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢]
المصدر	٢٥٥	﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [البقرة:٢]
الجمع	٦	﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]
اسم المفعول	١	﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ [الأعراف:١٥٧]

وجاءت الكتابة في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: الفرض: ومنه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة:١٧٨]، أي: فُرِض.

الثاني: القضاء: ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة:٢١]، أي: قضى الله.

الثالث: الجعل: ومنه قوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة:٢٢]، أي: جعل.

الرابع: الأمر: ومنه قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٢١]، أي: أمركم بدخولها.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن، عبد الله جلغوم، ص١٠٠٤-١٠١٠.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٣٩٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥١٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ القراءة:

القراءة لغة:

القراءة: مصدر قرأت الكتاب قراءةً[١]. وفي الصحاح: (قرأ) الكتاب (قراءةً) و(قرآنًا) بالضم، و(قرأ) الشيء (قرآنًا) بالضم أيضًا جمعه وضمه، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور ويضمها[٢]. وقد تقرأ فلان: تنسك، واقرأ سلامي على فلان، وأقرأت المرأة: حاضت[٣].

القراءة اصطلاحًا:

لا يختلف معنى القراءة في الاصطلاح عن معناها في اللغة.

الصلة بين القراءة والكتابة:

الكتابة هي رسم المقروء، الدال على المقصود، فالمكتوب يكون بالقلم والرسم، والقراءة باللسان والنطق، ويعبر بكلٍ منهما عن الآخر، من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه.

٢ السطر:

السطر لغة:

(سطر) السين والطاء والراء أصل مطرد يدل على اصطفاف الشيء، كالكتاب والشجر، وكل شيءٍ اصطف[٤]. يقال: سطرت الكتاب سطرًا -من باب (قتل) -كتبته[٥].

فالأصل في السطر: الخط والكتابة، قال الله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم:١]. أي: وما يكتبون[٦].

السطر اصطلاحًا:

لا يختلف معنى السطر في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

في قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ [الطور:٢].

وصف الكتاب بأنه مسطور إشارة إلى أنه مكتوب كتابة في أسطر على نحو ما يكتب

(١) أنيس الفقهاء، القونوي ص ٢٤.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص ٢٤٩.
(٣) أساس البلاغة، الزمخشري ٢/ ٦٣.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٧٢-٧٣.
(٥) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٧٦.
(٦) تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٢٤.
وانظر: تفسير عبد الرزاق ٣/ ٣٢٩.

الكاتبون، وفي وصفه بأنه في رق منشور إشارة أخرى إلى أنه خفيف الحمل، سهل التداول، وأنه منشور، أي: مفتوح للقارئين، غير مطوي عنهم، وفي هذا كله تنويه بالكتابة، ورفع لقدرها، وأنها باب واسع من أبواب العلم، وطريق فسيح من طرق المعرفة[١].

الصلة بين السطر والكتابة:

(السطر) الصف من كل شيء، يقال: سطر من الكتابة وسطر من الشجر، فهو على هذا أعم من الكتابة بمعناها الاصطلاحي الذي سبق القول إنها: ضم وجمع الحروف بعضها إلى بعض.

٣ الخط:

الخط لغة:

(خ ط ط) خط الشيء بيده يخطه خطًا إذا خطه بقلم أو غيره[٢]. وخط الكتاب يخطه، وكتاب مخطوط، واختط لنفسه دارًا إذا ضرب لها حدودًا؛ ليعلم أنها له[٣].

الخط اصطلاحًا:

الخط: تصوير اللفظ بحروف هجائية، وعند الحكماء: هو الذي يقبل الانقسام طولًا لا عرضًا ولا عمقًا، ونهايته النقطة[٤].

وقد وردت هذه المادة (خ ط ط) في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

وهي هنا بمعنى: الكتابة.

الصلة بين الخط والكتابة:

الخط: الكتابة والشق[٥]. فهو أعم من الكتابة، فقد يكون خطًا مقروءًا، وقد يكون غير ذلك، وقد يكون على قرطاس، أو على أرض، أو رملٍ، بينما الكتابة خلافه.

وفي القاموس: الخط: الطريقة المستطيلة في الشيء، أو الطريق الخفيف في السهل، والكتب بالقلم وغيره[٦].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٤/ ٥٤٣.
(٢) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ١٠٥.
(٣) أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ٢٥٦.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص ٩٩.
(٥) دستور العلماء، الأحمد نكري ٢/ ٥٨.
(٦) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٦٦٥.

إسناد الكتابة لله تعالى

أسند الله تعالى في القرآن الكريم الكتابة لنفسه في عدة آيات، بصيغ مختلفة (كتبنا، سنكتب، نكتب، كتب الله، كتبناها، كاتبون، إنا كنا نستنسخ، والله يكتب ما يبيتون، واكتب لنا، فاكتبنا).

وفي آيات أخرى جعلها من فعل الملائكة، كما قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

وقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:٢١].

وقوله: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١١].

وفي آيات أخرى أطلق الكتابة ولم يسندها لأحد، كما في قوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

وقوله: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ [آل عمران:١٥٤].

وقوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ [النساء: ٧٧].

وعلى هذا فالكتابة صفة من صفات الله الفعلية الثابتة بالكتاب والسنة[١]، وهي صفة تليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى، فهي من صفات الكمال والجلال، فهو سبحانه يكتب ما شاء، متى شاء، كما يليق بجلاله وعظيم شأنه.

وهذه الكتابة المنسوبة إلى الله تحتمل عدة معانٍ، منها:

يجوز أن يكون المعنى: أن الله أمر القلم أو غيره أن يكتب، فكتب ما أراد سبحانه كما قال الحافظ ابن حجر[٢].

ويجوز أن يكون على ظاهره بأنه كتب سبحانه وتعالى بدون واسطة، ويجوز أن يكون قال: كن فكانت الكتابة، ولا محذور في ذلك كله[٣].

ويستثنى من ذلك ما جاء النص فيه أنه كتبه بيده، كما في حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام أن آدم قال لموسى: (أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده)[٤].

فهذا ليس له إلا معنىً واحدٌ، وهو حمله على ظاهره، وهو أن الله تعالى كتب ذلك بنفسه.

ومما يكتبه الله تعالى:

١. كتابة القدر.

كتب الله سبحانه وتعالى مقادير الأشياء في اللوح المحفوظ، بعد علمه بها سبحانه

(١) انظر: صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، علوي السقاف ص ٢٨٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٢٩١.

(٣) صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، علوي السقاف ص ٢٨٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى، عليهما السلام ٤/ ٢٠٤٢، رقم ٢٦٥٢.

وتعالى أزلًا، ومما يدل على هذا النوع من الكتابة قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة:٥١].

فـ(كتب) هنا بمعنى قضى وقدر، وأصل الكتابة هنا ما كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ، قال الطبري: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: في اللوح المحفوظ، وقضاه علينا[1]. من خير أو شر، أو خوف أو رجاء، أو شدة أو رخاء، وفائدته أنه إذا علم الإنسان أن الذي وقع امتنع أن لا يقع -لأن خلاف معلوم الله ومقدوره محال- زالت عنه منازعة النفس، وهانت عليه المصائب، فيكون المقصود أن أحوال المسلمين وإن كانت مختلفة في الغم والسرور والمحنة إلا أن العاقبة والدولة تكون لهم، والظفر يقع في جانبهم، فلا معنى لفرح المنافقين في الحال[2].

وعبر بقوله: ﴿لَنَا﴾ ولم يقل: (علينا) لنكتة بلاغية، أي: أن ما كتبه الله فهو خيرٌ، وإن كان في ظاهره مصيبة أو شرًا، لما فيه من الأجر لمن صبر، وجزيل الثواب لمن رضي بقضاء الله سبحانه.

والحاصل: أن مما يكتبه الله تعالى القدر، فالأقدار مكتوبة في الأزل، فلا راد لقضاء الله، ولا مبدل لكلماته.

فالقلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة، من خير وشر، فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروهًا نزل به، أو يجلب لنفسه نفعًا أراده لم يقدر له[3]. ولا يستطيع أحد أن يمحو شيئًا مما كتبه الله في اللوح المحفوظ، ولا يمكن أن يحصل هذا، كما في الحديث: (رفعت الأقلام، وجفت الصحف)[4] فلا يمكن أن يغير فيها شيء.

ومن الآيات الدالة على أن الله كتب المقادير كلها قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد:٢٢].

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: إلا في أم الكتاب[5]. أي: اللوح المحفوظ.

قال ابن العثيمين: هذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، كتب الله فيه مقادير كل شيء؛ لما خلق الله سبحانه وتعالى القلم قال له: اكتب قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[6]، فكتب ما

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٩٠.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٤٨٢.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٧٠.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٦٦٧، رقم ٢٥١٦، وأحمد في مسنده، ٤/ ٤٠٩، رقم ٢٦٦٩. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، ٣/ ١٤٥٩، رقم ٥٣٠٢.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٩٥.
(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب

هو كائن إلى يوم القيامة، سبحان الله! ما أعظم هذا اللوح الذي يسع كل شيء إلى يوم القيامة!

ولكن ليس هذا بغريب على قدرة الله عز وجل؛ لأن أمر الله تعالى إذا أراد شيئًا يقول له: كن فيكون؛ ولقد كان الإنسان يتعجب من قبل، ولكن لا يستبعد أن يكتب في هذا اللوح مقادير كل شيء، فقد ظهر الآن من صنع الآدمي قطعة صغيرة يسجل فيها آلاف الكلمات، وهي عبارة عن لوحة صغيرة كالقرص تسجل فيها آلاف الكلمات، وقد يسجل فيها جميع كتب الحديث المؤلفة، أو جميع التفاسير، أو جميع كتب الفقهاء، وهي من صنع الآدمي، فكيف بصنع من يقول للشيء كن فيكون؟!

ولما قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فالمصائب التي تصيب الناس هي في أمر سابق؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ وقوله: ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ قيل: إنها تعود على المصيبة. وقيل: على الأرض. وقيل: على النفس. وقيل: على الجميع. والصحيح أنها على الجميع، أي: من قبل أن نبرأ كل هذه الأشياء، أي: أن نخلقها؛ وذلك لأن الله كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[1].

واسم الإشارة في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعود إلى الكتابة في الكتاب.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني: إن كتابة هذه المصائب يسير على الله عز وجل؛ لأنه قال للقلم: اكتب فكتب، وهذا يسير، كلمة واحدة، حصل بها كل شيء[2].

قال الرازي في قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

فائدة هذا الكتاب أمور:

أحدها: أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال في اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات، وأنه لا يغيب عنه مما في السموات والأرض شيء، فيكون في ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ؛ لأنهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم، فيجدونه موافقًا له.

وثانيها: يجوز أن يقال: إنه تعالى ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تنبيهًا للمكلفين على أمر الحساب، وإعلامًا بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون في الدنيا شيء؛ لأنه إذا كان لا

في القدر، ٤/ ٢٢٥، رقم ٤٧٠٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٠٥، رقم ٢٠١٨.

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الحجرات - الحديد ص ٤١٢-٤١٣.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الحجرات - الحديد ص ٤١٢-٤١٣.

يهمل الأحوال التي ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف، فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى.

وثالثها: أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم وإلا لزم الجهل، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع أيضًا تغييرها، وإلا لزم الكذب، فتصير كتبة جملة الأحوال في ذلك الكتاب موجبًا تامًا، وسببًا كاملًا في أنه يمتنع تقدم ما تأخر، وتأخر ما تقدم، كما قال صلوات الله عليه: (جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة)[(١)] [(٢)]. أي: فرغ من الكتابة التي أمر بها حين خلقه وأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

ثم علل الله تعالى بعد ذلك سبب هذه الكتابة وهذا الإخبار بقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣].

والمعنى: فعل الله ذلك، وأخبركم به؛ لكيلا تتأسفوا على ما فاتكم، ومعنى لا تأسوا: لا تحزنوا، أي: فلا تحزنوا على ما فاتكم منها، ولا تفرحوا فيها[(٣)].

وهذا من مقتضى الإيمان بالقدر الذي معناه: أن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ومن الآيات الدالة على كتابة المقادير قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد:٣٩].

وللمفسرين في معنى هذه الآية كلام طويل، لخصه الإمام الشوكاني تلخيصًا حسنًا، فقال: «وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة، أو رزق أو عمر، أو خير أو شر، ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا، ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون.

وقيل: الآية خاصة بالسعادة والشقاوة.

وقيل: يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب.

وقيل: يمحو ما يشاء من الرزق.

وقيل: يمحو من الأجل.

وقيل: يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه.

وقيل: يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة، ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة[(٤)].

فالمحو والإثبات على هذا يكون في

(١) أخرجه البخاري معلقًا ٨/ ١٢٢ عن أبي هريرة قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: جف القلم بما أنت لاق.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٢.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٣٤٨.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٠٥.

الصحف التي بأيدي الملائكة، وأما اللوح المحفوظ فلا يقبل المحو، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

أي: الذي لا يقبل بعد ذلك محوًا ولا إثباتًا.

ومنهم من يقول: إن هذا المحو والإثبات في الكتابة لا يمنع أن يكون مما في اللوح المحفوظ من الكتابة الأصلية.

والمحو والإثبات إذا كان في الكتابة الأصلية فهو راجع إلى قدرة الله عز وجل وتقديره، وأن الله يعلم أن هذا سيكون، فلا يتعارض مع كتابته وتقديره وخلقه.

والقول الثاني أولى؛ لما تفيده (ما) في قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ من العموم، مع تقدم ذكر الكتاب في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد:٣٨].

ومع قوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ.

فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ، فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء مما فيه، فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من قوله: (جف القلم)[1] وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه سبحانه[2].

وهذا هو الظاهر، كما سبق من كلام الشوكاني رحمه الله.

ومن الآيات الدالة على كتابة المقادير قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ [الأحزاب:٦].

فقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ ﴿مَسۡطُورٗا﴾ مكتوبًا[3].

قال ابن كثير: أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يبدل ولا يغير، قاله مجاهد وغير واحد، وإن كان قد يقال: قد شرع خلافه في وقت؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي[4].

ومن الآيات الدالة على الكتابة القدرية قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾ [الأنفال:٦٨].

يقول: لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن الله محلٌ لكم

(١) أخرجه البخاري معلقًا ٨/ ١٢٢ عن أبي هريرة قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: جف القلم بما أنت لاق.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٤٩٥.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٠١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٨٢.

الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يضل قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحدًا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصرًا دين الله؛ لنالكم من الله بأخذكم الغنيمة والفداء عذاب عظيم[(١)].

وقال في اللباب: فقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لولا أنه تعالى حكم في الأزل بالعفو عن هذه الواقعة لمسهم عذاب عظيم، وهذا هو المراد من قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقوله: (سبقت رحمتي غضبي)[(٢)] [(٣)].

ومن الآيات الدالة على كتابة القدر قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة:٢١].

والمعنى: قضى الله وخط في أم الكتاب لأغلبن أنا ورسلي من حادني وشاقني[(٤)].

وهذا نظير قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

وهذا الوعد لهم بالنصر والغلبة لا ينافيه انهزامهم في بعض المواطن، وغلبة الكفار لهم، فإن الغالب في كل موطن هو انتصارهم على الأعداء، وغلبتهم لهم، فخرج الكلام مخرج الغالب، على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال، وفي كل موطن، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨][(٥)].

والمقصود بعد هذا: أن من أنواع الكتابة المسندة إلى الله تعالى كتابة مقادير الخلق في كتاب مبين، وهو الإمام المبين، وأم الكتاب، والذكر، والزبر، واللوح المحفوظ.

وقد ورد في هذا المعنى آيات كثيرة، ففي سورة يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١].

وفي سورة هود بعد بيان علمه بما يسرون وما يعلنون، وما في الصدور ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦].

وفي سورة النمل: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل:٧٥].

وفي سبأ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٦٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)، ٩/ ١٦٠، رقم ٧٥٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ٤/ ٢١٠٨، رقم ٢٧٥١.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ٥٧٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٩٣.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٧٧.

وفي سورة طه: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه:٥١-٥٢].

وفي سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء:١٠٥].

ولهذا كان الإيمان بالكتابة من الأركان الأساسية في الإيمان بالقدر، فيجب الإيمان بأن الله عز وجل كتب مقادير كل شيء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقد ذكر العلماء أن للقدر درجتين:

الدرجة الأولى: أن الله تعالى علم الأشياء قبل وجودها، ثم كتبها في اللوح المحفوظ.

والدرجة الثانية: أن الله تعالى أراد الأشياء الموجودة، ثم خلقها.

فالدرجة الأولى: تتضمن العلم والكتابة، والدرجة الثانية تتضمن الإرادة والخلق[1].

٢. كتابة أقوال وأفعال العباد.

ومما يكتبه الله تعالى ويحصيه أقوال العباد وأفعالهم، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝١٨١﴾ [آل عمران:١٨١].

فقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ هو الكتابة في صحائف الأعمال ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ﴾ بالنصب، أي: ونكتب قتلهم الأنبياء، فالكتابة هنا على ظاهرها.

وقيل: سنجازيهم عليه، وقيل: مقصود الكتابة الحفظ، أي: سنحفظ ما قالوا لنجازيهم[2].

ولفظ الكتابة آكد من لفظ الحفظ؛ لما فيه من معنى الاستتباب، وأمن النسيان، وإنما ضم قتل الأنبياء، وهو أفظع جرائم هذا الشعب إلى الجريمة التي سبق الوعيد لأجلها؛ لبيان أن مثل هذا الكفر والتهور ليس بدعًا من أمرهم، فإنه سبق لهم أن قتلوا الهداة المرشدين بعدما جاءوهم بالبينات، فهم يجرون في هذا على عرقٍ، وليس هو بأول كبائرهم؛ وللإيذان بأن الجريمتين سيان في العظم، واستحقاق العقاب[3].

فإن قيل: لماذا يكتب الله ما قالوا مع أن علمه أزلي لا ينسى؟ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

والجواب: أن كلمة ﴿سَنَكْتُبُ﴾ جاءت حتى لا يؤاخذهم سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنهم فعلوه، ولكن بما كتب عليهم ليقرؤوه بأنفسهم؛ وليكون حجة عليهم، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط؛ ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس،

(١) شرح كتاب الإبانة من أصول الديانة ٤٢/ ٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٩٤.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٢١٦.

ويأتي يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطورًا ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء:١٤].

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب في الكتاب سيعرف أنه منه، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات، بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ وهم قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ وهذه معصية في القمة، وتبجح على الذات العلية، ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا الأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتهم؛ لذلك يقول الحق: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾[1].

وفي هذا الكلام تهديد شديد لهم؛ وذلك لأن المعنى: ستثبت عليهم في سجل الله تعالى قولهم هذا، وتجرؤهم عليه سبحانه، وليس المراد مجرد الكتابة، بل المراد نتيجتها وهو الحساب عليها، والجزاء من العذاب الأليم، والتعبير بالكتابة كناية عن العلم المستتر الثابت الذي تترتب عليه نتائجه وثمراته؛ ولما تضمنته الكتابة من معنى العقاب الرادع الذي لا مناص منه عبر بالمضارع، فقال سبحانه: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ والتعبير بـ﴿مَا قَالُواْ﴾ فيه إشارة إلى ما فيه من تجرؤ على الله تعالى، وتهجم على مقامه الأعلى سبحانه[2].

ومن الآيات الدالة على كتابة الأعمال قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ [النساء:٨١].

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: يكتبه في الأعمال التي تثبتها الملائكة، قاله مقاتل في آخرين.

والثاني: ينزله إليك في كتابه.

والثالث: يحفظه عليهم؛ ليجازوا به، ذكر القولين الزجاج[3].

والحاصل: أنه يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين، الذين هم موكلون بالعباد، يعلمون ما يفعلون، والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلًا من مخالفة الرسول وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزيهم على ذلك[4].

ومن الآيات أيضًا الدالة على كتابة الأعمال قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ

(١) تفسير الشعراوي ٣/ ١٩١١ بتصرف.

(٢) زهرة التفاسير ٣/ ١٥٢٨.

(٣) زاد المسير ١/ ٤٣٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٦٤.

﴿شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس:١٢].

فقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي: من الأعمال.

وفي قوله: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فنجزيهم على ذلك أيضًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية.

وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى[1].

قال الزمخشري: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها، وما هلكوا عنه من أثر حسن، كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو حبيس حبسوه، أو بناء بنوه: من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك، أو سيئ، كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أحدث فيها تخسيرهم، وشيء أحدث فيه صد عن ذكر الله من ألحان وملاهٍ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها[2].

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جمعناه في كتاب مبين، والإمام المبين هو اللوح المحفوظ[3].

وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١].

أي: بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر:٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩][4].

وجعل علم الله إمامًا؛ لأنه يجري على وفق تعلقات الإرادة الربانية والقدرة، فتكون جملة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ على هذا تذييلًا مفيدًا أن الكتابة لا تختص بأعمال الناس الجارية على وفق التكاليف أو ضدها، بل تعم جميع الكائنات[5].

ووصف هذا الكتاب بقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: لا يخفى فيه شيء من جميع الأحوال والأقوال، فهو تعميم بعد تخصيص؛ لأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم، وليست الكتابة مقتصرة عليه، بل كل شيء محصي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٦٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧.
(٣) تفسير السمعاني ٤/ ٣٧٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٦٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣٥٧.

في إمام مبين، وهذا يفيد أن شيئًا من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله تعالى ولا يفوته، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر:٥٢-٥٣].

يعني: ليس ما في الزبر منحصرًا فيما فعلوه، بل كل شيء مكتوب لا يبدل، فإن القلم جف بما هو كائن، فلما قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ بين أن قبل ذلك كتابة أخرى، فإن الله تعالى كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا، ثم إذا فعلوا كتب عليهم أنهم فعلوه، قيل: إن ذلك مؤكد لمعنى قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ لأن من يكتب شيئًا في أوراق ويرميها قد لا يجدها، فكأنه لم يكتب، فقال تعالى: نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين، وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه:٥٢][1].

وفي الآية الأخرى أضاف السمع إلى نفسه والكتابة إلى ملائكته، فقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف:٨٠].

فهو يسمع ومن يشاء من ملائكته، وأما الكتابة فرسله يكتبون، وأما في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢].

فأخبر بالكتابة (نحن) لأن جنده يكتبون بأمره، وفصل في تلك الآية بين السماع والكتابة؛ لأنه يسمع بنفسه، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره، والملائكة يكتبون، ولما كانت ملائكته متقربين إلى العبد بأمر الله، كما كانوا كاتبين عمله بأمره، فإن ذلك قربه من كل أحد بتوسط الملائكة، كتكليمه عبده بتوسط الرسل، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى:٥١].

فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل؛ وذاك قربه إليهم عند الاحتضار، وعند الأقوال الباطنة في النفس والظاهرة[2]. ولا ينفي هذا أنه يكلم بعض رسله من وراء حجاب دون واسطة.

والحاصل أن في هذه الآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أضاف الله عز وجل الكتابة والإحصاء إلى نفسه، ولما كان علم الله الشامل محيطًا بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه، وهو غني عن الاستعانة على ذلك بالراصدين والرقباء والكتاب والشهود، وإبراز ذلك يوم القيامة في صورة كتب توزع على الناس؛ ولما كان الناس قد اعتادوا في حياتهم تسجيل الأعمال ورصدها والشهادة عليها

(١) السراج المنير، الشربيني ٣/ ٣٤٠.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٦ بتصرف.

في مقام الاحتجاج على ما صدر منهم حتى لا يكون أي مجال للإنكار والمماراة؛ ولما كانت حكمة الله قد اقتضت أن تكون صور المشاهد الأخروية من مألوفات الناس في الدنيا، فيتبادر أن هذا من هذا الباب، وأنه قصد من ذكره بالأسلوب الذي ورد به تحذير الناس وتنبيههم إلى أن كل ما يفعلونه محصي مسجل عليهم، لا يمكن أن يماروا فيه حتى يظلوا مجتنبين ما فيه إثم وفاحشة، مجتهدين في الأعمال الصالحة التي يرضى الله عنها، وفي بعض الأحاديث ما يدعم هذا التوجيه، ويتسق مع هذا القصد[1].

ومن الآيات الدالة على كتابة الأعمال قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر:٥٢-٥٣].

فقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على إهلاكهم، بل الإهلاك هو العاجل والعذاب الآجل الذي هو معد لهم على ما فعلوه، مكتوب عليهم، والزبر هي كتب الكتبة الذين قال تعالى فيهم: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار:٩-١١].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ تعميم للحكم، أي: ليست الكتابة مقتصرة على ما فعلوه، بل ما فعله غيرهم أيضًا مسطور، فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة.

وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

ففي قوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ فائدة عظيمة، وهي أن من يكتب حساب إنسان فإنما يكتبه في غالب الأمر لئلا ينسى، فإذا جاء بالجملة العظيمة التي يأمن نسيانها ربما يترك كتابتها، ويشتغل بكتابة ما يخاف نسيانه، فلما قال: ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ أشار إلى الأمور العظام التي يؤمن من نسيانها أنها مكتوبة أي: ليست كتابتنا مثل كتابتكم التي يكون المقصود منها الأمن من النسيان، فكذلك نقول: ها هنا، وفي قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩].

وفي جميع هذه المواضع قدم الصغيرة لأنها أليق بالتثبت عند الكتابة، فيبتدئ بها حفظًا عن النسيان في عادة الخلق، فأجرى الله الذكر على عادتهم[2].

والحاصل أن كل ما فعله العباد، وما فعلته الأمم السابقة، أو الأمم اللاحقة،

(١) التفسير الحديث، محمد عزت ٢/ ٢٣٣ بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٣٠ بتصرف.

فإنه مكتوب ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في الكتب، وكتابة الأعمال كتابة سابقة، وكتابة لاحقة، والكتابة السابقة كتابة على أن هذا سيفعل كذا، وهذه الكتابة لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب؛ لأن المرء لم يكلف بها بعد، وكتابة لاحقة، وهي كتابة أنه فعل، فإذا فعل الإنسان حسنة كتبها الله، وإذا فعل سيئة كتبها الله، وهذه الكتابة اللاحقة هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب.

فسبحان الله بعد مئات السنين التي لا يعلمها إلا الله يجدونه حاضرًا، لا يظلم ربك أحدًا ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ كل صغير وكبير مما يحدث في هذا الكون من المخلوقات وأوصافها وأعمالها ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: مسطر في الكتاب العزيز، اللوح المحفوظ، كل صغير وكبير حتى الشوكة يشاكها الإنسان تكتب، حتى ما يزن مثقال ذرة من الأعمال يكتب، كل صغير وكبير، وإذا آمنت بذلك -ويجب عليك أن تؤمن به- فإنه يجب عليك الحذر من المخالفة، فإياك أن تخالف بقولك أو فعلك أو تركك؛ لأن كل شيء مكتوب، قال الله عز وجل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨].

وما يفعل من فعل كذلك لديه رقيب عتيد؛ لأنه إذا كانت الأقوال تكتب وهي أكثر بآلاف المرات من الأفعال، فالأفعال من باب أولى، فعليك أن تتقي الله عز وجل، ولا تخالف الله، إذا سمعت الله يقول خبرًا، فقل: آمنت به وصدقت، وإذا سمعت الله يقول شيئًا أمرًا، فقل: آمنت به سمعًا وطاعة، نهيًا آمنت به، وسمعًا وطاعة[1].

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الحجرات - الحديد ص٢٩٥.

مقاصد الكتابة

أشاد القرآن بفضل الكتابة، وحث على تعلمها وتعليمها، وأشار إلى مقاصدها وفوائدها؛ وذلك لما لها من مرتبة رفيعة، ومنزلة شريفة، ومما جاء في القرآن الكريم من فوائد ومقاصد الكتابة ما يأتي:

أولًا: حفظ حقوق العباد من الضياع:

من مقاصد الكتابة التي ذكرت في القرآن الكريم حفظ الحقوق من الضياع.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:٢٨٢].

فهذه الآية تسمى آية الدين، وهي أطول آية في القرآن الكريم، وقد ذكر الله فيها من الأحكام العظيمة توثيق الدين بالكتابة.

حيث أمر الله تعالى بكتابة الديون، وهذا الأمر قد يجب إذا وجب حفظ الحق كالذي للعبد عليه ولاية، كأموال اليتامى والأوقاف والوكلاء والأمناء، وقد يقارب الوجوب كما إذا كان الحق متمحضًا للعبد، فقد يقوى الوجوب، وقد يقوى الاستحباب بحسب الأحوال المقتضية لذلك.

وعلى كل حال فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات المؤجلة لكثرة النسيان؛ ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى[1]. ومن فوائد الآية التي تتعلق بحفظ الحقوق:

١. أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق.
٢. أن الذي يملي من المتعاقدين من عليه الدين.
٣. أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه، ولا يبخس منه شيئًا.
٤. أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول؛ لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥٩.

على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجبه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطًا أو سهوًا.

٥. أن من عليه حقٌّ من الحقوق التي البينة على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة، وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق؛ لأنه تعالى لم ينهه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته.

٦. أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس، وينقص شيئًا من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولواحقه.

٧. أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار[١].

وفي الأمر بكتابة الدين كما يقول ابن عرفة: مصلحة دنيوية، وهي حفظ المال، ومصلحة دينية، وهي السلامة من الخصومة بين المتعاملين[٢].

وليست فائدة كتابة الدين مقصورة على الدائن وحده، ولا المدين وحده، وإنما على الجانبين، قال الخازن: إن فائدة الكتابة هي حفظ المال من الجانبين؛ لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه مقيد بالكتابة تعذر عليه طلب زيادة، أو تقديم المطالبة قبل حلول الأجل، ومن عليه الدين إذا عرف ذلك تعذر عليه الجحود أو النقص من أصل الدين الذي عليه، فلما كانت هذه الفائدة من الكتابة أمر الله تعالى بها[٣].

وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يحمي أيضًا الإنسان من نفسه؛ لأنه إن علم أن الدين الذي عليه موثق، ولا وسيلة لإنكاره حاول جاهدًا أن يتحرك في الحياة ليؤديه، وحين يتحرك الإنسان ليؤدي عن نفسه الدين؛ فإن ذلك يزيد الحركة في الحياة ويزداد النفع.

وهكذا نرى أن الله أراد بالتوثيق للدين حماية المدين من نفسه؛ لأن المدين قد تطرأ عليه ظروف فيماطل، وإذا ما ماطل فلن تكون الخسارة فيه وحده، ولكنه سيصبح أسوة عند جميع الناس، وسيقول كل من عنده مال: لا أعطي أحدًا شيئًا؛ لأن فلانًا الغني مثلي قد أعطى فلانًا الفقير وماطله وأكله، وعند ذلك تتوقف حركة الحياة.

ولكن إذا كان الدين موثقًا ومكتوبًا فإن المدين يكون حريصًا على أدائه، والله يريد أن يضمن لحركة الحياة دوامًا واستمرارًا شريفًا نظيفًا؛ ولذلك نجد في آية الدين

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١١٨.
(٢) تفسير ابن عرفة ٢/ ٧٧٩.
(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٢١٤.

أن كلمة (الكتابة) ومادتها (الكاف والتاء والباء) تتكرر أكثر من مرة، بل مرات كثيرة.

وهذا التكرار في هذه الآية لعملية الكتابة يؤصل العلاقة بين الناس؛ فالكتابة هي عمدة التوثيق، وهي التي لا تغش؛ لأنك إن سجلت شيئًا على ورقة فلن تأتي الورقة لتنكر ما كتبته أنت فيها، ولكن الأمر في الشهادة قد يختلف، فمن الجائز أن يخضع الشاهد لتأثير ما فينكر الحقيقة؛ ولذلك فإن الحق يعطينا قضية إيمانية جديدة حين يقول: ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أي: أن يكتب الكاتب على وفق ما علمه الله[1].

والحاصل أن الإسلام نظم شؤون المعاملات والعقود بين الناس على أساس من الحق والعدل والحكمة، وصان حقوق الناس وحفظ أموالهم، وندبهم إلى توثيق عقودهم ومعاملاتهم المؤجلة بالكتابة والسندات، والشهادة والشهود، على سبيل الاحتياط للناس، وتجنبًا من احتمال إنكار أصل الحق، أو عدم الاعتراف به، بسبب قلة التدين، وضعف اليقين، وفساد الذمة، واستبداد الطمع والجشع، جاء تنظيم المعاملات في أطول آية في القرآن الكريم، عناية بها، وحرصًا على المصالح، ومنع المنازعات والخصومات بسبب المال[2].

وقد حث سبحانه وتعالى فيها على الاحتياط في أمر الأموال لكونها سببًا لمصالح المعاش والمعاد، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥] الآية.

قال القفال -رحمه الله تعالى-: ويدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار، وفي هذه الآية بسطٌ شديد، ألا ترى أنه قال: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾.

ثم قال ثانيًا: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾.

ثم قال ثالثًا: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾.

فكان هذا كالتكرار لقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ لأن العدل هو ما علمه الله.

ثم قال رابعًا: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ وهذا إعادة للأمر الأول.

ثم قال خامسًا: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ كناية عن قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه.

ثم قال سادسًا: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ وهذا تأكيد.

(١) تفسير الشعراوي ٢/ ١٢٢٢.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ١٦٢.

ثم قال سابعًا: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ وهذا كالمستفاد من قوله: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾.

ثم قال ثامنًا: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ وهو أيضًا تأكيد لما مضى.

ثم قال تاسعًا: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾.

فذكر هذه الفوائد التالية لتلك التأكيدات السالفة، وكل ذلك يدل على المبالغة، في التوصية بحفظ المال الحلال، وصونه عن الهلاك؛ ليتمكن الإنسان بواسطته من الإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن مساخط الله تعالى من الربا وغيره، والمواظبة على تقوى الله[1].

ومن الآيات الدالة على توثيق الدين، قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

فقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ بعيدًا أو قريبًا ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ أو آلة الكتابة، أو ما يكتب عليه، ويكتب به، وأردتم أن تتعاقدوا أو تتداينوا ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ لتثقوا على أموالكم، وليس الغرض جواز الرهن في السفر، وإنما الغرض التوثق من الدين في حالة عدم وجود الكاتب والشهود، وإلا فالرهن جائز سفرًا وحضرًا؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم رهن درعه عند أبي الشحم اليهودي، على طعام أخذه منه لأجل[2].

وإنما أشار الله إليه مبالغة في تحفظ الناس على أموالها من أن يأخذها من لا يؤديها، فتسبب الأحقاد والأضغان بينهم؛ لأن المال عديل الروح، وكثيرًا ما يقتل الرجل عند ماله، أو من أجله[3].

ولعل مما يدل أيضًا على التوثيق بالكتابة لحفظ الحقوق ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣].

ففي اشتقاق لفظ الكتابة هنا وجوه:

أحدها: أن أصل الكلمة من الكتب، وهو الضم والجمع، ومنه سميت الكتابة؛ لأنها تضم النجوم بعضها إلى بعض، وتضم ماله إلى ماله.

وثانيها: مأخوذ من الكتاب، ومعناه: كتبت لك على نفسي: أن تعتق إذا وفيت بمالي، وكتبت لي على نفسي أن تفي لي بذلك، أو كتبت عليك الوفاء بالمال، وكتبت

(١) السراج المنير، الشربيني ١/ ١٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرهن، باب من رهن درعه، ٣/ ١٤٢، رقم ٢٥٠٩ دون ذكر اسم اليهودي.

(٣) بيان المعاني، العاني ٥/ ٢٦٣ بتصرف.

علي العتق، قاله الأزهري.

وثالثها: سمي بذلك لما يقع فيه من التأجيل بالمال المعقود عليه؛ لأنه لا يجوز أن يقع على مال هو في يد العبد حين يكاتب؛ لأن ذلك مال لسيده اكتسبه في حال ما كانت يد السيد غير مقبوضة عن كسبه، فلا يجوز لهذا المعنى أن يقع هذا العقد حالًا، بل يقع مؤجلًا؛ ليكون متمكنًا من الاكتساب، ثم من آداب الشريعة أن يكتب على من عليه المال المؤجل كتاب؛ فلهذا المعنى سمي هذا العقد كتابًا لما فيه من الأجل، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨][1].

وقال الشوكاني: قيل: الكتاب ها هنا اسم عين للكتاب الذي يكتب فيه الشيء؛ وذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابًا، فيكون المعنى الذين يطلبون كتاب المكاتبة، ومعنى المكاتبة في الشرع: أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجمًا، فإذا أداه فهو حر، وظاهر قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أن العبد إذا طلب الكتابة من سيده وجب عليه أن يكاتبه بالشرط المذكور بعده، وهو إن علمتم فيهم خيرًا.

والخير هو القدرة على أداء ما كوتب عليه، وإن لم يكن له مال، وقيل: هو المال فقط، وقال النخعي: إن الخير الدين والأمانة، وقال عبيدة السلماني: إقامة الصلاة[2].

وكتابة عقد المكاتبة فيه خير للسيد والعبد معًا، فالسيد يضمن أموال نجوم المكاتبة كاملة في أوقاتها، والعبد حتى لا ينكر السيد مكاتبته، فيبقى عبدًا، ويضيع عليه ما قدمه من مال.

والمقصود أن من مقاصد الكتابة، الكتابة لتوثيق الحقوق، وقد جاء منصوصًا على ذلك في القرآن في آية الدين، والأمر بالكتابة ليس خاصًا بكتابة الدين فقط، وإنما يشمل غيرها من المعاملات، وإن لم يذكرها القرآن فقد ذكرت السنة ذلك وفصلته.

ثانيًا: حفظ العلم وتدوينه:

ومن مقاصد الكتابة العظيمة كتابة العلم وتدوينه، فما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم إلا بالكتابة، وقد ذكر الله من نعمه على خلقه أنه ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق:٤-٥].

وقد قيل: إن من كرامات الآدمي أن آتاه الله الخط، وتحقيق الكلام في هذا الباب: أن العلم الذي يقدر الإنسان على استنباطه يكون قليلًا، أما إذا استنبط الإنسان علمًا وأودعه في الكتاب، وجاء الإنسان الثاني واستعان بذلك الكتاب، وضم إليه من عند نفسه أشياء أخرى، ثم لا يزالون يتعاقبون،

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٤/ ٣٧٠.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٤.

ويضم كل متأخر مباحث كثيرة إلى علم المتقدمين، كثرت العلوم، وقويت الفضائل والمعارف، وانتهت المباحث العقلية، والمطالب الشرعية إلى أقصى الغايات، وأكمل النهايات، ومعلوم أن هذا الباب لا يتأتى إلا بواسطة الخط والكتابة؛ ولهذه الفضيلة الكاملة قال تعالى: [1] ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:٣-٥].

ففي قوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي: علم الخط والكتابة بالقلم.

وتخصيص هذه الصفة بالذكر -وهي التعليم بالقلم- للإيماء إلى إزالة ما قد يخطر بباله صلى الله عليه وسلم من تعذر القراءة بالنسبة له لعدم معرفته بالكتابة، فكأنه تعالى يقول له: إن من علم غيرك القراءة والكتابة بالقلم قادر على تعليمك القراءة وأنت لا تعرف الكتابة؛ ليكون ذلك من معجزاتك الدالة على صدقك، وكفاك بالعلم في الأمي معجزة[2].

فإن قلت: فإذا كان القلم والخط من المنن الإلهية فما باله -عليه الصلاة السلام- لم يكتب؟ فالجواب: لأنه لو كتب لقيل: قرأ القرآن من صحف الأولين، ومن كان القلم الأعلى يخدمه، واللوح المحفوظ مصحفه ومنظره لا يحتاج إلى تصوير الرسوم، وتشكيل العلوم بآلات جسمانية؛ لأن الخط صنعة ذهنية، وقوة طبيعية، صدرت بالآلة الجسمانية، وفيه إشارة بديعة إلى أن أمته بين الأمم هم الروحانيون، وصفهم سبحانه في الإنجيل: أمة محمد أناجيلهم في صدورهم[3]، لو لم يكن رسم الخطوط لكانوا يحفظون شرائعه -عليه الصلاة السلام- بقلوبهم؛ لكمال قوتهم، وظهور استعداداتهم[4].

وفي قوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ وجهان:

أحدهما: أن المراد من القلم الكتابة التي تعرف بها الأمور الغائبة، وجعل القلم كناية عنها.

والثاني: أن المراد علم الإنسان الكتابة بالقلم، وكلا القولين متقارب؛ إذ المراد التنبيه على فضيلة الكتابة[5].

فيكون في قوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ إشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل إلى

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٣٧٣ بتصرف.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٤٥٤.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٠/ ٨٩، رقم ١٠٠٤٦.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ٥٠٨، رقم ٣٤٧٣.
(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ١٠/ ٤٧٤.
(٥) هذا الأثر ذكره الرازي في تفسيره ٣٢/ ٢١٨ وابن عادل في اللباب ٢٠/ ٤١٥ والنيسابوري في غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦/ ٥٣٠ والخطيب الشربيني في السراج المنير ٤/ ٥٦١ ولم نجده في كتب السنة.

معرفتها إلا بالسمع[1].

قال ابن القيم وهو يتكلم عن هذه الآيات، وأهمية الكتابة في حفظ العلم وتدوينه: ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين، البيان النطقي، والبيان الخطي، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة من اعتد به من نعمه على العبد، ثم قال: والتعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده؛ إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين.

ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن، وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظًا للعلم من الضياع، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم، والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإنه الذي بلغ به ذلك، وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علمه فتعلم، كما أنه علمه الكلام فتكلم.

هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به، ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات، ومن الذي انطق لسانه، وحرك بنانه، ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد، فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعلم بالقلم.

فقف وقفة في حال الكتابة، وتأمل حالك! وقد أمسكت القلم وهو جماد وضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم، وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر، وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك، ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك.

ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشًا عجيبًا معناه أعجب من صورته، فتقضى به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية، والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك، ويترجم عنك، ويتكلم على لسانك، ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله سوى من علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والتعليم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/٢١٨.

بالقلم يستلزم المراتب الثلاث، مرتبة الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي، فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب[1].

فإن الله تعالى أخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلًا للناس تنوب مناب خطابهم، فلله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور[2].

والحاصل: أن الله تعالى جعل القلم سببًا، به يحفظ العلم، وبه يثبت، وبه يوصل إلى حفظ ما يخاف فوته ونسيانه، من أمر دينهم ودنياهم، ما لو لم يكن القلم لم يستقم أمر دينهم ولا دنياهم[3].

والتعليم بالقلم أكثر ما يعتمد الشرع عليه؛ إذ أن الشرع يكتب ويحفظ، والقرآن يكتب ويحفظ، والسنة تكتب وتحفظ، وكلام العلماء يكتب ويحفظ[4]. وكما قال الشاعر[5]:

العلم صيد والكتابة قيده
قيد صيودك بالحبال الواثقة
فمن الحماقة أن تصيد غزالة
وتفكها بين الخلائق طالقة.

ثالثًا: حفظ أعمال العباد لمحاسبتهم عليها:

ومن مقاصد الكتابة حفظ أعمال العباد، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار:١٠-١١].

فأخبر الله تعالى أن على العباد حافظين؛ كاتبين لأعمالهم، والحكمة من أن الله جعل ملائكة تكتب أعمال بني آدم: أن المرء إذا كان عليه حافظٌ أداه ذلك إلى المراقبة؛ فيرتدع عن تعاطي ما يؤخذ عليه، فجعل عليه حافظين ليحتشم عنهم، ولا يأتي من الأمور ما يسوؤهم، ووصف أنهم كرام ليصحبهم صحبة الكرام، ومن صحبة الكرام أن يحترمهم، ويتقي مخالفتهم، ولا يتعاطى ما يسوؤهم، وفي ذكر الكرام فائدة أخرى؛ وذلك أن قوله: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ أي: كرام على الله تعالى، والكريم على الله تعالى هو المتقي؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

فيكون فيه أمان منهم: أنهم لا يزيدون

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٧٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٣٠.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٥٧٨ بتصرف.
(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ٢٥٩.
(٥) البيتان نسبهما في إعانة الطالبين ٤/ ٥ للإمام مالك.

ولا ينقصون في الكتابة، وإنما يكتبون على قدر أعمالهم، كما ذكر في وصف جبريل عليه السلام بالقوة والأمانة[1].

والحكمة في كتابة الأعمال وحفظها على العالمين أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه، وتعرض على رؤوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات، وأبعث له على عمل الصالحات، فإن المرء إن لم يصل إلى مقام العلم الراسخ الذي يثمر الخشية لله والمعرفة الكاملة التي تثمر الحياء، ربما غلب عليه الغرور بالكرم الإلهي، والرجاء في المغفرة والرحمة، فلا يكون لديه من الخشية والحياء ما يزجره عن المعصية، كما يزجره توقع الفضيحة في موقف الحساب على أعين الخلائق وأسماعهم[2].

وزاد الرازي احتمال أن تكون الفائدة في الكتابة أن توزن تلك الصحائف يوم القيامة؛ لأن وزن الأعمال غير ممكن، أما وزن الصحائف فممكن أن توزن تلك الصحف[3]. كذا قال.

والصحيح: أن وزن الأعمال ممكنٌ أيضًا؛ لأن الأمور المعنوية يمكن أن توزن، كما جاء في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان)[4] الحديث.

وفي الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم: (كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[5].

وإما أن يكون ذلك على طريقة من يقول: إن المراد بكتابة الأعمال حفظ صورها وآثارها في النفس، فهي أنها تكون المظهر الأتم الأجلى لحجة الله البالغة، فإذا وضع كتاب كل أحد يوم الحساب، ونشرت صحفه المطوية في سريرة نفسه، تعرض عليه أعماله فيها بصورها ومعانيها، فتتمثل لذاكرته ولحسه الظاهر والباطن، كما عملها في الدنيا، لا يفوته شيء من صفاتها الحسية ولا المعنوية -كاللذة والألم- فيكون حسيبًا على نفسه، وعلى عين اليقين من عدل الله وفضله ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٤٤٨.
(٢) تفسير المراغي ٧/ ١٤٨.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، ١/ ٢٠٣، رقم ٢٢٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، ٨/ ٨٦، ٦٤٠٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، ٤/ ٢٠٧٢، رقم ٢٦٩٤.

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف:٤٩][1].

ومن الآيات التي تدل على أن من مقاصد الكتابة حفظ أعمال العباد قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ [يونس:٢١].

فقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ أي: الذين يحفظون أعمالكم، والإضافة للتشريف.

﴿يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ أي: مكركم، أو ما تمكرونه، وهو تحقيقٌ للانتقام منهم، وتنبيهٌ على أن ما دبروا في إخفائه غير خافٍ على الحفظة فضلًا عن العليم الخبير، وصيغة الاستقبال في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددي[2].

وفي الآية تصريح بأن للكفار حفظة، فإن قيل: فالذي يكتب عن يمينه أي شيء يكتب ولم يكن لهم حسنة؟ يقال: إن الذي عن شماله يكتب بإذن صاحبه، ويكون شاهدًا على ذلك؛ وإن لم يكتب[3].

فثبت بهذا أن أفعال الناس وأقوالهم سواء كانوا مؤمنين أو كافرين مضبوطة مكتوبة للإلزام عليهم يوم القيامة، وأن المكر والحيلة لا مدخل له في تخليص الإنسان من مكروه، بل قد قالوا: إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة، فمن ظن نجاته في المكر كان كثعلب ظن نجاته في تحريك ذنبه، وإنما المنجي هو القدم، وهو ها هنا العمل الصالح بعد الإيمان الكامل، والعاقل يتدارك حاله قبل وقوع القضاء، وقد قيل: وليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع فيه، ولكن العاقل الذي يحتال للأمور حذرًا أن يقع فيها[4].

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾ [الزخرف:٨٠].

وعطف ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ على ﴿أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ ليعلموا أن علم الله بما يسرون علم يترتب عليه أثر فيهم، وهو مؤاخذتهم بما يسرون؛ لأن كتابة الأعمال تؤذن بأنها ستحسب لهم يوم الجزاء، والكتابة يجوز أن تكون حقيقة، وأن تكون مجازًا، أو كناية عن الإحصاء والاحتفاظ، والرسل: هم الحفظة من الملائكة؛ لأنهم مرسلون لتقصي أعمال

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٠٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٣٣.
(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة ٣/ ٩٩٩، رقم ٥١٩.
وانظر: الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٥٩٤.
(٤) انظر: روح البيان، حقي ٤/ ٣٠.

الناس؛ ولذلك قال: ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كقوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨].

أي: رقيب[1]. متهيئ متجهز للكتابة.

ومن الآيات كذلك قوله تعالى: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء:٨١].

أي: يعلمه ويحفظه، فيجازيهم به، والكتابة ها هنا كالاستنساخ في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩].

ونسب الله تعالى ذلك إلى نفسه هنا، وإلى ملائكته في قوله: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

وفي قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:٢١].

والله تعالى قد ينسب فعل أوليائه إلى نفسه تنبيهًا على ارتضائه، وكونه آمرًا، نحو قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١].

وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢][2]. انتهى من كلام الراغب مختصرًا.

فعلى كلام الراغب السابق يكون الاستنساخ بمعنى الكتابة، وفي (زاد المسير) لابن الجوزي يقول: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم، أي: بكتبها وإثباتها، وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، تستنسخ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجدون ذلك موافقًا ما يعملونه، قالوا: والاستنساخ لا يكون إلا من أصلٍ، قال الفراء: يرفع الملكان العمل كله فيثبت الله منه ما فيه ثواب أو عقاب، ويطرح منه اللغو، وقال الزجاج: نستنسخ ما تكتبه الحفظة، ويثبت عند الله عز وجل[3] انتهى كلامه.

ومن الآيات الدالة على هذا المقصد، قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء:١٣].

والمعنى: أن كل إنسان يعامل بعمله، من خير أو شر، لا ينقص له منه شيء، وهذا غير كتابة الأعمال التي ذكرت عقب هذا بقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ وعطف جملة: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ إخبار عن كون تلك الأعمال المعبر عنها بالطائر تظهر يوم القيامة مفصلة معينة، لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصيت للجزاء عليها[4].

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى:

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٦٣.
(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١٣٤٦.
(٣) زاد المسير ٤/ ١٠٠-١٠١.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٤٨.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٧-١٨].

قال الزمخشري: والتلقي: التلقن بالحفظ والكتبة[1].

والمعنى واضح؛ لأن الملك يتلقى عمل الإنسان عند صدوره منه، فيكتبه عليه، والمتلقيان هما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان، وقد دلت الآية الكريمة على أن مقعد أحدهما عن يمينه، ومقعد الآخر عن شماله.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ أي: ما ينطق بنطق، ولا يتكلم بكلام إلا لديه، أي: إلا والحال أن عنده رقيبًا، أي: ملكًا مراقبًا لأعماله، حافظًا لها، شاهدًا عليها، لا يفوته منها شيء.

عتيد، أي: حاضر ليس بغائب، يكتب عليه ما يقول من خير وشر، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإنسان عليه حفظة من الملائكة يكتبون أعماله، جاء موضحًا في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله في سورة مريم: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم:٧٩].

وفي سورة الزخرف قال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

أي: نحن أقرب إليه من حبل الوريد في الوقت الذي يتلقى فيه الملكان جميع ما يصدر منه، والمراد أن الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه هو أقرب إليه من حبل الوريد في وقت كتابة الحفظة أعماله، فهو غني عن كتب الأعمال؛ لأنه أقرب إليه من حبل الوريد، والله غني عن أن يدون الملكان هذه الأشياء؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بما كان وبما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا يغيب عنه شيء.

فالله تعالى لا حاجة له بكتابة الأعمال؛ لأنه عالم بها لا يخفى عليه منها شيء، وإنما أمر بكتابة الحفظة للأعمال لِحِكَمٍ منها: إقامة الحجة على العبد يوم القيامة، كما أوضحه الله بقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

اقرأ بنفسك كتابك حتى تقوم عليك الحجة ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

والمقصود أن من مقاصد الكتابة حفظ أعمال العباد وإحصاءها، وفي الآيات السابقة تقرير عقيدة كتابة الأعمال حسنها وسيئها، والحساب بمقتضاها يوم القيامة، ويشهد لهذا الحديث الصحيح: (يتعاقبون

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٨٤.

فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار)[1] الحديث.

فالحفظة أو الكتبة من الملائكة الكرام يكتبون جميع ما يفعله العباد ويدبرونه، أو يخططون له، ويحصونه عليهم، ثم يعرضونه على الله عالم الغيب والشهادة، فيجازي كلًا منهم على الجليل والحقير، وفي هذا دلالة على تمام الحفظ والعناية، وعدم خفاء أعمالهم على الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ١/ ١١٥، رقم ٥٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما، ١/ ٤٣٩، رقم ٦٣٢.

ضوابط الكتابة

لما كانت الكتابة إحدى الصنائع، وعلمًا من العلوم، ونعمة من النعم التي من الله بها على الإنسان، والتي يشرف بها، وتعلو منزلته بتعلمها، كان لا بد لها من ضوابط، ولا بد لمن يزاولها من آداب، وقد أشار القرآن الكريم إلى ما ينبغي أن يكون عليه الكاتب والكتابة، فذكر بعضًا من هذه الآداب والضوابط، منها:

أولًا: العدل

من ضوابط الكتابة العدل، وهو أن يكون الكاتب عدلًا فيما يكتب، فقد قال الله تعالى في آية الدين: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

قال أبو جعفر: بالعدل، يعني: بالحق والإنصاف في الكتاب الذي يكتبه بينهما، بما لا يحيف ذا الحق حقه ولا يبخسه، ولا يوجب له حجة على من عليه دينه فيه بباطل، ولا يلزمه ما ليس عليه[2].

وعن قتادة في قوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ قال: «اتقى الله كاتب في كتابه، فلا يدعن منه حقًّا، ولا يزيدن فيه باطلًا»[3]. وبالعدل جار ومجرور متعلقان بـ﴿كَاتِبٌ﴾ بمثابة الصفة له، أي: بكاتب

(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ٥١.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٧٦.

مأمون على ما يكتب بالسوية والتحوط، لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص[1].

فيكون في قوله: ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ وجوه:

الأول: أن يكتب بحيث لا يزيد في الدين ولا ينقص منه، ويكتبه بحيث يصلح أن يكون حجة له عند الحاجة إليه.

الثاني: إذا كان فقيهًا وجب أن يكتب بحيث لا يخص أحدهما بالاحتياط دون الآخر، بل لا بد وأن يكتبه بحيث يكون كل واحد من الخصمين آمنًا من تمكن الآخر من إبطال حقه.

الثالث: قال بعض الفقهاء: العدل أن يكون ما يكتبه متفقًا عليه بين أهل العلم، ولا يكون بحيث يجد قاضٍ من قضاة المسلمين سبيلًا إلى إبطاله على مذهب بعض المجتهدين.

الرابع: أن يحترز عن الألفاظ المجملة التي يقع النزاع في المراد بها، وهذه الأمور لا يمكن رعايتها إلا إذا كان الكاتب فقيهًا عارفًا بمذاهب المجتهدين، وأن يكون أديبًا مميزًا بين الألفاظ المتشابهة[2].

وفي هذا الأمر ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي: ليكن فيكم كاتب للديون عادل في كتابته، يساوي بين المتعاملين، لا يميل إلى أحدهما، فيجعل له من الحق ما ليس له، ولا يميل عن الآخر فيبخسه من حقه شيئًا، فقوله تعالى: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ أمر عام للمتعاملين، وفيهم الأميُّ الذي لا يكتب؛ ولذلك احتيج إلى هذه الجملة.

وقد ذكروا أن العدل في الكاتب يستلزم العلم بشروط المعاملات التي تحفظ الحقوق؛ لأن الكاتب الجاهل قد يترك بعض الشروط أو يزيد فيها، أو يبهم في الكتابة بجهله، فيلتبس بذلك الحق بالباطل، ويضيع حق أحد المتعاملين، كما يضيع بتعمد الترك أو الزيادة، أو الإبهام إذا لم يكن عادلًا[3].

قال ابن عاشور: وقوله: ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي: بالحق، وليس العدل هنا بمعنى العدالة التي يوصف بها الشاهد، فيقال: رجل عدل؛ لأن وجود الباء يصرف عن ذلك، ونظيره قوله الآتي: ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ولذلك قصر المفسرون قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ على أن يكتبه كاتب غير المتداينين؛ لأنه الغالب ولتعقيبه بقوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ فإنه كالبيان لكيفية: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ على أن كتابة المتعاقدين إن كانا يحسنانها تؤخذ بلحن الخطاب أو فحواه؛ ولذلك كانت الآية

(١) انظر: إعراب القرآن وبيانه، درويش ١/ ٤٣٦.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٩٢.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٠٠.

حجة عند جمهور العلماء لصحة الاحتجاج بالخط، فإن استكتاب الكاتب إنما ينفع بقراءة خطه[1].

ومن فوائد السعدي على هذه الآية قوله: ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفًا بالعدل، معروفًا بالعدل؛ لأنه إذا لم يكن عارفًا بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبرًا عدلًا عند الناس رضيًا لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلًا بها المقصود الذي هو حفظ الحقوق[2].

ومن مستلزمات العدل في الكتابة:

- ألا يكون في قلبه، ولا في قلمه هوادة لأحدهما على الآخر.
- وألا يزيد ولا ينقص في الدين الذي يكتبه، ولا يقيد أحد العاقدين بشروط شديدة، ويحل الآخر من كل القيود والشروط، بل يكون مراعيًا العدل في كتابة أصل الدين، ومراعيًا العدل في الالتزامات بين الفريقين.
- ثم إن العدل يقتضي مع هذا أيضًا أن يكون الكاتب خبيرًا بمعاملات الناس، وما يقع بينهم، وما يمكن تنفيذه من الشروط وما لا يمكن، وهكذا فالكاتب الذي يتولى ميزان العدل بين العاقدين يمنعهما من الشطط، ويمنعهما من التجانف لإثم[3].
- ومن العدل: التحرز من العبارات المحتملة للمعاني، وتجنب الألفاظ المشتركة، وتحري تحقيق المعاني بألفاظ مبينة، خارجة عن حد الشركة والاحتمال والتحرز من خلاف الفقهاء ما أمكن، حتى يحصل للمتداينين معنى الوثيقة والاحتياط المأمور بهما في الآية[4].

والمقصود أن من الصفات المطلوبة في الكاتب الذي يتولى كتابة الوثائق بين الناس أن يكتبها بالعدل، وأن يكتب برعاية حقوق الطرفين، ولا يميل مع أحد الطرفين، ولا ينقص أو يزيد في النصوص.

ثانيًا: العلم

ومن ضوابط الكتابة العلم بقواعد الكتابة وأصولها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ففي قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ دليل على أن الكتابة علم من العلوم؛ فإذا كانت علمًا كان لها ضوابطها وقواعدها، ولا بد من العلم بهذه الضوابط والقواعد.

ولهذا بعد أن شرط الله في الكاتب العدالة شرط فيه العلم بالأحكام والفقه في

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٠١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥٩.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ١٠٦٧.
(٤) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٥٨٧.

كتابة الدين؛ إذ الكتابة لا تكون ضمانًا تامًّا إلا إذا كان الكاتب عالمًا بالأحكام الشرعية، والشروط المرعية عرفًا وقانونًا، وكان عادلًا حسن السيرة، لا غرض له إلا بيان الحق بلا محاباة.

وقدم صفة العدالة على صفة العلم؛ لأن العادل يسهل عليه أن يتعلم ما ينبغي أن يعلمه لكتابة الوثائق، ولكن من كان عالمًا غير عادل فالعلم بهذا وحده لا يهديه للعدالة، وقلما رأينا فسادًا من عدل ناقص العلم، ولكن أكثر الفساد من العلماء الذين فقدوا ملكة العدالة[1].

فكاتب العقود والوثائق بمنزلة المحكمة الفاصلة بين الناس، وليس كل من يخط بالقلم أهلًا لذلك، وإنما أهله من يصح أن يكون قاضي العدل والإنصاف.

فما ذكر في وصف الكاتب إرشاد من الله تعالى لتلك الأمة الأمية إلى نظام معروف، وهو أن يكون كاتب الديون عادلًا، عارفًا بالحقوق والأحكام فيها حتى لا يقع التنازع بعد ذلك فيما يكتبه، وإرشاد للمسلمين إلى أنه ينبغي أن يكون فيهم هذا الصنف من الكتاب، فهذه قاعدة شرعية لإيجاد المقتدرين على كتابة العقود، وهو ما يسمونه اليوم: العقود الرسمية.

وفيه أيضًا أن الكاتب ينبغي أن يكون غير المتعاقدين -وإن كانا يحسنان الكتابة- لئلا يغالط أحدُهما الآخر أو يغشه، وكأن هذا أمر حتم، وعليه العمل الآن، فإن للعقود الرسمية كُتَّابا يختصون بها.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ الخ، دليل على أن العالم بما فيه مصلحة الناس يجب عليه إذا دعي إلى القيام بها أن يجيب الدعوة؛ ولذلك لم يكتف بالنهي عن الإباء عن الكتابة، بل أمر بها أمرًا صريحًا، فقال: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ وهذا ظاهر لا سيما على قول من قال من أهل الأصول: إن النهي عن الشيء ليس أمرًا بضده[2].

قال ابن عاشور: وفي قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أي: كتابة تشابه الذي علمه الله أن يكتبها، والمراد بالمشابهة المطابقة لا المقاربة، فهي مثل قوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ [البقرة:١٣٧].

ومعنى: ما علمه الله أنه يكتب ما يعتقده، ولا يجحف أو يوارب؛ لأن الله ما عَلَّم إلا الحق، وهو المستقر في فطرة الإنسان، وإنما ينصرف الناس عنه بالهوى، فيبدلون ويغيرون؛ وليس ذلك التبديل بالذي علمهم الله تعالى، ويجوز أن تكون الكاف لمقابلة الشيء بمكافئه، والعوض بمعوضه، أي: أن يكتب كتابة تكافئ تعليم الله إياه الكتابة، بأن ينفع الناس بها شكرًا على تيسير الله له

(١) تفسير المراغي ٣/ ٧٣.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٠١.

أسباب علمها، وإنما يحصل هذا الشكر بأن يكتب ما فيه حفظ الحق، ولا يقصر، ولا يدلس، وينشأ عن هذا المعنى من التشبيه معنى التعليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨][1].

والمقصود: أن من ضوابط الكتابة التي أشار الله إليها في هذه الآية العلم بها، وبما يتعلق بها، فإذا كان عالمًا بذلك ودعي للكتابة فليجب؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ وهذا نهي لمن كان قادرًا على الكتابة من أن يمتنع عن الكتابة، فلا يصح لمن يحسن الكتابة من حيث جودة الخط واستبانته، ومن حيث العلم بفقه العقود، والقدرة على تحقيق العدالة بين العاقدين في وثيقة العقد؛ لا يصح له أن يمتنع عن الكتابة إذا دعي إليها، وإنه ليأثم إن تعين للكتابة، ولم يوجد موثوق به فيها سواه، وامتنع عن الكتابة؛ ولقد قال الفقهاء: إن الكتابة فرض كفاية بمعنى أنه إذا امتنع كُتَّابُ أهل قرية عن الكتابة أثموا، بل إنه يجب على أهل كل قرية أن يخصصوا ناسًا لكتابة الوثائق فيها.

وإنه على هذا يجب أن تعمل الدولة على تهيئة ناس لتوثيق العقود وكتابتها، وإن الكتابة لطلابها من التعاون على البر والتقوى، فهي صناعة، وهي علم، وواجب على الصانع أن يعين من لا يحسن، فقد عد النبي صلى الله عليه وسلم من أعمال الخير أن (تعين صانعًا، أو تصنع لأخرق)[2].

والامتناع عن الكتابة ككتمان العلم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[3].

والكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ للتشبيه، لكن ما المعنى الذي يفيده هذا التشبيه؟

ذكر الزمخشري: أن معناه: إما أن يكون تشبيهًا بين علم الكتابة والواجب على الكاتب[4]، إي: أنه كما أن الله علمه الكتابة، ويسرها له، وجعله أهل خبرة، عليه واجب المعاونة بالكتابة لغيره، فالتشبيه تشبيه بين نعمة الكتابة والواجب المتعلق بها، فما من نعمة إلا تتولد عنها واجبات مساوية لها،

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، ١/ ٨٩، رقم ٨٤.

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، ٤/ ٣٢٦، رقم ٢٦٤٩، وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه، ١/ ٩٨، رقم ٢٦٦.
قال الترمذي: حديث حسن.
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، ١/ ٧٧، رقم ٢٢٣.

(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٢٥.

فنعمة الكتابة يقابلها ويشابهها ويماثلها واجب معاونة غيره بها، وهو بقدرها، ويأثم عند الترك بمقدار علمه، هذا أحد وجهي التشبيه.

أما الوجه الآخر: فهو أن التماثل بين ما يكتب على القرطاس وما آتى الله الكاتب من فقه وعلم بالعقود والالتزامات؛ والمعنى على ذلك: لتكن كتابة وثيقة الدَّيْنِ على مقتضى العلم والفقه الذي فَقَّهَ الله به الكاتب، أي: تكون الكتابة على مقتضى أحكام الشرع، فلا تكون فيها شروط ليست في كتاب الله، أو لا يسوغها الشرع، أو لا يمكن تنفيذها[1].

والحاصل: أن في هذه الجملة بيان صفة الكاتب، وأن الذي يكتب شخص يجيد الكتابة، وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على علم بشروط العقود وتوثيقها، وما يكون من الشروط سائغًا في الشرع، وما يكون غير سائغ، وقد ذكر في النص الكريم بوصف ﴿كَاتِبٌ﴾ للدلالة على مهارته في الكتابة، وكونها له كالمَلَكَة[2].

قال الجصاص: ولذلك قال تعالى عقيب الأمر بالكتابة: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ يعني -والله أعلم-: ما بينه من أحكام العقود الصحيحة والمداينات الثابتة الجائزة؛ لكي يحصل لكل واحد من المتداينين ما قصد من تصحيح عقد المداينة؛ ولأن الكاتب بذلك إذا كان جاهلًا بالحكم لا يأمن أن يكتب ما يفسد عليهما ما قصداه، ويبطل ما تعاقداه.

والكتاب وإن لم يكن حتمًا وكان ندبًا وإرشادًا إلى الأحوط، فإنه متى كتب فواجب أن يكون على هذه الشريطة، كما قال عز وجل: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦].

فانتظم ذلك صلاة الفرض والنفل جميعًا، ومعلومٌ أن النفل غير واجب عليه؛ ولكنه متى قصد فعلها وهو محدث فعليه أن لا يفعلها إلا بشرائطها من الطهارة وسائر أركانها، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من أسلم فليسلم في كيلٍ معلومٍ، ووزنٍ معلومٍ، إلى أجلٍ معلومٍ)[3].

والسلم ليس بواجب؛ ولكنه متى أراد أن يسلم فعليه استيفاء الشرائط؛ فكذلك كتاب الدين والإشهاد ليسا بواجبين؛ ولكنه متى كتب فعلى الكاتب أن يكتبه على الوجه الذي أمره الله تعالى به، وأن يستوفي فيه شروط صحته؛ ليحصل المعنى المقصود

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ١٠٦٩.
(٢) انظ: المصدر السابق ٢/ ١٠٦٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب السلم، باب السلم في وزن معلوم، ٣/ ٨٥، رقم ٢٢٤٠، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب السلم، ٣/ ١٢٢٦، رقم ١٦٠٤.

بكتابته[1].

ثالثًا: الحفظ من التبديل والتحريف:

ومن ضوابط الكتابة حفظها من التبديل والتحريف، وقد مدح الله تعالى الربانيين والأحبار بكونهم استحفظوا كتاب الله فحفظوه، والحفظ يشمل ناحية العمل، وناحية حفظه، حفظ صدر، وحفظ كتاب، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤].

فقوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ أي: بالذي استحفظوه من جهة النبيين، وهو التوراة، حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الإطلاق، ولا ريب في أن ذلك منهم -عليهم السلام- استخلافٌ لهم في إجراء أحكامها من غير إخلالٍ بشيء منها، وفي إبهامها أولًا، ثم بيانها ثانيًا بقوله تعالى: ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ من تفخيمها وإجلالها ذاتًا وإضافةً، وتأكيد إيجاب حفظها، والعمل بما فيها ما لا يخفى.

وإيرادها بعنوان الكتاب للإيماء إلى إيجاب حفظها عن التغيير من جهة الكتابة[2].

والأحبار: هم العلماء، جمع حبر، أو حبر، وهما لغتان، وهو مأخوذ من معنى التزيين والتحسين؛ لأن الحبر هو الأثر الحسن ذو الرونق، ويكون المعنى: الذين يجمعون العلم ويدرسونه ويزينونه بالقول الحسن، والتطبيق الجيد، أو هو مأخوذ من الحبر مادة الكتابة لعنايتهم بتدوين علمهم، وعرضه للناس، وإبقائه أثرًا خالدًا من بعدهم.

والمفسرون على أن الربانيين والأحبار نوعان، قد طبقوا حكم التوراة، فالأولون صَفَتْ نفوسهم، وربوها بالعلم والعبادة، والآخرون جمعوا العلم، ورتبوه وعرضوه، وعلى هذا التفسير الذي يجعلهم نوعين متغايرين، نوجه القول فيه: بأن الذين قاموا على التوراة صنفان:

أحدهما: جمع علمها، واستخرج ينابيعها، وأحاط بها.

وآخرون: طبقوها في الأقضية.

أي: إن الفقهاء وهم الأحبار قدموا خلاصة ما علموا نقيًّا محبرًا تحبيرًا جيدًا، والآخرون وهم الربانيون طبقوه مجردين أنفسهم من كل شهوة وهوى، فالضعيف عندهم قوي، حتى يأخذوا الحق له، والقوي منهم ضعيف حتى يأخذوا الحق منه، كما يفعل الربانيون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم رضي الله عنهم.

(١) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٥٨٧.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤١.

وقُدِّمَ الربانيون على الأحبار لأنهم الذين يطبقون العلم على العمل، والمقام في الآية هو مقام التطبيق، فالعمل الواضح هو عمل الربانيين؛ لأنهم الذين يحكمون بحكم التوراة.

وقد خص الله تعالى الفريقين بقوله تعالت كلماته: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ فالباء هنا متعلقة بـ ﴿يَحْكُمُ﴾ أي: إن النبيين والربانيين والأحبار يحكمون بما في التوراة؛ لأنهم حملوا أمانة حفظ كتاب الله، بحيث لا يضيعونه، ولا يهملون أحكامه، وقد يقال: إنها متعلقة بالربانيين والأحبار، على معنى أنهم أوتوا هاتين المنزلتين منزلة الربانية والعلم، بسبب أنهم حملوا أمانة الكتابة.

و﴿اسْتُحْفِظُوا﴾ بالبناء للمجهول فيه بيان أنهم بمقتضى ما منحوا من صفات عهد إليهم أمر المحافظة على كتاب الله المنزل على نبيه، والمراد بكتاب الله هنا التوراة، وعبر عنها بكتاب الله تعالى للإشارة إلى منزلتها إبان نزولها قبل تحريفها، وإلى شرف من يقومون بحفظها، وإلى مكان التكليفات والأحكام التي اشتملت عليها.

والاستحفاظ هو الحفظ المطلوب؛ إذ إن السين والتاء للطلب، والمعنى: إن الربانيين والأحبار حفظوا كتاب الله تعالى بإلهامهم طلب الحق والعلم، وتوجيههم نحو الخير، وكان حفظهم مؤكدًا؛ لأنه استجابة لطلب الله تعالى الخبير، وحفظ الكتاب بعلم ما اشتمل عليه، ومنعه من الضياع والتحريف، وتنفيذ الأحكام التي يأمر بها، وطاعته فيما ينهى.

وكان أولئك الربانيون والأحبار شهداء، أي رقباء، يحافظون على نصوصه كاملة، ويشهدون بصدق ما نزل من عند الله، ويردون المحرف، وكانوا أيضًا رقباء على تنفيذه، بحيث ينفذ من غير عوج[1].

وكذلك في تسمية القرآن بهذين الاسمين: القرآن والكتاب إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أي: أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل، على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية؛ اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز، إنجازًا لوعد الله الذي تكفل بحفظه، حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩].

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢٢٠١.

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، فإن الله لم يتكفل بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس، فقال تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة:٤٤].

أي: بما طلب إليهم حفظه[(١)].

والمقصود: إن في ذكر هذه الشروط في الكاتب والكتابة إرشادًا من الله للمسلمين أن يكون فيهم هذا الصنف من الكُتَّاب القادرين على الكتابة، فيما فيه مصلحة الناس؛ لأن الموضوع هام لتعلقه بحفظ الحقوق، ولا سيما لدى الأميين الذين خوطبوا به أولًا.

ولهذا قال: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ففي هذا النص بيان لكيفية الكتابة المأمور بها، وتعيين من يتولاها، عقب الأمر بها على سبيل الإجمال.

أي: عليكم أيها المؤمنون إذا تعاملتم بالدين إلى أجل معين أن تكتبوا هذا الدين؛ وليتول الكتابة بينكم شخص يجيدها وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على معرفة بشروط العقود وتوثيقها، وما يكون من الشروط موافقًا لشريعة الإسلام، وما يكون منها غير موافق، وعلى هذا الكاتب أن يلتزم الحق مع الدائن والمَدين في كتابته؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨].

فالجملة الكريمة تحض المتعاملين بالدين أن يختاروا لكتابته شخصًا تتوافر فيه إجادة الكتابة، والخبرة بشروط العقود وتوثيقها، كما تتوافر فيه الاستقامة، وتحري الحق، ومفعول ﴿يَكْتُبَ﴾ محذوف ثقة بانفهامه، أي: وليكتب بينكم الكتابة كاتب بالعدل، والتقييد بالظرف ﴿بَيْنَكُمْ﴾ للإيذان بأنه ينبغي للكاتب ألا يسمح لنفسه بأن ينفرد به أحد المتعاقدين؛ لأن في هذا الانفراد تهمة يجب أن يربأ بنفسه عنها[(٢)].

(١) انظر: علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر ص ١٣.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٦٤٥.

أساليب القرآن في الحث على الكتابة

تظهر أهمية وقيمة الكتابة في اعتناء القرآن الكريم بالحديث عنها، حيث تنوعت أساليب القرآن الكريم في عرضه لهذا الموضوع، والدعوة إليه، ومن هذه الأساليب ما يأتي:

أولًا: القَسَمُ بالمكتوب والأداة:

من أساليب القرآن في الحث على الكتابة القسم بالمكتوب، وأداة الكتابة التي هي القلم، قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم:١].

فأقسم تعالى بالقلم الذي يكتب الناس به العلوم والمعارف، فإن القلم أخو اللسان، ونعمة من الرحمن على عباده، والمعنى: أقسم بالقلم، وما يكتبه الكاتبون على صدق محمد وسلامته مما نسبه إليه المجرمون من السفه والجنون.

وفي القسم بالقلم والكتابة إشادة بفضل الكتابة والقراءة، فالإنسان من بين سائر المخلوقات خصه الله بمعرفة الكتابة؛ ليفصح عما في ضميره.

وحسبك دليلًا على شرف القلم أن الله أقسم به في هذه السورة تمجيدًا لشأن الكاتبين، ورفعًا من قدر أهل العلم، ففي القلم البيان كما في اللسان، وبه قوام العلوم والمعارف[1].

قال ابن كثير: والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أنه جنس من القلم الذي يكتب به، وهو قَسَم منه تعالى لتنبيه خلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني: وما يكتبون[2].

أما الطبري فقد قال: وأما القلم فهو القلم المعروف، غير أن الذي أقسم به ربنا من الأقلام القلم الذي خلقه الله تعالى ذكره، فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة[3].

وقد أطال ابن القيم في شرح فوائد القلم، وبيان عظمته، حيث قال: فأقسم بالكتاب وآلته، وهو القلم الذي هو إحدى آياته، وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب، وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظًا تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيبًا يبرئ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد،

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٤٠١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٨٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٢٦.

ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، بالأقلام تدبر الأقاليم، وتساس الممالك، والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فينسج حلل المعاني في الطرفين، فتعود أحسن من الوشي المرقوم، ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم والأقلام نظام الأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب، فالقلم بريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت[(١)].

ثم عقد فصلًا في مراتب الأقلام، فجعلها اثني عشر قلمًا.

أولها: وأعلاها وأجلها قدرًا قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق، وقد أقسم به إعظامًا له.

ثانيها: قلم الوحي، يكتب به وحي الله تعالى إلى رسله وأنبيائه.

ثالثها: قلم الفقهاء والمفتين، ويتلوه على الترتيب التنازلي: قلم طب الأبدان، وقلم التوقيع عن الملوك والساسة، وقلم الحساب تضبط به الأموال، وقلم الحكم تثبت به الحقوق، وتنفذ القضايا، وقلم الشهادة تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وقلم تعبير الرؤيا، ووحي المنام، وقلم التاريخ، وقلم اللغة، يشرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها، وأسرار تراكيبها، ثم القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين[(٢)].

وقد أكثر الحكماء والبلغاء في وصف القلم ونفعه، فقال ابن الهيثم: من جلالة القلم أنه لم يكتب الله تعالى كتابًا إلا به؛ لذلك أقسم الله تعالى به، وقيل: الأقلام مطايا الفطن، ورسل الكرام، وقيل: البيان اثنان: بيان لسان، وبيان بنان، وفضل بيان البنان أن ما تثبته الأقلام باقٍ على الأيام، وبيان اللسان تدرسه الأعوام، وقال بعض الحكماء: قوام أمور الدين والدنيا شيئان: القلم والسيف، والسيف تحت العلم، وفيه يقول ابن الرومي[(٣)]:

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت
له الرقاب ودانت حذره الأمم
فالموت والموت لا شيء يغالبه
ما زال يتبع ما يجرى به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت
إن السيوف لها مذ أرهفت خدم[(٤)]

ومنه قول أبي الفتح البستي[(٥)]:

(١) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٠٨.

(٣) الأبيات في ديوانه، شرح أحمد حسن بسج ٣/ ٢٨٤.

(٤) الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ٧.

(٥) البيت في ديوانه ص١٩٨-١٩٩.

إذا أقسم الأبطال يومًا بسيفهم
وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزًّا ورفعة
مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وفي القسم بما يسطر الكاتبون بالقلم إشارة إلى أن هذه الأداة المكرمة ينبغي ألا يكتب بها إلا ما كان من الحق والخير، وإلا ما كان دعوة إلى هدى وتوجيهًا إلى خير.

إنه أداة تسجيل العلوم والمعارف وحفظها، وهو ينقل عن الإنسان نتاج تفكيره، وثمرات عقله، ويقيم له بهذا ذكرًا خالدًا في الحياة، بقدر ما يحمل القلم عنه من خير، وما ينشر من نفع، فكان لهذا جديرًا بأن يصان من أن يخط باطلًا، أو يسجل لغوًا[1].

قال ابن عاشور: وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة، فتضمن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم؛ لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم، وإقبالهم على الكتابة والعلم؛ لتكون الكتابة والعلم سببًا لحفظ القرآن، ومن فوائد هذا القسم أن هذا القرآن كتاب الإسلام، وأنه سيكون مكتوبًا مقروءًا بين المسلمين؛ ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بكتابة ما يوحى به إليه، وتعريف القلم تعريف الجنس، فالقسم بالقلم لشرفه بأنه يكتب به القرآن، وكتبت به الكتب المقدسة، وتكتب به كتب التربية ومكارم الأخلاق والعلوم، وكل ذلك مما له حظ شرف عند الله تعالى[2].

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ [الطور:١-٣].

فأقسم الله تعالى ها هنا فقال: ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ والمسطور: المكتوب[3].

و﴿فِي رَقٍّ﴾ متعلق بمسطور، أي: مكتوب في رق، والرق: الجلد الرقيق، يكتب فيه، وقال الراغب: الرق ما يكتب فيه، شبه الكاغد[4]. فهو أعم من كونه جلدًا وغيره ﴿مَّنشُورٍ﴾ أي: مبسوط، مهيأ للقراءة[5].

والمراد بالمسطور أيضًا أنه: متقن الكتابة بسطور مصفوفة، في حروف مرتبة، جامعة لكلمات متفقة[6].

وفي وصف الكتاب بأنه مسطور أيضًا إشارة إلى أنه مكتوب كتابة في أسطر على نحو ما يكتب الكاتبون.

وفي وصفه بأنه في رق منشور إشارة

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٥/ ١٠٧٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ٥٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٤.
(٤) المفردات ص ٣٦١.
والكاغد: القرطاس، معربٌ.انظر: القاموس المحيط ص ٣١٥.
(٥) السراج المنير، الشربيني ٤/ ١١٠.
(٦) انظر: المصدر السابق.

أخرى إلى أنه خفيف الحمل، سهل التداول، وأنه منشور، أي: مفتوح للقارئين، غير مطوي عنهم.

وفي هذا كله تنويه بالكتابة، ورفع لقدرها، وأنها باب واسع من أبواب العلم، وطريق فسيح من طرق المعرفة.

وليس هذا بالأمر المستغرب من رسالة افتتحت بهذا الأمر من رب العالمين إلى النبي الأمي في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق ١-٥].

ثم تلا هذا الأمر قَسَمٌ بالكتابة، وأدواتها من حروف وأقلام، فقال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم:١].

فالكتابة نعمة من نعم الله العظمى على الإنسان، تكمل بها نعمة الكلمة التي وضعها سبحانه وتعالى في فم الإنسان، فلا عجب إذن أن يقسم الله سبحانه وتعالى بالكتاب من حيث هو جنس عام لكل ما يكتب، وأن ينظمه في نسق واحد، مع هذه المعالم المباركة التي أقامها الله سبحانه هدى ورحمة للناس، كالطور، والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور[1].

ومما يستفاد أيضًا من تسميته رقًّا: أنه مرقق، وقد غلب الاستعمال على هذا الذي هو من جلود الحيوان[2].

ومما يفيده وصف الكتاب بالمسطور أيضًا: أنه متسق الكتابة، منتظم الحروف، مرتب المعاني، فالمراد بالكتاب المكتوب، وبالمسطور: الذي سطرت حروفه وكلماته تسطيرًا جميلًا حسنًا، والأظهر أن المقصود به القرآن الكريم؛ لأن الله تعالى قد أقسم به كثيرًا.

فوصف الكتاب بثلاث صفات:

- أنه مسطور: أي: مكتوب على وجه الانتظام، فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة[3].
- أنه في رقٍ: والرق كل ما يكتب فيه من ألواح وغيرها، وأصله: الجلد الرقيق الذي يكتب عليه.
- أنه منشور: والمنشور: المبسوط، أي: أن هذا الكتاب المسطور، كائن في صحائف مبسوطة ظاهرة لكل من ينظر إليها[4].

والمقصود: أن من أساليب القرآن في الحث على الكتابة: أنه أقسم بأداتها، وهي القلم، وما يكتبه ويسطره من كتابات، فقال: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم:١].

فالآية لفتت إلى سر القلم من حيث هو أداة الكتابة التي يدون بها العلم ويحفظ،

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٤/ ٥٤٣.
(٢) روح البيان ٩/ ١٨٥.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٢٨.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٣٨.

ويتنقل على امتداد الزمان والمكان، وتتابع الأجيال، ولا يتسع المقام لكل ما عده المفسرون من شرف القلم، وفوائد الكتابة، على أن يظل للبيان القرآني دلالته في لفت النبي الأمي والعرب الأميين إلى جلال القلم، آية من آيات الخالق الذي خلق الإنسان من علق، وعلمه ما لم يكن يعلم، بما تعني من اختصاص الإنسان دون سائر الكائنات بالقلم، وكسب العلم، وهذا من الخصائص الإنسانية التي يضيف إليها الوحي من بعد ذلك ما يجلوها ويزيدها بيانًا؛ إذ يجعل العلم مناط تكريم آدم الإنسان الأول، وحقه في الخلافة في الأرض، ويسوق الآيات، ويضرب الأمثال للذين يعلمون، ويقصر خشيته تعالى على العلماء[1].

ثانيًا: الأمر بالكتابة:

ومن أساليب القرآن في الحث على الكتابة الأمر بها، وقد سبق الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ففي قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ وقوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب﴾ أمران اثنان بالكتابة، وفي ذلك حث على تعلم الكتابة؛ إذ لا يتم امتثال الأمر بالكتابة إلا بتعلمها.

فشرعت الكتابة لحفظ ما يقع بين المتعاقدين إلى حلول الأجل؛ لأن النسيان يقع كثيرًا في المدة التي بين العقد، وحلول الأجل، وقد تطرأ عوارض من موت أو غيره، فشرع الله الكتابة لحفظ المال، وضبط الواقع، كما أنها شرعت لحفظ العلم وتقييده، ونقل العلوم من جيل إلى جيل.

وقد ذكر السعدي رحمه الله من فوائد آية الدين: أن فيها مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتداينون كل واحد من صاحبه؛ لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع.

وفيها: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية؛ لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم[2].

وظاهر هذه الآية الكريمة أن كتابة الدين واجبة؛ لأن الأمر من الله يدل على الوجوب؛ ولكنه أشار إلى أنه أمر إرشاد لا إيجاب بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾ [البقرة:٢٨٣] الآية؛ لأن الرهن لا يجب إجماعًا، وهو بدل من الكتابة عند تعذرها في الآية، فلو كانت الكتابة واجبة لكان بدلها واجبًا، وصرح بعدم الوجوب بقوله: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣] الآية.

(١) انظر: التفسير البياني، بنت الشاطئ ٢/ ٢٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١١٨.

فالتحقيق أن الأمر في قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُ﴾ للندب والإرشاد؛ لأن لرب الدَّيْن أن يهبه ويتركه إجماعًا، فالندب إلى الكتابة فيه إنما هو على جهة الحيطة للناس[1].

ورجح ابن عاشور أن الأمر بالكتابة هنا للوجوب، فقال: والقصد من الأمر بالكتابة التوثق للحقوق، وقطع أسباب الخصومات، وتنظيم معاملات الأمة، وإمكان الاطلاع على العقود الفاسدة، والأرجح أن الأمر للوجوب، فإنه الأصل في الأمر، وقد تأكد بهذه المؤكدات.

وأن قوله: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ الآية، رخصة خاصة بحالة الائتمان بين المتعاقدين، فإن حالة الائتمان حالة سالمة من تطرق التناكر والخصام؛ لأن الله تعالى أراد من الأمة قطع أسباب التهارج والفوضى، فأوجب عليهم التوثق في مقامات المشاحنة؛ لئلا يتساهلوا ابتداء، ثم يُفْضوا إلى المنازعة في العاقبة، ويظهر لي أن في الوجوب نفيًا للحرج عن الدائن إذا طلب من مدينه الكتب؛ حتى لا يَعُدَّ المدين ذلك من سوء الظن به، فإن في القوانين معذرة للمتعاملين.

وقال ابن عطية: الصحيح عدم الوجوب؛ لأن للمرء أن يهب هذا الحق ويتركه بإجماع، فكيف يجب عليه أن يكتبه، وإنما هو ندب للاحتياط[2].

قال ابن عاشور: وهذا كلام قد يروج في بادئ الرأي؛ ولكنه مردود بأن مقام التوثق غير مقام التبرع، ومقصد الشريعة تنبيه أصحاب الحقوق حتى لا يتساهلوا، ثم يندموا، وليس المقصود إبطال ائتمان بعضهم بعضًا، كما أن من مقاصدها دفع موجدة الغريم من توثق دائنه إذا علم أنه بأمر من الله، ومن مقاصدها قطع أسباب الخصام[3].

والمقصود: أن في هذا الأمر الإلهي بالكتابة دعوة إلى تعلمها، سواء كان أمرًا على الوجوب، أو على الندب، فالقدر المشترك بينهما طلب حصول الفعل، وهو الكتابة، وفي هذا حثٌّ عليها، وطلبٌ لها.

ثالثًا: الثناء على أهل الكتابة:

ومن أساليب القرآن في الحث على الكتابة، الثناء على أهلها، فقد وصف الله تعالى الملائكة بأنهم كاتبون، فقال: ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١﴾ [الانفطار:١١].

والمراد بكونهم كاتبين، أي: أنهم قائمون على كتابة أعمال العباد، بأمر الله لهم.

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ١٨٤.

(٢) وعبارته: وهذا هو القول الصحيح، ولا يترتب نسخ في هذا، لأن الله تعالى ندب إلى الكتب فيما للمرء أن يهبه ويتركه بإجماع، فندبه إنما هو على جهة الحيطة للناس. المحرر الوجيز ١/ ٣٧٩.

(٣) التحرير والتنوير ٣/ ١٠٠-١٠١.

ومما تجدر الإشارة إليه أن في وصف الحفظة هنا بهذه الصفات من كونهم حافظين، كرامًا، كاتبين، يعلمون، دليلًا على أنه اجتمع لهم كل صفات التأهيل، من حفظٍ، وعلو منزلةٍ، وعلم بما يكتبون؛ وكأنه توجيه لما ينبغي لولاة الأمور مراعاته في استكتاب الكُتَّاب والأمناء؛ ولذا قالوا: على القاضي أن يتخير كاتبًا أمينًا، حسن الخط، فاهمًا، ومن هذا الوصف يعلم أنه لا يختلط عليهم عمل يعمل، وكونهم حفظة لا يضيعون شيئًا، ولو كان مثقال ذرة[1].

وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور؛ ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه، ويجازي به الملائكة الكرام الحفظة الكتبة، وفيه إنذار وتهويل، وتشوير للعصاة[2]، ولطف للمؤمنين، وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين[3].

فالكرم صفتهم النفسية الجامعة للكمال في المعاملة، وما يصدر عنهم من الأعمال، وأما صفة الكتابة فمراد بها ضبط ما وكلوا بحفظه ضبطًا لا يتعرض للنسيان، ولا للإجحاف ولا للزيادة.

وأما صفة العلم بما يفعله الناس فهو الإحاطة بما يصدر عن الناس من أعمال، وما يخطر ببالهم من تفكير، مما يراد به عمل خير أو شر، وهو الهم.

واعلم أنه ينتزع من هذه الآية أن هذه الصفات الأربع هي عماد الصفات المشروطة في كل من يقوم بعمل للأمة في الإسلام من الولاة وغيرهم، فإنهم حافظون لمصالح ما استحفظوا عليه، وأول الحفظ الأمانة، وعدم التفريط.

فلا بد فيهم من الكرم، وهو زكاء الفطرة، أي: طهارة النفس، ومن الضبط فيما يجري على يديه، بحيث لا تضيع المصالح العامة ولا الخاصة، بأن يكون ما يصدره مكتوبًا، أو كالمكتوب مضبوطًا لا يستطاع تغييره، ويمكن لكل من يقوم بذلك العمل بعد القائم به، أو في مغيبه أن يعرف ماذا أجري فيه من الإعمال، وهذا أصل عظيم في وضع الملفات للنوازل والتراتيب، ومنه نشأت دواوين القضاة، ودفاتر الشهود، والخطاب على الرسوم، وإخراج نسخ الأحكام والأحباس وعقود النكاح.

ومن إحاطة العلم بما يتعلق بالأحوال التي تسند إلى المؤتمن عليها، بحيث لا يستطيع أحد من المخالطين لوظيفة أن يموه عليه شيئًا، أو أن يلبس عليه حقيقة؛ بحيث ينتفي عنه الغلط والخطأ في تمييز الأمور

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٥١.
(٢) التشوير: التخجيل.
انظر: العين، الفراهيدي ٦/ ٢٨١.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧١٦.

بأقصى ما يمكن[1].

ومن الترغيب بالكتابة مدح الكتاب المكتوب، وانظر إلى قول الله تعالى على لسان بلقيس: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩﴾ [النمل:٢٩].

فسليمان عليه السلام كتب كتابًا: من عبد الله سليمان بن داود، إلى بلقيس ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا علي، وأتوني مسلمين.

قال ابن جريج: لم يزد سليمان على ما قص الله في كتابه -يعني أنه كان كتابًا مختصرًا- وقال قتادة: وكذلك كل الأنبياء كانت تكتب جملًا، لا يطيلون، ولا يكثرون، فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك، وختمه بخاتمه، فقال للهدهد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل:٢٨].

قال عطاء والضحاك: سمته كريمًا لأنه كان مختومًا، وقال قتادة ومقاتل: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ أي: حسن، وهو اختيار الزجاج، وقال: حسن ما فيه، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: شريف لشرف صاحبه، وقيل: سمته كريمًا؛ لأنه كان مصدرًا ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم بينت ممن الكتاب، فقالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾[2].

وقيل: كريم مضمونه، وقيل: كريم حيث أتى به طير[3]. أو لأنه من عند ملك كريم[4].

والمقصود: وصفته بالكرم؛ لكرم مضمونه وشرفه، أو لكرم مرسله، وعلو منزلته، وعلمت ذلك بالسماع، أو بكون كتابه مختومًا باسمه على عادة الملوك والعظماء، أو بكون رسوله به الطير، أو لبداءته باسم الله عز وجل، أو لغرابة شأنه ووصوله إليها على منهاج غير معتاد، وقيل: إن ذلك لظنها إياه بسبب أن الملقي له طير أنه كتاب سماوي، وليس ذلك بشيء[5]. انتهى من روح المعاني مختصرًا.

أما: لم قدم سليمان اسمه على اسم الله؟ فالجواب: أنها لما وجدت الكتاب على وسادتها، ولم يكن لأحد إليها طريق، ورأت الهدهد علمت أنه من سليمان، وحين فتحت الكتاب رأت التسمية؛ ولذلك قالت ما قالت، أو لعل سليمان كتب على عنوان الكتاب ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ فقرأت عنوانه أولًا، ثم أخبرت بما في الكتاب، أو لعل سليمان قصد بذلك أنها لو شتمت لأجل كفرها، حصل الشتم لسليمان لا لله تعالى[6].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٨٠-١٨١.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠١.
(٣) غرائب التفسير وعجائب التأويل، الكرماني ٢/ ٨٤٨.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٠٢.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٨٩.
(٦) غرائب القرآن، النيسابوري ٥/ ٣٠٣.

والمقصود: أنها مدحت كتاب سليمان عليه السلام بالكرم والشرف، وفي هذا ترغيب بالكتابة، وبخاصة إذا كانت ذا مضمون شريف، وهدف نبيل كهذا الكتاب الذي كان الهدف منه الدعوة إلى الله، ونشر دينه، وإعلاء كلمته.

ومما يؤكد هذا المعنى أيضًا قول الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:١١٠].

فقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ أي: الإنجيل الذي أنزلته عليك بعد أن علمتك الكتابة والقراءة، تتلو عليهم، وقيل: إنه علمه كتب الأولين النازلة على الأنبياء قبله؛ لأن فيها التوراة، مع أن التوراة ستأتي بعد؛ ولهذا فالأحسن الإيراد بالكتاب هنا الكتابة بالقلم[1].

ففي هذا امتنان من الله تعالى على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة، وفي هذا ترغيب بها، ودعوة إليها.

رابعًا: النهي عن الامتناع عن الكتابة:

ومن أساليب القرآن في الحث على الكتابة، النهي عن الامتناع عنها لمن احتيج إلى كتابته، وكان قادرًا عالمًا بالكتابة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وفي هذا نهي عن الامتناع عن الكتابة، وترغيب فيها.

و﴿كَاتِبٌ﴾ نكرة في سياق النهي فتعم[2]. ثم النهي عن الامتناع عن الكتابة لكل كاتب إنما هو على سبيل الإرشاد والأولى؛ تحصيلًا لحاجة المسلم، وشكرًا لما علمه الله من كتابة الوثائق، فهو كقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

وقيل: إنه على سبيل الإيجاب؛ ولكنه نسخ بقوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقيل: إنه فرض كفاية، فإن لم يجد إلا كاتبًا واحدًا وجبت الكتابة عليه، وإن وجد أشخاصًا فالواجب كتابة أحدهم، وقيل: متعلق الإيجاب هو أن يكتب كما علمه الله، يعني أنه بتقدير: أن يكتب، فالواجب أن يكتب كما علمه الله، وأن لا يخل بشرط من الشروط، كيلا يضيع مال المسلم بإهماله -وقد سبق الإشارة إلى هذه الأوجه-.

والحاصل: أن من أساليب القرآن في الحث على الكتابة، والترغيب فيها، النهي لمن يعرف الكتابة أن يمتنع عن كتابة الدين أو غيره من مصالح المسلمين إذا دعي إلى كتابته، فقد أنعم الله عليه بأن علمه ما لم

(١) بيان المعاني، العاني ٦/ ٣٩٠.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٢٤.

يكن يعلم، فلينفق من هذا الرزق الذي رزقه الله إياه في سبيل الخير، فذلك من زكاة هذه النعمة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ أمر آخر بالكتابة، يتوجه إلى من يحسنها، ويؤكد الواجب المدعو إليه في تلك الحال، فإن تخلى عنه كان ذلك منه عصيانًا عن عمد، وتحديًا صريحًا لأمر الله الذي بلغه في أبلغ بيان وآكده، بالأمر به، ثم بالنهي عن مخالفته، ثم بالأمر به مرة أخرى.

موضوعات ذات صلة:

الأمية، الدَين، العلم، القدر، القرآن، القراءة

الكتب المنزلة

عناصر الموضوع

مفهوم الكتب المنزلة	١١٨
الألفاظ ذات الصلة	١١٩
الحكمة من إنزال الكتب	١٢١
الكتب المنزلة وخصائصها	١٢٤
الكتب المنزلة والموقف منها	١٤٣
القرآن الكريم والكتب المنزلة قبله	١٥٤

مفهوم الكتب المنزلة

أولًا: المعنى اللغوي.

الكتب المنزلة: مركب من موصوف (الكتب) وصفة (المنزلة).

الكتب لغة: الكتب جمع كتاب، وهو من الفعل كتب، وأصل معناه: الضم والجمع، قال الراغب بعد أن بين كون أصل الكلمة من ضم الشيء للشيء: «والكتاب في الأصل مصدر، ثم سمي المكتوب فيه كتابا، والكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه» [(١)].

وقال النحاس: «وقيل كتاب لما جمع فيه. يقال: كتبت الشيء أي: جمعته» [(٢)].

كما تدل مادة «كتب»: على الفرض والإيجاب والتقدير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة: ١٧٨].

المنزلة لغة: المنزلة اسم مفعول من الفعل نزل، فعل، مفعلة، والمنزلة: اسم مفعول من أنزل، أفعل، مفعلة. نزل بالمكان، «ونزله نزلةً واحدة، ونزل من علو إلى أسفل، ونزل في البئر، ونزل عن الدابة. وهذا منزل القوم. واستنزلوهم من صياصيهم، وأنزل الله الغيث، وأنزل الكتاب ونزله، وتنزلت الملائكة. [(٣)] والنزول في الأصل: انحطاطٌ من علو. يقال: نزل عن دابته، ونزل في مكان كذا: حط رحله فيه، وأنزله غيره. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَٰرَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: ٢٩].

«ونزل بكذا، وأنزله بمعنًى، وإنزال الله تعالى نعمه ونقمه على الخلق: إعطاؤهم إياها، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن، وإما بإنزال أسبابه والهداية إليه، كإنزال الحديد واللباس، ونحو ذلك [(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

الكتب المنزلة هي الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه لهداية الناس. فتشمل ما أخبرنا الله عنه: صحف إبراهيم، والتوراة والزبور والإنجيل، وكذلك القرآن الكريم، إضافة إلى ما أنزله الله ولم يقص علينا خبره.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٩٩
(٢) معاني القرآن، النحاس ١/ ٧٩.
(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٩، المفردات، الراغب ص ٧٩٩.
(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ القرآن:

القرآن لغة:

القاف والراء والياء أصل صحيح يدل على الشيء المجموع، وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته، وضممت بعضه على بعض، وقرأت الكتاب قراءةً وقرآنًا، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها[١].

القرآن اصطلاحًا:

كلام الله تعالى، المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، المتعبد بتلاوته، المنقولُ إلينا بالتواتر، المقروءُ في المصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة والمنتهي بسورة الناس» [٢].

الصلة بين القرآن والكتب المنزلة:

القرآن الكريم آخر الكتب المنزلة من الله عز وجل إلى أنبيائه لهداية الناس.

٢ التوراة:

التوراة لغة:

قال أبو حيان: «التوراة: اسمٌ عبرانيٌّ، وقد تكلف النحاة في اشتقاقها، وفي وزنها، وذلك بعد تقرير النحاة أن الأسماء الأعجمية لا يدخلها اشتقاقٌ، وأنها لا توزن، يعنون اشتقاقًا عربيًا» [٣].

التوراة اصطلاحًا:

«التوراة اسمٌ للكتاب المنزل على موسى عليه السلام»[٤].

الصلة بين التوراة والكتب المنزلة:

التوراة هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٦٤، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٧٥٠.
(٢) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، صالح الفوزان ص٦٦.
(٣) البحر المحيط ٣/ ٥.
(٤) المصدر السابق.

٣ الإنجيل:

الإنجيل لغةً:

قال ابن منظور: «الإنجيل: كتاب عيسى، على نبينا وعليه -الصلاة والسلام-، يؤنث ويذكر، فمن أنث أراد الصحيفة، ومن ذكر أراد الكتاب»[(١)]. ويجمع على أناجيل.

وقد اختلف العلماء في أصله اللغوي وهل هو عربي أو معرب، والراجح هو أن كلمة الإنجيل معربة.

الإنجيل اصطلاحًا:

كلمة إنجيل إذا أطلقت فلها معنيان:

الأول: الكتاب المنزل من عند الله تعالى على المسيح عليه السلام، وهو مفقود، ولم يبق منه إلا نتف قليلة مما بين أيدي النصارى الآن، قال الطاهر بن عاشور في تعريفه بهذا المعنى: «اسمٌ للوحي الذي أوحي به إلى عيسى عليه السلام فجمعه أصحابه»[(٢)].

الثاني: الإنجيل الذي تعظمه النصارى الآن، وهو عبارة عن: «أربعة كتبٍ تعرف بالأناجيل الأربعة».

الصلة بين الإنجيل والكتب المنزلة:

الإنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام.

(١) لسان العرب، ١١/ ٦٤٨.
(٢) التحرير والتنوير، ٣/ ١٤٩.

الحكمة من إنزال الكتب

لا يمكن للبشرية في مسيرتها أن تحتكم لعقولها القاصرة ولا لأهوائها الجامحة المتباينة ولا لتجاربها المحدودة، ولا للحدس أو التخمين، أو غير ذلك من وسائل المعرفة والإدراك أو الظنون والأوهام أو الخرافات والأساطير، فمع أهمية العقل وضرورة الحواس وقيمة التجارب الإنسانية لكن ذلك لا يكفي ولا يشفي، إذ لا غنى للبشرية عن هداية السماء، ولا رشاد لهم إلا بدعوة الأنبياء، من هنا ندرك قيمة الكتب الإلهية المنزلة وأهميتها ومقاصدها، فلقد نزلت هداية ورحمة، ونورا وحكمة، وبيانا وتفصيلا، نزلت لإخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والعلم، نزلت هداية للبشرية وتبيانا، ومنهاجا ونبراسا لها في طريقها، نزلت بالأخبار والبشارات، للعظة والاعتبار، والترغيب والترهيب، وقد بين القرآن ذلك كله أصدق بيان وأجلى برهان.

أولًا: إخراج الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد:

الحكمة من إنزال الكتب هداية الناس وتبصيرهم، وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فالله تعالى يتولى عباده المؤمنين ويخرجهم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وأنبياء الله تعالى جاءوا بالحجج النيرات والآيات الواضحات مؤيدين بالكتب التي تنير الطريق لهم ولمن اتبعهم.

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وبين تعالى أن غاية رسالة موسى عليه السلام إخراج قومه من ظلمات الكفر والجهل والظلم إلى نور الإيمان والعلم والعدل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥].

قال الماتريدي: «وعلى ذلك بعث جميع الرسل والأنبياء، بعثوا ليخرجوا قومهم من الظلمات إلى النور»[(١)].

إن وظيفة الرسل وغاية إنزال الكتب إخراج الناس من الظلمات التي تغشاهم

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٣٦٣.

وتحيط بهم إلى النور الذي يضيء لهم دروبهم ويهديهم سبلهم. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تبين لنا أن أعظم مقاصد القرآن إخراج الناس من الظلمات المدلهمة إلى النور السافر.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد: ٩].

﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١١].

﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

ألا ما أحوج الإنسانية لهذا النور الذي يضيء لهم دروب حياتهم المتشعبة، ويبصرهم حين يمشون بين الناس، ويكشف لهم ظلام الشك والشهوات.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فلا يستغني الناس عن النور الذي يضيء لهم سبلهم، ومن حرم من النور الرباني عاش حياته متخبطا في الظلمات ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

قال ابن القيم: «فالظلمات: جمع ظلمة، وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة ظلم النفس بالتقليد واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم. والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور»[1].

ثانيًا: التفريق بين الحق والباطل وإقامة العدل في حياة الناس:

من مقاصد إنزال الكتب إحقاق الحق وإبطال الباطل، فالكتب هي الفارقة بين الحق والباطل، والكتب هي الداعية إلى إقامة موازين العدل بين الناس.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

عن مجاهدٍ، وقتادة: «الميزان هو العدل»[2].

وقال القشيري: «أي: أرسلناهم مؤيدين بالحجج اللائحة والبراهين الواضحة،

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤٠٠.
(٢) تفسير مجاهد ص ٥٨٩.

وأزحنا العلة لمن أراد سلوك الحجة المثلى، ويسرنا السبيل على من آثر اتباع الهدى والدليل، وأنزلنا معهم الكتب المنزلة، والميزان أي: الحكم بالقرآن، واعتبار العدل والتسوية بين الناس»[1].

وقال السعدي: «الميزان: العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية من الآيات الآفاقية والنفسية والاعتبارات الشرعية والمناسبات والعلل والأحكام والحكم داخلةٌ في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما اشتبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله»[2].

فكما أنزل الله الكتاب أنزل الميزان. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ١٧].

وسميت التوراة بالفرقان لكونها فارقة بين الحق والباطل قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: ٥٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

كذلك سمي القرآن بالفرقان قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: ٣ - ٤].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

فالفرقان: «ما يفرق بين الحق والباطل، وبين المشتبه والواضح، وبين ما يؤتى ويتقى، وبين ما عليهم ولهم»[3].

ثالثًا: بيان تكاليف العباد من العبادات والمعاملات وغيرها:

خلق الإنسان لعبادة ربه جل وعلا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولم تترك عبادة الله تعالى لاجتهادات الناس وأفكارهم، وإلا لذهب الناس فيها كل مذهب، وصارت لهم فيها فنونٌ؛ بل كانت العبادات وفق ما جاء به الرسل ونزلت به الكتب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

فأرسل الله رسله كما أنزل كتبه لأسمى

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٧/ ٣٩٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٥٦.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٣٥٠.

الغايات وهي عبادته تعالى وتنظيم حياة الناس وإصلاح معاملاتهم. فجميع ما جاء به الأنبياء عليهم السلام خرج من مشكاة واحدة وقصد إلى غاية واحدة هي: هداية البشرية وإمدادها بالزاد الروحي والقبس الإيماني الذي يضيء دروب الحياة، ويصلح المعاش والمعاد.

قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

عن قتادة (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا) قال: الحلال والحرام[(١)].

وقال مجاهد: لم يبعث الله تعالى نبيا إلا أوصاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة. فذلك دينه الذي شرع لهم[(٢)].

فأصول الدين واحدة، لا تختلف في جميع الشرائع، وأما الفروع فمختلفة.

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٣.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٣٠٦.

الكتب المنزلة وخصائصها

تحدث القرآن الكريم عن الكتب المنزلة حديثا شافيا، وبين ما جاء فيها من الهدى والحق، وتحدث القرآن عن نزولها ومقاصدها، كما بين أوصافها وفضائلها، وتحكيمها والعمل بها، وتصديق القرآن لها وهيمنته عليها.

ومن الكتب المنزلة التي تحدث القرآن عنها: التوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن، وصحف إبراهيم وموسى.

أولًا: التوراة:

التوراة: كتاب الله تعالى الذي أنزله على نبيه موسى عليه السلام[(٣)].

(٣) ذكر الفراء أنها: من ورى الزند يري إذا خرجت ناره وأوريته يريد أنها ضياء، وقال أبو إسحق الزجاج: قال البصريون: توراةٌ أصلها فوعلة، وفوعلة كثيرٌ في الكلام مثل الحوصلة، وفي تاج العروس: وقد تعقب المحققون كلامهم بأسره وقالوا هو لفظٌ غير عربي، بل هو عبراني اتفاقًا، وإذا لم يكن عربيًا فلا يعرف له أصل من غيره، إلا أن يقال إنهم أجروه بعد التعريب مجرى الكلم العربية وتصرفوا فيه بما تصرفوا فيها، والله أعلم.
انظر: غريب الحديث، ابن قتيبة ١/ ٢٤٥، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ١٩١.
يقول الأستاذ عزة دروزة رحمه الله في التفسير الحديث ٢/ ٤٧٨: «والذي يسمى التوراة و يسمى أيضا باسم العهد القديم هو مجموعة ضخمة من أسفار عديدة منفصل بعضها عن بعض بأسماء متنوعة، و عددها عند فريق من الكتابيين الطبعة البروتستانتية تسعة وثلاثون،

ولقد تحدث القرآن عنها حديثًا مسهبًا، مما يدل على منزلتها، حدثنا القرآن عن نزولها وكتابتها، وعن مقاصدها، وما تضمنته من أوامر وأخبارٍ، ودعانا إلى الإيمان بها وبنزولها على موسى عليه السلام، وأنها نزلت بالخير والهدى.

تحدث القرآن عن نزولها في مواضع كثيرة.

قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣].

فكما أنزل الله تعالى القرآن على نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم مصدقا لما بين يديه، فقد أنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، فالكتب الثلاثة خرجت من مشكاةٍ واحدةٍ؛ ومن ثم فهي متفقةٌ في مصدرها ومقاصدها، ومن هنا ندرك حكمة اقترانها في مواضع كثيرةٍ من القرآن، لأنها يصدق بعضها بعضا، ويكمل سابقها لاحقها، وهي كلها كلام رب العالمين، فضلا عن توافقها وتناسبها.

وقد جاء الحديث عن نزول التوراة في مواضع أخرى.

قال تعالى: ﴿۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٩٣﴾ [آل عمران: ٩٣].

فتحدثت الآية عن توراتين، التوراة المنزلة من عند الله تعالى، والتوراة الموجودة في أيدي اليهود والتي فيها ما فيها من تحريفٍ وزيفٍ، لكنها لا تزال حجةً عليهم بما بقي فيها من حقائق تعضد ما جاء به القرآن، وتنقض ما هم عليه من أباطيل. ولو كانت توراةً واحدةً لناسب ذلك الإضمار تحاشيًا للتكرار، لكن الحديث عن توراتين.

قال تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ﴾.

ويأتي الحديث عن التوراة الحقيقية وعن نزولها ومضمونها وثمراتها الطيبة في سورة المائدة.

و عند فريق آخر الطبعة الكاثوليكية ستة وأربعون...».

ويقول في كتابه القرآن والمبشرون ص ١٨-٢١، والذي يرد فيه على كتابات أحد القساوسة: «كلمة التوراة عبرانية تعني التعليم أو الشريعة، وهي معربة، والمتبادر أن التعريب سابق لنزول القرآن، وأن اللفظ القرآني جاء كما كان مستعملا قبل نزول القرآن...والمقصود القرآني من كلمة التوراة: هو الكتاب المنزل من عند الله على موسى عليه السلام المحتوي للمبادئ والتعليمات والتشريعات والأحكام والحدود الربانية.في حين أن المتداول عند الكتابيين أن التوراة هي: مجموعة ضخمة من الأسفار منفصل بعضها عن بعض، تعرف بالعهد القديم...» بتصرف واختصار..

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

فالتوراة منزلةٌ من عند الله تعالى بالهدى والنور، وهي شريعة الله تعالى التي حكم بها موسى عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم السلام، وعلى نهجهم سار الربانيون والأحبار، فأضاءوا بها دروب الحياة، ونعموا في ظلالها بحلاوة العدل وروح الإنصاف. وفي تكرار الحديث عن إنزالها: توكيدٌ وتقريرٌ بأنها نزلت من عند الله تعالى، وبيانٌ لشرفها وعظمتها، وبيانٌ لمقاصد نزولها، وهي الهداية والبيان.

أسماؤها وأوصافها وفضائلها:

تحدث القرآن عن أسمائها فهي التوراة، والفرقان، والكتاب، والألواح، والصحف.

١. التوراة.

وردت بهذا الاسم في القرآن في ستة عشر موضعا، وفي هذا ما يدل على تعظيم شأنها، فهي كلام رب العالمين.

٢. الكتاب.

أما التعبير عنها بالكتاب فقد ورد في أكثر من ثلاثين موضعا لكونها مكتوبة وكونها جامعة، وفي كل هذه المواضع يقرر السياق أنه كتاب موسى عليه السلام.

٣. صحف موسى.

وردت في موضعين، في سورة النجم والأعلى، وفي هذا كله ما يدل على عظمة التوراة ورفعتها وجلال قدرها، ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النجم: ٣٦].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩].

فهي كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه موسى الكليم، واصطفاه به على سائر الناس في زمانه.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

أنزلها الله تعالى ضياء وذكرى للمتقين الذين ينتفعون بهديها، ويستنيرون بضيائها.

٤. الفرقان.

لأن الله تعالى فرق بها بين الهدى والضلال، والحق والباطل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

٥. الألواح.

وقد وردت في ثلاثة مواضع من سورة الأعراف.

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ

مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن نبينا صلى الله عليه وسلم في محاجة آدم وموسى، وفيه: (فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيءٍ، وقربك نجيًا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى) ؟ قال نعم، قال أفتلومني على أن عملت عملًا كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنةً ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فحج آدم موسى)[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قوله: (وكتبنا له في الألواح): يريد ألواح التوراة[2].

مقاصدها:

نزلت التوراة هدايةً ورحمةً، ونورا وحكمةً، وضياء وذكرا، وتفصيلا وبيانا، وتبصرةً وفرقانا، نزلت بيانًا لأركان الإيمان وثمراته، كما نزلت مفصلةً للأحكام والآداب، والقصص والأمثال، والوصايا والبشارات.

نزلت هداية لبني إسرائيل، وإصلاحًا لعقيدتهم.

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩].

كما نزلت تبصرة لهم ورحمةً بهم لعلهم ينتفعون بها، ويتذكرون بأحكامها ومواعظها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى، وذكره بعد حديث ٣٢٢٨، وأخرجه مسلم في صحيحه، واللفظ له، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٤/ ٢٠٤٢، رقم ٢٦٥٢.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٣٣.

فبين تعالى أن التوراة هدى ونورٌ، وشرعةٌ ومنهاجٌ، وأنها بصائر للحق، وميزانٌ له، حكم بها الأنبياء، وقضى بها الربانيون والأحبار، وامتثل لها الصالحون، فهي بصائر بما اشتملت عليه من حجج وبينات، بصائر بما حوته من حكمٍ وأحكام، بصائر بما اشتملت عليه من مواعظ ورقائق، وقصص وأمثالٍ، وبشارات ونبوءات، بصائر بما حوته من علوم ومعارف تضيء الطريق وترشد إلى سبل الهدى.

وقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤].

فمن مقاصد التوراة، نزولها تماما وتفصيلا، وهدى ورحمة، فهي منهاجٌ تامٌ، وشريعةٌ كاملةٌ، وهدايةٌ جامعةٌ، ورحمةٌ عامةٌ، آتاها الله موسى جزاءً لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة، ومثوبةً لمن أحسن من قومه؛ فهي من تمام الامتنان على أهل الإحسان، من الأنبياء والصالحين أي: أتممنا فضلنا عليهم بالكتاب.

قال الطبري بعد سرده لأقوال السلف: «وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معناه: ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمنا عنده، على الذي أحسن موسى في قيامه بأمرنا ونهينا؛ لأن ذلك أظهر معانيه في الكلام، وأن إيتاء موسى كتابه نعمةٌ من الله عليه ومنة عظيمة. فأخبر جل ثناؤه أنه أنعم بذلك عليه لما سلف له من صالح عمل وحسن طاعة»[1].

ومن مقاصد نزولها كما في الآية: دعوتهم للإيمان باليوم الآخر وترسيخه في قلوبهم ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فآتاه الله التوراة هدايةً ورحمةً وتماما وتفصيلا ووفاءً لجميع ما يحتاج إليه في شريعته، كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: «عامٌ في بابه، أي: مفصلًا لكل شيءٍ من أحكام الشريعة كالعبادات والمعاملات»[2].

﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فالتوراة جامعةٌ للأحكام الشرعية والعقدية.

وبين تعالى من مقاصد التوراة: التفرقة بين الحق والضلال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

فالتوراة هي الفرقان، لأنها منهاجٌ للتفرقة بين الهدى والضلال، وهي ضياء وذكرى

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٣٦.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٨٠.

للمتقين الذين ينتفعون بهديها، ويستنيرون بضيائها.

ومن مقاصدها: إمامة الناس للهدى والخير.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧].

فالتوراة شاهدٌ وبرهانٌ وسائقٌ ودليل إلى الإيمان بالقرآن، أنزله الذي أنزل التوراة على موسى إماما للمتقين ومنارة للسائرين ورحمة للمؤمنين.

قال ابن عاشور: «وعبر عن التوراة بـ (كتاب موسى) بطريق الإضافة دون الاسم العلم وهو التوراة لما تؤذن به الإضافة إلى اسم موسى من التذكير بأنه كتاب أنزل على بشر كما أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم تلميحا إلى مثار نتيجة قياس القرآن على كتاب موسى بالمشابهة في جميع الأحوال.»[1].

وتقديم (إماما) على (رحمة)؛ لأن الإمامة بمثابة الوسيلة أو الطريقة إلى الشيء، والرحمة بمثابة الغاية والثمرة، والغاية تقدم على الوسيلة، فالتوراة تقود إلى الرحمة، اقتدى بها الأنبياء والصالحون من بني إسرائيل فنالوا الرحمات.

مضمونها:

جاءت التوراة بالمواعظ والأحكام المفصلة، فهي في عمومها هدى ورحمة وبصائر.

قال جل وعلا ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣].

وقال سبحانه في سورة المائدة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

فاشتملت التوراة على الهداية والبيان، والنور والرحمة، والبصائر والمواعظ. وقد بين القرآن بيانا مفصلا بعضا مما ورد في التوراة من عقائد وأحكام، وقصص وأمثال، وبشارات.

١. العقيدة.

ومن ذلك بيان التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ٢].

فمن مقاصد ومعاني التوراة الأمر

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢١.

بالتوحيد، قال الشنقيطي رحمه الله: «فجعل التوراة هدى لبني إسرائيل مفسر بنهيهم عن اتخاذ وكيل من دون الله ؛ لأن الإخلاص كله في عبادته هو ثمرة الكتب المنزلة على الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.»[1].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم: ٣٦ - ٤٩].

فقد اشتملت صحف موسى وهي التوراة على أصول الإيمان: الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، فضلًا عن الإيمان بالرسل والكتب والملائكة والقدر.

ومن ذلك وعده تعالى لعباده المؤمنين بالجنة.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

٢. الأحكام.

إذ جميع الكتب المنزلة متفقة في أصول التشريع كالصلاة والصيام والزكاة، وإن اختلفت في فروعها وجاءت شريعة القرآن مسك الختام وغاية التمام.

تأمل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩].

ففيها بيان اشتمال صحف إبراهيم وكذلك صحف موسى أي: التوراة على الترغيب في الزكاة والصلاة والتحذير من الافتتان بالدنيا وإيثارها على الآخرة.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢].

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١١

﴿وَالْأَذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٥].

فكشف الله تعالى لنا عن شيءٍ مما تضمنته التوراة، في جانب الأحكام الشرعية العادلة التي نزلت لحماية الإنسان وحفظ دينه، وروحه، وعقله، وبدنه، وماله، وعرضه.

٣. البشارات.

مما تضمنته التوراة كما بين القرآن البشارة بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فلقد جاءت أوصاف نبينا صلى الله عليه وسلم مكتوبةً في التوراة والإنجيل وعلى إثرها وفي ضوئها آمن من آمن من علماء أهل الكتاب، وكان اليهود والنصارى يترقبون مجيء هذا النبي الأمي الذي يبعث بالرحمة ويرفع الله به الحرج ويضع عنهم الآصار التي أرهقتهم، ويحط الأغلال التي أثقلتهم، وكانوا يتواصون ويتعاهدون على نصرته ومؤازرته، فلما بعث آمن منهم من تجرد للحق وأخلص له، وأعرض من خاب وخسر.

٤. ضرب الأمثال.

جاءت الكتب الثلاثة بالأمثال التي تقرب المعاني إلى الأذهان وترسخها في النفوس، وتصورها في صورٍ حية، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

فلم يقتصر الحديث في التوراة والإنجيل عن أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم، بل ورد الحديث كذلك عن أوصاف أصحابه ومناقبهم، كما أشارت الآية الكريمة، أن الله تعالى ضرب لنبيه صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أروع الأمثلة في التوراة والإنجيل، حيث بدأت دعوة الإسلام غريبةً، ولم تلبث أن قوي عودها وانتشر عبيرها وأورقت شجرتها وأينعت

ثمارها بجهود الصحابة ومساعيهم.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

وعد الله تعالى في كتبه الثلاث المجاهدين الصادقين الذين نالوا شرف الجهاد والاستشهاد بأن لهم الجنة.

ثانيًا: الزبور:

أنزل الله الزبور على نبيه داود عليه السلام فكان من أعظم النعم وأجلها؛ إذ اشتمل على معانٍ سامية وأحكام راشدة ومواعظ وبشارات، وقد تحدث القرآن عنه في عدة مواضع بما عرفه لنا، وكشف لنا عن شيء مما ورد فيه.

وأصل كلمة الزبور: في اللغة العربية: من (ز ب ر)، والزبر: الكتابة في الحجر، وقيل: الزبر أي: الزجر، لأن الزبور والزبر: الكتب التي اشتملت على زواجر، أي: مواعظ تزجر عن الباطل، وقيل: هو من الفخامة والعظمة، ومنه زبر الحديد، أي: قطعه الكبيرة، وقيل: من الإتقان؛ لأنه كتابٌ محكمٌ[(١)].

وقد وردت بعض مشتقات هذه المادة في القرآن الكريم: فجاءت بمعنى: القطعة من الشيء. قال تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف: ٩٦].

وزبر الحديد أي: قطعه الكبيرة. وجاءت بمعنى: التقطع والتفرق.

قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾، أي: تفرقوا إلى فرقٍ وأحزابٍ شتى. وجاءت بمعنى: الكتب والمواعظ والزواجر التي نزلت على الأنبياء[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

فالبينات هي: الحجج والمعجزات، والزبر هي: المواعظ والزواجر، والكتاب المنير: اسم جنس «يشمل جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه لهداية الناس وإرشادهم[(٣)].

(١) انظر: المحيط في اللغة، ابن عباد الطالقاني ٩/ ٤٥، المصباح المنير، الفيومي ١ / ١٣١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٥٠٩.

(٢) قال الطبري في تفسيره ١٤/ ٢٣١: «والزبر: هي الكتب، وهي جمع زبورٍ، من زبرت الكتاب إذا كتبته، عن مجاهدٍ: الزبر: الكتب».

(٣) قال الخازن: «وسمي الكتاب الذي فيه

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٧].

والزبر: الكتب لأنها زبرت أي: رقمت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: في كتب المتقدمين من الأنبياء، لأنها بشرت به، أو لأنه تضمن ما ورد فيها، وجاء مصدقًا بها.

وجاء الزبر: بمعنى اللوح المحفوظ أو كتاب الأعمال: قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٢-٥٣].

قال الطبري: «يعني في الكتب التي كتبتها الحفظة عليهم وقد يحتمل أن يكون مرادًا به في أم الكتاب»[1].

وفي عدة مواضع تحدث القرآن عن الزبور: الكتاب الذي أنزله الله تعالى على داود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

أوحى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم كما أوحى لمن قبله من الأنبياء، والزبور وحيٌ من الله تعالى ومنةٌ على نبيه داود عليه السلام، والذي يؤمن بالزبور يلزمه الإيمان بالقرآن لأن مصدرهما واحدٌ، فحريٌّ بأهل الكتاب الذين يؤمنون بالزبور أن يؤمنوا بالقرآن ختام الكتب وآخر الرسالات، والذي جاء مصدقا بما قبله.

وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥].

فقد فضل الله داود عليه السلام بهذا الكتاب العظيم، وفي تكرار هذه العبارة في سورتين تقريرٌ لها، وتذكيرٌ بها، وبيانٌ لفضل داود عليه السلام، ودليلٌ على التفاضل بين الأنبياء، وبرهانٌ على وحي الله لأنبيائه،

الحكمة زبورا، لأنه يزبر عن الباطل، ويدعو إلى الحق، والكتاب المنير: أي الواضح المضيء، وإنما عطف الكتاب المنير على الزبر لشرفه وفضله». لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٢٨.

وقال أبو حيان: «قيل: والكتاب هو الزبر، وجمع بين اللفظين على سبيل التأكيد، أو لاختلاف معنيهما، مع أن المراد واحد، ولكن اختلف معناهما من حيث الصفة، وقيل: الكتاب هنا جنسٌ للتوراة والإنجيل وغيرهما، ويحتمل أن يراد بقوله: والزبر: الزواجر من غير أن يراد به الكتب، أي: جاؤوا بالمعجزات الواضحة والتخويفات والكتب النيرة». البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٤٥٩.

(١) جامع البيان ٢٢/ ١٦٤.

والزبور الموجود بين يدي أهل الكتاب المسمى عندهم بمزمور داود يشهد للنبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم وأمته، وهذا ردٌّ على أهل الكتاب الذين ينكرون نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، ببيان أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، كما تفضل الله على النبيين من قبل عامةً وعلى نبيه داود عليه السلام خاصةً.

مقاصد الزبور:

أنزل الله الزبور على داود عليه السلام كما أنزل سائر الكتب على الأنبياء هداية وتذكرة وبيانا وبشارةً، وحجةً على الخلق.

قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: ١٦٣].

ويفهم من سياق هذه الآية أيضًا أن نزول الزبور نعمة وفضيلة لنبي الله داود عليه السلام.

والبشارة في الزبور كما أخبر القرآن.

قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٥ -١٠٧].

وهنا يكشف لنا المولى جل وعلا قبسا مما جاء في الزبور، حيث اشتمل على هذه البشارة العظيمة بالتمكين لعباد الله الصالحين، الذين يرثون الأرض وينشرون الرحمة في أرجائها.

والذكر: هو اللوح المحفوظ، وفيه أقدار الله وسننه، أو التوراة وفيها بشاراتٌ عديدةٌ لأمة الإسلام، وفي التنويه على وجود هذه البشارة في اللوح أو في التوراة تقريرٌ لها وتفخيمٌ لشأنها، والمتأمل في ما يدعى عند أهل الكتاب بمزامير داود يدرك هذه المعجزة القرآنية ! وقد جاء في المزمور السابع والثلاثين من المزامير المنسوبة لداود عليه السلام ما نصه: «والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض، ١٠ بعد قليل لا يكون الشرير، تطلع في مكانه فلا يكونً، ١١ أما الودعاء فيرثون الأرض، ويتلذذون في كثرة السلامة.

وتعقيب هذه البشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾. لفتةٌ بليغةٌ كي نقف خاشعين أمام إعجازٍ قرآني وبلاغٍ رباني.

ثالثًا: الإنجيل:

تحدث القرآن عن الإنجيل بما كشف لنا عن نزوله ومقاصده وفضائله، وما ورد فيه من أحكام وبشارات، فالإنجيل كلام الله

تعالى الذي نزله على نبيه عيسى عليه السلام هداية وتذكرة لبني إسرائيل وامتدادا للتوراة وتصديقا بها ونسخا لبعض ما ورد فيها.

وأما تعريفه: فالإنجيل: علمٌ على الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام[1].

أوصافه ونزوله وفضائله ومقاصده:

وصفه الله تعالى بأنه هدى ونورٌ، هدى للناس، ونورٌ يضيء لهم الدروب، وبين تعالى أنه مصدقٌ لما بين يديه من التوراة، فنزوله دليلٌ على صدقها، وامتدادٌ لها، ونسخٌ لبعض ما ورد فيها من أحكام، كذا كل نبيٍ وكل كتابٍ يصدق بما قبله.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ [آل عمران: ١-٤].

فالتوراة والإنجيل كلاهما نزل من عند الله هدايةً للناس، وكذلك الفرقان.

وبينما صرح القرآن وأكد نزول الإنجيل من عند الله تعالى؛ لم أعثر في الأناجيل الأربعة على عبارةٍ واحدةٍ تصرح بنزولها من عند الله ! فمن فضائل عيسى عليه السلام ومناقبه الجليلة أن أنزل الله عليه الإنجيل هدى وموعظة وحياة للقلوب.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وهذه الآية تصرح بأن الإنجيل وحي من الله تعالى أكرم به عيسى عليه السلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

فالإنجيل من أشرف الكتب التي أنزلها الله تعالى بدليل حديث القرآن عنه في مواضع كثيرة، واقتران ذكره بأوصاف جليلة ومقاصد عظيمة، فهو هدايةٌ ونورٌ، وموعظةٌ وذكرى، وقد ورد ذكره في اثني عشر موضعا من كتاب الله تعالى، وفي هذا أعظم دليلٍ على مزيته، سيما إذا قارنا ذلك بعدد ورود

(١) جاء في كتب المعاجم: الإنجيل لفظة مشتقة من نجلت الشيء إذا أخرجته، ومنه قيل لنسل الرجل: نجله كأنه هو استخرجه.وقيل للماء الذي يظهر من النز: نجل. يقال: قد استنجل الوادي، وإنجيل: إفعيل من ذلك كأن الحق كان قد دثر ودرس كثيرٌ من معالمه وكثر تحريف أهل الكتاب وخفي على الناس ما أحدثوه فأظهر الله جل وعز ذلك.مقاييس اللغة ٥/ ٣٩٦، مختار الصحاح ص ٣٠٥.
والذي أراه أنها معربة لا اشتقاق لها.
وفي المعجم الوسيط ١/ ٢٩: الإنجيل: كتاب الله المنزل على عيسى عليه السلام، وهي كلمة يونانية معناها البشارة.
والموجود لدى النصارى الآن الأناجيل الأربعة وعدد من الرسائل والرؤى يطلق على مجموعها العهد الجديد، كما في نسخة الإنجيل.
انظر: كتاب الحياة.

الإنجيل في الأناجيل الأربعة، حيث لم ترد كلمة الإنجيل إلا في سبعة مواضع: مرة في إنجيل متى، والباقي في إنجيل مرقص، بينما لم ترد في إنجيل يوحنا، ولا لوقا، ومع ذلك لم يقترن ذكره بالحديث عن مصدره أو فضائله أو مقاصد نزوله، أو الدعوة إلى تحكيمه، أو انتظامه في سلك ما سبقه من كتبٍ.

والإنجيل نعمةٌ عظيمةٌ أنعم الله تعالى به على عيسى عليه السلام ومن آمن به قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

فالإنجيل نعمةٌ ومنحةٌ جليلةٌ من الله تعالى، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وفي ذكر الإنجيل خاصةً في هذا السياق؛ تنويهٌ بشرفه وتذكيرٌ بعظمته، وبيان كونه حلقةً في سلسلة الكتب التي أنزلها الله على رسله لهداية الإنسانية. نزل الإنجيل هدايةً للحائرين ونورًا للسائرين.

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

فالإنجيل هدى ونورٌ، ومصدقٌ لما بين يديه من التوراة، وموعظةٌ للمتقين، وتكرار وصفه بالهدى، لتقرير هذا المعنى، ولبيان كونه هدايةً عامةً لبني إسرائيل، هداية بيانٍ وإرشادٍ، فوق أنه هدايةٌ خاصةٌ لمن انتفع به من المتقين، كذلك قال أولا: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: اشتمل على الهداية والنور، ثم وصفه ثانيةً، بأنه كله هدى ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم وحدهم هم الذين ينتفعون بهديه ويعتبرون بمواعظه.

قال الرازي: معنى: «أن الإنجيل هدًى أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه، وبراءة الله تعالى عن الصاحبة والولد والمثل والضد، وعلى النبوة وعلى المعاد، فهذا هو المراد بكونه هدًى، وأما كونه نورًا: فالمراد به كونه بيانًا للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكاليف، وأما كونه مصدقًا لما بين يديه: فيمكن حمله على كونه مبشرًا بمبعث محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وبمقدمه، وأما كونه هدًى مرةً أخرى: فلأن اشتماله على البشارة بمجيء محمدٍ صلى الله عليه وسلم سببٌ لاهتداء الناس إلى نبوته»[1].

وقال ابن كثير: «أي: هدًى إلى الحق ونورٌ يستضاء به في إزالة الشبهات، وحل

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٦٩.

المشكلات»[1].

اشتماله على جملةٍ من الأحكام:

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٦-٤٧].

فقد أنزل الله الإنجيل مشتملا على جملة من الأحكام أوجبها على أهل الإنجيل.

تصديقه للتوراة ونسخه لبعض ما جاء فيها:

قال تعالى في قصة عيسى عليه السلام مع قومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠].

فأمر أتباع عيسى بالعمل بالتوراة باستثناء ما نسخ منها، تخفيفا وتيسيرا عليهم، فكم حرم الله على اليهود من طيباتٍ بظلمهم وعنادهم وتعنتهم وقسوة قلوبهم.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦].

قال ابن كثير: «والمشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة»[2].

بشارته بخاتم الرسل وآخر الكتب:

كما جاء الإنجيل مصدقا بالتوراة التي سبقته فقد جاء مبشرا بخاتم النبيين والمرسلين الذي سيأتي بعده.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ۡيَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فبينت الآية كيف جاءت التوراة وكذا الإنجيل بالبشارات الصريحة الجلية الدالة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ووجوب اتباعه. فلقد بشرت التوراة والإنجيل بهذا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٣.

(٢) المصدر السابق.

النبي الأمي، وبينت أوصافه وأحواله ومناقبه صلى الله عليه وسلم، وأنه جاء لهم بالرحمة والتيسير، والخير والصلاح، ودعت إلى الإيمان به واتباعه، ومؤازرته ومناصرته، فذلك هو سبيل الفلاح.

رابعًا: القرآن:

حوى القرآن الكريم لب الكتب المنزلة، وأوعى معانيها، ونزل موائمًا لها، متممًا لمقاصدها، وانفرد بأحكامٍ ومعانٍ زيادةً على ما ورد فيها مع كونه من جنسها؛ لأنه رسالةٌ عامةٌ ودعوةٌ عالميةٌ باقيةٌ إلى يوم الدين، ومن ثم فمن وجوه هيمنته: استيعابه لما سبقه من الكتب بما يغني عنها، في حين أنها لا تغني عنه. وجاء القرآن الكريم ناسخا لما سبقه من كتب انتهى العمل بما تبقى فيها من أحكام بنزول القرآن الذي ليس بعده كتابٌ، وقد اتفق القرآن مع الكتب التي نزلت قبله في الأصول.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ووقع الاختلاف في بعض الفروع، مراعاةً لاختلاف الزمان والمكان، ومراعاةً لعالمية دعوة القرآن وشمولها وقيامها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

كما جاء القرآن ناسخا لما قبله من الكتب؛ فهو الحجة وهو المنهاج الذي يجب على البشرية أن تحتكم إليه، وتقتفي أثره، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وبنزول القرآن انتهى العمل بما سبقه من كتبٍ لأنها باتت منسوخةً، قال تعالى بعد أن تحدث عن شريعة التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

وتكفل الله بحفظه وهيأ الأسباب ويسر السبل المعينة على ذلك؛ فهو رسالة الله الخالدة، ونوره الذي لا ينطفئ، قال ابن الجزري رحمه الله: ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصةٍ من الله تعالى لهذه الأمة، وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه لا في الكتب ولا يقرءونه كله إلا نظرًا لا عن ظهر قلبٍ، ولما خص الله تعالى بحفظه من شاء من أهله أقام له أئمةً ثقاتٍ تجردوا لتصحيحه وبذلوا أنفسهم في إتقانه وتلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم حرفًا حرفًا، لم يهملوا منه حركةً ولا سكونًا ولا إثباتًا ولا

حذفًا، ولا دخل عليهم في شيءٍ منه شكٌّ ولا وهمٌ»[1].

فحفظ الله تعالى كتابه من التحريف والتبديل فسلم من التناقض والاضطراب الذي اعترى التوراة والإنجيل بسبب تحريفهما. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].

وقال ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١ -٤٢].

فالقرآن الكريم لا يتطرق إليه شكٌّ ولا يقع فيه اختلافٌ ولا يتسرب إليه باطلٌ، ولا يضرب بعضه بعضا، ولا يتفاوت في بلاغته، فهو كتابٌ محكمٌ ومحفوظٌ بحفظ الله تعالى له.

ولقد جاء الأسلوب القرآني متميزًا عن الكتب السابقة؛ إذ مع كونه خرج كما خرجت من مشكاةٍ واحدةٍ، ونزل به الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام وكذا على عيسى عليه السلام إلا أنه ينفرد عن تلك الكتب بمزايا تتناسب مع مقاصده؛ فهو الرسالة الخاتمة، والشرعة التامة، والمنهاج الكامل.

فالقرآن آيةٌ بينةٌ وحجةٌ ساطعةٌ ومعجزةٌ خالدة، تحدى الله به الناس كافة، وهو معجزٌ في ألفاظه ومعانيه، وأساليبه وتراكيبه، معجزٌ في كل ما جاء فيه من حقائق بيناتٍ، معجزٌ في أوصافه وأخباره، معجزٌ في بشاراته ونبؤاته، معجزٌ في قصصه وأمثاله، معجزٌ في روعته وجلاله، معجزٌ في تأثيره العجيب ونظمه الفريد، معجزٌ في تشريعاته الحكيمة، معجزٌ في واقعيته ومثاليته، معجزٌ في أصالته وثباته، مع مواكبته لكل جيلٍ وقبيلٍ، وتناسبه لكل عصرٍ ومصرٍ، معجزٌ في شتى جوانبه، فهو المعجزة الكبرى والآية المتجددة، والرسالة الخالدة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[2].

تحدى الله به الإنس والجن، أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، فما استطاعوا لذلك سبيلا:

(١) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، رقم ٤٦٩٦، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، ١/ ٩٢، رقم ١٥٢.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

وقال جل وعلا: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

فتحدى الله به الإنس والجان، على أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، أو بحديث مثله فما استطاعوا لذلك سبيلا، مع أن منهم من حاول ذلك فخاب سعيه، وأدرك عجزه عن مجابهة هذا التحدي، وما أكثر ما في القرآن من تحديات.

خامسًا: صحف إبراهيم وموسى:

ورد الحديث عن الصحف التي أنزلها الله تعالى على إبراهيم وموسى عليهما السلام في سورة النجم.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: ٣٦ - ٥٦].

وفي سورة الأعلى: قال سبحانه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩].

كذلك جاءت إشارةٌ إلى الصحف الأولى بعمومها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: ١٣٣].

عن مجاهد: قوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾، قال: التوراة والإنجيل[1].

وعن قتادة، قوله: ﴿مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ الكتب التي خلت من الأمم[2].

وخص صحف إبراهيم لأنه أبو الأنبياء

(١) انظر: تفسير مجاهد ص ٤٦٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٠٦.

عليهم السلام، والعرب في الجاهلية كانوا يقرون بفضله ومكانته، وكذلك أهل الكتاب يقرون بنبوته وإمامته وأبوته للمؤمنين، فالكل يدعي اتباع أثره. كذلك لتقدمها وقدمها؛ وللمقدم أهميته وللعتيق مزيته، وخص صحف موسى لأنه من أولي العزم من الرسل، ولأن المشركين يعرفونه، وأهل الكتاب يدعون اتباعه والعمل بما جاء به، وصحف موسى هي: التوراة، وهي من الصحف الأولى باعتبار تقدمها على ما بعدها من الكتب، فقد نزل بعدها الزبور والإنجيل والقرآن.

وقال الثعلبي: بينة ما في الصحف الكتب الأولى: أي بيان ما فيها يعني القرآن أقوى دلالة وأوضح آية. وقال بعض أهل المعاني: يعني ألم يأتهم بيان ما في الكتب الأولى التوراة والإنجيل وغيرهما من أنباء الأمم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات، فأتتهم فكفروا بها، كيف عجلنا لهم العذاب والهلاك بكفرهم بها[1].

والآيات تكشف لنا عن بعض ما ورد في تلك الصحف: ففي سورة النجم: بيانٌ للعدل الذي قامت عليه السموات والأرض، أنه لا يتحمل أحدٌ وزر أحدٍ، وكل إنسانٍ مؤاخذٌ بسعيه، لا يتحمل وزر غيره، ولا ينال حق غيره، وسوف يرى ما قدم من خيرٍ أو شرٍ، وسيعرض عمله، ويجازى عليه جزاءً عادلا، وأن مصير الإنسان ومنتهاه لربه، وهو تعالى المدبر لهذا الكون، فلا فرح ولا حزن، ولا موت ولا حياة، إلا بأمره تعالى ومشيئته، فهو الخالق المدبر، وهو المبدئ المعيد، المغني المقني، المنظم لأمر الكون، المنتقم من الجبابرة الطغاة، والكفرة العتاة. أما آيات سورة الأعلى ففيها دعوةٌ لتزكية الأنفس، ومداومة الذكر، وإقام الصلاة، ونهيٌ عن إيثار الحياة الدنيا والاغترار بزخارفها الفانية، وترغيبٌ في الآخرة فهي خيرٌ وأبقى. فالآيات تتحدث عن الأصول العامة والقواعد الكلية: الخالق، الكون، الحياة، الإنسان، المنهج، المبدأ، المعاش، الزاد، المعاد. من هنا ندرك أن رسالات الله وكتبه نزلت لهداية الإنسان وإصلاحه، وتوجيهه للخير في عاجله وآجله.

ونخلص من ذلك إلى أن محور هذه الكتب المنزلة: هو الإنسان، هدايته وإصلاحه ورسالته وعلاقته بهذا الكون، والتصور الصحيح لحقيقة الدنيا والآخرة، كما جاءت الكتب الإلهية لإقامة موازين العدل في ربوع الكون، وبيان خطر المسئولية والجزاء. وقد وصفها الله تعالى بأنها من الصحف الأولى، والنذر الأولى: وهذا يعني كونها مكتوبةً، وأنها جاءت بالأخبار والمواعظ، أما وصفها بالأولى

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٦٧.

فإنه يفصح عن قيمتها ويبين عن أسبقيتها وقدمها؛ فللسابق مزيته، والشيء العتيق له قدره ونفاسته. و اختلف المفسرون في مرجع الإشارة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨].

فمنهم من قال: الإشارة لكل ما ورد في السورة من معانٍ وحكمٍ وأحكامٍ ونذر، ومنهم من قال: الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٧].

وأرى أن القول الأخير هو الأولى بالقبول لأنه هو القريب، والأصل في الإشارة أن تكون للقريب.

وقدمت صحف موسى مرة، وقدمت صحف إبراهيم أخرى: لمراعاة الأسبقية في الأفضلية، والأسبقية الزمانية، فإن للتوراة مكانتها العظيمة، وقد ورد الحديث عنها كثيرا في القرآن، هذا فضلا عما في التقديم والتأخير من تفننٍ في البيان، واستيعابٍ للمعاني، مع مراعاة الفاصلة في كلا الموضعين. وفي سورة الأعلى: لما أشار إلى الصحف جملةً، وأنها الأولى: ناسب ذلك ترتيبها حسب زمانها، فبدأ بصحف إبراهيم، وثنى بصحف موسى.

أما في سورة النجم: فلقد بدأ بصحف موسى لأنها أشمل وأوسع وأقرب عهدا، ولا زالت منها بقيةٌ باقيةٌ في أيدي أهل الكتاب، بينما اندرست صحف إبراهيم، فاستحقت صحف موسى التقديم.

قال الزركشي: «قدم ذكر صحف موسى لوجهين، أحدهما: أنه في سياق الاحتجاج عليهم بالترك، وكانت صحف موسى منتشرةً أكثر انتشارا من صحف إبراهيم، وثانيهما: مراعاة رؤوس الآي»[1].

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٢٣٩.

الكتب المنزلة والموقف منها

بين القرآن الكريم ما يتوجب على الأمم نحو الكتب التي أنزلها على أنبيائهم، وهو الإيمان بها وتصديقها والعمل بما جاء فيها والتماس الهدايات منها، وواجبنا نحن أمة الإسلام أن نؤمن بالكتب السابقة كما حدثنا عنها ربنا، ونعظمها ونقدسها فضلا عن إيماننا بالقرآن الكريم آخر الكتب وأعظمها.

أولًا: الإيمان بها جميعًا:

دعا الله تعالى في كتابه الكريم إلى الإيمان بما سبقه من كتبٍ أنزلها على أنبيائه إجمالًا فيما أجمل، وتفصيلًا فيما فصل.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء: ١٣٦].

والكتاب الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم هو القرآن الكريم خاتم الكتب، نزل على خاتم النبيين، والكتاب الذي أنزل من قبل: المراد به التوراة باعتبارها آخر ما نزل قبل القرآن، وإنما لم يذكر الإنجيل؛ لأن التوراة هي الأصل، والإنجيل جاء متمما لها، أو المراد بالكتاب ما سبق من كتب، وإنما أفردها مع كثرتها باعتبار أنها كتابٌ واحدٌ، خرجت جميعها من مشكاةٍ واحدةٍ، ونزلت كلها لغاية واحدة هي توحيد الله تعالى وعبادته، وإقامة موازين القسط.

وقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

فأمر الله بالإيمان الكامل والتصديق التام بكل ما أنزل على أنبيائه، دون تفريقٍ بين نبيٍ ونبيٍ، وأن نعلن التسليم المطلق له تعالى.

والإيمان بكل ما أنزل من صفات المتقين كما جاء في مطلع سورة البقرة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة: ٤].

وفي ختام السورة دعوةٌ للإيمان بسائر الكتب.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ [الشورى: ١٥].

فالإيمان بسائر الكتب المنزلة واجبٌ على كل مؤمن لا يستقيم إيمانه ولا يتم إلا به. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ [السجدة: ٢٣].

أي: فلا تكن في مرية من نزول التوراة عليه وتلقيه لها، أو من لقائه يوم القيامة حيث يجمع الله الرسل عليهم السلام، فما أجمله من لقاء[(١)].

ومعنى الإيمان بالكتب: الإيمان بها على إطلاقها وأنها منزلةٌ من عند الله على أنبيائه ورسله، والإيمان بما ورد فيها من هدى ونور، وموعظة وذكرى، وتفصيل وبيانٍ، وفي حديث جبريل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (فأخبرني عن الإيمان. قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره). قال صدقت)[(٢)].

فالمؤمن مطالبٌ بأن يعلن عن موقفه من الكتب المنزلة، ويبين عن إيمانه بها، وهذه هي دعوة الإسلام، فالإيمان بالكتب المنزلة من الأركان الثابتة، والمبادئ الراسخة التي فرضها الإسلام، فكل كتابٍ أنزله الله تعالى، أخبرنا عنه القرآن، أو لم يرد خبره فنحن مكلفون بالإيمان بالكتب جملةً، ولا يتم إيمان العبد ولا يستقيم منهجه حتى يؤمن بالكتب المنزلة كلها، هذا هو منهج الإسلام الواضح، ودعوته الصادقة وطريقه المستقيم.

وقد بينت الآية الكريمة مع سياقها أن الإيمان بالكتب السابقة ركنٌ من أركان الإيمان، وأن الواجب على الأمة أن تعلن ذلك، وأن تقف ذلك الموقف في مقابل إنكار وتشكيك أعداء القرآن، وأن تعلن إيمانها بجميع الكتب المنزلة ولا يضرها كفر الكافرين، ولا يجوز مقابلة جحود أهل الكتاب للقرآن بجحود التوراة والإنجيل، بل الإيمان بالكتب المنزلة كلها ركنٌ من أركان الإيمان لا يتم بدونه، وهو إيمانٌ ثابتٌ لا يتبدل.

والتعبير بـ (من) الدالة على الاستغراق وتنكير الكتاب؛ لبيان وجوب الإيمان بكل كتاب أنزله تعالى، جملةً فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل. قال أبو السعود رحمه الله: «بيانٌ لاتفاق الكتب في الأصول، وتأليفٌ لقلوب أهل الكتابين، وتعريضٌ بهم»[(٣)]. فقد كفروا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وكان لا يسعهم إلا الإيمان به.

قال الشيخ الحكمي في معارج القبول: «والركن الثالث: الإيمان «بكتبه المنزلة»

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، ١/ ٣٦، رقم ٨.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٧.

على رسله، ومعنى الإيمان بالكتب التصديق الجازم بأن كلها منزلٌ من عند الله عز وجل على رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين، وأنها كلام الله عز وجل لا كلام غيره، وأن الله تعالى تكلم بها حقيقةً كما شاء وعلى الوجه الذي أراد»[1].

فالإيمان بالكتب السابقة ركن من أركان الإيمان ثابتٌ لا يتبدل ولا يتغير، يجب الإيمان بها إجمالا فيما أجمل، وتفصيلا فيما فصل، ومن مقتضيات تمام الإيمان بها معرفة مقاصدها وأسمائها وأوصافها.

ثانيًا: تصديق الكتاب المتأخر لما نزل قبله:

كتب الله تعالى يصدق بعضها بعضا، فكل رسالة تأتي مصدقة لما قبلها، فالكتب الإلهية يصدق بعضها بعضا. «ومعنى التصديق كونه موافقًا في التوحيد والنبوات وأصول الشرائع»[2].

وقد جاء الإنجيل مصدقًا لما بين يديه من التوراة.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦-٤٧].

(١) معارج القبول ٢/ ٦٧٢ باختصار.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٤٢.

قال ابن كثير: «ومصدقًا لما بين يديه من التوراة، أي متبعًا لها غير مخالفٍ لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون»[3].

كما جاء القرآن الكريم مصدقا للتوراة والإنجيل وما سبقهما.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ٤٨].

كذلك كل نبيٍ أخذ الله عليه العهد والميثاق أن يؤمن بكل من يليه من الأنبياء إن عاصره.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال الطبري: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين بما ذكر، فقال لهم تعالى ذكره: أأقررتم بالميثاق الذي واثقتموني عليه: من أنكم مهما أتاكم رسولٌ من عندي مصدق لما معكم «لتؤمنن به ولتنصرنه» «وأخذتم على ذلك إصري»؟ يقول: وأخذتم على ما واثقتموني عليه من الإيمان بالرسل التي تأتيكم بتصديق ما معكم من عندي والقيام

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٢٦.

بنصرتهم «إصري». يعني عهدي ووصيتي، وقبلتم في ذلك مني ورضيتموه.». «قالوا أقررنا»، فإنه يعني به: قال النبيون الذين أخذ الله ميثاقهم بما ذكر في هذه الآية: أقررنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدقين لما معنا من كتبك، وبنصرتهم. قال الله: ﴿فَٱشْهَدُوا﴾، أيها النبيون، بما أخذت به ميثاقكم من الإيمان بتصديق رسلي التي تأتيكم بتصديق ما معكم من الكتاب والحكمة، ونصرتهم على أنفسكم وعلى أتباعكم من الأمم إذ أنتم أخذتم ميثاقهم على ذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم بذلك[1].

ثالثًا: وجوب تحاكم النبي وأمته إلى الكتاب المنزل:

ما أرسل الله نبيا إلا وجعل له شريعة يدعو إليها ويأمر بها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فما من رسول أرسله الله تعالى إلا وأرسله بالحجج النيرة والدلائل الواضحة والشريعة الغراء التي تقيم موازين العدالة بين الناس وترعى جميع الحقوق المشروعة.

قال أبو حيان: «ليقوم الناس بالقسط: الظاهر أنه علةٌ لإنزال الميزان فقط، ويجوز أن يكون علةً لإنزال الكتاب والميزان معًا، لأن القسط هو العدل في جميع الأشياء من سائر التكاليف، فإنه لا جور في شيءٍ منها»[2].

وقال الشوكاني: «ومعنى ليقوم الناس بالقسط ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة»[3].

وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فكان لا بد من شريعة يحتكم الناس إليها، شريعةٌ لها قدسيتها وجلالها في النفوس، شريعة يجتمع حولها الناس ويرتضونها ولا سبيل لذلك إلا بالمنهج الرباني الذي يسع الجميع ويلزم الجميع ويذعن له الجميع، إذ القوانين البشرية لا قداسة لها ولا كرامة في النفوس، فضلا عن قصورها عن تحقيق العدالة والتوزان بين الحقوق.

فدعا الله تعالى كل أمة من الأمم للاحتكام بالكتاب الذي نزل على نبيهم أو لشريعة من سبقه من الأنبياء.

قال تعالى عن تحكيم التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا

(١) جامع البيان ٦/ ٥٦١.

(٢) البحر المحيط ١٠/ ١١٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢١٢.

﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

فالتوراة وحيٌ من الله تعالى وتنزيلٌ من لدنه، نزلت بالهدى والنور، هدى للناس ونور يضيء لهم دروب حياتهم وطريقهم إلى مرضاة ربهم، وسعادتهم الأبدية، وهي شجرةٌ ظليلةٌ مثمرةٌ استظل بها النبيون الذين انقادوا لأوامر الله ورضوا بحكمه، فهي شرعتهم ومنهاجهم. واقتطف منها واحتكم إليها أولئك الربانيون، الذين جمعوا بين تحصيل العلم النافع، والعمل الصالح، وبذلوا جهدهم في تعليم الناس وتربيتهم، فغايتهم وبغيتهم ربانيةٌ. والتوراة معينهم الذي منه ينهلون، ومورده الذي عنه يصدرون. والأحبار هم العلماء الذين بلغوا في العلم رتبةً عاليةً، فهم جميعًا أمناء على كتاب الله، شهداء عليه، حراسٌ له، فهلا تأسى بهم من خلفهم من اليهود، وهل يسيرون على نهجهم؟

فلا يخافون في الحق لومة لائمٍ، ولا يبيعون دينهم بعرضٍ زائلٍ، فيفرطون في آيات الله ويضيعونها لقاء ثمنٍ زهيدٍ ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

فقد وصفها الله بأنها جامعةٌ لأصول الإيمان والمواعظ والأحكام، وأمر بالجد والعزم في أخذها[(١)].

قال ابن العربي: «والصحيح عندي أن أحسن ما فيها: امتثال الأوامر واجتناب النواهي»[(٢)].

وقال الشوكاني: «ومن الأحسن: الصبر على الغير والعفو عنه، والعمل بالعزيمة دون الرخصة، وبالفريضة دون النافلة، وفعل المأمور به، وترك المنهي عنه»[(٣)].

فالمراد علو الهمة في الاستمساك بها، والمسارعة إلى العمل بأحكامها، وأخذها بعزيمةٍ وقوةٍ، كما قال تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

وقد أمر الله يحيى عليه السلام وهو لا يزال في صباه أن يأخذ بها.

قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ١٦٤.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٩.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٩٠.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢].

وبين الله تعالى شيئا مما تضمنته التوراة، في جانب الأحكام الشرعية العادلة التي نزلت لحماية الإنسان وحفظ دينه، وروحه، وعقله، وبدنه، وماله، وعرضه. قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢].

أي: لجرم وشناعة قتل النفس البريئة والاعتداء على حقها في الوجود، أوجب الله على تعالى على بني إسرائيل في كتبه وعلى لسان رسله وألزمهم، أن من قتل من لا يستحق القتل لأنه لم يقتل أو يفسد في الأرض، فكأنما بجرمه هذا قتل الناس جميعا، ومن ساهم في إنقاذ نفسٍ فكأنما أحيا الإنسانية جميعا، ولقد أرسل الله رسله في بني إسرائيل بالحجج الباهرة والشرائع القويمة، لكن الكثير منهم بقي على فسقه وإسرافه في الأرض بإهدار الدماء وهتك الأعراض واستحلال الأموال.

وكتب الله تعالى نزلت لتحكم وتسود حياة الناس وتقضي بينهم، فهي العدل الذي فرضه الله، وفي تعطيلها الظلم الشنيع، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٤-٤٥].

وقد شدد الله عليهم في الأمر بتحكيمها بعد أن وقع منهم التساهل والتفريط وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَٰقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

فأمرهم الله تعالى بأن يأخذوا أحكام التوراة بجدٍ وعزمٍ وأن يتركوا ما كانوا عليه من تقاعسٍ وتهاونٍ، فكتب الله تعالى لن يقوى على العمل بها أصحاب النفوس الضعيفة والهمم المتدنية، وهذه الآية العظيمة داعيةٌ إلى تعظيم التوراة والقيام بحقها، ودليلٌ على قساوة قلوب اليهود حتى يؤاخذوا بهذه الطريقة.

قال مجاهد: وسبب رفع الجبل عليهم أنهم أبوا أن يقبلوا فرائض التوراة لما فيها من المشقة، فوعظهم موسى فلم يقبلوا، فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم: إن أخذتموه بجد واجتهاد وإلا ألقي عليكم. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: فأخذوه بقوة ثم

نكثوا بعد[1].

ونعى القرآن عليهم كيف يدعون إلى الاحتكام لشريعة الحق ثم يعرضون عنها.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣].

فكان الإعراض عن القرآن نتيجةً لإعراضهم عن كتبهم التي يزعمون أنهم مؤمنون بها متمسكون بما فيها، وكان الحري بهم وقد أوتوا حظًا من العلم بكلام الله إذا دعوا إلى القرآن الذي خرج من المشكاة التي خرج منها التوراة والإنجيل أن يبادروا إلى الاستجابة له، وقبول أحكامه. وجاء الاستفهام ليحمل معنى التعجيب والإنكار، والتعبير ب «ثم» فيه معنى الاستبعاد، كيف يدعون إلى الحق فيعرضون عنه؟

وهذا التولي مصاحبٌ لموقفهم الثابت من هذا الكتاب وهو الإعراض التام الذي لا مبرر له سوى التمرد والجحود، والمفاهيم الخاطئة عن الآخرة.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤].

ذلك التولي والإعراض بسبب زعمهم أنهم إن دخلوا النار فلن يمضوا فيها سوى أيام معدودات، فكانت تلك الفرية وغيرها من الفرى التي أقحموها في دينهم ودسوها في عقيدتهم من دواعي غرورهم وظنهم السيئ بربهم.

وحين بعث عيسى عليه السلام دعا الله تعالى أهل الكتاب إلى الاحتكام إلى الإنجيل مع التوراة التي نسخ بعض أحكامها.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٦ - ٤٧].

قال الشوكاني: «قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾: هذا أمرٌ لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل الله فيه، وذلك قبل البعثة المحمدية، وأما بعدها فقد أمروا في غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة»[2].

وقوله ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾: حجةٌ على النصارى الذين يعرضون عن القرآن؛ فإذا

(١) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٧٦.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣١٧.
يعني بقوله: «فإنه قبل البعثة المحمدية حقٌ» أن العمل به قائم وإن حرف قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، لكن بقي منه بقايا من الحق.

كان تحكيمهم للإنجيل لأنه مما أنزل الله؛ فالقرآن كذلك مما أنزل الله ! فلماذا يتنكرون له ويعادونه !

وقوله: ﴿أَهْلَ الْإِنجِيلِ﴾ دليلٌ على أنه مؤقتٌ بمرحلةٍ معينةٍ، وموجهٌ لطائفةٍ محددةٍ، هم بنو إسرائيل خاصةً، ومن هنا فإنه لم يؤمن بالتوراة من لم يؤمن بالإنجيل، ولم يؤمن بموسى من لم يؤمن بعيسى عليهما السلام.

قرأ حمزة: (وَلِيَحْكُمَ) بكسر اللام، وفتح الميم، والمعنى: آتيناه الإنجيل ليحكم، فالإنجيل مع ما لم ينسخ من التوراة شرعةٌ ومنهاجٌ للنصارى، وقرأ الباقون بسكون اللام والميم على سبيل الأمر: (وَلْيَحْكُمْ)[1].

وفيه وجهان:

الأول: أن يكون التقدير: وقلنا ليحكم أهل الإنجيل، فيكون هذا إخبارًا عما فرض عليهم في ذلك الوقت من الحكم بما تضمنه الإنجيل، ثم حذف القول لأن ما قبله من قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٥ - ٤٦].

يدل عليه، وحذف القول كثيرٌ كقوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣].

أي: يقولون سلامٌ عليكم.

والثاني: أن يكون قوله: (وليحكم) ابتداء أمرٍ للنصارى بالحكم في الإنجيل.

والمقصود: أن يحكموا بما أنزل الله فيه مما لا يزال باقيا لم يحرف، ومعيار ذلك موافقته للحق الذي جاء به القرآن. وقد لفت نظري تكرار كلمة الإنجيل كأنها تشير إلى أكثر من إنجيل، فالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام هو الإنجيل الحق.

وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

بينما أشارت الآية الثانية إلى الإنجيل الموجود في أيدي النصارى، وهذا يجب أن يطبق منه ما دلت القرائن على أنه من بقايا

(١) قرأ حمزة بكسر اللام، ونصب الميم، وقرأ الباقون بإسكان اللام والميم.
انظر: النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٥٤، تحبير التيسير في القراءات العشر ١/ ٣٤٧.

الإنجيل الحق الذي أنزله الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ ولم يقل مثلا: وليحكم أهل الإنجيل به، فدل هذا على اشتمال الإنجيل على قدرٍ مرجعه للوحي والباقي من وضع البشر.

قال ابن حزم: «وأما قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ فحقٌّ على ظاهره لأن الله تعالى أنزل فيه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واتباع دينه، ولا يكونون أبدا حاكمين بما أنزل الله تعالى فيه إلا باتباعهم دين محمدٍ صلى الله عليه وسلم فإنما أمرهم الله تعالى بالحكم بما أنزل في الإنجيل الذي ينتمون إليه فهم أهله، ولم يأمرهم قط تعالى بما يسمى إنجيلا وليس بإنجيلٍ، ولا أنزله الله تعالى كما هو قط، والآية موافقة لقولنا، وليس فيها أن الإنجيل لم يبدل لا بنصٍ ولا بدليلٍ، إنما فيها إلزام النصارى الذين يتسمون بأهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه، وهم على خلاف ذلك»[1].

وعلى هذا فالآية حجةٌ على النصارى، وفيها تعجيزٌ لهم، فلا برهان لهم، ولا دليل، إلا في القرآن الذي حدثنا عن مضمون ومقصود الإنجيل الحقيقي، أو ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ ما لم ينسخ بالقرآن فيبطل العمل به، ومما ريب فيه أن الحكم بما في الإنجيل يقود ويفضي إلى الحكم بالقرآن لأن حقائق الإنجيل تقرر ما في القرآن.

أما القرآن الكريم فقد جاء بالشريعة الغراء الكاملة التي فرض الله عزوجل الإيمان بها والعمل بأحكامها.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة ٤٨ - ٥٠].

فأنزل الله آخر كتبه على خاتم رسله صلى الله عليه وسلم؛ امتدادا لما سبقه من الكتب وتصديقا بها؛ فنزوله دليلٌ على صدقها، وهو مهيمنٌ عليها: أمينٌ ورقيبٌ، وحكمٌ وشاهدٌ، ومبينٌ لما خفي منها، وموضحٌ لما أشكل فيها، وحافظٌ يقوم ما اعتراها من اعوجاجٍ، وينفي ما لابسها من أباطيل وخرافاتٍ،

(١) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم ١/ ١٥٩.

مستوعبٌ لما جاء في أصولها، ومتممٌ لها، هو المرجع الذي يحتكم إليه عند التنازع في شأنها، وأمر تعالى بتحكيم كتابه والعمل به، وتعظيمه، ونهى عن اتباع ما عليه أهل الضلال من أهواء، وقد جعل الله لكل أمةٍ شرعة تحتكم إليها ومنهاجا تسير عليه بما يحقق مصالحها ويلبي حوائجها، ولو شاء الله لجمع البشرية على منهجٍ واحدٍ وشرعةٍ واحدة.

ولكن اختلاف الناس وتباين مشاربهم وتوجهاتهم سنة الله ومشيئته ثم يأمر الله تعالى بتحكيم شرعه ففيه الخير والصلاح والرحمة بالإنسانية، وفيه البركة والسعد لكل من أذعن له ورضي به، وينهى عن اتباع ما عليه أهل الضلال من أهواءٍ يحتكمون إليها مع ما فيها من تعسفٍ وظلمٍ، ويحذر من كيد أعداء الدين وتحايلهم لصرف أهل الإسلام عن شريعتهم ومنهاجهم، والتلبيس عليهم وتعطيل الأحكام؛ لنشر الظلم وإشاعة الفوضى في المجتمعات.

وإذا كان الاستجابة لبعض دعواتهم والانقياد لهم والسقوط في شراكهم بتعطيل بعض ما أنزل الله فتنةٌ يجب الحذر منها، فإن أعرضوا وانصرفوا عن شرعة الله ومنهاجه الذي ارتضاه لعباده وجعل فيه صلاحهم، فاعلم أن الله تعالى يريد عقوبتهم وحرمانهم، وقد جبلت نفوس كثيرةٌ على الصدود والإعراض والانفلات عن شريعة الله تعالى والتحايل عليها والخروج عنها، ثم أنكر الله على من هجر شريعته ورضي بأهواء وأحكام الجاهلية مع ما تحمله من جهل وسفهٍ وتناقض وتخبط وظلم وقسوة، وحميةٍ ورجعيةٍ، مع ذلك تجد من ينادي بها ويطالب بتطبيقها.

وأنكر تعالى على من يعتقد خلاف ذلك، ويقرر تعالى أن حكمه تعالى هو المقدم، فلا يضاهيه ولا يضارعه حكمٌ، ولا يمتثل لشريعة الله إلا أهل اليقين، الذين وقر الإيمان في قلوبهم ونور بصائرهم وهيئ نفوسهم لقبول شرع الله والرضا بحكم الله.

رابعًا: اشتمال الكتب المنزلة جميعًا على وجوب الإيمان بخاتم النبيين:

ما بعث الله من نبي ولا أنزل من كتاب إلا وبشر فيه بخاتم النبيين، وجلى أوصافه للمؤمنين، فبشر به كل كتاب وأخبر عنه كل نبي، وقد أخذ الله الميثاق على جميع أنبيائه بالإيمان بهذا النبي ومؤازرته إن أظلهم زمانه، ودعوة أتباعهم إلى ذلك.

قال جل وعلا: ﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ

﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

فلقد جاءت أوصاف نبينا صلى الله عليه وسلم مكتوبةً في التوراة والإنجيل وعلى إثرها وفي ضوئها آمن من آمن من علماء أهل الكتاب، وكان اليهود والنصارى يترقبون مجيء هذا النبي الأمي الذي يبعث بالرحمة ويرفع الله به الحرج ويضع عنهم الآصار التي أرهقتهم، ويحط الأغلال التي أثقلتهم، وكانوا يتواصون ويتعاهدون على نصرته ومؤازرته، فلما بعث آمن منهم من تجرد للحق وأخلص له، وأعرض من خاب وخسر.

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

فلم يقتصر الحديث في التوراة والإنجيل على أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم، بل ورد الحديث كذلك عن أوصاف أصحابه ومناقبهم، كما أشارت الآية الكريمة، أن الله تعالى ضرب لنبيه صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أروع الأمثلة في التوراة والإنجيل، حيث بدأت دعوة الإسلام غريبةً، ولم تلبث أن قوي عودها وانتشر عبيرها وأورقت شجرتها وأينعت ثمارها. ولا تزال الكتب السابقة تحفل بالبشارات التي بقيت شاهدة وهادية لطريق إمام المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

فلقد جاء عيسى عليه السلام مصدقا بالتوراة ومبشرًا بخاتم الأنبياء.

القرآن الكريم والكتب المنزلة قبله

تحدث القرآن الكريم عن موقفه من الكتب المنزلة فقد جاء مصدقا لها داعيا للإيمان بها، مهيمنا عليها، حافظا وأمينا ومستوعبا لها، موثقا لها حيث انقطعت أسانيدها واندثرت أصولها وتعرضت للتحريف، فجاء القرآن بالحق فيها.

أولًا: القرآن مصدق لما بين يديه من الكتب:

جاء القرآن الكريم مصدقا لتلك الكتب، فبين أنها نزلت بالحق من عند الله تعالى، وأنها بشرت بالنبي العربي الأمي، وقد ورد الحديث عن تصديق القرآن الكريم بالكتب السابقة في أكثر من عشرة مواضع، تقرر تلك الحقيقة وتذكر بها، فقد جاء القرآن مصدقًا للكتب المنزلة قبله، مصدقًا بنزولها، وبما بقي في تلك الكتب التي بين أيديهم من حقائق لم تتبدل، فلا زالت بشاراتٌ كثيرةٌ باقيةٌ في كتبهم، شاهدةٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته.

ولقد جاء الحديث عن تصديق القرآن بالكتب السابقة في سياق بيان مقاصد القرآن ووجوب اتباعه، ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان به، والاحتجاج عليهم والرد على أقوالهم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

وتصديقه لها لأنها أخبرت بمجيئه، ووقوع المخبر به يدل على صدق من أخبر، ويدل كذلك على صدق القرآن، لأنه لو كان من عند غير الله لم يوافقها. عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾، فهو القرآن شاهدٌ على التوراة والإنجيل مصدقًا بهما»، وروي عن قتادة، قال: «الكتب التي خلت قبله»[(١)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرت به، وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها لأنه طابق ما أخبرت به، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن العظيم عليه.»[(٢)].

فالقرآن جاء مصدقا للتوراة والإنجيل، وسائر الكتب المنزلة من عند الله تعالى، ومصدقا بنزولها من عند الله تعالى ومصدقا لمقاصد تلك الكتب ومضمونها، ومصدقا على وجه الخصوص بما حدثت عنه.

وقال الرازي: «والمعنى أنه مصدقٌ لكتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٤/ ٤٩٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦.

أخبروا به عن الله عز وجل، ثم في الآية وجهان: الأول: أنه تعالى دل بذلك على صحة القرآن، لأنه لو كان من عند غير الله لم يكن موافقًا لسائر الكتب، لأنه كان أميًا لم يختلط بأحدٍ من العلماء، ولا تتلمذ لأحدٍ، ولا قرأ على أحدٍ شيئًا، والمفتري إذا كان هكذا امتنع أن يسلم عن الكذب والتحريف، فلما لم يكن كذلك ثبت أنه إنما عرف هذه القصص بوحي الله تعالى. الثاني: قال أبو مسلم: المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبيًا قط إلا بالدعاء إلى توحيده، والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به، والأمر بالعدل والإحسان، وبالشرائع التي هي صلاح كل زمانٍ، فالقرآن مصدقٌ لتلك الكتب في كل ذلك»[1].

فتصديق القرآن بما سبقه من كتبٍ دليلٌ على صدقه وصدقها، وبيان انتظامه في سلكها، وخروجه من المشكاة التي خرجت منها؛ وكتب الله تعالى يصدق بعضها بعضا. قال ابن القيم في هداية الحيارى: «لو لم يظهر محمدٌ بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديقٌ لنبواتهم، وشهادةٌ لها بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه، فمجيئه هو نفس صدق خبرهم، فكان مجيئه تصديقًا لهم؛ إذ هو تأويل ما أخبروا به، ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر: إن تصديقه المرسلين شهادته بصدقهم، وإيمانه بهم، فإنه صدقهم بقوله ومجيئه، فشهد بصدقهم بنفس مجيئه، وشهد بصدقهم بقوله، ومثل هذا قول المسيح: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف: ٦].

فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصديقًا لها، ثم بشر برسولٍ يأتي من بعده، فكان ظهور الرسول المبشر به تصديقًا له، كما كان ظهوره تصديقًا للتوراة، فعادة الله في رسله أن السابق يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق، فلو لم يظهر محمدٌ بن عبد الله ولم يبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله، والله سبحانه لا يخلف وعده، ولا يكذب خبره»[2].

ودعا الله تعالى أهل الكتاب للإيمان بالقرآن الذي جاء مصدقا لما معهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا

(١) المصدر السابق ١/ ٥٢٢.

(٢) هداية الحيارى، ابن القيم ٣/ ٢٩٧.

﴿٤٧﴾ [النساء: ٤٧].

ومعنى كونه مصدقا لما معهم: أي بما في كتبهم من بشارات واضحة تدل على بعثته وتقرر نبوته صلى الله عليه وسلم.

قال ابن جرير: «ويعني بقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾: أن القرآن مصدقٌ لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة، فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم جل ثناؤه أن في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة؛ لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم وتصديقه واتباعه نظير الذي من ذلك في الإنجيل والتوراة، ففي تصديقهم بما أنزل على محمدٍ تصديقٌ منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيبٌ منهم لما معهم من التوراة»[1].

وقال ابن كثير رحمه الله: «فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات»[2].

وقال جل وعلا داعيا بني إسرائيل للإيمان بخاتم النبيين الذي جاء مصدقا بما معهم: ﴿وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤١].

وهذه الآية دعوةٌ للإيمان بالقرآن العظيم وبنبوة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم التي دلت عليها كتبهم فهي تصديقٌ لما جاء في كتبهم من بشاراتٍ، بدليل إسلام عديدٍ من الأحبار والرهبان وغيرهم، حينما طابقوا ما جاء في كتبهم بما شاهدوه وعاينوه من أوصاف وأحوال نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام[3]، وغيره.

احتج عليهم ونعى كيف لم يؤمنوا بهذا الكتاب مع مجيئه مصدقا لما معهم!

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

فبين تعالى حال كثيرٍ من اليهود الذين جحدوا وكابروا، مع ظهور الحجج وجلاء البراهين، على صدق نبوة إمام المرسلين، فيما جاء به من عند رب العالمين، فسارعوا إلى الكفر، ومع طول انتظارهم لداعي الحق وترقبهم لمبعثه. ومع مجيء القرآن مصدقًا لما بين أيديهم من البشارات والأخبار وتأكد كثيرٍ منهم من أوصاف هذا النبي الذي ينتظرونه، مع ذلك كله فقد كفروا به بغيًا وحسدًا وكبرًا وعنادًا، وطمعًا في أعراض دنيا فانية.

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٥٩٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٩٧.
(٣) عبد الله بن سلام: قصة إسلامه الرائعة المشهورة في صحيح البخاري، كتاب مناقب الصحابة، باب مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه، رقم ٣٦٠١.

قال ابن عباس: كان يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا هزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء، وقالت: اللهم إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به، فأنزل الله ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[1].

كما نعى القرآن عليهم عداوتهم لأمين الوحي جبريل عليه السلام مع كون ما نزل به مصدقا لما معهم، قال جل وعلا: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة: ٩٧].

فتصديق الكتب السابقة من مقاصد نزول القرآن الكريم، ومن صفاته اللازمة، فكيف يعادون جبريل عليه السلام وهو أمين الوحي، نزل بالكتاب الذي جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب!

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: (سمع عبد الله بن سلامٍ، بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في أرضٍ يخترف، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبيٌّ: فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: (أخبرني بهن جبريل آنفًا) قال: جبريل؟: قال: (نعم)، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2].

وجاء القصص القرآني مصدقا بقصص التوراة والإنجيل وشاهدا على أنبياء الله قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

أي: تصديقًا لما جاء في الكتب السابقة حيث تتفق القصص في مسارها العام، وإن اختلفت في تفاصيلها، فالقرآن الكريم هو القصص الحق لأنه من عند الله تعالى، وقد حفظ من التبديل، بينما الكتب السابقة وقع عليها التحريف والتبديل، وإن احتفظت بحقائق وأخبار صادقة، فجاء القصص القرآني مصدقا برسالات الله، داعيا للتأسي بالأنبياء والإيمان بما أنزل عليهم، كما جاء

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي ٣/ ١٠.
وأخرجه ابن إسحاق في سيرته ٢/ ١٩٦، والطبري في تفسيره ١/ ٤١٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٧٢ ٩٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب من كان عدوا لجبريل، رقم ٤٤٨٠.

مصدقا بما تبقى في كتبهم من حقائق، أما ما حرف فقد صدق القرآن بأصله الحقيقي، وأصل لنا المنهج القويم في معرفة الحقائق من الأباطيل وتمييز الأصيل من الدخيل.

فكلام الله تعالى يصدق بعضه بعضًا، وكل كتاب نزل مصدقا لما قبله. وتصديقه بالكتب السابقة أنها نزلت من عند الله تعالى على الأنبياء عليهم السلام، وتصديقه بما ورد في هذه الكتب من بشاراتٍ عن مبعث النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ونزول آخر الكتب، وبما ورد فيها من عقيدةٍ وأحكامٍ وآدابٍ وقصصٍ وأمثالٍ.

فالقرآن جاء مقررا لما ورد في هذه الكتب من حقائق ثابتةٍ. فحريٌّ بأهل الكتاب أن يؤمنوا بالقرآن الذي جاء مصدقا لما معهم، ولذا تقترن دعوتهم للإيمان بالقرآن ببيان كونه مصدقا لما معهم، فهذا أدعى لتصديقه، وتصديقه بأصل الكتب المنزلة أنها كلها من عند الله، أما الكتب المحرفة فقد جاء القرآن بتصديق ما تبقى فيها من حقائق لم تتبدل وأحكام لا تزال.

ولا يعني تصديقه لما سبقه من الكتب التطابق التام بينهما، بل للقرآن هيمنته على ما قبله، وله سماته التي تفرد بها، والتي تتفق مع مقاصد نزوله وتتفق مع كونه آخر الكتب. كما لا يتعارض تصديقه بها مع نسخه لبعض أحكامها، واستقلاله بأحكامٍ لم ترد فيها، بل ونسخه العمل بها جملةً؛ فالإنجيل على سبيل المثال جاء مصدقا للتوراة مقرّرا لأحكامها وإن نسخ بعضها.

وتصديقه لما سبقه من الكتب دليلٌ على صدقه؛ إذ لو كان من عند غير الله لما وافق كلامه. وفي تصديقه ردٌّ على مطاعن المشركين وأهل الكتاب وزعمهم بأنه مفترى، ولو كان كما يدعون فأي عبقريةٍ ! وأي براعةٍ تلك التي جعلت محمدا يحاكي كلاما لم يدرسه ولم يعهده من قبل، وهو العربي الأمي ! أي موافقةٍ هذه ؟ وأي توارد أفكار وإلهامٍ ذلك ! وأي عقلٍ يمكنه تصديق تلك الفرية العجيبة، بل إن نزوله موافقا ومصدقا للكتب المنزلة لبرهانٌ جليٌّ على أنه كلام الله، أدرك ذلك وآمن به كل من سمعه أو قرأه ممن له معرفةٌ بالوحي الإلهي.

ثانيًا: القرآن هو المهيمن على الكتب السابقة جميعًا:

كما جاء القرآن مصدقا بما قبله من كتب فقد جاء مهيمنا عليها، حافظا ومؤتمنا، ومستوعبا ومبينا وحكما وإماما.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

والهيمنة تعني: المراقبة والشهادة والحفظ والتمكن من الشيء، جاء في لسان العرب: «المهيمن اسمٌ من أسماء الله تعالى، وفي التنزيل: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، قال بعضهم: معناه الشاهد، يعني وشاهدًا عليه، قال ابن عباس: المهيمن المؤتمن، وقال الكسائي: المهيمن الشهيد، وقال غيره: هو الرقيب، يقال: هيمن يهيمن هيمنة إذا كان رقيبًا على الشيء، وقيل: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: معناه وقبّانًا عليه، وقيل: وقائمًا على الكتب»[(١)].

وقال الزمخشري: «هيمن الطائر على فراخه: رفرف عليها، وهيمن على كذا إذا كان رقيبًا عليه حافظًا، والله عز سلطانه المهيمن»[(٢)].

وقال الطبري: «وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلانٌ عليه، فهو يهيمن هيمنةً، وهو عليه مهيمنٌ»[(٣)].

فالقرآن حافظٌ أمينٌ لها، حفظ لنا هذه الكتب فحدثنا عنها، وهو حافظٌ لها يكشف عما خالطها من تحريفٍ وداخلها من زيفٍ، فيقوم ما اعتراها من اعوجاجٍ، وينفي ما لابسها من أباطيل وخرافاتٍ[(٤)].

قال ابن جرير: القرآن أمينٌ على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منه فهو حقٌّ، وما خالفه منها فهو باطل، عن ابن عباس رضي الله عنه: «ومهيمنًا» أي شهيدًا: وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وقال العوفي عن ابن عباس: «ومهيمنًا» أي: حاكمًا على ما قبله من الكتب، وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو: أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله»[(٥)].

والقرآن شاهدٌ عليها، وشاهدٌ على موقف أهل الكتاب منها، فالقرآن الكريم وعاءٌ للكتب السابقة، حيث حدثنا عن مقاصدها وصفاتها، وأخبرنا عما تضمنته من أحكام وآداب وقصص وأمثال ووعد ووعيد وأخبار ونبوءات ووصايا وبشارات، وهذا من حفظه لهذه الكتب وتوثيقه لها، قال ابن جريجٍ: «القرآن أمينٌ على ما قبله من الكتب»[(٦)].

وقال الزمخشري: «﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٤٣٦، والقبان الميزان.
(٢) أساس البلاغة ٢/ ٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٨٦.
(٤) وقد أشار لهذا المعنى د.محمد عبد الله دراز في كتابه: الدين، ص ١٨٩.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٩٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٦.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٥.

ورقيبًا على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات»[1].

كذلك جمع القرآن وحوى ما سبقه من الكتب، بل جاء متممًا لها، ناسخًا لبعض أحكامها؛ لذا فهو المرجع يحتكم إليه، عند التنازع في شأنها، والقرآن يغني عما سواه، ولا يغني ما سواه عنه.

قال ابن جرير: «جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]»[2].

وقال السعدي: «مشتملا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية، فهو الكتاب الذي تتبع كل حقٍ جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه»[3].

جاء القرآن الكريم ينفي عن التوراة انتحال المبطلين وإنكار الجاحدين، وتأويل الجاهلين، فعندما أنكر نفرٌ من اليهود نزول الوحي على الأنبياء أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: ٩١].

وعندما ادعى اليهود أن لحم الإبل محرمٌ في دينهم وكتابهم أنزل الله تعالى قوله: ﴿۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٩٣ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩٤ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٥﴾ [آل عمران: ٩٣ - ٩٥].

وعندما سعوا لتعطيل حد الرجم في كتابهم والاحتيال على النبي صلى الله عليه وسلم وإخفاء ما ورد في كتابهم أنزل الله تعالى قوله: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٩٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٤.

﴿شَيْئًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١].

قال ابن عطية: «المهيمن على الشيء هو المعني بأمره، الشاهد على حقائقه، الحافظ لحاصله، ولأن يدخل فيه ما ليس منه والقرآن جعله الله مهيمنًا على الكتب يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبه المحرفون إليها، فيصحح الحقائق ويبطل التحريف، وهذا هو شاهدٌ ومصدقٌ ومؤتمنٌ وأمينٌ»[1].

لماذا هيمنة القرآن ؟

- لأنه آخر الكتب فكان مصدقًا لما قبله.
- لأنه كتابٌ محكمٌ، العمل به قائمٌ ما دامت السموات والأرض، بينما نسخ ما قبله.
- لأنه سلم من التبديل والتحريف؛ فالله تعالى تكفل بحفظه وبيانه.
- لأنه حكمٌ على هذه الكتب وعلى أصحابها، يفصل بينهم ويحسم نزاعهم ويبين ما خفي عليهم.
- لأنه جاء مستوعبا لهذه الكتب حكما وشاهدا ورقيبا عليها، قال أبو السعود: «ومهيمنا عليه أي: رقيبًا على سائر الكتب المحفوظة من التغيير لأنه يشهد لها بالصحة والثبات ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها، ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتاب وانقضاء وقت العمل بها»[2].
- لأنه جاء مستقلا، لم يحتج إلى بيان ما قبله، بينما لا غنى بما قبله عنه، قال ابن تيمية رحمه الله: «وأما القرآن فإنه مستقلٌ بنفسه لم يحوج أصحابه إلى كتابٍ آخر، بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن؛ وعلى زياداتٍ كثيرةٍ لا توجد في الكتب؛ فلهذا كان مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنًا عليه، يقرر ما فيها من الحق، ويبطل ما حرف منها، وينسخ ما نسخه الله، فيقرر الدين الحق، وهو جمهور ما فيها ويبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها، والقليل الذي نسخ فيها؛ فإن المنسوخ قليلٌ جدًا بالنسبة إلى المحكم المقرر، والأنبياء كلهم دينهم واحدٌ، وتصديق بعضهم مستلزمٌ تصديق سائرهم وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم»[3].
- لأنه نقل إلينا متواترا؛ بخلاف الكتب السابقة، فلقد انقطعت أسانيدها واندثرت أصولها، قال ابن كثير: «أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كل كتابٍ قبله،

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٩٩ باختصار.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٥.

(٣) معارج الوصول، ابن تيمية ص١٤.

جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى حفظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩][(١)].

وقال الشيخ دراز رحمه الله في كتابه النبأ العظيم: «سر اختصاص القرآن بالخلود وعدم التحريف دون الكتب السابقة: أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، فكان جامعًا لما فيها من الحقائق الثابتة، زائدًا عليها بما شاء الله زيادته، وكان سادًا مسدها، ولم يكن شيء منها ليسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمرًا يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم»[(٢)].

ولأنه أفضل الكتب وأعظمها أثرا وأعلاها رتبةً، قال ابن تيمية: «ومعلومٌ أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبةً»[(٣)].

ثالثًا: القرآن مبين للحق الذي اختلف فيه أهل الكتاب أو كتموه:

جاء القرآن الكريم مبينا كثيرًا مما أخفاه أهل الكتاب من الكتاب من الحقائق والوقائع، وكشف عن كثير من الحوادث التي طمسوها أو تناسوها، أو اختلط فيها الحق بالباطل، كقصة البقرة، وقصة أصحاب السبت، وقصة إبراهيم، وقصة يوسف، وقصة موسى.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥].

فبعد أن تحدث القرآن عن أحوال الطائفتين وأبان عن حقائق وأمورٍ لا يمكن لنبيٍ عربي أميٍ أن يعرفها، ولا سبيل لمعرفتها إلا بوحيٍ من الله تعالى، دعاهم إلى الإيمان بهذا النبي الذي جاء ليبين لهم كثيرا مما أخفوه من الحقائق التي وردت في التوراة والإنجيل والتي أخفاها بعض الأحبار والرهبان عن أتباعهم، ولا يزالون.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أخفوا آية الرجم من التوراة وبينها الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، وهو لم يقرأ كتابًا ولم يتعلم علمًا من أحد، وهذه معجزةٌ، وأخفوا صفة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣٨.
(٢) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص٤٢.
(٣) رسالة جواب أهل العلم والإيمان أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ص٢٠.

محمد عليه الصلاة والسلام في الإنجيل، وغير ذلك، فلما أخبرهم بأسرار ما في كتابهم كان ذلك إخبارًا عن الغيب فيكون معجزًا»[1].

وقوله: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ مما لا تدعو الحاجة لبيانه، أو لأن فيما بينه الكفاية والغنية، وهذا من أدبه صلى الله عليه وسلم ومن شيمه الكريمة أنه يرغب ويشوق، فتقبل القلوب وتصغي الآذان إلى حديثه الطيب، وأنه يعرض ويتغاضى حتى لا تمل العقول وتنفر النفوس. ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ فالنبي صلى الله عليه وسلم نور من الله تعالى؛ لأنه جاء بالهدى والحق، والقرآن نورٌ وكتاب مبينٌ لأنه أضاء للناس طريقهم، وأنار دروبهم، وأبان لهم ما خفي عليهم، وبدد ظلام الشك والحيرة، وأزال أسباب اللبس والإشكال.

فجاء القرآن بالبيان الجلي بعد فترة من انقطاع الرسل؛ لئلا يكون لأهل الكتاب عذر:

قال جل وعلا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩].

فلقد كان المؤمنون من أهل الكتاب يذوبون شوقًا وحنينًا لزمان بعثة هذا النبي الذي ينتظرونه، ولا شك أن نزوله بعد طموس الملل ودروس السبل، وفترةٍ من الرسل أدعى إلى المبادرة للإيمان به، ومناصرته ومحبته، لا إلى مناصبته العداء وجحوده والتآمر عليه. وقد جاء القرآن بالبيان القاطع والبرهان الساطع؛ لئلا يكون لهم على الله حجة ولا يبقى لهم عذرٌ.

وبيان القرآن الكريم يحسم الاختلاف الذي وقع فيه أهل الكتب السابقة.

قال جل وعلا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٣-٦٤].

فلقد تسلط الشيطان عليهم بعد أن زين لهم سوء عملهم، مما أفضى بهم إلى الضلال وأوقع بينهم الخلاف، بعد أن لبس الباطل ثوب الحق، وارتدت الشياطين مسوح الرهبان؛ ليصدوا الناس عن الحق، من هنا كانت حاجة الإنسانية إلى الكتاب الراشد الذي يبين الحق، ويزيل الحيرة، ويفصل الآيات، ويحسم النزاعات، ويقطع الخلافات، ويبدد ظلام الشبهات، ويقيم

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/٣٥٩، كتاب الحدود.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي.

الحجة والبرهان، ويبين طريق الهداية، وينشر بشائر الرحمات بين أهل الإيمان. «نورٌ يكشف معالم الطريق إلى الحق والخير، ويقيم لمن يهتدي به فهمًا صحيحًا للعقيدة التي يعتقدها.. فالقرآن الكريم ميزان عدلٍ وحقٍّ، وفيصل ما بين الحق والباطل وحكم ما بين الخير والشر.. فما استقام على ميزانه، فهو الحق والخير، وما انحرف عنه، فهو الباطل والضلال.. فعلى هديه يجتمع أهل الكتاب على كلمةٍ سواءٍ منه، فيما اختلفوا فيه، وإليه يحتكم أهل الهدى، فيقضي بينهم بما يرفع الخصام والشقاق فيما كان سببًا في خصامهم وشقاقهم»[1].

قال جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦].

فبعد ما مر في تلك السورة الكريمة من القصص الحق، قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وقصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ وقومها، وقصة صالح عليه السلام، وقصة لوط عليه السلام وبعدما أورد الله في السورة من دلائل التوحيد وشواهد القدرة ومشاهد العظمة الربانية، بين تعالى كيف تفرد هذا الكتاب المبين بالقول الفصل الذي يحسم الخلاف، فكما اختلف بنو إسرائيل في أصول الدين والشرائع، فقد اختلفوا في التوحيد والنبوة والبعث اختلافهم في شأن الملائكة، وغير ذلك من أركان الإيمان، وإنما انبثق الاختلاف عن تعصبهم وركوبهم متن الهوى، وركونهم وحبهم لمباهج الدنيا، ونسيانهم وجحودهم، وعنادهم وغفلتهم، وجمودهم وقسوتهم.

فجاء القرآن قولا فصلًا، وحكمًا عدلًا، وميزانًا قويمًا، ودعوةً لتوحيد الكلمة، ونبذ الخلاف، ومحو أسبابه، واجتثاث جذوره، وسد أبوابه، لجمع شتات القلوب، وتأليفها على كلمة سواء.

ومن أمثلة الاختلاف اختلافهم في شأن عيسى عليه السلام حتى تفرقوا وتحزبوا، فاليهود افتروا عليه وبهتوه وأمه، وغمطوه ومكروا به، والنصارى غالوا فيه وأطروه حتى عبدوه، مع اختلافهم الحاد في طبيعته، منهم من قال: إنه إله أو نصف إله، ومنهم من يزعم أنه ابن الإله، وبين ذلك وحوله أقوالٌ وأراءٌ لا تنحصر، كذلك اختلافهم في أمر البعث، هل يقع بالروح والجسد أم بالروح وحدها؟

واختلافهم في حكم الرجم، ومثل اختلافهم في حكم الطلاق وتعدد الزوجات، وغير ذلك من وجوه الاختلاف وصوره التي لا حصر لها، والتي مرجعها إلى تحريفهم ونسيانهم وتبديلهم وكتمانهم ولجاجهم

(١) التفسير القرآني للقرآن، ألخطيب ١/ ٢٤٦.

ونكوصهم، وتمردهم وعصيانهم وركوبهم متن الهوى وارتيادهم سبل الغواية.

قال الرازي: «بين الله تعالى أولًا كونه معجزة من وجوه، أحدها: أن الأقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والإنجيل، مع العلم بأنه عليه الصلاة والسلام كان أميًّا وأنه لم يخالط أحدًا من العلماء، ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم؛ فإذن لا يكون ذلك إلا من قبل الله تعالى. واختلفوا فقال بعضهم: أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا، وقال آخرون: أراد به ما حرفه بعضهم، وقال بعضهم: بل أراد به أخبار الأنبياء. والأول أقرب»[1].

رابعًا: وجوب الإيمان بالقرآن من أتباع الكتب السابقة جميعًا:

لا يسع أهل الكتاب إلا أن يؤمنوا برسالة خاتم النبيين وكتاب رب العالمين الذي ختم به، فإيمانهم بخاتم النبيين من مقتضيات إيمانهم بمن سبقه من الأنبياء وبما قبله من الكتب، وبما فيها من بشارات، فمن ثمرات إيمان أهل الكتاب بالتوراة والزبور والإنجيل إيمانهم بخاتم النبيين والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فمن عاش منهم قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم كان على أمل وشوقٍ لأن يستظل بزمانه فيؤمن به، ومن عاصره وتجرد للحق آمن به وصدقه وآزره، حيث قاده الإيمان بالبشارات والنبوءات للإيمان بالنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (والذي نفس محمدٍ بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌ ولا نصرانيٌ ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[2].

وقد صور لنا القرآن فرح مؤمني أهل الكتاب وشغفهم وابتهاجهم بالإسلام.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٦].

حيث يعبر القرآن عن تلك السعادة الغامرة، والفرحة العارمة، التي يعيشها من قاده الإيمان بالتوراة والإنجيل، إلى دين الحق، ونبي الإسلام، وكتاب الله الخالد،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ١٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، رقم ١٥٣.

الذي أحيا الله به القلوب، وشرح به الصدور، سيما وقد وجدوا القرآن مصدقا لما بين أيديهم، وأبصروا الرسول مطابقًا للبشارات، فنالوا مرادهم، وظفروا ببغيتهم، ورست سفينة البحث على مرفأ اليقين، فأضحت الحياة في ظلال الإيمان أفراحًا متواصلةً، أنوارًا من مصابيح الهدى، وأنداءً على أكاليل السكينة، ونفحاتٍ من أريج المحبة.

وإن كان هناك من حرم من هذه اللذة، وعزف عن هذا النعيم، حين تحزب للباطل، ووقف في صف الكفار، يقاسمهم العداوة، ويشاركهم التصدي للدين الحق، منكرين منه ما خالف أهواءهم، وبدد أوهامهم، ونقض أباطيلهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ إنكارٌ لا برهان عليه، ولا مستند له إلا الركون للهوى وإيثار الباطل، لكن لا ينبغي أن يثني ذلك المؤمنين عن دعوتهم، ويصرفهم عن غايتهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ فالمؤمن لا يضره كثرة الهالكين، ولا يضيره قلة السالكين، بل يحيا لغايةٍ ويعيش لرسالةٍ، هي تحقيق العبودية لله رب العالمين.

قال القاسمي: «﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ لأنه يحصل لهم به من المعاني والدلائل وكشف الشبهات ما لم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة، قيل: عنى بهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيته التي لا يمترى فيه، ومن المعارف والمزايا الباهرة التي لا تحصى»[1].

ويضرب الله المثل بموقف من آمن بأهل الكتاب فيقول تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٥-١٠٩].

فإيمان من آمن من أهل الكتاب بالقرآن حريٌّ أن يضرب به المثل، فإنه صادرٌ عن علمٍ صادقٍ، ونابعٌ من شوقٍ دافقٍ، فإذ بالجباه وقد سجدت عند سماع الحق، وإذ بالقلوب وقد أيقنت بوعد ربها على لسان رسله، وفي صفحات كتبه، وعده الذي تحقق ووعده الذي توقن بأنه سيتحقق، وإذ بالعيون وقد ذرفت فرحًا واستبشارًا، وهيبةً وإجلالا، مما يزيدهم خشوعا على خشوعهم.

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٨٩.

وفي صورة مشرقة ومشهد رائع إيمان القساوسة والرهبان بكتاب الله تعالى الذي بشرت به الكتب السابقة يقول تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٥].

فقد سطر القرآن تلك الصفحات المضيئة في حياة المؤمنين من النصارى، وصور تلك السعادة التي تغمرهم عندما تطرق مسامعهم كلمات الله التي أنزلها على خاتم رسله في ختام كتبه، تسري تلك الكلمات إلى قلوبهم، بعد أن تدوي في حناجرهم، فيفيض الدمع من محاجرهم، فرحًا وابتهاجًا، ورهبةً وإجلالًا، فقد التقى القرآن مع ما سبقه من الكتب في سبيل الهدى وميدان الحق، فابتهجت القلوب ولهجت الألسنة: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

إنه إيمانٌ يقينيٌ وشعورٌ حقيقيٌ قائمٌ على علمٍ وبصيرةٍ، وماضٍ إلى تحقيق الثمرات المرجوة والآمال العظيمة ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾، إيمانٌ خالصٌ ورجاءٌ صادقٌ، ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾: حقق الله رجاءهم وبلغهم مرادهم؛ فهو الكريم يثيب بالإحسان إحسانًا، ويجزي بالإيمان نعيمًا ورضوانًا.

موضوعات ذات صلة:

إبراهيم عليه السلام، الإنجيل، التوراة، داود عليه السلام، عيسى عليه السلام، محمد عليه السلام، موسى عليه السلام

الكتمان

عناصر الموضوع

مفهوم الكتمان	١٧٠
الكتمان في الاستعمال القرآني	١٧١
الألفاظ ذات الصلة	١٧٢
الكتمان وعلم الله تعالى	١٧٥
أنواع الكتمان	١٨٤
الكتمان يوم القيامة	١٩٩
عاقبة الكتمان	٢٠١

مفهوم الكتمان

أولًا: المعنى اللغوي:

الخفاء والستر: وهو من كتمت الشيء: أكتمه كتما وكتمانا، ومنه سر كاتم، أي: مكتوم، واستكتمته سري: سألته أن يكتمه، ورجل كتمة، إذا كان يكتم سره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر: ٢٨]. أي: يستره ويخفيه[(١)].

قال ابن فارس: «كتم: الكاف والتاء والميم أصل صحيح يدل على إخفاء وستر، ومن ذلك كتمت الحديث كتما وكتمانا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الكتمان هو: إخفاء الشيء وستره وترك إظهاره قصدًا، مع مساس الحاجة إليه، وتحقق الداعي إلى إظهاره، وذلك قد يكون بمجرد ستره وإخفائه، وقد يكون بإزالته ووضع شيءٍ آخر في موضعه[(٣)].

والكتمان يستعمل في المعاني، وهو أصل في ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

فالشهادة معنى من المعاني، كما يستعمل في الأعيان، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

لأن ما يكتمن في أرحامهن هو الجنين وهو من الأعيان[(٤)].

العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

يلاحظ أن الكتمان لغة هو: الخفاء والستر، وقد استعمل القرآن الكريم هذا المعنى اللغوي للكتمان، وعلى ذلك وردت أقوال المفسرين في بيان هذه اللفظة، فلا فرق بين معنى الكتمان لغة مع معناه في الاصطلاح.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠١٨، مجمل اللغة، ابن فارس ص ٧٧٧، المحكم المحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٧٧٩، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٠٦، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٢٥.

(٢) انظر: مقاييس اللغة ٥/ ١٥٧.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٤٠، اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/ ١٠٤، لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٢.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٠٢، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٢، الكليات، الكفوي ص ٥٦٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٦٦.

الكتمان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كتم) في القرآن الكريم (٢١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة:١٤٠]
الفعل المضارع	٢٠	﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر:٢٨]

وجاء الكتمان في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: ستر الحديث، يقال: كتمته كتمًا وكتمانًا، وكتمه تكتيمًا، واكتتمه: أخفاه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٥٩٥-٥٩٦.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٧، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٠٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٣٣٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإخفاء:

الإخفاء لغة:

الستر والكتمان، يقال: خفيت الشيء أخفيه: كتمته، وأخفيت الشيء: سترته وكتمته، ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء: تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها، وهو من الأضداد[(١)].

والإخفاء اصطلاحًا هو:

الستر ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها[(٢)].

الصلة بين الكتمان والإخفاء:

إن الكتمان هو: إخفاء المعاني والسكوت عن بيانها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: ١٥٩]، أي: يسكتون عن ذكره، والإخفاء يكون في الأعيان وفي المعاني، والشاهد أنك تقول: أخفيت الدرهم في الثوب ولا تقول: كتمت ذلك، وتقول: كتمت المعنى وأخفيته، فالإخفاء أعم من الكتمان[(٣)].

٢ السر:

السر لغة هو:

ما يكتم في النفس من الحديث، وهو خلاف الإعلان، والجمع الأسرار، يقال: سررته: كتمته، كما يطلق على: ما يظهر؛ لأنه من الأضداد، يقال: سررته: أعلنته، والوجهان جميعا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤].

الأول: كتموها، والثاني: أظهروها بدليل قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]؛ ولأن دار الآخرة ليست دار تجلد وتصبر[(٤)].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٣٤، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٥٦٤، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢، الكليات، الكفوي ص ٥١٤.

(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٤٧، تفسير الشعراوي ٦/ ٣٤١٨.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦٣، المصباح المنير،

السر اصطلاحًا هو:

اسم لما يكتم ويخفى في القلوب من العقائد والنيات والأقوال والأعمال وغيرها[1].

الصلة بين الكتمان والسر:

إن السر أعم من الكتمان؛ لأن الكتمان يختص بالمعاني غالبا كالإسرار والإخبار؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فقد نهى الله تعالى النساء عن كتمان ما في الأرحام، والسر يختص بالجثث والأعيان؛ لأن الأصل في السر تغطية الشيء بغطاء، ثم استعمل في غيرها تجوزا[2].

٣ الإكنان:

الإكنان لغة:

الستر والتغطية والإخفاء[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ أي: أخفيتم، والأكنان: جمع كن، وهي: الأسراب والأماكن في الجبال، والأغطية، وكل ما يحفظ ويستر من المطر والريح وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥] أي: أغطية[4].

الإكنان لغة:

وقاء كل شيء وستره، والكن: البيت أيضا، والجمع أكنان وأكنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١]، وأكن الشيء: ستره، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ أي أخفيتم[5]، واكتنت المرأة: غطت وجهها وسترته حياء من الناس، والكنانة: جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها أو من خشب

الفيومي ١/ ٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٧.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٦.

(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٤٧.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٥٦، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٧.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٧٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤١٢.

(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٢٠٦، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٥٦، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٧.

لا جلود فيها[1].

الإكنان اصطلاحًا هو:

الستر والتغطية، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي للإكنان عن المعنى اللغوي له[2].

الصلة بين الإكنان والكتمان:

إن الكتمان يختص بالمعاني كالأسرار والأخبار؛ لأن الكتمان أصل فيهما كما سبق، والإكنان يختص بالجثث والأعيان؛ لأن الأصل في الإكنان تغطية الشيء بغطاء[3].

٤ الجهر:

الجهر لغة:

جهرت الشيء إذا كشفته، وجهرته واجتهرته أي: رأيته بلا حجاب بيني وبينه، والجهر العلانية وفي الحديث: (وكان عمر رجلًا مجهرًا)[4] أي: صاحب جهرٍ ورفع لصوته، والجهر هو ما ظهر.

والجهر أيضًا: رفع الصوت يقال جهر بالقراءة إذا رفع صوته بها[5].

الجهر اصطلاحًا:

هو «رفع الصوت بحيث يسمع نفسه ومن جاوره»[6].

الصلة بين الجهر والكتمان:

أن الجهر خلاف الكتمان، وهو إظهار المعنى للنفس ورفع الصوت به[7].

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٥٦، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٧٣.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٢٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٥٩، المفردات للراغب الأصفهاني ص ٧٢٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ١٦١.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٥٦، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٧.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، رقم ٤٦٦٢، وأحمد في مسنده، رقم ١٨٩٢٦، ٤/ ٣٢٢.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٤٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٤٧١.

(٦) معجم لغة الفقهاء، قلعجي ص١٦٨.

(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٨٧.

الكتمان وعلم الله تعالى

إن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فيستوي في علمه المكتوم والعلن، ويظهر موضوع الكتمان وعلم الله تعالى في القرآن الكريم من خلال النقاط الآتية:

أولًا: سعة علم الله لكل شيء:

إن علم الله واسع وكامل وشامل، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وهو بكل شيء عليم، والآيات الدالة على سعة علم الله بكل شيء كثيرة في كتاب الله العزيز ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

والواسع من صفات الله تعالى وهو: الذى وسع رزقه جميع خلقه، ووسعت رحمته كل شيء، وهو الكثير العطاء، والذى يسع لما يسأل، والمحيط بكل شيء، وفيه إشارة إلى علم الله تعالى بجميع الكائنات الشاملة لأعمالهم ليرقبوه في خاصتهم وظاهرهم وباطنهم[1].

ومما يدل على سعة علم الله تعالى بالكتمان الآيات التي تدل على أن الله بكل شيء عليم:

فقد بين الله تعالى أنه بكل شيء عليم، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحجرات: ١٦].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢١٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٣٠١، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٥٦٧، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني ٢/ ٣٦٢.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

دلت الآيات أن الله بكل شيء عليم كما أفاده لفظ (كل) المفيد للعموم، و ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغٌ في العلم بكل ما من شأنه أن يعلم كائنا ما كان مخلوقا أو غير مخلوق، ومن جملته ما صدر عن العباد من قول وفعل عمدًا أو خطأ، أزلا وأبدا، فلا يخفى عليه خافية مما كان وما سيكون من الذوات والصفات والأحوال، فهو سبحانه الموصوف بهذه الصفات العظيمة المستحق للعبادة الذي يعلم حال العباد وما ينفعهم وما يضرهم[(١)].

وكذلك الآيات التي تدل على أن الله عالم بالغيب والشهادة، ومن هذه الآيات، قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ [الحشر: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢﴾ [المؤمنون: ٩٢].

وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [التوبة: ١٠٥].

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٧٦.

ويترتب على أن الله بكل شيء عليم، وأنه يستوي في علمه السر والجهر: أن تظهر صفة المراقبة لله تعالى في السر والعلن، وذلك أن العبد إذا استشعر عظمة علم الله وسعته، وشموله لكل ما خلق الله سبحانه، فإنه يعيش دائما يراقب الله الذي يعلم السر وأخفى، ويطلب منه دائما أن يزيده من العلم الذي ينفعه في دينه ودنياه وآخرته تنفيذا لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤][(٢)].

ومما يدل على سعة علم الله الآيات الدالة على إحاطة علم الله بكل شيء:

إن علم الله محيط بكل شيء والإحاطة بالشيء علما هي: أن تعلم وجوده وجنسه وقدره وكيفيته، وغرضه المقصود به وبإيجاده، وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلا لله تعالى، وعبر بالإحاطة عن الاطلاع التام والقدرة والسلطان، وقد أوضح هذا المعنى في آيات في كتابه العزيز منها:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ۝١٢٦﴾ [النساء: ١٢٦].

(٢) انظر: مفهوم الأسماء والصفات، سعد ندا، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد ٤٦، عام ١٤٠٠-١٤٠١هـ، ص ٦١.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿لِّتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وهذه الآيات وأمثالها تدل على أن الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، والتعبير بالإحاطة إثبات لعظمة الله وسعة ملكه، ومقدار سلطانه، الذي يشمل كل شيء، وينفذ إلى كل شيء! ومن كان هذا شأنه، وتلك صفته، فإن من السفه والضلال أن يولي الإنسان وجهه إلى غيره، أو يعبد معبودا سواه، وإسناد الإحاطة إلى اسم الله تعالى مجاز عقلي، لأن المحيط هو علم الله تعالى فإسناد الإحاطة إلى صاحب العلم مجاز في عدم خفاء شيء من عملهم عن علم الله تعالى، ويلزمه أنه مجازيهم عن عملهم بما يجازي به العليم القدير من اعتدى على حرمه، وتضمن ذلك الوعيد الشديد والتقريع البالغ، وإذ كان تعالى محيطا بجميع الأقوال والأعمال، فكان ينبغي أن تستر القبائح عنه بعدم ارتكابها[1].

ولما كان الكتمان مما يكون في الغيب فقد اختص الله تعالى بالغيب المطلق الذي لا يطلع عليه ولا يعلمه إلا الله تعالى فقد استقل سبحانه وتفرد بمعرفته، وهذا الغيب يقول تعالى عنه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه، إلا أنه جعل لها مقدمات وعلامات تدل عليها وتنبئ بقربها[2].

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٦٥، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٩١٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٤، تفسير الشعراوي ٨/ ٤٧٣٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٠٢، أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٢٥٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٨٢، فتح القدير،

وقد سمى الله تعالى نفسه العليم: وهو بصيغة المبالغة على وزن فعيل، ورد في القرآن الكريم اثنتين وخمسين ومائة مرة، ومنها: قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة: ٩٥].

ومن أسماء الله تعالى العالم على وزن (فاعل)، وقد ورد في القرآن خمس عشرة مرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ٩].

ومن أسماء الله تعالى العلام على وزن (فعال)، وهو صيغة مبالغة، يدل على سعة العلم وعظمته، وقد ورد في القرآن الكريم أربع مرات، منها:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦][1].

وعلم الله تعالى أزلي، وهو صفة من صفاته الذاتية سبحانه، يقتضي علمه بالظواهر والسرائر، وإحاطته بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه، وأن العبد إذا استشعر عظمة علم الله، وسعته، وشموله لكل ما خلق الله جل وعلا، فإنه يعيش دائما يراقب الله الذي يعلم السر وأخفى، ويطلب منه دائما أن يزيده من بالعلم الذي ينفعه في دينه ودنياه وآخرته.

ثانيًا: إحاطة علم الله بما يكتمه العباد:

وردت آيات في كتاب الله العزيز تبين إحاطة علم الله تعالى بما يكتمه العباد من الخير والشر، وغيرها من الأعمال منها:

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة:٣٣].

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَدْ دَّخَلُوا۟ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المائدة: ٦١].

الشوكاني ٢/ ١٤١.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢١٣، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءته، أحمد مختار عمر ص ١٠٣٣.

وقوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [المائدة: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور: ٢٩].

فقد حذر الله تعالى في الآيات السابقة العباد جميعا المؤمنين و العصاة والمنافقين والكفار الذين يخفون معاصيهم وكفرهم ونفاقهم عن الناس بأنه سبحانه وتعالى مطلع على ما يصدر منهم من خير وشر وكل أعمالهم فلا تخفى عليه خافية.

فالكتمان والسر والجهر، والاختفاء والظهور عند الله تعالى سواء؛ لأنه يسمع السر، كما يسمع الجهر، ويعلم الخفي كما يعلم الظاهر، ويعلم ما يجهر به خلقه من القول، ويعلم ما يكتمونه، وأن هذا الكتمان لن ينفعهم بشيء، وأنه سوف يفضحهم لا محالة في ذلك.

قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

وأخبر سبحانه أنه سيحاسبهم على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وحينها يسرون الندامة على ما كتموه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣][1].

وقد وردت آيات تبين أن الله تعالى محيط بما يكتمه العباد بألفاظ أخرى وهي بمعنى الكتمان منها:

١. بلفظ السر.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠][2].

والمعنى: أن من هو بالليل في غاية الاختفاء، ومن هو متصرف بالنهار ذاهب لوجهه، سواء في علم الله تعالى وإحاطته

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٠٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٢٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٩٢.

(٢) السارب هو: الظاهر البارز، الذاهب حيث يشاء، والمتصرف في حوائجه، كما يأتي السارب بمعنى: المتواري والمستخفي هو: المختفي المستتر عن الأعين، لكن من خلال السياق يتبين أن معنى السارب هو: الظاهر لأنه في مقابل المستخفي.
انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٢٥، معاني القرآن، الأخفش ٢/ ٤٠٢، معاني القرآن، النحاس ٣/ ٤٧٦.

بهما، وذهب ابن عباس ومجاهد إلى معنى مقتضاه: أن «المستخفي والسارب» هو رجل واحد مريب بالليل، ويظهر بالنهار البراءة في التصرف مع الناس، قال الزجاج: معنى الآية الجاهر بنطقه، والمضمر في نفسه، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات علم الله فيهم جميعا سواء[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٣-١٤].

وفي هذه الآيات تهديد للكافرين والعصاة بأنه سبحانه يعلم جميع الأشياء الواقعة منهم، وهو بالمرصاد في الجزاء عليها، وفيها تهديد للمنافقين بكشف أسرارهم وإظهار خفاياهم؛ لأن النفاق يقوم على كتمان الكفر وإظهار الإيمان والطاعة[2].

ونبه الله تعالى على أنه مطلع على الضمائر والسرائر، فقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك: ١٣].

أي: سواء أخفيتم كلامكم أو جهرتم به، يعلم بما يخطر في القلوب وما تكنه الضمائر، لا يخفى عليه منه خافية، فاحذروا من المعاصي سرا كما تحترزون عنها جهرا، فإن ذلك لا يتفاوت بالنسبة إلى علم الله تعالى، وقدم السر على الجهر لأنه مقدم عليه عادة، فما من أمر إلا وهو يبدأ أولا في النفس ثم يجهر به، وللتحذير من التكتم والسر الذي قد يظن عدم العلم به، والآية خطاب عام لجميع الخلق في جميع الأعمال، وتشمل ما كان يسر به الكفار من الكلام في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها تهديد ووعيد لمن يسر خلاف ما يعلن مما لا يرضي الله تعالى[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٦٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٩٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٣٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٣٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٢٧، الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٤٢٦، تفسير الشعراوي ٦/ ٣٤١٨.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٨٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢١٤، أسباب النزول، الواحدي ص ٤٤٢، التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ٢١.

٢. بلفظ الإخفاء.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران: ٥].

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

والآيات السابقة تدل على أن الله لا يخفى عليه شيء ولا يضيق عليه علم جميع ذلك؛ لأنه خالق كل شيء، ومن يخلق فهو أعلم بما يخلق علم اليقين، فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلي واحد قائم بذاته، ولا شيء أيضًا مما هو موجود، أو مما سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عدده ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفنى فيها[1]، وفي الآيات تهديد ووعيد للعصاة وللمنافقين وللكافرين الذين يخفون معاصيهم ونفاقهم وكفرهم، بأنه تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر، وأنه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر[2].

ثالثًا: إظهار الله ما يكتمه العباد:

إن الله تعالى يظهر ما يكتمه العباد من أعمال وتصرفات وعقائد، وقد يكون ذلك الإظهار في الدنيا فيفضح من يكتم الشر والمعاصي والكفر والنفاق وغير ذلك، وقد يكون في الآخرة بأن يفضح الله تعالى العصاة والكفار والمنافقين على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وذلك على التفصيل الآتي:

إظهار الله تعالى ما يكتمه العباد في الدنيا:

إن الله تعالى يفضح من يكتم الشر والمعاصي والكفر والنفاق وغير ذلك في الدنيا، فيحذره الناس وينزلون به العقاب المقرر شرعا، ويدل على ذلك آيات في كتاب الله العزيز منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٦٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٦١، التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٥٦١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٠٢، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٢١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٣٩، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٠٩.

﴿قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة: ٧٢]، فالآية دليل على أن الله تعالى يظهر ما يكتمه العباد من الكبائر والموبقات، فقد نصت الآية على أن الله تعالى يظهر ما يكتمه القاتل، وكذلك بقية الكبائر كالسرقة وغيرها.

وكذلك يظهر الله تعالى ما يكتمه المنافقون والكافرون من النفاق والكفر، وكذلك أصحاب الأفكار الباطلة والهدامة والعقائد المنحرفة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد: ٢٩].

فقد هدد الله تعالى المنافقين الذين يسرون العداوة والبغضاء والتآمر بالمسلمين أن تنزل على المؤمنين سورة تنبئهم بما في قلوبهم، أي: بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، كانوا يقولون فيما بينهم ويسرون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم[1] وكقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

وإخراج الخبء لفظ عام يتناول كل ما يخبئه الإنسان يعني بذلك: يظهره ويطلعه من مخبئه بعد خفائه[2].

إظهار ما يكتمه العباد يوم القيامة:

يظهر الله تعالى ما يكتمه العباد يوم القيامة: لأن في ذلك اليوم تكشف السرائر، ويعرض الناس على عالم الغيب والشهادة، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى على الله تعالى من أعيان وأعمال وأحوال وأمور العباد شيء، ويدل على هذا المعنى آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨].

وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

وقوله جل شأنه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم: ٣٨].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩][3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٣١، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٧٨، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٦٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٣٥، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٦٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٩٣، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٤٨، أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٣٤٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١١٣، صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٦٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٨٤، تفسير

كما يدل على هذا المعنى آيات أخرى منها:

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨][(١)(٢)].

وكذلك الغدر بالمسلمين، يدخل في ما يظهره الله تعالى يوم القيامة مما يكتمه العباد، لما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان)[(٣)]، والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس، فيكشف الغدر والغادر يوم القيامة علانية ويطلع عليه بصورة فيها شيء من الإهانة، ويصير علما منشورا على صاحبه بما فعل[(٤)].

القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٠٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٥٤، التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ٨٩.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٨٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٠٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٥٤، التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ٨٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٠١، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٣٣ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٥١، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٥٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٤٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٥٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢١٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، رقم ٦١٧٧، ٨/ ٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم ١٧٣٥، ٣/ ١٣٥٩.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٩.

أنواع الكتمان

إن من الكتمان ما هو محمود وذلك كتمان الإيمان وكتمان السر، ومنه ما هو مذموم، ويكون الكتمان مذموما في كتمان العلم وكتمان الحقوق، وكتمان النعم، ويمكن بيانها في النقاط الآتية.

أولًا: الكتمان المحمود:

يكون الكتمان محمودا في الأمور الآتية:

١ . كتمان الإيمان.

إن كتمان الإيمان من أجل الدعوة والدفاع عنها، وفي مرحلة الضعف خوفا على النفس، مما أباحه الشرع، وقد ذكر الله تعالى في معرض المدح رجلا مؤمنا من آل فرعون كان يكتم إيمانه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨][(١)].

وكان هذا الكتمان عن سياسة حكيمة، وتدبير محكم، من أجل مصلحة الدعوة وحمايتها، وإحباط لخطط فرعون، وليس خوفا من فرعون، ولا ضعفا في الإيمان، فإن إيمان هذا المؤمن، كان إيمانا راسخا وثيقا، قائما على اقتناع بلغ مبلغ اليقين القاطع.

وكان هذا الكتمان من أجل أن الرجل لم يكن يريد الإيمان لنفسه فحسب، بل إنه كان يريد أن يكون داعية لفرعون وقومه جميعا إلى الإيمان بالله تعالى وحده، ولو أنه أعلن إيمانه، وجاء إلى فرعون يدعوه إلى أن يؤمن بالله كما آمن هو، لما استمع فرعون إلى كلمة منه، ولأخذته العزة بالإثم، وأبى عليه كبره وعناده أن ينقاد لداعية يدعوه إلى أي أمر، ولو فتح له أبواب السماء، وهو موقف تاريخي خلده القرآن الكريم، فرضي الله عن هذا المؤمن وأمثاله في سجل الخالدين[(٢)].

فقد كتم الرجل إيمانه حين رأى أن ذلك من مصلحة الدعوة، وأظهر الرجل إيمانه حين رأى أن ذلك من مصلحة الدعوة، ومواجهة خطر فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر: ٢٦].

فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل وقام بواجبه بالجهاد بالكلمة عند سلطان جائر والتي هي أفضل الجهاد، كما قال صلى الله عليه وسلم: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)[(٣)]، ولا أعظم من هذه الكلمة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٧٥.

(٢) انظر: روح البيان، الخلواتي ٨/ ١٧٧، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٢/ ١٢٢٦.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأوامر والنواهي، رقم ٤٣٤٤، ٤/ ١٢٤،

عند فرعون، وهي قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

أي: لأجل أن يقول ربي الله، لأن من عادة المشركين قتل المسلمين، والتنكيل بهم، وإخراجهم من ديارهم من غير ذنب، إلا أنهم يؤمنون بالله ويقولون: ربنا الله، كقوله تعالى في أصحاب الأخدود، الذين حرقوا المؤمنين: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٤ - ٨]، وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]، إلى غير ذلك من الآيات[1].

واختلف المفسرون أيضا: هل كان إسرائيليا أو قبطيا من آل فرعون؟ والتحقيق أن الرجل المؤمن المذكور في هذه الآية هو من جماعة فرعون، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، ودعوى أنه إسرائيلي، غير صحيح؛ لأن القرآن وصفه بأنه من آل فرعون[2]، دون أن يذكر القرآن اسمه، وإنما أشار إلى خاصته، وذوي قرابته، فهو إنسان ذو شأن في المجتمع الفرعوني، ومع هذا لم يكشف القرآن عن اسمه، إذ ما جدوى الاسم، في مقام الوزن للقيم الإنسانية في الناس؟

إن المعتبر هنا هو الصفة لا الموصوف، وذات المسمى لا الاسم، فالمهم أن الرجولة في الإيمان، أيا كان هذا المؤمن في أي زمان، وفي أي مكان، وبأي اسم، وبأي صفة، فمن الحكمة أن يظل مبهما ليكون مثالا وقدوة لكل مؤمن في كل زمان ومكان، ليشيع خبره بهذا الوصف في الدنيا كلها لا يرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص، فحمل راية الحق، والقيام به أمر واجب وشائع في الزمان والمكان والأشخاص، وهذا هو عين البيان للقصة.

وهذا هو المغزى من هذه القصة، فلا يقال إنه كان ابن عم فرعون، وكانت سببا في

والترمذي ف سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم ٢١٧٤، ٤/ ٤٧١، والنسائي في سننه، كتاب البيعة، فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر، رقم ٤٢٠٩، ٧/ ١٦١، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٤٠١١، ٢/ ١٣٢٩، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٤٠.

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٠٦، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٢/ ١٢٢٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٤.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٠٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٤.

رجولته، ولا يقال إنه كان له نصف الملك وكان هذا وراء قوته، إنه الإيمان الذي يعيش به المؤمن عزيزًا كريمًا، إنه الإيمان الذي يصغر في عين صاحبه الظلم والطغيان، إنه الرجل الذي دفعه إيمانه إلى الحق لينصره، وليدفع عن أهله الأذى، فالرجل ليس من أصحاب السلطة أو السطوة، وإنما من أصحاب الإيمان الذي يدفع أهله إلى تغيير المنكر بكل ما يملكون، غيرة على دينهم، إذ كيف يرى منكرا ويسكت عليه[1]؟

ويمكن القول بأن معرفة اسم هذا المؤمن لا يزيد إلى القصة شيئا؛ لأن العبرة بالموقف الإيماني القوي في وقت الحاجة إليه، لا بالشخص الذي صدر عنه، ولأن ذكر اسم هذا الشخص ومعرفة مركزه الاجتماعي قد يوحي بأن انكار المنكر قد يكون مقصورا على من هو مساو له في شخصه ومركزه الاجتماعي.

وقد ذكر الله تعالى أن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من يكتم إيمانه، فقد كان هناك من المؤمنين من أهل مكة من يكتم إيمانه، وقد وردت آيات تبين هذا المعنى:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥].

وكان هؤلاء الذين يخفون إيمانهم هم السبب في عدم تسليط الله للمؤمنين على أهل مكة، فقد ذكر الله تعالى أنه لولا وجود رجال مؤمنون ونساء مؤمنات من أهل مكة، يكتمون إيمانهم ويخفونه خوفا على أنفسهم من كفار قريش، لسلط الله المؤمنين على الكافرين فقتلوهم وأبادوا خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا يعرفونهم حالة القتل.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥].

والمعرة هي: غرامة الدية والكفارة وما يصيب المؤمن من الغم من قتل المسلم على يده؛ لأن المؤمن يغتم لذلك، ﴿لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الفتح: ٢٥].

أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام[2].

ويكون المعنى الإجمالي للآيات: كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين في مكة لم يهاجروا، ولم يعلنوا إسلامهم

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٨٦٧، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١١/ ٩١٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٤٩، أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٣٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٨٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٤٤، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ١١٩.

تقية في وسط المشركين، ولو دارت الحرب، وهاجم المسلمون مكة، وهم لا يعرفون أشخاصهم، فربما وطؤوهم وداسوهم وقتلوهم، فيقال: إن المسلمين يقتلون المسلمين! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون[1].

ولعل منهم من أشارت إليه آية النساء في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

وآيات النساء: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٨-٩٩][2].

ويلاحظ أن الدين الإسلامي يهتم بأتباعه وسلامتهم وترك كثير من المصالح من أجل سلامتهم حتى وإن كانوا قلة لا يتجاوزون العشرات، ويدل على ذلك ما رواه أبو جمعة جنيد بن سبع- وقيل: حبيب بن سباع- رضي الله عنه قال: (فينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾، كنا ثلاث رجال وتسع نسوة و في رواية: وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين)[3].

ولولا أن المؤمنين بينهم غير متميزين عنهم كما قال تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي: تميزوا، قاله القتبي، وقيل: لو تفرقوا، قاله الكلبي، وقيل: لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف، قاله الضحاك، ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار[4].

وهذه الآيات تبين أن دين الإسلام هو دين العزة والكرامة ودين الحرية والمساواة في الحقوق والواجبات، لا يقبل بالمذلة والمهانة، ولا يرضى للإنسان أن يعيش مستعبدا في هذه الأرض، فكل مؤمن وجد في مكان لا يقدر فيه على إظهار دينه، تجب عليه الهجرة من ذلك المكان إلى مكان يستطيع إظهار دينه، بشرط ألا يكون من الصبيان أو النساء أو العجزة، فهؤلاء قد رخص الله تعالى لهم، فإن كان

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٢٨، تفسير الشعراوي ٨/ ٤٨٨٩.

(٢) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت ٨/ ٦١١.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم ٢٢٠٤/ ٢/ ٢٩٠.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٠٧: أخرجه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٤٩، أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٥٢٦، أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٣٧.

من المستضعفين: وكان التخويف بالقتل ونحوه ممن يظن منهم أنهم يفعلون ما خوفوا به، جاز المكث والموافقة ظاهرا بقدر الضرورة، مع السعي في حيلة للخروج والفرار بدينه، والموافقة حينئذ رخصة.

وإظهار ما في قلبه عزيمة، فلو مات فهو شهيد قطعا[1].

٢. كتمان السر.

إن كتمان السر من الكتمان المحمود، وقد ورد في آيات عديدة تدل على هذه الصفة في كل من الأمانة والوفاء والوقار، فمن الأمانة أن يكتم الإنسان سر أخيه، فالذي يؤتمن على سر، فيحافظ عليه يكون مؤديا للأمانة، لأن إفشاء السر خيانة محرمة.

ويكفي في العلم بكونه سرا القرينة القولية كقول محدثك: هل يسمعنا أحد؟ أو للفعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجيء، ومن هنا كان كتمان السر نوعًا من الأمانة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾[الأنفال: ٢٧].

وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة)[2].

وكتمان هذا النوع ضرب من الأمانة ونوع من الوفاء، وعلامة على الوقار.

وآكد أمانات السر وأحقها بالكتمان ما يكون بين الزوجين، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها)[3].

ومن كتمان السر المحمود أن يكتم الإنسان ما يحصل منه من مستقبح من قول أو فعل، كالزنا وشرب الخمر، والقذف، لأن الستر واجب على المسلم في خاصة نفسه إذا اقترف فاحشة، وكما يجب عليه ذلك في حق نفسه، فإنه يجب عليه في حق غيره.

لما روي عن مالك عن زيد بن أسلم: (أن رجلا اعترف على نفسه بالزنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوط فأتي بسوط مكسور، فقال: (فوق هذا) فأتي بسوط

(١) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص ١٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب نقل الحديث، ٤/ ٢٦٧، رقم ٤٨٦٨، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء أن المجالس أمانة، ٤/ ٣٤٢، رقم ١٩٥٩.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ٣/ ١٤٠٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم ١٤٣٧، ٢/ ١٠٦٠.

جيد، لم تقطع ثمرته، فقال: (دون هذا) فأتى بسوط قد ركب به ولان، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلد، ثم قال: يا أيها الناس، قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله، فإنه من يبدي لنا صفحته نقم عليه كتاب الله)[1].

ولحديث: (من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة)[2].

وهذا النوع من الكتمان من الحزم والاحتياط[3].

ومن الوفاء أن يحافظ المسلم على سر أخيه فيكتمه وإلا كان غادرا؛ لأن من حق المسلم على المسلم أن يكتم عنه ما يكون قد وصل إليه من سره، خاصة إذا كان قد تعهد له بحفظ هذا السر وعدم إذاعته، ومن هنا كان كتمان السر نوعا من الوفاء بالعهد، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤][4].

ثانيًا: الكتمان المذموم:

يكون الكتمان مذموما في الخصال الآتية:

١ . كتمان العلم.

نهى الله تعالى عن كتمان العلم، الذي هو حياة الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، فالواجب بيان الحق، وعدم المداهنة، ومن ذلك: أن يجب على العالم إذا رأى الناس على باطل أو خرافات أو شرك، فإنه لا يسكت، بل يجب عليه أن يبين، ولا يترك الناس يقعون في عبادة القبور، وعبادة الأضرحة، ومزاولة البدع المضلة، ويسكت.

وقد وردت في هذا المعنى آيات في كتاب الله العزيز منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب المدبر، باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا، رقم ١٢، ٢/ ٨٢٥، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٧٦١٥، ٤/ ٢٧٢.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وهو كذلك عند الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٣٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم، رقم ٢٤٤٢، ٣/ ١٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٠، ٤/ ١٩٩٦.

(٣) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ٢/ ٥٠.

(٤) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٣٢٠٦.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

استدل العلماء بهذه الآيات على: وجوب تبليغ الحق وبيان العلم على الجملة، وللآية تحقيق هو أن العالم إذا قصد الكتمان عصى، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أن معه غيره، وكذلك فإن كان هناك من يبلغ اكتفي به، وإن تعين عليه لزمه.

إن هذا الكتمان من الكبائر؛ لأنه تعالى أوجب فيه اللعن؛ ولأن ما يتصل بالدين ويحتاج إليه المكلف لا يجوز أن يكتم، ومن كتمه فقد عظمت خطيئته، وبلغ من الشقاوة والخسران الغاية التي لا يدرك كنهها.

لكن يشترط لذلك شرطين:

أولًا: أن لا يخشى العالم على نفسه.

ثانيًا: أن يكون متعينا عليه ذلك بأن كان لا يوجد غيره، أو عين للفتوى بتعين الحاكم، وإلا لم يحرم عليه[1].

ونظيرها في بيان العلم وإن لم يكن فيها ذكر الوعيد لكاتمه، قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ لأن كتمان ذلك وسيلة إلى تضييع أحكام الله، وما يتعلق بها من طاعة، وهذا الإظهار فرض على الكفاية، لأنه إذا أظهر البعض، صار بحيث يتمكن كل أحد من الوصول إليه، فلم يبق مكتوما، وإذا خرج عن حد الكتمان، لم يجب على الباقين إظهاره مرة أخرى[2].

وكتمان ما أنزل الله تعالى يتناول: إخفاء ما أنزله، وعدم ذكره للناس وإزالته عن موضعه ووضع شيء آخر موضعه، كما يتناول تحريفه بالتأويل الفاسد عن معناه الصحيح جريا مع الأهواء، وقد فعل أهل الكتاب ولا سيما اليهود- كل ذلك - فقد كانوا يعرفون مما بين أيديهم من آيات أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حق، ولكنهم كتموا هذه المعرفة حسدا له على ما آتاه الله من فضله، كما أنهم حرفوا كلام الله وأولوه تأويلا فاسدا تبعا لأهوائهم.

والآية وإن كانت نزلت على سبب خاص وهم اليهود إلا أنها عامة تشمل كل من كتم آيات الله؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ فـ

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٧٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٣٩، غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٤٤٧، روح المعاني، الألوسي ١/ ٤٢٦، التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٣٢٤.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٧٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٣٩، غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٤٤٧، روح المعاني، الألوسي ١/ ٤٢٦.

(ما) اسم موصول بمعنى الذي، وهي تفيد العموم[1].

أما قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فالمراد كل ما أنزله على الأنبياء كتابا وحيا دون أدلة العقول، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ يدخل فيه الدلائل العقلية والنقلية؛ لأن الهدى عبارة عن الدلائل، فيعم الكل، فهذه الآيات تدل على أن من أمكنه بيان أصول الدين بالدلائل العقلية لمن كان محتاجا إليها ثم تركها أو كتم شيئا من أحكام الشرع مع شدة الحاجة إليه، فقد لحقه الوعيد العظيم[2].

٢. كتمان الشهادة.

نهى الله تعالى عن كتمان الشهادة، لأن كتمانها من أكبر الكبائر، وهي تعدل شهادة الزور؛ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، وقد دل على هذا المعنى آيات في كتاب الله العزيز، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

أوجب الإسلام إظهار الشهادة وعدم كتمانها؛ لأن دين الإسلام دين العدل لا يقبل الظلم ولا يرتضيه لأحد كائنا من كان، مؤمنا أو كافرا، غنيا أو فقيرا، قريبا أو بعيدا؛ لأنه بالشهادة تؤدى الحقوق لأصحابها المشهود لهم، فإن كتم الشاهد ولم يقم شهادته ضاع حق المشهود له، وقد توعد الله من كتم الشهادة وتركها أو حرفها وغيرها، وتعمد الكذب فيها فإنه سيلقى جزاءه عند الله؛ لأن الله تعالى خبير بعمله وقصده ونيته، فيجازيه على ذلك بما يستحقه.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

قال السدي: «يعني: فاجر قلبه»، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٧٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٣٩، غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٤٤٧، روح المعاني، الألوسي ١/ ٤٢٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٤١، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٢٨٩، محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٥٦.

﴿تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]»[(١)].

وكتمان الشهادة فيه ضرر كبير على البشرية واختلال لنظامها وهي تعادل شهادة الزور الجريمة العظمة والطامة الكبرى التي كادت تعدل الإشراك بالله، والتي تهددنا في أموالنا ودمائنا وأمننا، تلكم التي أخربت بيوتًا عامرة وأزهقت أرواحًا بريئة وأهدرت حقوقًا واضحة فما فشت في أمة إلا وسادت فيها الفوضى وتحكمت فيها الأهواء، لذا وغيره من أضراره الخطرة حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم منها بقوله: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس) يقول الراوي: كان متكئًا فجلس، ثم قال: (وشهادة الزور وقول الزور) وما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[(٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك»، وبما أن الوعيد الشديد المقترن بالنهي عن الكتمان لا يكون إلا عند الدعوة إلى الشهادة لإحياء الحق، أو عند الخوف من فوات الحق، لذا كان الأمر مفيدا للوجوب عند هاتين الحالتين، وقال ابن عباس: «على الشاهد أن يشهد حيثما استشهد ويخبر حيثما استخبر، قال: ولا تقل أخبر بها عند الأمير بل أخبره بها لعله يرجع ويرعوي».

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام، أي: لا أحد أظلم، ﴿مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: موجودة ومودعة عنده ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: كتمها من الملك الأعظم، أو هي عنده منه وهو يستخبره عنها مع علمه بأنه فاضحه؛ لأنه العالم بالسرائر، ويحتمل أن يريد بذلك الذم لأهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا هودا ولا نصارى، بل كانوا على الملة الإسلامية، فظلموا أنفسهم بكتمهم لهذه الشهادة، بل بادعائهم لما هو مخالف لها، وهو أشد في الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم، الذي لا أحد أظلم منه، ويحتمل أن المراد أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم[(٣)].

وقال المفسرون: «ذكر الله تعالى على كتمان الشهادة نوعا من الوعيد لم يذكره في

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٠٧، تفسير السمعاني ١/ ٢٨٧، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهاداة، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم ٢٦٥٤، ٣/ ١٧٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر، رقم ٨٧، ١/ ٩١.

(٣) انظر: تفسير السمعاني ١/ ٢٨٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٨٨، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٢٦، فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٧٢، الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ٣/ ٢٣٣.

سائر الكبائر، وهو إثم القلب، ويقال: إثم القلب سبب مسخه، والله تعالى إذا مسخ قلبا جعله منافقا وطبع عليه، نعوذ بالله من ذلك»[1].

وإضافة الإثم إلى القلب الذي هو أشرف أعضاء البدن ورئيسها في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ تأكيد في تأكيد؛ لأن القلب محل اكتساب الآثام والأجور، والآلة التي وقع بها أداؤها لما عرف أن إسناد الفعل إلى محله أقوى من الإسناد إلى كله.

ولأنه هو محل الكتمان فهو محل المعصية بتمامها هنا، بخلاف سائر المعاصي التي تتعلق بالأعضاء الظاهرة، فإنها وإن كانت مسبوقة بمعصية القلب، وهو الهم المتصل بالفعل، فليس هو محلا لتمامها، قال صلى الله عليه وسلم: (ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[2].

وإن من صفات المؤمنين التي مدح الله تعالى أهلها وأثنى عليهم: إقامة الشهادة والقيام بها، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المعارج: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، أي: أدوها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقا، خالية من التحريف والتبديل والكتمان.

وقد نهى الله تعالى الشهداء عن الامتناع من تحمل الشهادة إذا دعوا إلى ذلك، وكذا إذا دعوا إلى إقامة الشهادة وأدائها، بل عليهم الإجابة إذا تعينت عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وتحمل الشهادة فرض كفاية على الصحيح، وكذا أداؤها فرض كفاية كما هو مذهب جمهور العلماء، وقد ثبت من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألا أخبركم بخير الشهداء؟ هو الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها)[3][4].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٠٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٨٨، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم ٥٢، ١/ ٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم ١٥٩٩، ٣/ ١٢١٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب بيان خير الشهود، رقم ١٧١٩، ٣/ ١٣٤٤.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٨٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤١٥، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٠٧، تفسير السمعاني ١/ ٢٨٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٧٢، الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن

وفي إظهار الشهادة والقيام بها حين طلبها أو عند الحاجة إليها حكم عظيمة، ومصالح عميمة، دلت على أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، بما يؤدي إلى حفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، والسعادة في الدارين والتي هي مراد كل إنسان [(١)].

٣. كتمان الحقوق.

نهى الله تعالى اليهود عن أعمالهم القبيحة من الإغواء والإضلال، وتلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وإلقاء الشبهات، وكتمانهم الحق الذي يعرفونه من أمر محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الذي نزل عليه، وإظهارهم الباطل، وإخفاء الدلائل والبينات، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به، وقد أوضح هذا المعنى في آيات من كتاب الله العزيز منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١].

فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات بعض الأخلاق القبيحة التي تميز بها علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقد كانوا جبهة تضليل للناس، وتحريف للكتاب، وتلبيس للحق [(٢)] بالباطل، وكتمانا للحق وإخفائه عن الناس.

كل ذلك عن قصد وعلم، بدافع الحسد واتباعا للأهواء، ومناصبة للعداء؛ لأن المدلس لا يؤمن جانبه، والمضلل لا يصدق، والحاسد لا يشفيه إلا زوال النعمة عن المحسود، وقد أسند هذا الكتمان وهذه الأفعال القبيحة إلى فريق منهم إذ لم يكونوا كلهم كذلك؛ فإن منهم من اعترف بالحق وآمن واهتدى به، كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وكان من علماء اليهود وأحبارهم، وتميم الداري رضي الله عنه من علماء النصارى.

ومنهم من كان يجحده عن جهل ولو علم به لجاز أن يقبله، وهذا من دقة حكم القرآن على الأمم بالعدل، وقد تنوعت أساليبهم القبيحة في كتمان الحق وإخفائه ولهم في

حجر الهيتمي ٣/ ٢٣٣.

(١) انظر: تفسير الشيخ المراغى ٣/ ٧٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٢٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٧٠.

ذلك طريقتان:

الأولى: طريقة كتمان الحق وإخفائه حتى لا يظهر، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

ومن أعظم ما كتمه أهل الكتاب هو ما وجدوه في كتبهم من صفات محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كانوا يعرفونه في كتبهم كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم إذا سئلوا عن ذلك كتموها.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

وقد كان أهل الكتاب يخفون من أحكام التوراة الشيء الكثير.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥].

ومن الأحكام التي أخفاها اليهود حكم رجم الزاني المحصن، فقد جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أن اليهود جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: (كيف تفعلون بمن زنى منكم؟) قالوا: نحممهما ونضربهما، فقال: (لا تجدون في التوراة الرجم؟) فقالوا: لا نجد فيها شيئا، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده، وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم، فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما فرجما قريبا من حيث موضع الجنائز عند المسجد، فرأيت صاحبها يحني عليها يقيها الحجارة)[(١)] [(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس)، رقم ٥٦٦، ٦/ ٣٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٥٦،

والثانية: طريقة خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران: ٧١].

كان بنو إسرائيل يخلطون الحق بالباطل، بحيث لا يتميز الحق من الباطل، وقد سجل القرآن الكريم هذا الجرم عليهم.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٠ - ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١].

وفي الحق والباطل أربعة أقوال:

أحدها: أن الحق: إقرارهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم، والباطل: كتمانهم بعض أمره.

والثاني: الحق: إيمانهم بالنبي صلى الله عليه وسلم غدوة، والباطل: كفرهم به عشية.

والثالث: الحق: التوراة، والباطل: ما كتبوه فيها بأيديهم.

والرابع: الحق: الإسلام، والباطل: اليهودية والنصرانية.

قوله تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾، قال قتادة: «كتموا الإسلام، وكتموا محمدا صلى الله عليه وسلم»[1].

ومن أبلغ الصور وأقبحها في إلباس الحق ادعاء الكهنة والأحبار في التوراة التي بأيديهم أن هارون صلى الله عليه وسلم هو الذي جمع الذهب من بني إسرائيل، واشترك معهم في صناعة العجل الذهبي، ووافقهم على عبادته من دون الله تعالى، وفي الوقت نفسه يبرئون السامري، وقرئ: (تلبسون) بالتشديد، والتشديد للتكثير، وقرأ يحيى بن وثاب: (تلبسون) بفتح الباء، أي: تلبسون الحق مع الباطل، جعل الحق كأنه ثوب لبسوه، كقوله عليه السلام: (المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)[2]، ولبس الحق بالباطل عام، وقيل هو خاص بالعقائد والأحكام[3].

وقد كان أهل الكتاب يحرفون الكلام

البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٠٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٧١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٤، التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ١٤٠.

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٩٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، المتشبع بما لم ينل، وما ينهى من افتخار الضرة، رقم ٥٢١٩، ٧/ ٣٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٥٦، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٠٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٧١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٤.

عن مواضعه وهو نوع من الخلط الذي كانوا يمارسونه: وقد أثبت الله تعالى على أهل الكتاب هذا النوع من التحريف، فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١][1].

٤. كتمان النعم.

ورد كتمان النعم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء: ٣٧].

فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية صنفا من الناس لا يحبهم، وهم المختالون الفخورون الذين من صفتهم أنهم يبخلون ويأمرون غيرهم بالبخل، وهؤلاء ضموا إلى ما وقعوا فيه من البخل الذي هو أشر خصال الشر ما هو أقبح منه، وهو أنهم مع بخلهم بأموالهم يأمرون الناس بالبخل، كأنهم يجدون في صدورهم من جود غيرهم بماله حرجا ومضاضة، وهذا غاية اللؤم، ونهاية الحمق، وقبح الطباع، وسوء الاختيار، ويخفون نعم الله التي أعطاها لهم فلا يظهرونها سواء أكانت هذه النعم نعما مالية أم علمية أم غير ذلك من نعم الله عليهم.

فالبخيل جحود لنعمة الله عليه لا تظهر عليه ولا تبين، لا في أكله ولا في ملبسه، ولا في إعطائه وبذله، فيوهمون الفقر مع الغنى، والإعسار مع اليسار، والعجز مع الإمكان، ولهذا توعدهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها، فهو كافر لنعم الله عليه، ثم إن هذا الكتمان قد يقع على وجه يوجب الكفر، مثل أن يظهر الشكاية عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاء والقدر، وهذا ينتهي إلى حد الكفر، فلذلك قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

والمراد بهذه الآية في قول ابن عباس وغيره: اليهود، فإنهم جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال، وكتمان ما أنزل الله من التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: هو فيمن كان بهذه الصفة، وفيمن كتم نعم الله وأنكرها، وذلك كفر

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٥٦، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٠٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٧١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٤.

بالله تعالى، وقيل: المراد المنافقون الذين كان إنفاقهم وإيمانهم تقية، وقيل: المرد المؤمنون، فقوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، يعني: من الرزق والمال، فيجيء على هذا أن الباخلين منفية عنهم محبة الله، والآية إذا في المؤمنين، فالمعنى: أحسنوا أيها المؤمنون إلى من سمى، فإن الله لا يحب من فيه الخلال المانعة من الإحسان إليهم من المؤمنين، وأما الكافرون فإنه أعد لهم عذابًا مهينًا، ففضل توعد المؤمنين من توعد الكافرين، بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذابًا مهينًا[1].

ولا يخفى أن اللفظ أوسع من ذلك، وأكثر شمولا، وأعم فائدة، والعبرة بالعموم لا بالخصوص كما هو معلوم عند علماء الأصول، ومما يدل على ذلك لفظ: (الذين) اسم موصول يفيد العموم فيدخل في الآية كل من اتصف بهذه الأوصاف مؤمنًا كان أو كافرًا، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، أي: أعددنا لهم ذلك ووضع المظهر موضع المضمر إشعارا بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعم الله تعالى، ومن كان كافرًا لنعمه فله عذاب يهينه كما أهان النعم بالبخل والإخفاء، ويجوز حمل الكفر على ظاهره، وذكر ضمير التعظيم للتهويل لأن عذاب العظيم عظيم، وغضب الحليم وخيم[2].

قال الإمام ابن كثير: «وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم، من صفة النبي صلى الله عليه وسلم وكتمانهم ذلك.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلا في ذلك بطريق الأولى؛ فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذا الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ٣٨].

فذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء»[3].

قال أبو بكر الجصاص: «الاعتراف بنعم الله تعالى واجب وجاحدها كافر، وأصل الكفر إنما هو من تغطية نعم الله تعالى

(١) انظر: العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر ٢/ ٨٧٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٢، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٧٤، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٥٥٠، أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١٦٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٥٢، روح المعاني، الألوسي ٣/ ٣٠.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٥١٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٠٣.

وكتمانها وجحودها، وهذا يدل على أنه جائز للإنسان أن يتحدث بنعم الله عنده لا على جهة الفخر، بل على جهة الاعتراف بالنعمة والشكر للمنعم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)[١]، فأخبر بنعم الله عنده وأبان أنه ليس إخباره بها على وجه الافتخار»[٢].

ويجوز ترك إظهار النعمة، عند من يخشى غائلته حسدا وكيدا، حتى توجد وتظهر، قال الله عز وجل في سورة يوسف: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: ٤-٥].

فأول الشمس والقمر أبويه، وأول الكواكب الأحد عشر إخوته الأحد عشر، وفهم يعقوب مزية حاله، وظهور خلاله؛ فخاف عليه حسد الإخوة الذي ابتدأه ابنا آدم، فأشار عليه بالكتمان[٣].

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق، رقم ٢٢٧٨، ٤/ ١٧٨٢.
(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١٦٣.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٢، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٩.

الكتمان يوم القيامة

ذكر الله تعالى ندامة الكفار وحسرتهم مما يرون من أهوال الموقف يوم القيامة، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، فيتمنوا أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى، أو لم يبعثوا أو لم يخلقوا وكانوا هم والأرض سواء.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤١-٤٢].

وقد ذكرت الآية أن الذين كفروا وعصوا الرسول يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتمون منه شيئا، فتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم الله جزاءهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين[٤].

ويكون معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أن ما عملوه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمانه، والمعنى يودون لو أن الأرض سويت بهم وأنهم لم يكتموا الله

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٢٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ٥١٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٠٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٩.

حديثا؛ لأنه ظهر كذبهم[1].

وما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق وشهدت عليهم جوارحهم حينئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع ولا نفع ولا فائدة[2].

قال الشنقيطي عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، «على القراءات الثلاث معناه: أنهم يتمنون أن يستووا بالأرض، فيكونوا ترابا مثلها على أظهر الأقوال، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[النبأ: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ بين في موضع آخر أن عدم الكتم المذكور هنا، إنما هو باعتبار إخبار أيديهم وأرجلهم بكل ما عملوا عند الختم على أفواههم إذا أنكروا شركهم ومعاصيهم، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥].

فلا يتنافى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، مع قوله تعالى عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقوله تعالى عنهم أيضًا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨]. وقوله عنهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [غافر: ٧٤]. للبيان الذي ذكرنا والعلم عند الله تعالى»[3].

قال سيد قطب: «وهؤلاء الكافرون المختالون الفخورون الباخلون المبخلون، الكاتمون لفضل الله، المراؤون الذين لم يبتغوا وجه الله، هؤلاء هم نكاد نراهم من خلال التعبير! واقفين في الساحة، وقد انتدب الرسول صلى الله عليه وسلم للشهادة! هؤلاء هم بكل ما أضمروا وأظهروا، بكل ما كفروا وما أنكروا، بكل ما اختالوا وما افتخروا، بكل ما بخلوا وبخلوا، بكل ما راءوا وتظاهروا، هؤلاء هم في حضرة الخالق الذي كفروا به، الرازق الذي كتموا فضله وبخلوا بالإنفاق مما أعطاهم، في اليوم الآخر الذي لم يؤمنوا به، في مواجهة الرسول الذي عصوه.. فكيف؟؟؟ إنها المهانة والخزي، والخجل والندامة، مع الاعتراف حيث لا جدوى من الإنكار»[4].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٢٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٠٧.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) انظر: أضواء البيان ١/ ٢٤١.

(٤) انظر: في ظلال القرآن ٢/ ٦٦٢.

عاقبة الكتمان

أولًا: عاقبة الكتمان المحمود:

إن كتمان السر المحمود عاقبته محمودة سواء في الدنيا أو في الآخرة، ومن أهم عواقب كتمان السر ما يأتي:

١. كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح، وأدوم لأحوال الصلاح، وخير معين على قضاء الحاجات ودفعا للحسد والمكر وغيرها من الآفات والمخاطر التي تنتج عن إفشاء الأسرار والإعلان بها، وفي ذلك تظهر الحكمة والغاية التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم الناس بقوله: (استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود)[١]،[٢].

٢. من كتم ذنبه وستره عن الناس فإنه يصون نفسه من المهانة والمذلة واستخفاف الناس. وإذا كان ذنبًا يوجب الحد سقطت عنه المطالبة في الدنيا، ويستره الله في الآخرة[٣]. لما رواه صفوان بن محرز: أن رجلا سأل ابن عمر رضي الله عنه: كيف سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى؟ قال: (يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا، فيقول: نعم، فيقرره، ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا، فأنا أغفرها لك اليوم)[٤]. وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه)[٥]. فقد مدح من يكتم ذنبه ويستتر وإن ستر الله مستلزم لستر المؤمن على نفسه، فمن قصد إظهار المعصية والمجاهرة بها أغضب

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٢٤٥٥، ٣/ ٥٥، وأبو بكر البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٦٢٢٨، ٩/ ٣٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٤٥٣، ٣/ ٤٣٩.

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣٠٦.

(٣) انظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال ٩/ ٢٦٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم ٦٠٧٠، ٨/ ٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم ٦٠٦٩، ٨/ ٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٩٩٠، ٤/ ٢٢٩١.

ربه فلم يستره، ومن قصد التكتم والتستر حياء من ربه ومن الناس من الله عليه بستره إياه[1].

٣. من كتم ذنب أخيه وستره عليه ولم يظهره فإنه مأجور بستره في الدنيا والآخرة، فيستره في الدنيا بأن لا يأتي زلة يكره اطلاع غيره عليها، وإن أتاها لم يطلع الله عليها أحدا، وستره في الآخرة بالمغفرة لذنوبه وعدم إظهار قبائحه وغير ذلك[2]، وذلك لما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة)[3].

٤. كتمان السر بين الزوجين يعتبر من الأسباب الرئيسة في ديمومة الحياة الزوجية واستقرارها، ودفع الأضرار الناجمة على الفرد والمجتمع والأسرة الناجمة عن إفشاء الأسرار الاجتماعية، وقد عالج القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: ٣-٥].

٥. كتم الأسرار من أهم العوامل التي تساعد على تماسك المجتمع المسلم. ويعمل على تقوية العلاقة الاجتماعية، وتوثيق عرى المحبة بين الإنسان ومن يكتم عليه سره، فقد ورد التحذير من إفشاء الأسرار؛ لأن المجالس تعقد بالأمانة على ما يجري فيها من أمور، فيجب على الجالس أن يحفظ أسرارها، ولا يحل له أن يفشي عن إخوانه ما لا يحبون أن يخرج عنهم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة)[4].

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٨٨.
(٢) انظر: سبل السلام، الصنعاني ٢/ ٦٣٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم ٢٤٤٢، ٣/ ١٢٨، و مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٠، ٤/ ١٩٩٦.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء أن المجالس أمانة، رقم ١٩٥٩، ٤/ ٣٤١، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في نقل الحديث، رقم ٤٨٦٨، ٤/ ٢٦٧. والحديث حسنه الترمذي، والألباني في

وفي الجملة فإن في كتمان السر العاقبة المحمودة والآمنة في الدنيا والآخرة، ويعتبر كتمان السر المحمود من جملة العبادات، ومن المبادئ الأخلاقية والاجتماعية الإسلامية الأصيلة.

[انظر: السر: أثر إفشاء السر على الفرد والمجتمع]

ثانيًا: عاقبة الكتمان المذموم:

يمكن ملاحظة واستخراج عاقبة الكتمان المذموم من الآيات الواردة في الكتمان المذموم على النحو الآتي:

١. العذاب الأليم في النار، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤].

٢. استحقاق اللعنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

٣. عاقبة الكتمان المذموم هي عاقبة الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

٤. عاقبة الكتمان المذموم هو الفجور، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٥. أن عاقبة الكتمان المذموم هو الكفر، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء: ٣٧].

٦. أن عاقبة الكتمان المذموم هو الذم والاحتقار والإهانة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

٧. أن عاقبة الكتمان المذموم هو تمني الهلاك والدمار، قال جل شأنه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤٢].

موضوعات ذات صلة:

السر، العلن، النجوى

صحيح الجامع، رقم ٤٨٦، ١/ ١٤٦.

الكذب

عناصر الموضوع

مفهوم الكذب	٢٠٦
الكذب في الاستعمال القرآني	٢٠٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٠٨
التنفير من الكذب	٢١٠
مظاهر الكذب وميادينه	٢١٨
عواقب الكذب وآثاره	٢٣٣

مفهوم الكذب

أولًا: المعنى اللغوي:

مادة كذب: الكاف والذال والباء أصلٌ صحيحٌ يدل على خلاف الصدق. وتلخيصه أنه لا يبلغ نهاية الكلام في الصدق، كذب يكذب كذبًا. وكذبت فلانًا: نسبته إلى الكذب، وأكذبته: وجدته كاذبًا. ورجلٌ كذابٌ وكذبةٌ، وأكذب نفسه وكذبها بمعنى اعترف بأنه كذب[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «هو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع، سواء بالقول، أو بالإشارة، أو بالسكوت»[2]. وقال الكفوي: «الكذب: كل خبر مخبره على خلاف ما أخبره فهو كذب»[3].

ولما كان الصدق والكذب مما توصف به الأقوال، فإن كل دلالة مقصودة إما أن تكون دلالته صادقة، وإما أن تكون دلالته كاذبة، فالصدق ما وافق الحقيقة، والكذب ما خالف الحقيقة، وكذلك الحركات التعبيرية الكاذبة، كإشارات اليد والعين والحاجب والرأس، هي التي تكون دلالتها مخالفة للحقيقة والواقع، فكم من إشارة فعلية تقوم مقام القول في دلالتها[4].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٦٨، المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٥٢٨.
(٢) التعريفات، ص٧٤، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٩٥٢.
(٣) الكليات، ص٧٤٢.
(٤) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٥٣٠.

الكذب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كذب) في القرآن الكريم (٢٨٢) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٢٧	﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر:٦٠]
الفعل المضارع	٦٠	﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون:١٠٥]
المصدر	٣٦	﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨]
اسم الفاعل	٣٥	﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت:٣]
صيغة المبالغة	٥	﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر:٢٥-٢٦]
اسم المفعول	١	﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥]

وجاء الكذب في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: الإخبار بالأمر على غير ما هو عليه، نقيض الصدق، ولا يكون بالقصد الأول إلا في القول، ويكون أيضًا في غيره، ويلزم منه الإنكار والجحود وخلف الوعد والنفاق وغيرها من لوازم الكذب[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٩٨-٦٠٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص١٠١٤-١٠١٩.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٧٠٤-٧١١، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٠١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٣٣٨-٣٤٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزور:

الزور لغةً:

قال ابن فارس: «الزاء والواو والراء: أصلٌ واحدٌ يدل على الميل والعدول. من ذلك الزور: الكذب؛ لأنه مائلٌ عن طريقة الحق. ويقال: زور فلانٌ الشيء تزويرًا. حتى يقولون :زور الشيء في نفسه: هيأه؛ لأنه يعدل به عن طريقةٍ تكون أقرب إلى قبول السامع»[١].

الزور اصطلاحًا:

هو تحسين الشيء، ووصفه بخلاف صفته، حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه أنه خلاف ما هو به[٢].

الصلة بين الزور والكذب:

أن الكذب هو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع، سواء بالقول أو بالإشارة، أما الزور فهو الكذب الذي قد سوي وحسن في الظاهر؛ ليحسب السامع أنه قد صدق[٣].

٢ الافتراء:

الافتراء لغةً:

الفرية: الكذب. فرى كذبًا فريًا وافتراه: اختلقه. ورجلٌ فريٌّ ومفرًى وإنه لقبيح الفرية[٤].

الافتراء اصطلاحًا:

هو: اختراع قضية لا أصل لها، أو هو «العظيم من الكذب»[٥].

الصلة بين الكذب والافتراء:

الكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع، سواء بالقول أو بالإشارة. والافتراء: أخص منه؛ لأنه الكذب في حق الغير بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنه قد يكون في حق المتكلم نفسه، و أيضًا قد يحسن الكذب في بعض الوجوه، بخلاف الافتراء[٦].

---

(١) مقاييس اللغة، ٣/ ٢٦.
(٢) جامع البيان ١٩/ ٣١٤.
(٣) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ١٥٤.
(٥) انظر: مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٧، الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص١٥٤.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٥٠.

٣ الإفك:

الإفك لغةً:

أفك إفكًا وأفوكًا: كذب، وأفك فلانًا: جعله يكذب، وحرمه مراده[١].

الإفك اصطلاحًا:

أعظم الكذب، وكل شيء في القرآن إفك فهو كذب[٢].

الصلة بين الكذب والإفك:

أن الكذب هو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع، سواء بالقول أو بالإشارة، والإفك هو الكذب الفاحش القبح مثل: الكذب على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، أو على القرآن، ومنه أيضًا قذف المحصنة، وغير ذلك مما يفحش قبحه[٣].

٤ البهتان:

البهتان لغة:

مشتقٌ من بهت الرجل يبهته بهتًا وبهتانًا فهو بهات، أي: قال عليه ما لم يفعله، فهو مبهوتٌ، والبهتان: افتراءٌ[٤].

البهتان اصطلاحًا:

هو الافتراء على الغير، وهو: الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه؛ لأنه يبهت من ينقل عنه[٥].

وقيل: هو كذب يبهت سامعه ويدهشه ويحيره؛ لفظاعته، وقال أبو البقاء: «سمي به؛ لأنه يبهت أي: يسكت؛ لتخيل صحته، ثم ينكشف عند التأمل»[٦].

الصلة بين الكذب والبهتان:

أن الكذب هو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع، سواء بالقول أو بالإشارة، أما البهتان فهو مواجهة الإنسان بما لم يحبه، وعلى وجه المكابرة له[٧].

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٣١.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٥٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٤٥١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٠٠.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٨.
(٦) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٨٤، الكليات، الكفوي ص ٢٢٦.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٥٠.

التنفير من الكذب

نفر القرآن الكريم من الكذب حيث قرنه بأوصاف تحمل أكبر معاني القبح، وهذا ما سنتناوله فيما يأتي:

أولًا: التلازم بين الكذب والكفر، والنفاق، والظلم، والاستكبار:

١. التلازم بين الكذب والكفر.

قرن سبحانه وتعالى بين الكذب والكفر في مواضع من كتابه الكريم مما يدل على أن سجية الكافرين الكذب والتكذيب، ومخالفة الحق، قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩].

واختلفت هذه الآية عن سابقتها حيث ذكرت أن التكذيب عمهم حتى صار كالوعاء لهم «وفيها إشارةٌ إلى أن إحاطة التكذيب بهم إحاطة الظرف بالمظروف لا يترك لتذكر ما حل بأمثالهم من الأمم مسلكًا لعقولهم»[(١)].

وذكر سبحانه أن الذين جمعوا بين الكفر والكذب يلازمون النار، هم فيها خالدون لا يخرجون منها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ١٠].

وأخبر سبحانه أن الذين جحدوا وحدانيته وكذبوا رسوله وأنكروا آيات القرآن، لهم عذاب يخزيهم ويهينهم في جهنم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الحج: ٥٧].

وأخبر سبحانه أن الذين كفروا بالله وكذبوا بما جاءت به الرسل وأنكروا البعث بعد الموت في العذاب مقيمون؛ جزاء ما كذبوا به في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

٢. التلازم بين الكذب والنفاق.

أخبر سبحانه عن التلازم بين الكذب والنفاق، مما يدل على أن سجية المنافقين الكذب والتكذيب:

قال تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

«وهم منافقو الأعراب الذين ما جاءوا وما اعتذروا، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان.

وقرأ أبيٌّ: ﴿كَذَّبُوا﴾ بالتشديد ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٣٠/ ٢٥٢.

في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار، وإنما قال: ﴿مِنْهُم﴾؛ لأنه تعالى كان عالمًا بأن بعضهم سيؤمن ويتخلص عن هذا العقاب، فذكر لفظة (من) الدالة على التبعيض»[1].

وقد أخبر سبحانه أن إخلاف الوعد والكذب هما سبب تمكن النفاق من قلوب المنافقين، قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (آية المنافق ثلاثٌ: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[2]. والنفاق المقصود هنا: هو نفاق العمل، وليس نفاق اعتقادي، كما قال أهل العلم[3].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

ولقد شهد الله سبحانه على المنافقين بالكذب وتكفي هذه الشهادة، قال تعالى - في سياق الحديث عن مسجد الضرار ومقصد المنافقين منه، أنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخير والرفق بالمسلمين والتوسعة على الضعفاء العاجزين عن السير إلى مسجد (قباء)، والله يشهد إنهم لكاذبون فيما يحلفون عليه-: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وقال تعالى في سياق إخبار الله عما تكنه صدور المنافقين للرسول أنهم كاذبون فيما أظهروه من شهادتهم لك بالرسالة، وحلفوا عليه بألسنتهم، وأضمروا الكفر به، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

٣. التلازم بين الكذب والظلم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٢٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣.
(٣) نقل النووي في شرحه على مسلم ٢/ ٤٧ عن الترمذي قوله: إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل.

﴿غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

أي: «لا أظلم ممن تقول على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته»[(١)].

ثم قضى سبحانه في حكمه أن الظالمين لا يفلحون، أي: «لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا والآخرة، بل يبقون في الحرمان والخذلان، ونفى الفلاح عن الظالم فدخل فيه الأظلم، والظالم غير الأظلم وإذا كان هذا لا يفلح فكيف يفلح الأظلم؟!»[(٢)].

«والظلم هنا كناية عن الشرك. في صورة التفظيع له والتقبيح. وهو التعبير الغالب في السياق القرآني عن الشرك. وذلك حين يريد أن يبشع الشرك وينفر منه. ذلك أن الشرك ظلم للحق، وظلم للنفس، وظلم للناس. هو اعتداء على حق الله سبحانه في أن يوحد ويعبد بلا شريك. واعتداء على النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار. واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق، وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء، ومن ثم فالشرك ظلم عظيم، كما يقول عنه رب العالمين. ولن يفلح الشرك ولا المشركون.

والله سبحانه يقرر الحقيقة الكلية ويصف الحصيلة النهائية للشرك والمشركين -أو للظلم والظالمين- فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر في الأمد القريب فلاحًا ونجاحًا، فهذا هو الاستدراج المؤدي إلى الخسار والبوار، ومن أصدق من الله حديثًا؟!»[(٣)].

ثم أخبر سبحانه أنه لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم؛ لعدم توجههم إليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

قال ابن عاشور رحمه الله: «وإنما كانوا أظلم الناس؛ لأنهم ظلموا الرسول صلى الله عليه وسلم بنسبته إلى ما ليس فيه؛ إذ قالوا: هو ساحرٌ، وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخوا لها النجاة، فيعرضوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم على النظر الصحيح

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٤٥
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٤٦٣.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٠٦٣.

حتى يعلموا صدقه، وظلموا ربهم؛ إذ نسبوا ما جاءهم من هديه وحجج رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ما ليس منه فسموا الآيات والحجج سحرًا، وظلموا الناس بحملهم على التكذيب وظلموهم بإخفاء الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل مثبتةً صدق رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وكمل لهم هذا الظلم بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيعلم أنه ظلمٌ مستمرٌ»[1].

٤. التلازم بين الكذب والاستكبار.

قرن سبحانه في كتابه بين الكذب والاستكبار في مواضع من آياته؛ لأن من كذب بالشيء نأى بنفسه عن اتباعه فهما متلازمان الكذب والاستكبار.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

«والاستكبار عن الآيات هو رفض قبولها كبرًا وعنادًا لمن جاء بها أن يكون إمامًا متبوعًا للمستكبرين؛ لأنهم يرون أنفسهم فوقه، أو أقوامهم فوق قومه، أو يحبون أن يروا الناس ويوهموهم ذلك، فرؤساء قريشٍ المستكبرون منهم من كان يرى من الضعة والمهانة أن يكون مرءوسًا للنبي صلى الله عليه وسلم نفسه؛ لأنهم أكثر منه مالًا وأعز نفرًا أو أكبر سنًا، فيرون أنهم أحق بالرياسة -وكان من هؤلاء بعض عشيرته بني هاشمٍ- ومنهم من كان يستكبر أن يتبع رجلًا من بني هاشمٍ كأبي جهلٍ وأبي سفيان وآخرين، مات بعضهم على الكفر ودان بعضهم بالإسلام بعد ظهوره، ولم يكن في غير قريشٍ من العرب من يستكبر أن يتبع رجلًا منهم إلا بالتبع؛ لعدم اتباعهم هم له، ولكن أحبار اليهود استكبروا عن اتباعه؛ لأنه عربيٌ، وهم يرون أن النبوة يجب حصرها فيهم، وكذلك أمراء المجوس ورؤساء دينهم؛ إذ كانوا يحتقرون العرب كافةً إلا من هدى الله من الفريقين، ولا يزال بعض الشعوب يأبى الاهتداء بالإسلام استكبارًا عن اتباع أهله»[2].

ثانيًا: الوعيد بالعذاب على الكاذب:

اقتضت حكمة الله وعدله بين عباده أن يعاقب المكذب في الدنيا والآخرة -إن لم يتب- وأخبر في مواضع من كتابه بوعيد الكاذبين والذي منه:

١. الإقامة في العذاب.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٨٨.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٦٥.

بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

«ومحضرون: يجوز أن يكون من الإحضار، أي: جعل الشيء حاضرًا، أي: لا يغيبون عنه، أي: لا يخرجون منه، وهو يفيد التأبيد بطريق الكناية؛ لأنه لما ذكر بعد قوله في العذاب ناسب أن لا يكون المقصود من وصفهم المحضرين أنهم كائنون في العذاب؛ لئلا يكون مجرد تأكيدٍ بمدلولٍ في الظرفية، فإن التأسيس أوقع من التأكيد.

ويجوز أن يكون محضرون بمعنى: مأتيٌّ بهم إلى العذاب فقد كثر في القرآن استعمال محضرٍ ونحوه، بمعنى: معاقبٍ»[1].

٢. ملازمون للعذاب.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ١٠].

٣. العذاب في الجحيم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩].

٤. العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٧].

«أي: لهم عذابٌ مشتملٌ على ما فيه مذلتهم كالضرب بالمقامع ونحوه»[2].

ثالثًا: اللعن على الكاذبين:

أخبر سبحانه وتعالى في كتابه الكريم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقال: من جادلك -أيها الرسول- في المسيح عيسى ابن مريم من بعد ما جاءك من العلم في أمر عيسى عليه السلام، فقل لهم: تعالوا نحضر أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نتجه إلى الله بالدعاء أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين في قولهم، المصرين على عنادهم.

كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وأخبر سبحانه وتعالى أن الذين كذبوا على ربهم في الدنيا قد سخط الله عليهم، ولعنهم لعنة لا تنقطع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٦٤.

(٢) المصدر السابق ١٧/ ٣١٠.

﴿الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الخلائق من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، روى البخاري بسنده عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذًا بيد ابن عمر إذ عرض له رجلٌ قال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول: (إن الله عز وجل يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾)[1].

رابعًا: نفي الفلاح عن المكذبين:

أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الذين يفترون على الله الكذب باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه، أنهم لا ينالون مطلوبهم في الدنيا ولا في الآخرة ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

«والفلاح عبارةٌ عن الوصول إلى المقصود والمطلوب، فمعنى أنه لا يفلح هو أنه لا ينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر، ومن الناس من إذا فاز بشيءٍ من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة، ظن أنه قد فاز بالمقصد الأقصى، والله سبحانه أزال هذا الخيال بأن قال: إن ذلك المقصود الخسيس ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ في الدنيا، ثم لا بد من الموت، وعند الموت لا بد من الرجوع إلى الله، وعند هذا الرجوع لا بد من أن يذيقه العذاب الشديد»[2].

فالمكذبون: «لا يفلحون أي فلاح، لا يفلحون في شعب ولا طريق. لا يفلحون في الدنيا ولا في الأخرى. والفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع، وتنمية الحياة، ودفعها إلى الأمام. وليس هو مجرد الإنتاج المادي مع تحطم القيم الإنسانية، ومع انتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية، فذلك فلاح ظاهري موقوت، منحرف عن خط الرقي الذي يصل بالبشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم: باب قول الله تعالى: (ألا لعنة الله على الظالمين)، رقم ٢٤٤١.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٨٢.

الاكتمال»[1].

وبعد أن أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بإخبار المشركين أنهم لا يفلحون، أعقب ذلك في سورة النحل بخطاب للمشركين؛ ليقرر أن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ ما يأمره الله به فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

«نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، مما كان شرعًا لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعةً ليس له فيها مستندٌ شرعيٌّ، أو حلل شيئًا مما حرم الله، أو حرم شيئًا مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه.

و(ما) في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مصدريةٌ، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاعٌ قليلٌ، وأما في الآخرة فلهم عذابٌ أليمٌ»[2].

وبعد هذا النص، كيف يجرؤ ناس على التشريع بغير إذن من الله، وبغير نص في شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين؟ اوهل ينتظر هؤلاء أن يكون لهم فلاح في هذه الأرض أو عند الله؟ كلا بنص كتاب الله.

خامسًا: الاعتبار بعاقبة المكذبين:

أمر الله سبحانه بالنظر والتأمل في عاقبة المكذبين؛ للاعتبار والاتعاظ، وهذا الاعتبار والاتعاظ يحتاجه الرسول صلى الله عليه وسلم ليثبت فؤاده على طريق الدعوة، ويحتاجه المؤمنون كذلك، ويحتاجه المكذبون أنفسهم؛ ليرتدعوا وينزجروا عن تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

فأمر الله عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم بـ﴿قُلْ﴾ التلقينية - الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم مبلغ من قبل الله- أن يأمر المشركين بالسير في الأرض؛ للاعتبار بما حدث للمكذبين قبلهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

«يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأنداد المكذبين بك الجاحدين حقيقة ما جئتهم به من عندي:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٨٠٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢٣.

جولوا في بلاد المكذبين رسلهم الجاحدين آياتي من قبلهم من ضربائهم وأشكالهم من الناس ﴿ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ﴾ أعقبهم تكذيبهم ذلك الهلاك والعطب وخزي الدنيا وعارها، وما حل بهم من سخط الله عليهم من البوار وخراب الديار وعفو الآثار. فاعتبروا به، إن لم تنهكم حلومكم، ولم تزجركم حجج الله عليكم، عما أنتم مقيمون عليه من التكذيب، فاحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحل بكم مثل الذي حل بهم»[1].

وأمر سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينظر بتأمل وتفكر كيف كان عاقبة من كذبوا بآيات الله ورسله؟ ليحذر قومه أن يستمروا على تكذيبهم، فيصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم، قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

ثم أمر سبحانه وتعالى المشركين بنفس ما أمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم -تأكيدًا على أنه مبلغ عن ربه- أن يمشوا في الأرض؛ ليبصروا بأعينهم كيف كان مآل المكذبين قبلهم؟ وماذا حل بهم من دمار؟ ليعتبروا ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم خاطب سبحانه وتعالى المؤمنين لـما أصيبوا يوم أحد تعزية لهم بأنه قد مضت من قبلكم أمم، ابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين فكانت العاقبة لهم، فسيروا في الأرض معتبرين بما آل إليه أمر أولئك المكذبين بالله ورسله، فقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

فإن قيل: ما الفرق بين قوله ﴿فَانظُرُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وبين قوله: ﴿ثُمَّ انظُرُوا﴾؟

قال الرازي رحمه الله: «قوله: ﴿فَانظُرُوا﴾ يدل على أنه تعالى جعل النظر سببًا عن السير، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين.

وأما قوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴾ [الأنعام: ١١].

فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ثم نبه الله تعالى على هذا الفرق بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لتباعد ما بين الواجب والمباح»[2].

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ١٦٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٨٨.

مظاهر الكذب وميادينه

ذكر القرآن الكريم للكاذبين مظاهر إذا رآها الناس أشاروا إلى أصحابها وقالوا: هذا الذي حكى عنه القرآن فاحذروه، من هذه المظاهر ما يلي:

الكذب على الله والتكذيب بآياته والتكذيب بكتبه ورسله واليوم الآخر:

أولًا: الكذب على الله:

قال تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤].

قال الراغب رحمه الله: «الافتراء والاختلاق: افتعال للكذب الذي لا أصل له، من افتراء الأديم واختلاقه. والكذب ضربان: اختراع قصة لا أصل لها وزيادة، أو تغيير فيما له أصل. والأول: أعظمهما، والمفترى عليه ضربان: رفيع ووضيع. فالمفتري على الرفيع أعظم ذنبًا، ثم المفتري له ضربان: عارف بالفرية. وجاهل بها، فالمفتري العارف بالفرية أوقحهما وجهًا، فبين الله تعالى بالآية أنهم اختلقوا الكذب على الله تعالى، الذي يعلم السر وأخفى، وفعلوا ذلك بعد أن أطلع الله الناس على كذبهم»[(١)].

وبين سبحانه وتعالى أن متخذي ذلك في نهاية الظلم في مواضع من كتابه:

من أعظم صور الظلم الكذب على الله: أنه لم يبعث رسولًا من البشر، أو ادعى كذبًا أن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، أو ادعى أنه قادر على أن ينزل مثل ما أنزل الله من القرآن.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد اختلف في سبب نزولها:

فعن عكرمة رحمه الله: «إنها نزلت في مسيلمة أخي بني عدي بن حنيفة فيما كان يسجع ويتكهن به»[(٢)].

وعن السدي رحمه الله: «نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح خاصة»[(٣)].

ويرى الطبري رحمه الله: «أنه لا تمانع بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال: إني قد قلت مثل ما قال محمد، وأنه ارتد عن إسلامه ولحق بالمشركين، فكان لا شك بذلك من قوله مفتريًا كذبًا، وكذلك

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٧٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٧٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٧٣، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٠٢٠.

لا خلاف بين الجميع أن مسيلمة والعنسي الكـذابين ادعيا على الله كذبًا أنه بعثهما نبيين وقال كل واحد منهما: إن الله أوحى إليه. وهو كاذب في قوله، فإذا كان كذلك فقد دخل في هذه الآية كل من كان مختلقًا على الله كذبًا، وقائلًا في ذلك الزمان وفي غيره أوحى الله إلي وهو في قوله كاذب لم يوح الله إليه شيئًا، فأما التنزيل فإنه جائز أن يكون نزل بسبب بعضهم وجائز أن يكون نزل بسبب جميعهم»[1].

ومن صور الكذب التحليل والتحريم، بحسب الأهواء، لا بحسب الشرع المنزل من عند الله، ولهذا عنف الله عز وجل الكفار حين ادعوا أن ما شرعوه من عند أنفسهم هو الشرع الذي أوحى به الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦- ١١٧].

فالآية خطاب للكفار الذين حرموا البحيرة والسائبة، وأحلوا ما في بطون الأنعام، فليس كلامهم كذبًا فقط، بل يصفه، فمن لا يعرف الكذب فليعرفه من كلام هؤلاء، وتحليلهم وتحريمهم كذب وافتراء على الله عز وجل؛ لأنه وحده صاحب التحليل والتحريم، فإن انطلى كذبهم على بعض الناس فأخذوا من ورائه منفعة عاجلة، فعما قليل سيفتضح أمرهم وينكشف كذبهم وتنقطع مصالحهم بين الخلق، وذلك أن الله أمرهم بخلاف ما قالوا فهم يكذبونه يحللون ويحرمون من غير تحليل الله وتحريمه، ويجعلون ذلك من الشرع[2].

ويصف الله عز وجل ما يأخذه هؤلاء من دنياهم بالكذب والافتراء على الله ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ زائل، سيحرمون من المتاع الكثير الدائم الذي قال الله عنه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

ليس هذا فقط بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والذين هادوا: هم اليهود، عاقبهم الله عز وجل بتحريم هذه الأشياء، مع أنها حلال في ذاتها، وهذا تحريم خاص بهم[3].

«وقد كان السلف الصالح يتجنبون قول: هذا حلال وهذا حرام إذا كان باجتهاد، وإنما يقولون: أكره هذا أو يستحب هذا»[4].

ومن صور الكذب على الله: الافتراء على الله أنه حرم بعض الأنعام وحلل بعضها

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٧٤، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢٢٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٩٦.

(٣) انظر: تفسير مجاهد ١/ ٣٥٤، الدر المنثور، السيوطي ٥/ ١٧٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٩٦. وانظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٣٢٥.

تقولًا عليه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ومن صور التكذيب على الله: نسبة الشريك إليه في عبادته.

قال تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

ثانيًا: التكذيب بآيات الله:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

أي: والذين كذبوا منكم بآياتنا التي تقص ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ ولم يقبلوها، أولئك هم الخالدون في النار؛ لتكذيبهم واستكبارهم[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٤-٥].

أي: إن المشركين المكذبين المعاندين مهما أتتهم من دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام فإنهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها[(٢)].

«وإنهم لما أعرضوا عن القرآن وكذبوا به فكيف لا يعرضون عن غيره؟!»[(٣)] مع أنه أعظم آية وأكبرها، بدليل أنهم تحدوا به فعجزوا عنه حين جاءهم، وتكذيبهم فيه دلالة على قلة خوفهم وتقديرهم للعواقب[(٤)].

وسوف يعاقبون على تكذيبهم وما وقع منهم من الاستهزاء، وفي لفظ الأنباء: إيذان بغاية العظم لما أن النبأ لا يطلق إلا على خبر عظيم الوقع، أي: سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة[(٥)].

وهذه رتب ثلاث صدرت من هؤلاء الكفار: الإعراض عن تأمل الدلائل، ثم

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٨، روح المعاني، السيوطي ٨/ ١١٥.

(٢) انظر: تفسير القران العظيم، ابن كثير ٢/ ١٦٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٣٩٢.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٩٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١١٠.

(٤) انظر: الأساس في التفسير، سعيد حوى ٣/ ١٥٧٨.

(٥) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٩٢.

أعقب الإعراض التكذيب، وهو أزيد من الإعراض، إذ المعرض قد يكون غافلًا عن الشيء، ثم أعقب التكذيب الاستهزاء، وهو أزيد من التكذيب، إذ المكذب قد لا يبلغ إلى حد الاستهزاء، وهذه هي المبالغة في الإنكار[1].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله عز وجل بأن له ولدًا وشريكًا، أو كذب بالتوحيد والقرآن، فلا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله وكذب بالقرآن؛ ولهذا جاء الوعيد لهم سريعًا[2].

ثالثًا: التكذيب بالكتب:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢].

يقول تعالى: لا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق والباطل، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، وكذبوا بالقرآن أو بجنس الكتب السماوية وبما أرسلنا به رسلنا من سائر الكتب أو الوحي والشرائع.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد من الرب جل جلاله لهؤلاء[3]، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١].

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣ - ٤٤].

يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير والتهكم والاستهزاء بهم[4].

ثم توعد من كذب بالقرآن فقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

يعني: القرآن، وهذا تهديدٌ شديدٌ أي: دعني وإياه مني ومنه أنا أعلم به منه كيف أستدرجه وأمده في غيه وأنظر ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر[5].

«وهو تهديد مزلزل، والجبار القهار

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٢٨.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٢٧، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٦/ ٥١٢-٥١٣، التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل ص١١٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١١٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٠١.
(٤) انظر: إعجاز القرآن، الباقلاني ١/ ١١، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٠١.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢١٧.

القوي المتين يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: خل بيني وبين من يكذب بهذا الحديث. وذرني لحربه فأنا به كفيل، ومن هو هذا الذي يكذب بهذا الحديث؟

إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف! هذه النملة المضعوفة. بل هذه الهباءة المنثورة، بل هذا العدم الذي لا يعني شيئًا أمام جبروت الجبار القهار العظيم فيا محمد خل بيني وبين هذا المخلوق. واسترح أنت ومن معك من المؤمنين. فالحرب معي لا معك ولا مع المؤمنين. الحرب معي. وهذا المخلوق عدوي، وأنا سأتولى أمره فدعه لي، وذرني معه، واذهب أنت ومن معك فاستريحوا! أي هول مزلزل للمكذبين؟! وأي طمأنينة للنبي والمؤمنين المستضعفين؟!»[1].

رابعًا: تكذيب الرسل:

١. تكذيب قوم نوح.

أخبر سبحانه وتعالى في كتابه أن قوم نوح كذبوه، فكانوا بهذا مكذبين لجميع الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

ومن صور تكذيبهم:

- أنهم قالوا: إنه افترى هذا الكلام من عند نفسه قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].
- اتهموه بالجنون -حاشاه-: قال تعالى حكاية عن قومه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥]. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].
- الاستكبار وعدم طاعته والصد عن الإيمان لما يدعوا له: قال تعالى: ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].
- إن دعوته ليست صادقة وإنما يريد الرئاسة والتسلط عليهم، وأنهم لم يسمعوا بمثل هذه الدعوة من قبل: قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].
- الأنفة والتعالي عن الدخول في دعوته؛ لأن أول الذين آمنوا بدعوته هم من الفقراء والضعفاء، وقد جعلوه مانعًا من الإيمان، قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٦٨.

﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وهم يعنون بالأرذلين الفقراء، وهم السابقون إلى إجابة الرسل والرسالات، وإلى الإيمان والاستسلام، لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغ ولا خوف على مصلحة أو مكانة، والكبراء دائما يقولون عن الفقراء: إن عاداتهم وأخلاقهم لا ترضي العلية من القوم، ولا تطاق في أوساط الطبقة الراقية، فنوح يقول لهم: إنه لا يطلب إلى الناس شيئًا إلا الإيمان، وقد آمنوا، فأما عملهم فموكول إلى الله، وهو الذي يزنه ويقدره ويجزيهم على الحسنات والسيئات، وتقدير الله هو الصحيح[(١)].

٢. تكذيب قوم هود.

أخبر سبحانه وتعالى في كتابه أن قوم نوح كذبوه، فكانوا بهذا مكذبين لجميع الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل؛ ولاتحاد دعوتهم في أصولها وغايتها، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

ومن صور تكذيب قوم هود:

- تكذيب الرسول فيما يدعي واتهامه بالسفاهة والافتراء: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]. وإنما وصف الملأ بالكفر، إذ لم يكن كلهم على الكفر كملأ قوم نوح، بل كان منهم من آمن به عليه السلام، ولكن كان يكتم إيمانه كمرثد بن سعد ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي: متمكنًا في خفة عقل راسخًا فيها، حيث فارقت دين آبائك فيما ادعيت من الرسالة[(٢)].
- جحود آيات الله وعصيانهم لرسله؛ لأن من كذب برسول من الرسل فقد كفر بجميع الرسل[(٣)]، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩].
- التمسك بالآلهة التي تعبد من دون الله عز وجل والدفاع عنها والمجادلة عنها بالباطل قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]. وقوله تعالى: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١].
- انغماسهم في الملذات والركون إلى الحياة الدنيا وإنكارهم لما بعد الموت

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٦٠٧ - ٢٦٠٨.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣١٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٤٩، روح المعاني، الألوسي ٨/ ١٥٥.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]. أي: أنتم مغبونون بترككم آلهتكم من غير فضيلة له عليكم؛ فإنه يأكل ويشرب كما تأكلون وتشربون[(١)].

- إتباعهم المجرمين العتاة المتكبرين، وارتكابهم الجرائم والبطش بالضعفاء وضربهم بالسياط[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]. والمعنى: «إنكم قساة غلاظ إذا سلطتم على من هو دونكم في القوة كان بطشكم بهم بطش جبابرة، لا ترعون له عهدًا ولا تعملون لجواره حسابًا، وما أقرب ذلك الوصف الذي يصف الله به نبي الله هود قومه عاد إلى غلاة المستعمرين، ودول الحضارة اليوم إذا سلطهم الله على شعب من الشعوب بطشوا به بطش الجبابرة، وأذاقوه العذاب ألوانًا فيتموا الأطفال وسبوا النساء، وهتكوا الحرمات، ومزقوا المصاحف وقتلوا الأبرياء»[(٣)].

٣. تكذيب قوم فرعون لموسى وهارون عليهما السلام.

أخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل موسى وهارون إلى فرعون وقومه، فكذبوهما فيما جاء به، فكانوا من المهلكين بالغرق في البحر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٨].

ومن صور تكذيب قوم فرعون:

- الافتراء على الله الكذب: قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]. ومعنى يسحتكم: يستأصلكم[(٤)]، أي: لا تفتروا على الله الكذب فيبيدكم، ولن ينفعكم الكذب؛ لأن عاقبته خيبةٌ وخسران[(٥)].
- جحود الآيات ظلما وتكبرًا مع العلم بصدق ما جاء به موسى عليه السلام

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٤٧١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١١٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٨.
(٣) دعوة الرسل إلى الله تعالى، محمد العدوي ص٢٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤١.
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٥، اليهود في القرآن، عبد الفتاح طبارة ص١٩٢.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

- التكذيب بآيات الله واليوم الآخر قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

- العصيان: دعا موسى عليه السلام فرعون إلى الإيمان بالله عز وجل وطاعته، قال تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨]. وكذلك دعاه إلى إرسال بني إسرائيل معه، بعد أن بين له أن الأمر من رب العالمين ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]. ولكن فرعون عصى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه: ٥٦].

- الاحتيال والاستهزاء بموسى وبما جاء به قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧]. وقد أملى الله عز وجل لهذا الفرعون في كل باب من أبواب التملك والتسلط والترفع والتنعم ما قد استخف به رعيته من أهل مملكته، حتى استعبدهم فعبدوه، وادعى الربوبية فقبلوه، مع ما أوتي من العمر الطويل والقوة والمنعة والسعة والجنود والشوكة والعدة والعدد، والصحة في جسمه والاعتدال في طبيعته وخلقته وقوة بنيته[1].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]. وما احتيال فرعون الذي يحتال للاطلاع إلى إله موسى إلا في خسر وذهاب مال؛ لأنه ذهبت نفقته التي أنفقها على الصرح باطلًا ولم ينل بما أنفق شيئًا مما أراده فذلك هو الخسار والتباب[2].

- اتهامه بالسحر والافتراء، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [القصص:٣٦]. ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤]. فيما أظهره من المعجزات وفيما

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٥١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٦٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٨.

ادعاه من رسالة رب العالمين[1].

- اتهامه بالجنون من قبل فرعون، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. «قاصدًا بذلك المغالطة وإيقاعهم في الحيرة، مظهرًا أنه مستخف بما قاله موسى مستهزئ به»[2].

- اتهامه بأن دعواه ليست صادقة، وإنما هي لأجل الحكم والكبرياء، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

- اتهامه بالتآمر مع السحرة لأخذ الحكم منه، وهو هاجس يطارد أكثر الحكام، حتى يبقوا طوال مدة حكمهم لا يذوقون طعم النوم والراحة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

- تقتيل المؤمنين من قوم موسى واستحياء[3] النساء[4] للخدمة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥]. وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل؛ لئلا ينصروا عليهم إلا مكر ذاهب وهالك في ضلال[5].

- الإسراف في القتل، قال تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤]. وهو منهج للطغاة قديم.

ويظهر مما سبق: «مدى المشقة التي واجهها موسى عليه السلام في دعوة فرعون وقومه»[6]، «ولم تنفع فرعون وقومه الموعظة الحسنة من موسى عليه السلام، بل ازدادوا علوًا في الأرض وطغيانًا، وتعذيبًا للمؤمنين»[7].

٤. تكذيب قوم شعيب.

أخبر سبحانه وتعالى في كتابه أن قوم شعيب كذبوه.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]. والأيكة: الشجر الملتف[8].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٧٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٤١.
(٣) الاستحياء: الإبقاء حيًا.
انظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١/ ٨٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٧٣.
(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٧/ ٢١٦، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية ٢/ ٨٦٢.
(٦) انظر: مع الأنبياء في القران الكريم ص٢٣٧، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي ٣/ ١٠٤.
(٧) مع الأنبياء في القرآن الكريم ص٢٣٧.
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٧٣٣.

ومن صور تكذيبهم:

- التكذيب الواضح لدعوته، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]. بعد أن بين لهم البينات على صدق دعوته ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]. وهذا يدل على الجحود والإنكار بعد رؤية البينات، مما يدل على رسوخ التكذيب في قلوبهم.
- الوقوف بوجه الدعوة وتهديد المؤمنين الذين يأتون إلى شعيب ليتبعوه[١]: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦] إذ كان هؤلاء المكذبون يقعدون على الطريق يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب عليه السلام؛ ليصدوهم عن الدين ويمنعوهم من الإيمان[٢].
- بث الإشاعات الكاذبة بأن طريق شعيب يؤدي إلى الخسران، وهي دعوة الرؤساء الذين يخافون على مراكزهم أن تذهب عنهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]. أي: «المغبونون في فعلكم وترككم ملتكم التي أنتم عليها»[٣].
- اتهامه -زورًا وكذبًا- بأنه ساحر يريد أن يضل الناس، رغم أنه بين لهم الحق وأنه لا يدعوهم إلا إلى الخير والفضيلة، قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥].
- توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم، والدخول معهم فيما هم فيه من الكفر[٤]، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]. «ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم من القرية، أو عودكم في الكفر، وشعيب عليه السلام لم يكن في ملتهم قط؛ لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقًا، لكن غلبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجرى الجواب في قوله: ﴿قَالَ

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٣٢-٢٣٣.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٣-١٢٤، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني ص٢٦٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣٣.

﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ كيف نعود فيها ونحن كارهون لها؟!»[1] أي: ولو كنا كارهين تجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في ملتكم أنكم إن فعلتم هذا أتيتم عظيمًا[2]. وكان موقف شعيب حازمًا، فقد ثبت على دعوته، قال تعالى على لسانه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]. أي: قد افترينا على الله كذبًا إن عدنا في الشرك والكفر[3] بعد هداية الله عز وجل لنا، وتعجب من قولهم فقال لهم: كيف يرجع إلى الكفر من آمن بالله وذاق حلاوة الإيمان، فلا يرجع في الكفر إلا من يشاء الله عز وجل.

- التطفيف بالميزان، وبخس الناس أشياءهم مما يسبب مشاكل اقتصادية عديدة، قال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].
- الفساد في الأرض -بالشرك والظلم- بعد إصلاحها، «وأكل أموال الناس بالباطل والبغي والعدوان على النفس والأرض، وفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة»[4] قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وبعد أن سدوا منافذ الهداية في وجوههم، وسلكوا سبل الضلال بما لا رجعة لهم إلى طريق الهدى، مع الاستهزاء والاغترار بالقوة، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

مع التحدي لشعيب، قال تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

أوكلهم شعيب على أعمالهم، وسار هو والذين آمنوا معه على نهجهم، وتوعد المكذبين بالعذاب.

قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

وفوض أمره إلى العزيز العظيم، قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٤٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٢٣.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٢٨، سنن الله في عقاب الأمم ص٣٥.
(٤) دعوة الرسل إلى الله ص١٥٦.
وانظر: دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، أحمد العمري ص٢٦١.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

و﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أمورنا ما نأتي منها وما نذر، ربنا احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم وأنت خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبدًا[(١)].

٥. تكذيب المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى مسليًا رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

جاء الخطاب القرآني الموجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ تسلية وتأسيًا له على تكذيب قومه له فحاله مع قومه كحال الرسل السابقين مع قومهم، فلا تعجب ولا تحزن إن كذبوك؛ لأن هذه عادة قديمة في الأمم مع الرسل، وليس ذلك لنقص فيما جئت به[(٢)].

من صور التكذيب قول المشركين: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم اختلق الكذب على الله، فجاء بالذي يتلوه علينا اختلاقًا من عند نفسه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

قال السعدي رحمه الله: «يعني أم يقول المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم جرأة منهم وكذبًا: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرءون على هذا الكذب الصراح؟ بل تجرءوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكنك من هذه الدعوة العظيمة، المتضمنة -على موجب زعمهم- أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنه الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يعي شيئًا ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته وسنته الجارية أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣٣.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ٢٢، تفسير الشعراوي ٣/ ١٩٢٢.

بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال[1].

إذن فهي شبهة لا قوام لها. وزعم لا يقوم على أساس. ودعوى تخالف المعهود عن علم الله بالسرائر، وعن قدرته على ما يريد، وعن سنته في إقرار الحق وإزهاق الباطل، وإذن فهذا الوحي حق، وقول محمد صدق وليس التقول عليه إلا الباطل والظلم والضلال.

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

«يقول تعالى مسليًا لنبيه صلى الله عليه وسلم في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: قد أحطنا علمًا بتكذيبهم لك، وحزنك وتأسفك عليهم، كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنهم يعاندون الحق، ويدفعونه بصدورهم»[2].

روى الحاكم بسنده عن علي، قال: قال أبو جهلٍ للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[3].

خامسًا: الكذب في إبداء الأعذار للتخلف عن الجهاد:

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة ٤٢-٤٣].

«يقول تعالى موبخًا للذين تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذووا أعذارٍ ولم يكونوا كذلك فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: غنيمةٌ قريبةٌ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريبًا أيضًا، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٢٤.

(٣) المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة الأنعام، رقم ٣٢٣٠.
قال الحاكم: صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

﴿عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة إلى الشام، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم يكن لنا أعذارٌ لخرجنا معكم»[1].

كشف الله كذبهم وفضحهم؛ لأن الأعمال الشاقة تحتاج إلى رجال أشداء يبذلون النفس والنفيس في سبيل تحقيق المبادئ وإرساء دعائم الحق، أما المتهاونون أمام الشدائد لا يصلحوا لصد عدو ولا لبناء أمة، والقرآن يقص علينا أمثال هؤلاء؛ حتى نكون منهم على حذر «فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة. كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب، ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص، كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان، فما هي قلة عارضة، إنما هي النموذج المكرور، وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة، وإن خيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب، واجتنبوا أداء الثمن الغالي، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ فهو الكذب المصاحب للضعف أبدًا، وما يكذب إلا الضعفاء، أجل ما يكذب إلا ضعيف ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحايين، فالقوي يواجه والضعيف يداور، وما تتخلف هذه القاعدة في موقف من المواقف ولا في يوم من الأيام ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بهذا الحلف وبهذا الكذب، الذي يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس، والله يعلم الحق، ويكشفه للناس، فيهلك الكاذب في الدنيا بكذبه، ويهلك في الآخرة يوم لا يجدي النكران»[2].

وفي الآية دلالةٌ على أن تعمد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك.

سادسًا: الكذب في إسناد الأقوال والأفعال لغير فاعلها:

أخبر سبحانه وتعالى في سورة يوسف أن إخوته كذبوا على أبيهم، وأوهموه أن الذئب أكله.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

يقول تعالى مخبرًا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب، ثم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٩.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٢.

نترامى، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ تلطفٌ عظيمٌ في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذورٌ في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا، أي: مكذوبٍ مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلةٍ[1]، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه؛ فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب.

بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] أي: فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال[2].

أدرك يعقوب عليه السلام من دلائل الحال، ومن نداء قلبه، أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنهم دبروا له مكيدةً ما. وأنهم يلفقون له قصة لم تقع، ويصفون له حالًا لم تكن، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمرًا منكرًا وذللته ويسرت لهم ارتكابه وأنه سيصبر متحملًا متجملًا لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعينًا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب.

ثم اتهموا يوسف عليه السلام بالسرقة كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

أي: إن سرق هذا فقد سرق أخ شقيق له من قبل -يقصدونه عليه السلام - فأخفى يوسف في نفسه ما سمعه، وحدث نفسه قائلًا: أنتم أسوأ منزلة ممن ذكرتم، حيث دبرتم لي ما كان منكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ من الكذب والافتراء.

هكذا أسند أخوة يوسف بالكذب إلى الذئب أكل يوسف، ثم أسندوا له السرقة مفترين عليه.

(١) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن، ذكرا كان أم أنثى.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢٢.

عواقب الكذب وآثاره

حذر القرآن الكريم من عاقبة الكذب وآثاره سواء كانت على الكاذب أو على المجتمع:

أولًا: آثار الكذب على الكاذب:

١. الضلال.

قرن سبحانه وتعالى بين الكذب والضلال في مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ [الواقعة: ٩٢].

خاطب سبحانه أصحاب الشمال فقال: «أيها الذين ضللتم فأصررتم على الذنب العظيم، إذ لم توحدوا الله ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه، ثم كذبتم رسله، فأنكرتم البعث والجزاء في هذا اليوم- إنكم لآكلون من شجر الزقوم، فمالئون منها بطونكم، فشاربون بعد ذلك من ماء حار لغلبة العطش عليكم، ولكنه شرب لا يشفي الغليل، ومن ثم تشربون ولا ترتوون، فكأنكم الإبل التي أصيبت بداء الهيام، فلا يروي لها الماء غليلًا»[1].

وقد قدم الضالين: ﴿الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ وفي آخر السورة قدم المكذبين: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ قال الرازي رحمه الله: «وذلك أن المراد من الضالين هاهنا هم الذين صدر منهم الإصرار على الحنث العظيم، فضلوا في سبيل الله ولم يصلوا إليه ولم يوحدوه، وذلك ضلالٌ عظيمٌ، ثم كذبوا رسله وقالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا﴾ فكذبوا بالحشر، فقال: ﴿أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ الذين أشركتم المكذبون الذين أنكرتم الحشر؛ لتأكلوا ما تكرهون.

وأما هناك فقال لهم: أيها ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ الذين كذبتم بالحشر ﴿الضَّالُّونَ﴾ في طريق الخلاص الذين لا يهتدون إلى النعيم، وفيه وجهٌ آخر وهو أن الخطاب هنا مع الكفار فقال: يا أيها الذين ضللتم أولًا وكذبتم ثانيًا، والخطاب في آخر السورة مع محمدٍ صلى الله عليه وسلم يبين له حال الأزواج الثلاثة فقال: ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ في روحٍ وريحانٍ وجنة ونعيم، ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ في سلامٍ.

وأما ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ الذين كذبوا فقد ضلوا فقدم تكذيبهم إشارةً إلى كرامة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، حيث بين أن أقوى سببٍ في عقابهم تكذيبهم، والذي يدل على أن الكلام هناك مع محمدٍ صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة:

(١) تفسير المراغي ٢٧/ ١٤٣.

٩١][1].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «قدم وصف ﴿الضَّالُّونَ﴾ على وصف ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ مراعاةً لترتيب الحصول؛ لأنهم ضلوا عن الحق فكذبوا بالبعث ليحذروا من الضلال ويتدبروا في دلائل البعث.

وقدم وصف التكذيب على وصف الضلال؛ لمراعاة سبب ما نالهم من العذاب وهو التكذيب؛ لأن الكلام هنا على عذابٍ قد حان حينه وفات وقت الحذر منه فبين سبب عذابهم، وذكروا بالذي أوقعهم في سببه ليحصل لهم ألم التندم»[2].

٢. الخسران:

قرن الله بين الكذب والخسران، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس٩٥].

فرتب على الكذب الخسار، وهو عدم الربح أصلا وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة.

٣. حبوط الأعمال.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

أي: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ بآيات الله وحججه وبلقاء الله في الآخرة ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بسبب فقد شرطها، وهو الإيمان بالله والتصديق بجزائه، ما يجزون في الآخرة ﴿إِلَّا﴾ جزاء ﴿مَا كَانُوا﴾ يعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي، وهو الخلود في النار.

٤. الاستدراج.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

أي: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فجحدوها، ولم يتذكروا بها، سنفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا؛ استدراجًا لهم حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، ثم نعاقبهم على غرة من حيث لا يعلمون، وهذه عقوبة من الله على التكذيب بحجج الله وآياته.

٥. الإهلاك.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤١٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن كثير ٢٧/ ٣٠٩.

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤].

أي: شأن هؤلاء الكافرين في ذلك كشأن آل فرعون الذين كذبوا موسى، وشأن الذين كذبوا رسلهم من الأمم السابقة فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم، وأغرق آل فرعون في البحر، وكل منهم كان فاعلًا ما لم يكن له فعله من تكذيبهم رسل الله وجحودهم آياته، وإشراكهم في العبادة غيره.

٦. عدم الهداية.

قرن سبحانه بين الكذب وعدم الهداية فقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ إلى الحق ودينه الإسلام، والإقرار بوحدانيته، فيوفقه له ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ مفتر على الله، يتقول عليه الباطل، ويضيف إليه ما ليس من صفته، ويزعم أن له ولدا؛ افتراء عليه، وكفرا لنعمه، وجحودًا لربوبيته[(١)].

وهداية الله المنفية عنهم هي: الهداية التكوينية لا الهداية بمعنى الإرشاد والتبليغ، وهو ظاهرٌ، فالمراد نفي عناية الله بهم، أي: العناية التي بها تيسير الهداية عليهم حتى يهتدوا، أي: لا يوفقهم الله بل يتركهم على رأيهم غضبًا عليهم. والتعبير عنهم بطريق الموصولية؛ لما في الموصول من الصلاحية؛ لإفادة الإيماء إلى علة الفعل ليفيد أن سبب حرمانهم التوفيق هو كذبهم وشدة كفرهم[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

فالشرك من الإسراف، وسفك الدم بغير حق من الإسراف، وقد كان مجتمعًا في فرعون الأمران كلاهما.

٧. مثواه جهنم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ١٠].

وآيات الله تعالى قسمان: آياته المنزلة على رسوله، وآياته التي أقامها في الأنفس

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٥٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٢٣.

والآفاق؛ للدلالة على وحدانيته وكماله وتنزيهه، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه، فهؤلاء الكفار المكذبون هم أصحاب الجحيم، أي: دار العذاب النار العظيمة[1].

وأخبر سبحانه أن الكفار الذين لم يصدقوا بحججه وآياته الدالة على وحدانيته، ولم يعملوا بشرعه تكبرًا واستعلاءً، لا تفتح لأعمالهم في الحياة ولا لأرواحهم عند الممات أبواب السماء، ولا يمكن أن يدخل هؤلاء الكفار الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٠].

وأخبر سبحانه أنه أعد لمن كذب بالساعة نارًا حارة تسعر بهم، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان:١١].

ثانيًا: آثار الكذب على المجتمع:

من أعظم آثار الكذب هو فقدان الثقة وتفكيك الأواصر بين أفراد المجتمع المسلم، والنموذج الذي حكاه لنا القرآن كأثر من آثار الكذب هو حادث الإفك الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [ينظر الآيات: من١١ إلى ٢١ من سورة النور:].

فهذا الحادث العظيم قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلامًا لا تطاق، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، وعلق قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلب زوجه عائشة التي يحبها، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه، وقلب صفوان بن المعطل شهرًا كاملًا، علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق.

وقد حكت السيدة عائشة رضي الله عنها الحادث فيما رواه البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاةٍ غزاها، فخرج سهمي، فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجٍ، وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلةً بالرحيل.

فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٢٨.

عقدٌ لي من جزع أظفارٍ قد انقطع، فرجعت، فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج، فاحتملوه وكنت جاريةً حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحدٌ، فأممت منزلي الذي كنت به، فظننت أنهم سيفقدونني، فيرجعون إلي.

فبينا أنا جالسةٌ غلبتني عيناي، فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسانٍ نائم، فأتاني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته فوطئ يدها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة.

فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهرًا والناس يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجعي أني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم، ثم يقول: (كيف تيكم؟) لا أشعر بشيءٍ من ذلك حتى نقهت، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا لا نخرج إلا ليلًا إلى ليلٍ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهمٍ نمشي، فعثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطحٌ، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلًا شهد بدرًا، فقالت: يا هنتاه، ألم تسمعي ما قالوا؟

فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم فقال: (كيف تيكم؟)، فقلت: ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيت أبوي فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأةٌ قط وضيئةٌ عند رجلٍ يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.

فقلت: سبحان الله، ولقد يتحدث الناس بهذا، قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالبٍ، وأسامة بن زيدٍ حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فراق

أهله، فأما أسامة، فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم.

فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالبٍ فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليكَ، والنساء سواها كثيرٌ، وسل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: (يا بريرة هل رأيت فيها شيئًا يريبك؟)، فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرًا أغمصه عليها قط، أكثر من أنها جاريةٌ حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الداجن فتأكله.

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبيٍ ابن سلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعذرني من رجلٍ بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي).

فقام سعد بن معاذٍ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك.

فقام سعد بن عبادة -وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية- فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضيرٍ فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافقٌ تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فنزل، فخفضهم حتى سكتوا، وسكت.

وبكيت يومي لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنومٍ، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيت ليلتين ويومًا حتى أظن أن البكاء فالقٌ كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي، وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأةٌ من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيءٌ.

قالت: فتشهد ثم قال: (يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئةً، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنبٍ، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه).

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرةً، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول

الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وأنا جاريةٌ حديثة السن، لا أقرأ كثيرًا من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئةٌ، والله يعلم إني لبريئةٌ لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ، والله يعلم أني بريئةٌ لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلًا، إلا أبا يوسف؛ إذ قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيًا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحدٌ من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحي.

فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ، فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمةٍ تكلم بها، أن قال لي: (يا عائشة احمدي الله، فقد برأك الله) فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد ما قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

فقال أبو بكرٍ: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطحٍ الذي كان يجري عليه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحشٍ عن أمري، فقال: (يا زينب، ما علمت ما رأيت؟) فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا، قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع)[1].

إن أصل تدبير هذا الحادث الأليم قامت به عصبة على رأسها عبد الله بن أبي ابن سلول، الحذر الماكر، الذي لم يظهر بشخصه في المعركة. ولم يقل علانية ما يؤخذ به فيقاد إلى الحد.

وهكذا دائمًا الأفاكون يدبرون ولا يظهرون، ويدفعون إلى نشر إفكهم من ينقلون بألسنتهم ولا يفكرون بعقولهم، و لا يمررون الأمر على قلوبهم، ولا يزنون ما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، ٢٦٦١.

ينقلون بالميزان الذاتي كما فعل أبو أيوب رضي الله عنه فعن محمد بن إسحاق، عن أبيه، عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب خالد بن زيدٍ قالت له امرأته أم أيوب: «أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خيرٌ منك. قال: فلما نزل القرآن، ذكر الله من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا، ثم قال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ١٢].

أي: كما قال أبو أيوب وصاحبته»[(١)].

فهذا الحادث أدى لمدة شهر إلى فقدان ثقة المسلمين بعضهم في بعض، كما أدى إلى تفكيك أواصر المحبة التي أنعم الله بها على المؤمنين، ولولا فضل الله على المؤمنين بتبرئة أم المؤمنين عائشة، والصحابي الجليل صفوان بن المعطل؛ لاستمر فقدان الثقة وتفكك الأواصر بين المسلمين مما يهدد كيان الدولة المسلمة الناشئة.

إن الحادث لعظيم، وإن الخطأ لجسيم، وإن الشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الدولة المسلمة الناشئة كلها بالسوء، ولكن فضل الله ورحمته، ورأفته ورعايته ذلك ما وقاهم السوء.

٢. وقوع المظالم، وضياع الحقوق.

ظلم يوسف عندما ادعت امرأة عزيز مصر أنه أراد بها سوءًا، قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥].

قال السعدي رحمه الله: «هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرًا؛ لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعًا أو كارهًا، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرمًا في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك.

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرت إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألفيا سيدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمرًا شق عليه، فبادرت إلى الكذب،أن المراودة قد كانت من يوسف،

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢١٢.

وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ولم تقل: (من فعل بأهلك سوءًا) تبرئة لها وتبرئة له أيضًا من الفعل. وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة ﴿إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أو يعذب عذابا أليمًا.

فبرأ نفسه مما رمته به، وقال: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما.

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦] لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٧] لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٨].

عرف بذلك صدق يوسف وبراءته، وأنها هي الكاذبة»[1].

موضوعات ذات صلة:

الافتراء، الزور، الصدق، اللعن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩٦.

الكره

عناصر الموضوع

مفهوم الكره	٢٤٤
الكره في الاستعمال القرآني	٢٤٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٤٦
إثبات صفة الكره لله جل جلاله	٢٤٨
الكره الطبعي	٢٥٠
أنواع الكره	٢٥٦
دوافع الكره	٢٥٩
أثر الكره على السلوك الإنساني	٢٦٦

مفهوم الكره

أولا: المعنى اللغوي:

(«كره» الكاف والراء والهاء أصلٌ صحيحٌ واحد، يدل على خلاف الرضا والمحبة)[1].

(وقيل: الكره: المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراهٍ، والكره: ما يناله من ذاته وهو يعافه)[2]، (المكروه جمع مكاره، والمرأة مستكرهة أي: غصبت نفسها فأكرهت على ذلك، وحمل أمرا وهو له كاره، هو نقيض الحب، شيء كريه ومكروه وأكرهه عليه فتكارهه وتكره الأمر كرهه وأكرهته حملته على أمر هو له كاره وجمع المكروه مكاره وامرأة مستكرهة غصبت نفسها فأكرهت على ذلك وكره إليه الأمر تكريها صيره كريها إليه، نقيض حببه إليه، وما كان كريها ولقد كره كراهة، وأمر كريه: مكروه. ووجه كره وكريه: قبيح).[3]

وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إسباغ الوضوء على المكاره)[4]، جمع مكره وهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه.

ومن خلال ما سبق تبين أن الكره يتمركز معناه اللغوي حول خلاف المحبة والرضا، والمشقة.

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

هو نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه[5].

والمتدبر في المعنيين يجد اتصالًا بينهما، حيث إن المعنى الاصطلاحي يعني نفار النفس عن الشيء الذي ترغب فيه، وهذا مرتبط بالمعنى اللغوي وهو عدم المحبة والرضا، فلا تنفر النفس عن شيء إلا لعدم محبتها ورضاها.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٧٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧٠٧.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٥٣٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم ٢٥١.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٣٦.

الكره في الاستعمال القرآني

ووردت مادة (كره) في القرآن الكريم (٤١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٧	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمد:٩]
الفعل المضارع	٦	﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]
المصدر	١٠	﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥]
اسم الفاعل	٧	﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝٧٠﴾ [المؤمنون:٧٠]
اسم المفعول	١	﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ [الإسراء:٣٨]

الكره في اللغة بمعنى: المشقة، يدل على خلاف الرضا والمحبة[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٠٣-٦٠٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الكاف ص١٠٢٠-١٠٢١.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٧٢-١٧٣، الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢٤٧، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٥٣٤-٥٣٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٣٤٦-٣٤٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ البغض:

البغض لغة:

البغض والبغضة نقيض الحب، والتباغض ضد التحاب ورجل بغيض، وقد بغض بغاضة وبغض فهو بغيض ورجل مبغض يبغض كثيرا، ويقال هو محبوب غير مبغض، وقد بغض إليه الأمر وما أبغضه إلي ولا يقال ما أبغضني له ولا ما أبغضه لي[١].

البغض اصطلاحًا:

البغض: نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه، وهو ضد الحب، فإن الحب انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه[٢].

الصلة بين الكره والبغض:

البغض من الألفاظ المقاربة لمعنى الكره، ولكن البغض أوسع، ويعبر عن شدة الكراهية، وتستعمل الكراهة فيما لا يستعمل في البغض[٣].

٢ الإباء:

الإباء لغة:

مصدر من أبى يأبى، أي: امتنع، أبى الشيء يأباه إباء وإباءة[٤].

الإباء اصطلاحًا:

شدة الامتناع[٥].

الصلة بين الكره والإباء:

الإباء بمعنى شدة الامتناع، وهو من المعاني المقاربة للكره، فمن يكره شيئًا يأباه، فيمتنع عنه بشدة، ولكن من يأبى شيئا فليس من الضرورة أن يكرهه، كمن يمتنع عن أكل شيء معين، ولكن لا يكرهه[٦].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ١٢١.
(٢) المفردات، الراغب، ص١٣٦.
(٣) انظر الفروق اللغوية، العسكري، ص١٢٩.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٤١٧.
(٥) التوقيف على مهمات التعريف، المناوي، ص٢٧.
(٦) انظر الفروق اللغوية، العسكري، ص١٢٩.

٣ الإكراه:

الإكراه لغةً:

يقال: أكرهته، أي: حملته على أمرٍ هو له كارهٌ، والكره (بالفتح): المشقة، وبالضم: القهر، وقيل العكس، وأكرهته على الأمر إكراهًا: حملته عليه قهرًا. يقال: فعلته كرهًا «بالفتح» أي إكراهًا»[١].

الإكراه اصطلاحًا:

الإكراه حمل الغير على ما يكرهه بالوعيد الشديد[٢].

الصلة بين الكره والإكراه:

الإكراه من الألفاظ المقاربة للكره، فالكره والإكراه بمعنى: الإجبار على فعل الشيء، ولكن إن كان الإجبار من الغير فيكون إكراها، وإن كان من الداخل فيكون كرها.

٤ الحب:

الحب لغة:

(الحاء والباء، أصول ثلاثة، أحدهما اللزوم والثبات، والآخر الحبة من الشيء ذي الحب، والثالث وصف القصر)[٣].

الحب اصطلاحًا:

(انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه)[٤].

الصلة بين الحب والكره:

الحب من الألفاظ المقابلة للكره، فهما نقيضان، فالحب انجذاب النفس إلى الشيء المرغوب، والكره نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٥٣، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٣٢.
(٢) التوقيف على مهمات التعريف، المناوي، ص٨٤.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٦.
(٤) المفردات، الراغب، ص١٣٦.

إثبات صفة الكره لله جل جلاله

إن لله تعالى أسماء وصفات ثبتت في القرآن الكريم أو في سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم؛ والكره أحد هذه الصفات التي أثبتها الله في أكثر من آية، وكذلك أثبتها رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، فعلينا أن نثبت ما أثبته الله ورسوله بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، في دائرة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وردت صفة الكره في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

١. ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة:٤٦].

٢. ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء:٣٨].

٣. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧].

وهناك أحاديث عدة أثبتت صفة الكره نذكر منها:

عن عبادة بن الصامت، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)[١].

وكتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة أن اكتب إلي بشيء سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم فكتب إليه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال)[٢].

وانطلاقًا من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فإننا نثبت لله عز وجل صفة الكره كما يليق بجلاله وعظمته، إثباتا لما أثبته لنفسه، ولما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، وهذا هو مذهب السلف الصالح.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم ٦١٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، رقم ٢٦٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال، رقم ٦١٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه، رقم ٥٩٣.

به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه)[١].

ومثل هذه الصفات التي هي في الحادث انفعالات نفسية كالمحبة والرحمة والرضا والغضب والكراهة، فالسلف يجرونها على ظاهرها مع تنزيه الله تعالى عن انفعالات المخلوقين، فيقولون: إن لله تعالى محبة تليق بشأنه ليست انفعالا نفسيا كمحبة الناس، والخلف يؤولون ما ورد من النصوص في ذلك فيرجعونه إلى القدرة أو إلى الإرادة فيقولون: الرحمة هي الإحسان بالفعل أو إرادة الإحسان، ومنهم من لا يسمي هذا تأويلا بل يقولون: إن الرحمة تدل على الانفعال الذي هو رقة القلب المخصوصة على الفعل الذي يترتب على ذلك الانفعال، وقالوا: إن هذه الألفاظ إذا أطلقت على البارئ تعالى يراد بها غايتها التي هي أفعال دون مباديها التي هي انفعالات، ولما كان العقل والنقل متفقين على تنزيه الله تعالى عن مشابهة البشر تعين أن نجمع بين النصوص فنقول: إن لله تعالى قدرة حقيقة ولكنها ليست كقدرة البشر، وإن له رحمة ليست كرحمة البشر، وهكذا نقول في جميع ما أطلق عليه تعالى جمعا بين النصوص، ولا ندعي أن إطلاق بعضها حقيقي وإطلاق البعض الآخر مجازي، فكما أن القدرة شأن من شئونه لا يعرف كنهه ولا يجهل أثره، كذلك الرحمة شأن من شئونه لا يعرف كنهه ولا يخفى أثره، وهذا هو مذهب السلف فهم لا يقولون إن هذه الألفاظ لا يفهم لها معنى بالمرة، ولا يقولون إنها على ظاهرها، بمعنى أن رحمة الله كرحمة الإنسان ويده كيده، وإن ظن ذلك في الحنابلة بعض الجاهلين، ومحققو الصوفية لا يفرقون بين صفات الله تعالى، ولا يجعلون بعضها محكما إطلاق اللفظ عليه حقيقي، وبعضها متشابها إطلاقه عليه مجازي، بل كل ما أطلق عليه تعالى فهو مجاز[٢].

(١) شرح العقيدة الواسطية، محمد هراس، ص٨.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٦٧.

الكره الطبعي

إن أساس التفريق بين الكره الطبعي والكره العقلي أو الشرعي كان في مفردات القرآن للراغب ومن بعده جاء عالة عليه، وذلك حينما قال: على ضربين -الكره-:

أحدهما: ما يعاف من حيث الطبع.

والثاني: ما يعاف من حيث العقل أو الشرع.

ولهذا يصح أن يقول الإنسان في الشيء الواحد إني أريده وأكرهه بمعنى إني أريده من حيث الطبع وأكرهه من حيث الشرع، أو أريده من حيث العقل أو الشرع وأكرهه من حيث الطبع[1].

فالكره الطبعي هو النفور الطبعي الجبلي عن الشيء، فكما أن الإنسان يحب أشياء بطبعه، كذلك يكره أشياء بطبعه، والله عز وجل هو الذي جبل البشر على الحب الطبعي والكره الطبعي، فلا تكتسب اكتسابا كالكره العقلي أو الشرعي، إذ العقل أو الشرع هو الذي يحدد ما يضره في الدنيا والآخرة، وذلك مثل كره الرجل القيام من نومه لصلاة الفجر أو قيام الليل، وكرهه الجهاد للتعرض للقتل أو الجرح أو القطع أو الضرب أو السجن، وكرهه إخراج شيء من ماله للغير، وكرهه الامتناع عن الطعام والشراب والجماع، فهذه الأمور كلها يكرهها الإنسان بطبعه، ولكن بما أن الله أمر بها فيتحول هذا الكره إلى عكسهن إرضاء لله عز وجل، لذلك عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (وحفت الجنة بالمكاره)[2].

والكره الطبعي غير محاسب عليه الإنسان، أما العقلي أو الشرعي فمنه الكره المحمود والمذموم، فالذي لأجل الله هو كره محمود والذي لأجل الدنيا فهو كره مذموم، وسنفرق بإذن الله بينهما مع الأمثلة في مبحث خاص.

ومن خلال النظر والتدبر في الآيات التي تحدثت عن الكره، رأيت أنها فرقت بين الكره الطبعي والكره العقلي أو الشرعي:

أولا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦].

الكره هنا كره طبعي؛ فالقتال مطبوع على كرهه وعدم حبه، وذلك لما فيه من المشقة على الجسم بما يحتمل تعرضه للجرح وبتر الأعضاء، والمشقة على النفس بذهابها، والمشقة بمفارقة الأهل والمال، فالنفس

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات، رقم ٦١٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، واللفظ له، رقم ٢٨٢٢.

بطبعها تكرهه، ومع ذلك فالمسلم يحب حكم الله ولا يكرهه، وهذا أيضا مثل كره الزوجة من أن يتزوج عليها زوجها امرأة غيرها، وهي مع ذلك تحب حكم الله بالتعدد ولا تكرهه.

يقول د. صلاح الخالدي: تكليف القتال شاق على النفس، وقد تكرهه بعض النفوس وبخاصة ضعاف الإيمان، وقد تتباطأ وتتثاقل بعض النفوس وتتخلى عنه، ولكن النفس المؤمنة تنفر إليه وتقوم به رغم مشقته وصعوبته، فوصف القتال بالكره أي: أنه ثقيل وشاق لكنه مطلوب مراد من قبل المجاهدين الصادقين[(١)].

وقال الزجاج: ومعنى كراهيتهم القتال أنهم إنما كرهوه على جنس غلظه عليهم ومشقته لا أن المؤمنين يكرهون فرض الله؛ لأن الله تعالى لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والصلاح[(٢)].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم مدارج السالكين: وليس من شرط الرضى ألا يحس بالألم والمكاره، بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه، ولهذا أشكل على بعض الناس الرضى بالمكروه، وطعنوا فيه: وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة، وإنما هو الصبر، وإلا فكيف يجتمع الرضى والكراهة؟ وهما ضدان، والصواب: أنه لا تناقض بينهما، وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضى، كرضى المريض بشرب الدواء الكريه، ورضى الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضى المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها[(٣)].

ويعرض سيد قطب في ظلال القرآن لحكمة الله من إيجاب القتال رغم مشقته وثقله إلى حكمة تهون هذه المشقة، فيقول: إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة و لكنها فريضة واجبة الأداء، واجبة الأداء لأن فيها خيرا كثيرا للفرد المسلم وللجماعة المسلمة وللبشرية كلها وللحق والخير والصلاح، والإسلام يحسب حساب الفطرة فلا ينكر مشقة هذه الفريضة، ولا يهون من أمرها، ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر ويسلط عليه نورا جديدا، إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق، ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتسيغ مرارته[(٤)].

لذا فثمة فرق بين من يكره القتال في سبيل الله ومن يقول القتال في سبيل الله هو أمر كريه، فالأول كره طبعي؛ فهو يكره

(١) لطائف قرآنية، الخالدي ٨٢-٨٣.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٥٣٤.
(٣) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/ ١٧٥.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٢٢٣.

ما يلحق بالقتال من الجرح والقطع والقتل، وهذه الكراهة كراهة طبعية جبلية، غير محاسب عليه، أما الثاني فالكره شرعي غير طبعي، لأنه يكره أمر الله عز وجل بغض النظر عن وجود أذى أو عدمه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾[البقرة:٢١٦].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩].

قاعدة إيمانية عظيمة في هدايتها وآثارها، مرتبطة بركن من أركان الإيمان الستة الذي لا يكتمل إيمان مسلم إلا به، ألا هو الإيمان بالقدر خيره وشره، فالمؤمن لا يجزع ولا يفزع إذا أصابه شر من المصائب أو الأحزان، فربما هي منحة بلباس المحنة، فلا يدري أحدنا ما الخير الذي سيأتي الله لنا، والعكس صحيح فأحدنا يبحث عن الخير ويطلبه بإصرار، ظنا بأن الخير في هذا الأمر لا في غيره، ولكن تكون الحقيقة مخالفة.

ومثل هذا من القرآن الكريم حينما ألقت أم موسى ولدها في البحر بأمر من الله عز وجل، وفي هذا الأمر شر ظاهر فهو البحر الذي لا يأمن الكبير على نفسه فما ظنك بطفل رضيع، ولكن الله يعلم أين الخير، فحفظ الله موسى في البحر ليبعده عن ظلم فرعون وجنوده.

ثانيًا: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف:١٥].

إن حمل المرأة بجنينها شاق صعب يضعف جسمها وقد يصيبها بالأمراض، وقد يودي بحياتها، وقل هذا في آلام المخاض وأوجاع الطلق ومشقة الوضع، لكن ألا ترغب المرأة في الحمل والإنجاب؟ ألا تتلذذ به وتستعذبه وتشتاق إليه، لهذا عبر القرآن عن حملها ووضعها بأنه كره أي: أنه فيه مشقة وصعوبة، وثقل، فيه آلام وأوجاع وأخطار، لكنه مع ذلك مرغوب عند المرأة ومطلوب ومراد[1].

فكره المرأة للحمل والولادة لما فيه من التعب والمشقة، هو كره طبعي مجبولة عليه المرأة، ومع ذلك فإنها تحب الإنجاب والأطفال، وهذا حب طبعي، وقد يجتمع الحب الطبعي مع الكره الطبعي.

ويصور سيد قطب العناء الذي تعانيه الأم في صورة حسية فيقول: وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى

(١) لطائف قرآنية، الخالدي ص ٨٣.

والكلال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، وصورة الوضع وطلقه وآلامه!

ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة، إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم، وهي مزودة بخاصية أكالة، تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله فيتوارد دم الأم إلى موضعها، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائمًا في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات وتمتصه لتحيا به وتنمو.

وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم، دائمة الامتصاص لمادة الحياة، والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص، لتصب هذا كله دما نقيا غنيا لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول!

ثم الوضع، وهو عملية شاقة، ممزقة، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسي الأم حلاوة الثمرة، ثمرة التلبية للفطرة، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش، وتمتد، بينما هي تذوي وتموت!

ثم الرضاع والرعاية، حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية، وهي مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود، لا تمل أبدا ولا تكره تعب هذا الوليد، وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو[1].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

فهنا حمل المرأة وهنا على وهن، وفي الآية الأولى: حملته كرها ووضعته كرها، والسر في ذلك هو أن في فترة الحمل تضعف المرأة وتزداد ضعفا كلما حملت أكثر من حمل، فاختار لفظة: ﴿وَهْنًا﴾ بمعنى: ضعفا، أما: ﴿كُرْهًا﴾ بمعنى: المشقة والتعب وهذا ليس خاصا في فترة الحمل فقط ولكن في الحمل والولادة، فالمشقة مرتبطة بالأم طول فترة الحمل، وفي وقت الولادة.

ومن مفهوم هاتين الآيتين فقد فهم العلماء أن أقل مدة الحمل هي ستة أشهر، وذلك حينما تنقص العامين من الثلاثين شهرا، يبقى ستة أشهر، فقالوا هي أقل مدة للحمل فإذا ولد الطفل قبل هذه الفترة فلن يبقى على قيد الحياة.

وقد اختلف القراء في لفظة: «كرها» بالفتح أو بالضم، الواردة في الآيات: ٢١٦،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٢.

من سور البقرة، والآية: ١٩، من سورة النساء، والآية: ١٥، من سورة الأحقاف، فنقل ابن منظور هذا الخلاف عن أحمد بن يحيى، فقال:

١. قرأ نافع وأهل المدينة في: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].بالضم في هذا الحرف خاصة وسائر القرآن بالفتح.

٢. عاصم وابن ذكوان بضم «كره» التي في البقرة، واللذين في الأحقاف ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥]. ويقرأ سائرهن بالفتح.

٣. والأعمش وحمزة والكسائي، وكذا خلف، يضمون ما ضمه عاصم أي: التي في البقرة واللذين في الأحقاف، ويزيدون التي في النساء: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء:١٩]. بالضم، وما سواها بالفتح.

٤. أهل الحجاز يقرؤون جميع ما في القرآن بالفتح، إلا ما ورد في البقرة خاصة فهو على الضم[(١)].

وفي توجيه هذه القراءات الواردة في «كرها» يقول العلامة ابن زنجلة: (قرأ حمزة والكسائي: «أن ترثوا النساء كرها» بالضم، وقرأ الباقون بالنصب، واختلف الناس في الضم والفتح، قال ابن عباس: من قرأ: كرها بالضم أي: بمشقة، ومن قرأ: كرها بالفتح أي: إجبارا أي: أجبر عليه، جعل ابن عباس الكره فعل الإنسان والكره ما أكره عليه صاحبه، تقول كرهت الشيء كرها وأكرهت على الشيء كرها، قال أبو عمرو: والكره ما كرهته والكره ما استكرهت عليه، ويحتج في ذلك بقول الله جل وعز: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، وقال الأخفش: هما لغتان مثل: الضعف والضعف والفقر والفقر، وقال قوم: الكره المصدر تقول كرهته كرها مثل شربته شربا، والكره اسم ذلك الشيء)[(٢)].

ثالثًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات:١٢].

الآية الكريمة تشبه الغيبة بأكل لحم الإنسان لأخيه الإنسان المكروه أكله طبعا، وذلك لاجتماع الكره الطبعي بينهما، فمن يغتاب أخيه كمن أكل لحمه ميتا، (فيه تنبيه على أن لحم الأخ شيء جبلت الأنفس على

(١) لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٥٣٤.
وانظر: الإتحاف، البناء، ص ٢٣٩، ٥٠٤، المبسوط في القراءات العشر، ابن مهران، ص١٧٧، حجة القراءات، ابن زنجلة، ١/ ٦٦٣-٦٤٦.

(٢) حجة القراءات، ابن زنجلة، ١/ ١٩٦.

كراهته وإن تعاطته)[1].

يقول الشوكاني في معنى الآية: (مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، ذكر معناه الزجاج، وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة في عرضه، وفي هذا من التنفير عن الغيبة، والتوبيخ لها، والتوبيخ لفاعلها، والتشنيع عليه ما لا يخفى، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، وتستكرهه الجبلة البشرية، فضلًا عن كونه محرمًا شرعًا)[2].

ويقول ابن عاشور: (الكراهة هنا للاشمئزاز والتقذروالمعنى: فتعين إقراركم بما سئلتم عنه من الممثل به (إذ لا يستطاع جحده) تحققت كراهتكم له وتقذركم منه، فليتحقق أن تكرهوا نظير الممثل وهو الغيبة، فكأنه قيل: فاكرهوا الممثل كما كرهتم الممثل به)[3].

وفي الآية قراءة أخرى: (وقرأ أبو حيوة والجحدري: «فكرهتموه» بضم الكاف وتشديد الراء عدي بالتضعيف إلى ثانٍ، بخلاف قوله أولًا: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ [الحجرات:٧].

فإنه وإن كان مضعفًا لم يتعد إلا لواحدٍ لتضمنه معنى بغض)[4].

ولو نظرنا إلى مجالس المسلمين، أو حتى في مواقع التواصل الاجتماعي على الشبكة العنكبوتية، لوجدناها مليئة بالمنكرات، والغيبة أكثرها، فيتكلم الناس عن بعضهم البعض، دون أدنى نظرة إلى مدى بشاعة تشبيه الله للغيبة، فهل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا؟

وللأسف لم ينج من هذه المعصية إلا من رحم ربه، فقد فشت الغيبة وانتشرت بين الرجال والنساء، العالم والجاهل، البر والفاجر.

فالواجب أن نبتعد كل البعد عن الغيبة، وننصح المسلمين بالبعد، وأن لا نستمع لمن يغتاب، بل وترك المجلس الذي فيه غيبة، فسماعك وسكوتك هو غيبة، حتى لو لم تنطق بكلمة.

رابعًا: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال:٥].

كما أخرجك ربك من المدينة، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون الخروج معك كراهة الطبع لاحتمال المشقة.

فكره المسلم للقتال، وكره المرأة للحمل والولادة، وكذلك كره المسلم أكل لحم أخيه ميتا، كل هذه الأمور تكرهها طبيعة النفس

(١) عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٣/ ٣٩٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٧٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢١٣.
(٤) الدر المصون، السمين الحلبي، ١٠/ ١١.

البشرية، وهذا مثل كره المسلم للوضوء بالماء البارد في الطقس الشديد البرودة، وليس هذا من باب كره حكم الله بإيجاب الوضوء، لذلك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إسباغ الوضوء على المكاره)[1].

ومن باب التفريق بين الكره الطبعي والكره الشرعي، أسوق مثالا يجمع بينهما وهو كره الرجل زوجته الكتابية، فالله أمرنا أن نكره الكفر، وهذا كره شرعي، وفي الوقت ذاته لم يحرم حبهم الطبعي، فمن الطبيعي أن يحب الرجل زوجته حتى لو كانت على الكفر، وذلك مثل حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب الذي مات على غير الإيمان، فحبهم حب طبعي غير مؤاخذ عليه، وكرههم كره شرعي، مجزي عليه، لأنه كره لأجل الله، وليس لأمر دنيوي.

أنواع الكره

من خلال التأمل في القرآن الكريم نستنتج أنواع الكره، وهما الكره المحمود والكره المذموم، فما كان لأجل الله فهو محمود، وما كان لأجل الدنيا فهو مذموم، والمحمود يثاب فاعله، أما المذموم فيعاقب فاعله، وسنفصل في هذا بما يأتي:

أولًا: الكره المحمود:

الكره المحمود هو الكره الذي يكون لأجل الله تعالى، وهذا واجب مأمور به، فيثاب فاعله، ويعاقب تاركه، وذلك مثل كره الكافر لكفره، وكره العاصي لمعصيته، والفاسق لفسقه، والمنافق لنفاقه، والدليل على هذا النوع من الكره: قول الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

فهنا كره شعيب ومن آمن معه للعودة إلى الكفر هو كره محمود، فالمستكبرون خيروه والذين آمنوا معه، إما الخروج من القرية، وإما أن يعودوا إلى ملتهم أي: ملة الكفر، فرد شعيب عليه السلام بقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي: نخرج من ديارنا أو نعود إلى الكفر حتى ولو كنا كارهين! فالاستفهام هنا للإنكار.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم ٢٥١.

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[1].

وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣].

والكره المحمود ينبني عليه عقيدة البراء الذي يعتبر شرطا من شروط الإيمان؛ والبراء هو: (بغض الطواغيت التي تعبد من دون الله تعالى: (من الأصنام المادية والمعنوية: كالأهواء والآراء)، وبغض الكفر (بجميع ملله) وأتباعه الكافرين، ومعاداة ذلك كله، لقول الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨])[2].

حسبنا الله في هذا الزمان الذي يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فلا تجد العزة عند بعض المسلمين بل الذلة والمهانة، فمنهم من يخجل من هويته الإسلامية، وآخر يخجل من لغته، وآخر يتباهى برفع صوت الأغاني باللغة الأجنبية أو حتى بلغة العدو، فنرى في بلاد فلسطين الكثير من هؤلاء نتيجة الضعف، وسيطرة الأعداء، والبعد عن الله، ولكن في المقابل وحتى لا نكون مجحفين، فإن هذه قلة قليلة دخيلة، أسأل الله لهم الهداية، فالكثير من المسلمين عندهم العزة في أقوالهم وأفعالهم، تطبيقا لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح:٢٩].

ثانيًا: الكره المذموم:

هو الكره الذي يكون لأجل الدنيا، وهذا حرام منهي عنه، فيعاقب فاعله، ويثاب تاركه، مثل كرههم للموحدين لا لشيء إلا لتوحيدهم لله تعالى، وكرههم أهل الطاعة لطاعتهم لله تعالى.

والكره المذموم ينقسم إلى قسمين:

أولًا: كره مخرج من الملة، يتضمن الكراهية لأمر الله ورسوله، وذلك مثل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم ١٧٤.

(٢) الولاء والبراء بين الغلو والجفاء، حاتم العوني، ص٥.

كراهية شيء معلوم من دين الله، وكراهية وجوب أو تحريم شيء من دين الله، مع فعلها! وكراهية تطبيق حكم الله، بدليل قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمد:٩].

فالله عزوجل أحبط أعمالهم بعدما كرهوا ما أنزل الله على رسوله وهو القرآن، فهذا الكره هو الكره العقلي المذموم وليس كرهًا طبعيًا.

وقد كره الكافرون والمشركون والمجرمون للحق، سواء كان الحق هو القرآن الذي أنزله الله أو أي حق كان، لذلك قال الله عنهم في أكثر من آية؛ منها: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦﴾ [محمد:٢٦].

القائلون هم المنافقون؛ والكارهون هم اليهود؛ فاليهود كرهوا ما نزل الله، فكرههم هو كره مذموم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٢٨﴾ [محمد:٢٨].

أحبط الله أعمالهم؛ لأنهم كرهوا رضوانه واتبعوا ما أسخطه، وكرههم كره مذموم، لهذا أحبط الله أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝٧٠﴾ [المؤمنون:٧٠].

ومع أنه حق إلا أنهم كرهوه، فكرههم هذا هو كره عقلي مذموم وليس كرها طبعيًا، فسيحاسبهم الله عليه، وسيعذبهم به.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝٧٨﴾ [الزخرف:٧٨].

جاء الله بالحق عن طريق الأنبياء والرسل، ولكن الأكثر يكرهونه، والنتيجة الطبيعية لمن يكره الحق هي العذاب الأليم في النار، فالكره هنا هو كره عقلي مذموم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

فهنا كرههم للإنفاق هو كره عقلي مذموم، وليس كرها طبعيا، فسيحاسبهم الله على هذه الكراهية؛ لأنهم كرهوا أمر الله لمصالحهم في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٨١].

وهذه من خصل المنافقين الكثيرة؛ وهي تخلفهم عن الجهاد بسبب كراهيتهم له، وهذه الكراهية ليست كراهية لما يلحق بالجهاد من نتائج بل لكرههم أوامر الله، فهذا الكره ليس كرها طبعيا وإنما هو كره عقلي، لذلك يحاسبهم الله على هذا الكره أشد الحساب.

ولو نظرنا إلى حال المسلمين في عصرنا هذا لوجدنا العجب العجاب، فكم ممن يدعي الإسلام لكنه يكره الإسلام وتطبيقه، ويكره أحكام الله كلها أو بعضها، وكم منهم يكره الإسلاميين، وكل من يلتزم سنة النبي عليه الصلاة والسلام باللحية، وكم منهم يقول أن القرآن كله حق لولا وجود آية الميراث، أو آية (تعدد الزوجات)، أو الحجاب، أو الجهاد، وغير ذلك الكثير، فهل هؤلاء مسلمون!

ثانيًا: كره غير مخرج من الملة، فصاحبه عاص.

الكراهية التي تتعلق بأمر من أمور الدنيا، والتي تؤدي إلى التباعد والتقاطع بين المسلمين مع أن الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم هو المودة والمحبة، والتسامح، إلا أن المسلم قد يجد في نفسه شيئًا على أخيه المسلم، كالقريب الذي يكره قريبه، والجار الذي يكره جاره، والزميل يكره زميله، كل ذلك لأسباب دنيوية، فهذه معاص ينبغي للمسلم التوبة الصادقة للبعد عنها.

وقد كره الله للمسلمين القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال، فعن المغيرة بن شعبة يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال)[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال، رقم ٦١٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم ٥٩٣.

دوافع الكره

إن لنوعي الكره -المحمود والمذموم- دوافع كثيرة؛ تؤدي إلى حصول الكره، ثم إلى الثواب أو العقاب، وسنذكر دوافع كل منهما على حدة:

أولًا: دوافع الكره المحمود:

إن اختلاف الدين يؤدي إلى اختلاف المشاعر فإن كان الدين واحد فالمشاعر مبنية على الحب، وإن كان الدين مختلف فالمشاعر مبنية على الكره، لذلك قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤].

الآية تبين أن سبب العداوة والبغضاء بين الناس هي مبنية على الدين، فإن اختلف الدين صار العداوة والبغضاء، وإن اتفق الدين كان الحب والود، وكذلك تبين الآية أن المشاعر تتحول من البغض والكره إلى المحبة بعد تحول الكفار إلى الإيمان.

أما فيما يتعلق في كره العاصي، فنحب إيمانه ونكره معصيته، فنحبه بقدر إيمانه

ونكرهه بقدر معصيته، لكن تبقى الأخوة الإيمانية، ويجب عدم لعنهم وسبهم، فرجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه عبد الله وكان يجلده رسول الله في الخمر، فأتى به يوما فأمر فجلده، فقال رجل من القوم: اللهم العنه؛ ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي: (لا تلعنوه، فو الله ما علمت إنه يحب الله ورسوله)[1].

(ذلك أن الحب القلبي لغير المسلمين ليس شيئا واحدا، فمنه ما ينقض (الولاء والبراء) من أساسه، ويكفر صاحبه بمجرده، ومنه ما ينقص من (الولاء والبراء) ولا ينقضه، فيكون معصية تنقص الإيمان ولا تنفيه، ومنه ما لا يؤثر في كمال الإيمان وفي معتقد (الولاء والبراء)، لكونه مباحا من المباحات، أما الحب القلبي الذي ينقض (الولاء والبراء) وينفي أساس الإيمان: فهو حب الكافر لكفره، وأما الحب القلبي الذي لا يصل إلى حد النقض، لكنه ينقص الإيمان، ويدل على ضعف في معتقد (الولاء والبراء)، فهو محبة الشخص (كافرا كان أو مسلما) لفسقه أو لمعصية يقترفها، فهذا إثم ولا شك، ولكنه لا يصل إلى درجة الكفر لكونه لا ينافي أصل الإيمان؛ إذ لا يزال في المسلمين من يحب المعاصي ويقترفها، ولم يكفرهم أحد من أهل السنة، وهذا الحب قد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، وقد لا يكون كذلك، بحسب حال المحبوب ومعصيته، فمن أحب محبوبا لارتكابه الكبائر، فهذا الحب كبيرة، ومن أحبه لصغيرة يرتكبها، فلا يزيد إثمه على إثم من ارتكبها، وهذا التقرير واضح الالتئام، بين المأخذ، بحمد الله تعالى، وأما الحب المباح فهو الحب الطبيعي، وهو الخارج عما سبق، كحب الوالد لولده الكافر، أو الولد لوالديه الكافرين، أو الرجل لزوجه الكتابية، أو المرء لمن أحسن إليه، وأعانه من الكفار، فهذا الحب مباح، ما دام لم يؤثر في بغضه لكفر الكافرين، وفسق الفاسقين، ومعصية العاصين، أما إذا أثر في بغضه، فإنه يعود إلى أحد القسمين السابقين، بما فيهما من تفصيل)[2].

ثانيًا: دوافع الكره المذموم:

١. أمراض القلوب.

الحسد، وهو من أهم أسباب الكراهية بين الناس، فإن الحاسد لم ولن يحب غيره فترى البعض من الناس لا يكره الخير لغيره، فقط؛ بل ويتمنى له الزوال، وهذا يولد الكراهية بين الناس، والحسد مرض من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة، رقم ٦٣٩٨.

(٢) الولاء والبراء بين الغلو والجفاء، حاتم العوني، ص١٨-١٩.

أمراض القلوب، قلما يخلو جسد من حسد، لكن على الكريم أن يخفيه، وهذا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: (والحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلا القليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه)[1].

وقد قال تعالى في ذم الحسد والحاسدين لأنه سيؤول إلى الكراهية والبغضاء بين المسلمين: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران:١١٩-١٢٠].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗاۖ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران:١١٨].

خبث النفس، وهذا من أكثر الأسباب سوءا؛ لأن الكراهية الناتجة عنه سبب متجذر في قلب صاحبه تكون معالجته صعبة للغاية، أما الكراهية بسبب طارئ فسرعان ما تزول.

وخبيث النفس منشغل بتتبع عورات الناس وأخطائهم؛ لأنه يكره الخير لغيره، ويحب لهم الشر والأذى؛ فهو سبب للعداوات بين أفراد المجتمع، يقول الغزالي: (خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به فهو أبدا يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته)[2].

الغيبة والنميمة، قال بعض الحكماء: (النميمة تهدي إلى القلوب البغضاء، ومن واجهك فقد شتمك، ومن نقل إليك فقد نقل عنك، والساعي بالنميمة كاذبٌ لمن يسعى إليه، وخائن لمن يسعى به)[3].

وقد نهى الله عز وجل عن الغيبة والنميمة، وبين رسولنا الكريم عذابهما الذي يعذبان به في قبريهما.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات:١٢].

(١) أمراض القلب وشفاؤها، ابن تيمية، ص٢١.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٣/ ١٩٤.

(٣) بحر الدموع، ابن الجوزي، ١/ ١٣٠.

فالله تعالى شبه الغيبة بأكل لحم المسلم لأخيه المسلم، وهل في ذلك أشد كراهة من أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت، فمن يغتاب غيره كمن يأكل لحم الميت، وهذا دليل على استقذار الغيبة، وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم:١٠-١٣].

والهماز كما قال ابن عباس وقتادة: يعني الاغتياب، والمشاء بنميم هو الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم، وينقل الحديث لفساد ذات البين وهي الحالقة، وعن ابن عباس قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال: (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)[(١)].

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون ما الغيبة)؟ قالوا :الله ورسوله أعلم، قال: (ذكرك أخاك بما يكره)، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته)[(٢)].

الإعجاب والكبر: كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكبر بطر الحق وغمط الناس)[(٣)].

وبطر الحق يعني: أن تَكَبُّرُهُ يَمْنَعُهُ من قبول الحق، وغمط الناس أي: استحقارهم، والمتكبر والمعجب بنفسه يكره الناس ويكرهه الناس، فلا يحتمل أن يرى غيره وغيره لا يحتملون لقاءه، وما سبب طرد الله لإبليس من الجنة إلا تكبره واستعلائه، وما سبب إغراق فرعون إلا الكبر، وما سبب إهلاك النمرود إلا الكبر، وكذلك كره الكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لتكبرهم، وقد خص الله كل من تكبر بسوء العذاب، فعن عبد الله بن مسعود، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قبله مثقال ذرةٍ من كبر)[(٤)].

والفرق بين الكبر والإعجاب هو أن الكبر في المنزلة، بينما الإعجاب في النفس، وكلاهما منهي عنه، وكلاهما يولد الكراهية للمتكبر والمعجب بنفسه.

الظلم، سواء بين الأبناء، أو بين الزوجات، أو المعلم بين طلابه، أو الموظف مع مراجعيه، وغير ذلك، فإنه يولد الكراهية لا محالة، لذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/١٩١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الغيبة، رقم ٦٧٥٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم ٩١.

﴿يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة:٨].

فالعدل واجب شرعي مع جميع الناس، حتى لو كان بينك وبينه بغض وعداوة.

التعدي على حقوق الآخرين، باستئثار المنافع، وعدم إعطائها لمن يستحقها، فإنه يولد الكراهية، وقد حذر الله ورسوله من الاعتداء على الآخرين فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين)[(١)].

فمن اعتدى على غيره لا يمكن للآخرين أن يحبوه بل سيكرهونه لظلمه وسلبه حقوقهم.

الكذب والغش؛والكذب صفة مذمومة، وهي علامة نفاق لذلك فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من غشنا فليس منا)[(٣)].

ولم يحدد رسولنا الكريم نوع هذا الغش بل هو عام في جميع أنواع الغش، سواء غش الناس في بيعهم وشرائهم، أو غشهم عند الزواج، أو غير ذلك، فمن كانت هذه صفاته فالناس سيكرهونه، فالكذابون والغشاشون مكروهون من الناس.

قسوة القلب والغلظة في التعامل، فالقسوة والغلظة في التعامل مع الناس تجلب الكراهية فتنفر الناس من حولهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

التجسس: فالذي يتجسس على الناس ليكشف عوراتهم وأخطاءهم، كيف لهم أن يحبوه، لذلك نهى الله ورسوله عن التجسس، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحجرات:١٢].

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب قصاص المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم ٢٣٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم ١٦١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غشنا فليس منا، رقم ١٠١.

يفضحه ولو في جوف بيته)[1].

وقد قال ابن عثيمين: (التجسس أذية، يتأذى به المتجسس عليه، ويؤدي إلى البغضاء والعداوة)[2].

الجدال: لذلك أمرنا الله تعالى أن تكون المجادلة بالتي هي أحسن في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ لأن المجادلة غير الحسنة؛ في نهاية الأمر، تؤدي إلى الكراهية.

كثرة العتاب واللوم، وورد في ذلك من أمثال العرب، (كثرة العتاب توجب البغضاء)[3]، فكثرة العتاب واللوم يولد الكراهية بين الناس، مع أنه لا بد من العتاب واللوم ولكن ليس على كل صغيرة وكبيرة، وتكون بأسلوب راقٍ بعيدا عن القدح والذم.

٢. ضعف الإيمان.

ويأتي ضعف الإيمان نتيجةً لعدم الالتزام بأوامر الله ورسوله، فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا وكونوا إخوانا)[4].

فقد جاء النهي عن التباغض ومع ذلك لا نجد التزاما، مما أدى إلى ضعف الإيمان؛ هو سبب لكل ظلم واعتداء على الآخرين، وسبب للكراهية والبغضاء، والحقد والحسد، وغير ذلك، لأنه حينها يكون الشيطان هو المتنفذ المتحكم في مثل هؤلاء، والشيطان لا يقرب إلا لما يحبه ويبعد عن كل ما يرضي الله، وكراهية المسلم لأخيه المسلم من الأمور التي يحرص عليها الشيطان فيقربها إلى كل ذي نفس ضعيفة بالإيمان.

٣. التفرق والاختلاف.

اختلف العلماء المسلمون في كثير من المسائل سواء في الفرعية، أي: في فروع الشريعة والتي أظهرت المذاهب الفقهية، أو في مسائل أصول الدين، وهو الخلاف العقدي والذي أظهر الفرق الإسلامية.

والخلاف الفقهي محمود، لذلك يقال: اختلاف الأئمة رحمة للأمة، وأما الخلاف العقدي فهو مذموم وعواقبه وخيمة على الأمة الإسلامية على مر العصور، وهذه

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، ٣/ ٤٤٦، رقم ٢٠٣٢، وحسنه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٣، رقم ٧٩٨٥.

(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٦/ ٢٥١-٢٥٢.

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف، الإبشيهي، ص ٦٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا يخطب من خطب أخيه حتى ينكح أو يدع، رقم ٤٨٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، رقم ٢٥٦٣.

الفرق أدت إلى الكره والتباغض بين المسلمين، وعدم قبول الآخر، لهذا نهى الله عن التفرق والاختلاف فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥].

ومن الأسباب التي أدت إلى التفرق والاختلاف: التعصب لغير الحق من خلال التحزب في الأحزاب الوطنية أو القومية وغيرها من الأحزاب، أو التحزب إلى إمام من الأئمة، أو عالم من العلماء، فالأتباع يكرهون بعضهم البعض، وكل منهم يتهم الطرف الآخر بدلا من أن يعمل الجميع لخدمة الإسلام والمسلمين وخدمة الوطن، مع أن الواجب علينا كمسلمين حب المسلم للمسلم لا كراهيته، بغض النظر عن حزبه.

٤. الدعوة إلى عصبية النسب والجاهلية.

والإسلام نبذ العصبية بشدة، وجعلها من عادات الجاهلية، وسبب نبذها هو ما فيها من آثار سلبية على الفرد والمجتمع، فهي تؤدي إلى الكره والتباغض بين أفراد المجتمع الواحد من جهة، وبينه وبين المجتمعات الأخرى من جهة أخرى، والعصبية غير مختصة بالعصبية القبلية بل بها وبغيرها مثل التعصب للحزب والجماعة، والتعصب العائلي، والتعصب للجنس واللون والبلد وغيرها، لذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

أثر الكره على السلوك الإنساني

وإننا إذ نتحدث عن آثار الكره على السلوك الإنساني فإن المقصود بالكره هو الكره المذموم، وله كغيره من الأخلاق السلبية العديد من الآثار الآثار السلبية الضارة، والعواقب المهلكة على الفرد والمجتمع، ولا بد من التنبيه عليها حتى نتجنبها ولا نقع فيها؛ وهي كما يلي:

أولًا: آثار كراهية أحكام الله:

١. نفي الإيمان عمن كره أحكام الله.

فقد قال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمد:٨-٩].

وقد وصفهم في بداية الآية بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فمن يكره ما أنزل الله من الآيات لن يكون مؤمنا فكأن لم يعمل صالحا من قبل، فالمؤمن لا يمكن أن يكره آيات الله، لقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء:٦٥].

ذلك لأنهم لم يحكموا شرع الله فيما شجر بينهم ولأنهم وجدوا حرجا شديدا من أوامر ونواهي الله ورسوله ولم يسلموا تسليما تاما لقضاء الله تعالى، فقد أقسم الله بأنهم غير مؤمنين فنفى عنهم الإيمان.

٢. إحباط الأعمال.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمد:٨-٩].

فلأنهم كرهوا ما أنزل الله فقد أحبط الله أعمالهم، لك أن تتصور من يبني عمارة، ثم بنفسه يهدمها! أو كمن تنقض ثوبا غزلته بعد تعب ومشقة، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ [النحل:٩٢].

ولأنهم قد كرهوا رضوان الله لكراهيتهم أحكام الإسلام، وكل مظهر من مظاهر الإسلام.

والله عز وجل لا يقبل من الكافرين عملًا طوعًا كان أو كرهًا ليس ذلك إلا لأنهم كفروا بالله ورسوله فأحبط الله أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ۝٥٤﴾ [التوبة:٥٤].

٣. الذل والهزيمة.

فالله عز وجل حكم على كل من يكره ما أنزل الله بالتعس، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمد:٨-٩].

والتعس: الانحطاط والعثار، قال ابن

السكيت: التعس أن يخر على وجهه، والنكس أن يخر على رأسه، قال: والتعس أيضا الهلاك، قال الجوهري: وأصله الكب، وهو ضد الانتعاش، وقد تعس (بفتح العين) يتعس تعسا[1].

ويقول تعالى مؤكدا هذا الخزي الذي يلحق بمن يكره ما أنزل الله أو بعضه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

٤. العذاب في الآخرة.

فالله أعد نار جهنم لكل من كره حكما من أحكام الله، لقوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة:٨١].

ثانيا: آثار كراهية المسلمين لبعضهم البعض:

أما المسلم الذي يكره غيره من المسلمين، كأخيه أو جاره أو زميله، لمصالح دنيوية، فآثار كرهه كثيرة على النفس وعلى المجتمع وهي كما يلي:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٢٣٣.

١. حلق الدين والتوعد بالعقوبة الأخروية.

فعن الزبير بن العوام حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (دب إليكم داء الأمم: الحسد والبغضاء؛ هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم).[2]

إن الأثر الأكبر للكراهية هي على نفس صاحبها، سواء على الناحية النفسية أو حتى الجسمية، من تعب للأعصاب وقلق البال، وهذا حتما يؤثر على جسمه بإضعافها، فلمجرد ذكر اسم من يكرهه أو يتذكر شيئا من أقواله أو أفعاله، فإن ناره تشتعل.

٢. القلق والاضطراب.

وهذا الشعور يؤدي إلى الكثير من الانحرافات السلوكية كالانطواء، والغضب، والعدوانية، والكذب، لذلك من نعيم أهل الجنة أن نزع الله الغل من صدورهم.

٣. التفريق بين الأخوة الإيمانية أو أخوة النسب، وتقطيع أواصر المحبة بينهم، وعدم صلة الأرحام.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، رقم ٢٥١٠.
قال الترمذي: هذا حديث صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٦٣٤، رقم ٣٣٦١.

﴿رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

٤. تضعف المجتمع المسلم أمام أعدائه، نتيجة انشغاله بمشاكله الداخلية.

٥. انتفاء العدل بين الناس، وهذا بالتأكيد مؤذن بخراب المجتمع ومنجزاته.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

موضوعات ذات صلة:

الإكراه، الرضا، المحبة

الكسب

عناصر الموضوع

مفهوم الكسب	٢٧٠
الكسب في الاستعمال القرآني	٢٧١
الألفاظ ذات الصلة	٢٧٢
إحاطة علم الله تعالى بكسب العباد	٢٧٤
أنواع الكسب في القرآن وصور منه	٢٧٧
جزاء الكسب	٢٨٤
عاقبة الكسب	٢٩٢

مفهوم الكسب

أولًا: المعنى اللغوي:

كسب: الكاف والسين والباء: أصلٌ صحيحٌ، وهو يدل على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابةٍ. ويقال: كسب أهله خيرًا، وكسبت الرجل مالًا فكسبه. وهذا مما جاء على فعلته ففعل[(١)]. والكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظ، ككسب المال، وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة، ثم استجلب به مضرة. والكسب يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره[(٢)]، وكسب: أصاب، واكتسب: تصرف واجتهد[(٣)]، وتكسب، واكتسب: طلب الرزق، وأصله الجمع[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الكسب: هو المفضي إلى اجتلاب نفع أو دفع ضرر، ولا يوصف فعل الله بأنه كسب؛ لكونه منزهًا عن جلب نفع أو دفع ضرر»[(٥)].

وقال أبو حيان: «والكسب: أصله اجتلاب النفع، وقد جاء في اجتلاب الضر»[(٦)]، وقال الطبري: «وأصل الكسب: العمل. فكل عامل عملًا بمباشرة منه لما عمل ومعاناة باحتراف، فهو كاسب لما عمل»[(٧)].

وبهذا يظهر أن الكسب هو جلب النفع، وقد يستخدم في الشر، وفي هذه الحالة يكون من باب التحقير والسخرية والاستهزاء، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: ٨١].

والكسب يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره، والاكتساب لا يقال إلا فيما استفاده لنفسه. وكل اكتساب كسب، وليس كل كسب اكتسابًا[(٨)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٧٩.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٣١٥، تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٤٨، الصحاح، الجوهري ١/ ٢١٢.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٣٠.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٤/ ١٤٤.
(٥) التعريفات ص١٨٤.
وانظر: المفردات، الراغب الأصبهاني، ص ٧٠٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٨١، الكليات، الكفوي ص ٧٧٠.
(٦) البحر المحيط، ١/ ٤٣٦.
(٧) جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٧٣.
(٨) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٣٤٩.

الكسب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كسب) في القرآن الكريم (٦٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤٣	﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد:٢]
الفعل المضارع	٢٤	﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ [النساء:١١١]

وجاء الكسب في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

أحدها: الرشوة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. يعني: يرتشون.

الثاني: الولد: ومنه قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢]. يعني: وما ولد؛ قاله مجاهد.

الثالث: الجمع: ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. أي: مما جمعتم.

الرابع: العمل: ومنه قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. أي: عملت.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٦٠٤-٦٠٥.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٤٠٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكدح:

الكدح لغةً:

(كدح) الكاف والدال والحاء: أصلٌ صحيحٌ يدل على تأثيرٍ في شيءٍ. يقال: كَدَحَهُ وكَدِحَهُ: إذا خدشه. ومن هذا القياس كدح إذا كسب، يَكْدَحُ كَدْحًا فهو كادحٌ[(١)]، والكدح: عمل الإنسان من الخير والشر. ويكدح لنفسه، أي: يسعى[(٢)].

الكَدْحُ اصطلاحًا:

سعي الإنسان وجهده في الأمر من الخير والشر حتى يؤثر فيه[(٣)].

الصلة بين الكسب والكدح:

الكسب يكون بجهد وبغير جهد، وأما الكدح فلا يكون إلا بجهد[(٤)].

٢ الخسران:

الخسران لغة:

خسر: الخَسْرُ: النقصان، والخُسْرانُ كذلك، والفعل: خَسِرَ يَخْسَرُ خسرانًا، والخاسر: الذي وضع في تجارته، ومصدره: الخَسارَةُ والخَسْرُ. كِلْتُهُ ووَزَنْتُهُ فَأَخْسَرْتُهُ، أي: نقصته، وقوله عز وجل: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩].

أي: نقصًا. وصفقة خاسرةٌ، أي: غير مربحة[(٥)].

الخسران اصطلاحًا:

هو فقدان الأعمال والأموال والأهل والأجر والثواب في الدنيا والآخرة، بسبب ضلال السعي والانحراف عن دين الله.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٦٧.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٦٩.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٣/ ٥٩.
وانظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧٧٩.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٢٢٨.

(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص ١٣٨.

(٥) انظر: العين، الفراهيدي، ٤/ ١٩٥، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٨٢، لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٢٣٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٣٣.

الصلة بين الكسب والخسران:

الكسب في الأصل يكون بالزيادة، والخسران بالنقص.

٣ الإضاعة:

الإضاعة لغة:

(ضيع) الضاد والياء والعين: أصلٌ صحيحٌ يدل على فوت الشيء وذهابه وهلاكه، يقال: ضاع الشيء يَضِيعُ ضياعًا وضيعةً، وأضعته أنا إضاعةً[(١)].

الإضاعة اصطلاحًا:

الإهمال، تقول: أضعت الشيء، أي: أهملته فلم أحفظه[(٢)].

الصلة بين الكسب والإضاعة:

الكسب يقوم على الحصول على الشيء، والاضاعة على إتلافه.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٨٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٥٤٧، لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٢٣١.

(٢) انظر: الدر المصون، الحلبي ٢/ ١٥٨.

إحاطة علم الله تعالى بكسب العباد

إن علم الله عز وجل محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء؛ فهو عالم بما كان وما يكون، وما لو كان كيف يكون، ومن هذا العلم كسب الإنسان خيرًا كان أم شرًّا، فجاء هذا البحث يتحدث حول مدى علم الله وإحاطته بكسب العباد من خير وشر.

أولًا: علم الله بكسب العباد من خير وشر:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

يقول تعالى ذكره: إن الذي له الألوهة التي لا تنبغي لغيره، المستحق عليكم إخلاص الحمد له بآلائه عندكم، أيها الناس، الذي يعدل به كفاركم من سواه، هو الله الذي هو في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم، فلا يخفى عليه شيء[(١)]، فالله هو المألوه المعبود في السموات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض متعبدون لربهم، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزه وجلاله، والملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والصديقون، والشهداء والصالحون[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١١/ ٢٦١.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٥٠، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٢٥٠.

وقد ذكر المولى عز وجل في هذه الآية وصفين جليلين فيهما تذكير وتبشير وإنذار:

أولهما: أنه ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فإنه يعلم ما تظهره الجوارح وما تخفيه السرائر، يعلم ما يجري على الإنسان وما تخفي الصدور، فإن حاسب على ما يفعلون، فحسابه حساب اللطيف الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء أنى يكون، وهو مجاز على ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ، وهو من بَعْدُ الغفور الرحيم.

الوصف الثاني: أنه ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير أو شرٍّ، ولكل ذلك حسابه من هنا إلى يوم القيامة[(٣)].

يستفاد من الآية إثبات صفة العلم لله تعالى، وأنه تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

فالحذر الحذر من مخالفته وعصيان أمره!!

وفي آية ثانية يذكر المولى - سبحانه وتعالى القديم الأزلي بمكر الماكرين وتآمر المتآمرين- مبينًا لنبيه صلى الله عليه وسلم أنَّ مكر هؤلاء هو يبور، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٤٣٥.

[الرعد: ٤٢].

أي: قد مكر الذين من قبل هؤلاء المشركين من قريشٍ من الأمم التي سلفت بأنبياء الله ورسله، فلله أسباب المكر جميعًا، وبيده وإليه، لا يضر مكر من مكر منهم أحدًا إلا من أراد ضُرَّهُ به، يقول: فلم يضر الماكرون بمكرهم إلا من شاء الله أن يضره ذلك، وإنما ضروا به أنفسهم؛ لأنهم أسخطوا ربهم بذلك على أنفسهم حتى أهلكهم، ونَجَّى رسله، فكذلك هؤلاء المشركون من قريش يمكرون بك، يا محمد، والله منجيك من مكرهم، وملحقٌ ضَرَّ مكرهم بهم دونك، فإن ربك يا محمد يعلم ما يعمل هؤلاء المشركون من قومك، وما يسعون فيه من المكر بك، ويعلم جميع أعمال الخلق كلهم، لا يخفى عليه شيء منها، وسيعلمون إذا قدموا على ربهم يوم القيامة لمن عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخل المؤمنون بالله ورسوله الجنة[(١)].

وهذا وعيد شديد وتهديد لكل كافر ماكر، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٦/ ٤٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٧٣.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٣/ ١٩٤.

ثانيًا: كسب العباد في المستقبل غيب لا يعلمه إلا الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، قال تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى، أو شقيًّا أو سعيدًا، علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا ﴿تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗا﴾ في دنياها وأخراها، ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب[(٣)].

ولما خصص هذه الأشياء، عمم علمه بجميع الأشياء فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٥٢.

﴿خَبِيرٌ﴾، محيط بالظواهر والبواطن، والخفايا والخبايا، والسرائر، ومن حكمته التامة، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك[1].

وفي آية ثانية بين المولى عز وجل علمه المطلق الشامل لعظائم الأشياء ودقيقها، فقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

هذه الآية العظيمة، من أعظم الآيات تفصيلًا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلًا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ويشتمل عليه ماؤها. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر، ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق وغيرها من أصناف النباتات إلا في اللوح المحفوظ[2].

يستفاد من الآية: أن كل مدَّعٍ لمعرفة الغيب من الجن والإنس فهو طاغوت يجب لعنه ومعاداته، وأما من ادعى اليوم من أنه بواسطة الآلات الحديثة قد عرف ما في رحم المرأة فهذه المعرفة ليست داخلة في معنى الآية؛ لأنها بمثابة من فتح البطن ونظر ما فيه فقال: هو كذا، وذلك لوجود أشعة عاكسة، أما المنفي عن كل أحد إلا الله أن يقول المرء: إن في بطن امرأة فلان ذكرًا أو أنثى، ولا يقرب منها ولا يجربها في ولادتها السابقة، ولا يحاول أن يعرف ما في بطنها بأية محاولة[3].

جاء في الصحيح: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مفتاح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحدٌ ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحدٌ ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفسٌ ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت، وما يدري أحدٌ متى يجيء المطر)[4].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٥٣.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٢٢٠

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، ٢/ ٣٣، رقم ١٠٣٩.

أنواع الكسب في القرآن وصور منه

لاشك أن أنواع الكسب كثيرة ومتعددة، وسيتم الاختصار في هذه السطور على صور من أنواع الكسب في القرآن الكريم من خلال كسب الصالحات، وكسب السيئات وكسب الأموال.

أولًا: كسب الصالحات:

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

يبين المولى عز وجل في هذه الآية أن كسب الصالحات متحقق ومقبول قبل طلوع الشمس من مغربها، أما بعد ذلك تصبح الأعمال اضطرارية لا اختيارية، فلا قيمة لها، حيث بين المولى عز وجل أنه في هذا اليوم يبطل التكليف الذي يترتب عليه الجزاء؛ لأنها حالة لا تمتنع نفسٌ من الإقرار بالله، لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله، فحكم إيمانهم، كحكم إيمانهم عند قيام الساعة، وتلك حال لا يمتنع الخلق من الإقرار بوحدانية الله؛ لمعاينتهم من أهوال ذلك اليوم ما ترتفع معه حاجتهم إلى الفكر والاستدلال والبحث والاعتبار، ولا ينفع من كان بالله وبرسله مصدقًا، ولفرائض الله مضيعًا، غير مكتسب بجوارحه لله طاعة؛ إذا هي طلعت من مغربها أعماله إن عمل، وكسبه إن اكتسب؛ لتفريطه الذي سلف قبل طلوعها في ذلك[(١)].

يستفاد من هذه الآية: أن على الإنسان أن يبادر بالأعمال الصالحة والتوبة النصوحة قبل أن يفجأه الموت أو أن يُغْلَقَ بابُ التوبة.

جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾)[(٢)].

وفي آية أخرى يبين المولى عز وجل حال المؤمن الذي يبتغي بعمله وجه الله، ويسعى لمرضات الله، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢].

أي: ومنهم من يطلب خير الدنيا والآخرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٢٦٦-٢٦٧، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب لا ينفع نفس إيمانها، ٦/ ٥٨ رقم ٤٦٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، ١/ ٩٥، رقم ٣١٣.

جميعًا، لا حظوظ الدنيا وحدها كيفما كانت كالفريق الأول.

وقد اختلف المفسرون في تعيين الحسنة هل هي العافية، أو الكفاف، أو المرأة الصالحة، أو الأولاد الأبرار، أو المال الصالح، أو العلم والمعرفة أو العبادة والطاعة؟

والظاهر أن ﴿حَسَنَةً﴾ وصفٌ لمحذوف أي: حياة حسنة، وانظر بم تكون حياة المرء حسنة فيكون سعيدًا في الدنيا، فمن دعا الله تعالى دعاء إجماليًّا فليدعه بسعادة الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة فيهما يكن مهتديا بالآية. ومن كانت له حاجة خاصة فدعاه لها من حيث هي حسنة فهو مهتد بها، على أنهم اختلفوا في حسنة الآخرة أيضًا فقيل: الجنة، وقيل: الرؤية، واختلفوا في عذاب النار، وقد بينت الآية صريحًا أنهم يعطون ما دعوا الله تعالى فيه بكسبهم، وهذا نص في معنى الدعاء، وأنه لا بد أن يكون طلب اللسان مطابقًا لما في النفس من الشعور بالحاجة إلى الله تعالى بعد الأخذ بالأسباب، والسعي في الطرق التي مضت سنة الله تعالى ؛ ولهذا قال: ﴿مِّمَّا كَسَبُوا﴾ ولم يقل: لهم ما طلبوا. والمعنى: أنهم لما كانوا يطلبون الدنيا بأسبابها ويسعون للآخرة سعيها، كان لهم حظ من كسبهم هذا في الدارين على قدره[1].

يستفاد من الآية أن على الإنسان أن يأخذ بالأسباب ولا ينافي ذلك التوكل على الله؛ لأن التوكل الحقيقي على الله يكون بالأخذ بالأسباب مع التوكل على مسبب الأسباب وهو الله تعالى، وأن الاعتماد على الأسباب بالكلية قدح في الشرع، كما أن ترك الأسباب بالكلية قدح في العقل، والأخذ بالأسباب جزء من حقيقة التوكل على الله.

جاء في الصحيح عن أنسٍ، قال: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النار)[2].

ثانيًا: كسب السيئات:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

في هذه الآية يبين لنا المولى سبحانه وتعالى صورة من صور كسب السيئات، وهو الشرك بالله تعالى، حيث ذكر الكسب وهو جلب النفع، واستعماله هنا في السيئة

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١٩٠-١٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة)، ٨/ ٨٣، رقم ٦٣٨٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، ٨/ ٦٨، رقم ٦٩٣٩.

هو من باب التهكم، وأنسب الأقوال في تفسير السيئة هنا هو الشرك؛ لأنه إذا أحاط بالإنسان فإنه يهلكه ولا مغفرة فيه، فهؤلاء لم يكونوا عصاة فقط، ولكنهم كانوا كافرين مشركين. والدليل هو قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وأصحاب الصغائر أو الكبائر الذين يتوبون منها لا يخلدون في النار؛ ولكن المشرك بالله والكافر به هم الخالدون في النار[1].

ومن صور كسب السيئات اتخاذ الدين لهوًا ولعبًا، والاغترار بالدنيا الفانية، فقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

حيث بينت الآية الكريمة كيف أن الله تعالى سيحاسب المقصرين واللاهين المفتونين بالدنيا وزينتها بالافتضاح والمؤاخذة، والحبس يوم القيامة، حيث يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَذَرِ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ دين الله وطاعتهم إياه ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾، فجعلوا حظوظهم من طاعتهم إياه اللعب بآياته، واللهو والاستهزاء بها إذا سمعوها وتليت عليهم، فأعرض عنهم، فإني لهم بالمرصاد، وإني لهم من وراء الانتقام منهم والعقوبة لهم على ما يفعلون، وعلى اغترارهم بزينة الحياة الدنيا، ونسيانهم المعاد إلى الله تعالى ذكره، والمصير إليه بعد الممات[2].

يستفاد من الآية وجوب الإعراض عن المستهزئين المغرورين بالدنيا، والتحذير من مجالستهم والركون إليهم.

ومن صور كسب السيئات الغلول من الغنيمة فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

القراءات: «(يغل) فقرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو وعاصمٌ بفتح الياء وضم الغين. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الغين»[3]، «ومعنى القراءة بفتح الياء وضم الغين: ما كان لنبي أن يخون أصحابه ويأخذ من الغنيمة خفية، وعلى القراءة الأخرى بضم الياء وفتح الغين يكون المعنى: ما كان لنبي أن يخون فيتهم

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١/ ٤٢٦، التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٢٠٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٧٩، جامع البيان، الطبري، ١١/ ٤٤١.

(٣) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٢/ ٢٤٣.

بالخيانة»[1].

ففي هذه الآية ينفي المولى عز وجل عن أنبيائه صفة الغلول، وهي من الكبائر التي نهى الله عنها، وتوعد فاعلها بالعذاب الأليم، ثم ذكر تعالى جزاء وعقوبة من يفعل ذلك فأخبرهم تعالى أن من أغل شيئًا يأت به يوم القيامة يحمله حتى البقرة والشاة، ثم يحاسب عليه كغيره ويجزى به، كما تجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ولا تظلم نفس شيئًا لغنى الرب تعالى عن الظلم وعدله[2].

يستفاد من الآية: عصمة النبي من الصغائر والكبائر، ووجوب الدفاع عنه أمام الذين يسيئون إليه بأي شكل من الأشكال، وخاصة في زماننا من أعداء الإسلام الذين ينشرون الرسوم المسيئة له، فداك يا رسول الله بأبي وأمي!

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه قال: (لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاءٌ، يقول: يا رسول الله، أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك)[3].

ومن صور كسب السيئات التولي يوم الزحف، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

تتحدث الآية عن الصحابة الكرام، الذين انهزموا عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا القليل منهم، وقد حملهم الشيطان على الزلل، وهي الخطيئة بشؤم ذنوبهم بتركهم مركزهم الذي أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بعدم مغادرته، أو بقبولهم من الشيطان ما وسوس إليهم من الهزيمة[4].

ويعتبر التولي يوم الزحف من الكبائر بل هو من الموبقات السبع التي حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[5].

ومن صور الكسب السيِّئ كسب الذنوب

(١) الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، ص ١١٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٣٥٤، أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٤٠٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، أبواب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، ٦/ ١٠، رقم ٤٧٦٢.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٣٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى)، ٤/ ١٠، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في الكبائر، ١/ ٦٤، رقم ١٧٥.

والمعاصي عمومًا كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١١].

أي: ومن يأت ذنبًا على عمدٍ منه له ومعرفة به، فإنما يجترح وبال ذلك الذنب وضره وخزيه وعاره على نفسه، دون غيره من سائر خلق الله[١].

ومن صور كسب السيئات: اتهام الأبرياء والافتراء عليهم كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٢].

أي: من ارتكب خطيئة أو إثمًا ثم اتهم به بريئًا فقد ارتكب جريمة فظيعة، ونلاحظ من استخدام الحق هنا لكلمة (احتمل) وليس (حمل)، تؤكد لنا أن هناك علاجًا ومكابدة وشدة؛ ليحمل الإنسان هذا الشيء الثقيل؛ فالجريمة جريمتان وليست واحدة، لقد فعل الخطيئة ورمى بها بريئًا، وفاعل الخطيئة يندم على فعلها مرة، ويندم أيضًا على إلصاقها ببريء. إذن فهي حمل على أكتافه[٢].

ومن هذا الإيذاء والافتراء إيذاء المؤمنين بغير ما اكتسبوا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

أي: ينسبون إليهم ما هم برآء منه، لم يعملوه ولم يفعلوه، وهذا هو البهت البين، أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله، عز وجل، قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدًا، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين[٣].

قيل: إنها نزلت في منافقين كانوا يؤذون عليًّا رضي الله عنه، وقيل: في أهل الإفك، وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات[٤].

جاء في الصحيح عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٩٦.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٦١٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٤٨٠- ٤٨١.
(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٣٨.

بهته)[1].

ثالثًا: كسب الأموال:

الكسب الطيب والمال الحلال ينير القلب، ويشرح الصدر، ويورث الطمأنينة والسكينة والخشية من الله، ويعين الجوارح على العبادة والطاعة، ومن أسباب قبول العمل الصالح وإجابة الدعاء، أما الكسب الخبيث فإنه شؤم وبلاء على صاحبه، بسببه يقسو القلب، وينطفئ نور الإيمان، ويحل غضب الجبار، ويمنع إجابة الدعاء، المال الحرام مستخبث الأصول، ممحوق البركة والمحصول، إن صرفه صاحبه في برٍّ لم يؤجر، وإن بذله في نفعٍ لم يشكر، ثم هو لأوزاره محتمل وعليه معاقب.

ومن صور كسب الأموال قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض، فكما مَنَّ عليكم بتسهيل تحصيله فأنفقوا منه شكرًا لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيرًا لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾ الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة؛ فهو ﴿غَنِيٌّ﴾ عنكم، ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو ﴿حَمِيدٌ﴾ على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره؛ لأنها قوت القلوب، وحياة النفوس، ونعيم الأرواح[2].

يستفاد من الآية: أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، ومن هنا ينبغي على الإنسان أن يتخير النفقة الحلال ينفقها في سبيل الله.

جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أيها الناس، إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟!)[3].

(١) أخرجه مسلم، كتاب الآداب، باب تفسير الغيبة، ٨/ ٢١، رقم ٦٦٨٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١١٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب

وجاء في الصحيح أيضًا أنه (كان لأبي بكرٍ غلامٌ يخرج له الخراج، وكان أبو بكرٍ يأكل من خراجه، فجاء يومًا بشيءٍ فأكل منه أبو بكرٍ، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكرٍ: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسانٍ في الجاهلية، وما أُحْسِنُ الكهانةَ، إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكرٍ يده، فقاء كل شيءٍ في بطنه)[1].

ومن صور كسب الأموال قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

تتحدث الآية الكريمة عن تحريف اليهود لكتبهم، وزعمهم أنها من عند الله، طمعًا في عَرَضٍ زائل، فكان الوعيد والتهديد لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتب بأيديهم، ويودعونها آراءهم، ويحملون الناس على التعبد بها قائلين: إن ما فيها من عند الله، ويمكن الاستغناء بها عن الكتاب الذي نفهم منه ما لا يفهم غيرنا، يخطبون بتلك الكتب ميل العامة ودهم، ويبتغون الجاه عندهم، ويأكلون أموالهم بالدين؛ وهو مال حقير قليل، وكل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل؛ لأن الحق أثمن الأشياء وأغلاها، وأرفعها، فالهلاك والويل محيط بهم من أقطارهم، ونازل بهم من جانب الوسيلة ومن جانب المقصد[2].

يستفاد من الآية: أنَّ الكتاب الذي بين يدي اليهود والنصارى لا سند له يمكن أن يعتمد عليه في صحة المعلومات الواردة فيه؛ فلهذا لا يمكن لليهود ولا للنصارى أن ينفوا إمكانية التحريف، والعبث فيه خاصة، وأن الذين استؤمنوا عليه وهم اليهود قد انحرفوا انحرافات خطيرة في الدين، وكفر كثير منهم، وأعرضوا عن دين الله، وتركوه رغبة عنه، وحبًّا للدنيا، وإيثارًا لها، وهذا ظاهر واضح لكل من طالع سجل تاريخهم وهو العهد القديم. فمع هذا الانحراف والفساد كيف يمكن أن تسلم التوراة من العبث والتحريف، هذا ما لا يقبله العقل السليم وواقع الإنسان[3].

قبول الصدقة من الكسب الطيب، ٣/ ٨٥، رقم ٢٣٠٩.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية، ٥/ ٤٣، رقم ٣٨٤٢.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٩٩.

(٣) انظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ص ٩٤.

جزاء الكسب

من صفات الله تبارك وتعالى العدل في محاسبة خلقه، فلا يحاسبهم إلا بما عملوا، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ولا يؤاخذهم إلا بما تعمدت قلوبهم مع العفو عن الكثير، ومن هنا جاءت النقاط الآتية:

أولًا: كلٌّ مرهون بكسبه:

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

من رحمة الله بعباده أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولا يحاسبها إلا بما اجترحت وعملت من خير، فيكافئها عليه خيرًا، وبما عملت من شرٍّ فيجازيها عليه شرًا[(١)].

جاء في الصحيح عن أبي مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كفتاه)[(٢)].

ومن صور ارتهان العبد بكسبه والتي تبين فضل الله على المؤمنين برفع درجات ذرية الصالحين إليهم، وليس كذلك لأبناء الكفار فلا يزيد من عذابهم بفعل آبائهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعا لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاء لآبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئًا، وحتى لا يتوهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، بَيَّنَ تعالى أنَّ كلَّ امرئ مرتهن بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد[(٣)].

ومن الآيات التي تدلل على أن الكافر مرتهن بكسبه مغلولة به عنقه، قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٠].

حيث يقول تعالى ذكره: إنَّ كلَّ نفس مأمورة منهية بما عملت من معصية الله في الدنيا، رهينة في جهنم موثقة بسعيها، قد ألزم عنقها، وغل في رقبتها، واستوجبت به العذاب إلا المؤمنين فإنهم غير مرتهنين،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ١٣١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، ٦/ ١٨٨، رقم ٥٠٠٨.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨١٥.

ولكنهم في جنات النعيم مطمئنين يتساءلون عن المجرمين[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ [النساء: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

في هذه الآيات تحديد المسئولية، حيث لا يؤخذ أحد بجرم غيره، ولن يخشى البريء أن يلقى عليه جرم المجرم، فإن أمر القضاء إلى عليم حكيم، يعلم عمل كل عامل من خير أو شر، فيجزى بالخير خيرًا، وبالشر شرًّا، كما يقضي بذلك عدله، وحكمته[2].

ومن حكمة الله أنه يجازي كلَّ عامل بقدر عمله الذي عمله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

أي: إن الذين جاءوا بأشنع الكذب، وهو اتهام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة جماعة منتسبون إليكم -معشر المسلمين- لا تحسبوا قولهم شرًّا لكم، بل هو خير لكم، لما تضمن ذلك من تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها والتنويه بذكرها، ورفع الدرجات، وتكفير السيئات، وتمحيص المؤمنين. لكل فرد تكلم بالإفك جزاء فعله من الذنب، والذي تحمل معظمه، وهو عبد الله بن أبي ابن سلول كبير المنافقين -لعنه الله- له عذاب عظيم في الآخرة، وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار[3].

يستفاد من الآية حرمة الطعن بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه من الكبائر التي توعد الله فاعلها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، ومن هنا كان لا بد للأمة أن تنهض من تخاذلها، وتدافع عن عرض رسولها صلى الله عليه وسلم من أولئك الذين يطعنون في عرضه ويسيئون إليه.

وكما أن كل إنسان مرتهن بكسبه فكذلك الأمم، لا تؤاخذ أمة بجريرة أمة أخرى، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

حيث يخاطب المولى عز وجل اليهود والنصارى بقوله: يا معشر اليهود والنصارى، دعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والمسلمين من أولادهم

(١) انظر: المصدر السابق، ص ٨٩٧.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٣/ ٨٩٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٢٣١.
(٣) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ١/ ٣٥١.

بغير ما هم أهله، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية، فتضيفونها إليهم، فإنهم أمة لها ما عملت من خير، ولكم يا معشر اليهود والنصارى مثل ذلك ما عملتم، ولا تؤاخذون أنتم بهم فتسألوا عما كانوا يعملون. فيكسبون من خير وشر؛ لأنَّ لكلٍّ نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت. فدعوا انتحالهم وانتحال مللهم، فإن الدعاوى غير مغنيتكم عند الله، وإنما يغني عنكم عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم، إن كنتم عملتموها[1].

يستفاد من الآيات أنَّ سنة الله في الخلق أن المرء يجزى بعمله، ولا يسأل عن عمل غيره.

ثانيًا: العدل في الجزاء:

يتجلى العدل الإلهي في سنة المسئولية والجزاء، فالإنسان مسؤول عن فعله ومجـزًى به؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. ولكنه ليس مسئولًا عن فعل غيره، إلا في حدود تأثيره فيه.

فكل أفعال الله وأحكامه عدل وسداد وصواب، وهو سبحانه قد أوضح السبل وأرسل الرسل، وأنزل الكتب وأزاح العلل، ومكن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله ووَفَّقَ من شاء بمزيد عنايةٍ، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله، وخَلَّى بينه وبين نفسه، ولم يرد سبحانه أن يوفقه، فقطع عنه فضله، ولم يحرمه عدله.

وهنا لا بد من إبراز بعض المفاهيم المغلوطة فيما يتعلق بقضية التخيير والتسيير في كسب الإنسان، فذهبت فرقة الجبرية إلى أن الإنسان مسير مجبور على كل ما يعمله وليس لديه اختيار، وفي المقابل ذهبت فرقة القدرية وهم المنكرون للقدر إلى أن الإنسان مخير في كل ما يعمله، وأنكروا قدرة الله على كل شيء فجعلوه لم يخلق أفعال العباد، فأخرجوها عن قدرته وخلقه.

والحق الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإنسان مخير في أشياء وهي الإرادية وعليها يكون الجزاء والحساب، ومسير في أشياء غير الإرادية كالميل القلبي ونحوه فلا يحاسب عليها[2].

قال الطاهر بن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]: «وفي هذه الآية وآية سورة الإنسان إفصاح عن شرف أهل الاستقامة بكونهم بمحل العناية من ربهم إذا شاء لهم الاستقامة وهيأهم لها، وهذه العناية معنى عظيم تحير أهل العلم في الكشف عنه، فمنهم من تطوح به إلى الجبر، ومنهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٠٠.

(٢) انظر: شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٣٥٨.

من ارتمى في وهدة القدر، ومنهم من اعتدل فجزم بقوة للعباد حادثة يكون بها اختيارهم لسلوك الخير أو الشر، فسماها بعض هؤلاء قدرة حادثة، وبعضهم سماها كسبًا. وحملوا ما خالف ذلك من ظواهر الآيات والأخبار على مقام تعليم الله عباده التأدب مع جلاله، وهذا أقصى ما بلغت إليه الأفهام القويمة في مجامل متعارض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ومن ورائه مسلك دقيق يشده قد تقصر عنه الأفهام»[1].

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

يبين المولى عز وجل في هذه الاية الكريمة كمال قدرته وعدله من خلال خلق السموات والأرض بالحق، أي: إن الله أوجد وأبدع السموات والأرض بالحق المقتضي للعدل بين العباد، فلا يمكن أن يكون حال من اجترح السيئات، فعصاه وخالف أمره، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، في المحيا والممات، فلو لم يوجد البعث والحساب والجزاء، لما كان ذلك الخلق بالحق بل كان بالباطل، ومن العدل اختلاف الجزاء بين المحسن والمسيء؛ ليدل بهما على قدرته، ولكي تجزى كل نفس بما قدمت من عمل صالح أو سيِّئ، وهم -أي: المخلوقون- لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب، فلو ترك الظالم الذي ظلم غيره في الدنيا، ولم يقتص منه في الآخرة، لما كان خلق السموات والأرض بالحق[2].

قال الطبري: «ليثيب الله كل عامل بما عمل من عمل المحسن بالإحسان، والمسيء بما هو أهله، لا لنبخس المحسن ثواب إحسانه، ونحمل عليه جرم غيره، فنعاقبه، أو نجعل للمسيء ثواب إحسان غيره فنكرمه، ولكن لنجزي كلًّا بما كسبت يداه، وهم لا يظلمون جزاء أعمالهم»[3].

ولقد بين المولى سبحانه وتعالى عدله وسرعة حسابه بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١].

والجزاء أمر طبيعي في الوجود، وحتى الذين لا يؤمنون بإله؛ ويديرون حركة حياتهم بتقنينات من عندهم، قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها.

وبطبيعة الحال لا يكون أمرًا غريبًا أن يضع خالق الكون نظامًا للجزاء ثوابًا وعقابًا، ولو لم يضع الحق سبحانه نظامًا للجزاء بالثواب والعقاب؛ لنال كل مفسد بغيته من فساده؛ ولأحس أهل القيم أنهم قد خدعوا

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٦٨.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٥/ ٢٧٦.

(٣) جامع البيان ٢٢/ ٧٥.

في هذه الحياة، وما دام الجزاء أمرًا طبيعيًّا؛ فلا ظلم فيه إذن؛ لأنه صادر عمن قال: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

ولا يجازي الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة[١].

ومن عدل الله حين ينكر أصحاب الذنوب الأعمال التي ارتكبوها أنه يجعل من أعضائهم من تشهد عليهم كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت[٢].

عن أنس بن مالكٍ، قال: (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: (هل تدرون مم أضحك)؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قا: فيقول: بعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت أناضل)[٣].

ومن عدل الله أنه لا يظلم أحدًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

بَيَّنَ المولى عز وجل في هذه الآية أن كل نفس تجزى بما كسبت في الدنيا من خير وشر، وأن الظلم مأمون منه؛ لأنه ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يبطئ؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد، وهو أسرع الحاسبين[٤].

وأكد المولى عز وجل على هذه الحقيقة في آية أخرى، فقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

أي: كيف يكون حال هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القول، وفعلوا ما فعلوا من إعراضهم عن كتاب الله، واغترارهم بربهم، وافترائهم الكذب؟ وذلك من الله عز وجل وعيدٌ لهم شديد، وتهديدٌ غليظٌ.

فما أعظم ما يلقون من عقوبة الله وتنكيله بهم، إذا جمعهم ليوم يوفَّى كلُّ عامل جزاء

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٦١٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٨٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقائق، باب شهود الجوارح على الإنسان بما عمل، ٨/ ٢١٦، رقم ٧٥٤٩.
(٤) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٢٠٤.

عمله على قدر استحقاقه، غير مظلوم فيه؛ لأنه لا يعاقب فيه إلا على ما اجترم، ولا يؤاخذ إلا بما عمل، لا يخاف أحدٌ من خلقه منه يومئذ ظلمًا ولا هضمًا[1].

ويؤكد المولى على هذه الحقيقة في آخر آية نزلت من القرآن، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أي: واحذروا أيها الناس يومًا ترجعون فيه إلى الله بسيئات تهلككم، أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم، فتهتك أستاركم، أو بموبقات توبقكم، فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قبل لكم به، وإنه يوم مجازاة الأعمال، لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، تُوَفَّى فيه كلُّ نفس أجرها على ما قدمت واكتسبت من سيئ وصالح، لا تغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من خير وشر إلا أحضرت، فوفيت جزاءها بالعدل من ربها، وهم لا يظلمون. وكيف يظلم من جوزي بالإساءة مثلها، وبالحسنة عشر أمثالها؟![2].

يستفاد من الآية: أن اجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية، تكميل للإيمان وحقوقه من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعمل الصالحات.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٩٤.
(٢) انظر: المصدر السابق، ٦/ ٤١-٤٢.

ثالثًا: الجزاء على الكسب المتعمد:

من عدل الله ورحمته بالعباد أنه لا يؤاخذهم إلا بما تعمدوه من الأعمال، دون تلك التي تحدث من غير قصد، أو إرادة كما بينه النبي عليه السلام بقوله: (رفع القلم عن ثلاثةٍ: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل)[3].

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

بين المولى عز وجل أن هذه الألفاظ التي تسبق إلى اللسان عادة ولا يقصد بها عقد اليمين لغو من القول، لا تعد أيمانًا حقيقية، فلا يؤاخذكم الله تعالى بها بفرض الكفارة عليها، ولا بالعقاب، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بأن تقصدوا جعل اسمه الكريم عرضة للابتذال، أو مانعًا لصالح الأعمال، فالقول الحشو الذي لا أثر له في القلب، ولا شأن له في العمل، مما يعفو عنه، ولا يعاقب عليه، ولا يتعجل بالعقوبة على هذا اللمم الذي يضعف العبد عن التوقي منه؛ ولذلك لم يكلف عباده ما يشق عليهم فيما لم تقصده قلوبهم ولم تتعمده نفوسهم؛

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، باب في المجنون يسرق، ٤/ ١٤١، ٤٤٠٣.
وصححه الألباني في الثمر المستطاب ١/ ٥٤.

لأنه مما لا يدخل تحت سلطة الاختيار[1].

يستفاد من الآية مدى حلم الله وعفوه مما يوجب على العبد شكره عليها.

رابعًا: عدم المعاجلة بالعقوبة:

إن الله سبحانه وتعالى بحلمه ومغفرته وسعة رحمته يمهل الكفرة والظلمة والعصاة والمجرمين ولا يعاجلهم بالعذاب، ولو عاجلهم به لأهلكهم جميعًا، حتى لا يبقى على وجه الأرض أحد، ومن الحكمة في عدم المعاجلة بالعقوبة أن الكفرة قد يؤمنون، وأن عصاة المؤمنين قد يتوبون ويستغفرون، ولكنه جعل لهم أجلًا لا مهرب لهم منه ولا محيد لهم عنه، فهو سبحانه وتعالى يملي للظلمة ويمهلهم ولكنه لا يهملهم، ويغفر للمؤمنين ما شاء أن يغفر.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

فمن رحمة الله بالكفار أنه لم يعاجلهم بعذاب يستأصلهم، بل أمهلهم وتركهم؛ لأن لهم موعدًا لن يهربوا منه، ولن يفلتوا، ولن يكون لهم ملجأ يحميهم منه، ولا شك أن في إمهالهم في الدنيا حكمة لله بالغة، ولعل الله يخرج من ظهور هؤلاء من يؤمن به، ومن يحمل راية الدين ويدافع عنه، وقد حدث هذا كثيرًا في تاريخ الإسلام، فمن ظهر أبي جهل جاء عكرمة، وأمهل الله خالد بن الوليد، فكان أعظم قائد في الإسلام[2].

قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

أي: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ ولو أنه عجل العقاب وأخذ الناس بجميع ذنوبهم، لأهلك جميع أهل السموات والأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق، لشؤم معاصيهم؛ ولكن يؤجل عقابهم ومؤاخذتهم بذنوبهم إلى وقت محدد وهو يوم القيامة، فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية، والله بصير بمن يستحق منهم الثواب، ومن يستحق منهم العقاب، لا يخفى عليه شيء من أمرهم[3].

خامسًا: عفو الله عن كثير من الكسب:

من رحمة الله بعباده أنه لا يحاسب العباد بكل ما عملوا، بل يعفو عن كثير، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٩٢.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٤٥.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٢٨٤.

﴿أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

حيث بين المولى عز وجل في هذه الآية أنه ما تقع من مصيبة في الناس في هذه الدنيا سواء كان في الأنفس أو الأهل أو الأموال فإنما يكون ذلك عقوبة من الله بما اجترحوه من الآثام مع عفو الله عن كثير منها[(١)].

قال الزحيلي: «أي: وما أصابكم أيها الناس من المصائب -وهي الأحوال المكروهة كالآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق والزلازل ونحوها- فإنما هي بسبب سيئات اقترفتموها، ومعاصٍ اقتحمتموها، فهي عقوبات الذنوب وكفاراتها، ويعفو الله عن كثير من معاصي العباد، فلا يعاقب عليها، وقد يكون المصاب لغير ذنب، وإنما لزيادة الأجر ورفع الدرجة»[(٢)].

عن أبي هريرة أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم، من نصبٍ ولا وصبٍ، ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذًى ولا غمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ الله بها من خطاياه)[(٣)].

وأكد المولى سبحانه وتعالى على هذه الحقيقة في آية أخرى، حيث يقول تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٣-٣٤].

أي: وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيهلك تلك السفن ويغرقها بمن فيها، بسبب ذنوب أصحابها، وهو على ذلك قدير، ويعفو عن كثير من الذنوب والخطايا، فلا يؤاخذ بها؛ إذ لو آخذ بكل ذنب ما بقي أحد على وجه الأرض لقلة من لا يذنب فيها[(٤)].

سادسًا: الجزاء العاجل والآجل:

من حكمة الله في خلقه أنه يمهل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

بين المولى عز وجل في هذه الآية أنه سلط الجن المردة على أوليائهم من الإنس، وعقد بينهم عقد الموالاة والموافقة، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك، وبَيَّنَ كيف أنه ولَّى على كل ظالمٍ ظالمًا مثله، يَؤُزُّهُ إلى الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة، الشنيع أثرها، البليغ خطرها، والذنب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى غيره، فالعباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٥٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٠٧.
(٢) التفسير المنير ٢٥/ ٧٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ٧/ ١١٤، رقم ٥٦٤١.
(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٦١٣.

ومنعهم الحقوق الواجبة، ولى عليهم ظلمة، يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين.

كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف[1].

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ۚ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

أي: أيكون الله الذي هو قائم رقيب على كل نفس صالحة أو طالحة بما كسبت، يعلم خيره وشره، ويعد لكل جزاءه، كمن ليس كذلك. أجعلتم له شركاء فسموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم، أتنبئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض، وهو العالم بما في السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم، والمراد نفى أن يكون له شركاء، وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها تدلل على أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه، فتبارك الله أحسن الخالقين[2].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٧٣.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٣١.

عاقبة الكسب

لا شك أن للأعمال الصالحة عند الله ثوابًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، أما الأعمال غير الصالحة فلها عقاب من عند الله، إما عقاب مستعجل في الدنيا، أو عقاب مؤجل إلى يوم القيامة.

أولًا: عاقبة كسب الصالحات في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢].

جمعت هذه الدعوة كلَّ خير في الدنيا، وصرفت كلَّ شرٍّ فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا،

من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام[1].

قال الطبري: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله -جل ثناؤه- أخبر عن قوم من أهل الإيمان به وبرسوله، ممن حج بيته، يسألون ربهم الحسنة في الدنيا، والحسنة في الآخرة، وأن يقيهم عذاب النار. وقد تَجْمَعُ الحسنة من الله عز وجل العافية في الجسم والمعاش والرزق وغير ذلك، والعلم والعبادة. وأما في الآخرة، فلا شك أنها الجنة؛ لأن من لم ينلها يومئذ فقد حرم جميع الحسنات، وفارق جميع معاني العافية.

وإنما قلنا: إن ذلك أولى التأويلات بالآية؛ لأن الله عز وجل لم يخصص من معاني الحسنة شيئًا، ولا نصب على خصوصه دلالة دالةً على أن المراد من ذلك بعض دون بعض، فالواجب من القول فيه ما قلنا: من أنه لا يجوز أن يُخَصَّ من معاني ذلك شيء، وأن يحكم له بعمومه على ما عمه الله»[2].

ثانيًا: عاقبة كسب السيئات في الدنيا والآخر:

لقد توعد الله الظالمين المفسدين في الأرض الذين يكسبون السيئات بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٧].

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

يتوعد الله تبارك وتعالى بالعذاب الأليم أولئك المضللين من اليهود الذين يحرفون كلام الله، ويكتبون أمورًا من الباطل، وينسبونها إلى الله تعالى؛ ليتوصلوا بها إلى أغراض دنيوية سافلة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

ينكر عليهم تبجحهم الفارغ بأنهم لا يعذبون بالنار مهما كانت ذنوبهم ما داموا على ملة اليهود إلا أربعين يومًا ثم يخرجون، وجائز أن يتم هذا لو كان هناك عهد من الله تعالى قطعه لهم به، ولكن أين العهد؟ إنما هو الادعاء الكاذب فقط، ثم يقرر العليم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٥٥٨.
(٢) جامع البيان ٤/ ٢٠٥.

الحكيم سبحانه وتعالى حكمه في مصير الإنسان بدخول النار أو الجنة، ذلك الحكم القائم على العدل والرحمة، البعيد عن التأثير بالأنساب والأحساب، فيرد عليهم بأن الأمر ليس كما تدعون، وإنما هي الخطايا والحسنات فمن كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فخبثت نفسه ولوثتها، فهذا لا يلائم خبث نفسه إلا النار، أما الحسب والنسب والادعاءات الكاذبة فلا تأثير لها البتة[1].

وفي هذا رد على ادعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار، وأنهم إنما خلقوا ليكونوا سادة، وكل من ليس على دينهم فهم عبيد لهم، بل ويتهمون كل من اعترض على أفعالهم الخبيثة بأنهم معادين للسامية.

ومن عاقبة كسب السيئات في الدنيا والآخرة ضياع الأعمال التي لا يبتغى بها وجه الله فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والصفوان: هو الحجر الأملس، الذي لا مسام له يمكن أن تدركها العين المدركة، إنما يدرك الإنسان هذه المسام بوضع الحجر تحت المجهر. وعندما يكون الشيء ناعمًا قد يأتي عليه تراب، ثم يأتي المطر فينزل على التراب وينزلق التراب من على الشيء الأملس، فالذي ينفق ماله رئاء الناس، كالصفوان يتراكم عليه التراب، وينزل المطر على التراب فيزيله، كله فيفقدوا القدرة على امتلاك أي شيء؛ لأن الله جعل ما لهم من عمل هباءً منثورًا.

وهؤلاء كالحجر الصفوان الذي عليه تراب فنزل عليه وابل، أي: مطر شديد فتركه صلدًا. تلك هي صفات من قصدوا بالإنفاق رئاء الناس، فيبطل الله جزاءهم؛ لأن الله لا يوفقهم إلى الخير والثواب[2].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها[3].

ومن صور عقوبة كسب السيئات في الدنيا والآخرة ما توعد الله به المنافقين

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٩٩، أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٧٦.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ١١٥٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٨٦.

بالتحقير في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥].

أي: سيؤكدون لكم اعتذارهم بما يحلفون به من كاذب الأيمان إذا انقلبتم من سفركم ورجعتم إليهم؛ لتعرضوا عن العتب عليهم، والتوبيخ لهم على قعودهم مع الخالفين من العجزة والنساء والأطفال، وعلى البخل بالنفقة والمال، فأعرضوا عنهم إعراض الإهانة والتحقير، لا إعراض الصفح وقبول العذر؛ لأن في نفوسهم قذرًا معنويًّا يجب الاحتراس منه خوف سريان عدواه، وميل النفوس إليه، كما يحترز صاحب الثوب النظيف من الأقذار الحسية التي ربما تصيبه إذا لم يحتط لها. وملجؤهم الأخير نار جهنم جزاء لهم بما كسبوا في الدنيا من أعمال النفاق وغيرها، مما دنس نفوسهم، وزادهم رجسًا على رجسهم[1].

ومن صور عقوبة كسب السيئات في الدنيا والآخرة عقوبة السارق والسارقة في الدنيا بقطع الأيدي، مع ما أعده الله لهم في الآخرة من العذاب المهين فقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

أي: اقطعوا أيديهما جزاء لهما بعملهما وكسبهما السيِّئ نكالا وعبرة لغيرهما، ولا عبرة أعظم من قطع اليد، فهو الذي يفضح صاحبه طول حياته ويَسِمُهُ بميسم العار والخزي، ولا شك أن هذه العقوبة أجدر بمنع السرقة وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم، فالأرواح كثيرًا ما تتبع الأموال إذا قاوم أهلها السراق، وحاولوا منعهم من أخذها، والله عزيز في انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرهما من أهل المعاصي، حكيم في صنعه فهو يضع الحدود والعقوبات بحسب الحكمة التي توافق المصلحة، فما أمر بأمر إلا وهو صلاح، ولا نهى عن أمر إلا وهو فساد[2].

ومن صور عقوبة كسب السيئات في الدنيا والآخرة عدم نزول البركات وقلة الخصب وكثرة الجدب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل يبتلون بالضراء موعظة وإنذارًا، وبالسراء استدراجًا ومكرًا، ذكر أن أهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا صدقته الأعمال،

(١) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٥-٦.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٦/ ١١٤- ١١٥.

واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرًا وباطنًا بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدرارًا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا، فأخذوا بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو آخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك عليها من دابة[1].

والناظر إلى واقع المسلمين اليوم يجدهم يعيشون في أزمات وبلايا وفتن وفقر، على الرغم مما تملكه الدول العربية والإسلامية من خيرات، وكل ذلك بسبب بعدها عن الدين، وعدم تطبيقها لشرعه الحنيف، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

أي: ظهرت المصائب والابتلاءات مثل القحط، وقلة الأمطار، وكثرة الحرق والغرق، ومحق البركات من كل شيء بسبب معاصيهم وشركهم؛ ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجمعها في الآخرة[2].

ومن صور عقوبة كسب السيئات في الدنيا والآخرة وقوع التلاعن والتبري والعداوة بين أهل النار مع بعضهم البعض بين السادة والعبيد، بين الأتباع والمتبوعين فقال تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩].

أي: يقول الرؤساء لأتباعهم: قد اشتركنا جميعًا في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فليس لكم علينا من فضل، ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من نعيم الأتباع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

فهذه الآيات ونحوها، دلت على أنهم متفاوتون في مقدار العذاب، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة[3].

ومن صور عقوبة كسب السيئات في الدنيا والآخرة، إلباس الكافرين لباس الذلة والهوان، فهي مسودة كسواد الليل، قال

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٩٨.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٧٠٣.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٨٨.

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

أي: الذين عملوا السيئات في الدنيا فكفروا وعصوا الله، لهم جزاء أعمالهم السيئة التي عملوها بمثلها من عقاب الله في الآخرة، هؤلاء تغشاهم ذلة وهوان، لا أحد يعصمهم من الله ويمنعهم من عقوبته، كأنما ألبست وجوههم أجزاء من سواد الليل المظلم. هؤلاء هم أهل النار ماكثون فيها أبدًا[(١)].

ومن صور عقوبة كسب السيئات في الدنيا والآخرة أن الله توعد المنافقين المتخلفين عن رسول الله، الذين يضحكون كثيرًا في الدنيا بالبكاء الدائم والمستمر في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢].

أي: فرح هؤلاء المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، فليضحكوا فرحين قليلًا في هذه الدنيا الفانية بمقعدهم خلاف رسول الله ولهوهم عن طاعة ربهم، فإنهم سيبكون طويلًا في جهنم مكان ضحكهم القليل في الدنيا؛ ثوابًا منا لهم على معصيتهم، بتركهم النفر إذ استنفروا إلى عدوهم، وقعودهم في منازلهم خلاف رسول الله[(٢)].

يستفاد من هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وأن الله يمهل ولا يهمل، وفي هذا تحذير للظلمة والمفسدين أعداء الدين من كفرة ومنافقين وحكام مفسدين من غضب الله وبطشه؛ فلا يغتروا بقوتهم؛ لأن قوة الله فوق قوتهم.

موضوعات ذات صلة:

الجزاء، الرزق، السعي، العطاء، العمل

(١) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ١/ ٢١٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٠١.

الكفارات

عناصر الموضوع

مفهوم الكفارات	٣٠٠
الكفارات في الاستعمال القرآني	٣٠١
الألفاظ ذات الصلة	٣٠٢
أنواع الكفارات	٣٠٤
موجبات الكفارات	٣٠٧
صور من الكفارات في القرآن وأحكامها	٣٠٨
المكفر به	٣٢١
حكم ومقاصد الكفارات	٣٢٥
أثر الكفارات على الفرد والمجتمع	٣٢٨

مفهوم الكفارات

أولًا: المعنى اللغوي:

الكفارة لغة: من الكَفْرِ وهو التغطية والستر، وسميت الكفارات كفارات؛ لأنها تُكَفِّرُ الذنوب، أي تسترها، مثل كفارة الأيمان، وكفارة الظهار والقتل الخطأ[(١)].

قال ابن فارس: «(كفر)، الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كَفَّرَ دِرْعَهُ، والمُكَفَّرُ: الرجل المتغطي بسلاحه»[(٢)].

وخلاصة التعريف اللغوي: أن الكفارة هي الستر والتغطية، سواء كانت مادية كتغطية الدرع بالثوب، أو معنوية، كتغطية الذنوب، وقد استعمل القرآن الكريم هذا المعنى اللغوي للكفارة، وعلى ذلك وردت أقوال المفسرين في بيان هذه اللفظة كما سيأتي.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

والكفارة اصطلاحًا: ما كفر به من صدقة أو صوم أو نحو ذلك؛ وسميت الكفارات كفارات؛ لأنها تكفر الذنوب، أي: تسترها[(٣)].

وعرف المناوي الكفارة بأنها: «ما وجب على الجاني جبرًا لما منه وقع، وزجرًا عن مثله»[(٤)].

وخلاصة التعريف الاصطلاحي: أن الكفارة تطلق على ما يشمل المعنى اللغوي، وهو: الستر بعوض، وما يكون جبرًا لخطأ، أو محوًا لإثم أو تقصير، والتعريف الثاني يشمل ذلك.

والمتدبر في المعنيين يجد اتصالًا بينهما، حيث إن المعنى الاصطلاحي يعني: ما كفر به من صدقة أو صوم أو نحو ذلك، وهذا مرتبط بمعنى الكفارة في اللغة، والتي تدل على الستر والتغطية، والذي يترتب عليه محو الذنوب وإزالتها وتغطيتها في الدنيا والآخرة، حتى تصير كأن لم تكن.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٢٧١، الكليات، الكفوي ص ٧٦٣، تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ٥٠.

(٢) مقاييس اللغة ٥/ ١٩١.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٤٨، تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ٦٢.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٨٢.

الكفارات في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كفر) المضعف في الاستعمال القرآني(١٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [المائدة:٦٥]
الفعل المضارع	١١	﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [الطلاق:٥]
فعل الأمر (دعائي)	١	﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران:١٩٣]
صيغة المبالغة	٤	﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة:٤٥]

وجاءت مادة (كفر) في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو الستر والتغطية[٢]، ومنه الكفارة، وهي: «ما كفر به من صدقة أو صوم أو نحو ذلك، قال بعضهم: كأنه غُطِّيَ عليه بالكفارة؛ وسميت الكفارات كفاراتٍ؛ لأنها تُكَفِّرُ الذنوب، أي: تسترها، مثل كفارة الأيمان، وكفارة الظهار، والقتل الخطأ»[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦١٠- ٦١٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩١.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٤٤ بتصرف يسير.

الألفاظ ذات الصلة

١ الفدية:

الفدية لغة:

اسم للمال الذي يدفع لاستنقاذ الأسير، وجمعها فدًى وفدياتٌ، يقال: فَدَتِ المَرْأَةُ نفسها من زوجها تفدي، وَافْتَدَتْ، أعطته مالا حتى تخلصت منه بالطلاق، وقيل: هو إقامة شيء مقام شيء في دفع المكروه[١].

الفدية اصطلاحًا:

وهي: ما يقي الإنسان به نفسه في عبادة يُقَصِّرُ فيها[٢].

الصلة بين الكفارة والفدية:

أن كلًّا من الكفارة والفدية إنما شرعتا لفداء النفس من المخالفة أو للتكفير عن الذنب[٣].

٢ الدية:

الدية لغة:

اسم مصدر من وَدَى يَدِي، وأصلها (ودية) على وزن فعلة، والدية واحدة الديات، والهاء عوض عن الواو، ووَدَيْت القتيلَ أَدِيْهِ دية: أعطيت ديته، وَاتَّدَيْتُ: أخذت ديته، وإذا أمرت منه قلت: دِ فلانًا، وللاثنين دِيَا، وللجماعة دوا فلانًا[٤].

الدية اصطلاحًا:

اسم للضمان المالي الذي يجب بالجناية على الآدمي أو على طرف منه، وقد سمي هذا الضمان بالدية؛ لأنها تؤدى عادة إلى المجني عليه أو وليه، وقلما يرجى فيها العفو لعظم حرمة الآدمي[٥].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٤٥٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٨٣، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٢٢٣.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٢٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ١٧٧، التعريفات، الجرجاني ص ١٦٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٥٨.

(٣) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع، ابن عثيمين ٧/ ٢٠٠.

(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٥٢١، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٨٣، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ١٧٨.

(٥) انظر: الجنايات في الفقه الإسلامي، عبد القادر عودة ص ٣٣٧.

الصلة بين الكفارة والدية:

أن كليهما جزاء، لكن الكفارة حق لله تعالى، والدية حق للآدميين[(١)].

٣ التعزير:

التعزير لغة:

التعظيم والتوقير، ومنه قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٩]، والتعزير أيضا: التأديب، ومنه سمي الضرب دون الحد تعزيرا[(٢)].

التعزير اصطلاحًا:

هو تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود، أي: هو عقوبة على جرائم لم تضع الشريعة لها عقوبة مقدرة[(٣)].

الصلة بين الكفارة والتعزير:

أن كلًّا منهما زواجر؛ لما فيهما من مَشَاق تحمل الأموال وغيرها[(٤)].

٤ الحد:

الحد لغة:

المنع والحاجز بين شيئين، وتأديب المذنب، والنهاية التي ينتهي إليها تمام المعنى، وما يوصل إلى التصور المطلوب، وهو الحد المرادف للمعرف عند الأصوليين[(٥)].

الحد اصطلاحًا:

العقوبة المقدرة من الشارع، وجبت حقًّا لله تعالى[(٦)].

الصلة بين الكفارة والحد:

أن كلًّا منهما زواجر؛ لما فيهما من مَشَاقٍّ تحمل الأموال وغيرها[(٧)].

---

(١) انظر: المنتقى شرح الموطأ، الباجي ٧/ ١٠٧.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٤٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣١١، الكليات، الكفوي ص ٣١٤.
(٣) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي، عبد القادر عودة ١/ ٦٨٥.
(٤) انظر: أنوار البروق في أنواء الفروق، القرافي ٢/ ٢٠٦.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٣٩١، تاج العروس، الزبيدي ٨/ ٦.
(٦) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٨٣، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٣٧.
(٧) انظر: أنوار البروق في أنواء الفروق، القرافي ٢/ ٢٠٦.

أنواع الكفارات

تظهر أنواع الكفارات من خلال ما يلي:

أولًا: كفارات على التخيير:

التخيير: تفويض الأمر إلى اختيار المكلف في انتقاء خصلة من خصال معينة شرعًا، ويوكل إليه تعيين أحدها، بشروط معلومة، كتخييره بين خصال الكفارة، وتخييره بين القصاص والعفو، وتخييره في فدية الحج، وتخييره في التصرف في الأسرى، وتخييره في حد المحارب، وغيرها من الأحكام[1].

والتخيير في الكفارات دليل على سماحة الشريعة ويسرها ومراعاتها لمصالح العباد فيما فوضت إليهم اختياره، مما يجلب النفع لهم ويدفع الضر عنهم، والتخيير قد يكون على سبيل الإباحة، أي: بين فعل المباح وتركه، وقد يكون بين الواجبات بعضها على بعض، وهي واجبات ليست على التعيين، كما في خصال الكفارة، وحكم الواجب المخير: أن المكلف تبرأ ذمته بفعل أي واحد من أفراده، فإن تركها جميعًا أثم، فإذا خير الله تعالى بين أشياء، مثل كفارة اليمين خير فيها بين العتق والإطعام والكسوة، فالواجب منها واحد غير معين فأيها فعل فقد فعل الواجب، وإن فعل الجميع سقط الفرض عنه بواحد منها والباقي تطوع[2].

وقد ذكر القرآن الكريم كفارات على التخيير وهي:

١. التخيير في كفارة اليمين.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

فقد طلب الشارع من المكلف أن يكفر عن يمينه بخصلة واحدة من خصال الكفارة الثلاث وهي: الإطعام، أو الكسوة، أو العتق، فإن لم يجد ما يكفر به من هذه الثلاثة - بأن عجز عن الإطعام والكسوة والعتق - صام ثلاثة أيام، فهي كفارة على التخيير في الثلاثة الأول، وعلى الترتيب بينها وبين الخصلة الرابعة[3].

(١) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ١٢٥.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٧/ ٣٣٦، اللمع في أصول الفقه، الشيرازي ص ١٨، المهذب في علم أصول الفقه المقارن، النملة ١/ ١٦٢، الموسوعة الفقهية الكويتية ١/ ١٢٨.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٥٩٥، أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ١٥٧.

٢. التخيير في جزاء الصيد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٥].

فقد طلب الشارع من المكلف أن يكفر عن قتله الصيد في الحرم بخصلة واحدة من خصال الكفارة الثلاث وهي: إما أن يهدي مثل ما قتله من النعم لفقراء الحرم، إن كان الصيد له مثل من الإبل أو البقر أو الغنم، أو أن يقومه بالمال، ويقوم المال طعاما، ويتصدق بالطعام على الفقراء، والخصلة الثالثة التي يخير فيها قاتل الصيد أن يصوم عن كل مد من الطعام يوما[١].

٣. التخيير في فدية الأذى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فقد أباح الشارع للمحرم أن يحلق رأسه إذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض، ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك، ولكن يكون عليه فدية من صيام، أو صدقة، أو نسك ما يجزئ في أضحية، فهو مخير في الخصال الثلاث[٢].

ثانيًا: كفارات على الترتيب:

الترتيب: جعل الأشياء الكثيرة بحيث يطلق عليها اسم الواحد، ويكون لبعض أجزائه نسبة إلى البعض بالتقدم والتأخر[٣].

فإذا أمر الشارع بالكفارة على الترتيب كالمظاهر أمر بالعتق عند وجود الرقبة، وبالصيام عند عدمها، وبالإطعام عند العجز عن الجميع، فالواجب من ذلك واحد معين على حسب حاله، فإن كان موسرًا ففرضه العتق، وإن كان معسرًا ففرضه الصيام، وإن كان عاجزًا ففرضه الإطعام، فإن جمع من فرضه العتق بين الجميع سقط الفرض عنه بالعتق وما عداه تطوع، وإن جمع من فرضه الصيام، بين الجميع ففرضه أحد الأمرين من العتق أو الصيام والإطعام تطوع، وإن جمع من فرضه الإطعام بين الجميع ففرضه واحد من الثلاثة كالكفارة المخيرة[٤].

وقد ذكر القرآن الكريم كفارات على الترتيب وهي:

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩٤، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٨٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩١.

(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٥٥، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا الأنصاري ص ٦٩.

(٤) انظر: اللمع في أصول الفقه، الشيرازي ص ١٨.

١. الترتيب في كفارة الظهار.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة:٣-٤].

إن الله تعالى أمر بكفارة الظهار مرتبة، فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الإعتاق، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكينًا لكل مسكين مد من طعام بمد النبي صلى الله عليه وسلم [(١)].

٢. الترتيب في كفارة التمتع.

قال سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، بينت الآية أن دم التمتع الشامل للقران على الترتيب؛ لأن الله بين أنه على الترتيب بقوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، ثم قال مبينا الترتيب: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [(٢)].

٣. الترتيب في كفارة القتل.

قال جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٩٢﴾ [النساء: ٩٢].

وجعل الحق جل جلاله كفارة القتل مرتبة، فعلى القاتل تحرير رقبة، فمن لم يجد عليه صيام شهرين متتابعين [(٣)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ٥٢٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٥٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ١٢١.

(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٧/ ٣٣٦.

موجبات الكفارات

تحدث القرآن الكريم عن مجموعة من الأعمال، يجب على فعلها الكفارة، وهي:

أولًا: ترك واجب:

ذكر القرآن الكريم أن الكفارات تجب بترك واجب من الواجبات الشرعية، وذلك تعويض عن التقصير في بعض العبادات، أو استعمال الرخص، أو العجز الكامل عن أداء الفرض، ومن هذا القبيل رخصة الإفطار للمريض بمرض مزمن، والشيخ الفاني والشيخة إذا عجزا عن الصيام، أو كانا لا يصومان إلا بمشقة فوق الطاقة، وقد ثبتت هذه الفدية بالقرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

أي: الذين يبلغون في صومهم أقصى الطاقة التي لا يمكن المداومة على تحملها، ولذا قال ابن عباس: «إنها نزلت في الشيخ والشيخة إذا شق عليهما الصوم»[(١)].

ومن الفدية التي تعد كفارة لبعض التقصيرات في العبادات، ترك الهدي في حج التمتع، والتي تعد من الواجبات في الحج، قال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، بينت الآية أن الواجب على المتمتع الدم، فإن لم يجد الهدي فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة عند رجوعه إلى بلاده؛ لتركه الهدي الواجب عليه.

ثانيًا: فعل محظور.

ومن الكفارات التي تعد كفارة لعمل بعض المحظورات والتقصيرات في العبادات، كفارة الصيد في الأشهر الحرم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: ٩٥-٩٦].

لما كان صيد الحرم محظورًا شرعًا فقد وجبت الكفارة على من اعتدى على صيد الحرم عقوبة له، وهكذا نرى أن الكفارات هنا ثابتة بالقرآن الكريم، وهي سد لنقص، أو لاعتداء في عمل ما نهى الله تعالى عنه[(٢)].

(١) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣١٢.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣١٢.

صور من الكفارات في القرآن وأحكامها

تظهر صور الكفارات وأحكامها في القرآن الكريم من خلال النقاط الآتية:

أولًا: كفارات العبادات:

الحج من العبادات البدنية، وهي فريضة من الفرائض الإسلامية التي أمر الشرع بأدائها على أكمل وجه، وهناك محظورات في الحج توجب الكفارة وهي:

١. كفارة الصيد للمحرم.

ذكر القرآن الكريم كفارة الصيد للمحرم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: ٩٥].

بينت الآية أن الله تعالى حرم الصيد في حال الإحرام، والصيد عامٌّ في كل ما شأنه أن يصاد ويقتل من الدواب والطير لأكله أو الانتفاع ببعضه، ويلحق بالصيد الوحوش كلها، وخص من عمومه ما هو مضر، وهي السباع المؤذية وذوات السموم والفأر وسباع الطير، ودليل التخصيص السنة، ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾، جمع حرامٍ، بمعنى محرم، مثل جمع قذالٍ على قذلٍ، والمحرم أصله المتلبس بالإحرام بحج أو عمرة، ويطلق المحرم على الكائن في الحرم، فأما الإحرام بالحج والعمرة فهو معلوم، وأما الحصول في الحرم فهو الحلول في مكان الحرم من مكة أو المدينة، فأما حرم مكة فيحرم صيده بالاتفاق، وفي صيده الجزاء، وأما حرم المدينة فيحرم صيده ولا جزاء فيه، وحرم مكة معلوم بحدود من قبل الإسلام، وهو الحرم الذي حرمه إبراهيم عليه السلام.

ووضعت بحدوده علامات في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحدود الحرم الغربية والشرقية تبعد عن البيت قرابة، (٢٠) كم أما الجنوبية فأقل من ذلك، إذ تقع الحدود الجنوبية على الآكام التي تحف بوادي عرنة على قرابة (١٣) كم، جنوبا، أما من جهة الشمال، فالحد مسجد عائشة رضي الله عنها على رأس وادي التنعيم، وعنده ينقسم الماء إلى وادي التنعيم شمالًا في الحل، وتلعة ذات الحنظل جنوبا في الحرم، ويبعد هذا المسجد قرابة (٨) كم، عن المسجد الحرام شمالا، أي: إن حرم مكة يبلغ (٨٨٢) (كم مربع)، بالتقريب.

وأما حرم المدينة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (المدينة حرم ما بين عير أو عائر

(جبل) إلى ثور)[1] [2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، أي: ومن قتل شيئا من الصيد وهو محرم قاصد لقتله فجزاؤه، أو فعليه جزاء من الأنعام مماثل لما قتله في هيئته وصورته إن وجد، وإلا ففي قيمته، وقيل: في قيمته مطلقًا، وتعليق حكم الجزاء على وقوع القتل يدل على أن الجزاء لا يجب إلا إذا قتل الصيد، فأما لو جرحه أو قطع منه عضوًا ولم يقتله فليس فيه جزاء، ويدل على أن الحكم سواء أكل القاتل الصيد أو لم يأكله؛ لأن مناط الحكم هو القتل.

وقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾، قيد أخرج المخطئ والناسي، والفرق بينهما: أن الناسي: هو من يقصد قتل الصيد ناسيا إحرامه، والمخطئ: هو من يرمي غير الصيد، كما لو رمى غرضا فيقتل الصيد من غير قصد لقتله، ولا خلاف بين العلماء أنهما لا إثم عليهما، لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٥].

وجمهور فقهاء الأمصار أن العمد والخطأ في ذلك سواء، وقد غلب مالك فيه معنى الغرم أي: قاسه على الغرم، والعمد والخطأ في الغرم؛ سواء فلذلك سوى بينهما، ومضى بذلك عمل الصحابة، وقال أحمد بن حنبل، وداود الظاهري: لا شيء على الناسي، وقال مجاهد، والحسن، وابن زيد، وابن جريج: إن كان متعمدًا للقتل ناسيًا إحرامه فهو مورد الآية، فعليه الجزاء، وأما المتعمد للقتل وهو ذاكر لإحرامه فهذا أعظم من أن يكفر، وقد بطل حجه، وصيده جيفة لا يؤكل[3].

وقول الجمهور أقرب إلى الصواب؛ لأن تخصيص العمد بالذكر في الآية، لأجل أن يرتب عليه الانتقام عند العود؛ لأن العمد هو الذي يترتب عليه ذلك دون الخطأ، ولأن جزاء الخطأ معروف من الأدلة التي قررت التسوية في ضمان المتلفات، إذ من المعروف أن من قتل صيد إنسان عمدًا أو خطأً في غير الحرم فعليه جزاؤه، فهذا حكم عام في جميع المتلفات، ومادام الأمر كذلك كان الجزاء ثابتًا على المحرم متى قتل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب إثم من تبرأ من مواليه، رقم ٦٧٥٩، ٨/ ١٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم ١٣٧٠، ٢/ ٩٩٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٢، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية عاتق الحربي ص ٥١.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٦٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٠٧، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٨٦، تفسير المراغي ٧/ ٣٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٢، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٣٨.

الصيد، سواء أكان قتله له عمدًا أم خطأً[1].

وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، أي: يحكم بالجزاء من النعم وكونه مثل المقتول من الصيد رجلان من أهل العدالة والمعرفة من المؤمنين، ووجه الحاجة إلى حكم العدلين أن المماثلة بين النعم والصيد مما يخفى على أكثر الناس، وما لا مثل له بوجه من الوجوه يحكمان فيه بالقيمة، والهدي: ما يذبح أو ينحر في منحر مكة، والمنحر: منى والمروة، ولما سماه الله تعالى هديًا فله سائر أحكام الهدي المعروفة.

ومعنى: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾، أنه يذبح أو ينحر في حرم الكعبة، وليس المراد أنه ينحر أو يذبح حول الكعبة[2].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾، أو ما يعادل ذلك من الطعام، وسمى الإطعام كفارة؛ لأنه ليس بجزاء، إذ الجزاء هو العوض، وهو مأخوذ فيه المماثلة، وأما الإطعام فلا يماثل الصيد، وإنما هو كفارة تكفر به الجريمة، وقد أجمل الكفارة فلم يبين مقدار الطعام ولا عدد المساكين، فأما مقدار الطعام فهو موكول إلى الحكمين، وقد شاع عن العرب أن المد من الطعام هو طعام رجل واحد؛ فلذلك قدره مالك بمد لكل مسكين، وهو قول الأكثر من العلماء.

وعن ابن عباس: تقدير الإطعام أن يُقَوَّمَ الجزاء من النعم بقيمته دراهم، ثم تُقَوَّمَ الدراهم طعامًا، وأما عدد المساكين فهو ملازم لعدد الأمداد، قال مالك: «أحسن ما سمعت فيه أنه يقوم الصيد الذي أصاب وينظر كم ثمن ذلك من الطعام، فيطعم مدًّا لكل مسكين، والأحسن أن ذلك موكول إلى الحكمين»[3] [4].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، أي: عليه مثل ذلك الطعام صيامًا يصومه، وأجملت الآية الصيام كما أجملت الطعام، وهو موكول إلى حكم الحكمين، وقال أبو حنيفة: يصوم عن كل مدَّين من الطعام يومًا.

وقال مالك والشافعي: يصوم عن كل مدٍّ يومًا، واختلفوا في أقصى ما يصام، فقال مالك والجمهور: لا ينقص عن أعداد الأمداد أياما ولو تجاوز شهرين، وقال بعض أهل العلم: لا يزيد على شهرين؛ لأن ذلك أعلى الكفارات، وعن ابن عباس: يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة[5].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٩٥.
(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٨٨، تفسير المراغي ٧/ ٣٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٢.
(٣) موطأ مالك، كتاب الحج، باب الحكم في الصيد، ١/ ٣٥٦.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٢.
(٥) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٤٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور

و﴿أَوْ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، هو تخيير فيما يجبر به هذا الذنب، ويقع كفارة له، فالكفارة إما أن تكون هديًا يساق إلى الكعبة، أي: البيت الحرام، مقدرًا قيمته بقيمة الحيوان الذي قتل، وإما أن يكون بإطعام مساكين بقدر هذه القيمة، وإما بصيام يعدل ما كان يمكن أن يطعم من مساكين، من قيمة هذا الصيد المقتول، والقول بالتخيير هو قول الجمهور، ثم قيل: الخيار للمحكوم عليه لا للحكمين، وهو قول الجمهور من القائلين بالتخيير، وقيل: الخيار للحكمين[1].

وقوله تعالى: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾، الوبال: هو الشيء الثقيل الذي يخاف ضرره وعاقبته، وسمي وبالًا؛ لأن الإنسان حين يدفع من ماله ثمن شراء المثل لما قتل سيعز عليه ماله، وأيضًا إن أطعم مساكين فهو سيشتري الطعام بمال يعز عليه، وكذلك يسبب له الصيام الإرهاق، إن هذا اللون من الكفارة يذيق الإنسان وبال ما فعل، وأراد الحق بذلك ألا يجعل الإحساس مجرد أمر شكلي، أو أن تظل الإساءة أمرًا شكليًا، وشاء سبحانه أن يرتب النفع للإحسان والضر للإساءة، حتى تستقيم الأمور في الكون[2].

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾، أي: من قتل الصيد قبل التحريم، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾، أي: ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فينتقم الله منه في الآخرة، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾، أي: غالب في أمره منتقم ممن عصاه[3].

وأجمع العلماء على وجوب الجزاء في قتل الصيد.

وذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٥].

واختلفوا في قتل الصيد خطأً هل فيه جزاء أم لا؟ فالجمهور على أن فيه الجزاء، وقيل: لا جزاء عليه[4].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩٤، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٨٨، تفسير المراغي ٧/ ٣٢ التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٢، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٤/ ٤٠.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٧٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٢، تفسير الشعراوي ٦/ ٣٤٠٢.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٧٩، صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣٣٧.

(٤) انظر: الإجماع، ابن المنذر ص ٥٣، اختلاف الأئمة العلماء، ابن هبيرة ١/ ٣٠٦، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد ٢/ ١٢٣، المجموع شرح المهذب، النووي ٧/ ٣٢٠، المغني، ابن قدامة ٣/ ٤٣٧.

٢. كفارة الحلق للمحرم.

من الكفارات التي ذكرها القرآن الكريم في العبادات كفارة حلق الرأس للمحرم.

قال سبحانه: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: ١٩٦].

أمر الله تعالى بإتمام الحج والعمرة لمن بدأ بالشروع فيهما، ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾، أي: صُدِدْتُمْ عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما، بمرض أو عدو ونحوهما، ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدي، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لما صدهم المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدي، فليصم بدله عشرة أيام كما سيأتي في المتمتع ثم يحل[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

بينت الآية أن المتمتع إذا ساق الهدي، لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة، أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدي، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك، لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض، ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام، أو صدقة، أو نسك ما يجزئ في أضحية، فهو مخير.

والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام، ومثل هذا، كل ما كان في معنى ذلك، من تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو الطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة؛ لأن القصد من الجميع إزالة ما به يَتَرَفَّهُ، وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام والصدقة والنسك.

فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: **(كان بي أذى من رأسي، فحملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهي، فقال: (ما كنت أرى أن الجهد قد**

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٩٦، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٣٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٠.

بلغ منك ما أرى، أتجد شاة) ؟ قلت: لا، فنزلت الآية: ففدية من صيام أو صدقة أو نسك، قال: (هو صوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين نصف صاع نصف صاع طعاما لكل مسكين)[(١)] [(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

بينت الآية حكم المتمتع، وهو الذي أحرم بالعمرة في وقت الحج، ثم تحلل من الإحرام واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرهما فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزئ في أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة، وقبل الشروع في الحج، ومثلها القران لحصول النسكين له.

فمن لم يجد الهدي أو ثمنه فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج، أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـمنى، ولكن الأفضل منها، أن يصوم السابع، والثامن، والتاسع، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله[(٣)].

ثم بين سبحانه أن التمتع بالعمرة مضمومة إلى وقت الإحرام بالحج وما يتبعه من الأحكام خاصٌّ بالآفاقيين دون أهل الحرم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: إن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع، لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده، ثم السفر إلى العمرة وحدها، أما أهل الحرم فليسوا في حاجة إلى ذلك، فلا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: اخشوا الله وحافظوا على امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه، واحذروا أن تعتدوا في ذلك، واعلموا أنه تعالى شديد العقاب لمن انتهك حرماته، وركب معاصيه[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الإطعام في الفدية نصف صاع، رقم ١٨١٦، ٣/ ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، رقم ١٢٠١، ٢ / ٨٦١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩١.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩١، التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٤٢٣، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ١٠٦.

(٤) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا

وأجمع الفقهاء على وجوب الكفارة على من حلق رأسه كله وهو محرم، وهي على التخيير من صيام أو صدقة أو نسك[1].

ثانيًا: كفارة اليمين:

ذكر القرآن الكريم كفارة اليمين بالله تعالى إذا حنث فيها وهي منعقدة.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

بينت الآية أن الله تعالى لا يؤاخذكم بالأيمان التي تحلفونها بلا قصد، كما يقول الرجل في كلامه بدون قصد لا والله، وبلى والله، فلا مؤاخذة على مثل هذه بكفارة في الدنيا، ولا عقوبة في الآخرة، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾، أي: ولكن يؤاخذكم باليمين المقصودة، التي يعقدها القلب ويقصدها ويتعمدها، إذا أنتم حنثتم فيها، قال مالك: «أحسن ما سمعت في هذا، أن اللغو حلف الإنسان على الشيء، يستيقن أنه كذلك، ثم يوجد على غير ذلك فهو اللغو».

وقال مالك: «وعقد اليمين، أن يحلف الرجل أن لا يبيع ثوبه بعشرة دنانير، ثم يبيعه بذلك، أو يحلف ليضربن غلامه، ثم لا يضربه، ونحو هذا، فهذا الذي يكفر صاحبه عن يمينه، وليس في اللغو كفارة»، وقال مالك: «فأما الذي يحلف على الشيء، وهو يعلم أنه آثم، ويحلف على الكذب، وهو يعلم، ليرضي به أحدًا، أو ليعتذر به إلى معتذر إليه، أو ليقطع به مالًا، فهذا أعظم من أن تكون فيه كفارة»[2] [3].

وقوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، أي: إطعام عشرة مساكين، وجبة واحدة لكل منهم من الطعام الغالب الذي يأكله أهلوكم في بيوتكم، وفي تقديم الإطعام على العتق مع أن العتق أفضل تنبيه على التخيير، وأن الأمر مبني على التخفيف.

ويمكن أن يقال: الإطعام أفضل؛ لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام أو لا يكون هناك من يعطيه فيقع في الضر، أما العبد فيجب على مولاه طعامه وكسوته، فالعتق يحتمل التأخير، والإطعام قد لا يحتمل ذلك، وقدره الحنفية بما يجب في صدقة

٢/ ١٨٠، تفسير المراغي ٢/ ٩٨.

(١) انظر: الإجماع، ابن المنذر ص ٥٢، مراتب الإجماع، ابن حزم ص ٤٤.

(٢) موطأ مالك، ٢/ ٤٧٧، كتاب النذور والأيمان، باب اللغو في اليمين.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٥.

الفطر، نصف صاع من بر أو صاع من شعير أو تمر، وقدره مالك مدٌّ لكل مسكين إن كان بالمدينة، وقدره الشافعية بمد لكل مسكين، وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام.

واشترط الفقهاء أن يكون العشرة المساكين من المسلمين، وجوز أبو حنيفة صرفها إلى أهل الذمة، وتجب كفارة الإطعام على المستطيع، ولا يجوز أن يطعم غنيًّا ولا ذا رحم تلزمه نفقته[1].

وأما الكسوة: فهي اللباس، وهي فوق الإطعام ودون العتق، ولم يقل فيها مما تكسون أهليكم أو من أوسطه، فيجزئ إذن كل ما يسمى كسوة، وأدناه ما يلبسه المساكين عادة، وهي تختلف باختلاف البلاد والأزمنة كالطعام، يدفع لكل مسكين ما يصح أن يصلي فيه إن كان رجلًا أو امرأة كل بحسبه، وقيل غير ذلك، وأقل الكسوة القميص مع السروال[2].

وأما تحرير الرقبة: فهي إعتاق رقيق، وغلب استعمال الرقبة في المملوك والأسير، وقد يعبر أحيانًا عن ذلك بفك الرقبة، كقوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد: ١٣].

ولا يشترط أبو حنيفة أن تكون الرقبة مؤمنة، فيجزئ عنده عتق الكافرة، واشترط الجمهور أن تكون الرقبة مؤمنة، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾، أي: فمن لم يستطع واحدًا من الثلاثة المتقدمة فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات، واشترط التتابع الحنفية والحنابلة، فإن عجز عن ذلك لمرض، صام عند القدرة، فإن لم يقدر يرجى له عفو الله ورحمته إذا صحت نيته وصدقت عزيمته[3].

ثم إن هذه الثلاثة التي خير الله الناس فيها مترتبة على طريقة الترقي، فالإطعام أدناها، والكسوة أوسطها، والإعتاق أعلاها، ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، بالله أو بأحد أسمائه وحنثتم، أو أردتم الحنث باليمين، ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾، فلا تبذلوها في أتفه الأمور وأحقرها، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة، فضلًا عن الأيمان الكاذبة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وإذا حلفتم فلا تنسوا ما حلفتم عليه ولا تحنثوا فيه إلا لضرورة تعرض، أو مصلحة تجعل الحنث رابحًا.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: وعلى هذا النحو الشافي الوافي يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٥٧٣، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٧٤، غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ١٠، تفسير المراغي ٧/ ١٥، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٣٨٨.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٧١، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٧٤، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٣٢، تفسير المراغي ٧/ ١٥.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

دينه، ليعدكم ويؤهلكم بذلك[1].

ولا ينعقد اليمين إلا باسم الله تعالى أو بصفة من صفاته، فمن حلف باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته ولم يبر بيمينه فعليه الكفارة، ومن حلف بغير ذلك فهو آثم؛ لأنه عظم المخلوق به وهو غير معظم تعظيم من يحلف به، ولهذا فلا كفارة عليه إهانة للمحلوف به، روى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر رضي الله عنهما وهو يسير في ركب ويحلف بأبيه، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)[2][3].

واتفق الفقهاء في وجوب كفارة اليمين بالله تعالى إذا حنث فيها، على التخيير بين الإطعام وبين الكسوة وتحرير الرقبة، فإن عجز فصيام ثلاثة أيام، ثم اختلفوا هل يجب التتابع في الصوم؟ فقال أبو حنيفة وأحمد: يجب، وقال مالك والشافعي: لا يجب، وهو الأصح[4].

(١) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلا، رقم ٦٠٨، ٨/ ٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم ١٦٤٦، ٣/ ١٢٦٦.
(٣) انظر: بيان المعاني، العاني ٥/ ١٨٦.
(٤) انظر: اختلاف الأئمة العلماء، ابن هبيرة ٢/ ٣٨٣.

ثالثًا: كفارة الظهار:

ومن الكفارات التي ذكرت في القرآن حفاظًا على الأسرة، ولمنع الظلم عن المرأة كفارة الظهار.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة:٣-٤].

بينت الآية أن المظاهر من زوجته يحرم عليه وطؤها، وإذا عزم على إصابتها وإمساكها فقد وجبت عليه الكفارة، وهي تحرير رقبة مؤمنة سليمة من العيوب، وهو قول الجمهور، وقال أبو حنيفة: أي رقبة كانت، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، المراد بالتماس هنا: الجماع، وبه قال الجمهور، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يكفر، وقيل: المراد به الاستمتاع بالجماع أو اللمس أو النظر إلى الفرج بشهوة، وبه قال الحنفية ومالك، وهو أحد قولي الشافعي، ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾، أي: ذلكم الحكم، أو ذلكم التغليظ توعظون به؛ لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، لا

يخفى عليه شيء من أعمالكم فهو مجازيكم عليها[1].

ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة، فقال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾، أي: فمن لم يجد الرقبة في ملكه ولم يتمكن من قيمتها، فعليه صيام شهرين متواليين لا يفطر فيهما، فإن أفطر يستأنف إن كان الإفطار لغير عذر، وإن كان لعذر من سفر أو مرض، فقال أبو حنيفة: إنه يستأنف، وهو مروي عن الشافعي، وقال مالك والشافعي: يبني ولا يستأنف، وهو أصح، وقال أبو حنيفة ومالك: إذا وطئ ليلًا أو نهارًا عمدًا أو خطأ استأنف، وقال الشافعي: لا يستأنف إذا وطئ ليلا؛ لأنه ليس محلا للصوم، وهو أصح[2].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾، أي: فإن عجز عن الصوم، لمرض، أو كبر، أو فرط شهوة لا تمكنه من الصبر على الجماع، يجب عليه إطعام ستين مسكينًا، كلُّ مسكين مدٌّ من غالب قوت البلد من حنطة أو شعير أو أرز أو ذرة أو تمر، وقال أبو حنيفة وأصحابه: لكل مسكين مدان، وهما نصف صاع، وأجاز أبو حنيفة دفع الستين صاعًا لمسكين واحد، ولم يجزئ ذلك عند الجمهور لظاهر الآية، والظاهر من الآية أنه يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين في يوم وبعضهم في يوم آخر[3].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: ذلك الذي وصفناه من التغليظ في الكفارة لتكونوا مطيعين لله تعالى، واقفين عند حدود الشرع لا تتعدونها، لئلا تعودوا للظهار الذي هو منكر شرعًا وزور وبهتان؛ لأنه يؤدي إلى انفصام عرى الزوجية، والشرع حريص كل الحرص عليها، وسمى التكفير إيمانًا، لأنه طاعة، وتلك حدود الله التي تبين معصيته من طاعته، فالظهار معصية بلا شك، والكفارة له طاعة، وللكافرين بأحكام الشرع عذاب أليم في جهنم، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، فلا تجاوزوا حدوده التي حدها لكم، فإنه قد بين لكم أن الظهار معصية، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة،

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٨٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، محمد صديق ص ٤٣٣، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٧٣٥.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٢٠٩، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، محمد صديق ص ٤٣٤.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الطحاوي ٢/ ٤٠٣، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، محمد صديق ص ٤٣٤، الجدول في إعراب القرآن، محمود صافي ٢٨/ ١٦٦.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾، الذين لا يقفون عند حدود الله ولا يعملون بما حده الله لعباده وسماه كفرًا تغليظًا وتشديدًا، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، هو عذاب جهنم[1].

واتفق الفقهاء على أنه إذا قال لزوجته: أنت علي كظهر أمي، فإنه مظاهر لا يحل له وطؤها حتى يقدم الكفارة، وهي عتق رقبة إن وجد، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا[2].

رابعًا: كفارة القتل:

ومن الكفارات التي نص عليها القرآن الكريم كفارة القتل الخطأ.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

أخبر الله تعالى أنه ليس من شأن المؤمن ولا من خلقه أن يقتل أحدًا من المؤمنين، إذ الإيمان وهو صاحب السلطان على النفس، والحاكم على الإرادة، والمصرف لها يمنعه أن يجترح هذه الكبيرة عمدًا، لكنه قد يفعل ذلك خطأ، والخطأ ما لا يقارنه قصد إلى الفعل أو الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح غالبًا، فهذا هو الاحتمال الوحيد في الحس الإسلامي، وهو الاحتمال الحقيقي في الواقع، فإن وجود مسلم إلى جوار مسلم مسألة كبيرة، ونعمة عظيمة، ومن العسير تصور أن يقدم مسلم على إزالة هذه النعمة عن نفسه والإقدام على هذه الكبيرة عن عمد وقصد[3].

وقد ذكرت الآية ثلاث حالات من القتل الخطأ وهي:

الحالة الأولى: أن يقع القتل على مؤمن أهله مؤمنون في دار الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ يعني: ويجب في هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة، ودية تسلم إلى أهله، فأما تحرير الرقبة المؤمنة، فهو تعويض للمجتمع المسلم عن قتل نفس مؤمنة باستحياء نفس مؤمنة، وهي في مال القاتل، وأما الدية فتسكين لثائرة النفوس،

(١) انظر: نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، محمد صديق ص ٤٣٤، التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ٦٣٠.

(٢) انظر: اختلاف الأئمة العلماء، ابن هبيرة ٢/ ١٨٦.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٢٧٠، تفسير المراغي ٥/ ١٢٠، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٣٥.

وشراء لخواطر المفجوعين، وتعويض لهم عن بعض ما فقدوا من نفع المقتول، والدية: هي المال الواجب بالجناية على الحر في النفس أو فيما دونها ويعطى إلى ورثة المقتول عوضا عن دمه ﴿مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث، لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، يقضى منها الدين، وتنفذ الوصية وإن لم يبق وارثٌ فهي لبيت المال؛ لأن المسلمين يقومون مقام الورثة، وقد بينتها السنة وحددتها على الوجه الذي كان مقبولا عند العرب.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ألا إن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط، والعصا، مائة من الإبل: منها أربعون في بطون أولادها)[1].

ودية المرأة نصف دية الرجل؛ لأن المنفعة التي تفوت أهل الرجل بفقده أعظم من المنفعة التي تفوت بفقدها، والدية على العاقلة ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ فيه تلويح لأهل القتيل بالعفو- إذا اطمأنت نفوسهم إليه- لأنه أقرب إلى جو التعاطف والتسامح في المجتمع المسلم[2].

والحالة الثانية: أن يقع القتل على مؤمن وأهله محاربون للإسلام في دار الحرب، قال سبحانه: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾،يعني: إن كان المقتول خطأ مؤمنا وقومه كفار، فعلى قاتله تحرير رقبة مؤمنة، وليس فيه دية؛ لأن ورثته كفار فلا يرثونه، وحتى لا يستعينون بها على قتال المسلمين، ولا مكان هنا لاسترضاء أهل القتيل وكسب مودتهم، فهم محاربون، وهم عدو للمسلمين[3].

والحالة الثالثة: أن يقع القتل على مؤمن قومه معاهدون عهد هدنة أو عهد ذمة.

قال جل وعلا: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، أي: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمنا فدية كاملة،

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الديات، باب في دية الخطأ شبه العمد، رقم ٤٥٤٧، ٤/ ١٨٥، والنسائي في سننه، كتاب القسامة،كم دية شبه العمد، رقم ٤٧٩١، ٨/ ٤٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب دية شبه العمد مغلظة، رقم ٢٦٢٧، ٢/ ٨٧٧.
وصححه الألباني في الإرواء ٧/ ٢٥٦.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣٢٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٩٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٤٩، تفسير المراغي ٥/ ١٢٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٦٠، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٣٥.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٩٥، تفسير المراغي ٥/ ١٢١، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٣٦.

وكذا إن كان كافرًا أيضًا عند طائفة من العلماء، وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها، كما هو مفصل في كتب الأحكام، ويجب أيضًا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة، قال ابن عباس: «هذا الرجل يكون معاهدًا ويكون قومه أهل عهد، فتسلم إليهم دية ويعتق الذي أصابه رقبة»، وقدم الدية هنا على تحرير الرقبة على العكس مما جاء في صدر الآية، للإشعار بوجوب المسارعة إلى تسليم الدية حتى لا يتردد القاتل في دفعها إلى غير المسلمين الذين بينهم وبين المسلمين عهد يمنع عدم الاعتداء[1].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: فمن لم يجد رقبه مؤمنة يعتقها فعليه في هذه الحالة صيام شهرين متواصلين في أيامهما، لا يفرق بينهم فطر، بحيث لو أفطر يوما فيها استأنف من جديد ابتداء الشهرين، إلا أن يكون الفطر بسبب حيض أو نفاس أو مرض يتعذر معه الصوم ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: قد شرعها لكم، ليتوب عليكم ويطهر نفوسكم من التهاون وقلة التحري التي تفضي إلى القتل الخطأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: وكان الله عليمًا بأحوال النفوس وما يطهرها، حكيما فيما شرعه من الأحكام والآداب التي بها هدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة[2].

واتفق الفقهاء أن على المسلم العاقل البالغ قاتل المسلم خطأ الكفارة واجبة على الترتيب، وهي عتق رقبة مؤمنة، فإن عجز عنها صام شهرين متتابعين[3].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٦، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٣٦، التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٢٥٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٥٥، تفسير المراغي ٥/ ١٢٢، التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٢٦٠.

(٣) انظر: مراتب الإجماع، ابن حزم ص ١٤٠، اختلاف الأئمة العلماء، ابن هبيرة ١/ ٢٥١.

المكفر به

المكفر به في القرآن الكريم ثلاثة أنواع وهي ما يأتي:

أولًا: الكفارة بالعتق:

ذكر القرآن الكريم العتق في كفارة القتل واليمين والظهار:

١. كفارة العتق بالقتل.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

٢. كفارة العتق باليمين.

قال سبحانه: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

٣. كفارة العتق بالظهار.

قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ٣-٤].

فيجب إعتاق رقبة مؤمنة في جميع الكفارات عند الجمهور، وأجاز أبو حنيفة إعتاق الرقبة الكافرة في جميع الكفارات إلا كفارة القتل فإن الله قيد الرقبة بالإيمان في كفارة القتل، ومذهب الجمهور: أن المطلق يحمل على المقيد، ولا يجوز إعتاق المرتد في الكفارات بالإجماع، ويشترط أن تكون الرقبة سليمة الرق حتى لو أعتق في الكفارة مكاتبا أو أم ولد أو عبدا اشتراه بشرط العتق أو اشترى قريبه الذي يعتق عليه فكل هؤلاء لا يجزى في إعتاق الكفارة.

وجوز أصحاب الرأي عتق المكاتب في الكفارة إذا لم يؤد من نجوم الكتابة شيئًا، وجوزوا عتق القريب في الكفارة، ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضر بالعمل، فلا يجزى مقطوع اليد أو الرجل ولا الأعمى ولا الزمن ولا المجنون المطبق ويجوز عتق الأعور والأصم ومقطوع الأذنين والأنف؛ لأن هذه العيوب كلها

لا تضر بالعمل، وعند أبي حنيفة كل عيب يفوت جنسا من المنفعة يمنع الجواز، فيجوز عتق مقطوع إحدى اليدين، ولا يجوز عتق مقطوع الأذنين في الكفارة[1].

وهي أغلظ الكفارات وهي قسمان:

الأولى: واجب حتم على القادر على العتق بملك الرقبة أو ثمنها، ككفارة قتل النفس خطأ، وكفارة الظهار.

والثانية: واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين، فمن حلف يمينا وحنث فيها فكفارته إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى، وحكمة التخيير ظاهرة[2].

واليوم وقد بطل الرق في العالم كله تقريبًا يجب على من وجب عليه عتق رقبة أن يتصدق بقيمتها إن وجد قيمتها فاضلة عن حاجته[3].

ثانيًا: الكفارة بالمال:

والمال في الكفارة قد يكون طعامًا أو كسوة، كما في كفارة الحنث في اليمين، أو إطعاما، كما في كفارة الظهار، أو صدقة أو نسك يذبح، كما في كفارة انتهاك محظور من محظورات الإحرام[4].

١. الإطعام في كفارة حلق الرأس للمحرم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وهو مطلق غير محدد وقد بينته السنة، من حديث كعب رضي الله عنه (إطعام ستة مساكين نصف صاع نصف صاع طعاما لكل مسكين)[5].

٢. الإطعام في كفارة اليمين.

وقدره إطعام عشرة مساكين من وسط طعام الأهل.

قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

٣. الإطعام في كفارة الظهار.

ومقداره إطعام ستين مسكين.

قال جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٧٣، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٧٣٥.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٢٣٨، توفيق الرحمن في دروس القرآن، فيصل النجدي ٤/ ٣١٤.

(٣) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي، عبد القادر عودة ١/ ٦٨٤.

(٤) انظر: الإعجاز التشريعي في الكفارات، مازن هنية ص ٥١.

(٥) انظر: سبق تخريجه.

نِسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة:٣-٤].

قال ابن قدامة: «وجملة الأمر، أن قدر الطعام في الكفارات كلها مد من بر لكل مسكين، أو نصف صاع من تمر أو شعير، وممن قال: مد بر، زيد بن ثابت، وابن عباس، وابن عمر، حكاه عنهم الإمام أحمد، ورواه عنهم الأثرم، وعن عطاء، وسليمان ابن موسى، وقال سليمان بن يسار: أدركت الناس إذا أعطوا في كفارة اليمين مدًا من حنطة بالمد الأصغر، مد النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو هريرة: يطعم مدًا من أي الأنواع كان، وبهذا قال عطاء، والأوزاعي، والشافعي؛ لما روى أبو داود بإسناده عن عطاء، عن (أوس ابن أخي عبادة بن الصامت، أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه- يعني: المظاهر- خمسة عشر صاعا من شعير، إطعام ستين مسكينًا)[1].

وروى الأثرم بإسناده عن أبي هريرة في حديث المجامع في رمضان (أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بعرق فيه خمسة عشر صاعًا، فقال: خذه وتصدق به)[2].

وإذا ثبت في المجامع بالخبر، ثبت في المظاهر بالقياس عليه، ولأنه إطعام واجب، فلم يختلف باختلاف أنواع المخرج، كالفطرة وفدية الأذى، وقال مالك: لكل مسكين مدان من جميع الأنواع»[3].

٤. الكسوة في كفارة اليمين.

والكسوة لا تدخل في غير كفارة اليمين حيث لم ينص عليها إلا في كفارة اليمين، ولا يجزئ في الكفارة أقل من كسوة عشرة مساكين.

قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة:

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب في الظهار، رقم ٢٢١٨، ٢/ ٢٦٧، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم ١٥٢٨٦، ٧/ ٦٤٣.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم ٦/ ٤٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصوم، باب كفارة من أتى أهله في رمضان، رقم ٢٣٩٣، ٢/ ٣١٤، وأحمد في مسنده، رقم ٦٩٤٤، ١١/ ٥٣٣.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم ٧/ ١٥٨.

(٣) المغني، ابن قدامة ٨/ ٣٠.

٨٩][1].

٥. الذبح في كفارة انتهاك محظور من محظورات الإحرام.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

النسك: جمع نسيكة وهي الذبيحة، أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة[2].

ثالثًا: الكفارة بالصيام:

وهي كفارة لانتهاك محظور من محظورات الحج، وكفارة للحنث في اليمين، والقتل الخطأ، والظهار كما يأتي[3].

١. الصوم في كفارة القتل، ومقداره شهران متتابعان.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢][4].

٢. الصوم في كفارة الظهار، ومقداره شهران متتابعان.

قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ٣-٤].

٣. الصوم كفارة اليمين، ومقداره ثلاثة أيام.

وذلك بعد العجز عن إعتاق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

٤. الصوم في كفارة قتل الصيد وهو محرم.

(١) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي، عبد القادر عودة ١/ ٦٨٤.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٠١، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٩٨

(٣) انظر: الإعجاز التشريعي في الكفارات، مازن هنية ص ٥١.

(٤) انظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه، أحمد الزهراني ص ١١٢.

قال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٥].

ومقدار الصيام في هذه الكفارة مطلق غير مقيد، ولم يرد بتحديده وتعيينه نص شرعي، وبناء على هذا اختلفت أقوال أهل العلم في تقديره كما سبق في الكلام عن كفارة الصيد.

قال الشنقيطي: «واعلم أن ظاهر الآية الكريمة أنه يصوم عدل الطعام المذكور، ولو زاد الصيام عن شهرين أو ثلاثة، وقال بعض العلماء: لا يتجاوز صيام الجزاء شهرين، لأنهما أعلى الكفارات، واختاره ابن العربي، وله وجه من النظر، ولكن ظاهر الآية يخالفه»[1].

(١) أضواء البيان ١/ ٤٤٤.

حكم ومقاصد الكفارات

من الحكم والمقاصد التي تظهر في الكفارات ما يأتي:

أولًا: حكم ومقاصد كفارة العتق:

ومن مقاصد الشريعة الإسلامية حرصها على تعميم الحرية في الإسلام بكيفية منتظمة، فإن الله تعالى لما بعث رسوله بدين الإسلام كانت العبودية متفشية في البشر، وأقيمت عليها ثروات كثيرة.

وكانت أسبابها متكاثرة: وهي الأسر في الحروب، والتصيير في الديوان، والتخطف في الغارات، وبيع الآباء والأمهات أبناءهم، والرهائن في الخوف، والتداين، فأبطل الإسلام جميع أسبابها عدا الأسر، وأبقى الأسر لمصلحة تشجيع الإبطال، وتخويف أهل الدعارة من الخروج على المسلمين؛ لأن العربي ما كان يتقي شيئا من عواقب الحروب مثل الأسر.

ثم داوى تلك الجراح البشرية بإيجاد أسباب الحرية في مناسبات دينية جمة: منها واجبة، ومنها مندوب إليها، ومن الأسباب الواجبة الكفارات فقد أوجبه في كفارة القتل الخطأ وكفارة الظهار وكفارة اليمين وغير ذلك كما سبق ذكره، وأوجب سراية العتق، وأمر بالكتابة في قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣].

ورغب في الإعتاق ترغيبًا شديدًا[(١)].

ومن الحكمة في تحرير رقبة مؤمنة، جعل هذا التحرير بدلا من تعطيل حق الله في ذات القتيل، فإن القتيل عبد من عباد الله ويرجى من نسله من يقوم بعبادة الله وطاعة دينه، فلم يخل القاتل من أن يكون فوت بقتله هذا الوصف، وقد نبهت الشريعة بهذا على أن الحرية حياة، وأن العبودية موت فمن تسبب في موت نفس حية كان عليه السعي في إحياء نفس كالميتة وهي المستعبدة[(٢)].

كما أن من الحكمة في تحرير الرقبة المؤمنة، هو تعويض لجماعة المؤمنين؛ لأنه بقتله لمؤمن قد نقص عدد المؤمنين، فكان الواجب أن يعوض ما نقص بعتق رقبة مؤمنة؛ لأن العتق إعطاء الحرية، والحرية كالحياة[(٣)].

ثانيًا: حكم ومقاصد كفارة اليمين:

من حكم ومقاصد كفارة اليمين أن هذه الكفارة شرعت لمعنى خلقي، وهو صيانة الألسنة عن كثرة الأيمان وإخلافها، والتعرض للمهانة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم: ١٠].

وأيضًا لكيلا يتخذ المؤمنون يمين الله حاجزًا بينهم وبين فعل الخير إن حلفوا، وبدا الخير في غير ما حلفوا عليه، فشرع لهم تلك الكفارة تحلة لأيمانهم، كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من حلف على يمين، فرأى غيرها خيرًا منها، فليأتها، وليكفر عن يمينه)[(٤)][(٥)].

ثالثًا: حكم ومقاصد كفارة الظهار:

ومن الحكم والمقاصد في كفارة الظهار أن هذه الكفارة شرعت علاجًا للأسرة، ولمنع الظلم عن المرأة، وهي كفارة من يحرم امرأته على نفسه، ويجعلها كإحدى محارمه من غير إرادة طلاق، وما كان لشريعة القرآن أن تترك المرأة المظلومة فريسة لكلمات ينطق بها اللسان إيذاء وظلمًا، ولا يترك المتكلم بها من غير عقاب لغوًا عابثًا، بل لا بد من رد الحق، وعقاب العابث، فكانت الكفارة.

وتثبت بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٥٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٥٨.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٣٥، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣١٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها، أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه، رقم ١٦٥٠، ٣/ ١٢٧١.
(٥) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣١٤.

أَن يَتَمَآسَّا ۚ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة:٣-٤].

كما أن هذه الكفارة فيها إقامة للحياة الزوجية على دعائم من المودة والأنس النفسي من غير إيحاش ولا إعنات؛ لأن النطق بهذه الكلمات وأشباهها يلقي بالجفوة في قلب الزوجة فلا تطمئن إلى زوجها، ولا إلى الحياة الزوجية الكريمة المتوادة؛ ولهذا كانت تلك الكفارة محافظة على هذه المعاني[1].

كما أن من الحكمة في الكفارات أنها زواجر عن مباشرة ما يوجبه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [المجادلة: ٣].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الحكم بالكفارة والخطاب للمؤمنين الموجودين عند النزول، أو لهم ولغيرهم من الأمة.

﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: تزجرون به عن ارتكاب المنكر، فإن الغرامات مزاجر عن تعاطي الجنايات، والمراد بيان أن المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذي هو علم في استتباع الثواب العظيم، بل هو ردعكم وزجركم عن مباشرة ما يوجبه[2].

رابعًا: حكم ومقاصد كفارة القتل الخطأ:

ومن مقاصد الشريعة الإسلامية في كفارة القتل الخطأ الحفاظ على النفس البشرية، وتربية النفس على الاحتراز من الخطأ، والاحتياط له.

قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية ولو كان خطأ؛ لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك[3].

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٢٠٧.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٣.

قتل الخطأ، بإجماع العلماء؛ لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفاسد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذرًا من تحميلهم ويخف عنهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضا بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته أن أوجب الدية تطييبًا لقلوب أهل القتيل حتى لا تقع عداوة ولا بغضاء بينهم وبين القاتل، وتعويضًا عما يفوتهم من المنفعة بقتله، فإذا هم عفوا فقد طابت نفوسهم وانتفى المحذور وكانوا هم ذوي الفضل على القاتل، وقد سمى الله هذا العفو تصدقًا ترغيبًا فيه [(١)].

وفي الجملة فإن الكفارات كلها التي جاء بها القرآن فيها معنى العبادة، وفيها صلاح، وفيها تعاون اجتماعي إنساني [(٢)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٣، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٣٥، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣١٤، تفسير المراغي ٥/ ١٢١.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٣٥، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣١٤.

أثر الكفارات على الفرد والمجتمع

تظهر آثار الكفارات في تقويم الفرد والمجتمع على النحو الآتي:

أولًا: أثر الكفارات على الفرد:

إن الكفارات لها أثر كبير في ارتباط العبد مع الله تعالى ومراقبته والخوف منه وخشيته في السر والعلانية، وهذه الكفارات تعمل على حماية الفرد من ارتكاب الجريمة والوقوع فيها؛ لأنه دائما يستشعر الجزاء والعقوبة من خلال هذه الكفارة، فتمنع الخوض في الأيمان بالله، وتحافظ على العلاقة الأسرية الحميمة، وتحفظ النفس البشرية، وتؤدى العبادات كما أمر الله تعالى بالقيام بها.

وقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم هذا الأثر العظيم فكانوا يضعون كفارات تمنعهم من التقصير في الواجبات والإخلال فيها، فيذكر أن عمر رضي الله عنه خرج إلى ماله بثمغ ففاتته العصر فقدم المسلمون رجلا فصلى بهم، وأقبل عمر يريد الصلاة فتلقاه الناس راجعين فسألهم، مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول: شغلتني ثم شغلتني، لا تكون لي في مال أبدا، أشهدكم أنها صدقة لله [(٣)].

وقد ذكر الله تعالى هذا الأثر العظيم للكفارات.

(٣) انظر: الزهد، أبو داود ص ٧٩.

قال تعالى في كفارة الظهار: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة:٣-٤].

فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: ذلكم الحكم، أو ذلكم التغليظ توعظون به؛ لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه، ومن آثار الكفارات: زيادة الإيمان وتقويته.

قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [المجادلة: ٤] أي: لتؤمنوا إيمانا كاملًا بتوحيد الله والامتثال لما أمركم الله ورسوله، وتنتهوا عن قول الزور والكذب، وتتبعوا ما حده الدين من حدود، وبينه لكم من فرائض، فلا تشوبوا أعمال الإيمان بأعمال أهل الجاهلية، وهذا زيادة في تشنيع الظهار، وتحذير للمسلمين من إيقاعه فيما بعد، أو ذلك النقل من حرج الفراق بسبب قول الظهار إلى الرخصة في عدم الاعتداد به وفي الخلاص منه بالكفارة؛ لتيسير الإيمان عليكم.

فهذا في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وسمى الله تعالى التكفير إيمانا لأنه طاعة، وتلك حدود الله التي تبين معصيته من طاعته، فالظهار معصية بلا شك والكفارة له طاعة، وللكافرين بأحكام الشرع عذاب أليم في جهنم[(١)].

ومن آثار الكفارات: أنها رادعة وكافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك[(٢)].

ثانيًا: أثر الكفارات على المجتمع:

ومن آثار الكفارة: أنها تعمل على إحياء روح التكافل الاجتماعي لما فيها من حقوق تكفل الفقراء والمساكين وتسد كثيرًا من احتياجاتهم اليومية كالطعام والكسوة، وهذا يعمق روح المحبة والأخوة في المجتمع المسلم، وتقوي الروابط الاجتماعية من حيث كونها حقا من حقوق المساكين، وذلك لكونها متنوعة، ككفارة الظهار، وكفارة اليمين، وكفارة صيد الحرم، كما أنها تعد ضمانًا اجتماعيًا ومورِدًا اقتصاديًا لا ينقطع لهذه الشريحة الفقيرة من المجتمع.

كما أنها عملت على القضاء على الرق

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ٨ التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٢، التفسير الواضح، محمود حجازي ٣/ ٦٣٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٣.

بصورة طبيعية مع الزمن، لأن إلغاءه دفعة واحدة كان يؤدي إلى هزة لا ضرورة لها، وإلى فساد في المجتمع أمكن اتقاؤه، وقد ذكر القرآن الكريم أهمية ذلك في آيات أخر، قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١١ - ١٦] وفي الجملة فإن الكفارات كلها التي جاء بها القرآن فيها معنى العبادة، وفيها صلاح، وفيها تعاون اجتماعي إنساني[(١)].

ومن آثار الكفارة: محو الذنب وتغطيته، كما أنها تجبر ما لحق بالعبادة من نقص كما في كفارة الحج فالحلق من محظورات الحج فجاءت الكفارة لجبر هذا الخلل، ومن آثار الكفارة: أنها تعمل على صيانة الأسرة في المجتمع الإسلامي من التفكك وحماية للأبناء من التشرد، كما أن الصوم وهو نوع من الكفارة، يعد مدرسة تهذب الخلق، وتربي النفس، وتُقَوِّم ما أعوج من تربية الفرد، ومن الآثار في كفارة القتل: أنها توقظ في نفس الإنسان كرامة الإنسان وقدره وقيمته الدينية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠] وهكذا تنتقل خصال الكفارة بين فائدة المجتمع، وفائدة الرجل نفسه[(٢)].

موضوعات ذات صلة

الحج، الحدود، الصيام، القسم، الوفاء

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٣٠، الموسوعة القرآنية خصائص السور، جعفر شرف الدين ٢/ ١١٣، الإعجاز التشريعي في الكفارات، مازن هنية ص ٥٦.

(٢) انظر: دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي ص ١٤٠، روائع البيان، الصابوني ٢/ ٥٣٥.

الكفر

عناصر الموضوع

مفهوم الكفر	٣٣٢
الكفر في الاستعمال القرآني	٣٣٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٣٥
أنواع الكفر	٣٣٨
أسباب الكفر	٣٤٣
مواقف أهل الكفر	٣٤٨
صفات الكافرين	٣٥٧
سنة الله في الكافرين	٣٦٣
الكفر بعد الإيمان	٣٧١
توبة الكافر	٣٧٢
عاقبة الكفر	٣٧٣

مفهوم الكفر

أولًا: المعنى اللغوي:

جاءت لفظة الكفر في المعاجم اللغوية بمعنى التغطية والجحود، والزرع والستر، قال ابن منظور: «وأصل الكفر تغطية الشيء وكَفَّرَ الرجلَ: نسبه إلى الكفر. وكل من ستر شيئًا، فقد كَفَرَهُ وكَفَّرَهُ. والكافر الزارع لستره البذر بالتراب. والكفار: الزراع. وتقول العرب للزارع: كافرٌ؛ لأنه يكفر البذر المبذور بتراب الأرض المثارة، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد:٢٠]. سُمِّيَ الكافر كافرًا؛ لأنه ستر نعم الله عز وجل»[(١)].

يقول «الرازي»: «والكفر ضد الإيمان، وجمع (الكافر) (كَفَّارٌ) و (كَفَرَةٌ) و (كِفَارٌ)، وجمع الكافرة (كَوَافِرُ). و (الكفر) أيضًا جحود النعمة وهو ضد الشكر، وقد كفره من باب دخل، وكُفْرانًا أيضًا بالضم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص:٤٨]. أي: جاحدون»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عَرَّفه الراغب الأصفهاني بقوله: «الكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها»[(٣)].

وقد قال: «ابن حزم الظاهري بنفس التعريف السابق للكافر، فقال ما نصه: «جحد الربوبية وجحد نبوة نبي من الأنبياء صحت نبوته في القرآن، أو جحد شيء مما أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صح عند جاحده بنقل الكافة أو عمل شيء قام البرهان بأن العمل به كفر»[(٤)].

وعرفه ابن القيم فقال: «الكفر جَحْدُ ما عُلم أن الرسول جاء به، سواءٌ كان من المسائل التي تسمونها علميةً أو عمليةً، فمن جحد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بعد معرفته بأنه جاء به فهو كافرٌ في دق الدين وجله»[(٥)].

---

(١) انظر لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ١٤٥ ـ١٤٧ بتصرف.
(٢) مختار الصحاح، الرازي، ص ٢٧١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧١٤، ٧١٥.
(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ٣/ ١١٨.
(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن القيم، اختصره الموصلي، ص٥٩٦.

الكفر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (كفر) في القرآن الكريم (٥٠٤) مرات [(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٣٠	﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة:١٠٢]. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾ [القمر:١٤]
الفعل المضارع	٥٧	﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة:٢٨]
الفعل الأمر	٢	﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٧٢﴾ [آل عمران:٧٢]
المصدر	٣٧	﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٠٨﴾ [البقرة:١٠٨]
مصدر سماعي	١٥	﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾ [لقمان:٣٢]
اسم فاعل	١٥٨	﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة:٢٥٤]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [آل عمران:٩١]
صيغة مبالغة	٥	﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾ [ق:٢٤]

وجاء الكفر في القرآن على خمسة أوجه [(٢)]:

الأول: الإنكار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]. يعني: أنكروا توحيد الله عز وجل.

الثاني: كفران النعمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٠٢٣-١٠٣٣.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٥١٦-٥١٧.

يعني:لا تكفروا النعمة.

الثالث: البراءة: ومنه قول الشيطان: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]. يعني:إني تبرأت.

الرابع: الجحود: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩]. يعني:جحدوا به.

الخامس: التغطية: ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد:٢٠]. يعني:الزراع الذين يغطون الحب.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشرك:

الشرك لغة

مأخوذ من شرك، ومنه: أشرك بالله: كفر، أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك[١]، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه[٢].

الصلة بين الشرك والكفر

ومن خلال التعريف في اللغة والاصطلاح يتضح مدى التقارب بين اللفظتين، أعني: الكفر والشرك، يقول النووي: «إن الشرك والكفر قد يطلقان بمعنًى واحدٍ وهو الكفر بالله تعالى، وقد يفرق بينهما فيخص الشرك بعبدة الأوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله تعالى ككفار قريشٍ فيكون الكفر أعم من الشرك»[٣]، فالمراد بالكفر جحود الله سبحانه وتعالى أما الشرك فهو جعل شريك لله سبحانه وتعالى من خلقه، ولذا جاء في القرآن الكريم: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢].

فالكفر إنكار للربوبية، والشرك تنقيص من الألوهية[٤].

٢ الإلحاد

الإلحاد لغة

مادة (ل ح د) تدل على معنى ميل عن استقامة، فيقال:لحد السهم عن الهدف، أي:عدل عنه، ولحد الرجل في الدين:طعن وحاد عنه وعدل وجادل ومارى. ولحد، أي: مال عن طريق القصد، وجار وظلم[٥].

---

(١) تاج العروس، الزبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.
(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.
(٣) المنهاج، شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ٢/ ٧١.
(٤) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، التويجري، ٤/ ٤٦١.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٩٥، مختار الصحاح، الرازي ص٢٤٧، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٣٣٨، المصباح المنير، الفيومي ص٣٢٧، المعجم الوسيط، ٢/ ٨٥٠.

والملحد: «الطاعن في الدين المائل عنه»[1].

الإلحاد اصطلاحًا

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»[2].

الإلحاد المعاصر: الإلحاد المصطلح عليه في هذا العصر، يعني: إنكار وجود الله، والقول بأن الكون وجد بلا خالق، وأن المادة أزلية أبدية، واعتبار تغيرات الكون قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار ظاهرة الحياة، وما تستتبع من شعور وفكر عند الإنسان، من أثر التطور الذاتي في المادة[3].

الصلة بين الإلحاد والكفر

إن الإلحاد بمفهومه يعد من صور الكفر؛ فالكافر لا يؤمن بالله، ويميل عن الحق إلى الباطل كذا الملحد.

٣ الردة

الردة لغةً:

«من ردد بمعنى: رجع، وارتد الشخص، أي: رد نفسه إلى الكفر»[4].

الردة اصطلاحًا:

«الرجوع من الإسلام إلى الكفر»[5].

وقيل: قطع الإسلام بنية كفرٍ أو قول كفرٍ أو فعل مُكَفِّرٍ سواءٌ في القول، قاله استهزاءً أو عنادًا أو اعتقادًا[6]، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٧].

الصلة بين الردة والكفر

ومن خلال التعريف فإن لفظة الردة مرادفة للفظة الكفر، فمن ارتد فقد كفر، لكن

(١) المعجم الوسيط، ٢/ ٨٥٠.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ١٧٢.
(٣) مراجع كلمة الإلحاد: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٤٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٣٦، جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٧٦، التعريفات الاعتقادية، سعد آل عبد اللطيف ص ٥٨، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو ص ٣٢٧.
(٤) المصباح المنير، الفيومي ص١٣٧.
(٥) المفردات، الأصفهاني ص٢١٣.
(٦) حاشيتا قليوبي وعميرة على شرح العلامة جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين، الشيخ محيي الدين النووي أحمد سلامة القليوبي، وأحمد البرلسي عميرة، ٤/ ١٧٥.

الاختلاف أن المرتد كان مسلمًا ثم انقلب للكفر، لكن الكافر لم يُسلم أصلًا فبينهما عموم وخصوص، ولذلك فهي (كفر المسلم بقولٍ صريحٍ، أو لفظٍ يقتضيه، أو فعلٍ يتضمنه، أو هي: قطع الإسلام بنية الكفر، أو قول الكفر، أو فعلٍ مُكَفِّرٍ، سواءٌ قاله استهزاءً، أم عنادًا، أم اعتقادًا، والردة أفحش الكفر وأغلظه حكمًا)[١].

٤ الإيمان

الإيمان لغة

الإيمان في اللغة يراد به معنيان، يظهر معناهما بحسب السياق وهما: الأمن وضده الخوف، والتصديق وضده التكذيب، والمعنيان متداخلان[٢].

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى معنى لغويًا آخر للإيمان؛ وهو أن يكون الإيمان بمعنى الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد[٣].

الإيمان اصطلاحًا

«التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أخبر الله ورسوله عنه في القرآن والسنة، وأمر بالإيمان به؛ والانقياد له ظاهرًا وباطنًا»[٤].

فهو قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية[٥]؛ «ويشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله»[٦].

الصلة بين الإيمان والكفر

بينهما علاقة تضاد، والمقصود بالكفر هنا الكفر الأكبر المخرج من الملة، الذي يخلد صاحبه في النار.

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف ٤٢/ ٣٥٠.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢١.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٩١، الإيمان، عبد الله بن عبدالحميد، ص١٩-٢١.
(٤) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص٤١.
(٥) انظر: العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص١٦١.
(٦) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي ص٤١.

أنواع الكفر

جاء الكفر في القرآن على قسمين، قسم اشتمل على التكذيب والإباء والشك والنفاق، وهذا هو المسمى بالكفر الأكبر، والكفر الأكبر هو المخرج للملة والموجب للخلود في النار، ثم النوع الثاني وهو الكفر الأصغر وهو غير مُخرِج من الملة وهو المسمى عند العلماء بكفر دون كفر وهذا النوع ينقص من إيمان العبد الذي اقترف شيئًا من هذا النوع.

أولًا: الكفر الأكبر

الكفر الأكبر هو الذي يُخرِج من الملة، ويجعل صاحبه خالدًا في النار يوم القيامة، ومن خلال النظر في آيات القرآن يمكن القول إن الكفر الأكبر ورد في القرآن على عدة أنواع: بيانها على سبيل المثال ما يلي:

١. كفر التكذيب.

وقد يسمى بكفر الجحود.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة:٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ [العنكبوت:٦٨].

والمعنى: لا أحدٌ أشدُّ عقوبةً ممن كذب على الله فقال: إن الله أوحى إليه شيئًا، ولم يوح إليه شيءٌ. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله. وهكذا لا أحدٌ أشدُّ عقوبةً ممن كَذَّبَ بالحق لما جاءه، فالأول مفترٍ، والثاني مكذبٌ؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

قال ابن تيمية: «التكذيب أَخَصُّ من الكفر، فكل مكذبٍ لِما جاءت به الرسل فهو كافرٌ. وليس كل كافرٍ مكذبًا.

والخارجون عن هذا الإيمان مشركون أشقياء. فكل من كذب الرسل فلن يكون إلا مشركًا، وكل مشركٍ مكذبٌ للرسل، وكل مشركٍ وكافرٍ بالرسل فهو كافرٌ باليوم الآخر، وكل من كفر باليوم الآخر فهو كافرٌ بالرسل وهو مشركٌ»[2].

٢. كفر الإباء أو الاستكبار.

وهذا النوع من الكفر أول من اقترفه إبليس، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة:٣٤].

قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر:٣١].

والمعنى: لا شك أن إبليس كان مأمورًا بالسجود إنما منعه من ذلك الاستكبار

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢/ ٧٩، ٩/ ٣٢.

والاستعظام[1].

٣. كفر الشك.

وهذا النوع أيضًا يقوم على عداوة أهل الكفر للرسل، وتشكيك الناس في الله تعالى، وعلى عدم الإيمان بالعقيدة، كإنكار البعث.

كما قال تعالى حكاية عن صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف:٣٥- ٣٨].

يقول: الشنقيطيوقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾، بعد قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، يدل على أن الشك في البعث كفرٌ بالله تعالى.

وقد صرح بذلك في أول سورة «الرعد» في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد:٥][2].

٤. كفر النفاق.

وهذا يعد من أشد أنواع الكفر، لاسيما وقد أعد الله تعالى للمنافقين عذابًا في الدرك الأسفل من النار، ولقد بينت سورة البقرة فضائح أهل النفاق.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة:٨- ٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون:٣].

ثانيًا: الكفر الأصغر

ا وهو كل معصية ورد في الشرع تسميتها كفرًا، ولم يصل إلى حد الكفر الأكبر المخرج عن ملة الإسلام، والذي يخلد صاحبه في النار، والكفر الأصغر لا يخرج صاحبه من الملة، لا يكون صاحبه كافرًا يترتب عليه ما يترتب على الكافر الجاحد أو أحكام الكفر الأكبر، بل هذا النوع من الكفر يعمل على نقص الإيمان عند صاحبه وضعفه، والذي جاء بشيء من الكفر الأصغر له ما للمسلمين من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات.

ولذا قيل في تعريفه: وهو ما لا يناقض أصل الإيمان؛ بل ينقصه ويضعفه، وهو المشهور عند العلماء بقولهم: كفر دون كفر

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٢٥.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٢٧٧.

ويكون صاحبه على خطر عظيم من غضب الله عز وجل إذا لم يتب منه؛ وقد أطلقه الشارع على بعض المعاصي والذنوب على سبيل الزجر والتهديد؛ لأنها من خصال الكفر، وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر، وما كان من هذا النوع فمن كبائر الذنوب[1].

ومنه قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ [النحل:٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [لقمان:١٢].

والمعنى هنا كفران النعمة، قال مقاتل: «ومن كفر النعم فلم يوحد ربه عز وجل فإن الله غنيٌّ عن عبادة خلقه حميدٌ»[2]، وللكفر الأصغر عدة أنواع من أبرزها ما يلي:

١. كفر النعمة.

معناه: جحودها وعدم شكرها، ولقد دلل القرآن على هذا النوع.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم:٧].

والمعنى: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ولئن كفرتم، أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها[3].

فكفرهم ليس كفر ملة بل كفر نعمة لم يشكروا ربهم، وكفر النعمة فيه خمس مسائل كما ذكر الفوزان في شرحه لكتاب التوحيد فقال ما نصه:

المسألة الأولى: أن إضافة النعم إلى الله سبحانه وتعالى من الإيمان بالله.

المسألة الثانية: أن إضافة النعم إلى غير الله من الكفر بالله سبحانه وتعالى.

المسألة الثالثة: في الآية وأقوال السلف دليلٌ على عدم جواز نسبة الأشياء إلى أسبابها، وأن ذلك من كفر النعمة، لأنه معلومٌ أن الريح الطيبة سببٌ لجريان السفينة، وأن حذق الملاح سبب لجريان السفينة، ولكن إذا أضاف النتيجة الطيبة إلى هذين السببين صار ذلك من الكفر بنعمة الله.

المسألة الرابعة: فيها اجتماع الضدين في القلب؛ الكفر والإيمان أخذًا من قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣].

ففيها: اجتماع الإقرار والإنكار، والكفر والإيمان في القلب، فأيهما غلب على صاحبه صار من أصحابه.

المسألة الخامسة: أن كفر النعمة يكثر وقوعه في الناس، وهو ما يجري على ألسنة

(١) الإيمان، عبدالله بن عبدالحميد ص ٢٤٩.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٤٣٤.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٧٩.

الناس، فهذا مما يوجب الحذر منه، وأن الإنسان لا يجري على العوائد المخالفة للشرع[1].

٢. قتال المسلم.

فيقتل المسلم أخاه بغير حق، ويدلل على ذلك ما جاء في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩].

وفي الحديث عن زبيدٍ، قال: سألت أبا وائلٍ عن المرجئة، فقال: حدثني عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سباب المسلم فسوقٌ، وقتاله كفرٌ)[2].

وبالجمع بين الحديث والآية يتضح أن قتال المسلم لا يخرج من الإيمان، كما أن قتال المسلم يعد من الكفر الأصغر، وليس من الكفر المخرج من الملة، فلم يتصفوا بخلاف الإيمان مع اقتتالهم.

٣. الطعان في الأنساب.

ففي القرآن الكريم جاءت سورة تذم هذا الصنف من الناس وهي سورة الهمزة قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة:١].

والمعنى: ويل لكل طعان قبوح عياب في الناس، ومنه قول مقاتل بن سليمان: «يعني الطعان المغتاب الذي إذا غاب عنه الرجل اعتابه من خلفه، لمزةٍ، يعني: الطاغي إذا رآه طغى عليه في وجهه»[3].

وبَيَّنَتِ السُّنةُ كفر الطعان كما في الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ: الطعن في النسب، والنياحة على الميت)[4].

قال النووي معلقًا على الحديث: «وفيه أقوالٌ: أصحها أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية، والثاني أنه يؤدي إلى الكفر، والثالث أنه كفر النعمة والإحسان، والرابع أن ذلك في المستحل، وفي هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب والنياحة»[5].

٤. من ادعى إلى غير أبيه.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥].

الإسلام جاء لينظم علاقات الأسرة على

(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، الفوزان، ٢/ ١٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ١/ ١٩، رقم ٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سباب المسلم فسوقٌ وقتاله كفرٌ)، ١/ ٨١، رقم ٦٤.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان، ٤/ ٨٣٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة على الميت، ١/ ٨٢، رقم ٦٧.

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ٢/ ٥٧.

الأساس الطبيعي لها، ويحكم روابطها، ويجعلها صريحة لا خلط فيها ولا تشويه أبطل عادة التبني، ورد علاقة النسب إلى أسبابها الحقيقية[1].

وأسبابها الحقيقة تقوم على البنوة الحقيقة من نحو الزواج والتناسل، فجاء الإسلام ليقضي على عادة التبني كما كان شائعًا في الجاهلية، فكان كل من أعجب بولد نسبه لنفسه، وكل من أعجب بواحد ينسب نفسه إليه ويقول: والدي، ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه العادة.

كما في الحديث عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفرٌ)[2].

والمعنى وليس المراد بالكفر حقيقة الكفر التي يَخْلُدُ صاحبها في النار[3].

وعلى ذلك فإنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الكفر -بالعبد- أن يسمى كافرًا، وإن كان ما قام به كفر، وأما الشعبة نفسها فيطلق عليها اسم الكفر[4].

وهناك أنواع كثيرة من الكفر الأصغر زيادة على ما سبق، لا يتسع المقام لذكرها.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٨٢٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من ادعى إلى غير أبيه، ٨/ ١٥٦، رقم ٦٧٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، ١/ ٨٠، رقم ٦٢.
(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١٢/ ٥٥.
(٤) انظر ضوابط وأصول في التكفير، عبداللطيف آل الشيخ، ص ٤٥.

أسباب الكفر

تعددت أسباب الكفر فمنها ما هو نابع من داخل صاحبه، وهي تتعلق بالقلب وتسمى بالأسباب الاعتقادية، أو أسباب شكية، وتتمثل في إنكار وجود الله سبحانه وتعالى، وأيضًا جحود الأنبياء، وعدم الإيمان بالكتب المنزلة، ولقد حمل على ذلك عدة أسباب منها التقليد، والاستكبار، والحسد والجهل.

أولًا: التقليد:

عرفه ابن تيمية فقال: هو قبول قول الغير بغير حُجَّةٍ، كالذين ذكر الله عنهم أنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة:١٧٠].

قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات:٦٩-٧٠].

ونظائر هذا في القرآن كثيرٌ، فمن اتبع دين آبائه وأسلافه لأجل العادة التي تعودها وترك اتباع الحق الذي يجب اتباعه فهذا هو المقلد المذموم، وهذه حال اليهود والنصارى؛ بل أهل البدع والأهواء في هذه الأمة الذين اتبعوا شيوخهم ورؤساءهم في غير الحق[1].

ومن خلال التعريف يتضح أن التقليد يقوم على اتباع الغير دون علم، وهذا النوع كان سببًا لاستمرار أهل الكفر على كفرهم، بدعوى اتباع من سبقهم حتى وإن كانوا على ضلال، فأدى بهم الأمر إلى الركون إلى الكفر، والمقلد الكافر هو الذي قال عنه الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠].

ومعنى ﴿أَلْفَيْنَا﴾ صادفنا، فعنفهم الله وعاب عليهم تقليدهم آباءهم[2].

وبسبب تقليدهم اتبعوا من أضلهم، فكان عاقبتهم الخسران في يوم القيامة، وأن خُلِّدوا في النار، وأصبحت أمنيتُهم أن لو أطاعوا الله والرسول صلى الله عليه وسلم كما أخبرنا القرآن بذلك:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب:٦٤ - ٦٨].

والمُقَلِّدُ مذموم؛ لأنه انصرف من الحق إلى الباطل، ولم يفسح لعقله مجرد التفكير، فإذا سئل عن سبب كفره كان رده: ﴿قَالُوا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٤/ ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٤١.

﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ [الأنبياء:٥٣].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾ [الشعراء:٧٤].

وأمثال ذلك مما فيه بيان أن من أطاع مخلوقًا في معصية الله: كان له نصيبٌ من هذا الذم والعقاب. والمطيع للمخلوق في معصية الله ورسوله: إما أن يتبع الظن؛ وإما أن يتبع ما يهواه وكثيرٌ يتبعهما. وهذه حال كل من عصى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن أهل البدع والفجور من هذه الأمة.

كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[1] [النجم:٢٣].

ثانيًا: الاستكبار

الاستكبار هو الركون للهوى، ومنه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾ [يونس:٧٥-٧٨].

والاستكبار ينتج عنه كفر الإباء، وأول من تزعم وتسربل بهذا الاستكبار كان إبليس، يقول ابن القيم: «وأما كفر الإباء والاستكبار فنحو كفر إبليس، فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباءً واستكبارًا، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ [المؤمنون:٤٧]»[2].

والاستكبار أو التكبر من أشد الصفات ذمًّا، طُرِدَ إبليس بسببه وأصبح من الصاغرين.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾ [الأعراف:١٣].

وبه خالف أمر ربه، ومن وقتها ناصب العداء لبني آدم، يقول البغوي: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، وقيل: من السماء إلى الأرض قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ﴾، بمخالفة الأمر، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ولا ينبغي أن يسكن الجنة ولا السماء متكبرٌ مخالفٌ لأمر الله، ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، من الأذلاء، والصَّغَار: الذل

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٤/ ١٩٨.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٤٦.

والمهانة»[1].

ومن آفات الاستكبار الصد ومحاربة دين الله تعالى، واستحلال المحرمات، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

والمعنى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تكبر وتجبر وطغى. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: أصنافًا، قد صرف كل صنفٍ فيما يريد من أمور دولته. وقوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يعني: بني إسرائيل. وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إهانةً لهم واحتقارًا[2]، والله تعالى أعد لمن يَتكبَّرُ عذابًا أليمًا قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر:٧٢].

ثالثًا: الحسد

والحسد هو تمني زوال نعمة الغير، لعن إبليس بسبب حسده؛ لأنه عندما أمر بالسجود لآدم عليه السلام حسده، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر:٣٢- ٣٥].

والمعنى: يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف عدوه إبليس عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسدًا وكفرًا، وعنادًا واستكبارًا، وافتخارًا بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء:٦٢][3].

وتوارث هذا الحسد من بعده أهل الكفر، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

يخبر تعالى المؤمنين بنفسية كثير من أهل الكتاب، وهي الرغبة الملحة في أن يتخلى المسلمون عن دينهم الحق ليصبحوا كافرين، ومنشأ هذه الرغبة الحسد الناجم عن

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٨٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٢٠.
(٣) المصدر السابق، ٤/ ٥٣٤.

نفسية لا ترغب أن ترى المسلمين يعيشون في نور الإيمان بدل ظلمات الكفر)[1].

ويبين ابن القيم سبب عداء اليهود الدائم للمسلمين، فيقول: «فحملهم الحسد والبغي على الكفر به وتكذيبه»[2].

ويذكر ابن القيم أركان الكفر فيقول: «أركان الكفر أربعة: الكبر والحسد والغضب والشهوة، فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة»[3].

قال تعالى أيضًا مدللًا على حسد أهل الكفر: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء:٥٤].

وسبب هذا الحسد الدائم فيهم أنهم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم اختصوا بالنبوة دون غيرهم من الناس، وقد بين الله سبحانه أن ذلك وهم، فقال تعالت كلماته: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤].

أي: إذا كنتم تحسدون الناس لما توهمتم أن النبوة فيكم، وأنكم أهل الوحي دون غيركم، فقد كذبتم على أنفسكم)[4].

فكان وقوع الحسد منهم هو طريقهم للكفر بسبب أضغان قلوبهم.

رابعًا: الجهل

كفر الجهل يقوم على عدم التصديق بسبب جهل صاحبه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس:٣٩].

والمعنى: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وهو القرآن الكريم؛ والناس دائمًا أعداء لما جهلوا[5].

والمعنى أنهم سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه. وإنما يكون مثل هذا التكذيب عن مكابرةٍ وعداوةٍ لا عن اعتقاد كونه مكذوبًا. ثم إن عدم الإحاطة بعلمه متفاوتٌ: فمنه عدمٌ بحتٌ وهو حال الدهماء، ومنه عدمٌ في الجملة وهو ما يكون بضربٍ من الشبهة والتردد أو يكون مع رجحان صدقه، ولكن لا يحيط بما يؤدي إليه التكذيب من شديد العقاب[6].

أمر الله تعالى أن يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم للمشركين حقيقة الإسلام، الذين طلبوا الأمن من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأنهم لا يعلمون عنه شيئًا، فإذا علموا فقد أقيمت عليهم الحجة.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ

(١) انظر أيسر التفاسير، الجزائري، ١/ ٩٨.
(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم، ٢/ ٣٦٦.
(٣) الفوائد، ابن القيم، ص ١٥٧.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٤/ ١٧١٨.
(٥) انظر: أوضح التفاسير، محمد عبداللطيف الخطيب، ٢٥٢.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ١٧٢.

﴿ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة:٦].

ومعنى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتلهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلب منك الأمان من القتل ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فاجعله في أمنٍ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ القرآن فتقيم عليه حجة الله وتبين له دين الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ إذا لم يرجع عن الشرك لينظر في أمره ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ يفعلون كل هذا؛ لأنهم قومٌ جهلةٌ لا يعلمون دين الله وتوحيده[1].

ومن آفات كفر الجهل في الدنيا أنه يزين لصاحبه أنه يفعل خيرًا، وهو في حقيقة الأمر لا يُقَدِّمُ إلا شرًّا، ومن هذه الشرور الإفساد في الأرض، والتهكم على المؤمنين.

قال تعالى مبينًا حال الكافرين المفسدين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [البقرة:١١-١٣].

وقد بين اللهُ حالَ هؤلاء الجهلة في يوم القيامة، فكان عقابهم أن يحشروا أفواجًا، ثم يساقون كالأنعام.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾ [النمل:٨٣-٨٤].

والمعنى على ذلك: كذبتم بآياتي غير عالمين بها. يعني: ولم تتفكروا في صحتها بل كذبتم بها جاهلين غير مستدلين، لا عن خبرة ولا عن معرفة ببطلانها، أماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا فيها؟[2].

(١) الوجيز، الواحدي ص ٤٥٤.

(٢) التفسير البسيط، الواحدي ١٧/ ٣٠٧.

مواقف أهل الكفر

تعددت مواقف أهل الكفر من الله تعالى فجحدوا وجوده، وكذبوا بآياته، وكفروا برسله، وأنكروا كتبه المنزلة على أنبيائه، واتخذوا آيات الله هُزوًا، ولم يسلم رسل الله من محاربة أهل الكفر لهم، بل منهم من قتل، ومنهم من هاجر ومنهم من لحقه الأذى بسبب الدعوة، وأنكروا اليوم الآخر، والبعث والنشور، وتهكموا بقولهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:٢٤].

كما سجل عليهم القرآن ذلك، وقتلوا وباروزا أهل الإيمان بالحرب الضروس إلى يوم الدين، واتبعوا الشياطين فزينوا لهم أعمالهم، كل هذا من أجل صدهم عن دين الله تعالى.

أولًا: موقفهم من الله تعالى:

من أشد مواقف الكفار موقفهم من الله تعالى خالقهم، ومن أبرز مواقفهم كما حكى القرآن ما يلي:

١. الكفر.

وأهل الكفر يصرون عليه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء:١٥٠- ١٥١].

والمعنى: يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلًا طريقًا وسطًا بين الإيمان والكفر، ولا واسطة؛ إذ الحق لا يختلف فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بَلَّغُوا عنه تفصيلًا أو إجمالًا، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال[1].

٢. التكذيب.

وهو افتراء الكذب على الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٥].

وقد عبر القرآن عن كذب أهل الكفر بالظلم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام:٢١].

والمعنى: من أَشَدُّ ظلمًا ممن اختلق على الله قول الباطل، أو جحد آياته وأدلته، إنه لا يفلح الظالمون أي: لا ينجح القائلون على الله الباطل[2].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٠٦.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ١٩٨٢ـ١٩٨٣.

٣. اليأس من رحمة الله.

القنوط صفة لازمة لأهل الكفر.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر:٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

والمعنى ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ يقول: لا يقنط من فَرَجِه ورحمته ويقطع رجاءه منه ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، يعني: القوم الذين يجحدون قدرته على ما شاء[1]، ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين؛ إذ فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله تعالى[2].

٤. جحود النعم.

وهو إنكار نعم الله تعالى، وعدم مقابلتها بالشكر، ومقابلة الجحود بالإهلاك.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١١٢﴾ [النحل:١١٢].

ثانيًا: موقفهم من الأنبياء والرسل:

١. التكذيب.

اعتاد أهل الكفر على محاربة الأنبياء والرسل بعدة أسلحة كان التكذيب أولها، فكانت عادتهم كلما جاءهم الأنبياء أو الرسل يقابلونهم بالتكذيب والأذى فأصبح التكذيب مطيتهم.

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝١٨٤﴾ [آل عمران:١٨٤].

وقال تعالى مخبرًا عن قوم صالح - أصحاب الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾ [الحجر:٨٠].

٢. الاستهزاء.

التهكم والسخرية من الأنبياء والمرسلين عادة من عادات الكفار.

قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾ [يس:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ [الزخرف:٦-٧].

والمعنى: وما يأتي شيعَ الأولين من رسول من الله يرسله إليهم بالدعاء إلى توحيده، والإذعان بطاعته، إلا كانوا به يستهزون: يقول: إلا كانوا يسخرون بالرسول الذي يرسله الله إليهم عتوًا منهم وتمردًا على ربهم[3]، فإن الاستهزاء أو التقليل من شأن الأنبياء والرسل هو كفر

(١) جامع البيان، الطبري، ١٦/ ٢٣٢.
(٢) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٣/ ٣٤٨.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٦٩.

مخرج عن الملة، قال السعدي: «فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين؛ لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك منافٍ لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة»[1].

٣. إيذاء الرسل.

ومن صور الإيذاء الاعتداء عليهم باللسان واليد، فما من نبي جاء إلا وآذاه قومه، ولعل الأذى قد جاءهم من أقرب الناس إليهم.

وذلك قال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران:١٨٦].

ولقد تنوعت صور الإيذاء بين وصفهم بالسحرة وإلصاق الجنون بهم، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ [ص:٤].

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات:٥٢].

والمعنى: يصبر رسوله صلى الله عليه وسلم على أذاهم بنسبتهم إياه إلى السحر والجنون[2].

٤. القتل.

وهذا الأمر كان فاشيًا في الأمم السابقة وخاصة اليهود، ولقد سجل الله تعالى على اليهود ذلك فقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء:١٥٥].

وتعددت صور القتل فقد شُقَّ زكريا بالمنشار نصفين، وقُطعت رأسُ يحيى، وتآمر النصارى على صلب عيسى فنجاه الله ورفعه[3].

ثالثًا: موقفهم من الكتب المنزلة:

١. التكذيب.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٢) تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي، ٩/ ٣٩٢.

(٣) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر، ١٩/ ٥٦.

﴿تَدْعُونَنَآ لِتُكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٩].

والمعنى: أنهم لما سمعوا كتاب الله عز وجل تعجبوا منه، ووضعوا أيديهم على أفواههم تعجبًا[(١)].

لذلك أعد الله تعالى لمن كذب بشيء من آياته العذاب الأليم، وسماهم بالظالمين.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:١٥٧].

٢. الاستهزاء بالآيات.

ولقد ذم الله تعالى هؤلاء الذين يتخذون آيات الله هزوًا، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾ [الجاثية:٩].

يقول ابن كثير: «أي: إذا حفظ شيئًا من القرآن كفر به واتخذه سخريًا وهزوًا، أولئك لهم عذابٌ مهينٌ، أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به».

سئل الشافعي عمن هزل بشيء من آيات الله تعالى فقال: «هو كافر»[(٢)].

واستدل بقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[(٣)] [التوبة:٦٥-٦٦].

٣. التحريف.

وهو بمعنى التبديل والتغيير، أخبرت آيات القرآن عن حال اليهود والنصارى وما فعلوه من تحريف في التوراة والإنجيل، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥].

يقول القرطبي: «هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة فيجعلون الحرام حلالًا والحلال حرامًا اتباعًا لأهوائهم. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عرفوه وعلموه. وهذا توبيخٌ لهم، أي: إن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم أفاعيل سوءٍ وعنادٍ، فهؤلاء على ذلك السنن»[(٤)].

ليس هذا بل كتبوا كلامًا بأيديهم وزعموا كذبًا نسبته إلى الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة:٧٩].

٤. قولهم أساطير الأولين.

أي: أباطيل قصص من سبق.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان:٥].

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن طالب ٥/ ٣٧٨٠.
(٢) الصارم المسلول، ابن تيمية، ص٥١٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٦٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٣.

فتحداهم الله تعالى بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور:٣٣-٣٤].

ثم خفف عنهم بأن يأتوا بعشر سور من القرآن فقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣].

فعجزوا، فخفف عنهم التحدي على أن يأتوا بسورة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣].

فعجزوا عن الإتيان بأقصر سورة من سور القرآن.

رابعًا: موقفهم من المؤمنين:

١. المعاداة والقتل.

يحاول أهل الكفر دائمًا قتال أهل الإسلام، حتى يردوهم عن دينهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا﴾ [البقرة:٢١٧].

والمعنى:إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم، وإنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم[(١)].

٢. الاستهزاء والسخرية.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢١٢].

والمعنى: ويسخرون من ضعفاء المسلمين، يوهمونهم أنهم على حق، والمراد بذلك علماء اليهود، أو مشركو العرب، والذين اتقوا فوق الكفار[(٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين:٢٩-٣٦].

الغمز: الإشارة بالجفن والحاجب، أي يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً. ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ -يعني الكفار- ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾، معجبين بما هم فيه يتفكهون بذكرهم[(٣)].

٣. الحسد وكراهية الخير.

فأهل الشرك لا يحبون أن يصاب المؤمن بخير أبدًا من ربه، ولذلك قال تعالى فاضحًا إياهم: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٣٧.

(٢) تفسير القرآن، العز بن عبدالسلام، ١/ ٢٠٦.

(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٢٢٧.

[البقرة:١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة:١٠٩].

الحسد: كراهية نعمة على مستحق لها، وعدت من عظائم الذنوب، إذ هو معاندة الله في إرادته، وهو شر من البخل، فإن الحسد بخل على الغير بنعمة من لا تنفد العطايا نعمه، والعفو ترك العقوبة على المذنب، وفي الآية تنبيه أن كثيرًا من أهل الكتاب يتمنون ارتدادكم بعد إيمانكم حسدًا، وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي: من عند هواهم[(١)].

٤. الصد عن الحق.

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء:٨٩].

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي: في الكفر شرعا سواء[(٢)].

خامسًا: موقفهم من اليوم الآخر:

تعددت مواقف أهل الكفر من أصول العقيدة، فقابلوا البعث والحساب بالتكذيب والإنكار والكفر.

١. الكفر والتكذيب.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف:٤٥].

والمعنى على ذلك ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وهم على ضلالهم وإضلالهم كافرون بالآخرة كفرًا متأصلًا في نفوسهم، فلا يخافون عقابًا على جرمهم، ولا ذمًّا ولومًا على إنكارهم يوم البعث والجزاء[(٣)].

وقد سجل الله تعالى عليهم تكذيبهم وعدم تصديقهم في كثير من الآيات منها قول الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر:٤٢-٤٧].

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: بيوم الجزاء، والثواب، والعقاب)[(٤)].

ومن ذلك ما جاء عن مسروقٍ، عن عائشة، قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: (لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[(٥)].

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٩١.
(٢) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٣٩٤.
(٣) تفسير المراغي ٨/ ١٥٨.
(٤) التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٤٥٦.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا

وفسر النووي معنى هذا الحديث: بـ«أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة لكونه كافرًا، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (لم يقل: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) أي: لم يكن مصدقًا بالبعث، ومن لم يصدق به كافرٌ، ولا ينفعه عملٌ. قال القاضي عياضٌ رحمه الله تعالى: وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيمٍ ولا تخفيف عذابٍ»[1].

٣. التشكيك والاستهزاء.

لم تسلم الأمور الغيبية أيضًا من سخرية واستهزاء القوم الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝٨﴾ [سبأ:٧-٨].

والمعنى: كلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بأمر البعث كان أهل الكفر يستنفرون الناس استنفار تشويش واستنكار واستهزاء قائلين لهم تعالوا ندلكم على الرجل الذي ينبىء الناس أنهم سيخلقون خلقًا جديدًا بعد أن يموتوا وتبلى أجسادهم وعظامهم وتتفتت وتنتثر في الأرض، وكانوا يتساءلون على سبيل الاستنكار[2].

سادسًا: موقفهم من الشياطين:

انكب أهل الكفر على اتباع الشياطين فسول لهم الشيطان وأملى لهم، فاتبعوه فكانت الموالاة والاستهواء، ولقد بينت كثير من آيات القرآن الكريم ذلك، منها ما يلي:

١. الموالاة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم، وإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنوايا، ومعنى ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أي الشياطين. وهذا مما يدل على أن الطاغوت جمع[3].

٢. التحاكم إلى الشياطين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ [النساء:٦٠].

والمعنى على ذلك: يريدون أن

ينفعه عملٌ، ١/ ١٩٦، رقم ٢١٤.

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، ٣/ ٨٧.

(٢) التفسير الحديث، محمد عزت، ٤/ ٢٦٨.

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب المالكي، ١/ ٨٥٥.

يتحاكموا ويتراجعوا في الخطوب والوقائع إلى الطاغوت المضل عن مقتضى الإيمان والكتب، والحال أنهم قد أمروا في الكتب المنزلة أن يكفروا به، أي: بالطاغوت، وما ذلك إلا أن يريد الشيطان الذي هو رئيس الطواغيت أن يضلهم عن طريق الحق ضلالًا بعيدًا، فالتحاكم إلى الطاغوت كفرٌ بالله تعالى.

ولذلك قال «الفخر الرازي»: «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، فجعل التحاكم إلى الطاغوت يكون إيمانًا به، ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفرٌ بالله، كما أن الكفر بالطغوت إيمانٌ بالله»[1].

وعقب الفخر الرازي على قوله بآية أخرى تعقب آية التحاكم، وهي قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

فقال: «وهذا نصٌ في تكفير من لم يرض بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام»[2].

٣. أستحواذ الشيطان على أهل الكفر.

قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة:١٩].

والمقصود بالاستحواذ: (الاستيلاء عليهم، من حاذ الإبل يحوذها إذا ساقها سوقًا عنيفًا)[3].

سابعًا: موقفهم من بعضهم بعضًا:

يقف أهل الكفر صفًّا إلى صفٍّ، فعقيدتهم الموالاة والتبعية لبعضهم البعض، وفيما يلي بعض مواقفهم تجاه بعضهم البعض:

١. الموالاة.

ومعناها محبة أهل الكفر واتباعهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٣].

حذر الله تعالى أهل الإيمان أن يتخذوا من اليهود والنصارى أولياء، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة:٥١].

وعلى ذلك فلا يجوز للمسلم أن يوالي كافرًا، لكن يجب على المسلم أن يبرأ إلى الله تعالى من أهل الكفر، وأن يوالي أهل الإيمان.

وقد أمر الله تعالى بالبراءة من عبادة الكفار، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ١٠/ ١٢١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٠٦.

﴿الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون:١-٦].

والله تعالى قد أخبر عن البراءة من المشركين والكافرين فقال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة:١].

٢. التقليد.

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف:٢٢-٢٣].

ومعنى ﴿أُمَّةٍ﴾ أي: دين[1]، فيه دلالة على إبطال التقليد، لذمه إياهم على تقليد آبائهم، وتركهم النظر فيما دعاهم الرسول عليه الصلاة والسلام إليه[2]، لأن أصل الأمة الجماعة، والصنف، كقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

(ثم يستعار في أشياء منها: الدين. كقوله: إ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: على دين، لأن القوم كانوا يجتمعون على دين واحد، فتقام الأمة مكان الدين، ولهذا قيل للمسلمين: أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم على ملة واحدة، وهي الإسلام)[3].

وسبب تقليد أهل الكفر الألفة والعادة واتباع الهوى والجهل.

يقول ابن كثير معلقًا على الآية: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾«أي: ليس لهم مستندٌ فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمةٍ، والمراد بها الدين هاهنا»[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٨٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٣٣٢، الوجيز، الواحدي، ص ٩٧٢، تفسير القرآن، السمعاني، ٥/ ٩٧.

(٢) أحكام القرآن، الكيا الهراسي، ٤/ ٣٦٩.

(٣) انظر تفسير السمرقندي، ٣/ ٢٥٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٢٤.

صفات الكافرين

أخبر القرآن الكريم في كثير من آياته عن صفات الكافرين، ولعل من أبرزها الضلال والغرور، فلا يريدون السير في الطريق المستقيم، وظنهم أنهم على الحق وما سواهم على الباطل، أنعم الله تعالى عليهم بالجوارح فلم ينتفعوا بها، بل سخروها في محاربة الإسلام وأهله، فظلموا مَنْ تمسَّكَ بدينه، كل هذا بسبب الحسد والهوى الذي تمكن من قلوبهم، بل كانوا يتبعون الباطل ويجادلون به، فركنوا إلى هواهم، ولقد دلت آيات القرآن كما سأبين فيما يلي.

أولًا: الضلال والإضلال:

يُقَسِّمُ الراغب الأصفهاني الضلال إلى قسمين فيقول:

- ضلالٌ في العلوم النظرية، كالضلال في معرفة الله ووحدانيته، ومعرفة النبوة، ونحوهما المشار إليهما بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].
- وضلالٌ في العلوم العملية، كمعرفة الأحكام الشرعية التي هي العبادات، والضلال البعيد إشارةٌ إلى ما هو كفر كقوله على ما تقدم من قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ﴾ [النساء:١٣٦]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ [النساء:١٦٧]»[1].

ويذكر الفيروزآبادي قسمي الإضلال فيقول: «والإضلال أيضًا على قسمين:

أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وذلك على وجهين: إما أن يضل عنك الشيء، كقولك: أضللت البعير، أي: ضل عني؛ وإما أن يحكم بضلاله. فالضلال في هذين سبب للإضلال.

الضرب الثاني: أن يكون الإضلال سببًا للضلال، وهو أن يزين للإنسان الباطل ليضل، كقوله تعالى: ﴿هَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء:١١٣].

أي: يتحرون أفعالًا يقصدون بها أن تضل، فلا يحصل من فعلهم ذلك إلا ما فيه ضلال أنفسهم[2].

ومن مظاهر الضلال:

١. الشرك بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

٢. اتباع قرين السوء والشيطان، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥١٠.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٤٨٢،٤٨٣ بتصرف.

﴿٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۚ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

٣. عبادة الأصنام، قال تعالى على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ [إبراهيم:٣٦].

٤. التقليد دون تفكير، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ٧٠﴾ [الصافات:٦٩-٧٠].

٥. الصد عن الحق، واستحباب الدنيا على الآخرة، قال تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ [إبراهيم:٢-٣].

ثانيًا: الغرور:

مدار الغرور الجهل، يقول العز بن عبدالسلام: «ومدار الغرور كله على الجهل، فما اغتر الكفار بعبادتهم إلا جهلًا منهم بحبوطها، وما اغتر المبتدعة ببدعهم إلا جهلًا منهم ببطلانها، وما اغتر الأغنياء بغناهم إلا جهلًا منهم بأنه فتنة ومحنة، وظنًّا منهم أنه كرامة ونعمة، وكذلك اغترار العابد بعبادته والزاهد بزهادته، والعارف بمعرفته، وربما أقدم هؤلاء على معصية ربهم ظنًّا منهم أن الله عز وجل لا يؤاخذهم بقربهم إليه وكرامتهم عليه»[(١)].

وأسباب غرور الكفار:

١. شدة إعجابهم بالدنيا، وحرصهم عليها، قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد:٢٠]. والمعنى: (أراد الكفار بالله، وخصهم بالذكر؛ لأنهم أشد إعجابًا بالدنيا، وأكثر حرصًا عليها)[(٢)].

٢. الاستكبار والإعجاب بالنفس، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]. والمعنى(استكبروا عن أمر ربهم وتجبروا، وأعجبهم بطشهم وقوتهم، وما أعطاهم الله من عظم الخلق وشدة البطش، ونسوا أن الذي

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل، العز بن عبدالسلام ص ١٥٦.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ٢/ ٣٤٧.

خلق ذلك فيهم وأعطاهم إياه هو أشد منهم قوة، فجحدوا بآيات الله عز وجل وكفروا بها)[1].

٣. عدم تعجيل العذاب للكافرين في الدنيا، فيجعلهم يتمادون في الغرور قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

٤. كثرة المال والعطاء، يجعل الكافر في غرور شديد، ولا ينسب العطاء لله تعالى، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم:٧٧-٧٨].

ثالثًا: عدم الانتفاع بالعقل والجوارح:

إن الكافر لا يشغل عقله بما ينفعه، ولا يستخدم جوارحه إلا في الذي يضره، وفي تقليد الأنعام.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

ولقد ذم القرآن الكريم أهل الكفر بسبب عدم تعقلهم وتدبرهم، ومن أمثلة ذلك كما جاء في القرآن ما يلي:

١. عدم تعقلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩].

يقول البغوي: «لأن العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود»[2].

٢. عدم إبصارهم رغم وجود أعينهم، قال تعالى: ﴿أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩].

٣. عدم سماعهم رغم وجود آذانهم، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. والمعنى: (وصفهم بأنهم لا يبصرون بعيونهم ولا يعقلون بقلوبهم. جعلهم في تركهم الحق وإعراضهم عنه، بمنزلة من لا يبصر ولا يعقل. ثم قال جل وعز ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾. وذلك أن الأنعام تبصر منافعها ومضارها، فتلزم بعض ما لا تبصره)[3].

٤. عدم استخدام حواسهم إلا في خدمة أغراضهم، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة:١٧١]. وعدم استخدام الحواس في الطاعة والتفكر والتدبر يدل على عدم عمل العقل، مما لا ينتفع

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٤٩٨.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ١١٠.

(٣) معاني القرآن، الزجاج، ٢/ ٣٩٢.

الكفار به.

٥. عدم عظة الكافر ممن كان قبله، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].وعدم الاعتبار أو العظة يدل بالحال على فساد العقل، والمعنى (فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها، يعني: فتصير لهم قلوب بالنظر والعبرة لو كانوا يعقلون بها، أو آذانٌ يسمعون بها التخويف. ﴿فَإِنَّهَا﴾، أي: النظرة بغير عبرة، ويقال: كلمة الشرك. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، يعني: العقول التي في الصدور، وذكر الصدر للتأكيد)[1] والدليل على أن الكافرين لم يجعلوا للعقل حظًّا من التفكير، ولم يجعلوا لجوارحهم نصيبًا من النظر والسمع قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك:١٠]. نسمع سماع من يميز ويتفكر، ونعقل عقل من يتدبر وينظر ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ والمعنى: إنَّا لم نسمع الحق ولم نعقله، أي: لم ننتفع بأسماعنا وعقولنا)[2].

(١) تفسير السمرقندي، ٢/ ٤٦٣.
(٢) انظر تفسير القرآن، السمعاني، ٦/ ١٠.

رابعًا: الظلم:

الظلم في اللغة معناه: (الجور ومجاوزة الحد، وأصل الظلم، وضع الشيء في غير موضعه)[3].

وعرف الظلم في الاصطلاح بأنه: (وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو زيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه)[4].

وفسر الشرك بالظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

تفسير الظلم بالشرك على إطلاقه، وإن فسر بما هو أعم فيحمل كلٌّ على ما يليق به[5].

ويدلل على هذا المعنى ما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]. قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: (ليس كما تقولون ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]. بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيمٌ)[6].

(٣) انظر: النهاية، ابن الأثير، ٣/ ١٦١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١١٣٤، المصباح المنير، الفيومي، ص ١٤٦.
(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٥٤١.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٣٥٥.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث

وأسباب الظلم:

دلت آيات القرآن الكريم على كثير من أسباب الظلم منها:ـ

١. الكفر، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]. دليل على أن كل كافر ظالم لنفسه[(١)]

٢. الكبر والغرور، ويتجلى ذلك في قصة النمروذ، عندما قال لنبي الله إبراهيم عليه السلام ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨].

فحمله غروره وكبره على مجادلة نبي الله إبراهيم، فنسب لنفسه الموت والحياة، وبأنه يقدر على فعل ما يفعله الله تعالى[(٢)].

٣. الكذب على الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام:٢١]. والمعنى: (لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، كمن زعم أن له ولدًا أو شريكًا، أو أن غيره يَدَّعي معه أو من دونه أو يتخذ وليًّا له يقربه إليه زلفى ويشفع للناس عنده، أو زاد في دينه ما ليس منه، أو من كذب بآياته المُنَزَّلَةِ كالقرآن، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته)[(٣)].

٤. موالاة أعداء الله تعالى، والمقصد اتباع أرباب الكفر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة:٢٣].

٥. السخرية من المرسلين، قال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء:٤٧].

خامسًا: اتباع الباطل والمجادلة به:

والباطل ضد الحق، ومقصوده هنا الكفر والانحراف، ولقد جاءت آيات القرآن الكريم كثيرة في هذا المعنى تبين أساليب الكافرين، في المجادلة الباطلة عن عقيدتهم بغية الانتصار للنفس، دلت آيات القرآن الكريم على كثير من أسباب الباطل والمجادلة به، فجاءت الآيات مبينة ومؤكدة

الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، ٤/ ١٤١، رقم ٣٣٦٠.

(١) فتح البيان، صديق خان ٢/ ٨٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١١١.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٧/ ٩٥.

لحال الكافرين في الصد عن دين الله تعالى، وفي اقترافهم للسبل التي اتخذوها ليكذبوا الرسل، ومن هذه الآيات القرآنية ما يلي:

١. المجادلة في الدين، وهو بمعنى الخصام في الدين، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام:٢٥]. والمعنى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾، علامة تدل على صدقك ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ هذا حالهم في البعد عن الإيمان ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ مخاصمين معك في الدين)[1].

٢. جحود الحق، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال:٦]. والمعنى: جحود الحق بعد وضوح برهانه علم لاستكبار صاحبه، وهو- في الحال- في وحشة غَيِّه معاقب بالصد وتنغص العيش، يَمَلُّ حياته ويتمنى وفاته[2]، ومنه قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [غافر:٦٩]. يعني: يجحدون بآيات الله[3].

٣. إيحاء الشياطين للكافرين بالجدال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١]. والمعنى(أي يوسوس الشيطان لوليه فيلقي في قلبه الجدال بالباطل)[4].

٤. خصام الرسل وتكذيبهم، ومنه أيضًا قول الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف:٥٦]. وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر:٥]. والمعنى ﴿وَجَادَلُوا﴾ أي: خاصموا رسولهم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ من القول ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ أي: ليزيلوا ﴿بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ ومنه مكان دحض، أي: مزلقة، ومزلة أقدام، والباطل داحض؛ لأنه يزلق ويزول فلا يستقر، جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان[5].

(١) الوجيز، الواحدي، ص ٣٤٨.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري، ١/ ٦٠٤.
(٣) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ١٤٢.
(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٢/ ٢٨٧.
(٥) فتح البيان، صديق خان ١٢/ ١٦٢.

سنة الله في الكافرين

أرسل الله الأنبياء والرسل ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فإذا أطاعوهم فقد اهتدوا، وإن تولوا فقد أقيمت عليهم الحجة، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء:١٦٥].

وقد أمهلهم الله تعالى عساهم أن يتوبوا وأن يأخذوا العظة والعبرة ممن سبقهم، وتارة تكون سنة الله تعالى الاستدراج، ولعلها أيضًا تفتح لهم طريق الهداية، فلما أصروا على كفرهم وعنادهم أمر الله تعالى بمجاهدتهم، ولقد جاءت آيات القرآن الكريم تبين عدم التسوية بين المؤمن والكافر أبدًا، فالمؤمن في معية الله تعالى يأتمر بما أمره الله به، وينتهي بنهيه، والله تعالى ترك بابًا لا يغلق هو باب التوبة، فالكافر لو تاب إلى الله توبة نصوحة بَدَّلَ ما كان عليه من سيئات وذنوب إلى حسنات، ولا أدل على ذلك من رحمة الله تعالى بعباده، فالله تعالى لا يرضى لعباده الكفر، لكنهم لما اتبعوا أهواءهم حل ما حل بهم من الركون إلى الشياطين.

أولًا: إقامة الحجة عليهم:

أخبر سبحانه وتعالى بأنه غني عن العباد جميعًا، وتعددت إقامة الحجة في القرآن على الكافرين منها:

١. إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء:١٦٥]

والمعنى ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه؛ لئلا يبقى لمعتذرٍ عذرٌ[1].

٢. الدعوة إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤].

٣. المجادلة بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧٥.

[النحل:١٢٥]. هدف الدعوة الأول هو إدخال الناس في الإسلام؛ ولذا فإن الدعوة تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وأما الهدف الأول للجدال والمحاججة، فهو دفع الخصوم وإقامة الحجة، وبعدها يأتي هدف اقتناع المجادل بالحق؛ ألا ترى - رحمك الله - أن المسلمين يفرحون عند إفحام خصومهم من الكفار ولو لم يهتد منهم أحد؛ لأنهم حققوا الهدف الأول من الجدال)[1]،كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦]. فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه:٤٤][2].

٤. بيان عاقبة الأمم الكافرة، حَفَلَ القرآن الكريم ببيان عاقبة المكذبين في الدنيا، ومن ذلك قوم نوح وقوم عاد وثمود وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾ [الحج:٤٢-٤٤]. فأقام الله تعالى عليهم الحجج بعد إخبارهم بعاقبة من كفر قبلهم.

ثانيًا: الإملاء والإمهال:

والمقصود من الإملاء: التأخير.

قال تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف:١٨٣].

والمعنى قوله تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ﴾ أي: أمهل لهم وأؤخر لهم)[3].

فعلى ذلك فإن المقصود بالإملاء إطالة المدة، يقول الواحدي معلقًا على قوله تعالى «﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ﴾: أي: أطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا في المعاصي»[4].

لذلك وقت الله تعالى العذاب بأجل مسمى، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [العنكبوت:٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [فصلت:٤٥].

والإملاء والإمهال له عدة أسباب في القرآن الكريم منها:

١. بيان عاقبة الطغاة، وسوء مصيرهم، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠٣]. وفي موضع آخر: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ

(١) التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، سامي القدومي ص ٢٥١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٦١٣.
(٣) انظر تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٣٦.
(٤) انظر الوجيز، الواحدي، ١/ ٤٢٣.

﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٤٠].

وفي موضع ثالث: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩]. وفي الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود:١٠٢][1].

٢. ليميز الله الخبيث من الطيب، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

٣. الإضلال والشقاء ليزدادوا إثمًا، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التوبة:٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾ [آل عمران:١٧٨]. وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطارق:١٧].

والمعنى ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ أي: قليلا فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب)[2].

ثالثًا: الاستدراج:

استدرج الله المرء: جره قليلًا قليلًا إلى العذاب. قال تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢، القلم:٤٤].

(كلما جدَّدوا خطيئة جَدَّدْنا لهم نعمة وأنسيناهم شكر النعمة واستغفار الذنب)[3].

ولقد بينت آيات القرآن الكريم الهدف من الاستدراج، فتارة يكون الهدف التوبة، فيذكرهم الله تعالى بحال السابقين قبلهم وأن الله تعالى أهلكهم لما كذبوا الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ [يونس:١٣].

ويذكرهم بحال الأخسرين أعمالًا حتى يستفيقوا من غفلتهم، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

وتارة يكون الهدف الإغواء والضلال، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إن أخذه أليمٌ شديدٌ)، ٦/ ٤٧، رقم ٤٦٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩١٩.

(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٩٢.

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤].

والمعنى(وقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: استدرجناهم بالنعم التي كنا متعناهم إياها)[1].

وفي الحديث عن عقبة بن عامرٍ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراجٌ) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤][2].

المستدرجون في القرآن: أهل الكفر المكذبون بآيات الله تعالى ورسله، والمتكبرون، والظالمون، والله تعالى قد يغدق عليهم العطايا فيمتعهم بعض السنين، ثم يأتيهم العذاب فما أغني عنهم ما تمتعوا به من ملذات الدنيا.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

(أي: إنهم وإن طال تمتعهم بنعم الدنيا، فإذا أتاهم العذاب لم يغن طول التمتع عنهم شيئًا، ويكون كأنهم لم يكونوا في نعيم قط)[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

والمعنى: إن الله تعالى إذا أغدق النعم على العبد المعرض عن طاعته المقيم على معصيته فهذا استدارج من الله تعالى، والمعنى تؤيده السنة النبوية كما في الحديث عن عقبة بن عامرٍ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(إذا رأيت الله يعطي العبد، وهو في ذلك مقيمٌ على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراجٌ. ثم تلا قول الله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ٢٠٢٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٥٤٧، رقم ١٧٣١١، والطبراني في الأوسط، ٩/ ١١٠، وفي الكبير، ١٧/ ٣٣٠.
وحسنه العراقي في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين، ٥/ ٢١٧٢، رقم ٣٤٢٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ١٥٨، رقم ٥٥٦.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٥/ ٨٨.

﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[1].

رابعًا: الأمر بمجاهدتهم:

أمر الله تعالى نبيه بمجاهدة الكافرين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة:٧٣].

ولذلك فإن أصل القتال المشروع هو الجهاد، حتى يكون الدين كله لله تعالى، يقول «ابن تيمية»: «أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن امتنع من هذا قوتل باتفاق المسلمين»[2]، ولذلك كان الأمر بمجاهدة الكفار لأسباب كثيرة منها ما يلي:

١. أن يكون الجهاد تنفيذًا لأمر الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:٨٩].

٢. أن يكون الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة:١٩٣].

والمعنى: (حتى لا يكون شركٌ بالله، وحتى لا يعبد دونه أحدٌ، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان)[3]، وفي الحديث عن أبي موسى، قال: (جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حميةً، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا، فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله عز وجل)[4].

٣. أن يكون دفاعًا عن النفس، وردًّا لاعتداء الكفار، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة:٣٦].

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٥٤٧، وابن جرير في تفسير ٧/ ١١٥. وحسنه العراقي في تخريج الإحياء، ٤/ ١٦٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٦١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢٨/ ٣٥٤.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٣/ ٥٧٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سأل، وهو قائمٌ، عالمًا جالسًا، ١/ ٣٦ رقم ١٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، ٣/ ١٥١٢، رقم ١٩٠٤.

٤. إذا تقابل الصفان، فلا يجوز التولي بل يجب مجاهدة الكفار، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال:١٥-١٦]. والمعنى: (إذا التقى الزحفان في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم من بعض، فلا تولوهم الأدبار بل اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصرة لدين الله)[١].

خامسًا: غنى الله تعالى عنهم:

إن الله تعالى غني عن الخلق أجمعين، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا يضره كفر الكافرين، ولقد جاءت الآيات القرآنية تبين ذلك، وتوضح أن الله تعالى لا يبالي بخلقه إن لم يعبدوه، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامُۢا ٧٧﴾ [الفرقان:٧٧].

والمعنى ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ أي: لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرةً وأصيلًا، لولا إيمانكم)[٢].

بين الله سبحانه وتعالى أن له ملك السماوات والأرض، ولقد أخذ العهد والميثاق على الأمم السابقة أن يعبدوه ولا يكفروا به، فإن كفروا فإنه سبحانه وتعالى غني عن الخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ١٣١﴾ [النساء:١٣١].

والمعنى: (وإن تكفروا كما كفر أهل الكتاب فإن لله ما في السموات وما في الأرض إنه لا يضره كفرهم؛ إذ له كل شيء، كما لم يضره ما فعل أهل الكتاب في مخالفتهم أمره، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ أي: غني عن خلقه، فأخبرنا في هذه الآية بغناه عنا)[٣].

أخبر الله تعالى على لسان بعض الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أنه غني عن جميع الخلائق إنسهم وجنهم، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ [إبراهيم:٨].

والمعنى: إن تكفروا وجميع الخلق من الثقلين نعمته تعالى ولم تشكروها، ﴿فَإِنَّ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣١٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٣٤.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ١٤٩١.

﴿ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم لا يحتاج إليه، ولا يلحقه بذلك نقص ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: مستوجب للحمد لذاته؛ لكثرة إنعامه وإن لم تشكروه، أو يحمده غيركم من الملائكة، وتنطق بنعمه ذرات الكائنات)[1].

إن الله سبحانه وتعالى غني عن جميع خلقه مسلمهم وكافرهم، فكيف حال أهل الكفر والجحود، فإن الله تعالى أرسل الرسل بالبيانات والهدى من أجل الخلق جميعًا، فمنهم من صد وجحد فاستغنى الله عنهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن:٥-٦].

ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

سادسًا: لا يستوي المؤمن والكافر:

فرق الله تعالى بين الظلمات والنور، فالظلمات هي الكفر، والنور هو الإيمان، والكفر هو العمى، والإيمان هو البصر.

قال تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [هود:٢٤].

ولذلك يقول ابن القيم: «فإنه سبحانه ذكر الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون، ثم ذكر المؤمنين، ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه؛ فشبهه بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء، وسمعه أصم عن سماع الأصوات، والفريق الآخر بصير القلب سميعه، كبصير العين وسميع الأذن؛ فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود:٢٤][2].

وأهل الإيمان هم أهل الهداية، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٥].

وأهل الكفر هم أهل الضلال، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ [الروم:٤٤].

وأهل الإيمان هم أهل الفلاح، الذين آمنوا بالله ورسله.

قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وأهل الكفر هم أهل الخسران.

قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ

(١) فتح البيان، صديق خان ٧/ ٨٨.

(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم، ١/ ١١٩.

﴿فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف:٥٣].

وأهل الإيمان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قال تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢].

وأهل الكفر عليهم ذلة ومسكنة وغضب من الله ومن الناس.

قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١].

وتارة أخرى يصف الله تعالى حال أهل الكفر والجحود بأهون البيوت بيت العنكبوت.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت:٤١].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: (الأصنام يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها كيما يكنها، فلم يغن عنها بناؤها شيئًا عند حاجتها إياه، فكما أن بيت العنكبوت لا يدفع عنها بردًا ولا حرًّا، كذلك هذه الأوثان لا تملك لعابديها نفعًا ولا ضًّا ولا خيرًا ولا شرًّا)[1]، وأهل الإيمان يثبتهم الله تعالى في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

(١) انظر الكشف والبيان، الثعلبي، ٧/ ٢٧٩.

الكفر بعد الإيمان

الدخول في الإيمان ثم الخروج منه يطلق على الرِّدَّةِ، والرِّدَّةُ لها ركن أساسي وهو إجراء كلمة الكفر على اللسان بعد الدخول في الإيمان، يقول «الكاساني الحنفي»: «أما ركنها، فهو إجراء كلمة الكفر على اللسان بعد وجود الإيمان، إذ الرِّدَّةُ عبارةٌ عن الرجوع عن الإيمان، فالرجوع عن الإيمان يسمى رِدَّةً في عرف الشرع»[(١)].

وأهل الكفر دائمًا يتربصون بأهل الإيمان ليردوهم عن دينهم، قال الله تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

والمعنى: (لنخرجنك يا شعيب ومن آمن بك من بين أظهرنا، أو لترجعن أنت وهم إلى ديننا، قال شعيب مجيبًا لهم قال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي: أتجبروننا على الخروج من الوطن، أو العودة في ملتكم، ولو كنا كارهين لذلك؟ والاستفهام للإنكار)[(٢)].

وللكفر بعد الإيمان عدة صور في القرآن الكريم منها:

١. الكفر الصريح بعد الدخول في الإيمان والاستمرار عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء:١٣٧].

(يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجًا ولا مخرجًا، ولا طريقًا إلى الهدى)[(٣)].

٢. الاستهزاء بالله أو بشيء من آياته أوبالرسول، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

٣. إنكار السنة، فمن آمن بالله واتبع رسوله، ثم فرق بين القرآن والسنة، فقد كفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

٤. من انتقص من مقدار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب:٥٧].

(١) انظر بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ١٣٤.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني، ص ٤٢٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٣٤.

توبة الكافر

جعل الله تعالى بابًا لا يغلق، أسماه باب التوبة، يغفر فيه الذنوب جميعًا، حتى من أشرك بالله وتاب إليه قبله.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

(هذه الآية عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة في كافر ومؤمن، أي: إن توبة الكافر تمحو ذنوبه، وتوبة العاصي تمحو ذنبه)[١].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة:١٦٠].

والمعنى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾: من الكفر، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾: أسلموا أو أصلحوا الأعمال فيما بينهم وبين ربهم، ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾: ما كتموا، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾: أتجاوز عنهم جميع سيئاتهم وأقبل توبتهم، ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: الرجاع بقلوب عبادي)[٢].

إذا تاب الكافر أو المشرك توبة نصوحة، غفر الله له، والمقصود بالشرك أن يجعل لله ندًّا - أي: مثلًا في عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٥٣٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٤.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشركي العرب؛ لأنهم أشركوا في الإلهية.

قال الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥][٣].

فإذا أحسن العبد بعد إسلامه لم يؤاخذ بفعاله قبل الإسلام، بل تبدل للحسنات.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٧٠].

وفي الحديث عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر[٤].

ومن أدلة مضاعفة الحسنات مكان

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١/ ٩١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله، وعقوبته في الدنيا والآخرة، ٩/ ١٤، رقم ٦٩٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية، ١/ ١١١، رقم ١٢٠.

السيئات التي كانت في الجاهلية بعد إسلام العبد.

في الحديث الصحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إذا أحسن أحدكم إسلامه: فكل حسنةٍ يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، وكل سيئةٍ يعملها تكتب له بمثلها**[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء، ١/ ١٧، رقم ٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنةٍ كتبت، وإذا هم بسيئةٍ لم تكتب، ١/ ١١٧، رقم ١٢٩.

عاقبة الكفر

جاء القرآن الكريم مبينًا لحال أهل الكفر في الدنيا، فبين أنهم لن يهتدوا لاتباعهم الهوى وسيرهم في ركاب من سبقهم من أهل الكفر، فاستحقوا اللعن والخذلان، والضيق والخسران، والعذاب المستأصل لهم في الدنيا، وشدة التنكيل بهم عند الاحتضار، والعذاب الدائم في القبر، والأمر لا ينتهي بعد، فعقاب الآخرة أشد وأبقى.

أولًا: عاقبته في الدنيا:

تعددت أصناف العقوبات للكفار في الدنيا، ولقد ذكرت آيات القرآن الكثير من هذه العقوباتما يلي:

١. حرمانهم من الهداية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء:١٣٧].

٢. اللعن، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة:٨٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ [الأحزاب:٦٤]. ويفهم من الآية أن الله تعالى لعن الكافرين، ومِنْ لَعْنِ اللهِ لهم طردُهُمْ مِنْ رحمته، وأعدَّ لهَم في الآخرة نارًا موقدة شديدة الحرارة[2]

(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص

٣. الغضب الشديد، قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة:٩٠]. والمعنى: (فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا، كفروا به، بغيًا وحسدًا، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله، وغضب عليهم غضبًا بعد غضب، لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم)[1].

٤. الحسرة على إنفاق أموالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦]. وهم يكثرون من الإنفاق لصد الناس عن دين الله تعالى، لكن ينقلب الأمر عليهم فتصبح هذه الأموال حسرة عليهم، يقول:السمرقندي: ﴿لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: ليصرفوا الناس عن دين الله وطاعته، ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ يعني: تكون نفقاتهم عليهم حسرة وندامة، لأنها تكون لهم زيادة العذاب»[2].

٥. الضيق والحرج الشديد، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥]. والمعنى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يوسع قلبه ويفتحه ليقبل الإسلام ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شديد الضيق ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إذا كلف الإيمان لشدته وثقله عليه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ما قصصنا عليك ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[3].

٦. إغواء الشيطان لهم، فإن الشيطان قد سول ـ أي: مناهم وأغواهم ـ حتى يفتح لهم طرق الشر، فاقترفوا الكبائر، وهذا بسبب صدهم عن سبيل الله تعالى، واتباع الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد:٢٥]. والمعنى:

٤٢٧.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٨.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٠.

(٣) الوجيز، الواحدي، ص ٣٧٤.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ أي: إلى ما كانوا عليه من الكفر. ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة. ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهل لهم اقتراف الكبائر، من السول وهو الاسترخاء،وقيل: حملهم على الشهوات من السول وهو التمني)[1].

٧. العذاب المستأصل لهم في الدنيا، والمستأصل ـ أي: العذاب الذي يهلكهم جميعًا ـ فلا يبقيهم، بل يهلكهم بسبب كفرهم ـ وقد كان في الأمم السابقة، قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر:٥]. أي: (فأهلكتهم واستأصلت شأفتهم، فلم أبق منهم ديارًا ولا نافخ نار، وصاروا كأمس الدابر)[2].

٨. إلقاء الرعب في قلوبهم في الحروب، من أشد العقوبات التي تلحق بالكافرين في الدنيا الهزيمة التي تقع عليهم من المسلمين، وعدم تمكينهم من أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال:١٢].

٩. حرمانهم من الاستغفار لهم، قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة:٨٠]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة:١١٣-١١٤].

والمعنى: (عن ابن عباسٍ قوله: م﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وكانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار، ولم ينتهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ يعني:

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٥/ ١٢٣.
(٢) تفسير المراغي ٢٤/ ٤٥.

استغفر له ما كان حيًّا، فلما مات أمسك عن الاستغفار)[1].

١٠. شدة حالهم عند الاحتضار وإهانة الملائكة لهم عند قبض أرواحهم، وتكون الإهانة بضرب الملائكة لأدبارهم ووجوههم لإذلالهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]. والمعنى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكُرَبِهِ الشنيعة -لرأيت أمرًا هائلًا، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيها للخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويذلكم، والجزاء من جنس العمل)[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ [الأنفال:٥٠].

١١. العذاب الدائم في القبر، قال تعالى حكاية عن حال فرعون وجنوده: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر:٤٦].

والمعنى: هم في العذاب المقيم ليل نهار، وتفسير قوله تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ - أي: يعرضون على هذه النار فى الغدو، أي: أول النهار، وفى العشي، أي: آخر النهار.. وهذا العرض على النار هو فى حياتهم البرزخية، الواقعة بين الموت والبعث.. فهم فى هذه الفترة يفزعون بالنار التي سيصيرون إليها يوم القيامة، فيردونها صبحًا وعشيًّا؛ ليروا بأعينهم المنزل الذي سينزلونه يوم القيامة)[3].

ثانيًا: عاقبة الكفر في الآخرة:

كما تعددت أنواع العقوبات للكافرين في الدنيا، تنوعت أيضًا أنواع العقوبات للكافرين في الآخرة، ومن هذه العقوبات المدخرة للكافرين يوم القيامة ما يلي:

١. حبط الأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٩٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٦٤.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ١٢/ ١٢٤١.

﴿ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

٢. الحسرة والندامة، في مشهد من مشاهد يوم القيامة يتمنى الكافر بعد ندمه أن لو كان من المهتدين، وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف، فقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٦-٥٩].

٣. سواد الوجه، ومن العقوبات التي تتعلق بالكافرين في يوم القيامة سواد وجوههم، فيفتضح أمرهم، وينظر إليهم جميع الخلق، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠]. والمعنى ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: بكذبهم وافترائهم. وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: أليست جهنم كافيةً لهم سجنًا وموئلًا، لهم فيها دار الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق)[1].

٤. خروجهم من القبور أذلاء مسرعين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج:٤٣-٤٤].

٥. شخوص أعينهم، أعين الكفار في يوم القيامة لا تقوى على ثباتها، بل تتقلب لعدم قدرتها على الثبات من هول ما ترى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم:٤٢]. والمعنى: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: أبصارهم لا تقر في أماكنها من هول ما ترى)[2].

٦. سوقهم كالبهائم، إن أهل الكفر في يوم القيامة يساقون كالبهائم كما أخبر بذلك القرآن، قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم:٨٦]. والمعنى: ﴿وَنَسُوقُ﴾ يدل على أنهم يساقون إلى النار بإهانةٍ واستخفافٍ كأنهم نعمٌ عطاشٌ تساق إلى الماء، والورد اسمٌ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١١١.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٧٨.

للعطاش، لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش. وحقيقة الورود السير إلى الماء، فسمي به الواردون)[1].

٧. جَرُّهُم بالسلاسل والأغلال، عبر القرآن الكريم عن حال أهل الكفر في يوم القيامة وهم يجرون بالسلاسل إلى نار جهنم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر:٧٠-٧٢]. وفي آية أخرى يبين الله تعالى حال أهل الكفر، حيث يغلون بالسلاسل، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة:٣٠-٣٤].

٨. الخلود الأبدي في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

٩. شرابهم الحميم ـ أي: الماء شديد السخونة الذي يقطع أمعائهم ـ قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]. و(الحميم: هو الماء الذي تناهى في الحر، وفي التفسير: إنه ماء سعرت عليه نيران جهنم منذ خلقت، فإذا قربه الكافر إلى وجهه للشرب شوى وجهه، وسقطت جلدة وجهه وفروة رأسه)[2].

١٠. أكلهم الزقوم، قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ [الصافات:٦٢]. والمعنى(الزقوم: شجرةٌ مسمومة يخرج لها لبنٌ، متى مس جسم أحدٍ تورم فمات. والتزقم: البلع بشدة وجهدٍ للأشياء الكريهة)[3]، وبيان معنى هذه الآية: (قال تعالى مخبرًا عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ والأثيم: أي: في قوله وفعله، وهو الكافر)[4].

١١. ثيابهم من النار، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج:١٩]. والمعنى (نيران تحيط بهم إحاطة الثياب، والحميم: الماء الحار يصهر به ما في بطونهم والجلود، أي: يؤثر من فرط حرارته في باطنهم تأثيره في ظاهرهم، فتذاب به أحشاؤهم كما

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٦٥.

(٢) تفسير القرآن، السمعاني، ٥/ ١٧٤.

(٣) الدر المصون، السمين الحلبي، ٩/ ٣١٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٣٩.

تذاب به جلودهم)[1].

١٢. عدم قبول الفدية منهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة:٣٦]. والفدية إعطاء شيء للإنقاذ[2]، ومعنى الآية(أخبر أن الكافر لو ملك الدنيا كلها ومثلها معها، ثم فدى بذلك نفسه من العذاب لم يقبل منه ذلك الفداء، ولهم عذابٌ أليمٌ)[3].

١٣. الحرمان من النصير، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨]. ويوم الآزفة هو يوم القيامة، وسمي بذلك لقُرْبِهِ، والمعنى ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ محب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: يشفع، وهو مجاز عن الطاعة؛ لأن الطاعة حقيقة لا تكون إلا لمن فوقك، والمراد نفي الشفاعة والطاعة)[4].

موضوعات ذات صلة:

الإسلام، الإيمان، الشكر، النصارى، النفاق، اليهود

(١) انظر أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٦٨.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٧٧.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٦.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٠٥.

اللسان

عناصر الموضوع

مفهوم اللسان	٨
اللسان في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
اللسان آية ونعمة	١٢
اللسان أداة وخاصية	١٩
آفات اللسان	٢٨
دلالة اللسان على قدرة الله وعظمته	٤٢

المجلد التاسع والعشرون

مفهوم اللسان

أولًا: المعنى اللغوي:

اللام والسين والنون: أصل صحيح يدل على طول لطيف غير واضح، في عضو أو غيره، ومن ذلك اللسان[١].

فاللسان: جارحة الكلام، وقد يكنى بها عن الكلمة، فتؤنث حينئذٍ[٢].

ويطلق اللسان على اللغة، والمتكلم عن القوم، وأرض بظهر الكوفة[٣].

وتجمع (اللسان) على ألسن وألسنة ولسن (مثل: كتاب وكتب) فمن ذكر جمعه على (ألسنة) ومن أنث جمعه على (ألسن) والتذكير أكثر، وهو في القرآن كله مذكر[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «اللسان الجارحة وقوتها، فإن العقدة لم تكن في الجارحة، وإنما كانت في قوته التي هي النطق به، ولكل لسان نغمة مخصوصة يميزها السمع، كما أن له صورة مخصوصة يميزها البصر»[٥].

وقال الرازي: «هو الآلة في إعطاء المعارف؛ فوجب أن يكون أشرف الأعضاء»[٦].

وبالنظر إلى التعريفين يتبين أن تعريف الجرجاني أجمع وأشمل؛ إذ إنه يتحدث عن كل ما يستوعبه التعريف المراد من جهة وهو يمنع ما عداه من جهة أخرى.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٤٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٨٥.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٥٨٨.
(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٥٣.
(٥) التعريفات ص٦٢٠.
(٦) مفاتيح الغيب ٦/ ٤٤.

اللسان في الاستعمال القرآني

ورد (اللسان) في القرآن الكريم (٢٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	١٥	﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل:١٠٣]
الجمع	١٠	﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩]

وجاء اللسان في الاستعمال القرآني على أربعة أوجه[٢]:

الأول: اللسان بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ [البلد: ٩]. وهذا كثير.

الثاني: اللغة: ومنه قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. أي: بلغة العرب.

الثالث: الدعاء: ومنه قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]، يعني: في دعاء داود وعيسى.

الرابع: الثناء الحسن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. يعني: ثناءً حسنًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٤٧.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٥٣٤، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤١٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ النطق:

النطق لغة:

هو التكلم بأصواتٍ وحروفٍ تعرف من خلالها المعاني المرادة[١].

النطق اصطلاحًا:

التكلم بما يعرف من خلاله المعاني المراد إيصالها إلى الآخر، وهو مختص بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية[٢].

الصلة بين النطق واللسان:

اللسان هو الآلة الجارحة التي من خلالها يتم النطق فيعرف من خلال ذلك المعاني المراد إيصالها، وعلى هذا فإن اللسان أعم وأشمل؛ لأن النطق مختص بالإنسان، واللسان أعم من ذلك، كما أن اللسان يضاف إلى استعماله في النطق استعمالات أخرى، منها: التذوق، والبلع، وغير ذلك.

٢ القول:

القول لغةً:

ما كان جزءًا من النطق أثناء التحدث، والمقول: اللسان. ورجلٌ قولةٌ وقوالٌ: كثير القول[٣].

القول اصطلاحًا:

هو الكلمة المركبة في القضية المنطوقة، أو المفهوم المركب العقلي في القضية المعقولة[٤].

الصلة بين القول واللسان:

اللسان هو الآلة الجارحة التي من خلالها يقول المتحدث، والنطق والقول أعم منه.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٢٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٥٧.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٢.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٨٠.

٣ الكلام:

الكلام لغةً:

ما أفاد معنىً أثناء التحدث من اللسان، ويقال: قد يكون قلة الكلام كثرةً في القول؛ لأن القول كلمة أفادت معنىً، والكلام أعم من ذلك وأوسع[١].

الكلام اصطلاحًا:

هو ما تضمن كلمتين أو أكثر بالإسناد، ومكان إخراجها من اللسان[٢].

الصلة بين الكلام واللسان:

اللسان هو الآلة الجارحة التي من خلالها يتكلم الإنسان بكلمتين أو أكثر بالإسناد، وإن كان الكلام أعم من القول إلا أن النطق أعم منهما، واللسان أعم من الجميع؛ لأنه الآلة التي من خلالها يكون التحدث من جهة وللسان استعمالات أخرى من جهة أخرى.

٤ الرأس:

الرأس لغةً:

هو ما دل على تجمع وارتفاع، كأن يقال عن أعلى الإنسان: رأسه[٣].

الرأس اصطلاحًا:

ما يجمع فيه الخلقة من إنسان أو غيره من كل المخلوقات، ومجتمع كل شيء رأسه[٤]، وبالتالي فهو يجمع كثيرًا من الجوارح.

الصلة بين الرأس واللسان:

اللسان هو جزء لا يتجزأ من الرأس، بل إن اللسان من أخص خصوص الرأس.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٢٣.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٨٥.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٧١.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٧٣.

اللسان آية ونعمة

أولًا: اللسان والإنسان:

امتن الله جل وعلا على الإنسان بأنه جعل له آلة البيان التي هي اللسان والشفتان؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨- ٩].

وذكر الله ذلك؛ تعليلًا للإنكار والتوبيخ في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد:٥].

أو قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد:٧].

أي: هو غافل عن قدرة الله تعالى وعن علمه المحيط بجميع الكائنات الدال عليهما أنه خلق مشاعر الإدراك التي منها العينين، وخلق آلات الإبانة، وهي اللسان والشفتان، فكيف يكون مفيض العلم على الناس غير قادر وغير عالم بأحوالهم؟!

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

والاستفهام يجوز أن يكون تقريريًا وأن يكون إنكاريًا، والاقتصار على العينين؛ لأنهما أنفع المشاعر، ولأن المعلل إنكار ظنه أن لم يره أحد، وذكر الشفتين مع اللسان؛ لأن الإبانة تحصل بهما معًا، فلا ينطق اللسان بدون الشفتين ولا تنطق الشفتان بدون اللسان.

فمن دقائق القرآن أنه لم يقتصر على اللسان ولا على الشفتين خلاف عادة كلام العرب أن يقتصروا عليه، يقولون: ينطق بلسان فصيح. ويقولون: لم ينطق ببنت شفة أو لم ينبس ببنت شفة؛ لأن المقام مقام استدلال، فجيء فيه بما له مزيد تصوير لخلق آلة النطق، وأعقب ما به اكتساب العلم، وما به الإبانة عن المعلومات، بما يرشد الفكر إلى النظر والبحث؛ وذلك قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠].

فاستكمل الكلام في سياق الآيات أصول التعلم والتعليم، فإن الإنسان خلق محبًا للمعرفة، محبًا للتعريف بمشاعر الإدراك، يكتسب المشاهدات، وهي أصول المعلومات اليقينية، وبالنطق يفيد ما يعلمه لغيره، وبالهدى إلى الخير والشر يميز بين معلوماته ويمحصها[1].

فذكر اللسان ومعه الشفتين للدلالة على أن النطق السليم لا يتأتى إلا بوجودهما معًا، فاللسان لا ينطق نطقًا صحيحًا بدون الشفتين، وهما لا ينطقان بدونه؛ ولهذا جاء في الأثر: «ابن آدم، إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق، وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٢٨.

عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق»[1].

و أيضًا من حكمة اقتران اللسان بالشفتين أنهما العضوان الناطقان، فأما الهواء والحلق والنطع واللهوات والأسنان فمتصلة حركة بعضها مرتبطة بحركة البعض بمنزلة غيرها من أجزاء الحنك، فأما اللسان والشفتان فمنفصلة، ثم الشفتان لما كانا النهاية حملا الحروف الجوامع: الباء والفاء والميم والواو[2].

وذكر الله هذه النعم تذكيرًا للإنسان؛ ليشكرها، فهي ثلاث نعم من أكبر النعم على الإنسان:

النعمة الأولى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد:٨].

يعني: يبصر بهما، ويرى فيهما، وهاتان العينان تؤديان إلى القلب ما نظر إليه الإنسان، فإن نظر نظرة محرمة كان آثمًا، وإن نظر نظرًا يقربه إلى الله كان غانمًا، وإذا نظر إلى ما يباح له فإنه لا يحمد ولا يذم، ما لم يكن هذا النظر مفضيًا إلى محظور شرعي فيكون آثمًا بهذا النظر.

والنعمة الثانية: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٩].

لسانًا ينطق به، وشفتين يضبط بهما النطق، وهذه من نعم الله العظيمة؛ لأنه بهذا اللسان والشفتين يستطيع أن يعبر عما في نفسه، ولولا هذا ما استطاع، فلو كان لا يتكلم فكيف يعبر عما م في قلبه؟ وكيف يعلم الناس بما في نفسه؟ اللهم إلا بالإشارة ،والإشارة متعبة، تتعب المشير وتتعب الذين أشير إليهم، ولكن من نعمة الله أن جعل له لسانًا ناطقًا، وشفتين يضبط بهما النطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا[3].

ثم قال في نعمة الدين: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠].

أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي، فهذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكره على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه.

وهذه الأعضاء الثلاثة -العينان واللسان والشفتان- هي الأعضاء الدائمة الحركة والكسب، إما للإنسان وإما عليه، بخلاف ما يتحرك من داخل فإنه لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، وبخلاف بقية الأعضاء الظاهرة فإن السكون أغلب، وحركتها قليلة بالنسبة إلى هذه[4].

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ١٤/ ١١٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٣، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٥٢١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٤/ ٢٥٤ بتصرف.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم، ص٥.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٤/ ٢٥٤.

ثانيًا: اللسان أداة للبيان والتبليغ:

امتن الله عز وجل على الإنسان بنعمة النطق التي يحصل بها إبانة الإنسان عما يريده، فقال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:٣-٤].

وفسر البيان بالنطق.

ونلحظ أنه لم يقل: وعلمه البيان بالواو؛ لأنه لو عطفه عليه لكان مغايرًا له، أما إذا ترك الحرف العاطف صار قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ كأنه إنما يكون خالقًا للإنسان إذا علمه البيان[1].

فيكون في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:٣-٤]، بيانٌ لنعمتين من نعمه سبحانه، والمراد بالإنسان جنسه، والمراد بالبيان الفهم والنطق والإفصاح عما يريد الإفصاح عنه، بالكلام الذي أداته اللسان.

أي: إنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان على أجمل صورة وأحسن تقويم، ومكنه من الإفصاح عما في نفسه عن طريق المنطق السليم والقول الواضح، كما مكنه من فهم كلام غيره له، فتميز بذلك من الأجناس الأخرى، وصار أهلًا لحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، وأصبح مستعدًّا لتلقي العلوم والخلافة في الأرض[2]. والإنسان لا يقدر على إقامة مصالحه إلا بإفهام غيره أغراضه، وذلك بواسطة اللسان التي هي أداة للكلام، وكل هذه المصالح تفوت بزوال اللسان أو بقطعه.

ويعد النطق فضيلة عظيمة، ويدل على فضله أن في مناظرة آدم عليه السلام مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة إلا بالنطق، حيث قال: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:٣٣][3].

لما كان العلم أفضل الأشياء و كانت آلة إعطائه اللسان وجب أن يكون أشرف الأعضاء[4].

والبيان بيانان كما قال العلماء، وهما الأشهر، وإن كانت ثم أنواع أخر من أنواع البيان، فالبيانان الأشهران أحدهما بيان باللسان، والآخر بيان بالقلم.

وأصل البيان إظهار ما في نفس الشخص للآخرين، وهذا يكون إما عن طريق اللسان، وإما عن طريق القلم، فالامتنان بالتعليم بالقلم ذكر في سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٣٩٨.

(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٤٠٣.

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١١/ ١٥٤.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٣٩٩.

فامتن الله علينا بتعليمنا البيان بكل أنواعه، وبهذا يفارق بنو آدم سائر العجماوات من البهائم وسائر الدواب.

ولأن البيان بالنطق هو أعظم أنواع البيان امتن الله به علينا، مع أنه ثم أنواع أخر من أنواع البيان -كما سبق- كالإشارات وكالنظرات، لكنها ليست بتلك الشهرة؛ إذ كتاب الله يذكر الغالب الأشهر.

ومن المعلوم أن هذه النعمة إنما تكون نعمة حقًا إذا استعمل النطق بما هو خير، أما إذا استعمل بشر فهو وبال على صاحبه، ويكون من فقد هذه النعمة أحسن حالًا منه، فاللسان مع أهميته آلة ذات حدين، حيث يستعمل للخير كالصدق في القول والإرشاد والتعليم والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدفاع عن الحق، كما أنه يستعمل للشر من إيذاء الناس بالشتم أو بالنميمة والدفاع عن الباطل ومساندته[1].

ويأتي أهمية البيان من كونه قوة مؤثرة في تحريك النفوس وتوجيه الناس، يقول صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لسحرًا)[2]. يقول ابن حبان البستي معلقًا على هذا الحديث: «وشبه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا البيان بالسحر؛ إذ الساحر يستميل قلب الناظر إليه بسحره وشعوذته، والفصيح الذرب اللسان يستميل قلوب الناس إليه بحسن فصاحته ونظم كلامه، فالأنفس تكون إليه تائقة، والأعين إليه رامقة»[3].

وما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو موهوم إلا واللسان يتناوله، ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله الضمير يعبر عنه بحق أو باطل، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات والحروف، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذلك سائر الأعضاء، بخلاف اللسان، فإنه رحب الميدان، ليس له نهاية، ولا حد له، فله في الخير مجال رحب، وله في الشر بحر سحب[4].

وأخبر الله أنه أنزل القرآن مصدق بما قبله من الكتب، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ [الأحقاف:١٢].

وزاده ثناء بكونه ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: باللغة العربية، فإنها أفصح اللغات، وأنفذها في نفوس السامعين، وأحب اللغات للناس، فإنها أشرف وأبلغ وأفصح من اللغة التي جاء بها كتاب موسى عليه السلام، ومن اللغة التي تكلم بها عيسى عليه السلام،

(١) انظر: موسوعة الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤/ ٥٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب إن من البيان سحرًا، رقم ٥٤٣٤.
(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٢١٩.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٣٩٩.

ودونها أتباعه أصحاب الأناجيل.

«لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

فوصفه سبحانه بأبلغ ما يوصف به الكلام وهو البيان... فلما خص سبحانه اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه»[(١)].

وأدمج لفظ (لسانًا) للدلالة على أن المراد بعربيته عربية ألفاظه لا عربية أخلاقه وتعاليمه؛ لأن أخلاق العرب يومئذٍ مختلطة من محاسن ومساوئ، فلما جاء الإسلام نفى عنها المساوئ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[(٢)].

ولا شك أن اللسان العربي مختص بأنواع الفصاحة والجزالة التي لا توجد في سائر الألسنة، قال بعض الحكماء: حكمة الروم في أدمغتهم؛ لأنهم يقدرون على التركيبات العجيبة، وحكمة الهند في أوهامهم، وحكمة اليونان في أفئدتهم؛ لكثرة ما لهم من المباحث العقلية، وحكمة العرب في ألسنتهم، بحلاوة ألفاظهم وعذوبة عباراتهم[(٣)].

والمقصود أن الله تعالى خص العرب بفهم القرآن ومعرفته، وفضلهم على غيرهم بعلم أخباره، ومعاني ألفاظه، وخصوصه وعمومه، ومحكمه ومبهمه، وخاطبهم بما عقلوه وعلموه ولم يجهلوه، وقبلوه ولم يدفعوه، وعرفوه فلم ينكروه؛ إذ كانوا قبل نزوله عليهم يتعاملون بمثل ذلك في خطابهم ولغاتهم وكلامهم[(٤)].

واللسان وسيلة لتبليغ الخير للناس، ودعوتهم إلى الله، وقد ذكر جل وعلا أنه يسر هذا القرآن بلسان هذا النبي العربي الكريم؛ ليبشر به المتقين، وينذر به الخصوم الألداء، وهم الكفرة، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧].

وقال: ﴿إِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨].

يخبر تعالى عن نعمته تعالى، وأن الله يسر هذا القرآن الكريم بلسان النبي صلى الله عليه وسلم، يسر ألفاظه ومعانيه؛ ليحصل المقصود منه والانتفاع به ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب

(١) المزهر، السيوطي ١/ ٢٥٤.
(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ١٠/ ١٩١، رقم ٢٠٥٧١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٤٥.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٤٩.
(٤) الحيدة، الكناني ص ١٢٣.

الموجبة للبشارة ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم فتنذرهم، فتقوم عليهم الحجة، وتتبين لهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة[1].

وفي قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ إشارة إلى أهمية اللسان الذي هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كذلك لسان قومه، يفهمون به ما يقوله لهم، ويحيط هو كذلك علمًا بما يقولون له، مما يفهم منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد بلغ القمة في فصاحة الكلام ووضوح الخطاب وقوة الحجة.

فيكون المراد باللسان في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ اللغة، أي: بلغتك، وهي العربية، كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

فإن نزول القرآن بأفضل اللغات وأفصحها هو من أسباب فضله على غيره من الكتب، وتسهيل حفظه ما لم يسهل مثله لغيره من الكتب[2].

والباء في قوله: (بلسانك) للسببية، أي: بسبب لغتك، أي: العربية، وذكر قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ لبيان الحكمة في إنزال القرآن باللسان العربي، وفي إضافة اللسان إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم عناية بجانبه، وتعظيم له، وإلا فاللسان لسان العرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤].

وإطلاق اللسان وهو اسم الجارحة المعروفة في الفم على اللغة مجاز شائع؛ لأن أهم ما يستعمل فيه اللسان الكلام[3].

وفي الآية دلالة على دور اللسان في الدعوة والتبليغ، لأن الله بين أنه يسر ذلك بلسانه ليبشر به وينذر، ولولا أنه تعالى نقل قصصهم إلى اللغة العربية لما تيسر ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم . ويرجع سبب ذلك التيسير كونه بأفصح اللغات، وكونه على لسان أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم ؛ فلذلك كان تسببه في حصول تذكرهم تسببًا قريبًا لو لم يكونوا في شك يلعبون[4].

وإذ كان القرآن كلامًا فمعنى تيسيره يرجع إلى تيسير ما يراد من الكلام، وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلم به، دون كلفة على السامع، ولا إغلاق، كما يقولون: يدخل للأذن بلا إذن. وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني: فأما من جانب الألفاظ فذلك

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ١٧٦.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢٥/ ٣٢١.
(٤) المصدر السابق.

بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي: فصاحة الكلام وانتظام مجموعها بحيث يخف حفظها على الألسنة.

وأما من جانب المعاني فبوضوح انتزاعها من التراكيب، ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له، ويتولد معان من معان أخر، كلما كرر المتدبر تدبره في فهمها ووسائل ذلك لا يحيط بها الوصف[1].

وفي الآية الأخرى قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلًا واضحًا بينًا جليًّا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها، وعلل هذا التيسير بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهمون ويعملون[2].

والمقصود أن من وسائل الدعوة الوسيلة اللسانية، وهي أبرز وسيلة دعوية يقوم بها الرجل، وتقوم بها المرأة، واستخدام اللسان في المجال الدعوي إما عن طريق الدرس، وإما عن طريق الخطابة، وإما عن طريق المحاضرة، وإما عن طريق الدعوة الفردية، وهناك طرق كثيرة جدًا، وممكن أن يستفيد المسلم مما أعطاه الله سبحانه وتعالى،ويحاول قدر جهده أن يستثمر هذا اللسان الذي وهبه الله سبحانه وتعالى في مجال الدعوة، وهناك مجالات عدة للاستفادة من الجانب اللساني ليس المقصود بسطها في هذا الموضع.

(١) المصدر السابق ٢٧/ ١٨٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٦٣.

اللسان أداة وخاصية

أولًا: اللسان بين الصدق والكذب:

ذكر الله تعالى صفة الكذب في اللسان، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦].

وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢].

فقال في الآية الأولى: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ وقال في الثانية: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ﴾ والوصف: ذكر الشيء بحليته ونعته، والصفة: الحالة التي عليها الشيء من حليته ونعته، كالزنة التي هي قدر الشيء، والوصف قد يكون حقًا وباطلًا، فمن الباطل قوله في هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل:١١٦].

تنبيهًا على كون ما يذكرونه كذبًا[١]. ومعنى وصف ألسنتهم الكذب قولها للكذب صريحًا لا خفاء به، وتصويرها له بصورة مستحسنة، وتزيينها له في المسامع، كأن ألسنتهم لكونها منشأ للكذب ومنبعًا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس، ويعرفه أوضح وصف وأبين تعريف، على طريقة الاستعارة بالكناية، كما يقال: وجهه يصف الجمال، وعينه تصف السحر[٢].

قال الألوسي: وقد بولغ في الآية من حيث جعل قولهم كذبًا، ثم جعل اللسان الناطقة بتلك المقالة ينبوعه مصورة إياه التي هو عليها، وهو من باب الاستعارة بالكناية، وجعله بعضهم من باب الإسناد المجازي، نحو: نهاره صائم، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب صارت كأنها حقيقة ومنبعه الذي يعرف منه حتى كأنه يصفه ويعرفه[٣].

وقرئ: (الكذب) بالجر صفة ﴿لِمَا﴾ مع مدخولها، كأنه قيل: لوصفها الكذب، بمعنى: الكاذب، كقوله تعالى: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨].

أو على البدل من (ما): أي: ولا تقولوا الكذب الذي تصفه ألسنتكم هذا حلال وهذا حرام، والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة[٤].

وقرئ: (الكذب) بضم الكاف والذال

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥١٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٤٧.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ٣٢٧.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٤٧، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٧.

والباء، جمع: كذوب، على أنه نعت للألسنة؛ كأنه قال: «ألسنةٌ كذبٌ». وقرئ: بالنصب على الشتم، أو بمعنى الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب، من قولهم: كذب كذبًا[1].

و(ما) في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مصدرية، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم[2]. أو موصولة، والعائد محذوف، أي: ولا تقولوا في شأن الذي تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة: هذا حلال وهذا حرام، من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر، فضلًا عن استناده إلى وحي أو قياس مبني عليه، بل مجرد قول باللسان[3].

ويصح أن يكون لفظ الكذب مفعولًا لـ(تصف) وأن يكون قوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ مفعولًا لـ(تقولوا) وعلى هذا الوجه يكون في وصف ألسنتهم الكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب، حتى لكأن ماهية الكذب كانت مجهولة، فكشفت عنها ألسنتهم ووضحتها ووصفتها ونعتتها بالنعوت التي جلتها.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته، كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر[4].

واللام في قوله: ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ هي لام الصيرورة والعاقبة، أو هي -كما يقول صاحب الكشاف- من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض[5]؛ لأن ما صدر عنهم من تحليل وتحريم دون أن يأذن به الله ليس الغرض منه افتراء الكذب فحسب، بل هناك أغراض أخرى كظهورهم بمظهر أولي العلم، وكحبهم للتباهي والتفاخر.

وقوله: ﴿لِّتَفْتَرُوا﴾ من الافتراء، وهو أشنع أنواع الكذب؛ لأنه اختلاق للكذب الذي لا يستند إلى شيء من الواقع، أي: ولا تقولوا لما تحكيه ألسنتكم من أقوال وأحكام لا صحة لها: هذا حلال وهذا حرام؛ لتنسبوا ذلك إلى الله تعالى كذبًا وزورًا.

وقد حكى الله تعالى عن هؤلاء الجاهلين في آيات كثيرة أنهم حللوا وحرموا أشياء من عند أنفسهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ

(١) انظر: المصادر السابقة.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٩.
(٣) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٢٥٧٨.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٠٧.
(٥) المصدر السابق.

﴿لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

قال ابن كثير: ويدخل في الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم الله أو حرم شيئًا مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه[(١)].

والمقصود أن الله جعل من أنواع كذب اللسان قولها: هذا حلال وهذا حرام، وهو من أعظم أنواع الكذب؛ لأنه من القول على الله بغير علم؛ لأن الملك والحكم لله سبحانه وتعالى، وكذلك الحكم الشرعي لله ليس لأحد، فالله تعالى هو الذي يحلل ويحرم ويوجب، وليس أحد من الخلق له الفضل في ذلك الإيجاب والتحليل والتحريم؛ ولهذا نهى الله عباده أن يصفوا شيئًا بالحلال والحرام بدون إذن. ففي الآية دليل واضح على حرمة القول بدون علم، وكذا الاعتقاد والعمل، فلا يحل لأحد أن يعتقد أو يقول أو يعمل بدون علم شرعي قد تمكن من معرفته.

وتتناول هذه الآية بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما يقع كثيرًا من المؤثرين للرأي المقدمين له على الرواية، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة، وإنهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاويهم، ويمنعوا من جهالتهم، فإنهم أفتوا بغير علم من الله، ولا هدى ولا كتاب منير، فضلوا وأضلوا[(٢)].

وهكذا أضاف الله الكذب إلى اللسان، فقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

وهذا تصوير بليغ لما جبلوا عليه من كذب صريح وبهتان واضح، ومعنى: ﴿وَتَصِفُ﴾ تقول وتذكر بشرح وبيان وتفصيل، حتى لكأنها تذكر أوصاف الشيء.

والمعنى: أن هؤلاء المشركين يجعلون لله تعالى ما يكرهونه من الأولاد والأموال والشركاء، وتنطق ألسنتهم بالكذب نطقًا واضحًا صريحًا؛ إذ زعموا أنه إن كانت الآخرة حقًا فسيكون لهم فيها أحسن نصيب.

والمقصود أن من آفات اللسان الكذب، وأعظمه الكذب على الله عز وجل وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، كما حكى الله في هذه الآية، وكما قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تكذبوا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٩.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٨.

علي، فإنه من كذب علي فليلج النار)[1].

لهذا يجب التثبت فيما يحكيه المرء، وعدم التحديث بكل ما سمع إذا لم يظن صحته، كما قال صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع)[2].

وكان السلف الصالح رضوان الله عليهم مع سعة علمهم وفقههم لا يكثرون من إطلاق عبارات التحليل والتحريم، وهذا من شدة ورعهم ومحاسبتهم لأنفسهم، يقول الإمام مالك رحمه الله: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ولا أدركت أحدًا أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام، ما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره هذا، ونرى هذا حسنًا، ونتقي هذا، ولا نرى هذا، ولا يقولون: هذا حلال ولا حرام[3].

فعلى المسلم أن يعود لسانه الصدق، بل لا بد أن يكون صادقًا في قوله وعمله وحاله، فالصدق يكون في هذه الثلاثة: فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها، والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد، والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة، فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صديقيته؛ ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ذروة سنام الصديقية، سمي الصديق على الإطلاق، والصديق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلى مراتب الصدق مرتبة الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول، مع كمال الإخلاص للمرسل[4].

وقد قيل: إن في اللسان أكثر من عشرين آفة، وخصلة واحدة نافعة، وهي الصدق، وبها ينتفي عن الإنسان جميع الخصال الذميمة، وعن بدنه جميع الأفعال القبيحة، فإذا حجبه بالصدق فقد كملت له التقوى ونال المرتبة القصوى[5].

وقد ذكر الله من صفات اللسان الصدق، فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٠٦، ومسلم في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ١.

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم ٧.

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر ٣/ ٣٨٢.

(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٢١.

(٥) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١١٢.

أي: ثناءً حسنًا باقيًا في أهل الأديان، فكل أهل دين يتلونهم ويثنون عليهم ويفتخرون بهم؛ استجابة لدعوته بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

أي: فأعطني ذلك، فكل أهل دين يتولونه، ويثنون عليه.

أو يكون المعنى: واجعلني على طريق قويم، وحال مرضي، يقتدى بي فيهما، ويحمد أثري بعد موتي، وقال بعضهم: سأل أن يجعله صالحًا بحيث إذا أثنى عليه من بعده لم يكن كاذبًا. وقيل: سأل الإمامة في التوحيد والدين، وقد أجيب بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[البقرة:١٢٤][(١)].

وخص بعضهم لسان الصدق بما يتلى في التشهد من قول: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، والعموم أولى[(٢)].

وقد تحقق له جميع ذلك، وخصوصًا في هذه الأمة، حتى إنه مذكور ومقرون في كل صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

فيكون المراد بلسان الصدق هنا: الكلام، من إطلاق اسم الآلة على ما يتقوم بها. ووضع اللسان موضع القول على الاستعارة؛ لأن القول يكنى بها[(٣)].

والمقصود أنه لسان صدق؛ لأنه ثناء بالصدق عليه من سائر الأمم، وليس ثناء بالكذب، فهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق، وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع، وأنه ثناء بحق لا بباطل.

ولما كان الصدق باللسان وهو محله أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقًا، وعبر به عنه، فإن اللسان يراد به ثلاثة معان، ومنها هذا الذي هو (الثناء)[(٤)]. وهو المراد بـ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٦]، في الآية الأخرى، أي: الذكر الجميل الرفيع لهم في الآخرة.

واللام في قوله: (لي) تقتضي أن الذكر الحسن لأجله، فهو ذكره بخير، وإضافة (لسان) إلى (صدق) من إضافة الموصوف إلى الصفة، ففيه مبالغة الوصف بالمصدر، أي: لسانًا صادقًا، والصدق هنا كناية عن المحبوب المرغوب فيه؛ لأنه يرغب في تحققه ووقوعه في نفس الأمر[(٥)].

و﴿عَلِيّٗا﴾ حال من اللسان، وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو مجازًا؛ لشرف ذلك الثناء، أو للدلالة على أنهم أحقاء لما يثنون عليهم، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل[(٦)].

وقد رتب الله جزاء إبراهيم على نبذه

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٣٦.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٩.
(٣) انظر: أضواء البيان ١٧/ ٢٥٣.
(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٢٣.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٠٢.
(٦) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٤٦٧.

أهل الشرك ترتيبًا بديعًا؛ إذ جوزي بنعمة الدنيا، وهي العقب الشريف، ونعمة الآخرة وهي الرحمة، وبأثر تينك النعمتين وهو لسان الصدق؛ إذ لا يذكر به إلا من حصل النعمتين[1]، وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما يعبر باليد عما يوجد باليد، وهو العطية[2].

وقيل: إذا أريد ذلك فلا بد من تقدير مضاف في كلامه عليه السلام، أي: اجعل لي صاحب لسان صدق في الآخرين، أو جعل اللسان مجازًا عن الداعي بإطلاق الجزء على الكل؛ لأن الدعوة باللسان، فكأنه قال: اجعل لي داعيًا إلى الحق صادقًا في الآخرين، ولا يخفى أن فيما ذكرناه سابقًا غنى عن ذلك كله[3].

ثانيًا: اللسان بين الفصاحة والعي:

خلق الله الألسنة متفاوتة من حيث الفصاحة والعي، وقد أخبر الله تعالى بهذا التفاوت، حيث قال حاكيًا قول موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:٣٤].

وقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه:٢٧].

وقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

فنلحظ من الآيات السابقة أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى سلامة آلة التبليغ وهي اللسان، بأن يرزقه فصاحة التعبير، والمقدرة على أداء مراده بأوضح عبارة، فشبه حبسة اللسان بالعقدة في الحبل أو الخيط ونحوهما؛ لأنها تمنع سرعة استعماله.

فالعقدة: موضع ربط بعض الخيط، أو الحبل ببعض آخر منه، وهي بزنة فعلة، بمعنى مفعول كقصة وغرفة، أطلقت على عسر النطق بالكلام أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة؛ لعدم تصرف اللسان عند النطق بالكلمة، وهي استعارة مصرحة، ويقال لها: حبسة، يقال: عقد اللسان كفرح فهو أعقد إذا كان لا يبين الكلام، واستعار لإزالتها فعل (الحل) المناسب للعقدة على طريقة الاستعارة المكنية[4].

والسبب من سؤال موسى عليه السلام من الله أن يحلل عقدة من لسانه أنه كان في لسانه حبسة إما في أصل الخلقة وإما لأنه وضع الجمرة في فيه[5].

وموسى عليه السلام سأل الله ذلك لئلا يقع خلل في أداء الوحي، وقيل: لئلا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٠٧.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٨٧.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٢٥٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٣٧.
(٥) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ٣٨٢.

يستخف بكلامه فينفروا عنه ولا يلتفتوا إليه، أو: لإظهار المعجزة، كما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزًا في حقه، فكذا إطلاق لسان موسى عليه السلام معجز في حقه[1].

أو سأل ذلك طلبًا للسهولة؛ لأن إيراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون في جبروته وكبره عسير جدًا، فإذا انضم إليه تعقد اللسان بلغ العسر إلى النهاية، فسأل ربه إزالة تلك العقدة تخفيفًا وتسهيلًا.

ولما قال: ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ بتنكير العقدة، ولم يقل: واحلل عقدة لساني دل على أنه طلب حل بعضها؛ لأجل أن يفهم عنه فهمًا جيدًا؛ ولذا قال: ﴿يَفْقَهُوا﴾ أي: يفهموا ﴿قَوْلِي﴾ عند تبليغ الرسالة، ولم يطلب الفصاحة الكاملة، و﴿مِّن لِّسَانِي﴾ صفة للعقدة، كأنه قيل: عقدة من عقد لساني[2].

فهو على هذا لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل حل عقدة تمنع الإفهام، فخفف بعضها لدعائه لا جميعها؛ ولذلك نكرها ووصفها بقوله: ﴿مِّن لِّسَانِي﴾ أي: عقدة كائنة من عقد لساني[3].

وقد قيل: إنه لم يكن هذا العي في موسى عليه السلام عيبًا؛ لأنه لم يكن مقام موسى يومئذٍ مقام خطابة ولا تعليم حتى تكون قلة الفصاحة نقصًا في عمله، ولكنه مقام استدلال وحجة، فيكفي أن يكون قادرًا على إبلاغ مراده، ولو بصعوبة، وقد أزال الله عنه ذلك حين تفرغ لدعوة بني إسرائيل، كما قال الله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦].

والمقصود أن الألسنة تتفاوت من حيث الفصاحة والبلاغة؛ ولهذا هارون كان أفصح لسانًا من موسى عليهما السلام ؛ لذا طلب إرساله معه لتميزه بفصاحة اللسان[4].

ولما كان العي في اللسان يوهم نقصًا نفاه الله عن زكريا عليه السلام، فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠].

فقال: (سويًا) أي: ليس المانع له من كلام الناس بكم طرأ له، أو آفة تمنعه من ذلك، إنما المانع له هو الله، وهو صحيح لا علة فيه، فانتفاء التكلم عنه لا لبكم ولا مرض؛ لأن قوله: ﴿سَوِيًّا﴾ حال من فاعل (تكلم)، مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الإعجاز وخرق العادة لا لاعتلال اللسان بمرض، أي: يتعذر عليك تكليمهم ولا تطيقه في حال كونك سوي الخلق سليم الجوارح، ما بك شائبة بكم، ولا خرس، وهذا ما عليه

(١) السراج المنير، الشربيني ٥/ ٤١٣.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٣٨.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٦.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٧١، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٦٩، السراج المنير، الشربيني ١/ ٢١٥.

الجمهور، ويشهد له قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١][1].

فأمره بالذكر ولو كان لعلة لما استطاع أن يذكر الله تعالى.

ومعنى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ [مريم:١٠] أي: اجعل لي علامة ودلالة على حمل امرأتي؛ لأن البشارة بالولد وقعت مطلقة، فلم يعرف وقتها بمجرد البشارة، فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع.

فجعل الله له آية وهي تعذر الكلام عليه مع القوم على وجه المخاطبة مع أنه كان متمكنًا من ذكر الله ومن قراءة التوراة؛ لأن اعتلال اللسان مطلقًا قد يكون لمرضٍ وقد يكون من فعل الله، فلا يعرف زكريا عليه السلام أن ذلك الاعتلال معجزٌ إلا إذا عرف أنه ليس لمرض بل لمحض فعل الله تعالى مع سلامة الآلات، فلما اعتل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله تعالى وقراءة التوراة علم بالضرورة أن ذلك الاعتلال ليس لعلةٍ ومرضٍ بل هو لمحض فعل الله، فيتحقق كونه آية ومعجزة، ومما يقوي ذلك قوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ [مريم:١٠].

خص ذلك بالتكلم مع الناس؛ وهذا يدل بطريق المفهوم أنه كان قادرًا على التكلم مع غير الناس[2].

والمقصود أن من عيوب اللسان العي، والمراد به عجز اللسان وتعبه عن الكلام عند المخاصمة، فالعي مذموم عند بلغاء العرب وخطبائهم، وقد قال شاعرهم[3]:

أعذني ربي من حصر وعيٍّ
ومن نفس أعالجها علاجا

والحصر والعي متقاربا المعنى، فإن قال قائل: كيف يكون عي اللسان عيبًا وقد جاء مدح العي في قوله النبي صلى الله عليه وسلم: (الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق)؟![4].

والجواب: أن هذا مع أنه في الظاهر عي، وصاحبه لا يسترسل في الكلام كأن معلوماته ليست جيدة، أو كأنه ليس وقاد الذهن ولا سيال اللسان، لكن في الواقع إنما حجزه عن ذلك الخوف أن يقول على الله بلا علم؛ لهذا صار العي إيمانًا بهذا الاعتبار،

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٩.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١١/ ٤٣.

(٣) البيت للنمر بن تولب.
انظر: البيان والتبيين، الجاحظ ١/ ٢٧، عيون الأخبار، ابن قتيبة ٢/ ١٨٥.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٦٤٩، رقم ٢٢٣١٢، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في العي، ٤/ ٣٧٥، رقم ٢٠٢٧.
قال الترمذي: حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦١٠، رقم ٣٢٠١.

وهو محمود، وهو شعبة من الإيمان باعتبار أن خوفه من الغلط وخوفه أن يقول على الله بلا علم جعله يكون كأنه ذو عي، ينقطع في كلامه، ولا يتواصل كلامه؛ لأجل تحرزه وتحرسه من أن ينطق بشيء يغلط فيه على الشريعة، أو أن يقول على الله بلا علم.

ومما يظهر فضل اللسان والنطق أن الله ذم قومًا بوصفهم بالبكم، فقال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨].

والبكم: جمع أبكم، وهو الذي لا ينطق. فالبكم: آفة في اللسان تمنع معها اعتماده على مواضع الحروف، أو الأبكم الذي يولد أخرس، أو المسلوب الفؤاد الذي لا يعي شيئًا ولا يفهمه، أو الذي جمع الخرس وذهاب الفؤاد[1].

والبكم -كما قال أهل العلم- نوعان: بكم القلب، وبكم اللسان، كما أن النطق نطقان، نطق القلب، ونطق اللسان، وأشدهما بكم القلب، كما أن عماه وصممه أشد من عمى العين وصمم الأذن، فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق، ولا تنطق به ألسنتهم، والعلم -كما هو معلوم- يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب، من سمعه وبصره وقلبه، وقد سدت عليهم هذه الأبواب الثلاثة، فسد السمع بالصمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم[2].

وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعي ختمًا عليه، فقال[3]:

ختم الإله على لسان عذافرٍ
ختمًا فليس على الكلام بقادر
وإذا أراد النطق خلت لسانه
لحمًا يحركه لصقرٍ ناقر

(١) تفسير القرآن، العز بن عبد السلام ١/ ٢٣.

(٢) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص١٦٥.

(٣) انظر: البصائر والذخائر، التوحيدي ٤/ ١٩٠، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، الزمخشري ٥/ ٢٠٩.

آفات اللسان

للسان آفات بينها القرآن الكريم نوضحها فيما يأتي:

أولًا: النطق بكلمات الكفر:

من أعظم آفات اللسان النطق بكلمات الكفر من غير إكراهٍ.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[التوبة:٧٤].

وكلمة الكفر: الكلام الدال عليه، وأصل الكلمة اللفظ الواحد الذي يتركب منه، ومن مثله الكلام المفيد، وتطلق الكلمة على الكلام إذا كان كلامًا جامعًا موجزًا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون:١٠٠].

وفي الحديث: (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[(١)].

فكلمة الكفر جنس لكل كلام فيه سب أو استهزاء أو تكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم، كما أطلقت كلمة الإسلام على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

فالكلمات الصادرة عنهم على اختلافها ما هي إلا أفراد من هذا الجنس، كما دل عليه إسناد القول إلى ضمير جماعة المنافقين.

ولم تبين هذه الآية ما هي هذه الكلمة التي قالوها وكفروا بها؟ ولم تذكر إلا أنها كلمة صدرت من بعض المنافقين تدل على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قيل: إن الآية نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول لقوله الذي حكاه الله عنه بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[المنافقون:٨].

فسعى به رجل من المسلمين، فأرسل إليه رسول الله فسأله، فجعل يحلف بالله ما قال ذلك[(٢)].

وعلى هذه الرواية يكون إسناد القول إلى ضمير جمع كناية عن إخفاء اسم القائل، كما يقال: ما بال أقوام يفعلون كذا وقد فعله واحد، أو باعتبار قول واحد وسماع البقية فجعلوا مشاركين في التبعة، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانًا، وإنما قتله واحد من القبيلة، وعلى فرض صحة وقوع كلمة من واحد معين فذلك لا يقتضي أنه لم يشاركه فيها غيره؛ لأنهم كانوا يتآمرون على ما يختلقونه، وكان ما يصدر من واحد منهم يتلقفه جلساؤه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر، ١٧٦٨/٤، رقم ٢٢٥٦.

(٢) ذكر سبب النزول هذا الجصاص في أحكام القرآن ١٨٤/٣، والسمعاني في تفسيره ٣٢٩/٢، وابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل ٣٤٣/١.

وأصحابه ويشاركونه فيه[1].

ومعنى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا﴾ [التوبة:٧٤].

أي: إن المنافقين إذا قالوا قولًا فيه الاستهزاء بالدين وبالرسول وبلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغه شيء من ذلك جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا، وكلما ظهر شيء منهم يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين، عصمة لأموالهم ودمائهم.

وقد حكى القرآن كثيرًا من أيمانهم الكاذبة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦].

وقوله سبحانه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢].

وأتى بصيغة الفعل المضارع (يحلفون)؛ لاستحضار الصورة، أو للدلالة على تكرير الفعل.

فلما نطقت ألسنتهم بكلمة الكفر، وحلفوا أنهم ما قالوا قال تعالى مكذبًا لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤].

فإسلامهم السابق -وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر- ينقضه كلامهم الأخير ويدخلهم بالكفر.

وقال: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ولم يقل: بعد إيمانهم؛ لأنهم يقولون بألسنتهم: آمنا، ولم يدخل الإيمان إلى قلوبهم.

ومما يدل أيضًا على أن من أعظم آفات اللسان النطق بالكفر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

ولي اللسان أي: تحريف الكلام في النطق به أو في معانيه، أي: يقلبونها ويحرفونها، كما قال في موطن آخر: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النساء:٤٦].

فلي اللسان شبيه بالتشدق والتنطع والتكلف وذلك مذموم، فعبر الله عن قراءتهم لذلك الكتاب الباطل بلي اللسان ذمًا لهم، ولم يعبر عنها بالقراءة، والعرب تفرق بين ألفاظ المدح والذم في الشيء الواحد، فيقولون في المدح: خطيب مصقع، وفي الذم: مكثارٌ، ثرثارٌ، فالمراد بقوله: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي: بقراءة ذلك الكتاب الباطل، فيعمدون إلى اللفظة فيحرفونها عن حركات الإعراب تحريفًا يتغير به المعنى، وهذا كثيرٌ في لسان العرب، فلا يبعد مثله في العبرانية، فكانوا يفعلون ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد صلى

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٨٥.

الله عليه وسلم في التوراة[1].

والمراد تحريفهم كآية الرجم، ونعت محمد صلى الله عليه وسلم، ونحو ذلك، والضمير في (لتحسبوه) يرجع إلى ما دل عليه ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو المحرف، ويجوز أن يراد يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب، أي: التوراة، ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وليس هو من التوراة[2].

والباء في قوله: ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ صلة أو للآلة أو للظرفية أو للملابسة، والجار والمجرور حال من الألسنة، أي: ملتبسة بالكتاب[3].

ومن نطق اللسان بالكفر ما حكاه الله عن اليهود والنصارى حيث قال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

فنسبة الولد إلى الله تعالى كفر بجلاله وكماله، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: ليس له من الواقع شيء؛ إذ ليس لله تعالى ولد، وكيف يكون له ولد ولم تكن له زوجة؟! وإنما ذلك قولهم بأفواههم فقط.

و ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ حال من القول، والمراد أنه قول لا يعدو الوجود في اللسان، وليس له ما يحققه في الواقع، وهذا كناية عن كونه كذبًا، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥].

وفي هذا أيضًا إلزام لهم بهذا القول، وسد باب تنصلهم منه؛ إذ هو إقرارهم بأفواههم وصريح كلامهم.

فإن قيل: من المعلوم أن كل قول إنما يقال بالفم فلم قال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؟ وما معنى تخصيصهم بهذه الصفة؟ فالجواب: لما كان قولهم لا يعضده برهان وإنما هو لفظ يفوهون به، وهو فارغ من معنى معتبر؛ لأن إثبات الولد للإله قول باطل، لأنه منزه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة، اعتبر قولهم هذا مجرد قول بالأفواه فقط، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٧].

وقد يكون المراد: أنهم يصرحون بهذا المذهب ولا يخفونه ألبتة، أو يكون المعنى: أنهم دعوا الخلق إلى هذه المقالة حتى وقعت هذه المقالة في الأفواه والألسنة، والمراد مبالغتهم في دعوة الخلق إلى هذا المذهب.

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ١٧٥.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٦٢.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٠١.

قال أهل المعاني: إن الله سبحانه لم يذكر قولًا مقرونًا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولًا زورًا؛ كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٦٧].

وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[الفتح:١١][(١)].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن من أخبر عن كفر غيره الذي لا يجوز لأحد أن يبتدئ به لا حرج عليه؛ لأنه إنما ينطق به على سبيل الاستعظام له والرد عليه، ولو شاء ربنا ما تكلم به أحد، فإذا أمكن من إطلاق الألسنة به فقد أذن بالإخبار عنه، على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والرد عليه بالحجة»[(٢)].

ومن نطق اللسان بالكفر ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[إبراهيم: ٩]وضمائر (ردوا) و(أيديهم) و(أفواههم) عائد جميعها إلى قوم نوح والمعطوفات عليه، ومعنى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ يحتمل عدة وجوه، أنهاها في الكشاف إلى سبعة[(٣)]، وفي بعضها بعد، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل؛ كراهية أن تظهر دواخل أفواههم، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل.

والرد مستعمل في معنى تكرير جعل الأيدي في الأفواه، كما أشار إليه الراغب[(٤)]. أي: وضعوا أيديهم على الأفواه ثم أزالوها، ثم أعادوا وضعها، فتلك الإعادة رد.

وحرف (في) للظرفية المجازية، والمراد بها التمكين، فهي بمعنى (على) كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢]، فيكون معنى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: جعلوا أيديهم على أفواههم، وعطفه بفاء التعقيب مشيرًا إلى أنهم بادروا برد أيديهم في أفواههم بفور تلقيهم دعوة رسلهم، فيقتضي أن يكون رد الأيدي في الأفواه تمثيلًا لحال المتعجب المستهزئ، فالكلام تمثيل للحالة المعتادة، وليس المراد حقيقته؛ لأن وقوعه خبرًا عن الأمم مع اختلاف عوائدهم وإشاراتهم واختلاف الأفراد في حركاتهم عند التعجب قرينة على أنه ما أريد به إلا بيان عربي[(٥)].

أو يكون معنى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١١٨.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢٦٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٤٢.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٤٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٦٧.

﴿أَفْوَٰهِهِمْ﴾ عضوها غيظًا وضجرًا مما جاءت به الرسل، كقوله: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران:١١٩].

أو ضحكًا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به، من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره، تيئيسا لهم من التصديق، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ وهذا قول قوي، أو يكون المراد أنهم وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو يكون المراد: ردوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون[1].

ومن نطق اللسان بالكفر أيضًا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة:٦٤].

ففي هذه الآية إخبار من الله عن جراءة اليهود عليه سبحانه، وسوء أدبهم معه، وتوبيخ لهم على جحودهم نعمه التي لا تحصى.

وأرادوا بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أنه سبحانه بخيل عليهم، ممسك خيره عنهم، مانع فضله عن أن يصل إليهم، حابس عطاءه عن الاتساع لهم، كالمغلولة يده الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاء ولا بذل معروف[2].

وهذه من أقبح الكلمات التي نطقتها ألسنتهم بالكفر.

والمقصود أن من آفات اللسان النطق بالكفر، ويجري مجرى النطق بألفاظ الكفر كتابتها مدركًا معناها ومرماها من غير إكراه، وقد جاءت الرخصة بإجراء كلمة الكفر على اللسان على سبيل الإكراه، ويتفاوت الأمر بين صاحب العزيمة والرخصة.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦].

فمن نطق بالكفر عالمًا به غير مكره وقاله لا على سبيل الحكاية علم كفره؛ لأن اللسان ترجمان صاحبه، ومدبر أمره، والمؤدي لمافي قلبه وجوارحه من صلاح أو فساد، يجري ذلك على ترجمته بما ينطق.

ثانيًا: النطق بالكذب والنفاق:

ومن آفات اللسان النطق بالكذب والنفاق.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٦٩.

(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ٣١٣.

﴿لَّا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١].

فوصف الله هؤلاء المنافقين أنهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: إن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في الجنان، وهو كناية عن كذبهم، فالجملة استئناف لتكذيبهم، والكذب راجع لما تضمنه الكلام من الخبر عن تخلفهم بأنه لضرورة داعية له، وهو القيام بمصالحهم التي لا بد منها، وعدم من يقوم بها لو ذهبوا معه عليه الصلاة والسلام[(١)].

وهذا يدل على أن مخالفة اللسان لما في القلب من علامة النفاق، وهذه هي طبيعة المنافقين ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

وكان خداعهم بالقول وبالفعل، وخداعهم بالقول في قوله عنهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١].

وخداعهم في الفعل في قوله عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾ [النساء:١٤٢].

ومع أن القول لا يكون إلا باللسان إلا أنه قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ وكأن المراد أن هذا القول لم يواطئ القلب وإنما هو من طرف اللسان فقط.

ولهذا قيل: إن القول المطلق والعمل المطلق في كلام السلف يتناول قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين، وهذا لا يسمى قولًا إلا بالتقييد، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١].

وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين التي لا يتقبلها الله[(٢)].

وذكر الألسنة لأن الناس يقولون: قال في نفسه، وقلت في نفسي، وفي كتاب الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِم لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨].

فعلم أن ذلك القول باللسان دون كلام النفس.

فلما كان المنافق يختلف ما في قلبه عما في لسانه صار ما ينطق به لسانه كذبًا ونفاقًا، أما المؤمن فقلبه ولسانه سواء؛ ولذلك جاء الأمر بحفظ اللسان والتحذير من إطلاق العنان له.

وسلامة اللسان من سلامة القلب، فإذا كان القلب سليمًا كانت الجوارح سليمة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩].

أي: أن يكون خاليًا عن العقائد الفاسدة، والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها.

(١) روح المعاني، الألوسي ١٩/ ١٩٤.

(٢) انظر: الإيمان الأوسط، ابن تيمية ص١٢٣.

فإن قيل: فظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلم قلبه كان ناجيًا، وأنه لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد، وجوابه: أن القلب مؤثر، واللسان والجوارح تبع، فلو كان القلب سليمًا لكانا سليمين لا محالة، وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب[1].

ووصف الله ألسنة المنافقين بأنها سلقة ذربة، فقال: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [الأحزاب:١٩].

والسلق والصلق: رفع الصوت والصياح، ومنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بريء من الصالقة[2]. يعني بالصالقة أو السالقة التي ترفع صوتها بالنياحة. ومنه قولهم: خطيب مسلق ومسلاق وسلاق وصلاق، بالسين والصاد جميعًا، أي: ذو بلاغة ولسن[3]. وأصل السلق: بسط العضو ومده للأذى، سواء أكان هذا العضو يدًا أو لسانًا[4].

والسلق بالألسنة عبارة عن الكلام بكلام مستكره[5]. ففسر السلق بأذى اللسان، ومنه قول الأعشى[6]:

فيهم الخصب والسماحة والنجـ
ـدة فيهم والخاطب المسلاق[7]

والمراد به الإيذاء بالكلام السيئ القبيح، أي: رفعوا أصواتهم عليكم بألسنة حداد، والحداد: جمع حديد، وحديد: كل شيء نافذ، ومثله قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢][8]. يقال: لسان حديد نحو لسان صارم وماضٍ، وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد. والمعنى: فصحاء قادرين على الكلام، وأصحاب ألسنة شديدة ذربة.

فألسنة المنافقين كانت عند الخوف في غاية اللجلجة، لا تقدر على الحركة من قلة الريق ويبس الشفاه، وهذا لطلب العرض الفاني من الغنيمة وغيرها، فإذا ذهب الخوف صارت ذربة قاطعة[9].

وهكذا حال المنافقين لما ذكر القتال أمامهم صار حالهم كحال المغشي عليه من الموت، وعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانًا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٤٨٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة، رقم ١٢٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، رقم ٢٩٨.
(٣) التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٣٤٠.
(٤) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١٥/ ٤٠٦.
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٣٦١.
(٦) البيت في ديوانه ص٢٦٣.
وانظر: الحيوان، الجاحظ ٣/ ٢٣٤، تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٣٠٨.
(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٥٤.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٣٦.
(٩) السراج المنير ٨/ ٣٤٥.

فهم -أي: المنافقون- عند الشدائد جبناء بخلاء، فإذا ما ذهب الخوف وحل الأمان سلطوا عليكم ألسنتهم البذيئة بالأذى والسوء، ورموكم بألسنة ماضية حادة، تؤثر تأثير الحديد في الشيء، وارتفعت أصواتهم بعد أن كانوا إذا ما ذكر القتال أمامهم صار حالهم كحال الذي يغشى عليه من الموت[1].

فإن قيل: وصف الله ألسنة المنافقين هنا بقوله: ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩]، وقال في موطن آخر: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، أي: لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم، ووصفهم في موضع آخر بأنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨].

إلى غير ذلك من الآيات، فكيف الجمع؟

والجواب: أن وجه الجمع ظاهر، وهو أنهم بكم عن النطق بالحق وإن رأوا غيره، وقد بين تعالى هذا الجمع بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف:٢٦]. الآية؛ لأن ما لا يغني شيئًا فهو كالمعدوم، فالكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه كلا شيء؛ فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم، والعرب ربما أطلقت الصمم على السماع الذي لا أثر له، ومن ذلك قول قعنٍ:

إذا سمعوا خيرًا ذكرت به
وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

(١) الوسيط، سيد طنطاوي ١٥/ ٤٠٦.

وقول الآخر[2]:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب
حلمي أصم وأذني غير صماء

ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب من إطلاق الصمم على السماع الذي لا فائدة فيه، وكذلك الكلام الذي لا فائدة فيه، والرؤية التي لا فائدة فيها[3].

فهذا الذي ذكره جل وعلا من فصاحتهم وحدة ألسنتهم مع تصريحه بأنهم بكم يدل على أن الكلام الذي لا فائدة فيه كلا شيء، كما هو واضح، وكما قيل[4]:

وإن كلام المرء في غير كنهه
لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها

ثالثًا: لي اللسان بقصد السب والإيذاء:

(اللي) عبارة عن عطف الشيء ورده عن الاستقامة إلى الاعوجاج، يقال: لويت يده والتوى الشيء إذا انحرف، والتوى فلان علي إذا غير أخلاقه عن الاستواء إلى ضده، ولوى لسانه عن كذا إذا غيره، ولوى فلانًا عن رأيه إذا أماله عنه[5].

فيكون أصل اللي: الانعطاف والانثناء، ومنه: ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [آل عمران:١٥٣].

(٢) البيت لبشار بن برد في ديوانه ص١٢٥.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٥٥.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ١٧، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٥٣٧.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٦٨.

ولي اللسان: تحريف الكلام في النطق به أو في معانيه. أي: إنهم يثنون ألسنتهم ليكون الكلام مشبهًا لغتين، بأن يشبعوا حركات، أو يقصروا مشبعات، أو يفخموا مرققًا، أو يوقفوا مفخمًا؛ ليعطي اللفظ في السمع صورة تشبه صورة كلمة أخرى، فإنه قد تخرج كلمة من زنة إلى زنة ومن لغة إلى لغة بمثل هذا، فاللي كيفية من كيفيات القول[1].

والعلة من هذا اللي بالكلمة أو بالكلام ليكون اللفظ في السمع مشبهًا لفظًا آخر هم يريدونه لأنه يدل على معنى ذميم.

وهذا اللي باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود في بني إسرائيل، وقد أخبر الله أن من اليهود فريقًا دأبوا على تبديل كلام الله وتغييره عما هو عليه افتراء على الله واستهزاءً بالرسول.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٤٦].

فقوله: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُمْ﴾ معناه: أنهم يعمدون إلى اللفظة فيحرفونها في حركات الإعراب تحريفًا يتغير به المعنى، وهذا كثير في لسان العرب، فلا يبعد مثله في العبرانية، فلما فعلوا مثل ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد -عليه الصلاة والسلام- من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالى: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُمْ﴾[2].

وفي الآية نهي من الله لعباده المؤمنين من أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم؛ وذلك أن اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص، وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم[3]، والسام هو الموت؛ ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ«وعليكم» وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولًا وفعلًا[4].

وذكر الله بعض الأمثلة من لي الألسنة من قبل يهود، منها: أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ ويقصدون بهذا القول الإساءة إليه صلى الله عليه وسلم، يقصدون به رميه بالرعونة، ويوهمون

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٦١.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، رقم ٥٦٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، رقم ٥٧٨٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٣.

أنهم يقولون: راعنا، أي: احفظنا، أو راعنا سمعك، وإنما يريدون الرعونة[1].

وينطقون بهذه الكلمة وما يشابهها نطقًا ملتويًا منحرفًا ليصرفوها عن جانب احتمالها للخير إلى جانب للشر؛ ولذا فقد نهى الله تعالى المؤمنين عن مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الألفاظ[2].

وأتوا بلفظ ظاهره طلب المراعاة، أي: الرفق، والمراعاة: مفاعلة مستعملة في المبالغة في الرعي على وجه الكناية الشائعة التي ساوت الأصل؛ لأن الرعي من لوازمه الرفق بالمرعي وطلب الخصب له ودفع العادية عنه، وهم يريدون بـ(راعنا) كلمة في العبرانية تدل على ما تدل عليه كلمة الرعونة في العربية.

وقد روي أنها كلمة (راعونا) وأن معناها الرعونة، فلعلهم كانوا يأتون بها يوهمون أنهم يعظمون النبي صلى الله عليه وسلم بضمير الجماعة، ويدل لذلك أن الله نهى المسلمين عن متابعتهم إياهم في ذلك، فقال في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة:١٠٤][3].

وقوله: ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ أي: فتلًا بها وتحريفًا عن الحق إلى الباطل، حيث يضعون راعنا مكان انظرنا، وغير مسمع مكان لا أسمعت مكروهًا، أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقًا[4].

ومعنى: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ أنهم يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم عند مراجعته في أمر الإسلام: اسمع منا، ويعقبون ذلك بقولهم: ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ يوهمون أنهم قصدوا الظاهر المتبادر من قولهم: غير مسمع أي: غير مأمور بأن تسمع، في معنى قول العرب، «افعل غير مأمور» أو يكون معناه: غير مسمع مكروهًا، فلعل العرب كانوا يقولون: أسمعه بمعنى سبه.

والحاصل أن هذه الكلمة كانت معروفة الإطلاق بين العرب في معنى الكرامة والتلطف إطلاقًا متعارفًا، ولكنهم لما قالوها للرسول أرادوا بها معنى آخر انتحلوه لها من شيء يسمح به تركيبها الوضعي، أي: أن لا يسمع صوتًا من متكلم، بأن يصير أصم، أو أن لا يستجاب دعاؤه، وقصدهم من إيراد كلام ذي وجهين أن يرضوا الرسول والمؤمنين، ويرضوا أنفسهم بسوء نيتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ويرضوا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢٤.
(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٩٦١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٦١.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ١٥٣.

قومهم، فلا يجدوا عليهم حجة[1].

ثم بين سبحانه ما كان يجب عليهم أن يقولوه لو كانوا يعقلون، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي: لو تبدلوا بالعصيان الطاعة، ومن الطاعة الإيمان بك، واقتصروا على لفظ: اسمع، وتبدلوا براعنا قولهم: وانظرنا، فعدلوا عن الألفاظ الدالة على عدم الانقياد والموهمة إلى ما أمروا به؛ لكان أي: ذلك القول خيرًا لهم عند الله، وأعدل، أي: أقوم وأصوب[2].

رابعًا: اللسان ومقالة السوء:

جعل الله تعالى اللسان وسيلة للتعبير عن النفس وخواطرها وأفكارها، كما جعله وسيلة للتعارف والتآلف بين الناس، وقد خصص الله اللسان للكلام، وحدد له ما ينبغي له التحدث فيه، ألا وهو الحسن من الكلام، الذي يؤلف القلوب، ويصلح بين الناس، ويحق الحق، ويبطل الباطل، وحذرنا من الكلام المذموم، ومن الإسراف بالقول، ومن قالة السوء.

وقد أخبر الله تعالى أن الكفار يبسطون أيديهم وألسنتهم بالسوء للمؤمنين، فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢].

فبسط الأيدي حقيقة في مدها للضرب والسلب، وبسط الألسنة مجاز في عدم إمساكها عن القول البذيء[3].

فالبسط مستعار للإكثار لما شاع من تشبيه الكثير بالواسع والطويل، وتشبيه ضده وهو القبض بضد ذلك، فبسط اليد الإكثار من عملها، والمراد به هنا عمل اليد الذي يضر، مثل الضرب والتقييد والطعن، وعمل اللسان الذي يؤذي، مثل الشتم والتهكم، ودل على ذلك قوله: ﴿بِالسُّوءِ﴾ فهو متعلق بـ﴿وَيَبْسُطُوا﴾ الذي مفعوله: ﴿أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم﴾[4].

وأخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، فقال: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨].

والمعنى أنه تعالى لا يحب لأحد من عباده أن يجهر بالأقوال السيئة إلا من وقع عليه الظلم فإنه يجوز له أن يجهر بالسوء من القول في الحدود التي تمكنه من رفع الظلم عنه دون أن يتجاوز ذلك، كأن يجهر الخصم بما ارتكبه خصمه في حقه من مآثم، وكأن يذكر المظلوم الظالم بالقول السيئ متحريًا البعد عن الكذب والبهتان.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٦١.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ١٥٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٦.
(٤) المصدر السابق ٢٨/ ٣٨٣.

ومع ذلك فعفوه وعدم مقابلته أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ استثناء منقطع، فتكون إلا بمعنى (لكن) أي: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول لكن من ظلم له أن يجهر بالسوء لكي يدفع ما وقع عليه من ظلم.

ويحتمل أن يكون متصلًا، فيكون المعنى: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من أحد إلا ممن ظلم، فإنه يجوز له أن يجهر بالسوء من القول لرفع الظلم عنه، فيكون الاستثناء من الفاعل المحذوف، وهو من أحد، أو: لا يحب الله الجهر السوء من القول إلا جهر من ظلم، فإنه ليس بخارج عن محبة الله؛ لأن دفع الظلم واجب، فيكون الكلام على تقدير مضاف محذوف[1].

فمقالة السوء بدون مقتضٍ يبغضها الله سواء أكان هذا القول سرًا أو جهرًا، إلا أنه سبحانه خص الجهر بالذكر؛ لأنه أشد فحشًا، ولأنه أكثر جلبًا للعداوة بين الناس، وأشد تأثيرًا في إشاعة الجرائم في المجتمع، فإن كثرة سماع الناس للكلام السيئ وللقول الماجن يغري الكثير منهم بترديد ما سمعوه، وبحكايته في أول الأمر بشيء من الحياء، ثم لا يلبث هذا الحياء أن يزول بسبب إلف الناس للكثير من الألفاظ النابية والأقوال السيئة.

وفي القرآن عشرات الآيات تأمر المسلمين بالمداومة على النطق بالكلام الطيب حتى تنتشر بينهم المحبة والمودة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

والمقصود أن الله تعالى لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغض ذلك ويمقته، ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله، ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

والإسلام يحب لأتباعه أن يلتزموا النطق بالكلمة الطيبة، ويكره لهم أن يجهروا بالسوء من القول إلا في حالة وقوع ظلم عليهم، ففي هذه الحالة يجوز لهم أن يجهروا بالسوء من القول حتى يرتدع الظالم عن ظلمه.

وأمر الله عباده المؤمنين أن يقولوا التي هي أحسن، فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

فهذا الأمر ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ على وجه الإطلاق وفي كل مجال،

(١) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ١١٦.

فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه؛ بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة، فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيئ يتلوها، فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف، ثم بالجفوة، ثم بالعداء، والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، وتندي جفافها، وتجمعها على الود الكريم.

وهذه الآية تكشف لنا عن أدب عظيم حريٌّ بكل مسلم أن يتأدب به ويتخلق به، وهو خلق تعويد اللسان على القول الحسن، والمجادلة بالتي هي أحسن.

و﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: الكلمة التي هي أحسن من غيرها؛ للطفها وحسنها؛ لتجد طريقًا إلى القلوب.

و﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ صفة لمحذوف يدل عليه فعل (يقولوا) تقديره: بالتي هي أحسن، وليس المراد مقالة واحدة، واسم التفضيل مستعمل في قوة الحسن، ونظيره قوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[النحل: ١٢٥]،أي: بالمجادلات التي هي بالغة الغاية في الحسن، فإن المجادلة لا تكون بكلمة واحدة.

وهذا تأديب عظيم في مراقبة اللسان وما يصدر منه، وفي الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بأعمال تدخله الجنة، ثم قال له: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟) قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسانه وقال: (كف عليك هذا) قال: قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: (ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم) أو قال: (على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)[(١)].

والمقصد الأهم من هذا التأديب تأديب الأمة في معاملة بعضهم بعضًا بحسن المعاملة، وإلانة القول؛ لأن القول ينم عن المقاصد[(٢)].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ تعليل للأمر السابق، أي: إن الشيطان يتربص بكم، ويتلمس السقطات التي تقع من أفواهكم، والعثرات التي تنطق بها ألسنتكم؛ لكي يشيع الشر بينكم، ويبذر بذور الشر والبغضاء في صفوفكم، ويهيج أعداءكم عليكم، فهو يتلمس سقطات فمه، وعثرات لسانه، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه، والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق، وتحفظ حرم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم ٢٦١٦، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، سورة السجدة، رقم ١١٣٩٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٩/ ٦٤، رقم ٣٢٨٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٤٦٩.

الأخوة آمنًا من نزغاته ونفثاته[1].

وينزغ بمعنى يفسد، يقال: نزغه كنفعه ينزغه إذا طعن فيه واغتابه، أي: أن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس وإشعال نار الفتنة بالكلمة الخشنة يفلت بها اللسان؛ لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم؛ ولقد حذرنا الله سبحانه من الشيطان وكيده في كثير من آيات القرآن الكريم[2].

قال ابن القيم رحمه الله مبينًا حرص الشيطان على إفساد هذه الجارحة في الإنسان: ثم يقول -أي الشيطان-: قوموا على ثغر اللسان؛ فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك؛ فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله تعالى، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، والتكلم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم:

أحدهما: التكلم بالباطل؛ فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم، ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحق؛ فإن الساكت عن الحق أخ لك أخرس، كما أن الأول أخ ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم، أما سمعتم قول الناصح: «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس» فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم وأكبهم منه على مناخرهم في النار، فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر! وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع؛ فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أعوانًا على الإنس بكل طريق[3].

والمقصود أن هذا من لطف الله بعباده حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، ففي قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨.
(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١٥/ ٦٤٢.
(٣) الجواب الكافي ص٦٩.

فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره[1].

ولهذا كان السلف يحذرون من فضول النظر، كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٠.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص٣٣٥.

دلالة اللسان على قدرة الله وعظمته

من آيات الله المعجزة خلق الألسن التي تعبر باللغات المختلفة، وبها تعرف الحالة الصحية للإنسان، وفيها لمسات إعجازية أشار إليها العلماء، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: اختلاف الألسن من آيات الله:

أخبر الله جل جلاله أن من آياته الدالة على باهر قدرته اختلاف ألسنة البشر، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

فقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تترٌ لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم[3].

بل إن الأمة الواحدة تجد فيها عشرات اللغات التي يتكلم بها أفرادها، ومئات اللهجات، فمن اطلع على لغات رأى من اختلاف تراكيبها أو قوانينها مع اتحاد

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٩.

المدلول عجائب وغرائب في المفردات والمركبات.

فاختلاف لغات البشر آية عظيمة، فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كونه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير، وتنويع التصرف في وضع اللغات، وتبدل كيفياتها باللهجات والتخفيف والحذف والزيادة بحيث تتغير الأصول المتحدة إلى لغات كثيرة، فلا شك أن اللغة كانت واحدة للبشر حين كانوا في مكان واحد، وما اختلفت اللغات إلا بانتشار قبائل البشر في المواطن المتباعدة، وتطرق التغير إلى لغاتهم تطرقًا تدريجيًا على أن توسع اللغات بتوسع الحاجة إلى التعبير عن أشياء لم يكن للتعبير عنها حاجة، قد أوجب اختلافًا في وضع الأسماء لها، فاختلفت اللغات بذلك في جوهرها، كما اختلفت فيما كان متفقًا عليه بينها باختلاف لهجات النطق، واختلاف التصرف، فكان لاختلاف الألسنة موجبان، فمحل العبرة هو اختلاف مع اتحاد أصل النوع، كقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾[الرعد:٤]، ولما في ذلك الاختلاف من الأسرار المقتضية إياه.

أو يكون المراد: باختلاف الألسنة اختلاف الأصوات لا اللغات، بحيث تتمايز أصوات الناس المتكلمين بلغة واحدة، فنعرف صاحب الصوت وإن كان غير مرئي[(١)].

وسواء قلنا: إن اختلاف الألسنة معناه: اختلاف اللغات أو المراد به اختلاف الأصوات (النغمة) حتى لا يشتبه صوتان من أخوين لأم وأب، فعلى كلا المعنيين هي آية عظيمة من آيات الله تعالى.

فاختلاف لغات البشر على كثرتهم منذ خلق الله آدم إلى آخر الدنيا مع اتحادهم في النوع ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز، وهذا دال على كمال قدرته ونفوذ مشيئته، ومن عنايته بعباده ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف؛ لئلا يقع التشابه، فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

وباختلاف الألسنة يقع التعارف والتمايز، فلو توافقت وتشاكلت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح، وفي ذلك آية بينة، حيث ولدوا من أب واحد وهم على كثرتهم متفاوتون[(٢)].

فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية من كل وجه، بل هناك تمايز بين الأشخاص، حتى إن التوأمين مع توافق

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٣٤.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٢.

موادهما وأسبابهما والأمور المتلاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة، وإن كانا في غاية التشابه، وإنما نظم هذا في سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والأرض مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقة بالانتظام في سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للإيذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم[1].

فمن حكمة الله ورحمته أن علم كل صنف لغته، وألهمه وضعها، وأقدره عليها، وخالف بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حدة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لكنة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، وهم من نفس واحدة[2].

ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك فيه الدلالة القاطعة على أن الله جل وعلا واحد، لا شبيه له، ولا نظير، ولا شريك، وأنه المعبود وحده.

وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدرة وإرادة الفاعل المختار، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته جل وعلا .

وقد أوضح تعالى في غير هذا الموضع أن اختلاف ألوان الآدميين واختلاف ألوان الجبال والثمار والدواب والأنعام كل ذلك من آياته الدالة على كمال قدرته واستحقاقه للعبادة وحده.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾[فاطر:٢٨].

واختلاف الألوان المذكورة من غرائب صنعه تعالى وعجائبه، ومن البراهين القاطعة على أنه هو المؤثر جل وعلا، وأن إسناد التأثير للطبيعة من أعظم الكفر والضلال[3].

كما أوضح ذلك في قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤].

فالأرض التي تنبت فيها الثمار واحدة؛ لأن قطعها متجاورة، والماء الذي تسقى به ماء واحد، والثمار تخرج متفاضلة، مختلفة في الألوان والأشكال والطعوم والمقادير والمنافع. فهذا أعظم برهان قاطع على وجود فاعل مختار، يفعل ما يشاء كيف يشاء، سبحانه جل وعلا عن الشركاء والأنداد[4].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٥٦.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٧٧.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٨.
(٤) انظر: المصدر السابق.

ثانيًا: عضلة اللسان والعلم الحديث:

اللسان هو عضو عضلي موجود داخل الفم، يرتبط بالفك عبر سبع عشرة عضلة، تؤمن له حركته وعمله، ويغلف سطح اللسان غشاء مخاطي، تغطيه آلاف الحليمات الصغيرة، التي تحتوي في أطرافها على نهايات عصبية بمثابة حاسة التذوق، ويكون سطحه مبللًا باللعاب مما يبقيه رطبًا.

ويغطي سطح اللسان العديد من الحليمات التي تنقسم إلى أربعة أنواع: الخيطية، والكمئية، والورقية، والكأسية.

ومن حكمة الله وقدرته أن جعل اللسان عضوًا لحميًا لا عظم فيه ولا عصب؛ لتسهل حركته، ومن حكمته أنه لم يجعله يعظم كثيرًا حتى يخرج من الفم، ولا يسعه الفم، بل ينمو بقدر الفم.

يقول ابن القيم: «وجعل سبحانه اللسان عضوًا لحميًا لا عظم فيه ولا عصب؛ لتسهل حركته؛ ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه، فإن أي عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك، ولم يلبث أن يكل ويخلد إلى السكون إلا اللسان، و أيضًا فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها، وهو في الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه، فمزاجه من أعدل أمزجة البدن، ويحتاج إلى قبض وبسط وحركة في أقاصي الفم وجوانبه، فلو كان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك، ولم يتهيأ منه الكلام التام، ولا الذوق التام، فكونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلي والغائي[1].

واللسان يتركب من مجموعة من العضلات: خارجية: تربط بينه وبين أجزاء الفم الأخرى، وداخلية: وهي مختلفة الأشكال، فتعطي اللسان القوة والمرونة، ويحتوي لسان الإنسان على (١٢٠٠٠) حليمة ذوقية.

وجعل سبحانه وتعالى على اللسان غلقين: أحدهما: الأسنان، والثاني: الفم، وجعل حركته اختيارية، وجعل على العين غطاء واحدًا، ولم يجعل على الأذن غطاء، وذلك لخطر اللسان وشرفه، وخطر حركاته، وكونه في الفم بمنزلة القلب في الصدر، وذلك من اللطائف، فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر، وآفة النظر أكثر من آفة السمع، فجعل للأكثر آفات طبقين، وللمتوسط طبقًا، وجعل الأقل آفة بلا طبق[2].

وهو العضلة الوحيدة المشدودة من طرف واحد، ويتحرك بطريقة لا تتحرك بها أية عضلة أخرى، وسطح اللسان معظمه من نتوءات صغيرة تسمى الحليمات، وفي جدران هذه الحليمات تقع براعم الذوق والطعم، ولدى الإنسان حوالي ثلاثة آلاف

(١) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص١٩٣.
(٢) المصدر السابق.

برعم ذوقي، وقيل: أكثر من ذلك.

ثالثًا: وظائف اللسان:

وظائفه كثيرة: كالكلام، والتذوق، وتقليب الطعام أثناء مضغه في الفم، والمساعدة في البلع، حيث يعطي البلعوم إشارة عاجلة بالانفتاح، ويبقي الأسنان نظيفة بحمايتها من تجميع الحموض عليها، أو تسوسها، وهو وسيلة للوقاية من الأطعمة الضارة، التي لا يستسيغها الذوق؛ لتلوثها أو تسممها، فيدرك اللسان ذلك أول وهلة، فيسمح للنافع بالمرور، ويمنع الضار، ويرسل ما يمكن معالجته للأسنان، ويمنع غير ذلك؛ فهو حارس أمين بما قدره الله له.

وهو عامل مهم في مضغ الطعام وبلعه، يدفع باللقمة إلى الأسنان، ويلتقطها دون أن يتعرض هو للقطع، وقد يحدث نادرًا أن يقع اللسان في مصيدة الأسنان أثناء الأكل، فنشعر بالألم، ونفهم عندئذٍ مدى مهارة اللسان في تجنب الانزلاق تحت الأسنان مع أنه ملاصق لها! واللسان بعد ذلك ينظف جوف الفم والأسنان من بقايا الطعام.

ولو تعرض هذا اللسان لقطع أو جرح أو عضته الأسنان عفويًا فإنه لأهميته من أسرع عضلات الجسم التحامًا.

رابعًا: اللسان والكلام:

جعل الله للإنسان لسانًا يترجم به عن ضمائره، وبه تنعقد المعاملات، وتحصل الشهادات، ولو لم يكن اللسان لاحتاج الإنسان إلى الإشارة أو الكتابة فتعسر أمره، وقد سبق الكلام على دور اللسان، وأنه وسيلة في البيان والإفصاح عما يريده الإنسان.

فأهم وظائف اللسان الكلام بتحركه السريع المتواصل المنظم في الجهات الست، وهو دور عجيب، والإمعان فيه يثير الدهشة والحيرة، فقد يسر الله تعالى للإنسان وسيلة سهلة للتكلم، وفي متناول الجميع، فلا يصيبها تعب ولا نصب ولا ملل، ولا تكلف الإنسان خرجًا!

وقد قيل: إن كل حرف ينطقه اللسان يسهم في تكوينه سبعة عشر عضلة، فكم يا ترى حركة يتحركها اللسان إذا نطقت بحرفٍ واحد؟!

وأعجب من ذلك موضوع استعداد الإنسان للكلام، وهذا الاستعداد أودعه الله في الإنسان؛ ليستطيع من خلاله تكوين الجمل بأشكال لا تعد ولا تحصى، وأن يبين ما لا نهاية له من الغايات، وتنوع اللغات أيضًا وقابلية الإنسان على وضع لغات مختلفة هذه الأهمية تتضح من خلال مطالعة مفردات آلاف اللغات المنتشرة في العالم.

يقول ابن القيم وهو يتكلم عن منافع اللسان: «وأودع في اللسان من المنافع منفعة الكلام -وهي أعظمها- ومنفعة الذوق والإدراك»[1].

ومن عجائب قدرة الله في اللسان أن يأتي النطق من هواء يكون من الرئة يخرج من مخارج معينة، إن مر بشيء صار حرفًا، وإن مر بشيء آخر صار حرفًا آخر، وهو هواء واحد من مخرج واحد، لكن يمر بشعيرات دقيقة في الحلق، وفي الشفتين، وفي اللثة، هذه الشعرات تكون الحروف، فتجد مثلًا الباء والشين كلها بهواء يندفع من الرئة، ومع ذلك تختلف باختلاف ما تمر عليه في هذا الفم، ومخارج الحروف المعروفة، هذا من تمام قدرة الله عز وجل[2].

والمختصون في الأصوات ونبراتها يوزعون حروف الهجاء على أجزاء الفم واللسان، وسموها مخارج الحروف، وهي أربعة عشر مخرجًا، ومن صنع الله الذي أتقن كل شيء، فلا يخرج حرف مع مخرج حرف آخر، ولا تتشابه نبرة حرف بنبرات حرف آخر، حتى يسهل التفاهم بين الناس، وحتى تمر حوائجهم بسهولة، كما هيأ سبحانه لمخارج الحروف التي ينطقها اللسان قدرة عجيبة على التكيف مع كل لغة يريد الإنسان دراستها، بحيث يتعود لسانه عليها كما ينطقها أبناؤها الذين مارسوها طوال حياتهم.

ثم إنه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة؛ لتختلف الأصوات باختلافها، فلا يتشابه صوتان كما لا تتشابه صورتان، وهذا من أظهر الأدلة، فإن هذا الاختلاف -الذي بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددها فقلما يشتبه صوتان أو صورتان- ليس في الطبيعة ما يقتضيه، وإنما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء، وأحسن كل شيء خلقه، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين، فميز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر[3].

ونلحظ حتى الطفل الصغير قد وهبه الله لسانًا يعبر به عن نفسه، ووهبه غريزة حب الكلام والتعبير عن النفس، وهذه الغريزة تجعله يخترع دلالات بلسانه قبل أن يعرف المعنى الذي يريد، فيقول عن كل شيء غير حسن مثلًا: (كخه) والقبيح: (يعه)، وهكذا يخترع كلمات تعبر عن مفهومه، وقد قيل عن سكان الغابات: إنهم يتفاهمون مع حيواناتها والوحوش بنغمات قريبة من نطقها، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ٢٨.
(٣) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص١٩٣.

يقول الغزالي: «فإن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه؛ إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان؛ فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مئونة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان، واللسان رحب الميدان ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله»[1].

والمقصود أن من أهم وظائف اللسان الكلام، وهذا الكلام الذي امتن الله تعالى به على العبد يمكن أن يرتقي به الإنسان إلى أعلى الدرجات، ويمكن أن ينحط به إلى أسفل الدركات، فالكلمة ذات جوانب متعددة الأهمية: بها يتم إعلان المبادئ والمعتقدات، وبها يتم التلفظ بالعقود والشهادات، كما أنها هي التي يعرف بها كفر الكافرين وجحود الجاحدين، كما قال القائل[2]:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالألسنة -كما يقال- مغاريف القلوب، فهي التي تعبر عما استقر فيها من الإيمان والمعتقدات؛ ولذلك قال جل وعلا: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[الفتح:٢٦].

وكلمة التقوى هنا هي كلمة التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

خامسًا: اللسان والتذوق:

خلق الله في اللسان حاسة التذوق، بما يسمى قنوات التذوق، فيوجد في اللسان مع صغر حجمه تسعة آلاف برعم ذوقي؛ لمعرفة الطعم الحلو، والحامض، والمر، والمالح، ولا يختلط بعضها ببعض، حيث تتميز بها طعم الفاكهة بأنواعها، ويظهر التمايز بينها وبين الخضروات من طماطم وخيار وخس وجرجير وغيرها من المأكولات والمشروبات من أنواع

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١٠٨.

(٢) البيت منسوب للأخطل في مجمع الحكم والأمثال، أحمد قبش ٩/ ١٢٧.

المأكولات والمشروبات العديدة التي سخرها الله لعباده في الحياة الدنيا، فضلًا منه جل وعلا .

ومن بديع صنع الخالق سبحانه وتعالى أن جعل لكل طعم منطقته الخاصة في اللسان، فتتذوق المادة الحلوة بطرف اللسان، بينما تتذوق المادة المالحة على جانبي اللسان من الأمام، وتتذوق المادة المرة في نهاية اللسان والحنك، بينما تتذوق المادة الحامضة على جانبي اللسان والحنك، أما وسط اللسان فهو لا يميز أي مذاق.

ويكسو اللسان غشاء مخاطي، كما يتصف سطح اللسان السفلي بالنعومة، أما العلوي فخشن بسبب النتوءات المنتشرة على سطحه، وتوجد ضمن هذه النتوءات أربعة أصناف من النتوءات الذواقة التي تساعدنا على التمييز بين الطعم الحلو والحامض والمالح والمر.

وتتأثر حاسة التذوق بعوامل كثيرة، منها: وجود التهاب، أو اضطراب في الجهاز التنفسي، أو في حاسة الشم.

سادسًا: من عجائب اللسان:

نعمة اللسان موجودة في الإنسان والحيوان ولكن ما يميز الإنسان عن الحيوان أن الله أعطاه اللسان وسيلة للتخاطب والتعارف والقدرة على الكلام، ومناجاة الخالق سبحانه وتعالى، بينما الحيوان لا يستطيع سوى تحريك الطعام بلسانه، فسبحان الله الخالق الحكيم!

ومن عجيب حكمة الله أن جعل في كل آدمي من الأعضاء النافعة -في الغالب- اثنين اثنين، والأعضاء الضارة واحدًا واحدًا، فهناك أذنان حتى إذا أصيبت واحدة بالصمم عملت الثانية، وجعل يدين ورجلين وكليتين، فإذا خربت واحدة عملت الأخرى.

لكن الأشياء الضارة واحدة واحدة، عضلة اللسان واحدة، وفرج واحد، تأمل كيف سيكون الحال لو أن مع الإنسان لسانين واحدًا هنا وواحدًا هنا؟! كيف سيكون حاله؟ هو ما نجح ولا أفلح مع لسان واحد فكيف سيفلح مع لسانين؟! ما أمسكه، بل تجده أفسد الدنيا بلسانه، ولا نجح في الدنيا بفرج واحد، فلو كان معه فرجان؟! كان ذلك همًّا عليه كبيرًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فمن رحمة الله وحكمته أن جعل له من النافع اثنين، ومن الضار واحدًا، إلا القلب جعله واحدًا وهو نافع، قال الله عز وجل: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤].

فلماذا يا ترى؟ فالجواب: لو أن معه قلبين والقلب هو مركز الإحساس لكان قلب يريد أن يرقد وقلب يريد أن يذهب،

للعمل، وقلب يحب فلانًا وقلب يكرهه، وقلب يريد أرزًا، وقلب يريد عصيدة ومرقًا، وقلب يريد أن يواصل الدراسة وقلب يقول: لا والله لا أواصل، فمن يطيع منهم يا ترى؟! إذن لا يصلح أن يكون معه قلبان إنما الذي يصلح أن يكون معه قلب واحد؛ ولهذا قال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤].

وإنما تعدد العين والأذن وتفرد اللسان؛ لأن حاجة الإنسان إلى السمع والبصر أكثر من حاجته إلى الكلام، وفيه تنبيه أيضًا على أن يقلل من الكلام إلا في الخير، وألا يتكلم فيما لا فائدة فيه، وهو السر في أن الله تعالى جعل اللسان داخل الفم، وجعل دونه الشفتين اللتين لا يمكن الكلام إلا بفتحهما؛ ليستعين العبد بإطباق شفتيه على رد الكلام، وقد حكي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يجعل في فمه حجرًا؛ ليمتنع من الكلام فيما لا يعنيه، وقد قيل: «ابن آدم، إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك بطبقتين فأطبق»[1].

ومن عجيب حكمته تعالى أنه أجرى في هذا الرأس أربعة أنهار: نهر في العين مالح، ونهر في الأذن مر، ونهر في الفم عذب، ونهر في الأنف مخاطي مالح، فمن الذي أفرز الأنهار هذه كلها والمادة كلها واحدة؟ مالح في العين، لماذا؟ لأن العين شحمة لو لم يكن فيها مادة مالحة؛ لتعفنت ودودت، وظهر الدود من العين، ومر في الأذن؛ لأن الأذن مجرى للسمع، فلو أن الله لم يجعل هذه المادة الصمغية المرة موجودة؛ لقام الإنسان في الصباح ومسمعه مليء بالبراغيث أو بالقمل، ودخلت في رأسه، فمن الذي سوف يخرجها من رأسه؟ لكن الله جعل هذه المادة السامة المرة بمجرد وأنت نائم تأتي الحشرات إلى مسمعك ثم تهرب ولا تدخل مسمعك، من الذي قام في يوم من الأيام وقال: والله في مسمعي حشرات؟ لا أحد، لا تستطيع أن تدخل؛ لأنه يوجد مادة ضدها.

والفم جعل الله فيه اللعاب، واللعاب حلو، ومذاقه طيب، لماذا؟ من أجل أن تهضم به الطعام وتمضغه، وتقطع وتكسر وبعد ذلك تنزل! وجعل الله المادة المخاطية في الأنف، لماذا؟ لتمتص وتحجز الأتربة والغبار الذي يدخل الرأس، ولو كنت الآن في المزرعة من الصباح إلى الظهر، ثم جئت تتوضأ وتستنثر، أما تلحظ أنه يخرج من الاستنثار تراب؟ أين كان هذا التراب؟ لقد أمسكته الأغشية التي في الأنف، ولولاها لدخلت إلى الرأس، ودخل غدًا مثلها، وتتكون في الرأس كوم طين من يخرجها من الرأس؟

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ١٧/ ٢٦١.

وما ظنك لو أن الله تبارك وتعالى جعل المادة التي في أذنك تفرز من فمك، فكيف تأكل؟! أو جعل الله المادة التي في أنفك تخرج من فمك (المخاط) كيف تصنع؟! أو جعل الله المادة الملحية تخرج من فمك، كيف تصنع؟! لكن من علم العين أن تفرز مادة ملحية؟ من علم الأذن أن تفرز مادة صمغية مرة؟ إنه الله الذي لا إله إلا هو.

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه التبيان في أقسام القرآن: «وأما الفم فمحل العجائب، وباب الطعام والشراب والنفس والكلام، ومكان اللسان الناطق الذي هو آلة العلوم، وترجمان القلب، ورسوله المؤدي عنه، ولما كان القلب ملك البدن، ومعدنًا للحرارة الغريزية، فإذا دخل الهواء البارد وصل إليه، فاعتدلت حرارته، وبقي هناك ساعة، فسخن واحترق، فاحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه، فجعل أحكم الحاكمين إخراجه سببًا لحدوث الصوت في الحنجرة والحنك واللسان والشفتين والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة، وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض، ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف؛ ليؤدي بها عن القلب ما يأمر به.

فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغنى عنه المحتاج إلى دفعه وإخراجه، بل جعل فيه إذا استغنى عنه منفعة ومصلحة، هي من أكمل المنافع والمصالح، فإن المقصود الأصلي من النفس هو اتصال الريح البارد إلى القلب، فأما إخراج النفس هو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة، فصرف ذلك سبحانه إلى رعاية مصلحة ومنفعة أخرى، وجعله سببًا للأصوات والحروف والكلام»[1].

وجعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة، والريق يتحلل إليه دائمًا، لا يفارقه، وجعله حلوًا لا مالحًا كماء العين، ولا مرًا كالذي في الأذن، ولا عفنًا كالذي في الأنف، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها، حكمة بالغة، فإن الطعام والشراب يخالطه، بل هو الذي يحيل الطعام، ويمتزج به امتزاج العجين بالماء، فلولا أنه حلو لما التذ الإنسان بل ولا الحيوان بطعام ولا شراب، ولا ساغه إلا على كره وتنغيص[2].

سابعًا: دلالة اللسان على حالة الجسم الصحية:

يقول ابن القيم وهو يتكلم عن منافع اللسان: «وجعله دليلًا على اعتدال مزاج القلب وانحرافه، كما جعله دليلًا على استقامته واعوجاجه، فترى الطبيب يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة والملاسة والبياض والحمرة والتشقق

(١) التبيان في أقسام القرآن ص١٩٣.
(٢) المصدر السابق.

وغيره على حال القلب والمزاج، وهو دليل قوي على أحوال المعدة والأمعاء، كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام على ما في القلب، فيبدو عليه صحة القلب وفساده،معنىً وصورة»[1].

فتعرف حالة الإنسان الصحية من مظهر لسانه، كالتالي:

- فإذا كان اللسان كالقطيفة، وردي غامق اللون: فدل على أن الشخص سليم.
- وإذا كان على سطح اللسان غطاءٌ أبيض: فالشخص عنده سوء الهضم، أو ارتفاع في درجة الحرارة.
- وإذا كان اللسان يميل إلى الاصفرار: فهذا دليلٌ على أن نسبة الصفار عالية في الدم.
- وإذا كان اللسان يميل إلى الزرقة: فهذا يدل على وجود مرضٍ بالقلب، أو الجهاز التنفسي.
- وإذا كان لون اللسان باهتًا: فذلك يدل على وجود أنيميا.
- وإذا كان هناك رعشة في اللسان عند إخراجه من الفم: فهذا يدل على وجود تسمم، أو توتر عصبي.
- وإذا كان في اللسان بقع حمراء أو بقع حمراء محوطة بخطوط بيضاء: نقصٌ في حمض الفوليك، أو بسبب تغير المكان، وتسمى مشكلة اللسان الجغرافية.
- وإذا كان لون اللسان أسود مغطى بالشعر: فهو شكل غريب، وليس بخطير، وهو ناتج عن تزايد النتوءات بشكل كبير لدى بعض الناس، وهذا يجعلها أكثر عرضة لإيواء البكتيريا، التي عندما تنمو تتلون باللون الأسود، وتزيد من تكون تلك النتوءات التي تبدو كالشعر، وهذه الحالة ليست شائعة، وتظهر بشكل محدد لدى الأشخاص الذين لا يتبعون نظامًا صحيًا مع أسنانهم، كما يمكن أن تصيب الأشخاص الذين يستخدمون العلاج الكيميائي، أو المضادات الحيوية، وكذلك المصابين بمرض السكر.
- وإذا وجدت تشققات في اللسان: فهذا يدل على أن الشخص يعاني تعبًا في الجهاز الهضمي أو الجهاز التنفسي.

ثامنًا: اللسان والعبادة:

فأما عبودية اللسان فواجبها النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في

(١) المصدر السابق.

الركوع والسجود، وأمر بقول: ربنا ولك الحمد بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير[1].

تاسعًا: شهادة الألسن على أصحابها يوم القيامة:

اللسان سبب في نعيم الإنسان أو عذابه، فيجب على المؤمن الموحد أن يحفظ لسانه من كل ما يؤذيه في الدنيا والآخرة فكم من إنسانٍ حافظ على لسانه من الضرر الدنيوي، ولم يحفظ لسانه من الضرر الأخروي!

وقد أخبر الله تعالى أن الجوارح ومنها اللسان تشهد على ما اقترفه المذنبون، يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

فالآية صريحة في شهادة اللسان على ما فعله الإنسان، ولعله في موقف خاص من مواقف القيامة بشهادة أن القرآن يذكر أنه يختم على أفواههم فلا تتكلم ألسنتهم وإنما تتكلم أيديهم وأرجلهم، كما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥].

أو يكون المراد بذلك أن ألسنة بعضهم تشهد على بعض، لا أن ألسنتهم تنطق وقد ختم على الأفواه[2].

وقد يكون الختم على الأفواه ليس بعدم شهادتها؛ إذ المراد منه منع المحدث عنهم عن التكلم بألسنتهم، وهو أمر وراء تكلم الألسنة أنفسها، وشهادتها بأن يجعل فيها علم وإرادة وقدرة على التكلم فتتكلم هي، وتشهد بما تشهد، وأصحابها مختوم على أفواههم لا يتكلمون[3].

والمقصود أن كل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم.

فقال في هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ بحيث يقول اللسان: نطقت بكذا ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ تقول اليد: بطشت كذا، ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ تقول الرجل: مشيت إلى كذا.

و(ما) في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ موصولة، والمراد: جميع أعمالهم السيئة وجناياتهم القبيحة، لا عن جناياتهم المعهودة فقط[4]. ونلحظ أن الله جل وعلا ذكر الأعضاء من الأعالي إلى الأسافل، فذكر أولًا شهادة اللسان، ثم شهادة الأيدي، ثم شهادة الأرجل، وأسندها إلى الجميع، فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، وهذا ترتيب بديع.

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٠.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ٢٠.
(٤) المصدر السابق ١٣/ ٤١٠.

وتخصيص هذه الأعضاء بالذكر مع أن الشهادة تكون من جميع الجسد كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:٢١]؛ لأن لهذه الأعضاء عملًا في رمي المحصنات، فهم ينطقون بالقذف، ويشيرون بالأيدي إلى المقذوفات، ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف[(١)].

فيكون ذكر شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم؛ للتهويل عليهم، لعلهم يتقون ذلك الموقف فيتوبون؛ لأن شهادة الأعضاء على صاحبها من أحوال يوم القيامة الفظيعة، حيث يظهر من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

وتكون شهادة الألسنة يوم القيامة بنطقها من غير اختيار الإنسان، فاللسان في الدنيا آلة خاضعة لإرادة الإنسان أما في الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه؛ لأن صاحبه ليس له مراد يومئذٍ، فتتعطل إرادته وسيطرته على جوارحه كلها، فتنطق وتتحرك لا بإرادته، إنما بإرادة الله وقدرته، ولا يبعد أن يخلق الحياة والعقل والنطق في هذه الأعضاء، ثم يوجه السؤال عليها[(٢)].

فإن قلت: ما الحكمة في تسمية نطق اليد كلامًا ونطق الرجل شهادة في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]؟

فالجواب: إن اليد مباشرة، والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى، وقول الفاعل إقرار على نفسه بما فعل[(٣)]. والله أعلم.

موضوعات ذات صلة

الافتراء، التسبيح، الحمد، الذكر، الشكر، الصدق، العربية، الكذب، النعم

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٨٩١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٥٥.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٥/ ٢٥٢.

اللعب

عناصر الموضوع

مفهوم اللعب	٥٦
اللعب في الاستعمال القرآني	٥٧
الألفاظ ذات الصلة	٥٨
تنزيه الله تعالى عن اللعب	٦٠
أنواع اللعب	٦٣
وصف الحياة الدنيا باللعب	٦٨
من صور اللعب بالدين	٧٠
أسباب اللعب المحرم	٧٥
الموقف من اللاعبين بالدين	٧٩
علاج اللعب	٨٣

مفهوم اللعب

أولًا: المعنى اللغوي:

اللعب واللعب: ضد الجد، لَعِبَ يَلْعَبُ لَعِبًا ولَعْبًا، ولَعَّبَ، وتَلاعَبَ، وتلعب مرة بعد أخرى[(١)].

ويقال لكل من عمل عملًا لا يجدي عليه نفعًا: إنما أنت لاعبٌ[(٢)].

قال الراغب: (أصل الكلمة اللعاب، وهو البزاق السائل، وقد لعب يلعب لعبًا: سال لعابه، ولعب فلان: إذا كان فعله غير قاصد به مقصدًا صحيحًا، يلعب لعبًاواللعبة للمرة الواحدة، واللعبة: الحالة التي عليها اللاعب، ورجل تلعابةٌ: ذو تلعبٍ، واللعبة: ما يلعب به، والملعب: موضع اللعب)[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وردت تعاريف كثيرة ومتعددة للفظة (اللعب)، نذكر منها:

اللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع[(٤)].

اللعب ما يشغل الإنسان، وليس فيه منفعة في الحال ولا في المآل[(٥)].

اللعب عمل يشغل النفس وينفرها عما تنتفع به[(٦)].

اللعب: عملٌ أو قولٌ في خفةٍ وسرعةٍ وطيشٍ، ليست له غايةٌ مفيدةٌ، بل غايته إراحة البال، وتقصير الوقت، واستجلاب العقول في حالة ضعفها[(٧)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٧٣٩.
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٢٥٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٧٣٩، تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٢٠٩.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٤١.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٠٠، الدر المصون، السمين الحلبي ١/ ١٥٠.
(٥) فتح البيان، القنوجي ١٣/ ٧٩.
(٦) روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٥٠.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٩٣.

اللعب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (لعب) في القرآن الكريم (٢٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٩	﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:١٢]
المصدر	٨	﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام:٣٢]
اسم الفاعل	٣	﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء:١٦]

وجاء اللعب في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: ضد الجد[٢]، وهو أيضًا:كل فعل لا يدل على مقصدٍ صحيحٍ[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص١١٢٩.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٣٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٣٤.
(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٤٣١.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللهو:

اللهو لغة:

قال ابن منظور: (اللهو: ما لهوت به ولعبت به وشغلك من هوًى وطربٍ ونحوهما. واللهو: اللعب. يقال: لهوت بالشيء ألهو به لهوًا وتلهيت به إذا لعبت به وتشاغلت وغفلت به عن غيره. ولهيت عن الشيء، بالكسر، ألهى، بالفتح، لهيًا ولهيانًا إذا سلوت عنه وتركت ذكره وإذا غفلت عنه واشتغلت)[١].

اللهو اصطلاحًا:

هو الشيء الذي يتلذذ به الإنسان فيلهيه، ثم ينقضي[٢].

وقيل: هو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعنى[٣].

وقيل: هو صرف القلب إلى ما لا يحصل به نفع أخروي[٤].

الصلة بين اللهو واللعب:

اللعب تقديم شيء على غيره من غير إهمال للثاني إنما يأتي بعده، مثال ذلك من يقول: بعد هذا الشغل، أشتغل بالعبادة والآخرة.

وأما اللهو فالاشتغال بشيء إلى حد الاستغراق فيه والإعراض عن غيره، فالدنيا للبعض لهو يشتغل به، وينسى الآخرة بالكلية[٥].

وكلاهما فيه انشغال عن المهمات من الأعمال بأخرى ليست ذات أهمية.

وكلاهما يخلو من مقصد يحقق منفعة حقيقيةً في الحياة.

وآثارهما لا تدوم؛ بل هي سريعة الزوال.

٢ العبث:

العبث لغة:

يقول ابن فارس: (العبث، هو الفعل لا يفعل على استواءٍ وخلوص صوابٍ. تقول: عبث

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٥٨.
(٢) التعريفات، الشريف الجرجاني ص ١٩٤.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٩٠.
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٢٢١.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٧٩٩.

يعبث عبثًا، وهو عابثٌ بما لا يعنيه وليس من باله)[1].

وقد عبث يعبث عبثًا فهو عابث: لاعب بما لا يعنيه وليس من باله[2].

العبث اصطلاحًا:

أن تعبث بالشيء، وقيل: العبث: ما لا فائدة فيه يعتد بها، أو ما لا يقصد به فائدة[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن العبث هو الفعل الذي ليس فيه مصلحةٌ ولا منفعةٌ ولا فائدةٌ تعود على الفاعل)[4].

الصلة بين العبث واللعب:

العبث من مرادفات اللعب، ومعناهما متقارب جدًا، ولذا يفسر كل منها بالآخر.

٣ الرتع:

الرتع لغة:

قال الراغب الأصفهاني:(الرتع أصله: أكل البهائم، يقال: رتع يرتع رتوعًا ورتاعًا ورتعًا.

قال تعالى: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:١٢]، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير)[5].

الرتع اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الرتع واللعب:

أن كلًا منهما يدل على الحركة والنشاط والانبساط.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٥.
(٢) العين، الفراهيدي، ٢/ ١١١، تهذيب اللغة، الأزهري، ٢/ ١٩٩، تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٢٩٥.
(٣) تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٢٩٥.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٩٠.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٤١.

تنزيه الله تعالى عن اللعب

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان:٣٨].

قبل البدء بتنزيه الله عن اللعب، يجب علينا الحديث عن صفة الحكمة لله تعالى؛ لأن بإثبات هذه الصفة لله تعالى ننزهه عن اللعب والعبث.

والحكمة عبارةٌ عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم[(١)].

الحكمة عند العرب، هي ما منع من الجهل، وبذلك سمي الحاكم لمنعه الظالم[(٢)].

والحكيم: الذي لا يدخل تدبيره خللٌ ولا زللٌ[(٣)]. أو هو العالم بوضع الأشياء في مواضعها[(٤)].

والحكمة صفة من صفات الله عز وجل، لذلك فإن الله تعالى لم يشرع حكما من الأحكام، وما خلق شيئًا من المخلوقات إلا له فيها حكمة عظيمة وغاية نبيلة، وهذه الحكمة التي خلق الله تعالى لها الخلائق مذكورة في كثير من الآيات في كتاب الله الكريم سواء كان بصريح العبارة أو بالتضمين، وكذلك يدل عليها اسم الله: الحكيم.

فـ(الحكيم) اسم من أسماء الله الحسنى يدل على الكمال وأن الله تعالى لم يفعل فعلا، ولم يخلق خلقا إلا له فيه حكمة وغاية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقد أجمع المسلمون على أن الله موصوف بالحكمة، لكن تنازعوا في تفسير ذلك: فقال الأشاعرة والجهمية: الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده. ولم يثبتوا إلا العلم والإرادة والقدرة. وهم قد أطلقوا ألفاظها، ولكنهم لا يعنون بها معناها، بل يطلقونها لأجل مجيئها في القرآن. وهم يثبتون أنه مريد، وينكرون أن تكون له حكمة يريدها، وأنه لم يخلق شيئًا لشيء، وأنكروا الأسباب والطبائع والقوى الموجودة في خلق الله وأمره والحكم المقصودة بذلك. وقال أهل السنة: بل هو حكيم في خلقه وأمره. والحكمة ليست مطلق المشيئة، إذ لو كان كذلك، لكان كل مريد حكيمًا)[(٥)].

والحكمة تناقض العبث واللعب، وأصحاب العقول السليمة والفطرة يدركون أن الله الخالق الموصوف بالحكمة لا بد

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٤١٩.
(٢) مشارق الأنوار، القاضي عياض ١/ ١٩٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٧٨.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٤٩٤.
(٥) النبوات، ابن تيمية ٢/ ٩٠٤.

أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون، ووضع الإنسان فيه غاية وحكمة، وتعالت حكمته أن يكون خلق هذا كله عبثًا.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن تكوين العالم وخلق السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى مؤسس على الحكم والغايات، ولم يأت اعتباطا ولعبا ولهوا، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء:١٦]. يعني: ما خلقناهما عبثًا.

وفي آية أخرى يؤكد سبحانه على أن خلق السماوات والأرض لم يكن عبثا بل كان بالحق والجد، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان:٣٨-٣٩].

وقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية:٢٢].

وأشار سبحانه وتعالى إلى أن الذي لا يؤمن بالبعث والنشور شأنه شأن من لا يرى في خلق السماوات والأرض حكمة وغاية، حتى لو لم يصرحوا بأن الله خلقهما باطلا، ولكن لما أنكروا البعث والجزاء صار في ظنهم خلقهما باطلا، حيث قال جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٧- ٢٨].

وفي آية أخرى يذكر لنا أن في خلق السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته لمن كان ذا عقل ولب، من الذين يذكرون الله على كل حال، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض وعجائب صنع الله فيهما، فيقولون معتقدين ومعترفين: ربنا وخالقنا ما خلقت هذا الكون والخلائق باطلا وعبثا وخاليًا عن حكمة، أنت منزه من أن يكون خلقك وفعلك عبثًا.

فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩٠- ١٩١].

وقد وبخ الله منكري البعث والحساب على تماديهم في الغفلة، بأسلوب الاستفهام الاستنكاري، فإنه يلزم من إنكارهم البعث أن يكون خلق الناس مشتملًا على عبثٍ فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦].

ثم نفى عن نفسه العبث فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٦].

فالأدلة النقلية والعقلية تثبت بأن الله تعالى منزه عن اللعب والعبث واللهو والباطل.

وهنا قد ترد شبهة، وهي إن الله تعالى يذم الحياة الدنيا في كثير من الآيات، ويصفها بأنها لهو ولعب وزينة، ولا مَنْشِئ لها غيره سبحانه. فإن كانت الحياة الدنيا على هذا الوصف، وهي مخلوق لله تعالى، فكيف التوفيق بين هذا وبين كون الله تعالى لا يخلق عبثا؟

فالإجابة عن هذا من وجوه:

أولًا: على التقديم والتأخير مع الإضمار: كأنه قال: اعلموا أن مَثَلَ الحياة الدنيا وزينتها وتفاخرها وتكاثرها ولعبها ولهوها، كمثل الغيث أعجب الكفار نباته، ثم يصير إلى ما ذكر حتى لا ينتفع به؛ فهكذا هي حال الحياة الدنيا، والله أعلم.

ثانيًا: إنما الحياة الدنيا على ما هي عند كثير من الناس لهو ولعب و لأنهم لا يعرفون من الدنيا إلا التمتع والتزين والتفاخر والتكاثر، وكذا الذين لا يؤمنون بالبعث على ما يظنون أن الحياة الدنيا لم تكن إلا للإفناء والإهلاك، وعلى هذا الظن تكون لهوا ولعبا وعبثا، فأما الحياة الدنيا على ما هي عند أهل التوحيد فهي حكمة وحق وصواب، وارتقاء بسبب العبادة إلى المراتب العليا عند الله، والفوز بالجنة.

ثالثًا: لو أن الحياة الدنيا قوبلت بحياة الآخرة، لكانت عبثا ولهوا؛ لأن الدنيا بنيت على الفناء والانقطاع والزوال عن قريب، والآخرة على الدوام والبقاء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

فالآخرة باقية، والدنيا فانية. فالحياة الدنيا -مقارنة بالآخرة- قليل جدا، وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى هذه الحقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨].

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦].

وقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

[غافر:٣٩].

رابعًا: أو يقال: إن من جعل الحياة الدنيا للدنيا خاصة تكون لعبا ولهوا، ومن جعل الحياة الدنيا زادا للآخرة وبُلْغَةً إليها، فهي ليست بلعب، وهو ما قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:١١٧].

أخبر أن الإنفاق للدنيا كمثل ريح فيها صر - البرد الشديد-، شبه إنفاقهم بزرع اجتاحته جائحة أو أصابته ريح باردة فأهلكته.

وقال في النفقة التي تكون في الدنيا لحياة الآخرة: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

والله أعلم[1].

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٥٢٧-٥٢٨.

أنواع اللعب

أولًا: اللعب المباح

إن المتتبع والناظر في الآيات التي ذكر فيها (اللعب، ومشتقاتها)، يجد أن اللعب ليس بمذموم على إطلاقه، بل من اللعب ما هو مباح، كما في قوله تعالى، في قصة نبي الله يوسف عليه السلام، ذاكرا قول إخوة يوسف لأبيهم يعقوب عليه السلام وطلبهم منه أن يرسل معهم أخاهم يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:١٢].

فقد ذكر المفسرون أن المراد باللعب المذكور في هذه الآية هو اللعب المباح، وهو مجرد الانبساط لانشراح الصدر، والاستجمام ورفع السآمة، أو هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب ويتقوون به عليه، فقد كان أكثر لعب أهل البادية بالاستباق والانتضال والرمي بالعصى والسهام ونظائرها، مما يعد من باب التأهب للغزو أو رد العدو. بدليل: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف:١٧].

ولم يكن هذا من اللعب المحظور الذي هو ضد الحق وقرين اللهو، والدليل على ذلك: أن يعقوب عليه السلام لم ينكر عليهم لما قالوا: ونلعب-وفقا لقراءة أهل البصرة- وإنما سماه لعبًا؛ لشبهه به، وإنه في

صورته[1].

ونسبة اللعب -على جميع الاحتمالات- إلى يوسف لا حرج فيها؛ لأن يوسف حينها كان صبيا، ولم يكن نبيا بعد.

وفي السنة النبوية الشريفة ما يدل على اللعب أو اللهو المباح، فعن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل ما يلهو به الرجل المسلم باطلٌ، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق)[2].

وإنما أبيحت هذه الثلاثة الأنواع؛ لأن في هذه الثلاثة عونا على الدين وقواما له، فالرجل يرمي بقوسه؛ لئلا تذهب عادته للرمي، ولا يتشنج أعضاؤه ومفاصله وكتفاه، ويؤدب فرسه؛ لئلا يجمح، ولا يكون مستوليا على النزع منه.

ويتعلم الفروسية؛ لئلا ينقطع عنه شجاعته، ويكون جريئا ذا قلب. فإذا ترك ذلك ضعف قلبه وجبن.

ويلاعب أهله ليسكن ما به وبها. وهذا كله وإن كان مُلْهيًا، فهو في الأصل حق. وإنما رخص للمؤمن في التلهي بهذا؛ لأن قلبه في أثقال العظمة، فإذا دام عليه ضاق به والتمس تفريجا وتخفيفا، فيلجأ إلى هذه الأشياء التي هي في الأصل حق حتى يكون مزاجا للمؤمن[3].

وقد رأى جماعة من العلماء في مفهوم كلمة:(باطل)، في الحديث المذكور آنفا، أن الكلمة هذه لا تدل على تحريم ما سوى تلك الثلاثة، فقال ابن حجر العسقلاني:وإنما أطلق على ما عداها البطلان من طريق المقابلة، لا أن جميعها من الباطل المحرم[4].

وقال الهروي والمباركفوري: في معنى:(باطل): لا ثواب له)[5].

وقال الشوكاني:قال الغزالي: قلنا قوله صلى الله عليه وسلم: (فهو باطلٌ) لا يدل على التحريم، بل يدل على عدم فائدةٍ انتهى. وهو جوابٌ صحيحٌ؛ لأن ما لا فائدة فيه من قسم المباح، على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة وهم يرقصون في مسجده صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيح خارجٌ عن

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٤٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٢٤، تفسير العز بن عبد السلام ٢/ ١١١، غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٦٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الرمي، رقم ٢٥١٣، والنسائي في سننه، كتاب الخيل، باب تأديب الرجل فرسه، رقم ٣٥٧٨، والترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله تعالى، رقم ١٦٣٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) انظر: نوادر الأصول، الحكيم الترمذي ٤/ ٢٣٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٩١.

(٥) انظر: مرقاة المفاتيح، الهروي ٦/ ٢٥٠٢، تحفة الأحوذي، المباركفوري ٥/ ٢١٩.

تلك الأمور الثلاثة)[1].

و عن عطاء بن أبي رباحٍ قال: رأيت جابر بن عبد الله وجابر بن عميرٍ الأنصاريين يرميان قال: فأما أحدهما فجلس فقال له صاحبه: أكسلت؟قال: نعم فقال أحدهما للآخر: أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(كل شيءٍ ليس من ذكر الله فهو لعبٌ، لا يكون أربعةٌ: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعلم الرجل السباحة)[2].

وهناك أنواع من اللعب المباح، منها مثلًا: المسابقة، فقد سابق النبي صلى الله عليه وسلم عائشة مرتين، سبقته في الأولى وسبقها في الثانية، عن عائشة، رضي الله عنها، (أنها كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفرٍ قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني فقال: (هذه بتلك السبقة)[3].

وسابق النبي صلى الله عليه وسلم بناقته العضباء فسبقت، عن أنسٍ رضي الله عنه (كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقةٌ تسمى: العضباء، وكانت لا تسبق، فجاء أعرابيٌ على قعودٍ له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سُبِقَتِ العضباءُ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن حقًّا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه)[4].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في اللعب المباح كما رخص صلى الله عليه وسلم للحبشان، وأذن لعائشة النظر إليهم.

عن عائشة، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا فسمعنا لغطًا وصوت صبيانٍ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا حبشيةٌ تزفن والصبيان حولها، فقال: (يا عائشة تعالي فانظري). فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: (أما شبعت، أما شبعت). قالت: فجعلت أقول: لا؛ لأنظر منزلتي عنده إذ طلع عمر، قالت: فَارْفَضَّ الناس عنها. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر) قالت: فرجعت)[5].

(١) نيل الأوطار، الشوكاني ٨/ ١١٨.
(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، باب ملاعبة الرجل زوجته، رقم ٨٨٨٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣٣، رقم ٤٥٣٤.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٣/ ٣١٣، رقم ٢٦٢٧٧، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، بابٌ في السبق على الرجل، ٣/ ٢٩، رقم ٢٥٧٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٧٥، رقم ٢٣٤٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم ٦٥٠١.
(٥) أخرجه الترمذي، أبواب المناقب، باب في

ومن هنا يتبين لنا أن الإسلام أباح أنواع اللعب التي تفيد الذهن أو الجسم، أو ترفع عنهما السآمة والملل، أو تعيد إليهما النشاط والحيوية بشرط ألا تكون في هذا اللعب مخالفة شرعية أو إهدار للوقت فيما لا فائدة فيه، وأن لا يتضمن ضررا، ولا يكون فيه خسة ودناءة لا يليق بصاحب المروءة، ولا يشغل عن الواجبات والفرائض[1].

قال العيني: إذا لم يشغله، أي: اللعب عن طاعة الله يكون مباحا، وعليه أهل الحجاز. لا يرى أن الشارع أباح للجاريتين يوم العيد الغناء في بيت عائشة من أجل العيد، كما مضى في كتاب العيدين، وأباح لها النظر إلى لعب الحبشة بالحراب في المسجد؟[2].

ومن اللعب المباح الألعاب الرياضية التي تنشط البدن وتقوي الروح، وتساعد في علاج بعض الأمراض، بشرط أن لا تؤدي إلى إضاعة الصلاة أو أي فرض آخر، وأن لا تتسبب في حصول الحقد والكره والبغضاء والعداوة بين اللاعبين، وأن لا ينكشف فيها شيء من العورة، وأن لا تكون على عوض من مال، أو منفعة دنيوية.

قال ابن القيم الجوزية: والرياضة المعتدلة، هي التي تَحْمَرُّ فيها البشرة وتربو، و يتندى بها البدن، وأما التي يلزمها سيلان العرق فمفرطة. وأي عضو كثرت رياضته قوي فإن من استكثر من الحفظ قويت حافظته، ومن استكثر من الفكر قويت قوته المفكرة، ولكل عضو رياضة تخصه وأما ركوب الخيل ورمي النشب والصراع، والمسابقة على الأقدام، فرياضة للبدن كله، وهي قالعة لأمراض مزمنة، كالجذام، والاستسقاء، والقولنج[3].

اللعب الحرام:

الإسلام دين جاد، يريد من المسلمين أن يكونوا جادين في كل الأمور والشؤون، ولو تأملنا في أنواع اللعب التي أباحها الإسلام لرأينا أنها تحقق مقصدًا من مقاصد الشريعة، وحد الإسلام لها حدودها ضمن ضوابط وقواعد معينة، مثل: خلوها من المحرمات، وأن لا يفضي إلي ترك الواجبات، ولا إلى بث العداوة والكراهية والبغضاء والفساد، و فإذا أخل بهذه الضوابط والشروط تحول من الحل إلى الحرمة.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ

مناقب عمر بن الخطاب ٥/ ٦٢١، رقم ٣٦٩١.
قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ٨١٩.

(١) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٠٦، فقه السنة، سيد سابق ٣/ ٥١٤، الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٥/ ٢٦٨.

(٢) عمدة القاري، العيني ٢٢/ ٢٧٣.

(٣) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٨٦.

﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة:٦٥].

فيه إشارة إلى أن نوعا من اللعب يؤدي إلى الكفر، وهو اللعب على وجه الاستهزاء بالله وبالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم.

فقد روي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:٦٥].

قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وركبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا، فقال: (علي بهؤلاء النفر) فدعاهم فقال: (قلتم كذا وكذا؟) فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب[(١)].

يقول الفخر الرازي: (إِنَّهُ تعالى بين أن ذلك الاستهزاء كان كفرًا، والعقل يقتضي أن الإقدام على الكفر لأجل اللعب غير جائزٍ، فثبت أن قولهم: إنما كنا نخوض ونلعب ما كان عذرًا حقيقيًّا في الإقدام على ذلك الاستهزاء، فلما لم يكن ذلك عذرًا في نفسه نهاهم الله عن أن يعتذروا به؛ لأن المنع عن الكلام الباطل واجبٌ[(٢)].

فاللعب الذي يؤدي إلى الكفر أو ارتكاب محرمٍ، أو تضييع واجبٍ، يكون حراما، وسياق الآيات القرآنية التي وردت فيها مادة: (لعب) ومشتقاتها كلها وردت في سياق الذم والتقبيح إلا ما وردت في سورة (يوسف الآية:١٢)، وإن أغلبها مقترنة بألفاظ تدل على الذم مثل: اللهو، والهزء، والخوض.

عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كل ما يلهو به الرجل المسلم باطلٌ، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق)[(٣)].

قال الكاساني الحنفي: واللعب حرامٌ في الأصل إلا أن اللعب بهذه الأشياء صار مستثنًى من التحريم شرعًا، واستثنى الملاعبة بهذه الأشياء المخصوصة فبقيت الملاعبة بما وراءها على أصل التحريم[(٤)].

وقال الخطابي: إن جميع أنواع اللهو محظورة، وإنما استثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الخلال من جملة ما حرم منها؛ لأن كل واحدة منها إذا تأملتها وجدتها معينة على حق، أو ذريعة إليه، ويدخل في معناها ما كان من المثاقفة بالسلاح، والشد على الأقدام، ونحوهما مما يرتاض به الإنسان، فيتوقح بذلك بدنه، ويتقوى به

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٣٤..
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٩٥.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٠٦.

على مجالدة العدو. فأما سائر ما يتلهى به البطالون من أنواع اللهو كالنرد، والشطرنج، والمزاجلة بالحمام، وسائر ضروب اللعب، مما لا يستعان به في حق، ولا يستجم به لدرك واجب، فمحظور كله[1].

(١) معالم السنن، الخطابي ٢/ ٢٤٢.

وصف الحياة الدنيا باللعب

إن الله تعالى وصف الدنيا باللهو واللعب في كثير من الآيات، وبأسلوب القصر؛ ليُفْهِم الخلق أن الدنيا مهما تزينت لأصحابها، وطال عمر الإنسان فيها، ومهما اجتمع للإنسان فيها من أسباب الغنى والثروة، ومهما كثر متاعها وزخرفها، فهي لا تعدو أن تكون لهوا ولعبا، وأنها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وأن الدار الآخرة خير منها.

وقد اختلف العلماء في المراد من الحياة الموصوفة باللعب واللهو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام:٣٢].

على قولين:

الأول: المراد منها حياة الكافر والمشرك، لأن حياة المؤمن يكثر فيها الأعمال الصالحة ويتقرب فيها إلى الله تعالى فهي مزرعتها لآخرته، وعليها يثاب بأجزل الثواب، وأعظم الجزاء. ويقل فيها اللغو والباطل، فلا توصف حياته باللعب واللهو. وأما الكافر فإن كل حياته في الدنيا ويال عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد حياة أهل الشرك والنفاق[2].

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥١٥، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٠٨، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ١٠٦، غرائب القرآن،

والحياة في ذاتها غير مذمومة، بل في الحياة حكم عظيمة، يكفيها أنها من خلق الله، ليبلو بها بني آدم.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك:٢].

ومعلوم أن لله تعالى حكمة في خلق كل مخلوقاته، ولم يخلق عبثًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝١٦﴾ [الأنبياء:١٦].

فدل مجموع ما ذكرنا على أن الحياة الدنيا غير مذمومة على إطلاقها من غير قيد، بل المراد أن من لم يستخدم هذه الحياة الدنيا في طاعة الله، بل صرفها إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى فذاك هو المذموم[1].

ومن خلال استقراء كلمة اللعب في القرآن الكريم يتبين لنا أن حياة المؤمن التقي والعالم حياة جد وعطاء، وليس حياة لهو ولعب وغفلة وعبث. لننظر إلى الآيات التي ورد فيها وصف الحياة الدنيا باللعب واللهو، كيف يصف الدار الآخرة ويحدد أهلها، في إشارة إلى أن لكل منهما أهلها.

قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٣٢﴾ [الأنعام:٣٢].

وقال: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۝٣٦﴾ [محمد:٣٦].

وقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت:٦٤].

ففي هذه الآيات إشارة إلى أن المتقين والعالمين بالحقائق لا يعنيهم أمر اللعب واللهو في شيء، وأنهم بعيدون عنه كل البعد، وهم في طاعة مستمرة ابتغاء مرضاة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص:٥٥].

الثاني: أنها تشمل حياة المؤمن والكافر، فهي عامة؛ لأن الإنسان مسلمًا كان أو كافرًا، يلتذ باللعب واللهو، ثم عند انقضائه وانتهائه، تحصل له الحسرة والندامة؛ لأن اللذة الحاصلة من اللعب واللهو سريعة الزوال لا بقاء لها[2].

ووجه تسمية الحياة الدنيا باللعب واللهو؛ لأن مدتها قليلة سريعة الانقضاء والانتهاء، كمدة اللعب واللهو؛ ولأن الإنسان في كثير من الأحيان يقع في المكاره والمتاعب بسبب الانشغال باللهو واللعب،

النيسابوري ٣/ ٦٩.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥١٥.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ١٠٦، غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٦٩.

كذلك الحال لمن انشغل بملذات الدنيا. أو لأن اللعب واللهو إنما يحصل للصبيان والمغفلين. وأما العقلاء والنبلاء فقلما يحصل لهم خوضٌ في اللعب واللهو وكذلك الالتذاذ بطيبات الدنيا لا يحصل إلا للمغفلين الجاهلين بحقائق الأمور[1].

من صور اللعب بالدين

ذكرت في القرآن الكريم بعضا من صور اللعب بالدين. نذكر جلها ضمن النقاط الآتية:

أولًا: اللعب بالآيات:

قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله تعالى نبيه الكريم أن يذر ويترك الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، واغتروا بمباهج الحياة الدنيا وزخارفها ومتاعها ولذائذها، ووأمره أن يذكر الناس بالقرآن، كي لا ترتهن أو تحبس نفس بذنوبها وتصبح رهينة ما كسبت، في يوم ليس لها غير الله ناصر ينقذها من العذاب، ولا شافع يشفع لها عنده، ولا فدية تنفعها.

والأمر بترك هؤلاء يعني: عدم المبالاة بتكذيبهم واستهزائهم، أو هو تهديد لهم، فهو كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر:١١].

أو المراد به ترك معاشرتهم ومخالطتهم

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥١٥، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ١٠٦.

لا ترك الإنذار والتخويف؛ لأن هذا يناقض مهمة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾[1].

وفي المراد بدينهم الذي اتخذوه لعبا ولهوًا وجوه[2]:

أولًا: دين الإسلام، فإنهم كلفوا وأمروا به، فاستهزؤوا به.

ثانيًا: اتخذوا ما هو لعبٌ ولهوٌ من عبادة الأصنام وغيرها دينًا لهم.

ثالثًا: اتخذوا أعيادهم لعبًا ولهوًا.

رابعًا: الملة، أي ما يتدينون به وينتحلونه ويتقربون به إلى الله.

والذي يبدو لي أن تفسير الدين بالإسلام الذي أخذ جل تعاليمه وأحكامه من القرآن والذي كان المشركون يستهزؤن به، يتناسب مع سياق الآيات السابقة، فإن الله تعالى خاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم في حق الذين يخوضون في آيات الله من الكافرين والمشركين فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام:٦٨-٦٩].

ثم أمره بأن يذر الذين يتخذون دينهم لعبًا ولهوًا، وغرتهم الحياة الدنيا بزينتها، ثم أمره بأن يستمر بتذكير هؤلاء و غيرهم بالقرآن الكريم ولا يبالي باستهزائهم وتعنتهم.

وعلى هذا يكون المراد بالاسم الموصول (الذين) في قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ الكفار الذين يخوضون في آيات الله[3]:وقد قيل: إن الكفار كانوا إذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه[4]:

وقد فسر كل من الواحدي[5]، والبغوي[6]، وابن عادل [7]، والألوسي[8] قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ بالكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزؤوا بها وتلاعبوا عند ذكرها.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٦، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢٣، البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ١٣١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٩٥.

(٢) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي ٢/ ٥١٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٢٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢٣، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٤٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٩٥.

(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٥٠.

(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢٣، روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٥٠.

(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي ٢/ ٢٨٦.

(٦) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٣٣.

(٧) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢١٢.

(٨) روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٥٠.

يقول الخطيب الإسكافي: (فهؤلاء قوم حضروا النبي وسمعوا القرآن، وعبثوا عند سماعه ولعبوا بآياته، وأجروها مجرى أفعال يستروح إليها، ولا نفع في عقباها، ثم شغلوا بدنياهم عن تدبرها وألهتهم حلاوتها عن الفكر في صحتها)[1].

وأما كيفية اتخاذهم دينهم لعبًا ولهوًا فإنهم بنوا أمر دينهم على التشهي، وتدينوا بما ليس فيه فائدة ونفع، كعبادتهم للأصنام، أو أن أعمال دينهم لم تكن واقعة موقعًا مما يرضي الله تعالى. فكانت إما صرفًا للوقت فيما لا نفع فيه فيكون لعبًا، وإما شاغلة عن بعض الشؤون فيكون لهوًا[2].

ثانيًا: الشعائر الدينية:

ذكر الله سبحانه وتعالى نوعًا من اللعب الحرام، وهو اللعب والاستهزاء بالصلاة والنداء إليها، فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة:٥٨].

أي: إذا أذن المؤذن للصلاة، فسمعه الكفار استهزءوا به. وإذا رأوهم يصلون ورأوا ركوعهم وسجودهم استهزءوا بذلك أيضا. وكان استهزاؤهم بسبب كونهم قوم لا يعقلون، وإنما نفى عنهم العقل؛ لأن لعبهم واستهزاءهم هذا من أفعال السفهاء والجهلة، فكأنه لا عقل لهم، أو لأنهم لم ينتفعوا بعقولهم في أمور دينهم[3].

فقد أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن سفه الكافرين والمشركين فيما صنعوا من السخرية والاستهزاء حين سماعهم الأذان ومشاهدتهم الصلاة.

فقد ذكر المفسرون عددًا من الروايات في سبب نزول هذه الآية، منها:

عن السدي: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: «أشهد أن محمدًا رسول الله»، قال: «حرق الكاذب» فدخلت خادمةَ ذات ليلة من الليالي بنار، وهو نائم، وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله[4].

وقال الكلبي: كان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا وصلوا لا صلوا، ويضحكون على طريق الاستهزاء فأنزل الله هذه الآية[5].

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي ٢/ ٥١٨.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ١٣١، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٣٢.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٥٤٧، الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٥٠، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٥٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٣٢، تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٦٤.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢١٠، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٢٤، الدر

وقيل: كان المنافقون يتضاحكون ويتغامزون عند القيام إلى الصلاة تنفيرًا للناس عنها[1].

وقال آخرون: إن الكفار لما سمعوا الأذان حسدوا رسول الله والمسلمين على ذلك، فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئًا لم نسمع به فيما مضى من الأمم الخالية. فإن كنت تدعي النبوة فقد خالفت فيما أحدثت من هذا الأذان الأنبياء قبلك، ولو كان في هذا الأمر خير كان أولى الناس به الأنبياء والرسل قبلك، فمن أين لك صياح كصياح العنز؟ فما أقبح من صوت وما أسمج من أمر. فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

وهذه الآية توكيد للآية السابقة وبيان لمن اتخذ الدين هزوًا ولعبًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة:٥٧].

فقد بين استهزاءهم بحكم خاص من أحكام الدين، بعد ذكر استهزائهم بالدين بوجه عام[3].

وعلى هذا فتأخذ هذه الآية حكم سابقتها في عدم جواز موالاة من استهزأ بالأذان والصلاة، وعدم اتخاذهم أولياء؛ لأنهم بفعلهم هذا قد كفروا.

ثالثًا: الأنبياء وأتباعهم:

من صور اللعب بالدين هو الاستهزاء بالرسل وورثتهم من العلماء والدعاة، وهذه العادة قديمة معروفة عبر القرون.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر:١٠-١١].

أي: لقد أرسلنا قبلك رسلًا إلى أمم قد مضت من قبل، وما أتى رسولٌ أمةً إلا كذّبوه واستهزءوا به. فهذا دأب الأمم المكذبة لرسلها عبر التاريخ.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الاستهزاء بالرسل، منها: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام:١٠].

و﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر:١٠-١١].

المنثور، السيوطي ٣/ ١٠٧.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٢٤.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص ٢٠١، غرائب القرآن، نظام الدين النيسابوري ٢/ ٦٠٧.

(٣) انظر: تفسير السمعاني ٢/ ٤٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٥٣، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١٧٧.

و﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات:٥٢].

و﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف:١٠٦].

والرسل الكرام عليهم السلام تعرضوا للسخرية والاستهزاء، فصبروا وتحملوا، ولم يتركوا دعوة أقوامهم إلى الله تعالى، وكان نتيجة استهزاء هؤلاء الأقوام الهلاك والخسران.

واللعب على وجه الاستهزاء بالعلماء والقراء وأهل الخير والصلاح بمثابة الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، كما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة:٦٤-٦٥].

عن عبد الله بن عمر قال: (قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن. قال عبد الله ابن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة، وهو يقول: (يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب)، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم)[1].

ففي هذا بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها، أو بفعل يفعله، ومن ذلك الخوض واللعب في الباطل الذي يؤدي إلى الاستهزاء بالله والقرآن والرسول، وكذا المؤمنين على وجه العموم وأهل العلم على وجه الخصوص. وقد وصف الله من كان هذا شأنه بالمجرم، وأن عمله هذا يجعله كافرا، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين:٢٩-٣٤].

ومن الأدلة على أن الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين من شأن أهل النار، فعندما ينادي أهل النار قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون:١٠٧].

يقول الله تعالى جوابًا لهم: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٣٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٦٥.

عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١١].

فالاستهزاء بالمؤمنين لأجل إيمانهم، وبالعلماء لكونهم علماء يخدمون الشريعة الإسلامية، ومن أجل العلم الشرعي، فهذا كفر؛ لأنه استهزاء بدين الله تعالى.

وأخيرًا إن اللعب في الدين بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله، وورثة الرسول من العلماء والدعاة يوصل إلى الكفر، ولا يعذر فاعله.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥- ٦٦].

أسباب اللعب المحرم

نجمل فيما يأتي أهم أسباب اللعب كما تفهم من الآيات القرآنية:

١. الكفر.

من البدهي أن يكون الكفر سببًا من أسباب اللعب واللهو في الحياة الدنيا؛ لأن الكافر لا يؤمن بالآخرة، فلا يجهد نفسه في الطاعات والعبادات، ولا يمسك نفسه عن المحرمات، فما تشتهيه نفسه يفعله.

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩].

فالكافر يرى نفسه على الحق، وأن كفره بالله وباليوم الآخر هو عين الصواب، ومن يخالفه الرأي فهو جاهل أو مجنون أو مختل العقل، فيستهزيء بهم ويسخر منهم، وإذا قريء عليه القرآن أو دعي إلى الله اتخذها لعبًا وهزوًا، ويضحك منهم.

ويشير سبحانه وتعالى في القرآن الكريم

إلى وجود علاقة ظاهرة بين الكفر وبين اتخاذ الدين لعبًا ولهوًا.

قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

ففي صدر الآية يتحدث عن من يتخذ الدين لعبًا ولهوًا، والحال غرتهم الحياة الدنيا، يذكر أن الذين أسلموا أنفسهم للهلاك بسبب كسبهم في الاستخفاف بالدين واتخاذه لعبًا ولهوًا، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم.

وفي النتيجة: إن رسوخهم في الكفر أفسد فطرتهم حتى لم يبق فيهم استعداد للحق والخير[(١)].

٢. الجهل.

الجهل نقيض العلم، وقد جهله فلانٌ جهلًا وجهالة، وجهل عليه. وتجاهل: أظهر الجهل، والتجهيل: أن تنسبه إلى الجهل، والجهالة: أن تفعل فعلًا بغير العلم[(٢)].

والجهل سبب من أسباب اللعب في الحياة الدنيا، فالجاهل لا يفرق بين الحق والباطل، وبين النفع والضر، وبين الجد والهزل.

والجهل هو المصدر الرئيس لفساد العقيدة وفعل المعاصي.

قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤].

واللعب والهزء من أفعال الجاهلين، ألا ترى إلى جواب موسى عليه السلام لقومه في قصة ذبح البقرة؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧].

حيث نفى الهزء، بنفي الجهل عن نفسه. فلو كان من الجاهلين - حاشاه - لصدق عليه اتخاذهم هزوا.

ثم إن جهل الناس بحقيقة الحياة الدنيا، ونظرهم السطحي إليها، وإعجابهم بظاهرها، دون البحث عن ما فيه خير لهم، ومن غير التفكر في الآخرة، جعلهم يلعبون ويلهون ويعبثون.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم:٦-٧].

وقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

(١) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٦٣.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٢٩.

فالعالم يستغل الحياة الدنيا الفانية، للفوز بالنعيم المقيم في الحياة الباقية في الآخرة، فلا يريد أن تذهب لحظات عمره في الدنيا سدى، فالدنيا عنده مزرعة الآخرة. فلا يقبل أن يخسر الحياة الأبدية في الجنة، مقابل الحياة الفانية المنغصة في الدنيا. فهو يؤمن إيمانا جازمًا بما قاله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

فلا يبيع آخرته بدنياه، بعكس الجاهل.

إذًا فالذي يقضي حياته في اللعب واللهو والاستهزاء، فيخسر آخرته، لم يقع في هذا الجرم والإثم إلا عن جهل. وجهله هذا إما أن يكون من جهة المستهزأ به، بحيث لا يعلم ما يجب عليه من حق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام، من التعظيم والتبجيل. وإما أن يكون الجهل من جهة حكم اللعب والاستهزاء، فلا يدري أن فعله هذا ولعبه يخرجه عن دائرة الإسلام[١].

٣. الاغترار بالحياة الدنيا.

الاغترار: من غرر، انخدع بالشيء. وظن الشيء كما يتصوره لأمور فيه فإذا هو على غير ذلك[٢].

والتغرير: إيهام النفع والصلاح فيما هو ضرٌّ وفساد[٣].

قال الخليل الفراهيدي: (غرر بماله أي: حمله على الخطر. والغرور من غر يغر فيغتر به المغرور. والغرور: الشيطان. والغار: الغافل)[٤].

الاغترار بالحياة الدنيا سبب من أسباب اللعب، فينخدع الإنسان المغتر، ولا يجد في شيء ينتفع بها في الآخرة. فهمه الشاغل متع الدنيا وحطامها، وجمع المال بأية طريقة ووسيلة كانت. فيطمئن إلى الدنيا، وينسى حق الله عليه، فيلهو ويلعب كيفما شاء. وهذا الشأن يناقض الغاية التي خلق لها الإنسان.

لذلك حذر الله عباده من أن ينخدعوا ويغتروا بالحياة الدنيا، وخوفهم من أن يكونوا من أصحاب النار، يوم لا يجدون من دون الله وليًا ولا شفيعًا.

قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

(١) الاستهزاء بالدين أحكامه وآثاره،أحمد بن محمد القرشي ص٨٩-٩١.
(٢) معجم لغة الفقهاء، القلعجي والقنيبي ص ٧٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٥٨.
(٤) العين، الفراهيدي ٤/ ٣٤٦.

قال الشيخ الشعراوي: (وقوله الحق: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ هو تصوير لا يوجد أبرع منه؛ لأنهم أصحاب العقول التي تغتر بالحياة الدنيا فهي عقول تائهة، فالعقل الناضج يفهم الدنيا على أنها أقل شأنًا من أن تكون غاية، ولكنها وسيلة أو مجال وطريق ومزرعة إلى الآخرة)[1].

كما أن الاغترار بالحياة الدنيا يجعل الإنسان يتعدى حدود الله، وينسى مراقبة الله لعباده، فلا يرتدع عن معصية، ويجحد نعم الله وفضله عليه، فيهلك.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف:٥٠-٥١].

وضرب تعالى المثل في قصر عمرها وزوالها، بل وخيبة آمال أهلها، كي لا تغرهم الحياة الدنيا، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٣-٢٤].

(١) تفسير الشعراوي ٦/ ٣٧١٢.

الموقف من اللاعبين بالدين

نستنتج من الآيات القرآنية التي تحدثت عن اللعب، أن الموقف من اللاعبين ينبغي أن يكون في الخطوات الآتية:

أولًا: إقامة الحجة وقطع المعذرة:

إن الله تعالى يحيي الناس ويبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء، وإنه يسألهم عن الصغيرة والكبيرة ولا يعزب عنه شيء.

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس:٥٤].

فميزان يوم القيامة ميزان عدل وقسط. ولا يظلم أحد يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء:٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

ومن العدل إرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الوحي، وتبليغ الناس شرع الله، وإقامة الحجة عليهم.

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء:١٦٥].

وبالتبليغ وإقامة الحجة يزال ويزاح كل علة، فلا يبقى أي عذر للمخالفة والتقصير والتكذيب والغفلة؛ لذا فمن خالف حكم الله تعالى وقصر فلا يلومن إلا نفسه، فيكون ما يلاقي من العذاب في الآخرة عدلًا، ولا يكون ظلمًا؛ لأنهم بلغوا وأخبروا، فكذبوا واستهزءوا وخاضوا ولعبوا، فاستحقوا جزاءهم.

فالله سبحانه وتعالى حين يصف الحياة الدنيا باللعب واللهو، وأنها زينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد:٢٠].

وأنها متاع الغرور ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

وأن متاعها قليل، وأن الحياة الآخرة أفضل وأحسن من الحياة الدنيا ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء:٧٧].

وتشبيه الحياة الدنيا بالغيث ينبت به الزرع، وما يجري على الزرع من التحولات

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد:٢٠].

وفي هذه الآيات إشارة إلى إقامة الحجة، وإذا كانت الدنيا بهذه الصفات فلا تستحق الاغترار بها، ولا يحق التساهل في حق الآخرة والعمل لها.

ثانيًا: تركهم في خوضهم يلعبون:

إن الذي يلعب بالدين ويستهزئ به لابد أن يؤدب، ولا يجوز معاونته ومساعدته على الاستمرار في عمله هذا، ويجب تحقيره حتى يعرف قدره.

والله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه العزيز كيفية التعامل مع الذين يخوضون في آيات الله ويلعبون بالدين وبشعائر الإسلام، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

فالله سبحانه يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعرض عن المشركين إذا رآهم يخوضون في آيات الله بالباطل والتكذيب واللعب والاستهزاء، ويترك مجلسهم؛ احتقارا لهم واستنكارا لأفعالهم، وهذا الإعراض لأجل أن يتركوا الخوض في آيات الله، ويتحولوا إلى الخوض في مسائل أخرى. ثم يأمره بأنه إذا أنساه الشيطان ما أمر به من الإعراض عن المشركين وترك مجالستهم، فليبادر بالصرف عنهم حين تذكر الأمر.

وقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

وهذا خطاب آخر للنبي صلى الله عليه وسلم بترك الغافلين الذين اتخذوا دينهم الذي كلفوا به لهوًا ولعبًا، حيث كانوا يستهزئون بتعاليمه وأحكامه ويكفرون به. وكانوا منشغلين بزخارف الدنيا واغتروا بالحياة القليلة، ثم أمر نبيه أن يذكر هؤلاء وغيرهم بالقرآن الكريم.

والأمر بتركهم ليس المراد به ترك إنذارهم، وترك دعوتهم للإيمان، وإنما المراد به ترك مجالستهم ومعاشرتهم وملاطفتهم[1].

وأعاد سبحانه وتعالى نهيه عن مجالسة المستهزئين في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٢٣.

[النساء:١٤٠].

وفي هذه الآية إشارة إلى ما جاء في سورة الأنعام، الآيات (٦٨-٧٠).

قال أبو السعود:(﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقت لتعليل النهي أي: لا تقعدوا معهم في ذلك الوقت، إنكم إن فعلتموه كنتم مثلهم في الكفر واستتباع العذاب وإفراد المثل)[1].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: (وسبب هذا النهي أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم وإغراء لهم بالتمادي فيه، وأكبره أنه رضاء به ومشاركة فيه، والمشاركة في الكفر والاستهزاء كفر ظاهر لا يقترفه باختياره إلا منافق مراء أو كافر مجاهر)[2].

ثالثًا: عدم اتخاذهم أولياء:

الولي: ضد العدو. يقال منه: تولاه. والمولى: المُعْتِقُ، والمُعْتَقُ، وابن العم، والناصر، والجار، والموالاة: ضد المعاداة. والولاية بالكسر: السلطان. والولاية: النصرة. يقال: هم على ولاية، أي: مجتمعون في النصرة[3].

فكلمة الولي تأتي بمعنى المتولي للأمور المتصرف فيها، وتأتي بمعنى الناصر والخليل والمحب، فهي لفظ مشترك ولا يمكن تحديد المراد من معنى اللفظ المشترك إلا بقرينة تدل عليه، ويمكن ذلك بالرجوع إلى سياق الجملة، كما في معنى (أولياء) في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة:٥٧-٥٨].

وكذا كل ما ورد في القرآن الكريم من النهي عن موالاة الكافرين وأهل الكتاب، جاءت كلها في الموالاة التي ضد الكره، أي أنها جاءت بمعنى النصرة والمحاباة والمعونة.

فنجد أن الله تعالى ينهى المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب والكفار أولياء وحلفاء وأنصارًا، يحبونهم ويتولونهم، مع أن هؤلاء يتخذون دين الإسلام هزوًا ولعبًا، ويسخرون من القرآن والرسول والمؤمنين، كما يسخرون من الأذان والصلاة ويتمنون زوال الإسلام. فكيف يصلح للعاقل أن يقابل كل هذه العداوة والكره والسخرية والاستهزاء واللعب بالموالاة لهم وحبهم ونصرتهم؟!

قال ابن عاشور: (فالذي يتخذ دين امريء هزوًا، فقد اتخذ ذلك المتدين هزوًا،ورمقه

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٤٥.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢١.
(٣) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٥٢٩.

بعين الاحتقار؛ إذ عد أعظم شيء عنده سخرية، فما دون ذلك أولى. والذي يرمق بهذا الاعتبار ليس جديرًا بالموالاة؛ لأن شرط الموالاة التماثل في التفكير؛ ولأن الاستهزاء والاستخفاف احتقار، والمودة تستدعي تعظيم الودود)[1].

واتخاذ أهل الكتاب والكفار أولياء مسألة في غاية الخطورة، فمن الجانب العقائدي أن موالاتهم يؤدي إلى الكفر، ويحسب الإنسان منهم، وحسابه كحسابهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [المائدة:٥١].

ومن الجانب الدنيوي، فإن الإنسان إذا اتخذ الكفار أولياء وأحباء، حينئذ يكون مطيعًا لأوامرهم، غير معترض لأفعالهم وأقوالهم، بل يكون مؤيدًا لهم ومدافعًا عنهم، وناصرهم ومعينهم على الإسلام وأهله، من حيث يدري أو لا يدري.

وقال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران:٢٨].

ومعنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون، الكفار ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾،يعني بذلك: فقد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل[2].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٤١.

(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ٣١٣.

علاج اللعب

بما أن الانشغال بالدنيا فوق الحد اللازم مذموم، وخاصة إذا كان على حساب الآخرة. وأنه ربما ينسيه حق الله تعالى، فيترك الواجبات الدينية أو يقصر فيها، ويقع في المحرمات طلبا لزيادة المال والجاه والشهوات، فلابد من علاج لهذه الآفة، وهذا الغرور. ويمكن لنا أن نستنتج من الآيات التي فيها ذكر اللعب بعضًا من تلك العلاجات، منها:

أولًا: الإيمان والتقوى:

إن لإيمان المرء وتقواه الأثر الكبير الفعال في تنبيه الناس من غفلة اللعب واللهو في الحياة الدنيا، فالمرء كلما كان إيمانه متينا وتقواه كثيرا ازداد من الله تقربًا، ولا يتقرب العبد من ربه إلا بما يرضى به الله تعالى من الأعمال والأقوال وصالح النيات، فينشغل بها، ويبتعد عن كل ما يلهيه ويشغله عن ذكر الله وعن الطاعات. فهو يجد لذته في العبادات، وتضيق صدره بالمعاصي والذنوب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ [محمد:٣٦].

فبعد أن أمر الله المؤمنين بالاستمرار في الجهاد ومقاتلة الأعداء نصرة للإسلام، وحثهم عليه بأن الله معهم بنصره فينتصرون، وأن المؤمنين هم الأعلون، فليس من الحق أن يطلبوا الصلح والهدنة مع العدو؛ خوفًا على الحياة الدنيا ولذاتها. فبين لهم حقيقة الدنيا بأنها كاللهو واللعب في سرعة زوالها، وانقضاء آجالها، وانتهاء لذاتها، فهي مشغلة عن صالح الأعمال، فلا ينبغي الحرص عليها، وترك الجهاد من أجلها، وترك الصدقات والإنفاق في سبيل الله حرصًا على جمع المال. فإن الجهاد والإنفاق في سبيل الله زاد يبقى للمؤمن المتقي، المؤمن بالله الذي لا يخفى عليه شيء، وهو خير ثوابا ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

والمتقي الذي يقف عند حدود الله، ويرجو رحمة ربه ويخاف عذابه، فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يغير حال الحياة الدنيا من اللعب واللهو إلى الجد. فالمؤمن المتقي لا يرى في جهاده وإنفاقه خسارة وإضاعة نفس ومال، وإنما ذلك عنده التحويل إلى دار مستقره، فيجده عند الله. والله تعالى يؤتيه أجره بأحسن ما كان يعمل.

إن الذي يقضي حياته الدنيا باللهو واللعب لا ينبغي أن يوصف بالتقوى، فالمتقي يعمل بجد وإخلاص، والعمل بهذه الصفة يكون مقبولًا عند الله ويجزي عامله

خير الجزاء، فتكون الدار الآخرة خيرًا له من الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

ثانيًا: تذكر نعيم وعذاب الآخرة:

ومن الأسباب المانعة لاتخاذ الحياة الدنيا لعبًا ولهوًا تذكر نعيم وعذاب الآخرة، حيث إن الإنسان إذا تفكر في نعيم وثواب من صبر عن الحرام، ولم يقض أوقاته في اللهو واللعب، فإنه ينال رضا الله ورضوانه والفوز بالجنة، حينئذ يستقيم أمره وحاله، كما لو تفكر في مصيره يوم القيامة لو قضى أوقاته في اللعب واللهو، وأنه سيحاسب على تفريطه وإفراطه، وأنه يسأل عن عمره في الحياة الدنيا كيف قضاه وفيم أفناه، يرتدع ويرجع إلى الصواب ولا يضيع أوقاته في ما لا فائدة فيه، وفيما لا يرضي الله تعالى.

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه)[1].

وفي القرآن الكريم تخويف لمن أضاع حياته الدنيا باللهو واللعب.

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

فبعد أن وصف الله تعالى الحياة الدنيا بما وصف بها في الآية الكريمة، وشبهها بالغيث المطر الذي أعجب الزراع والفلاحين نباته، ثم يهيج ذلك الزرع فيكون مصفرًا، ثم يكون يبسًا متحطمًا، كذلك حال الإنسان في الدنيا ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٤].

ولما ذكر هذا المثل الدال على زوال الدنيا، وعلى أن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾. ففي الآخرة عذاب شديد لمن لم يعمل لها، ومغفرة من الله ورضوان لمن استعد لها، وأطاع الله تعالى[2].

وفي أخرى يأمر الله نبيه صلى الله عليه

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب في القيامة، ٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٧.
قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٢١، رقم ٧٣٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٤.

وسلم أن يترك الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا على وجه التهديد لهم، فإنهم سيلقون مصيرهم السيء.

قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

وقال: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف:٨٣].

وفي سورة الأعراف يذكر الله سبحانه حال الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبًا وغرتهم الحياة الدنيا ونسوا اليوم الآخر، فلم يعملوا لها، أنه سبحانه يتركهم في جهنم يعذبون فيها.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف:٥١].

قال الرازي: والأظهر أن حمل النسيان على الترك مجاز؛ لأن المنسي يكون متروكًا، فلما كان الترك من لوازم النسيان أطلقوا اسم الملزوم على اللازم[(١)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٦٣٧.

ثالثًا: فقه الأولويات:

قال الكفوي: (الأولى: بالفتح واحد الأوليان، والجمع الأولون، والأنثى الوليا، والجمع الوليات

والأولى: يستعمل في مقابلة الجواز، كما أن الصواب في مقابلة الخطأ

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فويل لهم، دعاء عليهم بأن يليهم المكروه، أو يؤول إليه أمرهم)[(٢)].

قال محمد الوكيلي في تعريف فقه الأولويات: (فقه بأحكام الشرع ومراتبها، وبالأهم منها من المهم، وبالقطعي منها من الظني، وبالأصل منها من الجزء، وبالكبير منها من الصغير)[(٣)]. ويمكن القول بأنه: العلم بالأحكام التي لها حق التقديم على غيرها، فيقدم الأهم على المهم والأحسن على الحسن، بناءً على العلم بمراتبها.

ومن هذا المنطلق نجد أن الله تعالى ذكر الحياة الدنيا مع الآخرة في آيات كثيرة في القرآن الكريم، ويفضل الآخرة على الدنيا بلفظ صريح أو ضمني. فتقديم الآخرة على الدنيا يندرج تحت مصطلح فقه الأولويات.

والمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

(٢) الكليات، أبو البقاء الكفوي ص ٢٠٨.
(٣) فقه الأولويات دراسة في الضوابط، محمد الوكيلي ص ١٦

فلو نظرنا إلى الآية الكريمة بتدبر وتفكر، نرى أن الله تعالى فضل الآخرة على متاع الدنيا فقط لمن اتقى. وقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى:٣٦].

ولا يدرك هذه الخيرية إلا أصحاب العقول وأولو الألباب. فخيرية الآخرة من وجوه كثيرة، منها: إن نعم الدنيا قليلة ونعم الآخرة كثيرة، ومتاع الدنيا زائل، لكن متاع الآخرة دائم، الدنيا فيها ما ينغصها من الآلام والأوجاع والغم والهم، لكن الآخرة لا تنغيص فيها، إن نعم الدنيا مشكوكة، فلا يعلم أحد ماذا يكون حاله بعد ساعات، ونعم الآخرة يقينية، الدنيا دار بلاء والآخرة دار جزاء، وغير ذلك من الفوارق[1].

يقول عبدالرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

(يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات،ثم تزول سريعا، وتنقضي جميعًا، ولم يحصل منها محبها إلا على الندم والحسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة، فإنها دار ﴿الْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة؛ لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودًا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا؛ لما يعلمونه من حالة الدارين)[2].

موضوعات ذات صلة:

الأسرة، الحدود، النساء، النكاح

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٥.

اللعن

عناصر الموضوع

مفهوم اللعن	٨٨
اللعن في الاستعمال القرآني	٨٩
الألفاظ ذات الصلة	٩٠
اللاعنون في القرآن	٩٢
الملعونون في القرآن الكريم	١٠١
أسباب اللعن	١١٤
الملاعنة بين الزوجين	١٢٤
آثار اللعن في الدنيا والآخرة	١٢٦

مفهوم اللعن

المعنى اللغوي والاصطلاحي:

أولًا: المعنى اللغوي:

يقول ابن منظور: «اللعن: الإبعاد والطرد من الخير، وقيل: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء، واللعنة الاسم، والجمع لعانٌ ولعناتٌ، ولعنه يلعنه لعنًا طرده وأبعده»[(١)].

ويقول الزمخشري: «لعنه أهله: طردوه وأبعدوه، وهو لعين طريد، ولعنت الكلب والذئب: طردتهما، ومن المجاز: أبيت اللعن، وهي تحية الملوك في الجاهلية»[(٢)].

فأصل اللعن في اللغة الإبعاد، ويطلق على التعذيب والشتم والسب، ومنه الملاعنة واللعان وهو المباهلة، والملعنة قارعة الطريق ومنزل الناس، وفي الحديث: (اتقوا الملاعن)[(٣)]، يعني: عند الحدث، وتلاعنوا: لعن بعضهم بعضًا، ومنه اشتقاق ملاعنة الرجل امرأته، والحاكم يلاعن بينهما ثم يفرق[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن تيمية: «اللعن: الإبعاد عن الرحمة»[(٥)].

وقال الغزالي: «اللعن: عبارة عن الطرد والإبعاد عن الله تعالى»[(٦)].

---

(١) لسان العرب ٥/ ٤٠٤٤.

(٢) أساس البلاغة، ص ٥٦٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنه، ١/ ٢٩٩، رقم ٢٧١٥، وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن البول فيها، رقم ٢٦، ١/ ١١. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٨٣، رقم ١١٢.

(٤) انظر: العين، الفراهيدي، ٢/ ١٤١، مختار الصحاح، الرازي، ص٦١٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٤/ ٢٦٩.

(٥) الصارم المسلول على شاتم الرسول ٢/ ٨٧.

(٦) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٣.

اللعن في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ل ع ن) في القرآن الكريم (٤١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٧	﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ [الأحزاب:٦٤]
الفعل المضارع	٥	﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء:٥٢]
فعل الأمر	١	﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب:٦٨]
المصدر	١	﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب:٦٨]
اسم مرة	١٤	﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨]
اسم فاعل	١	﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة:١٥٩]
اسم المفعول	٢	﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب:٦١]

وجاء اللعن في القرآن بمعناه في اللغة وهو: الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٤٩-٦٥٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٧٤١.

الألفاظ ذات الصلة

١ السب والشتم:

السب لغة:

القطع؛ يقال: سبه سبًا بمعنى قطعه، والتساب التقاطع، والسب الشتم، مصدر سبه يسبه سبًا: شتمه[١].

الشتم لغة:

قبيح الكلام، والشتم السب، والشتم تقبيح أمر المشتوم بالقول، وأصله من الشتامة، وهو قبح الوجه، ورجل شتيم أي: قبيح الوجه، وسمي الأسد شتيمًا لقبح منظره[٢].

وبذلك فإن السب والشتم مترادفان؛ إلا أن السب أشد من الشتم؛ لأن السب هو الإطناب في الشتم، والإطالة فيه[٣].

السب والشتم اصطلاحًا:

«وصف الغير بما فيه نقص وازدراء»[٤].

الصلة بين السب واللعن:

من خلال التأمل في المعاني السابقة لكلا اللفظين يتبين أن اللعن أشد من السب والشتم؛ لأن اللعن ليس مجرد تقبيح بالكلام؛ بل هو دعاء على الملعون بالطرد من رحمة الله عز وجل، وكذلك فإن السب يشمل اللعن ويشمل الشتم والتقبيح، فالسب أعم من اللعن.

٢ البعد:

البعد لغة:

البعد والبعاد: اللعن، يقال: أبعده الله: بمعنى نحاه عن الخير ولعنه[٥].

البعد اصطلاحًا:

بمعنى الهلاك والعذاب والطرد واللعن[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٩٠٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢١٩٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٩٤.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص١٦٥.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٤٢.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٤٤.

الصلة بين البعد واللعن:

البعد في الأغلب يحمل نفس المعنى الذي يحمله اللعن من الطرد من رحمة الله عز وجل ؛ إلا أن البعد يأتي أحيانًا بمعنى: الهلاك، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠][(١)].

٣ السحق:

السحق لغة:

البعد، وقد سحق الشيء فهو سحيق أي: بعيد، وسحقه الله أي: أبعده، ومكان سحيق أي: بعيد[(٢)].

السحق اصطلاحًا:

الهلاك والبعد من رحمة الله عز وجل[(٣)].

الصلة بين السحق واللعن:

لا يظهر فرق بين بين السحق واللعن؛ فكلاهما إبعاد عن رحمة الله عز وجل وعن الخير؛ إلا أن اللعن أكثر استعمالًا في القرآن الكريم، وفي كلام الناس أيضًا، وكذلك فإن السحق هو مطلق الإبعاد، أما اللعن فهو خاص بالإبعاد عن رحمة الله عز وجل .

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٥٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٩٥٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥١٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢١٣.

اللاعنون في القرآن

إنه من خلال الوقوف على الآيات التي ورد فيها اللعن في الكتاب العزيز، نجد أن أغلب الآيات في ذلك قد أخبرت بأن اللعن كان من الله عز وجل على من استحقه من خلقه، وفي بعض المواضع أخبرت الآيات بأن اللعن كان من غير الله عز وجل ؛ حيث إن بعض الآيات أخبرت عن اللعن الصادر من الملائكة، أو من بعض الأنبياء، أو من الناس، أو من المؤذن بين الجنة والنار، وسنقف في السطور الآتية بإذن الله على بيان من صدر منهم اللعن (اللاعنين) في القرآن الكريم.

أولًا: اللعن من الله تعالى:

لقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز عن لعنته لبعض خلقه؛ لأنهم قد اقترفوا ما استحقوا به لعنة الله عز وجل عليهم، ومعنى لعنة الله عز وجل لهؤلاء: أنه سبحانه أقصاهم وأبعدهم، وأخزاهم وأهلكهم، وطردهم من رحمته ومن توفيقه وهدايته ومن كل خير[1].

ومن خلال تتبع الآيات التي أخبر سبحانه فيها عن لعنه لبعض خلقه نجد أن الله عز وجل قد لعن من خلقه الآتي:

١. إبليس الرجيم.

حيث أخبر سبحانه عن لعنته لإبليس، وذلك في ثلاثة مواضع من الكتاب العزيز[2]، وأخبر سبحانه بأن إبليس استحق اللعن حينما عصى أمر الله عز وجل بالسجود لآدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٣٥].

٢. كفار اليهود.

وهم أكثر الملعونين نصيبًا من لعنة الله عز وجل لهم في القرآن الكريم؛ حيث أخبر الله عز وجل -في غير موضع من الكتاب العزيز- عن لعنه لطوائف من اليهود؛ وذلك بسبب ذنوبٍ عظام قد اقترفوها في حق الله سبحانه ؛ كاستكبارهم عن قبول

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٢٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٧٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٦.

(٢) هذه المواضع هي: النساء: ١١٨، الحجر ٣٥، ص: ٧٨، وسيأتي ذكر هذه المواضع بإذن الله عند الحديث عن الملعونين في القرآن الكريم.

الحق، وتعاليهم عن الاستجابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباع هديه، قال تعالى مخبرًا عمن فعل ذلك من اليهود: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

لقد استحق أولئك اليهود لعنة الله عليهم إذ رفضوا الحق، وكفروا بكتاب الله عز وجل ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

والآيات التي أخبر الله عز وجل فيها عن لعنته لكفار اليهود كثيرة، وسيأتي ذكر تتمتها إن شاء الله تعالى.

٣. الكافرين والمنافقين.

حيث أخبر سبحانه عن لعنته للكافرين والمنافقين في العديد من آيات الذكر الحكيم، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

٤. المؤذين لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ويدخل في هؤلاء اليهود والنصارى الذين نسبوا لله سبحانه الولد، وافتروا عليه ما لا يليق بجلاله سبحانه، ويدخل فيهم كذلك المشركون الذين افتروا على الله الكذب، ونسبوا له الشريك تعالى الله عن كذبهم علوًا كبيرًا، ويدخل فيهم أيضًا كل من افترى على الله الكذب من مدعي النبوة وغيرهم، وكل من آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول أو الفعل[(١)].

ولقد أخبر الله عز وجل عن لعنته لأولئك المجرمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

٥. من اقترفوا كبائر الذنوب.

فقد أخبر الله سبحانه عن لعنته لقاتل النفس المؤمنة عمدًا، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وأخبر سبحانه عن لعنته للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٧٥، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٤٠.

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وكذلك أخبر سبحانه عن لعنته لقاطعي الأرحام، المفسدين في الأرض، فقال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢ - ٢٣].

ثانيًا: اللعن من الملائكة عليهم السلام:

أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز عن لعنة الملائكة للكافرين، وورد ذلك صريحًا في موضعين من الكتاب العزيز، وفي كلا الموضعين ورد ذكر لعنة الملائكة لأولئك الكافرين مقرونةً بلعنة الله عز وجل ولعنة الناس أجمعين لهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٥ - ٨٨].

وهناك آية أخرى في كتاب الله عز وجل ذكرت لعنة الملائكة لأشد الناس ظلمًا، وهم الذين افتروا على الله الكذب.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨، ١٩].

فالمقصود بالأشهاد هنا -حسب أشهر أقوال المفسرين فيها- ملائكة الرحمن، يشهدون على أولئك المجرمين بأنهم كذبوا وافتروا على الله عز وجل، فاستحقوا بذلك أن تحل عليهم لعنة الله سبحانه ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ولعنة الملائكة لهؤلاء إنما تكون بالدعاء عليهم، فكما أن الملائكة يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم، فإنهم يلعنون الكافرين ويدعون عليهم بسخط الله عز وجل وعذابه والطرد من رحمته[1].

والملاحظ أن الملائكة في الآيات السابقة إنما كانت لعنتهم على أقوام كفار، كفروا بربهم عز وجل، وليس بعد الكفر ذنب، ولعل الحكمة من قرن لعنة الملائكة للكافرين مع لعنة الله عز وجل لهم لبيان

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٣٤٢.

شدة قبح صنيعهم، فهم شر الناس؛ لأنهم كفروا بعد أن آمنوا وشهدوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم حق من عند الله عز وجل، وجاءتهم الآيات البينات من الله عز وجل، ولكنهم -مع كل ذلك- أصروا على الكفر وماتوا وهم كفار فاستحقوا أن تجتمع عليهم لعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين مع لعنة الله عز وجل لهم، نعوذ بالله عز وجل من الكفر والظلم والضلال.

ثانيًا: اللعن من الرسل عليهم السلام:

ليس في كتاب الله عز وجل ذكرٌ صريح للعن الأنبياء والرسل لأحد من أقوامهم؛ إلا آية واحدة ذكر الله عز وجل فيها لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود عليه السلام وعيسى ابن مريم عليه السلام، وتلك الآية هي قول الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على نبيه داود عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك بسبب عصيانهم لله سبحانه، واعتدائهم على خلقه، قال العوفي: عن ابن عباس رضي الله عنه: لعنوا في التوراة، والإنجيل، وفي الزبور، وفي الفرقان»[(١)].

فلعن داود وعيسى عليهما السلام للذين كفروا من بني إسرائيل هو ما أنزله الله عز وجل من لعنتهم في الزبور والإنجيل، فالله سبحانه لعن هؤلاء الكافرين من بني إسرائيل في هذين الكتابين المنزلين منه سبحانه على نبيين من أنبيائه الكرام[(٢)].

والرسل والأنبياء عليهم السلام هم من الأشهاد الذين يشهدون على الخلائق يوم القيامة، ويلعنون الكفار الذين افتروا على الله عز وجل الكذب.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

فقد ذكر المفسرون في معنى الأشهاد أن الأنبياء يدخلون في ضمنهم.

والملاحظ أنه ليس في كتاب الله عز وجل ما يدل على أن الرسل والأنبياء عليهم السلام كانوا يلعنون أقوامهم؛ وإنما بين كتاب الله عز وجل دعوة الرسل والأنبياء لأقوامهم بأحسن طريقة وأتم أسلوب، دعوا أقوامهم بالحكمة والموعظة الحسنة، باللين والرفق والرحمة، وفي هذا درس للدعاة

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٠٠.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٩٦.

جميعًا بالبعد عن اللعن والسب والشتم في مخاطبتهم لعباد الله عز وجل، فالداعي رسول رحمة وهداية، وليس فظًا لعانًا.

ثالثًا: اللعن من الناس أجمعين:

أخبر الله عز وجل بلعنة الناس أجمعين للكافرين، وذلك في موضعين من كتاب الله عز وجل، وفي كلا الموضعين قرنت لعنة الناس للكافرين بلعنة الله عز وجل ولعنة ملائكته لهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٥-٨٨].

ففي الآيتين السابقتين أخبر الله عز وجل أن الناس أجمعين يلعنون أولئك الكافرين الذين كفروا بعد إيمانهم وماتوا على الكفر، فاستحقوا لعنة الله ولعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين.

وللمفسرين أقوال في معنى لعنة الناس أجمعين لأولئك الكفار؛ فقال بعضهم: «إنما ذلك يوم القيامة، حيث يلعنهم جميع الناس في أرض الحساب، كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]»، وقال بعضهم: «إن اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها لعنة الناس؛ تغليبًا لحكم الأكثر على الأقل»، وقال بعضهم: «إن المراد بالناس في الآية: المؤمنين منهم»، وقال بعضهم: «كل أحد يلعن الظالم، وإذا لعن الكافر الظالم فقد لعن نفسه»[(١)].

قال الشيخ محمد طنطاوي في تفسيره: «والآية الكريمة قد بينت أن اللعنة على هؤلاء القوم صادرة من الله عز وجل -وهي أشد ألوان اللعن-، وصادرة من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وصادرة من الناس أجمعين، أي أن الفطر الإنسانية تلعنهم لنبذهم الحق بعد أن عرفوه وشهدوا به، وقامت بين أيديهم الأدلة على أنه حق»[(٢)].

رابعًا: اللعن من الأتباع:

أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز عن حال الكفار يوم القيامة، وكيف يتبرأ بعضهم

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١٦٧.
(٢) التفسير الوسيط ٢/ ١٤٧.

من بعضٍ، ويلوم بعضهم بعضًا، ويتنازع الأتباع مع من اتبعوهم، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

في ذلك الموقف العصيب يعترف الكفار بجرمهم، يعترفون باتباعهم للباطل من غير تعقل، ويرمون اللوم على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم في الكفر والشرك والضلال، فيجدوا في لعنهم والدعاء عليهم، قال تعالى مخبرًا عن حال هؤلاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٨].

وهذه الآيات من سورة الأحزاب هي الموضع الوحيد الذي ذكر فيه لعن الأتباع لمتبوعيهم يوم القيامة، وإنما كان اللعن من الأتباع لمتبوعيهم من باب الاستشفاء والانتقام منهم؛ لما قاموا به من إضلالهم وإغوائهم، وذلك كقول الله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨][1].

ولا شك أن في لعن هؤلاء الأتباع -يوم القيامة- لمتبوعيهم بيانًا لشدة حسرتهم وندمهم على اتباعهم في الباطل، ويوم القيامة لا ينفع الندم، فلا يجدون أمامهم إلا أن يجتهدوا في لعن من كان سببًا في ضلالهم وغوايتهم، وفي إخبار الله عز وجل عن ذلك تحذير شديد للعباد من اتباع السادة والكبراء في سبل الضلال والشر؛ فقد بين الله عز وجل أن عاقبة ذلك وخيمة، والندم عليه شديد، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

خامسًا: اللعن من عبدة الأوثان:

إن من أحداث يوم القيامة العظام ما يكون من تخاصم أهل النار وتنازعهم وإلقاء بعضهم اللوم على غيره، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]؛ ولكن ذلك كله لا ينفعهم عند الله عز وجل شيئًا، فلا يجدون إلا أن يتلاعنوا، ويدعو بعضهم على

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٢.

بعض بمضاعفة العذاب من النار.

ومن أهل النار الذين يحدث بينهم تخاصم عظيم وتلاعن: عبدة الأوثان، الذين كانوا في الدنيا يجتمعون على ضلالهم؛ يقيمون الأعياد والطقوس المزعومة، ويأكلون ويشربون حول أوثانهم؛ ولكن حالهم هذا سينقلب يوم القيامة، حينما يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، قال تعالى على لسان نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام مخاطبًا قومه عبدة الأوثان: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فهذه الآية من جملة ما قاله إبراهيم عليه السلام لقومه وهو يعظهم ويرشدهم؛ فأخبرهم بحقيقة يتجاهلونها، وهي أنهم ما اتخذوا تلك الأوثان آلهة يعبدونها إلا لأجل التعارف عليها والتوادد والتحاب من أجلها، فيقيمون الأعياد لها، ويجتمعون حولها، فيأكلون ويشربون، لا أنهم حقيقة يعتقدون أنها آلهة وهي أحجار نحتوها بأيديهم، وأخبرهم نبيهم محذرًا لهم بما سيؤول إليه أمرهم يوم القيامة، حينما تنعكس الأمور فـ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يكفر المتبوعون وهم الرؤساء بمن اتبعوهم، وهم الأتباع وعوام الناس، ويلعن كل من الأتباع والمتبوعين بعضهم بعضًا، وذلك عند معاينة العذاب الأليم[1].

سادسًا: اللعن من المؤذن بين أهل الجنة وأهل النار:

أخبر الله عز وجل أنه في يوم القيامة عندما يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ينادي أهل الجنة أهل النار ويسألونهم: هل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والعذاب؟ -وفي ذلك تقريع وتوبيخ عظيم لأهل النار- فيجيبون: نعم وجدنا، مقرين بعذاب الله عز وجل الذي حصل لهم كما كان يوصف لهم من قبل رسل الله عز وجل.

وحينئذ يؤذن مؤذن بين الجنة والنار معلنًا أن لعنة الله ملازمة لأهل النار، مستقرة عليهم.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وذكر المفسرون أن المؤذن بين الجنة والنار ملك من الملائكة، أوكل الله عز

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٥٠٣، أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ١٢٤.

وجل له تلك المهمة، ينادي بين أهل الجنة وأهل النار؛ فيسمع الجميع صوته[1].

ولا شك أن في أذان ذلك المؤذن تقريعًا وتوبيخًا ومزيد عذابٍ وحسرةٍ لأهل النار، إذ يبشرون بدوام اللعنة والسخط من الله عز وجل عليهم[2].

سابعًا: اللعن من الأمم التي في النار:

إن أهل النار لما يجدوا ما فيها من بؤس وعذاب وشقاء محيط بهم، دائم عليهم يأخذون في لعن بعضهم بعضًا، ويدعو من كان منهم تابعًا على المتبوعين الذين ساقوهم إلى طرقات الغي والضلال.

قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

يخبر الله سبحانه عما يقال لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ أي: من الأمم السالفة الكافرة من الجن والإنس، كلما دخلت أمة النار، وجدت من قد أدخل قبلها؛ فيلعن بعضهم بعضًا، ويسب بعضهم بعضًا، حتى إذا اجتمعوا فيها جميعًا ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾، فيرد عليهم الجبار سبحانه: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[3].

وسبب اللعن بين الأمم في النار: أن كل أمة إنما تدخل النار بعد مناقشة الحساب، فيتبين لهم أن ما كانوا عليه من الضلال والباطل إنما كان بسبب اتباعهم لكبرائهم ورؤسائهم من غير هدى ولا علم، وبذلك تقع في نفوسهم كراهية عظيمة لهم، فإذا دخلوا النار فرأوا من كان سببًا في غوايتهم وضلالهم أخذوا في لعنهم والدعاء عليهم[4].

إن في هذا الخبر من الله عز وجل عن أهل النار وأحوالهم وتلاعنهم داخل النار موعظة عظيمة للعباد، فلا يسمع بذلك أحد إلا ويقشعر من حالهم تلك، ويخاف على نفسه من أن يكون مع أولئك الكافرين.

ثامنًا: اللعن من عموم اللاعنين:

أخبر الله عز وجل عن قوم بلغوا الغاية في الفساد والإضلال وظلم العباد، إنهم أقوام يكتمون الهداية، ويحاولون إخفاء النور الذي أنزله الله عز وجل ليستنير به العباد، فكانت عقوبة هؤلاء أن عليهم لعنة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٠٩، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٧٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٣٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٦٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٢٠.

الله ولعنة اللاعنين، قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

قال ابن كثير في هذه الآية: «هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله، قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب؛ كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أخبر أنه يلعنهم كل شيءٍ على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيءٍ حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون»[(١)].

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في المراد باللاعنين؛ فقال بعضهم: «هم الملائكة والمؤمنون»، وقال آخرون: «هم دواب الأرض وهوامها»، وقال غيرهم: «كل ما عدا بني آدم والجن»، وغير ذلك من أقوال، ورجح الإمام الطبري القول الأول مستدلًا بآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١][(٢)].

وقول الطبري هو الأقرب للصواب والله أعلم؛ لأن الآية التي استدل بها ظاهرة في ذلك، والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا.

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣٦.
(٢) انظر: جامع البيان ٣/ ٢٥٨.

الملعونون في القرآن الكريم

إنه من خلال التدبر في الآيات التي ورد فيها اللعن في كتاب الله عز وجل نجد أن الملعونين في هذه الآيات أصناف من الخلق، يترأسهم إبليس اللعين، ومما يلفت النظر أن بعض هؤلاء الملعونين قد ذكر الله عز وجل لعنهم مرات متعددة، كما هو الحال بشأن اليهود -وهم أكثر من ورد في شأنهم لعنٌ في كتاب الله عز وجل -، وبعض الملعونين ورد لعنهم مرة واحدة فقط، وسيأتي بيان ذلك -بإذن الله تعالى-.

كما أنه من الأمور التي تلفت الانتباه أيضًا عند التدبر في الآيات التي ورد فيها اللعن أن صيغة اللعن تختلف؛ فتارة يكون اللعن بصيغة: (لعنه الله) أي: بالفعل الماضي وفاعله الله عز وجل، وتارة يكون اللعن بصيغة: (يلعنهم الله) أي: بالفعل المضارع الذي فاعله الله عز وجل، وتارة يكون اللعن بصيغة المصدر: (لعنة الله على، عليهم اللعنة، عليك لعنتي)، وتارة يكون اللعن بالنعت باسم المفعول: (ملعونين، الملعونة)، وتارة يكون بفعل الطلب: (العنهم)، ولا شك أن في ورود اللعن بهذه الصيغ المتعددة في كتاب الله عز وجل له دلالات وحكمٌ عظيمةٌ أرادها الحكيم الخبير سبحانه ؛ فصيغة الفعل الماضي لها دلالة تختلف عن دلالة المضارع، وصيغة المصدر لها دلالة تختلف عن دلالة الفعل الماضي والفعل المضارع، وما في كتاب الله عز وجل من لفظةٍ إلا ولها مدلولاتها، كما قال ابن عطية: «وكتاب الله لو نزعت منه لفظةٌ ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»[1].

ونحاول -بإذن الله تعالى- الوقوف على شيء من هذه الحكم.

وباستقراء الآيات التي ورد فيها لعنٌ يمكن أن نحصر أبرز الملعونين في كتاب الله عز وجل بالآتي:

أولًا: الشيطان:

ذكر الله عز وجل لعنته للشيطان في ثلاثة مواضع من الكتاب العزيز؛ ورد اللعن في موضعين منها لإبليس عندما استكبر عن أمر ربه ولم يسجد لآدم عليه السلام.

قال تعالى مخبرًا عن ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٢.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٣٥].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «يذكر الله تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه، بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة؛ حسدًا وكفرًا وعنادًا واستكبارًا وافتخارًا بالباطل ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، [الحجر: ٣٣].

وكقوله قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[ص: ٧٦]»[1].

ونظير هذه الآيات -في ذكر لعنة الله عز وجل لإبليس بسبب استكباره عن أمر ربه- قول الله عز وجل في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧١ - ٧٨].

ونلاحظ أن الله عز وجل قد أخبر -في كلا الموضعين- عن لعنته لإبليس بأشد صيغ اللعن؛ حيث إنه سبحانه أخبر عن لعنته لإبليس بصيغة الاسم (المصدر) المؤكد بـ (إن) فقال سبحانه في آيات الحجر: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وقال في آيات ص: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ولا شك بأن التعبير بالاسم يدل على ثبات اللعنة على إبليس واستمرارها، قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ قال المفسرون: معناه يلعنه أهل السماء والأرض إلى يوم الحساب»[2].

ونلاحظ أيضًا التعبير بقوله: ﴿عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ في سورة الحجر، وبقوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ في سورة ص، وفي ذلك تأكيد على شدة اللعن لإبليس، فـ(أل) التعريف في كلمة (اللعنة) إما أن تكون للعهد، وإما أن تكون عوضًا عن الضمير المضاف إليه في قوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾، وإما أن المراد بقوله: ﴿عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ أي: كل لعنة، وفي قوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ شامل أيضًا لكل لعنة؛ وذاك لأن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين إنما هي من جهة الله تعالى ؛ فهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وإبعاده من رحمته، وبهذا فإن التعبيرين يؤديان نفس المعنى ويؤكد بعضها بعضًا[3].

وقد دل قوله تعالى في كلا الموضعين:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٦.

(٢) زاد المسير ٤/ ٤٠١.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٤٧، البحر المديد ابن عجيبة ٦/ ٢٣٣.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ على أن لعنة الله عز وجل لإبليس دائمة مستمرة لا تنقطع، فهي باقية ما بقيت الدنيا، فإذا كان يوم الدين اقترن له مع اللعنة صنوف المهانة والعذاب الأليم ما ينسى عنده اللعنة، فكأنها انقطعت عنه مع أنها مستمرة عليه[1]، ونقل ابن الجوزي عن ابن الأنباري قوله: «وإنما قال إلى يوم الدين لأنه يوم له أول وليس له آخر، فجرى مجرى الأبد الذي لا يفنى، والمعنى عليك اللعنة أبدًا»[2].

أما الموضع الثالث: الذي أخبر الله عز وجل فيه عن لعنته للشيطان فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٦ - ١١٨].

ففي هذه الآيات يخبر الله سبحانه عن شدة ضلال المشركين؛ إذ إنهم ما يعبدون من دون الله إلا آلهة مزعومة من الأصنام والأوثان التي كانوا يسمونها بأسماء الإناث، كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك، وهم بفعلهم هذا ما يدعون إلا شيطانًا عاصيًا متمردًا على أمر ربه، وقد أخبر سبحانه بأنه قد لعن ذلك الشيطان، فأقصاه وأخزاه وأبعده وطرده من رحمته[3].

ثانيًا: اليهود:

قد ورد لعن الله عز وجل لليهود في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز؛ بل إن اليهود هم أكثر من ورد بشأنهم لعن من الله عز وجل في القرآن الكريم، إذ إن المواضع التي ورد فيها لعنهم تقارب العشرة مواضع، وما ذلك إلا لشدة فسادهم وإفسادهم، وكثرة جرائمهم.

فأول المواضع -حسب ترتيب المصحف الشريف- التي ورد فيها لعن اليهود في القرآن الكريم هو قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

حيث تخبر هذه الآية عن بعض أقوال اليهود القبيحة؛ إذ إنهم قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم -معتذرين عن عدم إيمانهم به-: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، أي: عليها غلاف وغطاء فلا تفقه ما تقول، وهم كاذبون في ذلك، يريدون تبرير كفرهم، فكشف الله عز وجل حقيقة الأمر، فقال سبحانه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أقصاهم الله وأبعدهم وطردهم وأخزاهم وأهلكهم؛

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٥/ ٢٨٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٦.
(٢) زاد المسير ٤/ ٤٠١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢١٠-٢١٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧٧.

بسبب كفرهم وجحودهم آيات الله عز وجل، وما أرسل به رسله عليهم السلام؛ فلذلك استحقوا لعنة الله عز وجل[1].

والموضع الثاني: الذي ورد فيه لعن اليهود هو قول الله عز وجل مخبرًا عنهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فهذه الآية تبين شدة حسد اليهود للعرب؛ إذ إنهم كانوا يعلمون -من كتبهم- أن زمان قدوم النبي المكتوب عندهم قد آن، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وجاءهم بالقرآن الكريم، وكانوا من قبل بعثته يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما جاءهم الرسول، ووجدوا أنه ليس منهم، كفروا به وبالكتاب الذي معه، فلعنهم الله عز وجل لأجل كفرهم وحسدهم[2].

ومن هذه المواضع أيضًا قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

والمقصود بهؤلاء علماء اليهود وأحبارهم، وعلماء النصارى، وسبب استحقاقهم لتلك اللعنة المغلظة كتمانهم للحق والبينات، وكتمانهم أمر صدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعدم اتباعه مع علمهم بصدقه؛ لذلك أخبر الله عز وجل عن لعنته لهم، وأخبر أنه يلعنهم أيضًا كل شيء على صنيعهم ذلك؛ فكما أن العالم يستغفر له كل شيء، فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون[3].

إن جرائم اليهود كثيرة، وأفعالهم شنيعة قبيحة، بلغوا الذروة في ذلك حينما حرفوا كلام الله عز وجل، وغيروا صفات النبي صلى الله عليه وسلم المكتوبة عندهم؛ ليحرموا الناس من اتباعه والاهتداء بهديه، واستهزؤا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وطعنوا في دين الله عز وجل، قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦][4].

لقد بلغ من قبح اليهود وعدوانهم أنهم تجرؤا على الله عز وجل، فنسبوا إليه ما لا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٢٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٦.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٣٠.

يليق بجلاله سبحانه، من ذلك أنهم نسبوا إليه البخل -تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا- قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ومن لعن الله عز وجل لليهود لعنه سبحانه لأصحاب السبت الذين انتهكوا حرمات الله عز وجل، ولم يلتزموا حدوده، ولم ينتصحوا بنصيحة المتقين منهم، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن قصتهم في قوله سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ثم أخبر سبحانه عن العذاب الذي أصابهم حينما لم ينتفعوا بنصح الناصحين، وتمادوا في عدوانهم وغيهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٥- ١٦٦].

وأما الموضع الذي ذكر الله عز وجل فيه لعنته لأولئك المعتدين المنتهكين لحدود الله فقد جاء في سياق دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بما أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم، وتحذيرهم من أن تطمس وجوههم أو يصيبهم ما قد أصاب أصحاب السبت من المسخ واللعن.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

والمراد بطمس وجوههم محو آثارها حتى تصير كالقفا من غير أنف ولا عينين ولا شفاه، أو المراد جعل أبصارهم إلى قفاهم فيمشون القهقري[(١)].

والمراد بلعنهم كما لعن أصحاب السبت مسخهم قردة كما مسخ أصحاب السبت، قال الشنقيطي: «لم يبين هنا كيفية لعنه لأصحاب السبت؛ ولكنه بين في غير هذا الموضع أن لعنه لهم هو مسخهم قردة، ومن مسخه الله قردًا غضبًا عليه فهو ملعون بلا شك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]»[(٢)].

ونلاحظ في لعن اليهود أن الله عز وجل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٤٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٩٧.
(٢) أضواء البيان ١/ ٢٤٢.

قد لعنهم بصيغة الفعل الماضي: (لعنهم الله)، وبصيغة الفعل المضارع: (يلعنهم الله)، وبصيغة المصدر: (فلعنة الله على)، ولا شك في أن لعن اليهود في القرآن الكريم قد جاء بهذه الصيغ المختلفة فيه بيان لشدة لعنتهم وغلظتها، فالفعل الماضي يدل على وقوع تلك اللعنة عليهم فيما سبق، والفعل المضارع يدل على استمرارية اللعنة عليهم، والمصدر: (الاسم) يدل على ثبات ودوام اللعنة وملازمتها لهم، وفي هذا إشارة إلى أن الصفات التي استحق اليهود عليها اللعن ستبقى موجودة فيهم، وهذا ما يدل عليه واقع الحال في أيامنا هذه.

ثالثًا: الكافرون والمنافقون:

إن من الأصناف الذين لعنهم الله الكفار والمنافقين، وهم شرار الخلق، رفضوا دعوة الله، وأبوا النور الذي أنزله إليهم، استحبوا العمى على الهدى، فكان لهم اللعن والعذاب الأليم.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٦].

والمنافقون كفار، أخفوا الكفر وأظهروا الإيمان، فكانوا إخوان الكافرين، اجتمعوا معهم على الكفر والضلال، فجمع الله عز وجل بينهم في اللعن وسوء الدار، قال الله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

إن اللعن للكفار لمن مات منهم على الكفر؛ أما من تاب من كفره، ودخل في الإسلام قبل موته، فهذا يتوب الله عز وجل عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٩].

رابعًا: المرتدون:

إن ممن وجبت عليهم لعنة الله عز وجل من ارتدوا عن الإيمان إلى الكفر، واستحبوا العمى على الهدى، فبعد أن أبصروا نور الإيمان نكسوا أنفسهم إلى ظلمات الكفر، واستبدلوا الضلالة بالهدى، فأنى لهم الهداية؟!

قال الله عز وجل مخبرًا عن أولئك

المرتدين: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩].

فهؤلاء قد قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم، ووضح لهم الأمر، واستنارت لهم الطريق، ثم بعد هذا الهدى ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من الضلال والكفر؟![1].

ولقد كانت لعنة الله عز وجل لهؤلاء المرتدين شديدةً مغلظةً؛ فهي لعنة من الله عز وجل ومن الملائكة، ومن الناس أجمعين، وهي لعنة عليهم، ملازمة لهم، وهم خالدون فيها، لا يخفف عنهم شيء من العذاب ولا من اللعنة، ولا يمهلون، ولا يؤجلون، فهم في اللعنة والعذاب خالدون[2] ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٧-٨٨].

خامسًا: المفسدون:

لقد ذكر الله عز وجل لعنته للمفسدين في الأرض في موضعين من الكتاب العزيز؛ الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التي ذكر سبحانه فيها حال أهل الجنة من المؤمنين والمصلحين، وذكر صفاتهم وأعمالهم، فجاءت هذه الآية لتبين حال الأشقياء الذين اتصفوا بعكس صفات المؤمنين؛ فهؤلاء الأشقياء ينقضون عهد ربهم عز وجل من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظ عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم؛ بل قابلوه بالإعراض والنقص، ويقطعون ما أمرهم ربهم بوصله، فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجًا، لذا استحق هؤلاء اللعن والبعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين، واستحقوا سوء الدار في نار الجحيم وما فيها من العذاب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٠٥.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٥٤.

الأليم[1].

والموضع الثاني: الذي ذكر فيه سبحانه لعنته للمفسدين في الأرض هو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وهاتان الآيتان جاءتا في سياق مخاطبة الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢٠-٢١].

ومعنى الآيتين: «فلعلكم إن توليتم عن تنزيل الله جل ثناؤه، وفارقتم أحكام كتابه، وأدبرتم عن محمد صلى الله عليه وسلم وعما جاءكم به أن تعصوا الله في الأرض؛ فتكفروا به، وتسفكوا فيها الدماء، وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التشتت والتفرق بعد ما قد جمعكم الله بالإسلام، وألف به بين قلوبكم»[2].

فهذان الموضعان قد ورد فيهما لعن المفسدين في الأرض، والمراد بالإفساد في الموضعين -كما بين المفسرون- كل ما يدخل تحت مسمى الإفساد، وأعظم ذلك الكفر والعصيان وسفك الدماء والصد عن سبيل الله عز وجل[3]، وقد جمع الله عز وجل في الموضعين -مع الإفساد في الأرض- تقطيع الأرحام التي أمر الله عز وجل بأن توصل، وفي ذلك تعظيم لشأن الرحم، وبيان لعظم جرم من قطعها.

وقد كانت صيغة اللعن للمفسدين مختلفة في الموضعين؛ ففي الموضع الأول: جاءت بصيغة: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، وفي الموضع الثاني: بصيغة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

سادسًا: الذين يؤذون الله ورسوله:

لقد أخبر الله سبحانه عن لعنته لمن آذاه وآذى رسوله صلى الله عليه وسلم، وتوعدهم سبحانه بالعذاب المهين؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

والذين يؤذون الله عز وجل هم الذين خالفوا ما أمر به سبحانه، وعصوه، وانتهكوا ما حرم، وأصروا على ذلك، ووصفوه سبحانه بما هو منزه عنه، أما من آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم الذين طعنوا فيه صلى الله عليه وسلم، أو نالوا منه بسب

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٧، معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٨٧.

أو شتم أو عيب، أو آذوه بأي نوع من أنواع الأذى[1].

والملاحظ أن لعنة الله عز وجل لهؤلاء شديدةٌ مغلظةٌ؛ حيث إنه سبحانه قد لعنهم في الدنيا والآخرة، فهم مطرودون من رحمة ربهم عز وجل في الدنيا والآخرة، وهذه اللعنة توجب زوال النصر والتوفيق عنهم من كل وجه، وتبعدهم عن أسباب الرحمة في الدارين، ومن هذه اللعنة أنهم استحقوا القتل في الدنيا، واستحقوا العذاب المهين في النار في الآخرة[2].

وكما أن لعنة هؤلاء جاءت شديدة مغلظة فإن العذاب الذي توعدهم الله عز وجل به شديدٌ أيضًا ؛ وذلك إن الله عز وجل قد أخبر بأنه أعد لهم عذابًا مهينًا، والعذاب المهين أشد وأفظع من العذاب الأليم؛ فإن العذاب المهين يشمل العذاب الأليم ويزيد عليه الإهانة، والإهانة إذلال وتحقير وخزي، وذلك قدر زائد على ألم العذاب؛ فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان، ولم يذكر الله عز وجل في كتابه العزيز أنه أعد عذابًا مهينًا إلا في حق الكافرين، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

وقوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥١][3].

سابعًا: أقوام ملعونون:

ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز لعنته لأقوام معينين، أرسل إليهم سبحانه الرسل لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولكنهم جحدوا واستكبروا وأصروا على كفرهم وعنادهم رغم ما رأوا من آيات الله عز وجل ومعجزاته التي أجراها على يد رسله عليهم السلام ؛ فاستحق هؤلاء الكافرون المكذبون لعنة الله وسخطه وعذابه.

ومن هؤلاء الأقوام الذين لعنهم الله عز وجل في كتابه العزيز قوم عاد، الذين كذبوا رسول الله إليهم هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

فلما أصروا على كفرهم وتكذيبهم، وعصوا رسول الله إليهم، واتبعوا كبراءهم وسادتهم المستكبرين المعاندين للحق أرسل الله عز وجل عليهم العذاب،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٢٤٠.

(٢) انظر: دقائق التفسير، ابن تيمية ٢/ ٤٥٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٤٢٠.

(٣) انظر: دقائق التفسير، ابن تيمية ٢/ ٤٥٩.

واستحقوا لعنة الجبار سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩ - ٦٠].

ولقد كانت لعنة الله عز وجل عليهم لعنةً شديدةً مغلظةً، حيث إنهم قد لعنوا في الدنيا، ويوم القيامة لهم لعنة متبوعة باللعنة التي سبقت عليهم في الدنيا، فاللعنة مستمرة عليهم، متصلة إلى يوم القيامة[١].

ولذا فقد استحقوا الدعاء بالإبعاد عن رحمة الله عز وجل ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، وفي هذا الدعاء عليهم تهويل لأمرهم، وتفظيع لحالهم، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم[٢].

ونظير هؤلاء في استحقاق الإبعاد واللعن الشديد في الدارين فرعون وقومه، الذين كذبوا رسول الله إليهم موسى عليه السلام، وبدلًا من طاعته واتباع هديه اتبعوا أمر فرعون، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۝٩٨ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦ - ٩٩].

فلما كان فرعون قدوة لقومه في الكفر والضلال في الدنيا، فهو كذلك يوم القيامة، يتقدمهم وهم يتبعونه، إلى أن يدخلهم النار معه ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[٣].

ولما كان جرمهم عظيمًا، وذنبهم كبيرًا -إذ استحبوا الكفر على الإيمان، وقدموا طاعة فرعون على طاعة الرحمن- كانت عليهم اللعنة في الدارين ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي أن اللعن من الله، والملائكة، والأنبياء ملتصقٌ بهم في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضًا، لا يزول عنهم[٤].

وقد ذكر الله عز وجل اللعنة التي جوزي بها فرعون وجنده في الدنيا والآخرة في موضع آخر من كتابه العزيز، وذلك في قوله تعالى عن فرعون: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٩.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢١٠.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٦٩.
(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٥٥٩.

[القصص: ٣٩ - ٤٢].

ثامنًا: القاتل للمؤمن عمدًا:

إن للنفس المؤمنة عند الله عز وجل حرمة عظيمة، ومن شدة حرمتها أنه سبحانه جعل اللعن والخلود في عذاب جهنم لمن اعتدى على هذه النفس المؤمنة فقتلها، وقد ورد لعن قاتل النفس المؤمنة في آية واحدة من كتاب الله عز وجل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

لقد بينت الآية مدى حرمة النفس المؤمنة من خلال بيان شدة العقوبة وغلظها على من تجرأ على حرمة هذه النفس فقتلها عمدًا، قال ابن كثير: «وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله عز وجل ؛ حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية.

والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا»[(١)].

إن الوعيد الذي ذكره الله عز وجل في شأن قاتل النفس المؤمنة عمدًا لهو وعيد عظيم، ترجف منه القلوب، وتنصدع له الأفئدة، فلم يرد في أنواع الكبائر وعيدٌ أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله؛ حيث إن الله عز وجل قد أخبر بأن من اقترف ذلك فإن جهنم هي جزاؤه، فهذا الذنب العظيم قد كفى وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، ثم إن للقاتل فوق ذلك غضب الجبار سبحانه، وزيادة على ذلك فقد لعنه الله عز وجل فأبعده وطرده من رحمته، وأخزاه، وحرمه من الفوز والفلاح، وأعد له عذابًا عظيمًا، فبئس ذلك المصير!! ونعوذ بالله عز وجل من كل سبب يبعد عن رحمته[(٢)].

تاسعًا: الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات:

إن من الذين ذكر الله عز وجل لعنهم في كتابه العزيز من يخوضون في أعراض المؤمنين، فيقولون الإفك، ويدعون الكذب، طاعنين أعراض المؤمنات العفيفات الغافلات عن كل رذيلة، ومن اقترف ذلك فقد استحق لعنة الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩٩.

(٢) انظر: تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٣.

وللمفسرين أقوال في بيان المقصود بالمحصنات الغافلات اللاتي ورد ذكرهن في الآية.

وأرجح الأقوال في ذلك ما ذهب إليه شيخ المفسرين الطبري حيث قال بعد أن ذكر أقوال المفسرين: «وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: نزلت هذه الآية في شأن عائشة، والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفه الله بها فيها؛ وإنما قلنا ذلك أولى تأويلاته بالصواب؛ لأن الله عم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ كل محصنة غافلة مؤمنة، رماها رام بالفاحشة، من غير أن يخص بذلك بعضًا دون بعض، فكل رام محصنة بالصفة التي ذكر الله -جل ثناؤه- في هذه الآية فملعون في الدنيا والآخرة، وله عذاب عظيم، إلا أن يتوب من ذنبه ذلك قبل وفاته»[1].

ولعنة هؤلاء القذفة أخبر الله عز وجل بأنها في الدارين، حيث قال تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، قال المفسرون: «المراد باللعنة في الدنيا الإبعاد، وضرب الحد الذي شرعه الله عز وجل، واستيحاش المؤمنين منهم، وهجرهم لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة، والبعد عن الثناء الحسن والذكر الجميل على ألسنة المؤمنين، وأما لعنتهم في الآخرة فبحرمانهم من الفوز والفلاح، وطردهم من رحمة الله عز وجل، وبالعذاب العظيم الذي أعده الله لهم»[2].

عاشرًا: شجرة الزقوم:

أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز عن شجرةٍ تخرج في أصل الجحيم، يعذب الله سبحانه بها أهل النار؛ يأكلون من طعامها الأثيم، ويجدون من نتنها وخبثها ما يزيدون به عذابًا وألمًا، وقد جاء الخبر في القرآن الكريم عن هذه الشجرة في أربعة مواضع؛ الموضع الأول: في سورة الصافات، حيث ذكر الله عز وجل خبر هذه الشجرة عقب الإخبار عن أهل الجنة وما أعد الله عز وجل لهم من نعيم وشراب وأزواج مطهرة؛ ليكون ذكرها بعد ذلك لمقارنة حال أهل النار وما لهم من عذاب وشقاء بحال أهل الجنة وما أعد لهم من نعيم وسرور.

قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٨].

(١) جامع البيان ١٩/ ١٤٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٠١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٩١.

والمعنى: أنعيم الجنة خير نزلًا أم شجرة الزقوم التي تبنت في أصل الجحيم وفيها من ألوان العذاب ما فيها؟، ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ فهذا طعامهم وفاكهتهم، وذاك شرابهم بدل رزق أهل الجنة ونعيمهم وشرابهم[(١)].

والموضع الثاني: الذي أخبر الله عز وجل فيه عن تلك الشجرة الملعونة قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

فقد جعل الله عز وجل تلك الشجرة طعامًا لمن كان أثيمًا كافرًا جاحدًا، فإذا أكل منها كانت في بطنه كعكر الزيت المغلي، تغلي في بطنه كغليان الحميم وحرارته وشدته[(٢)].

والموضع الثالث: الذي ذكرت فيه شجرة الزقوم هو قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦].

وجاء ذكرها هنا في سياق الحديث عن أهل الشمال وما أعد الله لهم من سموم وحميم، فأخبر هنا عن طعامهم وشرابهم؛ فطعامهم شجر الزقوم، هو أقبح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحًا، وأبشعها منظرًا، قال السعدي: «والذي أوجب لهم أكلها -مع ما هي عليه من الشناعة- الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم. هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع»[(٣)].

أما الموضع الرابع: الذي ذكرت فيه الشجرة الملعونة فهو قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وهنا بين الله عز وجل أن الرؤيا التي أراها لنبيه صلى الله عليه وسلم وهي ما رآه حقيقة من آيات الله عز وجل ليلة الإسراء- وكذلك الشجرة الملعونة في القرآن -وهي شجرة الزقوم على الراجح من أقوال المفسرين- جعلهما الله عز وجل فتنة يفتن بهما الناس؛ فأما المؤمن بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم فقد صدق بما أخبر به الله سبحانه وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما من سبق عليه الكفر فقد كفر وأنكر ذلك.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٨٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٣٥١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٨٣٤.

قال ابن عطية: «والشجرة هنا في قول الجمهور هي: شجرة الزقوم؛ وذلك أن أمرها لما نزل في سورة الصافات قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر، والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أمر أبو جهل جارية له فأحضرت تمرًا وزبدًا، وقال لأصحابه: تزقموا[1]، فافتتن. أيضًا بهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنةً واختبارًا؛ ليكفر من سبق عليه الكفر، ويصدق من سبق له الإيمان»[2].

ومعنى إخبار الله عز وجل عن شجرة الزقوم بأنها شجرة ملعونة في القرآن أي: أن ذكرها باللعن قد ورد في القرآن، وهو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤].

ومعنى كونها ملعونة: أي أنها مذمومة، قال الزجاج: «العرب تقول لكل طعام مكروه وضار ملعون»[3]، أو المراد بالملعونة الملعون آكلها، أو أن معنى الملعونة المبعدة عن منازل أهل الفضل[4].

أسباب اللعن

لاشك في أن من ورد اللعن في حقهم في القرآن الكريم قد اقترفوا من الجرائم والآثام، وارتكبوا من الكبائر والموبقات ما استحقوا به ذلك اللعن والإبعاد، ولولا شدة قبح جرمهم لما لعنهم الله عز وجل، وهو سبحانه العفو الغفور، والحليم الصبور.

وفي السطور الآتية نقف بإذن الله تعالى على الأسباب التي استحق بها الملعونون ذلك اللعن، وذلك من خلال تتبع الآيات القرآنية التي ورد فيها لعن لهم، وبينت سبب لعنهم:

١. الكفر والشرك بالله عز وجل.

إن الكفر بالله عز وجل أو بما أرسل به رسله عليهم السلام هو أعظم ما يقترفه الإنسان من ذنب، وليس أعظم من الكفر ذنب -والشرك بالله عز وجل داخل تحت الكفر-؛ لأن من كفر أو أشرك فإنه لم يؤد حق الله عز وجل عليه، وحق الله عز وجل على عباده: -كما جاء في الحديث- (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا)[5]؛ ولذلك فإن الله عز وجل قد أخبر عباده بأنه سبحانه يغفر كل الذنوب إلا الكفر والشرك، قال سبحانه:

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٣١٠.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٤٨.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٥٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍ فيه دخل الجنة وحرم على النار، رقم ١٥٢، ١/ ٤٣.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وإن من كفر أو أشرك بربه عز وجل، فقد ظلم نفسه ظلمًا عظيمًا، ليس كمثله ظلم، ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وإن الذين كفروا هم شر الخلق على الإطلاق، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

ولقد أرسل الله عز وجل الرسل ليرشدوا الناس إلى توحيد ربهم عز وجل، وتحذيرهم من أعظم الذنوب، من الكفر والشرك، وعبادة غير الله عز وجل، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولذا فإن من لقي الله عز وجل يوم القيامة بكفرٍ أو شركٍ لم يتب منه وفارق الدنيا عليه استحق من الله عز وجل اللعن المغلظ، والطرد من رحمته سبحانه، واستحق الخلود في نار جهنم وبئس المصير، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢].

لقد كان اللعن والخلود في النار جزاءً وفاقًا لمن كفر بربه، واستمر على كفره، ولم ينتفع بآيات الله عز وجل من حوله، استكبارًا عن الحق، وتعالٍ عن الهدى والنور الذي بعثه الله إليه، فما أشد عذابه! ويا لسوء مصيره! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٦].

وإن أشنع الكفر أن يكفر الإنسان بعد أن يهديه الله عز وجل إلى الإيمان، فهذا الذي رأى النور بعد الظلام، ففضل الظلام على النور، وانتكس على نفسه، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، واشترى الضلالة بالهدى، فليس له جزاء إلا اللعن من الله عز وجل ومن ملائكته ومن الناس أجمعين، خالدًا في العذاب لا يخفف عنه، ولا ينظر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١- ١٦٢].

ولقد توعد الله عز وجل الكفار مع إخوانهم المنافقين -وهم كفار مثلهم- بنار جهنم وباللعن وبالعذاب المقيم، قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٨].

٢. الظلم.

لقد استحق الظالمون اللعن من الله عز وجل، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

وقد ورد لعن الظالمين -صريحًا- في موضعين آخرين من القرآن الكريم، وقد بين الله عز وجل في كلا الموضعين صفات أولئك الظالمين؛ فقال سبحانه في الموضع الأول: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥].

وقال سبحانه في الموضع الآخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨-١٩].

ونلاحظ بأن المراد بالظالمين في كلا الموضعين هم الكفار، وقد ذكر الله عز وجل -في كلا الموضعين- الصفات نفسها لأولئك الظالمين، وصفاتهم هي أنهم: يصدون عن سبيل الله، ويبغون السبيل المعوج لا الصراط المستقيم، وهم كافرون بالآخرة وبلقاء ربهم عز وجل، قال ابن كثير: «يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن يكون السبيل معوجة غير مستقيمة؛ حتى لا يتبعها أحد، وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون جاحدون مكذبون بذلك، لا يصدقونه ولا يؤمنون به؛ فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكرٍ من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حسابًا عليه، ولا عقابًا، فهم شر الناس أقوالًا وأعمالًا»[(١)].

إن أولئك الظالمين قد ظلموا أنفسهم أولًا إذ فتح الله لهم أبواب رحمته فصدوا أنفسهم عنها، وبعث إليهم الهدى والنور فاستحبوا العمى على الهدى، ثم هم بعد ذلك قد ظلموا غيرهم بأن صدوهم عن سبيل الله، ومنعوهم من الدخول في دينه والإيمان برسله، فما أشد ظلمهم إذ حرموا أنفسهم وحرموا غيرهم من رحمة الله عز وجل، ومن جنة الخلد، واستبدلوا ذلك بالخلد في نار جهنم وبئس المصير[(٢)].

٣. الكذب والافتراء على الله عز وجل.

إن من أقبح الآثام وأعظم الجرائم الكذب على الله عز وجل، ووصفه سبحانه

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٤٦٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٩.

بما لا يليق بعظيم جلاله وسلطانه، وافتراء الكذب عليه سبحانه لصد الناس عن سبيله؛ ولذا استحق من فعل تلك الآثام القبيحة أن تحل عليه اللعنة، وأن يطرد من الرحمة.

ولقد افترى اليهود على الله عز وجل كذبًا عظيمًا، وجاءوا ببهتانٍ مبين، وجرمهم هذا من أهم الأسباب التي استحقوا بها لعنة الجبار سبحانه ؛ فهم الذين نسبوا البخل لله عز وجل، وقالوا على الله عز وجل افتراءً وكذبًا: يد الله مغلولة. فكانت عليهم اللعنة بما قالوا.

قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ومن افتراء اليهود على الله عز وجل تحريفهم لكتابه سبحانه، وكتمان بعض ما جاء به من الحق، وطعنهم في دين الله، واستبدالهم الضلالة بالهدى.

قال الله عز وجل عنهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

لقد كانوا يبدلون معنى كلام الله الذي عندهم في التوراة ويغيرونه عن تأويله، وكانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيستمعون إلى كلامه، ويسألونه عن الأمر، فيخبرهم، فيرى أنهم يأخذون بقوله، فإذا انصرفوا من عنده حرفوا كلامه وغيروه كذبًا وافتراءً[1].

ومن افتراء اليهود وكذبهم أنهم كتموا الهدى والبينات، وكتموا صفة النبي صلى الله عليه وسلم المكتوبة عندهم؛ ليصدوا الناس عن الدخول في دين الله عز وجل، فاستحقوا اللعن من الله عز وجل، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

فهذه الآية نزلت -كما ذكر المفسرون- في أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقال بعض المفسرين: المراد بها كل من كتم الحق؛ فهي عامة في كل من كتم علمًا من دين الله يحتاج إلى بثه[2]، قال السعدي: «هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتموا من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته، فإن حكمها عام لكل من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٣٢، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٣٠.

(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ٣٩٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٨٤.

اتصف بكتمان ما أنزل الله من الدالات على الحق المظهرات له، ومن العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم»[1].

إن الكذب على الله عز وجل أشنع الكذب وأقبحه، ولقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من أن تقع في شيء مما وقعت فيه اليهود من الكذب على الله عز وجل، فحذر صلى الله عليه وسلم من الكذب عليه فالكذب عليه صلى الله عليه وسلم كذب على الله عز وجل فقال صلى الله عليه وسلم: (إن كذبًا علي ليس ككذب على أحدٍ، فمن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار)[2].

٤. الإضلال.

لاشك بأن من أضل غيره قد تعدى شره إلى الآخرين، فلم يكتف بأن يكون وحده في ظلمات الضلال والغواية، وإنما أرادت نفسه الخبيثة أن يشرك غيره في ضلاله وغوايته، وهو بذلك يكون قد ظلم نفسه وظلم غيره، وحرم نفسه وحرم غيره من رحمة الله عز وجل، وأي ظلم أعظم من ذلك؟!.

ولا شك بأن إبليس اللعين على رأس أولئك المضلين؛ إذ إنه تعهد بعد أن لعنه الله عز وجل بأن يضل عباد الله إلا المخلصين منهم، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٠].

وفي موضع آخر من كتاب الله عز وجل أخبر سبحانه عن قسم إبليس على سعيه لإضلال العباد، قال تعالى عن إبليس اللعين: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣].

ولذا فقد حذرنا الله عز وجل منه أعظم تحذير، وبين لنا مكايده وسبل إغوائه؛ لنتجنبه ونحذر منه.

قال الله عز وجل: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠].

ومن المضلين الذين يسعون في إضلال العباد، ويحرفونهم عن الصراط بعض السادة والكبراء، الذين استكبروا واستعبدوا الناس، ونصبوا أنفسهم على

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٧.
(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب في التحذير من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٥، ١/ ٨.

رؤوس الخلائق، يأمرون بالشر، وينهون عن المعروف، ويصدون الناس عن الهداية، ويضلونهم بأهوائهم، فما لهؤلاء المجرمين إلا اللعنة وسوء الدار.

إن هؤلاء الأسياد المضلين يلعنهم أتباعهم الذين ضلوا بسببهم، يجتمعون في النار فيلعن بعضهم بعضًا كما أخبرنا ربنا عز وجل بذلك عنهم إذ قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

ومن المضلين أيضًا اليهود المجرمون، الذين حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم، وحملهم ما في قلوبهم من الكبر والحسد أن يكتموا الحق، وأن يصدوا الناس عن سبيل الله عز وجل، قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

قال القرطبي: «﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾: أي يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له»[(١)].

ولا شك بأن كل من سعى ليضل الناس ويصدهم عن سبيل الله عز وجل وينفق أمواله في ذلك فهو مستحق للعن والإبعاد، والخلود في النار وبئس المهاد، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

٥. الإفساد في الأرض وقطع ما أمر الله أن يوصل.

لقد بين الله عز وجل في كتابه العزيز أن الإفساد في الأرض سبب للوقوع في لعنة الله سبحانه فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢- ٢٣].

فمن تولى عن شرع الله عز وجل، وفارق أحكام كتابه، وأدبر عن منهج نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فعصى وكفر، ودعا إلى غير دين الله عز وجل، وسفك الدماء، وقطع الأرحام، وأعاد الفرقة والتشتت إلى الأمة الإسلامية كما كانوا في الجاهلية، وسعى في ظلم العباد فهذا هو المفسد في الأرض[(٢)]، وهذا مستحق لأن يبعده الله عز وجل من رحمته ويلعنه، ويسلبه سمعه فلا ينتفع بما يسمع من الهدى، ويسلبه بصره وعقله فلا يهتدي للحق، ولا يتذكر ما يرى من عبر

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١١٠.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٣٦٠.

وآيات[1].

وقد قال الله عز وجل في موضع آخر من كتابه العزيز مخبرًا عن أولئك المفسدين القاطعين لما أمر سبحانه أن يوصل: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

فهذا حال الأشقياء المفسدين، وهذه صفاتهم، وقد ذكر الله عز وجل مصيرهم وما لهم في الآخرة من اللعن وسوء الدار والمآل، قال ابن كثير: «قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الآية قال: هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا»[2].

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في المراد بما أمر الله به أن يوصل في قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، فقالوا: إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قطعوه بالتكذيب والعصيان، وقالوا: التصديق بالأنبياء؛ أمروا بوصله فقطعوه بتكذيب بعض وتصديق بعض. وقالوا: الرحم والقرابة، وقالوا: إنه على العموم في كل ما أمر الله به أن يوصل. وقد رجح أبو حيان هذا القول الأخير وقال: «وهذا هو الأوجه؛ لأن فيه حمل اللفظ على مدلوله من العموم، ولا دليل واضح على الخصوص»[3].

أما الإمام الطبري فرجح أن يكون المراد بما أمر الله به أن يوصل: الرحم والقرابة، وبين أن قطعها يكون بترك أداء ما ألزم الله من حقوقها، وأوجب من برها، وأن وصلها يكون بأداء الواجب لها من حقوق الله التي أوجب لها، والتعطف عليها؛ ولم ينف رحمه الله أن تكون الآية عامة في قطع كل ما أمر الله عز وجل بوصله، فقال: «غير أنها دالةٌ على ذم الله كل قاطعٍ قطع ما أمر الله بوصله، رحمًا كانت أو غيرها»[4].

٦. الاعتداء على الآخرين.

لقد حرم الله عز وجل على عباده أن يعتدي بعضهم على بعض، وحرم سبحانه عليهم إيذاء العباد من غير وجه شرعي؛ فحرم القتل، والزنا، والسرقة، والغصب، وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك من الذنوب والآثام التي فيها اعتداء على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٣٩.
(٣) البحر المحيط ١/ ٢٧٣.
(٤) جامع البيان ١/ ٤١٦.

الآخرين، وقد بين سبحانه في غير موضع من كتابه العزيز حرمة تلك الجرائم؛ بل قرنها سبحانه بالشرك الذي هو أعظم الذنوب، من ذلك قوله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١- ١٥٢].

وقد جعل الله عز وجل العقوبات الرادعة في الدنيا لمن اقترف شيئًا من تلك الجرائم، وجعل سبحانه العقاب العادل في الآخرة لمن لم يتب منها، ومات مصرًا عليها، ولم يعد الحقوق لأصحابها.

ولا شك أن أعظم أنواع الاعتداء على الآخرين هو إزهاق أنفسهم بالقتل المتعمد؛ ولذا فقد جعل الله عز وجل العقوبة الشديدة، والعذاب الأليم لمن اقترف جريمة القتل العمد، قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

فقد جمع الله عز وجل للقاتل المتعمد فوق عذاب جهنم الذي يخلد فيه غضب الجبار سبحانه، واللعنة، والعذاب العظيم، قال ابن كثير: «وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله؛ حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية.

والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا»(١).

وكما أن الله عز وجل قد جعل اللعنة على القاتل العمد لاعتدائه على الأنفس البريئة، فإنه سبحانه قد جعل اللعنة أيضًا على من اعتدى على أعراض المسلمين الطاهرة العفيفة؛ فالاعتداء على الأعراض أمر عظيم، وأذيته للمؤمنين كبيرة، ومفسدته خطيرة؛ لذا فقد جعل الله عز وجل اللعن في الدنيا والآخرة لمن اقترف تلك الرذيلة، فقذف المؤمنات الغافلات، وخاض في أعراض المسلمين بدون حجة أو برهان، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩٩.

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في المراد بالمحصنات الغافلات المؤمنات اللاتي ذكرهن الله عز وجل في الآية؛ فقال بعضهم: المراد عائشة رضي الله عنها. وقال آخرون: المراد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كلهن. وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في شأن عائشة، وعني بها كل من كان بالصفة التي وصف الله في هذه الآية، قالوا: فذلك حكم كل من رمى محصنة، لم تقارف سوءًا. وهذا القول الأخير هو ما رجحه الإمام الطبري رحمه الله تعالى[1].

٧. نقض العهود المؤكدة.

لقد أمر الله عز وجل بالوفاء بالعهود في غير آية من كتابه العزيز، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ومدح سبحانه الموفين بالعهد، قال عز وجل: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وبين سبحانه أن الوفاء بالعهود صفة عباده المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

وبين سبحانه أيضًا عظم العهد عند الله عز وجل، وأن العبد مسؤول عنه يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وفي مقابل ذلك بين سبحانه أن نقض العهود ذنب عظيم، وإثم كبير، لا يقترفه إلا المجرمون المفسدون، ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

ولعظم نقض العهود فقد جعل الله عز وجل اللعنة لمن فعل ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وإن ممن اشتهر بنقض العهود اليهود الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

فنقض العهود صفة لليهود، كانت من أسباب استحقاقهم للعنة الله سبحانه، ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾ [المائدة: ١٣].

ومعنى الآية: أنه بسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعنهم الله عز وجل، وجعل قلوبهم قاسية غليظة؛ فلا تجدي فيها

(١) انظر: جامع البيان ١٩/ ١٣٨-١٤٠.

المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر[1].

فنقض العهود سبب لاستحقاق اللعن والطرد من رحمة الله عز وجل ؛ ولذا فإن المؤمن حريص على الوفاء بالعهود كلها، سواء ما كان بينه وبين ربه عز وجل، أو ما كان بينه وبين العباد.

٨. الكذب ونشر الأخبار الكاذبة.

لقد أمر الله عز وجل عباده بالصدق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ومدح سبحانه الصادقين: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

فالصدق خلق المؤمنين المتقين، وهو سبب للفوز بجنة النعيم، وعكسه الكذب، الذي هو صفة الكافرين والمنافقين، وسبب لاستحقاق عذاب الجحيم.

ولقد حرم الإسلام الكذب؛ بل وعده من كبائر الذنوب التي تهلك صاحبها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب كذابًا)[2]، وإن المداومة على الكذب، واستمراءه، ونشره بين الناس من أسباب وقوع العبد في لعنة الله عز وجل ؛ لأن فيه مفسدة عظيمة على الأمة المسلمة.

ولا شك أن أعظم الكذب هو الكذب على الله عز وجل، أو على رسوله صلى الله عليه وسلم، ولقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يباهل من أصر على الكذب ورفض الانصياع للحق من نصارى وفد نجران الذين جاؤوا يحاجون في أمر عيسى عليه السلام، فأنزل الله عز وجل على نبيه الآيات البينات من مطلع سورة آل عمران تبين الحق في أمر عيسى عليه السلام، وقد قال عز وجل في خاتمتها: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يباهل[3] من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور الحق؛ فإن من أصر على الكذب بعد ذلك فهو مستحق للعنة الله عز وجل[4].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٣٥، تيسير الكريم الرحمن ص٢٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم ٦٨٠٣، ٨/ ٢٩.

(٣) أصل الابتهال: الاسترسال في الدعاء، ويفسر الابتهال في الآية باللعن لأجل أن الاسترسال هنا إنما هو لأجل استنزال اللعنة على الكاذب. انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٣-٧٦.

وإن من أسباب استحقاق لعنة الله عز وجل اختلاق الأخبار الكاذبة ونشرها بين الناس؛ لأجل زعزعة الأمن، ونشر الخوف والفتنة بين المسلمين -ولا يخفى ما في ذلك من خطورة شديدة على الأمة الإسلامية-، وهذا ما كان يفعله المنافقون في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أنزل الله عز وجل تهديده ووعيده لهم: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

والمراد بالمرجفين في المدينة: الذين ينشرون الأخبار الكاذبة بين المسلمين ليبثوا الخوف بينهم؛ فيقولوا: جاء الأعداء، وجاءت الحروب، وقتل من كان في سرية كذا، والعدو حول المدينة وغير ذلك من أخبار الكذب التي يقصد بها الإرجاف بين المسلمين، وقد توعد الله عز وجل هؤلاء المنافقين -إن لم ينتهوا عن فعلهم هذا- بأن يسلط عليهم نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فينفيهم من المدينة نفيًا، ملعونين مطرودين من رحمة الله عز وجل [١].

الملاعنة بين الزوجين

إن من متطلبات الحديث عن اللعن في سياق القرآن الكريم الحديث عن الملاعنة بين الزوجين؛ لأن تلك الملاعنة من اللعن الذي شرعه الله عز وجل لعباده كحكم شرعي يخص قضية معينة تقع بين الزوجين، وفيما يأتي بيان موجز لمعنى الملاعنة وحقيقتها:

الملاعنة لغة: مصدر لاعن كقاتل، مشتق من اللعن، واللعان والملاعنة: اللعن بين اثنين فصاعدًا، وسمي به ما يحصل بين الزوجين؛ لأن الزوج يلعن نفسه في الشهادة الخامسة، وأطلق في جانب المرأة من مجاز التغليب[٢]، يقال: لاعن الرجل زوجته ملاعنة ولعانا برأ نفسه باللعان من حد قذفها بالزنا[٣].

الملاعنة اصطلاحًا: للفقهاء تعريفات عدة للملاعنة، وكلها تؤدي إلى المعنى ذاته، من تلك التعريفات: «شهاداتٌ أربعٌ، مؤكداتٌ بالأيمان، مقرونة شهادة الزوج باللعن، وشهادة المرأة بالغضب، قائمة شهاداته مقام حد القذف في حقه، وشهاداتها مقام حد الزنا في حقها»[٤].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٢٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٢٤٣.

(٢) انظر لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٤٠٤٤.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٢٩.

(٤) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٣٣٠.

وحقيقة اللعان تكون في حالة رمي الرجل امرأته بالزنا، وليس معه أربعة شهداء، فيحلف أربع مرات إنه لمن الصادقين، وفي الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فإن أنكرت الزوجة ذلك، وأرادت أن تدفع عن نفسها حد الزنا فإنها تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن عليها غضب الله إن كان من الصادقين، فإذا تم اللعان سقط عن الزوج حد القذف، واندرأ عن الزوجة عذاب الزانية المحصنة، وحصلت الفرقة بينهما والتحريم المؤبد، وانتفى الولد إذا ذكر في اللعان[1].

وقد بين الله عز وجل أحكام اللعان في آياتٍ بيناتٍ من سورة النور، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦ - ٩].

قال السعدي: «وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته، دارئة عنه الحد، لأن الغالب أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته، التي يدنسه ما يدنسها إلا إذا كان صادقًا، ولأن له في ذلك حقًا، وخوفًا من إلحاق أولادٍ ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره»[2].

وقد شرع الله عز وجل للزوج أن يلعن نفسه في الشهادة الخامسة إن كان من الكاذبين فيما رمى به زوجته -وهذه هي الحالة الوحيدة في الشرع التي يؤمر فيها المسلم بلعن نفسه إن كان من الكاذبين-، ولا يخفى أن في ذلك تغليظًا شديدًا على من رمى زوجته وهو كاذب؛ إذ إنه يلعن نفسه، ويحل على نفسه لعنة الله عز وجل ؛ وهو مستحق لذلك؛ لأن فعله غاية في القبح، وجرمه غاية في البشاعة؛ إذ إنه بفعلته تلك يكون قد قبح عرض زوجته، وعرضها للعنة الناس، ونبذ الأزواج لها[3].

ولا شك بأن في ذلك التشريع الإلهي الحكيم سدًا لباب رمي الزوجة لمجرد الشك أو الشبهة؛ فلا يقدم الرجل على رمي زوجته إلا إذا كان متأكدًا بنفسه من وقوع الفاحشة منها.

أما الزوجة إن لم تتب وتعترف بعد شهادات زوجها -إن كان من الصادقين-، وتسلم لحكم الله عز وجل، وتشهد أربع شهادات بالله - وهي كاذبة - على أن زوجها من الكاذبين فهي بذلك أعظم

(١) انظر: منهج السالكين، السعدي ص٢١٥، فقه السنة، السيد سابق ٢/ ٣١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٦٦.

جرمًا منه؛ لأنها تعلم صدقه فيما رماها به، ومع ذلك تشهد بالله على خلاف ما قد علمت، فاستحقت بذلك غضب الله عليها -والغضب أشد من اللعن-، فأشبهت بفعلتها تلك فعل اليهود المغضوب عليهم، الذين يعرفون الحق ثم يكتمونه[1].

قال أبو السعود: «وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء كثيرًا ما يستعملن اللعن؛ فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقعه عن قلوبهن»[2].

آثار اللعن في الدنيا والآخرة

لاشك أن للعن آثارًا عظيمةً وخطيرة في الدنيا والآخرة؛ إذ اللعن طرد من رحمة الله عز وجل، وأي خسارة أشد من الطرد من رحمة الرحمن سبحانه ؟! وأي حياة تستقيم بعد الحرمان من رحمة الرحيم الرحمن؟! وأي ملجأ يلجأ إليه العبد، وأي حصن يتحصن به إن هو طرد من الحصن الحصين والملاذ الأمين الذي يجده في رحمة الله عز وجل ؟!

إن العبد لا غنى له عن رحمة ربه عز وجل، وإنه إن طرد من تلك الرحمة الواسعة فلا أمن له، ولا سعادة في الدنيا، وليس له منجٍ من عذاب الله عز وجل يوم القيامة، فمن ينصره؟ ومن يتولاه؟ ومن يمنعه في ذلك اليوم؟ يوم لا ينفع مال ولا بنون، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

إن من آثار اللعن في الدنيا عدم التوفيق للملعون، ونزع البركة منه ومن رزقه، وحرمانه من رعاية الله عز وجل ومعيته، وتعرضه للأذى وضيق الصدر، وغير ذلك مما يصيب العبد إذا طرد من رحمة الله عز وجل، وقد ذكر المفسرون في المراد من اللعن في الدنيا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ١٧٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٥٩.

﴿الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

بأنه يشمل: التفسيق، وسلب أهلية الشهادة، واستيحاش المؤمنين منهم، ووقوع حد القذف عليهم[١].

إن أثر اللعنة يحيق بالملعون؛ فيحرمه مما هو خير، ولا يبقى في نفسه إلا الشر، فلا يهتدي لطريق الهداية، ولا يوفق إلى سبيل الرشاد، وينحدر بنفسه إلى مهاوي الرذيلة والعصيان، وهذا ما أصاب اليهود لما حلت عليهم لعنة الله عز وجل، ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦][٢].

أما آثار اللعن في الآخرة فهي أشد؛ إذ العبد يوم القيامة أحوج ما يكون إلى رحمة ربه، فكيف يصير حاله إذا طرد من تلك الرحمة، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢].

فمن لعنه الله فلن يجد من ينصره، ولن يجد من يدفع عنه عذاب الله عز وجل، ولن يجد من يتولاه ويقوم بمصالحه، ويحفظه من المكاره، وهذا غاية الخذلان والعياذ بالله[٣].

ولما كان للعنة آثار مذمومة على الملعون فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى المؤمنين عن أن يلعن بعضهم بعضًا، وحذر من ذلك تحذيرًا شديدًا، وبين صلى الله عليه وسلم عظم ذنب من لعن مؤمنًا فقال صلى الله عليه وسلم: (ولعن المؤمن كقتله)[٤].

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللعن ليس من صفات المؤمنين فقال صلى الله عليه وسلم: (ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء)[٥].

وأنه (لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا)[٦].

وأن من كان كثير اللعن فسيحرم من الخير الكثير يوم القيامة، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يكون اللعانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة)[٧].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٩١.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٧٧.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٨٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم ٣١٦، ١/ ٧٣.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب، باب ما جاء في اللعنة، رقم ١٩٧٧، ٣/ ٥٢٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٣٢٠.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم ٦٧٧٣، ٨/ ٢٣.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم ٦٧٧٥، ٨/ ٢٤.

وحذر صلى الله عليه وسلم أمته من آثار اللعنة التي يطلقها المرء، فلا يدري هل أصابت من لعن أم عادت إليه، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا، فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الذي لعن، فإن كان أهلًا لذلك، وإلا رجعت إلى قائلها)[1].

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لعن مخلوقات غير الإنسان، فنهى عن لعن الديك، ونهى عن لعن الريح، ونهى عن لعن الدابة، فعن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (خذوا ما عليها ودعوها؛ فإنها ملعونة)[2].

وفي ذلك كله دليلٌ على خطورة الآثار المترتبة على اللعن، سواء كانت تلك الآثار في الدنيا أم في الآخرة، والمؤمن يحذر من كل ما قد يوقعه في لعنة الله عز وجل، ويجنب نفسه كل ذنب يترتب عليه لعن أو غضب من الله سبحانه، ويحرص كل الحرص على ما يعرضه لرحمة الرحمن سبحانه، ويدخله في واسع رحمته، وجميل عفوه وستره.

موضوعات ذات صلة:

الحمد، الظلم، الكذب، الظلم

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في اللعن، رقم ٤٩٠٧، ٤/ ٤٢٩.
وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم ٤٩٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم ٦٧٦٩، ٨/ ٢٣.

اللغة العربية

عناصر الموضوع

مفهوم اللغة العربية	١٣٠
الألفاظ ذات الصلة	١٣١
أمور وصفت بالعربية	١٣٢
القرآن واللغة العربية	١٥٠

مفهوم اللغة العربية

أولًا: المعنى اللغوي:

اللغة: هي ما يعبر بها كلُّ قوم عن أغراضهم[(١)].

والعربية مشتقة من الفعل (عَرَبَ)، والعين والراء والباء لها ثلاث معانٍ، منها: الإبانة والإفصاح؛ كقولهم: أعرب الرجل عن نفسه: إذا بين وأوضح، ومنه الحديث: (الثيب تعرب عن نفسها)[(٢)]، فأما الأمة العربية فسميت بذلك؛ لأن لسانها أعرب الألسنة، وبيانها أجود البيان.

والأعراب منهم: سكان البادية بخاصة، والنسبة إليهم أعرابي، وليس الأعراب جمعًا لعرب، بل هو اسم جنس، والعرب العاربة الخلص منهم، وتعرب فلان: تشبه بالعرب، والعرب المستعربة: الذين ليسوا بخلص، وكذا المتعربة بكسر الراء وتشديدها، والعربية هي لغة العرب[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

اللغة العربية هي ما نطق به العرب، أو هي لغتهم[(٤)].

وعلى هذا فاللغة العربية اصطلاحًا: هو اللسان الذي تكلمه العرب، ونزل به القرآن الكريم[(٥)].

---

(١) التعريفات، الجرجاني ص ١٩٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب ما جاء في فضل النكاح، ٣/ ٧٢، رقم ١٨٧٢، وأحمد في مسنده، ٢٩/ ٢٦٠، رقم ١٧٧٢٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٩١، رقم ٣٠٨٤.

(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٤٦٧.

(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص ٧٩٨، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٠٠.

(٥) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ١/ ٢٤٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأعراب:

الأعراب لغة:

جمع أعرابي، وهو ساكن البادية، صاحب ارتيادٍ للكلإ، وتتبعٍ لمساقط الغيث[١].

الأعراب اصطلاحًا:

الأعراب هم أهل البدو، سواءٌ كان من العرب أو من مواليهم، ويعرفون بالغلظة والجفاء[٢].

الصلة بين العربية والأعراب:

العربية هي اللسان الذي تكلم به العرب، والأعراب هم سكان البادية.

٢ الأعجمي:

الأعجمي لغةً:

الأعجم: الذي لا يفصح، سواء كان من العرب أو من العجم، ويجمع الأعجم على عجم، أما العجمي: فمن ينسب إلى العجم وإن كان فصيحًا بليغًا، ونظيره: عربي وعرب، وكلامٌ أعجمٌ وأعجميٌّ: بين العجمة[٣].

الأعجمي اصطلاحًا:

الأعجمي الذي يمتنع لسانه من العربية، ولا يفصح، وإن كان نازلًا بالبادية، والعجمي فهو منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحًا[٤].

الصلة بين العربية والأعجمية:

الفرق بينهما واضح فالعربية هي اللغة الفصيحة البليغة التي نزل بها القرآن الكريم، أما الأعجمية فهي اللغة غير الفصيحة.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٨٦، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٣٣٣.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٩٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣١.
(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١/ ٣٤٢، مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٦٨.
(٤) انظر: الفروق الفردية، العسكري ١/ ٥٨.

أمور وصفت بالعربية

ذكر القرآن الكريم أشياء وصفت بالعربية منها: اللسان، والقرآن، والحكم، وسوف نتناول ذلك بالتوضيح فيما يأتي:

أولًا: اللسان العربي:

وصف الله تعالى اللسان الذي أنزل به القرآن بأنه عربي، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

والإشارة في قوله: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾: إلى القرآن، أو أراد باللسان البلاغة، فكأنه قال: وهذا القرآن ذو بلاغة عربية، وبيان واضح، فكيف تزعمون أن بشرًا يعلمه من العجم، وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه، وأنتم أهل اللسان العربي، ورجال الفصاحة، وقادة البلاغة؟![1].

وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

والمراد باللسان في هذه الآية: اللغة، فهو أحد معانيها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. أي: بلغتهم.

وهذا الوصف للسان الذي أنزل به القرآن بأنه عربي جاء في سياق المدح، ففيه دلالة على أن الله اصطفى هذه اللغة؛ لتكون لغة البيان المبين، والتعبير الأمين، ولسان الإسلام، ولغة القرآن؛ وذلك لشرفها، ولأنها أفصح اللغات وأصفاها، وأرقاها وأكثرها قدرة على استيعاب أحاديث الوحي ومضامينه، وقيمه وتعاليمه، بما تمتلكه من خصائص ومميزات، وبما تمتاز به من ثراء ومقومات، حيث بلغت أعلى مستوياتها اللفظية والتعبيرية، مما جعلها أرقى اللغات وأقدرها على التلقي والبيان والاستيعاب والتأثير.

ومما لا شك فيه أن لسان العرب قد بلغ الغاية في الفصاحة والبيان، فلا يماثله غيره من الألسنة، ولا يقاربه ولا يدانيه، فهو مختص بأنواع الفصاحة والجزالة التي لا توجد في سائر الألسنة؛ والعرب العرباء قد بلغت من البلاغة في الكلام مبلغًا لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم، والمتأخرة عنهم، ووطئوا موطئًا لم تطأه أقدام غيرهم في كمال البيان، وجزالة النظم، ووفاء اللفظ، ورعاية المقام، وسهولة المنطق.

وقد قال بعض الحكماء: حكمة العرب في ألسنتهم، بحلاوة ألفاظهم، وعذوبة

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٧٩.

عباراتهم[1].

وهو أيضًا لسان سالم من العيوب، ومنزه من النقائص، وخالٍ من كل ما يستهجن ويعاب، قال الفارابي عن هذا اللسان: «وهو المنزه من بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلى من كل خسيسة، والمهذب مما يستهجن أو يستشنع، فبنى مبانٍ بَايَنَ بها جميع اللغات من إعراب أوجده الله له، وتأليف بين حركة وسكون حلاه به، فلم يجمع بين ساكنين، أو متحركين متضادين، ولم يلاق بين حرفين لا يأتلفان، ولا يعذب النطق بهما، أو يشنع ذلك منهما في جرس النغمة وحس السمع، كالغين مع الحاء، والقاف مع الكاف، والحرف المطبق مع غير المطبق، مثل تاء الافتعال، والصاد مع الضاد في أخوات لهما، والواو الساكنة مع الكسرة قبلها، والياء الساكنة مع الضمة قبلها، في خلال كثيرة من هذا الشكل لا تحصى»[2].

ومع وصف اللسان بأنه عربي وصفه أيضًا بأنه مبين، فقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

فَوَصْفُهُ بـ(المبين) تأكيد لما يفيده ﴿عَرَبِيٍّ﴾ وزيادة تقتضيها المغايرة، فكونه مبينًا يعني أنه أفصح ما يكون من العربية، وأنه يقع من التفاضل في العربية ما لا يقع في غيرها من اللغات.

وبَيَّنَ سبحانه وتعالى علة هذا الوضوح والبيان، وعلة نزول القرآن بالعربية، فقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

قال ابن كثير: «أي: هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾»[3]. فلما كان البيان الكامل لا يحصل إلا باللسان العربي، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

فدل ذلك على أن سائر الألسنة دونه في البيان.

والمقصود أن الله تعالى وصف اللسان الذي أنزل به القرآن، ولسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ولسان أصحابه بوصفين اثنين:

- أنه عربي.
- وأنه مبين.

فهو لسان عربي في غاية الإعراب والوضوح، فنزهه أن يكون أعجميًّا؛ لأن العجمة خلاف الإبانة، والإعجام الإبهام، والأعجم من في لسانه عجمة عربيًّا كان أو غير عربي، ومنه قيل للبهيمة: عجماء، من حيث إنها لا تبين عن نفسها بالعبارة إبانة

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٤٩.
(٢) انظر: مقدمة ديوان الأدب للفارابي، ١/ ٨٠، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩٦.

الناطق، واللسان الأعجمي هنا لا يعني لسانا بعينه، وإنما هي كلمة تطلق على كل لسان غير اللسان العربي الفصيح.

وهو كذلك لسان مبين كامل البيان والاستقامة والوضوح، ظاهر المعنى، وواضح المدلول، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو في غاية البيان والوضوح والبرهان، حيث تخلص -بفضل القرآن- من حوشي الكلام ومستهجنه، وارتقى بالمعجم القرآني في أسماع الناطقين به وأذواقهم، في حسن النظم، وتنوع الأنساق، وانضباط التراكيب، وسلامة الأساليب.

وقد شاء الله تعالى؛ لحكمةٍ أن يحمل العرب رسالة الإسلام، وأن ينزل القرآن بلسانهم، وأن يكون الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم منهم عربي الأصل واللسان، وأن يخاطب البشرية خطابه الأخير بهذا اللسان العربي؛ ليصبح لسانًا عالميًّا.

فاللسان العربي باقٍ ببقاء القرآن وخالد بخلوده؛ لأنه سبيل اتصال العبد المسلم بربه ولا سبيل غيره، وهو محفوظ -إن شاء الله- ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

والحفظ يشمل الحافظ والمحفوظ، وهذه من أعظم المؤكدات على حفظ القرآن العربي واللسان العربي.

والأمة اليوم مطالبة بالعناية بهذا اللسان، والاجتهاد في تعلمه وتعليمه؛ لأنه مفتاح الأصلين العظيمين؛ (الكتاب والسنة)، ووسيلة إلى الوصول إلى أسرارهما، وفهم دقائقهما؛ ولهذا لابد من النظر إلى اللسان العربي على أنه لسان القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولسان التشريع الإسلامي، بحيث يكون الاعتزاز به اعتزازًا بالإسلام وتراثه الحضاري العظيم، فهو عنصر أساسي من مقومات الأمة الإسلامية، والشخصية الإسلامية.

والنظر إليه كذلك على أنه وعاء للمعرفة والثقافة بكل جوانبها، ولا يكون مجرد مادة مستقلة بذاتها للدراسة؛ لأن الأمة التي تهمل لغتها أمة تحتقر نفسها، وتفرض على نفسها التبعية الثقافية، يقول الرافعي رحمه الله مبينًا ذلك: «ما ذلت لغة شعبٍ إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهابٍ وإدبارٍ، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضًا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثةً في عملٍ واحدٍ:

أما الأول: فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا.

وأما الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا.

وأما الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبعٌ»[1].

فعلى المسلم إذن أن يعرف أهمية هذه اللغة ومكانتها، وأنه لا غنى له عنها، كما يجب أن يعتز بها لا بغيرها من اللغات، بل ينبغي لمن يعرف العربية ألا يتكلم بغيرها، كما ينبغي لمن دخل الإسلام من الأعاجم أن يتعلم العربية، بل قد قيل: إن اعتياد التكلم باللغة العربية يؤثر في العقل والخلق والدين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًّا بينًا، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق»[2].

وكان يقول الشافعي: «من نظر في اللغة رق طبعه»[3].

وانطلاقًا من هذا المفهوم نقول: إن تعلم اللغة العربية والاهتمام بها ليس مهنة تعليمية، أو قضية تعليمية فحسب، وإنما هي قضية عقدية، ورسالة سامية يعتز بها المسلم؛ لأنها خصيصة هذه الأمة؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية»[4].

ويقول السيوطي: «ولا شك أن علم اللغة من الدين؛ لأنه من فروض الكفايات، وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنة»[5].

وتزداد أهمية تعلم اللسان العربي حين بعد الناس عن الملكة والسليقة اللغوية السليمة؛ مما سبب ضعف الملكات في إدراك معاني الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، مما جعل من الأداة اللغوية خير معين على فهم معاني القرآن الكريم والسنة المطهرة، وقد نبه ابن خلدون على ذلك بقوله: «فلما جاء الإسلام، وفارقوا الحجاز -أي: العرب-، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين من العجم -والسمع أبو الملكات اللسانية-، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه، باعتبار السمع، وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسًا بطول العهد؛ فينغلق القرآن والحديث على الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة

(١) وحي القلم ٣/ ٣٣-٣٤.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٢٤.
(٣) المجموع، النووي ١/ ٢٠.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٠٧.
(٥) المزهر ٢/ ٣٠٢.

مطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه منها بالأشباه»[1].

ومما يدل كذلك على أهمية هذا اللسان أن العلم به مما يحصل به إقامة الحجة على الناس، وهو داخل في عموم قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

فلا يمكن أن يكون الإنسان شاهدًا لله إذا لم يكن فاهمًا لما يشهد به؛ لأن العلم شرط في الشهادة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١].

ولقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

فلا يمكن أن يشهد الشاهد بما لا يعلمه ولا يفهمه، ولا بد أن يكون الإنسان فاهمًا لما يشهد به حتى تقبل شهادته على ذلك، والله تعالى جعل هذه الأمة شاهدة على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولا يمكن أن تتم الشهادة على الناس إذا كنت لا تفهم ما تشهد به، وليس هناك وسيلةٌ للاطلاع من خلالها على أحوال الناس، وما كذبوا به أنبياءهم إلا القرآن، والقرآن بلسان عربي مبين، فإذا لم تفهم هذا فلا يمكن أن تكون شاهدًا على الناس، فإذا جاء نوح يوم القيامة يخاصمه قومه، فقالوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقال: بلى، قد مكثت فيكم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فإذا كنت لا تفهم الآيات التي جاءت في قصة نوح فكيف تكون من الشهداء على هذا؟! لأن الشهادة من شرطها العلم.

ولهذه الأهمية الكبيرة للسان العربي نجد أن السلف قد اعتنوا بعلوم اللغة العربية، وحثوا على تعلمها، والنهل من عبابها، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «تعلموا العربية، فإنها من دينكم»، وكتب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «أما بعد: فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي»[2]، وفي توجيه عمر هذا دعوة إلى فقه اللسان العربي وفقه الشريعة معًا. وقد بين شيخ الإسلام سبب قول عمر: «تفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية» حيث قال: «لأن الدين فيه فقه أقوال وفقه أعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه الأقوال، وفقه الشريعة هو الطريق إلى فقه

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٤٥٦-٤٥٧، رقم ٩٩٦٣، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، ٢/ ١١٣٢، رقم ٢٢٢٨.

الأعمال»[1]. ومما يدل على أهمية معرفة اللسان العربي قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «كنت لا أرى ما ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، قال: ابتدأتها»[2]. وقال: «إذا خفي عليكم شيء من القرآن، فابتغوه في الشعر؛ فإنه ديوان العرب»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغًا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، ولم يكن سبيلٌ إلى ضبط الدين، ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، صارت معرفته من الدين، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين»[4].

وفي الكلام السابق لشيخ الإسلام ما يدل على أن بين اللسان العربي والعقيدة الإسلامية ارتباطًا وثيقًا لا يماثله رباط آخر في أي من المجتمعات القديمة والمعاصرة؛ لأن اللغة العربية هي لغة الإسلام، ولغة كتابه العزيز، ولغة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولذا فإن الاهتمام والعناية بها، إنما هو استكمال لمقوم من مقومات العقيدة الإسلامية التي نجتمع جميعًا على إعزازها والدعوة إليها.

ثانيًا: القرآن:

وصف الله تعالى أيضًا القرآن بأنه عربي، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

وقال: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

ومعنى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].

أي: أنزلنا هذا الكتاب باللسان العربي الذي هو لسان العدنانيين والقحطانيين سواء.

والمقصود أن هذه منة على العرب؛

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٢٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٨٣، تفسير ابن أبي حاتم في ١٠/ ٣١٧٠.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٤٢، -٣٨٤٥، وابن أبي حاتم في تفسيره، ١٠/ ٣٣٦٦، رقم ١٨٩٥٣.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٣٤٣.

إذ نزل القرآن بلغتهم، وقد قال الله تعالى ممتنًّا على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى العرب، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾[الزخرف: ٤٤].

أي: لشرف لك ولقومك يا محمد أن نزل عليك هذا القرآن، وأن نزل بلغتك ولغة قومك.

فشرفٌ إذن للعرب أن القرآن نزل بلغتهم؛ ولهذا شكر لابد أن يقدم، فكل من أنعم الله عليه بنعمة فإنه يلزمه أن يقدم لها شكرًا موازيًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧].

فعلى العرب أن يشكروا نعمة الله عليهم؛ إذ أنزل القرآن بلغتهم، فلزامًا عليهم أن يحملوا عبء الدعوة إلى الله أكثر من غيرهم، فهي نعمة أسداها الله إليهم ولم تُسَدَ إلى غيرهم؛ فجدير بهم أن ينهضوا إلى حمل دعوة الإسلام، وبثها ونشرها في العالم، وقد قال الله تبارك وتعالى محذرًا إياهم من التخاذل عن هذه المهمة: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

ومن هنا ينشأ اعتزازنا بلغة العرب، لا لأنها لغة لجنسنا ولبني جلدتنا، ولكن لأنها اللغة التي نزل بها كتاب ربنا، والتي تحدث بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فمن ثم لزمنا التمسك بها، ولزمنا بثها، ونشرها من غير استحياء ولا استنكاف[1].

ولما كان الله قد أرسل محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى قومه العرب وجب أن يكون الوحي بلسانهم المفهوم بينهم.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[إبراهيم: ٤].

قال الأزهري: «وجعل الله عز وجل القرآن المنزل على النبي المرسل محمد صلى الله عليه وسلم عربيًّا؛ لأنه نسبه إلى العرب الذين أنزله بلسانهم، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب في باديتها وقراها العربية»[2].

ومن الحكم من كونه أنزل عربيًّا: أن يعقلوه.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

أي: لكي يفهموه ويفقهوه ويعقلوه، ولا يخفى عليهم لفظه ولا معناه، قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى ذكره: إنا أنزلنا هذا الكتاب المبين قرآنًا عربيًا على العرب؛ لأن لسانهم وكلامهم عربي، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم؛ ليعقلوه ويفقهوا منه؛ وذلك قوله عز وجل: ﴿لَّعَلَّكُمۡ

(١) انظر: سلسلة التفسير، مصطفى العدوي ٢٤/ ٦.
(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٢١٩.

﴿تَعْقِلُونَ﴾»[1].

ولأن العرب كما قال ابن خلدون: «هم أسرع الناس قبولًا للحق والهدى؛ لسلامة طباعهم من عوج الملكات، وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المُتَهيِّئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى، وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد، وسوء الملكات»[2].

ومن الحكم من نزول القرآن باللسان العربي أن هذا اللسان قد بلغ الغاية في الفصاحة والبيان، فصار أهلًا لنزول القرآن به. يقول ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]: وذلك؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه[3].

قال الشافعي بعد أن ساق الآيات السابقة: «فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]»[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].

وقال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

ويؤخذ من هذه الآيات أن القرآن كله عربي، نزل بلسان العرب، وما من لفظ فيه إلا وهو عربي أصلًا، أو معرب خاضع لموازين اللغة العربية وقوالبها ومقاييسها، ولا يشكل على هذا اشتماله على بعض كلمات قيل: إنها من أصل أعجمي (غير عربي) مثل (سندس) و(إستبرق) و(قسورة) وغيرها؛ لأن هذه الكلمات إما أن تكون مشتركة بين العرب وغيرهم، أو أن العرب قد استعملوها وعربوها، فصارت تنسب إليهم لا باعتبار أصلها، بل باعتبار استعمالها وتعريبها.

قال الطبري: «ولم نستنكر أن يكون

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٥١.
(٢) مقدمة ابن خلدون ص٧٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٥.
(٤) الرسالة ص ٤٦- ٤٧.

من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بجنسين منها، كما قد وجدنا اتفاق كثير منهم فيما قد علمناه من الألسن المختلفة؛ وذلك كالدرهم والدينار والدواة والقلم والقرطاس»[1].

فلا مجال للطعن في كون القرآن كله عربي بمثل هذه الشبهة، وهي وجود بعض الألفاظ غير عربية أو مشتركة، وأنه لو كانت مجالًا للطعن في القرآن لما تركها أسلاف هؤلاء من مشركي مكة ومن بعدهم، وهم أهل اللغة، ولم يتركوا مجالًا لأحدٍ للطعن في النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن إلا قالوه، ولو أنهم وجدوا هذه الشبهة قائمة لقالوها.

والمقصود أن القرآن كله عربي جملة وتفصيلًا، وأنه نزل بلسان العرب قوم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من مزية عربية القرآن وفضله على العرب أمران عظيمان، هما:

الأول: أن تعلم القرآن والنطق به على أصوله يُقَوِّمُ اللسان، ويفصح المنطق، ويصحح الكلام، ويساعد على فهم لغة العرب، فليس هناك شيء يشبه القرآن في تقويم الألسنة، حين تتأثر باللهجات العامية المختلفة.

الثاني: كان للقرآن الفضل الأكبر في الحفاظ على اللغة العربية في مسيرة القرون الأربعة عشر الغابرة، بما اشتملت عليه من فترات ضعف وتخلف.

ولعل التنويه بكون القرآن عربيًّا المقصود به بيان إعجاز القرآن الذي نزل بلغة العرب، وقد تحداهم بما هم بارعون فيه أن يأتوا بمثله فعجزوا، وهم أهل اللغة والفصاحة والبلاغة، وقد مضى من القرون والأحقاب ما يبلغ أربعة عشر قرنًا ولم يأت بما يناظره آتٍ، ولم يعارضه أحد بشيء إلا أخزى نفسه، وافتضح في أمره، وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور:

منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباطها بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلا أن يأتوا بكلام مثله.

وإنما يقوم الكلام بأشياء ثلاثة:

١. لفظ حامل.
٢. ومعنى به قائم.
٣. ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ١٥.

منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقديم في أبوابه، والرقي في أعلى درجاته.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، وأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنًا أصح المعاني، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباءً عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمرٌ تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، ومناقضيه في شكله، ثم صار المعاندون له يقولون مرة: إنه شعر لما رأوه منظومًا، ومرة إنه سحر لما رأوه معجوزًا عنه، غير مقدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعًا في القلب وقرعًا في النفس، يريبهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعًا من الاعتراف؛ ولذلك قالوا: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

مع علمهم أن صاحبهم أمي، وليس بحضرته من يملي أو يكتب شيئًا، ونحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد، والجهل والعجز، وقد حكى الله عن بعض مردتهم -وهو الوليد بن المغيرة المخزومي- أنه لما طال فكره في القرآن، وكثر ضجره منه، وضرب له الأخماس من رأيه في الأسداس، فلم يقدر على أكثر من قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥][1] عنادًا وجهلاً به، وذهابًا عن الحجة، وانقطاعًا دونها.

وقد اقترن وصف القرآن الكريم بكونه عربيًّا كونه بيِّنًا غير ذي عوج.

قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

ووصفت آياته بأنها مبينات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٣٤].

ولبيانه وصفه الله عز وجل بأنه ميسر للفهم والحفظ والاتعاظ، فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٥٠، رقم ٣٨٧٢، والطبراني في الكبير، ١١/ ١٢٥، رقم ١١٢٥٠، وهو في صحيح السيرة النبوية ١/ ١٥٨.

١٧].

بل عد بعض العلماء من وجوه إعجاز القرآن يسر تناوله وسهولة حفظه وفهمه، وأنه قادر على مخاطبة جميع فئات الناس على مختلف ثقافاتهم وعصورهم؛ إذ إن معانيه مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم، وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم.

ومعنى أنه ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان[1].

وهذا التعبير أبلغ من التعبير بـ(مستقيم)؛ لأن عوجًا نكرة، وقعت في سياق النفي؛ لما في ﴿غَيْرَ﴾ من معناه[2].

ولما كان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فمن المؤكد أن يكون غير ذي عوج، واللغة العربية هي الأنسب لقرآن غير ذي عوج.

وأخبر الله تعالى بأن آياته قد فصلت، فقال: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٣].

أي: بينت آياته بالعربية حتى يفهم.

ولا يرد على كونه مفصلًا مجيء بعض الحروف في أوائل السور، مثل: ﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ وغيرها؛ فهذه الحروف التي في أوائل السور وإن كان الظاهر أنها غير معروفة المعنى، إلا أن الصواب أن هذه الحروف جاءت لمعنى وهو تحدي العرب، وكأنه يقول لهم: هذا القرآن مكون من حروف جاءت من جنس كلامكم الذي تتكلمون به، فكيف عجزتم عن الإتيان بمثل سورة منه؟! ولهذا غالب السور التي جاءت في مطلعها هذه الحروف المقطعة يعقبها ذكر القرآن، أو ما يدل على الوحي إلا في سورتين، وهاتان السورتان أيضًا قد تضمنتا ذكر القرآن.

والمقصود أن عروبة القرآن أحد أهم أوصافه التي ذكرها الله في مقام الثناء على كتابه، وبهذا اللسان العربي الفصيح ارتفع عن أن يكون أعجميًّا، وأن يكون فيه عوج، بل هو في أعلى درجات البلاغة، وهي درجة الإعجاز التي اختص بها، ويشهد لذلك أن الله تعالى وصفه بأنه قرآن نزل بلسان عربي مبين، وكرر ذلك في مواضع كثيرة، وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميًّا، وتحدى به البشر في أكثر من موضع على أن يأتوا بمثله.

ولما كان القرآن عربيًا تُوَجَّبَ على من يريد فهمه وتدبره أو تفسيره أن يعرف اللسان الذي نزل به، وأن يهتم بهذه اللغة كونها لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكونه جزءًا من الدين، بل لا يمكن أن يقوم الإسلام

(١) توفيق الرحمن، فيصل آل مبارك ٤/ ٢٣٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٢٣/ ٢٦١.

إلا به؛ إذ لا يصح أن يقرأ المسلم القرآن إلا بالعربية، وقراءة القرآن ركن من أركان الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام، كما أنه لا يتم فهم الكتاب العزيز إلا بمعرفة اللسان العربي؛ ولهذا ندرك حرص العلماء في العصور المتقدمة على التأليف في إعراب القرآن ومعانيه؛ بل إن بعض هذه الكتب منها ما يسمى بـ(معاني القرآن) مما يوحي بأهمية الإعراب في فهم المعاني.

فمن أراد الكلام على كتاب الله فعليه أولًا معرفة اللغة التي نزل بها وإلا لم يدرك مراد الله من كلامه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لابد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه؟ فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهم البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك»[1].

وهناك أمثلة عديدة تدل على أن من جهل لسان القرآن وأراد أن يتكلم فيه وقع في الخطأ والضلال، فهذا أبو عمرو بن العلاء لما ناظر عمرو بن عبيد في مسألة خلود أهل الكبائر في النار، واحتج ابن عبيد أن هذا وعد الله، والله لا يخلف وعده -يشير إلى ما في القرآن من الوعيد على بعض الكبائر بالنار والخلود فيها-، فقال له ابن العلاء: من العجمة أتيت، هذا وعيد لا وعد[2].

قال الشاعر[3]:

وإني وإن أوعدته أو وعدته
لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وكذلك قول من زعم أنه يجوز للرجل نكاح تسع حرائر مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[النساء: ٣].

فالمجموع تسع نسوة، قال الشاطبي: «ولم يشعر بمعنى فعال ومفعل، وأن معنى الآية: فانكحوا إن شئتم اثنتين اثنتين، أو ثلاثًا ثلاثًا، أو أربعًا أربعًا»[4].

ومن ذلك قول من قال: إن المحرم من الخنزير إنما هو اللحم وأما الشحم فحلال؛ لأن القرآن إنما حرم اللحم دون الشحم، ولو عرف أن اللحم يطلق على الشحم بخلاف الشحم فلا يطلق على اللحم لما قال ما قال[5].

(١) الإيمان ص ١١١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٦٧.

(٣) البيت منسوب لعامر بن الطفيل، انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٣.

(٤) الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٥٦.

(٥) انظر: الكشاف ١/ ١٥٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٢٧٦.

قال الشاطبي رحمه الله بعد أن ذكر الأمثلة السابقة: «فقد ظهر بهذه الأمثلة كيف يقع الخطأ في العربية في كلام الله سبحانه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك يؤدي إلى تحريف الكلم عن مواضعه، والصحابة رضوان الله عليهم برآء من ذلك؛ لأنهم عرب لم يحتاجوا في فهم كلام الله تعالى إلى أدوات ولا تعلم، ثم من جاء بعدهم ممن هو ليس بعربي اللسان تكلف ذلك حتى علمه»[1].

ولهذا نجد أن العلماء اشترطوا فيمن أراد تفسير كتاب الله معرفته عدة أمور، منها:

١. معرفة أوجه اللغة.

وهو أمر ضروري في اختيار ما يناسب النص، وقصر المعنى على الوجه المراد، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

فإن لفظة: (الضلال) تقع على معان كثيرة، فتوقع البعض أنه أراد بالضلال الذي هو ضد الهدى، وزعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان على مذهب قومه أربعين سنة، وهذا خطأ فاحش؛ فقد طهره الله تعالى لنبوته، وارتضاه لرسالته، ومن سيرته صلى الله عليه وسلم ما يرد على مزاعمهم؛ إذ سمي في الجاهلية الأمين، وكانوا يرتضونه حكمًا لهم وعليهم، والله سبحانه وتعالى إنما أراد بالضلال: الغفلة، كما قال في موضع آخر: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

فالمراد: الغفلة[2] أي: لا يغفل سبحانه وتعالى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة، ثم رده إلى جده عبد المطلب، أو هو ضلاله من حليمة السعدية مرضعته، أو يكون المراد: أنه ضل في طريق الشام حين خرج به عمه أبو طالب»[3].

٢. معرفة الصيغ وما تدل عليه من معنى.

لئلا يؤدي ذلك إلى تفسير القرآن الكريم بما لا يليق، أو فهم المعنى غير المراد، ومن ذلك على سبيل المثال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وغير ذلك من الآيات التي ورد فيها نفي الظلم عن الله سبحانه وتعالى بصيغة (فعَّال)، ففي هذه الآية وما أشبهها وردت لفظة (ظلام) بصيغة المبالغة، ومعلوم أن نفي المبالغة لا يستلزم نفي الفعل من أصله، مثال ذلك قولك: زيد ليس بنحَّار للإبل، لا ينفي إلا مبالغته في النحر ولا ينفي أنه ربما نحر بعض الإبل، ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة في الآيات هو نفي الظلم من أصله عن الله سبحانه وتعالى.

(١) الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٥٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٥٠.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤٨٦.

وأجيب عن ذلك بناءً على فهم اللغة العربية وهو أن المراد نفي نسبة الظلم إليه سبحانه ؛ لأن صيغة (فعَّال) قد جاءت في اللغة العربية مرادًا بها النسبة، فأغنت عن ياء النسب، ومثاله في لغة العرب قول امرئ القيس[(١)]:

وليس بذي رمحٍ فيطعنني
وليس بذي سيفٍ وليس بنبال

أي: ليس بذي نبلٍ، وعلى هذا أجمع المحققون من المفسرين واللغويين[(٢)].

٣. معرفة الأوجه الإعرابية.

فمما يجب معرفته للمفسر معرفة أوجه الإعراب؛ لأن المعنى يتغير بتغير الإعراب، ويختلف باختلافه، وعلى سبيل المثال لو أن قارئًا قرأ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

برفع (كفو) ونصب (أحد) لكان قد أثبت كفوًا لله، تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا، بل إن الحركة لها دور في المعنى ولو لم تكن إعرابًا، ويدل على ذلك لزوم كسر الخاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

وكسر الواو في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[الحشر: ٢٤].

فإن فتحها يؤدي إلى معنى اعتقاده الكفر.

وكذلك فإن الإعراب له تأثير بَيِّنٌ في الأحكام الفقهية وتوجيهها؛ فالمعاني تختلف باختلاف وجوه الإعراب، ويختلف الحكم تبعًا لذلك، وعلى سبيل المثال لو قال شخص: فلان له عندي مائةٌ غير درهم، برفع (غير) لكان مقرًّا بالمائة كاملة؛ لأن غير هنا صفة للمائة، وصفتها لا تنقص شيئًا منها[(٣)]، ولو قال: له عندي مائةٌ غير درهم، بنصب (غير) لكان مقرًّا بتسعة وتسعين درهمًا؛ لأنه استثناء، والاستثناء إخراج ما بعد حرف الاستثناء من أن يتناول ما قبله.

ولو قال لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار، بكسر همزة (إن) لم تطلق حتى تدخل الدار؛ لأن (إن) للشرط، ولو قال: أنت طالق أن دخلت الدار بفتح همزة (أن) وقع الطلاق في الحال؛ لأن معنى الكلام: أنت طالق لأنك دخلت الدار؛ أي: من أجل أنك دخلت الدار؛ فصار دخول الدار علة طلاقها، لا شرطًا في وقوع طلاقها[(٤)].

بل إن الحكم يختلف باختلاف تصاريف الكلمة؛ فلو أن رجلًا حلف ألا يلبس مما غزلته فلانة، فلا يحنث إلا بما غزلته قبل اليمين، ولو قال: مما تغزله فلا يحنث إلا بالذي تغزله بعد اليمين، فلو قال: من غزلها

(١) انظر: ديوان امرئ القيس ص ٤٩.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ١٣١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٢١، روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٤٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٤٠.
(٣) شرح المفصل، ابن يعيش ص١١.
(٤) انظر: معاني الحروف، الرماني ص ١٧٤، شرح المفصل، ابن يعيش ص١٢.

دخل فيه الماضي والمستقبل[1].

٤. المعرفة بلغات العرب.

إذ من المعلوم أن لكل قبيلة لغتها، وأفصح اللغات لغة قريش، إلا أن هناك بعض الكلمات في القرآن جاءت على غير لغة قريش، فقد أشكل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧].

فقام في المسجد فسأل عنها، فقام إليه رجل من هذيل فقال معناها: «على تنقص»[2] أي: شيئًا فشيئًا.

بل إن تحديد الدلالة اللفظية قد يتوقف عليها تقرير الحكم الشرعي؛ لأن الأسلوب العربي في لغة القرآن الكريم يتميز بالتصرف في فنون القول، وتكثر فيه الألفاظ التي تمثل أكثر من معنى، ومن ذلك على سبيل المثال:

- لفظة (اللمس) الواردة في قوله تعالى: ﴿لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]. فمن الفقهاء من حدد معنى (اللمس) بالاتصال بالمرأة، ومنهم من حدده بمعنى المس فقط[3].
- ومن ذلك أيضًا ما ورد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا)[4]، قاله لنسائه، فحسبنه من الطول الذي هو ضد القصر، فظنت سودة إحدى زوجاته أنها المرادة، فلما ماتت زينب رضي الله عنها قبلها علمن حينئذٍ أن المراد بالطول هو الفضل والكرم، وكانت زينب أكثرهن صدقة، وهذا يوافق كلام العرب فهم يقولون: فلان أطول يدًا في حالة الكرم[5].

والمقصود أن القرآن قد وصف بأنه عربي؛ لأنه نزل بلغة العرب، وخوطب الناس بالعربية؛ لأن أمة العرب أفصح الأمم لسانًا، وأسرعهم أفهامًا، وأقدرهم بيانًا، وألمعهم ذكاءً، وأحسنهم استعدادًا لقبول الهدى والرشاد؛ ولأن اللسان العربي أفصح الألسنة، وأنفذها في نفوس السامعين، وأحب اللغات للناس، فإنها أشرف وأبلغ وأفصح من اللغة التي جاء بها كتاب موسى عليه السلام، ومن اللغة التي تكلم بها عيسى عليه السلام ودونها أتباعه أصحاب الأناجيل؛ ولأنها لسان سهل وبين؛ ولهذا جعلت وسيلة لتبليغ الخير للناس ودعوتهم إلى الله، وقد ذكر جل وعلا أنه يسر هذا

(١) الكوكب الدري، الإسنوي ص ٣٠٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٩.
(٣) انظر: المجموع، النووي ٢/ ٢٨٢، المغني، ابن قدامة ١/ ٢١٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم ٢٤٥٢.
(٥) انظر: إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض ٧/ ٢٤٢.

القرآن بلسان هذا النبي العربي الكريم؛ ليبشر به المتقين، وينذر به الخصوم الألداء، وهم الكفرة، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

فالله تعالى هنا يخبر عن نعمته وهي أنه يسر هذا القرآن الكريم بلسان النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ليحصل المقصود منه، والانتفاع به ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل والآجل[(١)].

وفي قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ إشارة إلى أهمية اللسان الذي هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كذلك لسان قومه، يفهمون به ما يقوله لهم، ويحيط هو كذلك علمًا بما يقولون له، مما يفهم منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد بلغ القمة في فصاحة الكلام، ووضوح الخطاب، وقوة الحجة.

ومعنى تيسير القرآن تيسير ألفاظه ومعانيه وفهمه دون كلفة على السامع ولا إغلاق، كما يقولون: يدخل للأذن بلا إذن، وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني؛ فأما من جانب الألفاظ فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها بحيث يَخِفُّ حفظها على الألسنة.

وأما من جانب المعاني فبوضوح انتزاعها من التراكيب، ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له، ويتولد معان من معان أخر، كلما كرر المتدبر تدبره في فهمها، ووسائل ذلك لا يحيط بها الوصف[(٢)]. ومن أهمها إيجاز اللفظ؛ ليسرع تعلقه بالحفظ، وإجمال المدلولات؛ لتذهب نفوس السامعين في انتزاع المعاني منها كل مذهب يسمح به اللفظ والغرض والمقام، ومنها الإطناب بالبيان، إذا كان في المعاني بعض الدقة والخفاء، ويتأتى ذلك بتأليف نظم القرآن بلغة هي أفصح لغات البشر، وأسمح ألفاظًا وتراكيب، ووفرة المعاني، ويكون تراكيبه أقصى ما تسمح به تلك اللغة، فهو خيار من خيار من خيار.

ووصف الله القرآن بأنه أنزل حكمًا عربيًّا، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧].

أي: بلسان العرب؛ لتحكم به بينهم.

أو المراد بـ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: محكمًا متقنًا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لئلا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٢٦.

يقع فيه شك واشتباه؛ وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من الأهواء[1].

ففي هذه الآية الكريمة ذكر فضيلتين للقرآن الكريم:

فضيلة من جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحكمه وأحكامه وتشريعاته، وهو المعبر عنها بكونه ﴿حُكْمًا﴾.

وفضيلة من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه، وهي المعبر عنها بكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأغناها وأجملها.

فحصل لهذا الكتاب كمالان؛ كمال من جهة معانيه ومقاصده، وهو كونه ﴿حُكْمًا﴾، وكمال من جهة ألفاظه، وهو المكنى عنه بكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله؛ لأن الحكمة أشرف المعقولات فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن الحكمة[2].

ثم في كونه (عربيًا) امتنان على العرب المخاطبين به ابتداءً، حيث إنه نزل بلغتهم، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره ونواهيه، فهو الكتاب الذي فيه شرفهم وعزهم.

وكأن في هذا تعريض بغباء مشركي العرب، حيث لم يشكروا الله تعالى على هذه النعمة، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان[3].

وإنما سمي القرآن حكمًا؛ لأن مشتمل على جميع التكاليف والأحكام والحلال والحرام، والنقض والإبرام؛ أو لأنه لما كان القرآن سببًا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة، أو لأن الله تعالى لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن، والعمل بمقتضاه سماه حكمًا لذلك المعنى[4].

أو يكون الحكم هنا بمعنى: الحكمة، كما في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

وجعل نفس الحكم حالًا منه مبالغة، والمراد: أنه ذو حكم، أي: حكمة[5]. أي: يحكم في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة، مترجمًا بلسان العرب؛ ليسهل عليهم فهمه وحفظه. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم[6].

أو المراد بـ﴿حُكْمًا﴾ أي: مفصحًا عن الأحكام، نحو: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٥٣.
(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٩٤.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٩٥.
(٥) التحرير والتنوير ٦/ ٢٢٥.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٢٦.

أو: ناسخًا لما قبله من الأحكام[1] أي: إن القرآن مع أنه خوطب به العرب ونزل بلسانهم إلا أن حكمه لزم الثقلين كافة عربًا وعجمًا، فكل أهل دين قبله عليهم اتباع دينه، وكل حكم تبع لحكمه، وكل لسان تبع للسانه.

وفي وصف الحكم بأنه ﴿عَرَبِيًّا﴾ أيضًا إشارة إلى أن الشريعة بأحكامها لا تفهم إلا إذا فهم اللسان العربي، والإخلال في ذلك قد يؤدي إلى انحراف الأحكام عن استقامتها إلى البدعة والضلال.

وكذلك في وصف الحكم بأنه ﴿عَرَبِيًّا﴾ تكريمًا وتشريفًا للسان العربي وأهله، وكيف لا يكون خطاب رب العالمين إلى كافة المكلفين -عربًا وعجمًا- شرفًا للعرب، وقد جاء بلغتهم دون سواهم؟! وعلى قدر التشريف يأتي التكليف؛ فمن قام بهذا التكليف استحق الذكر والتشريف، وبالمقابل من نبذ الرسالة وضيع الأمانة عاد عليه القعود عن التكليف بالتوبيخ والتعنيف، وكان معرضًا للوعيد والتهديد، فواجب على العرب أن ينهضوا بحضارتهم، وألا يغفلوا عن تبليغ رسالات ربهم، فمن ينهض بالتكليف يناله حظه من التشريف.

والمقصود أن الله تعالى جعل الحكم والدين عربيًا نسبة إلى العرب؛ لأنه منزل بلغتهم على محمد صلى الله عليه وسلم وهو عربيٌّ، فنسب الدين إليه إذ عليه أنزل[2].

وجاءت رسالة الإسلام ونزل الوحي الأمين باللغة العربية؛ ليخاطب القرآن الكريم شعوب الأرض كلها بمختلف أجناسها وأعراقها ولغاتها بهذا اللسان العربي المبين، فانتقلت اللغة العربية مع أول آية نزل بها الوحي نقلة واسعة هائلة تملأ العصور والأقطار والشعوب.

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٦/ ١٠٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٧٥.

القرآن واللغة العربية

أولًا: الحكمة من اختيار العربية لغة القرآن:

اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي مظهرًا لوحيه، ومستودعًا لمراده، وأن يكون العرب هم المتلقين أولًا لشرعه، وإبلاغ مراده، لحكم علمها، منها:

١. كون لسانهم أفصح الألسن، وأسهلها انتشارًا، وأكثرها تحملًا للمعاني مع إيجاز لفظه.

ولما تتمتع به اللغة العربية من مقومات اللغات الحية، وعناصر قوتها واستمرارها؛ وذلك من حيث وفرة مفرداتها بالأصالة والاشتقاق، أو بالحقيقة والمجاز، أو من حيث قبولها للتطور والتقدم الحضاري، أو من حيث مرونة أساليبها، وصلاحيتها لكل ما يراد منها، أو من حيث فصاحة ألفاظها، وبلاغة تراكيبها.

أضف إلى ذلك أن خصائص اللغة العربية وقابليتها الحيوية، ومرونة تعبيراتها وسعتها، وما إليها من مميزات من حيث الاشتقاق الصرفي والإيجاز، والخصائص الصوتية، وإمكانية تعريب الألفاظ الواردة تجعل اختيارها لغة للقرآن الكريم هو الخيار الصحيح.

٢. ومن الحكم: أن الله أرسل كل نبي بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه.

فمثلًا: موسى عليه السلام جاء بمعجزة إبطال السحر؛ لأنهم كانوا بارعين في السحر، وعيسى عليه السلام جاء بالطب، وإحياء الموتى؛ لأنهم كانوا بارعين في الطب، وكذلك العرب هم أمهر الناس في اللغة من بين الأمم في وقتهم، فجاء القرآن إعجازًا لهم في معانيه وألفاظه وتشبيهاته وإحالاته وإعجامه وتصريفاته.

ومن هنا كانت معجزة الرسول الكبرى القرآن الكريم من جنس ما اشتهر به قومه من الفصاحة والبلاغة، فجاء يتحداهم في نفيس بضاعتهم، وأبرز أسباب شهرتهم وتفوقهم.

٣. أي كتاب سماوي ينبغي أن ينزل بلغة الرسول الذي ينزل عليه ذلك الكتاب.

ليتمكن من التعامل معه بصورة طبيعية، ومن هذا المنطلق كان من الطبعي اختيار اللغة العربية دون غيرها من اللغات، حيث إنها اللغة التي كان يتحدث بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن أي رسول لابد وأن يتحدث بلسان القوم المرسل إليهم أو المبعوث فيهم، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر، حيث قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤].

فكان من الطبعي أن يتم نزول القرآن باللغة العربية، التي هي لغة النبي محمد

صلى الله عليه وسلم، ولغة قومه الذين يعيش معهم؛ لكن اختيار لغة قوم الرسول لا يدل على انحصار الدعوة في من يتكلم بتلك اللغة، خاصة وأن الأدلة القاطعة تثبت خلاف ذلك.

٤. لو جاء القرآن بأي لغة أخرى لقالوا: لو كان عربيًّا لتبعناه.

فهذه الشبهة كان يمكن طرحها لو جاء على أي لغة أخرى -غير العربية-، وحينئذٍ لقالوا: لماذا نزل القرآن بهذه اللغة؟ ومن أين تعلم اللغة وهو أمي لا يكتب؟ وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

٥. نزول القرآن عربيًّا على النبي صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك جاء بهذه البراعة هو أعجز في ذاته.

ولا شك أن اللسان العربي مختص بأنواع الفصاحة والجزالة التي لا توجد في سائر الألسنة[1].

٦. لو تنوع النظم المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب اختلاف ألسنة الأمم لأدى هذا إلى الاختلاف والتنازع.

ولتطرق التحريف إلى الكتاب المنزل، بل يقرب من المحال أن يتحد هذا المنزل مع تعدد اللغات، وتنوع اللهجات، وتعدد الخصائص والدلالات بالنسبة لاستنباط الأحكام، ورسم المنهج، ومعرفة الحدود، وإحكام جميع العبادات والتشريعات.

فيكون نزول القرآن باللسان العربي نعمة عظيمة، وآية حكيمة، فالحمد لله على إزالة هذا التناكر والتدابر باختيار اللغة العربية الراقية؛ لتنال شرف نزول الوحي الإلهي بها، ولترتقي وحدها إلى تحمل إعجازه الذي لا يتسع له غيرها، وإنها لمسئولية وفخار للأمة صاحبة اللغة واللسان، وقد حددها الله سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وليس المراد من خطاب العرب بالقرآن أن يكون التشريع قاصرًا عليهم أو مراعيًا لخاصة أحوالهم، بل إن عموم الشريعة ودوامها وكون القرآن معجزة دائمة مستمرة على تعاقب السنين ينافي ذلك، نعم إن مقاصده تصفية نفوس العرب الذين اختارهم لتلقي شريعته وبثها ونشرها، فهم المخاطبون ابتداءً قبل بقية أمة الدعوة، فكانت أحوالهم مرعية لا محالة، وكان كثير من القرآن مقصودًا به خطابهم بخاصة، وإصلاح أحوالهم.

قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٤٩.

﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[هود: ٤٩].

وقال: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾[الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧].

لكن ليس في ذلك دليل على الاقتصار على أحوالهم فقط[(١)].

والمقصود أننا لا نشك في أن نزول القرآن باللغة العربية دون غيرها من اللغات لم يكن عفويًّا، بل كان لأسباب دقيقة، وهو بكل تأكيد اختيار حكيم؛ لأنه من قبل رب العالمين، ونحن نؤمن بوجود الحكمة في هذا الاختيار، سواءً تبينت لنا أسبابه أم لم تتبين! وسواء علمنا الحكمة من اختيار الله للغة العربية لتكون هي لغة الإسلام الدين العالمي أم لم نعلمها، فلابد أن نجزم ونوقن أنها أفضل اللغات مطلقًا؛ ولهذا اختارها الله من بين اللغات؛ ليخاطب الله بها الناس جميعًا، فالقرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة في كل شيء حتى في اللغة التي أنزل بها.

ثانيًا: أثر القرآن على اللغة العربية:

لقد تأثرت اللغة العربية بالقرآن الكريم تأثرًا كثيرًا، ويمكن إجمال هذا الأثر في العناصر الآتية:

١. حفظ القرآن اللغة العربية حية في ألسنة المسلمين في بقاع الأرض كلها.

حفظ القرآن الكريم اللغة العربية من الضياع والاندثار كغيرها من اللغات الأخرى التي تفرقت، واختلفت بمرور الزمن، فالمتأمل للتاريخ يرى بوضوح لغات كثيرة قد اندثرت بموت أهلها، أو ضعفت بضعفهم، لكن ارتباط اللغة العربية بالقرآن جعلها محفوظة بحفظه، وباقية ببقائه، وسبحان الله القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

والذي يدقق النظر في العربية المعاصرة يجد الكثير من الألفاظ التي هجرت، وظل بقاؤها حية على الألسنة، قاصرًا على الاستخدام الديني لها، وهو الاستخدام المرتبط بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

٢. حَوَّلَ القرآن اللغة العربية إلى لغة عالمية.

بنزول القرآن ودخول الناس في دين الإسلام أفواجًا من شتى بقاع الأرض اتجه المسلمون من غير العرب إلى تعلم العربية؛ رغبة في أداء العبادات والشعائر الدينية بها، وقراءة القرآن بالعربية؛ لأن قراءة القرآن الكريم تعبد لله تعالى لا يصلح إلا باللسان العربي، وبالتالي انتشرت اللغة العربية انتشارًا ما كان يتحقق لها بدون القرآن

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٨.

الكريم.

فنزول القرآن باللسان العربي حَوَّلَها من لغة محلية إلى إنسانية، وذلك عن طريق الموجات البشرية التي خرجت من الجزيرة العربية إلى البلاد المجاورة؛ داعية للإسلام حاملة معها قرائنها وعقيدتها وأخلاقها، وبقيت معلقة بموطنها الأصلي مادي ومعنوي، وهو ما دعا سكان البلاد الأصليين إلى الإسلام واعتنائهم؛ لما رأوه من أخلاق المسلمين وعدلهم؛ ولما أسلموا كان عليهم أن يؤدوا الصلاة وهي عمود الدين، والصلاة لا تكون إلا بقراءة الفاتحة على الأقل، فأدى ذلك إلى تعلمهم اللغة العربية.

كما أن اعتناقهم لهذا الدين وقبولهم به يعني التزامهم بأخلاقه ومبادئه، وهذا دعاهم إلى ضرورة التفقه في الدين، ومعرفة أحكامه وقراءة القرآن؛ لنيل الأجر والثواب على قراءته؛ كل هذا دعا المسلمين من غير العرب إلى تعلم العربية ومعرفتها، إلا أن ما يلفت النظر هو أن هؤلاء لم يتعلموا العربية فقط، بل أتقنوها فألفوا فيها المؤلفات التي ما تزال من أمهات المصادر العربية حتى يومنا هذا، ككتاب سيبويه وهو فارسي الأصل، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني وغيرهم.

٣. استقرار اللغة العربية.

رغم أن التطور سنة جارية في كل اللغات، وأكثر مظاهره يكون في الدلالات، إلا أن العربية ظلت محتفظة بكل مستوياتها اللغوية (صوتية - صرفية - نحوية - دلالية)، وما تطور منها كان في إطار المعاني الأصلية وبسبب منها، والمحافظة على الأصل الدلالي للفظ على تطور الزمن له فائدة لا يستهان بها، فتواصل الفهم بين الأجيال للنصوص القديمة وتراث الأمة أمر من الأهمية بمكان، ويزداد إدراك أهمية الاستقرار اللغوي الذي تتميز به العربية إذا ما تأملنا التعبير السريع الذي يلحق اللغة الإنكليزية (لغة الحضارة المعاصرة)، فنصوص الإنجليزية القديمة (التي مر عليها قرابة ثلاثة قرون) أصبحت عصية على الفهم بالنسبة للإنجليزية المعاصرة.

ولعل هذا التغير السريع هو الذي دفع علماء هذه اللغة إلى إعادة صياغة النصوص الأدبية المهمة عندهم -مثل نصوص شكسبير- بإنجليزية حديثة يفهمها المعاصرون بدلًا من الإنجليزية القديمة.

فرغم مرور أربعة عشر قرنًا على وجود الإسلام إلا أن الإنسان العربي لا يكاد يجد صعوبة في فهم هذه النصوص، ولا تصادفه غرابة في الألفاظ، وما يصادفنا من ألفاظ صعبة، فإن أبسط المعاجم يمكن أن يبدد هذه الصعوبة، وهكذا الشأن مع باقي المستويات اللغوية (الصوتية، والصرفية،

والنحوية) وهذه مزية عظيمة أن تكون الأمة موصولة بتراثها الزاخر تفيد منه وتنتفع به.

٤. تهذيب اللغة العربية.

فقد نَحَّى القرآن الكريم عن اللغة التقعير في الكلام، والألفاظ الغريبة الثقيلة على السمع، وإن من يتأمل النثر أو الشعر الجاهلي يرى كثيرًا من هذه الكلمات، ومن ذلك: (جحيش): يقال للرجل: إذا كان يستبد برأيه ولا يشاور الناس[(١)]، و(البخصات): جمع بخصة وهي لحم باطن القدم، و(الملطاط): وهو كل شفير نهر أو وادٍ[(٢)]، وغير ذلك كثير.

كما نحَّي القرآن الكريم أيضًا كثيرًا من الألفاظ التي تعبر عن معان لا يقرها الإسلام، ومن ذلك:

- المرباع: وهو ربع الغنيمة إلى الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.
- النشيطة: وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى القوم، أو ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل بلوغ الموضع المقصود.
- المكس: وهو دراهم كانت تؤخذ كضريبة من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية.
- قولهم للملوك: (أبيت اللعن). ومثل ذلك كثير يرجع إليه في بطون كتب التراث.

ومن أثر القرآن بالعربية أيضًا:

- تقوية اللغة والرقي بها نحو الكمال.
- توحيد لهجات اللغة العربية، وتخليصها من اللهجات القبلية الكثيرة.
- تحويل اللغة العربية إلى لغة تعليمية ذات قواعد منضبطة.
- تهذيب ألفاظ اللغة العربية، ونشوء علم البلاغة.

ثانيًا: حكمة ورود ألفاظ غير عربية في القرآن الكريم:

اتفق أهل العلم على أنه ليس في القرآن كلام مركب من أساليب أعجمية، كما اتفقوا على أن في القرآن أسماء أعلام أعجمية مثل: نوح، ولوط، وإسرائيل، وجبريل، قال القرطبي رحمه الله في مقدمة تفسيره: «لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن في القرآن أسماء أعلامًا لمن لسانه غير لسان العرب، كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط»[(٣)].

واختلفوا: هل فيه ألفاظ أعجمية مفردة؟

فذهب الجمهور إلى عدم وجود ألفاظ أعجمية في القرآن، وذهب آخرون

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص ١٧٧، مختار الصحاح، الرازي ص ٥٣.

(٢) انظر: المزهر، السيوطي ٢/ ٤٣١، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٦٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٦٨.

إلى وجودها، وتوسط طرف ثالث فتأول وجودها على أنها مشتركة بين العرب وغيرهم، وعلى أن العرب استعملوها وعربوها، فصارت تنسب إليهم لا باعتبار أصلها، بل باعتبار استعمالها وتعريبها.

وممن نصر القول الأول -وهو عدم وجود ألفاظ أعجمية في القرآن- الإمامان الجليلان الشافعي[(١)] والطبري[(٢)] ووافقهما أبو عبيدة[(٣)] وابن فارس[(٤)] وأكثر أهل اللغة، وهو الذي نصره وأيده: بدر الدين الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) واستدلوا بالآيات القرآنية الكثيرة التي تدل على عربية القرآن الكريم، منها: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقوله: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

قال الإمام الشافعي -بعد أن ساق الآيات السابقة-: «فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه -جل ثناؤه- كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ﴾ [فصلت: ٤٤]»[(٥)].

وذهب الإمام المفسر ابن عطية إلى القول الثاني: وهو أن في القرآن بعض ألفاظ أعجمية[(٦)]، ووافقه بعض الفقهاء، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة[(٧)]. وهو الذي نصره وأيده جلال الدين السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) وفي كتابه: (المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب) ومن أدلتهم: ما وجد من ألفاظ أعجمية كـ(إستبرق، وسندس) وغيرها، وقالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث للناس كافة، فلا يمتنع وجود أكثر من لغة في القرآن، بل هو أبلغ في الإعجاز.

(١) الرسالة، الشافعي ص٤٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ١٥.
(٣) نقله عنه تلميذه القاسم بن سلام في غريب الحديث ٤/ ٢٤٢.
(٤) حيث قال: «كما سمي الديباج، وهو منقول من الفارسية، وقال غيره: هذه حروف عربية وقع فيها وفاق بين ألفاظها في العجمية والعربية، وهذا عندي هو الصواب».
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٣١٣.

(٥) الرسالة ص٤٦-٤٧.
(٦) وقد جمع بعض العلماء الكلمات المعربة المذكورة في القرآن، ومن هؤلاء تاج الدين السبكي حيث قام بذكر سبع وعشرين كلمة معربة في القرآن على شكل نظم، وأضاف إليها ابن حجر العسقلاني أربع وعشرين كلمة أخرى، ومن ثم قام السيوطي بإضافة ستين كلمة إلى هذه الكلمات.وهكذا فاق عددها المائة وخمس وعشرين كلمة.
(٧) انظر: حاشية الجمل على الجلالين ٢/ ٤٣٢.

وقد رد الإمام الشافعي رحمه الله بكلامه الفصيح، وحجته القوية على هذا الزعم، مبينًا أنه ليس في كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، مفندًا حجج هؤلاء الزاعمين، وأهمها اثنتان:

الأولى: أن في القرآن خاصًّا يجهل بعضه بعض العرب.

والثانية: أن في القرآن ما ينطق به غير العرب. فقام الشافعي بالرد على هاتين الشبهتين في كتابه الرسالة[1].

والمذهب الثالث هو لبعض الباحثين -وهو يجمع بين القولين- فهو يقول: إن وجود بعض الألفاظ الأعجمية لا يخرجه عن كونه عربيًّا؛ لأنها قليلة والعبرة للأكثر، كما أن من يعرف كتابة اسمه فقط لا يخرجه عن كونه أميًّا، وأن هذه الألفاظ هي أعجمية في الأصل عربية بالاستعمال والتعريب.

وبعد هذا التحقيق يتبين أنه لا مجال للطعن في كتاب الله تعالى بمثل هذه الشبهة، وأنه لو كانت مجالًا للطعن في القرآن لما تركها أسلاف هؤلاء من مشركي مكة ومن بعدهم، وهم أهل اللغة، وهم الذين لم يتركوا مجالًا لأحدٍ للطعن في النبي صلى الله عليه وسلم، وكتاب ربه إلا قالوه، ولو أنهم وجدوا هذه الشبهة قائمة لقالوها.

وقد يقول قائل: ما الحكمة من استعمال القرآن لهذه الكلمات الأجنبية مهما قلت مع وجود مرادفات في اللغة العربية؟!

وقد أبان السيوطي شيئًا من تلك الحكم بعد أن نقل بعض الآثار في كتابه المهذب عن أبي ميسرة قال: «في القرآن من كل لسان»، وعن بعضهم قال: «ليس لغة في الدنيا إلا وهي في القرآن»، قائلًا: «فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأ كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن؛ لتتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالًا للعرب».

ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال في تفسيره: «من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير».

و أيضًا فالنبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلى كل أمة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤].

فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم، وإن كان أصله بلغة قومه

(١) انظر: الرسالة ص٤٢.

هو»[1].

ولعل من الحكم في ذلك؛ ليكون دلالة على عالمية القرآن، وكأنما يشير الله سبحانه وتعالى بهذه الكلمات إلى شعوب ودول على المسلمين أن يصلوا إليها؛ لنشر هداية القرآن، وتعاليم الإسلام، كأنما يقول: تذكروا فارس، والحبشة، والدولة الرومية وغيرها، وانشروا فيها علمكم، ونور دينكم ولغتكم؛ وهذا ما فعله المسلمون.

موضوعات ذات صلة:

القرآن، القراءة، الكتابة، اللسان

(١) المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب، السيوطي ص ٦١- ٦٢.

لقمان

عناصر الموضوع

التعريف بلقمان	١٦٠
ذكر لقمان في القرآن الكريم	١٦٥
صفات لقمان الحكيم	١٦٥
مكانة لقمان الحكيم	١٦٧
حكمة لقمان	١٦٨
مواعظ لقمان لابنه	١٧٠
مضامين تربوية في مواعظ لقمان	١٨٤

التعريف بلقمان

أولًا: اسمه ونسبه ولقبه:

اختلف المفسرون في اسم ونسب لقمان الحكيم على قولين كما يأتي:

القول الأول: هو: لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارخ، وهو آزر، وقيل: كان ابن أخت أيوب عليه السلام، وقيل: كان ابن خالته، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين، واعتمدوا في ذلك على ما ورد عن ابن إسحاق حيث قال: «وهو لقمان بن باعوراء ابن ناحور بن تارخ، وهو آزر أبو إبراهيم، وقال وهب: كان ابن أخت أيوب عليه السلام وقال مقاتل: ذكر أنه كان ابن خالة أيوب عليه السلام»[(١)].

وكذلك قال الإمام البيضاوي والخازن هو:«لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارخ، وهو آزر، وقيل: كان ابن أخت أيوب عليه السلام، وقيل: كان ابن خالته، وقيل: إنه عاش حتى أدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه»[(٢)].

القول الثاني: قال الإمام ابن كثير في البداية والنهاية: «هو لقمان بن عنقاء بن سدون، ويقال: لقمان بن ثاران، حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتيبي، قال السهيلي: وكان نوبيا من أهل أيلة، قلت: وكان رجلا صالحا ذا عبادة وعبارة، وحكمة عظيمة، ويقال كان قاضيًا في زمن داود عليه السلام، فالله أعلم»[(٣)].

وقال الإمام القرطبي: «وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون، وكان نوبيًا من أهل أيلة، ذكره السهيلي»[(٤)].

واختلف المفسرون في اسم لقمان هل هو اسم عربي أم أعجمي؟ على قولين:

أحدهما: أنه اسم أعجمي، منع من الصرف للعجمة والعلمية، قال الفيروزآبادي: أنه اسم أعجمي ممنوع من الصرف، قيل: عبراني، وقيل: سرياني[(٥)].

وثانيهما: أنه اسم عربي، قال الإمام ابن عاشور:«ولقمان: اسم علم مادته مادة عربية، مشتق من اللقم، والأظهر أن العرب عربوه بلفظ قريب من ألفاظ لغتهم على عادتهم كما

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٣١٢، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٨٧.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢١٣.
(٣) البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٢٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٥٩.
(٥) بصائر ذوي التمييز ٦/ ٩٠.

عربوا شاول باسم طالوت وهو ممنوع من الصرف لزيادة الألف والنون لا للعجمة والأول أولى»[1].

أما لقبه: فأثبت كثير من المفسرين للقمان لقب(الحكيم)، فيقال: لقمان الحكيم ورووا ذلك عن مجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهم، وهذا اللقب مستمدًا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢][2]، وسيأتي تفصيل ذلك.

ثانيًا: زمانه ومكانه:

أما زمانه: فلم تذكر المصادر الصحيحة زمان لقمان الحكيم الذي عاش فيه، ولكن اختلف المفسرون في زمان لقمان على قولين كما يأتي:

القول الأول: ذهب جمهور المفسرين إلى أن لقمان الحكيم عاش في زمن داود عليه السلام [3]، قال الزمخشري: «وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وقيل: كان من أولاد آزر، وأدركه داود عليه السلام وأخذ عنه العلم»[4].

وذكر الإمام ابن كثير عن مجاهد: «أن لقمان كان قاضيًا في بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام، ولا يوجد ذكر ذلك في كتب الإسرائيليين»[5].

وقد ذكر أهل التاريخ: أن لقمان الحكيم كان في زمن داود عليه السلام[6]، وهذا يؤيد ما ذكره المفسرون.

القول الثاني: أنه كان فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام[7].

والقول الأول هو: الراجح الذي توافق عليه جمهور المفسرين والمؤرخين، وهذا ما

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥١.
(٢) انظر: تفسير مجاهد بن جبر المكي ص ٥٤٣، جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٥، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١، تفسير السمعاني ٤/ ٢٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٤٨.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٣١٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢١٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٨٧، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٩٢، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٠، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٧٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٩٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٩٨.
(٦) انظر: المعارف، ابن قتيبة ١/ ٥٥، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٤٦.
(٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٢، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٨٢.

تؤيده الأدلة الصحيحة، قال الإمام ابن حجر: «وفي المستدرك بإسناد صحيح عن أنس قال: كان لقمان عند داود عليه السلام وهو يسرد الدرع فجعل لقمان يتعجب ويريد أن يسأله عن فائدته فتمنعه حكمته أن يسأل، وهذا صريح في أنه عاصر داود عليه السلام، وقد ذكره بن الجوزي في التلقيح بعد إبراهيم قبل إسماعيل وإسحاق والصحيح أنه كان في زمن داود، وقد أخرج الطبري وغيره عن مجاهد أنه كان قاضيًا على بني إسرائيل زمن داود عليه السلام.

وأغرب الواقدي فزعم أنه كان بين عيسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام، وشبهته ما حكاه أبو عبيدة البكري أنه كان عبدا لبني الحسحاس بن الأزد»[(١)].

وروى الحاكم عن أنس رضي الله عنه: (إن لقمان كان عند داود عليه السلام وهو يسرد الدرع فجعل يفتله هكذا بيده، فجعل لقمان يتعجب ويريد أن يسأله ويمنعه حكمته أن يسأله، فلما فرغ منها صبها على نفسه فقال: نعم درع الحرب هذه، فقال لقمان: الصمت من الحكمة، وقليل فاعله كنت أردت أن أسألك فسكت حتى كفيتني)[(٢)].

وكذلك روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه: (أن لقمان كان عند داود عليه السلام وهو يسرد الدرع، فجعل يفتله هكذا بيده، فجعل لقمان يتعجب ويريد أن يسأله فتمنعه حكمته أن يسأل، فلما فرغ منها ضمها على نفسه وقال: نعم درع الحرب هذه فقال لقمان: إن الصمت من الحكم، وقليل فاعله كنت أريد أن أسألك، فسكت حتى كفيتني)، هذا هو الصحيح عن أنس: (أن لقمان قال: الصمت حكم وقليل فاعله)[(٣)]، وبهذه الأدلة يترجح القول الأول.

وعلى هذا يمكن تقدير الزمن الذي عاش فيه لقمان عليه السلام بناءً على تقديرات المؤرخين وعلماء الآثار المعاصرين لزمن داود عليه السلام.

وعلى تلك التقديرات الحديثة لعلماء التاريخ والآثار المعاصرين: فإن لقمان الحكيم يمكن أن يكون عاش في القرن العاشر قبل الميلاد، وهذا بناء على ما تقدره المصادر الحديثة بأن داود عليه السلام عاش في القرن العاشر قبل الميلاد (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)[(٤)].

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٦٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٥٨٢، ٢/ ٤٥٨.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٥٨٢، ٢/ ٤٥٨، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٤٦٧١، ٧/ ٧٣.
قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي، وصححه البيهقي في شعب الإيمان، وابن حجر في فتح الباري ٦/ ٤٦٦.

(٤) انظر: سيرة مدينة القدس، خالد محمد غازي ص٢٨، القدس عربية إسلامية، سيد فرج راشد ص٥٤، القدس، هنري كتن، ترجمة إبراهيم الراهب ص ١٥، القدس عبر التاريخ، دراسة جغرافية تاريخية

وأما مكانه: فاختلف المفسرون في أصله، ومن أي البلاد هو؟ على ثلاثة أقول:

القول الأول: قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه وسعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من سودان مصر، أي: أنه كان من أهل النوبة من سودان مصر- وهي بلدة تقع في محافظة (أسوان) بمصر -[1].

وقد روى الإمام ابن جرير عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول:«كان لقمان الحكيم أسود من سودان مصر»[2]، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم: «أن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر، ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة»[3].

القول الثاني: إنه كان عبدًا حبشيًا، قاله ابن عباس[4]، وروى الإمام ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال:«كان لقمان الحكيم عبدًا حبشيًا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين[5]، قاضيًا على بني إسرائيل»[6].

القول الثالث: إن لقمان الحكيم كان من أهل أيلة[7]، وهي: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام، وتعرف اليوم باسم «العقبة» وهي ميناء المملكة الأردنية الهاشمية حاليًا[8].

والراجح: أن لقمان الحكيم من النوبة من سودان مصر؛ لكثرة الروايات الواردة في ذلك عند المفسرين[9].

أثرية للمدينة المقدسة، ميخائيل مكسي إسكندر ص٢٢.

(١) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٥.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٩٧.

(٤) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١.

(٥) مصفح القدمين: عريضهما.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٩٣، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥١٣، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٦.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٥، تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٩٧.

(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٥٩، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٧٣.

(٨) انظر: معجم البلدان، الحموي ١/ ٢٩٢، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي ص ٣٥، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد شراب ص ٤٠.

(٩) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٥، تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٩٧، الكشف والبيان الثعلبي ٧/ ٣١٣.

واختلف المفسرون في لقمان أكان حرًا أو عبدًا؟ والأكثرون على أنه كان عبدًا[1].

واختلفوا أيضًا في مهنته على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان خياطًا بمصر، قاله سعيد بن المسيب.

الثاني: أنه كان راعيًا فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال: ألست عبد بني فلان، الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله، وأدائي الأمانة، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني، قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر[2].

الثالث: أنه كان نجارًا، فقال له سيده: اذبح لي شاة وأتني بأطيبها مضغتين، فأتاه باللسان والقلب فقال له: ما كان فيها شيء أطيب من هذين فسكت، ثم أمره فذبح له شاة ثم قال: ألق أخبثها مضغتين، فألقى اللسان والقلب فقال له: أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين، فأتيتني باللسان والقلب وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين، فألقيت باللسان والقلب، فقال إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا، قاله خالد الربعي[3].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١، تفسير السمعاني ٤/ ٢٢٩، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٨، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٨٢.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٨.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١.

ذكر لقمان في القرآن الكريم

لم يذكر ذكر لقمان الحكيم إلا مرتين، في سورةٍ سميت باسمه (سورة لقمان).

صفات لقمان الحكيم

أولًا: صفات لقمان الخَلْقية:

روى الإمام ابن جرير، عن مجاهد قال: كان لقمان الحكيم عبدًا حبشيًا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين[(١)].

قال الإمام الثعلبي والسمعاني قال سعيد بن المسيب: كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين، متشقق القدمين[(٢)].

وقال ابن كثير:«قال مجاهد: كان لقمان عبدًا أسود عظيم الشفتين، مشقق القدمين، وقال حكام بن سالم عن سعيد الزبيدي عن مجاهد: كان لقمان الحكيم عبدًا حبشيًا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين»[(٣)].

ثانيًا: صفات لقمان الخُلُقية:

فقد كان رجلًا مؤمنًا بالله، عابدًا شاكرًا له، آتاه الله الحكمة والعلم والفهم، وكان داعية ناصحًا حكيمًا صالحًا، قال الإمام ابن عاشور:«ولقمان اسم رجل حكيم صالح، وأكثر الروايات في شأنه التي يعضد بعضها وإن كانت أسانيدها ضعيفة تقتضي أنه كان من السود، فقيل: هو من بلاد النوبة، وقيل:

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٥.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٣١٣، تفسير السمعاني ٤/ ٢٢٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٩٨.

من الحبشة»[1].

وفي الحقيقة أن ما هو مصرح به في القرآن هو اسمه لقمان فقط، وأما ما جاء من اختلاف في اسمه ونسبه وصفاته فليس عليه دليل من الكتاب أو السنة، فينبغي التوقف في ذلك؛ لأنه من مبهمات القرآن التي لم يقم عليها دليل، قال الألوسي بعد أن ساق هذه الاختلافات: «ولا وثوق لي بشيء من هذه الأخبار، وإنما نقلتها تأسيًا بمن نقلها من المفسرين الأخيار عن أني أختار أنه كان رجلًا صالحًا حكيمًا، ولم يكن نبيًا»[2].

ولم يفصل القرآن الحديث عن لقمان، وكل ما ذكره عنه أنه كان رجلًا مؤمنًا بالله، عابدًا شاكرًا له، آتاه الله الحكمة والعلم والفهم، وكان داعية ناصحًا، وكان له ولد، فقام بواجبه في نصحه وتوجيهه وتذكيره وتعليمه، وقال صلاح عبد الفتاح الخالدي: «ولم تضف مصادرنا الإسلامية اليقينية على ما ورد في القرآن عنه، ولذلك معظم ما يتعلق بقصته من مبهمات القرآن، التي لا نملك دليلًا على بيانها، فلا دليل على زمانه أو مكانه، ولا على القوم الذين كان يعيش معهم، ولا نعرف هل كان نبيًا أم مجرد مؤمن عالم حكيم، ولا نعرف من كلامه ومواعظه وحكمه إلا ما ورد في القرآن!.

وهذا معناه أن نتوقف في القول بما ورد عنه من أخبار وأقوال وحكم؛ لأنها من الإسرائيليات والروايات التي لم تثبت، فلا نصدقها ولا نكذبها ولا نرويها.

لم يصرح القرآن بنبوة لقمان، كما أنه لم ينف نبوته، وإنما سكت عنها، ولذلك لا نقول بنبوته؛ لأنه قد لا يكون نبيًا!! ولا ننفي عنه النبوة؛ لأنه قد يكون نبيًا، فالأسلم هو التوقف في هذا القول، والاعتراف بقصور العلم، فنحن لا نعلم إلا ما علمنا الله إياه، أو وفقنا إليه! »[3].

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٤٨.
(٢) روح المعاني ١١/ ٨٢.
(٣) القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ١/ ١٦٧.

مكانة لقمان الحكيم

كان لقمان الحكيم عليه السلام من الحكماء الذين خلد الله تعالى ذكرهم في القرآن، وهذه الصفة تدل على مكانته وعظمته وشرفه وارتفاع منزلته، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين بأن الله سبحانه وتعالى آتاه الحكمة وهي الفقه والعقل والإصابة في القول من غير نبوة[(١)].

بل قد حكى بعض العلماء الاتفاق على أن لقمان كان حكيمًا ووليًا وصالحًا، ولم يكن نبيًا، قال الإمام البغوي: «واتفق العلماء على أنه كان حكيما ولم يكن نبيًا إلا عكرمة فإنه قال كان لقمان نبيًا وتفرد بهذا القول»[(٢)].

كما ذكر بعض المفسرين أن لقمان الحكيم كان قاضيًا في بني إسرائيل[(٣)].

وقد سميت سورة القرآن الكريم باسمه، وورود في كتاب الله، دليل على شرفه ومكانته ويرتبط اسمه بالحكمة في كل زمان ومكان، وبه تضرب الأمثال، قال الدكتور جواد علي: «ولقمان: شخصية ذكرت في القرآن، وفي القرآن الكريم سورة سميت باسمه، وورود في كتاب الله دليل على وقوف الجاهليين بقصصه وشيوع خبره وأمره بينهم، ونجد في كتب التفسير والأدب والأخبار وكتب المعمرين قصصًا عنه، وقد عرف بـ لقمان الحكيم«وقد بحث عنه المستشرقون، وحاولوا تحليل القصص الوارد عنه وإرجاعه إلى أصوله، وقد بحث في ذلك المحدثون في مصر وفي غير مصر من البلاد العربية»[(٤)].

وإن دلالة تسمية سورة (لقمان) باسمه يدل على عظمة ومكانة لقمان في القرآن، وقد ذكر في السورة مرتين، ويدل كذلك على الشرف والمكانة والتكريم عند الله تعالى والناس، وهذا التكريم والتشريف والمكانة العالية خالد بخلود القرآن الكريم.

سميت سورة لقمان به؛ لاشتمالها على قصته التي تضمنت فضيلة الحكمة، وسر معرفة الله تعالى وصفاته، وذم الشرك، والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة، والنهي عن الذميمة[(٥)].

قال الإمام ابن عاشور: «سميت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان؛ لأن فيها ذكر لقمان وحكمته وجملًا من حكمته التي أدب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٤، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٩٣.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٨٧.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢١٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٣١٢، غرائب القرآن، النيسابوري ٥/ ٤٢٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٣٠ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٥٩، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٧.
(٤) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ١٥/ ٣٤٣.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢٤.

بها ابنه، وليس لها اسم غير هذا الاسم، وبهذا الاسم عرفت بين القراء والمفسرين، ولم أقف على تصريح به فيما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند مقبول»[1].

وقال الإمام ابن عاشور في تسمية السور: «واعلم أن أسماء السور إما أن تكون بأوصافها مثل الفاتحة وسورة الحمد، وإما أن تكون بالإضافة لشيء اختصت بذكره نحو سورة لقمان وسورة يوسف وسورة البقرة»[2].

وسورة لقمان سورة مكية كلها في قول جمهور المفسرين، واستثنى بعض المفسرين ثلاث آيات قال ابن عباس أولهن: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان:٢٧- ٢٩].

ومنهم من استثنى آيتين قال قتادة أولهما: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [لقمان:٢٧-٢٨][3].

حكمة لقمان

إن حكمة لقمان عليه السلام مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال، وقد عني بها أهل التربية وأهل الخير وتناقلها الحكماء والمؤرخون والعامة.

وذكر القرآن منها ما في هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٣٧.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٩١.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٩٣، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٥.

﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان:١٢-١٩].

وقد ذكر الله الحكمة في مواضع كثيرة من كتابه مرادًا بها ما فيه صلاح النفوس، من النبوة والهدى والإرشاد، وقد كانت الحكمة تطلق عند العرب على الأقوال التي فيها إيقاظ للنفس ووصاية بالخير، وإخبار بتجارب السعادة والشقاوة، وكليات جامعة لجماع الآداب وذكر الله تعالى في كتابه حكمة لقمان ووصاياه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان:١٢]. الآيات [(١)].

وهناك حكم نسبت للقمان الحكيم غير ما ورد في القرآن ذكرها بعض المفسرين، والحكمة: المنطق الذي يتعظ به ويتنبه به، ويتناقله الناس لذلك» [(٢)].

وقال الإمام السمعاني: «ومن حكم لقمان سوى ما ذكرنا ما روي أنه قال: لا مال كصحة البدن، ولا نعيم كطيب النفس. ومن حكمه أيضا أنه قال: أدب الوالد لولده كالسماد للزرع» [(٣)].

وقال الألوسي: «ومن حكمته قوله لابنه: أي بني إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحشوها الإيمان وشراعها التوكل على الله تعالى؛ لعلك أن تنجو ولا أراك ناجيا، وقوله: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزًا، والذل في طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية.

وقوله: ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع. وقوله: يا بني إياك والدين فإنه ذل النهار وهم الليل. وقوله: يا بني ارج الله عز وجل رجاء لا يجرئك على معصيته تعالى، وخف الله سبحانه خوفا لا يؤيسك من رحمته تعالى شأنه.

وقوله: من كذب ذهب ماء وجهه، ومن ساء خلقه كثر غمه، ونقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم. وقوله: يا بني حملت الجندل والحديد وكل شيء ثقيل، فلم أجمل شيئًا هو أثقل من جار السوء، وذقت المرار فلم أذق شيئًا هو أمر من الفقر، يا بني لا ترسل رسولك جاهلًا فإن لم تجد حكيمًا فكن رسول نفسك، يا بني إياك والكذب فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يغلي صاحبه، يا بني احضر الجنائز ولا تحضر العرس فإن الجنائز تذكرك الآخرة والعرس يشهيك الدنيا، يا بني لا تأكل شبعا على شبع فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله، يا بني لا تكن حلوًا فتبلع

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٦٣.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٢.
(٣) تفسير السمعاني ٤/ ٢٣٥.

ولا مرًا فتلفظ.

وقوله لابنه: لا يأكل طعامك إلا الأتقياء وشاور في أمرك العلماء، وقوله: لا خير في أن تتعلم ما لم تعلم، ولما تعمل بما قد علمت فإن مثل ذلك رجل احتطب حطبا فحمل حزمة، وذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى.

وقوله: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره، وقوله: لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطًا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.

وقوله: يا بني أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ولا بد لك منه، يا بني كن كمن لا يبتغي محمدة الناس، ولا يكسب ذمهم فنفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، وقوله: يا بني امتنع بما يخرج من فيك فإنك ما سكت سالم، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك، إلى غير ذلك مما لا يحصى»[1].

وقد أورد الإمام السيوطي كثيرًا من هذه الحكم في الدر المنثور في التفسير بالمأثور[2]، وكذلك الإمام ابن عاشور في التحرير والتنوير[3].

مواعظ لقمان لابنه

تمثل مواعظ لقمان لابنه منظومةً متكاملةً، تعالج جميع جوانب الحياة الإيمانية والعبادية والأخلاقية والسلوكية والإصلاحية، كما أنها تشتمل على معالم دعوية ترسم بعض ملامح منهج الدعوة التي يمكن أن يسير عليها الدعاة، وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: أنواع المواعظ:

إن مواعظ لقمان لابنه تتنوع إلى مواعظ إيمانية وعبادية وأخلاقية وسلوكية وإصلاحية، وقد جمع لقمان عليه السلام في هذه الموعظة أصول الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس[4]، ويمكن بيان ذلك في الفقرات الآتية:

١ . المواعظ الإيمانية.

إن الوعظ هو نصح وتذكير الإنسان بالخير بما يلين قلبه من ثواب وعقاب، تقول: وعظته وعظا وعظة فاتعظ، أي قبل الموعظة، ويقال: السعيد من وعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره[5]، والموعظة هي

(١) روح المعاني ١١/ ٨٣.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٥١٢.
(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥١.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٤.
(٥) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٣٣٣، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٢٨٩.

التذكرة للصواب والرشاد[1].

والوعظ زجر مقترن بتخويف.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٣][2].

أي: وعظهم بالزجر والإنكار وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار، وقل لهم في أنفسهم قولا بليغًا، أي: مؤثرًا واصلًا إلى كنه المراد[3].

وتعتبر مواعظ لقمان لابنه مواعظ إيمانية في الجملة من حيث إنها تزيد في الإيمان، وتؤدي إلى التصديق المطلق بالله تعالى؛ ولأن الإيمان هو الأساس الذي تقوم عليه العبادات، فقد بدأ لقمان به لأنه المهم، وهو أول ما يبدأ به الواعظ الحكيم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

وقد قال جمهور المفسرين: إن ابن لقمان كان مشركًا فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده[4].

ثم بين له أن الشرك ظلم عظيم عند الله؛ لأن الله هو المحيي المميت الرازق المنعم وحده لا شريك له، فإذا أشرك به أحد غيره، فذلك أعظم الظلم؛ لأنه جعل النعمة لغير ربها.

وأصل الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه[5]، وسماه ظلمًا؛ لأنه قد ظلم به نفسه، وليس شيء من الذنوب أعظم من الشرك بالله[6].

والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، من أشرك مع الله غيره فقد وضع الشيء في غير موضعه[7]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس:١٠٦].

أي: ولا تدع من دون معبودك وخالقك شيئا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا، يعني بذلك الآلهة والأصنام. يقول: لا تعبدها راجيا نفعها أو خائفا ضرها، فإنها لا تنفع ولا تضر فإن فعلت ذلك، فدعوتها من دون الله فإنك إذا من الظالمين من المشركين بالله الظالمي أنفسهم[8].

ولأن الشرك تسوية بين من لا نعمة إلا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٣٣.
(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥٤.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٦٩، محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ١٩٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٤.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٩٦.
(٦) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣٣.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٣، تفسير السمعاني ٤/ ٢٣٠.
(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢١٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٧٤.

وهي منه ومن لا نعمة له أصلًا[1]، ولأن الشرك أعظم الذنوب الموجب للعذاب والخلود في الجحيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء:١١٦].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

ووجه كون الكفر والشرك ظلما، وهو أن الكافر والمشرك ظالم بذلك؛ لأن الظلم هو التعدي وتجاوز الحد، ونصر الباطل، ومجانبة الحق، وإخفاء الحقيقة، والمشرك ظالم بذلك، إن المشرك ظالم لنفسه لسيره في طريق الباطل والعذاب والنار وظالم للحقيقة لتجاوزه لها ومجانبته عنها، وظالم للمؤمنين؛ لأنه لم يكن معهم ناصر للحق محارب للباطل، وظالم للكافرين؛ لأنه كان قدوة لهم في الكفر، مساعدًا لهم على باطلهم، كل كفر ظلم وكل كافر مشرك ظالم، ولكن ليس كل ظلم كفرًا وشركًا؛ لأن القرآن قد يطلق الظلم على المعصية والذنب، فقد يكون المسلم ظالمًا لمعصيته وذنبه، ولكنه لا يكفر بمجرد ارتكاب المعصية والذنب[2].

واعتبرت الآية أن الشرك ظلم عظيم، وفسر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام:٨٢].

فقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]. شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: (ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)[3].

ثم وعظه بمراقبة الله تعالى في أقواله وأعماله؛ لأنها وسيلة للإيمان وثمرة من ثمراته قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان:١٦].

وختم تلك الآية المصورة لعلم الله وقدرته باختيار اسمين من أسماء الله «إن

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٧١٤.

(٢) انظر: تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد آتينا لقمان الحكمة)، رقم ٣٤٢٩، ٤/ ١٦٣.

الله لطيف خبير »وهو ختام يتناسق مع موضوع الآية، أي: إن الله لطيف، فعلمه شامل لكل لشيء، وهو نافذ في كل شيء، ولا يقف أمامه أي شيء، ولا يستعصي عليه أي شيء؛ لأنه علم لله المطلع على كل شيء وإن الله خبير، والخبير الذى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا تتحرك حركة إلا يعلم مستقرها ومستودعها.

والفرق بين العليم والخبير، أن الخبير بفيد العلم، ولكن العليم إذا كان للخفايا سمى خبيرًا .

ومن علم أن الله خبير بأحواله كان محترزًا في أقواله وأفعاله واثقًا أن ما قسم له يدركه، وما لم يقسم له لا يدركه فيرى جميع الحوادث من الله فتهون عليه الأمور[1].

كما وعظه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصائب وفي ذلك يظهر أثر الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان:١٧-١٩].

ثم بين له أن المرجع والمآب هو لله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥].

أي: واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه- وإن كنت مأمورًا بحسن مصاحبتهما في الدنيا- ثم إليَّ مرجعك ومرجعهما، فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما، ويجب على الإنسان في صحبتهما ومعاشرتهما: مراعاة حق الأبوة وتعظيمه، وما لهما من الواجب التي لا يسوغ الإخلال بها، ثم بين حكمهما وحالهما في الآخرة[2]، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥].

أي: إن إلي مصيركم ومعادكم بعد مماتكم، فأخبركم بجميع ما كنتم في الدنيا تعملون من خير وشر، ثم أجازيكم على أعمالكم، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته[3].

٢. المواعظ العبادية:

لما كانت العبادة هي: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء

(١) انظر: تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص٣٥- ٣٦.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٩٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٩.

الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله تعالى»[1].

فإن وصايا لقمان لابنه تتضمن معظم هذه المعاني الواردة في معنى العبادة بمفهومها الشامل، وعلى وجه الخصوص ماياتي:

- فالشكر عبادة لله تعالى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].
- والتوحيد بكل أنواعه عبادة لله تعالى. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].
- وطاعة الوالدين عبادة لله تعالى. قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان:١٤-١٥].
- ومراقبة الله تعالى عبادة لله تعالى. قال تعالى: ﴿يَٰبُنَىٓ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان:١٦].
- وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحمل الأذى في سبيل ذلك عبادة لله تعالى. قال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧].

وهذه الأمور كلها ذات أبعاد عبادية، فيصح أن تسمى عبادات، والمؤمن يعبد الله من خلال التزامه الأوامر مهما كان موضوعها، ويعبد الله من خلال اجتنابه المنهيات مهما كان موضوعها.

فإن أداء الأوامر عبادة لله، وإن ترك المحرمات عبادة لله؛ لأن العبادة شاملة لكل حياة المسلم في الشعائر التعبدية، وفي

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١٤٩.

التشريعات والمعاملات، وفي الفضائل والأخلاق، وفي التعامل والصلات، وفي الخلق والسلوك إلى آخره[1].

٣. المواعظ الأخلاقية.

الخلق هو عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سميت تلك الهيئة خلقا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقًا سيئًا[2].

والآيات التي تمثل المواعظ الأخلاقية هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٨-١٩].

فقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان:١٨].

وقرأ الجمهور(ولا تصاعر)، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب (ولا تصعر)، يقال: صاعر وصعر، إذا أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب آخر، وهو مشتق من الصعر بالتحريك لداء يصيب البعير فيلوي منه عنقه، فكأنه صيغ له صيغة تكلف بمعنى تكلف إظهار الصعر وهو تمثيل للاحتقار؛ لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف في غالب الأحوال[3].

قال الإمام ابن جرير: «اختلفت القراء في قراءة قوله: (ولا تصعر) فقرأه بعض قراء الكوفة والمدنيين والكوفيين: (ولا تصعر) على مثال (تفعل). وقرأ ذلك بعض المكيين وعامة قراء المدينة والكوفة والبصرة (ولا تصاعر) على مثال (تفاعل)[4]. .

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. وتأويل الكلام: ولا تعرض بوجهك عمن كلمته تكبرًا واستحقارًا لمن تكلمه، وأصل (الصعر) داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رءوسها، فيشبه به الرجل المتكبر على الناس»[5].

والمعنى: لا تعرض عن الناس تكبرًا عليهم، قال ابن عباس: لا تتعظم على خلق الله، وقال قتادة: هو الإعراض عن الناس، يكلمك أخوك وأنت عنه معرض متكبر.

(١) انظر: تربية الأبناء من وصية لقمان، محمد زمري ص ٣٧.
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٧٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٥٢.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٤.
(٤) تحبير التيسير في القراءات العشر، ابن الجزري ص ٥٠٨.
(٥) جامع البيان ٢٠/ ١٤٣

أي: لا تحتقر الناس فالنهي عن الإعراض عنهم؛ احتقارًا لهم لا عن خصوص مصاعرة الخد فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك فهو قريب من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣] إلا أن هذا تمثيل كنائي والآخر كناية لا تمثيل فيها[١].

وبعبارة أخرى: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقارًا منك لهم، واستكبارًا عليهم، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم، وقال إبراهيم النخعي: يعني بذلك التشديق في الكلام، والصواب القول الأول[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: خيلاء متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك يبغضك الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور أي: على غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧][٣].

والمرح: فرط النشاط من فرح وازدهاء، ويظهر ذلك في المشي تبخترًا واختيالًا ؛فلذلك يسمى ذلك المشي مرحًا كما في الآية، فانتصابه على الصفة لمفعول مطلق، أي: مشيًا مرحًا، وتقدم في سورة الإسراء (٣٧)[٤].

والمختال: اسم فاعل من اختال بوزن الافتعال من فعل خال إذا كان ذا خيلاء، فهو خائل.

والخيلاء: الكبر والازدهاء، فصيغة الافتعال فيه للمبالغة في الوصف فوزن المختال مختيل فلما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفا، فقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ مقابل قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، وقوله: فخور مقابل قوله ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

ومعنى إن الله لا يحب كل مختال فخور: أن الله لا يرضى عن أحد من المختالين الفخورين[٥].

قال الإمام ابن كثير: «وقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش مقتصدًا مشيًا ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلًا وسطًا بين بين، وقوله: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوته أنه يشبه

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣٩، تفسير السمعاني ٤/ ٢٣٣.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٦٧
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٦٧
(٥) المصدر السابق ٢١/ ١٦٦.

بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه- في هذا -بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه)[1] »[2].

ولا ترفع صوتك رفعًا شديدًا لا فائدة منه، وأخفضه، فإن شدة الصوت تؤذي آلة السمع، وتدل على الغرور، والاعتزاز المفرط بالنفس، وعدم الاكتراث بالغير، وإن اعتدال الصوت أوقر للمتكلم، وأقرب لاستيعاب الكلام ووعيه وفهمه، وإن رفع الصوت أكثر من اللازم يشبه صوت الحمير، وإن أقبح الأصوات لصوت الحمير، وذلك مما يبغضه الله تعالى؛ لأن أوله زفير وآخره شهيق. وأنكر الأصوات، أي: أقبح وأوحش وأراد بكلمة: لصوت الحمير، الصوت: اسم جنس، ولذلك جاء مفردًا.

وفي ذلك دلالة على ذم رفع الصوت من غير حاجة؛ لأن التشبيه بصوت الحمار يقتضي غاية الذم، وأكد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: (إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطانًا)[3].

ويلاحظ الحكمة في توجيه النصائح، فلما نهى لقمان ابنه عن الخلق الذميم، رسم له طريق الخلق الكريم الذي ينبغي له أن يستعمله من القصد في المشي وهو ألا يشتط في السرعة، ولا يرائي في الإبطاء، ولا يمشي مختالًا متبخترًا، ولا يرفع الصوت أكثر من المعتاد؛ لأن غض الصوت أوقر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع وفهمه[4].

وتصور الوصية قيمًا خلقية سامية، يتعامل بها مع المجتمع من حوله، فلا يؤذي مشاعرهم، فيصدر عنه ما يكرهونه، أو يفرق وحدتهم، ويفسد المودة بينهم؛ فتنفره من الكبر والخيلاء، والإعجاب بالنفس، وهتك الحرمات، والخوض في أعراض الناس، وتلويث البيئة بالأفعال القبيحة، والصور المنفرة، والأصوات المزعجة، وذلك في صور يهتز لها الوجدان، وينخلع منها القلب، وتتفق مع الفطرة والعقل جميعًا.

وتؤكد الوصية أن القيم الإنسانية والخلقية تتفق مع فطرة الإنسان في كل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته، رقم ٢٦٢٢، ٣/ ١٦٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، رقم ٣٣٠٣، ٤/ ١٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الدعاء عند صياح الديك، رقم ٢٧٢٩، ٤/ ٢٠٩٢.

(٤) التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٠٢٧.

عصر، ولكل الأجيال؛ فما أوصى به لقمان في الماضي البعيد أقره الإسلام، ولا زال يقره ويحث عليه في الحياة الدنيا؛ لأنها قيم ثابتة وحية ترتبط بوجود الإنسان وحياته[(١)].

والتربية الإسلامية تهتم بالتركيز على التوازن بين إشباعات النفس، ومطالبها، وبين عفتها وقناعتها، وهذا وارد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء:٢٩]فالوسطية الإسلامية هي التوازن في الفكر والسلوك والتطبيق.

والوصايا السابقة هي منهج الآداب السامية التي يؤدب الله عباده بها؛ لأن في امتثالها فلاحهم دنيا وآخرة من جهة، ومن جهة أخرى فإنهم يرون آثارها التربوية في توجيه وتهذيب سلوكهم، وتعمل على زيادة الألفة والمحبة بينهم كما يؤدي هذا إلى تماسك مجتمعهم[(٢)].

٤. المواعظ السلوكية.

تتمثل المواعظ السلوكية في وصايا لقمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصية لجميع العالم كأن المأمور الإنسان، وأناب معناه: مال ورجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين[(٣)] والمؤمنين، كما يقول سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥][(٤)].

واتباع سبيل من أناب هو الاقتداء بسيرة المنيبين لله، أي: الراجعين إليه، الذين رجعوا إلى الله بالتوبة والإنابة والطاعة والإخلاص، والمقلعون عن الشرك وعن المنهيات التي منها عقوق الوالدين، وهم الذين يدعون إلى التوحيد ومن اتبعوهم في ذلك[(٥)].

وتهدي الآية إلى وجوب اتباع سبيل المؤمنين من أهل السنة والجماعة، وحرمة اتباع سبيل أهل البدع والضلالة[(٦)].

٥. المواعظ الإصلاحية.

تتمثل المواعظ الإصلاحية في وصايا لقمان بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧].

(١) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ٢٠٠.
(٢) انظر: تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص٤٦-٤٩.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٩.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٥٦٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٦١، التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ١٢١.
(٦) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٢٠٦.

وذلك لما كانت وصايا لقمان لابنه في إصلاح نفسه من خلال التوحيد والصلاة في حق نفسه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].

وقوله: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧].

وإصلاح نفسه مع والديه بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان:١٤-١٥].

أمره بإصلاح المجتمع من حوله، وذلك لأنه الغرض من الأمر بالمعرف، ليبين له أن صلاح نفسه من خلال الصلاة وغيرها غير كافٍ، بل لا بد من السعي لأجل إصلاح المجتمع أيضًا، ووسيلة ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [(١)].

والمعنى: أي: إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فكمل غيرك، فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكملوا غيرهم [(٢)].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٤٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٢١، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٤٤٩.

ثانيًا: معالم دعوية في مواعظ لقمان:

هناك معالم دعوية كثيرة في وصايا لقمان عليه السلام يمكن ذكر أهمها فيما يأتي:

١. الدعوة الى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة

يشير إلى هذا المعلم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٢-١٣].

فالحكمة التي وهبها الله تعالى للقمان كانت ظاهرة في الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وذلك أمر من الله تعالى لنبيه الكريم والمؤمنين به باتباع هذا المنهج.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل:١٢٥].

والمعنى: ادع إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام بالحكمة، بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي ينزله عليك، والموعظة الحسنة، أي: بالعبارة الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكرهم بها في تنزيله، كالتي عدد

عليهم في هذه السورة من حججه، وذكرهم فيها ما ذكرهم من آلائه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۖ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك[1]، وهذ الآية كقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف:١٠٨].

قال الإمام الرازي: «واعلم أنه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهي: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن»[2].

وقال أيضاً: «ومن لطائف هذه الآية أنه قال: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين؛ لأن الدعوة إذا كانت بالدلائل القطعية فهي الحكمة، وإن كانت بالدلائل الظنية فهي الموعظة الحسنة، أما الجدل فليس من باب الدعوة، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الإلزام والإفحام؛ فلهذا السبب لم يقل ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، بل قطع الجدل عن باب الدعوة؛ تنبيها على أنه لا يحصل الدعوة، وإنما الغرض منه شيء آخر، والله أعلم»[3].

٢. التدرج بالدعوة.

حيث إن لقمان عليه السلام بدأ بالأهم وهو الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان:١٣].

ثم بعد ذلك المهم ومنه الدعوة إلى طاعة الوالدين والإحسان إليهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان:١٤-١٥].

وهكذا إلى نهاية الآيات.

فقد انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة، والصلاة التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة في الشريعة التي يدين بها لقمان، والصلاة عماد الأعمال؛ لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح.

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢١.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٨٦.
(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٢٨٧.

وإقامة الصلاة إدامتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها، وشمل الأمر بالمعروف الإتيان بالأعمال الصالحة كلها على وجه الإجمال؛ ليتطلب بيانه في تضاعيف وصايا أبيه، كما شمل النهي عن المنكر اجتناب الأعمال السيئة كذلك، والأمر بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقتضي إتيان الأمر وانتهاءه في نفسه؛ لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر، ومصالح ومفاسد، فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره الناس ونهيه إياهم[1].

٣. صبر الداعية على الأذى.

إن الداعية إلى الله تعالى يتعرض للأذى بكل صوره وأشكاله وعند ذلك يجب أن يصبر على الأذى، وهذا ما وصى به لقمان به ابنه قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان:١٧].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ [المزمل:١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل:١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف:١٢٧- ١٢٨].

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًا على تغيير المنكر وإن نال ضررًا فهو إشعار بأن المُغَيِّرَ يؤذى أحيانًا، وهذا القدر هو على جهة الندب والقوة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ يحتمل أن يريد مما عزمه الله وأمر به، قاله ابن جريج، ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق، وعزائم أهل الحزم ،والسالكين طريق النجاة، والأول أصوب[2].

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، أي: بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى فيهما من حق عزم الأمور إلى الله بها، أي: هو الذي يعزم عليها لوجوبها[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢١/ ١٦٤.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٥١.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٢.

قال سيد قطب: «ثم يتابع لقمان وصيته لابنه بتكاليف العقيدة، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ما يستتبعه هذا وذلك من مواجهة المتاعب التي لا بد أن تواجه صاحب العقيدة، وهو يخطو بها الخطوة الطبيعية، فيتجاوز بها نفسه إلى غيره: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ومع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصاب الأدب الواجب،. أدب الداعي إلى الله ألا يتطاول على الناس، فيفسد بالقدرة ما يصلح بالكلام: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ والمؤثر النفسي بتحقير التصعير والنفخة ملحوظ في التعبير. وبه تنتهي هذه الجولة الثانية، وقد عالجت القضية ذاتها في مجالها المعهود، بمؤثرات جديدة وبأسلوب جديد.

وهذا هو طريق العقيدة المرسوم، توحيد لله، وشعور برقابته، وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه، ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.

والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر،بالزاد الأصيل، زاد العبادة لله والتوجه إليه بالصلاة،. ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها،. ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدي، ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وعزم الأمور: قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم»[1].

٤. فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال القاضي ابن عطية: «والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام والولاة بعد النهي عنه قولًا، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى أحد نازلة بديهة من المنكر، كالسلب والزنى ونحوه، فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر، وإن ناله بعض الأذى، ويؤيد هذا المنزع أن في قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويستعينون بالله على ما أصابهم» فهذا وإن كان لم يثبت في المصحف ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عقب الأمر والنهي، كما

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٠.

هي في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥].

معناه: إذا لم يقبل منكم ولم تقدروا على تغيير منكره، وقال بعض العلماء: «المعروف» التوحيد، والمنكر الكفر، والآية نزلت في الجهاد»[(١)].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون بحسب الطاقة والجهد[(٢)].

«ويشترط في الآمر بالمعروف أن يكون له علم، يعلم به أن ما يأمر به معروف، وأن ما ينهى عنه منكر؛ لأنه إن كان جاهلًا بذلك فقد يأمر بما ليس بمعروف، وينهى عما ليس بمنكر، ولاسيما في هذا الزمن الذي عم فيه الجهل وصار فيه الحق منكرا، والمنكر معروفًا، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨].

فدل على أن الداعي إلى الله لا بد أن يكون على بصيرة، وهي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه، وينبغي أن تكون دعوته إلى الله بالحكمة، وحسن الأسلوب، واللطافة مع إيضاح الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

فإن كانت دعوته إلى الله بقسوة وعنف وخرق، فإنها تضر أكثر مما تنفع، فلا ينبغي أن يسند الأمر بالمعروف إسنادًا مطلقًا، إلا لمن جمع بين العلم، والحكمة، والصبر على أذى الناس؛ لأن الأمر بالمعروف وظيفة الرسل وأتباعهم، وهو مستلزم للأذى من الناس؛ لأنهم مجبولون بالطبع على معاداة من يتعرض لهم في أهوائهم الفاسدة، وأغراضهم الباطلة[(٣)].

ولذا قال العبد الصالح لقمان الحكيم لولده، فيما قص الله عنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧].

ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لورقة بن نوفل: (أومخرجي هم؟!) يعني: قريشا، أخبره ورقة أن هذا الدين الذي جاء به لم يأت به أحد إلا عودي)[(٤)].

ولا يحكم على الأمر بأنه منكر، إلا إذا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٨٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٢.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٦٤.
(٤) خرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، رقم ٦٩٨٢، ٩/ ٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ١٦٠، ١/ ١٣٩.

قام على ذلك دليل من كتاب الله تعالى، أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم أو إجماع المسلمين.

وأما إن كان من مسائل الاجتهاد فيما لا نص، فلا يحكم على أحد المجتهدين المختلفين بأنه مرتكب منكرًا، فالمصيب منهم مأجور بإصابته، والمخطئ منهم معذور كما هو معروف في محله.

ويشترط في جواز الأمر بالمعروف ألا يؤدي إلى مفسدة أعظم من ذلك المنكر؛ لإجماع المسلمين على ارتكاب أخف الضررين»[1].

مضامين تربوية في مواعظ لقمان

لقد احتوت وصايا لقمان الحكيم على مجموعة من المضامين التربوية، نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: تربية النفس:

تكون تربية النفس من خلال غرس عقيدة التوحيد في نفس الطفل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

لأن أعظم المسائل على الإطلاق هي عقيدة التوحيد وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، فمن أجلها خلق الخلق وأنزل الكتب وأرسل الرسل وجعل الجنة والنار.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

وهي أساس كل شيء، فبدونها تحبط الأعمال، وبها تبدأ تربية النفس الإنسانية؛ لذا فإن أول واجب على الوالدين القيام به هو غرس عقيدة التوحيد في نفس الطفل دون كلل ولا ملل، وتوحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله؛ لأنه هو الواحد الأحد لا شريك له مالك كل شيء، هو الخالق المعطي والمانع النافع الضار، وأن يوجها عواطف ابنهما إلى حب الله تعالى.

فإن أدرك الطفل هذه الأمور تعلق بالله

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٦٤.

سبحانه وتعالى ولم يتخذ سواه إلها، بل يلجأ إليه في كل أموره، وإلى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يحكم إلا بحكم الله تعالى وهو المخبر عنه، ويبتعد عن كل مظاهر الشرك الذي وصفه الله تعالى بأنه ظلم عظيم.

فالعقيدة لابد أن تنعكس على الإنسان وسلوكه، فإذا آمن إيمانا يقينيًا بالله سبحانه وبعلمه ومراقبته الدائمة لعبده، كان هذا الإيمان محددا لسلوك المسلم كفرد، وسلوك الجماعة كأمة مسلمة، فالعقيدة لابد أن تترجم في حياة الفرد الذي يعلم بأن الله يطلع على سره ونجواه، وأن أفعاله مكتوبة وهو محاسب عليها، ولابد أن تترجم في حياة الجماعة فتبني نظام حياتها وفق هذه العقيدة التي آمنت بها، فلا سعادة لهذه النفس الإنسانية، ولا استقامة لها إلا اذا ارتبطت كافة جوانبها بعقيدة التوحيد، ومن هنا يجب على المربي المسلم أن يربط كل جوانب التربية بهذا الأصل الاعتقادي؛ لما له من أهمية كبرى في حياة الإنسان النفسية وتوحد نوازعه وتفكيره وأهدافه، وتجعل كل عواطفه وسلوكه وعاداته قوى متضافرة متعاونة ترمي كلها إلى تحقيق هدف واحد هو الخضوع لله وحده.

ومن تربية النفس التربية على بر الوالدين.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

ويجب أن نشير إلى أنه يجب على الوالدين إعانة ولدهما على برهما، بأن يكونا متحابين متفاهمين ومتعاونين على تربيته، يعلمه أبوه كيف يبر أمه، وتعلمه أمه كيف يبر أباه، وألا يفرقا بين الأبناء في المعاملة وفي العطية، وألا يفضلا أحد الأبناء على إخوته بسبب صغر سنه أو مرضه؛ لأن هذا من شأنه أن يولد الحقد والضغائن بين الإخوة مما ينعكس سلبًا على العلاقة بين الأباء والأبناء، وألا يثقلا عليه بالأوامر، بل يجب الحديث معه حال الصفاء فيكون أجدر بتقبل النصح، لا بعد اللوم والتوبيخ والضرب؛ لأنه يولد العناد لدى الابن[1].

إضافة إلى أن هذه الطاعة يجب ألا تتجاوز المباحات، فلا يطيع الولد أبويه في الكبائر والمحرمات والمنكرات؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، خاصة إذا كانا مشركين يأمرانه بالشرك، فلا طاعة لهما في ذلك، لكن لا يسقط حقهما في المعاملة الحسنة والصحبة الطيبة.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٣٠، تفسير المراغي ٢١/ ٨٤.

﴿فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان:١٥].

من كل هذا يتقرر أن من أول الواجبات التي يجب على الطفل المسلم تعلمها الشكر للوالدين، وأن يكون هذا بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى وحده والشكر له؛ ولهذا جعل لقمان الشكر للوالدين بعد شكر الله عز وجل والإيمان به اعترافًا بحقوقهما ووفاء بمعروفهما.

ومن تربية النفس كذلك التربية على اتباع طريق الصلاح، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥].

فقد أمر الله تعالى باتباع سبيل من أناب إليه، والمعنى: واسلك طريق من تاب من شركه، ورجع إلى الإسلام، واتبع محمدًا صلى الله عليه وسلم [(١)].

ويكون توجيه الطفل إلى مصاحبة ومجالسة كل شخص إن كان منيبًا إلى الله تعالى راجعًا إليه متبعًا طريقه وهديه، فهو أحق بأن يحترم ويحب ويتبع، فإن نشأ الولد على أن الميزان في اختيار الأصحاب والشيوخ أن يكونوا مطيعين لله منيبين إليه وإلا فليس لهم طاعة ولا احترام، إلا إذا أطاعوا الله ورجعوا إليه فإنه لا يتقبل ما يراه في محيطه إلا إذا كان موافقًا لأمر الله، حتى وإن أعجبه وأراد تقليده لا يفعل ذلك إلا إذا وزنه بميزان الشرع، فيصير لديه مناعة من الشر والباطل الكثير الذي انتشر في المجتمع خاصة في وقتنا هذا [(٢)].

ويدخل في تربية النفس التربية على مراقبة الله تعالى في كافة الأحوال والأعمال.

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان:١٦].

وفي هذه الآية يكشف لقمان لابنه عن علم الله، وبسطة سلطانه، حتى يعبده عن علم به، ومعرفة بما ينبغي له من كمال وجلال.

فالله سبحانه، الذي يستحق أن يعبد، وأن يفرد بالعبادة، هو المالك لهذا الوجود، العالم بكل صغيرة وكبيرة فيه حتى الحبة من الخردل، وهي من الصغر بحيث لا تكاد تمسك بها الأصابع هذه الحبة، إن تكن في أي مكان في هذا الوجود إن تكن في صخرة، أي: صخرة من صخور الأرض، أو تكن في السموات التي لا حدود لها، أو تكن في الأرض، على أي عمق منها، وفي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٩، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٣٠.

(٢) تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص١٨.

أي مكان فيها- هذه الحبة الضالة الغارقة في بحر هذا الوجود، يأتي بها الله، ويخرجها من هذه الأعماق السحيقة في أحشاء الكون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ينفذ نور لطفه إلى كل شيء، ﴿خَبِيرٌ﴾ متمكن من كل شيء، ويعلم كل شيء علمًا كاشفًا[1].

وهذه إشارة إلى أن الله يأتي بالحسنة والسيئة مهما كانت صغيرة مما يُوَلِّدُ لدينا الخوف منه تعالى ومراقبته في القول والعمل، وفي السر والعلن، كذلك الولد مهما حاولنا مراقبته، فإننا لا نستطيع مراقبته في كافة أحواله، لكن إن زرعنا فيه مراقبة الله تعالى، فأننا لا نحتاج إلى كثير متابعة ولا كثير تنبيه.

فإن استوعب الولد أن الله تعالى يعلم كل كبيرة وصغيرة في الجهر والخفاء فإنه سيراقب الله عز وجل في كل أقواله وأفعاله، فلا يعمل شيئا بدون إخلاص ولا يعمل شيئا لغير الله تعالى.

ومن تربية النفس التربية على أداء العبادات.

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧].

وتعتبر الصلاة الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عماد الدين، أمر الله تعالى عباده بالمحافظة عليها حال السفر والحضر، حالة الصحة والسقم، والأمن والخوف، وإقامتها تعني أداءها في وقتها بأركانها وواجباتها بخشوع، على النحو المرضي، لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات له، ولما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر، وإذا تم ذلك صفت النفس وأنابت إلى بارئها في السراء والضراء[2].

فإن أداها المؤمن حق الأداء، فإنه يصل إلى قمة السمو الأخلاقي، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي غذاء الروح، تمد الإنسان بطاقة هائلة تعينه على مواجهة المشقات والمكاره في حياته ومقاومتها.

ثم بعد ذلك تأتي التربية على الصبر على الدعوة ومشاقها.

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان:١٧].

والصلاة هي رأس العبادات في كل شريعة، وهى عمود الدين في كل دين ولهذا كان مقامها هنا هو المقام الأول: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم جاء بعد ذلك، ما تعطيه الصلاة من ثمر، وهو إصلاح كيان الإنسان، وتنقيته من الشوائب والأدران، فيصبح رسولا كريمًا من رسل الهدى والخير في الناس، حيث ائتمر بالمعروف، وانتهى عن

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٥٧٠.

(٢) تفسير المراغي ٢١/ ٨٤.

المنكر، وهذا ما يدعوه إلى أن يكون داعيًا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، إن لم يكن بلسانه، فيعمله، وبما يجد الناس فيه، من الأسوة الطيبة والقدوة الصالحة!!

فمن ائتمر بالمعروف وانتهى عن المنكر، كان أشبه بالمرآة الصقيلة يرى الناس عليها وجه الخير والإحسان، فيتمثلونه ويتخذونه قدوة لهم[1].

ثانيًا: أسس التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان:

تعتبر وصايا لقمان لابنه دستورًا كاملًا في أصول التربية الإسلامية، فقائلها أب ومعلم صالح آتاه الله الحكمة، بالإضافة إلى أنها نابعة عن قناعة وصدق، ومبنية على التجربة والمعرفة، وهي تهدف أولًا وأخيرًا أن يحقق الإنسان المسلم العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى وحده في حياته الفردية والاجتماعية، وهذه هي غاية التربية الإسلامية.

ثالثًا: أساليب التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان:

إن وصايا لقمان الحكيم تضمنت الوسائل التربوية المهمة يمكن ذكر أهمها:

الأول: ضرورة جلوس الأب مع ابنه دائمًا للوعظ والتوجيه والتربية، وترسيخ عقيدة التوحيد في نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم باستخدام كافة الوسائل والأساليب، مع مراعاة السن والنمو العقلي والإدراكي لهم.

الثاني: استخدام أسلوب الحب والشفقة وإشعار الولد بأن النصيحة نابعة من باب الخوف عليه والحرص على مصلحته ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، وعدم استخدام الألفاظ الجارحة والكلمات التي من شأنها الإنقاص من قيمة الابن، فيزيد من تقبل الابن لنصح الأب.

ويلاحظ أن كلمة الوعظ في السياق بصيغة فعل المضارع للدلالة على تجدد الوعظ واستمراره، إننا لا نعرف شيئًا عن ابنه، لا نعرف اسمه ولا عمره عندما وعظه، ولا نعرف عقيدته، وهل كان مؤمنًا بالله أم مشركًا به؟ كما لا نعرف هل استجاب الابن لمواعظ أبيه أم لا.

وافتتاح الموعظة بنداء المخاطب الموعوظ مع أن توجيه الخطاب مغنٍ عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنداء مستعمل مجازًا في طلب حضور الذهن لوعي الكلام، وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام.

بالإضافة إلى ذلك كان الأسلوب الذي استعمله لقمان الحكيم ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ محببًا للنفس، وإشعاره بأنه يحبه، وأنه لا

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١١/ ٥٧١.

ينصحه إلا من باب الخوف عليه وحرصه على مصلحته، فعلى المربين كذلك عدم استخدام ألفاظ جارحة منفرة بل عليهم أن يتفننوا في استعمال الكلمات الجميلة الراقية الدالة على الاحترام والإشفاق والمحبة، ولو كان الابن يفعل الأخطاء والجريمة، مقترنة ببيان السبب والمسبب الذي يترتب عليه لاحقا.

وهذا من أسباب نجاح الداعية والمربي الواعظ أن لا ينشغل بالنتائج فقط، بل يبذر البذور ويغرس الكلمات الطيبة والتوجيهات والنصائح التي أخلص فيه لله عز وجل، والنتائج والثمرات يتركها لله عز وجل؛ فنحن لا نملكها، وهذا ما نستفيده من قول لقمان لابنه كما حكى عنه المولى ﴿يَٰبُنَيَّ﴾.

الثالث: التربية بالقصة: يجب أن تكون أساليب التربية مستفادة من الوحي العظيم: الكتاب والسنة النبوية الشريفة. فهذه الشريعة جاءت بكل ما يصلح به البشر شؤونهم، ومن تلك الأساليب المستقاة منها تربية الأبناء بل المجتمع بالقصة، فالتربية بالقصة وتوصيل المعنى بالإحساس وتحقيق الهدف بالمثال من أفضل الأساليب وأنجعها نتيجة إن شاء الله تعالى.

فنحن نجد بأن الموعظة بالقصة تكون مؤثرة وبليغة في نفس الطفل، وكلما كان القاصُّ ذا أسلوب متميز جذاب؛ استطاع شد انتباه الطفل والتأثير فيه؛ وذلك لما للقصة من أثر في نفس قارئها أو سامعها، ولما تتميز به النفس البشرية من ميل إلى تتبع المواقف والأحداث رغبة في معرفة النهاية التي تختم بها- أي قصة-، وذلك في شوق ولهفة.

فمما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق السامع بشغف وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعًا وأكثر فائدة؛ فالقصة أمر محبب للناس وتترك أثرها في النفوس والمعهود حتى في حياة الطفولة أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية، ويصغي إلى رواية القصة[1].

هذه الظاهرة الفطرية ينبغي للمربين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم خاصة، لنربط الولد بأنبياء الله عز وجل وهديهم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠] وتربيتهم على ما كان عليه صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

والقصة خير وسيلة للوصول إلى ذلك؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يقص على أصحابه قصص السابقين

(١) تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص١٨.

للعظة والاعتبار، لقد كان ما يحكيه مقدمًا بقوله: (كان فيمن كان قبلكم) [1] ثم يقص صلى الله عليه وسلم على مسامعهم القصة وما انتهت إليه، لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمثل منهجًا ربانيًا ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

ففي القصص عبرة لمن تفكر واعتبر، قال الإمام ابن عاشور: «ما فيها من موعظة المشركين بما لحق الأمم التي عاندت رسلها، وعصت أوامر ربها حتى يرعووا عن غلوائهم، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم، وكيف يورث الأرض أولياءه وعباده الصالحين.

قال تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وهذا في القصص التي يذكر فيها ما لقيه المكذبون للرسل كقصص قوم نوح وعاد وثمود وأهل الرس وأصحاب الأيكة» [2].

وقصص القرآن تتميز بالواقعية والصدق وسمو الهدف؛ لأنها تهدف إلى تربية النفوس وتهذيبها، وليس لمجرد التسلية والإمتاع، حيث كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يأخذون من كل قصة العظة والعبرة، كما يخرجون منها بدرس تربوي سلوكي مستفاد، ينفعه وينفع من بعدهم في الدنيا والآخرة.

ولكن هل الإعلام الموجه للطفل عمومًا استفاد من هذا الأسلوب التربية بالقصة لتحصيل أسباب تربوية أم أنه إعلام هدام أو سلبي على أقل وصف؟ للأسف كثير منه سلبي، فالقصص التي تعرض في أفلام الكرتون فيها محاذير ومنكرات عديدة، منها قصص تثير الفزع والرعب والرهبة في نفوس الأطفال.

وقصص تثير العطف على قوى الشر أو تمجيدها، وأحيانًا قصص شعبية التي تحتوي على مواقف منافية للأخلاق، وقصص تعيب الآخرين وتسخر منهم [3].

موضوعات ذات صلة:

الحكمة، داود عليه السلام، سليمان عليه السلام

(١) مثل ما أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم ٣٤٦٣، ٤/ ١٧٠.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٦٦.

(٣) تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص١٨.

اللهو

عناصر الموضوع

مفهوم اللهو	١٩٢
اللهو في الاستعمال القرآني	١٩٣
الألفاظ ذات الصلة	١٩٤
تنزيه الله تعالى عن اللهو	١٩٦
ضوابط اللهو	١٩٩
الملهيات الدنيوية	٢٠١
اللهو بالدين	٢١٨
الملهى عنه	٢٢٣
علاج اللهو	٢٢٩
عاقبة اللهو	٢٣٤

مفهوم اللهو

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور كلمة لهو على معنى الانشغال عن شيءٍ بشيءٍ آخر، بما يؤدي إلى نسيانه، أو الإعراض عنه قصدًا أو بغير قصدٍ[(١)].

والملاهي: آلات اللهو[(٢)].

ويأتي اللهو بمعنى: الإعراض عن الشيء، والدنو والاقتراب، ومحبة الشيء والتعلق به[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: اللَّهْوُ: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه[(٤)].

وقال الجرجاني: اللهو: هو الشيء الذي يتلذَّذ به الإنسان فيلهيه، ثم ينقضي[(٥)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢١٣.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم ٤/ ٤٢٣.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ٢٢٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٤/ ٤٢٣.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٤٨.
(٥) التعريفات ص١٩٤.

اللهو في الاستعمال القرآني

وردت مادة (لـهو) في القرآن الكريم (١٦) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر:١-٢]
الفعل المضارع	٤	﴿رِّجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[النور:٣٧]
المصدر	١٠	﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾[الجمعة:١١]
اسم الفاعل	١	﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[الأنبياء:٣]

وجاء اللهو في القرآن على وجهين[(٢)]:

الأول: ما يتلهى به ويشغل، من زوج أو ولد أو مال أو غناء أو غير ذلك من الشواغل، على معناه اللغوي: ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]. يعني: زوجة، وقيل: ولدا.

الثاني: السخرية والاستهزاء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠]. يعني: باستهزائهم به.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٩٨-٦٠٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص١٠١٤-١٠١٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٠٦-٤٠٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٥٣٤-٥٣٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ العبث:

العبث لغة:

يقول ابن فارس: (العبث، هو الفعل لا يفعل على استواءٍ وخلوص صوابٍ. تقول: عبث يعبث عبثًا، وهو عابثٌ بما لا يعنيه وليس من باله، وفي القرآن: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

أي: لعبًا)[١].

وقد عبث يعبث عبثًا فهو عابث: لاعب بما لا يعنيه وليس من باله[٢].

العبث اصطلاحًا:

قال القشيري: (العبث: اللهو، واللعب والاشتغال بما يلهي عن الحق)[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن العبث هو الفعل الذي ليس فيه مصلحةٌ ولا منفعةٌ ولا فائدةٌ تعود على الفاعل)[٤].

الصلة بين العبث واللهو:

اللهو والعبث يشتركان في أن كل منهما يقصد من غير هدف، ومشغل عن أمور مهمة، ويخلوان عن النفع الديني، والدنيوي الجاد[٥].

٢ اللعب:

اللعب لغة:

اللعب واللعب: ضد الجد، لعب يلعب لعبًا ولعبًا، ولعب، وتلاعب، وتلعب مرة بعد أخرى[٦].

ويقال لكل من عمل عملًا لا يجدي عليه نفعًا: إنما أنت لاعبٌ[٧].

---

(١) مقاييس اللغة، ٤/ ٢٠٥.
(٢) العين، الفراهيدي، ٢/ ١١١، تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٩٩، تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٢٩٥.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري، ٢/ ٥٩١.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٩٠.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٥٤.
(٦) لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٧٣٩.
(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٢٥٣، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٣٩، تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٢٠٩.

اللعب اصطلاحًا:

اسمٌ لقولٍ أو فعلٍ يراد به المزح والهزل لتمضية الوقت أو إزالة وحشة الوحدة، أو السكون، أو السكوت، أو لجلب فرحٍ ومسرةٍ للنفس، أو يجلب مثل ذلك للحبيب، أو يجلب ضده للبغيض، كإعمال الأعضاء وتحريكها دفعًا لوحشة السكون، والهذيان المقصود لدفع وحشة السكوت، ومنه العبث، وكالمزح مع المرأة لاجتلاب إقبالها ومع الطفل تحببًا أو إرضاءً له[1].

الصلة بين اللعب واللهو:

اللعب تقديم شيء على غيره من غير إهمال للثاني إنما يأتي بعده، مثال ذلك من يقول: بعد هذا الشغل، أشتغل بالعبادة والآخرة.

وأما اللهو فالاشتغال بشيء إلى حد الاستغراق فيه والإعراض عن غيره، فالدنيا للبعض لهو يشتغل به، وينسى الآخرة بالكلية[2].

وكلاهما فيه انشغال عن المهمات من الأعمال بأخرى ليست ذات أهمية.

وكلاهما يخلو من مقصد يحقق منفعة حقيقيةً في الحياة.

وآثارهما لا تدوم؛ بل هي سريعة الزوال.

(١) المصدر السابق ٢٧/ ٤٠١.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٧٩٩.

تنزيه الله تعالى عن اللهو

إن من الأصول الواجب اعتقادها، أن الله تعالى منزه عن كل نقيصة، أو عيب في ذاته جل جلاله، وفيما يصدر عنه، سبحانه وتعالى، من خلق وأمر، وذلك ممكن الوصول إليه، والتعرف عليه نصًا وعقلا؛ فأما النصوص الدالة على ذلك فهي كثيرة، وقد تعددت الأساليب المستعملة في هذه النصوص، فمنها مثبت للخلق الحق منها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: ٣].

ومنها ما جاء نافيا للعبثية، واللعب من مقصد هذا الخلق كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦] ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وتتعدد مقاصد الخلق التي من أجلها خلق الله تعالى هذا الكون العظيم، ويظهر لك من خلال الأمور الآتية:

أولًا: دلائل الخلق المبثوثة في أرجاء السماوات والأرض وما بينهما، والمقصد من خلقها، إنما هو تحفيز العقول، واستنفار لطاقاتها؛ من أجل أن تجول في أنحاء هذا الكون فتبحث عن خالقه، وتعظمه في جميل خلقه وبديعه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

«ومعنى ما خلقت هذا باطلًا أي: خلقًا باطلًا، أو ما خلقت هذا في حال أنه باطلٌ، فهي حالٌ لازمة الذكر في النفي وإن كانت فضلة في الإثبات، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨].

فالمقصود نفي عقائد من يفضي اعتقادهم إلى أن هذا الخلق باطلٌ أو خليٌّ عن الحكمة، والعرب تبني صيغة النفي على اعتبار سبق الإثبات كثير»[(١)].

يقول رشيد رضا أيضًا، في بيان هذه الآية: «أما معنى كون هذا الخلق لا يكون باطلًا، فهو أن هذا الإبداع في الخلق، والإتقان للصنع لا يمكن أن يكون من العبث والباطل، ولا يمكن أن يفعله الحكيم العليم لهذه الحياة الفانية فقط، كما أن الإنسان الذي أوتي العقل الذي يفهم هذه الحكم، ودقائق هذا الصنع، وكلما ازداد علمًا حتى إنه لا حد يعرف لفهمه وعلمه، لا يمكن أن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/١٩٨.

يكون وجد ليعيش قليلًا، ثم يذهب سدًى، ويتلاشى فيكون باطلًا، بل لا بد أن يكون باستعداده الذي لا نهاية له قد خلق ليحيا حياةً لا نهاية لها، وهي الحياة الآخرة التي يرى كل عامل فيها جزاء عمله»[1].

والتفكر من أعظم الأسباب الموصلة الدالة إلى أن منشئ هذه المصنوعات البديعة له القدرة التامة، والعلم، والأحدية، إلى سائر الصفات العلية.

ثانيًا: النواميس والقوانين التي خلقها الله لتنظيم أمور هذا الكون بجميع مكوناته، آية دالة على قدرته، وحكمته، سبحانه وتعالى، فكل شيء خلقه الله بقدر كما قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

«والمراد: أن خلق الله الأشياء مصاحبٌ لقوانين جاريةٍ على الحكمة»[2].

وقد أسهب سيد قطب رحمه الله في ذكر كثير من الأمثلة الدالة على بديع خلق الله تعالى، ودقة صنعه، فذكر دقة التناسق بين أبعاد النجوم والأجرام السماوية، وأحجامها، وكتلها، وجاذبيتها لبعض، ما مكن العلماء من تحديد مواقع نجوم أخرى بناء على ذلك، وذكر التناسق البديع بين القوانين الأرضية؛ لتكون صالحة لحياة جميع المخلوقات على ظهرها دون اختلال لأي منها أو طغيان على آخر، يقول سيد: «كل شيء، كل صغير وكل كبير. كل ناطق وكل صامت. كل متحرك وكل ساكن. كل ماض وكل حاضر. كل معلوم وكل مجهول. كل شيء خلقناه بقدر قدر يحدد حقيقته. ويحدد صفته. ويحدد مقداره. ويحدد زمانه. ويحدد مكانه. ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء. وتأثيره في كيان هذا الوجود. وإن هذا النص القرآني القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة، مصداقها هذا الوجود كله، حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود، ويتجاوب معه، ويتلقى عنه، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقًا دقيقًا. كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود»[3].

ثالثًا: تكرر ذكر ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ في الآيات التي ذكرت خلق السماوات والأرض، وهذا يقصد به في المقام الأول، أشرف المخلوقات على الأرض وهو الإنسان؛ لأنه المخاطب بالعبادة والإعمار[4]، فخلقه ليس عبثا، ووجوده ليس سدًا، إنما هو خاضع للقوانين الإلهية التي تسير الكون، وتضبط

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٢٤٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢١٧.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٣٦، ٣٤٣٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٣٢.

حركته، فيجازى أو يعاقب بحسب حاله وليس هناك ثمة محاباة لأحد، فقد يمهل الظالمون برحمة من الله تعالى لحكمة استبقاء عمران جزء من الأرض زمانًا، ويهلكون حين يستوفون شروط الإهلاك والعذاب إحقاق لحكمة أخرى وهي العدل والاقتصاص من الظالم. لذا يكثر تعقيب نظام خلق السماوات والأرض بذكر الجزاء العاجل المتمثل بإهلاك الأمم الظالمة بعذاب إلهي فوري كالإهلاك بالطوفان والصيحة والريح الصرصر، أو متدرج كالأمراض الفتاكة والخلافات المفضية إلى الاقتتال الدامي. أو يعقب بذكر البعث والجزاء يوم القيامة تذكيرا بأنه لن يفلت أحد من الجزاء العدل عند الله سبحانه وتعالى[1].

رابعًا: الأحكام والقواعد التي شرعها الله تعالى لتسيير مصالح عباده فيما فيه نفعهم وصلاحهم، من خلال إرسال الرسل وإنزال الكتب [2]، فمن عدل الله تعالى وحكمته أن لا يترك الناس سدى يسيرون أمورهم وفق أهوائهم وشهواتهم، ذلك أن عقل الإنسان قاصر في كثير من الأحيان عن إدراك الأحكام والقوانين التي تحقق له المصالح الدنيوية والأخروية، فضلا عن أن اتجاهات التفكير لدى الناس متفاوتة نظرا لتفوات مداركهم، وطرق تفكيرهم واختلاف الظروف المحيطة بهم[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٧٥.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٠٧
(٣) تهذيب معاني القرآن، الزجاج ٣/ ١٥.

ضوابط اللهو

أولًا: ضوابط اللهو:

بعد الوقوف أمام حقيقة اللهو في اللغة والاصطلاح، لا بد لنا، من التعرف على القواعد التي تضبط التصرفات والسلوكيات فيتميز من خلالها اللهو عن الجد، وقد سعى العلماء إلى تأصيل القواعد الواضحة الدالة على ذلك، مستندين إلى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وبعد البحث والتقصي، وجدت أن عمدتهم في ذلك، قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ [لقمان: ٦].

وأربعة من الأحاديث النبوية، وكان السبق في التقعيد للإمام البخاري رحمه الله وضع القاعدة الأولى وهي: أن لا يشغل السلوك أو التصرف عن طاعة وذلك واضح في ترجمته لأحد الأبواب بقوله: باب كل لهوٍ باطل إذا شغله عن طاعة [(١)] وتبعه في ذلك الإمام ابن بطال في شرحه للصحيح وزاد ضابطا آخر وهو: أن يكون اللهو قليلًا وليس بكثير! [(٢)].

ويستدل لذلك بحديث عائشة في نظرها إلى الأحباش وهم يتلاعبون في المسجد، وغناء الجاريتين في بيتها يوم العيد[(٣)]، وحضورها زفاف امرأة إلى رجل من الأنصار[(٤)].

ثم جاء الإمام الخطابي وأضاف ضابطا آخر، وهو: أن يكون التصرف أو السلوك معينًا على الحق أو ذريعة إليه، فإن لم يكن كذلك كان من اللهو [(٥)].

وقد استنبط هذا الضابط من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:وكل ما يلهو به المرء المسلم باطلٌ، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق)[(٦)].

وذهب ابن تيمية إلى أن اللهو له ضابطان، الأول: ليس فيه منفعة، والآخر: لا يكون محرمًا[(٧)].

كذلك قعد الشاطبي قاعدتين

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٩١.
(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٧١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العيدين، باب الحراب والدراق يوم العيد، رقم ٩٤٩، ٩٥٠، ومسلم في صحيحه، صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد، رقم ٨٩٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الدعاء للنساء اللاتي يهدين للعروس والعريس، رقم ٩٤٩، ٩٥٠.
(٥) معالم السنن ٢/ ٢٤٢.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، رقم ١٦٣٧، وابن ماجه في الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، رقم ٢٨١١.
قال الترمذي: حديث حسن.
(٧) الاستقامة، ابن تيمية ص ٢٢٧.

استخرجهما من حديث عامر بن عقبة هما: أن يكون الأمر مباحًا يخدم أمرًا ضروريًا كالنسل، والآخر: أن يكون مباحًا ويخدم أصلًا تكميليًا كاللعب بالسهام وتأديب الفرس[1]، فإن لم يتوفر أحد هذين الشرطين كان الأمر لهوًا.

وبذلك تتلخص الضوابط التي تحكم أن هذا الأمر لهوٌ أو جدٌ بالنقاط الآتية:

- أن يكون مباحًا، وليس فيه تعلق بحرام.
- أن يكون قليلًا، ولا يستغرق وقت الإنسان، ومعيار القلة يضبط من خلال المناسبات كالأعياد.
- ألا يشغل الأمر عن طاعة، بل يكون معينًا على الحق أو ذريعة إليه.

ثانيًا: حكم اللهو:

بعد استعراض القواعد الدالة على اللهو، لا بد من التعريج على حكمه؛ ليكون المسلم على بينة من أمره، فيجتنبه، ويبتعد عنه، وبعد البحث في الآيات التي تناولت موضوع اللهو لم أجد فيها ما ينص بصراحة على حكم محدد للهو، وغاية ما في الأمر، إشارات دلت عليها آية قرآنية، فهم منها العلماء حكم اللهو، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦].

فلقد علق عليها ابن عاشور، بقوله: فلم يكن قصده مجرد اللهو بل تجاوزه إلى الصد عن سبيل الله[2]. في حين، نجد الإمام البخاري، يستعمل هذه الآية في ترجمته: «باب كل لهو باطل» مستنبطًا ذلك من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (وكل ما يلهو به المرء المسلم باطلٌ، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق)[3].

فقال: باب كل لهو باطل إذا شغله عن طاعة وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾. ولما لم يكن هذا الحديث على شرطه استعمله لفظ ترجمةٍ واستنبط من المعنى ما قيد به الحكم المذكور[4].

فدل الأمر على أن اللهو لا يسري عليه حكم واحد إنما في الأمر تفصيل؛ فاتفق العلماء، على أن اللهو يكون محظورًا إذا كان فيه نص محدد بالتحريم في حين إذا لم يكن محرمًا، وليس فيه منفعة، فيرى بعض العلماء، مثل: ابن بطال، والخطابي، وابن تيمية، أن على أصحاب الهمم العالية اجتنابه؛ لأنه يحد من نشاطهم الإيماني، وتعلقهم بالله، ويرخص فيه للنفوس التي

(١) الموافقات ١/ ٢٠٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١٤٣.

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٩١.

لا تصبر على ما ينفع، والترخيص مقيدٌ بالأوقات التي تقتضي ذلك؛ كالأعياد، والأعراس، وقدوم الغائب، ونحو ذلك[1].

وعندما وقف ابن تيمية أمام الحديث، وفسر معنى الباطل، ذهب إلى أنه ما كان ضد الحق[2]، في حين، قال ابن العربي: إن معنى الباطل ما كان خاليًا من الثواب لتعلقه بالدنيا المحضة لا تعلق له بالآخرة والمباح منه باقي[3].

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٧١، معالم السنن، الخطابي ٢/ ٢٤٢.
(٢) انظر: جامع رسائل ابن تيمية ١/ ٢٠.
(٣) انظر: عارضة الأحوذي، ابن العربي ٧/ ١٣٦.

الملهيات الدنيوية

شاءت حكمة الله عز وجل أن يخلق على هذه الأرض أمورا حببها للإنسان بفطرته؛ لتكون دافعا على إعمار الأرض ومساعدًا على تطويرها، وبعضها يجملها الشيطان في نفس الإنسان ليغويه عن الصراط المستقيم، كل ذلك يشكل اختبارًا للإنسان التي جبلت فطرته على هذه المحبوبات.

وفيما يأتي أهم الملهيات الدنيوية:

أولًا: زخرف الدنيا وزينتها:

واستعمل لفظ الزخرف في القرآن الكريم أربع مرات، جاءت في موضعين، في معرض الذم:

أولهما: يذكر الوسائل التي يستعملها شياطين الإنس والجن في تزيين قبيحهم، وتمويه باطلهم، بطرق خفية دقيقة، ليسهل على النفوس قبوله، والإقبال عليه[4] كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وثانيهما: يصور حال الكفار المنهمكين في لذائذ الدنيا ومتعها، الغارقين في وهم استمرارية هذه المتع واللذائذ[5]، كما في

(٤) انظر: الموافقات، الشاطبي ٤/ ٣٣٤
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٤٣.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

أما الموضعان الآخران، فقد جاء الموضع الأول منهما، في سياق طلبات قريش من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيه الله تعالى بيتًا من زخرف، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٣].

وجاء الموضع الآخر، في بيان حكمة الله من تفاوت الناس في معاشهم، وأرزاقهم في الدنيا، وأن ذلك جميعه، عرض زائل سريع الفناء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٥].

وفيما سبق، دلالة واضحة؛ وهي أن النفس البشرية تنجذب لكل ما هو مزخرف سواء كان ماديًا أم معنويًا، وتغتر به، فيشغلها اللمعان والتزويق عن حقيقة الشيء المزخرف حتى وإن كان سريع الزوال، أو قبيحًا في الباطن، فالواجب على المؤمن ألا ينخدع بكل ما له بريق ولمعان، فلربما كانت شركا من أشراك إبليس.

دلالة مصطلح الزينة:

تقول لنا، معاجم اللغة العربية: إن الزاء والياء والنون أصل صحيح يدل على حسن الشيء وتحسينه[(١)]، والزين الصبيح الجميل، وضده الشين أي: القبيح[(٢)]، وحقيقة الزينة أنها زيادة محببة تعلق بظاهر الشيء ناشئة عما يزخر به باطنه، ومن ذلك الأصل جاء المعنى الشائع للتزين؛ وهو التحلي بحلية مجتلبة تقليدًا لما هو ناشئ من البدن كالتجمل بالأصباغ ونحوها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١][(٣)].

وورد ذكر الزينة في القرآن الكريم خمسًا وأربعين مرة، ويظهر من استقراء الآيات أن الزينة نوعان: زينة داخلية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

وزينة خارجية كما في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩][(٤)].

والمدقق في الآيات التي وردت فيها

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤١.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ١٧٥.
(٣) المعجم الاشتقاقي، محمد حسن ص ٩٢٣.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٨.

مصطلح التزيين، يلاحظ تعدد الحالات التي وردت فيها صور التزيين، وهي على النحو الآتي:

١. إن التزيين نسب للشيطان.

وذلك حين يتسلط على الكفار والضالين، فيحسن لهم كل ما يؤدي إلى الحرام، ويستر لهم قبح أعمالهم، فيواصلون غيهم، ويصدون عن سبيل الله القويم، وقد ورد ذلك، في عدة مواضع منها: قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣].

وقد قال تعالى في شأن قوم بلقيس، لما عبدوا الشمس من دون الله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٤] ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨].

٢. إن الله تعالى نسب التزيين إلى نفسه.

ويأتي هذا التزيين على ضربين:

الأول: يتعلق بأعمال الإنسان وكسبه، وقد ورد ذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم؛ منها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقوله أيضا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات: ٧].

والمقصود بالتزيين في الآيتين الأوليين: أن الله تعالى خلق في النفوس البشرية من المحبة للخير أو الشر والاتباع لطرقه[(١)].

«والبشر يستحسنون ما يجرون عليه ويتعودونه مما كان عليه آباؤهم أو مما استحدثوه بأنفسهم، فسبب التزيين في الأول أنسهم به كونه من شئون أمتهم، التي يعد مدحها مدحًا لها ولهم، وذمها عارًا عليها وعليهم، وزد على ذلك في الثاني ما يعطيه العلم من كون ذلك حقًا وخيرًا في نفسه يترتب عليه فضلهم على غيرهم فيه وفي الجزاء عليه، فيظهر بذلك أن التزيين أثرٌ لأعمال اختيارية لا جبر فيها ولا إكراه»[(٢)].

وتزيين الله تعالى للإيمان في الآية الثالثة، يقصد به توفيقه لعباده المؤمنين لقبولهم الحق بما أودعه في قلوبهم من محبة القلب وإيثاره، وما رافق الحق من حجج قاطعة تدل عليه، فيستقيم في القلب

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٦١٢، روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٢٨.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٥٥٧.

راسخًا لا يتزحزح[1].

الآخر: يتعلق بخلق الله تعالى، وبديع صنعه، والمتتبع لهذه الآيات يلحظ أن التزيين خصت به السماء في معظم الآيات، وهي على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥].

ويبدو أن سبب التركيز على عرض زينة السماء، يعود إلى كون البروج العظيمة الدائرة فيها، لا تغيب عن ناظر أحد، فجعلت أشكالًا تقع موقع الحسن في الأنظار؛ للدلالة على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه، وانفراده بالخلق، ولو صدق الكفار في دعواهم المستمرة بطلب المعجزات من أجل الإيمان، لكفتهم هذه المعجزة السماوية في تحقيق مطلبهم[2].

٣. ذكر التزيين غير مسمى إلى فاعله.

وقد ورد هذا، في تسعة مواضع؛ اختصت ثمانية منها للحديث عن تزيين الأعمال للكفار أو المنافقين، واختلفت أقوال المفسرين في إسناد فعل التزيين على عدة أوجه؛ فمنهم من قال: إن فعل التزيين منسوب إلى الله تعالى. وقال آخرون: إن إسناد الفعل للشيطان. في حين ذهب آخرون إلى أن المزين هم الرؤساء للمرؤوسين[3].

المقصود الإلهي من تزيين الدنيا وزخرفتها:

قبل الحديث عن الحكمة الإلهية من تزيين الدنيا وزخرفتها، لا بد من تقرير قاعدة مهمة، وهي أن أصل الزينة في الحياة الدنيا أمرٌ ليس بمذموم في نفسه وذاته إذا روعي فيه ما أوصى الله برعيه، دليل ذلك من المنقول، قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

أما دليله من المعقول، فإن الناظر يرى، أن الله تعالى أودع في جنس البشر حبًا للعلم والمعرفة، وميلًا للشهوات الحسية والعقلية، والزينة الصورية والمعنوية، فانطلقوا تلبية لذلك نحو استكشاف كل مجهول يواجهونه في حياتهم، «فكانت غريزة حب الزينة وغريزة حب الطيبات من

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٢٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٩.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٢٩، مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٤٥.

الرزق سببًا لتوسع البشر في أعمال الفلاحة والزراعة وما يرقيها من فنون الصناعة وسائر وسائل العمران، وإظهار عجائب علم الله وحكمته وقدرته في العالم ورحمته وإحسانه بالخلق»[1]، فكانت بذلك سببًا من أسباب التقدم والرقي؛ لذا فهي غير مذمومة في ذاتها، إنما تقترن بها أشياء تذم لأجلها؛ كالإسراف فيها، بحيث تشغل عن عبادة الله تعالى، أو عن معالي الأمور، وإضاعة الوقت الطويل في التلذذ بها، وسلوك سبل غير قويمة للحصول عليها، واستعمالها وسيلة للصد عن طاعة الله وعبادته.

والأدلة على ذلك كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾[يونس: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

أما عن تزيين الدنيا، وما عليها من موجودات، فله حكم إلهية عديدة، جاءت في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقد فصل رشيد رضا، وابن عاشور، في تعداد هذه الحكم أثناء تفسيرهما هذه الآية، نجملها فيما يأتي[2]:

- إن الإخبار عن خلق ما على الأرض زينة، يجمع الامتنان على الناس، والتذكير ببديع صنع الله تعالى، إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبه النفوس من الزخرف والزينة.
- إن التأمل في زينة الدنيا، يحث العقول على النظر في وجود منشئ هذه الموجودات، ومقياس مدى الإيمان الداخلي الدافع لشكر الخالق سبحانه وتعالى، فيظهر حينئذ الجاحد لنفسه، والظالم لها، والمقتصد بالخيرات والسابق فيها.
- امتحان الإنسان واختباره في كيفية استقباله لهذه الزينة وتعامله معها في الواقع، فإن الابتلاء والاختبار يقع بكل من حصولهما والحرمان منهما، وإن المالك لهما أقدر على شكر الله وتزكية نفسه ونفع غيره من الفاقد لهما[3].

خطورة الانجرار وراء الدنيا:

حب الدنيا والغرور بزينتها، يصرفان جميع قوى النفس إلى التفاني في طلبها،

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤٦.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٢٥٧.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٢٦، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤٧.

والسعي في تحصيل متعها، وبذلك تنصرف عن النظر الصحيح في آيات الحق وبيناته، وتعمى عن سبيل الله وصراطه، فشهوة الزعامة تصرف صاحبها إلى المسارعة في حب الظهور، والامتياز، والشهرة، والاستعلاء على أقرانه، وشهوة المال تصرف صاحبها إلى تخطي كل الحدود لتكديس المزيد من الأموال في خزائنه، وهكذا في شأن كل متع الدنيا وزخرفها.

لذا جاءت آيات عديدة تحذر من الاغترار بالدنيا، والتنبيه على سرعة انقضائها، وزوال نعيمها وملذاتها، وقد استعمل القرآن في سبيل ذلك، منبهات توقظ القلوب، فمن ذلك استعمال مصطلح «متاع» ثلاث عشرة مرة، في وصف الدنيا تنبيهًا أن لكل إنسان في الدنيا تمتعًا لمدة معلومة،[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾[آل عمران: ١٨٥].

وها هو ذا، رشيد رضا يقول في تفسيره لهذه الآية: «وهي على كل حالٍ متاع الغرور؛ لأن صاحبها دائمًا مغرورٌ مخدوعٌ لها تشغله كل حينٍ بجلب لذاتها ودفع آلامها، فهو يتعب لما لا يستحق التعب، ويشقى لتوهم السعادة، ويتعب نقدًا ليستريح نسيئةً»[2].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٩٥، المعجم الاشتقاقي، محمد حسن ص٢٢٥.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٢٢٣.

ثانيًا: المال والبنون.

محبوبات النفس البشرية:

يعد المال والبنون، من أخطر الأشياء على النفس البشرية، وأشدها تأثيرًا على سلوك الإنسان، وتصرفاته، «وجعل القرآن الكريم نفس «الأموال والأولاد» فتنة لكثرة حدوث فتنة المرء من جراء أحوالهما مبالغةً في التحذير من تلك الأحوال وما ينشأ عنها، فكأن وجود الأموال والأولاد نفس الفتنة»[3].

فقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[الأنفال: ٢٨].

وقال أيضًا ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[التغابن: ١٥].

كما عدهما القرآن الكريم، من أكثر المحبوبات إلى النفس البشرية، فقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف: ٤٦].

وإنما ذكرهما دون غيرهما من الزينة؛ لأنهما الجالب لها، والحافظ عليها، ففي المال جمالٌ ونفعٌ، وفي البنين قوةٌ ودفعٌ[4]، وقد بين مدى تغلغل حب المال في قلب الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾[الفجر: ٢٠].

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٢٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤١٣.

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾[البقرة: ١٧٧].

لذلك فإن المال يستعمل كوسيلة إغراء، تستمال من خلالها القلوب، وتروض الأفكار، فتتطوع الأجساد، وتخضع الإرادات، وهذا ما فعلته ملكة سبأ حين أرسلت وفدًا إلى نبي الله سليمان ؛ وفدًا محملًا بالهدايا لاختباره، فإن كان ملكًا قبلها، وعرفت أن علاجه في بعض الخراج، والأموال تساق إليه كل عام، وإن كان نبيًا فلن يقبل منها شيئًا حتى تدخل هي وقومها في دينه[1] فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٥].

والإمداد بالمال ليس دائما علامة رضا من الله تعالى، فالله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، وقد يوسع الله على العاصي ويضيق على الطائع، فإذا اقترن الإمداد بحال الغفلة والعصيان، كان ذلك دلالة على الاستدراج إلى المعاصي، واستجرار إلى زيادة الإثم[2].

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

فها هو ذا، قتادة يقول: «مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، فلا تعتبروا الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبروهم بالإيمان والعمل الصالح»[3]

تقديم المال على الأولاد:

ورد ذكر المال والأولاد في القرآن الكريم على صور مختلفة؛ فجاء ذكر المال مفردًا في ستة وأربعين موضعًا، واقترن مع ذكر الأولاد في ستة وعشرين موضعًا، أما الاقتران بالأنفس، فجاء في خمسة عشر موضعًا، وانفرد بموضع واحد مقترنًا بالأهل والديار لكل منهما على حدة.

وبالتدقيق في المواضع القرآنية المشتملة على ذكر المال والأولاد تلاحظ الأمور الآتية:

١. التركيز على التنبيه على خطورة الافتتان بالمال والأولاد، وتأثيراته على سلوكيات الإنسان، وتصرفاته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وكانت هذه الآية قد نزلت في حق أبي لبابة رضي الله عنه حين مال إلى اطلاع بني قريظة على حكم سعد؛ لأن ماله وولده كانت فيهم[4]؛ بل إن الافتتان بالمال والأولاد، يدفع الإنسان ليعتقد أن الله راض عنه،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٥٥.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٥٦٧.
(٣) الدر المنثور، السيوطي ٦/ ١٠٤.
(٤) الوجيز، الواحدي ١/ ٤٣٧.

وليس بمعذبه، فيطغى ويتجبر، كما جاء على لسان الكفار، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥]. وقوله تعالى على لسان صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف: ٣٤].

٢. تقدم ذكر المال على الولد في جميع المواضع، باستثناء موضعين اثنين، هما؛ قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ [التوبة: ٢٤].

ويظهر لنا، أن الحكمة من التقديم والتأخير بين الأموال والأولاد، هو السياق الذي وردت فيه الآيات؛ فإذا كان السياق في معرض ذكر الفتنة، والإغراء، والزينة، والإعجاب- قدم المال. في حين إذا كان السياق في معرض ذكر المحبوبات إلى القلب، قدم الولد على المال، وهذه بعض التفسيرات التي تبين سبب التقديم والتأخير:

- قدم الأموال من باب السبب، فإنه إنما شرع النكاح عند قدرته على مؤونته، فهو سببٌ. والتزويج سببٌ للتناسل، ولأن المال سببٌ للتنعيم بالولد وفقده سببٌ لشقائه[١].
- الأموال لا تكاد تفارقها الفتنة، وليست الأولاد في استلزام الفتنة مثلها[٢].
- إن إعجاب الناس يسبق إلى المال قبل الإعجاب بالولد.
- إن المال فيه صفة الزينة، والإمداد لكلٍ من الآباء والأبناء في جميع الأوقات، أما البنون فزينتهم وإمدادهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغ الأبوة، ثم إن المال أقدم وجودا من البنين، و المال مناطٌ لبقاء النفس، والبنين لبقاء النوع، ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم[٣].
- أما عن تقديم البنين على المال، في الموضعين (آل عمران والتوبة) فيرجع ذلك، إلى أن شهوة حب الولد الجبلية،أقوى في القلب من شهوة المال، فالمال يبذل في سبيل تحصيل الزواج المسبب للولد، فكان التقديم ترتيب للمحبوبات[٤]. قلت: ومما يقوي هذا، أن كثيرًا من الناس، ممن

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٢٤٨.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٦١.
(٣) إرشاد العقل السليم، السعود ٥/ ٢٢٥.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٢٦١.

حرم الولد يبذل الغالي والنفيس في سبيل الإنجاب.

حب المال مدعاة لارتكاب المحرمات وتربية الخصال السيئة في القلب:

إن بريق الأموال وزينتها الأخاذة، تدفع النفس البشرية إلى السعي للحصول عليها، حتى لو اضطر بعض الناس إلى تخطي كثير من الحدود والمحرمات، وحب جمع المال يربي في النفس الكثير من الخصال السيئة ذات التأثير الخطير على شخصية محب المال والمجتمع من حوله، وقد ذكرت الآيات القرآنية صورًا عديدة لتلك المحرمات، والخصال السيئة، وهي على النحو الآتي:

١. الاعتداء على أموال الضعفاء؛ كالأيتام، والنساء.

فجاء الأمر الإلهي بإرجاع الحقوق إلى أصحابها كاملة، من غير نقصان، ولا استبدال، فقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾[النساء: ٢].

وقال أيضا: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[النساء: ٤].

ونهى عن استخدام أساليب تكره المرأة على التنازل عن مالها أو جزء منه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾[النساء: ١٩].

وجاء الوعيد الإلهي شديدًا، وقاسيًا، لكل من تعدى على مال اليتيم ظلمًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء: ١٠].

٢. أكل حقوق الآخرين في الخصومات، ودفع الرشوة إلى الحكام للتغلب بأكل هذه الأموال[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

٣. الصد عن سبيل الله.

لأن لذة جمع المال تطغى على العقل، حتى إنها تدفع صاحبها لمحاربة كل القيم والأخلاق الحميدة التي تقف حائلًا دون جمع المال الموصل إلى السيادة، والزعامة، واستمراريتها، وهذا ديدن الكافرين والظالمين في كل زمان، كما أخبر الله تعالى، عن ذلك في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال على لسان موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا

(١) التحرير والتنوير ٢/ ١٩١.

﴿اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وكما يستعمل المال للصد عن سبيل الله، كذلك، فإن الأولاد يستعملون لإرهاب الناس، وتخويفهم من اتباع الحق، وقد بين هذا المنهج نبي الله نوح ؛ في شكواه إلى الله[1]، فقال: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

٤. التلاعب بالأحكام الشرعية بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وكتمان الحق؛ تلبية لرغبة أصحاب الأهواء، والشهوات، مقابل الحصول على مكافآت مالية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤].

٥. التكبر على خلق الله، والتعالي عليهم.

المصحوب بخلق الغرور والعجب بما جمع من الأموال مع نسيان المنعم، وجحود نعمته، كل ذلك يفضي إلى طغيان يغمر النفسية البشرية، ويتخلل في كل أجزائها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق: ٦ - ٧].

وقد ضرب القرآن الكريم لذلك مثلين:

الأول: في قوله تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

والآخر: قارون صاحب خزائن المال الذي جحد نعمة الله عليه، فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]؛وخرج خرجة، مليئة بالزهو والصلف، كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩].

٦. الركون للدنيا والخلود إليها.

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٢-٣].

ذلك أن جمع المال يورث في الإنسان طول الأماني، فيعمل على تشييد البنيان، وغرس الأشجار، وجري الأنهار، ونحو ذلك عمل من يظن أن ماله أبقاه حيًا، ويمكن أن يحمل المعنى على الحقيقة، فمن أشرب قلبه حب المال وجمعه، أصيب بفرط الغرور، واشتغل بالجمع والتكاثر عما أمامه من قوارع الآخرة[2].

خطورة إغراق القلب بحب المال:

حذر الله تعالى عباده المؤمنين من التلبس بما تلبست الأقوام السابقة من الانصراف إلى تكثير الأموال والأولاد، فينشغلوا عن مصيرهم وآخرتهم،[3] فقال

(١) انظر: المصدر السابق ٢٩/ ٢٠٧.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٥/ ٤٦١.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[التكاثر: ١ - ٢].

ووصف الله تعالى، أن كل ما من شأنه الزينة لا ديمومة له، فهو غرور يمر ولا يبقى، كالهشيم المتكسر، فقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفصل سبحانه وتعالى، في أكثر من موضع في القرآن الكريم، أن المال ليس هو السبيل النافع والمنجي يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١١].

ويوم القيامة يخاطب أهل النار بالقول: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأعراف: ٤٨].

وذكر جل جلاله، أن العمدة في النجاح والفلاح يوم القيامة، والقربة منه سبحانه وتعالى، قائم على الإيمان، والعمل الصالح المستقر في القلب السليم، وليس كثرة الأموال والأولاد[1].

فقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وقال أيضا: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

وسيلة النجاة من فتنة المال وتبعاته الدنيوية والأخروية:

بعد استقراء الآيات التي تناولت الحديث عن الجانب المالي في حياة الإنسان، ومعاملاته اليومية، تبين، أن شهوة المال، يمكن أن تطغى على القلب البشري فتودي به إلى المهالك، لكن القرآن الكريم، كما وصف لنا المشكلة، وحذرنا منها، فإنه كذلك يقدم الحلول الواقعية، والأدوية الناجعة، لمنع حدوث المرض، بل حتى علاجه إذا وقع، ومن خلال النظر في الآيات القرآنية ذات العلاقة، يتجلى بوضوح أن البلسم الشافي لعلاج شهوة حب المال، وإطفاء نارها من القلب، هو الإنفاق والصدقة، من ذلك قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فالصدقة بعمومها -واجبها ونفلها- مطهرة من دنس البخل، والطمع، والدناءة، والقسوة على الفقراء البائسين، وما يتصل بذلك من الرذائل[2]، وتربي في النفس قيمة الشعور والمسؤولية تجاه الآخرين،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٣٢٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٠.

ومشاركتهم بما من الله عليه من مال هو بالأصل مالكه، امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

بمعنى آخر، فإن الصدقة تصحح بوصلة القلب نحو الآخرة، والتعلق بما هو باق، وتخلصه من رق كنز المال الذي هو فان.

وقد استعمل القرآن الكريم، الأساليب التشجيعية للحث على الصدقة؛ لأن إخراج المال ليس بالشيء السهل على النفس البشرية، وهذه الوسائل هي:

- الوقاية من عذاب النار، لقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧-١٨].
- مغفرة الذنوب ورفع الدرجات، لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].
- مضاعفة الأجر والثواب، لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].
- ضمان دخول الجنة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].
- الأمان من الخوف، والحزن في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

ثالثًا: الأمل:

لقد ورد ذكر الأمل في القرآن الكريم مرتين اثنتين، هما:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وفسر الأمل في هذه الآية على أوجه عدة، هي[1]:

١. الطمع بهلاك النبي صلى الله عليه وسلم، وتمني هلاك ملكه وأمره.
٢. تقديرهم بامتداد حياتهم؛ ليبقى لهم الرياسة، والشرف، وذلك الذي كان يمنعهم من الإجابة عنه، والانقياد له.
٣. الطمع أن المشركين وآباءهم قد أصابوا الحق، فمنعهم ذلك الإجابة عن الآيات والحجج، والنظر فيها.

وجاء الأمل في موضع الذم مع تعقيبٍ بالتهديد والوعيد؛ لأنه شغلهم عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة، ونسوا واجباتهم ومصائرهم الآخرة[2].

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٤٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن زمنين ٢/ ٣٧٩،

والتعبير القرآني، يصور الأمل بالمتحكم، بالقرارات والمسيطر على الأفعال، والحاجب عن رؤية الحق، حتى كأنه يحول صاحبه لمخلوق، همه الأكل، والتلذذ والتمتع، ويقول: هل من مزيد؟ يؤمل نفسه طول البقاء؛ ليزداد متعة، ولذة، فشابه الأنعام في أفعالها، ويمكن أن يطلق عليه، الأمل الكاذب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

الآخر: في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

في هذه الآية تعقد مقارنة بين ما هو باق، وما هو فان، بين الأمل الصادق، والأمل الكاذب، فيبين منطوق الآية أن المال والبنون وما سواهما من المتع، زينة للحياة الدنيا التي هي في النهاية فانية، ويعقبه بذكر الأمل الصادق الذي يفضي إلى منفعة حقيقة، ومصلحة متحققة في الدنيا والآخرة، موعود بها من صادق الوعد جل جلاله، وذكر الباقيات بعد الزينة دل على أنها ليست باقية[1].

وذهب كثير من العلماء، إلى أن المراد بالباقيات الصالحات، جميع أعمال الخير؛ لأنها تبقى لصاحبها يوم القيامة[2]،ففي الآية، توجيه إلهي لعباده المؤمنين، بضرورة الإكثار من أعمال الخير؛ لأنها الباقية الدائمة، متعددة النفع في الدنيا والآخرة.

رابعًا: التجارة والبيع:

أمر الله تعالى عباده بالسعي في الأرض، طلبا للرزق، والانتفاع مما هو مخلوق على وجه هذه الأرض، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويأتي هذا التوجيه الإلهي في إطار الحفاظ على عجلة الحياة في حركة دائمة منتجة، وتعد التجارة أبرز الأنشطة البشرية وقمتها في حركة الحياة؛ فهي قائمة على التبادلية بين منتج زارعٍ أو صانع، ومستهلك، وهي وسيلة عظيمة يستطيع الإنسان أن يحقق من خلالها الغنى والثراء، كما أنها تعد أحد أوجه القوة الفعالة المؤثرة في السياسات والقرارات الدولية.

ولما كان للتجارة هذا القدر من الأهمية، نبه الله تعالى إلى ضرورة الموازنة بين متطلباتها من مال، ووقت، وجهد، ومتابعة مستمرة، وبين الواجبات العبادية، فلا يطغى الجانب المادي على الجانب الروحي، ولا تهمل المعاملة مع الخالق في سبيل المعاملة

التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٣٧٩.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٣٣، تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٢٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٣٤.

مع المخلوق. وذكر أن من صفات عباده المؤمنين عدم انشغالهم بمتطلبات التجارة عن الواجبات العبادية.

فقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[النور: ٣٧].

ولعل تخصيص التجارة بذلك، يعود إلى أنها أقوى الصوارف للإنسان، وأشدها عن الواجبات العبادية؛ فكثرة الحديث عن حال السوق، والبضائع، وأسعار العملات، وغيرها من متعلقات التجارة، تصرف عن طاعة الله وذكره حتى يخلو القلب من ذلك، كما أن أمور البيع مما يشغل التاجر عن صلاته، فيؤخرها عن وقتها أو يضيعها أو لا يؤديها حقها؛ بإقامة أركانها، وتحقيق آثارها، وهي مانعة عن إخراج الزكاة، لأنه ينظر إليها على أنها تنقص من ماله[(١)].

وقد يتبادر إلى الذهن تساؤل: لما كان البيع داخلًا تحت جنس التجارة، فلم أعيد ذكره في الآية؟

والجواب كما ذكر أهل التفسير: إن أثر البيع في الإلهاء أقوى وأعظم؛ لأن ربحه متيقن ناجز، وربح ما عداه متوقع[(٢)].

لذلك نجد التوجيه الإلهي، يوصي المؤمنين ترك البيع حال النداء لصلاة الجمعة، والسعي إلى حضور الخطبة، والصلاة التي تذكر بالله تعالى، فتملؤ القلب بتعظيمه، وإجلاله.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

«وأمر جل جلاله نبيه عليه السلام بأن يعظهم أن ما عند الله من الثواب على حضور الجمعة خيرٌ من فائدة التجارة ولذة اللهو. وكذلك ما أعد الله من الرزق للذين يؤثرون طاعة الله على ما يشغل عنها من وسائل الارتزاق جزاءً لهم على إيثارهم جزاءً في الدنيا قبل جزاء الآخرة، فرب رزقٍ لم ينتفع به الحريص عليه وإن كان كثيرًا، ورب رزقٍ قليلٍ ينتفع به صاحبه ويعود عليه بصلاح»[(٣)].

فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[الجمعة: ١١].

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ٣٦٩، تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٨١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٣٩٧.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٢٩.

خامسًا: الانشغال بالمفضول عن الفاضل.

من صور اللهو الخفية التي تغيب عن بال الكثير من المكلفين، الانشغال بالمفضول من الأعمال الصالحة والطاعات على فاضلها، وهي حيلة يقصدها الشيطان إذا عجز عن جر ابن آدم إلى دوامة الدنيا ليغرقه في شهواتها وملذاتها، ويسعى بذلك إلى التشويش على المؤمن بإنقاص الأجر والثواب الذي يسعى إليه لنيل رضا الله تعالى[(١)].

ويعد الانشغال بالمفضول من الأعمال عن الفاضل، من اللهو الباطل، كما ذكر ابن حجر، تحت ترجمة كل لهو باطل فقال: «إذا شغله أي شغل اللاهي به عن طاعة الله أي كمن التهى بشيءٍ من الأشياء مطلقًا سواءٌ كان مأذونًا في فعله أو منهيًا عنه كمن اشتغل بصلاة نافلةٍ أو بتلاوةٍ أو ذكرٍ أو تفكرٍ في معاني القرآن مثلًا حتى خرج وقت الصلاة المفروضة عمدًا فإنه يدخل تحت هذا الضابط[(٢)].

وحتى يتجنب المؤمن الوقوع في مثل هذه الشراك الخفية،كان لا بد له أولًا، من السؤال الدائم لله سبحانه وتعالى، أن يرزقه البصيرة الدالة على الخير، وهذا لا يتأتى إلا بمتابعة النبي، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله تعالى، ولرسوله، ولكتابه، ولعباده المؤمنين[(٣)].

سادسًا: الانشغال بما لا فائدة حقيقة فيه:

تتعدد صور الملهيات في الحياة الدنيا، والمحيطة بالصراط المستقيم تتخطف الناس ذات اليمين وذات الشمال، وإن كانت جميعها تشترك في الهدف، إلا أنها مختلفة في نتائجها؛ فبعضها يقصده الإنسان من أجل فائدة يحسبها دائمة، لكنها حقيقة سرعان ما تزول وتنتهي، إما عاجلًا أو آجلا، فعلى سبيل المثال، من يشتغل بجمع المال، ويفني عمره في سبيل ذلك، فإنه يتلذذ ببريقه، ومنافعه إلى حين أن يموت، وعندئذ تنتهي تلك اللذة، وتنقطع تلك المتعة، لكن، هناك من الملهيات ما لا فائدة تجنى من السعي خلفه، وهذه هي المصيبة الكبرى، والطامة العظمى؛ لأن هذا يدل على مستوى الانحطاط الفكري الذي وصل إليه هذا اللاهي.

وقد عرض القرآن الكريم، صورًا للهو الذي لا فائدة منه، من باب ضرب المثال لا الحصر، وهي الآتي:

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٦١.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٩١.
(٣) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٦١.

١. الانشغال بأساطير، وقصص الأمم السابقة.

وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

ويلاحظ أن القرآن الكريم يبين قبيح فعل الكفار، وسوء صنيعهم، حيث إنهم تركوا الكتاب الحكيم، وانشغلوا بما لا فائدة فيه، وهذه أقبح من الأولى[(١)].

ويندرج تحت هذا الباب، في هذا الزمان، كثير من المواد الإعلامية المرئية؛ كمسلسلات الدراما، والأفلام السينمائية، والمسابقات الغنائية، وغيرها، وفي هذا دلالة على خطر الإعلام في نشر الملاهي غير النافعة في المجتمع.

٢. الضحك والسخرية من المؤمنين.

وهذا منهج أهل النفاق والكفر على مر الأزمنة، لا يكاد يختلف إلا بالوسائل والآليات المستخدمة في سبيل ذلك، فيخبرنا القرآن الكريم عن ذلك، حين يقرع الكفار يوم القيامة، بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١٠].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣].

قال ابن عاشور: «كانوا يضحكون» يدل على أن ذلك صفةٌ ملازمةٌ لهم في الماضي، وصوغ يضحكون بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم وأنه ديدنٌ لهم[(٢)].

والمتدبر لآيات سورة المؤمنون يعقد مقارنة بين فريقين:

فريق أول: انشغل بعمل يرجو منه فائدة حقيقة، وهو تعبيد النفس لله، وتعلقها به.

وفريق آخر: أشغل نفسه بعمل لا طائل منه، ولا نفع، وهو السخرية والاستهزاء بالفريق الأول.

وأي فائدة تجنى من إطلاق سهام السخرية والاستهزاء نحو إنسان يسعى لهدف نبيل، لذلك يعقب الله تعالى بقوله عن نتيجة سخرية الكافرين: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦].

والجذر (ل غ و) يدل على أصلين:

الأول: ما لا يعتد به.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١١٥.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢١٠

والآخر: اللهج بالشيء[1].

فعلى الأول، يطلق اللغو على السقط، وعلى كل ما لا يحصل منه على فائدة أو نفع، سواء كان كلامًا أو غيره. يقال: شاة لغو أي لا يعتد بها في المعاملة[2].

وقد وضح البيهقي: مفهوم اللغو مع ضرب الأمثلة التي تزيد في بيانه وتفصيله، فعرفه بأنه: الباطل الذي لا يتصل بقيدٍ صحيحٍ، ولا يكون لقائله فيه فائدةٌ، وربما يكون وبالًا عليه[3].

وقسمه إلى عدة أقسام وهي[4]:

- أن يتكلم الرجل بما لا يعنيه من أمور الناس؛ فيفشي سرائرهم، ويهتك أستارهم، ويذكر أموالهم وأحوالهم من غير حاجةٍ به إلى شيءٍ من ذلك، عادة سوءٍ ألفها فلا يريد النزوح عنها.
- الخوض فيما لا يحل من ذكر الفجار، والفجور، والملاهي.
- الافتخار بالآباء الجاهلين، والتمدح بهم، والذكر للمعاملات المبنية على الاستطالة، ويكون فيه خوض المبطلين في القصائد فيما عندهم، وتفضيلهم إياه على ما عند غيرهم بالدعاوي، والتوسع في المقال في غير حاجةٍ.
- إنشاد الأشعار المقولة في ضروب الأكاذيب فيما لا يجدي على أهلها نفعًا في العاجل، ولا في الآجل والاشتغال بها تضييعٌ للزمان.

وقد امتدح الله عباده المؤمنين ببعدهم عن اللهو، واجتنابهم إياه، وعد ذلك سببًا من أسباب الفلاح، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ١ - ٣].

كما أن الله تعالى جعله من صفات عباد الرحمن، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفرقان: ٧٢].

في المقابل، فقد أخبر الله تعالى، أن الخوض في اللغو من صفات الجاهلين، كما ذكر على لسان عباده المؤمنين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٥٥.
(٢) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٦١.
(٣) شعب الإيمان ١٣/ ٢٦٧.
(٤) المصدر السابق.

اللهو بالدين

إن من الوسائل التي يتبعها أهل الباطل في حربهم على الحق، التعرض لثوابته بالسخرية والاستهزاء، واتخاذها لهوا ولعبًا، وما ذلك إلا لأجل هز صورة الدين في داخل قلوب المسلمين وزعزعتها، وتشكيكهم بثوابته وأصوله، فإذا ظفروا بذلك، سهل عليهم الولوج إلى الداخل؛ لتخريب هذا البناء وتشويهه، ومن ثم السيطرة على صاحبه، ليصبح أداة طيعة، ومسخًا مشوهًا ينفذ ما يملى عليه. والثوابت التي يتعرض لها أهل الباطل، هي:

١. القرآن الكريم؛ مصدر النصوص الشرعية.
٢. النبي صلى الله عليه وسلم مبلغ الدين، وشارح نصوصه، ومن قام مقامه من العلماء والصالحين.
٣. الشعائر والأحكام الدينية.

أولًا: اللهو بالآيات القرآنية:

القرآن الكريم حجة الله على عباده، فيه من الحجج والبراهين الدالة على ألوهيته وربوبيته ما لا ينكره كل ذي لب، وفيه من الأحكام والقواعد، ما ينظم مسيرة الحياة الإنسانية بيسر وسلاسة، لذلك يعده أهل الباطل خصمهم اللدود، وعدوهم الأول؛ لأنه يقوض مصالحهم وسياساتهم التي تحقق لهم الكثير من المنافع، وتجلب لهم الكثير من المتع وتضمن لهم الاستمرارية في التحكم بمصائر البلاد والعباد.

ولما كانت عقولهم وقواهم قاصرة عن الانتصار على هذا القرآن، ودحض حججه وبراهينه بالعقل والمنطق، فإنهم سلكوا سبلًا أخرى لمواجهته والصد عنه، ومنها:

- حمل الآية على غير معناها، ومرادها استهزاءً، كقول أبي جهلٍ لما سمع ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدخان: ٤٣ -٤٤]. تجاهل بإظهار أن الزقوم اسم لمجموع الزبد والتمر فقال: «زقمونا»، وقوله: لما سمع قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ [المدثر: ٣٠]: أنا ألقاهم وحدي[1]، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف:٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾ [الجاثية: ٩].
- وصف القرآن بأوصاف غير لائقة؛ كعدم صلاحيته للحكم، أو جور أحكامه وتشريعاته، أو نسبته إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم دون الله، لذلك جاء النهي الإلهي صارمًا وحازمًا للمؤمنين بعدم حضور المجالس

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٣٢.

التي يستهزأ فيها بآيات الله، وإلا عد الحاضر من المشاركين، وكان عليه من الوزر والإثم ما على المباشرين للفعل، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

وذكر أهل العلم أن النهي عن القعود مطلقًا؛ بسبب ما تقتضيه المجالسة من المؤانسة، والمشاركة فيما يجرى من المحادثة في الغالب، وفي هذا تشجيع لأمثال هؤلاء بالدوام على هذا الأمر، وانتشار الظاهرة في المجتمع، لذا كان لا بد لمن حضر مجلسًا وقع فيه تحقير أو استهزاء بآيات الله ودينه؛ أن ينكر عليهم، ويقوم من فوره، حتى لا يكون مثلهم، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه[1].

ثانيًا: اللهو بالشعائر الدينية:

تعد الشعائر الدينية، التطبيق العملي للنصوص الشرعية، وتتمثل أهميتها في أنها تعكس مستوى الإيمان المخزون في القلب لدى الإنسان؛ فإذا ما شاب هذه التطبيقات خلل ما، ظهر أن هناك مشكلة حقيقية في الإيمان، ويتفاوت هذا الخلل بطبيعة المشكلة وحقيقتها، بمعنى؛ إن كانت طارئة أم دائمة، أم تمس أصل الإيمان أم لا.

وعند استقراء الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، ظهر أن اللهو بالدين يكون من أربعة أطراف رئيسة هي:

١. مؤمن نقص مستوى الإيمان في قلبه.
٢. منافق ادعى الإيمان باللسان، وقلبه فارغ منه.
٣. كتابيٌّ ادعى الإيمان، وفعله مخالف له.
٤. كافرٌ انتفى الإيمان من قلبه بالكلية.

فالطرف الأول وجه إليه الخطاب الإلهي مضمنا بالتهديد والوعيد في سياق بيان حكم الطلاق حثا للمسلمين على احترام صلة الزوجية، وعدم الاستقواء على النساء لضعفهن، والحذر من اتخاذ مسألة الطلاق لهوا ولعبا كما كان عليه أهل الجاهلية[2].

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١].

والآية الكريمة، وإن تناولت حكمًا شرعيًا إلا أن النهي ينسحب على جميع الأحكام الشرعية، واللهو المنهي عنه يتخذ صورتين، هما:

- المعصية للأمر وترك العمل به، وتفصيل ذلك أن من رضي بالله ربًا وبمحمد نبيًا

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ١٥٥.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣١٥.

وجب عليه طاعة أمرهما وما يصدر عنهما من توجيهات وأحكام، فإذا ظهر منه خلاف ذلك كان كالمستهزئ بها، إذ كيف يدعي الطاعة ثم لا ينفذ؟![1].

- التسامح في أداء التكاليف، كما يتسامح فيما يكون من باب الهزل والعبث، جريًا على عادةٍ منتشرةٍ في المجتمع، أو مصلحةٍ توافق الهوى، أو شهوةٍ متمكنةٍ من القلب، فهو يعامل تكاليف الله معاملة تكاليف البشر[2].

ويمكن استخلاص أمر مهم من هذه الآية، وهو أن الموجه الفعلي للتصرفات والسلوكيات، إنما هو الإيمان الذي وقر في القلب، وليس الأهواء، والشهوات، أو العادات التي تلبسها المرء في زمنٍ ما من حياته. كما أن صدق الإيمان من ضعفه، يظهر عند تطبيق الأحكام الشرعية، وبخاصة إذا كانت فيما يتعلق بحقوق العباد.

أما بقية الأطراف، من منافقين، وأهل كتاب وكفار، فقد وجه الخطاب الإلهي للمؤمنين بالنهي عن اتخاذهم أولياء للهوهم في الدين، واستهزائهم به، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨].

ويمكن حصر صور اللهو في التشريعات الدينية، بما يأتي:

- إظهار المودة والاحترام للإسلام باللسان، واستبطان الكفر[3]، كقول الله تعالى عن المنافقين ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]. فكانوا يقولون: لعبنا بعقولهم، وضحكنا عليهم[4]، أو أداء الشعيرة على سبيل اللهو واللعب، كما كان المنافقون يتضاحكون، ويلعبون عند القيام إلى الصلاة تنفيرًا للناس عنها[5].
- تكذيبهم واستخفافهم بالإسلام، وأحكامه كاستهزاء الكفار، وأهل الكتاب بالصلاة أو النداء، فبعضهم ينعت الأذان بصياح العير، وآخرون يتندرون إذا رأوا صلاة المسلمين[6].
- اعتقادهم أن لا فائدة في التشريعات الدينية، ولا منفعة منها في الدنيا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٥٣.
(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣١٥.
(٣) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ٤٤٠.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٠٢.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨٨.
(٦) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ٤٤٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨٨.

والآخرة، فيزعمون أن مصدرها البيئة المحيطة، أو الأعراف السائدة في الزمن الغابر، فيجب إلغاؤها، واستبدالها بما هو أنسب وأفضل[1].

ثالثًا: اللهو بالشخصيات الاعتبارية:

التعرض للشخصيات المهمة بالأذى والسخرية منهج قديم حديث، يسلكه أهل الباطل في مواجهة أهل الحق والصلاح؛ لصرف الناس عنهم، وتنفيرهم من دعوتهم، ولا يلجأ أهل الباطل إلى هذا الأسلوب، إلا لعجزهم عن دفع الحق وحججه الدامغة، فقال تعالى مسليًا نبيه عليه السلام: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

ولأنهم اتخذوه منهجًا، فقد صار جزءًا من حياتهم لا يفارقهم، حتى إنهم نسوا مقابل ذلك المقصد من خلقهم، فما عادوا يتفكرون ولو للحظة عل عقولهم تتنبه، وقلوبهم تستيقظ.

فقال تعالى واصفًا ذلك: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١٠].

وتنوعت صور اللهو والسخرية الموجه نحو شخوص الأنبياء؛ فاتهموهم بالجنون، والكذب، والضعف[2].

فقالوا عن نوح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٥].

وقالوا عن هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤].

وغير ذلك من الأمثلة كثير.

ولم يختلف الأمر بشأن النبي صلى الله عليه وسلم فقد واجه الاستهزاء والسخرية من كل الأطراف التي عايشها في مكة والمدينة، من أهل الشرك، والكتاب، والنفاق؛ ففي مكة كان يتعمد كفارها إظهار السخرية من شخصه الكريم، فقد كان يقول بعضهم لبعض: أهذا الذي يذكر آلهتكم؟ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وسبب نزول هذه الآية: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على أبي سفيان، وأبي جهل، وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل، ضحك. وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف، فغضب أبو سفيان، فقال: ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي، فسمعها النبي صلى الله عليه وسلم فرجع إلى أبي جهل،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨٨.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٧٣.

فوقع به، وخوفه، وقال: (ما أراك منتهيًا حتى يصيبك ما أصاب عمك)، وقال لأبي سفيان: (أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية)[1].

والظاهر أن المشركين يرمون من اتخاذهم النبي صلى الله عليه وسلم مادة للعبث، واللهو، بصورة علنية لهدفين: الأول ضرب الروح المعنوية للنبي لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣][2]، الآخر: إدخال الشك في قلوب الناس حول صواب ما يدعو إليه.

وفي المدينة المنورة كان اللهو من جماعة المنافقين بمحاولة إظهار النبي عليه السلام -وحاشاه- بصورة الغر الساذج الذي يتلقف المعلومة دون تمحيص، أو اختبار، فيقبلها، ويصدقها. فقالوا هو أذن[3].

كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١].

قال ابن عباس: نزلت الآية في جماعة من المنافقين، منهم: جلاس بن سويد، ومحشر بن خويلد، وأبو ياسر بن قيس، وذلك أنهم كانوا ينالون من رسول الله عليه السلام، فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه الخبر. فقال الجلاس: نقول ما نشاء، فإنما هو أذنٌ سامعة ثم نأتيه فيصدقنا[4].

ويسعى المنافقون من وراء هذا الاتهام، إلى تحقيق هدف خبيث، وهو النيل من ثقة النبي عليه السلام والطعن فيما ينقله ويبلغه، فلربما نقل أخبارًا زعم أنها من القرآن، وهي ليست كذلك، وعندئذ تتضعضع ثقة الناس به، فلا يستجيبون له، وهذا يوضح لنا حقيقة مهمة، وهي تبادلية الأدوار بين أهل الكفر والنفاق، وتنوع الأساليب المستخدمة في الهجوم على أهل الصلاح والعلم، ومحاولة زعزعة ثقة الناس بهم، وضرب مصداقيتهم.

ولم يتوقف منهج اللهو والاستهزاء عند الأنبياء، بل شمل أتباعهم من المؤمنين، وعادة ما يلجأ أهل الكفر والنفاق إلى التركيز في استهزائهم على أمور دنيوية لا يملك المؤمن شأنًا من أمرها؛ كالفقر، واللون، والمرض، وقد وصف الله تعالى ذلك في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٢].

وذكر الرازي أسبابًا متعددة لنزول الآية، تشترك كلها في استهزاء أهل الكفر والنفاق من فقراء المسلمين وضعفائهم[5]، كذلك نجد المنافقين يستهزؤون من تسابق المسلمين للطاعات، ويشككون

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٥٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٣٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥١٨.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٦.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٦٧.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب ٦/ ٣٦٧.

في نواياهم، ودوافعهم لفعلها، فينعتونهم بالرياء، أو طلب الشهرة، أو الغباء، وغير ذلك من الأوصاف.[1] كما قال تعالى، واصفا حال المنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

وسبب نزول هذه الآية، كما أخرج مسلمٌ، عن أبي مسعود الذي قال: أمرنا بالصدقة- قال: كنا نحامل، في رواية: على ظهورنا- قال: فتصدق أبو عقيل بنصف صاعٍ. قال: وجاء إنسانٌ بشيءٍ أكثر منه فقال المنافقون: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء.[2]

والظاهر أن الدافع لذلك يكون شعور الكفار والمنافقين بالغيرة والحسد من المسلمين، أو نقص داخلي ومرض قلبي لا يستطيع المنافق الانفكاك عنه فيعبر عنه برمي الآخرين بالنقائص والسيئات.

الملهى عنه

اللهو عبارة عن عملية تفاعليه يشترك فيها طرفان: قلب الإنسان ملك الحواس والجوارح، وأحد الملهيات، تؤدي إلى الانشغال عن مقاصد مهمة خلق الإنسان من أجل تحقيقها، فتكون النتيجة انحراف الإنسان عن صراط الله تعالى المستقيم إلى سبل الشيطان، مما يؤدي إلى ظهور الكثير من الآثار السلبية التي تنعكس على حياة الفرد والمجتمع.

وبعد استقراء للآيات القرآنية نستخلص أن الملهى عنه لا يخرج عن أحد المقصدين:

الأول: مقصد عاجل في الدنيا، والذي من أجله خلق الخلق، وهو العبادة لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الآخر: مقصد آجل في الآخرة والذي يرتبط به المصير النهائي لكل مخلوق، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

أولًا: اللهو عن العبادة:

وصف الله سبحانه وتعالى ذاته العلية، في أكثر من موطن في القرآن الكريم، بالحكمة، وتجلت هذه الحكمة في مقصده من خلق المخلوقات جميعًا، وما أوكل من وظائف لكل صنف منها، فما خلقها سدى

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١١١، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٨٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحمل بأجرةٍ يتصدق بها، والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل، رقم ١٠١٨.

ولا عبثًا، بل خلقها بالحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[الحجر: ٨٥].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[الدخان: ٣٨].

ومن أجل هذه المخلوقات وأشرفها، الإنسان الذي حصر الله مهمة وجوده بالعبادة، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وذلك إنما يدل على أهميتها، ومنزلتها العظيمة، فهي العهد القديم الذي أخذه الله من الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وهي النداء الأول في كل رسالة بعثها الله لبني البشر، فما خاطب نبيٌّ قومه إلا ابتدأهم بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: ٣][1].

وهي الأمر المؤكد عليه في القرآن الكريم لبني البشر في مواطن كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال أيضًا: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[يس: ٦١].

والمراد بالعبادة التي أمر بها الإنس والجن، أنها «اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار، والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة»[2]

إذن فالعبادة بهذا التصور، أفقٌ رحبٌ، ودائرة واسعةٌ تشمل الشعائر الدينية الواجبة والتطوعية، ومنظومة الأخلاق والفضائل الإنسانية، وكذلك العلاقات الاجتماعية القريبة والبعيدة، وتشمل كذلك الأخذ بالأسباب كما قال ابن تيمية: «فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة»[3].

فالنتيجة هي أن العبادة عبارة عن حركة الفرد والمجتمع بثبات واتزان، نحو هدف واضح المعالم مصحوبة بأفق واسع، يسودها المشاركة والتعاون في البناء والإعمار، لتحقق الصلاح العاجل، والآجل[4].

(١) انظر: العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي ص٢٠-٢٣.

(٢) العبودية، ابن تيمية ص٤٤.

(٣) المصدر السابق ٧٠.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٨٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٧.

صور اللهو عن العبادة:

تعددت المواضع القرآنية التي وردت فيها التحذيرات الإلهية، والتوجيهات الربانية، من الانزلاق في دوامة اللهو على حساب مقصد الخلق، وهو العبادة، وتنوعت الآيات الدالة على ذلك ما بين توجيه للمؤمنين إلى ضرورة المضي قدمًا لتحقيق مقصد وجودهم، وتهديد ووعيد للكافرين الذين انصرفوا يلهثون خلف شهواتهم، ونزواتهم متشاغلين لاهين عن سبب خلقهم ووجودهم، فوصفهم الله تعالى قائلًا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وانحصرت صور الملهى عنه، بالأمور الآتية:

١. اللهو عن ذكر الله تعالى.

وجه الله تعالى عباده المؤمنين إلى المحافظة على الصلة به، وطريق ذلك دوام ذكره سبحانه وتعالى، في كل الأحوال، والهيئات، واستحضار عظمته، وقدرته، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وذكر الله تعالى، عام في كل ما يذكر الإنسان بربه، ويبقيه على صلة به، سواء كان الصلوات الخمس أم قراءة القرآن وتدبر آياته، أم الدعاء، أم الجهاد في سبيل الله[1]، فهو يعين على الخضوع الكامل، والاستسلام التام لأمر الله تعالى المصاحب بالتعظيم، والامتنان والافتقار إليه سبحانه وتعالى، وذلك له أثر مهم على الإنسان في تصحيح مساره دائمًا، نحو تحقيق مراد الله تعالى من الاستخلاف في هذه الأرض.

وقد امتدح الله تعالى، عباده المؤمنين بالثبات على الصراط المستقيم، دون أن يشغلهم شيء من متع الدنيا عن طاعته، وعبادته، فقال: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

ووجههم إلى ديمومة ذكره، والإكثار منه، والاحتراس من الانصباب، في أشغال الدنيا انصبابًا ينسي ذكر الله، أو يشغل عن الصلوات؛ لأن الفلاح يكون في الإقبال على مرضاة الله، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

والانشغال عن ذكر الله تعالى، بعمومه هو حال أهل الكفر والضلال، فقلوبهم لاهية عن تعظيم الله وشكره على نعمه، منصرفة عن تنفيذ أمره، غارقة في متع

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣١٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٥٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٥٠.

الدنيا وملذاتها، فصار مقصد حياتهم إشباع رغباتهم، والتلذذ بمتع الدنيا، وليس لهم همٌّ سوى ذلك، فجعلهم الله تعالى في مصاف البهائم والأنعام، وتوعدهم بعذاب أليم يوم القيامة[1] فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وقال أيضًا: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

٢. اللهو عن الصلاة.

الصلاة هي الرباط المتين الذي يربط العبد بربه، وهي أرفع صور العبادة، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر؛ لأنها تعبر عن حالة الذل، والخضوع، والافتقار التي يتلبسها الإنسان ظاهرًا وباطنًا تعظيمًا لله تعالى الذي منحه من النعم ما لا يعد ولا يحصى[2]، فقال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وهي الناهية للإنسان عن فواحش الأمور ومنكراتها، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

إذن هي المقومة لأفعاله وأقواله، الموجهة له نحو الخير والفضيلة.

واللهو عن الصلاة، تضييع لجميع ما سبق ذكره من الخير، ويكون على الصور الآتية:

- تضييع الجماعات أو تأخير الصلوات عن أوقاتها[3].
- الإخلال بشروطها وأركانها[4].
- الإنشغال عن خطبة الجمعة، وما فيها من تذكير بالنعم، وحثًا على استدامتها[5].

٣. اللهو عن الزكاة.

تمثل الزكاة إحدى وسائل التطهير القلبية، والتزكية النفسية للعبد من الأمراض المنضوية على حب المال، والتعلق به، لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وتعد الوقاية من الشح، سببًا من أسباب الفلاح، كما أخبر تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وحب المال والتعلق به، من أمات الخطايا التي تدعو صاحبها إلى الشح المهلك الباعث على حفظ المال وجمعه وازدياده وصيانته عن ذهابه في النفقات، وفي سبيل ذلك يتولد اللهو عن الإنفاق بالمعنى العام، والزكاة بالمعنى الخاص، وبهذا يكون قد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٦٤.
(٢) انظر: محاسن الشريعة، القفال ١/ ٢١٩، حجة الله البالغة، الدهلوي ١/ ١٣٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٤٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٣٩٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٢٢٢.

شغل بجمع المال، والاستزادة منه وكنزه، على حساب الواجب العبادي المفضي إلى المحافظة على التآلف الاجتماعي.

٤. اللهو عن القرآن الكريم.

القرآن كتاب الله الهادي إلى الصراط المستقيم، والدال على السبل الموصولة إلى الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، العاصم من الزلل والزيغ، الحافظ من الضلال، ولا يكون ذلك إلا باتباع هديه، وتطبيق توجيهاته، دلت على ذلك نصوص كثيرة من القرآن والسنة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

واللهو عن القرآن الكريم، عبر عنه (بالهجر) لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله مبينا معاني الهجر الواردة في هذه الآية: هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء و التداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به[(١)].

والتركيز على الأمور سالفة الذكر، لا يعني حصر اللهو فيها إنما فيه إشارات مهمة أراد الله سبحانه وتعالى توجيه نظر المؤمنين إليها، وهي على النحو الآتي:

- من انشغل عن حقوق الله، ولهى عنها كان عن غيرها أشغل.
- الأمور المذكورة، هي لب الأمور ورأسها، وهي شرائع تعلم العبد ترتيب الأولويات، والانضباط نحو تحقيق الهدف، فإذا شغل عنها كان إلى تضييع تحقيق المراد أقرب.

ثانيًا: اللهو عن الحساب وتبعاته:

من الحقائق المهمة التي تغيب عن قلب الإنسان وعقله، أن وجوده في هذه الحياة، إنما هو مؤقت بزمن محدد ومهمة معلومة، فإذا انتهى هذا الزمن انتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، للحساب على ما أنجز

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٨٢.

في حياته الأولى، لذلك ينبه القرآن في مواطن كثيرة إلى ضرورة التنبه إلى هذه الحقيقة، وعدم الغفلة عنها، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: ٥].

لكن الواقع في حياة الكثيرين، يدل على الغفلة عن ذلك اليوم، وعدم الاستعداد الحقيقي لما بعد الموت، يصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١ - ٢].

والآية وإن نزلت في حق أهل مكة حين أشغلهم تكاثرهم بالمال والعدد حتى صاروا من أصحاب القبور، فإن هذا حال الكثيرين ممن هم على ظهر هذه الأرض[(١)].

وسبب غفلة الإنسان عن يوم المعاد يرجع إلى أمرين مترابطين ارتباطًا وثيقًا كلما ارتفعت وتيرة الأول ازدادت وتيرة الآخر، وهما: الغفلة عن ذكر الموت وأحواله، والاغترار بالحياة الدنيا وطول الأمل.

وتتمثل خطورة الغفلة عن ذكر الموت والحياة الآخرة، أنها تؤثر في حياة الإنسان الفكرية، والنفسية، والخلقية، سلبًا؛ فتدفعه إلى التمتع بملذات الحياة الدنيا، والإغراق فيها، بل يتعدى الأمر للخروج عن المتع المألوفة للفطرة السليمة السوية، إلى تناول قبائح المحرمات والجرأة عليها، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾ [المؤمنون: ٧٤].

كما أنها تربي في قلب صاحبها صفة الكبر الذي ينكر كل ما يخالف هواه، ويرفض ما لا تهواه نفسه، لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

ومرد ذلك سببه الاعتقاد، عدم وجود حساب عن كل هذه الأفعال أو مساءلة، فإنما هي حياة، ثم موت، وفناء، هذا هو تفكير الكفار، ويبدو جليًا في الآية الكريمة: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

فهذه الآية جاءت على لسان الكافرين، فأمثال هؤلاء متوعدين بالجزاء من جنس عملهم، وهو نسيانهم في نار جهنم، لقوله جل جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

(١) جامع البيان، الطبري ٣٤/ ٥٧٩.

علاج اللهو

لا بد لكل مرض علاج، ولكل داء دواء، فما أنزل الله من داء إلا أنزل معه شفاء!وأعظم دواء في العلاج، وأنجعه، وأكثره فعالية ما تنزل به القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ويتميز المنهج القرآني في علاج الإنسان؛ بقوته وفعاليته، فهو يقوم على انتزاع حب الدنيا المتجذر في القلب، مع تحجيم اندفاع الإنسان نحوها للاستزادة من لذائذها، ومتعها بما يؤدي إلى إلغاء طول الأمل لديه.

ويقوم العلاج القرآني على ركيزتين رئيسيتين، هما:

الأولى: علاج نفسي تربوي.

الثانية: علاج تطبيقي عملي.

أولًا: العلاج النفسي التربوي:

والمقصود بذلك، معالجة سلوكيات الأفراد المصابين بمرض اللهو من خلال إبطال المعتقدات الخاطئة الراسخة في عقولهم عن حقيقة الدنيا، وزيف متاعها وملذاتها، وعقوبة المخدوع بها، في المقابل يؤصل لمفاهيم جديدة، حول الحياة الأخرى، ودوام نعيمها، وجزاء العامل لها، مثال ذلك، قول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

واتبع القرآن الكريم، في هذا الشق العلاجي، مخاطبة العقل؛ لكونه محل إدراك ماهية الأمور، والقادر على التمييز بين صحيحها وسقيمها، ونافعها وضارها، والموجه إلى الصراط المستقيم، والمصحح حال الزيغ والضلال، وقد استعمل القرآن في مخاطبة العقل، الأمور الآتية:

١. المقارنة بين الحياة الدنيا، والحياة الآخرة.

فقد وردت هذه المقارنة في القرآن الكريم، ثلاث مرات:

الأولى: قول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وتركز هذه الآية، على مفهوم الحياة الحقيقية، وذلك من خلال استعمال لفظة «الحيوان»، بمعنى الحياة الباقية التي لا حياة سواها، وهذا منبه مهم وفعال يساعد على لفت انتباه الإنسان نحو هذه الحياة، وتنفيره من الحياة الدنيا الزائلة، ومنع الاستغراق فيها[١].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٧٥.

الثانية: قول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

ويلاحظ أن المقابلة في هذه الآية، هو بين نعيم الدنيا والآخرة، فنعيم الدنيا لعب ولهو يتشاغل به المتشاغلون عن الأكدار والهموم، وهو في نهاية المطاف فانٍ، في حين يكون نعيم الآخرة زمنه مديد ونعيمه مستمر[(١)].

الأخيرة: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ [محمد: ٣٦].

والسياق الذي وردت فيه هذا الآية ينضوي على تنبيه مهم للإنسان، وهو الحذر من أن تكون الحياة الدنيا صارفة عن الواجبات المفروضة، ويراد بالواجب هنا الجهاد في سبيل الله، وفي السياق أيضًا، إشارة إلى الحياة الدنيا إذا عمرت بالإيمان والتقوى، حملت خيرًا كثيرًا[(٢)].

والفهم الخاطئ لهذه الآيات، يتسبب بإشكال ينتج عنه فكرين متضادين:

أحدهما: الدعوة للزهد في الدنيا، والانصراف عن الانتفاع بخيراتها، مما ينتج عنه معاداة لكل المظاهر الدنيوية، ويصل الأمر إلى محاربة الحاجات الفطرية عند الإنسان، فيؤدي إلى التخلف، والجمود، والجهل، ولعل أبرز مثال على ذلك، ما أورده القرآن الكريم، وهو الرهبانية التي ابتدعها النصارى، فقد قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧].

والثاني: يهاجم الدين ويعاديه ويتهمه بالتحجر والتسبب بالتخلف والرجعية، وينتج عن هذا الاستغراق في متع الدنيا ولذائذها، وهجر كل ما له صلة بالدين، وخير مثال على ذلك من الزمن الماضي الثورة على الكنيسة في أوروبا والتحلل من كل القيم والمعتقدات الدينية.

والخلل كما أسلفت، إنما هو في الفهم والسلوك الذي يترتب عليه، وقد قدم القرآن المنهجية الواضحة الصحيحة في كيفية التعامل مع الدنيا، وجاء ذلك على لسان الصالحين من قوم قارون حين قدموا له النصح قائلين: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وعلق سيد قطب على هذه الآية قال: والقرآن لا يعني بهذا أن يحض على الزهد في متاع الحياة الدنيا والفرار منه وإلقائه بعيدا. إن هذا ليس روح الإسلام ولا اتجاهه.

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٣٠٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٣٣.

إنما يعني مراعاة الآخرة في هذا المتاع، والوقوف فيه عند حدود الله. كما يقصد الاستعلاء عليه فلا تصبح النفس أسيرة له، يكلفها ما يكلفها فلا تتأبى عليه! والمسألة مسألة قيم يزنها بميزانها الصحيح. فهذه قيمة الدنيا وهذه قيمة الآخرة كما ينبغي أن يستشعرها المؤمن ثم يسير في متاع الحياة الدنيا على ضوئها، مالكا لحريته معتدلا في نظرته: الدنيا لهو ولعب، والآخرة حياة مليئة بالحياة[1].

٢. ضرب الأمثلة القرآنية.

من ذلك تشبيه الحياة الدنيا بالزرع الذي لا يفتأ أن يكبر ويخضر، وتزهو ألوانه، حتى يصفر ويتحطم، وقد ورد هذا النوع من الأمثال التشبيهية، في أربعة مواضع من القرآن الكريم، منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وتكمن أهمية هذا المثل القرآني، في أنه يصور الحياة الدنيا تصويرًا حسيًا واقعيًا، قريبا إلى العقول والقلوب، يراه الناس في كل مكان من هذه الأرض، وقد بينا ابن القيم وجه التمثيل في هذا المثل القرآني، فقال: شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر، فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها، قادر عليها، سلبها بغتة، أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها[2].

ثانيًا: العلاج التطبيقي العملي:

تظهر نجاعة العلاج القرآني، في معالجة الأخطاء والسلوكيات السلبية في التكامل التام، والانسجام الكامل في الخطط المقدمة لعلاجها، فهو يردفها بالتطبيقات العملية المساعدة على التخلص من كل ما من شأنه أن يؤثر سلبا في مقصد وجود الإنسان على هذه الأرض، وتقوم الخطط العلاجية العملية على ثلاثة محاور:

١. الإنفاق.

أرشد الله عباده المؤمنين إلى الإنفاق، وحثهم عليه قبل مداهمة الموت لهم، فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠].

ويعد الإنفاق من أنجع وسائل التربية إذ يقوم على ركيزتين مهمتين، هما: التطهير

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٥١.

(٢) الأمثال في القرآن، ابن القيم ص١٢.

والتزكية، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فالتطهير يزيل من النفس مرض الأنانية والذي يتجسد بجمع المال وكنزه، واحتكاره لصالح أفراد معينين، ثم صرفه في وجوه العبث، واللهو بلا هدف نافع.

والتزكية ترسخ مبدأ التعاونية، والشعور بالآخر من خلال توجيه استعمال المال في منفعة البشر ودوام تطورهم، واستخدم القرآن في سبيل تعزيز الإنفاق الأساليب الآتية:

- التذكير بأن المال هو ملك لله وعاريته وهبه الله لبني البشر من أجل استعماله في تحقيق مقصد العبادة، ورد ذلك في مواضع متعددة في القرآن الكريم، فمن ذلك، قول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]. وقوله أيضًا: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [المنافقون: ١٠]. فها هو ذا يقول أبو السعود: إضافة المال إليه تعالى ووصفه بإيتائه إياهم للحث على الامتثال بالأمر بتحقيق المأمور به فإن ملاحظة وصول المال إليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقي له من أقوى الدواعي إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. وفي هذه الآية تنبيه الغافلين بأن ما يجري في أيديهم من أموال، إنما هو لله تعالى، جعل الناس خلائف عنه في التصرف فيه مدة ما، فلما أمرهم بالإنفاق منها على عباده، كان حقا عليهم أن يمتثلوا لذلك[2].

- التحذير من عواقب كنز المال، وخزنه على الفرد في الدنيا والآخرة، فخازن المال تقتله الحسرة والندامة على تقصيره في الإنفاق، فيتمنى الرجعة حتى ينفق لما يرى من الثواب الذي فاته: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]. ويوم القيامة يذوق ألم الكي بالأموال المكنوزة التي كان يتلذذ بجمعها، ويحرم الفقراء من التمتع بشيء منها، فقال جل جلاله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

٢. مصاحبة الصالحين، والابتعاد عن اللاهين، ومقاطعة مجالسهم.

فالإنسان بطبعه مدني، فطره الله تعالى

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٧٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٦٩.

على حب المخالطة والنفور من الوحدة، والبيئة التي ينشأ فيها الإنسان تؤثر فيه سلبًا أو إيجابًا، لذلك،كان للصحبة أثر مهم جدًا في حياة الإنسان؛ فهي إما أن تكون عائقةً عن الخير مثبطةً عنه، داعمةً للشر، ومحفزة عليه، لذلك جاءت التوصيات الإلهية للنبي عليه السلام والمؤمنين من بعده بلزوم الرفقة الصالحة المقبلة على الله دومًا، الذاكرة له في كل الأوقات، لقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف: ٢٨].

كما تعددت التوصيات الآمرة بالابتعاد عن الغافلين اللاهين، لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[النساء: ١٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقوله أيضا: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

وها هو ذا الإمام الغزالي، يقول: مجالسة الحريص ومخالطته تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد ومخالطته تزهد في الدنيا؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدرى»[(١)].

٣. التذكير الدائم بعاقبة اللهو الدنيوي والأخروي.

وفي ذلك فوائد منها إقامة الحجة على المعرضين، الثاني: إيقاظ النفس من غفلتها وسباتها، والأخير: تقوية الإيمان وزيادته في القلب.

لقد اتخذ التذكير في القرآن الكريم، صورًا عديدةً، هي:

- السير في الأرض، للاعتبار من مصير اللاهين.

قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[الروم: ٩].

(١) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٨/ ٣١٤٢.

والسير في الأرض يترك أثرا كبيرًا في القلب؛ لأنه يقرب المشاهد الواقعية من الإنسان، فيرى بأم العين ما حل بالأمم التي استغرقت في ملذاتها وشهواتها، مما يجعله يعيد حساباته من جديد حول أسلوب حياته وطريقتها[1].

- التذكير بالموت وما بعده.

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١-٢].

وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ [الأنعام: ٧٠].

وهذا له الأثر البالغ على النفس حين يعلم أنه سيغادر هذه الدنيا صفر اليدين كما دخلها، ويعزز هذا الشعور إذا شيع جنازة أو زار قبرًا، كما أن التذكير بيوم الحساب يردع النفس عن غيها، وإغراقها في المتع والملذات؛ لإدراك الإنسان أنه محاسب على أقواله وأفعاله.

عاقبة اللهو

اللهو داء خطير، ذو عواقب سيئة، تمتد آثارها السلبية، لتشمل الإنسان في حياته الدنيا وفي الآخرة، وذلك على النحو الآتي:

أولًا: عاقبة اللهو في الدنيا.

تتعدد صور الخسران الدنيوي الذي يلحق باللاهي، سواء كان فردا أو جماعة، ومن ذلك:

١. اللهو يؤدي إلى سلب صفة التكريم الإلهي التي وهبها الله تعالى للإنسان، بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

بيان ذلك أن هم اللاهي في الحياة الدنيا، ينصب نحو التمتع والتلذذ بما خلق الله، وأوجد على الأرض من غير أن يصاحب ذلك تحقيق أهداف ذات أثر جيد على الأرض، فيصبح شأنه شأن أي حيوان موجود على هذه الأرض، وقد وصف الله تعالى الكفار، ومن خطا خطاهم، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢] بل عدهم الله تعالى أقل درجة من الحيوانات، وأدنى رتبة منها، فقال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٠.

يقول سيد قطب: «إن للإنسان إرادة وهدفا وتصورا خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة، المتلقاة من الله خالق الحياة، فإذا فقد هذا كله، فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه، وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله»[1].

٢. اللهو يؤدي إلى اندثار الأمم وزوالها.

وليس بالضرورة أن يكون ذلك بسنة كونية كزلزال، أو بركان، أو غيرها من الظواهر الطبيعية التي خلقها الله تعالى إنما المراد بذلك أن أي تجمع بشري لا يضع نصب عينيه المضي نحو أهداف حقيقية نافعة تقود نحو الرفعة والرقي، وينشغل بسفاسف الأمور، وأرذلها، فإنه حتما سيسقط في القاع ويهلك، وكم أخبرنا القرآن الكريم عن أمم خلت، قد هلكت، واندثرت لسلوكها سبيل اللهو؛ فعلى سبيل المثال، أخبرنا الله تعالى،عن قوم هود الذين كان همهم بناء الأبنية الشاهقة، والقصور الفارهة، لا لهدف سوى العبث، فقادهم ذلك إلى فساد أحوالهم، فأهلكهم الله تعالى، وقال عنهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٥].

وقد عاب الله تعالى على من ترك خطبة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وما تحمله في طياتها، من علوم عظيمة نافعة، في سبيل اللهو والتجارة[2].

فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ١١].

٣. اللهو بالأحكام، والقواعد، والتعاليم، بحسب الأهواء، والشهوات، يؤدي إلى فوضى عارمة، تقود المجتمع إلى حياة الغاب.

وبالتالي غياب الأمان والاطمئنان، واندثار معاني الإنسانية من نفوس البشر، وبيان ذلك من وجهين: الأول: أن اللهو بالأحكام والتشريعات، نابع من توجهات بشرية، تسعى لتحقيق منافع شخصية، وهذا يؤدي إلى انتشار الأنانية، وضيق الأفق، وانعدام الرؤية الواضحة، واختلال البوصلة التي توجه نحو الهدف المقصود فتكون النتائج كارثية على الفرد والمجتمع؛ لأن معنى ذلك فوضى عارمة تجتاح حياة الإنسان، والمجتمع من حوله، والآخر: اللهو بالأحكام معناه فوضى تبدأ من تخلي

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٢٩.

الإنسان عن الخضوع لربه، وتنتهي بتحلله من كل القيم الأخلاقية، والفضائل الإنسانية وقيمها، فتقوده بذلك إلى هاوية الهلاك والدمار في الدنيا بالتشتت والاضمحلال، والانطوائية والعداوة والبغضاء، كما أخبرنا تعالى عن حال اليهود والنصارى، بعد تحريفهم لتعاليم دينهم، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[المائدة: ١٤].

٤. التبعية والخضوع لإرادات الأمم الناجحة والقوية.

فالأمة التي تعيش لتحقيق هدف حقيقي ما، تبذل كل ما في وسعها، وتسعى بكل جهدها للوصول إليه، وهذا يعني تحقيق كثير من الإنجازات خلال تلك المسيرة، في حين تكون الأمة اللاهية أمة بلا هدف حقيقي؛ لأن الحركة -التدافع- من السنن الإلهية التي تحكم هذا الكون فالضعيف يتبع القوي، والأمة اللاهية أمة ضعيفة لا بد لها أن تتبع الأمة القوية.

٥. اللهو يضيع البركة والثواب من حياة اللاهي.

فالأعمال النافعة تلقي بظلالها الوارفة على حياة الأفراد والمجتمعات، في حين يؤدي الانشغال بتوافه الأمور وسفاسفها على حساب العبادة إلى الخسران الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقد أخبر سبحانه وتعالى أن ما عنده خير من كل متاع الدنيا، فقال: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

ثانيًا: عاقبة اللهو في الآخرة:

لا تتوقف عقوبة اللهو على حدود الحياة الدنيا، بل تمتد إلى الحياة الأخرى وتنتقل إليها، وسبب ذلك أن الحياتين مرتبطتان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا؛ فالأولى دار عمل، والأخرى دار حساب، لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

فمن لها عن وظيفته الموكلة إليه في الدنيا، وقصر فيها، ناله ما يناسبه من العقاب يوم القيامة من الحكيم العليم، وجاءت صور الخسران الأخروي، على النحو الآتي:

١. الترك في النار من غير رحمة، ولا إجابة دعوة[1].

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٥٣.

دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٥١].

وهذا العذاب من باب المعاملة بالمثل؛ فكما أنهم تناسوا هذا اليوم، ولم يفتقدوه بالاستعداد له، لا يفتقدهم أحد، ولا يسأل عنهم، تحقيرًا لشأنهم [(١)]، وليس هناك أشد وقعا على نفس الإنسان من إهماله، وعدم الاستجابة لطلباته، إذ يعد هذا من أشد أنواع العذاب النفسي.

٢. العذاب المتعدد الصور والأشكال.

فقد تعددت الأوصاف التي وصف بها العذاب الذي توعد الله تعالى به اللاهين عن أحكامه وأوامره:

فتارة يصفه بالعذاب الشديد، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠].

وهذا يتناسب مع من انهمك في لذاتها، وانغمس في متعها دون استعداد لما ينتظره في حياته الأخرى.[(٢)]

وتارة أخرى يصفه بالعذاب المهين؛ لأن اللاهي استهان بأمر الله، فهو يهان يوم القيامة، ويحقر فيها، لقوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان: ٦].

وفي آية أخرى يصفه بالعذاب الأليم ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٠].

موضوعات ذات صلة:

الاستهزاء، العزم، الغفلة، اللعب

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٩٢.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ١٨٥.

لوط عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بلوط عليه السلام	٢٤٠
لوط مع إبراهيم عليهما السلام	٢٤١
لوط عليه السلام مع قومه	٢٤٢
لوط عليه السلام مع زوجه	٢٥٣
لوط عليه السلام مع بناته	٢٥٤
لوط عليه السلام مع الملائكة	٢٥٥
نجاة لوط وبناته وهلاك امرأته	٢٦١
صنوف العذاب التي حلت بقوم لوط	٢٦٣
فوائد وعبر من قصة لوط عليه السلام	٢٦٨
أحكام متعلقة بالقصة	٢٧٧

التعريف بلوط عليه السلام

لوط عليه السلام نبي من الأنبياء، الذين بعثهم الله عز وجل لهداية الناس وإصلاحهم، ولقد عاش في زمن الخليل إبراهيم عليه السلام، وذهب كثيرٌ من أهل العلم إلى أن لوطا عليه السلام: ابن أخي إبراهيم عليه السلام آمن به وهاجر معه فكان غراسا طيبا لدعوة إبراهيم عليه السلام[1].

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤].

فبعد الحديث عن رعاية الله لنبيه إبراهيم عليه السلام ومنحه له جاء الحديث عن لوط عليه السلام وما وهبه الله من نعم وما حباه من رعاية، فقد آتاه آلة الحكم وهو الفصل بين الناس والتمييز بين الأمور والحكم عليها والعلم النافع الذي ينير لصاحبه ويرشده، فقد وهبه الله عقلا راجحا وفطرة نقية وبصيرةً نافذةً وميزانا قويما، وفي تنكير ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ مع التنوين تعظيمٌ وتفخيمٌ لهذه المنحة الربانية، فهو ثمرةٌ طيبةٌ لدعوة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ونتاجٌ طيب لغرسه المبارك، ولا أدل على حكمته وعلمه من عيشه وسط أولئك الغوغاء الشذاذ ينهاهم ويزجرهم عن فسوقهم وتماجنهم ويعظهم فلا يجد آذانا صاغيةً.

وقد جاء الحديث عن لوط في شجرة الأنبياء الواردة في سورة الأنعام تلك الشجرة المباركة التي تمتد إلى أرومة واحدة قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٤-٩٠].

فلقد هداهم الله واجتباهم وجعلهم ذرية طيبة بعضها من بعض، وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، وجعلهم مصابيح هدى، تقتدي بها الإنسانية .

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣.

لوط مع إبراهيم عليهما السلام

يظل الأنبياء عليهم السلام على الفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها، يحفظهم ربهم ويهديهم ويتعهدهم بالرعاية والتربية، فهذا لوطٌ عليه السلام ينشأ في مجتمع يسوده الكفر ويعمه الضلال، لكن الله تعالى يعصمه ويحفظه، فينشأ على التوحيد، في كنف عمه إبراهيم عليه السلام، ويعاين الآية الكبرى حين ألقوا به عليه السلام في النار فنجاه الله تعالى وجعلها بردا وسلاما فيزداد إيمانا وتسليما .

قال تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقال تعالى في سياق الحديث عن إبراهيم: ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ ﴾ [الأنبياء: ٧١].

والآية الأولى تبين انقياده واستجابته لعمه عليه السلام، آمن له أي: انقاد واستجاب عن إيمان ويقين، كذلك تعني الآية أنه آمن بنبوته واستجاب لدعوته وصدق برسالته مع إيمانه الفطري بالله تعالى وحده لا شريك له، وفي الآية الثانية بيان لنعمة الله عليه إذ أنجاه إلى الأرض المباركة، كما آمن به فقد هاجر معه من العراق إلى أرض الشام المباركة، وهي بيت المقدس وما حوله، فهي بركة للعالمين بما فيها من كنوز وخيرات، وبما فيها من عيون وأنهار، وزروع وثمار، مع خصب تربتها، ونقاء هوائها، وطيب العيش فيها، وبما سطع فيها من أنوار النبوات، مباركة بمن عاش على ثراها ودفن في تربتها من الأنبياء والصالحين، مباركة بشعبها الحر الأبي الذي ضرب ولا يزال أروع الأمثلة في الصبر والثبات والتضحية والفداء، والتصدي والتحدي للطغاة المستبدين .

هاجر لوط عليه السلام مع عمه إبراهيم إلى الشام، وهى الأرض المباركة، وظل لوطٌ في صحبة عمه إبراهيم - عليهما السلام - حتى استقر به المقام في قرية سدوم بالأردن، حيث أرسله الله إلى أهل هذه القرية[1].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣.

لوط عليه السلام مع قومه

أولًا: دعوته لقومه:

أرسل الله تعالى لوطا عليه السلام إلى قرية سدوم وما حولها، وقد راعه ما هم عليه من شذوذ وانحراف وجهالة وإسراف، فدعاهم إلى الله تعالى، وبدأ بالعقيدة، ثم عرج إلى الأخلاق والآداب .

ولقد جاء الحديث عن رسالة لوط عليه السلام في مواضع متفرقة.

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٦].

بدأت الآيات ببيان تكذيب قوم لوط عليه السلام للمرسلين، كذبوا لوطا عليه السلام كما كذبوا بمن سبقه من الرسل فالتكذيب فيهم متأصلٌ، وبعض المفسرين يكتفي بقوله هنا مراعاة للفاصلة وتلك إجابةٌ صائبةٌ لكنها ليست كافية، وأقول: إن من كفر برسول فقد كفر بسائر الرسل، لأنها دعوة واحدة ورسالة واحدة، وإن كثر حملتها من الأنبياء والرسل، ولقد كذبوا بدعوات الرسل التي بلغتهم قبل إرسال لوطٍ إليهم، وحين جاءهم لوطٌ بادروا إلى تكذيبه .

حثهم عليه السلام على تقوى الله عز وجل فهي سبيل كل خير والعصمة من كل شرٍ، وبين لهم أنه مرسل من عند الله عز وجل، أمين في دعوته.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ لوط من بلاد العراق وهم في بلاد الشام والأخوة هنا هي أخوة المصاهرة، أو أخوة المواطنة لأنه عاش فيهم وتزوج منهم.

حث لوطٌ على تقوى الله تعالى، بهذا الأسلوب الرائع الذي ينم عن حرصه على هدايتهم، وإشفاقه عليهم، وترفقه بهم، كلماتٌ تنسل من قلبٍ يذوب كمدا ويتفطر ألما على حال قومه.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أكد لهم رسالته وأمانته، فهو أمين في دعوته، أمين في نصحه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لخص دعوته في هذين الأصلين العظيمين تقوى الله تعالى بالخوف منه واجتناب محارمه وامتثال أوامره، وطاعة النبي فيما يدعوهم إليه من الخير والصلاح في دينهم ودنياهم .

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ لا أنتظر منكم أجرا على دعوتي، لأن أجري على من أرسلني وهو رب العالمين، وفي هذا إعلان التجرد والإخلاص في هذه الدعوة، فهذه المهمة

الجليلة الثقيلة لم يتقاض عليها الأنبياء أجرا من البشر وإنما الأجر كله من الله الذي بعثهم.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٦]: يتركون نساء الدنيا كلها، ويضيقون على أنفسهم وقد وسع الله عليهم ؛ ففي الحلال الطيب ما يسع الجميع، ودائرة الحلال واسعةٌ، بينما اختاروا طريق الغواية والشذوذ.

أنكر عليهم هذا الفعل القبيح وتلك العادة المستهجنة المخالفة للفطرة السليمة وللطبائع المستقيمة، تلك العادة التي شذوا بها عن سائر الخلق، وكانوا أول من فعلها، فتجاوزوا بذلك الحد في الفساد والإجرام والضلال والانحلال وسنوا سنة سيئةً قبحهم الله.

قال ابن كثير: «بعث الله لوطا عليه السلام إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها ؛ فلم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم - عليهم لعائن الله - قال الوليد بن عبد الملك - الخليفة الأموي، باني جامع دمشق -: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا»[1].

وفي سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

أنكر عليهم إتيانهم لتلك الرذيلة المنكرة، التي لم يسبقهم إليها أحد والتي تدل على إسرافهم في الفساد وتماديهم في الفجور والانحلال، والتعبير بالفاحشة، لقبحها واستهجانها وكونها من أفحش الكبائر وأشنع الذنوب إذ هي خروجٌ عن الفطرة ومجافاةٌ للطبيعة وشذوذٌ وانحرافٌ، مع ما فيها من إفسادٍ وأضرار، ونعى عليهم كونهم أول من ابتدعها.

قال أبو حيان الأندلسي: «والفاحشة هنا :إتيان ذكران الآدميين في أدبارهم، ولما كان هذا الفعل معهودا قبحه ومركوزا في العقول فحشه أتى معرفا بالألف واللام[2]، أو تكون (أل) فيه للجنس على سبيل المبالغة كأنه لشدة قبحه جعل جميع الفواحش»[3].

قال صاحب الظلال: «والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف في تجاوز

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣.
(٢) وعلى هذا تكون ال للعهد الذهني.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٣٣٢.

منهج الله الممثل في الفطرة السوية، والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب . فهي مجرد ﴿شَهْوَةً﴾ شاذ، لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري، قبل أن يكون فساد الأخلاق ولا فرق في الحقيقة ؛ فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية، بلا انحراف ولا فساد . إن التكوين العضوي للأنثى - كالتكوين النفسي - هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر في هذا الالتقاء، الذي لا يقصد به مجرد ﴿شَهْوَةً﴾ إنما هذه اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة، إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة، مصحوبا بلذة تعادل مشقة التكليف ! فأما التكوين العضوي للذكر - بالنسبة للذكر - فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة، بل إن شعور الاستقذار ليسبق، فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة»[1].

وفى سورة النمل يقول عز وجل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٥].

أنكر عليهم لوط عليه السلام فعلهم لتلك الفاحشة مع علمهم بقبحها وشناعتها ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: تعلمون بقبحها، تبصرون ذلك بعقولكم وبصائركم، بل وحواسكم، وقيل: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يبصر بعضكم بعضا أي: ينظر إليه تلذذا واستمتاعا حيث كانوا يرتكبون الفاحشة في العلن، وقيل: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ آثار العصاة المنتهكين للحرمات ممن قبلكم فاعتبروا بهم.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٥].

وصفهم بالجهل، والمقصود به هنا الجهل: ضد الحلم، وهو الطيش والسفه الذي يدفع صاحبه إلى ارتكاب هذا المنكر، دون إدراكٍ لأخطاره أو تحسبٍ لأضراره، كذلك الجهل المنافي للعلم ؛ إذ لا يفعل هذه الموبقات إلا الجهال بخطرها وعاقبتها، أو نفي العلم عنهم وإن علموا بقبحها وسوء عاقبتها لأن علمهم لم ينفعهم ولم يدفعهم عن هذا الجرم، فأضحى لا قيمة له، فهو بمثابة الجهل.

وفي سورة العنكبوت يقول عز وجل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣١٥.

﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ - ٢٩].

أنكر عليه السلام على قومه تلك الفعلة المنكرة القبيحة التي لم يسبقهم إليها أحد، وهذا مما يزيد في شناعتها وقبحها كونهم أول من قارفها، وأول من سنها، كما أنكر عليهم قطعهم للسبيل على السابلة والمسافرين وترويعهم وسلب أموالهم وسفك دمائهم، ومجاهرتهم بالمنكرات في المجالس والنوادي دون خجل أو وجل، ودعاهم عليه السلام إلى عبادة الله عز وجل، والامتثال لما أمر به واجتناب كل ما نهى عنه، وحذرهم من سخط الله تعالى، وأليم عقابه، فقابلوا تلك الدعوة الصادقة بالتكذيب والإعراض والسخرية والاضطهاد والعداء والإيذاء، والتهديد والوعيد.

وقال الإمام ابن كثير: «وكانوا مع ذلك - أي: مع إتيانهم الفاحشة - يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم - المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحيون من مجالسيهم، وربما وقعت منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ، ولا نصيحة من عاقل، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضي ولا راموا في المستقبل تحويلا فأخذهم الله أخذا وبيلا»[1].

قال عبد الكريم الخطيب: «كانوا من الفجور وجفاف ماء الحياء من وجوههم، بحيث لا يجدون حرجا في أن يأتوا هذا المنكر علانية، وهم في مجتمعهم الذي يجتمعون فيه وهذا غاية ما يتردى فيه الإنسان، في طريق الانحدار إلى عالم الحيوان»[2].

وقد وصف قوم لوطٍ بأوصافٍ ذميمةٍ منها:

١. التكذيب.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وفي سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وفي سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ

(١) قصص الأنبياء ص ١٩٢.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٤/ ١٨٦.

﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: ١٢ - ١٤].

وفي سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر: ٣٣-٤٠].

كذبوا بنبي الله لوطٍ عليه السلام وصدوا عن دعوته وجاهروا بالمعاصي مستحلين لها، واجتمعت كلمتهم على إخراج لوطٍ وبناته لأنهم متطهرون، وكأن التطهر جرمٌ يعاقب صاحبه بالطرد والإبعاد، دون أن يلقوا بالًا بما عاينوه من آياتٍ وقرع مسامعهم من نذر، ولا عجب فهذا منطق أهل الكفر والضلال في كل زمان.

٢. الإسراف.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨١].

«أي: متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه»[١] وإسرافهم بإتيان تلك الفاحشة من مجاوزة الحد وإهدار الطاقات وتبديد الأوقات، وإذا كان الإسراف في المباح مذموم فما بالك بمن يسرف في الحرام ! والتعبير باسم الفاعل ؛ لبيان ملازمتهم للإسراف فهو طبعهم وحالهم لا ينفك عنهم.

٣. الجهل.

قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

قال الرازي رحمه الله: «تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها»[٢].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وانظر كيف تبلغ السفاهة بالقوم إنهم ليأتون الفاحشة في غير مبالاة، ولا ستر من حياء ! يأتونها جهرة وفى صورة جماعية، دون أن يجد أحدهم حرجا أو استحياء! وهذا غاية التدلي والإسفاف في عالم الإنسان، إلى درجة لا ينزل إليها كثير من عالم الحيوان حيث تأبى على بعض الحيوان طبيعته أن يتصل بأنثاه على مرأى من بني جنسه! بله اتصاله بذكر! الأمر الذي لم تعرفه الكائنات الحية، إلا في هذا الصنف الرذل الخسيس من الناس!»[٣].

والتعبير بالفعل المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، فالأيام والآيات لا تزيدهم إلا سفاهة وجهالة، وهم مصرون على جهلهم مقيمون عليه .

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٦.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٣٢٩

٤. الفسق.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤].

فتلك الفعلة القبيحة هي أشد ألوان الفسق، ففيها خروج عن الطاعة، خروجٌ عن الشريعة، خروجٌ على العرف المستقيم، تمردٌ على الفطرة فليس هناك أسوأ مما كانوا عليه، فقد أضيفوا إلى السوء إضافة تدل على ملازمة، ورجل السوء هو الذي يسوء ويفسد كل من يخالطه، ووصفوا بالفسق صفة ملازمة لهم لا تنفك عنهم، وأصل الفسق من فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها التي تصونها وتحفظها، كذلك قوم لوط خرجوا عن منهج الله الذي يصونهم ويحميهم، وقد جلبوا الخزي والعار لأنفسهم واستوجبوا سخط الله وأليم عقابه

٥. الفساد.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وأي إفساد أشد مما كانوا عليه من الكفر والفسوق، والتحلل والعري، وفساد الأمزجة وانتكاس الفطرة، وقطع السبيل، والخلل الاجتماعي، والانقلاب على الحق، وإخراج أهل الطهر، فساد روحي وفساد اجتماعي وفساد سياسي واقتصادي، فالفساد داء عضال يستشري في أبدانهم ومنتدياتهم ويلوث مجالسهم، صفةٌ من صفاتهم التي لا تنفك عنهم، والفساد باض وأفرخ فيهم وتغلغل في مجتمعاتهم وبيوتهم، وهم إلى جانب فسادهم مفسدون أشد الإفساد، يسعون جاهدين لإفساد كل ما حولهم، ولا يقع إفسادهم عند حدٍ.

وحين دعا لوطٌ ربه استحثه على الإجابة ببيان ما هم عليهم من إفسادٍ قال ابن عجيبة: «وصفهم بذلك ؛ مبالغة استنزال العذاب، وإشعارًا بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب»[(١)].

وقال ابن عادل: «ثم إن لوطًا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (فإن الله لا يحب المفسدين) حتى ينجز النصر»[(٢)].

٦. العدوان.

قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٤ - ١٦٦].

فقد اعتدوا على حرمات الله وانتهكوا

(١) البحر المديد، ابن عجيب ٥/ ٧.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٣٤٣.

محارم الله وتجاوزوا الحد، واعتدوا على الغير، فإن من وضع الشهوة في غير موضعها عادٍ آثم.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

٧. السبق إلى السوء.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٨٠﴾ [الأعراف: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٢٨﴾ [العنكبوت: ٢٨].

لقد حازوا قصب السبق لا في الخيرات ولا إلى المغفرة والرحمات، بل سبقوا في الفجور والشذوذ، فكانوا أول من ابتدع هذه الفاحشة التي انتشرت فيهم انتشار النار في الهشيم.

٨. الإجرام.

قال تعالى في بيان ما حل بهم من عقاب: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾ [الأعراف: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩﴾ [الحجر: ٥٨-٥٩].

وأي جريمة أشد مما كانوا عليه من فاحشة، فوق أنهم كانوا يقطعون السبيل على المارة والمسافرين ويتعرضون لهم بالأذى ويتحرشون بهم مع عزمهم على إخراج لوط وأهله المؤمنين الطاهرين من القرية بدون جريرة أو ذنب سوى أنهم مؤمنون طاهرون، ومن قبل هددوا لوطا عليه السلام بالرجم إن لم يكف عن دعوته.

٩. الامتراء.

فلقد جمعوا مع كفرهم وتكذيبهم الامتراء وهو التشكيك واللغط والاستخفاف والاستبعاد، والجدل المذموم، تشغيبا على لوطٍ وتشويشا على دعوته، وسعيا لقلب الحقائق وتزيين الأباطيل وتحسين القبائح.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝٣٦﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣﴾ [الحجر: ٦٣].

ومن ذلك المراء قولهم كما أخبر القرآن: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٩].

١٠. الظلم.

فقد وضعوا الأمور في غير موضعها، وعاثوا في الأرض ظلما يقطعون الطريق وينتهكون المحارم، وبلغ بهم الظلم إلى أن هددوا لوطا وافتروا عليه وأخرجوه من القرية، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [العنكبوت: ٣١].

فلقد بلغوا من الظلم هذا المبلغ فاستحقوا العذاب.

١١. السكرة والعمه.

فلقد كانوا في غفلة سادرين، وفي عمه عن الحق لا يبصرون قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

فما تجدي الموعظة مع من غرق في بحار السكر، فهو في عمى وحيرة يتخبط خبط عشواء ويتردد بلا وعي، والله تعالى يلتفت لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم مقسما بحياته العامرة، ليرى صورة من صور الانحراف الإنساني عن سنن الهدى، وصفاء الفطرة، وارتكاسها إلى مستنقعات الرذيلة ومزالق الهوى، وركوبها متن النزق متوغلة في أوحال الفاحشة لا تلوي على موعظةٍ ولا تستجيب لنصح ولا تلتفت لنداء الحق،كيف وقد استبدت بهم النزوات واستعرت في نفوسهم الغلمة والشهوات.

قال السعدي: وهذه السكرة هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم[1].

وقد وصفت تلك الفعلة بثلاثة أوصاف:

١. الفاحشة: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٨٠].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل: ٥٤].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨].

فهي من أكبر الفواحش وأفحش الكبائر، وفيها ما فيها من فحش وبذاءة وفجورٍ وخلاعةٍ.

٢. الخبائث: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وهي جميع خبيثة فتدخل فيها اللواط دخولا أوليا، وتشمل سائر ما كانوا عليه من فحش وبذاء وخلاعة ومجون وعري، والتعبير بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ لبيان سبب هلاك تلك القرية، وهو استمرارهم في عمل الخبائث، أي: ممارستها وابتداعها وامتهانها، وهل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٣.

هناك أخبث من إتيان الرجل للرجل ! ومن خبائثهم إتيانهم المنكرات في نواديهم دون تورع ولا حياء، ومنها قطعهم للطريق، ومنها إهانتهم للأضياف، ومنها التعري، إضافة إلى كفرهم وتكذيبهم.

٣. عمل السيئات: ﴿وَجَاءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ٧٨].

فجرائمهم كثيرة ومن أفظعها وأشنعها جريمة اللواط، قال ابن عاشور: «فقد صارت لهم دأبا لا يسعون إلا لأجله»[(١)].

وقال عبد الكريم الخطيب: «عرض لسيرة هؤلاء القوم، وفضح لمخازيهم، وأن هذا الذي جاءوا إليه ليس ابن يومه، وإنما هو داء تعاطاه القوم من قبل، فكان طبيعة غلبت عليهم، حتى لقد صار عادة مألوفة عندهم، وأمرا مستقرا فيهم، ليس فيه ما يثير أي إحساس عندهم بالخزي أو الاستحياء»[(٢)].

وجمع السيئات في مقابلة جمع من يعملها، ولتكرارها وتشنيعها لأنها ليست سيئةً واحدة بل سيئات شتى، فقد اعتادوا المنكرات وألفوها بلا حياءٍ يمنعهم ولا ضميرٍ يردعهم، فهرعوا من منكر إلى منكر ومن سيءٍ إلى أسوء.

ثانيًا: جواب قوم لوط:

ماذا كان موقف قوم لوط عليه السلام من دعوته كيف أجابوه ؟ هل كان لمواعظه أثرٌ في نفوسهم ؟ كلا والله بل لجوا في طغيانهم وتمادوا في غيهم، وأصروا على مقارفة جرائمهم، وكان ردهم عنيفا قاسيًا ينم عن مراءٍ وتشغيبٍ.

وفي سورة الشعراء يقول عز وجل: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾ [الشعراء: ١٦٧].

هددوه أولًا بالإخراج إن لم يكف عن إنكاره عليهم ومواعظه، ثم قرروا إخراجه من قريتهم، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ [الأعراف: ٨٢].

كذبوا بالنذر، واستخفوا بها بل وتعجلوها، قال عز وجل: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾ [القمر: ٣٣].

وقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ومن جملة هذه الآيات يتضح لنا موقف قوم لوط من دعوته، فلقد كذبوا به وأعرضوا عنه وسخروا منه، وتعجلوا وقوع العذاب، وهددوا بإخراجه ومن آمن به من آله من قريتهم لأنهم أطهارٌ أعفاء، وكأن الطهر

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٣.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٣٢٩.

والعفاف ظلم وإجحاف وجرم وانحراف وكأن الشذوذ والخنا هو العادة والإلف الذي ينكر على من يهجره وينتزع حق العيش ممن آثر الطهر والعفاف فلا مقام له بين ظهراني الملوثين بأخبث الأقذار، ولا يخفى ما في هذا القول من سخريةٍ وتهكمٍ بالفضائل وكراهيةٍ لها، وتضييق على أهلها.

يقول صاحب الظلال: «ويتجلى لنا انحراف قوم لوط في جوابهم لنبيهم، ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٢].

يا عجبا !! أومن يتطهر يخرج من القرية إخراجا ليبقى فيها الملوثون المدنسون ؟ ! ولكن لماذا العجب ؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ؟ أليست تطارد الذين يتطهرون، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية، وتسميه تقدمية وتحطيما للأغلال عن المرأة وغير المرأة، أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك، ولا تطيق أن تراهم يتطهرون، لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين الأقذار، إنه منطق الجاهلية في كل حين !! »[1].

وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩ - ٣٠].

لقد مكث لوط عليه السلام في قومه مدة طويلة، يدعوهم إلى العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة والشريعة القويمة الحكيمة، التي جاء بها من عند الله تعالى، ولكنهم صموا آذانهم وعموا أبصارهم عن الحق، وقابلوا الحجج الساطعة والأدلة القاطعة بالجحود والإنكار وأصروا على كفرهم وتمادوا في غيهم وضلالهم، بل وتعجلوا العذاب حتى يئس لوط من إيمانهم، فدعا الله عز وجل أن ينجيه هو ومن آمن معه ويخلصهم من أولئك المفسدين الذين دنسوا الأرض ولوثوا العرض.

وقال سبحانه: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الشعراء: ١٦٧ - ١٦٨].

بين لهم بغضه لعملهم القبيح وتبرأه منه، قال صاحب الكشاف: «(ومن القالين) أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قالٍ، كما تقول: فلان من العلماء، فيكون أبلغ من قولك: فلان عالم ؛ لأنك تشهد له بكونه معدودا في زمرتهم، ومعروفة مساهمته لهم في العلم، والقِلَى: البغض الشديد ؛ كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد، وفى هذا دليل على عظم معصيتهم، والمراد: القلى من حيث الدين والتقوى، وقد تقوى همة الدين حتى تقرب

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣١٦.

كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية »[1].

كذلك التعبير بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ كأنه عليه السلام يشير إلى أنه ليس وحده قاليا لهذا العمل فكل عاقل لبيب سوي النفس مستقيم الفطرة لا بد وأن يقلى هذا العمل ويبرأ منه.

هكذا كان رد فعلهم، وموقفهم المعاند من دعوة لوط عليه السلام هددوه إن لم يتوقف عن مواعظه البليغة أن يخرجوه من القرية، وكان منطقهم في ذلك كما أخبر القرآن ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ كأن الطهر في عرفهم السقيم صار جريمة تستوجب العقوبة، أما الشذوذ والمجون فهو حقٌّ لهم يدافعون عنه ويسعون إلى إسكات كل من يعارضهم وينفرهم شأن الشذاذ في عصرنا هذا، فقد كافحوا من أجل الدفاع عن فسادهم وانحرافهم وحققوا نجاحا في بلاد الغرب، حيث ارتفعت أصواتهم المنكرة، وكثرت تجمعاتهم الفاجرة، وانتشرت منتدياتهم المستهترة، وروجوا لتلك الفاحشة بتسميتها بغير اسمها المعهود على مر العهود، فسمي من يفعلون ذلك بالمثليين، حتى يهدموا الأسوار ويحطموا الحواجز أمام ذلك المرض الخبيث، بينما كان لوط عليه السلام محقًا وكان صريحا في مناصحته وإنكاره، فوصفهم بالإسراف والجهل والفسق والفساد والعدوان، ووصفت تلك الفعلة بثلاثة أوصاف: الفاحشة، الخبائث، والسيئات، فينبغي أن ينتبه العقلاء إلى ما يرمي إليه الشواذ من ترويج لفاحشتهم وتمرير لها وكسر القيود أمامها.

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٣١.بتصرف.

لوط عليه السلام مع زوجه

قال تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

والخيانة هنا هي: خيانة كفر لا خيانة زنا، خيانة في الدين لا في العرض؛ إذ نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في خيانة العرض.

قال ابن كثير: «﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقتاهما في الرسالة فلم يجد ذلك كله شيئا ولا دفع عنهما محذورًا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لكفرهما ﴿وَقِيلَ﴾ للمرأتين ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

وليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما بغت امرأة نبي قط، كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحدا أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء»[1].

لقد كذبت امرأة لوط بزوجها، وكان الأولى بها أن تكون أول من آمن به وأن تكون عونا له على دعوته؛ لأنها أعلم الناس بأحواله، وأقرب الناس منه، ولكنها آثرت ما عليه قومها من الكفر والضلال؛ فكان عاقبتها الخسران والنكال.

ولم ينفعها زواجها من نبي الله لوط عليه السلام، وما أجمل قول القشيري في اللطائف: «إن الجسارة على الزلة وخيمة العاقبة، ولو بعد حين، ولا ينفع المرء اتصاله بالأنبياء والأولياء إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء»[2].

وسيأتي الحديث عن هلاكها.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٣ بتصرف.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ١٤٩.

لوط عليه السلام مع بناته

ورد الحديث عن بنات لوط عليه السلام حين جاءه قومه يهرعون إليه، ليراودوه عن ضيفه المكرمين، فتزاحموا على بابه، ولم تكن لديه القوة على دفعهم وحماية ضيفه فعرض عليهم بناته للزواج، ردًا لهم إلى الفطرة النقية وإلى الغريزة الطبيعية، وصرفا لهم عن الشذوذ والانحراف الذي استهواهم، لكنهم عزفوا عن الزواج بل وتبجحوا ولمحوا ببغيتهم الخبيثة.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: ٧٨-٨٠].

وقد وصف لوط ما عليه بناته من طهر وعفاف، كما مدح الله جل وعلا لوطا ومن آمن به من آل بيته بكونهم شاكرين لله تعالى.

قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾، نجى الله تعالى لوطا ومن آمن به من أهل بيته ويظهر لي والله أعلم أنه لم يؤمن به إلا بناته ولقد جاء الحديث عن نجاتهن معه عليه السلام في سورة هود والحجر والذاريات، قال تعالى في سورة هود: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾.

وفي سورة الحجر يقول تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾.

وقال تعالى في سورة الذاريات يقول عز وجل: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ فجمعوا بين الإيمان والإسلام، الإيمان بكل ما يعنيه من معانٍ وصفاتٍ، والإسلام الانقياد التام لله تعالى.

لوط عليه السلام مع الملائكة

أولًا: الملائكة في طريقها إلى قوم لوط:

في صورة من أبهى وأجمل الصور البشرية جاءت الملائكة الكرام إلى إبراهيم عليه السلام وبادروه بالتحية فحياهم بأحسن منها.

قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٦٩ - ٧١].

وقال سبحانه في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥١ - ٦٠].

وفي سورة الذاريات يقول جل وعلا: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٢].

وفي هذه الآيات الكريمة يخبر المولى عز وجل عن نزول الملائكة في صورة بشرية ومجيئهم إلى الخليل إبراهيم عليه السلام حيث حياهم عليه السلام بأفضل مما حيوه، وبادر عليه السلام إلى إعداد الطعام لضيوفه وقربه إليهم إثر فراغه من إعداده، فلم يمدوا إليه يدا؛ فأنكر ذلك منهم ووجده على غير ما يعهد من الضيف، فإن الضيف لا يمتنع من طعام المضيف إلا لريبة، أو قصد سيئ، وأحس في نفسه خيفة منهم، فلما رأوا منه ذلك بادروا إلى تهدئة روعه وطمأنة قلبه، فأظهروا حقيقتهم وكشفوا عن مهمتهم التي من أجلها جاءوا، وهي إهلاك قوم لوط وقطع دابرهم بعد أن تمادوا في الكفر والطغيان وأصروا على الفسوق والعصيان، وهنا يتجلى موقف الزوجة المؤمنة سارة

رضي الله عنها حيث فرحت واستبشرت بهذه البشارة قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٦٩ - ٧١].

كانت قائمة من وراء الستر من أجل خدمة الضيفان، وقيل كانت قائمة تخدمهم بنفسها، وهى عجوز لا يخشى عليها ولا منها الفتنة .

والضحك هنا على حقيقته، وسببه الفرح والتعجب، فرحت حين سمعت الملائكة الكرام يخبرون إبراهيم عليه السلام بأمر نجاة لوط عليه السلام ومن آمن معه وهلاك المكذبين به المعرضين عن دعوته وتعجبت من حال الهالكين، كيف يتمادون في الضلال ويصرون على الانحلال مع قرب هلاكهم ؛ فالأولى بهم أن يتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان.

وهذا يدل على قوة إيمانها وحبها وولائها للإيمان وأهله، وبغضها وبرائها من الكفر وأهله .

قال ابن كثير: «(فضحكت) استبشارا بهلاكهم لكثرة فسادهم وكفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس »[1] .

وفى غمرة هذه المشاعر الإيمانية جاءتها البشارة بالذرية الصالحة لتكتمل فرحتها وتتم سعادتها، جاءتها البشارة وهي في هذا الموقف المحمود، كما جاءت البشارة لزكريا عليه السلام بالولد بعد طول انتظار -جاءته البشارة وهو قائم يصلى في المحراب - وكما أن الصلاة هي من أسمى العبادات: فموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، من أعظم القربات، وفى مجيء الملائكة بالبشارة أعظم تكريم لها عليها السلام.

ثانيًا: الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام:

حق على قوم لوط العذاب، وجاءت الملائكة الكرام إليه في صورة بشرية، كما جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام، وظن لوط عليه السلام أنهم بشر كما وقع في ظن إبراهيم عليه السلام ؛ فخاف لوط عليهم من تحرش قومه بهم وتعرضهم لهم بالإيذاء، ولولا حق الضيافة وآدابها لطلب منهم عليه السلام أن يغادروا القرية في الحال، ولكنه استحيا من مواجهتهم بالواقع المرير.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: ٧٧].

قال ابن كثير: «قال المفسرون: لما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٥٢ بتصرف.

فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صورة شبان حسان، اختبارا من الله تعالى لقوم لوط، وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشرا من الناس، ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: شديد بلاؤه، وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدًا »[1].

والظاهر أنه قاله مع نفسه تخوفا مما يترقبه من طيش قومه وعدوانهم على ضيفه مع قلة حيلته أمام قوتهم وكثرتهم واندفاعهم الذي يتوقعه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٦٧ - ٧٢].

«وهذه عادة أهل الغفلة، إن جاءهم من يجدون فيه موافقة هواهم، هرعوا إليه مستبشرين، وإن جاء من ينصحهم ويأمرهم بالخروج عن أهوائهم أدبروا عنه، ومقتوه، وربما أخرجوه من بلدهم »[2]، وقوم لوط جاءوا يطيرون فرحا واهمين أنهم سينالون مرادهم الخبيث ويحققون بغيتهم الدنيئة على عادتهم الرديئة.

ثالثًا: موقف قوم لوط عليه السلام من ضيفه:

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٧٨ - ٨٠].

لما سمع قوم لوط بقدوم ضيف عليه جاءوا مهرولين إلى بيته، يحث بعضهم بعضا، ويتدافعون صوب بيته . ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فسجلهم حافل بالذنوب والآثام التي صارت لهم ديدنا حتى أدمنوها وهو عليه السلام يعرف ذلك منهم، فهم لا يتورعون عن معصية ولا يتحرجون من منكرٍ ؛ مما زاد من خوف لوطٍ عليه السلام وقلقه على ضيفه، فكانت هذه البادرة القبيحة مما ينضاف إلى رصيدهم السابق في الذنوب والعصيان بما جعلها

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ١٩٣، ١٩٤ باختصار.

(٢) البحر المديد، ابن عجيب ٣/ ٥٧.

القاصمة وعجل بهلاكهم .

قال ابن كثير: «أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة »[1] .

رابعًا: حوار بين لوط وقومه

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود: ٧٨].

أدرك عليه السلام الغرض الخبيث الذي جاء من أجله القوم، ورأى أنهم عازمون على هذا الأمر فعرض بناته على قومه لكي يتزوج بعض رجال القوم بهن حلالا طيبا، ويهجروا عادتهم القبيحة المنكرة وهى إتيان الرجال في أدبارهم، فإذا تزوج بعض الرجال بهن فسوف يسير جميع القوم على هذا السنن القويم والنهج المستقيم .

أدرك عليه السلام ذلك فأراد أن يوقظ فيهم داعي الفطرة قبل فوات الأوان، ويبعث فيهم روح النخوة والمروءة والطهارة والكرامة، ويحيي ضمائرهم الميتة ويعمر قلوبهم الخربة، يعمرها بتقوى الله عز وجل التي هي جماع كل خير وأساس كل بر وهى العصمة من كل سوء فقال لهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود: ٧٨].

عودوا إلى الفطرة السليمة، وأقبلوا على الزواج وانشدوا الحلال الطيب، وأنا أول من يعرض بناته عليكم للزواج .

عرض عليهم أن يتزوجوا ببناته، ولكنهم أبوا وآثروا الفاحشة المنكرة على الحلال الطيب، آثروا الشذوذ والانحراف على الطهر والعفاف، وقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ [هود: ٧٩].

قال الإمام الألوسي: «عنوا به قضاء الشهوة: أي ما لنا حاجة في بناتك، يجوز أن يكون المعنى: ما لنا في بناتك نكاح حق؛ لأنك لا ترى جواز نكاحنا للمسلمات وقيل: إنما نفوا أن يكون لهم الحق في بناته؛ لأنهم كانوا قد خطبوهن فردهم وكان من سنتهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحل له أبدا، وقيل: إنهم لما اتخذوا إتيان الذكور مذهبا كان عندهم هو الحق وأن نكاح الإناث من الباطل فقالوا ما قالوا »[2]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي:تعلم أن بغيتنا ونهمتنا في الرجال لا في النساء .

خامسًا: تمني القوة والمنعة والاعتذار للضيف الكرام

﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: ٨٠].

ماذا يصنع نبي الله لوط عليه السلام في

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ١٩٤.

(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٠.

هذا الموقف العصيب ؟ ماذا يفعل ؟ ومنطق الحق وحلاوة الإيمان لم تجد الطريق إلى تلك القلوب القاسية والعقول المتحجرة والنفوس الداعية للرذيلة ؟ كيف يحمي ضيفه من ذلك الهجوم الغاشم ؟ كيف يحفظ كرامتهم ؟ ويحميهم من قومه الذين عدموا المروءة والكرامة وانغمسوا في أوحال الشذوذ والانحلال ؟

أين يلقى القوة التي تردهم والمنعة التي تصدهم ! وهم وراء الباب يتزاحمون عليه ويرومون فتحه بالدفع أو بالكسر ؟

ولم يكن عليه السلام يعلم أن هؤلاء الضيوف الذين يذود عنهم بشتى الطرق هم الذين جاءوا ليدافعوا عنه وينزلوا بقومه أشد صنوف العذاب والنكال !

لقد استفرغ لوط عليه السلام ما في وسعه وبذل أقصى جهده في دفع قومه، وصرفهم عن هدفهم الخبيث، ولم يعد في وسعه عليه السلام إلا أن يعتذر لضيفه الكرام ويقول لهم (﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾).

وفي هذه اللحظة العصيبة تكشف الملائكة عن حقيقتها ومهمتها، قال الإمام القُشيري: «لما ضاق به الأمر كشف الله عنه الضر، فعرف إليه الملائكة»[1].

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بَشَّروه عليه السلام وطمأنوه .

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي بجزء من الليل وهو آخره ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ لا يلتفت أحد منكم حتى يرى العذاب المروع الذي ينزل بالمكذبين، وقيل: حتى لا يتعلق قلبه بتلك البلدة، وربما حدثته نفسه بالرجوع إليها والبقاء فيها فيهلك مع الهالكين، وقيل: ليسرعوا في السير؛ لأن من يكثر الالتفات لا يسرع في سيره .

وقال تعالى في سورة الحجر ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أمره عليه السلام بأن يسير خلفهم، وأن يمضوا جميعا في الطريق الذي أمروا بالسير فيه وبذلك أخبرت الملائكة لوطا بزمان السير ومكانه وكيفيته ومن يسير معه، وعاقبة المكذبين من قومه وعاقبة امرأته التي تهلك كما يهلك جميع المكذبين ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۗ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ .

وفي الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم (ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد)[2] .

والآية تفيد أنه تمنى وجود القوة والمنعة

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (ونبئهم عن ضيف إبراهيم)، رقم ٣٣٧٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، بابزيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، رقم ١٥١.

التي تمكنه من الدفاع عن الحق ومحاربة الباطل والقضاء على الانحراف والذود عن الأضياف.

أما الحديث فإنه يدل على أنه عليه السلام كان يأوي إلى ركن شديد، وهذا هو المناسب لحال الأنبياء - عليهم السلام - الذين وصلوا إلى أعلى درجات المعرفة و أسمى مقامات التوكل واليقين برب العالمين، وطلبه عليه السلام للقوة والمنعة لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب؛ لأنه لا بد للحق من قوة تحميه.

يقول ابن حزم الظاهري في الفصل «ولا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ولقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المنعة من الأنصار حتى يبلغ كلام ربه[١].

وإنما أخبر صلى الله عليه وسلم أن لوطا كان يأوي إلى ركن شديد، يعنى الملائكة الكرام الذين أرسلهم الله تعالى لحمايته ونصرته ولم يكن لوط عليه السلام يعلم بذلك، ومن اعتقد أن لوطا كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد فقد كفر ؛ إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر، وهذا أيضا ظن سخيف ؛ إذ من الممتنع أن يَظُنَّ برب أراه المعجزات وهو دائب يدعو إليه هذا الظن»[٢].

وقال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: «وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ويرحم الله لوطا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد) فالمراد بالركن الشديد هو الله سبحانه وتعالى، فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث - والله أعلم - أن لوطا عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم يكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في ذلك الحال: لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي، أو آوي أي: إلى عشيرة تمنع لمنعتكم، وقصد لوط عليه

(١) روى الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٣٢٢، رقم ٣٢٩، من حديث جابر بن عبد الله في بيعة العقبة الثانية، وفيه قال جابر قلنا يا رسول الله على ما نبايعك ؟ قال على السمع والطاعة في النشاط والكسل.....وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم...
قال ابن كثير في السيرة النبوية ٢/ ١٩٦: هذا إسناد جيد على شرط مسلم.

(٢) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم ٤/ ٩.

السلام إظهار العذر عند أضيافه، وأنه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما لفعله، وأنه بذل ما في وسعه في إكرامهم والمدافعة عنهم ولم يكن ذلك إعراضا منه عليه السلام عن الاعتماد على الله تعالى، وإنما كان لِما ذكرناه من تطييب قلوب الأضياف.

ويقال: إن قوم لوط لم يكن منهم أحد يجتمع معه في نسب لأنهم من سدوم، وهو من الشام، وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق، فلما هاجر إبراهيم إلى الشام هاجر معه لوط فبعث الله لوطا إلى أهل سدوم فقال: لو أن لي منعة وأقارب وعشيرة لكنت أستنصر بهم عليكم ليدفعوا عن ضيفاني»[1].

(١) شرح صحيح مسلم ٦/ ٤٧٨.

نجاة لوط وبناته وهلاك امرأته

كشفت الملائكة الكرام للوط عليه السلام عن حقيقتهم ومهمتهم التي أرسلوا من أجلها فقالوا للوط - عليه السلام كما أخبر القرآن الكريم في سورة هود: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

وفي سورة الحجر يقول تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

بَشَّروه عليه السلام بنجاته هو ومن آمن به من أهل بيته وهلاك قومه الذين كذبوا به وأعرضوا عنه، وخرج لوط عليه السلام في جنح الظلام مع أهل بيته، وسار من ورائهم حتى لا يتخلفَ منهم أحد فينالَه العذاب، وسار الجميعُ في الطريق الذي أمروا بالسير فيه، ولم يتلفت منهم أحدٌ إلا امرأة لوط التي التفتت نحو القرية فأصابها ما أصاب قومها من العذاب.

قال عز وجل: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا

﴿امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٣].

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥٨ - ٦٠].

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الشعراء: ١٧٠ - ١٧١].

أي: في الهالكين، لما كانت منهم نالت مصيرهم الذي قدره الله تعالى لها.

وفي سورة الأنبياء في سياق الحديث عن مِنَنِ الله على أنبيائه ورعايته لهم قال تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

عصمه الله تعالى بما آتاه من حِكَمٍ وعلم وثبته أمام هذا الابتلاء العظيم، ثم خلصه من تلك القرية التي غلب عليها الخبث وطغى عليها الفساق، وأدخله الله في رحمته لينال جزاء صبره وثباته سعادةً وفلاحًا في الدنيا وصلاح بال وقرة عين وعيش هنيءٍ.

قال الرازي: إنه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلساء السوء فُتِحت عليه أبواب المكاشفات، وتجلت له أنوار الإلهية وهي بحر لا ساحل له وهي الرحمة في الحقيقة[1].

وقال البقاعي: «﴿وَأَدْخَلْنَاهُ﴾ أي دونهم بعظمتنا ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي في الأحوال السنية، والأقوال العلية، والأفعال الزكية، التي هي سبب الرحمة العظمى ومسببة عنها، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: لما جلبناه عليه من الخير»[2].

وقال القشيري: «أكمل له الأنعام بعصمته من مثل ما امتحن به قومه، ثم بخلاصه منهم بإخراجه إياه من بينهم، فميزه عنهم ظاهرا وباطنا»[3].

وقال السعدي: «﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ التي من دخلها كان من الآمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر، وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحا الأنبياء عليهم السلام»[4].

وفي سورة الذاريات يقول عز وجل: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ هو بيت لوط عليه السلام، قال مجاهد: لوط وابنتاه،

(١) مفاتيح الغيب ١/ ٣١٥٤.
(٢) نظم الدرر ٥/ ٩٩.
(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٥١..
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٧.

وصفوا بالإيمان والإسلام لتصديقهم الباطني والتزامهم وانقيادهم الظاهري، فجمع الله تعالى لهم بين الإيمان والإسلام، وعلى هذا فإنه لم يؤمن بلوط عليه السلام سوى بناته وقد نجاهن الله مع أبيهن نبي الله عليه السلام.

صنوف العذاب التي حلت بقوم لوط

تحدث القرآن الكريم حديثا مفصلا عن صنوف العذاب التي حلت بقوم لوط عليه السلام، فلقد طَمِسَتْ أعينَهم حين راودوا لوطا عليه السلام عن ضيفه، وقُلبت قراهم فجعل عاليها سافلها، وأمطروا بحجارة من سجيل منضود، وأخذتهم الصيحة فهلكوا جميعًا.

يقول المولى عز وجل في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ [القمر: ٣٧ - ٣٩].

قال القرطبي في تفسيره: «قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسور الجدران، أو كسر الباب أو دفعه بالقوة، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصب بسببهم قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم»[1].

قلبت قراهم فصار عاليها سافلها كما قال

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٧٨، ٨.بتصرف.

عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨١].

قال الحافظ ابن حجر: «أهلكهم الله عز وجل على يد جبريل فقلب مدائنهم بعد أن خرج عنهم لوط بأهل بيته إلا امرأته فإنها تأخرت مع قومها، أو خرجت مع لوط فأدركها العذاب فقلب جبريل المدائن بطرف جناحه، فصار عاليها سافلها، وصار مكانها بحيرة منتنة لا يُنتفع بمائها ولا بشيء مما حولها»[1].

ويقول عز وجل: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم:٥٣-٥٤].

والمؤتفكة هي: قرى قوم لوط، سدوم وما حولها: وسميت بالمؤتفكة؛ لأنها انقلبت رأسا على عقب، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾: قيل دفعها جبريل بيده بعد أن اقتلعها ثم أهواها إلى الأرض: أي أسقطها ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ تهويل وتعظيم لما أصابها وعَمَّها وغمرها من عذاب مهين أليم.

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ٩- ١٠].

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي: قرى قوم لوط ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالخطايا الشنيعة، ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أخذة شديدة زائدة في الشدة كما زادت قبائحهم في القبح، يقال: ربا الشيء يربو: إذا ازداد ومن بدائع اللطائف القرآنية قوله تعالى ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ فهُم قد عصوا رسلا كثيرا، ولكن لما كانت دعوة الرسل واحدة ومصدرهم واحد وهو الوحي وغايتهم واحدة كانوا جميعا كرسول واحد يمثل حقيقة واحدة.

ويقول المولى عز وجل عن عذاب قوم لوط: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت:٣٤-٣٥].

والرجز هو العذاب من قولهم: ارتجز إذا اضطرب، وذلك لِما يلحق المعذب من قلق واضطراب وجزع وهلع، وفى هذه الآية إشارة إلى الحالة النفسية التي لازمت قوم لوط حين عاينوا العذاب وحل بهم ؛ بسبب ما كانوا عليه من الفسق، فالعذاب الذي حاق بهم عذاب حسي ومعنوى.

ويقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣].

والسجيل: الحجارة الصلبة، قال قتادة

(١) فتح الباري ٦/ ٤٧٨.

وعكرمة: السجيل: الطين بدليل قوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ فهو الطين الذي جف وأصبح صلبا شديد الصلابة، وقال الحسن: والسجيل عند العرب كل شديد صلب [(١)].

(والمنضود) هو المتواصل المتتابع كطلقات المدافع، قد أعد لعذابهم، والمسومة: هي مالها علامة مميزة، وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من يرمى به، فهي مصوبةٌ موجهةٌ بدقةٍ متناهية.

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر:٣٤].

وقال القرطبي: «أي: ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصى» [(٢)].

ويحتمل أن تكون الحصباء هي الحجارة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ وهذه الحجارة قذفتها الملائكة وحملتها الرياح حتى بلغت أهدافها، والرياح جند من جنود الله عز وجل، ويحتمل أن تكون الحصباء غير الحجارة المشار إليها، وبهذا يكون قد اجتمع على قوم لوط صنفان من العذاب: إرسال الحصباء عليهم بواسطة الرياح التي تثيرها وتحملها، وإمطار السماء عليهم بحجارة من سجيل منضود سريعة متتابعة مسومة لا تخطئ أهدافها.

ويقول عز وجل في سياق الحديث عن عذابهم في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ أي: وقت الشروق، وفي ذلك مباغتةٌ لهم، بين المولى عز وجل صنفا آخر من صنوف العذاب التي حقت بهم وهي صيحة مدوية مزعجة كالرعد القاصف.

وخلاصة ما سبق ذكره: أن قوم لوط عذبوا بأنواع شتى من العذاب طمست أعينهم، وقلبت قراهم وأمطروا بحجارة من سجيل منضود، كما أخذوا بالصيحة المخيفة المرعبة التي تدوي في الآذان فيهتز منها الكيان ويشيب من هولها الولدان.

قال الإمام ابن تيمية «وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار وقلب الديار بأن جعل عاليها سافلها» [(٣)].

وقال الإمام ابن القيم «جمع الله أنواع العقوبات بين الإهلاك وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء فنكل بهم نكالا لم ينكله بأمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها حين

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٨١.
(٢) المصدر السابق ١٧/ ١٤٣.
وانظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٨١، روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٢٥.

تعمل عليها»[1].

لقد صموا آذانهم وأعموا أبصارهم عن صوت الحق ونوره، واختلطت مفاهيمهم وانقلبت موازينهم واستباحوا اللواط وهو أشنع وأفحش من الزنا وأعظم منه جرما وإثما، فعاقبهم الله بطمس أبصارهم التي عمت عن نور الحق، وأخذتهم الصيحة تدوي في آذانهم التي صمت عن الحق، وقلبت قراهم فجعل عاليها سافلها ؛ فلقد انقلبت موازينهم واختلطت مفاهيمهم، فاقترفوا تلك الفاحشة وهى إتيانهم الرجال من دون النساء، وفى هذا انقلاب في ميزان الفطرة، واعتبروا الطهر والعفاف إثما وجرما يستحق صاحبه العقاب والطرد ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل:٥٦].

أما الشذوذ والانحراف فهو حق لهم يجاهرون به ويتباهون بفعله ويطالبون به كما يطالب الإنسان بحقه المشروع ﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٩].

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القمر: ٣٧].

واستعجلوا وقوع العذاب وكان واجبهم طلب الهداية والنجاة، قال تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فكان حالهم في استعجال العذاب كحال كفار قريش حين قالوا كما أخبر القرآن الكريم ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وكان الأولى بكفار قريش أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه وحببنا فيه وثبتنا عليه .

ومن مظاهر انقلاب موازين قوم لوط أنهم اعتبروا واجب الضيافة أمرا منكرا يجب اجتنابه فقالوا للوط عليه السلام ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، هو ينهاهم عن الفحشاء والمنكر وما فيها من إهانةٍ وهم ينهونه عن البر والخير وإكرام الضيف .

لم يراعوا حق الضيافة ولا حرمة الضيف بل هرعوا إلى بيت لوط وراودوه عن ضيفه، وبسبب هذه الأفعال المنكرة التي تدل على انقلاب موازينهم واختلاط المفاهيم عندهم استحقوا العذاب الأليم المهين، حيث قلبت قراهم فأصبح عاليها سافلها، ورجموا بالحجارة وأخذوا بالصيحة، أصناف مختلفة

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ٢٥١.

من العذاب لتنوع جرائمهم وكثرة مفاسدهم وذنوبهم.

لقد حل بقوم لوط أشد وأنكى صنوف العذاب بسبب كفرهم وفسقهم وفى ذلك عبرة لمن يعتبر قال تعالى بعد أن ذكر ما حل بقوم لوط من العذاب الشديد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر:٧٥-٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]. وقال عز وجل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٨٢-٨٣].

وفي سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٧].

بينت الآيات الكريمة مجيء الملائكة لإبراهيم أولًا وإبلاغه بمهمتهم التي وكلوا بها وهي إهلاك قوم لوط، ونجاة لوط ومن آمن به من أهل بيته، وهلاك امرأته مع الهالكين، وتحرج لوط من مجيء الملائكة في صورة بشرية ؛ خوفا عليهم من قومه وحين اشتد عليه الأمر أخبروه بحقيقتهم ومهمتهم، حيث حل العذاب على أولئك الفساق، وجعلهم الله عبرة واضحة وموعظة بليغة لكل عاقل .

فوائد وعبر من قصة لوط عليه السلام

في قصة لوط عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم الكثير من الدروس المستفادة نذكر منها ما يأتي:

١. جعل الله تعالى قوم لوط عبرة لمن يعتبر، عبرة لكل مكذبٍ عبرة لكل ظالم وفاسق، عبرة لكل مسرف عادٍ، فهذا شعيب عليه السلام يحذر قومه من مصير من سبقهم على طريق الكفر والضلال فيقول كما أخبر القرآن: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود: ٨٩]. وقد ضرب الله بهم المثل في أمم هالكة وقرون غابرة قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ [ق: ١٢-١٤]. وقال جل وعلا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: ٤٢-٤٦]. وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ [الحجر:٧٣-٧٧]. وقال جل وعلا: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٩].

٢. درسٌ في التربية والدعوة: إعداد الله تعالى لأنبيائه هؤلاء الأنبياء وهم أعلم الخلق بربهم وأعظمهم خشية له وهم المثل العليا في الأخلاق والآداب والسلوك والتعامل: كيف تربوا ؟ وفي أي مدارس تخرجوا ؟ إنها تربيةٌ خاصةٌ وإعدادٌ رشيد، فالله تعالى يعده لهذه المهمة الجليلة التي لا يقوم بها ولا ينهض لها إلا رجالٌ من طراز خاصٍ. فهذا لوطٌ عليه السلام يتربى في كنف عمه إبراهيم ويعاين تلك الآية الكبرى كيف ألقي في النار فكانت له بردا وسلامًا.

٣. التوحيد هو أساس دعوة جميع الأنبياء، ولقد استهل لوط عليه السلام دعوته بعرض العقيدة الصحيحة الخالصة، عقيدة التوحيد .

٤. العقيدة أولًا: بدأ بها لوط لأنها الأساس الذي تقوم عليه المكارم والفضائل، الأصل الذي تقوم عليه القيم والأخلاق. بدأ بالعقيدة قبل أن ينكر على قومه ما هم فيه من الفاحشة والمنكرات، وذلك لأن الطريق إلى الإصلاح المنشود، الإصلاح الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، لا بد أن يبدأ من إصلاح العقيدة وإخلاص العبادة، فإذا صحت العقيدة ورسخت في قلوب المؤمنين، وخلصت العبادة لله رب العالمين كان الطريق إلى الإصلاح والتغيير طريقا سهلا ممهدا، وبدون العقيدة الصحيحة لن تفلح أي محاولة للإصلاح أو التغيير. فالعقيدة هي الحصن الحصين والأساس المتين والنبراس المبين للدعاة والمصلحين، وفي قول لوط عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ [الشعراء:١٦٢] بيان لأهمية الأمانة للدعاة، أمانة الكلمة، أمانة النصيحة، أمانة التبليغ.

٥. تجرد الأنبياء وإخلاصهم في الدعوة إذ لم يتقاضوا عليها أجرا من البشر، وإنما الأجر كله من الله الذي بعثهم .

٦. ضرب لوط عليه السلام أروع الأمثلة في الصبر والثبات على الحق، والحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل والثقة بالله تعالى واليقين بوعده سبحانه الذي لا يتخلف، كما ضرب عليه السلام أروع الأمثلة في إكرام الضيف ورعاية حقوقهم والترحيب بهم حتى في أصعب الأحوال، فلقد استضافهم عليه السلام رغم أن قومه نهوه عن ضيافة الغرباء وحذروه من عاقبة ذلك، وحين هرع قومه إلى بيته وراودوه عن ضيفه نجده يدافع عن ضيفه، ويذود عنهم بكل ما يملك حتى وصل به الأمر إلى عرض بناته على قومه - ليتزوجوا بهن - في مقابل عدم تعرضهم للضيف الكرام وفى هذا درس هام في إكرام الضيف، ولنا في أنبياء الله الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة .

٧. في موقف لوط عليه السلام من قومه حين هرعوا إلى بيته وراودوه عن ضيفه، وحاول بكل السبل منعهم، وصدهم حتى ضاقت به السبل فالتفت إلى ضيفه واعتذر لهم، ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ في هذا الموقف إشارة إلى أهمية القوة في نصرة الحق وفي نشر الدعوة وفي مواجهة أهل

الباطل، فالحق لا بد له من قوة تحميه . ولذلك كان الجهاد في سبيل الله للقضاء على النظم الجاهلية التي تحول دون وصول الحق وتكره الإنسان على عبادة غير الله وتقف للمسلمين بالمرصاد فلا بد إذا من الجهاد لإزالة وإزاحة هذه النظم المتسلطة الجائرة، حتى يكون الطريق ممهدا لدعوة الله، لتجد طريقها إلى القلوب الصادقة والنفوس المتشوقة والعقول المتعطشة لدين الله، دين الحق والرشاد . ولا بد من الجهاد لحماية المؤمنين المستضعفين المضطهدين . قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال:٣٩]. ولقد حثنا الإسلام على إعداد القوة في مواجهة أعداء الله الذين يصدون عن سبيله ويبغونها عوجا قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فالقوة في الإسلام وسيلة لا غاية، وسيلة نبيلة إلى غاية سامية هي إرهاب أعداء الله؛ لأنهم متى استهانوا بالمؤمنين قهروهم . قال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة:٢].

٨. ويستفاد من هذه القصة أن الكافر يعاقب على كفره ولا تنفعه قرابته من أهل الإيمان في النسب أو المصاهرة، كما أن المؤمن يثاب على إيمانه ولا يضره قرابته من الكافرين في النسب أو المصاهرة. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم:١٠]. وامرأة لوط رغم أنها أقرب الناس إليه وأعلمهم بأحواله وأفعاله إلا أنها كذبت به وآثرت ما عليه قومها من الكفر والضلال على ما جاء به لوط عليه السلام من الإيمان والهدى والفلاح والصلاح، فلم تنفعها قرابتها له وقربها منه. قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٣]. وقال تعالى ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٦٠]. نجا الله لوط عليه السلام ومن آمن به من أهل بيته وأهلك زوجته، تلك العجوز التي شبت على الكفر وشابت عليه، وكان الأولى بها

وقد أصابها الكبر فبدل قوتها ضعفا وهوانا وشبابها شيبا، فكان بلوغها الكبر: من أبلغ النذر، ومن أعظم العبر. ومنطق الحق يقول: إن الإنسان كلما كبر سنه كلما نضج عقله وصفا ذهنه وجادت قريحته وزادت خبرته وفراسته، ولكن امرأة لوط تلك العجوز على النقيض من ذلك فهي ما زادتها أحداث الليالي وتتابع الأعوام إلا غفلة على غفلة وضلالا على ضلال.

٩. كما يعاقب الكافر على جميع جرائمه، وفي مقدمتها الكفر وهو أكبر الذنوب، فإنه يعاقب على سائر الذنوب كبيرها وصغيرها. التناسب بين الجريمة والعقاب ؛ فقوم لوط كانوا يحذفون عابري السبيل بالحجارة فأيهم أصابه استأثر به واعتدى عليه، وقد انقلبوا وتمردوا على الفطرة السليمة والطبيعة المستقيمة، فصار الشذوذ عندهم معروفا ومألوفا وصارت الفاحشة عندهم حقًا مشروعًا، وصار الطهر والعفاف جريمةً يؤاخذ بها أصحابها، فكان الجزاء من جنس العمل، قلب الله قراهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من جهنم، وسلط عليهم الريح، ترجمهم بالحجارة، وأخذتهم الصيحة وغير ذلك من ألوان العذاب التي كثرت لكثرة جرائمهم.

١٠. وصف الله لوطا ومن آمن به من أهل بيته بالشكر. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ وقد يتساءل البعض ويقول: أي شكرٍ وقد ابتلوا بأرذل قوم، قوم لوطٍ الذين جمعوا بين الكفر والفسوق والعصيان والانحلال والتبجح والدناءة وسائر ما يعد من مساوئ الأخلاق ؟ لكن أقول: إن أمر المؤمن كله خير فهو بين الصبر والشكر، يحمد الله تعالى على الضراء، كما يحمده على السراء، يشكره تعالى في زمان الفتن وأوقات المحن كما يشكره في سائر الأوقات، يستنشق نسيم النعم ويتذوق حلاوة الهداية ويعتز بالحق ويستعصم بالعفاف والطهر، سيما إذا رأى المجتمع من حوله يتردى في ظلمات الكفر، أو يتمرغ في أوحال الرذيلة، أو يكتوي بلهيب المعاصي، ويتقلب على جمرها الحار، فيحمد الله تعالى على أن هداه وعصمه وطهره ونجاه من حمأة الرذيلة، فيشعر بجنة الرضا وبرد اليقين وحلاوة الإيمان، ولذة الطاعات، فهلاك الظالمين ونجاة المتقين نعمة من الله تعالى تستوجب

الشكر.

١١. سنن الله تعالى ثابتة لا تتغير فهؤلاء قوم لوط توعدوه بإخراجه من قريته؛ لأنه كان ينكر عليهم عبثهم ومجونهم وقد جاءهم بالحق ولكنهم كانوا كارهين له، ونبينا صلى الله عليه وسلم أخرجه قومه؛ لأنه جاءهم بالتوحيد ومكارم الأخلاق ونقض ما كان عليه أهل الجاهلية من كفر وطغيان، وقد روت عائشة رضي الله عنها في حديث كيف كان بدء الوحي ؟: (فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أو مخرجي هم)، قال: نعم، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)[١].

١٢. ذم اللواط وعقوبة فاعله: اللواط من أكبر الفواحش، ومن أفحش الكبائر، وهو مرض خطير وشر مستطير وجرم كبير، عاقبته وخيمة ونهايته مفزعة مفجعة أليمة، وهو شذوذ وانحراف، وفسوق وإسراف وضلال وانحلال، ومذلة للرجال ؛ لأنه يقتل فيهم الرجولة والمروءة والشهامة، ويصيروا بارتكابه مخنثين معقدين أذلاء صاغرين، في حالة قلق واضطراب . واللواط مفسدة للنساء ؛ إذ ينصرف الرجال عنهن، وقد تلجأ المرأة إلى الزنا لإشباع رغبتها وقد تلجأ إلى السحاق، كما روي أن نساء قوم لوط فعلن ذلك حين انشغل الرجال عنهن بالرجال، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (إنما حق القول على قوم لوط حين اشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء)[٢]. واللواط جناية على الفطرة السليمة ومفسدة للشباب، حيث ينصرفون عن الزواج الحلال وينغمسون في أوحال تلك الفاحشة، كما يترتب على اللواط قلة النسل بسبب الانصراف عن الزواج، وبذلك تتقوض أركان الأسرة وينفرط عقد المجتمع وتنهار الحضارات، فاللواط عامل كبير من عوامل الفساد، ومعول ثقيل من معاول الهدم للنفس والمجتمع، وهو سبب أساسي في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٣٩، رقم ٢٥٢.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢١/ ٢٤.

انتشار كثير من الأمراض الفتاكة المزمنة كالزهري والسيلان والهربس، ومرض الايدز الذي لم يعرف إلا سنة ١٩٨١م، ومن ذلك الحين وحتى وقتنا هذا لم يعرف له علاج رغم التقدم العلمي الكبير.

١٣. في استئصال قرى قوم لوط إشارة إلى أن المريض بهذا الشذوذ إن لم يتب فلا بديل عن استئصاله من المجتمع .

١٤. ربط العلماء بين جعل قرى قوم لوط عاليها سافلها ليطمروا في التراب، وبين ضرورة دفن المصابين بالإيدز بعد موتهم، حيث يوصى بحرق الجثة وطمرها في التراب على أعماق بعيدة لأن مرض الإيدز ينتقل عن طريق دم المريض ولعابه ومنيه. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: (يا معشر المهاجرين ! خصالٌ خمسٌ إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطَّاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم ويأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بينهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم)[1]. فالأمراض الجنسية السالفة الذكر عقوبة إلهية للزناة واللوطيين الذين تعدوا حدود الله وانتهكوا محارمه. انتشار اللواط في المجتمعات الكافرة: وما يؤسف له أن اللواط قد انتشر انتشارًا واسعًا في المجتمعات الكافرة، مع كثرة النساء وانتشار البغاء، ففي الدول الغربية قوانين وتشريعات تبيح اللواط وتشجع عليه طالما كان بين بالغين دون إكراه. وفى دائرة المعارف البريطانية [2] أن الشواذ جنسيا خرجوا من دائرة السرية إلى العلنية وأصبح لهم منتدياتهم - نوادي العرى - وحدائقهم، ومراحيضهم الخاصة بهم، وتعرف الشرطة هذه الأماكن وتقوم على حمايتها ورعايتها. وهناك آلاف الجمعيات في الغرب ترعى شئون الشواذ جنسيًا وتطالب لهم بمزيد من الحقوق، ولقد أصبحوا

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم ٤٠١٩، ٢/ ١٣٣٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢١، رقم ٧٩٧٨.

(٢) دائرة المعارف البريطانية ١٢/ ٦.

قوة لا يستهان بها، وورقة رابحة ناجحة في الانتخابات العامة والرئاسية، ولقد وجدنا كبار الساسة والقادة يخطبون ود الشواذ ويغرقونهم بالوعود إن هم وقفوا بجانبهم في حملاتهم الانتخابية، فإذا حقق هؤلاء الساسة والقادة بغيتهم وفازوا بالمناصب فإنهم يسارعون إلى تحقيق ما وعدوا به من تنازلات للشواذ جنسيًا، ولو نظرنا على سبيل المثال للحملات الانتخابية لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية لوجدنا كيف يتبارى المرشحون ويتنافسون على كسب أصوات الشواذ، بل إن نسبة كبيرة من الشواذ تتبوأ مقاعد حساسة ومناصب هامة في الحكومات الغربية بل وفى الجيوش، وفى أمريكا وأوروبا كنائس مخصصة للشواذ يباح فيها للرجل أن يتزوج بالرجل، وللمرأة أن تتزوج من المرأة، بل إن بعض الجامعات في الولايات المتحدة تخصص منحا دراسية للشواذ فقط، ومن هذه الجامعات جامعة سير جورج وليامز، ولا يمكن للطالب أن يحصل على منحة بتلك الجامعات إلا إذا ثبت أنه شاذ جنسيا. وفي إحدى المجلات الصادرة في انجلترا والخاصة باللوطيين نجد هجوما متتابعا على موقف الكنيسة من الشذوذ ولقد قام أحد الكرادلة بالرد على هذا الهجوم فقال: إن الكنيسة البروتستانتية هي في حالة مخاض الآن، وأنه عما قريب ستعترف الكنيسة بالشذوذ الجنسي وأنه شخصيا يرى أنه أمر عادى مألوف، ولا مانع في نظره من أن يصبح الشاذ قسيسًا. وفي اجتماع مجلس الكنائس الإنجليزية وافق المجلس بأغلبية الأصوات على إباحة الشذوذ الجنسي بشرط حدوثه بين بالغين مختارين، وكان كبير الأساقفة في كانتربري هو الذي قاد الحملة التي تهدف إلى إباحة الشذوذ، ولقد صرح قائلًا: «إنه يشعر بالقلق لما يصيب الشخص المصاب بالشذوذ الجنسي من ظلم القانون، في حين يستطيع أي شخص آخر أن يدمر أسرة ويشردها بدون عقاب يوقع عليه» . فأي منطق هذا وأي عدالة يسعى إليها كبير الأساقفة !! إن كلامه هذا يعنى أنه يجب إباحة كل الجرائم وعدم توقيع العقاب على مرتكبيها طالما أن هناك من يتمكنون من الإفلات بجرائمهم! ولقد ذكرت إحدى الإحصائيات أن نسبة كبيرة من القساوسة في انجلترا شواذ جنسيًا[1]. ومجمل القول فيما

(١) انظر: مجلة المجتمع الكويتية، سنة ١٣ عدد

سبق: أن الزنا واللواط قد انتشر في المجتمعات الغربية المنحلة كانتشار النار في الهشيم وما ذلك إلا بسبب بعدهم وضلالهم عن الحق، وترفهم وإسرافهم، واستغلالهم التقدم العلمي الهائل والغنى المادي الفاحش في إشباع الشهوات والنزوات. يقول الأستاذ فتحي يكن: «إن انحراف التربية وانعدام الحس الديني، وفساد الأخلاق من شأنها جميعا أن تهيئ الأجواء والمناخات المناسبة للانحراف والشذوذ، وإن الفراغ والترف وتميع مواقف القوانين الوضعية من الجرائم الأخلاقية والجنسية من الأسباب الرئيسية الكامنة وراء ظاهرة الشذوذ الجنسي»[1].

١٥. الحلال هو الطيب الذي يتلاءم مع الفطرة بينما الحرام هو الخبيث الذي يجافي الفطرة وينافي الذوق وتعافه النفوس السوية وتأباه القلوب السليمة، وأبواب الحلال كثيرة وواسعة وميسورة، والزواج حصن للشباب وعصمة من الانحراف، هذا لوط عليه السلام عرض بناته على قومه عرضًا حقيقيًا، ومقصده من ذلك أن يرغبهم في الحلال الطيب ويصرفهم عن الفاحشة، وأن يردهم إلى الفطرة السليمة والطبيعة المستقيمة ويبعدهم عن الشذوذ والانحراف، وأن ينقلهم من مستنقعات الرذائل ودنس الفواحش، ويأخذ بأيديهم إلى واحة الطهر والعفاف، والزواج هو الحصن الحصين من جميع الانحرافات الجنسية، فإذا قبلوا وتزوجوا من بنات لوط عليه السلام كان الزواج الحلال الطيب سنة ماضية في سائر القوم وبذلك ينصرف الجميع عن الفاحشة.

١٦. تعاطي المحرمات عدوانٌ وانحرافٌ وجهلٌ وإسراف.

١٧. ذم المراء بالباطل، بل يجدر بالمؤمن ترك المراء ولو كان محقا.

١٨. أسلوب لوط عليه السلام في دعوة قومه يجلو لنا حكمته وفطانته وأدبه وبلاغته، حيث براعة الاستهلال، والإيجاز والبيان، والبساطة والوضوح، وتقديم الأهم، وحسن التشويق ودقة الوصف، وبلاغة الإنكار والتنفير.

١٩. أثنى الله تعالى على من آمن بلوط عليه السلام ولم يؤمن به إلا أهل بيته ولم يذكر القرآن سوى بناته، ولقد وصف الله أهل بيته بالإسلام والإيمان، وأثنى على شكرهم ووصفهن لوط بالطهر بل

٦٤٩.

(١) الإسلام والجنس ص ٤٩.

وصف قوم لوطٍ آل بيته بالطهر، وفي جمعهم بين الإيمان والإسلام والطهر والشكر أبلغ رد على مفتريات اليهود في العهد القديم واتهامهم لبنات لوط بأبشع التهم وهن المؤمنات الطاهرات الشاكرات الناجيات. قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ [هود: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿۞ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات: ٣١-٣٦]. وقال سبحانه: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النمل: ٥٦]. وقال عز وجل: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٥]. قال الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه «إغاثة اللهفان»: قد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه، دون سائر الذنوب، وإن كان مشتملًا على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ [التوبة: ٢٨].

٢٠. وقوله تعالى في حق اللوطية: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤﴾ [الأنبياء: ٧٤]. وقالت اللوطية: ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. فأقروا مع شركهم وكفرهم، أنهم هم الأخباث الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له. وقال تعالى في حق الزناة: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ [النور: ٢٦]. وأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة. فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل، فإن الله عز وجل لا يغفر أن يشرك به، والمخففة: الشرك الأصغر، كيسير الرياء، و التصنع للمخلوقات والحلف به، وخوفه ورجائه. ثم قال: ونجاسة الزنى واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جدًا. ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركًا، فكلما كان الشرك في العبد أغلب، كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصًا، كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: ٢٤].

أحكام متعلقة بالقصة

أولًا: عقوبة اللواط في الشريعة الإسلامية:

اختلف الفقهاء في عقوبة اللوطي، وذلك على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: وهو مذهب الإمام مالك والإمام أحمد وقول للشافعي وهو أن حد اللوطي القتل فاعلا كان أو مفعولا، محصنا كان أو غير محصن، وهذا القول مروى عن أبي بكر وعمر وعلي وابن عباس رضي الله عنهم ونقل بعض الحنابلة إجماع الصحابة على ذلك [(١)].

واستدل أصحاب هذا الرأي بما يلي:

١- الحديث الذي رواه الخمسة إلا النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول)** [(٢)].

٢- كما استدل أصحاب هذا المذهب بما روى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن رجل ينكح كما تنكح النساء فكان أشدهم يومئذ قولا على بن أبي طالب رضي الله عنه قال: هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم، نرى أن نحرقه بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره أن يحرق بالنار من فعل هذا الفعل [(٣)].

قال ابن القيم في زاد المعاد: «ولم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قضى في اللواط بشيء؛ لأن هذا لم يكن معروفا عند العرب ولم يرفع إليه صلى الله عليه وسلم ولكنه ثبت عنه أنه قال: **(اقتلوا الفاعل والمفعول به)** رواه أهل السنة الأربعة و إسناده صحيح وقال الترمذي: حديث حسن، وحكم به أبو بكر الصديق وكتب به إلى خالد بن الوليد بعد مشاورة الصحابة وكان على رضي الله عنه أشدهم في ذلك . وقال ابن القصار وشيخنا: أجمعت الصحابة على قتله، وإنما اختلفوا في كيفية قتله، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يرمى من شاهق. وقال على رضي الله عنه: يهدم عليه حائط. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يقتلان بالحجارة. فهذا اتفاق منهم علي قتله وإن اختلفوا في كيفيته» [(٤)].

أقول وورد عن على كما ذكرنا آنفا أنه

(١) انظر: المغني، ابن قدامة ٨/ ١٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم ٤٤٣٨، والترمذي في سننه، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوط، رقم ١٤٥٦، ٤/ ٤٧.
قال الترمذي: حديث حسن.
وصححه ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٢٩.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي ٨/ ٢٣٢.

(٤) زاد المعاد ٣/ ٢٩.

أمر بحرق من فعل هذا الفعل، وإنما ذكر الصحابة الكرام هذه الكيفيات المختلفة؛ لأن الله تعالى عذب قوم لوط بصنوف مختلفة من العذاب.

المذهب الثاني: أن اللواط في حكم الزنا، يرجم المحصن ويجلد غير المحصن فاعلا كان أو مفعولا، وهذا هو مذهب الشافعية، وقد استدلوا على مذهبهم بالنص والمعقول.

أما النص: فالحديث الذي رواه البيهقي في السنن والطبراني في الكبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان)[1].

وأما المعقول: فلقد قالوا إن الزنا عبارة عن إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعا محرم شرعا، والدبر أيضا فرج لأن القبل إنما سمي فرجا لما فيه من الانفراج، وهذا المعنى حاصل في الدبر فيكون حكم اللواط كحكم الزنا[2].

المذهب الثالث: وهو مذهب الأحناف[3]: الذين قالوا بأن في اللواط التعزير، إذ أن اللواط غير الزنا، فاللواط يقع بين الرجل والرجل، أما الزنا فهو اسم لوطء الرجل للمرأة التي لا تحل له، والزنا تشتهيه النفس ويميل إليه الطبع، أما اللواط فإن الطباع السليمة والفطرة المستقيمة تأباه وتستهجنه وتستقذره، والزنا أعظم ضررا لما يترتب عليه من فساد الأنساب.

والذي أرجحه في هذه المسألة أن اللوطي يقتل محصنا كان أو غير محصن، فاعلا كان أو مفعولا به، وهذا هو مذهب الإمام مالك وأحمد وقول للشافعي وهو المروي عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحديث الذي استندوا إليه (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال ابن القيم: حديث صحيح، وقال الترمذي: حديث حسن، وقال الشوكاني معلقا على روايات الحديث: وهي بمجموعها تنهض للاحتجاج بها، أما الحديث الذي استدل به الشافعية (إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان وإذا أتت المرأة

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحدود باب ما جاء في اللوطي، ٨/ ٢٣٣.
قال الحفاظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ٥٥ بعد أن عزاه للبيهقي: وفيه محمد بن عبد الرحمن القشيري، كذبه أبو حاتم، وأخرجه أبو الفتح الأزدي في الضعفاء، والطبراني في الكبير من وجه آخر عن أبي موسى وفيه بشر بن الفضل البجلي وهو مجهول.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ١٣٢، آيات الأحكام، السايس ٣/ ١١٤، روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ٢/ ٤٣.

(٣) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ٤٥.

المرأة فهما زانيتان) فهو حديث ضعيف الإسناد كما ذكرنا في تخريجنا له، وعلى فرض صحته فإنه لا يصرح بأن حكم اللواط هو حكم الزنا، وإنما يفيد الترهيب من اللواط وأنه محرم وكبيرة من الكبائر كالزنا.

يقول الإمام الشوكاني: «واحتجوا بأن اللواط نوع من أنواع الزنا، إيلاج فرج في فرج؛ فيكون اللائط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة في الزاني المحصن والبكر، ويؤيد ذلك حديث (إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان) وعلى فرض عدم شمول الأدلة المذكورة لهما فهما لاحقان بالزاني بالقياس، ويجاب عن ذلك بأن الأدلة الواردة بقتل الفاعل والمفعول به مطلقا مخصصة لعموم أدلة الزنا الفارقة بين البكر والثيب على فرض شمولها للوطي ومبطلة للقياس المذكور على فرض عدم الشمول ؛ لأنه يصير فاسد الاعتبار كما تقرر في علم الأصول، وما أحق مرتكب هذه الجريمة ومقارف هذه الرذيلة أن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين ويعذب تعذيبا يكسر شهوة الفسقة المتمردين، فحقيق بمن أتى فاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين أن يصلى من العقوبة بما يكون فى الشدة والشناعة مشابها لعقوبتهم، وقد خسف الله بهم واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم»[1].

ثانيًا: حرمة إتيان النساء في أدبارهن:

قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وفى هذه الآية بيان لحرمة إتيان النساء في أدبارهن ؛ لما في ذلك من الأذى والضرر وسبب نزول هذه الآية الكريمة ما ورد عن جابر رضي الله عنه قال: «كانت اليهود تقول: من أتى امرأته في قبلها من دبرها كان الولد أحول فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[2].

فإتيان المرأة في دبرها فإنه أمر تنفر منه النفوس وتأباه العقول، وهو مخالف للطبيعة السليمة والفطرة المستقيمة، ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: موضع حرث، وفى هذا إشارة إلى أن موضع الجماع هو الحرث وهو الفرج؛ لأنه موضع الولد كما أن الأرض موضع الزرع.

فالمرأة كالأرض والنطفة كالبذرة والولد كالنبات ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: كيف شئتم، يباح لكم الاستمتاع بالنساء، وإتيانهن

(١) نيل الأوطار ٧/ ١١٨ بتصرف.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير باب (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم)، رقم ٤٥٢٨.

في موضع الحرث مقبلات كن أو مدبرات.

ومن الأضرار الناتجة عن إتيان النساء في أدبارهن: تهتك الشرج والمستقيم وعدم التحكم في الغائط، لذلك فإنه معرض للنزول بصورة لا إرادية، هذا إلى جانب ماينتج عن هذا الفعل القبيح من عقد نفسية للرجل والمرأة ومن تنافر وتباغض بينهما، بالإضافة إلى الانصراف عن موضع الحرث كما أنه لا يشبع الرغبة الجنسية للمرأة والرجل، ويفتح الباب إلى الزنا، وهذا الفعل القبيح يساعد على نقل الأمراض الجنسية التي سبق الإشارة إليها[1].

موضوعات ذات صلة:

إبراهيم عليه السلام، العذاب، الفواحش، النبوة، النساء

(١) انظر: مع الطب في القرآن الكريم، عبدالحميد دياب، وأحمد قرقوز ص ٤٧.

الليل

عناصر الموضوع

مفهوم الليل	٢٨٢
الليل في الاستعمال القرآني	٢٨٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٨٤
الليل آية كونية	٢٨٦
أوصاف الليل	٢٩١
أجزاء الليل	٢٩٧
الليل والعبادة	٣٠٠
الليل والعذاب	٣٠٤
ليالٍ فاضلة ذكرت في القرآن	٣٠٦
لمساتٌ إعجازية في الليل	٣١٠

مفهوم الليل

أولًا: المعنى اللغوي:

يطلق الليل اسمًا على الزمن، وهو أشهرها، ولذلك يقولون: هو ضد النهار وخلافه[(١)]. وهو الظلام الذي يحل فيه[(٢)]. والليل: واحدٌ بمعنى جمع، وواحده ليلةٌ كـ تـمرةٌ وتـمرٌ[(٣)]، والجمع: ليالٍ وليائل وليالي[(٤)]، والليل اسمٌ لكل ليلة[(٥)]، وعليه: يكون القصد منه الزمن.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

حد الليل عند المفسرين والفقهاء يختلف عنه عند أهل اللغة، وبناءً على ما سبق من تعريف الليل عند أهل اللغة، يتضح ارتباط المعنى اللغوي والاصطلاحي في كونه مدة زمنية، لها وقت ابتداء وانتهاء؛ فاتفقوا في وقت الابتداء وهو غروب الشمس، ووقع الاختلاف في تحديد مدة انتهاء الليل، فأهل اللغة حدوه إلى طلوع الشمس، والفقهاء حدوه إلى طلوع الفجر الصادق الثاني، وهو الموافق لنص القرآن الكريم كما جاء في آية الصيام.

ومن هنا فإن الليل هو عبارة عن: ظلام يـحل كل يومٍ عقب النهار، مبدؤه من غروب الشمس، إلى طلوع الفجر الثاني الصادق[(٦)].

وعليه؛ ففي التعريف قيدان:

الأول: حلول الظلام وذهاب الضياء، وهذا يتم تدريجيًّا بدخول أحدهما وذهاب الثاني، كما قال الإمام ابن جرير الطبري (رحمه الله ٣١٠هـ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]. «إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا»[(٧)].

الثاني: مدة زمن ابتداء الليلة وانتهائها، وهو من طلوع الشمس إلى طلوع الفجر الثاني.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٣١٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٢٥، لسان لعرب، ابن منظور، ٨/ ١٧٨.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٣١٨، لسان لعرب، ابن منظور ٨/ ١٧٨.
(٣) لسان لعرب، ابن منظور ٨/ ١٧٨.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٥٨٩، لسان لعرب، ابن منظور ٨/ ١٧٨.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ١٤٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٩٣، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٠٧، نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٧٧، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٩٣.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤.

الليل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ليل) في القرآن الكريم (٩٢) مرة [١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٨٨	﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر:٥]
الجمع	٤	﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة:٧]

وجاء الليل في القرآن الكريم بمعناه اللغوي الذي: هو ما يعقب النهار من الظلام؛ من غروب الشمس إلى طلوعها أو إلى طلوع الفجر [٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٥٦-٦٥٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص١١٦١-١١٦٢.

(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٢٨٧، عمدة الحفاظ، الحلبي ٤/ ٦٠-٦١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٤٧١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الظلمة:

الظلمة لغة:

والظلمة: ضد النور، وضم اللام لغةٌ، وجمع الظلمة (ظلمٌ) و(ظلماتٌ) و(ظلماتٌ) و(ظلماتٌ) بضم اللام وفتحها وسكونها، وقد (أظلم) الليل، و(الظلام) أول الليل، و(الظلماء) الظلمة، وربما وصف بها، يقال: ليلةٌ ظلماء، أي: (مظلمةٌ) و(ظَلِمَ) الليل بالكسر (ظلامًا) بمعنى (أظلم) وأظلم القوم دخلوا في الظلام[١].

الظلمة اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «الظلمة: عدم الضوء فيما من شأنه أن يكون مضيئًا»[٢].

الصلة بين الظلمة والليل:

هناك علاقة اقتران بين الظلمة والليل، فالظلام مقترن بالليل، كالضياء مقترن بالنهار.

٢ النهار:

النهار لغة:

هو الضياء الواسع ممتد ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والنهار ضد الليل، يقال: طرفي النهار: أي أوله وآخره[٣].

النهار اصطلاحًا:

قال الألوسي النهار هو: «ما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس»[٤].

وقال ابن باديس النهار: «هو الوقت الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيؤه بنورها»[٥].

الصلة بين النهار والليل:

النهار من الألفاظ المقابلة للفظة الليل، وغالب آيات الليل جاءت مقرونة بلفظ النهار.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦٨، مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٩٧.
(٢) التعريفات ص١٤٤.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ٣١٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢٢٩٢، معجم وتفسير لغوي لألفاظ القرآن، محمد حسن الجمل ٥/ ١٢٢.
(٤) روح البيان، ٦/ ٢٢٢.
(٥) انظر: تفسير ابن باديس، ص٤٥.

٣ النور:

النور لغةً:

قال ابن فارس: «النون والواو والراء أصلٌ صحيح يدل على إضاءةٍ واضطراب وقلة ثبات. منه النور والنار، سُمِّيا بذلك من طريقة الإضاءة؛ ولأن ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة»[(١)].

النور اصطلاحًا:

قال الراغب: «النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار»[(٢)].

الصلة بين النور والليل:

النور من الألفاظ المقابلة للفظة الظلام، فالنور عكس الظلمة، وأتي به هنا؛ لأنه خاصية للنهار كما أن الظلمة خاصية الليل.

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٢٩٤.
(٢) المفردات ص٨٢٧.

الليل آية كونية

أولًا: الليل نعمة إلهية:

إن من رحمة الله عز وجل بخلقه أن سَيَّرَ ونَظَّمَ لهم أمور حياتهم، وجعل الليل والنهار شاهدين على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

«ووجه تسخير هذه الأشياء لنا: هو أن الله خلقها، وجعل فيها منافع للخلق؛ فجعل في النهار معاشًا للخلق وتقلبًا فيه يتعيشون، وجعل الليل راحةً لهم وسكنًا، ينتفعون بهما، وكذلك ما جعل في الشمس والقمر والنجوم من المنافع: من إنضاج الفواكه والثمرات، وإدراك الزروع وبلوغها، ومعرفة الحساب والسنين والأشهر، ومعرفة الطرق والسلوك بها، وغير ذلك من المنافع ما ليس في وسع الخلق إدراكه»[(١)].

ولذلك قال الله تعالى بعد هذه الآية ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨].

فجعل الليل من ضمن النعم المحكية.

ولليل فوائد عظيمة ذكرها الله عز وجل في القرآن الكريم، ومن هذه الفوائد:

١. أنه جعل الليل سكنًا ولباسًا، والنوم فيه سباتًا.

وهذه منة عظيمة من الله تعالى؛ إذ السكون راحة لكل متحرك بالنهار، فتهدأ به النفوس من التعب وتستقر الأبدان[(٢)].

قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِۚ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأنعام: ٩٦].

كما أنه سبحانه وتعالى جعل النوم سباتًا، أي: راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال.

قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وأصل السبات من التمدد. وقيل: للنوم سبات؛ لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة[(٣)].

وفي الآية «إشارة إلى أن النوم ظاهرة غير ظاهرة الراحة والسكون، فقد يستريح الإنسان ويسكن، ولكن وجوده كله حركة عن طريق العقل، الذي لا يكف عن العمل والتفكير، إلا بالنوم المستغرق، الذي يسكن فيه العقل، كما تسكن الجوارح، فالسبات

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٤٨٣ بتصرف.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٥٧، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ٢١١٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٨ بتصرف.

هو السكون التام»[1].

ووصف سبحانه في الآية السابقة الليل بأنه كاللباس الذي يستر البدن ويواريه عن الأنظار، فكأن الليل إذا دخل بظلامه غطى كل شيء وستره لكي ترتاح معه خلايا الكائنات الحية وتستعد لمزاولة عملها بنشاط في النهار[2].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

وتكرر جعل الليل للسكن في سورة يونس (٦٧)، وسورة القصص (٧٣)، وسورة غافر (٦١).

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ «أي: فيه ظلامٌ تسكن بسببه حركاتهم، وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم»[3].

٢. المصالح الدنيوية المترتبة على تعاقب الليل والنهار واختلافهما.

وهذه المصالح مسخرة للإنسان لكي تستمر دورة الحياة لديه.

ولذلك حث الله تعالى أولي الألباب على التفكر في اختلاف الليل والنهار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

قال السمين الحلبي (رحمه الله ٧٥٦هـ): «والمراد باختلاف الليل والنهار: تعاقبهما، وذهاب هذا ومجيء الآخر، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]»[4].

وفائدة تعاقب الليل والنهار وزيادة ساعات أحدهما على الآخر في فصول السنة الأربع: اختلاف الثمار وتنوعها بحسب الفصل التي هي فيه، فهناك ثمار لا تأتي إلا في الصيف، وأخرى في الشتاء، وهكذا.

ولذلك قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿تُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ﴾ [آل عمران: ٢٧].

«أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة: ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاءً»[5].

وقال سيد قطب: «وجعل حاجتهم إلى النشاط والعمل يلبيها الضوء والنهار، وحاجتهم إلى النوم والراحة يلبيها الليل والظلام، مثلهم مثل جميع الأحياء على ظهر هذا الكوكب على نسب متفاوتة في هذا ودرجات، وكلها تجد في نظام الكون العام

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٣٥.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٩٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢١٥.
(٤) القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز، تحقيق سورة آل عمران، ص ٣٧٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩.

ما يلبي طبيعتها ويسمح لها بالحياة»[1].

٣. تجدد دورة الحياة واستمرارها.

فلو كانت الحياة ليلًا لتعطلت مصالح الخلق، ولو كانت نهارًا لما وجد النوم والسكن والسبات، وكذلك الأمر في الكائنات الحية الأخرى كالنبات، فهي تحتاج للظلام كما تحتاج للنور، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقد جاءت الإشارة في ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

فوجود الليل أو النهار للأبد بمفرده يترتب عليه حصول الضرر بالخلق، وحصول السآمة والملل والتعب[2]، فكان من حكمة الله وقضائه أن جعلهما متعاقبين.

٤. معرفة الأزمنة والأوقات، والاستدلال بها على الطرقات.

قال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

ولا شك في أن لمعرفة الزمن والوقت فائدة عظمى للمسلم وهي تنظيم وقته، وتحديد أهدافه وأعماله في اليوم والليلة.

قال ابن كثير: «يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك»[3].

ثانيًا: التفكر في آية الليل:

إن المتأمل في كتاب الله عز وجل يجد أنه حث على التدبر والتفكر في خلق الليل والنهار، وامتدح المتدبرين بأنهم أصحاب العقول والألباب، وتارة وصفهم بالمتقين، وما ذلك إلا لأهمية التفكر في خلقهما.

وقد ورد الحث على التفكر في اختلاف الليل والنهار الذي هو بمعنى التعاقب في خمسة مواطن في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٦٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٩.

﴿فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ لتدل بالدليل القاطع على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة، بعد ذكر صورٍ من مخلوقات الله وقدرته فيها وتسخيرها للخلق.

ويتكرر المشهد مرة أخرى في القرآن عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أنزلت عليه الآية: (ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر)[١].

وقد «جعل الله آية الليل والنهار للتدبر والنظر المؤديين إلى الاستدلال على قدرة صانعها، المدبر لأمرها»[٢].

وسئل الأوزاعي (رحمه الله ١٥٧هـ): ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرؤهن وهو يعقلهن[٣].

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٢/ ٣٨٦، رقم ٦٢٠، باب التوبة، وأبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب ١/ ٣٨٧.
(٢) القول الوجيز، الحلبي ص ٢٧٤.
(٣) الفتح السماوي، المناوي ١/ ٢٠٥.

وكذلك الأمر في آية سورة يونس، بعدما ذكر الحكمة في التفريق بين وصف الشمس بالضياء، وبين وصف القمر بالنور.

والتفكر في آية الليل والنهار يزداد روعةً حينما يربط القرآن بينهما وبين الحياة والممات، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

«ثم إنه سبحانه حذر من ترك النظر في هذه الأمور فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ لأن ذلك دلالة الزجر والتهديد»[٤].

وبيَّنَ سبحانه وتعالى أنه يلبس الليل النهار بظلامه، ويلبس النهار الليل بضيائه، وجعلها من الآيات التي من تفكر فيها دلت عليه، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

كما أخبر سبحانه بأن نعمة الليل والنهار تستوجب الشكر والتذكر، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وجعل الاتعاظ بتعاقب الليل والنهار من خصال ذوي البصيرة.

قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٨٩.

والخلاصة: أن القرآن مليء بالآيات التي حثت على التفكر والتدبر في آية الليل والنهار، والنظر فيها بعين البصيرة والبصر؛ لتقود المرء إلى تقوية إيمانه بالله تعالى، وشكر نعمته فيهما.

ثالثًا: علاقة الليل بالنهار:

إن علاقة الليل بالنهار والنهار بالليل تدور بين التلازم من ناحية، وبين التضاد من ناحية أخرى.

١. علاقة التلازم.

ومن خلال ما سبق يظهر بأن الليل والنهار آيتان متلازمتان يكمل كل منها الآخر، كما أنهما لا ينفكان عن بعضهما البعض، إذا ذهب هذا جاء الآخر، والعكس كذلك، وهذا ما يشير إليه لفظ القرآن في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [فاطر: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤].

أي: يورد الليل على النهار فيلبسه إياه حتى يذهب بنوره، وكل ذلك يكون بسرعة كبيرة[(١)].

قال ابن كثير: «كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

قال ابن جرير: «يعقب الله بين الليل والنهار ويصرفهما، إذا أذهب هذا جاء هذا، وإذا أذهب هذا جاء هذا، وفي تقليبه الليل والنهار لعبرة لمن اعتبر به، وعظةً لمن اتعظ به، ممن له فهم وعقل»[(٣)].

وقد سبق التنويه بأن لفظ الليل في غالب القرآن الكريم وأكثره جاء مقرونًا بالنهار، وهو من الدلائل الدالة على التلازم، فالتلازم اللفظي بينهما في القرآن يحرك المشاعر والعقول لإيجاد الحكمة من كثرة ذكرهما متعاقبين، ليصل إلى حقيقة سبب جعلهما آيتين: وهي العظة والعبرة والتفكر والتأمل في خلقهما، وشكر الباري سبحانه على نعمته فيهما، ومعرفة عظمة الله الخالق جل جلاله، وأنه المستحق للعبادة والخضوع والتذلل.

٢. علاقة التضاد.

ومع كون العلاقة بين الليل والنهار متلازمة من حيث التتابع والتعاقب؛ إلا أنهما متضادان يختلف كل منها عن الآخر من ناحيتين:

الأولى: من حيث الوصف بالظلمة والضياء، فالليل يأتي معه الظلام، والنهار يأتي معه الضياء، وشتان بينهما، ولكلٍّ

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٨٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٨٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٣.

فوائد.

الثانية: أنهما لا يجتمعان في وقت واحد[1]، فهو من المحال الكوني وقوعه في سنن الله تعالى، وهذا ما يشهد له الواقع، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

قال الحسن: «لكل واحدٍ منهما سلطان، للشمس سلطانٌ بالنهار، وللقمر سلطانٌ بالليل»[2].

ومن هنا يستشعر المرء عظمة الله جل جلاله وحكمته في تدبير الخلق، فمع هذا الاختلاف الواضح بينهما يكونا متلازمين بتلازم حركة الأفلاك الدائرية، وتوالي أحدهما على الآخر، من غير اختلالٍ في النظام الكوني الفسيح، فسبحان الله رب العالمين، وأحكم الحاكمين.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٦٠.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٩٦.

أوصاف الليل

إن الوصف يزيد الموصوف ظهورًا ووضوحًا، ويبين ماهيته، ويضيف فوائد من جراء ذلك الوصف.

ولقد وصف الله تعالى الليل بأوصافٍ عديدة في القرآن الكريم، بيانها في التقسيم التالي:

١. السُّبات.

والسُّبات: هو الراحة والسكون؛ ولذلك سمي السبت سبتًا، لأنه يوم راحةٍ ودعة[3].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩].

والملاحظ في الآيتين السابقتين أن السبات وصفٌ للنوم لا لليل، وللإجابة عليه يرد احتمالان:

الاحتمال الأول: أنه عطف النوم على الليل، والعطف متعلق بالجملة الفعلية، وهذا الملاحظ من آية الفرقان.

الاحتمال الثاني: الإشارة والتنبيه على أن الراحة والسكون والنوم يكون بالليل، وهذا هو الأصل، ولذا كان من رحمة الله وحكمته أن جعل الراحة والنوم بالليل، فقد اكتشف

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٥١.

العلماء أن في الدماغ غددًا صنوبرية تقوم بإفراز مادة هرمونية تسمى الميلاتونين التي تؤثر وتساعد في عملية النوم، ويزداد إفرازها أكثر في الظلام[(١)].

وقد «أظهرت دراسة حديثة أن استخدام الكومبيوتر أو ألعاب الفيديو ليلًا قد يحرم صاحبه النوم أثناء تلك الليلة، ويعود السبب في ذلك إلى أن الضوء الساطع لشاشة الكومبيوتر يمكن أن يغير موعد النوم من الناحية البيولوجية ويثبط الإفراز الطبيعي لهرمون الميلاتونين التي يعتبر مهمًّا لدورة النوم والاستيقاظ لدى الناس. ويقول الباحثون: إن التعرض للضوء يؤثر على كمية الميلاتونين التي ينتجها الجسم، والذي يؤدي بدوره إلى اضطراب النوم وخاصةً بين كبار السن»[(٢)].

كما أن العلماء اكتشفوا أن النوم بالنهار يؤثر على الجهاز العصبي بعكس الليل؛ كل هذا له حكمة في دورة حياة الإنسان، فسبحان الله أحكم الحاكمين.

وفي آية الفرقان يأتي تساؤل من جراء خلق الليل لباسًا والنوم سباتًا وكلاهما وجدا للراحة والسكون، فهل هناك من فائدة زائدة؟!

لا شك في أن الليل والنوم يشتركان في كونهما محطةً زمنية لراحة الأبدان والأجساد؛ ولكن النوم يزيد على ما ذكر في أنه راحة للعقل، إذ إن العقل هو المحرك للبدن، ولا بد له من راحة حتى يستعيد نشاطه، وهذ ما يجعل لذكر النوم بعد الليل فائدة، والله سبحانه أعلم بمراده فيها.

٢. السجو.

السين والجيم والواو أصل يدل على سكون وإطباق، يقال سجا الليل، إذا إِذْلَهَمَّ وسكن[(٣)].

وهذا الوصف ورد مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢].

وجاء في معنى الآية ثلاثة أقوال:

القول الأول: والليل إذا أقبل، وبه قال سعيد ابن جبير[(٤)].

القول الثاني: والليل إذا ذهب، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما.

القول الثالث: والليل إذا استوى وسكن، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. وهو اختيار الطبري[(٥)]، وابن قتيبة[(٦)].

(١) انظر: مقالة لـ د.جابر بن سالم القحطاني في جريدة الرياض، نشرت في يوم الاثنين ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٨هـ، ١٦أبريل ٢٠٠٧م، العدد ١٤١٧٥.

(٢) مقالة من موقع د.جمال عبد العظيم، نشرت في ٨ ديسمبر ٢٠١٠م.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٣٧.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٤٤٢.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨٢-٤٨٤.

(٦) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص٤٥٩.

فيكون المعنى: والليل إذا سكن واستوى بظلامه، أو عبارة عن استكنان المخلوقات فيه.

وقد سبق الحديث عن هذه الآية من منحى آخر في آيات القسم.

٣. السكن.

والسكن: هو الراحة والهدوء، خلاف الاضطراب والحركة[(١)].

وقد ورد ذكره في القرآن في سبعة مواضع، منها:

قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِۚ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وهذه الآيات تدل دلالة واحدة على أن الحكمة من خلق الليل وإيجاده هو السكن والراحة وقطع الأشغال والأعمال - إلا من عبادة وضرورة -، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها[(٢)].

وفي الآية الأولى إشارة إلى امتلاكه سبحانه لكل ساكنٍ في الليل والنهار، وجعل ذلك تمهيدًا لسعة علمه وإحاطته بكل شيء في جميع الأوقات.

وإنما خص الليل بالذكر لأن الساكن في ذلك الوقت يزداد خفاءً، وعطف النهار عليه لتحقيق تمام الإحاطة والعلم[(٣)].

وقيل: لأنه أغلب الحالين على المخلوق من الحيوان والجماد، ولأن كل متحرك يصير إلى السكون[(٤)].

«وقد جاء قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ كالنتيجة للمقدمة؛ لأن المقصود من الإخبار بأن الله يملك الساكنات التمهيد لإثبات عموم علمه، وإلا فإن ملك المتحركات المتصرفات أقوى من ملك الساكنات التي لا تبدي حراكًا، فظهر حسن وقع قوله: وهو السميع العليم عقب هذا»[(٥)].

وفي الآيات أيضًا امتنانٌ من الله تعالى على خلقه، بأن جعل الليل رحمة لهم، ونعمة تستوجب الشكر؛ ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

وبين سبحانه لعباده أن آية الليل هي محض فضلٍ منه تعالى لا عن استحقاق منهم، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٦١].

كما أن الآيات الكريمة كانت في سورٍ مكية لتدلنا على حقيقة تلك التعبيرات القرآنية المليئة بالقوة والجزالة، والمحاجة

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٨٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت العصر، ١/ ١١٤، رقم ٥٤٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٥٥.
(٤) معترك الأقران، السيوطي ١/ ٢٤٢.
(٥) التحرير والتنوير ٧/ ١٥٥ - ١٥٦.

بالبراهين الكونية والعقلية التي توصل إلى نتيجة واحدة، وهي أن لهذا الكون إلاهًا ومدبرًا واحدًا يستحق العبادة والتوحيد.

٤. الغشي.

الغين والشين والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ يدل على تغطية شيء بشيء[(١)].

وهذا المعنى هو المقصود من قوله ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل:١][(٢)].

وقيل: إذا غشي الخليقة بظلامه[(٣)].

وعلى أي تفسير كان عليه هذا اللفظ، فإن المقصود منه الوصف الحاصل كل يوم بغشيان ظلام الليل وتغطيته لضوء النهار[(٤)].

ومن ذلك أيضًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

قال السمرقندي: «يعني: إن الليل يأتي على النهار فيغطيه، ولم يقل يغشي النهار الليل؛ لأن في الكلام دليلًا عليه. وقد بين في آية أخرى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥].

فكذلك هاهنا معناه يغشي النهار الليل ويغشي الليل النهار؛ يعني: إذا جاء النهار يذهب بظلمة الليل، وإذا جاء الليل يذهب بنور النهار»[(٥)].

وجاء في قراءة عاصم من رواية أبي بكر، وقراءة حمزة، والكسائي[(٦)]: (يغشي) بالتشديد احتجاجًا بقوله تعالى ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤].

فالتشديد يوجب التكرير، وكذلك هو فعلٌ يتكرر ويتردد؛ وذلك أن كل ليلة غير ليل اليوم الآخِر، فالتغشية مكررة لمجيئها يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة[(٧)]؛ ولذلك كانت أبلغ من قراءة التخفيف مع أن معناهما واحد[(٨)].

وفي آية الأعراف، عقب ذكر غشيان الليل النهار بالطلب الحثيث، وهو السريع، «لأن سرعة تعاقب الليل والنهار تجعل كل واحد منهما كالطالب لصاحبه»[(٩)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٢٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٨٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١٧.
(٤) انظر: النكت والعيون ٢/ ٢٣٠.
(٥) تفسير السمرقندي ١/ ٥٢١.
(٦) السبعة، ابن مجاهد ص٢٨٢.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٢٣٩٧.
(٨) الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص١٥٦.
(٩) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٠.

وفي آية الرعد، عقب ذكر غشيان الليل النهار بالتدبر والتفكر في آية الله فيهما، وقد ضمن ذلك المدح للمتفكرين عن غيرهم ممن عطل هذه العبادة القلبية العظيمة.

٥. اللباس.

إن اللباس في الأصل جعله الله تعالى صفة لبني آدم.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولكن اللباس استعير لوصف الليل بجامع الستر والتغطية، فكما أن اللباس يستر عورة بني آدم، فكذلك الليل يستر الخلائق بظلامه؛ لكي يرتاح من المشقة التي كانت في نهاره، «ولما في هذا الستر من فوائد كثيرة لقضاء الحوائج التي يجب إخفاؤها»[(١)]؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ [النبأ: ١٠].

وقد ذكر الرازي بعض وجوه النعم من كون الليل ساترًا ولباسًا، فقال: «وأما وجه النعمة في ذلك، فهو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هربا من عدو، أو بياتًا له، أو إخفاء ما لا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه.

قال المتنبي:

وكم لظلام الليل عندي من يدٍ
تخبر أن المانوية تكذب

وأيضًا فكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته، ويندفع عنه أذى الحر والبرد، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد في جمال الإنسان، وفي طراوة أعضائه، وفي تكامل قواه الحسية والحركية، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني، وأذى الأفكار الموحشة النفسانية، فإن المريض إذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة»[(٢)].

٦. النشوء.

النون والشين والهمزة أصلٌ صحيحٌ يدل على ارتفاع في شيء، وأنشأه الله: رفعه. ومنه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

يراد بها والله أعلم القيام والانتصاب للصلاة[(٣)].

جاء عن ابن أبي مليكة قال: سألت ابن عباس وابن الزبير عن ناشئة الليل قالا: قيام الليل. وعن ابن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال: هي بالحبشية قيام الليل[(٤)].

وقيل: إن الناشئة ما بين المغرب والعشاء،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٤٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٠.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٢٨.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٨٠.

قاله أنس بن مالك. وقيل: ما بعد العشاء الآخرة، قاله الحسن ومجاهد. وقيل: إنها ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة، قاله ابن قتيبة. وقيل: أنه بدء الليل، قاله عطاء وعكرمة. وقيل: أن الليل كله ناشئة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[(١)].

ولا تعارض يظهر -والله أعلم- بين هذه الأقوال؛ لأنها من باب اختلاف التنوع لا التضاد، فسواءٌ أكان الليل كله، أو ساعة منه، أو بدايته، أو بعد العشاء؛ كل ذلك يشمله قيام الليل.

ومن هنا تأتي الحكمة في سر اختيار الله تعالى الليل على النهار في القيام بالعبادة، فالقلب يكون فيه أكثر خشوعًا، والبال والبدن أكثر هدوءًا، ولا يمكن حدوث ذلك مع النهار الذي يصحبه الصخب والتعب؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

وقال تعالى لنبيه في آيةٍ أخرى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧ - ٨].

قال ابن جرير الطبري: «ناشئة الليل أشد ثباتًا من النهار وأثبت في القلب، وذلك أن العمل بالليل أثبت منه بالنهار»[(٢)].

وقد ورد في قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ قراءتان:

الأولى: (وطئًا) مقصورة، وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي.

الثانية: (وطاء) ممدودة، وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر[(٣)].

قال الماتريدي: «فمن قرأ: (وطاء) بالمد، فتأويله من المواطأة، وهي الموافقة، أي: موافق للسمع، والبصر، والفؤاد؛ لأن القلب يكون أفرغ بالليالي عن الأشغال التي تحول المرء عن الوصول إلى حقيقة درك معاني الأشياء، وكذلك السمع والبصر يكون أحفظ للقرآن، وأشد استدراكًا لمعانيه.

ومن قرأه: (وطئًا)، فهو من الوطء بالأقدام؛ فتأويله: أنه أشد على البدن وأصعب؛ لأن المرء قد اعتاد التقلب والانتشار في الأرض بالنهار، ولم يعتد ذلك بالليل، بل اعتاد الراحة فيه، فإذا كلف القيام والانتصاب برجليه في الوقت الذي لم يعتد فيه القيام، كان ذلك أشد عليه وأصعب على بدنه»[(٤)].

والخلاصة في أوصاف الليل المذكورة في القرآن: أنها صرحت وألمحت بأهمية الليل في استمرارية الحياة، وذكرت فوائده على الخلق والإنسان، وحثت على حسن استغلاله.

(١) المصدر السابق.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٨٤.
(٣) السبعة، ابن مجاهد ص ٦٥٨.
(٤) تأويلات أهل السنة ١٠/ ٢٧٣.

أجزاء الليل

وقد ورد في القرآن الكريم ألفاظ تدل على أجزاء من الليل، ولكنها ترجع إلى ثلاثة أجزاء موزعة بين أوله وأوسطه وآخره، سأذكرها في المطالب الآتية:

أولًا: الغروب.

وهو أول الليل، والغروب: غياب الشمس، ولذلك يقال: غربت الشمس، أي: غابت في الغرب[1].

وقد ورد ذكر الغروب في القرآن في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

والتسبيح هنا المقصود به الصلاة عند الجمهور[2]، والصلاة التي قبل الغروب اختلف في تحديدها على قولين:

القول الأول: أنها صلاة الظهر والعصر، قاله ابن عباس رضي الله عنه.

القول الثاني: أنها صلاة العصر، قاله قتادة[3].

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٣٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٧٦.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٦٥.

وعلى كلٍّ؛ فإن في الآية لفت الانتباه إلى فضيلة هذين الوقتين المذكورين، والتقوي بالصلاة والذكر فيهما على مواجهة أمور الدنيا نهارًا، وشكر نعمة الله ليلًا.

وأول أجزاء الليل يشمل الشفق، والزلفة، وكلاهما ذكرا في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال الله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦].

والشفق: هو الحمرة في الأفق من ناحية الغرب ،وهي ضياءٌ من شعاع الشمس، وتكون من بعد غروب الشمس إلى صلاة العتمة (العشاء)[4]، هذا على أرجح الأقوال[5]. وهو إيذانٌ بدخول الليل؛ ولهذا جاء الليل معطوفًا على الشفق ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٦ - ١٧][6].

والقسم بالشفق يدل على أهمية هذا الوقت، وأن له منزلة في اليوم والليلة؛ لكي يؤدي المسلم فيه صلاته، ويلتفت إلى ذكر الله بقلبه ولسانه، فيكون دائم الصلة به جل جلاله.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٦/ ١٥٠٧.
(٥) وممن رجح ذلك الطبري في تفسيره ٢٤/ ٣١٨، والبغوي في تفسيره ٨/ ٣٧٥ ونسبه إلى ابن عباس وأكثر المفسرين.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ١٢/ ١٧٧ - ١٧٩.

والشفق هو الوقت الخاشع - الساكن - المرهوب بعد الغروب، يحس القلب بمعنى الوداع وما فيه من أسىً صامت وشجىً عميق، كما يحس برهبة الليل القادم، ووحشة الظلام الزاحف. ويلفه في النهاية خشوعٌ وخوفٌ خفي وسكون![1]

والزلفة: هي بضع ساعاتٍ من الليل، وقيل: المنزلة، ومنه سميت مزدلفة؛ لأنها منزلة بعد عرفة، وقيل: القربة[2].

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، الخطاب يتناول أمته؛ لأن المأمور به من الواجبات- في هذه الآية بإقامة الصلاة في طرفي النهار وطائفة من الليل، والأمر يقتضي الوجوب، ولا يكون ذلك إلا للصلوات المفروضة[3].

والمقصود بها في الآية الكريمة: صلاة العتمة (العشاء)[4]؛ لأنها تصلى بعد مضي زلفٍ من الليل[5].

وعلى أي تفسيرٍ فسرت به الآية الكريمة، فإن المعنى المستفاد منها: أن أداء الصلاة المفروضة وإقامتها على الوجه الأكمل سببٌ في تحصيل الحسنات وتكفير السيئات؛ سواءٌ أكان المقصود منها الصلوات الخمس أم بعضها.

ويظهر ذلك من خلال التعبير عن الصلاة بالحسنات -على وجه الخصوص لا العموم-.

ثانيًا: الغسق.

والغسق أنه أول ظلمة الليل، وقد غسق الليل يغسق، أي: أظلم. والمقصود بالظلمة هنا اشتدادها؛ ولذلك عرف الغاسق بأنه: الليل المظلم إذا غاب الشفق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[الفلق: ٣][6]، أي: من شر ظلام الليل إذا دخل وهجم على الخليقة[7].

واشتملت سورة الفلق على ثلاثة أصول: الاستعاذة، والمستعاذ به، والمستعاذ منه.

فالاستعاذة تدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه.

والمستعاذ به وهو الله وحده رب الفلق الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٦٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٠٥، مقاييس اللغة ٣/ ٢١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٢/ ١٧٧- ١٧٩.
(٤) هذا على القول الراجح، وهو قول ابن عباس ومجاهد.
أما القول الآخر: فهو أن المقصود بها صلاة المغرب والعشاء.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٠٦.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٠٦ ورجح أنها صلاة العتمة للعلة المذكورة.
(٦) انظر: تأويلات أهل السنة ١٠/ ٦٥٦، الصحاح، الجوهري ٤/ ١٥٣٧.
(٧) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٧٠٢ ورجح أن المقصود بدخول المظلم: الليل، لا أنه كوكب الثريا، أو القمر.

يستعاذ بأحدٍ من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره[1].

والمستعاذ منه الظلام أو الليل إذا دخل.

والظلمة ليست شرًّا ليستعاذ منها - وكذلك الليل -؛ وإنما للشرور والأضرار المتوقع حصولها فيها، «فأمر بالتعوذ مما يكون فيها، لا أن يكون منها»[2].

وذكر التعوذ من الغاسق بعد الاستعاذة من شر المخلوقات هو من ذكر الخاص بعد العام.

ومن آيات الغسق في القرآن، قوله تعالى ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

ثالثًا: السحر.

السحر: هو الوقت الذي قبل طلوع الفجر، وهو ثلث الليل الآخر، ومنه السحور، وهو الطعام المأكول في وقت السحر[3].

وقال الزجاج: «السحر أول إدبار الليل إلى أن يطلع الفجر الظاهر البين»[4].

وقد وردت أقوال كثيرة في تقسيم وقت الليل، وأظهرها ما جاء في السنة المطهرة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)[5]. فدل على أن الليل ثلاثة أقسام من حيث المدة الزمنية.

وهذا الوقت من الأوقات الفاضلة التي خصها الله بالصلاة والذكر والدعاء، لبيان فضل العبادة فيها.

قال تعالى: ﴿الصَّٰبِرِينَ وَالصَّٰدِقِينَ وَالْقَٰنِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

والمقصود من هاتين الآيتين مدح المتعبدين بالليل، والحث على قضاء الليل بالعبادة سواءٌ أكانت ذكرًا واستغفارًا، أم صلاةً، وقراءة للقرآن، وتفكرًا وتدبرًا، والأفضل: الجمع بين العبادات قدر المستطاع، فصلاة الليل فيها قراءةٌ للقرآن ودعاء، ومن ثم تفكرٌ واستغفار ومناجاة.

فينبغي للمؤمن أن يجعل لنفسه وقتًا في اليوم والليلة لكي يراجع نفسه، وأن يخصص ليله ببعض العبادات القلبية والعملية؛ لكي يزداد قلبه إيمانًا ويقينًا، وجسده قوة واستعدادًا لمواجهة الأشغال صباحًا.

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٠٠- ٢٠٣ مختصرًا.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٦٥٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٦٧.
(٤) معاني القرآن، الزجاج ١/ ٣٨٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، ٢/ ٥٣، رقم ١١٤٥.

الليل والعبادة

إن الله تعالى هو الأعلم بما يصلح عباده ويصلح لهم، فهو الحكيم في أمره ونهيه؛ ولذلك فرض عليهم أمورًا، وخصص أوقاتًا لها لحصول المنفعة لهم، وكان من ذلك: جعله سبحانه الليل ظرفًا زمنيًّا أوفر حظًّا من النهار في فعل العبادة بجميع أنواعها، وبين فضل ذلك وحث المؤمنين عليه.

ولهذا كان شعار النبي صلى الله عليه وسلم حين قالت له عائشة رضي الله عنها، وقد كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه - لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا)[1].

وعلى طريق القدوة مشى الصحابة والتابعون ومن تبعهم من الصالحين، فعرفوا فضل هذه المدة الزمنية من بين ساعات اليوم، فشمروا عن ساعد الجد، وأخذوا يهتبلون الفرصة فيه بفعل الطاعات والأنس بالله جل جلاله.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن عباداتٍ كثيرة تفعل بالليل، ومن ذلك: القيام، والتهجد، والذكر، والتفكر، وقراءة القرآن.

أولًا: قيام الليل:

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجدها تأمر بقيام الليل وتحث عليه، وقد «كان قيام الليل واجبًا على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى أمته حولًا، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات»[2].

قال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٢ - ٦].

والناشئة هي القيام، وسبق شرح هذه الآية في معنى النشوء، ويفاد من قوله تعالى في ختام الآية السابقة ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾: التحريض على قيام الليل لكثرة الأجر فيه[3].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ففي هذه الآية أمرٌ خاصٌّ للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يتهجد بقراءة القرآن في صلاة الليل من باب الزيادة على المفروضات التي فرضها الله عليه، وهو لأمته ندبًا. والتهجد: التيقظ والسهر بعد نومةٍ من الليل[4].

والضمير في «به» عائدٌ على القرآن؛ لأنه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)، ٦/ ١٣٥، رقم ٤٨٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٠٩.

(٣) معترك الأقران، السيوطي ٢/ ٤٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٢٣.

روح الصلاة وقوامها[1].

فـ«قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن؛ هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل»[2].

ولذلك عرف السلف رحمهم الله ما لصلاة الليل والمصلين من فضلٍ، فتجد جنوبهم مرتفعة بعيدة عن مواضع الاضطجاع، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧].

فنومهم بالليل قليل بسبب مكابدتهم للقيام وتلاوة القرآن والذكر؛ خوفًا منه سبحانه ومحبة وأنسًا؛ فهم يستحقون نعت المحسنين.

ووصفهم الله وصف تشريفٍ بأنهم عباد الرحمن أي: الصفوة من عباده بسبب عدة صفات اتصفوا بها، ومنها: أنهم يقضون ليلهم قائمين ساجدين وخائفين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

وبين سبحانه وتعالى أن غاية كمال المرء تكون بالعلم والعمل، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وبدأ بالعمل لأنه الأهم، مع كون العمل لا يصدر إلا عن علم صحيح وَقَرَّ قلب صاحبه.

وفي هذه الآية ربط عجيبٌ بين القنوت في الليل والعلم، فالعلم الصحيح لا بد وأن يدل صاحبه على العمل والخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

كما أن المرء مهما امتلأ قلبه من العلم فإنه يحتاج إلى ساعاتٍ من القيام والمناجاة والتذلل بين يدي الله تعالى؛ شكرانًا لنعمه العظيمة، وتلذذًا بالعبودية له سبحانه.

والقرآن الكريم لم ينزل إلا للعمل به، وقيام الليل من العمل بالقرآن، فهو أشد وطئًا للقلب وأقوم قيلًا، وأنفع لحال المرء مع ربه خاصة مع سكون الليل بظلامه وخلود الخلق إلى النوم، فلا عين تلاحظ، ولا أذن تسمع، ولا شيء هناك إلا مناجاة العظيم، والإخلاص له.

وأشارت الآية السابقة إلى أن «الانتفاع

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٧.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٧٤٥.

بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظبًا عليه»[1].

ثانيًا: ذكر الله:

وجاء في آيات الذكر الحكيم مدح المؤمنين الذين يشغلون ليلهم بذكر الله سبحانه وتعالى من تسبيح واستغفار.

قال عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وأمر الله نبيه بالتسبيح في أي وقتٍ من الليل - على قول بعض المفسرين أن الأمر للتسبيح[2] - ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩].

وجمع الله عز وجل بين الأمر بالصلاة والتسبيح ليلًا في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

طويلًا: أي في أكثر الليل[3].

إن توجيه القرآن الحكيم لاستغلال الليل بذكر الله تعالى جاء لكي يحقق للقلب راحته وطمأنينته التي لا تكون بالليل، فمن المعلوم أن بذكر الله تطمئن القلوب، ولكن ثمة استعدادٌ للقلب والبدن لا يكون في أعلى درجاته من الخشوع والتدبر وصفاء الذهن وإخلاص العبادة لله فيها؛ إلا بالليل.

فحريٌّ بنا - نحن المسلمين - أن نلتزم منهج السلف الصالح في قضاء الليل بالمحبب من العبادات؛ لأنها زاد المؤمن الحقيقي لمواجهة الحياة بمغرياتها وفتنها، واستعدادًا لعمل الصالحات فيها.

ثالثًا: التدبر والتفكر:

التدبر والتفكر في ملكوت الله تعالى من أعظم العبادات القلبية، وبما أن الليل والنهار من آيات الله تعالى، فالتفكر فيهما من المهمات؛ ولذلك حث الله الخلق على التفكر في خلق الليل والنهار وتعاقبهما، وجعل فيهما عظةً للمتعظين، وحمدًا للشاكرين ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

كما أن القرآن الكريم امتدح المتفكرين والمتدبرين في خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار بأنهم أصحاب العقول السليمة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وجعل من أسباب تحصيل التقوى: التفكر في خلق الليل والنهار، قال تعالى

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٤٢٨.
(٢) نسب القول بأن الأمر للتسبيح على حقيقته إلى أبي الأحوص.
انظر: النكت والعيون ٥/ ٣٥٧، و ٥/ ٣٨٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١٦.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦].

إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو صراحة إلى التفكر في خلقهما، واستغلال العمر في تدبر آيات الله تعالى الكونية؛ لتقود المرء إلى توحيد الله، وتقوية الإيمان به، والخشية منه، وتحقيق تقواه.

وقد عرف السلف فضل التفكر فقال بعضهم: «الفكرة تذهب الغفلة، وتحدث للقلب الخشية، كما يحدث الماء للزرع النبات، وما خلت القلوب بمثل الأحزان، وما استنارت بمثل الفكرة»[(١)].

رابعًا: تلاوة القرآن الكريم:

سبق الحديث عن التفكر في آية الليل والنهار الكونية، وهنا الحديث يختص بالآيات المقروءة المتلوة من كتاب الله تعالى.

حيث جاء القرآن الكريم ممتدحًا من الناس من صفتهم أنهم قائمون بالليل يتلون آيات القرآن في صلواتهم، ويكثرون التهجد[(٢)]، قال تعالى ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وأصل نزول الآية كان لعمل مقارنةٍ بين من أسلم من أهل الكتاب ومن لم يسلم[(٣)]، وجعل من الموازين التي تقتضي المفاضلة تلاوة القرآن في الليل، سواءٌ أكانت في صلاة أم بدونها.

وآناء الليل: يعني: ساعاته[(٤)]، وعبر عن بالسجود بدلًا من التهجد والقيام؛ لأنه يدل على صورة فعلهم، فهو أبلغ وأبين[(٥)].

كما جاء في آيةٍ أخرى مدح الذين يقرؤون كتاب الله تعالى، ووعدهم الله على ذلك: توفية الأجور، والزيادة من فضله، فقال عز من قائل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩- ٣٠].

ورد في معنى التلاوة قولان[(٦)]:

القول الأول: أنها القراءة.

القول الثاني: أن المقصود منها الاتباع؛

(١) هذا الكلام منسوبٌ لابن عونٍ، وهو في: الكشف والبيان ٣/ ٢٣١، ومعالم التنزيل ٢/ ١٥٢، والكشاف ١/ ٤٥٤، ومفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٦١، والقول الوجيز، للسمين الحلبي، سورة آل عمران ٣٨٨ واللفظ منه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٠٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١١٨.

(٤) التصاريف، يحيى بن سلام ص١٩٩.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٥٨.

(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥١٠.

أي أنهم متبعون لآيات القرآن علمًا وعملًا.

وفي هذه الآية ملمحٌ يختص بأهل القرآن وحفظته والمهتمين به، بأنهم يداومون على قراءة القرآن، فالفعل المضارع يدل على الاستمرار؛ أي أنهم تلوا ويتلون، فهم دائمي التلاوة.

وهذا ما ينبغي أن يكون ديدنًا لمن أكرمه الله تعالى بحفظ القرآن الكريم، أو التعلق بحب تلاوته آناء الليل وأطراف النهار؛ أداء لتزكيته، وعملا بما فيه، نسأل الله من فضله العظيم.

الليل والعذاب

لقد ارتبط الليل - فيما سبق - بأصنافٍ من العبادة كالقيام والذكر والتدبر وتلاوة القرآن، وفي هذا المبحث سيتم الحديث عن كون الليل آية وجند من جنود الله سبحانه وتعالى في هذا الكون؛ شأنه شأن جميع المخلوقات من حيث الانقياد لأوامر خالقها سبحانه وتعالى.

حديث القرآن الكريم عن الليل ارتبط بتنزيل العذاب على الأمم السابقة، كقوم عاد، وقوم لوط، وقوم فرعون.

لذا كان الأمر لأنبيائهم بالخروج مع من آمن من قومهم ليلًا؛ لكيلا يُدْرَكوا، وما ذاك إلا لحكمٍ عظيمة، منها ما هو مخفيٌّ، ومنها ما هو ظاهرٌ للخلق.

ولاشك أن لليل خاصية على النهار في الأمور الحربية التي فيها فرٌّ وكرٌّ، تظهر في كون الليل لباسًا، أي: ساترًا عن الأعين عمومًا، والملاحقة المتربصة خصوصًا، ومن هنا أمر موسى عليه السلام بأن يسري بأهله وقومه ليلًا لكيلا يدركوا، قال سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣].

فالسرى: هو السير بالليل[1]، أمرهم الله به وأكده بقوله: ﴿لَيْلًا﴾ زيادة للبيان، «وأن

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٥٤.

يكون له من سعة الوقت ما يبلغون به إلى شاطئ البحر الأحمر قبل أن يدركهم فرعون بجنوده»[1].

وكان خروج موسى عليه السلام مع أتباعه من بين أظهر أعدائهم ليلًا آية من آيات الله، تدل على قدرته سبحانه في تدبير الأمور، ومع ذلك أمر بالخروج والسير ليلًا من باب أخذ الحيطة والحذر، والتخفي عن أعين العدو الأكثر عدة وعتادًا.

وتكرر الأمر مع نبي الله لوط عليه السلام حينما أمرته الملائكة أن يسري بأهله في بقيةٍ من الليل قبل طلوع الصبح - وهو وقت السحر -، وأخبروه أن موعد نزول العذاب عليهم صباحًا.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

والعلة في المشي ليلًا هنا من أجل عدم حصول الممانعة والرفض من قومه وزوجته فيشق عليه دفاعهم، بدليل إخبار الملائكة له بأنهم لن يصلوا إليه ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، فكانت الجملة مطمئنة لنبي الله لوط عليه السلام بأنهم لن يدركوا[2].

ومن الآيات التي اجتمع فيها الليل والعذاب قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٧].

حيث بين سبحانه وقوع العذاب في الليل واليوم على قوم عاد الظالمين المكذبين لنبيهم هود عليه السلام، فكان معنى اليوم بمعنى النهار المقابل لليل.

وعليه: فقد اختار بعض العلماء أن النهار يسبق الليل من خلال هذه الآية، فقد كان النهار أكثر من الليل في العدد.

والملاحظ من خلال الآيات السابقة: أن الليل جعل سببًا ووسيلةً لنجاة المؤمنين من الطغاة الكافرين، كما أنه جعل ظرفًا زمنيًّا لنزول العذاب، بحكم أن اليوم متكونٌ منه ومن النهار.

(١) التحرير والتنوير، ابن فارس ٢٥/ ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق ١٢/ ١٣٢.

ليالٍ فاضلة ذكرت في القرآن

تحدث القرآن الكريم عن ليالٍ مخصوصةٍ، وبين فضلها والأحداث التي حصلت فيها؛ ليدل على أهميتها وشرفها عن غيرها.

وسوف يتم الحديث عن هذه الليالي في النقاط الآتية:

أولًا: ليلة القدر:

ليلة القدر هي الليلة الشريفة التي أمرنا بتحريها في ليالي شهر رمضان المبارك، وبالأخص في العشر الأواخر منه، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجالًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر)[1].

كما أن الله تعالى زاد من تشريف هذه الليلة بإنزال كلامه فيها.

قال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣][2].

وقال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١].

ويزيد القرآن الكريم الوضوح حول هذه الليلة عندما أخبر أنها في شهر رمضان، ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥].

كل هذه الآيات مع الأحاديث الشريفة مجتمعة تدل على أن ليلة القدر ليلةٌ شريفةٌ؛ فيها نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملةً واحدة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فصل القرآن من الذكر، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم يرتله ترتيلًا»[3].

قال الحافظ ابن حجر: «وما تقدم من أنه نزل جملةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك مفرقًا هو الصحيح المعتمد»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، ٣/ ٤٦، رقم ٢٠١٥.

(٢) وهو اختيار الجمهور من المفسرين والعلماء، بأن الليلة المباركة هنا ليلة القدر، وهناك قول آخر: أنها ليلة النصف من شعبان.
انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٧، ٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٨٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٥٢.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب كم بين نزول أول القرآن وبين آخره، ٧/ ٢٤٧، رقم ٧٩٣٧، وابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٤٤، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٢٤٢، رقم ٢٨٨١ وصحح إسناده، ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) فتح الباري ٩/ ٤.

وخص الله تعالى هذه الليلة الشريفة بالبركة؛ لكثرة نزول الخيرات والرحمات والبركات من السماء فيها، فالله عز وجل جعلها في ميزان الأعمال خيرٌ من ألف شهر، قال تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

ورجح الإمام الطبري أن المقصود من الآية معنى آخر، وهو أن ليلة القدر خير من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر[١].

وعلى كلٍّ، فإن الآية فيها شحذ الهمم لتحري ليلة القدر والاهتمام بها، والحرص على عمل الصالحات فيها، وبالخصوص القيام وتلاوة القرآن.

قال الرازي: «والمقصود الأصلي من الكل جر المكلف إلى الطاعة وصرفه عن الاشتغال بالدنيا، فتارةً يرجح البيت وزمزم على سائر البلاد، وتارةً يفضل رمضان على سائر الشهور، وتارةً يفضل الجمعة على سائر الأيام، وتارةً يفضل ليلة القدر على سائر الليالي»[٢].

وليلة القدر هي ليلة كتابة الأقدار والأرزاق والآجال.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٣ - ٤].

قال ابن كثير: «أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحدٍ من السلف»[٣].

ولما «كانت تلك الأفعال والأقضية دالة على حكمة فاعلها؛ وصفت بكونها حكيمة»[٤]. وجاء التنكير في قوله: ﴿لَيْلَةٍ﴾ للتعظيم، ووصفها بـ(المباركة) تنويهًا بها وتشويقًا لمعرفتها[٥].

وخلاصة القول: أن ليلة القدر ليلة شريفة مباركة من وجهين:

الوجه الأول: تصريح القرآن بذلك، وكذلك أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الكثيرة.

الوجه الثاني: نزول القرآن الكريم إلى بيت العزة جملة واحدة في تلك الليلة، وابتداء نزوله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيها.

ثانيًا: ليلة الإسراء والمعراج:

ليلة الإسراء: هي الليلة التي سار فيها النبي صلى الله عليه وسلم على ظهر الدابة (البراق) من المسجد الحرام بمكة إلى

(١) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٣٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٣٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٥٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٧٧.

المسجد الأقصى بالشام، وهي من آيات النبي صلى الله عليه وسلم الثابتة في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ففي الآية دعوة للتعجب مما أسداه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم من النعمة[(١)].

وكانت آيةً في ذلك الوقت؛ لأن المدة المتعارف عليها للسير من مكة للشام هي شهر؛ ولكن الله قضى أن يكون ذلك السير في ليلةٍ واحدة آيةً لحبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، وامتحانًا لقلوب عباده عمومًا، فكان منهم المصدق ومنهم المكذب.

وكان الإسراء بروحه وجسده على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ولم يقل: (بروح عبده)، والأصل ألا يعدل عن الحقيقة والظاهر إلى التأويل إلا عند الاستحالة، كما أنه لو كان منامًا لما كانت فيه آية ومعجزة للخلق، ولما قال الله تعالى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٧ - ١٨][(٢)].

وأما المعراج: فهو العروج والصعود بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد الانتهاء من الإسراء إلى السماء بصحبة أمين الوحي جبريل عليه السلام.

وكل ذلك كان على الحقيقة كما هو ظاهر نص القرآن، ولذلك قال الله تعالى بعد ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. فرؤية الآيات، والصلاة إمامًا بالأنبياء، وحديثه مع موسى عليه السلام، وقصة فرض الصلاة؛ كل ذلك كان من الآيات العظيمة التي سخرها الله تعالى لنبيه وأكرمه بها.

ويزيد تلك الليلة شرفًا - مع حدوث تلك الأحداث العظام - ما حدث من تغيرٍ في مجرى التاريخ بفرض الصلوات الخمس، ومراجعة النبي صلى الله عليه وسلم ربه فيها بعد أن كانت خمسين صلاة، كما دل عليه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في الصحيح[(٣)].

لقد كانت ليلة الإسراء والمعراج شريفةً لاحتوائها الشرف من كل صنفٍ، ففي الآيات حَوَتْ أعظم الآيات من صعود لسدرة المنتهى ومقابلة الله تعالى إلخ، وفي البشر حَوَتْ على أفضلهم وخيرتهم، فوجود النبي محمد صلى الله عليه وسلم فيها والأنبياء عليهم السلام في الأرض وفي

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٠٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، ١/ ٧٨، رقم ٣٤٩.

السماء، كما حوت شرف المكان من خلال الإسراء من مكة لبيت المقدس، والعروج إلى السماء؛ فهي من أشرف ليالي التاريخ.

ثالثًا: الليالي العشر:

امتدح الله تعالى عشر ليالٍ في كتابه الكريم فقال ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١ - ٢].

والفجر هنا هل يقصد به النهار أم صلاة الصبح؟ قولان. والأهم: أن الله تعالى أقسم به وبالليالي العشر ليبين أهميتهما وفضلها. واختلف في معناها على أقوال ثلاثة[١]:

القول الأول: أنها عشر ذي الحجة إلى يوم النحر، وهو قول ابن عباس، وابن الزبير، وغيرهما.

القول الثاني: أنها العشر الأول من المحرم.

القول الثالث: أنها العشر الأواخر من رمضان. وصوب الطبري القول الأول ونسبه للإجماع[٢].

ولاشك أن الليالي العشر التي هي عشر ذي الحجة كانت عظيمة مباركة؛ لاشتمالها على أعظم الأعمال والطاعات؛ كالإحرام، والطواف بالبيت، والمبيت بمنى ومزدلفة، ويوم عرفة، والأضحية، وذكر الله تعالى فيها. وعدل عن تعريفها مع أنها معروفة؛ ليتوصل بترك التعريف إلى تنوينها المفيد للتعظيم[٣].

وكان السلف يستغلون تلك الليالي بكثرة قراءة القرآن وذكر الله تعالى والعبادة، ذكر محمد بن نصر المروزي: «عن أبي عثمان - النهدي - كانوا يعظمون ثلاث عشراتٍ؛ العشر الأول من المحرم، والعشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأواخر من رمضان»[٤].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما العمل في أيامٍ أفضل منها في هذه؟) قالوا: ولا الجهاد؟ قال: (ولا الجهاد، إلا رجلٌ خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيءٍ)[٥].

رابعًا: ليالي موسى عليه السلام مع ربه عز وجل:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة:٥١].

وقال تعالى: ﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٩٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٣٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٩٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣١٣.
(٤) مختصر قيام الليل، المقريزي ٢٤٧.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، ٢/ ٢٠، رقم ٩٦٩.

﴿قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ذكر في الآيتين السابقتين نبأ موسى عليه السلام مع قومه بعد النجاة من فرعون وجنوده، وكان قد وعدهم موسى عليه السلام بأن يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى، فواعده الله أربعين ليلة[١].

واقتصر على ذكر الليالي دون الأيام، وإن كانت الأيام تبعًا معها؛ لأن أول الشهور الليالي، فصارت الأيام لها تبعًا[٢].

وسبب بركة هذه الليالي هو مقابلة الله تعالى لموسى عليه السلام بجانب الطور، وأخذه الألواح وفي نسختها هدى ورحمة.

واختار أكثر المفسرين إنها كانت في ذي القعدة وعشر ذي الحجة، وقال بعضهم: أنها ذي الحجة وعشرٌ من المحرم[٣].

وبهذا نكون قد انتهينا من مبحث الليالي المخصوصة بالذكر في القرآن الكريم، مع بيان فضائلها، وسبب خصوصيتها، نسأل الله تعالى أن يشملنا برحمته.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥١١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥١١.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٩٥، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٢٢.

لمسات إعجازية في الليل

من خلال ما سبق من عرضٍ لموضوع الليل وآياته في القرآن الكريم، نجد أنها تضمنت الإعجاز العلمي والبياني، ومن أجل ذلك دعا الله جل جلاله العباد إلى التفكر في آية الليل وكذلك آية النهار، وامتدحهم بذلك.

وسوف أذكر في هذا المبحث بعضًا من اللمسات الإعجازية المستنبطة من آيات الليل في مطلبين اثنين:

أولًا: الإعجاز العلمي في آيات الليل:

إن المتدبر لآيات الليل والنهار في القرآن الكريم، يجدها دعت صراحةً للتدبر والتفكر فيهما؛ وما ذلك إلا لوجود حقائق كونية علمية تتعلق بخلقهما، فالتفكر وإعمال العقل البشري في خلقهما يوصل إلى نتيجة واحدة وهي قدرة الله الصانع وعظمته في الكون.

ومن هذا المنطلق تفانى العلماء والفلكيون في إبراز تلك الحقائق العلمية من خلال دراساتهم وأبحاثهم.

وفي هذه العجالة سأتطرق للإعجاز العلمي في آيات الليل من خلال محورين:

المحور الأول: تعاقب الليل والنهار.

إن الليل والنهار مرتبطٌ بالشمس والقمر، وفي القرآن إشارة إلى ذلك إما بالعطف أو

بدونه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩].

وقال عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقال جل جلاله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

إن هذه الآيات -وغيرها- مجتمعة تدل على وجود علاقة بين الليل والقمر من جهة، وبين النهار والشمس من جهة أخرى، فالليل مظلمٌ والقمر معتم، والنهار منيرٌ والشمس ضياء.

والذي يعنينا هنا هو كيفية تعاقب الليل والنهار، وعلاقة ذلك بالشمس التي هي أساس النظام المجري، والقمر الذي هو نور.

وبيان ذلك: أن الأرض كوكبٌ منطفئ يدور أمام منبعٍ ضوئي كبيرٍ ملتهبٍ وهو الشمس، ولولا أن الأرض تدور حول محورها غير المتوازي لمستوى دورانها أمام الشمس؛ لما كان هناك ليلٌ ولا نهار.

لأن هذا هو التصور العقلي الذي يوصل إلى نتيجة تعاقب الليل والنهار، فدوران الأرض حول محورها، ودورانها حول الشمس، وميلان محورها؛ كل هذه معًا كنظامٍ تولد منه اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما طبقًا للوصف القرآني، وهنا يكمن الإعجاز القرآني.

فكلٌّ له مسارٌ يسبح فيه ويتحرك، ولا مجال لإدراك أحدهما على الآخر، ولا يسبق الليل النهار، وفق نظامٍ كونيٍّ دقيق، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ويلاحظ أن هناك وقتين يتداخل فيهما الليل والنهار بحكم دخول أحدهما على الآخر، وسبب هذا التداخل كون الأرض كروية فلا بد من نقطة التقاء بين ظلام الليل وضياء النهار، وهذا ما يظهر من إيلاج الليل في النهار والعكس.

قال ابن عاشور: «وحقيقة ﴿يُولِجُ﴾ تدخل وهو هنا استعارة لتعاقب ضوء النهار وظلمة الليل، فكأن أحدهما يدخل في الآخر، ولازدياد مدة النهار على مدة الليل وعكسه في الأيام والفصول عدا أيام الاعتدال، وهي في الحقيقة لحظات قليلة ثم يزيد أحدهما، لكن الزيادة لا تدرك في أولها فلا يعرفها إلا العلماء»[1].

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢١٤.

ويتضح ذلك جليًّا «عندما تصعد الشمس شمالًا في الصيف، يزداد طول النهار تدريجيًّا، بينما يحدث العكس في النصف الجنوبي، إذ يتقلص طول النهار تدريجيًّا»[(١)].

وهناك عاملان رئيسان يتسببان في طول النهار والليل أو قصرهما، وهما ميل الشمس عن خط الاستواء والعرض الجغرافي، فالشمس عندما تكون على خط الاستواء فإن الليل والنهار يتساويان في جميع أنحاء المعمورة، وكذلك فإن الموقع الجغرافي الذي يقع على خط عرض صفر أي على خط الاستواء فإن الليل والنهار يتساويان فيه طول السنة، وكلما ابتعدنا عن خط الاستواء زاد الفرق في طول النهار أو الليل وفي قصرهما، وفي الواقع إن طول النهار في حال الانقلاب الخريفي أو الربيعي أطول بدقائق[(٢)].

كما أن التعبير بتقليب الليل والنهار فيه معنى اختلاف الليل والنهار، فـ«تقليب الليل والنهار هو تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة الضياء، ومن حالة النهار إلى حالة الظلام، فالمقلب هو الجو بما يختلف عليه من الأعراض؛ ولكن لما كانت حالة ظلمة الجو تسمى ليلًا، وحالة نوره تسمى نهارًا: عبر عن الجو في حالتيه بهما، وعدي التقليب إليهما بهذا الاعتبار»[(٣)].

ويلحق بمسألة تعاقب الليل والنهار مسألة أخرى تتعلق بالظلمة وهي ما ذكره العلماء من أن الأصل في الخلق الظلمة، واستدلوا بقوله تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

فظاهر النص يفيد أن الأصل في الكون الظلمة، بدلالة التعبير بلفظ (الانسلاخ) الذي جاء الفعل فيه مضارعًا إشارة لتكرره، فالسلخ يكون للنهار ثم يعود على الأصل وهو الظلمة. قال الألوسي:

المحور الثاني: أثر وجود الليل في حياة الإنسان والحيوان والنباتات.

سبق ذكر شيءٍ من ذلك الأثر عبر موضوعين، ويمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: أن الله تعالى جعل الليل والنهار متلازمين ومكملين لبعضهما، وجميع الكائنات الحية تفيد من هذا التلازم، فالإنسان كائنٌ حيٌّ له طاقةٌ محدودة يحتاج معها إلى راحة وطمأنينة وسكينة، ومن أجل ذلك وجد الليل.

فالنهار جعل لقضاء المعاشات والأعمال والسعي في الأرض؛ فكان من حكمة الله أن يخلق الليل لهذه الحكمة.

(١) الأرض في القرآن، شاهر جمال ص٧١.
(٢) من مقال للدكتور: خالد الزعاق، منشور في جريد سبق بتاريخ: ٢٠/ ١١/ ١٤٣٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٦٤.

ففي الليل تتجدد خلايا الإنسان ويرتاح جسده بسبب النوم أو الراحة؛ لكي يستعيد نشاطه وقوته فيستعين بها في النهار.

ثانيًا: اكتشف العلماء مؤخرًا أن النوم بالنهار له تأثيرٌ على الجهاز العصبي بسبب قلة إفراز مادة الميلاتونين من قبل الغدة الصنوبرية في الدماغ، وقد سبق شرح ذلك.

وهذا ما يفسر حالة القلق والكآبة الحاصلة لبعض الناس، والتي من أهم أسبابها السهر بالليل وعدم النوم، فمخالفة الفطرة التي فطر الله الناس عليها في ذلك يوصل القلق خاصةً في ظل قضاء الليل بالملهيات والبعد عن عبادة الله تعالى.

ثالثًا: أن باجتماع ظلام الليل وضوء النهار حياة للنباتات، وسببٌ في دوام استمرارها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وفي الآية إشارةٌ إلى أن تتابع الليل والنهار له علاقة مهمةٌ في حياة النباتات وإنتاج الثمار، ويظهر الإعجاز في ذلك من خلال عملية البناء الضوئي، «ففي النهار يقوم النبات بعملية البناء الضوئي، وبها يستطيع النبات تحويل الطاقة الضوئية للنهار إلى طاقة كيماوية مخزنة في الروابط بين جزيئات المواد الغذائية الناتجة في النبات، وتخزينها في مخازن الطاقة في النبات في جزيئات، أي: الادينوزين ثلاثي الفوسفات، والادينوزين ثنائي الفوسفات.

وفي البناء الضوئي يثبت النبات ثاني أكسيد الكربون الجوي على هيئة ذرات كربون في المواد الغذائية النباتية مثل السكريات والدهون.

يلي تفاعلات الضوء تفاعلات الظلام في دورة منتظمة، وتكون المحصلة النهائية لتفاعلات الضوء وتفاعلات الظلام تكوين المواد الكربوهيدراتية التي منها ينتج باقي المواد والمركبات النباتية»[1].

ثانيًا: الإعجاز البياني في آيات الليل:

لاشك أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وقد تحدى الله تعالى الناس قاطبةً بأن يأتوا بآيةٍ على نفس بيانه ونظامه، فلم ولن يستطيعوا فعل ذلك، وما ذلك إلا لأنه كلام الله المعجز البليغ الفصيح.

وكانت آيات الليل في القرآن الكريم ذات نصيبٍ وافرٍ من تلك الوجوه البيانية، ومن ذلك:

أولًا: استخدام أسلوب الاقتران، وهو الأكثر في القرآن كما سبق، بأن يذكر الليل

(١) مقال لـ أ.د نظمي خليل أبو العطا موسى بعنوان: (يغشي الليل النهار) معجزة قرآنية، في موقع: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

والنهار مع بعضهما البعض في آيةٍ واحدة، بفاصل أو بدونه وهو الأغلب[1].

وكثرة الاقتران بينهما في القرآن جاء ليرشدنا إلى أهمية التفكر والتدبر في هاتين الآيتين العظيمتين، مع ما جاء من الحث الصريح على التفكر فيهما.

ثانيًا: إفراد أحدهما على الآخر في الذكر، وقد كان لليل قصب السبق هنا، لتعدد الليالي المخصوصة المذكورة في القرآن، ولأهميته وخصوصيته ببعض العبادات والتفرغ عن الأشغال، بخلاف النهار الذي لم يفرد بالذكر إلا في ثلاثة مواضع[2].

ومن هذه الليالي المذكورة: ليلة القدر، وليلة الإسراء، والليالي العشر، وليلة الصيام، وليالي موسى عليه السلام، والليلة التي أمر الله تعالى فيها موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل ابتعادًا من عدو الله فرعون، وكذا ليلة لوط عليه السلام.

كما انفرد الليل بالقيام والتهجد عن النهار، وذلك بيانًا لفضل صلاة الليل، وحثًّا على استغلال تلك الدقائق والساعات كل ليلة، كما قال تعالى ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

ثالثًا: استخدام أسلوب التقديم والتأخير، وهو «ظاهرةٌ لطيفةٌ، وفقهٌ بلاغيٌّ رفيع في التعبير القرآني، يعتبر دليلًا واضحًا على الإعجاز البياني في القرآن.

ومن المعلوم في صياغة الجملة في اللغة العربية: أن كلَّ كلمةٍ فيها لها ترتيبٌ خاصٌّ فيها بحسب وضعها، المبتدأ مقدمٌ على الخبر، والفعل مقدمٌ على الفاعل هذا هو الأصل في صياغة الجملة.

وقد تدعو بعض الأسباب والمقتضيات إلى العدول عن هذا الأصل، ونقل بعض الكلمات من مواضعها الأصلية في الجملة إلى مواضع أخرى، بتقديمها أو تأخيرها، وذلك لتحقيق غرضٍ بلاغيٍّ مراد، والتركيز على معنى بيانيٍ ملحوظ.

واستخدم القرآن أسلوب التقديم والتأخير على أرفع صورةٍ بيانيةٍ، وبدقةٍ عجيبةٍ معجزة، ورصف الألفاظ في الجملة بجنب بعض، بطريقة متناسقةٍ رائعةٍ»[3].

وقد جاء هذا الأسلوب في اثنين وخمسين موضعًا بتقديم الليل على النهار، والحكمة من ذلك هي السبق الزماني، وقد بينها السيوطي بقوله: «السبق، وهو إما في الزمان باعتبار الإيجاد، كتقديم الليل على النهار، والظلمات على النور، وآدم على نوح، ونوح على إبراهيم.الخ»[4].

(١) وقد تقدم ذكر الليل على النهار في القرآن أكثر من خمسين مرة.

(٢) وهذه المواضع هي: الأحقاف:٣٥، ويونس: ٤٥، وآل عمران:٧٢.

(٣) إعجاز القرآن البياني، صلاح الخالدي ص٢٦١.

(٤) معترك الأقران، السيوطي، ١/ ١٣٣.

رابعًا: استخدام أسلوب الاستعارة، وهي: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الوضعي، أو قل: هو تشبيهٌ حذف أحد طرفيه[1].

وقد جاءت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

«استعارة محسوس لمحسوس بوجهٍ عقلي»[2]، وإجراء الاستعارة: «شبه كشف الضوء عن الليل، بكشط الجلد عن نحو الشاة، بجامع ترتب ظهور شيءٍ على شيءٍ في كلٍّ، واستعير لفظ المشبه به وهو «السلخ» للمشبه، وهو كشف الضوء، واشتق منه «نسلخ» بمعنى نكشف، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية»[3].

خامسًا: استخدام أسلوب التوشيح، وهو نوعٌ من أنواع البديع، عرف بأنه: ما دلَّ أول الكلام على آخره.

وجاء هذا الأسوب في قوله تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

«فإن من كان حافظًا لهذه السورة متفطنًا إلى أن مقاطع آيها النون المردفة، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة «مظلمون»، لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم، أي دخل في الظلمة، ولذلك سمي توشيحا، لأن الكلام لما دل أوله على آخره نزل المعنى منزلة الوشاح، ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح»[4].

سادسًا: استخدام أسلوب اللف والنشر، وهو أن يذكر متعدد، ثم يذكر ما لكلٍ من أفراده شائعًا من غير تعيين، اعتمادًا على تصرف السامع في تمييز ما لكلٍّ واحدٍ منها، ورده إلى ما هو له.

وقد جاء هذا الأسلوب في حديث القرآن عن الليل بنوعيه:

الأول: أن يكون الترتيب في النشر على ترتيب اللف أو الطي، قال تعالى ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

فالسكون راجعٌ إلى الليل، والابتغاء إلى النهار، والأمر على الترتيب.

الثاني: أن يكون الترتيب في النشر على خلاف ترتيب اللف أو الطي، قال تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن

(١) انظر: تلخيص المفتاح ص١٥١ بتصرف.
(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ١٥١.
(٣) جواهر البلاغة، الهاشمي ص٢٦٩ حاشية رقم ١.
(٤) معترك الأقران، السيوطي ١/ ٣٩.

﴿رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

حيث ذكر ابتغاء الفضل للثاني، وعلم الحساب للأول، على خلاف الترتيب[١].

سابعًا: استخدام أسلوب الطباق أو المطابقة، وهو الجمع بين المتضادين في الجملة[٢]، وقد ورد ذلك كثيرًا فيما يختص بآيات الليل والنهار مجتمعان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

ثامنًا: إطلاق اسم الجزء على الكل، وهو من علم المعاني، ومن ذلك قوله تعالى ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢].

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [الطور: ٤٩][٣]، أي: ومن الليل، أي: زمنا هو بعض الليل[٤].

تاسعًا: إطلاق اسم الحال على المحل، وهو من علم المعاني أيضًا، ومثاله: قال تعالى ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣][٥]، فالليل والنهار لا يصدر منهما المكر، ولكن المعنى وقوع مكرهم في الليل والنهار.

عاشرًا: استخدام أسلوب التعريف والتنكير، وقد وردت لفظة الليل مفردة معرفة كما في قوله تعالى ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[آل عمران: ٢٧].

وكقوله تعالى ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

وجاءت مفردة منكرة (ظرف زمان) كما في قوله تعالى ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وقوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الشمس، الظلمات، القمر، النهار، الوقت

(١) انظر: معترك الأقران ١/ ٣١١، جواهر البلاغة، الهاشمي ص ٣١٠.
(٢) معترك الأقران ١/ ٣١٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ١٨٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٨٥.
(٥) معترك الأقران ١/ ١٩٠.

الماء

عناصر الموضوع

مفهوم الماء	٣١٨
الماء في الاستعمال القرآني	٣١٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٠
مكانة الماء	٣٢٢
مصادر المياه	٣٢٧
أوصاف الماء	٣٢٩
فوائد الماء	٣٣٣
الإنعام والانتقام	٣٣٦
الماء في المثل القرآني	٣٤١
لمسات إعجازية في الماء	٣٤٥

مفهوم الماء

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الميم والواو والهاء أصلٌ صحيح واحد، ومنه يتفرع كلمه، وهي الموه أصل بناء الماء، وتصغيره مويه، قالوا: وهذا دليلٌ على أن الهمزة في الماء بدل من هاء. يقال: موهت الشيء، كأنك سقيته الماء، وموهت الشيء: طليته بفضةٍ أو ذهب، كأنهم يجعلون ذلك بمنزلة ما يسقاه. وقالوا: ما أحسن موهة وجهه، أي ترقرق ماء الشباب فيه يقال: ماهت السفينة تموه وتماه. دخل فيها الماء. وأماهت الأرض: ظهر فيها نزٌّ، وأماه الفحل: ألقى ماءه في رحم الأنثى، ورجلٌ ماه القلب، أي: كثير ماء القلب»[(١)]، وأصله موه بالتحريك؛ لأنه يجمع على أمواه في القلة ومياه في الكثرة[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الماء-هو «جوهر سيال يضاد النار برطوبته وبرودته، وقيل: الماء جسم لطيف بسيط شفاف يبرد غلة العطش، به حياة كل نامٍ»[(٣)].

وعرف الماء أيضًا بأنه: «سائل عليه عماد الحياة، يتركب من اتحاد الهيدروجين والأكسجين بنسبة حجمين من الأول إلى حجم من الثاني، وهو في نقائه شفاف لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، ومنه: العذب، والملح المعدني، والمقطر»[(٤)].

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، فالماء هو الماء.

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٢٨٦.
(٢) انظر: الصحاح ٦/ ٢٢٥٠.
(٣) التوقيف على مهمات التعريف، المناوي ص٢٩٤.
(٤) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية القاهرة ص٥٩٥.

الماء في الاستعمال القرآني

وردت كلمة (ماء) في القرآن الكريم(٦٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم غير مضافة	٥٩	﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[البقرة:٢٢]
اسم مضافة	٤	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾[الملك:٣٠]

وجاء الماء في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الماء المعروف: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنفال:١١].

والثاني: النطفة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥]. يعني: من نطفة.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٨٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٣٠١-١٣٠٢.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤١٨، الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص١٨٩-١٩٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٥٥٠-٥٥١.

الألفاظ ذات الصلة

١ المطر:

المطر لغةً:

الميم والطاء والراء أصلٌ صحيحٌ فيه معنيان: أحدهما -وهو المقصود-: الغيث النازل من السماء، يقال: مطرنا مطرًا[١].

المطر اصطلاحًا:

قال الراغب: «المطر: الماء المنسكب»[٢].

الصلة بين المطر والماء:

هو نوع من أنواع الماء الموجودة على الكرة الأرضية، لكن المطر مختص بالماء النازل من السماء.

٢ النار:

النار لغةً:

هي النار المعروفة، وهي مؤنث، وهي من الواو؛ لأن تصغيرها نويرةٌ[٣].

النار اصطلاحًا:

قال الراغب: «والنار تقال للهيب الذي يبدو للحاسة»[٤].

الصلة بين الماء والنار:

الماء تطفئ النار، فهما نقيضان لا يجتمعان.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٢٦.
(٢) المفردات ص٧٧٠.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٤٢.
(٤) المفردات ص٨٢٨.

٣ اليبس:

اليبس لغةً:

يبس ييبس فهو يابسٌ ويبسٌ وييبسٌ ويبسٌ: إذا كان رطبًا فجف، وأصله: اليبوسة وهو المكان الذي لم يعهد رطبًا، فيبسٌ[(١)].

اليبس اصطلاحًا:

هو «المكان يكون فيه ماء فيذهب»[(٢)].

الصلة بين الماء واليبس:

إن وجود الماء في المكان يجعله رطبًا، فإذا فقد أصبح يابسًا، فالعلاقة بينهما عكسية، فوجود أحدهما يعني عدم وجود الآخر.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٨٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٨٩.

مكانة الماء

تحدث القرآن الكريم عن الماء كأصل لخلق الأحياء، وكأساس لاستمرار الحياة نوضح ذلك فيما يأتي:

أولًا: الماء كان قبل الكون:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

عن سعيد بن جبيرٍ قال: «سئل ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، على أي شيءٍ كان الماء؟ قال: على متن الريح[١] وعن مجاهدٍ رحمه الله، في قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: قبل أن يخلق شيئًا»[٢].

وفي هذا المعنى روى البخاري بسنده عن عمران بن حصينٍ، قال: (إني عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قومٌ من بني تميم، فقال: (اقبلوا البشرى يا بني تميم)، قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناسٌ من أهل اليمن، فقال: (اقبلوا البشرى يا أهل اليمن؛ إذ لم يقبلها بنو تميم)، قالوا: قبلنا، جئناك؛ لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان، قال: (كان الله ولم يكن شيءٌ قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيءٍ.)[٣].

أشار بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم؛ لكونهما خلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء[٤].

وأكد القرآن الكريم على أن الحياة منذ نشأتها الأولى احتاجت إلى الماء كعامل أساسي لظهورها، حيث ذكر أن الطين كان أول مراحل خلق الكائنات الحية والطين هو التراب المعجون بالماء، فقال عز من قائل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

وقد ثبت علميًا أن الماء خلق قبل خلق الحياة، قال الدكتور زغلول النجار حفظه الله: «كوكب الأرض هو أغنى كواكب مجموعتنا الشمسية في المياه، ولذلك يطلق عليه اسم (الكوكب المائي) أو (الكوكب الأزرق)، وتغطي المياه نحو ٧١٪ من مساحة الأرض، بينما تشغل اليابسة نحو ٢٩٪ فقط من مساحة سطحها، وتقدر كمية المياه علي سطح الأرض بنحو ١٣٦٠ مليون كيلومتر مكعب (١. ٣٦*٩١٠)، وقد حار العلماء منذ القدم في تفسير كيفية تجمع هذا الكم الهائل من المياه علي سطح الأرض؟

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٣٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، رقم ٧٤١٨.
(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٢٨٩.

والشواهد العديدة التي تجمعت لدى العلماء تؤكد أن كل ماء الأرض قد أخرج أصلًا من جوفها، ولايزال خروجه مستمرا من داخل الأرض عبر الثورات البركانية»[1].

ثانيًا: الماء والكائنات الحية:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

قال بعض العلماء: «الماء الذي خلق منه كل شيءٍ هو النطفة؛ لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من النطف، وعلى هذا فهو من العام المخصوص».

وقال بعض العلماء: «هو الماء المعروف؛ لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرةً كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء، وإما غير مباشرةٍ؛ لأن النطف من الأغذية، والأغذية كلها ناشئةٌ عن الماء، وذلك في الحبوب والثمار ونحوها ظاهرٌ، وكذلك هو في اللحوم، والألبان، والأسمان ونحوها؛ لأنه كله ناشئٌ بسبب الماء».

وقال بعض أهل العلم: معنى خلقه كل حيوانٍ من ماءٍ أنه كأنما خلقه من الماء؛ لفرط احتياجه إليه، وقلة صبره عنه[2].

(١) موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة باختصار.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ١٤٣.

ثالثًا: الماء أصل خلق البشر:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

أي: خلق الإنسان من نطفةٍ ضعيفةٍ فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكرا وأنثى، كما يشاء، فجعله نسبًا وصهرًا، فهو في ابتداء أمره ولدٌ نسيبٌ، ثم يتزوج فيصير صهرًا، ثم يصير له أصهارٌ وأختانٌ وقراباتٌ، وكل ذلك من ماءٍ مهينٍ[3].

وقد شملت آية سورة القمر الأطوار المختلفة لخلق الإنسان.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩].

وقد وصف الله هذا الماء الذي هو أصل البشر بوصفين:

الأول: الماء المهين: قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: ٨].

والمهين: الشيء الممتهن الذي لا يعبأ به[4].

الثاني: الماء الدافق: قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧].

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢١٦.

ماءٌ دافقٌ: أي: مصبوبٌ في الرحم[1]. يعني: من ماء مدفوق[2]. خارج بقوة وسرعة[3].

والنظرة العلمية تتطابق مع القرآن في تلك التسمية؛ حيث إن سبب تدفقه هو تقلصات جدار الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمني مع تقلصات عضلات العجان[4] فتدفع بالسائل المنوي بمحتوياته من ملايين الحيوانات المنوية عبر الإحليل إلى المهبل[5].

رابعًا: الماء أصل حياة الكائن الحي:

«يقرر العلماء: أن الماء يدخل في بناء أي جسم حي؛ إذ هو في الحقيقة قوام حياته، فالماء في نظر العلم هو المكون الأصلي في تركيب مادة الخلية الحية. والخلية هي وحدة البناء في كل شيء حي، نباتًا كان أو حيوانًا، كما أن علم الكيمياء في أبحاثه الحديثة، أثبت أن الماء عنصر لازم وفعال في كل ما يحدث من التحولات والتفاعلات التي تتم داخل الأجسام، فهو إما وسط، أو عامل مساعد، أو داخل في هذا التفاعل، أو ناتج عنه، إذن الماء هو السائل الوحيد الذي لا غنى عنه لأي كائن حي، مهما كان شكله، أو حجمه، تضاءل أم تضخم. ابتداء من الميكروبات الدقيقة- التي لا يمكن للعين المجردة أن تراها- وانتهاء بالفيلة والحيتان أضخم الكائنات الحية الموجودة على الأرض وفي البحار[6].

ويشكل الماء ٩٠ ٪ من وزن بعض الكائنات الحية، أما في الإنسان فيشكل الماء أكثر من ٦٠ ٪ من وزن جسمه، إن الدماغ البشري يحوي ٧٠ ٪ من وزنه ماءً، الرئتان تحويان نسبة ٩٠ بالمئة ماء، ونسبة الماء في الدم ٨٣ ٪، ولذلك فإن الإنسان لا يستطيع العيش بصحة جيدة من دون ماء أكثر من يوم واحد.

خامسًا: الماء أصل حياة النبات:

أهمية الماء للنباتات لا تقل عن أهميتها للكائنات الحية، فالنباتات تمتص الماء من التربة، وبه الغذاء اللازم لنموه.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٠٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٥٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٦٢.
(٤) العجان: الدبر، وقيل: هو ما بين القبل والدبر. انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٧٨.
(٥) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد على البار ص ٥١.
(٦) خواطر علمية بين الدين والعلم، محمد عبد القادر الفقي، من مقال منشور بمجلة منار الإسلام عدد فبراير سنة ١٩٨٥م.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

أي: فإذا أنزل الله عليها المطر، اهتزت أي: تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها، وربت أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومه وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي: حسن المنظر طيب الريح[(١)].

ومما كشفه العلم أن النباتات والأشجار إذا أحست بالعطش، أو بنقص الماء طلبته وألحت في النداء عليه، كما يصنع الأطفال من بني البشر، فقد قام فريق من العلماء في جامعة إنجليز بولاية ويلز الأسترالية بإجراء تجربة على النباتات التي تعاني من العطش، وسجلوا الذبذبات الصغيرة التي تصدر من أوراقها وسيقانها آنئذ، وقد استخدمت في هذه التجارب أجهزة دقيقة جدًا؛ لتسجيل ذبذبات الصوت، وقارنوها بالذبذبات الناتجة عن النبات في حال توافر الماء، وجدوا أن الذبذبات في الحالة الأولى أشد وأقوى، وكأن النبات يصيح ويصرخ؛ لكي يحصل على احتياجاته من الماء[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٠/ ٣٥٠.
(٢) الإعجاز العلمي في الإسلام، محمد عبدالصمد ص ١٨٤.

سادسًا: الماء والدواب:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ﴾ [النور: ٤٥].

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماءٍ واحدٍ، ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ كالإنسان والطير، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات[(٣)].

وكل ما يدب على الأرض ذات أصل واحد. ثم هي- كما ترى العين- متنوعة الأشكال. منها الزواحف تمشي على بطنها، ومنها الإنسان والطير يمشي على قدمين. ومنها الحيوان يدب على أربع. كل أولئك وفق سنة الله ومشيئته، لا عن فلتة ولا مصادفة، ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ غير مقيد بشكل ولا هيئة.

فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئته الطليقة وارتضتها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ وهي بهذا التنوع في الأشكال والأحجام، والأصول والأنواع، والشيات والألوان. وهي خارجة من أصل واحد؛ ليوحي بالتدبير المقصود، والمشيئة العامدة. وينفي فكرة الفلتة والمصادفة.

وإلا فأي فلتة تلك التي تتضمن كل

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٣.

هذا التدبير وأية مصادفة تلك التي تتضمن كل هذا التقدير؟ إنما هو صنع الله العزيز الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[1].

قال الرازي رحمه الله: «لما كان الغالب جدًا من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء، إما لأنها متولدةٌ من النطفة، وإما لأنها لا تعيش إلا بالماء لا جرم أطلق لفظ الكل تنزيلًا للغالب منزلة الكل»[2].

وتنوع المخلوقات مع وحدة المنشأ من دلائل التوحيد وإثبات الذات الإلهية.

يقوم الماء بوظائف عديدة مهمة وحيوية للمحافظة على استمرار الحياة، وتتلخص فيما يلي:

يعتبر الماء هو الوسط الذي يذوب فيه وتنتقل بواسطته جميع عناصر الغذاء من عضو لآخر حيث تؤدي وظائفها.

يسهل عمليات الهضم والامتصاص والإخراج، فوجود الماء داخل القناة الهضمية يسهل عملية الإخراج وتخلص الجسم من الفضلات.

يحافظ على مستوى الضغط الأسموزي بداخل وخارج الخلايا عند الحد الطبيعي، ويقوم بعملية التوازن الإلكتروني داخل الجسم.

يقوم بدور هام في المحافظة على ثبوت درجة حرارة الجسم عند حدها الطبيعي، ففي الأجواء الحارة وعند شعور الشخص بارتفاع درجة الحرارة لإصابته بحمى مثلًا، يحدث عملية التعرق التي ترطب الجلد وتوازن درجة حرارته وتؤدي إلى انخفاضها.

يحمل الماء المواد الضارة أو السامة للجسم والناتجة عن التمثيل الغذائي عن طريق الكليتين؛ ليتخلص منها على هيئة بول مثل البولينا والحامض البولي وغيرها.

يقوم الماء بدور الملين للمواد الغذائية، فيسهل عملية مضغها؛ لوجوده باللعاب وبالتالي بلعها وهضمها.

يعتبر الماء عنصرًا مهما في عملية بناء الخلايا، ويساعد على سرعة التئام الأنسجة عند إصابتها بالجروح أو الأمراض، والماء في الجسم يوجد على شكلين؛ أحدهما خارج الأنسجة ويمثل الجزء الأكبر، والآخر داخل الأنسجة، والماء خارج الأنسجة يمثل السوائل الموجودة بالدم واللمف وسائل النخاع الشوكي والافرازات الأخرى؛ مثل الإفرازات المعدية، والصفراء والبنكرياس وغيرها، أما الماء داخل الأنسجة فيمثل السوائل المحيطة بالخلايا في المساقات البينية والسوائل المكونة للبروتوبلازم داخل الخلايا نفسها[3].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٠٦.
(٣) موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة.

مصادر المياه

للماء مصادر تحدث عنها القرآن الكريم نبينها فيما يأتي:

أولًا: السماء:

إنزال الماء من السماء يتردد في مواضع شتى من القرآن في معرض التذكير بقدرة الله، والتذكير بنعمته كذلك، فهو مادة الحياة الرئيسية للأحياء في الأرض جميعًا:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: «واعلم أن كون الماء نازلًا من السماء هو أن تكونه يكون في طبقات الجو من آثار البخار الذي في الجو، فإن الجو ممتلئ دائمًا بالأبخرة الصاعدة إليه بواسطة حرارة الشمس من مياه البحار والأنهار ومن نداوة الأرض ومن النبات»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٣٣.

أي: فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها[2].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

أي: فأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء من غذاء الأنعام والبهائم والطير والوحش، وأرزاق بني آدم وأقواتهم ما يتغذون به ويأكلونه فينبتون عليه وينمون[3].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

أي: جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم، ونحن الخازنون لهذا الماء، ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا[4].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

أي: لكم منه شرابٌ أي: جعله عذبًا زلالًا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحًا أجاجًا، وأخرج لكم منه شجرًا ترعون فيه

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٤٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٨.

أنعامكم[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

أي: خضراء بعد يباسها ومحولها.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابليةً له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى[2].

ثانيًا: الأرض:

قال تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١].

عن الضحاك رحمه الله: «ماءها: ما فجر فيها من الأنهار»[3]. ونسب الماء والمرعى إلى الأرض؛ حيث هما يظهران فيها[4]، «وقدم الماء على المرعى؛ لأنه سبب في وجود المرعى»[5].

وقال الرازي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: ماؤها: عيونها المتفجرة بالماء ومرعاها: رعيها، وهو في الأصل موضع الرعي.

فإن قيل: هلا أدخل حرف العطف على أخرج؟ قلنا: لوجهين:

الأول: أن يكون معنى دحاها بسطها ومهدها؛ للسكنى، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المشارب والمآكل، وإمكان القرار عليها بإخراج الماء والمرعى وإرساء الجبال وإثباتها أوتادا لها حتى تستقر ويستقر عليها.

والثاني: أن يكون أخرج حالا، والتقدير: والأرض بعد ذلك دحاها حال ما أخرج منها ماءها ومرعاها.

المسألة الثانية: أراد بمرعاها ما يأكل الناس والأنعام، ونظيره قوله في النحل: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

وقال في سورة أخرى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٥- ٣٢].

فكذا في هذه الآية واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢].

وقرئ: (نرتع) من الرعي، ثم قال ابن قتيبة قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨١.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٤١٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٩٦.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٣٤.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٤٠٠.

﴿حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فانظر كيف دل بقوله: ماءها ومرعاها على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام من العشب والشجر، والحب والثمر والعصف والحطب، واللباس والدواء حتى النار والملح، أما النار فلا شك أنها من العيدان قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢].

وأما الملح فلا شك أنه متولد من الماء، وأنت إذا تأملت علمت أن جميع ما يتنزه به الناس في الدنيا ويتلذذون به، فأصله الماء والنبات»[(١)].والماء الذي يخرج من الأرض، هو من هذا الماء الملح، الذي سخرته القدرة الإلهية؛ ليكون بخارا، فسحابا، فمطرا، فماء عذبا تفيض به الأنهار، وتتفجر منه العيون[(٢)].

وقد دل بذكر الماء والمرعى على جميع ما تخرجه الأرض قوتا للناس وللحيوان حتى ما تعالج به الأطعمة من حطب للطبخ فإنه مما تنبت الأرض، وحتى الملح فإنه من الماء الذي على الأرض[(٣)].

فالقدرة الإلهية تتصرف بحكمة عالية؛ لتحقيق مصالح ومنافع المخلوقات، والتي منها تيسير الحصول على الماء.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٤٧.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٦/ ١٤٤٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٨٧.

أوصاف الماء

لقد وصف القرآن الكريم الماء بعدة أوصاف، منها:

أولًا: الطهارة:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١].

أي: يطهر من الحدث والخبث ويطهر من الغش والأدناس[(٤)].

يقول ابن عاشور رحمه الله: «وماء المطر بالغٌ منتهى الطهارة؛ إذ لم يختلط به شيءٌ يكدره أو يقذره وهو في علم الكيمياء أنقى المياه؛ لخلوه عن جميع الجراثيم، فهو الصافي حقًا. والمعنى: أن الماء النازل من السماء هو بالغ نهاية الطهارة في جنسه من المياه، ووصف الماء بالطهور يقتضي أنه مطهرٌ لغيره؛ إذ العدول عن صيغة فاعلٍ إلى صيغة فعولٍ لزيادة معنًى في الوصف، فاقتضاؤه في هذه الآية أنه مطهرٌ لغيره اقتضاءٌ التزاميٌّ؛ ليكون مستكملًا وصف الطهارة القاصرة والمتعدية»[(٥)].

يقول عبد الدائم الكحيل: «الماء النازل

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٤.
(٥) التحرير والتنوير ١٩/ ٤٨.

من السماء هو ماء مقطر يمتلك خصائص التعقيم والتطهير وليس له طعم! لذلك وصفه البيان الإلهي بكلمة(طهورًا)»[1].

ثانيًا: الغدق:

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «الغدق: الماء الطاهر الكثير»[2]، و عن مجاهدٍ رحمه الله: «قال: لأعطيناهم مالًا كثيرًا»[3].

والآية كناية عن التوسعة في الرزق؛ لأنه أصل المعاش.

ومن الحقائق التي تبرزها الآية: «الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله، وبين إغداق الرخاء وأسبابه، وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه، وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة، وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة، ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء، ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية.

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة، وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف، حتى استقاموا على الطريقة، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء، وتتدفق فيها الأرزاق. ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابا، وما يزالون في نكد وشظف، حتى يفيئوا إلى الطريقة، فيتحقق فيهم وعد الله»[4].

ومثل ذلك من الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

ثالثًا: العذب الفرات:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾: عذبًا[5].

تساهم الجبال العالية في تشكل البحيرات العذبة، فإن مياه الأمطار التي تسيل من الجبال تتجمع في الوديان، لتشكل أنهارًا وبحيرات، وتساعد الجبال أيضًا على تشكل الغيوم وهطول الأمطار، وتمر المياه

(١) موقع الدكتور عبدالدايم الكحيل.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٣٥.
(٣) المصدر السابق ٢٣/ ٣٣٦.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٤.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٩٩.

النازلة من الجبال على العديد من الطبقات التي تساعد في تنقية المياه وتنظيفها.

رابعًا: الملح الأجاج:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

عن قتادة رحمه الله: الأجاج: المر[(١)].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: مالحٌ مرٌّ زعاقٌ لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق، وبحر القلزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس، وبحر الصين والهند، وبحر الروم، وبحر الخزر، وما شاكلها وما شابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مدٌّ وجزرٌ، ففي أول كل شهرٍ يحصل منها مدٌّ وفيضٌ، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله -سبحانه وتعالى، وهو ذو القدرة التامة- العادة بذلك، فكل هذه البحار الساكنة، خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة؛ لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها مالحا، كان هواؤها صحيحًا وميتتها طيبةً»[(٢)].

والبرزخ: الحائل بين شيئين. والمراد بالبرزخ تشبيه ما في تركيب الماء الملح مما يدفع تخلل الماء العذب فيه بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر ويبقى كلاهما حافظًا لطعمه عند المصب[(٣)].

يقول العلماء: ما عرف الإنسان أن البحار المالحة بحار مختلفة إلا في الثلاثينات من هذا القرن، بعد أن أقام الدارسون آلاف المحطات البحرية؛ لتحليل عينات من مياه البحار، وقاسوا في كل منها الفروق في درجات الحرارة، ونسبة الملوحة، ومقدار الكثافة، ومقدار ذوبان الأوكسجين في مياه البحار في كل المحطات فأدركوا بعدئذٍ أن البحار المالحة متنوعة.

وما عرف الإنسان البرزخ الذي يفصل بين البحار المالحة، إلا بعد أن أقام محطات

(١) المصدر السابق ١٩/ ٣٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٠٦.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٥٤.

الدراسة البحرية المشار إليها، وبعد أن قضى وقتًا طويلًا في تتبع وجود هذه البرازخ المتعرجة المتحركة، والتي تتغير في موقعها الجغرافي بتغير فصول العام.

وما عرف الإنسان أن مائي البحرين منفصلان عن بعضهما بالحاجز المائي، ومختلطان في نفس الوقت إلا بعد أن عكف يدرس بأجهزته وسفنه حركة المياه في مناطق الالتقاء بين البحار، وقام بتحليل تلك الكتل المائية في تلك المناطق.

وما قرر الإنسان هذه القاعدة على كل البحار التي تلتقي إلا بعد استقصاء ومسح علمي واسع لهذه الظاهرة التي تحدث بين كل بحرين في كل بحار الأرض.

تلك المحطات البحرية، وأجهزة تحليل كتل المياه، والقدرة على تتبع حركة الكتل المائية المتنوعة[1].

خامسًا: الثجاج:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤].

والثجاج: المنصب بقوة. ووصف الماء هنا بالثجاج؛ للامتنان[2].

سادسًا: المعين:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

ومعنى معين: جارٍ من العيون[3].

والاستفهام في قوله: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ﴾: استفهام إنكاري، أي: لا يأتيكم أحد بماء معين، أي: غير الله وأكتفي عن ذكره؛ لظهوره من سياق الكلام ومن قوله قبله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠][4].

سابعًا: المبارك:

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩].

أي: كثير البركة[5].

والبركة: الخير النافع لما يتسبب عليه من إنبات الحبوب والأعناب والنخيل[6].

وهذه الصفات من باب امتنان الله على عباده؛ ليعظموه، ويشكروه.

(١) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد الله المصلح، ص ٢٤٤- ٢٤٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٦.
(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٠١.
(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ٥٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٦.
(٦) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٢.

فوائد الماء

للماء فوائد كثيرة منها:

أولًا: الإرواء:

يمتن سبحانه وتعالى على عباده بأن جعل لهم الماء صالحًا يفي بحاجتهم، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ١٠].

أي: أنزل مطرًا لكم من ذلك الماء شرابٌ تشربونه، ومنه شراب أشجاركم وحياة غروسكم ونباتها[(١)].

وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر:٢٢].

أي: جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم. ومن البلاغة: قيل: إن أسقيناكموه أبلغ من سقيناكموه؛ لأن سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروي، وأسقيته نهرًا، أي: جعلته شربًا له، وقيل: سقى وأسقى بمعنًى واحدٍ[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات:٢٧].

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٨١.
(٢) فتح القدير ٣/ ١٥٣.

ثانيًا: إنبات الزرع:

أخبر تعالى أن من نعمه على خلقه، إنزال المطر؛ لإخراج النبات المتعدد الأشكال والألوان والطعوم والروائح والمنافع الصالحة للإنسان وللحيوان، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣]. أي: أصنافًا من النبات المختلفة الأزواج والألوان[(٣)]، والأشكال والطعوم والروائح والمنافع[(٤)].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ [النبأ: ١٤-١٥].

ثالثًا: التطهر للعبادات:

من العبادات التي يستخدم فيها المسلم الماء:

أولًا: الوضوء:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٠٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٣٩.

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وجه المناسبة بين آية الوضوء و ما قبلها:

يرى صاحب المنار رحمه الله: «أن وجه المناسبة بين آية الوضوء وما قبلها هو أن الحدثيين اللذين هما سبب الطهارتين هما أثر الطعام والنكاح، ولولا الطعام لما كان الغائط الموجب للوضوء، ولولا النكاح لما كانت ملامسة النساء الموجبة للغسل»[(١)].

قال أبو حيان رحمه الله: «وظاهر الآية يدل على أن الوضوء واجب على كل من قام إلى الصلاة، متطهرًا كان أو محدثًا، وكأنه قيل: إن كنتم محدثين الحدث الأصغر فاغسلوا هذه الأعضاء وامسحوا هذين العضوين، وإن كنتم محدثين الحدث الأكبر فاغسلوا جميع الجسم»[(٢)].

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله:

- اشتراط الطهارة لصحة الصلاة؛ لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.
- أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.
- أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة، تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة والشكر.
- الأمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولا. ومن الأذن إلى الأذن عرضا، ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق، بالسنة، ويدخل فيه الشعور التي فيه. إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهرها.
- الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين و «إلى» كما قال جمهور المفسرين بمعنى «مع»؛ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.
- الأمر بمسح الرأس، وأنه يجب مسح جميعه؛ لأن الباء ليست للتبعيض،

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٢٠.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٤٤٩.

وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.

- أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما؛ لأن الله أطلق المسح ولم يقيده بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.
- أن الواجب المسح. فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف؛ لأنه لم يأت بما أمر الله به.
- الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.
- الأمر بالترتيب في الوضوء؛ لأن الله تعالى ذكرها مرتبة؛ ولأنه أدخل ممسوحا -وهو الرأس- بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.
- أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية، وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين، فإن ذلك غير واجب، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.
- الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة؛ لتوجد صورة المأمور به.
- الأمر بالغسل من الجنابة.
- أنه يجب تعميم الغسل للبدن؛ لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصصه بشيء دون شيء.
- الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.
- أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه أن ينوي، ثم يعمم بدنه؛ لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.
- أن الجنب يصدق على من أنزل المني يقظة أو مناما، أو جامع ولو لم ينزل.
- أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللا فإنه لا غسل عليه؛ لأنه لم تتحقق منه الجنابة.
- أن مع وجود الماء ولو في الصلاة، يبطل التيمم؛ لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء[1].

ثانيًا: الغسل:

قال تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ [النساء: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

من منطوق هاتين الآيتين الكريمتين أخذ الفقهاء مشروعية وجوب الغسل للجنب.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢٢.

رابعًا: النظافة:

قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

قال السعدي رحمه الله: «يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شر ورياء، ونفاق، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته. ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصا في الصلاة، قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصا في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأمورا بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن»[1].

الإنعام والانتقام

خلق سبحانه وتعالى الماء نعمة لحياة الكائنات الحية، فكان شرابًا لهم وكان سببًا في إنبات الزرع، وجعله سبحانه في الدنيا إنعامًا على أقوام، وإهلاكًا لآخرين، وجعله في الآخرة عذابًا لأهل النار، ونعيمًا لأهل الجنة.

أولًا: الماء نعيم في الدنيا:

الماء عصب الحياة ونعيمها، فبدونه لا حياة على كوكب الأرض، فهو وسيلة لطهارة المسلم، وجعل الله كل الكائنات محتاجةً إليه؛ لشربها وسقيها، فأنبت الله بها الجنات، والحب والنوى.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١].

والماء علاج لكثير من الأمراض، الجلدية والمسالك البولية والمعدة والأمعاء والقولون والعضلات من خلال الشرب والاغتسال بالساخن منه أو البارد.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤١-٤٢].

أي: اضرب الأرض بها؛ لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك

(١) المصدر السابق ص ٨٩٥.

الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالى [1].

وسخر الله ماء البحر؛ لنأكل مما نصطاد من سمكه لحمًا طريًا، ونستخرج منه زينة نلبسها كاللؤلؤ والمرجان، وتتحرك فيه السفن العظيمة تشق وجه الماء تذهب وتجيء، وتركب؛ لطلب رزق الله بالتجارة والربح فيها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقد تجمعت حضارات البشرية جميعها حول الماء.

ثانيًا: الماء جزاء وعقاب في الدنيا:

عاقب الله بالماء أقوامًا لم يؤمنوا به، ولم يخضعوا رقابهم لجلاله، منهم:

١. قوم نوح.

دعا نوح قومه لعبادة الله، قال تعالى على لسان نبيه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح:٢- ٣].

فأعرضوا عن دعوته، وآذوه ومن معه من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ٥-١٣].

ولما أعرضوا عن دعوته دعا عليهم بعد إعلام الله له أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

فاستجاب له ربه فأخذهم الطوفان.

قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١-١٢].

أي: فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمرٍ قد قدره الله وقضاه [2]. عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين.

٢. فرعون وقومه.

أرسل الله سبحانه وتعالى موسى وهارون إلى دعوة فرعون وقومه فأعرضوا، وادعى فرعون الألوهية.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧١٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٢٢.

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وادعى الربوبية فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

فكان هو وقومه من المغرقين.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٦].

فانتقم الله منهم بعاجل العذاب، «وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك»[1].

٣. سبأ.

أنعم الله على سبأ بنعم كثيرة، وحثهم على شكره عليها، لكنهم أعرضوا، فأرسل الله عليهم سيل العرم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

قال السعدي رحمه الله: «كان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدا محكما، يكون مجمعا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان، من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة، منها:

هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

- أن الله جعل بلدهم، بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.
- أن الله تعالى وعدهم -إن شكروه- أن يغفر لهم ويرحمهم.
- أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة، هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة، بحمل الزاد والمزاد، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: سيرا مقدرا يعرفونه، ويحكمون عليه،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٣١.

بحيث لا يتيهون عنه ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من تمام نعمة الله عليهم أن أمنهم من الخوف.

فأعرضوا عن المنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة، وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسرا. فأرسل عليها السيل المتوعر، الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعا ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم»[1].

ثالثًا: الماء نعيم في الآخرة:

قرن سبحانه وتعالى بين الجنات والعيون والأنهار في مواضع من كتابه:

قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

أي: عين يشرب منها عباد الله، يتصرفون فيها، ويجرونها حيث شاءوا.

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «آسنٍ: غير متغيرٍ»، وعن قتادة رحمه الله: من ماءٍ غير منتنٍ[2].

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦].

أي: فوارتان بالماء[3]، لا تنقطعان.

وقال تعالى في وصف الماء في الجنة: ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣١].

قال الثوري رحمه الله: يجري في غير أخدودٍ[4].

وقال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

ومن طهره أنه لا يصير بولًا نجسًا، ولكنه يصير رشحًا من أبدانهم كرشح المسك[5]، وأسند سقيه إلى ربهم؛ إظهارًا لكرامتهم[6].

ومن عيون الماء في الجنة: سلسبيل.

قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٠٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٨٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٦٩.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٤٠٠.

قال قتادة رحمه الله: هي عينٌ تنبع من تحت العرش من جنة عدنٍ إلى الجنان، وقال عكرمة رحمه الله: عينٌ سلسٌ ماؤها. وقال مجاهد رحمه الله: عين جديرة الجرية سلسلةٌ سهلة المساغ، وقال مقاتلٌ: عينٌ يتسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاءوا[(١)].

رابعًا: الماء عقاب في الآخرة:

لعقاب أهل النار ماء وصفه الله سبحانه وتعالى بعدة صفات منها:

١. الحميم.

قال تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

أي: حارا شديد الغليان، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم[(٢)].

٢. الغساق.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٥].

الغساق: سائلٌ يسيل في جهنم[(٣)].

٣. الصديد.

قال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦].

عن مجاهدٍ رحمه الله قال: «قيحٌ ودمٌ»[(٤)]، واشتقاقه من الصد؛ لأنه يصد الناظرين عن رؤيته[(٥)].

٤. المهل.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته[(٦)].

ولما شرب أهل النار الماء بصفاته السابقة طلبوا من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء الذي أنعم الله به عليهم.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك[(٧)].

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٣٦٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٣٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٨٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٦١٩.
(٥) تفسير فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٢٠.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٥.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٨٠.

الماء في المثل القرآني

تحدث القرآن الكريم عن الماء كمثل يقرب به المعاني لعباده، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الدنيا ونضارتها:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

لما كان سبب ما ذكر من البغي في الأرض وإفساد العمران، هو الإفراط في حب التمتع بما في الدنيا من الزينة واللذات، ضرب لها مثلًا بليغًا يصرف العاقل عن الغرور بها، ويهديه إلى القصد والاعتدال فيها، واجتناب التوسل إليها بالبغي والظلم، وحب العلو والفساد في الأرض، وهو عبارةٌ عن تشبيه زينتها ونعيمها في افتتان الناس بهما وسرعة زوالهما بعد تمكنهم من الاستمتاع بها، بحال الأرض يسوق الله إليها المطر فتنبت أنواع النبات الذي يسر الناظرين ببهجته، فلا يلبث أن تنزل به جائحةٌ تحسه وتستأصله قبيل بدو صلاحه والانتفاع به[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالكٌ لها قادرٌ عليها سلبها بغتةً أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادرٌ عليها، مالكٌ لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتةً، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرًا منها، فكذا حال الدنيا والواثق بها سواءٌ؛ وهذا من أبلغ التشبيه والقياس»[(٢)].

وقال سيد قطب رحمه الله: «ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها، حين يرضون بها، ويقفون عندها، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى. هذا هو الماء ينزل من السماء، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر، وها هي ذي الأرض كأنها عروس مجلوة تتزين لعرس وتتبرج، وأهلها مزهوون بها، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت، وبإرادتهم تزينت، وأنهم أصحاب الأمر فيها، لا يغيرها عليهم مغير، ولا ينازعهم فيها منازع، وفي وسط هذا الخصب الممرع، وفي نشوة هذا الفرح الملعلع، وفي غمرة هذا الاطمئنان

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٢٨٤.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ١١٨.

الواثق، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ في ومضة، وفي جملة، وفي خطفة. . وذلك مقصود في التعبير بعد الإطالة في عرض مشهد الخصب والزينة والاطمئنان، وهذه هي الدنيا التي يستغرق فيها بعض الناس، ويضيعون الآخرة كلها؛ لينالوا منها بعض المتاع، هذه هي، لا أمن فيها ولا اطمئنان، ولا ثبات فيها ولا استقرار، ولا يملك الناس من أمرها شيئًا إلا بمقدار»[1].

ثانيًا: الوحي:

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا كوادٍ كبير يسع ماء كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها، كما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتملت غثاء وزبدا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات؛ ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فتكرب عنه بها شاربه وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها؛ ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يساكنها وهكذا ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾»[2].

وقال سيد قطب رحمه الله: «إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غثاء، فيطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان، هذا الزبد نافش رابٍ منتفخ. ولكنه بعد غثاء، والماء من تحته سارب ساكن هادئ ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة. . كذلك يقع في المعادن التي تذاب؛ لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل، ولكنه بعد خبثٌ يذهب ويبقى المعدن في نقاء. ذلك مثل الحق والباطل في هذا الحياة؛ فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيًا طافيًا ولكنه بعد زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحًا لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئًا ساكنًا، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧٥.

(٢) الأمثال في القرآن ص١٢.

غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي والمعدن الصريح، ينفع الناس»[1].

وفي هذا المعنى روى البخاري بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضًا، فكان منها طائفةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ[2] والعشب الكثير، وكانت منها أجادب[3] أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، ورعوا، وسقوا، وزرعوا، وأصابت طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[4].

ثالثًا: حال المنافقين:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

قال ابن القيم عن حال المنافقين: «ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي، فشبههم بأصحاب صيب -وهو المطر الذي يصوب أي: ينزل من السماء- فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فلضعفه وخوفه جعل أصبعيه في أذنيه خشية من صاعقة تصيبه، وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيرا من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة إذا سمعوا شيئا من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، ويقول مختثهم: سدوا عنا هذا الباب، واقرءوا شيئا غير هذا، وترى قلوبهم مولية وهم يجمحون لثقل معرفة الرب -سبحانه تعالى- وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم، وكذلك المشركون على اختلاف شركهم إذا جرد لهم التوحيد وتليت عليهم نصوصه المبطلة الماء الذي به الحياة لشركهم اشمأزت قلوبهم وثقل عليهم، لو وجدوا السبيل إلى سد آذانهم لفعلوا، وكذلك نجد أعداء

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٥٤.
(٢) الكلأ: النبات والعشب، وسواءٌ رطبه ويابسه. انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير ٤/ ١٩٤.
(٣) الأجادب: صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعًا.وقيل: هي الأرض التي لا نبات بها . انظر: النهاية في غريب الأثر ١/ ٢٤٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، ص ٧٩.

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقل ذلك عليهم جدا فأنكرته قلوبهم، وهذا كله شبه ظاهر ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المثل الذي ضربه الله لهم بالماء، فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم»[1].

والعلاقة بين الماء وبين المنافقين واضحة جلية تتمثل فيما يلي:

أولها: أن الماء لا يستقر على حالٍ، فهو يتشكل بأشكالٍ مختلفة حسب الوعاء الذي يوضع فيه، وكذلك المنافق يتلون ويتقلب حسب المصلحة التي يريدها بعيدًا عن الثبات والمبدأ والقيم.

ثانيها: أن الماء ينحدر ويميل دائمًا في مجراه وحركته إلى السفل، وكذلك المنافق لا يتورع عن الانحطاط والسير إلى الحضيض.

ثالثها: أن الماء إذا قبضت عليه لم تجد منه شيئا، وكذلك المنافق إذا تمسكت به وتشبثت به ينفلت منك ولا تستطيع الاعتماد عليه.

رابعها: أن الماء إذا سرت معه أو فيه إما أن تبتل أو تغرق، وكذلك المنافق السير معه لا يأتي بخير فإنه إما أن يغدر بك أو تصيبك من رفقته الشبهة[2].

(١) الأمثال في القرآن ص١١.
(٢) الماء في القرآن دراسة موضوعية، فتحي العبادسة، ص ٢٧٤.

رابعًا: أعمال الكفار:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

عن أبي بن كعبٍ قال: ضرب مثلًا آخر للكافر، قال: فهو يتقلب في خمسٍ من الظلم: فكلامه ظلمةٌ، وعمله ظلمةٌ، ومدخله ظلمةٌ، ومخرجه ظلمةٌ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار[3].

وقال ابن القيم رحمه الله هذا المثل ضرب: «للذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليه ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم، فصاروا جاهلين، وظلمة اتباع الغي والهوى، فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له، وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم، فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان»[4].

(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٣٢.
(٤) الأمثال في القرآن ص١٨.

لمسات إعجازية في الماء

أولًا: دورة الماء في الطبيعة والبيئة:

ذكر الله في القرآن جميع الحقائق المتعلقة بدورة الماء ونزول المطر بشكل يتفق مع أحدث المعطيات العلمية؛ لنتأمل كل جزء من أجزاء الدورة المائية:

١. أهمية الشمس.

الشمس هي محرك الدورة المائية، ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

فالشمس هي التي تبث الحرارة والضوء اللازمان؛ لتبخير الماء وتشكيل الرياح.

٢. دور الرياح.

بعد تبخر الماء يتكثف في السماء على شكل غيوم، والرياح هي المحرك الثاني لدورة الماء، كما أنها تقوم بمهمة التلقيح، يقول -الحق تعالى-: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

٣. أهمية تخزين الماء.

الماء النازل من الغيوم يختزن في الأرض لمئات السنين دون أن يفسد، مع العلم أن أحدنا لو اختزن الماء لأيام قليلة فإنه سيفسد!!

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

٤. تشكل الغيوم.

ذكر القرآن الغيوم العالية الركامية والتي هي مسئولة عن المطر الغزير وعن الثلج والبرد، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿يُزْجِي﴾ أي: يحرك ويسوق، ﴿رُكَامًا﴾ أي: عاليًا بعضه فوق بعض، و﴿الْوَدْقَ﴾: هو المطر الغزير. وهذه الآية من آيات الإعجاز العلمي التي تحتوي على معلومات دقيقة عن هندسة تشكل الغيوم وحدوث البرد.

٥. توزع المياه.

الماء لا يذهب عبثًا بل يتم تخزينه في الأرض؛ لينطلق على شكل ينابيع عذبة نشربها، وبالتالي تستمر الحياة، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

ثانيًا: وجود قوانين دقيقة:

إن جميع العمليات تتم بشكل منتظم وفق قوانين فيزيائية ثابتة؛ ولذلك فإن العملية

بأكملها مقدرة ومحكمة ومنظمة، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وكلمة ﴿بِقَدَرٍ﴾ التي تشير إلى التقدير والنظام.

١. البرزخ المائي.

من أهم أجزاء الدورة ما يحدث في منطقة المصب حيث تصب الأنهار في البحار، وهذه ذكرها القرآن عنها ولم يغفلها، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

ولولا أن الأنهار تصب في البحار لجفت هذه البحار، وقد حدث ذلك مع بحر «الآرال» الذي كان يتغذى من نهرين، وعندما قام البشر بتحويل مجرى النهرين، جف هذا البحر! !

٢. دور الجبال.

إن الجبال لها دور مهم في نزول المطر وتشكل الغيوم وفي تنقية الماء، يقول عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

ففي هذه الآية ربط المولى عز وجل بين الجبال الشامخة وبين الماء الفرات، وهذا ما يؤكده العلماء اليوم.

٣. المعجزات المائية.

- ذكر الله في القرآن الخزانات المائية الضخمة المختزنة تحت سطح الأرض والتي تزيد كميتها عن المياه العذبة في الأنهار، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

فهذه الآية تتضمن إشارة إلى عمليات تخزين المياه في الأرض، وأن هذه الخزانات الطبيعية من المياه هي نعمة من نعم الله حيث تتم تنقية الماء فيها باستمرار، وهذا الأمر لم يكن معلومًا زمن نزول القرآن.

- ذكر الله في القرآن المدة الزمنية الكبيرة التي يمكث فيها الماء في الأرض دون أن يفسد أو يختلط ويتفاعل مع صخور الأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

ففي هذه الآية إشارة إلى أن الماء يسكن في الأرض ويقيم فترة طويلة من الزمن. وعلى الرغم من وجود الأحياء الدقيقة والفطريات والأملاح والمعادن والمواد الملوثة تحت سطح الأرض، إلا أن الماء يبقى نقيًا وماكثًا لا يذهب، أليس الله -تبارك وتعالى- هو من أودع القوانين اللازمة لبقاء الماء بهذا الشكل الصالح للحياة؟

ذكر الله في القرآن العمليات المنظمة والمقدرة التي تحكم نزول الماء ودورته في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١]. أي: بنظام مقدر ومضبوط ومحسوب[١].

ثالثًا: الماء والأرصاد الجوية:

ذكر الله في القرآن الكريم في كثير من آياته بعض الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق والمطر.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

تشير الآية إلى جملة من الحقائق الباهرة التي لم تكتشف إلا بعد تقدم علوم الأرصاد الجوية في العصر الحديث، من ذلك:

يقول علماء الأرصاد الجوية: «إن المطر يتوقف على تكوين السحب الماطرة (المزن)، ومن هذه المزن ما يسمى (المزن الركامي)، وهي سحب تنمو في الاتجاه الرأسي، وقد تمتد إلى علو عشرين كيلومترًا، وداخل السحب الركامية ثلاث طبقات:

وهي الطبقة السفلى وقوامها نقط نامية من الماء.

ثم الطبقة الوسطى وتكون درجة حرارة نقط الماء فيها تحت الصفر المئوي، ومع ذلك فهي باقية في حالة السيولة[٢].

أما الطبقة العليا فتتكون من بلورات الثلج ذات اللون الأبيض الناصع، وجعل الله سبحانه وتعالى نقط الماء فوق المبردة غير مستقرة قابلة للتجمد بمجرد ارتطامها بجسم صلب».

لذا فبمجرد أن تتساقط بلورات الثلج من الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وتلتقي بنقط الماء فوق المبردة تلتصق البلورات بنقط الماء وتتجمد فينمو حجمها سريعا، وينشط عليها التكاثف فتتساقط على هيئة برد: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ وأثناء سقوط هذا البرد يلتقي بنقط الماء النامية فيتجمع معها، ويزداد حجم النقط كثيرا ولا يقوى الهواء على حملها فتتساقط على هيئة مطر، ويذوب أغلب البرد قبل وصوله إلى سطح الأرض.

ولنمو البرد وذوبانه أهمية عظيمة في

(١) دورة الماء بين العلم والإيمان، عبد الدائم الكحيل، ص٦٢-٦٣.

(٢) يجمد الماء تحت الضغط العادي في درجة الصفر المئوي، أما إذا اختل الضغط الجوي الذي يقدر بـ ٧٦ سنتمتر زئبق، فإن تجمد الماء وكذلك غليانه يختلفان، لذا تكون درجة الحرارة أقل من الصفر ولا يجمد الماء، لضعف الضغط الجوي.

عمليات شحن السحابة بالكهربائية التي تسبب البرق والرعد، فالبرد عندما ينمو فوق ملمتر يشحن بالكهربائية، وعندما يذوب يشحن أيضًا بشحنة مضادة، وفي كلتا الحالتين يحمل الهواء الصاعد شحنة كهربائية مضادة عظمى.

والآية الكريمة ذكرت كلمة ﴿رُكَامًا﴾ وأعقبتها بالـ ﴿بَرَدٍ﴾ وقد أثبت العلم أن هذا النوع -السحب الركامية- هي الوحيدة التي تعطي البرد.

وفي التعبير بقوله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ سر من الأسرار الدقيقة الرائعة التي تعتبر الآن من أمهات الحقائق الجوية؛ إذ فيها الدلالة على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها تلك الظواهر الجوية كلها، فإن التأليف بين السحاب وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعبأ في الجو تعبئة الجيوش، وهو يتفق مع ما يريد الله أن يخلقه من بين السحاب من برق وصواعق، ومطر أو برد.

وتشبيه الآية الكريمة هذه السحب بالجبال لا يدركه إلا من ركب الطائرة وعلت به فوق السحب أو بينها، فإنه سيدهش لدقة الوصف؛ إذ يجد مشهد الجبال حقا بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها.

وأشارت الآية الكريمة إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين البرد بالنص على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض، الذي يخطف بالأبصار ويصيبها بالعمى المؤقت، وأكثر من يعاني من هذه الظاهرة هم الطيارون: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [1].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، الأنهار، البحر، الجبال

(١) سنن الله الكونية، محمد الغمراوي، نقلاً عن لفتات علمية في القرآن، ص ٥٣.

المال

عناصر الموضوع

مفهوم المال	٣٥٠
المال في الاستعمال القرآني	٣٥١
الألفاظ ذات صلة	٣٥٢
أهمية المال ومكانته	٣٥٤
المال والفطرة الإنسانية	٣٥٧
كسب المال بين المشروع والممنوع	٣٧٥
الاعتدال والوسطية في الإنفاق	٣٨٥
وجوه الإنفاق المشروع وثمراته	٣٨٨
وجوه الإنفاق الممنوع وعواقبه	٣٩٩

مفهوم المال

أولًا: المعنى اللغوي:

المال: ما ملكته من جميع الأشياء، ومال الرجل يمول مولًا ومؤولًا إذا صار ذا مال، وتصغيره مويل[(١)].

ويجمع على أموال، وهو مذكر ومؤنث . يقال هو المال وهي المال[(٢)].

وفي المعجم الوسيط: «المال: كل ما يملكه الفرد أو تملكه الجماعة من متاع، أو عروض تجارة، أو عقار، أو نقود، أو حيوان »[(٣)].

قال ابن الأثير: «المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل؛ لأنها كانت أكثر أموالهم»[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المال: كل ما يتمول به الناس من جميع الأصناف، كالذهب والفضة والأنعام والحرث وغيرها[(٥)].

(١) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٣٥.
(٢) العناصر المكونة لصفة المالية عند الفقهاء، صالح بن عبد الله اللحيدان، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٧٣، ص١٦٧.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٢٥٣.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٣٧٣.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٤.

المال في الاستعمال القرآني

ورد (المال) في القرآن الكريم (٨٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم مفرد	٢٥	﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف:٤٦]
اسم جمع	٦١	﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾[النساء:٢]

وجاء المال في القرآن بمعناه في اللغة وهو ما يملك من الأعيان[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٠٢٣-١٠٣٣.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٣٥.

الألفاظ ذات صلة

١ القنطار:

القنطار لغة:

اسم لمعيار يوزن . ويقال لما بلغ ذلك الوزن: هذا قنطار، أي: يعدل القنطار . والقنطار: جملة كثيرة مجهولة من المال [(١)] .

القنطار اصطلاحًا:

المال الكثير والعقدة المحكمة الكبيرة منه [(٢)].

قال ابن عطية: «وقد اختلف الناس في تحرير حده كم هو ؟ وروي عن أبي بن كعب أنه ألف ومائتا أوقية، وقال به جماعة، وهو أصح الأقوال، لكن القنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد في قدر الأوقية » [(٣)].

وجاء عند ابن جرير: أن العرب لا تحد القنطار بمقدار معلوم من الوزن، ولكنها تقول: هو قدر وزنٍ، واختار هذا القول؛ لأنه لو كان محددًا قدره عندها لم يكن بين متقدمي أهل التأويل فيه خلاف [(٤)].

الصلة بين القنطار والمال:

القنطار هو المال الكثير الجزيل، بعضه على بعض [(٥)] .

٢ النقود:

النقد لغة:

تمييز الدراهم، وإخراج الزيف منها وإعطاؤها، والانتقاد: قبضها. ويقال: الدرهم نقدٌ، أي: وازن جيد [(٦)].

النقد اصطلاحًا:

العملة من الذهب أو الفضة أو غيرهما مما يتعامل به . ويعبر به عن العملة التي تكون بين

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١١٨.
(٢) انظر: لسان العرب ٥/ ١١٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢١.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٠٨.
(٤) انظر: جامع البيان ٣/ ٢٠١.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٣٢.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٤٢٥.

أيدي الناس ويتعاملون بها.

والنقود:كل ما يدفع من أجل الحصول على السلع أو الخدمات، فيشمل ذلك العملات وتبادلها أو ما يقوم مقامها كالشيكات.

الصلة بين النقود والمال:

النقود هي الأموال المضروبة والتي صارت دنانير ودراهم، وتستعمل كوسيلة تبادل في البيع والشراء.

٣ الذهب والفضة:

الذهب لغة:

الذهب مذكر عند العرب، وربما أنث، فقيل: هي الذهب، ويقال: ذهبة . وهو مكيال لأهل اليمن[١].

الفضة لغة:

أما الفضة فجمعها فضض، وقد اختصت بأدون المتعامل به من الجواهر [٢].

قال القرطبي: «الذهب مأخوذ من الذهاب، والفضة مأخوذة من انفض الشيء إذا تفرق، وهذا الاشتقاق يشعر بزوالهما وعدم ثبوتهما كما هو مشاهد في الوجود » [٣].

وهما من الجواهر النفيسة والمعادن الثمينة والتي تستخدم في سك النقود.

الذهب اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الفضة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الذهب والفضة والمال:

الذهب والفضة هما أصل المال . يقول ابن الأثير: «المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة »[٤].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٨١، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٩٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٨١.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٢.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤/ ٣٧٣.

أهمية المال ومكانته

دلت نصوص القرآن الكريم على مكانة المال وأهميته الكبيرة في حياة الإنسان فردًا أو جماعة، كما أشارت إلى تأثيره في جميع أموره الدنيوية والأخروية وتظهر أهمية المال في القرآن في الآتي:

١ . وصف المال بأنه قوام الحياة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥].

وصف الله تعالى المال في الآية الكريمة بأنه (قيامًا) أو(قوامًا)، فالأموال هي الوسيلة التي جعلها الله للناس لتقوم بها معايشهم وتستقيم بها مصالحهم الدنيوية والأخروية «فلا يستطيع المرء أن يحافظ على حياته المادية إلا بالمال، فبه يأكل، وبه يشرب، وبه يلبس، وبه يبني مسكنه، وبه يصنع سلاحه الذي يدافع به عن نفسه وحرماته، وبه يطور حياته ويرقيها»[(١)].

وبالمال أيضًا يستطيع المرء القيام بكثير من فرائض الدين كالزكاة والحج والجهاد والعلم ونشره، وأعمال البر والإحسان والصلة والصدقة .

«فالأموال قوام الحياة، وسبب إصلاح المعاش، وانتظام الأمور، فبالمال تتقدم الأمم، وتبني صرح الحضارة، وبالمال يسعد الفرد والجماعة، وبه يتحقق النصر على الأعداء.

وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالًا يحاسبني الله عليه خير من أن احتاج إلى الناس . وعن سفيان وكانت له بضاعة يتاجر بها، وقيل له: إنها تدنيك من الدنيا . فقال: لئن أدنتني من الدنيا لقد صانتني عنها »[(٢)].

٢ . تسمية المال خيرًا.

سمى الله تعالى المال «خيرًا » في كتابه العزيز - كما تقدم - وهذا مما يدل على مكانة المال وفضله، فهو ليس مذمومًا في ذاته، بل هو خير، وإنما المذموم هو فعل الإنسان فيه إن أساء استعماله، أو جعله غايةً ومقصودًا في ذاته فصار فكره وقلبه معلقًا به، وصارت أعماله ظاهرةً وباطنة من أجله، فشغله عما خلق لأجله، فأصبح لا يبالي من أي وجه حصل ذلك المال، ولا فيما أنفقه وصرفه، فذاك هو المذموم.

أما من طلبه من وجوهه المشروعة، ووضعه في مواضعه المشروعة، وشكر الله عليه، وجعله وسيلةً وطريقًا للتزود للآخرة والاستعانة به على مرضاة الله تعالى فهذا خيرٌ ولا شك.

يقول صلى الله عليه وسلم لعمرو

(١) انظر: مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال، يوسف القرضاوي، ص ٥.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٢٤٩.

ابن العاص: (نعم المال الصالح للمرء الصالح)[1].

وقد دعا صلى الله عليه وسلم خادمه أنس رضي الله عنه: (اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته)[2].

وقد وصف الله تعالى كثير من الأنبياء بالغنى والمال، كالأنبياء الذين أتاهم الله الملك، مثل يوسف عليه السلام، وداود وسليمان عليهما السلام.

قال تعالى في قصة سليمان: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل:٣٦].

٣. الامتنان بالمال وجعله من المثوبة العاجلة لعباد الله الصالحين في الدنيا.

وهذا مما يدل على فضل المال وأهميته ومكانته كما قال سبحانه في معرض الامتنان على بني إسرائيل: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الاسراء:٩].

وكذا امتن سبحانه على المؤمنين بما حصل يوم الأحزاب، فقال عز وجل: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الأحزاب:٢٧].

وقال سبحانه وتعالى على لسان نوح إبان دعوته لقومه وتذكيره إياهم بنعم الله عليهم: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح:١٢].

وامتن سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى:٨].

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

٤. الأمر بالمحافظة على المال.

لأهمية المال جاءت الأوامر والتوجيهات القرآنية والنبوية بالمحافظة عليه، فكان تحريم التبذير والإسراف في الاستهلاك، والأمر بالاعتدال والتوسط فيه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧﴾ [الاسراء:٢٦-٢٧].

وقال عز وجل: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف:٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان:٦٧].

وقال صلى الله عليه وسلم: (كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسرافٍ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/ ٢٩٩، رقم ١٧٧٦٣.
وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة، رقم ٦٣٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم ٢٤٨٠.

ولا مخيلة)[1].

ونهى صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال فقال: (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[2].

ونحن نعيش اليوم في مجتمعٍ يوصف بالمجتمع الاستهلاكي، وتوصف حياتنا بـ(نمط الحياة الاستهلاكية)، أي: إن الاستهلاك المفرط أصبح من سماتها البارزة .ولا يليق بالمسلم المهتدي بنور الشرع، ولا يجوز له أن يكون أسيرًا مستسلمًا للاستهلاك والسلبية، لا يفعل سوى أن يستهلك حتى يستهلك.بل لابد من التحكم العقلاني في أبواب الاستهلاك، وإغلاق ما يجب إغلاقه منها.

ومن المحافظة على المال الحجر على السفهاء .

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء:٥].

وهو حجر لصالح المجتمع، وكذلك الحجر على الصغار والمجانين وكل من لا يحسن التصرف لصغر سن أو ضعف عقل.

كما أن أطول آية في القرآن الكريم نزلت في حفظ المال بكتابته والإشهاد عليه وهي آية المداينة في سورة البقرة[3] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۖ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:٢٨٢].

٥. جعل المال من الضرورات

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب اللباس، ووصله أحمد في مسنده، ١١/ ٢٩٤، رقم ٦٦٩٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣٠، رقم ٤٥٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم ٢٤٠٨.

(٣) انظر: مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال، القرضاوي ص ٨.

الخمس التي أمر الشرع بحفظها.

أجمع الفقهاء على أن المحافظة على المال من المقاصد أو المصالح الكلية الضرورية الخمس للشريعة الإسلامية، لذلك حرم السرقة وأوجب فيها الحد.

قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة:٨٣].

وفي الحديث: (كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه) [١].

٦. تقديم ذكر المال على الولد في أكثر الآيات التي قرن فيها الأموال بالأولاد.

بل تقديمه على النفس في مواضع ذكر الجهاد - كما سيأتي لاحقًا - فهذا مما يدل على مكانة المال ومنزلته حتى قدم على النفس حال الجهاد، وعلى الولد في أكثر المواضع

(١) سبق تخريجه.

المال والفطرة الإنسانية

أولًا: المال زينة محببة:

أخبر الله تعالى في آياتٍ من كتابه الكريم عما بثه في الأرض للناس من أنواع المتع وأصناف الزين والمنافع والملاذ، وما جعل فيها من المحاسن التي تكون سببًا لتعلق قلوبهم بها وميل نفوسهم إليها، وتسخيرها للخلق وتذليلها لخدمتهم؛ لتكن عونًا لهم على الطاعة والامتثال؛ وسبيلًا لشكر المنعم الواهب، وحذرهم من الاغترار بها والركون إليها، أو الانشغال بها عن الطاعة والواجب، والتشاغل بتحصيلها عن الحياة الحقيقية الباقية، التي لها يكون العمل ولأجلها يسعى الإنسان وإليها المصير وفيها المستقر.

ومن جملة تلك المتع والمنافع: (المال) الذي جبل الإنسان على حبه، وفطر على التعلق به، والحرص على اقتنائه؛ لأنه زينة من زين الحياة، تهفو إليه القلوب، وترغب فيه النفوس، وتطمع في تحصيله الهمم، وتبذل لحيازته وجمعه الجهود والأوقات، وتضيع من أجله وفي سبيله - أحيانًا - أهم الواجبات.

وقد جاء تأكيد هذا المعنى في القرآن الكريم بثلاثة أساليب:

الأسلوب الأول: التصريح بكون المال زينة محببة للإنسان:

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤].

قال الألوسي: «عبر عنها بالشهوات للإشارة إلى ما ركز في الطباع من محبتها والحرص عليها، حتى لكأنهم يشتهون اشتهاءها، أو تنبيهًا على خستها؛ لأن الشهوات خسيسة عند الحكماء والعقلاء، وفي ذلك تنفير منها»[(١)].

وقد فصل الشهوات المحببة للإنسان في آية آل عمران فبدأ بذكر النساء ثم البنين ثم ذكر المال، ولما ذكر المال فصل فيه فعدد أنواعه وأصنافه فأفاد ذلك أن المال من أعظم الشهوات والزين المحببة للإنسان، وأن كل نوع من أنواعه زينة قد تعلقت بها قلوب طائفة من البشر.

بدأ بالذهب والفضة فقال سبحانه: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ والمراد: المال الكثير الجزيل، بعضه على بعض[(٢)]، فهو إشارة إلى كثرة المال وحضوره[(٣)]؛ ولذلك عبر عنه بقوله: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾.

والمقصود أن الإنسان يحب المال الكثير حبًا شديدًا ويرغب فيه؛ ولذا جاء التعبير عن هذا المعنى بذلك الأسلوب المبالغ فيه ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾.

وقد صرح عزوجل بهذه الفطرة الإنسانية في مواضع أخرى من كتابه الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠].

وقوله عزوجل ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨].

وفي هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)[(٤)].

ويقول عليه الصلاة والسلام:(يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان: حب المال وطول العمر)[(٥)].

وإنما كان الذهب والفضة محبوبين

(١) روح المعاني ٢/ ٩٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٣٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، ٨/ ٩٢، رقم ٦٤٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا، ٢/ ٧٢٥، رقم ١٠٤٩.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة، ٨/ ٩٠، رقم ٦٤٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب كراهية الحرص على الدنيا، ٢/ ٧٢٥، رقم ١٠٤٧.

«لأنهما - كما يقول الرازي - جعلا ثمنًا لجميع الأشياء، فمالكها كالمالك لجميع الأشياء»[1].

وقال ابن عاشور: «الذهب والفضة شهوتان بحسب منظرهما، وما يتأخذ منهما من حلي الرجال والنساء، والنقدان منهما الدنانير والدراهم، فهو شهوة لما أودع الله في النفوس منذ العصور من حب النقود التي بها دفع أعواض الأشياء المحتاج إليها»[2].

ثم ثنى بذكر الصنف الثاني من المال وهو ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ والمقصود بها الخيل الحسان الرائعة المعلمة المعدة الراعية[3].

فالخيل بهذا الوصف محبوبة مرغوبة في العصور الماضية وما بعدها، فقد كانت وما زالت زينة محببة للإنسان، فلم ينسها ما تفنن فيه البشر من صنوف المراكب برًا وبحرًا وجوًا، فمع كل ما لديهم من وسائل، مازال للخيل قيمتها وقدرها وعشاقها، وما زال الناس يعتنون بركوب ظهور الخيل، وجر العربات بالأفراس ويقيمون المسابقات بين الخيول[4].

ثم ذكر الصنف الثالث من المال وهو ﴿الْأَنْعَامِ﴾ والمقصود بها المواشي من الإبل والبقر والغنم . فإن قيل: «نَعَمٌ» فهو للإبل خاصة[5].

والأنعام بأنواعها زينة محببة للإنسان؛ لأنه في حاجة شديدة إليها في المركب والمطعم وغير ذلك من أمور المعاش.

قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل:٥-٦].

والأنعام - كما يقول ابن عاشور - زينة لأهل الوبر، فقد لا تتعلق شهوات أهل المدن بشدة الإقبال على الأنعام، لكنهم يحبون مشاهدتها، ويعنون بالارتياح إليها إجمالًا[6].

ثم ذكر سبحانه الصنف الرابع من المال وهو ﴿الْحَرْثِ﴾ والمقصود به حرث الأرض وشقها للزرع، فيشمل أنواع الفلاحة من زرع الحبوب أو الجنات.

فهذه أصناف المال التي نصت عليها الآية الكريمة . قال القرطبي: «قال العلماء: ذكر الله تعالى أربعة أصنافٍ من المال، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس، أما الذهب والفضة فيتمول بها التجار، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٧١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ١٨١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ١٨٢.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٣.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ١٨٢.

الحرث فيتمول بها أهل الرساتيق، فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتمول به »[1].

وقد ختم الله تعالى آية عمران بعد ذكر أصناف الزين والمشتهيات بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي: كل ما تقدم ذكره من أنواع الشهوات المحببة إلى النفوس إنما هو متاع يستمتع به في الدنيا أهلها ما داموا أحياء، فيتبلغون به فيها، ويجعلونه من وسائل معاشهم، وأسباب قضاء حوائجهم دون أن تكون عدة لمعادهم وقربة إلى ربهم، إلا ما أسلك في سبيله وأنفق منه فيما أمر به[2].

الأسلوب الثاني: تقديم المال على الولد في عدة مواضع من القرآن الكريم:

قرن الله تعالى في كتابه الكريم بين الأموال والأولاد في أربعة وعشرين موضعًا، قدمت فيها الأموال على الأولاد، وفي موضعين قدم الأولاد على الأموال.

قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

إضافة إلى التصريح في هذه الآية الكريمة بأن المال زينة، جاء المال فيها مقدمًا على الولد، فدل ذلك على مكانة المال في نفس الإنسان ومنزلته عنده وحبه له وتعلق قلبه به، ولا غرو في ذلك فهو زينة كما سماه الله تعالى.

قال القرطبي: «إنما كان المال زينة الحياة؛ لأن في المال جمعًا ونفعًا»[3].

وقال القاسمي: «تقديم المال على البنين لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد؛ ولكون الحاجة إليه أمس؛ ولأنه زينة بدونهم، من غير عكس »[4].

وقال وهبة الزحيلي: «تقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه؛ لأنه أهم وأخطر، وأكثر تحقيقًا للحاجة والرغبة والهوى، فقد يكون البنون دون مال، ويكون البؤس والشقاء »[5].

الأسلوب الثالث: الامتنان بالإمداد بالمال:

ولا يكون الامتنان إلا بما هو مرغوب محبوب للنفس، ذو مكانةٍ ومنزلة وفضل عند الناس، لذلك امتن الله تعالى في عدد من آيات القرآن الكريم على عباده الصالحين بالإمداد بالمال.

ثانيًا: أقسام الناس تجاه شهوة المال:

وصف الله تعالى المال بأنه شهوة، وفطر الناس على حبه، وهو شهوة وزينة ليست خسيسة أو مذمومةً في ذاتها، ولا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢٦٩.
(٤) انظر: محاسن التأويل ٥/ ٣٤.
(٥) انظر: التفسير المنير، ١٥/ ٢٦.

يقصد الشرع التنفير منها، إنما يريد من الناس أن يقتصدوا في طلبها، ويطلبوها من وجوهها المشروعة، ويضعوها في مواضعها المشروعة، وأن يشكروا الله عليها، وألا يجعلوها غاية مقصدهم في هذه الحياة، فالشرع لا يحارب الفطرة الإنسانية التي تشتهي المال وتحبه، إنما يهذبها ويضبطها ويرشدها لوضع المال في موضعه المناسب، حتى لا يطغى على غيره، ولا يستعمل في غير ما أراد الله تعالى له، وبذلك يسعد الإنسان في دينه ودنياه وآخرته.

قال ابن كثير: «وحب المال تارةً يكون للفخر والخيلاء والتكبر فيكون مذمومًا، وتارةً يكون للنفقة في وجوه البر فيكون محمودًا»[1].

وقال السعدي في تفسيره: «انقسم الناس بحسب الواقع تجاه هذه الشهوات إلى قسمين:

قسمٌ: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت لهم زادًا إلى دار الشقاء والعناء والعذاب.

والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاءً وامتحانًا لعباده؛ ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلةً لهم وطريقًا يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فجعلوها معبرًا إلى الدار الآخرة ومتجرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربهم»[2].

ثالثًا: المال فتنة وابتلاء:

كما وصف الله تعالى المال بأنه (زينة) وصفه عزوجل بأنه (فتنة)، ووصفه بـ(الزينة) جاء مخصوصًا بالحياة الدنيا فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[آل عمران: ١٤].

وقال: ﴿زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

فوصفه بكونه زينة مخصوص بالحياة الدنيا؛ ولذلك أرشد الله تعالى في الآيتين لما هو خير وأبقى للإنسان فقال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ وقال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

والمراد بالباقيات الصالحات:كل عملٍ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٣٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٢.

صالحٍ من قولٍ أو فعل يبقى للآخرة[1].

فالمال زينة خاصة بالدنيا، فإن أحسن الإنسان استعماله وجعله عونًا على الطاعة ووسيلةً وطريقًا للآخرة فقد نال ثواب الله الأبقى، بينما إذا انشغل بهذا المال عن الآخرة وصارت هذه الشهوة مقصده وغايته، أصبح ذلك المال بلاءً ونقمةً عليه، ومن هنا وصف الله تعالى المال بأنه (فتنة) قال عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

قال ابن جرير: «اعلموا أيها المؤمنون أنما أموالكم التي خولكموها اللهاختبار وبلاء،أعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم، لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق الله عليكم فيها والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها»[2].

وقال ابن كثير: «أي: اختبار وابتلاء منه لكم، إذا أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه»[3].

وفي وجه وصف المال بأنه فتنة يقول الشوكاني: «لأنه سبب الوقوع في كثير من الذنوب فصار من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده، وإن كان من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا»[4].

وقال القاسمي: «سموا فتنة اعتبارًا بما ينال الإنسان من الاختبار بهم، ويجوز أن يراد بـ (الفتنة) الإثم والعذاب، فإنهم سبب الوقوع في ذلك»[5].

وقال السمرقندي: «إنما ذكر الأموال والأولاد؛ لأن أكثر الناس يدخلون النار لأجل الأموال والأولاد»[6].

وعلى ذلك فمعنى (الفتنة): إما الاختبار والابتلاء؛ ليتبين الشاكر لهذه النعمة من الجاحد لها، المشتغل بها عما خلقه الله من أجله.وإما أن يكون معنى الفتنة العذاب والإثم فسمى المال فتنة؛ لأنه سبب للوقوع في الإثم والعذاب.

فالمال من الفتن العظيمة التي يبتلى بها المؤمن، وقل من يصبر عليها، يقول صلى الله عليه وسلم: (إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال)[7].

قال المناوي: «أي: الالتهاء به؛ لأنه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٣٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٦٩.
(٢) انظر: جامع البيان ٦/ ٢٢٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٨٨.
(٤) انظر: فتح القدير ٢/ ٣٨٦.
(٥) انظر: محاسن التأويل ٤/ ٢٩.
(٦) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٢١.
(٧) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/ ١٥، رقم ١٧٤٧١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٣٠، رقم ٢١٤٨.

يشغل البال عن القيام بالطاعة وينسي الآخرة »[1].

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من فتنة المال فقال: (أبشروا وأملوا ما يسركم، فو الله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم)[2].

قال الشيخ ابن عثيمين: «لما كان الناس إلى الفقر أقرب، كانوا لله أتقى وأخشع وأخشى، ولما كثر المال، كثر الإعراض عن سبيل الله، وحصل الطغيان، وصار الإنسان يتشوف لزهرة الدنيا وزينتها ويعرض عما ينفعه في الآخرة »[3].

يقول المراغي في تفسيره: «فتنة المال عظيمة لا تخفى، إذ أموال الإنسان عليها مدار معيشته، وتحصيل رغائبه وشهواته، ودفع الكثير من المكاره عنه، من أجل ذلك يتكلف في كسبها المشاق، ويركب الصعاب، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام، ويرغبه في القصد والاعتدال، ويتكلف العناء في حفظها وتتنازعه الأهواء في إنفاقها، ويفرض عليه الشارع فيها حقوقًا معينة وغير معينة »[4].

وفتنة المال قديمة، لكنها اشتدت هذا الزمان مع بعد الناس عن دينهم ولهثهم وراء الحياة، وانبساط الدنيا، وتنوع وسائل الكسب، وتفنن المصارف والبنوك في استجلاب واستقطاب الناس لكسب أموالهم بطرق مختلفة ووسائل متنوعة

رابعًا: من صور الافتتان بالمال:

الصورة الأولى: أن يكون المال سببًا في الإعراض عن الإيمان وقبول الحق.

وهو أعظم صور الافتتان بالمال وأخطرها على الإنسان، حين يصده ماله عن متابعة الحق والإذعان إليه؛ لذلك ندد الله تعالى بالمشركين والكفار كالوليد بن المغيرة وغيره؛ لما صدتهم أموالهم بكثرتها عن الإيمان بالله ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القلم:١٤].

أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة الأساطير التي يمكن صدقها وكذبها[5].

(١) انظر: فيض القدير ٢/ ٥٠٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ١٢، رقم ٤٠١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، رقم ٢٩٦١.
(٣) شرح رياض الصالحين ٣/ ٣٦١.
(٤) انظر: تفسير المراغي ٩/ ١٩٦.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٥٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٠٥.

وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر:١١-١٦].

فهذا تقريع وتوبيخ لأولئك الكفرة على مقابلة ما أنعم الله به عليهم من المال بالكفر بآيات الله تعالى والإعراض عنها.

والآيات وإن كانت في سببٍ خاص إلا أنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف أو سار على هذا النهج، فكان ماله سبب كفره وجحوده وإعراضه عن الحق؛ لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم،فيدخل فيه أول الأمة وآخرها؛ ولأن العبرة في آيات الكتاب العزيز بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الصورة الثانية: أن يكون المال سببًا للبطر والطغيان.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق:٦-٧].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ [الاسراء:٨٣].

قال القاسمي: «فيما يورث البطر مثل الغنى، وبه تستجمع أسباب السؤود والرئاسة والمجد والتفاخر»[1]

الصورة الثالثة: أن يكون المال سببًا في التشاغل عن الطاعات وذكر الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

فهذا نداء من الله تعالى لعباده المؤمنين وتنبيهٌ لهم بألا تشغلهم أموالهم وتدبيرها، والعناية بشؤونها، واستثمارها، وتنميتها، وتحصيلها، عن القيام بذكر الله تعالى وطاعته من التسبيح، والتحميد والتهليل، وقراءة القرآن، وأداء فروض الإسلام، وحقوق الله تعالى . ثم علق الخسران الكامل بالتلهي عن الذكر وطاعة الله بالدنيا وزينتها ومتاعها [2] حيث قال سبحانه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

وقد حذر الله تعالى من الانشغال بالأموال فقال عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤].

وفي آية أخرى ذم الله تعالى وندد بالمتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين تعللوا واحتجوا بانشغالهم بأموالهم.

(١) انظر: محاسن التأويل ٢/ ٤٢.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ٣١٤.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح:١١].

الصورة الرابعة: صيرورة المال غاية في ذاته وبذل الوقت في جمعه وتنميته.

وقد ذم الله تعالى من كانت هذه صفته فقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ [الهمزة:١-٣].

والمقصود كل من لا هم له سوى جمع المال وتعديده، ولا رغبة له في إنفاقه، وجهلًا منه يحسب أن ذلك المال سببًا للخلود في الدنيا؛ ولذلك كان كده وسعيه في تنمية ماله الذي يظن أنه ينمي عمره[(١)].

وذم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عبد المال فقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة:٥٨].

فهؤلاء جعلوا الرضا والغضب تبعًا لأهواء أنفسهم الدنيوية، وأغراضهم الفاسدة، ومن ذلك حب المال والحرص عليه[(٢)].

وقال صلى الله عليه وسلم: (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض)[(٣)].

قال ابن حجر رحمه الله: «(عبد الدينار) أي: طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده.قال الطيبي:خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها، كالأسير الذي لا يجد خلاصًا،ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار؛ لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة »[(٤)].

وجاء في رواية أخرى: (تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش) .

قال ابن حجر: «وفيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعي والحركة، وسوغ الدعاء عليه كونه قصر عمله على جمع الدنيا واشتغل بها عن الذي أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات »[(٥)].

الصورة الخامسة: عدم التحري في كسب المال والحصول عليه.

وهو ناتجٌ عن الصورة السابقة من صيرورة المال غاية في ذاته، فلا يأبه أمن حلالٍ جمعه أم من حرام، ولا يسأل ولا يتحرى في كسبه مشروع هو أم ممنوع، وينسى أو يتناسى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى

(١) انظر: المصدر السابق ٣٠/ ٣٩٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب، ما يتقى من فتنة المال، رقم ٦٤٣٥.
(٤) فتح الباري، ١٤/ ٣٠٦.
(٥) المصدر السابق ١٤/ ٣٠٧.

يسأل عن خمس) وذكر منها: (وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه[1].

والذي يتأمل حال الناس اليوم، يرى انكبابهم على كسب المال بأي وسيلة، سواء كانت مساهمات مشبوهة، أو معاملات فيها مخالفات، أو طرق محرمة أصلًا كالربا والغش وأكل المال بالباطل .فطاشت عقول الناس- إلا من رحم ربي- مع الأسهم والمساهمات وصنوف المعاملات، بالرغم من وجود البدائل المباحة، وجهود أهل العلم من المختصين في بيان أحكام المعاملات والأسهم والمساهمات، وكل ما يستجد من صنوف المعاملات المالية، فصدق عليهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ليأتين على الناس زمان، لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن حلال أم من حرام)[2].

الصورة السادسة: منع الحقوق فيه، سواءً كانت حقوقًا لله تعالى أم للخلق.

فمن الافتتان بالمال البخل، والشح به ،ومنع حقوق الله تعالى فيه وعلى رأسها الزكاة .

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء:٣٧].

أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة[3].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة:٣٤].

قال السعدي: «وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت»[4].

وكذا الإمساك وكراهة الإنفاق في سبيل الله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٨١].

ومثله منع حقوق الخلق كالإمساك عن النفقة الواجبة، أوالتهاون في رد الحقوق كالديون والأقساط لأصحابها.

الصورة السابعة: التفاخر بالمال والتكاثر فيه واعتباره معيارًا للأفضلية.

فمن صور الافتتان بالمال التفاخر به والتكاثر فيه والتنافس في تحصيله وجمعه،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب في القيامة، ٤/ ١٩٠، رقم ٢٤١٦.
قال الترمذي: هذا حديث غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٢٠، رقم ٧٢٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة)، ٣/ ٥٩، رقم ٣٠٨٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص١٤٣.

(٤) انظر: المصدر السابق ص٢٩٧.

وهذا ما سيأتي بيانه في المطلب القادم بإذن الله تعالى.

خامسًا: النجاة من فتنة المال:

إذا علم الإنسان فتنة المال وخطره، فعليه التوقي من تلك الفتنة والحذر منها ومما يعين الإنسان على النجاة من فتنة المال ما يلي:

١. الإيمان بالله تعالى، ومعرفة ما له من صفات الكمال ونعوت الجمال، فهو سبحانه الغني والخلق كلهم فقراء. قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]. وقال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨]. فالمخلوق فقير مهما بلغت أملاكه، والله تعالى هو الغني الحميد، فإن علم العبد ذلك عظم ربه واحتقر نفسه ونجا من فتنة المال.

٢. العلم التام واليقين الكامل بأن المال كله لله ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور:٣٣]. وقال عزوجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. وقد ذم الله تعالى قارون لما نسب المال إلى علمه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]. فرد عليه عزوجل بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص:٧٨].

٣. العلم بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الزهد والاقتصاد في العيش، فإنه لم يسأل ربه مالًا قط بل سأله الكفاف: (اللهم ارزق آل محمدًا قوتًا)[(١)].

٤. الدعاء واللجوء إلى الله تعالى أن يقيه وينجيه من هذه الفتنة، ومن الأدعية في ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر، ومن عذاب القبر، ومن فتنة النار، ومن عذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر)[(٢)].

٥. التفكر والتأمل فيما قصه الله تعالى في كتابه الكريم من مصير أرباب الأموال الذين لم يقدروا النعمة ولم يرعوا حق الله تعالى في ذلك المال، كقصة قارون، وأصحاب الجنة، وصاحب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم، رقم ٦٣٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب التعوذ من شر الفتن، رقم ٥٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، رقم ٦٤٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد، رقم ١٠٥٥.

الجنتين.

٦. العلم بحقيقة الدنيا وهوانها ومعرفة حقيقتها، والتفكر في أحوالها وسرعة زوالها وفنائها وانقضائها، فإن ذلك مما يسقط حبها والتعلق بمتعها وزينها من القلب وبذلك ينجو من فتنة المال.

٧. تذكر التهديد والوعيد الرباني لأولئك الذين طغى على قلوبهم حب المال فقدموه على محبة الله ورسوله. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤].

٨. لزوم القناعة والرضا بما كتبه الله للعبد، والاستغناء بغنى النفس يقول صلى الله عليه وسلم: (كن ورعًا تكن أعبد الناس، وكن قنعًا تكن أشكر الناس)[1].

٩. التحري في كل مالٍ يناله الإنسان، فيعلم مصدر رزقه ومورد دخله، فيبتعد عن المحرمات ويتقي الشبهات، ويحرص على تطييب مكسبه.

سادسًا: الابتلاء في المال:

كل ما تقدم كان في التحذير من فتنة المال وصور الافتتان به، وكما تكون الفتنة بالمال فإنها قد تكون فيه، ويكون ذلك بنزول البلاء والمحن على العبد في ماله امتحانًا من الله وتمحيصًا وتمييزًا وتبيانًا للمؤمن الصادق الصابر الشاكر، من الكافر أو المنافق الكاذب الجاذع .

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

وقال سبحانه: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٨٦].

فهذا قسم من الله تعالى بأنه سيصيب أهل الإيمان بشيءٍ من نقص الأموال، ويكون ذلك بما يعتريها من جوائح سماوية، أوغرق أو ضياع، أو أخذ الظلمة للأموال سواء كان ذلك الظالم صاحب سلطة ورئاسة كالملوك، أو من قطاع الطرق، أو ما يعتري الأموال من خسارة وكساد أو تعرضها للسرقة.أو غير ذلك.

فالمؤمن يصبر ويسترجع ويستسلم لقضاء الله وقدره، ويرضى بحكمه، ويسلم لأمره، فذاك الذي يؤجر على المصيبة،

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، ٢/ ١٤١٠، رقم ٤٢١٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٤٠، رقم ٤٥٨٠.

فيعوضه الله خيرًا منها، ويؤتيه ثواب صبره في الدنيا والآخرة؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

أما الكافر أو المنافق فإن الدنيا تضيق عليه إذا نزلت به المصيبة، مع الجزع والتسخط وعدم الرضا، بل قد يؤدي به حزنه إلى الاعتداء على الآخرين، والتفوه بما لا يليق من الألفاظ مع الاعتراض الكامل على قضاء الله وقدره.

سابعًا: المال مجال للتفاخر والتكاثر:

سمى الله تعالى المال (خيرًا)، ووصفه بأنه (زينة)، ووصفه بأنه (فتنة)، ومن أوجه كونه فتنة، أنه وسيلة لما يكون سببًا في الوقوع في الإثم واستيجاب العذاب من التنافس على الدنيا، والتكاثر في تحصيل متعها ومتاعها وزينتها وزخرفها، والتفاخر به، والتعالي على الناس بجمعه وتكثيره وحيازته، حتى ينشغل القلب بهذا التكاثر والتفاخر فيغفل ويلهى عن حقيقة الدنيا، وزوالها وهوانها وسرعة انقضائها وفنائها، وينسى الحياة الحقيقية والدار الآخرة الباقية فيقصر في العمل والاستعداد لها.

قال عز وجل في وصف الدنيا وحال الناس فيها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد:٢٠].

وأخبر سبحانه عن حال الناس وانشغالهم بالتنافس والتكاثر والتفاخر فيها مدة حياتهم فقال عز وجل: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر:١-٢].

والتكاثر: التباهي بكثرة المال والولد والجاه والمناقب[1]. ويقع على أحد وجوه ثلاثة:

الأول: أن يكون بين الاثنين فيكون من باب المفاعلة.

الثاني: أن يكون من فاعل واحد لكن على سبيل التكلف، كما تقول: تكارهت على كذا، إذا فعلته وأنت كاره . وتقول:تباعدت عن الأمر، إذا تكلفت البعد عنه.

الثالث: أن يراد به مطلق الفعل، كما تقول: تباعدت عن الأمر، أي: بعدت عنه.

والتكاثر الوارد في الآيتين يحتمل الوجهين الأولين، فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة؛ لأنه كم من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف:٣٤].

ويحتمل تكلف الكثرة، فإن الحريص يتكلف جميع عمره تكثير ماله[2].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٧٢.
(٢) انظر: المصدر السابق ٣٢/ ٧٥.

وفي آية الحديد جاء التكاثر مبينًا فيما يكون حيث قال سبحانه: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ فهذا تصريحٌ بأن المكاثرة تكون في المال والولد، أما في سورة التكاثر فجاء الخبر مطلقًا ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ولم يعين المتكاثر به بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء، لا المتكاثر به، وإما لإرادة العموم[1]، وذهب بعض أهل التفسير إلى أن المتكاثر به هو المال والولد[2]، حملاً للعام على الخاص الوارد في آية الحديد.

وذهب آخرون إلى بقاء العموم على عمومه، فيشمل ذلك كل ما يتكاثر فيه الناس من مالٍ وولد وجاه ورئاسة ومسكن ومركب إلخ[3].

قال الرازي: «وجاء في المراد بالآية أن المنهي عنه هنا والمذموم هو التكاثر بالمال،واستدلوا عليه بما ورد في الحديث،عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سورة التكاثر، وقال: (يقول ابن آدم:مالي . مالي. قال: وهل لك، يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت ؟)[4][5].

قال ابن جرير: «ألهاكم أيها الناس المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم وعما ينجيكم من سخطه عليكم، حتى متم ودفنتم في المقابر»[6].

والعموم والإطلاق أبلغ في الذم؛ لأنه يشمل كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويتفاخر به المتفاخرون سوى طاعة الله تعالى، ومن جملة ذلك بل وفي مقدمتها الأموال.

قال ابن القيم رحمه الله: «التكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمرٍ من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثرًا وتفاخرًا، وهذا أسوء حالًا عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها»[7].

وعلى ذلك فالتكاثر في المال مذموم، لا سيما إن قصد به المفاخرة والمباهاة وهو دليلٌ على حب الدنيا والتعلق بها والغفلة من الآخرة والعمل لها.

(١) انظر: بدائع التفسير، ابن القيم ٥/ ٣٠٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٦٧٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١١٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١١٥، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦١٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، رقم ٢٩٥٨.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب ٣٢/ ٧٤.
(٦) جامع البيان ١٢/ ٦٧٩.
(٧) انظر: بدائع التفسير ٥/ ٣٠٨.

قال ابن الجوزي: «وأما من قصد جمعه -أي: المال- والاستكثار منه من الحلال، نظرنا في مقصوده، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته وادخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء وفعل المصالح أثيب على قصده»[1].

وقال النووي رحمه الله في شرح حديث:(لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا) قال: «فيه ذم الحرص على الدنيا وحب المكاثرة بها والرغبة فيها»[2].

لكن قد تحصل الكثرة من غير تكاثر فهذا لا يضر، وقد كان بعض الصحابة أهل كثرة في المال ولم تضرهم، لكونها حاصلة من غير تكاثر[3].

فالمذموم هو التكاثر الملهي عن الآخرة، والتكاثر الواقع في متاع الدنيا الزائل، أما التكاثر في أسباب السعادة الأخروية فهو أمرٌ مطلوب شرعًا[4].

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[المطففين:٢٦].

والمتأمل اليوم في حال الناس يرى التسابق المحموم، والتنافس المسموم، والتكاثر المذموم، في كل غرضٍ من أغراض الحياة، لا سيما مع الانفتاح اللا محدود، والدور الكبير الذي تقوم به وسائل الاتصال والإعلام، ووسائل التواصل المختلفة في نشر مبدأ التكاثر والتنافس في متع الدنيا.

فقد يحصل الإنسان على كفايته ومطلوبه في الدنيا، فيجد رزقه ويتيسر له قوته وقوت ولده وأهله، ويملك مسكنه، لكنه ينـزلق إلى الجمع والتكاثر؛ حبًا في التملك والاستئثار وطمعًا في الدنيا وحرصًا على متعها.

ومن التكاثر بالمال: التكاثر والتفاخر بالدور وأثاثها وزينتها، والمزارع والضياع، والسيارات، والهواتف المحمولة وأنواع الكماليات التي أصبحت من سمات هذا العصر، وأضحت المفاخرة بها واضحة للعيان، وتعدت الضرورة والحاجة إلى الكماليات بل إلى السرف المذموم، ويخشى أن يدخل ذلك في الأشر والبطر والظلم والكبر، ويخشى على الناس أن يسلبوا ما أنعم الله به عليهم بسبب سوء استخدام هذه النعم.

ولعل من أسباب التكاثر في المال والتنافس في جمعه والسعي في تكثيره، كونه من أسباب السعادة الدنيوية العاجلة؛ إذ به يتحصل الإنسان على ما يريده فيها. ومن الأسباب كذلك اعتبار كثرة المال معيارًا للأفضلية ودليلًا على الخيرية في مقاييس

(١) انظر: تلبيس إبليس، ابن الجوزي ص٢٢١.
(٢) انظر: شرح صحيح مسلم ٧/ ١٢٥.
(٣) انظر: عدة الصابرين، ابن القيم ص١٩١.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤١٤.

البشر المغلوطة.

وقد ضرب الله تعالى في كتابه الكريم أمثالًا، وقص قصصًا، وحكى أخبارًا عمن اغتر بماله وكثرته، وظن أنه دليل على الخير، وحب الله تعالى له، ووافر حظه في الدنيا والآخرة، وكيف كانت عاقبة أمره في الدنيا مع ما له في الآخرة من جزاء؟!

فحكى سبحانه عن بني إسرائيل اعتراضهم أن يكون طالوت ملكًا وقائدًا حربيًا فقال: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾[البقرة:٢٤٧].

فتوهموا أن الغنى والمال شرطٌ أساسي في الملك؛ ولأنه كان فقيرًا لا مال له فإنه حسب زعمهم لا يستطيع الحكم[(١)].

وفي سورة الكهف قص الله تعالى خبر صاحب الجنتين ومحاورته لصاحبه المؤمن حيث قال: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف:٣٤].

وهذا غاية الجهل؛ لأنه افتخر بأمرٍ ليس فيه فضيلة ولا صفة تميزه عن صاحبه، فإن النعمة الحقيقية هي نعمة الإيمان والإسلام ولو مع قلة المال، أما ما عداها فهو معرض للزوال والبوار[(٢)]؛ لذلك قال له صاحبه المؤمن: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف:٣٧-٣٩].

وفي سورة مريم أخبر الله تعالى عن المكذبين بالبعث المنكرين للحياة بعد الموت فقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم:٧٧].

فهذا الكافر جمع بين كفره بآيات الله تعالى ودعواه الكبيرة أنه سيؤتى في الآخرة مالًا وولدًا، أي يكون من أهل الجنة؛ لأنه كان صاحب مال في الدنيا، وهذا من أعجب الأمور[(٣)].

وفي موضع آخر يذكر الله تعالى اغترار الكفار فيقول عز وجل: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:٣٥].

لما كان أولئك الكفار مترفون قد أنعم الله عليهم بفضله في الدنيا، عيروا المؤمنين الفقراء، وظنوا أن ذلك سبب لتميزهم وتفاخرهم، ودليلٌ على محبة الله لهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٨٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٩، التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٤٢٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٧.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ٤٤٩.

ورضاه عنهم، وعن ما هم عليه من الكفر، وقالوا: ما كان الله ليعطينا هذا في الدنيا، ثم يعذبنا في الآخرة [(١)].

فرد الله عليهم وأبان لهم خطأهم بقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: إن الله يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، لا لمحبة لمن وسع عليه، ولا لبغض لمن ضيق عليه، وإنما له في ذلك حكمة تامة بالغة؛ ولأن الدنيا لا تساوي شيئًا في ميزان الله، كما قال صلى الله عليه وسلم:(لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء) [(٢)].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة سنن الله في الكون، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مسألة الرزق غلطٌ بين، أو مغالطة واضحة، فقد يعطي الله العاصي والكافر استدراجًا وإمهالًا، ويمنع الطائع والمؤمن ابتلاءً واختبارًا؛ ليصبر فتكثر حسناته عند الله.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١٩٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله، ٤/ ١٣٨، رقم ٢٣٢٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، ٢/ ١٣٧٦، رقم ٤١١٠.
قال الترمذي: حديث صحيح غريب من هذا الوجه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٣٧، رقم ٥٢٩٢.

وبذلك يتبين أن ما يزعمه المترفون من أن مدار التوسعة هو الشرف والكرامة، ومدار التضييق هو الهوان والذل، لا حقيقة له ولا أصل في تقدير الله تعالى [(٣)].

فهذه النظرة خطأ محض وقياس باطل؛ لأن الإمداد بالأموال - كما تقدم - غالبًا ما يكون للاستدراج، كما قال عزوجل:﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

أي: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد؛ لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، أو دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة وأن لهم خير الدنيا والآخرة ؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَّحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ [سبأ:٣٥].

لقد أخطؤوا في ظنهم، وخاب رجاؤهم، بل نفعل ذلك استدراجًا وإملاءً لهم؛ لهذا قال:﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يحسون أنما نفعل ذلك بهم استدراجًا وأخذًا بأيديهم إلى العذاب إن لم يتوبوا [(٤)]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[آل عمران: ١٧٨].

وقال عز وجل: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١٩٥.

(٤) انظر: المصدر السابق ١٨/ ٥٩.

﴿ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٤-٤٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٥].

أي: لا تعجبك أموال الكفار وأهل النفاق، ولا أولادهم، ولا سائر نعم الله التي آتاهم، فإنما هي من أسباب المحن والآفات والعذاب عليهم. فأموالهم في الدنيا سبب لتعذيبهم، والمراد بالعذاب هنا ما ينالهم من المشقة في تحصيلها والسعي الشديد في جمعها، حيث يتعبون في ذلك، ويصحبهم الهم والقلق والخوف الشديد عليها، ثم هي في الآخرة عذابٌ عليهم، حيث يموتون على الكفر والنفاق الموجب لدخول النار [(١)].

والآيتان في التوبة مع تفاوت في بعض الألفاظ «وفائدة التكرار التأكيد والتحذير من الاشتغال بالأموال والأولاد، مرة بعد أخرى، بسبب شدة تعلق النفوس بها، حتى لا تحجب عن طلب ما هو أولى وهو الاشتغال للآخرة، فهي تحذيرٌ ونهيٌ صريح عن الاغترار بالأموال والأولاد» [(٢)].

وقد أبان سبحانه ميزان القربى عنده، والنجاة والأمن من عذابه وأنها ليست بكثرة المال، وإنما بالإيمان والعمل الصالح فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ:٣٧].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ [آل عمران:١٠].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران:١١٦].

وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

فدل ذلك على أن المال لا ينفع صاحبه يوم القيامة ولو افتدى نفسه بملء الأرض ذهبًا إلا من آمن بالله وأحسن، واستعمله في طاعة الله تعالى، وأنفقه في سبيله.

وقد حكى سبحانه تحسر ذلك المغتر بماله يوم القيامة فقال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾ [الحاقة:٢٨].

وقال سبحانه تنديدًا بالكافر: ﴿وَمَآ يُغْنِي عَنْهُ

(١) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٢٥٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٨.

﴿مَا لَهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[الليل:١١] أي: إذا مات وهلك وسقط في جهنم.

وقال عز وجل عن أبي لهب: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد:٢].

وخلاصة القول في ذلك:أن الكرامة والمكانة للعبد عند الله ليست بالمال وكثرته، بل بالإيمان والتقوى والعمل الصالح.

كسب المال بين المشروع والممنوع

أولًا: كسب المال المشروع:

الإنسان في هذه الحياة لا غنى له عن المال، الذي هو عصب الحياة وقوامها؛ لذلك نجد الإنسان يميل بطبعه وفطرته للكسب وحيازة المال وتحصيله، إذ يرى أن قوام حياته وتلبية حاجاته وتوفير قوته وقوت من يعوله متعلق بذلك، وبه يغني نفسه ويعفها عن السؤال والذل والحاجة.

وهذا الميل الفطري لا يدخل في الافتتان بالمال مادام أن الإنسان التزم العدل والحق في السعي لكسبه، ومادام أن تحصيله وفق ضوابط الشرع من الكسب الطيب الحلال، الذي ليس به اعتداء، ولا ظلم، ولا ضرر على الغير، ومادام أن المال عنده وسيلة لتحقيق غاية، وليس غاية يبذل كل وسيلة في سبيل الحصول عليه.

فالقرآن الكريم كما يحذر من الافتتان بالمال والالتهاء بجمعه وتكثيره وتحصيله، ويبين عاقبة من كانت هذه حاله، فإنه لا يرضى بالرهبنة والإعراض عن الدنيا وزينتها بالكلية ومن جملة ذلك المال .

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص:٧٧].

والآيات التي وصفت المال بأنه (زينة) و(فتنة) وسبب للهو وما فيها من المفاضلة

بين الدنيا والآخرة، والتنبيه على أن كل ذلك متاع الحياة الدنيا وما عند الله (الباقيات الصالحات) خيرٌ وأبقى أجرًا وثوابًا، إنما هي في المفاضلة بين المال الفاني الزائل بزوال الدنيا، وبين الأجر الثابت الباقي الدائم عند الله في الآخرة.

ويخطيء من يظن أن المفاضلة هنا بين كسب المال وترك كسبه وجمعه، فإن ذلك مخالف للفطرة والطبع البشري الإنساني، إنما المفاضلة بين تعظيم المال وتقديسه حتى يصبح عند صاحبه معبودًا، وبين من رعى حق الله تعالى فيه وابتغى رضاه وأنفقه في سبيله، وجعله طريقًا له إلى الجنة.

وليس في الآيات ما يدل على نبذ الدنيا ورفض العمل والكسب نفورًا من المال وإيثارًا لما عند الله، فهذا فهمٌ سقيم خاطئ يتناقض مع روح الإسلام وجمعه بين الدنيا والدين.

بل القرآن يقر جمع المال وتحصيله، ويشرع ويبين السبل الصحيحة في كسبه، ويدعو إلى التماس أبواب الرزق المتنوعة، ويبيح أنواعًا من الاكتساب، ويفتح أصنافًا من وسائل طلب الرزق، ويلفت النظر إلى ما في هذا الكون من منابع الثروات، ومصادر الخيرات، ويحثهم على الاستفادة منها واستغلالها.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ واعلمهم أن الأرض بكل ما عليها خلقت لانتفاع الإنسان بها، وجعلت مجال عمله وكسبه بكل ثرواتها ظاهرًا وباطنًا.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥].

وحثهم سبحانه على ابتغاء فضله والضرب في الأرض طلبًا للرزق والتكسب.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠].

قال الشوكاني: «﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: من رزقه الذي يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات والمكاسب»[1].

وفيه إباحة لطلب الرزق بالتجارة، يعني: اطلبوا الرزق من الله تعالى بالتجارة والكسب.

قال السعدي: «﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾

(١) انظر: فتح القدير ٥/ ٢٨٢.

لطلب المكاسب والتجارات »[1].

وقال الزحيلي: «أباح لهم عقب الفراغ من الصلاة الانتشار في الأرض للتجارة والتصرف في الحوائج »[2].

وقال عز وجل: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[المزمل:٢٠].

قال ابن كثير: «أي: مسافرون يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر »[3].

وحث النبي صلى الله عليه وسلم على الكسب فقال: (ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يديه وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[4].

وضرب الله تعالى الأمثلة على الكسب والعمل وطلب الرزق بأفضل الخلق وهم الأنبياء والرسل، فآدم كان فلاحًا يحرث الأرض ويزرعها، وإبراهيم الخليل كان بناءً، وقد بنى البيت، وإلياس كان نساجًا، وداود كان حدادًا يصنع الدروع، وموسى كان راعيًا للغنم، وعيسى كان يعمل بالطب، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم عمل في صغره برعي الغنم ثم في شبابه بالتجارة، فكل نبي كانت له حرفة يبتغي من خلالها فضل الله ورزقه؛ لأن من الدين أن يقوم الإنسان بأداء ما تتطلبه هذه الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وحرفة ومهنة، بالطريقة التي يرشدنا إليها القرآن؛ لهذا نراه يأمر الناس باستخدام وسائل الإنتاج المتاحة لهم في جميع المجالات على هذه الأرض.

وكسب المال بالأوجه المشروعة والوسائل المباحة إما أن يكون عن طريق العمل والجد والكد كالتكسب بأنواع المهن والحرف من تجارة وزراعة وصناعة وصنوف المعاملات، وإما أن يكون تحصيلًا للمال وكسبًا له من غير عمل أو بذل جهد كالمال الذي يتحصل عليه الإنسان من وصية، أو هبةٍ، أو ميراث.

قال الحافظ ابن حجر في بيان معنى (الكسب الطيب) الوارد في بعض نصوص الحديث: «ومعنى (الكسب) المكسوب، والمراد به ما هو أعم، من تعاطي التكسب أو حصول المكسوب من غير تعاطٍ كالميراث، وكأنه ذكر الكسب؛ لأنه الغالب في تحصيل المال، والمراد بـ(الطيب) الحلال؛ لأنه صفة الكسب »[5].

وقال في شرحه لـ(باب كسب الرجل وعمله بيده): «عطف العمل باليد على

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٠.
(٢) انظر: التفسير المنير ٢٨/ ٢٠٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٦٨.
(٤) أخرجه رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢.
(٥) انظر: فتح الباري ٣/ ٣٢٧.

الكسب من عطف الخاص على العام؛ لأن الكسب أعم من أن يكون عملًا باليد أو بغيرها»[1].

ثانيًا: كسب المال الممنوع:

كما فتح الله تعالى لعباده وسائل الكسب الحلال من أصناف المعاملات والحرف والمهن والمزاولات، وكما أمرهم بالسعي في الأرض وابتغاء فضله في شتى المجالات، وفصل لهم ما أحل لهم من الطيبات والتعاملات، فإنه كذلك بين لهم ما حرم عليهم من الكسب، حفاظًا على الأمة ووحدتها، وحمايةً لها من الفساد بأنواعه.

فإنَّ حبَّ الإنسان للمال إذا استشرى في النفس، وجاوز حده الطبيعي،انقلب من كونه غريزة وفطرة في الطبع البشري، ليكون مرضًا عضالًا؛ لأنه يصير المال غاية لا وسيلة، فيسلك كل طريق لتحصيله وجمعه وتكثيره، ويتفنن في وسائل كسبه، دون التفريق بين الحلال والحرام، بل يعتقد أنه متى حل المال بيده صار حلالًا، وقد يخوض في المعاملات المحرمة ووسائل الكسب الممنوعة والمشبوهة، كلُّ ذلك من أجل كسب المال

لذا فقد كشف القرآن العظيم عن المعاملات الممنوعة، وحرمها ونفر منها ورهب من تناولها، ومن الوسائل المحرمة في كسب المال وتحصيله التي جاء التحذير منها في القرآن ما يلي:

١. الربا.

ومعنى الربا في اللغة: مأخوذ من الزيادة[2].

وفي الشرع: هو الزيادة في أشياء مخصوصة، والزيادة على الدَّيْنِ مقابل الأجل مطلقًا[3] . ويطلق على شيئين: ربا الفضل وربا النسيئة[4].

وقد وردت عدة نصوص في القرآن الكريم تحذر من الربا، وتنهى عنه، بل غلظ الله تعالى في عقوبة هذا الكسب،والذي أفرط فيه كثير من الناس- وبخاصة في هذه العصور-حتى قل أن يسلم أحد من الربا أو غباره.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا

(١) انظر: المصدر السابق ٥/ ٣٨١.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٠٤، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ١٩١.

(٣) انظر: الشرح الممتع، ابن عثيمين ٨/ ٣٨٧.

(٤) انظر: فتح القدير، ١/ ٢٩٤.

﴿يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة:٢٧٥-٢٧٦].

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:١٣٠].

فهذا خبرٌ من الله تعالى عن أَكَلَةِ الربا وسوء حالهم ومآلهم وشدة منقلبهم، حيث إنهم يقومون من قبورهم لنشورهم، كالذي يصرعه الشيطان، فيقومون حيارى مضطرين، أحوالهم أحوال المجانين.

وقيل: المعنى: لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم، وضعفت آراؤهم، وصاروا في هيئتهم كالمجانين.

ثم بين سبحانه شؤم الربا على صاحبه بأنه يمحق ويذهب بركة المال، فيكون سببًا في وقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وفي مقابل ذلك تكون البركة والنماء والزيادة في المال الذي أخرجت منه الصدقات [(١)].

وبعد أَنْ بَيَّنَ الله تعالى لهم حال أَكَلَةِ الربا وعقابهم وأثره عليهم، خاطب أهل الإيمان، ونهاهم عن الربا؛ لأن الإيمان هو الوازع الأقوى والدافع الحقيقي للبعد عن كل ما حرمه الله تعالى.

فمن كان مؤمنًا وجب عليه الامتثال بالابتعاد عن الربا، فإنَّ أَكْلَ الربا والتعامل به دلالة عدم الإيمان.

وقد نَدَّدَ الله تعالى باليهود وبين عاقبة أمرهم لما استحلوا الربا فقال سبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء:١٦٠-١٦١].

وقد كان الربا منتشرًا بشكل كبير في الجاهلية، فجاء الإسلام وحرمه ومنعه، وكان التحذير الإلهي من التعامل به وأكله، وكذا حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم، وفي الحديث: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه)[(٢)].

واعتبره النبي صلى الله عليه وسلم من السبع الموبقات كما في حديث: (اجتنبوا السبع الموبقات) وذكر منها: أكل الربا[(٣)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ١٤٥.

فالربا أخبث الكسب وأكبر الكبائر، وأعظم الجرائم، يهلك الأموال قليلها وكثيرها، ويستوجب صاحبه اللعن ما لم يتب، وهو حرب لله ورسوله، كما في الآيات السابقة، وأين التوفيق والبركة والخير لمن حارب الله ورسوله ؟

ومع كل هذا التحريم والتهديد لآكل الربا والمتعامل به، فإن فئات من المسلمين قد تجرَّؤوا على حدود الله تعالى، وأكلوا الربا، وخالفوا أمر الله تعالى ورسوله الكريم، وكان للبنوك النصيب الأكبر في خوض الناس في هذا الكسب الباطل، بتضليلهم، وتنميق المسميات، وتزييفها، إضافةً إلى الإعلانات عبر وسائل الإعلام، تحت شعارات مضللة، وانتشار الأسهم والمساهمات المشبوهة، كل هذا مع جهود العلماء في التبيين والتعليم والتذكير والتحذير وإصدار الفتاوى.

لكن اللهث وراء المادة والمال، والتعلل بأتفه الأسباب، والانسياق خلف إعلانات البنوك والشركات والمساهمات، أوقع كثيرًا من الناس في الربا؛ فخالفوا أمر الله تعالى وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣].

وقال عز وجل في المتعاملين بالربا: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤].

فكل من تعامل بالربا فقط عرض نفسه للوعيد والعقاب الشديد في الدنيا والآخرة، بل إن آكل الربا يعذب من وقت موته، كما في الحديث (رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى أرض مقدسة، فانطلقا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد الرجل أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت:ماهذا ؟ فقال: الذي رأيته في النهر آكل الربا)[1].

٢. الرشوة.

والمقصود بها ما يعطي من مالٍ لإبطال حقٍّ أو لإحقاق باطل.

قال القرضاوي: «هي ما يدفع من مال إلى ذي سلطان، أو وظيفة عامة، ليحكم له أو على خصمه بما يريد هو، أو ينجز له عملًا أو يؤخر لغريمه عملًا»[2].

وقال الصنعاني: «الراشي هو الذي يبذل المال ليتوصل به إلى الباطل، مأخوذ من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب آكل الربا وشاهده وكاتبه، رقم ٢٠٨٥.
(٢) انظر: الحلال والحرام ص ٢٤.

الرشا وهو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء في البئر»[1].

وقد جاء في نصوص الشرع النهي عن الرشوة وأخذها وبيان عقوبة فاعلها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨].

جاء في معنى الإدلاء بها إلى الحكام أنه الدفع والإعطاء، أي: لا تعطوا الحكام وترشوهم بالأموال ليقضوا لكم بما هو أكثر منها، هذا المعنى على القول بأن مرجع الضمير في ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ﴾ عائد على الأموال[2]. وفي الحديث: (لعن رسول الله الراشي والمرتشي والرائش)[3].

والراشي: دافع المال، والمرتشي: آخذه، والرائش: الذي يسعى بينهما. وكلهم في الذنب والعقوبة سواء.

والرشوة من وسائل أكل أموال الناس بالباطل، وقد أصبحت ديدنًا لكثير من الناس في هذا الزمان، نتيجة الفساد الإداري المالي الذي فشا في المجتمع، فصار البعض لا يتورع عن قبض الرشوة، ولا يتحرز من دفعها، وهذا من التهاون بكبيرة من كبائر الذنوب، وأكل للحرام والسحت الذي نهى الله عنه، قال ابن مسعود في تفسير ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾: «السحت أن يستعينك الرجل على مظلمة فيهدي لك، فإن أهدى لك فلا تقبل»[4].

وكذا فسره ابن عباس وابن مسعود وقتادة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير، بأن السحت: الرشوة[5]. وعند الراغب: «سميت الرشوة سحتًا»[6].

٣. أكل أموال الناس بالباطل.

وهذا يعم كل كسب حرام، فكل ما أخذ بالباطل فهو حرام، فيدخل فيه ماتقدم من الربا والرشوة ويدخل فيه غيره من أبواب الكسب المحرم،الذي هوأكل لأموال الناس بالباطل.

وقد نهى الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل في أكثر من موضع في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

قال الشوكاني في تفسير الآية: «هذا يعم

(١) انظر: سبل السلام شرح بلوغ المرام، الصنعاني، ٢/ ٤٣.
(٢) انظر: التفسير المنير ٢/ ١٦٥.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٨٥، رقم ٢٢٣٩٩.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٦٧٥، رقم ٤٦٨٤.

(٤) انظر: نيل الأوطار، الشوكاني ٤/ ١٧٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٥٧٩.
(٦) انظر: المفردات ص٢٢٥.

جميع الأمة وجميع الأموال، لا يخرج عن ذلك إلا ما ورد دليل الشرع بأنه يجوز أخذه، فإنه مأخوذ بالحق لا بالباطل، ومأكول بالحل لا بالإثم، وإن كان صاحبه كارهًا كقضاء الدَّيْنِ إذا امتنع منه من هو عليه، وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها، ونفقة من أوجب الشرع نفقته . والحاصل أن ما لم يبح الشرع أخذه من مالكه فهو مأكول بالباطل، وإن طابت به نفس مالكه كمهر البغي وحلوان الكاهن وثمن الخمر.

وقوله: ﴿وَتُدْلُوا﴾ المعنى: إنكم لا تجمعوا بين أكل أموال الناس بالباطل وبين الإدلاء بها إلى الحكام بالحجج الباطلة . وفي هذه الآية دليلٌ على أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال، فمن حكم له القاضي بشيء مستندًا في حكمه إلى شهادة زور أو يمين فجور فلا يحل له أكله، فإن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وكذا إذا أرشى الحاكم فحكم له بغير الحق فإنه من أكل أموال الناس بالباطل »[1].

قال القرطبي: «الخطاب بهذه الآية يتضمن جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى:لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق، فيدخل في هذا: القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق وما لا تطيب به نفس مالكه، أوحرمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه كمهر البغي وحلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك»[2].

فتفسير (الباطل) على وجهين:

أحدهما: أن يأخذه من غير طيب نفسٍ من مالكه كالسرقة والغصب والخيانة.

والثاني: أن يأخذه بطيب نفسه كالقمار والغناء وثمن الخمر[3].

وقال السعدي في تفسير الآية: «يدخل في ذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعة أو عارية أو نحو ذلك، ويدخل فيه أيضًا أخذها على وجه المعاوضة بمعاوضة محرمة كعقود الربا والقمار كلها، فإنها من أكل المال بالباطل؛ لأنه ليس في مقابلة عوض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف والوصايا لمن ليس له حقٌّ منها أو فوق حقه، فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه، حتى ولو حصل فيه النزاع، والارتفاع إلى حاكم

(١) انظر: فتح القدير ١/ ٢٤٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٣٣٨.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١٨٨.

الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحقِّ، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرمًا ولا يُحِلُّ حرامًا»[1].

وعليه فتناول الحرام محرم من أي وجه كان، سواء أكان رشوة أو سرقة أو ربا أو غلولًا أو قمارًا أو غصبًا، أو اختلاسًا من وراء وظيفة، أو قيمة شيء محرم أو أجرته، كثمن آلات اللهو والصور المحرمة والكتب والمجلات والصحف المشتملة على الإلحاد أو الخلاعة، وكثمن الخمر والدخان، وكالأجرة على الرقص والغناء والعزف، وعلى شهادة الزور، وما اقتطع بيمين كاذبة أو أخذ بغير حقٍّ، وإن كان حكم به القاضي، إلى غير ذلك من طرق الكسب الحرام.

ومما ورد في النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ [النساء:٢٩].

وخص الله تعالى اليتيم بالنهي عن أكل ماله لضعفه، فقال عز وجل: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾ [النساء:٦].

وفي التشنيع على آكل مال اليتيم يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء:١٠].

وفي الأمر بحفظ مال اليتيم وعدم التعرض له إلا بما فيه صلاحه ونفعه، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢ والإسراء:٣٤].

وأكل أموال الناس بالباطل من صفات اليهود، فقد ذكر الله تعالى أن أكل الحرام من صفات اليهود المغضوب عليهم فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ [المائدة:٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[المائدة:٦٢].

وأخبر سبحانه أنه حرم على اليهود كثيرًا من الطيبات عقوبةً لهم على ظلمهم وإعتدائهم، وأكلهم أموال الناس بالباطل، فقال سبحانه: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[النساء:١٦٠-١٦١].

قال شيخ الإسلام: «والأصل في ذلك أن الله حرم في كتابه أكل أموالنا بيننا بالباطل، وذم الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٧٠.

الناس بالباطل، وذم اليهود على أخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، وهذا يعم كل ما يؤكل بالباطل في المعاوضات والتبرعات وما يؤخذ بغير رضا المستحق والاستحقاق، وأكل المال بالباطل في المعاوضة نوعان ذكرهما الله في كتابه: هما الربا والميسر، فذكر تحريم الربا الذي هو ضد الصدقة في آخر سورة البقرة وسورة آل عمران والروم والمدثر، وذم اليهود عليه في سورة النساء، وذكر تحريم الميسر في المائدة»[1].

وأكل أموال الناس بالباطل باب واسع، وصوره كثيرة ومتعددة ومما جاء التنبيه إليه في القرآن ما يلي:

١. السرقة، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة:٣٨].

٢. أكل أموال الناس بالقمار والميسر والخمر. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩٠-٩١]. والميسر يشتمل على مفسدتين كما ذكر ابن تيمية: «مفسدة أكل المال بالحرام، ومفسدة اللهو الحرام والصَّدِّ عن ذكر الله وعن الصلاة، والوقوع في العداوة والبغضاء»[2]. والمقصود بالميسر القمار بأي نوع كان.

٣. أكل أموال الناس بالرشوة. وقد تقدم.

٤. أكل أموال الناس بالربا. وقد تقدم.

٥. أكل أموال الناس بالتطفيف في الكيل والميزان. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الاسراء:٣٥]. وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين:١-٣].

٦. أكل أموال الناس باسم الشرع والتقرب والتزلف إلى الله تعالى، كما كان الأحبار والرهبان يأخذون أموال أتباعهم ضرائب وفروضًا باسم الكنائس والبِيَع، أو مقابل صكوك الغفران، وإصدار الفتاوى لتحليل الحرام والحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك، ويوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله، وهم يحجبون تلك الأموال ويأكلونها بالباطل، فكانوا

(١) انظر: القاعدة النورانية، القاعدة الثانية.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٢/ ٣٣٧.

يأكلون الدنيا بالدين، لذلك ندد الله بهم في قوله: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:١٦١]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة:٣٤]. ومثل ذلك النذور التي تدفع، والأوقاف التي تخصص لقبور الأنبياء والصالحين، أو الأموال التي تصرف مقابل الدعاء والشفاعة [(١)].

إضافة لما ورد في السنة من بيانٍ للمعاملات المحرمة كالغصب والنهب والغش والاحتكار وأصناف البيوع التي نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم، فالتعامل بأحدها هو أكل لأموال الناس بالباطل.

(١) انظر: التفسيرالمنير، الزحيلي ٦/ ٢٩، ١٠/ ١٩١.

الاعتدال والوسطية في الإنفاق

من أعظم مميزات وسمات الدين الإسلامي:الوسطية، فهو يأمر بالوسطية والاعتدال، ويقيم جميع الأوامر والنواهي والتوجيهات والتشريعات على هذا المبدأ العظيم، فيأمر بالتوسط في كل أمر، وينبذ الإفراط أو التفريط، ويرشد إلى أقوم الطرق وأسدها وأعدلها في كل شؤون الحياة.

ومن ذلك أمره بالاعتدال في الإنفاق واتخاذ المنهج القويم بين الإسراف والتبذير والبخل والتقتير.

والناس في الإنفاق طرفان ووسط:

- هناك القابضون أيديهم، البخلاء بأموالهم، المقترون على أنفسهم وأهليهم، فضلًا عمن سواهم.
- وعلى النقيض من هؤلاء، آخرون مسرفون مترفون، باسطوا أيديهم كل البسط.
- وبين هؤلاء وهؤلاء قلة من الناس سلكوا السبيل القويم، والتزموا العدل والاعتدال، واتخذوا بين ذلك سبيلًا.

وقد جاءت آيات الكتاب العزيز تحذر من الضدين - الإسراف والبخل - وتأمر بالطريق الوسط المعتدل بينهما وتقرر سلامة هذا المنهج الشرعي وتؤيده.

فنهى عن البخل، وحذر من هذا

المسلك، وبين انحراف هذا المنهج فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٠].

وقال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد:٢٣-٢٤].

وقال مبينًا خصلة من خصال المنافقين: ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة:٧٦].

وقال سبحانه: ﴿هَاأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ﴾ [الإسراء:١٠٠].

قال ابن كثير: «يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس وقتادة: أي: الفقر خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تنفد ولا تفرغ أبدًا، لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾.

قال ابن عباس وقتادة: أي: بخيلًا مَنُوعًا، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: لو أن لهم نصيبًا في ملك الله لما أعطوا أحدًا شيئًا ولا مقدار نقير»[1].

وقال القرطبي في تفسير قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾: «هذه الآية نزلت في البخل بالمال، والإنفاق في سبيل الله، وأداء الزكاة المفروضة»[2].

وكما جاءت الآيات محذرة من عاقبة البخل والتقتير، فقد جاءت ناهية عن الطرف المقابل وهو الإسراف والتبذير.

قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الاسراء:٢٦-٢٧].

وقال جل وعلا: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الانعام:١٤١].

وقال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

والإسراف: مجاوزة الحد في كل فعل

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٨٦.

يفعله الإنسان، وهو في الإنفاق أشهر [(١)].

وقد فسر التبذير بالإسراف، قال ابن منظور: «بَذَّرَ ماله أفسده وأنفقه في سرف، والتبذير: إفساد المال وإنفاقه في السرف والمُبَذِّرُ: المسرف في النفقة» [(٢)].

قال ابن كثير: «التبذير إفساد المال وإنفاقه في السرف ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ نهى عن الإسراف» [(٣)].

وعلى ذلك فالتبذير والإسراف بمعنى واحد.

وفسر التبذير كذلك بإنفاق المال في غير حقِّه، من الإنفاق في المعاصي والمحرمات.

قال ابن جرير: «﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لا تفرق يا محمد ما أعطاك الله من مالٍ في معصيته تفريقًا. قال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله، وفي غير الحق وفي الفساد» [(٤)].

وقال القرطبي: «التبذير: الإسراف في غير حق» [(٥)].

وقال القاسمي: «﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أي: بوجه من الوجوه، بالإنفاق في محرم أو مكروه، أو على من لا يستحق، فتحسبه إحسانًا إلى نفسك أو إلى غيرك» [(٦)].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٣٠.
(٢) لسان العرب ٤/ ٥٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٦.
(٤) جامع البيان ٨/ ٦٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٦١.
(٦) محاسن التأويل ٤/ ٥٨٥.

وعلى ذلك يكون التبذير مقيدًا بما كان في غير الحق، لذلك قال ابن جريج ومجاهد: «لو أنفق إنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرًا، ولو أنفق مدًّا في باطل كان تبذيرًا» [(٧)].

وقال الشافعي: «التبذير إنفاق المال في غير حقِّه، ولا تبذير في عمل الخير، وهذا قول الجمهور» [(٨)].

وعليه فالإنفاق في وجوه البر والخير،لاسيما الصدقة،لايدخل في باب الإسراف والتبذير المنهي عنه.

وكما نهى الله تعالى وحذر من الطرفين (الإسراف والبخل) فإنه سبحانه وتعالى وجه إلى طريق الاستقامة، وسبيل الوسط، ومنهج السلامة، فقال سبحانه في وصف أهل الإيمان: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان:٦٧].

قال ابن القيم «أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا» [(٩)].

وقال سبحانه في توجيهه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ

(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٦٩.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٦١.
(٩) انظر: بدائع التفسير ٣/ ٣٠٣.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾[الإسراء:٢٩].

وفي بيان هذه الوسطية يقول الراغب: «الإنفاق ضربان: ممدوح ومذموم.

فالممدوح منه: ما يكسب صاحبه العدالة، وهو بذل ما أوجبت الشريعة بذله، كالصدقة المفروضة والإنفاق على العيال.

والمذموم ضربان: إفراط وهو التبذير والإسراف، وتفريط وهو التقتير والإمساك، وكلاهما يراعى فيه الكمية والكيفية.

فالأول: من جهة الكمية أن يعطي أكثر مما يحتمله حاله . ومن جهة الكيفية بأن يضيعه في غير موضعه.

أما الثاني: وهو التقتير فهو من جهة الكمية أن ينفق دون ما يحتمله حاله، ومن حيث الكيفية، أن يمنع من حيث يجب، ويضع حيث لا يجب»[1].

وجوه الإنفاق المشروع وثمراته

أولًا: وجوه الإنفاق المشروع:

كما بين الله تعالى وأرشد إلى وجوه كسب المال المشروعة، وأمر بطلب الرزق، ووجه للكسب الطيب الحلال، ورتب عليه الأجر العظيم والثواب الجزيل، فإنه كذلك بين سبحانه وفصل في وجوه إنفاق هذا المال ونبه إلى أبواب الإنفاق المشروعة، وحث على البذل والعطاء في كل بابٍ من أبواب الصرف والإنفاق المحمودة والمشروعة، سواءً كانت الواجبة أو المندوبة . ومن وجوه الإنفاق المحمود والمشروع في القرآن الكريم ما يلي:

١ . الإنفاق في الواجبات:

ومن ذلك:

١. الزكاة.

أوجبها الله عزوجل في المال بشروطٍ معينة محددة، وجعلها ركن من أركان هذا الدين العظيم، وبين مصارفها ووجوه إنفاقها، وحدد المستحقين لها دون غيرهم من فئات المجتمع.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

قال السعدي: «﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾

(١) انظر: المفردات ص٥٠٢.

وهي الزكاة المفروضة »[1].

وقال عز وجل: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات:١٩].

وقال سبحانه: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج:٢٤-٢٥].

ذكر الله ذلك ضمن أوصاف أهل الإيمان، ووصفهم هنا بأداء الزكاة والبر والصلة، بجعل جزءٍ مقسومٍ ونصيب مفروض من أموالهم مقررًا لذوي الحاجات[2].

وفي بيان مصارف الزكاة يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة:٦٠].

قال ابن قدامة: «فلا يجوز صرف الزكاة إلى غير من ذكر الله تعالى في الآية، من بناء المساجد والقناطر وإصلاح الطرق وما شابه ذلك من القرب التي لم يذكرها الله تعالى، لقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ و﴿إِنَّمَا﴾ للحصر والإثبات، تثبت المذكور وتنفي ما عداه »[3].

٢. الإنفاق على النفس.

لأن الإنسان مأمور بحفظ نفسه ووقايتها مما يتلفها أو يهلكها، وإنما يكون ذلك بالطعام والشراب والملبس وكل ما دعت له حاجة أو ضرورة تقتضيها حفظ النفس.

٣. الإنفاق على من تجب على الإنسان نفقته وإعالته؛ كنفقة الرجل على زوجه وولده.

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء:٣٤].

وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق:٧].

فنفقة الزوجة واجبة على زوجها، وهي من آكد حقوقها عليه، فيلزمه توفير كل ما تحتاج إليه، سواءً كان موسرًا أو معسرًا، فيجب عليه نفقتها حتى ولو كانت غنية ذات مال.

قال القرطبي في تفسير آية الطلاق: «أي: لينفق الزوج على زوجته، وعلى ولده الصغير، على قدر وسعه، حتى يوسع عليهما إذا كان موسعًا عليه، ومن كان فقيرًا فعلى قدر ذلك»[4].

ومما جاء في نفقة الزوجة والولد قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

٤. الإنفاق على الأقارب ممن تجب

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٠٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٢.
(٣) المغني ٤/ ١٢٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١١٢.

نفقتهم على الإنسان.

إن كان الإنسان غنيًّا موسرًا قادرًا على الإنفاق، وكان ذوي قرابته فقراء لا مال لهم ولا كسب يستغنون به، فهنا تجب النفقة على المحتاجين إليها من قرابته كأصوله وفروعه، وإخوته وأخواته، ونحوهم.

قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦].

والمعنى: «أعط أيها الإنسان المكلف القريبَ حقَّهُ، من صلة الرحم والود، والزيارة، وحسن المعاشرة، والنفقة إذا كان محتاجًا إليها»[1].

٢. رد الحقوق إلى أصحابها.

ومن ذلك:

١. رد مال اليتيم ودفعه إليه إذا بلغ، وآنس منه وليه الرشد.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: ٦].

٢. أداء الديون لأصحابها.

وقد أمر سبحانه بكتابة الدين صغيرًا كان أم كبيرًا إلى أجله، ودعا فيه للعدل، والتوثيق والإشهاد، حفاظًا على الحقوق، واثباتًا لها، لتيسير ردها لأصحابها متى حل الأجل وطالب صاحب المال بالدين. كما في آية المداينة.

[انظر: الدَين: كتابة الدين]

٣. الإنفاق في تلبية حاجات الإنسان وضروراته.

كالإنفاق في تحصين النفس وإعفافها.

قال تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤].

٤. الانفاق في المباحات.

كالعطايا والهدايا، وما يقتنيه الإنسان من كماليات زائدة على ضرورياته.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم: ٣٩].

قال ابن كثير: «أي: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا فسره ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والشعبي - وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٥٧.

﴿٦﴾ [المدثر:٦].

أي: لا تُعْطِ العطاء تريد أكثر منه.

وقال ابن عباس: الربا رباءان، فربا لا يصح -يعني: ربا البيع- وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾»[1].

فالإنفاق إذا كان في غير معصية فهو مباحٌ، ما تجنب الإسراف فيه، كالإنفاق على ملاذ النفس، فإنه إذا كان على وجه يليق بحال المنفق وقدره فهو مباح وليس بإسرف[2].

وكذا إنفاق الإنسان على أصناف ما يحتاجه من غير الضرورات في الملبس والسكن والمركب، فإنه مباح مالم يصل حد الإسراف.

٤. الإنفاق في الجهاد في سبيل الله.

من أعظم وجوه الإنفاق المحمودة والممدوح فاعلها، الإنفاق على الجهاد في سبيل الله تعالى، نشرًا للدين، ودفاعًا عنه، وحمايةً وعونًا للمسلمين، ودحرًا للأعداء والمحتلين.

فالجهاد بالمال نوع من أنواع الجهاد المأمور بها شرعًا، وقد قرنه الله تعالى مع الجهاد بالنفس في القرآن الكريم، بل قدم ذكر المال على النفس في معظم الآيات.

ولعل من أسباب تقديم الجهاد بالأموال على الأنفس أن نفع الأموال متعدٍّ ومتنوع، بخلاف الجهاد بالنفس، فإن نفعه مقتصر على ذاته في الأعم والأغلب.

وكذا فإن كل إنسان باستطاعته الجهاد بماله بقدر طاقته، وليس كل إنسان قادرًا على الجهاد بالنفس، كما أن المجاهد لا يتمكن من الجهاد بالنفس مالم يتوفر له المال الذي يعد به نفسه ويشتري به سلاحه، ولعل ذلك من أسباب تقديم المال على النفس في آيات الجهاد.

والجهاد بالمال هو التجارة الرابحة مع الله تعالى في ميدان الأعمال الصالحة التي تقرب إلى رضوان الله، وتكون سببًا للنجاة من العذاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف:١٠-١١].

قال الشوكاني: «جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤١٩.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٢٢.

ونجاتهم من النار»[1].

وصفة أهل الإيمان المبادرة إلى بذل أموالهم في الجهاد لا التردد أو الشك أو الحيرة الذي هو سلوك أهل النفاق.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٤-٤٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[الحجرات:١٥].

وقد فاضل الله تعالى بين القاعد والمجاهد بماله ونفسه، وفارق بينهما في الدرجات، وقرر عدم المساواة بينهما.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء:٩٥].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة:٢٠].

فصاحب الضرر والعذر لما عجز عن الجهاد بالنفس فتح الله تعالى له باب الجهاد بالمال، وفي هذا فرصة لكل مسلم وسع الله عليه في الرزق، ولا يمكنه الجهاد بالنفس - لأي سببٍ من الأسباب - أن ينال ثواب الجهاد وشرفه، بماله وإنفاقه على الجهاد، سواءً في تجهيز الغزاه والمجاهدين، أو توفير العدد والآلات وما يحتاج إليه من سلاح، أو بقيامه على مصالح أهل المجاهد فيخلفه في أهله . وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: (من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا)[2].

ويتأكد شرف وفضل الجهاد بالمال حال الشدة والضيق والحاجة، كما هو حاصل اليوم للمسلمين في فلسطين وبلاد الشام، فالإنفاق هذا الوقت أعظم درجةً من الإنفاق في أوقات أخرى، لأنه وقت حاجة، كما كان الإنفاق قبل فتح مكة وقت حاجة الأمة وضرورتها أعظم من الإنفاق بعد الفتح والتمكين، وفي كلِ خير.

(١) فتح القدير ٥/ ٢٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من جهز غازيًا أو خلفه بخير، رقم ٢٨٤٣.ومسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركب، وخلافته في أهله بخير، رقم ١٨٩٥.واللفظ له.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

والجهاد بالمال في هذه الأيام من أعظم الأعمال، لا سيما مع تسلط أعداء المسلمين عليهم، وجهودهم في التضييق على أهل الإسلام بالحصار، والمصادرة، وإتلاف المزارع، وهدم البيوت، والاعتقال، والقتل. كما هو واقع في كثير من بلاد الإسلام اليوم.

فالواجب على المسلمين تجاه إخوانهم المجاهدين في كل مكان، البذل والعطاء والإنفاق قدر المستطاع، وقد تيسر اليوم بفضل الله تعالى الجهاد بالمال لكل من يريد، عن طريق الجمعيات والهيئات والمؤسسات الحكومية والخيرية، إضافةً إلى الحملات التي تقوم بها تلك الجهات المعتمدة، وعلينا الثقة بمؤسساتنا وجمعياتنا وهيئاتنا، وعدم الانسياق أو تصديق ما يثار من شبهات أو تشكيكٍ أو شائعات حول عدم وصول هذه الأموال لمستحقيها؛ لأن هذا من إرجاف أهل النفاق.

فالواجب الإنفاق وابتغاء الأجر والثواب من الله، وتأمل حصول الفلاح الذي جعل الله تعالى أحد أسبابه الجهاد بالمال.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة:٨٨].

ويتحقق بجهاد المال معنى التكافل والتعاون والولاء لأهل الإيمان، والتضامن بين المسلمين ضد أعدائهم، فتتقارب قلوبهم وإن تباعدت بينهم المسافات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٢].

ولأهمية الجهاد بالمال - إضافةً على تقديمه على جهاد النفس في أكثر المواضع - فإن كل آية ورد فيها الحث على الإنفاق في سبيل الله عامة، يكون الإنفاق على الجهاد من أوائل ما تشمله الآيات وتدل عليه، كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

قال مكحول: «يعنى به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك»[(١)].

وقال الطبري: «مثل الذين ينفقون أموالهم على أنفسهم في جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم»[(٢)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٩٩.
(٢) جامع البيان ٣/ ٦١.

بل جعل الإنفاق على الجهاد، أحد مصارف الزكاة الثمانية، لأهميته وعظيم أثره.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة:٦٠].

قال السعدي: « ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الغازي في سبيل الله، وهم: الغزاة المتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح أو دابة، أو نفقة له ولعياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه »[1].

وقال الزحيلي: «﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: هم في رأي الجمهور الغزاة المجاهدون الذين لا حق لهم في ديوان الجند، يعطون ما ينفقون في غزوهم، كانوا أغنياء أو فقراء، لأن السبيل عند الإطلاق الغزو، وهو المستعمل في القرآن والسنة[2]»

٦. الإنفاق في وجوه الخير المتنوعة:

من وجوه الإنفاق المشروعة، والتي دعا إليها القرآن العظيم وحث على البذل في سبيلها، الإنفاق في أنواع التطوعات والقربات وأبواب البر المتعددة.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[البقرة:١٧٧].

دلت هذه الآية على أنواع البر كلها، كما قال الثوري[3].

وفسر سبحانه البر بالإيمان والتصديق التام بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ثم ثنى بذكر الصدقة ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي:تصدق وأعطى من ماله مع حبه له تقربًا لله تعالى وطلبًا لرضاه عزوجل . ومن إيتاء المال على حبه، أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة، كانت أفضل، لأنه في هذه الحال، يحب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر[4].

كما في الحديث: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم ؟ قال:(أن تصدق

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٠١.
(٢) التفسير المنير ١٠/ ٢٧٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٧.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٥.

وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى)[1].

وكذلك إخراج النفيس من المال يعتبر من إيتاء المال على حبه.

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان:٨-٩].

ثم ذكر سبحانه أصنافًا ممن ينفق عليهم، فذكر الأقارب وهم أولى الناس بالبر والإحسان، ثم (اليتامى) وهم من لا كاسب لهم ممن فقد أباه، ولا قوة له يستغني بها، فمن رحمة الله تعالى بعباده أن أوصى عباده بالإحسان إليهم، ثم (المساكين) الذين أذلهم الفقر، فلهم حقٌّ على الأغنياء بما يخفف عنهم هذه المسكنة، ثم ذكر (ابن السبيل) وهو الغريب المنقطع، في غير بلده، فحث الله على إعطائه من المال، ما يعينه على سفره، وييسر عليه حياته في غربته، (والسائلين) الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السؤال. ويدخل فيه من يسأل لتعمير المصالح العامة كالمساجد والمدارس، فهذا له حق، وإن كان غنيًا، (وفي الرقاب) يدخل فيه العتق والإعانة عليه، وفداء الأسرى عند الكفار أو الظلمة[2].

ومثل ذلك ما جاء في آية المكاتبة: ﴿وَمَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣].

وفيه حثٌّ للناس على الإنفاق والبذل للملوك بما يعينه على عتق رقبته، يستوي في ذلك مولاه ومن سواه من الناس، ولهذا جعل سبحانه للمكاتبين (الرقاب) نصيبًا مفروضًا من الزكاة.

فاشتملت الآية على أبواب البر، ونبهت على أصنافٍ ممن تدفع إليهم الصدقات، وينجم عن الإحسان إليهم خيرات ومصالح عظيمة.

وقد رغب سبحانه وتعالى في الإنفاق في سبيل الله تعالى، وضرب لذلك مثلًا يشوق النفوس للبذل والعطاء، ويدفعها للتصدق بسخاء، في تمثيل بديع يصف ثواب المتصدق وعظم أجره.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [البقرة:٢٦١].

أي: ينفقون أموالهم في طاعة الله.

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، رقم ١٠٣٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٩٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥.

لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال سعيد بن جبير: في طاعة الله . وقال مكحول: يعنى به الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك . وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد سبعمائة، فإن في هذا إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عزوجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة»[1].

وقال السعدي في تفسير الآية: «هذا بيانٌ للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

وهنا قال: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله.

وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كأن العبد يشاهده ببصره، فيشاهد المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتنقاد النفس مذعنةً للإنفاق،سامحة بها، مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي:بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه، وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها»[2].

ثم ذكر سبحانه شرط الإنفاق المقبول وثوابه فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة:٢٦٢].

لما ذكر سبحانه في الآية السابقة الإنفاق في سبيل الله وفضله، بين في هذه الآية أن ذلك الثواب إنما هو لمن لا يتبع إنفاقه منًّا ولا أذى، لأن المن والأذى مبطلان للصدقة، وإنما على المرء أن يريد وجه الله تعالى وثوقه . والمن: هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها.

وهو من الكبائر، كما في الحديث، أن المنان أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم[3].

والأذى: السب والتشكي، وهو أعم من المن، لأن المن جزء من الأذى، لكِنْ نَصَّ عليه لكثرة وقوعه[4].

قال الطبري: «وإنما شرط ذلك في المنفق في سبيل الله، وأوجب الأجر لمن كان غير مانٍّ ولا مؤذٍ من أنفق عليه في سبيل الله؛ لأن النفقة التي هي في سبيل الله: ما

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٩٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ٤٦، رقم ١٠٦.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٠٢.

ابتغى به وجه الله وطلب به ما عنده»[1].

ثم عقب الله تعالى بقوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة:٢٦٣].

فقرر سبحانه أن القول الطيب والكلمة بالمعروف،والمغفرة،خيرٌ وأفضل من تلك الصدقة المتبوعة بالمن والأذى، وتنفيرًا من ذلك الفعل - المن والأذى - شبه الله تعالى بعض المتصدقين الذين يتصدقون طلبًا للثواب ويعقبون صدقاتهم بالمن والأذى، بالمنفقين الكافرين الذين ينفقون أموالهم لا يطلبون من إنفاقها إلا الرياء والمدحة، إذ هم لا يتطلبون أجر الآخرة، فقال عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:٢٦٤].

ثم ضرب الله تعالى مثلًا رائعًا، للمنفق المبتغي بإنفاقه وجه الله تعالى وثوابه الجزيل، فقال سبحانه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة:٢٦٥].

ثم عقب بمثلٍ آخر،فيه تمثيل لنهاية المن والأذى، وكيف يمحق الله آثار الصدقة المتبوعة بالمن والأذى محقًا في وقت لا يملك صاحبها قوةً ولا عونًا، ولا يستطيع لذلك المحق دفعًا ولا منعًا، فقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة:٢٦٦].

وقد امتدح الله تعالى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأثنى عليه بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل:١٧-٢١].

أي: ينفق ويطلب بإنفاقه تزكيه نفسه، وتطهيرها من العيوب والذنوب،قاصدًا بذلك وجه الله تعالى،مبتغيًا رضاه[2].

والإنفاق في سبيل الله باب واسع يدخل فيه عموم الإحسان والصدقات والمعونات والمساعدات التي تقدم، سواءً للأفراد من ذوي القربى وغيرهم، أو للمؤسسات والهيئات والجمعيات، كتلك التي تهتم بكفالة الأيتام، أو الأرامل، أو تقوم على تحفيظ القرآن، أو تدعم مشاريع الخير من الإسكان وحفر الآبار، وبناء المساجد،

(١) جامع البيان ٣/ ٦٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٥٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥٧.

وإنشاء المدارس، أو إغاثة المحتاجين سواءً داخل البلاد أو خارجها.

وقد تيسر بفضل الله تعالى للإنسان الإنفاق في جميع وجوه الخير، بوجود المكاتب التوعوية لتلك الهيئات والمؤسسات المعتمدة، والتي تقوم على استلام الأموال وإيصالها إلى أصحابها ومن ينتفع بها، لا سيما في مواسم الخير كشهر رمضان وموسم الحج، كذلك الحسابات البنكية المعلنة لتلك الجمعيات أو الهيئات أو الجهات، مما ييسر على الإنسان البذل والعطاء في أبواب البر المتعددة.

فلم يبق للإنسان إلا نفس راضية سخية تبذل في سبيل الله، وتبتغي فضله، وتطلب ثوابه، وتقصد وجهه الكريم.

وأبواب إنفاق المال في الخير كثيرة، وكلما كان الإنفاق أنفع لعمومه، أو شدة الحاجة إليه، أو جلبه لمصالح أخرى، كان أفضل وأجدى.

ثانيًا: ثمرات الإنفاق المشروع:

١. في الإنفاق طهرة للمنفق، وتزكية لقلبه، وتنمية للمال، وسلامة له من الآفات، يقول عزوجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

٢. في الإنفاق تكثير للحسنات، ومضاعفة للأجور، كما دلت عليه آيات الإنفاق في سورة البقرة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ البقرة (٢٤٥) . وقال عزوجل: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

٣. في الإنفاق وقاية من النار، وتكفير للسيئات،كما جاء في الحديث:(اتقوا النار ولو بشق تمرة) [(١)]، وقال صلى الله عليه وسلم:(الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار)[(٢)].

٤. الإنفاق سبب في دخول الجنة، يقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولوبشق تمرة، رقم ١٤١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم ١٠١٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ماجاء في حرمة الصلاة، رقم ٢٦١٦.
وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٤٢.

٥. الإنفاق في الوجوه المشروعة،من أهم أسباب نهضة الأمم،وقوة اقتصادها، وذلك بدفع الأموال في التعليم وبناء المدارس والمستشفيات، والقيام على طلاب العلم ونحو ذلك مما يرتقى بالأمة.

٦. الإنفاق في المشروع سبب لقوة المجتمع وترابط أفراده وتكاتفهم وتعاونهم على الخير، بالبذل للمسكين، والقيام على الأرملة واليتيم، وإعطاء المحتاج، وإكرام الضعيف والبذل في وجوه الخير التي تنفع أفراد المجتمع.

وجوه الإنفاق الممنوع وعواقبه

أولًا: وجوه الإنفاق الممنوع:

كما بين الله تعالى وجوه الكسب الممنوعة، وحرم كل كسبٍ خبيثٍ ونهى عن تحصيل المال وجمعه بطريقة من الطرق المذمومة التي سبق بيانها، فإنه كذلك نبه عباده إلى وجوه من الإنفاق محظورة، ومصارف للمال ممنوعة، وأبواب من الدفع محرمة وغير مشروعة، حفاظًا على هذا المال، وحتى لا يكون المال - وإن كان من كسب حلال - سببًا في حصول الوزر والإثم، بإنفاقه فيما لا ينبغي . ومن وجوه صرف المال وبذله الممنوعة ما يأتي:

١. إنفاق المال طلبًا للرياء والسمعة والمدح والثناء من الخلق.

تقدم الأمر بإخلاص النية في الإنفاق لله تعالى، وقد ضرب الله تعالى مثلًا بمن ينفق ماله طلبًا للمحامد فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة:٢٦٤].

في الآية تشبيه بعض المتصدقين الذين يتصدقون طلبًا للثواب، غير أنهم يتبعون

صدقاتهم بالمن والأذى، بالمنفقين المرائين الذي ينفقون أموالهم لا يطلبون من إنفاقها إلا السمعة والرياء والمفاخرة بين الناس . ثم شبه تعالى من أنفق ماله رياءً - وهو المقصود هنا - بالحجر الذي لا خصب فيه ولا ليونة، يغطيه تراب خفيف يحجب قسوته عن العين، فإذا نزل مطر غزير على هذا الحجر، ذهب بالتراب، وانكشفت حقيقته وظهرت قسوته ولم ينبت زرعه، ولم يثمر ثمره، فكذلك القلب الذي أنفق طلبًا للظهور بين الخلق، فإن إنفاقه هذا لا يثمر خيرًا، ولا يكسبه أجرًا؛ لأنه يذهب ويضمحل عند الله وإن ظهر له عمل فيما يرى الناس، كالتراب.

ولا شك أن من عمل عملًا مما يراد به الله تعالى والدار الآخرة، وقصد به الدنيا فلا شك أن عمله باطل مردود، وسعيه غير مشكور، لأن شرط العمل أن يكون لله تعالى وحده، فالمرائي في الحقيقة كان عمله للناس، وقصده المدح والشهرة بالخصال والصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، ويمدح، فيقال: هو كريم، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى، لهذا قال عزوجل: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[1].

فالإنفاق في وجوه الخير والبذل والإحسان إن خالطه الرياء وطلب الحمد والمدح والثناء والظهور عند الناس، فإنه لا أجر لصاحبه فيما أنفق ولا ثواب، لأن الرياء مبطل للعمل . والواجب الإنفاق لله تعالى وابتغاء فضله ورضاه، حتى تقبل النفقة ويجزى عليها بالأجر العظيم في الآخرة.

ومما يشاهد من حال الناس اليوم الإنفاق بإسرافٍ وترف ومخيلة، في المناسبات والاجتماعات، بل والتكلف أحيانًا فوق الطاقة والسعة، كل ذلك مراءةً واستجلابًا للمدح والثناء من الناس.

وليعلم مَنْ هذه حاله، أنه مهما عمل فإنه لن ينال رضا جميع الناس ومدحهم، بل سيجد من ينتقده وينتقص ويعيب فعله . وليعلم أنه لو أثنى عليه أهل الأرض جميعًا، فإن ذلك لن يقربه من الله تعالى إذا كان هو بعيدًا بعمله ونيته وقصده.

فالمرائي خاسر في الدنيا والآخرة؛ لأنه لا يستطيع إرضاء جميع الناس في الدنيا، ثم في الآخرة لا يجد له عمل عند الله تعالى مهما بذل من ماله وأعطى؛ لأن ذلك الرياء أحبط العمل وأذهب فضله.

٢. الإنفاق في الصد عن سبيل الله.

أخبر الله تعالى عن الكفار بأن دأبهم وديدنهم الإنفاق المستمر للصد عن سبيل الله تعالى.

قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥.

﴿أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

والمعنى: «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم لا في وجوه الخير، وإنما ينفقونها ليصدوا عن سبيل الله، أي: ينفقونها ليمنعوا الناس عن الدخول في الدين الذي يوصلهم إلى رضا الله وإلى طريقه القويم»[(١)].

وفي هذا بيان لعداوة الكفار وكيدهم ومكرهم، ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في إطفاء نوره، وإخماد كلمته، فهم ينفقون أعز الأشياء لديهم للصد عن الإسلام، وهذه صفة في جميع الكفار في كل عصر وزمان، فإنفاقهم حصل في الماضي، ويحصل في الحال والاستقبال، ولذلك جاء التعبير بصيغة المضارع ﴿يُنفِقُونَ﴾[(٢)].

والآية وإن كانت في الكفار، وكان لها سبب نزول خاص، إلا أنها عامة في كل من يبذل ماله للصد عن دين الله، أو في تأييد الباطل ومعارضة الحق[(٣)].

ثم قال سبحانه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: سيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ندامة عليهم، حيث لم يجدوا شيئًا، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار[(٤)].

ولم يكن هذا حال أهل الكفر في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فحسب، بل هو طريقة أهل الضلال في كل زمان، فقد قال سبحانه حكاية عن موسى في بيان حال فرعون وقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

قال ابن جرير: «﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ بمعنى: ليضلوا الناس عن سبيلك، ويصدوهم عن دينك»[(٥)].

وقال السعدي: «المعنى: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيضلون ويضلون»[(٦)].

ويبقى هذا حال كل من أبغض الدين القويم، من الكفار والمنافقين وأشياعهم، فهم يبذلون من المال الكثير لهدم الدين، وتصديع أركانه وزلزلة ثوابته، وبث الشكوك

(١) تفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٩٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٤٠.
(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ٦/ ٩٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٤.
(٥) جامع البيان ٦/ ٥٩٨.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٨.

والشبهات في نفوس أبنائه، فسينفقون أموالهم وتكون عليهم حسرة وندامة في الدنيا والآخرة.

والصد عن سبيل الله قد يكون عامًّا، وذلك بالصد عن الدين كلية - كما يفعل أهل الكفر - وقد يكون الصد جزئيًّا، وذلك بالصد عن بعض تشريعات الإسلام، ومحاربتها ومنعها، والتضييق على أهلها، كالحجاب والنقاب، والأذان وحلقات التحفيظ.

وبذل المال في ذلك بطريقٍ مباشرٍ أو غير مباشر، هو من الإنفاق الممنوع، كمن يتولى فتح القنوات الصارفة عن ذكر الله تعالى أو القادحة في دينه وشريعته، أو المخالفة لتعاليمه، وكذا الإعانة فيها بأي نوع من أنواع العون، ومثله بذل المال في إيجاد المقاهي والملاهي، والتي تمارس فيها كثير من المحرمات، إضافةً إلى صدها الناس عن ذكر الله وشغلهم عما يصلحهم في أمر دينهم ودنياهم.

ويلحق بهم من يستغل التقنية ووسائل التواصل الحديثة في الصد عن سبيل الله، بنشر الكذب أو البدع أو الضلال، أو الاستهزاء بالدين وشعائره وأهله المنتسبين إليه.

والواجب على أهل الإيمان بذل أموالهم في نشر الدين وخدمته، إزاء ما يبذله أعداء الدين على مختلف المستويات حكومات وهيئات ومؤسسات وأفراد، من أموال طائلة ومبالغ عظيمة للصد عن سبيل الله تعالى، ونشر الكفر والفساد، لا أن يكون أبناء الإسلام معاول هدم في بنائه العظيم، أو أيدٍ خفية يشاركون بأموالهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون في الصد عن سبيل الله.

ومهما تآمر المتآمرون، أو علت أصواتهم، أو ظهروا وغلبوا في بعض الأحيان، سيبقى الحقُّ ما بقي الليل والنهار، وسيتم الله نوره ولو كره الكافرون؛ لأن هذا هو وعد الله ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

٣. الإنفاق في المحرمات.

وهذا يشمل دفع الأموال في تحصيل ما لا يحل من المحرمات، كما في المعاملات المحرمة التي نهى عنها الشارع الحكيم والبيوع الممنوعة كالربا، والرشوة فقد قال عزوجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة:١٨٨].

والإدلاء بالأموال للحكام هو دفعها لهم وإعطاؤهم إياها مقابل أن يحكموا للدافع ضد غريمه، وقد تقدم في الرشوة . وكذا دفع المقترض للزيادة، هو من الإنفاق في

المحرمات لأنه ربا.

ومثله إنفاق الأموال أثمانًا للمحرمات، كدفع ثمن الخمر والدخان والمخدرات، والآت اللهو، واللعب المحرم كالقمار، أو المسابقات الممنوعة شرعًا، أو دعمًا لقنوات الشر والفساد.

بل إن التبذير المنهي عنه فسر بأنه ما كان نفقةً في المحرمات، ولو كان شيئًا يسيرًا . كما تقدم.

والإنفاق فيما حرم الله تعالى، دليل تسلط الشيطان على الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ [الاسراء:٦٤].

ومشاركة إبليس للعباد في أموالهم هو ما يأمرهم به من إنفاقها في المعاصي والمحرمات [(١)].

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الاسراء:٢٧].

«يعني: إن المفرقين أموالهم في معاصي الله المنفقيها في غير طاعته أولياء الشياطين»[(٢)].

٤. الإنفاق في الشهوات.

فمن وجوه الإنفاق المذمومة والممنوعة الإنفاق في أصناف الشهوات، لا سيما المحرمة منها، فقد حكى الله تعالى عن الكافر تفاخره بإنفاق المال الكثير في سبيل تحصيل شهواته، فقال عزوجل: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [البلد:٦].

ومعنى (لبدًا): أي كثيرًا [(٣)].

ففي قول الكافر تفاخر وتمدح بإتلاف المال في غير صلاح، وقد كان أهل الجاهلية يتبجحون بإتلاف المال ويعدونه منقبة، لإيذانه بقلة اكتراث صاحبه به [(٤)].

قال السعدي:«سمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسارة والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وربح أضعاف ما أنفق»[(٥)].

وإنفاق المال في الشهوات - حتى وإن كانت مباحة - إذا بالغ فيه الإنسان وجاوز الحد كان ذلك من التبذير والإسراف المنهي عنه، قال القرطبي:«من أنفق ماله في الشهوات زائدًا على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنفاد فهو مبذر»[(٦)].

(١) انظر: جامع البيان ٨/ ١٠٩.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٦٩.
(٣) انظر: جامع البيان ١٢/ ٥٨٩.وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٥٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٨٥٥.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٦٢.

وهو ضربٌ من إضاعة المال وإتلافه، وصرفه فيما لا نفع فيه غالبًا. وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال، فقال: (إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا... .ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[1].

قال النووي: «وأما إضاعة المال فهو صرفه في غير وجوهه الشرعية، وتعريضه للتلف، وسبب النهي أنه إفساد، والله لا يحب المفسدين، ولأنه إذا ضاع ماله تعرض لما في أيدي الناس»[2].

ومن إضاعة المال ما يبذله الناس اليوم من أموالٍ طائلة، ومبالغ كبيرة في سبيل حيازة المباحات والتفاخر والتنافس في نيل أعراض الدنيا، وأغراضها من مساكن ومراكب ومقتنيات وأجهزة واتصالات ولباس وأثاث ومناسبات، أو شراء ما لا يستفاد منه، أو إنفاق المال في السياحات والتنـزه والسفر، كل ذلك من الإنفاق في الشهوات التي تذهب المال ولا نفع فيها غالبًا للفرد ولا للمجتمع.

والواجب على المسلم حفظ ماله، بتنظيم استهلاكه والاعتدال في نفقته، وصرفه فيما ينبغي، والبعد عن مجالات تضييع الأموال، لأنه مما نهى عنه الشارع الحكيم وحذر من مغبته.

٥. دفع الأموال لمن لا يحسن التصرف (السفهاء).

وقد نهى الله تعالى عن دفع الأموال للسفهاء فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝٥﴾ [النساء:٥].

فهذا نهيٌ للأولياء عن دفع الأموال لكل من لا يحسن التصرف في ماله؛ لعدم وضعف عقله كالمجنون والمعتوه، أو لصغر سنه وعدم رشده كالصغير وغير الراشد، فهؤلاء لا يحسنون حفظها والتصرف فيها والقيام عليها، فلا تدفع لهم إنما يبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية[3].

والمتأمل في حال الناس اليوم، يرى مخالفة هذا التوجيه الإلهي وعدم المبالاة بالأموال، وبذلها لصغار السن ممن لا يدرك مصلحته، ولا يحسن التصرف في غالب شؤونه، فتترك الأموال في يده بلا حساب، ويدفع له دون تردد، وأكثر صرفه يكون فيما لا فائدة فيه ولا نفع منه، من البذل في الشهوات، والإسراف والتبذير في المقتنيات من سيارات وأجهزة وتجهيزات، وقد تكون سببًا في انحرافه ببذلها في المسكرات والمخدرات والدخان، فيكون ذلك المال

(١) سبق تخريجه.
(٢) شرح صحيح مسلم ١٢/ ١١.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص١٣٠.

وبالًا عليه وهلاكًا له.

ومثله دفع الأموال لمن لا تحسن التصرف والتدبير من النساء، أو توليتها على شؤون النفقة في البيت، فيدفع المال غالبًا فيما لا ينفع الأسرة، بل يضيع عليها أكثر منافعها.

والواجب حفظ المال، ومنع السفيه من التصرف فيه حتى لو كان ماله، ودفع ما يحتاج إليه في النفقة والكسوة وسائر متطلبات حياته من قبل وليه والقائم عليه . كما أرشدت إلى ذلك الآية الكريمة . قال ابن عباس في الآية:«لا تعمد إلى مالك وما خولك الله، وجعله معيشة، فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم[1]».

ثانيًا: عواقب الإنفاق الممنوع:

من خلال ما تقدم من وجوه الإنفاق غير المشروع، تتبين عواقب وآثارًا للإنفاق الممنوع ولعل أهمها:

١. بطلان العمل وعدم قبوله، كما في الإنفاق رياءً.

٢. الحسرة والندامة التي تعود على صاحبها بالوبال والخسارة في الدنيا، دون تحقيق مراده، فيضيع ماله ولا ينال مطلوبة، كمن ينفق ماله في سبيل الصد عن الدين، وقد وعد سبحانه بظهور دينه وغلبته، مهما فعل أعداؤه.

٣. تضييع المصالح الهامة للأفراد والجماعات، بدفع الأموال فيما لا ينبغي كالمسابقات والألعاب، والتخلي عن الإنفاق في المجالات الحيوية التي تخدم الأمة.

٤. حصول التنافس البغيض بين أفراد المجتمع، في تحصيل الكماليات، والإنفاق على مظاهر الترف والتفاخر، ولربما قاد ذلك إلى تحمل الديون، أو الدخول في معاملات محرمة من أجل توفير المال الذي به يفاخر.

٥. موالاة الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الاسراء:٢٧]. قال ابن جرير:«إن المفرقين أموالهم في معاصي الله، المنفقيها في غير طاعته، أولياء الشياطين»[2].

٦. دخول النار، كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٩.

(٢) جامع البيان ٨/ ٦٩.

﴿٣٦﴾[الأنفال:٣٦].

٧. استنزافٌ لثروات الأمة، وإتلافٌ لأهم مقومات النهضة وعوامل القوة الاقتصادية (المال).

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الاقتصاد، الإنفاق، البخل، الجهاد، الدَّين، الزكاة، السعة، الشهادة، العطاء، الكسب

المجتمع

عناصر الموضوع

مفهوم المجتمع	٨
ألفاظ ذات صلة	٩
سمات المجتمع المسلم	١١
التحديات التي تواجه المجتمع المسلم	٤٦

مفهوم المجتمع

أولًا: المعنى اللغوي:

لفظة المجتمع مشتقة من الفعل: جمع، قال ابن فارس: «الجيم والميم والعين أصلٌ واحد يدل على تضام الشيء»[(١)].

والجمع بمعنى: ضم الشيء بعضه لبعض بعد تفرقة، يقال: جمع الشيء يجمعه جمعًا، وجمعه وأجمعه فاجتمع وتجمع واستجمع، ومن ذلك: المجموع، وهو الذي جمع من هاهنا وهاهنا، وإن لم يجعل كالشيء الواحد، واستجمع السيل: اجتمع من كل موضع، وتجمع القوم: اجتمعوا من هاهنا وهاهنا، والجماع: أخلاطٌ من الناس، وقيل: هم الضروب المتفرقون من الناس[(٢)].

وجماع الناس: أخلاطهم من قبائل شتى، ومن كل شيءٍ، وكل ما تجمع وانضم بعضه إلى بعضٍ يقال له: جماعٌ[(٣)].

والمجتمع: «موضع الاجتماع، والجماعة من الناس»[(٤)].

ثانيًا: المجتمع في الاصطلاح:

وضع العلماء المختصون بعلم الاجتماع عدة تعريفات للمجتمع، وكلها تعريفات متشابهة ومتقاربة، من هذه التعريفات تعريف المجتمع بأنه: «كل مجموعة أفراد تربطهم رابطةٌ ما، معروفةٌ لديهم، ولها أثرٌ دائمٌ أو مؤقتٌ في حياتهم، وفي علاقاتهم مع بعض»[(٥)].

ويعرف المجتمع المسلم بأنه: «خلائق مسلمون في أرضهم مستقرون، تجمعهم رابطة الإسلام، وتدار أمورهم في ضوء تشريعاتٍ إسلامية وأحكام، ويرعى شؤونهم ولاة أمر منهم وحكام»[(٦)].

---

(١) مقاييس اللغة ١/ ٤٢٦.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٧٨.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩١٧، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٤٥٤.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ١٣٦.
(٥) علم الاجتماع، علي عبد الواحد وافي ص١٦.
(٦) الإسلام وبناء المجتمع، حسن أبو غدة وآخرون ص٣.

ألفاظ ذات صلة

١ القرية:

القرية لغة:

هي البلد المسكون؛ مأخوذة، من القري، وهو التجمع، وسميت البلاد المسكونة قرية؛ لتجمع الناس بها[١].

القرية اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للقرية عن المعنى اللغوي؛ إذ القرية في الاصطلاح «اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس»[٢]، وهي مكونة من المساكن والأبنية والضياع، وقد تطلق القرية على المدن[٣].

الفرق بين القرية والمجتمع:

من خلال التأمل في تعريف القرية وتعريف المجتمع نلاحظ أن الكلمتين قريبتان في المعنى والمدلول؛ حيث إن كلتيهما تدل على مجموعة الناس المجتمعين في مكان واحد، وتجمعهم روابط مشتركة ولكن لفظ المجتمع يستعمل للدلالة على الناس المقيمين في مكان معين، أما لفظ القرية فيغلب استعماله للدلالة على المكان الذي يجتمع فيه الناس.

٢ القبيلة:

القبيلة لغة:

يطلق لفظ القبيلة على الجماعة من الناس الذين ينتسبون إلى أبٍ واحدٍ أو جدٍّ واحدٍ[٤].

القبيلة اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي؛ إذ هي «الجماعة المجتمعة من الناس التي يقبل بعضها على بعض»[٥].

الفرق بين القبيلة والمجتمع:

من خلال التعريفات السابقة لكلٍ من القبيلة والمجتمع نلحظ أن اللفظين قريبان جدًا

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٠٢.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٥٦.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧١٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٩٢.

في المعنى الذي يدل عليه كل منهما؛ فكلاهما يدل على مجموعة الناس الذين بينهم روابط مشتركة، إلا أن لفظ القبيلة يغلب استعماله على من كان بينهم رابطة النسب، وكانوا منسوبين لرجلٍ واحدٍ، أما لفظ المجتمع فإنه يدل على مجموعة الناس الذين بينهم روابط معينة؛ قد تكون روابط نسب، وقد تكون روابط الدين والملة، وقد تكون روابط أخرى، وبذلك فلفظ المجتمع أعم من لفظ القبيلة وأشمل منه.

٣ الشعب:

الشعب لغة:

يطلق لفظ الشعب على القبيلة العظيمة، أو الحي العظيم الذي يتشعب من القبيلة، وقيل: هو القبيلة نفسها. والجمع: شعوبٌ[(١)]، وذكر بعض اللغويين أن الشعب هو الجماعة الكبيرة التي ترجع لأبٍ واحدٍ، وتخضع لنظام اجتماعي واحد، وتتكلم لسانًا واحدًا، وهو أوسع من القبيلة[(٢)].

الشعب اصطلاحًا:

لا يختلف التعريف الاصطلاحي للشعب عن التعريف اللغوي له؛ إذ الشعب في الاصطلاح: «القبيلة المتشعبة من حيٍ واحدٍ»[(٣)].

الفرق بين الشعب والمجتمع:

نلاحظ أن الفرق بين الشعب والمجتمع هو نفس الفرق بين القبيلة والمجتمع؛ وذلك لأن لفظ الشعب يدل على القبيلة الكبيرة، وهم جماعة الناس الذين يربطهم نسبهم لأبٍ واحدٍ، أو جدٍ واحدٍ؛ وعلى ذلك فلفظ المجتمع أعم من لفظ الشعب.

فالمجتمع والقبيلة والشعب ألفاظٌ مترادفةٌ، إلا أن لفظ المجتمع أعم من اللفظين الآخرين، وأوسع دلالةً منهما؛ إذ الناس في القبيلة الواحدة أو في الشعب الواحد يغلب أن يكون الرابط بينهم رابط نسب وقرابة، أما الناس في المجتمع الواحد فقد يكون الرابط بينهم رابط نسب وقرابة، وقد يكون رابط دين وملة، أو يكون رابطًا سياسيًا أو قوميًا أو غير ذلك.

أما القرية فيغلب استعماله للدلالة على المكان الذي يجتمع فيه الناس.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣/ ١٣٤.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٨٣.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٦١.

سمات المجتمع المسلم

١. مجتمعٌ متميزٌ.

المجتمع المسلم مجتمعٌ متميزٌ؛ لأنه قام على شريعة ربانية نشأ وتدرج عليها، فكانت هي الحاكمة والراعية له منذ أن قام، بل مهدت لقيامه قبل أن يقوم، شريعةٌ أوجدت مجتمعًا، وليس مجتمعا شكل قوانين أو دساتير وفق الأحداث أو استجابة لطائفة أو تحت ضغوط من جهة أو تحقيقًا لمصالح طبقة معينة، أو لتلبية حاجات موقوتة، بل جاءت الشريعة بالخير للجميع والعدل للجميع والمصلحة للجميع، في ظل هذه الشريعة قام المجتمع المسلم وتطور، وعلى ضوئها يتجدد وفق أصول ثابتة وفروع متنوعة واجتهادات متجددة، تحافظ على طابع هذا المجتمع وهويته الإسلامية.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالخاصية الرئيسة التي تفرد بها المجتمع المسلم عن سائر المجتمعات أنه مجتمعٌ رباني برز إلى الوجود، والتعبير بقوله: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ يدل دلالةً واضحةً على حقيقة نشأة هذه الأمة، وحقيقة النظام الذي يقوم عليه وجودها، «فهي أمة مخرجة إخراجًا، وفق نموذج معين، يحققه نظام معين، وهي لم تخرج نفسها وفق نموذج من تصوراتها العقلية، أو ضرورتها، إنما وضع لها نظامها من لدن خالقها، وأخرجت للناس على وفقه إخراجًا ربانيًّا»[(١)].

وتدبر قوله تعالى: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ تلحظ أن خير هذه الأمة ليس حكرًا عليها وحدها، بل يجب أن يعم هذا الخير؛ لينعم به سائر الناس.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «خير الناس للناس»[(٢)].

٢. مجتمع بشريٌ.

المجتمع المسلم ليس مجتمعًا ملائكيًا معصومًا من الخطأ، بل هو مجتمعٌ بشريٌ واقعيٌ، فواقع المجتمع الإسلامي الذي أوجده الإسلام مع تميزه في المعالم والحضارة والشخصية إلا أنه قد لا يخلو من وجود عصاة أو بغاة أو منافقين أو أصحاب بدع وأهواء أو سراق ولصوص وقطاع طرق، ولكن العبرة بسيادة الشريعة وغلبة أهل الحق وكثرة الصالحين وتمكن الدين

(١) نحو مجتمع مسلم، سيد قطب ص ١٣٧.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٧٢٦، وعزاه لابن المنذر.

وهيمنته على النظم والأحكام والأعراف والتقاليد[1].

والله سبحانه وتعالى الذي شرع للمجتمع المسلم ما يصونه ويرقى به هو تعالى أعلم بطبيعة النفس والمجتمع، أعلم بما يصلح البشر ويناسب بشريتهم.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٢٦ -٢٨].

ولقد حذر الله البشرية من عدوها الذي يتربص بها ويكيد لها ويستدرجها بحبائله ومكائده إلى الرذيلة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور: ٢١].

والتزكية لا يدركها الإنسان بنفسه فحسب، ولا يحصلها بسعيه المجرد، وإنما هي توفيقٌ من الله وعصمة وفضل منه ورحمة، ومن ثم فالمؤمن يستعين بربه دائمًا أن يحصنه وأن يزكيه.

٣. مجتمعٌ قائمٌ على أسس متينة.

ومن تلك الأسس:

١. العقيدة الصحيحة.

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨-١٠٩].

فالبناء إن لم يعتمد على أسس متينة وقواعد ثابتة لا يمكث طويلًا بل سرعان ما ينهار، وتقوى الله سبحانه وتعالى هي لب العقيدة الإسلامية وجوهرها، والسعي لرضوان الله هي غاية الغايات وأسمى الأمنيات، فالعقيدة هي الأساس المتين، والسراج المبين، والسياج الحصين للمجتمع المسلم، لقد نزل القرآن الكريم على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة يعلم الناس العقيدة وأصول الشرائع ومكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وينشئ الجماعة المسلمة التي ستكون نواةً لتشييد أول مجتمع إسلامي في المدينة المنورة بعد الهجرة المباركة، ثلاث عشرة سنة في إرساء قواعد بناء المجتمع المسلم، تعليم الصحابة

(١) انظر: المجتمع المتكافل في الإسلام، عبد العزيز الخياط ص ٦.

معنى لا إله إلا الله، لا رب غيره ولا معبود سواه، ولا حكم إلا له، ولا عون إلا منه، ولا حول ولا قوة إلا به، لا إله إلا الله: تحرير الإنسان من الخضوع والاستسلام لغير الله سبحانه وتعالى والاحتكام إلى غير شرعه، لا إله إلا الله: اجتماع القلب على محبة الله وتعظيمه وموالاته وطاعته، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة من يعلم المجتمع المدني الناشئ العقيدة ويقرئهم القرآن، ثم كانت الهجرة النبوية؛ لتشكيل هذا المجتمع الجديد وإخراجه وفق شرع الله.

وتوحيد الله سبحانه وتعالى ومعرفته هو النور الذي يمحو كل ظلمة، والحق الذي يفند كل شبهة، والحقيقة التي تبدد الأوهام والأساطير والخرافات، التي تستبد بكثير من الناس وتستهويهم وتطاردهم، فتنكد عيشهم وتكدر صفوهم، وتضيق معايشهم، وتثقل كاهلهم، وتسقم نفوسهم، وتحير عقولهم، وتبلبل أفكارهم، وتفرقهم شيعًا، مع انقباض الصدور ووحشة القلوب، أما عقيدة التوحيد: فإنها تجمع القلوب وتشرح الصدور، وتؤلف النفوس وتنير العقول وتشحذ الهمم، وتسمو بالأرواح وتنهض بالمجتمعات.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، من ظلمات الجهل والأوهام إلى نور العلم، من ظلمات الشك والحيرة إلى نور اليقين.

كل مجتمع له رسالة تجمعه ورؤية توحده، وعقيدة التوحيد هي رسالة المجتمع المسلم ورؤيته وشعاره وكلمته الجامعة، رسالة المجتمع المسلم السامية، توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة التي هي غاية خلق الإنسان، والسعي إلى إرضائه جل جلاله، ورؤيته التي ينظر بها لهذا الكون وللحياة ويمشي بها في الناس، وشعاره الذي يتمثله ويستحضره ويهتف به ويحيا له ويتوحد عليه.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والإيمان يغرس بذور المراقبة، ويروي شجرة التقوى في الأفئدة، ويزرع المحبة

والألفة في القلوب، ويوقد سراج المعرفة في العقول، ويقدح زناد الهمة ومشاعل التنافس إلى الخيرات في المجتمعات، وهو أقوى الروابط بين القلوب وأوثق العرى بين النفوس.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٣].

والإيمان بأن هناك يومًا يفصل الله فيه بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، يقتص للمظلوم من الظالم، ويحاسب الحاكم، ويسأل الراعي والمؤتمن، ويجازي المبتلى، ويكافئ الصابر والمحتسب، ويثيب المطيع ويعاقب العاصي، وينتقم من الطغاة والمجرمين، الإيمان بهذا اليوم العظيم واستذكاره مما ينير الطريق ويقوم السلوك، ويثبت الخائف ويسلي المبتلى، ويجلي الأحزان، ويهدي الحيران، ويهذب النفوس، ويداوي القلوب، ويطهر المجتمعات من الآفات، ويضبط المعاملات، ويقيم ميزان العدل، ويرسخ القيم، ويوحد الغايات.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

فالإيمان باليوم الآخر واليقين بلقاء الله مما يحفز على الجد في العبادة والمسارعة إليها والنهوض لأدائها.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[المطففين: ١ - ٦].

فالإيمان بيوم البعث يدفع لمراقبة الله، ومحاسبة النفس، ورعاية الحقوق والوفاء بها مع أداء الواجبات.

والإيمان بالكتب والرسل: فالكتب هي الميزان والمنهاج، والشرعة والسراج، لا تستقيم الحياة ولا تقوم للمجتمعات قائمة بدون منهج رباني يقيمها، ونجوم هدًى تقودها، وأسوةٍ حسنة تتأسى بها، وسننٍ قويم تترسمه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد: ٢٥].

والإيمان يقتلع جذور اليأس وأسباب القلق والهموم، ويبدد المخاوف، ويذهب الأحزان، ويغرس الأمل في القلوب

والمحبة والوئام بين الناس، مما يطهر المجتمع من الأحقاد والضغائن التي تفضي إلى الجرائم، ويطهر أفراده من الأمراض والعقد النفسية التي ابتليت بها المجتمعات المحرومة من الإيمان.

قال تعالى مخبرًا عن قول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧].

وهذا يعني أن المؤمن متفائلٌ طموحٌ مستبشرٌ مؤملٌ في روح الله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم: ٩٦].

أي: مودة في قلوب العباد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وعدهم الله سبحانه وتعالى بالأمن والسعادة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[محمد: ٢].

أصلح أحوالهم وشؤونهم وأمورهم، والأمن والطمأنينة وصلاح البال من ثمرات الإيمان وعمل الصالحات.

والإيمان من أسباب الهداية والتوفيق والسداد في أمور الدنيا والدين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[يونس: ٩].

والمجتمع المؤمن هو خير المجتمعات على الإطلاق إذا كان متمسكًا بإيمانه متوجًا له بالأعمال الصالحات، فهو الأفضل على الإطلاق، وهذا الأمر ملحوظٌ وملموسٌ؛ فالمجتمعات المؤمنة يغلب عليها الطهر والعفاف، والتكافل والتراحم والصدق والأمانة، والتنافس في الخير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[البينة: ٧-٨].

بإيمانهم وصلاحهم بلغوا أسمى المراتب في الدارين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتعجبون من منزلة الملائكة من الله؟ والذي نفسي بيده، لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملكٍ، واقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾»[1].

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٢/ ٤٣٧.

وحياة الأنبياء والمرسلين حافلة بالمواعظ والدروس والعبر والفوائد التي يجب الوقوف عندها والاقتطاف منها في حياتنا ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: ١١١].

٢. الشريعة.

وهي السياج الذي يحمي المجتمع المسلم ويقيمه وينظم شؤونه، ويعالج مشكلاته، ويقدم الحلول الحاسمة لأزماته، ويقوي روابطه، ويدعم وحدته، ويقوي دعائمه ويوثق وشائجه، والشريعة تشمل العبادات والمعاملات، العبادات: وهي محور حياة المجتمع المسلم وأساس تكوينه، ونبراس سبيله، وهي الزاد الذي يتزود به، والوقود الذي يتحرك به وينطلق به نحو المعالي ويحلق به في أجواء الفضيلة، والمنهج الذي يرقى به وينهض، به تزكو النفوس، وتتوقد القرائح، وتنبعث الهمم، هي المنظم لسلوك الإنسان، والعلاج لما قد يصيبه من خلل أو يعتريه من علل، فالصلاة مدرسةٌ وجامعةٌ ومستشفى ومنتدى ورابطة؛ فيها شفاء الأرواح، ورياضة الأبدان، وجمع القلب، وتزكية النفس.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥].

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكبوت: ٤٥].

والصوم شفاء للأبدان وصفاءٌ للأرواح، وهو عبادةٌ جماعية، فيها توحيدٌ للمشاعر، وبها يعطف الغني على الفقير والكبير على الصغير، وختامها عيدٌ سعيدٌ يجدد الروابط ويقوي الصلات بين أفراد المجتمع.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٥].

والحج عبادةٌ جماعية فيها شفاء للأرواح والأبدان، واجتماعٌ على الذكر والعبادة، وتحقيق للمصالح وتحصيل للمنافع،

وتزكيةٌ للنفوس، وحفزٌ للهمم، وتواصلٌ بين الأمم والشعوب، وثقافة ومعرفة، وسياحةٌ وتنميةٌ لاقتصاد الفرد والمجتمع.

قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[البقرة: ١٩٧].

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[الحج: ٢٧-٢٨].

والزكاة طهرٌ للمال ولنفوس الأغنياء من الأنانية والشح والأثرة والجشع، ولنفوس الفقراء من الحسد والحقد والطمع.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: ١٠٣].

وفيها بركةٌ ونماءٌ للمجتمع، وتنميةٌ للاقتصاد.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[الروم: ٣٩].

والجهاد سياجٌ للمجتمع، وحمايةٌ له من المخاطر الخارجية، وتحقيقٌ لأمنه، وحمايةٌ لممتلكاته، وسببٌ للحياة الكريمة الأبية للشعوب والمجتمعات.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال: ٢٤].

إذا دعاكم للجهاد ففيه حياةٌ للنفوس.

عن عروة بن الزبير: «إذا دعاكم لما يحييكم»، أي: «الحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم»[1].

٣. القيم والأخلاق والآداب.

من ركائز المجتمع المسلم ومن سماته تلك القيم والأخلاق والآداب، التي تكتنفه وتحيط به إحاطة السوار بالمعصم والأسوار للبستان، والفناء بالبيت، فتصونه وتزينه، وترقى به، قيم ثابتة راسخة وأخلاق طيبة، وآداب ساميةٌ كريمة، وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ في مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، بل وحذر القرآن من مساوئ الأخلاق وسيئ العادات، وما من خلقٍ كريمٍ إلا وفي القرآن الكريم صورٌ عمليةٌ له، وما من خلقٍ ذمه القرآن إلا وذكر نماذج له، والأنبياء -عليهم السلام- هم الأسوة

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٥٣.

الحسنة والقدوة الطيبة لمكارم الأخلاق، وفي مقدمتهم خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الذي بين القرآن جميل خلقه على وجه الإجمال والتفصيل، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

وقال جل جلاله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال جل وعلا عن أنبيائه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولقد سجل القرآن صفحات مشرقة تحكي أخلاق الأنبياء ودعوتهم لمكارم الأخلاق، وكذلك أخلاق بعض الصالحين ووصاياهم؛ لتبقى للمجتمع نماذج يستضيء بها وأسوة يحتذى حذوها.

٤ . مجتمع عادل.

من سمات المجتمع الذي يقيمه الإسلام أنه مجتمع عادل، يحقق العدالة بين جميع أفراده دون تفريق بين أحدٍ، فالعدالة سياجه وميزانه، وهي ضرورة لقيام المجتمع المسلم واستقراره، العدالة بين المسلم والمسلم، وبين المسلم وغير المسلم، العدالة بين الغني والفقير، وبين الصغير والكبير، وبين القوي والضعيف، وبين الذكر والأنثى، وبين الحاكم والمحكوم.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات: ٩].

فالعدالة أمر من الله، يجب أن تحكم وتسود.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ٥٨].

والمؤمن إيجابيٌ يسعى للحق، نفاعٌ لنفسه ولغيره، ليس كلًّا على أحد، الأمر بالعدل ديدنه وهجيراه، ولقد فرق القرآن بين المسلم المطيع لربه الفعال النافع لمجتمعه وبين العاجز المتواني الذي يشكل عبئًا على عشيرته ومجتمعه.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النحل: ٧٦].

وفي آية جامعة يأمر عز وجل بإقامة موازين العدل وبسط راحتي الإحسان، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

تلك العدالة التي لا ينبغي أن يصرف عنها صارفٌ أو يحول دونها حائل، ولا يؤثر عليها تحيزٌ أو ضغطٌ من قرابة أو بعد، أو محبة أو بغض، أو مصلحة أو هوى نفس، أو تعصب لطائفة أو جماعة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

فعلى كل مؤمن أن يستشعر مسئوليته وواجبه نحو إقامة العدل ومراقبته والدعوة إليه والإذعان له والرضا به.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

«فهو العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه الحب والبغض، ولا تغير قواعده المودة والشنآن، العدل الذي لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ولا بالتباغض بين الأقوام؛ فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعًا، لا يفرق بينهم حسب ولا نسب ولا مال ولا جاه، كما تتمتع به الأقوام الأخرى، ولو كان بينها وبين المسلمين شنآن، وتلك قمة في العدل لا يبلغها أي قانون دولي حتى هذه اللحظة»[1].

ومن أبرز أنواع العدل الذي أكده صلى الله عليه وسلم العدل في توزيع الثروات، وإتاحة الفرصة المتكافئة لأبناء الأمة الواحدة، وإعطاء العاملين ثمرة أعمالهم وجهودهم دون بخسٍ أو مماطلةٍ، فإن ذلك مما يقرب الفوارق البعيدة بين الأغنياء والفقراء، ويرفع من مستوى الفقراء، وهذا مقصدٌ من مقاصد الإسلام، سعى لتحقيقه كما في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧].

والـ﴿دُولَةَۢ﴾: ما يتداوله الناس فيما بينهم من أموال، فيكون في يد هذا تارة، وفي يد ذاك تارة أخرى، ومعنى الآية: كي لا يكون الفيء دولة بين الرؤساء والأقوياء والأغنياء فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، فشرع الله ذلك؛ لينال الفقراء منه حظوظهم، فلا يكون دولة بين طائفة الأغنياء وحدهم،

(١) نحو مجتمع مسلم، سيد قطب ص ١٢٨.

فيحدث الخلل في المجتمع كما هو الحال في الأنظمة الرأسمالية التي يزداد الغني فيها غنًى فاحشًا، بينما يزداد الفقير فيها فقرًا وعوزًا، مما ينذر بأخطارٍ تحدق بالمجتمعات، وبما يزيد من معدلات الجريمة بسبب الأنانية والجشع والحسد والطمع.

٥. مجتمع متراحم.

المجتمع المسلم مجتمع الرحمة وأهلها، يتراحم أفراده فيما بينهم، فيرحم القوي الضعيف، ويعطف الغني على الفقير، ويشفق الراعي على رعيته، وتنتشر الرحمة حتى بالحيوان، هذه الرحمات التي تملأ أجواء المجتمع المسلم عبقًا وندى، مستمدة من رحمة الله سبحانه وتعالى التي وسعت كل شيء، فهو تعالى الرحمن الرحيم، يرحم عباده الرحماء.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٥٦].

ونشر الرحمة وغرس أصولها وتحصيلها عنوان رسالة الإسلام ومقصودها.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

فقد بعث نبينا صلى الله عليه وسلم بأسباب الإصلاح والإسعاد، ومنارات الهدى وسبل الرشاد، ونسائم الرحمات، ومفاتح البركات.

والتراحم بين المؤمنين من أخص خصائصهم.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩].

وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا على الكفار رحيمًا برًا بالأخيار، صلبًا في وجه الكافر ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن.

والصفة التي تغلب على هذا المجتمع ويعرف بها في الناس أنه مجتمع شديد الغلظة على الكفار الذين يحادون الله ورسوله، فلا يكون بينه وبين الكافرين ولاء أو مودة يجار فيها على دين الله أو ينتقص بها حقٌ من حقوق المسلمين، هذا حالهم مع أعداء الله، أما هم فيما بينهم فهم رحماء، تفيض قلوبهم حنانًا ورحمة ومودة، تجمعهم أخوة بارة في الله، وفي دين الله[1].

«وفي الآية صورة رائعة لما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورع وتقوى وعبادة وأخلاق كريمة سمحاء فيما بينهم، مع الشدة والقوة و البسالة بالنسبة لأعدائهم، ومثل هذه الصورة تكررت في سور عديدة مكية ومدنية، مما فيه دلالة على ما كان من أثر دعوة الله وقرآنه ونبيه في هذه الفئة التي صارت بذلك مثالًا

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١/ ٢٠.

نموذجًا خالدًا»[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فمن صفات هذا الجيل المنشود الذي تحقق على يديه الانتصارات والفتوحات محبة الله سبحانه وتعالى، واللين والتسامح مع المؤمنين، والشدة والصلابة مع الكفار، تلك المعادلة الصعبة التي تحتاج لتربيةٍ راشدة، وضبط نفسٍ وفهم مستنير.

قال ابن عاشور[2]: «وهو الذي يكون في كل حالٍ بما يلائم ذلك الحال، قال[3]:

حليمٌ إذا ما الحلم زين أهله
مع الحلم في عين العدو مهيب»

«وإنما تعدى (أذلة) بـ(على)؛ لأنه تضمن معنى العطف والحنو»[4].

«ووقع الوصف في جانب التواضع للمؤمنين والغلظة على الكافرين بالاسم الدال على المبالغة؛ دلالة على ثبوت ذلك واستقراره، وأنه عزيزٌ فيهم، والاسم يدل على الثبوت والاستقرار»[5].

(١) التفسير الحديث، محمد عزت ٨/ ٦١٧ باختصار.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٣٨.
(٣) البيت لكعب بن سعد الغنوي كما في نهاية الأرب في فنون الأدب ٧/ ١٣١.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٣١٩.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٣٩٣.

وقال تعالى عن المجتمع المؤمن: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧-١٨].

والتواصي بالمرحمة منقبةٌ عظيمة وفضيلةٌ جليلةٌ، ولا يوصي بالمرحمة إلا من عرفها وألفها وقام بها، ومجتمعٌ هذا شأنه لن تجد فيه شقيًا ولا محرومًا.

قال الإمام الشنقيطي رحمه الله: «وبهذه الوصايا الثلاث: بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة، تكتمل مقومات المجتمع المتكامل، قوامه الفضائل المثلى والقيم الفضلى؛ لأن بالتواصي بالحق إقامة الحق والاستقامة على الطريق المستقيم، وبالتواصي بالصبر يستطيعون مواصلة سيرهم على هذا الصراط ويتخطون كل عقباتٍ تواجههم، وبالتواصي بالمرحمة يكونون مرتبطين كالجسد الواحد، وتلك أعطياتٌ لم يعطها إلا القرآن»[6].

«والتواصي بالصبر والمرحمة هو إلحاح المرء على نفسه بالدعوة إليهما والتمسك بهما، فإذا جزع في مواجهة مالٍ يخرج من يده حمل نفسه على الصبر على ما تكره، واستدعى من مشاعره دواعي الحنان والرحمة، فذلك مما يعينه على مغالبة أهوائه وقهر شحه وبخله، ثم لا يقف المرء عند هذا، بل ينبغي أن يكون هو داعية إلى الصبر

(٦) أضواء البيان ٩/ ٩٧.

وإلى الرحمة، يبشر بهما في الناس، ويدعو إليهما في كل مجتمع، فذلك من شأنه أن يترك آثاره فيه، إلى جانب ما يتركه من إشاعة هذا المعروف بين الناس»[1].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ «يعني بذلك: رحمة الناس كلهم»[2].

والمجتمع المسلم بإيمانه وتناصره وتناصحه أهلٌ للرحمات.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

عن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنه يبلغ به النبي: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء)[3].

وحينما كان الصحابة في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء أحدهم وأخذ فرخي طائر، وبدت علامات الحزن على ذلك الطائر الذي أخذ يرفرف بجناحيه، فأشفق عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (من فجع هذا الطائر في فراخه؟ قالوا: فلان. قال: ردوا عليه فرخيه)[4].

وغفر الله لامرأة كانت تمارس البغاء؛ لأنها سقت كلبًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (غفر لامرأةٍ موسةٍ، مرت بكلبٍ على رأس ركيٍّ يلهث، كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك)[5].

«فلئن كانت الرحمة بكلب تغفر ذنوب البغايا، فإن الرحمة بالبشر تصنع العجائب»[6].

وشريعة الإسلام رحمةٌ بالفرد والمجتمع.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٥٨.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٢/ ٤١٢.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرحمة، ٤/ ٤٤٠، رقم ٤٩٤٣، ولترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب رحمة المسلمين، ٣/ ٣٨٨، رقم ١٩٢٤.
قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الديك والبهائم، رقم ٥١٠١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٦٤، رقم ٢٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم، ٢/ ٣٥٨، رقم ٣٣٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، ٤/ ١٧٦١، رقم ٢٢٤٥.
(٦) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ١٩٦.

﴿وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام: ١٥٥].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النور: ٥٦].

وروى النسائي في السنن بسنده عن أميمة بنت رقيقة رضي الله عنها أنها قالت: (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نسوةٍ من الأنصار نبايعه فقلنا: يا رسول الله، نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك في معروفٍ. قال: (فيما استطعتن وأطقتن)، قالت: قلنا: الله ورسوله أرحم بنا، هلم نبايعك يا رسول الله) الحديث[1].

وفي قولهن: (الله ورسوله أرحم بنا) ما يدل على إيمان المرأة وتسليمها بأن ما قضى الله ورسوله في أمرهن فيه الخير والبركة والرحمة، فالمسلمة واثقة بشرع الله مطمئنة لحكم الله.

ومن أروع صور التراحم في حضارتنا الرائدة ما رآه ابن بطوطة في رحلته إلى الشام، قال: مررت يومًا ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكًا صغيرًا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع شقفها وأحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن.

وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره وهو أيضًا ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف؛ جبرًا للقلوب، جزى الله خيرًا من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش، من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة أو مسجد، أو قراءة القرآن يجيء إليه فيه رزقه، تجري له النفقة والكسوة، فمن كان بها غريبًا على خير لم يزل مصونًا عن بذل وجهه، محفوظًا عما يزري بالمروءة، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر، من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان، يغدو معهم إلى التعليم ويروح، ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك. ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده ألبتة، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي كل أحد بما

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب البيعة، باب بيعة النساء، ٧/ ١٠٥، رقم ٤١٨١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٦٣.

عنده فيفطرون جميعًا[1].

٦. مجتمع المؤاخاة.

والمجتمع المسلم يتميز بعاطفة قوية ورابطة فتية تربط بين أفراده وتوثق الصلات، إنها الأخوة الإيمانية التي تجعل المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وبلدانهم إخوة متحابين، مهما تناءت أوطانهم، والأخوة من أعز نعم الله عليهم.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فلا مكان في المجتمع المسلم لعصبية ولا حمية ولا لكبرٍ أو نفورٍ، بل الأخوة الإيمانية بما تحمله من محبة وإيثار وتضحية وبذل ونصح وفضلٍ، إنه الإسلام الذي جمع في أول عهده بين بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي، جمع بين قارات العالم القديم، آسيا وأفريقية وأوروبا، وأرسى قواعد المجتمع المسلم المدني على قاعدة الإخاء وما يقتضيه من محبة وإيثار وبذل وعطاء وتناصرٍ وتلاحمٍ وتواصلٍ بين الأجيال.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

عن عبد الرحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: (لما قدمنا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الربيع فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالًا فأقسم لك نصف مالي! وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها! قال: فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوقٍ فيه تجارةٌ؟)[2].

وقال تعالى في سورة الحجرات- تلك السورة الكريمة التي اشتملت على أحكام وآداب تصون المجتمع المسلم وتوثق روابطه وتنظم شؤونه-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) رحلة ابن بطوطة ١/ ٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، رقم ١٩٤٣.

وتأتي السنة النبوية لتقرر هذه المعاني وترسخها في النفوس؛ تأصيلًا لهذه الأخوة وتحصيلًا لثمراتها المرجوة.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا. وشبك أصابعه)[1].

وعن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[2].

وعن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[3].

أما التفرق والتنافر فلا مكان له في المجتمع المسلم.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وعن أنسٍ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا)[4].

وحينما اتجهت بعض المجتمعات المسلمة نحو العصبية للقوميات أو للأجناس واستجابت للدعوات المناوئة للأخوة الإسلامية لم تجن من ورائها إلا الأشواك والحنظل؛ فقد طغت تلك الدعوات على رابط الأخوة الإيمانية وانشغلت كل بلد بمصالحها الشخصية، بل ووقع الصدام بين بعض أقطار المسلمين بسبب تغييب روح الأخوة، والاحتكام للعصبيات، وتغليب المصالح القومية على مصالح الأمة.

وقد سرت هذه الروح بين كثير ممن جهلوا أصول الإيمان وشرائعه، وقد غذى أعداء الإسلام هذه المشاعر وروجوا لها تحت ستار (العلمانية والليبرالية والقومية،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم ٤٦٧، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، رقم ١٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، رقم ٢٥٥٩.

بل والنعرات القديمة كالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية وغيرها من الشعارات).

وحتى امتلأ هذا الفراغ بمحبة أعداء الدين وموالاتهم تحت ستار الصداقة وتبادل المصالح، أو مداراتهم واتقاء شرهم، مما عاد بالضرر البالغ على المسلمين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١- ٥٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٤- ٤٥].

فكما دعا الله المؤمنين للتآخي والتحاب حذرهم كذلك من عدوهم، وكشف عن مثالبه ودسائسه ومكائده، فالله سبحانه وتعالى أعلم بهم، وهو تعالى يتولى أولياءه، وينصرهم على أعدائهم، وفي هذا ما يبدد المخاوف من أعداء الله، ويقطع الآمال والرجاء فيهم.

٧. مجتمع متعاون.

من القيم الإنسانية الرائعة والأسس الحضارية الرصينة للمجتمع المسلم التعاون الإنساني، فالتعاون ضرورة من ضرورات الحياة، ولولاه لما استقامت، فالإنسان لا ينهض وحده بكل متطلبات الحياة، بل جعل الله الناس متفاوتين متفاضلين؛ ليكمل بعضهم بعضًا، ويخدم بعضهم بعضًا، هذا على مستوى الأفراد والشعوب، كذلك على مستوى الأمم.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

«﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أي: أسباب معيشتهم في الحياة الدنيا قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح، ولم نفوض أمرها إليهم، علمًا منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية، ورفعنا بعضهم فوق بعض في الرزق وسائر مبادئ المعاش درجات متفاوتة بحسب القرب والبعد، حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيفٍ وقوي، وفقير وغني، وخادم ومخدوم، وحاكم ومحكوم؛ ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا؛ ليصرف بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم؛ حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم»[1].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٤٦.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ «أي: ليستعمل بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قومٌ دون آخرين، فجعل البعض محتاجًا إلى البعض؛ لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا وبالعكس، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا لهذا؛ حتى يتعايشوا، ويترافدوا، ويصلوا إلى مرافقهم»[1].

«فالناس بحكم هذا الاختلاف القائم بينهم وبحسب استعدادهم الفطري وحكم ظروفهم وأحوالهم هم جميعا مسخرون، أي: يخدم بعضهم بعضًا، ليس فيهم خادم ومخدوم بل كلهم يخدم ويخدم، ويستوي في هذا العالم والجاهل، والزارع والصانع، والقوي والضعيف، والحاكم والمحكوم، إنهم جميعًا أشبه بالآلة الميكانيكية، لا تكون آلة عاملة ذات قوة محركة إلا إذا عمل كل جزء من أجزائها أيًّا كان وضعه فيها، وأيًّا كانت قيمته الذاتية بين أجزائها، بل إنهم أشبه بالجسد الإنساني في تجاوب أعضائه جميعًا في العمل على كل ما من شأنه أن يحفظ عليه حياته ويوفر له أمنه وسعادته»[2].

عن قتادة قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ «فتلقاه ضعيف الحيلة عيي اللسان وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه، قال الله جل ثناؤه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ كما قسم بينهم صورهم وأخلاقهم، تبارك ربنا وتعالى»[3].

لقد عرف الناس هذه الحقيقة منذ كان لهم وجود اجتماعي، بل إن هذا الوجود الاجتماعي نفسه إنما دعتهم إليه حاجة بعضهم إلى بعض، وخدمة بعضهم لبعض، وهذا ما يشير إليه قول الشاعر العربي[4]:

والناس بالناس من حضرٍ وباديةٍ
بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدم

والتعاون بين البشر من فطرة الله التي فطر الناس عليها، يقول ابن خلدون في مقدمته: «الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به، واتباع صلاح أخراه»[5].

وقال: «قد عرف وثبت أن الواحد من

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات ١/ ٤٩٧.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٣٧٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٩٥.
(٤) ديوان أبي العلاء المعري ١/ ١٢٠٣.
(٥) مقدمة ابن خلدون ص٤٢٩.

البشر غير مستقل لتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعًا في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافًا، فالقوت من الحنطة مثلًا لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه، وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد، ونجار للآلات، وقائم على البقر، وإثارة الأرض، وحصاد السنبل، وسائر مؤن الفلح، وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات، فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم»[1].

ولقد دعا القرآن في آخر توجيهاته إلى التعاون بين الأفراد والمجتمعات والأمم.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة: ٢].

«وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أي: ليعن بعضكم بعضًا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه»[2].

فالإسلام ينظر للتعامل والعلاقات بين أناس على أنها قائمة على المشاركة والتعاون والتنافس، لا على الصراع كما يصور الماديون من الفلاسفة والحاقدون من المتعصبين، بل الحياة مشاركة وتعاون اجتماعي ودولي، فالتعاون من أجل الصالح للإنسانية، بينما يريدها أعداء الإسلام صراعًا بين البشر، وعراكًا بين الطوائف والأمم، من أجل الاستئثار والانفراد وتحقيق المكاسب المادية، وترويج السلع ونشر الثقافات على حساب الآخرين، وإلحاق الخسائر المادية والأدبية، وهذا لا يتفق مع مبدأ التعاون الإنساني الذي يقوم على أساس مد يد العون للآخرين وتبادل المنافع ومراعاة المصالح، أما فكرة الصراع فهي فكرة خبيثة أفرزتها المذاهب المادية النفعية والفلاسفة الماديون أصحاب الأفكار الهدامة والمتناقضة، كهيجل وماركس وغيرهم ممن نفقت مذاهبهم في الغرب.

ويؤمن كثير من الكتاب الغربيين ومن لف لفهم بصراع الحضارات، وهذا المصطلح في النفس منه شيء؛ فلماذا تبنى العلاقات بين الحضارات على أساس الصراعات أو الصدام بين الحضارات؟ لماذا لا نسمي ما بين الحضارات لقاء الحضارة، أو إن شئت فلتقل تنافس حضاري، أما الصراع فيعني الشقاق والنزاع من أجل البقاء على حساب الطرف الآخر، والإسلام لا يمنع التعايش السلمي بين الحضارات.

(١) مقدمة ابن خلدون ص٣٦٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٦.

فاللبنات المتناثرة هنا وهناك لا قيمة لها، لكن حين يبنى بها جدار متين فترى البنيان مرصوصًا تدرك أهمية التماسك ومتانة الترابط وقوة التعاون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وتلك صورة من صور التعاون في حالة الحرب.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا. وشبك بين أصابعه)[١].

بالتعاون والتضامن بنى ذو القرنين أعظم سدٍّ في التاريخ.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٣ - ٩٧].

وسئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ فقال: «هو أن تعمل به، وتدعو إليه، وتعين فيه، وتدل عليه»[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله في تلك الآية: «اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق، فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونًا على مرضاة الله وطاعته التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله»[٣].

ثم بين أهمية التعاون على البر والتقوى وأنه من مقاصد اجتماع الناس فقال: «والمقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم هو التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علمًا وعملًا، فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه؛ فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، رقم ٢٣١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٥.

(٢) انظر: حلية الأولياء ٧ / ٢٨٤.

(٣) زاد المهاجر ص٦-٧.

جعل النوع الإنساني قائمًا بعضه ببعضه، معينًا بعضه لبعضه»[1].

وهذا الكلام يدل قطعًا على أن توزيع المهمات لإنجاز الأعمال من التعاون المطلوب، وأن هذا التعاون بين الأفراد ينتقل بعمل كل منهم؛ ليصبح وظيفة عامة اجتماعية تكفل العيش لعدد كبير من المجتمع، فالتعاون بين الأفراد وتقسيم العمل ظاهرتان ملازمتان للإنسان، ولا غنى له عنهما، وأن تعاون المجموعة لا ينتج ما يكفيهم فقط، وإنما يزيد ويفيض.

وهذا كلام عام في الأمور الدينية والدنيوية، فأما بالنسبة للتعاون الشرعي فإن الأسباب الدافعة لدى المسلم للتعاون على البر والتقوى والمشاركة في الخير عديدة، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فلقد كان يشارك أصحابه مشاركة فعالة في السلم والحرب، فعن سهل ابن سعدٍ الساعدي رضي الله عنه: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق وهو يحفر ونحن ننقل التراب، ويمر بنا فقال: اللهم لا عيش إلا عيش الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره)[2].

فالتعاون من أصول البناء والتواصل الحضاري بين الأفراد وبين الأمم والشعوب.

ومن أبرز صور التعاون في المجتمع المسلم الأول: ما في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (تزوجني الزبير رضي الله عنه وما له في الأرض من مالٍ ولا مملوكٍ ولا شيءٍ غير ناضحٍ وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جاراتٌ لي من الأنصار وكن نسوة صدقٍ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخٍ، فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني ثم قال: (إخ إخ)؛ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أني قد استحييت فمضى، فجئت الزبير، فقلت: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسي النوى ومعه نفرٌ من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك. فقال: والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكرٍ بعد ذلك بخادمٍ يكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني)[3].

(١) المصدر السابق ص ١٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم ٦٠٥١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح،

وفي هذا الحديث دليل على ما تحلى به هذا المجتمع النبوي من تراحم وتعاطف وتعاون وتكافل، فالمرأة تقف بجوار زوجها تساعده في حقله، والرجل يساعد المرأة في شئون البيت، والجارة تكفي جارتها بعض الأعمال، والمجتمع يقف مع المرأة، ويمد لها يد العون، ويراعي ما جبلت عليه من حياءٍ وخجلٍ، والمرأة تراعي مشاعر زوجها، والرجل يشفق على زوجته، والأب يتفقد أحوال ابنته المتزوجة، ويسعى إلى التخفيف عنها ما أمكنه ذلك، نماذج رائعة تتجلى لنا من خلال هذا الحديث: الزوجة الصالحة التي تبذل ما في وسعها؛ لرعاية زوجها وبيتها، وتتجشم الصعاب وتواجه الأعباء بصبرٍ ورضا، فتكافح مع زوجها، وتعمل في البيت والحقل أعمالًا ليست باليسيرة، لكنها تصبر وتحتسب، والجيران الصادقون المتعاونون، وللتعاون بين الجيران أثرٌ عظيم في تخفيف الأعباء وتذليل الصعوبات، والمجتمع الذي تسوده المروءة والشهامة، فيساند البيت المسلم ويدعمه، ويرعاه ويصونه، والزوج الغيور المشفق على أهل بيته، والأب الذي لم تنته مهمته مع ابنته بزواجها، بل يتفقد أحوالها ويسعى لتوفير سبل الراحة لها، وفي هذا الجو الإيماني وجدت المرأة الأمن والأمان، والسعادة والطمأنينة، والحب الصادق: بيت صالح، وزوج كريم، وأب حنون، وجيران صدق، ومجتمع متراحم متعاطف، يا لها من سعادةٍ غامرةٍ وحياةٍ طيبة وإن كانت صعبةً!

٨. مجتمع متناصح.

بذل النصيحة وتبادلها من سمات المجتمع المسلم، ومن مقومات الأمة المسلمة، ومن أسباب بقائها وخيريتها.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فمن أسمى أوصاف مجتمع الإيمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو سر بقائهم وارتقائهم واستحقاقهم لرحمة الله تعالى التي تغمرهم في دنياهم وتغشاهم في أخراهم.

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

باب الغيرة، ٣/ ٤٠٣، رقم ٤٩٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق، ٤/ ١٧١٦، رقم ٢١٨٢.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وسر التعبير بـ ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ بالماضي الدلالة على ثباتهم ومضيهم في التواصي، والحق هو الأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، ولا زوال في الدارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله[(١)].

ومدار السورة الكريمة حول إصلاح النفس ودعوة الغير، فإصلاح النفس بالإيمان والعمل الصالح، ودعوة الغير بالتواصي بالحق مع التواصي بالصبر.

والتواصي بالحق: التواصي بالسير على هذا المنهج، والمضي فيه، والثبات عليه، هذا المنهج القويم وذلك الطريق المستقيم الذي نهجه الإسلام ودعا إليه.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مقومات خيرية هذه الأمة ومعالم نهضتها وسبقها وتفوقها وتميزها، عن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: فإنا ننقبها في أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعًا، وإن تركوهم غرقوا جميعًا)[(٢)].

وعلى هذه الأسس قام المجتمع المسلم الأول، فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)[(٣)]، وفي رواية لأبي داود: قال: (وكان إذا باع الشيء أو اشتراه قال: أما إن الذى أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناك فاختر)[(٤)].

وعن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الدين النصيحة). قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[(٥)].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم ٥/ ٩٠١، مدارك التنزيل، النسفي ٤/ ٣٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة، ٨/ ٣٩٨، رقم ٢٣٦١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم ٥٧، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة، رقم ٥٦.

(٤) أخرجه أبو داود ٤/ ٤٤٢ رقم ٤٩٤٧، وسنده صحيح.

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم

٩. مجتمع التكافل والتضامن.

يطالب الإسلام كل قادرٍ على العمل أن يعمل، وأن يعان على عمله؛ ليكفي نفسه وأسرته، والناس متفاوتون، فمنهم العاجز الذي لا يقدر على العمل، ومنهم العاطل الذي لا يجد عملًا ولم يبادر المجتمع لتيسير عملٍ مناسبٍ له، وفيهم العاملون الذين لا يكفيهم دخلهم لتحقيق معيشة إنسانية لائقة؛ لقلة الدخل، أو لكثرة العيال، أو لغلاء الأسعار، أو غير ذلك من الأسباب، والإسلام لم يترك هؤلاء للفقر ينهبهم والضياع يشتتهم، بل كفل لهم ما يعينهم على تكاليف الحياة.

قال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

وجعل الإسلام موارد متعددة للفقراء والمساكين.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

واهتم الإسلام بالطبقات الضعيفة في المجتمع، فشرع لهم من الأحكام والوسائل ما يكفل لهم العمل الملائم لكل عاطل، والأجر العادل لكل عامل، والطعام الكافي لكل جائع، والعلاج الكافي لكل مريض، والكساء المناسب لكل عريان، والكفاية التامة لكل محتاج، وتشمل هذه الكفاية: المأكل والملبس والمسكن وكل ما لابد منه على ما يليق بحاله من غير إسراف ولا تبذير ولا تقتير للشخص ومن يعوله[(١)].

عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: (بينما نحن في سفرٍ مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجلٌ على راحلةٍ له، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان معه فضل ظهرٍ فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضلٌ من زادٍ فليعد به على من لا زاد له) فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحدٍ منا في فضلٍ)[(٢)].

(١) انظر: ملامح المجتمع المسلم، القرضاوي ص١٥٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللقطة، ٥٥.

ومن صور التكافل المثمر ما كان بين المهاجرين والأنصار، حيث خرج المسلمون من مكة تاركين تجاراتهم وبيوتهم وهاجروا للمدينة فكان من الأنصار المواساة والتكافل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالت الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم: (اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: (لا)، فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة؟ فقالوا: سمعنا وأطعنا). وفي رواية: قالت الأنصار: (اقسم بيننا وبينهم النخل) وذكره، ولم يذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم[1].

وبهذا وجد كثير من المهاجرين فرصًا للعمل في هذا المجتمع الجديد الذي هاجروا إليه؛ مواساة من إخوانهم من الأنصار.

وحين أسلم سلمان الفارسي -وكان رقيقًا عند يهوديٍ- أمره النبي صلى الله عليه وسلم بأن يكاتب، أي: يسعى لإعتاق نفسه من اليهودي بمال ونحوه، قال سلمان: (فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلةٍ أحييها له بالفقير وبأربعين أوقيةً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (أعينوا أخاكم). فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين وديةً، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشرٍ، يعنى الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائةٍ وديةٍ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فائتني، أكون أنا أضعها بيدي). ففقرت لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معي إليها، فجعلنا نقرب له الودى، ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فوالذي نفس سلمان بيده، ما ماتت منها وديةٌ واحدةٌ، فأديت النخل وبقى علي المال، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهبٍ من بعض المغازي، فقال: (ما فعل الفارسي المكاتب؟) قال: فدعيت له، فقال: (خذ هذه، فأد بها ما عليك يا سلمان). فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: (خذها فإن الله عز وجل سيؤدى بها عنك). قال: فأخذتها، فوزنت لهم منها، والذى نفس سلمان بيده أربعين أوقيةً، فأوفيتهم حقهم، وعتقت. فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق، ثم لم يفتني معه مشهدٌ)[2].

باب استحباب المواساة بفضول المال، ٣/ ١٣٥٤، رقم ١٧٢٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب إذا قال: اكفني مؤنة النخل وغيره، ٣/ ١٠٤، ٢٣٢٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ٤٣٩، رقم ٢٤١٢٣.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٥٦٠.

والإنفاق المثمر في سبيل الله هو ما كان خالصًا لوجه الله تعالى، ويشمل سائر وجوه الخير التي أمر الله بها، وهو أساس التضامن العائلي والاجتماعي البناء، ومن ثماره الطيبة تطوير الإمكانات العلمية والاقتصادية والدفاعية للأمة، فإذا بخل الأفراد في الإنفاق أصاب الأمة الهلاك وطمع بها الأعداء، فليس الإنفاق مقتصرًا على بذل المال، بل يشمل بذل كل ما ينفع المجتمع ويعود عليه بالخير، فهناك من هو بحاجة إلى المال، وهناك من هو بحاجة إلى الهداية والتوجيه الرشيد، وهناك من يفتقر إلى العلم والمعرفة والخبرة، وهناك من يفتقر إلى المساعدة بالجهد العضلي، وغير ذلك من مصالح الضعفاء والفقراء والعاجزين.

١٠. مجتمع متشاور.

للشورى مكانتها في المجتمع المسلم، فهي ركنٌ هامٌ من أركانه، ومقصد كريمٌ من مقاصده، ولها مجالاتها المتعددة في الأمور التي لم يرد فيها نص من كتابٍ أو سنة، أما ما ورد فيه نص فلا مجال للتشاور والاجتهاد فيه؛ لأنه لا اجتهاد مع النص، حيث يقوم أهل الحل والعقد أو أولو الأمر وأهل المسئولية بالاجتماع؛ للنظر في أمر من الأمور التي تهم المسلمين أو طائفة منهم، وتطرح الأفكار على مائدة الحوار، وتتم المناقشة في جو يسوده الود والوئام، والحرص على الحق والصواب، بالوسيلة التي يراها المجتمع والتي لا تخالف شرع الله، ولا تجافي الفطرة، ولا تبدد الأوقات، ولا تعطل الطاقات، ولا تفوت المصالح العامة، ولا تخالف أصلًا شرعيًّا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

فلا ينبغي تقديم قول أو رأي أو أمر على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والمؤمن الصادق هو الذي يمتثل أوامر الله ورسوله، ويجتنب ما نهى عنه الله ورسوله، يفعل ذلك عن إيمان وتسليم ورضا وقبول. والمجتمع المسلم مجتمع الأمن والأمان، والمودة والرحمة، والبر والتقوى، والتعاون والتضامن والتكافل، والتشاور والتناصح. والحاكم المسلم يستشير أهل العلم والخبرة والنصح والرشد، يقول صلى

الله عليه وسلم: (المستشار مؤتمن)[1].

فينبغي أن يتخير الحاكم المسلم من الأمة الإسلامية أفضلهم علمًا، وأحسنهم خلقًا، وأخلصهم نصحًا، حتى يحقق بفضل مشورتهم المخلصة ما فيه الخير والصلاح للعباد والبلاد. وصدق القائل[2]:

إذا كنت في حاجةٍ مرسلًا
فأرسل حكيمًا ولا توصه
وإن خطب أمر عليك التوى
فشاور لبيبًا ولا تعصه

والشورى ضرورة من الضرورات التي لابد منها، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية ما يبين لنا أهمية الشورى وضرورتها في إطار المجتمع الإسلامي.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد نزلت هذه الآية إثر غزوة أحد، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نزل عن رأيه وأخذ برأي الأغلبية من الصحابة، ولم يتحقق النصر المأمول، فقد يكون هذا الحدث ذريعة لاستبداد القائد أو الحاكم برأيه دون أن يلتفت لآراء الجند أو البطانة، فنزلت الآية تؤكد للأمة أن الشورى أساس الحكم وأن الأمة إن خسرت معركة فذلك خير من أن تخسر الأمة شخصيتها ويتحكم فرد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصيرها وإرادتها[3].

فكان نبينا صلى الله عليه وسلم يتشاور مع أهل الرأي السديد من الصحابة، وكان الصاحبان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من أهل مشورته، وكان يقول لهما: (لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما)[4].

وفي قصة الإفك استشار النبي صلى الله عليه وسلم اثنين من أقرب الناس إليه، هما علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهم، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالبٍ وأسامة بن زيدٍ حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في المشورة، رقم ٥١٢٨، ٤/ ٣٣٣، والترمذي في سننه، كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن، رقم ٢٨٢٢، ٥/ ١١٥.
قال الترمذي: حديث حسن.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٣٦، رقم ٦٧٠٠.

(٢) البيتان لصالح بن عبد القدوس.
انظر: بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر ٢/ ٤٥٦.

(٣) انظر: النظام السياسي في الإسلام، محمد أبو فارس ص ٨٥.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٢٢٧.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٥٣: رجاله ثقات إلا أن ابن غنم لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم.

أهله، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم -والله- إلا خيرًا. وأما علي بن أبي طالبٍ فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثيرٌ، وسل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال: (يا بريرة، هل رأيت فيها شيئًا يريبك)، فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرًا أغمصه عليها قط أكثر من أنها جاريةٌ حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله ولقد كان لهذه المشورة ثمرتها، حيث قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعذرني من رجلٍ بلغني أذاه في أهلي، فوالله، ما علمت على أهلي إلا خيرًا)[1].

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[الشورى: ٣٨].

فالشورى نابعةٌ من الاستجابة لأوامر الله، من هذه الركيزة تنطلق، وعطف التشاور على إقامة الصلاة؛ لبيان كون التشاور فريضة شرعية يجب إقامتها كما أن الصلاة شعيرةٌ، وبالتشاور صلاح أمور الدنيا، كما أن الصلاة عماد الدين، والشورى ليست أمرًا شكليًا، أو طقوسًا سياسية، كذا الصلاة ليست عبادة ظاهرية فحسب، بل عبادة قلبية لها ثمراتها التي لا تتحقق إلا بإتقانها، وكذلك الشورى لن تؤتي ثمرتها ما لم تمارس بطريقة صحيحة.

يقول صاحب الظلال: «وهو كما قلنا نص مكي، كان قبل قيام الدولة الإسلامية، فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين، إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد.

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية، والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية.

ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكرًا، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشئون الحكم فيها، إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية، وهي من ألزم صفات القيادة»[2].

وفي السيرة النبوية الكثير من مواقف الشورى، ففي غزوة بدر طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المشورة من الصحابة الكرام حيث قال: (أشيروا علي أيها الناس)،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم ٣٩١٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٣.

وهو يقصد بذلك الأنصار رضي الله عنهم، وقد ثبتوا على الحق وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ونصروا دعوة الله.

وقال الحباب بن المنذر: (يا رسول الله، أمنزلٌ أنزلكه الله أم هي الحرب والرأي والمكيدة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل هي الحرب والرأي والمكيدة)، فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال صلى الله عليه وسلم: (لقد أشرت بالرأي)[1].

ولقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة الكرام في شأن أسرى بدر[2]، فأشار عمر بقتلهم، وأشار أبو بكر بقبول الفداء منهم، وكان هذا قبل نزول قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وفي غزوة الخندق أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي سلمان الفارسي بحفر الخندق[3].

وفي صلح الحديبية عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح دون أن يدخل مكة، فشق ذلك على الصحابة الذين كانت قلوبهم تهفو وتتشوق إلى زيارة بيت الله الحرام، وكان للصلح حكمه البالغة التي ظهرت فيما بعد، ومن ذلك أنه كان فرصة عظيمة لنشر الدعوة الإسلامية في ربوع الجزيرة العربية، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام أن يقوموا فينحروا ويتحللوا من الإحرام، فلم يبادر منهم أحد، فأعادها ثلاث مرات، فلم يبادر منهم أحد!! فذكر ذلك لأم سلمة، وكانت معه، فأشارت عليه برأيٍ سديد، قالت: يا نبي الله، اخرج إليهم ولا تكلم أحدًا منهم بكلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكلم منهم أحدًا حتى فعل ذلك، نحر بدنه وحلق، فلما رأى الصحابة الكرام ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا[4].

وهناك أمثلة كثيرة في السيرة النبوية وفي التاريخ الإسلامي تبين لنا كيف طبق المسلمون مبدأ الشورى تطبيقًا عمليًا، فاجتمعت كلمتهم، وطابت نفوسهم، وتحقق العدل بينهم، وفاضت بينهم روح المودة والمحبة والإخلاص والتضحية والولاء والانتماء، وكان الترابط التام والانسجام بين المحكومين والحكام.

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٦٥٢.
(٢) المصدر السابق ١/ ٧١٨.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٢٥.
(٤) انظر: الروض الأنف، السهيلي ٤/ ٣٧.

١١. مجتمع متحرر.

المجتمع المسلم مجتمع متحرر من كل قيدٍ أو رقٍ يحول دون انطلاقه نحو المعالي، أو يكبل إرادته ويثبط عزيمته ويثقل كاهله، فالحرية في الإسلام تحررٌ من الأهواء وتحررٌ من الأباطيل والخرافات، وتحررٌ من التقليد والتبعية إلا للحق وأهله، والحرية في الإسلام تعني طهارة القلب وإخلاصه لله تعالى.

وقد وردت في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

أي: خالصًا لوجهك، مخلصًا لطاعتك وعبادتك، عن مجاهد قال: «إن المحرر هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى»[(١)].

وفي هذا منقبةٌ لمريم حيث نذرتها أمها خالصة للعبادة، فكأنما حررت من أسر الدنيا وقيودها[(٢)].

وفي هذا بيان للمفهوم الصحيح للتحرر أنه التجرد لله تعالى من كل الأهواء، والتحرر من كل قيدٍ يحول بين العبد وبين ربه.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ قال: «هو المشرك تتنازعه الشياطين، لا يقربه بعضهم لبعض»، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ قال: «هذا المؤمن أخلص لله الدعوة والعبادة»[(٣)].

لا يمكن للعبد أن يوفي حق سيدين في وقتٍ واحد، هذا يأمره بأمر وذاك يأمره بأمرٍ آخر، فيجد نفسه ممزقةً بين سيدين، يستحيل أن يلبي لهما في حين واحدٍ، فيعجز ويتوانى، أما الذي له سيدٌ واحدٌ يلبي مطالبه ويستجيب لأوامره، فذلك مثل المؤمن الموحد، تحرر قلبه لمعبودٍ واحد فلا ينازعه أحدٌ، وتعلق قلبه ورجاؤه بإله واحد، فيحيا صافي الذهن صالح البال، بخلاف من فيه شركاء متشاكسون، هذا يأمر وذاك ينهى، فإنه يعيش مشتتًا بينهما، رضا أحدها يثير سخط الآخر، فلا يجتمع قلبه لمعبودين.

«إن أعظم ما دمر حرية الإنسان وأتى على بنيانها من القواعد اتخاذ بعض الناس بعضًا أربابًا من دون الله، ولكي يسترد الناس حريتهم وكرامتهم يجب تحطيم هؤلاء الأرباب الأدعياء والآلهة المزيفين،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٦٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٨٥، الدر المنثور، السيوطي ١٢/ ٦٥٤.

خصوصًا في أنفس الذين توهموهم أربابًا حقًا وهم مخلوقون مثلهم، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولقد وعى مشركو العرب هذه الحقيقة منذ دعا النبي صلى الله عليه وسلم من أول يوم إلى التوحيد، وعلموا أن وراء هذه الكلمة -لا إله إلا الله- انقلابًا في الحياة الاجتماعية والسياسية، وأنها تؤذن بميلاد جديد للبشرية، ولاسيما الفقراء والمساكين والمسحوقين، فلا غرو أن وقفوا في وجهها وجندوا كل قواهم لحرب كل من آمن بها واستجاب لندائها»[1].

كما تعني الحرية في مفهومها الأصيل العزة والإباء والكرامة والعفاف، عندما بايع النبي صلى الله عليه وسلم النساء في مكة وكان من بينهن هند بنت عتبة رضي الله عنها وتلا عليهن أركان البيعة فلما وصل إلى قوله: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾[الممتحنة: ١٢] قالت هند قولتها الشهيرة: وهل تزني الحرة؟![2].

وفي مقالة هند: وهل تزني الحرة؟! مغزى ومعنًى عظيم، ودرس لدعاة التحرير في عصرنا، فالحرية بمفهوم الجاهلية أنقى وأطهر من الحرية بالمفهوم الغربي المعاصر، الحرية قديمًا تعني الشرف والأصالة والنبل والطهارة والعفة والكرامة، أما الحرية بمفهومها الغربي والذي يجدون في تصديره إلينا فتعني التحرر من القيم الأصيلة والأخلاق النبيلة والتمرغ في مستنقعات الخنا وأوحال الرذيلة باسم التحرر، فكلمة أنا حرة عندهم تعني أنه لا سلطان لأحد عليها ولا ولاية ولا قوامة، فهي ولية نفسها تصنع ما يحلو لها، وتصبو وراء نزواتها ورغباتها الجامحة.

لكن هندًا رضي الله عنها وهي التي عاشت عفيفةً شريفةً في جاهليتها وإسلامها تجلي لنا المفهوم الحقيقي للحرية، الحرية التي تسمو بنا وتحلق إلى أجواء الطهر وآفاق الفضيلة، لا الحرية التي تهوي بمدعيها إلى الحضيض.

في مقابل ذلك يكفل الإسلام لغير المسلم حرية العقيدة والعبادة، فلا يكرهون على الدخول في دين الإسلام.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٥٦].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٩٩].

فمن حق غير المسلم أن يمارس شعائر دينه دون تضييق عليه أو تقييد لحريته،

(١) ملامح المجتمع المسلم، القرضاوي ص ١٣٥.

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٨/ ٩.

ومن ثم فإن حماية دور العبادة من مسئولية المجتمع المسلم، وشرع الجهاد في الإسلام لأهداف، أهمها حماية ذلك المجتمع بكل مكوناته وطوائفه.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

فالقتال مشروع لحماية الحريات، وتمكين المسلم وغير المسلم من أداء شعائر دينه، وحماية المساجد والكنائس والبيع والصوامع؛ ليعيش الجميع داخل المجتمع المسلم في أمان، وينعم الجميع بالحرية.

«فالإسلام لا يريد حرية العبادة لأتباعه وحدهم، إنما يقرر هذا الحق لأصحاب الديانات المخالفة، ويكلف المسلمين أن يدافعوا عن هذا الحق للجميع، ويأذن لهم في القتال تحت هذه الراية راية ضمان حرية العبادة لجميع المتدينين، وبذلك يحقق أنه نظام عالمي حر، يستطيع الجميع أن يعيشوا في ظله آمنين، متمتعين بحرياتهم الدينية على قدم المساواة مع المسلمين وبحماية المسلمين»[1].

والإسلام لا يرضى لأتباعه حياة الذل والخنوع، بل يدعوهم إلى التنعم بالعيش الكريم، والترفل برداء العز والإباء، وينهاهم عن الاستكانة والهوان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧ - ١٠٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي

(١) نحو مجتمع إسلامي، سيد قطب ص ١٠٦.

أَنفُسِهِمْ﴾[1].

«إن المجتمع الإسلامي مجتمع حر من خلال إقراره بالعبودية لله وحده دون شريك، حر وهو يشارك بالرأي في تسيير أموره، حر وهو يتعفف عن قول الزور أو القول على الله بغير علم، حر وهو يدافع عن حرية الآخرين، حر وهو يبدي رأيه بأدب حتى مع مخالفيه في الرأي أو العقيدة، حر وهو يستمتع بخيرات الله دون مساس بحقوق الآخرين، حر وهو يحرر النفس من الهوى، والإنسان في الإسلام حر بكل ما تعنيه الكلمة، لا يسيطر عليه طاغوت، ولا تستعبده شهوة، ولا تتحكم فيه لذة أو متاع أو عرض زائل»[2].

١٢. مجتمع مسالم.

الأصل في الإسلام هو السلم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

فالسلم هنا يشمل السلم داخل المجتمع المسلم وخارجه، السلم بين المسلمين ومع غيرهم، فلا يقاتل غير المسلم إلا إذا نكث العهد أو اعتدى أو صادر الحريات أو حال دون وصول رسالة الإسلام وبلوغ دعوته أو نبذ أو خان وغدر.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

«إذن فالجماعة المسلمة مسالمة مع نفسها، لا تعرف الصراع الذي يؤدي إلى التنازع، ولا تعرف التنافس الذي يقود إلى الأنانية والظلم، وإنما يعيش أعضاؤها في سلام وحب وتعاون على الخير والمعروف، ولعل التنافس الوحيد بين أعضائها وبين غيرها من الجماعات هو ذلك التنافس في طاعة الله وفي العمل الصالح، ومسالمة مع غيرها من الجماعات التي لا تدين بالإسلام، ولكنها ترد العدوان الواقع عليها بغير ظلم»[3].

ولقد نهى الإسلام عن كل ما يعكر صفو المجتمع ويهدد سلامه من التنازع والمشاحنة والقطيعة.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النساء، رقم ٤٣٢٠.

(٢) علم الاجتماع الإسلامي التصوير القرآني للمجتمع، صلاح فوال ١ / ١١٩.

(٣) المصدر السابق ١/ ٧٣.

﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

ولقد أحاط الإسلام هذا المجتمع بسياج من التشريعات والحدود والآداب، تكفل أمن المجتمع، وينعم أفراده بالأمن والسلام.

١٣. مجتمع التنافس.

يصور البعض الحياة على أنها صراعٌ دائمٌ وعراكٌ مستمر، صراع بين الإنسان والبيئة، دور الإنسان في البيئة أن يقهر الطبيعة، ويسيطر عليها، وينهكها ويستفرغ خيراتها، ولو أدى الأمر إلى تلويثها وفقدانها توازنها، وصراع آخر بين الإنسان والإنسان بين الأمم والشعوب على السيادة والهيمنة والقهر والغلبة والتفوق، مع ما يجره هذا الصراع -غالبًا- من مواجهات دامية ومعارك حامية بين الدول المتصارعة، وما يصيب الشعوب جراء طموحات بعض الحكام والقادة من كدٍ وعناءٍ، وجراحٍ وآلامٍ، ولهثٍ وراء أطماع القادة والحكام وأحقادهم، على حساب الأفراد والأسر التي تشقى بالحروب التي تذكيها الأنانية والأثرة وحب التسلط وشهوة التملك، جاهلين حكمة الله تعالى ومشيئته في خلقه وأقداره وشرعته.

حتى العلاقة بين الرجل والمرأة صارت عندهم صراعًا دائمًا على الكراسي والمناصب والحقائب، حتى غدت الحياة صراعات لا يخمد أوارها، ولكن الإسلام دين المحبة والوئام، دين التعاون والتضامن، يغلق أبواب الصراع ويفتح أبواب التنافس إلى الخيرات، والتسابق إلى المغفرة والجنات، والتعاون على البر والتقوى، مضمار فسيح وميدان رحيب يتسع للجميع.

ونحن لا ننفي وجود الصراع في هذا الكون، لكنه ليس القاعدة التي نبني عليها علاقاتنا وتعاملاتنا في هذا الكون، بل التنافس المحمود هو الذي يذكي شعلة الجد والعمل، ويثير العقول، ويحفز الهمم نحو المعالي.

قال تعالى -في سياق بيان نعيم الجنة-:

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال تعالى عن آل زكريا عليهم السلام: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون: ٦١].

أي: في ميدان التسارع في أفعال الخير،

همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به أو سنحت لهم الفرصة إليه انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسوهم. ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره وقد لا يسبق لتقصيره أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال: ﴿وَهُمْ لَهَا﴾[المؤمنون: ٦١]، أي: للخيرات ﴿سَٰبِقُونَ﴾[المؤمنون: ٦١] قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة أنهم سابقون»[(١)].

وذكر تعالى من مآثر مؤمني أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران: ١١٤].

وأمرنا تعالى باستباق الخيرات فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ١٤٨].

وبين تعالى أن ميدان التنافس ومضمار التسابق مفتوحٌ للجميع، وأن الجائزة الكبرى جنات واسعة تتسع لكل المسارعين للخيرات.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[الواقعة: ١٠-١١].

فالسابقون هم الذين يتسابقون في الدنيا إلى الخيرات حتى يسبقوا في الآخرة إلى الجنات.

وهذا المتسابق هو صاحب الهمة العالية الذي يسعى؛ ليكون أول المتسابقين للرقي لمعالي الأمور في الدنيا والآخرة، ولا يعني التنافس التحاسد والشقاق والعراك على دنيا زائلة، ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: (كل مخموم القلب صدوق اللسان). قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟! قال: (هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد)[(٢)].

وفي الحديث: (أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم! ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، ٢/ ١٤٠٩، رقم ٤٢١٦. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٦٣٢، رقم ٩٤٨.

وتهلككم كما أهلكتهم)[1].

١٤. مجتمع عامل.

المجتمع المسلم مجتمع عامل، لا يعرف الكسل أو الخمول، ولا يعرف البطالة والاتكال، بل مجتمع عامل، العمل الصالح فيه قرينٌ للإيمان لا ينفك عنه ولا يفارقه، وتوفير فرص العمل وإعداد الأيدي العاملة الماهرة مسئولية المجتمع والدولة.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فدعا الإسلام لكل عملٍ نافعٍ جادٍّ، ودعا لمراقبة الله تعالى فيه بإتقانه وإحسانه، وسماء المجتمع الإسلامي معطرة بعبق الإيمان الفواح، وعبيره الشذي، ونفحات الأعمال الصالحات، ونسائم الكلم الطيب الذي يملأ الأرجاء مسكًا وعنبرًا، ويشهد الأكوان على صلاح واستقامة أهل الإيمان، وأحقيتهم في قيادة موكب الإنسانية والإبحار بسفينتها إلى بر الأمان وضفاف السعادة: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر: ١٠].

ولقد عالج الإسلام مشكلة البطالة، ودعا للعمل الذي يجلب الرزق الحلال الطيب، ورفع من شأن كل مهنةٍ نافعة، فقد سخر الله الناس بعضهم لبعض، والمهن يكمل بعضها بعضًا، ولا يمكن الاستغناء عن أي حرفة أو صنعةٍ مفيدةٍ.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وهذا نبي الله موسى عليه السلام وقد تربى في قصر فرعون، وفر من حاضرة مصر ميممًا وجهه نحو البادية؛ ليعمل أجيرًا للشيخ الكبير، يرعى الغنم، ويأكل من كسب يده، وما من نبي من الأنبياء إلا وعمل وأكل من كسب يده، فالأنبياء هم قادة المجتمعات وروادها وقدوة الناس.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[القصص: ٢٦-٢٨].

وحين رأي النبي صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم ٦٠٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، رقم ٢٩٦١.

رجلًا يسأل الناس فيعيش على صدقاتهم دون أن يقدم للمجتمع عملًا صالحًا أعطاه درسًا مهمًّا حوله من عالة على المجتمع إلى صاحب مهنة يقتات منها وينفع به مجتمعه، فعن أنس بن مالكٍ (أن رجلًا من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله فقال: (أما في بيتك شيءٌ)؟ قال: بلى، حلسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعبٌ نشرب فيه من الماء. قال: (ائتني بهما). فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال: (من يشترى هذين)؟ قال رجلٌ: أنا آخذهما بدرهم. قال: (من يزيد على درهمٍ)؟ مرتين أو ثلاثًا. قال رجلٌ: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: (اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدومًا فأتني به). فأتاه به، فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عودًا بيده ثم قال له: (اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يومًا)، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا وببعضها طعامًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا خيرٌ لك من أن تجيء المسألة نكتةً في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثةٍ: لذي فقرٍ مدقعٍ، أو لذي غرمٍ مفظعٍ، أو لذي دمٍ موجعٍ)[1].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، رقم ١٦٤٣، وابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب بيع المزايدة، ٢/ ٧٤٠، رقم ٢١٩٨.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٢٥٦، رقم ١٧٨٠.

التحديات التي تواجه المجتمع المسلم

يواجه المجتمع المسلم مجموعة تحديات، منها:

أولًا: الفقر:

تعيش الغالبية الكاثرة من المجتمعات المسلمة تحت خط الفقر، بما يؤثر سلبًا على حياتهم، ويحرم الكثير من حد الكفاف، ويجعل الأسر عاجزة عن تلبية ضرورات الحياة ومطالب الأبناء، فيقف الفقر حجر عثرة أمام التعليم والنهوض والارتقاء، من هنا تتجلى نعمة الاستغناء، ولقد امتن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أغناه. قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨].

كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم يستعيذ كثيرًا من الفقر، فعن مسلم بن أبي بكرة، عن أبيه رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، وعذاب القبر)[2].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/ ١٧، رقم ٢٠٣٨١، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ٤/ ٤٨٤، رقم ٥٠٩٢.

وقد دعا القرآن الكريم إلى السعي في كسب العيش والأخذ بالأسباب المعينة على ذلك.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك: ١٥].

وهيأ الله عز وجل الحياة لطلب العيش ويسر لذلك السبل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وما على العبد إلا أن يسير ويسلك السبل، ويطرق أبواب الرزق. وسعى الإسلام إلى تقليص الفجوة بين الأغنياء والفقراء، فإن الغنى الفاحش يقابله فقر مدقع، كما هو الحال الآن في ظل النظام الرأسمالي المجحف المبني على الجشع والاستغلال، والقهر والإذلال، والتحرر من كل القيم الإنسانية والأخلاق والآداب الكريمة.

قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الحشر: ٧].

وصححه الألباني في الإرواء ٣/ ٣٥٦.

حتى لا يكون المال حكرًا على الأغنياء يتداولونه وحدهم فيما بينهم، ويستأثرون بالمغانم دون الفقراء والمساكين، كما كان في الجاهلية وكما هو الحال في ظل النظم الجاهلية الوضعية، فكم ينتج عنه من مفاسد وشرور وأحقاد وضغائن! بل يجب أن يدور المال دورته الطبيعية كما تدور الدماء في الجسم، حيث يضخه القلب فيصل إلى كل شريان وعرقٍ وخليةٍ وعضوٍ بقدر حاجته.

ثانيًا: الجهل:

الجهل داء عضال وخطر داهم وآفةٌ مهلكةٌ؛ فالجاهل لا يميز بين الغث والسمين، ولا يفرق بين المنكر والمعروف، وشفاء الجهل طلب العلم والعمل به، علم الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦-٧].

فمن مظاهر الجهل الغفلة عن السنن الربانية التي تضيء معرفتها للمسلم طريقه، وتزيده وعيًا وحكمةً وبصيرة، والجهل يورث الفقر، ويفضي إلى التأخر والتخلف عن ركب الحضارة، كما يؤدي إلى الوقوع في المنكرات، والخلط بين المفاهيم، واختلال موازين القيم، حتى يرى الجاهل

الحسن قبيحًا والقبيح حسنًا.

تدبر في حال قوم نوح عليه السلام ومقالتهم وجوابه على مزاعمهم بما يفند جهلهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[هود: ٢٥-٢٩].

فالجهل يؤدي إلى اختلاط المفاهيم وانقلاب الموازين وانحراف المعايير حتى يقيس الأمور بغير مقياسها، فقد اعترضوا على بشرية الرسول مع عبادتهم لأحجارٍ من دون الواحد القهار، واعترضوا على اتباع نوحٍ وطعنوا في دعوته بحجة أنه لم يستجب له إلا الضعفاء، وتلك سنة الدعوات أن أول من يلبي نداءها الفقراء والعبيد والضعفاء لما يعقدونه من آمال في التحرر، بينما ينصرف عنها كثير من الأغنياء والأقوياء، يصدهم غرورهم ويمنعهم كبرهم وتجبرهم وحرصهم على المال والجاه.

والجهل يفضي إلى الوقوع في المنكرات والضلالات كما وقع لقوم لوط.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[النمل: ٥٤-٥٥].

وصفهم بالجهل وهو الطيش والسفه الذي يدفع صاحبه إلى ارتكاب المنكر، دون إدراكٍ لأخطاره أو تحسبٍ لأضراره، كذلك الجهل المنافي للعلم؛ إذ لا يفعل هذه الموبقات إلا الجهال بخطرها وعاقبتها، أو نفى العلم عنهم وإن علموا بقبحها وسوء عاقبتها؛ لأن علمهم لم ينفعهم ولم يدفعهم عن هذا الجرم، فأضحى لا قيمة له، فهو بمثابة الجهل، والتعبير بالفعل المضارع مع مناسبته للفاصلة فيه دلالة على مضيهم في جهلهم وإصرارهم عليه، حتى إن الأيام لا تزيدهم إلا جهالة وضحالة، فهم في انحطاطٍ وتردٍّ.

وكما حدث لبني إسرائيل عندما نجاهم الله تعالى من فرعون وجنوده فقال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

أي «تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل»[1]؛ «إذ لا يقول هذا القول في الله إلا من جهل قدر الله، ولم يعرف ما لله من كمال وجلال»[2].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ومع كثرة وسائل المعرفة وتقدمها بما يسهل سبل تحصيل العلم والمعرفة إلا أن هذه التقنيات لا تزيد كثيرًا من الناس إلا جهالة وسفهًا؛ نظرا لغواية وكيد القائمين عليها المهيمنين على وسائل الاتصال والمعرفة، مما ينعكس سوءًا على أفكار الناس وسلوكهم، فضلًا عن انتشار الجهل المركب بين حملة الشهادات العالية وبين من يدعي الثقافة، فترى جهلًا جهولًا في كلامهم وأحكامهم، ناهيك عن سلوكهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكم أحدٌ بعدي، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا) الحديث[3].

ثالثًا: الأمراض:

مما يترتب على الجهل والفقر كثرة الأمراض وانتشار الأوبئة، وفي عصرنا هذا مع التقدم في مجال الطب وكثرة كليات الطب والمستشفيات إلا أن ثمة أمراضاً منتشرة في المجتمعات الإسلامية بسبب سوء التغذية والتلوث البيئي والقصور في الجانب الوقائي، وغياب الوعي، والتقصير في جانب التربية مما يؤدي إلى الإهمال والفوضى والغش ويساهم في انتشار الأوبئة، وغير ذلك مما يرجع إلى تعطيل شرائع الإسلام التي جاءت بالخير والإحسان والعافية.

ولقد جاء القرآن بما فيه شفاء الأرواح والأبدان، وكذلك السنة النبوية استخلص منهما العلماء والحكماء معاجم للطب والدواء، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد أشار القرآن إلى ضرورة التوقي بالنظافة والتغذية المفيدة، وتحري الأدوية الناجعة، ونوه بكثير من الأطعمة النافعة، وأشار إلى جملة منها كعسل النحل.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٤٧٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل، رقم ٨١.

﴿مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

وكل شرائع الإسلام من وضوء وغسلٍ وصلاة وصيام وحج وزكاة وذكر ودعاء فيها الشفاء والعافية للأبدان والأرواح، وللأفراد والمجتمعات، كذلك حرم الشرع كل ما فيه ضرر أو خطر على صحة الإنسان كالخمر ولحم الخنزير والدم المسفوح وغيرها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وأغلب ورود كلمة مرض في القرآن في مرض القلوب وسقم النفوس وتلبسها بالشبهات وتعلقها بالشهوات، ولقد شخص القرآن أمراض القلوب، وبين أعراضها ومخاطرها، وشرع الوقاية من تلك الآفات.

قال تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣].

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠].

والمتأمل في هذه الآيات يقف على جملة من أعراض أمراض القلوب وأخطارها:

- فمريض القلب لا يسلم بحقيقة مرضه غالبًا ولا يسعى للنجعة منه.
- ومرضى القلوب لا يزيدهم الدواء الناجع إلا مرضًا على مرض؛ لفساد ذوقهم وعمى بصيرتهم.
- ومريض القلب جبانٌ رعديدٌ عند الأهوال والمصاعب، يثير الهلع فيمن

حوله، فيزيد البلية.

- ومرض القلب بالشبهات، أي: بالشكوك والأوهام، وبالشهوات التي تتأجج في صدره.

ولاشك أن خراب الذمم وفساد الضمائر من أسباب الفساد الاجتماعي والبيئي والصحي، ويحضرنا في هذا السياق قوله تعالى في ذم النفاق وأصحابه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[البقرة:٢٠٤-٢٠٦].

عن مجاهدٍ قيل له: «يا أبا الحجاج، وكيف هلاك الحرث والنسل؟ قال: يلي في الأرض فيعمل فيها بالعدوان والظلم، فيحبس بذلك القطر من السماء، فيهلك بحبس القطر الحرث والنسل»[1].

رابعًا: التعصب:

التعصب داء مقيت ينتشر بين الجهال وأصحاب البدع والأهواء، الذين يتعصبون لأهوائهم ويتشبثون بجهلهم، فيجعلون من التعصب غشاوة على أبصارهم تحجب عنهم نور الهدى، وتراهم يعشقون الباطل ويبغضون الحق وإن لاحت لهم أعلامه وظهرت حججه، فالتعصب مزلة الأقدام، ومظنة الجمود والأوهام، ومدعاة إلى الظنون وتتبع العثرات، وقائدٌ إلى سوء الظن والريبة في غير موضعها، والنفور من أهل العلم والجهالة والتسرع في الأحكام، وتمزق المجتمع.

وشفاء التعصب التجرد للحق، وتحري الصواب، والتثبت في الخبر.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[سبأ:٤٦].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

ونبذ الأهواء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

فواجب المؤمن أن يذود عن حمى العدل، ولا يجنح إلى هوى، ولا يتعصب لقرابةٍ أو لغيرها من روابط على حساب العدالة.

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٠.

وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

فلا ينبغي للحكم أن يتسرع في إصدار الأحكام، بل يتروى ويتريث حتى يضع الأمور في نصابها.

يقول الإمام الغزالي: «إن التعصب من آفات علماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والتهم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم»[1].

خامسًا: التطرف:

هو الوقوع في حافة الإفراط أو التفريط، ويقابله التوسط وهو الاعتدال، وفي مجتمعاتنا تجد من يتحرر من أحكام الشرع ويتحلل منها، في مقابل من يغالي أو يتشدد، ولقد دعا الإسلام إلى التوسط والتوازن في أمور الدين والدنيا.

قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

كما دعا إلى الاعتدال في النفقة، فلا إسراف ولا تقتير ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقد ابتليت المجتمعات المسلمة ببعض المتشددين في أمور الدين المتنطعين، كما ابتليت بالمارقين عن دينهم المتساهلين في أحكامه المقصرين في شرائعه.

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: (جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها؛ فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر -أو غفر الله- له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا! وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا! فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: (أنتم الذين قلتم كذا

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٤٠.

وكذا! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء! فمن رغب عن سنتي فليس مني)[1].

في مقابل ذلك فلابد من الجد والسبق إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، دون توانٍ أو تقاعسٍ، فقد قال تعالى ليحيى عليه السلام وهو في ريعان الصبا: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾[مريم:١٢].

أي: بجدٍ وحرص ومواظبة واجتهاد، وتمسكٍ بما فيه من أحكامٍ وإرشاد، فلا يضعف ولا يتراجع ولا يتقاعس عن رسالته ودعوته التي وكل بها، وامتدح الله أهل الكتاب بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٧٠].

والتشديد في الفعل يدل على بلوغ الغاية في حسن التمسك وشدة الحرص وقوة العزيمة في الأخذ بالكتاب، فلا تهاون ولا تفريط.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

فكما تتوق النفوس إلى معالي الرتب الدنيوية وإلى تحقيق الأفضل وإحراز الأحسن في أمور الدنيا، فالمؤمن همته للآخرة همةٌ عاليةٌ ونفسه لنعيمها تواقة وروحه لها وثابة.

سادسًا: كيد الأعداء:

الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الله تعالى، والعداء للحق حقيقة لاشك فيها، فمنذ أن صدع النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة ربه وأعداء الإسلام يسعون إلى إضعاف المسلمين وبث بذور الفرقة بينهم، كما يسعون إلى صرفهم عن دينهم وشغلهم عن كتاب ربهم وتعطيل شريعة الإسلام، ولقد كشف القرآن عن أعداء الإسلام وبين مكائدهم وحذر من حيلهم وأساليبهم.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾[النساء:٤٤-٤٥].

وعن عداوة اليهود لنا قال سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[المائدة:٨٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٤٧٧٦، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم ١٤٠١.

فقد رأينا ولا زلنا نرى صورًا ومشاهد من عداوتهم للمسلمين وكيدهم بالمؤمنين.

وعن مخاطر المنافقين وعداوتهم ومكرهم أسهب القرآن في ذلك، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية من ذم النفاق والمنافقين، من ذلك سورة المنافقين التي يقول الله فيها: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المنافقون:٤].

كما بين القرآن سبل الوقاية من مكائد الأعداء كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران: ١٢٠].

قال ابن كثير: «يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[(١)].

سابعًا: فتن الشبهات:

يسعى أعداء الإسلام جاهدين إلى تشكيك المسلمين وصرفهم عن دينهم، بإثارة غبار الشبهات.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة:٢١٧].

فمنذ أن بزغ فجر الإسلام والمعركة بين الحق والباطل لم تتوقف، وجنود الباطل لم يكفوا عن زخرفتهم للأباطيل وإثارة غبار الشبه على صفحة الحق.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام:١١٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[الفرقان:٣١].

ولهذه الشبه أخطار داهمة على المجتمعات المسلمة، ولاسيما مع انتشار الجهل وانحسار العلم وتمكن أعداء الدين وأدعيائه من وسائل الإعلام والتأثير وصناعة القرار، فكان لهذا أثرٌ سيئ على المجتمعات المسلمة، يحتاج إلى جهدٍ جهيدٍ لمجابهته والتخلص من تبعاته.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٠.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: (كنا عند عمر رضي الله عنه فقال: أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن؟ فقال قومٌ: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التى تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم. فقلت: أنا. قال: أنت لله أبوك. قال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلبٍ أشربها نكت فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلبٍ أنكرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه). قال حذيفة: وحدثته أن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك أن يكسر. قال عمر: أكسرًا لا أبا لك؟! فلو أنه فتح لعله كان يعاد. قلت: لا بل يكسر. وحدثته أن ذلك الباب رجلٌ يقتل أو يموت. حديثًا ليس بالأغاليط). قال أبو خالدٍ: «فقلت لسعدٍ: يا أبا مالكٍ، ما أسود مربادا؟ قال: شدة البياض فى سوادٍ. قال: قلت: فما الكوز مجخيًا؟ قال: منكوسًا»[1].

ثامنًا: فتن الشهوات:

الاستغراق في الشهوات سبيل من سبل الغواية والضلال، وسلاح الشهوات سلاح شيطاني يتصيد به من وقع في حبائله.

والشهوات خلقها الله تعالى لابتلاء العباد ولتستقيم الحياة.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد والبلاء أعظم، وحذر من الافتتان بهن بما يصد المؤمن عن واجباته الشرعية، أو يحمله على الوقوع في المحظورات من أجل إرواء شهوة، والاعتدال في هذا هو المحمود، قال ابن كثير رحمه الله: «فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه»[2].

والناس من جهة الشهوات قسمان: «قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، رقم ١٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٢.

أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادًا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها، وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانًا لعباده؛ ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقًا يتزودون منها لآخرتهم، ويتمتعون بما يتمتعون بها على وجه الاستعانة بها على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فجعلوها معبرًا إلى الدار الآخرة، ومتجرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربهم»[1].

ولقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من خطوات الشيطان التي يسعى من خلالها إلى الإفساد والإغواء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور: ٢١].

«ووقوع هذه الآية بعد الآيات العشر التي في قضية الإفك مشيرة إلى أن ما تضمنته تلك الآيات من المناهي وظنون السوء ومحبة شيوع الفاحشة كله من وساوس الشيطان»[2].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: «ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يسعى هو وجنده في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء، أمارة به، والنقص مستولٍ على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلي وهذه الدواعي ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات»[3].

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ قال: «ما اهتدى أحد من الخلائق لشيء من الخير»[4].

كما نهى الإسلام عن كل ما يثير الغرائز ويضرم نار الشهوات، فتستعر في غير محلها وتتوقد في غير حلها.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٤٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٣.

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ١٠/ ٦٨٨، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣٠-٣١].

وقال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢-٣٤].

وشرع الإسلام الحدود زواجر وكفارات لمن وقع في الخنا.

قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النور: ١-٢].

ولقد استغل أعداء الإسلام هذا السلاح الإبليسي في إضعاف أمة الإسلام والسيطرة عليها، فجهدوا في إغراق المسلمين في بحار الشهوات المتلاطمة.

فتحت شعار الحرية دفعوا المرأة إلى التحرر من القيم والأخلاق وخلع الحجاب، وتحت شعار المساواة زجوا بها في شتى ميادين العمل؛ لتزاحم الرجال، وتختلط وتخلو وتسافر بدون محرم.

وباسم الفن صارت المرأة المسلمة من صانعات الإغراء، تلهب المشاعر، وتؤجج العواطف، وتثير الغرائز.

فمن أسباب الوهن والهزيمة لزوم الشهوات، قال الإمام الشافعي: «من لزم الشهوات لزمته عبودية أبناء الدنيا»[(١)].

ولقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من فتنة النساء، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما تركت بعدي فتنةً أضر على الرجال من النساء)[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الاجتماع، الإحصان، الأمة، السماحة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة، اليتيم

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ١٠/ ٩٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم ٥٠٩٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم ٢٧٤٠.

المحبة

عناصر الموضوع

مفهوم المحبة	٦٠
المحبة في الاستعمال القرآني	٦١
الألفاظ ذات الصلة	٦٢
أنواع المحبة	٦٣
صفات تستوجب حب الله للعبد	٨٣
آثار المحبة ونتائجها	٨٦

مفهوم المحبة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل المحبة مأخوذ من حبب التي هي بمعنى اللزوم والثبات، ومنه يقال: أحبه حبا ومحبة إذا لزمه[١].

والحب: نقيض البغض. والحب: الوداد والمحبة[٢].

والحب: المحبة، وكذلك الحب بالكسر[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: المحبة: ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرًا[٤].

وقال الكفوي: الحب: هو عبارة عن ميل الطبع في الشيء الملذ[٥].

فتكون العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي علاقة اللازم بالملزوم، فالمحبة انفعال نفسي يلزم منه ويعقبه الميل والانجذاب إلى المحبوب[٦]، والله أعلم.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٦، المفردات، الراغب ص ٢١٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٨٩.
(٣) الصحاح، الجوهري ١/ ١٠٥.
(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب ص ٢٥٦، المفردات، الراغب ص ٢١٤.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٣٩٨.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٢٥.

المحبة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حبب) في القرآن الكريم (٨٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧]
الفعل المضارع	٦٣	﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ [القيامة:٢٠]
المصدر	١٠	﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات:٨]
أفعل التفضيل	٣	﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣]
اسم	١	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨]

وجاءت المحبة في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الإيثار: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾[ص: ٣٢]. يعني: آثرت حب الخير.

الثاني: المودة: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ﴾[آل عمران: ٣١].

الثالث: القلة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾[الإنسان: ٨]. يعني: على قلته.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الحاء، ص٤١٨-٤١٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٧٧-١٧٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشغف:

الشغف لغة:

أن يبلغ الحب شغاف القلب، وهو جلدة دونه[١].

الشغف اصطلاحًا:

احتراق القلب بالحب مع لذة يجدها[٢].

الصلة بين الشغف والمحبة:

علاقة الأعم بالأخص إذ الشغف محبة خاصة.

٢ الخلة:

الخلة لغة:

(الخليل) الصديق، والجمع (أخلاء)[٣].

وهي أخص من الأخوة[٤].

الخلة اصطلاحًا:

أخوة خاصة لأخ معين من بين سائر الإخوان لشدة الموافقة بينه وبين أخيه. قال ابن القيم: وهي أعلى مراتب المحبة[٥].

الصلة بين الخلة والمحبة:

العلاقة بين المحبة والخلة علاقة الأعم بالأخص؛ إذ الخلة مودة خاصة خالصة، وهي أعلى مراتب المحبة.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٤٤، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٣١٦، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ١٧٩.

(٢) الكليات، الكفوي ص ٣٩٨.

(٣) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٩٦.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ١٥٤.

(٥) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٣٢.

أنواع المحبة

أولًا: المحبة المباحة:

ورد لفظ الحب في القرآن والسنة بكل جوانبه الطبعية والشرعية، فالجوانب الفطرية أو الطبعية مثل حب الآباء والأبناء والأزواج وحب المال وسائر الشهوات.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وقال: ﴿كَلَّا بَل تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠].

والمحبة الفطرية هي التي يحب فيها الإنسان الشيء بمقتضى فطرته، كمحبته للنوم، والطعام والشراب، والمال والولد، والوطن. وفي الحديث الذي أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل)[1].

وأخرج عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال، وطول العمر)[2].

هذه هي المحبة الفطرية الجبلية كما وردت في النصوص الشرعية.

ويقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فمعنى هذا أن الإسلام يعترف بالواقع النفسي للإنسان، ويقره على هذا الواقع، أن لديه نزعات فطرية نحو هذه الشهوات من مال وبنين ونساء وما شابه ولم يأت الإسلام ليستأصل هذه النزعات من كيان الإنسان، وإنما جاء ليهذبها، وليحول دون انفلاتها، لكنها محترمة لدى الإسلام، هذه النزعات لا ينظر إليها الإسلام بازدراء أو احتقار، عاطفة الإنسان، مشاعر الإنسان؛ لأن الإسلام دين الفطرة كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

فكيف يكون دين الفطرة ثم يحتقر هذه النزعات الفطرية لديك؟! إنما هناك ضوابط لهذه النزعات، أن تحب المال فليس هذا منكرا في الإسلام، لكن كيف تجمع هذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة، ٨/ ٨٩، رقم ٦٤٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة، ٨/ ٩٠، رقم ٦٤٢١.

المال؟ وكيف تكسبه؟ وكيف تنفقه؟ المهم، نريد أن نركز على جانب واحد.

إن الإسلام دين سمح يعترف بعواطف الناس ومشاعرهم، ولا يصدمها، فهو لا يصدم الفطرة، ولا يصدم العقل، ولا يصدم المشاعر، دين يتطابق مع الفطرة.

والمحبة الشرعية هي التي أمر الشارع بها أمر وجوب أو استحباب، كقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[1].

والمحبة العقلية وهي يميل إليها ويقرر حسنها كما تقول: (الكرم محبوب) أي أن العقول تقر أن الكرم والنظافة والقوة محبوبة لدى الإنسان، وكما تقول للكافر: أحب فيه الحلم والصبر، أي أنك تحب الأوصاف الموجودة فيه محبة عقلية، لا شرعية، ولا فطرية.

وإن كان يظهر بادئ الأمر أن بينهما تلازمًا، لكن في حقيقة الأمر أنه ليس بينهما تلازم، بل بينهما تداخل، والفرق بينهما أن المحبة الفطرية قد تكون موجودة، لكن تتخلف المحبة العقلية، كمن أحب المال وبخل به محبة فطرية، ويعلم هو بعقله حسن الكرم والجود، ولكن غلبت محبته الفطرية محبته العقلية، وكذلك العكس يكون محبة النساء والبنين وغير ذلك، وهذا نوع لا يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله، ولا يخرج من الإسلام، وذلك مثل محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، فيحبها الإنسان محبة شهوة، كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء ونحو ذلك. وحتى نفرق بين الحب في الله وبين المحبة مع الله في هذا النوع الثاني فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يحبها لله، أي: أن يحب المال والنساء ونحو ذلك لله، توصلًا بها إليه، واستعانة على مرضاته وطاعته، فهذه يثاب عليها، وهي من قسم الحب لله؛ ولذا يثاب عليها ويلتذ بالتمتع بها، وهذه حال أكمل الخلق الذي حبب الله إليه من الدنيا النساء والطيب وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ذكر ذلك في الحديث الصحيح[2]، وكانت محبته لها عونًا له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره، وهذا يدخل فيه ما يشبهه، مثل: محبة النكاح لمن أراد العفاف، ومثل أن يأكل الإنسان الأكلة يتقوى بها على طاعة الله، ومثل أن ينام النومة ليستعين بها على الصلاة وعلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، ١/ ١٢، رقم ١٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ٣٠٥، رقم ١٢٢٩٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٩٩، رقم ٣١٢٤.

عبادة الله في الليل، وغير ذلك من الأمور، فتتحول هذه الأمور المحببة إلى النفس إلى نوع عبادة وطاعة؛ لأنها تؤدي إلى ما يحبه الله تبارك وتعالى ويرضاه.

القسم الثاني: أن يحب هذه الأمور لموافقة طبعه وهواه وإرادته، ولكنه لم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه، بل نالها بحكم النيل الطبيعي، فهذه تكون من قسم المباحات ولا يعاقب عليها، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه بمقدار ما يغلو في هذه الأمور، أي أنه إذا زاد فيها عن الأمر المعتاد فربما ينقص حبه لله أو محبته في الله بقدر غلوه وزيادته في تلك الأمور، وهذا أمر مشاهد، فإن من تعلق بالدنيا أو تعلق بالنساء فلابد أن ينقص من محبته لله والمحبة في الله بمقدار ما زاد من ذلك التعلق.

القسم الثالث: أن تكون هذه الأمور التي ذكرناها آنفًا هي مقصوده ومراده وسعيه في تحصيلها والظفر بها، وتقديمها على ما يحبه الله ويرضاه، ففي هذه الحالة تكون له حالتان:

الأولى: أن يقدمها على ما يحبه الله في أصول الدين وأصول العبادة، مثل أن يقدم المال على عبادة الله، أو يقدم محبته للنساء على عبادته لله تبارك وتعالى مثل الصلاة ونحوها، فهذه قد تذهب بأصل دينه.

الثانية: أن يقدمها بحيث تؤثر على عباداته لله، لكن لا يقدمها بالكلية، مثل أن تشغله دنياه عن المحافظة على الصلاة في أوقاتها أو نحو ذلك من العبادات، ففي هذه الحالة يتحول صاحبها إلى أن يكون ظالمًا لنفسه مقصرًا عاصيًا، ولكنها لا تخرجه عن دائرة الإيمان[1].

إذا علمنا هذا تبين لنا أن المحبة الفطرية مما تألفه النفس فطرة، فلو أبعد الإنسان مثلًا عن موطنه حن إلى عبق ريحه وسحر جباله ووهاده، وتذكر ماضيه، واعتصر القلب إلى أطلاله ورؤية ترابه، وهو نوع من المحبة الفطرية.

لذلك كان من عظيم فضل الله تعالى أن جعل جزاء من يموت في الهجرة الجنة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

يقول المفسرون: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: الجنة[2].

بل جعل الله تعالى من أسباب قتال العدو الإخراج من الديار والوطن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ

(١) انظر: المحبة في الله، عبدالرحمن المحمود ص ١٢-١٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٧.

﴿عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

فجاء التعبير عن حب الوطن (حبًّا فطريًّا) كعزة ماله وولده أحيانًا لديه.

ولذلك جعل الشرع من مصارف الزكاة المسافر المنقطع به، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[البقرة: ١٧٧].

وإن كان غنيًّا في وطنه فيصرف له وقت انقطاعه حتى يعود؛ رعاية لجانب الغربة التي هي مظنة المشقة، كما قال صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: (السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه)[(١)].

وعلة السفر موجودة في فراق الوطن، وكما قال أهل العلم: مفارقة المألوفات أشد المكروهات.

ثانيًا: المحبة المحمودة:

وللمحبة المحمودة صور كثيرة، منها:

١. محبة الله تعالى.

وهذا من أعظم الواجبات، فقد جاء لفظ الحب في القرآن والسنة لبيان حب الله لعباده المؤمنين في مثل قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

فإن الله تعالى أوجب علينا ذلك وتوعد من خالف فيه بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فنحن مأمورون بحب الله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه)[(٢)].

يقول مصطفى السباعي: «من أنست نفسه بالله لم يجد لذة في الأنس بغيره، ومن أشرق قلبه بالنور لم يعد فيه متسع للظلام، ومن سمت روحه بالتقوى لم يرض إلا سكنى السماء، ومن أحب معالي الأمور لم يجد مستقرًّا إلا الجنة، ومن أحب العظماء لم يقنعه إلا أن يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أدرك أسرار الحياة لم ير جديرًا بالحب حق الحب إلا الله تبارك وتعالى»[(٣)].

فمن عرف الله تعالى أحب الله، وعلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العمرة، بابٌ السفر قطعةٌ من العذاب، ٣/ ٨، رقم ١٨٠٤.

(٢) انظر: كنز العمال، رقم ٣٤١٥٠، ١٢/ ٩٥.

(٣) السيرة النبوية، مصطفى السباعي ص٢٣.

قدر معرفته بالله يكون حبه لله، ولهذا فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس حبًا لله؛ لأنه كان أعرفهم بالله، يقول عليه الصلاة والسلام: (أنا أعلمكم بالله)[1].

يقول الحسن البصري: «من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟!»[2].

والله تعالى يحب، ومن أحبه الله كان مع الله، في معيته، وتحت حفظه وعنايته جل في علاه، قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ومعية الله تعالى لمن يحب هي معية خاصة يخص بها أحباءه وأولياءه، معية نصر وتكريم، وعناية ورعاية، فضلا عن المعية العامة التي هي معية العلم المحيط الشامل، ففي الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني)[3].

والله تعالى يحب، ومن أسمائه «الودود»، وقد ذكر لفظ: «الودود» في القرآن الكريم مرتين: في سورة هود حيث يقول تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وفي سورة البروج حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

والود: الحب، ومعنى الودود: المحب للمؤمنين الذي يودهم ويودونه، ويحبهم ويحبونه.

ولا يجعل المؤمن محبة غير الله تعالى فوق محبة الله. فالله تعالى يتوعد من شغلته محبة غيره عن محبته جل في علاه، وأصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته العبودية[4]: «إن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له، فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة؛ لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة (لانصباب القلب إليه)، ثم الغرام، وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم، يقال: تيم الله أي: عبد الله. فالمتيم هو المعبد لمحبوبه»[5].

وهكذا يكون طريق المحبة: أوله أمر إلهي وآخره طاعة لله تعالى واستجابة لأمره.

وفيما أخرجه البخاري بسنده عن أبي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أنا أعلمكم بالله)، رقم ٢٠، ١/ ١٣.
(٢) السيرة النبوية، مصطفى السباعي ص ٤٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، رقم ٧٤٠٥، ٩/ ١٢١.
(٤) العبودية، ابن تيمية ص ١٣.
(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ص ١٩٨.

هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)[1] الحديث.

وأخرج البخاري ومسلم بسنديهما عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلًا على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي فقال: (سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟) فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أخبروه أن الله يحبه)[2].

كما ورد ما يثبت حب المؤمنين لربهم عز وجل وذلك كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٣١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ٩/ ١٤٠، رقم ٧٣٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة (قل هو الله أحد)، ١/ ٥٥٧، رقم ٨١٣.

وروي (أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : متى الساعة يا رسول الله؟ قال: (ما أعددت لها؟) قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: (أنت مع من أحببت)[3].

كيف نحب الله تعالى؟

إن المتدبر والمتأمل لهذه الآية الكريمة التي صدرنا بها ليشعر بالخوف والرهبة من هذا الوعيد الشديد، ولعل السؤال المطروح كيف نحب الله تعالى؟

إن القاعدة في عرف البشر أنهم لا يحبون ما لا يعرفون، ويحبون ما يعرفون لا من ينكرون.

وحب الله تعالى يتحقق بمعرفتنا لله تعالى، فكلما زادت معرفة العبد بربه زاد حبه له، وكلما فكر في نعم الله عليه قوي حبه لربه؛ لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، فالإنسان بعقله يؤمن، وبقلبه يحب، وهل الإنسان إلا عقل يدرك، وقلب يحب!

وحتى يتحقق حب الله يلزم أن تحب الآخرة، فالدنيا لا يجتمع حبها مع حب الآخرة في قلب واحد؛ ولذا حذرنا منها

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، ٨/ ٤٩، رقم ٩١٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، ٤/ ٢٠٣٣، رقم ٢٦٣٩.

الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كثيرا، من ذلك ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل). وكان ابن عمر يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)[2].

وحب الله تعالى هو حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رحمه الله: «المحبة هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفاني المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله، لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من محبة محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة!!»[3].

والمحبة لا توصف ولا تعرف، إنما يعرفها من وجدها وذاقها، وإنما البحث في أسبابها وموجباتها، وعلامتها، وشواهدها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن، رقم ١٣٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦.

(٣) مدارج السالكين ٣/ ٦.

والمتتبع للأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها، يجد أنها عشرة:

«أحدها: قراءة القرآن بالتدبر، والتفهم لمعانيه، وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد، ويشرحه؛ ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان، والقلب، والعمل، والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبة الهوى، والتسنم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه، وصفاته، ومشاهدتها، ومعرفتها، وتقلبها في رياض هذه المعرفة، وميادينها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة، والفرعونية، والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره، وإحسانه، وآلائه، ونعمه الظاهرة والباطنه، فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي؛ لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدب لأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار، والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل»[1].

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.

وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة.

أما في علامات المحبة-: فيقول ابن القيم: «تالله، ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمنًا، فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد من قال الله تعالى عنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٧.

البينة على صحة الدعوة، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تقبل إلا ببينة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب صلى الله عليه وسلم في أفعاله، وأقواله، وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتأخر أكثر المحبين، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين، وأموالهم ليست لهم، فهلموا إلى بيعة: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع، عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك»، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص، ومتابعة الحبيب، أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى» اهـ[(١)].

فالمحبة حقيقة العبودية، وإنما تمكن الأعمال الأخرى -من الحمد، والشكر، والخوف، والرجاء، والصبر، والزهد، والحياء، والفقر، والشوق، والإنابة- باستمرار المحبة في القلوب، وهي حقيقة الإخلاص، بل حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله.

٢. محبة الله تعالى للعبد.

حب الله لعباده صفة من صفاته، منزهة عن مشابهة صفات المخلوقين، ونصوص الكتاب والسنة تؤكد ذلك أتم تأكيد.

وجمهور السلف على إثبات حب الله لعباده كصفة من صفاته كما يليق بذاته سبحانه، بلا كيف ولا تأويل ولا مشاركة للمخلوق في شيء من خصائصها، كما أنهم يثبتون محبة العباد لربهم محبة حقيقية قلبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث، وجميع مشايخ الدين المتبعون،

(١) مدارج السالكين ٣/ ٨.

وأئمة التصوف أن الله سبحانه محبوب لذاته محبة حقيقية، بل هي أكمل محبة، فإنها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية»[١].

ومع وضوح هذا الأمر إلا أن أهل الأهواء والبدع من الجهمية ومن تابعهم من المتكلمين حادوا عن إثبات حب الله لعباده كصفة من صفاته سبحانه وتعالى، متأولين محبته سبحانه بإرادة الإحسان، أو بإحسانه وإنعامه على عباده، كما أنهم أولوا محبة العباد لربهم بأنها محبة طاعته، أو محبة إحسانه وثوابه[٢].

وهذا التأويل -مع بطلانه- يؤدي إلى إنكار المحبة، ومتى بطلت المحبة بطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، وخلت الأعمال من روحها؛ إذ هي أصل، كما أنها عمل ديني، فإنكارهم للمحبة إنكار لحقيقة الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة في قلبه لله ورسوله فلا إيمان له ألبتة[٣].

والله جل في علاه يحب من أحب دينه واتبع ملته وشريعته، يحب ربي من أخلص له وأناب إليه، ولاذ إلى رحابه، يحب من يتسامى في حبه، ويجاهد في سبيله لنصرة دينه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

والله تعالى يحب التوابين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

«والمرء عندما يخطئ في حق الله تعالى، ويقع في المعصية، ويحر الشهوات، ويتلطخ بأدران الإثم، ثم يصحو الضمير ويستيقظ، ويطارد الخطيئة، ويحس بثقلها على نفسه كأنها الجبل، ويتجسم أمام عينيه فظاعة ما ارتكب في حق الله تعالى وتضيق الأرض بما رحبت، فلا يلجأ إلا إلى الله تعالى، ففراره من الله إلى الله تعالى، إليه الملجأ وإليه المآل»[٤]. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والله تعالى يلقي محبته على من يحبه، وأي منزلة أعلى، بل وأي درجة أكمل من أن

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٠/ ٦٦.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٢١، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٠٥.
(٣) انظر في الرد على هذا التأويل: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٦/ ١٤٧٧، مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ١٨.
(٤) انظر: حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في ضوء الكتاب والسنة، محمد بن خليفة التميمي ص ٣٨.

يقول الله تعالى لعبده: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]! فمحبة الله تعالى العزيز المتعال، وهو في عليائه وكبريائه، للعبد وهو في ذله وضعفه هو العطاء عينه، وهي النعمة والمنة من الله تعالى ذي الكرم والجود، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

٣. محبة النبي صلى الله عليه وسلم.

لقد حثت العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على وجوب محبته صلى الله عليه وسلم أكثر من النفس والولد والوالد والناس أجمعين.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «في الآية دليل على وجوب حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا خلاف في ذلك، وأن ذلك مقدم على كل محبوب»[(١)].

إن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم معناها: أن يميل قلب المسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ميلًا يتجلى فيه إيثاره على كل محبوب، من نفس ووالد وولد والناس أجمعين؛ وذلك لما خصه الله من كريم الخصال وعظيم الشمائل، وما أجراه على يديه من صنوف الخير والبركات لأمته، وما امتن الله على العباد ببعثته ورسالته، إلى غير ذلك من الأسباب الموجبة لمحبته عقلًا وشرعًا.

ويؤكد هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[(٢)]. أي: لا يكمل إيمان من كان أهله وماله أحب إليه من الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد يقال: إذا حصلت هذه المحبة فهل يلزم من هذا أن يكون المحب مؤمنًا كاملًا وإن لم يأت بسائر الأركان؟

يجيب الكرماني رحمه الله تعالى قائلًا: «هذه مبالغة، كأن الركن الأعظم فيه هذه المحبة، نحو لا صلاة إلا بطهور وهي مستلزمة لها. أو يلتزم ذلك لصدقه في الجملة، وهو عند حصول سائر الأركان؛ إذ لاعموم للمفهوم»[(٣)].

فالإيمان إذن يستلزمه إتيان سائر أركانه مع اقتران المحبة بذلك.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٩٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم، من الإيمان، ١/ ٦٩.

(٣) الكواكب الدراري، الكرماني ١/ ٩٥.

قال ابن تيمية: «وليس للخلق محبة أعظم ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يحب لأجل الله، ويطاع لأجل الله، ويتبع لأجل الله»[1]. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعلى ذلك فلا تنفك إحدى المحبتين عن الأخرى، فمن أحب الله أحب رسوله، وكذلك سائر رسله، ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم تبع لمحبة من أرسله. ولأجل هذا جاء حب الرسول صلى الله عليه وسلم مقترنًا بحب الله عز وجل في أكثر النصوص الشرعية.

وفي الحديث: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[2].

وهذا الارتباط بين المحبتين ارتباط شرعي لا ينفك، فمن زعم أنه يحب الله ولم يحب رسوله أو العكس، فكلامه باطل واعتقاده فاسد.

يقول النووي ملخصًا كلام القاضي عياض[3]: «وبالجملة فأصل المحبة: الميل إلى ما يوافق المحب، ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه، كحسن الصورة والصوت والطعام ونحوها، وقد يستلذه بعقله للمعاني الباطنة كحب الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقًا، وقد يكون لإحسانه إليه ودفع المضار والمكاره عنه، وهذه المعاني كلها موجودة في النبي صلى الله عليه وسلم لما جمع من جمال الظاهر والباطن، وكمال خلال الجلال وأنواع الفضائل، وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم، ودوام النعم، والإبعاد من الجحيم»[4].

وحب المسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عمل قلبي من أجل أعمال القلوب، كما ذهب إليه البيضاوي فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر: عند شرح قوله: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) قال: «المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس»[5].

وقد تعقبه صاحب كتاب تيسير العزيز الحميد بقوله: « كلامه على قواعد الجهمية

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٦٤٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن ٨/ ٨٩، رقم ٦٤١٦.
(٣) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢/ ٢٩ - ٣٠.
(٤) شرح صحيح مسلم ٢/ ١٤.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٦٠- ٦١.

ونحوهم من نفي محبة المؤمنين لربهم ومحبته لهم والحق بخلاف ذلك، بل المراد في الحديث أن يكون الله ورسوله عند العبد أحب إليه مما سواهما حبًّا قلبيًّا، وأما مجرد إيثار ما يقتضي العقل رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النذر، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه، فهذا قد يكون في بعض الأمور علامة على الحب ولازمًا له. لا أنه الحب»[1].

ثم إن إدراك العقل للكمال أو الخير أو أي معنى من المعاني الفاضلة لا يكفي حتى نسميه حبًّا، بل لابد مع ذلك من الميل القلبي والتعلق النفسي.

وتمثيله حال من آثر محبة الله ورسوله -وإن كان على خلاف هوى النفس- بحال المريض مع الدواء المر -الذي تعافه نفسه، ويميل عقله إلى تناوله- تمثيل غير مناسب وغير لائق أيضًا.

لأن من كانت محبته لله ورسوله كمحبة المريض للدواء المر جدير بأن يقال: أنه وجد مرارة الإيمان لا حلاوته.

وإنما يجد حلاوة الإيمان من كان هواه وقلبه في تلك المحبة مناصرًا لعقله ومسايرًا له جنبًا إلى جنب[2] وإذا كان هناك من فسر حب الله ورسوله بأنه حب عقلي، فهناك من يظن أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم تعني طاعته، وهذا فهم خاطئ؛ إذ أن محبته هي أساس طاعته، والطاعة شرط للمحبة وثمرتها.

فالطاعة أمر زائد على المحبة ومترتب عليها، كما أن هذا الحب أمر زائد على الإعجاب بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وسمو أخلاقه وعظمة تعاليمه، إذ نرى كثيرًا ممن لا ينتسبون إلى الإسلام، ولا يؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم يبدون إعجابهم وتقديرهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويفيضون في بيان جوانب عظمته، ومع ذلك لا يمكن أن نسمي هذا الإعجاب حبًّا شرعيًّا، حتى يكون هناك إيمان بدين الإسلام.

ولقد كان أبو طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم يحبه ويحوطه ويصد عنه أذى قريش بما استطاع، ومع هذا فلم يثمر ذلك حبًّا وإيمانًا منه بدين الإسلام؛ لأن حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان حب قرابة وحمية جاهلية.

نخلص من هذا إلى أن المحبة الحقيقية لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي المحبة الشرعية الإرادية الاختيارية، وهي عمل قلبي من أَجَلِّ أعمال القلوب، ورابطة من أوثق روابط النفوس تربط المسلم

(١) تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله ص٤٧٦.
(٢) انظر: المختار من كنوز السنة، محمد عبد الله دراز ص٤٤٠.

برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتجعل قلبه وهمه وفكره وإرادته متوجهة لتحصيل ما يحبه الله ورسوله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

والصلة بين المحبتين هي صلة الفرع بالأصل والتابع بالمتبوع، فمحبتنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم تابعة لمحبتنا لله عز وجل؛ إذ هي أساس المحبة الدينية الشرعية ومصدرها، وكل ما سواها من المحاب الشرعية تبع لها. وذلك كمحبة الأنبياء والصالحين، ومحبة كل ما يحبه الله ورسوله.

٤. حب المؤمنين.

إذ أن الحب من أسمى وأرقى العواطف الإنسانية، فإذا توجهت هذه العاطفة النبيلة لله تعالى، وكانت هي محور العلاقات بين المسلمين، ذللت كثيرًا من الصعاب، وأثمرت كثيرًا من الثمار الطيبة في حياة الأمة، ولقد جاءت أدلة عديدة تؤكد هذا المعنى الرائع، وتبين المكانة الرفيعة لمن أنعم الله به عليه، منها: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم في الله) قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تخبرنا من هم؟ قال: (هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس) وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس٦٢][(١)].

فحب المؤمنين من أعمال القلوب العظيمة الثواب والجليلة الجزاء، أن يحب المسلم إخوانه المسلمين محبة دينية، لا لأجل غرض دنيوي.

وهذه المحبة من علامات حب العبد لله ولرسوله؛ لأن حب المؤمنين ناشئ من إيمانهم بالله تعالى؛ فهو يحب كل ما يحبه الله تعالى ويحبه رسوله صلى الله عليه وسلم، والله ورسوله يحبان المؤمنين؛ ولذا فالمؤمن يحب المؤمن، فيحب إيمانه وطاعته وعبادته، وهو من علامات سعادة العبد في هذه الحياة، ومن أسباب تذوق حلاوة الإيمان التي لا يجدها إلا المؤمنون.

روى الإمام البخاري في صحيحه، عن أنسٍ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره

(١) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في الرهن، ٣/ ٣١١، رقم ٣٥٢٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ١٣٦٨، رقم ٣٤٦٤.

أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[1].

وإنما كانت هذه الخصلة تالية لما قبلها؛ لأن من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فقد صار حبه كله له، ويلزم من ذلك أن يكون بغضه لله، وموالاته له، ومعاداته له، وألا تبقى له بقية من نفسه وهواه، وذلك يستلزم محبة ما يحبه الله من الأقوال والأعمال، وكراهة ما يكرهه من ذلك، وكذلك من الأشخاص، ويلزم من ذلك معاملتهم بمقتضى الحب والبغض، فمن أحبه الله أكرمه وعامله بالعدل والفضل، ومن أبغضه لله أهانه بالعدل؛ ولهذا وصف الله المحبين له بأنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[المائدة: ٥٤].

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك)[2]، فلا تتم محبة الله ورسوله إلا بمحبة أوليائه وموالاتهم، وبغض أعدائه ومعاداتهم. وسئل بعض العارفين: بما تنال المحبة؟ قال: بموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه، وأصله الموافقة.

والمؤمن لا يجد حلاوة الإيمان إلا إذا أحس بحرارة الحب في قلبه. وقد أمرنا ديننا بالحب، ودعانا إليه، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا آل بيتي لحبي)[3].

وعن أنس بن مالك أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة يا رسول الله؟ قال: (وماذا أعددت لها)؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: (أنت مع من أحببت)[4].

يقول أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم (أنت مع من أحببت).

وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم. قال: (المرء مع من أحب)[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، ٥/ ٢٦٨، رقم ٣٢٣٥.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص١٧٥، رقم ١٢٣٣.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب النبي، ٣/ ٦٤٤، رقم ٣٩٨٧.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٢٧، رقم ١٧٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك، ٨/ ٣٩، رقم ٦١٦٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة حب الله، ٨/ ٣٩، رقم ٦١٦٨.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل. فقال: إني أحب فلانا فأحبه. قال: فيحبه جبريل، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل عليه السلام، فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض)[1].

وتظهر أسس الإيمان: المحبة والمودة في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (والذي نفسي بيده، لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم)[2].

ويقول عليه الصلاة والسلام: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه -أو قال لجاره- ما يحب لنفسه)[3].

٥. حب المهاجرين والمجاهدين.

نلحظ أن المتتبع لآيات المهاجرين والمجاهدين التي وردت في القرآن الكريم يجد أنها تفيض حبًّا ونصرةً وتأييدًا ووعدًا بالجزاء الأوفى، فقد جاء في القرآن الكريم ذكر المهاجرين في (إحدى وعشرين) آية، منها ما يربط بين الإيمان والهجرة والجهاد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢].

ومنها ما يؤكد هذا الربط بين الإيمان والهجرة والجهاد، وأنهم لا يرجون إلا رحمة الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وذهب العلماء إلى أن محبة المهاجرين، وتوقيرهم، وبرهم، والولاء لهم، ومعرفة حقهم مطلوبة من المسلمين؛ لما لهم من الفضل السابق إلى الإيمان والهجرة. وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)[4].

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله ذكر منهم: (ورجلان تحابا في الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، ١/ ٧٤، رقم ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله، ٤/ ١٩٨٨، رقم ٢٥٦٦.

اجتمعا عليه، وتفرقا عليه)[1].

والأخوة في الله لا تنقطع بنهاية هذه الدنيا، بل هي مستمرة في الآخرة، يقول تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ومنها ما يؤكد أن أجر المجاهد على الله تعالى وحده في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

ويصف الله تعالى المهاجرين أنهم المؤمنون حقا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

كما وصفهم الله تعالى بأنهم أعظم درجة وأنهم هم الفائزون، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

كما أخبر الله تعالى أن المهاجرين ممن رضي الله تعالى عنهم، وما أعظمه من فضل! فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولم يقتصر هذا على الحب والرضا، ولكن تبوءهم في الدنيا مكانة إضافة إلى أجرهم في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

كما وعدهم الله تعالى بالمغفرة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

كما وعدهم بالرزق الحسن في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

وفي ختام جملة الأوصاف للمهاجرين بأنهم هم الصادقون إضافة إلى حبهم للمهاجرين ولو كان لهم بهم حاجة، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، ٢/ ١١١، رقم ١٤٣٢.

صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٨ - ٩].

٦. محبة الجهاد.

أولى القرآن الكريم أهمية عظمى للجهاد والمجاهدين، وجعل المجاهدين في أعلى الدرجات، ورغب في الشهادة أيما ترغيب، وحمل على الفرار والفارين؛ ذلك أن الجهاد سياج للأمة من طمع الطامعين، ومن تكالب المتكالبين، ووعد المجاهدين بالمغفرة والتي لا تكون إلا بعد المحبة[1].

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ومن هذا المنهج الرباني حرم الإسلام التثبيط عن الجهاد، بل جعل من أكبر الكبائر الفرار من ساحة القتال؛ لأن الإسلام ربى أبناءه على حب الجهاد في سبيل الله تعالى. وهؤلاء المنهزمون والمثبطون والقاعدون عن الجهاد فضحهم القرآن الكريم في قوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة: ٤٢].

أي: لو كانت هناك غنيمة سهلة ورحلة ميسرة لساروا معك، ثم يتابع القرآن الحديث عن هؤلاء فيقول: ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٢].

أي: أنهم يهلكونها بهذا الحلف الكاذب، يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في القعود عن الجهاد، فيقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم مبينًا موقف المؤمنين وغير المؤمنين من الجهاد، فيقول: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤ - ٤٥].

ولقد نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عن الذين لم يخرجوا للجهاد مستأذنين في القعود، وأعلن أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وأن قلوبهم مرتابة، وأنهم في ريبهم يترددون. أما الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يقول فيما رواه مسلم: (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق)[2].

ومع توعد الله تعالى المثبطين والقاعدين عن الجهاد مع القدرة خزيًا في الدنيا، وفي الآخرة عذاب عظيم. وهو في نفس الوقت

(١) انظر: حب الجهاد في سبيل الله، عادل عامر ص ١٨-٢٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز، ٣/ ١٥١٧، رقم ١٩١٠.

يخبرنا أن المؤمنين الذين لا يستجيبون لهؤلاء المثبطين يزداد إيمانهم.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

إنهم المجاهدون المؤمنون، الصابرون المتوكلون، الذين توعدهم الناس بالجموع الكبيرة وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك وما جبنوا، بل زادهم ذلك إيمانًا وثباتًا وعزيمة؛ لحسن توكلهم على الله، ويقينهم بما وعدهم الله به، فاستعانوا به وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فهو حسبنا وكافينا، ونرضى به وحده وكيلًا وحافظًا. كما توعد الفارين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٦].

ثالثًا: المحبة المذمومة:

وهذا نوع يقدح في أصل التوحيد، وهو شرك، وهذا كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم مع الله كما يحبون الله، فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء، وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله، ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد، وشدة بغضها وبغض أهلها، ومعاداتهم ومحاربتهم، وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه، كما نعلم ذلك جميعًا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فكل رسول إنما بعث بالإيمان بالله، وبالكفر بالطواغيت وبغضها، ومعاداتها، ومحاربتها ومحاربة أهلها.

ومن الحب المذموم حب المصالح والذات: لقد أودع الله هذه الغريزة في الإنسان حيث إنه عن طريقها يحمي نفسه ويخاف على حياته. لكن حينما يطلق العنان لهذه الغريزة لتوجه شخصيته وعلاقته بالآخرين فإنه ينتقل بنفسه من هذا المفهوم الفطري إلى مفهوم الأنانية، هذا المرض العضال الذي يفوق خطر كل غريزة؛ لأنه يستخدم بقية الغرائز لإشباع متطلباته، وجاء الإسلام لاستئصال هذا المرض أو ترويضه في إطار شرعي حيث قال عليه الصلاة

والسلام عن أنس بن مالك: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[1].

«قال العلماء: معناه: لا يؤمن الإيمان التام، وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة»[2].

ويدل على أن المراد من النفي في هذا الحديث نفي كمال الإيمان، أنه قد جاءالحديث عند ابن حبان بلفظ: (لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير)[3].

إن أكبر مشكلةٍ تعانيها البشرية تبدأ في عالم الفرد، عندما يغلب الإنسان مصلحته على مصلحة الآخرين ومهما كان الثمن، وهذا هو تعريف الأنانية الذي ينطلق من الأنا.

وعرفوا الأثرة: فقالوا: «أن يختص الإنسان نفسه أو أتباعه بالمنافع من أموال ومصالح دنيوية ويستأثر بذلك، فيحجبه عمن له فيه نصيب، أو هو أولى به»[4].

والحب المذموم قسمان:

أحدهما: من يجب على العبد أن يبغضهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهذا نفي عام يدل على أن المؤمن الصادق لا يكون في قلبه مودة لهم أبدًا، وهذا الأمر مما وقع الخلط فيه في أزمنتنا المتأخرة، واختلت فيه بعض الموازين.

القسم الثاني: مما يبغض في الله: من يبغضون بغضًا ليس كاملًا، وهؤلاء هم المؤمنون الذين يقعون في فسق أو في بدعة غير مكفرة، فهؤلاء لهم محبة عامة؛ لأنهم مسلمون، ولكن يجب بغض ما عندهم من فسق أو بدع، وهذا أيضًا مما وقع فيه الخلل عند بعض الناس، فإنهم قد يحبون الفساق أو أهل البدع؛ نظرًا لأنهم غير كفار، وميزان الحق في هذا أن تكون محبتهم محبة عامة؛ لأنهم مسلمون مؤمنون بالله، لكن لا تكون محبة كاملة، بحيث تجعلهم سواسية مع المؤمنين المتقين، فنبغض ما فيهم من فسق أو بدعة أو فجور، نبغض هذا في الله تبارك وتعالى. وبتحقيق هذا الأصل -البغض في الله- يكتمل الأصل الأول الذي تحدثنا عنه سابقًا، وهو الحب في الله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣.
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ١٦.
(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ١/ ٤٧١، رقم ٢٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب، رقم ١٧٨٠.
(٤) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٩/ ٣٧٧١.

صفات تستوجب حب الله للعبد

حب الله لعباده جاء في القرآن الكريم في (١٣) آية، كان نصيب المحسنين ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥) منها، و﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤) منها، و﴿يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢)، و﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ مرة واحدة وكذلك ﴿يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ مرة واحدة، وحب الآخرين إيثار لهم على الذات وتقديم ما يسعدهم في حياتهم. فكانت الكلمة، وجاءت المضامين التعبيرية لتحددها بدقة لفظية فكل ما في حياتنا يحدده التعبير اللغوي، ويصفه ويعطيه حقه ومكانته وموضوعيته، اللغة ترسم وتغني معاني الطبيعة والعلوم والمشاعر، وتقدس الإله وتمجده، والوجود بكامله ينطبع بكلمات اللغة.

ووردت المحبة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، تميزت فيها أنواع من الحب، وقد جمعت آية كريمة بين حب العبد وحب الله، وحددت صفات من يحبون الله ويحبهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[المائدة: ٥٤].

حيث إن حب الله يأتي فعلًا لله عز وجل مثبتًا تارة ومنفيًا تارة، متعلقًا بفئات من العباد، أو بأنواع من الفعال والصفات. ففي صيغة الإثبات، نجد أن الله عز وجل ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

و﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ و﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

و﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

و﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

و﴿يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

و﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤].

وأشار الله سبحانه وتعالى إلى محبته لموسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

الحب في القرآن الكريم ضد الكره: لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والحب هو متعة نفسية في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [آل عمران: ١٤].

حب الاتباع والمتبعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن حب العبد لله عز وجل ليس مجرد شعور قلبي يلهج به اللسان، ولا مجرد كلمات يتفنن في نظمها، وقديمًا ادعى اليهود والنصارى أنهم أحباء الله فرد الله عليهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]؛ ولذلك وقطعًا لكل ادعاء كاذب لحب الله جاءت القاعدة الربانية: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي المقابل نجد في صيغة النفي أن الله عز وجل ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فقال تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

و﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

و﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

و﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ فقال تعالى ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

و﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

و﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

و﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

و﴿لَا يُحِبُّ﴾ أيضًا ﴿مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ و﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

وفي كل هذه الموارد وغيرها، وسواء في ذكر ما يحبه الله عز وجل أو مالا يحبه، لا يستعمل الصيغة المصدرية الدالة على الثبات، بل يستعمل صيغة اسم الفاعل التي يتلبس فيها الفعل بالإنسان، وتلتصق الصفة به محمودة كانت أم مذمومة، إلا في موضعين ذكر فيهما الاسم: أحدهما يتعلق بالفساد: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

ويتعلق الثاني بالجهر بالسوء ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

والمتأمل في هذه الفعال المحبوبة: (الإحسان، التقوى، التوبة، التطهر، الصبر، التوكل، القسط)، يجد أنها تجمع أهم ما يحمد في الإنسان الاتصاف به، وما يجعله محبوبًا مقبولًا عند الله وعند الناس، وفي المقابل تمثل الصفات غير المحبوبة: (الكفر، الظلم، العدوان، الخيانة، الإسراف، الاستكبار) أنموذجا لكل ما تنفر منه النفس وتأباه الفطر السليمة.

وقد وقف بعض العلماء عند معني حب الله تعالى للعبد، وحاولوا تفسير هذا الحب بما يليق بجلال ذاته عز وجل وما تقضيه من تنزيه، ففسروه بالإنعام، وهو معنى تأباه سياقات الآيات، كما أنه تأويل للمحبة بالإنعام وهذا يخالف المنهج الصحيح للتفسير.

أما حب العبد لله عز وجل، فهو من مقتضيات الإيمان: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

بل إنه من موجبات أعلى درجات الإيمان، جاء في الحديث الصحيح الذي يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في

الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[1].

إن حب الله ليس بالأمر الهين الذي يسهل ادعاؤه إذن؛ لأنه حب يقتضي أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل شيء: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

آثار المحبة ونتائجها

أولًا: الاقتداء والمتابعة للمحبوب:

أثر محبة الله وأثر تحقيق المحبة أنها: تثمر لصاحبها علوًا ورفعةً في الدرجة، لم يكن ليصل إليها لولا هذه المحبة، إن قصر بك عمل الجوارح من أن تجاهد كجهادهم، أو أن تأمر بالمعروف كأمرهم، أو تتعبد كعبادتهم، فيجب أن تحبهم بقلبك، وأن تسأل الله تبارك وتعالى مرافقتهم، وأن تبغض من أبغضهم، وتعادي من عاداهم، وبذلك تصل بإذن الله تبارك وتعالى من الخير الكبير، وأن تصل إلى قربهم أو أن تدنو منهم، وهذا شرف عظيم، وفخر كبير، وغاية لو شمر لها العابدون والساعون الدهر كله لكانت مستحقة لذلك.

فحقيقة المحبة إذًا هي ما قدمنا من حيث علاقتها بالإيمان والعبادة، حيث إن المحب على الحقيقة لا يقدم أمرًا ولا نهيًا على أمر ونهي من يحبه وهو الله تبارك وتعالى، مما يثمر ذلك لديه الاستقامة في السر والعلانية، وفي كل شأن من شئون الحياة، واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعل اتباعه امتحانًا لحقيقة المحبة وامتثالها.

ومن علامات المحبة الصادقة لله ولرسوله التزام طاعة الله، والجهاد في سبيله، واتباع رسوله، قال الله تعالى:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١].

وصف سبحانه المحبين له بخمسة أوصاف.

أحدها: الذلة على المؤمنين: والمراد بها لين الجانب والرأفة والرحمة للمؤمنين وخفض الجناح لهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

ووصف أصحابه بمثل ذلك في قوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذا يرجع إلى أن المحبين لله يحبون أحبابه ويعودون عليهم بالعطف والرحمة[1].

الثاني: العزة على الكافرين، والمراد بها الشدة والغلظة عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التحريم: ٩].

وهذا يرجع إلى أن المحبين له يبغضون أعداءه، وذلك من لوازم المحبة الصادقة.

الثالث: الجهاد في سبيل الله وهو مجاهدة أعدائه بالنفس واليد والمال واللسان، وذلك أيضًا من تمام معاداة أعداء الله الذي تستلزمه المحبة.

الرابع: أنهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ والمراد: أنهم يجتهدون فيما يرضى به من الأعمال، ولا يبالون في لومة من لامهم في شيء إذا كان فيه رضى ربهم، وهذا من علامات المحبة الصادقة أن المحب يشتغل بما يرضى به حبيبه ومولاه، ويستوي عنده من حمده في ذلك أو لامه.

الخامس: متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وطاعته، واتباعه في أمره ونهيه، وقد قرن الله بين محبته ومحبة رسوله في قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

والمراد: أن الله لا يوصل إليه إلا عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم باتباعه وطاعته.

قال ابن رجب: «ومحبة الرسول على درجتين: إحداهما: فرض وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله وتلقيه بالمحبة والرضا، والتعظيم، والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية، ثم حسن الاتباع له فيما بلغه عن ربه من تصديقه

(١) انظر: الشفاء، القاضي عياض ص ٢٥.

في كل ما أخبر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، ونصرة دينه، والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لابد منه، ولا يتم الإيمان بدونه»[1].

والدرجة الثانية: «فضل، وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه، ونوافله وتطوعاته، وأكله وشربه، ولباسه، وحسن معاشرته لأزواجه، وغير ذلك من آدابه الكاملة، وأخلاقه الطاهرة والراقية، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، واهتزاز القلب عند ذكره، وكثرة الصلاة والسلام عليه لما سكن في القلب من محبته، وتعظيمه، وتوقيره، ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين، ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا الفانية، والاجتزاء باليسير منها، والرغبة في الآخرة الباقية»[2]، اهـ.

ومن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله، ويؤثر مرضاته على ما سواه، وأن يسعى في مرضاته ما استطاع، وأن يبعد عما حرمه الله، ويكرهه أشد الكراهة، ويتابع رسوله صلى الله عليه وسلم ويمتثل أمره، ويترك نهيه كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء: ٨٠].

وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها، وبكمالها يكمل توحيد العبد، هذا وقد نهى الله سبحانه عن موالاة أعدائه في مواضع كثيرة من القرآن، وأخبر أن موالاتهم تنافي الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأنها سبب للفتنة والفساد في الأرض، وأن من والاهم ووادهم فليس من الله في شيء، وأنه من الظالمين الضالين عن سواء السبيل، وأنه مستوجب لسخط الله وأليم عقابه في الآخرة، والآيات في هذا كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[المائدة: ٥١].

فمن أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة ومحبة من حاد الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) انظر: تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعاداة والحب والبغض والهجرات، حمود التويجري. ص٦٢.
(٢) استنشاق نسيم الأنس، ابن رجب ص ٧٣.

﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

وفي النص على الأقارب دليل على أن مصارمة من سواهم من الكفار مطلوبة بطريق الأولى والأحرى.

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال البغوي رحمه الله تعالى: «أخبر الله أن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكفار وإن من كان مؤمنا لا يوالي من كفر وإن كان من عشيرته»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يوجد مؤمن يواد كافرًا فمن واد الكفار فليس بمؤمن»، اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

والركون: هو المحبة والميل بالقلب، إذا علم تحريم موالاة أعداء الله تعالى وموادتهم فليعلم أيضًا أن الأسباب الجالبة لموالاتهم وموادتهم كثيرة جدًا، ومن أقربها وسيلة مساكنتهم في الديار، ولاسيما في ديارهم الخاصة بهم، ومخالطتهم في الأعمال، ومجالستهم، ومصاحبتهم، وزيارتهم، وتولي أعمالهم، والتزيي بزيهم، والتأدب بآدابهم، وتعظيمهم بالقول والفعل، وكثير من المسلمين واقعون في ذلك»[(٢)].

المحبة في الله سبب لنيل محبة الله: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته، ملكًا فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[(٣)].

والحب في الله من علامات صدق الإيمان: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله)[(٤)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من

(١) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٥٢.

(٢) السيرة النبوية، مصطفى السباعي ص١٧-١٩ بتصرف.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله، ٤/ ١٩٨٨، رقم ٢٥٦٧.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٣٢٤، رقم ١٨٤٦٨.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٠٣، رقم ٢٠٠٩.

كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[1].

وممن يظلهم الله في ظله المتحابون فيه: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)[2].

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (رجلان تحابا في الله)[3].

والحب في الله سبيل الجنة: قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله، ٤/ ١٩٨٨، رقم ٢٥٦٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، ٢/ ١١١، رقم ١٤٣٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، ١/ ٧٤، رقم ٥٤.

ثانيًا: الطاعة والانقياد للمحبوب:

إن من أصول محبة الله أن تترجم طاعة وانقيادًا له وتتبع لمرضاته ومحابه، فالمحبة أصل كل حركة، وأساس كل عمل[5].

ولقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم ضوابط هذه المحبة وطرق الطاعة في أكثر من (اثنتي عشرة) آية، منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤ - ٦٥].

وقال أيضًا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

وقال أيضًا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾

(٥) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٩٢.

[النساء: ٨٠].

وقال أيضًا: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١ - ٥٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

قال العز بن عبد السلام: «محبة الله وسيلة إلى أن يعامله العبد معاملة المحب لحبيبه من المبادرة لطاعته، والمسارعة لما يرضيه، والتحرز من أسباب سخطه، والاحتياط لأسباب رضاه»[(١)] ولا تنبعث همة العبد للقيام بأنواع العبادة المختلفة كما تنبعث عندما تحركها محبة الله؛ إذ أن هذه المحبة هي أقوى محركات القلوب إلى الله[(٢)]، كما أنها تبعث في العبد قوة ونشاطا لخدمة المحبوب وطاعته. فإذا ما صحت المحبة وصدقت، أثمرت عبودية تامة لله تعالى يشترك في تحقيقها القلب واللسان والجوارح جميعها.

المحبة هي أصل عبودية القلب، ولها عظيم الأثر في تحققه بالعبودية، ومن ذلك:

المحبة في تحقيق الخوف والرجاء: فإذا تمكن حب الله تعالى من قلب عبده المؤمن أثمر له خوفًا ورجاءً، فإن كل من أحب محبوبًا فلابد أن يخاف فواته كما يرجو لقاءه.

كذلك فالمحب يكون في حبه خائفًا متضائلًا تحت الهيبة والتعظيم، كذا يكون رجاء المحب لجنته التي هي دليل رضاه،

(١) شجرة المعارف والأحوال، العز بن عبدالسلام ص٥٣.

(٢) محركات القلوب إلى الله تعالى ثلاثة هي المحبة والخوف والرجاء.
انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٩٥.

وأشد منه رجاؤه القرب منه، والنظر إلى وجهه الكريم.

«فالخوف والرجاء متلازمان، ويستحيل انفكاك المحب عنهما، وإن كان قد يغلب أحدهما على الآخر، وهما مجتمعان، وذلك عندما يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه»[1].

وتتحقق أثر المحبة في تحقيق الرضا بأقدار الله تعالى إذ أن من أثار محبة الله تعالى الرضا بأقداره حلوها ومرها، «فإن المحب يتسلى بمحبوبه عن كل مصيبة يصاب بها دونه، فإذا سلم له محبوبه لم يبال بما فاته، فلا يجزع على ما ناله؛ لأنه يرى محبوبه عوضًا عن كل شيء، ولا يرى في شيء غيره عوضًا منه، فكل مصيبة عنده هينة إذا أبقت عليه محبوبه»[2].

كذلك فعندما يغلب الحب على قلب العبد وتنصرف همته للفوز بمحبوبه، فإنه ينسى ما يصيبه من ألم، ولا يلتفت له، منشغلًا عنه بترقب ما يحب، والتجربة والمشاهدة دالة على ذلك. كما أن المحب يقبل كل ما يأتيه من حبيبه ويرضى عنه، لاسيما إن كان يعرف ربه، ويحسن الظن به، يعرف رحمته، وعدله، وعظمته، وغناه، وفضله وكرمه، وعلمه ولطفه؛ ولهذا كانت قصص العارفين المحبين في رضاهم بأقدار ربهم أقرب ما تكون إلى الخيال عند من ضعفت بالله معرفتهم ومحبتهم. قال ابن القيم: «من صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينا أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنـزل به، فيها من ضروب المصالح التي لا يحصيها علمه ولا فكرته»[3]، ولهذا فإنه دائمًا شاكرًا حامدًا راضيًا مهما تقلبت به الأيام، ومهما اختلفت به الأحوال، إذ لا يأتي من الحبيب إلا الخير وإن لم يدركه العبد، ورحمة الله تتمثل في الممنوع كما تتمثل في الممنوح[4].

أثر المحبة في تحقيق الصبر على طاعة الله: فذاك أمر آخر للعبد المحب منه أعظم الحظ وأوفر النصيب، فكلما زادت معرفته وصدق حبه ارتقى عن مجرد الصبر عليها إلى حبها والاستلذاذ بها، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان)[5].

ومن هنا «يكون مؤثرًا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبًا على طاعة

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ١٤١.
(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٤١٧.
(٣) الفوائد، ابن القيم ص ٨٥.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٢٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦.

الله، ومتقربًا إليه بالنوافل»[1].

للمحبة أثر بالغ في الولاء والبراء: إذ المحب من حبه لحبيبه يحب كل من يحبه ويواليهم وينصرهم، كما يبغض أعداءه ويتبرأ منهم، فحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢].

فالإيمان بالله يستلزم مودته تعالى، ومحبته، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك يتنافى مع موادة من عاداه وحاده[2].

فالمؤمنون الصادقون يحبون جملة من آمن بالله ورسوله وقام بوظائف الإسلام عملًا واعتقادًا، ويحبون من وجه من معهم من الخير على قدر ما معهم منه، ويبغضونهم على قدر ما معهم من الشر، وكذا يبغضون جملة من كفر أو ألحد أو صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله[3]، لا اعتبار في حبهم وبغضهم لصلات قربى أو هوى نفس، وإنما الاعتبار هو الحب في الله والبغض فيه.

وقد ضرب أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكذا سلف الأمة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمثلة عليا في الولاء لله ورسوله والمؤمنين، والبراءة من أعداءه، مهما كانت صلات قرابتهم أو مبلغ مودتهم قبل اعتناق الدين الحق، وفي قصة إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه وقومه، وفي قصة أبي عبيدة بن الجراح ومصعب بن عمير وغيرهم رضي الله عنهم أصدق الشواهد على ذلك.

وتتحقق أثر المحبة في تحقيق عبودية الجوارح، ومن ذلك دوام الذكر، فالمحبة كلما قويت في القلب جعلت العبد دائم اللهج بذكر ربه تعالى، حامدًا شاكرًا، مهللًا مكبرًا، كما تتحقق أثر المحبة على قراءة القرآن للمحبين مع كلام الله، فصلتهم بالقرآن قوية، يأتمرون بأمره، ويقفون عند نهيه، ويتعظون بوعظه.

ولا شك أن العبادات الظاهرة على سائر الجوارح دليل على وجود محبة الله تعالى في قلب العبد؛ إذ أن محبته تعالى هي أصل أعمال الإيمان كلها، وهي الباعثة على الطاعات كلها، والطاعة والاتباع هما دليل صدقها[4] ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

(١) المحبة والشوق والأنس والرضا، الغزالي ص٧٤.
(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٧٥٢.
(٣) انظر: إرشاد الطالب، ابن سحمان ص١٣، والولاء والبراء، القحطاني ص١٣٤.
(٤) انظر: موعظة المؤمنين، القاسمي ص٤١٨.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن ذلك المحبة في تحقيق الصلاة، فالمحب يحب تكرار اللقاء، فيقبل على النوافل فرحًا بوقوفه بين يدي ربه جل وعلا.

ومن أثر المحبة تحقيق الجهاد والدعوة، فالمحب لا يألو جهدًا في الدعوة إلى سبيل مرضاته، وتعريف العباد به، وبذل كل غالٍ في سبيله؛ ولهذا وصف الله الذين يحبهم ويحبونه فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فمن امتلأت قلوبهم بمحبته باعوا نفوسهم لله تعالى يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وكذلك فللمحبة أعظم الأثر في تحقيق الصيام، والحج له، والزكاة اتباعا لأمره جل وعلا، وغيرها من العبادات التي إن قام بها العبد بدافع من محبته لربه تعالى كانت أكمل وأفضل.

فالمحبة دافع على منتهى الاجتهاد في الطاعة، «من عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه»[1].

فالمحبة والمعرفة والإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع العبادات وآتت ثمارها، فإن انضم لدافع المحبة دافع الخوف والرجاء كانت العبودية أكمل والاستقامة آكد.

ثالثًا: الحشر مع المحبوب:

إن المتأمل في الآيات التي جاء فيها لفظ الحشر ليدرك أنها جاءت لتؤكد الحشر والجمع مع من كان يحبون أو يعبدون، يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ

(١) القول لعتبة بن غلام.
انظر: روضة العقلاء، ابن حبان ص٥٦٤.

﴿طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وفي هذه الآيات دلالة واضحة على أن الذين أجرموا حشروا مع أقرانهم، وأن الذين آمنوا حشروا مع أقرانهم، فعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثٌ هن حقٌّ: لا يجعل الله من له سهمٌ في الإسلام كمن لا سهم له، ولا يتولى الله عبدٌ فيوليه غيره، ولا يحب رجلٌ قومًا إلا حشر معهم)[١].

ومن الأحاديث المشهورة في هذا المعنى حديث أنسٍ رضي الله عنه، (أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: (وماذا أعددت لها)؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقال: (أنت مع من أحببت). قال أنسٌ: (فما فرحنا بشيءٍ فرحنا بقول النبي -صلى الله عليه وسلم: أنت مع من أحببت، قال أنسٌ: فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكرٍ وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم)[٢].

والحب المقصود هنا نوعان:

الأول: المحبة الدينية، أي المحبة لأجل الدين والمعتقد، فمن أحب الصالحين لصلاحهم وأحب ما هم عليه من التقوى والدين، رجي أن يجمعه الله بهم في جنته، ومن أحب الكفار لكفرهم ومعتقدهم، ووالاهم على ما هم فيه، كان ذلك أيضًا سببا لدخول النار معهم.

قال ابن بطال رحمه الله: «بيان هذا المعنى أنه لما كان المحب للصالحين إنما أحبهم من أجل طاعتهم لله، وكانت المحبة عملًا من أعمال القلوب، واعتقادًا لها، أثاب الله معتقد ذلك ثواب الصالحين؛ إذ النية هي الأصل، والعمل تابع لها، والله يؤتي فضله من يشاء»[٣].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين، لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٦/ ٢٩٣، وفي المعجم الصغير ٢/ ١١٤. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك، ٨/ ٣٩، رقم ٦١٦٧.

(٣) باختصار من شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٣٣٣.

في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي: حبًا دينيًا؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩][(١)].

ويقول ابن حجر الهيتمي رحمه الله في حديثه عن كبيرة محبة الظلمة أو الفسقة وبغض الصالحين-: «عد هذين كبيرة هو ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة: (المرء مع من أحب) وله وجه؛ إذ الفرض أنه أحب الفاسقين لفسقهم، وأبغض الصالحين لصلاحهم، وظاهر أن محبة الفسق كبيرة كفعله، وكذا بغض الصالحين؛ لأن حب أولئك الفاسقين وبغض الصالحين يدل على انفكاك ربقة الإسلام وعلى بغضه، وبغض الإسلام كفر، فما يؤدي إليه ينبغي أن يكون كبيرة»[(٢)].

الثاني: المحبة الموجبة لتشابه الأعمال والأخلاق، فمن أحب أحد العلماء الصالحين وتشبه بما هو عليه من الصلاح والتقوى دخل الجنة بذلك، ومن أحب الفاسقين أو الكافرين، وأدت به محبته إلى التشبه بأحوالهم ومعاصيهم كان معهم في العقاب أيضًا.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: «قال الحسن: يا ابن آدم! لا يغرنك قول من يقول: (المرء مع من أحب) فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم، وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك، من غير موافقة في بعض الأعمال، أو كلها: لا ينفع»[(٣)].

أما الحب الدنيوي الذي يكون باعثه قرابة أو صداقة أو مصلحة مادية أو زواج أو غير ذلك من أسباب الدنيا الفانية، فلا يكون سببًا للجمع في المحشر أو المصير، فالمسلم الذي يحب والدته غير المسلمة حبًا فطريًا، ولا يحشر معها، وغير المسلم الذي يحب صديقه المسلم مثلًا من غير إسلام واتباع لا يحشر معه، وهكذا كل أنواع المحبة الدنيوية لا مدخل لها في معنى هذا الحديث.

ويقول الزرقاني رحمه الله: «(المرء مع من أحب) في الجنة بحسن نيته من غير زيادة عمل؛ لأن محبته لهم لطاعتهم، والمحبة من أفعال القلوب، فأثيب على ما اعتقده؛ لأن الأصل النية، والعمل تابع لها، ولا يلزم من المعية استواء الدرجات، بل ترفع الحجب حتى تحصل الرؤية والمشاهدة، وكلٌّ في درجته».

وقال السخاوي: «قال بعض العلماء: ومعنى الحديث أنه إذا أحبهم عمل بمثل أعمالهم، قال الحسن البصري: من أحب قومًا اتبع آثارهم، واعلم أنك لن تلحق

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦٥.
(٢) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ١٨٤.
(٣) انظر: إحياء علوم الدين ٢/ ١٦٠.

بالأخيار حتى تتبع آثارهم، فتأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتصبح وتمسي على مناهجهم؛ حرصًا أن تكون منهم»[1].

ومع ذلك ننبه الشباب إلى أن التعلق باللاعبين والممثلين -بأخبارهم وأحوالهم وأيامهم- إنما هو من الأوهام والخيالات التي لا تجر إليهم إلا كل فساد وشر، وهي الباب للتخلق بأخلاقهم، والعمل بمثل أعمالهم؛ فإن بين الظاهر والباطن ارتباطا لا يجهله أحد، والمشاكلة في الظاهر توجب المحبة في الباطن، وهكذا العكس بالعكس.

أما الحب النافع فهو حب الصالحين والناجحين والمبدعين فيما يعود بالنفع على الأمة والبشرية جميعًا، حبًا يدفع نحو التقدم والنجاح في الدنيا والآخرة بإذن الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهذا الحديث حق؛ فإن كون المحب مع المحبوب أمر فطري لا يكون غير ذلك، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريبًا من ذلك كان معه بحسب ذلك، وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك.

والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابه إذا كان المحب قادرًا عليها، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة، يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك وإن كانت موجودة، وحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته مع العلم بالتضاد..»[2].

موضوعات ذات صلة:

الرضا، الغضب، الكره

(١) انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٥/ ٣٠٤.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٧٥٢.

محمد صلى الله عليه وسلم

عناصر الموضوع

التعريف بمحمد صلى الله عليه وسلم	١٠٠
ذكر محمد عليه السلام في القرآن الكريم	١٠٢
أوصاف نودي بها النبي في القرآن	١٠٣
صفته عليه السلام في الكتب السابقة	١٠٨
صفة محمد عليه السلام في القرآن	١٢٤
خلقه عليه السلام من خلال القرآن	١٤١
منزلته عند الله عز وجل	١٥٣

التعريف بمحمد صلى الله عليه وسلم

أولًا: اسمه ونسبه:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب -واسم عبد المطلب: شيبة - بن هاشم - واسم هاشم: عمرو - بن عبد مناف - واسم عبد مناف: المغيرة - بن قصي -واسم قصي زيد- بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة - واسم مدركة: عامر - بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [(١)].

واسم (محمد) «منقول من صفة، وهي في معنى محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار. فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة. كما أن المكرم من الكرم مرة بعد مرة. وكذلك الممدح ونحو ذلك. فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه. فهذا علم من أعلام نبوته، إذ كان اسمه صادقًا عليه، فهو محمود في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة. وهو محمود في الآخرة بالشفاعة. فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ»[(٢)].

«وأحمد اسم نبينا صلى الله عليه وسلم. وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل، فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل. فمعنى أحمد أي: أحمد الحامدين لربه. والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدًا »[(٣)].

وقيل: إنه « مبالغة في المفعول، أي: الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو أكثرهم مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها»[(٤)].

«ثم إنه لم يكن محمدًا حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه؛ فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد فذكره عيسى عليه السلام فقال: اسمه أحمد. وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد؛ لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له. فلما وجد وبعث كان محمدًا بالفعل»[(٥)].

---

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨ / ٨٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٨ / ١٠٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨ / ٨٤.

وعن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي)[١].

وعن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمي لنا نفسه أسماء، فقال: (أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الملحمة)[٢].

ويعود نسبه الشريف إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وهو من قبيلة قريش، أفضل العرب وأشرفها.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل اصطفى بني كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[٣].

وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ولدته: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب.

وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعته حتى شب: حليمة بنت الحارث بن سجنة السعدية. من بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، بن مضر[٤].

ومات أبوه عبد اللّه بن عبد المطلب -ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حمل في بطن أمه- بالمدينة[٥].

ثانيًا: زمانه ومكانه:

ولد صلى الله عليه وسلم في مكة، عام الفيل، يوم الاثنين، في شهر ربيع الأول، واختلف في تحديد تاريخه[٦]. وبعث صلى الله عليه وسلم وعمره أربعون سنة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٥، رقم ٣٥٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، رقم.

(٤) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ١/ ١٨٣.

(٥) انظر: إمتاع الأسماع، المقريزي ١/ ٩.

(٦) انظر: السيرة النبوية، ابن كثير ١/ ١٩٩.

ذكر محمد عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم باسم (محمد) في القرآن الكريم (٤) مرات، في (٤) سور، وهي:

السورة	الآيات
آل عمران	١٤٤
الأحزاب	٤٠
محمد	٢
الفتح	٢٩

وهناك موضع خامس: عدل فيه إلى اسم أحمد بسبب وقوعه في سياق الإخبار عن بشرى عيسى عليه السلام ببعثته عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف:٦].

أوصاف نودي بها النبي في القرآن

كل نداء نودي محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم كان بأوصاف، لا باسمه الشريف.

ومن تلك الأوصاف:

١. النبي والرسول.

إن أكثر ما يدعى به محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم النبي والرسول، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١].

وقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

وتعلن هاتان الصفتان عن منزلة التكريم التي يمتدح الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ويشهد له بها: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٦].

وقد وقع العدول في هذه الآيات ونحوها عن مناداته صلى الله عليه وسلم باسمه إلى مناداته بوصفي «النبي» و «الرسول» بغرض التكريم وبيان رفعة المنزلة، وذلك أن «الأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم إذا كان معروفًا عند المتكلم، فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال:٦٤].

أو تلطف وتقرب نحو: يا بني ويا أبت، أو قصد تهكم نحو: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر:٦]»[(١)].

فأما لفظ (النبي) فهو مشتق من (نبأ) أو (أنبأ) بمعنى: أخبر[(٢)].

والنبوة: « سفارة بين الله وبين ذوي العقول؛ لإزاحة عللهم فى أمر معادهم ومعاشهم»[(٣)].

«والنبي: من أوحى الله إليه بإصلاح أمر قوم بحملهم على شريعة سابقة، أو بإرشادهم إلى ما هو مستقر في الشرائع كلها»[(٤)].

وأما الرسول فـ: « هو الرجل المبعوث من الله إلى الناس بشريعة، فالنبي أعم من الرسول»[(٥)]، وكلاهما صفة مدح وتشريف في حق محمد صلى الله عليه وسلم.

ولإن كانت صفتا (النبي) و(الرسول) أكثر صفتين يدعى بهما في القرآن الكريم، فإنهما الصفتان اللتان يوصف بهما عليه

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩ / ٢٣٨.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١ / ١٤٤٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور١٧/ ٢١٥.
(٥) المصدر السابق.

الصلاة والسلام للناس في سياق الحث على الإيمان به: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء:١٧٠].

وعلى الإقرار بالحق الذي جاء به: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥].

وعلى طاعته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٩].

وعلى اتباعه وترك التقدم بين يديه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات:١].

وعلى توقيره ومعرفة قدره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات:٢].

وعلى ترك ما يؤذيه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣] ونحو ذلك بمعنى: قد وجب ذلك له؛ لأنه نبي الله ورسوله.

كما نسبه الله عز وجل إلى ذاته العلية رفعًا لشأنه وتعظيما لمقامه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة:٩٢].

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب:٤٠].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٦١].

وهذه نسبة تشريف، ورفع لقدره، ودلالة على مقامه، حتى اختصه الله بخلته، وقرن اسمه باسمه عليه الصلاة والسلام.

٢. المزمل والمدثر.

ومن الأسماء التي دعي بها محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم:

(المزمل) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ [المزمل:١-٢].

وتعني: « الملتف في ثيابه، وأصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي، فثقلت. وكل من التف بثوبه فقد تزمل»[1].

(المدثر) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر:١-٢].

وأصله أيضًا: « المتدثر، فأدغمت التاء، كما في المتزمل، وهذا في قول الجمهور؛

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٦ / ٨٥.

من التدثير بالثياب. وقيل: المعنى: يا أيها المدثر بالنبوة، وأثقالها، قال عكرمة: دثرت هذا الأمر فقم به»[1].

ولهذين الاسمين ارتباط بما روى البخاري في كتاب التفسير من حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:(جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا علي ماءً باردًا. قال: فدثروني وصبوا علي ماءً باردًا. قال: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر:١-٣].)[2].

ولأن الحديث نص على أن الواقعة نزلت بسببها سورة المدثر، فقد ذكرها الإمام البخاري سببا لنزولها وحدها دون آيات سورة المزمل، وإن كان الحديث قد تضمن لفظ «زملوني» وكذلك فعل مشاهير المفسرين[3]، ثم ذكروا في سبب تسميته صلى الله عليه وسلم بالمزمل أوجهًا.

قال ابن الجوزي: «قال المفسرون: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتزمل في ثيابه في أول ما جاء جبريل فرقًا منه حتى أنس به. وقال السدي: كان قد تزمل للنوم. وقال مقاتل: خرج من البيت وقد لبس ثيابه، فناداه جبريل: يا أيها المزمل. وقيل: أريد به متزمل النبوة. قال عكرمة: في معنى هذه الآية: زملت هذا الأمر، فقم به»[4].

والمتأمل لهذه الأقوال يجد أن بعضها حمل اللفظ على ظاهره، ويحتاج عند ذلك إلى الاستناد على واقعة تنقل من طريق الرواية، وهي أن يكون قد تزمل في ثيابه في أول ما جاء جبريل خوفًا منه حتى أنس به، أو أن يكون قد تزمل للنوم، أو أن يكون قد خرج من البيت وقد لبس ثيابه، فناداه جبريل: يا أيها المزمل. وأما باقي الأقوال فقد عدل عن الظاهر فقيل: أراد متزمل النبوة، أو زملت هذا الأمر، فقم به.

قال ابن العربي: « واختلف في تأويله، فمنهم من حمله على حقيقته، قيل له: يا من تلفف في ثيابه أو في قطيفته قم، قاله إبراهيم وقتادة.

ومنهم من حمله على المجاز كأنه قيل له: يا من تزمل بالنبوة. روي عن عكرمة أنه قال: معناه يا من تزمل، أي: زملت هذا الأمر

(١) المصدر السابق ٦ / ٩٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق)، ٦/ ١٦١، رقم ٤٩٢٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٧٨-٦٧٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٣٢-٣٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٤٩.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٦ / ٨٥.

فقم به »[1].

ثم قال: « فأما العدول عن الحقيقة إلى المجاز فلا يحتاج إليه لاسيما وفيه خلاف الظاهر؛ وإذا تعاضدت الحقيقة والظاهر لم يجز العدول عنه.

وأما قول عكرمة: إنك زملت هذا الأمر فقم به؛ وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشددة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعله، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل.

وأما قول من قال: إنه زمل بالقرآن فهو صحيح في المجاز، لكنه كما قدمنا لا يحتاج إليه[2].

وهذا النداء كما عدل فيه عن مناداته صلى الله عليه وسلم باسمه، فقد عدل فيه عن مناداته بـ «النبي» و «الرسول».

فأما العدول فيه عن وصف النبي والرسول، فـقيل في سببه: « إنما لم يخاطب بالنبي والرسول هاهنا، لأنه لم يكن قد بلغ، وإنما كان في بدء الوحي »[3].

وفيه ملاطفة للنبي صلى الله عليه وسلم، كما فيه تنشيط لمن حاله النوم كي يقوم للعبادة، قال القرطبي: « وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنهما، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له:(قم يا أبا تراب) إشعارًا له أنه غير عاتب عليه، وملاطفة له. وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة: (قم يا نومان) وكان نائمًا ملاطفة له، وإشعارًا لترك العتب والتأنيب. فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: « يا أيها المزمل قم » فيه تأنيس وملاطفة؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة»[4].

ولعل في الوصفين تنبيها إلى الحال التي صار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما أوحى الله إليه، بسبب أنه لم يكن قد توقع نزول الوحي عليه ولا رجاه أو طلبه، والله أعلم.

كما أن فيها تنبيها على رأفة الله به وحمله على القيام برسالته على جهة التأنيس والتلطف، وكل ذلك لا يخرج عن سياق الدلالة على رفعة الشأن والمقام.

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٧ / ٤٤٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٦ / ٨٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٣٣.

٣. عبد الله.

وهناك صفة أخرى دلت عليه فكانت في عرف السامع كاسمه الدال عليه، وهي إذا تعلقت بمحمد صلى الله عليه وسلم اكتسبت بعد المدح له والثناء عليه، بل اكتسبت أعلى درجات المدح والتشريف، وهي صفة العبودية، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء:١] ونحوها.

فالإضافة في (عبدنا) و(عبده) «إضافة تشريف لا إضافة تعريف؛ لأن وصف العبودية لله متحقق لسائر المخلوقات فلا تفيد إضافته تعريفا»[١].

قال في الجامع لأحكام القرآن: «قال العلماء: لو كان للنبي صلى الله عليه وسلم اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية»[٢] يعني: حين أسري به.

وقد «ذكروا أنه لم يعبر الله تعالى عن أحد بالعبد مضافًا إلى ضمير الغيبة المشار به إلى الهوية إلا النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك من الإشارة ما فيه»[٣].

كما أن في التعبير بوصف «العبودية» في هذا المقام سد لباب الغلو في نبي الله صلى الله عليه وسلم، كما فعلت النصارى مع عيسى عليه السلام[٤].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤ / ١١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠ / ٢٠٥.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٨ / ٦.
(٤) المصدر السابق.

صفته عليه السلام في الكتب السابقة

محمد صلى الله عليه وسلم هو استجابة الله لدعوة الخليل عليه السلام أن يبعث الله في ذريته رسولًا يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، كما قص القرآن الكريم خبر دعائه حين قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٨-١٢٩].

روى الحاكم عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنهم قالوا: (يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؟ فقال: (دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصرى، وبصرى من أرض الشام)[1].

قال الشنقيطي: « قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ لم يبين هنا من هذه الأمة التي أجاب الله بها دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل، ولم يبين هنا أيضا هذا الرسول المسؤول بعثه فيهم من هو؟ ولكنه يبين في سورة الجمعة أن تلك الأمة العرب، والرسول هو سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾[الجمعة:٢-٣] لأن الأميين العرب بالإجماع، والرسول المذكور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إجماعًا، ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحده. وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعا به إبراهيم، ولا ينافي ذلك عموم رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الأسود والأحمر»[2].

وقد نص القرآن الكريم على أن وصف النبي صلى الله عليه وسلم مكتوب في الكتب السابقة، في قوله تعالى مخاطبا نبيه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٦٥٦، رقم ٤١٧٤.
قال الحاكم: «خالد بن معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة فإذا أسند حديثا إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وصححه الذهبي.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٤.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

وأن من أهل الكتاب قومًا عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه كما يعرفون أبناءهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

وهم علماؤهم الذين يقرؤون الكتاب، قال في البحر المحيط: « فقال سبحانه: الذين آتيناهم الكتاب واخترناهم لتحمل العلم والوحي، يعرفون هذا الذي خاطبناه في الآي السابقة وأمرناه ونهيناه، لا يشكون في معرفته، ولا في صدق أخباره، بما كلفناه من التكاليف التي منها نسخ بيت المقدس بالكعبة، لما في كتابهم من ذكره ونعته، والنص عليه يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل»[1].

والذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم هو محمد صلى الله عليه وسلم «قال قتادة والسدي وابن جريج: الضمير عائد في ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ على محمد عليه السلام ورسالته، وذلك على ما في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم﴾ [الأنعام:١٩].

فكأنه قال: وأهل الكتاب يعرفون ذلك من إنذاري والوحي إلي»[2].

قال ابن عطية: « وتأول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه، وغرض الآية إنما هو الوقوف على صورته فلا يخطئ الأب فيها »[3].

ولكن فريقًا منهم كتموا الحق الذي عرفوه واستيقنوه: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٤٦] « أي: (فريقًا) من الذين آتيناهم الكتاب، وهم المصرون على الكفر والعناد من علماء اليهود والنصارى، على أحسن التفاسير في الذين آتيناهم الكتاب، وأبعد من ذهب إلى أنه أريد بهذا الفريق جهال اليهود والنصارى، الذين قيل فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]. للإخبار عن هذا الفريق أنهم يكتمون الحق وهم عالمون به، ولوصف الأميين هناك بأنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني.

والحق المكتوم هنا هو نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة ومجاهد، والتوجه إلى الكعبة، أو أن الكعبة هي القبلة،

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٢ / ٣٣.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٣٩١.

(٣) المصدر السابق.

أو أعم من ذلك، فيندرج فيه كل حق»[1].

وقد كان هذا سببًا لخسرانهم عند الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام:٢٠].

فقد «قيل: أريد بهم أهل الكتاب، أي: الذين كتموا الشهادة، فيكون ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ بدلًا من ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾»[2].

وأما مرد هذه المعرفة فإلى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد كتب وصفه في الكتب السابقة كما تقدم، ولا يضر كتمان فريق من علمائهم وصفه.

قال ابن تيمية: «ثم العلم بأن الأنبياء قبله بشروا به يعلم من وجوه:

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب من ذكره.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب وغيرها من كتب أهل الكتاب ممن أسلم ومن لم يسلم بما وجدوه من ذكره فيها.

وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنه رسول الله؛ وأنه موجود عندهم، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام، حتى آمن الأنصار به وبايعوه من غير رهبة ولا رغبة. ولهذا قيل: إن المدينة فتحت بالقرآن لم تفتح بالسيف كما فتح غيرها»[3].

ويضاف إلى هذا النوع الثاني الذي نص عليه ابن تيمية أمور:

أحدها: ما اشتهر عن خلق كثير من علماء أهل الكتاب ابتداء من عبد الله بن سلام رضي الله عنه وإلى عصرنا هذا، بل وإلى يوم القيامة، من وجدانهم أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم وأنهم كانوا يقرؤونها في كتبهم.

والثاني: ما نقل العلماء والمفسرون من أخبار كثيرة عن أكابر أهل الكتاب وعلمائهم الذين شهدوا بالحق حتى وإن لم يتبعوه، من نحو خبر قيصر مع أبي سفيان، ومعرفته النبي صلى الله عليه وسلم، حتى هم أن يسلم ثم نكص لما عارضته حاشيته[4].

ومنها خبر الفتى اليهودي الذي حضر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وفاته وشهادته بالحق قبل أن يموت[5].

ومنها أثر هشام بن العاص حين أرسل

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٢ / ٣٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور٦ / ٥٠.
(٣) الجواب الصحيح، ابن تيمية ٥ / ١٦٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)، ٦/ ٣٥، رقم ٤٥٥٣.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/ ٤٧٦، رقم ٢٣٤٩٢.
قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٨٣: هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح عن أنس.

إلى هرقل فأراه صور الأنبياء وصورة النبي صلى الله عليه وسلم[1]، وأثر جبير بن مطعم حين خرج تاجرًا إلى الشام فأراه رجل صورته عليه الصلاة والسلام[2]، وحديث الأقرع مؤذن عمر في سؤال عمر رضي الله عنه للأسقف عما في كتابهم وإخباره له بصفته[3].

والثالث: كثير من الأخبار التي تتلى في كتب أهل الكتاب وفيها صفته صلى الله عليه وسلم، نحو ما نقل عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو -وكان يحدث من كتب السابقين وأصاب في إحدى الغزوات صحيفة فكان يحدث منها- من أن صفة النبي صلى الله عليه وسلم « في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظٍ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: «لا إله إلا الله»، فنفتح به قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًا، وأعينًا عميًا» قال عطاء -وكان سأل عبد الله بن عمرو: ثم لقيت كعبًا فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفًا، إلا أن كعبًا قال بلغته: قلوبًا غلوفيا، وآذانًا صموميا، وأعينًا عموميا»[4].

ومن ذلك ما أخرج الحافظ ابن عساكر الدمشقي عن سهل مولى غنيمة أنه كان نصرانيًا من أهل مريس، وأنه كان يتيمًا في حجر أمه وعمه، وأنه كان يقرأ التوراة والإنجيل، قال: فأخذت مصحفًا لعمي فقرأته حتى مرت بي ورقة أنكرت كتابتها حين مرت بي ومسستها بيدي، قال: فنظرت فإذا أصول الورقة ملصوقة بغراء، قال: ففتقتها فوجدت فيها نعت محمد عليه الصلاة والسلام: «أنه لا قصير ولا طويل، أبيض ذو صفرة، من بين كتفيه خاتم، يكثر الاحتباء، ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة، ويلبس قميصًا مرقوعًا، ومن فعل ذلك فقد برئ من الكبر، وهو يفعل ذلك وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد»[5].

ومن ذلك، ما أخرجه البيهقي في الدلائل عن وهب بن منبه قال: «إن الله تعالى أوحى في الزبور يا داود، إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد، لا أغضب عليه أبدًا، ولا يعصيني أبدًا، وقد غفرت له قبل أن

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٣٨٦.
قال ابن كثير في تفسيره ٤/ ٤٨٤: إسناده لا بأس به.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٢/ ١٢٥، رقم ١٥٣٧.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الخلفاء، ٤/ ٢١٣، رقم ٤٦٥٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٣ / ١٦٤.
(٥) تاريخ دمشق، ابن عساكر ٣/ ٣٨٩.

يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل، حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء.

وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهروا إلى كل صلاة كما افترضت على الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم.

يا داود إني فضلت محمدًا وأمته على الأمم كلهم، أعطيتهم ست خصال لم أعطها غيرهم من الأمم:

١. لا أؤاخذهم بالخطأ والنسيان.

٢. وكل ذنب ركبوه على غير عمد إذا استغفروني منه غفرته.

٣. وما قدموا لآخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم عجلته لهم أضعافًا مضاعفة، ولهم عندي أضعاف مضاعفة، وأفضل من ذلك.

٤. وأعطيتهم على المصائب إذا صبروا وقالوا: (إنا لله وإنا إليه راجعون) الصلاة والرحمة والهدى إلى جنات النعيم.

٥. فإن دعوني استجبت لهم؛ فإما أن يروه عاجلًا، وإما أن أصرف عنهم سوءًا، وإما أن أدخره لهم في الآخرة.

٦. يا داود من لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا الله، وحدي لا شريك لي، صادقا بها، فهو معي في جنتي وكرامتي، ومن لقيني وقد كذب محمدًا، وكذب بما جاء به، واستهزأ بكتابي، صببت عليه من قبره العذاب صبًا، وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره في قبره، ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار»[1].

وهذه الأخبار ونحوها وإن كانت قد رويت من طريق من أسلموا، أو من طريق مسلمين اطلعوا على كتب اليهود والنصارى، فليس ذلك قدحًا ولا طعنًا فيها؛ لأن أقل ما يقال لمن يعترض عليها: إن كان في كون رواتها مسلمين مطعن عليها، ففي كون المنكرين لها غير مسلمين مطعن في إنكارهم، وليس لهم أن يقولوا: إننا لا نجد في كتبنا ما نص عليه القرآن من تبشير الأنبياء به. قال ابن تيمية: «فإذا قال المعارض: عدم إخبار من قبله به يقدح في نبوته، وأنه إذا قدر أنه لم يخبر به من قبله -والإخبار شرط في النبوة- كان ذلك قدحا. قيل: الجواب هنا من طريقين:

أحدهما: أن يقال: إذا علمت نبوته بما قام عليها من أعلام النبوة فإما أن يكون

(١) دلائل النبوة ١/ ٣٨٠.

تبشير من قبله لازمًا لنبوته واجبًا أو واقعًا، وإما أن لا يكون لازمًا؛ فإن لم يكن لازمًا لم يجب وقوعه، وإن كان لازمًا عُلِمَ أنه قد وقع وإن كان ذلك لم ينقل إلينا؛ إذ ليس كل ما قالته الأنبياء المتقدمون علمناه ووصل إلينا، وليس كل ما أخبر به المسيح ومن قبله من الأنبياء وصل إلينا، وهذا مما يعلم بالاضطرار.

ولو قدر أن هذا ليس في الكتب الموجودة لم يلزم أن المسيح ومن قبله لم يذكروه، بل يمكن أنهم ذكروه وما نقل، ويمكن أنه كان في كتب غير هذه، ويمكن أنه كان في نسخ غير هذه النسخ فأزيل من بعضها ونسخت هذه مما أزيل منه، وتكون تلك النسخ التي هو موجود فيها غير هذه، فكل هذا ممكن في العادة لا يمكن الجزم بنفيه. فلو قدر أنه ليس في هذه الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب لم يقطع بأن الأنبياء لم يبشروا به، فإذا لم يمكن لليهود أن يقطعوا بأن المسيح لم يبشر به الأنبياء، ولا يمكن أهل الكتاب أن يقطعوا بأن محمدًا لم يبشر به الأنبياء، لم يكن معهم علم بعدم ذلك، بل غاية ما يكون عند أحدهم ظن لكونه طلب ذلك فلم يجده »[1].

الرابع: أن كثيرا من هذه الأخبار ما زالت تتلى في كتب النصارى إلى اليوم، وإن كانوا يتأولونها على غير ما يقول المسلمون فيها، وقد أورد الرازي في تفسيره « بعض ما جاء به عيسى عليه السلام بمقدم سيدنا محمد عليه السلام في الإنجيل

أولها: في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: «و أنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم، ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد، والفارقليط هو روح الحق اليقين» هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربي، وذكر في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ: «و أما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي، ويعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء، وهو يذكركم ما قلت لكم» ثم ذكر بعد ذلك بقليل: «وإني قد خبرتكم بهذا قبل أن يكون حتى إذا كان ذلك تؤمنون».

وثانيها: ذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا: «و لكن أقول لكم الآن حقًا يقينا: انطلاقي عنكم خير لكم، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتكم الفارقليط، وإن انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم، ويدينهم ويمنحهم ويوقفهم على الخطيئة والبر والدين».

وثالثها: ذكر بعد ذلك بقليل هكذا: «فإن لي كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله لكم، ولكن لا تقدرون على قبوله والاحتفاظ به، ولكن إذا جاء روح الحق إليكم يلهمكم ويؤيدكم

(١) الجواب الصحيح ٥ / ١٥٥.

بجميع الحق؛ لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه» هذا ما في الإنجيل، فإن قيل: المراد بفارقليط إذا جاء يرشدهم إلى الحق ويعلمهم الشريعة وهو عيسى يجيء بعد الصلب؟

نقول: ذكر الحواريون في آخر الإنجيل أن عيسى لما جاء بعد الصلب ما ذكر شيئًا من الشريعة، وما علمهم شيئًا من الأحكام، وما لبث عندهم إلا لحظة، وما تكلم إلا قليلًا، مثل أنه قال: «أنا المسيح فلا تظنوني ميتا، بل أنا ناج عند الله ناظر إليكم، وإني ما أوحي بعد ذلك إليكم»[1].

وقد نقل من تفسيرات علمائهم الذين أسلموا علمهم بدلالتها على النبي صلى الله عليه وسلم كما كتب السموأل المغربي الذي كان من أكابر أحبارهم في كتابه «بذل المجهود في إفحام اليهود»[2] مثلاً.

وقد قام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بمقارنة بعض هذه الأخبار بما يقرأ النصارى اليوم في أناجيلهم، قال: « روى البخاري في كتاب «التفسير» من صحيحه في الكلام على سورة الفتح عن عطاء بن يسار أن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: «إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥]. قال في التوراة: يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح (أو ويغفر) ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح (أو فيفتح) به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا» اهـ.

وقول عبد الله بن عمرو «في التوراة» -يعني بالتوراة: أسفار التوراة وما معها من أسفار الأنبياء إذ لا يوجد مثل ذلك فيما رأيت من الأسفار الخمسة الأصلية من التوراة- وهذا الذي حدث به عبد الله بن عمرو ورأيت مقاربه في سفر النبيء أشعياء من الكتب المعبر عنها بالتوراة تغليبا، وهي الكتب المسماة بالعهد القديم، وذلك في الإصحاح الثاني والأربعين منه بتغيير قليل (أحسب أنه من اختلاف الترجمة أو من تفسيرات بعض الأحبار وتأويلاتهم).

ففي الإصحاح الثاني والأربعين منه «هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا تقصف، وفتيلة خامدة لا تطفأ، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩ / ٥٢٨.
(٢) بذل المجهود في إفحام اليهود ص١١٣-١١٨.

في الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك، وأحفظك وأجعلك عهدًا للشعب ونورًا للأمم؛ لتفتح عيون العمي؛ لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن، الجالسين في الظلمة، أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر».

وإليك نظائر صفته التي في التوراة من صفاته في القرآن:

- (يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا) نظيرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥].
- (هذه الآية وحرزا للأميين) نظيرها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الجمعة:٢].
- (أنت عبدي ورسولي) نظيرها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١].
- (سميتك المتوكل) نظيرها: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٣].
- (ليس بفظ ولا غليظ) نظيرها: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].
- (ولا صخاب في الأسواق) نظيرها: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ [لقمان:١٩].
- (ولا يدفع السيئة بالسيئة) نظيرها: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت:٣٤].
- (ولكن يعفو ويصفح) نظيرها: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ﴾ [المائدة:١٣].
- (ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله) نظيرها: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣].
- (ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا) نظيرها: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة:٧].

في سورة البقرة في ذكر الذين كفروا مقابلًا لذكر المؤمنين في قوله قبله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

ولنذكر هنا ما في سفر أشعياء ونقحم فيه بيان مقابلة كلماته بالكلمات التي جاءت في حديث عبد الله بن عمرو.

جاء في «الإصحاح» الثاني والأربعين من سفر أشعياء: هو ذا عبدي (أنت عبدي) «الذي أعضده مختاري (ورسولي) الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم لا يصيح (ليس بفظ) ولا يرفع (ولا غليظ) ولا يسمع في الشارع صوته (ولا صخاب في الأسواق) قصبة مرضوضة لا يقصف (ولا يدفع السيئة بالسيئة) وفتيلة خامدة لا تُطْفأ (يعفو ويصفح) إلى الأمان يخرج الحق (وحرزًا) لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض (ولن يقبضه الله

حتى يقيم به الملة العوجاء) وتنتظر الجزائر شريعته (للأميين) أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك (سميتك المتوكل) وأحفظك (ولن يقبضه الله) وأجعلك عهدًا للشعب (أرسلناك شاهدًا) ونورا للأمم (مبشرًا) لنفتح عيون العمي (ونفتح به أعينًا عميًا) لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن (وآذانًا صمًا) الجالسين في الظلمة (وقلوبًا غلفًا). أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر» (بأن يقولوا: لا إله إلا الله)»[1].

هذا عما روي من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة، أما القرآن الكريم فإنه مع إخباره بأن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم إلا أنه لم ينص على وصف خاص من أوصافه سوى أنه من الأميين ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وإنما نص على أمور:

أحدها: الشريعة التي يجيء بها: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

والثاني: صفة تأديبه للناس: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

والثالث: صفة أصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

وصفة من بعث فيهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة:٢].

فأما (الأمي) فقيل: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب ولا يحسب «قال ابن عباس: هو منكم كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

وقال صلى الله عليه وسلم (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب).

وقيل: هو منسوب إلى أمته كأن أصله أمتي فسقطت التاء من النسبة كما سقطت من المكي والمدني.

وقيل: منسوب إلى أم القرى وهي مكة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٥.

أم القرى. ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ أي: صفته ونبوته ونعته وأمره مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل»[1].

وأما معنى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فـ«المراد بالمعروف: الإيمان، وقيل: ما عرف في الشريعة. والمراد بالمنكر ضد ذلك، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ فسر الأول بالأشياء التي يستطيبها الطبع كالشحوم، والثاني بالأشياء التي يستخبثها كالدم، فتكون الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل، وفي كل ما تستخبثه النفس ويكرهه الطبع الحرمة إلا لدليل منفصل، وفسر بعضهم الطيب بما طاب في حكم الشرع والخبيث بما خبث فيه كالربا والرشوة»[2].

وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس رسولا « فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، لم يحرم عليهم شيئًا من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحل لهم شيئًا من الخبائث كما استحلتها النصارى، ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى؛ فلا يوجبون الطهارة من الجنابة، ولا الوضوء للصلاة، ولا اجتناب النجاسة في الصلاة، بل يعد كثير من عبادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات حتى يقال في فضائل الراهب: له أربعون سنة ما مس الماء؛ ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه السلام وأتباعه.

واليهود إذا حاضت عندهم المرأة لا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يقعدون معها في بيت واحد، والنصارى لا يحرمون وطء الحائض، وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة بل إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه بالمقراض، والنصارى ليس عندهم أي نجس يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه»[3].

وأما الإصر الذي يضعه النبي صلى الله عليه وسلم فهو التكاليف الثقيلة، سواء أنزل بها شرع من عند الله أم استحدثها الناس من تلقاء أنفسهم، وأصل الإصر: « الثقل الذي يأصر صاحبه عن الحراك »[4].

ومعنى: « ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة كقطع

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٤ / ٢٩٢.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٥ / ٧٧.
(٣) الجواب الصحيح ١ / ٦٩-٧٠.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٥ / ٧٧.

موضع النجاسة من الثوب أو منه ومن البدن، وإحراق الغنائم، وتحريم السبت، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية فإنه وإن لم يكن مأمورًا به في الألواح إلا أنه شرع بعد تشديدًا عليهم على ما قيل.

وعن عطاء كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح، وغلوا أيديهم إلى أعناقهم، وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة، وأوثقها على السارية يحبس نفسه على العبادة، وعلى هذا فالأغلال يمكن أن يراد حقيقته »[1].

وأما وصف من بعث فيهم فهم الأميون: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [الجمعة:٢].

والأميون هم: « العرب، والأمي: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وكذلك كان كثير من العرب. وسمي أميًّا نسبة إلى أمه يوم ولدته، لم يعرف القراءة ولا الكتابة وبقي على ذلك.

ومما يدل على أن المراد بالأميين هم العرب بعثة النبي صلى الله عليه وسلم منهم لقوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ كما يدل عليه قوله تعالى عن نبي الله إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة:١٢٩].»[2].

«والمعنى: أن الله أقام رسوله للناس بين العرب يدعوهم، وينشر رسالته إلى جميع الناس من بلاد العرب، فإن دلائل عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم معلومة من مواضع أخرى من القرآن كما في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

وفي سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨].»[3].

وأما وصف أصحابه، فقد ابتدأت فيه الآية بإثبات الرسالة له أولًا « محمدٌ رسول الله ». فـ«محمدٌ» مبتدأ و« رسول» خبره[4].

أو هو «خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو محمد يعود هذا الضمير المحذوف على قوله: رسوله في الآية قبلها»[5].

ثم عطفتهم عليه ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم

(١) المصدر السابق ٥/ ٧٧.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ١١٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٨٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٩٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠٢.

مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩].

وقد تضمنت الآية إخبارًا منه «تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار، أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة؛ فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون»[(١)].

والشدة في هذا المقام صفة مدح؛ لأنها غلظة على غليظ، وقمع لمتجبر ظالم عات، وانتصار للحق، وغيرة على الدين، قال في التحرير والتنوير: «والشدة على الكفار: هي الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصف مدح؛ لأن المؤمنين الذين مع النبيء صلى الله عليه وسلم كانوا هم فئة الحق ونشر الإسلام، فلا يليق بهم إلا إظهار الغضب لله، والحب في الله، والبغض في الله من الإيمان، وأصحاب النبيء صلى الله عليه وسلم أقوى المؤمنين إيمانًا من أجل إشراق أنوار النبوءة على قلوبهم، فلا جرم أن يكونوا أشد على الكفار، فإن بين نفوس الفريقين تمام المضادة، وما كانت كراهيتهم للصلح مع الكفار يوم الحديبية ورغبتهم في قتل أسراهم الذين ثقفوهم يوم الحديبية، وعفا عنهم النبيء صلى الله عليه وسلم إلا من آثار شدتهم على الكفار، ولم تكن لاحت لهم المصلحة الراجحة على القتال وعلى القتل التي آثرها النبيء صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك كان أكثرهم محاورة في إباء الصلح يومئذ أشد أشدائهم على الكفار وهو عمر بن الخطاب، وكان أفهمهم للمصلحة التي توخاها النبيء صلى الله عليه وسلم في إبرام الصلح أبا بكر»[(٢)].

قال: «ثم تكون أحكام الشدة على الكفار من وجوب وندب وإباحة وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال ولعلماء الإسلام فيها مقال»[(٣)].

والصفة الثانية لأصحابه صلى الله عليه وسلم أنهم: «﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه»[(٤)].

«وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين الشدة والرحمة؛ إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠٤.
(٣) المصدر السابق ٢٦/ ٢٠٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٥.

الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى؛ ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ في سورة العقود [المائدة:٥٤].

وفي تعليق رحماء مع ظرف (بين) المفيد للمكان الداخل وسط ما يضاف هو إليه تنبيه على انبثاث التراحم فيهم جميعًا»[١].

«هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق فإنك ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود.

﴿يَبْتَغُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه»[٢].

وأما الصفة الأخرى التي ذكرت لأصحابه صلى الله عليه وسلم فهي علامة على وجوهم، ناتجة عن صفتهم السابقة التي هي كثرة السجود: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، «والسيما: العلامة وهذه سيما خاصة هي من أثر السجود.

واختلف في المراد من السيما التي وصفت بأنها من أثر السجود على ثلاثة أنحاء:

الأول: أنها أثر محسوس للسجود.

الثاني: أنها من الأثر النفسي للسجود.

الثالث: أنها أثر يظهر في وجوههم يوم القيامة»[٣]. تلك صفتهم في التوراة.

«فأما قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن هذا المثل المذكور أنه في التوراة هو مثلهم في الإنجيل. قال مجاهد: مثلهم في التوراة والإنجيل واحد.

والثاني: أن المتقدم مثلهم في التوراة. فأما مثلهم في الإنجيل فهو قوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ وهذا قول الضحاك وابن زيد.

والثالث: أن مثلهم في التوراة والإنجيل كزرع»[٤].

وقد اختار ابن جرير أن هذا مثلهم في التوراة، وأن قوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ مثلهم في الإنجيل، قال: «وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ يقول: وصفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه، يقال منه: قد أشطأ الزرع: إذا فرخ فهو يشطي إشطاء، وإنما مثلهم بالزرع المشطئ؛ لأنهم ابتدءوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠٥.
(٤) زاد المسير ٤/ ١٣٩.

عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمي»[1].

ثم روى بسنده عن ابن عباس قال: « قوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أصحابه مثلهم، يعني: نعتهم مكتوبًا في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق السموات والأرض»[2].

وإذا تأملنا هذه الأوصاف التي ذكر القرآن الكريم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عرف بها في الكتب السابقة، وجدناها أوصافًا لأمة كبيرة من الناس: الأميون الذين بعث فيهم، وأصحابه الذين معه، وهي أوصاف يستحيل انتحالها بخلاف صفة الفرد الواحد، ولو كانت أوصاف شخص واحد لجاز لأحد ممن يقرؤها أن يزعم أنه يرى تحققها في شخص يعرفه أو فيه هو.

وقد ورد في سورة الصف ما يوهم ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم في الإنجيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف:٦].

فنصت الآية على أن عيسى عليه السلام بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وأخبر باسمه «أحمد»، وروى ابن جرير بسنده عن عرباض بن سارية، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(إني عند الله مكتوبٌ لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدلٌ في طينته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، والرؤيا التي رأت أمي، وكذلك أمهات النبيين، يرين أنها رأت حين وضعتني أنه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصور الشام)[3].

غير أن الآية لم تنص صراحة على أن اسمه « أحمد» مكتوب في الإنجيل، بل غاية ما نصت عليه أنه خبر على لسان المسيح وليس فيه نص على أنه مكتوب في الإنجيل ولا أنه غير مكتوب.

وقد أوهم ذلك أن اسم النبي صلى الله عليه وسلم مكتوب في الإنجيل، كما قال القرطبي: «وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اسمي في التوراة أحيد لأني أحيد أمتي عن النار، واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبدة الأوثان، واسمي في الإنجيل أحمد، واسمي في القرآن محمد؛ لأني محمود في أهل السماء والأرض)»[4][5].

ومن ذلك ما أخرج ابن عساكر عن سهل مولى غنيمة أن نعت محمد عليه الصلاة والسلام في التوراة: «أنه لا قصير ولا طويل

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٦٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٥٩.
(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق، ٣/ ٣٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٨٤.

أبيض ذو صفرة، من بين كتفيه خاتم، يكثر الاحتباء، ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة، ويلبس قميصًا مرقوعًا، ومن فعل ذلك فقد برئ من الكبر وهو يفعل ذلك وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد»[1].

ويرى السموأل المغربي أن اسمه صلى الله عليه وسلم مرموز إليه فيها، وقد عقد فصلا في «الإشارة إلى اسمه في التوراة» اعتمد فيه حساب الجمل -الذي هو من صناعة اليهود وعلومهم التي يبرعون فيها- في الدلالة على اسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: «وإنما جعل ذلك في هذا الموضوع ملغزا؛ لأنه لو صرح به لبدلته اليهود، أو أسقطته من التوراة كما عملوا في غير ذلك»[2].

فكل هذه الأقوال وردت في سياق إثبات التصريح باسمه صلى الله عليه وسلم في الإنجيل خصوصًا وفي الكتب السابقة عمومًا، ومثل هذا إن لم تثبت رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم به فإن لفظ الآية لا يدل عليه، وغاية ما دلت عليه آية سورة الصف أن المسيح عليه السلام بشر به مُصرِّحًا باسمه «أحمد»، بل إن لفظ «قال» مشعر بأنه من كلام المسيح وليس من الإنجيل، مع عدم استحالة كونه مع ذلك مكتوبًا، وغاية ما في الأمر أن القرآن الكريم لم ينص على ذلك صراحة.

هذا وعدم النص على اسمه أو وصفه الخاص أبلغ، إذ لو علم لطلبه مدعو النبوة، ولبدله الذين يحرفون الكلم عن مواضعه. وقد بقي أن له علامات غير منحصرة يعرفه بها علماء أهل الكتاب، وعدم انحصارها عاصم لها من التحريف.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة:٨٩].

فأما بشارة المسيح به صلى الله عليه وسلم فلا يطعن فيها زعم أهل الكتاب أنهم لا يجدونها في كتبهم، وما تقدم من كلام السموأل والرازي حجة عليهم. قال الألوسي: «هذا وبشارته عليه السلام بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم مما نطق به القرآن المعجز، فإنكار النصارى ذلك ضرب من الهذيان، وقولهم: ولو وقعت لذكرت في الإنجيل، الملازمة فيه ممنوعة، وإذا سلمت قلنا بوقوعها في الإنجيل إلا أن جامعيه بعد رفع عيسى عليه السلام أهملوها؛ اكتفاء بما في التوراة ومزامير داود عليه السلام وكتب أشعياء وحبقوق وأرمياء وغيرهم من الأنبياء

(١) تاريخ دمشق ٣/ ٣٨٩.
(٢) بذل المجهود في إفحام اليهود، السموأل المغربي ص١١٦.

عليهم السلام.

ويجوز أن يكونوا قد ذكروها إلا أن علماء النصارى بعد حبا لدينهم أو لأمر ما غير ذلك أسقطوها كذا قيل»[1].

أقول: وليست البشارة مقتصرة على الاسم فقط، ولا يلزم أنها من الوحي المكتوب، بل قد تكون قد وقعت على لسان المسيح عليه السلام كما تقدم.

قال الألوسي: « الأناجيل التي عند النصارى أربعة: إنجيل متى من الاثني عشر الحواريين، جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رفع عيسى عليه السلام بثماني سنين، وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحًا، وإنجيل مرقص وهو من السبعين، جمعه باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد الرفع باثنتي عشرة سنة، وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحًا، وإنجيل لوقا وهو من السبعين أيضًا، جمعه بالإسكندرية باللغة اليونانية، وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحًا، وإنجيل يوحنا وهو حبيب المسيح، جمعه بمدينة إقسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة، وعدة إصحاحاته في النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحا وهي مختلفة، وفيها ما يشهد الإنصاف بأنه ليس كلام الله عز وجل، ولا كلام عيسى عليه السلام كقصة صلبه الذي يزعمونه ودفنه ورفعه من قبره إلى السماء، فما هي إلا كتواريخ وتراجم فيها شرح بعض أحوال عيسى عليه السلام ولادة ورفعًا ونحو ذلك، وبعض كلمات له عليه السلام على نحو بعض الكتب المؤلفة في بعض الأكابر والصالحين فلا يضر إهمالها بعض الأحوال، والكلمات التي نطق القرآن العظيم بها ككلامه عليه السلام في المهد وبشارته بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، على أن في إنجيل يوحنا ما هو بشارة بذلك عند من أنصف وسلك الصراط السوي وما تعسف»[2].

ومثل هذه الكتب واختلافها وكثرة التناقض فيها يجعلنا نجزم بأن كل ما جاء فيها ليس من كلام المسيح عليه السلام، ولا أن كل ما قال المسيح منقول فيها حتى تجعل حكمًا في مثل هذا.

(١) روح المعاني ١٤ / ٢٨٠.

(٢) روح المعاني ١٤ / ٢٨١.

صفة محمد عليه السلام في القرآن

وصف محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم بجملة من الصفات منها:

أولًا: النبي:

النبوة من النبأ، «والنبأ: الخبر، تقول نَبَأ ونَبَّأ، أي: أخبر، ومنه أخذ النبيء لأنه أنبأ عن الله تعالى، وهو فعيلٌ، بمعنى فاعل»[(١)].

وإذا قيل للخبر: نبأ فهو ذو فائدة عظيمة ولا يتطرق إليه الكذب، وهو متضمن لمعنى العلم، قال الراغب: «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب، كالتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبي عليه الصلاة والسلام. ولتضمن النبإ معنى الخبر يقال: أنبأته بكذا كقولك: أخبرته بكذا، ولتضمنه معنى العلم قيل: أنبأته كذا، كقولك: أعلمته كذا. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾[ص:٦٧-٦٨]»[(٢)].

والنبي مشتق من فعل «أنبأ» أو من فعل «نبا» بمعنى: علا وارتفع، «فهو مهموز من النبأ، وغير مهموز من النبوة، وهو المرتفع من الأرض، فهو صلى الله عليه وسلم مخبر عن الله سبحانه وتعالى، رفيع القدر عنده، فاجتمع له الوصفان، وتم له الشرفان»[(٣)].

هذا عن مدلول النبوة في اللغة واشتقاقها، وأما مدلولها القرآني فهو الإخبار بما تلقاه النبي عن الله سبحانه وتعالى، قال الفيروزآبادي: « والنبوة: سفارة بين الله وبين ذوي العقول؛ لإزاحة عللهم فى أمر معادهم ومعاشهم»[(٤)].

وقد تقدم أن وصف «النبي» تكرر في القرآن الكريم بصفة جعلته علمًا على محمد صلى الله عليه وسلم حتى صار اسمًا من أسمائه، غير أنه قد استعمل بمعنى الصفة في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران:٦٨].

فقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا النَّبِيُّ﴾ تضمن الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفه بصفة النبوة تأكيدًا له عند المخاطبين، ودفعا لأي شك قد يبدر منهم وترغيما للمعاندين من اليهود وغيرهم.

وكما استعمل لفظ «النبي» فقد استعمل لفظ «الرسول» في القرآن الكريم بمعنى الاسم، وبمعنى الصفة له صلى الله عليه وسلم أيضًا.

(١) الصحاح، الجوهري ١/ ٧٤.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٨٨.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٥.
(٤) المصدر السابق.

ثانيًا: رسول الله:

الرسول مشتق من الرسل -بكسر الراء- و «أصل الرسل: الانبعاث على التؤدة ويقال: ناقة رسلةٌ: سهلة السير، وإبل مراسيل: منبعثة انبعاثًا سهلًا، ومنه: الرسول المنبعث، وتصور منه تارة الرفق، فقيل: على رسلك، إذا أمرته بالرفق، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول»[1].

والتوظيف اللغوي للإرسال ليس مقصورًا على الإنسان فقط، فقد يقال أيضا في الأشياء، ومن معانيه: « التسخير كإرسال الريح والمطر نحو: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ [الأنعام:٦].

وقد يكون ببعث من له اختيار، نحو إرسال الرسل.

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١].

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء:٥٣].

وقد يكون ذلك بالتخلية، وترك المنع، نحو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣].

والإرسال يقابل الإمساك. قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٢].»[2].

هذا عن مدلول الإرسال واشتقاقه اللغوي، أما في الاستعمال القرآني فـالرسول: « هو الذي تتابع خبره عن الله، وهو المرسَل بفتح السين، ولا يقتضي التتابع. وهو المرسل: بكسر السين؛ لأنه لا يعم بالتبليغ مشافهة، فلم يك بد من الرسل ينوبون عنه، ويتلقون منه، كما بلغ عن ربه قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (تسمعون، ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم) »[3].

وقد استعمل لفظ «الرسول» في القرآن الكريم بدلالات أخرى أيضًا، فـ «رسل الله تارة يراد بها الملائكة، وتارة يراد بها الأنبياء، فمن الملائكة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [التكوير:١٩].

وقوله: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود:٨١].

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ [هود:٧٧].

وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ [العنكبوت:٣١].

وقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ [المرسلات: ١].

﴿بَلْ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٥٣.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٨١.

٨٠].

ومن الأنبياء قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:٤٨].

فمحمول على رسله من الملائكة والإنس. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٥١].

قيل: عني به الرسول وصفوة أصحابه، فسماهم رسلا لضمهم إليه، كتسميتهم المهلب وأولاده المهالبة»[(١)].

وكثيرًا ما دعي النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف في القرآن الكريم حتى صار علما عليه، لكنه قد استعمل أيضا بمعنى الصفة له عليه الصلاة والسلام في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤].

فـ «محمد» اسمه صلى الله عليه وسلم، و « رسول » صفته في هذا السياق.

الفرق بين النبي والرسول:

جاء الوصفان النبي والرسول معطوف أحدهما على الآخر فأوحى ذلك بأن بينهما فرقا،كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج:٥٢].

و «هذه الآية دالة عليه -أي: الاختلاف بين مفهومي النبي والرسول- لأنه عطف النبي على الرسول، وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص»[(٢)].

قال القاضي عياض: «واختلف العلماء هل النبي والرسول بمعنى أو بمعنيين فقيل: هما سواء وأصله من الإنباء وهو الإعلام، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فقد أثبت لهما معًا الإرسال قال: ولا يكون النبي إلا رسولًا ولا الرسول إلا نبيًا. وقيل: هما مفترقان من وجه إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب، والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة لمعرفة ذلك وحوز درجتها، وافترقا في زيادة الرسالة للرسول وهو الأمر بالإنذار والإعلام كما قلنا، وحجتهم من الآية نفسها التفريق بين الاسمين، ولو كانا شيئًا واحدًا لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ»[(٣)].

ثم قال: « والصحيح والذي عليه الجماء

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٥٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٣٦.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٤٨٨.

الغفير: أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، وأول الرسل آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم»[1].

فبين وصفي النبي والرسول عموم وخصوص، ويستلزم ذلك أنهما ليسا متطابقين تطابقًا كاملًا رغم أنهما يجتمعان في جزء من الدلالة، ولكن بينهما فرقًا في زيادة يحويها مفهوم «الرسول».

وقد «ذكروا في الفرق بين الرسول والنبي أمورًا:

أحدها: أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله.

والثاني: أن من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعًا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول، وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا إسحاق ويعقوب وأيوب ويونس وهارون وداود وسليمان رسلًا؛ لأنهم ما جاءوا بكتاب ناسخ.

والثالث: أن من جاءه الملك ظاهرًا وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول، ومن لم يكن كذلك، بل رأى في النوم كونه رسولًا، أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله، فهو النبي الذي لا يكون رسولًا»[2]. وهذا المعنى الثالث رجحه الرازي وقال: «وهو الأولى»[3].

ولابن تيمية في المسألة رأي يبدو أقرب إلى الصواب، وهو أن الرسول يزيد عن النبي بكونه مرسلًا إلى من خالف أمر الله يبلغه رسالة الله، قال: «والمقصود هنا: الكلام على النبوة فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يُرسَل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي، وليس برسول قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ وقوله: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾؛ فذكر إرسالًا يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح»[4].

وبناء على ذلك فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي ورسول، بل هو خاتم الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ١٠﴾

(١) المصدر السابق ١/ ٤٨٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٣٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) النبوات، ابن تيمية ٢/ ٧١٤.

[الأحزاب:٤٠].

«وخاتم» بفتح التاء بمعنى أنهم به ختموا فهو كالخاتم والطابع لهم، وقرأ الباقون والجمهور «خاتم» بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم، أي: جاء آخرهم، وروت عائشة أنه عليه السلام قال: (أنا خاتم الأنبياء) -بفتح التاء- وروي عنه عليه السلام أنه قال: (أنا خاتم ألف نبي) وهذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفًا وسلفًا متلقاة على العموم التام مقتضية نصًّا أنه لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم»[1].

ومع كونه صلى الله عليه وسلم النبي الرسول وخاتم الأنبياء، فقد كان أول من أمر بالتزام الإسلام والعمل بأحكامه وأن يكون أول المسلمين.

ثالثًا: أول المسلمين:

نص القرآن الكريم على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم أمر أن يكون أول من أسلم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤].

كما أمر أن يخبر عن نفسه بذلك: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٨.

و«المعنى أول من أسلم من هذه الأمة وبهذه الشريعة»[2].

وقد دلت الآية على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فهو المبادر إلى فعل ما يأمر به من أحكام هذا الدين، وهو أول مخاطب به، وهو سابق المسلمين، و «خيرهم وأولهم، كما قال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٣].

وتقدم في ذلك بشرف انقياده بكل وجه، وبكل حال إلى الله وبسلامة عن الجهل والمعاصي»[3].

وفي قوله تعالى: « ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ الآية، أمر من الله عز وجل أن يعلن بأن مقصده في صلاته، وطاعته من ذبيحة وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله عز وجل، وإرادة وجهه وطلب رضاه، وفي إعلان النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به؛ حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل»[4].

والآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم أول من أسلم من هذه الأمة، ولكن هل تدل على أنه أول المسلمين من جميع الأمم؟

قال ابن عطية: «والمعنى أول من أسلم من هذه الأمة وبهذه الشريعة، ولا يتضمن

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٧٣.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٨٢.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٩.

الكلام إلا ذلك»[1]. فجزم بأن المراد: أول من أسلم من هذه الأمة لا غيره.

ولكن بعض المفسرين لم يستبعد هذه الدلالة وإن لم يجزم بها، قال ابن عاشور: « ومعنى أول من أسلم أنه أول من يتصف بالإسلام الذي بعثه الله به، فهو الإسلام الخاص الذي جاء به القرآن، وهو زائد على ما آمن به الرسل من قبل، بما فيه من وضوح البيان والسماحة، فلا ينافي أن بعض الرسل وصفوا بأنهم مسلمون، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ويعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢].

ويجوز أن يكون المراد أول من أسلم ممن دعوا إلى الإسلام. ويجوز أن يكون الأول كناية عن الأقوى والأمكن في الإسلام؛ لأن الأول في كل عمل هو الأحرص عليه والأعلق به، فالأولية تستلزم الحرص والقوة في العمل، كما حكى الله تعالى عن موسى قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

فإن كونه أولهم معلوم وإنما أراد: أني الآن بعد الصعقة أقوى الناس إيمانًا. وفي الحديث: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة) »[2].

أما صاحب «ملاك التأويل» فنظر إلى الآية في سياق ما نصت عليه آيات أخرى من كون الأنبياء جميعًا كانوا مسلمين، فأثبت لهم جميعًا أولية في السبق إلى الإيمان والإسلام، قال في بيان الفرق بين قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وقول موسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ «والجواب والله أعلم: أن هذه الآية لما تقدمها قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾[الأنعام:١٦١].

وقد قال في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾[آل عمران:٦٧].

وفي وصيته عليه السلام لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢].

وبهذا أوصى يعقوب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾[البقرة:١٣٢].

وهي جواب بني يعقوب حين قال لهم: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾ فأجابوا بقولهم: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

وقال سبحانه لنبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[الأنعام:٩٠].

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٧٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٥٩.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٣].

فإنما قال عليه السلام وعمل واقتدى ظاهرًا وباطنًا بما أمر به وما درج عليه هؤلاء الصفوة المذكورون ومن سلك مسلكهم. وعبارة الإسلام تعم الاستسلام بالظاهر والباطن، والإيمان الذي هو التصديق داخل تحت ذلك، وفي جملة ما يطلق عليه اسم الإسلام، فقد تحصلت عبارته عليه السلام منبئة عن الكمال في مسمى الإيمان والإسلام على الحال التى درج عليها المصطفون الأخيار، وحالهم فى ذلك لا يدركها غيرهم من حيث الكمال التام صلى الله عليهم أجمعين ولا قطعنا عن التمسك بهديهم »[1].

رابعًا: رحمة للعالمين:

كان النبي صلى الله عليه وسلم رحمة، وكان رحيمًا بالمؤمنين، بل بمن ينافقه ويعاديه، ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم أنه كان حريصًا على هداية الناس جميعًا.

ولقد نص القرآن الكريم -نصًا صريحًا- على أنه صلى الله عليه وسلم رحمة لا للمؤمنين وحدهم بل للعالمين جميعا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وهذه الآية لم تنص على أنه رحيم، ولكن على أنه هو صلى الله عليه وسلم الرحمة، فـ « انتصاب ﴿رَحْمَةً﴾ على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفا من أوصافه، فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة. ففيه إيماء لطيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة.

ووقوع الوصف مصدرًا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد، بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله، ويدل لهذا المعنى ما أشار إلى شرحه النبيء صلى الله عليه وسلم بقوله: (إنما أنا رحمة مهداة) »[2].

وهذه الآية على وجازة ألفاظها تضمنت مدحًا بليغًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد « صيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفًا

(١) ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي ١/ ١٧٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٦٦.

بدون حرف العطف الذي عطفت به، ذكر فيه الرسول، ومرسله، والمرسل إليهم، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة، مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير رحمة للتعظيم، إذ لا مقتضى لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين. وليس التنكير للإفراد قطعًا لظهور أن المراد جنس الرحمة وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم. فهذه اثنا عشر معنى خصوصيًا، فقد فاقت أجمع كلمة البلغاء العرب»[1].

وأما معنى كونه «رحمة للعالمين» من مؤمنين وكافرين فقد ذكر في معناه أن الله سبحانه وتعالى: «رحمهم به في الدنيا من العذاب، وفي الآخرة بتعجيل الحساب، وتضعيف الثواب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال:٣٣]»[2].

والنص على كون وجوده صلى الله عليه وسلم بين الكافرين مانعًا من نزول العذاب بهم؛ رحمة لهم لا يعني اقتصارها على ذلك؛ لأن هذا الوجود محدود بالزمان والمكان.

وإن أعظم الرحمة استنقاذهم به من الضلال والشرك والجهل، وفي صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: (وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان)[3].

فنص الحديث على أنه قد بعث صلى الله عليه وسلم حين عم الضلال الأرض، ونظر الله إلى أهل الأرض فمقتهم جميعًا؛ بسبب شركهم وضلالهم، فكان هو المبدل لوجه هذه الأرض بإذن ربه، وكان رحمة الله للناس جميعًا.

وكما كانت بعثته رحمة، كان خلقه الرحمة، وكانت رسالته التي بعث بها الرحمة، بل كان موقعها من رسالات الأنبياء وديمومتها واستمرارها، وما اختصت به من عفو وتيسير الرحمة التي رحم الله بها خلقه إنسهم وجنهم وحتى الحيوان.

وقد نظر ابن عاشور إلى دلالة موقع الآية في سياقها من سورة الأنبياء فقال: «أقيمت هذه السورة على عماد إثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديق دعوته. فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم، ووشك حلول وعد الله فيهم، وإثبات رسالة

(١) المصدر السابق ١٧/ ١٦٥.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٨٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ٤/ ٢١٩٧.

محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لم يكن بدعًا من الرسل، وذكروا إجمالًا، ثم ذكرت طائفة منهم على التفصيل، وتخلل ذلك بمواعظ ودلائل. وعطفت هذه الجملة على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكمًا وعلمًا وذكر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين »[1].

وبقدر ما كانت هذه الرحمة خلقًا تخلقت به نفسه الزكية عليه الصلاة والسلام، فقد كانت أيضا الصبغة العامة التي اصطبغت بها الشريعة التي جاء بها.

قال ابن عاشور: «وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين:

الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة،

والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

فأما المظهر الأول فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي: «زين الله محمدًا صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله رحمة، وصفاته رحمة على الخلق» قلت: يعني أن محمدًا صلى الله عليه وسلم فطر على خُلُقِ الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لِتَتَكَوَّنَ مُنَاسَبَةٌ بين روحه الزكية وبين ما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة؛ حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائمًا رغبته وخلقه. قالت عائشة: «كان خلقه القرآن». ولهذا خص الله محمدًا صلى الله عليه وسلم في هذه السورة بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله.

وأما المظهر الثاني من مظاهر كونه رحمة للعالمين فهو مظهر تصاريف شريعته، أي: ما فيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم؛ لأن قوله تعالى: « للعالمين » متعلق بقوله: «رحمة» »[2].

خامسًا: الشاهد:

أوصاف « الشاهد، والمبشر، والنذير، والداعي، والسراج المنير » جاءت كلها مجموعة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

« والشهادة: قولٌ صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة »[3]. «وشهدت يقال على ضربين: أحدهما: جارٍ مجرى العلم، وبلفظه تقام الشهادة، يقال: أشهد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٦٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٥٠.

بكذا. ولا يُرْضَى من الشاهد أن يقول: أعلم، بل يحتاج أن يقول: أشهد. والثاني: يجري مجرى القسم، فيقول: أشهد بالله إن زيدًا منطلق. ومنهم من يقول: إن قال: أشهد. ولم يقل: بالله. يكون قسمًا. ويجرى علمت مجراه فى القسم فيجاب بجواب القسم كقوله: ولقد علمت لتأتين منيتى

ويقال: شاهد، وشهيد، وشهداء. ويقال: شهدت كذا، أي: حضرته، وشهدت على كذا.

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾[فصلت:٢٠]»[١].

«والشاهد: المخبر عن حجة المدعي المحق ودفع دعوى المبطل»[٢].

وشهادة النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن شهادته لله بالوحدانية، وشهادته للرسل بالتبليغ، كما تتضمن شهادته على من بلغ إليهم رسالة الله من مؤمنين وكافرين.

فأما شهادته للرسل بالبلاغ فقد وقع النص عليها في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٨].

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾)[٣].

و«الوسط» في الآية: « الخيار والأجود، كما يقال: قريشٌ أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطًا في قومه، أي: أشرفهم نسبًا»[٤]. وقال ابن جرير: «وأنا أرى أن«الوسط» في هذا الموضع، هو«الوسط» الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل«وسط الدار» محرك الوسط مثقله، غير جائز في«سينه» التخفيف. وأرى أن

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٥١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)، ٦/ ٢١، رقم ٤٤٨٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٤.

الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم«وسط» لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوٍ فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»[1].

وهناك تلازم بين الخيرية ووسطية المنهج -بمعنى الوسط بين طرفين- وكمال الشريعة، ولأجل ذلك كانت هذه الأمة ونبيها صلى الله عليه وسلم شاهدين للرسل على من كذبهم من قومهم.

قال ابن كثير: « ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى:﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾»[2]، أي: «شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون رسولي محمدٌ صلى الله عليه وسلم شهيدًا عليكم، بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي »[3].

وعليه فالرسول صلى الله عليه وسلم « شاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع وبقاء ما هو صالح للبقاء منها ويشهد ببطلان ما ألصق بها وبنسخ ما لا ينبغي بقاؤه من أحكامها بما أخبر عنهم في القرآن والسنة.

قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

وفي حديث الحشر: (يسأل كل رسول هل بلغ؟ فيقول: نعم. فيقول الله: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته) الحديث»[4].

وأما شهادته صلى الله عليه وسلم على من بلغته دعوته فقد نص عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل:١٥].

ومعنى الآية: «﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾[الأحزاب:٤٥].

على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم، وتشاهد أعمالهم، وتتحمل منهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب، وسائر ما هم عليه من الهدى والضلال، وتؤديها يوم القيامة أداءً مقبولًا »[5].

وكما أن النبي صلى الله عليه وسلم شاهد على من كذب، فهو شاهد أيضا على من يزعم الإيمان، وذلك أنه « صلى الله عليه

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٢.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٧.

وسلم شاهد أيضا على أمته بمراقبة جريهم على الشريعة في حياته وشاهد عليهم في عرصات القيامة.

قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١].

فهو شاهد على المستجيبين لدعوته وعلى المعرضين عنها، وعلى من استجاب للدعوة ثم بدل. وفي حديث الحوض: (ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دوني فأقول: يا رب أصيحابي أصيحابي. فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول: تبا وسحقا لمن أحدث بعدي) يعني: أحدثوا الكفر وهم أهل الردة كما في بعض روايات الحديث: (إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم). فلا جرم كان وصف الشاهد أشمل هذه الأوصاف للرسول صلى الله عليه وسلم بوصف كونه رسولا لهذه الأمة، وبوصف كونه خاتما للشرائع ومتمما لمراد الله من بعثة الرسل»[1].

سادسًا: المبشر:

المبشر: المخبر بالخبر الذي يسر، يقال: «أبشرت الرجل وبشرته وبشرته: أخبرته بسار بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر»[2].

«ويقال للخبر السار: البشارة والبشرى. قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤]»[3].

وقد بعث عليه الصلاة والسلام يبشر من استجاب له بالخير والسعادة والنجاة من أسباب الخزي والهلاك في الدنيا والآخرة فهو «صلى الله عليه وسلم مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم. وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى، فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمأمورات متضمنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل»[4].

وقد وقع تفصيل هذه البشارة في الآية الموالية وهي قوله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب:٤٧].

أي: «وبشر أهل الإيمان بالله يا محمد ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾: يقول: بأن لهم من ثواب الله على طاعتهم إياه تضعيفا كثيرا، وذلك هو الفضل الكبير من الله لهم»[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٢.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٢٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٨٢.

قال ابن عطية: «قال لنا أبي رضي الله عنه: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى لأن الله تعالى أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلًا كبيرًا، وقد بين تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى:٢٢].

فالآية التي في هذه السورة خبر والتي في «حم عسق» تفسير لها»[(١)].

وعلى هذا فالفضل الكبير هو الجنة لهم فيها ما يشاؤون عند ربهم.

ويقترن وصف البشير غالبا بوصف النذير -كما في الآية السابقة-، «وقدمت البشارة على النذارة لأن النبيء صلى الله عليه وسلم غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته»[(٢)].

والبشارة سابقة للإنذار وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أنها القاعدة الأولى والصبغة الأساس التي يجب أن تصطبغ بها الدعوة إلى دين الله، ففي المعجم الكبير للطبراني عن ابن عباس، قال: لما أنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ دعا النبي صلى الله عليه وسلم عليا ومعاذا، وقد كان أمرهما أن يخرجا إلى اليمن، فقال: (انطلقا وبشرا، ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، فإنه قد أنزلت علي ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾: على أمتك، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾: بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾: من النار ﴿وَدَاعِيًا﴾ إلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ بالقرآن)[(٣)].

سابعًا: النذير:

وأما النذير فهو المنذر؛ مأخوذ من الإنذار: وهو الإعلام على سبيل التحذير والتخويف، يقال: «نذر بالشيء وبالعدو -بكسر الذال-، نذرا: علمه فحذره. وأنذره بالأمر إنذارا ونذرا أعلمه، والصحيح أن النذر الاسم والإنذار المصدر. وأنذره أيضا: خوفه وحذره»[(٤)].

وإذا كان البشير هو المخبر بالخبر السار فإن النذير هو المخبر بضده، وكذا فإن البشرى لما كانت لأهل الإيمان فإن الإنذار لمن هم بخلاف حالهم، وهو عليه الصلاة والسلام منذرهم والنذير لهم: «مشتق من الإنذار وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قرب حلوله، والنبيء عليه الصلاة والسلام منذر للذين يخالفون عن دينه من كافرين به ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١١/ ٣١٢، رقم ١١٨٤١.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٠١.

عملهم»[1].

وقد اشتق وصف النذير من الإنذار على صيغة فعيل في الآية ليكون كالاسم للموصوف به أي: النبي صلى الله عليه وسلم، قال في التحرير: «جيء في جانب النذارة بصيغة فعيل دون اسم الفاعل لإرادة الاسم فإن النذير في كلامهم اسم للمخبر بحلول العدو بديار القوم. ومن الأمثال: أنا النذير العريان، أي: الآتي بخبر حلول العدو بديار قوم. والمراد بالعريان أنه ينزع عنه قميصه ليشير به من مكان مرتفع فيراه من لا يسمع نداءه، فالوصف بنذير تمثيل بحال نذير القوم كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

للإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم به حتى كأنه قد حل بهم وكأن المخبر عنه مخبر عن أمر قد وقع، وهذا لا يؤديه إلا اسم النذير، ولذلك كثر في القرآن الوصف بالنذير وقل الوصف بمنذر»[2].

وقد ضرب عليه الصلاة والسلام مثلا لهذا الإنذار بمن يخوف الناس عدوا يوشك أن يبطش بهم فمن صدق قوله وعمل بنصحه نجا ومن لم يفعل هلك، ففي صحيح البخاري عن أبي موسى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثلي ومثل ما بعثني الله، كمثل رجل أتى قوما فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم)[3].

«وشمل اسم النذير جوامع ما في الشريعة من النواهي والعقوبات وهو قسم الاجتناب من قسمي التقوى فإن المنهيات متضمنة مفاسد فهي مقتضية تخويف المقدمين على فعلها من سوء الحال في العاجل والآجل»[4].

ثامنًا: الداعي إلى الله:

«والداعي إلى الله هو الذي يدعو الناس إلى ترك عبادة غير الله، ويدعوهم إلى اتباع ما يأمرهم به الله.

والدعاء: الحث على قصد الشيء، ومنه قول يوسف عليه السلام: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣].

وقول مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر:٤١][5].

«وأصل دعاه إلى فلان: أنه دعاه إلى

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، ٨/ ١٠١، رقم ٦٤٨٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.
(٥) انظر المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٥.

الحضور عنده، يقال: ادع فلانا إلي. ولما علم أن الله تعالى منزه عن جهة يحضرها الناس عنده تعين أن معنى الدعاء إليه الدعاء إلى ترك الاعتراف بغيره (كما يقولون: أبو مسلم الخراساني يدعو إلى الرضى من آل البيت) فشمل هذا الوصف أصول الاعتقاد في شريعة الإسلام مما يتعلق بصفات الله لأن دعوة الله دعوة إلى معرفته وما يتعلق بصفات الدعاة إليه من الأنبياء والرسل والكتب المنزلة عليهم.

وزيادة بإذنه ليفيد أن الله أرسله داعيًا إليه ويسر له الدعاء إليه مع ثقل أمر هذا الدعاء وعظم خطره وهو ما كان استشعره النبيء صلى الله عليه وسلم في مبدأ الوحي من الخشية إلى أن أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر:١-٢].»[1].

تاسعًا: السراج المنير:

وصف «السراج المنير» ورد أيضًا في آية الأحزاب السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

والسراج: « المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل»[2]، «والشمس سراج النهار، والهدى سراج المؤمنين»[3].

ومعنى كون النبي صلى الله عليه وسلم سراجا منيرا أنه «مثل السراج الذي يستضاء به، أو مثل الشمس في النور والظهور»[4]. أو « هاديا كأنه سراج يهتدى به في الظلم»[5].

وقد التفت الطبري إلى أن السراج له مادة يستضيء بها فيضيء هو في نفسه، ثم يستضيء به الناس، قال: «﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يقول: وضياء لخلقه يستضيء بالنور الذي أتيتهم به من عند الله، ﴿مُّنِيرًا﴾ يقول: ضياء ينير لمن استضاء بضوئه، وعمل بما أمره، وإنما يعني بذلك: أنه يهدي به من اتبعه من أمته»[6].

فهو عليه الصلاة والسلام يستضيء بالنور الذي جاءه من عند الله: وهو الوحي، فيضيء ويهدي بنوره لأن أمره «ظاهرٌ فيما جاء به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاندٌ»[7].

وأما ابن عاشور فقد نظر إلى الجانب العقلي من الهداية وهو إقامة الحجة وإزالة الشبهات فقال: «وقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾: تشبيه بليغ بطريق الحالية وهو طريق جميل، أي: أرسلناك كالسراج المنير في الهداية

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٩٧.
(٣) العين، الفراهيدي ٦/ ٥٣.
(٤) لسان العرب ٢/ ٢٩٧.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٩٨.
(٦) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٨٢.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٣٩.

الواضحة التي لا لبس فيها والتي لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها وأوقفت الناس على دخائلها، كما يضيء السراج الوقاد ظلمة المكان. وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبيء صلى الله عليه وسلم من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع ما كان قبله في الأديان من مسالك للتبديل والتحريف فشمل ما في الشريعة من أصول الاستنباط والتفقه في الدين والعلم، فإن العلم يشبه بالنور فناسبه السراج المنير»[1].

وهذا الوصف للنبي صلى الله عليه وسلم ورد في هذا الموضع فقط، ولكننا بعد التأمل نجد أن له نظائر؛ فقد وصفه الله سبحانه وتعالى بـ «السراج المنير»، ووصف القرآن بـ «النور» في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢].

ولا ينير السراج إلا وله نور. كما أن الآية صريحة في أنه صلى الله عليه وسلم لما أوحي إليه بهذا النور صار يهدي إلى صراط مستقيم.

ومثل القرآن الكريم النور في قلب المؤمن بالمصباح الذي يوقد من زيت شجرة مباركة كأنه كوكب دري، فقال تعالى: ﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥].

قال السعدي: « ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحسي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه -الذي لولا لطفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه- نور، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة. وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات، ولهذا: كل محل، يفقد نوره فثم الظلمة والحصر. ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أي: كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ من صفائها وبهائها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: مضيء إضاءة الدر.

﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٥٣.

﴿زَيْتُونَةٍ﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس أول النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائه ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: نور النار، ونور الزيت»[1].

فإذا كان العلم والمعرفة صورة نور الله في قلوب رسله وعباده المؤمنين، فإن أحق من أشع منه هذا النور السراج المنير صلى الله عليه وسلم. جاء في تفسير ابن كثير: «وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، قال: يكاد محمد يبين للناس، وإن لم يتكلم، أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء»[2].

ولقد صدق كعب، فقد كان وجهه صلى الله عليه وسلم يشع صدقا كما قال عبد الله بن سلام: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس نحوه فأتيته، فلما نظرت إليه، عرفت أن وجهه ليس وجه كذاب»[3]، وكان أذن خير ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١].

زكى الله لسانه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ [النجم:٣].

وبصره: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم:١٧].

وشرح صدره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح:١].

وختم على قلبه لئلا يدخله باطل وربط عليه بالصبر ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٢٤﴾ [الشورى:٢٤].

وامتدح خلقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤].

وأقسم بعمره: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر:٧٢].

ورفع ذكره: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح:٤].

وألقى في قلوب المؤمنين حبه: (فو الذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده)[4]. فمن رآه أو سمع عنه أشع له من صدق الحق الذي

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٦٠.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٥/ ٢١٧، رقم ٢٥٣٨٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، ١/ ١٢، رقم ١٤.

يدعو إليه أشد من نور الشمس في ضحاها. فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وصحبه الصادقين المرضيين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

خلقه عليه السلام من خلال القرآن

جمع محمد صلى الله عليه سلم مكارم الأخلاق كلها واتصف بكمالها الإنساني، ولقد امتدحه ربه عز وجل فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤].

«والخلق العظيم: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مكارم الأخلاق في النبيء صلى الله عليه وسلم فهو حسن معاملته الناس على اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن. ولهذا قالت عائشة: «كان خلقه القرآن»، ألست تقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون:١] - الآيات العشر-، وعن علي: الخلق العظيم: هو أدب القرآن ويشمل ذلك كل ما وصف به القرآن محامد الأخلاق وما وصف به النبيء صلى الله عليه وسلم من نحو قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩].

وغير ذلك من آيات القرآن. وما أخذ به من الأدب بطريق الوحي غير القرآن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)»[1].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٦٤.

فهو صلى الله عليه وسلم متصف بالخلق العظيم المستوحى من القرآن الكريم والحاصل من تأديب الحق سبحانه وتعالى له حتى بلغ في حسن الخلق منتهاه، وكان خلقه القرآن.

هذا على الإجمال، أما على التفصيل، فإننا نجد أنه عليه الصلاة والسلام قد وصف في نصوص القرآن الكريم بجملة من الأخلاق، هي:

أولًا: الصبر:

لا يختلف اثنان في أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان آية في الصبر، ولقد أصابه من البلاء في الله ما أصابه: فمنذ أوحى الله إليه وصدع في الناس بالحق واجهه الناس بالصد والتكذيب والاستهزاء والإيذاء النفسي والبدني؛ ألقوا التراب على رأسه، واجتمعوا حول بيته يريدون قتله، وقاطعوه وقومه سنين عدة حتى أكلوا أوراق الشجر، وقتلوا من أصحابه من قتلوا وسلطوا على من قدروا عليه منهم العذاب الشديد، ولم يزالوا به حتى هاجر من مكة مستخفيا، وسيروا البعوث والجيوش لقتاله، وتحالفوا على ذلك وتراسلوا فيما بينهم.

وما جمع قبائل العرب المتعادية مع اليهود إلا الرغبة في استئصال الإسلام وأهله، حتى تعدى الأمر إلى الروم الذين كان لهم حظ من البلاء الذي أصاب المسلمين يوم مؤتة وفي مشاهد من بعدها ولكن الناس لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم يوما شاكيا أو ضاجرا أو ضعيفا أو يائسا، ولما أمكنه الله من رقاب أعدائه قال لهم:(اذهبوا فأنتم الطلقاء)

مع أنه صلى الله عليه وسلم كان آية في الصبر، إلا أن القرآن الكريم لم يصفه بهذه الصفة كما وصف أيوب عليه السلام مثلا من قبل بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص:٤٤].

بل نجد في مقابل ذلك وصية له صلى الله عليه وسلم بالصبر، وأمرا له بالاقتداء في ذلك بالأنبياء من قبله.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٦-١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقد دلت الآيتان على أن الله عز وجل قد أدب نبيه صلى الله عليه وسلم فاختار له من

الأخلاق مكارمها، وأمره أن يتمثل الصفات الطيبة في خلق أولي العزم من الرسل.

أخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة بن عبد المطلب حين استشهد فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه -أو قال لقلبه منه- ونظر إليه وقد مثل به فقال:(رحمة الله عليك إن كنت ما علمت لوصولا للرحم فعولا للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع -أو كلمة نحوها-، أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك)، فنزل جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بهذه السورة وقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ -إلى آخر الآية-، فكفر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك عن ذلك)[1].

واستئناسًا بهذا السبب، فإن الآية قد أمرته صلى الله عليه وسلم بالصبر والعفو في هذه الواقعة الخاصة، ولكن لفظها جار مجرى العموم خاصة مع الضعف الذي يعتري سبب النزول، وفيها أنه سبحانه وتعالى «رخص في القصاص للمظلوم في غير عدوان وندب له العفو والإحسان، وعزم لنبيه على الصبر يقول تعالى -مبيحا للعدل ونادبًا للفضل والإحسان-: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم. ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئا. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي: شدة وحرج ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين، والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله،

(١) أخرجه البزار في مسند، ١٧/ ٢١.
قال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، إلا من هذا الوجه، ولا نعلم أخرجه عن سليمان التيمي إلا صالح.
قال ابن كثير في تفسيره ٤/ ٦١٤: وهذا إسناد فيه ضعف؛ لأن صالحا، هو ابن بشير المري، ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث.

بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه»[1].

فعزم الله لنبيه صلى الله عليه وسلم على الصبر، ورخص لغيره في القصاص وجعل الصبر له مندوبا، «ويروى أنه عليه السلام قال لأصحابه: (أما أنا فأصبر كما أمرت، فماذا تصنعون؟ فقالوا: نصبر يا رسول الله كما ندبنا)[2].

وكما أمره الله عز وجل أن يصبر ويعفو، فقد أمره أن يتمثل ذلك في خلق أولي العزم من الرسل وأن يقتدي بهم في كونهم صابرين في قوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الشورى:٣٥].

وهم ذوو الحزم والجد والصبر»[3].

وأما من هم أولوا العزم من الرسل فقد ذكر المفسرون فيه أقوالًا:

«أحدها: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقتادة، وعطاء الخراساني، وابن السائب.

والثاني: نوح، وهود، وإبراهيم، ومحمد صلى الله عليه وسلم، قاله أبو العالية الرياحي.

والثالث: أنهم الذين لم تصبهم فتنةٌ من الأنبياء، قاله الحسن.

والرابع: أنهم العرب من الأنبياء، قاله مجاهد، والشعبي.

والخامس: أنهم إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم، قاله السدي.

والسادس: أن منهم إسماعيل، ويعقوب وأيوب، وليس منهم آدم، ولا يونس، ولا سليمان، قاله ابن جريج.

والسابع: أنهم الذين أمروا بالجهاد والقتال، قاله ابن السائب، وحكي عن السدي.

والثامن: أنهم جميع الرسل، فإن الله لم يبعث رسولًا إلا كان من أولي العزم، قاله ابن زيد، واختاره ابن الأنباري، وقال: «من» دخلت للتجنيس لا للتبعيض، كما تقول: قد رأيت الثياب من الخز والجباب من القز.

والتاسع: أنهم الأنبياء الثمانية عشر المذكورون في سورة (الأنعام)، قاله الحسين بن الفضل.

العاشر: أنهم جميع الأنبياء إلا يونس، حكاه الثعلبي»[4].

ورغم أن الآية لم تنص نصًا صريحًا على اتصافه صلى الله عليه وسلم بالصبر، فإنها دلت على ذلك دلالة ضمنية.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٢.
(٢) الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ٤٤٨.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٣٧.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٤.

قال ابن عاشور: «وهذه الآية اقتضت أن محمدا صلى الله عليه وسلم من أولي العزم لأن تشبيه الصبر الذي أمر به بصبر أولي العزم من الرسل يقتضي أنه مثلهم لأنه ممتثل أمر ربه، فصبره مثيل لصبرهم، ومن صبر صبرهم كان منهم لا محالة»[1].

فقد نص على أن الآية تدل ضمنا على دخوله صلى الله عليه وسلم في عداد أولي العزم من الرسل واتصافه بالصبر، ويكون ذلك من الأساليب القرآنية البليغة التي تسري على قلبه صلى الله عليه وسلم وتثبته على الحق بما تضرب له من المثل في صفة إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

على أن عدم وصفه بالصبر وصفا صريحا قد تضمن معنا بليغا يستشف من النصوص، فإنه صلى الله عليه وسلم جاوز مرحلة التأذي بصد المشركين عنه إلى الحزن عليهم لشدة الحرص والرغبة في استنقاذهم حتى قيل له ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦].

فإن الأذى الذي تهون منه الآية في نفسه صلى الله عليه وسلم لم يكن سببه ما لقيه من صد وجفوة، بل الحزن على إهلاك المعادين له أنفسهم بتكذيبهم بالحق، فكانت «هذه الآية تسلية للنبي عليه السلام، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تقرير وتوفيق بمعنى الإنكار عليه أي: لا تكن كذلك، و «الباخع نفسه» هو مهلكها وجدا وحزنا على أمر ما، وقوله: ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ استعارة فصيحة، من حيث لهم إدبار وتباعد عن الإيمان وإعراض عن الشرع، فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في آثارهم يحزن عليهم، وقوله: ﴿بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: بالقرآن الذي يحدثك به، و «الأسف»: المبالغة في حزن أو غضب»[2].

وعليه فقد بلغ عليه الصلاة والسلام مرتبة عالية من الصبر جعلته يجاوز الأسف والحزن على ما يصيبه من أذى إلى الحزن على من يؤذيه لإهلاكه نفسه بالتكذيب.

ثانيًا: الحياء:

كان النبي صلى الله عليه وسلم: (أشد حياءً من العذراء في خدرها)[3]، كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، ومن مظاهر حيائه عليه الصلاة والسلام: «أنه لم يكن يواجه أحدا بما يكرهه بل يتغير وجهه

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٦٧.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٩٠، رقم ٣٥٦٢.

فيفهم أصحابه كراهيته لذلك»[1].

ولقد أصابه عليه الصلاة والسلام أذى من بعض الناس على غير قصد منهم فمنعه حياءه أن يواجههم به، ولكن القرآن الكريم نزل مربيًا ومؤدبًا وموجهًا للمؤمنين ومرشدًا لهم إلى التيقظ والتنبه في معاملتهم له إلى ما فيه إيذاء له، فإنه يستحيي أن يرده عليهم.

عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: (بني على النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحشٍ بخبزٍ ولحم، فأرسلت على الطعام داعيًا فيجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعو، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحدًا أدعوه، قال: (ارفعوا طعامكم) وبقي ثلاثة رهطٍ يتحدثون في البيت، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: (السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله)، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك، فتقرى حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ثلاثةٌ من رهطٍ في البيت يتحدثون، وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء، فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة فما أدري آخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا فرجع، حتى إذا وضع رجله في أسكفة[2] الباب داخلةً، وأخرى خارجةً أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب)[3].

وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ [الأحزاب:٥٣].

والمعنى: « ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ يعني: إلا أن تدعوا إلى ﴿طَعَامٍ﴾ فيؤذن لكم فتأكلون ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ يعني: منتظرين نضجه ووقت إدراكه ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ﴾ أي: أكلتم الطعام ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ أي: فاخرجوا من منزله وتفرقوا ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ وَيَرۡضَيۡنَ لِحَدِيثٍ﴾

(١) فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٥٧٧.

(٢) الأسكفة: خشبة الباب التي يوطأ عليها. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٨٢٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم)، ٦/ ١١٩، رقم ٤٧٩٣.

أي: لا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعض، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ أي: فيستحيي من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياء، ولما كان الحياء مما يمنع الحيي من بعض الأفعال، قال: ﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ بمعنى: لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيي منكم وهذا أدب أدب الله به الثقلاء»[1].

وقد أبرزت الآية مظهر خلقه صلى الله عليه وسلم الكريم، فهذه السريرة الطيبة، وتلك النفس العظيمة، قد تدثرت بلباس العظمة التي تشفق على المخطئ أن يتطاير إليه منها شرارة تمسه ببعض الأذى أو تنبهه على أنه أتى شيئا لا يليق، وقد تظافر في تشكيل هذه النفسية العظيمة حياء العظماء وشفقة الرحماء.

ثالثًا: الرأفة والرحمة بالمؤمنين:

كان النبي صلى الله عليه وسلم رحيمًا رؤوفًا هينًا لينًا عفوًا قابلًا للعذر حريصًا على سوق الخير للناس؛ عامل بهذا الخلق أصحابه وأعداءه، إلا أن يقابل في ساحة الوغى قوما يعادون الحق ويحاربونه فيغلظ عليهم في الله انتصارا للحق والضعفاء لا لنفسه.

ولقد تفرق عنه أصحابه يوم أحد وهو يدعوهم في أخراهم، ثم أنزل الله العفو عنهم وأمره هو صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنهم أيضا فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران:١٥٩].

والمتأمل للآية يجد أنها قد مهدت لهذا الأمر بالعفو بالنص على أنه صلى الله عليه وسلم رحمة رحم الله بها المؤمنين فلان لهم، فاجتمعوا على محبته، ولو أنه كان فظا غليظ القلب لكانوا قد تفرقوا عنه. قال ابن جرير: « يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، فبرحمة من الله، و«ما» صلة. وأما قوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، فإنه يعني بـ«الفظ» الجافي، وبـ«الغليظ القلب»: القاسي القلب، غير ذي رحمة ولا رأفة. وكذلك كانت صفته صلى الله عليه وسلم، كما وصفه الله به: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

فتأويل الكلام: فبرحمة الله، يا محمد، ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾: لتباعك وأصحابك، فسهلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٣٤.

احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك ففارقك ولم يتبعك ولا ما بعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم»[1].

ولئن كان هذا خلقه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فقد كان ذلك خلقه مع أعدائه، وحتى مع أشد الناس أذى له في نفسه وأهله كما فعل مع عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين والذي رمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة في قصة الإفك المشهورة، وما كان قصده إلا إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كاد للمؤمنين يوم أحد، وراسل بني النضير يعدهم بالنصرة، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين بالكلاب، وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وتربص وأصحابه بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الدوائر

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: (لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما خيرني الله فقال:) استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة، وسأزيده على السبعين (قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[التوبة:٨٤])[2].

ولقد نسي النبي صلى الله عليه وسلم كل أذى أصابه من ابن سلول وهم أن يستغفر له أكثر من سبعين مرة، وهو أمر يجاوز مجرد مواساة ابنه المؤمن، ولقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ما أصابه هو من أذى منه مختارا سبيل الصفح والعفو، ولكن الآية نزلت تأمر بالنظر إلى جرمه في حق الإسلام وأهله، وهي دالة على أن موجب الرحمة يزول في حق المحاد لله ورسوله من باب كونه عدوا للحق محاربا له صادا عنه، ولعل الآية قد قصرت رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم على المؤمنين لأجل أن الغلظة واجبة عند انتهاك حرمات الله كما يأتي -إن

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ٦/ ٦٧، رقم ٤٦٧٠.

شاء الله-.

وحين سخر المنافقون من إنصات النبي صلى الله عليه وسلم لهم وهم له كاذبون وقالوا: «هو أذن»، رد عليهم القرآن الكريم بأنه أذن خير ورحمة للمؤمنين، وأن الله قد أعد للمؤذين له والمستهزئين به عذابا عظيما.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١].

«فلأجل كرم خلقه كان صلى الله عليه وسلم رحمة أي: هو رحمة ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾، وإنما قال: ﴿مِنكُمْ﴾ لأن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله: إنه رحمة للمؤمنين المخلصين لا للمنافقين، وقيل: في كونه صلى الله عليه وسلم رحمة: لأنه يجري أحكام الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولا يهتك أسرارهم»[1].

فكان صلى الله عليه وسلم رحمة، وكان رحيما بالمؤمنين وبمن أظهر الإيمان بل بمن ينافقه ويعاديه ويكذب عليه وإن علم كذبه رغبة في هدايته وإصلاحه ولئلا يغلق باب الإنابة دونه بفضح أمره.

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٧٧.

رابعًا: الحرص على المؤمنين و التألم لألمهم:

ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم أنه كان حريصا على هداية الناس جميعا يعز عليه ما يعنتهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

و معنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: «من جنسكم عربي مثلكم. وقرئ: «من أنفسكم» أي: من أشرفكم»[2].

والميم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ إما أن تعود على العرب، أو على الناس كافة، وينبني على ذلك أن قوله سبحانه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ عائد كذلك على العرب أو على الناس كافة غير مقتصر على المؤمنين وحدهم لأنه قال بعد ذلك: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فخصهم بها من دون سائر الناس.

قال ابن عطية: « ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ مخاطبة للعرب في قول الجمهور وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشرفوا به غابر الأيام، وقال

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٣.

الزجاج: هي مخاطبة لجميع العالم، والمعنى لقد جاءكم رسول من البشر، والأول أصوب»[1].

و«﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد شاق ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عنتكم ولقاؤكم المكروه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على إيمانكم وصلاح شأنكم. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم. ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: قدم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة»[2].

واختصاص الرأفة والرحمة بالمؤمنين يدل على أن قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ يعم المؤمنين والكافرين، وحتى الرأفة والرحمة قد لا تكون قد قصرت في الآية على المؤمنين وحدهم إلا لأجل أن الغلظة واجبة عند انتهاك حرمات الله -والله أعلم-.

وقد نظر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور إلى أن الآية هي خاتمة سورة التوبة التي جاءت بتعذيب الكافرين وفضح المنافقين وأنها أعقبت ذلك ببيان أن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة رحمهم الله بها، قال: «كانت هذه السورة سورة شدة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب، وأمرا للمؤمنين بالجهاد، وإنحاء على المقصرين في شأنه. وتخلل ذلك تنويه بالمتصفين بضد ذلك من المؤمنين الذين هاجروا والذين نصروا واتبعوا الرسول في ساعة العسرة. فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم والتنويه بصفاته الجامعة للكمال. ومن أخصها حرصه على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفا رحيما بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدة وعوملوا بالغلظة تعقيبا للشدة بالرفق وللغلظة بالرحمة، وكذلك عادة القرآن. فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفقه الله إليها. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وفي وقوعها آخر السورة ما يكسبها معنى التذييل والخلاصة»[3].

وقد بنى على ذلك أن المقصود جميع

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٠٠.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٧٠.

من بلغتهم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأولهم المشركون والمكذبون، قال: «فالخطاب بقوله: جاءكم وما تبعه من الخطاب موجه إلى جميع الأمة المدعوة للإسلام. والمقصود بالخطاب بادئ ذي بدء هم المعرضون من المشركين والمنافقين من العرب بقرينة قوله عقب الخطاب ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»[1].

ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم أنه كان سماعا للخير قابلا للعذر.

خامسًا: أذن الخير:

حين سخر المنافقون من إنصات النبي صلى الله عليه وسلم لهم وهم له كاذبون وقالوا: «هو أذن»، رد عليهم القرآن الكريم بأنه أذن خير ورحمة للمؤمنين، وأن الله قد أعد للمؤذين له والمستهزئين به عذابا عظيما.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١].

قال السدي: « اجتمع ناس من المنافقين فيهم: جلاس بن سويد بن صامت ومخشي بن حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم فنهى بعضهم بعضا وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم، فقال بعضهم: إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا، وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس فحقروه فتكلموا وقالوا: «لئن كان ما يقول محمد حقا لنحن شر من الحمير»، فسمعها الغلام فغضب وقال: والله إن محمدا لصادق، وإنكم لشر من الحمير ثم ذهب فبلغها النبي صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فحلفوا بالله إن عامرا لكاذب، وحلف عامر إنهم لكذبة فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال عامر: اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق من كذب الكاذب، وقد كان مخشي بن حمير قال في ذلك المجلس: ويحكم يا معشر المنافقين، والله إني لأرى أنا شر خلق الله وخليقته، والله لوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة، وأنه لا ينزل فينا شيء يفضحنا فعند ذلك قالوا: والله إن كان محمد صادقا، وقالوا: هو أذن »[2].

وقد فضحت الآية المنافقين وحكت قولهم، والمعنى: «ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه (ويقولون هو أذن) سامعةٌ، يسمع من كل أحدٍ ما يقول فيقبله ويصدقه. وهو من قولهم: «رجل أذنة»، مثل «فعلة»

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٢٦.

إذا كان يسرع الاستماع والقبول، كما يقال: «هو يقن، ويقن» إذا كان ذا يقين بكل ما حدث»[1]. وقد كان قولهم هذا استهزاء، وهو « منهم تنقيص للرسول صلى الله عليه وسلم، إذ وصفوه بقلة الحزامة والانخداع»[2]. «أي: من قال له شيئًا صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، وقتادة »[3].

ولم تكتف الآية بفضيحتهم وحكاية قولهم ولكنها ردت عليهم -مادحة له صلى الله عليه وسلم دالة على رفعة قدره- بأنه أذن خير في الحق ورحمة لمن أظهر الإيمان ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾.

و« ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾: من قبيل رجل، صدق فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة في الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن، ويجوز أن تكون الإضافة على معنى في؛ أي: هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس بأذن في غير ذلك، ويدل عليه قراءة حمزة: «ورحمةٍ» بالجر عطفا على خير، فإنه لا يحسن وصف الأذن بالرحمة ويحسن أن يقال: أذن في الخير والرحمة»[4]. «وقرئ: «أذنٌ خيرٌ» -مرفوعين منونين- ومعناه يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم»[5]. فهو أذن في الخير لو كان قولهم من جنسه، وهو نعم الأذن لأجل ذلك، وليس سماعا للشر ولا منخدعا به.

«وقوله سبحانه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ تفسير لكونه عليه الصلاة والسلام أذن خير لهم، أي: يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة والآيات الموجبة لذلك، وكون ذلك صفة خير للمخاطبين كما أنه خير للعالمين مما لا يخفى ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص»[6].

وإذا كان كذلك فقد باءوا بأخسر الحظين لما رضوا بعدم مؤاخذته إياهم على أن يصيبهم حظ المؤمنين منه، فـ «المعنى هو أذن خير يسمع آيات الله تعالى ودلائله فيصدقها ويسمع قول المؤمنين فيسلمه لهم ويصدقهم به، وهو تعريض بأن المنافقين أذن شر يسمعون آيات الله تعالى ولا ينتفعون بها ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه، وأنه صلى الله عليه وسلم لا يسمع قولهم إلا شفقة عليهم لا أنه يقبله لعدم تمييزه عليه

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٢٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٤٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٠.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٥/ ٣١٦.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٧٧.
(٦) روح المعاني، الألوسي ٥/ ٣١٦.

الصلاة والسلام كما زعموا»[1].

وكل هذه الأخلاق والطباع الطيبة تعكس نفسا عظيمة وقلبا رحيما حريصا على كل مؤمن رؤوفا به مشفقا عليه، ولذلك كانت منزلته صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين عالية رفيعة؛ فكان أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم والناس أجمعين، وكانت منزلته عند آله أعظم وأرفع.

(١) المصدر السابق.

منزلته عند الله عز وجل

أولًا: منزلته في الدنيا:

أعلى الله قدر نبيه صلى الله عليه وسلم فشرح صدره ورفع ذكره ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح:١-٤].

فأما شرح صدره فهو تنويره وتوسيعه بمعنى: « نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحا واسعا سمحا سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق»[2].

وفي رفع ذكره صلى الله عليه وسلم: « خمسة أقوال:

أحدها: ما روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عن هذه الآية، فقال:(قال الله عز وجل: إذا ذكرت ذكرت معي). قال قتادة: فليس خطيب، ولا متشهدٌ، ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وهذا قول الجمهور.

والثاني: رفعنا لك ذكرك بالنبوة، قاله يحيى بن سلام.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٢٩.

والثالث: رفعنا لك ذكرك في الآخرة كما رفعناه في الدنيا، حكاه الماوردي.

والرابع: رفعنا لك ذكرك عند الملائكة في السماء.

والخامس: بأخذ الميثاق لك على الأنبياء، وإلزامهم الإيمان بك، والإقرار بفضلك»[1].

وهذه الأقوال، رغم كونها متعددة، فليس بينها تعارض، فرفع ذكره في الأذان والصلاة والتشهد ونحوها لا ينافي رفع ذكره بأخذ الميثاق على الأنبياء من قبل أو عند الملائكة أو غيرها.

وفي مقابل رفع ذكره صلى الله عليه وسلم، جعل الله مبغضه منقطع الذكر لا يذكر إلا بسوء ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر:٣].

و«الشانئ: هو المبغض، وهو الشنآن بمعنى: العداوة، ونزلت هذه الآية في العاصي بن وائل، وقيل: في أبي جهل على وجه الرد عليه إذ قال: إن محمدا أبتر أي: لا ولد له ذكر، فإذا مات استرحنا منه وانقطع أمره بموته، فأخبر الله أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد لأنه مبتور من رحمة الله أي: مقطوع عنها، ولأنه لا يذكر إذا ذكر إلا باللعنة بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، مرفوع على المنابر والصوامع مقرون بذكر الله، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهو كوالدهم»[2].

ولرفعة قدره صلى الله عليه وسلم ما كان يسمى في القرآن إلا بأوصاف المدح وعلى رأسها النبي والرسول، قال القاضي عياض: «ومما ذكر من خصائصه وبر الله تعالى به أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى، يا زكريا، يا يحيى، ولم يخاطب هو إلا: يا أيها الرسول، يا أيها النبي، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر»[3].

ثم إن القرآن الكريم نهى المؤمنين عن أن ينادوه بالصفة التي ينادي بعضهم بها بعضا، وصورته أن ينادوه باسمه أو بالصفة التي يدعو بها الرجل مثله، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]: أي: «لا تسموه إذا دعوتموه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله»[4]. وهو المعنى ذاته المنصوص عليه في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٦١.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥١٧.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٣١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٨٩.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات:٢].

بمعنى: « ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضا: يا محمد، يا محمد، يا نبي الله، يا نبي الله، يا رسول الله»[١]، وعلة النهي عن ذلك ما يتضمن من « عدم المبالاة وقلة الاحترام»[٢].

وقد تضمنت الآية شيئًا آخر، وهو نهيهم عن أن يرفعوا أصواتهم في حضرته فتعلو على صوته ولو بغير قصد تعظيما واحتراما؛ فالنهي الأول عن رفع الأصوات والجهر بها في حضرته صلى الله عليه وسلم حتى لا تعلو على صوته، «وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ نهي عن جهر آخر وهو الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول صلى الله عليه وسلم لوجوب التغاير بين مقتضى قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ومقتضى ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾. واللام في له لتعدية «تجهروا» لأن «تجهروا» في معنى: تقولوا، فدلت اللام على أن هذا الجهر يتعلق بمخاطبته، وزاده وضوحا التشبيه في قوله: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾»[٣].

ثم أكدت الآية على عظم إتيان هذين المنهيين بالنص على أن عاقبة ذلك حبوط العمل: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، «والحبط: تمثيل لعدم الانتفاع بالأعمال الصالحة بسبب ما يطرأ عليها من الكفر، مأخوذ من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وتعتل وربما هلكت»[٤].

وقد وقع النهيان السابقان على جهة تعريف المؤمنين بقدره صلى الله عليه وسلم ومنزلته عند الله التي توجب له التوقير والتقدير « ولم يكن الرفع والجهر إلا ما كان في طباعهم، لا أنه مقصود بذلك الاستخفاف والاستعلاء، لأنه كان يكون فعلهم ذلك كفرا»[٥].

ولقد أعلن القرآن الكريم أن المتأدبين في حضرته صلى الله عليه وسلم هم المتقون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات:٣].

وهم الذين « يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالا له، أو كلموا غيره بين يديه إجلالا له والامتحان افتعال من محنت الأديم محنا حتى أوسعته. فمعنى ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وسعها وشرحها للتقوى»[٦].

ونص على أن الموقرين له هم المفلحون.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٧٧.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٥٠٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٢٠ .
(٤) المصدر السابق.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٥٠٨.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٣٠٨.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

ومعنى ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: «وقروه وعظموه، وأصل التعزير: المنع والنصرة وتعزير النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه وإجلاله ودفع الأعداء عنه وهو قوله: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾: يعني على أعدائه ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾: يعني: القرآن؛ سمي القرآن نورا لأن به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: هم الناجون الفائزون بالهداية»[1].

ولقد أقسم الله سبحانه وتعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم إعلاء لقدره فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر:٧٢].

«و«العَمْر» و«العُمْر» بفتح العين وضمها واحد، وهما مدة الحياة، ولا يستعمل في القسم إلا بالفتح، وفي هذه الآية شرف لمحمد عليه السلام لأن الله تعالى أقسم بحياته ولم يفعل ذلك مع بشر سواه»[2].

قال القاضي عياض: «اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم، وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمد، وقيل وعيشك، وقيل: وحياتك، وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره، وقال أبو الجوزاء: ما أقسم الله تعالى بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أكرم البرية عنده»[3].

وحين استطاب بعض الغافلين المكوث في بيته صلى الله عليه وسلم نزل القرآن ينبههم على أنه قد استحيى منهم ويأمرهم بالفطنة في التعامل معه حتى لا يصيبه منهم أذى وهم لا يشعرون -كما تقدم-، ونزل في ذلك قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٥٨.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٦٩.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٣٢.

﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب:٥٣-٥٤].

ومن العجيب أن القرآن الكريم قد منع عن المؤمنين كل ما من شأنه أن يصيبه صلى الله عليه وسلم بأذى مهما قل ولو كان مجرد التفكير في تزوج نسائه من بعده، وهو مدلول قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

ومن شواهد رفعة منزلته عند الله عز وجل أنه إذا اجتهد عليه الصلاة والسلام في شيء فجانب فيه الصواب، صحح القرآن الكريم ذلك بأرق أسلوب على نفسه؛ فلما اعتذر إليه المنافقون مرجعه من غزوة العسرة وقبل أعذارهم من غير تشديد عليهم أو تمحيص نزل عليه قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:٤٣].

ولعل أحدًا يظن «أن النبي صلى الله عليه وسلم معاتب بهذه الآية، وحاشاه من ذلك، بل كان مخيرا، فلما أذن لهم أعلمه الله تعالى أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن لهم»[1].

والآية ملأى بإشارات الإكرام والرفعة له عليه الصلاة والسلام، فـ «افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم، ولطافة شريفة، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب. وفي هذا الافتتاح كناية عن خفة موجب العتاب لأنه بمنزلة أن يقال: ما كان ينبغي، وتسمية الصفح عن ذلك عفوا ناظر إلى مغزى قول أهل الحقيقة: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وألقي إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة إيماء إلى أنه ما أذن لهم إلا لسبب تأوله، ورجا منه الصلاح على الجملة بحيث يسأل عن مثله في استعمال السؤال من سائل يطلب العلم؛ وهذا من صيغ التلطف في الإنكار أو اللوم، بأن يظهر المنكر نفسه كالسائل عن العلة التي خفيت عليه، ثم أعقبه بأن ترك الإذن كان أجدر بتبيين حالهم، وهو غرض آخر لم يتعلق به قصد النبيء صلى الله عليه وسلم»[2].

قال عياض: «وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب، ومن إكرامه إياه وبره به ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب»[3].

ومن هذا الباب عتابه بضمير الغائب في

(١) المصدر السابق ١/ ٢٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢١٠.
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٢٨.

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ [عبس:١-٢].

فإن ذلك أخف وقعا في النفس من الخطاب المباشر، وصورته قول العبد الصالح لنبي الله موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٢﴾ [الكهف:٧٢].

بصيغة ما لم يسم فاعله أولًا، ثم شدد عليه بعد ذلك لما تكرر منه السؤال فـ ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٥﴾ [الكهف:٧٥].

بصيغة الخطاب المباشر.

ومن هذا الباب قوله تعالى كذلك: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ [الإسراء:٧٤].

جاء في الشفا: « قال بعض المتكلمين: عاتب الله الأنبياء صلوات اللهم عليهم بعد الزلات، وعاتب نبينا صلى الله عليه وسلم قبل وقوعه، ليكون بذلك أشد انتهاء ومحافظة لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية، ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يركن إليه. ففي أثناء عتبه براءته، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته»[1].

ومن ذلك صلاته سبحانه عليه وأمره المؤمنين بذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب:٥٦].

وصلاة الله تعالى إما رحمته، أو مغفرته، أو ثناؤه، أو كرامته، أو بركته. وأما صلاة الملائكة فهي إما دعاؤهم، أو استغفارهم[2].

ومن ذلك أيضا أخذه سبحانه العهد على الأنبياء أن يؤمنوا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٨٢ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران:٨١-٨٣].

فـ«معنى الآية أن الله أخذ العهد والميثاق، على كل نبي أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه واله وسلم، وينصره إن أدركه، وتضمن ذلك أخذ هذا الميثاق على أمم الأنبياء»[3].

ومع رفعة منزلته صلى الله عليه وسلم في الحياة الدنيا، فقد جعل الله له الوسيلة والمقام المحمود والكوثر يوم القيامة.

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٣٠.

(٢) زاد المسير ٣/ ٤٧٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١٥٧.

ثانيًا: منزلته يوم القيامة:

نص القرآن الكريم على أنه سبحانه وتعالى قد أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم الكوثر وأنه عسى أن يبعثه مقامًا محمودًا.

فأما الكوثر فقد ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر:١-٣].

والكوثر مشتق من الكثرة، قال القرطبي: «الكوثر: فوعل من الكثرة، مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعرب تسمي كل شي كثير في العدد والقدر والخطر كوثرا. قال سفيان: قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت بكوثر، أي بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير»[(١)].

وقد ذكر في مدلوله معنيان أحدهما أعم من الآخر، فأما المعنى الأخص فهو أن الكوثر: حوض النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة؛ وهو حوض ماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل من شرب منه شربة لم يظمأ حتى يدخل الجنة، حافتاه من الذهب وقباب الدر المجوف، وطينته المسك، ومجراه على اللؤلؤ والزبرجد، وعليه آنية بعدد نجوم السماء، ويطعم وارده من طير أعناقها كأعناق الإبل.

قال البخاري في كتاب الرقاق: «باب في الحوض وقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، وقال عبد الله بن زيد: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اصبروا حتى تلقوني على الحوض)»[(٢)]. وترجمة الباب هذه تدل على أن البخاري رحمه الله يعتبر الحوض هو الكوثر أو من الكوثر.

ثم روى عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر، حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر، الذي أعطاك ربك، فإذا طينه - أو طيبه - مسك أذفر)[(٣)].

ومن حديث عبد الله بن عمرو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبدا)[(٤)].

وأما مسلم فإنه أخرج من رواية أنس ما يدل على اقتران تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للحوض بالكوثر عند نزول السورة،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٢١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، ٨/ ١١٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب في الحوض، ٨/ ١٢٠، رقم ٦٥٨١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب في الحوض، ٨/ ١١٩، رقم ٦٥٧٩.

قال: «عن أنس، قال: (بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: (أنزلت علي آنفا سورة) فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾، ثم قال: (أتدرون ما الكوثر؟) فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب، إنه من أمتي فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك)[1]. وفي هذه الرواية دلالة على سبب تسميته بالكوثر وهو قوله صلى الله عليه وسلم:(عليه خير كثير).

وأما أكثر الروايات تفصيلا في وصف الحوض فقد رواها الترمذي عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج)[2].

وعند أحمد زيادة وهي أن عليه طيورا أعناقها كأعناق الإبل، وهو ما روى بسنده عن أنس:(أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الكوثر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:) هو نهر أعطانيه الله في الجنة، أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر)، فقال عمر بن الخطاب: إنها لناعمة يا رسول الله، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (آكلوها أنعم منها)[3].

فهذه الروايات كلها تنص على أن الحوض هو الكوثر، غير أن ابن عباس رضي الله عنهما قد جعله من الكوثر، غير قاصر لمعنى الكوثر على الحوض فقط. روى البخاري من طريق أبي بشر، وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: « الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه ». قال أبو بشر: قلت لسعيد: إن أناسا يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: «النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه»[4]. فعلى هذا فحوض النبي صلى الله عليه وسلم من الكوثر، وليس هو كل الكوثر.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، ١/ ٣٠٠، رقم ٤٠٠.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الكوثر، ٥/ ٤٤٩، رقم ٣٣٦١.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٤٦، رقم ٤٦١٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢١/ ١٣٦، رقم ١٣٤٨٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتابر الرقاق، باب في الحوض، ٨/ ١١٩، رقم ٦٥٧٨.

وقد أوصل القرطبي مجموع الأقوال في معنى الكوثر إلى ستة عشر قولًا[1]:

أولها: أنه نهر في الجنة.

والثاني: الحوض.

والثالث: أن الكوثر النبوة والكتاب.

والرابع: القرآن.

والخامس: الإسلام.

والسادس: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع.

والسابع: كثرة الأصحاب والأمة والأشياع.

والثامن: الإيثار.

والتاسع: رفعة الذكر.

والعاشر: أنه نور في قلبه صلى الله عليه وسلم دله على ربه، وقطعه عما سواه.

الحادي عشر: الشفاعة.

الثاني عشر: معجزات الرب هدي بها أهل الإجابة لدعوتك.

الثالث عشر: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الرابع عشر: الفقه في الدين.

الخامس عشر: الصلوات الخمس.

السادس عشر: هو العظيم من الأمر.

ثم قال القرطبي: « قلت: أصح هذه الأقوال الأول والثاني، لأنه ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم نص في الكوثر. وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي، ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي صلى الله عليه وسلم»[2].

وأما المنزلة العالية الأخرى التي ذكرها القرآن الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فهي المقام المحمود.

قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء:٧٨-٧٩].

وقد وقع المقام المحمود في الآية مبهما، وجاء بيانه في السنة، فمن ذلك ما روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة**)[3].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٢١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٢١٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا)، ٦/ ٨٦، رقم ٤٧١٩.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: « إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود»[1].

فالحديثان يدلان على ارتباط هذا «المقام المحمود» بالشفاعة، وإن كانا لا ينصان نصا صريحا على أنه هو الشفاعة، وقد وقع النص على ذلك بصفة صريحة في ما روى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ وسئل عنها، قال: (هي: الشفاعة)[2].

وعن أبي سعيد، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر)، قال: (فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم، فيقولون: أنت أبونا آدم فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: إني أذنبت ذنبا أهبطت منه إلى الأرض ولكن ائتوا نوحا، فيأتون نوحا، فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات)، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله. ولكن ائتوا موسى، فيأتون موسى، فيقول: إني قد قتلت نفسا، ولكن ائتوا عيسى، فيأتون عيسى، فيقول: إني عبدت من دون الله، ولكن ائتوا محمدا)، قال: (فيأتونني فأنطلق معهم) - قال ابن جدعان: قال أنس: فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: (فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد فيفتحون لي، ويرحبون بي، فيقولون: مرحبا، فأخر ساجدا، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك وسل تعط، واشفع تشفع، وقل يسمع لقولك، وهو المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾)[3].

قال ابن جرير: « قال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي هو يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا)، ٦/ ٨٦، رقم ٤٧١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل، ٥/ ٣٠٣، رقم ٣١٣٧.
قال الترمذي: حديث حسن.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل، ٥/ ٣٠٨، رقم ٣١٤٨.
قال الترمذي: حديث حسن.

ذلك اليوم»[1].

وقد ذكر القرطبي قولا آخر وهو: أن المقام المحمود: إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة، وشاهده حديث الترمذي السابق، ثم قال: « وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول، فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع»[2].

وللنبي صلى الله عليه وسلم تشريفات أخرى وقد تكون داخلة ضمن عموم الكوثر والمقام المحمود، قال ابن كثير: « لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض، ويبعث راكبا إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر واردا منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعدما يسأل الناس آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: «أنا لها، أنا لها» ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصور: إن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك»[3].

فصلى الله وسلم على نبيه ورسوله محمد الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وجعلنا من المشمولين بشفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

موضوعات ذات صلة:

آدم عليه السلام، إبراهيم عليه السلام، الإسلام، الصحابة، القرآن، النبوة

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٢٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣١١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٠٤.

المداهنة

عناصر الموضوع

مفهوم المداهنة	١٦٦
المداهنة في الاستعمال القرآني	١٦٧
الألفاظ ذات الصلة	١٦٨
أنواع المداهنة	١٧٠
أسباب المداهنة المشروعة	١٨٦
أسباب المداهنة المحرمة	١٩٤

مفهوم المداهنة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: « (دهن) الدال والهاء والنون أصلٌ واحدٌ يدل على لينٍ وسهولةٍ وقلةٍ، من ذلك الدهن. ويقال: دهنته دهنًا. والدهان: ما يدهن به. قال الله عز وجل: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن: ٣٧]. قالوا: هو دردي الزيت. ومن الباب الإدهان، من المداهنة، وهي: المصانعة. وتقول: داهنت الرجل، إذا داريته وأظهرت له خلاف ما تضمر له، وهو من الباب، كأنه إذا فعل ذلك فهو يدهنه ويسكن منه»[(١)].

ويمكن إلحاق المداهنة والإدهان بأصل الباب الذي يدل على اللين والسهولة والقلة؛ لأن المداهِن إنما هو في الحقيقة وفي موقفه هذا يواجه صعوبة وصلابة في التعامل مع المداهَن مما يضطره إلى سلوك اللين والسهولة في الكلام معه، حتى يتقي شر من يداهنه، أو تحقيقًا لمصلحة له عنده، والله أعلم.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «المداهنة هي أن ترى منكرًا وتقدر على دفعه ولم تدفعه حفظًا لجانب مرتكبه أو جانب غيره أو لقلة مبالاةٍ في الدين»[(٢)].

ويقول القرطبي: « هي معايشة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكارٍ عليه، مع القدرة»[(٣)].

ويقول القاضي عياض: « المداهنة: إنما هي إعطاءٌ بالدين ومصانعةٌ بالكذب، والتزيين للقبيح، وتحويب الباطل للوصول إلى أسباب الدنيا وصلاحها»[(٤)].

(١) مقاييس اللغة، ١/ ٢٣١.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص٩٠.
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٦/ ٥٧٣.
(٤) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم ٨/ ٢٧٣

المداهنة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (دهن) في القرآن الكريم (٥) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم:٩]
الاسم	١	﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾ [الواقعة:٨١]

وجاءت المداهنة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: المصانعة والمداراة والملاينة[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٦٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٠٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٦١٢، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٢٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ التقية:

التقية لغة:

مصدر تقى. والتقية: الخشية والخوف. وتقية: مصدر اتقى، يتقي، اتقاءً وتقاةً وتقيةً، فهو متقٍ، والمفعول متقًى. واتقى الله: صار تقيًا وخاف منه فتجنب ما نهى عنه وامتثل لأوامره. واتقى الشيء بكذا: حذره وتجنبه. وكان يتقي شره: يتجنب شره، يحذره. واتقى بالشيء: جعله وقاية له وحماية من شيءٍ آخر. والجمع: تقيون و أتقياء. والتقي: من يتقي الله تعالى، و يخاف منه ويمتثل لأوامره والجمع: أتقياء[١].

التقية اصطلاحًا:

هي تجنب العدو بإظهار ما يوافقه مع إضمار ما يخالفه من عقيدة ونحوها، وهو واجب في موارد محددة[٢].

وعرفها السرخسي بقوله: «التقية أن يقي الإنسان نفسه بما يظهره وإن كان يضمر خلافه»[٣].

وعرفها ابن حجر بقوله: «التقية الحذر من إظهار ما في النفس من معتقدٍ وغيره للغير»[٤].

والتعريف الأول أشمل؛ لأنه يدخل فيه التقية بالفعل إضافة إلى التقية بالقول والتقية في العمل كما هي في الاعتقاد.

الصلة بين التقية والمداهنة:

التقية لا تحل إلا لدفع الضرر، أما المداهنة فلا تحل أصلًا، لأنها اللين في الدين وهو ممنوع شرعًا[٥].

والتقية يصاحبها العجز وعدم القدرة على دفع المنكر، من ثم كانت حلالًا. بينما المداهنة تحصل مع القدرة على إنكاره ومن ثم كانت حرامًا.

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٥٢.
(٢) معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، سامي الصلاحات ص ٧٠
(٣) المبسوط ٢٤/ ٤٥.
(٤) فتح الباري ١٢/ ٣١٤.
(٥) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٦/ ١٨٦.

٢ المداراة:

المداراة لغة:

يقول ابن فارس: « الدال والراء والحرف المعتل (الياء) أصلان: أحدهما: قصد الشيء واعتماده طلبًا، والآخر حدةٌ تكون في الشيء» [(١)].

قال ابن منظور: « والمداراة في حسن الخلق والمعاشرة مع الناس يكون مهموزًا وغير مهموز، فمن همزه كان معناه الاتقاء لشره، ومن لم يهمزه جعله من داريت الظبي أي: احتلت له، وختلته حتى أصيده» [(٢)].

المدارة اصطلاحًا:

قال الحافظ ابن حجر: المداراة: هو بغير همزٍ بمعنى: المجاملة و الملاينة، وأما بالهمز فمعناه المدافعة[(٣)].

والمقصود من المداراة: ملاينة الناس ومعاشرتهم بالحسنى من غير ثلم في الدين من أي جهة من الجهات[(٤)].

الصلة بين المداراة والمداهنة:

يوضح القرطبي محل الفرق بين المداهنة والمداراة بقوله: «والفرق بين المداراة والمداهنة، أن المداراة: بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين، وهي مباحة ومستحسنة في بعض الأحوال، والمداهنة المذمومة المحرمة: هي بذل الدين لصالح الدنيا» [(٥)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٣١.
(٢) لسان العرب، ١٤/ ٢٥٥.
(٣) فتح الباري ٩ / ٢٥.
(٤) روضة العقلاء، ابن حبان ٥٦.
(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٦/ ٥٧٣.

أنواع المداهنة

ظهر لنا فيما سبق أن مصطلح المداهنة يجوز التعبير عنه لغةً بألفاظٍ مرادفةٍ له كالمداراة والمجاملة والتقية.. ونحوها.

ومن هنا درج على ألسنة بعض علماء الإسلام المشهورين استعمال لفظة المداهنة موصوفةً بالحمد وبالذم.

ومنهم الإمام القرافي صاحب أنوار البروق في أنواع الفروق: حيث وضع فيه ترجمةً بعنوان: «الفرق الرابع والستون والمائتان بين قاعدة المداهنة المحرمة وبين قاعدة المداهنة التي لا تحرم، وقد تجب»[1].

ومن منظور آخر نجد القران الكريم قد حكى مصطلح المداهنة مذمومًا مطلقًا بينما حكايته عن مفهوم المداهنة جاءت على معانٍ أوسع ودلالاتٍ أبعد من حكايته له كمصطلح، ومن ثم جاء بعضها محمودًا كالتقية، والإكراه مثلًا، وبعضها الآخر مذمومًا كالركون إلى الكفارونحوه.

ويمكن تقسيم المداهنة إلى نوعين:

أولًا: المداهنة المشروعة:

ونقصد بالمداهنة المشروعة هنا المداراة التي هي محل اتفاق بين العلماء على جوازها. والأدلة على مشروعيتها في القران الكريم كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

فقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ جاءت في سياق ما أمر الله به في كل شريعة من الشرائع، من عبادته سبحانه وحده، والإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين. وختمت الآية بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. «وهذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾»[2].

ويقول القرطبي في تفسيره: «ينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينًا، ووجهه منبسطًا طلقًا مع البر والفاجر، والسيء والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون،

(١) الفروق، القرافي ٤/ ٢٣٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧.

وقد أمرهما الله تعالى باللين معه»[1].

والقول الحسن؛ أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب. ولذلك فإن من أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله غير فاحشٍ ولا بذيء ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق واسع الحلم مجاملًا لكل أحد، صبورًا على ما يناله من أذى الخلق، امتثالًا لأمر ربه ورجاء ثوابه ومغفرته[2].

وعن عطاء قال: قوله عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: الناس كلهم؛ المشرك وغيره. وعن هشام بن عروة قال: عطس نصراني طبيب عند أبي، فقال له: رحمك الله. فقيل له: إنه نصراني، قال أبي: رحمة الله على العالمين[3].

ولقد اختلف العلماء في وجوب القول الحسن. هل هو مع المؤمنين، أو مع الكفار والفساق؟ وهل هو خاص في الدعوة إلى الله، أو أنه يشمل الناس جميعا، فبقي على عمومه ولا يحتاج إلى التخصيص؟ والصواب أنه باقٍ على ظاهره ولا حاجة إلى التخصيص. والدليل عليه، أن موسى وهارون - عليهما السلام - مع جلال منصبيهما أمرا بالرفق واللين مع فرعون. وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم مأمور بالرفق وترك الغلظة.

يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويقول تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].[4].

وقال أهل التحقيق: كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية، أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية، فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان، وهو مع الكفار، أوفي الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق. والدعوة إلى الإيمان لابد وأن تكون بالقول الحسن، كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام في دعوتهما لفرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

مع نهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله سبحانه، وكذلك دعوة الفساق فالقول الحسن فيها معتبر كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ الآية.

وأما في الأمور الدنيوية؛ فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلطف من القول الحسن لم يحسن سواه.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧، ٥٨.
(٣) مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص ٩٥.
(٤) مفاتيح الغيب ٣/ ١٥٣.
وانظر: المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ١١.

فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة تحت قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1].

وقال تعالى في قصة ابراهيم عليه السلام: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤].

وإبراهيم عليه السلام كان من أكثر المناوئين له أبوه وقومه عند دعوته لهم إلى عبادة الله وحده لا يشركون به شيئًا، وقد لاقى في ذلك عنتًا شديدًا، وحرجًا بليغًا لوقوف أبيه مع المشركين ضد دعوته، حتى قال له أبوه يومًا: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: ٤٦].

فاستوحش إبراهيم عليه السلام من موقف أبيه آزر، ولكنه أبقى على شيء من البر له عندما ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧].

غير أن هذا الموقف اللين لم يغير شيئًا من موقف أبيه واستمر في عدائه لدعوته. عندها خشي عليه السلام أن ينقلب موقفه من أبيه وقومه من مفهوم المداراة إلى مفهوم المداهنة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

تبين له من جهة الوحي أن أباه لن يؤمن، وأنه يموت كافرًا. فانقطع رجاؤه عنه، فقطع استغفاره له. وهكذا يجب أن يكون موقف الداعية المؤمن من المناوئين لدعوته، صبرًا على الأذى، ولينًا في الخطاب، ووضوحًا في البيان، والتذكير، والوعد، والوعيد. حتى إذا سدت المنافذ في وجهه، واستحكم الهوى على عقل عدوه، وأظهر مقاومة شرسة، تركه وما أراد، فقد أعذر إلى الله، وبرئت ذمته، وأقام الحجة على عدوه.[2]

وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أمر الله سبحانه نبيه بمكارم الأخلاق. فأمر أمته بنحو ما أمره الله به. ومحصلها، الأمر بحسن المعاشرة مع الناس، وبذل الجهد في الإحسان إليهم، والإغضاء عنهم. عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الآية ما نزلت إلا في أخلاق الناس، وعنه أيضًا «قال: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»[3].

(١) مفاتيح الغيب، ٣/ ٨٣.

(٢) المداراة وأثرها في العلاقات الاجتماعية بين الناس، محمد بن سعد ص ١٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير،

فهذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، هو ما سمحت به نفوسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق فلا يكلفوا بما لا تسمح به طبائعهم، أو الشاق من الأخلاق، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن ضعفهم، ونقصهم وأخطائهم، فلا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورهم[1].

وفيها دلالة واضحة أيضًا على المداراة وهو قوله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك؛ إما تعليم علم، أو حثًا على خير من صلة رحم، أو بر والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو زجر عن قبيح ومنكر، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية[2].

وقال تعالى مخاطبًا رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والذي يفهم من هذا الخطاب الكريم، أن الأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم فيه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب. فإذا كان هذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أليس من الواجب علينا الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالًا لأمر الله، وجذبًا لعباد الله لدين الله[3].

وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف: ٧٧].

وموقف يوسف عليه السلام مع إخوته الذين اتهموه بالسرقة واتهموا شقيقه في قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ كان موقفًا حكيمًا، يتسم صاحبه ببعد النظر وقوة الإرادة من التحكم في النفس

باب (خذ العفو)، ٦/ ٦٠، رقم ٤٦٤٣.

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٣، المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ١١.

(٣) المصادر السابقة.

ورغباتها، عند أصعب ساعات الإثارة والطغيان. فهو أمام تهمة خطيرة، مخلة بالشرف، ومخالفة للمروءة، ومن أقرب الناس إليه، وكان يستطيع أن ينتقم لنفسه منهم، وأن يوقع بهم أشد العقوبة لمكانته الاجتماعية المتميزة عند ملك مصر، وقبل ذلك ما فعلوا به من إلقائه في الجب، وحرمانه من أبويه، وتصييره رقيقًا، فقد سنحت الفرصة، وقد أصبح وزيرًا للملك، وبيده خزائن الأرض، وجاءه إخوته مع من جاء من الفقراء المعوزين يطلبونه رزقًا بعد أن مسهم وأهلهم الضر.

ولكنه كان نبيًا كريمًا، حكيمًا ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

فقد كان عليه السلام واثقًا من ربه، ومتحصنًا بإيمانه، فلو أخذته العزة بالإثم لأمر من يفتك بهم، أو أن يطردهم شر طردة، وكان محقًا. ولكنه أدرك عليه السلام بأن فقدهم سيزيد من ألم أبيه وحزنه، وأساه. وأدرك أيضًا أن للشيطان دورًا فيما وقع بينه وبين إخوته، فلا ينبغي أن يكون عونًا له على ما أراد.

فكظم غيظه، وعفا عنهم، بعد أن عرفهم بخطئهم، وأبر بوالديه، وجمع شمل أسرته. وما كان ذلك ليتحقق لولا مشيئة الله، ثم الصبر والملاينة، وشيء من الحيلة، والحنكة، والختل. فقد كان عليه السلام لطيف الحيلة فتوصل إلى بغيته بالرفق، والسهولة[1].

ويقول تعالى في سورة التوبة مخاطبًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم كيف يكون تعامله مع أصحابه ليطمئنوا إليه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي: أدخل السرور على قلوب المؤمنين بالكلام الطيب اللين، والدعاء لهم ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينتهم وسكون قلوبهم[2].

ويقول تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام عند ذهابهما لدعوة فرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

وهاتان الآيتان فيهما دلالة واضحة على معنى المداراة وهي: القول اللين اللطيف الذي لا خشونة فيه ولا غلظة،» لأن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين قسوة الطغاة»[3].

«والقول اللين داعٍ لذلك، والقول الغليظ

(١) المداراة وأثرها في العلاقات الاجتماعية بين الناس، محمد بن سعد ص ١٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥١، المداراة في الاسلام، وليد السعد ص١٢.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ١٩٥.

منفرٌ عن صاحبه»[1].

والقول اللين: لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقف القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان[2].

فيكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥][3].

ويقول تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

في هذه الآية أمر الله المؤمنين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن أي: بحسن خلق، ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد على الباطل، والتنفير منه وتقبيحه أو بأي طريق رجاء إجابتهم، واستمالة لقلوبهم، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة كالقدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، بل يقارعهم الحجة بالحجة والدليل بالدليل، ليلزمهم الإقرار بالقرآن وبالرسول، وبما يدعو إليه من الإيمان بهذا الدين[4].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

ومن المداراة، عدم مقابلة المسيء بجنس عمله. فإذا أراد إزالة عداوته، لا بد من الإحسان إليه مع الصبر على ما يكره. ومما جاء في تفسيرها: أي لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها ولا في وضعها، ولا في جزائها. ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير. وهو الإحسان إلى من أساء إليك فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فإذا أساء إليك مسيءٌ من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك كالأقارب، والأصحاب ونحوهم، إساءةً بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين.

وإن هجرك وترك خطابك فطيب له الكلام، وابذل له السلام. فإذا قابلت

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٦.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٧٦.
وانظر: المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ١٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٩٤.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٣٥٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٢.

الإساءة بالإحسان حصل فائدة عظيمة وخير عميم، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ الآية، الرجل يشتمه أخوه، فيقول، إن كنت صادقًا فغفر الله لي. وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك.

وكان بكر رضي الله عنه يقول: ما عليك أن تنزل الناس منزلة أهل البيت، فتنزل من كان أكبر منك منزلة أبيك، وتنزل من كان منهم قرينك منزلة أخيك، وتنزل من كان أصغر منك منزلة ولدك فأي هؤلاء تحب أن يهتك ستره؟[2].

أما عن كونها سنةً عامةً مندوبًا إليها فسيظهر من خلال الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث المسلم على فعلها. ومنها ما يلي:

فعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (على كل مسلم صدقة، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليأمر بالخير. أو قال بالمعروف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليمسك عن الشر. فإنه له صدقة)[3].

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق)[4].

قال ابن بطال في شرحه لهذا الحديث: «كل شيء يفعله المرء أو يقوله من الخير، يكتب له به صدقة. والمعروف: اسم كل فعلٍ يعرف حسنه بالشرع والعقل معًا. وفيه إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر في الأمر المحسوس منه. بل كل واحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال بغير مشقة[5].

ولحسن الخلق شأن عظيم في الإسلام، فقد عد الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب الخلق الحسن من أكمل المؤمنين إيمانًا.

وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أخبركم بأكملكم إيمانا؟ أحاسنكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون)[6] والموطئون: من

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٩.
(٢) انظر: مداراة الناس، ابن أبي الدنياص ٥٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٠٠٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه عن اللقاء، رقم ٢٦٢٦.
(٥) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٨/ ٣٢٨.
(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٦/ ٢٧٠، رقم ٨١١٨.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٦٦، رقم ١٢٣١.

التوطئة، وهي التمهيد والتذليل. والأكناف: الجوانب. يعني الذين جوانبهم وطيئة يتمكن فيها من يصاحبهم ولا يتأذى، وهم الهينون اللينون، الذين يحسنون المعاملة[1].

أما عن أدلة حصول المداراة ومشروعيتها في الاسلام؛ فهو ما روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بخصوص الرجل الشرير الأحمق، الذي استأذن على الرسول صلى الله عليه وسلم فنعته بقوله: (بئس أخو العشيرة) فلما دخل تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقة الوجه والانبساط ثم ألان له الكلام.

فعن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته: (أنه أستأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ائذنوا له بئس أخو العشيرة. أو ابن العشيرة. فلما دخل ألان له الكلام. قلت يا رسول الله: قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام. قال:(أي عائشة. إن شر الناس من تركه الناس، أو ودعه الناس، اتقاء فحشه)[2].

يقول ابن حجر عند شرحه للحديث: «هذا الحديث أصل في المداراة» وعلى هذا الرأي الهيثمي والسخاوي وجمهرة كبيرة من علماء الحديث[3].

وقال أيضًا: « اختلف العلماء في الرجل الذي استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فمنهم من جزم بأنه عيينة بن حصن الفزاري، ولم يكن أسلم حينئذ، وإن كان قد أظهر الإسلام. فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين حاله ليعرفه الناس، ولا يغتر به من لم يعرف حاله، وكان منه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ما دل على ضعف إيمانه. وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ارتد مع من ارتد وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر رضي الله عنه. قال ابن بطال: وكان يقال له الأحمق المطاع ورجا النبي صلى الله عليه وسلم بإقباله عليه تألفه ليسلم قومه لأنه كان رئيسهم» ومنهم من جزم بأنه مخرمة وقصره عليه، ومنهم من حمل الحديث على التعدد[4].

وعلى كلٍ، فإن الحديث يدل على جواز إلانة القول لمن كان هذا حاله، تألفًا له للدخول في الإسلام، أو ليحسن إسلامه، أو ليسلم قومه، أو لأي أمرٍ يعود بالمصلحة على الأمة الإسلامية.

ومن يقرأ هذا الحديث الذي اعتبره ابن حجر وغيره أصلًا في المداراة، قد يتوهم

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير٤/ ٢٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب مداراة من يتقى فحشه، رقم ٢٥٩١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٥٣.

(٤) المصدر السابق.
وانظر: المداراة في الاسلام، وليد السعد ص ٢١.

أن الرسول صلى الله عليه وسلم حاشاه - قد وقع في غيبة الرجل عندما ذمه بذكر ما يكره لو سمعه صراحة من الرسول صلى الله عليه وسلم أو أنه داهنه عندما هش له وبش، وانبسط له، وألان الكلام معه. فإذا ما وقفنا على الحكم استحضرنا مسوغ فعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بيان كيفية التعامل مع مثل هؤلاء. ويضاف إلى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان طيب الكلام، فلم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا سبابًا ولا لعانًا، وكان ينهى عن الغيبة والتملق والمداهنة والنفاق.

«وليس في قول النبي صلى الله عليه وسلم في أمته بالأمور التي يسميهم بها، ويضيفها إليهم من المكروه غيبة. وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعض. بل الواجب على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين ذلك ويفصح به، ويعرف الناس أمره فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمة. فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلم أمته اتقاء شر من هذا سبيله، ومداراته ليسلموا من شره وغائلته وذلك بأن يظهروا لهم البشاشة، وأن لا يجبهوهم بها»[1].

إذن ففعله صلى الله عليه وسلم كان استلطافًا وتطييبًا لخاطر ذلك المنافق الشرير ليتمكن من إيمانه، وينجذب بذلك إلى الإسلام وينجذب قومه معه بالإضافة إلى تعريف الناس بحاله ليتقوه.

ما رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه عن إكرام الرسول صلى الله عليه وسلم له كما أكرم أخته قبل إسلامه بعد عودته إلى المدينة المنورة. وكان قد فر منها إلى الشام بعد انتصار المسلمين. قال عدي رضي الله عنه: (ثم مضى بي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقذفها إلي، فقال: اجلس على هذه. قال: قلت بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت. فجلست عليها وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض. قال: فقلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك)[2].

وتذكر السيرة النبوية أنه دخل في الإسلام، وكان له الأثر الواضح في الدعوة والجهاد.

ولاشك أن الاحترام الظاهري، والتعامل الحسن مع من لا يستحقه - كحال عدي قبل إسلامه - إذا كان لمصلحة شرعية تعود بالنفع على الإسلام وأهله من زيادة عدد المسلمين أو دفع الأذى والضرر عنهم وغير ذلك جائز استنادًا إلى فعله صلى الله عليه وسلم.

ولهذا عندما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٥٤.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٤/ ٣١٦.

بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦].

قال: «من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسيًا»[(١)].

ومن المداهنة المشروعة: التقية.

وقد ذهب جمهور علماء أهل السنة إلى أن الأصل في التقية هو الحظر، وجوازها ضرورة، فتباح بقدر الضرورة.

قال القرطبي: والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم، ولم ينقل ما يخالف ذلك فيما نعلم إلا ما روي عن معاذ بن جبل من الصحابة، ومجاهد من التابعين، وإنما ذهب الجمهور إلى ذلك لأن الله تعالى نص عليها في كتابه بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن عباس في تفسيرها: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وليجةً من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم في الدين[(٢)].

ومن الأدلة على مشروعية التقية للضرورة قول الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

وسبب نزول الآية: (أن المشركين أخذوا عمارًا فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير، فتركوه. فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما وراءك؟ قال: شر، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان. قال: إن عادوا فعد، فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾)[(٣)].

ومن الأدلة على جواز التقية للضرورة ما أخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن: (أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. نعم. نعم. قال أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بني حنيفة وأن محمدًا رسول قريش، ثم دعا بالآخر، فقال: أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ قال: نعم. قال: أفتشهد أني رسول الله؟ قال: إني أصم. قالها ثلاثًا، كل ذلك يجيبه بمثل الأول. فضرب عنقه. فبلغ ذلك رسول

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١١٩.
(٢) المفهم لما أشكل في شرح صحيح مسلم، القرطبي ٦/ ٣٢٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٧٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٨٦.

الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما ذلك فقد مضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضله، فهنيئًا له. وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه)[1].

وقال الحسن: التقية جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة. وقد نسب القرطبي إنكار التقية إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كانت التقية في جدة الإسلام قبل قوة المسلمين فأما اليوم فقد أعز الله أهل الإسلام أن يتقوا عدوهم»[2].

ونقل السرخسي عن قوم لم يسمهم أنهم كانوا يأبون التقية، ويقولون: هي من النفاق[3].

قال السرخسي: إن هذا النوع - يعني النطق بكلمة الكفر تقية - يجوز لغير الرسل. فأما في حق المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فما كان يجوز ذلك فيما يرجع إلى أصل الدعوة إلى الدين الحق، وتجويز ذلك محال - أي ممنوع شرعا - لأنه يؤدي إلى أن لا يقطع القول بما هو شريعة، لاحتمال أن يكون فعل ذلك أو قاله تقية[4].

وهو يشير بذلك إلى ما يبينه أهل الأصول من أن حجية السنة النبوية متوقفة على كون كل ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم حقًا، إذ لو تطرق إلى أقواله أو أفعاله احتمال أنه فعل أو قال أشياء من ذلك على سبيل التقية وهي حرام، لكان ذلك تلبيسًا في الدين، ولما حصلت الثقة بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله.

وكذلك السكوت منه صلى الله عليه وسلم على ما يراه ويسمعه من أصحابه إقرار تستفاد منه الأحكام الشرعية، فلو كان بعض سكوته يكون تقية لالتبست الأحكام على المسلمين.

وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وقال: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧].

قال القرطبي: دلت الآية على رد قول من قال إن النبي صلى الله عليه وسلم كتم شيئًا من أمر الدين تقية، وعلى بطلانه وهم الرافضة[5].

وفي فواتح الرحموت: ما من نبي إلا بعث بين أعدائه، فلعله - أي: في حال

(١) انظر: الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف، ابن حجر ٢/ ٦٣٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القران، القرطبي ٦/ ٣٢٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٢٣.
(٣) المبسوط، السرخسي ٢٤/ ٤٣.
(٤) المصدر السابق ٢٤/ ٤٤.
وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية ١٤/ ١٨٤.

(٥) الجامع لأحكام القران ٦/ ٣٢٤.

افتراض عمله بالتقية - كتم شيئًا من الوحي خوفًا منهم، وكذا محمد صلى الله عليه وسلم بعث بين أعدائه، ولم يكن له ولأصحابه قدرةٌ لدفعهم فيلزم على تجويز التقية له احتمال كتمانه شيئًا من الوحي، وأن لا ثقة بالقرآن. فانظر إلى شناعة هذا القول وحماقته على أن امتناع التقية على الأنبياء لا يعني عدم عملهم بالملاطفة واللين والمداراة للناس كما تقدم، أي: من دون إخلال بفريضة أو ارتكاب لمحرم[1].

وتقدمت الأدلة على جواز العمل بالتقية. وقد اختلف في حكمها.

فقيل: إذا وجد سببها وتحقق شرطها فهي واجبة، لأن إنقاذ النفس من الهلكة أو الإيذاء العظيم ونحو ذلك لا يحصل إلا بها في تقدير المكلف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩].

والصحيح عند العلماء أن الأولى للإنسان أن يثبت على ما هو عليه من الحق بظاهره، كما هو عليه بباطنه. وقد يكون الثبات أفضل وأعظم أجرًا ومثوبةً ولو كان العذر قائمًا، وثبت هذا بالأدلة الصحيحة في الكتاب والسنة، فمن الكتاب ما في سورة البروج، فقد حكى الله تعالى قصة الذين صبروا على عذاب الحريق في الأخدود، واختاروا ذلك على أن يظهروا الرجوع عن دينهم. وثناء الله تعالى عليهم بذلك الثبات يدل على تفضيل موقفهم على موقف العمل بالتقية في قضية إظهار الكفر. ومنها قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢].

ومما يستدل به على ذلك من السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تشرك بالله شيئًا وإن قتلت وحرقت)[2].

وكذلك ما تقدم في مسألة مسيلمة، فقد عذر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابي الذي وافق مسيلمة وقال فيه: (لا تبعة عليه) وقال في حق الذي ثبت فقتل: (مضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضله، فهنيئا له) وهذا يدل على التفضيل. واحتج السرخسي أيضا بقصة « خبيب بن عدي لما امتنع من موافقة قريش على الكفر حتى قتلوه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو: «أفضل الشهداء» وقال: (هو رفيقي في الجنة)[3].

وقد بوب البخاري رحمه الله لهذه المسألة بابًا بعنوان « باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر » أورد فيه حديث خباب بن الأرت أنه قال: (شكونا إلى رسول

(١) فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت، اللكنوي ٣/ ٣٢١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم ٤٠٣٤.
وصححه في الإرواء، ٧/ ٨٩، رقم ٢٠٢٦.

(٣) المبسوط ٤/ ٤٥.

الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على مفرق رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه ثم قال صلى الله عليه وسلم والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1]. وهو واضح الدلالة على المقصود. وهكذا كل أمر فيه إعزاز للدين وإعلاء لكلمة الله وإظهار لثبات المسلمين وبسالتهم، وتثبيت لعامة المسلمين على الحق، يكون الثبات على الحق وإظهاره أولى من التقية، وهذا بخلاف نحو الإكراه على شرب الخمر وأكل الميتة وحيث لا تظهر المصالح المذكورة[2].

ثانيًا: المداهنة المحرمة:

سبق وأن ذكرنا أن المداهنة تقترب كثيرًا من النفاق، وربما كانت كفرًا إذا كانت المداهنة لصاحب الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم:٩]..

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، رقم ٦٩٤٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ١٣٩.
وانظر الموسوعة الفقهية الكويتية ١٤/ ١٩٠.

قال ابن عباس: «ودوا لو تكفر فيكفرون»[3].

فالمداهنة خلقٌ قذرٌ، لا ينحط فيه إلا من خف في العلم وزنه، أو من نشأ نشأة صغارٍ ومهانةٍ. وتكمن خطورة هذا الخلق في أنه يتعارض تماما مع أهم المبادئ الإسلامية، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذا فإن الدعوات السماوية والوضعية قد جعلت جوهر أهدافها الإصلاح، والإصلاح هو لب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالقرآن الكريم قد ركز في أغلب سوره على الإصلاح، وقد ظهر واضحًا من خلال تأكيد القرآن الذي أوصى الإنسان بأخيه الإنسان، فحرم الكذب والخيانة والغش والاعتداء بكل صوره المادية والمعنوية، وهذه المبادئ وغيرها تشترك في منع أيٍ منا من أن يساعد على الظلم والفساد، فيما تدفعه للتعاون في جميع أنواع البر ومنه الإصلاح. وأدلة تحريم المداهنة كثيرةٌ.

قال تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾ [الواقعة: ٨١].

وقال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣﴾ [هود: ١١٣].

حكى القرطبي في تفسيرها أن معناها:

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٩/ ٥٦.

«لا تودوهم ولا تطيعوهم ولا تميلوا إليهم. والركون هنا: الإدهان وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم ثم قال: وهذا هو الصحيح في معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ، فإن صحبتهم كفر أو معصية، إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة، فإن كانت الصحبة عن ضرورةٍ وتقية فقد مضى القول فيها في « آل عمران » و « المائدة ». وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي في حال الاضطرار. والله أعلم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩].

قال الرازي في تفسيرها: «قال ابن عباس: يريد به يردوك إلى أهوائهم، فإن كل من صرف من الحق إلى الباطل فقد فتن، ومنه قوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ [الإسراء: ٧٣].

والفتنة ههنا في كلامهم التي تميل عن الحق وتلقي في الباطل وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «أعوذ بك من فتنة المحيا». قال: هو أن يعدل عن الطريق، قال أهل العلم: هذه الآية تدل على أن الخطأ والنسيان جائزان على الرسول ، لأن الله تعالى قال: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والتعمد في مثل هذا غير جائز على الرسول، فلم يبق إلا الخطأ والنسيان»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وإذا ثبتت حرمة المداهنة لما تقدم فلا ينبغي للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لأمته في كل عصرٍ ومصرٍ أن يطيعوا الكافرين ولا المنافقين إذا أشاروا عليهم بالمداهنة والترخص أو التنازل بدعوى المصلحة، ولا يأبهوا بأي أذىً متوقع ويعتمدوا على الله في ذلك كله، فهو وحده الوكيل وكفى بالله وكيلًا.

قال الشوكاني: ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: لا تطعهم فيما يشيرون عليك به من المداهنة في الدين وفي الآية تعريض لغيره من أمته لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه ويشيرون به عليه[3].

قال صاحب الظلال: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٧٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ١٧٧.

(٣) فتح القدير ٤/ ٢٨٠.

﴿عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾ [الأحزاب: ٤٨].

« توجيه النبي صلى الله عليه وسلم ألا يحفل بأذى الكافرين والمنافقين، ولا يتقيه بطاعتهم في شيء أو الاعتماد عليهم في شيء، فالله وحده هو الوكيل، وكفى بالله وكيلًا[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعام: ٦٨].

قال القرطبي في تفسيرها: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالتكذيب والرد والاستهزاء فأعرض عنهم والخطاب مجرد للنبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه. وهو صحيح ، فإن العلة سماع الخوض في آيات الله، وذلك يشملهم وإياه. فأدب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية ، لأنه كان يقعد إلى قوم من المشركين يعظهم ويدعوهم فيستهزئون بالقرآن ، فأمره الله أن يعرض عنهم إعراض منكر. ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكرًا وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه[(٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ [الممتحنة:٩].

يقول ابن عاشور في تفسيرها: « فذلكة لما تقدم وحصر لحكم الآية المتقدمة. وهي تؤذن بانتهاء الغرض المسوق له الكلام من أوله. والقصر المستفاد من جملة ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى آخرها قصر قلب لرد اعتقاد من ظن أو شك في جواز صلة المشركين على الإطلاق. والذين تحققت فيهم هذه الصفات يوم نزول الآية هم مشركو أهل مكة، و ﴿أَن تَوَلَّوۡهُمۡ﴾ بدل اشتمال من ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ﴾ شرط وجيء في جواب الشرط باسم الإشارة لتمييز المشار إليهم زيادة في إيضاح الحكم. والمظاهرة: المعاونة. وذلك لأن أهل مكة فريقان منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون معها البقاء بمكة، ومنهم من يعين على ذلك ويغري عليه. والقصر المستفاد من قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قصر ادعائي، أي: أن ظلمهم لشدته ووقوعه بعد النهي الشديد والتنبيه على الأخطاء والعصيان ظلم لا يغفر لأنه اعتداء على حقوق الله وحقوق المسلمين وعلى حق الظالم نفسه»[(٣)].

ولا شك أن الحق سبحانه نهى عن موالاة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٣.
(٢) الجامع لأحكام القران ٧/ ٢٣٤.
(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٥٦.

الكفار بنص صريح، فقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

وأخبر أنه إذا لم يكن المؤمنون بعضهم أولياء بعض والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، ويتميز هؤلاء عن هؤلاء، فإنها تكون فتنة في الأرض وفساد كبير.

ولا ينبغي أبدًا أن يثق المؤمن بغير المؤمن مهما أظهر من المودة وأبدى من النصح؛ فإن الله تعالى يقول عنهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٨٩].

ويقول سبحانه لنبيه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

والواجب على المؤمن أن يعتمد على الله في تنفيذ شرعه، وأن لا تأخذه فيه لومة لائم، وأن لا يخاف من أعدائه، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقد جاء النص الصريح من كتاب الله عز وجل على أن من اتخذ الكفار أولياء من دون المؤمنين أنه: منافق لا يؤمن بالله ولا بالنبي وما أنزل إليه وأنه من جملة الكفار الذين والاهم ونصرهم.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

وخلاصة الأمر أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفًا منهم ومداراة لهم ومداهنة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين.

أسباب المداهنة المشروعة

لا شك أن النفوس المطبوعة على المداراة نفوسٌ أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا في الائتلاف كجسد واحد، وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمةً متماسكةً على قدر ما فيها من حياة، ولا تنكر عضوًا ركب معها في جسد إلا أن يصاب بعلةٍ يعجز الاطباء أن يصفوا لها دواء [(١)].

ومن هنا تبرز أهمية الاتحاد والتعاون الاجتماعي. وفي المقابل نجد النفوس الشريرة لا تسعى لتحقيق هذا الخلق النبيل. بل تعمل صباح مساء على إشعال نار الفتنة وتهييج النفوس وشحنها بالبغضاء وحثها على الخراب والقتل والدمار. ولا شك أنه لحصول ذلك كله أسبابٌ ودواعٍ تقتضيه. وهذا ما سنبينه بحول الله وقوته فيما يأتي:

أولًا: أسباب المداهنة المشروعة:

١. مداراة الناس صدقة.

قال ابن حجر: ما ورد فيه صريحًا: أي في جواز المداراة حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مداراة الناس صدقة)[(٢)].

وقال أبو حامد الغزالي « الناس ثلاثة: أحدهم مثل الغذاء لا يستغنى عنه. والأخر مثل الدواء يحتاج اليه في وقت دون وقت. والثالث: مثل الداء لا يحتاج اليه لكن العبد اذا ابتلي به وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع فتجب مداراته الى الخلاص منه[(٣)].

ومعنى الحديث: أن المداراة واللين والتعطف تكون صدقةً على صاحبها إذا ابتلي الرجل بمخالطة الناس معاملةً ومعاشرةً فألان جانبه معهم وتلطف ولم ينفر منهم[(٤)].

٢. المداراة من الحكمة والذكاء لإرضاء الناس.

لما كانت المداراة رأس العقل صارت بدهيًا من الحكمة والذكاء.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال « رأس العقل بعد الايمان بالله مداراة الناس»[(٥)].

والمداراة يبتغى بها رضى الناس وتأليفهم في حدود ما ينبغي أن يكون، فلا يبعدك عنها قضاء بالقسط أو إلقاء نصيحة في رفق. والمداراة ترجع الى ذكاء الشخص

---

(١) رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين ص١٢٩.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ١/ ٣٤٧، وأبو نعيم في الحلية، ٨/ ٢٤٦.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٧٥٩، رقم ٥٢٥٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٢/ ٣١٢.

(٤) انظر: التقية والمداهنة والمداراة في القران، عبد المنعم إبراهيم ص٤٥.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الاخلاق ص ١٣٩.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٤٥٢، رقم ٣٠٧١.

وهو الذي يراعي في مقدارها وطريقتها ما ينبغي أن يكون ولأسباب العداوة مدخل في تفاوت مقادير المداراة واختلاف طرقها[1].

والمداراة من أخلاق الأنبياء عليهم السلام.

قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٤ - ٨٨].

وقال نوح لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: ٢٨ - ٣١].

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمداراة وفعله إياها.

فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنا لنكشر في وجوه القوم وقلوبنا تلعنهم)[2].

وفي رواية أخرى ما يؤيد ذلك، فعن جرير ابن عبد الله قال: (جاء ناسٌ من الأعراب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن ناسًا من المصدقين يأتونا فيظلمونا، قال فقال: «أرضوا مصدقيكم»، فقالوا: يا رسول الله وإن ظلمونا ؟ قال: «أرضوا مصدقيكم» وزاد عثمان و«إن ظلمتم»)[3].

٣. المداراة علاج للعداوة بين الناس.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

(١) رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين ص ١٣٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إرضاء السعاة، رقم ٩٨٩.

« يقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم »[1].

ثانيًا: صور من المداهنة المشروعة:

الصورة الأولى: المداراة بالكلمة اللينة والقول الحسن، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

«فينبغي على الإنسان عند تعامله مع الناس، ودعوتهم إلى الخير أن يخاطبهم بالطيب من الكلام مبتعدًا عن الألفاظ والكلمات النابية، من اللعن والسب والشتم، والإغلاظ في القول، متأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملاته مع الناس، وسأكتفي بذكر بعض الأحاديث الدالة على أهمية الكلمة اللينة، والكلام الحسن، وأنهما من أفضل الأعمال عند الله سبحانه، وبهما ترتفع درجة العبد عند ربه عز وجل وينال بهما إذا أضيفا إلى بقية أعماله الصالحة رضوان الله سبحانه والفوز بالجنة.

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل، الكلمة الحسنة والكلمة الطيبة**)[2].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه من حديث طويل رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله ربه عز وجل عن الدرجات. قال: (**أي: الله سبحانه**) **وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام**)[3].

وللكلمة الطيبة في النفوس مفعول أكثر من إعطائها المال، فعن عروة بن الزبير بن العوام قال: مكتوب في الحكمة: لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء[4].

وفي المقابل فإن للكلمة السيئة أثرًا في نفوس السامعين، فقد تؤدي إلى الوقوع في أعراض الناس وغيبتهم، ونسبتهم إلى ما هو غير كائن، كما يفهم ذلك من مفهوم الآيات والأحاديث السابقة.

والأحاديث النبوية، وأقوال أهل العلم كثيرة في هذا الموضوع تبين أهمية الكلمة الطيبة وأثرها على الأفراد والجماعات.

الصورة الثانية: المداراة بطلاقة الوجه والبشر: التبسم والضحك والانبساط،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٥ / ٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل، رقم ٢٢٢٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب وسورة ص، رقم ٣٢٣٥.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) انظر: مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص٤٩.

ومن ذلك ما روي عن أبي الدرداء أنه قال: (إنا لنكشر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم)[1].

ونكشر في وجوه القوم: أي: نبسم في وجوههم. وكاشره: إذا ضحك في وجهه وباسطه[2].

وكان عليه الصلاة والسلام كما ثبت في بعض الأحاديث، إذا لقي رجلًا هاشًا باشًا صافحه وأقبل عليه. روى عكرمة قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقي الرجل فرأى في وجهه البشر صافحه)[3].

ولقد عد الرسول صلى الله عليه وسلم التبسم من الصدقة، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(تبسمك في وجه أخيك صدقة)[4].

ويلحق بطلاقة الوجه والبشر، الترحيب بالفاجر وإلانة الكلام له.

فعن عبدالرحمن بن جابر بن عتيك عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (سيأتيكم ركيب مبغضون. فإذا جاءوكم فرحبوا بهم، وخلوا بينهم وبين ما يبتغون، فإن عدلوا فلأنفسهم، وإن ظلموا فعليها، وأرضوهم فإن تمام زكاتكم رضاهم وليدعوا لكم)[5].

هذه الأدلة وأمثالها تبين لنا أهمية طلاقة الوجه والبسمة والضحك في إقامة بعض الروابط والعلاقات الاجتماعية بين الناس.

الصورة الثالثة: المداراة بالعطايا والهبات

الإحسان إلى الداخلين في الإسلام حديثا، إنما شرع لتحبيبهم في الإسلام وجذبهم إليه، واستبعادهم عن الشرك، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحسن إليهم بالقول والفعل، بالكلمة الطيبة، والملاطفة والانبساط في وجوههم، أو بإعطائهم مالًا، أو عقارًا تأليفًا لقلوبهم، ليحسن إسلامهم والحوادث التي تدل على ذلك من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة أذكر طرفًا منها:

بعد غزوتي حنين والطائف حيث حسن إسلام أكثر المؤلفة قلوبهم وانخرطوا في الجهاد يدافعون عن الإسلام ويتمنون الشهادة في سبيل الله، بل وانقلب بغضهم الشديد للرسول صلى الله عليه وسلم إلى حبٍ سيطر على قلوبهم وعقولهم فعن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس معلقًا، ٨/ ٣١.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٦١.
(٣) انظر: مداراة الناس، ابن أبي الدنيا ص٦٣.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب صنائع المعروف، رقم ١٩٥٦.
قال الترمذي: حديث حسن.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٦١، رقم ٢٩٠٨.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب رضا المصدق، ٢/ ١٠٥، رقم ١٥٨٨.
وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، الأم، ٢/ ١٠٩، رقم ٢٧٨.

صفوان قال: (والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إلي، ما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي)[1].

وتظهر حكمة مداراة الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار عندما غضبوا من طريقة توزيع الغنائم بعد غزوة الطائف. قال لهم: (أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون أنتم برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله رضينا. فقال: لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار شعبًا لأخذت شعب الأنصار). وفي رواية أخرى: (ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله إلى رحالكم. الأنصار شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرًا من الأنصار)[2].

الصورة الرابعة: المداراة بالنصيحة والدعاء للحكام.

و المقصود هنا، كيف نتعامل مع الحكام سواء أكانوا من الكفار أم من المسلمين، وكيف نتعامل مع الفجار، والفسقة وأضرابهم من الناس، إما لجلبهم للدين، أو ردهم عن الظلم والتجبر وأكل أموال الناس بالباطل، أو اتقاء شرهم وفحشهم، أو إبعادهم عن غيهم وفسادهم.

لا شك أن هذا الأسلوب لا يكون إلا بالطرق الطيبة الحكيمة مثل الكلام اللطيف، والابتسامة الرقيقة، والتنبيه على الأخطاء برفق ولطف، وأسلوب حسن، والدعاء لهم بالهداية والتوفيق، وأن يعينهم الله على ترك الباطل، وإقامة الحق، والتعاون معهم على الخير. وإذا ما تم ذلك فقد يضمحل الشر في نفوسهم، أو يزول، ويكثر الخير، وأيضًا عدم التشهير بعيوبهم، والتشنيع عليهم على رؤوس الأشهاد لما فيه من الفساد والفتنة والاقتتال، وسفك الدماء. ولا يخفى ما فعله الخارجون على الخليفة عثمان رضي الله عنه حينما أنكروا عليه بعض أعماله علنًا، فأدى ذلك إلى الاقتتال، والفتنة بين المسلمين، وتفريق وحدتهم وجماعتهم.

ويفهم أيضًا من قوله تعالى لموسى وهارون - عليهما السلام - عندما أمرهما سبحانه: بالذهاب إلى فرعون، ودعوته للحق قال سبحانه ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: ٤٤].

ويفهم أيضًا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في كيفية معاملة الأمراء لمصلحة حقن دماء المسلمين ومنع سفكها بغير حق فعن أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط فقال: لا، ٤/ ١٨٠٦، رقم ٢٣١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، رقم ١٠٦١.

(ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: أفلا نقاتلهم. قال: لا ما صلوا).

وفي رواية: (قلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك، قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئًا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة)[1].

قال النووي: «أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر عليهم، وإن ظلموا وأكلوا أموال الناس بالباطل، واللين معهم مع كراهة أفعالهم بقلوبنا للبراءة من الإثم إذا لم نستطع أن نغير المنكر باليد واللسان»[2].

الصورة الخامسة: المداراة بالصحبة الجميلة والمعاشرة الحسنة.

الأسرة قائمة على المودة والرحمة، والإحسان، والمعروف. حتى في أشد الحالات وأصعبها، كالطلاق مثلًا.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والعلاقات الأسرية، وبخاصة بين الزوجين ينبغي أن يسودها اللين، والمجاملة، والعطف، والإغضاء عن الهفوات، والصبر على الأذى، للمحافظة على تماسك الأسرة، وصفاء جوها.

يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

والعشرة بين الزوجين، كما هو معلوم تكون بالقول والفعل، والصحبة الجميلة وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، والرفق، وكف الأذى، وعدم إظهار الكراهة وغير ذلك. ويفعل ذلك كله بإقبال وبشر وطلاقة وجه.

ولعل الحكمة من مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة، هو زوال الكراهة بين الزوجين لتخلفها المحبة بينهما[3].

والأدلة من السنة النبوية الكريمة، المؤكدة على حسن معاشرة الرجل لزوجته والوصاة بها كثيرة.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المرأة كالضلع. إن أقمتها كسرتها، وان استمعت بها استمعت بها وفيها عوج)[4].

وفي لفظ آخر عنه: (إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، وإن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا، رقم ١٨٥٤.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ١٤٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب المداراة مع النساء، رقم ٥١٨٤.

استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيرا. فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرًا)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء خيرًا) كأن فيه رمزًا إلى التقويم برفق بحيث لا يبالغ فيه فيكسر، ولا يتركه فيستمر على عوجه والمراد أن يتركها على اعوجاجها في الأمور المباحة، وأن لا يتركها على الاعوجاج إذا تعدت ما طبعت عليه من النقص، إلى تعاطي المعصية بمباشرتها أو ترك الواجب[3].

ففي هذه الأحاديث، الندب إلى المداراة لاستمالة النفوس وتألف القلوب، وفيها: سياسة النساء بأخذ العفو منهن، والصبر على عوجهن. وأن من رام تقويمهن فاته الانتفاع بهن. مع أنه لا غنىً للإنسان عن امرأة يسكن إليها، ويستعين بها على معاشه، فالاستمتاع بها لا يتم إلا بالصبر عليها[4].

ومن هديه صلى الله عليه وسلم في المداراة أنه كان يرسل الجواري إلى عائشة - رضي الله عنها - يلاعبنها بالبنات (اللعب) فعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: وكانت تأتيني صواحبي فكن ينقمعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسربهن إلي)[5].

ومن هديه صلى الله عليه وسلم أيضا أنه كان يصلح بينهن حال خصومتهن من غيرة ونحوها. فعن أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام. فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: غارت أمكم. ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب المداراة مع النساء، رقم ٥١٨٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، رقم ٥١٨٥.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٢٥٣.
(٤) المصدر السابق.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب في فضل عائشة أم المؤمنين، رقم ٢٤٤٠.

المكسورة في بيت التي كسرت فيه)[1].

وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم الكذب بين الزوجين، لمصلحة التآلف.

فعن ابن شهاب أن حميد بن عبدالرحمن أخبره أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيرًا وينمي خيرًا).

قال ابن شهاب: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها»[2].

ولقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة كيفية التعامل مع الأبناء والصغار، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: (قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقال: نعم، قالوا: لكنا والله ما نقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة)[3].

وأرشدنا الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك إلى الإحسان إلى البنات والصبر عليهم فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من رجل تدرك له ابنتان فيحسن إليهما، ما صحبتاه، أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة)[4].

وعن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته. كن له حجابًا من النار يوم القيامة)[5].

وفي الباب أحاديث كثيرة تبين كيفية مداراته صلى الله عليه وسلم للصغار من حيث التحبب إليهم وملاينتهم وملاعبتهم، والتجاوز عن هفواتهم وأخطائهم، والدعاء لهم. ومعلوم كيف كان صلى الله عليه وسلم يعامل الأطفال الصغار، وينهي عن زجرهم إذا ما ارتكبوا خطأ ما. وبلغ من مداراته

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم ٥٢٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه، ٤/ ٢٠١١، رقم ٢٦٠٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال، ٤/ ١٨٠٨، رقم ٢٣١٧.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ١٥، رقم ٢١٠٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، ٢/ ١٢١٠، رقم ٣٦٧٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٦٤٤، رقم ٢٧٧٦.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٦٢٢، رقم ١٧٤٠٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، ٢/ ١٢١٠، رقم ٣٦٦٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٠٦، رقم ٦٤٨٨.

صلى الله عليه وسلم لهم أنه حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة. فعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال: (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يؤم الناس وأمامة بنت أبي العاص وهي ابنة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها)[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة، رقم ٥١٦.

أسباب المداهنة المحرمة

سبق وأن ذكرنا أن المداهنة المحرمة نوع من أنواع الموالاة للكفار؛ لأن المداهن إنما خالف بصنيعه هذا نهج الرسل وأتباعهم وهو بالإضافة إلى تركه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ معينٌ على إشاعة المنكر في المجتمع لأن الظلمة والفجرة إذا رأوا ذلك زادوا في فجورهم ولعل لهذا وغيره استحق المداهن اللعن في كل ملة؛ لأنه كان - فوق كل ما تقدم - يزين القبيح ويقبح المليح. وهذا كله أدعى لأن نقف على الأسباب المؤدية لهذا التردي المهلك وصورٍ منها من خلال ما يلي:

أولًا: أسباب المداهنة المحرمة:

١. المداهنة للإضلال.

وقد حكى القران الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣].

ولما كانت المداهنة كما تقدم محرمة، عصم الله بفضل منه ورحمة نبيه صلى الله عليه وسلم منها لأنها ضلال وإضلال، وكذلك عصمة غيره إنما هي فضل من الله

ورحمة من باب أولى.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿هَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ «والمعنى: ولولا أن الله خصك بالفضل وهو النبوة، وبالرحمة. وهي: العصمة لهمت طائفةٌ منهم أن يضلوك، وذلك لأن قوم طعمة كانوا قد عرفوا أنه سارق، ثم سألوا النبي عليه السلام أن يدفع ويجادل عنه ويبرئه عن السرقة، وينسب تلك السرقة إلى اليهودي، ومعنى يضلوك أي: يلقوك في الحكم الباطل الخطأ - وهو التواطؤ معهم - ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بسبب تعاونهم على الإثم والعدوان، وشهادتهم بالزور والبهتان، فهم لما أقدموا على هذه الأعمال فهم الذين يعملون عمل الضالين. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ أي: وما يضرونك في المستقبل، فوعده الله تعالى في هذه الآية بإدامة العصمة له مما يريدون من إيقاعه في الباطل. أو المعنى أنهم وإن سعوا في إلقائك في الباطل فأنت ما وقعت في الباطل؛ لأنك بنيت الأمر على ظاهر الحال، وأنت ما أمرت إلا ببناء الأحكام على الظواهر»[1].

٢. الجهل بالمداهنة وحدودها وأبوابها وعلاماتها وعلاجها.

حقًا من لم يعرف الشر يقع فيه. لذا كان حذيفة رضي الله عنه يسأل عن الشر مخافة أن يدركه»[2]، وكيما يعرفه فيتقيه ومن ذلك رذائل الأخلاق وأرذلها المداهنة، فيلزم كل أحد أن يعرفها وحدودها وأسبابها وكيفية اجتنابها وطرق علاجها إن وقع في شيء منها قل أو كثر.

يقول صاحب رد المحتار على الدر المختار: « واعلم أن تعلم الإخلاص وتعلم الحذر من العجب والحسد والرياء فرض عين. ومثلها غيرها من آفات النفوس: كالكبر والشح والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمداهنة والاستكبار عن الحق والمكر والمخادعة والقسوة وطول الأمل ونحوها مما هو مبين في ربع المهلكات من الإحياء قال فيه: ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجًا إليه، وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه»[3].

٣. الحرص على الإمارة.

الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة؛ لأنه إذا فطم عنها

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الامارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، رقم ١٨٤٧.

(٣) رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين ١/ ٤٤.

وعزل منها وكان قد ذاق لذة الإمارة بما فيها من جاه ونفاذ الأمر وغير ذلك، ربما لا يصبر الضعيف على ألم الفطام، فيداهن ويترخص، ويبيع من دينه ما يظن أنه سيحفظ عليه ولايته وجاهه وسلطانه، فهذا من الضعيف بمكان، وهذا يمنع من الإمارة ويزجر عنها زجرًا، لأنه أفسد لدينه من الذئب الجائع إذا أرسل في زريبة الغنم.

والأحاديث في النهي عن الحرص على الإمارة كثيرة.

فعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة، أكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها) [(١)].

وعن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)[(٢)].

قال الغزالي: « ومن جرب نفسه فرآها صابرةً على الحق، كافةً عن الشهوات في غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية، وأن تستحلي الجاه، وتستلذ نفاذ الأمر، فتكره العزل فيداهن خيفةً من العزل، فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقليد الولاية أم لا؟ فقال القائلون: لا يجب؛ لأن هذا خوف أمرٍ في المستقبل، وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق، وترك لذات النفس، والصحيح أن عليه الاحتراز؛ لأن النفس خداعة، مدعيةٌ للحق، واعدةٌ للخير، فلو وعدت بالخير جزمًا لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية، وإذا أظهرت التردد والامتناع عن قبول الولاية؛ لكان أهون من العزل منها بعد الشروع فيها. فالعزل مؤلم، وهو كما قيل «العزل طلاق الرجال» فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل، وتميل نفسه إلى المداهنة، وإهمال الحق، وتهوي به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهرًا[(٣)].

٤. تولي الضعيف القضاء.

أما القضاء فحكمه حكم الإمارة، لا ينبغي أن يتقلده الضعفاء ممن لهم تعلق بالدنيا وله في قلوبهم قيمة ووزن، فإن رأى من نفسه ذلك أو أنه لا يحظى بهذا المنصب أو الاستمرار فيه إلا بمداهنة السلاطين الظلمة، وإهمال وترك بعض

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الامارة والحرص عليها، رقم ١٦٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الامارة بغير ضرورة، رقم ١٨٢٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٣١٦.

حقوق المسلمين لأجلهم، فليس له أن يتقلد القضاء.

قال الغزالي: وأما القضاء فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة، فهو في معناها فإن كل ذي ولاية أمير، أي: له أمرٌ نافذ، والإمارة محبوبة بالطبع، والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق، والعقاب فيه أيضًا عظيم مع العدول عن الحق.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة)[1].

وقال عليه السلام: (من استقضى فقد ذبح بغير سكين)[2].

فحكمه حكم الإمارة، ينبغي أن يتركه الضعفاء، وكل من كانت الدنيا ولذاتها لها وزن في عينه، وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ومهما كان السلاطين ظلمة، ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم، وإهمال بعض الحقوق لأجلهم، وأجل المسلمين المتعلقين بهم، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه، أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلد القضاء، وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق، ولا يكون خوف العزل عذرًا مرخصًا له في الإهمال أصلًا، بل إذا عزل سقطت العهدة، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله، فإن لم تسمح نفسه بذلك، فهو إذن يقضي لاتباع الهوى والشيطان، فكيف يرتقب عليه ثوابًا وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار[3] ؟!

٥. الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث لغير المؤهل.

الوعظ والفتوى والتدريس حكمه حكم الإمارة والقضاء، فمن لم يكن نيته في ذلك إلا طلب الجاه والشرف والمنزلة في قلوب الناس والأكل بالدين بأي صورة كانت، والتفاخر والتكاثر والتنافس، فينبغي أن يترك ذلك ويخالف هواه في ذلك كله إلى أن يأمن على نفسه من هذه الفتن، ويكون نيته وهمته هداية الخلق، ويقوى على ذلك.

قال الغزالي: وأما المواعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد، وكل ما يتسع بسببه الجاه، ويعظم به القدر، فآفته أيضًا مثل آفة الولايات، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلًا، فمن لا باعث له إلا طلب

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ، رقم ٣٥٧٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨١٨، رقم ٤٤٤٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القاضي، رقم ١٣٢٥.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٦٥، رقم ٦١٩٠.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ١٢٠.

الجاه والمنزلة، والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر، فينبغي أن يتركه، ويخالف الهوى فيه، إلا أن ترتاض نفسه، وتقوى في الدين همته، ويأمن على نفسه الفتنة، فعند ذلك يعود إليه[1].

ومعلوم أن السلطة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعًا، وثار القتال بين الخلق، وزال الأمن، وخربت البلاد، وتعطلت المعايش، فلم نهي عن ذلك؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبي بن كعب لما رأى قومًا يتبعونه، وهو في ذلك يقول: أبيٌّ سيد المسلمين، وكان يقرأ عليه القرآن، فمنع من أن يتبعوه، وقال ذلك فتنة على المتبوع، ومذلة على التابع. وعمر رضي الله عنه كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه[2].

٦. الفتن بوجه عام أو التعلل بها أو بالأولاد ونحوهم.

قد يظن البعض أن ترك الواجبات والفرائض من أسباب النجاة من الفتن كما ترك المنافقون الغزو مع الرسول بهذه الدعوى قائلين: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ فرد الله دعواهم بقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩].

لذلك؛ فإن الرسول هنا يرشد إلى المبادرة بالأعمال الصالحة ويعلل ذلك بقدوم فتن كقطع الليل تدعو الإنسان للمداهنة وبيع دينه بعرض من الدنيا قليل. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بادروا بالأعمال الصالحة؛ فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا، ويمسي كافرًا)[3].

ومعنى (ويمسي مؤمنًا، ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرضٍ) أي: متاع وحطام من الدنيا، استئناف بياني أي: أن سبب كفره بيعه، أي: أخذه العرض في مقابلة دينه، بأن يأخذ أو يستحل مال أخيه المسلم، أو يستحل الربا والغش أو نحوه مما أجمع على تحريمه، وعلم من الدين بالضرورة[4].

ومن الفتن الحرص على الأولاد، والخوف عليهم من الضياع - كما يلقي الشيطان هذا في روع الإنسان أحيانًا ليحزنه ويضعفه ويجنبه عن قول الحق، والصدع به - لهو من أعظم أسباب المداهنة، لذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك، فعن يعلى العامري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الولد مجبنة مبخلة)[5].

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١٦.
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٢١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم ١١٨.
(٤) دليل الفالحين ١/ ٢٩٢.
(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، رقم ٣٦٦٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع،

حين بين لنا أن الولد مجبنة، فاحذر أن تداهن من أجله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[التغابن: ١٤].

ولما كان في الأمر بالمعروف؛ والنهي عن المنكر؛ والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة، صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة. كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ﴾[التوبة: ٤٩].

وقد ذكر أهل التفسير أنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، إني رجل لا أصبر على النساء، وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر، فأذن لي، ولا تفتني[(١)].

وهذا الجد هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة، واستتر بجمل أحمر. وجاء فيه الحديث: (كلهم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر)[(٢)].

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ﴾.

يقول: إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء فلا يفتتن بهن، فيحتاج إلى الاحتراز من المحظور ومجاهدة نفسه عنه. فيتعذب بذلك، أو يواقعه فيأثم. فإن من رأى الصورة الجميلة وأحبها، فإن لم يتمكن منها - إما لتحريم الشارع، وإما للعجز عنها - يعذب قلبه، وإن قدر عليها وفعل المحظور هلك. وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء.

فهذا وجه قول: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ فقال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ يقول: إن نفس إعراضه عن الجهاد الواجب، ونكوله عنه، وضعف إيمانه، ومرض قلبه. الذي زين له ترك الجهاد: فتنة عظيمة قد سقط فيها فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟ والله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٣].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة، فهو في الفتنة ساقط، لما وقع فيه من ريب قلبه، ومرض فؤاده، وترك ما أمره الله به من الجهاد.

وينقسم الناس أمام الأمر بالمعروف على قسمين كما يوضحهما شيخ الإسلام قائلًا:

فتدبر هذا، فإنه مقام خطر، والناس فيه

١/ ٤٠٠، رقم ١٩٨٩.

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٤٤٣ إلى ابن المنذر والطبراني وغيرهما عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم ٢٧٨٠.

على قسمين:

قسم يأمرون وينهون ويقاتلون طلبًا لإزالة الفتنة كما زعموا، ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة، كالمقاتلين في الفتن الواقعة بين الأمة مثل الخوارج.

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، لئلا يفتنوا، وهم قد سقطوا في الفتنة. وهذه الفتنة المذكورة في سورة «براءة» دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة، فإنها سبب نزول الآية. وهذه حال كثيرٍ من المتدينة، يتركون ما يجب عليهم من أمرٍ ونهيٍ، وجهادٍ، يكون به الدين كله لله. وتكون كلمة الله هي العليا، لئلا يفتنوا بجنس الشهوات، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منها. وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب من الأمر وترك المحظور. والقيام بالواجب وترك المحظور متلازمان، لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعًا أو تركهما جميعًا[1].

٧. الصداقة والصحبة في غير الله ومرضاته.

إن الصداقة والصحبة إذا كانت على غير الله وفي غير مرضاته يدخل على دين المرء من الفساد بسببها ما لا يعلمه إلا الله، ذلك لأنهم ما صاحبوه إلا ليعاونهم على أغراضهم وهم يقصدون بذلك إفساد دينه، وإن لم يفعل انقلبوا عليه أعداءً، عداوة تضاعف عداوة أعدائه؛ لأنهم شاهدوا منه ما لم يشاهده أعداؤه، وإن لم يحب مفارقتهم احتاج إلى مداهنتهم ومساعدتهم على ما يريدون وإن كان فيه فساد دينه.

وفيمن يحب صاحب «بدعة» لكونه داعية إلى تلك البدعة يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذي يعلم أنه باطل وإلا عاداه، ولهذا صار علماء الكفار وأهل البدع مع علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل: لأجل الأتباع والمحبين ويعادون أهل الحق ويهجنون طريقهم، فمن أحب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه، ومن أحب أحدًا لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه: فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي، والحيلولة بينه وبين رحمة في حقه، وأصدقاؤه يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه، فأي صداقة هذه؟! ويحبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه في أغراضهم وفيما يحبونه وكلاهما ضرر عليه.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ص٦٧ - ٧٠.

﴿الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦][(١)].

قال الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد: هي المودات التي كانت لغير الله، والوصلات التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

فالأعمال التي أراهم الله حسرات عليهم: هي الأعمال التي يفعلها بعضهم مع بعض في الدنيا وكانت لغير الله، ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله. فالخير كله في أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا ولا حول ولا قوة إلا بالله[(٢)].

٨. الخوف من الناس وعدم الخوف من الله.

اعلم أن من خاف الله تعالى في الناس كان محسنًا إلى الناس وإلى نفسه لأن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكفهم عن ظلمهم، ومن خاف الناس ولم يخف الله فهذا ظالم للناس ولنفسه لأنه إذا خافهم دون الله تعالى احتاج إلى أن يدفع شرهم عنه بكل وجه، إما بمداهنتهم ومراءاتهم، وإما بمقابلتهم بشيء من الشر أعظم من شرهم أو مثله.

قال شيخ الإسلام[(٣)]: «فالتوحيد ضد الشرك فإذا قام العبد بالتوحيد الذي هو حق الله فعبده لا يشرك به شيئًا كان موحدًا، ومن توحيد الله وعبادته؛ التوكل عليه، والرجاء له والخوف منه، فهذا يخلص به العبد من الشرك وإعطاء الناس حقوقهم، وترك العدوان عليهم يخلص به العبد من ظلمهم ومن الشرك بهم، وبطاعة ربه واجتناب معصيته يخلص العبد من ظلم نفسه، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين)[(٤)].

فالنصفان يعود نفعهما إلى العبد والله يحب النصفين، ويحب أن يعبدوه. وما يعطيه الله العبد من الإعانة والهداية هو من فضله وإحسانه وهو وسيلة إلى ذلك المحبوب وهو إنما يحبه لكونه طريقًا إلى عبادته والعبد يطلب ما يحتاج أولًا وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة وإلى الهداية إلى الصراط المستقيم.

ثم إذا طلب العبادة: فإنما يطلبها من حيث هي نافعة له محصلة لسعادته محصنة له من عذاب ربه فلا يطلب العبد قط إلا ما فيه حظ له وإن كان الرب يحب ذلك فهو

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
وانظر: التقية والمداهنة والمداراة في القران الكريم ص ٣٣٢.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٥٣.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٣٩٥.

يطلبه من حيث هو ملائم له فمن عبد الله لا يشرك به شيئًا: أحبه وأثابه فيحصل للعبد ما يحبه من النعم تبعًا لمحبوب الرب. أ.هـ

ثانيًا: صور من المداهنة المحرمة:

١. الدخول على الظلمة توقيرًا أو إعانة ومحبة.

اعتبر السلف الصالح الدخول على الظلمة وتوقيرهم والثناء عليهم ومحبتهم، نوعًا من الركون والمداهنة لهم، واستدلوا لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم، ثم قنع رأسه، وأسرع السير، حتى اجتاز الوادي)[١].

قال ابن حجر: ووقع عند ابن أبي شيبة من طريق أبي الشعثاء قال: دخل قوم على ابن عمر فوقعوا في يزيد بن معاوية فقال: «أتقولون هذا في وجوههم؟ قالوا: بل نمدحهم ونثني عليهم» وفي رواية عروة بن الزبير عن الحارث بن أبي أسامة والبيهقي قال: «أتيت ابن عمر فقلت: إنا نجلس إلى أئمتنا هؤلاء فيتكلمون في شيء نعلم أن الحق غيره فنصدقهم، فقال: كنا نعد هذا نفاقًا، فلا أدري كيف هو عندكم؟! لفظ البيهقي في رواية الحارث «يا أبا عبدالرحمن، إنا ندخل على الإمام يقضي بالقضاء نراه جورًا فنقول: تقبل الله، فقال: إنا نحن معشر محمد» فذكر نحوه. اهـ[٢].

وقد قرر أهل العلم أن الرجل إن كان مستغنيًا عن الدخول على من يضطره الحال إلى الثناء عليه فدخل وأثنى عليه بغير ما يعلم، كان نفاقًا أما إن اضطر إلى الدخول على ذي قوة، لا يخلص من بأسه إلا أن يسمعه شيئًا من الإطراء فهو سعة من يطريه بمقدار ما يخلص من بأسه، ولا تلحقه هذه الحالة الشاذة بزمرة المداهنين ومما يحكى في هذا الإطار ما حصل حين انهزم جيش السلطان فرج بن برقوق أمام جيش الطاغية تيمورلنك، ووقع طائفة من العلماء في أسر الطاغية، ومن هذه الطائفة ابن خلدون، فكان من هذا الفيلسوف أن تقدم إلى تيمورلنك، وقال فيما حادثه به: «إني ألفت كتابًا في تاريخ العالم، وحليته بذكرك، وما أسفي إلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإلى ثمود أخاهم صالحًا)، رقم ٣٣٨٠.

(٢) انظر: فتح الباري ١٣/ ١٨٢.

على هذا الكتاب الذي أنفقت عمري فيه، وقد تركته بمصر، وإن عمري الماضي ذهب ضياعًا، حيث لم يكن في خدمتك، وتحت ظل دولتك، والآن أذهب فآتي بهذا الكتاب، وأرجع سريعًا، حتى أموت في خدمتك، فأطلق سبيله، فقدم مصر، ولم يعد إليه»[1].

٢. كلام ذي الوجهين واللسانين.

ومن صور المداهنة بل من أسوئها أن يلقى المداهن الرجلين المتعاديين كلًا منهما على حدة فيظهر لكل واحد منهما الرضا عن موقفه من عداوته للآخر، وأنه هو المحق والآخر هو المخطئ، والأمر لا شك على خلاف فأحدهما المخطئ والآخر المصيب، مع ذلك قد صوب مسلك هذا المخطئ وخطأ مسلك المصيب، وهذه مداهنة محرمة.

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه)[2].

قال ابن عبد البر: هذا حديث ظاهره كباطنه وباطنه كظاهره في البيان عن ذم من هذه حاله، وقد تأوله قوم على أنه الذي يرائي بعمله ويري للناس خشوعًا واستكانة ويوهمهم أنه يخشى الله حتى يكرموه وليس في الحقيقة كذلك كما يظهر.

وقال النووي في توجيه الحديث: سببه ظاهر؛ لأنه نفاق محض وكذب وخداع وتحيل على اطلاعه على أسرار الطائفتين، وهو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها ويظهر لها أنه منها في خير أو شر وهي مداهنة محرمة ثم ذكر الحديث بعد ذلك وبوب عليه «باب: ذم ذي الوجهين وتحريم فعله» قال: والمراد من يأتي كل طائفة ويظهر أنه منهم ومخالف للآخرين مبغض فإن أتى كل طائفة بالإصلاح ونحوه فمحمود.

قال الأستاذ محمد خضر حسين: « ومن أسوأ ما يفعل المداهن أن يلاقي الرجلين بينهما عداوة، فيظهر لكل واحد منهما الرضا عن معاداته لصاحبه و يوافقه على دعوى أنه الحق، وصاحبه هو المبطل، وفي مثل هذا ورد قوله صلى الله عليه وسلم: (تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه)[3].

فيتخذ الرجل وجهين متى كان يطمع إلى ما في أيدي الناس من متاع، أو كان يطمع في إرضاء طوائف على تباعد ما بينهم من نزعات، وعلى شدة ما بينهم من اختلاف، والعبور إلى النفع على جسر من المداهنة،

(١) انظر: رسائل الإصلاح، محمد الخضير حسين ص١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب ما يكره من ثناء السلطان، رقم ٧١٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب ذم ذي الوجهين وتحريم فعله، رقم ٢٥٢٦.

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

يحرم صاحبه من أعز متاع هو الصدق، بعد أن يحرمه من أطيب لذة هي ارتياح الضمير، ومن كان حريصًا على أن يكون صديق الطوائف المتباينة، فإن الطيب منهم يأبى أن يلوث صدره بصداقة من يتملق الخبيث [(١)].

فائدة:

الجمع بين هذه الصورة وقوله صلى الله عليه وسلم: (بئس أخو العشيرة):

قال العراقي: (فإن قلت): كيف الجمع بين هذا الحديث وبين الحديث الآخر الثابت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: (أن رجلًا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ائذنوا له فبئس أخو العشيرة) فلما دخل ألان له القول فقلت: يا رسول الله، قلت له الذي قلت ثم ألنت له القول؟! قال: (يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه)[(٢)].

قلت: لا منافاة بينهما فإنه عليه الصلاة والسلام لم يثن عليه في وجهه ولا قال كلامًا يضاد ما قال له في حقه في غيبته، إنما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام له، وإنما فعل ذلك تألفًا له ولأمثاله على الإسلام ولم يكن أسلم في الباطن حينئذٍ، وإن كان قد أظهر الإسلام فبين عليه الصلاة والسلام ليعرف ولا يغتر به وتألفه رجاء صحة إيمانه وقد كان منه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ما دل على ضعف إيمانه وارتد مع المرتدين وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر رضي الله عنه [(٣)].

٣. إيثار رضا الخلق على رضا الخالق سبحانه وتعالى.

ومن صور المداهنة: إيثار رضا الخلق على رضا الله تعالى، وفي هذا سخط الله وسخط الناس.

وفي حديث عائشة مرفوعًا: (من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس)[(٤)].

لهذا قيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله عنه إلى من نجلس بعدك يا أبا عبدالله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم، وهو عند رأسه ليومئ إليه، فقال الشافعي: سبحان الله! أيشك في هذا؟ أبو يعقوب البويطي، فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البويطي، مع أن محمدًا كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي

(١) رسائل الإصلاح ص١٣٥.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، رقم ٦٠٣٢.
(٣) تيسير المجيد شرح تقريب الأسانيد، عبدالمنعم إبراهيم ٣/ ١٧٦.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، آخر باب، ٤/ ٦٠٩، رقم ٢٤١٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٥٢، رقم ٦٠٩٧.

أفضل وأقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعي لله وللمسلمين، وترك المداهنة، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى[1].

ومن إيثار رضا الخلق: التنازل عن واجب من واجبات الدين من أجل الوظائف.

ومثال ذلك أن يتقدم شخص ما إلى وظيفة معينة فيشترطون عليه التنازل عن بعض أمور الدين التي لا ينبغي التنازل عنها من أجل العمل، فإن أجاب فهذه مداهنة وترخص، وبذل للدين من أجل عرض دنيوي، وإن ثبته الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وبقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فسوف يرزقه من حيث لا يحتسب، ويربح الدنيا والآخرة، وإلا فسيخسر مع المداهنة الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

ومن ذلك أيضًا مداهنة الحكام لأهل الباطل.

وتحدث هذه المداهنة في الواقع في كل نواحي الحياة، في الوظائف والمدارس، وغير ذلك من نواحي الحياة، وكذلك مداهنة الحكام لأهل الباطل والبغي والفساد.

فالحاكم المسلم يجب عليه موالاة أهل الإيمان ونصرتهم، وقمع أهل الباطل والبغي والفساد، وكسر شوكتهم، وقد أخذ بهذا المبدأ عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز في رسالته التي بعث بها إلى أمراء بعض الجهات التابعة له قال فيها: (بلغنا خبر أن بعض الأمراء متسلط على أهل الدين بأمورٍ ظاهرها حق وباطنها باطل، ولا يفعل هذا أمير مع أهل الدين، فأدعه يومًا واحدًا في الإمارة، فكل يأخذ حذره، ويبدل ما كان عليه، ومضى ما فيه الكفاية)[2].

٤. مداهنة الكفار واليهود والنصارى.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨].

ومن صور المداهنة أيضًا موالاة الكفار ومباطنتهم سواء بمودة القلب أو بنصره أو بغير ذلك.

قال البغوي: نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان، رفعًا عن نفسه، من غير أن يستحل دمًا حرامًا، أو مالًا حرامًا، أو

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٨٠.

(٢) الموالاة والمعاداة، محماس الجلعود ٢/ ١١٢.

يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل، وسلامة النية قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[النحل: ١٠٦].

ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم [(١)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[المائدة: ٥١].

وفي ظلال القرآن[(٢)]: « إنه لا يجتمع في قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاة أعدائه الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون».

ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لا يرتضي أن يحكم كتاب الله في الحياة، سواء كانت الموالاة بمودة القلب، أو بنصره، أو باستنصاره سواء.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

هكذا ليس من الله في شيء. لا في صلاة ولا نسبة، ولا دين ولا عقيدة، ولا رابطة ولا ولاية فهو بعيد عن الله، منقطع الصلة تمامًا في كل شيء تكون في الصلات.

ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان» [(٣)].

فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر -والكافر هو الذي لا يرضى بتحكيم كتاب الله في الحياة على الإطلاق، كما يدل السياق هنا ضمنًا وفي موضع آخر من السورة تصريحًا - كما أنه ليس من التقية المرخص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية. فما يجوز هذا الخداع على الله ! ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكًا للضمائر ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه في صورة عجيبة من التعبير حقًا:

﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

ابتغاء حكم الجاهلية مداهنة وباغيه مداهن.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٤٩.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٠.

﴿لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩﴾ [المائدة: ٤٩].

٥. التحاكم لحكم الجاهلية وباغي هذا التحاكم مداهن.

والمعنى: وأن احكم بينهم بما أنزل الله إليك يا محمد من الكتاب ولا تتبع أهواءهم.

أي: ولا تتبع أهواء اليهود الذين احتكموا إليك في قتيلهم وفاجريهم، وأمر منه له بلزوم العمل بكتابه الذي أنزله إليه. واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك أي: احذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاءوك محتكمين إليك أن يفتنوك، فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من حكم كتابه، فيحملوك على ترك العمل به واتباع أهوائهم. فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم.

أي: فإن تولى هؤلاء اليهود الذين اختصموا إليك عنك، فتركوا العمل بما حكمت به عليهم، وقضيت فيهم، فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، أي: فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضا بحكمك وقد قضيت بالحق إلا من أجل أن الله يريد أن يتعجل عقوبتهم في عاجل الدنيا ببعض ما قد سلف من ذنوبهم. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾[1].

٦. التباطؤ عن دفع المنكر والنهي عنه.

ويتمثل ذلك في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها؛ كمثل قوم استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا)[2].

وهذا مثلٌ بليغٌ جدًا، فهو يبين أن المصلحة مشتركة بين الجميع، وأن سلامة المؤمنين كلٌ لا يتجزأ، فإذا أخطأ بعضهم انسحب هذا الخطأ على الباقين. والتشبيه التمثيلي في قوله: (مثل القائم على حدود الله) إلخ، تشبيه معقول بمحسوس؛ حيث شبهت فيه الهيئة الحاصلة من قيام المسلمين بواجبهم في تغيير المنكر بالهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد، كما شبهت الهيئة الحاصلة من التقاعس عن تغيير المنكر بحال أهل السفينة إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يشاء. ووجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد؛ وهي منتزعة في الحالة الأولى من هيئة النجاة المترتبة على قيام قوم بما يجب عليهم، وفي الحالة

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٤٣ بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم ٢٤٩٣.

الثانية من هيئة الهلاك الناجم عن تقصيرهم في ما يجب عليهم؛ فكما أن أهل السفينة سينجون إن أخذوا على يد من يريد خرقها، فإن النجاة ستكون مصير الجميع في مجتمع يأخذ أهله على يد العابثين، وكما أن الغرق سيكون مصير أهل السفينة إن تركوا مريد الخرق يفعل ما يريد فإن مجتمع المداهنين الساكتين عن أهل المنكر سيؤول إلى هلاك محتم[(١)].

كما يبين حال الناس في المجتمع وأنه لا يخلو من وجود بعض صور المنكر والفساد التي يقدم عليها ضعاف الإيمان، وقد يلتمس بعضهم لنفسه مبررًا في ما يفعل كأن يقول هذه حرية شخصية، وأنا حر أصنع في ملكي ما أشاء، فإن قام أهل الرشد بواجبهم في إنكار هذه المنكرات والأخذ على أيدي الظالمين صلح المجتمع ونجا الجميع من غضب الله عز وجل، وأما أن يتقاعسوا عن هذا الواجب وتغلبت كلمة المداهنين فإن العقوبة الإلهية تعم الجميع، وتلك سنة إلهية لا تتغير.

قال الحافظ: «وهكذا إقامة الحدود يحصل بـها النجاة لمن أقامها وأقيمت عليه، وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها»[(٢)].

(١) الإيضاح، القزويني ٢/ ٣٧١.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٢٤٥.

يقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده)[(٣)].

٧. متابعة بعض المتصدرين لأهواء ذوي السلطان، أو طلبًا لتحصيل مال، أو رضا صاحب أو قريب، أو نصرة لولاءات حزبية، أو رغبة في إرضاء مرهوب أو مرغوب.

ومتى اتصف الداعية بهذا الوصف فسدت دعوته وسقطت من أعين الناس وجاهته، وظهرت آثار مداهنته من خلال فتاويه وأقواله وأعماله.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن حبنكه بعض أفعال هؤلاء وأمثالهم ممن يتبعون أهواءهم فذكر من أعمالهم:

- ومنها: لي أعناق النصوص، وتفسيرها تفسيرات باطلات لتزيين وتدعيم الفتاوى المخالفة لحكم الله عز وجل.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، رقم ٢١٦٨.
قال الترمذي: صحيح.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٥٦٤.

ومنها: إباحة بعض الأعمال الربوية المحرمة بلا شك، وإيجاد تخريجات باطلات لها إرضاء للحكام، حتى يظفر منهم بمنصب أو يظفر بتثبيت فيه، أو بتيسير مصالح مادية له أو لذويه.

- ومنهم من يتحايل على نصوص حجاب المرأة للتهوين من أمره.
- ومنهم من يجعل الاشتراكية والديمقراطية من الإسلام متحايلا باستخدام النصوص الإسلامية التي تأمر بالشورى..
- ومنهم من ينقض بعض أصول الدين أو فروعه، ويطلق عبارات تخرج من الإسلام إرضاء للحكام واستجابة لأهوائهم، ولما يبذلونه له من مال أو منصب أو جاه أو كلام معسول، أو تمجيد وتبجيل وتعظيم. إلى غير ذلك من تهوك في الضلالة، وعبث في أحكام الإسلام وشرائعه[1].

وفي كتاب «الدعوة إلى الإصلاح» كتب شيخ الأزهر السابق الشيخ محمد الخضر حسين يذم أخلاق المداهنين وأفعالهم فيقول رحمه الله: «فمن أهل العلم من يرى ذا جاه أو رياسة يهتك ستر الأدب، أو يعيث في الأرض فسادا، فيتغابى عن سفهه أو بغيه، ويطوي دونه التذكرة والموعظة، ابتغاء مرضاته أو حرصا على مكانة أو غنيمة ينالها لديه. ومن البلية (والكلام ما يزال لشيخ الأزهر) أن المترفين ومن ينحو نحوهم في الزيغ والغرور، لا يكتفون ممن يسوقهم الزمن إلى نواديهم أن يسكت عن جهلهم، ويتركهم وشأنهم، وإنما يرضيهم منه أن يزين لهم سوء عملهم، أو يرمقهم بعين مكحولة بتبسم الاستحسان، وهو أقل شيء يستحق به في نظرهم لقب «كيس ظريف»[2].

موضوعات ذات صلة:

السلم، السياسة، العلاقات الدولية، النفاق

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حبنكة الميداني ص ٦٣٤.

(٢) رسائل الإصلاح ص١٣٧.

المدح

عناصر الموضوع

مفهوم المدح	٢١٢
الألفاظ ذات الصلة	٢١٣
مدح الله تعالى	٢١٧
أسباب المدح	٢٢٢
مدح النفس	٢٤١
نماذج من المدح	٢٥٠
مقاصد المدح في القرآن الكريم	٢٦٦

مفهوم المدح

أولًا: المعنى اللغوي:

لفظ المدح في اللغة العربية مأخوذ من مادة الفعل (م د ح) و«الميم والدال والحاء أصل صحيح يدل على وصف محاسن بكلام جميل، ومَدَحَهُ يَمْدَحُهُ مَدْحًا: أحسن عليه الثناء، والأمدوحة: المدح»[1]، قال الجوهري: «المدح: الثناء الحسن. وقد مَدَحَهُ وامْتَدَحَهُ بمعنًى، وتَمَدَّحَ الرجل: تكلف أن يمدح. ورجلٌ مُمَدَّحٌ، أي: ممدوح جدًّا»[2].

ومن المعاني الحسية للمدح الاتساع، يقال: «تمدحت خواصر الماشية، أي اتسعت شبعًا»[3]، ومن هذا يبدو أن المعنى المعنوي للمدح متطور من المعنى الحسي؛ لأن الاتساع بذكر الخصال الحميدة في الممدوح والثناء عليه ملحوظ فيه، وعليه، فالمدح: هو حسن الثناء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«المدح هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصدًا»[4]، فلا يكون إلا على صفة في الممدوح كالتقوى والإيثار، ويخرج منه ما كان خارجًا عن إرادته كحسن المنظر، «والمدح بمعنى عدِّ المآثر والمناقب يقابله الهجو بمعنى عدِّ المثالب، والمدح بالوصف الجميل يقابله الذم»[5]. وعليه، فللمدح معنيان: أحدهما: عدُّ المآثر والمناقب، والآخر: الثناء بالوصف الجميل، فإذا كان بمعنى عدِّ المآثر والمناقب فهو يقابله الهجو بمعنى عد المثالب، وإذا كان بمعنى الثناء بالوصف الجميل فهو يقابله الذم.

وبهذا يمكن أن نخرج بتعريف اصطلاحي للمدح بأنه: الإخبار عن محاسن الغير والثناء باللسان على الممدوح بما يبديه من المآثر والخصال الحميدة المؤثرة من قول أو فعل أو صفة.

ولم يرد لفظ (المدح) في القرآن، ولم يرد جذره (مدح).

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٠٨.
(٢) الصحاح ١/ ٤٠٣.
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٠٤.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص١١٦.
(٥) الكليات، الكفوي ص٨٥٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الثناء:

الثناء لغة:

ذكر ما يشعر بالتعظيم [١]، وهو الذكر بالخير والكلام الجميل، ويستعمل في الوصف بمدح أو ذم، فيقال أثنى عليه خيرًا أو أثنى عليه شرًّا، لكن غلب استعماله في الخير، وقد طار ثناء فلان، أي: ذهب وانتشر بين الناس [٢].

الثناء اصطلاحًا:

«هو الإتيان بما يشعر التعظيم مطلقًا، سواء كان باللسان أو بالجنان أو بالأركان؛ وسواء كان في مقابلة شيء أو لا» [٣].

الصلة بين الثناء والمدح:

«أن الثناء مدح مكرر، مأخوذ من الثني ورد الشيء بعضه على بعض، من قولك: ثنيت الخيط، إذا جعلته طاقين، وثنَّيته بالتشديد إذا أضفت إليه خيطًا آخر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر:٨٧]؛ يعني: سورة الحمد؛ لأنها تكرر في كل ركعة» [٤] قال ابن منظور: «وأثنيت عليه في حياته إذا مدحته دفعة بعد دفعة» [٥].

٢ التمجيد:

التمجيد لغة:

نيل الشرف والمجد، من قولهم: رجل ماجد، وقد مجد الرجل بالضم، فهو مجيد وماجد.

التمجيد اصطلاحًا:

بلوغ النهاية في عظم الشأن الجامع بين شرف الذات وحسن الفعال [٦].

الصلة بين التمجيد والمدح:

أن التمجيد تعظيم وشرف، والمدح ثناء بهذا الشرف.

---

(١) التعريفات، الجرجاني ص٧٢.
(٢) انظر: شمس العلوم، نشوان الحميري ٢/ ٨٩٥.
(٣) الكليات، الكفوي ص٣٢٤.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص١٥٠.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٠٨.
(٦) المفردات، الراغب ص٥١٢.

٣ التعظيم:

التعظيم لغة:

التبجيل، يقال: عظم الأمر عظامة، وعَظَّمَهُ يُعَظِّمُهُ تعظيمًا، أي: كَبَّرَهُ، واستعظمت الشيء: أخذت أعظمه، واستعظمته: أنكرته، وعظم الشيء: أعظمه وأكبره، وعظم الرجل عظامة فهو عظيم في الرأي والمجد، وإن لفلان عظمة عند الناس، أي: حرمة يعظم لها [١].

التعظيم اصطلاحًا:

هو التوقير والإجلال والتفخيم والمكانة في النفوس والعظمة في الرأي[٢].

الصلة بين التعظيم والمدح:

أن التعظيم فيه معنى التبجيل والتوقير والاحترام والهيبة في النفوس، فهو أعلى من المدح.

٤ الحمد:

الحمد لغة:

هو نقيض الذم[٣].

الحمد اصطلاحًا:

الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه[٤].

الصلة بين الحمد والمدح:

الحمد أخص من المدح، فالمدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، وما يكون فيه بالتسخير، فقد يُمْدَحُ الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يُمْدَحُ ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمدًا[٥].

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: «الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه؛ ولهذا كان خبرًا يتضمن الإنشاء بخلاف المدح فإنه خبر مجرد» [٦].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٩١، مختار الصحاح، الرازي ص٢١٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب ص٣٧٢، مختار الصحاح، الرازي ص٢١٢.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٠٠.
(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٩٣.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٣١.
(٦) بدائع الفوائد ٢/ ٩٣.

٥ الشكر:

الشكر لغة:

هو عرفان الإحسان ونشره[١]. وقال الرازي: الشكر الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف[٢].

الشكر اصطلاحًا:

هو عرفان الإحسان، والاعتراف بالنعمة، وأداء ما يترتب عليه، والقيام بحق مسديها[٣].

قال ابن قيم الجوزية: «الشكر: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا وعلى قلبه شهودًا ومحبة وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»[٤].

الصلة بين الشكر والمدح:

المدح أعم من الشكر باعتبار المتعلق، فإن متعلقه النعمة وغيرها، ومتعلق الشكر النعمة فقط؛ والشكر أعم من المدح باعتبار المورد، فإن مورد الشكر اللسان والجنان والأركان، ومورد المدح هو اللسان فقط، فكان بينهما عموم وخصوص من وجه.

٦ الذم:

الذم لغة:

الذم نقيض المدح،«يقال: ذَمَمْتُهُ أَذُمُّهُ ذَمًّا فهو مذموم وذميم»[٥]، «ورجل مُذَمَّمٌ: أي: مذموم جدًّا، وشيء مذم: أي: معيب»[٦].

الذم اصطلاحًا:

هو الإخبار بمساوئ المذموم مع بغضه.

الصلة بين الذم والمدح:

إن المدح إخبار بمحاسن المحمود، والذم إخبار بمساوئ المذموم، وجماع المساوئ

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٠.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص٣٤٤.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٢٩٢، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٧٣٢، الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٠٢، المخصص، ابن سيده ٣/ ٤٢٤.
(٤) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٤.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٠٠.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٢٥.

فعل الشر، كما أن جماع المحاسن فعل الخير[1].

٧ الهجاء:

الهجاء لغة:

الشتم بالشعر، يقال: هَجا يَهْجُو هِجاءً: وهو الوقيعة في الأشعار، وهو الشتم بالشعر، وهو خلاف المدح، والمرأة تهجو زوجها، أي: تذم صحبته[2]، وأصل الهجاء في العربية: الهدم؛ تقول: هجوت البيت إذا هدمته[3].

الهجاء اصطلاحًا:

هو ما يوصف به في الشعر من الأخلاق الذميمة[4].

الصلة بين الهجاء والمدح:

الهجو نقيض المدح، وهو يدل على الفعل والصفة فيتناول الفاعل والموصوف دون الفعل والصفة، فتقول هجوته بالبخل وقبح الوجه، ولا تقول هجوت قبحه وبخله[5].

(١) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الغنيمان ٢/ ٤٠١.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٦٥، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٥٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٣.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص٩٦٠.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٣.

مدح الله تعالى

اشتمل القرآن الكريم على آيات عديدة تتضمن ثناءً على الله عز وجل، وإذا كان من الثناء ما يشعر بتعظيم من يثنى عليه، فإن حمد الله عز وجل وتسبيحه وتكبيره تدخل كلها في باب المدح والثناء.

أولًا: مدح الله تعالى لنفسه:

مدح الله تعالى نفسه بأساليب من المدح؛ منها:

١. المدح بصفة الحمد.

المطالع لفواتح السور يجد أن الله تعالى استفتح خمس سور بـ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هي سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وكذلك اختتم بها ثلاث سور هي سور: الإسراء، والنمل، والزمر، وهو سبحانه «يخبر أن المستحق للحمد هو الله تعالى، ومعناه: الأمر، أي: قولوا الحمد لله، وفيه تعليم الخلق كيف يحمدونه، والحمد والمدح أخوان»[(١)].

يقول الإمام البقاعي: «الحمد: المدح الكامل الذي يحيط بجميع الأفعال والأوصاف، على أن جميعها إنما هو من الله سبحانه تعالى، وأنه كله مدح لا يتطرق إليه ذم، فإذا اضمحل ازدواج المدح بالذم، وعلم سريان المدح في الكل استحق عند ذلك ظهور اسم الحمد مكملًا معرفًا بكلمة «ال» وهي كلمة دالة فيما اتصلت به على انتهائه وكماله»[(٢)].

٢. المدح بالتوحيد.

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فهذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، حيث اشتملت على اسمان لله تعالى يدلان على سائر الأسماء الحسنى هما: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، وآية كهذه احتوت على أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها متدبرًا متفهمًا أن يمتلئ

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ١٩.

(٢) نظم الدرر ١/ ٢٨.

قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظًا بذلك من شرور الشيطان[1].

٣. المدح بالأسماء الحسنى.

وهي جامعة لمعاني المدح والثناء كله في القران الكريم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

جاءت هذه الآيات الثلاث في خاتمة سورة الحشر، والتي تضمنت ذكر عدد من أسماء الله وصفاته الحسنى بصورة متتابعة لم تذكر في مثلها من آيات القرآن الكريم. وقد بين الطاهر بن عاشور السبب في ذلك بقوله: «لما تكرر في هذه السورة ذكر اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرة، منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة، وست عشرة مرة بذكر ضميره الظاهر أو صفاته العلية، وكان ما تضمنته السورة دلائل على عظيم قدرة الله وبديع تصرفه وحكمته، وكان مما حوته السورة الاعتبار بعظيم قدرة الله إذ أيد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ونصرهم على بني النضير ذلك النصر الخارق للعادة، وذكر ما حل بالمنافقين أنصارهم، وقوبل ذلك بالثناء على المؤمنين بالله ورسوله الذين نصروا الدين، ثم الأمر بطاعة الله والاستعداد ليوم الجزاء والتحذير من الذين أعرضوا عن كتاب الله ومن سوء عاقبتهم، وختم ذلك بالتذكير بالقرآن الدال على الخير، والمعرف بعظمة الله المقتضية شدة خشيته عقب ذلك بذكر طائفة من عظيم صفات الله ذات الآثار العديدة في تصرفاته المناسبة لغرض السورة؛ زيادة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته، وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته، وزيادة في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته»[2].

٤. المدح ببديع ما صنع الله تعالى وأوجد.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٧-٤٨].

ففي هذه الآية «ذكر الله تعالى ما يدل على تمام قدرته على البعث بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: بما لنا من العظمة ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ أي: بقوة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها ﴿وَإِنَّا﴾

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١١٠.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ١١٧.

على عظمتنا بعد ذلك ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أغنياء وقادرون ذوو سعة لا تتناهى، ولذلك أوسعنا بقدر جرمها وما فيها من الرزق عن أهلها، فالأرض كلها على اتساعها كالنقطة في وسط دائرة السماء بما اقتضته صفة الإلهية التي لا تصح معها الشركة أصلًا، فلسنا كمن تعرفون من الملوك؛ لأنهم إذا فعلوا شيئًا لم يقدروا على أعظم منه وإن قدروا كان ذلك منهم بكلفة ومشقة، وسترون في اليوم الآخر ما يتلاشى ما ترون في جنبه ومن اتساعنا جعلها بلا عمد مع ما هي عليه من العظمة إلى غير ذلك من الأمور الخارقة للعوائد ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها ومهدناها بما لنا من العظمة، فصارت ممهدة جديرة بأن تستقر عليها الأشياء، وهي آية على تمهيد أرض الجنة، وسقنا لأنهارها وغرسنا لأشجارها ﴿فَنِعْمَ﴾ أي: فتسبب عن ذلك أن يقال: في وصفنا نِعْمَ ﴿ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: نحن لكمال قدرتنا، فما نزل من السماء شيء ولا نبع من الأرض شيء إلا بإرادتنا واختيارنا وتقديرنا من الأزل؛ لأنا إذا صنعنا شيئًا علمنا ما يكون منه من حين إنشائه إلى حين إفنائه، ولا يكون شيء منه إلا بتقديرنا، وذلك تذكير بالجنة والنار، فما فيها من خير فهو آية على الجنة، وما فيها من شر فهو آية على النار، والمخصوص بالمدح محذوف لفهم المعنى»[1].

والله تعالى يحب المدح من عباده، وهو سبحانه جدير بالمدح، فالكون كونه والملك ملكه، ولا إله غيره، وهو سبحانه أهل الثناء والمجد، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيء أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه)[2].

فهذا الحديث يدل على حب الله للمدح والحمد والثناء من عباده.

ولذلك أرشد الله تعالى عباده إلى مدحه، وحثهم عليه، وجعل مدحه بالثناء والتعظيم عبادة من أجل العبادات وأعظمها عنده.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل:٥٩].

وجعله سبب الفلاح فقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

وجعل مدحه بشكر نعمه غاية من الخلق، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ

(١) انظر: السراج المنير، الخطيب الشربيني ٤/ ١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير باب قوله تعالى: (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن)، رقم ٤٦٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، رقم ٢٧٦٠.

﴿وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

وفي مدح الله تعالى والثناء الحسن عليه بما هو أهله مصلحة للعباد في معاشهم ومعادهم، قال الإمام بدر الدين العيني: «وحب الله المدح ليس من جنس ما يعقل من حب المدح، وإنما الرب أحب الطاعات ومن جملتها مدحه ليثيب على ذلك، فينتفع المكلف لا لينتفع هو بالمدح، ونحن نحب المدح لننتفع ويرتفع قدرنا في قومنا، فظهر من غلط العامة قولهم: إذا أحب الله المدح فكيف لا نحبه نحن؟»[1].

ثانيًا: مدح الخلق لله تعالى:

مَدْحُ الله تعالى واجب على عباده، وهو حقٌّ من حقوقه تعالى عليهم، وحينما يثني العبد على ربه ويشكره على نعمه فهو بذلك يتعرض لمزيد فضل الله تعالى.

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢].

قال ابن كثير: «﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والعلم والتعبير ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما أتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل، الذي خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد، لا يتضرر بذلك، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعًا، فإنه الغني عمن سواه؛ فلا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه»[2].

إن الأنبياء والمرسلين كانوا أكرم العباد في الثناء والمدح لله تعالى بما يليق به عز وجل، فإبراهيم عليه السلام يتوجه إلى الله تعالى بالثناء والمدح على ما أعطاه من نعم قائلًا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٩].

وقال سليمان وداود عليهما السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥].

وأهل الطاعة يحمدون الله تعالى على نعمة الهداية وتوفيقهم للطاعة فيقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

وأهل الجنة يقولون: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

(١) عمدة القاري، العيني ١٨/ ٢٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٣٥.

﴿شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤].

وفي مدح الله تعالى والثناء عليه فوائد؛ منها:

- التعريف بحق قدره، وما يليق بعظمته وجلاله، وذلك من خلال التعرف على أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فإن معرفة ذلك هو أساس مدحه والثناء عليه، وهو أساس معرفة العبد بربه، لذا قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١]. وقال صلى الله عليه وسلم في مدحه وثنائه على ربه: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[(١)].
- نفي صفات الكبر والتعالي والفخر عن العبد، فإن الذي لا ينسب الفضل لله فيحمده عليه وينسبه لنفسه يطغى ويتعالى على الخلق، كما فعل قارون. لذا أهل الطاعة يحمدون الله تعالى على نعمة الهداية وتوفيقهم للطاعة قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]. فإذا وفقوا لدخول الجنة يتوجهون إلى الله تعالى بالشكر والمدح والثناء قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤].
- فتح الباب لقيام العبد بحق عبوديته، فالعبد لا يقدر على ذلك ولا يتعرف على ربه إلا بعد معرفة موجبات حمده، بمعرفة أسمائه وصفاته المقتضية مدحه وحمده والثناء عليه. وحاجة النفوس إلى معرفة ربها أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بمعرفة الله ومحبته وعبادته، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيمًا وإيمانًا، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبةٌ في كل وقت، وأعمال الجوارح لإصلاح القلب وتعظيم الله. قال ابن القيم: «فكل من كان بالله وصفاته أعلم كان توكله أصح وأقوى، وكان منه أخوف»[(٢)].
- فتح الباب لمعرفة الإنسان بقدره من الضعف والقلة والذلة والمسكنة، فينزل منازل العبودية. قال ابن القيم رحمه الله: «الفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا لا يقتضى مدحًا ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا، والفقر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/ ٣٥٢، ٤٨٦.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١١٨.

الثاني فقر اختياري، هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما: معرفة العبد بربه، والثاني: معرفته بنفسه، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا له فقرًا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته»[1].

أسباب المدح

للمدح أسباب؛ منها:

أولًا: الأعمال الصالحة:

إن الأعمال الصالحة تزكي النفس وتصلحها، وتطهر القلب من أرجاس المعاصي، وهي وسيلة التقرب إلى الله تعالى، وبها يمحى تأثير الأعمال السيئة؛ لذا يجب على المسلم أن يتحلى بها، ومن هذه الأعمال:

١. الإيمان.

الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالًا صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتضٍ لها، فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح عاش حياة طيبة، وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

ولأن الإيمان أساس لكل خير يوجد، ومركز لدائرته، ومسك خاتمته، مدح الله

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٩.

تعالى به من هم من كبار الرسل إظهارًا لفضل الإيمان ومزيته، فمدح الله تعالى نوحًا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:٨١].

وإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات:١١١].

وموسى وهارون عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:١٢٢].

وإلياس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:١٣٢].

والمقصود مدح صفة الإيمان نفسها، لا مدح موصوفها [(١)].

ولشرف الإيمان جعله الله عز وجل شرطًا لانتفاع العبد بعمله الصالح في الآخرة، فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

ومدح الله عباده المؤمنين أن ليس للشيطان عليهم سلطان، فقال عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩- ١٠٠].

وقد عدد الله تعالى صفات أهل الإيمان، ورتب على الالتزام بها مغفرة السيئات وبلوغ أعلى الدرجات، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

فالموصوفون بهذه الصفات الخمس هم المؤمنون حقًّا وصدقًا لهم درجات عند ربهم ومنازل عالية متفاوتة العلو والارتفاع في الجنة، ولهم قبل ذلك مغفرة كاملة لذنوبهم ورزق كريم طيب واسع لا تنقيص فيه ولا تكدير، وذلك في الجنة دار المتقين.

٢. العبادة.

عبادة الله تعالى من أهم الصفات التي مدح بها عباده المؤمنين، فهي توصلهم إلى مرضاته سبحانه، يقول تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران:٥١].

ومفهوم العبادة في الإسلام أعم وأشمل مما يعتقده كثير من الناس، من مجرد الصلاة والزكاة والصيام والحج فقط، فالعبادة التي خلقنا الله من أجلها هي تعظيم الله عز وجل والخضوع والتذلل له وإفراده بالطاعة المطلقة.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

(١) انظر: محاسن التأويل ٨/ ٢١٤.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد؛ لانتسابه إلى جناب الله تعالى، وقد سمى الله رسوله بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩].

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١].

فسماه عبدًا عند إنزاله عليه وقيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين له، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]»[1].

وكما وصف الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بصفة العبودية، وصف بها بعض أنبيائه ورسله.

قال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:٢].

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

وقال عن إبراهيم ولوطًا وإسحاق ويعقوب ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣].

وهو ثناء عليهم بأجمل الصفات وأحسن الأحوال وفي تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ ما يفيد الاختصاص، أي: اختصاصه تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، والجملة تدل على استمرار العبادة أولًا؛ لوجود (كان) الدالة على الاستمرار، وثانيًا: الوصف بـ ﴿عَٰبِدِينَ﴾ أي: مستمرين حتى تصير العبادة وصفًا لهم، فهم في عبادة مستمرة آناء الليل وأطراف النهار. وقال تعالى في وصف الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

٣. القيام بالرسالة.

أرسل الله تعالى الرسل وأنزل عليهم الكتب وأمرهم بتبليغ الرسالة فقام كل منهم بتبليغ ما أرسل به، من نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وقد مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٦.

«أي: لا يخافون لائمة الناس وقولهم فيما أحل لهم»[1].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: سنة الله في الذين خلوا من قبل محمد من الرسل، الذين يبلغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه، ويخافون الله في تركهم تبليغ ذلك إياهم، ولا يخافون أحدًا إلا الله، فإنهم إياه يرهبون إن هم قصروا عن تبليغهم رسالة الله إلى من أرسلوا إليه. يقول لنبيه محمد: فمن أولئك الرسل الذين هذه صفتهم فكن، ولا تخش أحدًا إلا الله، فإن الله يمنعك من جميع خلقه، ولا يمنعك أحد من خلقه منه، إن أراد بك سوءًا»[2].

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف:٥٩، ٦٠].

«ولم يجبه من قومه بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ - إلا أشرافهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل؛ لانغماس عقولهم بالدنيا وطلب الرئاسة والعلو فيهما»[3]، «وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٦١].

أي: ما أنا بضال، ولكن أنا مرسل إليكم من عند ربكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٦٢].

أي: أنا أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم، وأقصد صلاحكم، وخيركم، وأعلم من الأمور الغيبية أشياء لا علم لكم بها»[4].

وهذا هود عليه السلام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٦٧].

«أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٨].

وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة»[5]، وقال لهم أيضًا: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف:٢٣].

ومدح الله تعالى خاتم رسله محمدًا صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع في كتابه الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٦٩.
(٢) جامع البيان ٢٠/ ٢٧٧.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٨٢.
(٤) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٤١٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٣٤.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

«أي: شاهدًا للرسل بالتبليغ، ومبشرًا لمن آمن بالجنة، ونذيرًا لمن كذب بآياتنا بالنار. ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى توحيده وطاعته ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ سماه سراجًا؛ لأنه يهتدى به كالسراج يستضاء به في الظلمة»[1]، وكذلك فعل جميع الأنبياء والمرسلون في القيام بتبليغ الرسالة.

٤. الأوبة.

الأوبة هي الرجوع إلى الله تعالى بترك المعاصي وفعل الطاعات.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

وقيل للتوبة: أوبة[2].

قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧].

فالإنابة رجوع دائمٌ إلى الله، وإقبال على الخير.

وهي من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ قال الله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧].

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

أي: نعم العبد سليمان، والجملة تعليل للمدح، علل كونه ممدوحًا بكونه أوَّابًا رجَّاعًا إليه بالتوبة، فـ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله بالتوبة، «راجع عما يكره الله إلى ما يحب»[3]، فهو «رجاع إلى الازدياد من الاجتهاد في المبالغة في الشكر والصبر على الضر»[4].

وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] أي: كثير التوبة، رجَّاعٌ بكليته إلى الله سبحانه على خلاف ما يدعو إليه طبع البشر، فهو «المسلم المفوض بلا جزع وتزعزع فكيف يجزع؟! إنه رجاع إلينا متشمر نحونا في عموم أوقاته وحالاته»[5].

ففي القصص الثلاث اتصفوا بما يوجب المدح، وأكد المدح بإن، وجيء بصيغة المبالغة: فعَّال، إشارة إلى أنها عادتهم.

وهي أيضًا من صفات المؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

(١) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٦١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب ص٣٤.
(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٥١.
(٤) نظم الدرر، البقاعي ١٦/ ٣٧٧.
(٥) الفواتح الإلهية، الجمل ٢/ ٢٨٥.

﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

فالعابدون هم القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال: الحمد؛ فلهذا قال: ﴿الْحَامِدُونَ﴾.

ومن أفضل الأعمال: الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾[1].

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أمر الله تعالى عباده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وبين سبحانه أنها صفة من صفات المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

ولا تتم خيرية الأمة إلا بها.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

ففي هذه الآية «مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببًا لهلاكهم»[2].

فالخيرية ليست مرتبطة بجنس أو لون أو موقع أو أي اعتبار آخر، إلا اعتبار الإيمان بالله تعالى والاهتمام بمسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد مدح الله تعالى عباده الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فقال في معرض بيانه لصفات المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

فالمؤمنون ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علمًا وعملًا فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٧٣.

والسعادة كل السعادة لمن اتصف به [1].

٦. الجهاد في سبيل الله.

«الجهاد هو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله، وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه، أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر، لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عُبَّاد الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم» [2].

الجهاد في سبيل الله تعالى هو ذروة سنام الإسلام، لأنه بيع النفس لله تعالى، يقول سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

وقد بين الله تعالى فضل الجهاد في كتابه، ومدح الصابرين عليه بقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].

فالمجاهدون لهم الدرجات العلى والنعيم المقيم قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٥].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

فهذه الآية العظيمة فيها بيع وشراء، وفيها صفقةٌ عظيمة، يقول ابن القيم: «قدر السلعة يعرف بقدر مشتريها والثمن المبذول فيه والمنادي عليها، فإذا كان المشتري عظيمًا والثمن خطيرًا والمنادي جليلًا كانت السلعة نفيسة» [3].

وقد مدح الله تعالى من جمع بين الإيمان والجهاد فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٤].

فقد ساق الله تعالى هذه الآية للثناء على المهاجرين والأنصار، والشهادة لهم بأنهم هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله، من ثلاثة أوجه:

«أولها: قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فإن هذه الجملة تفيد المبالغة في مدحهم، حيث وصفهم بكونهم محققين في

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٨.
(٣) الفوائد ص٧٥.

طريق الدين، وقد كانوا كذلك؛ لأن من لم يكن محقًّا في دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة، ولم يفارق الأهل والوطن، ولم يبذل النفس والمال.

وثانيها: قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ والتنكير يدل على الكمال، أي: مغفرة تامة كاملة.

وثالثها: قوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والمراد منه الثواب الرفيع. والحاصل: أنه سبحانه وتعالى شرح أحوالهم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فقد وصفهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأما في الآخرة فالمقصود إما دفع العقاب، وإما جلب الثواب. أما دفع العقاب فهو المراد بقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾»[1].

ثانيًا: الصفات الخُلُقية:

يحافظ الإسلام على تزكية النفس وإصلاحها، وتطهير القلب من أرجاس المعاصي، وجعل من الوسائل ما يعين على ذلك، فحثَّ على الاتصاف بالصفات الحميدة، وبين جزاء المتصفين بها، ومن هذه الصفات:

١. الشكر.

الشكر من أكثر الطاعات ثوابًا، وأعلاها منزلة، لذا جعل الله تعالى جزاء الشاكرين مطلقًا لا حد له ولا حصر.

قال الله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]، ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٥].

وقد أثنى الله تعالى على الشاكرين لآلائه، «وفي مقدمتهم أنبيائه ورسله، فأثنى الله تعالى على نبيه نوح عليه السلام فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، فلحميد فعاله وكثير ثنائه على ربه وصف بذلك، كما روي عن سلمان رضي الله عنه قال: (كان نوح إذا طعم طعامًا أو لبس ثوبًا حمد الله، فسمي عبدًا شكورًا)[2].

ووصف الله إبراهيم عليه السلام بأنه كان أمةً شاكرًا لأنعمه، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠، ١٢١].

فالله جل وعلا يشكر من شكره، ويرفع من ذكره.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧]، «فالشكر من الله تعالى هو الرضا بالقليل من عباده وإضعاف الثواب

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٦/ ١٦٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٣٧١، ٢/ ٣٩٢. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

عليه، والشكر من العبد: الطاعة، ومن الله: الثواب»[1].

إن منفعة الشكر لا تعود على الخالق سبحانه وتعالى فهو الغني؛ ولكنها تعود على الشاكر من عباده، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢]، فالله تعالى لا يعذب من شكره.

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧]، ولكن الناس مع عظيم نعم الله عليهم قليلٌ شكرهم، وقد بيَّنَ الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

لذا على العبد القيام بأوامر الله وامتثال طاعته، فإذا فعل ذلك أعانه، وأثنى عليه، ومدحه، وجازاه الخير الكثير والثواب الجزيل.

٢. الوفاء.

الوفاء بالعهد خلق نبيل، وقد مدح الله تعالى هذا الخلق العظيم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى في بيان خصال البر: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة:١٧٧].

أي: «والموفون بعهدهم فيما بينهم وبين الله عز وجل، وفيما بينهم وبين الناس، إذا عاهدوا، يعني: إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا ونذروا أوفوا، وإذا عاهدوا أوفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا ائتمنوا أدوا»[2] فدخل في ذلك حقوق الله كلها؛ لكون الله تعالى ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدتها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد، التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور، ونحو ذلك. ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد:١٩- ٢٠].

فالله تعالى «وصفهم بهذه الأوصاف المادحة، فقال: الذين يوفون بعهد الله أي: بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم، أو فيما بينهم وبين العباد ولا ينقضون الميثاق الذي وثقوه على أنفسهم، وأكدوه بالأيمان ونحوها»[3].

٣. الصبر.

الصبر «خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها»[4].

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧١٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٠٦.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٩٤.

(٤) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم

وقد مدح الله تعالى هذا الخلق العظيم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى في مدح الخصال التي يتصف بها المؤمن: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧].

والنصب على المدح أو التخصيص: أي: وأخص الصابرين، وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٥ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٥-١٧].

ومدح الله الصابرين ووعدهم بأحسن الجزاء الذي يهون عليهم ما يلقونه في ذلك السبيل؛ قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٢].

لذا كان جزاء الصبر عظيمًا غير مقدر، ويعطي الصابر أجرًا بغير حساب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

ولأن الصبر وسيلة النجاح في الحياة والوصول إلى المقاصد؛ لأنه قوة يحقق بها الإنسان أعمالًا فوق طاقته الطبيعية، مدح الله من يتحمل صعوبات الحياة ببسالة وشجاعة.

قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥].

وقال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الصبر ضياء)**[(١)].

أما الجزع فلا يؤدي إلا إلى الفشل في الحياة وعدم إنجاح المقاصد، بل إلى انعدام الحياة وزوالها؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر)**[(٢)].

٤. الحلم.

الحلم «من أشرف الأخلاق، وأحقها بذوي الألباب، لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد، وحد الحلم: ضبط النفس عند هيجان الغضب،

ص٣٤.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٢٢٣، ١/ ٢٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، رقم ٦٤٧٠، ٨/ ٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، ١٠٥٣، ٢/ ٧٢٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وليس من شرط الحلم ألا يغضب الحليم، وإنما إذا ثار به الغضب عند هجوم دواعيه كف سورته بحزمه، وأطفأ ثائرته بحلمه، فإذا اتصف المرء بالحلم كثر محبوه، وقل شانئوه، وعلت منزلته، ووفرت كرامته. قال عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩]» [(١)].

وآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تدعو المسلمين إلى التحلي بهذا الخلق النبيل، وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة، والحث على الدفع بالتي هي أحسن، والترغيب في الصفح عن الأذى والعفو عن الإساءة.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فالكاظمين الغيظ لا يعملون غضبهم في الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل، وهم مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال [(٢)].

قال ابن بطال: «مدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم، وأخبر أن ما عنده خير وأبقى لهم من متاع الحياة الدنيا وزينتها، وأثنى على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك» [(٣)].

وقد مدح الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بهذه الصفة فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:١١٤].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:٧٥].

ووصف بها ابنه إسماعيل فقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١].

«وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليمًا، وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

ثم استسلم لذلك، وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم، وذلك لعزة وجوده» [(٤)].

وكذلك مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد صحابته بها، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة) [(٥)].

(١) الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة، محمد الحمد ص١٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٢٢.
(٣) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٢٩٦.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان،

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[1].

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث من الفقه: فضل الحلم، وفيه دليل على أن الحلم كتمان الغيظ، وأن العاقل من ملك نفسه عند الغضب؛ لأن العقل في اللغة ضبط الشيء وحبسه منه»[2].

٥. الكرم.

مدح الله تعالى هذا الخلق العظيم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى في مدح الخصال التي يتصف بها المؤمن: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧].

وقوله تعالى في صفات المهتدين المفلحين: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢- ٣].

ولما كان الكرم هو: «الإنفاق بطيب نفس فيما يعظم خطره ونفعه»[3]، مدح الله تعالى عباده المنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

قال ابن كثير: «هذا مدحٌ منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليلٍ أو نهارٍ، والأحوال من سر وجهارٍ، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا»[4].

وقال الإمام فخر الدين الرازي: «الآية عامةٌ في الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة تحرضهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاجٍ عجلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يعلقوها بوقتٍ ولا حالٍ»[5].

٦. الأمانة.

مدح الله تعالى هذا الخلق العظيم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى في ذكر صفات المفلحين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:٨].

«أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل

باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، رقم ١٧، ١/ ٤٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم ٦١١٤، ٨/ ٢٨.

(٢) التمهيد ٦/ ٣٢٢.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ١/ ٢٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠٧.

(٥) مفاتيح الغيب ٧/ ٧٠.

لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية، التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار»[1].

وقد مدح الله تعالى بعض أنبيائه بصفة الأمانة التي هي صفة لازمة في كل نبي من الأنبياء، وقد ذكرت خمس مرات متواليات في حق الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب في سورة الشعراء، كلهم يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وقد حكى لنا القرآن قصة موسى عليه السلام حين سقى لابنتي الرجل الصالح ورفق بهما وكان أمينًا معهما، فـ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

وهي صفة تزيد صاحبها بهاءً ووقارًا، ويشهد بذلك كل منصف، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: (أخبرني أبو سفيان رضي الله عنه أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة نبي)[2].

ولما كانت الأمانة فضيلة ضخمة، لا يستطيع حملها الرجال المهازيل، ضرب الله تعالى المثل لضخامتها، فأبان أنها تثقل كاهل الوجود فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بها أو يفرط في حقها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].[3].

٧. الرأفة والرحمة.

الرأفة والرحمة خلقان عظيمان لا بد أن يتخلق بهما المؤمن ويتصف بهما، فهما من مبادئ الإسلام الأساسية، وأخلاقه الكريمة، وهما أشرف صفات المؤمنين بعد الإيمان، وتتجلى أهمية الرحمة في أن الله عز وجل تسمى واتصف بها، فمرة باسم الرحمن ومرة باسم الرحيم فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وعلى الرغم من سعة رحمة الله تعالى إلا أنه لا يستحقها إلا الذين اتقوه واستجابوا لأمره.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقد مدح الله بهاتين الصفتين صفوة خلقه وخيرة عباده وهم الأنبياء والمرسلين، ومن سار على نهجهم من المصلحين، فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٨٧.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم ٢٦٨١، ٣/ ١٨٠.
(٣) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي ص٤٧.

وقال تعالى ممتنًا على رسوله صلى الله عليه وسلم على ما ألقاه في قلبه من فيوض الرحمة جعلته يلين للمؤمنين ويرحمهم ويعفو عنهم، ويتجاوز عن أخطائهم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

«أي: بسبب رحمة عظيمة فياضة أفاضها الله تعالى عليك كنت لينًا معهم في كل أحوالك، ولقد شكر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ذلك اللين في قوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ حيث أثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس فظًّا ولا غليظًا ولا قاسيًا؛ لأن (لو) تدل على نفي الجواب لنفي الشرط، والمعنى: إنك لست فظًّا ولا غليظ القلب، وهذا هو الذي يتفق مع صفات النبوة والقيادة الحكيمة الرشيدة الهادية الموجهة إلى أمثل الطرق الجامعة للقلوب[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

«يخبر تعالى أن الله جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قَبِلَ هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة»[2].

ومدح الله تعالى بهذه الصفة أيضًا غيره صلى الله عليه وسلم من المتخلقين بها، فقد قال تعالى واصفًا رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين معه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، بحسب ما يقتضيه منهم إيمانهم.

ثالثًا: الصفات الخَلْقية:

كما أن الإسلام حث على الاتصاف بالصفات الخلقية الحميدة، وبين جزاء المتصفين بها، فقد مدح أيضًا الصفات الخَلْقيَّة، وحثَّ على الاهتمام بها ورغب فيها، ومن هذه الصفات:

١. القوة.

القوة من أَجَلِّ النعم التي امتن الله تعالى بها على خلقه، والمؤمن مطالب أن يكون قويًّا، فهي من أهم الأشياء التي ينبغي أن يحرص عليها، وذلك لما يأتي:

أولًا: أن الله تعالى أمر بإعداد القوة فقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

قال ابن كثير: «أمر تعالى بإعداد آلات

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٤٧٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٨٥.

الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: مهما أمكنكم»[1].

والقوة المطلوبة قوة شاملة، قوة في الإيمان والأبدان والعلوم والاقتصاد، وكل مناحي الحياة. وإعداد المستطاع من القوة يختلف باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان.

ثانيًا: أن القوة سبب أصيل للنصر والتأييد خاصة إذا اجتمع معها الأمانة، وقد مدح الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بهاتين الصفتين: القوة والأمانة، فقال تعالى على لسان إحدى المرأتين: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

«ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة؛ لأنه متى اجتمعت هاتان الصفتان: الأمانة والكفاية في القائم بأداء أمر من الأمور تكلل عمله بالظفر وكفل له أسباب النجاح»[2].

«وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملًا بإجارة أو غيرها. فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل»[3].

(١) المصدر السابق ٤/ ٨٠.
(٢) تفسير المراغي ٢٠/ ٥١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٤.

وقد مدح الله تعالى جبريل عليه السلام وهو الموكل بأمانة تبليغ الوحي إلى الأنبياء بأنه ذو قوة.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أنه علمه الذي جاء به إلى الناس ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]، وهو جبريل عليه السلام؛ كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١].

وقال هاهنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم:٦].

أي: ذو قوة. قاله مجاهد والحسن وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. ولا منافاة بين القولين؛ فإنه عليه السلام ذو منظر حسن، وقوة شديدة»[4].

لذا كانت القوة من أهم الأشياء التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم؛ لأنها سبب من الأسباب التي تجلب له المدح والثناء الحسن.

٢. الجمال.

خلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وشكل.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

فكل إنسان مخلوق خلقة حسنة، وهذا

(٤) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٤٤.

لا يمنع تفاوت البشر في الحسن، فمنهم من أوتي من الجمال والحسن أكثر مما أوتي غيره، وقد حكى الله تعالى لنا قصة يوسف عليه السلام وأن النسوة لما رأينه ﴿أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

أي: قلن لها: ما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبهه ولا قريبًا منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء[(١)].

فقد كان يتحلى بالجمال الظاهر والباطن، «فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حين لمنها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته»[(٢)].

وممن ورد مدح جماله: الحور العين.

وصف الله تعالى الحور العين فقال عنهن: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:٧٠].

أي في الجنتين نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه.

وممن مدح جماله: غلمان أهل الجنة:

قال الله تعالى عنهم: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور:٢٤].

وقال أيضًا: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩].

ويقول جل وعلا: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ١٧-٢١].

فهذا «إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم»[(٣)].

رابعًا: المكانة الكريمة:

يمدح المرء لمكانته الكريمة، وأعلى الناس مكانة ومنزلة الرسل الكرام، فهم الموكلون بتبليغ الوحي إلى الناس، وأخصهم منزلة أولوا العزم، ولذلك أوصى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٢، ١/ ١٤٥، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٠٧.

(٣) المصدر السابق ٧/ ٤٣٥٧.

وهم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى:١٣].

فقد «أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعيا لهم إلى الله وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم، فامتثل صلى الله عليه وسلم لأمر ربه فصبر صبرًا لم يصبره نبي قبله»[1].

وممن خص بمدح مكانته، نبي الله إدريس عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٦- ٥٧].

فإدريس عليه السلام نبي من أنبياء الله جل وعلا، وصفه الله بالصديقية، ورفعه مكانًا عليًّا، وحدد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المكانة العالية بأنه في السماء الرابعة.

وممن خص بمدح مكانته، نبي الله يحيى عليه السلام، فحينما دعا زكريا عليه السلام ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨].

جاءته البشرى ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩].

فقد وصف الله تعالى يحيى عليه السلام بأربع صفات كريمة:

الأولى: أنه كان مصدقًا بكلمةٍ من الله، وكلمة الله هو عيسى عليه السلام؛ لأنه كان يسمى بذلك، فيحيى عليه السلام كان مصدقًا بعيسى ومؤمنًا بأنه رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

والثانية: أنه سيكون سيدًا، والسيد هو الذي يسود قومه وينتهي إلى قوله، أي: يفوق غيره في الشرف والتقوى وعفة النفس، بأن يكون مالكًا لزمامها، ومسيطرًا على أهوائها.

والثالثة: أنه سيكون حصورًا، أي: حابسًا نفسه عن الشهوات، حتى لقد قيل عنه إنه امتنع عن الزواج وهو قادر على ذلك زهدًا منه واستعفافًا، وليس صحيحًا ما قيل من أنه كان لا يأتي النساء لعدم قدرته على ذلك.

والرابعة: أنه سيكون نبيًّا من الصالحين، وفي هذا الوصف بشارة ثانية لزكريا عليه السلام بأن ابنه سيكون من الأنبياء الذين اصطفاهم الله لتبليغ دعوته إلى الناس، وهذه البشارة أسمى وأعلى من الأولى التي أخبره الله فيها بولادة يحيى؛ لأن النبوة منزلة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٣.

لا تعدلها منزلة في الشرف والفضل [1].

وممن مدح لمكانته ومنزلته، عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:٤٥].

«أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله عليهم» [2].

وممن مدح لمكانته ومنزلته، العلماء.

قال تعالى في بيان منزلتهم: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١].

فرفع الله تعالى شأن حملة العلم وأعلى مقامهم، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته على وحدانيته جل جلاله وعز ثناؤه؛ ذلك أن العلماء هم الذين يبينون للناس أحكام شريعة الله عز وجل، وهم الداعون إليه سبحانه وتعالى، وهم وراث هدي النبوة، فبذلك استحقوا تلك المكانة العالية.

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٩٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣.

خامسًا: العاقبة الحسنة:

العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة هي ما يريد أن يصل إليه المؤمن؛ لذا أرشد الله تعالى عباده إلى طريقها وحثهم على التحلي بما يتصف به أصحابها، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:١٩-٢٤].

«يقول تعالى مخبرًا عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم عقبى الدار؛ وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة» [3].

فأولئك الذين وصفوا بتلك المحاسن والكمالات التي بلغت الغاية في الشرف والكمال، هم الذين لهم العقبى الحسنة في الدار الآخرة، وهي جنات إقامة، يخلدون فيها لا يخرجون منها أبدًا، وفيها الأنس باجتماع الأهل والمحبين الصالحين، لتقر بهم أعينهم، ويزدادوا سرورًا برؤيتهم.

وقد وصف الله تعالى الجنة وهي العاقبة

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥٠.

الحسنة التي أعدها لعباده المؤمنين في الآخرة بعدة أوصاف حثًّا على المجاهدة للوصول إليها، فقال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١١].

وإنما وصف الأجر بكونه كريمًا؛ لأنه هو الذي جلب ذلك الضعف، وبسببه حصلت تلك الزيادة، فكان كريمًا من هذا الوجه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ «دلت هذه الآية على عظم هذا الأجر من وجوه:

أحدها: أنه ذكر نفسه بصيغة العظمة، وهو قوله: ﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا﴾ والمعطي الحكيم إذا ذكر نفسه باللفظ الدال على العظمة عند الوعد بالعطية، دل على عظم تلك العطية.

وثانيها: قوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ هذا التخصيص يدل على المبالغة، كما في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

وثالثها: أنه وصف الأجر بكونه عظيمًا، والذي وصفه أعظم العظماء بالعظمة، لا بد وأن يكون في نهاية العظم، قال صلى الله عليه وسلم: (فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[1][2]، وفي تنكير الأجر من المبالغة ما لا يخفى.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [يونس:٣٠].

فالله تعالى يبين جزائهم الكريم بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ «أي: لهؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإحسانهم ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا؛ لفنائها وبقاء الآخرة ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولنعم دار المتقين دار الآخرة»[3].

فعلى المسلم أن يحرص على عمل الخيرات حتى تكون عاقبته حسنة ويختم له بالخير، فينال المغفرة وأعلى الدرجات.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ٤/ ١١٨، رقم ٣٢٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، ٤/ ٢١٧٤، رقم ٢٨٢٤.

(٢) اللباب، ابن عادل ٦/ ٤٧٥.

(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ١١٦.

مدح النفس

يهدف المدح إلى شحذ الهمم للازدياد والاستمرار في الفعل الحسن والخلق الكريم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدح أصحابه ليحفزهم على الاستمرار في الخير والتزود منه، وقد مُدِحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعر والخطب والمخاطبة، والمدح منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، وقد جعل القرآن الكريم المدح والذم تبعًا لمحبة الله تعالى للعبد أو ذمه، فمن أحبه الله تعالى وأثنى عليه فهو الممدوح، ومن ذمه الله تعالى فهو المذموم، وقد مدح الله أهل الإيمان والصلاة والعبادة، وذم أهل الكفر والفسوق والعصيان، وهل يجوز للإنسان أن يمتدح نفسه ؟ متى يحمد هذا المدح ومتى يذم ؟ سأبين هذا في النقاط الآتية:

أولًا: المدح المحمود:

المدح المحمود هو المدح بالحق، ومن ذلك ما يمدح به الشخص من كريم الخصال، وجنس المدح لا حرج فيه إذا كان بِحَقِّهِ؛ كما قال الصديق يوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٥].

فلم يكن مدح يوسف عليه السلام لنفسه من باب العجب، وإنما أراد بذلك إقامة العدل وإبطال الجور وإيصال الحق لأهله، والآية «أصل في جواز مدح الإنسان نفسه لمصلحته»[(١)].

«قال القاضي أبو يعلى: في قصة يوسف دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنه ليس من المحظور في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم:٣٢]»[(٢)].

وعلى هذا يحمل ما نقل من ثناء بعض الصحابة على أنفسهم، وبيان قدرهم في العلم؛ ليحرص الناس على الأخذ منهم والانتفاع بعلمهم قبل وفاتهم، وهذا ليس فخرًا منهم وتباهيًا بالعلم، إنما كان مراد أحدهم الوصول إلى حق يقيمه وعدل يحييه وجور يبطله، لذا كان ذلك منهم جميلًا جائزًا، فعن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم: أين أنزلت؟ ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم: فيم أنزلت؟ ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[(٣)].

فهذه الأشياء، خرجت مخرج الشكر لله،

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٩٢.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٥١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٥٠٠٢، ٦/ ١٨٧.

وتعريف المستفيد ما عند المفيد، ولذا كان هذا منهم جميلًا جائزًا.

وقد أذن الرسول صلى الله عليه وسلم في المدح كما جاء في الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: (أثنى رجل على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك) مرارًا، ثم قال: (من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه)[1].

فلم ينه الرسول عن المدح ولكن جعل لهذا المدح ضوابطًا.

وأهم الضوابط التي يجب مراعاتها في المدح: عدم المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، وأن يؤمن على الممدوح الإعجاب والفتنة؛ لما يعلم من قوة إيمانه، وأن يكون المدح صادقًا فيمدح الشخص بما فيه من غير مبالغة ولا رياء يؤديان إلى النفاق، وأن يكون الهدف من المدح شحذ الهمم للازدياد والاستمرار في الفعل الحسن والخلق الكريم.

وقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعر والخطب والمخاطبة ولم يكره ذلك، ولم يَحْثُ التراب في وجه أحد من مادحيه، فهذا حسان بن ثابت رضي الله عنه يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]:

أغرُّ عليه للنبوة خاتم
من الله مشهود يلوح ويشهدُ
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه
إذا قال في خمس المؤذن أشهدُ
وشق له من اسمه ليجله
فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك المدح ولم ينكره، ولم يَحْثُ التراب في وجهه؛ لأنه لم يقل إلا حقًا.

وكذلك مدح عبد الله بن عباس رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين دخل عليه وهو مطعون، فعن المسور بن مخرمة قال: لما طعن عمر رضي الله عنه جعل يألم، فقال له ابن عباس رضي الله عنه وكأنه يجزعه: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك، لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر رضي الله عنه فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا زكى رجل رجلًا كفاه، رقم ٢٦٦٢، ٣/ ١٧٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح، إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، رقم ٣٠٠٠، ٤/ ٢٢٩٦.

(٢) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص٢٦١.

عنك راض، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون، قال: «أما ما ذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاه، فإنما ذاك مَنٌّ من الله تعالى مَنَّ به عَليَّ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه، فإنما ذاك مَنٌّ من الله جل ذكره مَنَّ به عَليَّ، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك، والله لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا لافتديت به من عذاب الله عز وجل، قبل أن أراه»[1].

فهذا المدح بالحق قاله ابن عباس رضي الله عنه في وجه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لما علم من قوة إيمانه، وأن هذا الكلام لن يغره، وهذا هو المدح الحسن المحمود الذي يندب إليه، ولو كان فيه إثم لكان ابن عباس رضي الله عنهما أبعد الناس عنه.

ومن المدح المحمود:

١. ما كان ثناءً من الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك: قول الله تعالى في حق أبي بكر رضي الله عنه في سورة الليل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل:١٧-٢١].

فقد كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق ضعفة العبيد الذين أسلموا، وكان ينفق في رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله، وكان مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، ولذا لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخول أحد الناس من أبواب الجنة جميعها بقوله: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها، قال: (نعم وأرجو أن تكون منهم)[2].

قال ابن بطال: « أنه يجوز الثناء على الناس بما فيهم على وجه الإعلام بصفاتهم، لتعرف لهم سابقتهم وتقدمهم في الفضل، فينزلوا منازلهم، ويقدموا على من لا يساويهم، ويقتدى بهم في الخير، ولو لم يجز وصفهم بالخير والثناء عليهم بأحوالهم لم يُعْلَمْ أهلُ الفضل من غيرهم، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم خَصَّ أصحابه بخواصَّ من الفضائل بانوا بها عن سائر الناس وعرفوا بها إلى يوم القيامة»[3].

وكذلك مدح النبي صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم ٣٦٩٢، ٥/ ١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم باب الريان للصائمين، رقم ١٨٩٧، ٥/ ١١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٢٥٥.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حضوره فقال: (والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا قطُّ، إلا سلك فجًّا غير فجِّكَ)[1].

والفج: هو الطريق الواسع. قال ابن حجر: «وهذا من جملة المدح، لكنه لما كان صدقًا محضًا، وكان الممدوح يؤمن معه الإعجاب والكبر مدح به، ولا يدخل ذلك في المنع»[2].

٢. ما يجده أهل الفضل من محبة الناس وثنائهم عليهم من غير تطلعهم لذلك الثناء.

وهذا ثناء حسن يعود نفعه على المادح والممدوح، وهي شهادة حقٍّ. لذا توجه الخليل إبراهيم عليه السلام بالدعاء إلى ربه قائلًا: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

«أي: ثناء حسنًا وذكرًا جميلًا وقبولًا عامًّا في الأمم التي تجيء بعدي، فأعطاه الله ذلك، فجعل كل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه»[3].

وأبقى له الذكر الجميل والثناء الحسن في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقرن ذكره بذكر حبيبه إبقاء للثناء الحسن عليه في أمته، وزيادة في الكرم جعل هذا الذكر لذريته، فقال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم ٤٩-٥٠].

فإبراهيم الخليل وبنوه معظمون في جميع الأمم والملل صلى الله عليهم أجمعين. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أريت الرجل الذي يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال:(تلك عاجل بشرى المؤمن)[4].

فالله تعالى يقذف في قلوب الناس محبة المخلصين في الأعمال الصادقين في الأقوال، ويجعل لهم القبول في الأرض، فتلهج الألسن بالثناء عليهم، فهذه بشارة في الدنيا على قدرهم يوم القيامة.

٣. مدح الشخص بما فيه قبل توجيهه ونصحه.

فيقدم الناصح بين يدي نصيحته الثناء على المنصوح، وذكر بعض الخير الذي فيه، ثم يحفزه للكمال بفعل بعض المأمورات أو ترك بعض المنهيات، فهذا مظنة الاستجابة للنصيحة، فقبل أن يوجه الله تعالى عباده إلى التحلي بخلق الصبر، وحسن التوكل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب، رقم ٣٦٨٣، ٣/ ٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، رقم ٢٣٩٦، ٤/ ١٨٦٣، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٢) فتح الباري ١٠/ ٥٣٩.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١١٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم ٢٦٤٢، ٤/ ٢٠٣٤.

عليه في سائر الأمور بين ما أعده لهم من الثواب تحفيزًا لهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨-٥٩].

وقبل أن يوجه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر رضي الله عنه إلى قيام الليل قال: (نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل، فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلًا)[1].

ثانيًا: المدح المذموم:

المدح المذموم، هو المدح بالباطل، ويأتي على صور، منها:

١. مدح العبد لنفسه.

وهو قبيح؛ لما فيه من التفاخر والكبر، وهو يورث الهلاك.

وقد نهى الله تعالى عن تزكية العبد لنفسه ووبخ من يفعل ذلك فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٤٩-٥٠].

«قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[المائدة:١٨].

وقال ابن زيد: فيها، وفي قولهم: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[البقرة:١١١].

وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم، ويزعمون أنهم لا ذنب لهم، وقال الضحاك: قالوا: ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب. فأنزل الله ذلك فيهم، وقيل: نزلت في ذم التمادح والتزكية»[2].

فهذه الأقوال جميعها تدل على ذم مدح الإنسان لنفسه سواء فعلته اليهود أو النصارى أو غيرهم.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم:٣٢].

أي: لا تمدحوها وتشكروها وتَمُنُّوا بأعمالكم. وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم)[3].

ومعنى يذهب بنفسه: «أي: يعلي نفسه ويرفعها ويبعدها عن الناس في المرتبة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب فضل قيام الليل، رقم ١١٢١، ٢/ ٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمر، رقم ٢٤٧٩، ٤/ ١٩٢٧، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٣٢.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة باب ما جاء في الكبر، رقم ٢٠٠٠، ٤/ ٣٦٢. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

ويعتقدها عظيمة القدر»[1].

قال ابن القيم: «ومن كيده - أي: الشيطان- أنه يغرى الناس بتقبيل يده، والتمسح به، والثناء عليه، وسؤاله الدعاء، ونحو ذلك، حتى يرى نفسه، ويعجبه شأنها، فلو قيل له: إنك من أوتاد الأرض، وبك يدفع البلاء عن الخلق، ظن ذلك حقًا.

وربما قيل له: إنه يتوسل به إلى الله تعالى ويسأل الله تعالى به وبحرمته، فيقضى حاجتهم، فيقع ذلك فى قلبه، ويفرح به، ويظنه حقًا، وذلك كل الهلاك، فإذا رأى من أحد من الناس تجافيًا عنه، أو قلة خضوع له، تذمر لذلك ووجد فى باطنه.

وهذا شر من أرباب الكبائر المصرين عليها، وهم أقرب إلى السلامة منه»[2].

٢. المدح في الوجه، والقطع بذلك دون استثناء.

وهو يورث الهلاك للمادح والممدوح، وأكثر ما يكون ذلك في الشعراء والمداحين.

قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الشعراء:٢٢٤- ٢٢٧].

فأغلب الشعراء والمداحين إن أعطوا رفعوا الممدوح إلى السماء فيقع في العجب بنفسه، ولذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا يثني على رجلٍ ويطريه في مدحه فقال: (أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل)[3].

فهذا الحديث يفهم منه تحريم المدح في الوجه؛ لأنه مظنة الاغترار والوقوع في العجب، وهذه صفات مهلكة لدين العبد. خاصة إذا كان يخشى عليه الفتنة، فيعتقد فضله؛ فربما تطرق لقلبه الكبر والرياء، وربما رأى أن له حقًا على الناس وقدرًا، وربما ظن أنه فاق غيره من السابقين واللاحقين في الفضل، فاتكل على ذلك وترك العمل أو قصر فيه.

قال ابن بطال: «حاصل النهي هنا أنه إذا أفرط في مدح آخر بما ليس فيه لم يأمن على الممدوح العجب لظنه أنه بتلك المنزلة، فربما ضيع العمل والازدياد من الخير اتكالًا على ما وصف به»[4].

٣. مدح الشخص والثناء عليه بأشياء لا يطلع عليها إلا الله.

(١) تحفة الأحوذي، المباركفوري ٦/ ١١٧.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ١٢٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح، إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، رقم ٣٠٠٢، ٤/ ٢٢٩٧.
(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٥٣٩.

من صدق الإيمان والتقوى والخشية، ونحو ذلك مما يتعلق بالقلوب؛ لأنه مما لا يطلع عليها إلا علام الغيوب، وإن كان لا بد مادحًا فلا يجزم بذلك، بل يقول: أحسبه أو أظنه، ونحو ذلك من الألفاظ التي ليس فيها جزم.

وقد ضرب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في عدم اكتراثهم بالمدح، بل وعدم الاهتمام بمادحيهم، فعن همام بن الحارث أن رجلًا جعل يمدح عثمان رضي الله عنه فعمد المقداد رضي الله عنه فجثا على ركبتيه، وكان رجلًا ضخمًا فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان رضي الله عنه: ما شأنك؟

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في وجوههم التراب)[1].

فالمقداد بن الأسود رضي الله عنه استعمل «الحديث على ظاهره في تناول عين التراب، وحثيه في وجه المادح، وقد يتأول أيضًا على وجه آخر، وهو أن يكون معناه: الخيبة والحرمان، أي: من تعرض لكم بالثناء والمدح، فلا تعطوه واحرموه»[2].

٤. المغالاة في المدح التي تؤدي إلى التعدي ومجاوزة الحقيقة.

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنها، فقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا عبد الله ورسوله)[3].

فـ«قوله: (لا تطروني)، بضم التاء، من الإطراء، وهو المديح بالباطل، تقول: أطريت فلانا: مدحته فأفرطت في مدحه. وقيل: الإطراء مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه. قوله: (كما أطرت النصارى)، أي: في دعواهم في عيسى بالإلهية وغير ذلك»[4].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء:١٧١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما يكره من الإطناب في المدح وليقل ما يعلم، رقم ٢٦٦٣، ٣/ ١٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح، إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، رقم ٣٠٠١، ٤/ ٢٢٩٧.

(٢) شرح السنة، البغوي ١٣/ ١٥١.

(٣) عمدة القاري ١٦/ ٣٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا)، رقم ٣٤٤٥، ٤/ ١٦٧.

وعن خالد بن ذكوان عن الربيع بنت معوذ، قالت: دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم غداة بُنِيَ عَلَيَّ، فجلس على فراشي كمجلسك مني، وجويريات يضربن بالدف، يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر، حتى قالت جارية: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقولي هكذا وقولي ما كنت تقولين)[1].

ففي هذا الحديث أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكر من الإطراء بادعاء أنه صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب، أو أنه يقدر على دفع الضر أو جلب النفع، فهو صفة تختص بالله تعالى.

٥. مدح من لا يستحق المدح من الفساق الظالمين.

فمن مدح ظالمًا وهو يعلم فقد شاركه في ظلمه؛ لأن الله حرم الركون إلى الظالمين وتوعد من يفعله بعذاب النار، وأنه لن يجد له ناصرًا في تلك الحالة.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

وعن بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقولوا للمنافق: سيدنا؛ فإنه إن يك سيدكم فقد أسخطتم ربكم عز وجل)[2].

فنهوا عن تعظيم المنافق، ولو كان هذا التعظيم لقدره الدنيوي، فبمدحهم له يعظمون من أهانه الله، ومن يهن الله فما له من مكرم، وإن كان ليس كما قالوا فقد أضافوا إلى ذلك الكذب المحرم، ففرعون لما أعانه قومه على ظلمه بكثرة مدحهم له بالباطل وقالوا له غرورًا وباطلًا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

دفعه ذلك لأن قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

وما زالوا يمدحونه حتى قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

فما كان له إلا الهلاك ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٥].

فلا ينبغي أن يمدح الظالمون مهما كانت مكانتهم.

٦. المدح بالباطل طمعًا فيما عند الممدوح من متاع الحياة الدنيا.

وهو مدخل من مداخل الشيطان إلى القلوب والعياذ بالله، فمن علم أن المتفرد بالعطاء أو المنع هو الله وحده وأنه الذي يرزق العبد بسببٍ وبلا سببٍ ومن حيث لا يحتسب لم يمدح مخلوقًا على رزق،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، رقم ٤٠٠١، ٥/ ٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ٧٦٠، ص٢٦٧، والنسائي في سننه، كتاب عمل اليوم والليلة، باب النهي عن أن يقال للمنافق: سيدنا، رقم ١٠٠٠٢، ٩/ ١٠١.

ولم يذمه على منع، بل يفوض أمره إلى الله ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه.

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢].

وقد وردت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يفهم منها إباحة المدح، وأخرى يفهم منها النهي عن ذلك، ولا تتعارض بين هذه الأحاديث؛ فلكل منهما أسبابه التي ترجع إلى شخص الممدوح وفعله، وإلى شخص المادح.

وقد جمع بينهما النووي، فقال: «قال العلماء: وطريق الجمع بينها: أن النهي محمول على المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح.

وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه، ورسوخ عقله ومعرفته، فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير، والازدياد منه، أو الدوام عليه، أو الاقتداء به، كان مستحبًّا، والله أعلم»[1].

نخلص من هذا المبحث: أن هناك ضوابط متعلقة بالمدح، وأيضًا ضوابط متعلقة بالمادح، وأخرى متعلقة بالممدوح.

أولًا: الضوابط المتعلقة بالمدح:

١. أن يكون المدح صادقًا فيمدح الشخص بما فيه من غير مبالغة ولا رياء يؤديان إلى النفاق.

٢. أن يكون الهدف من المدح شحذ الهمم للازدياد والاستمرار في الفعل الحسن والخلق الكريم.

٣. ألا يكون المدح في كل وقت ولغير حاجة.

٤. ألا يكون في المدح تفضيل يؤدي إلى انتقاص الآخرين.

ثانيًا: الضوابط المتعلقة بالمادح:

١. أن يأمن المادح على الممدوح العجب والغرور.

٢. أن يكون المادح صادقًا ولا يبالغ في المدح فينتهي إلى الكذب، ولا يرائي مظهرًا الحب للممدوح.

٣. أن يقول المادح إذا أراد أن يمدح: أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا.

ثالثًا: الضوابط المتعلقة بالممدوح:

١. أن يكون عند الممدوح إيمان قوي يأمن به من الإعجاب والفتنة.

٢. أن يكون الممدوح ممن ظهر صلاحه وحسن عمله.

٣. ألا يكترث الممدوح بمدح المادحين ولا يتعرض للمدح؛ لأن

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٨/ ١٢٦.

التعرض للمدح مذموم.

٤. أن يقول الممدوح عند مدحه: اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

نماذج من المدح

مدح النماذج الطيبة له أثر طيب في نفوس المخاطبين حيث يجعل منهم قدوة صالحة يحتذى بها في الصلاح والخير لما يمتازون به من صفات، وأبرز الخصال والصفات الحميدة تكون فيمن لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم الملائكة المقربون، وكذلك تكون فيمن اصطفاهم الله واختارهم لتبليغ وحيه إلى خلقه، وهم الأنبياء والمرسلون، ثم تكون فيمن تحمل الرسالة عنهم، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

أولًا: مدح الملائكة عليهم السلام:

الملائكة جمع ملك، وهو «جسم لطيف نوراني يتشكل بأشكال مختلفة»[1].

ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم، وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال.

وقد مدح الله تعالى الملائكة فوصفهم بأنهم كرام.

قال تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٦].

فهم كرام على الله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

وهم أبرار أطهار لا يقارفون ذنبًا، ولا يجترحون إثمًا، كما قال سبحانه: ﴿لَّا

(١) المفردات، الراغب ص٤٧٣.

﴿يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

فخلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة. وقد أوجب الله تعالى الإيمان بهم، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وشنع على من جحد بهم وكفر فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

ولولا ما فيهم من التفضيل والتكريم والصفات الحميدة ما كانوا أهلًا للإيمان والتصديق وهذا غاية المدح والثناء لهم.

ومدحهم بوصفهم بالمقربين، كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨-٢١].

«يعني: الملائكة الذين هم في عليين، يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب أو ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين»[(١)].

وهذا في غاية المدح لهم.

وقد ورد لفظ الملائكة في (ثمانية وستين) موضعًا في القرآن الكريم[(٢)].

وأخص الملائكة بالتشريف والتكريم: جبريل وميكائيل عليهما السلام، فقد خصهما الله تعالى بالذكر بعد ذكر الملائكة إجمالًا في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٩٧].

وخصا بالذكر؛ لأن الله تعالى خصهما بالحياة فجبريل بالوحي الذي هو حياة القلوب، وميكائيل بالرزق الذي هو حياة الأبدان ولأنهما كانا سبب النزول في تصريح اليهود بعداوتهما، وقُدِّمَ جبريل عليه؛ لأن حياة القلوب أعظم من حياة الأبدان[(٣)].

وجبريل عليه السلام هو أكثر الملائكة ذكرًا في القرآن الكريم باسمه ولقبه، حيث لقبه الله تعالى بـالروح الأمين في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣].

وبالروح في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

وبروح القدس في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ

(١) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٣٦٧.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٧٧١-٧٧٢.

(٣) انظر: البرهان في علوم القران، الزركشي ٢/ ٤٦٨.

﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وبشديد القوى في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥].

فعبر الله تعالى عنه بالروح؛ «لأنه يحيي به الخلق في باب الدين، أو لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح، ووصف عليه السلام بالأمين؛ لأنه أمين وحيه تعالى وموصوله إلى من شاء من عباده جل شأنه من غير تغيير وتحريف أصلا»[(١)].

ففي مدحه بقوله: ﴿ٱلْأَمِينُ﴾ دلالة على منزلته ومكانته، قال ابن كثير: «أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى»[(٢)].

وسمي بروح القدس «لأنه سبب حياة الدين كما أن الروح سبب حياة البدن، ولأنه الغالب عليه الروحانية، ولأنه لم تضمه أصلاب الفحول ولا أرحام الأمهات»[(٣)].

قال الألوسي: « وأطلق عليه ذلك من حيث إنه ينزل بالقدس من الله تعالى، أي: مما يطهر النفوس من القرآن والحكمة والفيض الإلهي»[(٤)].

ومدحه بشدة القوة في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥].

أي: «هو كثير القوى عظيم القدرة»[(٥)].

وقد مدح الله تعالى الملائكة وأثنى عليهم في مواضع متعددة وأفعال شتى، منها:

١. العبادة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف:٢٠٦].

ففي الآية تنبيه للمخاطبين «لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون»[(٦)].

فـ«الملائكة في الملكوت الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: طاعته بما كلفهم به ووظفهم فيه ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ فتأس بهم ولا تكن من الغافلين»[(٧)].

٢. الخوف من الله تعالى وفعل أوامره.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل:٤٩-٥٠].

ففي الآية تفصيل لصفاتهم بعدم التكبر والخوف فهم خاضعون طائعون مستمرون على ذلك، فكلما تجددت دواعي الخوف والأمر فهم يخافون ويفعلون، وفي هذا مدح لكمال طاعتهم وتمام انقيادهم لأمر

(١) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١١٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٦٢.
(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري ١/ ٣٣٠.
(٤) روح المعاني ٧/ ٤٦٧.
(٥) المفردات، الراغب ص٤١٩.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٨٤.
(٧) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٢٨١.

الله تعالى.

٣. سرعة الاستجابة لأمر الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧].

فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله عز وجل زورًا وبهتانًا، «فنزه تعالى نفسه عن هذا النقص فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وأبطل دعواهم وأضرب عنها فقال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: فمن نسبوهم لله بنات له هم عباد له مكرمون عنده، ووصفهم تعالى بقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ فهم لكمال عبوديتهم لا يقولون حتى يقول هو سبحانه وتعالى، وهم يعملون بأمره فلا يقولون ولا يعملون إلا بعد إذنه لهم»[(١)].

٤. عظيم منزلتهم ومكانتهم.

وذلك باقترانهم بالشهادة الإلهية في التوحيد في أشرف مقامات الثناء.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨].

أي: والملائكة يشهدون، وهذا غاية المدح. وكذلك مدحهم بشهادتهم على إنزال القرآن.

قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦].

وقال تعالى في بيان مكانتهم عنده: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢].

فدلت الآيتان على أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد، فهم مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا.

ثانيًا: مدح الرسل عليهم السلام:

اصطفى الله عز وجل الرسل وزكَّاهم، فكانوا أمناء لتبليغ الوحي، وقد صرَّح القرآن الكريم باسم خمسة وعشرين نبيًّا، وذكر غيرهم تضمينًا، وقد سمى الله تعالى ست سور من القرآن بأسمائهم، وهي: سورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة إبراهيم، وسورة محمد، وسورة نوح.

وقد اصطفى الله تعالى منهم خمسة هم أولو العزم، وقد صرح القرآن بأسمائهم جميعًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٠٧.

«فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين ولكنه خصهم بالذكر تنويهًا بشأنهم وتشريفًا لهم»[1].

وهذا يناسب دعوتهم وجهادهم مع أقوامهم وما تحملوه من الشدة والقسوة والإيذاء في سبيل دعوة الحق، إذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم في خلق الصبر.

وقد مدح الله تعالى الأنبياء والمرسلين في كثير من الصفات التي تحلوا بها، ومنها:

١. العبودية والشكر.

المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن الله عز وجل مدح رسله وأنبيائه على عبوديتهم وشكرهم له سبحانه وتعالى، فمدح نوحًا عليه السلام بصفتي العبودية والشكر فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء:٣].

فجاءت هذه الآية بأجل صفات الخضوع، وهي: العبودية وشكر المنعم عز جل على كل حال، التي كانت سببًا لنجاة نوح ومن معه من الهلاك، وفي هذا تحريض على التأسي بهم، وفي تخصيصه بالشكر تنبيه على أن توفية شكر الله صعب، ولذلك لم يثن الله بالشكر من أوليائه إلا على القليل. وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۦ﴾[النحل:١٢١].

وقال تعالى في حق آل لوط: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر:٣٥].

«أي: مثل هذا الجزاء بالنجاة من الهلاك نجزي من شكرنا بالإيمان والطاعة»[2].

ويصف الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم بصفة العبودية في قوله تعالى ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١].

قال ابن كثير: «هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء:١].

وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن:١٩].

وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾»[3]، وهاتان الصفتان هما كذلك في كل الأنبياء.

٢. الدعوة.

من يتتبع آيات القرآن يجد أن الله عز وجل مدح رسله وأنبياءه على تبليغهم الرسالات وما لاقوا في سبيل نشرها.

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٤٧٥.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٢١٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٩٢.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب:٣٩].

ففي هذه الآية «يمدح تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا، وسيد الناس في هذا المقام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو، صلوات الله عليه، فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسرِّه وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم»[(١)].

وهذا نوح عليه السلام مدحه الله تعالى في صبره على تبليغ رسالته، وأنزل تكذيب قومه له بمنزلة تكذيب جميع الرسل.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥].

قال ابن كثير: «هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، وهو أول رسول بعث إلى الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهيًا عن ذلك، ومحذرًا من وبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم، ويتنزل تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل»[(٢)].

وهذا ثناء ومدح عظيم من الله عز وجل، كما أن فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في دعوته، وهذه الصفة هي كذلك في كل الأنبياء.

٣. الوفاء.

مدح الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧].

مبالغة في الوفاء، قال ابن عباس رضي الله عنه: ما ابتلي أحد بهذا الدين فقام به كله

(١) المصدر السابق ٦/ ٤٢٧.
(٢) المصدر السابق ٦/ ١٥١.

غير إبراهيم، ابتلي بالإسلام فأتمه، فكتب الله له البراءة فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم:٣٧][1].

فجاء المدح في الوفاء من الله عز وجل بيانًا لأمر جليل نال به هذا الثناء والتكريم في دعوته وتبليغ قومه، وهو إعلاء كلمة التوحيد ونبذ الأوثان والأصنام التي يعبدها قومه، والبراءة من الشرك والكفر مع أقرب الناس إليه؛ ليكون في موطن الاقتداء ونموذجًا في الوفاء الإيماني الذي ينبع منه كل خُلُقٍ نبيلٍ، وهذه الصفة هي كذلك في كل الأنبياء.

٤. الحلم ورقة القلب.

مدح الله تعالى الخليل إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:٧٥].

فالآية الأولى جاءت بعد بيان الله عز وجل لعلة استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، فلما ثبت في علم الله عز وجل أنه كافر عدوٌّ لله في المعتقد أعلن إبراهيم عليه السلام البراءة منه، فجاء المدح الإلهي لهذا الموقف الحاسم في الجانب العاطفي والتوجه إلى الحق جل وعلا بصفتي أواه حليم «وهو الذي يكثر التأوه، ومعناه: أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله: لأرجمنك»[2].

«والحليم: الصفوح عمن سبه أو ناله بالمكروه، كما قال لأبيه عند وعيده وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم:٤٦-٤٧][3]، فهي صفة ثابتة فيه.

أما الآية الثانية فقد وردت في قصته عليه السلام مع الملائكة ومحاورته معهم في قصة هلاك قوم لوط عليه السلام بعد البشرى بإسحاق ويعقوب عليهما السلام، فجاءت الآية لتبين أن إبراهيم عليه السلام حليم «غير عجول على كل من أساء إليه أواه كثير التأوه من الذنوب، منيب تائب راجع إلى الله بما يحب ويرضى.

وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة، فبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه»[4]، فقدم المدح بالحلم لأنها «صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى»[5].

ثم أعقبها في المدح بـ﴿أَوَّاهٌ﴾ «وهو

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٨.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١٥.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٠٣.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٢.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٢٣.

كناية عن شدة اهتمامه بهموم الناس»[1].

ثم ختم بذكر الإنابة مدحًا للخليل عليه السلام التي تعني الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة وإخلاص العمل، «وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام»[2].

وهذه الصفات هي كذلك في كل الأنبياء.

٥. الكرم والأمانة.

مدح الله تعالى يوسف عليه السلام على لسان عزيز مصر: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:٥٤].

فمدحه بقوله: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، وهي «كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب، وذلك لأنه لا بد في كونه مكينًا من القدرة والعلم. أما القدرة، فلأنه بها يحصل المكنة. وأما العلم، فلأن كونه متمكنًا من أفعال الخير لا يحصل إلا به، إذ لو لم يكن عالمًا بما ينبغي وبما لا ينبغي لا يمكنه تخصيص ما ينبغي بالفعل، وتخصيص ما لا ينبغي بالترك، فثبت أن كونه مكينًا لا يحصل إلا بالقدرة والعلم. أما كونه أمينًا، فهو عبارة عن كونه حكيمًا لا يفعل الفعل لداعي الشهوة، بل إنما يفعله لداعي الحكمة، فثبت أن كونه مكينًا أمينًا يدل على كونه قادرًا، وعلى كونه عالمًا بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد، وعلى كونه بحيث يفعل لداعي الحكمة لا لداعية الشهوة، وكل من كان كذلك فإنه لا يصدر عنه فعل الشر والسفه»[3].

مدح الله تعالى موسى عليه السلام فجمع له بين الرسالة والكرم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان:١٧].

فالله تعالى أكرمه بالاصطفاء والرسالة فهو «كريم على الله وعلى عباده المؤمنين أو كريم في نفسه؛ لأن الله لم يبعث نبيًّا إلا من سراة قومه وكرامهم»[4]، ومدح موسى نفسه بالجمع بين الرسالة والأمانة.

قال تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان:١٨].

أي: إني رسول إليكم مؤتمن على الوحي غير متهم، أدعوكم وأنصح لكم لما فيه خيركم وسعادتكم، فاسمعوا مني. وبهذا المدح يجمع له الكرم والأمانة في رسالته ودعوته، وهي من مقومات المدح في شخصية موسى عليه السلام، وهي كذلك في كل الأنبياء.

٦. الرأفة والرحمة.

مدح الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم غاية المدح، فقال تعالى:

(١) المصدر السابق ١٢/ ١٢٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٧٧.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٤٧٢.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٧٤.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

أي: «﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ أي: كريم عظيم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ عدناني قرشي هاشمي مطلبي، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه ما يشق عليكم ويؤلمه ما يؤلمكم؛ لأنه منكم ينصح لكم نصح القومي لقومه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم وإكمالكم وإسعادكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم من سائر الناس ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: شفوق عطوف يحب رحمتهم وإيصال الخير لهم»[1].

فالآية كلها في إثبات صفات المدح في كونه رسولًا من أشرف وأفضل الناس، و«لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»[2].

وبهذا تكون الآية قد جمعت خمس صفات في المدح والثناء عليه صلى الله عليه وسلم.

ومدح أيضًا باللين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال لموسى وهارون عليهما السلام ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٣- ٤٤].

٧. الأسوة والخلق العظيم.

مدح الله تعالى الرسول بأنه صاحب الخلق العظيم فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ففي الآية الأولى: المدح والثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم في جعله منار الأسوة والاقتداء، وفيها نكتتان بلاغيتان أشار إليهما الزمخشري بقوله: «فيه وجهان:

أحدهما: أنه في نفسه أسوة حسنة، أي: قدوة.

والثاني: أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع، وهي المواساة نفسها»[3].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله»[4].

وفي العدول عن الاسم الصريح (محمد) إلى الكناية (رسول الله) تشريفٌ وتكريمٌ وتعظيمٌ للممدوح صلى الله عليه وسلم، وفي حسن ختام الآية عبرة وموعظة في

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٤٤٢.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٢٥.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٥٣١.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٩١.

جعل الاقتداء به صلى الله عليه وسلم غاية في حياة المؤمنين؛ لذا علقها بذكر الآخرة.

أما الآية الثانية ففيها التأكيد والبيان على أهم ما يمدح به صلى الله عليه وسلم، فقد وصفه الله بأكرم ما يوصف به إنسان من خلقه، «وكلمة على للاستعلاء، فدل اللفظ على أنه مستعل على هذه الأخلاق ومستولٍ عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور»[(١)].

فهو مدح عظيم وثناء جليل وشهادة عظيمة من الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم «أي: وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات يا له من شرف عظيم، لم يدرك شأوه بشر، فرب العزة جل وعلا يصف محمدًا صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف الجليل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]وقد كان من خلقه صلى الله عليه وسلم العلم والحلم وشدة الحياء وكثرة العبادة والسخاء والصبر والشكر والتواضع والزهد والرحمة والشفقة وحسن المعاشرة والأدب إلى غير ذلك من الخلال العلية والأخلاق المرضية»[(٢)].

ومن هنا يتبين مدح الله تعالى للأنبياء والمرسلين، فقد جمعوا كل المقومات الشخصية وكل كمال بشري.

ثالثًا: مدح الكتب السماوية:

من رحمة الله أن أرسل الرسل وأنزل عليهم الكتب السماوية المقدسة، ومما صرح القرآن الكريم بذكره: صحف إبراهيم عليه السلام، والزبور لداود عليه السلام، والتوراة لموسى عليه السلام، والإنجيل لعيسى عليه السلام، والقرآن الكريم لمحمد صلى الله عليه وسلم، واقترن المدح للتوراة والإنجيل في تسعة مواضع[(٣)]؛ وذلك لإقامة الحجة على أهل الكتاب، وتقريرًا للإيمان بنزول القرآن الكريم، ودعوة للإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم.

١. مدح التوراة.

جاء مدح التوراة في القرآن الكريم، وذلك تعظيمًا لما فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة:٤٤].

فَمَدَحَها بـ(هدى ونور) تشريفًا وتكريمًا لمن آمن وصَدَّقَ بها، وكذلك مدحها بـ (الإمام والرحمة) في قوله تعالى:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٠١.
(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٤٠١.
(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص١٩٤.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف:١٢].

لما فيها من تفصيل الشريعة، ومدح ما فيها من الأحكام والآيات بكونها تامَّةً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٥٤].

٢. مدح الإنجيل.

ورد ذكر الإنجيل تصريحًا في القرآن الكريم في اثني عشر موضعًا [(١)]، فورد مقترنًا مع الكتب السماوية، إلا أن أكثر اقترانه مع التوراة. وقد خص الله تعالى الإنجيل بالمدح بكونه (هدى ونور) في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦].

ومدحه بالذكر مع التوراة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:١١٠].

ومدح بتضمنه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

ومدح الله فيه الأمة المحمدية في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

واقترن ذكر المسيح عليه السلام مع الإنجيل تعظيمًا لما أرسل به وإكرامًا للمرسل بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد:٢٧].

٣. مدح القرآن الكريم.

ورد المدح بلفظ (القرآن) في ثمانٍ وخمسين موضعًا [(٢)]، وأكثر ورود المدح له في مطلع السور القرآنية، وأكثر وقوعه بعد الحروف المقطعة، فالغالب أن «كل سورة في أوائلها حروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران:١-٣].

والحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هي أن القرآن عظيم، والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]» [(٣)].

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٧٨٣.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٦٤٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٤.

ووصفه الله تعالى بالبركة كما في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:١٥٥].

والليلة التي نزل فيها مباركة قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣].

ومدحه بأنه أحسن القصص فقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٤].

وقد اختار الله عز وجل لكتابه العزيز صفات تدل على شرفه وعلو قدره وفيها البرهان على أنه أعظم كتاب سماوي، أشملها صفة (المهيمن) في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

«فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]»[1].

وخَصَّهُ مدحًا في أم الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

فالله تعالى «بين شرفه في الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض»[2].

وهذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه، فهو كتاب قد نزل بالحق ولإحقاق الحق.

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

فالآية مدح للقرآن بأنه نزل متضمنًا للحق، ففيه أمر بالعدل والإنصاف ومكارم الأخلاق، ونهى عن الظلم والأفعال الذميمة، وذكر براهين الوحدانية وحاجة الناس إلى الرسل، لتبشيرهم وإنذارهم وحثهم على صالح الأعمال، انتظارًا ليوم الحساب والجزاء، وقد نزل هذا القرآن محفوظًا محروسًا لم يشب بغيره، فلم يزد فيه ولم ينقص.

وقد ورد التنويه بذكره في كتب السابقين قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦].

قال ابن كثير: «وإن ذكر هذا القران والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه»[3].

ومدح على لسان الجن بقولهم: ﴿إِنَّا

(١) تفسير القران العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٨.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٢١٨.

(٣) تفسير القران العظيم ٦/ ١٦٣.

﴿سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن:١-٢].

فهو مدح يدل على استمرار الهداية لكل زمان ومكان ودعوة إلى الحق والإيمان.

رابعًا: مدح بعض أهل الكتاب:

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمراد بـالكتاب التوراة والإنجيل، قال الله تعالى في مدح من آمن منهم: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

«قال مجاهد: هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل الله على محمد قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء:١٠٨]»[(١)].

ونجد آيات المدح لخيرة أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

ففي هذه الآية «يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتمون بأيديهم من البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى»[(٢)]، فهو «مدح لهم وذم لسائر كفار أهل الكتاب»[(٣)].

وقد ورد المدح في القرآن الكريم لبعض الصفات الحميدة التي تحلى بها بعض أهل الكتاب، ومن هذه الصفات:

١. الوسطية والاعتدال.

قال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة:٦٦].

«أي: عادلة. والاقتصاد: الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير. أصله من القصد؛ لأن من عرف مقصودًا طلبه من غير اعوجاج عنه. والمراد بالأمة المقتصدة: من آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا»[(٤)] رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

٢. تأدية الأمانة.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٧٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٩٣.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٥٩.

(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٦٢.

﴿بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران:٧٥].

«أخبر الله تعالى أن فيهم أمانة وخيانة، والقنطار عبارة عن المال الكثير، والدينار عبارة عن المال القليل، يقول: منهم من يؤدي الأمانة وإن كثرت، ومنهم من لا يؤديها وإن قلت»[(١)].

٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارعة إلى الخيرات.

قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

ففي هذه الآية «أخبر جل ثناؤه أن هؤلاء الذين هذه صفتهم من أهل الكتاب، هم من عداد الصالحين؛ لأن من كان منهم فاسقًا، قد باء بغضب من الله لكفره بالله وآياته، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وعصيانه ربه واعتدائه في حدوده»[(٢)].

وممن خُصَّ بالمدح من أهل الكتاب

٤. طائفة من قوم موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩].

«أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويعدلون به بينهم في الحكم بينهم بقضاياهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

وفي هذا فضيلة لأمة موسى عليه السلام، وأن الله تعالى جعل منهم هداة يهدون بأمره»[(٣)].

٥. طائفة من النصارى.

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢].

هذه الآية نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعةٍ من الحق مما جاء به عيسى، يؤمنون به وينتهون إليه. فلما بعث الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم صدقوا به وآمنوا به، وعرفوا الذي جاء به أنه الحق، فأثنى عليهم[(٤)].

قال القاضي أبو يعلى: «وربما ظنَّ جاهل أنَّ في هذه الآية مدح النصارى، وليس كذلك، لأنه إنما مدح من آمن منهم»[(٥)].

«ولم يصف الله تعالى النصارى بأنهم أهل ود، وإنما وصفهم بأنهم أقرب من اليهود والمشركين فهو قرب مودة بالنسبة

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٥٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٣٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠١.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٧٥.

إلى متباعدين»[1].

ثم بين سبب المدح مفصلًا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فالآية «تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به»[2].

٦. الحواريون.

ورد ذكر الحواريين في القرآن الكريم في خمسة مواضع[3].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

والحواريون أتباع عيسى عليه السلام وأصفياؤه، وهم أول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلًا[4]، وفي خطابهم وتخصيصهم مدح لهم وثناء عظيم عليهم.

خامسًا: مدح المؤمنين:

مدح الله تعالى المؤمنين من أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرة، منها؛ قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

«أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئًا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره»[5].

وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

«وما أخرج الله تعالى للناس أمة خيرًا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم مدحهم بما فيهم من الخصال فقال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الآية»[6]، وكذلك مدحهم في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٦٨.
(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٢٧١-٢٧٢.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢١٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩.
(٦) الوجيز الواحدي ص٢٢٧.

﴿التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢٩].

وأولى المؤمنين بالمدح الصحابة رضي الله عنهم، فقد مدحهم القرآن الكريم بسبقهم إلى الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال في مدحهم أيضًا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٨-٩].

وكما ورد المدح لمؤمني الإنس ورد كذلك لمؤمني الجن؛ فقد مدحهم الله تعالى بحسن استماعهم للقرآن الكريم حتى الفراغ من قراءته وقيامهم بالدعوة إلى الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٣٠].

فالإنصات من علامات التدبر والفهم، وهي من أخلاق حملة القرآن، ومدح قولهم في القرآن في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢].

فقد «حصل لهؤلاء النفر من الجن شرف المعرفة بالله وصفاته وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن وما احتوى عليه ما سمعوه منه فصاروا من خيرة المخلوقات»[1].

لقد مدح الله تعالى المؤمنين بما يمتازون به من خصائص تميزهم، فهم أهل لمدح الله لهم والثناء عليهم، وقد سرد القرآن الكريم الصفات القويمة التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم، وهي في ذاتها تجلب المدح والثناء لمن امتثل بها.

وقد جاءت الآيات القرآنية تبين حب الله لعباده المؤمنين المتصفين بهذه الصفات الحسنة؛ والتي منها:

- الصبر، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].
- والتقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٢١.

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤].

- والعدل، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات:٩].
- وبذل النفس لله، قال جل جلاله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٠٧].
- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١].

وغيرها من الصفات الحسنة والأخلاق الكريمة.

مقاصد المدح في القرآن الكريم

المقصد من مدح الله تعالى نفسه في القرآن الكريم هو تعليم عباده كيف يمدحوه؛ لأن الخلق حينما يمدحون الخالق سبحانه وتعالى يثيبهم، فينتفعون، لا ليتنفع هو بالمدح، والهدف من مدح الصفات الحسنة هو شحذ الهمم في امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، والازدياد والاستمرار في الفعل الحسن والخلق الكريم.

النفس الإنسانية مفطورة على حب المدح الصادق؛ لما له من تأثير قوي فيها، وحثها على فعل الخير وعمل الصالحات، ولأن الإسلام جعل من أولى اهتماماته: الاهتمام بترسيخ قواعد المجتمع المسلم وبنائه من خلال منهج شامل يهدف إلى إصلاح الفرد والمجتمع، ولما كان للمدح أهميته في ترسيخ هذه القواعد، اهتم الإسلام به اهتمامًا كبيرًا، فكان لمدح القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أثر كبير في توجيههم وتحسين سلوكهم وإشاعة روح المودة بينهم.

والناظر في آيات القرآن الكريم يجد أنه في كثير من آياته يحث على التحلي بالأخلاق الحميدة والصفات النبيلة التي تجلب المدح والثناء لصاحبها.

قال تعالى في مطلع سورة المؤمنون:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١-١١].

ففي هذه الآيات «تنويه من الله، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيادة ونقصًا، كثرة وقلة»[1].

ففلاح المؤمن موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر، العظيمة الأثر في حياته الروحية، وكمالاته النفسية.

وقال تعالى في صفات عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٣-٦٨].

إلى آخر الآيات. قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهي الجنة. قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسدي: سميت بذلك لارتفاعها. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي: يبتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٢٦ وَالَّذِينَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٢٣.

مُّ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ
مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ
﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي
جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:١٩-٣٥].

٤- قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ
الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾
[العصر:١-٣].

وغير ذلك.

وهكذا يذكر الله تعالى صفات المؤمنين لينبهنا إلى أن نرجع إلى أنفسنا ونمتحنها بهذه الأعمال والصفات، فإن رأيناها تحتمل فلنبشرها بالرضوان من الله تعالى، وإلا فعلينا أن نسعى لتحصيل هذه المرتبة التي لا ينجي عنده غيرها.

ونستطيع أن نخلص من ذلك: أن مدح القرآن هو المدح الحق الصادق، وأن الهدف منه شحذ الهمم في امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، والازدياد والاستمرار في الفعل الحسن والخلق الكريم.

موضوعات ذات صلة:

الحمد، الذم، الشكر، المحبة

مدين

عناصر الموضوع

التعريف بمدين	٢٧٠
ذكر مدين في القرآن الكريم	٢٧٨
رسول الله إلى مدين ورسالته	٢٧٩
موقف مدين من رسولهم عليه السلام	٢٨٧
نعم الله على مدين وموقفهم منها	٢٩٣
عاقبة قوم مدين	٢٩٦
اقتران مدين وثمود في القرآن	٣٠١
موسى عليه السلام في مدين	٣٠٤
الدروس المستفادة من قصة مدين	٣١٤

التعريف بمدين

أولًا: المكان:

اتفق المفسرون على أن مدين التي ذكرت في القرآن الكريم هي: اسمٌ لقوم شعيب عليه السلام، وهم قبيلة من العرب، وكانوا يسكنون في شمال غرب الجزيرة العربية وجنوبي الشام، بالقرب من مدينة معان، وتبوك، وبحر القلزم (الأحمر حاليا)، وأن الله تعالى أرسل إليهم شعيبا عليه السلام، وهم من بني مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام على ما ذكره جمهور المفسرين والمؤرخين[(١)].

ولكن اختلف المفسرون وغيرهم من الجغرافيين والمؤرخين في تحديد الموقع الجغرافي لـ(مدين) على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب الإمام ابن كثير وابن عاشور وبعض المفسرين إلى أن مدين مدينة تقع بالقرب من مدينة معان في شرقي الأردن، من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، وقريبًا من بحيرة قوم لوط[(٢)].

ومدينة معان حاليًا هي: مدينة في المملكة الأردنية الهاشمية، تقع جنوب العاصمة عمان، وتبعد عنها بحوالي (٢١٦) كيلومترًا، وهي أكبر محافظات الأردن مساحة، وأول منطقة دخلها الإسلام في بلاد الشام[(٣)].

القول الثاني: إن مدين تقع شمال خليج العقبة في بلاد فلسطين في قرية تسمى: (كفر مندا)، وهي قرية عربية فلسطينية، تقع في الجليل الأسفل، وتبعد (١٦) كيلومترًا شمال غربي الناصرة المحتلة من قبل الصهاينة[(٤)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٥٢، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٠٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٤٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٤٠، معجم البلدان، ياقوت الحموي ٥/ ٧٧، الإشارات إلى معرفة الزيارات، الهروي ص٨١، آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني ص ٢٤٩، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، القطيعي ٣/ ١٢٤٦، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي ١/ ٣٤٥.

(٣) انظر: معجم البلدان، ياقوت ٥/ ١٥٣، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي ص ٣٠٠.

(٤) انظر: معجم البلدان ٤/ ٤٧١، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٣٣١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٤، التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٨٣.

وذلك وفقا لما ذكره المؤرخ الشهير ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان تحت اسم «كفر مندا»، والذي مر بالمكان سنة (١٢٣٠م)، حيث ذكر أنه يوجد في القرية بعض الدلائل التي تشير لذلك، وأهمها البئر الموجودة في ساحة القرية، وقبر بنات شعيب، ولكن يرجح الحموي أن تكون مدين: قرية على بحر القلزم بمحاذاة تبوك[(١)].

القول الثالث: ذهب الجغرافيون المسلمون في تحديد بلاد مدين بوضوح وبلا اختلاف بينهم، وكذلك جمهور المؤرخين إلى أن: مدين تقع في شمال غرب الجزيرة العربية بين تبوك وبحر القلزم (البحر الأحمر)، على بعد (١٣٢) كيلًا من تبوك، مما يلي جهة الشام قريبًا من مدينة معان وخليج العقبة، من أطراف الشام، وهي كذلك قريبة من بحيرة قوم لوط عليه السلام[(٢)].

وتعرف مدين اليوم باسم: (البدع)، وهي بلدة بين تبوك وساحل البحر الأحمر على بعد (١٣٢) كيلًا غرب تبوك، وشرق رأس الشيخ حميد - على البحر - بمسافة (٧٠) كيلًا، وهي تابعة لمنطقة تبوك التي تقع شمال غرب المملكة العربية السعودية[(٣)].

ومن خلال الاطلاع والبحث عن موقع مدينة مدين عند المفسرين والجغرافيين القدماء والمعاصرين يمكن القول بأن مدين على الصحيح: كانت تمثل إقليمًا كبيرًا وواسعًا، وكانت تقع في شمال غرب الجزيرة العربية بين تبوك والبحر الأحمر، على بعد (١٣٢) كيلًا غرب تبوك، وكانت عاصمتها ومركزها الرئيس في مدينة البدع السعودية حاليًا، وكان لها منفذ بحري على البحر الأحمر، وكانت ممتدة إلى معان في الأردن، وبئر السبع وكفر مندا في فلسطين، وكانت في فترات ازدهارها تصل إلى طور سيناء في حدود مصر.

ويؤيد هذا ما ترجح لدى الجغرافيين وعلماء الآثار المعاصرين: أن أرض مدين كان مركزها في بلدة «البدع» بين تبوك والساحل، وهي في واد بين الجبال، ويسمى واديها: «عفال»، وأنها كانت ممتدة في أصقاع واسعة، قد تصل إلى معان في شرقي الأردن مما يلي

---

(١) انظر: معجم البلدان ٤/ ٤٧١، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبدالعزيز بن صالح ص ١٣٥، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جواد علي ١/ ٤٥٥، دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران ص١٧١.

(٢) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٤/ ٤٧١، آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا القزويني ص ٢٤٩، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد حسن شراب ص٢٤٣، أطلس القرآن، شوقي أبو خليل ص٧١.

(٣) انظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة، عاتق البلادي ص ٢٨٤، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سامي الملغوث ص١٣٩.

ناحية الحجاز[1].

ومما يؤيد ذلك أيضا أن (مغاير شعيب) وآثارهم وبيوتهم وقبورهم تقع حاليا في محافظة البدع، وهي إحدى محافظات منطقة تبوك السعودية، وتبعد عن تبوك (١٣٢) كيلًا إلى الشمال الغربي منها[2].

ثانيًا: التسمية:

سمى الله سبحانه وتعالى قوم شعيب عليه السلام باسمين الأول منهما: وهو مدين، والآخر بأصحاب الأيكة كما يأتي على هذا التفصيل:

أولًا: سمى الله سبحانه وتعالى قوم شعيب عليه السلام بمدين في مواضع في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٨٤].

وقوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت:٣٦].

بالإضافة إلى تسمية مدين في قصة موسى عليه السلام من دون ذكر النبي شعيب عليه السلام: قال سبحانه: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٤٠].

وقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢٢].

وقال عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص:٢٣].

وقال جل شأنه لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص:٤٥].

---

(١) انظر: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد حسن شراب ص ٢٤٣، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي ص ٢٨٤.

(٢) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٥/ ٧٧، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي ١/ ٣٤٥.

وفي تسمية قوم شعيب بمدين قولان:

أحدهما: لأنهم بنو مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام، فقيل مدين، والمراد بنو مدين، كما يقال مضر والمراد بنو مضر.

الثاني: أن مدين اسم مدينتهم، فنسبوا إليها، ثم اقتصر على اسم المدينة تخفيفًا، وعلى اعتبار أنها اسم مدينة فهل هو اسم أعجمي أو عربي، فيه وجهان: أحدهما: أنه اسم أعجمي، والثاني: أنه اسم عربي، وهل هو اسم مشتق أو جامد، فقد ذكر المفسرون أنه اسم مشتق، واختلفوا في مادة اشتقاقه على وجهين: أحدهما: أنه من قولهم مدن بالمكان، إذا أقام فيه، والياء زائدة، وهذا قول من زعم أنه اسم مدينة، والثاني: أنه مشتق من قولهم دينت، أي ملكت والميم زائدة، وهذا قول من زعم أنه اسم رجل [(١)].

وأما شعيب فتصغير شعب، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه الطريق في الجبل، والثاني: أنه القبيلة العظيمة، والثالث: أنه مأخوذ من شعب الإناء المكسور [(٢)].

ثانيًا: سمى الله سبحانه وتعالى قوم شعيب عليه السلام بأصحاب الأيكة في عدة مواضع من كتابه فقال سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجر:٧٨].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ [ص:١٢-١٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق:١٤].

والأيكة عند أهل اللغة هي: الشجر الكثير الملتف، وتسمى أيضا الغيضة، وجمعها أيك، وكل شجر ملتف فهو عند العرب أيكة، وقيل: هي الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر [(٣)].

---

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٤٣، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٤، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٦١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٤٣، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٤٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٦١.

(٣) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٣٢٠، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٦٥، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٩٤.

ولكن تسمية قوم شعيب عليه السلام بأصحاب الأيكة محل خلاف بين المفسرين على أقوال:

القول الأول: ذهب أكثر المفسرين على أن أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام.

القول الثاني: ذكر بعض المفسرين عن قتادة: إن شعيبًا عليه السلام أرسل مرتين إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة، فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة، وأما أهل مدين فأخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا جميعًا[(١)].

القول الثالث: هناك من المفسرين من يجعل أصحاب الأيكة فريقًا من قوم شعيب غير أهل مدين: فأهل مدين عندهم هم سكان الحاضرة، وأصحاب الأيكة هم باديتهم، وقيل: من ساحل البحر إلى مدين، وكان شعيب رسولًا إليهم جميعًا، وفيهم قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٨].

وفي آية أخرى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾[الحجر:٧٨-٧٩].[(٢)].

قال الإمام ابن كثير: « وأصحاب الأيكة: هم أهل مدين على الصحيح،.، والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة»[(٣)].

وقد كان نبي الله شعيب عليه السلام من أنفسهم، وإنما لم يقل هاهنا: أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجر كثير ملتف، كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فقطع نسب الأخوة بينهم، للمعنى الذي نسبوا إليه من عبادة الأيكة، وإن كان أخاهم نسبًا، وبعض المفسرين لم يفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم[(٤)].

---

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤ / ٢٦٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٨٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٢٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٠، النكت والعيون، الماوردي ٣ / ١٦٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٤ / ٢٦٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٩، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٨٥، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٢٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٧١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٤٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٩٠، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٦٨، مفاتيح الغيب، الرازي

وأما موقع الأيكة ومكانها الجغرافي هو ضمن موقع مدين، وعلى وجه التحديد يمكن الاستئناس بما ذكره علامة الجزيرة في التاريخ حمد الجاسر في كتابه: في شمال غربي الجزيرة: « أن الأيكة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي قبل تبوك التي غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر غزواته، وأهل تبوك يقولون ذلك ويعرفونه، ولم أجد هذا في كتب التفسير، بل يقولون الأيكة الغيضة الملتفة بالأشجار، والجمع أيك، والمراد بأصحاب الأيكة أهل مدين، قلت: ومدين وتبوك متجاورتان، وأقول: لا يزال يطلق اسم الأيكة على واد من روافد عفال في المنطقة المعروفة ببلاد مدين، والتي فيها مغاير شعيب عليه السلام »[1].

ثالثًا: الزمان:

لقد بين القرآن الكريم الزمن الذي كانت فيه مدين وعاش فيه النبي شعيب عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود:٨٩].

والمراد بالبعد في الآية هو: بعد الزمن والمكان والنسب، فزمن لوط عليه السلام غير بعيد من زمن شعيب عليه السلام، وكان مدين بن إبراهيم عليه السلام وهو جد قبيلة شعيب المسماة باسمه، وقد ذكر بعض المفسرين أن مدين كان متزوجًا بابنة لوط عليه السلام [2]، وقيل: إن المراد بالبعد هو أنهم غير بعيدين في الصفات والأفعال المستقبحات، من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية، بأنواع الحيل والشبهات، والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانًا، ولا مكانًا، ولا صفاتٍ[3].

١٩/ ١٥٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٧١.

(١) انظر: أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سامي الملغوث ص١٤١.

(٢) ذكر جمهور المؤرخين والمفسرين أن شعيبًا يتصل نسبه بمدين بن إبراهيم الخليل، ولا يعني ذلك أن لإبراهيم ولدان فقط وهو إسماعيل وإسحاق فقط، إذ لا يوجد دليل شرعي يحصر أبناء إبراهيم في اثنين.
انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي ١/ ٣٢٤، البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٤٢٨، جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٤٥، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١ فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٩، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٦٢، التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ٢٨٨.

ويعتقد بعض المفسرين أن شعيبًا عليه السلام قد عاش بعد إبراهيم الخليل، وبعد يوسف عليهما السلام[1]، قال ابن كثير: «كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد»[2].

رابعًا: تاريخ مدين:

يعتقد بعض علماء الآثار المعاصرين أن آثار بلدة قرية البدع التي تقع في شمال تبوك ترجع إلى قوم مدين، وأن مدين كانت معاصرة لعهد موسى عليه السلام، ويرون في هذا دليلًا على قدم وجودها وإمكان نسبتها إلى ما قبل القرن الثالث عشر ق. م على أقل تقدير عندهم.

ويعتقدون أن النبي شعيبًا عليه السلام الذي ذكر في القرآن الكريم رسولٌ لأهل مدين، بأنه يحتمل

توقيت عهده بأوائل فترات ازدهار تاريخها القديم[3].

ويرجح بعض الباحثين المعاصرين من علماء الآثار والتاريخ: أن عصر شعيب عليه السلام إنما كان قبل عصر موسى، معتمدين في ذلك على أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيبًا في القرآن الكريم - كما في سورة الأعراف وهود والحج والشعراء والعنكبوت- بعد نوح وهود وصالح ولوط، وقبل موسى[4].

ومن خلال تقديرهم لعصر الخليل عليه السلام، والذي كان بين: (١٩٤٠- ١٧٦٥ق. م)، وأن لوطا عليه السلام وقومه إنما كانوا معاصرين لأبي الأنبياء عليه السلام، قال بعض الباحثين المعاصرين: «إن شعيبًا وقومه إنما كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وخاصة أن المصادر التاريخية تذكر أن مدين هو من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام، فقدر

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٠٥.

(٣) انظر: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبدالعزيز بن صالح ص ١٣٥، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ١/ ٤٥٥، دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران ص ١٧١.

(٤) انظر: دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران ص ١٧٢.

هؤلاء - حدسًا عن غير يقين- أن القوم إنما كانوا يعيشون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، على صحة فرض ما ذهب إليه بعضهم من أن يثرون كاهن مدين وصهر موسى، إنما هو شعيب نبي مدين العربي، وذلك لأنهم يقدرون رحلة خروج موسى من مصر متوجهًا إلى مدين، إنما كانت في هذا القرن الثالث عشر ق. م»[(١)].

ويمكن القول: إن هذا التقدير ربما قد يكون صحيحا أو يقارب الصحة الى حد كبير؛ لأن بعض المفسرين يذكرون أن بين الخليل عليه السلام وموسى عليه السلام أربعمائة عام، وكذلك بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام[(٢)]، بالإضافة الى ما يذكر من أن شعيبا عليه السلام كان من المعمرين، فقد ذكرت بعض المصادر أن شعيبًا عليه السلام عمر (٢٤٠) عامًا[(٣)].

(١) انظر: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبد العزيز بن صالح ص ١٣٥، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ١/ ٤٥٥، دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران ص ١٧١.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٣٨، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٢٩، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٩١، التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٣٧.

(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٥.

ذكر مدين في القرآن الكريم

ورد ذكر مدين في القرآن الكريم (١٠) مرة في (٧) سورة، وقد ذكروا بلفظ (أصحاب الأيكة) (٤) مرات.

وأما قصتهم فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٨٥-٩٣
هود	٨٤-٩٥
العنكبوت	٣٦-٣٧
الفتح	٢٩

رسول الله إلى مدين ورسالته

أولًا: رسول الله إلى مدين:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن الرسول الذي أرسله إلى مدين هو شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف:٨٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود:٨٤].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت:٣٦].

و كذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧].[1]

واختلف المفسرون في نسب نبي الله شعيب عليه السلام على أقوال:

الأول: أنه شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه عليه السلام، وإن أمه بنت نبي الله لوط، وقال ابن إسحاق هو: شعيب بن ميكائيل بن يزجر بن مدين بن إبراهيم وأم ميكائيل بنت لوط.

الثاني: ما قاله عطاء بأنه: شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

الثالث: شعيب بن يثرون بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام[2].

قال الإمام ابن عاشور معلقًا على الاختلاف في نسب النبي شعيب: «وشعيب عليه السلام هو رسول الله لأهل مدين، وهو من أنفسهم، اسمه في العربية شعيب عليه السلام واسمه في التوراة: (يثرون)، ويسمى أيضا (رعوئيل)، وهو ابن (نويلى أو نويب) بن (رعويل) بن (عيفا) بن (مدين)، ثم قال: وقد خبط في نسب مدين، ونسب شعيب عليه السلام جمع عظيم من المفسرين والمؤرخين، فما وجدت مما يخالف هذا فانبذه»[3].

ويلاحظ من أقول المفسرين أنهم متفقون على أن شعيبًا عليه السلام من ذرية

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٢٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٧، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٦٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠١، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٥٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٢٤١.

إبراهيم الخليل عليه السلام [1].

وقد ذكر جمهور المفسرين أن شعيبًا عليه السلام من الأنبياء الأربعة العرب اعتمادًا منهم على حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له عند ذكر الأنبياء والرسل:(وأربعة من العرب، هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر)[2].

وكان النبي شعيب مشهورًا بالفصاحة وعلو العبارة، وببلاغته في دعوة قومه إلى الإيمان والإسلام، فقد روى ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيبًا قال: (ذاك خطيب الأنبياء)[3]، يعني: لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته[4].

[انظر شعيب: نبذة عن شعيب عليه السلام ومكانته]

ثانيًا: رسالة النبي شعيب عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف:٨٥-٨٦].

(١) ويلاحظ هذا الاتفاق من خلال ذكر نسب مدين في كتبهم.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/٥٦٧، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/١٨٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٢٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٤١٨، الدر المنثور، السيوطي ٢/٧٤٨، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٦٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم ٣٦١، ٢/٧٦.
قال ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤١٨: وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه الأنواع والتقاسيم، وقد وسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث والله أعلم.
وقال السيوطي في الدر المنثور ٢/٧٤٦: أخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن الجوزي في الموضوعات، وهما في طرفي نقيض، والصواب أنه ضعيف لا صحيح ولا موضوع.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٤٠٧١، ٢/ ٦٢٠، والطبري في تفسيره ١٢/ ٥٦٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/٥٦٧، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/١٨٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٢٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٤١٨، الدر المنثور، السيوطي ٢/٧٤٨، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٦٦.

وقال سبحانه: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٤-٨٦].

وقال عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت:٣٦].

فهذه الآيات السابقة تبين المحاور الرئيسة لدعوة النبي شعيب عليه السلام وهي: الأمر بتوحيد الله في العبادة، والنهي عن أشد الرذائل فُشُوًّا فيهم، والأمر بالفضيلة التي تقابلها[1]، وهذه المحاور هي:

١. الأمر بعبادة الله وتوحيده وتقواه.

إن الأنبياء عليهم السلام يشرعون في أول الأمر بالدعوة إلى التوحيد، ويأمرون بعبادة الله وحده، وينهون عن عبادة غير الله، وهذا أصل معتبر في شرائع جميع الأنبياء، وعليه مدار دعوة الرسل عليهم السلام كلهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

كما قال تعالى بخصوص أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب:؛ ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٩].

لأن معرفة الله تعالى وتوحيده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتجاهد من حاربها وقام بضدها.

وهذا هو منهج جميع الأنبياء عليهم السلام: فقد قال الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون:٢٣].

وقال الله تعالى عن هود عليه السلام: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف:٦٥].

وقال الله تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۖ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١][2].

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ١١٦.

(٢) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٥، غريب

وكان أهل مدين على دين إبراهيم عليه السلام الذي هو الإسلام، هو دين جميع الأنبياء، ولكنه لم يطل بهم العهد حتى غيروا دينهم الحق، وكفروا بالله، وعبدوا غير الله، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، فغرتهم الحياة الدنيا ومتاعها الفاني، فقد كانوا أصحاب تجارة وسلع.

وكانوا على الطريق التجارية الكبيرة بين اليمن والشام، وبين العراق ومصر على ساحل البحر الأحمر، ولكن حب المال سيطر على قلوبهم وأعماهم عن اتباع الحق، فقد كانوا يعبدون الأيكة، وزيادة على كفرهم وضلالهم فقد كانوا ينقصون المكيال والميزان ويطففون فيهما، أي: يأخذون مع الزيادة، ويدفعون مع النقصان، ويأكلون المال الحرام.

ولم يكتفوا بهذه المعاملة السيئة، بل كانوا يقطعون الطريق على المارة، ويتعرضون للقوافل، فيتوعدونها ويخيفونها ويعيثون في الأرض فسادًا[1].

٢. الأمر بالفضائل والنهي عن أشد الرذائل فُشُوًّا فيهم.

١. دعوته إلى الفضيلة.

وذلك من خلال دعوته إلى الخير والمعروف، فقد أخذ نبي الله شعيب عليه السلام يبسط لقومه في الكلام وهو يدعوهم للمعروف وينهاهم عن المنكر والفساد، فأراد أن يخرجهم من التعلق بالدنيا وزخارفها ويبين لهم أن أخذ المال وجمعه بالحلال خير لهم من أخذه بالظلم والخيانة وبطرق الحرام، فقال لهم برفق وحكمة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٨٥-٨٦].

وقال: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٦].

و﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم إن كنتم مؤمنين من أخذ أموال الناس بالتطفيف والظلم والخيانة، ويقال ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: مراقبة

القرآن، ابن قتيبة ص ٢٠٨، جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥١، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩١٧.

الله خير لكم[1].

وقال الراغب هو: «ما يبقى ثوابه للإنسان من الأعمال، والصحيح أنها كل عبادة يقصد بها وجه الله تعالى»[2].

والقليل من الحلال الطيب خير من الكثير من الحرام الخبيث، وذلك لأن الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام ممحوقٌ لا بركة فيه وإن كثر، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦].

وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الربا وإن كثر، فإن عاقبته تصير إلى قُلٍّ)[3].

٢. النهي عن أشد الرذائل فُشُوًّا فيهم.

كانت هناك بعض المنكرات التي يمارسها قوم النبي شعيب عليه السلام والتي نهاهم عنها وهي:

الأول: النهي عن التلاعب بالمكاييل والموازيين في الأخذ والعطاء.

من خلال الآيات يلاحظ أن النبي شعيبًا عليه السلام أمر قومه بالوفاء بالمكاييل والموازيين أولًا، وذلك يكون بالاستقامة في الأخذ والإعطاء، ثم نهاهم عن نقصان المكاييل والموازيين زيادة في التأكيد على ذلك، وكانت هذه المعصية قد فشت فيهم في ذلك الزمن وفحشت مع كفرهم الذي نالتهم الرجفة بسببه.

الثاني: النهي عن بخس الناس أشياءهم.

والبخس في المعاملة هو: النقص والظلم والتقليل، ومعناه لا تظلموا الناس حقوقهم التي يجب عليكم أن توفوهم إياها، و﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: أموالهم وأمتعتهم مما يكال أو يوزن، وحقوقهم[4].

والنهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، عام يتناول كل حق يدخله البخس والنقص سواء أكان ذلك من الأشياء المادية أو المعنوية[5].

وقد فشا كلٌّ من هذا النوع في هذا العصر، مما أدى الى انهيار الاقتصاد، فكثير من التجار باخسون، مطففون فيما يبيعون وما يشترون، وكثير من المشتغلين بالعلوم والآداب والسياسة بخاسون لحقوق بنى جلدتهم، مُدَّعونَ للتفوق عليهم، منكرون

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧.

(٢) انظر: المفردات ص ١٣٩

(٣) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٧٥٤، ٦/ ٢٩٧، عن ابن مسعود، والحاكم المستدرك على الصحيحين رقم ٢٢٦٢، ٢/ ٤٣.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٨٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٤٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٧.

لما خص الله به سواهم من المزايا والخصائص حسدًا عليهم وبغيًا، فيدخلون في عموم حكم الآية وهو تحريم بخس الناس أشياءهم بمختلف أنواعها[1].

الثالث: النهي عن الفساد في الأرض والعتو فيها.

ذكر الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام أنه نهى قومه عن الفساد في الأرض بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٥-٨٦].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ لفظ عام يتناول جميع أنواع الفساد دقيقه وجليله، وهو نهي شامل لكل ما يمس نظام المجتمع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وإفساد الأخلاق والآداب: بارتكاب الإثم والفواحش، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام[2].

وكذلك الإصلاح لفظ عام: والمفسرون نَصُّوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد، وإلى النبوءات والشرائع بالإصلاح[3].

والمعنى: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه، من عبادة غير الله، والإشراك به، وبخس الناس في الكيل والوزن (بعد إصلاحها)، يقول: بعد أن أصلح الله الأرض بالأمر بالعدل وإرسال الرسل وابتعاث النبي شعيب فيكم، ينهاكم عما لا يحل لكم، وما يكرهه الله لكم[4].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فيه إشارة إلى كل ما تقدم من أمر ونهي، أي: هو خير لكم في دينكم ودنياكم، لا تكليف إعنات، فربكم لا يأمركم إلا بما هو نافع لكم، ولا ينهاكم إلا عما هو ضار بكم، وهو على كل حال غني عنكم، ولو شاء لأعنتكم، ولكنه رحيم لا يفعل ذلك، ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقًا أو في الإنسانية وحسن الأحدوثة وجمع المال، وإنما تتحقق لكم خيرية ما ذكر إن كنتم مؤمنين بوحدانيته وصفاته تعالى، وبرسوله وما جاءكم به عنه سبحانه من الدين والشرع، وسيأتي تعليل ذلك بعد بيان

(١) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢١٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ٨/ ٢٠٧.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٤ التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، تفسير السمعاني ٢/ ١٨٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦.

ما قيل في هذا الإيمان[1].

الرابع: النهي عن قطع الطريق.

قال عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٨٦].

نهى النبي شعيب عليه السلام قومه عن قطع الطريق الحِسِّيِّ والمعنوي؛ لأنهم كانوا يتوعدون الناس بالقتل، إن لم يعطوهم أموالهم؛ لأنهم كانوا عشارين، وذلك من قبيل بخسهم ونقصهم الكيل والوزن، وهذا نهي للعشارين ونحوهم من أخذ أموال الناس بالباطل، والسلب وقطع الطريق.

كما أنه نهاهم عن القعود على الطرقات التي توصل إليه، مخوفين من يجيئه، ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته، وصدهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والاستقامة على الطريق الموصلة إلى سعادة الدارين، وابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها، وهم بعلمهم هذا ارتكبوا ضلالتين: التقليد والعصبية للآباء والأجداد، وضلالة الغلو في الحرية الشخصية التي أباحت لهم الطعن في الأديان حتى بلغوا في ذلك حد الطغيان[2].

٣. دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي.

قام النبي شعيب بدعوة قومه إلى عبادة الله وتوحيده الذي هو الأساس للإصلاح الاجتماعي والاقتصادي؛ ذلك أن إصلاح الحياة الاجتماعية والاقتصادية يكون بإقامة القسط والعدل في الموازين والمكاييل، والحفاظ على الحقوق، والقيام بحق الأمانة في التعامل، وترك الإفساد في الأرض، واستئصال سبب المنازعات والخلافات بين الناس، وإشاعة المحبة والمودة بينهم[3].

بينه النبي شعيب عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ذهب جمهور المفسرين إلى أن الله تعالى قد أقام الحجج والبينات على صدق ما جاءهم به شعيب، مما يتبين به الحق من الباطل، ومن المفسرين من فسر البينة بالحجة والبرهان والمعجزة المحسوسة

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣ البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٥ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٧٠.

(٢) تفسير المراغي ٨/ ٢١٢.
وانظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٦٩٠.

ذهابًا إلى أن النبي لما كان يدعو إلى شرع يوجب قبوله، فلا بد من دليل يعلم صدقه به، وما ذاك إلا المعجزة- قال: إن معجزة شعيب لم تذكر في القرآن، وليست كل آيات الأنبياء مذكورة في القرآن، يعني: دعوته وإرشاده.

لأنه لا بد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه، وكان متنبئًا لا نبيًا، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن الكريم، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيه[(١)].

يؤيد هذا ما روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[(٢)].

أي: إن كل نبي مرسل أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعوته ما شأنه أن يؤمن البشر على مثله[(٣)].

وقال بعض المفسرين: عني بالبينة مجيء شعيب، وأنه لم تكن له آية إلا النبوة، ولا يخفى أن البينة أعم من المعجزة بعرفهم، فكل من أبطلت شبهة ضلاله، وأظهرت له حجة الحق الذي يدعى إليه فقد جاءته البينة؛ لأن حقيقة البينة كل ما يبين الحق، فتشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية، والأمم القديمة لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات[(٤)].

قال سيد قطب: « ولا يذكر السياق نوع هذه البينة-كما ذكرها في قصة صالح-ولا نعرف لها تحديدًا من مواضع القصة في السور الأخرى، ولكن النص يشير إلى أنه كانت هناك بينة جاءهم بها، تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله، ويرتب على هذه البينة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان، والنهي عن الإفساد في الأرض، والكف عن قطع الطريق على الناس»[(٥)].

[شعيب: معالم نصح شعيب عليه السلام لقومه]

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٤٦ التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٩٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم ٤٩٨١، ٦/ ١٨٢.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧.

(٤) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٩.

(٥) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٣١٧.

موقف مدين من رسولهم عليه السلام

أولًا: جواب مدين وكيف واجهوا دعوته:

تبين الآيات الآتية جواب قوم شعيب شعيبًا عليه السلام، وكيف واجهوا دعوته.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾، إلى قوله: ﴿۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف:٨٥-٩٠].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود:٨٤-٩٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٨٨].

ومن خلال هذه الآيات يتبين أن رد أهل مدين على شعيب عليه السلام عما أمرهم به كان متنوعًا بين رد خطاب بخطاب والرد بالاستهزاء والإهانة والتكذيب، والرد بالتهديد بالطرد والتهجير، والرد بالتهديد

بالقتل على النحو الآتي:

١. رد خطاب بخطاب.

يبين القرآن الكريم أن قوم شعيب ردُّوا خطاب النبوة والرحمة والهداية بخطاب فيه السخرية والاستهزاء والتكذيب بما لا يليق بنبي مرسل لقومه على النحو الآتي:

أما ردهم على أمرهم بعبادة الله وحده، فقالوا: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾، أي: هل صلاتك التي تكثر منها تأمرك بترك عبادة آبائنا وأجدادنا، وهي عبادة الأوثان والأصنام، وهذا منهم على سبيل الاستهزاء والسخرية، فهم مصرون على تقليد أسلافهم في الوثنية.

وأما الرد على ترك البخس (النقصان) في الكيل والميزان فقالوا: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾، أي: وهل صلاتك تأمرك أن نترك فعل ما نريد فعله؟، ومقصودهم أن مطلبه بالعدل وأداء الزكاة منافٍ لسياسة تنمية المال وتكثيره، وهو حَجْرٌ وتقييد لحريتهم الاقتصادية.

واختلف في معنى «الصلاة» هنا، فقالت فرقة: أرادوا الصلوات المعروفة، وروي أنَّ شعيبًا عليه السلام كان أكثر الأنبياء صلاة، وقال الحسن: لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة، وقيل: أرادوا قراءتك، وقيل أرادوا: أمساجدك؟ وقيل: أرادوا: أدعواتك، وقيل: دينك الذي تدين به وأمرت باتباعه؛ لأن أصل الصلاة الاتباع، ومنه أخذ المَصْلِي في الخيل.

قال القاضي أبو محمد: وأقرب هذه الأقوال الأول والرابع، وجعلوا الأمر من فعل الصلوات على جهة التجوز، وذلك أن كل من حصل في رتبة من خير أو شر ففي الأكثر تدعوه رتبته إلى التزيد من ذلك النوع، فمعنى هذا: ألما كنت مصليا تجاوزت إلى ذم شرعنا وحالنا؟ فكأن حاله من الصلاة جَسَّرَتْهُ على ذلك فقيل: أمرته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥][(١)].

﴿تَأۡمُرُكَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: تدعوك إلى أمرنا، الثاني فيها: أن تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا يعني من الأوثان والأصنام.

﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾، فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: ما كانوا عليه من البخس والتطفيف.

الثاني: الزكاة، كان يأمرهم بها فيمتنعون منها، قاله زيد بن أسلم وسفيان الثوري.

الثالث: قطع الدراهم والدنانير؛ لأنه كان ينهاهم عنه، قاله زيد بن أسلم[(٢)].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

قال سيد قطب: « ولقد كانت الجاهليات- كما هي اليوم- تفصل بين العقيدة والعبادات، وبين الشرائع والمعاملات من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ ومن ثم يربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة، للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشريعة، وبين العبادة والمعاملة، في أنها كُلَّها من مقومات هذا الدين، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل»[1].

أجابهم شعيب بما يحسم أطماعهم بقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٨٨-٩٠].

أخبروني يا قوم إن كنت على بصيرة من ربي فيما أدعو إليه، ورزقني منه رزقا حسنا، وهو النبوة والحكمة، ولا أنهاكم عن الشيء وأقع في المنهي عنه، ولا أريد إلا إصلاحكم بمقدار استطاعتي، وليس توفيقي في إصابة الحق فيما أريده إلا بالله وهدايته وعونه، وعليه توكلت في جميع أموري، ومنها تبليغ رسالتي، وإليه أنيب وأرجع. وهذا دليل على ثبات شعيب على المبدأ وإخلاص الدعوة، دون أن يخشى من قومه سوءًا.

٢. الرد بالاستهزاء والتكذيب.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم قالوا ذلك استهزاء به، قاله قتادة.

الثاني: معناه أنك لست بحليم ولا رشيد على وجه النفي، قاله ابن عباس.

الثالث: أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد على وجه الحقيقة وقالوا أنت حليم رشيد فلم تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ والحلم والرشد لا يقتضي منع المالك من فعل ما يشاء في ماله[2].

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٨٤٢.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣ معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧،

﴿قَالُوا يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١]، أي: ما نفهم ما تقول، ومنه سمي علم الدين فقهًا؛ لأنه مفهوم، وفيه وجهان:

أحدهما: ما نفقه صحة ما تقول من البعث والجزاء، الثاني: أنهم قالوا ذلك إعراضًا عن سماعه واحتقارًا لكلامه[1].

ولم ينفعهم هذا الأسلوب أيضا، فلجئوا إلى الإهانة والتهديد، قائلين: يا شعيب، ما نفهم كثيرًا من قولك، مع أنه خطيب الأنبياء، وأنت واحد ضعيف، ولولا رهطك أو عشيرتك وقرابتك لرجمناك بالحجارة، وليس لك معزة ولا تكريم.

ويشبه هذا الذي ردوا به على نبيهم ما قال كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت:٥].

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ [هود:٩١].

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗا﴾ فيه سبعة تأويلات:

أحدها: ضعيف البصر، قاله سفيان.

الثاني: ضعيف البدن، حكاه ابن عيسى.

الثالث: أعمى، قاله سعيد بن جبير وقتادة.

الرابع: قليل المعرفة وحيدًا، قاله السدي.

الخامس: ذليلًا مهينًا، قاله الحسن.

السادس: قليل العقل.

السابع: قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها.

ويلاحظ من خلال تعبيرهم بالضعف أنه يحتمل هذه المعاني كلها في نظرهم.

﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: عشيرتك، وهو قول الجمهور.

الثاني: لولا شيعتك، حكاه النقاش.

﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لقتلناك بالرجم.

الثاني: لشتمناك بالكلام.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: بكريم.

الثاني: بممتنع لولا رهطك[2].

وتلك سنة متبعة درجت عليها الأمم مع أنبيائها عليهم السلام، فقد استهزأ قوم نوح به عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾ [هود:٣٨].

واستهزأت عاد بهود: عليه السلام ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾ [الشعراء:١٨٧].

واستهزأت ثمود بصالح، عليه السلام.

فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٩.

(٢) انظر: النكت والعيون الماوردي ٢/ ٤٩٩، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف:٦٦].

واستهزؤوا بشعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

واستهزأ فرعون بموسى عليه السلام.

قال سبحانه: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢][1].

أما التكذيب فهو ما جاءت به الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت:٣٦-٣٧][2].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩ المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣ معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨.

٣. الرد بالتهديد بالطرد والتهجير.

فقد هدد الملأ وهم كبار القوم من قومه شعيبًا عليه السلام بالطرد والتهجير من بلده: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

وهذا النوع من التهديد يفعل مع جميع الأنبياء، ومن بعدهم الدعاة المخلصون، كما قال تعالى عن نبي الله لوط عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف:٨٢].

وقال تعالى عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠][3].

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦،

٤. الرد بالتهديد بالقتل.

هدد قوم شعيب النبي شعيبًا بالقتل بالرجم، والرجم من شر القتلات، قال الله تبارك وتعالى إخبارًا عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود:٩١].

فلم يكتفوا باستكبارهم عن اتباع الحق الذي جاء به نبيهم، بل واجهوه بأنهم لولا عشيرته وقبيلته لرجموه بالحجارة حتى القتل وتخلصوا منه.

فقال لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود:٩٢].

أي: أتخافون من قبيلتي وعشيرتي وتراعونني بسببهم وخوفًا منهم ولا تخافون عذاب الله، وجعلتم أمر الله وراء ظهوركم لجهلكم وتكبركم، والله سبحانه عليم بما تعملونه لا يخفى عليه شيء، محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم القيامة[1]..

والرهط: الجماعة من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: يقال إلى الأربعين، قال: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ﴾ [النمل:٤٨] والمراد لولا عشيرتك وقالوا لولا رهطك على سبيل التقليل والاحتقار[2].

ثانيًا: إنذار شعيب قومه بالعذاب ووقوعه بالفعل:

لم تجد وسائل الإصلاح اللينة والكلمة الطيبة بقوم شعيب، فتحول أسلوبه من لين القول إلى الإنذار بالعذاب، وطلب المغفرة من الله والتوبة إليه، فازداد تعنتهم وإعراضهم، وأمهلهم ليصلحوا شأنهم أو يترقبوا إنزال العقاب بهم، فلم يبدلوا حالهم، فكانت النتيجة عقابهم بالصيحة التي دمرتهم، وإنجاء المؤمنين، وهذا ما سجله القرآن الكريم في الآيات الآتية:

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن

الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩ المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٨٧، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩ المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣.

﴿لَّرَيْتَنَا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود:٩٣-٩٥][1].

ولما يئس شعيب عليه السلام من إجابتهم دعوته، حسم الموقف قائلا: يا قوم، اعملوا على طريقتكم، واعملوا كل ما في وسعكم وطاقتكم من إلحاق الشر بي، فإني عامل أيضا على طريقتي بما آتاني الله من القدرة، أي: فأنتم ثابتون على الكفر والضلال، وأنا ثابت على الدعوة إلى عبادة الله والثقة بقدرته، ولسوف تعلمون من ينزل به عذاب يخزيه ويذله في الدنيا والآخرة، ومن هو كاذب في قوله مني ومنكم، وانتظروا ما أقول لكم من إيقاع العذاب، إني معكم رقيب منتظر، وهذا وعيد وتهديد لمن يفهم ويدرك المقال[2].

نعم الله على مدين وموقفهم منها

أنعم الله تعالى على قوم شعيب عليه السلام بمختلف النعم بصفة عامة، شأنهم في ذلك شأن سائر الأمم السابقة واللاحقة بهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل:١٨][3].

وذلك لأن نعم الله تعالى على عبيده لا يمكن عدها وحصرها؛ لأن كل ما أودع الله في السماء والأرض والأجسام من المنافع واللذات التي ننتفع بها، وكذلك الجوارح والأعضاء التي نستعملها، وما خلق الله تعالى في العالم هو من نعم الله تعالى[4].

أما نعم الله الخاصة على قوم شعيب عليه السلام فهي ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩ المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩ المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/ ٤٥٣ معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٥، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٧٥.

﴿فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٨٦] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال:٢٦][1].

فقد ذكرهم نبيهم شعيب عليه السلام بنعم الله عليهم الخاصة بهم حين كانوا قلة فكثروا، وفقراء فاغتنوا، وضعفاء فتقووا، ولفت نظرهم إلى ضرورة الاتعاظ بأحوال من سبقهم أو جاورهم من الأمم والشعوب الخالية، فإنهم حين كذبوا الرسل وكفروا بالله، دمرهم الله واستأصلهم وأبادهم وجعلهم عبرة لمن جاء بعدهم[2].

وقد حكى الإمام الزجاج في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ ثلاثة أوجه:

«أحدها: كثر عددكم بعد القلة، قال ابن عباس رضي الله عنه: وذلك أن مدين بن إبراهيم تزوج زينا بنت لوط وولد آل مدين منها.

والثاني: كثركم بالغنى بعد الفقر.

والثالث: كثركم بالقوة بعد الضعف.

وذكر بعض المفسرين وجهًا رابعًا: أنه كثرهم بطول الأعمار بعد قصرها من قبل»[3].

قال أبو حيان أثير الدين الأندلسي: «المراد مجموع الأقوال الأربعة، فإنه تعالى كثر عددهم وأرزاقهم، وطول أعمارهم، وأعزهم بعد أن كانوا على مقابلاتها»[4].

وصيغة الأمر في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ في الآية المذكورة تدل على وجوب ذكر النعمة على سبيل الشكر والاعتراف بنعم الله تعالى بأن كثر جماعتهم بعد أن كانوا قليلا عددهم، وأن رفعهم من الذلة والخساسة، وأغناهم بعد أن كانوا فقراء، وقواهم بعد أن كانوا ضعفاء، وما يستوجب ذلك من الإيمان بالله تعالى وطاعته، وكأنه يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك، وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا نقمته بترك المعصية[5].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٩، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٢، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٢٧، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٤٨، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣٢٢، التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ٢٩٦.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٥.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٥، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٩، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٢.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٠، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٢، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٩٢.

والتذكير بنعمة الله تعالى طريق من طرق مواعظ الرسل.

قال تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وقال عن شعيب عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦].

وقال الله لموسى عليه السلام: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥].

وقال عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال:٢٦][1].

ويكون المراد من التذكير بالنعم ما يأتي:

١. أن في جملة النعم ما يشهد بصدق النبي شعيب وبرسالته التي جاء بها.

٢. أن كثرة النعم توجب عظم المعصية، فذكرهم تلك النعم لكي يحذروا مخالفة ما دعوا إليه من الإيمان بالله ورسوله.

٣. أن التذكير بالنعم الكثيرة يوجب الحياء من الله تعالى عن إظهار المخالفة.

٤. أن التذكير بالنعم الكثيرة يفيد أن المنعم خصهم من بين سائر الناس بها، ومن خصَّ أحدًا بنعم كثيرة فالظاهر أنه لا يزيلها عنهم لما قيل: إتمام المعروف خير من ابتدائه، فكأن تذكير النعم السالفة يطمع في النعم الآتية، وذلك الطمع مانع من إظهار المخالفة والمخاصمة[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٣٢، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٢٠٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٥، تفسير السمعاني ٢/ ١٩٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٥، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨.

عاقبة قوم مدين

لما وصل النبي شعيب عليه السلام مع قومه إلى طريق مسدود، ويئس من إجابتهم، فوض أمره إلى الله تعالى، الذي يعتمد عليه الإنسان في أموره كلها؛ لأنه الكافي لمن توكل عليه قائلًا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٩].

ثم فزع عليه السلام إلى ربه بالدعاء على قومه بالهلكة وتعجيل النقمة، إذ أيس من فلاحهم، وانقطع رجاؤه من إذعانهم لله بالطاعة والإقرار له بالرسالة، وخاف على نفسه وعلى من اتبعه من مؤمني قومه من فسقهم، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩].

أي: احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم، وأنت خير الفاتحين، أي: خير الحاكمين، فإنك العدل الذي لا يجور أبدًا، فاستجاب الله دعاءه، فأهلكهم بالرجفة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:٨٩].

وقوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال:١٩].

والاستفتاح هو: الإنصاف في الدعاء، والاستنصار، وطلب الحكم بالحق[1].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء:١١٢].

وهذا الدعاء كانت تقوله الأنبياء لما أخرجه ابن جرير وابن كثير عن قتادة أنه قال: كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩].

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك، وأخرجوا كذلك عن مالك عن زيد بن أسلم: كان رسول الله عليه السلام إذا شهد قتالا قال رب احكم بالحق[2].

فأجابهم شعيب عليه السلام على سبيل التهديد والوعيد لهم بعذاب الله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٩٣-٩٤].

وفي الشعراء قال لهم: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء:١٨٨].

يعني: هو عالم بأعمالكم، فإن أراد أن يبقيكم، وإن أراد أن يهلككم أهلككم، وإن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره إلى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣١٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٥٧، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٤٠، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٦٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٢.

(٢) انظر: جامع البيان ١٨/ ٥٥٤، تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٤٠.

أجل معلوم، وما علي إلا البلاغ، وأنا مأمور به، فلم أنذركم من تلقاء نفسي، ولا أدعي القدرة على عذابكم[1].

وقد ذكر تعالى صفة عاقبة أهل مدين، وكيف كان هلاكهم في ثلاثة مواطن من كتاب الله تعالى، وذكر تعالى أنهم عذبوا بأنواع مختلفة من العذاب في كل موطن من المواطن الثلاثة بصفة تناسب ذلك السياق الذي وردت فيه، كما تناسب الموقف الصادر من قوم شعيب تجاه نبيهم عليه السلام، ويمكن تفصيل هذه الأنواع من العذاب فيما يأتي:

أولًا: العذاب بالرجفة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف:٩٠-٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت:٣٦-٣٧].

أي: رجفت بهم أرضهم وزلزلت -بمشيئة الله وقدرته- زلزالًا شديدًا، أزهقت أرواحهم فأصبحت جثثهم جاثيةً، لا أرواح فيها، ولا حركات ولا حواس، فأصبحوا في دارهم جاثمين، أي: ساقطين على ركبهم ووجوههم، وذلك لأنهم قالوا لنبيهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨].

فأرجفوا نبي الله عليه السلام ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة، فكانت جزاء على إرجافهم[2].

والرجفة في اللغة: الزلزلة الشديدة، قال الطبري: والرجفة مَيْدُ الأرض بهم وزلزلتها عليهم وتداعيها بهم، وذلكَ نحوٌ من الخسف، ومنه الإرجاف بالأخبار، و «الجثوم» في هذا الموضع تشبيه، أي: كان همودهم على الأرض كالجثوم الذي هو للطائر والحيوان[3].

وقد وصف الله تعالى عذاب قوم شعيب بما وصف به يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ [النازعات:٦-٨].

(١) انظر: تفسير السمعاني ٤/ ٦٥، الوجيز الواحدي ص ٧٨٦، تفسير المراغي ١٩/ ١٠١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٦.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣١٦.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل:١٤][1].

ثانيًا: العذاب بالصيحة:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود:٩٤-٩٥].

والصيحة: هي الصوت المدوي العالي، الذي يصم الآذان من شدته وعلوه، وهذه الصيحة ناتجة عن الرجفة والزلزلة، فلما انشقت الأرض، حدث انفجار بركاني كبير مدوٍّ، وسمعوا صوت ذلك الانفجار، فأصيبوا بالفزع والهلع[2].

وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله شعيب عليه السلام في قولهم: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم عن آخرهم[3].

ثالثًا: عذاب يوم الظلة:

قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء:١٨٥-١٩١].

وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه فأخذهم عذاب يوم الظلة[4].

قوله تعالى: ﴿كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: جانبًا من السماء، قاله الضحاك، الثاني: قطعا، قاله قتادة، الثالث: عذابا، قاله السدي[5].

والظلة: سحابة أظلتهم، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من حر ذلك اليوم، ثم أطبقت عليهم، فكان أعظم يوم في الدنيا عذابا، وذلك معنى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم

(١) انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٤٩، المفردات، الراغب ص ٣٤٤.
(٢) القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ١/ ٤٩١.
انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٣٧٧، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٩٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦.
(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١٨٦.

﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء:١٨٩-١٩٠][1].

قال ابن عطية: «ويوم الظلة هو يوم عذابهم وصورته فيما روي أن الله امتحنهم بِحَرٍّ شديد، فلما كان في ذلك اليوم غشي بعض قُطْرِهِمْ سحابٌ فجاء بعضهم إلى ظله فأحس فيه بردًا وروحًا فتداعوا إليه، حتى تكاملوا فيه فاضْطَرَمَتْ عليهم تلك السحابة نارًا فأحرقتهم من عند آخرهم، وللناس في حديث يوم الظلة تطويلات لا تثبت، والحق أنه عذاب جعله الله ظلة عليهم، وذكر الطبري عن ابن عباس أنه قال: من حدثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب، وباقي الآية بين.

ويحتمل أن فرقة من قوم شعيب أهلكت بالرجفة وفرقة بالظلة ويحتمل أن الظلة والرجفة كانتا في حين واحد، وروي أن الله تعالى بعث شعيبا إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة، وقيل هما طائفتان وقيل واحدة وكانوا مع كفرهم يبخسون الكيل والوزن فدعاهم فكذبوه فجرت بينهم هذه المقاولة المتقدمة، فلما عتوا وطالت بهم المدة فتح الله عليهم بابا من أبواب جهنم فأهلكهم الحر منه فلم ينفعهم ظل ولا ماء، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برد الريح وطيبها فتنادوا، عليكم الظلة، فلما اجتمعوا تحت الظلة، وهي تلك السحابة انطبقت عليهم فأهلكتهم»[2].

وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام، لا يكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها، أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ولهبا ووهجا عظيما، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3].

قال الحافظ ابن كثير: « ذكر تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي (الأعراف) ذكر أنهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف:٩١].

وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨].

فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود:٩٤].

ذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٩٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٩٨.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٢٢، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٩.

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وههنا قالوا: فأسقط علينا كسفا من السماء الآية، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه فأخذهم عذاب يوم الظلة[(١)].

ومن هنا يعلم أن هناك سببا مشتركا في عقاب الأمم المتقدمة وإهلاكهم، وهو الكفر بالله كفر تحد وعناد، مع الإفساد، في الأرض بالمعاصي الكبائر.

فقوم مدين: «رفضوا دعوة نبيهم شعيب عليه السلام الذي قال لهم: إن الله تعالى واحد فاعبدوه، والحشر كائن، فارجوه، والفساد بالكفر والظلم والمعصية محرم فلا تقربوه، فكذبوه فيما دعاهم إليه وأخبرهم به»[(٢)]. فعاقبهم الله كما ذكر هنا، وفي الأعراف بالرجفة، وفي هود بالصيحة، والأمر واحد، فإن الصيحة كانت سببا للرجفة، أي زلزلة الأرض، إما بسبب صيحة جبريل، وإما بسبب رجفة الأفئدة التي ارتجفت منها، ولما كانت الصيحة عظيمة أحدثت الزلزلة في الأرض، فأصبحوا جاثمين ميتين في ديارهم.

وأما ثمود قوم صالح عليه السلام فكذبوا رسولهم، وأعلنوا كفرهم، وهددوا نبيهم بالطرد والإخراج من بلدهم، وعقروا الناقة التي أرسلها الله إليهم معجزة لنبيهم صالح، وكان عقابهم كعقاب أهل مدين بالصيحة أو الزلزلة أو الطاغية، وبقيت آثار ثمود وعاد بالحجر والأحقاف شاهدة على ظلمهم، وآية بينة مؤثرة للمعتبرين المتعظين[(٣)].

أما عاد قوم هود عليه السلام فقد أهلكهم الله تعالى بظلمهم حين فقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؟ فأنكروا وجود الإله الخالق القادر، وعتوا وبغوا وتعالوا على الناس، فدمر الله ديارهم بمن فيها: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٦-٧].

وفي إسناد الأخذ إلى الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة تهويل لما أنزله الله بالكافرين المكذبين رسلهم وكيف كان عقابهم، ومبالغة في تصوير المعنى الذي لا يخفى أثره في النفوس[(٤)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٠٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٤٧، التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٤٣٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٤٧، التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٤٣٣، التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٢٤١.

(٤) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني ٢/ ٣٥٦.

اقتران مدين وثمود في القرآن

إن من حكم اقتران مدين وثمود في السياق القرآني هو: في التشابه في الجنس حيث إنهم من العرب وفي أنهم متجاورون في البلدان وفي التشابه في الهلاك، واللعنة والمصير الواحد.

قال تعالى في قصة قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود:٨٩-٩٥].

وقال تعالى في قصة قوم صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:٦٦-٦٨].[1]

وأوجه التشابه بينهم فيما يأتي:

١. التشابه في الجنس والكفر، وقطع الطريق.

إن الله تعالى قرن بين ثمود قوم صالح، ومدين قوم شعيب لأنهم كانوا من جنس واحد وهو أنهم من العرب، وكانوا جيرانهم في البلدان، ويشبهونهم في الكفر وقطع الطريق.

قال الإمام ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود:٩٥].

أي: كأن لم يعيشوا في دارهم قبل ذلك، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود، وكانوا جيرانهم قريبا منهم في الدار، وشبيها بهم في الكفر، وقطع الطريق وكانوا عربا مثلهم»[2].

٢. التشابه في الهلاك والسحق والبعد.

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١١٩٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٨. وانظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٦٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٧٦.

قال تعالى في قصة قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود:٩٤-٩٥].

وقال تعالى في قصة قوم صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:٦٦-٦٨].

وأما قوله: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فهو تشبيه: البعد الذي هو انقراض مدين بانقراض ثمود، ووجه الشبه: التماثل في سبب عقابهم بالاستئصال، وهو عذاب الصيحة، ويجوز أن يكون المقصود من التشبيه: الاستطراد بذم ثمود لأنهم كانوا أشد جرأة في مناوأة رسل الله، فلما تهيأ المقام لاختتام الكلام في قصص الأمم البائدة ناسب أن يعاد ذكر أشدها كفرا وعنادا فشبه هلاك مدين بهلاكهم لأن هذه تربية لقوم نبي في حضرته، وتلك صاعقة كانت عذاب خزى لمشركين ظالمين معاندين أنجى الله نبي كل منهما ومؤمنيهما قبلها[1].

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح، فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم[2].

والبعد أكثر ما يقال في الهلاك، نحو: ﴿بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥].

وكذلك يكون البعد بمعنى اللعنة، فيكون أبعده الله في معنى لعنه الله، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤١].

وقوله تعالى ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:٤٤].

وقوله سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ:٨].

أي: الضلال الذي يصعب الرجوع منه إلى الهدى تشبيها بمن ضل عن محجة الطريق بعدا متناهيا، فلا يكاد يرجى له العود إليها، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٦٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٧٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٩٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٩٢، تفسير المراغي ١٢/ ٧٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٩٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٨.

﴿مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩].

أي: تقاربونهم في الضلال، فلا يبعد أن يأتيكم ما أتاهم من العذاب[١]، والظاهر من السياق الكريم أن المراد الزمن وبعد المسافة، وهكذا قال قتادة: (إنما كانوا حديثي عهد قريب بعد نوح وثمود).

وقال الطبري: « ويحتمل وما دار قوم لوط منكم ببعيد، ولا مانع من إرادة ذلك كله»[٢].

٣. التشابه في المصير.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف:٩٢].

أي: أهلك الذين كذبوا شعيبا فلم يؤمنوا به، فأبادهم، فصارت قريتهم منهم خاوية خلاء كأن لم يغنوا فيها، أي: الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها، أي: لم يعيشوا ولم ينزلوا ولم يقيموا ولم ينعموا، وأصله من قولهم: غنية بالمكان إذا أقمت به والمغاني: المنازل[٣].

قال الماوردي عند تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ «فيه أربعة تأويلات:

أحدها: كأنهم لم يقيموا فيها، قاله ابن قتيبة.

والثاني: كأن لم يعيشوا فيها، قاله الأخفش.

والثالث: كأن لم ينعموا فيها، قاله قتادة.

والرابع: كأن لم يعمروا فيها، قاله ابن عباس»[٤].

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٠٩، غريب القرآن، السجستاني ص ١٢٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٣٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٦٠، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٦٣.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٤١.

موسى عليه السلام في مدين

تناول القرآن الكريم قصة موسى في مدين من خلال المحاور الآتية:

أولًا: خروج موسى عليه السلام إلى مدين وأسبابه:

ذكر القرآن الكريم قصة خروج موسى عليه السلام من مصر إلى مدين هاربا من فرعون وملائه بسبب قتل القبطي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص:١٥-٢١].

يقول تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي، إنه أصبح في المدينة خائفا من معرة ما فعل يترقب، أي: ينتظر ويتوقع ما يكون من ذلك الأمر، ثم إنهم طلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك، فخرج موسى من مدينة فرعون خائفا من قتله النفس أن يقتل به بعد ما أخبره ذلك الرجل بما تمالئ عليه فرعون ودولته في أمره، وخرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قبله بل كان في رفاهية ونعمة ورئاسة، فخرج منها خائفا يترقب أي: يتلفت، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من فرعون وملئه[(١)].

واتجه موسى عليه السلام جهة مدين تاركا مدينة فرعون؛ لأنه كما وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة؛ لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام، وهو كان من بني إسرائيل من ولد يعقوب بن إبراهيم[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٨، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٩٩، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٩٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٨، تفسير السمعاني ٤/ ١٣٠، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٢٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٦١، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٥١٧.

خرج موسى عليه السلام فارا بنفسه منفردا حافيا لا شيء معه، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر، ولما رأى حاله وعدم معرفته بالطريق وخلوه من الزاد وغيره، فأسند أمره إلى الله تعالى وقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢].

فقد كان عارفا بالله تعالى عالما بالحكمة والعلم الذي آتاه الله تعالى، وتوجه ناحية مدين، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان أيام وكان موسى لا يعرف إليها الطريق[(١)].

قال سيد قطب -واصفا حال موسى- في ظلال قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ «ونلمح شخصية موسى عليه السلام فريدا وحيدا مطاردا في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالي الحجاز. مسافات شاسعة، وأبعاد مترامية، لا زاد ولا استعداد، فقد خرج من المدينة خائفا يترقب، وخرج منزعجا بنذارة الرجل الناصح، لم يتلبث، ولم يتزود ولم يتخذ دليلا. ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه، مستسلمة له، متطلعة إلى هداه: «عسى ربي أن يهديني سواء السبيل»[(٢)].

وكانت هذه هجرة نبوية تشبه هجرة إبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت:٢٦].

وقد ألهم الله موسى عليه السلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها نبيئا يبصره بآداب النبوءة، ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجه ولا من سيجد في وجهته كما دل عليه قوله ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[(٣)].

ثانيًا: موسى عليه السلام عند ماء مدين وقصته مع الفتاتين:

بين القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام عند ماء مدين، وقصته مع الفتاتين في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٨، تفسير السمعاني ٤/ ١٣٠، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٢٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٦١.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٥.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٣٩، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٠٠.

﴿عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥﴾ [القصص:٢٣-٢٥].

وجد موسى جماعة كثيرة من الناس على ماء مدين وهم يصفون حال المجتمع الذي يعيشون فيه، يشرب الأقوياء أولًا من الماء الصافي ويسقون أنعامهم ومواشيهم، ثم يشرب الضعيف بقية الماء وهذا شأن الضعيف مع القوي دائما[1].

ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تمنعان غنمهما من ورود الماء مع الرعاة الآخرين، لئلا يؤذيا وتختلط أغنامهما مع غيرها، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما، فسألهما: ما شأنكما وما خبركما لا تردان الماء مع هؤلاء؟ قالتا: لا نسقي غنمنا، أي: لا نتمكن من سقي الغنم إلا بعد فراغ هؤلاء القوم من السقي، وأبونا شيخ كبير هرم لا يستطيع الرعي والسقي بنفسه، مما ألجأنا إلى الحال التي ترى، وفي هذا اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتهما.

فسقى لهما غنمهما لأجلهما من بئر مغطى بصخرة، لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، ثم انزوى إلى ظل شجرة للراحة، فناجى ربه قائلا: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إني لمحتاج إلى الخير القليل أو الكثير وهو الطعام، لدفع غائلة الجوع، وفي الآية دلالة على أنه: سقى لهما في حر من الشمس، وعلى كمال قوة موسى عليه السلام، وعلى أنه رغم نعومة عيشه في بلاط فرعون كان مخشوشنًا جلدًا صابرًا.

ويؤيد هذا ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة بسنده عن عمر بن الخطاب: رضي الله عنه «أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم»[2].

ثم فرج الله عن موسى عليه السلام بعد الشدة التي عاناها والرحلة الطويلة التي قطعها: فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا أي: لما رجعت المرأتان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٥٤٨، معالم التنزيل، البغوي ٦/١٩٩، الكشاف، الزمخشري ٣/٣٩٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/٢٨١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/٢٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٢٠٣.

(٢) انظر: صنف ابن أبي شيبة، رقم ٣١٨٤٢، ٦/٣٣٤.
قال ابن كثير في تفسيره ٦/٢٠٤: إسناد صحيح.

سريعا بالغنم إلى أبيهما استغرب وسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، فجاءت إحداهما تمشي مشي الحرائر، مستحية، متخمرة بخمارها، ساترة وجهها بثوبها، ليست جريئة على الرجال، فقالت في أدب وحياء: إن أبي يطلبك ليكافئك على إحسانك لنا، ويعطيك أجر سقيك لغنمنا[1].

ولما وصل موسى عليه السلام إلى الشيخ الكبير، وأخبره عن قصته مع فرعون وقومه في كفرهم وطغيانهم، وظلمهم بني إسرائيل، وتآمرهم على قتله وسبب خروجه من بلده مصر، أمنه ودفع عنه الخوف، وقال له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تخف واطمئن وطب نفسا، فإنك نجوت من سطوة الظالمين، وخرجت من مملكتهم، ولا سلطان لهم في بلادنا، فاطمأن موسى وهدأت نفسه من القلق والخوف، وبدأ موسى عليه السلام حياة جديدة في مجتمع جديد[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٨، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٩٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٣.

ثالثًا: مكث موسى عليه السلام في مدين سنين وأسبابه:

بين القرآن الكريم المدة التي مكث فيها موسى أنها ثمان أو عشر سنين وسبب ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص:٢٦-٢٨].

ولكن بينت السنة المدة التي مكث فيها موسى في مدين في ما رواه سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت، فسألت ابن عباس، فقال: «قضى أكثرهما، وأطيبهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال فعل»[3].

وقال وهب بن منبه: لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم ٢٦٨٤، ٣/ ١٨١.

والآية تدل على أنه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ما ينفي الزيادة على العشر، واعلم أن قوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بعد قوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ كالدلالة على أن لبثه في مدين من الفتون، وكذلك كان، فإنه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محنا كثيرة، واحتاج إلى أن آجر نفسه[1].

أما سبب مكث موسى عليه السلام في مدين فهناك سبب رئيسي هو: هروبه من مصر بسبب قتله للقبطي، بالإضافة إلى أنه عمل أجيرا مع شعيب عليه السلام وارتبط بعقد عمل مع أبي الفتاتين عندما طلبت إحدى الفتاتين ذلك: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص:٢٦]؛ لأنه القوي على حفظ الماشية والقيام بشؤونها، المؤتمن الذي لا تخاف خيانته، ومصدر هاتين الصفتين ما شاهدت من حاله، قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف علي الطريق، فاقذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه.

مصاهرة موسى لشعيب: قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: إن شعيب اقتنع بأن موسى رجل قوي أمين، فقال له: أريد مصاهرتك وتزويجك إحدى هاتين البنتين، فاختر ما تشاء، وهما صفوريا وليا، والمهر: أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين، فهو إليك، وإلا ففي الثماني كفاية.

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟ على أقوال:

أحدها: أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين.

وقد ذهب إلى ذلك الجمهورمن المفسرين - وهو المشهور عند كثير من العلماء- على أن الداعي أباهما هو شعيب عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهما ابنتاه، وليس في ذلك شيء يأباه الدين، كما قال الإمام الرازي[2].

وقال القرطبي: «وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام وهو ظاهر

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٦٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٥٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٠٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٦، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٩٨، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٥٠٦.

القرآن»[1].

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن مالك بن أنس أنه بلغه أن: شعيبًا هو الذي قص عليه موسى القصص، قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين[2].

وروى الطبراني عن سلمة بن سعد العنزي رضي الله عنه أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: (مرحبًا بقوم شعيب وأختان موسى)[3][4].

ورجح ابن عاشور بأنه شعيب النبي عليه السلام بقوله: « واسم المرأتين (ليا) و(صفورة)، وفي سفر الخروج: أن أباهما كاهن مدين، وسماه في ذلك السفر أول مرة رعويل ثم أعاد الكلام عليه فسماه يثرون ووصفه بحمي موسى، فالمسمى واحد.

وقال ابن العبري في «تاريخه»: يثرون بن رعويل له سبع بنات خرج للسقي منهما اثنتان، فيكون شعيب هو المسمى عند اليهود يثرون، والتعبير عن النبي بالكاهن اصطلاح؛ لأن الكاهن يخبر عن الغيب، ولأنه يطلق على القائم بأمور الدين عند اليهود، وللجزم بأنه شعيب الرسول عليه السلام جعل علماؤنا ما صدر منه في هذه القصة شرعا سابقا، ففرعوا عليه مسائل مبنية على أصل: أن شرع من قبلنا من الرسل الإلهيين شرع لنا ما لم يرد ناسخ»[5].

القول الثاني: إنه كان ابن أخي شعيب، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وعن ابن عباس هو يثري صاحب مدين، رواه ابن جرير وذكر أن رجاله ثقات إلا شيخه سفيان بن وكيع، وعن الحسن: هو سيد أهل مدين، وعن ابن إسحاق: أنه حبر أهل مدين وكاهنهم، وعن أبي عبيدة: أنه يترون ابن أخي شعيب[6].

القول الثالث: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وهذا ما رجحه الإمام ابن كثير بقوله: وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد، وما قيل إن شعيبا عاش مدة طويلة، إنما هو- والله

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٧٠.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٦.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم ٦٣٦٤، ٧/ ٥٥.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ٦٢٢٩، ١٣/ ٤٩٧.
(٤) وانظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٤٠٧، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٩٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٠١.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٠١، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٣٣١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٨٦.

أعلم- احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، كما سنذكره قريبا إن شاء الله، ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه ثيرون، والله أعلم»[1].

وممن رجح أن أبا المرأتين صاحب مدين المذكور في سورة القصص ليس شعيبًا الشيخ عبد الرحمن السعدي حيث قال: «وهذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل وغاية ما يكون أن شعيبا عليه السلام قد كانت بلده مدين وهذا قضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين، وأيضا فإنه غير معلوم أن موسى عليه السلام أدرك زمان شعيب عليه السلام فكيف بشخصه ولو كان ذلك الرجل شعيبًا لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضًا فإن شعيبًا عليه السلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم بمنعهما عن الماء وصد ماشيتهما حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده، ويكون خادما له وهو أفضل منه وأعلى درجة، إلا أن يقال هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة، وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم»[2].

وكذلك سيد قطب في الظلال حيث قال: «كنت أعتقد أن هذا الرجل هو شعيب. وقلت مرة: إنه قد يكون النبي شعيبا أو لا يكون وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو وإنما هو شيخ آخر من مدين. والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه، المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب - النبي- بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل! يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئا عن تعليمه لموسى صهره، ولو كان شعيبا النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات»[3].

القول الرابع: التوقف عن الجزم بأنه شعيب أو غيره.

وهذا ما ذهب إليه ابن جرير الطبري

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٥.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٨٧.

حين ذكر الاختلاف المذكور في الرجل الذي قص عليه موسى القصص، بعد أن ذكر الخلاف في أسماء بنات شعيب عليه السلام بقوله: « وكان اسم إحداهما صفورا، واسم الأخرى ليا، وقيل: شرفا كذلك، قال: اسم الجاريتين ليا، وصفورا، وامرأة موسى صفورا ابنة يثرون كاهن مدين، والكاهن: حبر عن ابن إسحاق، قال: إحداهما صفورا ابنة يثرون وأختها شرفا، ويقال: ليا، وهما اللتان كانتا تذودان.

وأما أبوهما ففي اسمه اختلاف، فقال بعضهم: كان اسمه يثرون، وعن أبي عبيدة، قال: الذي استأجر موسى يثرون ابن أخي شعيب عليه السلام، وقال آخرون: بل اسمه: يثرى، قال ذلك ابن عباس قال: الذي استأجر موسى: يثرى صاحب مدين، وقال آخرون: بل اسمه شعيب، وقالوا: هو شعيب النبي صلى الله عليه وسلم.

قال أبو جعفر: وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب [(١)].

ويستدل بعض الفقهاء والمفسرين بهذه القصة على جواز مباشرة المرأة الأعمال والسعي في طرق المعيشة، ووجوب استحيائها، وولاية الأب في النكاح، وجعل العمل البدني مهرا، وجمع النكاح والإجارة في عقد واحد، ومشروعية الإجارة [(٢)].

قال ابن عاشور: «وفي أدلة الشريعة الإسلامية غنية عن الاستنباط مما في هذه الآية إلا أن بعض هذه الأحكام لا يوجد دليله في القرآن ففي هذه الآية دليل لها من الكتاب عند القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا.

وفي إذنه لابنتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها، وظهورها في مجامع الناس، إذا كانت تستر ما يجب ستره، فإن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرعنا ما ينسخه، وأما تحاشي الناس من نحو ذلك فهو من المروءة والناس مختلفون فيما تقتضيه المروءة والعادات متباينة فيه وأحوال الأمم فيه مختلفة وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف» [(٣)].

رابعًا: قصة موسى عليه السلام في مدين من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

إن الآيات التي تبين أن قصة موسى عليه السلام في مدين من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى: ﴿وَمَا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٨٦، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٣٣١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٠١.

كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ [القصص:٤٤-٤٦].

والثاوي هو: المقيم أي: ماكنت مقيما في أهل مدين [(١)].

وهذه الآيات تبين الأحوال الثلاثة العظيمة التي اتفقت لموسى عليه السلام:

وأولها: إنزال التوراة عليه حتى تكامل دينه واستقر شرعه.

والثاني: مكثه وإقامته في مدين.

ثالثها: ليلة المناجاة.

ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الأحوال حاضرًا لهذه الأحوال، وبين الله تعالى أنه بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم وعرفه هذه الأحوال فكان الإخبار بها وبتفاصيلها من الدلائل الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزة من معجزاته الشاهدة بصدق رسالته من غير أن يكون حاضرًا أو مشاهدًا أو مقيمًا في مدين مع موسى صلى الله عليه وسلم [(٢)].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «يقول تعالى منبها على برهان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئا من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك، وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، يعني: ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي، وما كنت من الشاهدين لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، وأرسلك إلى الناس رسولا؛ ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين» [(٣)].

فالإخبار عن الغيب من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومن معجزاته الباهرة الدالة على صدق نبوته، لأنه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب، ولم يتتلمذ لأحد، ولم يكن حاضرا معهم، فإخباره بهذه القصة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٤٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٠١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٦٠٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٦٠٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٩، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٦٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢١٥.

الطويلة من غير تحريف ولا غلط، إعجاز، ومن أوضح الأدلة على أنه صلى الله عليه وسلم رسول كريم، وإن كانت المعجزات الباهرة الدالة على ذلك أكثر من الحصر؛ ليبين بذلك صدق نبوته، لأنه أمي لا يكتب، ولا يقرأ الكتب، ولم يتعلم أخبار الأمم وقصصهم، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك لما علمه، كما قال تعالى عن إخباره بغيب آخر يتعلق بمريم وما حصل لها في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

أي: فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما كان لك علم به، وقوله تعالى بعد ذكر الإخبار بالغيب عن الأنبياء والمرسلين: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٩].

وقوله أيضا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠].

وقوله تعالى بعد تمام قصة يوسف بطولها وأحداثها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢].

وقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف:٣].

إلى غير ذلك من الآيات[1].

وفي الإخبار بالغيب من قصص الأنبياء السابقين عليهم السلام إيناس لصاحب الرسالة المحمدية بأخبار إخوانه من المصطفين الأخيار، فقد كانت تلك الأخبار الصادقة غيبًا لم يشاهدها محمد ولا يعلمها هو ولا قومه، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم مقيما بين أصحابها حتى يخبر قومه بها ولم يتعلمها من غيره ولكن الله تعالى هو الذي أوحى بها لمحمد صلى الله عليه وسلم وأرسله إلى الناس رسولا، وجعل هذه الإخبار دليلا على صدق نبوته، فقد جاءت هذه الأحداث التي جاء القرآن الكريم بقصصها، صادقة وثابتة في الصادق من أخبار النبيين في كتبهم التي يتداولها أهل الكتاب، ولم يتناولها التحريف[2].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٩٤.
(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ١٤٠.

الدروس المستفادة من قصة مدين

يمكن بيان الدروس المستفادة من قصة مدين في القرآن من خلال النقاط الآتية:

١. إن دعوة الرسل عليهم السلام واحدة في العقيدة؛ إذ كلها تقوم على أساس التوحيد لله تعالى والطاعة الخالصة له سبحانه، وأن ذلك أول ما يبدؤون به أولًا، ثم بعد ذلك الأهم فالأهم.

٢. إن وظيفة الرسل عليهم السلام، وسنتهم في إرادة الإصلاح العام والشامل بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها وبدفع المفاسد وتقليلها ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

٣. إن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوما ولا مذموما في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه وبذلك يكون قد أدى الواجب الذي عليه[1].

٤. حرمة نقص الكيل والوزن، وأن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين، موجبة للوعيد، فسرقتهم - على وجه القهر والغلبة بقطع الطريق وأخذ العشور- من باب أولى وأحرى.

٥. حرمة بخس الناس في جميع حقوقهم المادية: كالكيل والوزن وأجور العمال، وأسعار البضائع ونحو ذلك، وحرمة بخس الناس في حقوقهم المعنوية: كحق التأليف والمبتكرات والشهادات العلمية ونحوها.

٦. حرمة السعي بالفساد في الأرض، بأي نوع من الفساد، وأعظمه تعطيل شرائع الله تعالى والصد عن سبيل الله بمنع الناس من التدين والالتزام بالشريعة ظاهرا وباطنا، والسعي في الأرض بالمعاصي، لاسيما البلاد التي طهرها الله بالإسلام وأصلحها بشرائعه.

٧. حرمة التلصص وقطع الطرق وتخويف المارة.

٨. أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله، ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ ففي ذلك، من البركة، وزيادة الرزق ما

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٩.

٩. ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المحق، وضد البركة [١].

١٠. لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض ما أنزل الله تعالى على رسله ويكفر ببعض.

١١. مشروعية الدعاء وسؤال الله تعالى الحكم بين أهل الحق وأهل الباطل؛ لأن الله تعالى يحكم بالحق وهو خير الحاكمين.

١٢. التحذير من الطغيان، وهو الإسراف في الشر والفساد، فإنه موجب للهلاك والدمار في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

١٣. تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه إذ كذبت قبل قريش ثمود وغيرها من الأمم كأصحاب مدين وقم لوط وفرعون.

١٤. بيان سنة بشرية وهي: أن الظلمة والمتكبرين يجادلون بالباطل حتى إذا أعياهم الجدال وأفحموا بالحجج بدل أن يسلموا بالحق ويعترفوا به ويقبلوه، فيستريحوا ويريحوا، يفزعون إلى القوة بطرد أهل الحق ونفيهم أو إكراههم على قبول الباطل بالعذاب والنكال.

١٥. الجزاء من جنس العمل، فمن بخس أموال الناس، يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سببا لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: فلا تسببوا إلى زواله بفعلكم.

١٦. المال الذي يرزقه الله الإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار، ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون، سواء وافق حكم الله، أو خالفه.

١٧. الترهيب بأخذات الأمم، وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

١٨. الحياء من الرجال الأجانب، وأن ذلك سنة المؤمنات من عهد قديم، وليس كما يقول المبطلون هو عادة جاهلية، فبنتا شعيب عليه السلام نشأتا في دار النبوة والطهر والعفاف وغطت إحداهما وجهها عن موسى حياء وتقوى.

١٩. تجلى كرم شعيب عليه السلام ومروءته

(١) انظر: المصدر السابق.

وشهامته في تطمين موسى وإكرامه وإيوائه.

٢٠. بيان أن الكفاءة شرط في العمل، ولا أفضل من القوة وهي القدرة البدنية والعلمية والأمانة.

٢١. مشروعية عرض الرجل ابنته على من يرى صدقه وأمانته ليزوجه بها.

٢٢. مشروعية إشهاد الله تعالى على العقود بمثل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

٢٣. فضيلة موسى عليه السلام بإيجار نفسه على شبع بطنه وإحصان فرجه[1].

٢٤. قصة موسى عليه السلام في مدين من دلائل نبوة محمد لأن الإخبار بالغيب من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، لأن الله نفى أن يكون النبي محمد في مدين حتى يخبر بهذه القصة بتفاصيلها مما يدل على أن القرآن كلام الله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

شعيب عليه السلام، موسى عليه السلام، عاد، ثمود

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٩، أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٦٨.

المرض

عناصر الموضوع

مفهوم المرض	٣١٨
المرض في الاستعمال القرآني	٣١٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٠
أنواع المرض	٣٢٢
مرض الشبهات	٣٢٧
مرض الشهوات	٣٤٢
مرض الأبدان	٣٤٥
الشفاء من الأمراض	٣٤٩
أثر انتشار الأمراض في المجتمع	٣٥٢

مفهوم المرض

أولًا: المعنى اللغوي:

المرض لغة: السقم، وهو نقيض الصحة، ويكون للإنسان والحيوان، وهو حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل، وهو النقصان، ومنه بدن مريض: ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين، وهو الفتور، قال ابن عرفة: «المرض في البدن: فتور الأعضاء، وفي القلب: فتور عن الحق»، وهو الظلمة [(١)].

قال ابن فارس: «(مرض) الميم والراء والضاد أصل صحيح يدل على ما يخرج به الإنسان عن حد الصحة في أي شيء كان»[(٢)].

وخلاصة التعريف اللغوي: أن المرض له معنيان:

أحدهما: أن المرض اسم يطلق على ما يصيب البدن من العلل والجروح والفتور.

والثاني: أن المرض اسم يطلق على ما يصيب الإنسان في الدين كالجهل، والجبن، والبخل، والنفاق، وغيرها من الرذائل الخلقية.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

والمرض اصطلاحًا: ما يعرض للبدن، فيخرجه عن حالة الاعتدال الخاص، وذلك نوعان:

الأول: مرض جسمي، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

والثاني: عبارة عن الرذائل كالجهل، والجبن، والبخل، والنفاق، وغيرها من الرذائل الخلقية، ومنه قوله سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:١٠][(٣)].

ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٠٦، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٢٣٢، تاج العروس، الزبيدي ١٩/ ٥٣.

(٢) مقاييس اللغة ٥/ ٣١١.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٦٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٤٩٣.

المرض في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مرض) في القرآن الكريم (٢٤) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء:٨٠]
المصدر	١٣	﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [المائدة:٥٢]
الصفة المشبهة	١٠	﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٥]

وجاء المرض في الاستعمال القرآني بمعنى: الفساد الذي يعرض للإنسان فيخرجه عن الاعتدال والصحة، ويكون جسمانيًا وبدنيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

ويكون نفسانيًا أو معنويًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠][(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٦٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الميم ص١٢٠٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤١٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٤٩٢-٤٩٣، نزهة الأعين النواظر، ص٥٤٥-٥٤٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٨٤-٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العدوى:

العدوى لغة:

اسم من الإعداء، وهو ما يعدي من داء وجرب، أصله من عدا يعدو إذا جاوز الحد، وأعداه من علته وخلقه[١].

العدوى اصطلاحًا:

هو أن تجاوز العلة صاحبها إلى غيره[٢]، ولا يختلف عن المعنى اللغوي.

الصلة بين المرض والعدوى:

أن المرض قد يكون سببًا من أسباب العدوى وبالعكس[٣].

٢ الوباء:

الوباء لغة:

الطاعون، وقيل: كل مرض عام[٤].

الوباء اصطلاحًا:

فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية وأرضية[٥].

الصلة بين المرض والوباء:

أن الوباء مرض من الأمراض.

٣ الصحة:

الصحة لغة:

السلامة، وخلو الأجسام من المرض[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ١٠.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٣٨.
(٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٠/ ١٧.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٣٣٢، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ٢/ ٦٤٦.
(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٣٤، تاج العروس، الزبيدي ١/ ٤٧٨.
(٦) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٢٨، معجم لغة الفقهاء، رواس ص ٢٧١.

الصحة اصطلاحًا:

حالة أو ملكة، بها تصدر الأفعال عن موضعها سليمة[١].

الصلة بين المرض والصحة:

الضدية، وكل منهما يقال في البدن والدين جميعا[٢].

٤ العافية:

العافية لغة:

البراء من الأسقام والبلايا[٣].

العافية اصطلاحًا:

البراء من العلل والبلايا والأسقام [٤]، ولا يختلف عن المعنى اللغوي.

الصلة بين المرض والعافية:

مقابلة المرض بما يضاده من الصحة [٥].

٥ الشفاء:

الشفاء لغة:

البراء من المرض[٦].

الشفاء اصطلاحًا:

رجوع الأخلاط إلى الاعتدال، وقيل: البراء من المرض، ومنه قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩][٧].

الصلة بين المرض والشفاء:

مقابلة المرض بما يضاده.

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٣٢، مقاليد العلوم، السيوطي ص ١٧٥.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٩/ ٥٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٧٢، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٧٣.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦١٢.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ١٠٩.
(٦) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٦٧، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٤٣٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٨/ ٣٨٢.
(٧) انظر: المفردات، الراغب ص ٤٥٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٣٠، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٠٥.

أنواع المرض

تظهر أنواع الأمراض التي تصيب القلوب والأبدان من خلال ما يلي:

أولًا: مرض الشبهات:

من أمراض القلوب التي ذكرها القرآن الكريم مرض الشبهات، ويمكن التعرف على هذا النوع من المرض من خلال السياق القرآني، فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين كان مرض الشكوك والشبهات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:١٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:٣١].

أخبر الله تعالى أن في قلوب المنافقين مرض، ومرض القلب: هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار، وصحته أن يكون عارفًا بالحق محبًا له مؤثرًا له على غيره، وسمي الشك في الدين مرضًا؛ لأنه فساد في الروح يحتاج إلى علاج كالفساد في البدن، ومرض القلب أعضل، وعلاجه أعسر، ودواؤه أعز، وأطباؤه أقل، والمرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائد هؤلاء المنافقين، وذلك إما أن يكون شكًا ونفاقًا، وإما جحودًا بسبب حسدهم وعدوانهم مع علمهم بصحة ما يجحدون، وتقديم الخبر للإشعار بأن المرض مختص بها، مبالغة في تعلق هذا الداء بتلك القلوب لما كانوا عليه من شدة الحسد وفرط العداوة[٨].

فالمؤمنون يخبرون عن زيادة إيمانهم والمنافقون يخبرون عن عدمه في وجدانهم، فهذا موجب شكهم وتماديهم في غيهم وإفكهم، ولو أنهم رجعوا إلى حاكم العقل لأزال شكهم وعرفهم صدق المؤمنين بالفرق بين حالتيهم، فإن ظهور الثمرات مزيل للشبهات[٩].

وقوله تعالى: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة:٢٦].

فإن مريض القلب بالشكوك وضعف العلم أقل شيء يريبه ويؤثر فيه ويفتتن به، وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها، قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة

(٨) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٩٧، إيجاز البيان عن معاني القرآن، النيسابوري ١/ ٣٩٥.

(٩) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٥٢.

وعمى، فلا يدري ما يراد به[1].

وفي الآيتين الكريمتين السابقتين عبر سبحانه وتعالى عن النفاق بالمرض، وذلك للمشابهة بين مرض الأجساد والنفاق، فهو يفسد القلوب، والعقول والمدارك، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات وقد يشلها، ومعه الوهن دائمًا[2].

ثانيًا: مرض الشهوات:

من أمراض القلوب التي ذكرها القرآن الكريم مرض الشهوات، ويمكن التعرف على هذا النوع من المرض من خلال السياق القرآني، فإن كان هذا السياق في ذكر المعاصي والميل كان مرض الشهوات.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب:٣٢].

إن المنافقين قوم برزوا في إظهار مرض القلب الذي ينشأ عنه كل إثم وفسوق وعصيان، وخاصة تتبع النساء والتعرض لهن بالسوء، وإغرائهن على الفاحشة، وإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول أو الفعل، والتعرض بالسوء لنسائه وبيته، وعدم امتثال أمر الله مطلقًا، وخاصة في ستر عورات النساء، كل هذا من لوازم النفاق العملي الذي يأباه الله ويتنافى مع حقيقة الإسلام، ونرجو أن يمتثل المسلمون اليوم للأمر بستر عورات نسائهم حتى لا ينطبق علينا وصف النفاق[3].

وأخبر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم أنهن لسن كأحد من النساء في الفضل والشرف وعلو المنزلة، وأمرهن أن لا يلن في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية اللبان في منطقها ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أي: مرض شهوة الزنا والفجور، والمعنى: لا تقلن قولًا يجد به منافق أو فاجر سبيلًا إلى الطمع في موافقتكن به، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرك يحركه؛ لأن قلبه غير صحيح فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه، وسلامته من المرض، بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد يدعوه إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه، وكان أكثر من تصيبه الحدود في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم المنافقون[4].

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ١/ ١٤، القواعد الحسان لتفسير القرآن، السعدي ص ٩٤.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ١٩٠.

(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ١١٨.

(٤) انظر: تفسير العز بن عبد السلام ٢/ ٥٧٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٣.

وفي الآية دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد، فإن الخضوع بالقول واللين فيه في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم منع منه؛ ولهذا ينبغي للمرأة أن لا تلين بالقول في مخاطبة الرجال الأجانب ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ملؤه الأدب والوقار حسنًا في معناه، خشنًا في مبناه، مقتصرًا على الجواب الكافي؛ لأن الزيادة ممنوعة كما أن اللين ممنوع، وإنما أمرهن الله بهذا؛ لئلا ينسبن لقلة الأدب وهن منبعه وعنهن يؤخذ، وتعهد نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالإرشاد والتأديب؛ لأنهن الأسوة والقدوة، وهذه الآداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك[1].

ثالثًا: مرض الأبدان:

من الأمراض التي ذكرها القرآن الكريم مرض الأبدان، وحيثما جاء المرض في آيات الأحكام فهو من علة في البدن، وكذلك (مريض، المريض، مرضى)، وكلها في آيات أحكام.

جاء ذكر مرض البدن في الطهارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٣].

والمريض الذي يباح له التيمم، هو الذي يخاف على نفسه التلف أو الضرر باستعمال الماء، من فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء، أو كان ضعيفًا في بدنه لا يقدر على الوصول إلى موضع الماء، كما روي في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه أصابته جنابة وهو أمير الجيش فترك الغسل من أجل آية، قال: (إن اغتسلت مت فصلى بمن معه جنبًا، فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفه بما فعل وأنبأه بعذره فأقر وسكت)[2] [3].

وقد اتفقوا على جوازه، وذلك أن المريض الذي لا يضره الماء لا معنى للترخيص له في التيمم، فذكر ليدل على أن مرضه حينئذ يقوم مقام عدم وجود الماء حقيقة، فالمريض الذي يمنعه مرضه من استعمال

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٦٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٣، بيان المعاني، العاني ٥/ ٤٧٤.

(٢) أخرجه البخاري معلقا، كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت، أو خاف العطش، تيمم، ١/ ٧٧، ووصله عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه، رقم ٨٧٨، ١/ ٢٢٦، وأحمد في مسنده، رقم ١٧٨١٢، ٢٩/ ٣٤٦.
قال الزيلعي في نصب الراية ١/ ١٥٧: والحاصل أن الحديث حسن أو صحيح.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم ٢/ ١٥٤.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٨٨، تفسير المراغي ٦/ ٦٤.

الماء له التيمم مع وجود الماء، وكذلك شأن المسافر إذا كان معه من الماء ما لا يفيض عن حاجته في طعامه وشرابه، فلم يبق حينئذ إلا الجنب وما في معناه، والجائي من الغائط وما في معناه من غير المسافرين والمرضى، فهو إنما يباح لهم التيمم إذا فقدوا الماء، وفي هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم الذي امتن به الله على هذه الأمة، وهو مشروعية التيمم، وقد أجمع على ذلك العلماء، وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يختص ذلك بذي الغبار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ وما لا غبار له لا يمسح به[1].

كما جاء ذكر المرض في أحكام الصيام في قوله جل وعلا: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤] والمرض المذكور في الآية هو المرض الذي يشق معه الصوم، فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، والمسافر طلبا لحفظ صحته وقوته؛ لئلا يذهبه الصوم في السفر؛ لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف، فأباح للمسافر الفطر؛ حفظا لصحته وقوته عما يضعفها[2].

وجاء أيضًا في أحكام الحج في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]، أي: مرضًا يحوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِ أَذًى﴾ فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه، من قمل أو حكة أو غيرهما أن يحلق رأسه في الإحرام؛ استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، وإذا حلق رأسه تفتحت المسامات فخرجت تلك الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يقاس عليه استفراغ يؤذي انحباسه، والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا سبغ، والبول والغائط والريح والقيء والعطاس والنوم والجوع والعطش[3].

بينت الآيات مرض البدن في الحج والصوم والوضوء لسر بديع يبين عظمة القرآن، والاستغناء به لمن فهمه وعقله عن سواه، وذلك أن قواعد طب الأبدان

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣١٣، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، صديق خان ص ١٧٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٠، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٨٠٠، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٢٩٣.

(٢) انظر: تفسير ابن عرفة ٢/ ٥٣٤، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٣.

(٣) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٤/ ٦، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٣.

ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة.

وجاء ذكر المرض في أحكام الأكل والآداب في قوله جل وعلا: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور:٦١].

كان المسلمون في صدر الإسلام حين أمروا بالنصيحة ونهوا عن الخيانة وأنزل عليهم: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة:١٨٨].

أي: لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق أدقوا النظر وأفرطوا في التوقي، وترك بعضهم مؤاكلة بعض.

فكان الأعمى لا يؤاكل الناس؛ لأنه لا يبصر الطعام فيخاف أن يستأثر، ولا يؤاكله الناس يخافون لضرره أن يقصر.

وكان الأعرج يتوقى ذلك؛ لأنه يحتاج لزمانته إلى أن يتفسح في مجلسه، ويأخذ أكثر من موضعه، ويخاف الناس أن يسبقوه لضعفه.

وكان المريض يخاف أن يفسد على الناس طعامهم بأمور قد تعتري مع المرض: من رائحة تتغير، أو جرح يبض، أو أنف يذن، أو بول يسلس، وأشباه ذلك.

فأنزل الله تبارك وتعالى: ليس على هؤلاء جناح في مؤاكلة الناس.

وقيل: كان الصحابة رضي الله عنهم يخرجون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المغازي، ويدفعون مفاتيحهم إلى الضمنى، وهم الزمنى، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في منازلنا، فكانوا يتوقون أن يأكلوا من منازلهم حتى نزلت هذه الآية.

ثم أباحت الآية الأكل من بيوت الأقارب مثل: الآباء، والأمهات، والإخوة، والأخوات، والأعمام، والعمات، والأخوال، والخالات.

وأباحت أيضًا الأكل مما كان تحت يد الشخص وتصرفه من مال غيره، والأكل من بيوت الأصدقاء، ولم يذكر فيها قيد ما لإباحة الأكل من هذه البيوت.

ولم يذكر بيوت الأبناء واكتفى بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ لأن مال الرجل منسوب إلى

أبيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنت ومالك لأبيك) وقال: (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه فكلوا من كسب أولادكم) فاكتفى بذكر بيوت أنفسكم عن ذكر بيوت الأولاد، إذ كانت منسوبة إلى الآباء[1].

قال أبو زهرة: «ونجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن الحكيم أنه لا إثم على من يأكل في بيوت هؤلاء عند الاحتياج، ونفي الإثم يشير إلى أنه الحق؛ إذ إن تناول الحقوق لا إثم فيه، وقد يقال: إن ذلك لم يكن مقتصرًا على القرابة، بل ذكر الصديق، فدل على أن الحق ليس سببه القرابة.

ونقول: إن ذلك الحق سببه العجز ابتداء؛ ولذلك ذكر في أول الآية ذوي العجز عن الكسب، فكان الكلام كله في أهل العجز، ولكن الأخذ كان للقرابة ابتداء، فإن لم تكن له قرابة يلزمها الشرع، كانت المودة التي توجبها الصداقة مبررًا للأكل، وإن كان لا يلزم الصديق بذلك قضاء، فإنه يجب عليه دينًا ويأثم فيما بينه وبين الله إن كان قادرًا، ومع ذلك يترك صديقه يتضور جوعًا، ولذلك كانت المؤاخاة، وفي ذلك إرشاد خلقي اجتماعي حكيم لواجبات الأصدقاء نحو أصدقائهم»[2].

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ١٩٩، أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٤٣٢، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٦١٦.
(٢) المعجزة الكبرى القرآن ص ٣٢٨.

مرض الشبهات

ستتناول في هذا المبحث أعراضه، والوقاية منه، وعاقبته، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: أعراضه:

تظهر أعراض مرض الشبهات من خلال النقاط الآتية:

١. موالاة الكفار.

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض الشبهات التي تصيب المنافقين موالاة الكفار.

قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة:٥٢].

لما نهى الله تعالى في الآية السابقة المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في النصرة والخلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة، بينت هذه الآية أن من يوالي اليهود والنصارى هم الذين في قلوبهم مرض أي: نفاق وشك وريب في وعد الله لإظهار دينه، وقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: في مودتهم في الباطن والظاهر، من غير نظر فيما يلحقهم من الضرر في دين الله، والفضيحة بالنفاق ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: في عذرهم.

﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي: نخشى أن تقع بنا مصيبة كبيرة مما يدور به الزمان، أو من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها، فنحتاج إلى نصرتهم لنا، فنحن نتخذ لنا يدًا عندهم في السراء؛ ننتفع بها إذا مست الضراء، والمراد أنهم يخشون أن تدول الدولة لليهود أو المشركين على المؤمنين.

وكان اليهود عونًا للمشركين على المؤمنين، كما ظهر في وقعة بدر والأحزاب، فيحل بهم ما يحل بالمؤمنين من النقمة، ذلك بأنهم غير موقنين بوعد الله بنصر رسوله، وإظهار دينه على الدين كله؛ لأنهم في شك من أمر نبوته، لم يوقنوا بصدقها ولا بكذبها، فهم يريدون أن ينتفعوا منها بإظهارهم الإيمان بها، وأن يتخذوا لهم يدًا عليها لأعدائها؛ ليكونوا معهم إذا دالت الدولة لهم، وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان، ثم رد تعالى عللهم الباطلة، وقطع أطماعهم الفارغة، وبشر المؤمنين بالظفر[1].

وقوله سبحانه: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ وعسى من الله نافذة، لأنه الكريم العظيم الذي لا يُطْمَعُ إلا فيما يُعْطي؛ ولأن الكريم إذا أوعد في خير فعله، فهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به ورجائها له، والمعنى: فعسى الله أن يأتي بالفتح لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وإظهار المسلمين على أعدائهم، أو أمر من عنده يقطع أصل اليهود أو يخرجهم عن بلادهم؛ فيصبح المنافقون نادمين على ما حدثوا به أنفسهم.

وذلك لأنهم كانوا يشكون في أمر الرسول ويقولون: لا نظن أنه يتم له أمره، والأظهر أن تصير الدولة والغلبة لأعدائه، وقيل: أو أمر من عنده، يعني: أن يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم فيندموا على فعالهم ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أي: المنافقون ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الشك في ظهور الإسلام، أو من النفاق ﴿نَٰدِمِينَ﴾ لافتضاحهم بالنفاق مع الفريقين، وتعليق الندامة بما كانوا يكتمونه- لا بما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة- لأنه الذي كان يحملهم على الموالاة ويغريهم عليها، فدل ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها[2].

وفي الآية: نداء للمؤمنين أن يجعلوا ولايتهم لله ولرسوله ولإخوانهم في العقيدة، ونهتهم عن موالاة الذين يخالفونهم في الدين، ووصفت الذين يتولون من غضب

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٧٥، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١٦٣، المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٥٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٧٥، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١٦٣، المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٥٦.

الله عليهم بالنفاق ومرض القلب، وبشرت المطيعين لله بالنصر والظفر[1].

٢. الاستهزاء بالمؤمنين.

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض الشبهات التي تصيب المنافقين الاستهزاء بالمؤمنين.

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال:٤٩].

بينت الآية سخرية المنافقين من أهل المدينة واستهزاءهم واحتقارهم للمؤمنين، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وارتياب، وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يقو الإسلام في قلوبهم ولم يتمكن، فلما خرج كفار قريش إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم إلى بدر، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا، وقالوا: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ والغرور: الإيقاع في المضرة بإيهام المنفعة، والدين هو الإسلام، وإسنادهم الغرور إلى الدين باعتبار ما فيه من الوعد بالنصر، من نحو قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥].

أي: غرهم ذلك فخرجوا وهم عدد قليل للقاء جيش كثير، والمعنى: إذ يقولون ذلك عند اللقاء وقبل حصول النصر، فإطلاق الغرور هنا مجاز، وإسناده إلى الدين حقيقة عقلية، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسان الله، فإن الله حافظه وناصره؛لأنه عزيز لا يغلبه شيء، حكيم يوصل العذاب إلى أعدائه، والرحمة والثواب إلى أوليائه[2].

قال سيد قطب: «والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة، فهم يرون ظواهر الأمور دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة، والثقة في الله، والتوكل عليه، واستصغار شأن الجموع والقوى التي لا ترتكن إلى عقيدة في الله تمنحها القوة الحقيقية، فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم، مغرورين بدينهم، واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التي يرونها إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة، وعند القلوب الخاوية من الإيمان»[3].

٣. الاستجابة لوساوس الشيطان.

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٩٣، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣١٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٨.

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٣٢.

الشبهات التي تصيب المنافقين الاستجابة لوساوس الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

يخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن من حكمته وسنته: أنه ما أرسل قبله من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ، ألقى الشيطان في أمنيته، ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول إلقاء ما يضادها، كمن يمكر فيلقي السم في الدسم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم، ويروج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان، والله تعالى يعيد الإرشاد ويكرر الهدي على لسان النبي، ويفضح وساوس الشيطان وسوء فعله بالبيان الواضح، كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]، فالله تعالى بهديه وبيانه ينسخ ما يلقي الشيطان، أي: يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بيانًا، وذلك هو إحكام آياته، أي: تحقيقها وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رين على قلبه، ثم بين سبحانه أن من مقتضيات حكمته أنه يجعل الإلقاء الشيطاني فتنة للشاكين المنافقين، والقاسية قلوبهم عن قبول الحق، فلا تلين لقبول الحق، ولا ترعوي عما هي فيه من الغي؛ ابتلاء لهم ليزدادوا إثمًا، ورحمة للمؤمنين ليزدادوا ثباتًا واستقامة [(١)].

٤. الإعراض عن التحاكم للكتاب والسنة.

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض الشبهات التي تصيب المنافقين الإعراض عن التحاكم للكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٥٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٢٩٨.

[النور:٤٧-٥٠].

يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، وأنهم يقولون بألسنتهم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة توليًا عظيمًا.

وقد أشارت الآية إلى المنافقين عامة، ثم إلى فريق منهم أظهروا عدم الرضا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فكلا الفريقين موسوم بالنفاق، ولكن أحدهما استمر على النفاق والمواربة، وفريقًا لم يلبثوا أن أظهروا الرجوع إلى الكفر بمعصية الرسول علنًا، وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إيماء إلى أن حظهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد، كما قال تعالى: ﴿۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

وعبر بالمضارع لإفادة تجدد ذلك منهم واستمرارهم عليه؛ لما فيه من تكرر الكذب ونحوه من خصال النفاق، والإشارة في قوله: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ﴾ إلى ضمير ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي يقولون آمنا وهم كاذبون في قولهم، وإنما يظهر كفرهم عند ما تحل بهم النوازل، وإسناد فعل ﴿تَوَلَّوْا﴾ إلى جميعهم وإن كان المعرضون فريقًا منهم لا جميعهم؛ للإشارة إلى أنهم سواء في التهيؤ إلى الإعراض، ولكنهم لا يظهرونه إلا عندما تحل بهم النوازل فالمعرضون هم الذين حلت بهم الخصومات، ثم أخبر الله أن المنافقين يعرضون عن حكم الرسول لعلمهم بأنه يحكم بالحق، فإذا كان لهم على غيرهم أسرعوا إلى حكمه؛ لثقتهم بأنه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضا[1].

ثم أخبر بما في قلوبهم من الشك والريبة، فقال سبحانه: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ القلوب: العقول، والمرض مستعار للفساد أو للكفر.

قال جل وعلا: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠] أو للنفاق.

وأتي في جانب هذا الاستفهام بالجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات المرض في قلوبهم وتأصله فيها، بحيث لم يدخل الإيمان في قلوبهم، والارتياب: الشك.

والمراد: ارتابوا في حقيقة الإسلام، أي: حدث لهم ارتياب بعد أن آمنوا إيمانًا غير راسخ، وأتي في جانبه بالجملة الفعلية المفيدة للحدوث والتجدد، أي: حدث لهم ارتياب بعد أن اعتقدوا الإيمان اعتقادًا مزلزلًا.

وهذا يشير إلى أنهم فريقان: فريق لم يؤمنوا ولكنهم أظهروا الإيمان وكتموا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٦٨، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٣٨٧.

كفرهم، وفريق آمنوا إيمانا ضعيفًا، ثم ظهر كفرهم بالإعراض، والحيف: الظلم والجور في الحكومة.

وأسند الحيف إلى الله ورسوله بمعنى أن يكون ما شرعه الإسلام حيفًا لا يظهر الحقوق، وهذا كناية عن كونهم يعتقدون أنه غير منزل من الله، وأن يكون حكم الرسول بغير ما أمر الله، فهم يطعنون في الحكم وفي الحاكم وما ذلك إلا لأنهم لا يؤمنون بأن شريعة الإسلام منزلة من الله، ولا يؤمنون بأن محمدًا عليه الصلاة والسلام مرسل من عند الله.

فالكلام كناية عن إنكارهم أن تكون الشريعة إلهية وأن يكون الآتي بها صادقًا فيما أتى به ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ليس العدول إلا لما في قلوبهم من المرض والنفاق، وظلمهم لأنفسهم بمخالفة أمر ربهم ومعصيتهم له فيما أمرهم به من الرضا بحكم رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أحبوا وكرهوا، والتسليم لقضائه[1].

قال سيد قطب: «إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك، والإسلام عقيدة متحركة، لا تطيق السلبية، فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك؛ لتحقق مدلولها في الخارج؛ ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع.

ومنهج الإسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية، وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون، مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل، وهؤلاء كانوا يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٤٧].

يقولونها بأفواههم، ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم، فيتولون ناكصين يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧].

فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم، والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ثم يدعها ويمضي، إنما هو تكيف في النفس، وانطباع في القلب، وعمل في الواقع، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير»[2].

٥. التشكيك في وعد الله ورسوله.

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض الشبهات التي تصيب المنافقين التشكيك في وعد الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا

(١) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ١٢٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٦٨، ٢٧٢، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٣٨٧.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٥.

﴿١٢﴾ [الأحزاب:١٢].

يقول تعالى مخبرًا عن حال المؤمنين حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالًا شديدًا، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم، والذين في قلوبهم ضعف في الإيمان لقرب عهدهم بالإسلام: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من الظفر والنصر على العدو إلا وعدًا باطلًا بغرنا به ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به، ويسلخنا عن دين آبائنا.

ويقول: إن هذا الدين سيظهر على الدين كله، وإنه سيفتح لنا فارس والروم، وها نحن أولاء قد حصرنا هاهنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، فإن ذلك كله مما ألحق بالمسلمين ابتلاء فبعضه من حال الحرب وبعضه من أذى المنافقين؛ ليحذروا المنافقين فيما يحدث من بعد؛ ولئلا يخشوا كيدهم فإن الله يصرفه كما صرف أشده يوم الأحزاب، وقول المنافقين هذا يحتمل أن يكونوا قالوه علنًا بين المسلمين قصدوا به إدخال الشك في قلوب المؤمنين لعلهم يردونهم عن دينهم.

فأوهموا بقولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ أنهم ممن يؤمن بالله ورسوله، فنسبة الغرور إلى الله ورسوله إما على معنى التشبيه البليغ، وإما لأنهم بجهلهم يجوزون على الله أن يغر عباده، ويحتمل أنهم قالوا ذلك بين أهل ملتهم فيكون نسبة الوعد إلى الله ورسوله تهكما، كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٧].

والغرور: ظهور الشيء المكروه في صورة المحبوب، والمعنى: أن الله وعدهم النصر فكان الأمر هزيمة، وهم يعنون الوعد العام وإلا فإن وقعة الخندق جاءت بغتة ولم يرو أنهم وعدوا فيها بنصر ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم الذين كانوا مترددين بين الإيمان والكفر فأخلصوا يومئذ النفاق وصمموا عليه[1].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب:١٢]: «فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد، وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون، فالواقع بظاهره يصدقهم في

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٨٨، تفسير المراغي ٢١/ ١٤١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٨٣.

التوهين والتشكيك، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل، وروع نفوسهم ترويعًا لا يثبت له إيمانهم المهلهل فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين، ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء»[1].

٦. نشر الإشاعات.

ذكر القرآن الكريم أن من أعراض مرض الشبهات التي تصيب المنافقين نشر الشائعات والأراجيف.

قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب:٦٠- ٦١].

يخبر تعالى أن من صفات المنافقين ومرضى القلوب نشر الاشاعات والأراجيف، ووصفهم الله هنا بصفات ثلاث ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾.

فالعطف هنا لا يقتضي المغايرة، إنما عطف صفات مختلفة لشيء واحد، وجاءت هذه الصفات مستقلةً؛ لأنها أصبحت من الوضوح فيهم، بحيث تكاد تكون نوعًا منفردًا بذاته.

والإرجاف: إشاعة الأخبار، وفيه معنى كون الأخبار كاذبة أو مسيئة لأصحابها يعيدونها في المجالس؛ ليطمئن السامعون لها مرة بعد مرة بأنها صادقة؛ لأن الإشاعة إنما تقصد للترويج بشيء غير واقع أو مما لا يصدق به؛ لاشتقاق ذلك من الرجف والرجفان وهو الاضطراب والتزلزل.

فالمرجفون قوم يتلقون الأخبار فيحدثون بها في مجالس ونواد ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل.

والمعنى هنا: الذين يخبرون بالأراجيف، وكانوا يخبرون المؤمنين بما يكرهون من عدوهم، فيقولون: هزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين، والأراجيف: هي أول الاختيار، وأصل الرجف هو الحركة.

فإذا وقع خبر الكذب فإنه يقع الحركة بالناس فسمي إرجافًا، ويقال: الأراجيف تلقح الفتنة، ويقال: أرجف بكذا، إذا أخبر به على غير حقيقة؛ لكونه خبرًا متزلزلًا غير ثابت من الرجفة، وهي الزلزلة، وهم من المنافقين والذين في قلوبهم مرض وأتباعهم.

وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٣٨.

فهذه الأوصاف لأصناف من الناس، وكان أكثر المرجفين من اليهود وليسوا من المؤمنين؛ لأن قوله عقبه: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لا يساعد أن فيهم مؤمنين، والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوؤهم وتنوؤهم، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها إلا زمنا قليلًا ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم، فسمى ذلك إغراء، وهو التحريش على سبيل المجاز[1].

وفي الآية: إنذار لفئات المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين في المدينة، بأنهم إذا لم ينتهوا عما يبثونه من وساوس ودسائس ويوقعونه من أذى وقلاقل، فإن الله يغري نبيه بهم ويسلطه عليهم ويقدره على طردهم من المدينة، مدموغين بدمغة اللعنة، مهدوري الدم ليقتلوا قتلا ذريعًا بدون هوادة واستثناء وتساهل أينما وجدوا، وهذه هي سنة الله فيمن مضى من أمثالهم من الأمم وهي السنة التي لا تتبدل في حال[2].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٧٣، تفسير السمعاني ٤/ ٣٠٧، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٦١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٠٨، تفسير الشعراوي ١٩/ ١٢١٧٣.

(٢) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت ٧/ ٤٢٠.

٧. الخوف من الجهاد.

من أعراض مرض الشبهات التي ذكرها القرآن الكريم الخوف من الجهاد.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢٠- ٢١].

يخبر تعالى في هذه الآيات عن صفات المؤمنين المخلصين الصادقين في إيمانهم أنهم يشتاقون للوحي، ونزول آيات الجهاد حرصا على ثوابه، فإذا أنزلت سورة واضحة الدلالة في الأمر به فرحوا بها وسارعوا إلى العمل بما فيها.

ثم أعقب ذلك بوصف حال المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد دين الله وأهله، وذلك حين يدعى المسلمون إلى الجهاد فقد يضيق الأمر بالمنافقين، إذ كان تظاهرهم بالإسلام سيلجئهم إلى الخروج للقتال مع المسلمين، وذلك أمر ليس بالهين؛ لأنه تعرض لإتلافهم النفوس دون أن يرجو منه نفعًا في الحياة الأبدية؛ إذ هم لا يصدقون بها فيصبحوا في حيرة.

وقوله سبحانه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ

﴿ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: تشخص أبصارهم من شدة فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء، كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت، ثم هددهم وتوعدهم فقال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فالموت أولى لمثل هؤلاء المنافقين؛ إذ حياتهم ليست في طاعة الله فالموت خير منها، وقد يكون المعنى على التهديد والوعيد والدعاء عليهم بالهلاك، فكأنه قيل: أهلكهم الله هلاكًا أقرب لهم من كل شر وهلاك، فهو نحو قولهم في الدعاء بعدًا له وسحقًا.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: طاعة لله وقول معروف أمثل لهم، وأحسن مما هم فيه من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدو، فمتاع الحياة الدنيا متاع قليل، وظل زائل، والآخرة خير لمن اتقى.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: فإذا حضر القتال كرهوه وتخلفوا عنه خوفًا وفرقًا، ولو صدقوا في إيمانهم واتِّباعهم للرسول، وأخلصوا النية في القتال لكان خيرًا لهم عند ربهم؛ إذ ينالون به الثواب والزلفى عنده ويعطيهم ما تقر به أعينهم، ويدخلهم جنات النعيم[1].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠]: «وهو تعبير لا تمكن محاكاته، ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى، وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع، والضعف إلى حد الرعشة، والتخاذل إلى حد الغشية، ويبقى بعد ذلك متفردًا حافلًا بالظلال والحركة التي تشغف الخيال

وهي صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان، ولا بفطرة صادقة، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر، وهي طبيعة المرض والنفاق، وبينما هم في هذا التخاذل والتهافت والانهيار تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذي يقوي العزائم، ويشد القوائم، لو تناولوه في إخلاص: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾ [محمد:٢٠-٢١].

نعم، أولى لهم من هذه الفضيحة، ومن هذا الخور، ومن هذا الهلع، ومن هذا النفاق، أولى لهم ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ طاعة تستسلم لأمر الله عن طمأنينة، وتنهض بأمره عن ثقة، وقول معروف يشي بنظافة الحس واستقامة القلب، وطهارة الضمير، وأولى لهم إذا عزم الأمر، وجد الجد، وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله، يصدقوه عزيمة، ويصدقوه شعورًا، فيربط على قلوبهم، ويشد من عزائمهم، ويثبت أقدامهم، وييسر

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٠١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١١٧، تفسير المراغي ٢٦/ ٦٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٠٦.

المشقة عليهم، ويهون الخطر الذي يتمثلونه غولا تفغر فاها لتلتهمهم

ويكتب لهم إحدى الحسنين: النجاة والنصر، أو الاستشهاد والجنة، هذا هو الأولى، وهذا هو الزاد الذي يقدمه الإيمان فيقوي العزائم ويشد القوائم، ويذهب بالفزع، ويحل محله الثبات والاطمئنان»[1].

٨. التشكيك في الغيبيات.

من أعراض مرض الشبهات التي ذكرها القرآن الكريم التشكيك في الغيبيات.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر:٣١].

أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حكم: فتنة الكافرين، فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم، وقوة يقين أهل الكتاب، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يريد الله أن يهديه منهم، وزيادة الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به، وحيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمى قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة:٢٦].

والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب، وأي معنى أراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين، وغرضهم إنكاره أصلًا وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص، وهذه الآية من الإخبار بالغيب قبل الوقوع فهي من معجزاته صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أعلم بإعلام الله إياه بأنه سيكون منافقون يرتابون في هذا القرآن ويشككون فيه، لأن هذه السورة مكية بالاتفاق ولا يوجد زمن نزولها منافقون، والنفاق ظهر بالمدينة.

ولهذا جاء الفعل بلفظ المستقبل، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلما أضل الله منكري عدد الخزنة ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ من غيرهم ممن اقتفى آثار الكفر وأعرض عن الإيمان ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ممن آمن به وصدق رسله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ الذين من جملتهم خزنة جهنم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحده؛ لأن ملائكته لا يحصون، وهذا كالجواب للخبيث أبي جهل؛ لقوله: «ما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر» أي: له

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٦.

أعوان كثيرون لا يعلمهم إلا الله، فكما أن مقدراته غير متناهية فكذلك جنوده، وإن الواحد منهم كاف لخراب الدنيا بما فيها[1].

ثانيًا: الوقاية منه:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما السبيل الوحيد للوقاية من مرض الشبهات وغيرها من الأمراض، وذلك أنهما يوضحان جميع الشبهات وينبهان عليها ويفضحان أصحابها، ويحذران المؤمنين من خطر الوقوع فيها، ويعملان على الوقاية منها قبل وقوعها.

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢].

أي: وننزل عليك أيها الرسول من القرآن ما به يستشفى من الجهل والضلالة، وتزول أمراض الشدة والنفاق، والزيغ والإلحاد، وهو أيضا رحمة للمؤمنين الذين يعملون بما فيه من الفرائض، ويحلون حلاله، ويحرمون حرامه، فيدخلون الجنة، وينجون من العذاب، والشفاء: أن تعالج داءً موجودًا لتبرأ منه، والرحمة: أن تتخذ من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى.

فالرحمة وقاية، والشفاء علاج، إذن ففي القرآن شفاء ورحمة، أي: وقاية وعلاج، والذي يلتزم بمنهج القرآن لا تصيبه الداءات الاجتماعية والنفسية أبدًا، والذي تغفل نفسه وتشرد منه يصاب بالداء الاجتماعي والنفسي، فإن عاد إلى منهج القرآن فهو يشفى من أي داء.

وما دام القرآن كذلك فمن عمل بمنهجه فإنه يقيه كل أمراض النفاق والشبهات والأهواء التي تصيب القلوب، وفيه الثواب العظيم من الله تعالى، الثواب الخالد في نعيم دائم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لأنهم كلما سمعوا آية منه ازدادوا بعدًا عن الإيمان وازدادوا كفرًا بالله؛ لأنه قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

وقال جل في علاه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٤- ١٢٥][2].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٥٢، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٦٦، بيان المعاني، العاني ١/ ١١٠، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ١/ ١٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٥/ ٨٦، تفسير

ثالثًا: عاقبته:

إن مرض الشبهات من أخطر الأمراض التي تصيب القلوب ويعسر علاجها، إلا من يتغمده الله تعالى برحمته ولطفه، وقد نبه الله تعالى على عاقبة هذا المرض بقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:١٠].

ومرض القلب: هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار، وصحته أن يكون عارفًا بالحق محبًا له مؤثرًا له على غيره.

فهو في ازدياد مستمر حتى يدمر صاحبه، إذ لولا تدنس فطرتهم لازدادوا بما من الله تعالى به على المؤمنين شفاء، وإنما عدى سبحانه الزيادة إليهم لا إلى القلوب فلم يقل فزادها إما ارتكابا لحذف المضاف- أي: فزاد الله قلوبهم مرضا- أو إشارة إلى أن مرض القلب مرض لسائر الجسد، أو رمزًا إلى أن القلب هو النفس الناطقة ولولاها ما كان الإنسان إنسانًا، وإعادة مرض منكرا لكونه مغايرا للأول ضرورة أن المزيد يغاير المزيد عليه[1].

ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: إن تلك الأخلاق الذميمة الناشئة عن النفاق والملازمة له كانت تتزايد فيهم بتزايد الأيام؛ لأن من شأن الأخلاق إذا تمكنت أن تتزايد بتزايد الأيام حتى تصير ملكات، وإنما كان النفاق موجبًا لازدياد ما يقارنه من سيئ الأخلاق؛ لأن النفاق يستر الأخلاق الذميمة فتكون محجوبة عن الناصحين والمربين والمرشدين، وبذلك تتأصل وتتوالد إلى غير حد، فالنفاق في كتمه مساوئ الأخلاق بمنزلة كتم المريض داءه عن الطبيب[2].

والمراد بقوله جل جلاله: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ الإخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من النعم، ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية، وإنما أسندت زيادة مرض قلوبهم إلى الله تعالى مع أن زيادة هاته الأمراض القلبية من ذاتها؛ لأن الله تعالى لما خلق هذا التولد وأسبابه، وكان أمرًا خفيًا نبه الناس على خطر الاسترسال في النوايا الخبيثة والأعمال المنكرة، وأنه من شأنه أن يزيد تلك النوايا تمكنًا من القلب فيعسر أو يتعذر الإقلاع عنها بعد تمكنها، وأسندت تلك الزيادة

الشعراوي ٦/ ٣٦٥٥.

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ١٥١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٧٩.

إلى اسمه تعالى؛ لأن الله تعالى غضب عليهم فأهملهم وشأنهم، ولم يتداركهم بلطفه الذي يوقظهم من غفلاتهم؛ لينبه المسلمين إلى خطر أمرها وأنها مما يعسر إقلاع أصحابها عنها؛ ليكون حذرهم من معاملتهم أشد ما يمكن، والأليم: المؤلم، أي: الموجع، و «ما» في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ مصدرية أي: بتكذيبهم للرسل[1].

كما أخبر الله تعالى المنافقين والمرضى والمرجفين أنهم إذا لم ينتهوا عن أعمالهم الخبيثة والقبيحة بعد أن فضحهم وأنذرهم، فإن عاقبة ذلك عليهم سيكون طردهم من المدينة، وإهدار دمائهم، وقتلهم بلا هوادة ولا رحمة ولا تسامح.

قال جل في علاه: ﴿۞ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢].

أمر بتطهير البيئة المسلمة من الأخلاق التي تلوث المجتمع المسلم، فمعنى ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: نسلطك عليهم، ونغريك بمواجهتهم والتصدي لهم، فكأن هذه المواجهة صارت أمرًا محبوبًا يغرى به؛ لأنها ستكون جزاء ما فزعوك وأقلقوك، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في المدينة، وكلمة: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يمكن أن يكون المعنى: قليل منهم، أو قليل من الزمن ريثما يجدوا لهم مكانًا آخر، يرحلون إليه مشيعين بلعنة الله.

﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ والملعون: المطرود من رحمة الله، أو مطرودون من المدينة بعد أن كشف الله دخائل نفوسهم الخبيثة، وهو مستعمل هنا كناية عن الإهانة والتجنب في المدينة، أي: يعاملهم المسلمون بتجنبهم عن مخالطتهم، ويبتعدون هم من المؤمنين اتقاء ووجلا فتضمن أن يكونوا متوارين مختفين؛ خوفا من بطش المؤمنين بهم حيث أغراهم النبي صلى الله عليه وسلم.

ففي قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ إيجاز بديع؛ لذلك طردهم رسول الله من المسجد؛ لأنهم كانوا من خبثهم ولؤمهم يدخلون المسجد، بل ويصلون في الصف الأول، يظنون أن ذلك يستر نفاقهم، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطردهم بالاسم: يا فلان، يا فلان، فكان صلى الله عليه وسلم يعرفهم، ولم لا وقد قال الله تعالى له: ﴿وَلَوْ

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٧٩.

﴿نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: ٣٠][1].

ومعنى ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ أي: وجدوا ﴿أُخِذُوا﴾ أي: أسروا ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ ولاحظ المبالغة في قوله: ﴿وَقُتِّلُوا﴾ والتوكيد في قوله: ﴿تَقْتِيلًا﴾ يعني: اقتلوهم بعنف، ولا تأخذكم فيهم رحمة جزاء ما ارتكبوه في حق الإسلام والمسلمين؛ ولأن المنافق الذي طبع على النفاق صارت طبيعته مسمومة ملوثة لا تصفو أبدًا، فالنفاق في دمه يلازمه أينما ذهب، ولا بد أن ينتهي أمره إلى الطرد من أي مكان يحل فيه.

وبهذا الوعيد انكف المنافقون عن أذاة المسلمين وعن الإرجاف فلم يقع التقتيل فيهم، إذ لم يحفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل منهم أحدًا، ولا أنهم خرج منهم أحد، وهذه الآية ترشد إلى تقديم إصلاح الفاسد من الأمة على قطعه منها؛ لأن إصلاح الفاسد يكسب الأمة فردًا صالحًا، أو طائفة صالحة تنتفع الأمة منها.

وفيها الأمر بتأديب هذه الفئات إذا لم تنته عن أذاها وإرجافها بعد الإنذار، وهو الطرد وإهدار الدم والقتل دون هوادة وتسامح، وحكمها عام شامل ومستمر، وموكول لأولي الأمر في المسلمين، حيث توجب عليهم سلوك سبيل الشدة في القمع والتنكيل مع من لم يرتدع عن موقف الأذى والدس والإرجاف؛ لسلامة المجتمع وطمأنينته[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١١٠، تفسير الشعراوي ١٩/ ١٢١٧٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١١٠، تفسير الشعراوي ١٩/ ١٢١٧٧، التفسير الحديث، محمد عزت ٧/ ٤٢١.

مرض الشهوات

ستتناول في هذا العنوان أعراضه، والوقاية منه، وعاقبته، وذلك فيما يلي:

أولًا: أعراضه:

تظهر أعراض مرض الشهوات من خلال النقاط الآتية:

١. الاستجابة لأدنى مثير.

من أعراض مرض الشهوات التي ذكرها القرآن الكريم الاستجابة لأدنى مثير.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٣٢].

يخبر القرآن الكريم أن مريض الشهوة وإرادة الفجور، يؤثر فيه أقل شيء من أسباب الافتتان ويوقعه في الفتنة طمعًا أو فعلًا، فكل من أراد شيئًا من معاصي الله فقلبه مريض مرض شهوة، ولو كان صحيحًا لاتصف بصفات الأذكياء الأبرياء الأتقياء الموصوفين بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:٧-٨][1].

وقوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: مرض شهوة الزنا والفجور، والمعنى: لا تقلن قولًا يجد به منافق أو فاجر سبيلًا إلى الطمع في موافقتكن به، فإنه مستعد ينظر أدنى محرك يحركه؛ لأن قلبه غير صحيح، فإن القلب الصحيح، ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب؛ لصحة قلبه، وسلامته من المرض، بخلاف مريض القلب الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد يدعوه إلى الحرام يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ملؤه الأدب والوقار حسنا في معناه، خشنا في مبناه، مقتصرًا على الجواب الكافي؛ لأن الزيادة ممنوعة كما أن اللين ممنوع، وإنما أمرهن الله بهذا؛ لئلا ينسبن لقلة الأدب وهن منبعه وعنهن يؤخذ[2].

٢. إشاعة الفاحشة.

من أعراض مرض الشهوات التي ذكرها القرآن الكريم إشاعة الفاحشة.

قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ۝٦١﴾ [الأحزاب:٦٠-٦١].

(١) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، السعدي ص٩٥.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٦٩، بيان المعاني، العاني ٥/ ٤٧٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٣.

يخبر تعالى المنافقين ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم أصحاب الشهوة الزناة الذين يتبعون النساء ويتعرضون لهن، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ الذين كانوا ينشرون أخبار السوء عن المؤمنين، وقال الكلبي: كانوا يحبون أن يفشوا الأخبار، وأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنأمرنك بإخراجهم من المدينة أو بقتالهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ أي: لا يساكنون معك في المدينة وتخلو المدينة منهم بالإخراج أو بالموت ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا زمانًا يسيرًا[1].

ثانيًا: الوقاية منه:

وللوقاية من مرض الشهوات أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم: بأن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين بفعل ما يدفع الإيذاء عنهن في الجملة، من التستر والتميز بالزي واللباس؛ حتى يبتعدن عن الأذى بقدر المستطاع.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب:٥٩].

روي أنه لما كانت الحرائر والإماء في المدينة يخرجن ليلًا لقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والإماء، وكان في المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر، فإذا كلموا في ذلك قالوا: حسبناهن إماء، فطلب من رسوله أن يأمر الحرائر أن يخالفن الإماء في الزي والتستر، لِيَتَمايَزْنَ ويُهَبْنَ، فلا يطمع فيهن طامع، كما نهاهن عن الخضوع بالقول عند مخاطبة الرجال الأجانب، وأمرهن بملازمة البيوت، ونهاهن عن التبرج عند الخروج من البيوت لحاجة تستدعي ذلك.

وهي تعليمات تؤدي إلى الوقاية من وقوع الفتنة، وما خالفتها النساء في مجتمع إلا فشت فيه الفاحشة.

وأرشدهن بعد ذلك إلى ملازمة القول المعروف عند مخاطبة الرجال الأجانب، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبين سبحانه أن ذلك الترك لما نهى عنه، والفعل لما أمر به سبب لذهاب الرجس عنهن.

قال سبحانه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٦٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٢٤.

[الأحزاب:٣٢- ٣٣][1].

إن على المسلمة إذا خرجت من بيتها لحاجة أن تسدل عليها ملابسها، بحيث تغطي الجسم والرأس، ولا تبدى شيئًا من مواضع الفتنة كالرأس والصدر والذراعين ونحوها.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩] أي: ذلك التستر أقرب لمعرفتهن بالعفة فلا يتعرض لهن، ولا يلقين مكروها من أهل الريبة؛ احترامًا لهن منهم، فإن المتبرجة مطموع فيها، منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء، كما هو مشاهد في كل عصر ومصر، ولا سيما في هذا العصر الذي انتشرت فيه الخلاعة، وكثر الفسق والفجور[2].

ثالثًا: عاقبته:

لقد حذر الله تعالى مرضى الشهوات بخطورة هذا المرض عليهم وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه، وأنذر فئات المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين في المدينة بأنهم إذا لم ينتهوا عما يبثونه من وساوس ودسائس ويوقعونه من أذى وقلاقل، فإن الله يغري نبيه بهم ويسلطه عليهم ويقدره على طردهم من المدينة مدموغين بدمغة اللعنة مهدوري الدم؛ ليقتلوا قتلا ذريعا بدون هوادة واستثناء وتساهل أينما وجدوا، وهذه هي سنة الله فيمن مضى من أمثالهم من الأمم وهي السنة التي لا تتبدل في حال.

قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢].

فهؤلاء المنكوسين مطرودين من باب الله ومن باب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومطرودين من أبواب المسلمين، تلاحقهم المذلة في كل مكان جزاء على حرصهم القبيح وحقدهم الدفين ونواياهم الخبيثة في زعزعة المجتمع المسلم وبث روح الانهزام فيه، وهذه هي السنة الجارية على مثل هؤلاء بلا رحمة ولا هوادة ولا تغيير ولا تبديل؛ لابتنائها على الحكمة والمصلحة، ولا يقدر غيره على تغييرها[3].

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب:٦٠].

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٦٣، تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٦٦٧.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٢/ ٣٧.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٢/ ٣٨، التفسير الحديث، محمد عزت ٧/ ٤٢٠.

فكل وصف من هذه الأوصاف خطر على المجتمع الإسلامي، سواء إبطان الكفر، أو الفسوق والعصيان، وتتبع النساء للاطلاع على عوراتهن والإساءة لهن بالقول القبيح والفعل الشنيع، أو إشاعة الأكاذيب المغرضة التي تنشر القلق والخوف والاضطراب، وتضعف من معنويات الجماعة، مما يسهل هزيمتهم، وانتصار الأعداء عليهم[1].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١١٢.

مرض الأبدان

تحدث القرآن الكريم عن الأمراض البدنية في النقاط الآتية:

أولًا: ابتلاء:

أخبر الله تعالى عباده المؤمنين أنه مبتليهم ومختبرهم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس؛ ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:١٥٥].

بينت الآية أن الدنيا دار بلاء؛ ليعلم المسلمين أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب مظهر لثباتهم على الإيمان، ومحبة الله تعالى والتسليم لقضائه، فينالون بذلك بهجة نفوسهم بما أصابهم في مرضاة الله ويزدادون به رفعة وزكاء، ويزدادون يقينًا بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا، ويَنْجَرُّ لهم من ذلك ثواب؛ ولذلك جاء بعده ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ فمن صبر فله الثواب ومن جزع فله العقاب، ومن أنواع الابتلاء والاختبار ﴿الْخَوْفِ﴾ وهو الخوف الذي أصابهم يوم الخندق، حتى بلغت القلوب الحناجر ﴿وَالْجُوعِ﴾

وهو القحط الذي أصابهم، فكان يمضي على أحدهم أيامًا لا يجد طعامًا ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ يعني: ذهاب أموالهم، ويقال: موت الماشية ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ يعني: الموت والقتل والأمراض في البدن، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾، يعني الجوائح، وأن لا تخرج الثمرة كما كانت تخرج، ثم ختم الآية بتبشير الصابرين؛ ليدل على أن من صبر على هذه المصائب كان على وعد الثواب من الله تعالى[1].

قال الخازن: «فإن قلت: ما الحكمة في تقديم تعريف هذا الابتلاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾؟ قلت: فيه حكم:

منها: أن العبد إذا علم أنه مبتلى بشيء وطن نفسه على الصبر، فإذا نزل به ذلك البلاء لم يجزع.

ومنها: أن الكفار إذا شاهدوا المؤمنين مقيمين على دينهم، ثابتين عند نزول البلاء، صابرين له، علموا بذلك صحة الدين، فيدعوهم ذلك إلى متابعته والدخول فيه.

ومنها: أن الله تعالى أخبر بهذا الابتلاء قبل وقوعه، فإذا وقع كان ذلك إخبارًا عن غيب فيكون معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم.

ومنها: أن المنافقين إنما أظهروا الإيمان طمعًا في المال وسعة الرزق من الغنائم، فلما أخبر الله أنه مبتلى عباده فعند ذلك تميز المؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

ومنها: أن الإنسان في حال الابتلاء أشد إخلاصا لله منه في حال الرخاء، فإذا علم أنه مبتلى دام على التضرع والابتهال إلى الله تعالى؛ لينجيه مما عسى أن ينزل به من البلاء»[2].

وقال سيد قطب: «ولا بد من تربية النفوس بالبلاء؛ ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة؛ كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى.

فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين، وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها، كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها، إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيرًا مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢١٩، تفسير السمرقندي ١/ ١٠٥، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٥١٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٥٤.

(٢) لباب التأويل ١/ ٩٤.

هذا البلاء، ولا صبروا عليه، وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها، وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجًا.

ولا بد من البلاء كذلك؛ ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى، ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله، الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأَسْنَادُ كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سندًا إلا سنده، وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر، لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوته، لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ إلا إليه، وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح»[1].

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٤٥.

ثانيًا: التخفيف والتيسير في الأحكام الشرعية:

ذكر القرآن الكريم أن الأمراض البدنية سبب من أسباب التخفيف والتيسير في الأحكام الشرعية.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]، وقوله جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٣].

بينت الآيات أن الفطر مباح للمريض؛ لعذر المرض، والمسافر؛ طلبا لحفظ صحته وقوته؛ لئلا يذهبه الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف، فأباح للمسافر الفطر حفظا لصحته وقوته عما يضعفها، وللمريض حالتان: إن كان لا يطيق الصوم كان الإفطار عزيمة، وإن كان يطيقه مع تضرر ومشقة كان رخصة، وبهذا قال الجمهور، وأباح للمريض ومن به أذى من رأسه من قمل أو حكة أو غيرهما، أن يحلق رأسه في الإحرام[2].

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٧،

والسفر المبيح للإفطار عند الجمهور: هو مسافة قصر الصلاة الرباعية، وقدره ستة عشر فرسخًا أو ثمانية وأربعون ميلًا هاشمية، أو مسيرة يومين معتدلين أو مرحلتين بسير الأثقال ودبيب الأقدام، والبحر كالبر، وقدروها بحوالي (٨٩) كم، وعند الحنفية: هو قدر ثلاث مراحل أو أربع وعشرين فرسخًا، أو مسيرة ثلاثة أيام سيرًا وسطًا، وهو سير الإبل، والأقدام في البر، وسير السفن الشراعية في البحر، ويكتفون بسير معظم اليوم، وقدروه ب (٩٦) كم.

والحق أن ما صدق عليه مسمى السفر فهو الذي يباح عنده الفطر، وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض فهو الذي يباح عنده الإفطار، وقد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة واختلفوا في الأسفار المباحة- والحق أن الرخصة ثابتة فيها- وكذا اختلفوا في سفر المعصية وليس في الآية أعني قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ما يدل على وجوب التتابع في القضاء[1].

وقوله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ المراد مرض يقتضي الحلق سواء كان المرض بالجسد أم بالرأس، وقوله جل وعلا: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كناية عن الوسخ الشديد والقمل؛ لكراهية التصريح بالقمل، وكلمة (من) للابتداء، أي: أذى ناشئ عن رأسه، وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام والصدقة والنسك.

فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: (كان بي أذى من رأسي، فحملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهي، فقال: (ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ منك ما أرى، أتجد شاة) ؟ قلت: لا. فنزلت الآية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال: (هو صوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين نصف صاع طعامًا لكل مسكين)[2][3].

محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٢٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٩، الإعجاز البياني للقرآن، بنت الشاطئ ص ٥٧٨.

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٧، نيل المرام، محمد صديق ص ٣٣، التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ١٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الإطعام في الفدية نصف صاع، رقم ١٨١٦، ٣/ ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، ووجوب الفدية لحلقه، وبيان قدرها، رقم ١٢٠١، ٢/ ٨٦١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٨، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٧، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٢٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٩، الإعجاز البياني للقرآن، بنت الشاطئ ص ٥٧٨.

الشفاء من الأمراض

سيشتمل هذا العنوان على حكمة إسناد الشفاء إلى الله تعالى، وأدوية قرآنية، وذلك خلال ما يلي:

أولًا: حكمة إسناد الشفاء إلى الله تعالى:

أسند الشفاء إلى الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء:٨٠] لسببين هما:

الأول: لو جاء والذي يطعمني ويسقين، وإذا مرضت يشفين؛ لكان معلومًا أن مراده الله تعالى، وذكر «هو» توكيدًا لمعنى الكلام، وتخصيص الفعل به دون غيره، واحتاج ذكر الإطعام والشفاء إلى هذا التوكيد؛ لأنهما مما يدعي الخلق فعله، فيقال: فلان يطعم فلانًا، والطبيب يداوي، ويسبب الشفاء، فكانت إضافة هذين الفعلين إلى الله تعالى محتاجة إلى لفظ التوكيد؛ لما يتوهم من إضافته إلى المخلوق إلى ما لا يحتاج إليه[1].

الثاني: لأنه كان في معرض الثناء على الله تعالى وتعديد نعمه، فأضاف إليه الخير المحض حفظًا للأدب وإن كان الكل مضافً إليه، ونظيره قول الخضر عليه الصلاة والسلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩] وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف:٨٢][2].

ثانيًا: أدوية قرآنية:

١. القرآن.

إن القرآن الكريم شفاء ورحمة.

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء:٨٢].

أي: يستشفى به من الجهل والضلالة، ويذهب ما في القلوب من الأمراض من الشك والنفاق والشرك والزيغ والميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان، والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وكفرًا، والآفة من الكافر لا من القرآن، والشفاء: أن تعالج داءً موجودًا لتبرأ منه، والرحمة: أن تتخذ من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى، فالرحمة وقاية، والشفاء علاج، وما دام القرآن كذلك فمن

(١) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي ١/ ٩٦٧، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي ص ٣٧٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ٣٤٧، بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢١٥، الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر ١/ ١٧٨.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

عمل بمنهجه فإنه يقيه كل أمراض النفاق والشبهات والأهواء التي تصيب القلوب، وفيه الثواب العظيم من الله تعالى، الثواب الخالد في نعيم دائم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لأنهم كلما سمعوا آية منه ازدادوا بعدًا عن الإيمان وازدادوا كفرا بالله؛ لأنه قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

وقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

أي: دواء للقلوب من أمراضها التي هي أشد من أمراض الأبدان، كالشك والنفاق والحسد والحقد وأمثال ذلك، بتعليم الحقائق والحكم الموجبة لليقين، والتصفية والتهيء لتجليات الصفات الحقة ﴿وَهُدًى﴾ لأرواحكم إلى الشهود الذاتي ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بإفاضة الكمالات اللائقة بكل مقام من المقامات الثلاثة بعد حصول الاستعداد في مقام النفس بالموعظة، ومقام القلب بالتصفية، ومقام الروح بالهداية للمؤمنين بالتصديق أولًا، ثم باليقين ثانيًا، ثم بالعيان ثالثًا.

وذكر بعضهم الموعظة للمريدين، والشفاء للمحبين، والهدى للعارفين، والرحمة للمستأنسين، والكل مؤمنون إلا أن مراتب الإيمان متفاوتة، والخطاب في الآية لهم، وفيها إقامة الظاهر مقام المضمر، ويقال: إنه سبحانه بدأ بالموعظة لمريض حبه؛ لأنها معجون لإسهال شهواته، فإذا تطهر عن ذلك يسقيه شراب ألطافه، فيكون ذلك شفاء له مما به، فإذا شفي يغذيه بهدايته إلى نفسه، فإذا كمل بصحبته يطهره بمياه رحمته من وسخ المرض ودرن الامتحان.

ووصف الله تعالى القرآن بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء؛ لأن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه، أما الدواء فقد يفيد وقد يضر فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيد، وأي تأكيد لثمرة التداوي به[2].

وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١١٢، تفسير المراغي ١٥/ ٨٦، تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٧١٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١١٢، تفسير المراغي ١٥/ ٨٦، تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٧١٢، روح المعاني، الألوسي ٦/ ١٦٥، دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي ص ٥٩.

رجاء بركتها)[1].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

«وفي القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت وتفتحت لتلقي ما في القرآن من روح وطمأنينة وأمان، في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ويرضى، فيستروح الرضا من الله والرضا عن الحياة، والقلق مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان، وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة في الشعور والتفكير، فهو يعصم العقل من الشطط، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط، يجعل نشاطه منتجًا ومأمونًا، ويعصمه من الشطط والزلل.

وكذلك هو في عالم الجسد ينفق طاقاته في اعتدال بلا كبت ولا شطط، فيحفظه سليمًا معافى، ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين، وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها، فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي وعدالته الشاملة في سلامة وأمن وطمأنينة، ومن ثم هو رحمة للمؤمنين[2].

٢. العسل.

ذكر القرآن الكريم الدواء في العسل، قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٨- ٦٩].

بينت الآية أن العسل فيه شفاء للناس؛ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك، وتنكيره إما لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠١٦، ٦/ ١٩٠ كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث، رقم ٢١٩٢، ٤/ ١٧٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٤٨.

فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه: (أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: (اسقه عسلًا) ثم أتى الثانية، فقال: (اسقه عسلًا) ثم أتاه الثالثة فقال: (اسقه عسلًا) ثم أتاه فقال: قد فعلت؟ فقال: (صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلًا) فسقاه فبرأ[(١)] [(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، رقم ٥٦٨٤، ٧/ ١٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب التداوي بسقي العسل، رقم ٢٢١٧، ٤/ ١٧٣٦.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦١٩، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٢٢.

أثر انتشار الأمراض في المجتمع

لم يقتصر سوء خلق المنافقين على أنفسهم وتكوينهم القبيح، وإنما تعدى ضررهم وقبح أخلاقهم إلى المجتمع، بقصد هدم بنيته وتقويض وجوده من طريق ترويج الرذيلة والمنكر، ومحاربة الفضيلة والمعروف.

قال الله تعالى مبينًا تحركات المنافقين في هدم القيم الإنسانية: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ۚ فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة:٦٧- ٦٩].

ومطلع الآيات إخبار وحكم من الله تعالى بأن المنافقين والمنافقات بعضهم يشبه بعضًا في الحكم والمنزلة من الكفر، وفي صفة النفاق والبعد عن الإيمان، وفي

الأخلاق والأعمال، فهم سلالة خبيثة يأمرون بهدم قيم المجتمع، يأمرون الناس بالمنكر: وهو ما أنكره الشرع ونهى عنه، واستقبحه العقل السليم والعرف الصحيح، كالكذب والخيانة ونقض العهد وخلف الوعد.

وينهون الناس عن المعروف: وهو كل ما أمر به الشرع وأقره العقل والطبع السليمان كالجهاد وبذل المال في سبيل الله، وأهل النفاق أيضا قوم بخلاء، يقبضون أيديهم عن الإنفاق لمصلحة عامة أو عن الجهاد، وعن كل ما يرضي الله، ونسوا ذكر الله، وأغفلوا تكاليف الشرع، مما أمر الله به ونهى عنه، فنسيهم الله، أي: جازاهم بمثل فعلهم، وعاملهم معاملة المنسيين، بحرمانهم من لطفه ورحمته، والنفاق أقتل داء يصيب المجتمع الإنساني، فإذا تفشى هذا الداء الخبيث في جماعة من الجماعات فسد وجودها، وضل سعيها، وغشيتها أمواج الفتن، واشتملت عليها عواصف العداوة والبغضاء!

وماذا يرجى من جماعة تتعامل فيما بينها بالرياء والنفاق، فيضيع في محيطها المفهوم الحقيقي للغة، وتصبح الكلمات لديها عملة زائفة، يتداولها الناس كما يتداولون الأشياء المسروقة؟

وواجب الفرد المسلم تجاه كل هذا أن يتحمل مسؤوليته بالعمل على إصلاح المجتمع، وإزالة الفساد منه على قدر طاقته ووسعه مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧١-٧٢].

المؤمنون نقيض المنافقين يأمرون بالمعروف الذي أقره الشرع، وهو عبادة الله وتوحيده وتوابع ذلك، لا بالمنكر الذي نهى عنه الشرع، وينهون عن المنكر الذي يفسد ويضر، ويمزق ويفرق بين الأخ وأخيه، وهو عبادة الأوثان وتوابعها، ويقيمون الصلوات الخمس المفروضة على الوجه الأكمل بقلوب خاشعة، وعقول واعية، وأفئدة ذاكرة، ويؤتون الزكاة الواجبة مع التطوع بالصدقات والنوافل لتحسين أوضاع المجتمع وترقية أحواله، ويطيعون الله ورسوله في جميع المأمورات والمندوبات.

أولئك الموصوفون بهذه الصفات الجليلة، ستغمرهم رحمة الله وفضله في الدنيا والآخرة، والتعبير بالسين في قوله

تعالى: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾، إعداد النفوس للتهيؤ والتنعم برجاء الله والثقة بوعده وفضله، ووعد الله ناجز، والله متكفل بإنجازه، والله قوي لا يغلب، ولا يمتنع عليه شيء من وعد ولا وعيد، حكيم يضع الأمور في موضعها المناسب على وفق العدل والحكمة والصواب[1].

إن المنافقين قوم برزوا في إظهار مرض القلب الذي ينشأ عنه كل إثم وفسوق وعصيان، وخاصة تتبع النساء والتعرض لهن بالسوء، وإغرائهن على الفاحشة، وفيهم قوم برزوا في الإرجاف وإذاعة السوء، وإذاعة الأكاذيب التي تفت في عضد الجماعة، وتقتل فيهم روح الإقدام، وكانوا يتهزون فرص الحرب والقتال، فيذيعون كل ضار ومفسد[2].

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب:٦٠].

فكل وصف من هذه الأوصاف خطر على المجتمع الإسلامي، سواء إيطان الكفر، أو الفسوق والعصيان وتتبع النساء للاطلاع على عوراتهن، والإساءة لهن بالقول القبيح والفعل الشنيع، أو إشاعة الأكاذيب المغرضة التي تنشر القلق والخوف والاضطراب، وتضعف من معنويات الجماعة، مما يسهل هزيمتهم، وانتصار الأعداء عليهم[3].

ويلاحظ أيضًا أن الأوصاف الثلاثة: وهي النفاق، ومرض القلب، والإرجاف موجودة كلها في المنافقين، وهم خطر على الأمة في عقيدتها، وفي سلمها وحربها، فهم كالسوس ينخر في جسم الأمة، وهم في السلم جرثومة فتك وأداة تخريب وتفريق، وفي الحرب أداة إضعاف وإشاعة السوء، وزعزعة المقاتلين، وهم في الواقع عون للأعداء على المسلمين، مما يجب التخلص منهم، وعقابهم أشد العقاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء ١٤٥][4].

موضوعات ذات صلة:

الضعف، النفاق، الوهن

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٩٣٢، التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٨٨٤، ٨٨٧.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ١١٨.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١١٢.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٠٨٨.

مريم

عناصر الموضوع

التعريف بمريم عليها السلام	٣٥٦
مواضع القصة في القرآن	٣٥٧
أم مريم	٣٦٠
كفالة زكريا عليه السلام	٣٦٣
اصطفاء الله تعالى لمريم	٣٦٥
بشارة مريم	٣٦٨
حمل مريم بعيسى عليهما السلام	٣٧٤
اتهام اليهود لمريم	٣٧٧
نبوة مريم عليها السلام	٣٨١
ضلال بعض طوائف النصارى في مريم	٣٨٣
الدروس المستفادة من قصة مريم	٣٨٥

التعريف بمريم عليها السلام

هي مريم بن عمران، وهو من نسل داود عليه السلام، ويرجع أصله إلى إبراهيم عليه السلام، وكان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه[1].

وكان رجلًا صالحًا، وكانت له زوجة صالحة طيبة طاهرة خيرة تقية وفية مطيعة لزوجها، ومطيعة لربها، « واختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض »[2].

وذكر ابن كثير نقلًا عن ابن عساكر نسب مريم إلى داود عليه السلام، قال: « ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقوذ بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور، وقيل زوج خالتها أشياع، فالله أعلم»[3].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤].

هاتان الآيتان الكريمتان تمهيد للحديث عن مريم رحمها الله، وابنها نبى الله عيسى عليه السلام، وبيان أنه بشر رسول خلقه الله -عز وجل- من أم دون أب كما خلق آدم عليه السلام من غير أب ومن غير أم. وفى ذلك رد على النصارى الذين زعموا كذبا وزورا أن عيسى إله وابن إله، وهاتان الآيتان الكريمتان جزء من الآيات التى نزلت لترد على كثير من مزاعم النصارى، وذلك أن وفدًا من نصارى نجران جاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فى المدينة فأحسن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- استقبالهم وأكرم نزلهم ودار حوار بينه وبينهم أقام فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حججا ظاهرة وأدلة دامغة تدحض مزاعمهم وتدل على فساد معتقداتهم، وأنزل الله تعالى فى هذا الشأن صدر سورة آل عمران[4].

وآل عمران من الذين اصطفاهم الله، وهم من آل إبراهيم، وخصوا بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام، تشريفًا وتكريمًا، وتمهيدا للحديث عنهم بشيء من التفصيل.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٥٨.
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٥٨.
(٣) البداية والنهاية ٢/ ٥٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٨، السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٥٨.

مواضع القصة في القرآن

وردت قصة مريم الصديقة رضي الله عنها في سور كثيرة ولمناسبات متعددة نذكر منها ما يلي:

في سورة آل عمران: ورد الحديث عنها في سياق الحديث عن عيسى عليه السلام وبيان أنه بَشَرٌ رَسُولٌ خلقه الله -عز وجل- من غير أبٍ، كما خلق آدم من غير أب ولا أُمٍّ.

قال تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

وعيسى عليه السلام فرعٌ طيب من شجرة طيبة مباركة، فأمه مريم رضي الله عنها خير نساء العالمين، اصطفاها الله تعالى وطهرها وآثرها وأنعم عليها بنعم كثيرة وأكرمها بكرامات ظاهرة، وأمها امرأة صالحة صادقة وفية تقية، نذرت حملها لله تعالى محررا فتقبل الله منها نذرها.

وأبوها عمران -عليه السلام- العابد والحبر الزاهد صاحب المكانة السامية في قلوب العباد المخلصين الذين تسابقوا وتنافسوا على كفالة مريم -رضي الله عنها- تقربا إلى الله تعالى، ووفاء وعرفانا وبرا وإحسانا إلى معلمهم وإمامهم عمران عليه السلام الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤية ابنته مريم رضي الله عنها، التي خلدت ذكره في العالمين، وسميت هذه السورة بهذا الاسم تكريما لعمران عليه السلام ولأصله الطاهر ولذريته الصالحة الطيبة.

ويأتي ذكر جانب آخر من قصة مريم رضي الله عنها في سورة تحمل اسمها تكريما لها وهي سورة مريم التي ورد فيها الحديث عن مجيء جبريل -عليه السلام- لها في صورة بشرية وهي في خلوتها تعبد الله عز وجل، واستعاذتها بالله -تعالى- منه، وإخباره إياها بحقيقته ومهمته التي كلفه الله بها والتي جاء من أجلها، وتعجبها من تلك البشارة العجيبة وجواب جبريل -عليه السلام- على استفهامها التعجبي، ونفخه فيها وحملها بعيسى عليه السلام ومدة الحمل وساعة المخاض، تلك الساعة العصيبة العسيرة التي مرت بمريم النذيرة، والتي تمنت الموت من شدة ما مر بها، ومولد عيسى عليه السلام، وما صحبه من رحمات ونفحات وإرهاصات، وقدوم مريم إلى قومها ومعها وليدها عيسى عليه السلام وموقفهم من ذلك ونطق عيسى عليه السلام وهو في المهد.

وتأتي إشارة لمريم في سورة المائدة فيها منقبة عظيمة لها.

قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

فذكر الله تعالى صفة كريمة من صفات مريم وهي الصدق، والصديقية مقام من أسمى المقامات، فالنبوة أعظم درجات الكمال في الرجال، والصديقية تأتي في المرتبة الثانية بعد النبوة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

وفي سورة الأنبياء يرد ذكرها رضي الله عنها وابنها نبي الله عيسى عليه السلام في سياق الحديث عن نعم الله عز وجل ورحمته بأنبيائه وأصفيائه.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال صاحب الظلال: « ولا يذكر هنا اسم مريم؛ لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها عيسى عليه السلام، وقد جاءت تبعا له في السياق، وإنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أحصنته فصانته من كل مباشرة والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية؛ لأن الزواج يُحَصِّنُ من الوقوع في الفاحشة، أما هنا فيذكر في معناه الأصيل وهو الحفظ والصون أصلا من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية، وذلك تنزيها لمريم عن كل ما رماها به اليهود »[(١)].

كما يأتي ذكرها رضي الله عنها في سورة المؤمنون مع ابنها نبي الله عيسى عليه السلام في سياق الحديث عن رحمة الله بأنبيائه وعنايته بهم وحفظه لهم.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

جعلهما الله آية للناس تدل على قدرته تعالى ورعايته لأنبيائه وأوليائه، وآواهما إلى ﴿رَبْوَةٍ﴾: مكان مرتفع من الأرض، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستوية وصالحة للعيش عليها وذات خصبٍ، وماء طيبٍ جارٍ تراه العيون، وهو بيت المقدس[(٢)].

ويتكرر ذكرها أيضا في سورة التحريم مع آسية بنت مزاحم كمثل طيب ونموذج رائع،

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٨.

وصورة مشرقة متألقة للمرأة الصالحة الصادقة المؤمنة المحسنة التقية النقية، بعد أن ضرب الله تعالى مثلا للمرأة الكافرة فيكون ذكرها وقبلها آسية رضي الله عنهما مسك الختام لهذه السورة الكريمة التي استفتحت بالحديث عن أمهات المؤمنين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٠ - ١٢].

أم مريم

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

بدأت قصة مريم رضي الله عنها في بيت صالح هو بيت أبيها عمران ذلك التقى النقي الذي أكرمه الله عز وجل بزوجة طيبة صالحة، وكان من نتاج هذا الزواج المبارك ومن ثمراته الطيبة: مريم رضي الله عنها، ربيبة بيت الطهر والعفاف وسليلة آل العلم والعبادة.

وكانت امرأة عمران رضي الله عنها تدعو المولى عز وجل أن يرزقها ولدا ذكرا تقر به عينها وتبتهج به نفسها وينشرح له صدرها، فلما تحرك الحمل في أحشائها نذرت ما في بطنها محررًا أي خالصا لوجه الله تعالى منقطعا لعبادته وخدمة بيت المقدس، أملا ورجاء أن توهب ذكرا يحمل اسم زوجها عمران ويخلفه في الفضل.

طلبت امرأة عمران أن يتقبل المولى عز وجل نذرها ويقبل نذيرها قبولا حسنا.

أولًا: حملها ونذرها

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

أجاب الله دعاء امرأة عمران، تلك المرأة الصابرة الصادقة الصالحة التي توجهت إلى المولى عز وجل بالدعاء والرجاء أن يرزقها الولد الصالح، فاستجاب الله لها، وآتاها سؤلها، فشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها، فأشرقت الدنيا في عينها وغمرتها وزوجها نشوة من السرور.

فالبنون قرة العيون، وثمرة الفؤاد، وبهجة النفوس وريحانة القلوب وفلذات الأكباد.

ولكن لم تطل فرحتها ولم تتم بهجتها فلقد مات زوجها عمران عليه السلام، وقد كانت تتمنى بقاء زوجها حتى ينعم برؤية فلذة كبده وتكتحل عيناه برؤية ولده، ويشاركها فرحتها، ولكن قضاء الله حل، ولقد استقبلت هذه الأمور بالصبر الجميل، والإيمان واليقين، فلما تحرك الحمل فى أحشائها نذرت ما فى بطنها محررا أى خالصا لوجه الله تعالى منقطعا لعبادته، والمحرر هو الخالص ومنه: الذهب الحر: أى الخالص من الشوائب، وطلبت امرأة عمران أن يتقبل المولى عز وجل نذرها ويقبل نذيرها قبولا حسنا، فهو تعالى سميع لقولها مجيب لدعائها وتضرعها عالم

بحالها ونيتها[1].

ثانيًا: وضعها ووفاؤها بنذرها

ومضت الأيام وجاءت ساعة الوضع، ووضعت امرأة عمران وليدها فإذ به أنثى، فتبادر إلى الاعتذار لربها، لأنها كانت ترجو أن يكون المولود ذكرا لتهبه لخدمة بيت المقدس كما نذرت، والأنثى لا تصلح لهذه المهمة، كما جرت العادة بذلك، فتوجهت امرأة عمران إلى ربها قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قال ابن كثير: « وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداما من أولادهم»[2].

أدركت امرأة عمران أن لله في ذلك حكمة يعلمها، فالله -عز وجل- يدبر أحوال الخلق وفق قدرته وإرادته وعلمه وحكمته، ولعل هذه الأنثى عند الله خير من الذكر؛ لأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه، فهو سبحانه لا يقع في سلطانه إلا ما أراده، لكن المولى جل وعلا يعلم مكانة هذه المولودة وقدرها، فهي سيدة نساء العالمين، اصطفاها الله وطهرها، واجتباها وآثرها، وجعلها وابنها آية للعالمين.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٦.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٤٩.

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾: قالت امرأة عمران معتذرةً لربها: وليس الذكر الذي طلبته ونذرته كالأنثى التي وضعتها، فالذكر يتمكن من الوفاء بالنذر بخدمته في المسجد، أما الأنثى فإنها لا تقدر على القيام بما يقوم به الذكر، كما أنه يعتريها من الأحوال ما يَحُوْلُ بينها وبين البقاء في المسجد، وذلك حين يأتيها الحيض، أو النفاس عند الولادة، فضلا عن تفاوتهما في القوة والجلد.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ انفردت امرأة عمران بتسمية مريم وما ذلك إلا لوفاة زوجها عمران عليه السلام أثناء حملها، وسمتها مريم تقربا إلى المولى عز وجل بهذه التسمية الحسنة، فمريم -رضي الله عنها- تعنى في لغتهم: العابدة والخادمة، وللاسم علاقته بالمسمى، فهي ترجو أن يكون لها حظ وافر من اسمها[3].

وفى هذه التسمية إشارة إلى عزمها على إمضاء نذرها، ورجائها أن يكون عند الله مقبولا.

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾: تضرعت امرأة عمران لربها أن

(٣) قال القاسمي في محاسن التأويل ٤/ ٩١: قال المفسرون هي في لغتهم بمعنى العابدة، سمتها بذلك رجاء وتفاؤلا أن يكون فعلها مطابقا لاسمها.
وقال ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٥٤١: (مريم) بالسريانية تعني: الخادم.

يقبل وليدتها ويجعلها مباركة، ويحفظها من الشيطان الرجيم، فالمولى عز وجل خير حافظ، وهو سبحانه أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين.

وسر تكرار ﴿إِنِّي﴾ هنا للتأكيد، ولتغير المخبر به، ولأنه قد يشعر كلامها السابق أنها كارهة لما جاءها، فأكدت في كلامها هذا؛ إظهارا لرضاها بما قدر الله تعالى، ولذلك انتقلت للدعاء لها الدال على الرضا والمحبة [1] ولقد جاءت أفعال ثلاثة بصيغة الماضي ﴿نَذَرْتُ﴾ ﴿وَضَعَتْهَا﴾، ﴿سَمَّيْتُهَا﴾ للدلالة على التحقق والثبوت وفى التعبير بـ ﴿نَذَرْتُ﴾ و ﴿سَمَّيْتُهَا﴾ ما يفيد عزمها ومضيها على الوفاء بما نذرت به بلا تردد ولا تراجع، وفى التعبير بـ ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا﴾ ما يدل على التجدد والاستمرار المستفاد من التعبير بالفعل المضارع، لأن الاستعاذة مطلوبة فى كل وقت وحين [2].

ثالثًا: تقبل الله تعالى نذرها

بعد هذه المناجاة الصادقة، والدعوات الخالصة من امرأة عمران رضي الله عنها والتي طلبت من ربها أن يتقبل منها نذيرها، وأن يبارك لها في وليدتها ويعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم، أجاب الله لها الدعاء وحقق لها الرجاء، وكانت الإجابات الإلهية والنفحات الربانية والمواهب اللدنية التي تنتظر هذه الوليدة السعيدة، حيث تقبلها ربها قبولا حسنا، وأنبتها نباتا حسنا حتى نمت وترعرعت وأزهرت وأينعت، وأثمرت كلمة من الله وروحا منه هو عبد الله ونبيه عيسى عليه السلام، الذي جعله الله وأمه آية للعالمين.

قال عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ والفاء هنا للتعقيب، لبيان سرعة استجابة المولى عز وجل لدعائها وسرعة تحقيقه لرجائها، فهو عز وجل من المؤمن قريب ولدعائه مجيب.

وقال ﴿بِقَبُولٍ﴾ ولم يقل (بتقبل)؛ «للجمع بين الأمرين: التقبل الذى هو الترقى فى القبول، والقبول الذى يقتضي الرضا والإثابة » [3]، هذا مع معهود القرآن الكريم في عذوبة الألفاظ وسلاستها.

﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: مع قبولها عند الله قبولا حسنا، فقد أكرمها الله وأنعم عليها بأن أنبتها نباتا حسنا، فجمعت بين كمال الخلقة وجمال الخلق، وحسن التربية.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣٤.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٣٦.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٢.

كفالة زكريا عليه السلام

قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٧-٤١].

قيض الله تعالى لمريم نبيه زكريا عليه السلام ليتعهدها ويرعاها، ويعنى بأمرها ويهتم بإصلاحها، فكان كفالته لها نعمة من الله ورحمة، وقد تمت تلك الكفالة بتوفيق من الله عز وجل بعد أن تنافس الأحبار والرهبان وتنازعوا على كفالة مريم، كلٌّ يرجو ويطلب لنفسه أن ينال هذا الشرف وأن يحظى بذاك المقام، فمريم -رضي الله عنها- بنت إمامهم ومعلمهم عمران عليه السلام الرجل الصالح الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤية ابنته، وحرصًا على هذا الشرف، ووفاء للمعلم والمربي والمصلح، وكان تنافسهم وتسابقهم الذي وصل إلى حد النزاع والاختصام على كفالة مريم رضي الله عنها.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ فلقد كان كل واحد منهم شديد الحرص على كفالة تلك اليتيمة، ولما لم تجتمع لهم كلمة، ولم يتفق لهم رأي، فكل واحد يريد أن يستأثر بهذه المكرمة، وكان أولى بهم أن يتركوا كفالتها لنبي الله زكريا عليه السلام، ولما طال جدالهم حول من يكفلها اتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم، فمن فاز في القرعة فقد فاز بكفالة مريم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، قال ابن عباسٍ اقترعوا فجرت الأقلام مع الجرية وعال قلم زكريا الجرية فكفلها زكريا [(١)].

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ لم يحمله إليها، ولا هو مما يعهد في هذا الوقت من الزمن، وهو يعلم أنه لا يدخل عليها غيره؛ فهو القائم على كفالتها، حتى أثار ذلك الأمر دهشته وعجبه، وهذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات ٢/ ٩٥٣.

الرزق الرباني يشمل غذاء الأجساد وغذاء الأرواح، فهو يشمل الطعام والشراب، وغير ذلك من ضرورات الحياة، من كل ما ينتفع به الإنسان وما يحصله، كما أنه يشمل: غذاء الأرواح من علم وغيره، فهو أعم من الفاكهة في غير حينها المعهود؛ ولذلك جاء بصيغة التنكير التي تفيد التعظيم والتعميم والتكثير، فهو رزق حسي ورزق معنوي، وهذا الرزق كرامة من سلسلة الكرامات التي أظهرها الله لمريم، وتمهيدًا للآية العجيبة التي تنتظرها، وهي خلق عيسى عليه السلام من غير أب، فالكرامة تكريم لها وتشريف وتمهيد وإعداد لها، حتى تكون مهيأة لما ينتظرها من كرامةٍ.

﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

سأل زكريا مريم متعجبًا ومنبهرًا بما يقع لها، سألها وقال لها من أين لك هذا؟ وكيف وصل إليك ولا يدخل عليك غيري؟

﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فعطاء الله ممدود، لا تحده حدود، ولا تقيده قيود، وفضل الله عظيم وخزائنه ملأى، فالله سبحانه يعطي العبد من حيث لا يحتسب العبد.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: نبي الله زكريا عليه السلام بلغ من الكبر عتيًّا، وزوجه كانت لا تلد، فأسلمت أمرها لله ورضيت بقضاء الله، وعاشت مع زوجها حياة هادئة هانئة، ولقد أكرم المولى عز وجل زكريا عليه السلام بإكرامه لمريم تلك اليتيمة صاحبة المنزلة العظيمة، وكانت تلك الكرامة التي حدثت لمريم سببًا مباشرًا في توجه زكريا عليه السلام إلى الله ودعائه بأن يرزقه ذرية طيبة.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الوقت الذي رأى فيه الفاكهة في غير حينها، تعلق رجاؤه بقدرة الله ورحمته ولطفه أن يرزقه الولد في غير حينه، تقر به عينه، وينشرح به صدره ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩].

اصطفاء الله تعالى لمريم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٤].

عودٌ إلى مريم رحمها الله وإلى اصطفاء الله، عز وجل لها، (وإذ) معطوف على ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ﴾ والمعنى: اذكر يا محمد إذ قالت امرأة عمران رحمها الله واذكر أيضا ما قالته الملائكة لمريم رحمها الله من بشارات، ففي هذه القصة عبر وعظات ينبغي أن يتذكرها المؤمن، ويستفيد منها، ويذكر الناس بها.

والاصطفاء: الاختيار والانتقاء والتصفية.

ومعنى اصطفاء الله تعالى مريم رضي الله عنها: جعلها من بيت صالح، وقبلها قبولا حسنًا، وأنبتها نباتًا حسنًا، وجعل زكريا عليه السلام لها كافلًا، وأجرى الكرامة على يديها إكرامًا لها وإحسانًا إليها، وطهرها من كل سوءٍ، طهرها بالإيمان والطاعة والتقى والصلاح، والحياء والعفاف، فهي رضي الله عنها العفيفة الشريفة الحيية النقية الراضية المرضية، واصطفاها تعالى اصطفاءً خاصًّا بأن أكرمها بهذه المعجزة العظيمة والآية العجيبة، حيث وهبها عيسى عليه السلام المخلوق بقدرة الله عز وجل من غير أبٍ ليكون آيةً للعالمين[1].

وطهرك: من الأدناس والأقذار، ونزهك عن الأخلاق الذميمة والطباع الرديئة بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة، ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾: اصطفاء بعد اصطفاء، والاصطفاء الثاني هو أنه عز وجل أكرمها بهذه المعجزة العظيمة والآية العجيبة، حيث وهبها عيسى عليه السلام المخلوق بقدرة الله عز وجل من غير أبٍ ليكون آية للعالمين[2].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقيل: إن الاصطفاء الثاني هو عين الأول، وكرر للتأكيد وبيان من اصطفاها عليهن، ذكر ذلك الألوسي، وقال: ولعل الأول أولى؛ لما أنَّ التأسيس خير من التأكيد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٣، روح البيان، إسماعيل حقي ١/ ٣٢، روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٥، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٦.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٣ روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٥، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٩٦.

(حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد)[1].

مقتضيات الاصطفاء: قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

بعد هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية التي أكرم المولى عز وجل بها مريم: يأمرها سبحانه - عن طريق خطاب الملائكة الكرام لها - بأن تجتهد في العبادة شكرًا لله عز وجل على هذه النعم والمواهب؛ ومواصلةً للسير في طريق الهدى والصلاح.

قال الرازى: «لما بين تعالى أنها مخصوصة بمزيد المواهب والعطايا من الله تعالى، أوجب عليها مزيدًا من الطاعات شكرًا لتلك النعم السنية»[2].

والقنوت لزوم الطاعة والعبادة والاجتهاد فيها مع الإخلاص والخشوع والخضوع لله رب العالمين[3].

وقال الألوسى: «والتعرض لعنوان الربوبية؛ للإشعار بعلة وجوب الامتثال لأوامره سبحانه»[4].

وتكرير النداء ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾ للتنبيه، والإشارة إلى أهمية ما يرد فى ثناياه وفيه تكريم لها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: إن حملنا القنوت على مطلق الطاعة والعبادة، فالسجود والركوع من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية والاهتمام، وإن حملنا القنوت على القيام، فالركوع والسجود من تتمة الأركان؛ لأن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود، وإن حملنا القنوت على الإخلاص وعلى الخشوع والخضوع، فالركوع والسجود من الأفعال الظاهرة، والإخلاص والخشوع والخضوع من الأفعال الباطنة، ولا تستقيم العبادة إلا بصحة الظاهر وصلاح الباطن.

وفي هذا توجيه لمريم رضي الله عنها أن تجمع بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح، حتى يستوي الظاهر بالباطن، ويستقيم الاعتقاد مع القول والعمل.

والآية الكريمة أمر من المولى عز وجل لمريم رضي الله عنها أن تجتهد في العبادة وأن تداوم على الطاعة وتطيل في القنوت، وتكثر السجود وتركع مع الراكعين؛ حتى تزداد قربًا من رب العالمين.

وجاء التعبير بـ ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولم يقل مع الراكعات « لأن هذا الجمع أعم، إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب فضل خديجة، ٥/ ٦٦٠، رقم ٣٨٧٨. قال الترمذي: حديث صحيح.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٤.
(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ٤١٣.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٨.

التغليب، ولمناسبة رؤوس الآي»[1].

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾: ذلك: إشارة إلى ما سبق ذكره من أخبار عن اصطفاء الله للأنبياء وخبر امرأة عمران وابنتها، وخبر زكريا ويحيى عليهما السلام، وغير ذلك من الأخبار التي جاءت بها السورة الكريمة.

إن كثيرًا من الأحداث الهامة في حياة مريم رضي الله عنها لم نعرفها إلا عن طريق القرآن الكريم، من ذلك حديث القرآن عن حمل أمها بها ونذرها للعبادة، و تنافس الأحبار على كفالتها، وكفالة زكريا لها، واصطفاء الله تعالى لها، وغير ذلك من مآثرها التي لم نعرفها إلا عن طريق القرآن، إذ لم يرد لهذه الأحداث ذكر في العهد الجديد.

ولم يرد في « العهد الجديد » أيضًا كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، مع كونه آية عظيمة وحجة ساطعة على براءة مريم رضي الله عنها مما ادعاه اليهود.

بل إن أغلب الذي في العهد الجديد عن مريم فيه تقليل من شأنها وتجاهل لكراماتها، من ذلك على سبيل المثال:

- في إنجيل مرقس إصحاح ٣: ٣١/ ٣٥ ما يفيد تجاهل المسيح لمريم وإخوته وفيه: «وجاء حينئذ إخوته وأمه ووقفوا خارجًا، وأرسلوا إليه يدعونه، وكان الجميع جالسا حوله، فقالوا له: هوذا أمك وإخوتك خارجا يطلبونك ؟ فأجابهم قائلا من أمي وإخوتي ؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أمي وإخوتي لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي » • وورد فى إنجيل لوقا إصحاح ٨/ ١٩، ٢٠ نفس الموقف ويلاحظ من كلمة: من أمى وإخوتى ؟ مدى تجاهله لأمه وإخوته وضيقه بهم •
- في إنجيل مرقس إصحاح ٦: ٢/ ٥: «ولما كان السبت ابتدأ يعلم فى المجمع، وكثيرون إذ سمعوا بهتوا قائلين من أين لهذا هذه؟ وما هذه الحكمة التى أعطيت له؟ ... أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويهوذا وسمعان؟ فكانوا يعثرون به، فقال لهم يسوع: ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وبين أقربائه وفى بيته، ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة • وفى عرس قانا الجليل كما ورد فى إنجيل يوحنا ما يدل على انفعال المسيح على أمه وفيه». وفي اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل وكانت أم يسوع

(١) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٥٨.

هناك، ودعي أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس، ولمافرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر؟ فقال: لها ما لي ولك يا امرأة ؟ لم تأت ساعتى بعد » يوحنا ٢: ١/ ٥ • فهل يتفق هذا مع أخلاق النبوة ؟ إن كل هذه الأخبار كاذبة خاطئة، والمسيح عليه السلام كان بارًا بأمه رفيقًا بها محسنًا إليها.

- قال تعالى مبينًا ما قاله عيسى عليه السلام عن نفسه وهو فى المهد.

إن ما ورد فى الأناجيل فى شأن عيسى عليه السلام وفى شأن مريم متضارب متناقض، بعيد عن الحقيقة، منحرف عن الصواب، حتى شراح الأناجيل قد أصابتهم الحيرة ووقعوا فى أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأناجيل، وقصة يوسف النجار قصة متضاربة متناقضة مدسوسة ومكذوبة، وليس له أي صلة بمريم عليها السلام.

بشارة مريم

جاءت البشارات في سورتين: سورة آل عمران وسورة مريم، جاء الحديث عن البشارة مسهبًا في سورة آل عمران، وجاءت سورة مريم مفصلة لما لابس البشارة وما أعقبها، وفيما يلي أتحدث عن البشارة في السورتين الكريمتين:

أولًا: البشارة في سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٥ – ٤٧].

بعد أن اصطفى الله عز وجل مريم رضي الله عنها، وطهرها وأمرها بالاجتهاد في العبادة والمداومة على الطاعة، وأوصاها بالإخلاص والخشوع والخضوع له سبحانه، تهيأت بذلك مريم رضي الله عنها للمعجزة الكبرى والآية العجاب، وهي حملها بعيسى عليه السلام على خلاف العادة بدون أبٍ.

وكما بشرتها الملائكة بأنها المصطفاة الطاهرة جاءتها بشارة أخرى وهي أن المولى عز وجل اصطفاها لتلك المهمة

العظيمة الشأن.

« والمراد بالملائكة هنا جبريل، والجمع لما ذكرنا قبل من التعظيم»[(١)].

ولا مانع من تكرار البشارة، بشرتها الملائكة أولًا وعلى رأسهم جبريل، ثم تمثل جبريل عليه السلام فى صورة بشرية فأعاد بشارتها فأعادت تعجبها؛ زيادة فى الاطمئنان واليقين واستفسارًا عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة.

سمى المسيح كلمة الله لأنه موجود بكلمة كن، وكل ما في الكون موجود بأمر الله وكلمته، وإنما خص بهذا الاسم للتنويه بهذه الآية العجيبة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

ذكر ذلك الإمام الألوسى، ورجح أن المسيح سمي بكلمة الله؛ لأنه وجد من غير أبٍ بكلمة كن على خلاف أفراد بنى آدم، فكان تأثير الكلمة فى حقه أظهر وأكمل[(٢)].

ومعنى المسيح: المبارك[(٣)].

وقيل: سمي المسيح؛ لأنه كان يمسح على عين الأعمى فيرتد بصيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله.

وقيل: يعني الصديق.

وقيل: سمي بذلك؛ لأنه ممسوح بالزيت المبارك الذى كانت الأنبياء من قبله تمسح به، وهو زيت طيب الرائحة.

وقيل: المسيح يعني: من مسحه الله؛ أي: خلقه خلقًا حسنًا مباركًا، كما يقولون به مسحة جمال، والمسيخ: من مسخه الله، أي: خلقه فى صورة قبيحة وجعله ملعونًا[(٤)].

وقيل: لكثرة سياحته، أي :سيره فى الأرض.

وقيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما[(٥)].

وقيل: المسيح يعني: المبارك، أو لأنه كان يمسح بيده المباركة على المريض فيشفى بإذن الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ إشارة إلى أن عيسى عليه السلام سيولد من غير أبٍ، لأنه لو ولد من أبٍ لصرح باسمه بدلًا من التصريح باسم أمه.

والوجيه: ذو الجاه والشرف والقدر.

وقيل: الكريم على من يسأله فلا يرد لكرم وجهه عنده، خلاف من يبذل وجهه للمسألة فيرد، ووجاهته فى الدنيا بالنبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة بقبول شفاعته وعلو درجته.

وقيل: وجاهته فى الدنيا بقبول دعائه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣٤.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٦٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٦٣.

وقيل: بسبب أنه كان مبرءًا من العيوب التى افتراها اليهود عليه، وفي الآخرة ما تقدم»[1].

وتعرض له اليهود بالأذى والاضطهاد لا ينقص من قدره ولا يقدح فى وجاهته ومنزلته، فالأنبياء هم أشرف خلق الله، وأكرمهم وأعزهم، وقد تعرضوا للأذى والتضييق، فلم يزدهم ذلك إلا عزة ورفعة، وكرامة وإباء، وعزيمة ومضاء، وإيمانًا وتسليمًا ويقينًا وتثبيتًا ونصرًا ونجاة.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى وعند الناس بالقبول والإجابة، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كلامه فى المهد حين أنطقه الله عز وجل ببراءة أمه من اتهام اليهود عليهم لعنة الله.

والكهولة فى الأربعين. وقيل: ثلاث وثلاثين، والكهل ما اجتمعت قوته وكمل شبابه[2]، أما عن كلامه فى الكهولة: فقيل: ذكر هنا لتبشير أمه بأنه سيبلغ مبلغ الرجال، وقيل: لبيان فصاحة كلامه وبلاغته فى المهد وفى الكهولة على السواء، وقيل: إشارة إلى أنه سيرفع إلى السماء ثم ينزل إلى الأرض فى آخر الزمان فيكلم الناس، وقد بلغ سن الكهولة[3].

و قيل: رد على النصارى الذين زعموا أنه إله، والإله لا يمر بهذه التقلبات، ولا ينتقل من حال إلى حال، والمسيح سينتقل من حال الطفولة إلى حال الكهولة، والمتنقل من حال إلى حال حادث ومتغير، والحدوث والتغير يتنافى مع صفة الألوهية، ومن فوائد كلامه فى المهد: إثبات براءة أمه، وبيان عبوديته لله ونبوته وبركته وبره بأمه، ونفي كونه جبارًا شقيًا، فهو برٌّ رحيمٌ رفيقٌ حليم •

قالت مريم رحمها الله متعجبة من هذه البشارة العجيبة، ومتسائلة عن كيفية وقوعها: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ وجاءها الجواب: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قال صاحب الظلال: «وجاءها الجواب، يردها إلى الحقيقة البسيطة التى يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة، لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب، ويعود الإنسان إلى نفسه يسألها فى عجب: كيف عجبت من هذا الأمر الفطرى !!

وهكذا القرآن الكريم ينشئ التصور الإسلامى لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب، وهكذا كان يجلو الشبهات التى تعقدها الفلسفات المعقدة،

(١) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٦٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٥١.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٦٣.

ويقر الأمر في القلوب وفي العقول على السواء»[1].

ثم تمضي الآيات بعد ذلك في سورة آل عمران لتواصل الحديث عن صفات المسيح عليه السلام ونعم الله عليه وتأييده له بالمعجزات التي تدل على نبوته، كما تدل على بشريته، وعن حقيقة رسالته التي جاء بها، ويطوي السياق الحديث عن مريم رحمها الله، وينتقل للحديث عن المسيح ابن مريم وعن موقف الناس من دعوته •

ثانيًا: البشارة في سورة مريم:

ورد الحديث عن البشارة ومقدماتها، وما تبعها في سورة مريم.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾[مريم: ١٦-٢١].

بعد أن تحدث المولى عز وجل عن زكريا عليه السلام وكمال عبوديته لله تعالى، وكيف رزقه الله عز وجل، الولد مع كبر سنه وعقم زوجته، يتحدث المولى عز وجل عن خلقه عيسى بدون أبٍ، فالقصة الأولى بمثابة التمهيد للقصة الثانية، وإذا كان مولد يحيى آيةً عجيبة فإن ولادة عيسى آيةٌ عجاب.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾[مريم: ١٦-١٧].

اذكر في القرآن الكريم؛ لأن القصص القرآني هو الزاد الذي يتزود به المؤمن في حياته والنور الذي يضيء له الدروب، ومن ثم فلا بد من دوام التأمل والتدبر في القصص القرآني والاعتبار به، والاقتباس من أنوار الأنبياء والصديقين، وفي ذكر مريم في هذا السجل الخالد تشريف وتكريمٌ لها.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ اتجهت إلى شرقي بيت المقدس لتعتكف وتخلو للعبادة، ففي الخلوة رياضة للنفس، وسمو بالروح، وشحذ للهمة، وصفاء للقلب، وزيادة قرب من المولى عز وجل.

وإنما جاءها الملك في هذا المكان الطاهر المبارك كما جاء لزكريا عليه السلام وهو قائم يصلى في المحراب، حيث البركات والرحمات والنفحات، ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾: أي: جعلت

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٨.

بينها وبينهم سترًا حتى لا يشغلها شيء عن العبادة، وحتى تستأنس بالحق عن الخلق، وينصرف قلبها للعبادة، ولا تختلط بالرجال، ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جبريل عليه السلام، وسمي عليه السلام روحًا؛ لأن الدين أساسه الوحي، وهو أمينه، فبالوحي حياة الدين، كما يحيا الجسد بالروح وكما تحيا الأرض بالماء.

والإضافة في ﴿رُوحَنَا﴾ للتشريف والتعظيم، وبيان أن جبريل عليه السلام مرسل من قبل رب العالمين منزلٌ بأمره، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾: ظهر لها جبريل عليه السلام في صورة جميلة وهيئة حسنة؛ لكنها بادرت إلى اللجوء والاعتصام بالله تعالى، مخاطبة في هذا الذي قطع عليها خلوتها تقواه، وإنما تمثل لها عليه السلام بهذه الصورة لتستأنس به ولا تنفر منه، ولأنها لا تطيق رؤيته عليه السلام بصورته الطبيعية.

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾: استعاذت رضي الله عنها بربها من ذلك الذي قطع عليها خلوتها ودخل بغير إذن، وفي استعاذتها بالله تعالى ما يدل على كمال إيمانها، وورعها وتمام عفافها، وشدة حيائها وحسن أدبها، ولباقتها وسرعة بديهتها، وفي استعاذتها بالرحمن توجهٌ إليه سبحانه أن يرحم ضعفها ويصرف عنها السوء، فقد شملها تعالى برحمته في سائر أحوالها، وهي الآن أحوج إلى أن تداركها رحمة الرحمن، وفي الاستعاذة أيضا استثارة واستنهاض لبواعث الرحمة والتقوى في قلب ذلك القادم، فهو إن كان رحيمًا فسوف يرحم ضعفها ووحدتها، وإن كان تقيًّا فسوف ينصرف عنها ولا يمسها بسوء.

قال أبو العالية: «قد علمت أن التقي ذو نهية[1]»[2].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾: بادر جبريل عليه السلام إلى إزالة خوفها، ووضح لها أنه ملكٌ من ملائكة الرحمن، جاء بأمر من عنده سبحانه ليهب لها غلاما زكيًّا، أي غلامًا طاهرًا مباركًا «وعبر باسم الرب المتقضي للإحسان لطفًا بها، ولأن هذه السورة مصدرة بالرحمة، ومن أعظم مقاصدها تعداد النعم على خلص عباده»[3].

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: علمت وأيقنت أن هذه البشارة صادقة، وأن الذي بين يديها ملكٌ مرسل من عند الله، ولكنها تعجبت وتساءلت عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة؛ لأن العادة أن الولادة لا تكون إلا

(١) أي: ذو عقل وانتهاء عن فعل القبيح.
انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٦٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٥.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٢٧.

عن حملٍ، وهي رضي الله عنها لم يمسسها بشرٌ بزواج، وحاشاها أن تكون بغيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: أي الأمر كما تقولين من أنك غير متزوجة ولست بغية، ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فالمولى عز وجل هو القادر، وقدرته مطلقة وإرادته نافذة، لا يحدها حدود ولا تقيدها قيود، ومن خلق آدم من غير أم ولا أب وخلق حواء من آدم: قادر على خلق عيسى من أم دون أب.

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ دلالة وعلامة وحجة وبرهان على قدرة الله عز وجل كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ رحمة من الله عز وجل لمريم، ولكل من آمن برسالته عليه السلام، فهو رحمة لمريم؛ لأنه إكرام لها من الله واصطفاء لها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة الفريدة، ورحمة لها؛ لأنها صارت به أم نبيٍ له وجاهته ومكانته في الدنيا والآخرة، ورحمة لكل من آمن به، فالأنبياء جميعهم رحمةٌ مهداةٌ، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أمرًا مقدورًا من الله عز وجل ونافذًا فلا رجوع فيه.

ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفخ روح القدس عليه السلام في مريم، وجاء الحديث عن النفخ في سورة الأنبياء وسورة التحريم، وفي ذلك إشارة إلى الوحدة القرآنية، فكل آية لها سياقها الذى ينتظم مع سابقها ولاحقها، وكل آية لها صلتها بموضوع السورة، ولها اتصالها بالسياق العام للقرآن الكريم.

في سورة الأنبياء قال المولى عز وجل: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

والآية الأولى في سياق الحديث عن نعم الله عز وجل ورحمته بالأنبياء وآلهم، وفيها بيان لما كانت عليه مريم من العفة والطهارة، وأن الله عز وجل قد أرسل إليها جبريل، فنفخ فيها لتحمل بولد من غير أب، لتكون وابنها آية للعالمين.

وفى سورة التحريم تلك السورة التى تعالج بعض الأمور التى حدثت فى بيت النبوة، بين أمهات المؤمنين، يوضح المولى عز وجل أن قرابة النسب لا تغنى عن قرابة الدين، فالعبرة بالإيمان والعمل الصالح.

ومريم بنت عمران نشأت فى بيت صالح، وكانت عفيفة شريفة، مؤمنة صديقة، اختارها المولى عز وجل لتكون وابنها آية للعالمين.

قال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

حمل مريم بعيسى عليهما السلام

قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٢-٢٣].

سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته، ونفخ فيها روح القدس فحملت بعيسى عليه السلام، فاتجهت بحملها بعيدًا عن قومها، وكان حملها طبيعيًّا كما تحمل سائر النساء، حملته إلى مكان بعيد عن قومها حتى لا يتعرضوا لها بسوء، وهذا المكان القصي هو شرقي بيت لحم، حيث ولد المسيح عليه السلام.

كما ورد في الحديث الذي رواه النسائي في السنن والبيهقي في دلائل النبوة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه من حديث الإسراء، وفيه قال صلى الله عليه وسلم (ثم قال: انزل فصل، فنزلت فصليت، فقال أتدري أين صليت ؟ صليت ببيت لحمٍ؛ حيث ولد عيسى عليه السلام)[1].

وفي صلاته صلى الله عليه وسلم في هذه البقعة المباركة التي شهدت ولادة نبي الله عيسى تكريمٌ لهذا النبي.

والظاهر المتبادر من سياق الآيات أنها

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة، رقم ٤٤٦.

وضعته في المكان القصي الذي انتبذت إليه أو قريبًا منه، وقد كانت في هذا المكان وحيدةً فريدةً[1].

قال تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾.

ومعنى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي: ألجأها المخاض واضطرها، والمخاض: ما يرافق الولادة من جهد وإعياء وآلام وزفرات، والجذع: ساق النخلة اليابسة الذي لا سعف عليه ولا غصن له، حيث أسندت ظهرها إليه.

﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ تمنت لو أنها قد ماتت، قبل هذا الموقف العصيب، وكانت نسيًا منسيًّا، أي: شيئا لا يعتد به ولا يؤبه له، من شأنه أن ينسى فلا يذكر، ولكن كيف تمنت ذلك مع ما علمت من البشارة والكرامة ؟

عن ذلك يجيب المفسرون بأجوبة كثيرة ومتنوعة: فيقول ابن كثير في التفسير « فيه دليلٌ على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون صورة سيئة فقالت ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي: لم أخلق ولم أك شيئا، قال ابن عباس قالت ذلك استحياء من الناس»[2].

وفي حاشية الجمل على الجلالين «تمنت الموت من جهة الدين، إذ خافت أن يظن بها السوء في دينها، أو استحياءً من الناس فأنساها الاستحياء بشارة الملائكة لها بعيسى عليه السلام، أو لعلها قالت ذلك: لئلا تقع المصيبة بمن يتكلم فيها، وإلا فهي راضية بما بشرت به، فلا يرد السؤال كيف تمنت الموت مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث لها جبريل عليه السلام، ووعدها بأن يجعلها وولدها آية للعالمين»[3].

قال تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٤-٢٦].

في غمرة الآلام التي ألمت بمريم رضي الله عنها، وفي تلك اللحظات العصيبة التي مرت بها وهي تعاني من آلام المخاض ومخاطره، والوحدة والوحشة والترقب لما

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٦.

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٣/ ٥٧.

ينتظرها من قومها حين يرون هذا الوليد، في غمرة هذه الآلام الحسية والنفسية تغمرها رحمة الله تعالى، فيتحول العسر إلى يسر والضيق إلى سعة، والحزن والقلق إلى فرح واستبشار وطمأنينة، ويولد عيسى عليه السلام في جوٍّ من الكرامات، وينطقه[1] المولى عز وجل.

وقال لها كما أخبر القرآن: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، أنطق الله عيسى عليه السلام تسلية لأمه وتثبيتًا لقلبها، وتمهيدًا لها إلى أنه كما نطق أمامها وحدها فسوف ينطق أمام قومها ببراءتها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٢٩-٣٠].

ولقد أجرى الله هذه المعجزة أمامها وحدها، ثم أجراها بعد ذلك أمام قومها، كما أجرى الله معجزة قلب العصا إلى حية أمام موسى وحده، قبل أن يجريها أمام فرعون وملئه؛ تثبيتًا لموسى عليه السلام وإعدادًا له لمواجهة هذا الموقف.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ السري: قيل: هو الجدول - النهر الصغير الجاري - سمى بذلك لأن الماء يسري فيه، وعلى هذا القول عامة المفسرين[2].

ولعل إيثار تسميته هنا «سريا» لما فيه من تسرية لقلبها، وترويح عن نفسها وتسليةٍ لها وهي في هذا الكرب والمحنة.

والسياق يدل على ذلك، قال تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فدل الأكل على وجود الرطب، ودل الشرب على وجود الماء الذي جاء عن طريق ذلك الماء الجاري، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ﴿سَرِيًّا﴾: الجدول، نهرٌ صغيرٌ بالسريانية[3].

وقد أجرى لها المولى عز وجل هذا النهر كرامةً لها، وإرهاصًا لعيسى عليه السلام، وتسليةً لقلبها.

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥]. نعمة أخرى ونفحة كبرى لمريم رضي الله عنها، أن يأتيها رزقها من الرطب وهي في مكانها، بقدرة الله عز وجل ولطفه ورحمته، وكانت تلك النخلة يابسةً فاخضرت وأثمرت في غير أوانها؛ كرامة لمريم وتسلية لقلبها وزيادةً في يقينها، وإظهارًا لقدرة الله عز وجل وعجيب صنعه[4].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٠٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٢٢١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٧، ومفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٠٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٥.
(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٥٦٥.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾، كلي من ذلك الرطب الجني واشربي من ذلك الماء العذب، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: وطيبي نفسًا بهذه الآيات وتلك الكرامات، واهتني بالًا بهذا المولود المبارك الذي صاحب مولده تلك النفحات.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦] أُمرت بالصوم عن الكلام لأمرين:

أحدهما: أن كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها، وفيه أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى.

والثاني: أن السكوت عن جدال السفهاء أصون للعرض وأنسب لحيائها.

اتهام اليهود لمريم

قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم ٢٧- ٢٩].

قال القرطبي: « لما اطمأنت لما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه »[(١)].

والفاء هنا في (فأتت) تفيد التعقيب، والسرعة، وهناك مفارقة عجيبة في هذه القصة ففي بدايتها ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وفى نهاية المطاف ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾.

ففي الموضع الأول نرى مريم البتول رضي الله عنها تسارع بحملها بعيدًا عن قومها، خوفًا من نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة وظنهم السيِّئ وكلامهم الجارح حين يرونها وهى حامل.

وفي الموضع الثاني بعد أن وضعت المسيح وقرت عينها به، واطمأن قلبها إليه، وانشرح صدرها بالكرامات التي وقعت لها، وامتلأ قلبها يقينا، وتبدل خوفها أمنًا، وحزنها سرورًا وضعفها قوة وعزة وترفعًا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٩٩.

وتحديًا وتعاليًا على الباطل وأهله، فجاءت إلى قومها يحملها اليقين ويحدوها الأمل ويقودها الإيمان، وهي تحمل وليدها الحبيب نبي الله عيسى عليه السلام، جاءت بنفس راضية هانئة بهذه الهدية التي منحها لها رب البرية.

لقد أصبحت مريم أمًّا لنبي، وأي شرف لأمٍّ أعظم من ذلك، وأي رجاء أعظم من نجابة الولد واستقامته، ومع ذلك فإنها تعرف سلفا موقف قومها، الذين يقابلون الآيات بالإنكار والجحود، والإنعامات بالحسد والحقد، وقد صدق ظنها فيهم حين رأوها فقالوا دون تفكر أو تمهل -كما أخبر القرآن الكريم: ﴿قَالُوا يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾: أي: شيئًا فظيعًا منكرًا عجيبًا.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾: بعد أن اتهموها، وافتروا عليها، قالوا لها هذه المقولة على سبيل السخرية والتهكم والتشكيك والتحريض.

قالوا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ تشبيهًا لها: بهارون النبي أخي موسى عليهما السلام في تقواه وصلاحه وحيائه، وكانوا يسمون وينعتون بأنبيائهم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

قال: لما قدمت نجران سألوني: فقالوا: إنكم تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم ٢٨].

وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال: (إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم)»[1].

والظاهر أن هذه الآية العجيبة التي بهتت اليهود لم تزجر كثيرًا منهم ولم تكفهم عن التمادي في الافتراء والكذب على مريم البتول، فكان هذا من أسباب غضب الله عليهم وعقوبتهم الدنيوية مع ما ينتظرهم يوم القيامة، وأي ذنبٍ بعد الكفر بالله، والافتراء على أنبيائه الكرام الأخيار، وآلهم الطيبين الأبرار، سيما من برأها الله تعالى بآيةٍ مشاهدةٍ محسوسة، وسجَّلَ براءتها في كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٦].

فتلك صفحاتٌ مطويةٌ في تاريخ اليهود وجرائم مسجلة عليهم، منها: نقض المواثيق مع جلالها، والجحد بآيات الله مع جلائها، وقتلهم الأنبياء خيرة الخلق، بدون جريرةٍ ولا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء، رقم ٢١٣٥.

حق. ومن كفرهم البواح وظلمهم العظيم افتراؤهم على خير نساء العالمين الصديقة العابدة التقية الطاهرة مريم بنت عمران التي نبتت من أرومة مجدٍ طاب غراسها، ودرجت في بيت صلاح وتقى شَعَّتْ أنواره، وتقبلها ربها بأحسن قبول ظهرت بركاته وجلت آثاره، وكان كافلها ومعلمها نبيٌّ كريمٌ مبجل، وانقطعت للعبادة والتبتل، ورغم ذلك فقد اتهمها اليهود في عرضها، وغمزوها في عفافها، وهي الصديقة التي بلغت معالي الرتب والدرجات، الطاهرة التي برأها ربها بأعظم الآيات وأبلغ البينات، فأنطق ولدها في المهد، وشهد لها بالطهر والمجد، وفند كذب اليهود وبهتانهم الذي ليس له حد.

وتكرر الكفر منهم لأنه كفرٌ بعد كفر بعد كفر حجبٌ كثيفة وغيوم قاتمة وقلوب تراكم عليها الظلام، كفروا بموسى ثم كفروا بعيسى، فقد دخلوا إلى الكفر من أبوابٍ كثيرة، فقد كفروا بالأنبياء بل وقتلوهم، وشنعوا على مريم وتآمروا على ولدها عيسى عليه السلام.

وعطف البهتان على الكفر دليلٌ على شناعته وقبحه، ووصفه بالعظيم لتهويله، إذ أي بهتان أعظم من رمي سيدة نساء العالمين الصديقة العابدة سليلة بيت الطهر والعفاف ربيبة أهل التقى والصلاح، نذيرة العبادة، وراهبة المحراب!

إنه ابتلاءٌ عظيمٌ أن يرمي الغوغاء ذات الطهر والنقاء، وهل أشد على الحرائر العفيفات، المحصنات الغافلات من الاتهام في أغلى ما يملكن.

كلام المسيح عليه السلام في المهد تبرئة لأمه مما اتهمت به:

قال تعالى ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

نطق عيسى عليه السلام وهو في المهد بقدرة الواحد الأحد، نطق أول ما نطق بأنه عبد الله وفي هذا تنزيهٌ لله تعالى عن الصاحبة والولد، وردٌّ على النصارى الذين زعموا أنه إله وابن إله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

قال الرازي في هذا المقام: « إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت إنما هو نفي التهمة عن مريم، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وإنما نص على إثبات عبوديته لله كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها، لأن التكلم

بإزالة التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم، لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة، وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم فلا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى »[1].

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾: فنطق عليه السلام أول ما نطق بغاية وجوده وكمال إنسانيته في عبوديته لله تعالى، وأجل نعم الله عليه الكتاب والنبوة، وهي اصطفاء خاصٌ، ومنزلة عظيمة، ومكانة عالية، لا تكون إلا لأشرف وأكرم وأطهر خلق الله، فنبوته عليه السلام دليل على براءة أمه، لأن الأنبياء من أطهر الناس نسبا، والمراد بالكتاب الإنجيل الذي أنزله الله عليه، أو التوراة التي علمه الله إياه.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ نفاعا حيث كنت، وقيل: معلما للخير، وقيل: ثابتا في الدين، صاحب عزم ويقين، وقيل: البركة هي الزيادة والعلو، فكأنه قال جعلني في جميع الأشياء غالبا موفقا إلى أن يكرمني الله بالرفع إلى السماء[2]، والمقصود من كلامه: باعتبار ما سيكون، إخبارٌ عما قدره الله تعالى له، فهو في حكم الواقع المحقق لأنه سيقع بإذن الله[3].

﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أوصاه بها حين يقدر على القيام بها، والصلاة والزكاة لا تجب إلا بعد البلوغ، وإن كانت تصح قبل ذلك، فأوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة وحقوق عباده التي من أجلها الزكاة، مدة حياتي في هذه الدنيا أي فأنا ممتثل لوصية ربي، عامل عليها منفذ لها.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي: جعلني المولى عز وجل بارًا بأمي، رفيقًا بها، محسنًا إليها، وفي ذلك بيان لنزاهتها وبراءتها من افتراء اليهود عليها، واستحقاقها للبر والإحسان، وردٌ على ما جاء في الأناجيل من ادعاء جفوته وغلظته في معاملتها وتنكره لها ونفوره منها.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ولم يجعلني متجبرًا متكبرًا على الحق والخلق بل جعلني برًا رحيمًا، عطوفًا كريمًا، متواضعًا للحق، مطيعًا لأوامر الله عز وجل.

وبهذه الصفات التي تحلى بها عيسى عليه السلام استحق السعادة في الدنيا والآخرة واستحق السلام من المولى عز وجل في الدنيا والآخرة.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ومروره بهذه الأطوار، وتقلبه في هذه الأدوار ميلاد ثم ممات ثم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢٠٩.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ١٦/ ٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٢١٤.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٢١.

بعث: دليل على حدوثه وبشريته، فالإله لا يتغير ولا يتحول، والإله الحق لا يفتقر لغيره، ولا يحتاج إلى من سواه.

نبوة مريم عليها السلام

زعم بعض أهل العلم أن مريم عليها السلام نبية من الأنبياء، لأن الله عز وجل أوحى إليها، ومن الذين قالوا بهذا: الإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي، الذي عقد فصلا في كتابه الفصل بعنوان (نبوءة النساء): ادعى فيه ثبوت نبوءة النساء ومن كلامه في ذلك: « جاء في القرآن أن الله عز وجل قد أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، من ذلك تبشير الملائكة لأم إسحاق به.

قال عز وجل: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

فهذا خطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم عليها السلام فخاطبها وقال لها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٩].

فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح، ورسالة من الله تعالى إليها، وهكذا أم موسى أوحى الله تعالى إليها أن تلقي موسى في اليم، وأنه سوف يعيده، ويجعل له شأنًا.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧]»[1].

ومن القائلين بنبوة مريم أيضا الإمام القرطبي في تفسيره حيث يقول: «والصحيح أن مريم نبية؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة ملك، كما أوحى إلى سائر الأنبياء»[2].

وقال القرطبي إن مريم أفضل النساء على الإطلاق؛ لأنها نبية والنبي أفضل من الولي، فهي أفضل من كل النساء: الأولين والآخرين مطلقًا[3].

وقال أيضًا: ومن قال لم تكن نبية قال: إن رؤيتها للملك كما رؤي جبريل عليه السلام في صورة بشرية حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء. والأول أظهر، وعليه الأكثر. والله أعلم[4].

وقال في تفسير قوله تعالى ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ «يجوز أن تكون صديقة مع كونها نبية كإدريس عليه السلام»[5].

والصحيح في هذه المسألة أن مريم عليها السلام ليست نبية وإنما هي صديقة، والدليل على ذلك ما يلي:

١. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾، فهذا دليلٌ صريحٌ على أن النبوة في الرجال دون النساء.

٢. أن مريم وأم إسحاق وأم موسى لم يأت في القرآن تصريح بنبوتهن ضمن من صرح الله بنبوتهم.

٣. أن كلام الملائكة لمريم عليها السلام لا يعد دليلا على ثبوت نبوتها، إذ النبوة هي وحى من الله تعالى لنبي من الأنبياء بكيفية مخصوصة، وبواسطة الملك، كما أن كلام جبريل لها لم يكن برسالة أو نبوة بمفهومها الشرعي وإنما كان بأمر من الله تعالى وبشارة منه سبحانه وكلام الملائكة لأم إسحاق لم يكن إلا بشارة لها، والحكمة في الكلام المباشر أن البشارة تعظم في النفس بعظم المبشر بها.

٤. أن الإلهام كما يقع للأنبياء فقد يقع للأولياء، ويكون في حقهم كرامة وليس بمعجزة، والرؤيا الصالحة نوع من أنواع الوحي (الإلهامي) ولم يقل أحد أن كل من رأى رؤيا صالحة فهو نبي.

٥. أن الوحي بمعناه الأعم: إعلام الله تعالى، جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ولم يقل أحد أنه نبوة.

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ٥/ ١٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٨٤.
(٥) المصدر السابق.

قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨]. ولم يقل أحد من العقلاء بنبوة الأرض والسماء ولا بنبوة النحل، إذ أن الوحي بمفهومه اللغوي العام أوسع من معناه الشرعي المخصوص: إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بواسطة أو بغير واسطة.

٦. هذا ولم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة وصفها بالنبوة، وإنما جاء وصفها بأوصاف أخرى تدل على صلاحها وطهرها وصديقيتها. قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

ضلال بعض طوائف النصارى في مريم

بلغ غلو بعض طوائف النصارى في مريم إلى عبادتها والاستغاثة بها والتوسل بها والصلاة لها.

يقول ول ديورانت: « كانت تشير عبادة مريم العذراء في العصور الوسطى إلى ما كان لها من التبجيل وقتذاك »[(١)].

وفي موضع آخر يقول: بل إن العابد التقي في بلاد البحر الأبيض المتوسط في هذه الأيام يلجأ إلى مريم أكثر مما يلجأ إلى الأب أو الإبن[(٢)].

وفي موضع آخر يذكر « ذلك أن سيريل كبير أساقفة الإسكندرية وصف في موعظة له شهيرة ألقاها في إفسس عام ٤٣١، مريم بكثير من العبارات التي كان الوثنيون من أهل تلك المدينة يصفون بها «إلهتهم الكبرى» أرتميس - ديانا دلالة على حبهم إياها »[(٣)].

وقد بين القرآن الكريم أنها عابدةٌ قانتةٌ لله تعالى، مستسلمةٌ لقضائه راضيةٌ بحكمه، وأنها بلغت منازل الصديقين، بصدقها واجتهادها في العبادة.

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ

(١) قصة الحضارة ١/ ٤٨٢.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٤٥٣.
(٣) المصدر السابق ١٦/ ٤٤١.

ٱبۡنَ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾.

فالمسيح عليه السلام بشرٌ رسولٌ، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولو أراد الله أن يهلكه وأمه ومن في الأرض جميعا فلا يملك أحدٌ من الخلق أمرًا، وكل ما في السموات والأرض ملكٌ لله تعالى وتحت قدرته تعالى، لا يقدر أحدٌ من المخلوقين أن يدفع عن نفسه ضرًا أراده الله، فضلا عن أن يدفع عن غيره ما حل به، وفي هذا ردٌ لمن زعم ألوهية مريم أو أضفى عليها شيئا من الخصائص أو الصفات الإلهية.

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

فبين الله تعالى القول الحق في المسيح عليه السلام وهو أنه بشرٌ رسول، ونسبته لمريم، لأنه لا أب له، ولو كان له أبٌ لنسب إليه، وإنما خلقه الله بلا أبٍ لحكمةٍ بالغةٍ، تدل على كمال قدرته تعالى، وبديع صنعه، وعيسى عليه السلام بشرٌ رسولٌ، شأنه شأن من سبقه من الرسل، أرسله الله على نهجهم وأقامه على سننهم، وأمه صديقةٌ عابدةٌ، كانا يأكلان الطعام، والحاجة للطعام والشراب غريزةٌ إنسانيةٌ، أما الإله فهو غنيٌ قويٌ، ليس كمثله شيء، فكيف يدعون أنه إله أو ابن إله ! فتأمل كيف يقيم الله الحجة عليهم من وجوهٍ عديدةٍ ثم هم يصرفون عن الحق، ويقلبون الحقائق ويقرون الأباطيل ! مع جلاء الآيات وتصريفها !

الدروس المستفادة من قصة مريم

- في تخصيص آل عمران بالذكر وعطف على آل إبراهيم وهم منهم اعتناء بهم وزيادة تشريف لهم وتوطئة للحديث عن أم مريم ومريم وعيسى عليه السلام.
- ضرب القرآن الكريم أمثلةً رائعة للمرأة الصالحة، وصور بأبلغ بيان مشاهد وصورا في حياة المرأة وهي في حملها وعند مخاضها وعند رعايتها لصغيرها، وهذا يدل على احتفاء القرآن بالأم ورعاية الإسلام للأمومة.
- قال الشيخ السعدي: « ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضا من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكارهم مخلدة ومناقبهم مؤبدة لكفى بذلك فضلا. »[1]
- دور الأم في تربية الأبناء وبركة الدعاة للأبناء بالصلاح.
- رعاية الولد تبدأ مبكرة منذ أن يتحرك في أحشاء أمه بل تبدأ باختيار الأم الصالحة، قال أبو الأسود الدؤلي لبنيه: لقد أحسنت إليكم صغارا، وأحسنت إليكم كبارا، وقبل أن تولدوا، قالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ فقال: اخترت لكم أما صالحة[2].
- استحباب النذر ووجوب الوفاء به وبركته.
- حرص المؤمن على تقبل عمله، بتحري أسباب القبول.
- قول أم مريم: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: خالصا لوجهك، مخلصا لطاعتك وعبادتك، عن مجاهد قال: « إن المحرر هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى »[3]، وفي هذا منقبةٌ لمريم حيث نذرتها أمها خالصة للعبادة، فكأنما حررت من أسر الدنيا وقيودها[4]. وفي هذا بيان للمفهوم الصحيح للتحرر أنه التجرد لله تعالى من كل الأهواء، والتحرر من كل قيدٍ يحول بين العبد وبين ربه، أما التحرر الذي يدعو إليه أعداء الإنسانية فهو دعوة مشبوهة ودعوى زائفة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٨.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٩٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٦٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣٢.

وشعارات براقة خداعة، تعني التحرر من كل فضيلة، والتمرغ في أوحال الرذيلة، وتحطيم القيم والأخلاق الكريمة والهجوم الشرس على دين الإسلام وتعاليمه القويمة.

- حسن التأدب مع الله تعالى في الدعاء والتوسل بالعمل الصالح وبأسماء الله الحسنى وصفاته العلى.
- الصدق مع الله تعالى وإمضاء العزم وعلو الهمة.
- الحرص على صلاح الأولاد ونفعهم لدينهم وقومهم.
- بيان أهمية العامل الوراثي وأثره الفعال في تكوين الشخصية والطباع.
- قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ إشارةٌ لكون « الأنثى ليست كالذكر في تركيبها الجسمي، ولا في تركيبها النفسي، ومن ثم فلابد أن تكون وظيفتها تختلف عن وظيفة الذكر، ولا بد أن يترتب على ذلك اختلاف في المسئوليات واختلاف في الحقوق والواجبات، ومن أراد المساواة المطلقة بين الرجال والنساء: فليسو بينهما في التركيب الجسمي والنفسي أولًا ! »[1]. وقد أثبت العلم أن هناك فروقا كثيرة عضوية ونفسية بين الرجل والمرأة، وهي فروق كثيرة ومتعددة.
- تحري الأسماء الحسنة العذبة من حق الولد على أبيه، ومن أسباب البركة والصلاح.
- في هذه الدعوة التي توجهت بها امرأة عمران لـربها إشارة إلى حرصها ورجائها في أن يحفظ الله لها بنتها ويرعاها حتى تشب وتكبر وتكون لها ذرية ولقد استجاب الله تعالى لها. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال: ما من بني آدم مولودٌ إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها) ثم قال أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ »[2].
- حرص الأبوين على تجنيب الذرية كل وساوس الشيطان ونزغاته.
- الغراس الطيب في التربة الطيبة مع تعهده بالرعاية يثمر نبتًا طيبًا مباركًا نافعًا.
- رعاية الله تعالى لأنبيائه وأوليائه وذرياتهم.
- قال البقاعي: « ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ جاء بصيغة التفعل مطابقة لقولها: (فتقبل)، وفيه

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٢/ ٧٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٥.

إشعار بتدريج وتطور وتكثر، كأنه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تتطور إليه، من حيث لم يكن فاقبل مني فلم تكن إجابته: فقبلها، فيكون إعطاء واحدًا منقطعًا عن التواصل والتتابع، فلا تزال بركة تحريرها متجددًا لها في نفسها وعائدًا بركته على أمها حتى تترقى»[1].

- وفي ذكر الفعل من (أفعل) في قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾ والاسم من (فعل) في قوله: ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾ إعلام بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين، فكمل في الإنباء والوقوع حسن التأثير وحسن الأثر، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسنًا. انتهى[2].
- لزوم مريم الصديقة للمحراب دليل كمالها وعلو همتها وصدقها مع الله تعالى.
- رد على اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وصفوة خلقه مع فساد اعتقادهم وسوء أخلاقهم وعدائهم للحق ومخالفتهم لما جاء به الأنبياء عليه السلام.
- توجيه وإرشاد إلى وجوب اتباع الأنبياء والاقتداء بهم والسير على طريقهم ففيه الصلاح والفلاح.
- حرص الأحبار من بني إسرائيل على كفالة مريم وتنافسهم على ذلك دليل حرصهم على نيل الأجر والثواب، فمريم بنت إمامهم ومعلمهم، وهى طفلة يتيمة تحتاج إلى يد كريمة وإلى قلب عطوف، يقودها إلى بر الأمان، ولقد حثنا الإسلام على كفالة اليتيم، وأمر بإصلاح شأنه والمحافظة على ماله، وتنميته، حتى يبلغ سن الرشد.
- قال أبو حيان: « و(كلما): تقتضي التكرار، فيدل على كثرة تعهده وتفقده لأحوالها[3].
- اليتيم ليس في حاجة للطعام والشرب والملبس والمأوى فحسب بل في حاجة إلى رعاية نفسية وإلى رعاية تربوية وعلمية وقد ظهر ذلك في كفالة زكريا عليه السلام لمريم.
- قال الإمام القرطبي رحمه الله: استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة، وهى سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظنة عمن يتولى قسمتهم

(١) نظم الدرر ٢/ ٧٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البحر المحيط ٢/ ٣٣٦.

ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد؛ إتباعا للكتاب والسنة »[1].

- وقوع الكرامات للأولياء؛ فهذا الرزق الذي ساقه المولى عز وجل لمريم بغير حساب وبهذا الأمر العجاب كرامة لها، والكرامة هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح غير مدع للرسالة، وهى مأخوذة من الكرم والإكرام؛ لأنها كرم وجود من المولى عز وجل، وإكرام لصاحبها وتكريم له، قال الإمام الطحاوى رحمه الله: « ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات فى رواياتهم. »[2].
- إعداد الله تعالى لأنبيائه وأوليائه لما يهيئهم له من جلائل الأمور.
- يجوز تمني الموت عند وقوع الفتن واشتداد المحن، وخوف المؤمن على نفسه من الافتتان.
- بركة رعاية الصالحين وتفقد أحوالهم.
- اصطفاء مريم على سائر نساء العالمين منقبة لها لم ترد في الأناجيل المحرفة، حيث تفرد القرآن بذكر أمور كثيرة ومناقب عديدة للصديقة مريم لم ترد في كتب النصارى.
- أمر القرآن بذكر مريم الصديقة ومدارسة قصتها العجيبة ومآثرها الماجدة، فلقد ضربت أروع الأمثلة في الطهر والعفاف والعبادة والصبر والثبات والفصاحة والحصافة والحياء والحشمة واليقين والمعرفة قال السعدي رحمه الله: « وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل»[3].
- حسن بديهة مريم وحسن تصرفها وحكمتها ورزانتها وحصانتها وثباتها وأدبها وحسن ظنها وثقتها بربها، تجلى ذلك حينما دخل عليها جبريل عليه السلام خلوتها فقالت كلماتها القيمة.
- قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير وإنما تأثيرها بتقدير الله فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية لئلا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها[4].
- قال أبو حيان: « ودل على عفافها

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٨٦.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية، شرح ابن أبي العز ص٤٩٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩١.
(٤) المصدر السابق.

وورعها أنها تعوذت به من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبر لعفتها[1].

- آلام المخاض وأثره البدني والنفسي على المرأة، وحاجتها إلى لطف وأنسٍ وهي في أصعب الأوقات.
- يأتي الفرج بعد اشتداد الكرب ويأتي اللطف وتهب نسائم الرحمات عند الابتلاءات.
- الإعراض عن السفهاء ومجانبتهم، وكراهة مجاراتهم.
- الابتلاء سنة الله تعالى في الأنبياء والأصفياء.
- الله تعالى يتولى الدفاع عن أنبيائه وأوليائه.
- الافتراء وسوء الظن بالأنبياء والصالحين من طباع اليهود والمنافقين.
- بلغ قوم مريم من السفاهة مبلغا عظيما حتى رموها وهى الطاهرة العفيفة بما هي بريئة منه، ومع ذلك فإنها امتنعت عن الكلام، وفى ذلك إشارة إلى الإعراض عن السفهاء وعدم مجاراتهم في سفههم.
- بر عيسى عليه السلام بأمه دليل طهرها وصدقها، وردٌ على ما ورد في الأناجيل مما يدل على جفائه.
- التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب، ومريم رضي الله عنها كان رزقها يأتيها من عند الله، ولما جاءت ساعة المخاض أمرها الله عز وجل أن تهز النخلة أخذا بالأسباب.
- قال ابن عطية: «وقد استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه لأنه أمرت مريم بهز الجذع لترى آية وكانت الآية تكون بأن لا تهز هي»[2].
- أكل مريم رحمها الله من الرطب إشارة إلى ما أثبته الطب من أهمية الرطب للمرأة النفساء.
- وردت قصة مريم في سورة تحمل اسمها وأخرى تحمل اسم أبيها عمران، وسورة الأنبياء، وسورة التحريم التي استفتحت بذكر أمهات المؤمنين، وختمت بذكر سيدة نساء العالمين آسية ومريم، وذكرها في سورة الأنبياء في سياق رعاية الله تعالى لأنبيائه عطفا على ولدها المسيح عليه السلام بيان لمكانة مريم في القرآن، وعظمة القرآن ورفعته وتسامح الإسلام وشموله وعالميته، وأن القرآن امتداد للكتب

(١) البحر المحيط ٦/ ١٣٢.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٤.

السابقة المنزلة، ونبينا محمدا صلى الله عليه وسلم حلقة أخيرة في سلسلة الأنبياء عليهم السلام وامتداد لهم.

- التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حيا عاقلا، ومهما بلغ مقامه عند الله، وفى ذلك رد على بعض المتصوفة، الذين قالوا بسقوط التكليف عن العبد عند بلوغه درجة معينة.
- عن كلام المسيح في المهد قال الألوسي: « وذكر عبوديته لله تعالى أولًا: لأن الاعتراف بذلك على ما قيل هو أول مقامات السالكين، وفيه رد على من يزعم ربوبيته وفى جميع ما قال تنبيه على براءة أمه لدلالته على الاصطفاء والله سبحانه أجل من أن يصطفي ولد الزنا، وذلك من المسلمات عندهم، وفيه من إجلال أمه عليهما السلام ما ليس في التصريح، وقيل: لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاة »[1].

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، زكريا عليه السلام، عيسى عليه السلام، النساء

(١) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٨٩.

المسؤولية

عناصر الموضوع

مفهوم المسؤولية	٣٩٢
الألفاظ ذات الصلة	٣٩٤
السائل	٣٩٥
المسؤول	٤١٢
المسؤول عنه	٤٢٦
غير المسؤول عنه	٤٤٥
أثر فقه المسؤولية على سلوك العبد	٤٥١

مفهوم المسؤولية

أولًا: المعنى اللغوي:

لم يرد لفظ مسؤولية في القرآن ولا السنة، ولا معاجم اللغة القديمة، بهذه الصيغة الصرفية أعني صيغة المصدر الصناعي، والكلمات التي وجدت على هذه الصيغة فهي قليلة لا تتعدى بضع عشرات؛ منها: جاهلية، عبقرية، فروسية، عبودية، وحدانية.

كلمة مسؤولية إذًا كلمة معاصرة، مشتقة قياسًا على المصدر الصناعي من (مسؤول).

والمسؤول في الأصل: المستدعى منه معرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة، أو المستدعى منه مال أو ما يؤدي إلى المال، قال ابن فارس: السين والهمزة واللام كلمة واحدة، يقال: سأل يسأل سؤالًا ومسألة[1].

ويدور معنى السؤال في اللغة على معنى استدعاء المعرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة، أو استدعاء مال أو ما يؤدي إلى المال، والسؤال للمعرفة قد يكون للاستعلام وقد يكون للتبكيت؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨][2].

ومن المعاني التي تناولتها المعاجم وكتب التفسير للفظ (مسؤول)، الآتي:

- مطلوب[3]. ومحاسب[4]. وفي قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] أي: مطلوبون للحساب[5]. قال الطاهر بن عاشور: المسؤول كناية عن المحاسب عليه[6].
- أن يكون الإنسان سببًا في شيء يستحق عليه اللوم.
- صاحب المنصب الرفيع.

فمعنى المسؤول إذًا يدور حول: المطلوب-معرفة أو مالًا-، المحاسب، الكناية عن المحاسب عليه، وصاحب المنصب الرفيع.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تناول القانونيون والإداريون والسياسيون وغيرهم لفظ المسؤولية كمصطلح، ومن هذه التعريفات الاصطلاحية الآتي:

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١٢٤.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٤٣٧.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٩٧.
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٢/ ١٠٢٠.
(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٢/ ١٠٢٠.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٨٩.

- الالتزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقًا لقانون[1].
- واجب الأداء بالطريقة المطلوبة، أو تحقيق أهداف معينة.
- واجب القيام بمهمة معينة.
- المحاسبة عن نتائج تم الالتزام بها[2].
- الالتزام بواجب يحاسب عليه الفرد، كمسؤولية الموظف عن عمله[3].

خلاصة القول في المعنى الاصطلاحي هي أن المسؤولية: حالة قائمة بالإنسان نشأت عن تكليف أو تعهد، قد يتعرض بسببها للسؤال المقصود به المحاسبة والمفضي للجزاء.

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٨٥٣.
(٢) الإدارة، سيد الهواري، ص٢١١.
(٣) معجم مصطلحات العلوم الإدارية، أحمد زكي بدوي، ص ٣٤٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأمانة:

الأمانة لغة:

ضد الخيانة، كما في مختار الصحاح[١]. وهي مصدر مشتق من مادة (أمن) قال في اللسان: «(أمن) الأمان والأمانة بمعنى»[٢]. يقال: أمن: أمنًا وأمانًا وأمانةً وإمنًا وأمنةً، بمعنى: اطمأن ولم يخف، فهو آمن وأمن وأمين[٣].

الأمانة اصطلاحًا:

عرفها الكفوي بقوله: «كل ما افترض على العباد فهو أمانة، كصلاةٍ وزكاة وصيام وأداء دين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار»[٤].

وقيل: صيانة الإنسان لكل ما ينبغي صيانته من حقوق، أو فروض، أو واجبات، أو حدود، أو أشياء مادية، أو معنوية، سواء كانت لله تعالى، أم لأبناء المجتمع.

الصلة بين الأمانة والمسؤولية:

المسؤولية ترادف الأمانة والولاية والتكليف والالتزام والتعهد، وبين المسؤولية والأمانة علاقة لزوم، فالأمانة والرعاية من أساليب أداء المسؤولية.

٢ الخيانة:

الخيانة لغةً:

الاحتيال والخداع. فالخيانة خلاف الأمانة[٥].

الخيانة اصطلاحًا:

«مخالفة الحق بنقض العهد في السر»[٦].

الصلة بين الخيانة والمسؤولية:

الخيانة من المعاني المضادة للمسؤولية.

---

(١) مختار الصحاح، الرازي ص٢٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٢١.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٨.
(٤) الكليات، الكفوي ص ١٨٧.
(٥) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي ص ١٥٦.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠٥.

السائل

السائل: هو الذي يسأل ويحاسب؛ جاء في قاموس المعاني: سأل يسأل سؤالًا وتسآلًا فهو سائل، وسأل فلانًا: حاسبه.

والإشارة إلى الله سبحانه وتعالى بالسائل باعتبار إكمال أركان المسؤولية؛ وهي: السؤال، السائل، المسؤول، والمسؤول عنه.

ويدور هذا المبحث حول معنى السائل الذي يسأل ليحاسب لا ليستعلم، وباعتبار أن الله سبحانه وتعالى محاسب خلقه عما عهد إليهم من المسؤوليات. ويتناول موضوع السائل من النواحي التالية: إثبات القرآن سؤال الله سبحانه وتعالى للمكلفين وعمومه، الإشارات القرآنية لاستحقاق الله سبحانه أن يكون سائلًا، موضوع سؤاله سبحانه، خصائص سؤاله سبحانه، ومراتب سؤاله سبحانه.

أولًا: سؤال الله تعالى للمكلفين:

الله سبحانه وتعالى سائل عامة المكلفين من الثقلين - الإنس والجن - عن مسؤولياتهم التي عهد بها إليهم، يشمل ذلك الرسل والمرسل إليهم؛ المؤمن والمنافق والكافر، قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب[(١)].

ولا تنافي بين ثبوت سؤال الكفار هنا، ونفيه في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

فنفي السؤال إنما كان عن الذنب، وذلك بعد استقرار الكفار والمجرمين في العذاب[(٢)]. وتفصيل ذلك في مبحث (المسؤول)، مطلب (الكافرون).

ومن الآيات القرآنية الدالة كذلك على عموم سؤال الثقلين، قوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

قال أبو جعفر الطبري: يقول تعالى ذكره: فلنخبرن الرسل ومن أرسلتهم إليه بيقين علم بما عملوا في الدنيا فيما كنت أمرتهم به، وما كنت نهيتهم عنه وما كنا غائبين عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها، فذلك من الله مسألة للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أرسلوا إليه من الأمم، وللمرسل إليهم عمومًا على وجه التقرير والتوبيخ[(٣)].

فهذه الآية تدل على عموم سؤاله سبحانه وتعالى خلقه المرسلين والمرسل إليهم أجابوا أم كفروا وجحدوا. وأن السؤال عن

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦٠.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٧.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣٠٧-٣٠٨.

المسؤولية ليس نوعًا واحدًا، بل أنواع عدة، وأن سؤال المؤمنين تقرير، وسؤال الكفار تقريع، والجميع يقص الله عليهم بعلم، فلا استفسار ولا استفهام.

وخلاصة القول الذي دلت عليه الآيات المحكمات أن الله سبحانه وتعالى سيسأل عباده جميعًا ويحاسبهم عن مسؤولياتهم.

ثانيًا: استحقاق الله أن يكون سائلًا:

إن مكانة السائل لا تثبت بمجرد السؤال، بل لابد من جدارة وأحقية للسائل حتى يتسنم هذه المكانة، والقرآن الكريم أشار في كثير من المواطن إلى دلالات استحقاقه سبحانه وتعالى مكانة السائل الذي يعهد بالأمانات والتكاليف ويحاسب عليها ويجازي عنها. وهذا من تمام عدله وحكمته سبحانه فهو يعلمهم بمكانته وجدارته واستحقاقه مكانة العاهد المحاسب المجازي ليهيئهم لقبول التكليف، ويمهد لهم السبيل لإتباع أمره هو لا أمر كل جبار عنيد.

ومن أبرز الدلالات القرآنية على ذلك:

١. الربوبية.

أثبت الله تعالى لنفسه الخلق والرزق والتدبير والملك، في كثير من الآيات التي أشار فيها إلى المسؤولية، مما يدل على كون الربوبية من أعظم الإشارات دلالة على كونه سبحانه وتعالى مستحقًا لهذه المكانة كونه سائلًا عاهدًا بالمسؤوليات ومحاسبًا عليها.

ونلحظ أن القرآن يقرر هذه الدلالة قبل إيجاب الأعمال والعهد بالتكاليف أحيانًا، كما قال سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [الحديد: ١-٧].

فجاء الأمر بالإيمان والإنفاق بعد تقرير ربوبيته سبحانه. وأحيانًا أخرى بعدها، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ

عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٢-٦].

فجاء الأمر بإخلاص العبادة والدين لله أولًا، ثم جاءت الآيات التالية تقرر صفة الربوبية لله سبحانه بعده.

إن الربوبية هي لازمة استحقاق السؤال والمحاسبة، وقبلها العهد بالمسؤوليات وإيجابها على العباد كونها صفة تدل على الفضل، فإن الذي تفضل بالخلق والرزق والتدبير جدير بأن يطاع أمره وأن يحاسب على عهده وأن ينفذ وعده.

٢. العلو.

إن مكانة السائل تستلزم العلو: علو القدر والمكانة والقهر. والربوبية نفسها لازمها العلو.

قال سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الأعلى: ١-٥].

فالله سبحانه أمر بتنزيهه سبحانه، وذكره باسمه الأعلى، ثم ذكر دلائل لاستحقاقه هذا التنزيه، فذكر خلقه وتقديره ورزقه، وهي الدلائل على ربوبيته سبحانه.

فلا بد للسائل من العلو ليستحق إسناد المسؤوليات والمحاسبة عليها، وبدون العلو يكون السؤال سؤال طلب أو استجداء لا يلزم المسؤول جوابه، ولا يقدر السائل أن يؤاخذه به. والعلو الظاهر من الآيات السابقة من سورة الأعلى ناتج عن النعمة والفضل، وقد ضرب الله بها مثلًا: نعمة الخلق والتقدير والرزق، وهو ظاهر كذلك في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

فمن كان كذلك استحق كمال الاستسلام والطاعة؛ قال الرازي: واعلم أن المذكور في صدر الآية هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى وليا. واحتج عليه بأنه فاطر السماوات والأرض وبأنه يطعم ولا يطعم. ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره وليًا[(١)].

والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا. وليس العلو الذي يستحق به السائل مكانته ناتج من الفضل فقط بل هو كذلك ناتج من القهر، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ

(١) مفاتح الغيب، الرازي، ٦/ ١٤٠.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢].

وقال جل من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

فالسائل إذًا لا بد له من علو القدر والفضل والقهر التي تشير إلى لزوم طاعته والاستسلام لأمره والخضوع له في أمره ونهيه عن استحقاق وجدارة.

٣. العلم.

إن السؤال والمحاسبة تحتاج إلى العلم بعمل المسؤول في مسؤوليته وأمانته، والقرآن الكريم يخبرنا عن سؤال الله سبحانه عباده عن علم كامل وحفظ تام.

قال سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٦-٧].

ودلل القرآن على كمال علمه سبحانه بأنه تعالى يعلم السر وأخفى ويعلم الغيب بل ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

ولذلك فإن حسابه لخلقه لا يقتصر على أعمالهم الظاهرة فقط بل يشمل الأعمال الباطنة، فالمنافقين ليسوا بمنجاة بإضمارهم الكفر وإظهارهم الإسلام، بل هم متوعدون بالحساب عن حقيقة إيمانهم.

قال سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال ابن كثير: يخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليها الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده[1].

فأما المؤمنون فإن الله يغفر لهم ما حدثتهم به أنفسهم من الإثم ابتداء ما لم يعملوه؛ كما جاء في الحديث الصحيح: (إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست، أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به، أو تكلم)[2].

فإن عملوه فهم تحت المشيئة، وأما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٧٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم ٦١٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر، رقم ١٨٥.

الكافرون والمنافقون فإنهم متوعدون بالعذاب به. وتمام العلم يحقق التوفية في الحساب والجزاء، وذلك غايته تمام العدل.

قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١١١].

ورغم علمه سبحانه بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، إلا أنه سبحانه أعمل في خلقه الرقابة والرصد، وكتب لهم أعمالهم كلها، وأشهد عليهم.

قال سبحانه على لسان عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ١٦-٢١].

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، وأن ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده بإقدار الله لهم على ذلك، فيكتب الملكان المترصدان عن يمين الإنسان وشماله عمله لا يخرمان منه شيئًا، فما يتكلم ابن آدم بكلمة إلا ولها من يراقبها معتدًا ويكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢][1]. وعن ابن عباس قال: جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل، وحافظين في النهار، يحفظان عليه عمله، ويكتبان أثره[2].

٤. القدرة.

دلت الآيات على قدرة الله سبحانه وتعالى المطلقة، وربطت بينها وبين المسؤولية في كثير من المواضع، حيث بينت:

- قدرته سبحانه على المراقبة والإحصاء: قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].
- قدرته على جمع المسؤولين وإرجاعهم للحساب: قال سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]. وقال سبحانه: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤]. وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ مَا يَنْهِ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٣٩٧.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٣٤٠-٣٤٤.

﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ [الطارق: ٥-٨].

- قدرته على الإتيان بالأشهاد: قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [فصلت: ١٩-٢٢].

- قدرته على الإثابة والعقاب: قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

فالله سبحانه له القدرة التامة، متصرف في الكون تصرف المالك ذي السلطان، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢].

وهو في إيجاب المسؤوليات على الخلق قادر على جمعهم للحساب.

قال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ [الشورى: ٢٩].

وهو سبحانه قادر على محاسبتهم جميعًا، سريع في ذلك.

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

والله سبحانه قادر على إقامة الشهادة على خلقه من أنفسهم: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩-٢١].

٥. الحكم الفصل.

حكم الله سبحانه فصل غير متعقب.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

قال القرطبي: أي يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازي كلا بما يستحق[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

فمرجع الحكم كله إليه سبحانه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وقضاؤه في حكمه الحق، وهو خير الفاصلين، قال البغوي: والفصل يكون في القضاء[(٢)].

إن السائل إذا كان حكمه وحسابه متعقبًا لم يكن أصيلًا في استحقاق كونه سائلًا، بل إنه يكون فرعًا، مسندًا إليه السؤال، لكنه غير مستقل ولا بات فيه. والقرآن يخبرنا أن الله سبحانه أصيل في المحاسبة والسؤال، فلا راد لحكمة ولا معترض على قضائه.

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وهو سبحانه يحكم ما يريد؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

بل ولا يشفع أحد في حكمه، ولا يجرؤ إلا بإذنه.

قال سبحانه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولا يشفع الشفعاء إلا لمن ارتضى مع كونهم مشفقون خشية منه.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٦. الوعد الحق.

فهو سبحانه الذي لا يخلف وعده، فالمكلفون لا محالة مسئولين، والله سبحانه مجازيهم عن أعمالهم كما عهد إليه ووعدهم.

وقد أقسم ربنا سبحانه بذلك فقال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر: ٩٢].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٠٩.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٤٩.

وقال سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وفي الآية تأكيد الخبر بلام القسم ونون التوكيد لإزالة الشك في ذلك[١].

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٤].

فوعده سبحانه حق لا يخلف، فمن أحسن جوزي بالحسنى ومن أساء جوزي بعمله.

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا. والمقصود أن المسؤول إذا لم يكن الحساب في حقه مجزومًا به فإنه قد لا يلتزم بمسؤولياته وقد يتردد. فكان الجزم بالسؤال والمحاسبة والمجازاة قاطعًا للشك في التبعة، ومفضيًا إلى التخلص من الريب والظن والشك. والسائل الذي لا يجزم بالمسؤولية يكون بذلك قد أمل المكلف في التخلص من التبعة، فإذا حاسبه وألزمه التبعة لم يكن أنصفه. والله سبحانه مع سرعة حسابه هو الحكم العدل.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ٢٦.

ثالثًا: موضوع سؤاله سبحانه:

يسأل الإنسان إجمالًا عن لا إله إلا الله: هل صدق بها وعمل بمقتضاها؟، ويسأل تفصيلًا عن الأعمال.

قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

قال ابن عمر: عن لا إله إلا الله[٢]، وكذا عن انس ابن مالك مرفوعًا وموقوفًا[٣].

والسؤال عن لا إله إلا الله يكون عن الوفاء بها والصدق لمقالها[٤].

وعن أبي العالية: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وعماذا أجابوا المرسلين، وقال ابن عيينة: عن عملك وعن مالك.

وروى ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعه فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك)**[٥].

وقال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٥٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٥٠.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٦٠.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٧٣.

غيره، ما منكم من أحدٍ إلا سيخلو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي؟ ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين[1].

وفي الحديث عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه وعن علمه فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه)[2].

وهذا مصداقه قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

فموضوع السؤال إذًا مجمل؛ وهو: لا إله إلا الله، هل عمل بها وصدق؟، ومفصل: ويتناول جميع العمل.

رابعًا: خصائص سؤاله سبحانه:

قرر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يسأل الرسل والمرسل إليهم عما عهد إليهم من مسؤوليات.

قال سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وأن هذا السؤال كائن مع علم الله سبحانه المحيط بأفعالهم وأقوالهم وإسرارهم وإعلانهم إذ يقول سبحانه بعد: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

وتفسير ذلك: أنه سبحانه وتعالى يخبر الرسل ومن أرسلهم إليهم بعلم يقين بما عملوه في الدنيا فيما أمرهم به ونهاهم عنه، وأنه سبحانه ما غاب عنه شيء عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها. وقد يشكل على البعض كيف أنه سبحانه يسأل الرسل، والمرسل إليهم، وهو يخبر أنه يقص عليهم بعلم بأعمالهم وأفعالهم فيما أمرهم به ونهاهم عنه؟

والجواب: أن سؤال الله لهم ليس بمسألة استرشاد أو تعرف ما هو غير عالم به، وإنما هو مسألة توبيخ وتقرير معناها الخبر، بأن يقول لهم: ألم يأتكم رسلي بالبينات؟ ألم أبعث إليكم النذر فتنذركم عذابي وعقابي؟

وقد أخبر جل ثناؤه أنه قائل لهم يومئذ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

ونحو ذلك من القول الذي ظاهره ظاهر مسألة، ومعناه الخبر والقصص، وهو بعد

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٥٠.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في القيامة وشأن الحساب والقصاص، رقم ٢٣٥٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٢١، رقم ٧٣٠٠.

توبيخ وتقرير[1].

قال ابن عباس: (لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا؟)[2].

أما مسألة الرسل الذي هو قصص وخبر، فإن الأمم المشركة لما سئلت في القيامة قيل لها: ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم؟ أنكر ذلك كثير منهم وقالوا:ما جاءنا من بشير ولا نذير. فقيل للرسل: هل بلغتم ما أرسلتم به ؟ أو قيل لهم: ألم تبلغوا إلى هؤلاء ما أرسلتم به ؟

كما قال جل ثناؤه لأمة نبينامحمدصلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فكل ذلك من الله مسألة للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أرسلوا إليه من الأمم، وللمرسل إليهم على وجه التقرير والتوبيخ، وكل ذلك بمعنى القصص والخبر[3].

فسؤال المجرمين تقرير وتوبيخ وإفضاح، وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح[4].

فأما الذي هو عن الله منفي من مسألته خلقه، فالمسألة التي هي مسألة استرشاد واستثبات فيما لا يعلمه السائل عنها ويعلمه المسؤول، ليعلم السائل علم ذلك من قبله، فذلك غير جائز أن يوصف به الله سبحانه وتعالى، لأنه العالم بالأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، وهي المسألة التي نفاها جل ثناؤه عن نفسه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني: لا يسأل عن ذلك أحد منهم مستثبت، ليعلم علم ذلك من قبل من سأل منه، لأنه العالم بذلك كله وبكل شيء غيره[5].

من جميع ما سبق تظهر الخصائص التالية لسؤاله سبحانه خلقه:

- أنه سؤال يعم جميع المكلفين.
- أنه سؤال بعلم، فلا يقصد به الاسترشاد أو المعرفة.
- أن غاية السؤال: التوبيخ والتبكيت، أو التقرير، أو الاستشهاد والإفصاح.
- أنه سؤال يفيد الخبر.

خامسًا: كيف يرتب السائل المسؤولية:

إن الله سبحانه وتعالى لا يسأل الناس ويحاسبهم دون موجب، بل إنه سبحانه

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣٠٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٥١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣٠٧-٣٠٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ١٦٤.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣٠٧-٣٠٩.

قدم بين يدي السؤال ما تكون به الحجة للمجيب أو عليه، فإنه سبحانه أسند وعهد إلى عباده بمسؤوليات، ثم هداهم - توجيهًا - وأرشدهم إلى كيفية أدائها وما يترتب على الأداء والإخلال، وأخذ سبحانه على نفسه إحصاء أعمالهم وكتابتها والإشهاد عليهم، ثم إنه سبحانه وتعالى يجمعهم بقدرته لا يتخلف منهم أحد، ثم إنه سبحانه بعد ذلك يسألهم محاسبًا، ويوفيهم حسابهم. ومن هذا الترتيب تظهر مراتب المسؤولية التي رتب الله سبحانه؛ وهي: العهد والإسناد، الهداية والإرشاد، الرقابة والإحصاء والإشهاد، الإرجاع والجمع، والسؤال حسابًا والجزاء.

العهد والإيجاب والإسناد:

العهد يطلق على الأمر والوصية؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: ١٨٣].

أي: أمرنا وأوصانا[(١)].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

والعهد اليمين والعهد الالتزام بشيء، يقال: عهد إليه وتعهد إليه؛ لأنها أمور لا يزال صاحبها يتذكرها ويراعيها في مواقع الاحتراز عن خفرها[(٢)].

والعهد في الآية الذي أخذه الله على بني آدم أن لا يعبدوا غيره، فنقضه يشمل الشرك وقد وصف الله المشركين بنقض العهد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وفسر بالعهد الذي أخذه الله على الأمم على ألسنة رسلهم أنهم إذا بعث بعدهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

و(عهد الله) هو ما عهد به أي: ما أوصى برعيه وحفاظه[(٣)].

وهذا السؤال في آية يس معناه الخبر والقصص، والمقصود به التوبيخ والتقرير[(٤)]، فإنه تعالى يقول للمجرمين وقد فرق بينهم وبين المؤمنين: ألم أوصكم وآمركم في الدنيا أن لا تعبدوا الشيطان فتطيعوه في معصية الله وأقول لكم: إن الشيطان لكم عدو مبين[(٥)]. وجعلت ذلك مسؤولية مسندة إليكم.

والعهد يقتضي في معناه الميثاق والاتفاق، فإن الله قد أخذ الميثاق على عباده أنه من أطاعه أدخله الجنة، ومن عصاه

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٤٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٣٧٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٣٦٩.
(٤) المصدر السابق ٢٠/ ٥٤٢.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٣٠٧.

حاسبه بما هو أهله فإما عفا عنه وإما عذبه ثم عفا عنه، وإما خلده في العذاب، والآيات القرآنية متواترة في ذلك.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وبمعنى الأمر والإيجاب قال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٣٨].

قال الشنقيطي: وقضى ربك معناه: أمر وألزم، وأوجب ووصى ألا تعبدوا إلا إياه[(١)].

قال ابن عباس والحسن وقتادة: ليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر[(٢)].

فالذي يسند المسؤوليات حقيق بالسؤال عنها، ولذلك أوضح الله عز وجل في السياق السابق أن المسؤوليات التي أسندها إلى عباده سيسألهم عنها، وأن السؤال لا يتعلق بعمل الجوارح فقط في أداء المسؤوليات، بل يتعلق كذلك بالتلقي والقبول.

والخلاصة أن الله كلف العباد وألزمهم وأوجب عليهم مسؤوليات على الجملة والتفصيل، وهو سائلهم عنها بموجب كونه

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٨٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٢٣٧.

المسند لها والعاهد بها.

الهداية والإرشاد:

تبين آيات القرآن الكريم أن الله هدى عباده وأرشدهم إلى كيفية أداء هذه المسؤوليات التي عهد بها إليهم، وأنه سبحانه أعلمهم بعواقب اختيارهم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: ٣-٥].

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ إنا بينا له طريق الجنة، وعرفناه سبيله[(١)].

وقال ابن كثير: أي: بيناه له ووضحناه وبصرناه به، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وكقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. وهذا قول عكرمة، وعطية، وابن زيد، ومجاهد -في المشهور عنه- والجمهور[(٢)].

ثم إنه سبحانه وضح عواقب اختيارهم، فالسلاسل والأغلال والسعير معدة للكافرين، أما الأبرار فإن مآلهم الشراب الهنيء والفضل الكبير.

وتظهر آيات القرآن الكريم -كما في الآية الآنفة الذكر من سورة فصلت- أن الله سبحانه وتعالى أرشد كل أمة إلى سبيل الرشد والخير، وبين لهم عواقب الغي والفساد، وأنه سبحانه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، والقرآن الكريم ذاخر بقصص الرسل مع أقوامهم؛ كيف دعوهم إلى الحق وبينوا لهم سبيل الرشاد.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: ٤].

وهذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلًا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم[(٣)].

فالهداية والإرشاد تأتي في المرتبة بعد العهد والإيجاب، وهي الدلالة على السبيل المؤدي إلى أداء المسؤوليات المعهود بها على وجهها الأتم، والتعريف بالسبل التي تصد عن ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

المراقبة والإحصاء والإشهاد:

إن الله سبحانه بعد أن عهد بالمسؤوليات،

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ٩٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٨٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٧٧.

وأرشد إلى سبيل أدائها، أخبر أنه سبحانه يراقب أعمال العباد ويحصيها عليهم ويشهد عليها، مع أنه سبحانه العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا وأحصى كل شيء عددا، لا يخفى عليه شيء، يعلم الغيب والسر وأخفى.

قال سبحانه في المراقبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

والمعنى: أن الله لم يزل عليكم رقيبًا، أي: حفيظًا، محصيًا عليكم أعمالكم[(١)].

وقال عز من قائل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

أي: راقبًا أو مراقبًا بمعنى حافظًا ومطلعًا على كل شيء فاحذروا تجاوز حدوده سبحانه وتخطي حلاله إلى حرامه[(٢)].

وقال سبحانه في الإحصاء: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

أي: أنه سبحانه يبعث الرجال والنساء جميعًا من قبورهم في حالة واحدة فيخبرهم بما عملوا في الدنيا، وأنه سبحانه قد أحصى ذلك عليهم، أي: ضبطه وأثبته وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، ونسوه هم حتى ذكرهم به في صحائفهم، والله على كل شيء من أمر خلقه شاهد يعلمه ويحيط به، فلا يعزب عنه شيء[(٣)].

وقال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٩].

أي: وكل شيء أحصيناه فكتبناه كتابا، كتبنا عدده ومبلغه وقدره، فلا يعزب عنا علم شيء منه[(٤)].

وكل شيءٍ من قليل وكثير، وخير وشر مكتوب في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أن يعذبوا بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة.

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩][(٥)].

وفي الإشهاد: قال ابن زيد: الأشهاد أربعة:

أولها: الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد. قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ

(١) جامع البيان، الطبري، ٧/ ٥٢١.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٢٢/ ٦٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٢٣٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٢٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٤١.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ١٦٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩٠٦.

﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨].

وقال عز من قائل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وثانيها: شهادة الأنبياء وهو المراد بقوله سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال في حق محمد صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء: ٤١].

وثالثها: شهادة أمة محمد خاصة. قال تعالى: ﴿وَجِايْءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١].

ورابعها: شهادة الجوارح وهي بمنزلة الإقرار بل أعجب منه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: ٦٥][1].

والإشهاد دلالة على تمام عدله سبحانه، حتى إنه سبحانه يفسح المجال للمجادلة وإيراد الحجج يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتستشهد، كما في آية يس السابقة: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: ٦٥].

قال ابن كثير: فهذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، فإنهم إذ ينكرون ما اجترموه ويحلفون أنهم ما فعلوه، يختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم[2].

وفي الصحيح عن أنس بن مالكٍ، قال: (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: (هل تدرون مم أضحك؟)، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (من مخاطبة العبد ربه، يقول يا رب: ألم تجرني من الظلم؟، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢/ ٩٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٨٥-٥٨٦.

أناضل)[1].

قال صالح بن عبد القدوس -وهو أحد شعراء العصر العباسي-:

واذكر مناقشة الحساب فإنه
لا بد يحصى ما جنيت ويكتب
لم ينسه الملكان حين نسيته
بل أثبتاه و أنت لاه تلعب

الجمع والسؤال والحساب:

إن الله سبحانه بعد أن عهد إلى عباده أمره، وهداهم وأرشدهم وإلى طريق الفلاح دلهم، وأخبرهم بأنه رقيب عليهم، وأنه يحصي عليهم أعمالهم و يشهد عليهم، بعد هذا كله توعدهم بأنه سبحانه جامعهم جميعًا لا محالة، وسائلهم عما عهد إليهم، ومحاسبهم على أعمالهم.

قال سبحانه في الجمع: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٦].

يعني: أنه يجمعكم جميعا أولكم وآخركم، وصغيركم وكبيركم أحياء ليوم القيامة فلا تشكوا في ذلك، فإن الأمر كما وصفت لكم[2].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: ٩].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

وقال عز من قائل: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

فالقرآن الكريم أثبت الجمع، وأنه واقع لا محالة، وأنه الجميع مجموع، وذلك في آيات كثيرة.

وقال سبحانه في السؤال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فإن الله بعد أن يجمع الخلائق ليوم القيامة يسأل المرسل إليهم عما أجابوا رسله، ويسأل الرسل عن تبليغ الدعوة لأقوامهم حتى يكون أبلغ في التبكيت على من خالفهم، وقد مضى بيان ذلك. والآيات والواردة في السؤال والمحاسبة كثيرة وقد مضى ذكرها.

وقال سبحانه في المحاسبة: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:

(١) أخرجه مسلم ٥٢٧٥، كتاب الزهد والرقائق.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٨٠.

٢٥-٢٦].

فالمرجع والمنقلب إلى الله سبحانه، والحساب والجزاء عليه سبحانه على وفق العمل إن خيرا فخير، وإن شرا فشر[(١)].

وقال سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال الطبري: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ يعني بذلك: يحتسب به عليكم من أعمالكم، فمجاز من شاء منكم من المسيئين بسوء عمله، وغافر لمن شاء منكم من المسيئين[(٢)].

القضاء والجزاء:

قال سبحانه في القضاء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس: ٩٣]؛ أي: يحكم بينهم ويفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي[(٣)].

والحكم والفصل بالعدل بين المتنازعين والمختلفين يقتضي الحساب والسؤال والتقرير بالوقائع. وقضاء الله مبني على العدل والإحسان، فلا تظلم نفس شيئًا.

قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه في الجزاء: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

وهو إخبار عن قيله يوم القيامة حين يبعث خلقه من قبورهم لموقف الحساب؛ يقول: اليوم يثاب كل عامل بعمله، فيوفى أجر عمله، فعامل الخير يجزى الخير، وعامل الشر يجزى جزاءه[(٤)].

وقال جل من قائل: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢٢].

كما في الحديث القدسي: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[(٥)].

وقال سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

أي: يجزى الإنسان بسعيه الجزاء الأكمل والأتم[(٦)].

والآيات في ذكر الجزاء وترتيبه بعد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٣٨٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٠١-١٠٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٨١.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٦٦.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، رقم ٤٦٨٠.
(٦) معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ٤١٧.

الابتلاء كثيرة. والله سبحانه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم إذ يعفو عن كثير، فلا يحاسب المؤمنين بحديث النفس، ويغفر الكثير من الخطأ والزلات، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

وقد جمع الله سبحانه في آية الأنعام المعاني السابقة؛ فقال: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

فالرد كالرجع في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨][1]، قيل: يعني العباد يردون بالموت إلى الله مولاهم الحق مالك الكل ومتولي الأمور، الذي له القضاء دون خلقه، وهو إذا حاسب فحسابه سريع؛ لأنه لا يحتاج إلى فكرة ورؤية وعقد يد[2]، بل إنه سبحانه أسرع من يحاسب فلا يتأخر جزاؤه[3].

(١) المفردات، الراغب الأصبهاني، ١/ ٣٩٣.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٥١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٨٠.

المسؤول

أولًا: الرسل عليهم السلام:

والرسل عليهم السلام في القرآن: هم من اختارهم الله سبحانه واصطفاهم من الملائكة والناس، وكلفهم بإنفاذ ما شاء من قدره، أو بلاغ ما شاء من رسالاته وشرعه؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ [الحج: ٧٥].

فالملائكة رسل الله فيما شاء من شرعه وقدره، ورسله من الناس لإبلاغ رسالاته، وهو سميع لأقوال عباده بصير بهم عليم بمن يستحق ذلك منهم، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤][4].

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

قال: بالرسالة والعذاب[5].

أما الملائكة فإنهم مجبولون على الطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال سبحانه ردًا على من قال إن الملائكة بنات الله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٤٥٤.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٦٨.

﴿يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

فأبطل الله سبحانه دعوى القائلين بذلك، بوصفهم بأنهم عباد مكرمون بكرامته سبحانه لهم، مقربون عنده، وبأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يقولون شيئًا حتى يقوله، أو يأمرهم به، وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم. ثم وصفهم بأنهم العاملون بما يأمرهم به سبحانه، التابعون المطيعون له[1]. وبمثل هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١].

قال السعدي: وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلًا، ولم يستثن منهم أحدًا، دليل على كمال طاعتهم لربهم، وانقيادهم لأمره[2]. فلا يقع عليهم السؤال والمحاسبة إذ لا تقع عليهم المسؤولية والتبعة. وهذا هو الأصل.

وأما الرسل من البشر، فالمسؤولية في حقهم ثابتة، وسؤالهم في القرآن وارد في غير موضع؛ قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦-٧].

يعني لنسألن الأمم عن إجابتهم الرسل، ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عن الإبلاغ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن الرسل فيما بلغوا، وعن الأمم فيما أجابوا[3].

مقاصد سؤال الرسل:

إن الرسل أحرى الخلق بالاستقامة على الحق، ولكن ثبت سؤالهم في القرآن الكريم في غير موضع، كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

والرسل يسألون عن الإبلاغ كما تقدم، والله سبحانه غير غائب عن خبرهم بل يعلم جميع ذلك، فلم يسألهم؟ والجواب أن الله سبحانه يسأل الرسل يوم القيامة لمقاصد عظيمة؛ منها:

١. إقامة الشهادة.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤١ - ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٩٣٣-٩٣٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٠٣.
(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢١٤.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فهذه الآيات توضح أن سؤال الرسل عن البلاغ إقامة للشهادة على أقوامهم بأن أمر الله ودعوته وعهده قد وصلتهم، كما يشهد الرسل على إجابتهم ما داموا فيهم، كما جاء في التنزيل على لسان عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧].

٢. تبكيت وتوبيخ المكذبين وتحقيرهم.

وذلك لما يرون من تبرؤ معبوديهم من عبادتهم، وإثبات وصول دعوة الحق لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

قال القرطبي: واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال وليس هو باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين؛ أحدهما: أنه سأله عن ذلك توبيخا لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب، وأشد في التوبيخ والتقريع[(١)].

تعريف الرسل بما غير أقوامهم من بعدهم: وهذا هو القول الثاني في الآية السابقة، فإنه سبحانه بهذا السؤال قصد تعريف عيسى عليه السلام أن قومه غيروا بعده، وادعوا عليه ما لم يقله[(٢)].

سلوك الرسل حال السؤال:

يظهر الرسل حال سؤالهم عظيم تنزيههم لربهم وتعظيمه ومعرفة قدره سبحانه، وعظيم امتثالهم لأمره وشرعه، وعظيم تواضعهم لله وافتقارهم إليه، واستحالة ادعائهم ما ليس لهم بحق، وجواب عيسى عليه السلام عن السؤال مثال بين على ذلك.

وفي سورة المائدة يسأل الله سبحانه الرسل عما أجابتهم أممهم، وكيف ردوا عليهم حين دعوهم إلى طاعته وتوحيده، قال عز من قائل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

فردوا إليه سبحانه العلم إذ أجلوه وتأدبوا

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٢١-١٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٣٧٥.
(٢) المصادر السابقة.

معه فيما عندهم من العلم، وفزعوا من هول يوم القيامة، واعترفوا بفوات ما غاب منهم مما هو في صدور الناس، أو مما أحدثوا بعدهم، ومما كان من عاقبة أمرهم[(١)].

وفي سلوك الرسل حال السؤال إظهار منهجهم في أداء رسالاتهم وأنهم يبلغون رسالات الله ويخشونه، كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وكمال تأدبهم مع الله سبحانه، والتسليم لأمره ولحكمته.

مسؤولية الرسل:

مسؤولية الرسل في مقام الرسالة تقتصر على البلاغ المبين؛ قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وهذا سؤال استنكاري يفيد تقرير أن الرسل ليس عليهم إلا التبليغ البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة[(٢)].

وقال عز من قائل: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

وهذه الآية تحتمل أن تكون من كلام إبراهيم عليه السلام تكملة لما سبق من كلامه، ويكون المعني بالرسول -بالتالي- إبراهيم، وهذا إظهار في مقام الإضمار لتقرير أن واجب الرسول - أي رسول- هو إبلاغ ما أرسل به بينًا واضحًا[(٣)].

وقال تعالى على لسان الثلاثة الرسل في معرض ضرب المثل لمشركي قريش بأصحاب القرية: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ [يس: ١٦-١٧].

وقد جاء بيان أن مسؤولية الرسل في مقام الرسالة مقتصر على البلاغ المبين في مقام التهديد والوعيد خطابًا للمرسل إليهم، كما جاء في مقام التسلية والتعزية والتخفيف خطابًا للرسل؛ فمما جاء خطابًا للمرسل إليهم قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

قال أبو جعفر الطبري: وهذا من الله تعالى ذكره تهديد لعباده ووعيد، فمهمة الرسول أن يؤدي إليكم رسالتنا، والله المطلع على المطيع والعاصي؛ لأنه يعلم ما عمله العامل في الظاهر بجوارحه، وما أخفاه في نفسه من إيمان وكفر أو يقين وشك ونفاق[(٤)].

ومن ذلك أيضًا قوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١١٥-١١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٢٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١٠٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٤٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٢٧.
(٤) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٩٦.

اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وهذه الآية أيضًا في مقام التهديد والوعيد؛ فهو سبحانه يقول للناس: إن الرسول قد أعذر إليكم بالإبلاغ والله ولي الانتقام ممن عصاه وخالف أمره[(١)].

ومما جاء خطابًا للرسل قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢].

وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أن يخفف عن نفسه، ولا تذهب نفسه حسرات عليهم إن قابلوه بالإعراض وعدم الاستجابة، فيخبره سبحانه أنه ليس عليه من لوم ولا عذل إذ أدى ما عليه من بلاغ ما أرسل به بينًا واضحًا[(٢)]، ويقول له: فلا عليك منهم[(٣)].

ومنه أيضًا قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وتعني: أن الله لم يرسلك رقيبًا تحفظ أعمالهم وتحصيها، فإن أعرضوا ولم يستجيبوا لك فدعهم، فما عليك إلا أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم، فإذا بلغتهم فقد أديت ما عليك[(٤)].

فيظهر من ذلك كله أن مخاطبة المرسل إليهم عن انحصار مهمة الرسل في البلاغ المبين فحواه: التهديد والوعيد بأن خصمهم ليس هو الرسول وإنما من بعثه وهو الله سبحانه وليسوا بأهل لخصومته. ويظهر أن الغرض من مخاطبة المرسلين بذات الخطاب؛ وهو: التخفيف عنهم، وتسليتهم، وبيان لحدود واجبهم.

والرسل في مقام العبودية مخاطبون بفروع الشريعة كما هو شأن عامة المؤمنين، وبالتالي فهم مسؤولون عما أسند إلى عامة المؤمنين من مسؤوليات، فليس معنى اقتصار مسؤوليتهم على البلاغ أنهم غير مخاطبين بفروع الشريعة، بل إن الله سبحانه أمرهم بما أمر به المؤمنين، لكنها مسؤولية خاصة.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب

(١) المصدر السابق ٢٣/ ٤٢٢.
(٢) المصدر السابق ١٧/ ٢٧٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٩٢.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٥٥٦.

لذلك)[1].

ثانيًا: المؤمنون:

إن الله سبحانه كما يسأل الرسل فإنه يسأل المؤمنين، وقد ثبت في القرآن مسؤولية المؤمنين في غير ما آية.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

يأتي هذا الحديث في معرض وصايا للمؤمنين، حيث أمرهم الله سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي، كما أمرهم بالوفاء بعهد الله ونهاهم عن نقض الأيمان بعد توكيدها، وغيرها. وهذا السياق يدل على أن المسؤولين هم المؤمنون. فالمؤمنون مسؤولون يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨].

وجملة الأقوال في المقصود بالصادقين أربعة؛ منها: ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة، فيشمل بذلك المؤمنين.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

رجح القرطبي أن يكون المقصود بالذكر هنا القرآن لانبناء الكلام عليه ورجوع المصير إليه.

وأشار الماوردي[2] إلى قولين في قوله تعالى ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ أحدهما: من اتبعك من أمتك، والثاني: لقومك من قريش.

والصحيح أنه شرف لمن عمل به، كان من قريش أو من غيرهم.

وقد وردت الأدلة المتكاثرة أنه لا فضل إلا بالتقوى، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين)[3].

فيكون المقصود بقومك المؤمنون، ويكون السؤال عن الشكر عن رفع القدر بهذا القرآن، أو تسألون على ما أوتيتم. وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي: عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفراء. وقال ابن جريج: أي: تسألون أنت ومن معك على ما أتاك. وقيل: تسألون عما عملتم فيه؛ والمعنى متقارب[4].

كذلك فقد ثبت في القرآن الكريم أن أمة الإجابة تشهد، ولا تكون الشهادة إلا إجابة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم ١٦٩٢.

(٢) النكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٢٢٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمةً من فقهٍ أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم ١٣٥٩. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٩٤.

عن سؤال.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأمة الإجابة هم المؤمنون في الجملة.

ثالثًا: الكافرون:

إن سؤال الكافرين ثابت في القرآن في آيات كثيرة جدًا، وسؤال الله للكفار في القرآن كله توبيخ وتقريع[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الصافات: ٢٢ – ٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

وقال عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦].

وقد يشكل على البعض سؤال الكافر بسبب بعض الآيات التي تشير إلى حجب الكفار وعدم سؤالهم وعدم تكليمهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقوله عز من قائل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

والذي يظهر أنهم مسؤولون لآية الحجر السابقة، ولقوله سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٧.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦][1].

وقد جمع القرطبي توجيهات الجمع بين الآيات عند أهل العلم في وجهين؛ الوجه الأول: أن القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه. وهو قول عكرمة؛ قال: القيامة مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها. الوجه الثاني: وهو قول ابن عباس؛ قال: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ، لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم: لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه ؟ واعتمد قطرب هذا القول[2]؛ فقال: السؤال ضربان، سؤال استعلام، وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ يعني: استعلاما.

وقوله سبحانه: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: توبيخا وتقريعًا[3].

وقيل: لنسألنهم أجمعين يعني المؤمنين المكلفين، بيانه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

والقول بالعموم أولى كما ذكر[4].

ويحتمل في الحديث عن عدي بن حاتم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم أحدٌ إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمانٌ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرةٍ)[5] أن يكون المقصود المؤمنون، كما يحتمل أن يكون المقصود العموم.

رابعًا: المنافقون:

المنافقون هم آفة هذه الأمة، والنفاق في اللغة من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان الشر، وهو في الشرع ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر؛ وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهو النفاق الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر؛ وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦١.
(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٣٩٥-٣٩٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٦١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم ٦٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم ١٦٩٤.

صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك[1].

وأصول هذا النوع ترجع إلى خمس خصال ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: (آية المنافق ثلاثٌ، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[2].

وفي الحديث الآخر قال: (أربعٌ من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها إذا، اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[3].

وهي: الكذب، إخلاف الوعد، الفجور في الخصومة، الغدر بالعهد، والخيانة في الأمانة[4].

خص ربنا سبحانه وتعالى المنافقين بالذكر في سورة كاملة بين فيها سبيل النجاة من سبيلهم، وعرف بهم في آيات كثيرة من القرآن.

قال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ١-٣].

فوصفهم سبحانه بالكذب، وبأن أيمانهم وحلفهم بأنهم منكم ادعاء يريدون به حماية أنفسهم وأموالهم وذراريهم[5]، والإعراض والصد عن سبيل الله، وإضعاف المؤمنين من خلال التغلغل في نسيجهم.

قال سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٧].

وقد دل القرآن الكريم على إمارات التعرف إليهم، والتي تظهر في أقوالهم وأفعالهم.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

فوصف من أقوالهم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

قال سبحانه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ٢/ ٤٨١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٩٢، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٩١.
(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ٢/ ٤٨٢-٤٨٨.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٣٩٤.

نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

ووصف منها أيضًا: الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، ويروغون عن مسؤولية قولهم هذا بكونه مجرد خوض ولعب.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

ووصف من أفعالهم التكاسل عن الصلاة، بل إنهم كانوا في عهد رسول الله يغيبون عن صلاتي العشاء والفجر من أجل أن العتمة تخفي الوجوه فلا يعرف الحاضر من الغائب.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

ووصف كذلك من أفعالهم موالاة الكفار وأعداء الأمة المسلمة.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

وبسبب سوء صنيعهم الذي يشكل معاول لهدم الصف المسلم، وهدم قيمه وثوابته، توعدهم الله سبحانه أشد الوعيد.

قال سبحانه: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقد جمع القرآن بين صفاتهم وبيان أنهم سيسألون ويحاسبون، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ١٢-١٥].

والآيات جاءت في وصف أحداث غزوة الأحزاب حين حاصرت جموع المشركين المدينة، فزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وابتلي المؤمنون أشد البلاء، وأظهرت شدة البلاء ما في قلوب المنافقين من الغيظ، هنالك ادعى المنافقون أن وعد الله ورسوله بالنصر متخلف، وسعى فريق منهم للتخذيل، وفريق سعى للفرار والنأي بنفسه بادعاءات كاذبة وحجج واهية، وأخبر

الله سبحانه أنهم لو دخلت عليهم جيوش المشركين التي يريدون قتالها من أطراف المدينة ثم سئلوا أن يكفروا لكفروا، يحملهم على ذلك: الخوف منهم، وخبث الفتنة التي هم عليها من النفاق عليه. والفتنة هي الكفر، وهي التي يقول الله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

أي: الكفر. هذا مع كونهم كانوا عاهدوا الله من قبل ذلك، ألا يولوا عدوهم الأدبار إن لقوهم في مشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم معهم، فما أوفوا بعهدهم ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: فيسأل الله ذلك من أعطاه إياه من نفسه[1].

ومن عجيب أمر المنافقين أنهم عند السؤال والحساب يكذبون ويحلفون على الكذب كما كانوا يفعلون في الدنيا، قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

فانظر إلى أقوالهم وأفعالهم، وانظر إلى وعد الله لهم بسؤالهم عن عهدهم معه، وانظر إلى جدالهم ربهم عند الحساب، وانظر إلى عاقبة أمر المنافقين، تعرف أن المنافقين من شر العباد.

ويلاحظ أن ذكر السؤال في حق المنافقين رغم سيء أفعالهم، وخبيث خصالهم لم يرد إلا في موضع سورة الأحزاب، وأن الموضع الذي ذكر فيه هو موضع الخيانة والخذلان والتخذيل، ويشير ذلك إلى أن شر المنافقين الأساسي، وضررهم الأكبر يتمثل في هذه الأعمال التي تستهدف تماسك الأمة وروحها المعنوية.

خامسًا: الولاة:

يخبر القرآن الكريم أن الولاية محل للسؤال، وأن الولاة مسؤولون مهما كانت درجة ولايتهم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقد رأى كثير من المفسرين أن هذه الآية خاصة بالأمراء، قال أبو جعفر الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: هو خطاب من الله ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية. يدل على ذلك ما وعظ به الرعية في الآية التالية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الراعي

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٢١-٢٢٨.

بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة، وبمثل هذا القول قال زيد بن أسلم[1].

ورأت طائفة من المفسرين أن المقصود بها العموم.

قال ابن كثير: وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلوات والزكوات، والكفارات والنذور والصيام، وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك. فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة[2].

ورأت طائفة ثالثة أن المقصود بها قضاء الدين، ورد حقوق الناس[3].

قال ابن العربي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾: (قال ابن زيد: قال أبي:هم السلاطين، بدأ الله سبحانه بهم، فأمرهم بأداء الأمانة فيما لديهم من الفيء، وكل ما يدخل إلى بيت المال حتى يوصلوه إلى أربابه، وأمرهم بالحكم بين الناس بالعدل، وأمرنا بعد ذلك بطاعتهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩])، وأردف: (هذه الآية في أداء الأمانة والحكم عامة في الولاية والخلق، لأن كل مسلم عالم، بل كل مسلم حاكم ووال)[4].

فالقرآن هنا إذًا يشير إلى أن الأمانة عامة في كل أمر، وخص بالذكر منها الحكم بعد العموم تنويهًا بكونه أعلى الأمانات شأنًا، وأعظم التكاليف مسؤولية، فإن الولاية العامة تدخل في باب الأمانة باعتبارها رأس الأمانات والتي عليها قوام حياة الناس ومعاشهم، وصلاح دنياهم وأخراهم؛ وفي الحديث عن أبي ذرٍ قال: (قلت يا رسول الله ألا تستعملني قال فضرب بيده على منكبي ثم قال: (يا أبا ذرٍ إنك ضعيفٌ وإنها أمانةٌ وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها)[5].

والولاة مسؤولون على مختلف مواقعهم ومراتبهم ومسؤولياتهم، من كان منهم أمير الناس، ومن كان عبدًا عاملًا في مال سيده؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته، الإمام راعٍ ومسئولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئولٌ عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئولٌ عن رعيته)، قال: وحسبت أن قد قال والرجل راعٍ في مال أبيه

(١) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٤٩٠-٤٩٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٣٨.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٤٩٣.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٥٧٢.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة، رقم ٣٤١٠.

ومسئولٌ عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيته)[1].

إلا أن أشد الناس مسؤولية الذي يكون على رأس الناس، وهو أمير العامة، ويتأكد عظم هذه المسؤولية بما توعد به ربنا سبحانه فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وبما حذر منه رسولنا صلى الله عليه وسلم الحاكم الظالم الجائر أو الغاش لرعيته، أو المحتجب دون خلتهم وحاجتهم؛ فقال: (ما من والٍ يلي رعيةً من المسلمين فيموت وهو غاشٌ لهم إلا حرم الله عليه الجنة)[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم)، قال أبو معاوية: (ولا ينظر إليهم، ولهم عذابٌ أليمٌ، شيخٌ زانٍ، وملكٌ كذابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ)[3].

والقرآن مع بيان مهام المسؤولين من الولاة، فإنه يوضح المزالق التي تسبب لهم الكبوات والنكبات لا سيما في ولاية العامة.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨].

قيل: هي في ولي اليتيم، يرفع المال إلى الحاكم يريد أكل شيء منه بحكمه، فهي في الولاية الخاصة، وقيل معناها: لا تحاجوا عند الحكام فترفعوا إليهم حججكم وأنتم تعلمون أن هذه الأموال التي أخذتموها من الناس إنما أكلتموها واغتصبتموها، وأنكم آثمون فيها، فإن حكم الحاكم أو القاضي لا يحل حرامًا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا بشرٌ، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعضٍ، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعةٌ من النار فليأخذها أو فليتركها)[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم ٣٤١٤، عن عبد الله بن عمر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعيةً فلم ينصح، رقم ٦٦٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم ٢٠٧. عن معقل بن يسار.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رقم ١٥٩. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل وهو

وقيل: إن المعنى: لا تصانعوا بأموالكم الحكام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها.

قال ابن عطية: وهذا القول يترجح؛ لأن الحكام مظنة الرشاء إلا من عصم وهو الأقل، وأيضا فإن اللفظين متناسبان: تدلوا من إرسال الدلو، والرشوة من الرشاء، كأنه يمد بها ليقضي الحاجة. ويقوي هذا عطف تدلوا على تأكلوا في موضع الجزم.

وفي مصحف أبي: (ولا تدلوا) بتكرار حرف النهي، وهذه القراءة تؤيد جزم تدلوا في قراءة الجماعة.

وقيل: (تدلوا) في موضع نصب على الظرف، والذي ينصب في مثل هذا عندسيبويه (أن) مضمرة، والهاء في قوله (بها) ترجع إلى الأموال، وعلى القول الأول إلى الحجة ولم يجر لها ذكر، فقوي القول الثاني لذكر الأموال، والله أعلم.

والرشوة معروفة، والرشوة بالضم مثله، والجمع رشى ورشى، وقد رشاه يرشوه، وارتشى: أخذ الرشوة، واسترشى في حكمه: طلب الرشوة عليه[1].

من جملة ما سبق يظهر أن الولاة المسؤولين هم: جميع من استرعي أو ائتمن على رعية أو مال قل ذلك أو كثر. وهم مع التخويف من إهمال مسؤولياتهم موعودون إن أدوها ورعوها حق رعايتها بالأجر العظيم والفضل الكبير؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن المقسطين عند الله على منابر من نورٍ عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمينٌ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[2].

ويعرف أخذ الأمانة بحقها، وأداء الذي على المرء فيها بالشرع، فإن الحكم بالعدل إنما يكون على وفق ما أنزل الله، لا أهواء الخلق.

قال سبحانه: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

يعلمه، رقم ٢٢٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم ٣٢٣٨. عن أم سلمة رضي الله عنها.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٣٤٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم ٣٤١٢. عن عبد الله بن عمرو.

المسؤول عنه

أولًا: الرسالة:

يسأل الله سبحانه وتعالى عن الرسالة من ناحيتين، والمقصد من سؤاله ليس الاستعلام ولكن ما يترتب عليه.

يسأل الله سبحانه وتعالى المرسلين عن الرسالة من ناحية تبليغها، وناحية الاستجابة لها.

قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فيسأل الرسل: هل بلغتم الرسالة؟، ويسأل الذين أرسل إليهم: هل بلغتكم الرسالة؟. والسؤال عن الرسالة لا يعني الاستفهام المفضي إلى العلم -كما سبق بيانه- فالله سبحانه وتعالى عالم بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولا لمحاسبة الرسل عن تبليغهم الرسالة لعلمه أنهم صادقون، ولكن لتبكيت الكافرين[1]، ولإقامة الحجة على المكذبين، بأن الرسل بلغوا ما عليهم من الرسالة بلاغًا مبينًا، إذ أن عدم البلاغ حجة لهم على ترك العمل.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٤٧].

فيتحقق على الكافرين السؤال، ويحتاروا في الإجابة.

قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [القصص: ٦٥-٦٦].

وثبت هذا أيضًا في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب: ٧-٨].

قال القرطبي: فيه أربعة أوجه:

أحدها: ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم،وفي هذا تنبيه، أي إذا كان الأنبياء يسألون فكيف من سواهم؟.

الثاني: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم.

الثالث: ليسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم.

الرابع: ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة[2].

وقال الطبري: يقول تعالى ذكره: أخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم كيما أسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم، ومافعل قومهم فيما أبلغوهم عن ربهم من

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ٣٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٢٨.

الرسالة[1].

إن الله سبحانه يسأل الرسل عن إبلاغ الرسالة، ويسأل المرسل إليهم عن وصولها لإقامة الحجة والبينة والبرهان على وصول الرسالة وتبليغها بأحسن بيان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

فالاحتجاج بانتفاء البلاغ سائغ، فكان سؤال الرسل عن الرسالة حجة في وصولها إلى المرسل إليهم، وكان سؤال المرسل إليهم عنها للتقرير والتبكيت.

قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤١ - ٤٢].

وقدم سبحانه سؤال المرسل إليهم، ليكون جواب الرسل عن الرسالة شهادة عليهم، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

ثانيًا: العهد مع الله ومع الناس:

قال الزجاج: العَهْدُ كل ما عُوهِدَ اللَّهُ عَلَيْه، وكل ما بينَ العِبَادِ من المواثيق فهِيَ عُهُود[2].

وقد صرح القرآن بالسؤال عن العهد؛ فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

قال ابن عاشور: أمروا بالوفاء بالعهد، والتعريف في العهد للجنس المفيد للاستغراق[3]؛ فيشمل العهد مع الله ومع الناس. فيدخل في ذلك ما بين العبد وربه، وما بين العباد بعضهم البعض. وقد رتب سبحانه على الوفاء بالعهد أجزل العطاء، كما رتب على إخلافه أشد الوعيد.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وتفصيل ذلك كالتالي:

١. العهد مع الله.

المراد بعهد الله: كل عهد يوثقه الإنسان مع ربه[4].

وفي القرآن أتى الأمر واضحًا جليًا

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢١٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٣٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥/ ٩٧.

(٤) المصدر السابق ٢١/ ٢٨٩.

بالوفاء بعهد الله؛ قال سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢].

أي: أوفوا بوصية الله التي أوصاكم، بأن تطيعوه فيما أمركم به ونهاكم، وأن تعملوا بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فبهذا يكون الوفاء بعهد الله[١].

وأتى التحذير والوعيد والتهديد من الإخلال بالعهد بأن الله عز وجل سيسأل عن عهده سبحانه الذين عاهدوه[٢].

قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

وقد تضمنت الآية مع التهديد: الوعد والتأكيد بأن الله سائل عن العهد لا محالة[٣]، وأن سؤاله سبحانه عن العهد يكون تبكيتًا لناقضه[٤].

قال الطاهر بن عاشور: وعهد الله المأمور بالإيفاء به هو كل عهد فيه معنى الانتساب إلى الله الذي اقتضته الإضافة، إذ الإضافة هنا يصح أن تكون إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: ما عهد الله به إليكم من الشرائع، ويصح أن تكون إلى مفعوله، أي: ما عاهدتم الله أن تفعلوه والتزمتموه وتقلدتموه، ويصح أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة، أي: العهد الذي أمر الله بحفظه، وحذر من ختره، وهو العهود التي تنعقد بين الناس بعضهم مع بعض سواء كان بين القبائل أم كان بين الآحاد.

ولأجل مراعاة هذه المعاني الناشئة عن صلاحية الإضافة لإفادتها عدل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة دون طريق الفعل، بأن يقال: وبما عاهدتم الله عليه، أو نحو ذلك مما لا يحتمل إلا معنى واحدًا.

وإذ كان الخطاب بقوله: (تعالوا) للمشركين تعين أن يكون العهد شيئا قد تقررت معرفته بينهم، وهو العهود التي يعقدونها بالموالاةوالصلح أو نحو ذلك، فهو يدعوهم إلى الوفاء بما عاقدوا عليه. وأضيف إلى الله لأنهم كانوا يتحالفون عند التعاقد ولذلك يسمون العهد حلفًا.

فالآية آمرة لهم بالوفاء، وكان العرب يتمادحون به. ومن العهود المقررة بينهم: حلف الفضول، وحلف المطيبين، وكلاهما كان في الجاهلية على نفي الظلم والجور عن القاطنين بمكة، وذلك تحقيق لعهد الله لإبراهيم عليه السلام أن يجعل مكة بلدًا آمنا ومن دخله كان آمنًا.

وقد اعتدى المشركون على ضعفاء المؤمنين وظلموهم مثل عمار،وبلال، وعامر بن فهيرة، ونحوهم، فهو يقول لهم

(١) جامع البيان، الطبري،١٢/ ٢٢٥-٢٢٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٨٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٩٠.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٨٢٢.

فيما يتلو عليهم أن خفر عهد الله بأمان مكة،وخفر عهودكم بذلك أولى بأن تحرموه من مزاعمكم الكاذبة فيما حرمتم وفصلتم، فهذا هو الوجه في تفسير قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بأمر العهد وصرف ذهن السامع عنه، ليتقرر في ذهنه ما يرد بعده من الأمر بالوفاء، أي: إن كنتم ترون الوفاء بالعهد مدحة فعهد الله أولى بالوفاء وأنتم قد اخترتموه[1].

والقرآن يخبرنا عن أصناف من الناس عاهدوا الله من عند أنفسهم ابتداء، لئن آتاهم من فضله ليتصدقن، يرجون بذلك نواله وفضله.

قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

لكنهم أخلفوا عهدهم فأعقبهم الله سبحانه وتعالى نفاقًا في قلوبهم جزاء وفاقًا.

قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٦-٧٧].

فدل على أن ما يلتزمه الإنسان من عمل البر بنذر أو يمين فهو عهد عاهد ربه عليه[2].

وبين القرآن أن من نقض العهد مع اللهإنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به يؤتيه الله الأجر العظيم على ذلك، كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وبين في موضع آخر: أن نقض الميثاق والعهد يستوجب اللعن، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣][3].

وجزاءه سبحانه عن الوفاء بالعهد: توفيه الموفين بعهدهم معه سبحانه الجزاء الفاضل الذي وعدهم حال الوفاء بعهده، فجعله كالعهد منه سبحانه الذي يقابل العهد.

قال سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أمر وجوابه، وعهد الله المذكور هنا قيل: هو عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه فيدخل في ذلك ذكرمحمدصلى الله عليه وسلم الذي في التوراة وغيره، وهذا قول الجمهور من

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٨.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٨/ ١٧٠.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٤٣٩.

العلماء وهو الصحيح وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة. وما طلب من بني إسرائيل من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا - أمة محمد صلى الله عليه وسلم- فقال الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾[1].

ومع أن وفاءه سبحانه بعهده ووعده تفضل منه سبحانه إلا أنه أتى به في صورة جواب الشرط ويدل على اللزوم، قال الطبري: وقد كان بعض أهل العربية يوجه معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ من قوله سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

إلى أنه معني به: وعدًا واجبًا، وذلك أن المسئول واجب، وإن لم يسأل كالدين، ويقول: ذلك نظير قول العرب، لأعطينك ألفًا وعدًا مسئولًا، بمعنى واجب لك فتسأله. وعن ابن عباس ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ قال: فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه[2].

فالوفاء بالعهد مع الله يأتي بالكرامة، ويكون عاقبة السؤال عليه خيرًا، أما الحنث والنكث فإن السؤال عن العهد به يكون تبكيتًا للمسؤول، والإخبار عن ذلك في القرآن تخويف وتحذير من النكث بالعهد مع الله سبحانه.

٢. العهد مع الناس.

إن القرآن كما يخبر عن السؤال عن العهد مع الله سبحانه، يشير إلى السؤال عن العهد مع الناس.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

والوفاء بالعهد مع الناس من مكارم الأخلاق ومحاسن الخلال التي لا خلاف فيها بين أهل العقول، لذلك فإن ربنا سبحانه يوصي ويوجب على أمة الإسلام الوفاء بالعهد، ويحذر سبحانه من النكوث بالعهود، وعدم الوفاء بالعقود، وأبلغ التحذير جعل العهد مسؤولًا عنه، محاسبًا عليه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: العهد شديد في عشرة مواضع من كتاب الله، وذكر: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[3].

وفي موضع آخر من القرآن قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١].

وهو أمر من الله سبحانه وتعالى لعباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا، وظاهر الآية أن عهد الله المذكور شامل لجميع العهود فيما

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٣٣٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢٤٦-٢٤٧.
(٣) المغني، ابن قدامة، ٩/ ٤٠٠.

بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الناس[1].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان بالعدل والإحسان[2].

والقرآن ينبه إلى ضرورة الوفاء بالعهد والعقد، والذي ينشأ بموجبه حقٌّ للمعاهد، لاسيما إذا كان مؤكدًا وموثقًا بالأيمان، ويحذر من نقضه بعد توثيقه بالأيمان وتغليظه بأن جعل الله سبحانه عليه راعيًا، فأمر بعدم مخالفة الأمر الذي تم التعاقد عليه، ونهى عن الحنث في الأيمان المبرمة المؤكدة[3].

ونقض الأيمان: إبطال ما كانت لأجله، فالنقض إبطال المحلوف عليه لا إبطال القسم، فجعل إبطال المحلوف عليه نقضًا لليمين في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ تهويلًا وتغليظًا للنقض؛ لأنه نقض لحرمة اليمين.

و﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ زيادة في التحذير، وليس قيدًا للنهي بالبعدية، إذ المقصود أيمان العهد والبيعة، و (بعد) هنا بمعنى (مع)، إذ أثرهما واحد هنا، وهو حصول توثيق الأيمان وتوكيدها، كقوله تعالى: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٤٣٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١٦٩.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٨١.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد: ٢٥].

والتوكيد: التوثيق وتكرير الفتل[4].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

أشار بعض أهل التفسير إلى أن العهد هنا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده. واحتمال أن يراد به العهود بين الناس، وإضافة ذلك العهد إلى الله سبحانه هو من حيث كونه من أمر بحفظه والوفاء به[5].

والوفاء بالعهد: هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي، إلا إذا دل دليل خاص على جواز النقض[6].

والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله، فإن خالفهما فهو رد لا يجب الوفاء به ولا يحل[7].

ثالثًا: القرآن:

القرآن بيان للرسول وللأمة فيما بها إليه حاجة، وهو تذكرة بأمر الدين والعمل به، وهو شرف لمن عمل به، والقرآن مسؤول عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ٢٦١-٢٦٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ١٣٧.
(٦) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٨٢٢.
(٧) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٣٤٩.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ﴾ يعني: القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١].

فالقرآن ذكر وذو ذكر. وأرجح الأقوال في معنى كون القرآن ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ولقومه: أن القرآن شرف لك ولمن عمل به ممن اتبعك من أمتك؛ فقد قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فيبعد أن يكون فيه شرف لقومه صلى الله عليه وسلم الكافرين، لإخباره سبحانه أن القرآن لا يزيد الظالمين إلا خسارًا والشرف خلاف الخسران. فإن كان ثمة تنويه فالمؤمنون أحق به.

وقد جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين).

ومنها كذلك: أن القرآن بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة. وتذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به[(١)].

إن القرآن هو ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يستمسك بالذي أوحي إليه، ولا يعبأ باستجابة قومه له، مهما كان اختيارهم، وأي مصير من مصائر السابقين كان مآلهم. وهو تذكير لقومه بمآل السابقين، وأحوال الكافرين، ومصائر المكذبين، وقضاء الله سبحانه فيهم. وسيكون السؤال للرسول عن البلاغ، وسيكون السؤال لقومه المرسل إليهم عن إجابتهم وعن وصول هذه التذكرة إليهم؛ كما قال سبحانه: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾ [الأعراف: ٦].

فالمعنى الظاهر هو: أن القرآن تذكير لك ولقومك، ولا يعني تخصيص قومه بالذكر نفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء: ١٠].

وكقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وسوف تسألون عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له[(٢)].

وقيل: سوف تسألون عن الشكر عليه وقيل: تسألون أنت ومن معك على ما آتاك وقيل: تسألون عما عملتم به[(٣)].

وكل هذه المعاني ترجع إلى أن القرآن مسؤول عنه، يسأل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ويسأل عنه من استجاب

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٩٣، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٤١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٢٢٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٩٣.

له وعمل به، ومن أعرض عنه وصد كل بحسب حاله؛ فأما المستجيبون فيسألون عن مقدار استجابتهم، والإخبار عن السؤال في حقهم حض وحفز للعمل، وأما من أعرض وصد فالإخبار عن السؤال في حقه تهديد ووعيد، وسؤاله عن القرآن سؤال توبيخ وزجر وتقريع[1].

وكما قرر القرآن سؤال أمة الدعوة والإجابة عن القرآن وما فيه من الذكر والتذكرة، فإنه قرر كذلك سؤال المكذبين به الذين عابوه، وسخروا منه.

قال سبحانه: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٠-٩٣].

قيل: إن المقتسمين هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمن كل منهم ببعض الكتاب الذي أنزل إليهم وكفروا ببعضه، وكفر اليهود بالإنجيل، وكفروا جميعًا بالقرآن.

وقيل: سمي أهل الكتاب بالمقتسمين، لأن بعضهم كان يقول لبعض استهزاء بالقرآن هذه السورة لي ويقول الآخر هذه السورة لي.

وقيل: إن المقتسمين قوم صالح الذين تقاسموا بالله ليبيتنه وأهله -وهو بعيد-.

وقيل: هم كفار قريش اقتسموا طرق مكة ومداخلها ليصدوا الناس عن الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته بأن يقول فريق منهم للقادمين للحج والحرم: هو شاعر، وآخرون: هو ساحر، وفريق ثالث: هو كاهن.

وقيل: لأنهم -كفار قريش- اقتسموا القرآن بأن سماه بعضهم شعرًا، وبعضهم كهانة، وبعضهم أساطير الأولين[2].

وقال آخرون: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ المتحالفين[3].

و﴿عِضِينَ﴾ أي: أعضاء متفرقة، بمعنى قسموه أوزاعًا فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، فهو كقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

وقيل: ﴿عِضِينَ﴾ بمعنى مقذوفًا ببهتان، وهو قول الكفار: شعر، كهانة، وسحر. وقيل معناه: السحر[4].

والظاهر أن السؤال في حق كل هؤلاء قائم، فإن معظم الكفار كانوا يقرون ببعض ما في القرآن مع كفرهم به، فهم يقرون بأن الله هو الرب الخالق الرازق المدبر؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥/ ٢٢٠.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٤٣-١٤٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٤٧.

(٤) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ١٤٧-١٤٨.

﴿يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ [العنكبوت: ٦١].

بل إنهم يقرون بأن الله سبحانه خلقهم هم أنفسهم؛ قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزخرف: ٨٧].

وأقر آخرون بأن ما في القرآن موافق لما في الكتب السماوية التي قبله لكنهم قالوا إن الذي يعلم رسول الله بشر عنده علم الكتاب؛ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣].

فرد عليهم القرآن فريتهم.

وعلى هذا فإن السؤال يمكن أن يكون شاملًا لكل من عضه القرآن، فإنهم جميعًا تحالفوا على حربه فقذفوه بالبهتان، بأن قال بعضهم: هو كلام بشر، وقال آخرون: هو شعر أو كهانة أو سحر، والله سبحانه سائلهم جميعًا عن أعمالهم تلك سؤال زجر وتبكيت وتقريع. كما قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء: ٥٠].

رابعًا: الجوارح:

إن الجوارح هي نعم من نعم الله الكثيرة الجليلة على عباده، وهي أدوات العمل ووسائل إنفاذ الإرادة، والله سبحانه قرر في كتابه العزيز أنه سائل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده[1]؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

والقفو في اللغة هو اتباع الأثر يقال: قفوت فلانا أقفوه وقفيته وأقفيته إذا اتبعت أثره وبه سميت القافية لتتبعهم الآثار، مأخوذ من القفا كأنه يقفو الأمور أي: يكون في أقفائها يتبعها ويتعرفها. ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون الإنسان هو المسئول عن السمع والبصر والفؤاد؛ لأنه يعمل بها إلى الطاعة والمعصية.

الثاني: أن السمع والبصر والفؤاد تسأل عن الإنسان؛ ليكونوا شهودًا عليه أو له بما فعل من طاعة وما ارتكب من معصية[2].

وقوله: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: كل هذه الجوارح والأعضاء. وعلى القول الأول يرجع (أولئك) إلى أربابها[3].

إن الجوارح رعية استرعاها الله الإنسان، وهي شاهدة عليه تنطق بما عمل بها. لذلك فإنه ينبغي للإنسان أن يحرص أشد الحرص ألا يفتري الكذب ويشهد الزور، فيقول رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع، وعلمت

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٥٩.
(٢) النكت والعيون، الماوردي، ٤/ ٢٤٣.
(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٩٢-٩٣.

ولم يعلم، فإن الله تبارك وتعالى سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها وادعاه، من أنه سمع أو أبصر أو علم، فتشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحق[1].

ويحتمل أن يكون المقصود النهي عن تقفي وتتبع وتعرف الأخبار وأحوال الخلق، فإن السمع والبصر أدوات تتبعها، والفؤاد أداة تعقلها وتدبرها وتخيلها، فيكون النهي عن القصد وهو تقفي الأخبار والعورات، ويكون التحذير عن إعمال أدواته وهي السمع والبصر في التتبع، والفؤاد في الإدراك، والله أعلم.

يدل السؤال عن الجوارح على النهي عن القول بلا علم، وعن سماع اللغو وعن النظر إلى الحرام، والحكم على الظن، وأنه سبحانه يسأل العبد عن أعضائه يوم القيامة، فيشهدن عليه[2].

ونظيره قوله سبحانه في حادثة الإفك عمن تساهلوا في النقل والتحدث بما لم يتثبتوا منه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

فإن أولئك اتبع بعضهم أثر بعض، وحكى بعضهم عن بعض تقليدًا[3]. كذلك نهى ربنا سبحانه عن تتبع الأخبار والعورات، وإطلاق أدواتها، ومصداقه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)[4].

فالجوارح والحواس والقلب والعقل جميعًا أمانة يسأل الله سبحانه وتعالى عنها يوم القيامة[5]، كما تسأل الجوارح عن عمل الإنسان وتشهد عليه، فهي رعية ضمن ما استرعاه الله سبحانه وتعالى، وحذر من هذه المسؤولية وأكد عليها بإثبات السؤال عنها يوم القيامة[6].

وفي الحديث عن شكل بن حميدٍ، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، علمني تعوذًا أتعوذ به، قال: فأخذ بكتفي، فقال: (قل اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي) يعني: فرجه[7].

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٤٦-٤٤٩.
(٢) تفسير السمرقندي، ٢/ ٣١١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ٢٧٥.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم ٤٢٣٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٣، رقم ٧٩٨٤.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٢٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٥٩.
(٧) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، رقم ١٣٣٠، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم ٣٤٣٨.

وليس في آية سورة النور السابقة دليل لمن يبطل الاجتهاد، لأن الاجتهاد يفضي إلى نوع من العلم، كما قال ربنا سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٖ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فأقام سبحانه غالب الظن القائم على البحث والتحري والتثبت -أي: الاجتهاد- مقام العلم وأمر بالعمل به[(١)].

خامسًا: الأقوال والأعمال:

يمثل الإتيان بالأقوال والأعمال والكف عنها القسم العملي من التكليف، والفعل والكف جميعه مسؤول عنه، فيؤجر الإنسان على ما وافق من ذلك الشرع، ويأثم ويعاقب على ما خالفه.

١. المسؤولية عن الأقوال.

بين الله سبحانه أن الأقوال مسؤول عنها، وساق هذا المعنى في غير آية، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٖ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام: ٦٨-٦٩].

وفي هذا الموضع من القرآن الكريم جاءت الإشارة الواضحة بأن الذين يخوضون في آيات الله استهزاء أو سبًا أو تكذيبًا أو تحريفًا أو غير ذلك من أنواع الخوض بالقول مسؤولون محاسبون، وأمر بالإعراض عنهم والصد عنهم والقيام وعدم الجلوس معهم، حال خوضهم، وأشار إلى أن الرضا بفعلهم هذا يدخل الإنسان في التبعة التي رتبها الله سبحانه على فعلهم، وأن من اتقى الله فخافه وأطاعه فيما أمره به واجتنب ما نهاه عنه، فلا تترتب عليه التبعة بعدم الإعراض فيما بينه وبين الله ما دام تركه الإعراض لم يكن عن رضًا بما هم فيه من الخوض وكان متقيًا، وأن الإعراض فائدته تذكيرهم وتنبيههم ليتقوا هذا الفعل ويتحاشوه[(٢)].

وقال البعض من أهل التفسير أن المقصود هو أنه ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم. ويعضد القول الأخير آية النساء وهي لاحقة لآية الأنعام، حيث فيها إحالة إلى هذه الآية ومعناها.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٧، رقم ١٢٩٢.

(١) مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٢٨٦.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٤٣٦-٤٣٩.

﴿جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال جماعة من أهل التفسير أن الأمر كان في أوله على آية الأنعام حتى جاءت آية النساء فنسختها[١].

وفي آية النساء إشارة إلى أن خطر الأقوال يتعدى قائلها إلى مستمعها ما لم ينكر بأن يكره أو يعرض. والجمع إشارة إلى المسؤولية المترتبة التي تستلزم الجمع للحساب. واستدل ابن العربي[٢] بآية الأنعام على صحة القول بوجوب الخروج من أرض البدعة مثل التي يسب فيها السلف، وهو قول مالك[٣].

إن من أعظم ما يسأل عنه الإنسان من الأقوال في القرآن الكريم الافتراء؛ وهو الكذب المختلق.

قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

وفي الآية يخبر الله سبحانه وتعالى عن قبائح فعال المشركين وافترائهم عليه سبحانه بأن شرعوا دينًا لم يأذن به، وجعلوا له سبحانه أندادًا من الأصنام والأوثان، ثم إنهم بعد ذلك يجعلون نصيبًا مما رزقهم الله قرابين لهذه الطواغيت التي ائتفكوها، بل ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

كل ذلك من باب الافتراء والزعم والادعاء المجانب للعلم المتابع للهوى والشيطان، فأقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه تبكيتًا وتوبيخًا، وليقابلنهم بشر ما عملوا جزاء وفاقًا[٤].

وهذه الآية تدل على أن أشنع الأقوال ما أسس للإشراك بالله، وأن الكلام في مسائل الألوهية والربوبية والأسماء والصفات عن جهل وهوى مرداة ومهلكة. ومن هذا الباب وصف الكفار الملائكة بأنهم بنات الله.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل كلامهم في هذا الباب من باب الشهادات، وتوعدهم بالسؤال والحساب عن شهادتهم التي أتوا بها عن غير وجه حق، إذ لم يشهدوا خلق الملائكة ولم يحضروا ذلك، فكيف يقررون صفتهم وهم يدفعون كلام الله ولا يقبلونه، وهم لم يشهدوا خلق الملائكة؟، فذلك الذي استحقوا به سؤال

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٧٨.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٦١١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٣٥٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٧٧.

التبكيت والتوبيخ.

ومن الافتراء زعم الكفار أنهم يحملون أوزار من صبأ عن إيمانه، واتبع ما هم عليه من تكذيب البعث بعد الممات والكفر بالثواب والعقاب، وقرر كذبهم وافتراءهم، وتوعدهم وهددهم بالسؤال عن أقوالهم التي هي محض الكذب.

قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

وهذا السؤال عن الأقوال هو في جانب الوعد الباطل الذي لا يمكن ولا يستطاع؛ لأنه لا يملك صاحبه الحكم به.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من قول الزور أشد التحذير؛ فقال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) ثلاثًا ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)، وجلس وكان متكئًا، فقال: (ألا وقول الزور)، قال -الراوي وهو أبي بكرة رضي الله عنه-: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[1].

فالسنة قد أيدت معنى المسؤولية عن الأقوال، بل وأكدت أن أعظم ما يدخل الناس النار هو الأقوال. فعن معاذ بن جبلٍ قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفرٍ فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: (لقد سألتني عن عظيمٍ، وإنه ليسيرٌ على من يسره الله عليه: تعبدُ الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت). ثم قال: (ألا أدلك على أبواب الخير؛ الصوم جنةٌ والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل). قال ثم تلا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه). قلت: بلى يا رسول الله. قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد). ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله). قلت: بلى يا نبي الله، قال: فأخذ بلسانه، قال: (كف عليك هذا؟). فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم- أو على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في قول الزور، رقم ٢٤٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ١٢٩. عن أبي بكرة نفيع بن الحارث.

مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم)[1].

٢. المسؤولية عن الأعمال.

صرح القرآن بالسؤال عن الأعمال في غير ما آية؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

وفي هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى أنه لو شاء سبحانه لصير الناس كلهم جميعًا جماعة واحدة، وأهل ملة واحدة لا يختلفون ولا يفترقون، ولكنه خالف بينهم بحكمته وعلمه، فجعلكم أهل ملل شتى، وَفَّقَ فريقًا منهم للإيمان به والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنين، وخذل أقوامًا فحرمهم توفيقه، فكانوا كافرين، وأنه سبحانه سيسأل الجميع يوم القيامة عما عملوا في الدنيا فيما أمرهم به ونهاهم عنه، فيجازيهم بما عملوا: المطيع بطاعته، والعاصي بمعصيته[2].

وقال سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فهو سبحانه سائل جميع من في السماوات والأرض من عباده ومحاسبهم؛ لأنه فوقهم بالملك والقدرة والقهر، ولا يسأل سبحانه عن قضائه وقدره، وجميع من في السماوات والأرض مسئولون عن أفعالهم، ومحاسبون على أعمالهم وهم في سلطانه لا يخرجون عنه[3].

ومع هذا التقرير للسؤال عن الأقوال والأعمال، فإنه لا بد من التنبيه على أن الله سبحانه لا يؤاخذ الإنسان على ما صدر منه على سبيل الخطأ أو الإكراه أو النسيان من أقوال وأفعال، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه)[4].

كما استثنى اللغو في الأيمان. قال سبحانه: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وحديث النفس؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم)[5].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم ٢٥٥٨.
قال الترمذي: حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩١٣، رقم ٥١٣٦.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٢٨٧.

(٣) المصدر السابق ١٨/ ٤٢٥.

(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم ٢٠٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٩٥، رقم ٧١١٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه ولا عتاقة إلا لوجه الله، رقم ٢٣٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر

سادسًا: نعيم الدنيا:

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨].

أي: ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه، من أين وصلتم إليه، وفيم أصبتموه، وماذا عملتم به؟[١].

وقال: اختلف أهل التأويل في ذلك النعيم ما هو؟

فقال بعضهم: هو الأمن والصحة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ثم ليسألون يومئذ عما أنعم الله به عليهم مما وهب لهم من السمع والبصر وصحة البدن. وفيم استعملوها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال آخرون هو العافية، وقال آخرون: بل عنى بذلك ما يطعمه الإنسان أو يشربه[٢].

وقال ابن كثير: أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك[٣].

وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا[٤].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)[٥].

ومن الغبن أن لا يقوم الإنسان بواجب هاتين النعمتين وهو الشكر، والاستفادة منهما في التزود ليوم المعاد.

والذي يظهر أن هذه الآية الواردة في السؤال عن النعيم مرتبطة بما قبلها من الآيات في السورة.

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ١-٨].

فالله سبحانه يخبر أن التكاثر والمنافسة والحرص على الاستزادة من الأموال والأولاد والنعم التي يظن الإنسان في الدنيا أنها النعيم، يلهي عن الاستعداد ليوم المعاد، حيث النعيم الحقيقي المقيم، حتى إذا جاء الموت والإنسان غير مستعد للآخرة وهو في شغل وغفلة عنها، أتاه الخبر اليقين في قبره عن مآله في الجحيم ورآه جزاء وفاقًا لسوء صنيعه، ثم يوم القيامة يَصْلَى سعيرًا، ويسأل حينئذ تبكيتًا وتوبيخًا عن النعيم الذي

بالقلب إذا لم تستمر، رقم ١٨٦.

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ٥٨١.

(٢) المصدر السابق ٢٤/ ٥٨١-٥٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٤٧٤.

(٤) المصدر السابق ٨/ ٤٧٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم ٥٩٦٠.

حازه: هل هو نعيم؟

فالسؤال إذًا يكون بمعنى: هل رأيت نعيمًا قط؟

أي: يكون عن ذوق النعيم نفسه، لا عن شكر النعم التي في الدنيا، وفي الحديث عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغةً، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط، هل مر بك نعيمٌ قط فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط، هل مر بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدةً قط)[1].

والمعنى: إن الإنسان إذا رأى الجحيم عيانًا، وتيقن مقعده في النار لم ير ما كان فيه من نعيم الدنيا شيئًا -قليلًا كان أو كثيرًا-، وبدا له من سيئات عمله ما يتلاشى معه أي نعيم ذاقه، وأي نعم حازها في الدنيا.

سابعًا: الولاية العامة والخاصة:

إن القرآن الكريم لم يجعل مسئوليات العباد منحصرة في ذواتهم، بل جعل بعضهم قائمًا على تولي أمور بعض، وجعل هذه الولاية مسؤوليات معهود بها يقوم بها البعض لصلاح حال آخرين. كما في الحديث: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[2].

قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته[3].

وبهذا فإنه لا يكاد يخلو إنسان مكلف من مسؤولية عن ولاية. والولاية إما أن تكون مسؤولية أمر يتعلق بالجماعة المسلمة عمومًا فهي ولاية عامة، وإما أن تكون مسؤولية عن فرد، أو مجموعة مخصوصة فهي ولاية خاصة.

أما الولاية العامة فهي التي تقوم على مصالح العامة، وهي الإمامة والإمارة، فتشمل الحكام وأولي العلم والأمراء والوزراء وغيرهم.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره في قوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة، رقم ٥٠٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٤٩، و مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم ٣٤١٤.

(٣) تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٩.

﴿تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]: هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة، يتناول النبي صلى الله عليه وسلم وأمراءه ومن بعدهم[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

قال القرطبي: وهذا خطاب للولاة والأمراء والحكام، ويدخل في ذلك بالمعنى جميع الخلق[٢].

وتشمل المسؤولية عن الولاية العامة قسمة الأموال، ورد الظلامات، والعدل في الحكومات[٣].

وقد ذهب جمع من المفسرين على أن الآية عامة في جميع الناس، فهي كما تتناول الولاة، تتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه، والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى[٤].

ومن أهم أركان المسؤولية عن الولاية العامة: العدل والإحاطة بالنصح وعدم غش الرعية؛ قال صلى الله عليه وسلم: **(إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز و جل -وكلتا يديه يمين- الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)**[٥].

وقال عليه الصلاة والسلام: **(ما من والٍ يلي رعيةً من المسلمين فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حرم الله عليه الجنة)**[٦].

وفي رواية مسلم: **(ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة)**[٧].

في آية النساء السابقة دليل عظيم وبينة واضحة على المسؤولية عن الولاية العامة، فالأمر -كما تقرر سلفًا- هو منشأ ومبدأ المسؤولية، والله سبحانه صرح بالأمر في هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، وكما أن المسؤولية مترتبة على أهل الولايات عن رعاية مصالح الرعية، فكذلك المسؤولية مترتبة على الرعية عن طاعتهم كما في الآية الثانية.

وقد قرر سبحانه لتأكيد المسؤولية أنه سبحانه سميع بصير، لا يخفى عليه شيء من أمر ما أوجب من أداء الأمانات والحكم بالعدل.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٢٥٥.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٥٨.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٥٦.
(٤) المصدر السابق ٥/ ٢٥٥-٢٥٦.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، ٣٤١٢.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، رقم ٦٦٤٥، عن معقل بن يسار.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم ٢٠٧.

وأما الولاية الخاصة فهي التي تتعلق بواجب رعاية مخصوصة، مثل رعاية الأولاد والأهل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وفي هذه الآية الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهله النار، فأمر سبحانه المؤمنين وأوجب عليهم وقاية أنفسهم، وما يدخل في حكم النفس من الأولاد، ووقاية أهليهم بوصيتهم وتعليمهم الحلال والحرام وتجنيبهم المعاصي والآثام، وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب. قال مقاتل: ذلك حق عليه في نفسه وولده وأهله وعبيده وإمائه[(١)].

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (مروا أبناءكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع)[(٢)].

وقد روى مسلم أن النبي صلي الله عليه وسلم كان إذا أوتر يقول: (قومي فأوتري يا عائشة)[(٣)].

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأةً قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء)[(٤)].

ومنه قوله صلي الله عليه وسلم: (أيقظوا صواحب الحجر)[(٥)(٦)].

ومثل الآية السابقة آية سورة طه؛ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

ومن الولاية الخاصة ترشيد الولي لنفقة السفيه من ماله، وقيامه على رعاية اليتيم وماله وأدائه له عند رشده.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ١٩٥.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم ٤١٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٤٤، رقم ٤٠٢٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه وسلم في الليل وأن الوتر ركعة وأن الركعة صلاة صحيحة، رقم ١٢٣٤. عن عائشة رضي الله عنها.
(٤) أخرجه أبو داود، كتاب التطوع، أبواب قيام الليل، باب قيام الليل، رقم ١١١٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٥٧، رقم ٣٤٩٤.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب العلم والعظة بالليل، رقم ١١٣. عن أم سلمة رضي الله عنها.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ١٩٥.

﴿مَّرْقُوبًا﴾ [النساء: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقال عز من قائل: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢].

والعمدة في المسؤولية عن الولايات الخاصة والعامة حديث عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته). قال: وحسبت أن قد قال: (والرجل راعٍ في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته)[1].

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيع حتى يسأل الرجل على أهل بيته)[2].

ولأن الولاية العامة والخاصة تتعلق بمصالح المجتمع والأمة المسلمة والضعفاء، فإن الله سبحانه جعل مسؤوليتها في غاية العظمة، وجعل لمن يرعاها حق رعايتها الجزاء الأوفى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله في ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)[3].

وحذر أشد التحذير من عدم رعايتها وأداء ما على الإنسان فيها.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فحذر سبحانه من سبيلين يؤديان لتضييع الأمانة ورعاية الولاية وهما: الظلم الذي

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب عشرة النساء، أبواب الملاعبة، باب مسألة كل راع عما استرعي، رقم ٨٨٣٣.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٦٥، رقم ١٧٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم ٦٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٧١٨. عن أبي هريرة.

يؤدي إليه الميل والعدوان، والجهل بما فيها وما في ضدها. ومن تحذير السنة حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ويلٌ للأمراء، وويلٌ للعرفاء، وويلٌ للأمناء، ليتمنين أقوامٌ يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقةً بالثريا، يدلدلون بين السماء والأرض، وأنهم لم يلوا عملا)[3].

وبهذا يتضح عظم شأن الولاية بوجه عام، وأنها من المسؤوليات الجسيمة العظيمة، إذ يترتب على التفريط والتعدي فيها أشد الندم وأعظم الخسران.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم ٣٤١٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم، رقم ١٦٦٨. عن عبد الله بن عمرو.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٢٧٥، رقم ٨٦٢٧، والحاكم في المستدرك، كتاب الأحكام، رقم ٧٠٦٦.وصححه.

غير المسؤول عنه

أولًا: لا يسأل الرسل عن مصير الكافرين:

أرشد القرآن إلى أن الرسل لا يسألون عن مصير الكافرين.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩].

والتوجيه في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم، فبعد أن قص الله سبحانه وتعالى عليه قصص أقوام من اليهود والنصارى، وذكر ضلالتهم، وكفرهم بالله، وجراءتهم على أنبيائه، قال له: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا﴾ لمن آمن بك واتبعك ممن قصصت عليك أنباءه ومن لم أقصص عليك أنباءه، ﴿وَنَذِيرٗا﴾ لمن كفر بك وخالفك، فبلغ رسالتي، فإنما عليك البلاغ والإنذار، ولست مؤاخذًا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار، وليس عليك من أعماله - بعد إبلاغك إياه رسالتي - تبعة، ولا أنت مسئول عما فعل بعد ذلك، وكان من أهل الجحيم[4].

ومثل ذلك قوله تعالى مرشدًا نبيه محمدًا

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٥٨-٥٥٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٩٢.

صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ [عبس: ٥ - ٧].

أي: لست مسؤولًا عن هدايته ولا مآله.

وكما صرح القرآن بأن الرسل لا يسألون عن مصير الكافرين، فقد بين هذا المعنى من طريق اللزوم، حيث قصر مسؤولية الرسل على البلاغ المبين في آيات كثيرة، وهو التبليغ الواضح؛ منها قوله سبحانه: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝٩٩﴾ [المائدة: ٩٩].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٨٢﴾ [النحل: ٨٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وقد سبق بيان معناها.

وهذا ليس حصرًا على رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، بل ذلك مطرد في جميع الرسل عليهم السلام، والقرآن ذاخر بالأدلة على ذلك؛ منها قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وهذا سؤال استنكاري يفيد تقرير أن الرسل ليس عليهم إلا التبليغ البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة - كما سبق بيانه-. فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل من الأمر شيء، وحسابهم على الله عز وجل، وأما الهداية فهي إلى الله سبحانه وتعالى[1].

والمصير تبع للهداية، وبما أنها ليست إليهم، فيلزم أنهم لا يسألون عنها، كما وضحت الآية التالية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

ومنه قوله عز من قائل: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

وهذه الآية كما تحتمل أن تكون من كلام إبراهيم عليه السلام لتقرير أن واجب الرسول - أي رسول- هو إبلاغ ما أرسل به بينًا واضحًا. كذلك فإنها تحتمل أن يكون

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١٠٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٠.

الكلام متوجهًا إلى كفار قريش على سبيل الالتفات فيكون المقصود بالرسول: محمد صلى الله عليه وسلم، ويكون المقصود: أن مقام الرسالة لا يقتضي إلا التبليغ الواضح[1].

ومنه قوله تعالى على لسان الثلاثة المرسلون في معرض ضرب المثل لمشركي قريش بأصحاب القرية: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ [يس: ١٦-١٧].

فهذا بيان واضح بأن الرسل لا يسألون عن مصير الكافرين، إذ أن مهمتهم تقتصر على البلاغ المبين، وأن الهداية من الله سبحانه، وأن حساب الأمم عليه سبحانه. وهو إرشاد عظيم للداعية إلى الله أن لا ينشغل بالنتائج، بل يبذل وسعه في التبليغ الواضح، وتوجيه له بألا يتأثر بباطل أهل الزيغ والضلال من الكفار والفسقة والطغاة، ولا يلين لأهوائهم طمعًا في استدراجهم إلى الحق، بل يصدع بما يؤمر ويعرض عن المشركين.

ثانيًا: لا يسأل الإنسان عن عمل غيره:

رسَّخَ القرآن الكريم في آيات عديدة قاعدة هامة؛ وهي: أن الإنسان غير مسؤول عن عمل غيره، ولا هو مؤاخذ به، ما لم يكن من نتاج عمله هو. وقد دلل على هذا المعنى صراحة ولزومًا.

ومن ذلك: التصريح بعدم سؤال الفرق بعضها عن أعمال بعض.

قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥].

وفي سياق هذه الآية يرشد ربنا سبحانه نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمشركين الذين يخاطبهم: أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال، فلسنا مهتدين جميعًا ولسنا على ضلال كلنا، وأنتم غير مؤاخذين بما نعمل، ولا تسألون عما أجرمنا نحن من جرم إن كان عملنا جرمًا، ولا نسأل نحن عما تعملون أنتم من عمل[2].

وفي الآية إرشاد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم لأحكم أساليب الدعوة، بأن يتجنب الكلام الذي يمكن أن يصد ويحجز عن الهدى بما يورث من المعاندة والاستكبار، وأن يعمل في دعوته بما يفتح المجال للتفكر لا ردود الأفعال.

وفيه معنى التبرؤ منهم ومن عملهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن بريئون منكم وأنتم بريئون منا، وإرشاده سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى هذا القول دليل على تقريره.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/ ٢٢٧.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٤٠٥.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١][1].

ومما يدل على بعد نسخ آية سبأ المذكورة بآية السيف كما زعم بعض المفسرين[2] أن البناء للمجهول في الفعل المضارع يدل على أن السائل طرف خارج الفريقين، ودلالة المضارعة في السياق على الحال والاستقبال، كما أن الآية التالية لها تتحدث عن الجمع والحكم؛ حيث يتبين المهتدي من الضال وهو فيما يستقبل من أمر الآخرة.

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٦].

ومن الآيات التي في التصريح بعدم سؤال الإنسان عن عمل غيره قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وفيها تصريح بأن كل نفس قدمت على الله يوم القيامة، فإنما تسأل عما كسبت وأسلفت، دون ما أسلف غيرها[3].

التصريح بأنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره:

وهذا في القرآن كثير.

قال سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال عز من قائل: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: ١٨].

وقال عز وجل: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: ٣٦-٣٨].

ومعنى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره[4].

فكل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد[5].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥١٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٢٩٩.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٢٩.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٥٤٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٦٥.

كما هو ظاهر في قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وعدم تحمل أحد ذنب غيره يدل على عدم مسؤوليته عن عمله.

الإشارة إلى أن كسب الإنسان متعلق بعمله هو:

أنَّ آيات عديدة من القرآن الكريم تشير إلى أن عمل الإنسان حسنه وسيئه مقصور عليه هو لا يتعدى لغيره إلا ما كان فضلًا من الله سبحانه.

منها قوله سبحانه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ومعناها: أن من عمل بطاعة الله في هذه الدنيا، فأتمر لأمره، وانتهى عما نهاه عنه فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل الذي مآله الجنة، ومن عمل بمعاصي الله فيها، فعلى نفسه جنى، لأنه أكسبها بذلك سخط الله، والعقاب الأليم. وما الله سبحانه بحامل عقوبة ذنب مذنب على غير مكتسبه، بل لا يعاقب أحدًا إلا على جرمه الذي اكتسبه في الدنيا، أو على سبب استحقه به منه[١].

ونظيره قوله سبحانه: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

أي: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه[٢].

قال الحسين بن الفضل بأن هذا من طريق العدل، أما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ما شاء[٣].

وقد دل على هذا المعنى القرآن والسنة.

قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جواز الحج عن الغير، وأفادت النصوص والإجماع وصول الدعاء والصدقة للغير. على أنه ينبغي التنبيه إلى أن باب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء[٤].

ومن عمل الغير ما يلحق بالإنسان إن كان سببًا فيه، أو داعيًا إليه، أو راضيًا وراغبًا فيه، فيلحق به أجره إن كان صالحًا، ووزره إن كان سيئًا، لأنه في حكم عمله هو. والأدلة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٦٥.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٤٨٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٦٥.

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري، ٣/ ١٢٢٨.

على ذلك كثيرة؛ منها: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له)[1].

فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه)[2].

والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه. والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضا من سعيه وعمله.

ومنها ما ثبت في الصحيح: (من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)[3].

ومثله قوله سبحانه: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

ومنها قوله سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

ومنها الحديث: قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها؛ لأنه أول من سن القتل)[4].

ومنها قوله صلوات ربي وسلامه عليه: (إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد موته، رقم، ٣٠٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب الرجل يأكل من مال ولده، رقم ٣٠٦٤، وابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب الحث على المكاسب، رقم ٢١٢٨، عن عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٤٠، رقم ٢٢٠٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم ٤٨٣٧. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه، رقم ٣١٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب بيان أثم من سن القتل، رقم ٣١٨٤.

سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم، قال: لا ما صلوا)[1].

خلاصة القول: إن الإنسان لا يسأل عن عمل غيره ولا يؤاخذ بسيئه، إلا ما كان هو السبب فيه، أو الداعي إليه، أو كان راضيًا عنه راغبًا فيه بأن يعمل مثله؛ وذلك في الحقيقة من جملة عمله هو؛ لأنها إما آثار عمل جوارحه، أو هي أعمال قلبه. فلا يكتب عليه إلا ما سعى عدلًا. ومن فضل الله على عبده المؤمن أنه تنفعه بعض أعمال غيره من المؤمنين كالدعاء - وهو شفاعة-، والصدقة والحج عنه.

أثر فقه المسؤولية على سلوك العبد

الفقه هو الفهم الدقيق، والعبد الذي يفقه المسؤولية على وجهها الصحيح يتأثر بذلك في سلوكه تأثرًا بليغًا، حيث يعرف السائل والمسؤول عنه، ويعرف مبدأ المسؤولية ومآلها، ويعرف كيفية التتبع والمحاسبة، ويعرف فحوى السؤال ووقته. فمن عرف ذلك كله أيس من النجاة إلا بسلوك سبيل الحق، وتخلق بالتقوى والصدق، واستعد ليوم الحساب، وعمل ليوم المآب، فجاء سلوكه مستقيمًا متوافقًا مع الشريعة ظاهرًا وباطنًا، وأناب واستجاب وأسلم لله.

إن معرفة السائل، وهو الله سبحانه، تورث الإيمان به ربًا، كما تورث محبته، ورجاءه، والخوف منه سبحانه؛ محبته سبحانه لجليل صفاته، وعظيم إنعامه وفضله، ورجاءه لعظيم رحمته ومنته وآلائه، وقبوله التوبة والشفاعة، وعفوه عن السيئات، ومضاعفته للحسنات، والخوف منه سبحانه لعظيم عقابه وشديد غضبه، وأليم عذابه وبليغ انتقامه. وهذا يجعل طاعة أوامره والانتهاء عن نواهيه امتثالًا أولى ما يتقرب به العبد إليه من القربات، وتلك هي التقوى، فيأتي سلوك العبد مستقيمًا متسقًا مع منظومة السلوك الإسلامي المستفادة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، رقم ٣٤٥٢.

وسلم، والله سبحانه يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ١-٧].

فأعظم ثمرات فقه المسؤولية إذًا: توحيد الله سبحانه توحيدًا خالصًا، والإذعان لأمره، والافتقار إليه، والاستقامة على طاعته، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ومعرفة المسؤول عنه تفضي إلى الاهتمام والعناية به، وتوجه سلوك المسلم نحوه، فلا يتشتت جهد الإنسان في مذاهب شتى، ويضطرب في تحديد الأولويات، ولا يحجم عن العمل بالكلية، بل يتوجه نحو المسؤول عنه بالرعاية التي يستحقها ليأتي شرط السائل على الوجه المراد، ويتحرى فيه الإتقان والإحسان، فتترتب الأولويات، ويكون التركيز على المهمات، ويكون الانشغال بالغايات.

أما معرفة مبدأ المسؤولية ومآلها: التكليف الرباني، والحساب الأخروي؛ فتورث تعظيم المسؤولية في النفوس، وتجذيرها في الهموم، فتجد من الرعاية ما تستحق، ومن العمل ما تحتاج، ومن السعي ما يقوم بها على وجهها.

وأما معرفة كيفية التتبع والمحاسبة، فتفضي بالإنسان إلى المراقبة، إذ أن كل شيء محصى، وكل عمل مكتوب، والله تعالى منه قريب؛ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦].

فيحصل من ذلك الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وأما المحاسبة فإن معرفتها تؤدي إلى الاستعداد، والتوبة من الزلات، والندم على التفريط وعلى ما فات، والعزم على الرشد، والعمل في جد واجتهاد. فمن أدرك المحاسبة وعرف مآلاتها رجا النجاة مقتصدًا أو سابقًا بالخيرات، والنجاة يوم القيامة فوز.

قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومن عرف أن السؤال يكون بعد العمل، وأن فحواه الطاعة والعصيان، عمل بطاعة الله، وخاف من عصيانه وتاب وأناب إذا عصاه، واجتهد في وقت العمل للفوز يوم الحساب، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَن

خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨-٩].

ومن فقه أنه مسؤول يقينًا غلب عليه الإشفاق، ومن غلب عليه الإشفاق في الدنيا فهو خائف من عذاب الله راجٍ رحمة الله محبٌّ لله فإنه يعمل بطاعة الله، ويمتثل أمره، ويؤدي ما عليه من المسؤولية، وعن أمثال هؤلاء.

قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

ومن أيقن بالسؤال وغلب عليه الإشفاق في الآخرة حين يرى كتابه وكسبه هلك.

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى: ٢٢].

ففقه المسؤولية يورث الإشفاق في وقت العمل والإنابة، والإشفاق يدفع لامتثال أوامر الله سبحانه، والاستقامة على الشرعة، وأداء المسؤوليات على أفضل الوجوه.

إن فقه المسؤولية إذًا يؤثر إيجابًا على سلوك العبد تأثيرًا بليغًا، إذ يؤثر على التصورات، والدوافع، وطريقة التفكير، والأخلاق والصفات والعادات، ومنهج تقييم التصرفات؛ فيهديه للإيمان، ويوقظ في نفسه الإحسان، ويدفعه للعمل، ويحمله على الإتقان، ويدعوه للصدق والأمانة ومكارم الأخلاق، وطيب الخلال، ويلزمه الاستقامة على الشرعة والاستجابة لله ولرسوله، وأداء الحقوق والواجبات على وجهها، إيمانًا واحتسابًا.

موضوعات ذات صلة:

الأمانة، الجزاء، الحساب، العقاب

المُسَابَقَة

عناصر الموضوع

مفهوم المسابقة	٤٥٦
المسابقة في الاستعمال القرآني	٤٥٧
الألفاظ ذات الصلة	٤٥٨
أنواع المسابقة في القرآن الكريم	٤٦٣
صفات السابقين إلى الخيرات	٤٨٣
ثواب السابقين في الخيرات	٤٨٨

مفهوم المسابقة

أولًا: المعنى اللغوي:

من خلال البحث في معاجم العربية وجدت أن مادة «سبق» تطلق في اللغة على عدة معان:

منها: التقدم والتبكير والمبادرة، وما يوضع بين أهل السباق ليناله السابق منهم.

فمن التقدم قولهم: (سابَقَهُ مُسَابَقَةً وسِباقًا فَسَبَقَهُ، إذا تقدم عليه، والسَّبْقُ: القدمة في الجري وفي كل أمر)[1].

ومن التبكير قول صاحب اللسان:(والسَّبَقُ من النخل: المبكرة بالحمل)[2].

ومن المبادرة قولهم: (وأسبق القوم إلى الأمر وتسابقوا: بادروا ومنه قوله عز وجل ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ [يوسف:٢٥] ومعناه: ابتدرا الباب، يجتهد كل واحدٍ منهما أن يسبق صاحبه)[3].

وقال ابن منظور: (والسبق بفتح الباء: ما يجعل من المال رهنًا على المسابقة)[4].

وأرى: أن المعنى الأول هو المراد هنا، وهو الأقرب إلى مقصود البحث، وبقية المعاني تؤول إليه، وفي ذلك يقول ابن فارس:(السين والباء والقاف أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدل على التقديم. يقال سَبَقَ يَسْبِقُ سَبقًا)[5].

ويؤكد ذلك أيضًا صاحب «المعجم الاشتقاقي» فيبين المعنى المحوري لهذا الفعل، وأنه: تقدم الشيء من بين ما حوله في قوة وجدٍّ[6].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المسابقة في الاصطلاح: «التقدم والمبادرة وبذل غاية الجهد والطاقة بين متسابقين أو أكثر في أمر من الأمور الدنيوية أو الأخروية؛ لتحصيل السبق والفوز على الآخر»[7].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٣١٧، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١٥١.
(٢) لسان العرب ١٠/ ١٥١.
(٣) انظر: لسان العرب ١٠/ ١٥١، تاج العروس، الزبيدي ٢٥/ ٤٣٢.
(٤) لسان العرب ١٠/ ١٥١.
(٥) مقاييس ابن فارس٣/ ١٢٩.
(٦) المعجم الاشتقاقي المؤصل، محمد حسن جبل ٢/ ٩٥١.
(٧) انظر: المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، محمد الزغول ومحمد حوى ص٦.

المسابقة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سبق) في القرآن الكريم (٣٧) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال:٦٨]
الفعل المضارع	٥	﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾ [الحجر:٥]
فعل الأمر	٣	﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١]
المصدر	١	﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾ [النازعات:٤]
اسم فاعل	٨	﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]
اسم مفعول	٢	﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾ [الواقعة:٦٠]

وجاءت المسابقة في القرآن على خمسة أوجه[(٢)]:

أحدها: الوجوب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١﴾ [الصافات:١٧١]. يعني: وجبت.

الثاني: الاصطياد: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٧] يعني: نصطاد.

الثالث: التقدم للهروب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥] يعني: تبادرا.

الرابع: الفوت: ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] يعني: يفوتونا.

الخامس: الفوز بالجنة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]. يعني: السابقون إلى الجنة.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ٦١٣.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ١٨٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ المسارعة:

المسارعة لغة:

المسارعة في الأصل تعني التقدم فيما ينبغي أن يتقدم فيه، وهي محمودة[١]، وتعني أيضًا المبادرة والمباشرة للشيء بسرعة[٢]، وتقتضي الجد والاجتهاد في أمر من الأمور، يقال: أسرع فلان المشي، وأسرع إلى كذا وكذا، يريدون: أسرع المضي إليه، وسارع بمعنى أسرع[٣]، أي: تقدم وسبق غيره.

المسارعة اصطلاحًا:

«هي المبادرة إلى الطاعات والسبق إليها والاستعجال في أدائها وعدم الإبطاء فيها أو تأخيرها»[٤].

الصلة بين المسارعة والمسابقة:

أن المسابقة متقدمة على المسارعة، وسابقة عليها؛ حيث إن (أي سباق مهما كان نوعه ومسافته لا بد له من مرحلتين:الأولى: مرحلة السباق والانطلاق، والثانية: مرحلة الإسراع في السباق، فمثلًا السباق في الجري، عندما يبدأ الشوط الأول يتسابقون، وبعد فترة يسارعون في السباق، بأن يضاعف المتسابقون سرعتهم، ويتحولوا من مجرد مسابقة إلى المسارعة في المسابقة، وسنجد أن بعض المتسابقين قد يسقط في الطريق، ويخرج من السباق، ولا يصل إلى مرحلة المسارعة إلا أصحاب الطاقات والهمم والسرعات والعزائم، أولئك الذين لديهم زاد قوي يعينهم على إكمال أشواط المسارعة)[٥].

المسارعة أسمى درجة من المسابقة؛ حيث إن المسابقة تقتضي وجود قرين يسابق، فيجتهد المتسابق لتحصيل السبق، فيكون وجود القرين المسابق المخالف دافعًا لمزيد من بذل الجهد والسبق، أما المسارعة فتتعلق بذات العامل نفسه بقطع النظر عمن ينافسه في ذلك، فهو يجد ويجتهد أبلغ الاجتهاد لذاته،يحركه ما يراه من واجب عليه في ذات الأمر

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٧٦.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٥٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٣٣٨٧.
(٥) السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة، صلاح الخالدي.

وهذا لا يكون إلا لمن علت همته وسمت اهتماماته[1].

كما يلحظ في المسارعة خشية فوات الفرصة، كما يظهر فيها جانب ضيق الوقت خشية عدم إدراكه، فهو يسارع لذلك، وفي المقابل يلحظ في المسابقة ظهور النتيجة، وهي مادية واضحة[2].

يقول البقاعي مفرقًا بين فعلي«سابقوا» و«سارعوا»: (سابقوا: فعل من يسابق شخصًا فهو يسعى ويجتهد غاية الاجتهاد في سبقه، ولكن ربما كان قرينًا بطيئًا فسار هوينًا، أما المسارعة فلا تكون إلا بجهد النفس من الجانبين مع السرعة في العرف)[3].

وبهذا تتضح الصلة بين المصطلحين، وإن كان كل منهما يفيد في مجمله المبادرة، وبذل قصارى الجد والاجتهاد في تحصيل أمر من الأمور، والله أعلم.

٢ المنافسة:

المنافسة لغة:

المنافسة: مأخوذة من الفعل «نافس» يقال: نافَسَ في الشيء مُنافَسَةً إذا رغب فيه على وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه، أي: رغبوا[4] أو مشتقة من النفاسة، يقال: شيءٌ نفيسٌ، أي ذو نفاسةٍ وخطر يتنافس به، والتنافس: أن يبرز كل واحدٍ من المتبارزين قوة نفسه[5].

المنافسة اصطلاحًا:

يطلق على المنافسة في اصطلاح بعضهم: أنها مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل، واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على أحد من الناس، وفيها قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦][6].

الصلة بين المنافسة والمسابقة:

والمتأمل يجد أن بين المسابقة والمنافسة تشابهًا من وجه، وفرقًا من وجه آخر، حيث يشتبهان في أنَّ كلًّا منهما يتطلب بذل جهد ومشقة لتحصيل شيء ما، وفي كل منهما متسابقون أو متنافسون.

---

(١) انظر: المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، محمد الزغول ومحمد حوى ص٦.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٧.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٢٩٢.
(٤) مختار الصحاح، الرازي ص٣١٦.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٦١.
(٦) المفردات، الراغب الأصفاني ص٨١٨.

ويفترقان في أن المسابقة عامة تعم كل لون من ألوان التسابق، نافعًا كان أو غير ذلك، أما المنافسة فينبغي أن تكون في المعالي، واكتساب المحاسن، والبعد عن المعايب والمساخط، والله أعلم.

٣ المبادرة:

المبادرة لغةً:

الباء والدال والراء، أصلان:أحدهما كمال الشيء وامتلاؤه، والآخر الإسراع إلى الشيء، أما الأول فهو قولهم لكل شيء تم:بدر، وبدر موضع يذكر ويؤنث، والأصل الآخر:قولهم بدرت إلى الشيء وبادرت، وإنما سمي الخطاء بادرة؛ لأنها تبدر من الإنسان عند حدة وغضب[(١)].

وهذان المعنيان متقاربان؛ حيث إن المبادر إلى شيء ما يسرع إليه، ويسابق فيه حتى يصل إلى درجة الكمال أو يقترب منها، ومن ثم فالمعنى الأول بداية المبادرة والثاني نهايتها.

المبادرة اصطلاحًا:

هي (انطلاقة المؤمن ومسارعته إلى عمل صالح بحافز ذاتي من نفسه، بعد أن يتوافر في نفسه الميزان الأمين ليحدد العمل الصالح من سواه، وليطمئن إلى أنه لا يتجاوز حدوده، ولا يعتدي على غيره، ولا يدخل في فتنة تغضب الله تعالى)[(٢)].

الصلة بين المبادرة والمسابقة:

المسابقة:اندفاع من الشخص اتجاه الشيء ويكون ذلك بدافع المنافسة، أما المبادرة:فقيام الشخص بفعل الشيء ولا يكون إلا بدافع ذاتي.

٤ العجلة:

العجلة لغةً:

العين والجيم واللام أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الإسراع، والآخر على بعض الحيوان، والجمع عجل وعجلات، والعجل والعجلة:خلاف البطء[(٣)].

العجلة اصطلاحًا:

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٨، شمس العلوم، نشوان الحميرى، ١/ ٤٥٣، تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٣٧.
(٢) انظر: الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام، عدنان علي النحوي، ص١٥.
(٣) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٦٤٩.

«هي طلب الشيء وتحريه قبل أوانه »[1].

وقال المناوي: «العجلة:فعل الشيء قبل وقته اللائق به»[2].

قال الراغب: العجلة طلب الشيء وتحريه قبل أوانه، وهي من مقتضى الشهوة، فلذلك كانت مذمومة في عامة القرآن[3].

الصلة بين العجلة والمسابقة:

الفرق بين العجلة والمسابقة يتضح من خلال النقاط التالية:

أن المسابقة تقتضي مفاعلة بين متفاعلين أو أكثر، والعجلة لا تقتضي ذلك؛ حيث إنها ذاتية نابعة من ذات الشخص.

أن العجلة مذمومة في أغلب أحوالها لكونها من مقتضيات الشهوة، ويتحرى فيها الشيء قبل أوانه،

أما المسابقة فليست كذلك، بل هي محمودة ممدوحة غالبًا، وبخاصة إذا كانت في أمور الآخرة.

حديث القرآن عن «العجلة» حديث عن ذمها غالبًا، ومدح القرآن للعجلة إنما ورد في موضعين اثنين، أحدهما قوله تعالى ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤].

وثانيهما قوله تعالى ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠].

وأرجى الأقوال بالقبول في مرجع الإشارة «هذه» في الآية إلى فتح خيبر[4]،وإنما جعلت غنائم خيبر تعجيلًا لقرب حصوله من وقت الوعد به[5]، ويلحظ هنا أنه عبر عما قدم للمؤمنين من غنائم، وفتح سريع بلفظ «التعجيل» لتنبيه المؤمنين أن لا يلتفتوا إلى هذه الأمور الدنيوية لذاتها، فإنها من العاجلة التي لا يحسن بالمؤمنين التطلع إليها لذاتها، إلا أن تكون في ظل الإيمان والطاعة وقصد وجه الله سبحانه، كما ورد أن «التعجل» في المبيت بمنى جاء على وجه الإباحة، والتأخر والإتمام وصف فاعلوه بالتقوى، مما يفيد أن العجلة تصرف ليس

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٤٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٧.
(٣) المفردات، الراغب ص٥٤٨.
وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٣٧، تاج العروس، الزبيدي ٢٩/ ٤٣١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٣٠.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٦/ ١٧٧.

بمحمود ابتداءً [1]، والله أعلم.

٥ التقدم:

التقدم لغة:

مشتق من الثلاثي «قدم»، وتحت هذه المادة يقول ابن فارس: (القاف والدال والميم أصلٌ صحيحٌ يدل على سبقٍ ثم يفرع منه ما يقاربه، يقولون: القدم: خلاف الحدوث، ويقال: شيءٌ قديمٌ، إذا كان زمانه سالفًا،وقدم الإنسان معروفةٌ، ولعلها سميت بذلك لأنها آلةٌ للتقدم والسبق) [2]، أي: هي التي تتقدم وتسبق عند السير، فيرتكز عليها السائر في تحركه إلى الأمام مع هيئته التي تساعد على ذلك.

التقدم اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، وهو يدل على سبق الشيء نافذًا إلى الأمام بقوة [3].

الصلة بين التقدم والمسابقة:

المسابقة تجتمع مع التقدم في أن كلًّا منهما فيه سبق.

وتفترق المسابقة عن التقدم بعدة أمور:

أولها: أن المسابقة تقتضي مفاعلة، ووجود متسابقين يشتركون في سباق ما، أو يتنافسون فيه يدفعون الشخص إلى مزيد من بذل الجهد والمشقة للفوز بالسباق، أما التقدم فلا شيء فيه من ذلك.

ثانيها: أن التقدم قد يكون في الزمان، مثل أن تقول: رمضان قدام شوال، أو في المكان، كأن يقول الخارج من مكة: جدة قبل أو قدام مصر، أو في المنزلة، كما تقول: محمد قدام علي، أي: مكانة ومنزلة، أو في الترتيب الصناعي، نحو: تعلم الهجاء قبل أو قدام تعلم الخط [4].

ثالثها: أن التقدم قد يكون في الخير والشر، فأما الخير مثل قولهم: فلان يتقدم رفاقه، أي: في الشرف والمنزلة والمكانة، والشر مثل: فرعون اللعين حين قال الله تعالى فيه ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨].

وهذا بخلاف المسابقة، والله أعلم.

(١) المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، الزغول ص ١٠.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٦٥.
(٣) المعجم الاشتقاقي المؤصل، محمد حسن جبل ٤/ ١٧٤٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص ٦٥٣.

أنواع المسابقة في القرآن الكريم

تحدث القرآن الكريم عن التسابق بنوعيه إجمالًا، ومدح منه نوعًا، وبَيَّنَ صفات أهله وأعمالهم، وما ينبغي أن يكون عليه من إرادة اللحوق بركبهم، وذم آخر، وبين ما لأهله من خصال، حتى تجتنب وتحذر، وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: المسابقة الممدوحة:

المقصود بالمسابقة الممدوحة: الأمور التي أمر الله تعالى بالسبق فيها، وحض القرآن عليها، ورغب فيها، ووعد الممتثلين لذلك خيرًا كثيرًا.

ومن خلال التأمل في كتاب الله تعالى نجد أن ميادين هذا التسابق الممدوح متعددة، وأنواعه القرآنية كثيرة كما يلي:

١. السبق إلى الخيرات.

المراد بالخيرات: كلمة جامعة لكل ما يرغب فيه من الأمور والأشياء النافعة، كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع عمومًا، وقد يكون الخير مطلقًا، حينما يكون مرغوبًا فيه بكل حال، عند كل أحد[١].

والأمر باستباق الخيرات ورد في القرآن الكريم في أربعة مواطن من كتاب الله تعالى، أذكرها مرتبة تربيًا مصحفيًا، ثم أقفيها بالتعليق والتحليل على هذا الترتيب؛ حيث إن موضوع البحث لا يتعلق بالأحكام، ومن ثم فليس من المهم أن ترتب الآيات نزوليًا حسبما يقتضيه البحث في التفسير الموضوعي.

وأول المواطن قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

والمفسرون حيال هذه الآية فريقان:

الأول: يرون أن الآية عامة في كل خير ينبغي أن يستبق إليه، ومن ثم فليس الاستباق قاصرًا على التوجه إلى القبلة في الصلاة، وفي ذلك يقول الطبري: (﴿فَٱسۡتَبِقُواْ﴾ أي: بادروا وسارعوا من «الاستباق»، وهو المبادرة والإسراع والمراد: بادروا بالأعمال الصالحة شكرًا لربكم، وتزودوا في دنياكم لأخراكم)[٢].

الثاني: يرون أن الآية خاصة بحادثة تحويل القبلة، وذلك لكون الأمر باستباق الخيرات واردًا في سياقها، وعليه فيكون الأمر باستباق الخيرات خاصًا بالاتجاه نحو الكعبة في الصلاة، أو الأمر بالاستباق إلى الصلاة في أول وقتها.

وفي ذلك يقول القرطبي: (أي: بادروا ما أمركم الله عز وجل من استقبال البيت الحرام، وإن كان يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم، فالمراد ما ذكر من الاستقبال لسياق

(١) المصدر السابق ص ٤٣.

(٢) جامع البيان، الطبري٣/ ١٩٦ بتصرف.

الآي، والمعنى المراد المبادرة بالصلاة أول وقتها، والله تعالى أعلم)[1].

ويقول الزجاج عند تفسير الآية: (أي: فبادروا إلى القبول من الله عز وجل، وولوا وجوهكم حيث أمركم الله أن تولوا)[2].

ويعلق الواحدي على قول الزجاج فيقول:(وعلى هذا فـ «الخيرات» على صيغتها من العموم، وهي مخصوصة هنا؛ لأنه أراد الابتدار إلى استقبال الكعبة)[3].

وأُرَجِّحُ من هذين القولين أولهما؛ إذ أنه رأي الأكثرية من المفسرين[4].

فضلًا عن كونه يتناغم مع القاعدة التفسيرية الشهيرة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» فالآيات وإن كانت نازلة في شأن تحويل القبلة إلا أن لفظها عام، لا ينبغي قصره على هذه الحادثة بعينها، وعليه فالأولى حملها على العموم، والله أعلم.

ثم يأتينا بعد ثاني المواضع، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٤٨].

ويدور فيه ما دار في آية البقرة من العموم والخصوص، والعموم أولى، ولا ثمة داع للتكرار.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦١].

وهذا الموضع وإن كان ورد التعبير فيه بالمسارعة والمسابقة معًا، إلا اعتددت به في باب المسابقة لكونه ذكر «الخيرات» أولًا، ثُمَّ أعاد الضمير عليها في قوله: ﴿لَهَا﴾ مع التعبير بالسبق في قوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ ومن ثَمَّ اعتبرته من آيات المسابقة إلى الخيرات لهذين الأمرين.

ويعلق القرطبي على الآية فيقول:(قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: في الطاعات، كي ينالوا بذلك أعلى الدرجات والغرفات، و﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ على معنى يسابقون مَنْ سابقهم إليها، فالمفعول محذوف، وقوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أحسن ما قيل فيه:أنهم يسبقون إلى أوقاتها، ودل بهذا أن الصلاة في أول الوقت أفضل)[5].

فالخيرات هنا اسم عام لكل الطاعات والقربات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، ولا تتخصص بشيء معين، والمؤمنون الصادقون يستبقون إليها، ويبادرون غيرهم إلى صنيعها، وحالهم دومًا أنهم سابقون.

وآخر المواطن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٦٥.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٢٦ بتصرف.
(٣) التفسير البسيط ٣/ ٤٠٤.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٦، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١١٣، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٣٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٣٣.

﴿بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢].

أقول:اختلف المفسرون حول المراد بهذه الآية اختلافًا كثيرًا إلى أقوال عديدة، أَقْتَصِر هنا على ما رَجُحَ لديَّ منها، وهو أن المَعْنِيِّينَ بهذه الآية هم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم[1]، وأن المراد بالميراث:الانتهاء.

قال مقاتل: «ثم أورثنا الكتاب»:يعني القرآن، والمعنى:ثم جعلنا الكتاب ينتهي إليهم؛ لأن من ورث شيئًا كان ذلك الشيء منتهيًا إليه، والوارثون هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم قسمهم ورتبهم فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ قال ابن عباس:بدأ بأشرهم فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ وهو الذي مات على كبيرة ولم يتب منها، ثم قال: ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ وهو والذي لم يصب كبيرة، ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وهم:المقربون الذين سبقوا إلى الأعمال الصالحة.

وقال الحسن:الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته، والمقتصد الذي استوت حسناته وسيئاته، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته[2]، والله أعلم.

هذا وإني ألحظ على الآيات هنا عدة أمور:

أولها: أن الله تعالى عبر عن فعل الطاعات وأدائها بصيغة «الاستباق»، وهذا يشير إلى أنه ينبغي أن يسارع المؤمنون إلى مرضاة ربهم، وأن يستبقوا إليها، فيأتوا الصلاة أول وقتها، ويبادروا بالصوم والزكاة والحج وسائر الطاعات متى حان وقتها، من غير تسويف أو تأخير، وإن استطاعوا أن لا يسبقهم إلى الله تعالى أحد فليفعلوا، فكثيرًا ما تعرض الحاجة، وتضل الراحلة، ويمرض الصحيح، ويهرم الشاب وهكذا.

ثانيها: أن الفعل «فاستبقوا» في آيتي البقرة والمائدة تعدى إلى المفعول بنفسه من دون حرف، وهذا فيه دلالات:

- الدلالة على قوة التباري بين المؤمنين والخيرات، وشدة المسابقة والمسارعة، وحدة السباق، فكأن الخيرات صارت شخصًا أُمِرَ المؤمنون أن يسابقوه ويسارعوه حتى لا يسبقهم إلى الله تعالى أحد.
- الإشارة إلى سرعة المبادرة إلى هذه المسابقة، كأن الخيرات صارت مسابقة سابقة، ولكن مع سبقها فإنهم استبقوها وأدركوها وتحققوا منها[3]، ولذا قال الألوسي: «والمراد بسبقهم إلى

(١) انظر: التسهيل لعلوم التأويل، ابن جري ٢/ ١٧٥.

(٢) انظر: التفسير البسيط الواحدي ١٨/ ٤٢٣.

(٣) انظر: المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، الزغول وحوى ص٢٦.

الخيرات ظفرهم بها ونيلهم إياها»[1].

❁ الدلالة على أن قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ بدون حرف الجر يشمل الاستباق إليها، والاستباق فيها، فليس معناه: إذا وصلت إلى الخير فإنك تقف، بل حتى في نفس فعلك الخير كن مسابقًا، وهذا يشبهه قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]؛ فالمطلوب أن يصل الإنسان إلى الصراط، ويستمر فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[2].

ثالثها: التعبير بحرف الجر« اللام» في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ للدلالة على التعليل، فكأنه قال: هم لأجلها، (والمعنى يرغبون في الطاعات والعبادات أشد الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السبق، أو لأجلها سابقون الناس إلى الثواب أو إلى الجنة)[3].

رابعها: التعبير بالاسم في قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ دون الفعل، فلم يقل مثلًا: ومنهم من يسبق بالخيرات» ونحوه، وذلك لأن التعبير بالاسم يدل على الدوام والثبوت والاستمرار، دون الفعل، فهو يدل على التجدد والحدوث، فالله سبحانه يريد من عباده أن يكونوا دومًا سباقين إلى الخيرات في جميع الأوقات والأحوال، لا أن يكونوا سباقين في وقت، ثم بعد ذلك يعتريهم الفتور أو الغفلة، فإنَّ أحبَّ العمل إليه تعالى أدومُهُ وإن قلَّ، والله أعلم.

خامسها: يشير قوله تعالى ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلى أن طاعة العبد لربه تعالى، وأي سبق له في الخيرات إنما هو محض فضل من الله تعالى، وأن لا طاقة للعبد على مثل ذلك إلا بعد توفيق الله له، مع صعوبة هذه المنزلة.

وفي ذلك يقول الألوسي(قوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بتيسيره تعالى وتوفيقه عز وجل، وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها)[4].

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من السباقين إلى الخيرات، الوارثين أعلى الجنات.

سادسها: ورد الترتيب في الآية على خلاف المعتاد؛ حيث قدم الظالم ثم المقتصد، وأخر السابق مع أن حقه التقديم، والسر في ذلك -كما يقول الزمخشري-: «الإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل القليل»[5].

فاللهم اجعلنا من عبادك الأقلين، اللهم آمين.

(١) روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٤٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة ٢/ ١٤٨.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٤٠، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٤٥.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٣٦٨.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦١٣.

٢. السبق إلى مغفرة الله تعالى وجنته.

مغفرة الله منزلة عظيمة لا ينالها إلا من كان أهلًا لها، وسعى في نيلها وطلبها بتعاطي أسبابها، وسلوك سبيلها، ويمنحها الله تعالى لعباده المؤمنين الذين سابقوا إليها، وامتثلوا قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد:٢١].

ومن المعلوم أن الخير والشر قريبان من الإنسان، فلذا حث الله تعالى الإنسان على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات، ولذلك قدمت المغفرة على الجنة هنا في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ أي: ما يؤدي إليهما من أداء جميع الواجبات، وترك جميع المنهيات.

وقوله: ﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ المراد به:جنس السماء والأرض، أو أنه تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في نفوسهم، وأكبر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض.

﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ وفيها أعظم رجاء وأقوى أمل؛ إذ ذكر أن الجنة أعدت لمن آمن، ولم يذكر مع الإيمان شيئًا آخر[1]، وذلك الذي أهلهم الله له هو من فضله ومَنِّهِ عليهم، وإحسانه إليهم.

ويجدر بالبحث في هذا المقام أن يذكر أن آية أخرى وردت في كتاب الله تعالى في هذا الصدد لكن بلفظ المسارعة لا المسابقة، وهي قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣].

والناظر في الآيتين الكريمتين يجد بينهما تباينًا وافتراقًا في التعبير والأسلوب لأسرار وحكم بلاغية عظيمة يقف البحث على بعضها فيما يلي:

- مجيء حرف العطف«الواو» في سورة «آل عمران» ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾، بينما حذف من«الحديد» ﴿سَابِقُوٓاْ﴾.

والسر في ذلك يتضح من خلال النظر في سياق كل منهما، فآية «آل عمران» سبقت بعدة أوامر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ واتقوا الله واتقوا النار وأطيعوا الله والرسول ثم جاء بعدها معطوفًا عليها قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾، فنظم هذا الأمر هو الآخر في سلك المأمورات السابقة، فكان من المناسب أن يعطف عليها بالواو، بينما قطعت سورة«الحديد» عن الإضافة لاختلاف موضوع الآية عن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٨/ ٢٥، التفسير البسيط، الواحدي ٢١/ ٣٠٣.

سابقتها؛ فإن الآية السابقة تحذر من الاغترار بالدنيا وزخرفها، وهذه تأمر بالمسابقة في أمور الآخرة، فافترقا في الموضوع فحذف العاطف لذلك[1]، والله أعلم.

❁ التعبير في آية «آل عمران» بالمسارعة و«الحديد» بالمسابقة.

وذكر الفرق بين مدلول كل من الفعلين فيما سبق، لكن لماذا خصت سورة «آل عمران» بالمسارعة، وسورة «الحديد» بالمسابقة؟

والجواب: يتضح لنا أيضًا من خلال النظر في سياق الآيتين الكريمتين من وجهين:

الأول: نجد أن آية سورة «آل عمران» تتحدث عن المتقين المسارعين، بينما تتحدث آية سورة «الحديد» عن المؤمنين المسابقين، ومعلوم أن الصنفين ليسا على درجة واحدة، فالمتقون أعلى وأسمى درجة من المؤمنين؛ لأنهم جمعوا بين الإيمان والتقوى، فكان المناسب أن يأتي التعبير بالمسارعة في «آل عمران» لمكانة المتقين، وبالمسابقة في «الحديد» لمكانة المؤمنين[2].

الثاني: خصت سورة «آل عمران» بالمسارعة لكونها تحدثت عن بدر كنموذج عملي للمسارعة إلى المغفرة والجنة من خلال طلب الجهاد والشهادة، كما حذرت من تضييع حق الله وعدم الاستعداد لليوم الآخر، فجاء النهي عن أكل الربا، بينما خصت «الحديد» بالمسابقة لكونها تحدثت عن صفة الصديقين والشهداء، وبينت لنا حقيقة الدنيا وحذرت منها.

وبعدها جاء قوله ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ حتى لا يركن الإنسان إلى الدنيا مهما كان أمرها، صغر أو كبر، ليصرف الكَمْلَةُ من العباد هَمَّهُم عنها لسفولها وحقارتها بالنسبة إلى الآخرة، حيث الكمال والبقاء، ليرغبوا غاية الرغبة فيها، ويشتاقوا كلَّ الاشتياق إليها[3]، والله أعلم.

❁ التعبير بحذف حرف التشبيه في «آل عمران» ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وبذكره في «الحديد» ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ﴾.

والسر في ذلك: أنه لما تضمنت آية «آل عمران» ما يدل على المبالغة والتعظيم من وصف من أعدت له الجنة، ووسمهم بالمتقين، وهم الذين وفوا بالإيمان وتوابعه وغير ذلك مما لم تتضمنه آية الحديد ناسب ذلك كله جعل العرض نفس السماوات والأرض من غير إفصاح بالمضاف المقدر الذى لا بد منه عند بيان المعنى على ما تقدم، ولما لم يقصد في آية «الحديد» ذلك أفصح

(١) انظر: السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة، صلاح الخالدي، ص٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٢٩١، المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم ص٢٩.

فيها بما يعطى معنى «مثل»، وهي كاف التشبيه، وإنما خصت آية «آل عمران» بما يدل على المبالغة والتعظيم دون آية الحديد لاشتمالها على الحض على الجهاد، وعظيم فضله، وذكر قصة بدر وأحد، ولما لم يكن في آية الحديد شيء من ذلك ناسب ذكر الكاف فيها[1]، والله أعلم.

- جمع السماوات في آل عمران وإفرادها في الحديد.

والسر في ذلك:موافقة كل آية للمقام الذي جاءت بالحديث عنه، فالمقام في «آل عمران» مقام تفصيل أمر الجهاد والشهادة، وحديثٌ عن أعلى مقامات المتقين وصفاتهم، وفيها حثٌّ على التجرد عن النفس والمال، وجميع الحظوظ الدنيوية أصلًا ورأسًا، بينما في سورة الحديد كان الحديث عن هذه المعاني مجملًا، وكان الحث على التجرد عن الدنيا فحسب، فجاء لفظ (السماء) مفردًا بما يناسب كلًّا من التفصيل والإجمال والموضوع[2]، والله أعلم.

- اختلاف من أعدت لهم الجنات، ففي آل عمران ذكرت الآية أنهم المتقون، وفي الحديد ذكرت آياتها أنهم الذين آمنوا بالله ورسله، فما السر البياني في ذلك؟

أرى أن السر في ذلك أنه لما خصت سورة «آل عمران» بالوصف البليغ للجنات، ودل ذلك الوصف على عظمها، وعلو مكانتها، وعظم شأن المسارعين إليها، وأن مسارعتهم إليها مسارعة ذاتية نابعة من بين جوانحهم رغبة منهم فيما عند ربهم سبحانه ناسب ذلك كله أن يبين سبحانه أن هذه الجنات إنما أعدت وخصت بقوم مخصوصين، علت مكانتهم لـمَّا سمت نفوسهم، وهم المتقون الجامعون بين الإيمان والتقوى، ولما خلت سورة «الحديد» من ذلك ختمت بهذا الختام العام ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، والله أعلم.

- تذييل آية الحديد بأن المذكور فيها من فضل الله، يمنحه من شاء من خلقه، فقال ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ بينما لم نجد ذلك في تذييل آية آل عمران فما السر وراء ذلك؟

لعل حكمة ذلك أن موضوع آية الحديد استدعى ذلك التعقيب، فالمسابقون فيها هم مؤمنون آمنوا بالله ورسله، وسباقهم ما زال في بداياته، وهم بحاجة إلى مزيد من الترغيب والحث والتشجيع، حتى يستمروا في السباق، ويزيدوا من سرعتهم فيه،

(١) انظر: ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي ١/ ٩٢.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٢٩٣، المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم ص٢٤.

فأخبرتهم الآية أن هذا السباق فضل من الله، تفضل به عليهم، وهو سبحانه ذو الفضل العظيم، يتفضل به على من يشاء من عباده.

ولم تذكر آية آل عمران هذا التعقيب؛ لأن المسارعين فيها إلى الجنة هم المتقون، وهم ليسوا بحاجة إلى حضٍّ وتشجيع؛ لأنهم ارتقوا إلى درجة أعلى، استشرفوا فيها الجنة التي يسارعون إليها، فقصدوها بالسير إليها، وضاعفوا سرعتهم نحوها[1].

وأخيرًا ألحظ على الآيتين معًا أمورًا:

أولها: أن كلتيهما عدي فعلها بحرف الجر«إلى»، ففي «آل عمران»﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ﴾ وفي «الحديد» ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ﴾ والسر البلاغي في ذلك يرجع إلى أن: حرف «إلى» يفيد انتهاء الغاية الزمانية وتارة المكانية[2]، وورد التعبير به هنا؛ لأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة والمسابقة وغايتهما، وهما غاية ما يتطلع إليه كل مؤمن، من الفوز بمغفرة الله ورضوانه وجنته، ففيه الإشارة إلى انتهاء الغاية معنى ورتبة ومكانًا[3].

ثانيها: أن المغفرة فيهما جاءت منكرة، ومضافة إلى الرب، فقال تعالى﴿مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾وذلك للدلالة على التعظيم؛ حيث (عظم سبحانه بذلك شأن هذه المغفرة التي ينبغي طلبها بإسراع ومبادرة، بأن جاء بها منكرة، ووصفها بأنها كائنة منه سبحانه، فهو الذي خلق الخلق بقدرته، ورباهم برعايته)[4].

ثالثها: اختصاص العرض بالذكر في الآيتين دون الطول مع أنه أدل على الاتساع، وذلك ليكون أبلغ في الدلالة على عظم الجنة واتساع طولها؛ لأنه إذا كان عرضها كهذا، فإن العقل يذهب كل مذهب في تصور طولها؛ لأن العرض في العادة أقل من الطول، وذلك كقوله تعالى في صفة فرش الجنة ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الرحمن:٥٤].

فإذا كانت بطانة الفرش من الحرير، فكيف يكون ظاهر البطانة مما تراه الأعين؟[5].

رابعها: تقديم المغفرة على الجنة في الآيتين في قوله: ﴿مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ وسرُّ هذا التقديم:وجوب المسارعة والمسابقة إلى ما به مغفرة الذنوب والتطهر من أدرانها قبل طلب الجنة أو دخولها، من باب قولهم: «التخلية مقدمة على التحلية»،

(١) انظر السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة، صلاح الخالدي ص٥.
(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام النحوي ص ١٠٤.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١١٥، المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم ص٢٧.
(٤) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي٢/ ٢٦١.
(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٠٩، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٤٦، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٣٧.

وفي ذلك يقول أبو السعود:

(وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية متقدمة على التحلية والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين؛ لإظهار مزيد اللطف بهم)[1].

٣. السبق بالإيمان.

من أنواع السبق الممدوحة التي ذكرها الله تعالى في كتابه:السبق بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم والدخول معه في الدين الجديد، مع نصرته والدفاع عنه، والذب عن حياض شريعته وسنته، ونحو ذلك مما يقتضيه الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما تكفل ببيانه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر:١٠].

المتأمل في سياق الآية الكريمة يجد أنها سيقت بعد آيتين، تحدثت أولاهما عن المهاجرين، ومدحت صنيعهم وهجرتهم إلى الله تعالى في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر:٨].

وأخراهما تحدثت عن الأنصار وحسن استقبالهم للنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام، وكريم ضيافتهم لإخوانهم المهاجرين مع ما بهم من حاجة وفاقة، ثم جاءت هذه الآية الكريمة، وفيها يخبر تعالى أن الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار، وهم:التابعون إلى يوم القيامة (يدعون لأنفسهم، ولمن سبقهم بالإيمان بالمغفرة، بقوله:﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي:غشًّا وحسدًا وبغضًا، فكل من لم يترحم على جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في قلبه غلٌّ على أحد منهم. فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية؛ لأن الله تعالى رتب المؤمنين على ثلاث منازل:المهاجرين، والأنصار، والتابعين الموصوفين بما ذكر.

ولنعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين؛ لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار أو الذين جاءوا من بعدهم، وبين الله فيها أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين، وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء كان خارجًا من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية)[2].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود٢/ ٨٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٨٧، الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٢٨١، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٧٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٩.

ودلت الآية الكريمة على أن من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضًا.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغلِّ وكثيره، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

كما دلت الآية الكريمة على أن الدعاء يعد من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض[(١)].

ودلت أيضًا على أنَّ حقًّا على المسلمين أن يذكروا سلفهم بخير، وأن حقًا عليهم محبة المهاجرين والأنصار وتعظيمهم[(٢)]، والله أعلم.

٤. سبق الملائكة الكرام.

ذكر الله تعالى هذا النوع من التسابق، وهو «سبق الملائكة الكرام» في آية واحدة من كتابه، هي قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ [النازعات:٤].

والمفسرون اختلفوا في بيان المراد بالسابقات هنا اختلافًا كثيرًا، والبحث بدوره يكتفي فقط بما عليه أكثر المفسرين- رحمهم الله تعالى رحمة واسعة-فجلهم على أن المعنيين بهذه الآية هم:الملائكة الكرام، لكنهم اختلفوا أيضًا فيما بينهم على بيان معنى السبق الملائكي على هذا الوجه:

فمن قائل: إنها سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق.

ومن قائل: إنها تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء؛ إذ كانت الشياطين تسترق السمع.

ومن قائل: إن الملائكة تقبض الأرواح فتسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وبأرواح الكفار إلى النار[(٣)].

وأرى: ترجيح القول بأن المراد بالسابقات الملائكة الكرام؛ لأن السياق في السابق واللاحق يرجح ذلك، كما أرى أنه لا مانع من الجمع بين آراء المفسرين في بيان سبق الملائكة الكرام؛ لأن الله تعالى حينما يأمرهم بأمر من الأمور يبادرون ويسابقون إلى تطبيقه وتنفيذه، فهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

فسواء أمرهم بطاعة من الطاعات، أو بالوحي إلى أحد أنبيائه، أو قبض أرواح أحد من البشرفإنهم لا يتوانون في ذلك أبدًا، ولا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥١.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٨/ ٩٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٨٩، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ١٢٤، التفسير البسيط، الواحدي ٢٣/ ١٦٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٣٢٥.

شك أن مثل هذا السبق ممدوح دومًا غير مذموم، ومطلوب ومرغوب.

وهم مع ذلك لا يبادرونه بالقول ولا يسبقونه تعالى به، مهابة منه وإجلالًا له، فهم كما وصفهم تعالى في قوله﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء:٢٧].

يعلق الإمام الرازي على ذلك ويقول: (ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى وصفهم فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء:٢٧].

يعني: قبل الإذن لا يتحركون ولا ينطقون تعظيمًا لجلال الله تعالى وخوفًا من هيبته، وهاهنا وصفهم بالسبق، يعني: إذا جاءهم الأمر، فإنهم يتسارعون إلى امتثاله ويتبادرون إلى إظهار طاعته، فهذا المراد من قوله﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾﴾[النازعات:٤])[1]، والله أعلم.

٥. السبق المطلق.

ذكر القرآن الكريم نوعًا خامسًا من أنواع السبق ومدحه، ورغب فيه، وأطلقه عن التقييد، فلم يقيده بنوع ما من أنواع الخير، وساقه في معرض المدح والثناء على قوم اتصفوا به من بين المؤمنين، وهذا النوع وإن كان من الممكن أن يندرج تحت النوع الأول(السبق إلى الخيرات) إلا أن القرآن أطلقه عن التقييد، وأفرده بآيات مستقلة؛ فأحببت أن أستن بهذه السنة القرآنية فأفردته في نوع مستقل، وورد الحديث عن هذا النوع في موضعين من كتاب الله تعالى:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

يخبر تعالى هنا عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم، وأشادت الآية بهؤلاء السابقين ،الذين سبقوا أقوامهم إلى الإيمان بالله تعالى)[2].

وقسمتهم الآية إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: المهاجرون، واختلف في بيان المراد بهم اختلافًا كثيرًا، ولعل من أرجحها:أنهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية؛ لأن المشركين كانوا إلى ذلك الوقت يضطهدون المؤمنين في بلادهم، ويقاتلونهم في دار الهجرة وما حولها، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم إلا بالفرار أو الجوار، فالذين هاجروا قبل صلح الحديبية وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم كانوا كلهم من المؤمنين السابقين الصادقين، ليس فيهم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٢٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١١/ ١٧.

منافق[1].

ويؤكد هذا القول رجحانًا أن الله تعالى منع التسوية بين الفريقين في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد:١٠].

الطائفة الثانية: الأنصار، وهم الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة، وكانوا سبعة، وفي العقبة الثانية، وكانوا سبعين رجلًا وامرأتين[2].

والطائفة الثالثة: الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنصرة اتباعًا بإحسان، أو محسنين في الأفعال والأقوال، وخرج به من اتبعوهم في ظاهر الإسلام مسيئين غير محسنين في هذا الاتباع وهم المنافقون، ومن اتبعوهم محسنين في بعض الأعمال ومسيئين في بعض، وهم المذنبون.

وهؤلاء الطبقات الثلاث رضي الله عنهم في إيمانهم وإسلامهم وإحسانهم وهجرتهم وجهادهم، ونصرتهم للدين والشريعة، فقبل منهم طاعاتهم، وغفر سيئاتهم، وتجاوز عن زلاتهم، إذ بهم أعز الإسلام، ونكل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب[3].

ولقد أعجبني قول بعض العلماء حين جعل حكم الآية عامًّا يشمل كل سبق لأي أحد في أي عصر أو مصر، حيث يقول:(وهذه الآية الكريمة تضمنت تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة، في علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك، من العطاء في المال والرتبة في الإكرام)[4].

هذا وإن المتأمل للآية الكريمة يلحظ أمورًا منها:

- التقييد للتبعية بإحسان في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ يفيد الشهادة للسابقين بكمال الإحسان؛ لأنهم صاروا فيه أئمة متبوعين[5].
- التصريح برضى الله تعالى عن هؤلاء السابقين، ورضاهم عنه سبحانه، وذلك دال على تمام توفيق الله لهم وجزيل ما أسبغ عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة[6].
- التعبير بالإعداد في قوله ﴿وَأَعَدَّ﴾، وإفادة الاختصاص بتقديم الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾، وتنكير جنات..

(١) انظر: جامع البيان، الطبري١٤/ ٤٣٦، زاد المسير، ابن الجوزي٢/ ٣٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٢٠٣.
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٤٣٣.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ١٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣٨ بتصرف.
(٥) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ١٣.
(٦) المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم ص١٧.

كل ذلك يفيد تفخيم وتعظيم شأن أولئك السابقين، وعظم مكانتهم عند ربهم سبحانه وتعالى.

❁ حذف حرف الجر «من» في قوله تعالى ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ وسر هذا الحذف يظهر من عدة أوجه من أهمها:

أ. كونه أبلغ في بيان هذا النعيم الموعود به هؤلاء السابقون، ففي سائر القرآن ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إلا هذا الموضع، قال البقاعي: «ونبه على عموم ريها وكثرة مائها بنزع الجار على قراءة الجماعة، ولعل تخصيص هذا الموضع بالخلاف؛ لأنه يخص هذه الطائفة، فلعلها تخص بجنة هي أعظم الجنان رِيًّا وحُسْنًا[1]».

ب. يذكر ابن عاشور أن «من» حذفت لوجود ما يغني مما يفيد التوكيد، فيقول:(وقد خالفت هذه الآية عند معظم القراء أخواتها فلم تذكر فيها «من» مع «تحتها» في غالب المصاحف، وفي رواية جمهور القراء، فتكون خالية من التأكيد؛ إذ ليس لحرف «من» معنى مع أسماء الظروف إلا التأكيد، ويكون خلو الجملة من التأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوي بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، ومن فعل «أعد» المؤذن بكمال العناية فلا يكون المعد إلا أكمل نوعه)[2]. والذي يفهم من كلامه أن «من» حذفت لوجود ما يغني عنها من تقديم المسند إليه ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ على الخبر الفعلي ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ومعلوم أن تقديم ما حقه التأخير لون بلاغي مشهور، فضلًا عما يفيده الفعل «أعد» من كمال العناية بهؤلاء السابقين، وعظم شأن المعد لهم، والله أعلم.

❁ يلحظ من الآية أيضًا عظم مكانة هذه الأمة-وبخاصة أوائلها-عند الله تعالى لكونها سابقة لغيرها من الأمم إلى رضوان الله تعالى، فمن المعلوم أن (السبق يكون بالصفات والزمان والمكان، وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات، والدليل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد)[3]، فأخبر النبي

(١) نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٨ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ١١/ ١٩ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم ٨٧٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة،

صلى الله عليه وسلم أن من سبقنا من الأمم بالزمان جئنا بعدهم فسبقناهم بالإيمان، والامتثال لأمر الله، والانقياد إليه، والاستسلام لأمره، والرضا بتكليفه، والاحتمال لوظائفه، لا نعترض عليه، ولا نختار معه، ولا نبدل بالرأي شريعته، كما فعل أهل الكتاب، وذلك بتوفيق الله لما قضاه، وبتيسيره لما يرضاه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)[1].

والموطن الثاني: قوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢﴾ [الواقعة:١٠-١٢].

والآيات في هذا الموضع تتحدث عن صنف من الأصناف الثلاثة التي ذكرتهم السورة الكريمة، وهم السابقون الذين سبقوا إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله، وهم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، وقيل:هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوانٍ، وقيل:هم الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات، وأيما كان فهولاء حازوا قصب السبق من الطاعات والقربات من رب الأرض والسماوات، فمن سابق إلى هذه الدنيا، وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان، ولهذا قال تعالى:﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢﴾[2].

هذا وإنه لِيُلْحَظُ على هذه الآيات الكريمة أمورٌ:

أولها: تأخر ذكر هذا القسم الثالث من الأزواج الثلاثة في سورة «الواقعة»، ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الأقسام وأقدمهم في الفضل؛ ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم وما أعده الله تعالى لهم في الآخرة، على أن إيرادهم بعنوان السبق مطلقًا معرب عن إحرازهم لقصب السبق من جميع الوجوه[3]، أو أخرهم لتشويق السامعين إلى معرفة صنفهم[4].

ثانيها: تكرار لفظ «السابقون» في قوله ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ وهذا التكرار للدلالة على أن حالهم بلغت منتهى الفضل والرفعة، بحيث لا يجد المتكلم خبرًا يخبر به عنهم أدل على مرتبتهم من اسم «السابقون» فهذا الخبر أبلغ في الدلالة على شرف قدرهم من الإخبار بما سواه، مع ما في اشتقاق لقبهم من «السبق» من الدلالة على بلوغهم أقصى

(١) باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم ٨٥٥. أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٥٧٣ بتصرف.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥١٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٨٩.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٨٩.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٨٨.

ما يطلبه الطالبون[1].

ثالثها: التعبير باسم الإشارة للبعيد «أولئك» إيذانًا ببعد مكانتهم، وعلو منزلتهم عند ربهم سبحانه، ولا أدل على ذلك من مرتبة القرب منه تعالى التي منحهم إياها، نسأله تعالى أن نكون منهم أجمعين، فضلًا عما يفيده هذا التعبير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ من الحصر والقصر، والذي (يقتضي أن لا يكون غيرهم مقربًا)[2].

رابعها: وصف السابقين هنا بأنهم المقربون من ربهم، حيث قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، وهذه أعظم نعمة يسعى إليها العاملون المؤمنون، الذين يقول في حقهم سبحانه في آخر هذه السورة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩][3].

خامسها: الإفادة بأن لهم جنات النعيم: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، والملاحظ أنه كلما ذكر أجر السابقين، وذكر أن ثوابهم الجنة يأتي ذكر الجنة بصيغة الجمع ﴿جَنَّٰتِ﴾ أو ببيان ما يدل على عظمها.

ولعل في ذكر الجنات بصيغة الجمع لفت نظر إلى أن الجنة منازل ومراتب، وفي كل منزلة من النعيم العظيم ما فيها، وهؤلاء السابقون قد فازوا بما اختصت به كل منزلة من نعيم وعطاء، فجمعوا كل خير وثواب وعطاء، أو (لكون الجنان سبعًا: جنة الفردوس، وعدن، والنعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليين، أو الجمع إشارة إلى سعتها، وكثرة أشجارها وتنوعها)[4]، والله أعلم.

سادسها: وصف الجنات بأنها ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وهذا يفيد كثرة النعيم وتنوعه؛ لأن النعيم -كما يقول الراغب-: هو النعمة الكثيرة، وتنعم: تناول ما فيه النعمة وطيب العيش[5].

أو للإشارة إلى أن الجنة في الدنيا قد تكون للنعيم، وقد تكون للاشتغال والتعيش بأثمان ثمارها، بخلاف الجنة في الآخرة فإنها للنعيم لا غير، وفي هذا مزيد عناية بما أعد الله للمؤمنين السابقين[6].

وهذا وإن دل فإنما يدل على مدى عظيم فضل الله تعالى وإكرامه لأهل السبق في طاعته، وأنواع القربات والزلفى إليه سبحانه، نسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يجعلنا منهم، ويلحقنا بركبهم، اللهم آمين.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٨٧.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩٠.
(٣) المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في ضوء القرآن الكريم ص٥٥.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٢٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩١، المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في ضوء القرآن الكريم ص٥٦.
(٥) المفردات، الراغب ص٨١٤» بتصرف.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩١.

٦. سبق القضاء والقدر.

من المعلوم بداهة أن كل الأمور والمقادير قدرها الله تعالى على خلقه في الأزل، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

وجعل ذلك في اللوح المحفوظ، ثم يبديه لخلقه في حينه، في أمور يبديها ولا يبتديها، ولولا سبق القضاء بالمقادير كلها لأنزل الله تعالى بعباده ما يستأهلونه في حينه.

وورد الحديث عن هذا النوع الخامس في عشرة مواطن من كتاب الله تعالى، وجميعها تفيد هذا المعنى «سبق القضاء والقدر له سبحانه وتعالى»، وعبارات المفسرين وإن اختلفت في التعبير عن ذلك إلا أنها تؤول إليه، وسبق للبحث أن تعرض للإشارة إلى هذا النوع في مبحث«الدلالات القرآنية» لمادة «سبق»، ومثّل له هناك بآيتين، وسيعرض للبقية هنا.

فمن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠].

وهذا أمر من الله تعالى لسيدنا نوح السلام أن يحمل في سفينته من كل شيء زوجين، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: (من قضي عليه بالعذاب فهو مستثنى من أهله، والمراد بذلك ابنه الكافر وامرأته، وأمثالهما)[1]، ومثل هذا يقال في موضع سورة «المؤمنون»، ومن المواضع أيضًا قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود:١١٠].

فـ(الكلمة) هاهنا عبارة عن الحكم والقضاء[2]، والمعنى: ولولا قضاء الله وحكمه بتأخير العذاب عن هؤلاء إلى الآخرة لفصل بين المؤمن والكافر في الدنيا.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه:١٢٩].

والكلمة هنا تعني:القضاء السابق، والمعنى: لولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم لكان العذاب لزامًا:أي واقعًا بهم[3].

وكذلك المعنى في بقية المواطن المشابهة.

أما السبق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء:١٠١].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات:١٧١].

فيحتمل معنى التقدم[4]، ومعنى القضاء والحكم، وأرجح الأخير؛ لكونه قول عامة

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٣٧٠.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية٣/ ٢١٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٩٩، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٠.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي٣/ ٥٣٥، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٠.

المفسرين[1]، ومعنى الآية الأولى عليه:

إن الذين قضيت لهم السعادة في الأزل من خلقه تعالى فهو عن النار مبعد، فإن السعادة سبقت لأهلها من الله، وسبق الشقاء لأهله من الله[2]، ولا شك أن هذا السبق سبق قضاء وقدر ليس إلا، والله أعلم.

ومعنى الآية الثانية عليه:أنه تعالى قد حكم في كتابه بنصر أنبيائه، فليس ينقضه أحد[3].

هذا وإني ألحظ على الآيات في هذا الصدد أمورًا:

أولها: الدلالة على عظم مكانة السابقين الذين سبقت لهم من الله الحسنى والسعادة، حيث عبر عنهم بالاشتهاء لعظم ما هم فيه في قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٢].

وفي ذلك يقول البقاعي:(لما كانت الشهوة-وهي طلب اللذة-لا تكون إلا بليغة، عبر بالافتعال دلالة على عظيم ما هم فيه من اللذة فقال: ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أي دائمًا أبدًا)[4].

ثانيها: ورد التعبير في أكثر من آية بقوله ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ وهي ليست كلمة واحدة بل كلمات، (إنما سماها كلمة وهي كلمات عدة؛ لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة)[5].

ثالثها: ورد في بعض الآيات تعدية الفعل «سبق» بحرف الجر «على» مثل قوله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠].

وفي بعضها تعدى باللام، مثل قوله ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء:١٠١].

وقوله ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات:١٧١].

وبعضها بـ(من) مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [طه:١٢٩].

وما شاكلها، وأرى أن السِّرَّ في ذلك:أن مضمون الآية إذا كان يتعلق بالمخلوقين، وكان شيئًا نافعًا جاءت التعدية باللام، وإذا كان شيئًا ضارًا جيء بعلى[6]، وإذا كان الأمر يتعلق بالخالق سبحانه، مع الدلالة على الابتداء جاء التعبير بـ«من» الابتدائية المفيدة لذلك، والله أعلم.

ثانيًا: السبق المذموم:

إذا كان القرآن قد رصد أنواعًا عديدة من أنواع السبق الممدوح، وقفنا عليها فيما سبق، فإنه قد رصد أيضًا بعضًا من أنواع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٦٥٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٨٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٣٨، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٣٠.
(٣) التفسير البسيط، الواحدي ٨/ ١٠٥.
(٤) نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٤٨٦.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٧.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨٦.

السبق المذموم، سيجليها البحث فيما يلي:

١. سبق قوم لوط عليه السلام إلى الفاحشة.

ابتلي قوم لوط عليه السلام بإتيان الذكران بعضهم بعضًا، وترك ما أحل الله لهم من أزواجهم، فضلًا عن مجاهرتهم بفعلهم هذا وعدم استحيائهم من الله تعالى، أو من بعضهم البعض، مما يجرئ غيرهم على المعصية، سابقين في ذلك العالمين أجمعين، فقام سيدنا لوط عليه السلام بواجب الدعوة نحوهم، ناعيًا عليهم هذا السبق المذموم، وجاء الحديث عن ذلك في موضعين من كتابه تعالى.

أولهما: قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ الآيات[الأعراف: ٨٠].

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٨-٢٩].

وهناك مواضع أخرى تحدث فيها القرآن عن فعل قوم لوط عليه السلام، إلا أنها لم يرد فيها التعبير بالسبق، لذا لا يتعرض لها البحث هنا.

وحقيقة السبق: وصول الماشي إلى مكان مطلوب له ولغيره قبل وصول غيره، ويستعمل مجازًا في التقدم في الزمان، أي: الأولية والابتداء، وهو المراد هنا، والمقصود أنهم سبقوا الناس بهذه الفاحشة[(١)].

والفاحشة في الأصل: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

وفحش فلان: صار فاحشًا، والمتفحش: الذي يأتي بالفحش[(٢)].

والمراد بالفاحشة هنا: إتيان الذكران بعضهم بعضًا في الأدبار، في قول جميع المفسرين[(٣)].

وفي هذا السبق لقوم لوط يقول الزجاج معلقًا على آية الأعراف:(هذا دليل على أن فاحشة اللواط لم يفعلها أحد قبل قوم لوط)[(٤)].

وقال المفسرون:(ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط)[(٥)].

وألحظ على الآيات الكريمة أمورًا:

أولها: تعظيم جرم فعل قوم لوط، حيث إنه تعالى (خص بالذِّكْرِ من مرتكباتهم أقبحها مما استوجبوا به العذاب، وخاطبهم

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٠.
(٢) المفردات، الراغب ص٦٢٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٤٧، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٥٨، التفسير البسيط، الواحدي ٩/ ٢١٨.
(٤) معاني القرآن، الزجاج ٢/ ٣٥٢.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ٩/ ٢١٨.

لوط عليه السلام:إن هؤلاء المكذبين من قبلكم على سوء مرتكباتهم لم يسبقوكم إلى ما أنتم عليه وقد سمعتم بهم وخلت من قبلكم المثلات)[1].

ثانيها: وصفهم الله بالمفسدين كما ورد في دعاء نبيهم عليهم ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾ [العنكبوت:٣٠].

لأنهم يفسدون أنفسهم بشناعات أعمالهم ويفسدون الناس بحملهم على الفواحش وتعويدهم عليها، وفي هذا الوصف تمهيد للإجابة بالنصر عليهم؛ لأن الله لا يحب المفسدين[2].

ثالثها: التعبير بالشهوة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف:٨١].

للمبالغة عليهم في الإنكار والتوبيخ، ووصفهم بالبهيمية الصرفة، وفيه تنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع، لا قضاء الوطر[3].

رابعها: التعبير بـ(من) في قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، وذلك لتأكيد العموم المستفاد من وقوع النكرة ﴿أَحَدٍ﴾ في سياق النفي ﴿مَا سَبَقَكُم﴾، وفائدتها:تأكيد أنه لم يسبقهم إلى هذه الجريمة النكراء أحد من العالمين على الإطلاق.

هذا وإن الآيات الكريمة تشتمل على معانٍ وأسرار عظيمة لكل متأمل، ولعل ما ذكر فيه الغنية ليجول البحث بنا الآن في نوع آخر من أنواع السبق المذموم فيما يلي:

٢. السبق إلى الكفر.

سبق الكافرين إلى الكفر وسائر المعاصي إنما أوقعهم فيه الشيطان، ونفوسهم العصية، والقرآن الكريم أشار إلى هذا السبق إشارة سريعة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال:٥٩].

والمعنى: لا يحسبن الذين كفروا سبقونا ففاتونا بأنفسهم، فهم لا يعجزون ربهم، إذا طلبهم وأراد تعذيبهم وإهلاكهم[4].

أو المراد:بيان أن أولئك الذين انهزموا يوم بدر، أشفقوا من هلكة تنزل بهم، فلما لم تنزل طغوا وبغوا.

فقال الله: لا تحسبن أنهم سبقوا بسلامتهم الآن، فإنهم لا يعجزوننا فيما يستقبل من الأوقات[5].

وأيما كان المراد، كفار بدر أو غيرهم فإن

(١) ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي ١/ ٢٠٧ بتصرف.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٤١.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٨.
(٥) التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٦٨.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ حيث إن لفظ الآية عام يتناول كفار كل عصر ومصر، وإن كانت كلمة المفسرين تكاد تجتمع على معنى السبق هاهنا، وأنه «الفوت وعدم الإفلات» -كما مر- فإن الآية تشير من طرف خفي إلى سبق الكافرين إلى الكفر، وهو يشمل كل ما دونه من المعاصي والذنوب.

هذا وإن القرآن قد صرح بمسارعة الكفار في الكفر، ولكن بلفظ المسارعة دون المسابقة.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦].

وقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة:٤١].

وكلتا الآيتين ورد التعبير فيهما بلفظ المسارعة في الكفر، وفي الأولى يطلب الله من نبيه صلى الله عليه وسلم أن لا يحزنه الذين يسارعون في الكفر، وذلك من شدة حرصه على الناس، وكان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فطلب منه تعالى أن لا يحزنه ذلك، فإنهم لن يضروا الله شيئًا، ومن حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة، ولهم عذاب عظيم[1].

وفي الثانية أيضًا يطلب تعالى منه صلى الله عليه وسلم أن لا يحزنه مسارعة المنافقين وغيرهم في الكفر، وتعاونهم ضد الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمراد بالذين يسارعون في الكفر:المنافقين، وقريظة والنضير-في قول ابن عباس-ومعنى مسارعتهم في الكفر:مظاهرتهم الكفار على محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان يفرط ويسرف في الحزن على كفر قومه، حتى كان يؤدي ذلك إلى أن يضر به، فنهي عن الإسراف فيه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨][2].

ومن خلال التأمل في الآيات هنا يتبين لنا أن الحق سبحانه عبر عن مسابقة الكفار في الكفر بفعل المسارعة؛ للدلالة على أنهم يتوغلون فيه، ويعجلون إلى إظهاره وتأييده، والعمل به عند سنوح الفرص، ويحرصون على إلقائه في نفوس الناس.

ومعنى المسارعة في الكفر إظهار آثاره عند أدنى مناسبة، وفي كل فرصة[3]، وإيثار حرف الظرفية «في» بدلًا من «إلى» يدل على أمرين:

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٣.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٦/ ١٩٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٧٢.

- الإشعار باستقرارهم في الكفر ودوام ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها، والدلالة على شدة مسارعة الكفار إلى الكفر، وتمكنهم منه، وتغلغله في أعماقهم[1].
- إفادتها معنى التوكيد[2].

[انظر: المسارعة: المسارعة إلى الكفر]

(١) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي ص٢٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١١٥.
(٢) المسارعة والمسابقة إلى الخيرات ص٤١.

صفات السابقين إلى الخيرات

من الأهمية بمكان أن يقف البحث بالقارئ الكريم على أهم الصفات التي يتحلى بها السابقون إلى الخيرات، لعل في ذلك الهدى والرشاد لمن أراد أن يترسم خطاهم، ويقتفي آثارهم.

أولًا: الإيمان بالله تعالى:

الإيمان بالله تعالى أصل العقيدة الصحيحة، ومهوى الفطر المستقيمة، وأول ما ينبغي أن يتصف به السابقون إلى الخيرات خصوصًا والمؤمنون عمومًا، وهذه الصفة أصل لما سواها؛ إذ بدونها لا يعتد بغيرها.

واتصاف السابقين بهذه الصفة ورد في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد:٢١].

وهنا يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالمسابقة إلى المغفرة والجنة التي هي عظيمة الاتساع، والتي أعدت لمن اتصف بهذه الصفة العظيمة، رأس وأول صفات الخير كلها، ألا وهي «الإيمان بالله تعالى ورسله».

والإيمان في أبسط تعاريفه يعني: نطق واعتراف باللسان، وإقرار وتصديق بالقلب

والجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال:٢-٤].

وغيره الكثير والكثير.

وقوله صلى الله عليه وسلم في تعريف الإيمان: (الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[(١)].

إذن فمسمى الإيمان يشمل العقيدة الحقة في الإقرار بواحدانية الله تعالى وألوهيته، وإخلاص العبادة له، مع الإقرار بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وإذعان القلب بذلك، والتصديق العملي لهذا الإقرار من فعل الواجبات وترك المحرمات[(٢)].

ولا شك أن السابقين إلى الخيرات حازوا أعلى الدرجات في ذلك، وإلا ما امتدحهم القرآن الكريم.

ثانيًا: الخشية من الله تعالى:

وصف الله تعالى عباده السابقين بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون:٥٧].

والخشية: خوف يشوبه تعظيم وتوقير، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨][(٣)].

وهي أيضًا صفة المبلغين عن الله تعالى رسالاته ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ [الأحزاب:٣٩].

والخشية أعلى درجة، وأسمى مقامًا وأخص من الخوف؛ إذ (الخوف تألم النفس من العقاب المتوقع بسبب ارتكاب المنهيات، والتقصير في الطاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق وإن كانت مراتبه متفاوتة جدًّا، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلا للقليل.

والخشية: حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته وخوف الحجب عنه، وهذه حالة لا تحصل إلا لمن اطلع على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم ٨.

(٢) انظر: الإيمان ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته، القاسم بن سلام ص ٢٥، الإيمان، ابن تيمية ص١٥.

(٣) المفردات، الراغب ص٢٨٣.

حال الكبرياء، وذاق لذة القرب، ولذا قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨])[١].

ويفرق الألوسي بين الخشية والخوف فيقول: (الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا)[٢].

إذن فالخشية مهابة وتعظيم المخشي مصحوبة بعلم ومعرفة، وهذا مقامٌ سامٍ لا يتحصل عليه إلا من أهله من العلماء، والسابقين ونحوهم ممن خصهم الله تعالى بذلك.

وبناءً على ذلك فمعنى الآية: إن الذين هم من خشية ربهم وتعظيمه مشفقون، فهم من خشيتهم من ذلك دائبون في طاعته جادون في طلب مرضاته[٣].

ثالثًا: الإشفاق:

الشفقة: ضرب من الرقة، وضعف القلب، ينال الإنسان، ومن ثم يقال للأم: إنها تشفق على ولدها، أي: ترق له، ومن هذا الأصل قولهم: ثوب شفقٌ، إذا كان رقيقًا، وقولك: أشفقت من كذا، معناه: ضعف قلبي عن احتماله[٤].

أو هي: عناية مختلطة بخوف، لأن المشفق يحب المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه، فإذا عدي بـ«من» فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بـ «في» فمعنى العناية فيه أظهر[٥].

وليست هي من الخشية والخوف في شيء، والشاهد آيتنا قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون:٥٧].

ولو كانت الخشية هي الشفقة لما حسن أن يقول ذلك، كما لا يحسن أن يقول: يخشون من خشية ربهم.

والمراد هنا وصف السابقين بهذه الصفة المباركة، والتي تقتضي الخوف من الله تعالى، مع العلم به سبحانه، وشدة الرقة في القلب وكثرة الخوف من عقابه.

فالمؤمنون مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله، خائفون منه، وجلون من مكره بهم.

كما قال الحسن البصري: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمنًا»[٦].

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص٢١٨.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٤.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص٣٠٠.
(٥) المفردات، الراغب ص٢٨٣.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٨٠، التفسير الوسيط طنطاوي ١٠/ ٤٣.

رابعًا: الإيمان بآيات الله تعالى:

ورد مدح المؤمنين السابقين بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ [المؤمنون:٥٨].

وآيات الله: تعم القرآن، وتعم العبر والمصنوعات التي لله وغير ذلك مما فيه نظر واعتبار، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الخالق، فالمخلوقات دالة على وجوده تعالى، والإيمان بها هو التصديق بكونها آيات ودلائل على وجود الصانع، وذلك مما لا يتوصل إليه إلا بالنظر والفكر، وصاحبه لا بد وأن يصير عارفًا بوجود الصانع وصفاته، وإذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الإقرار باللسان ظاهرًا، وذلك هو الإيمان[1].

ومن هنا كانت جهة مدحهم، وزيد في مدحهم بالتعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ للدلالة على أنه (لا يزال إيمانهم بها يتجدد شكرًا له تعالى لإحسانه إليهم)[2].

خامسًا: عدم الإشراك بالله تعالى:

وردت الإشارة إلى وصف المؤمنين السابقين بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون:٥٩].

والمؤمن قد يعرض له في إيمانه شرك جَليٌّ أو خَفيٌّ، فأثبت لهم هنا الإيمان الخالص، فقال: والذين هم بربهم الذي لا محسن إليهم غيره وحده، لا يشركون شيئًا من أي أنواع الشرك في وقت من الأوقات، كما لم يشركه في إحسانه إليهم أحد على الإطلاق[3].

وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله تعالى؛ لأن ذلك داخل في قوله فيما سبق ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ بل المراد منه نفي الشرك الخفي، وهو أن يكون مخلصًا في العبادة، لا يقدم عليها إلا لوجه الله تعالى، وطلب رضوانه، والله أعلم[4].

سادسًا: القيام بالعمل الصالح:

وردت الإشارة إلى اتصاف القوم بهذه الصفة في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ [المؤمنون:٦٠].

فالآية تدل على قيامهم بالعمل على وفق مراد الله تعالى؛ فقد ظهر أثر الإيمان فيهم جليًّا، وأفادت قيامهم بالعمل الصالح مطلقًا، ومنها الصدقات والزكوات، وفي قوله ﴿مَا آتَوا﴾ لفت نظر إلى أنهم لم يجعلوا لأعمالهم الصالحة أو لصدقاتهم حدًّا تنتهي إليه، وهذا مستفاد من التعبير بـ«ما» في قوله ﴿مَا آتَوا﴾ الدالة على العموم، والتعبير بالمضارع في ﴿يُؤْتُونَ﴾ للدلالة على

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٤٧.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٣/ ١٥٩.
(٣) المصدر السابق بتصرف.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٨٣.

الاستمرار في العطاء، وبالماضي في: ﴿مَآ ءَاتَوا۟﴾ للدلالة على تحققه[1].

سابعًا: الوجل:

الوجل: استشعار الخوف، يقال: وجل يُوجَلُ وَجَلًا، فهو وَجِلٌ.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:٢].

ولقد وصف الله تعالى المؤمنين السابقين بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠].

وفيها يصف الله تعالى السابقين إلى الخيرات بأنهم يؤدون الواجبات، ويعملون صالح الأعمال، باذلين قصارى جهدهم في ذلك، ولكن مع الخوف من الله تعالى، فهم يفعلون ما فعلوا، مع وجود الخوف ألا يتقبل الله منهم أعمالهم، إنهم يصلون، ويصومون، ويتصدقون، ولكنهم من الله عز وجل يخافون، خائفون ألا يقبل منهم، أو لا يقع العمل على غير الوجه اللائق، لتقصيرٍ في الوفاء بحق الإعطاء أو غير ذلك.

وقوله: ﴿مَآ ءَاتَوا۟﴾ لا يقتصر على العطاء المادي من زكاة أو صدقة، وإنما يشمل كل حق يلزم إيتاؤه، سواء أكان من حقوق الله تعالى كالعبادات، أم من حقوق بني آدم كالودائع والعدل بين الناس وغيرها[2].

ورد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠].

قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: (لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم)[3].

وأختم هذه الصفات المباركة لأهل الإيمان والسبق - أسأل الله تعالى أن نكون جميعًا منهم- بهذه التذييل الرائع للإمام الرازي حيث يقول[4] معلقًا على ترتيب الصفات الأربع حسبما وردت في الآيات:

«اعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن.

فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي.

(١) انظر: روح المعاني الألوسي ٩/ ٢٤٤.

(٢) انظر: المفردات، الراغب ص٨٥٥، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٤٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، رقم ٣١٧٥، ٥/ ٣٢٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب التوقي على العمل، رقم ٤١٩٨، ٢/ ١٤٠٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٠٤، رقم ١٦٢.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٣/ ٢٨٣.

والثانية: دلت على التصديق بوحدانية الله.

والثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات.

والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين»، اللهم اجعلنا منهم أجمعين، بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين، يارب العالمين.

ثواب السابقين في الخيرات

جبل بنو البشر وغيرهم على كثير من الأمور النفسية كالدوافع والانفعالات، وما تتحرك الخلائق لفعل شيء ما إلا إذا كانت هناك دوافع تدفعهم نحوه، وترغبهم فيه، وتيسر عليهم بعض ما يجدونه في طريقهم نحو أهدافهم على اختلافها وتنوعها، ومما لا شك فيه أن السابقين بالخيرات وقفوا على الجوائز والمنح التي رصدها الله تعالى لهم في الدنيا والآخرة، فدفعهم ذلك إلى السبق والتنافس.

وسيتم الحديث عن بعض ما أكرم الله تعالى به السابقين إلى مغفرته ورضوانه من جزاء وثواب في الدنيا ثم الآخرة، في النقاط الآتية:

أولًا: ثواب السابقين في الخيرات في الدنيا:

عدد الله تعالى الجوائز والمنح لأوليائه من المؤمنين السباقين إلى الخيرات في الدنيا، وذكر ذلك في كتابه، إما تصريحًا أو تلميحًا، والمتأمل يجد الشيء الكثير من ذلك، وسيعدد البحث هذه المنح الدنيوية فيما يلي:

١. الفوز برضوان الله تعالى.

قد يظن الظان لأول وهلة أن هذا الثواب يكون للسابقين في الآخرة لا الدنيا،

لكن ما الدليل على هذا التخصيص، وقد جاءت الآيات مطلقة؟ مثل قوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠].

بل أرى أن الآية قد تفيد أن هذا الرضى إنما هو دنيوي في المقام الأول، وذلك لقوله تعالى ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ثم مجيء قوله تعالى بعده: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ مما يقتضي سبق الرضا على الإعداد، لكن لا مانع أن يكون هذا الرضا لهم من الله تعالى منحة دنيوية وأخروية كذلك، ولا حرج على فضل الله تعالى وكرمه.

٢. مدح الله لهم، وتعظيمه لشأنهم.

حيث إنه سبحانه وصفهم بما يدل على ذلك في قوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة:١٠-١٤].

فعبر بما يشير إلى تميزهم بأمرين:

أولهما: التعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿أُولَٰئِكَ﴾، وذلك لبعد مكانتهم، وعلو منزلتهم، وعظم شأنهم عند ربهم جل وعز.

ثانيهما: التعبير بالقلة في جانبهم حيث قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ وهذا يدل على تميزهم، وفضلهم على من سواهم، وفي ذلك يقول السعدي: (وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق)[(١)].

٣. الهداية لعمل الصالحات.

فالسابقون طائفة خاصة من أهل الإيمان، وأهل الإيمان وعدهم الله تعالى بعدة أمور، منها: هدايته تعالى إياهم لعمل الصالحات، ودليله قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس:٩].

والمراد: (يهديهم ربهم في الدنيا، حتى يثبتهم على الإيمان ويدخلهم في الآخرة الجنة بإيمانهم)[(٢)]، ولو لم تكن لهم منحة من الله تعالى إلا هذه لكفتهم، اللهم اجعلنا منهم أجمعين.

٤. إلقاء المحبة والمودة لهم في القلوب.

يكفي السابقين أنهم مشمولون بكل وعد حسن وعد الله تعالى إياه عباده المؤمنين، ومن أعظم هذه الوعود قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

ومقصود الآية الكريمة: أن الذين آمنوا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣٣.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ١٠٥.

بالله ورسله، وصدقوا بما جاءهم من عند ربهم، وعملوا به، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، سيجعل لهم الرحمن محبة ومودة في صدور عباده المؤمنين، لإيمانهم وعملهم الصالح، يقال: وَدَّ فلانٌ فلانًا، إذا أحبه وأخلص له المودة[1].

ويسبق ذلك محبة الله تعالى لهم، ثم ملائكته الكرام، ثم توضع لهم المحبة في السماء والأرض، يؤكد لنا هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل: إن الله قد أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض)[2].

فاللهم اجعلنا جميعًا من أهل وُدِّكَ ومحبتك يارب العالمين.

٥. التطهر والتزكية.

وهذا أيضًا من عطاء الله تعالى لأهل الإيمان المنفقين، ولا شك أن السابقين حازوا قصب السبق في ذلك مع وجل قلوبهم وخوفهم أن لا تقبل منهم صدقاتهم وغيرها، تصديقًا لقوله تعالى في وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠].

والتطهرُ والتزكيةُ وَعْدٌ مِنَ الله للمنفقين كما ورد في قوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

ومن حسن المناسبة أن ترد هذه الآية في سورة «التوبة» بعد آية ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ بآيتين اثنتين ليدل ذلك على أن للسابقين النصيب الأوفى في هذه التزكية والتطهر، والله أعلم.

٦. الحياة الطيبة السعيدة في الدنيا.

من موعود الله تعالى لأهل الإيمان أنه يحييهم حياة طيبة في الدنيا جزاء لأعمالهم الطيبة، ولا شك أن السابقين ما نالوا السبق إلا بتوفيق الله تعالى لهم في عمل هذه الأعمال الطيبة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

وفيها يخبر الله تعالى أن (من عمل بطاعته، وأوفى بعهود الله إذا عاهد من ذكر أو أنثى من بني آدم وهو مؤمن ومصدق بثواب الله الذي وعد أهل طاعته على الطاعة، وبوعيد أهل معصيته على المعصية فسيحييهم الله في الدنيا ما عاشوا فيها بالرزق

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٦١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل، رقم ٤٧٨٥، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب إذا الله أحبَّ عبدًا حببه لعباده، رقم ٢٦٣٧.

الحلال أو القناعة أو السعادة ونحوها)[1].

٧. سعة الرزق وبركته.

وعد الله عز وجل فريقًا من الناس أنهم إن آمنوا به واتقوه لأغدق عليهم بركاته السماوية والأرضية في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

والمعنى: ولو أن أهل القرى وحدوا الله، واتقوا الشرك، وما صمموا عليه من الكفر، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح، ليسرنا لهم خيرات السماء والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها، والمطر، والنبات، وكثرة المواشي والأنعام ونحوها[2].

ولعل القارئ الكريم يتساءل: وما علاقة الآية بالسابقين وجزائهم الدنيوي؟

والجواب: إذا كان الله جل وعز قد وعد هؤلاء بالإغداق عليهم من بركات السماء والأرض عند توحيدهم وتقاهم، فإنه سبحانه وتعالى يحقق هذه الموعود لمن يحقق شرطه من الخلق، ولا شك أن السابقين حازوا قصب السبق في ذلك، ولا أحد أوفى بعهده من الله تعالى.

٨. الإمامة في الدين وهداية الخلق.

وهذه منحة عظمى من الله تعالى طلبها عباد الرحمن من ربهم سبحانه في دعائهم إياه ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤].

أي: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين، بإفاضة العلم والتوفيق للعمل الصالح[3].

ولعل هذا هو لسان حال السابقين؛ لأن علو الهمة دأبهم، وطلب معالي الأمور شيمتهم، والسبق في الدين والطاعة سمتهم، ومن ثم فليس غريبًا عنهم هذا الطلب والرجاء، ولا نبعد كثيرًا حين نقول: إن السابقين من عباد الرحمن، والله أعلم.

٩. دعاء واستغفار الملائكة لهم.

من غاية عطاء الله تعالى وكرمه لعباده المؤمنين أن ألهم ملائكته الدعاء والاستغفار لهم، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر:٧].

وفيه: يخبر تعالى بخبر يتضمن تشريف المؤمنين، ويعظم الرجاء لهم، وهو أن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش - وهؤلاء أفضل الملائكة-

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٩.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٩، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٩.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٣١.

يستغفرون للمؤمنين، ويسألون الله لهم الرحمة والجنة، وهذا معنى قوله تعالى في غير هذه الآية: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

أي: سألته الملائكة[1].

وأهل السبق لهم النصيب الأوفى من هذه الدعوات؛ حيث إنهم لم يكونوا من المؤمنين وفقط، بل سبقوا غيرهم طاعة وعبادة وفضلًا.

١٠. التمكين والنصر.

وعد الله عباده المؤمنين بالتمكين بمثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٥٥].

وبالنصر على الأعداء في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

فإذا لم يكن السابقون إلى الخيرات مشمولين بهذين الوعدين الكريمين فَمَنْ؟ وإذا لم يُمَكِّنْ أمثالهم في الأرض لإعمارها، وإصلاح شؤونها وشؤون أهلها فَمَنْ؟ فهم أهل لكل تمكين ونصر وخير وبر وبركة.

والناظر في كتاب الله يجد من هذا الصدد الكثير والكثير، لست مبالغًا حين أقول: إن جميع موعود الله تعالى لعباده المؤمنين، وكذلك المتقين أيضًا يشمل السابقين؛ لأنهم بلا شك آمنوا واتقوا، بل وسبقوا غيرهم في الطاعات وسائر القربات، ولو استرسل البحث في ذلك لطال به المقام، وما وفَّى السابقين حقهم، وهم قد بلغوا ما بلغوه بالصبر والمثابرة، والصابرون يُوَفَّوْنَ أجورهم بغير حساب، ولا شك أن واجبنا نحوهم يتلخص في اقتفاء أثرهم، والسير على منهجهم،، وتقديرهم وإجلالهم، والذب عنهم، ودعوة الناس إلى سلوك طريقهم، والسير في ركابهم، ومحبتهم، والإقبال عليهم، ومن أحب قومًا حشر معهم..

والآن إلى جولة للبحث أخيرة مع بيان جزاء السابقين في الآخرة، وذلك فيما يلي:

ثانيًا: ثواب السابقين إلى الخيرات في الآخرة:

قد وقف البحث بنا فيما مضى على بعض منح الله تعالى وعطاياه للسابقين إلى الخيرات في الدنيا، والآن يجول بنا جولة أخيرة للوقوف على بعض عطاياه سبحانه لهم في الآخرة، ولا شك أنها خير وأعظم أجرًا، وأبقى أثرًا، وأعظم نفعًا ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:٣٠].

وسيقف البحث عليها من خلال التأمل

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٥٧.

في المواطن الثلاثة الواردة في سور (التوبة وفاطر والواقعة)، وسيذكرها البحث -كما هو منهجه- مرتبة مصحفيًّا حسب سورها فيما يلي:

١١. فوزهم برضوان الله تعالى.

أشار القرآن الكريم إلى هذه النعمة الكبرى في قوله تعالى: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

والمعنى: ومعنى الكلام- كما يقول الطبري[(١)]-: رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه، وأجابوا نبيه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه، ورضي عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه، وإيمانهم به وبنبيه عليه السلام.

وأكرم وأنعم بهذه النعمة من منزلة ومكانة لا تدانيها منزلة مثلها، وأعجبني في هذا الصدد قول أحد العلماء: لا تعبدوا الله تعالى ليعطي، بل اعبدوه ليرضى؛ فإنه إن رضي أدهشكم بعطائه، فاللهم اجعلنا جميعًا ممن تغدق عليهم بعظيم عطائك.

١٢. فوزهم بالروح والريحان عند قبض أرواحهم.

ذكر الله تعالى في نهاية سورة «الواقعة» أحوال عباده عند الموت، وصنفهم ثلاثة أقسام، وجعل أول هذه الثلاثة:المقربين، وكما مر بنا أن المقربين هم السابقون، وهؤلاء السابقون لهم مكانة عظيمة وكرامة عند ربهم حتى عند قبض أرواحهم، وهذا يوضحه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩].

وفي هاتين الآيتين يوضح الله ما يلاقيه السابقون المقربون عند موتهم، فعن أبي العالية قال:لم يكن أحد من المقربين يفارق الدنيا-والمقربون السابقون-حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه، ثم يقبض.

والمعنى: فأما إن كان الميت من المقربين الذين قربهم الله من جواره في جنانه ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ أي:فله الرحمة والراحة والمغفرة، والرزق الطيب الهنيء، أو المراد:أن أرواح المقربين تخرج من أبدانهم عند الموت بريحان تشمه[(٢)].

وأيما كان تفسير الروح والريحان فإن المراد بيان كرامة المقربين أهل السبق عند ربهم سبحانه، وأنهم يبشرون بالراحة والرحمة والمغفرة، والروائح الطيبة عند خروج أرواحهم؛ وذلك لطيب أقوالهم وأعمالهم ومعيشتهم كلها، فاللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

(١) جامع البيان ١٤/ ٤٣٩.

(٢) المصدر السابق ٢٣/ ١٦٠.

١٣. الفوز بدخول الجنة.

الحديث عن هذه النعمة في آيات القرآن كثير، لكن أكتفي بما وردت الإشارة به إلى جزاء السابقين من قوله تعالى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠].

والآية أوضح من أن يعلق عليها، حيث إنها تبين عظيم امتنان الله على هؤلاء السابقين بسبق إعداد الجنات لهم، جزاء وفاقًا لأعمالهم، وهذا فيه مزيد تشريف وتكريم لهم، فاللهم اجعلنا منهم أجمعين.

١٤. تنوع صنوف النعيم لهم في الجنة.

نَوَّعَ الله تعالى لأهل الجنة عمومًا ولأهل السبق خصوصًا صنوفًا شتى من النعيم في الجنات، حتى تسعد نفوسهم، وتهنأ قلوبهم، ولا تمل أجسادهم، تقديرًا لسبقهم، ومكافأة على أعمالهم - وإن كان مبدأ دخولهم الجنة محض فضل من ربهم الكريم سبحانه- وسنرى الآن كيف نوع الله هذا النعيم من خلال المواطن الثلاثة - كما سبق- فيما يلي:

❁ تعدد الجنات.

أشار الله تعالى إلى أنها جنات وليست جنة واحدة، في قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [التوبة:١٠٠].

والجمع فيه إشارة إلى تنوعها وتعددها، باعتبار أن لكل واحد منهم جنات جنة الفردوس، وعدن، والنعيم، ودار الخلد، أو الجمع باعتبار أنهم جمع، وفيه لفت نظر إلى أن الجنة منازل ومراتب، وفي كل منزلة من النعيم العظيم ما فيها، أو الجمع إشارة إلى سعتها، وكثرة أشجارها وتنوعها[1]، والله أعلم.

❁ تجري تحتها الأنهار.

ورد هذا الوصف في الموطن الوحيد في القرآن، وهو قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠].

وسبقت الإشارة إلى سر حذف «من» وهو التنبيه على عموم ريها وكثرة مائها، ولعل تخصيص هذا الموضع بالخلاف؛ لأنه يخص هذه الطائفة، فلعلها تخص بجنة هي أعظم الجنان رِيًّا وُحسنًا[2].

❁ الخلود الأبدي فيها.

إن مما ينغص على أهل النعيم نعيمهم معرفتهم بأنهم سيفارقون هذا النعيم، أو النعيم قد يفارقهم، كحال أهل الدنيا، ومن ثم امتن الله تعالى على أهل السبق إلى الخير بطمأنتهم من هذه الناحية، وإخبارهم أنهم مخلدون في الجنات، لا يفارقهم النعيم ولا هم يفارقونه بقوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

مع الإشارة إلى أن ذلك فوز عظيم لا فوز

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٢٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩١.

(٢)

بعده.

❁ وصفها بجنات عدن.

ورد هذا الوصف في سورة فاطر في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر:٣٢-٣٣].

وعدن أي: استقرار وثبات، وعدن بمكان كذا: استقر، ومنه المعدن: لمستقر الجواهر[١]، والمراد:وصف هذه الجنان بأنها مكان استقرار وإقامة وثبات، لا هم يتحولون عنها، ولا هي تتحول عنهم، بهدم أو انتقال لغيرهم ونحو ذلك ممايعرض لمنازل الدنيا.

❁ تنوع الحلية واللباس فيها.

وهذه المنحة منحهم إياها الجليل أيضًا في الجنات، ودليلها قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر:٣٣].

والأساور جمع أسورة، والأسورة زينة تلبس في اليد، وهي من زينة الملوك تسور في اليد، وتتوج على الرأس، ويكون السوار من الذهب والفضة، وكلاهما من لباس أهل الجنة، أحلنا الله فيها برحمته[٢]، وهم يحلون فيها بالأساور الذهبية المرصعة باللؤلؤ زيادة في تقديرهم وإكرامهم.

ويلحظ هنا أمرين:

أولهما: أن الله تعالى عبر في جانب الحلية بالفعل ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ للدلالة على تجدد تزينهم بها، وأنها تتغير من حين إلى حين، بينما عبر في جانب اللباس بالاسم ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ للدلالة على الدوام والثبوت، وأن أحوالهم لا تنفك عن شيء من اللباس أبدًا، فهم مستورون في الدنيا والآخرة.

ثانيهما: الاقتصار هنا وفي أغلب آي القرآن على التحلي بالأساور فقط دون غيرها للإشارة إلى إظهار كون المتحلي غير مبتذل أو مهان في الأشغال؛ فالتحلي لا يكون حالة الطبخ والغسل، وفيه إشارة أيضًا إلى إظهار استغنائهم عن الأشياء، لأن التحلي بالذهب والفضة يدل على أن صاحبهما غير محتاج، وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع حاجته[٣]، وكيف يحتاجون وهم في ضيافة أكرم الأكرمين، رب العالمين سبحانه؟!

إلهامهم الحمد والشكر فيها.

وهذه نعمة عظيمة، ومنحة جليلة أيضًا، بها يحمدون ربهم، وتلهج ألسنتهم بتسبيحه وشكره على جليل نعمائه التي أفاء عليهم بها، ولا أدل على ذلك من قول السابقين في الجنة يقرون بحمد ربهم، والثناء عليه بما هو أهله ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤].

(١) المفردات، الراغب ص٥٥٣.
(٢) انظر: التفسير البسيط الواحدي١٣/ ٦١٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٤١.

وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم تحدث عن أهل الجنة فقال: (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون) قالوا: فما بال الطعام؟ قال: (جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما تلهمون النفس)[1]، فاللهم لا تحرمنا فضل ما عندك بسوء ما عندنا يا أكرم الأكرمين.

❁ ذهاب الحزن.

تعددت أقوال المفسرين في بيان الحزن الذي حمد أهل الجنة ربهم على إذهابه عنهم لما أدخلهم الجنة بقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤].

وخلاصة أقوالهم تفيد أن المراد بالحزن هنا: حزن الخبز، أو حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات، أو حزن الموت.

وقيل: حزن الجنة والنار لا يدري إلى أيهما يصير.

وقيل: حزن إبليس ووسوسته، أو حزن القطيعة، وقيل: حزن أهوال الدنيا وأوجاعها، وقيل: حزن زوال النعم، وتقليب القلب، وخوف العاقبة.

وقيل: ما كان حزنهم إلا تدبير أحوالهم وسياسة أنفسهم، فلما نجوا منها حمدوا ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾[2].

وأرى أنه لا مانع من الجمع بين هذه الأقوال كلها، وبخاصة أنهم عاشوا في الدنيا، وقاسوا آلامها، وعانوا كثيرًا من عيشها وكدرها، ثم قاسوا الآم الموت وسكراته، وعاينوا النار وعذاب أهلها فيها، وهذه كلها أحزان تستأهل حمد الله تعالى وشكره على النجاة منها، نسأل الله تعالى أن نكون منهم أجمعين.

❁ إحلالهم دار المقامة.

يعد من أجل النعم التي تستأهل الحمد على الدوام إحلال السابقين دار المقامة، التي وردت الإشارة إليها على لسانهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر:٣٥].

ودار المقامة هي دار الإقامة، أي: الجنة، والتعبير بقوله: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ دون غيره من أسماء الجنة فيه إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور، ومنها إلى منزلة العرصات التي فيها الجمع، ومنها التفريق إلى الجنة أو النار، كما أن قولهم: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ يشير إلى أن دخولهم الجنة بحكم وعده لا بإيجاب من عنده[3]، وإنما هو محض فضل منه تعالى، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل فضله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات أهل الجنة وتسبيحهم، رقم ٢٨٣٥.

(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ١١٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٤٠.

وكرمه، اللهم آمين.

❁ نفي النصب واللغوب عنها.

من تمام التمتع بنعيم دار المقامة أن لا يجد أهلها شيئًا من النصب أو غيره، وهذا ما صرح به أهل المقامة في قولهم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥].

والمس: الإصابة في ابتداء أمرها، والنصب: التعب من نحو عمل أو شدة حر أو شدة برد، واللغوب: الإعياء والأثر الناتج عن التعب، والفرق بينهما أن النصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب ما يحدث منه من الكلال والفتور، والتصريح بنفي اللغوب مع استلزام نفي النصب له، وتكرار الفعل المنفي «لا يمسنا» للمبالغة والتأكيد في بيان انتفاء كل منهما[1].

❁ فوزهم بالقرب من ربهم سبحانه.

منزلة القرب من العلي العظيم سبحانه منزلة علية، ومقام سام لا يناله إلا أهل القرب من السابقين ونحوهم، وهذا ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

والمقربون هم: أولئك الذين يقربهم الله منه يوم القيامة إذا أدخلهم الجنة[2].

ويلحظ علو منزلة المقربين، وعظم منزلتهم عند ربهم سبحانه من التعبير عنهم باسم الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مع تعريفهم ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. وهذا الأسلوب عند البيانيين يسمى بـ«أسلوب القصر» وطريقه تعريف الطرفين.

وفائدته: بيان أنهم وحدهم المقربون دون أحد سواهم، فأعظم بهذا المقام من منزلة كريمة!

❁ وصف الجنات بالنعيم.

لا ينعم السابقون المقربون بالجنات التي منحهم الكريم إياها إلا إذا كانت ذات نعمة لا شقاء فيها ولا بؤس، وهي بالفعل كذلك على حد وصف الله تعالى لها بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ١١-١٢].

وفائدة هذا الوصف: بيان تنعيم جسمهم، وكرامة نفسهم فهم مقربون عند الله، فهم في غاية اللذة وفي جنات، فجسمهم في غاية النعيم، بخلاف المقربين عند الملوك، فإنهم يلتذون بالقرب، لكن لا يكون لجسمهم راحة، بل يكونون في تعب من الوقوف وقضاء الأشغال[3]، والله أعلم.

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٨٠٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٤١، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٦٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٥٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٢/ ٣١٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٩٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩١.

❁ كونهم على سرر موضونة.

سواء أكان المراد بالموضونة المشار إليها بقوله تعالى ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [الواقعة: ١٥].

المصفوفة، أم الموصول بعضها ببعض، أم المنسوجة بالذهب، أم المشبكة بالدر والياقوت، أم محكمة النسج، ونحو ذلك مما ذكره المفسرون[(١)].

فإن المراد بيان تمتع أهل السبق بهذا اللون من النعيم العظيم الذي ادخره الله لهم، وأنه زيادة في تنعمهم وإكرام وفادتهم على الله تعالى.

❁ متكئين عليها متقابلين.

لم تكتف الآيات المباركات بإفادة أن أهل السبق على سرر موضونة وفقط، بل أفادت أنهم عليها متكئون ومتقابلون، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة:١٦].

وفائدة الوصف الأول ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: التأكيد على أن لا يظن أنهم كائنون على سرر متكئون على غيرها، كما يكون حال من يكون على كرسي صغير لا يسعه للاتكاء، فيوضع تحته شيء آخر للاتكاء عليه، فلما قال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ دل هذا على أن استقرارهم واتكاءهم جميعًا بتمكن واقتدار على سرر، وفائدة الوصف الثاني ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾: بيان أن الواحد منهم لا ينظر إلى قفا صاحبه، وأن وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم[(٢)]، والله أعلم.

❁ يطوف عليهم ولدان مخلدون.

من صنوف النعيم أيضًا: أنه يدور حولهم للخدمة وقضاء حوائجهم ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم، بل شكلهم شكل الولدان دائمًا، ولا يموتون، ولا يسقمون[(٣)].

وهذا ما وردت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة:١٧].

❁ بأكواب وأباريق وكأس من معين.

يدور الغلمان على أهل السبق بأكواب، وهي الأقداح المستديرة الأفواه التي لا آذان لها ولا عرى، والأباريق: هي الآنية ذات العرا والخراطيم التي تحمل فيها الخمر ليصب منها في الأكواب، واحدها إبريق، وسمي بذلك لأنه يبرق لونه من شدة صفائه[(٤)]، وهذا ما وردت الإشارة إليه في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٩٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٠١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩٢.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٧٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٣٣.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٧٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٩٤.

قوله تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة:١٨].

أما ﴿مَّعِينٍ﴾ فقد اختلف العلماء في بيان المراد بها، وسبب التسمية إلى أقوال أهمها ما يلي:

- أنه الشراب الظاهر للعيون، وصف بما يوصف به الماء؛ لأنه يجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء [(١)].
- أنه الجاري شديد الجري، ومنه قولهم: أمعن في السير إذا اشتد فيه [(٢)].
- أنه ما مدته العيون فاتصل ولم ينقطع؛ لأنه ليس من عمل البشر [(٣)].
- أنه الكثير، مأخوذ من « المعين »، وهو الشيء الكثير [(٤)].
- أنه المنتفع به، مأخوذ من الماعون [(٥)].

وأرجح من هاتيك الآراء أولها وثانيها لأمرين:

الأول: أن جمهور المفسرين عليهما، حتى استنبط أحدهم قاعدة كلية في ذلك فقال: كل ﴿مَّعِينٍ﴾ في القرآن فهو جارٍ، غير الذي في ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١] يعني به: ما كان ظاهرًا تناله الدلاء [(٦)]، مع إمكان اجتماع الصفات المذكورة بعد لهذا الماء.

الثاني: أن المتفضل بهذا الشراب هو الله تعالى، ولا حرج علي فضل الله الكريم في أن يجمع هذين الوصفين وأكثر في شراب واحد، والله أعلم.

ويلحظ هنا: أن وصف ﴿مَّعِينٍ﴾ ورد وصفًا للكأس المملوءة بخمر الجنة، ووصف الخمر بذلك إما لظهوره للعين أو لشدة جريه [(٧)]، فسبحان من أجرى لأهل الجنة أنهارًا متنوعة من لبن وخمر وعسل، ظاهرة للعيون غير خافية، فاللهم اجعلنا منهم أجمعين.

- **لا يصدعون عنها ولا ينزفون.**

ورد هذا الوصف للخمر في قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة:١٩].

فمن صفة هذه الخمر أنها لذة كلها، لا ألم معها ولا خمار، فهم لا يصدعون عنها، أي: لا يصدر عنها صداعهم لأجل الخمار، كخمور الدنيا.

والصداع: وجع الرأس، وهم لا ينزفون بكسر الزاي وفتحها، أي: لا تذهب عقولهم

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٣٢.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٣٢، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٦.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٦.
(٥) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٣٢.
(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٢١٧.
(٧) إيجاز البيان عن معاني القرآن، أبو القاسم النيسابوري ص٦٩٨.

بسكرها أبدًا[1].

❁ وفاكهة مما يتخيرون.

من صور نعيمهم أيضًا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠﴾ [الواقعة: ٢٠].

والفاكهة: الثمار والبقول كاللوز والفستق، والمراد: ويطوف عليهم الولدان بفاكهة، وذلك أدخل في الدعة، وألذ من التناول بأيديهم، على أنهم إن اشتهوا اقتطافها بالأيدي دنت لهم الأغصان؛ فإن المرء قد يشتهي تناول الثمرة من أغصانها.

وقوله: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ الجنس الذي يختارونه ويشتهونه، وأصله أخذ الخيار والخير، أي: يطوفون عليهم بفاكهة من الأنواع التي يختارونها، ففعل ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ يفيد قوة الاختيار[2].

قال ابن كثير[3]: وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها، ثم استشهد له.

❁ ولحم طير مما يشتهون.

مما لا شك فيه أن اللحم من أطيب ألوان الطعام، ومن متع الله تعالى به أهل السبق في قوله تعالى: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١﴾ [الواقعة:٢١].

وليس هذا اللحم لحمًا عاديًّا، بل هو أرفع اللحوم وأشهاها وأعزها.

والاشتهاء: افتعال من الشهوة التي هي محبة نيل شيء مرغوب فيه من محسوسات ومعنويات، والافتعال فيه للمبالغة[4].

وتقديم ذكر الفاكهة على ذكر اللحم لوجوه:

أولها: العادة في الدنيا غالبًا تقديم الفواكه في الأكل، والجنة وضعت بما علم في الدنيا من الأوصاف والأحوال.

ثانيها: الحكمة في الدنيا تقتضي أكل الفاكهة أولًا؛ لأنها ألطف، وأسرع انحدارًا، وأقل حاجة إلى المكث الطويل في المعدة للهضم، ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للأكل واللحم يدفعها.

ثالثها: لما بين تعالى أن الفاكهة دائمة الحضور والوجود، واللحم يشتهى ويحضر عند الاشتهاء دلَّ هذا على عدم الجوع؛ لأن الجائع حاجته إلى اللحم أكثر من اختياره اللحم فقال: ﴿وَفَٰكِهَةٖ﴾ لأن الحال في الجنة يشبه حال الشبعان في الدنيا، فيميل إلى الفاكهة أكثر فقدمها[5]، والله أعلم، وأعز وأكرم.

❁ وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون.

مما متع الله تعالى به أهل السبق أيضًا:

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٢١.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٩٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٥٢٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٩٥.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣٩٦.

إكرامهم بالحور العين المشار إليهن بقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة:٢٢- ٢٣].

أي: ويطوف عليهم أيضًا نساء عيونهن شديدة البياض والسواد في سعة وجمال، وفي عيونهن كحل وملاحة، وحسن وبهاء، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

وقوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ أي:وهؤلاء الحور العين كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن، بل هن كاملات الأوصاف، جميلات النعوت، فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر، ويروق الناظر[1].

❁ لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا.

مع كل هذه المتع السابقة من المناسب أن يمتعوا كذلك بطهارة الجنة من التلوث السمعي، وعدم سماع ما يكره سماعه، وهذا من تأكد خلو الجنة وتنزهها عنه بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦].

والمراد: لا يسمعون في جنات النعيم كلام لغو لا فائدة فيه، ولا كلامًا يؤثم صاحبه، وهذه نعمة روحية؛ فإن سلامة النفس من سماع ما يكره سماعه من الأذى نعمة عظيمة.

واللغو: الكلام الذي لا يعتد به كالهذيان، والكلام الذي لا محصل له، ولا فائدة فيه.

والتأثيم: اللوم والإنكار، وهو مصدر أثَّمَ، إذا نسب غيره إلى الإثم.

وأتبع ذكر هذه النعمة بذكر نعمة أخرى من الإنعام بالمسموع الذي يفيد الكرامة؛ لأن الإكرام لذة روحية يكسب النفس عزة وإكرامًا بقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: إلا كلامًا طيبًا، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسره للنفوس وأسلمه من كل لغو وإثم، والتكرار لإفادة التعاقب، أي سلامًا إثر سلام، كقولهم:قرأت النحو بابًا بابًا، أو أشير به إلى كثرة المسلمين، فهو مؤذن مع الكرامة بأنهم معظمون مبجلون[2].

إلى غير ذلك من صور النعيم والتكريم التي جعلها الله لعباده السابقين، نسأل الله تعالى من فضله وكرمه.

موضوعات ذات صلة:

الجزاء، الجنة، المسارعة، النار

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٦٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٧٩.

المُسَارَعَة

عناصر الموضوع

مفهوم المسارعة	٨
المسارعة في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
أنواع المسارعة	١٣
مقام المسارعين في الخيرات وصفاتهم	٢٦
ثواب المسارعين في الخيرات	٣٣

مفهوم المسارعة

أولًا: المعنى اللغوي:

السين والراء والعين أصل صحيح يدل على خلاف البطء، وسرعان الناس: أوائلهم الذين يتقدمون سراعا، وتقول العرب، لسرعان ما صنعت كذا، أي ما أسرع ما صنعته [(١)].

والسرعة: نقيض البطء، والمتسرع: المبادر إلى الشر، وجاء سرعا: أي سريعا، والفرق بين السرعة والإسراع أن الإسراع فيه طلب وتكلف، وأما السرعة فكأنها غريزة، يقال: أسرع أي طلب ذلك من نفسه وتكلفه كأنه أسرع المشي أي عجله، وأما سرع فلان، فالمعنى أن السرعة فيه طبع وسجية.

وأسرع الرجل: سرعت دابته، أي: أخف، إذا كانت دابته خفيفة، وسرعان الخيل: أوائلها[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المسارعة: هي المبادرة إلى الطاعات والسبق إليها والاستعجال في أدائها وعدم الإبطاء فيها أو تأخيرها » [(٣)].

ونجتهد في تحديد نوعي المسارعة المحمودة والمذمومة وذلك فيما يأتي:

المسارعة الممدوحة: هي المبادرة إلى فعل الخيرات والإسراع في ذلك، لنيل الأجر والثواب، والشعور بالسعادة والطمأنينة.

المسارعة المذمومة: هي المبادرة إلى فعل المنكرات والإكثار منها رغبة فيها، دون الخوف والخشية من عقاب الله وسخطه.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٥٢.

(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١/ ٤٨١، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٥١، الصحاح، الجوهري ٣/ ٢٢٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٢٧.

(٣) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٣٣٨٧.

المسارعة في الاستعمال القرآني

ورد مادة (سرع) في القرآن الكريم (٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٨	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء:٩٠]
فعل الأمر	١	﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٣]
اسم تفضيل	٢	﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام:٦٢]
صيغة مبالغة	١٢	﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة:٢٠٢]

وجاءت المسارعة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو المبادرة والعجلة، نقيض البطء[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٤٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٣٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ المسابقة:

المسابقة لغةً:

« السين والباء والقاف أصل واحد صحيح يدل على التقديم، يقال سبق يسبق سبقا، فأما السبق فهو الخطر الذي يأخذه السابق» [(١)].

المسابقة اصطلاحًا:

هي تسابق وتنافس بين شخصين أو عدة أشخاص للفوز أو للحصول على علو المرتبة.

وقيل: (التقدم والمبادرة وبذل غاية الجهد والطاقة بين متسابقين أو أكثر في أمر من الأمور الدنيوية أو الأخروية لتحصيل السبق والفوز على الآخر) [(٢)].

الصلة بين المسابقة والمسارعة:

يفرق بينهما بعدة أمور:

أن المسابقة متقدمة على المسارعة، وسابقة عليها؛ حيث إن أي سباق مهما كان نوعه ومسافته لا بد له من مرحلتين: الأولى: مرحلة السباق والانطلاق، والثانية: مرحلة الإسراع في السباق، فمثلًا السباق في الجري، عندما يبدأ الشوط الأول يتسابقون، وبعد فترة يسارعون في السباق، بأن يضاعف المتسابقون سرعتهم، ويتحولوا من مجرد مسابقة إلى المسارعة في المسابقة، وسنجد أن بعض المتسابقين قد يسقط في الطريق، ويخرج من السباق، ولا يصل إلى مرحلة المسارعة إلا أصحاب الطاقات والهمم والسرعات والعزائم، أولئك الذين لديهم زاد قوي يعينهم على إكمال أشواط المسارعة.

المسارعة أسمى درجة من المسابقة؛ حيث إن المسابقة تقتضي وجود قرين يسابق، فيجتهد المتسابق لتحصيل السبق، فيكون وجود القرين المسابق المخالف دافعًا لمزيد من بذل الجهد والسبق، أما المسارعة فتتعلق بذات العامل نفسه بقطع النظر عمن ينافسه في ذلك، فهو يجد ويجتهد أبلغ الاجتهاد لذاته، يحركه ما يراه من واجب عليه في ذات الأمر وهذا لا يكون إلا لمن علت همته وسمت اهتماماته [(٣)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٩.

(٢) انظر: المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، محمد الزغول، محمد حوى ص٦.

(٣) المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم، دراسة موضوعية بيانية، د/ محمد علي الزغول، د/ محمد سعيد حوى ص٧ بتصرف.

كما يلحظ في المسارعة خشية فوات الفرصة، كما يظهر فيها جانب ضيق الوقت خشية عدم إدراكه، فهو يسارع لذلك، وفي المقابل يلحظ في المسابقة ظهور النتيجة، وهي مادية واضحة[(١)].

(ج) يقول البقاعي مفرقًا بين فعلي «سابقوا» و«سارعوا»: (سابقوا: فعل من يسابق شخصًا فهو يسعى ويجتهد غاية الاجتهاد في سبقه، ولكن ربما كان قرينًا بطيئًا فسار هوينًا، أما المسارعة فلا تكون إلا بجهد النفس من الجانبين مع السرعة في العرف)[(٢)].

وبهذا تتضح العلاقة بين المصطلحين، وإن كان كل منهما يفيد في مجمله المبادرة، وبذل قصارى الجد والاجتهاد في تحصيل أمر من الأمور، والله أعلم.

٢ المبادرة:

المبادرة لغةً:

الباء والدال والراء، أصلان: أحدهما كمال الشيء وامتلاؤه، والآخر الإسراع إلى الشيء، أما الأول فهو قولهم لكل شيء تم: بدر، وبدر، موضع يذكر ويؤنث، والأصل الآخر: قولهم بدرت إلى الشيء وبادرت، وإنما سمي الخطاء بادرة؛ لأنها تبدر من الإنسان عند حدة وغضب[(٣)].

المبادرة اصطلاحًا:

هي الإسراع إلى فعل الأشياء من تلقاء نفسه لتحقيق الهدف المنشود.

وقيل: هي (انطلاقة المؤمن ومسارعته إلى عمل صالح بحافز ذاتي من نفسه، بعد أن يتوافر في نفسه الميزان الأمين ليحدد العمل الصالح من سواه، وليطمئن إلى أنه لا يتجاوز حدوده، ولا يعتدي على غيره، ولا يدخل في فتنة تغضب الله تعالى)[(٤)].

الصلة بين المسارعة والمبادرة:

المسارعة: اندفاع من الشخص اتجاه الشيء وقد يكون ذلك بدافع ذاتي أو عن منافسة، أما المبادرة: فقيام الشخص بفعل الشيء ولا يكون إلا بدافع ذاتي.

---

(١) المصدر السابق ص ٧بتصرف.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٢٩٢.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٠٨، شمس العلوم، نشوان الحميرى ١/ ٤٥٣، تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٣٧.
(٤) انظر: الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام، عدنان النحوي، ص١٥.

٣ المنافسة:

المنافسة لغة:

مأخوذة من الفعل «نافس» يقال: نافس في الشيء منافسةً إذا رغب فيه على وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه أي رغبوا[١] أو مشتقة من النفاسة، يقال: شيءٌ نفيسٌ، أي ذو نفاسةٍ وخطر يتنافس به، والتنافس: أن يبرز كل واحدٍ من المتبارزين قوة نفسه[٢].

المنافسة اصطلاحًا:

هي قمة الاندفاع والمباراة بقوة بين الأشخاص للوصول إلى أعلى المراتب.

وقيل: مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل، واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على أحد[٣].

الصلة بين المسارعة والمنافسة:

المسارعة: الغالب فيها أنها تكون ظاهرة من قبل الشخص للإسراع إلى فعل الشيء، المنافسة: تكون ظاهرة وخفية من قبل الشخص للوصول إلى الشيء.

٤ العجلة:

العجلة لغةً:

العين والجيم واللام أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الإسراع، والآخر على بعض الحيوان، والجمع عجل وعجلات، والعجل والعجلة: خلاف البطء[٤].

العجلة اصطلاحًا:

«هي طلب الشيء وتحريه قبل أوانه»[٥].

وقال المناوي: «العجلة: فعل الشيء قبل وقته اللائق به»[٦].

الصلة بين المسارعة والعجلة:

المسارعة: «التقدم في ما ينبغي أن يتقدم فيه وهي محمودة ونقيضها مذموم وهو الإبطاء، والعجلة: التقدم في ما لا ينبغي أن يتقدم فيه وهي مذمومة ونقيضها محمود وهو الأناة»[٧].

(١) مختار الصحاح، الرازي ص٣١٦.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٦١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفاني ص٨١٨.
(٤) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٦٤٩.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٤٨.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٣٧.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٢٠٤.

أنواع المسارعة

عند تأمل الآيات القرآنية التي تحدثت عن المسارعة لفظًا ومعنًا، نجدها ذكرت نوعين رئيسين:

أولًا: المسارعة الممدوحة:

جماع المسارعة الممدوحة يتمثل في المسارعة إلى كل ما يحبه الله سبحانه وتعالى ويرضاه من الإيمان والتقوى، والأعمال الصالحة

« مع العلم أن المؤمنين في المسارعة على أقسام:

- العابدون يسارعون بقدمهم في الطاعات.
- والعارفون يسارعون بهممهم في القربات.
- والعاصون يسارعون بندمهم بتجرع الحسرات.
- فمن سارع بقدمه وجد مثوبته، ومن سارع بهممه وجد قربته، ومن سارع بندمه وجد رحمته»[1].

وقد ذكر القرآن الكريم صورًا من المسارعة الممدوحة، ومن ذلك:

- المسارعة في الخيرات بعمومها.
- المسارعة إلى الاستغفار والتوبة.
- المسارعة للاستجابة والطاعة لأمر الله عز وجل.
- المسارعة إلى أداء العبادات؛ كالصلاة والزكاة وغيرها.
- ويتم الحديث عن كل صورة من هذه الصور، وذلك على النحو التالي:

١. أمرنا الله سبحانه وتعالى للمسارعة إلى فعل الصالحات، والمسابقة في عمل الخيرات.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة:١٤٨].

وكذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على المبادرة والمسارعة في عمل الخير، قبل أن تتغير النفوس وتتقلب القلوب، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًا، أو يمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع أحدهم دينه بعرضٍ من الدنيا)[2].

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في المسارعةوالمبادرة وعدم التسويف، فعن عقبة قال: (صليت وراء النَّبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، العصر، فسلم، ثم قام مسرعًا، فتخطى رقاب الناس

(١) تفسير القشيري ١/ ٢٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، ١/ ١١٠، رقم ١١٨.

إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال: ذكرت شيئًا من تبرٍ عندنا، فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته)[1].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة)[2].

وكذلك من سبقه من الأنبياء والرسل الصالحين الذين تحدث القرآن الكريم عن مسارعتهم إلى الخيرات، ومسارعتهم إلى تنفيذ الأمر الإلهي، وذلك ما قاله الله عز وجل في حق إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات:١٠٢].

وعندما عجل موسى عليه السلام من أجل لقاء ربه سبحانه وتعالى طمعا في رضاه لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه:٨٣-٨٤].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

وقال فخر الدين الرازي في معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أراد بها زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعضٍ من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به؛ لأنه يدل على حرصٍ عظيمٍ على الطاعة.

وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ والمعنى: أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة في عقابه، والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفا من الإثم[3].

وقيل: أي: « يبادرون في الطاعات،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من صلى بالناس، فذكر حاجة فتخطاهم، ١/ ١٧٠، رقم ٨٥١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١٣، رقم ٣٢٢٠.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٢٢/ ١٨٣.

يعني: زكريا وامرأته ويحيى - عليهما السلام -ويقال: الأنبياء الذين سبق ذكرهم، وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، يعني: رغبة فيما عند الله من الثواب وهو الجنة، ورهبًا أي فزعا من عذاب الله تعالى، وكانوا لنا خاشعين، يعني: مطيعين، ويقال: متواضعين»[1].

ووصف الله عز وجل المؤمنين الصالحين المتقين بأنهم هم الذين يسارعون في الخيرات ويتسابقون إلى فعلها دون تردد، ويستجيبون لأمره، ووصفه لهم في كتابه العزيز بمنزلة مدح وثناء عليهم، لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦١].

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٣].

والمعنى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: سارعوا إلى التوبة من الربا، وقيل: وسارعوا بالأعمال الصالحة التي هي مغفرة لذنوبكم وإلى الجنة، وقيل: يعني سارعوا إلى النجاء الأكبر إلى الصف المقدم في الصلاة، وإلى الصف المقدم في القتال، وقيل: وسارعوا حتى لا تفوتكم تكبيرة الافتتاح[2].

بينما ذكر فخر الدين الرازي في كتابه أن الآية فيها مسائل:

المسألة الأولى: أطيعوا الله والرسول وسارعوا.

المسألة الثانية: وسارعوا إلى ما يوجب مغفرةً من ربكم، وللمفسرين فيه أقوال:

الأول: عن ابن عباسٍ قال: هو الإسلام

الثاني: عن علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه أنه قال: هو أداء الفرائض.

الثالث: عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه الإخلاص.

الرابع: عن أبي العالية قال: هو الهجرة.

الخامس: عن الضحاك ومحمد بن إسحاق: أنه الجهاد.

السادس: عن سعيد بن جبيرٍ: إنها التكبيرة الأولى.

السابع: قال عثمان رضي الله عنه: إنها الصلوات الخمس.

الثامن: قال عكرمة: إنها جميع الطاعات.

التاسع: قال الأصم: سارعوا، أي بادروا إلى التوبة من الربا والذنوب، والوجه فيه أنه تعالى نهى أولًا عن الربا، ثم قال: وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم فهذا يدل على أن المراد

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٤٦.

منه المسارعة في ترك ما تقدم النهي عنه، والأولى ما تقدم من وجوب حمله على أداء الواجبات والتوبة عن جميع المحظورات، لأن اللفظ عامٌ فلا وجه في تخصيصه[1].

فكان مدلول هذه الآيات الكريمة محركًا للمسارعة عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فعن أنس بن مالك في قصة غزوة بدر: لما دنا المشركون قال، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) فقال: عمير بن الحمام الأنصاري يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: (نعم) قال: بخ بخ (كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يحملك على قولك بخ بخ)؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءَ أن أكون من أهلها قال: (فإنك من أهلها)، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى أكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[2].

فالمداومة على الأعمال الصالحة كلها تقوي الإيمان بالله سبحانه وتعالى فلا بد من الإكثار منها[3].

المسارعة إلى الاستغفار والتوبة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

فعلى الإنسان أن يسارع إلى ما فيه مغفرة الذنوب؛ من الاستغفار، كقوله: أستغفر الله، أو اللهم اغفر لي، أو اللهم إني أستغفرك، وما أشبه ذلك، وكذلك أيضًا: الإسراع إلى ما فيه المغفرة، مثل الوضوء، والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان.

فكان الصحابة الأجلاء ممن يسارعون إلى طلب المغفرة والإكثار منها، وتجنب الذنوب خوفًا من فقدان رحمة الله ورضوانه، فلا بد أن نكون مثلهم في ذلك؛ لكثرة المغريات والملهيات من حولنا، فالحذر ثم الحذر.

المسارعة للاستجابة والطاعة لأمر الله عز وجل.

فغاية العبد نيل رضى الله عز وجل ومحبته، ولن تتحقق المحبة إلا بطاعة الله والاستجابة لأوامره.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٦٤، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٥٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ٣/ ١٥٠٩، رقم ١٩٠١.

(٣) انظر: ظاهرة ضعف الإيمان، محمد المنجد ١/ ٤٦.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

والمعنى: ﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ «أي تقصدون طاعته وترضون بشرائعه والمحبة على ضروب، فالمحبة من جهة الملاذ في المطعم والمشرب والنساء، والمحبة من الله لخلقه عفوه عنهم وإنعامه عليهم برحمته ومغفرته وحسن الثناء عليهم، ومحبة الإنسان لله ولرسوله طاعته لهما ورضاه بما أمر الله به، وأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم»[(١)].

فمثلًا عندما دعاهم الله سبحانه وتعالى إلى الانفاق في سبيله، سارعوا إلى الإنفاق في سبيله.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤].

والله سبحانه وتعالى لم يبين في هذه الآية المقدار من الانفاق، ولكن في آيات أخرى بين ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩].

والمعنى: «لقد سألوا مرة: ماذا ينفقون؟ فكان الجواب في آية سابقة عن النوع والجهة، فأما هنا فجاء الجواب عن المقدار والدرجة، والعفو: الفضل والزيادة، فكل ما زاد على النفقة الشخصية في غير ترف ولا مخيلة فهو محل للإنفاق»[(٢)].

وعندما دعاهم إلى الجهاد، سارعوا للجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

وقد ضرب لنا الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أروع الأمثلة في المسارعة الى الجهاد في سبيله، متمثلًا في موقف الرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد: (أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال:(في الجنة)، فألقى تمرات كن في يده، ثم قاتل حتى قتل)[(٣)].

هؤلاء هم الصحابة الأجلاء لا يلهيهم متاع الدنيا وشهواتها، بل يسعون إلى ما هو أفضل وأحسن ألا وهي الجنان[(٤)].

المسارعة إلى أداء العبادات من صلاة

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٩٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٣١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ٥/ ٩٥، رقم ٤٠٤٦.

(٤) انظر: موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق، ياسر عبد الرحمن ١/ ١٦١.

وزكاة وغيرها الكثير.

مما يدلل أن ديننا له سبله المتنوعة وطرقه المتشعبة والمتعددة أمام عباد الله، لنيل ما يتمنونه من الثواب الجزيل، مثلًا من وجد شخصًا يريد أن يحمل على دابته شيئًا، فساعده على حمله، أو أمسك دابته فهو صدقة، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم الكلمة الطيبة صدقة، والكلمة الطيبة تشمل كل قول يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى به، فالأمر بالمعروف صدقة، والنهي عن المنكر صدقة، وبكل تسبيحة أو تكبيرة أو تهليلة صدقة، وتعليم العلم النافع صدقة، وابتداء السلام ورده صدقة، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم بكل خطوة يخطوها العبد إلى الصلاة صدقة، وكلما بعدت طريق الصلاة كانت الصدقات أكثر، وهذا من أكبر فضائل صلاة الجماعة في المساجد، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم إزالة الأذى عن الطريق صدقة، فمن عزل حجرًا أو شوكةً أو عظمًا عن طريق الناس، فذلك صدقة يثاب عليها ويؤجر.

فمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة)[1]، وفي رواية: (لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة أي: يروح فيها ويجيء كما شاء، من شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس)[2].

وفي رواية: (بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره، فشكر الله له، فغفر له)[3].

ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله والإحسان إلى عباد الله، فسوف يلقى الذكر الطيب في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة إن شاء الله، لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤][4].

إذًا طرق الخير والنفع كثيرةٌ متاحةٌ للجميع،ولكن أين السالكون؟ وأين السائرون؟

وأبواب البر متعددةٌ، ولكن أين المتسارعون إليها؟ وأين الطارقون لها؟

ويستفاد من ذلك: أن يكون الإنسان

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، ٤/ ٢٠٢١، رقم ١٩١٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، ٤/ ٢٠٢١، رقم ١٩١٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق ٤/ ٢٠٢١، رقم ١٩١٤.

(٤) انظر: الضياء اللامع من الخطب الجوامع، ابن عثيمين ١/ ١٠٣.

حريصًا كل الحرص على فعل الخيرات، والمسارعة إليها؛ فالعمر قصير، والأجل قريب، ونحن لا ندري متى يأتي الموت، إذًا فالمسارعة إلى الخيرات، والمبادرة إلى الطاعات، والمسابقة إلي الصالحات، المؤديات إلى الفلاح والنجاة ثم إلى الجنات.

ثانيًا: المسارعة المذمومة:

هذا النوع من المسارعة الذي ذم الله عز وجل فعله، والاتصاف به بل أنه حذر من اتباعه؛ وذلك لما يترتب عليه من عواقب وخيمة ومهلكة للإنسان في الدنيا والآخرة، وقد ذكر القرآن الكريم ثلاث صور للمسارعة المذمومة، فالباقي تدور حولها، وتتفرع عنها، وهي على النحو التالي:

١. المسارعة في الكفر.

الكفر بالله من أكبر الكبائر التي حذرنا الله سبحانه وتعالى منها، وكذلك نبيه صلى الله عليه وسلم لأن الإنسان بذلك يكون قد ظلم نفسه، بإيقاعها في سخط الله وغضبه، وزجها في نار جهنم -والعياذ بالله- وكيف الحال مع المسارعين إليها ؟ يتم توضيح ذلك على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦].

لا بد من العلم أن الله سبحانه وتعالى لما بين بعض التكاليف والشرائع، وكان قد علم أن بعض الناس ستسارع إلى الكفر، لا جرم أنه صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على تحمل ذلك، وأمره بأن لا يحزن لأجل ذلك أي: لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفران في موالاة الكفار، فإنهم لن يعجزوا الله شيئًا [(١)].

وذكر جمال الدين الجوزي أن معنى: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ فيها أربعة أقوال:

أحدها: أنهم المنافقون، ورؤساء اليهود.

والثاني: المنافقون.

والثالث: كفار قريش.

والرابع: قوم ارتدوا عن الإسلام.

وقيل: معنى مسارعتهم في الكفر: مظاهرتهم للكفار، ونصرهم إياهم، فإن قيل: كيف لا يحزنه المسارعة في الكفر؟

فالجواب: لا يحزنك فعلهم، فإنك منصور عليهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ فيها قولان:

أحدهما: لن ينقصوا الله شيئًا بكفرهم.

والثاني: لن يضروا أولياء الله شيئًا [(٢)].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٣٣٤.

(٢) انظر: زاد المسير ١/ ٣٥٠.

وقيل: المراد بالموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ المنافقون من المتخلفين، وطائفةٌ من اليهود حسبما عين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة:٤١].

وقيل: قوم ارتدوا عن الإسلام والتعبير عنهم بذلك للإشارة بما في حيز الصلة إلى مظنة وجود المنهي عنه واعترائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي: لا يحزنوك بمسارعتهم في الكفر ومبادرتهم إلى تمشية أحكامه ومظاهرتهم لأهله وتوجيه النهي إلى جهتهم مع أن المقصود نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر منهم للمبالغة في ذلك لما أن النهي عن التأثير نهيٌ عن التأثر بأصله ونفيٌ له بالمرة[(١)].

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هذه الآية حجة عليهم، لأن إرادة الله عز وجل في حرمان حظهم من الآخرة حائلة بينهم وبين المسارعة إلى الإيمان الذي ينمي لهم حظ الآخرة، وكيف يقدرون أن يكتسبوا بالطاعة حظ الآخرة، والله يريد ألا يجعله لهم، وهذا من العدل الذي لا يحيطون بمعرفته فيتصور عندهم بصورة الجور[(٢)].

والمعنى: «أن الله عز وجل بين ما يعود عليهم من الوبال، نتيجة مسارعتهم في الكفر، وذلك ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: نصيبًا من الثواب، ولهم بدل الثواب عذابٌ عظيمٌ، وذلك أبلغ ما ضر به الإنسان نفسه»[(٣)].

وأين الفائدة في ذكر الإرادة ؟ قلت: فائدته الإشعار بأن الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصًا لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر تنبيهًا على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية حتى إن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم[(٤)].

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: «لا يقادر قدره قيل ما دلت المسارعة في الشيء على عظم شأنه وجلالة قدره عند المسارع وصف عذابه بالعظم رعايةً للمناسبة وتنبيهًا على حقارة ما سارعوا فيه وخساسته في نفسه، والجملة إما مبتدأةٌ مبينةٌ لحظهم من العقاب إثر بيان أن لا شيء لهم من الثواب، وإما حالٌ من الضمير في لهم أي يريد الله سبحانه وتعالى حرمانهم من الثواب معدًا

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١١٦.

(٢) انظر: النكت الدالة على البيان، الكرجي ١/ ٢٣٥.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٤٣.

(٤) انظر: نواهد الأبكار وشوارد الأفكار، السيوطي ٣/ ٩٩.

لهم عذابٌ عظيم»[1].

إذًا لا يظنون بأنه سينجون من عقابه سبحانه وتعالى وأن ما يمليه لهم الله عز وجل خيرا لهم، بل وبالًا عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨].

وبعد أن بين الله عز وجل حكم أولئك الذين يسارعون إلى نصرة الكفر والدفاع دونه ومقاومة المؤمنين لأجله، وأرشد إلى أنه لا يهتم بشأنهم، فهم إنما يحاربون الله والله غالب على أمره، أشار هنا إلى أن هذا حكم عام يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان واستبدله به، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران:١٧٧][2].

والمعنى: قال كثير من المفسرين: إن هذه الآية في معنى الآية الأولى من سورة آل عمران السابقة الذكر، وقد أعيدت تأكيدًا، والصحيح أن الأول ذمٌ للذين تحروا الكفر وتزايدوا فيه متسارعين، وهذه الآية ذمٌ لمن حصل له الإيمان فأفرج عنه ؟؟

واستبدل به كفرًا، وهم الذين وصفهم بالارتداد على أعقابهم، وذم لمن مكن من الإيمان فرغب عنه، وآثر الكفر عليه، فصار كالبائع إيمانه بكفر[3].

وهؤلاء لهم عذاب شديد من الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة نار جهنم والعياذ بالله، والله سبحانه وتعالى سريع في حسابهم، لا يصرفه شيءٌ عن إلحاق العقاب بهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩].

أي: أن الله سبحانه وتعالى هدد بأنه من كفر بآيات الله التكوينية في الأنفس والآفاق، والآيات الدالة على وجوده وتوحيده وصدق أنبيائه، وأنكر وجحد ما أنزل الله عز وجل في كتابه مما يوجب الاعتصام بالدين ووحدته، فإنه ظلم نفسه، والله عز وجل سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه، وهو سريع الحساب وشديد العقاب[4].

«وسرعة الحساب يحتمل أن يراد بها: سرعة مجيء القيامة، والحساب إذ هي متيقنة الوقوع، فكل آت قريب.

ويحتمل أن يراد بسرعة الحساب: أن الله تعالى بإحاطته بكل شيء علمًا لا يحتاج إلى عد ولا فكرة»[5].

ويستفاد من ذلك: الإيمان نجاة، والكفر ضياع، فأيهما تختار؟

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١١٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١٤٠.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٣/ ١٠٠٠.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣/ ١٨٠.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤١٣.

٢. المسارعة في الإثم والعدوان.

ومن الصفات المذمومة أيضًا الاتصاف بالإثم والعدوان ومعصية الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم والمسارعة إلى التحلي بها وفعلها والاكثار منها، فبئس ما اتصفوا به، وسارعوا إليه، ويتم بيان ذلك وتوضيحه على النحو التالي:

قال الله تعالى ناعيًا على اليهود: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة:٦٢-٦٣].

والمعنى: المسارعة في الشيء: الشروع فيه بسرعةٍ، قيل: الإثم الكذب، والعدوان الظلم، وقيل: الإثم ما يختص بهم، والعدوان ما يتعداهم إلى غيرهم، وأما أكل السحت فهو: أخذ الرشوة، وفي الآية فوائد:

الفائدة الأولى: أنه تعالى قال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾، والسبب: أن كلهم ما كان يفعل ذلك، بل كان بعضهم يستحيي فيترك.

الفائدة الثانية: أن لفظ المسارعة إنما يستعمل في أكثر الأمر في الخير، لقوله تعالى: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [آل عمران:١١٤].

وقوله أيضًا: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون:٥٦].

فكان اللائق بهذا الموضع لفظ العجلة، إلا أنه تعالى ذكر لفظ المسارعة لفائدةٍ، وهي أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات كأنها خيرات في نظرهم، ومحقون فيها، فجاء التعبير موافقًا لحالهم ومفهومهم، وذلك من أسرار البيان في القرآن الكريم.

الفائدة الثالثة: لفظ الإثم يتناول جميع المعاصي والمنهيات، فلما ذكر الله تعالى بعده العدوان وأكل السحت دل هذا على أن هذين النوعين أعظم أنواع المعصية والإثم[1].

«والربانيون علماء أهل الإنجيل، والأحبار علماء أهل التوراة، وقال غيره: كلهم في اليهود؛ لأنه متصل بذكرهم، والمعنى: أن الله استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي، وذلك يدل على أن ترك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه؛ لأنه تعالى ذم الفريقين في هذه الآية على لفظٍ واحدٍ، بل نقول: إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى؛ لأنه قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكلهم السحت.

قال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٢].

وقال في العلماء التاركين للنهي عن

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٩٢، الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود صافي ٦/ ٣٩٨.

المنكر: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ والصنع أقوى من العمل؛ فإنما العمل يسمى صناعةً، إذا صار مستقرًا راسخًا متمكنًا»[1].

ويذكر علي الشحود في كتابه: أن الله سبحانه وتعالى ينحي باللائمة على الربانيين والأحبار، الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت، الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله، وإنه لصوت النذير لكل أهل دين، فصلاح المجتمع أو فساده رهن بقيام الحفظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر يقتضي سلطة تأمر وتنهى، وكذلك ينبغي أن يحصل الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر على السلطان الذي يجعل لأمرهم ونهيهم قيمته في المجتمع فلا يكون مطلق كلام ! وكنموذج من قولهم الإثم في أبشع صوره يحكي القرآن الكريم قول اليهود اللئيم فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤].

وذلك من سوء تصور اليهود لله سبحانه وتعالى وهناك الكثير مما حكى القرآن الكريم عن سوء تصورهم ذاك، وكأن القوم يتسابقون تسابقًا في الإثم والعدوان، وأكل الحرام، وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع، ويتسابقون في ذلك قويهم وضعيفهم سواء، فكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام، ويستنكر الله عز وجل سكوت الربانيين القائمين على الشريعة، والأحبار القائمين على أمر العلم الديني، عن مسارعة القوم في ذلك، وهذا ما وصفهم الله عز وجل بهم في كتابه الكريم فيقول: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٩].

وفعلهم ذاك على العكس تمامًا من سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي المتماسك الذي يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

٣. المسارعة في النفاق.

هذه الصفة المذمومة من الصفات التي يتصف بها أصحاب القلوب المريضة والضعيفة، ببعدها عن دين الله وشريعته، وهؤلاء ذكرهم الله عز وجل وفضحهم، لسوء ما يقومون به، ويسارعون إلى فعله، من أجل أخذ الحيطة والحذر منهم، ويتم بيان ذلك على النحو التالي.

فالله سبحانه وتعالى ينهى عن موالاة اليهود والنصارى، ولكن المنافقين أبوا إلا أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء من دون الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٤٢٤.

(٢) انظر: العصبة المؤمنة بين عناية الرحمن ومكر الشيطان ١/ ١٦١.

وسلم والمؤمنين، ولم ينتهوا عن ذلك، لقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة:٥١].

«جاء عبادة بن الصامت فقال: يا رسول الله إن لي موالي من اليهود كثيرٌ عددهم حاضرٌ نصرهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية اليهود، وآوي إلى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبيٍ: إني رجلٌ أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية اليهود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه)، فقال: قد قبلت، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ يعني عبد الله بن أبيٍ ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ في ولايتهم ﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ أي مصيبة»[1].

وبين الله سبحانه وتعالى حرصهم على المسارعة والاجتهاد في ولاء اليهود والنصارى، في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة:٥٢].

والمعنى: « لما نهى الله عز وجل المؤمنين عن توليهم في الآيات السابقة لها، أخبر أن ممن يدعي الإيمان طائفةً تواليهم، فقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة »[2].

وقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ أي في مودة اليهود والنصارى وموالاتهم ومناصحتهم؛ لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار يخالطونهم ويغشونهم لأجل ذلك نزلت في ابن أبي المنافق وأصحابه، وجعل المسارعة في موالاتهم مسارعة فيهم للمبالغة في بيان رغبتهم في ذلك حتى كأنهم مستقرون فيهم داخلون في عدادهم.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ جملة مشتملة على تعليل المسارعة في الموالاة أي: أن هذه الخشية هي الحاملة لهم على المسارعة، والدائرة يعني: ما يدور من مكابرة الدهر ودوائره كالدولة التي تزول، أي يقول المنافقون إنما نخالط اليهود؛ لأننا نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه وهو الهزيمة في الحرب، والقحط، والجدب، والحوادث المخوفة.

وقيل: نخشى أن لا يتم أمر محمد صلى الله عليه وسلم فيدور علينا الأمر كما كان قبل محمد، يعني نخشى أن يظفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فتكون الدولة لهم

(١) أسباب نزول القرآن، الواحدي ص ١٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٥.

فيصيبنا منهم مكروه.

وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، فقال الله سبحانه وتعالى رادًا لظنهم السيء: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ وجاء في هذه الآية تهديد للمستنصرين بأعداء دينهم، المتألبين عليهم، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم..، وجاءت أيضًا ردًا عليهم ودفعًا لما وقع لهم من الخشية، وعسى في كلام الله سبحانه وعد صادق لا يتخلف، وظاهر الفتح في هذه الآية ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلو كلمته، ومنه ما وقع من قتل مقاتلة بني قريظة وسبى ذراريهم وإجلاء بني النضير.

وقيل: هو فتح بلاد المشركين على المسلمين.

وقيل: فتح مكة، أي فيبدو الاستغناء عن اليهود، ويرى المنافق أن الله لم يوجد سبيلًا إلى ما كان يؤمل فيهم من المعونة على أمر محمد صلى الله عليه وسلم والدفع في صدر نبوته فيندم حينئذ على ما حصل فيه من محادة الشرع، وتجلل ثوب المقت من الله تعالى ومن رسوله عليه السلام والمؤمنين كالذي وقع وظهر بعد.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ هو كل ما تندفع به صولة اليهود ومن معهم وتنكسر به شوكتهم، وقيل: هو إظهار أمر المنافقين وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم بما أسروا في أنفسهم، وأمره بقتلهم، وقيل: هو الجزية التي جعلها الله عليهم، وقيل: الخصب والسعة للمسلمين، وقال ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أي: المنافقون، وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من النفاق الحامل لهم على الموالاة ﴿نَادِمِينَ﴾ على ذلك لبطلان الأسباب التي تخيلوها وانكشاف خلافها [1].

(١) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ٣/ ٤٥٠.

مقام المسارعين في الخيرات وصفاتهم

بين الله عز وجل في كتابه العزيز مقام هؤلاء المسارعين في الخيرات، والمكثرين لفعلها، بما هم فيه من نعيم وثواب جزيل، وكذلك ذكر الصفات النبيلة والحميدة التي اتصفوا بها؛ ليعتبر أولوا الألباب لفعل الخيرات قبل ضياع الأوقات، وذهاب الحسنات، ويتم بيان ذلك على النحو الآتي:

أولًا: مقام المسارعين في الخيرات:

هم في مقامٍ عالٍ عند مليكٍ مقتدر، يستحقونه وينالونه جزاء أعمالهم الخيرة، فهم في جنات النعيم، لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾ [المطففين:١٨ -٢١].

والمعنى: أنه أريد بالأبرار: هم الذين آمنوا؛ فلذلك قيل: بأن الأبرار هم المؤمنون.

والبر هو الذي يكثر منه تعاطي فعل البر، فسمي: بارا؛ إذا كثر منه البر، وقوله: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ ذكر شهود المقربين في ذكر كتاب الأبرار، فجائز أن يكون شهودهم على التعظيم لعملهم، والدعاء لهم، وغير ذلك، وقيل: المقربون: هم مقربو أهل كل سماء[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ [الواقعة:١٠-١٢].

والمعنى: «السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ من صفتهم، وقيل: إذا خرج رجلٌ من السابقين المقربين من منزله في الجنة كان له ضوءٌ يعرفه به من دونه»[2].

فالله سبحانه وتعالى أكرمهم بالإقامة بالجنة يتنعمون بنعيمها الدائم دون مشقة ولا تعب، فلا يجدون فيها إلا كل خير، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر:٣٥].

والمعنى: «دار المقامة هي الجنة، والمقامة هي الإقامة، والموضع؛ وإنما سميت الجنة دار المقامة، لأنهم يقيمون فيها ولا يخرجون منها، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ﴾ والنصب: تعب البدن، وقوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ واللغوب: تعب النفس، اللازم عن تعب البدن»[3].

وقال النسفي في معنى قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ أي الإقامة لا نبرح ولا نفارقها، يقال: أقمت إقامة ومقامًا ومقامة، وقوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ من عطائه وأفضاله لا

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٤٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٠٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٧٦.

باستحقاقنا، وقوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب ومشقة، وقوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب [1].

اللهم اجعلنا من أهل هذه المقامات العالية، في جنات غير فانية، برحمتك يا أرحم الراحمين.

ثانيًا: صفات المسارعين في الخيرات:

ذكر الله سبحانه وتعالى صفات المسارعين في الخيرات في كتابه العزيز في صورةٍ واضحةٍ وبارزةٍ، لكل قارئ وسامع ومعتبر، لأخذ العبرة والعظة، والاتصاف بهذه الصفات، لنيل رضى الله سبحانه وتعالى ورحمته، ويكون من الصالحين المتقين، وبيان ذلك على النحو التالي:

من الصفات التي اتصف بها المسارعون في الخيرات هي:

١. اتصفوا بالصلاح والتقوى وفعل الخيرات.

لقوله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤].

الله سبحانه وتعالى مدح الأمة المذكورة في هذه الآية بصفات ثمان وصفهم بها ما كانت في اليهود ولا في غيرهم وهي:

الصفة الأولى: أنها قائمة، قيل: أي في الصلاة، وقيل: ثابتة على التمسك بدين الحق ملازمة له غير مضطربة.

وقيل: أي مستقيمة عادلة، والآية دلت على أن المسلم قائم بحق العبودية، وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨].

دل على أن المولى قام بحق الربوبية، وهذه حقيقة قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

الصفة الثانية: ﴿يَتْلُونَ﴾ أي: أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل، فالتلاوة القراءة، وأصل الكلمة الاتباع، فكأن التلاوة هي اتباع اللفظ، وآيات الله القرآن.

الصفة الثالثة: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يحتمل أن يكون حالا من يتلون، كأنهم يقرأون في القرآن السجدة تخشعًا، أو أن يكون كلامًا مستقلًا أي: يقومون تارة ويسجدون أخرى، ويبتغون الفضل والرحمة بكل ما يمكن، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:٦٤].

وعلى هذين الاحتمالين لا منع من كونه حالا.

الصفة الرابعة: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فالصفات المتقدمة إشارة إلى كمال حالهم في القوة العملية، وهذه

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٩٠.

إشارة إلى كمالهم بحسب القوة النظرية، فإن حاصل المعارف معرفة المبدأ والمعاد.

الصفة الخامسة والسادسة: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهاتان الصفتان إشارة إلى أنهم فوق التمام؛ وذلك لسعيهم في تكميل الناقصين بإرشادهم إلى ما ينبغي ومنعهم عما لا ينبغي.

الصفة السابعة: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: المذكورات كلها وهي من صفات المدح؛ لأن المسارعة في الخير دليل فرط الرغبة فيه حتى لا يفوت ففي التأخير آفات.

الصفة الثامنة: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه إشارةٌ إلى من جمع هذه الصفات كلها، أي: وأولئك الموصوفون بتلك الأوصاف من الذين صلحت أحوالهم عند الله، ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين، والأمور بخواتيمها والعاقبة غير معلومة إلا في علم الله تعالى فإذا أخبر عنهم بانخراطهم في سلك الصالحين فذلك المقصود وقصارى المجهود [1].

٢. قلوبهم مليئة بالخشية والخوف من الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

ومعنى قوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، يعني: رغبة فيما عند الله من الثواب وهو الجنة، ورهبًا أي فزعًا من عذاب الله تعالى، وكانوا لنا خاشعين، يعني: مطيعين، ويقال: متواضعين» [2].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٥٩].

والمعنى: لما ذم الله سبحانه وتعالى المشركين وتوعدهم عقب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذابه حذرون، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بآيات الله القرآنية، وآياته الكونية وهي البراهين الدالة على وجوده سبحانه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه، وقيل: ليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة، بل المراد منه نفي الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله عز وجل وطلبًا

(١) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري ١/ ٢٤١.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٠.

لرضوانه [1].

٣. عدم الثقة في قبول العمل والخوف من أن يرد.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١].

والمعنى: من الآيات الكريمة في سورة المؤمنون والتي أشرنا إليها سابقًا، يبدو فيها أثر الإيمان في القلب، من الحساسية والإرهاف والتحرج، والتطلع إلى الكمال، وحساب العواقب، مهما ينهض بالواجبات والتكاليف.

فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى وهم يؤمنون بآياته، ولا يشركون به، وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم، وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا، ومع ذلك كله، ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لإحساسهم بالتقصير في جانب الله، بعد أن بذلوا ما في طوقهم، وهو في نظرهم قليل.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال:(لا يا بنت الصديق ! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل) [2].

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه، ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة.. ومن ثم يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه، كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله.. ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرا، وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة، بهذه اليقظة، وبهذا التطلع، وبهذا العمل، وبهذه الطاعة [3].

ويقول ابن عباس: هذه الآيات بما ذكرته من الصفات التي يتصفون بها من فعل الخيرات، بأن يعطوا ما أعطوا من الصدقة، وينفقوا ما أنفقوا من المال في سبيل الله، ويقال: يعملون ما عملوا من الخيرات، ومع ذلك قلوبهم خائفة أنهم إلى ربهم راجعون في الآخرة فلا يقبل منهم [4].

---

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٢٨٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٢/ ١٥٦، رقم ٢٥٢٦٣، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون، ٥/ ٣٢٧، رقم ٣١٧٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٠٤، رقم ١٦٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٧٣.

(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص٢٨٨.

٤. الإنفاق في سبيل الله والعفو عن الناس.

وهذه صفتان اتصف به هؤلاء، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤].

والمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ﴾ أي: في حال الرخاء واليسر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في حال الضيقة والعسر، وإنما افتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس، فمخالفتها فيه منقبة شامخة، وقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي: الممسكين عليه في نفوسهم، الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه، اتقاء التعدي فيه إلى ما وراء حقه، وقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ظلمهم لهم، ولو كانوا قد قتلوا منهم، فلا يؤاخذون أحدا بما يجني عليهم، ولا يبقى في أنفسهم موجدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عبر عنهم بالمحسنين إيذانًا بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها [(١)].

٥. إذا عصوا سرعان ما يتوبون.

كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، ولا معصوم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ولكن المسارع إلى الخيرات إذا عصى الله سبحانه وتعالى تذكر فخاف، وأقلع وأناب إلى رب الأرباب.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

٦. اغتنام الكنوز الربانية.

يغتنم المسارعون في الخيرات كل ما يجلب لهم الأجر والثواب، وكثرة الحسنات، كالتكبير والحمد والتسبيح والتهليل وكثير من أوجه الخير، فمثلًا الاسراع إلى حمد الله سبحانه وتعالى وشكره على نعمه ورحمته بهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤].

والمعنى: «أنهم لما أعطوا ما أعطوه زال عنهم ما كانوا فيه قبل من هول الموقف ومن خشية العقاب بالنسبة للسابقين والمقتصدين ومما كانوا فيه من عقاب بالنسبة لظالمي أنفسهم، وجملة ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ استئناف ثناءٍ على الله شكروا به نعمة

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤١٣.

السلامة، أثنوا عليه بالمغفرة لما تجاوز عما اقترفوه من اللمم وحديث الأنفس ونحو ذلك مما تجاوز الله عنه بالنسبة للمقتصدين والسابقين، ولما تجاوز عنه من تطويل العذاب وقبول الشفاعة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين أنفسهم، وأثنوا على الله بأنه شكورٌ لما رأوا من إفاضته الخيرات عليهم ومضاعفة الحسنات مما هو أكثر من صالحات أعمالهم»[(١)].

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة)[(٢)].

٧. فعل الواجبات والمستحبات وبعض المباحات وترك المحرمات والمكروهات.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢].

قال ابن كثير في الآية: الله سبحانه وتعالى جعل القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، والذين اصطفيناهم من عبادنا، وهم هذه الأمة، مقسمين إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات، فالسابق بالخيرات: يدخل الجنة بغير حساب، والـمقتصد: يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه: يدخل الجنة بشفاعة محمد صلى الله عليه والسلام[(٣)].

وذكر سيد قطب في كتابه: « إن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة، ثم أكرمها بفضله في الجزاء حتى لمن أساء: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فالفريق الأول: ولعله ذكر أولًا لأنه الأكثر عددا ﴿ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ تربى سيئاته في العمل على حسناته.

والفريق الثاني: وسط ﴿مُقْتَصِدٌ﴾ تتعادل سيئاته وحسناته.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣١٦.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٣٨٨، رقم ٣٤٦٥.
قال الترمذي حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٩٧، رقم ٦٤٢٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٥٤٦.

والفريق الثالث: ﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تربى حسناته على سيئاته، ولكن فضل الله سبحانه وتعالى شمل الثلاثة جميعًا فكلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم الموصوف في الآيات التالية على تفاوت في الدرجات»[1].

٨. علو الهمة.

همة هؤلاء عالية، يفعلون الخيرات دون كلل ولا ملل، لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي، خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خيرٌ احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[2].

٩. الاهتمام بالقلب.

المسارع إلى الخيرات يحرص علي تنقية القلب من الشوائب ويجعلها عامرة بذكر الله عز وجل وطالما الخوف موجود في قلوبهم، يدفعهم إلى عمل الاكثار من الصالحات، وأداء العبادات، لقوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠].

١٠. المراقبة.

المسارع إلى الخيرات يراقب الله في كل حركات هو سكناته، في السر والعلانية، لا يرضى أن يكون الله سبحانه وتعالى أهون الناظرين إليه، وقد وعد الله هؤلاء بجنات النعيم، لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧].

والمعنى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: «مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية والشهوة، قال مجاهد: هو الذي يهم بالمعصية فيذكر الله، فيدعها، ﴿جَنَّتَانِ﴾ قال مقاتل يعني: جنة عدن وجنة النعيم.

وقال الضحاك: هذا لمن راقب الله في السر والعلانية بعمله، فما عرض له من محرم تركه من خشية الله، وما عمل من خير أفضى به إلى الله، لا يحب أن يطلع عليه أحد فله جنتان»[3].

ويستفاد من ذلك: حرص المؤمنين على التحلي بهذه الصفات، وعليهم أن يربوا أنفسهم ليكونوا من المسارعين في

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، ٤/ ٢٠٥٢، رقم ٢٦٦٤.
(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٢٥.

الخيرات، فعليهم الإكثار من ذكر الله، ومصاحبة المسارعين في الطاعات، واغتنام الوقت، ومعرفة قدر الدنيا بالنسبة للآخرة، والمجاهدة، وغيرها.

ثواب المسارعين في الخيرات

المؤمن الفطن يعلم أن أنفاسه معدودةٌ، وساعات إقامته في الدنيا محدودةٌ، ويدرك أن الحياة فرصٌ، من اغتنم هذه الفرص وعمل الصالحات، فاز وسعد في الدنيا والآخرة، ومن ضيعها خاب وخسر، وقد حدث ابن عباسٍ رضي الله عنهما قائلًا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ وهو يعظه: (اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)[1].

والله سبحانه وتعالى يعطي كل واحد على قدر أعماله، ويكافئه ويجازيه الجزاء الحسن، كيف وإن كانوا من الحرصين كل الحرص على فعل الخيرات، بل والمسارعين إليها؟

فالأجر والثواب عظيم لهم في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠﴾ [المؤمنون:١٠].

وهذا وعد الله سبحانه وتعالى الصادق، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين، وعد الله

(١) أخرجه النسائي في الكبرى، ١٠/ ٤٠٠، رقم ١١٨٣٢، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٣٤١، رقم ٧٨٤٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤٤، رقم ١٠٧٧.

لا يخلف الله وعده وقرار الله لا يملك أحد رده، الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، فلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة، الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح، وما لا يعرفونه مما يذخره الله لعباده المؤمنين [(١)].

والله مطلع على كل شيء، فلن يضيع أجر العاملين، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٥].

والمعنى: لن يحرموا ثوابه ولن يمنعوه، وسمى إيصال الثواب شكرا في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨].

ثم ختم الكلام بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ مع أنه عالم بكل الأشياء بشارة لهم بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده بالكرامة إلا أهل التقوى، وتنبيهًا على أن الملتزم لوعدهم هو معبودهم الحق القادر الغني الحميد الخبير الذي لا غاية لكرمه ولا نهاية لعلمه، فما ظنك بمثيب هذا شأنه ؟ [(٢)].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٥٤.
(٢) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري ١/ ٢٤١.

يعني: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثواب أعمالهم، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يؤتونه مرتين، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا [(٣)].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم:٥١].

وسنتناول بيان ثواب المسارعين في الخيرات في كلٍ من الدنيا والآخرة.

أولًا: ثواب المسارعين في الخيرات في الدنيا:

لهم ثوابٌ جزيلٌ ينالونه من الخير والنصر والسعادة والهناء وراحة البال والتوفيق والمتاع الطيب في الأرض، والرحمة، والمغفرة، وهذا أقل ما يستحقونه من الله عز وجل جزاء أعمالهم.

فالمسارعة في الخير تتطلب أن يتدرج الإنسان في ازدياد المعرفة بفضله، واختياره والسرور بتعاطيه، وتقدمه على الأمور الدنيوية، وأن لا يتأخر عن أول وقت إمكان فعله للخيرات، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٣].

فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية

(٣) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٩٦.

ندبهم إلى المبادرة للخيرات والمسارعة إلى فعلها؛ لنيل القربات، والفوز بمغفرته ورضوانه، ويحققون ما وعدهم الله عز وجل به من السعادة والهناء.

وقوله تعالى أيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون:٦١].

والمعنى: السابق إلى رضوان الله تعالى، وقيل: سبقت لهم السعادة في الأزل، وقيل: سبقوا الأمم إلى الخيرات [(١)].

ومدح تعالى قومًا فقال عنهم في كتابه العزيز: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة:١٠].

أي: يسابقون بهممهم وأبدانهم، فلذلك كرره، ولمراعاة المسارعة وكون بعض المسارعين أعلى منزلة من بعض [(٢)].

وهذا المدح لكونهم استجابوا لأمر الله سبحانه وتعالى بفعل الخيرات والمسارعة والمسابقة في أدائها، فيستحقون من الله عز وجل الثواب العظيم والجزيل على ما قاموا به مغفرة لذنوبهم، وتطهيرًا لقلوبهم، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [آل عمران:١٣٦].

والمعنى: أولئك السعداء المستغفرون المتذكرون التائبون الآيبون الخائفون الراجون جزاؤهم مغفرةٌ ستر ومحو لآثامهم عطاء من ربهم وامتنانًا منه عليهم لإخلاصهم في الانابة والرجوع.

وقوله تعالى أيضًا: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣].

ونصرًا وغلبةً على أعداء الدين، وفتحًا قريبًا من الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [الصف:١٣].

ولهم الخيرات بكل ما تشمله كلمة خير، لقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨﴾ [التوبة:٨٨].

والمعنى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُ﴾ يعني: «الإشارات إلى الموصوفين بالأوصاف السابقة، أي أولئك الذين كانوا مع الرسول، ولزموه في جهاده، ولم يتخلفوا عنه، وأحبوا الله تعالى وبذلوا أموالهم وأنفسهم، ولم يريدوا شيئا إلا إرضاء الله، لهم الخيرات، والخيرات جمع خير، وعبر بالجمع للدلالة على كثرة ما يمنحهم الله من خير وتنوعه، فخير في الرزق، وخير في نيل المطالب، وخير في النصرة، وخير في العزة، وخير في منع تحكم الأعداء، وخير في رضا الله تعالى، وخير في صلاح الولد، وخير في

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٤٨، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٤٢٢.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٨٠٩.

الهداية... إلى آخره من الخيرات في الدنيا، والخير الأكبر في الآخرة»[1].

وفي تكرار الإشارة إلى الرسول والمؤمنين المجاهدين في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ تأكيد للتنويه بهم، وتقرير لدرجتهم العالية، ومنزلتهم الكريمة التي أنزلهم الله إياها.. كما أن في ذلك إشارة إلى أن مقامهم هذا الرفيع الذي هم فيه، لا تبلغه الإشارة التي يقصر عنها النظر، وأنه لكي يمكن أن يرتفع النظر إلى هذا المستوى، ينبغي أن يكون ذلك على مراحل يقطعها صعودًا في الوصول إليهم[2].

وإذا ما توجهوا إلى الله عز وجل بالدعاء، أجابهم الله عز وجل وأعطاهم ما يتمنون ويستحقونه ثوابًا من عنده، وعطاءً لا ينتهي، لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران:٨].

فهم في رحمة الله عز وجل خالدون، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران:١٠٧].

ومهتدون إلى الطريق المستقيم، ألا وهو طريق الاسلام الذي هو بمنزلة نجاةٍ وفوزٍ وفلاحٍ في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [النساء:١٧٥].

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: وحدوه في ربوبيته، ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ﴾ أي: تمسكوا بدينه أو بكتابه، وقوله: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ وهي الجنة، وفضلٍ: النظر لوجهه الكريم، وقيل: ﴿فِي رَحۡمَةٖ﴾ أي: ثواب قدره بإزاء إيمانه وعمله، رحمة منه، لا قضاء لحق واجب، وفضل إحسان زائد عليهما، وقيل: سيحفظ عليهم إيمانهم في المآل عند التوفي، كما أكرمهم به وبالعرفان في الحال، وقوله: ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى الوصول إليه، ﴿صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ وهو طريق السير الذي لا اعوجاج فيه، العلم والعمل، وقيل: هو الإسلام والطاعة في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة[3].

ثانيًا: ثواب المسارعين في الخيرات في الآخرة:

يجد هؤلاء في الآخرة من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد منهم، جزاءً لهم من الله سبحانه وتعالى على أعمالهم، والله لا يضيع أجر من أحسن

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤٠٥.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٨٦٣.
(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٥٩٩، روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣٣٣.

عملًا، وقد وعدهم الله عز وجل بذلك والله لا يخلف وعده، لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢].

بشرهم الله سبحانه وتعالى بالجنات رزقًا لهم، ومكافئةً على أعمالهم، وترغيبًا للآخرين، ليفوزوا بما فاز به هؤلاء، لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥].

والمعنى: لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقب بجزاء المؤمنين، ليجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، كما هي عادته سبحانه في كتابه العزيز، لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته، وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه، والتبشير: الإخبار بما يظهر أثره على البشرة، وهي الجلدة الظاهرة، من البشر والسرور، فبشرهم بالجنة، والجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح، والجنات: البساتين، وهو اسمٌ لدار الثواب كلها وهي مشتملةٌ على جناتٍ كثيرةٍ، وقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾ وصفٌ آخر للجنات، وقوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أنه شبيهه ونظيره، لا أنه هو، والمراد أنهم أتوا بما يرزقونه في الجنة متشابهًا فما يأتيهم في أول النهار يشابه الذي يأتيهم في آخره، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، فإذا أكلوا وجدوا له طعمًا غير طعم الأول، والمراد بتطهير الأزواج أنه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قذر الحيض والنفاس وسائر الأدناس التي لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا، والخلود: البقاء الدائم الذي لا ينقطع [(١)].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام:١٤١].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٦].

والمعنى: « لما أتم الله سبحانه وتعالى وصف السابقين وهم المتقون، واللاحقين وهم التائبون في الآيات السابقة، قال معلمًا بجزائهم الذي سارعوا إليه من المغفرة، والجنة مشيرًا إليهم بأداة البعد

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٥.

تعظيمًا لشأنهم على وجه معلم بأن أحدًا لا يقدر الله حق قدره، وقوله: ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لتقصيرهم أو لهفواتهم أو لذنوبهم، وعظمها بقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: المحسن إليهم بكل إحسان، وأتبع ذلك للإكرام فقال: ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي جنات، ثم بين عظمها بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حال كونكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وهي أجرهم على عملهم، لقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وذلك على تقدير أن الإشارة لجميع الموصوفين، وإن كانت للمستغفرين خاصة فالأمر واضح في نزول رتبتهم عمن قبلهم»[1].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد:٢١].

أي: سابقوا أيها الناس وسارعوا إلى الأعمال الصالحة التي توجب لكم دخول جنة سعتها كسعة السماوات والأرض خالدين فيها أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، وقيل: عرضها الذي هو خلاف الطول مثل عرض السماوات والأرضين إذا وصل كل سماء بسماء وكل أرض بأرض، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هذه الجنة التي تقدمت صفتها فضل من الله تفضل به على المؤمنين، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه، وهو ذو الفضل العظيم عليهم بما وفقهم له من الإيمان به والعمل الصالح وبسط لهم من الرزق، وعرفهم موضع الشكر[2].

وقال تعالى أيضًا: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة:٨٩].

والمعنى: هذا بعض الفلاح الذي ذكره الله سبحانه وتعالى وهو أنه أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، أي أن الله تعالى أعطاهم نعيمًا فيه ثلاث خواص كلها يزكي بعضها بعضا:

أولها: أنها جنات، وهي جمع جنة فيها الأشجار التي تظل من الحرور، وتتمتع النفس برؤيتها، وبهجتها، وفيها الثمار اليانعة، وفيها من كل فاكهة ما يشتهون، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ففيها متعة النفس والجسم والروح.

الثاني: أن الأنهار تجري من تحتها تدفع الحرور، وتسقى النفوس والأجسام، ويكون التمتع ببهجتها ومنظرها.

الثالث: أنها خالدة، ففي كل نعيم غير

(١) نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٧٥.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٣٢٨.

باق يكون الألم بفنائه وانتهائه، أما نعيم الجنة، فهو للبقاء.

ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى هذا النعيم المقيم، وقصر الفوز عليه، أي فلا فوز غيره، فما يحسبه في الدنيا من أسباب الفوز إنما هو باطل لا يجوز، والله تعالى أعلم بما يجزي به عباده المتقين [(١)].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى ما يجده هؤلاء في الجنة من النعيم الدائم في كثير من آياته وصفًا دقيقًا واضحًا مفصلًا، منها قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر:٣٣].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف:٣١].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين:٢٢-٢٨].

وقوله: ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾: جائز أن يكون هذا في الآخرة، يصفهم أنهم أبدًا في نعيم، وجائز أن يكونوا في نعيم في الدنيا والآخرة معًا؛ فيكونون في الدنيا في نعيم العقول دون نعيم الأبدان، ونعيم الآخرة نعيم البدن والعقل جميعًا، فتتنعم أنفسهم وعقولهم، ولا يحملون ما تأبى أنفسهم احتماله.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ فأرائك الجنة ليست شبيهة بالأرائك التي تتخذ في الدنيا؛ لأن أرائك الجنة مطهرة من الآفات التي هي آثار الفناء، والأريكة: هي السرير في الحجال.

وقوله: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: تعرف لو نظرت في وجوههم نضرة النعيم، فجائز أن تكون النضرة منصرفة إلى نفس الخلقة، وهو أنهم أنشئوا على خلقة لا تتغير، ولا تفنى، بل بهجة نضرة، أو تكون نضارتهم بما أنعموا من النعيم.

وقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ قال بعضهم: الرحيق: هو الخمر الذي لا غش فيه، وهو أن يكون مطهرًا من الآفات، وقيل: هو شيء أعده الله سبحانه وتعالى لأوليائه، لم يطلعهم على ما يتهيأ في الدنيا، فهو شراب تقر به أعينهم مما أخفي لهم إلى الوقت الذي يشربونه.

وقوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ جائز أن يكون أراد به الشراب الذي وصفه في قوله: ﴿رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾،

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤٠٦.

كأنه يقول: فليرغبوا في الشراب الذي هذا وصفه، الذي لا غول فيه ولا هم ينزفون، لا في الشراب الذي يذهب بالعقول، ويضعف الأبدان، ويتلف الأموال، أو فليتنافسوا في النعيم الذي وصف هاهنا، لا في النعيم الذي ينقطع ولا يدوم.

وقيل: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ ما بقي في الكأس من البقية يكون ذلك مسكا، والتنافس إنما يكون في المسارعة في الخيرات، وترك الاتباع للشهوات، والانتهاء عن المعاصي، وهو كقوله: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١﴾ [الصافات:٦١].

أي: فليكن عملهم بما يثمر لهم ما ذكر من النعيم، لا في الذي ينقطع، وتكون عقباه النار، وقوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ قيل: التسنيم: شيء أعده الله سبحانه وتعالى لأوليائه، لم يطلعهم عليه في الدنيا، وهو من قرة الأعين التي لا تعلمها الأنفس.

وقوله: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي: المقربون هم الذين يسارعون في الخيرات في الدنيا، فتركوا منى الأنفس، واتقوا المهالك والزلات، فهم المقربون، فنالوا فضل التقريب بما أجهدوا أنفسهم في الدنيا، للأمور التي فعلوها [1].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾ [الواقعة:٧-١١].

والمعنى: أصنافًا ثلاثةً كل صنفٍ يشاكل ما هو منه، كما يشاكل الزوج الزوجة، ثم بين من هم فقال: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، والتكرير في ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾. و ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ للتفخيم والتعجيب، والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب.

و﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ما هم، المعنى: أي شيء هم، هم الذين يعطون كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقدم وعلو المنزلة.

وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ قد سبق الاشارة إلى معناها بالتفصيل، ونكتفي هنا بذكر أنهم السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ من صفتهم، وقيل: إذا خرج رجلٌ من السابقين المقربين من منزله في الجنة كان له ضوءٌ يعرفه به من دونه [2].

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٤٦٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٠٠.

إذًا المؤمنون حقًا هم الذين يرثون الجنة بكل ما فيها من نعيم، كما ذكر آنفًا، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون:١٠-١١].

موضوعات ذات صلة:

الجنة، الخير، العبادة، المسابقة

المسجد

عناصر الموضوع

مفهوم المسجد	٤٤
المسجد في الاستعمال القرآني	٤٥
الألفاظ ذات الصلة	٤٦
حكمة إقامة المساجد	٤٨
مساجد ذكرت في القرآن	٥٠
أحكام المساجد	٦٠
عمارة المساجد وهدمها	٦٥

مفهوم المسجد

أولًا: المعنى اللغوي:

المسجد في اللغة: مأخوذ من الفعل (سجد) على وزن (فعل)، قال سيبويه: «وأما المسجد فإنه اسم للبيت، ولست تريد به موضع السجود وموضع جبهتك، لو أردت ذلك لقلت مسجدٌ»[1]، وقال ابن الأعرابي: «مسجد»، بفتح الجيم، محراب البيوت، ومصلى الجماعات: مسجد بكسر الجيم، والمساجد: جمعها. والمساجد أيضًا: الآراب التي يسجد عليها. والآراب السبعة: مساجد»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المسجد جمعه مساجد، وقد عرفت المساجد في الاصطلاح بتعريفات عدة هي:

- أن المساجد اسم للأبنية المتخذة في الإسلام للصلاة[3].
- أنها «البيوت المبنية للصلاة فيها لله فهي خالصةٌ له سبحانه ولعبادته[4].
- أنها «كل موضع يمكن أن يعبد الله فيه ويسجد له»[5].
- قال القرطبي: «أجمعت الأمة على أن البقعة إذا عينت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بربها وصارت عامة لجميع المسلمين، فلو بنى رجل في داره مسجدًا وحجزه على الناس، واختص به لنفسه لبقي على ملكه ولم يخرج إلى حد المسجدية، ولو أباحه للناس كلهم كان حكمه حكم سائر المساجد العامة، وخرج عن اختصاص الأملاك»[6].

ويمكن القول أن المساجد هي: بيوت الله تعالى المتخذة لعبادة المسلمين وبخاصة الصلاة والموقوفة لهذا الغرض.

(١) الكتاب، سيبويه ٤/ ٩٠.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٣٠١.
(٣) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٦٨.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٥٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٧٨.
(٦) المصدر السابق ٢/ ٧٨.

المسجد في الاستعمال القرآني

وردت كلمة (مسجد) في القرآن بصيغتين، بلغت(٢٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم مفرد	٢٢	﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤]
اسم جمع	٦	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة:١١٤]

وجاء المسجد في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

أحدهما: اسم لموضع السجود، وهو اسم للأبنية المتخذة في الإسلام للصلاة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

الثاني: أعضاء الإنسان التي يسجد عليها: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]. أي: أعضاء السجود هي لله، فلا تسجدوا بها لغيره.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٤٥.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٦٧-٥٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصوامع:

الصوامع لغة:

«الصوامع جمع صومعة، وزنها فوعلة، وهي بناء مرتفعٌ لأعلى، يقال: صمع الثريدة أي: رفع رأسها وحدده، ورجل أصمع القلب أي: حاد الفطنة. والأصمع من الرجال الحديد القول، أو الصغير الأذن من الناس وغيرهم. وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبعباد الصابئين- قاله قتادة- ثم استعمل في مئذنة المسلمين»[١].

وذكرت بعض المعاجم المعاصرة أن الصوامع تطلق على معان أشهرها أنها الأديرة أو بيوت العبادة عند النساك والرهبان النصارى الذين يتخذونها في الأماكن النائية[٢].

الصوامع اصطلاحًا:

الصوامع: قال ابن عباس: هي المعابد الصغار للرهبان، وكذا قاله مجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك[٣].

الصلة بين الصوامع والمساجد:

الصوامع والمساجد كلها أماكن التعبد لله عز وجل، لكن الصوامع كما قال ابن عباس: هي المعابد الصغار للرهبان، أما المساجد التي عند المسلمين فهي أماكن التعبد للمسلمين أجمعين.

٢ الصلوات:

الصلوات اصطلاحًا:

قيل: هذه اللفظة معربة؛ لذا لم نتطرق للمعنى اللغوي لها، واختلف في نسبتها فنسبها بعضهم لليهود، ونسبها بعضهم للنصارى، قال الزجاج والحسن: هي كنائس اليهود، وهي بالعبرانية صلوتا، وقال أبو عبيدة:«الصلوات بيوت تبنى للنصارى في البراري يصلون فيها في أسفارهم، تسمى صلوتا فعربت فقيل صلوات»[٤].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٧١.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٣٣٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٢.
(٤) معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٤٣٠، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٠٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٧١.

الصلة بين الصلوات والمساجد:

الصلوات والمساجد كلها أماكن التعبد لله عز وجل، إلا أن المساجد أماكن التعبد لهذه الأمة، والصلوات لما قبلها من اليهود أو النصارى على الخلاف في ذلك.

٣ البيع:

البيع اصطلاحًا:

هي أوسع من الصوامع، وهي للنصارى. قاله أبو العالية وقتادة والضحاك وغيرهم، وقيل: إنها كنائس اليهود[١].

الصلة بين البيع والمساجد:

البيع والمساجد كلها أماكن التعبد لله عز وجل، إلا أن المساجد أماكن التعبد لهذه الأمة، والبيع لما قبلها من اليهود أو النصارى على الخلاف في ذلك.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٢.

حكمة إقامة المساجد

شرع الله سبحانه وتعالى إقامة المساجد لحكم سامية ومعان جليلة عالية، ولهذا كان بناؤها من فروض الكفايات أحيانا ومن فروض الأعيان أحيانًا أخرى بحسب الأحوال، كما ذكره بعض العلماء المعاصرين «يجب بناء المساجد في الأمصار والقرى والمحال ونحوها بحسب الحاجة فهو فرض كفاية»[(١)].

ولهذا نجد حث القرآن الكريم على بناء المساجد ورفعها ليقصدها المسلمون بالعبادة والعمارة، فتكون سببا في نيلهم الثواب العظيم.

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

وذكر غير واحد من المفسرين أن المراد برفع المساجد في الآية هو بناؤها، فروي هذا عن مجاهد ومقاتل[(٢)].

وجاء في آيات القرآن الكريم ما يبين طرفا من حكم بناء المساجد وإقامتها، وأبرز هذه الحكم ما يلي:

١. إقامة المساجد لعبادة الله تعالى وحده وطاعته والتقرب إليه.

لما كانت المساجد هي بيوت الله تعالى المتخذة للعبادة بمختلف أنواعها من صلاة وذكر وتسبيح وقراءة قرآن وغيرها، فقد بين القرآن الكريم ضرورة مراعاة ذلك، وهي أن يفرد الله تعالى بالعبادة فلا يشرك به أحدٌ.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

والمراد بها إفراد الله تعالى بالعبادة، فلا ينبغي أن يدعى غيره جل وعلا، وليس المقصود عدم الإشراك في المسجد فقط، بل هذا خرج مخرج الغالب، وإلا فإشراك أحد في العبادة لا يجوز في المسجد ولا خارج المسجد.

وهذه الآية فيها دليل على وجوب مخالفة اليهود والنصارى فيما كانوا يفعلونه في معابدهم من دعوة غير الله تعالى، فقد روي عن قتادة في معنى الآية قوله: «كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه أن يخلص له الدعوة إذا دخل المسجد»[(٣)].

وقال الحسن: «ليس من قومٍ غير

(١) إصلاح المساجد من البدع والعوائد، القاسمي ص٢٦٣.

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٤٩٣، تفسير مقاتل ٣/ ٢٠١، جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٦٥.

المسلمين يقومون في مساجدهم إلا وهم يشركون بالله فيها، فأخلصوا لله»[1].

ومن معالم الطاعة والعبادة: تسبيح وتلاوة القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦].

فقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قال:«يتلى فيها كتابه»[2].

وروي عنه أيضا أن المراد بها توحيد الله في المساجد[3].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

قال بعض المعاصرين« فالمساجد أحب البقاع إلى الله، وهي قلعة الإيمان ومنطلق إعلان التوحيد لله سبحانه وتعالى، فهي المدرسة التي خرجت الجيل الأول، ولا زالت بحمد الله تخرج الأجيال، وهي ميدان العلم والشورى والتعارف والتآلف، إليها يرجع المسافر أول ما يصل إلى بلده شاكرا الله سلامة العودة مستفتحًا أعماله بعد العودة بالصلاة في المسجد إشعارا بأهميته وتقديمه على المنزل تذكيرا بنعمة الله سبحانه وتوثيقا للرابطة القوية للمسجد»[4].

ومن معالم الطاعة والعبادة إفراد الله تعالى وحده بالعبادة وحسن القصد إليه جل وعلا، إذ هو وحده المتفرد بذلك والمستحق لذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف:٢٩].

وفي تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قولان مشهوران للعلماء:

أولهما: ما قاله الربيع: أنها في الإخلاص، بمعنى: أن لا تدعوا غير الله تعالى، وأن تخلصوا له الدين[5].

والثاني: ما قاله مجاهد والسدي وعبد الرحمن بن زيد: أن المراد بها التوجه للكعبة[6].

ومن معالم الطاعة أن المسجد الحرام خاصة يرتبط بعبادة الحج، فقد وضعه الله عز وجل لهذه العبادة التي تجمع بين البدن والمال، فالمسجد الحرام يقصده الناس من

(١) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٥/ ٤٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٩١، تفسير ابن أبي حاتم، ٨/ ٢٦٠٦.
(٣) انظر: النكت والعيون،للماوردي ٤/ ١٠٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٩٨.
(٤) المشروع والممنوع في المسجد، فالح الصغير ص٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٨١.
(٦) انظر: تفسير مجاهد ١/ ٣٣٥، جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٨٠-٣٨١.

كل حدب وصوب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦].

٢. إقامة المساجد لنشر الترابط الاجتماعي بين المسلمين.

ولتكون مشعل هداية ومحل اجتماع المسلمين على هدف واحد، وكلمة واحدة، وشعيرة واحدة، فيتعلمون ويتدارسون، وتتربي في المسجد أجيال من المؤمنين أحسن تربية، وتنشأ أفضل نشأة، ولهذا حرص النبي عليه السلام على أن يكون المسجد أول بناء في الدولة الإسلامية.

مساجد ذكرت في القرآن

ورد في القرآن الكريم ذكر عدة مساجد على رأسها المسجدين المسجد الحرام والمسجد الأقصى تصريحًا، ثم مساجد المدينة المنورة (مسجد قباء، والمسجد النبوي، ومسجد الضرار) ولكن ليس على سبيل التصريح، وتعلقت بهذه المساجد أحكام شرعية وردت في القرآن الكريم، وبيان ذلك على النحو الآتي:

أولًا: المسجد الحرام:

ورد ذكر المسجد الحرام منصوصًا على اسمه في خمسة عشر موضعًا في القرآن الكريم، وورد باسم البيت مفردًا ومضافا في مواضع أخرى، ولكل موضع من هذه المواضع أحكامه على هذا النحو:

١. أول بيت وضع للناس.

البيت العتيق هو أول بيت وضع للناس في الأرض كما نصت عليه الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦].

وللمفسرين أقوال في معنى الأولية الواردة في الآية على هذا النحو:

القول الأول: أنه أول بيت وضع للناس، يعبد الله تعالى فيه، وليس هو أول بيت وضع في الأرض، لأنه قد كانت قبله بيوت كثيرة. وهذا ما روي عن علي والحسن وسعيد بن

المسيب وغيرهم[1].

القول الثاني: أنه أول بيت وضع مطلقًا بمعنى أول بناء، وهذا قول ابن عمرو ومجاهد وقتادة والسدي[2].

القول الثالث: أن موضع الكعبة هو موضع أول بيت وضعه الله تعالى في الأرض. وهو قول آخر لقتادة[3].

وفي الصحيحين عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: (قلت: يا رسول الله، أي مسجدٍ وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أيٌّ؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنةً، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه)[4].

٢. قبلة المسلمين.

وذلك في ثلاثة مواضع في سورة البقرة في قصة تغيير القبلة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقال جل شأنه: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ١٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

والآيات الكريمة واردة في قصة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في العام الثاني من الهجرة على نحو ما هو مشهور في السنة النبوية والسيرة.

وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: (بينما الناس في صلاة الصبح بقباءٍ، إذ جاءهم آتٍ فقال: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشأم، فاستداروا إلى القبلة)[5].

ولا خلاف بين فقهاء الأمة سلفًا وخلفًا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١٩-٢٠، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤١٠، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٠-٢١، تفسير عبد الرزاق ١/ ٤٠٣، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٠٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، رقم ٣٣٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم ٥٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام)، رقم ٤٤٩٤.

على أن هذه الآيات دليل على فرضية استقبال القبلة في الصلاة على تفصيل معروف مبسوط في كتب الفروع حول كيفية الاستقبال لمن كان داخل المسجد الحرام أو خارجه، أو كان داخل مكة أو خارجها[(١)].

قال ابن رشد: «اتفق المسلمون على أن التوجه نحو البيت شرط من شروط صحة الصلاة لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٥٠]»[(٢)].

«واختلف المفسرون في المقصود بشطر المسجد الحرام على قولين:

القول الأول: أن شطر المسجد الحرام أي تلقاءه. قاله مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وسعيد بن جبير وعكرمة.

القول الثاني: أن المراد بالشطر هنا وسط المسجد الحرام. وهو قول البراء[(٣)].

٣. تحريم القتال عنده.

نظرًا لمكانة البيت الحرام ومنزلته، فقد نهى القرآن الكريم عن القتال عنده نهيًا صريحًا في قول الله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٠].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بقول الله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة:١٩٣].

حيث روي هذا عن قتادة والربيع[(٤)].

وروي عن مجاهد وأكثر المفسرين أن الآية محكمة غير منسوخة، وأنه لا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم[(٥)].

وللقراء وجهان في الآية حيث قرأ حمزة والكسائي: (ولا تقتلوهم)، :(حتى يقتلوكم) بغير الألف واللام من القتل، وقرأ الباقون بالألف من القتال، والمشهور الثاني[(٦)].

قال الطبري: «وأولى هاتين القراءتين بالصواب، قراءة من قرأ:«ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم» لأن الله تعالى ذكره لم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حالٍ إذا قاتلهم المشركون بالاستسلام لهم حتى يقتلوا منهم قتيلا بعد ما أذن له ولهم بقتالهم، فتكون القراءة بالإذن بقتلهم بعد أن يقتلوا منهم، أولى من القراءة بما اخترنا،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٢٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٥٩.
(٢) بداية المجتهد، ابن رشد ١/ ١١٨.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٥٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٧، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٨٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٧، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٨٨.
(٦) انظر: التيسير في القراءات السبع، الداني ص٨٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٩٠.

وإذا كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنه قد كان تعالى ذكره أذن لهم بقتالهم إذا كان ابتداء القتال من المشركين قبل أن يقتلوا منهم قتيلا وبعد أن يقتلوا منهم قتيلا، وقد نسخ الله تعالى ذكره هذه الآية بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠][1].

٤. تحريم الصد عنه.

ذم الله تعالى مشركي قريش بصدهم المسلمين عن المسجد الحرام، في مواضع من كتاب الله عز وجل، «والصد عن المسجد الحرام جريمة عظيمة يستحق فاعلها عذاب الدنيا قبيل عذاب الآخرة، لأنه يؤول إلى الصد عن التوحيد لأن ذلك المسجد بناه مؤسسه ليكون علما على توحيد الله ومأوى للموحدين، فصدهم المسلمين عنه، لأنهم آمنوا بإله واحد، صرف له عن كونه علما على التوحيد، إذ صار الموحدون معدودين غير أهل لزيادته، فقد جعلوا مضادين له، فلزم أن يكون ذلك المسجد مضادًا للتوحيد وأهله»[2].

وقد ذكرت قضية صد المشركين المسلمين عن المسجد الحرام في مواضع عدة من كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: ٢٥].

والمعروف أن صد المشركين المسلمين عن المسجد الحرام كان في عام صلح الحديبية، وقد استوجبوا بذلك عذاب الله تعالى كما في آية الأنفال ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٤].

قال النسفي في معناها: «﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وإخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصد وكانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء فقيل: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٣٦.

ولاة أمر الحرم»[1].

وفي سورة الحج يقول المولى عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

وفسر الصد عن المسجد الحرام هنا بإخافة السبل، وبغصب المال الذي لو بقي في يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام[2].

وعلى الرغم من كون الصد عن المسجد الحرام جريمة كبيرة إلا أن الله تعالى نهى المسلمين عن الاعتداء أو البدء بالاعتداء، فقال جل شأنه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

٥. حرمة دخول المشركين فيه.

حرم الله تعالى على المشركين دخول المسجد الحرام بمقتضى الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٢٨].

على خلاف بين العلماء في المقصود بالنجاسة هنا هل هي النجاسة الحسية أو المعنوية، وهي نجاسة الشرك والعياذ بالله[3].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ «فسماه الله تعالى نجسًا، فلا يخلو أن يكون نجس العين أو مبعدًا من طريق الحكم، وأي ذلك كان فمنعه من المسجد واجب لأن العلة وهي النجاسة موجودة فيهم، والحرمة موجودة في المسجد»[4].

وفي الصحيحين عن حميد بن عبد الرحمن، أن أبا هريرة، أخبره: (أن أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع يوم النحر في رهطٍ يؤذن في الناس (ألا لا يحج بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريانٌ)[5].

وفي الآية احتمالان ذكرهما بعض العلماء أولهما: أن يكون النهي خاصًا

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦٤٣.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٥٣٧.
(٣) انظر: حاشية ابن عابدين ١/ ٢٢٢، الذخيرة، القرافي ١/ ١٦٣، نهاية المحتاج، الرملي ١/ ٢٨٩، حاشية الروض المربع، ابن قاسم النجدي ٢/ ٩٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٠٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك، رقم ١٦٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج باب لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، رقم ١٣٤٧.

بالمشركين الذين كانوا ممنوعين عن دخول مكة وسائر المساجد، لأنه لم يكن لهم ذمة وكان لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وهم مشركو العرب، والثاني: أن يكون المراد منعهم من دخول مكة للحج [(١)].

٦. الحج إليه.

البيت الحرام هو مقصد المسلمين في فريضة الحج، الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو المنصوص عليه في قول الله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧].

والحج عبادة زمانية ومكانية، وأن مكانها البيت الحرام بمكة المكرمة وما حوله من البقاع المقدسة مثل الصفا والمروة وعرفات ومنى ومزدلفة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨].

أي: من معالم الله التي جعلها تعالى ذكره لعباده معلمًا ومشعرًا يعبدونه عندها، إما بالدعاء، وإما بالذكر، وإما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها[(٢)].

وقال جل شأنه في شأن المشعر الحرام وعرفات كبقعتين مقدستين من بقاع الحج يتعلق بهما بعض المناسك: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة:١٩٨].

٧. بداية الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

وقد اختلف المفسرون في مبتدأ الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على هذه الآية على قولين:

القول الأول: أن المقصود الإسراء من الحرم بناء على أن الحرم كله مسجد، وكان صلى الله عليه وسلم حين أسري به نائمًا في بيت أم هانىء بنت أبي طالب، روى ذلك أبو صالح عن أم هانىء.

القول الثاني: أنه صلى الله عليه وسلم أسري به من المسجد، وفيه كان حين أسري به، روى ذلك أنس بن مالك وقاله الحسن،

(١) اللباب في الجمع بين السنة والكتاب، المنبجي ٢/ ٥٧٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٢٦.

وقتادة[1].

ثانيًا: المسجد الأقصى:

المسجد الأقصى هو ثان مسجد بني على ظهر الأرض كما هو منصوص عليه في الصحيحين من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: (قلت يا رسول الله، أي مسجدٍ وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أيٌّ؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنةً، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه)[2].

وهو بيت المقدس، وسمي الأقصى، لبعد المسافة بين المسجدين، والمقصود بالبركة حوله أن الله أجرى حوله الأنهار، وأنبت الثمار، أو لأنه مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة[3].

وقصة نشأة بيت المقدس وعمارته وفضائله كثيرة تواترت ببعضها نصوص السنة النبوية، وأفردها علماء كثيرون بالتأليف والتصنيف.

وقد ورد التصريح باسم المسجد الأقصى في آية واحدة من كتاب الله تعالى في مطلع سورة الإسراء وهي قوله جل شأنه ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١].

وجمهور المفسرين على أن الآية دليل صريح على أنه منتهى الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه عليه السلام دخله بجسده الشريف وصلى فيه بالأنبياء إماما، ومنه كانت رحلة المعراج[4].

وروي عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينزل عن البراق ولم يدخل المسجد الأقصى ولم يصل فيه، وما ذهب إليه الجمهور هو الأقوى والأثبت[5].

أما عن وروده بغير التصريح ففي مواضع عدة استنبطها المفسرون من قصة السيدة مريم عليها السلام حيث ذكر غير واحد من المفسرين أن نذر امرأة عمران الوارد في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥﴾ [آل عمران: ٣٥].

كان خدمة مريم عليها السلام لبيت

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٣٠، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٢٥، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٢٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٣٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٠٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٤٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٣٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨.

المقدس، حيث روي هذا عن عكرمة[1]، وكذا من قصة نبي الله داود وسليمان عليهما السلام، مما لا مجال لذكره هنا.

ثالثًا: مسجد قباء:

مسجد قباء من أشهر مساجد المدينة المنورة بعد المسجد النبوي، وقد ذهب كثير من المفسرين وعلماء السيرة إلى أن مسجد قباء هو المقصود في قول الله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة:١٠٩].

حيث ذهب إلى ذلك مقاتل، والسدي، وزيد بن أسلم، وغيرهم من مفسري السلف[2].

ولكن روي عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أن المقصود به مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس مسجد قباء[3].

فقد أخرج مسلم في صحيحه عن حميدٍ الخراط، قال: (سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن، قال: مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيدٍ الخدري، قال: قلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفًا من حصباء، فضرب به الأرض، ثم قال: (هو مسجدكم هذا) لمسجد المدينة، قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره)[4].

وأخرج ابن أبي شيبة بسنده عن ابن عمر، قال: «المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم»[5].

ويمكن القول بأن ما تؤيده رواية مسلم هو الأولى بالقبول، وهو أن المسجد الذي أسس على التقوى هو المسجد النبوي على ساكنه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وأيا كان القول فإن مسجد قباء قد أسسه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٣٢، تفسير السمرقندي ٣/ ٥٤، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٨٧، الهداية لبلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ٩٩٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٢٤.

(٢) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ١٩٧، معاني القرآن، الزجاج ٢/ ٤٦٩، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨/ ٨٣، تفسير السمرقندي ٢/ ٨٩.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨٤، تفسير السمرقندي ٢/ ٨٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، رقم ٥١٤.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة، رقم ٧٥٢٣، ٢/ ٨٤.

رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول قدومه المدينة، حيث كانت وفادته صلى الله عليه وسلم على بني عمرو بن عوف بقباء، وأقام فيهم عدة ليال بنى خلالها مسجد قباء، ثم ارتحل عنهم إلى الموضع الذي بنى فيه مسجده الشريف وبيوت أزواجه الطاهرات، وقد أسس كلا المسجدين على التقوى أي: على توحيد الله تعالى، ورضوانٍ من الله[1].

رابعًا: مسجد الضرار:

مسجد اتخذه بعض المغرضين في المدينة للتفريق بين المسلمين فجاء القرآن الكريم مبينًا زيف صنيعهم وخبث نيتهم وسوء طويتهم، ناهيًا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين عن الصلاة فيه.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٩].

وسبب نزولها أن اثنا عشر رجلا من المنافقين وكلهم من الأنصار، قالوا: نبني مسجدًا نتحدث فيه ونخلو فيه، فإذا رجع ابو عامر الراهب من الشام قلنا: بنيناه لتكون إمامنا فيه؛ فلما فرغوا من بنائه، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنا قد بنينا مسجدًا وما أردنا إلا الحسنى، ونحب أن تصلي فيه، وكان بناؤهم للمسجد قبل سفر النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، فلم يسعفهم بالذهاب إليه، فأنزل الله هذه الآيات، فدعا النبي عليه الصلاة والسلام أناسًا وأمرهم بالتوجه إلى المسجد لتحريقه وهدمه[2].

وقد نهى القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في مسجد الضرار وحثه على الصلاة في مسجد قباء مبينًا المقارنة بين المسجدين التي تتمثل في أمرين:

الأول: أن مسجد قباء بني على التقوى وهي طاعة الله ورسوله، وقصد به إرضاء الله تعالى، وإخلاص العبادة فيه، وجمع المؤمنين، والعمل على وحدة الإسلام، وظلت هذه المزية له، وأصبح من السنة صلاة ركعتين فيه على الدوام، ثم وضع

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨٤.

(٢) انظر: تفسير مقاتل ٥/ ١٣٧، جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٦٨، أسباب النزول، الواحدي ص٢٦٤.

القرآن قاعدة عامة للمقارنة بين المسجدين وأي بناءين، وتلك القاعدة:

الثاني: أنه لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، وهذا مصيره الانهيار والسقوط في قعر جهنم، والله لا يوفق الظالمين، ولا يهديهم للحق والصواب والصلاح، ما داموا قد قصدوا المعصية والكفر، وقد صار هذا مثلا للأجيال[1].

مسجد الضرار واقعة سوء تركت آثارًا سيئة استوجبت إزالته:

«أبان القرآن أربعة أسباب لهدم مسجد المنافقين: مسجد الضرار، وهي:

- إنهم اتخذوا بقصد مضارة المؤمنين الذين بنوا مسجد قباء.
- أقاموه ليكون معقلا للكفر والنفاق، والتآمر على المسلمين، فصار مركز الفتنة وبيت النفاق ومأوى المنافقين.
- قصدوا ببنائه أيضا تفريق كلمة المؤمنين، وتوهين المودة والألفة بينهم.
- جعلوه مرصدا ومقرا لمحاربة الله ورسوله، بقيادة أبي عامر الراهب من الخزرج الذي ذهب إلى هرقل ليأتي بجنود يحارب بهم النبي وصحبه.

وصار المنافقون يحلفون: ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الفعلة الحسنى والتوسعة علينا وعلى من عجز أو ضعف عن المسير إلى مسجد المدينة، والله يعلم خبث ضمائرهم ويشهد على أنهم كاذبون فيما حلفوا عليه.

لكل هذه الأسباب القائمة على الضرر والإساءة، نهى الله تعالى نبيه عن الصلاة في هذا المسجد: مسجد الضرار: لا تقم فيه أبدًا.

ولهذا كان لمسجد الضرار آثار ومعان سيئة على مر التاريخ، فهو لا يزال سبب حزازة وأثر سوء، وشك من المنافقين في الدين، وزيادة نفاقهم إلى أن يفارقوا حياتهم بالموت والله عليم بأعمال خلقه، حكيم في إيقاع الجزاء العادل بهم من خير أو شر، ومن حكمته تعالى إظهار حال المنافقين لمعرفة الحقائق وإنصاف التاريخ»[2].

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٩٢٠.

(٢) المصدر السابق.

أحكام المساجد

تتعلق بالمساجد طائفة من الأحكام، وقد بسط فيها العلماء الكلام في مصنفات خاصة بذلك، ولكن الذي يعنينا هو ما ورد في القرآن الكريم من هذه الأحكام على هذا النحو:

١. النهي عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

نهى الإسلام عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، نظرًا لما يجلبه ذلك من مفاسد شرعية، ولم يرد النهي عن ذلك صريحًا في القرآن وإنما ورد النهي والتحذير في السنة النبوية.

كما في الصحيحين عن عائشة، وعبد الله بن عباسٍ، قالا: (لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصةً له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما صنعوا)[١].

وجاء في قصة أهل الكهف في القرآن الكريم ذكر النزاع بين القوم الذين كشف في عصرهم قصة الكهف حول ماذا يفعلون بهم، حيث خلص الرأي في النهاية للأغلبية ببناء مسجد عليهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

حيث ذكر بعض المفسرين أن النزاع جرى بين المشركين والمسلمين، فرأى المشركون أنهم أبناء آبائهم وأنهم سيبنون عليهم بنيانًا يتعبدون فيه، ورأى المسلمون أنهم أحق بهم فبنوا عليهم مسجدًا يتعبدون فيه، روي هذا عن عبد الله بن عبيد بن عمير[٢]. وفسرت الغلبة هنا بأنها غلبة الأمراء، وقيل: غلبة الأعداء[٣].

٢. الاعتكاف وآدابه.

الاعتكاف عبادة مشروعة، وهي الإقامة في المسجد بنية العبادة والتقرب إلى الله تعالى زمنًا معينًا وفق شروط معينة، وقد ورد ذكر الاعتكاف في القرآن مرتين،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم ٤٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم ٥٣١.

(٢) انظر: تفسير مقاتل ٢/ ٥٨٠، جامع البيان، الطبري ١٧/ ٦٤٠، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٣٥٣.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٤، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٦/ ٤٣٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٤٤٧..

إحداهما هي المرتبطة بالمسجد، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ويرى المفسرون وغيرهم من أهل اللغة أن معنى: (عاكفون): أي مقيمون في المساجد لا يخرجون منها إلا لحاجة الإنسان يصلي فيه ويقرأ القرآن، ويقال لمن لازم المسجد وأقام على العبادة فيه: عاكف ومعتكفٌ والاعتكاف والعكوف الإقامة على الشيء وبالمكان ولزومهما[١].

وقد ذهب جمهور فقهاء المذاهب في تعريفهم للاعتكاف إلى أن الاعتكاف المشروع هو المكوث في مسجد من المساجد[٢].

ولهذا فإن المسجد شرط للاعتكاف عند جمهور الفقهاء، بل حكاه بعضهم إجماعا[٣].

قال القرطبي: «أجمع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد[٤].

(١) لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٥٥.
(٢) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ١/ ٣٤٧، مواهب الجليل، الحطاب ٢٤٥٤، المجموع، النووي ٦/ ٥٠٠، كشاف القناع، البهوتي ٢/ ٣٤٧، المحلى، ابن حزم ٣/ ٤١١.
(٣) العناية شرح الهداية، للباربرتي ٢/ ٣٩٣، المدونة الكبرى، للإمام مالك ١/ ٢٩٨، حاشية العدوي على كفاية الطالب، للعدوي ١/ ٤٦٥، المجموع، للنووي ٦/ ٥٠٥، كشاف القناع، للبهوتي ٢/ ٣٥٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٣٢٤.

وقال ابن قدامة: « لا نعلم في هذا بين أهل العلم خلافا»[٥].

وقال ابن رشد: «وقد اتفق العلماء على مشروطية المسجد للاعتكاف، إلا محمد بن عمر بن لبابة فأجازه في كل مكان»[٦].

وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، فمن الكتاب قول الله تعالى﴿ ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فإضافة الاعتكاف إلى المساجد دليل على اشتراطها أي المساجد له.

قال ابن قدامة: «والأصل في ذلك قول الله تعالى:﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ فخصها بذلك، ولو صح الاعتكاف في غيرها، لم يختص تحريم المباشرة فيها؛ فإن المباشرة محرمة في الاعتكاف مطلقًا»[٧].

ومن السنة ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: (إن كنت لأدخل البيت للحاجة والمريض فيه فما أسأل عنه إلا وأنا مارة وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدخل رأسه وهو في المسجد فأرجله، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة إذا كان معتكفًا)[٨].

(٥) المغني، ابن قدامة ٣/ ٦٥.
(٦) بداية المجتهد، ابن رشد ١/ ٣١٣.
(٧) المغني، ابن قدامة ٣/ ٦٥.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب لا يدخل البيت إلا لحاجة،

هذا وقد ذكر ابن رشد سبب الخلاف في اشتراط المسجد فقال: «وسبب اختلافهم في اشتراط المسجد أو ترك اشتراطه هو الاحتمال الذي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

بين أن يكون له دليل خطاب أو لا يكون له ؟ فمن قال له دليل خطاب قال: لا اعتكاف إلا في مسجد وإن من شرط الاعتكاف ترك المباشرة، ومن قال ليس له دليل خطاب قال: المفهوم منه أن الاعتكاف جائز في غير المسجد وأنه لا يمنع المباشرة لأن قائلا لو قال: لا تعط فلانا شيئا إذا كان داخلا في الدار لكان مفهوم دليل الخطاب يوجب أن تعطيه إذا كان خارج الدار ولكن هو قول شاذ، والجمهور على أن العكوف إنما أضيف إلى المساجد لأنها من شرطه»[1].

والناظر إلى لفظة:(المسجد) الواردة في آية الاعتكاف يرى أن الفقهاء قد استنبطوا منها بيان المواضع التي تلحق بالمسجد، ويجوز فيها الاعتكاف مثل سطح المسجد، ورحبته، ومنارته، والمواضع التي لا يجوز فيها الاعتكاف، وللفقهاء تفصيل في ذلك مبسوط في مواضعه من باب الاعتكاف.

وللاعتكاف في المسجد آدابه وأحكامه التي ينبغي على المعتكف أن يتحلى بها أذكرها بإيجاز على سبيل السرد من المذاهب المختلفة بغض النظر عن تفاصيل الخلاف في بعضها:

- استتار المعتكف بخباء أو حجرة.
- أن لا ينقص اعتكافه عن عشرة أيام.
- أن يستصحب ثوبًا غير الذي عليه، لأنه ربما احتاج.
- أن يمكث بمؤخر المسجد ليبعد عمن يشغله بالكلام معه.
- أن يمكث في مسجد اعتكافه ليلة العيد إذا اتصل انتهاء اعتكافه بها ليخرج من المسجد إلى مصلى العيد، فتتصل عبادة بعبادة.
- أن يكون اعتكافه في المسجد الجامع.
- أن يشتغل بطاعة الله تعالى كتلاوة القرآن والحديث والذكر والعلم، لأن ذلك طاعة.
- أن يوقع الاعتكاف في شهر رمضان.
- أن يكون في العشر الأواخر من رمضان لالتماس ليلة القدر؛ فإنها تغلب فيها.
- ترك المعتكف فضول الكلام وما لا يعنيه.
- التزين والتطيب ولبس الثياب الحسنة.
- قيام المعتكف بأداء العبادات (المحضة

رقم ٢٠٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها، رقم ٢٩٧.

(١) بداية المجتهد، ابن رشد ١/ ٣١٣ بتصرف.

والمتعدية)[1].

٣. التزين.

أمر الله تعالى بني آدم على جهة العموم بالتزين واللباس فقال جل شأنه ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: ٣١].

وجاء في سبب نزول الآية الكريمة أن بعضا من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة رجالا ونساء، لا يسترون عوراتهم، ولا يقيمون للبيت حرمة، فنزلت هذه الآية[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية:«كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة و«الزينة»: اللباس، وهو ما يواري السوأة، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد»[3].

وروي نحو هذا القول عن عطاء والنخعي وسعيد بن جبير، والحسن وقتادة[4].

أما من حملوا الآية على غير الطواف، فلهم أقوال أخرى في المقصود بالزينة فيها موضعًا وصفة على أقوال هي:

القول الأول: أن المراد بها ستر العورة في الصلاة. وهذ مروي عن مجاهد والزجاج[5].

القول الثاني: أن المراد بها مطلق التزين في الجمع والأعياد[6].

القول الثالث: أن الزينة المقصودة هنا هي رفع الأيدي في مواقيت الصلاة، وهو قول التنوخي القاضي[7].

القول الرابع: أن الزينة هي الصلاة في النعال، حيث يروي قتادة في هذا حديثا مرفوعا للنبي صلى الله عليه وسلم[8].

القول الخامس: أن المراد بها المشط لتسريح اللحية[9].

قلت: وهذه الآية أبرز دليل على فرضية ستر العورة في الصلاة.

قال القرطبي: « دلت الآية على وجوب ستر العورة كما تقدم، وذهب جمهور أهل العلم إلى أنها فرض من فروض الصلاة، ونقل عن الأبهري المالكي أنها فرض في الجملة، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين

(١) انظر: المبسوط، السرخسي ٣/ ١٢٦، حاشية الدسوقي ١/ ٥٥٠، المجموع، النووي ٥/ ٥٥٩، الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري ١/ ٤٣٥-٤٣٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٩١، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٨٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٩٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٩١.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٩١-٢٩٢، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢١٨.

(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢١٨.

(٦) المصدر السابق.

(٧) الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٢٩.

(٨) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٢٣٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٩٠.

(٩) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢١٨.

الناس في الصلاة وغيرها»[1].

وقد اتفق العلماء على أن ستر العورة فرض بإطلاق، واختلفوا هل هي شرط من شروط صحة الصلاة أم لا؟

وسبب الخلاف في ذلك تعارض الآثار واختلافهم في مفهوم قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

هل الأمر بذلك على الوجوب أو على الندب؟ فمن حمله على الوجوب قال: المراد به ستر العورة وله أدلته على ذلك.

ومن حمله على الندب قال: المراد بذلك الزينة الظاهرة من الرداء وغير ذلك من الملابس التي هي زينة وله أدلته على ذلك، ولذلك فمن لم يجد ما به يستر عورته لم يختلف في أنه يصلي، واختلف فيمن عدم الطهارة هل يصلي أم لا يصلي؟[2].

وستر العورة واجب للصلاة وغيرها، فلا يختص بالصلاة، وإذا كان الستر في الصلاة فرضًا للابتداء والاستمرار، فهو مقارن للصلاة من أولها إلى آخرها[3].

وللعلماء أحكام تفصيلية في حد العورة للرجال والنساء في الصلاة وخارج الصلاة، وفي أحكام الزينة وضوابطها، وما يجوز منها وما لا يجوز، وهذا مبسوط في مواضعه من كتب الفقه في أبواب الصلاة والألبسة، وفي كتب السنة وشروحها، ما لا يتسع المجال لذكره هنا.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٩٠ بتصرف يسير.
(٢) بداية المجتهد، ابن رشد ١/ ١١٤. بتصرف.
(٣) الحاوي الكبير، الماوردي ١/ ٩٠ بتصرف.

عمارة المساجد وهدمها

حث القرآن الكريم على عمارة المساجد حسيًا ومعنويًا، وحذر من تخريبها وهدمها حسيًا ومعنويًا، وهو ما أتناوله على النحو الآتي:

أولًا: عمارة المساجد:

نص القرآن الكريم على عمارة المساجد، وبين صفة عمارها بأنهم أهل الإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨].

وفي هذه المساجد الواردة في الآية قولان:

أحدهما: أنها مواضع السجود من المصلى.

والثاني: أنها بيوت الله تعالى المتخذة للعبادة، وفي كل احتمالات ووجوه.

فعلى القول بأن المقصود بها مواضع السجود من المصلي تكون عمارتها إما بالمحافظة على إقامة الصلاة، أو بترك الرياء، أو بالخشوع والإعراض عما ينهى.

وعلى القول بأنها بيوت الله تعالى فتكون عمارتها محتملة لثلاثة أوجه:

أحدها: إنما يعمرها بالإيمان من آمن بالله تعالى.

والثاني: إنما يعمرها بالزيارة لها والصلاة فيها من آمن بالله تعالى.

والثالث: إنما يرغب في عمارة بنائها من آمن بالله تعالى[1].

وبعمارة المسجد الحرام احتج بعض مشركي قريش يوم بدر حين وقعوا أسارى، فقد روي أن العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر، أقبل عليه نفر من المهاجرين وعيروه بقتال النبي صلى الله عليه وسلم وبقطيعة الرحم، فقال العباس: «ما لكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟» فقال له علي رضي الله عنه: «فهل لكم من المحاسن شيء؟» فقال: «نعم، إنا نعمر المسجد الحرام، ونحج الكعبة، ونسقي الحاج، ونفك العاني، ونفادي الأسير، ونؤمن الخائف، ونقري الضيف» فنزلت الآية[2].

ويقول الإمام الرازي في الآية الكريمة: «عمارة المساجد قسمان:

إما بلزومها وكثرة إتيانها يقال: فلان يعمر مجلس فلان إذا كثر غشيانه إياه.

وإما بالعمارة المعروفة في البناء.

فإن كان المراد هو الثاني، كان المعنى أنه

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٧٠، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٧٦٨.

ليس للكافر أن يقدم على مرمة المساجد»[1].

و«الشهادة لعمار المساجد بالإيمان صحيحة؛ لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها وقد أثبت الإيمان في الآية لمن عمر المساجد بالصلاة فيها، وتنظيفها وإصلاح ما وهى منها»[2].

وسبب عدم عمارة المشركين للمسجد مستفاد من عدة أمور أشار إليها الرازي بقوله: «والكافر إنما لم يجز له ذلك- أي عمارة المسجد- لأن المسجد موضع العبادة فيجب أن يكون معظمًا والكافر يهينه ولا يعظمه، وأيضًا الكافر نجس في الحكم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وتطهير المساجد واجب لقوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وأيضًا الكافر لا يحترز من النجاسات، فدخوله في المسجد تلويث للمسجد، وذلك قد يؤدي إلى فساد عبادة المسلمين وأيضا إقدامه على مرمة إصلاح المسجد يجري مجرى الإنعام على المسلمين، ولا يجوز أن يصير الكافر صاحب المنة على المسلمين»[3].

وفضل تطهير المساجد وتنظيفها كبير وثوابه عظيم عند الله تعالى، ويستحق صاحبه التكريم، كما في الصحيحين عن أبي رافع، عن أبي هريرة: (أن امرأةً سوداء كانت تقم المسجد - أو شابًا - ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عنها - أو عنه - فقالوا: مات، قال: (أفلا كنتم آذنتموني) قال: فكأنهم صغروا أمرها - أو أمره - فقال: (دلوني على قبره) فدلوه، فصلى عليها، ثم قال: (إن هذه القبور مملوءةٌ ظلمةً على أهلها، وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم)[4].

فضل بناء المساجد:

السعي في بناء المساجد وتشييدها في البقاع المختلفة هو نوع من عمارة المساجد، وذلك نشرًا لمواضع العبادة وتيسيرًا لأمرها على المسلمين، وقد تسابق المسلمون الأوائل في بناء المساجد، فكان مسجد قباء أول مسجد أسس في الإسلام، ثم تبعه المسجد النبوي، والذي تسابق الصحابة الأجلاء في بنائه، والنبي صلى الله عليه وسلم يعمل معهم بيديه الشريفتين، ويحمل الأحجار على كتفه الشريف.

ولما فتحت الأمصار كمصر والشام والعراق وغيرها تسابق الصحابة رضوان الله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٩٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٩ بتصرف.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الخدم للمسجد، رقم ٤٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على القبر، رقم ٩٥٦.

عليهم في بناء المساجد في كل مصر فتحوه، ليكون مشعل هداية ونور للمسلمين في تلك الأمصار، كما حدث في مصر حيث اشترك في بناء مسجد عمرو بن العاص عشرات الصحابة الكرام، حتى ورد أنه وقف على تحديد قبلته ثمانون صحابيًا[(١)].

وقد حثت السنة النبوية على ذلك وبينت فضل بناء المساجد، فقد أخرج البخاري عن عبيد الله الخولاني، أنه سمع عثمان بن عفان، يقول عند قول الناس فيه حين بنى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم: إنكم أكثرتم، وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من بنى مسجدًا) - قال بكيرٌ: حسبت أنه قال:(يبتغي به وجه الله - بنى الله له مثله في الجنة)[(٢)].

ثانيًا: تخريب المساجد:

نهى القرآن الكريم عن تخريب المساجد والسعي في هدمها سواء كان التخريب أو الهدم معنويًا أو ماديًا، وبيان ذلك على النحو الآتي:

ونص القرآن الكريم في معرض الذم على حرمة وقبح التعرض لبيوت الله تعالى بمنع العبادة فيها أو السعي في تخريبها، وقد جاء هذا الذم في آية ضمن آيات تتناول اليهود والنصارى وهي قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ١١٤].

وفي المقصودين بهذه الآية ثلاثة أقوال مشهورة للمفسرين:

القول الأول: أنها واردة في شأن النصارى الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأنهم كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وأن المسجد هو بيت المقدس. حيث روي هذا عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل[(٣)].

القول الثاني: أن المقصود بها بختنصر وجنده ومن أعانهم من النصارى، والمسجد هو بيت المقدس. ويروى هذا عن قتادة والسدي[(٤)].

القول الثالث: أن المقصود بها مشركي قريش، إذ منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام. ويروى هذا عن عبد الرحمن بن زيد[(٥)].

(١) آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني ص٢٣٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة باب من بنى مسجدًا، رقم ٤٥٠.
(٣) انظر: تفسير مجاهد ١/ ٢١٢، تفسير مقاتل ١/ ١٣٢، جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٢٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٢٠، تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢١٠، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٧٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٢٠-٥٢١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٧٤.

وقد رجح شيخ المفسرين الطبري القول بأن المقصود بها النصارى، واستدل على صحة ذلك بوجهين:

الوجه الأول: أن المسجد المعني في الآية إما مسجد بيت المقدس وإما المسجد الحرام. ومشركو قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الصلاة فيه، فقد صح وثبت إذن أن الموصوفين بالسعي في خراب مساجده، غير الموصفوفين بعمارتها، إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه، كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم.

الوجه الثاني: أن الآية التي قبل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذم أفعالهم، والتي بعدها نبهت بذم النصارى والخبر عن افترائهم على ربهم، ولم يجر لقريش ولا لمشركي العرب ذكر، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر - بقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ - إليهم وإلى المسجد الحرام[1].

أما التخريب المقصود في الآية، فحمله بعض المفسرين على التخريب المعنوي بالمنع من إقامة الشعائر في المساجد، وحمله آخرون على التخريب المادي بالهدم ونحوه من وجوه التعدي[2].

ولا مانع من حمل الآية على كلا المعنيين لما فيهما من الإضرار بالمساجد التي هي بيوت الذكر والعبادة، وهذا ما يفيده كلام القرطبي حيث قال:« خراب المساجد قد يكون حقيقيا كتخريب بختنصر والنصارى بيت المقدس على ما ذكر أنهم غزوا بني إسرائيل مع بعض ملوكهم فقتلوا وسبوا، وحرقوا التوراة، وقذفوا في بيت المقدس العذرة وخربوه، ويكون مجازا كمنع المشركين المسلمين حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها»[3].

وما أجمل ما ذكره أحد العلماء المعاصرين من أن نشر البدع والخرافات في بيوت الله تعالى هو أيضًا نوع من التخريب المعنوي، لأن المساجد ينبغي أن تصان عن نشر مثل هذه الأمور التي تخالف شرع الله تعالى.

قال الشيخ ابن العثيمين: «ومن فوائد الآية: تحريم تخريب المساجد؛ لقوله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٢١-٥٢٢.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٧٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٧٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٧٧ بتصرف.

تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾؛ ويشمل الخراب الحسي، والمعنوي؛ لأنه قد يتسلط بعض الناس - والعياذ بالله - على هدم المساجد حسًا بالمعاول، والقنابل؛ وقد يخربها معنًى، بحيث ينشر فيها البدع والخرافات المنافية لوظيفة المساجد»[1].

وسبق القول بأن تخريب المساجد منهي عنه سواء كان معنويًا أو حسيًا، وأن بعض العلماء قد فسر التخريب الوارد في آية البقرة على التخريب الحسي بالهدم ونحوه مثل إلقاء القاذورات، ولكن جاءت آية أخرى من كتاب الله تعالى صريحة في بيان هدم بيوت العبادة في الملل الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام، وذلك قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

وقد فسرت الصوامع في اللغة بأنها متعبد الناسك ومنار الراهب، أو معبد الرهبان في الأماكن النائية، وهذا ما ذهب إليه رفيع ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد[2]، وفسرت كذلك بأنها متعبد الصابئة، وهو مروي عن الضحاك وقتادة[3].

وفسرت البيع بأنها معابد النصارى أو كنائسهم، وهو مروي عن رفيع وقتادة والضحاك[4].

والصلوات اختلف في نسبتها فنسبها بعضهم لليهود[5]، وأما المساجد فهي معروفة أنها بيوت العبادة للمسلمين على نحو ما تقدم ذكره في التعريف.

وهذه الآية الكريمة تفيد معان سامية وحكم عالية من أبرزها:

- أن الله تعالى يدفع الشر بما هو أقوى منه مما شرعه الله تعالى من أحكام، كدفع شر الكفر والطغيان بالجهاد، ويؤيد هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين من تأويل قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بأنه الدفع بالقتال والجهاد، أو دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض في الشهادة في الحق[6].
- أن الدفع لنصرة الدين وحماية

(١) تفسير القرآن الكريم، سورتي الفاتحة والبقرة ٢/ ١١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٤٧، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٩.

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٠٨، جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٤٨، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٩.

(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٣٨١، جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٤٨..

(٥) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٤٣٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٧١.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٤٦، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٩٧، تفسير السمرقندي ٢/ ٤٦٢.

المقدسات قد يكون بالأشخاص، ويؤيد هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين بأن المقصود هو دفع الله بالأنبياء عن المؤمنين وبالمؤمنين من غيرهم، والدفع بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن بعدهم من التابعين، ودفع الله المشركين بالمسلمين[(١)].

- أنه لولا فضل الله تعالى ورحمته بأهل الملل الثلاث، ووجود من يذود عن الحرمات والمقدسات لهدمت أماكن العبادة في كل ملة.

ويشير إليه قول الزجاج: «وتأويل هذا: لولا أن الله عز وجل دفع بعض الناس ببعض لهدم في شريعة كل نبي المكان الذي كان يصلي فيه، فكان لولا الدفع لهدم في زمن موسى عليه السلام الكنائس التي كان يصلي فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد»[(٢)].

وإذا تساءلنا ما الحكمة من الحفاظ على بقاع العبادة لاسيما عبادة أهل الإيمان المسجد؟ لأمكن استخلاص الإجابة من قول بعض المفسرين المعاصرين حيث قال:« هذه الأماكن هي التي تبقى أصول القيم في التدين، «وأصول القيم في التدين» غير «كل القيم في التدين»، ولذلك نحن قلنا: إن الحق سبحانه وتعالى جعل للإسلام خمسة أركان، وهي التي بني عليها الإسلام، ولابد أن نقيم بنيان الإسلام على هذه الأركان الخمسة، فلا تقل: إن الإسلام هو هذه الأركان الخمسة، لا؛ لأن الإسلام مبني عليها فقط فهي الأعمدة أو الأسس التي بني عليها الإسلام. فأنت حين تضع أساسا لمنزل وتقيم الأعمدة فهذا المنزل لا يصلح بذلك للسكن، بل لابد أن تقيم بقية البنيان، إذن فالإسلام مبني على هذه الأسس.

والحق سبحانه وتعالى يوضح ذلك فيأمر بالمحافظة على أماكن هذه القيم؛ لأن المساجد ونحن نتكلم بالعرف الإسلامي هي ملتقى فيوضات الحق النورانية على خلقه، فالذي يريد فيض الحق بنوره يذهب إلى المسجد، إذن لكيلا تفسد الأرض لابد أن توجد أماكن العبادة هذه، فمرة جاء الحق بالنتيجة ومرة جاء بالسبب»[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

البيوت، السعي، مكة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٤٦، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٩٧، تفسير السمرقندي ٢/ ٤٦٢.

(٢) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٤٣١.

(٣) تفسير الشعراوي ٢/ ١٠٦٢.

المشي

عناصر الموضوع

مفهوم المشي	٧٢
المشي في الاستعمال القرآني	٧٣
الألفاظ ذات الصلة	٧٤
أنواع المشي	٧٦
أغراض ذكر المشي في القرآن الكريم	٨٠
الدروس المستفادة من ذكر المشي	٨٤

مفهوم المشي

أولًا: المعنى اللغوي:

تأبى بعض معاجم لغتنا العربية أن تنشئ حدًّا لهذه الكلمة (المشي)؛ متعللة -بلسان الحال- بأن هذه الكلمة تعبر عن نفسها بمجرد النطق بها[1]، فيما نجد البعض الآخر يشير إلى بيان حقيقة هذه الكلمة، وقد اخترنا منها ما يلي:

قال الراغب: «المشي: الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة»[2].

وقال ابن فارس: «الميم والشين والحرف المعتل أصلان صحيحان، أحدهما يدل على حركة الإنسان وغيره، والآخر النماء والزيادة.

والأول: مشى يمشي مشيًّا، وشربت مشوًا ومشيًا، وهو الدواء الذي يمشي، أي: يطلق البطن.

والآخر: المشاء، وهو النتاج الكثير، وبه سميت الماشية. وامرأةٌ ماشية: كثر ولدها. وأمشى الرجل: كثرت ماشيته»[3].

وفي المصباح المنير: «مشى: (يمشي) (مشيًا) إذا كان على رجليه -سريعًا كان أو بطيئًا- فهو(ماشٍ)، والجمع (مشاةٌ)، ويتعدى بالهمزة والتضعيف، و(مشى) بالنميمة فهو (مشاء)، و(الماشية): المال من الإبل والغنم، قاله ابن السكيت وجماعة، وبعضهم يجعل البقر من (الماشية)»[4].

فالمشي إذًا: الانتقال من مكان إلى آخر مشيًا على الأقدام.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المشي في معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٤٩٣، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٢١٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٣٧٧.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٢٥.
(٤) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٩٦.

المشي في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مشي) في القرآن الكريم (٢٣) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة:٢٠]
الفعل المضارع	١٨	﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه:٤٠]
فعل الأمر	٢	﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]
المصدر	١	﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان:١٩]
صيغة المبالغة	١	﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ [القلم:١١]

وجاء المشي في القرآن على وجهين[(٢)]:

الأول: المشي بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]. يعني: المشي بعينه.

الثاني: الهدى: ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٢٢]. يعني: يهتدي به.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٦٧-٦٦٨.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٤١٤-٤١٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ السير:

السير لغة:

المضي والجريان، وذلك يكون ليلًا ونهارًا.[١]

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

وقال سبحانه لقوم سبأ: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ:١٨]وقد ورد هذا اللفظ في أكثر من آية.

السير اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين السير والمشي:

لفظ (السير) يحمل معنى التؤدة في المشي.

٢ السعي:

السعي لغة:

يأتي السعي في اللغة على معان، منها: المشي، والإسراع في المشي، والجد.[٢]

السعي اصطلاحًا:

العمل والفعل الجاد الذي يقوم على النية والقصد سواء أكان ذلك في الخير أو الشر.

الصلة بين السعي والمشي:

لفظ (السعي): يحمل معنى السرعة في المشي، وهو كناية عن العمل والفعل الجاد.

٣ النسلان:

النسلان لغة:

هو الإسراع في المشي.[٣]

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٠، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ١١٥.

(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٢٧٤، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٧٦، المفردات، الراغب ص ٤١١- ٤١٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٤٧.

النسلان اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، والنسلان بفتحتين الإسراع مع تقارب الخطا وهو دون السعي.[1]

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦﴾ [الأنبياء:٩٦].

الصلة بين النسلان والمشي:

(النسلان) يحمل معنى السرعة في المشي، لكنه دون السعي.

(١) انظر: فتح الباري ٨/ ٥٤٣.

أنواع المشي

أولًا: المشي المشروع:

١. مشي القصد والتوسط بين الناس.

من ذلك قوله سبحانه وتعالى في حكاية نصيحة لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٨-١٩].

أي: امش مشيًا مقتصدًا ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلًا وسطًا بين بين[(١)].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ)[(٢)].

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ينهى أيضًا عن ضد ذلك تمامًا؛ وهو مشي المتماوت الذي يرى من نفسه الضعف تزهدًا! فقال هنا: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: كن وسطًا بين الطرفين المذمومين[(٣)].

وهل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي؟

الجواب: لاشك في ذلك، علمها من علمها وجهلها من جهلها، لكن الإمام الرازي رحمه الله ذكر لذلك ثلاث حكم، ننقل الأوليين منهن لوضوحهما وقوتهما:

الأولى: أن الإنسان لما كان شريفًا تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطرًا؛ فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشي، فإن عجز عن إدراك مقصوده ينادي مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشيًا إليه، فإذا كان المشي والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر.

الثانية: أن الإنسان له ثلاثة أشياء: عمل بالجوارح، وقول باللسان، وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا الله، وقد أشار إليه بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان:١٦]، أي: أصلح ضميرك فإن الله خبير، بقي الأمران فقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال[(٤)].

٢. المشي لطلب الرزق.

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥].

«إنه من تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتًا للإنسان في حياته؛ بتسهيل معيشته منها وحياته على ظهرها، فإذا مات

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣٩.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٣٠.
تكفأ: مشي مشيًا قويًا.
انظر: شرح السنة، البغوي ١٣/ ٢٢٢.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٢٢.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٢٢ باختصار.

كانت له أيضًا كفاتًا بدفنه فيها.

ولو شاء الله لجعلها حديدًا ونحاسًا، فلا يستطيع الإنسان أن يحرث فيها، ولا يحفر ولا يبني، وإذا مات لا يجد مدفنًا فيها!

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾»[1].

«والأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ فيه امتنان من الله تعالى على خلقه، مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهًا وحثًّا للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب؛ لتسخيرها وتذليلها؛ مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحج:٦٥]»[2].

ثم في «قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ بعد المشي في مناكب الأرض وتطلب الرزق، وما يتضمن من النظر والتأمل في مسببات الأسباب وتسخير الله لها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف:١٤]، بعد ذكر ﴿خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف:١٢]، أي: الأصناف، وتسخير الفلك والأنعام والبحر والبر؛ فيه ضمنًا إثبات القدرة على البعث، فيكون المشي في مناكب الأرض، واستخدام مناكبها، واستغلال ثرواتها، والانتفاع من خيراتها؛ لا لطلب الرزق وحده -وإلا لكان يمكن سوقه إليهم- ولكن للأخذ بالأسباب أولًا، وللنظر في المسببات، والعبرة بالمخلوقات، والتزود لما بعد الممات، كما في آية «الجمعة»: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة:١٠].

أي: عند مشاهدة آيات قدرته وعظيم امتنانه.

وعليه فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى والاستغناء، والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل وأضاعت من حقها في هذا الوجود»[3].

(١) تكملة أضواء البيان، عطية سالم ٨/ ٢٣٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٨/ ٢٣٩- ٢٤٠.

ثانيًا: المشي المنهي عنه:

١. المشي بالنميمة.

قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ [القلم:١١].

«أي: كما أنعمنا عليك يا محمد وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾؛ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقتٍ في غير محلها»[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه الفتان الطعان. قاله ابن عباس وقتادة.

الثاني: أنه الذي يلوي شدقيه من وراء الناس. قاله الحسن.

الثالث: أنه الذي يهمزهم بيده دون لسانه ويضربهم. قاله ابن زيد، والأول أشبه لقول الشاعر:

تدلي بودٍّ إذا لاقيتني كذبًا
وإن أغيب فأنت الهامز اللمزة

وفي قوله: ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ وجهان:

أحدهما: الذي ينقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض. قاله قتادة.

الثاني: هو الذي يسعى بالكذب، ومنه قول الشاعر:

ومولى كبيت النمل لا خير عنده
لمولاه إلا سعيه بنميم[(٢)]

«والمشي: استعارة لتشويه حاله بأنه يتجشم المشقة لأجل النميمة! مثل ذكر السعي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة:٦٤].

ذلك أن أسماء الأشياء المحسوسة أشد وقعًا في تصور السامع من أسماء المعقولات، فذكر المشي بالنميمة فيه تصوير لحال النمام، ألا ترى أن قولك: (قطع رأسه) أوقع في النفس من قولك: (قتل)؟! ويدل لذلك أنه وقع مثله في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[(٣)]»[(٤)].

وهل في تقدم (هماز) على (مشاء) من حكمة؟

ذكر بعض العلماء حكمة في ذلك، وهي أن تقدم هماز على مشاء بنميم كان بالرتبة؛ لأن المشي مرتب على القعود في المكان، والهماز هو العياب، وذلك لا يفتقر إلى حركة وانتقال من موضعه، بخلاف النميمة، فإنها تفتقر إلى حركة وانتقال للتحريش بين

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٩٠.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٦٣-٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطهارة، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم ٢١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، رقم ٢٩٢.

(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ٧٣.

فلان وفلان[1].

٢. مشي التكبر والخيلاء، والرقص.

من ذلك قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧].

إن «الإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده؛ تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان، أو قوة أو جمال، ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله وأنه ضعيف أمام حول الله لطامن من كبريائه، وخفف من خيلائه، ومشى على الأرض هونًا لا تيهًا ولا مرحًا.

والقرآن يجبه المتطاول المختال المرح بضعفه وعجزه وضآلته: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل، لا يبلغ شيئًا من الأجسام الضخمة التي خلقها الله»[2].

قال سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات:٢٧-٢٩].

قال الشوكاني رحمه الله: «وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها؛ تأكيدًا وتقريرًا»[3].

«وأصل المرح في اللغة: شدة الفرح والنشاط، وإطلاقه على مشي الإنسان متبخترًا مشي المتكبرين؛ لأن ذلك من لوازم شدة الفرح والنشاط عادة»[4].

«ويروى أن سبأ دوخ الأرض بأجناده شرقًا وغربًا وسهلًا وجبلًا، وقتل سادةً وسبى -وبه سمي سبأ- ودان له الخلق، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام، ثم خرج إليهم فقال: إني لما نلت ما لم ينل أحدٌ رأيت الابتداء بشكر هذه النعم، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت! فسجدوا لها، وكان ذلك أول عبادة الشمس، فهذه عاقبة الخيلاء والتكبر والمرح، نعوذ بالله من ذلك»[5].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ فيه وجهان، كما يقول الماوردي:

«أحدهما: إنك لن تخرق الأرض من تحت قدمك، ولن تبلغ الجبال طولًا بتطاولك؛ زجرًا له عن تجاوزه الذي لا يدرك به غرضًا.

الثاني: أنه مثلٌ ضربه الله تعالى له، ومعناه: كما أنك لن تخرق الأرض في مشيك ولن تبلغ الجبال طولًا؛ فإنك لا تبلغ ما أردت بكبرك وعجبك، إياسًا له من بلوغ إرادته»[6].

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ١/ ٦٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٨.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٢٦.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٥٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٦٢.
(٦) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٤٤.

«ذلك التطامن والتواضع الذي يدعو إليه القرآن بترذيل المرح والخيلاء أدبٌ مع الله، وأدبٌ مع الناس، أدبٌ نفسي وأدبٌ اجتماعي.

وما يترك هذا الأدب إلى الخيلاء والعجب إلا فارغٌ صغير القلب صغير الاهتمامات، يكرهه الله لبطره ونسيان نعمته، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعاليه»[1].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٨.

أغراض ذكر المشي في القرآن الكريم

أولًا: المن، وبيان القدرة الإلهية:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور:٤٥].

قال القرطبي رحمه الله: «المشي على البطن للحيات والحوت، ونحوه من الدود وغيره، وعلى الرجلين للإنسان والطير إذا مشى، والأربع لسائر الحيوان.

قال النقاش: إنما اكتفى في القول بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع، وهي قوام مشيه، وكثرة الأرجل في بعضه زيادة في خلقته، لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه إلى جميعها.

قال ابن عطية: والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلًا، بل هي محتاجٌ إليها في تنقل الحيوان، وهي كلها تتحرك في تصرفه.

وقال بعضهم: ليس في الكتاب ما يمنع من المشي على أكثر من أربع، إذ لم يقل ليس منها ما يمشي على أكثر من أربع.

وقيل: فيه إضمار (ومنهم من يمشي على أكثر من أربع) كما وقع في مصحف أبي، والله أعلم»[2].

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٢.

ثانيًا: حكاية اعتراضٍ لأهل الباطل:

كما قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان:٧].

«والمعنى: إن صح دعواه فما باله لم يخالف حاله حالنا؟! وذلك لعمههم وقصور نظرهم على المحسوسات؛ فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمورٍ جسمانية؛ وإنما هو بأحوالٍ نفسانية، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠]»[1].

ولقد رد الله سبحانه وتعالى على أصحاب هذه الشبهة شبهتم في عدة مواضع من القرآن، منها:

قوله سبحانه في نفس سورة الفرقان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠].

وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

إن أنا إلا رسول مثل سائر الرسل، فإذا جاز أن يكون سائر الرسل آدميين؛ فيجوز أن أكون آدميًا رسولًا[2].

وقال في سورة أخرى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء:٨].

قال السعدي رحمه الله: «هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلا كان ملكًا، لا يحتاج إلى طعام وشراب وتصرفٍ في الأسواق، وهلا كان خالدًا؟! فإذا لم يكن كذلك دل على أنه ليس برسول!

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا في الكفر فتشابهت أقوالهم؛ فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبي المقرين بإثبات الرسل قبله -ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته- بأن الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد صلى الله عليه وسلم تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته وهي موجودة في إخوانه المرسلين الذين يقر بهم المكذبون لمحمد؟! فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسولٍ من البشر، ولن يقروا برسول من غير البشر! إن شبههم

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٠٧.
(٢) انظر: تفسير السمعاني ٤/ ١٢- ١٣.

باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها وتناقضهم بها»[1].

وقال سبحانه في رد عقلي منطقي: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام:٩].

والمعنى: أنا لو جعلناه ملكًا لجعلناه ولا بد في خلق رجل؛ لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد[2].

ومن لطائف هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ [الفرقان:٢٠]: أن بعض العلماء استنبط من ذلك أن «من آداب الداخل في السوق: أن يكون ماشيًا على رجليه لا راكبًا، كما وصف الله تعالى الرسل عليهم السلام» في هذه الآية[3].

ثالثًا: ضرب المثل للناس:

من ذلك قول الحق سبحانه في سورة الملك: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾ [الملك:٢٢].

«هذا مثل ضربه الله للكافرين والمؤمنين، أو لرجلين: كافر ومؤمن.

والذي انقدح لي: أن التمثيل جرى على تشبيه حال الكافر والمؤمن بمشيتين مختلفتين، وعلى تشبيه الدين بالطريق المسلوكة كما يقتضيه قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

فالمشرك يتوجه بعبادته إلى آلهة كثيرة لا يدري لعل بعضها أقوى من بعض، وأعطف على بعض القبائل من بعض، فقد كانت ثقيف يعبدون اللات، وكان الأوس والخزرج يعبدون مناة، ولكل قبيلة إلهٌ أو آلهةٌ، فتقسم الحاجات عندها، ويستنصر كل قوم بآلهتهم، ويطمعون في غنائها عنهم، وهذه حالة يعرفونها فلا يمترون في أنهم مضرب المثل الأول، وكذلك حال أهل الإشراك في كل زمان!

ألا تسمع ما حكاه الله عن يوسف عليه السلام من قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف:٣٩]؟

وينور هذا التفسير أنه يفسره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف:١٠٨].

فقابل في الآية الأولى الصراط المستقيم -المشبه به الإسلام- بالسبل المتفرقة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥١٩.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٧٠.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ١٨٤.

المشبه بها تعداد الأصنام، وجعل في الآية الثانية الإسلام مشبهًا بالسبيل، وسالكه يدعو ببصيرة، ثم قابل بينه وبين المشركين بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وفي قوله: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ تشبيه حال المتحير المتطلب للآثار في الأرض بحال المكب على وجهه، في شدة اقترابه من الأرض.

وقوله: ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ تشبيه لحال الذي آمن برب واحد الواثق بنصر ربه وتأييده، وبأنه مصادف للحق بحال الماشي في طريق جادة واضحة، لا ينظر إلا إلى اتجاه وجهه، فهو مستوٍ في سيره»[1].

ومن ذلك قوله تعالى عن المنافقين: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة:٢٠].

فهذا مثلٌ ضربه الله للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر: القرآن؛ لأنه حياة الجنان كما أن المطر حياة الأبدان، والظلمات: ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك، والرعد: ما خوفوا به من الوعيد وذكر النار، والبرق: ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة[2].

وقيل: أي: لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما أذهب أسماعهم وأبصارهم الباطنة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

قال حقي: «وإيثار المشي على ما فوقه من السعي والعدو للإشعار بعدم استطاعتهم لهما لكمال دهشتهم»[4].

رابعًا: لحكاية حادثة معينة:

من ذلك ما ذكره الله تعالى في قصة موسى عليه السلام -في معرض المن عليه- فقال: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ [طه:٤٠]، وذلك حين قالت لها أمها: ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١].

اتبعي أثره فانظري ماذا يفعلون به. فخرجت تمشي في ذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص:١١]، وقد احتاج إلى الرضاع والتمس الثدي، وجمعوا له المراضع حين ألقى الله محبتهم عليه، فلا يؤتى بامرأة فيقبل ثديها! فيؤتى بمرضع بعد مرضع، فلا يقبل شيئًا منهم، فقالت لهم أخته حين رأت من وجدهم به وحرصهم عليه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص:١٢-١٣][5].

وحادثة أخرى مع موسى عليه السلام أيضًا لكن هذه المرة في حال كبره ونبوته،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٤١- ٤٣ بتصرف.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٠.
(٣) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٠.
(٤) روح البيان ١/ ٧٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٦١.

عندما فر من قوم فرعون الذين يريدون قتله، وفي مدين سقى للمرأتين ثم توجه إلى ظل شجرة يشكو إلى ربه فقره، فجاءه الفرج من ربه فقال: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥].

وسيأتي الحديث عن اللفتة التربوية في مشية هذه الفتاة.

قال مطرف: «أما والله لو كان عند نبي الله شيءٌ ما تتبع مذقتها، ولكن إنما حمله على ذلك الجهد».[1]

الدروس المستفادة من ذكر المشي

أولًا: الدروس الإيمانية لذكر المشي في القرآن الكريم:

١. الرفق واللين في معايشة الناس.

تتجلى هذه الدلالة في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

فقوله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: أفاضل العباد، وقيل: هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل، وإلا فالخلق كلهم عباد الله[2].

«عن زيد بن أسلم قال: كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فما وجدت في ذلك شفاءً! فرأيت في المنام من جاءني فقال لي: «هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض». فهذا رأي لزيد بن أسلم ألهمه يجعل معنى ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أنه استعارة للعمل في الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة:٢٠٥].

وأن الهون مستعار لفعل الخير؛ لأنه هون على الناس، كما يسمى بالمعروف»[3].

«وجوز الزجاج أن يكون قوله: ﴿يَمْشُونَ﴾ عبارة عن تصرفاتهم في معاشرة

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٢١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٩٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٨٩.

الناس، فعبر عن ذلك بالانتقال في الأرض، وتبعه ابن عطية»[1].

لكن الأصل إمرار اللفظ على ظاهره، حتى يأتي دليلٌ صحيحٌ صريحٌ يصرفه عن ذلك الظاهر، فظاهر الخطاب هنا أنه مدحٌ لمشيةٍ بالأرجل، وهذا الذي عليه جمهور المفسرين[2].

لكن لنا أن نقول: أن هذا الاختلاف في تفسير المشي هنا، إنما هو من اختلاف التنوع لا التضاد، فيجوز أن يكون تفسير المشي هنا، يحتمل كل ما ذكر، فهم في معاملتهم مع إخوانهم ظاهرًا وباطنًا هينون لينون كما وصفهم ربهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

إن هذا الهون في المشي الذي تتصف به هذه الجماعة المؤمنة ناشئ عن التواضع لله تعالى والتخلق بآداب النفس العالية، وزوال بطر أهل الجاهلية، فكانت هذه المشية من خلال الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية. وعن عمر بن الخطاب أنه رأى غلامًا يتبختر في مشيته فقال له: (إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله)[3].

فهذه الآية تنبيهٌ من الله وتحريض للمؤمنين، إنهم أرادوا تكريم الله تعالى لهم، وإضافتهم إلى نفسه تعالى؛ أن يكونوا متصفين بهاتين الصفتين: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

٢. صاحب الحق يملك نورًا من الله وبصيرة.

وتتجلى هذه الدلالة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد:٢٨].

فـ« في قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو النور، وأن مشيهم بغير النور غير مجدٍ عليهم ولا نافع لهم، بل ضرره أكثر من نفعه.

وفيه: أن أهل النور هم أهل المشي في الناس، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم ولا لأقوالهم ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم»[4].

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢].

فهم ينيرون لأنفسهم وللناس، لا كالشمعة تضيء للناس وتحرق نفسها.

(١) المصدر السابق ١٠/ ١٨٩-١٩٠.
(٢) المصدر السابق ١٩/ ٨٨.
(٣) المصدر السابق ١٩/ ٨٨.
(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن القيم ص٩.

«وفي قوله: ﴿يَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نكتة بديعة، وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها في الناس في الدنيا، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدمًا عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه»[1].

ثانيًا: الدروس التربوية لذكر المشي في القرآن:

١. تنشئة الأسرة على الآداب الحسنة.

وتتجلى هذه الدلالة في قوله تعالى حاكيًا نصائح لقمان الحكيم لابنه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٩].

فيأتي هذا الإرشاد التربوي من لقمان الحكيم لابنه بعد إرشادات سابقة، فـ«بعد أن بين له آداب حسن المعاملة مع الناس قفاها بحسن الآداب في حالته الخاصة، وتلك حالتا المشي والتكلم، وهما أظهر ما يلوح على المرء من آدابه.

والقصد: الوسط العدل بين طرفين، فالقصد في المشي: هو أن يكون بين طرف التبختر وطرف الدبيب، ويقال: قصد في مشيه. فمعنى ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ ارتكب القصد.

والغض: نقص قوة استعمال الشيء. يقال: غض بصره، إذا خفض نظره فلم يحدق فغض الصوت: جعله دون الجهر»[2].

وقد يرد على القارئ سؤالٌ هنا، وهو: لم ذكر المانع من رفع الصوت ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، ولم يذكر المانع من سرعة المشي؟

قيل: هناك ثلاث حكم في ذلك:

الأولى: أن رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة، وربما يخرق الغشاء الذي داخل الأذن! وأما السرعة في المشي فلا تؤذي، أو إن كانت تؤذي فلا تؤذي غير من في طريقه، والصوت يبلغ من على اليمين واليسار.

الثانية: لأن المشي يؤذي آلة المشي، والصوت يؤذي آلة السمع، وآلة السمع على باب القلب؛ فإن الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشي.

الثالثة: لأن القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل، وحسنه أحسن؛ لأن اللسان ترجمان القلب[3].

٢. الإشادة بصفة الحياء عند المرأة.

وتتجلى هذه الدلالة في ما حكاه الله تعالى من قصة موسى مع ابنة ذلك الرجل الصالح[4] فقال: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى

(١) المصدر السابق.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١١١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٢٣.

(٤) لعل الأقرب للصواب أنه كان رجلاً صالحًا، وليس هو نبي الله شعيب.

﴿ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥].

إن وصف الله تعالى لمشية تلك الفتاة المحتشمة بقوله أنها ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ لم يأت هكذا دون فائدة أو دلالة، بل له دلالة تربوية حكيمة، تجعل هذه الفتاة مثالًا رائعًا للمرأة الموافقة لفطرتها، التي لم تتعود أصلًا لمثل هذا الخروج من بيتها، ولكن لما أحوجتها الضرورة خرجت بتلك الصفة الطيبة الكريمة، فليكن لك يا فتاة الإسلام في تلك الفتاة المثل الرائع والقدوة الحسنة.

«والمعنى أنها مستحيية في مشيها، أي: تمشي غير متبخترة ولا متثنية ولا مظهرة زينة، وعن عمر بن الخطاب أنها كانت ساترة وجهها بثوبها.

والاستحياء مبالغة في الحياء»[1].

«عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر رضي الله عنه: (جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع -جريئة على الرجال- من النساء، خراجةٍ ولاجةٍ)»[2].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وفي سبب استحيائها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان من صفتها الحياء فهي تمشي مشي من لم يعتد الخروج والدخول.

والثاني: لأنها دعته لتكافئه وكان الأجمل عندها أن تدعوه من غير مكافأة.

والثالث: لأنها رسول أبيها»[3].

زاد الإمام الرازي: «لأن الكريم إذا دعا غيره إلى الضيافة يستحيي لا سيما المرأة»[4].

وهكذا يأتي التوجيه الإلهي التربوي للنساء عن كيفية المشي الذي يناسب طبيعة المرأة وفطرتها، فيقول سبحانه في آية النور: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

قال ابن كثير رحمه الله: كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت -لا يسمع صوته- ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك، إذا كان شيء من زينتها مستورًا فتحركت بحركةٍ لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ

قال الطبري في تفسيره ١٩/ ٥٦٢: وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته.

وقال الرازي في تفسيره ٢٤/ ٥٨٩: ليس في القرآن ما يدل على أن أباهما كان شعيبًا.

وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٨.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٤٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٨. قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٢١٤.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٢٠٦.

﴿بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

ومن ذلك أيضًا أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتم الرجال طيبها.

ومن ذلك أيضًا أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق؛ لما فيه من التبرج[1].

موضوعات ذات صلة:

السعي، السير

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩.

المعية

عناصر الموضوع

مفهوم المعية	٩٠
المعية في الاستعمال القرآني	٩١
الألفاظ ذات الصلة	٩٢
أنواع معية الله تعالى لعباده	٩٤
وجود آلهة أخرى مع الله	٩٩
معية الرسل عليهم السلام	١٠٦
آثار المعية الإلهية	١١٦

مفهوم المعية

أولًا: المعنى اللغوي:

المعية نسبة إلى لفظ: (مع)، وهو لفظ يقتضي الاجتماع في المكان، أو الزمان، أو الشرف أو الرتبة، كما يقتضي النصرة.

يقول الراغب الأصفهاني: «مع» يقتضي الاجتماع إما في المكان نحو هما معا في الدار، أو في الزمان نحو ولدا معا، أو في المعنى كالمتضايفين نحو الأخ والأب فإن أحدهما صار أخا للآخر في حال صار الآخر أخاه، وإما في الشرف والرتبة نحو: هما معا في العلو[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تستعمل مع للمصاحبة بين أمرين لا يقع بينهما مصاحبةٌ واشتراكٌ إلا في حكمٍ يجمع بينهما ولذلك لا تكون الواو التي بمعنى مع إلا بعد فعلٍ لفظًا أو تقديرًا لتصح المعية. وكمال معنى المعية الاجتماع في الأمر الذي به الاشتراك دون زمانه.

فالأول: يكثر في أفعال الجوارح والعلاج نحو دخلت مع زيدٍ وانطلقت مع عمرٍو وقمنا معًا ومنه قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف:٣٦].

والثاني: يكثر في الأفعال المعنوية نحو آمنت مع المؤمنين وتبت مع التائبين وفهمت المسألة مع من فهمها ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[آل عمران:٤٣][2].

(١) المفردات ص ٤٧٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٧١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٧٢.

المعية في الاستعمال القرآني

وردت الأداة (مع) في القرآن الكريم (١٦٤) مرة[١]، والمواضع التي وردت متعلقة بالمعية الإلهية بلغ عدد ورودها (٣٨) مرة.

وليس ليها إلا صيغة واحدة (مع).

وجاءت معية الله في القرآن على ثلاثة وجوه[٢]:

الأول: العلم والإحاطة: ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٠٨]. يعني:عالم بهم ومحيط بفعلهم.

الثاني: النصر والرعاية: ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. يعني: ينصرنا ويحفظنا ويرعانا.

الثالث: الاقتران: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء:٢١٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٧٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الياء ص١٤٣٨ ١٤٣٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٢٨ ٤٢٩، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٥٦٢ ٥٦٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحفظ:

الحفظ لغة:

دارت كلمة الحفظ على معاني الرعاية، وعدم النسيان، والتعهد، وقلة الغفلة، وعدم الضياع أو التفلت، والضبط، والمواظبة، تقول كتب اللغة: (الحاء والفاء والظاء أصلٌ واحدٌ يدل على مراعاة الشيء. يقال: حفظت الشيء حفظًا، قال الليث: الحفظ: نقيض النسيان، وهو التعاهد وقلة الغفلة[١].

الحفظ اصطلاحًا:

(يقال: تارة لهيئة النفس التي بها يثبت ما يؤدي إليه الفهم، وتارة لضبط الشيء في النفس، ويضاده النسيان، وتارة لاستعمال تلك القوة، فيقال: حفظت كذا حفظا، ثم يستعمل في كل تفقد وتعهد ورعاية)[٢].

أو هو كما عرفه الجرجاني: (ضبط الصور المدركة)[٣].

أو هو (رعاية العمل علما وهيئة ووقتا وإقامة بجميع ما يحصل به أصله، ويتم به عمله وينتهي إليه كماله)[٤].

الصلة بين الحفظ والمعية:

واضح من خلال التتبع للمادة اللغوية ودوارنها في اللسان العربي العلاقة بينها وبين المعية، فالحفظ يشترك مع المعية في الرعاية والتعهد والمصاحبة والضبط، وهي معاني موجودة في المعية في جانبها الاصطلاحي.

٢ المصاحبة:

المصاحبة لغة:

والمصاحبة والصحبة تدل على معاني الحفظ والملازمة، والموافقة والمشاركة، (فالمصاحبة: الموافقة والمشاركة في الشيء، ويقال: صحبه الله وأصحبه وصاحبه أي:

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ١٩٩، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٢٦٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٨٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٤٤.
(٣) التعريفات ص ٨٩.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٩٨.

حفظه. وقال أبو عبيدة: وقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾[الأنبياء:٤٣].

أي: لا يحفظون ومنه قولهم: لا صحبه الله أي: لا حفظه. ويقال: بأهله صحبة الله وصاحبه أي: حفظه. وتقول: أصحبت الرجل إذا اتبعته منقادا فأنا مصحب والرجل مصحب. وصاحبته إذا رافقته فهو مصحوب)[١]. كما تدل على المنعة، والحماية[٢].

المصاحبة اصطلاحًا:

(الموافقة والمشاركة في الشيء، فإن تتابعوا مع ملاقاة واجتماع فأصحاب حقيقة وإن لا فمجاز)[٣].

الصلة بين المصاحبة والمعية:

المصاحبة واضح فيها معنى المعية، كما أن المشاركة فيها شيء من الدلالة على العون والنصرة، وهي المعاني ذاتها التي دارت عليها مفردة المعية.

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٢٨٠، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٠٧.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٥٤. الصحاح، الجوهري ١/ ١٦٢.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٠٧.

أنواع معية الله تعالى لعباده

الراصد لآيات القرآن الكريم في المعية والمتتبع لها يجد أنها تدور حول قطبين أساسين أو محورين رئيسين: معية عامة لعموم الخلق، ومعية خاصة يتميز بها بعض عباد الله تعالى بشروط محددة، مقرونة بصفات مبينة.

والمعية لها دلالتان، معية بالذات ومعية بالصفات، ومعية الله تعالى لعباده المقصودة معية بالصفات لإجماع المسلمين سلفا وخلفا على أن معية الذات غير مرادة، وإنما المراد معيته تعالى بصفاته اللائقة بمعنى المعية، كالعلم والحفظ والنصرة ونحوها[1]

ويمكننا أن نتتبع هذين النوعين على النحو الآتي:

أولًا: معية عامة:

والمعية العامة تكون لعموم الخلق وهي بالرزق والعلم والتدبير مما يليق به تعالى ويصلح للخلق عامة، وقد وردت آيات كريمة تؤكد هذا المعنى، ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة:٧].

والمعنى: (لا يتناجى ثلاثة فيما بينهم، ولا يتكلمون فيما بينهم بكلام الشر إلا هو رابعهم، لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم. ولا خمسة إلا هو سادسهم يعني: كان هو سادسهم، لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم. ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم يعني: عالم بهم وبأحوالهم أين ما كانوا في الأرض. ثم ينبئهم بما عملوا يعني: يخبرهم بما عملوا يوم القيامة من خير أو شر)[2].

(يسمع سرهم ونجواهم، لا يخفى عليه شيء من أسرارهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ يقول: ولا يكون من نجوى خمسة إلا هو سادسهم كذلك ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ يقول: ولا أقل من ثلاثة ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ من خمسة ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ إذا تناجوا ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ يقول: في أي موضع ومكان كانوا. وعنى بقوله: ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ بمعنى أنه مشاهدهم بعلمه، وهو على عرشه)[3].

وقال أهل المعاني: (يريد: قربة بالعلم)[4].

(١) انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد ص ٢٩.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٤١٦، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٣٥٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٦٨.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٨٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٩٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٥.

ومعنى كونه معهم: (أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه، فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم، وقد تعالى عن المكان والمشاهدة)[1].

والسر في تخصيص الثلاثة والخمسة؛ لأنها نزلت في المنافقين وكانوا يتحلقون للتناجي مغايظة للمؤمنين على هذين العددين، وقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة ولا أدنى من عدديهم ولا أكثر إلا والله معهم يسمع)[2].

أو أن السر في تخصيص العدد: (أن أهل التناجي في العادة طائفة من أهل الرأي والتجارب، وأول عددهم الاثنان فصاعدًا، إلى خمسة، إلى ستة، إلى ما اقتضته الحال)[3].

ومن لطائف الشيخ السعدي رحمه الله ربطه البديع بين صدر الآية وعجزها، واستنباطه لهذا المعنى اللطيف في المعية وهي أن هذه المعية، معية العلم والاطلاع؛ ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم)[4].

فمعية الله تعالى العامة للناس معية علم واطلاع وانكشاف ومشاهدة.

ثانيًا: معية خاصة:

وإذا كنا قد عرفنا المعية العامة التي تعني العلم والإحاطة، والرزق والتدبير والرعاية، فإن هناك معية أخرى خاصة يمنحها الله تعالى لعباده المؤمنين الذين استجمعوا صفات يحبها الله ويدعوهم إليها، وهي عندئذ تعني النصر، والمعونة، والتأييد، والرعاية، والرحمة، والعناية، أو رفع الدرجات أو تكفير السيئات، أو الإكرام في الحياة، ونحو ذلك مما يستحقه المؤمنون الصالحون، وتنوع ورود هذا اللون من المعية في القرآن الكريم، كما سيأتي، ويضاف إلى هؤلاء المكرمين المنعم عليهم بهذه المعية الخاصة أصناف أخرى، منها:

- معيته تعالى للأنبياء عليهم السلام، ومنه قوله تعالى: لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]. والآيات في معية الله تعالى للأنبياء كثيرة وسيأتي مزيد بيان لمعية الله تعالى للرسل في مبحث خاص.
- معيته تعالى للملائكة.
- معيته تعالى لعباده المؤمنين.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٩٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٤٥.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٤٧.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٧/ ٣٣٩
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٣٨.

وهنا فلنتتبع معية الله تعالى لملائكته ولعباده المؤمنين على النحو الآتي:

١. معية الله تعالى للملائكة.

والمعية هنا معية الإعانة والنصر والتثبيت والتأييد، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢].

يعني: (ألهم ربك الملائكة، ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: معينكم وناصركم، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: بشروا المؤمنين بالنصرة، فكان الملك يمشي أمام الصف فيقول: أبشروا فإنكم كثير وعدوكم قليل، والله تعالى ناصركم)[١].

لكن كيف يكون إيحاء الملائكة إلى المؤمنين، إما أن يكون عن طريق الظهور المباشر في صورة رجال، وإما عن طريق الإلهام، يقول القشيري في لطائفه: (قيل كانوا يظهرون للمسلمين في صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد المشركين واستيلاء المسلمين عليهم، وهم لا يعرفون أنهم ملائكة.

وقيل: تثبيتهم إياهم بأن كانوا يلقون في قلوبهم ذلك من جهة الخواطر، ثم إن الله يخلق لهم فيها ذلك، فكما يوصل الحق سبحانه وساوس الشيطان إلى القلوب يوصل خواطر الملك، وأيدهم بإلقاء الخوف والرعب في قلوب الكفار[٢].

وإلقاء الرعب في نفوس المشركين فيه نصر للمؤمنين وتأييد لهم، فلا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم. واجتماعهما غاية النصرة. ويجوز أن يكون غير تفسير، وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا ببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم في القتال، وأن يظهروا ما يتيقنون به أنهم ممدون بالملائكة[٣].

أو يكون التثبيت بحضورهم معهم الحرب وتكثير سوادهم، أو محاربتهم معهم، أو طمأنتهم وقولهم لا بأس عليكم ولا خوف من عدوكم، فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل ويقول: سيروا فإن الله ناصركم. ويظن المسلمون أنه منهم[٤].

٢. معية الله تعالى للمؤمنين.

وقد وردت آيات القرآن الكريم تبين معية الله تعالى الخاصة لعباده المؤمنين الذين لهم صفات تؤهلهم لهذه المعية مثل الصبر والإحسان والتقوى ونحو ذلك من صفات

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ١١.

(٢) انظر: طائف الإشارات، القشيري ١/ ٦٠٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٩٣.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٠٤، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٣٣.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٧٨.

تعينهم على أن يكونوا أهلا لمعية الملك سبحانه، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

ومعنى المعية هنا النصر والمعونة، والمظاهرة، فإن من كان الله معه فهو ناصره وظهيره وراض بفعله، كقول القائل: «افعل يا فلان كذا وأنا معك»، يعني: إني ناصرك على فعلك ذلك ومعينك عليه[1].

وعلى الرغم من أن الله تعالى مع كل أحد معية عامة إلا أنه مع الصابرين معية خاصة، وقد خصهم بالمعية حتى يعلموا أن الله سبحانه وتعالى بمعيته لهم يفرج عنهم، وينصرهم، لقد استوجبوا نهاية الذخر، وعلو القدر حيث نالوا معية الله[2].

قال الإمام ابن تيمية (في شرح حديث النزول): لفظ المعية في كتاب الله جاء عاما كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وفي قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧].

إلى قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ وجاء خاصا كما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٨].

وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

فلو كان المراد بذاته مع كل شيء لكان التعميم يناقض التخصيص. فإنه قد علم أن قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أراد به تخصيص نفسه وأبا بكر دون عدوهم من الكفار.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار.

وأيضًا فلفظ المعية ليست في لغة العرب ولا في شيء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى. كما في قوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح:٢٩].

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٦].

وقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ﴾ [الأنفال:٧٥].

ومثل هذا كثير. فامتنع أن يكون قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يدل على أن تكون ذاته مختلطة بذوات الخلق. وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر وبين أن لفظ المعية في اللغة، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة، فهو إذا كان مع العباد لم يناف

(١) جامع البيان ٣/ ٢١٤.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٠٥، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢١، لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٣٨.

ذلك علوه على عرشه. ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه. فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان. ويخص بعضهم بالإعانة والنصرة والتأييد[1].

وهذه المعية المقتضية للنصر والعون والإمداد معية خاصة كما سبق، (فالله ناصرهم ومجيب دعوتهم، ومن كان الله ناصره فلا غالب له، أما الجازع فقلبه لاه عن ذكر الله، والقلب اللاهي ممتلئ بهموم الدنيا وأكدارها، وإن حاز الدنيا بحذافيرها.

وقد جرت سنة الله أن الأعمال العظيمة لا تنجح إلا بالثبات والدأب عليها، ومدار ذلك كله الصبر، فمن صبر فهو على سنة الله والله معه، فيسهل له العسير من أمره، ويجعل له فرجا من ضيقه، ومن لم يصبر فليس الله معه، لأنه تنكب عن سنته، فلن يبلغ قصده وغايته)[2].

وكما أن الله تعالى مع الصابرين والمحسنين فهو كذلك مع المتقين.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤].

قال ابن عباس: «يريد مع أوليائه الذين يخافونه فيما كلفهم من أمره ونهيه»، قال الزجاج: «تأويله أنه ضامن لهم النصر»)[3].

وكما تكون المعية بالتأييد تكون كذلك من الظلم بالنصرة والظفر بالمعونة والحفظ والعلم[4].

وتبدو السننية في هذه المعية الكريمة في تركيبة الآية إذ عبر فيها بالمشتق، كما هي صور ورود السنن في القرآن الكريم.

(١) محاسن التأويل ١/ ٤٣٧.
(٢) تفسير المراغي ٢/ ٢٣.
(٣) انظر: التفسير البسيط ١٠/ ٤١٧.
(٤) انظر: تفسير السمعاني ٢/ ٣٠٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣١، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٤٣٩.

وجود آلهة أخرى مع الله

تعددت أساليب القرآن الكريم في بيان نفي أن يكون مع الله آلهة أخرى، فمرة يأتي البيان في صورة النفي ومرة في صورة النهي، وثالثة في صورة الخبر التهديدي، وأخرى في صورة الشرط، وأخرى في صورة الاستفهام الإنكاري، وفي الصفحات الآتية نحاول أن نتتبع هذه الصور على النحو الآتي:

أولًا: النفي الصريح:

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تنهى نهيا صريحا عن اتخاذ آلهة مع الله تعالى، ومن المواطن التي ورد فيها ذلك في مقام بيان وعد الله تعالى بالاستخلاف للمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥].

وفيها بيان للعلاقة بين عدم الشرك بالله والاستخلاف في الأرض كما هو واضح في الآية، وورد كذلك في مقام بيان صفات المؤمنين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون:٥٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان:٦٨].

والمعنى: لا يشركون به شيئا، بل يوحدونه ويخلصون له العبادة والدعوة[(١)].

وقد ورد في السنة في هذا المعنى: عن عمرو بن شرحبيل، عن عبد الله، قال: (قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك(فأنزل تصديق قول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]الآية)[(٢)].

كما ورد النفي في القرآن في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون:٩١].

ونلمح في سياق الآية الكريمة مع النفي ترتيبا عجيبا يغري العقل بالتفكر، والذهن بالعمل، والمنطق بالتحرر والانطلاق، وهو ترتيب الانفصام والانفصال بين هذه الآلهة

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٠٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، ٨/ ٨.

المزعومة إن وجدت وبين وجودها، وهذا ما اعتمده علماء العقيدة في أدلة وبراهين نفي الشركاء والآلهة عن الله تعالى.

ثانيًا: النهي الصريح:

ومن أساليب القرآن في نفي المعية عن الله تعالى: النهي الصريح، وهذا أشد في نفي المعية وأقوى، ومن هذه المواضع التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء:٢٢].

والمعنى لا تتخذ مع الله إلها آخر فتصير إلى الذم لأنك أسندت النعمة إلى غير منعمها وحمدت من لا يستحق الحمد وغمط صاحب الفضل والنعمة وساعتها تصير مذموما لاختلال النظر لديك وفساد الحكم في ناظريك، ومخذولا لأن صاحب النعمة والمنة سيكلك إلى من تألهت له وتعبدت فيه، وليس هو من ينصر ولا يعين.

وقوله: (تقعد) من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت، كأنها حربة بمعنى صارت، يعني: فتصير جامعا على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلهك، والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكا له[1].

ويبين الإمام الرازي سبب هذه العقوبة الشديدة والجزاء الوفاق الذي يتناسب مع هذه الجريمة النكراء والعمل الكالح بصورة منطقية عقلية فيرى أن من أشرك بالله كان مذموما مخذولا، والذي يدل على أن الأمر كذلك وجوه:

الأول: أن المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان.

الثاني: أنه لما ثبت بالدليل أنه لا إله ولا مدبر ولا مقدر إلا الواحد الأحد، فعلى هذا التقدير تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى، فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم إلى غير الله تعالى، مع أن الحق أن كلها من الله، فحينئذ يستحق الذم، لأن الخالق تعالى استحق الشكر بإعطاء تلك النعم فلما جحد كونها من الله، فقد قابل إحسان الله تعالى بالإساءة والجحود والكفران فاستوجب الذم وإنما قلنا إنه يستحق الخذلان، لأنه لما أثبت شريكا لله تعالى استحق أن يفوض أمره إلى ذلك الشريك، فلما كان ذلك الشريك معدوما بقي بلا ناصر ولا حافظ ولا معين. وذلك عين الخذلان.

الثالث: أن الكمال في الوحدة والنقصان في الكثرة، فمن أثبت الشريك فقد وقع في جانب النقصان واستوجب الذم والخذلان، واعلم أنه لما دل لفظ الآية على أن المشرك مذموم مخذول وجب بحكم الآية أن يكون الموحد ممدوحًا منصورًا[2].

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٥٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣٢٠،

ومن لطائف البيان القرآني هنا أن الأمر على الرغم من عمومه وأنه موجه إلى كل الخلائق إلا أن التكليف والتوجيه أتى بصيغة الفردية ووجه إلى المفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به، صادر إلى شخصه. فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته، والعاقبة التي تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن «يقعد» «مذموما» بالفعلة الذميمة التي أقدم عليها، «مخذولا» لا ناصر له، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه. ولفظ: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد، ويلقي ظل الضعف فالقعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزا، وهو يلقي كذلك ظل الاستمرار في حالة النبذ والخذلان، لأن القعود لا يوحي بالحركة ولا تغير الوضع، فهو لفظ مقصود في هذا المكان[1].

وهذا التذييل هو فذلكة لاختلاف أحوال المسلمين والمشركين، فإن خلاصة أسباب الفوز ترك الشرك لأن ذلك هو مبدأ الإقبال على العمل الصالح فهو أول خطوات السعي لمريد الآخرة، لأن الشرك قاعدة اختلال التفكير وتضليل العقول[2].

ومن هذه المواضع التي نفى فيها سبحانه المعية بصورة النهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء:٣٩].

والمعنى: واحذر أيها المكلف أن تتخذ مع الله إلها غيره ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل:٥١].

إن فعلت ذلك فقد حق عليك أن ترمى وتطرح في نار جهنم في مهانة وذلة، وأنت معلوم من نفسك على ما اقترفت وملوم من الملائكة خزنة جهنم حين تعنفك[3].

ولا يحتاج إلى بيان هنا أن الخطاب وإن كان واردا للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد به أمته لاستحالة صدور ذلك منه فهو المعصوم[4].

ويلاحظ أن الآيات الكريمة السابقة صدرت بالنهي عن الشرك وبيان أن الله تعالى قضى بأن لا يعبد إلا إياه، وكرر النهي هنا للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، فإن من لا قصد له بطل عمله ومن قصد بفعله أو تركه غيره ضاع سعيه، وأنه رأس الحكمة وملاكها، ورتب عليه أولًا ما هو عائده الشرك في الدنيا وثانيًا ما هو نتيجته في العقبى فقال تعالى: ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٦٤.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٢٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٦٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٥٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٥/ ٧٥٨.

(٤) تفسير السمعاني ٣/ ٢٤٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٣٥.

﴿جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك[1].

ومن لطائف النص القرآني البديع ما ذكره الإمام الشوكاني بأن القرآن راعى في هذا التأكيد دقيقة فرتب على الأول كونه مذمومًا مخذولًا، وذلك إشارة إلى حال الشرك في الدنيا، ورتب على الثاني أنه يلقى في جهنم ملوما مدحورا وذلك إشارة إلى حاله في الآخرة، وفي القعود هناك، والإلقاء هنا، إشارة إلى أن للإنسان في الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة[2].

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء:٢١٣].

ونلاحظ هنا شدة النهي وترتب العذاب على الاتخاذ إن وجد، مع ذكرنا منهجية القرآن في خطاباته للنبي صلى الله عليه وسلم والتي غالبا ما تصدر بما يشعر بأنها ليست عتابا مثل ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[التوبة:٤٣].

ومثل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾﴾[عبس:١].

بصيغة الغائب، والخطاب هنا وارد على تحذير غيره مبالغة بذكره هو صلى الله عليه وسلم، كأن القرآن يقول: إذا كان هذا تهديدنا ووعيدنا لك فكيف يكون لغيرك.

كما قال الإمام القرطبي: المعنى قل لمن كفر هذا القول تهديدا له بالتعذيب. وقيل: هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا، لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره. ودل على هذا قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء:٢١٤].

أي: لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم.[3]

قال ابن عباس رضي الله عنهما يحذر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق علي، ولو اتخذت إلها غيري لعذبتك[4].

وورد التركيب بهذه الصورة فخوطب به النبي صلى الله عليه وسلم مع ظهور استحالة صدور المنهي عنه منه صلى الله عليه وسلم تهييجا وحثا على ازدياد الإخلاص ولطفا لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه[5].

كما حفل القرآن الكريم بآيات أخرى تنص على النهي عن المعية كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٧٧.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٧٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٤٢، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٨٦.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٨٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٨.
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٦٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٠٠.

ثانيًا: الاستفهام الإنكاري:

ومن أساليب القرآن في إنكار آلهة مع الله: استعمال الاستفهام الإنكاري.

وقد ورد هذا في مواطن متعددة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام:١٩].

والمعنى: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين، الجاحدين نبوتك، العادلين بالله، ربا غيره: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ يقول: تشهدون أن معه معبودات غيره من الأوثان والأصنام.

ثم قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّا أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون: أن مع الله آلهة أخرى، بل أجحد ذلك وأنكره فإنما هو معبود واحد، لا شريك له فيما يستوجب على خلقه من العبادة وقل: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ﴾ من كل شريك تدعونه لله، وتضيفونه إلى شركته، وتعبدونه معه، لا أعبد سوى الله شيئا، ولا أدعو غيره إلها[1].

إنه لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله والمكذبين لرسله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ أي: إن شهدوا فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له وشهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم وأديانهم وفسدت آراؤهم وأخلاقهم وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطرهم وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى مع أنه لا يقوم على ما قالوه أدنى شبهة فضلا عن الحجج واختر لنفسك أي الشهادتين إن كنت تعقل ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه الذي أمرنا الله بالاقتداء به فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير[2].

وهذا تقرير لهم مع إنكار واستبعاد قل لا أشهد شهادتكم[3].

ففيه إنكار عليهم توبيخ وتقريع[4].

ثالثًا: الخبر التهديدي:

ولقد تنوعت أساليب القرآن في نفي

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥٣.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.

وجود آلهة مع الله تعالى، ومن هذه الأساليب: الخبر التهديدي، وتكرر هذا في القرآن الكريم مرات عديدة، ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝٩٥ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾ [الحجر:٩٥-٩٦].

وواضح في الآية الكريمة بلاغة التهديد، وشدة الوعيد خاصة في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ خاصة إذا قر في ذهن السامع والمخاطب من الذي يهدد ويتوعد، فهو رب الكون وصاحب الأمر والنهي سبحانه، فقد وعده الله تعالى كفاية هؤلاء المستهزئين.

والمعنى أن الله تعالى يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد، الذين يستهزئون بك ويسخرون منك، فاصدع بأمر الله، ولا تخف شيئا سوى الله، فإن الله كافيك من ناصبك وآذاك كما كفاك المستهزئين. وكان رؤساء المستهزئين قوما من قريش معروفين[(١)].

وفي الآية تسلية له عليه الصلاة والسلام. وتهوينا للخطب عليه، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى، التي هي أكبر الكبائر، التي سيخذلون بسببها. كما قال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم. وفي الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبودًا آخر. وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ عنى به ما عجله من إهلاكهم[(٢)].

ومن الآيات التي حملت الخبر التهديدي لمن يجعل مع الله آلهة أخرى، قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝١١٧﴾ [المؤمنون:١١٧].

والمعنى: ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به، أي: لا حجة ولا بينة له، به لأنه لا حجة في دعوى الشرك ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾، جزاؤه عند ربه يجازيه بعمله[(٣)].

والمعنى الذي له عند ربه أنه لا يفلح ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ فيجازيه عليه كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية:٢٦][(٤)].

وفي الآية إنذار لكل من يدعو مع الله إلها آخر ويشركه معه في الاتجاه والعبادة بدون برهان. فحسابه عند ربه ولن يلقى فلاحًا[(٥)].

ومن أشد الآيات التي تهدد من يتخذ مع الله إلها آخر قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ [ق:٢٤-٢٦].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٥٣.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٤٦.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٧٨.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٥.
(٥) التفسير الحديث، محمد عزت ٥/ ٣٣٨.

وهذا تصوير لمآله يوم القيامة وموقف الملائكة منه، والتعبير بالإلقاء هنا مشعر بهول الموقف، والإلقاء في العذاب الموصوف بالشدة، وترتيب الجزاء على الاسم الموصول وكون صلته أنه جعل مع الله إلها آخر مشعر بضخامة العذاب وهول العقوبة لهول الذنب.

رابعًا: أسلوب الشرط:

ومن أساليب القرآن الكريم في النهي عن اتخاذ آلهة مع الله، وبيان أنها شرك: أسلوب الشرط، فقال تعالى في موضع: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون:١١٧].

وفي الآية الكريمة من التهديد والوعيد ما فيه، والتعبير القرآني البديع: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ غاية في التهديد والوعيد، واختيار لفظ الربوبية التي تشعر باللوم والعتاب على عدم رعاية العبد لهذه الربوبية، وخلطها بغيرها، وعدم عرفان العبد بها مبين أي بيان عن عدم توفيق هذا الذي يستجلب على نفسه غضب ربه والرب بصفاته يعم بفضله مخلوقاته، ويشمل بفيضه جميع الكائنات، فالمحروم من حرم هذه الرحمة على سعتها، والمغبون من جانبه هذا الفضل على اتساعه وعمومه، والمخذول من خلاه هذا التوفيق الرباني.

وقوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ﴾ مع أنه معلوم أنه لا يمكن أن يكون له برهان مشعر بأنه ليس لديه أي دليل ولو كان الدليل وهميا على اتخاذ هذا مع الله تعالى، فهو لا حجة له بالكفر ولا عذر يوم القيامة. كما أن تركيب الجملة بهذه الصورة، وورود الخاتمة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هذا الورود مشعر بأنه جواب لسؤال سابق أو مستتر كأنه قيل: لم كل هذا فقيل: لأنه لا يفلح الكافرون.

يقول الإمام البيضاوي رحمه الله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعبده إفرادًا أو إشراكًا. ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة أخرى لـ ﴿إِلَٰهًا﴾ لازمة له فإن الباطل لا برهان به، جيء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيها على أن التدين بما لا دليل عليه ممنوع فضلًا عما دل الدليل على خلافه، أو اعتراض بين الشرط والجزاء لذلك: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ فهو مجاز له مقدار ما يستحقه[1].

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء:٤٢].

قال ابن عباس: «قل لأهل مكة لو كان معه آلهة كما يقولون من الأوثان، إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا، أي: طريقًا وكانوا

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٩٧، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٠٦.

كهيئته». وقال قتادة: أي يعرفوا فضل ذي العرش ومرتبته عليهم. ويقال: ابتغوا طريقا للوصول إليه. وقال مقاتل: لطلبوا سبيلا ليقهروه كفعل الملوك بعضهم بعضا. ثم نزه نفسه عن الشريك، فقال تعالى: سبحانه، أي :تنزيها له وتعالى عما يقولون أي: عما يقول الظالمون إن معه شريكًا. علوًا كبيرًا، أي: بعيدًا عما يقول الكفار[1].

وهذا تنزيه من الله تعالى ذكره نفسه عما وصفه به المشركون، الجاعلون معه آلهة غيره، المضيفون إليه البنات، فقال: تنزيها لله وعلوا له عما تقولون أيها القوم، من الفرية والكذب، فإن ما تضيفون إليه من هذه الأمور ليس من صفته، ولا ينبغي أن يكون له صفة[2].

وهكذا تتنوع أساليب القرآن الكريم في نفي وجود آلهة مع الله تعالى وسبحان من عز عن النظير والشبيه وتعالى عن الند والمثيل.

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣١٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٥٣، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٤٤٧.

معية الرسل عليهم السلام

ومن صور المعية الواردة في القرآن الكريم معية المرسلين عليهم السلام، ويقصد بها جانبان: معية الرسل للناس، ومعية الناس لهم.

أولًا: معية الرسل للناس:

وقد أجمل أستاذنا العلامة الدكتور عبد الستار سعيد في جمع تصور تلك المعية بصورة بديعة إذ يرى أن معية الرسل للناس جماعها في أمور منها:

١. معية التربص والانتظار.

وهي في جانب المدعوين بعد إقامة الحجة عليهم وتنكرهم للبرهان واعتسافهم للدليل. ومنه ما حدث مع نبي الله هود مع قومه، إذ قال الله تعالى فيهم: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف:٧١].

والمعنى كما قال ابن عباس: وجب ونزل عليكم عذاب وسخط[3].

(وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ولهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٣٤.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال في الآية الأخرى)[1].

ومنه ما ورد على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود:٩٣].

يعني: (اعملوا في هلاكي وفي أمري، إني عامل في أمركم ومكانتكم،ثم قال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا وعيد لهم، ستعلمون من هو كاذب، ويقال: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني: يهلكه ويهينه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ يعني: ستعلمون من هو كاذب.

ويقال معناه: من يأتيه عذاب يخزيه، ويخزي أمره، من هو كاذب على الله بأن معه شريكا، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ يعني: انتظروا بي العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ يعني: منتظر بكم العذاب في الدنيا)[2].

والمعنى: اعملوا (على تؤدتكم وتمكنكم فإني على تمكني، فسوف تعلمون أينا الجاني على نفسه، والمخطئ في فعله، فذلك قوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يذله ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ وانتظروا العذاب إني معكم منتظر)[3].

٢. معية الصبر والالتزام، مع ضعفاء المؤمنين الضعاف.

ومنه ما ورد في أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

وفي الآية يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر مع هذه الفئة المؤمنة والصبر معها حتى يبلغهم رسالته، وألا يرفع بصره عنهم، وعدم الانشغال بمن غفل عن ذكر الله تعالى، واتبع هوى نفسه.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿نَفْسَكَ مَعَ﴾ أصحابك ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بذكرهم إياه بالتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها ﴿يُرِيدُونَ﴾ بفعلهم ذلك ﴿وَجْهَهُ﴾ لا يريدون عرضا من عرض الدنيا.

وقوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٩٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٦٣، تفسير السمرقندي ٢/ ١٦٨.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٧، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٣٠٧.

تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: لا تعد عيناك عن هؤلاء المؤمنين الذين يدعون ربهم إلى أشراف المشركين، تبغي بمجالستهم الشرف والفخر)[1].

ومن روائع الآية الكريمة ولطائفها أنه تعالى قال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ولم يقل: «قلبك» لأن قلبه كان مع الحق، فأمره بصحته جهرا بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سرًا بسر.

ويقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: معناها مريدين وجهه أي في معنى الحال، وذلك يشير إلى دوام دعائهم ربهم بالغداة والعشي وكون الإرادة على الدوام[2].

٣. المعية الممنوعة المحرمة.

وتكون في حق الظالمين والمعاندين، وتقع دائما بعد نهي عنها وأمر بمفارقة أصحابها وعدم شهود مجالسهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإذا رأيت يا محمد المشركين الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليك، ووحينا الذي أوحيناه إليك، و«خوضهم فيها»، كان استهزاءهم بها، وسبهم من أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يقول: فصد عنهم بوجهك، وقم عنهم، ولا تجلس معهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ يقول: حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله من حديثهم بينهم وإن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا، ثم ذكرت ذلك، فقم عنهم، ولا تقعد بعد ذكرك ذلك مع القوم الظالمين الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوض فيه بما خاضوا به فيه[3].

وهؤلاء المراد بهم المشركون أو اليهود أو أصحاب الأهواء كما منعه الله تعالى من شهودهم ومخالطتهم عقوبة لهم بالحرمان، وإبعادا لهم عن أسباب التوفيق جزاء فعلهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام:١٥٠].

والمعنى: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٩١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٣٦، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٠١، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤١.

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١٥٠﴾ أي: يشركون به ويجعلون له عديلا.[1]

ثانيًا: معية الناس للرسل:

والمتأمل للآيات التي تناولت معية الناس للرسل يمكن أن يقسمها إلى قسمين:

- معية في غير أمور الدين، مثل معية صاحبي يوسف ليوسف في السجن، ومعية إسماعيل لإبراهيم عليه السلام عندما بلغ معه السعي.
- ومعية في أمور الدين وهي التي تعني الاتباع ويعبر عنها القرآن الكريم بالاستجابة والإسلام، والطاعة، والنصرة، والجهاد، والعبادة، والتوبة، ونحوها.

وقد سلك القرآن الكريم في بيان معية الناس للرسل مسلكين عامًا وخاصًا، فالعام هو ما ذكرت فيه المعية بصفة عامة دون تحديد صاحب المعية، وتأتي هذه الآيات في صورة سننية قاعدية مطردة، كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦﴾ [آل عمران:١٤٦].

وكما نلاحظ في الآية الكريمة أن لفظة: ﴿نَّبِيٍّ﴾ وردت نكرة بما يفيد عمومها وشيوعها، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة:٢١٤].

وفي هاتين الآيتين تبدو صورة المعية في أقوى مراحلها وفي أدق خصائصها إذ هي في مرحلة الابتلاء والاختبار والجهاد ومس البأساء والضراء والزلزلة.

والمعنى وكأين من نبي قاتل معه جماعات كثيرة ربانيون علماء أتقياء، أو عابدون لربهم. فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما فتروا ولم ينكسر جدهم لما أصابهم من قتل النبي أو بعضهم. وما ضعفوا عن العدو أو في الدين. وما استكانوا وما خضعوا للعدو بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدما، لم تزل سنة الله جارية بذلك[2].

ثالثًا: معية الرسل الخاصة:

وأما المسلك الخاص فقد بدا في حديث القرآن الكريم عن الرسل عليهم السلام بذكرهم صراحة، قد حفلت آيات القرآن ببيان هذه المعية، ويمكن أن نتتبعها على

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٢٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١١١، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١١٦.

النحو الآتي:

١. معية نوح عليه السلام.

وأول ما نلمح في الآيات التي وردت عن المعية في حق نوح والذين آمنوا معه، يبدو لنا أنها من أكثر المواطن التي تكرر فيها لفظ المعية، مع نبي من الأنبياء، فقد وردت ثماني مرات وكأن في ذلك تأسيسا لأن معية الصالحين أصل في قيام الحضارة وبقاء الإنسانية أصلا، كما أن في ذلك بيانا وإشارة إلى أن قيام الجماعة المؤمنة أصل قديم في دعوة الأنبياء عليهم السلام، كما نلاحظ أن معية نوح والإيمان بالله سبب في النجاة والفوز، فقد فصلت الآيات الكريمة بين معسكرين معسكر الخير والحق وهم من ركبوا مع نوح في الفلك، ومعسكر الشر والباطل وهم المغرقون، ولذلك دعا نوح عليه السلام ابنه ليركب معهم وقال: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود:٤٢].

والعجيب أن نوحا عليه السلام عبر عن غير الراكبين معه بالكافرين إشارة إلى أن سبب عدم ركوبهم هو عدم إيمانهم بنوح، وعدم ثقتهم في أوامر الله تعالى، فكأنه كما انقسم الناس في أمره إلى أهل حق وأهل باطل انقسموا في النهاية إلى ناجين ومغرقين بل مؤمنين وكافرين وكأن النجاة الأولى مقدمة للنجاة في الآخرة، والهلاك في الأولى مقدمة للهلاك في الآخرة، ولعل هذا من أسرار تعبيره عليه السلام عنهم بـ(الكافرين).

كما تلمح من الآيات الكريمة أن من تمام نعمة الله تعالى على المؤمنين معه أن أهلك عدوهم، وتكرر هذا في آيات متعددة، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف:٦٤].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾ [يونس:٧٣].

٢. معية هود عليه السلام.

ومعية هود عليه السلام واضح منها أنها معية له بعد الإيمان به؛ لأنه في هذه المراحل الصعبة من عمر الدعوات لا يتبع الأنبياء إلا أولو العزائم، فهي فترات ابتلاء واختبار، ويبدو في الآيات الكريمة التي تحدثت عن معية هود عليه السلام أمور منها: التأكيد أن الإيمان والمعية هما سبب النجاة، ولذا ورد في الآيتين اللتين تحدثتا عن معية هود الربط بين المعية والإيمان، كما ورد أيضا النص على هلاك عدوهم، بل قطع دابرهم، وفي ذلك شفاء لصدور المؤمنين، وإراحة لنفوسهم.

٣. معية صالح عليه السلام.

وفي حق صالح عليه السلام ما زال التأكيد أن المعية والإيمان سبب النجاة والعصمة، فقد ورد التلازم بين الإيمان والمعية كذلك، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود:٦٦].

فما زالت البشرية في عهد بناء الجماعة المؤمنة، وفي الآية بيان أنَّ سبب النجاة الإيمان والمعية.

٤. معية شعيب عليه السلام.

وفي حق شعيب عليه السلام يستمر الأمر على تباعد الزمان والمكان، بل تتضح تلازمية النصر بالمؤمنين من خلال معرفة الكافرين بهذا، فلم يقتصر التهديد هنا لشعيب فقط بل هو والذين معه، وهنا ﴿۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨].

بل تبدو سنة من سنن الله تعالى في الدعوات وأصحابها إلى الإخراج والإبعاد، وهي سنة تتكرر شأن السنن الماضية؛ فقد هددوا شعيبًا والذين آمنوا معه بالطرد والإبعاد حتى يعودوا في ملتهم مرة أخرى، والزمن يعيد نفسه وسننة الماضية، والجواب من الو الجواب على تراخي الزمن وتباعد المكان: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

ويستمر الجواب على نفس السؤال حتى يقضي الله بالحق وينتصر الصدق ورسالة الإسلام.

إن الناقمين اليوم في أعصارنا التي نشهدها على المسلمين ليسوا ناقمين إلا لأنهم أصحاب دين وأرباب رسالة، تتغلل إلى نفوس الناس وتتلطف إلى قلوبهم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٥. معية إبراهيم عليه السلام.

وتستمر النماذج الرائدة في المعية مع الأنبياء والمرسلين على تباعد المكان وتطاول الزمان، فنصل إلى إبراهيم عليه السلام، وتستمر آيات المعية في التأكيد على أهمية الأمة الجديدة وضرورة صلابتها في مقارعة الباطل ومنازلة الشرك إلى آخر مدى، ويبدو من الآية الكريمة مصارعة الذين آمنوا للكافرين مصارعة فكرية واضحة بان فيها إعلان البراءة منهم، وكفرهم بهم، وبدو العداوة والبغضاء أبدًا حتى يؤمنوا

بالله وحده، وهذه نقلة في الخطاب لم تكن من قبل، تبدو فيها المفاصلة والمباينة حتى يظهر معنى الولاء والبراء، ثم الالتجاء إلى الله تعالى والتوكل عليه والإنابة إليه، والوعي العملي بأن الكل صائر إليه.

فيقولون في وضوح وشموخ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة:٤].

ولأمر حكيم صُدِّرَت الآية بندب المؤمنين إلى التأسي بهذه الصفات التي لا بد منها في مقارع، ثم كرر القرآن الكريم لفت أنظار المؤمنين إلى هذه الأسوة الحسنة بعد آية واحدة فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة:٦].

٦. معية موسى وهارون عليهما السلام.

ومن جمع الآيات التي تتحدث عن معية موسى عليه السلام يمكننا أن نستبين بعض المفاهيم منها:

- المعية أمر من الله من بداية الدعوة.

إن المعية كانت من بداية الدعوة، وهي معية هارون أخيه له.

قال تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف:١٠٥].

وهذا مبني على أن الأمر بالمعية كان من بداية الدعوة: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء:١٦-١٧].

فالإرسال(مقيد بالمعية في الآيات جميعا، وليس مجرد إرسال مطلق يتحرر به بنو إسرائيل من بطش فرعون فقط، وإنما هو دخول في معية الجماعة المسلمة الجديدة، التي تتميز بها عن معية فرعون وقومه)[1].

- معية موسى وموقف أتباع فرعون منها.

وهذه المعية كما كانت أمرًا من بداية الدعوة، وطلبا من موسى وهارون لفرعون حين طلبًا أن يرسل معهم بني إسرائيل، أدركها أتباع فرعون حين أرادوا وأد الدعوة من البداية، فاطيروا بها وبه وبهم فكانوا كما وصف القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف:١٣١].

وكذلك كانت نظرة أتباع فرعون إلى موسى وهارون وقومهما حين ظهرت

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد ص ١٤٩.

دعوتهم، وبدأ الناس يقتنعون بها، كما وصف القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٥].

لقد طلبوا قتل أبناء المؤمنين، ووصفوهم بالمعية والإيمان.

- استنقاذ بني اسرائيل من فرعون.

كما كانت المعية واضحة في نجاة هؤلاء المؤمنين، ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الشعراء:٦٥].

والمعنى: (وأنجينا موسى مما أتبعنا به فرعون وقومه من الغرق في البحر ومن مع موسى من بني إسرائيل أجمعين)[1].

٧. معية داود وسليمان عليهما السلام.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن معية داود وسليمان عليهما السلام بان لنا عدد من الملامح - من خلال رصد الآيات الكريمة الخاصة بمعيتهم منها:

- المعية هنا ليست معية البشر فقط.
- أن الآيات الكريمة التي تحدثت عنهم لم تتحدث عن معيتهم للبشر، فقد كانا ملكين، ومعية الناس لهم ليست مستغربة ولا منكرة وهم لم يكونا بحاجة إلى دعوة الناس إلى معيتهم، بل ظهرت معية أشياء أخرى مثل معية الجبال والطير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص:١٨-١٩]. وكما قال سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ:١٠].

كما نصت الآيات على معية بلقيس ملكة سبأ وقومها، وهم من كانوا (مظنة امتناع عن معية سليمان؛ لما كان لهم من دولة وقوة وجيش وحضارة وغنى وسلطان، فأثبت القرآن هذه المعية على لسان الملكة نفسها حين قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل:٤٤].

٨. معية عيسى عليه السلام.

وأما نبي الله عيسى عليه السلام فلأنه لم يكن مؤسسا لأمة جديدة، بل متمما ما بدأه أخوه موسى عليه السلام - فإن الحديث عن معيته قد ورد على لسان الحواريين كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣].

أي: (نحن أنصار الله ومن ينصر الرسول فقد نصر الله ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٠.

نحن أنصار الله آمنا به إيمانًا صادقًا واتبعنا رسله واشهد بأنا مسلمون؛ إذ الإسلام في جوهره لا يختلف فيه دين عن دين.

ربنا آمنا وصدقنا بما أنزلت في كتابك واتبعنا الرسول عيسى ابن مريم، فاكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون لأنبيائك بالصدق)[1].

٩. معية محمد صلى الله عليه وسلم.

وإذا انتقلنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبيان المعية في حقه فاجأنا أن آيات المعية في حقه هي أكثر المواطن ورودًا في القرآن الكريم، وأكثرها تفصيلًا بين خاص وعام، والخاص فيه تفصيلات دقيقة يأتي بيانها، لكن الإشارة الواضحة هنا في الآيات أنه كما أن الأمة الخاتمة تحتاج إلى جهد في تأسيسها وبنائها فهي كذلك، وبهذا القدر تحتاج إلى طول معية وصحبة للرسول صلى الله عليه وسلم، في حياته لشخص، وبعد وفاته لسنته ومنهاجه، وكلما اقتربت الأمة من سنته ودخلت في معيته كلما اقتربت من النجاة والفلاح، والعز والنجاح، وكلما ابتعدت عن منهاجه كلما ضلت سبيلها وتنكبت طريقها.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة:٨٨].

فربط الله تعالى حصولهم على الخيرات والفلاح بالإيمان والمعية والجهاد بالأموال والأنفس.

وإذا حصرنا الآيات التي تناولت تلك المعية المباركة وجدنا أنها سارت في محورين رئيسين، محور عام وآخر خاص.

فالمعية العامة هي التي تناولت أمور الدين والرسالة جملة، وفيها حديث إلى المدعوين عامة من مثل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الملك:٢٨].

وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء:٢٤].

وقد كانت هذه المعية واضحة وظاهرة حتى في أذهان المشركين إذ قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص:٥٧].

والمعية الخاصة وهي التي بدا فيها معيته صلى الله عليه وسلم للمؤمنين، وتنوعت هذه المعية وكثرت صورها فمرة تكون في الجهاد، كقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

(١) التفسير الواضح، محمد حجازي ١/ ٢٣٦.

﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة:٨٨].

ومرة في عتاب المنافقين المخلفين عن الجهاد كقوله: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة:٨٦].

ولذا أرشده الله تعالى إلى حرمانهم من هذه المعية، فقال: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة:٨٣].

ومرة في صلاة الخوف كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢].

ومرة تكون في الهجرة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

ومرة في تعليم المؤمنين منهجية التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم وعدم تركه إلا بإذن، تربية لهم على أخلاق المدنية، وأخذًا بأيديهم إلى طرق الدولة، وسلوك الأمم والحضارات، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور:٦٢].

آثار المعية الإلهية

للمعية أثر لا ينكر، وفضل لا يخفى، فمعية الله سر النجاح ولب الفلاح، ومدار الهداية والتوفيق، والنصر والتأييد، والحفظ والرعاية والحياطة والعناية، فمن كان الله معه فمن يكون عليه، ومن كان الله عليه فمن يكون معه.

وقد قال قتادة: «من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب ،والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل»[(١)].

ومن آثار المعية ما يأتي:

أولًا: المراقبة:

المراقبة من أهم آثار المعية، سواء كانت المراقبة من قبل العبد لربه أم من الله تعالى لعبده، وإن كان الأغلب فيها مراقبة العبد لربه ونظره له ومشاهدته إياه في أعماله وسلوكه، والمقصود من المراقبة: (استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله)[(٢)].

وهو حين يتحقق بهذه الصفة ويتحلى بهذا الخلق، يصل إلى معاني تملأ عليه نفسه بالخير والرضا واليقين والثبات، فهو في معية الله تعالى يشعر بمراقبة الله له فيجله عن أن يراه على غير ما يرضيه، أو يتفقده فيما يرضيه، وهذا المعنى هو الوارد في حديث الإيمان، إذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل حينما سأله عن الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[(٣)].

وقد غرست آيات المعية الواردة في القرآن الكريم هذا المعنى في نفوس المؤمنين بصور شتى، وألوان متعددة، ومن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٣-٤٦].

أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي فلا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى علي من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي[(٤)].

وفي هذا طمأنة لهما بأن فرعون ليس

(١) انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم ٢/ ٣٤٠.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ٢١٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل، ١/ ١٩، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ٣٩، رقم ٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٢٤، ٥/ ٢٦١.

بالذي يصل إلى قتلهما حتى يبلغا الرسالة. وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما وأنه متولٍّ لحفظهما وكلاءتهما[1].

وقال ابن عباس في معنى الآية الكريمة: أسمع دعاءكما فأجيبه، وأرى ما يراد بكما فأمنعه[2].

ولذا قال موسى عليه السلام: الآن لا أبالي بعدما أنت معي[3].

قال: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ أي: من فرطه وطغيانه ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ أي: بالحفظ والنصرة ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: ما يجري بينكما وبينه. فأرعاكما بالحفظ[4].

وقد دل الله تعالى عباده على تصور هذه المعية من خلال تعريفهم أن عليهم حافظين، كراما كاتبين، فليكرموهم وليراقبوا أنفسهم في ضوء معرفة هؤلاء الكرام بهم.

ولذا قال صاحب لطائف الإشارات: (حشمتهم من اطلاع الحق، ولو علموا ذلك حق العلم لكان توقيهم عن المخالفات لرؤيته- سبحانه، واستحياؤهم من اطلاعه- أتم من رؤية الملائكة)[5].

(١) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٢٦١، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١١
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٧٦.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٤٥٨.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٢٧.
(٥) لطائف الإشارات ٣/ ٦٩٨.

ثانيًا: النصر والتأييد:

ومن آثار المعية نصر الله تعالى لعبده الذي يكون في معيته، وتأييده له، وقد نصت آيات القرآن الكريم على هذا الأثر من آثار المعية النصر والتأييد، فالله تعالى يمد عبيده بنصره ويؤيدهم به، ومن هنا دعاهم إلى عدم الهوان أو التفريط والتسليم والتنازل والتخاذل، فهم أولو المعية وأصحاب نصر الله وتأييده.

قال تعالى آمرًا عباده بمراعاة أثر هذه المعية من النصر والتأييد: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد:٣٥].

والمعنى:(أنتم الأعلون بالنصرة. وهو تعالى معكم بالحفظ، والمعونة)[6].

والتأييد والتسديد، ومن كان الله معه بنصره فمن يغلبه، ومن كان معه بتأييده فمن يعلوه، ومن كان معه بتسديده فمن يصرفه عن طريق الهدى، أو يشغب على منهاجه المستقيم؟

إن في ذلك لكل من غلب على حقه، وأوذي في الله أن يستصحب معية الله ويتحقق بها، ففيها بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، وقد قال تعالى في الآية نفسها: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، أي:

(٦) انظر: تفسير السمعاني ٥/ ١٨٥، زاد المسير ٤/ ١٢٣.

ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا[1].

وشعورهم بأن الله معهم، بالعون، والنصر، والتأييد، موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم[2].

ولذلك رأينا رؤوس المصلحين والدعاة الصادقين على تباعد المكان وتطاول الزمان في أتون المحنة يهشون للعطاء ويستروحون نسائم المنح، فنسمع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في محنته يقول: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا[3].

ونسمع تلميذه ابن القيم ينقل عنه قوله: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه[4].

وفي اشتداد الصراع بين الحق والباطل، وهو سنة من سنن الله الجارية، والتي لا تتبدل ولا تتحول ينبههم سبحانه على معيته لهم المقتضية للنصر والعون والتأييد والتسديد، فيقول: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

وفي حلقة من حلقات الصراع بين الحق والباطل وسنة من سنن الله تعالى فيها يبين عز وجل أن معيته ونصره وتأييده مع عباده الصابرين فيقول: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

وهذا إعلام منه تعالى ذكره عباده المؤمنين به أن بيده النصر والظفر والخير والشر[5].

وأن هذا النصر ليس بهم بل بإذن الله، بمشيئته وعونه ونصرته، والله مع الصابرين بالنصرة والتأييد والقوة والمعونة[6].

وأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم[7].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٩٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٠.
(٣) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٥٣.
(٤) المصدر السابق ١/ ١٥٤.
(٥) جامع البيان، الطبري ٥/ ٣١٦.
(٦) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٩٤.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٨.

وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم، ومنه في مقام دفع الكفار والحملة عليهم يرد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

وقد قال بعض الصحابة: إنما تقاتلون الناس بأعمالكم وأهلها هم المجدون في طرق الحق، فوعد تعالى أنه مع أهل التقوى ومن كان الله معه فلن يغلب[(١)].

ومن روائع صاحب المنار وبدائعه أن يربط معنى التقوى لله تعالى بالسنن فيرى أن تقواه تعني أيضا مراعاته في أحكامه وسننه، حتى يستجلب نصره وتستدعى معونته، فيرى أن المتقين هنا هم المتقون له في مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب، من التقصير في أسباب النصر والغلب التي بينها في كتابه، والتي تعرف بالعلم والتجارب، كإعداد ما يستطاع من قوة، والصبر والثبات، والطاعة والنظام، وترك التنازع والاختلاف، وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب[(٢)].

وفي معيته تعالى للملائكة يؤيدهم وينصرهم، ويعينهم ويثبتهم، ويأمرهم بتثبيت المؤمنين ونصرهم إذ يقول: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال:١٢-١٣].

وفي هذا تعهد من الله تعالى بإعانة أهل الإيمان الحق، وبنصرتهم على غيرهم ولو كانوا ثلة قليلة، ما تمسكوا بإيمانهم وثبتوا على دينهم، وكانت صلتهم بالله موصولة غير مقطوعة[(٣)].

والمعنى: إني أعينكم على تنفيذ ما آمركم به من تثبيتهم على قلوبهم، حتى لا يفروا من أعدائهم على كونهم يفوقونهم عَدَدًا وعُدَدًا ومَدَدًا - إعانة حاضر معكم لا يخفى عليه ولا يعجزه شيء من إعانتكم، والوعد بالإعانة وحده لا يفيد هذا المعنى كله، ففي المعية معنى زائد على أصل الإعانة نعقل منه ما ذكر، ولا نعقل كنهه وصفته[(٤)].

ومعنى ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالعون والنصر والتأييد، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله[(٥)].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٩٨، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٧٤.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٦٦.
(٣) التيسير في أحاديث التفسير ٢/ ٣١٤.
(٤) تفسير المنار ١٠/ ١٠٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٦.

ثالثًا: التوفيق والمحبة:

ومن ثمرات المعية: التوفيق والمحبة، والدلالة على سبل الرشاد، وطرق الهداية، وتلك لها مقدماتها التي تفضي إلى نتائجها، وأسبابها التي تعين على الوصول إليها.

وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

إن هذه المعية التي أدت إلى الهداية والتوفيق والمحبة ليست من فراغ، بل بنيت على جهاد ومجاهدة، وصبر ومصابرة، ودلالة ﴿فِينَا﴾ على جهة الجهاد وصدق النية فيه وتمحض المقصود به ما فيه، ومعنى المعية هنا: بالعون والنصر والهداية[1].

وإذا تتبعنا أقوال المفسرين في دلالة المعية هنا وجدنا أكثرهم يركز على أن المقصود بها هو النصر، والمقام هنا ليس مقام صراع بين فئتين، بل صراع بين النفس البشرية ومتطلباتها، أو صراع بين المحبوب والمكروه، والنصر هنا هو نصر الهداية والتوفيق والدلالة على سلامة المنحى وصحة الطريق.

ولذا قال الإمام الشوكاني رحمه الله: المعية هنا بالنصر والعون، ومن كان معه لم يخذل[2].

رابعًا: الحفظ والرعاية:

ومن ثمرات المعية كذلك حفظ الله ورعايته لمن كان في معيته.

وتبدو هذه المعية وتظهر آثارها في الحفظ والرعاية في مقام الدعوة فيبين لهم تعالى أنه حافظهم وراعيهم؛ حتى يطمئن أصحاب الدعوات والذين يكونون في معيته تعالى أنهم محفوظون ومراعون من قبل ربهم، فهو ناصرهم ومعينهم ومؤيدهم ومثبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٧-١٢٨].

والمقصود من معيته تعالى هنا أنه سبحانه يعينهم ويحفظهم من مكر الأعداء بهم، وينصرهم عليهم، فهي معية رعاية وحفظ[3].

ودلت آيات كثيرة على هذا المعنى منها قوله تعالى في حق النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه إذ هما في الغار: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ

(١) المصدر السابق ص ٦٣٦.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٣٨٠.
(٣) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٢٢٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٥/ ٧٠٨.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

وأي: فضل أعظم من هذه المعية التي ينال بها صاحبها السكينة والتأييد وعلو الكلمة وأصبح في جوار العزيز الحكيم، ومعنى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾: أي: بالنصر والرعاية والحفظ والكلاءة[1].

والمعنى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ أي: إن لم تنصره فسينصره الله كما نصره. ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ ولم يكن معه إلا رجل واحد، أو إن لم تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في غيره، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ وهو أبو بكر رضي الله عنه ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة والمعونة[2].

وتلك سنة الله تعالى في رسله وأنبيائه، وهي ماضية مع عباده المؤمنين الذين نالوا شرف معيته عز وجل، فكما كان للمعية أثر الحفظ والرعاية مع رسولنا صلى الله عليه وسلم وصاحبه، كان لها نفس الأثر مع موسى وهارون من قبل، حينما أمرهما الله تعالى بالذهاب إلى فرعون لبلاغ الرسالة، واستخلاص بني إسرائيل من قهره وسخرته، قالا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٥-٤٦].

والمراد ﴿لَا تَخَافَا﴾ مما عرض في قلبكما من الإفراط والطغيان؛ لأن ذلك هو المفهوم من الكلام، يبين ذلك أنه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة. وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ عبارة عن الحراسة والحفظ، وأكد ذلك بقوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فإن من يكون مع الغير وناصرًا له وحافظًا يجوز أن لا يعلم كل ما يناله، وإنما يحرسه فيما يعلم، فبين سبحانه وتعالى أنه معهما بالحفظ والعلم في جميع ما ينالهما، وذلك هو النهاية في إزالة الخوف.

قال القفال: قوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ يحتمل أن يكون مقابلا لقوله: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ والمعنى: يفرط علينا بأن لا يسمع منا: أو أن يطغى بأن يقتلنا، فقال الله تعالى: إنني معكما أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما، وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٤٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٦، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٤١٩.

بحفظي ونصري وتأييدي[1].

وهذا ما كان، فقد تحقق وعده عز وجل سواء في بلاغ الرسالة أو في حفظ موسى وهارون من فرعون وجنده، وتيقن موسى من هذا حتى مع ما كان في قلبه في بداية الدعوة من خوف بشري فطري جعله يقول ما يقول.

إلا أننا نراه في موقف أشد وأحد في موقف عبور النهر يقول لقومه رادعًا لهم وزاجرًا عن أوهامهم عندما قالوا: إنا لمدركون: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء:٦٢].

فنبههم موسى أن ليس الأمر كما ذكرتم، كلا لن تدركوا إن معي ربي سيهديني، يقول: سيهديني لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه وسيكفيني، أي: للنجاة، وقد وعدني ذلك، ولا خلف لموعوده[2].

وفي بيان موسى عليه السلام هذا البيان ورده على قومه بهذه الشدة ﴿كَلَّآ﴾ ما فيه من توكيد ويقين وثقة واطمئنان إلى قدرة الله الحافظ ونصرته وهو المعين ﴿كَلَّآ﴾ في شدة وتوكيد. كلا لن نكون مدركين.

كلا لن نكون هالكين.

كلا لن نكون مفتونين.

كلا لن نكون ضائعين ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ بهذا الجزم والتأكيد واليقين.

وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون[3].

موضوعات ذات صلة

التقوى، الحفظ، الصحبة، القدر

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٥٤، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٣/ ٢٥٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٥٦، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١١٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٩.

المكر

عناصر الموضوع

مفهوم المكر	١٢٤
المكر في الاستعمال القرآني	١٢٥
الألفاظ ذات الصلة	١٢٦
المكر وأسبابه	١٢٨
عواقب المكر	١٤٥

مفهوم المكر

أولًا: المعنى اللغوي:

الميم والكاف والراء أصل صحيح يدل على الالتفاف، ولذلك سمي الشجر الملتف مكرًا، وعلى هذا فإن المعنى اللغوي للمكر هو أحد أمرين: الاحتيال في خفية والخداع، والآخر: خدالة الساق، وامرأةٌ ممكورة الساقين. أي: مستديرة الساقين[(١)].

فمادة (مكر) الواردة في معاجم اللغة تدور حول الالتفاف، والفتل، والخداع، والتدبير[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

فرق كثير من العلماء بين المكر المضاف إلى الله تعالى، والمكر الواقع من الخلق، فأما المكر المضاف إلى الله تعالى يكون تعريفه، كما ذكر العلماء: «هو إرداف النعم مع المخالفة، وإبقاء الحال مع سوء الأدب، وإظهار الكرامات من غير جهد»[(٣)]، ومن المعلوم أن هذا الشرح هو توضيح لمعنىً ظاهر؛ لكن في حق الله تعالى فإن المكر صفة من صفاته، نؤمن بها بلا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه.

يضاف إلى أن بعض العلماء ذكر أن إمهال الله تعالى للعبد وتمكينه من بعض أعراض الدنيا من مكره جل جلاله، ولذلك قال أمير المؤمنين رضي الله عنه: «من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله»[(٤)].

وأما مكر العبد، فقد عرفه أكثر من واحد، منهم:

تعريف الراغب الأصفهاني بأنه: «صرف الغير عما يقصده بحيلة»[(٥)].

وعرفه الجرجاني بأنه: «إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر»[(٦)].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٤٧٠، تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٣٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٦٣، ٣٤٥، المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ٥/ ٦، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٨٤.

(٢) انظر: لسان العرب ٥/ ١٨٣، الفروق اللغوية، العسكري ص٢٦٠.

(٣) التعريفات، الجرجاني ص٢٢٧.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٧٢.

(٥) المصدر السابق.

(٦) التعريفات ص٢٢٧.

المكر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مكر) في القرآن على صيغ متعددة، بلغت(٤٣) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٤٢]
الفعل المضارع	١١	﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس:٢١]
المصدر	١٩	﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩]
اسم الفاعل	٢	﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران:٥٤]

وورد المكر في الاستعمال القرآني بمعنى: الاحتيال، ويكون بالقول والفعل، وهو ضربان:

- محمود، وهو: ما يتحرى به أمر جميل، وعلى ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[آل عمران: ٥٤].
- ومذموم وهو: ما يتحرى به فعل ذميم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[فاطر: ٤٣].[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الميم٢، ص١٢١٨-١٢١٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٣٢-٤٣٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٥١٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخيانة:

الخيانة لغةً:

الاحتيال والخداع. فالخيانة خلاف الأمانة[١].

الخيانة اصطلاحًا:

«مخالفة الحق بنقض العهد في السر»[٢].

الصلة بين الخيانة والمكر:

الخيانة والمكر يشتركان في الاحتيال في الخفاء[٣]، ويختلفان في أن المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة، وقد يكون محمودًا، عندما يتحرى بذلك فعل جميل، وقد يكون مذمومًا، وهو: أن يتحرى به فعل قبيح، بينما الخيانة لا تكون إلا شرًا محضًا، فلا توجد خيانة محمودة؛ لذلك لا تضاف الخيانة إلى الله تعالى بأي حال من الأحوال.

٢ الكيد:

الكيد لغةً:

هو المكر والخبث، والحيلة، والحرب[٤].

الكيد اصطلاحًا:

«إرادة مضرة الغير خفية، وهو من الخلق: الحيلة السيئة، ومن الله سبحانه وتعالى: التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق»[٥].

الصلة بين الكيد والمكر:

بينهما تشابه من حيث إن المكر مثل الكيد في أنه لا يكون إلا مع تدبر وفكر.

ويفترقان في كون الكيد أقوى من المكر، والدليل أنه يتعدى بنفسه والمكر يتعدى بحرف، وأن المكر تقدير ضرر الغير من دون أن يعلم به، والكيد: اسم لإيقاع المكروه بالغير قهرًا

(١) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي ص ١٥٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠٥.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٤٤٠.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣١٦.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص١٨٩.

سواء علم أم لا[1].

٣ الاحتيال:

الاحتيال لغةً:

(احتال) من الحيلة. واحتال عليه بالدين من الحوالة[2].

الاحتيال اصطلاحًا:

استنفاذ طريقة أو طرق؛ لتحويل المرء عما يكرهه إلى ما يحبه[3].

الصلة بين المكر والاحتيال:

ذكر أبو هلال العسكري فرقين بينهما:

الأول: أن من الحيل ما ليس بمكر، وهو أن يقدر نفع الغير لا من وجهه، فيسمى ذلك حيلة مع كونه نفعًا، والمكر لا يكون نفعًا.

والآخر: أن المكر تقدير ضرر الغير من غير أن يعلم به وسواء كان من وجهه أو لا، والحيلة: لا تكون من غير وجهه[4].

٤ الخديعة:

الخديعة لغةً:

«(خدع) خدعًا، تغير من حالٍ إلى حالٍ، يقال: خدع فلان، تخلق بغير خلقه»[5].

الخديعة اصطلاحًا:

تخلقٌ بغير الخلق السائد بين الناس؛ لجر المخدوع لما يريده المخادع.

الفرق بين المكر والخديعة:

الممكور به لا يحتسب أن يأتي من الماكر سوء، ولكن المخدوع عداوته ظاهرة، وتربصهما معلوم، ولكنه ينتظر السوء، ويتحسب له من طريق فيفاجئه من طريق أخرى[6].

---

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٥٩.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص٨٤.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٩٤.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٦٠.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٢٠.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٨٣.

المكر وأسبابه

يتحدث هذا العنوان عن أسباب المكر كما وردت في القرآن:

أولًا: إسناد المكر إلى الله:

جاء إضافة المكر إلى الله تعالى في العديد من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال ٣٠].

واختلف المفسرون في هذه الإضافة وتوجيهها على أقوال:

الأول: إن ذلك من باب المشاكلة والمقابلة.

والمشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته[(١)]. فإضافة المكر إلى الله من باب المشاكلة؛ لأن الله تقدس عن أن يستعمل في حقه المكر، وقد جاء هذا الأسلوب -المشاكلة- في مواضع كثيرة من القرآن.

فيكون المراد بمكر الله هو إهلاك الكفار من حيث لا يشعرون على سبيل الاستعارة المنضمة الى المشاكلة، وفيه تشبيه الإهلاك بالمكر في كونه إضرارًا في الخفاء؛ لأن حقيقة المكر هو الإيقاع بالآخرين.

قال البغوي في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران ٥٤].

فالمكر من المخلوقين: الخبث والخديعة والحيلة، والمكر من الله: استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم، كما قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ١٨٢][(٢)].

ويشكل على هذا أن المكر قد جاء في غير المشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف ٩٩].

فقد ذكر الله تعالى هنا مكره وحده، ولم يذكر مكر عبده، كما قال هناك: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال ٣٠].

ذكر مكرهم ومكره، وهنا ذكر مكره وحده[(٣)].

وقد رد على هذا الإشكال ابن عاشور، حيث قال: «وجاز إطلاق المكر على فعل الله تعالى دون مشاكلة، كما في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ وبعض أساتذتنا

(١) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص١٠١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٤.

(٣) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ٧.

يسمي مثل ذلك مشاكلة تقديرية[1].

فيكون المكر الوراد في آية الأعراف ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف ٩٩].

من باب المشاكلة التقديرية، وهو موافق لتعريف المشاكلة عند السيوطي، حيث يقول: المشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا[2].

الثاني: إن المكر أسند إلى الله على سبيل المجازاة.

فقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾[الأعراف ٩٩].

أي: جزاء مكرهم، وسمي جزاء المكر مكرًا كما سمي جزاء السيئة سيئة، وجزاء الاعتداء اعتداء، وإن لم يكن الثاني اعتداء ولا سيئة، فعلى ذلك تسمية جزاء المكر مكرًا وإن لم يكن الثاني مكرًا.

قال الماتريدي: «ألا ترى أنه لم يجز أن يسمى مكارًا ولو كان على حقيقة المكر لسمي بذلك؛ فدل أنه جزاء، وجائز أن يكون المراد من مكره جزاء مكرهم سمي الجزاء باسم المكر لأنه جزاؤه؛ كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى ٤٠].

والثانية ليست بسيئة[3].

وقال الزجاج: مكر الله عز وجل مجازاته على مكرهم، فسمى الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته؛ كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[البقرة ١٥].

وقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[النساء ١٤٢][4]. وكما قال عمرو بن كلثوم[5]:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والمقصود أن من الوجوه في إطلاق المكر على الله أن يكون ذلك من باب الجزاء؛ لأنه لا يجوز إضافة المكر والخداع والاستهزاء مبتدأ إلى الله؛ لأنه مذموم من الخلق إلا على المجازاة، فكيف من الله عز وجل ؟![6].

الثالث: إن إضافة المكر إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

قال ابن عطية: إضافة (مكر) إلى الله في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾[الأعراف ٩٩].

إضافة مخلوق إلى الخالق، كما تقول: ناقة الله، وبيت الله[7].

وكذا قال الحلبي: «ومعنى (مكر الله) أي إضافة المخلوق إلى الخالق؛ كقولهم:

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٥٧.
(٢) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص١٠١.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤/ ٥١٢.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٤٦.
(٥) ديوانه ص٧٨.
(٦) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٣٨٧.
(٧) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٣٣.

ناقة الله وبيت الله، والمراد به فعل يعاقب به الكفرة، وأضيف إلى الله لما كان عقوبة الذنب، فإن العرب تسمي العقوبة على أي جهة كانت باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة، وهذا نص في قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران ٥٤]. قاله ابن عطية. قلت: وهو تأويل حسن»[(١)].

الرابع: إن إضافة المكر إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

قال الشنقيطي بعد أن ذكر قول من قال إن ذلك من باب المشاكلة: «والتحقيق: أن المكر صفة أطلقها الله على نفسه، ولا يجوز إطلاقها على الله إلا في الموضع الذي يطلقها هو على نفسه، أو رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد أجمع جميع العلماء أنه لا يجوز أن يشتق له منها اسم، فلا تقل: من أسمائه الماكر؛ لأن ذلك لا يجوز إجماعًا.

ومعنى (مكر الله): أنه جل وعلا يستدرجهم، ويغدق عليهم النعم والصحة والعافية، حتى يكونوا أغفل ما كانوا، ثم يأخذهم بغتة، ويهلكهم في غاية الغفلة، وهذا فعل أحسن ما يكون وأبلغ ما يتصور، وقد ضربوا مثلًا -ولله المثل الأعلى- قالوا: لو فرضنا أن هنالك رجلًا شديد البلية على الناس، يقتل هذا، ويظلم هذا، وجميع الناس في غاية التأذي منه، ثم إن رجلًا صالحًا كريمًا طيبًا احتال عليه بحيلة شريفة حتى قتله، وأراح الناس منه، فكلهم يقول: جزاك الله خيرًا، والله إن قتلك له في صورة خفاءٍ إنه أحسن ما يكون، وعلى كل حال فالله لا يصف نفسه إلا بما هو في غاية الحسن والجمال واللياقة، فوصف نفسه هنا بأنه يهلك الكافرين بمكره، وأن كيده متين، كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف ١٨٣]»[(٢)].

والمقصود أن المكر وصف لله، وصفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم ٢٧].

ومعنى المثل الأعلى أي: الوصف الأكمل، قال السعدي: «المثل الأعلى هو كل صفة كمال»[(٣)].

فلا يجوز إذن وصف الله بالمكر على سبيل الإطلاق، أما وصف الله بالمكر في موضعه في مقابلة أولئك الذين يمكرون به وبرسله فإن هذا جائز؛ لأنه في هذه الحال يكون صفة كمال.

فعلى المسلم أن يعتقد بأن الله عز

(١) الدر المصون ٥/ ٣٩٣.

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤/ ٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧١٨.

وجل منزه عن كل ما لا يليق به سبحانه من النقائض، وصفات المخلوقين، كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١].

وتنزيه الله تعالى يكون وفق المنهج الرباني الذي ورد في النصوص الشرعية، بحيث لا يثبت الإنسان لله تعالى ما لم يثبته لنفسه ولا رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا ينفي عنه ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما يقف مع النصوص الشرعية إثباتًا ونفيًا مع اعتقاد كمال الله.

ومن هذا القبيل لفظ: (المكر) حيث أضيف في القرآن إلى الله تعالى: ويتمثل الموقف الصحيح فيما قرره ابن القيم حيث قال: «وأما ما ورد بلفظ الفعل كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران ٥٤].

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل ٥٠].

فهذا يطلق على الله كما ورد، ولا يجوز أن يشتق لله منه اسم، فلا يقال: من أسمائه (الماكر) ولا الكائد؛ لأنه لم يرد».

وقال: «وأما المكر الذي وصف به نفسه فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء ومنه أحسن شيء لأنه عدل ومجازاة، وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله أوليائه فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر»[1].

والحاصل أن هذه الأفعال أطلقها الله تعالى على نفسه على سبيل الجزاء العدل والمقابلة، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال، لكن لا يجوز أن يشتق منها أسماء ولا تطلق عليه عز وجل في غير ما سيقت له من آيات.

قال صاحب المنار: «ولما كان المكر في الأصل: التدبير الخفي المفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب؛ وكان الغالب أن يكون ذلك في السوء؛ لأنه من العباد مراوغة وخداع للوصول إلى أهدافهم الخبيثة، غلب استعمال المكر في التدبير السيئ وإن كان في المكر الحسن والسيئ جميعًا.

قال تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر ٤٣].

ووجه الحاجة إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له من الخير أفسد على الفاعل تدبيره لجهله، فيحتاج مربيه أو متولي شئونه إلى أن يحتال عليه، ويمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول؛ إذ يوجد في الماكرين الأشرار والأخيار والله خير الماكرين، فإن تدبيره الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه، وإتمام حكمه، وكلها خير في نفسها،

(١) الفوائد، ابن القيم ص٢١٣.

وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم، وسوء اختيارهم»[1].

وهذه الأقوال كلها صواب، سواء من قال: إن ذلك من باب المشاكلة والمقابلة، أو إن المكر أطلق على الله على سبيل المجازاة، أو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه أو إن إضافة المكر إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

ثانيًا: أسباب المكر:

المكر نوعان، مكر محمود، ومكر مذموم، ولكل نوعٍ أسباب.

١ . أسباب المكر الحسن.

من يتتبع أسباب المكر الحسن في القرآن الكريم يجدها على النحو الآتي:

١ . نصرة لأولياء الله.

مكر الله تعالى بأعداء دينه ورسله -بعد أن يستفرغوا كل أنواع الكيد والمكر في الصد عن دينه ومحاربة أوليائه- يأتي نصرة لأوليائه، وتأييدًا لعباده المؤمنين.

وقد وصف الله تعالى شدة مكر الأعداء بالمؤمنين، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم ٤٦].

قال ابن عطية: «تعظيم مكرهم وشدته، أي: أنه مما يشقى به، ويزيل الجبال عن مستقراتها لقوته، ولكن الله تعالى أبطله، ونصر أولياءه، وهذا أشد في العبرة»[2].

ومع أن مكرهم بالمؤمنين شديد إلا أن الله قد جعل مكرهم كأن لم يكن؛ إذ أضاف المكر كله له، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد ٤٢].

ومعنى مكره تعالى: عقوبته إياهم، سماها مكرًا إذ كانت ناشئة عن المكر؛ وذلك على سبيل المقابلة[3].

ومن المهم معرفته في هذه القضية أن تحذير الله المؤمنين من الماكرين ليس من التخويف؛ وإنما لأخذ الحيطة، وبذل الأسباب في دفع مكر الماكرين؛ وللعلم في المقابل بأن مكرهم محدودٌ، ولن يبلغ مبلغه.

فالمسلم يعلم يقينًا أن سنة الله في الماكرين لا بد لها من أسباب، ومن أهم هذه الأسباب أن يعمل المسلمون الأعمال التي تمنع وقوع مكر المجرمين، أو تبطل وتزيل مكر المفسدين، أو تخفف ضرر مكر الماكرين، وكذلك سنن الله في نصر المؤمنين، والتمكين لهم، والدفاع عنهم، وحفظهم وتأييدهم وإظهارهم على عدوهم لا تحصل للمؤمنين إلا بالأعمال المحققة والجالبة لوجود هذه السنن بفضل

(١) تفسير المنار ٣/ ٢٥٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٤٦.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٤٠١.

الله ورحمته وإحسانه، ولن تحصل هذه السنن للبطالين، أو المقصرين في الأعمال الصالحة المناسبة لهذه السنن الربانية، كما بينها الله لنا في كتابه، وربط السنن بأسبابها.

ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: أن مكر جميع الماكرين له ومنه، أي: هو حاصل بتخليقه وإرادته؛ لأنه ثبت أن الله تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد، وأيضًا فذلك المكر لا يضر إلا بإذن الله تعالى، ولا يؤثر إلى بتقديره، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وأمان له من مكرهم، كأنه قيل له: إذا كان حدوث المكر من الله، وتأثيره من الممكور به أيضًا من الله، وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله تعالى، وأن لا يكون الرجاء إلا في الله تعالى، وذهب بعض الناس إلى أن المعنى: فلله جزاء المكر؛ وذلك لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم[1].

وقد أخبر الله تعالى في القرآن أنه أبطل مكر الماكرين، وكيد الكائدين بأوليائه، حيث قال عن كيد الكفار بإبراهيم: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء ٧٠-٧١].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد ٤٢].

فحذر الله تعالى هؤلاء الكفار من سوء عاقبة مكرهم، وتكذيبهم للرسل، وعدم اعتبارهم بمن سبقهم، وبين أن هذا المكر سيجدون عاقبته مهما كان شديدًا ومحكمًا، فهو لا يساوي شيئًا أمام مكر الله الذي أعده لهم، انتصارًا لرسله، ووفاء بعهده لهم بالنصر والتمكين.

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ [إبراهيم ٤٧].

بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم في الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه؛ لأنه وعد به الصادق، قولًا على ألسنة أصدق خلقه وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصًا وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنن الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء فإنه ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم ٤٧][2].

وهكذا سنة الله في الماكرين، فقد أهلك الله قريشًا حين مكرت بنبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، ونصره الله عليهم، ومن قبلها مكر فرعون فكان مكره وبالًا عليه، وحاق به العذاب في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالحرق.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٥٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٢٨.

قال تعالى في قصة الرجل المؤمن بموسى من قوم فرعون: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر ٤٥-٤٦].

وصدق الله تعالى بالقائل: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر ٤٣].

ثم ذكر بعد ذلك في الآيات اللاحقة أن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر ٥١].

فهذه سنة الله قديمًا وحديثًا، نصرة الحق وأتباعه، وإزهاق الباطل وأشياعه، وهذا الحكم وهذه السنة مما تقتضيه الحكمة الإلهية، وهو شأن الله المستمر بنصرة رسله وأتباعهم في الدنيا بالحجة والظفر، والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي، وغير ذلك من العقوبات، فضلًا عن عذاب الآخرة.

٢. الإيقاع بالمتكبرين الظلمة.

ومن أسباب المكر الحسن أن الله يمكر بالمتكبرين الظلمة، ويوقع بهم في شر أعمالهم، من حيث لا يشعرون، وحقيقة مكر الله جل وعلا أنه يستدرج العبد، ويملي له، حتى إذا أخذه لم يفلته، فييسر له الأمور حتى يظن أنه في غاية المأمن، فيكون ذلك استدراجًا في حقه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك له منه استدراج)[(١)].

وهذا ظاهر من معنى المكر؛ لأن في المكر والكيد وأمثالهما معنى الاستدراج.

والاستدراج من أكثر أنواع المكر الإلهي حيلة، فالله سبحانه وتعالى بحكمته يفتح على أهل المكر من نعيم الدنيا ما يشغلهم عن توقع العقوبة، ويمهلهم طويلًا، حتى إذا اطمأنوا، وفرحوا بما أوتوا، أخذهم بالعقوبة على حين غرة، فالاستدراج دنو من العقوبة شيئًا فشيئًا.

وأصل الاستدراج اغترار المستدرج بلطف من استدرجه، حيث يرى المستدرج أن المستدرج إليه محسنٌ، حتى يورطه مكروهًا[(٢)].

وقد قال الجرجاني: الاستدراج: هو أن تكون بعيدًا من رحمة الله تعالى، وقريبًا إلى العقاب تدريجيًا، أو هو: الدنو إلى عذاب

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٩/ ١١٠، رقم ٩٢٧٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٤١٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٨٧.

الله بالإمهال قليلًا قليلًا[1]. وهذا هو مكر الله بالعبد، نسأل الله السلامة والعافية.

وعرفه المناوي بقوله: الاستدراج: تلوين المنة بغير خوف الفتنة، وقيل: انتشار الذكر بدون خوف المكر، وقيل: تعليل برجاء، وتأصيل بغير وفاء[2].

وقال الكفوي: الاستدراج: هو أن يعطي الله العبد كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله، وجهله وعناده، فيزداد كل يوم بعدًا من الله تعالى[3].

وسنة الاستدراج من المكر الذي يحل بالظالمين، يستدرجهم الله بالنعم التي ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب والنقمة، يستدرج بها الله تعالى المسرفين والظالمين، فتلهيهم النعمة وتبطرهم، فينخر بنيانهم من الداخل فينهار، وذلك هو المحق والسقوط في حياة هذه الأمم، وهذا السقوط يتم عادة بغتة، وبصورة مفاجئة.

فبعض من أغدق الله جل جلاله عليهم بالصحة في الأبدان، والسعة في الرزق، والأمن في الأوطان، مع ما يرتكبون من المعاصي والآثام، والتكبر والظلم، والتجرؤ على ما حرم الله يظنون أن تتابع هذه النعم، وتزايد هذه المنن هو دليل على حب المنان، ورضا الرحمن! فأصابهم بسبب ذلك العجب، وتسلط عليهم الغرور، والحقيقة أن هذا ما هو إلا مكر من الله بهم واستدراج! انخدع به من كان قبلهم! فأخذهم رب العزة -جل وعلا- أخذ عزيز مقتدر، فتركهم لمن خلفهم عبرة، ولغيرهم آية!

قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام ٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: أعرضوا عنه وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى، وإملاء لهم عياذًا بالله من مكره؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي: على غفلة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير»[4].

وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم ٤٤-٤٥].

ويستفاد من الآيات السابقة وآيات أخرى، وبعض الأحاديث الشريفة الواردة في شأن الاستدراج، أو العذاب الاستدراجي أن الله لا يتعجل بالعذاب على

(١) التعريفات ص ٢٠.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٤٨.
(٣) الكليات ص١١٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٣.

الطغاة والعاصين المتجرئين، وفقًا لسنته في عباده، بل يفتح عليهم أبواب النعم، فكلما ازدادوا طغيانًا زادهم نعمًا، وهذا الأمر لا يخلو من إحدى حالتين:

فإما أن تكون هذه النعم مدعاة للتنبيه والإيقاظ، فتكون الهداية الإلهية في هذه الحال عملية، أو أن هذه النعم تزيدهم غرورًا وجهلًا؛ فعندئذٍ يكون عقاب الله لهم في آخر مرحلة أوجع؛ لأنهم حين يغرقون في نعم الله وملذاتهم ويبطرون، فإن الله سبحانه يسلب عندئذٍ هذه النعم منهم، ويطوي سجل حياتهم، فيكون هذا العقاب صارمًا وشديدًا.

والآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم ٤٥].

تؤكد الموضوع ذاته، وتشير بأن الله لا يتعجل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلهم يحذرون ويتعظون، فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب الله، فتقول الآية: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [القلم ٤٥].

لأن الاستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، والله قوي ولا يفلت من قبضته أحد ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم ٤٥].

و(المتين) معناه: القوي المحكم الشديد، وأصله مأخوذ من المتن، وهو العضلة المحكمة التي تقع في جانب الكتف (في الظهر)[1].

وهذه السنة هي نفسها سنة الإملاء في القرآن، وإنما يسميها القرآن بالاستدراج؛ لأن الله تعالى يستدرج بها المسرفين الى السقوط، ويسميها القرآن بـ«الاملاء» لأن الله يملي فيها للمسرفين، والإملاء هو الإمداد، كما قال الله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد ٣٢].

وكما يقول الراغب في المفردات في قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف ١٨٣].

قال بعضهم: أراد بالكيد العذاب، والصحيح أنه هو الإملاء والإمهال المؤدي إلى العقاب، كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران ١٧٨].

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف ٥٢].

فخص الخائنين تنبيهًا أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة، ككيد يوسف بأخيه، وقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء ٥٧].

أي: لأريدن بها سوءًا، وقال: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات ٩٨].

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات ٣٩].

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢١٧.

وقال: ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾[طه ٦٩][1].

والمقصود أن معنى مكر الله سبحانه وخدعته هو جزاؤه الإنسان الماكر والخادع على مكره وخديعته، فالله عز وجل لا يسخر، ولا يستهزئ، ولا يمكر، ولا يخادع؛ ولكنه عز وجل يجازيهم جزاء السخرية، وجزاء الاستهزاء، وجزاء المكر والخديعة، فمكر الله سبحانه وتعالى نوع من العقوبة والانتقام والقهر، يجري على العباد لمواجهة أعمالهم السيئة.

ومكر الله يجري على المسيء بأسلوب خفي دون أن يعرف به، أو يطلع عليه في مقام الانتقام؛ لما قام به من أعمال سيئة، ومظالم مشينة، ومكر الله في خفائه يتمثل بالإملاء حينما يمهل الله سبحانه وتعالى الكفار والفاسقين؛ ليزدادوا في ظلمهم وطغيانهم، ويملي لهم لتزداد عقوبتهم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[آل عمران ١٧٨].

ومن أسباب المكر الحسن المكر في الحرب؛ فليس في الحرب لين ولا هوادة، إما نصر وغلبة، وإما ذل وهزيمة، وقد أباح الله تعالى المكر والخديعة في الحرب لنصر دينه، وإعلاء كلمته، وللإيقاع بالكفار أعداء الله ودينه، ونصر المستضعفين الذين فتنهم الجبابرة، ومنعوا الدين الحق من الوصول إليهم؛ لذلك كان التهديد بغضب الله والوعيد بعذاب النار لمن فر يوم الزحف؛ لأن ذلك يؤدي إلى كشف ظهور المسلمين وهزيمتهم، والحرب ليست بالأمر الهين، بل تحتاج إلى إعمال عقل، وتدبير محكم، وتخطيط جيد، وصبر على مشاقها، يقول صاحب العقد الفريد: «الحرب رحى ثقالها الصبر، وقطبها المكر، ومدارها الاجتهاد، وثقافتها الأناة، وزمامها الحذر، ولكل شيء من هذه ثمرة، فثمرة الصبر التأييد، وثمرة المكر الظفر، وثمرة الاجتهاد التوفيق، وثمرة الأناة اليمن، وثمرة الحذر السلامة، ولكل مقام مقال، ولكل زمان رجال، والحرب بين الناس سجال، والرأي فيها أبلغ من القتال»[2].

لذلك كانت الحيلة والمكر مباحة في الحرب لحقن دماء المسلمين، وقد جاء الإذن بالتحرف للقتال، واستعمال الحيلة في الحرب في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال ١٦].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الحرب خدعة)[3].

(١) المفردات، الراغب ص ٧٢٨.

(٢) العقد الفريد، ابن عبدربه ١/ ٨٦ بتصرف يسير.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد

٣. الانتقام ممن حاد الله ورسوله.

ومن دواعي المكر الإلهي الانتقام ممن حاد الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل ٥١].

ومكرهم ما روي أن هؤلاء التسعة الذين عقروا الناقة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة، وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب اتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلًا، ويقتلوه وأهله المختصين به، قالوا: فإذا كان كاذبًا في وعيده أوقعنا به ما يستحق، وإن كان صادقًا كنا عجلناه قبلنا، وشفينا نفوسنا[1].

فهذا هو مكرهم الذي أشار الله إليه في قوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل ٤٩].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم ٤٦].

والمعنى: أن الله محيط بهم وبمكرهم، وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال، أثقل شيء وأصلب شيء، وأبعد شيء عن تصور التحرك والزوال، فإن مكرهم هذا ليس مجهولًا، وليس خافيًا، وليس بعيدًا عن متناول القدرة، بل إنه لحاضر (عند الله) يفعل به كيفما يشاء ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم ٤٧].

فما لهذا المكر من أثر، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر، وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ لا يدع الظالم يفلت، ولا يدع الماكر ينجو، وكلمة الانتقام هنا تلقي الظل المناسب للظلم والمكر، فالظالم الماكر يستحق الانتقام، وهو بالقياس إلى الله تعالى يعني تعذيبهم جزاء ظلمهم، وجزاء مكرهم، تحقيقًا لعدل الله في الجزاء، وسيكون ذلك لا محالة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم ٤٨].

ولا ندري نحن كيف يتم هذا؟ ولا طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات، ولا مكانها، ولكن النص يلقي ظلال القدرة القادرة التي تبدل الأرض، وتبدل السماوات في مقابل ذلك المكر الذي مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير.

وفجأة نرى ذلك قد تحقق ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وأحسوا أنهم مكشوفون

والسير، باب الحرب خدعة، ٤/ ٦٤، رقم ٣٠٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب، ٣/ ١٣٦١، رقم ١٧٣٩.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢١٧.

لا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واق، ليسوا في دورهم، وليسوا في قبورهم، إنما هم في العراء أمام الواحد القهار، ولفظة (القهار) هنا تشترك في ظل التهديد بالقوة القاهرة التي لا يقف لها كيد الجبابرة، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسي المذل، يناسب ذلك المكر، وذلك الجبروت[1].

٢. أسباب المكر السيِّئ.

١. الاستكبار في الأرض.

الاستكبار طلب الكبر من غير استحقاق[2]. والكبرياء: اسم للتكبر والعظمة»[3].

وقد أشار الله سبحانه وتعالى أن من دواعي مكر الماكرين الاستكبار في الأرض، حيث قال: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر ٤٣].

فقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: طلبًا لإيجاد الكبر لأنفسهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: التي من شأنها السفول والتواضع والخمول، فلم يكن نفورهم لأمر محمود ولا مباح، ويجوز أن يكون استكبارًا بدلًا من نفورًا، وأن يكون حالًا، أي: حال كونهم مستكبرين[4].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١١٢.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٣) العين، الفراهيدي ٥/ ٣٦١.
(٤) السراج المنير ٣/ ٣٣٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ هذا من إضافة الموصوف إلى صفته في الأصل؛ إذ الأصل (والمكر السيِّئ) أي: الذي من شأنه أن يسوء صاحبه وغيره، وهو إرادتهم لإهانة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وإطفاء نور الله عز وجل[5].

والمقصود أن سبب النفور هو الاستكبار ومكر السيئ، أي: الحامل لهم على الابتعاد من الحق هو الاستكبار والمكر السيئ، وهو الخداع الذي ترومونه برسول الله صلى الله عليه وسلم، والكيد له[6].

﴿وَلَا﴾ أي: والحال أنه لا ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي: يحيط إحاطة لازمة خسارة ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أي: الذي هو عريق في السوء ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي: وإن أذى غير أهله، لكنه لا يحيط بذلك الغير، فإن قيل: كثيرًا ما نرى الماكر يمكر ويفيده المكر، ويغلب الخصم بالمكر، والآية تدل على عدم ذلك، أجيب بأجوبة:

أحدها: أن المكر في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي صلى الله عليه وسلم، من العزم على القتل والإخراج، ولم يحق إلا بهم، حيث قتلوا يوم بدر وغيره.

ثانيها: أنه عام، وهو الأصح.

ثالثها: أن الأعمال بعواقبها، ومن مكر

(٥) المصدر السابق.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٤١.

بغيره ونفذ فيه المكر عاجلًا في الظاهر فهو في الحقيقة هو الفائز، والماكر هو الهالك، كمثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنة الله تعالى فيهم من تعذيبهم[1].

ومما يدل على أن من دواعي المكر الكبر والاستكبار قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام ١٢٣].

أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما زينا للكافرين سوء أعمالهم، فكان أكابر أهل مكة يمكرون فيتبع غيرهم مكرهم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: بما لنا من العظمة في إقامة الأسباب لما يعلي كلمة الإنسان، أو يجعله حقير الشأن ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ أي بلد جامع، ولما كان الكبر مختلف الأنواع باختلاف أشخاص المجرمين، طابق بأفعال التفضيل المقصودين لها في الجمع على إحدى اللغتين، وعبر بصيغة منتهى الجمع دلالة على تناهيهم في الكثرة، فقال: ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي: القاطعين لما ينبغي أن يوصل؛ ولما كان من شأن الإنسان استجلاب أسباب الرفعة لنفسه، وكان لا يصل إلى ذلك في دار ربط المسببات بحكمة الأسباب إلا بالمكر، وكان الأكابر أقدر على إنفاذ المكر، وترويج الأباطيل بما لأغلب الناس من السعي في رضاهم طمعًا فيما عندهم، وكان الإنسان كلما تمكن من ذلك أمعن فيه، وكان الكبير إنما يصل إلى ما قدر له من ذلك[2].

٢. حب الشهوات.

ومن دواعي المكر السيِّئ: الإفراط في حب الشهوات الذي يؤدي إلى المكر والطغيان، والمتأمل في حياة الكفار وأرباب الشهوات يجد أن من الأخلاق البارزة في حياتهم المكر والخداع من أجل الحفاظ على شهواتهم ومصالحهم؛ إذ لا رادع لهم عن ذلك؛ لأنهم فقدوا الإيمان، ودوره في محاسبة النفس.

ومن الشواهد القرآنية على هذا المنحى المنحرف ما قصه الله تعالى من مكر زليخا امرأة العزيز بالنسوة، عندما علمت بمكرهن بها، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف ٣١].

فإن قيل: فما كان مكر النسوة اللاتي مكرن به وسمعته امرأة العزيز، فإن الله

(١) السراج المنير ٣/ ٣٣٣.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٥٤.

سبحانه لم يقصه في كتابه؟

قيل: بلى؛ قد أشار إليه بقوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف ٣٠].

وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر:

أحدها: قولهن: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف ٣٠].

ولم يسمينها باسمها، بل ذكرنها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل؛ فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

الثاني: أن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حر، وذلك أبلغ في القبح.

الرابع: أنه فتاها الذي هو في بيتها، وتحت كنفها؛ فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف طلب ذلك من الأجنبي البعيد.

الخامس: أنها هي المراودة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أن في ضمن هذا أنه أعف منها وأبر وأوفى؛ حيث كانت هي المراودة الطالبة، وهو الممتنع عفافًا وكرمًا وحياء، وهذا غاية الذم لها.

الثامن: أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار، والوقوع حالًا واستقبالًا، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها، وفرق بين قولك: فلان أضاف ضيفًا، وفلان يقري الضيف، ويطعم الطعام، ويحمل الكل؛ فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته.

التاسع: قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف ٣٠].

أي: إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح، فنسبن الاستقباح إليهن، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضًا على الهوى، ولا يكدن يرين ذلك قبيحًا، كما يساعد الرجال بعضهم بعضًا على ذلك، فحيث استقبحن منها ذلك، كان هذا التسليم بأنه من أقبح الأمور، وأنه مما لا ينبغي أن تساعد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

فقد جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها، ولا في طلبها، أما العشق فقولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف ٣٠].

أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وأما الطلب المفرط فقولهن: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ [يوسف ٣٠].

والمراودة: الطلب مرة بعد مرة، فنسبوها إلى شدة العشق، وشدة الحرص على الفاحشة.

فلما سمعت بهذا المكر منهن: هيأت

لهن مكرًا أبلغ منه، فهيأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف ٣١].

ثم أرسلت إليهن فجمعتهن، وخبأت يوسف عليه السلام عنهن، وقيل: إنها جملته وألبسته أحسن ما تقدر عليه، وأخرجته عليهن فجأة، فلم يرعهن إلا وأحسن خلق الله، وأجملهم قد طلع عليهن بغتة؛ فراعهن ذلك المنظر البهي، وفي أيديهن مدىً يقطعن بها ما يأكلنه، فدهشن حتى ﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف ٥٠]، وهن لا يشعرن، وقد قيل: إنهن أبن أيديهن، والظاهر خلاف ذلك، وإنما تقطيعهن أيديهن: جرحها وشقها بالمدى؛ لدهشهن بما رأين، فقابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي، وكانت هذه في النساء غاية في المكر[1].

والمقصود أن سبب هذا المكر منها ومنهن هو حب الشهوات، والتنافس عليها، الذي دفع إليه الترف الذي تعيشه هؤلاء النسوة.

فالمترفون هم أشد الناس بطرًا في المعيشة، وهم أكثر الناس تجاوزًا في الإسراف في الملذات والشهوات، بحكم مناصبهم، وكثرة ما في أيديهم من أموال؛ لأن الاستمرار والمداومة على هذه الملذات، والتوسع فيها يورث البلادة والغلظة، وظلمة في القلب، بحيث لا يتسرب إليها نور الإيمان، وبالتالي الوقوع في المكر، والأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف؛ لأجل البقاء على ملذاتهم وملاهيهم، وقد يتجاوز هذا البطر إلى الفقراء والمستضعفين، فيقلدون أهل الترف، إما بالتكبر على الحق، أو ببطران النعم، في ملاهيهم ومعيشتهم.

ولا شك أن الانغماس في الشهوات والملذات ينسي الآخرة وأهوالها، والموت وسكراته، ويظن المترف بأن الدنيا ما وجدت إلا للمتاع الذي هو فيها، ويظن أيضًا أنه سوف يعيش آجالًا، ويحقق آمالًا.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون ٣٣].

وقال: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء ١٢-١٣].

قال سيد قطب: والترف لا بد أن يؤدي إلى المنكر؛ لأن الطاقة الفائضة لا بد لها من متصرف، فهناك مال فائض، وهو طاقة، وهناك حيوية جسد فائضة كذلك، وهي طاقة، وهناك فضلة زمن فائضة بلا عمل، ولا تفكير، وهي طاقة، والفتية المترفون، والفتيات المترفات، وهم يجدون الشباب، والفراغ، والجدة، لا بد أن يفسقوا، ولا بد أن يبحثوا عن مصارف أخرى لطاقة الجسد،

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٥٤-١٥٧.

وطاقة المال، وطاقة الوقت، وغالبًا ما تكون مصارف تافهة، تأخذ طابعها من الزمن والبيئة، ولكنها تلتقي عند حد التفاهة، والميوعة، والقذارة الحسية والمعنوية، وفي الجانب الآخر المستغلون، والمستربحون، والمحتاجون من تجار الرقيق، والمهرجين، والذيول، وحواشي المترفين، ينشرون الدعارة، والترهل، ويرخصون كل قيم الحياة الجادة، التي لا تروق للمترفين والمترفات[1].

فالغلو في حب الدنيا هو رأس كل خطيئة، والتنافس عليها أساس كل بلية، وهذا المعنى -أعني به أثر الشهوات في الصد عن دين الله- قد أدركته شياطين الإنس والجن، فعملوا ولا يزالون يعملون على إثارة الشهوات بكل أنواعها وفنونها في كل درب ووادٍ من أجل اصطياد الناس وجذبهم إلى باطلهم وشركهم ومجونهم، وصدهم عن طريق الهداية والحق!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ ٣٣].

فهو ليس مكر الليل وحسب ثم يستريح في نهاره، أو مكر النهار وحسب ثم يستريح في ليله، لا، بل هو مكر الليل والنهار، مكر على مدار الساعة والوقت، وهدفه وغايته:أن نكفر بالله تعالى، ونجعل له الأنداد والشركاء من الآلهة المزيفة التي يصطنعونها بأيديهم وأهوائهم!

٣. الصد عن سبيل الله.

ومن أعظم دواعي المكر عند أعداء الله محاربة الإسلام وأهله؛ فمنذ فجر التاريخ الإسلامي والأعداء يمكرون ويخططون لقمع هذا الدين، والصد عن سبيله، وفتنة معتنقيه، وفي سبيل ذلك يجمعون أموالهم ويبذلونها بطريقة هستيرية لمحاربته والكيد لأهله، واجتثاثهم من بلدانهم، وقتلهم وسجنهم، ورغم ذلك لم يكلل سعيهم بالنجاح إلا بشكل نسبي، فكلما سددوا ضرباتهم إلى الإسلام ازداد قوة وانتشارًا في ربوع العالم، رغم أنه قد تمر بالإسلام فترات يعاني فيها من حالات ضعف أو انزواء، إلا أنه يعاود الخروج للعالم بقوة، ينشر تعاليمه، ويفرض احترامه حتى على غير المؤمنين به.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه ما قام به أهل الكتاب من مكر وكيد لصد المسلمين عن دينهم، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران ٩٩].

أي: لأي سبب تصرفون من آمن بمحمد

(١) انظر: العدالة الاجتماعية، سيد قطب ص١٢٩.

صلى الله عليه وسلم واتبعه عن الإيمان الذي يرتقى بعقل المؤمن بما فيه من طلب النظر في الكون، ويرتقى بروحه بتزكيتها بالأخلاق الطيبة، والأعمال الصالحة، وتكذبون بذلك كفرًا وعنادًا، وكبرًا وحسدًا، وتلقون الشبهات الباطلة في قلوب الضعفاء من المسلمين بغيًا وكيدًا للنبي صلى الله عليه وسلم، تبغون لأهل دين الله، ولمن هو على سبيل الحق عوجًا وضلالًا وزيغًا عن الاستقامة، وعلى الهدى والمحجة، وأنتم عارفون بتقدم البشارة به، عالمون بصدق نبوته، ومن كان كذلك فلا يليق به الإصرار على الباطل والضلال والإضلال.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران ٩٩].

من هذا الصد وغيره من الأعمال، فمجازيكم عليه، وغير خاف ما في هذا من تهديد ووعيد، كما يقول الرجل لعبده وقد أنكر عليه اعوجاج أخلاقه: لا يخفى علي ما أنت عليه، وما أنا بغافل عن أمرك، وإنما ختم هذه الآية بنفي الغفلة؛ لأن صدهم عن الإسلام كان بضرب من المكر والكيد، ووجوه الحيل[1].

فالمكر وسيلة شيطانية يسلكها شياطين الإنس والجن ليكون ذلك هو منطلق الصد عن سبيل الله.

قال تعالى على لسان فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف ١٢٣].

وهذه الآية تقرر أن المكر هو وسيلة لإخراج أهل المدينة منها، ولكن هذا زعم وافتراء من فرعون على نبي الله موسى عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال ٣٠].

والمكر في هذه الآية من كفار قريش لأجل أن يسجنوا النبي صلى الله عليه وسلم، أو يقتلوه، أو يخرجوه من بلده مكة، وهذا هو غاية الصد عن سبيل الله؛ ولذلك رتب الله الصد على المكر في آية الرعد.

قال تعالى: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الرعد ٣٣].

فزين الشيطان لهم المكر وزين لهم أن يصدوا عن سبيل الله مما يؤكد أن المكر طريق من طرق الصد، وأداة من أدواته، ووسيلة فاعلة من وسائله.

(١) تفسير المراغي ٤/ ١٣.

عواقب المكر

بين القرآن الكريم عاقبة المكر والماكرين وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: عواقب المكر في الدنيا:

١. هلاك أهل المكر وانهزامهم.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن عاقبة الماكرين بالحق وأهله الخزي والهلاك والدمار في الدنيا قبل الآخرة، فقال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل ٥١].

فقوله: ﴿فَانظُرْ﴾ أي: ففكر كيف آل أمرهم؟! وكيف كانت عاقبة مكرهم؟! فقد أهلكناهم وقومهم الذين لم يؤمنوا على وجهٍ يقتضي النظر، ويسترعي الاعتبار، ويكون عظة لمن غدر كغدرهم في جميع الأزمان[(١)].

والخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكل من كان أهلًا للنظر والاعتبار، وفي هذا النظر إلى مكر هؤلاء الرهط، وإلى ما أعقب هذا المكر، وما نزل بهم من نقم الله، وما حل بهم وبقومهم جميعًا من هلاك لهم، وتدمير لديارهم! يورث الخوف من الوقوع فيما وقعوا فيه.

وهكذا يصيب الشر أهله، ثم يمتد فيشمل من كان معهم ممن لم يشاركوا في هذا الشر، ولكنهم لم يتصدوا للأشرار، ولم يأخذوا على أيديهم، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال ٢٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء ١٦].

وهكذا أرادوا الهلاك لصالح عليه السلام وأهله فأهلكهم الله، وأهلك أهلهم جميعًا، فقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل ٥٢][(٢)].

فالاعتبار بمكر الله بهم هو المقصود من سوق القصة تعريضًا بأن عاقبة أمره مع قريش أن يكف عنه كيدهم وينصره عليهم، وفي ذلك تسلية له على ما يلاقيه من قومه، والنظر: نظر قلبي، وقد علق عن المفعولين بالاستفهام، فتكون الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا لما يثيره الاستفهام في قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل ٥١].

من سؤال عن هذه الكيفية، والتأكيد للاهتمام بالخبر[(٣)].

فالذين كانوا يمكرون السيئات لمقاومة إصلاح الرسل حرصًا على رياستهم وفسقهم وفسادهم لم يكونوا يشعرون بأن

(١) تفسير المراغي ١٩/ ١٤٨.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٢٥٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٨٥.

عاقبة مكرهم تحيق بهم؛ لجهلهم بسنن الله تعالى في خلقه، وهم جديرون بهذا الجهل، وأما أكابر المجرمين في هذا العصر فهم لا يعذرون بالجهل بعد هذا الإرشاد[1].

وقد مكر الذين من قبلهم من كفار الأمم الماضية بأنبيائهم كعاد وثمود وفرعون وإخوان لوط، واستنفدوا جهدهم وطاقتهم في إطفاء نور الحق، أو لم يعلموا أن لله وحده المكر جميعًا، وقد أبى الله إلا إتمام نوره، ولو كره الكافرون، والله وحده يعلم ما تكسب كل نفس في كل حركة تتحركها، وسيعلم الكفار -يوم لا يغني عنهم ذلك شيئًا- لمن عقبى الدار؟! وفي هذا سلوى للنبي صلى الله عليه وسلم حيث يعلم أن ديدن الناس قديمًا مع إخوانه الرسل، وحديثًا معه لم يتغير ولم يتبدل، وفي هذا تقوية لعزمه ببيان أن النصر في النهاية له، وأن الدائرة على الكفار[2].

يقول سيد قطب رحمه الله: «كذلك دبروا، وكذلك مكروا، ولكن الله كان بالمرصاد، يراهم ولا يرونه، ويعلم تدبيرهم، ويطلع على مكرهم، وهم لا يشعرون ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل ٥٠].

وأين مكر من مكر؟ وأين تدبير من تدبير؟ وأين قوة من قوة؟ وكم ذا يخطىء الجبارون، وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة، ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل، والقوة التي تملك الأمر كله، وتباغتهم من حيث لا يشعرون ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل ٥١-٥٢].

ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك، وإذا الدور الخاوية، والبيوت الخالية، وقد كانوا منذ لحظة واحدة في الآية السابقة من السورة يدبرون ويمكرون، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون! وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق؛ لتظهر المباغتة الحاسمة القاضية، مباغتة القدرة التي لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ومباغتة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المستعزين بمكرهم[3].

والمقصود أن عاقبة المكر الهلاك؛ ولهذا قال الله: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل ٥١].

أي: فانظر يا محمد بعين قلبك إلى عاقبة غدر الغادرين، ومكر الماكرين،

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣١.
(٢) التفسير الواضح، محمد حجازي ٢/ ٢٤١.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٤٦.

كيف كانت؟ وما الذي أورثها اعتداؤهم وطغيانهم وتكذيبهم؟ فإن ذلك سنتنا فيمن كذب رسلنا، وطغى علينا من سائر الخلق، فحذر قومك من قريش أن ينالهم بتكذيبهم إياك ما نال هؤلاء من المثلات، إنا دمرناهم وقومهم أجمعين، فلم نبق منهم أحدًا.

٢. انتصار أهل الحق على أعدائهم.

إن الله تعالى يدافع عن المظلوم، ويدفع عنه ظلم ظالمه، وخداع مخادعه، ومكر ماكره، خاصة حينما يلجأ إليه، ويستعين به، ويتحصن بحصونه وقواه ومعوناته، ويبدأ في اتخاذ أسباب دفع المكر والظلم عنه ما استطاع، يدفعه عز وجل سريعًا عند بدئه، وقبل أن يمسه! فيضعف تأثيره أو ينعدم، على قدر لجوئه لربه، واستخدامه للأسباب الممكنة المتاحة أمامه.

يقول الله تعالى تأكيدًا لهذا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾[يونس ٢١].

يقول البغوي في تفسيره: «عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق»[(١)].

ويقول العز بن عبد السلام في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج ٣٨].

يدفع الكفار عن المؤمنين، والعصاة عن المطيعين، والجهال عن العلماء، أو يدفع عنهم وساوس الشيطان، أو يدفع بنور السنة ظلمات البدعة»[(٢)].

ويضيف الإمام ابن عادل في تفسيره اللباب: لم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم»[(٣)].

قال سيد قطب رحمه الله: «فالله أقدر على التدبير بإبطال ما يمكرون، ومكرهم مكشوفٌ لديه ومعروف، والمكر المكشوف إبطاله مضمون ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فلا شيء منه يخفى، ولا شيء منه ينسى»[(٤)].

فمكر الماكر، وخداع المخادع، والتواء الملتوي، وظلم الظالم، وشر الشرير يعود مكره وخداعه والتوائه وظلمه وشره على فاعله أولًا أكثر من غيره!

فإذا كان الماكرون يمكرون فهو سبحانه له أيضًا مكره! ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال ٣٠].

وعلى كل مظلوم أن يوقن بذلك الوعد من ربه، وأن له ناصرًا هو خالقه سبحانه وتعالى، وهو على أعلى مستوىً من فنون النصر والمكر بشتي صوره، والتي لا تقارن بخلقه، ولا تخطر ببالهم! وشتان ما بين المكرين!

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤١٥.

(٢) تفسير العز بن عبد السلام ٢/ ٣٥٧.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٤/ ٩٩.

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧٣.

يقول إسماعيل حقي في تفسيره للآية السابقة: إن للخلق مكرًا، وللحق مكرًا، فمكر الخلق من الحيرة والعجز، ومكر الخالق من الحكمة والقدرة، فمكر الخلق مع مكر الحق باطل زاهق، ومكر الحق حق ثابت[1].

وذلك مهما كان سوء وشدة وإحكام مكر الماكرين ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم ٤٦].

فهو نسبةً لمكر المنتقم الجبار أوهن من بيت العنكبوت ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت ٤١].

إنه تعالى لا يدفع فقط عن المظلوم، وإنما لا بد من أن ينصره! كما وعد في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر ٥١].

قال القرطبي في تفسيره: «هو عام، نصرهم بإعلاء الحجج وإفلاحها، بالانتقام من أعدائهم»[2].

ويقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم ٤٧].

قال الرازي في تفسيره: «وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا﴾ وجهان:

أحدهما: فانتقمنا، وكان الانتقام حقًّا، واستأنف وقال: ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، أي: علينا نصركم أيها المؤمنون.

والوجه الثاني: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: نصر المؤمنين كان حقًّا علينا، وعلى الأول لطيفة، وعلى الآخر أخرى، أما على الأول فهو أنه لما قال ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ بين أنه لم يكن ظلمًا، وإنما كان عدلًا حقًّا؛ وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الإثم وولادة الكافر الفاجر، وكان عدمهم خيرًا من وجودهم الخبيث، وعلى الثاني تأكيد البشارة؛ لأن كلمة (على) تفيد معنى اللزوم، يقال: على فلان كذا ينبئ عن اللزوم، فإذا قال: حقًّا أكد ذلك المعنى، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة»[3].

والمتأمل في سيرة الإسلام وأهله يجد أن الماكرين قد حاولوا كثيرًا المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين سابقًا ولاحقًا، فانقلب المكر والظلم عليهم، وفي نحورهم، وتساقطوا وهلكوا وتعسوا، بينما انتصر الذين تمسكوا بربهم وإسلامهم وارتفعوا وارتقوا وسعدوا.

(١) روح البيان ٣/ ٣٣٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٢٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٠٨.

يقول تعالى مؤكدًا هذا: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[الأحزاب ٢٥].

وفسره الإمام ابن عجيبة في تفسيره البحر المديد بقوله: «هذه عادة الله مع خواصه، يجعل دائرة السوء على من ناوأهم، ويكفيهم أمرهم من غير محاربة ولا قتال، ثم يكون لهم التصرف في الوجود بأسره، والله غالب على أمره»(١).

فكن أيها المسلم على يقين من نصر الله لأوليائه، وانتظر حينئذ عون ربك ونصره، واستبشر بسرعة مكره بأعدائه إن لم ينتهوا عن مكرهم، ويعودوا لرشدهم، مهما كانت ضخامة مكرهم؛ فالله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل ٤٦].

ومهما ينفقون من جهود وأموال وأفكار سيعود وباله عليهم حسرة وخسرانًا وانهزامًا ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال ٣٦].

والمقصود أن الله وعد بنصر أوليائه، وإبطال مكر أعدائهم، ووعده الحق الأكيد الذي لا يمكن لأحدٍ منعه أو تبديله أو تغييره، كما يقول تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر ٤٣].

قال النيسابوري في تفسيره لهذه الآية: «عاقبة الماكر وخيمة، يصل إليه جزاؤه عاجلًا أو آجلًا»(٢).

وقال السعدي: «فعاد مكرهم في نحورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم، فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد أن يحل به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء ما فعل بأولئك»(٣).

٣. نزول العذاب بالماكرين من حيث لم يحتسبوا.

خسر من أمن مكر الله، وجهل بقدرته، وسرعة مكره وتدبيره، وقد أنذر سبحانه وتعالى الجاحدين بآياته، المكذبين لرسله، الماكرين بالخلق، الصارفين لهم عن اتباع الحق، بأنهم ليسوا بمأمن من مكر الله، وضرب لهم أمثلة على ما سيحل بهم إن استمروا على ضلالهم، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ

(١) البحر المديد ٤/ ٤٢٤.

(٢) غرائب القرآن ٥/ ٥٢٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩١.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف ٩٧ - ٩٩].

وفي الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»[(١)].

فهذه أمثلة على أساليب الله في المكر بأعدائه، فالله قادر على أن يخسف بهم الارض «كما خسف بقارون من قبلهم، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، يعني: إن العذاب يأتيهم بغتة، فيهلكهم فجأة، كما أهلك قوم لوط وغيرهم ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ بمعنى: في تصرفهم في الأسفار، فإنه سبحانه وتعالى قادر على إهلاكهم في السفر، كما هو قادر على إهلاكهم في الحضر»[(٢)].

«وكان ذكر وقت البيات ووقت اللعب تهديدًا لهم بأن يصيبهم العذاب بأفظع أحواله؛ إذ يكون حلوله بهم في ساعة دعتهم وساعة لهوهم نكايةً بهم»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك ١٧].

أي: أن يمطر عليكم حصباء من السماء، فستعلمون كيف إنذاري إذا شاهدتم المنذر به، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذٍ[(٤)].

وهذه العقوبات حلت بمستحقيها دون أن يتوقعوها، أو يشعروا بها قبل وقوعها، فلم يسبقهم بها أحد من قبل.

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل ٥٠]: فأخذناهم بعقوبتنا إياهم، وتعجيلنا العذاب لهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا، وأنه أخذه من أخذه منهم على غرة، أو استدراجه منهم من استدرج على كفره به ومعصيته إياه، ثم إحلاله العقوبة به على غرة وغفلة[(٥)].

٤. فضح أهل السوء وزوال سلطانهم.

منذ بزغ الإسلام بنوره والماكرون يدبرون المكائد، ويحيكون الدسائس لإطفاء نور الله، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون، ويأبى الله إلا أن يفضح أهل المكر والغدر؛ ولهذا تولى الله فضح مكر الماكرين، وكيد الكائدين، وعرى حالهم، وكشف أمرهم، وفضح مخازيهم، وأظهر

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٩/ ١٥٦، رقم ٨٧٨٣، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٦١، رقم ٢٨٧.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٠٤: إسناده صحيح.
وقال ابن كثير في التفسير ٢/ ٢٧٩: وهو صحيح إليه -أي إلى ابن مسعود- بلا شك.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٧٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٣.
(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٣٠.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٩٢.

قبائحهم؛ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [محمد ٢٩].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف ١٥٢].

أي: ومثل هذا الجزاء في الدنيا نجزي المفترين على الله في كل زمان؛ إذ فضحوا بظهور افترائهم كما فضح هؤلاء[(١)].

«ولقد كان ما صنعه الله بالمنافقين في عهد الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- وفي فضح من فضح منهم- حماية للمجتمع الإسلامي الأول من هذا الداء الخبيث، ووقاية للمؤمنين من أن يطوف بهم طائف منه، حتى لقد كان صحابة رسول الله -وهم من هم- يضعون أنفسهم تحت مراقبة دقيقة منهم لكل خاطرة تخطر لهم، ولكل وسواس يطوف بهم[(٢)].

ولهذا يوصي القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم وهي وصية لكل داعية من بعده ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجبه يؤديه، والهدى والضلال بيد الله، وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال، وألا يضيق صدره بمكرهم، فإنما هو داعية لله، فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين، وهو مخلص في دعوته، لا يبتغي من ورائها شيئًا لنفسه، ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره، ويبطئ عليه النصر لابتلاء ثقته بربه، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل ١٢٨].

ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون، هذا هو دستور الدعوة إلى الله كما رسمه الله، والنصر مرهون باتباعه، كما وعد الله، ومن أصدق من الله؟»[(٣)].

وقد أخبر الله في كتابه أن الماكرين بالحق وأهله مهما يمكرون من مكر، ويكيدون من كيد، فإن الله يجعل وبال ذلك عليهم، بإهلاكهم، وإزالة سلطانهم، فقال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل ٢٦].

أي: إن حال من قبلهم وقد دبروا الحيل، ونصبوا الحبائل ليمكروا بها رسل الله، فأبطلها الله، وجعلها سبيلًا لهلاكهم، كحال قوم بنوا بنيانًا، وعمدوه بالأساطين، فضعضعت أساطينه، وسقط عليهم السقف، فهلكوا تحته من حيث لا يشعرون بسقوطه- فما نصبوه من الأساطين، وظنوه سبب القوة

(١) تفسير المراغي ٩/ ٧٤.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٨٢٩.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٠٣ بتصرف.

والتحصين في البنيان صار سبب الهلاك، كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالًا عليهم، ونحو الآية قولهم في المثل: من حفر لأخيه جبًّا، وقع فيه منكبًّا، وخلاصة ذلك- إن الله أحبط أعمالهم، وجعلها وبالًا عليهم، ونقمة لهم[1].

وهذا التعبير القرآني في غاية الروعة؛ إذ صور هذا المكر في صورة بناء ذي قواعد وأركان وسقف، إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته، ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله وتدبيره: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل ٢٦].

وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل، يطبق عليهم من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، فالقواعد التي تحمل البناء تتحطم وتتهدم من أساسها، والسقف يخر عليهم من فوقهم، فيطبق عليهم ويدفنهم.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل ٢٦].

فإذا البناء الذي بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه إذا هو مقبرتهم التي تحتويهم، ومهلكتهم التي تأخذهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، وهو الذي اتخذوه للحماية، ولم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته! إنه مشهد كامل للدمار والهلاك وللسخرية من مكر الماكرين، وتدبير المدبرين، الذين يقفون لدعوة الله، ويحسبون مكرهم لا يرد، وتدبيرهم لا يخيب، والله من ورائهم محيط!

وهو مشهد مكرر في الزمان قبل قريش وبعدها، ودعوة الله ماضية في طريقها مهما يمكر الماكرون، ومهما يدبر المدبرون، وبين الحين والحين يتلفت الناس فيذكرون ذلك المشهد المؤثر الذي رسمه القرآن الكريم ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل ٢٦][2].

والمقصود أن الله يمكر بأهل المكر، ويفضحهم، وليس ذلك في الدنيا فحسب، بل يفضحهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة؛ ولهذا قال الله بعد ذلك: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ [النحل ٢٧].

أي: يفضحهم على رءوس الأشهاد، ويهينهم بإظهار فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم، فيجعله علانية، وبين هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات ٩-١٠].

أي: أظهر علانية ما كانت تكنه الصدور،

(١) تفسير المراغي ١٤/ ٧١.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٦٨ بتصرف.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق ٩][(١)].

ثانيًا: عواقب المكر في الآخرة:

١. سوء العذاب.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن عاقبة المكر سوء العذاب يوم القيامة، فقال مخبرًا عما حل بفرعون وجنوده جزاء مكرهم: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر ٤٥].

والضمير: في (فوقاه) يحتمل أن يعود على موسى عليه السلام، ويحتمل أن يعود على مؤمن آل فرعون، وقال قائلو ذلك: إن ذلك المؤمن نجا مع موسى عليه السلام في البحر، وفر في جملة من فر معه من المتبعين[(٢)].

فعندما قال هذه الأقوال، ونصح هذه النصيحة، وأعلن إيمانه، وتحدى فرعون، وخرج عن سلطانه، منحازًا إلى جبهة موسى، طلبه فرعون ليقتله، فهرب، فوقاه الله من شرهم، أي: حفظه مما أرادوا به من المكر السيئ في الدنيا؛ إذ نجاه مع موسى عليه السلام، وأحاط بفرعون وقومه سوء العذاب في الدنيا بالغرق في اليم، وفي الآخرة بدخول جهنم، وبئس القرار[(٣)].

ولما قيل: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ﴾ وكان المؤمن من أمة موسى، وتابع له، علم منه أن موسى وسائر قومه قد نجوا أيضًا من باب أولى، وغلبوا على فرعون وقومه، وقد صرح بذلك، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر ٥١].

ونصرتهم في الدنيا بإظهار كلمة الحق، وحصول الذكر الجميل، واقتداء الناس بسيرتهم إلى مدة ما شاء الله، وقد ينصرون بعد موتهم، وأما نصرهم في الآخرة: فمن رفع الدرجات، والتعظيم على رؤوس الأشهاد من الحفظة والأنبياء والمؤمنين[(٤)].

وهذا التعبير: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ﴾ مؤذن بأنهم أضمروا مكرًا به، وتسميته مكرًا مؤذن بأنهم لم يشعروه به، وأن الله تكفل بوقايته؛ لأنه فوض أمره إليه[(٥)].

و(ما) مصدرية، والمعنى: سيئات مكرهم، وإضافة سيئات إلى (مكر) إضافة بيانية، وهي هنا في قوة إضافة الصفة إلى الموصوف؛ لأن المكر سيِّئ، وإنما جمع السيئات باعتبار تعدد أنواع مكرهم التي بيتوها.

وقوله: ﴿وَحَاقَ﴾ أي: نزل محيطًا بعد إحاطة الإغراق[(٦)].

والمراد بآل فرعون: فرعون وقومه، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦٦.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٦٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٤/ ٧٧.
(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٤١.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٥٧.
(٦) السراج المنير، الشربيني ٣/ ٤٨٦.

ذكره؛ لكونه أولى بذلك منهم، أو المراد بآل فرعون فرعون نفسه، والأول أولى؛ لأنهم قد عذبوا في الدنيا جميعًا بالغرق، وسيعذبون في الآخرة بالنار[1].

و﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: الغرق، والتعريف للعهد؛ لأنه مشهور معلوم، وإنما كان الغرق سوء عذاب لأن الغريق يعذب باحتباس النفس مدة وهو يطفو على الماء ويغوص فيه، ويرعبه هول الأمواج، وهو موقن بالهلاك، ثم يكون عرضة لأكل الحيتان حيًا وميتًا؛ وذلك ألم في الحياة، وخزي بعد الممات، يذكرون به بين الناس[2].

ولعل الأولى أن يكون المراد من سوء العذاب: الغرق في الدنيا، والنار في الآخرة.

قال الطبري: وعني بقوله: ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ ما ساءهم من عذاب الله، وذلك نار جهنم[3].

وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ قال القرطبي: يقول تعالى ذكره مبينًا عن سوء العذاب الذي حل بهؤلاء الأشقياء من قوم فرعون ذلك الذي حاق بهم من سوء عذاب الله ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾[غافر ٤٦].

إنهم لما هلكوا وأغرقهم الله جعلت أرواحهم في أجواف طير سود، فهي تعرض على النار كل يوم مرتين ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ إلى أن تقوم الساعة[4].

ثم يوم القيامة هو يوم الفصل والقضاء بين الخلق وربهم، وبين الخلق مع بعضهم البعض، وهو يوم الجزاء والعقوبة، ونشر الصحف، وانكشاف السرائر، وفي هذا اليوم تتجلى رحمة الله بعباده المؤمنين، وعدله مع أعدائه، بكشف أهل المكر وأعمالهم التي أحصاها عليهم، وكتبها الحفظة في سجل أعمالهم، فتكون المفاجأة الكبرى، والطامة العظمى عليهم من حيث لم يحتسبوا، لما قابلوا نعمة الله بالمكر، قابل مكرهم بمكر أشد منه، وهو أنه أمهلهم إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ [يونس ٢١].

وأطلق على تأجيل الله عذابهم اسم المكر على وجه الاستعارة التمثيلية؛ لأن هيئة ذلك التأجيل في خفائه عنهم كهيئة فعل الماكر، وحسنته المشاكلة[5].

٢. العذاب الشديد في النار.

ومن العقوبات التي تحل بالماكرين -وهي أعظم العقوبات- خلودهم في النار.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٦٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٥٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٩٥.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣٤.

١٠].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يقول تعالى ذكره: والذين يكسبون السيئات لهم عذاب جهنم، عن قتادة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ قال: هؤلاء أهل الشرك[1].

وقد ذكر ابن كثير في المراد بالذين يمكرون السيئات قولين: أنهم المراؤون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بغضاء إلى الله عز وجل، يراؤون بأعمالهم ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[النساء ١٤٢].

أو أنهم: هم المشركون. ثم قال: والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى؛ ولهذا قال: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر ١٠].

أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية[2].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٤٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٣٨.

والسيئات هنا: صفة لمصدر محذوف؛ لأن الفعل لازم ليس بمتعدٍ الى مفعول به، قيل: بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات، فهو وصف مصدر محذوف، ويحتمل أن يقال: استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[العنكبوت ٤].

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يحتمل ما ذكرناه أن يكون السيئات وصفًا لمصدر تقديره: الذين يعملون العملات السيئات، وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[فاطر ١٠].

إشارة إلى بقائه وارتقائه ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: العمل السيء، وهو يبور إشارة إلى فنائه[3].

وعنى بهن -السيئات- مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة، وتداوروا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله صلى الله عليه وسلم: إما إثباته، أو قتله، أو إخراجه، كما حكى الله سبحانه عنهم: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ [الأنفال ٣٠].

ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور، أي: يكسد ويفسد، دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر، فجمع

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٧.

عليهم مكراتهم جميعًا، وحقق فيهم قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال ٣٠].

وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر ٤٣][1].

وقيل: إن (يمكرون) هنا مضمنة معنى (يدبرون) ولكنه عبر بها لغلبة استعمالها في السوء، فهؤلاء لهم عذاب شديد فوق أن مكرهم وتدبيرهم يبور، فلا يحيا ولا يثمر، من البوار ومن البوران سواء.

والذين يمكرون السيئات يمكرونها طلبًا للعزة الكاذبة، والغلبة الموهومة، وقد يبدو في الظاهر أنهم أعلياء، وأنهم أعزاء، وأنهم أقوياء، ولكن القول الطيب هو الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح هو الذي يرفعه إليه، وبهما تكون العزة في معناها الواسع الشامل، فأما المكر السيئ قولًا وعملًا، فليس سبيلًا إلى العزة، ولو حقق القوة الطاغية الباغية في بعض الأحيان، إلا أن نهايته إلى البوار وإلى العذاب الشديد، وعد الله، لا يخلف الله وعده، وإن أمهل الماكرين بالسوء حتى يحين الأجل المحتوم في تدبير الله المرسوم[2].

وفي الآية الأخرى قال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [سبأ ٣٣].

أي: قال المستضعفون: بل كفرنا بمكركم بنا بالليل والنهار، وأضاف المكر إلى الليل والنهار من حيث هو فيهما؛ ولتدل هذه الإضافة على الدؤوب والدوام، وهذه الإضافة كما قالوا: ليل نائم، ونهار صائم، وكأن معنى هذه الآية الإحالة على طول الأمل، والاغترار بالأيام، مع أمر هؤلاء الرؤساء بالكفر بالله[3].

والضمير في قوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ راجع إلى الفريقين[4]. المستكبرين والمستضعفين.

والندامة من المعاني القلبية لا تظهر، وإنما يظهر ما يدل عليها، وما يدل عليها غيرها[5]. وهي التحسر في أمر فائت، أي: أضمر الفريقان الندامة على ما فعلا من الضلال والإضلال حين ما نفعتهم الندامة، وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير[6].

وقيل: المراد بأسروا هنا: أظهروا؛ لأنه من الأضداد، يكون تارة بمعنى: الإخفاء، وتارة بمعنى: الإظهار، ومنه قول امرئ

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦٠٣.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٣١.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٢١.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٧٧.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٥٢.
(٦) روح البيان، حقي ٧/ ٢٩٨.

القيس[1]:

تجاوزت أحراسًا وأهوال معشرٍ
علي حراصًا لو يسرون مقتلي

فالإسرار: الإظهار والإضمار جميعًا، وهو من الأضداد، ويروى: لو يشرون مقتلي، بالشين المعجمة، وهو الإظهار لا غير. وقيل معنى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾: تبينت الندامة في أسرة وجوههم[2].

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: وافوه، وتيقنوا حصولهم فيه. أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب سرًّا في أنفسهم لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم. وفي بعض مواقف القيامة وعند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهرًا[3].

موضوعات ذات صلة:

الخسران، الخشية، الخيانة، العذاب، الكتمان، النجوى

(١) ديوانه ص١٠٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٧٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨١.

مكة

عناصر الموضوع

التعريف بمكة	١٦٠
مواضع مكة التي ذكرت في القرآن	١٦٦
حكمة اختيار مكة مهبطا للوحي	١٦٩
فضائل مكة	١٧٢
إبراهيم عليه السلام ومكة	١٨٠
واجبات ساكنيها وقاصديها	١٨٩
الإعجاز العلمي في موقع مكة المكرمة	١٩٢

التعريف بمكة

أولًا: موقع مكة:

إن مكة المكرمة هي: قبلة المسلمين، والحرم الآمن، وأم القرى، ومهبط الوحي، ومبعث خير البشر صلى الله عليه وسلم، وهي أشهر من أن تعرف، أو يكتب عنها باحث، فهي معروفة لكل المسلمين، ولكن يقتضي البحث العلمي عن مكة المكرمة التعريف بها وبمعالمها، وقد ذكر المؤرخون والجغرافيون المسلمون تعريفًا ووصفًا لمكة قديمًا بقولهم:

ومكة المكرمة هي: مدينة مقدسة لدى المسلمين، بها المسجد الحرام، والكعبة التي تعد قبلة المسلمين في صلاتهم، تقع غرب المملكة العربية السعودية، تبعد عن المدينة المنورة حوالي (٤٠٠) كيلو مترًا في الاتجاه الجنوبي الغربي، وعن مدينة الطائف حوالي (١٢٠) كيلو مترًا في الاتجاه الغربي، وعلى بعد (٧٢) كيلو مترًا من مدينة جدة وساحل البحر الأحمر، وأقرب الموانئ لها هو ميناء جدة، وأقرب المطارات الدولية لها هو مطار الملك عبد العزيز الدولي، وتقع مكة المكرمة عند تقاطع درجتي العرض (٢٥/ ٢١) شمالًا، والطول (٤٩/ ٣٩) شرقًا، ويعتبر هذا الموقع من أصعب التكوينات الجيولوجية، فأغلب صخورها جرانيتية شديدة الصلابة، وتبلغ مساحة مدينة مكة المكرمة حوالي (٨٥٠ كم^{٢})، منها (٨٨ كم^{٢}) مأهولة بالسكان، وتبلغ مساحة المنطقة المركزية المحيطة بالمسجد الحرام حوالي (٦ كم^{٢})، ويبلغ ارتفاع مكة عن مستوى سطح البحر حوالي (٢٧٧) مترًا.

وكانت مكة في بدايتها عبارة عن قرية صغيرة تقع في وادٍ جافٍ تحيط بها الجبال من كل جانب، ثم بدأ الناس في التوافد عليها والاستقرار بها في عصر النبي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وذلك بعدما ترك النبي إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام في هذا الوادي الصحراوي الجاف، وذلك امتثالًا لأمر الله، فبقيا في الوادي حتى تفجر بئر زمزم، وقد بدأ خلال تلك الفترة رفع قواعد الكعبة على يد النبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

ويبلغ عدد سكان مكة بحسب إحصائيات عام (٢٠١٠ م) حوالي (١٦٧٥٠٠٠) نسمة، موزعين على أحياء مكة القديمة والجديدة، وتضم مكة العديد من المعالم الإسلامية المقدسة، لعل أبرزها المسجد الحرام، وهو أقدس الأماكن في الأرض؛ ذلك لأنه يضم الكعبة المشرفة قبلة المسلمين في الصلاة، كما أنه أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها

الرحال، وذلك حسب قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى)[1]، بالإضافة إلى ذلك، تعد مكة مقصد المسلمين في موسم الحج والعمرة إذ إنها تضم المناطق التي يقصدها المسلمون خلاله وهي مزدلفة، منى وعرفة[2].

ثانيًا: أسماء مكة في القرآن:

كثرت أسماء مكة المكرمة في كتاب الله، وكثرة الأسماء دليل على شرف المسمى، والمتدبر في آيات القرآن الكريم يجد أن مكة المكرمة ورد ذكرها بأسمائها وصفاتها في مواضع عديدة، وتضمنت كتب التفسير والتاريخ عددًا كبيرًا من أسمائها، وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة منها: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأم رحم، وأم القرى؛ والبلدة والبنية والكعبة[3]، وسيكون الحديث موجزًا عن أسمائها في كتاب الله تعالى فمن ذلك:

١. مكة.

وهو أشهر أسمائها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح: ٢٤].

وفي سبب تسميتها أقوال:

الأول: سميت مكة؛ لأنها تجذب إليها خيرات الدينا أو لأنها عبدت الناس فيها فيأتونها من جميع الأطراف، من قولهم: امتك الفصيل أخلاف الناقة إذا جذب جميع ما فيها جذبًا شديدًا فلم يبق فيها شيئًا[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم ١١٨٩، ٢/ ٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم ١٣٩٧، ٢/ ١٠١٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تاريخ مكة يملأ عشرات المجلدات، مثل: أخبار مكة للأزرقي، وتاريخ مكة للفاكهي، وشفاء الغرام للفاسي، والعقد الثمين له أيضًا، وبلوغ المرام، وتاريخ مكة للسباعي، وعشرات الكتب ما زالت محفوظة في مكتبة الحرم وغيرها.
انظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، غيث البلادي ص ٣٠١.

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢٨٥.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٩.
وانظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٥/ ١٨٢، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع،

الثاني: لازدحام الناس فيها [(١)].

الثالث: سميت مكة لقلة الماء بها، كأن ماءها قد امتك، وذلك أنهم كانوا يمتكون الماء فيها أي: يستخرجونه [(٢)].

الرابع: سميت مكة؛ لأنها كانت تمك من ظلم فيها وألحد، أي: تهلكه» [(٣)].

الخامس: قيل: إن مكة وسط الأرض، والعيون والمياه تنبع من تحت مكة، فالأرض كلها تمك من ماء مكة» [(٤)].

السادس: إنما سميت مكة بذلك؛ لأنها قبلة أهل القرى ومحجهم ومجتمعهم وأعظم القرى شأنًا، وقيل: لأن الأرض دحيت من تحتها، أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس» [(٥)].

٢. بكة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦].

وسميت بذلك؛ لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة، إذا ألحدوا فيها بظلم [(٦)]، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكون فيها، أي: يزدحمون، وبكة بمعنى مكة والعرب تبدل الميم باء، كما في لازم ولازب [(٧)].

٣. أم القرى.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى:٧].

البكري ١/ ٢٦٩.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٩١، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٩.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٧٥.

(٣) انظر: معاني القرآن، النحاس ١/ ٤٩، جامع البيان، الطبري ١/ ١٠٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٩.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٩.

(٥) انظر: معاني القرآن، النحاس ١/ ٤٩، جامع البيان، الطبري ١/ ١٠٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٤.

(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٣٩.
وانظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢٦٦.

(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٢.

وأم القرى هي مكة باتفاق المفسرين، أي: أصل القرى؛ وسميت بذلك؛ لأنها أول بيت وضع بها ومنها دحيت[1]؛ ولأنها كانت أعظم القرى شأنًا وأقدمها وأشهرها[2].

قال الإمام السمعاني: «وأم القرى مكة: وسميت أم القرى؛ لأن سائر القرى يقصدونها ويأتونها، وقيل: لأن الأرض دحيت من تحتها، وقيل: لأنها معظمة تقصد بالتعظيم، ومنه سميت الأم أمًا؛ لأنها تعظم»[3].

٤. البلد الأمين.

وهذا الاسم ثبت لمكة بقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين:١-٣].

والمعنى: وهذا البلد الآمن من أعدائه أن يحاربوا أهله، أو يغزوهم، وقيل: الأمين، ومعناه: الآمن، أي: هما بمعنى واحد، والعرب تقول للآمن: أمين، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾ [العنكبوت:٦٧]وإنما عني بقوله: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين:٣]يعني: البلد الحرام مكة، يأمن فيه الخائف في الجاهلية والإسلام[4].

٥. البلدة.

وهذا الاسم ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ [النمل:٩١] والبلدة، مكة التي حرمها أن يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظلموا فيها أحدًا، أو يصيدوا صيدها، أو يقطعوا شجرها[5].

قال الإمام الماوردي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ [النمل:٩١]«فيها قولان: أحدهما: مكة، قاله ابن عباس. الثاني: منى، قاله أبو العالية، وتحريمها هو تعظيم حرمتها والكف عن صيدها وشجرها»[6].

---

(١) انظر: المصدر السابق ١١/ ٥٣١.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٢٧١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٩٩.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١٢٥
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٠٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٤٣، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٣٠١.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٨٨.
(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٣١.

وقال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١] «يعني: مكة التي عظم الله حرمتها، أي: جعلها حرمًا آمنًا، لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر»[(١)].

٦. الكعبة.

هي من أسماء مكة؛ لقوله تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:٩٥].

أي: واصلًا إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣][(٢)].

والكعبة جزء من مكة، وإطلاقها على مكة من إطلاق الجزء على الكل.

قال الإمام ابن الجوزي: «﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ المراد: الحرم كله؛ لأنه لا يذبح في الكعبة، ولا في المسجد الحرام»[(٣)].

والكعبة هي: بيت الله الحرام الذي في وسط المسجد الحرام، مربع الشكل، بابها مرتفع عن الأرض، قيل: سميت بذلك لتربيعها[(٤)].

٧. الحرم الآمن.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص:٥٧].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت:٦٧].

فالثمرات تجبى لمكة شرفها الله من كل مكان في حاضر الزمان وغابره، وإنما سماه الله حرمًا آمنًا؛ لأنه كان في الجاهلية معاذًا لمن استعاذ به، وكان الرجل منهم لو لقي به قاتل أبيه أو أخيه، لم يهجه ولم يعرض له حتى يخرج منه[(٥)].

٨. المسجد الحرام.

اسم من أسماء مكة، وله عدة إطلاقات، فهو اسم لمكة، واسم لمسجد الكعبة وقد يمتد

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٤٦.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٨٤.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١٠٩.
(٤) انظر: البلد الحرام فضائل وأحكام، إعداد كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى ص٤٩.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٠٤.

إلى حدود الحرم.

وقد تكرر ورود لفظ المسجد الحرام في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعًا، منها:

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء:١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

والمسجد الحرام في هذه الآيات يراد به مكة وجميع الحرم فيه[1].

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥١.

مواضع مكة التي ذكرت في القرآن

ضمت مكة المكرمة مع الكعبة المشرفة آيات بينات ومشاعر معظمة وأهم مواضع مكة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي:

١. المسجد الحرام.

هو أول مسجد وضع في الأرض، وأعظم المساجد وأفضلها، وأهم موضع في مكة، وهو اسم لمسجد الكعبة، وقد يمتد إلى حدود الحرم.

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤].

والمسجد الحرام في هذه الآية يراد به مكة، وجميع الحرم فيه[(١)].

٢. مقام إبراهيم.

وهو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم أثناء بناء الكعبة، حين كان يرفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل عليهما السلام، والمقام آية من آيات الله في الحرم المكي، وذلك أن أثر قدم إبراهيم ظاهر في الحجر.

قال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧].

وقد أمر الله تعالى بالصلاة عنده قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥].

أي: واتخذوا من مقام إبراهيم مكانًا للصلاة فيه، أي: تصلى فيه ركعتي الطواف[(٢)].

٣. الصفا والمروة.

هما في الأصل جبلان صغيران قرب الكعبة من جهة الشرق، وهما إحدى مشاعر الحج والعمرة، ويكون السعي بينهما سبعة أشواط يبدأ بالصفا وينتهي بالمروة.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة:١٥٨].

فالصفا رأس المسعى الجنوبي، والمروة رأس المسعى الشمالي، وهما من معالم

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١١٢، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦١٠.

دين الله الظاهرة التي تعبد الله عباده بالسعي بينهما، فمن قصد الكعبة حاجًا أو معتمرًا، فعليه أن يسعى بينهما[(١)].

والصفا: الحجارة البيض، والمروة: الحجارة السود، واشتقاق الصفا من قولهم: صفا يصفو إذا خلص، وهو جمع واحده صفاة، أو أن الصفا: الحجارة الصلبة التي لا تنبت شيئا، والمروة: الحجارة الرخوة، وهذا أظهر القولين في اللغة[(٢)]، والصفا والمروة: منسكان من مناسك الحج، والسعي فيهما واجب في الحج والعمرة[(٣)].

٤. عرفات.

ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة:١٩٨].

أي: إذا دفعتم بعد غروب الشمس راجعين من عرفات، وهي المكان الذي يقف فيه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة، والوقوف في عرفة: ركن لا يدرك الحج إلا به، فمن فاته الوقوف في وقته وموضعه فقد فاته الحج، ووقت الوقوف يدخل بزوال الشمس من يوم عرفة، ويمتد إلى طلوع الفجر من يوم النحر، وذلك نصف يوم وليلة كاملة[(٤)].

وعرفة هو: جبل يقع علي بعد (٢٠) كيلو متر شرقي مكة، تقام عنده أهم مناسك الحج، والتي تسمى بوقفة عرفة وذلك في يوم التاسع.

واختلف المفسرون في سبب تسمية المكان بعرفة على أقوال: أحدها: أن آدم عرف فيه حواء بعد أن أهبطا من الجنة، والثاني: أن إبراهيم عرف المكان عند الرؤية، لما تقدم له في الصفة، والثالث: أن جبريل عرف فيه الأنبياء مناسكهم، والرابع: أنه سمي بذلك لعلو الناس فيه، والعرب تسمي ما علا عرفة وعرفات، ومنه سمي عرف الديك لعلوه[(٥)].

٥. المزدلفة.

وهي المشعر الحرام، والمشعر المعلم لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرام لحرمته، وسميت المزدلفة: جمعًا؛ لأن آدم عليه السلام اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها، أي: دنا منها، أو لأنه يجمع فيها بين

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٢٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٣٣، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٤١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢١١، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٥٨.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١/ ١٧٧.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٢٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣١.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٦١.

الصلاتين هنالك بين المغرب والعشاء أو لأن الناس يزدلفون إلى الله تعالى أي: يتقربون بالوقوف فيها[1].

وسميت مشعرًا؛ لأنه معلم للحج والصلاة والمقام، والمبيت به والدعاء عنده[2]، وسمي: مزدلفة، من الازدلاف، وهو: الاجتماع، والمزدلفة: موضع بين جبلين، يسمى أحدهما: قزح يقف عليه الإمام، وهو من جملة الحرم، ولذلك سمى المشعر الحرام[3].

ومزدلفة هي: ثالث المشاعر المقدسة التي يمر بها الحجيج في رحلة إيمانية يؤدون فيها مناسك الحج حيث تقع بين مشعري منى وعرفات، ويبيت الحجاج بها بعد نفرتهم من عرفات ثم يقيمون فيها صلاتي المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا، ويجمعوا فيها الحصى لرمي الجمرات بمنى ويمكث فيها الحجاج حتى صباح اليوم التالي يوم عيد الأضحى ليفيضوا بعد ذلك إلى منى، والمبيت بمزدلفة واجب، ومن تركه فعليه دم[4].

٥. منى.

هي مشعر من المشاعر المقدسة، تبعد عن شرق مكة بحوالي خمس كيلومترات في الطريق بين مكة وجبل عرفة، تعرف المنطقة كموضع أداء إحدى شعائر الحج إذ يبيت فيها العديد من الحجاج كما أنها موقع رمي الجمرات الذي يؤدى بين شروق وغروب الشمس في آخر أيام الحج.

قال تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة:٢٠٣].

واذكروا الله تسبيحًا وتكبيرًا في أيام قلائل، وهي أيام منى، أي: أيام التشريق وهي: الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة، فمن أراد التعجل وخرج من منى قبل غروب شمس اليوم الثاني عشر، فلا حرج عليه، ومن تأخر بأن بات بمنى حتى يرمي الجمار في اليوم الثالث عشر واتقى الله في حجه، فهو أفضل؛ لأنه تزود في العبادة واقتداء بفعل النبي صلى الله عليه وسلم[5].

٦. غار ثور.

وهو الغار الذي اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر

(١) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٧١.
(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٠٤.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٠٢.
(٤) معالم مكة التاريخية والأثرية، عاتق البلادي ص٢٢٦.
(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١ / ٢٦٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢ / ٢٦١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣.

الصديق قبل خروجهما

من مكة المكرمة مهاجرين إلى المدينة المنورة، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

وغار ثور هو المراد في الآية قال المفسرون: الغار: ثقب في الجبل، وهذا الجبل هو جبل ثور، وهو جبل قريب من مكة[١]، ويقع على بعد نحو أربعة كيلو مترات في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام.

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣١٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٩٧.

حكمة اختيار مكة مهبطًا للوحي

تظهر حكمة اختيار مكة مهبطًا للوحي من خلال النقاط الآتية:

١. مكة وسط الأرض ومركزها.

إن حكمة اختيار مكة مهبطًا للوحي هي الوسطية في المكان والموقع بين بلدان العالم، فقد خص الله مكة المكرمة وشرفها بكونها وسط الأرض ومركزها، وكذلك لوسطية الأمة، فقد امتن تبارك وتعالى على هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطًا، كما جعل قبلتها وسطًا[٢].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣].

أي: جعلناكم خيارًا عدولًا[٣].

ويؤيد الفهم المتقدم ماتضمنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ

(٢) انظر: مكة المكرمة في ضوء القرآن الكريم، عبد الله القرني وإسماعيل القريشي، من موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

(٣) المصدر السابق.

وانظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤١، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٢٥.

﴿فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى:٧].

فقد جعل نزول الوحي بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معللًا بإنذار مكة المكرمة ومن حولها من القرى، وخاصة أن النذارة عامة لكل القرى وليست لقرى الحجاز وحدها، ولا قرى الجزيرة فقط بل للعالم أجمع بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

ومعنى هذا الكلام: لأنذركم بالقرآن، أيها المشركون، وأنذر من بلغه القرآن من الناس كلهم من العرب والعجم إلى قيام الساعة[(١)].

قال الإمام الشوكاني: «أي: أوحى الله إلي هذا القرآن الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به وأنذر به من بلغ إليه، أي: كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة»[(٢)].

وهذا يرجح أن يكون ما حولها: يراد به جميع القرى.

٢. فيها أول مسجد وضع للناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٩٧﴾ [آل عمران:٩٦- ٩٧].

٣. أحب البلاد إلى الله تعالى.

فقد روى عبد الله بن عدي بن حمراء رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفًا على الحزورة[(٣)] فقال: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)[(٤)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٩٢، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٩٣.

(٢) فتح القدير ٢/ ١٢٠

(٣) الحزورة بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي هي سوق مكة، ودخلت في المسجد لما زيد، وباب الحزورة معروف من أبواب المسجد الحرام، وهي ما يعرف اليوم باسم القشاشية، مرتفع يقابل المسعى من مطلع الشمس كان ولا يزال سوقًا من أسواق مكة، وهي كذلك اليوم غير أن ظهرها معمور بشوارع تجارية كشارع الصوغ ومبيعات الحقائب والحرم ونحوها.
انظر: معجم البلدان، الحموي ٢/ ٢٥٥، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي ص ٩٨، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد حسن شراب ص ١٠٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في فضل مكة، رقم ٣٩٢٥، ٥/ ٧٢٢،

٤. الله يريد أن يحمل العرب رسالة الإسلام.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة:٢].

فقد اختار الله العرب لوظيفة عالمية عامة؛ لما فيهم من شرف متأصل، واستعداد كامل، وصفات مهيأة، ولهذا كان منبع الرسالة بمكة، وشأنها عند العرب هو شأنها!! فهم مجمعون على تقديسها. ولأنها في وسط الجزيرة وصميمها، ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية في الطباع والألسنة، تلك المؤثرات التي يجلبها الاحتكاك بالأجانب والاختلاط بهم.

وكل أطراف الجزيرة لم تخل من لوثة في الطباع، وعجمة في الألسنة جاءت من الاختلاط بالأجنبي، ولا أضر على مقومات الأمم من العروق الدساسة.

فاليمن دخلتها الدخائل الأجنبية من الحبشة والفرس على طباع أهلها وألسنتهم، والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجام، والعراق والجزيرة لم يسلما من التأثر بالطباع الفارسية، فكانت هذه الأطراف تنطوي على عروبة مزعزعة للمقومات، ولم يحافظ على الطبع العربي الصميم إلا صميم الجزيرة ومنه مكة التي ظهر فيها الإسلام.

وهذا الوسط وإن كان عريقًا في الصفات التي تسمى العصر لأجلها جاهليًا؛ ولكنه كان بعيدًا عن الذل الذي يقتل العزة والشرف من النفوس؛ والجاهل يمكن أن تعلمه، والجافي يمكن أن تهذبه.. ولكن الذليل الذي نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزة وإباء وشهامة تلحقه بالرجال، هذا توجيه موجز مقرب لاختيار الله تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة.

وشيء آخر يرتبط بهذا: وهو أن الله كما اختار العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة، وترجمان هذه النهضة، ولا عجب في هذا؛ فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبدًا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها[1].

وسيأتي بيان وسطية مكة المكرمة وكونها وسط الأرض ومركزها بالتفصيل.

وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب في فضل مكة، رقم ٣١٠٨، ٢/ ١٠٣٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٠٨٩، ٢/ ١١٩٢.

(١) انظر: تفسير ابن باديس ص ٣٩٢.

فضائل مكة

إن لمكة المكرمة فضائل كثيرة ومتعددة يمكن ذكر أهمها في النقاط الآتية:

أولًا: قبلة المسلمين:

جعل الله تعالى مكة المكرمة قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ويعتبر استقبال الكعبة من أهم عوامل وحدة المسلمين، يستقبلها المسلمون في كل صلاة فرضًا أو نفلًا، فلا تصح صلاة بدون استقبالها وقد ادخره الله للمسلمين آية على أن الإسلام هو القائم على أساس الحنيفية، وفيه تذكير بشعائر الله بمكة.

قال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:١٤٢-١٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة:١٤٨-١٥٠].

وروى الإمام ابن جرير: عن قتادة قال: « كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص، صلت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نبي الله صلى الله عليه وسلم، وصلى نبي الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة مهاجرًا نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرًا، ثم وجهه الله بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام، فقال في ذلك قائلون من الناس: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ لقد اشتاق الرجل إلى مولده! قال

الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فقال أناس لما صرفت القبلة نحو البيت الحرام: كيف بأعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وقد يبتلي الله العباد بما شاء من أمره، الأمر بعد الأمر، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، وكل ذلك مقبول، إذ كان في ذلك إيمان بالله، وإخلاص له، وتسليم لقضائه»[1].

والكعبة قبلة المسلمين أحياءً وأمواتًا لما رواه عبيد بن عمير، عن أبيه أنه حدثه، وكانت له صحبة أن رجلا سأله، فقال: (يا رسول الله ما الكبائر؟ فقال: (هن تسع)، فذكر معناه زاد: (وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتًا)[2].

ثانيًا: يحج المسلمون إليها:

إن من فضائل مكة المكرمة أن جعلها الله تعالى مكانًا لإقامة شعائر الحج ومناسكه، وأوجب على العباد الحج إليها.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

والمعنى: ولله على من استطاع من الناس حج البيت، أي: فرض واجب لله على من استطاع من أهل التكليف السبيل إلى حج بيته الحرام[3].

والحج الذي هو: قصد لمكة من أجل النسك حق واجب لله تعالى في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته بإجماع المسلمين، وهذا الواجب مقيد بالاستطاعة.

قال تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[4].

وقد اختلف المفسرون والفقهاء في معنى الاستطاعة اختلافًا كثيرًا، «فقال بعضهم: إنها القدرة على الزاد والراحلة مع أمن الطريق، وقال بعضهم: إنها صحة البدن والقدرة على المشي، وقال آخرون هي: صحة البدن وزوال الخوف من عدو أو سبع مع القدرة على المال الذي يشترى منه الزاد والراحلة، وقضاء جميع الديون والودائع،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٧.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم، رقم ٢٨٧٥، ٣/ ١١٥، والحاكم المستدرك على الصحيحين، رقم ٧٦٦٦، ٤/ ٢٨٨.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٦٠٢، ٢/ ٨٤٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٧، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٧١، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٩٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٧٧، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٢٧٧.

ودفع النفقة التي تكفى لمن تجب عليه نفقته حتى العودة من الحج، وخلاصة ذلك:

إن هذا الإيجاب مشروط بالاستطاعة وهي تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان»[1].

والراجح من أقوال المفسرين والفقهاء أن الاستطاعة على الحج تتحقق بما يأتي:

- وجود الزاد والراحلة، وهو وجود المال الذي يكفي النفقة ذهابًا وإيابًا.
- سلامة البدن من الأمراض والعاهات التي تعوق عن الحج، ويعتبر العاجز بنفسه قادرًا بقدرة غيره، كالأعمى الذي يجد من يقوده، والمقعد الذي يجد من يحج عنه.
- أمن الطريق وذلك بأن يكون الإنسان آمنًا على نفسه وماله.
- وجود محرم بالنسبة للمرأة أو رفقة مأمونة كما يقول بعض الفقهاء[2].

وحث الله تعالى على تعظيم مكة المكرمة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج:٣٢-٣٤].

وشعائر الله هي: معالم ومناسك الحج التي فرضها الله تعالى أو ندب إليها وأمر بالقيام بها، فالصفا والمروة والركن، والبيت، والبدن وتعظيمها استسمانها واستحسانها من شعائر الله تعالى[3].

ثالثًا: يحرم القتال فيها:

لا يجوز القتال في مكة بعد أن حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم تعالى إلى يوم القيامة، فقد وردت أحاديث تدل على أن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا

(١) تفسير المراغي ٤/ ٩.
وانظر: جامع البيان الطبري ٦/ ٣٧ التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٨ تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٤٣، مفاتيح الغيب الرازي ٨/ ٣٠٣.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٢/ ٣٤٨.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٦.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٢١، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤٣٧، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٣.

من عرفها ولا يختلى خلاها) فقال العباس: يا رسول الله: إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: (إلا الإذخر)[1].

ومنع القتال في مكة المكرمة مما خص به البلد الحرام، قال الإمام النووي: «قوله صلى الله عليه وسلم: (فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة).

وفي رواية (القتل) بدل (القتال)، وفي الرواية الأخرى:(لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب)[2].

هذه الأحاديث ظاهرة في تحريم القتال بمكة قال الإمام أبو الحسن الماوردي صاحب الحاوي من أصحابنا في كتابه الأحكام السلطانية من خصائص الحرم: أن لا يحارب أهله، فإن بغوا على أهل العدل، فقد قال بعض الفقهاء: يحرم قتالهم بل يضيق عليهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا في أحكام أهل العدل، قال: وقال جمهور الفقهاء: يقاتلون على بغيهم إذا لم يمكن ردهم عن البغي إلا بالقتال؛ لأن قتال البغاة من حقوق الله التي لا يجوز إضاعتها فحفظها أولى في الحرم من إضاعتها هذا كلام الماوردي وهذا الذي نقله عن جمهور الفقهاء هو الصواب»[3].

رابعًا: من دخلها أمن:

استجاب الله دعوة خليله إبراهيم عليه السلام فجعل مكة المكرمة بلدًا آمنًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦].

فجعل الله مكة المكرمة بلدًا آمنًا من الظلم والإغارات الواقعة على غيره، فكان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهيجه، ويكرر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يحل القتال بمكة، رقم ١٨٣٤، ٣/ ١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم ١٣٥٣، ٢/ ٩٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم ١٠٤، ١/ ٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم ١٣٥٤، ٢/ ٩٨٧، من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه.

(٣) شرح النووي على مسلم ٩/ ١٢٤.
وانظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال ٤/ ٥٠٤، عمدة القاري، العيني ١٠/ ١٩٠.

إبراهيم طلب الأمن بعد أن استقر إسماعيل وأمه فيه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم:٣٥].

معناه: اجعله من البلدان الكاملة في الأمن[١].

فجعل الله عز وجل أمن مكة آية لإبراهيم عليه السلام وكان الناس يتخطفون حول مكة.

قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت:٦٧].

فكان الجبار إذا أراد مكة قصمه الله[٢].

وفي الآية تقرير من الله تعالى أهل مكة بنعمة الأمن: بمعنى أولم يشاهد كفار مكة أن الله جعل مكة لهم حرمًا آمنًا يأمن فيه أهله على أنفسهم وأموالهم، والناس من حولهم خارج الحرم يتخطفون غير آمنين؟ أفبالشرك يؤمنون، وبنعمة الله التي خصهم بها يكفرون، فلا يعبدونه وحده دون سواه؟[٣].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «يريد: حراما محرما لا يصاد طيره، ولا يقطع شجره، ولا يختلى خلاه، والحكم في هذا أن صيد مكة لا ينفر، ولا يتعرض له بنوع أذى، ومن قتل صيد مكة فعليه جزاؤه، ولا يجوز قطع أشجار الحرم على جهة الإضرار بها»[٤].

وقال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧].

أي: وأمن من دخله، والعرب جميعًا قد اتفقوا على احترامه وتعظيمه، فمن دخله أمن على نفسه من الاعتداء والإيذاء، ومن أن يسفك دمه أو تستباح حرماته مادام فيه، وقد مضوا على ذلك الأجيال الطوال في الجاهلية على كثرة ما بينهم من الأحقاد والضغائن، واختلاف المنازع والأهواء، وقد أقر الإسلام هذا، وكل ذلك بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦]»[٥].

والمعنى: ومن دخله كان آمنًا يعني: حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه، وقال

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٦.
(٣) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٠٤.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٠٩.
(٥) تفسير المراغي ٤/ ٨.

الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش:٣-٤].

وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها[١].

خامسًا: يحرم على الكافر دخولها:

حرم الله تعالى دخول المشركين والكفار مكة المكرمة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٨﴾ [التوبة:٢٨].

فإنه تعالى أمر المؤمنين بأن يمنعوا من دخول المسجد الحرام كل مشرك ومشركة؛ لأن المشرك نجس الظاهر والباطن، فلا يحل دخولهم إلى المسجد الحرام، وهو مكة والحرم حولها، ومن يومئذ لم يدخل مكة مشرك[٢].

والمسجد الحرام: لفظ يطلق على جميع الحرم، فإذا يحرم تمكين المشرك من دخول الحرم أجمع، ولو دخل مشرك الحرم مستورا ومات نبش قبره وأخرجت عظامه، فليس لهم الاستيطان ولا الاجتياز[٣].

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ نص على منع المشركين، وهم عبدة الأوثان من المسجد الحرام، فأجمع العلماء على ذلك، وذهب جمهور الفقهاء إلى تحريم دخول أهل الكتاب إلى المسجد الحرام خلافا لأبي حنيفة[٤].

ومذهب الجمهور القائلين بتحريم دخول المشركين الذميين أو المستأمنين المسجد الحرام، هو الراجح من أقوال الفقهاء وذلك للأسباب الآتية:

١. اتباعًا للنص الصريح الذي لا يحتمل التأويل، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٨﴾ [التوبة:٢٨].

٢. ولأن المسجد الحرام أفضل الأماكن المقدسة على الإطلاق وحرمته أعظم، فيجب تطهيره من المشركين بمنعهم من دخوله.

٣. ولأن الحرم موضع تشريف وإكرام من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٨.
(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٥٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٠٤.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٣٣٥.

وهو عاصمة المسلمين المقدسة، فلا ينبغي أن يشغلهم شاغل في أقدس مكان لعبادتهم، بوجود مظنة المفسدة من غيرهم فيه. وقد انتقم الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين الذي أخرجوهم من هذه البقعة الطاهرة بغير وجه الحق، بأن منعهم من دخولها على وجه التأبيد.

٤. ولأن تطهير المسجد الحرام منهم، ومن أقذارهم واجب، وهذا لا يكون إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه أو دخوله.

٥. ولأن الواقع التاريخي يشهد لقولهم، حيث إن المسلمين من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لم يسمحوا لهم بدخوله، ولم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أدخلهم المسجد الحرام[١].

سادسًا: يحرم قتل صيدها:

حرمة مكة وتحريم صيدها وشجرها وخلاها، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ [النمل:٩١]

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: يا محمد قل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ وهي مكة الذي حرمها على خلقه أن يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظلموا فيها أحدًا، أو يصاد صيدها، أو يختلى خلاها دون الأوثان التي تعبدونها أيها المشركون[٢].

وبعبارة أخرى ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ يعني يقول الله تعالى لرسوله: قل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني: أمرت أن أخص بعبادتي وتوحيدي الله الذي هو رب هذه البلدة يعني مكة، وإنما خصها من بين سائر البلاد بالذكر؛ لأنها مضافة إليه وأحب البلاد وأكرمها عليه، وأشار إليها إشارة تعظيم؛ لأنها موطن نبيه ومهبط وحيه ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها الله حرما آمنا لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها ولا يدخلها إلا محرم، وإنما ذكر أنه هو الذي حرمها لأن العرب كانوا معترفين بفضيلة مكة، وأن تحريمها من الله لا من الأصنام وله كل شيء أي خلقا وملكا وأمرت أن أكون من المسلمين لله المطيعين له[٣].

وإنما صارت حرامًا شرعًا وقدرا بتحريمه لها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس

(١) اختلاف الدارين وآثاره في أحكام الشريعة الإسلامية، عبد العزيز الأحمدي ١/ ٣٨٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٠.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٥٥.

رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها)[1][2].

سابعًا: تحريم الإلحاد والظلم فيها:

حرم الله الإلحاد والظلم في البلد الحرام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

أي: ومن يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار عامدًا قاصدًا أنه ظلم ليس بمتأول، عن ابن عباس بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم وقال مجاهد: ﴿بِظُلْمٍ﴾(يعمل فيه عملًا سيئًا وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه بالشر إذا كان عازمًا عليه وإن لم يوقعه[3].

قال الإمام الرازي: «الإلحاد العدول عن القصد وأصله إلحاد الحافر، وذكر المفسرون في تفسير الإلحاد وجوها:

أحدها: أنه الشرك، يعني من لجأ إلى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى، وهو إحدى الروايات عن ابن عباس وقول عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل.

وثانيها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في عبد الله بن سعد حيث استسلمه النبي صلى الله عليه وسلم فارتد مشركا، وفي قيس بن ضبابة، وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن خطل حين قتل الأنصاري وهرب إلى مكة كافرًا، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح كافرًا.

وثالثها: قتل ما نهى الله تعالى عنه من الصيد.

ورابعها: دخول مكة بغير إحرام وارتكاب ما لا يحل للمحرم.

وخامسها: أنه الاحتكار عن مجاهد وسعيد بن جبير.

وسادسها: المنع من عمارته.

وسابعها: عن عطاء قول الرجل في المبايعة: لا والله وبلى والله. وعن عبد الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم ٣١٨٩، ٤/ ١٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم ١٣٥٣، ٢/ ٩٨٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٦.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٣٦١.

بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، فقيل له فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله.

وثامنها: وهو قول المحققين: أن الإلحاد بظلم عام في كل المعاصي، لأن كل ذلك صغر أم كبر يكون هناك أعظم منه في سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: لو أن رجلا بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذابا أليما. وقال مجاهد: تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات، فإن قيل كيف يقال ذلك مع أن قوله: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لائق بكل المعاصي قلنا: لا نسلم، فإن كل عذاب يكون أليما، إلا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية»[1].

والملحد في الحرم أبغض الخلق إلى الله تعالى: فعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه)[2].

(١) مفاتيح الغيب ٢٣/ ٢١٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق، رقم ٦٨٨٢، ٩/ ٦.

إبراهيم عليه السلام ومكة

أولًا: دعاء إبراهيم لمكة وأهلها:

تضمن القرآن الكريم آيات عديدة تخبرنا عن عناية إبراهيم عليه السلام بهذا البلد واهتمامه به ودعائه له ولأهله وقد خصه بدعوات مباركات كما يأتي:

١. دعا إبراهيم عليه السلام ربه بأن يجعله بلدًا آمنًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦].

فهذا دعاء من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام للوادي الذي لازرع فيه ولا أنيس أن يجعله الله بلدًا آمنا، ثم دعا له بعد أن صار بلدًا مأهولًا وآمنًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم:٣٥].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني: آمنًا من الجبابرة وغيرهم، أن يسلطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله، كما تنال سائر البلدان، من خسف، وغرق، وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التي تصيب سائر البلاد غيره»[3].

والمراد من الآيات دعاء إبراهيم عليه السلام للمؤمنين من سكان مكة بالأمن والتوسعة بما يجلب إلى مكة؛ لأنها بلد لا

(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٤.

زرع ولا غرس فيه، فلولا الأمن لم يجلب إليها من النواحي وتعذر العيش فيها، ثم إن الله تعالى أجاب دعاءه وجعله آمنا من الآفات من القحط والخسف والمسخ من القتل، فلم يصل إليه جبار إلا قصمه الله كما فعل الله تعالى بأصحاب الفيل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل:١-٥][1].

ودعاء إبراهيم للبلد الحرام بالأمن كان السبب في التمدن بمكة، فإن البلد إذا كان ذا أمن، أمكن الإقامة فيه ووفود التجار إليه لطلب الربح[2].

والدعاء لمكة بالأمن مختص بها دون غيرها، قال السمعاني: «أجمعوا أن البلد هو مكة»[3]؛ لأن «ال» للعهد، واسم الإشارة يفيد التعيين والاختصاص، وإن كان إبراهيم قد دعا له منكرًا، فإن ذلك ربما يكون قبل أن يصير بلدًا، الفرق بينهما أنه سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فيها ولا يخافون وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن[4].

٢. دعا إبراهيم عليه السلام ربه بأن يرزق أهله من الثمرات.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٢٦﴾ [البقرة:١٢٦].

وإنما سأل ربه ذلك؛ لأنه أسكن فيه ذريته، وهو غير ذي زرع ولا ضرع، فاستعاذ ربه من أن يهلكهم بها جوعا وعطشا، فسأله أن يؤمنهم مما حذر عليهم منه[5].

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: وارزق أهله من أنواع الثمار، إما بزرعها بالقرب منه، وإما بأن تجبى إليه من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما استجابة لدعوة إبراهيم كما هو مشاهد، وقد جاء في سورة القصص: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧][6].

وخص إبراهيم بدعائه المؤمنين، وإن كان سبحانه لواسع رحمته جعل رزق الدنيا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٨.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦١٣.
(٣) تفسير السمعاني ٣/ ١١٩.
(٤) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٧٥، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩، التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة بنت الشاطئ ١/ ١٦٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٧.
(٦) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٣٩.

عامًا للمؤمنين والكافرين.

قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:٢٠] لأن تمتيع الكافرين قصير محدود بذلك العمر القصير، ثم إلى النار وبئس المصير، وهذا ما بينه عز اسمه بقوله: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦].

أي: قال يا إبراهيم قد أجبت دعوتك، ورزقت مؤمني أهل هذا البلد من الثمرات، ورزقت كفارهم أيضًا، وأمتعهم بهذا الرزق أمدا قليلا وهو مدة وجودهم في الدنيا، ثم أسوقهم إلى عذاب النار سوقًا اضطراريًا لا اختيار لهم فيه، ولا يعلمون أن عملهم ينتهي بهم إليه[1].

٣. دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل في قلوب بعض خلقه ميلًا إليهم فيسعدوا بجوارهم.

قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم:٣٧].

أي: تريدهم وتسرع إليهم، وتحن إليهم، وقال قتادة: تنزع إليهم، وقال مجاهد: لو قال أفئدة الناس، لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند، وقال سعيد بن جبي: لو قال أفئدة الناس، لحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: أفئدة من الناس فهم المسلمون، قال عكرمة: هو أنهم يحجون إلى مكة[2].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أنه بمعنى تحن وتهواهم وتنزل إليهم، لأن مكة في واد والقاصد إليها نازل إليها، وأن يجعل الله الناس يهوون السكنى بمكة، فيصير بيتا محرما يحج الناس إليه، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار[3].

٥. دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

فاستجاب الله دعاءه فبعث فينا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[4].

(١) تفسير المراغي ١/ ٢١٢.

(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٤.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٧٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٦٤.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٨٦، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٩١، معالم التنزيل،

فقد جاء في حديث أبي أمامة أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: (يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال: (دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى)[1].

ثانيًا: بناؤه الكعبة مع إسماعيل عليهما السلام:

أخبر الله في القرآن أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا الكعبة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٥- ١٢٧].

فالآيات تدل على أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا بيت الله الحرام، وكانا يدعوان الله وهما يرفعان قواعد البيت، والقواعد: أساطين البناء التي تعمده واحدتها قاعدة، وهي كالأساس لما فوقها[2].

وهناك من المفسرين من يقول بأن البيت أول من بناه آدم عليه السلام، وقيل: الملائكة، قال الإمام الرازي: «الأكثرون من أهل الأخبار على أن هذا البيت كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام وأن أول من بناه آدم على ما روينا من الأحاديث فيه واحتجوا بقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾،فإن هذا صريح في أن تلك القواعد كانت موجودة متهدمة إلا أن إبراهيم عليه السلام رفعها وعمرها[3].

ولكن الظاهر من الآية أن الذي بناه هو إبراهيم، قال الإمام الرازي:« اتفقت الأمم على أن باني هذا البيت هو الخليل عليه السلام، وباني بيت المقدس سليمان عليه السلام، ولا شك أن الخليل أعظم درجة وأكثر منقبة من سليمان عليه السلام فمن هذا الوجه يجب أن تكون الكعبة أشرف من بيت المقدس»[4].

وقال الإمام ابن كثير في البداية والنهاية:

البغوي ١/ ١٨٢.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢٢٦١، ٣٦/ ٥٩٥، والحاكم في المستدرك، رقم ٤١٧٤، ٢/ ٦٥٦.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٥٤٦، ٤/ ٦٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٧، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٣٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٢٩، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٠٢.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٥١.

(٤) المصدر السابق ٨/ ٢٩٧.

«ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم، وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك، ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق فهي مردودة»[1].

وقال محمد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾: «ظاهر في أنهما هما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالى في تلك البلاد الوثنية، ولكن القصاصين ومن تبعهم من المفسرين جاءونا من ذلك بغير ما قصه الله تعالى علينا، وتفننوا في رواياتهم عن قدم البيت، وعن حج آدم ومن بعده من الأنبياء إليه، وعن ارتفاعه إلى السماء في وقت الطوفان، ثم نزوله مرة أخرى.

وهذه الروايات يناقض أو يعارض بعضها بعضًا، فهي فاسدة في تناقضها وتعارضها، وفاسدة في عدم صحة أسانيدها، وفاسدة في مخالفتها لظاهر القرآن، ولم يستح بعض الناس من إدخالها في تفسير القرآن وإلصاقها به وهو برئ منها.

ومن ذلك زعمهم أن الكعبة نزلت من السماء في زمن آدم، ووصفهم حج آدم إليها وتعارفه بحواء في عرفة، بعد أن كانت قد ضلت عنه بعد هبوطهما من الجنة، وحاولوا تأكيد ذلك بتزوير قبر لها في جدة، وزعمهم أنها هبطت مرة أخرى إلى الأرض بعد ارتفاعها بسبب الطوفان وحليت بالحجر الأسود، وأن هذا الحجر كان ياقوتة بيضاء.

وقيل: زمردة من يواقيت الجنة أو زمردها، وأنها كانت مودعة في باطن جبل أبي قبيس فتمخض الجبل فولدها، وأن الحجر إنما أسود لملامسة النساء الحيض له.

وقيل: لاستلام المذنبين إياه، وكل هذه الروايات خرافات إسرائيلية بثها زنادقة اليهود في المسلمين ليشوهوا عليهم دينهم وينفروا أهل الكتاب منه»[2].

[انظر: إبراهيم: إبراهيم عليه السلام وبناء الكعبة]

ثالثًا: مقام إبراهيم عليه السلام:

ذكر الله تعالى مقام إبراهيم عليه السلام في موضعين من كتابه:

الموضع الأول: أخبر الله تعالى أن مقام

(١) البداية والنهاية ١/ ١٨٨.

(٢) تفسير المنار ١/ ٣٨٣.

إبراهيم آيات بينات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦- ٩٧].

وقد اختلف المفسرون بالمراد بالمقام على أقوال ذكرها الإمام الرازي وغيره:

الأول: أنه الحجر الذي قام عليه إبراهيم؛ لأنه لما ارتفع البنيان وضعف إبراهيم عليه السلام عن وضع الحجارة قام على حجر، وهو مقام إبراهيم عليه السلام.

القول الثاني: أن مقام إبراهيم عليه السلام الحرم كله وهو قول مجاهد.

الثالث: أنه عرفة والمزدلفة والجمار، وهو قول عطاء.

الرابع: الحج كله مقام إبراهيم، وهو قول ابن عباس.

ثم رجح القول الأول، وقال: «واتفق المحققون على أن القول الأول أولى، ويدل عليه وجوه:

الأول: ما روى جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من الطواف أتى المقام، وتلا قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فقراءة هذه اللفظة عند ذلك الموضع تدل على أن المراد من هذه اللفظة هو ذلك الموضع ظاهر.

وثانيها: أن هذا الاسم في العرف مختص بذلك الموضع، والدليل عليه أن سائلًا لو سأل المكي بمكة عن مقام إبراهيم عليه السلام لم يجبه ولم يفهم منه إلا هذا الموضع.

وثالثها: ماروي أنه صلى الله عليه وسلم مر بالمقام ومعه عمر رضي الله عنه فقال: (يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: بلى، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ قال: لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس من يومهم حتى نزلت الآية)[1].

ورابعها: أن الحجر صار تحت قدميه في رطوبة الطين حتى غاصت فيه رجلا إبراهيم عليه السلام، وذلك من أظهر الدلائل على وحدانية الله تعالى ومعجزة إبراهيم عليه السلام فكان اختصاصه بإبراهيم أولى من اختصاص غيره به، فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى.

وخامسها: أنه تعالى قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وليس للصلاة تعلق بالحرم ولا بسائر المواضع إلا بهذا الموضع، فوجب أن يكون مقام إبراهيم هو هذا الموضع.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة، ومن لم ير الإعادة على من سها، فصلى إلى غير القبلة، رقم ٤٠٢، ١/ ٨٩.

وسادسها: أن مقام إبراهيم هو موضع قيامه، وثبت بالأخبار أنه قام على هذا الحجر عند المغتسل ولم يثبت قيامه على غيره فحمل هذا اللفظ، أعني: مقام إبراهيم عليه السلام على الحجر يكون أولى»[1].

وكذلك رجح هذا القول الإمام أبو جعفر الطبري حيث قال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا، ما قاله القائلون: إن مقام إبراهيم، هو المقام المعروف بهذا الاسم، الذي هو في المسجد الحرام[2]، لما ورد عن جابر رضي الله عنه قال: (استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن، فرمل ثلاثا، ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين)»[3].

كما اختلف المفسرون في الآيات البينات المذكورة في الآية بسبب اختلافهم في القراءات بالإفراد والجمع، فقرأ الجمهور: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ على الجمع، وقرأ أبيٌّ وعمر وابن عباس ومجاهد وأبو جعفر في رواية قتيبة: (آية بينة) على التوحيد[4]، فمن قرأ على الإفراد فمراده أن مقام إبراهيم عليه السلام آية وحده وهو أثر قدميه في المقام وهو حجر صلد آية بينة[5].

وعلى قراءة الجمهور بالجمع ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: أنه وحده آيات بينات وفيه توجهين:

أحدهما: أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله ونبوة إبراهيم عليه السلام من تأثير قدمه في حجر صلد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل:١٢٠].

والثاني: اشتماله على آيات؛ لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء لإبراهيم خاصة آية، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف سنين آية أيضًا[6].

الثاني: أن مقام إبراهيم آية من الآيات البينات في البيت ومعه آيات أخرى.

(١) مفاتيح الغيب ٤/ ٤٤.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٨، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٣٧٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٩٠.
(٢) جامع البيان ٢/ ٣٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨، ٢/ ٨٨٦.
(٤) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٣٥٢.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١٥٠، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٧، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤١١.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٧١.

قال أبو بكر الجصاص: «الآية في مقام إبراهيم عليه السلام أن قدميه دخلتا في حجر صلد بقدرة الله تعالى؛ ليكون ذلك دلالة وآية على توحيد الله وعلى صحة نبوة إبراهيم صلى الله عليه وسلم، ومن الآيات فيه ما ذكرنا من أمن الوحش، وأنسه فيه مع السباع الضارية المتعادية، وأمن الخائف في الجاهلية فيه: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]. وإمحاق الجمار على كثرة الرامي من لدن إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا مع أن حصى الجمار إنما تنقل إلى موضع الرمي من غيره، وامتناع الطير من العلو عليه وإنما يطير حوله لا فوقه، واستشفاء المريض منها به، وتعجيل العقوبة لمن انتهك حرمته، وقد كانت العادة بذلك جارية، ومن إهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا لإخرابه بالطير الأبابيل، فهذه كلها من آيات الحرم سوى ما لا نحصيه منها، وفي جميع ذلك دليل على أن المراد بالبيت هنا الحرم كله؛ لأن هذه الآيات موجودة في الحرم، ومقام إبراهيم عليه السلام ليس في البيت إنما هو خارج البيت»[1].

قال الإمام الرازي: «مقام إبراهيم وهو الحجر الذي وضع إبراهيم قدمه عليه فجعل الله ما تحت قدم إبراهيم عليه السلام من ذلك الحجر دون سائر أجزائه كالطين حتى غاص فيه قدم إبراهيم عليه السلام، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله ولا يظهره إلا على الأنبياء، ثم لما رفع إبراهيم قدمه عنه خلق فيه الصلابة الحجرية مرة أخرى، ثم إنه تعالى أبقى ذلك الحجر على سبيل الاستمرار والدوام فهذه أنواع من الآيات العجيبة والمعجزات الباهرة أظهرها الله سبحانه في ذلك الحجر»[2].

الموضع الثاني: أن الله تعالى أمر بالصلاة عنده قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

أجمع العلماء على مشروعية صلاة ركعتين بعد الطواف، والمستحب أن يقرأ في الأولى من ركعتي الطواف: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١].

وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١].

كما هو ثابت في حديث جابر رضي الله عنه. وجمهور أهل العلم على أن ركعتي الطواف لا يشترط في صحة صلاتهما أن تكون خلف المقام، بل لو صلاهما في أي

(١) أحكام القرآن ٢/ ٢٦.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٤٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١٥٠، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٧، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤١١.

(٢) مفاتيح الغيب ٨/ ٢٩٧.

موضع غيره صح ذلك[1].

«ولو طاف في وقت نهي، فأحد قولي أهل العلم: إنه يؤخر صلاتهما إلى وقت لا نهي عن النافلة فيه، ومما يدل على هذين الأمرين أعني صحة صلاتهما في موضع آخر، وتأخير صلاتهما إلى وقت غير وقت النهي الذي طاف فيه ما ذكره البخاري في صحيحه تعليقا بصيغة الجزم، قال: باب الطواف بعد الصبح والعصر، وكان ابن عمر رضي الله عنهما: يصلي ركعتي الطواف ما لم تطلع الشمس، وطاف عمر بعد الصبح، فركب حتى صلى الركعتين بذي طوى[2].

وفعل عمر رضي الله عنه هذا الذي ذكره البخاري يدل على عدم اشتراط كون الركعتين خلف المقام، بل تصح صلاتهما في أي موضع صلاهما فيه، وأن تأخيرهما عن وقت النهي هو الصواب، وممن قال به: أبو سعيد الخدري، ومعاذ بن عفراء، ومالك، وأصحابه: وعزاه بعضهم إلى الجمهور، وقد قدمنا مرارا قول من يقول من أهل العلم: إن ذوات الأسباب الخاصة من الصلوات لا تدخل في عموم النهي في أوقات النهي، إلا أن القاعدة المقررة في الأصول: أن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح»[3].

والصحيح من اتخاذ مقام إبراهيم مصلى معناه: موضعا للصلاة المعهودة، كما بان في سبب نزول الآية السابق ذكره عن عمر رضي الله عنه، واتضح منه أربعة أمور: وهي أن ذلك الموضع هو المقام المراد في الآية، وأن المراد به الصلاة المتضمنة للركوع والسجود، لا مطلق الدعاء، وأن الصلاة عقب الطواف، وأن ركعتي الطواف مطلوبتان، وهما عند المالكية: واجبتان، فمن تركهما، فعليه دم[4].

وقوله تعالى: « ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ هو أمر ظاهره الإيجاب، والمراد بالآية فعل الصلاة بعد الطواف، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلاهما عند البيت، فدلت هذه الآية على وجوب صلاة الطواف، ودل فعل النبي صلى الله عليه وسلم لها تارة عند المقام، وتارة عند غيره على أن فعلها عنده ليس بواجب »[5].

والصحيح من هذه الأقوال إن المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ مكانًا للصلاة فيه، أي: تصلى خلفه ركعتي الطواف[6].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤١٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الطواف بعد الصبح والعصر، ٢/ ١٥٥.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤١١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١١٢، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦١٠.
(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦٠.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٠٥،

واجبات ساكنيها وقاصديها

جعل الله تعالى واجبات ساكني الحرم وقاصديه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥]والعاكف هو: المقيم في مكة، والبادي وهو: الطارئ الذي ينتابه من غير أهله في قول الجميع، سواء فيه: ليس المقيم فيه بأولى من النازح إليه[(١)].

والمراد باستواء العاكف والبادي فيه هو: استواؤهما في تفضيله، وتعظيم حرمته، وإقامة المناسك به، وهذا مذهب مجاهد، والحسن، وقول من أجاز بيع دور مكة، وكان المشركون يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والطواف به، ويدعون أنهم أربابه وولاته[(٢)].

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعًا سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه سواء العاكف فيه والباد، ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله[(٣)].

قال سيد قطب في الظلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

«وكان ذلك فعل المشركين من قريش: أن يصدوا الناس عن دين الله- وهو سبيله الواصل إليه، وهو طريقه الذي شرعه للناس، وهو نهجه الذي اختاره للعباد- وأن يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة إلى المسجد الحرام- كما فعلوا عام الحديبية- وهو الذي جعله الله للناس منطقة أمان ودار سلام، وواحة اطمئنان.

يستوي فيه المقيم بمكة والطارئ عليها، فهو بيت الله الذي يتساوى فيه عباد الله، فلا يملكه أحد منهم، ولا يمتاز فيه أحد منهم: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾.

ولقد كان هذا النهج الذي شرعه الله في بيته الحرام سابقًا لكل محاولات البشر في إيجاد منطقة حرام. يلقى فيها السلاح، ويأمن فيها المتخاصمون، وتحقن فيها

لباب التأويل، الخازن ١/ ٧٩.

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٩١، المفردات، الراغب ص٥٧٩.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٦٥، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤٣٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٦٠.

الدماء، ويجد كل أحد فيها مأواه لا تفضلا من أحد، ولكن حقا يتساوى فيه الجميع وهكذا سبق الإسلام سبقا بعيدًا بإنشاء واحة السلام، ومنطقة الأمان، ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان! والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجا في هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]»[١].

وأما واجبات ساكني مكة وقاصديه فيمكن بيانها في النقاط الآتية:

١. حسن النية.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

وهذه الآية تدل على أن الإنسان يجب عليه العقاب بنيته لفعل الشر في الحرم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يقل: من يفعل ذلك، وإنما ذكر العقوبة على الإرادة فقط، فهو ظاهر الآية، وذلك لعظيم حرمة الحرم وجلالة قدره، وكذلك يضاعف فيه الحسنات أكثر مما يضاعف في غيره[٢].

فقد روى ابن جرير بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلا بعد أن بين هم أن يقتل رجلا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم» عن الضحاك بن مزاحم، قال: إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة وهو في بلد آخر ولم يعملها، فتكتب عليه»[٣].

٢. تعظيم الحرمات والشعائر.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج:٣٠].

والحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها[٤].

قال الزجاج: «وحرمات الله الحج والعمرة وسائر المناسك، وكل ما فرض الله فهو من حرمات الله، والحرمة ما وجب القيام به وحرم تركه والتفريط فيه»[٥].

وقال الواحدي: «وهي في هذه الآية ما نهي عنها، ومنع من الوقوع فيها، وتعظيمها: ترك ملابستها، وكثير من الناس اختاروا في معنى الحرمات ههنا إنها المناسك، لدلالة ما يتصل بها من الآيات، وقال ابن زيد: المراد بالحرمات ههنا البيت الحرم، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمسجد الحرام، والإحرام»[٦].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤١٧.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٨٦٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٠١.
وانظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٦٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦١٧.
(٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٤.
(٦) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٦٩.

قال الإمام الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل:٩١].

«والبلدة: مكة حرسها الله تعالى: اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها؛ لأنها أحب بلاده إليه، وأكرمها عليه، وأعظمها عنده، وهكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج في مهاجره، فلما بلغ الحزورة استقبلها بوجهه الكريم فقال: (إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت)[1] وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب، دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه، ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو، ووصفها بأنها محرمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، واللاجئ إليها آمن وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما»[2].

٣. المحافظة على الحرم ونظافته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦].

والمراد بالطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية أي: وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي عنده[3].

٤. ترك الإلحاد في الحرم بكل صوره وأشكاله.

والإلحاد في الحرم هو الميل بالظلم فيه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

وقد سبق بيان معنى الإلحاد، وقد عظم الله الذنب في الحرم، وبين أن الجنايات تعظم على قدر عظم الزمان كالأشهر الحرم، وعلى قدر المكان كالبلد الحرام، فتكون المعصية معصيتين: إحداهما المخالفة، والثانية إسقاط حرمة الشهر الحرام أو البلد الحرام.

فالشرك وعبادة غير الله وكل شيء كان منهيا عنه، وحتى شتم الخادم ودخول مكة بغير إحرام، وأذى حمام مكة، واستحلال محظورات الإحرام وركوبها، وأشياء كثيرة

(١) سبق تخريجه.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٨٨.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٣٦، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٤٠، تفسير المراغي ١٧/ ١٠٧.

لا يجوز للمحرم أن يفعلها[1].

قال أبو جعفر: «أنه معني بالظلم في هذا الموضع كل معصية لله، وذلك أن الله عم بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ ولم يخصص به ظلم دون ظلم في خبر ولا عقل، فهو على عمومه، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: ومن يرد في المسجد الحرام بأن يميل بظلم، فيعصي الله فيه، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له»[2].

الإعجاز العلمي في موقع مكة المكرمة

خص الله مكة المكرمة وشرفها بكونها وسط الأرض ومركزها، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

ولعل في الآية امتنانًا بجعل هذه الأمة في أوسط مكان في الأرض، خاصة وأن الآية تضمنت ذكر القبلة بعد الإخبار عن وسطية الأمة، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:١٤٣-١٤٥].

وقد أشار المفسرون وأكدوا قديمًا إلى

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٦٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٠٢.

أن مكة المكرمة تقع في وسط الأرض قبل أن تأتي الاكتشافات الحديثة المؤكدة لذلك، قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ «المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطًا، أي: جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم، والوسط: العدل، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها»[(١)].

وقال الإمام أبو حيان:« والمعنى كما جعلنا الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطًا، دون الأنبياء، وفوق الأمم»[(٢)].

وقال السمين الحلبي: «والمعنى كما جعلنا قبلتكم متوسطة جعلناكم أمة وسطًا، أو كما جعلنا القبلة وسط الأرض جعلناكم أمة وسطًا»[(٣)].

وقال الإمام النيسابوري: «وقيل: إن مكة وسط الأرض، والعيون والمياه تنبع من تحتها، فكأن الأرض كلها تمك من ماء مكة، ثم إنه تعالى وصف البيت بكونه مباركا وهدى للعالمين، أما انتصابه فعلى الحال من الضمير المستكن في الظرف؛ لأن التقدير للذي ببكة هو والعامل فيه معنى الاستقرار»[(٤)].

وقال الإمام البقاعي: «أي: ومثل ما جعلنا قبلتكم وسطًا؛ لأنها إلى البيت العتيق الذي هو وسط الأرض وهو بناء إبراهيم عليه السلام، وهو أوسط الأنبياء وهو مع ذلك خيار البيوت، فهو وسط بكل معنى»[(٥)].

وقال الإمام ابن عطية: «أم القرى مكة سميت بذلك لوجوه أربعة:

منها: أنها منشأ الدين والشرع.

ومنها: ما روي أن الأرض منها دحية.

ومنها: أنها وسط الأرض وكالنقطة للقرى.

ومنها: ما لحق عن الشرع من أنها قبلة كل قرية.

فهي لهذا كله أم وسائر القرى بنات، وتقدير الآية: لتنذر أهل أم القرى، ومن حولها يريد أهل سائر الأرض، وحولها ظرف العامل فيه»[(٦)].

وقال الإمام الرازي:« وقيل: إن مكة وسط الأرض، والعيون والمياه تنبع من تحت مكة، فالأرض كلها تمك من ماء مكة»[(٧)].

وكذلك كان لعلماء اللغة العربية دورًا في إثبات وسطية مكة بين بلدان العالم.

قال الراغب: «اشتقاق مكة من: تمككت العظم: أخرجت مخه، وامتك الفصيل ما في ضرع أمه، وعبر عن الاستقصاء بالتمكك،

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٥٣.
(٢) البحر المحيط ٢/ ١٢.
(٣) الدر المصون ٢/ ١٥١.
(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢/ ٢١٣.
(٥) نظم الدرر ٢/ ٢٠٦.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٣٢٢.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٩٩.

وتسميتها بذلك؛ لأنها كانت تمك من ظلم بها، أي: تدقه وتهلكه، قال الخليل: سميت بذلك؛ لأنها وسط الأرض كالمخ الذي هو أصل ما في العظم»[1].

قال الزبيدي: «وقيل: إن مكة مأخوذة من المكاكة، وهي اللب والمخ الذي في وسط العظم، سميت بها؛ لأنها وسط الدنيا ولبها وخالصها»[2].

وكذلك الجغرافيون المسلمون ذكروا إن مكة تقع وسط الأرض، قال ياقوت الحموي: «وقد جاء في الأخبار: أن أول ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة ثم دحا الأرض من تحتها فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأم القرى أولها الكعبة وبكة حول مكة وحول مكة الحرم وحول الحرم الدنيا»[3].

وقال زكريا القزويني: «وأما الكعبة زادها الله شرفًا فإنها بيت الله الحرام، إن أول ما خلق الله تعالى في الأرض مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها، فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأم القرى»[4].

ويشير إلى وسطية مكة بين بلدان العالم قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى:٧].

فقد جعل نزول الوحي بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معللًا بإنذار مكة المكرمة، ومن حولها من القرى إشارة إلى توسط هذه البلدة بين مستقبليها، وخاصة أن النذارة عامة لكل القرى وليست لقرى الحجاز وحدها ولا قرى الجزيرة عامة بدليل قوله جل وعلا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

وما حولها: يراد به جميع القرى[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

توافق لطيف وهو أن هذه الآية من سورة البقرة برقم(١٤٣) فإذا علمنا أن عدد آي السورة كاملة (٢٨٦) آية وأن هذه الآية وسطها وفيها ذكر الأمة الوسط أدركنا أن

(١) المفردات ص ٧٧٢.
(٢) تاج العروس ٢٧/ ٣٤٦.
(٣) معجم البلدان ٤/ ٤٦٣.
(٤) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١١٤.
(٥) انظر بحث: مكة المكرمة في ضوء القرآن الكريم، عبد الله القرني وإسماعيل القريشي، منشور في موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

الأمة وسط في منهجها ومكانها ومكانتها[1].

أما الإعجاز العلمي في موقع مكة المكرمة: فقد قامت دراسات علمية حديثة تثبت أن مكة هي مركز اليابسة على الأرض (وسط الأرض):

الدراسة الأولى: أجريت في منتصف القرن العشرين حيث لاحظ الدكتور حسين كمال الدين (الذي شغل درجة الأستاذية لمادة المساحة في عدد من الجامعات والمعاهد العليا في مصر والرياض) تمركز مكة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، أي: أن اليابسة على سطح الأرض موزعة حول مكة المكرمة توزيعا منتظما، وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزا لليابسة[2].

قال الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين: «ومن الواضح أنه يمكن بيان حدود القارات الأرضية والممالك والدول، بعد رسم خطوط الطول والعرض، حيث إنها ترتبط بها ارتباطًا ثابتًا على سطح الكرة الأرضية، وعندما تم توقيع حدود القارات الأرضية السبعة على خريطة الإسقاط، وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي: مكة المكرمة تعتبر مركزا وسطا للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية، وكذلك إذا أخذنا في الاعتبار القارات الثلاث أوربا وآسيا وإفريقيا، التي تمثل العالم القديم عند ظهور الرسالة الإسلامية، نجدها كذلك تكاد تحيط بمدينة مكة المكرمة»[3].

ويروي العالم المصري حسين كمال الدين قصة الاكتشاف الغريب فيذكر أنه بدأ بحثه وكان هدفه مختلف تماما حيث كان يجري بحثا ليعد وسيلة تساعد كل شخص في أي مكان في العالم على معرفة وتحديد مكان القبلة لذلك فكرفي عمل خريطة للكرة الأرضية لتحديد اتجاه القبلة وبعد أن وضع الخطوط الأولى في البحث التمهيدي لإعداد هذه الخريطة ورسم عليها القارات الخمس ظهر فجأة له هذا الاكتشاف الذي أثار دهشته فقد وجد أن موقع مكة المكرمة وسط العالم، وأن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعا منتظما[4].

ويؤيد ما توصل إليه الباحث الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين أحمد إبراهيم، الهندسية، ما توصل إليه كذلك الباحث د.

(١) المصدر السابق.
(٢) إثبات توسط مكة المكرمة، دراسة باستخدام القياسات وصور القمار الصناعية للدكتورالمهندس يحي وزيري ص ١٠٢.
(٣) انظر: الإسقاط المكي للعالم، حسين كمال الدين أحمد، منشور في مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٦ ص ٢٤٣.
(٤) المصدر السابق.

سعد المرصفي إلى أن مكة المكرمة هي مركز لدائرة تمر بأطراف جميع القارات، بمعنى أن سطح الكرة الأرضية موزع حول مكة المكرمة توزيعًا منتظمًا، وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزًا للأرض اليابسة[1].

الدراسة الثانية: قام بها العالم الأستاذ الدكتور مسلم شلتوت في التسعينيات من القرن العشرين، وقد كان يعمل أستاذًا لبحوث الشمس والفضاء بمعهد البحوث الفلكية والجيوفزيائية بمصر، وقد اقتصرت دراسته على استخدام برنامج أعد خصيصًا لذلك باستخدام الحاسب الآلي لحساب المسافة بين مكة ونقاط قياس محددة على اليابسة بالنسبة للعالم القديم والجديد.

فقد تم إجراء حسابات على الحاسب الآلي بقسم بحوث الشمس والفضاء بالمعهد القومي للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية بمصر تحت إشراف، د. مسلم أحمد مسلم شلتوت في عام (١٩٩٤م) وخلص من هذه الحسابات إلي: أن مكة المكرمة تكاد تكون مركز لدائرة نصف قدرها حوالي ثمانية آلاف كيلو مترًا تمر بأطراف القارات القديمة (آسيا، أفريقيا، أوروبا) وهي أيضًا مركز لدائرة نصف قطرها حوالي ثلاثة عشر ألف كيلو مترًا بأطراف القارات الجديدة (أمريكا الشمالية، أمريكا الجنوبية، استراليا، المتجمدة الجنوبية)[2].

الدراسة الثالثة: إثبات توسط مكة لليابسة من خلال القياسات وصور الأقمار الصناعية وهذه الدراسة أكثر دقة من الدراستين السابقتين.

وقد أثبتت هذه الدراسة العلمية التي تمت بواسطة القياسات الدقيقة وصور الأقمار الصناعية باستخدام برامج معروفة يتم الاعتماد على نتائجها في الأبحاث العلمية أن مكة المكرمة تتوسط اليابسة، وقد تأكد للباحثين أن مكة المكرمة الموقع الوحيد على الكرة الأرضية الذي يحقق تلك النتائج والقياسات.

مما يؤكد أن لمكة المكرمة موقعًا فريدًا ومتميزًا لا ينافسها في ذلك مدينة أخرى ومن هنا وصفت بأنها أم القرى[3].

وحديثًا استطاع العلماء أن يتحققوا من وسطية مكة المكرمة بواسطة الصور الحقيقية التي يصورها القمر الصناعي عندما يلتقط صورا للكرة الأرضية مبتعدًا عن سطحها بما لا يقل عن مائة كيلومترًا في الفضاء، وهو البعد الذي تستطيع أجهزة

(١) انظر: الكعبة مركز العالم، سعد المرصفي ص ١٤٨.

(٢) إثبات توسط مكة المكرمة، دراسة باستخدام القياسات وصور الأقمار الصناعية، يحي وزيري ص ١٠٢.

(٣) المصدر السابق.

التصوير بالقمر الصناعي أن تلتقط صورًا للكرة الأرضية مشتملة على القطبين، وباستعمال أجهزة التكبير في فحص هذه الصور الحقيقية تتضح وسطية مكة بين أقصى يابسة في القطب الشمالي، وأقصى يابسة في القطب الجنوبي.

وبهذا يكون القرآن الكريم والأبحاث العلمية يؤكدان أن مكة المكرمة هي مركز الكرة الأرضية، ونقطة تجمع الطاقة الكونية الإيجابية في الأرض.

موضوعات ذات صلة:

إبراهيم عليه السلام، البيوت، الحج، المسجد

الملائكة

عناصر الموضوع

مفهوم الملائكة	٢٠٠
الملائكة في الاستعمال القرآني	٢٠١
الألفاظ ذات الصلة	٢٠٢
الملائكة وآدم	٢٠٣
صفات الملائكة	٢٠٥
وظائف الملائكة	٢١١
الملائكة الوارد ذكرهم في القرآن	٢١٩
موقف المؤمن من الملائكة	٢٢٦
موقف الكافرين من الملائكة	٢٣٠
وظائف الملائكة في الآخرة	٢٣٧

مفهوم الملائكة

أولًا: المعنى اللغوي:

الملائكة في اللغة: جمع ملكٍ، والملك أصله مشتق من الفعل(ألك) أي: حمل الرسالة، قال ابن فارس: «الهمزة واللام والكاف أصل واحد، وهو تحمل الرسالة»[(١)]، ومنه الألوكة والمألكة والألوك[(٢)]، قال الخليل: الألوك: الرسالة، وإنما سميت الرسالة ألوكًا؛ لأنها تؤلك في الفم، مشتق من قول العرب، الفرس يألك باللجام ويعلكه [(٣)]،وسميت الملائكة ملائكةً، لتبليغها رسائل الله عز وجل إلى أنبيائه صلوات الله عليهم، ومن أرسلت إليه من عباده [(٤)]، وهو قول الجمهور[(٥)]، وقيل: إن أصله من (ملك) الدال على قوة في الشيء وصحة، يقال: أملك عجينه: قَوَّى عِاجْنَهُ وشَدَّهُ، وملكت الشيء: قويته [(٦)].

و(الملك) من (الملائكة) واحدٌ وجمعٌ، ويقال: ملائكةٌ وملائك[(٧)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها ابن عاشور بأنها: «أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرهم السماوات ما لم يرسلوا إلى جهة من الأرض»[(٨)].

وأما الفوزان فعرفها قائلًا: «الملائكة خلق من خلق الله في عالم الغيب، خلقهم الله لعبادته، ولتنفيذ أوامره سبحانه وتعالى في ملكه، وهم أصناف، كل صنف له عمل موكل به ويقوم به، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون[(٩)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٣٢
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٧/ ٤٨
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٤٠٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٤٧، الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري ٢/ ٢٥٤.
(٥) انظر: النكت في القرآن الكريم، أبو الحسن المجاشعي ص ١٢٥.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٥١.
(٧) مختار الصحاح، الرازي ص ٢٩٨.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٥٠.
(٩) شرح الأصول الثلاثة، صالح الفوزان ص ٢٠٧.

الملائكة في الاستعمال القرآني

وردت (الملائكة) في القرآن الكريم (٨٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم	٨٨	﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]. ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢]. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة:٣١]

وجاءت الملائكة في القرآن بمعناها في اللغة وهي: جمع مَلَك بفتح اللام، والملك أصله: ألك، والمألكة، والمألك: الرسالة. ومنه اشتق الملائك؛ لأنهم رسل الله[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٧٤-٦٧٦.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٣٢، المصباح المنير ١/ ٢٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجن:

الجن لغة:

قال الجوهري: الجن: خلاف الإنس، والواحد جنيٌّ. يقال: سميت بذلك؛ لأنها تتقى ولا ترى. وجن الرجل جنونًا، وأجنه الله، فهو مجنونٌ[(١)].

الجن اصطلاحًا:

نوع من الأرواح العاقلة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان، مجردون عن المادة، مستترون عن الحواس، لا يرون على طبيعتهم، ولا بصورتهم الحقيقية، ولهم قدرة على التشكل[(٢)].

الصلة بين الجن والملائكة:

الملائكة معصومون عن الزلل، والجن كالإنس غير معصومين، والملائكة وإن كانت مثل الجن من حيث الخفاء، إلا أنهم أرقى المخلوقات، من حيث فضلهم وطاعتهم.

٢ الإنس:

الإنس لغةً:

مادة (أ ن س) تدور في اللغة حول معنيين رئيسين هما: الظهور والنسيان[(٣)].

الإنس اصطلاحًا:

هم كل حيوان ناطق يرى شكله، ولا يستطيع أن يرى الجن ولا الملائكة.

وقال الجرجاني: الإنسان هو الحيوان الناطق[(٤)].

الصلة بين الإنس والملائكة:

الإنس والملائكة من مخلوقات الله، إلا أن الإنس خلقوا من طين، وخلقت الملائكة من نور. والملائكة معصومون عن الزلل، والإنس كالجن من حيث الشهوة وأصنافهم، والملائكة غير مكلفين ولا يتناكحون ولا يأكلون ولا يشربون، بخلاف الإنس.

---

(١) مختار الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٩٣.
وانظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٢١٣، الكليات، الكفوي ص١٦٩.
(٢) الموسوعة العقدية، مجموعة من الباحثين ٨/ ٣٣٠.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٤٧.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص٣٨.

الملائكة وآدم

اقتضت حكمة الله وإرادته أن يخلق آدم عليه السلام، وأن يجعله وذريته خلفاء في الأرض؛ ليقوموا بعمارتها وفق منهج الله تعالى وشريعته؛ فيحققوا بذلك غاية وجودهم، توحيدًا لله تعالى وعبادة له وطاعة، وعندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم أعلم ملائكته بمراده، فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك، فأخبرهم سبحانه، أن من وراء خلقه لآدم حكمًا لا يعلمونها، وعندما خلقه وسواه ونفخ فيه الروح أمر ملائكته بالسجود له، فاستجابوا لأمره سبحانه وتعالى، وسوف نتحدث عن خلافة آدم والسجود له بشيء من التفصيل في النقاط الآتية:

أولًا: خلافة آدم:

أخبر الله تعالى ملائكته الكرام بأنه سيجعل في الأرض خليفة يسكنها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

قال البغوي: «والمراد بالخليفة ها هنا آدم سماه خليفة؛ لأنه خلف الجن، أي: جاء بعدهم، وقيل: لأنه يخلفه غيره، والصحيح أنه خليفة الله في أرضه؛ لإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه»[1].

وذكر الشيخ الشنقيطي وجهين لأهل التفسير في قوله ﴿خَلِيفَةً﴾:

أحدهما: أن المراد بالخليفة أبونا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؛ لأنه خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامره.

والثاني: أن المراد بالخليفة: الخلائف من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده، وقد دلت آيات على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٣٩].

ونحو ذلك من الآيات، ومعلوم أن آدم عليه السلام ليس ممن يفسد فيها ولا ممن يسفك الدماء، ويمكن الجواب على ذلك:

بأن المراد بالخليفة آدم، وأن الله أعلم ملائكته بأنه سيكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد، وسفك الدماء، فقالوا ما قالوا، وأن المراد بخلافة آدم الخلافة الشرعية، وبخلافة ذريته أعم من ذلك، وهو أنهم يذهب منهم قرن ويخلفه قرن آخر[2].

وهذه الآية أصلٌ في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٠٢.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٠-٢١.

أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة[1].

وأما عن سؤال الملائكة لربهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال ابن كثير: «وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك»[2].

وإنما قالوا هذه المقالة؛ لعلمٍ قد علموه من الله سبحانه بوجه من الوجوه؛ لأنهم لا يعلمون الغيب، قال بهذا جماعة من المفسرين[3].

ويستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات، فالواجب عليه التسليم بها، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة[4].

ثانيًا: السجود لآدم:

أمر الله تعالى ملائكته الكرام بالسجود لآدم، فاستجابوا طاعة له وامتثالًا لأمره جل وعلا.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٦٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢١٦.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٧٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٤].

اختلفوا في هذا الخطاب مع أي الملائكة كان؟ فقيل: إن هذا الخطاب كان مع الملائكة الذين كانوا سكان الأرض، والأصح أنه خطاب مع جميع الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر:٣٠][5].

وأصل السجود في اللغة: الخضوع والتذلل، وكل من ذل وخضع لما أمر به فقد سجد[6]، وأجمع المسلمون على أن ذلك السجود ليس سجود عبادة؛ لأن سجود العبادة لغير الله كفر، والأمر لا يرد بالكفر[7]، ولكن اختلفوا في كيفية السجود.

قال السمعاني: «وفي قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ قولان:

أحدهما: أن معناه اسجدوا إلى آدم، فيكون آدم كالقبلة، والسجود لله تعالى.

والأصح: أن السجود كان لآدم على الحقيقة.

وتضمن معنى الطاعة لله تعالى بامتثال أمره فيه، فعلى هذا يكون السجود لآدم على سبيل التحية له، وهو كسجود إخوة يوسف ليوسف بمعنى التحية له.

(٥) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٧.
(٦) الوسيط، الواحدي ١/ ١١٩.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٤٢٧.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف:١٠٠]»[١].

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته[٢]، ودليل على فضل آدم عليه السلام؛ إذ جعل موضع عبادة خيار خلق الله معه[٣].

والخلاصة في القول: إن السجود كان تعظيمًا وتحيةً؛ تكريمًا لآدم وإظهارًا لفضله، وطاعة لله تعالى لا سجود عبادة.

(١) تفسير السمعاني ١/ ٦٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٢٧.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٤١٩.

صفات الملائكة

إن العلم بالملائكة من الأمور الغيبية التي لا يصل إليها العقل المجرد، وإنما السبيل لمعرفتهم هو الخبر الصادق عن الله عز وجل، أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد جاءت الأخبار التي تفيد بوجود الملائكة، وتذكر بعض صفاتهم، فللملائكة صفات متعددة ومتنوعة، ومن هذه الصفات ما يأتي:

أولًا: أولو أجنحة:

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنه اصطفى من الملائكة رسلًا.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥].

وذكر جل وعلا في موضع آخر أن أولئك الرسل من الملائكة لهم أجنحة وتلك الأجنحة متعددة.

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر:١].

قال البيضاوي: «﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي: ذوي أجنحة متعددة متفاوتة بتفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها نحو ما وكلهم

الله عليه فيتصرفون فيه على ما أمرهم به ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ استئناف للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك بمقتضى مشيئته ومؤدى حكمته»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: بينه وبين أنبيائه ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعًا ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك»[2].

كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح)[3].

ولهذا قال سبحانه: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ قال الشوكاني: «والمعنى: أنه يزيد في خلق الملائكة ما يشاء، وهو قول أكثر المفسرين»[4].

والخلاصة في القول: إن الملائكة يتفاوتون في الخلق والمقدار، وهذا يدل عظم خلقهم، فهم ليسوا على درجة واحدة، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له ستمائة جناح، وهذا دليل على كمال قدرته وسعه ملكه سبحانه وتعالى، وكثرة الأجنحة دليل القدرة على السرعة في تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالته.

ثانيًا: الطاعة المطلقة:

فالملائكة مطبوعون على طاعة الله، ليس لديهم القدرة على العصيان، فمن صفاتهم أنهم لا يعصون الله في شيء، ولا تصدر منهم الذنوب، بل طبعهم الله على طاعته، والقيام بأمره، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

قال البيضاوي: «لا يعصون الله ما أمرهم فيما مضى، ويفعلون ما يؤمرون فيما يستقبل، أو لا يمتنعون عن قبول الأوامر والتزامها ويؤدون ما يؤمرون به»[5].

وأما ابن كثير فيقول في تفسير هذه الآية: «أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه»[6]، وفي الآية دليل على أن الملائكة لا يقدمون على عمل إلا بأمره تعالى وإذنه[7]، وفيه أيضًا مدح للملائكة الكرام، لانقيادهم لأمر الله،

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٥٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٣٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (فأوحى إلى عبده ما أوحى)، رقم ٤٨٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم ٢٨٠.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٨٨.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٢٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٦٨.
(٧) تفسير المراغي ١٤/ ٥٣.

وطاعتهم له في كل ما أمرهم به[1].

وقال تعالى في موضع آخر مبينًا الانقياد التام لطاعته حيث قال جل وعلا: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء:٢٦- ٢٧].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمر به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية»[2]، وفي الآية دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم[3].

والخلاصة في القول: إن الملائكة لا يقدمون على عمل إلا بإذنه تعالى، ولا يخالفون فيما أمر به، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا، وهذا دليل الانقياد التام لطاعته سبحانه وتعالى.

ثالثًا: لا يوصفون بالذكورة ولا بالأنوثة:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن سفاهة المشركين المكذبين لرسوله عليه الصلاة والسلام، حيث زعموا أن الله اتخذ ولدًا، فقالوا: الملائكة بنات الله، فرد الله عليهم تنزيهًا لملائكته الكرام بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ [الأنبياء:٢٦].

حيث نزلت هذه الآية في خزاعة حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، فنزه الله تعالى نفسه عما قالوا[4].

وفي تفسير هذه الآية، يقول السعدي: «يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولدًا فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة بأنهم عبيد مربوبون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامتثال لأوامره»[5].

فالملائكة عبيده وملكه، والعبد لا يمكن أن يكون ولدًا لسيده[6].

وقد أنكر الله تعالى عليهم ما نسبوه إليه في موضع آخر، حيث قال جل علا: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٣٨ بتصرف يسير.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٧٨.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٢.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٣٨.

﴿إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف:١٩].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: «أي جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده يسبحونه ويقدسونه إناثا، فقالوا: هم بنات الله جهلًا منهم بحق الله سبحانه، وجراءة منهم على قيل الكذب ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي: أحضروا خلق الله إياهم، فوصفوهم بذلك لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم؟ وهو تجهيل لهم، وتهكم بهم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أي على الملائكة بما هم مبرءون عنه ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ أي: عنها يوم القيامة، بأن يأتوا ببرهان على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلًا، وفيه من الوعيد ما فيه؛ لأن كتابتها والسؤال عنها يقتضي العقاب والمجازاة عليها، وهو المراد»[(١)]، وفي هذا دليل على أن القول بغير برهان منكر، وأن التقليد لا يغني من الحق شيئًا[(٢)].

ومن خلال هذه الآيات وغيرها يتبين لنا أن الملائكة منزهون عما قاله المشركون فيهم، فقد رد الله عليهم في هذه الآيات وغيرها في كتابه الكريم ووبخهم وعاتبهم على ذلك، وأثنى على ملائكته الكرام ووصفهم بالعبودية وهذا تشريف لهم وتكريم من الله جل وعلا، فهم عبيده وملكه، والعبد لا يمكن أن يكون ولدًا لسيده.

رابعًا: عددهم كثير جدًا:

أخبر الله جل وعلا في كتابه الكريم أن النار عذابها شديد وهي إحدى الدواهي العظيمة، ثم ذكر عدد خزنة أهل النار من الملائكة حيث قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر:٣٠].

قال القرطبي: «والصحيح أن هؤلاء التسعة عشر، هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]»[(٣)].

وهذا يدل على كثرة عددهم، يقول الطبري في تفسير هذه الآية: «﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ من كثرتهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ يعني: الله»[(٤)].

ومما يؤكد كذلك على كثرة عددهم، ما جاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[(٥)].

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٣٨٢ باختصار.
(٢) تفسير المراغي ٢٥/ ٧٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٨٠.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣١.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، رقم ٢٨٤٢.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (البيت المعمور في السماء السابعة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه)[1].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر:٣١].

وسبب نزول هذه الآية أن أبا جهل لما سمع قول الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر:٣٠].

قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدهم- أي: العدد-والشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟![2] فأنزل الله هذه الآية.

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «وما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم؟ وإنما كانوا ملائكة؛ لأنهم أقوى الخلق وأشدهم بأسًا وأقومهم بحق الله والغضب له سبحانه؛ وليكونوا من غير جنس المعذبين حتى لا يرقوا لهم ويرحموهم، ثم ذكر الحكمة في اختيار هذا العدد القليل فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وما جعلنا هذا العدد إلا محنة وضلالة للكافرين، حتى قالوا ما قالوا؛ ليتضاعف عذابهم، ويكثر غضب الله عليهم، وفتنتهم به أنهم استقلوه واستهزءوا به واستبعدوه وقالوا: كيف يتولى هذا العدد القليل تعذيب الثقلين؟!»[3].

والخلاصة في القول: إن من الحكم في ذكر عدد خزنة أهل النار المحنة والابتلاء للكافرين، فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم بسبب تكذيبهم واستهزائهم، وإن كانوا تسعة عشر، فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، فلا يعلم عدد خلقه من الملائكة وكثرة عددهم إلا الله سبحانه وتعالى.

خامسًا: لا يأكلون ولا يشربون:

لقد دلت النصوص القرآنية على عدم حاجة الملائكة إلى الطعام أو الشراب، فقد أخبرنا الله أن الملائكة جاؤوا إبراهيم في صورة بشر، فقدم لهم الطعام، فلم تمتد أيديهم إليه، فأوجس منهم خيفة، فكشفوا له عن حقيقتهم، فزال خوفه واستغرابه ﴿قَالَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٢٥٥٨، والحاكم في مستدركه، رقم ٣٧٤٢.
قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٥٨، رقم ٢٨٩١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٨.

(٣) تفسير المراغي ٢٩/ ١٣٦ باختصار يسير.

﴿أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[الذاريات:٢٤-٢٨].

وفي آية أخرى قال: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود:٧٠].

قال ابن كثير: وفي قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تنكرهم ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[(١)].

وقد حكى غير واحد من محققي العلم الاتفاق على أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون[(٢)].

سادسًا: يعقلون ويتكلمون:

أما الأدلة على أن الملائكة متصفون بالكلام فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ:٣٨].

فهم موصوفون بالكلام بعد إذن الرحمن.

وفي المحاورة التي جرت بين الله عز وجل وبين ملائكته عليهم السلام دليل على ذلك.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الآيات[البقرة:٣٠].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أيضًا أن الملائكة عليهم السلام يكلم بعضهم بعضًا، وأن لهم قلوبًا يعقلون بها، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣][(٣)].

وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾[سبأ:٢٣])[(٤)].

وقد ذكر الشيخ ابن عثيمين أن في

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٨١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٦٨.
(٣) انظر: المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع ص٦٦٤.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين)، ٦/ ٨٠، رقم ٤٧٠١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه الآية: «إثبات بأن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ويجابون: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ خلافًا لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب».

ثم قال: «وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إثبات القلوب للملائكة»[1].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المعني بالكلام في الآية الكريمة هم الكفار، وليس الملائكة وهو مردود عليهم لمخالفتهم الحديث الصحيح السابق ذكره[2].

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد ص١١.
(٢) انظر: الفتح ١٣/ ٤٥٩.

وظائف الملائكة

الملائكة خلق من خلقه تبارك وتعالى، خصهم الله جل وعلا بخصائص، ووهبهم عظم الخلقة، والقدرة على التشكيل، وأوكل إليهم القيام بأمور هذا الكون، فلهم أعمال ووظائف متعددة، يقومون بها امتثالًا لأمره تبارك وتعالى، وأعطاهم القدرة على تأديتها على أكمل وجه، وسوف نبين في المطالب التالية هذه الأعمال والوظائف التي يقومون بها، فمن ذلك:

أولًا: عبادة الله:

الملائكة عباد الله، مكلفون بطاعته، وقد جاء في الكتاب والسنة ذكر بعض العبادات التي تتعبد بها الملائكة ربها تعالى، ومن نماذج عبادتهم ما يلي:

١. أنهم يشهدون بوحدانية الله.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨].

٢. أنهم يشهدون على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦].

٣. أنهم يصلون.

وورد في النصوص تفصيل بعض صفة

صلاتهم، فورد أنهم يصفون عند ربهم.

قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصافات:١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥].

ولعل المقصود بالصف هنا صف الملائكة للصلاة، وهو مروي عن عائشة والسدي[(١)]، ويؤيد ذلك ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج على أصحابه قال: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ فقلنا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصف الأول ويتراصون في الصف)[(٢)].

وكان ورود الحديث حال الاصطفاف للصلاة، فهي قرينة دالة أن الملائكة يتمون الصفوف ويتراصون صفوفهم في الصلاة.

ومما جاء في صفة صلاتهم أنهم يسجدون ويركعون ويقومون: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وعن حكيم بن حزام قال: (بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه إذ قال لهم: أتسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء، قال: إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، ما فيها موضع شبر إلا عليه ملك ساجد أو قائم)[(٣)].

فهذا كله بيان لصفة وهيئة من هيئات صلاتهم.

٤. أنهم يطوفون.

للملائكة كعبة في السماء السابعة يطوفون بها، وهذه الكعبة هي التي أسماها الله تعالى: البيت المعمور، وأقسم به في سورة الطور: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور:٤].

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: يتعبدون في البيت المعمور، ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور؛

(١) انظر: جامع البيان ١٩/ ٦٥١-٦٥٤.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة، والنهي عن الإشارة باليد، ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها والأمر بالاجتماع، ١/ ٣٢٢، رقم ٤٣٠، من حديث جابر بن سمرة.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، ١/ ٤٢٢، رقم ٥٩٧، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة ١/ ٢٥٨، رقم ٢٥٠، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/ ١٦٧، رقم ١١٣٤، والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٢٠١، رقم ٣١٢٢، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ٢٠٢، وأبو الشيخ في العظمة ٣/ ٩٨٦، ح٥٠٩.
وصححه، الألباني السلسلة الصحيحة، رقم ١٠٦٠.

لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل)[1].

٥. أنهم يذكرون الله.

قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات:١-٣].

أي: الملائكة تتلو ذكر الله[2].

ومن أنواع ذكرهم التسبيح: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى:٥].

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٥-١٦٦].

٦. أنهم يخافون الله ويخشونه.

لما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة كان تعظيمهم له وخشيتهم له أعظم.

قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠].

وقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

ثانيًا: تنفيذ أوامر الله:

ومن أعمال الملائكة تثبيت المؤمنين عند الموت، فحين يتعرض المؤمنون لغمرات الموت، فإن الملائكة تبشرهم بالجنة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٢﴾ [النحل:٣٢].

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، أنهم طيبون، أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [فصلت:٣٠]»[3].

وفي الآيتين دليل واضح على أن المؤمن يبشر بالجنة قبل موته، ومما يؤكد كذلك ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة: (أن الملائكة تقول لروح المؤمن:(اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان)[4].

وعلى النقيض مما سبق، يكون موقف الملائكة مع الكافرين الجاحدين، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢٨، تفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٢١، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٦.

(٢) انظر: تفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٢١، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٦٨.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٥٠٩٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٦٨.

﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ [الأنفال:٥٠].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ولو تعاين يا محمد، حين يتوفى الملائكة أرواح الكفار، فتنزعها من أجسادهم، تضرب الوجوه منهم والأستاه، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم»[(١)].

وفي الآية دليل واضح على أن الكافر يبشر بالعذاب قبل موته.

ومما يؤكد على ذلك ما جاء في الحديث الصحيح المذكور سابقًا عن أبي هريرة والذي جاء فيه: (أن الملائكة تقول لروح الكافر: (اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج)[(٢)].

ثالثًا: حفظ الإنسان:

ومن الأعمال والمهام التي كلفهم الله بها حفظ الإنسان من بين يديه ومن خلفه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام:٦١].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ «أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]»[(٣)].

وفي هذه الآية يقول السعدي: «أي: للإنسان ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائمًا»[(٤)].

وقال عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه[(٥)].

رابعًا: قبض الأرواح:

ومن أعمالهم كذلك قبض أرواح العباد عندما تنتهي آجالهم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام:٦١].

والمراد بالرسل هنا الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، وقد فسرها ابن عباس بهذا المعنى حيث قال: «إن لملك الموت أعوانًا

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٥.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٧١.

من الملائكة»[1].

وقال المراغي: «وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذين يتولون ذلك بأمره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة:١١]»[2].

قال الشنقيطي في هذه الآية: «وظاهر هذه الآية الكريمة أن الذي يقبض أرواح الناس ملك واحد معين، وهذا هو المشهور، وقد بين تعالى في آيات أخر أن الناس تتوفاهم ملائكة لا ملك واحد.

وإيضاح هذا عند أهل العلم: أن الموكل بقبض الأرواح ملك واحد هو المذكور هنا، ولكن له أعوان يعملون بأمره ينتزعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت، أو يعينونه إعانة غير ذلك»[3].

خامسًا: النزول بالوحي:

ومن الأعمال كذلك النزول بالوحي على أنبيائه ورسله.

قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل:٢].

قال الشنقيطي: «وأظهر الأقوال في معنى الروح في هذه الآية الكريمة: أن المراد بها الوحي؛ لأن الوحي به حياة الأرواح، كما أن الغذاء به حياة الأجسام، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يقول ابن كثير: هم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].[5].

وقال أبو زهرة: «أي: من اختارهم لرسالته، ويصطفيهم الله: يختبر من يشاء من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالته»[6]، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

سادسًا: الدعاء للمؤمنين:

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم بأن ملائكته الكرام تصلي على المؤمنين، والصلاة من الملائكة بمعنى الدعاء والاستغفار، كما ذكر أهل العلم.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣].

قال الشوكاني: والصلاة من الملائكة

(١) انظر: المصدر السابق ١١/ ٤١٠.
(٢) تفسير المراغي ٧/ ١٤٩.
(٣) أضواء البيان ٦/ ١٨٤ باختصار.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٢٨.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٥٦.
(٦) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤١٢٩-٤١٣٠.

الدعاء لهم والاستغفار كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر:٧][1].

وهذا يدل على رحمة الله ولطفه بعباده أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان، والتوفيق، والعلم، والعمل، فهذه أعظم نعمة أنعم بها على عباده الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم[2].

سابعًا: تبشير المؤمنين:

ومن أعمالهم كذلك تبشير المؤمنين، فقد بشر ملائكة الرحمن إبراهيم عليه السلام بذرية صالحة.

قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات:٢٨].

قال السمعاني في تفسير هذه الآية: أي: دخل في نفسه منهم خيفة، والسبب في ذلك أن الرجل كان إذا طرقه ضيف فقدم إليه شيئًا وأكله أمن منه، وإن لم يأكل خاف شره، وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ يعني: نحن ملائكة الله فلا تخف[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ يقول القرطبي: «أي: بولد يولد له من سارة زوجته، والجمهور على أن المبشر به هو إسحاق عليه السلام»[4].

وبشرت كذلك مريم بعيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران:٤٥].

وبشرت كذلك زكريا بيحيى عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران:٣٩].

وجاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن رجلًا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[5].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٣٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٧.
(٣) تفسير السمعاني ٥/ ٢٥٧ بتصرف.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٤٦ باختصار.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، رقم ٢٥٦٧.

ثامنًا: مناصرة المؤمنين في القتال:

ومن أعمالهم كذلك مشاركة المؤمنين في قتالهم؛ لتثبيتهم وتقوية عزائمهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال:١٢].

قال البغوي: «﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الذين أمد بهم المؤمنين ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصرة ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قووا قلوبهم، قيل: إن ذلك التثبيت حضورهم معهم القتال ومعونتهم، أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين»[(١)]، وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها[(٢)].

والحكمة في قتال الملائكة؛ لإرادة أن يكون الفضل للنبي وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب التي أجراها الله تعالى في عباده، والله فاعل الجميع[(٣)].

تاسعًا: حمل العرش:

ومن الأعمال الموكلة إلى الملائكة حمل عرش الرحمن.

قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة:١٧].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي: الملائكة على أرجاء السماء، وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم، أو: العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب»[(٤)].

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧].

والآيتان تدلان على أن لعرشه تبارك وتعالى حملة يحملونه اليوم ويوم القيامة، وأن حملته ومن حوله يسبحون ويستغفرون للمؤمنين[(٥)].

عاشرًا: تنفيذ أحداث الساعة:

ومن أعمالهم كذلك: تنفيذ أحداث الساعة، كالنفخ في الصور.

وقد أخبر القرآن الكريم بثلاث نفخات: نفخة الفزع ذكرها في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٧٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٥.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤٠٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢١٢ باختصار.
(٥) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ٥٥٠.

[النمل:٨٧].

ونفخة الصعق والقيام، ذكرهما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨].[١].

حادي عشر: النزول بالأمر المقدر:

ومن أعمال الملائكة النزول إلى الأرض في هذه الليلة بالخير والبركة والرحمة لأهل الإيمان.

قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر:٤].

قال ابن كثير في هذه الآية: «أي: يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر»[٢].

والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين أي: ومعهم جبريل، ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه[٣].

وسميت ليلة القدر؛ لعظم قدرها وفضلها عند الله؛ ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الأجل والأرزاق والمقادير القدرية[٤].

وقال ابن عثيمين في هذه الآية: «أي: تنزل شيئًا فشيئًا؛ لأن الملائكة سكان السموات، والسموات سبع، فتتنزل الملائكة إلى الأرض شيئًا فشيئًا حتى تملأ الأرض، ونزول الملائكة في الأرض عنوان على الرحمة والخير والبركة؛ ولهذا إذا امتنعت الملائكة من دخول شيء كان ذلك دليلًا على أن هذا المكان الذي امتنعت الملائكة من دخوله قد يخلو من الخير والبركة، فالملائكة تتنزل في ليلة القدر بكثرة، ونزولهم خير وبركة.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: بأمره القدري.

وقوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: بكل أمر مما يأمرهم الله به، وهو مبهم لا نعلم ما هو، لكننا نقول: إن تنزل الملائكة في الأرض عنوان على الخير والرحمة والبركة»[٥].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٢٦٠-٢٦١ بتصرف يسير.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٤٤.
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١٥/ ٣٢٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣١.
(٥) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ٢٧١ باختصار.

الملائكة الوارد ذكرهم في القرآن

خلق الله تعالى عددًا كبيرًا من الملائكة لا يعلم عددهم وكثرتهم إلا الله جل وعلا، كما قال تعالى في محكم كتابه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

وقد ذكر القرآن الكريم الملائكة إجمالًا في مواطن كثيرة، وورد في بعض المواطن منها ذكر بعض أسماء الملائكة خصوصًا، فمن أسمائهم:

أولًا: جبريل عليه السلام:

وهو السفير بين الله وأنبيائه.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة:٩٧-٩٨].

وهذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم [(١)].

ومن أسمائه وأوصافه التي ذكرت في القرآن[(٢)]:

١. الروح الأمين.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

قال ابن كثير: «وهو جبريل، عليه السلام، قاله غير واحد من السلف، وهذا ما لا نزاع فيه»[(٣)].

وهو أمين الله فيما بين الله وبين أنبيائه، فيما استودعه الله من الرسالة إليهم[(٤)].

٢. روح القدس.

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

قال السعدي: « هو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة»[(٥)].

وقيل: سمي جبريل عليه السلام روحًا ؛ للطافته ولمكانته من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب[(٦)].

وأما عن وصفه: فقد أثنى الله سبحانه على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء، ووصفه بأجمل الصفات فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير:١٩-٢١].

فوصفه بأنه رسوله، وأنه كريم عنده، وأنه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٧٧.
(٢) انظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه، أحمد الزهراني ص ٢٤-٢٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٦٢.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٦٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٩.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٤١.

ذو قوة ومكانة عند ربه سبحانه، وأنه مطاع في السماوات، وأنه أمين على الوحي، فمن كرمه على ربه أنه أقرب الملائكة إليه، قال بعض السلف: منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك[1].

قال ابن عثيمين في تفسير هذه الآية: «﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هو جبريل عليه الصلاة والسلام، فإنه رسول الله إلى الرسل بالوحي الذي ينزله عليهم. ووصفه الله بالكرم؛ لحسن منظره، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم:٦].

و﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قال العلماء: المرة: الخلق الحسن والهيئة الجميلة، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام موصوفًا بهذا الوصف: ﴿كَرِيمٍ﴾، ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ وصفه الله تعالى بالقوة العظيمة»[2].

فإن الرسول صلى الله عليه وسلم رآه على صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح[3].

كله من عظمته عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي: عند صاحب العرش وهو الله جل وعلا، فذو العرش هو الله.

وقوله: ﴿مَكِينٍ﴾ أي: ذو مكانة، أي أن جبريل عند الله ذو مكانة وشرف؛ ولهذا خصه الله بأكبر النعم التي أنعم بها على عباده، وهو الوحي.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: هناك، فجبريل هو المطاع فمن الذي يطيعه؟ قال العلماء: تطيعه الملائكة؛ لأنه ينزل بالأمر من الله فيأمر الملائكة فتطيع، فله إمرة وله طاعة على الملائكة.

﴿أَمِينٍ﴾ على ما كلف به[4].

ثانيًا: ميكائيل عليه السلام:

وهو الموكل بالقطر والنبات.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ۝٩٨﴾ [البقرة:٩٨].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾: «وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/ ١٢٨.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ٧٦ باختصار.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (فأوحى إلى عبده ما أوحى)، رقم ٤٨٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم ٢٨٠.
(٤) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ٧٧-٧٨ بتصرف واختصار.

أنه من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضًا، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، ذاك بالهدى وهذا بالرزق»[1].

وأما ابن عثيمين يقول في هذه الآية: «وقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، وعطف الخاص على العام يدل على شرف الخاص؛ فجبريل موكل بالوحي من الله إلى الرسل.

و﴿وَمِيكَالَ﴾ هو ميكائيل الموكل بالقطر والنبات وخص هذين الملكين؛ لأن أحدهما موكل بما تحيى به القلوب وهو جبريل؛ والثاني موكل بما تحيى به الأرض وهو ميكائيل»[2].

وفي الآية دليل على مكانتهم وفضلهم، وهما من رؤساء الأملاك، كما قال ابن القيم: ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل[3].

وكان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)[4].

فتوسل إليه سبحانه بربوبيته العامة والخاصة لهؤلاء الأملاك الثلاثة الموكلين بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم، فسأله رسوله بربوبيته لهؤلاء أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، لما في ذلك من الحياة النافعة[5].

ثالثًا: مالك عليه السلام:

وهو خازن النار.

قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف:٧٧].

قال ابن كثير: « وهو خازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٤٢ باختصار يسير.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة ١/ ٣١٥.
(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/ ١٢٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧٠، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/ ١٢٨.

فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾»[1].

قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون[2].

قال السعدي في قوله تعالى ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾: «أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبدًا، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غمًا إلى غمهم»[3].

وفي الآية لطائف:

الأولى: أن عذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا، إما أن يفني وإما أن يألفه البدن، بل هو في كل زمان شديد، والمعذب فيه دائم.

الثانية: أن العذاب في الآخرة لا يفتر ولا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت، حتى يتمنوه ولا يجابون، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]. أي: بالموت.

الثالثة: ذكر في المعذبين الأشقياء بأنه لا ينقص عذابهم، ولم يقل: يزيدهم، وفي المثابين قال: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:١٧٣].[4]

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٠-٢٤١ باختصار.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٠.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٤٦-١٤٧ بتصرف.

رابعًا: ملك الموت عليه السلام:

وهو الموكل بقبض الأرواح.

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة:١١].

قال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أن الذي يقبض أرواح الناس ملك واحد معين، وهذا هو المشهور»[5].

وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل[6].

ولم يرد في كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن عثيمين: «وقد اشتهر أن اسمه عزرائيل، لكنه لم يصح، إنما ورد هذا في آثار إسرائيلية لا توجب أن نؤمن بهذا الاسم، فنسمي من وكل بالموت بـ (ملك الموت) كما سماه الله عز وجل في قوله: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾»[7].

قال المراغي في تفسير هذه الآية: «وأصل التوفي أخذ الشيء وافيًا كاملًا، أي: قل لهؤلاء المشركين: إن ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم يستوفي العدد الذي

(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٨٤.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٦٠-٣٦١، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٨٤.
(٧) مجموع فتاوى ورسائل، ابن عثيمين ٣/ ١٦١.

كتب عليه الموت منكم حين انتهاء أجله، ثم تردون إلى ربكم يوم القيامة أحياء كهيئتكم قبل وفاتكم، فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، وفي هذا إثبات للبعث مع تهديدهم وتخويفهم، وإشارة إلى أن القادر على الإماتة قادر على الإحياء»[1].

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢].

وبين قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١].

وبين قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١].

والجواب: أن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى، وملك الموت هو القابض للروح بإذن الله تعالى، ولملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ينتزعون الروح من سائر البدن، فإذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت[2].

وقد جاء في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور: أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فيه: (أن ملك الموت إذا أخذ روح الميت أخذها من يده بسرعة ملائكة فصعدوا بها إلى السماء)[3].

(١) تفسير المراغي ٢١/ ١٠٧.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٥٩ بتصرف يسير.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٨٥٣٤، والحاكم في مستدركه، رقم ١٠٧.

وقد بين فيه صلى الله عليه وسلم ما تعامل به روح المؤمن وروح الكافر بعد أخذ الملائكة له من ملك الموت حين يأخذها من البدن.

والحاصل: أن حديث البراء المذكور دل على أن مع ملك الموت ملائكة آخرين يأخذون من يده الروح حين يأخذه من بدن الميت[4].

وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ قال: ملك الموت يتوفاكم ومعه أعوان من الملائكة[5].

خامسًا: هاروت وماروت:

وهما ملكان سماهما الله تعالى باسم هاروت وماروت[6].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٦٧٦.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٨٤-١٨٥.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧٥.
(٦) عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ١٨.

﴿بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة:١٠٢].

قال الماتريدي مبينًا سبب نزول هذه الآية:« والآية في موضع الاحتجاج على اليهود؛ لأنهم ادعوا أن الذي هم عليه أخذ عن سليمان عليه السلام، فإن كان كفرًا فقد كفر سليمان، فأخبر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم: أن سليمان ما كفر، ولكن الشياطين كفروا بما علموا الناس من السحر»[(١)].

ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنة للناس في فترة من الفترات، وقد نسجت حولهما في كتب التفسير وكتب التاريخ أساطير كثيرة، لم يثبت شيء منها في الكتاب والسنة، فيكتفى في معرفة أمرهما بما دلت عليه الآية الكريمة[(٢)].

هاروت وماروت ملكان من ملائكة الله امتحن الله بهما عباده، وكانا بأرض بابل في العراق، يعلمان الناس السحر ابتلاءً من الله لعباده؛ ولهذا كانا ينصحان من يريد تعلم السحر بقولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

فينصحانه بأن السحر كفر فلا تتعلمه، فينهيانه عن السحر، وتعليم الملكين امتحانًا مع نصحهما؛ لئلا يكون لهم حجة، فاليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه، ثم ذكر الله مفاسد السحر ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.

وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، ثم ذكر الله أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية، بل هو موجب للعقوبة[(٣)].

والله تعالى قد ييسر أسباب المعصية فتنةً للناس، أي: ابتلاءً وامتحانًا، وتعلم السحر،وتعليمه كفر إذا كان السحر عن طريق الشياطين.

والأسباب وإن عظمت لا تأثير لها إلا بإذن الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وتعلم السحر ضرر محض، ولا خير فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فأثبت ضرره ونفى نفعه[(٤)].

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ٥٢١.
(٢) عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ١٨.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١.
(٤) انظر:تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة ١/ ٣٣١-٣٣٣.

سادسًا: إسرافيل عليه السلام:

لم يرد اسم إسرافيل بالقرآن صريحًا، وإنما ورد في السنة في أحاديث صحيحة منها حديث عائشة -السابق- وهو الملك الموكل بالنفخ في الصور، وجاء ذكره في الأحاديث النبوية منها: حديث دعاء قيام الليل السابق. وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه المتقدم هؤلاء الثلاثة من الملائكة مما يدل على فضلهم ومكانتهم وعظمة ما وكل به.

والمشهور عند المفسرين أن إسرافيل عليه السلام موكل بالنفخ في الصور، والصور قرن ينفخ إسرافيل فيه. وقد ورد ذكر الصور في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨].

الأولى فيهلك من في السماوات إلا من شاء الله أن يستثنيهم من الموت بهذه النفخة، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية للبعث إلى الحياة بعد الموت[(١)].

قال القرطبي: «والأمم مجمعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام»[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنا جبهته، وانتظر أن يؤذن له. قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا)**[(٣)].

(١) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول ٢/ ٦٦٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصور، ٤/ ٦٢٠، رقم ٢٤٣١، وأحمد في مسنده، ٥/ ١٤٤، رقم ٣٠٠٨.
قال الترمذي هذا حديث حسن.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٠٧٩.

موقف المؤمن من الملائكة

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، لا يتم إيمان العبد إلا به، وقد أخبر الله تعالى في محكم كتابه بأن من كفر بالملائكة فقد ضل، ووصف ضلاله بأنه بعيد.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

وهذا يدل على منزلة الإيمان بالملائكة وأهميته؛ ولذا فقد كلف الله جل وعلا جميع عباده الإيمان بهم والتصديق بوجودهم وبما يقومون به؛ لأن ذلك من جملة عقائد الإيمان التي أمرهم الله بها وفرضها عليهم في محكم كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عباد مكرمون، وهذا يدل على فضلهم وشرفهم، فكان لزامًا علينا توقيرهم وعدم أذيتهم لما يقومون به من مهام وأعمال فيها خير وسعادة الإنسان، وسوف يكون حديثنا في هذا المبحث عن الإيمان بوجودهم ووظائفهم، وواجبنا تجاه هذه المخلوقات العظيمة، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الإيمان بوجودهم ووظائفهم:

إن موقف المؤمن من الملائكة أن يؤمن بوجودهم ووظائفهم جملة وتفصيلًا، فقد كلف الله العباد الإيمان بهم والتصديق بوجودهم؛ لأن ذلك من جملة أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان العبد ولا يقبل إلا بتحقيقه.

والقرآن مملوء بذكرهم وبأصنافهم ومراتبهم ووظائفهم، حتى إن سورة (فاطر) تسمى بسورة الملائكة[1]، وسميت بعض السور بصفاتهم وأعمالهم المنوطة بهم؛ كالصافات، والمرسلات، والنازعات.

والله سبحانه تارة يقرن اسمه باسمهم في كتابه، ويجعل الإيمان به مستلزمًا للإيمان بهم، وأن البر لا ينال إلا بالإيمان بهم حيث يقول سبحانه: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ [البقرة:١٧٧].

وتارة يبين أن الرسول ومن آمن معه مؤمنون مصدقون بما أنزل إليهم من ربهم ومن ذلك الإيمان بالملائكة.

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وتارة يقرن شهادته بشهادتهم لبيان عظم شهادتهم فيقول سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران:١٨].

والسنة مثل القرآن مليئة بأخبارهم

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٤٧٢، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٩٤.

وأحوالهم، ومن ذلك: حديث جبريل المشهور وفيه: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)[1].

وقد حكم الله بكفر من أنكرهم وجحدهم، وجعل الكفر بهم كفرًا به سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

فالإيمان بهم بالتفصيل: هو أن نؤمن بمن سمي لنا منهم كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ومالك، وهاروت وماروت.

ونؤمن بما ذكر من أصنافهم كحملة العرش، وخزنة الجنة والنار والزبانية، نؤمن بوظائفهم الموكلة بهم، ونؤمن بصفاتهم الحميدة وأفعالهم الرشيدة، وهذا كله دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة التي مرت معنا في المباحث السابقة.

وأما من لم يرد ذكرهم في الكتاب والسنة الصحيحة فنؤمن بهم بصورة إجمالية، وهو معتقد أهل السنة والجماعة وسائر من ينتسب إلى الإسلام، ولم يخالف في وجودهم إلا الفلاسفة وغلاة المبتدعة[2].

ونؤمن بأن ليس لهم من علم الغيب من شيء: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨].

وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦].

والإيمان بهم من جملة الإيمان بالغيب بالنسبة لعامة الناس، أما بالنسبة للأنبياء والمرسلين فهو غيب نسبي، غيب فيمن لم يشاهدوا من الملائكة في العالم العلوي وغيرهم، وإيمان بالشهادة فيمن شاهدوا كجبريل عليه السلام، أو غيره من الملائكة، ويقاس على الأنبياء في هذا من ورد به النص: كمريم عليها السلام حين رأت جبريل، وتمثل لها بشرًا سويًا، وهذا مثل الإيمان بالمعجزات، فهي بالنسبة لمن شاهدوها إيمان بشيء شاهدوه، وبالنسبة لغيرهم إيمان بالغيب[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة ١/ ١٩، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، ١/ ٣٩، رقم ٩.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩٧، منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان، علي فقيهي ص٢١.

(٣) انظر: المعجزات والغيبيات بين بصائر التنزيل ودياجير الإنكار والتأويل، عبد الفتاح إبراهيم

ثانيًا: تكريمهم:

الملائكة أهل طاعة مطلقة، وأنصح خلق الله وأنفعهم لبني آدم، وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى، يستغفرون لمسيئهم، ويثنون على مؤمنيهم، ويدعون لهم، ويعينونهم على أعدائهم [(١)].

والمؤمن الذي يعبد الله، ويتبع رضوانه لا مناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير، ويتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إليهم ويؤذيهم، ومن ذلك[(٢)]:

١. البعد عن الذنوب والمعاصي.

فأعظم ما يؤذي الملائكة الذنوب،والمعاصي، والكفر، والشرك؛ ولذا فإن أعظم ما يهدى للملائكة ويرضيهم أن يخلص المرء دينه لربه، ويتجنب كل ما يغضبه؛ ولذا فإن الملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التي يعصى فيها الله تعالى، أو التي يوجد فها ما يكرهه الله ويبغضه، كالأنصاب، والتماثيل، والصور، والكلاب[(٣)].

وقد جاء ما يؤكد على ذلك في الأحاديث الصحيحة منها:

عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب، ولا صورة تماثيل)[(٤)].

٢. الملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم.

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة، والأقذار، والأوساخ [(٥)]، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(من أكل من هذه البقلة، الثوم - وقال مرة: من أكل البصل والثوم والكراث- فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)[(٦)].

٣. النهي عن البصاق عن اليمين في الصلاة.

نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن البصاق عن اليمين في أثناء الصلاة؛ لأن المصلي إذا قام يصلي يقف عن يمينه ملك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه، فإنما

سلامة ص١٦٣.

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ١/ ٨٣٠-٨٣١.

(٢) انظر: عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ٦٨-٦٩.

(٣) عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ٦٨ بتصرف يسير.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم ٣٢٢٥.

(٥) عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ٦٩.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا أو كراثًا أو نحوها، رقم ٥٦٤.

يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكًا، وليبصق عن يساره، أو تحت قدمه فيدفنها)[1].

ثالثًا: موالاة الملائكة كلهم:

وعلى المسلم أن يحب جميع الملائكة، فلا يفرق في ذلك بين ملكٍ وملك؛ لأنهم جميعًا عباد الله عاملون بأمره، تاركون لنهيه، وهم في هذا وحدة واحدة، لا يختلفون ولا يفترقون، فمن عادى واحدًا منهم فقد عادى الله وجميع الملائكة.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البقرة:٩٨][2].

وقد بينا فيما سبق أن سبب نزول هذه الآية كان جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم[3].

قال أبو الطيب في هذه الآية:« فالعداوة من العبد هي صدور المعاصي منه لله تعالى والبغض لأوليائه، والعداوة من الله للعبد هي تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له، قال الكرماني: وقدم الملائكة على الرسل، كما قدم الله على الجميع؛ لأن عداوة الرسل بسبب نزول الكتب، ونزولها بتنزيل الملائكة، وتنزيلهم لها بأمر الله، فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب، وإنما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة؛ لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلهما»[4].

فعلينا أن نشعر بوجود هؤلاء الملائكة الكرام الذين هم معنا يكتبون الأعمال، والأقوال ويحفظونها.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وعلينا أن نجلهم ونوقرهم ونكرمهم ونستحي منهم، فالملك ضيف الإنسان وجاره، والإحسان إلى الجار، وإكرام الضيف من لوازم الإيمان، والملائكة المرافقون للإنسان أكرم ضيف وأعز جار[5]، فهم عنوان خير وبركة عند نزولهم الأرض، فلنغتنم هذه الأوقات والمناسبات بالأعمال الصالحة؛ رجاء بركتهم.

قال تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ [القدر:٣-٥].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب دفن النخامة في المسجد، رقم ٤١٦.
(٢) عالم الملائكة الأبرار، عمر الأشقر ص ٦٩-٧٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٧٧.
(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١/ ٢٣١.
(٥) انظر: موسوعة فقه القلوب، محمد التويجري ١/ ٨٣٥-٨٣٦.

قال المراغي: هذه الليلة تحفها الخير بنزول القرآن، وشهود ملائكة الرحمن، ليلة كلها سلامة وأمن، من مبدئها إلى نهايتها[1].

موقف الكافرين من الملائكة

اقتضت حكمة الله تعالى في عباده أن يبعث في كل أمة رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة ما سواه، فانقسم الناس إلى فريقين، منهم من آمن وصدق، ومنهم من ضل وكفر، ومن ضلالهم وكفرهم أن طلبوا من أنبيائهم نزول الملائكة؛ ليثبتوا صحة ما جاءوا به، أو أن يكون الرسول من الملائكة زاعمين أن الرسول لا يصح أن يكون من البشر، وأن الله تعالى لو أراد دعوة الخلق لأنزل ملائكة، وبما أن الملائكة عالم غيبي لا نراه ولا نسمعه، ضل هؤلاء المشركون في عبادتهم لهذه المخلوقات العظيمة زاعمين أن الله راض بهذه العبادة، وسوف نتحدث عن هذه الأمور بشيء من التفصيل فيما يلي:

أولًا: عبادتهم:

انقسم الكفار في اعتقادهم في الملائكة إلى ثلاث فرق، وقد بين الله ذلك في كتابه، وهم على النحو التالي:

١. فرقة أشركتهم مع الله بالعبادة.
٢. فرقة والت بعضهم وعادت بعضهم.
٣. فرقة كفرت بهم وأنكرتهم.

فالأول: هو موقف بعض مشركي العرب، ولقد جادل القرآن الكريم هؤلاء المشركين في عدة مواضع، وألزمهم

(١) تفسير المراغي ٣٠/ ٢١٠ بتصرف واختصار.

بالحجة البالغة، وبين سخافاتهم الوثنية، فمن عجيب كفرهم وصنعهم أنهم ينسبون لله البنات، وهم يكرهون البنات، وعندما يبشر أحدهم أنه رزق بنتًا يظل وجهه مسودًا وهو كظيم، وقد يتوارى من الناس خجلًا من سوء ما بشر به: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[الزخرف:١٧].

وفي هذه الآيات التالية تحكي هذه الخرافة وتناقش أصحابها: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾[الصافات:١٤٩-١٥٦].

قال ابن كثير عند هذه الآية: ذكر الله عن المشركين في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب:

فأولًا: جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولدًا.

وثانيًا: جعلوا ذلك الولد أنثى.

ثالثًا: ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم[(١)].

وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾[الزخرف:١٩][(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾[الزخرف:١٥-١٩].

فهذه الآيات الكريمة هي على شاكلة الآية السابقة في معالجة مفتريات المشركين في نسب الأنوثة للملائكة بالأدلة العقلية، ومناقشتهم بمنطق الحجة والبرهان.

والآيات الكريمة تناقشهم فيما يلي[(٣)]:

- جعلهم لله جزءًا من عباده، وقد أنكر القرآن عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ ومعنى ذلك أنهم أثبتوا لله ولدًا، فإن ولد الرجل جزء منه، ولا شك أن إثبات الولد لله تعالى محال قطعًا.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢.

(٢) انظر: عالم الملائكة الأبرار ص١٣.

(٣) انظر في ذلك: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٤٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٢٠٠، تفسير المراغي ٢٥/ ٧٦-٨١.

مناقشتهم عن سر اختيارهم للبنين، وجعلهم البنات لله رب العالمين، جاء ذلك في الإنكار عليهم في قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ وقد تقرر عند هؤلاء المشركين تفضيل البنين على البنات، فلو كان مرجع القسمة إلى العقل، لكان الله أولى بالبنين من البنات، ولو كان مرجعها إلى العدل-بصرف النظر عن استحالة ذلك أو إمكانه-لكان العدل يقتضي على أسوأ تقدير التسوية في القسمة، ولكنهم تجاوزوا في الطغيان والسذاجة حدود المألوف من الذوق والفطرة الإنسانية.

قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم:٢١-٢٢].

أي: قسمة جائرة، وغير عادلة.

وقد بينت الآيات أن الأنثى محل نقص في الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه، ليجبر من نقصها[1].

ثم أتبعها بصفة نقص أخرى فقال: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨].

يعني: أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبين حجتها لنقص عقلها، وقلما تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني، فكيف ينسب لله من يتصف بهذه النقائص[2].

ولقد افترى هؤلاء أنهم يعبدون الملائكة على حسب زعمهم، وحاشا وكلا أن ترضى ملائكة الرحمن بأن تعبد من دون الله، فضلًا عن أن تدعو إلى ذلك، وقد تبرؤوا منهم ومن عبادتهم يوم القيامة، وبينوا حقيقية عبادة هؤلاء وأنهم ما عبدوا إلا المردة من الشياطين.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن تلاعبه-أي: الشيطان-بهم أن زين لقوم عبادة الملائكة فعبدوهم بزعمهم، ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم، ولكن كانت للشياطين، فعبدوا أقبح خلق الله، وأحقهم باللعن والذم.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠-٤١].

وقال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء:١١٧]»[3].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٤.

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٧.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/ ٢٣٨.

ثانيًا: موالاة بعضهم ومعادة البعض:

وهذا موقف اليهود فقد زعموا أن لهم أولياء وأعداء من الملائكة، وزعموا أن جبريل عدو لهم، وميكائيل ولي لهم، فأكذبهم الله تعالى -في مدعاهم- وأخبر أن الملائكة لا يختلفون فيما بينهم: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٩٧-٩٨].

فأخبر سبحانه أن الملائكة كلهم جماعة واحدة، فمن عادى واحدًا منهم فقد عادى الله وجميع الملائكة، وهذه المقولة التي حكاها القرآن عن اليهود عذر واهٍ عللوا به عدم إيمانهم، فزعموا أن جبريل عدوهم؛ لأنه يأتي بالحرب والدمار، ولو كان الذي يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم ميكائيل لتابعوه[(١)].

وجاء في سبب نزول الآية السابقة أنه: حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فأجابهم ثم قالوا: (وأنت الآن حدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليه. قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: فما منعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[البقرة:١٠٣])[(٢)].

وقال عبد الله بن سلام للنبي صلى الله عليه وسلم: إن جبريل عليه السلام عدو اليهود من الملائكة[(٣)].

قال ابن حجر: «حكى الثعلبي عن ابن عباس أن سبب عداوة اليهود لجبريل أن نبيهم أخبرهم أن بختنصر سيخرب بيت المقدس، فبعثوا رجلًا ليقتله فوجده شابًا ضعيفًا، فمنعه جبريل من قتله وقال له: إن كان الله أراد هلاككم على يده فلن تسلط عليه، وإن كان غيره فعلى أي حق تقتله؟! فتركه فكبر بختنصر وغزا بيت المقدس فقتلهم وخربه فصاروا يكرهون جبريل لذلك»[(٤)].

وهذا كذب وافتراء، وإنما أصابهم ما أصابهم من قبل أنفسهم؛ بسبب كفرهم بالله وقتلهم أنبيائه.

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٧٩، عالم الملائكة الأبرار، الأشقر ص٦٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٣١٠، رقم ٢٥١٤.
وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، خلق آدم عليه السلام وذريته، ٤/ ١٣٢، رقم ٣٣٢٩.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ١٦٦.

ثالثًا: الكفر بهم وإنكارهم:

وهذا موقف بعض المشركين والملحدين من الفلاسفة والدهريين ومن شاكلهم من الغلاة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦].

فقد زعموا أنها مجرد أوهام وخيالات لا حقيقة ولا وجود لها في الخارج، فلا الله موجود حقيقة، ولا نبوة ولا نبي على التحقيق، ولا ملائكة، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا نشور.

قال ابن القيم: وأما الإيمان بالملائكة فهم لا يعرفون الملائكة، ولا يؤمنون بهم. وإنما الملائكة عندهم-أي: الفلاسفة-هي مجردات ليست داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق السموات ولا تحتها، ولا هي أشخاص تتحرك، ولا تصعد، ولا تنزل، ولا تدبر شيئًا، ولا تتكلم، ولا تكتب أعمال العبد، ولا لها إحساس ولا حركة البتة، ولا تنتقل من مكان إلى مكان، ولا تصف عند ربها، ولا تصلي، ولا لها تصرف في أمر العالم البتة، فلا تقبض نفس العبد، ولا تكتب رزقه وأجله وعمله، ولا عن اليمين وعن الشمال قعيد، كل هذا لا حقيقة له عندهم البتة.

وربما تقرب بعضهم إلى الإسلام، فقال: الملائكة هي القوى الخيرة الفاضلة التي في العبد، والشياطين هي القوى الشريرة الرديئة، هذا إذا تقربوا إلى الإسلام وإلى الرسل[1].

رابعًا: طلب نزولها لتصديق الرسول:

لقد ذكر الله جل وعلا مطالب هؤلاء الكفرة في كتابه الكريم في أكثر من آية، منها:

ما ذكره عن فرعون حيث كان من مطالبه نزول الملائكة؛ ليشهدوا بصدق موسى عليه السلام فيما يقول، حيث قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف:٥٣].

وهذا من قول فرعون، أي: لو كان موسى صادقًا لجاء معه الملائكة، يمشون معه، يشهدون له بصدقه ويعينونه على أمره، فيكون ذلك أهيب في القلوب، فأوهم اللعين قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على هيئة الجبابرة، ومحفوفين بالملائكة، وقد أتى موسى عليه السلام من الآيات بما فيه دلالة على صدق نبوته، وكانت أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة، وليس يلزم هذا؛ لأن الإعجاز كاف، وقد كان في الجائز أن يكذب مع مجيء الملائكة، كما كذب مع ظهور الآيات، وذكر فرعون الملائكة حكاية

(١) انظر: إغاثة اللهفان ٢/ ٢٦١.

عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم[1].

وكذلك طلب نزولها كفار قريش.

قال تعالى: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧﴾ [الحجر:٧].

قال ابن الجوزي: «قال المفسرون: إنما سألوا الملائكة ليشهدوا له بصدقه، وأن الله أرسله، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ [الحجر:٨]»[2].

قال البغوي: «إلا بالحق أي: بالعذاب ولو نزلت يعني: الملائكة- لعجلوا بالعذاب، وما كانوا إذا منظرين أي: مؤخرين، وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عيانًا فأجابهم الله تعالى بهذا، ومعناه: إنهم لو نزلوا عيانًا لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال»[3].

وقد ذكر الله جل وعلا في موضع آخر أنه لو أنزل الملائكة كما طلبوا لما آمنوا.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ۝١١١﴾ [الأنعام:١١١].

وسبب نزول هذه الآية: أن المستهزئين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من أهل مكة، فقالوا له: ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم: أحق ما تقول أم باطل؟ أو أرنا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلًا[4]، قال الخازن: وقوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ما آمنوا إلا أن يشاء الله الإيمان منهم، فأخبر الله أن الإيمان بمشيئة الله لا كما ظنوا أنهم متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا لم يؤمنوا، وفيه دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى حتى الإيمان والكفر، وموضع المعجزة أن الأشياء المحشورة منها ناطق ومنها صامت، فإذا أنطق الله الكل حتى يشهدوا له بصحة ما يقول كان ذلك في غاية الإعجاز[5].

خامسًا: طلب أن يكون الرسول منهم:

ذكر الله تعالى في محكم كتابه حال الأمم المكذبة لرسلها كعاد وثمود، وعدم استجابتها لدعوتهم، مستنكرين أن يكون الرسول من البشر، فلو أراد الله دعوة الخلق لعبادته، لأرسل ملائكة تدعوهم إلى ذلك.

قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤١٥، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي ابن أبي طالب ١٠/ ٦٦٧٨، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٦٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٠١، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤١.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٢٤.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥١.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٦٧.

(٥) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٤٧.

أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت:١٤].

قال المراغي في تفسير هذه الآية:« أي: قالوا: إنا لا نصدق برسالتكم فما أرسل الله بشرًا، ولو أرسل رسلًا لأنزل ملائكة، وإذًا فلا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، وقوله:﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ليس إقرارا منهم بكونهم رسلًا، بل ذكروه استهزاءً بهم، كما قال فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٧]»[1].

فعدم استجابتهم كون الرسل من جنسهم وهذه شبهة، قال السعدي:« وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين من الأمم، وهي من أوهى الشبه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكًا، وإنما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فليقدحوا إن استطاعوا بصدقهم، بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا»[2].

وقد قالها من قبلهم قوم نوح.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون:٢٤].

قال ابن كثير في هذه الآية: «﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾وهم السادة والأكابر منهم ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحي إليه دونكم؟! ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبيًا؛ لبعث ملكًا من عنده، ولم يكن بشرًا !﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: ببعثة البشر في آبائنا الأولين، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية»[3].

وكذلك كان حال كفار قريش مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء:٩٥].

قال الطبري في هذه الآية: « قل يا محمد لهؤلاء الذين أبوا الإيمان بك، استنكارًا لأن يبعث الله رسولًا من البشر: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولًا؛ لأن الملائكة إنما تراهم أمثالهم من الملائكة، ومن خصه الله من بني آدم برؤيتها، فأما غيرهم فلا يقدرون على رؤيتها، فكيف يبعث إليهم من الملائكة الرسل، وهم لا يقدرون على رؤيتهم، وهم بهيئاتهم التي خلقهم الله بها،

(١) تفسير المراغي ٢٤/ ١١٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٧٢.

وإنما يرسل إلى البشر الرسول منهم، كما لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، ثم أرسلنا إليهم رسولًا لكان ملكًا مثلهم»[1].

وفي الآية إعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغي أن تكون من جنس المرسل إليهم، فكأنه سبحانه اعتبر في تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين:

الأول: كون سكان الأرض ملائكة.

والثاني: كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه، فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة[2].

ولو كان الرسل من الملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم، ولما تمكنوا من الفهم منهم، فلزم أن يكون بشرًا حتى يستطيعوا أداء الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام:٩].[3].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٥٨ باختصار يسير.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٠٩ بتصرف يسير.
(٣) تفسير المراغي ١٥/ ٩٧ بتصرف يسير.

وظائف الملائكة في الآخرة

سيكون الحديث في هذا المبحث عن وظائف الملائكة في الآخرة، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: شفاعتها للمؤمنين:

وحقيقة هذه الشفاعة أن الله هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع[4]، ورضاه عنه، وللملائكة نصيب منها.

قال الله عن ملائكته: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النجم:٢٦].

قال الطبري: وفي الآية توبيخ من الله لعبدة الأوثان، والملأ من قريش، وغيرهم الذين كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

فقال الله جل ذكره لهم: ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندي لمن شفعوا له، إلا من بعد إذني لهم بالشفاعة له ورضاي، فكيف بشفاعة من دونهم، فأعلمهم أن شفاعة ما يعبدون من دونه لا تنفع[5].

(٤) الإيمان، ابن تيمية ص ٦٧ بتصرف يسير.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٢٩ بتصرف واختصار.

فالملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له، قال الأخفش: الملك واحد ومعناه جمع، وهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة:٤٧].

وقيل: إنما ذكر ملكًا واحدًا؛ لأن (كم) تدل على الجمع[(١)].

وقال أبو الطيب: «والشفاعة مشروط فيها بحسب نصوص القرآن الكريم بالإذن والرضا، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأذن في الشفاعة لهم، ولا يأذن للنبي صلى الله عليه وسلم في الشفاعة لأهل الكبائر لخروجهم من النار إلا بعد أن تمسهم النار بذنوبهم وتطهرهم من أوزارهم، ويبقى إيمانهم وهو موضع رضا الكريم سبحانه، فشفاعة الأنبياء والصالحين لا تكون إلا بعد الإذن والرضا، وإذًا فتكون للمؤمنين لا لغيرهم، والله تعالى قد جعل هذه الشفاعات ثوابًا للإيمان وصالح العمل، فهؤلاء الذين يشفع لهم الأنبياء والصالحون في حقيقة الأمر وواقعه منتفعون بإيمانهم وأعمالهم وسعيهم وكسبهم، ولولا ذلك ما شفع لهم شافع ولا نفعتهم شفاعة الشافعين»[(٢)].

ونحو هذه الآية، قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء:٢٧-٢٨].

قال السعدي: « أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه شفعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، متبعًا فيه الرسول، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون»[(٣)].

ثانيًا: التسليم على المؤمنين في الجنة:

تستقبل الملائكة المؤمنين على أبواب الجنة بأحسن استقبال، يهنئونهم بسلامة الوصول، وبما هم قادمون عليه، فلا تخيفهم أهوال يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

ثم ينعم المؤمنون بتسليم الملائكة عليهم وترحيبهم بهم.

قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

قال ابن كثير: تدخل عليهم الملائكة من

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٠٤.
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١١/ ٣٣٧-٣٣٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٢.

هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تقدم عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام[1].

وهذا الاحتفاء والترحيب والتحية من الملائكة لهم كله بما صبروا في الدنيا على طاعة الله وعبادته وعلى مشقة الجهاد والثغور، وصبروا عن الشرك و المعاصي، وصبروا على أقدار الله من فقر وترك للأوطان، ورضوا بما قسم الله لهم، فيموت أحدهم وفي صدره حاجة لا يستطيع لها قضاء.

وأما قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣].

فالملائكة يبدؤون بفتح الأبواب إكراما لأهل الإيمان، ثم الكلام معهم بالسلام الذي هو متضمن للسلامة من كل مكروه وشر، وكأنهم يقولون لهم: سلمتم فلا يلحقنكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم يقولون لهم: إن دخولكم الجنة كان بطيبكم إذ الجنة حرمها الله على غير الطيبين، فبشروهم بالسلامة، والطيب والدخول والخلود فيها أبدًا، وهذه النتيجة النهائية لأهل الإيمان.

قال الرازي: أن خزنة الجنة يذكرون لأهل الثواب هذه الكلمات الثلاث فأولها: قولهم سلام عليكم وهذا يدل على أنهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات. وثانيها: قولهم طبتم والمعنى طبتم من دنس المعاصي وطهرتم من خبث الخطايا. وثالثها: قولهم فادخلوها خالدين، والفاء في قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ يدل على كون ذلك الدخول معللًا بالطيب والطهارة[2].

ثالثًا: الاصطفاف للرحمن جل وعلا:

قد نص القرآن الكريم عندما يأتي الله يوم القيامة إتيانًا ومجيئًا حقيقيًا يليق بجلاله للفصل بين العباد، تصطف الملائكة صفوفًا منتظمة بين يديه؛ إجلالًا وتعظيمًا له[3]، وتنشق السماء بالغمام.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة:٢١٠].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢١-٢٢].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٥١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٨٠.

(٣) انظر: عالم الملائكة الأبرار ٢٤.

﴿تَنزِيلًا﴾[الفرقان:٢٥].

ففي قول الله عز وجل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢٢].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي النوبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها، أنا لها، فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفعه الله تعالى في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا»[(١)].

وقد بينت الآثار كيفية اصطفاف الملائكة أنهم محيطون بالخلق صفًا من وراء صف، فتنزل ملائكة السماء الدنيا، ثم ملائكة السماء الثانية، وهلم جرًّا يحيطون بالخلق إظهارًا للعظمة، وإلا فإن الخلق لا يمكن أن يفروا يمينًا ولا شمالًا لكن إظهارًا لعظمة الله وتهويلًا لهذا اليوم العظيم، وهذا اليوم يوم مشهود يشهده الملائكة والإنس والجن والحشرات وكل شيء.

كما جاء في الأثر: (تنزل ملائكة السماء الدنيا فيصفون، ومن ورائهم ملائكة السماء الثانية، ومن ورائهم ملائكة السماء الثالثة وهكذا)[(٢)].

كل من وراء الآخر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ يعني: صفًا بعد صف.

ثم يأتي الرب عز وجل للقضاء بين عباده، وذلك الإتيان الذي يليق بعظمته وجلاله، ولا أحد يحيط علمًا بكيفيته[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التسبيح، الثبات، الحفظ، غزوة بدر، غزوة أحد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ٥٦٩، رقم ٨٦٩٩.
قال الذهبي إسناده قوي.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ١٣، وجزء عم ص٢٠١.

الملك

عناصر الموضوع

مفهوم الملك	٢٤٢
الملك في الاستعمال القرآني	٢٤٣
ألفاظ ذات صلة	٢٤٤
الملك الحق	٢٤٦
الأساليب القرآنية في عرض الملك	٢٥٣
أنواع الملك في الرعية وآثاره	٢٦٢

مفهوم الملك

أولًا: المعنى اللغوي:

الملك (بضم الميم وفتحها وكسرها: ملك، وملك، وملك) من ملك الشيء ملكًا بمعنى: حازه وانفرد بالتصرف فيه، والـملك ما يملك ويتصرف فيه، والـملك هو صاحب الـملك، وهو صاحب الأمر والسلطة على أمة أو قبيلة أو بلاد، و«الـملك» بفتح الميم وكسر اللام، وهو اسم أو وصف من « الـملك»، بضم الميم، وهو مقصور من مالك أو مليك، والملك هو الله تعالى، والملك أيضًا من ملوك الأرض، ويقال له: ملكٌ بالتخفيف، وملك الله تعالى وملكوته سلطانه وعظمته؛ لأن الـملك ملكٌ، وإنما ضموا الميم؛ تفخيمًا له، والـملك بفتحتين واحد الملائكة[(١)].

فالملك لغة: يطلق ويراد به احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به، وهو ما يحويه الإنسان من ماله[(٢)]، وكل ما حازه الإنسان، وأصبح له القدرة على التصرف فيه كيف شاء فهو ملكه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الأصفهاني: «الملك: هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور، وذلك يختص بسياسة الناطقين»[(٣)]، وقال أصحاب المعاني: « الملك النافذ الأمر في ملكه؛ إذ ليس كل مالك ينفذ أمره وتصرفه فيما يملكه، فالملك أعم من المالك، والله تعالى مالك المالكين كلهم، والملاك إنما استفادوا التصرف في أملاكهم من جهته تعالى »[(٤)].

وأما اسم الله « الملك» فقد عرفه الإمام الغزالي بقوله: «الملك: هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، ويحتاج إليه كل موجود، بل لا يستغني عنه شيء في شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في وجوده ولا في بقائه؛ فكل شيء سواه سبحانه هو له مملوك في ذاته وصفاته، وهو سبحانه مستغنٍ عن كل شيء»[(٥)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٩١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٨٠.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠ / ٤٩١.
(٣) المفردات ص٧٧٤.
(٤) تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص٣٠.
(٥) المقصد الأسنى ص٦٦.

الملك في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ملك) في القرآن (٢٠٦) مرات، يخص موضوع البحث (١١٧) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٦	﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النور:٥٨]
فعل المضارع	٢٨	﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل:٢٣]
اسم الفاعل	٣	﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١﴾ [يس:٧١]
اسم المفعول	١	﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل:٧٥]
صيغة المبالغة	١	﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ [القمر:٥٥]
الأسماء	١٩	﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]
المصدر	٤٩	﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧]

وجاء الملك في القرآن على وجهين[(٢)]:

الأول: التملك والتولي، ويلزم منه القدرة والتمكن من زمام الأمور: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤].

الثاني: القوة على ذلك، سواء تولى أم لا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]. أي: أعطاكم القوة التي بها يترشح للسياسة، لا أنهم جعلهم متولين للأمر، فذلك منافٍ للحكمة[(٣)]، ويحتمل أنها بمعنى: الغنى والثروة[(٤)].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٧٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٢٢٠-١٢٢٤.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٥٢٠-٥٢١، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤١٣.

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، ٤/ ٥٢٠.

(٤) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤١٣.

ألفاظ ذات صلة

١ السلطان:

السلطان لغة:

مشتق من: سلط، قال ابن فارس: « السين واللام والطاء أصلٌ واحدٌ، وهو القوة والقهر. من ذلك السلاطة، من التسلط وهو القهر، ولذلك سمي السلطان سلطانًا»[١].

السلطان اصطلاحًا:

المعنى الاصطلاحي للسلطان ليس بعيدًا عن المعنى اللغوي؛ إذ السلطان في الاصطلاح: التمكن من القهر، ومنه سمي السلطان[٢].

الصلة بين الملك والسلطان:

الملك أعم من السلطان، وأشمل منه؛ فالسلطان قوة اليد في القهر للجمهور الأعظم، وللجماعة اليسيرة أيضًا؛ لذا يقال: الخليفة سلطان الدنيا، ويقال لأمير البلد: سلطان البلد، ولا يقال له: ملك البلد؛ لأن الملك هو من اتسعت مقدرته؛ فالملك هو القدرة على أشياء كثيرة، والسلطان القدرة سواء كانت على أشياء كثيرة أو قليلة؛ ولهذا يقال هو مسلط علينا، وإن لم يملكنا[٣].

وعلى هذا فكل ملك سلطان، وليس كل سلطان ملكًا، ومن الأسماء الحسنى لله عز وجل: الملك، وليس من أسمائه السلطان.

٢ التمكين:

التمكين لغة:

مصدر للفعل (مكن)، والمكان عند أهل اللغة هو: الموضع الحاوي للشيء، وقد وردت مادة (م ك ن) في اللغة بمعانٍ متعددة، منها: مكن الشيء قوي ومتن ورسخ واطمأن فهو ماكن، ومكنه من الشيء، وأمكنه منه: جعل له عليه سلطانًا وقدرة، واستمكن منه قدر عليه وظفر به[٤].

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٩٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٣٨.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٨٢.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨١.

التمكين اصطلاحًا:

التثبيت والتقوية، وإعطاء المقدرة على التصرف[1].

وقيل: هو أن لا ينازع الممكن منازع فيما يراه ويختاره[2].

الصلة بين التمكين والملك:

الملك أعم من التمكين؛ فقد يمكن الإنسان من شيء؛ ولكنه لا يملكه، أما من ملك شيئًا؛ فهو ممكن منه[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٣٨.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٣٦.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٤٢.

الملك الحق

أولًا: اسم الله (المَلِك):

اسم الله « الملك» يعد من بين أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى التوقيفية، فقد أثبت الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لنفسه اسم « الملك»، والألف واللام في (الملك)، لإفادة استغراق جميع جنس الملك له سبحانه، واختص «الملك» لنفسه فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ونفى الشريك له في الملك فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الكهف: ١١٠]. ووصف نفسه بأنه «الملك الحق»، فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ «ملك الناس»، وأنه ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣]، وأنه ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فهذه الملكية لم تكن ولا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، فإذا كان في الدنيا من صفته «الملك»؛ فهؤلاء بعضهم على حق، وبعضهم على باطل، ولكن ملكية الله سبحانه وتعالى هي الحق المطلق، وغيره الحق النسبي.

ومن أسماء الله الحسنى: الملك، المليك، مالك الملك، ولها شواهد في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، فهو الآمر، الناهي، المعز، المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الخافض، الرافع، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الولي، المتعالي، مالك الملك، المقسط، الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك[(١)].

وقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن الإلحاد في أسمائه فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والإلحاد في أسمائه: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما تدل عليه مادته (ل ح د)، فمنه اللحد وهو: الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل[(٢)].

ومن الإلحاد في اسم الله (الملك) تسمية رجل بملك الأملاك جاء في الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أخنع اسم عند الله رجل يسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله)[(٣)].

---

(١) انظر: شرح أسماء الله الحسنى، سعيد بن وهف القحطاني، ص١٦٧.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١/ ١٦٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك، رقم ٢١٤٣.

وفي رواية: (أخنى اسم)[1].

وفي رواية: (أغيظ رجل على الله يوم القيامة، وأخبثه، رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله)[2].

وقد بسط ابن كثير الخلاف في هذا الموضوع[3]، ونقل المنع والجواز، ورجح هو وجمهور العلماء المنع؛ لظاهر النصوص الصحيحة، وقد ورد هذا الاسم في المناهي اللفظية[4].

ثانيًا: شمول ملك الله الكون:

وجمع ملك السماوات والأرض لنفسه في تسعة عشر موضعًا في كتابه الكريم، وملكية الله سبحانه وتعالى للسماوات والأرض التي تكررت في القرآن الكريم كان الغرض منها التذكير بشأنها في مواطن عدة، ترتبت عليها كثير من القضايا، من أهمها:

١. التوحيد.

قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

٢. القدرة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص: ١٠].

وقال تعالى: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الحديد: ٢].

٣. الخلق والإحياء والإماتة.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء، رقم ٥٨٥٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك، رقم ٢١٤٣.
(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ١٢/ ٥٥.
(٤) انظر: معجم المناهي، بكر أبو زيد، ص ٥١٠.

﴿ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

٤. الشهادة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[البروج: ٩].

٥. المصير والرجوع.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[المائدة: ١٨].

وقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢].

وقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥].

وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[الجاثية: ٢٧].

وقوله: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزخرف ٨٥].

٦. الثواب والعقاب.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفتح ١٤].

وقد قرر الله تعالى حقيقة ملكه هذه بأساليب عدة، فبطريق الخبر.

قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وأكد هذا الأمر فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

وبطريق الإنشاء قال سبحانه: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: ١٢].

ولذا قيل: ملوك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران[1]: فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان، والكافران: النمرود وبختنصر، فإنه تبارك وتعالى ملكه دائم، وملك أولئك قد زال، فهم وما يملكون وما يملك غيرهم من ملك الله تعالى، فهو مالك الملك، بمعنى: الذي ملك الخلائق كلها، وملك الممالك والملوك معًا.

(١) انظر: البداية والنهاية، ١/ ١٧١.

ثالثًا: المتفرد بالملك يوم القيامة.

إن صفة الملكية يوم القيامة لله تعالى لم ولن يشاركه أحد فيها من قبل، ولا من بعد، فهو مالك يوم الدين، وحده لا شريك له، فقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج: ٥٦].

وقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وسيسأل جل جلاله، ويجيب نفسه، ومن أصدق من الله قيلًا: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وصفة الملكية هي التي سيثبتها الله لنفسه أمام الأشهاد في ذلك اليوم العصيب كما أكدت هذا المعنى السنة النبوية فقد جاء في الحديث الصحيح: (يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟)[١]، وفي رواية: (أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)[٢].

يصور سيد قطب هذا المشهد الذي تنكشف به الحقيقة بقوله: «ويومئذ يتضاءل المتكبرون، وينزوي المتجبرون، ويقف الوجود كله خاشعًا، والعباد كلهم خضعًا. ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان. وهو سبحانه متفرد به في كل آن. فأما في هذا اليوم فينكشف هذا للعيان، بعد انكشافه للجنان. ويعلم هذا كل منكر، ويستشعره كل متكبر. وتصمت كل نأمة[٣] وتسكن كل حركة. وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب؛ فما في الوجود كله يومئذ من سائل غيره، ولا مجيب: لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار»[٤].

رابعًا: نفي الامتلاك الحقيقي:

تناول القرآن الكريم هذا الموضوع من جانبين، أحدهما نفي الامتلاك الشخصي على مستوى الإفراد والجمع، والآخر تحديد الامتلاك البشري، على النحو الآتي:

١. نفي الامتلاك الشخصي.

كل كلمة «أملك» بالفعل المضارع بصيغة المتكلم، وردت في القرآن الكريم بصيغة النفي، يعني: نفي الملك والتملك، وقد جاءت في خمسة مواضع، أربعة منها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة)، رقم ٤٨١٢، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، أول الكتاب، رقم ٢٧٨٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، أول الكتاب، رقم ٢٧٨٨.

(٣) النأمة: بالتسكين: الصوت. وهو كالأنين، وقيل: هو الصوت الضعيف الخفي أيا كان. انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٨١٧.

(٤) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٧٣.

منفية بـ(لا)، وواحدة منفية بـ(ما).

قال تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

وقال تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٨].

وقال أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[يونس: ٤٩].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

وقال تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الممتحنة: ٤].

فإذا كان أنبياء الله ورسله -والآيات الواردة على لسان أولي العزم من الرسل- نفوا امتلاكهم الشخصي الحقيقي أمام ملك الله تعالى وملكوته، فغيرهم من باب أولى، إلا قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

فإنه استثنى الملك لنفسه وأخيه، ولكن قول موسى عليه السلام -هذا- لم يفت تعليق شيخ المفسرين الطبري عندما قال: «فدعا عليهم... وكانت عجلة من موسى عجلها»[1].

ولازم النفي «الملك» المضارع بصيغة المخاطب في موضعين من القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

والحال نفسه في المضارع بصيغة الغائب المبدوء بالياء.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٠/ ١٨٩.

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وأسلوب: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ في هذه الآية متضمن معنى نفي الملك.

قال أبو حيان: «وقل: ليس كما قالوا»[(١)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس ٣١].

قال ابن عاشور: «أمن: للإضراب الانتقالي من استفهام إلى آخر، ومعنى يملك السمع والأبصار: يملك التصرف فيهما، وهو ملك إيجاد تينك الحاستين، وذلك استدلال وتذكير بأنفع صنع وأدقه»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفتح ١١].

قال الشنقيطي: «أي: لا أحد يملك دفع الضر الذي أراد الله إنزاله بكم، ولا منع النفع الذي أراد نفعكم به، فلا نافع إلا هو، ولا ضار إلا هو تعالى، ولا يقدر أحد على دفع ضر أراده، ولا منع نفع أراده»[(٣)].

ولم يختلف الأسلوب القرآني في نفي «الملك» بصيغة الجمع المخاطب في موضعين، في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

قال ابن عاشور: «لو أنتم أخصصتم بملك خزائن رحمة الله دون الله؛ لما أنفقتم على الفقراء شيئًا، وذلك أشد في التقريع، وفي الامتنان بتخييل أن إنعام غيره كالعدم»[(٤)].

وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف: ٨].

والشأن نفسه في صيغة الجمع الغائب، ولكن في مواضع أكثر من القرآن الكريم، فقد جاء في تسعة مواضع ثمانية منها بنفي «الملك» بـ(لا)، وواحد بـ(ما)، على ما يأتي.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ

(١) انظر: تفسير البحر المحيط، ٣/ ٤٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ١٢/ ١٥٦-١٥٧.
(٣) انظر: أضواء البيان، ٧/ ٣٩٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ٢٢٤.

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وقال: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٨٧].

وقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣].

وقال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: ١٣].

وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

وقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ [النبأ: ٣٧].

٢. تحديد الامتلاك البشري.

تثبت بعض الآيات القرآنية الكريمة الملك للناس، ولكن على وجه التحديد، منها امتلاك الناس لمفاتيح البيوت، وفي هذا تقليل لشأن الملك الدنيوي وحدوده.

قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [النور ٦١].

وهذه اللفظة الوحيدة التي وردت في القرآن الكريم بصيغة التملك الجمعي للبشر «ملكتم»، وأيضًا ورد التملك للناس مع البهائم والأنعام والحيوانات، فقال جل ذكره: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس ٧١].

وفي هذا تحقير للملك الدنيوي في جعله للدواب.

الأساليب القرآنية في عرض الملك

أولًا: الامتنان بالملك على بعض العباد:

لم تقتض سنة الحياة الدنيا أن يكون الناس كلهم ملوكًا، لذا فقد اختص الله تبارك وتعالى بعض عباده بالملك دون غيرهم، وهذا فضل من الله ونعمة على من اختاره الله ملكًا على الناس.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال الرازي: «والمعنى: أنه حصل في أولاد إبراهيم جماعة كثيرون جمعوا بين النبوة والملك»[(١)].

وذرية إبراهيم ورد ذكرهم في الآيات الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠].

قال الأستاذ محمد رشيد رضا: «وقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات الثلاث أربعة عشر نبيًا، لم يرتبهم على حسب تاريخهم وأزمانهم؛ لأنه أنزل كتابه هدى وموعظة، لا تاريخًا، ولا على حسب فضلهم ومناقبهم؛ لأن كتابه ليس كتاب مناقب ومدائح، وإنما هو كتاب تذكرة وعبرة، وقد جعلهم ثلاثة أقسام لمعان في ذلك جامعة بين كل قسم منهم»[(٢)].

وخص صاحب المنار القسم الأول بستة أنبياء، وهم: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، ثم قال: «والمعنى الجامع بين هؤلاء أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة، والحكم والسيادة، مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان، وكانا ملكين غنيين منعمين، وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الأول أميرًا غنيًا

(١) مفاتيح الغيب، ١٠/ ١٠٥.

(٢) تفسير المنار، ٧/ ٤٨٩.

عظيمًا محسنًا، والثاني وزيرًا عظيمًا وحاكمًا متصرفًا، ولكن كلًا منهما قد ابتلي بالضراء؛ فصبر، كما ابتلي بالسراء؛ فشكر، وأما موسى وهارون فكانا حاكمين، ولكنهما لم يكونا ملكين، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة ممتاز بمزية، والترتيب بين الأزواج على طريق التدلي في نعم الدنيا، وقد يكون على طريق الترقي في الدين، فداود وسليمان كانا أكثر تمتعًا بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسى وهارون، والظاهر أن موسى وهارون أفضل في هداية الدين، وأعباء النبوة من أيوب ويوسف، وأن هذين أفضل من داود وسليمان؛ بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء، والله أعلم».

فالأنبياء الذين صرح الله -تبارك وتعالى- في إكرامهم بالنبوة والملك معًا، هم:

١. داود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١].

٢. سليمان عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[ص: ٣٥].

٣. يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١].

وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٢٢].

كما أكرم الله تبارك وتعالى ملوكًا آخرين ليسوا بأنبياء ولا برسل، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم أيضًا، وهم:

١. ذو القرنين.

جاء ذكر (ذو القرنين) في ست عشرة آية من سورة الكهف، أخبرنا القرآن الكريم عن ذي القرنين بأنه كان ملكا مؤمنًا صالحًا.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣-٨٥].

٢. النمرود.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:

٢٥٨].

٣. العزيز.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وقال الله تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

٤. طالوت.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

٥. فرعون.

في عصر الممالك القديمة كان يطلق على حاكم مصر لفظ: «الملك» وذلك زمن سيدنا يوسف عليه السلام.

فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

ففي القرآن الكريم عندما يذكر حكام مصر القدامى لا يذكرهم إلا بلقب (فرعون)، وذلك في حوالي ستين آية كريمة؛ إلا في سورة واحدة ذكر فيها حاكم مصر بلقب (ملك)، وذلك في سورة يوسف في ثلاثة مواضع: ٤٣، ٥٠، ٥٤.

٦. بلقيس.

قال تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

وهذه المرأة هي: بلقيس، فيما قال بعضهم[(١)].

ثانيًا: الفرق بين ملك الله، وملك الناس:

الفرق بين ملك الله وملك الناس فرق عظيم، فالناس وما يملكون كلهم من ملك الله تعالى، والفرق بين الملكين، هو الفرق بين الملك المطلق والملك النسبي، ويتجلى ذلك بوضوح في القرآن الكريم في المعاني الآتية:

١. ملك الله تعالى شامل للخلق والرزق.

يربط الله سبحانه وتعالى ملكه بالخلق

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٥٦.

والإيجاد والإحياء والإماتة.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٧].

وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ١١٦].

وقال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[الشورى: ٤٩].

وقد ارتبط هذا المعنى الشريف بأذكار المسلم وأدعيته في اليوم والليلة، منها دعاء السوق: (من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحى عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة)[(١)].

وكذلك في بعض الأذكار الأخرى كما في الحديث: (من قال حين يصبح: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيءٍ قديرٌ عشر مراتٍ: كتب الله له بكل واحدةٍ قالها عشر حسناتٍ، وحط الله عنه بها عشر سيئاتٍ، ورفعه الله بها عشر درجاتٍ، وكن له كعشر رقابٍ، وكن له مسلحةً من أول النهار إلى آخره، ولم يعمل يومئذٍ عملًا يقهرهن، فإن قال حين يمسي، فمثل ذلك)[(٢)].

٢. نفي الملك عن الآلهة من دون الله.

وكذلك نفى القرآن الكريم الملك عن آلهة الباطل من دون الله تعالى، التي لا تملك ضرًا ولا نفعًا، ولا رزقًا ولا شفاعة، ومن هنا قرر القرآن الكريم عقيدة ملك الله -تبارك وتعالى- المختلفة تمامًا عن ملك المعبودات الأخرى، كما جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[المائدة: ٧٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما يقال إذا دخل السوق، رقم ٣٤٢٨.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٢٣١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٣٠٠٧، ٣٨/ ٥٤٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١١٤.

وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[النحل: ٧٣].

وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[طه: ٨٩].

وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[سبأ: ٤٢].

وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[الزخرف: ٨٦].

هذا بصيغة المفرد الغائب «يملك»، وقد ورد في القرآن الكريم صيغة «يملكون» بالجمع عشر مرات؛ ولكن كلها بصيغة النفي الصريح الظاهر بالأداتين: (لا) النافية تسع مرات، و(ما) النافية مرة واحدة، فنسبة النفي بـ(لا) أكثر من النفي بـ(ما)؛ لأن (لا) أقوى أدوات النفي في العربية، وهنا ربط بين نفي ملك الناس مجتمعًا، إذا ما قورن بملك الله الفرد الصمد الواحد الأحد -جل جلاله-، كما ورد في الآيات القرآنية الآتية:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد: ١٦].

وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: ٥٦].

وقال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[مريم: ٨٧].

وقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان: ٣].

وقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت: ١٧].

وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ: ٢٢].

وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[الزمر: ٤٣].

وقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[النبأ: ٣٧].

وأما النفي بـ(ما) فقد ورد مع «يملكون» مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ

﴿وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[فاطر: ١٣].

٣. ملك الله دائم، وملك غيره زائل.

ومن المقارنات القرآنية الأخرى بين ملك الله تعالى، وملك غيره، أن ملك الله -تبارك وتعالى- دائم، وملك غيره زائل، فقد قال تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[الحج: ٥٦].

وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾[الفرقان: ٢٦].

وقال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ثالثًا: الملك والاغترار به:

يعرض القرآن الكريم في آياته البينات أساليب للتحذير من «الملك» الدنيوي والاغترار به، وقد جاء بأسلوبين على ما يأتي:

١. الملك كله ملك الله.

وصف الله تعالى نفسه بأنه: «مالك الملك»، فقد ورد هذا الاسم مرة واحدة في القرآن الكريم، وهذه رسالة واضحة للملوك والمالكين أجمعين بأن الله يملكهم وما يملكون، ولقد عبر عن هذا المعنى حجة الإسلام الغزالي فقال: «اعلم أيها السلطان أنك مخلوق ولك خالق، وهو خالق العالم، وجميع ما في العالم، وأنه لا شريك له، فرد لا مثل له، كان في الأزل وليس لكونه زوال، ويكون مع الأبد، وليس لبقائه فناء، وجوده في الأبد والأزل، وما للعدم إليه سبيل، وهو موجود بذاته، وكل أحد محتاج إليه، وليس له إلى أحد احتياج، وجوده به ووجود كل شيء به»(١).

٢. الملك كله بيد الله.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قيل الملك هنا: النبوة، وقيل: الغلبة، وقيل: المال والعبيد، والظاهر شموله لما يصدق عليه اسم الملك من غير تخصيص(٢).

٣. ظاهرة الاغترار بالملك.

قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

قال السعدي: «ثم حذر قومه ونصحهم،

(١) التبر المسبوك في نصيحة الملوك، الغزالي ص ٩.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٢٢.

وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر»[1].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١].

رابعًا: ذكر بعض أخلاق الملوك وأفعالهم:

أثبت الله تبارك وتعالى «الملك» لبعض الناس، وذكر بعض أخلاق الملوك في الدنيا وأفعالهم، على ما يأتي:

ذكر الله سبحانه وتعالى صفة ملكية لليهود في معرض تعداد النعم عليهم فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة ٢٠].

وملكية بني إسرائيل في الدنيا كانت محدودة جدًا، فقد قال حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما: «كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار؛ سمي ملكًا»[2].

وذكر القرآن الكريم «الملوك» في قصة سبأ مقرونين بالفساد والإفساد فقال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل ٣٤].

قال ابن عاشور: «فعلمت بقياس شواهد التاريخ، وبخبرة طبائع الملوك إذا تصرفوا في مملكة غيرهم؛ أن يقلبوا نظامها إلى ما يساير مصالحهم، واطمئنان نفوسهم من انقلاب الأمة المغلوبة عليهم في فرص الضعف، أو لوائح الاشتغال بحوادث مهمة، فأول ما يفعلونه إقصاء الذين كانوا في الحكم لأن الخطر يتوقع من جانبهم حيث زال سلطانهم بالسلطان الجديد، ثم يبدلون القوانين والنظم التي كانت تسير عليها الدولة، فأما إذا أخذوها عنوة فلا يخلو الأخذ من تخريب وسبي ومغانم، وذلك أشد فسادًا. وقد اندرج الحالان في قولها»[3].

وحين بعث الله تبارك وتعالى ملكًا عندما طلب بنو إسرائيل ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٣٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٧٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ٢٠/ ٢٦٦.

[البقرة: ٢٤٦].

بعث إليهم جنديًا من جنودهم، وهو طالوت، وكان دباغًا وفقيرًا كما يقول المفسرون[١]، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٤٧].

لكن الله تبارك وتعالى هنا ذكر أهم صفتين يجب توافرهما في ملوك الدنيا، وهما:

الصفة الأولى: بسطة العلم.

الصفة الثانية: بسطة الجسم.

قال عنهما الإمام القرطبي: «وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت، وهو بسطته في العلم، الذي هو ملاك الإنسان، والجسم، الذي هو معينه في الحرب، وعدته عند اللقاء، فتضمنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة، لا بالنسب، فلا حظ للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس، وأنهامتقدمة عليه؛ لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم؛ لعلمه وقوته، وإن كانوا أشرف منتسبا»[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان طالوت يومئذ أعلم رجل في بني إسرائيل، وأجمله وأتمه، وزيادة الجسم مما يهيب العدو، وقيل: سمي طالوت: لطوله. وقيل: زيادة الجسم كانت بكثرة معاني الخير والشجاعة، ولم يرد عظم الجسم»[٣].

وقد ضرب القرآن الكريم مثلًا لملك من ملوك الدنيا الظالمين، فقال تعالى في قصة موسى والعبد الصالح: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

فلم يذكر القرآن اسمه، وتجاهل شأنه، وكان التركيز في المساكين دون الملك، قال القرطبي: «مما يستعمله الملك في مصالح نفسه وشهواته»[٤].

ومن ملكية الدنيا ذكر الله تعالى في القرآن الكريم سعة ما يملك الملوك وعظم عروشهم وممالكهم، ولكن المثال القرآني كان مضروبًا لامرأة نكرة، لم يذكر اسمها كما تذكر أسماء ملوك الدنيا عند الناس، وهي ملكة سبأ، بلقيس كما نعرف، وناقل خبر ملوكيتها طائر من الطيور، وهو هدهد سليمان، وهنا نتأمل في الخبر وصاحبته

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٢٢٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ١٧/ ١٢.

وناقله.

قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

قال الشوكاني: «وأوتيت من كل شيء فيه مبالغة، والمراد أنها أوتيت من كل شيء من الأشياء التي تحتاجها، وقيل: المعنى: أوتيت من كل شيء في زمانها شيئًا، فحذف (شيئًا) لأن الكلام قد دل عليه»[1].

ومن بين ما يملكه الملوك وخصه الله سبحانه وتعالى بالذكر في القرآن الكريم: الصواع، وهو جام كهيئة المكوك من فضة. وقرأ يحيى بن يعمر: (صوغ الملك) بغين معجمة، يذهب إلى أنه كان مصوغًا فسماه بالمصدر[2]، فقال تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢].

وهذا الشيء المنسوب للملك -وهو من أشيائه وخواصه- ورد في معرض الحديث عن جريمة سرقة، وانشغال المملكة بفقدانه، وهذا ما يصوره القرآن الكريم في تعلق الممالك بملكها -وإن قل شأنه-.

وما دمنا في الحديث عن هذا الملك في زمن سيدنا يوسف عليه السلام فمن المناسب استكمال بعض صفاته الملكية الدنيوية، منها أوامر الملك فقد ذكر القرآن الكريم أمرين له بصيغة: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

وذكر القرآن الكريم اهتمام الملوك بالرؤيا، وفزعهم منها لا سيما إذا كانت تتعلق بممالكهم، أو فيها إشارة لذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

ولذلك كان نبي الله يوسف عليه السلام فطنًا لهذا الملك وتصرفاته وأوامره ونواهيه، فتمت عملية التفتيش بصورة متقنة فقال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

ثم إن دين الملك هو غير دين نبي الله يوسف عليه السلام، وهنا إشارة قرآنية إلى دين الملوك الذي يجب أن يكون أفضل مما يملكون، وأن يكون دينهم أولى من ملكهم، كما قال بعض الحكماء: «ينبغي للملك أن يأنف أن يكون في رعيته من هو أفضل دينا

(١) فتح القدير، ٣/ ٧٧.
(٢) انظر: غريب القرآن، السجستاني ص ٢٦٩.

منه، كما يأنف أن يكون فيهم من هو أنفذ أمرًا منه»[1].

وإن مما يملك الناس في الدنيا أيضًا، وذكره القرآن الكريم هو (ملك اليمين)، وقد ذكرنا مواضع وروده في مطلب «الملك» في الاستعمال القرآني.

أنواع الملك في الرعية وآثاره

أولًا: الملك الراشد:

يتصف الملك أحيانًا بالراشد، من الرشد وهو نقيض كلمة (الغي) التي تستعمل في وصف كل ما يـــذم، وقد وصف به النبي محمد صلى الله عليه وسلم خلفاءه من بعده بهذا الوصف، فقال عليه الصلاة والسلام: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)[2].

ذكر جلال الدين الشيزري خمسة عشر وصفًا في الملك الراشد، وهي: (العدل، العقل، الشجاعة، السخاء، الرفق، الوفاء، الصدق، الرأفة، الصبر، العفو، الشكر، الأناة، الحلم، العفاف، الوقار)[3]، وكل خصلة من هذه الخصال الكريمة لها شواهدها من القرآن الكريم، إذا ما طبقها الملوك؛ كان بالإمكان وصف ملكهم بأنه «راشد».

وقد عقد الماوردي بابًا في أخلاق الملك، وأوصى الملوك بسياسة أنفسهم

(١) درر السلوك في سياسة الملوك، ص٨٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧١٤٤، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب لزوم السنة، رقم ٤٦٠٧، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم ٢٦٧٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٩، رقم ٢٥٤٩.

(٣) انظر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك، الشيزري ص٢٤٢-٣٥٧.

قبل غيرهم، فقال: «فإذا بدأ الإنسان بسياسة نفسه كان على سياسة غيره أقدر وإذا أهمل مراعاة نفسه كان بإهمال غيره أجدر»[1].

وثمرة الملك الراشد ونتيجته الطيبة تتجلى في تحقيق العزة للأمة، واستتباب الأمن، وتحقيق السعادة الدنيوية والأخروية، وقد ضرب الله لنا مثلًا للحكم الملكي الراشد في شرع من قبلنا، ومنه الأنبياء الملوك، وطالوت، وذو القرنين، وبلقيس ملكة سبأ، وقصصهم معلومة في القرآن الكريم.

ثانيًا: الملك الفاسد:

قابل جلال الدين الشيزري خمسة عشر وصفًا في الملك الفاسد، وهي: (الجور، الجهل، البخل، السرف، خلف الميعاد، الكذب، الغيبة، الغضب، العجب، الكبر، الحسد، العجلة، المزاح، الضحك، الغدر)[2]، وهذه جميعًا من المناهي القرآنية، التي وردت فيها آيات كريمة، وهذه الخصال المذمومة إذا ما ظهرت على الملوك؛ فإنه يصدق فيهم وصف الملك بـ«الفاسد».

وأما ثمرة الملك الفاسد ونتيجته الخبيثة، فهي تعبيد الناس لغير الله، وشيوع الكفر، وانتشار الظلم والفواحش، والصد عن سبيل الله، والإفساد في الأرض، وفساد الرعية، وقد ضرب الله لنا مثلًا للحكم الملكي الفاسد في شرع من قبلنا، ومنه: فرعون، النمرود، وعزيز مصر، وقصصهم معلومة في القرآن الكريم.

ثالثًا: سياسة الرعية:

سياسة الرعية هو التخصص الدقيق للملوك -إن صح التعبير-، وهذه السياسة مبنية على قواعد قرآنية متينة، تعد بمثابة الأسس لقوام الملك، وهي ما يأتي:

١. الحكم بما أنزل الله.

الحكم بما أنزل الله هو أول ما ينبغي أن يجعله الملوك نصب أعينهم، إذ به يتحقق العدل والخير والأمن وغيرها من سياسية الرعية، وقد أوصى الله تبارك وتعالى الأنبياء بالحكم بما أنزل الله، وهي الوصية نفسها لمن تقلد الملك من الأنبياء، يذكر أنه دخل ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فقال: يا ابن شهاب ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: حدثونا أن الله -تبارك وتعالى- إذا استرعى عبدًا رعية كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيئات! قال: كذبوا يا أمير المؤمنين! أنبيٌّ خليفة أقرب إلى الله أم خليفةٌ ليس بنبيٍّ؟ قال: بل نبيٌّ خليفة. قال: أنا أحدثك يا أمير

(١) درر السلوك في سياسة الملوك، الماوردي ص ٥٨.
(٢) انظر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك، الشيزري ٣٥٩-٦٤٦.

المؤمنين بما لا شك فيه.

قال الله تعالى لنبيه داود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

يا أمير المؤمنين: هذا وعيد الله لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي؟ فقال الوليد: إن الناس ليفرونا عن ديننا[١]، فكأنه لم يعجبه الكلام.

٢. العدل والإحسان.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

قال الحسن البصري: «إن الله تعالى جمع الخير كله والشر كله في هذه الآية، وقال: إن استقامة الملك بالثلاثة المأمور بها في الآية واضطرابه بالثلاثة المنهي عنها فيها»[٢].

وقد خصص الطرطوشي بابًا في بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ولا ثبات له دونها، وذكر أول الخصال وأحقها بالرعاية: «العدل، الذي هو قوام الملك، ودوام الدول ورأس كل مملكة سواء كانت نبوية أو اصطلاحية»[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨-٥٩].

قال ابن تيمية: «وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل؛ فهذان جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة»[٤].

٣. تعبيد الناس لله.

من وظائف الملوك الشرفية: أن يوصلوا الخلق بالخالق؛ فيدلوهم على طريق الهداية، ويعينوهم على طاعة الله، لا أن يجعلوهم عبيدًا لهم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

قال الطرطوشي: «ومن ذلك آية الملوك التي أنزلها الله تعالى في السلاطين؛ لما اقتضته من السياسة العامة، التي فيها بقاء الملك، وثبوت الدول.

(١) انظر: سراج الملوك، الطرطوشي ص ٣٧.
(٢) انظر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك، ص٢٤٣.
(٣) انظر: سراج الملوك، ص٥١.
(٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية ص ٦.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ثم سمى المنصور وأوضح شرائط النصر فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

فضمن الله تعالى النصر للمملوك، وشرط عليهم أربع شرائط كما ترى، فمتى تضعضعت قواعدهم، أو انتقض عليهم شيء من أطراف ممالكهم، أو ظهر عليهم عدو، أو باغي فتنة، أو حاسد نعمة، أو اضطربت عليهم الأمور، أو رأوا أسباب الغير؛ فليلجؤوا إلى الله تعالى، ويستجيروا من سوء أقداره؛ بإصلاح ما بينهم وبينه سبحانه وتعالى، بإقامة الميزان بالقسط الذي شرعه الله تعالى لعباده، وركوب سبيل العدل والحق، الذي قامت به السماوات والأرض، وإظهار شرائع الدين، ونصر المظلوم، والأخذ على يد الظالم، وكف يد القوي عن الضعيف، ومراعاة الفقراء والمساكين، وملاحظة ذوي الخاصة والفقراء المستضعفين، وليعلموا أنهم قد أخلوا بشيء من الشروط الأربعة التي شرطت في النصر»[1].

٤. البطانة الصالحة.

قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ [طه: ٢٩].

قال الطرطوشي: «فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران. ثم ذكر حكمة الوزراء فقال: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٣١-٣٢].

دلت هذه الآية على أن موضع الوزير أن يشد قواعد المملكة وأن يفضي إليه السلطان بعجز ونحوه إذا استكملت فيه الخصال المحمودة.

ثم قال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٤].

دلت هذه الكلمة على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة؛ تنتظم أمور الدنيا والآخرة»[2].

٥. الشورى.

قال ابن تيمية: «لا غنى لولي الأمر عن المشاورة؛ فإن الله تعالى أمر بها نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل

(١) انظر: سراج الملوك، ص٣٩-٤٠.
(٢) انظر: سراج الملوك، ص٦٩.

عمران: ١٥٩]».

رابعًا: آثار الملك:

يذكرنا القرآن الكريم بمصير الملوك والممالك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦].

وحتى لا نستصغر ملك الأولين وبساطته؛ فقد جاء التصريح القرآني بقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

فمن من الملوك كان خدمه الإنس والجن والطير والشياطين والوحوش والبهائم؟، ومن من الملوك تجري له الريح بأمره؟ هكذا كانت الملكية من قبل؛ حتى لا يستهين بها الملوك المتأخرين، فنبي الله سليمان عليه السلام كان مثالًا للملك الصالح، وعلى نظام الملكية الوراثي الذي أخذه عن أبيه النبي الملك داود عليه السلام، ومع كل ما آتاه الله من نعم، قال مقولةً خلدها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

ومقولة النبي الملك سليمان عليه السلام قررتها آية قرآنية أخرى، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ثم جاء الخطاب القرآني ليقرر أن هلاك الممالك سنة كونية؛ إذا ما اتبعت آثار الممالك الهالكة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وهذه الحقيقة القرآنية قائمة على خصال الملك الفاسد التي مرت معنا في المطلب الثاني، وإلا فالممالك باستطاعتها أن تحافظ على نفسها؛ إذا ما تجنبت الظلم والفسق وغيرهما من المهالك للممالك.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

وأصرح آية في آثار الملك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

قال ابن عطية: «والآثار في ذلك: هي المباني والمآثر، والصيت الدنياوي»[1].

(١) المحرر الوجيز، ٤/ ٥٥٣.

المن

عناصر الموضوع

مفهوم المن	٢٦٨
المن في القرآن	٢٦٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٧٠
المن الإلهي	٢٧٢
المن من الخلق	٢٨٧

مفهوم المن

أولًا: المعنى اللغوي:

جاء في كتب اللغة: مَنَّ عليه مِنَّةً أي: امتن عليه، يقال: المِنَّةُ تهدم الصنيعة، وفي الحديث (ما أحدٌ أَمَنَّ علينا من ابن أبي قحافة)[1] أي: ما أحدٌ أجود بماله وذات يده، وفي التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فالمَنُّ ههنا أن تَمُنَّ بما أعطيت وتعتد به كأنك إنما تقصد به الاعتداد.

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر: ٦]. أي: لا تعط شيئًا مقدرًا لتأخذ بدله ما هو أكثر منه، وقد يطلق المنان على الذي لا يعطي شيئًا إلا مِنَّةً واعتد به على من أعطاه[2].

ومن معاني المن في اللغة كذلك: الاعتداد، والعطاء، والقطع[3].

ويأتي المن أيضًا بمعنى الإثقال بالنعمة، كما في قول الله تعالى ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٤][4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف المَنُّ في الاصطلاح بتعريفات مختلفة بحسب موضوعه، فمنه المحمود الذي يعني الإحسان إلى الناس وصنع الجميل لهم، ومنه المذموم الذي تبعه أذى أو طلب شكر أو منفعة كان مذمومًا مقطوعًا عن الأجر، وأورد هنا طرفا من تعريفات المن على هذا النحو:

فعرفه الغزالي بأنه: التحدث بالمعروف على الفقير وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الأمور[5].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم ١٥٩٦٤، ٣/ ٤٧٨، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، ٥/ ٦٠٧، رقم ٣٦٥٩.
قال الترمذي حديث غريب.
وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، ص٤٩٠.

(٢) لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٤١٥ بتصرف.

(٣) المصدر السابق بتصرف يسير.

(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي١/ ١٤٣٣، تاج العروس، الزبيدي ٣٦/ ١٩٤.

(٥) إحياء علوم الدين، الغزالي١/ ٢١٧ بتصرف.

المن في القرآن

وردت مادة (مَنَّ) في القرآن الكريم (٥١) مرة، يخص موضوع البحث منها(٢٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران:١٦٤]
الفعل المضارع	٧	﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١]
فعل الأمر	١	﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص:٣٩]
اسم مفعول	٤	﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم:٣]
مصدر	٦	﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد:٤]

وجاء المن في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: العطاء: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾ [المدثر: ٦]. يعني: لا تعط شيئًا قليلًا تزدريه؛ لتعطى أكثر منه.

الثاني: المنة بعينها: قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]. أي: المنة لله أن هداكم للإيمان.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٧٦- ٦٧٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٤٣٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ العطاء:

العطاء لغة:

جاء في كتب اللغة:العطاء والعطية اسمٌ لما يعطى، والجمع عطايا وأعطية، وأعطياتٌ جمع الجمع، ويقال:إنه لجزيل العطاء، وهو اسمٌ جامعٌ فإذا أفرد قيل: العطية وجمعها العطايا، وأما الأعطية فهو جمع العطاء، يقال: ثلاثة أعطيةٍ ثم أعطياتٌ جمع الجمع، ويقال: رجلٌ معطاءٌ كثير العطاء، وامرأة معطاءٌ كذلك، ومفعالٌ يستوي فيه المذكر والمؤنث[(١)].

قال الشاعر:أعطى وهنأنا ولم تك من عطيته الصغاره ومن العطية ما تعى جذماء ليس لها بذاره[(٢)].

العطاء اصطلاحًا:

والعطية عند الفقهاء ما يعطى بغير عوض هبة كان أو صدقة أو هدية[(٣)].

والمعنى في الاصطلاح لا يختلف عن المعنى اللغوي، حيث إن العطاء يدور معناه حول المناولة وهي في اللغة والاستعمال عبارة عن كل نفع أو ضر يصل من الغير إلى الغير كما ذكر ابن العربي عن حقيقة العطاء[(٤)].

الصلة بين المَنِّ والعطاء:

كلاهما يحقق معنى البذل بلا مقابل وفيهما المحمود الذي يوصف بالنفع، أو المذموم الذي يوصف بالضر.

٢ الإيتاء:

الإيتاء لغة:

الإيتاء: الإعطاء، آتى يؤاتي إيتاءً، وآتاه إيتاءً، أي: أعطاه، ويقال: آتاه الشيء، أي: أعطاه إياه[(٥)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٦٨، تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٤٧.
(٢) البيت لأبي دهبل الجمحي.
انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٤٧.
(٣) معجم لغة الفقهاء، قلعجي ص٣٧٨.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٧٤.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥١، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٧.

ويرى الزبيدي أن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأن الإعطاء له مطاوع بخلاف الإيتاء تقول: أعطاني فعطوت ولا يقال: آتاني فآتيت، وإنما يقال: آتاني فأخذت، والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله مما لا مطاوع له [(١)].

الإيتاء اصطلاحًا:

إعطاء المال للغير على سبيل التمليك وحرية التصرف.

الصلة بين الإيتاء والمَنِّ:

أما الصلة بين المن والإيتاء فتتضمن معنى العطاء والدفع والأداء من شخص إلى آخر، وأن من الإيتاء ما هو تفضل مثل المن المحمود وليس واجبًا ملزمًا على المعطى.

٣ الإحسان:

الإحسان لغة:

مصدر حسن، والحسن: ضد القبح ونقيضه، والإحسان: ضد الإساءة[(٢)]

الإحسان اصطلاحًا:

هو: إتقان الأعمال والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه[(٣)].

وقال الراغب: (الإحسان على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملًا حسنًا[(٤)].

الصلة بين الإحسان والمن:

وتأتي الصلة بين الإحسان والمن في كونهما يتفقان في معنى الإنعام على الغير بما يحققه المن المحمود.

(١) تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٣٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٧.
(٣) التفسير المنير ١٤/ ٢١٢.
(٤) المفردات ص ٢٣٦.

المن الإلهي

أولًا: التعريف باسم الله المنان:

ورد في بعض الأحاديث تسمية الله عز وجل بالمنان، فقد روي (عن أنسٍ أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا ورجلٌ يصلى ثم دعا اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم. فقال النبى صلى الله عليه وسلم (لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى)[(١)].

وقد وردت أقوال للعلماء في التعريف باسم الله المنان منها ما يلي:

قال الزجاج: «(المنان) فعَّال، من قولك: مننت على فلان،إذا اصطنعت عنده صنيعة وأحسنت إليه، فالله عز وجل منان على عباده بإحسانه وإنعامه ورزقه إياهم، وفلان يمن على فلان: إذا كان يعطيه ويحسن إليه»[(٢)].

وقال الحليمي: «ومنها: (المنان) وهو عظيم المواهب، فإنه أعطى الحياة والعقل والنطق، وصور فأحسن الصور، وأنعم فأجزل، وأسنى النعم، وأكثر العطايا والمنح[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤].

وقال أبو بكر الأنباري:«وفي أسماء الله تعالى الحنَّان المنَّان، أي: الذي ينعم غير فاخر بالإنعام، وقال في موضع آخر: «المنان: معناه: المعطي ابتداء ولله المنة على عباده، ولا منة لأحد منهم عليه، تعالى الله علوًّا كبيرًا»[(٤)].

وقال ابن الأثير: « من أسماء الله تعالى: (المنَّان) هو المنعم المعطي، من المن: العطاء، لا من المنة. وكثيرًا ما يرد المن في كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه، فالمنان من أبنية المبالغة، كالسَّفَّاك والوهَّاب»[(٥)].

والمنان تقدست أسماؤه جل وعلا، يقال: مَنَّ يَمُنُّ مَنًّا فهو المنان، والاسم: المنة، واشتقاقه في موضوع اللسان من المن، وهو العطاء دون طلب عوض، ومنه قوله تعالى﴿ ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم ١٤٩٧، والنسائي في سننه، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، رقم ١٣٠٠. وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم، ٥/ ٢٣٣.

(٢) اشتقاق أسماء الله، أبو القاسم الزجاجي ص ١٦٤.

(٣) الأسماء والصفات، البيهقي ص ٦٥.

(٤) لسان العرب، ابن منظور١٣/ ٤١٥.

(٥) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٤/ ٣٦٥.

﴿حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص: ٣٩] في أحد وجوهه.

ويكون أيضًا مشتقًّا من: المنة، التي هي التفاخر بالعطية على المعطى، وتعديد ما عليه، والمعنيان في حق الله تعالى صحيحان، ويتصف أيضًا بهما الإنسان، لكن يتصف بالمعنى الواحد على طريق المدح، وبالمعنى الثاني على طريق الذم.

فالأول: الذي هو ممدوح، نحو أن يكون عطاؤه أو مَنُّهُ لوجه الله تعالى، ولا لنيل عوض من الدنيا.

ومن هذا القسم قوله عليه السلام فيما رواه أبو سعيدٍ الخدرى رضي الله عنه قال: (خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وقال: (إن الله خَيَّرَ عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله). قال: فبكى أبو بكرٍ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبدٍ خيرًا. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكرٍ أعلمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أَمَنِّ الناس عليَّ فى صحبته وماله أبا بكرٍ، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربى لاتخذت أبا بكرٍ، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين فى المسجد بابٌ إلا سد، إلا باب أبى بكرٍ) [(١)].

والثاني: وهو أنْ يَمُنَّ الإنسان بالعطية، أي: يذكرها ويكررها، فهو المذموم، ومنه قوله تعالى﴿ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والمنان: الذي لا يعطي شيئًا إلا منة، كذا جاء مفسرًا في حديث مسلم عن أبى ذرٍّ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة: المنان الذى لا يعطي شيئًا إلا منه، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره) [(٢)].

والمنان أيضًا: الذي يمن على الله بعمله، وهذا كله في حق المخلوق حرام مذموم.

ولما كان البارئ سبحانه يدر العطاء على عباده منًّا عليهم بذلك وتفضلًا، كانت له المنة في ذلك، فيرجع المنان إذا كان مأخوذًا من المن الذي هو العطاء إلى أوصاف فعله.

ويرجع المنان إذا أخذته من المنة التي هي تعداد النعمة وذكرها، والافتخار بفعلها في معرض الامتنان، إلى صفة كلامه تعالى.

وبهذا يتبين أن كلمة المنان لها وجهان، وجه محمود ووجه مذموم، وذلك في حق البشر، أما في حق الله عز وجل، فلا تقتضي إلا المدح، وأنها اسم من أسماء الله تعالى،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مناقب الصحابة، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم: (سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر)، رقم ٣٦٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم ٣٠٧.

ولهذا تواترت آيات القرآن الكريم التي ورد فيها المن من الله تعالى على الناس على نحو ما سيأتي.

الثاني: المن على العرب بإرسال الرسول منهم:

من حكمة الله تعالى أنه أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتلك نعمة كبرى تستحق الشكر، وقد أتى القرآن الكريم بمعنى من معاني المن ألا وهو الفضل والإيتاء، حيث أكرم الله تعالى العرب وأرسل إليهم رسولا من أنفسهم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال الإمام الطبري في تفسيره: « لقد تطول الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولا، حين أرسل فيهم رسولا من أنفسهم، نبيا من أهل لسانهم، ولم يجعله من غير أهل لسانهم، فلا يفقهوا عنه ما يقول، فيقرأ عليهم آي كتابه وتنزيله، ويطهرهم من ذنوبهم باتباعهم إياه، وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم، ويعلمهم كتاب الله الذي أنزل عليه، ويبين لهم تأويله ومعانيه، ويبين لهم السنة التي سنها الله جل ثناؤه للمؤمنين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كانوا من قبل أن يمن الله عليهم بإرساله رسوله الذي هذه صفته، لفي ضلال مبين، أي: في جهالة جهلاء، وفي حيرة عن الهدى عمياء، لا يعرفون حقًّا، ولا يبطلون باطلا »[(١)].

وهناك أقوال في معنى المنة في الآية وقد ذكرها الإمام القرطبي في تفسيره بيانها على النحو التالي:

حيث قال: «منها أن يكون معنى (من أنفسهم) أي: بشر مثلهم، فلما أظهر البراهين وهو بشر مثلهم علم أن ذلك من عند الله. وقيل: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ منهم. فشرفوا به صلى الله عليه وسلم، فكانت تلك المنة.

وقيل: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ليعرفوا حاله ولا تخفى عليهم طريقته. وإذا كان محله فيهم هذا كانوا أحق بأن يقاتلوا عنه ولا ينهزموا دونه. وقيل ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (بفتح الفاء) يعني: من أشرفهم؛ لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل من قريش، وقريش أفضل من العرب، والعرب أفضل من غيرهم. ثم قيل: لفظ المؤمنين عام ومعناه خاص »[(٢)].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى منة إرسال الرسول للمؤمنين خاصة؛ ليبين لهم عظم

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢١٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٦٣.

هذه المنة عليهم، حيث أنهم المنتفعون به، فكان النبي صلى الله عليه وسلم واحد منهم ومثلهم، وقد ذكر الله تعالى ذلك في مواضع عدة من كتاب الله تعالى، أكثرها ليس بلفظ المنة، ولكن بلفظ إرسال الرسول من نفس المؤمنين، وموضع واحد بلفظ المنة وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٦].

روي عن عائشة رضي الله عنها: « ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قالت: هذه للعرب خاصة. وقال آخرون: أراد به المؤمنين كلهم [(١)].

أما المواضع الأخرى التي فيها بيان نعمة إرسال الرسول من أنفسنا، وليست بلفظ المنة فهي:

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

وقوله جل شأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

وهذه الآية في معرض شهادة النبي عليه الصلاة والسلام علينا أو لنا يوم القيامة.

وقوله جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن نعمته علينا بإرسال رسول لنا يتلو علينا آيات الله، ويعلمنا الدين، وأن هذا الرسول منا نعرفه قبل أن يكلف بالرسالة، فقد آمن بسيدنا محمد من يعرفونه أكثر من غيرهم، ووضح هذا الأمر من خلال بيان القرآن الكريم لذلك.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

وقد فسر الشيخ الشعراوي هذه الآية فقال: « إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولئك الذين يعرفونه

(١) انظر: شعب الإيمان، البيهقي ٢/ ١٦٣.

أكثر من غيرهم، كأبي بكر الصديق، وزوجته صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب، هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا؛ لأنهم أخذوا الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بالرسالة، فهم لم يعرفوا عنه كذبًا قط. فقالوا: إن الذي لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله فآمنوا، فالله سبحانه وتعالى من رحمته أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميًّا ليعلمه ربه»[1].

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ونعمة الله على العرب بإرسال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إنما ذكرنا الله تعالى بها كثيرًا من أجل أن نذكر نعمه دائما علينا وقت حياتنا، والله عز وجل يريد من عباده الصالحين أن يذكروه دائما كما جاء في الحديث القدسي المشهور عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه، وإن اقترب إلي شبرا، تقربت إليه ذراعا، وإن اقترب إلي ذراعا، اقتربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[2].

فالعبد الصالح يدرك نعم الله عليه في الدنيا والدين، وأنه واجب عليه أن يشكره على هذه النعم الظاهرة والباطنة، وأن يحمده على ما علمه عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: المن بالنبوة والرسالة:

أرسل الله تعالى الرسل والأنبياء لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور كما هو معروف، وأمد الله الرسل بالمعجزات الباهرة، وأيدهم بالحجج القوية، وآتاهم القوة المعنوية والروحية التي يحاجون بها خصومهم، وهذا لدى جميع الأنبياء، وأمدَّ بعضهم بالقوة الجسدية والثروة، وملهكم ملكًا عظيمًا كما هو الحال عند نبي الله سليمان عليه السلام.

وقد ورد في القرآن طرفًا من ذلك، والذي يعتبر نموذجا لمنة الله تعالى على أحد أنبيائه، ففي قصة موسى عليه السلام نجد مِنَّةَ الله تعالى عليه في جوانب متعددة:

أولها: المن عليه بالاصطفاء بالنبوة وإنجائه من فرعون وهو طفل وليد.

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٦٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الدعاء، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله، رقم ٢٦٧٥.

والثاني: إرساله إلى فرعون وملائه.

والثالث: إنعامه عليه بالنجاة من فرعون وهو كبير، حيث فر إلى مدين وأقام بها ما أقام ثم عودته إلى دياره. وغيرها من المنن المتعلقة بالنبوة والرسالة.

وبداية التذكير بهذه المنة نجده في أوائل سورة القصص، بلفظ إرادة المنة بتخليص المستضعفين من بطش فرعون وجنوده، حيث قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥-٦].

ثم توالى ذكر المنن بعد ذلك في آيات مختلفة من سورة طه والصافات.

وفي موضع آخر يأتي ذكر منة الله تعالى على الأخوين موسى هارون في آيات جامعة لجملة من النعم التي أنعم الله تعالى عليهما بها، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝١١٥ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ۝١١٦ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ۝١١٩ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝١٢٠﴾ [الصافات: ١١٤ - ١٢٠].

قال الطبري في معناها: « ولقد تفضلنا على موسى وهارون ابني عمران، فجعلناهما نَبِيَّين، ونجيناهما وقومهما من الغم والمكروه العظيم الذي كانوا فيه من عبودة آل فرعون، ومما أهلكنا به فرعون وقومه من الغرق»[(١)].

وذكر الماوردي في معنى المنِّ هنا:

أحدهما: بالنبوة، قاله مقاتل.

والثاني: بالنجاة من فرعون، قاله الكلبي.

وأورد في معنى كلمة ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا﴾: قولين:

الأول: النجاة من الغرق.

والثاني: النجاة من الرق[(٢)].

رابعًا: المن بالهداية بعد الإيمان:

الإيمان سلعة غالية ومطلب كبير، وسبب لفلاح الناس ونجاحهم فى الدنيا والآخرة، ولذلك ورد ذكره والتنويه بشأنه والتصريح بأهميته في آيات عدة من كتاب الله تعالى.

والله تعالى قد أرسل الرسل لهداية البشر، وجعل الرشاد في اتباعهم، والغي والضلال في مخالفتهم، وبين سبحانه وتعالى حال الأمم السابقة وحال البشر جميعا قبل هدايتهم للإيمان، ومنته تعالى عليهم بهذه النعمة، وقد جاء ذكر ذلك في موضعين:

الموضع الأول: في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) جامع البيان ٢١/ ٩٣.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٦٣.

﴿فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٩٤].

وفي سبب نزول الآية ما روي عن ابن عباس قال: (مر رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غنم، له فسلم عليهم، قالوا: ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم، فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه و سلم فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[1].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ في الذي مَنَّ به أربعة أقوال:

الأول: أن المراد به الهجرة. قاله ابن عباس.

والثاني: أن المراد به إعلان الإيمان. قاله سعيد بن جبير.

والثالث: أن المراد به الإسلام. قاله قتادة ومسروق.

والرابع: أن المراد به التوبة على الذي قتل ذلك الرجل. قاله السدي[2].

وأيًا كان المعنى فإن الله سبحانه وتعالى قد نبه المؤمنين وذكرهم بنعمته عليهم، وهي نعمة الإسلام التي كانوا محرومين منها.

وقال جل وعلا: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

وفي معنى ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يذكر الماوردي وجهين:

أحدهما: أن الله أحق أنْ يَمُنَّ عليكم أن هداكم للإيمان حتى آمنتم. وتكون المنة هي التحمد بالنعمة.

والوجه الثاني: أن الله تعالى ينعم عليكم بهدايته لكم، وتكون المنة هي النعمة. وقد يعبر بالمنة عن النعمة تارة وعن التحمد بها أخرى[3].

وفي الآية لطائف تفسيرية أبرزها ما يلي:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ زيادة بيان لقبيح فعلهم، وذلك لأن الإيمان له شرفان:

أحدهما: بالنسبة إلى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده في العظمة.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة النساء، رقم ٣٠٣٠.
قال الترمذي: حديث حسن.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٩/ ١١٠.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٣.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٨.

وثانيهما: بالنسبة إلى المؤمن فإنه ينزه النفس عن الجهل ويزينها بالحق والصدق، فهم لا يطلبون بإسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف أنفسهم، بل منوا ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا.

اللطيفة الثانية: في قوله: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ أي: الذي عندكم إسلام، ولهذا قال تعالى: (﴿وَلَٰكِنِ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ولم يقل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؛ لئلا يكون تصديقًا لهم في الإسلام أيضًا كما لم يصدقوا في الإيمان.

اللطيفة الثالثة: في قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ يعني لا منة لكم، ومع ذلك لا تسلمون رأسًا برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة، بل المنة عليكم.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ حسن أدب حيث لم يقل لا تمنوا علي بل لي المنة عليكم؛ حيث بينت لكم الطريق المستقيم، ثم في مقابلة هذا الأدب قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].[1]

خامسًا: المن بالقوة بعد الضعف:

ذكر القرآن الكريم لنا نموذجًا رائعًا فيما مَنَّ الله به على المستضعفين في أرض مصر من بني إسرائيل، حيث إن الله خلصهم بإيمانهم من طغيان فرعون وتسلطه واصبحوا قادة للخير.

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

قال الجزائري في تفسير الآية: « أن الله أراد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض أرض مصر وهم بنو إسرائيل، فَمَنَّ عليهم بإيمانهم وتخليصهم من حكم فرعون وتسلطه، وجعلهم قادة في الخير، وجعلهم أيضا الوارثين لحكم البلاد وسياستها بعد إهلاك فرعون وجنوده »[2].

جعل الله سبحانه وتعالى القوة سببا للانتصار، وفلاح الأمم وصلاحها، وازدهارها وتقدمها،والضعف سببًا للهزيمة والانكسار، وبَيَّنَ الله سبحانه وتعالى نعمته ومنته على الأمة بتوحيدهم بعد فرقة، وتقويتهم بعد ضعف، فقال جل شأنه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

قال الطبري: «وهذا تذكيرٌ من الله عز وجل أصحاب رسول الله صلى الله

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٢٠.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٢.

عليه وسلم، ومناصحة. يقول: أطيعوا الله ورسوله، أيها المؤمنون، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحييكم، ولا تخالفوا أمره وإن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدة، فإن الله يهونه عليكم بطاعتكم إياه، ويعجل لكم منه ما تحبون، كما فعل بكم إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليلٌ يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم، تخافون منهم أن يتخطفوكم فيقتلوكم ويصطلموا»[1].

وقال ابن عاشور: « عطف على الأمر بالاستجابة لله فيما يدعوهم إليه، وعلى إعلامهم بأن الله لا تخفى عليه نياتهم، وعلى التحذير من فتنة الخلاف على الرسول صلى الله عليه وسلم تذكيرهم بنعمة الله عليهم بالعزة والنصر، بعد الضعف والقلة والخوف، ليذكروا كيف يسر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها، حتى أوصلهم إلى مكافحة عدوهم وأن يتقي أعداؤهم بأسهم، فكيف لا يستجيبون لله فيما بعد ذلك، وهم قد كثروا وعَزُّوا وانتصروا.

فالخطاب للمؤمنين يومئذ، ومجيء هذه الخطابات بعد وصفهم بالذين آمنوا إيماء إلى أن الإيمان هو الذي ساق لهم هذه الخيرات كلها، وأنه سيكون هذا أثره فيهم كلما احتفظوا عليه كفوه من قبل سؤالهم، ومن قبل تسديد حالهم، فكيف لا يكونون بعد ترفه حالهم أشد استجابة وأثبت قلوبًا»[2].

سادسًا: المن بالاجتماع بعد التفرق:

جعل الله عز وجل القوة والغلبة في الاجتماع والتآلف، كما أنه جعل الضعف في الوحدة والتفرق وهذا ما أشارت إليه الآية في القرآن الكريم: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فقد حث الله تعالى علي الاجتماع ونهى عن التفرق، وهذا من باب التذكير بهذه النعمة؛ حيث كانوا أعداء ثم ألف الله بين قلوبهم بالإسلام[3].

والقرآن الكريم فيه كثير من النماذج التي تدل على فضل الله ونعمته على العبد بالاجتماع بعد التفرق، ففي قصة سيدنا يوسف أروع الأمثال في هذا الجانب.

فلقد رأينا ما أصاب سيدنا يوسف من بعده وتفرقه عن أهله وعن دياره، والتعرض

(١) جامع البيان ١٣/ ٤٧٦.
والاصطلام: معناه الاستئصال والإبادة من الجذور، اصطلم القوم أي أبيدوا.
انظر لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٤٠.

(٢) التحرير والتنوير ٩/ ٣١٨.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤١٤.

للالقاء في البئر وبيعه في السوق، ونحو ذلك مما هو معروف لدينا من هذه القصة مما ابتلي به يوسف عليه السلام، وتأتي إرادة الله أن ينعم على يوسف بالعزة بعد الذلة وبالغنى بعد الفقر، ومكنه في الأرض وجعله ذا مكانة عالية في مصر وإليه مقاليد الأمور، وتمر الأيام ويأتي أخوة يوسف عليه السلام إليه طالبين حاجة مما أصابهم من فقر في أرض كنعان، ويدخلوا على يوسف ويعرفهم، ويجزل لهم العطاء ويكرمهم.

ويعتبر قدوهم عليه نعمة كبيرة أنعم الله تعالى عليه بها، وهي جمع شمل الإخوة بعد تفرق دام سنوات، ويتحدث يوسف بذلك صريحا في القرآن: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: المَنُّ بخير الدنيا والآخرة.

والثاني: المَنُّ بالجمع بعد الفرقة.

والثالث: المَنُّ بالسلامة ثم بالكرامة [(١)].

وقال الشيخ الصابوني في هذه الآية: «تتحدث الآيات عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف وهو في عِزِّ السلطان وعظمة الملك، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه، واجتماع الشمل بعد الفرقة، وحلول الأنس بعد الكدر» [(٢)].

سابعًا: المَنُّ بالطيبات:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وأسكنه الأرض، وأنعم عليه بنعم لا تعد ولا تحصى، وأباح له الأكل من هذه النعم شريطة أن يأكل الطيب ويجتنب الخبيث، وجاء هذا الأمر بأكل الطيب للأنبياء والرسل، وكذا لعامة الناس، وكذا المؤمنين منهم.

فقد قال الله تعالى للرسل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال للناس جميعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال لبني إسرائيل في مواضع: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وقوله جل ثناؤه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٨١.

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٦١.

﴿رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨١].

وكل هذه الآيات ونحوها جاءت لتبين مِنَّة الله تعالى على الخلق بإباحة هذه الطيبات والانتفاع بها، وبالتالي ينبغي على الخلق أن يشكروا الله تعالى.

وإذا كان الله تعالى قد بَيَّنَ لنا هذه النعم، ونحن على يقين منها، فإنه أوجب علينا شكر تلك النعم.

فيكون شكر المنعم سبحانه وتعالى فرض على كل مكلف كما ذهب إليه أكثر العلماء[1]، وقد ورد الأمر به في القرآن الكريم مرارًا لا سيما في المواضع التي فيها ذكر النعم من المأكل والمشرب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال جل شأنه: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٤].

جاء في تفسير السلمي عند تفسير قوله تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: وفي الأكل آداب أربع:الحلال، والصافي، والقوام، والأدب، فالحلال الذي لا يعصى الله فيه، والصافي الذي لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك به النفس ويحفظ العقل، والأدب شكر المنعم»[2].

وإذا كانت الطيبات من نعم الله تعالى تقتضي منا شكرها، فإنه لا شك أن تناول الطيبات هذه يحقق للمرء منافع دنيوية وأخروية.

فالمأكولات الطيبة سبب لاستجابة الدعاء: كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر:أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء:يا رب يا رب، ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟)[3].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨].

(فقام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة. فقال له النبي صلى الله

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٢١.

(٢) حقائق التفسير ٢/ ٣٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم ٢٣٩٣.

عليه وسلم: (يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به)[1].

قال ابن رجب الحنبلي: «ومن أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه، وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عمله، وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وإن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، وبعد ذكره لنص الحديث قال:والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالًا، فالعمل صالح مقبولٌ، فإذا كان الأكل غير حلالٍ، فكيف يكون العمل مقبولًا ؟ وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبل مع الحرام، فهو مثالٌ لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام»[2].

كذلك تجد أن أكل الحلال وطيب المطعم أعون للمرء على العمل الصالح، وعلى الطاعة، وأن العمل الصالح لابد أن يكون مسبوقًا بأكل الحلال[3].

قال ابن كثير: «يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولا وعملا ودلالة ونصحًا، فجزاهم الله عن العباد خيرًا»[4].

وروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أربع خلالٍ إذا أعطيتهن فلا يضرك ما عزل عنك من الدنيا حسن خليقةٍ، وعفاف طعمةٍ، وصدق حديثٍ، وحفظ أمانةٍ)[5].

ولا ينبغي أن يغفل المرء عن مدى تأثير أكل الطيبات على نمو الجسم وسلامته وصحته.وهذه لا تحتاج لبرهان، فإن الشارع الحكيم حين أمرنا بتناول الطيبات وتجنب الخبائث، فنظرًا لما في الطيب من مزايا النفع للبدن، وسلامته من الأمراض، والمحافظة على صحة الإنسان.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦٤٩٥، ٦/ ٣١٠.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٤/ ٢٩٢، رقم ١٨١٢.
(٢) جامع العلوم والحكم ص١٠٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٩١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٧٧.
(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ٢٨٨، كتاب حسن الخلق، باب حسن الخلق إذا فقهوا، والبيهقي في شعب الإيمان رقم ٨٠٠٩، ٦/ ٢٤٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٧٣٣.

ثامنًا: المن بالنجاة:

النجاة من المهالك مطلب كل عاقل، بل هي مطلب كل مخلوق من الإنسان والحيوان وغيرهما، وقد ورد في كتاب الله تعالى ما يشير إلى مواقف تمنى الناس فيها أماني؛ اغترارًا منهم بفتنة غنى أو ثراء وقعت لغيرهم، فلم يقدرها الله تعالى لهم، فلما هلك المبتلى بتلك الفتنة رجعوا إلى رشدهم وصوابهم، وأيقنوا أن الخير يكمن فيما اختاره الله تعالى.

وذلك تجده واضحًا في قصة قارون، حيث أوتي من الكنوز ما أوتي، وخرج على قومه في زينته، فقال قوم: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القصص: ٧٩].

فلما وقع لقارون ما وقع، ورأوا بأعينهم ذلك ندموا على تمنيهم، وتذكروا مِنَّة الله تعالى عليهم، فكان قوله جل شأنه ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ [القصص: ٨٢].

والمعنى في قوله ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: بالايمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾[1].

وفي معرض آخر للنجاة والمن بها نجد هذه الآيات في سورة الطور ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧].

وقد ذكر الإمام الماوردي في قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ وجهين:

أحدهما: بالجنة والنعيم.

الثاني: بالتوفيق والهداية.

وفي قوله: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه عذاب النار، قاله ابن زيد، وقال الأصم: السموم اسم من أسماء جهنم.

الثاني: أنه وهج جهنم، وهو معنى قول ابن جريج.

الثالث: لفح الشمس والحرّ، وقد يستعمل في لفح البرد[2].

وأيًّا كان المعنى، فإن الله تعالى قد من عليهم بإنجاءهم من النار ولهيبها، وهذا من تمام نعم الله تعالى على عباده التي تستحق الشكر.

تاسعًا: المَنُّ بالأجر غير المقطوع:

أعد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الأجر العظيم جزاء لهم على إيمانهم وعملهم الصالح، ويعتبر إيمانهم وهداهم هذا فضل

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢١٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣.

ونعمة من الله تعالى عليهم؛ لأنه تبارك وتعالى هو أعلم بالمهتدين، فقال جل شأنه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

وتأتي المنة من الله بالأجر غير المقطوع علي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في موضع، وعلى المؤمنين الذين يعملون الصالحات في مواضع ثلاثة، وهذا إنما يظهر مدى عطاء الله الوفير لهم.

أما المن على النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء في سورة القلم في قول الله تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ [القلم: ١-٣].

وفي معنى هذه الآية الأخيرة في حق النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أوجه:

الوجه الأول: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير محسوب، قاله مجاهد.

الوجه الثاني: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: أجرًا بغير عمل، قاله الضحاك.

الوجه الثالث: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير ممنون عليك من الأذى، قاله الحسن.

الوجه الرابع: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير منقطع.

ويحتمل خامسًا: غير مقدر وهو الفضل؛ لأن الجزاء مقدر، والفضل غير مقدر[1].

وأما المَنُّ على المؤمنين فقد جاء ذلك في أكثر من آية، منها:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت:٨].

وقوله جل شأنه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾ [الانشقاق: ٢٢-٢٥].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٤-٦].

قال الطبري: « يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ثواب غير محسوب ولا منقوص.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، وأورد الطبري بسنده قول ابن عباس ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يقول: غير منقوص. وقول مجاهد ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني: غير محسوب[2].

وفي موضع آخر يقول المولى جل وعلا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت:٨].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٦١، تفسير السمعاني ٦/ ١٧.
(٢) جامع البيان ٢٤/ ٣٢٧.

والمراد به أجر غير منقوص في الآخرة.

وأورد الماوردي في جملة ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أربعة تأويلات:

أحدها: غير محسوب، قاله مجاهد.

والثاني: غير منقوص، قاله ابن عباس وقطرب.

الثالث: غير مقطوع، قاله ابن عيسى، مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته.

الرابع: غير ممنون عليهم به، قاله السدي[1].

وقد أشار ابن عاشور في تفسيره إلى أن معنى الآية: « أنها تنويه بشأن المؤمنين بأن لهم جزاءً نافعًا عن العمل الصالح، أو هو ما يعطونه من نعيم الجنة، والممنون: مفعول من المن، وهو ذكر النعمة للمنعم عليه بها، والتقدير غير ممنون به عليهم، وذلك كناية عن كونهم أعطوه شكرًا لهم على ما أسلفوه من عمل صالح، فإن الله غفور شكور، يعني: أن الإنعام عليهم في الجنة ترافقه الكرامة والثناء فلا يحسون بخجل العطاء، وهو من قبيل قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فأجرهم بمنزلة الشيء المملوك لهم الذي لم يعطه إياهم أحد، وذلك تفضل من الله»[2].

أما من حيث ما يمن الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح؛ فإنه يرتقي عن هذا.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٤-٦].

فالإنسان الذي يمن الله عليه بالهدى فإن الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكلية؛ كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم[3].

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٦٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٤١.
(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٣٨٣.

المن من الخلق

أولًا: المن الفعلي:

جعل الله عز وجل لكلِّ مؤمن نصيب من الابتلاء كما أخبرنا الله في كتابه العزيز ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ١ - ٢].

وهذا الابتلاء تختلف صوره من عبد إلى آخر وكل على حسب إيمانه ضعفًا وقوة، فالأسر صورة واقع من صور الابتلاء، وفك الأسر مِنَّةٌ ونعمة من الله عزوجل، وهذا ما وصفه الله فى آياته قائلا في القرآن الكريم، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤﴾ [محمد:٤].

وقد ذكر الماوردي في المن هنا قولين:

القول الأول: أنه العفو والإطلاق كما مَنَّ رسول الله صلى الله عليه على ثمامة بن أثال بعد أسره.

القول الثاني: أنه العتق، قاله مقاتل.

وذكر في الفداء وجهين:

أحدهما: أنه المفاداة على مال يؤخذ من أسير يطلق، كما فادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر كل أسير بأربعة آلاف درهم، وفادى في بعض المواطن رجلًا برجلين.

الثاني: أنه البيع، قاله مقاتل [(١)].

ومن لطائف الآية: روي عن بعضهم أنه قال: «كنت واقفا على رأس الحجاج حين أتي بالأسرى من أصحاب عبدالرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحوًا من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كندة فقال: يا حجاج، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرًا، قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ في حق الذين كفروا، فوالله ما مننت ولا فديت؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم
إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

فقال الحجاج: «أفٍّ لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام؟ خلوا سبيل من بقي. فخلي يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زهاء ألفين، بقول ذلك الرجل» [(٢)].

ويتضح من خلال هذه الآية: أن الله تبارك وتعالى فَضَّلَ المَنَّ بفك الأسرى وقدمه على الفداء؛ لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به.

وقد وصانا النبي صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٩٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٢٦.

بمنة فك الأسرى، وجاءت في صورة الأمر وهي فريضة دينية، وقد كتبها الله عزوجل علينا وعلى من سبقنا، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني)[1].

وهناك أقوال كثيرة عن العلماء تدل على وجوب العمل بهذه المنة، ألا وهي فك الأسرى سأكتفي بذكر بعض من هذه الأقوال:

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فكاك الأسارى من أعظم الواجبات، وبذل المال الموقوف وغيره في ذلك من أعظم القربات»[2].

قال أبو بكر الجصاص رحمه الله: «وهذا الحكم من وجوب مفاداة الأسارى ثابت علينا»[3].

وتتأتي صورة أخرى من صور المَنِّ الفعلي وهى العطاء، فالله سبحانه وتعالى هو المنان صاحب العطاء الكثير فيبدأ جل وعلا بالنوال قبل السؤال.

وتتمثل هذه المنة فيما فعله الله عزوجل مع نبيه سليمان عليه السلام، فقد أعطاه الله من خيره بلا حدود تكريمًا لنبيه عليه السلام، ولسليمان أن يعطي من هذا العطاء الكثير لمن يشاء ويمنعه عن من يشاء.

وجاء هذا الأمر واضح من خلال قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٤ - ٣٩].

قال أبو بكر الجزائري في تفسيره: «أي: أعطيناه ما طلب منا وقلنا له: هذا عطاؤنا لك فامنن، أي: أعط ما شئت لمن شئت، وامنع ما شئت عمن شئت بغير حساب مَنًّا عليك. وفوق هذا وإن لك عندنا يوم القيامة للقربة وحسن المرجع، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص:٤٠][4].

هكذا بَيَّنَ الله جل وعلا إنعامه على عبده سليمان بالعطاء الوافر الذي لا يأتي إلا من عند الله وحده، ولا يقدر عليه أحدٌ إلا الله سبحانه وتعالى، فسبحانه يرزق من يشاء بغير حساب فهو المنان صاحب النعمة والفضل.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب وجوب عيادة المريض، رقم ٥٦٤٩، ٧/ ١١٥.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢٨/ ٦٤٢.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص، ٢/ ٤٤٠.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٤٥١.

ثانيًا: المن القولي:

يعتبر الإنفاق صفة أساسية لدى المؤمن الصادق الذي يحب البذل والعطاء إخلاصًا وتقربًا إلى الله عزوجل فكان الجزاء والعوض من ربه أضعافًا مضاعفةً من الذي أنفقه ولا يماثله جزاء آخر، فالصدقة بعشرة أمثالها، وآيات القرآن خير باعث لكل مسلم على الإنفاق، فقال جل شأنه فى كتابه العزيز: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

والله عز وجل يعلم ما ينفقه العبد ابتغاء مرضاته، فيتقين أن ما ينفقه إنما سيخلفه الله له، فالخير واصل إلى صاحبه بلا محالة ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

وورد من الحديث القدسي أن رب العزة قال: (أنفق أنفق عليك) [(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على بلال، فوجد عنده صبرا من تمر، فقال: (ما هذا يا بلال؟) فقال: تمر أدخره، قال: (ويحك يا بلال، أوما تخاف أن يكون له بخار في النار؟ أنفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالا) [(٢)].

والمن في الإنفاق يبطل الثواب والأجر؛ لأن الله حذر منه حيث يجعل المحسن متطاولًا ومتفاخرا على من أحسن إليه، ويبين القرآن الكريم أن الإنفاق الذي يصاحبه المن والأذى إنما هو بغيض وقت الإنفاق وبعده.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٣].

وقد جاء في تفسير هذه الآية «أن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمن أو يؤذي، فإنه لا يتقبل صدقته. وذلك لأن من من أو آذى غيره كمن ينفق ماله للرياء والسمعة، والذي يرائي كمثل حجر أصم عليه تراب، وقد نزل عليه مطر شديد، فذهب التراب، وبقي الحجر أملس، وهكذا الذي يمن أو يرائي يلبس ثوبًا غير ثوبه، ثم لا يلبث أن ينكشف أمره، فيكون ما يلبس به كالتراب على الحجر الأملس الذي يذهب به الوابل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا)، رقم ٧٤٩٦، ٩/ ١٤٣.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم ١٠٢٤، ١/ ٣٤١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣١٦، رقم ١٥١٢.

المطر الشديد فلا يبقى من أثره شيء »[1].

أما المن بالإنعام فيأتي ليخبر المنعم عليه بما أنعم به المنعم؛ لأنه يذكره به، وهذا يتضح من خلال نموذجًا رائعًا تناوله القرآن فيما ورد عن قصة سيدنا موسى مع فرعون، فقد ذكره فرعون بأن كفر بالنعمة التي أنعم بها عليه وهي تربيته له، وكان رد سيدنا موسى عليه السلام: نعم هي نعمة علي أن عبدت الناس ولم تستعبدني.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: ١٨ -٢٢].

ذكر الطبري في تفسير هذه الآية: « يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نبيه موسى صلى الله عليه وسلم لفرعون ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ يعني بقوله: وتلك تربية فرعون إياه، يقول: وتربيتك إياي، وتركك استعبادي، كما استعبدت بني إسرائيل نعمة منك تمنها علي بحق.»[2].

وإذا كان القرآن الكريم قد حذر من المَنِّ بالعطاء من المخلوق للمخلوق، فإنه يلحظ أنَّ المِنَّةَ إذا أتت من العبد فإنها تكون مذمومة؛ لأنها تفسد الصنيعة، لذلك ذم الله تعالى العبد الذي يمن على الناس ويكون جزاؤه أن يحبط عمله، ولا يقبل بسبب المن.

وقد أشار تبارك وتعالى في آياته فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٤].

ومن خلال عرض هذه الآيات يتبين أن المَنَّ هو عطاء، ولكن يتحول هذا المعنى إلى معانٍ أخرى على قدر تصرف العبد، فإما أن يكون خيرًا، وإما أن يكون شرًّا، وأن المرء الحسن ينبغي عليه أن ينسى ما فعله من معروف مع غيره، وألا ينسى معروفًا فعله غيره معه.

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، الإنفاق، البر، الخير، السعة، العطاء

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ١٥٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٤٢.

الموت

عناصر الموضوع

مفهوم الموت في القرآن	٢٩٢
الموت في الاستعمال القرآني	٢٩٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٤
الأسلوب القرآني في عرض الموت	٢٩٦
الناس والموت	٣٠١
الموت والآخرة	٣١٠

مفهوم الموت في القرآن

أولًا: المعنى اللغوي:

«الميم والواو والتاء أصل صحيح، يدل على ذهاب القوة من الشيء، منه الموت: خلاف الحياة»[1].

والموت: ضد الحياة، مات يموت ويمات أيضًا فهو ميتٌ، وميتٌ مشددًا ومخففًا، وقومٌ موتى، وأمواتٌ، وميتون، مشددًا ومخففًا، ويستوي فيه المذكر والمؤنث[2].

والميت الذي مات، والـميت والمائت: الذي لم يمت بعد، يقال: لمن لم يمت إنه مائتٌ عن قليلٍ، وميتٌ، ولا يقولون لمن مات: هذا مائتٌ، قيل: وهذا خطأٌ، وإنما ميتٌ يصلح لما قد مات، ولما سيموت[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تعددت التعريفات للفظة الموت، وسنوردها إن شاء الله على النحو الآتي:

الموت: صفة وجودية خلقت ضدًا للحياة[4].

وقيل الموت: «انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار»[5].

وقيل الموت: مفارقة الروح للجسد[6].

وقيل الموت: «حال خفاء وغيب، يضاف إلى ظاهر عالم يتأخر عنه، أو يتقدمه، تفقد فيه خواص ذلك الظهور»[7].

لا يخرج معنى الموت اصطلاحًا عن المعنى اللغوي، كلاهما يدلان على خلاف الحياة.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٨٣.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ١/ ٣٠١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٩١، تاج العروس، الزبيدي ٥/ ١٠٠.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٣٥.
(٥) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص١١٢.
(٦) انظر: المجموع، النووي ٥/ ١٠٥.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣١٨.

الموت في الاستعمال القرآني

وردت مادة (موت) في القرآن الكريم (١٦٥) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٤	﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران:١٥٨]
فعل المضارع	٣٤	﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]
فعل الأمر	٢	﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣]
المصدر	٥٠	﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩]
المصدر الميمي	٣	﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام:١٦٢]
اسم المره	٣	﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٣٥]
الصفة المشبه	٤٩	﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر:٣٠]

وجاء الموت في القرآن على أربعة وجوه[(٢)]:

الأول: الموت نفسه: ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

الثاني: النطفة: ومنه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. يعني: كنتم نطفًا في أصلاب الآباء فأحياكم بالخلق والإيجاد، أو كنتم نطفًا في الأرحام فأحياكم فيها.

الثالث: الضلال: ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ [الأنعام: ١٢٢] يعني: ضالًا فهديناه.

الرابع: الجدب وقلة النبات: ومنه قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس: ٣٣]. يعني: الأرض الجدباء التي ليس عليها نبات أحييناها بالماء والنبات.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٧٨-٦٨٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص١٢٩٢-١٢٩٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٢٠-٤٢١، نزهة الأعين النظائر، ابن الجوزي، ص٥٦٩-٥٧١، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ١٢٢-١٢٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الفناء:

الفناء لغةً:

الفاء والنون والحرف المعتل. هذا باب لا تنقاس كلمه، ولم يبن على قياس معلوم، قالوا: فني يفنى فناء، والله تعالى أفناه، والفنا مقصور، والجمع أفنية[١].

فنى الشيء فناء، وأفناه غيره. وتفانوا، أي: أفنى بعضهم بعضًا في الحرب[٢].

الفناء اصطلاحًا:

سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة[٣].

الصلة بين الموت والفناء:

الموت: فيه رجعة مرة أخرى في الصغرى، ولا رجعة في الكبرى، الفناء: هو الانتهاء ولا رجعة فيها.

٢ القتل:

القتل لغةً:

«القاف والتاء واللام أصل صحيح يدل على إذلال وإماتة، مصدر قتله قتلًا»[٤].

القتل معروف. وقتله قتلًا وتقتالًا. وقتله قتلة سوءٍ، بالكسر[٥].

القتل اصطلاحًا:

إزالة الروح بفعل المتولي له[٦].

الصلة بين الموت والقتل:

الموت: ينفي الحياة مع سلامة البنية، القتل: ينفي الحياة مع انتقاض البنية[٧].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٥٣.
(٢) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٤٥٧.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٦٤.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٥٦.
(٥) الصحاح، الجوهري ٥/ ١٧٩٧.
(٦) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٦٨.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٤.

٣ الإعدام:

الإعدام لغةً:

العين والدال والميم أصل واحد يدل على فقدان الشيء وذهابه، من ذلك العدم، وعدم فلان الشيء إذا فقده، وأعدمه الله سبحانه وتعالى أي: أماته، جمعه على العدماء [(١)]، عدمت الشيء بالكسر، أعدمه عدمًا، بالتحريك على غير قياس، أي: فقدته[(٢)].

الإعدام اصطلاحًا:

هي شنق الإنسان، وقتله على فعل شنيع قام بارتكابه.

الصلة بين الموت والإعدام:

الموت وقوعه على العباد من رب العباد، الإعدام: حصوله بيد الإنسان على المذنب بمشيئة الله.

(١) انظر: مقاييس اللغة، بن فارس ٤/ ٢٤٨.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٨٢.

الأسلوب القرآني في عرض الموت

تنوعت أساليب القرآن في عرض حقائق الموت، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: حقيقة الموت والحكمة منه:

إن كنه الموت وحقيقته متعذرة معرفتها، قال الغزالي رحمه الله: «لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت؛ إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة متوقفة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها، وإدراك ماهية ذاتها»[(١)].

وقال سيد قطب رحمه الله: «إننا لا نعرف شيئًا عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة، ولكننا ندرك مظاهرهما في الأحياء والأموات، ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي نعرفها على الإطلاق، قوة الله»[(٢)].

إن كل أمر قدره الباري -جل وعلا- لابد فيه من حكمة، ظهرت أم خفيت، والموت من أعظم ما قدره الله تعالى على خلقه، فقد جعله الله تعالى فتنة للانتقال من الدنيا إلى الآخرة.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وإنما قدم الموت هنا لأنه المخلوق أولًا، أو لأن أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه[(٣)].

قال ابن كثير رحمه الله: ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم؛ ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملًا؟ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨].

فسمى الحال الأول -وهو العدم- موتًا، وسمى هذه النشأة حياة. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وعند ابن أبي حاتم عن قتادة، قال في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء)[(٤)].

ونظرًا لتعذر معرفة كنه الموت، فقد رتب أهل العلم الأحكام الشرعية المتعلقة به بظهور أماراته، قال ابن قدامة رحمه الله: «إذا اشتبه أمر الميت اعتبر بظهور أمارات الموت: من استرخاء رجليه وانفصال كفيه، وميل أنفه، وامتداد جلدة وجهه، وانخساف صدغيه»[(٥)].

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/ ٤٩٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٩٨.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٧٥.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٦٣.
(٥) المغني، ابن قدامة ٢/ ٣٠٧.

ثانيًا: الموت مصير كل حي:

إن الموت هو مصير محتوم لكل مخلوق حي، أوجده الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

فهنا يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا[(١)].

ولو نجا من الموت أحد لنجا منه أكرم البرية عند ربها محمد صلى الله عليه وسلم، ولو خلد أحد لخلد سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، لكن الله كتبه عليه فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ثم واسى الله تعالى رسوله، فأخبره بأن هذه سنته في خلقه، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤][(٢)].

وبعدها حذر المسلمين من النكوص على الأعقاب: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وكان من دعاء النبي عليه السلام: (أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون)[(٣)]. فسبحان من تفرد بالبقاء، و كتب على عباده الفناء.

إن تمني عدم ملاقاة الموت لن يجعل الإنسان في حلٍ منه بل هو ملاقيه لا محالة[(٤)].

قال الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦-٨].

ولا ينفع الهرب من الموت.

قال الله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

ولن ينفع كذلك الالتجاء منه إلى بروج مشيدة: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

والجمع هنا في كلمة (بروج) مقصود أي: لو كنتم جميعًا معتصمين ببرج، وهذا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٩٤.
(٢) القيامة الصغرى، عمر الأشقر ص١٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وهو العزيز الحكيم)، ٦/ ٢٦٨٨، رقم ٦٩٤٨.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ١٢٠.

البرج محاط بآخر وثالث ورابع، فلن يحميكم من الموت، وهذا يبين بجلاء قدرة الحق سبحانه في إنفاذ أمره بالموت[1].

ثالثًا: ندم الناس عند الموت:

كل الناس -مؤمنهم وكافرهم- سيندمون عند الموت، أما المؤمن فندمه على تفريطه في ساعة لم يذكر الله فيها، ويندم كذلك لعدم إكثاره من العمل الصالح، وعدم الحصول على الدرجات العليا من الجنة؛ ولذا أقسم الله بالنفس اللوامة فقال: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

قال مجاهد رحمه الله: «هي التي تلوم على ما فات، وتندم فتلوم نفسها على الشر لم عمله، وعلى الخير لم لم يستكثر منه»[2].

وأقسم الحسن رحمه الله على أنها نفس المؤمن[3].

أما الكافر فندمه بسبب تفريطه في جنب الله.

قال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ١٠٠ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

والمعنى: لعلي أستدرك ما ضيعت من الإيمان والطاعة[4].

ولذا فإن الإنسان يتمنى الرجوع إلى دنياه ليتوب ويرجع عما اقترفه من قبل، لكن الله تعالى بين أن التوبة والإنابة لا تنفع فقط بعد الموت، بل حتى قبل خروج الروح، ومالم يغرغر الإنسان.

قال الله: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٨][5]. قال ابن كثير رحمه الله «فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم، فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص»[6].

رابعًا: الموت كتاب مؤقت:

إن الله تعالى كتب الموت، وجعل له وقتًا لا يتقدم ولا يتأخر.

قال الله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والمعنى: سيأتي وقت محدود ينزل فيه

(١) تفسير الشعراوي ٤/ ٢٤٣٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٩٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٣٥.
(٤) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٣٤٨.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٩٠٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣٨.

عذابهم من الله أو يميتهم فيه[1].

وذكر سبحانه أنه عجل الموت على خلق وأخره على آخرين، فمنهم المستأخر والمستعجل[2].

قال الله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠].

وعند مسلم من حديث ابن مسعود: أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى أمنا أم حبيبة رضي الله عنها بعد أن دعت الله بأن يمتعها بزوجها وأبيها وأخيها، فقال: (قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئًا قبل حله، أو يؤخر شيئًا عن حله)[3].

وقد أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بآجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو أتى من الأسباب بكل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله.

قال الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقال الله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

ومع أن الله تعالى أقت للموت، إلا إنه جعل هذا الأجل مجهولًا عن صاحبه؛ ليدفعه للعمل، والاستمرار على الطاعة، والانتباه والحذر من ساعة الأجل، فقال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال قتادة رحمه الله: «أشياء استأثر الله بهن، فلم يطلع عليهن ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلًا أو نهارًا، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر؟»[4].

خامسًا: الموت بيد من بيده الحياة:

الله تعالى هو خالق الحياة والموت، وجعلهما بيده سبحانه ومن أسمائه: الحي.

قال الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٠٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٣٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، ٤/ ٢٠٥٠، رقم ٢٦٦٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٥٥.

والحي هو «الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موصوفًا، لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعترضه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء يعتورهم الموت والعدم»[(١)]، وإذا قيل في حق الله: هو حي، فالمعنى «لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إلا لله عز وجل»[(٢)].

والناظر في الآيات يجد أن الله أسند الموت وأخذ الروح إلى نفسه تارة فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وأسنده مرة إلى الملائكة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧].

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وأسنده إلى ملك الموت، فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

فمن الذي يتوفى الأنفس حقيقة؟ وهل بين هذه الآيات تعارض؟.

قال الشنقيطي رحمه الله: « والجواب عن هذا ظاهر: وهو أن إسناده التوفي إلى نفسه؛ لأن ملك الموت لا يقدر أن يقبض روح أحد إلا بإذنه ومشيئته تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وأسنده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأسنده للملائكة؛ لأن ملك الموت له أعوان من الملائكة تحت رئاسته، يفعلون بأمره وينزعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت»[(٣)].

وقيل جوابًا عليه أيضًا: إن الله تعالى هو المتوفي بخلق الموت، وأمر الوسائط بنزع الروح، والملائكة المتوفون أعوان ملك الموت وهم يجذبون من الأظفار إلى الحلقوم، وملك الموت يتناول الروح من الحلقوم، فصحت بذلك الإضافات كلها[(٤)].

(١) الأسماء والصفات، البيهقي ١/ ٦٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٧٩.
(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي ص١٨٤.
(٤) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي ص٤٠٩.

الناس والموت

من عجائب القرآن أنه ركز على قضايا خاصة في حياة الناس، وحتى في أشد الظروف مرارة وقساوة، سواء في صحة أو سقم، في مرض أو موت، أو حرب أو سلم، فردًا أو جماعة، غنيًا أو فقيرًا، فسبحان من أودع العلوم في كتابه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

يتحدث القرآن عما يعتقده ذلك الكافر عند حضور الموت، واعتقاد المؤمن كذلك، ويتحدث عن توبة الإنسان عند موته، وعن وصية الإنسان وهو على عتبة الموت، ويعطي مثالًا رائقًا رائعًا عن وصية يعقوب لأبنائه عند موته. وسيكون بحثنا -بإذن الله- عن هذه المسائل:

أولًا: اعتقاد الكافر أن الموت نهاية المطاف:

يعتقد المكذبون بالبعث أن الموت هو النهاية العظمى وهو آخر المطاف، ولا بعث بعدئذ، حيث قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٢-٨٣].

ثم اعتقدوا أن لا حياة بعد ذلك ولا نشورًا.

قال الله: ﴿بَل كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

فزاد تكذيبهم وعنادهم وقالوا: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وقد سطرت الآيات الكريمة مشهدًا يصور منطق تلك العقلية التي نشأت على التكذيب بالبعث وظلم النفس والابتعاد عن الحق.

قال الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل، ففته بيده فقال: يا محمد أيحيي الله هذا بعدما أرم؟، قال: (نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم)[1].

وقال الله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

واختلف هنا في من المقصود بالإنسان؟

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٠٢.
وصححه الوادعي، في الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٧٤.

هل هو عام، أم أنه قصد أحدًا بعينه؟. فقيل: العاص، وقيل: أبي بن خلف أو الوليد بن المغيرة[1].

وأيًا كان، فكل من كان على هذه الشاكلة فهو مقصود، والمعنى: يقول المنكر للبعث، المستبعد لوقوعه: كيف يعيدني الله حيًا بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟[2].

ولذا فإن الكافر بعد أن يعاين ما بعد الموت، يأخذ بالدعاء والتضرع بالرجوع إلى الدنيا مرة أخرى؛ ليستأنف عمله ويشرع بالحسنى، ولكن هيهات ساعتئذ.

قال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وهو من كان يقول قبل: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧].

ثانيًا: اعتقاد المؤمن أن الموت مرحلة:

وأما المؤمن، فإنه يعتقد بأن الموت ليس إلا طريقًا للدار الآخرة، وهو أول مراحلها؛ ولذا فقد أخبر الله تعالى أن مجيء الموت هو طريق لما بعده من نفخ الصور، ومجيء الشهود، ورؤية ما لم تره من قبل، فقال: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ١٩-٢٢].

إن المخاطب بهذه الآيات هو الإنسان[3]، سواء كان مؤمنًا أم كافرًا، والمؤمن يقبله كعين يقين، فلا يشك بما جاء من عند الله.

ولما كانت نفرته منه وهربه من وقوعه بحفظ الصحة ودواء الأداء في الغاية، كان كأنه لا ينفر إلا منه، فأشار إلى ذلك بتقديم الجار فقال: ﴿مِنْهُ تَحِيدُ﴾[4].

قال أبو السعود رحمه الله: «بعدما ذكر استبعادهم للبعث والجزاء وأزيح ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعلمه، وبين أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم، أتبع ذلك ببيان ما يلاقونه لا محالة من الموت والبعث، وما يتفرع عليه من الأحوال والأهوال، وقد عبر عن وقوع كل منها بصيغة الماضي إيذانًا بتحقيقها وغاية اقترابها»[5].

وذكر سبحانه أن خروج الروح ما هي إلا مساق إليه، فليس خروجها نهاية الأمر، قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾

(١) فتح البيان، صديق خان ٨/ ١٨٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٩.
(٤) نظم الدرر، البقاعي ١٨/ ٤٢٣.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٢٩.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

قال السعدي رحمه الله: «يعظ تعالى عباده بذكر حال المحتضر عند السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي: من يرقيه؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية. ولكن قضاء الله إذا حتم فلا مرد له. ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ للدنيا. ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها»[1].

ثم إن الموت إما جسر يمد للمؤمن إلى الجنة، أو جسر يمد للكافر إلى جهنم والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٥].

وبناء على ما تبين، فإن من الألفاظ التي نهى عنها أهل العلم: قول بعض الناس: (دفن فلان في مثواه الأخير)!! لأنه من المعلوم أن الموت والقبر ما هما إلا مرحلة بين الدنيا والآخرة، فبعدهما يأتي البعث ثم الحشر، ثم العرض في يوم القيامة ثم إلى جنة أو نار: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

ولذا فلو أطلقها إنسان معتقدًا ما ترمي إليه من المعنى الإلحادي الكفري المذكور؛ لكان كافرًا مرتدًا فيجب إنكار إطلاقها، وعدم استعمالها[2].

ثالثًا: التوبة عند الموت:

التوبة: مأخوذة من (توب)، والتاء والواو والباء: أصل يدل على الرجوع[3]. وتاب إلى الله تعالى من كذا وعن كذا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة[4]. والتوبة النصوح: هي توثيق العزم على أن لا يعود[5].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٠٠.

(٢) المناهي اللفظية، بكر أبو زيد ٤٧٦.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٥٧.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٣٣.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢١٣.

والتوبة هي ترك الذنب مخافة الله، واستشعار قبحه، وندم على المعصية من حيث هي معصية، والعزيمة على ألا يعود إليها إذا قدر عليها، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال[1]. وحقيقتها ليست فقط ترك الذنب، بل لابد فيها من التزام بأمر الله.

وقد أتت التوبة في القرآن على ثلاثة أوجه[2]:

أولًا: بمعنى الندم: كقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

ثانيًا: بمعنى التجاوز: كقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧].

ثالثًا: بمعنى الرجوع عن الشيء: كقول موسى عليه السلام: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد أمر الله عباده بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

وبشرهم بقبولها بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

وفتح لهم باب الرجاء، بعفوه عنهم ومغفرته لهم، فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولذا كان واجبًا على الخلق أن يبادروا بالتوبة إلى الله، بل واتفقت الأمة على ذلك[3]، فإن فعلوا فقد أوجب الله على نفسه قبولها منهم في وقتها، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

وحتى تكون توبة العبد مقبولة عند الله، لابد وأن تكون في وقتها، ووقتها الذي قدره الله موسع، وهو من وقوع الذنب إلى ما قبل حضور الموت.

قال الله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

يعني بذلك -جل ثناؤه-: وليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله حتى إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاين ملائكة ربه قد أقبلوا إليه لقبض روحه، ثم قال: وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه، بشغله بكرب حشرجته وغرغرته: ﴿إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾

(١) التوبة إلى الله، صالح السدلان ص١٠.
(٢) قاموس القرآن، الدامغاني ص٩٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٩٠.

يقول: فليس لهذا عند الله توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة[1].

وذكر هذا النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إن الله عز وجل ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[2]، وقوله: (ما لم يغرغر) أي: ما لم تبلغ روحه حلقومه[3].

ووقتها كذلك إلى ما قبل رؤية العذاب أو بعض علامات الساعة.

قال الله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وجمهور المفسرين على أن المقصود بقوله: ﴿يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: طلوع الشمس من مغربها[4].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾). ثم قرأ الآية[5].

رابعًا: الوصية عند الموت:

الوصية في اللغة: أخذت هذه اللفظة من وصيت الشيء إذا أوصلته[6].

أما شرعًا فتعني: تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريقة التبرع[7].

والوصية مشروعة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة:

أما بالكتاب فلورود الآيات الكثيرة التي دلت على مشروعيتها.

قال الله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده). قال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلا وعندي وصيتي[8].

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٩٨-٩٩.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٤٧، رقم ٣٥٣٧.
قال الترمذي: حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٨٦، رقم ١٩٠٣.
(٣) قوت المغتذي على جامع الترمذي، السيوطي ٢/ ٩٥٥، رقم ٣٥٣٧.
(٤) فتح البيان، صديق خان ٤/ ٢٨٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (لا ينفع نفسًا إيمانها)، ٦/ ٥٨، رقم ٤٦٣٥.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٩٤.
(٧) حاشية ابن عابدين ٦/ ٦٤٧.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب الوصايا، ٣/ ١٠٠٥، رقم ٢٥٨٧.

ونقل ابن قدامة رحمه الله الإجماع على مشروعيتها[1].

قال ابن عبد البر -رحمه الله: «أجمعوا على أن الوصية غير واجبة، إلا على من عليه حقوق بغير بينة، وأمانة بغير إشهاد، إلا طائفة شذت فأوجبتها»[2].

يخبرنا القرآن عن ذلك المشهد المؤثر بين يعقوب عليه السلام عندما حضرته الوفاة وأبنائه، ولنا أن نتخيل هذا المشهد بصورته المعهودة: أب مضطجع ومسجى في غطائه يكابد الموت، وأبناء حوله جلوس يرقبونه، ويتألمون لفراقه، عند ذلك يترك يعقوب الحديث عن الألم والفراق وينظر إلى ما هو أجل وأكمل.

ويسوق القرآن لنا هذا الحوار بين يعقوب وبنيه داعيا إلى تأمل الحوار.

قال الله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢ - ١٣٣].

والكلمة التي وصى بها إبراهيم بنيه هي التي قال الله عنها: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨][3]، قال الطبري: «هي قوله: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١][4]. قال ابن كثير: «وقد قرأ بعض السلف (ويعقوب) بالنصب عطفًا على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرا ذلك»، ثم قال: «والظاهر -والله أعلم-، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة»[5].

وكيف ينهاهم يعقوب عن الموت وليس الموت إليهم، فيصح أن ينهوا عنه؟.

والجواب: «أنهم لم ينهوا عن الموت، وإن كان اللفظ على ذلك، وإنما نهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام؛ لئلا يصادفهم الموت عليه، فإنه لابد منه. وتقديره: اثبتوا على الإسلام؛ لئلا يصادفكم الموت وأنتم على غيره»[6].

بعدها يبين الله مشهد يعقوب مع أبنائه الذين حضروا موته؛ ليوصيهم وصية مودع، لكنها على سبيل الاختبار، فلما سألهم أجابوه بما أطمأنت إليه نفسه، وقرت به عينه، بأنهم على دين التوحيد وأنهم لن يشركوا به، وسيعملون بما اعتقدوه ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

(١) المغني، ابن قدامة ٦/ ١٣٧.
(٢) المجموع، النووي ١٥/ ٤٠١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٩٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤٦.
(٦) النكت في القرآن الكريم، المجاشعي ص١٥٤.

فجمعوا بذلك بين العلم والعمل [1].

وبالرغم من كل ما قام به إخوة يوسف من جرائم إلا إنهم تمسكوا بدينهم. والحقيقة أن هذه أعظم الوصايا وأرفعها قدرًا وأعلاها شأنًا، كيف لا وهي مختصة بأرفع الأمور وهو توحيد الله، والبعد عن الشرك.

والموضع الآخر الذي ذكر الوصية عند الموت هو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٠-١٨١].

ومعنى الآية: فرض عليكم إذا حضرت لأحدكم مقدمات الموت وأسبابه وعلله، إن ترك مالًا أن يوصي للوالدين والأقارب، وهذا واجب على كل من يتقي الله[2].

قال السعدي رحمه الله: «واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث»[3]. «وليعلم أن الله لا يتعبد في وقت من الأوقات إلا بما فيه الحكمة البالغة»[4].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع»[5].

وأما الموضع الثالث فهو قول الله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ وفي الآية: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١].

والآية التي تليها مباشرة ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، ثم: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، ثم: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١٢].

وهذه الآيات تبين أن الوصية أو الدين مقدمان على قسمة الميراث؛ لأن الدين حق على الميت والوصية حق له، وإذا كان الدين والوصية قد وقعا معا فيقدم الدين على الوصية[6].

والموضع الأخير هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٥.
(٤) معاني القرآن، الزجاج ١/ ٢٥٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، ٣/ ١٠٠٨، رقم ٢٥٩٦.
(٦) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٦٥٩.

﴿لَمِنَ ٱلْأَثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاما[١] من فضة مخوصًا من ذهب، فأحلفهما رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ثم وجدوا الجام بمكة، فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلفا لشهادتنا أحق من شهادتهما، وأن الجام لصاحبهم. قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المائدة: ١٠٦][٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «الأكثرون على أن هذه الآية محكمة، وليس فيها نسخ، ومن ادعى النسخ فعليه البيان»[٣].

ومعنى الآيات يا أيها المؤمنون: إذا قرب الموت من أحدكم، فليشهد على وصيته اثنين أمينين من المسلمين، أو آخرين من غير المسلمين عند عدم وجود غيرهما من المسلمين، تشهدونهما إن أنتم سافرتم في الأرض فحل بكم الموت، وإن ارتبتم في شهادتهما فقفوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بالله قسمًا خالصًا لا يأخذان به عوضًا من الدنيا، ولا يحابيان به ذا قرابة منهما، ولا يكتمان به شهادة لله عندهما، وأنهما إن فعلا ذلك فهما من المذنبين[٤].

ويمكن أن يستدل بهذه الآية الكريمة على عدة أحكام[٥]:

أولًا: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي.

ثانيًا: تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ثالثًا: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتًا.

رابعًا: أن شهادة الوصية لابد فيها من اثنين عدلين.

خامسًا: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة.

خامسًا: وقوع موت ثم حياة في الدنيا:

لما حصل إنكار من بعض البشر على قدرة الله في بعث الخلائق يوم القيامة، أعطى الله بعض الإشارات الواقعة في الدنيا؛ لتدل على صدق وقوعه في الآخرة، فأبانه الله حقيقة مشاهدة في أكثر من موطن،

(١) الجام: الكأس أو الإناء. ومخوصًا أي: منقوشًا.
انظر: فتح الباري،ابن حجر ٥/ ٤١٠-٤١١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، ٤/ ١٣، رقم ٢٧٨٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢١٥.
(٤) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص١٢٥.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٦.

فأحيا بعض البشر، ومن قدر على هذا في الدنيا، هان عليه الأمر بعد.

وقد ذكرت سورة البقرة وحدها أمثلة متعددة على وقوع الموت ثم الحياة في الدنيا، وبيانه:

١. أول القصص في ذكر الإحياء صراحة في الدنيا، هي عندما طلب قوم موسى منه، أن يريهم الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة. قال الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

٢. بعدها تأتي القصة الثانية التي صرحت بالإحياء في الدنيا، وهي قصة بقرة بني إسرائيل، التي أمرهم الله أن يذبحوها؛ كي يكشفوا جريمة القتل. قال الله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]. ثم يأتي التصريح بأن الشهداء أحياء عند الله، وليسوا بأموات، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

٣. ثم يصرح الله تعالى بالإحياء في قصة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

٤. ثم قصة الذي مر على قرية ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

٥. فطلب إبراهيم من ربه أن يريه كيفية الإحياء، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الموت والآخرة

أخبر القرآن أن لا موت في الآخرة، وإنما هو خلود في الجنة أو النار، وسنوضح هذا المعنى فيما يأتي:

أولًا: حال الموت في الآخرة:

بعد كل هذا يبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم نهاية الموت يوم القيامة وانتهاء أمره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ (وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا) ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩])[١].

والمعنى من قوله عليه السلام: أن الموت سيجسد كهيئة كبش مختلط سواده ببياضه، وعندما ينادى الفريقان، سيرفعون أعناقهم ويمدونها للاطلاع على ما سيحدث من ذبح للموت.

وقول الله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأنذرهم يوم القيامة، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها، بذبح الموت. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهؤلاء المشركون في غفلة عما الله فاعل بهم يوم يأتونه خارجين إليه من قبورهم، من تخليده إياهم في جهنم، وتوريثه مساكنهم من الجنة غيرهم. ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم لا يصدقون بالقيامة والبعث، ومجازاة الله إياهم على سيئ أعمالهم، بما أخبر أنه مجازيهم به[٢].

والحكمة من الإتيان بالموت هكذا: إشارة إلى أنهم حصل لهم الفداء له كما فدي ولد إبراهيم بالكبش. والحكمة في جعله كبشًا أملح: حتى يجمع بين صفتي أهل الجنة والنار: وهي السواد والبياض[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعاينة الفريقين حقيقة لا خيال ولا تمثيل، كما أخطأ فيه بعض الناس، وقال: الموت عرض، والعرض لا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة مريم، ٤/ ١٧٦٠، رقم ٤٤٥٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٠١-٢٠٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٤٢٠.

يتجسم فضلًا عن أن يذبح!. وهذا لا يصح؛ فإن الله سبحانه ينشئ من الموت صورة كبش يذبح، كما ينشئ من الأعمال صورًا معاينة يثاب بها ويعاقب...، ولا حاجة إلى تكلف من قال: إن الذبح لملك الموت!. فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله، والتأويل الباطل الذي لا يوجبه عقل ولا نقل»[(١)].

والحقيقة أن الله تعالى لا يعجزه شيء، وليس هذا بعزيز عليه، فهو قادر سبحانه أن ينشئ جسمًا من عرض، وأمثلته كثيرة في القرآن والسنة، ومنها:

جعل البقرة وآل عمران كالغمامتين[(٢)]، والتسبيح والتحميد الذي يتعاطف حول العرش[(٣)]، وتصوير العمل الصالح والسيئ في القبر[(٤)].

وبعد ذبح الموت بهذه الصورة، لك أن تتصور ذلك المشهد المهيب، وحالة كل من الفريقين: فريق في شقاء وتعاسة دائمين لا ينقطعان، وفريق في سعادة وحبور أبدي لا ينقطعان، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣])[(٥)].

ثانيًا: لا موت في الآخرة:

إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وذبح الموت بينهما، فإنه لا موت بعدئذ، فأهل الجنة خلود فلا موت، وأهل النار خلود فلا موت.

وقد ساقت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الصورة العامة حيال هذا الخلود، ومعظم الآيات ساقت الكلام عن أصحاب النار.

قال الله في شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر: ٣٦].

لذا فعذاب الدنيا إما أن تموت عنه، أو يموت عنك، أو يألفه البدن المعذب. أما عذاب الآخرة فلن تموت عنه، ولن

(١) حادي الأرواح، ابن القيم ص٤٠٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، ١ / ٥٥٣، رقم ٨٠٤.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٣١٢، رقم ١٨٣٦٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، ٨/ ١٤٨، رقم ٧٢٥٩.

يفنى عنك، ولن يألفه البدن؛ لأنه يلون ولا يخفف. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

ويصور لنا القرآن ذلك المشهد النفسي الذي يعيشه الكافر في النار، حتى أنه يرى الموت يحيط به ويأتيه من كل مكان فيها، لكنه لن يذوقه.

قال الله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥- ١٧].

والحقيقة أن المشهد هنا عجيب، «إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد، مشهد الخيبة في هذه الأرض. ولكنه يقف هذا الموقف، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم، يسقاه بعنف فيتجرعه غصبًا وكرهًا، ولا يكاد يسيغه؛ لقذارته ومرارته. والتقزز والتكره باديان، نكاد نلمحهما من خلال الكلمات!. ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنه لا يموت؛ ليستكمل عذابه. ومن ورائه عذاب غليظ»[1].

ولننظر هنا إلى كلمة (غليظ)، كم تعطي من دلالات مروعة لهذا المشهد المهيب، وأغلب ورود هذه الكلمة في القرآن في شأن العذاب أو الميثاق؛ لشدة وغلظ الأمرين، وأتت الكلمة كذلك مع قتال الكفار؛ ليجد هؤلاء الغلظة والعذاب الأليم من الثلة المؤمنة المجاهدة التي عقدت المواثيق بقتالهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ولذلك لو أن الموت يقدم إلى هذا المعذب في هذه اللحظات العصيبة، لكان أخف وطأة، ولكنه يراه يحوم حوله بأسبابه ودوافعه ودواعيه، دون أن يصيبه.

وبعد كل هذه الآلام والعذابات التي يتعرض لها هذا العنيد، يجد لنفسه مخرجًا من هذا البلاء، وهو أن يطلب من مالك -خازن النار- أن يشفع لهم عند الله، بأن يقضي عليهم.

قال الله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وإن قيل: كيف وصف أهل النار فيها بأنهم مبلسون؟، والبلس: هو الآيس من الرحمة والفرج[2]، ثم قال بعدها: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ الدال على طلبهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٣٠.

الفرج بالموت؟ فيجاب عنه: بأن كل منهما وقع في زمن؛ لأن أزمنة يوم القيامة متعددة[1].

وهنا أتى بالفعل الماضي ﴿وَنَادَوْا﴾ لتحقق وقوعه، وقولهم: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ هو خازن النار، وقد وردت أحاديث صحيحة في ذلك، منها: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت الليلة رجلين أتياني قالا: الذي يوقد النار مالك خازن النار، وأنا جبريل وهذا ميكائيل)[2].

قال صديق خان: «قرأ الجمهور: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ بغير الترخيم، وقرىء: (يا مال) بالترخيم، قيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: (يا مال)، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم»[3].

قال الطبري رحمه الله: «ونادى هؤلاء المجرمون بعد ما أدخلهم الله جهنم، فنالهم فيها من البلاء ما نالهم، مالكًا خازن جهنم، ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: ليمتنا ربك، فيفرغ من إماتتنا، فذكر أن مالكًا لا يجيبهم في وقت قيلهم له ذلك»[4].

(١) فتح الرحمن، ابن جماعة ص٥١٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، ٣/ ١١٨٢، رقم ٣٠٦٤.
(٣) فتح البيان، صديق خان ١٢/ ٣٧٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦٤٠.

وروى الطبري كذلك بسنده قال: «﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: فخلى عنهم أربعين عامًا لا يجيبهم، ثم أجابهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فخلى عنهم مثلي الدنيا، ثم أجابهم: ﴿قَالَ اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: فوالله ما نبس القوم بعد الكلمة، إن كان إلا الزفير والشهيق»[5].

ويكفي الإشارة إلى باقي الآيات التي نفت موت الكفار في النار، وهي قوله تعالى على لسان السحرة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠- ١٣].

أما في شأن المؤمنين يوم القيامة ونفي الموت عنهم، فقد قال الله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥٥-٥٧].

والمعنى: أنهم لا يذوقون فيها الموت ألبتة، سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا[6].

(٥) المصدر السابق ٢١/ ٦٤٥.
(٦) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٢٩.

وعلى هذا كيف يستثني الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا من الموت الذي لن يحدث لهم في الجنة؟. والجواب على هذا من وجوه:

الأول: هو من باب التعليق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل، فإنهم يذوقونها[1].

الثاني: أن (إلا) هنا: بمعنى (لكن)، والتقدير: لا يذوقون فيها الموت، لكن الموتة الأولى قد ذاقوها.

الثالث: أن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى وبطاعته ومحبته، وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان الذي فاز بهذه السعادة فهو في الدنيا في الجنة وفي الآخرة أيضًا في الجنة، وإذا كان الأمر كذلك فقد وقعت الموتة الأولى، حين كان الإنسان في الجنة الحقيقية التي هي جنة المعرفة بالله والمحبة.

الرابع: أن من جرب شيئًا ووقف عليه صح أن يقال: إنه ذاقه، فيكون المعنى هنا: إلا الذوق الحاصل بسبب تذكر الموتة الأولى[2].

ثم كيف يوجه قول الله تعالى عن أهل النار وأهل الجنة أنهم خالدون فيها إلا ما شاء الله.

قال الله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ وقال في شأن أهل الجنة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

فهل إيراد المشيئة هنا يدل على أنهم غير مخلدين فيها؟.

أجاب ابن قتيبة رحمه الله عن هذا الإشكال على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أراد أنهم خالدون فيها مدة العالم، سوى ما شاء الله أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم. ثم قال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. أي: غير مقطوع.

الوجه الثاني: أن يكون المعنى: خالدين في الجنة وخالدين في النار دوام السماء والأرض، إلا ما شاء ربك من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك.

الوجه الثالث: أن يكون المعنى: خالدين في النار ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من إخراج المذنبين من المسلمين إلى الجنة، وخالدين في الجنة ما دامت

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٨٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٦٦.

السموات والأرض، إلا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النار مدة من المدد، ثم يصيرون إلى الجنة[1].

موضوعات ذات صلة:

الإهلاك، البعث، الحذر، الحياة، الخلق، الخوف، القبر، القتل، الملائكة، اليوم الآخر

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص٥٣.

موسى عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بموسى عليه السلام	٨
ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم	١٢
صفاته وأخلاقه عليه السلام	١٣
موسى عليه السلام قبل النبوة	١٨
تكليف موسى عليه السلام بالنبوة	٢٧
دعوته عليه السلام لفرعون وقومه	٣١
آيات موسى عليه السلام ومعجزاته	٣٩
موسى عليه السلام والسحرة	٤٢
نجاة موسى عليه السلام ومن معه	٤٦
موسى عليه السلام ورؤية ربه	٥١
موسى عليه السلام والعبد الصالح	٥٨
الدروس المستفادة من قصة موسى	٦٣

المجلد الثاني والثلاثون

التعريف بموسى عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه عليه السلام:

لم يذكر القرآن شيئًا عن نسب نبي الله موسى عليه السلام ولا عن والده أو والدته، لكن ذكر في غير موضع بالقرآن الكريم أن موسى أخٌ لهارون عليه السلام وقد توهم البعض كالقرطبي[1] أنهما أخوان للسيدة العذراء مريم، لقوله عز وجل على لسان بني إسرائيل: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم:٢٨]، ولتشابه اسمي أبي موسى وأبي مريم، فكلاهما اسمه (عمران).

والحقيقة أن التباعد الزمني بين موسى وعيسى عليه السلام أمرٌ ثابت بالقرآن الكريم، يقول الله عز وجل في قصة داود: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة:٢٤٦].

فداود عليه السلام كان بين موسى وعيسى عليه السلام.

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

ليس في القرآن الكريم ما يمكن من خلاله تحديد الفترة الزمنية التي ولد فيها نبي الله موسى عليه السلام بدقة، لكن الثابت في القرآن أن مبعثه كان سابقًا على نبي الله داود عليه السلام، وتحدثت بعض الآيات القرآنية عن جانب من الزمن الذي ولد فيه، حيث عاش بنو إسرائيل فترة طويلة في ظل الاضطهاد الفرعوني بسببٍ من تأييدهم للغزاة الهكسوس الذين حكموا مصر وتآمرهم على المصريين، واستحقارهم لعبادة المصريين، فضلا عن عقيدتهم بأنهم شعب الله المختار[2].

وبلغ بهم التنكيل أن أصدر فرعون قرارًا يقضي بذبح أبناء الإسرائيليين واستحياء نسائهم وتسخيرهم في أعمال الخدمة الشاقة، وفي سورة القصص بعض التفصيل لمعاناتهم في هذه الفترة العصيبة من تاريخ بني إسرائيل.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٠١.
(٢) الدين وحاجة الإنسانية إليه عبر الرسالات الإلهية، محمود مزروعة، ص ١٤٦- ١٤٧.

يقول تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص:٣-٦].

ونطالع في السورة الثانية من الكتاب الكريم تذكير المولى جل جلاله لبني إسرائيل بإنجائهم من هذا الاضطهاد ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾ [البقرة:٤٩].

ومثلها: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف:١٤١].

وقد روى الطبري عن ابن إسحاق قوله: «كان فرعون يعذب بني إسرائيل فيجعلهم خدمًا وخولًا، وصنفهم في أعماله، فصنفٌ يبنون، وصنفٌ يحرثون، وصنفٌ يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله: فعليه الجزية -فسامهم- كما قال الله عز وجل سوء العذاب»[1].

وروي أن فرعون كان قد رأى رؤيا هالته؛ رأى نارًا خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة...فعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأراذلها[2].

ولذلك كان وصف القرآن الكريم لهم ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧].

ومنَّ الله جلَّ جلالُه على بني إسرائيل بالنجاة في غير موضع بالقرآن، من مثل قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ [طه:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝٣٠﴾ [الدخان:٣٠].

ليس هذا فحسب؛ ففي موضع آخر يذكر نبي الله موسى عليه السلام بني إسرائيل بنعمة الله السابغة عليهم بأن كتب لهم النجاة من السخرة التي عاشوا فيها أمدًا بعيدًا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٣٨٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ١١٦ بتصرف.

﴿ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم:٦].

ثالثًا: مكانته:

نص القرآن الكريم في أكثر من آية على مكانة موسى الكليم عليه السلام بين الأنبياء، وأشار إلى عظم هذه المكانة؛ فقال تعالى مجملا هذه المناقب ومبينًا هذه المكانة: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

والوجيه هو صاحب المكانة والمنزلة الرفيعة[(١)].

ومن أكثر الآيات تأكيدًا على هذه المكانة العظيمة قول الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم:٥١-٥٣].

ويمكننا إيجاز بعض مناقبه عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم على النحو التالي:

أولًا: أنه كان (مخلصًا) لقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم:٥١] أي أن الله تعالى اصطفاه واستخلصه.

ثانيًا: جمعه بين الرسالة والنبوة عند من فرق بينهما لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٥١][(٢)].

ثالثًا: تكليم الله جل جلاله له، لقوله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

رابعًا: علو مكانته، لقوله عز وجل: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

وفيه رأيان: «قرب المكان»، وقيل: «قرب المنزلة»[(٣)]، وسواء أكان هذا أم ذاك فإنما يدل على علو مكانته عليه السلام.

خامسًا: اصطفاء الله تعالى له، وذلك لقوله ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤].

ولقوله سبحانه: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾ [طه:١٣].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٠١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٨٦.

(٢) قال فخر الدين الرازي «ولا شك أنهما وصفان مختلفان»، انظر: مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٤٨.

(٣) يقول ابن عطية: «قال الجمهور هو تقريب التشريف بالكلام والنبوءة، وقال ابن عباس: بل أدني موسى من الملكوت ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام، وقاله ميسرة، وقال سعيد: أردفه جبريل، و«النجي»، فعيل من المناجاة وهي المسارة بالقول، وقال قتادة: نجيًا معناه نجا بصدقة» المحرر الوجيز ٤/ ٢٠.

سادسًا: إلقاء محبة الله عليه: ودليل ذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩].

سابعًا: كونه من أولي العزم من الرسل: فجل المفسرين أن موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ثامنًا: مكانته في الإسلام: (كان النبي صلى الله عليه وسلم حفيًا به، فحين قدم المدينة مهاجرًا، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء؛ فسألهم: ما هذا؟! قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم؛ فصامه موسى. قال صلى الله عليه وسلم: (فأنا أحق بموسى منكم)؛ فصامه وأمر بصيامه)[1]، وفي رواية أخرى: (نحن أولى بموسى منكم)[2].

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيله على موسى الكليم لما له من منزلة عند ربه تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (استب رجلان، رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود، قال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم المسلم، فسأله عن ذلك، فأخبره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطشٌ جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله)[3].

على أن تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام لخير دليل على مكانته العالية الرفيعة عند ربه وبين خلقه، وهو الأمر الذي نص عليه القرآن في أكثر من موضع، وأكده الله تعالى تأكيدًا في قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، رقم ١٨٧٤، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ١٩١٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة، رقم ٢٢٤٥.

ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم (١٣٦) مرة في (٣٤) سورة.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	٥١-٦١، ٦٧-٧١
المائدة	٢٠-٢٥
الأعراف	١,٣-١٥٩، ١٥٥-١٦٠
يونس	٧٥-٨٩
هود	٩٦-٩٧
إبراهيم	٥-٩
الإسراء	١٠١-١٠٤
الكهف	٦٠-٨٢
مريم	٥١-٥٣
طه	٩-٩٨
المؤمنون	٤٥-٤٩
الفرقان	٣٥-٣٦
الشعراء	١٠-٦٨
النمل	٧-١٤
القصص	٣-٤٨
الصافات	١١٤-١٢٢
غافر	٢٣-٢٧
الزخرف	٤٦-٥٦
الذاريات	٣٨-٤٠
النازعات	١٥-٢٥

صفاته وأخلاقه عليه السلام

أولًا: صفاته الخَلْقية:

ليس في القرآن ما يدل على شيء من أوصاف موسى عليه السلام الخلقية، سوى آية تشير إلى قوته البدنية التي ميزته.

يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص:١٥].

وأورد ابن إسحاق ما يفيد قوة موسى عليه السلام وبسطته، يقول: «وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق، وشدة في البطش؛ فغضب بعدوهما فنازعه (فوكزه موسى) وكزة قتله منها وهو لا يريد قتله»[(١)].

وفي السنة النبوية عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (وأما موسى فآدمٌ جسيمٌ سبطٌ كأنه من رجال الزط)[(٢)]، وفي حديث آخر لابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت ليلة أسري بي موسى رجلًا آدم طوالًا جعدًا)[(٣)]، وفي حديثٍ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان: (رجل الرأس)[(٤)].

ثانيًا: صفاته الخلقية:

١. المروءة.

تتجلى هذه الصفة في عدة مواطن، منها ما حدث مع الرجل الذي من شيعته حين استنصره على المصري.

يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٠.
وقد اختلف المفسرون في معنى الوكز، فقيل: «الدفع بأطراف الأصابع، وقيل بجمع الكف». مفاتيح الغيب ٢٤/ ٢٠٠، «فوكز أي فطعن ودفع بيده العدو، وهو رجل لم يعط أحد من أهل ذلك الزمان مثل ما أعطي من القوى الذاتية والمعنوية». نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٢٥٦، وقيل إن «الوكز واللكز واللهز واللهد بمعنًى واحدٍ، وهو الضرب بجمع الكف» الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود، رقم ٣٢٠٧.
قال ابن حجر: وهم قومٌ غير غلاظ معروفون بالطول والأدمة. فتح الباري ٦/ ٤٢٩، ٦/ ٤٨٤، والأدمة هي السمرة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٠١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث ابن عباس، رقم ٢٤٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، رقم ٣٢٠٦. ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، من حديث أبي هريرة أيضًا، رقم ٢٥٠.

شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص:١٥].

فمروءة موسى عليه السلام منعته من تجاهل استغاثة رجل من بني قومه، ورغم أنه عليه السلام ندم فيما بعد على تسرعه وانفعاله الذي أدى إلى قتل المصري؛ إلا أنه كان دليلا على مروءته وشهامته.

وفي قصة البنتين اللتين سقى لهما دليل على مروءته؛ فلم يستطع عليه السلام أن يتجاوز أزمتهما، أو يتخلى عن معونتهما، كما تجلت مروءته في عدم انتظار الأجر من أحد ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص:٢٤].

وكانت هذه المروءة أحد الأسباب لأن يخطبه الرجل لابنته.

٢. الوفاء بالوعد.

جرى اتفاق بين الشيخ الكبير وموسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص:٢٧-٢٨].

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص:٢٩].

والشاهد أن موسى عليه السلام قد أوفى بعهده مع الشيخ.

٣. قوة الحجة والمنطق.

يقدم لنا القرآن في أكثر من موضع حوارات موسى عليه السلام مع فرعون، وفيها دليل على قوة حجته ومنطقه، ولنا أن نتمثل في ذلك حواره مع فرعون الذي سأله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه:٥١]؛ فجاءت إجابته شافية كافية: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه:٥٢-٥٤].

فقد استخدم عليه السلام مفردات البيئة التي يعيش فيها (الأرض، السماء، المطر، النبات، الأنعام) ليقرب الصورة للمخاطبين (فرعون وملأه) وهذا أوقع في تعجزيهم وإقامة الحجة عليهم، وبلغ به التحدي مداه عندما قال له فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩].

فجاء رده منطقيًا: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ

﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١﴾ [الشعراء:٣٠-٣١].

فألزم فرعون الحجة وتحداه في يوم يجتمع فيه الناس ليشاهدوا بأعينهم.

٤. اللجوء إلى الله واليقين به.

من يطالع قصة موسى عليه السلام يعرف مدى تعلق قلبه بخالقه تعالى، فإليه يكل أمره يستنصره على أعدائه، ويطلب منه النجدة والمعونة، وتكشف هذه الآيات عن جانبٍ كبيرٍ من هذا التضرع.

يقول عز وجل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ [يونس:٨٤-٨٩].

فقد طالب قومه بالتوكل على الله، ثم دعا ربه تعالى أن يعذب فرعون وقومه بسبب تكبرهم وتكذيبهم.

وتنقل لنا الآيات صورة حية من تضرعه إلى الله تعالى واستعانته به في قوله جل جلاله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۝١٥٥ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٦].

وقد تجلى تعلق موسى عليه السلام بربه حتى في أشد المواقف وأكثرها ضيقًا وكربًا، فعندما هرب وأتباعه من فرعون؛ أدركهم وجنوده عند البحر؛ فدب الخوف في قلوب أصحاب موسى وظنوا أنهم أحيط بهم، لكنه عليه السلام صاح وكله ثقة في ربه وخالقه: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء:٦٢].

٥. حب الله والاستئناس به.

توضح لنا الآيات الكريمة كيف كان موسى عليه السلام كثير الأنس بربه جل جلاله، وينقل لنا القرآن كيف أسهب في الحديث مع مولاه عندما سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٧].

وهو سؤال كما قيل: «ليؤنسه ويبسطه بالكلام»[1]، ويستوجب إجابة بكلمة واحدة (عصا) أو كلمتين نحو (هذه عصا)؛ لكن موسى عليه السلام وجدها فرصة فأفاض

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٧.

في القول ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه:١٨].

لقد استرسل موسى عليه السلام كما يقول البقاعي: «مستأنسًا بلذيذ المخاطبة قوله بيانًا لمنافعها خوفًا من الأمر بإلقائها كالنعل، أي: أعتمد وأرتفق وأتمكن إذا أعييت، أو عرض لي ما يحوجني إلى ذلك من زلق أو هبوط أو صعود أو طفرة أو ظلام ونحو ذلك؛ ثم ثني بعد مصلحة نفسه بأمر رعيته فقال: ﴿وَأَهُشُّ﴾ أي أخبط الورق»[1].

وبلغ هذا الاستئناس ذروته عندما طلب موسى عليه السلام من ربه عز وجل أن يراه، وهو طلب عجيب ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣].

٦. التواضع والحرص على التعلم.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن: (موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعَتِبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبدٌ بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: أي رب ومن لي به؟ وربما قال سفيان: أي رب وكيف لي به قال تأخذ حوتًا فتجعله في مكتلٍ حيثما فقدت الحوت فهو ثم...)[2].

فاصطحب غلامه يوشع بن نون ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:٦٥-٧٠].

تقدم لنا الآيات السابقة جانبًا من تواضع موسى بن عمران عليه السلام بداية من التماسه العلم من العبد الصالح ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، وهي عبارة تشير إلى خفض الجناح من جانبه، ووضع نفسه في موضع المريد من شيخه، وكذا نزوله على شروط المعلم لصحبته، وفي هذا درس بالغ لكل طلاب العلم على النحو الذي ستظهره هذه الدراسة في مبحث مستقل.

٧. النهي عن المنكر.

رغم الوعد الذي وعده موسى عليه السلام للعبد الصالح بأن يصبر على صحبته ولا يكثر من سؤالاته إلا أنه لم يطق صبرًا بعدما رآه يخرق السفينة: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ

(١) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث العبد الصالح مع موسى عليه السلام، رقم ٣٢٢٠.

﴿إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧١-٧٣].

وقتل الغلام: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٤-٧٦].

وإقامة الجدار: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف:٧٧].

فلم يترك موسى عليه السلام فرصة إلا نهى فيها -عما رآه منكرًا- قبل أن يتبين له الأمر، ومما عابه القرآن على بني إسرائيل في غير موضع عدم نهيهم عن المنكر لأنهم ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٩].

٨. قوة الإرادة.

وقد أسهم في اكتسابه هذه الإرادة الصلبة كثرة المحن والتجارب التي مر بها منذ كان رضيعًا وضعته أمه في الصندوق، وقبل ذلك من يقينه الذي لا يفتر بربه تعالى، فعندما ناشد قومه قائلا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة:٢١-٢٢].

لقد راعتهم قوة أعدائهم الجبارين، ونسوا أن النصر ليس بالكثرة ولا بالعتاد؛ وتناسوا وصية موسى عليه السلام لهم ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤].

وقد أورد القرطبي أن بني إسرائيل عندما امتنعوا عن الجهاد، عوقبوا بالتيه أربعين سنة، إلى أن مات أولئك العصاة ونشأ أولادهم، فقاتلوا الجبارين وغلبوهم[(١)].

وعندما ذهب لملاقاة العبد الصالح قال لفتاه يوشع بن نون: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠].

أي: لا أزال أسير حتى أبلغ المكان الموعود ولو سرت في سبيله أزمانًا طويلة، وذلك منبئ عن دأبه وارتفاع همته.

هذه هي بعض صفات نبي الله موسى عليه السلام التي نص عليها القرآن الكريم في كثير من المواضع، وهي صفات بشرية، وليست من الخوارق التي لا يدركها الإنسان مهما سعى إليها واجتهد، وفي ثنايا

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٢٦.

هذه الدراسة إشارات إلى صفات أخرى ستتناولها في حينها، وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد!!

موسى عليه السلام قبل النبوة

أولًا: نشأة موسى عليه السلام:

في ظروف بالغة القسوة، ولد الطفل موسى عليه السلام في قوم مهانين مستباحي الكرامة، فالرجال سخرهم فرعون الطاغية في أدنى الأعمال وأشقها يسومهم سوء العذاب، والنساء منتهكة الحرمات، وعندما أدرك المخاض أم موسى زادها كربًا إلى كربها، وغمًا على غمها، فمصير الطفل مهدد كغيره من أطفال بني إسرائيل الذكور الذين لم ينجوا من آلة القتل الغاشمة خوفًا على ملك فرعون وجاهه العريض من الضياع بعد نبوءة أو رؤية، على خلافٍ بين المفسرين وكذلك بين المؤرخين[1]، وهو ما جعل الأم تضرع إلى ربها أن ينقذ وليدها من المصير المألوف آنذاك.

يصور القرآن الكريم كيف أراد تعالى لموسى عليه السلام شيئًا آخر غير مجرد الحياة التي هي أقصى ما تصبو إليه الأم الملتاعة، بل كل أمٍ في هذا الزمان؛ ولا عجب؛ فقد صنعه عز وجل لنفسه وعلى عينه، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم، فقوله جل جلاله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩].

(١) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦، الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٤٨، تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٨٧، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٣١.

منبئٌ بأن تربية الصغير ستكون لدنيةً بعنايته عز وجل بما يليق برسالته والمهمة التي ستلقى على عاتقه.

يقول الزمخشري: «لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به»[(١)].

والكلام هنا كما قال الطاهر ابن عاشور «تمثيلٌ لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئًا لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه»[(٢)].

ولأن ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج:٧٥].

فقد كان من الضروري رعايته لأنبيائه وأصفيائه، ولذا فقد من تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه العناية المبكرة التي لولاها لكان في مقام آخر لا يعلمه إلا الله، وذلك ظاهرٌ في قوله عز وجل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى:٦-٨].

وثمة نوع خصوصية في مولد موسى عليه السلام، يشير إليه قوله تعالى ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾ [طه:٤١].

وهو تأكيد للآية السابقة ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾.

ويفسر ابن جزي الغرناطي ذلك بقوله: «أي: استخلصتك وجعلتك موضع صنيعتي وإحساني»[(٣)].

ولو استأنسنا بما كتبه البقاعي لقرأنا «ربيتك بصنائع المعروف تربية من يتكلف تكوين المربى على طريقة من الطرائق لنفسي لتفعل من مرضاتي في تمهيد شرائعي وإنفاذ أوامري ما يفعله من يصنع للنفس من غير مشارك، فهو تمثيل لما حوله من منزلة التقريب والتكريم»[(٤)].

فالعناية هنا تأهيل لموسى عليه السلام لمواجهة ما ينتظره من مهامٍ جسامٍ ومعاناة مع بني إسرائيل الذين لا يكفون عن الجدل.

أوحى الله جل جلاله إلى أم الطفل موسى وحي إلهامٍ لا وحي رسالة[(٥)] ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص:٧]، وما أعجب القدرة الإلهية! أمٌّ تخاف على ولدها من القتل فتؤمر بإلقائه في الماء، ويطمئنها الله ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾ [القصص:٧].

على ولدك؛ فإننا في قابل الأيام ﴿رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، الذين اصطفيناهم للدعوة والرسالة.

إن وعد الله عز وجل لهذه المرأة نافذٌ

(١) الكشاف ٣/ ١٤٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٢٣.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٨.
(٤) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٩.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣.

وماضٍ؛ لكنه يحتاج إلى قلب مطمئن يسلم بقضاء الله وقدره، وإلا فكيف لامرأة ضعيفة تكتم حملها نحو تسعة أشهر خوفًا من عسس فرعون أن تستجيب لمثل هذا الأمر وتقذف بابنها وفلذة كبدها في النهر وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرًا؟! لكن أم موسى كانت على ثقة متينة بموعود ربها تعالى لها ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وكما كانت حياة موسى عليه السلام معجزة -على النحو الذي سيتكشف بعد قليل- جاءت الآية ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

معجزة في بيانها، فقد تضمنت أمرين ونهيين وبشارتين ولطائف أخرى يضيق المقام عن تفصيلها، وتوقف أمامها المفسرون، واشتهرت عند البلاغيين، ففرق الزمخشري بين خوفين: «أما الأول فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه. وأما الثاني، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف»[1]، فالآية تتحدث عن خوف من أمر واقعي هو القتل على يد الفراعين، وخوف آخر محتمل هو غرق الرضيع في المياه.

ثمة آيات في سورة طه تتحدث عن نجاة الرضيع وتورد تفاصيل أخرى.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝٣٩﴾ [طه:٣٧-٣٩].

ففي الآيات أنه تعالى أوحى إلى أم موسى بوضعه في التابوت، وإلقائه في اليم الذي سيحمله إلى ساحل فرعون، الذي هو عدو لله عز وجل ولبني إسرائيل ومنهم الرضيع، وما كان للطفل أن تكتب له النجاة إلا بتدبير إلهي محكم.

لكن.. كيف يصل الطفل إلى قصر فرعون الفاجر وتكتب له النجاة إلا عن طريق قلب زوجته؟!

إنها المحبة التي ألقاها الله على موسى عليه السلام؛ ولا عجب فقد قال عز وجل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩].

واختلف المفسرون في تفسير هذه المحبة، فمن قائلٍ بأنها جمال في الخلقة وصف به، وقيل ملاحةٌ في عينيه، لكن ابن عطية ضعف هذا القول[2]، وهناك من يقول إنها محبة القابلة التي ولدت أمه، وقائل:

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤.

محبة امرأة فرعون... إلخ[1].

والراجح أنه القبول العام كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)[2].

إن امرأة فرعون قد أحبته، وسعدت به، وقالت لفرعون: هذا الصغير ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، تقر به أعيننا وتسعد بها نفوسنا ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩].

فوافق فرعون ولم يكن يعلم أنه سيكون سبب هلاكه في الدنيا والآخرة ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨].

وقد شاع بين بعض القراء في أيامنا هذه أن يقرأ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا﴾ بالوقوف على (لا)، وهذا من اللحن -كما يرى أبو زكريا الفراء- وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما[3]، وهي قراءة لا تستقيم عقلا؛ فهل يمكن لزوجة فرعون أن تخاطبه بهذه اللهجة فتقول له: هذا الولد قرة عين لي فحسب، أما أنت فلا؟! وإذا كانت قالت ذلك فلماذا لم تقل: عسى أن (ينفعني) أو (أتخذه) ولدًا بصيغة المفرد؟! وما الذي يضطر فرعون إلى إبقاء ولدٍ من المفترض أنه سيسبب له المتاعب، لا شك أن فرعون استبقى الولد بناء على رغبة زوجته التي أحبته بعد أن ألقى الله عليه محبةً منه، ويظهر أنه وقومه كانوا على يقين أنه إسرائيلي، وإلا فما يضطر أمًا إلى التخلص من رضيعها الذكر إلا إذا كان مهددًا كأقرانه من بني إسرائيل؟! كما يظهر من قول امرأة فرعون ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فمن ذا الذي جرى عليه القتل آنذاك سوى ذكور بني إسرائيل؟!

والحقيقة أن موسى عليه السلام كان بالفعل قرة عين لها، فقد كتب الله لها النجاة من فرعون وعمله الخبيث، وأشاد بها في كتابه الكريم؛ بل جعلها مضرب المثل للذين آمنوا.

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ

(١) جامع البيان ١٨/ ٣٠٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٢٩٨٨.
(٣) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٠٣.
وقد ردوا على هذا بأن الوقف لو كان صحيحًا لقال تعالى «تقتلونه» بالنون. فلما جاء بغير نون علم أن الفاعل في الفعل «لا» إذ هي نهيٌ، فهو مجزوم بها، فلا يجوز أن يفصل منه». انظر: كتاب إيضاح الوقف والابتداء، أبو بكر الأنباري، ص ٨٢٢، المكتفى في الوقف والابتدا، أبو عمرو الداني، ص ٤٣٥-٤٣٦.

﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم:١١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[1].

ولم يكن حبها غريزيًا كامرأة العزيز التي كان حبها ليوسف عليه السلام فضيحة لها حين راودته عن نفسه فاستعصم، وسار بحديثها نسوة المدينة، وصارت أقصوصة في فم الرائح والغادي.

لكن في الظل أمًا تتحرق شوقًا إلى ضم وليدها وغمره بعطفها وشموله بحنانها، ويصور القرآن حالة الاضطراب النفسي الذي عاشته على هذا النحو: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص:١٠].

قال البيضاوي: «فارغًا صفرًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون»[2].

وبقدرة الله جل جلاله أبى الصغير الرضاع من غير أمه ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ [القصص:١٢]؛ وأخذوا يفتشون عن مرضعة، وهنا تتدخل العناية الإلهية مرة أخرى فتقابلهم أخته التي خرجت لوعى تتلمس الأخبار حول مصير أخيها الرضيع ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص:١٢].

فرده الله إلى أمه الملتاعة ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾ [طه:٤٠].

﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص:١٣].

وتزداد يقينا في وعد الله تعالى، يقول البقاعي: «فكان كل ما أردته، فلما رآك هذا العدو أحبك وطلب لك المراضع، فلما لم تقبل واحدةً منهن بالغ في الطلب، كل ذلك إمضاءً لأمري، وإيقافًا لأمره به نفسه لا بغيره؛ ليزداد العجب من إحكام السبب»[3].

وهنا تتيقن أم موسى أن ولدها سيكون له شأن في قابل الأيام.

ظل الصغير غذي نعمة وترف في قصر فرعون، بعيدًا عن معاناة قومه بني إسرائيل، وقد اختزل القرآن هذه الفترة فلم يتحدث عن شيء من تفصيلاتها، واختصر الفاصل الزمني من الرضاعة إلى بلوغ الأشد، وتحدث بعض المؤرخين عن تفصيلات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم ٤٤٦٦.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٢.
(٣) نظم الدرر ١٢/ ٢٨٨.

أخرى في هذه المرحلة الزمنية، لكن ثمة إشكالية في الرواية التي أوردها البعض ومنهم الطبري، تقول الرواية: إن فرعون عندما حمله «أخذ موسى بلحيته فنتفها؛ فقال فرعون علي بالذباحين، هذا هو!! قالت آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، إنما هو صبي لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر امرأة أحلى مني، أنا أضع له حليًا من الياقوت، وأضع له جمرًا؛ فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها فوضعت له طستًا من جمر؛ فجاء جبرئيل فطرح في يده جمرة؛ فطرحها موسى في فيه فأحرق لسانه فهو الذي يقول الله عز وجل: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾»[1]، وهذه الرواية التي ذكرها غير واحد من المؤرخين والمفسرين، ونسبها النيسابوري إلى الصحابي الجليل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما[2].

نصدق أن فرعون قد يزعجه ما فعله الطفل لأنه شخصية سلطوية مجنونة بالعظمة، إلا أن القصة لا يمكن أن تستقيم عقلا، فكيف لطفل أن يمسك بالجمرة المتوقدة؛ بل ويضعها في فيه؟! ولو اقتصر الاختبار على إقبال الطفل على الجمرة أو حتى على لمسها لكان ذلك أمرًا مستساغًا معقولا.

ثانيًا: قتل موسى عليه السلام للقبطي:

تدلنا الآيات على أن موسى عليه السلام ظل في بيت فرعون حتى ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤].

ثم إن الله تعالى من عليه فآتاه ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[القصص:١٤].

والحكم والعلم ليسا بالنبوة؛ وإنما هي من إرهاصاتها؛ لأنه عليه السلام سيتورط بعد ذلك في قتل القبطي بطريق الخطأ.

إن القرآن يصور مشهد القتل ويوجز ما دار فيه من حوار بعيدًا عن الإجمال والتفصيل، فموسى عليه السلام ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص:١٥].

في وقت كان الناس فيه في بيوتهم كوقت القيلولة، أو بين المغرب والعشاء، أو حتى في معابدهم يوم عيدهم؛ بل قيل متنكرًا، على اختلاف بين المفسرين، كما اختلفوا حول المدينة وتعددت فيها الآراء[3]، لكن معلوم أن الحكام يتخذون لسكناهم بيوتًا خارج المدن على أطرافها، ليكونوا بمأمن من شعوبهم، وتلك من تدابير الطغاة والمستبدين وعاداتهم، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا

(١) تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٩٠.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٥٣٧.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٨٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٥٩.

﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

وكانت معركة تدور رحاها بين مصري وإسرائيلي، وبطبيعة الحال كان الثاني فيها أضعف الطرفين ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

والتظاهر بالضعف والوهن من صفات اليهود التاريخية، فحتى اللحظة نراهم يروجون لمظلوميتهم رغم ما وصلوا إليه من قوة وتقدم، لكنها سمات ملازمة لهم أنى لها أن تبرحهم مع تعاقب الليل والنهار!

لنا أن نتخيل موسى عليه السلام في هذه اللحظة وهو يسترجع شريط الذكريات القاسية، يستحضر استضعاف قومه وتذبيح الأبناء واستحياء النساء على يد الفراعين، وكيف ألقته أمه في اليم خوفًا عليه من الذبح، وكأن البحر أرق فؤادًا من هؤلاء المستبدين ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر:١١-١٢].

نعم عاش عليه السلام في بيت فرعون؛ لكن قضيته كانت تعيش معه ولم تتركه، ولم تغيره النعمة كما تفعل بالكثيرين الذين يتخلون عن مبادئهم بإقبال النعمة عليهم متناسين أصولهم.

هذا أحد بني جلدته الذين طالهم ظلم الفراعين -أو هكذا ظن موسى عندئذ- يستنجد به عليه السلام لإنقاذه من أحدهم فلا يتردد في نجدته، ويبدو أن الغضب قد سيطر عليه بشكل كبير ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥].

وأيًا كان تعريف الوكز -على النحو الذي أوردناه سلفًا- فقد كانت النتيجة قتل المصري وبسرعة تفيدها الفاءان في قوله عز وجل: (فوكزه - فقضى)، وعندها أسقط في يد موسى عليه السلام و﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥].

وهذا يعني أنه لم يكن يقصد القتل بحالٍ من الأحوال؛ لكن نزغ الشيطان في يده، وهو ما جعله يستغفر ربه تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص:١٦].

ثم أخذ على نفسه العهد والميثاق ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص:١٧].

وبعض المفسرين[1] على أن المقصود بالمجرمين في الآية السابقة هم فرعون وقومه الذين ساموا بني إسرائيل سوء العذاب، لكن السياق يحتمل أن يكون المقصود هو الإسرائيلي الذي استغاثه ثم تبين بعد ذلك أنه غويٌّ مبينٌ، ويدل على ذلك ما حدث بعد ذلك عندما تبين موسى عليه السلام أن الإسرائيلي لم يكن مستحقًا للمساعدة وإلا لما ترك نجدته في المرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٩٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٦٢.

الثانية، ولو كان مستحقًا ما تردد لحظةً في إجارته.

قتل المصري في سورة غضب موسى عليه السلام ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨].

وبينما هو كذلك إذا بالإسرائيلي نفسه ﴿الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨].

فبالأمس تسببت في مقتل المصري، واليوم تستعديني على آخر.. ويبدو أن الإسرائيلي استمد بعض القوة من وجود موسى عليه السلام فشرع في قتل عدوه ﴿فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص:١٩].

وتظهر الآيات أن القبطي كان على علم بما فعله موسى عليه السلام مع المصري السابق قتله وهو ما جعله يقول لموسى عليه السلام: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:١٩].

اضطرب موسى عليه السلام كثيرًا وأحس أنه أصبح هدفًا لكل المصريين انتقامًا لقتيلهم، ويبدو أن خبر القتيل وصل إلى فرعون الذي أمر بإحضار ربيب نعمته بعد أن عزز شكوكه التي ساورته يومًا بعد يوم؛ فقيض الله عز وجل له رجلا جاءه ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص:٢٠].

فجأة وجد موسى عليه السلام نفسه بين خيارين كلاهما فيه مشقة كبيرة على نفسه:

- إما أن يظل في مصر ليلقى مصيرًا مجهولا غالبه القتل، أو تعرف حقيقته ويذوق الويلات كغيره من الإسرائيليين.
- وإما أن يتركها بما فيها من ظلم واستعباد حتى يأذن له الله بالعودة.

فكان الخيار الثاني.

إلى هنا انتهت مرحلة القصر والترف، وبدأ عليه السلام مرحلة أخرى من المعاناة والشطف؛ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص:٢١].

وهنا يلجأ كعادته إلى ربه وخالقه تعالى الذي يلتجأ إليه وحده في النوازل والملمات. يذكره ربه بعد ذلك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه:٤٠]

ثالثًا: موسى عليه السلام في مدين:

يصف القرآن جانبًا من رحلة موسى عليه السلام الشاقة هروبًا من المصريين، ولنا أن نتخيل رجلا عاش منعمًا مترفًا يخرج من وطنه خائفًا إلى مكان مجهول لا يعرفه، يضرب القفار بلا رفيق ولا أنيس، يلتحف السماء ويفترش الأرض، ويتوجه إلى مدين

شمال غرب الجزيرة العربية، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢٢].

وكعادته يلجأ إلى ربه في وقت الشدة فيأتيه الفرج.

ما إن وصل عليه السلام إلى مساكن مدين حتى وجد الناس يسقون ماشيتهم، ونظر فإذا امرأتان تنتظران انتهاء الرجال من السقيا ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص:٢٣].

فأثار الموقف شفقته، فتوجه إليهما وسألهما ﴿مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:٢٣].

فأبت شهامته ونبله أن يتركهما يزاحمان الرجال ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ [القصص:٢٤].

ولأنه لا يترك مجالا للشيطان فقد دعا ربه عز وجل ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

فالافتقار إلى الله غنىً به عمن سواه، ومن تكفل به في صغره فأنجاه من فرعون إلى قصره، سيجعل له من كل ضيقٍ فرجًا، ومن كل همٍ مخرجًا.

جلس موسى عليه السلام يستظل من حرارة الشمس الحارقة وقد نسي المعروف الذي صنعه مع البنتين؛ ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥].

وهنا اختبار جديد له ثبت فيه حياؤه وأمانته، كما أثبت بأسه وقوته.

عادت البنتان إلى أبيهما وقصتا عليه ما كان من الرجل الغريب الذي سقى لهما رغم الزحام الشديد؛ فأرسل في إحضاره، وحسب ما يبدو من الآيات فإن موسى عليه السلام قد آنس من صاحب البيت؛ ولذا حكى له ما حدث معه من قتل المصري والخروج من مصر، وهكذا الأرواح، فما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٢٥].

فلا سلطان لفرعون على هذه الأرض التي نعيش فيها.

تكليف موسى عليه السلام بالنبوة

أتم موسى عليه السلام المدة التي اتفق على قضائها مع الرجل الصالح ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص:٢٩].

فالآيات تتحدث عن عودته إلى مصر ومروره بـ(جبل الطور) بسيناء، والمسافر يأنس بالنار في الصحراء الموحشة ليلا، لكونها تبدد بعض ما يداخله من خوف غريزي، ومن عادة أهل الصحراء أن يوقدوا النار لجلب الضيفان وهدايتهم في الظلمات، فذهاب موسى عليه السلام إلى النار -كما حكى القرآن عنه- كان لسببين:

الأول: السؤال عن الطريق التي سيسلكونها في عودتهم إلى مصر، فهو لم يغادر مدين منذ ثماني سنوات أو عشر، ومن ثم يلزمه الاهتداء في سيره بمن لهم دراية بالطرق.

الثاني: الإتيان ببعض النار لغرض التدفئة بالليل لاسيما أن هذه المنطقة معروفة حتى الآن ببرودتها الشديدة، حتى إن الثلوج لتتراكم عليها في بعض فترات الشتاء.

وهما الغرضان اللذان نصت عليهما الآيات الأخرى: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠].

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٧].

ذهب موسى عليه السلام إلى النار -كما تحكي الآيات- لكنه لم يجد النار كما تصورها؛ بل كانت المفاجأة التي جعلته يضطرب، ويصور القرآن ما حدث: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١١-١٦].

ولشدة الأمر وصعوبته جاء رد فعل موسى عليه السلام طبيعيًا وغريزيًا، فقد خاف عندما أمره ربه تعالى بأن يلقي عصاه فصارت حية عظيمة، فعندها ولى مدبرًا لدرجة أنه لم ينظر خلفه كما تقول الآيات ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ من هول المفاجأة، وهو ما تشير إليه أكثر من آية: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١].

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه:٢١].

و﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١].

قال ابن عطية: «فلما رآها موسى رأي عبرةٍ ولى مدبرًا ولم يعقب؛ فقال الله تعالى

له: خذها ولا تخف، وذلك أنه أوجس في نفسه خيفة، أي: لحقه ما يلحق البشر»[1].

وأراد المولى عز وجل أن يهدئ من روع نبيه عليه السلام فخاطبه قائلا: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].

﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص:٣١].

يقول البقاعي: «أي: التفت وتقدم إليها ولا تخف، ثم أكد له الأمر لـما الآدمي مجبولٌ عليه من النفرة، وإن اعتقد صحة الخبر بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي: العريقين في الأمن كعادة إخوانك من المرسلين»[2].

ولأن الله عز وجل يعلم طبائع النفوس التي جبلت عليها؛ فقد كان لابد من استصحاب موسى عليه السلام لمعجزات حسية يخضع لها الفراعنة المعاندون، فوهبه معجزات، منها: معجزة العصا التي تحولت إلى حية مخيفة تسعى للدرجة التي أخافت موسى عليه السلام نفسه، ومعجزة اليد التي يدخلها في جيبه فتخرج مضيئة شاهقة البياض في مشهد تنخلع له القلوب النقية، يقول النيسابوري: «دعوى الرسالة إن اقترنت بظهور المعجزة على يده تحقق صدقها»[3].

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢.
(٢) نظم الدرر ١٤/ ٢٨٠.
(٣) غرائب القرآن ٥/ ٢٦٨.

وفي القرآن الكريم حديث -كما أسلفنا- عن الحوار الذي دار بين موسى وربه تعالى، وكيف كان موسى عليه السلام يطنب في الكلام استئناسًا بربه عز وجل، وحديث آخر عن معجزاتٍ سبعٍ أخرى غير هاتين الآيتين لتبلغ تسع آيات واضحات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء:١٠١].

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

قال القرطبي: «هي العصا، والسنون، واليد، والدم، والطوفان، والجراد والقمل، والضفادع، وفلق البحر. وقيل: البينات التوراة وما فيها من الدلالات»[4].

وتنص الآيات على أن المستهدف من الآيتين فرعون وقومه، ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

وفي موضع آخر ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص:٣٢].

صدر التكليف الإلهي إلى موسى عليه السلام ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه:٢٤، النازعات:١٧].

وليس فرعون فقط إنما جميع قومه، يبرز ذلك الخطاب الإلهي لموسى عليه السلام

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٣٠.

﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ [الشعراء:١٠-١١].

دعا موسى عليه السلام ربه مستعينا به كعادته في الشدائد والكرب طالبًا منه أن يشرح صدره بالطمأنينة، وييسر له أمره حتى يتمكن من أداء دعوته ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٢٦﴾ [طه:٢٥-٢٦].

وكان له رجاءان لتتم المهمة على أفضل ما يكون:

الأول: أن يحل عقدة لسانه حتى يتمكن من التبليغ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨﴾ [طه:٢٧-٢٨].

الثاني: أن يشد أزره بأخيه هارون ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾ [طه:٢٩-٣٥].

فجاءت الاستجابة الفورية فقال تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه:٣٦].

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ۝٣٥﴾ [القصص:٣٥].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم:٥٣].

والحقيقة أن الطلب كان محل جدال كبير، فقد اختلف المفسرون في ماهية العقدة، وهل هي معنوية أم مادية بسبب من الجمرة؟

وقد اختلفوا فيها على قولين، أوجزهما الفخر الرازي على هذا النحو:

الأول: كانت العقدة خلقة الله تعالى؛ فسأل الله تعالى إزالتها.

الثاني: السبب فيه أنه عليه السلام أخذ الجمرة فجعلها في فيه. وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال: لم تحترق اليد ولا اللسان؛ لأن اليد آلة أخذ العصا وهي الحجة، واللسان آلة الذكر، فكيف يحترق؟! ولأن إبراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمرود، وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقي في التنور فكيف يحترق هنا؟!

ومنهم من قال: احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والممالحة. ومنهم من قال: احترق اللسان دون اليد؛ لأن الصولة ظهرت باليد، أما اللسان فقد خاطبه بقوله: يا أبت. ورأي أنهما احترقا معا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة[1].

ونظرًا لتهافت قصة التمرة والجمرة التي ذكرها بعض المفسرين على النحو الذي تقدم؛ فالراجح أن العقدة لم تكن حسية في لسانه؛ وإنما قصد بها -والله أعلم- الرهبة التي ألمت به من التكليف وهذا الأمر تعضده الآيات التي أشارت إلى خوفه عليه السلام في غير موضع؛ بل بلوغه درجة الجري من

(١) مفاتيح الغيب ٢٢/ ٤٣-٤٤ بتصرف.

شدة الخوف، وعليه يكون المراد من قوله تعالى ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢].

هو: لا يكاد يأتي ببينة أو حجة حسية على صدق رسالته، ويكون المراد بالفصاحة في قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص:٣٤] هي الفصاحة الناجمة عن الشجاعة ورباطة الجأش، فمن الناس من يفقد القدرة على توصيل فكرته في الأوقات العصيبة... والله تعالى أعلم.

أعرب عليه السلام عن خوفه من هذا التكليف فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء:١٤].

وفي موضع آخر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص:٣٣].

قال البيضاوي: «ولهم علي ذنبٌ: أي تبعة ذنب...والمراد قتل القبطي، وإنما سماه ذنبًا على زعمهم...فأخاف أن يقتلون به قبل أداء الرسالة، وهو أيضًا ليس تعللًا؛ وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة، كما إن ذاك استمدادٌ واستظهار في أمر الدعوة»[1].

والبيضاوي هنا كغيره من المفسرين الذين يحتاطون في نسبة الذنب إليه عليه السلام تأدبًا رغم أنه قد استغفر ربه فغفر له ما كان من قتل القبطي.

إن خوف موسى عليه السلام هنا خوف مشروع تقتضيه الطبيعة البشرية، وليس خاصًا به وحده دون غيره، وفي آية أخرى أن هارون عليه السلام قد أعرب عن خوفه هو الآخر ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٥-٤٦].

فالخوف في ذات الأنبياء ليس بالعيب وهو الأمر الذي قرره القرطبي عندما ذهب إلى القول بأن «الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله، وأن لا فاعل إلا هو، إذ قد يسلط من شاء على من شاء»[2].

ويقول الإمام ابن تيمية: «وقول القائل هذا بمنزلة هذا، وهذا مثل هذا، هو كتشبيه الشيء بالشيء يكون بحسب ما دل عليه السياق، لا يقتضي المساواة في كل شيء، وكذلك هنا هو بمنزلة هارون فيما دل عليه السياق، وهو استخلافه في مغيبه كما استخلف موسى هارون، وهذا الاستخلاف ليس من خصائص علي؛ بل ولا هو مثل استخلافاته، فضلًا أن يكون أفضل منها، وقد استخلف من علي أفضل منه في كثير من الغزوات، ولم تكن تلك الاستخلافات توجب تقديم المستخلف على علي إذا قعد معه، فكيف يكون موجبًا لتفضيله على علي؟ بل قد استخلف على المدينة غير واحد،

(١) أنوار التنزيل ٤/ ١٣٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٩٢.

وأولئك المستخلفون منه بمنزلة هارون من موسى من جنس استخلاف علي»[1].

والحديث كما رأينا يدل دلالة واضحة أن الاستخلاف هنا يثبت أفضلية وتكريمًا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا يثبت له خلافة النبي صلى الله عليه وسلم، وتنقل لنا كتب الأحاديث والسير أن النبي استخلف عددًا من الصحابة الكرام في مناسبات عدة، منهم صحابة مشهورون وغير مشهورين، من هؤلاء المستخلفين: عثمان بن عفان في غزوة ذي أمر بنجد، وعبد الله بن أم مكتوم الضرير رضي الله عنه الذي استخلفه في غزوة بدر الكبرى، وسباع بن عرفطة رضي الله عنه، وسعد بن عبادة رضي الله عنه في غزوة الأبواء، وعثمان بن مظعون رضي الله عنه في غزوة بواط، وأبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه في غزوة العشيرة، وزيد بن حارثة رضي الله عنه في غزوة بدر الأولى، وأبو رهم كلثوم بن حصين الغفاري رضي الله عنه، ورغم ذلك لم يقل أحد إن النبي صلى الله عليه وسلم قد استخلف عثمان، ومن ثم تحق له خلافته قبل أبي بكر وعمر، ولا طالبت قبائل هؤلاء الصحابة وآلهم بحقهم في الخلافة بناء على استخلافهم السابق.

(١) منهاج السنة النبوية ٧/ ٣٣٠-٣٣٢.

دعوته عليه السلام لفرعون وقومه

أولًا: معالم دعوته عليه السلام:

استجاب موسى عليه السلام لتكليف ربه تعالى وأتى فرعون يطلب إليه ترك بني إسرائيل ليخرجوا من مصر، ولم لا وقد سامهم العذاب الأليم سنوات طويلة ذبح فيها الأبناء واستحيى النساء؛ وجاءت ساعة المواجهة فزاد فرعون من تكبره وتجبره ونادى فيمن حوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨].

إنه لم يكتف بالكفر وإنكار وجود الله؛ بل لج في طغيانه وادعى الألوهية ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٣-٢٤].

وأمعن الفرعون في صلفه وغروره، ونادى في قومه قائلا: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف:٥١].

فبدلا من شكر المنعم الذي وفر له أسباب المعيشة الكريمة من أنهار تفيض بالخيرات فتخرج أزواجًا من نبات شتى؛ نسب هذا الفضل إلى نفسه وراح يدعي أنه الإله الأحق بالعبادة دون الله تعالى،

وأراد أن يدلس على من حوله من الملأ أصحاب المصالح فطالب موسى بآيات محسوسة ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف:٥٣].

وكأن آيات فرعون في الخلق مبهرة ظاهرة للعيان.

ثم بلغ به الجنون مداه حين طلب من هامان طلبًا عجيبًا مستحيلا لكنه وجد من يصدقه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف:٥٤].

لقد قال لوزيره هامان الذي يزين له الجنون: ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

ولخص رؤيته العقدية والسياسية في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

إنه جنون العظمة الذي يجعل المهووسين والموتورين يبيدون كل شيء من أجل الكرسي!

إن طغيان فرعون وادعاء الألوهية لم ينشأ من فراغ؛ وإنما كان نتاج مساندة الملأ الذين يزينون للحاكم سوء عمله ليحافظوا على مكانتهم ومصالحهم التي يدورون معها أينما كانت، ولا عجب أن تتطابق آراء الملأ مع آراء الفرعون، فاتهام موسى بالسحر لم يقتصر على الحاكم المدعي للألوهية دون الملأ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٧].

بينما ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٢].

حتى العقاب الذي سنه فرعون لمن يخرج عن نطاق عبادته جاء بإيعاز ممن حوله، ففي القرآن: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف:١٢٧].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر:٢٥].

في هذه الظروف كان على موسى عليه السلام أن يدعو فرعون إلى أمرين كما في الآيات:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

[طه:٤٧-٤٨].

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾

[الشعراء:١٥-١٧].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

[الأعراف:١٠٤-١٠٥].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

[الزخرف:٤٦].

فإرسال موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون كما تشير الآيات كان لغرضين: دعوته وقومه إلى الإيمان بألوهية الله الخالق بدلا من عبادة الفراعين، وتخليص بني إسرائيل من أسر فرعون وعذاباته.

يقول ابن جزي: «فكانت رسالة موسى إلى فرعون بالإيمان بالله وتسريح بني إسرائيل»[(١)].

وكلا الأمرين ليسا في مصلحة فرعون؛ لأن فيهما تهديد لملكه المستبد العضوض ومكانته التي لا يمكنه أن يتخلى عنها بحال ليتساوى مع الدهماء وأراذل القوم كما كان ينظر إليهم، فضلا عن خوفه من مكر بني إسرائيل به إذا خرجوا من مصر؛ إذ كان بإمكانهم أن يتحدوا مع أعداء مصر في الخارج.

ثمة إشكالية تثار حول رسالة موسى عليه السلام تتعلق بشريحة المدعوين، فهل أرسل إلى بني إسرائيل فقط أم إلى المصريين أيضًا؟!

إن موسى -والله أعلم- لم يرسل إلى عامة المصريين؛ بل إلى بني إسرائيل فقط، لكنه لم ينس أن يدعو فرعون وقومه إلى التوحيد بدلا من عبادة الفرعون، فما كان له أن يفوت فرصة يدعو فيها إلى الله وينكر عليهم ضلالهم، يقول الطاهر ابن عاشور: «والاقتصار على طلب إطلاق بني إسرائيل يدل على أن موسى أرسل لإنقاذ بني إسرائيل وتكوين أمة مستقلة؛ بأن يبث فيهم الشريعة المصلحة لهم والمقيمة لاستقلالهم وسلطانهم، ولم يرسل لخطاب القبط بالشريعة ومع ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد لأنه يجب عليه تغيير المنكر الذي هو بين ظهرانيه وأيضًا لأن ذلك وسيلة إلى إجابته طلب إطلاق بني إسرائيل»[(٢)].

فشريعة موسى عليه السلام قصد بها

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣٠.

بنو إسرائيل دون غيرهم، وفي القرآن آيات تعضد هذا الرأي بقوة، وتقول بخصوصية الرسالة واقتصارها على بني إسرائيل، منها:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء:٢]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٣﴾ [السجدة:٢٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم:٥-٨].

ففي الآيتين الأولى والثانية يقطع القرآن بأن التوراة نزلت وتوجه خطابها التكليفي إلى بني إسرائيل، وفي الآية الثالثة بيان تكليف الله عز وجل له بدعوة قومه وإخراجهم من الظلمات إلى نور الإيمان وتذكيرهم بأيام الله، وشكر المنعم الذي أنجاهم من عبودية فرعون واسترقاقه لهم.

ثانيًا: أساليب دعوته عليه السلام:

تبوأت قصة موسى عليه السلام من القرآن مكانة لا تدانيها قصة أخرى، وأظهرت الآيات الكريمة كيف نوع موسى من أساليب دعوته لتتناسب مع الواقع وتطوراته وأحداثه المتلاحقة منذ أن تم تكليفه من رب العزة تعالى وحتى خروجه مع بني إسرائيل من مصر وهلاك فرعون وقومه.

وكانت آيتا العصا واليد أول المعجزات التي أيد بها موسى عليه السلام في دعوته لفرعون، كما قال تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص:٣٢].

ثم عزز الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات معجزات، يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١﴾ [الإسراء:١٠١].

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾ [النمل:١٢].

لكن البعض يعد الآيات المعجزات التي

تحدث عنها المؤرخون والمفسرون أكثر من تسع على النحو الذي سيبينه المبحث التالي.

وقد عرض القرآن لأهم الأساليب الدعوية التي اتبعها موسى عليه السلام، ومنها:

١. توظيف الطاقات البشرية.

على النحو الذي ورد في المبحث السابق، فعندما كلف الله تعالى موسى عليه السلام بالرسالة طلب إليه أن يشد أزره بأخيه هارون قائلًا: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾ [طه:٢٩-٣٥].

فجاءت الاستجابة الفورية من الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه:٣٦].

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ۝٣٥﴾ [القصص:٣٥].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم:٥٣].

ويمكننا من خلال هذه الآيات أن ندرك كيف عمل موسى عليه السلام على توظيف قدرات أخيه في الدعوة للوصول إلى أقصى استفادة ممكنة، وحسب نص الآيات فقد أراد توظيف قدرة هارون الكلامية في تبليغ الدعوة والدفاع عنها، وفي ذلك درس للدعاة الذين يجب أن يكون هناك تكامل بينهم ويقوم كل منهم على ثغرة.

٢. اللين والشدة.

يخبرنا القرآن كيف أن الله تعالى طلب من موسى وهارون أن يعاملا فرعون بالحسنى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه:٤٤].

يقول البقاعي: «فقولا له قولًا لينًا لئلا يبقى له حجة، ولا يقبل له معذرة لعله يتذكر ويعلم أن الله ربه، وأنه قادر على ما يريد منه، فيرجع عن غيه فيؤمن، أو يخشى: أي أو يصل إلى حال من يخاف عاقبة قولكما لتوهم الصدق فيكون قولكما تذكرة له فيرسل معكما بني إسرائيل»[(١)].

إن طبيعة المرحلة آنذاك كانت تتطلب أن يلين موسى عليه السلام قوله لفرعون عسى أن يهديه إلى ربه، كما أمرهما بأن يقولا ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ۝٤٧﴾ [طه:٤٧].

وفي حديثه تعالى عن السلام ترغيب له وطمأنة لقلبه وقلوب قومه قاطبة، كما ينقل القرآن صيغة أخرى للين في قول الله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات:١٨-١٩].

فماذا كان رد فعل فرعون المستبد

(١) نظم الدرر ١٢/ ٢٩٠.

وقومه؟!

أبى فرعون واستكبر ورمى موسى بتهمٍ منها القديم المكرر كالكذب والسحر والجنون، ومنها غير ذلك، نحو:

- التآمر لإخراجهم من أرضهم: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥].
- الكذب والتدليس: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٤].
- السحر والجنون: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات:٣٨-٣٩].
- إضلالهم عن دين آبائهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٨].
- القول ببشريته: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون:٤٧].

لكن الحقيقة الواضحة أن الذي جعلهم يحجمون عن الإيمان بالوحدانية هو الكبر.

وقد أشار القرآن إليها في مواضع منها:

- ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٨].
- ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَٰلِينَ﴾ [المؤمنون:٤٦].
- ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:٣٩].

لقد شق على نفس فرعون أن يؤمن لعبدٍ من بني إسرائيل الممتهنين أن يدعي النبوة ويطلب تعبيد الناس لرب سواه، فكيف يكون مصير ملكه العريض إذا آمن بوحدانية موسى؟!

أما الملأ فقد خافوا على مصالحهم المرتبطة بالبلاط الفرعوني؛ ومن ثم تواطأ الجميع على موسى؛ لأنه يهدد مصالحهم رغم يقينهم بنبوته!

ولما لم يجد فرعون وسيلة ناجعة لرد موسى عليه السلام وصرفه عن الرسالة هدد قائلًا: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

وعندما قال لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١].

رد عليه موسى قائلا: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢].

قال أبوعبيدة: «أي: مهلكًا» [(١)]، فمقام

(١) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٣٩٢.

اللين في الدعوة يختلف عن مقام الشدة في المدافعة، ومقام الترغيب يختلف عن مقام الترهيب.

ولما لم يجد موسى عليه السلام فائدة ترتجى من وراء فرعون وقومه بعد إصرارهم على الكفر قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

وهنا بدأت موجات العذاب تجتاح الفراعنة على النحو الذي سيفصله المبحث التالي عن آيات موسى عليه السلام ومعجزاته.

٣. قوة الحجة والاستدلال العقلي.

تنبئ الآيات القرآنية عن قدرة موسى عليه السلام على الجدل وقوة الحجة، كما تكشف عن صدقه مع نفسه وغيره، فلقد كان أول ما قاله فرعون لموسى حين دعاه إلى التوحيد: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء:٢٣].

فأجاب موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء:٢٤].

ثم أمعن فرعون في الضلال فاتهم موسى بالجنون ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٥-٢٧].

فتوجه موسى بالخطاب هذه المرة إلى الملأ بعد أن كان سجالًا مع فرعون ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:٢٨].

وقريب من ذلك ما ورد في سورة طه ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٤٩-٥٥].

وينقل لنا القرآن أنه أراد إحراج موسى عليه السلام أمام الملأ وتذكيره بتربيته داخل قصره وهو الأمر الذي يستوجب الشكر والخضوع لا الجحود والخروج، كما ألمح إلى قتل المصري وهروبه ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء:١٨-١٩].

فأقر موسى بفعلته ولم ينكرها:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشعراء:٢٠-٢٢].

رغم قوة حجة موسى مع فرعون إلا أن الأخير لم يجد بدًا من التهديد بالسجن، وتلك عادة أهل الباطل عندما يضيق عليهم الخناق فلا يستطيعون تبرير أفعالهم أو مواصلة المجادلة بالباطل:

قال فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ٢٩﴾ [الشعراء:٢٩]

قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ٣٠﴾ [الشعراء:٣٠]

قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١﴾ [الشعراء:٣١]

وهنا بدأ موسى في إظهار الآيات:

- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢﴾ [الشعراء:٣٢]
- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾ [الشعراء:٣٣]

ثم انتهى المشهد بإيمان السحرة، وربما أيضا بإيمان امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون، فالقرآن لم يقص علينا شيئًا عن الوقت الذي آمن فيه هؤلاء برسالة موسى عليه السلام.

مرت الأيام والفراعنة يراوغون موسى، ويعدونه بأن يؤمنوا له ويتبعوا دينه ورسالته قائلين: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف:١٣٤].

فابتلاهم الله بالعذابات المختلفة على النحو الذي ذكرناه في المبحث الخاص بالمعجزات، لكنهم لم يؤمنوا في النهاية ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٨٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ٨٤ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٨٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٨٧ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨٩﴾ [يونس:٨٣-٨٩].

آيات موسى عليه السلام ومعجزاته

من الناس من لا يؤمن لنبي ولا برسالة إلا برؤية آيات معجزات حسية ملموسة يراها رأي العين، فإذا جاء نبي من الأنبياء ومعه معجزة من المعجزات الباهرة فلا يملك أصحاب العقول والأفهام الحصيفة إلا أن يؤمنوا.

يقول النيسابوري: «دعوى الرسالة إن اقترنت بظهور المعجزة على يده تحقق صدقها»[(١)].

ويقول صاحب الظلال: «وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى! ذلك أن الإنسان أسير حواسه، وأسير تجاربه، فلا يبعد كثيرا في تصوراته عما تدركه حواسه. وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة»[(٢)].

لكن الحقيقة أن هناك على مر التاريخ من ينكر المعجزات والآيات استكبارًا في الأرض وعتوًا كما فعل المكذبون من قوم نوح وصالح وغيرهم. وفي القرآن الكريم ثمة إشارات إلى بعض الآيات المعجزات التي زود الله تعالى بها موسى عليه السلام في مواجهة فرعون وقومه الذين استخفهم فرعون فأعماهم عن الحق، ثم في مواجهة بني إسرائيل الذين اعتادوا تكذيب الرسل وجدالهم جدالا عقيمًا ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء:٤٦].

لقد ورد في موضعين بالقرآن الكريم أن الله عز وجل عزز نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات معجزات.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

لكنك إذا ما عددت الآيات المعجزات التي تحدث عنها المؤرخون والمفسرون لوجدتها تتعدى التسع.

لكن تفسيرًا مغايرًا يفسر الآيات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعيدًا عن فكرة المعجزات ويقصد بها بعض الأحكام التي جاءت بها شريعة موسى عليه السلام[(٣)].

ثمة خلاف في تحديد الآيات التسع، فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها:

(١) غرائب القرآن ٥/ ٢٦٨.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٦٦.

«يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات. وقال الضحاك: إلقاء العصا مرتين عند فرعون، ونزع يده، والعقدة التي كانت بلسانه، وخمس آيات في الأعراف: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وقال آخرون نحوا من هذا القول، غير أنهم جعلوا آيتين منهن: إحداهما الطمسة، والأخرى الحجر.

ومنهم من جعلوا اثنتين منهن: إحداهما السنين، والأخرى النقص من الثمرات.

ومنهم من جعلوا السنين، والنقص من الثمرات آية واحدة، وجعلوا التاسعة تلقف العصا ما يأفكون»[1].

وكلها -كما رأينا- مما ورد في القرآن ذكره.

أما الطاهر ابن عاشور فقال إنها: «بياض يده كلما أدخلها في جيبه وأخرجها، وانقلاب العصا حية، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز، والقحط»[2].

وجمعها الفيروزآبادي في قوله[3]:

عصًا، سنةٌ، بحر، جراد، وقمل
دمٌ، ويدٌ، بعد الضفادع طوفان

بدأت المعجزات أو الآيات المعجزة لموسى عليه السلام باثنتين كما في الآية ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص:٣٢].

والبرهانان هنا حسب ما ذكر القرطبي: العصا واليد[4] لكن تكذيبهم فاق كل التصورات ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف:١٣٢].

وهنا أرسل الله عز وجل عليهم من الآيات ما فيه عذابهم.

يقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٣].

ليس هذا فحسب، لكن هناك آيات أخرى عني بها بنو إسرائيل الذين اعتادوا تكذيب الرسل، منها:

- **الموت بالصاعقة ثم الإحياء:** ففي القرآن ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

(١) المصدر السابق ١٧/ ٥٦٤.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٢٥.
(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٧٠٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٨٥.

- الغمام والمن والسلوى: كما في قول الله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:٥٧].
- الابتلاء بالرجز: كما في قوله عز وجل: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٩].
- تفجير المياه: يقول تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة:٦٠].
- إحياء قتيل بني إسرائيل: يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٢-٧٤].
- رفع الجبل فوقهم: ففي القرآن ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف:١٧١].

على أن البعض قد اعتبر تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام أعظم معجزة له، والحقيقة أنه وإن كان في التكليم تكريمًا إلهيًا غير مسبوق لنبيه بيد أنه لا يعتبر معجزةً في مواجهة قومه، ذلك أن ما دار بجانب الطور أمر يخصه لم يشهده غيره، ولا يمكن تصديقه إلا ممن آمن له بالفعل، وإلا فكيف لمن كذبه أن يؤمن بتكليم ربه، في حين يكذب بالآيات الأكثر ظهورًا كالعصا واليد.

يتجلى التأثير الإيجابي لهذه الآيات الإلهية المعجزة في قصة سحرة فرعون الذين جيء بهم لمجابهة معجزة عصا موسى عليه السلام، فجاؤوا وليس أحد أحرص منهم على إرضاء فرعون ونيل جائزته وقربه، لكن المعجزة التي رأوها -وهم من أسحر الناس- جعلتهم يقرون بنبوة موسى إذ لا قبل لهم بما جاء به من معجزة العصا الحقيقية لا التي تعتمد على إبهار الناس على غير الحقيقة، وينقل لنا القرآن كيف تحول هؤلاء السحرة في لحظات من خندق الكفر إلى خندق الإيمان ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن

﴿كُنَّا أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشعراء:٤٩-٥١].

وهكذا يفعل الإيمان بالقلوب النقية الصافية، بينما يستمر الجاحدون على جحودهم لا يؤمنون رغم وضوح الآيات وإبهارها!

موسى عليه السلام والسحرة

لم تثمر دعوة موسى عليه السلام فرعون إلى الإيمان بالله الخالق بعد أن تساءل الأخير بعنجهية ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ [طه:٤٩].

ورد موسى بثقة المؤمن بربه وخالقه ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠].

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ [الشعراء:٢٤].

واشتد النقاش وتساءل فرعون مرة أخرى في صلف، فأجاب موسى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه:٥٣].

وهنا لم يجد فرعون بدًا من اللجوء إلى سلطته وقوته الغاشمة التي لا يعرف غيرها، وتلك عادة الطغاة الذين لا يحتكمون إلى قواعد العقل والمنطق وإنما تتجاوز أحلامهم سقف المعقول ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾ [الشعراء:٢٩].

لكن موسى عليه السلام فاجأه مرة أخرى بتحدٍ ملموس ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ [الشعراء:٣٠].

ولم يتوقع فرعون حجم التحدي فقال

من فوره: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء:٣١].

وهنا ألقى موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨].

كانت الآيتان مبهرتين لفرعون ومن حوله؛ لكنه اعتاد الاستكبار واعتادوا المذلة والمهانة، ومن ثم ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥].

ففرعون هنا يبحث عن غطاء وظهير له في مواجهته مع موسى عليه السلام بعد أن اتهمه بالسحر، وتلك أول مرة يقر بأن هناك شعبًا له سيادة وقرار؛ بل يحدثهم بصيغة لا عهد لهم بها ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟! ولن يعدم البطانة التي تسول للحاكم كل الشرور ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف:١١١-١١٢].

اتفق الطرفان على مواجهة علنية في يوم معلوم يحشد فيها كل طرف قوته ويشحذ همته ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه:٥٩].

وسواء أكان يوم الزينة يوم عيدٍ لهم، أم سوقا كانوا يتزينون فيه[1] أم كان يوم احتفالهم بفيضان النيل[2] ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء:٣٨-٤٠].

إن فرعون هنا يحشد الناس ويشحنهم معتمدًا على إعلامه المضلل الذي جعل من موسى النبي عليه السلام ساحرًا مجنونًا، ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء:٣٨-٤٠].

ويبدو أنه اعتاد تسخير شعبه دون مقابل في حين تكتظ خزائنه بالأموال المكدسة، ومن ثم اشترط السحرة أن يتقاضوا أجرًا عن هذا العمل ﴿قَالُوٓا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء:٤١-٤٢].

وهكذا الحكام الجائرون لا يتركون طريقًا إلا سلكوه في سبيل تثبيت أركان ملكهم العضوض.

ويبدأ المشهد الأول من المواجهة العلنية بين موسى عليه السلام والسحرة الذين جاؤوا لإبطال سحره، وخيره السحرة ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥].

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٢٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٤٦.

وهنا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠﴾ [يونس:٨٠].

ونشط السحرة للمنازلة وكلهم ثقة أنها محسومة لا محالة لهم، ولم ينسوا أن يقسموا بفرعون أن الغلبة ستكون لهم، فليس أحب إليهم في هذا الآن من إرضاء الطاغية وإعلاء شأنه بين قومه ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الشعراء:٤٤].

ويبدو أن موسى عليه السلام هو الآخر لم يتوقع أن تظهر عصي السحرة كثعابين أو حيات، والحقيقة أنها لم تكن حيات حقيقية لكن خيل للحاضرين من السحر أنها تسعى، يحكي القرآن ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف:١١٦].

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ [طه:٦٦].

يقول ابن عطية: «والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين أن الحبال والعصي كانت تنتقل بحيل السحر وبدس الأجسام الثقيلة المياعة فيها، وكان تحركها يشبه تحرك الذي له إرادة كالحيوان، وهو السعي فإنه لا يوصف بالسعي إلا من يمشي من الحيوان، وذهب قوم إلى أنها لم تكن تتحرك؛ لكنهم سحروا أعين الناس، وكان الناظر يخيل إليه أنها تتحرك وتنتقل»[1].

لكن الآيات توضح أن موسى عليه السلام قد خاف وهاله سعي العصي؛ ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾ [طه:٦٧].

قال البيضاوي: «فأضمر فيها خوفًا من مفاجأته على ما هو مقتضى الجبلة البشرية، أو من أن يخالج الناس شكٌّ فلا يتبعوه»[2].

وهنا يأتي التثبيت الإلهي له فيزداد ثقة بربه ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾ [طه:٦٨].

وترصد آيات سورة يونس تغير لهجة موسى عليه السلام بعد التثبيت حيث قال لهم: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢﴾ [يونس:٨١-٨٢].

يقول صاحب الظلال: «لا تخف إنك أنت الأعلى. فمعك الحق، ومعهم الباطل. معك العقيدة، ومعهم الحرفة. معك الإيمان بصدق ما أنت عليه، ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة. أنت متصل بالقوة الكبرى، وهم يخدمون مخلوقًا بشريًا فانيًا مهما يكن طاغيةً جبارًا»[3].

ويأتي النداء مرة أخرى ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥١.
(٢) أنوار التنزيل ٤/ ٣٢.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٢.

﴿حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه:٦٩].

وامتثل موسى عليه السلام للأمر فألقى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف:١١٧].

وهنا فجأ السحرة أن الحية العظيمة قد ابتلعت حبالهم وعصيهم فلم يبق لها أثر على الأرض؛ فأيقنوا أن عدوهم ليس بالساحر العليم كما قال فرعون، لكنه نبي جاء بمعجزة باهرة واضحة، فلا يعرف السحر إلا من يمارسه، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف:١١٨-١٢٢].

لقد تولد لديهم إيمان يقيني لا يقبل الشك بنبوة موسى عليه السلام، فأعلنوا إيمانهم دون النظر إلى ردة فعل فرعون الذي لا يعرف الاستسلام ويأبي الهزيمة؛ لأن نفسه المتكبرة لا تستسيغ أن يؤمن لنبي، فضلا عن أن يكون من بني إسرائيل الذين يستعبدهم ويستعملهم في أشق الأعمال وأحطها، ولذلك فقد صاح فيهم متهمًا إياهم بالتواطؤ مع موسى ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف:١٢٣].

وهكذا أهل الباطل لا يسمعون إلا صوت أنفسهم.

وإمعانًا في تضليل الجماهير المحتشدة يتهم السحرة بالتآمر عليه مع موسى ﴿لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه:٧١].

ويتوعدهم غاضبًا ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:٧١].

وهو التهديد الذي كان كفيلا بإثناء هؤلاء عن الدين الجديد، أو حتى المواربة بكتم الإيمان إلى وقتٍ تقوى فيه شوكة نبي الله ومن معه؛ لكن الإيمان قد تغلغل في قلوبهم في لحظة صدق مع أنفسهم ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء:٥٠-٥١].

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٦].

يقول ابن قيم الجوزية: «ولما تمكن الإيمان من قلوبهم علموا أن عقوبة الدنيا أسهل من عقوبة الآخرة وأقل بقاء، وأن ما يحصل لهم في الآخرة من ثواب الإيمان أعظم وأنفع وأكثر بقاء»[1].

إن هذا النموذج الإيماني الفريد الذي ضربه سحرة فرعون ليؤكد أن القلوب الصافية من الخصوبة بحيث ينبت فيها الإيمان ويترعرع؛ بل ويثمر في لحظات

(١) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٤/ ١٣٨٩.

معدودات، فها هم يتحولون إلى مجابهة فرعون بجبروته وصولجانه قائلين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه:٧٢-٧٦].

قال البقاعي: «أي إنما حكمك في مدتها على الجسد خاصة، فهي ساعة تعقب راحة، ونحن لا نخاف إلا ممن يحكم على الروح وإن فني الجسد، فذاك هو الشديد العذاب، الدائم الجزاء بالثواب أو العقاب»[1].

إن قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كل فصولها ومراحلها تمثل صورة الصراع الأزلي بين الحق والباطل، لكن ذروته تتجلى في هذا المشهد المفعم باليقين حين يتمكن الإيمان من القلب، وسيظل سحرة فرعون مضرب المثل في الإيمان بالحق والدفاع عن العقيدة، كما سيظل فرعون مثالا حيًا للتكبر والعجب بالرأي واتباع هوى نفسه التي أوردته المهالك.

نجاة موسى عليه السلام ومن معه

ظل فرعون وقومه يكابرون ويجادلون رغم يقينهم بصدق موسى ودعوته ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل:١٤].

وبلغ بفرعون الجنون مداه حيث ادعى الألوهية فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص:٣٨].

وهذا حال المهووسين بالسلطة لا ينظرون إلا في مرآة أنفسهم فلا يرون غيرها، وإن استعانوا فإنما يستعينون برؤوس جهالٍ كهامان وغيره.

لم يقر فرعون بالهزيمة أمام موسى عليه السلام والسحرة وازداد عتوًا، وازداد الفراعنة تحريضًا على الإسرائيليين ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف:١٢٧].

وزادوا في عتوهم وتحريضهم وقرروا مواصلة الإبادة الجماعية لأبناء المؤمنين ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر:٢٥].

(١) نظم الدرر ١٢/ ٣١٣.

لعلهم يرجعون، فلم يجد موسى سوى مطالبة قومه بالصبر إلى يوم يفتح الله عز وجل عليهم بالتمكين والنصر ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

فاض الكيل بموسى عليه السلام ومن معه من تكذيب فرعون وقومه الذين أعلنوا في تحدٍ صارخ لنبوته ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف:١٣٢].

فأرسل الله تعالى على الفراعنة سوء العذاب، وجاءتهم آيات العذاب الواحدة تلو الأخرى لعلهم يرجعون، ويسجل لنا القرآن الكريم صورًا شتى من هذه العذابات التي ذكرنا بعضها عند الحديث عن آيات موسى ومعجزاته.

يقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣٣].

ولما تضاعف عليهم العذاب لم يجدوا إلا أن يلجؤوا إلى موسى ليكشف عنهم الضر مع وعد منهم بأن يؤمنوا ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف:١٣٤-١٣٥].

ضاقت السبل بفرعون ولم يجد وسيلة لإيقاف الدعوة الجديدة، فالقتل والتشريد والسحل والتعذيب لم يجد مع أتباع موسى نفعًا، ومن ثم يحتاج إلى تغيير خطته، فكان التفكير في وسيلة ناجعة يتخلص بها من هذا الذي يؤرق ملكه وملك أبنائه من بعده، فكان قراره بالتخلص من موسى نفسه متناسيًا أن الفكرة لا تموت وأنه مهما تضافرت المحن سيظل هناك مؤمنون يضحون من أجل الدين بأغلى ما لديهم؛ فقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر:٢٦].

إنه يتحدث إلى قومه كأنهم أصحاب قرار، والحقيقة أنهم لم يكونوا يومًا أصحاب قرار في هذا الحكم الاستبدادي؛ إنما أراد

أن يحشد الرأي العام كله ضد النبي الجديد ومن معه ليتوقفوا عن الإيمان به رغبًا أو رهبًا.. إنه يستعدي جزءًا من الشعب على جزءٍ آخر اختار الإيمان بالرسالة الجديدة.

ولأن الدنيا لا تعدم الخير مهما علا شأن الباطل وأهله؛ فقد انبرى رجل مؤمن في موطن الفساد ومعطن الاستبداد مدافعًا عن موسى عليه السلام ومتحدثًا بلغة العقل والمنطق، وقد قص القرآن ما كان منه.

يقول عز وجل: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر:٢٨-٣٤].

ضاق موسى عليه السلام بفرعون وقومه فدعا قائلًا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

وفي النهاية لم يؤمن له ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣].

وقد اختلف في المراد بالذرية في الآية، يقول البيضاوي: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفًا من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل: الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وزوجته وماشطته على خوفٍ من فرعون وملائهم أي: مع خوف منهم، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال: ربيعة ومضر، أو للذرية أو للقوم»[1].

حانت ساعة النجاة فجاء الأمر الإلهي إلى موسى عليه السلام ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان:٢٣].

فالليل ستر لكل من فر من عدوٍ يتربص

(١) أنوار التنزيل ٣/ ١٢١.

به، وقوله تعالى ﴿لَيْلًا﴾ يرد الرواية القائلة إن اتفاقًا جرى على أن يترك فرعون موسى وقومه يخرجون من مصر حتى يتخلص من العذابات التي أحاطت بقومه غير أن فرعون حنث بعهده وأتبعهم هو وجنوده؛ ولو كان هذا الرأي صحيحًا لما نصحوا بالخروج ليلا كما نقل لنا القرآن الكريم، كما إن الرواية التي تذهب إلى أنه تبعهم بعد أن علم بأن نساء اليهود قد استعاروا الحلي من المصريات على أن يعيدوه ثم خرجوا به[1].

هي رواية متهافتة تستحيل عقلا فكيف يعير المصريون حليهم النفيسة اليهود الممتهنين في ذلك الوقت؟!

وأمر موسى عليه السلام من قبل ربه ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧].

وهكذا يكون للعصا دور آخر جديد، فبعد أن كانت حية تسعى صار منوطًا بها شق البحر بإذن الله تعالى، لكن فرعون وقومه لم يكونوا ليذروهم يخرجون من مصر دون ملاحقة، ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشعراء:٦٠].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس:٩٠].

ورغم أن الله عز وجل طمأن موسى بألا يخاف لحاق فرعون وجنوده إلا أن الخوف قد عاوده مرة أخرى، لكن سرعان ما ازداد ثقة بخالقه الذي كثيرًا ما لجأ إليه في ملماته؛ فصار مصدر اطمئنان لقومه بعد تسلل الرعب إليهم، ويصور القرآن هذا المشهد.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء:٦١-٦٣].

وعندها مر موسى وقومه وخاطبه ربه قائلا: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان:٢٤].

«وفي ﴿رَهْوًا﴾ وجهان: أحدهما ساكنًا أي: لا تضربه ثانيةً واتركه على هيئته من انتصاب الماء وكون الطريق يبسًا. وذلك أن موسى أراد أن يضربه حتى ينطبق خوفًا من أن يدركهم قوم فرعون، والله تعالى أراد أن يدخل القبط البحر ثم يطبقه عليهم. وثانيهما: أن الرهو الفجوة الواسعة أي: اتركه مفتوحًا منفجرًا على حاله»[2].

في اللحظة التي بدأ البحر ينطبق فيها على فرعون وجنوده بعد اجتياز موسى عليه السلام ومن معه وبدأت المياه في الارتفاع قال فرعون: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]؛

(١) انظر: قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص ٢٥٧.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٠٥.

لكن توبته المزعومة لم تكن لتنفعه في هذا الوقت؛ لأنها لم تكن عن إيمان وقناعة وإنما كعادة قومه الذين طلبوا من موسى أن يكشف عنهم الرجز ووعدوه بالإيمان به حال كشفه، وسرعان ما عاودوا الكفر وحنثوا بالعهد، وقد أراد من وراء ذلك أن يدفع عن نفسه الغرق، ولا يلتفت إلى ما قاله البعض من أن فرعون عندما رأى البحر قرر عدم الولوج غير أن جبريل مكر به، فأقبل على فرس أنثى، فأدناها من حصان فرعون، فطفق فرسه لا يقر؛ فما ملك فرعون فرسه أن ولج على أثره[1]، فلو صدقت نية فرعون في عدم متابعة موسى لصحت توبته، فالله لا يظلم الناس شيئًا.

وهنا جاءه الرد الإلهي الحاسم ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩١-٩٢].

قال النيسابوري: «لتكون دليلا على كمال قدرتنا وعنايتنا. وإن من اتبع خواص عبادنا نجعله من أهل النجاة والدرجات بعد أن كان من أهل الهلاك والدركات»[2].

ونظرًا لأهمية ذلك اليوم الذي نجى الله فيه موسى وقومه؛ فقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بصيامه ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالح نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى؛ قال: فأنا أحق بموسى منكم؛ فصامه وأمر بصيامه)[3].

بل كان حريصًا على صيامه حرصه على صيام الفريضة ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: (ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى صيام فضله على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء وهذا الشهر يعني شهر رمضان)[4].

إن نهاية فرعون وهامان وجنودهما المستحقة تجعل المؤمنين يثقون بنصر ربهم وصدق موعوده لهم بأن القهر والاستبداد مهما طال بهم فسيأتي اليوم الذي يسعدون به وتقر أعينهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص:٥].

وتلك هي سنة الله تعالى في خلقه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٠.
(٢) غرائب القرآن ٣/ ٦١٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٠٠٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ٢٠٠٦.

ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور:٥٥].

موسى عليه السلام ورؤية ربه

واعد الله عز وجل موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر كانت بمثابة التهيئة لتلقي التوراة.

ففي القرآن الكريم ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢].

ولم يترك بني إسرائيل وحدهم فطلب من أخيه هارون أن يكون خليفة له ونائبًا عنه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢].

وقد فصلنا أمر الاستخلاف ووجه استدلال الشيعة بحديث الإمام علي رضي الله عنه قبل ذلك.

ظل موسى عليه السلام أربعين ليلة اختلف حولها المفسرون؛ فقيل: «إنها ثلاثون ليلة من ذي القعدة وعشر ليال تتمة أربعين ليلة»[(١)].

وقيل: إن المواعدة كانت في الأصل ثلاثين غير أنه تعجل قبل الموعد بعشرة أيام[(٢)]، حتى كان اليوم الموعود الذي جاء لميقات ربه فطلب موسى من ربه أن يراه، وربما يتساءل البعض: كيف لموسى أن يتجاسر ويطلب من ربه طلبًا كهذا؟!

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٨٦.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٣٢١.

يبدو -والله أعلم- أن كلام الله جل جلاله لموسى قبل ذلك وتقريبه له نجيًا جعله يطلب من ربه هذا الطلب، ويقص علينا القرآن هذا الحدث: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

لكن جاء الرد الإلهي بأن ذلك لن يحدث، فقال سبحانه: ﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣].

ولبى موسى نداء ربه بانتظار ما سيكون؛ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣] من هول الموقف.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

فبمجرد أن أفاق موسى نزه ربه تعالى عن أن تحيط به الأبصار ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣].

وأحس موسى بالذنب عندما طلب رؤية الله فطلب التوبة، وأقر بالإيمان الكامل بربه وخالقه دون أن يراه.

ويبدو أن هناك من ذهب إلى أن موسى عليه السلام سأل الرؤية لقومه لا لنفسه.

وهو ما رده الفخر الرازي وقال بفساده لعدة اعتبارات:

«الأول: أنه لو كان الأمر كذلك لقال موسى: أرهم ينظروا إليك ولقال الله تعالى: لن يروني فلما لم يكن كذلك بطل هذا التأويل.

والثاني: أنه لو كان هذا السؤال طلبا للمحال لمنعهم عنه كما أنهم لما قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨].

منعهم عنه بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨].

والثالث: أنه كان يجب على موسى إقامة الدلائل القاطعة على أنه تعالى لا تجوز رؤيته وأن يمنع قومه بتلك الدلائل عن هذا السؤال فأما أن لا يذكر شيئا من تلك الدلائل البتة مع أن ذكرها كان فرضا مضيقا كان هذا نسبة لترك الواجب إلى موسى عليه السلام وأنه لا يجوز.

والرابع: أن أولئك الأقوام الذين طلبوا الرؤية إما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى عليه السلام، أو ما آمنوا بها، فإن كان الأول كفاهم في الامتناع عن ذلك السؤال الباطل مجرد قول موسى عليه السلام، فلا حاجة إلى هذا السؤال الذي ذكره موسى عليه السلام، وإن كان الثاني لم ينتفعوا بهذا الجواب؛ لأنهم يقولون له: لا نسلم أن الله منع من الرؤية، بل هذا قول افتريته على الله تعالى، فثبت أن على كلا التقديرين لا فائدة

للقوم في قول موسى عليه السلام أرني أنظر إليك»[1].

ومسألة الرؤية هنا أثارت إشكالية كبيرة ممتدة منذ قرون عديدة، وهناك جدل قديم دائر بين أهل السنة والمعتزلة حول إمكانية رؤية الله تعالى، فهي «عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلا، لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته، قالوا: لأن الرؤية للشيء لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، إلا أن الشريعة قررت رؤية الله تعالى في الآخرة نصا ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه محالا وإنما سأل جائزًا»[2].

ثمة رأي يذهب إلى أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ومعه السبعون رجلا مصداقًا لقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

ومنهم من يذهب إلى أنهما ميقاتان وليس ميقاتًا واحدًا[3].

يقول ابن عطية الأندلسي: «معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاء ليكون منه ومنهم اعتذارٌ إلى الله عز وجل من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلبٌ لكمال العفو عمن بقي منهم»[4].

نادى الله نبيه موسى عليه السلام: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف:١٤٤-١٤٥].

وبصرف النظر عن عدد الألواح ونوع مادتها؛ فقد قال القرآن إنها احتوت من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء، وهو ما فسره ابن عاشور: «أي: كل شيء تحتاج إليه الأمة في دينها... والذي كتب الله لموسى في الألواح هو أصول كليات هامة للشريعة التي أوحى الله بها إلى موسى عليه السلام»[5].

والتوراة كما وصفها القرآن تضمنت تشريعات جديدة أحلت بعض ما كان محرمًا على بني إسرائيل.

يقول تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٥٥.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٤٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٢٦.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩.
(٥) التحرير والتنوير ٩/ ٩٧.

﴿وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ [آل عمران:٥٠].

كما تضمنت أحكامًا تنظم حياة الناس ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣﴾ [المائدة:٤٣].

وهي كتاب هداية وإرشاد ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ [المائدة:٤٤].

كما تضمنت التوراة بشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ [الأعراف:١٥٧].

وفي القرآن على لسان عيسى عليه السلام: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وعاب القرآن على اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة وما جاء فيها وشبههم أسوأ تشبيه، يقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥].

ومن عجيب أمر بني إسرائيل أنهم لما نجاهم الله عز وجل من فرعون مصر وأراهم المعجزات والآيات واحدة تلو الأخرى طلبوا من موسى أن يتخذ لهم إلهًا صنمًا، ويحكي القرآن هذه المأساة الحقيقية.

يقول تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٣٩ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝١٤٠﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠].

ويبدو أن غياب موسى عنهم مدة الأربعين يومًا جعلهم يتخبطون وفي غيهم يترددون.

يقول البقاعي في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ۝٨٣﴾ [طه:٨٣]: «أي: أي شيء أوجب لك العجلة في المجيء عن قومك وإن كنت بادرت مبادرة المبالغ في الاسترضاء، أما علمت أن حدود الملوك لا ينبغي تجاوزها بتقدم أو تأخر؟!»[1].

لكن موسى كان حسن الظن أكثر مما ينبغي فقال: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾ [طه:٨٤-٨٥].

(١) نظم الدرر ١٢/ ٣٢٢.

لقد أخبره الله تعالى بما كان من قومه الذين عبدوا العجل رغم نهي هارون لهم.

لكن ما سبب هذه الردة العقدية؟!

ويرجع الدكتور محمود مزروعة نزوع بني إسرائيل إلى عبادة العجل وقت غياب موسى إلى عدة أسباب أهمها: القاعدة التاريخية المعروفة بولع المغلوب بتقليد الغالب، وميل بني إسرائيل بطبيعتهم إلى تقديس المادية، وطول العهد الذي قضوه بين المصريين مما أنساهم كثيرًا من أركان دينهم[1].

وتصور الآيات عودة موسى غاضبًا من فعلة قومه الشنيعة ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٨٦-٩١].

والسامري هو كلمة السر التي كان لها الأثر الأكبر في قوم موسى، فهو من أقنعهم بأنهم في حاجة إلى إله يصنعونه من الذهب الذي جاؤوا به عندما خرجوا إلى سيناء، ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٤٨].

وتلك آفة قديمة أن يدعي البعض احتكار الحقيقة دون غيره؛ فيسمع له من لا عقل له، ويخضع من لا حيلة له.

ويبدو أن بعضهم قد آب إلى نفسه وأفاق من سكراته قبل أن يرجع موسى عليه السلام إليهم، ويصور لنا القرآن مشهد ندمهم على هذا الضلال المبين.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف:١٤٩].

ويسجل القرآن مشهد عودة موسى عليه السلام الغاضب مما فعله قومه بجهلهم، وكيف كان عتابه على قومه وأخيه هارون شديدًا.

يقول عز وجل: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَٰحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:١٥٠].

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه:٩٢-٩٣].

(١) انظر: الدين وحاجة الإنسانية إليه، ص ١٥١.

وقد روج بعض من لا يجيدون التعامل مع الخطاب القرآني أن هناك تواطؤًا من جانب هارون عليه السلام بدليل غضب موسى عليه السلام على النحو الذي أشارت إليه الآيات، لكن هذا ما ينفيه القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥].

فموسى يعلم قبل أن يرجع إلى قومه أن سبب ضلال قومه هو السامري وليس هارون، وقد شرح الأخير ما حدث معه ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥٠].

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٤].

فالآيات هنا تشير إلى أن القوم تكالبوا عليه واستضعفوه وقت غياب أخيه، وصمموا على عبادة العجل رغم نصحه لهم ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٩٠-٩١].

إن هارون كما يبدو من قوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤].

آثر أن يقدم النصيحة بلسانه للضالين من قومه دون أن يغير المنكر بيده ومعه بعض من رفضوا عبادة العجل حتى لا يحدث شرخًا بين بني إسرائيل، وربما اقتتلوا؛ ومن ثم آثر أن ينتظر حتى يعود أخوه.

على أن الشيخ الطاهر ابن عاشور يقول: «وأما أخذه برأس أخيه هارون يجره إليه، أي: إمساكه بشعر رأسه، وذلك يؤلمه، فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدة على عبدة العجل، واقتصاره على تغيير ذلك عليهم بالقول، وذلك دليل على أنه غير معذور في اجتهاده الذي أفصح عنه بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤].

لأن ضعف مستنده جعله بحيث يستحق التأديب، ولم يكن له عذرًا، وكان موسى هو الرسول لبني إسرائيل، وما هارون إلا من جملة قومه بهذا الاعتبار، وإنما كان هارون رسولًا مع موسى لفرعون خاصة، ولذلك لم يسع هارون إلا الاعتذار والاستصفاح منه. وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد، ولا يظن بأن موسى عاقب هارون قبل تحقق التقصير»[(١)].

فهو يرى أن اجتهاد هارون كان في غير محله، ومن ثم استوجب تعنيف أخيه.

وبعد أن توجه موسى بحديثه إلى قومه،

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١١٦.

ثم ما كان منه مع هارون، وحتى تتضح الصورة أكثر توجه بالخطاب إلى السامري الذي أضل بني إسرائيل وسول لهم عبادة العجل تشبهًا بالوثنيين ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧﴾ [طه:٩٥-٩٧].

ويفسر صاحب الظلال هذا الترتيب السليم في الاستجواب قائلا: «عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها. إنما لم يتوجه إليه منذ البدء؛ لأن القوم هم المسئولون ألا يتبعوا كل ناعق، وهارون هو المسئول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم. فأما السامري فذنبه يجيء متأخرا؟ لأنه لم يفتنهم بالقوة ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغووا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثاني. فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك. ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرًا»[1].

وهكذا ينتهي موسى من مساءلة قومه وأخيه والسامري وذهب عنه الغضب حمل الألواح ثانية ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَٰحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤﴾ [الأعراف:١٥٤].

ثم إن الله تعالى توعد الذين أضلوا بني إسرائيل بعبادة العجل، مع ترك الباب مفتوحًا أمام من غرر بهم للتوبة والرجوع إلى الله، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ۝١٥٢ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٥٣﴾ [الأعراف:١٥٢-١٥٣].

وقد تاب الله على من تاب منهم وعفا عنهم كما أشارت الآيات ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾ [البقرة:٥١-٥٢].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٨.

موسى عليه السلام والعبد الصالح

رغم تكرار كثير من تفاصيل حياة نبي الله موسى عليه السلام في القرآن الكريم بشكل لافت للنظر إلا أن قصته مع العبد الصالح لم تذكر إلا في موضع واحد في سورة الكهف رغم انطوائها على دروس تربوية واجتماعية ونفسية ودعوية، لكن السورة لم تورد شيئًا عن سبب هذا اللقاء الذي جمع بينهما.

ثمة أحاديث نبوية مطهرة تكفلت بهذه الحلقة التي لم يتناولها القرآن، ففي الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بينما موسى في ملإٍ من بني إسرائيل جاءه رجلٌ فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى، عبدنا خضرٌ، فسأل موسى السبيل إليه)[1].

ويبدو أن حديث موسى عليه السلام كان مفعمًا بالمشاعر الرقيقة الجياشة التي جعلت العيون تدمع من صدق لهجته وصادق موعظته، ففي حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (موسى رسول الله ذكر الناس يومًا حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب)[2].

فسبب اللقاء كما في الحديث الشريف هو إعجاب موسى عليه السلام بعلمه عندما سئل إن كان هناك من هو أعلم منه أم لا؛ فأراد الله تعالى أن يعلم نبيه فجاء الأمر الإلهي إليه أن يتوجه إلى لقاء رجل حاز من العلم ما لم يحزه؛ فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نونٍ كما في الحديث السابق.

ولا يعول على ما ورد عن أهل الكتاب أن موسى هنا ليس موسى بن عمران النبي عليه السلام إنما هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل؛ فليس في القرآن إلا ابن عمران النبي، ولو كان الأمر خاصًا بغيره لنبه القرآن على ذلك، ومن ثم فالسياق القرآني حاكم، فضلا عن أحاديث صحيحة منها ما روي عن سعيد بن جبيرٍ، قال: «قيل لابن عباسٍ: إن نوفًا يزعم أن موسى الذي ذهب يلتمس العلم ليس بموسى بني إسرائيل، قال: أسمعته يا سعيد؟ قلت: نعم، قال: كذب نوفٌ»[3].

وفي ذلك يقول ابن كثير: «والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن، ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه، أنه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى العبد الصالح، رقم ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الكهف، رقم ٤٣٨٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل العبد الصالح عليه السلام، رقم ٢٣٨٠.

موسى بن عمران، صاحب بني إسرائيل»[1].

واختلف المؤرخون والمفسرون حول العبد الصالح اختلافا لا يتسع له المقام حول اسمه ونسبه ونبوته؛ بل ذهب البعض إلى القول إنه حي لم يمت حتى الآن[2].

كما اختلفوا في المكان الذي سماه القرآن ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ لكننا لن نتوقف كثيرًا أمام تفاصيل سكت عنها القرآن لحكم إلهية يعلمها الله، ونحاول ما استطعنا إلى ذلك سبيلا أن نحلق حول حزمة الآيات التي تناولت القصة والوقوف على ما تيسر من المقاصد والعبر.

تبدأ القصة ببيان حرص موسى عليه السلام ودأبه على طلب العلم امتثالا لأمر ربه ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠].

قال الفخر الرازي: «يعني: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ كما تقول: لا أبرح المكان»[3].

ثم يمضي موسى عليه السلام مع فتاه إلى المكان المقصود ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف:٦١-٦٢].

يقول ابن قيم الجوزية: «لما سافر موسى إلى العبد الصالح وجد في طريقه مس الجوع والنصب؛ فقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ فإنه سفرٌ إلى مخلوق. ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب فإنه سفرٌ إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين»[4].

كانت المفاجأة التي ينتظرها موسى عليه السلام؛ فقد قال له يوشع: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف:٦٣].

لكن موسى ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف:٦٤].

وهنالك كانت اللقيا، وفي الحديث الشريف بعض تفاصيلها: (وانطلق بفتاه يوشع بن نونٍ، وحملا حوتًا في مكتلٍ، حتى كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما، فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وكان لموسى وفتاه عجبًا،

(١) البداية والنهاية ٢/ ١٧٠.
وانظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله، رقم ١٢٢.

(٢) انظر:: جامع البيان، الطبري ١/ ٣٦٥، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٢٤٣، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ١٢١.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٧٩.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٢٠٣.

فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ولم يجد موسى مسًا من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾).

لقد وجد موسى عليه السلام ويوشع رجلا وصفه الله تعالى بأنه كان ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

فمن العلم ما يكون بالاجتهاد والتحصيل، ومنه ما يكون لدنيًا يهبه الله من يشاء من عباده، وفي كل الأحوال لابد أن يقترن العلم بالرحمة؛ بل تتقدم الرحمة على العلم؛ لأن المتعلم أسير عند معلمه، فكان الرفق به واجبًا.

استأذن موسى عليه السلام العبد الصالح في تحصيل العلم على يديه ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

وهذا من آداب المتعلم أن يقدم الإذن بين يدي شيخه ومعلمه في تواضع وإخبات لا في كبر واستعلاء، لكن الرجل قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف:٦٧].

وبرر ذلك بقوله متسائلا: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف:٦٨].

لكن موسى الذي جعله ربه في موضع المتعلم قال للرجل: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف:٦٩].

فأعطاه بذلك عهدًا أن يطيعه فلا يعصي أمره، وهو ما جعل الرجل يشترط عليه مرة أخرى إمعانًا في التأكيد ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:٧٠].

وفي الحديث: (فلما انتهيا إلى الصخرة، إذا رجلٌ مسجّى بثوبٍ، أو قال تسجى بثوبه، فسلم موسى، فقال العبد الصالح: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدًا قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا، يا موسى إني على علمٍ من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علمٍ علمكه لا أعلمه، قال: ستجدني إن شاء الله صابرًا، ولا أعصي لك أمرًا).

ثم انطلقا لتبدأ رحلة الأعاجيب التي حكاها القرآن في قالب مشوق يجعل القارئ شغوفًا بما تؤول إليه الأحداث.

وفي الحديث (فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينةٌ، فمرت بهما سفينةٌ، فكلموهم أن يحملوهما، فعرف العبد الصالح فحملوهما بغير نولٍ، فجاء

عصفورٌ، فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرةً أو نقرتين في البحر، فقال العبد الصالح: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر).

وهنا الدرس الأول لموسى: قصور علمه وضآلته أمام علم الله تعالى.

كان من الطبيعي وبسبب عدم إحاطة موسى بحقيقة الأمر أن تؤرقه تصرفات الرجل المفاجئة، وكانت الصدمة الأولى عنيفة عندما ﴿رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف:٧١].

فقد خان موسى عليه السلام ثباته الانفعالي ونسي عهده بعدم السؤال عن شيء؛ فاستنكر عليه خرق السفينة لإغراق أهلها رغم إكرام أصحابها لهما وحملهما بدون أجرة، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟! فذكره الرجل بالاتفاق ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف:٧٢].

وسرعان ما آب موسى إلى نفسه وقدم الاعتذار بين يدي المعلم ملتمسًا: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧٣].

في الحديث: (فعمد العبد الصالح إلى لوحٍ من ألواح السفينة، فنزعه، فقال موسى: قومٌ حملونا بغير نولٍ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرًا، فكانت الأولى من موسى نسيانًا).

ثم إنهما انطلقا فقابلا غلاما فقتله العبد الصالح؛ فارتاع موسى عليه السلام وقال في استهجان: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف:٧٤].

عندها رد العبد الصالح: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف:٧٥].

تذكر موسى العهد فأعاد الاعتذار مرة أخرى طالبًا الصفح؛ بل اشترط على نفسه قائلا للخضر: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٦].

في الحديث: (فانطلقا، فإذا غلامٌ يلعب مع الغلمان، فأخذ العبد الصالح برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفسًا زكيةً بغير نفسٍ؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟).

ثم كان الموقف الثالث الذي جعله يفارق موسى، يحكي القرآن ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف:٧٧].

ويبدو أن مالهما قد نفد أو كاد، أو أن موسى أراد للخضر أن يأخذ أجرة بعد

عدم تضييفهما في القرية، ومن ثم اقترح عليه قائلا: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

ولكن العبد الصالح رأى في ذلك إخلالا بالاتفاق المرسوم بينهما فبادر إلى الفراق ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف:٧٨].

ولم ينس أن يخبر موسى عليه السلام عن الحقائق الغائبة عنه حتى يحسن الظن به.

وفي الحديث: (فانطلقا، حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه، قال العبد الصالح: بيده فأقامه، فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجرًا، قال: هذا فراق بيني وبينك) قال النبي صلى الله عليه وسلم: يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما).

بدأ العبد الصالح بيان الأسباب التي دعته إلى هذه التصرفات التي رآها موسى جرائم لا يمكن السكوت عنها، فأي عقل هذا الذي يجعله يصدق أن خيرًا خفيًا يكمن وراء خرق السفينة بدلا من الوفاء لهم جزاء إحسانهم، أو قتل الغلام الذي لم يروا منه بأسًا، أو ترميم جدارٍ دون أخذ أجرة عليه رغم سوء معاملة أهل القرية لهما؟!

لقد نسي موسى عليه السلام أنه ذهب متعلمًا، ومن ثم أنكر عليه أفعاله؛ وهكذا النفوس المجبولة على الخيرية لا يمكنها أن تتغاضى عن إنكار المنكر مهما تكلفوا؛ لكن الواقع أثبت أن موسى لم يكن يعلم من الأمور إلا ظاهرها، لا كما العبد الصالح الذي أطلعه الله على بعض الغيبيات فتصرف على هذا الأساس.

قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٧٩-٨٢].

وهكذا تكشفت المقاصد الخفية وراء هذه الأحداث الغريبة التي أصابت موسى بالقلق والاضطراب طيلة الرحلة؛ فأدرك حينها قصور علمه ووجوب التواضع وعدم نسيان نعمة الله عليه.

الدروس المستفادة من قصة موسى

١. إن عناية الله تعالى بموسى عليه السلام تجعل العاقل في اطمئنان لقضاء الله، فمن يتخيل أن ينجو الرضيع بالإلقاء في البحر، ويربى في بيت عدوه وعدو قومه الذي سيزول ملكه على يده، ويجعل زوجة الفرعون هي مربيته وحاضنته، والمصريون هم حاشيته وخدمه، وأمه هي مرضعته، فلا امتدت يد الذبح إليه، ولا هو فارق أمه، وقد رباه حتى شب من سيقف في وجهه يومًا؛ يدعوه إلى عبادة الله الواحد، ورفع نير العبودية عن بني إسرائيل.

٢. عاش موسى عليه السلام في بيت فرعون يرفل في النعيم لكنه لم ينس أصله وقضيته، فرعاية الله تعالى له وحفظه في بيت عدوه لم تكن من أجل حفظ موسى؛ بل لرسالة سيحملها ويكلف بتبليغها إلى فرعون للخروج ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم.

٣. على المؤمن أن يستعين دومًا بربه ليهديه، فموسى عليه السلام كان دائمًا معتمدًا على ربه، محتاطًا في أمره، متخذًا الوسائل والأسباب المناسبة، استعان بربه وقت خروجه من مصر، وساعة دخوله مدين، وأثناء عودته، ووقت مواجهته لفرعون لما دعاه ثم آذاه وتبعه حتى أغرق، وطول مخالطته لبني إسرائيل.

٤. المروءة من أخلاق العظماء التي تتجلى حينما يبذل الإنسان من وقته وجهده وماله ولا ينتظر جزاءً أو شكورًا من أحد، ولا يجرمن النبلاء أن المروءة قد تصل بأصحابها إلى حد إهلاك المال والأنفس.

٥. للعمل قيمةٌ عظيمة أدركها الأنبياء، فموسى عليه السلام لم يرض أن يكون عالةً على أحد، فعمل أجيرًا لسنوات طويلة، وقضى من عمره عقدًا كاملًا -أو أقل قليلا- في خدمة صهره؛ لزواجه من ابنته، وهو الذي عاش في القصور لم يأنف خدمة الآخرين، ولكنه وطن نفسه لتحمل المشاق، وتغير أحوال الزمان، ودار مع أحواله جميعًا بالرضى.

٦. وفاء موسى عليه السلام مع الشيخ نموذج يحتذى به، فقد أدى ما عليه، ولم تزده الأيام إلا وفاءً لصهره ورب عمله؛ وكان من المحتمل بعد زواجه من ابنته أن يتبرم أو ينكث، ولكنه صبر على العمل حتى وفى ما عليه، وربما زاد عليه.

٧. كثيرٌ من الناس لا يؤمن إلا بما هو محسوس وملموس، وينكر ما لا يقع تحت حواسه، وهذا مجاف للواقع، وما لا يراه الإنسان أكثر بكثير مما يراه، ولو أنكر ما لا يقع تحت حسه لأنكر ضروريات، ولخسر خسرانًا مبينًا؛ فالجنة والنار غيب، والقيامة غيب، والملائكة غيب، فإذا أنكر الإنسان ما جاءت به الرسل لعدم وقوعها تحت حسه، فالخسران والبوار في انتظاره عند تحقق ما كان ينكره.

٨. فارق بين الخوف المشروع والخوف المذموم؛ فطبيعة الإنسان قد تخاف وترهب بعض الأمور، فالإنسان يخشى على نفسه التلف والهلكة، ويخشى من بعض الحيوانات المفترسة، ويخاف على أولاده وذويه فيضعف عند الضغط عليه ومساومته، فهذه فطرة في معظم البشر، ولكن أصحاب الهمم العالية يتجاوزون خوفهم، ويستمدون القوة من الله تعالى، ولا يجبنون، ويواجهون الشدائد بعزم وثبات.

٩. النسب غير مانع من الاستعانة في العمل لا سيما الدعوي طالما كان الشخص مهيئًا لذلك، فبه يكون شد العزم والتثبيت، وهو الخليفة والقائد في الغياب، وعليه يكون التعويل في الشدائد، وقد حاول موسى عليه السلام الاستفادة من قدرات أخيه في خدمة الدعوة.

١٠. تحول سحرة فرعون في لحظات من خندق الكفر إلى خندق الإيمان، وهكذا يفعل الإيمان بالقلوب النقية الصافية، بينما يستمر الجاحدون على جحودهم لا يؤمنون رغم وضوح الآيات وإبهارها، ولهذا على الداعية ألا ييأس من مدعويه، فما يدريك لعل عدو الأمس يصبح صديق اليوم.

١١. لا يجد المستبدون بدًا من اللجوء إلى سلطتهم وقوتهم الغاشمة التي لا يعرفون غيرها، وتلك عادة الطغاة الذين لا يحتكمون إلى قواعد العقل والمنطق؛ وإنما تتجاوز أحلامهم سقف المعقول، فيبطشون بمن يعارضهم ولا ينزل على رأيهم، ويظنون أن قوتهم غالبة، ولكنهم يكونون في أضعف حالاتهم؛ إذ إن من يقف في وجوههم يكون أقوى منهم بإيمانه ويقينه وثباته.

١٢. ضاقت السبل بفرعون ولم يجد وسيلة لإيقاف الدعوة الجديدة، فالقتل والتشريد والسحل والتعذيب لم يجد مع أتباع موسى عليه السلام نفعًا، وبالتالي يحتاج إلى تغيير خطته، فكان التفكير في وسيلة ناجعة يتخلص بها

ممن يؤرق ملكه وملك أبنائه من بعده، فكان قراره بالتخلص من موسى نفسه متناسيًا أن الفكرة لا تموت، وأنه مهما تضافرت المحن سيظل هناك مؤمنون يضحون من أجل الدين بأغلى ما لديهم.

١٣. الدنيا لا تعدم الخير حتى في أشد الأماكن فسادًا وعطنًا فقد انبرى رجل مؤمن في بلاط فرعون المستبد مدافعًا عن موسى عليه السلام ومتحدثًا بلغة العقل والمنطق، محاولًا الأخذ بيد قومه إلى الحق والرشد، ومحذرًا لهم من عاقبة التكذيب والعناد، وضاربًا لهم المثل بالأمم السابقة وما حدث لها جراء تجاهلهم للحق وتكذيبهم أنبياءهم.

١٤. الحكام الجائرون لا يتركون طريقًا إلا سلكوها في سبيل تثبيت أركان ملكهم العضوض، فيسلكون سبيل الحوار إن كان يؤدي إلى ما يريدون، فإذا خاب سعيهم بحثوا عن وسائل أخرى تحقق مبتغاهم، حيث الترهيب والترغيب، ويكون في سيوفهم رهق دائمًا.

١٥. إن نهاية فرعون وهامان وجنودهما المستحقة تجعل المؤمنين يثقون بنصر ربهم وصدق موعوده لهم بأن القهر والاستبداد مهما طال بهم فسيأتي اليوم الذي يسعدون به وتقر أعينهم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥﴾ [القصص:٥]. وتلك هي سنة الله تعالى في خلقه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور:٥٥].

١٦. الطبع يغلب التطبع، فقد عاود بنو إسرائيل التمرد بدلا من شكر النعم، ويحكي القرآن ما دار بين موسى عليه السلام وقومه وكيف تبدلوا الخبيث بالطيب؛ فطلبوا عبادة العجل، واشتهاء الدون من الطعام، كأنهم يتمردون على ربهم الذي أنجاهم ممن كاد أن يهلكهم، وقد نال موسى من قومه شدائد عظامًا لا يقدر عليها إلا أمثاله من أولي العزم.

١٧. أحس موسى عليه السلام بالذنب عندما طلب رؤية الله فطلب التوبة، وأقر بالإيمان الكامل بربه وخالقه دون أن يراه، وهكذا المؤمن يؤمن بالغيب إيمانًا لا يتزعزع، ويثق فيما غاب عنه

كأنه يعاينه طالما جاء به الخبر الصادق. وإذ لكل حادث حديث؛ فإن هناك من الأمور ما لم يأت وقته، فلا يصح أن نعجل عليها.

١٨. كان من العجب أن يتجه بنو إسرائيل إلى عبادة العجل، بعد أن رأوا إهلاك الله لعدوهم، وإنجاءه لهم، وانفلاق البحر، وكلها مشاهد عجيبة لا تحدث في تاريخ البشرية إلا مرة واحدة، ثم يكون انطماس البصائر، والحنين إلى الشرك الذي كان عليه المصريون من عبادة الأوثان وترك توحيد الديان.

١٩. عصيان بني إسرائيل لموسى وعدم دخول الأرض المقدسة أوجب عليهم أن يقعوا في التيه جيلًا كاملًا؛ حتى يأتي جيل جديد يفعل ما أمره الله به، ولا يخاف أحدًا إلا الله، ويتبع أنبياءه وقادته الذين هم الأدلاء لهم إلى طريق الحق والنصر، فالعقوبة شديدة على قدر الذنب، والنصر يأتي مع الطاعة وبها.

٢٠. المسلم مطالب بالتأمل في مصير الأولين وأخذ العبرة والموعظة بعيدًا عن التفاصيل التي سكت عنها القرآن، وهو الأمر الذي عودنا القرآن إياه مع الأمور التي قد لا ينفع العلم بها، والجهل بها لا يضر.

٢١. قد يعلو صوت الباطل مدة تطول أو تقصر، لكن يأتي اليوم الذي يتكشف فيه زيفهم، وينتصر الحق الذي كان مستضعفًا، ويندحر الباطل الذي كان منتفشًا، وعندها يفرح المؤمنون بنصر الله، ويخزى أهل الباطل لا ريب.

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، التوراة، فرعون، الكتب المنزلة، مدين، النبوة

الميثاق

عناصر الموضوع

مفهوم الميثاق	٦٨
الميثاق في الاستعمال القرآني	٦٩
الألفاظ ذات الصلة	٧٠
أساليب القرآن في الحديث عن الميثاق	٧٢
أنواع الميثاق	٧٧
الوفاء بالميثاق	١٠٠
آثار نقض الميثاق	١٠٩
صفات ناقضي الميثاق	١١٧

مفهوم الميثاق

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «وثق، الواو والثاء والقاف كلمة تدل على عقد وإحكام»[1].

ووثقت الشيء: أحكمته، ووثق الرجل: قال: إنه ثقة. ووثق به وثاقة وثقةً أي: ائتمنه، وواثقه: إذا عاهده أو عاقده، والتوثيق: التثبيت والتقوية، وأرض وثيقة: كثيرة العشب موثوق بها، والوثيق: الشيء المحكم[2].

ومن خلال النظر في معاني الميثاق في اللغة فإنه يمكن إجمال هذه المعاني فيما يأتي:

١. العهد المحكم.
٢. العقد والإحكام.
٣. التقوية والتثبيت.
٤. الشد والربط.
٥. الأخذ بالوثاقة والوثيقة.
٦. الاستحلاف واليمين[3].

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

الميثاق اصطلاحًا: «هو العقد المؤكد إما بوعيدٍ أو بيمينٍ»[4].

وعرف الإمام أبو جعفر الطبري الميثاق بقوله: «الميثاق من الوثيقة، وهي إما بيمين، وإما بعهد أو غير ذلك من الوثائق»[5].

قال صاحب المنار: «العهد ما يتفق رجلان أو فريقان من الناس على التزامه بينهما لمصلحتهما المشتركة، فإن أكداه ووثقاه بما يقتضي زيادة العناية بحفظه والوفاء به سمي ميثاقًا»[6].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ٦/ ٥٤٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٧١، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٤٥٠.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٥٤٤، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٧١، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٤٥٠.
(٤) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٧.
(٥) انظر: جامع البيان ٢/ ١٥٦.
(٦) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٦٧.

الميثاق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وثق) في القرآن الكريم (٣٤) مرة، يخص موضوع الميثاق منها (٣١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ [المائدة:٧]
المصدر الميمي	٣	﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٦٦]
اسم التفضيل	٢	﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]
الأسماء	٢٥	﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء:٢١]

وجاء الميثاق في القرآن بمعناها اللغوي وهو: عقد مؤكد بيمين وعهد[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٤١.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٨٥، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٥٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٥٨، عمدة الحفاظ ٤/ ٢٨٢-٢٨٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ العهد:

العهد لغةً:

هو الموثق الذي يعطيه الإنسان لغيره، ويقال: عهد إليه، أي: أوصاه. فهو: التزام بين اثنين أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به، وسمي عهدًا لأنهما يتحالفان بعهد الله، أي: بأن يكون الله رقيبًا عليهما في ذلك[١].

العهد اصطلاحًا:

قال الراغب: حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال[٢].

وقيل: هو الميثاق واليمين التي يستوثق بها المعاهد ممن عاهده ويلزم مراعاته[٣].

الصلة بين العهد والميثاق:

- إن العهد أعم من الميثاق، حيث يأتي العهد لمعان غير معنى الميثاق، أما (الميثاق) فهو أخص من العهد، ولفظ (الميثاق) عند المفسرين يأتي بمعنى العهد.
- إن العهد في القرآن الكريم يأتي بمعنى الميثاق، حيث إن كثيرًا من الآيات التي جاءت بلفظ العهد هي بمعنى الميثاق، كقوله تعالى عن اليهود: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾ [البقرة:١٠٠].

٢ البيعة:

البيعة لغة:

هي العهد على الطاعة، وهي في الأصل: الصفقة من البيع، ثم استعملت في العهد والميثاق، وأصل ذلك كله من الصفق باليد؛ لأن المتعاهدين والمتبايعين يضع أحدهما يده في يد الآخر[٤].

البيعة اصطلاحًا:

هي العقد الذي يعقده الناس على أنفسهم من بذل الطاعة للإمام، وتسليم النظر له في

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٨٩.
(٢) المفردات ص٥٩١.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٥٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٤٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٣٧٠، تحرير ألفاظ التنبيه، النووي ص ٢٧٦، المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي ص٤٧٢، جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٠٦.

أمور أنفسهم، وعدم منازعته في شيء من ذلك، وطاعته فيما يكلفهم به من الأمر، على المنشط والمكره، والوفاء بالعهد الذي التزموه له[١].

الصلة بين البيعة والميثاق:

أن البيعة نوع من أنواع الميثاق، وهي تختص بالجوانب السياسية أو الجهاد أو غير ذلك.

٣ العقد:

العقد لغة:

قال ابن فارس: «عقد: العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها، من ذلك عقد البناء، والجمع أعقاد وعقود، وهو نقيض الحل، ويأتي بمعنى العهد، ويأتي بمعنى الربط بين أطراف الشيء[٢].

العقد اصطلاحًا:

وهو اتفاق بين طرفين يلتزم بمقتضاه كل منهما تنفيذ ما اتفقا عليه، ويجمع على عقود[٣].

الصلة بين العقد والميثاق:

- إن الميثاق عقد موثق بيمين، لا يجوز نقضه بحال إن كان مع الله تعالى، وإن كان بين الناس فيجب الوفاء به إلا أن ينقضه الطرف الآخر.
- إن العقد من معانيه العهد والميثاق، وذلك من خلال كونه التزاما لا يجوز نقضه، فهو بهذا المعنى قريب من معنى العقد بالإطلاق العام وأعم منه بالإطلاق الخاص[٤].
- إن العقد ارتباط إيجاب بقبول على وجه مشروع يثبت أثره في محله، أو هو: التزام المتعاقدين وتعهدهما أمرا معينا[٥]، وبذلك يكون العقد ميثاقا وعهدا والتزاما وإلزاما باستيثاق بخلاف العهد فإنه قد يكون باستيثاق وقد لا يكون[٦].

---

(١) انظر: تحرير ألفاظ التنبيه، النووي ص ٢٧٦، التراتيب الإدارية، الكتاني ١/ ١٩٨، السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، عبد الوهاب خلاف ص٦٠، الخلافة، محمد رشيد رضا ص٣٢.

(٢) انظر: مقاييس اللغة ٤/ ٨٦، لسان العرب، ٣/ ٣٦٣.

(٣) التعريفات، ص ١٥٥.

(٤) انظر: رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين ٢/ ٣٥٥، المنثور في القواعد الفقهية، الزركشي ٢/ ٣٩٧، الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٠/ ١٩٩.

(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٥٣.

(٦) انظر: رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين ٢/ ٣٥٥، المنثور في القواعد الفقهية، الزركشي ٢/ ٣٩٧، المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا ١/ ٢٩١، الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٠/ ١٩٩.

أساليب القرآن في الحديث عن الميثاق

عرض القرآن الكريم قضية الميثاق على عدة أساليب، أهمها ما يأتي:

أولًا: الخبر:

جاءت آيات كثيرة بصيغة الخبر مفيدة عاقبة نقض العهد، أو جزاء الوفاء بالميثاق.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٦- ٢٧].

وكما أن الضلال والفسق عاقبة الناقضين لعهد الله تأتي آية أخرى لتقابل معنى هذه الآية حيث جعل التقوى جزاء من أوفى بعهده: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران:٧٦].

وهذا الأسلوب رائع، حيث جعل نقض العهد في الآية الأولى ملازما للفسق، وجعل التقوى في الآية الثانية ملازمة للوفاء بالعهد، وهذا فيه من البيان والبديع ما فيه[1].

وفي آية أخرى يأتي الخبر في سياق التذكير والامتنان: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة:٦٣- ٦٤].

هذه صيغة تحيي القلوب الميتة، وأسلوب يدعو إلى الشكر والإيمان والوفاء، لمن في قلبه ذرة من كرم أو حياء.

ونجد أسلوب المقابلة بصيغة خبرية رائعة، والمقابلة نوع من البلاغة بديع، وهذا الأسلوب له أثره الإيجابي في النفس تلاوة واعتبارًا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٠-٢٤].

ثم يذكر ما يقابل ذلك عملًا وأثرًا.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥].

وتتعدد الصيغ الخبرية، وكلها تعرض

(١) انظر: الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٤ رسالة ماجستير من جامعة المدينة العالمية، كلية العلوم الإسلامية، ماليزيا، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م.

بأسلوب جميل، فمرة تأتي بسياق الأمر، وأخرى في معرض النهي وثالثة مسبوقة بجملة استفهامية[1].

ثانيًا: النهي:

ورد النهي عن نقض الميثاق بصيغة طلبية وبأسلوب خبري.

يقول تعالى في سورة النحل بعد الأمر بالوفاء بالعهد: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل:٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [النحل:٩٥].

وهذا نهي صريح عن نقض العهود والمواثيق.

أما الأسلوب الخبري وهو يحمل معنى النهي فقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد:٢٠] فمدلوله لا تنقضوا الميثاق لتكونوا من أولي الألباب[2].

ثالثًا: الاستفهام:

ورد الميثاق بصيغة الاستفهام التوبيخي في عدة آيات، منها قوله تعالى موبخا بني إسرائيل على سوء أفعالهم وخيانتهم الميثاق: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف:١٦٩].

ويبين الله تعالى ما سيوجه للكافرين يوم القيامة من توبيخ وتقريع لتفريطهم بالعهد والميثاق الذي عهده الله إليهم فضيعوه: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس:٦٠- ٦١].

وجاء الاستفهام إنكاريًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة:٨٠][3].

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤١٣، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٢٠٥، الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٤.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٨٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٦٣، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ١٤٧، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٢٧، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٤٥٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٦٢، الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٢.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٥٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٣٨، البحر المحيط، أبو حيان ٩ / ٧٥، الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٢.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ [التوبة:٧][1].

ويستمر عرض موضوع العهد والميثاق بأسلوب الاستفهام، فيأتي الاستفهام بمعنى النفي: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١١﴾ [التوبة:١١١].

وهكذا يكون الاستفهام بأنواعه أحد الأساليب البلاغية التي عرضت فيها قضية الميثاق توبيخا وإنكارا ونفيا[2].

رابعًا: الإجمال والبيان:

أجمل القرآن الكريم قضية الميثاق في مواضع، وبين وفصل في مواضع أخر، وهذا أسلوب بلاغي رفيع، ففي الإجمال لا إخلال، وفي البيان لا حشو ولا إسهاب.

فقد ذكر الله في سورة البقرة أنه قد أخذ الميثاق على بني إسرائيل دون أن يبين أو يفصل في ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [البقرة:٦٣].

فتتشوق النفوس وتتطلع الأفئدة لمعرفة ذلك الميثاق، وسرعان ما يأتي البيان والتفصيل في آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾ [البقرة:٨٣][3].

ويأتي زيادة بيان وتفصيل لهذا الميثاق بقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٢﴾ [المائدة:١٢].

وكذلك ذكر الله أخذ الميثاق على النبيين ولم يفصل فيه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب:٧].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٤١، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ١٣، الوجيز، الواحدي ص ٤٥٤، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٤٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨، الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٧٨، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٣٢٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ١٠٨، الميثاق في القرآن، بلقاسم أميري ص٤٣.

ثم فصل وبين ما أجمل بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

والمعنى أنه تعالى أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه في إقامة دين الله تعالى، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق مع المبعوث بعده، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته[(١)].

خامسًا: الترغيب والترهيب والوعد والوعيد:

إن من أبرز الأساليب القرآنية في قضية الميثاق أسلوب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، بل إن أغلب الآيات التي وردت في هذا المجال لا تخلو من أحد هذين الأسلوبين، وفي آيات منها يأتي الجمع بين الترغيب والترهيب في آية واحدة، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٠-٢٥].

فقد بينت الآيات جزاء الذين يوفون بالميثاق بأن لهم جنات عدن، وأن لهم عقبى الدار، والتي هي الجنة، كما بينت جزاء الذين ينقضون الميثاق بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار، والتي هي النار[(٢)].

ومن الآيات التي جمعت بين الوعد والوعيد وبينت جزاء الوفاء بالميثاق وعاقبة الكفر والعصيان قوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٥٤، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٥٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨٦، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٥٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٧٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٢٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٧٠.

مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة:١٢].

وهناك آيات تعرض القضية بأسلوب آخر في معرض الترغيب: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون:١-٨].

فما هو جزاؤهم، وماذا أعد الله لهم؟ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١٠- ١١].

ويأتي الوعيد مخيفًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران:٧٧].

ولم يقتصر التهديد والوعيد على الآخرة فقط، بل هناك تهديد ووعيد دنيوي؟ لا يدع مجالا للمتلاعبين والخائنين الناقضين مواثيقهم: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال:٥٦-٥٨][1].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٥٤، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٥٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٨٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٧٠.

أنواع الميثاق

إن الميثاق في القرآن الكريم على نوعين رئيسين: الأول: ميثاق الله مع الخلق، والثاني: الميثاق بين الخلق، والأول على خمسة أنواع، وهي: ميثاق الله مع بني آدم، وميثاق الله مع النبيين، وميثاق الله مع المؤمنين، وميثاق الله مع بني إسرائيل، وميثاق الله مع أولي العلم. والثاني على أربعة أنواع، هي: الميثاق بين الأنبياء وأتباعهم، والميثاق بين الراعي والرعية، والميثاق بين الناس، والميثاق بين الدول، وهذه الأنواع الرئيسة والفرعية يمكن بيانها فيما يأتي:

أولًا: ميثاق الله مع الخلق:

١. ميثاق الله مع بني آدم.

يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم وهم في عالم الأرواح حيث تشعر كل روح بذاتها ووجودها، وأشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، وسألهم: ألست بربكم؟ فشهدوا جميعا، وقالوا: بلى أنت ربنا وخالقنا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٢- ١٧٣][1].

وما أخذ الله عليه الميثاق من بني آدام هو فطرة الله التي فطر الناس عليها وجبلهم عليه.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠] وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)[2].

ويذكر الله تعالى العبد بهذا الميثاق يوم القيامة، وذلك فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٢٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٤٧، تفسير السمعاني ٢/ ٢٢٩، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٧٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٧٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٠١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ رقم ١٣٥٨، ٢/ ٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم ٢٦٥٨، ٤/ ٢٠٤٧.

أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي)[1].

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، ثم أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى. أي: أوجدهم شاهدين بذلك، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾، وتارة تكون حالا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧].

أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات:٧].[2].

والذي يترجح في هذه المسألة أن الله أخرج ذريه آدم من ظهره، وأخذ الميثاق عليهم مشهدا بعضهم على بعض، وهذا قول جمهور المفسرين وبعض الصحابة والتابعين، هو الذي يدل عليه سياق الآية، وجاءت به الأحاديث المفسرة للآية، وقد نص الإمام ابن عطية على تواتر الأحاديث على إخراج الذرية من ظهر آدم عليه السلام وأخذ الميثاق منهم[3]، قال الإمام ابن عطية:«..... وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وغيرهما أن الله عز وجل لما خلق آدم مسح على ظهره بيمينه، فاستخرج منها أي من المسحة أو الضربة نسم بنيه كالذر أو كالخردل، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكرة وداعية، فشهد بعضهم على بعض، فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد في ذلك اليوم والمقام»[4].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا، رقم ٢٨٠٥، ٤/ ٢١٦٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٥٥.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٥٢، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١١٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٦٧، البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ١٨٥.
قال أبو بكر الجزائري: «لقد حاول كثيرون التخلص من قضية أخذ الرب تعالى من ظهر آدم ذريته وإشهادهم على أنفسهم، ونطق الأرواح وشهادتها، ولا داعي لهذا أبدا ما دامت الأحاديث والآثار كثيرة، وقدرة الله صالحة لكل شيء ولا يعجزها شيء، ما هي النملة؟! وقد أنطقها الله فنطقت وأفصحت، إن الحيوان المنوي الذي منه تكون الذرية قال العلماء: لو جمعت الحيوانات المنوية كلها من آدم إلى اليوم ووضعت في فنجان ما ملأته، أمع هذا يحاول إبطال الأحاديث وتأويل الآية على غير ظاهرها رجل من أهل العلم؟!».
انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٢٦١.

(٤) انظر: المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤.

وقال ابن عاشور: «ومما يثبت هذه الدلالة أخبار كثيرة رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن جمع من أصحابه، متفاوتة في القوة غير خال واحد منها عن متكلم، غير أن كثرتها يؤيد بعضها بعضا»[1].

ومن الآيات العامة التي ذكر بعض المفسرين أحد المعاني المذكورة في الميثاق الذي ذكره الله عز وجل في الآيات هو الميثاق الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصفه، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد:٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة:٧].

قال الإمام ابن جرير والماوردي والقرطبي وابن كثير: في أحد المعاني المذكورة في الميثاق الذي ذكره الله عز وجل في الآيات هو الميثاق الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصفه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣][2].

٢. ميثاق الله مع النبيين.

أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين عليهم السلام على الوفاء بما حملوا من الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضا، ويبشر بعضهم ببعض، وعلى أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادته، وينصحوا لقومهم، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته، فبلغت الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم، وأخذ عليهم فيما بلغتهم رسلهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويصدقوه وينصروه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ١٦٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ١٨٣، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٨٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٤٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٦.

وقد اختلف المفسرون في الآية: هل كان أخذ الميثاق من النبيين، أو من أممهم؟ على أقوال:

القول الأول: ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين، منهم: علي وابن عباس رضي الله عنهم وقتادة والحسن وطاوس والسدي وسعيد بن جبير وغيرهم إلى القول بأن الميثاق قد أخذ على الأنبياء أنفسهم، واستدل هؤلاء بظاهر الآية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب:٧][1].

قال الإمام ابن كثير: «يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام أنه مهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته، ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾؟ وقال ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وقتادة والسدي: يعني عهدي. وقال محمد بن إسحاق: (إصري) أي: ثقل ما حملتم من عهدي، أي ميثاقي الشديد المؤكد، ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: عن هذا العهد والميثاق، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾»[2].

القول الثاني: ذهب بعض المفسرين إلى أن الميثاق أخذ من أتباع الأنبياء، ولم يؤخذ من النبيين أنفسهم، وتأويل الآية عندهم: وإذا أخذ الله ميثاق أمم النبيين، أو: وإذ أخذ الله ميثاق أتباع النبيين، أو: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين على أممهم، ونحو ذلك، فأضافوا (ميثاق) إلى (النبيين) وقدروا محذوفا كما تقول: عهد الله ويمين الله وميثاق الله، وممن قال بذلك علي وابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد والربيع وغيرهم[3].

والراجح هو القول الأول، فإن الله قد أخذ الميثاق على جميع الأنبياء بأن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضا، وينصر بعضهم بعضا، وأمرهم بأن يأخذوا ذلك على أممهم، على أن القول الثاني لا يعارض الأول، ولكنه أخص منه، وقد رجح الإمام الطبري القول الأول بقوله: «وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: الخبر عن أخذ الله الميثاق من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٥٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٣٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٧٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٩٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨.

(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٦٨١، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٧٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٥٩، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٢٣٦.

أنبيائه بتصديق بعضهم بعضا، وأخذ الأنبياء على أممها وأتباعها الميثاق بنحو الذي أخذ عليها ربها من تصديق أنبياء الله ورسله بما جاءتها به؛ لأن الأنبياء عليهم السلام بذلك أرسلت إلى أممها، ولم يدع أحد ممن صدق المرسلين أن نبيا أرسل إلى أمة بتكذيب أحد من أنبياء الله عز وجل»[(١)].

كذلك قال الإمام ابن كثير: «وما قاله طاووس وقتادة لا يضاد ما قاله علي وابن عباس رضي الله عنهم ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه»[(٢)].

وقد وصف الله هذا الميثاق بأنه ميثاق غليظ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧][(٣)].

والميثاق الغليظ هو تبليغ الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضا، وأن يعلنوا أن محمدا رسول الله، ويعلن محمد صلى الله عليه وسلم أنه لا نبي بعده، وفي ذكر من سمى من الأنبياء ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم مع دخولهم في ذكر النبيين وجهان: أحدهما: تفضيلا لهم، الثاني: لأنهم أصحاب الشرائع، وهو من باب عطف الخاص على العام[(٤)].

٣. ميثاق الله مع المؤمنين.

يقول تعالى مذكرا عباده المؤمنين بنعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من الميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة:٧].

وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إسلامهم، كما قالوا: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله[(٥)]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا

(١) انظر: جامع البيان ٦/ ٥٥٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٥٨، معاني القرآن، النحاس ٥/ ٣٢٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٦٤، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٢٠.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٧٧، تفسير السمعاني ٤/ ٢٦١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، رقم ٧١٩٩، ٩/ ٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، رقم ١٧٠٩، ٣/ ١٤٧٠.

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [الحديد:٨][1].

واختلف المفسرون في الميثاق الذي ذكره الله في هذه الآية على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور المفسرين إلى أنه الميثاق الذي جرى لهم مع النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، إذ قالوا: سمعنا وأطعنا كما جرى ليلة العقبة وتحت الشجرة، وأضافه تعالى إلى نفسه كما قال: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:١٠].

فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه، وكان أول من بايعه البراء بن معرور رضي الله عنه، وكان له في تلك الليلة المقام المحمود في التوثق لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والشد لعقد أمره، وهو القائل: والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر[2].

القول الثاني: إنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى على عباده حين أخرجهم من صلب آدم صلى الله عليه وسلم وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[3].

والقول الأول هو الراجح، وهو الذي اختاره الإمام أبو جعفر الطبري، قال: «وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك قول ابن عباس، وهو أن معناه: واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعمها عليكم بهدايته إياكم للإسلام، وميثاقه الذي واثقكم به، يعني: وعهده الذي عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة له في المنشط والمكره والعسر واليسر إذ قلتم: سمعنا ما قلت لنا، وأخذت علينا من المواثيق وأطعناك فيما أمرتنا به ونهيتنا عنه. وأنعم عليكم أيضًا بتوفيقكم لقبول ذلك منه بقولكم له: سمعنا وأطعنا.

يقول: ففوا لله أيها المؤمنون بميثاقه الذي واثقكم به ونعمته التي أنعم عليكم في ذلك بإقراركم على أنفسكم بالسمع له والطاعة فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، يف لكم بما ضمن لكم الوفاء به إذا أنتم وفيتم له بميثاقه، من إتمام نعمته عليكم، وبإدخالكم جنته وإنعامكم بالخلود في دار كرامته،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٩٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥.

(٢) انظر: حدائق الأنوار، الحضرمي ص٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٠٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٩١، الكشاف، الزمخشري ١/ ٦١٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١١٧.

وإنقاذكم من عقابه وأليم عذابه»[1].

ومن الآيات التي تدل على ميثاق الله مع المؤمنين قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: ٨].

وقد اختلف المفسرون في الميثاق في هذه الآية على أقوال:

الأول: أن المراد بذلك البيعة للرسول صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة:٧][2].

الثاني: ما نصب في العقول من الدلائل والحجج الموجبة لقبول دعوة الرسل؛ لأن تلك الدلائل كما اقتضت وجوب القبول فهي أوكد من الحلف واليمين، فلذلك سماه ميثاقا.

الثالث: يريد حين أخرجهم من ظهر آدم، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وهذا ضعيف، وذلك لأنه تعالى إنما ذكر أخذ الميثاق ليكون ذلك سببا في أنه لم يبق لهم عذر في ترك الإيمان بعد ذلك، وأخذ الميثاق وقت إخراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم إلا بقول الرسول، فقبل معرفة صدق الرسول لا يكون ذلك سببا في وجوب تصديق الرسول، أما نصب الدلائل والبينات فمعلوم لكل أحد، فذلك يكون سببا لوجوب الإيمان بالرسول، فعلمنا أن تفسير الآية بهذا المعنى غير جائز[3].

والقول الأول هو الراجح في تفسير الآية، وهو القول الذي اختاره الإمام الطبري وابن كثير[4].

٤. ميثاق الله مع بني إسرائيل.

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين أن الله قد أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وقد جاءت هذه الآيات بصيغ متعددة ومواضع متفرقة في كتاب الله، وهي على ثلاثة أوجه:

الأول: آيات مجملة لم يبين فيها إلا أنه أخذ عليهم العهد والميثاق:

من الآيات المجملة التي لم يبين فيها إلا أنه أخذ عليهم العهد والميثاق على بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

وخطابه إياهم جل ذكره بالوفاء في ذلك خاصة دون سائر البشر ما يدل على أن قوله:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٩٣، تفسير السمعاني ٢/ ١٩، تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٢٩٠، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٣٨.

(٤) انظر: جامع البيان ٢٣/ ١٧٢، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٥.

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٧].

مقصود به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم، غير أن الخطاب - وإن كان لمن وصفت من الفريقين - فداخل في أحكامهم وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ كل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة:١٠٠].

فالعهد المذكور في الآية هو الميثاق الذي أعطته بنو إسرائيل ربهم ليعملن بما في التوراة مرة بعد أخرى، ثم نقض بعضهم ذلك مرة بعد أخرى، فوبخهم جل ذكره بما كان منهم من ذلك، وعير به أبناءهم إذ سلكوا منهاجهم في بعض ما كان جل ذكره أخذ عليهم بالإيمان به من أمر محمد صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق، فكفروا وجحدوا ما في التوراة من نعته وصفته[2].

الثاني: آيات فيها إشارة موجزة إلى نوع الميثاق:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة:٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٣].

فقد بينت الآيات أن الميثاق أخذ على التوراة التي أنزلها الله لبني إسرائيل بأن يعملوا بما فيها من أمره وينتهوا عما نهاهم فيها بجد منكم في ذلك ونشاط[3].

الثالث: آيات فيها شيء من التفصيل عما أخذ عليهم من عهود ومواثيق:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣].

فقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل على الوفاء له بأن لا يعبدوا غيره، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤١٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٠٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٥٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٤٨، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٥١.

ويتعاطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمروا عباد الله بما أمرهم الله به، ويحثوا على طاعته، ويقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤدوا زكاة أموالهم[1].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة:٨٤].

أخذ الله ميثاق بني إسرائيل بألا يقتل بعضهم بعضا، وألا يخرجوا غيرهم - من قومهم - من ديارهم[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة:١٢].

فلما أراد موسى صلى الله عليه وسلم محاربة الجبارين أمره الله بأن يختار من قومه اثني عشر نقيبا - كفلاء على قومهم - وأمرهم بالذهاب إلى الجبارين، وأخذ منهم الميثاق وأعطاهم الموعد بأنه سبحانه معهم وناصرهم على عدوهم إن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمنوا برسل الله وعزروهم ونصروهم وأقرضوا الله قرضا حسنا، مع وعده سبحانه بتكفير ذنوبهم وإدخالهم الجنة بعد ذلك إن وفوا بالعهد والميثاق الذي أخذه عليهم، وكفلهم بذلك نقباؤهم، وهذا معنى الميثاق في الآية[3].

فقد روى الإمام ابن جرير عن الربيع بن أنس: «أن موسى صلى الله عليه وسلم قال للنقباء الاثني عشر: سيروا إليهم- يعني: إلى الجبارين- فحدثوني حديثهم وما أمرهم، ولا تخافوا؛ إن الله معكم ما أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضًا حسنًا»[4].

قال الطبري - معقبًا على هذا القول -: «وليس الذي قاله الربيع ببعيد من الصواب، غير أن قضاء الله في جميع خلقه أنه ناصر من أطاعه، وولي من اتبع أمره وتجنب معصيته وجافى ذنوبه، فإذا كان ذلك كذلك وكان

(١) انظر: معاني القرآن، الأخفش ١/ ١٣٣، جامع البيان، الطبري ٢/ ١٥٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٦٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٧٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ١٥٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٧٢.

(٣) انظر: معاني القرآن، الأخفش ١/ ١٣٣، جامع البيان، الطبري ٢/ ١٥٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٦٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٧٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١١٩.

من طاعته إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل وسائر ما ندب القوم إليه كان معلوما أن تكفير السيئات بذلك وإدخال الجنات به لم يخصص به النقباء دون سائر بني إسرائيل وغيرهم، فكان ذلك بأن يكون ندبا للقوم جميعا، وحضا لخاص دون عام»[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف:١٦٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧]

قال الإمام ابن كثير: «أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأن ينوهوا بذكره في الناس، فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء:١٥٤].

أخذ الله العهد والميثاق على بني إسرائيل بأن يدخلوا الباب سجدا وألا يعدوا في السبت، وأن يعملوا بما في التوراة، وأخذ عليهم ميثاقا غليظا مؤكدا.

ومن خلال الآيات السابقة يتضح أن الله أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة ثم جاءت عهود ومواثيق أخرى لتأكيد الميثاق الأول، والنص على مواثيق خاصة لأهميتها والعناية بها، مع أنها كانت داخلة في الميثاق الأول، وهو العمل بما في التوراة، ولا تعارض في ذلك، فهو خاص بعد عام، وكما أخذ الله الميثاق على الناس جميعا ميثاقا عاما، ثم خص منهم بعضهم كالنبيين وبني إسرائيل.

كما أخذ الله العهد والميثاق على النصارى بأن يطيعوه ويؤدوا فرائضه ويتبعوا رسله ويصدقوا بهم، كما أخذ عليهم العهد والميثاق على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره، وهذا معنى الميثاق الذي ذكره الله بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟

(١) انظر: المصدر السابق ١٠/ ١١٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٥٩.

﴿يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة:١٤][1].

٥. ميثاق الله مع أولي العلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقد اختلف المفسرون من عني بهذه الآية؟

أحدها: أنهم اليهود خاصة، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي.

والثاني: أنهم اليهود والنصارى[2].

والثالث: أنهم كل من أوتى علم شيء من كتاب فقد أخذ أنبياؤهم ميثاقهم.

قال الحسن البصري: «هذا مثال ميثاق الله تعالى على علماء أهل الكتاب أن يبينوا للناس ما في كتابهم، وفيه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام»[3].

وقد فرض الله على علماء القرآن تبيينه تصريحا، كقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وتعريضًا، كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٨٧].

فإن هذه الأمة أجدر بهذا الميثاق[4].

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة:١٧٤].

فهذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم يتضمن تحريم الكتمان والتحريف، وفي آيات أخرى تصريح إيجابي وأمر واضح في الحث على بيان العلم ونشره، وإن لم يذكر الوعيد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢][5].

هذه الآيات كلها موجبة لإظهار علوم الدين وتبيينه للناس زاجرة عن كتمانها[6].

وقد تمثل الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه هذا الميثاق وأن المقصود

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٦٦، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٦٠.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٥٣١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٤١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٨٩.
(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٥٤.
(٦) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٢١، روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٦٥.

به هو العلماء حيث قال: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء، ثم تلا هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[1].

وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود:

العهد الأول: الذي أخذه على جميع ذرية آدم، الإقرار بربوبيته، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

العهد الثاني: عهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأحزاب:٧].

العهد الثالث: عهد خص به العلماء، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧][2].

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن ينوهوا بذكره في الناس، ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيفوالحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم.

وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسالكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[3].

قال بعض المفسرين: إن ثمرة الآية في وجوب إظهار الحق وتحريم كتمانه، فيدخل فيه بيان الدين والأحكام والفتاوى

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، ٣/ ٣٢١، رقم ٣٦٥٨، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، ٥/ ٢٩، رقم ٢٦٤٩، وابن ماجه في سننه، كتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه، ١/ ٩٦، رقم ٢٦١.
قال الترمذي: «حديث حسن».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٧٧، رقم ٦٢٨٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٢٠.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم ٣٦٥٨، ٣/ ٣٢١، والترمذي في سننه، أبواب العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم ٢٦٤٩، ٥/ ٢٩، وابن ماجه في سننه، كتاب في الإيمان والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم ٢٦٤، ١/ ٩٧.
وصححه ابن حجر في إتحاف المهرة، رقم ١١٩٢٤، ٩/ ٥٦٦، والألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٧١٤، ١/ ٥٢٧.

والشهادات وغير ذلك مما يجب إظهاره إذا لم يؤد إلى مفسدة، ويدخل في الكتم منع الكتب المنطوية على علم الدين؛ حيث تعذر الأخذ إلا منها[1].

وقال العلامة الزمخشري: «وكفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه، وأن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة،وتطيب لنفوسهم واستجلاب لمسارّهم».

ثانيًا: الميثاق بين الخلق:

١. الميثاق بين الأنبياء وأتباعهم.

ذكر المفسرون أن الله تعالى أخذ ميثاق النبيين، وأن النبيين أخذوا الميثاق على أممهم وأتباعهم بالسمع والطاعة والإسلام، وقد بين القرآن أن الرسول صلى الله عليه وسلم بايع صحابته في عدة مناسبات، والبيعة عهد وميثاق.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة:٧].

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الميثاق المذكور في الآية هو الذي واثق الله به المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايعوه صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة له فيما أحبوا وكرهوا والعمل بكل ما أمرهم الله به ورسوله[2].

قال الإمام ابن عطية: «والميثاق المذكور هو ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في بيعات العقبة وبيعة الرضوان وكل موطن قال الناس فيه: سمعنا وأطعنا. هذا قول ابن عباس والسدي وجماعة من المفسرين، وقال مجاهد: الميثاق المذكور هو المأخوذ على النسم حين استخرجوا من ظهر آدم. والقول الأول أرجح وأليق بنمط الكلام»[3].

ويمكن ذكر المواثيق التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم على الصحابة رضي الله عنهم بصورة موجزة فيما يأتي:

- بيعتي العقبة الأولى والثانية.

وقعت بيعة العقبة الأولى في السنة الثانية عشرة من النبوة، وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة كانت بيعة العقبة الثانية، والتي هي الكبرى[4]، وكانت هذه البيعة على ما ورد

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٩١، تفسير السمعاني ٢/ ١٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٦١٢.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٦٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٠٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٤.

(٤) انظر: تاريخ الخميس، حسين الديار ١/ ٣١٧، السيرة الحلبية ٣/ ٥٢١، الرحيق المختوم، المباركفوري ص١٣٣.

في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء الله عاقبه، وإن شاء عفا عنه. قال: فبايعناه على ذلك)[1].

❁ بيعة الرضوان.

وقعت بيعة الرضوان في غزوة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، واشتهرت هذه البيعة ببيعة الرضوان؛ لأن الله تعالى أخبر أنه قد رضي عن أصحابها.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨][2].

❁ بيعة الإسلام، البيعة على الجهاد، وعلى السمع والطاعة وغيرها.

ثبت في السنة أن هناك مبايعات أخرى كبيعة الإسلام وغيرها مما يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد:٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل:٩١].

وقال سبحانه: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٣].

ويبين العهد والميثاق في الآية ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم)[3].

❁ بيعة النساء.

كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحن بقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، رقم ١٨، ١/ ١٢.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٣٠٨، تاريخ الخميس، حسين الديار ٢ / ٢٠، السيرة الحلبية ٣/ ٢٥، الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٣١٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، رقم ٧١٩٩، ٩/ ٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، رقم ١٧٠٩، ٣/ ١٤٧٠.

﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة:١٢].

فقد روى عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمتحنهن عملا بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠].

قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات فقد أقر بالمحنة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انطلقن فقد بايعتكن) لا والله ما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام، والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء إلا بما أمره الله، يقول لهن إذا أخذ عليهن: (قد بايعتكن) كلاما)[1].

- البيعة على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والبيعة على النصح لكل مسلم.

ويبين هذه البيعة الحديث الذي رواه جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)[2].

يقول ابن القيم مجملا مبايعة الرسول لأصحابه: «وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع أصحابه في الحرب على ألا يفروا، وربما بايعهم على الموت، وبايعهم على الجهاد، كما بايعهم على الإسلام، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح، وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة الله ورسوله، وبايع نفرا من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئا»[3].

وهذا الميثاق الذي أخذه النبي على أتباعه يشمل جميع أتباع النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا العصر، قال محمد رشيد رضا: «ومجرد قبول الدعوة والدخول في الدين يعد عهدا وميثاقا بالسمع والطاعة، وعهد الله وميثاقه الذي أخذه نبينا صلى الله عليه وسلم على أول هذه الأمة عام يدخل فيه كل من قبل الإسلام ومن نشأ فيه من بعدهم إلى يوم القيامة، فيجب أن نعد هذا التذكير خطابا لنا كما كان سلفنا الصالح

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي أو الحربي، رقم ٥٢٨٨، ٧/ ٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء، رقم ١٨٦٦، ٣/ ١٤٨٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم ٥٦، ١/ ٧٥.

(٣) انظر: زاد المعاد ٣/ ٩٥.

من الصحابة رضي الله عنه يعدونه خطابًا لهم»[1].

ومن الآيات الواردة في الميثاق بين الأنبياء وأتباعهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٢- ١٣].

يعني: عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه[2].

قال الإمام ابن كثير: «لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالقيام بالحق، والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى.

فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، وطردا عن بابه وجنابه، وحجابا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، وقد ذكر ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة، فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب.

وهكذا لما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيبا، والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم بذلك، وهم الذين تولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة»[3].

ومن الآيات الواردة في الميثاق بين الأنبياء وأتباعهم ما كان بين يعقوب عليه السلام وبنيه، قال تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف:٦٦].

قال السدي: أنه حلفهم بالله[4].

(١) انظر: تفسير المنار ٦/ ٢٢٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٦٣، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٥٨.

وقال ابن كثير: أي تحلفون بالعهود والمواثيق لتأتنني به ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكده عليهم فقال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

قال ابن إسحاق: «وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدًّا من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم»[(١)].

والآية الأخرى في المعنى نفسه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف:٨٠].

أي: عهدًا من الله في حفظ ابنه، والموثق في الآية هو العهد المؤكد بالقسم[(٢)].

٢. الميثاق بين الراعي والرعية.

إن الميثاق بين الراعي والرعية يكون بحسب دين الرعية في الدولة الإسلامية، فإن كانوا مسلمين فإن الميثاق يكون على السمع والطاعة والجهاد وعلى كل ما يصلح شأن المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة:٧][(٣)].

وتدخل المواثيق التي تجري بين الراعي والرعية في عموم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد:٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل:٩١].

وإن كان الرعية من أهل الكتاب فيمكن للإمام أن يعقد معهم بعض المعاهدات التي تؤمن لهم الحياة الكريمة، وما يجب عليهم من الواجبات والحقوق العامة في ظل الدولة الإسلامية بحكم أنهم أهل كتاب (أهل الذمة)، ولكن طبيعة اليهود - كما أسلفنا- الغدر والخيانة وعدم الوفاء، ولم يستطيعوا -ولن يستطيعوا لؤما وخسة- أن يتخلوا عن تلك الصفات الذميمة، فنقضوا عهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفعال، حيث أجلى رسول صلى الله عليه وسلم بني قينقاع وبني النضير، وقتل رجال بني قريظة، ولقد أشار القرآن الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود والمواثيق فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال:٥٦].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٤٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٠٨، النكت والعيون، الماوردي ٣ / ٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٣٤٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٩١، تفسير السمعاني ٢/ ١٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٦١٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٦٥.

والعهد هنا هو ما عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود من عهود ومواثيق بألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه، كما بين ذلك المفسرون[(١)].

فقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابًا بين المهاجرين والأنصار واليهود، وذلك وثيقة المدينة المنورة أو كما يسميها المعاصرون: دستور المدينة، نظم فيها النبي صلى الله عليه وسلم العلاقات بين سكان المدينة، وحدد حقوق وواجبات والتزامات جميع الأطراف داخل المدينة المنورة[(٢)].

ويتضح من خلال كتب التفسير والسنة والسيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ عليهم العهد والميثاق أكثر من مرة، حيث أخذه عليهم عندما قدم إلى المدينة، ثم أكده في مناسبات متعددة.

وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾ [الأنفال:٥٥-٥٦][(٣)].

ويمكن أن تكون الدساتير والأنظمة الموافقة للكتاب والسنة وإجماع الأمة من المواثيق التي يجب الالتزام بها من قبل الراعي والرعية في كل ما ورد فيها من بنود لتنظيم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ونحوها مما ينظم شؤون الأمة.

٣. الميثاق بين الناس.

أمر الله تعالى المؤمنين عامة بالوفاء بالعقود.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

وهي الربوط في القول، كان ذلك في تعاهد على بر أو في عقدة نكاح أو بيع أو غيره. ولفظ المؤمنين يعم مؤمني أهل الكتاب، إذ بينهم وبين الله عقد في أداء الأمانة فيما في كتابهم من أمر محمد صلى

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٤٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٥٠١، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، أحمد الشعيبي، كتاب الأمة، صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد ١١٠ السنة ٢٥ ذو القعدة، ١٤٢٦هـ، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد ص٣٠٦، أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين، محمد العواجي ص٣٤.
وقد صحح هذه الوثيقة بطولها، وقال بأنها تصل بمجموع طرقها إلى مرتبة الحديث الحسن لغيره كل من: د. أكرم ضياء العمري في كتابه: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٧٥، د. علي الصلابي في السيرة النبوية ١/ ٦١٤، د. خالد سليمان الفهداوي في بحثه الفقه السياسي للوثائق النبوية ص٩٤، د. مهدي رزق الله أحمد في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٣١٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٦٧، تفسير السمعاني ٢/ ٢٧٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٤١.

الله عليه وسلم، ولفظ: (العقود) يعم عقود الجاهلية المبنية على بر، مثل دفع الظلم ونحوه، وأما سائر تعاقدهم على الظلم ونحوه فقد هدمه الإسلام، فإنما معنى الآية أمر جميع المؤمنين بالوفاء على عقد جار على رسم الشريعة. وفسر الناس لفظ (العقود) بالعهود[1].

قال الإمام الرازي: «فدخل في قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ كل عقد من العقود، كعقد البيع والشركة، وعقد اليمين والنذر، وعقد الصلح، وعقد النكاح، وحاصل القول فيه أن مقتضى هذه الآية أن كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد، إلا إذا دل دليل منفصل على أنه لا يجب الوفاء به، فمقتضاه الحكم بصحة كل بيع وقع التراضي به وبصحة كل شركة وقع التراضي بها، ويؤكد هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة:١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون:٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فجميع هذه الآيات والأخبار دالة على أن الأصل في البيوعات والعهود والعقود الصحة ووجوب الالتزام»[2].

ومما يدل على وجوب الوفاء واحترام المواثيق بين الناس قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل:٩١].

وعموم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝٢٠﴾ [الرعد:٢٠].

وقد جاء الحث بالوفاء بالعقود واعتبار ذلك ميثاقا وعلى وجه الخصوص عقد النكاح.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:٢١].

قال مجاهد وابن زيد: هو عقد النكاح وقول الرجل: نكحت وملكت[3]. وقال الإمام ابن كثير: «روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير أن المراد بذلك العقد»[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٤٧، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٥، تفسير السمعاني ٢/ ٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٤٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣٣٧.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٠، تفسير السمعاني ١/ ٤١٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٤.

وفي تفسير هذا الميثاق الغليظ وجوه:

الأول: قال الحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم: هو قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:٢٢٩][(١)].

الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد: الميثاق الغليظ هو عقد النكاح المعقود على الصداق، وتلك الكلمة كلمة تستحل بها فروج النساء، لقوله صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)[(٢)].

الثالث: الميثاق الغليظ حق الصحبة والمضاجعة، كأنه قيل: وأخذن به منكم ميثاقا غليظا، أي: بإفضاء بعضكم إلى بعض، ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه، فقد قالوا: صحبة عشرين يوما قرابة، فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟![(٣)].

ومن خلال هذه الآيات يتضح أن العقود المباحة شرعا بكافة أنواعها التي تعقد بين الناس في الشريعة الإسلامية لها مكانة خاصة؛ حيث اعتبرتها الشريعة مواثيقا مؤكدة، لا يجوز نقضها، أو التلاعب بها، أو النقص من وفائها، أو تأخيرها عن موعدها بغير عذر مقبول شرعا، وهذا يؤدي إلى استقرار التعاملات بين الناس؛ ومن ثم تحقيق الازدهار الاقتصادي للمجتمع المسلم.

[انظر العهد: العهود مع الناس]

٤. الميثاق بين الدول.

يجوز عقد المعاهدات بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول إذا كان ذلك لدفع ضرر محقق عن المسلمين، أو جلب نفع للإسلام والمسلمين محققا كذلك، ويجب الوفاء بالمعاهدات ذات الآجال إلى أجلها، إلا أن ينقضها المعاهدون.

وقد بين القرآن الكريم حكم المواثيق والمعاهدات بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول، وأنه يجب الوفاء بما تم التواثق عليه، ولا يجوز للإمام أو نائبة أو لأحد من الرعية أن ينقض هذا الميثاق، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدة مواضع.

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة:١].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٢٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٢، تفسير السمعاني ١/ ٤١٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨، ٢/ ٨٨٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٢٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٦.

عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة:٤].

وفي ذلك إيماء إلى أن الوفاء بالميثاق من فرائض الإسلام مادام الميثاق معقودا، وإلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته، وإلى أن من شروط وجوب الوفاء به محافظة العدو المعاهد على ذلك العهد بحذافيره بنصه وفحواه، فإن نقص شيئا منه وأخل بغرض من أغراضه عد ناقضا للميثاق.

ويفهم من مفهوم مخالفة هذه الآية أن المشركين إذا نقضوا العهد جاز قتالهم، ونظير ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة:٧].

وهذا المفهوم في الآيتين صرح به جل وعلا في قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة:١٢].

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط المعاهدة ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من عدوكم، أي: لم يعاونوهم بأنفسهم وأبدانهم، لا بسلاح ولا خيل ولا رجال، ولا حتى بمشورة ورأي، فهؤلاء: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾، أي: مدة أجلهم المحدد بزمن معين، فوفوا لهم ولا تنقضوا لهم عهدا إلى أن ينقضوه هم بأنفسهم، أو تنتهي مدتهم، وحينئذ إما الإسلام وإما السيف؛ إذ لم يبق مجال لبقاء الشرك في دار الإسلام وقبته[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يتقون نقض العهد وخفر الذمم وسائر المفاسد التي تخل بالنظام وتمنع جريان العدل بين الناس، وفي ذلك إيماء إلى أن مراعاة حقوق العهد تدخل في حدود التقوى، وإلى أن التسوية بين الوفي والغادر منافية لذلك وإن كان المعاهد مشركًا[2].

والمواثيق بين الدول يجب الوفاء بها؛ لأن الله تعالى أوجب نصر المسلمين المقيمين بين ظهراني الكفار ما لم يكن هناك ميثاق بين الدولة المسلمة والكافرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال:٧٢].

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: عهد بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا ق فلا تعينوهم عليهم؛ لأجل ما بينكم وبينهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٣٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٣٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٧٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١١٤.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٨٤، تفسير المراغي ١٠/ ٥٥، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٧٠٠.

من الميثاق[1].

أي أن الذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، أي أن الذين صدقوا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يهاجروا من مكة إلى المدينة وظلوا مقيمين في أرض الشرك تحت سلطان المشركين، أي: في دار الحرب والشرك، لا يثبت لهم شيء من ولاية (نصرة) المؤمنين الذين في دار الإسلام. أما من أسره الكفار من أهل دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار، إن الولاية منقطعة بين أهل الدارين إلا في حالة واحدة ذكرها تعالى بقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ وهي مناصرتهم على الكفار إذا قاتلوهم أو اضطهدوهم لأجل دينهم، إلا إذا كان هؤلاء الكفار معاهدين، فيجب الوفاء بعهدهم؛ لأن الإسلام لا يبيح الغدر والخيانة بنقض العهود، وهذا أصل من أصول أحكام الإسلام وسياسته الخارجية العادلة الرفيعة المستوى. وإن طلب منكم هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا النصرة على أعدائكم في الدين فيجب عليكم أن تنصروهم، لأنهم إخوانكم في العقيدة، بشرط ألا يكون بينكم وبين هؤلاء الأعداء عهد ومهادنة، فإنكم في هذه الحالة يحظر عليكم نصرة هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا؛ لأن في نصرتهم على من بينكم وبينهم عهد نقضا لهذا العهد[2].

ووجه ذلك الاستثناء أن الميثاق يقتضي عدم قتال الكفار إلا إذا نكثوا عهدهم مع المسلمين، وعهدهم مع المسلمين لا يتعلق إلا بالمسلمين المتميزين بجماعة ووطن واحد، وهم يومئذ المهاجرون والأنصار، فأما المسلمون الذين أسلموا ولم يهاجروا من دار الشرك فلا يتحمل المسلمون تبعاتهم، ولا يدخلون فيما جروه لأنفسهم من عداوات وإحن؛ لأنهم لم يصدروا عن رأي جماعة المسلمين، فما ينشأ بين الكفار المعاهدين للمسلمين وبين المسلمين الباقين في دار الكفر لا يعد نكثا من الكفار لعهد المسلمين؛ لأن من عذرهم أن يقولوا: لا نعلم حين عاهدناكم أن هؤلاء منكم؛ لأن الإيمان لا يطلع عليه إلا بمعاشرة، وهؤلاء ظاهر حالهم مع المشركين يساكنونهم ويعاملونهم[3].

ولقد أمر القرآن الكريم بأن يحترم الميثاق بالنسبة لأهله، ولمن لهم به صلة قومية أو نسبية أو لمن هرب أو التجئ إليهم. قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢٧.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٤٣٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٨٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ١٦٨، تفسير المراغي ١٠/ ٤٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٨٦.

كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء:٨٩-٩١][1].

فهذا النص يدل على ضرورة احترام المواثيق، وكف القتال عن أهل الميثاق، والذين لهم به صلة قومية، ويكون سلمهم سلما لهم وحربهم حربا لهم[2].

والمراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات المنافقون المظهرون إسلامهم،ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تحرج عن قتالهم وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفركم وأن تكونوا مثلهم.

فإذا تحققتم ذلك منهم: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم؛ لأن الولاية فرع المحبة، ويستلزم أيضا بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر مؤقت حتى هجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان[3].

وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: في أي وقت وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٩، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٨٩.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣٦٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٩، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٩، المحرر

لذا حذر الله المؤمنين من مكائدهم وسعاياتهم هذه، فلا تتخذوا منهم أنصارا يساعدونكم على المشركين الوثنيين حتى يدل الدليل الواضح على إيمانهم ويهاجروا إلى المدينة ويتعاونوا بصدق معكم في قضاياكم، فهذا دليل الصدق في الإيمان.

فإن أعرضوا عن الإيمان الظاهر بالهجرة في سبيل الله ولزموا أماكنهم خارج المدينة فخذوهم واقتلوهم أنى وجدتموهم في أي مكان وزمان، في الحل أو في الحرم، ولا توالوهم أو تولوهم شيئا من مهام أموركم، ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك.

ثم استثنى الله من هؤلاء الذين يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين ويلجؤون إلى أهل عهدكم بمهادنة أو عقد ذمة، فينضمون إليهم في عهدهم، فاجعلوا حكمهم كحكم المعاهدين.

لما جاء في صلح الحديبية في صحيح البخاري: (من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد وأصحابه وعهدهم دخل فيه)[1].

الوجيز، ابن عطية ٢/ ٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢٧، التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ١٩٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، من حديث عروة بن الزبير، رقم ٤١٨٠، ٥/ ١٢٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٤٧.

الوفاء بالميثاق

في هذا المحور سيكون الكلام عن حكم الوفاء بالميثاق، أدلته الشرعية، وبيان آثار الوفاء بالميثاق في الدنيا والآخرة:

أولًا: حكم الوفاء بالميثاق:

دلت آيات القرآن الكريم على وجوب الوفاء بالميثاق، حيث أمر الله تعالى المؤمنين عامة بالوفاء بالعقود الجارية على رسم الشريعة وأصولها وقواعدها.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

ولفظ (العقود) في الآية بمعنى العهود بإجماع جميع المفسرين، كما يعم اللفظ عقود الجاهلية المبنية على البر، مثل دفع الظلم ونصرة المظلوم ونحوه، وأما في سائر تعاقدهم على الظلم والغارات فقد هدمه الإسلام.

وقال تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال جل شأنه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل:٩١][2].

ومما يدل على وجوب الوفاء بالمعاهدات والمواثيق أن الله تعالى يسأل ناقض العهد عن نقضه إياه.

قال عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب:١٥][(١)].

كما يدل على وجوب الوفاء بالميثاق بأن نقض الميثاق كبيرة من الكبائر؛ لأن الله تعالى لعن من ينقضه، فكان الوفاء به واجبًا.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة:١٣].

قال الإمام ابن كثير: «لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالقيام بالحق، والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، وطردا عن بابه وجنابه، وحجابا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[المائدة:١٢].

يعني: عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه»[(٢)].

نقول: أكد الله تعالى على بني إسرائيل بوجوب الوفاء بالعهود والمواثيق من بين الناس.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠]، قال الإمام ابن جرير الطبري: «وخطابه إياهم جل ذكره بالوفاء في ذلك خاصة دون سائر البشر ما يدل على أن قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾[البقرة:٢٧].

مقصود به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم، غير أن الخطاب وإن كان لمن وصفت من الفريقين فداخل في أحكامهم، وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ كل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي»[(٣)].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٤٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٠٧، تفسير السمعاني ٣/ ٢٤٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٨.

(٣) جامع البيان ١/ ٤١٣.
وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٣٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٣٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٤٧،

والآيات صريحة الدلالة على وجوب الوفاء بالميثاق، وحرمة الغدر والخيانة، وجميع الآيات التي ورد فيها لفظ الميثاق تدل على ذلك بالمنطوق أو بالمفهوم.

وقد وردت أحاديث كثيرة في وجوب الوفاء بالعهد وإثم من نقض ميثاقه أو غدر بما عاهد عليه، فقد روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها)[١].

وما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل)[٢].

وكذلك ما رواه أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لكل غادر لواء يوم القيامة)[٣].

وما رواه أبو سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة)[٤].

وكذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(إن الغادر ينصب الله له لواء يوم القيامة، فيقال: ألا هذه غدرة فلان)[٥].

وفي رواية:(لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة)[٦].

قال الإمام النووي: «قال أهل اللغة: اللواء الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب، أو صاحب دعوة الجيش، ويكون الناس تبعا له، قالوا: فمعنى لكل غادر لواء أي: علامة يشهر بها في الناس؛ لأن موضوع اللواء الشهرة، مكان الرئيس علامة له، وكانت العرب تنصب الألوية في الأسواق الحفلة لغدرة الغادر لتشهيره

التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٥٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٤، ١/ ١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٥٨، ١/ ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب حرم المدينة، رقم ١٨٧٠، ٣/ ٢٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم ٣١٨٦، ٤/ ١٠٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم ١٧٣٨، ٣/ ١٣٦١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم ٣١٨٨، ٤/ ١٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم ١٧٣٥، ٣/ ١٣٥٩.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، من حديث أبي سعيد الخدري، رقم ١٧٣٨، ٣/ ١٣٦١.

بذلك، وأما الغادر فهو الذي يواعد على أمر ولا يفي به.

وفي هذه الأحاديث بيان غلظ تحريم الغدر لا سيما من صاحب الولاية العامة؛ لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثيرين، وقيل: لأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء. والمشهور أن هذا الحديث وارد في ذم الإمام الغادر.

وذكر القاضي عياض احتمالين:

أحدهما: هذا، وهو نهي الإمام أن يغدر في عهوده لرعيته وللكفار وغيرهم، أو غدره للأمانة التي قلدها لرعيته والتزم القيام بها والمحافظة عليها ومتى خانهم أو ترك الشفقة عليهم أو الرفق بهم فقد غدر بعهده.

والاحتمال الثاني: أن يكون المراد نهي الرعية عن الغدر بالإمام، فلا يشقوا عليه العصا، ولا يتعرضوا لما يخاف حصول فتنة بسببه، والصحيح الأول، والله أعلم»[1].

وأما عهود المسلمين فيما بينهم فالوفاء بها أشد، ونقضها أعظم إثمًا.

ومن أعظمها نقض عهد الإمام على من تابعه ورضي به، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) فذكر منهم: (ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه ما يريد وفى له، وإلا لم يف له)[2].

ويدخل في العهود التي يجب الوفاء بها ويحرم الغدر فيها جميع عقود المسلمين فيما بينهم إذا تراضوا عليها من المبايعات والمناكحات وغيرها من العقود اللازمة التي يجب الوفاء بها، وكذلك ما يجب الوفاء به لله عز وجل مما يعاهد العبد ربه عليه من نذر التبرر ونحوه[3].

كما أمر الله تعالى بوجوب الوفاء بالمعاهدات والمواثيق الدولية المزمنة بمدة معينة، لقوله عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة:٤].

وقد أمر الله تعالى في كتابه الكريم بالوفاء بمواثيق وعهود المشركين إذا أقاموا على عهودهم ولم ينقضوا منها شيئا.

ويدل على ذلك ما رواه سليم بن عامر، يقول:(كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد، وكان يسير في بلادهم، حتى إذا انقضى

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/ ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب إثم من منع ابن السبيل من الماء، رقم ٢٣٥٨، ٣/ ١١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمن بالعطية، وتنفيق السلعة بالحلف، وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رقم ١٠٨، ١/ ١٠٣.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ٢/ ٤٨٧.

العهد أغار عليهم، فإذا رجل على دابة أو على فرس وهو يقول: الله أكبر، وفاء لا غدر، وإذا هو عمرو بن عبسة رضي الله عنه، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء) قال: فرجع معاوية بالناس)[1].

والغدر حرام في كل عهد وميثاق بين المسلم وغيره، ولو كان المعاهد كافرا، ولهذا جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من قتل نفسا معاهدا بغير حقها لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما)[2].

والأحاديث القاضية بوجوب الوفاء بالميثاق كثيرة جدا، والسنة الفعلية تشهد بذلك، وأن نقضه محرم بصريح الكتاب والسنة.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه، رقم ٢٧٥٩، ٣/ ٨٣، والترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الغدر، رقم ١٥٨٠، ٤/ ١٤٣.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٤٨٠، ٢/ ١١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب إثم من قتل ذميا بغير جرم، رقم ٦٩١٤، ٩/ ١٢.

ثانيًا: آثار الوفاء بالميثاق:

رتب الله تعالى على الالتزام بالميثاق آثارا متنوعة ومتعددة، يمكن بيانها على التفصيل الآتي:

١. آثار الوفاء بالميثاق في الحياة الدنيا.

تتمثل آثار الوفاء بالميثاق في الحياة الدنيا فيما يأتي:

١. الإيمان والسعادة والفلاح.

فقد وصف الله تعالى الموفين لعهودهم ومواثيقهم بالإيمان والسعادة والفلاح:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨﴾

[المؤمنون:١-٨].

فرعاية الميثاق من صفات المؤمنين الصادقين، والتخلي عن تلك الصفة إخلال بهذا الوصف وقدح بالموصوف، ورعاية العهد هنا تشمل العهد العام والخاص، فكل ما صدق عليه لفظ العهد فرعايته من الإيمان[3].

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٧، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٩٥، المحرر

كما أن الوفاء بالميثاق هو الذي يحقق الإيمان، وأن الموفين بعهدهم وميثاقهم هم المؤمنون.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد:٨][1].

٢. التقوى.

لقد جاءت التقوى أثرا من آثار الوفاء بعهد الله، وثمرة من ثمرات الالتزام بميثاقه، ونجد أن الوفاء بالعهد بعد الوعد من صفات المتقين الصادقين قال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

ثم أخبر تعالى على جهة الشرط أن من أوفى بالعهد واتقى عقوبة الله في نقضه، فإنه محبوب عند الله، وأن أهل الوفاء بالعهد والميثاق هم الذين يحبهم الله تعالى لا غيرهم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران:٧٦].

ويأتي ما يؤكده في سورة التوبة في آيتين متقاربتين: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة:٤].

وكما أن إتمام العهد والميثاق من التقوى فإن الاستقامة عليه تؤدي إليها: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧][2].

وقد أمر الله تعالى بني إسرائيل بتذكر العهود والمواثيق التي أخذت عليهم بالعمل بما فيه لعلهم يتقون: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة:٦٣][3].

٣. محبة الله ورضاه.

وهما غاية الغايات ونهاية المقاصد والحاجات فإذا رضي الله على عبد وأحبه أدخله جناته ووقاه عذابه، وأكرمه في دنياه وأخراه، فقد أثبت الله محبته للمتقين الموفين بعهدهم، المستقيمين على عهودهم ومواثيقهم حتى مع أعدائهم ما استقاموا هم على تلك العهود: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

وقبلها بآيتين: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران:٧٦].

الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٣٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٤١.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٢٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٥٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٦٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢١٧.

وبهذا تكون محبة الله ثمرة من ثمرات الوفاء بالعهد، وأثرا من آثار الالتزام بالميثاق.

٤. حصول الأمن في الدنيا وصيانة الدماء.

لم تقتصر آثار الوفاء بالميثاق على المسلمين وحدهم، وإنما شمل الكفار الذين لم يدخلوا في دين الإسلام، ولهم عهود مع المسلمين.

فجاءت الآيات صريحة بوجوب الوفاء لهم وصيانة دمائهم وأكثر من ذلك أن الكافر الذي يطارده المسلمون لقتله عندما يلجأ إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، ويدخل تحت حكمهم، يعصم دمه ويضع حدا لطلبه.

يقول تعالى مبينًا حكم بعض المنافقين: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء:٨٩]ومع هذا النهي الحاسم والأمر الجازم بالقضاء عليهم ومقاطعتهم ينقلنا القرآن نقلة قوية تضع استثناء لما سبق: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء:٩٠].

ومن هنا فأن أثر الوفاء بالميثاق لم يقتصر على من عقد معه ووفى به، وإنما تعداه إلى آخرين أرادوا صيانة دمائهم المهدرة، فلم يجدوا بدا من اللجوء إلى هؤلاء[(١)].

كما يعطي أمانًا صريحًا لمن لهم ميثاق في حقن دمائهم وصيانة أهلهم وأموالهم، فالذين آمنوا ولم يهاجروا إن استنصروا المؤمنين في الدين فتجب نصرتهم وحمايتهم إلا في حالة واحدة، إذا كان هذا الاستنصار موجهًا ضد مَنْ للدولة المسلمة معهم عهد وميثاق، فهنا لا نصرة ولا مساعدة، وحق أولئك المعاهدين أولى من حق هؤلاء المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال:٧٢][(٢)].

وقد ساوى القرآن بين دية الكافر الذي يقتل خطأ، وهو من قوم معاهدين، بدية المسلم المقيم في دار الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٨٩ مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٧١، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٨٩، لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٠٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٩١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٧٣.

﴿مُّؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء:٩٢].

وإن كان من قوم بينهم وبين المسلمين عهد فتحرير رقبة وتسليم الدية إلى ذوي الميثاق؛ لئلا تقع ضغينة بين أهل الميثاق والمؤمنين[1].

٥. سلامة العقول وصدق اللسان.

وردت في عدة آيات من كتاب الله، كوصفهم بأنهم أصحاب العقول السليمة: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد:١٩-٢٠].

ووصفهم بالصدق في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

بعد ذكر الموفين بعهدهم إذا عاهدوا، وأن عملهم من البر فهم أبرار.

٢. آثار الوفاء بالميثاق في يوم القيامة.

١. تكفير السيئات وإدخال الجنات.

ذكر الله سبحانه أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل، ثم بين هذا الميثاق وذكر الجزاء على الوفاء به: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المائدة:١٢].

ولما ذكر صفات أولي الألباب ذكر منها أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ثم بين عاقبة هؤلاء فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٢-٢٤].

من الآثار التي وردت في أكثر من آية جزاء لمن وفى بعهده والتزم بميثاقه الوعد بدخول الجنة وتكفير السيئات، نجد هذا في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

قال الإمام ابن جرير: «وعهده إياهم أنهم

(١) هذا على الراجح من أقوال المفسرين، حيث ذهب بعضهم إلى أنه لا بد أن يكون مسلما عند قوم معاهدين، وذهب آخرون إلى أنه لا يشترط أن يكون مسلما، لأن الآية سكتت عن ذلك في الوقت الذي صرحت بكونه مسلما في الحالتين السابقتين، وهذا ما اختاره الطبري ورد على المخالفين.
انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٩١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٧٣.

إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة[1].

٢. الجزاء الحسن والأجر العظيم.

أمر الله سبحانه في سورة النحل بالوفاء بالميثاق، ونهى عن نقض الإيمان بعد توكيدها، وحث على الصبر على ذلك، ثم أكد على العهود مرة أخرى بين عاقبة الصابرين، وما أعده لهم من جزاء حسن.

ثم جاء بأسلوب بديع يشير إلى جزاء من عمل صالحا والوفاء بالعهد من العمل الصالح حيث وعده بالحياة الطيبة في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩١-٩٧].

ويعد الله الموفين بعهدهم بجزاء عظيم يجمله سبحانه ولا يفصله زيادة في التشويق وبيانا لعظم الأجر: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب:٢٣- ٢٤].

٣. وراثة الفردوس.

جعل الله تعالى وراثة الفردوس والإكرام في الجنات للمؤمنين الذين من صفاتهم الوفاء بالمواثيق والعهود ورعايتها والقيام بها بكل صورها وأشكالها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون:٨].

ذكر مآلهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١٠- ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج:٣٢-٣٥].

(١) انظر: جامع البيان ١/ ٥٥٧.

ويبين جنة الفردوس ومنزلتها الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن)[1].

وكذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات، فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله) فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠﴾ [المؤمنون:١٠][2].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم:٦٣].

وكقوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾ [الزخرف:٧٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم ٢٧٩٠، ٤/ ١٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٤٣٤١، ٢/ ١٤٥٣.
قال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، رقم ١٥٥١، ٤/ ٢٦٦: «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٢٧٩، ٥/ ٣٤٨.

آثار نقض الميثاق

يترتب على نقض الميثاق بعض الآثار، منها:

أولًا: الإفساد في الأرض:

إن نقض الميثاق يكون سببًا للإفساد في الأرض، ويكون ذلك من خلال أن الإفساد في الأرض صفة من صفات الناقضين لمواثيقهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة:٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ [الرعد:٢٥].

وفسادهم فيها هو: عملهم بمعاصي الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، وذلك أن التقاطع بين الناس يحصل من رفض المحبة والعداية، ورفضهما سبب كل فساد، فإن القوم إذا أحبوا وعدلوا تواصلوا، وإذا تواصلوا تعاونوا، وإذا تعاونوا عمروا وإذا عمروا عمروا[3].

وهذه الصفات صفات الكفار المباينة

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٢٨، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٣١، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٦٥.

لصفات المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد:١٩-٢١].

إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥][1].

لأن الفساد في الأرض من خصال المنافقين فإذا كانت فيهم الظهرة على الناس، أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم، أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا[2].

كما أن نقض الميثاق المبرم مع الإمام كالبيعة على السمع والطاعة، وكذلك نقض الميثاق من قبل الحاكم بعدم الوفاء لرعيته بالمواثيق التي قطعها على نفسه لهم، يكون سببا للإفساد في الأرض وخاصة في الخروج على الحاكم، فقد روى البخاري عن مصعب بن سعد، «قال: سألت أبي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف:١٠٣]: هم الحرورية؟ قال: لا هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد يسميهم الفاسقين»[3].

وروى الحاكم عن مصعب بن سعد، قال: «كنت أقرأ على أبي حتى إذا بلغت هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف:١٠٣].

قلت يا أبتاه أهم الخوارج؟ قال: لا يا بني اقرأ الآية التي بعدها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف:١٠٥].

قال: «هم المجتهدون من النصارى كان كفرهم بآيات ربهم بمحمد ولقائه» وقالوا: ليس في الجنة طعام ولا شراب، ولكن الخوارج هم الفاسقون الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون»[4].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٧.
(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٣٨٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا)، رقم ٤٧٢٨، ٦/ ٩٣.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢/ ٤٠٢.

والصحيح أن الآية عامة الشمول، وفي الآية التي تأتي بعدها تفسير صريح عن المقصودين، وهم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه واتخذوا آياته ورسله هزوا، وهذا تعبير شامل ليس فيه أي محل لجعله وصفا لطائفة معينة[1].

ويشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة:٨٤] إلى أن نقض العهد والميثاق يؤدي إلى سفك الدماء والتهجير من البلدان وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)[2].

فقد أخذ الله العهد على بني إسرائيل: لا يريق بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم وأوطانهم، وقد جعل غير الرجل كأنه نفسه، ودمه كأنه دمه إذا اتصل به دينا أو نسبا، إشارة إلى وحدة الأمة وتضامنها، وأن ما يصيب واحدا منها فكأنما يصيب الأمة جمعاء، فيجب أن يشعر كل فرد منها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم، فالروح الذي يحيا به والدم الذي ينبض في عرقه هو كدم الآخرين وأرواحهم، لا فرق بينهم في الشريعة التي وحدت بينهما في المصالح العامة.

ويجوز أن يكون المعنى: لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل قصاصا، أو بالإخراج من الديار فتكونون كأنكم قد قتلتم أنفسكم؛ لأنكم فعلتم ما تستحقون به القتل، كما يقول الرجل لآخر قد فعل ما يستحق به العقوبة: أنت الذي جنى على نفسه.

فقد كان سفك الدماء وتقاتل اليهود وطرد بعضهم بعضا من ديارهم ظاهرة شائعة فيهم، وظلت هذه الظاهرة إلى عصر التنزيل القرآني، فكان يهود بني قريظة حالفوا الأوس، ويهود بني النضير حالفوا الخزرج، فإذا نشبت الحرب بينهم، كان كل فريق من اليهود يقاتل مع حلفائه، فيقتل اليهودي يهوديا آخر، ويخرب بعضهم ديار بعض، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والمال، مع أن ذلك محرم عليهم بنص التوراة، وإذا أسر بعضهم فدوهم بالمال، وكانوا إذا سئلوا، لم تقاتلونهم وتفدونهم، قالوا: أمرنا- أي في التوراة- بالفداء، فيقال: فلم تقاتلونهم؟ فيقولون: حياء أن تستذل حلفاؤنا، فأنزل الله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ولم يتعقبه الذهبي.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٢٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢١٠.

﴿بِبَعْضٍ﴾[1].

ثانيًا: الكفر لمن ينقض ميثاقه مع الله تعالى:

قرن الله تعالى بين الكفر ونقض العهد معه تعالى في أكثر من موضع في القرآن الكريم، قال تعالى مخاطبا بني إسرائيل مذكرا لهم بالميثاق الذي أخذه عليهم ومبينا الحال التي آلوا إليها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٣].

وينفي القرآن الإيمان عن النابذين لعهودهم وهم أكثر من الموفين، ولذلك فغير المؤمنين أكثر من المؤمنين، وهذا أحد وجهي تأويل الآية: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة:١٠٠][2].

ويأمر الله تعالى أمرا حاسما لا تردد فيه بقتال ناقضي الميثاق بسبب كفرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة:١٢].

وتستمر الآيات مبينة كفر من كذب بعهد الله وميثاقه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب:٧- ٨].

وبأسلوب الاستفهام يأتي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد:٨][3].

ثالثًا: الفسق:

جاءت الآيات القرآنية مبينة فسق من نقض الميثاق، ووردت بمعنى الكفر، وذلك تأكيد لما سبق من بيان كفر من تخلى عن العهد والميثاق، ففي أول آية جاء فيها لفظة: الميثاق حكم الله على الناقضين بالفسق فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة:٢٦- ٢٧].

والفسوق هو: الترك لأمر الله والخروج عن طاعته، وقال الفراء: الفسق: الخروج

(١) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٦٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٥، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٢١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٤٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٧٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٤٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٥٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥.

عن الطاعة، والعرب تقول: فسقت الرطبة عن قشرها، إذا خرجت، وقد يكون الفسوق شركا، ويكون إثما، والذي أريد به ههنا: الكفر[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف:١٠٢].

وتؤكد هذه الآيات شناعة فعل الناقضين لعهودهم، وسوء جريرتهم، وأنهم فاسقون لخروجهم عن أمر الله وميثاقه.

والضلال في سواء السبيل، وهذا ما حل ببني إسرائيل لما كفروا بالله وخانوا مواثيقه: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة:١٢].

وهذه الآيات تبين فسوق وضلال وخسران ناقض الميثاق مع الله تعالى، وإن مصير ذلك إلى الكفر والنفاق وما يترتب على ذلك من العذاب الأليم في الآخرة[2].

رابعًا: الخسران:

قرر القرآن الكريم أن الخسران عاقبة من نقض ميثاقه ونكث بعهده.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٧].

ويؤكد القرآن الكريم أن الخسران مآل من تولى عن أخذ الميثاق كما أمر به الله، مبينا نعمة الله على بعض عباده حيث رحمهم من أن يكونوا من الخاسرين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤١٠، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٠٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١١٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤١٠، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٠٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١١٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١١٧.

﴿مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة:٦٣- ٦٤].

خامسًا: اللعن وقسوة القلوب والطبع عليها:

لما نقض بنوا إسرائيل عهودهم كانت العاقبة شديدة والأثر أليم، فقد لعنهم الله وجعل قلوبهم قاسية، وتبعا لذلك ضلوا وانحرفوا عن سواء السبيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٣].

وكما يبين سبحانه أنه طبع على قلوبهم جزاء لهم على كفرهم ونقضهم لميثاقهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء:١٥٥].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥][1].

وهذه الآيات بيان من الله للمصير الذي ينتظر الناكثين لعهودهم الناقضين لمواثيقهم، وهو إنذار وتحذير للمؤمنين بل وللناس أجمعين.

سادسًا: الإغراء بالعداوة والبغضاء:

أخذ الله الميثاق على النصارى كما أخذه على اليهود، ولكنهم سلكوا مسلكهم وأخذوا طريقهم، فنقضوا الميثاق وبدلوا في دينهم، وضيعوا أمر الله، فأورثهم الله العداوة والبغضاء وجعلها ملاصقة لهم لا تنفك عنهم، واستحكمت فيهم الخلافات والأهواء، فاختلفوا في نبيهم، وحرفوا كتابهم، وكانوا ضالين في دينهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة:١٤][2].

سابعًا: القتل والتشريد:

من الآثار الدنيوية العاجلة التي تحل بالخائنين، الناقضين للعهود والمواثيق، أمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم إن لقي هؤلاء الخائنين وتمكن منهم، أن يعاقبهم عقوبة يؤدب بها من خلفهم، عقوبة قاسية تتعدى آثارها هؤلاء المجرمين إلى ما يقف

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١١.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٦١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٦٦، تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٣٠٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧٠.

خلفهم وبتربص بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الدوائر، يكون من آثارها تشريد أولئك المتربصين وتفريق كلمتهم وتشتيت شملهم: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال:٥٦- ٥٧].

وهذا ما فعله رسول صلى الله عليه وسلم عندما ظفر ببني قريظة، تنفيذا لأمر الله من فوق سبع سماوات وأي عقوبة دنيوية أشد من هذه العقوبة، إن أخذه أليم شديد[(١)].

ثامنًا: الخزي في الدنيا:

لما ذكر الله تعالى المواثيق التي أخذها على بني إسرائيل، ذكر خيانتهم وغدرهم ونكثهم للعهود والمواثيق، ثم هددهم قائلا: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥].

وتأتي الآية التي بعدها مباشرة مؤكدة هذه النهاية المفجعة التي تنتظر هؤلاء الغادرين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة:٨٦]

والخزي هو: الذل والصغار، يقال منه: «خزي الرجل يخزى خزيا»، في الحياة الدنيا، يعني: في عاجل الدنيا قبل الآخرة، وذلك هو حكم الله الذي أنزله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من أخذ القاتل بمن قتل، والقود به قصاصا، والانتقام للمظلوم من الظالم، وأخذ الجزية منهم ما أقاموا على دينهم، ذلة لهم وصغارا، كما أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير من ديارهم لأول الحشر، وقتل مقاتلة قريظة وسبي ذراريهم، فكان ذلك خزيا في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم[(٢)].

وبين الله سبحانه ما أعده للكافرين الذين لم يصدقوا مع الله فيما أخذه على النبيين من عهد وميثاق، من العذاب الأليم الذي يليق بمكانتهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب:٧- ٨][(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣١٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٦٥، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٧٠، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢١٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢١٦، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٢.

تاسعًا: الموقف المخزي يوم القيامة والعذاب الشديد:

ما ذكره سبحانه عن حال الذين يشرون بعهد الله وإيمانهم ثمنا بخسا زهيدا في الدنيا، حالتهم يوم القيامة شر حالة، ومآلهم شر مآل، ومصيرهم أسوء مصير، فلا خلاق لهم ولا حجة ولا نصيب ولا قوام[1] وأشد من ذلك أن الله لا يكلمهم كلاما يسرهم، ولا ينظر إليهم نظر رحمة وعطف، بل ولا يزكيهم ويطهرهم من ذنوبهم وسيئاتهم في موقف ينتظر كل إنسان رحمة الله وعفوه ومغفرته، ونهايتهم في العذاب الأليم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران:٧٧][2].

كما يترتب على نقض العهد السؤال في الآخرة حيث يقف ناقض العهد أمام الباري عز وجل ليسأله عن جريرة اقترفها وذنب عمله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب:١٥].

أما السؤال عن نقض العهد في الدنيا: فإن الظاهر من أقوال المفسرين أن السؤال عن الميثاق يكون في الآخرة لكن يمكن أن يكون المعنى عاما يتناول السؤال عن الميثاق أيضا في الدنيا من خلال المطالبة بالوفاء ممن هو له أو من قبل الحاكم، قال الماوردي: «﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما مسئولا عنه للجزاء عليه، الثاني: للوفاء به»[3].

وأما سوء الدار فإنه المصير السيئ ينتظر الناقضين لعهد الله، والنهاية المهلكة مآلهم ومستقرهم، والدار دار سوء لا دار سعادة وفلاح، ولقد حقت عليهم لعنة الله ومقته، قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥].

عاشرًا: الجناية على النفس:

ذكر الله تعالى عاقبة نقض الميثاق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ

(١) الخلاق هو: النصيب الوافر من الخير والصلاح، يقال: رجل لا خلاق له، أي: لا رغبة له في الخير ولا صلاح في الدين، وفي الآخرة لا نصيب له في الخير.
انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٥٢، معاني القرآن، النحاس ١/ ٤٢٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٣٤، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٩٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٣٢٠.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٨٤.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٢٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٦٣، تفسير السمعاني ٤/ ٢٦٧.

أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ [الفتح:١٠].

والنكث هو: نقض ما تعقده، وما تصلحه، ومن نكث بيعته إياك يا محمد، ونقضها فلم ينصرك على أعدائك، وخالف ما وعد ربه ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ يقول: فإنما ينقض بيعته، لأن البيعة مع الله ولا إلى الله، لأنه لا يتضرر بشيء، فضرره لا يعود إلا إليه، ولأنه بفعله ذلك يخرج ممن وعده الله الجنة بوفائه بالبيعة، فلم يضر بنكثه غير نفسه، ولم ينكث إلا عليها[1].

وقال محمد بن كعب القرظي: «ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به: من مكر أو بغي أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُم عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح:١٠]»[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢١٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٧٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩٦.

صفات ناقضي الميثاق

ذكر القرآن صفات للناقضين لعهودهم، والخائنين لمواثيقهم:

١. نفى العقل عن الذين يأخذون كل ما عرض لهم حلالا كان أو حراما، مخالفين بذلك ميثاق الكتاب الذي أخذ عليهم، وجاء نفي العقل بصيغة الاستفهام: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف:١٦٩].

٢. ومن الصفات التي وصفهم الله بها أنهم شر الدواب: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال:٥٥- ٥٦] أي: أن الذين ينقضون مواثيقهم شر ما دب على الأرض عند الله، الذين كفروا بربهم، فجحدوا وحدانيته، وعبدوا غيره فهم لا يصدقون رسل الله، ولا يقرون بوحيه وتنزيله، فيكونون في ترك القبول بمنزلة من لم يسمع ولم يعقل[3].

٣. ومن صفات هؤلاء، أنهم خائنون:

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١ معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٠٩.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

[الأنفال:٥٧- ٥٨].

٤. وختام تلك الصفات وأعظمها وصفهم بالنفاق، والكذب، والكذب مطية النفاق: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

[التوبة:٧٥-٧٧].

موضوعات ذات صلة:

الأسرة، العهد، المؤاخذة، النبوة، النكاح، الوفاء

الميسر

عناصر الموضوع

مفهوم الميسر	١٢٠
الميسر في الاستعمال القرآني	١٢٢
الألفاظ ذات الصلة	١٢٣
حقيقة الميسر	١٢٥
الآثار السيئة للميسر	١٥٣

مفهوم الميسر

أولًا: المعنى اللغوي:

المعاني اللغوية للميسر تدور حول معنى محوري جامعٍ لها، وهو: «سريان الشيء الرقيق في الباطن (أو من الباطن) مستطابًا بلطف واتصال، كما يسري السمن في البدن، وفي ما بين الأسارير، وكوجود اللبن، وكما يطلق اليسر عند العامة على احتباس البول في الدواب»[(١)].

وقد أشار ابن فارس رحمه الله إلى هذا المعنى المحوري كأول المعنيين الكليين الذين ذكرهما لمادة: يسر، فقال: « (الياء والسين والراء) أصلان يدل أحدهما على انفتاح شيء وخفته، والآخر على عضو من الأعضاء، فالأول: اليسر: ضد العسر، ومن الباب الأيسار: القوم يجتمعون على الميسر، وأحدهم يسر - بفتح الياء والسين أو بفتح الياء وسكون السين -، والكلمة الأخرى: اليسار لليد، يقال: تياسروا، إذ أخذوا ذات اليسار »[(٢)].

والراجح في نظري اشتقاقه من اليسر بمعنى السهولة، حيث هو معنى أصل للتجزئة، ويتضمن معنى الوصول إلى المال بغير تعب، وهذا ما يستنبط من المعنى المحور للمادة، ومن إشارات المؤلفين في غريب القرآن الكريم[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه الإمام مالك رحمه الله في قوله: « الميسر ميسران: ميسر اللهو، وميسر القمار، فمن ميسر اللهو: النرد والشطرنج والملاهي كلها، وميسر القمار: ما يتخاطر الناس عليه» [(٤)]

وعرفه الماوردي الشافعي بقوله: « هو الذي لا يخلو الداخل فيه من أن يكون غانمًا إن أخذ، أو غارمًا إن أعطى». [(٥)]

وعرفه القاضي أبو بكر ابن العربي بأنه: « طلب كل واحد منهما صاحبه بغلبة في عمل،

---

(١) انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل ص ٩٨٩ بتصرف.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري ص ٧١٣.
وانظر: القمار حقيقته وأحكامه ص ١٧.
(٣) المفردات ص٧١٧، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان ص ٣٢٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٤/ ٣٥٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٢، ٥٣.
(٥) الحاوي الكبير ١٩/ ٢٢٥.

أو قول؛ ليأخذ مالًا جعله للغالب ».[1].

وعرف ابن أبي الفتح البعلي القمار بأنه: « المخاطرة الدائرة بين أن يغنم باذل المال أو يغرم أو يسلم »[2].

وعرفه الشيخ السعدي بقوله: « وهو: جميع المغالبات، التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها»[3].

وهكذا يمكننا القول أن الميسر بمعناه الاصطلاحي في القرآن الكريم يشمل كل معاملة تضمنت مخاطرة أو مراهنة أو مقامرة أو غررًا، فيشمل بيوع الغرر والقمار واللعب بالشطرنج والنرد، وكل معاملة أو لهو كانا سببًا في وقوع العداوة والبغضاء بين الناس، أو الصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

والتعريف المختار أنه: « كل مخاطرة يعلق تمييز مستحق الغُنْمِ والملزم بالغرم من جميع المشاركين فيها على أمر تخفى عاقبته»[4].

وذلك لأنه جامع لكل ما يندرج تحت مفهوم الميسر من صور يجمع بينها المخاطرة والجهالة والتعليق بأمر غيبي، وكذلك يمنع دخول غير أفراد الميسر من المعاملات الأخرى التي اختلف في اندراجها تحت مفهوم الميسر، ويسلم من الاعتراضات.

(١) عارضة الأحوذي ٧/ ١٨، بتصرف.
(٢) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، البعلي ص ٥٢٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٤٣.
(٤) القمار حقيقته وأحكامه ص ٧٤- ٧٥.

الميسر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (يسر) في القرآن الكريم (٤٤) مرة[(١)]، يخص موضوع البحث منها (٣) مرات.

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر الميمي	٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ﴾ [المائدة:٩٠]

وجاء الميسر في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: القمار، سمي بذلك لسهولة مكسبه[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٧٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الياء ص١٤٣٨-١٤٣٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ٦٧٠-٦٧٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٨٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ القمار:

القمار لغة:

طلب الغرة والمخادعة، يقولون: تقمرها: طلب غرتها وخدعها. وقامره فقمره إذا راهنه فغلبه، قال في اللسان: وكأن القمار مأخوذ من الخداع يقال: قامره بالخداع فقمره [(١)].

القمار اصطلاحًا هو:

« تحكيم الغرر في تمييز الغارم من مستحق الفوز والظفر»[(٢)].

ويقصد بهذا التعريف أن تكون جهالة العاقبة محكمة في تمييز الغارم من الفائز في عملية الميسر، حيث لا يدري أي من المتياسرين أيكون فائزًا أو غارمًا، فلا ينبني ذلك على قاعدة مطردة، بل مرجع الأمر إلى ما يخرج من القداح، وهو أمر مجهول حتمًا.

الصلة بين القمار والميسر:

وللتفريق بين الميسر والقمار يقال: الميسر أعم من القمار، فالميسر قد يكون موضوعه اللهو، وقد لا يتضمن مالًا، مثل النرد والشطرنج، أما إذا كان اللعب حول مال يأخذه الغالب من المغلوب، ويبذل فيه المتلاعبون جهدًا عضليًا، مثل المصارعة والسباق، أو ذهنيًا مثل لعبة الورق المسماة (بلاك جاك)، أو لعب الشطرنج على مال، فيكون قمارًا[(٣)].

٢ المراهنة:

المراهنة لغة:

الرهان والمراهنة: المخاطرة، راهن فلانٌ فلانًا على كذا: اتفقا على أن يكون للسابق أو للفائز منهما مالٌ ونحوه يأخذه من الخاسر[(٤)].

المراهنة اصطلاحًا هو:

« عقد يتعهد بموجبه كل من المتراهنين أن يدفع إذا لم يصدق قوله في واقعة غير محققة

---

(١) لسان العرب ٥/ ١١٤.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٧٥.

(٣) انظر: المضاربة والقمار في الأسواق المالية المعاصرة تحليل اقتصادي وشرعي، عبدالرحيم عبد الحميد الساعاتي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الاقتصاد الإسلامي، م٢٠، ع١ ص ٢١، القمار حقيقته وأحكامه ص ٨٥- ٩٨.

(٤) انظر: لسان العرب ١٣/ ١٨٩.

للمتراهن الذي يصدق قوله فيها مبلغًا من النقود أو أي عوض آخر يتفق عليه»[١].

الصلة بين المراهنة والميسر:

وأما الفرق بين الميسر والرهان، فالميسر أعم من الرهان، فالميسر قد يكون موضوعه اللهو، وقد لا يتضمن مالًا، مثل النرد والشطرنج، أما إذا كان اللعب يتضمن مالًا يأخذه الغالب من المغلوب، ولا يتضمن جهدًا عضليًّا أو ذهنيًّا، مثل لعبة الروليت، أو أوراق اليانصيب، فيكون رهانًا[٢].

٣ الغرر:

الغرر لغة:

الخطر، وهو مثل بيع السمك في الماء والطير في الهواء. وقيل: بيع الغرر المنهي عنه ما كان له ظاهر يغر المشتري وباطن مجهول[٣].

الغرر اصطلاحًا هو:

« ما يكون مجهول العاقبة لا يدرى أيكون أم لا»[٤].

الصلة بين الغرر والميسر:

المشهور أن الغرر أعم من الميسر؛ لأن بعض أنواع الغرر لا يصح أن يطلق عليه أنه ميسر، فالبيع الذي فيه غرر، والإجارة التي فيها غرر، وغيرهما من العقود، من الخطأ إطلاق كلمة القمار عليها، وتشبيهها به إلا ما تحققت فيه مميزات القمار؛ وعلى هذا فإن كلمة الميسر أخص من كلمة الغرر، فكل ميسر غرر، وليس كل غرر ميسرًا، فبين الغرر والميسر عموم وخصوص مطلق، كما يقول الأصوليون[٥].

وذهب بعض المؤلفين إلى أنه لا علاقة بين الغرر والميسر والقمار أصلًا، فلكل منهما مجاله المختلف عن غيره، فالغرر في رأيهم يختص بالبيوع، والميسر ليس من أنواع البيوع[٦].

---

(١) انظر: المصدر السابق ص ١٠٤ بتصرف يسير.
(٢) انظر: المضاربة والقمار في الأسواق المالية المعاصرة ص ٢١.
(٣) انظر: لسان العرب ٥/ ١٨.
(٤) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٤/ ٤٦، الكليات، الكفوي ص ٦٧٢، قواعد الفقه، البركتي ص ٣٩٩.
(٥) انظر: الغرر وأثره في العقود في الفقه الإسلامي ص ٦١، القمار حقيقته وأحكامه ص ١٢٨.
(٦) انظر: حقيقة الغرر المحرم في الشريعة الإسلامية، أحمد صفي الدين، مجلة أضواء الشريعة ص ١٠٠، كلية الشريعة بالرياض السعودية، العدد الحادي عشر.

حقيقة الميسر

يقصد بحقيقة الميسر صورته الواقعية في الأزمنة المختلفة، فإذا كان مضمون الميسر واحدًا، فليس من الضرورة أن تتحد صوره وأشكاله، فتلك مظاهر ترتبط بالواقع الاجتماعي والزمني، فميسر الجاهلية بالضرورة يختلف عن ميسر العصر الحديث، والعكس صحيح، كما أن الميسر قبل الإسلام كان عادة اجتماعية ووسيلة من وسائل اللهو، بينما تبدلت الصورة بعد الإسلام، وهذا ما سيظهر من خلال ما يلي:

أولًا: الميسر عند العرب في الجاهلية:

اشتهر الميسر عند العرب في الجاهلية كعادة من العادات الاجتماعية وظاهرة من الظواهر، وهو في الحقيقة صورة تجسد الخلل العقدي وضعف الأصول الدينية لديهم، ولم يكن في أصله لعبةً أو لونًا من اللهو المجرد.

وإذا كان الميسر مذمومًا في الإسلام من وجوه محرمًا بالنص الواجب الاتباع، فقد اعتبروه صورة من صور الكرم والإقدام المحمود أحيانًا، فقد يترتب عليه - رغم ما فيه من إثم -إطعام فقراء العشيرة في الشتاء القارص والبرد الشديد، في موسم الجدب والقحط لقوم جل اعتمادهم على الرعي والتنقل مع المراعي، ولهذا كان التعبير القرآني في آية سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

بالنص على أن في الميسر منافع للناس.

قال صاحب المنار: «ومن منافع الميسر مواساة الفقراء كما علمت من عادة العرب التي لا وجود لها الآن»[(١)].

ويلاحظ هنا أمران:

أولًا: دقة التعبير القرآني في عرضه الواقع والحقيقة، بنصه على اشتمال الميسر على منافع، على الرغم من حكمه بتحريمه، وهذا ينطوي على دلالات متنوعة وبراهين ساطعة لمن تدبر وتأمل، كما لا يخفى ما فيه من إعجاز التشريع كما مر.

قال ابن عاشور: «فإن قلت: ما الوجه في ذكر منافع الخمر والميسر مع أن سياق التحريم والتمهيد إليه يقتضي تناسي المنافع؟ قلت: إن كانت الآية نازلة لتحريم الخمر والميسر فالفائدة في ذكر المنافع هي بيان حكمة التشريع؛ ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، لأن الله جعل هذا الدين دينًا دائمًا، وأودعه أمة أراد أن يكون منها مشرعون لمختلف ومتجدد الحوادث،

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٦٤.
وانظر: شرح ديوان الحماسة، الأصفهاني ١/ ٧١، الميسر عند العرب، محمود مصطفى، صحيفة دار العلوم، ع ٢/ ١٣-١٤، الميسر والأزلام ص ١٧- ١٨.

فلذلك أشار لعلل الأحكام في غير موضع»[1].

ثانيًا: الصعوبة النسبية في الوقوف على حقيقة الميسر في الجاهلية، حيث قطع الإسلام هذا الأمر بتحريمه، فكان سببًا في الصعوبة النسبية في تفسيره والوقوف على حقيقته.

قال أبو عبيد: «ولم أجد علماءنا يستقصون معرفة علم هذا، ولا يدعونه كله، ورأيت أبا عبيدة أقلهم ادعاءً لعلمه، قال أبو عبيدة: وقد سألت عنه الأعراب فقالوا: لا علم لنا بهذا، لأنه شيء قد قطعه الإسلام منذ جاء، فلسنا ندري كيف كانوا ييسرون»[2].

ولعل هذه الصعوبة كانت السبب في عزوف بعض العلماء كابن العربي المالكي عن معالجة الموضوع في كتبهم.

قال ابن العربي في تفسير آية سورة البقرة: « الميسر ما كنا نشتغل به بعد أن حرمه الله تعالى، فما حرم الله فعله وجهلناه حمدنا الله تعالى عليه وشكرناه »[3].

وقال أيضًا في تفسير آية سورة المائدة: «وأما الميسر فهو شيء محرم لا سبيل إلى علمه، فلا فائدة في ذكره، بل ينبغي أن يموت ذكره ويمحى رسمه»[4].

وللوقوف على حقيقة الميسر في الجاهلية لابد من ترتيب متعلقاته ترتيبًا فكريًّا يوضح صورته جلية، وذلك من خلال الفروع الآتية:

١ . زمان الميسر.

اتفق الكاتبون من أهل الأدب واللغة والتفسير على أن فصل الشتاء كان زمانًا للميسر عند العرب، حيث الحاجة والعوز، حين تجدب البلاد وتقشعر الأرض ويتعذر القوت على طالبه، وتتضح هذه الصورة وتتجلى إذا تعلقت بقوم غالبيتهم من الأعراب الرحَّل تبعًا للكلأ والمرعى، وكيف السبيل إلى ذلك والحال كما سبق.

وكان العرب يختارون الليل من الشتاء، باعتباره وقت طروق الضيف، وحين اشتداد البرد، فيوقدون النار ليهتدي بها الضيف، وليستطيعوا أن يزاولوا هذا العمل في يسر[5].

وقد سجل الشعر العربي زمان الميسر، فقال الأعشى[6]:

المطعمو الضيف إذا ما شتوا
والجاعلو القوت على الياسر

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٠.
(٢) غريب الحديث ٣/ ٤٩٦- ٤٧٠.
وانظر: نظم الدرر ١/ ٤١٠.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٠٩.
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٦٤.
(٥) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٠.
(٦) انظر: الميسر والقداح ص ٨٣- ٨٤، شرح ديوان الحماسة، الأصفهاني ١/ ٧١، الميسر والأزلام ص ١٩.

وقد أوضح العلامة عبد السلام هارون رحمه الله مدى حرص العربي على الميسر في الشتاء، طلبًا للمفاخرة والتباهي به صيفًا بقوله: « وكان الرجل من العرب يخشى الصيف، أن يحضر الصيف ولم يكن صنع لنفسه في شتائه مفخرة تذكر له حين تذكر المفاخر، فهو يخشى أن يعير في الصيف بنكوصه عن المشاركة في هذا الجهد الاجتماعي، وإمساك يده عن مساعدة القبيلة.

إذا يسروا لم يورث اليسر بينهم
فواحش ينعى ذكرها بالمصايف[1]

٢. وسائل الميسر وآلاته.

اشتملت عملية الميسر - إذا صح التعبير- عند العرب على عدد من الأركان والوسائل والآلات التي لا تتم بدونها، وتفصيلها كالتالي:

١. الجزور.

وهو موضوع الميسر ومحوره الرئيس، إذ بغيره لا تتحقق مقاصد الميسر لدى القوم من التفاخر والكرم ومساعدة الفقراء والمحتاجين وقرى الضيوف.

ولفظ: الجزور كما جاء في المعاجم اللغوية أصله الجزر، وهو القطع، ويطلق على الذكر والأنثى، ولكنهم كانوا أكثر ما ينحرون النوق[2].

وإن كان الأصل اللغوي يبيح المياسرة بما يسمى جزورًا على الإطلاق، إلا إنهم وضعوا قيودًا وضوابط للجزور المستعمل في تلك العملية.

يقول العلامة عبد السلام هارون رحمه الله: « وليست كل ناقة و لا كل بعير بصالح للميسر، وإنما كانوا يتخيرون أسمنها وأنفسها وأعزها عليهم، فكأنما ألهموا من وراء الغيب: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]»[3].

وكان الأيسار إذا أرادوا أن ييسروا ابتاعوا ناقة بثمن مسمىً يضمنونه لصاحبها، ولم يدفعوا الثمن حتى يضربوا بالأقداح عليها فيعلموا على من يجب الثمن، ويدفع الثمن من خابت سهامهم متضامنين في ذلك بحسب أنصبتهم لو فازوا، إعمالًا لمبدأ: الغرم بالغنم[4].

ومن عاداتهم كذلك التي تواضعوا عليها قبل الضرب بالقداح على الجزور «التأريب»، وصورته: أن يجعلوا بينهم عدلًا يأخذ من كل منهم رهنًا بما يلزمه من نصيب

(١) الميسر والأزلام ص ١٨.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٥٦، لسان العرب ٤/ ١٣٤، مختار الصحاح ١/ ٤٣.

(٣) الميسر والأزلام ص ٢٠.

(٤) انظر: الميسر والقداح ص ٨٨، نظم الدرر ٣/ ٢٥١، الميسر والأزلام ص ٢١.

قدحه إن خاب، مقدرًا كل الاحتمالات التي يتعرض لها الغارمون[1].

وهذا ضرب من محاولة اكتشاف المستقبل ومعرفة الغيب، وتلك أم الآفات وأساس كل فساد.

٢. الأيسار.

ويراد بهم القوم المتقامرون على الجزور، أحدهم: يسر - بفتح الياء والسين-، والأيسار واليسر تسميتهم الأصلية، وقد يقال لهم: ياسرون وأحدهم ياسر على خلاف الأصل؛ لأنهم أيضًا جازرون، إذ كانوا سببًا لذلك[2].

٣. الجزار.

وهو من يقوم بتقطيع الجزور، وربما سمي: الياسر كما مر، ويسمونه: «القدار»، ووظيفته معلومة، وله من الجزور نصيب مما سوى الأصول وهو الريم[3].

٤. قداح الميسر.

وتسمى عند الأيسار: قداحًا، وزلمًا، وقَلْمًا، وأكثرها استعمالًا: «القِدْح»[4] -بكسر القاف وسكون الدال-، وهي عيدان تتخذ من النبع[5]، ولذلك وصفت بالاصفرار، وكانوا يستحسنون نحتها من غصون الشجر وقضبها، لخلوها من العقد، وتوصف بالتشابه في المقادير، لأنها لو اختلفت قد يتمكن الضارب من الحيلة فيها، وهي كصغار النبل، وتجعل سواءً في الطول، وتختلف في العلامات والرسوم، ولها رأس صغيرة ناقصة عن مقدار جسمها، ولها طرائق وخطوط مستقيمة ومنحنية تكون في لون العود، تعرف بالسفاسق[6].

---

(١) انظر: الأمالي، أبو علي القالي ٢/ ١٥٦، الميسر والأزلام ص ٢٢.

(٢) انظر: الميسر والقداح ص ٣٠- ٣١، نظم الدرر ٣/ ٢٤٥.

(٣) انظر: نظم الدرر ٣/ ٢٤٤، الميسر والأزلام ص ٢٤، ٤٠.
والريم: هو العظم الذى يبقى بعد قسمة الجزور، أو هو ما يبقى في يد الجزار بعد تقسيم الجزور بالتساوي عدا الرأس والأطراف، يسب به الجازر لو أخذه، فإن أباه أخذه الهلكى من الفاقة.
انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٢٩٤، تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٢٠١، أساس البلاغة، الزمخشري ص ٢٦٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٦٠.
ويطلق على الريم: الجزارة أيضًا، وهي قوائم البعير ورأسه، لأنها كانت لا تقسم في الميسر وتعطى الجزار.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٣١٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٢٨٦.

(٤) وهو في الأصل: السهم بلا نصل ولا قذذ، وكأنه سمي بذلك، لأنه يقدح به أو يمكن القدح به، ثم سمي القدح من قداح الميسر به على التشبيه.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٦٧.

(٥) النبع: شجر ينبت في قمة الجبل معروف بالمتانة واللين.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٤٥، ٣٤٦، الميسر والأزلام ص ٣١.

(٦) السفاسق: جمعٌ مفرده: سفسقة وسفسوقة، وأصلها: المحجة الواضحة، والمراد بها

وكذلك يكون القدح مدورًا أملس كالسهم خاليًا من القوادح والسوس، ويمتاز بالرزانة والسلامة وحسن الصوت إذا ضرب به[1].

ولابن الحاجب رحمه الله في أسماء قداح الميسر ثلاثة أبيات، وهي[2]:

هي فذ وتوأم ورقيب
ثم حلس ونافس ثم مسبل
والمعلى والوغد ثم سفيح
ومنيح وذي الثلاثة تهمل
ولكل مما عداها نصيب
مثله أن تعد أول أول

وقداح الميسر على ضربين:

أولهما: قداح الحظ: وهي سبعة:

- **الفذ** -بفتح الفاء وتشديد الذال المعجمة-[3]: وله حظ واحد في الفوز والخسارة، بحيث يغنم حظًّا، ويغرم إن خسر حظًّا واحدًا أيضًا.
- **التوأم**- بفتح التاء وسكون الواو وفتح الهمزة -: وله حظان اثنان، بحيث يغنم حظين إن ربح، ويغرم إن خسر حظين.
- **الرقيب**- على وزن فعيل-: وله ثلاثة حظوظ، بحيث يغنم ثلاثة حظوظ، ويغرم إن خسر ثلاثة.
- **الحلس**- بكسر الحاء المهملة وإسكان اللام -: وله أربعة حظوظ، بحيث يغنم أربعة حظوظ، ويغرم إن خسر أربعة.
- **النافس** -بكسر الفاء على وزن فاعل -: وله خمسة حظوظ، بحيث يغنم خمسة حظوظ، ويغرم إن خسر خمسة.
- **المسبل** -بوزن محسن بإسكان السين وكسر الباء الموحدة -: وله ستة حظوظ، بحيث يغنم ستة حظوظ، ويغرم إن خسر ستة، ويسمى كذلك: المصفح -بضم الميم وسكون المهملة وفتح الفاء-.
- **المعلى** -على وزن معظم بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد اللام المفتوحة: ويسمى كذلك بالمغلق، وله سبعة حظوظ، بحيث يغنم سبعة حظوظ، ويغرم إن خسر سبعة[4].

وتتميز القداح السابقة بتشابه أجسامها، فلا يمتاز بعضها من بعض إلا بعدد الفروض، وهي الحزوز التي تحز فيها لتبين قدرها، فللفذ حز وللتوأم حزان، وللرقيب

الخطوط والطرائق التي تكون في الأعواد والسهام، وهي دلالة على الوضوح.
انظر: الميسر والقداح ص ٧٥-٧٦، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١١٥٤.

(١) انظر: الميسر والقداح ص ٦٨، ٨٣)، الميسر والأزلام ص ٣١.

(٢) انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان ٣ / ٢٤٩.

(٣) انظر في ضبط أسماء كافة السهام: نظم الدرر ٣/ ٢٤٩-٢٥١.

(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٤٧، الفصول والغايات، المعري ص ٢٢، المخصص، ابن سيده ٤/ ١٣.

ثلاثة، وهكذا، وربما كانت هذه الحزوز بالنار، وتكون في تلك الحالة موسومة غير محزوزة[1].

الثاني: القداح التي لا حظ لها ولا نصيب:

ذهب أكثر المؤلفين والكاتبين[2] إلى أن السهام التي لا تفوز في الميسر بنصيب ثلاثة هي:

- السفيح -على وزن فعيل بسين مفتوحة وفاء مكسورة وإسكان الياء التحتانية ثم مهملة-.
- المنيح -على وزن أمير (فعيل) -.
- الوغد -بفتح الواو ثم سكون المعجمة ثم مهملة-.

والثلاثة السابقة كما وصفها ابن قتيبة ليس عليها علامات ولا سمات، ولذلك تدعى: «الأغفال»، وسميت بذلك لخلوها من العلامات، وجعلها مع السبعة ذوات الحظوظ لأجل أن يكثر بها العدد، ولتؤمن بها حيلة الضارب[3].

وذهب بعض المؤلفين إلى أن السهام التي لا حظ لها أربعة، وهي: السفيح والمنيح والرقيب، وهو الضريب، والوغد[4].

وأجود من القول السابق قول من فسر الأربعة بأنها: المصدر والمضعف والمنيح والسفيح[5].

وقد يبدو للقارئ بعض الغرابة في القول الثاني، حيث جعل الرقيب، وهو السهم الثالث من سهام الحظ السابقة غفلًا.

ويمكن إزالة هذه الغرابة بإدراك أمرين:

الأول: ثبوت الاضطراب في أسماء قداح الحظ والأغفال لعدم حفظ الأعراب لها، وذلك لتحريم الميسر في الإسلام.

قال أبو عبيد: « سألت الأعراب عن أسماء القداح فلم يعرفوا منها غير المنيح، ولم يعرفوا كيف يفعلون في الميسر».[6]

الثاني: - وهو أجود من الأول -ثبوت استعارة الأيسار لبعض أسماء القداح تيمنًا وتطيرًا، ويعرف هذا بالخياض.

قال الأزهري: «... وقال اللحياني: المنيح أحد القداح الأربعة التي ليس لها غنمٌ ولا غرمٌ، إنما يثقل بها القداح كراهة التهمة؛ أولها المصدر ثم المضعف ثم المنيح ثم السفيح، والمنيح أيضًا قدح من قداح الميسر

(١) انظر: الميسر والقداح ص ٤٦، نظم الدرر ١/ ٤١٣، الميسر والأزلام ص ٣١.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٦٨، نظم الدرر، البقاعي ١/ ٤١٣.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣٩٣، غريب الحديث، الخطابي ٢/ ١٥٤.
(٤) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٣/ ١٣١٢، نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري ٣/ ١١٤.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٨٩، نثر الدر في المحاضرات، الآبي ٦/ ٢٣٧، المحيط الأعظم، ابن سيده ٥/ ٥٣٠.
(٦) المخصص، ابن سيده ٤/ ١٦.

يوثق بفوزه فيستعار ليتيمن بفوزه، فالمنيح الأول من لغو القداح، وهو اسم له، والمنيح الثاني هو المستعار». [١]

وقال أيضا: «... والخياض: أن تدخل قدحًا مستعارًا بين قداح الميسر تتيمن به، يقال: خضت به في القداح خياضًا، وخاوضت القداح.. خواضًا». [٢]

٥. الخريطة.

وهي وعاء من الجلد أو نحوه يشد على ما فيه مثل كنانة سهام الرمي، توضع فيها القداح، وهي واسعة بقدر يمكن من استدارة القداح فيها واستعراضها، وفمها ضيق بقدر أن يخرج منها قدحان أو ثلاثة، وتسمى أيضًا: «الربابة» بكسر الراء. [٣]

٦. الحرضة[٤].

وهو بضم الحاء وسكون الراء، ويسمى أيضًا: (المجيل)، و(المفيض)، و(الضارب): الرجل المكلف بتقليب السهام في الخريطة وإفاضتها [٥].

ثم دفعها من فم الخريطة، وتعصب الخريطة على يديه، وذلك بعد لف يده بقطعة من جراب، لئلا يجد مس قدح تكون له مع صاحبه محاباة، وأحيانًا يشدون عينيه بعصابة ليحولوا بينه وبين رؤية القداح، ويقوم بذلك الرقيب، ويوصف الحرضة بأنه رجل من الرجال ساقط، لأنه لم يأكل لحمًا قط بثمن، إنما يأكله عند الناس وفي المآدب، ويوصف أيضًا بحدة النظر وسرعة تقليبه، حتى صار ذلك مثلًا، فقالوا: «نظر بعين مفيض» [٦].

٧. الرقيب.

ويسمى أيضًا: (رابع الضرباء) [٧].

ويختار في العادة من الأمناء الموثوق بهم من الرجال، ومهمته مراقبة الحرضة وإدارة رحى الميسر، ويجلس خلف الحرضة، ليتمكن من مراقبته، ومن مضامين وظيفته أيضًا تسلم السهام بعد خروجها من الخريطة ليعلم من صاحبها وليعلن اسمه في حالة الفوز، وكذلك رد السهام الأغفال إلى

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٧٧- ٧٨.
(٢) المصدر السابق ٧/ ١٩٦.
(٣) انظر: المخصص، ابن سيده ٤/ ١٦، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٠٦.
(٤) أصل اشتقاق الحرضة من التحريض، وهو التحضيض، وحقيقته: أن تحث الإنسان حثًا يعلم معه أنه حارض، أي: مقارب الهلاك إن تخلف عنه.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٢٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١١٣.
(٥) إفاضة الأقداح: أن يدفعها دفعة واحدة إلى الأمام فيخرج منها قدح أو أكثر.
انظر: الميسر والقداح ص ١٠٩، الميسر والأزلام ص ٤٠.
(٦) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد (١/ ٥١٥).
وعلل ابن فارس تسميته بالحرضة، لكونه لا خير فيه، بناءً على أصل اشتقاق الكلمة، مقاييس اللغة ٢/ ٤١.
(٧) أي: طليعتهم مشتق من ربأ: صار لهم ربيئة أي: طليعة. الأمالي، أبو علي القالي ٢/ ١٥٦.

الربابة إن خرجت مرة، وهو من يأمر الحرضة بجلجلة الأقداح في الخريطة وإفاضتها حتى يخرج سهم من قداح الحظ السبعة[1].

ويسمى أيضًا: المجمد، وأصل معناه: البخيل المتشدد، ثم جعل اسمًا للرقيب أو الأمين، لما يقوم به من إلزام كل ذي صاحب سهم بسهمه، ومراقبته للحرضة[2].

٣. طريقة تقسيم الجزور.

ذكر المفسرون [3] قديمًا وحديثًا خلافًا في طريقة تقسيم الجزور في عملية الميسر، والخلاف الذي ذكره المفسرون يعتبر من مروياتهم، وهو متفق مع ما ذكره الأدباء وأهل اللغة.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: « وقد اختلفوا في عدد الأجزاء فقال أبو عمرو: على عشرة أجزاء وقال الأصمعي: على ثمانية وعشرين جزءا ولم يعرف أبو عبيدة لها عددًا»[4].

ويمكن إجمال كلامهم في ثلاثة آراء:

الأول: وذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الجزور تقسم إلى ثمانية وعشرين جزءًا على عدد سهام الميسر ذوات الحظوظ، وذلك لأن مجموع أنصباء السهام ثمانية وعشرون نصيبًا، ونسب هذا إلى الأصمعي.

قال أبو جعفر النحاس: «وزعم الأصمعي أن الميسر كان في الجزور خاصة كانوا يقتسمونها على ثمانية وعشرين سهما»[5].

الثاني: وذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الجزور تقسم إلى عشرة أجزاء، ونسب هذا القول إلى أبي عمرو الشيباني.

قال أبو جعفر النحاس: « وقال أبو عمرو الشيباني: كانوا يقتسمونها على عشرة أسهم ثم يلقون القداح ويتقامرون على مقاديرهم، وهذا القول ليس بناقض لما تقدم»[6].

وقد بين البرهان البقاعي طريقة تقسيم الجزور إلى عشرة أقسام بقوله: «وهيئة ما يفعلون في القمار هو أن تنحر الناقة وتقسم عشرة أجزاء فتجعل إحدى الوركين جزءًا، والورك الأخرى جزء وعجزها جزء، والكاهل جزء، والزور- وهو الصدر- جزء، والملحاة، أي: وسط الظهر ما بين الكاهل والعجز من الصلب جزء، والكتفان وفيهما العضدان جزءان، والفخذان جزءان، وتقسم الرقبة والطفاطف بالسواء على تلك الأجزاء، وما بقي من عظم أو بضعة فهو

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ١٥٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٢٦.
(٢) انظر: المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ٧/ ٥٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٣٥٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٦١، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٣، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٨٩.
(٤) غريب الحديث ٣/ ٤٦٩.
(٥) معاني القرآن الكريم، النحاس ٢/ ٣٥٦.
(٦) المصدر السابق ٢/ ٣٥٦.

الريم، وأصله من الزيادة على الحمل، وهي التي تسمى علاوة فيأخذ الجازر، وربما استثنى بائع الناقة منها شيئًا لنفسه وأكثر ما يستثنى الأطراف والرأس»[1].

وقد رجح هذا القول الجمهور من الأدباء والمفسرين كابن قتيبة وابن عطية الأندلسي، ونصُّوا على خطأ القول الأول المنسوب للأصمعي، وتابعهم في ترجيحه العلامة عبد السلام هارون.

قال ابن قتيبة: « وكان الأصمعي يزعم أن الناقة تجزأ على ثمانية وعشرين جزءًا، وذهب في ذلك إلى حظوظ القداح، وهي ثمانية وعشرون: للفذ حظ، وللتوأم حظان، وللرقيب ثلاثة حظوظ، وللحلس أربعة حظوظ، وللنافس خمسة حظوظ، وللمسبل ستة حظوظ، وللمعلى سبعة حظوظ، فجميع هذه ثمانية وعشرون، ولو كان الأمر على ما قال الأصمعي لم يكن هناك قامر ولا مقمور، ولا فوز ولا خيبة، لأنه إذا خرج لكل امرئ قدح من هذه فأخذ حظ القدح أخذوا جميعًا تلك الأجزاء على ما اختار كل واحد منهم لنفسه، فما معنى إجالة القداح؟ وأين الفوز والغرم؟ ومن القامر والمقمور؟ وليس الأمر إلا على القول الأول»[2].

قال ابن عطية: « وأخطأ الأصمعي في قسمة الجزور فذكر أنها كانت على قدر حظوظ السهام ثمانية وعشرين قسمًا وليس كذلك »[3].

وقال البرهان البقاعي نقلًا عن صاحب الزينة: وذكر عن الأصمعي أنه قال: كانوا يقسمون الجزور على ثمانية وعشرين جزءًا: للفذ جزء، وللتوأم جزءان، وللرقيب ثلاثة أجزاء، فعلى هذا حتى تبلغ ثمانية وعشرين جزءًا؛ وخالفه في ذلك أكثر العلماء وخطؤوه، وقالوا: إذا كان ذلك كذلك وأخذ كل قدح نصيبه لم يبق هنالك غرم، فلا يكون إذًا قامر ولا مقمور، ومن أجل ذلك قالوا لأجزاء الجزور: أعشار، لأنها عشرة أجزاء، قال امرؤ القيس[4]:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي
بسهميك في أعشار قلب مقتل

وقد ناقش البرهان البقاعي اعتراضهم على الأصمعي، فقال: «وقوله: لا معنى للتقامر عليها، على تقدير التجزئة بثمانية وعشرين ليس كذلك، بل تظهر ثمرته في التفاوت في الأنصباء، وذلك بأن تكون السهام وهي القداح عشرة، فإنه لما قال: إن الأجزاء تكون ثمانية وعشرين، لم يقل: إنها على عدد السهام، حتى تكون السهام ثمانية وعشرين، بل قال: إنها على عدد الفروض

(١) نظم الدرر ١/ ٤١٣.
(٢) الميسر والقداح ص ٩٣- ٩٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٩٣.
(٤) نظم الدرر ١/ ٤١٢- ٤١٣.

التي في السهام، وقد علم أنها عشرة؛ وقد صرح صاحب الزينة وغيره عن الأصمعي كما مضى، وهو ممن قال بهذا القول، فحينئذ من خرج له المعلى مثلًا أخذ سبعة أنصباء من ثمانية وعشرين، فيكون أكثر حظًّا ممن خرج له ما عليه ستة فروض فما دونها للضربات؛ وقوله: إن الرجل ربما أخذ قدحين - إلى آخره -، يبين وجهًا آخر من التفاوت، وهو أن الرجل ربما خرج له سهم واحد لاعتراض السهام وتحرفها عن سنن الاستقامة حال الخروج، وربما خرج له سهمان أو ثلاثة في إفاضة واحدة لاستقامة السهام واعتدالها للخروج، ففاز بمعظم الجزور، وذلك بأن يكون الرجال أقل من السهام، وربما خرج له أكثر من ذلك مع الوفاء للثمن بينهم على السواء، وهذا الوجه يتأتى أيضًا بتقدير أن تكون السهام والرجال على عدد الأجزاء، لانحصار العد فيمن خرج له سهام، سواء كان على عددهم أو أكثر، وانحصار الغرم فيمن لم يخرج له سهم على تقدير أن يخرج لغيره عدد من السهام؛ وبتقدير أن لا يخرج لكل واحد واحد يكون قمارًا أيضًا، لأن كل واحد منهم غير واثق بالفوز، ويكون فائدة ذلك حينئذ للفقراء، ومن قال: إن من خرج له شيء من السهام الثلاثة الأغفال يغرم، كان القمار عنده لازمًا في كل صورة بكل تقدير»[1].

ويستفاد من مناقشة البرهان البقاعي السابقة أمور:

- وقوع الخلاف بين الكاتبين في شأن المقصد من السهام الأغفال، وهل تؤثر في الغَنْم والغُرْم أو لا؟ فبعضهم يراها زيادة للتكثير وقطع التحايل، وبعضهم يعدها ضمن سهام الميسر، بمعنى أنها تختص بأفراد[2].
- وقوع الخلاف أيضًا في اختيار القداح وتسمية أصحابها، فبعضهم يرى أن ذلك يكون قبل وضعها في الربابة، وعلى هذا كان اعتراضهم على قول الأصمعي، لأن أصحاب السهام جميعًا يستحقون نصيبًا في الجزور، وذهب الأكثرون منهم إلى عدم التسمية، بمعنى أنها توضع في الربابة، ثم يؤمر المجيل أن يخرج لفلان على ترتيب مجلسهم، فأي سهم خرج ترتب عليه غُنْمٌ من خرج له أو غرمه[3].
- خلافهم في انحصار عدد الأيسار في سبعة، لعدم دقة النقل شأنه في ذلك شأن عملية الميسر بأسرها، والظاهر عدم انحصار عددهم في السبعة، بل قد يكونون عشرة على عدد القداح

(١) المصدر السابق ١/ ٤١٥.
(٢) انظر: القمار حقيقته وأحكامه ص ٤٠- ٤١.
(٣) انظر: المصدر السابق ص ٤٠.

ذوات الحظوظ والأغفال معًا. ويشهد لهذا ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يقال: « أين أيسار الجزور؟ فيجتمع العشرة فيشترون الجزور»[١].

الثالث: وذهب أصحابه إلى التوقف وعدم الجزم بعدد معين تقسم إليه الجزور، وذلك بناءً على عدم جزم العرب برأي، ونسب هذا إلى أبي عبيدة.

قال الزجاج: « وكانوا يقسمون الجزور في قول الأصمعي على ثمانية وعشرين جزءًا، وفي قول أبي عمرو الشيباني على عشرة أجزاء، وقال أبو عبيدة لا أعرف عدد الأجزاء»[٢].

والجمع بين هذه الآراء أولى من إهمال بعضها وإعمال الآخر، حيث إن الجميع مبني على اجتهاد غير يقيني، بدلالة توقف أبي عبيدة في معرفة عدد الأنصباء، ولو كان نقل في المسألة أو جزم لما صارت إلى هذا الخلاف، كما يؤكد الاضطراب في المسألة تعبير بعض المفسرين [٣] في شأن قسمة الجزور بلفظ: « أو» دون ترجيح لقول منهما.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: « ولم أجد علماءنا يستقصون معرفة علم هذا، ولا يدعونه كله، ورأيت أبا عبيدة أقلهم ادعاء لعلمه، قال أبو عبيدة: وقد سألت عنه الأعراب فقالوا: لا علم لنا بهذا، لأنه شيء قد قطعه الإسلام منذ جاء، فلسنا ندري كيف كانوا ييسرون»[٤].

وقال البرهان البقاعي نقلًا عن عبد الغفار الفارسي: « ولهم في ذلك مذاهب ما عرفها أهل الإسلام، ولم يكن أحد من أهل اللغة على ثبت في كيفية ذلك »[٥].

والأولى أن يقال: كان للعرب أكثر من طريقة في تقسيم الجزور، فأحيانًا كانوا يقسمونه إلى عشرة أقسام، وأخرى إلى ثمانية وعشرين قسمًا، وهذا ما ذهب إليه طائفة من المفسرين.

قال ابن عادل: « والجزور تقسم عند الجمهور على عدد القداح، فتقسم على عشرة أجزاء، وعند الأصمعي على عدد خطوط القداح، فتقسم على ثمانية وعشرين جزءًا، وخطأ ابن عطية الأصمعي في ذلك، وهذا عجيبٌ منه؛ لأنه يحتمل أن العرب كانت تقسمها مرةً على عشرةٍ، ومرةً على ثمانية وعشرين»[٦].

وقال الطاهر بن عاشور: « ولعل كلًّا من وصفي الأصمعي وأبي عبيدة كان طريقة للعرب في الميسر بحسب ما يصطلح عليه

(١) ذكره البخاري في الأدب المفرد ص ٤٣١، باب القمار، رقم ١٢٥٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٢٠٣.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٤١١.
(٤) غريب الحديث ٣/ ٤٧٠.
(٥) نظم الدرر ١/ ٤١١.
(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ٣٤.

أهل الميسر»[1].

ويقول الدكتور محمود مصطفى: «ونستطيع أن نستخلص مما تقدم أن هناك طريقتين: بسيطة، وهي طريقة صاحب الكشاف، تتم فيها العملية بجزور واحدة، ولا عول فيها، وطريقة مركبة عويصة لها صور شتى، وتحتاج إلى حساب دقيق، وهي الطريقة التي شرحها الألوسي»[2].

ويؤكد اتجاه الأستاذ الدكتور محمود مصطفى ما ورد في كتب اللغة ما نصه: «المغلق: السهم السابع في مضعف الميسر»[3].

فهذا يبين أن الميسر منه المضعف وغير المضعف، والخلاصة أن له طرقًا وصورًا متنوعة ومتعددة.

٥. وصف مجلس الميسر.

تناول جمع من المفسرين[4] مجلس الميسر ما بين مفصل لأحداثه وأشخاصه، وما بين مجمل، ولا شك أن ما تقدم ذكره من متعلقات الميسر سبيل إلى إدراك خلاصة وصف مجلس الميسر، وقد لخصته من كلام الطاهر بن عاشور على النحو التالي:

- أنهم كانوا إذا أرادوا الميسر اشتروا جزورًا بثمن مؤجل إلى ما بعد التقامر، وقسموه أبداءً- أي: أجزاء- إلى ثمانية وعشرين جزءًا أو إلى عشرة أجزاء - على الخلاف المذكور آنفًا-.
- ثم يضعون قداح الميسر في الربابة.
- ثم يوكلون بالربابة رجلًا يدعى عندهم الحرضة والضريب والمجيل، وكانوا يغشون عينيه بمغمضة، ويجعلون على يديه خرقة بيضاء يسمونها المجول يعصبونها على يديه أو جلدةً رقيقة يسمونها السلفة -بضم السين وسكون اللام-، ويلتحف الحرضة بثوب يخرج رأسه منه، ثم يجثوا على ركبتيه، ويضع الربابة بين يديه.
- ويقوم وراء الحرضة رجل يسمى الرقيب أو الوكيل هو الأمين على الحرضة وعلى الأيسار، كي لا يحتال أحد على أحد، وهو الذي يأمر الحرضة بابتداء الميسر.
- ويجلس الأيسار حول الحرضة جثيًا على ركبهم.
- ثم يقول الرقيب للحرضة: جلجل القداح، أي: حركها، فيخضخضها في الربابة، كي تختلط، ثم يفيضها، أي: يدفعها إلى جهة مخرج القداح من

(١) الميسر عند العرب ص ٢٢.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٤٨.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٣٥٥، تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٣٦، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٢٩٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١١٨٢، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٢٦٠.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ٣٤.

الربابة دفعة واحدة على اسم واحد من الأيسار، فيخرج قدح، فيتقدم الوكيل فيأخذه وينظره، فإن كان من ذوات الأنصباء دفعه إلى صاحبه، وقال له: قم فاعتزل، فيقوم ويعتزل إلى جهة، ثم تعاد الجلجلة، وقد اغتفروا إذا خرج أول القداح غفلًا ألا يحسب في غرم ولا في غنم، بل يرد إلى الربابة وتعاد الإجالة وهكذا، ومن خرجت لهم القداح الأغفال يدفعون ثمن الجزور[1]. وقد ذكر ابن قتيبة أن للفائز من أصحاب القداح إذا شاء العود بقدحه بشرط إجابة بقية الأيسار إياه وموافقتهم، وكذلك الرجل يحضرهم وقد أجيلت القداح وفاز بعضهم[2].

- وفي حالة إذا لم يجمع العدد الكافي من المتياسرين أخذ بعض من حضر سهمين أو ثلاثة، فكثر بذلك ربحه أو غرمه، وإنما يفعل هذا أهل الكرم واليسار؛ لأنه معرض لخسارة عظيمة، إذ لم يفز قدحه، ويقال في هذا الذي يأخذ أكثر من سهم: متمم الأيسار، ويسمون هذا الإتمام بمثنى الأيادي، لأنه يقصد منه تكرير المعروف عند الربح، فالأيادي بمعنى النعم.

- وكانوا يعطون أجر الرقيب والحرضة والجزار من لحم الجزور، فأما أجر الرقيب فيعطاه من أول القسمة وأفضل اللحم ويسمونه بدءً، وأما الحرضة فيعطى لحمًا دون ذلك، وأما الجزار فيعطى مما يبقى بعد القسم من عظم أو نصف عظم ويسمونه الريم[3].

- ومن يحضر الميسر من غير المتياسرين يسمون الأعران جمع عرن بوزن كتف، ويحضرون طمعًا في اللحم، والذي لا يحب الميسر ولا يحضره لفقره سمي البرم بالتحريك[4].

ويلاحظ أن للخلاف المتقدم في تقسيم الجزور أثرًا في وصف مجلس الميسر، يعبر عنه الطاهر ابن عاشور بقوله: « فأما على الوصف الذي وصف الأصمعي أن الجزور يقسم إلى ثمانية وعشرين جزءًا، فظاهر أن لجميع أهل القدح القامرة شيئًا من أبداء الجزور، لأن مجموع ما على القداح الرابحة من العلامات ثمانية وعشرون، وعلى أهل القداح الخاسرة غرم ثمنه، وأما على الوصف الذي وصف أبو عبيدة أن الجزور يقسم إلى عشرة أبداء، فذلك يقتضي أن كل المتقامرين ليس برابح؛ لأن الربح يكون بمقدار عشرة سهام مما رقمت به القداح،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٤٧-٣٤٨) بتصرف.

(٢) انظر: الميسر والقداح ص ١١٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٤٨، ٣٤٩.

(٤) انظر: المصدر السابق ٢/ ٣٤٩.

وحينئذ إذا نفدت الأجزاء انقطعت الإفاضة، وغرم أهل السهام الأغفال ثمن الجزور، ولم يكن لمن خرجت له سهام ذات حظوظ بعد الذين استوفوا أبداء الجزور شيءٌ إذ ليس في الميسر أكثر من جزور واحد»[1].

وربما كان الميسر على الإبل الصحاح، وليس على جزور واحدة، وهنا يجعل مكان العشر من أعشار الجزور بعيرًا[2].

ثانيًا: هل التدرج في التحريم شمل الميسر كالخمر؟

اقترن حديث القرآن الكريم عن الخمر والميسر في أكثر من موضع، فجاء السؤال عنهما معًا في آية سورة البقرة، وكانت الإجابة كذلك جامعة لهما، كما بينت مفاسدهما والنهي عنهما في سورة المائدة في أسلوب عطف واشتراك وتجاور بين الخمر والميسر.

ورغم الاتفاق حول تحريم الخمر والميسر، إلا أنه يبقى تساؤل حول اتفاق الخمر والميسر في طريقة التشريع والتحريم، من حيث التدرج عبر مراحل متتابعة.

وظاهر القرآن اتفاق الخمر والميسر في الحكم ومنهج التشريع، وهذا ما يستفيده متأمل حديث القرآن عنهما.

قال ابن الجوزي: « فأما الميسر فالقول فيه مثل القول في الخمر، إن قلنا: إن هذه الآية دلت على التحريم، فالميسر حكمها حرام أيضًا، و إن قلنا: إنها دلت على الكراهة، فأقوم الأقوال أن نقول: إن الآية التي في المائدة نصت على تحريم الميسر»[3].

وقد وقع الخلاف بين المفسرين في دلالة قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

على تحريم الخمر والميسر، أو على كراهتهما، وعلى هذا الخلاف بني الخلاف حول التدرج في تحريم كل من الخمر والميسر وعدمه.

وقد انقسم المفسرون في المسألة إلى فريقين:

الفريق الأول: وذهب إلى دلالة الآية على تحريم الخمر والميسر بذاتهما، اعتمادًا على التصريح بالإثم في اقترافهما، وبناءً على هذا الفهم فقد نفى أصحاب هذا الرأي التدرج في تحريم الخمر والميسر، فكلاهما قد حرم ابتداءً بآية سورة البقرة.

ونسب هذا القول إلى الحسن، ورجحه أهل النظر من الفقهاء كالجصاص، وهو قول جماعة من العلماء، وحكاه الزجاج واختاره القاضي أبو يعلى والفخر الرازي

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٤٨.
(٢) انظر: الميسر والقداح، ابن قتيبة ص ٩٦.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٤٢.

وأبو حيان الأندلسي، وظاهر اختيار البرهان البقاعي[1].

قال الجصاص: «هذه الآية قد اقتضت تحريم الخمر، لو لم يرد غيرها في تحريمها لكانت كافية مغنية، وذلك لقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩].

والإثم كله محرم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فأخبر أن الإثم محرم، ولم يقتصر على إخباره بأن فيها أثمًا حتى وصفه بأنه كبير؛ تأكيدا لحظرها، وقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ لا دلالة فيه على إباحتها؛ لأن المراد منافع الدنيا، وأن في سائر الحرمات منافع لمرتكبيها في دنياهم، إلا أن تلك المنافع لا تفي بضررها من العقاب المستحق بارتكابها، فذكره لمنافعها غير دال على إباحتها، لا سيما وقد أكد حظرها مع ذكر منافعها بقوله في سياق الآية: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، يعني أن ما يستحق بهما من العقاب أعظم من النفع العاجل الذي ينبغي منهما، وبما نزل في شأن الخمر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وليس في هذه الآية دلالة على تحريم ما لم يسكر منها، وفيها الدلالة على تحريم ما يسكر منها، لأنه إذا كانت الصلاة فرضا فنحن مأمورون بفعلها في أوقاتها، فكل ما أدى إلى المنع منها فهو محظور، فإذا كانت الصلاة ممنوعة في حال السكر، وكان شربها مؤديًا إلى ترك الصلاة، كان محظورًا؛ لأن فعل ما يمنع من الفرض محظور ومما نزل في شأن الخمر مما لا مساغ للتأويل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]»[2].

واستدل أصحاب هذا الرأي بأدلة ملخصها:

- أن الله تعالى في الآية نص على تغليب إثم الخمر والميسر على نفعهما في قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

والتغليب يدل على التحريم ابتداءً. واعترض على هذا بنص الآية ذاتها أيضًا على أن فيهما منافع للناس ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، وتلك قرينة أخرى تفيد الإباحة، فيجمع بين الدلالتين بالكراهة، كما اعترض بأنه لا يلزم من غلبة المفسدة على المصلحة الدلالة على التحريم[3].

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢١٠، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٤١.

(٢) انظر: انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٣.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣٨.

❁ أن الله تعالى جعل في اقترافهما إثمًا، وقد حرم جل جلاله الإثم نصًّا في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣].

فلما تناول التحريم الإثم، وكان الإثم من صفات الخمر والميسر ولوازمهما، وجب تحريمهما، وذلك أن الإثم قد يراد به العقاب، وقد يراد به ما يستحق به العقاب من الذنوب، وأيهما كان فلا يصح أن يوصف به إلا المحرم[(١)].

واعترض بأن الآية الأولى لم تسم الخمر والميسر إثمًا، بل جعلت الإثم في اقترافهما، وفرق بين التعبيرين ودلالتهما.

قال ابن عطية ليس هذا النظر بجيد؛ لأن الإثم الذي فيها هو الحرام، لا هي بعينها، على ما يقتضيه هذا النظر»[(٢)].

وقال القرطبي: « قلت: وهذا أيضا ليس بجيد، لأن الله تعالى لم يسم الخمر إثمًا في هذه الآية، وإنما قال: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، ولم يقل: قل هما إثم كبير»[(٣)].

وقد أجاب الفخر الرازي عن هذا الاعتراض بقوله: «فإن قيل: الآية لا تدل على أن شرب الخمر إثم، بل تدل على أن فيه إثمًا، فهب أن ذلك الإثم حرام، فلم قلتم: إن شرب الخمر لما حصل فيه ذلك الإثم وجب أن يكون حرامًا؟ قلنا: لأن السؤال كان واقعًا عن مطلق الخمر، فلما بين تعالى أن فيه إثمًا، كان المراد أن ذلك الإثم لازم له على جميع التقديرات، فكان شرب الخمر مستلزمًا لهذه الملازمة المحرمة، ومستلزم المحرم محرم، فوجب أن يكون الشرب محرمًا»[(٤)].

❁ واستدلوا أيضًا بدلالة وصف الإثم بالكبير، ففي هذا الوصف تأكيد لحظرهما، ومن ثم تحريمهما.

واعترض بأن مقتضى إخباره تعالى أن فيهما إثمًا كبيرًا، أن ذلك الإثم الكبير يكون حاصلًا ما داما موجودين، فلو كان ذلك الإثم الكبير سببًا لحرمتهما، لوجب القول بثبوت حرمتهما في سائر الشرائع، ولا تكون حاجة إلى تحريمهما ثانية[(٥)].

وأجاب أصحاب هذا الرأي عن حكمة تتابع الآيات في بيان حكم الخمر والميسر: بأن دلالة قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٧٠، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢١٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٨.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٩٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٦٠.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي (١/ ١٧٠، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢١٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٨.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب ٦/ ٣٩.

لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ [البقرة: ٢١٩].

تحتمل التأويل بحالة دون أخرى؛ لاشتمالها على ذكر المنافع والإثم، فيربط البعض بين المنافع والحل، ويربط الآخر بين الإثم والحرمة، كما أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

مخصوص بحالة الصلاة، كما يدل لفظ الآية، ومما يؤكد حالة الاحتمال وإمكانية التأويل سؤال سيدنا عمر رضي الله عنه في الخمر جوابًا شافيًا، لهذا كله كانت الحاجة ماسة إلى بيان قاطع، فجاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

قال الجصاص: «فمن الناس من يظن أن قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ لم يدل على التحريم، لأنه لو كان دالًّا لما شربوه، ولما أقرهم النبي صلى الله عليه وسلم، ولما سئل عمر البيان بعده، وليس هذا كذلك عندنا، وذلك لأنه جائز أن يكونوا تأولوا في قوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جواز استباحة منافعها، فإن الإثم مقصور على بعض الأحوال دون بعض، فإنما ذهبوا عن حكم الآية بالتأويل، وأما قوله: إنها لو كانت حرامًا لما أقرهم النبي صلى الله عليه وسلم على شربها، فإنه ليس في شيء من الأخبار علم النبي صلى الله عليه وسلم بشربها ولا إقرارهم عليه بعد علمه، وأما سؤال عمر رضي الله عنه بيانًا بعد نزول هذه الآية، فلأنه كان للتأويل فيه مساغ، وقد علم هو وجه دلالتها على التحريم، ولكنه سأل بيانًا يزول معه احتمال التأويل، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ الآية [المائدة: ٩٠]»[(١)].

الفريق الثاني: وذهب إلى إثبات التدرج في تحريم الخمر والميسر، حيث جعلوا دلالة آية سورة البقرة على كراهة الخمر والميسر وذمهما، واعتبارها بذلك تمهيدًا لمرحلة تالية من مراحل التدرج في التحريم[(٢)].

وقد نسب هذا القول لقتادة رحمه الله، وهو المشهور، ونسب لابن عباس رضي الله عنه، وعليه جمهور المفسرين، ورواه السدي عن أشياخه، وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد ومقاتل، وهو رأي جمهور المفسرين[(٣)].

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٤- ٥.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي زمنين ١/ ٢١٩.
(٣) انظر: الناسخ والنسوخ، قتادة ص ٣٥- ٣٦،

قال الماوردي: « واختلفوا في هذه الآية هل كان تحريم الخمر بها أو بغيرها؟ فقال قوم من أهل النظر: حرمت الخمر بهذه الآية، وقال قتادة وعليه أكثر العلماء: أنها حرمت بآية المائدة»[(١)].

وبناءً على هذا الرأي فقد «حرم الميسر مع الخمر على مراحل، »وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم عقوبة الميسر التعزير، ولكن لا يعلم أن أحدًا عوقب على لعب الميسر قبل نزول التحريم، ولا يعلم أن نصًّا من نصوص التحريم كان له أثر رجعي، ومن ثم يمكن القول بأن النصوص التي حرمت الخمر والميسر لم يكن لها أثر رجعي»[(٢)].

ويمكن أن يستخلص مما سبق أن تحريم الميسر مر بمراحل ثلاث هي:

المرحلة الأولى: مرحلة الإباحة، وكانت قبل نزول آية سورة البقرة.

المرحلة الثانية: مرحلة الكراهة، وذلك بعد نزول آية سورة البقرة، حيث أفادت الإباحة مع الكراهة.

المرحلة الثالثة: مرحلة التحريم، وذلك بعد نزول آية سورة المائدة.

قال الكيا الهراسي: « وكانت المخاطرة في أول الإسلام مباحة، حتى خاطر أبو بكر المشركين، حتى نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١-٢].

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (زد في المخاطرة وامدد في الأجل)، ثم حظر ذلك، ونسخ بتحريم القمار»[(٣)].

وورد في عدد من كتب التفسير أن تحريم الميسر كان بعد غزوة الأحزاب[(٤)].

والراجح في المسألة بناءً على ما ورد من روايات: القول بالتدرج في تحريم الميسر مثل الخمر.

ويدل على رجحان القول بالتدرج:

- ظاهر القرآن الكريم، حيث ورد بيان حكم الميسر مقترنًا بالخمر في أكثر من موضع مع اختلاف الأسلوب في كلٍّ، وجمع بينهما في الحديث والحكم؛ لاجتماعهما في الواقع.

قال الطاهر ابن عاشور: « وذكر في هذه الآية الميسر عطفًا على الخمر ومخبرًا عنهما بأخبار متحدة، فما قيل في مقتضى هذه الآية من تحريم الخمر أو من التنزيه عن شربها يقال مثله في الميسر، وقد بان أن الميسر قرين الخمر في التمكن من نفوس العرب

تفسير عبد الرزاق الصنعاني ١/ ٨٨.

(١) النكت والعيون ١/ ٢٧٨.

(٢) انظر: التشريع الجنائي في الإسلام، عبدالقادر عودة (١/ ٤٠٩) بتصرف.

(٣) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ١/ ١٢٥-١٢٦.
وحديث مخاطرة أبي بكر رضي الله عنه المشركين أخرجه بمعناه: أحمد في مسنده ١/ ٣٠٤، رقم ٢٧٧٠.

(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٦٤٤، تفسير ابن أبي زمنين ٣/ ٣٥٥.

يومئذ، وهو أكبر لهو يلهون به، وكثيرًا ما يأتونه وقت الشراب إذا أعوزهم اللحم للشواء عند شرب الخمر، فهم يتوسلون لنحر الجزور ساعتئذ بوسائل قد تبلغ بهم إلى الاعتداء على جزر الناس بالنحر»[1].

والمتأمل آية سورة البقرة يجد أنها وصفت الخمر والميسر بأن فيهما إثمًا كبيرًا ومنافع للناس وأن إثمهما أكبر من نفعهما، وقد اعتمد أصحاب الفريق الأول على هذا في إفادتها تحريم الخمر والميسر، غير أن المتأمل آية سورة المائدة يجد في أسلوب تحريمها للخمر والميسر قرائن أبلغ في الدلالة، فقد وصف الخمر والميسر بأنهما رجس من عمل الشيطان، وتضمنت الأمر باجتنابها بغية الفلاح، ثم أتبعت ذلك بتعليلات تفصيلية لما يلزم الخمر والميسر من المحرمات (العداوة- البغضاء- الصد عن ذكر الله- الصد عن الصلاة).

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩١].

ثم ذيلت الآية بالاستفهام المفيد للنهي بعد التهديد والوعيد، كما أن الحديث عن الانتهاء لم يرد في غير آية سورة المائدة[2].

وأيضًا إن كانت آية سورة البقرة تحتمل التأويل بين الحل والإباحة، بخلاف آية سورة المائدة، فهي صريحة في التحريم، ولا تحتمل التأويل.

قال الزجاج: «فبالغ الله في ذم هذه الأشياء فسماها رجسًا، وأعلم أن الشيطان يسول ذلك لبني آدم»[3].

وقال الواحدي: « والرجس واقع على الخمر وما ذكر بعدها، وقد قرن الله تعالى تحريم الخمر بتحريم عبادة الأوثان تغليظًا وإبلاغًا في النهي عن شربها»[4].

و« جاز في صيغة الاستفهام أن يكون على معنى النهي؛ لأن الله تعالى ذم هذه الأفعال وأظهر قبحها، وإذا ظهر قبح الفعل للمخاطب، ثم استفهم عن تركه، لم يسعه إلا الإقرار بالترك، فكأنه قيل: أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما ظهر؟ فصار المنهي بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ في محل قد عقد عليه ذلك بإقراره، فكان هذا أبلغ في باب النهي من أن لو قيل: انتهوا ولا تشربوا»[5].

وقال الزمخشري: « أكد تحريم الخمر والميسر وجوهًا من التأكيد، منها تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام،.....، ومنها أنه جعلهما رجسًا، كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٤٥.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ١١٧.
(٣) معاني القرآن ٢/ ٢٠٣.
(٤) التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ٥١٠.
(٥) المصدر السابق ٧/ ٥١٢.

﴿ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب، ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحًا، كان الارتكاب خيبةً ومَحْقَةً. ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب الخمر والقمر- القمار-، وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلاة، وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه، كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟»[1].

كما يظهر في آيات سورة المائدة اهتمامٌ بشأن الخمر والميسر عن المنهيات والمحرمات الأخرى المذكورة (الأنصاب- الأزلام)، بدلالة أنه خصهما بالذكر في الآية التالية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وكذلك ما يستفاد من اقتران الميسر والخمر بالأنصاب والأزلام من دلالة على عظم إثمهما البالغ وتساويهما مع الشرك، وهذا من مؤكدات تحريمهما بهذه الآية.

قال الزمخشري: « فإن قلت: لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولًا، ثم أفردهما آخرًا؟ قلت: لأن الخطاب مع المؤمنين، وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر وإظهار أن ذلك جميعًا من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره، وكأنه لا مباينة بين من عبد صنمًا وأشرك بالله في علم الغيب، وبين من شرب خمرًا، أو قامر، ثم أفردهما بالذكر ليري أن المقصود بالذكر الخمر والميسر»[2].

كما لا يخفى ما في دلالة الآية التالية لآيات الخمر والميسر في سورة المائدة من تأكيد لتحريم الخمر والميسر في الآيات السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٩٢].

قال ابن العربي في تفسيرها: « وهذا تأكيد للتحريم وتشديد في الوعيد، قال: فإن توليتم فليس على الرسول إلا البلاغ فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين أما عقاب التولية والمعصية فعلى المرسل لا على الرسول»[3].

(١) الكشاف ١/ ٦٧٤- ٦٧٥.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٦٨.

(٢) الكشاف ١/ ٧٠٨.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ١٦٦.

❁ السنة النبوية.

ومنها ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال: (حرمت الخمر ثلاث مراتٍ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

إلى آخر الآية، فقال الناس: ما حرم علينا إنما قال: فيهما إثمٌ كبيرٌ، وكانوا يشربون الخمر، حتى إذا كان يومٌ من الأيام صلى رجلٌ من المهاجرين أم الصحابة في المغرب فخلط في قراءته، فأنزل الله فيها آيةً أغلظ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وكان الناس يشربون، حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيقٌ، ثم أنزلت آيةٌ أغلظ من ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

فقالوا: انتهينا ربنا، فقال الناس: يا رسول الله، ناسٌ قتلوا في سبيل الله، أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسًا ومن عمل الشيطان فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٩٣].

إلى آخر الآية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم»[(١)].

❁ ويدل لهذا القول أيضًا أن الله تعالى أخبر في آية سورة البقرة بأن في الخمر والميسر منافع، وفي الإخبار المذكور قرينة تدل على الإباحة، وما ذكره أصحاب الرأي الأول من دلالة اقتران الإثم بهما لا يزيل الإباحة[(٢)].

❁ ومما يؤكد القول بالتدرج ما ذكره بعض المفسرين من دعوى نسخ آية سورة المائدة لآية سورة البقرة.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

فنسختها هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ [المائدة:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٣٥١، رقم ٨٦٠٥، والترمذي في سننه، ٥/ ٢٥٣، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم ٣٠٤٩، وأبو داود في سننه، ٣/ ٣٢٥، كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر، رقم ٣٦٧٠، والنسائي في سننه المجتبى، ٨/ ٢٨٦، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، رقم ٥٥٤٠. وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن الفرس ١/ ٢٧٨.

٩٠][1].

❁ وما يرجح هذا القول أيضا ما ورد من روايات تفيد شرب الصحابة للخمر بعد نزول آية سورة البقرة؛ إذ لو دلت قطعًا على التحريم لما شربوا.

قال العلامة الآلوسي: «والحق أن الآية ليست نصًّا في التحريم كما قال قتادة، إذ للقائل أن يقول: الإثم بمعنى المفسدة، وليس رجحان المفسدة مقتضيًا لتحريم الفعل، بل لرجحانه؛ ومن هنا شربها كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعد نزولها، وقالوا: إنما نشرب ما ينفعنا ولم يمتنعوا حتى نزلت آية المائدة فهي المحرمة»[2].

❁ ومما يرجح القول بالتدرج أيضًا ما أورده أصحاب الصحاح والسنن من إيراد آية سورة المائدة في سياق باب تحريم الخمر.

فقد جاء في ترجمة الإمام البخاري: «باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠][3]، ثم أورد عددًا من الأحاديث المتعلقة بتحريم الخمر.

وجاء في سنن النسائي: « باب تحريم الخمر قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١][4]، ثم ساق حديث عمر رضي الله عنه المتقدم وغيره من الأحاديث المتعلقة بتحريم الخمر.

وختامًا لهذا المطلب ينبغي الإشارة إلى ملمح الإعجاز التشريعي في تدرج القرآن الكريم في تحريم الميسر، وذلك أن مرور تحريم الميسر بمراحل غرضه أن ينقل الناس من الأخف إلى الأشد تدريجيًّا، ويتضمن سياسةً تربوية ناجحة، يستفاد منها في تقنين الأحكام وتطبيقها[5].

قال الفخر الرازي: « قال القفال رحمه الله: والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب: أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بها كثيرًا، فعلم الله أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق عليهم، فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدريج وهذا الرفق»[6].

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٩، رقم ٢٠٤٥، المصفى بأكف أهل الرسوخ، ابن الجوزي ص ٢٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٢/ ١١٥.
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٦٨٧.
(٤) سنن النسائي ٨/ ٢٨٦.
(٥) انظر: التفسير المنير ١/ ٢٧٠.
(٦) مفاتيح الغيب ٦/ ٣٥.

ثالثًا: الميسر في العصر الحاضر:

جاء حديث القرآن الكريم عن الميسر مقصورًا في لفظه على لون واحد من ألوانه، وهو الميسر في الجزور، واتفق المفسرون على شمول التحريم كل صور الميسر وأشكاله.

ولا يخفي ما في التعبير القرآني من رقي وسمو خلقي واجتماعي، كما لا يخفى ما فيه من إعجاز في عرض الحكم الشرعي.

وقد تنوعت صور الميسر عبر الأزمان والبلاد، فكما اشتهر بين العرب في الجاهلية الإيسار بالجزور، اختصت الجاهلية المعاصرة بعدد من صور الميسر وأشكاله، واتخذ بعضها شكل الميسر الخالص، واتخذ البعض شكلًا خيريًا أو اجتماعيًا في ظاهره، غير أنها تقصد الميسر وتدور في فلكه ودائرته.

ويمكن إجمال أهم صور الميسر المعاصرة في:

١. القمار في عقود التأمين.

يعتبر عقد التأمين صورة تطبيقية واقعية لنظام التأمين، ويعرف بأنه: « عقد يتم بين شركة التأمين ومستأمن معين تتعهد هذه الشركة بمقتضاه بدفع مبلغ من المال، عند حدوث خطر معين، مقابل التزام المستأمن بدفع مبلغ مالي محدد»[١].

ولعقد التأمين أركان هي إجمالًا:

- الخطر المؤمن ضده: ويشبه المبيع في البيع، وهو حدث احتمالي يؤدي وقوعه إلى خسائر في الأشخاص أو الممتلكات، وهو أمر غيبي لا يعلمه إلا الله تعالى، ويتضمن معنى القمار والغرر الفاحش.
- مبلغ التأمين: ويشبه الثمن في البيع، وهو مبلغ من المال، أو إيراد مرتب، أو أي عوض مالي آخر، والأول معلوم، وفي الإيراد المرتب غرر فاحش ومقامرة، وأما العوض المالي فيحتمل العلم والجهل.
- قسط التأمين: وهو المبلغ الذي يدفعه المستأمن للشركة مقابل التعويض عن الخطر، ولا دخل له في تقديره رغم تحمله له، ولا يحق له الاعتراض، وهذا من شأنه أن يوجد حالة من عدم التراضي بين طرفي العقد، كما أنه يزيد تبعًا لحجم الخطر.
- المستأمن: وهو المؤمن له، ويكون شخصًا أو مؤسسة تطلب التأمين من أخطار مستقبلية.
- المؤمن: وغالبًا ما يتمثل في صورة

(١) انظر: مباحث في الاقتصاد الإسلامي من أصوله الفقهية، محمد رواس قلعجي ص ١٣١، التأمين بين الحل والتحريم، عيسى عبده ص ٢٦.

مؤسسة تجارية[1].

وللتأمين تقسيمات باعتبار شكله وموضوعه، فينقسم من حيث الشكل إلى: التأمين التعاوني (التبادلي)، وغرضه اجتماعي إنساني، والثاني: التأمين عن طريق قسط ثابت، وتتولاه شركات مساهمة ومؤسسات مصرفية ضخمة بغرض تحقيق أرباح وفوائد، وينقسم باعتبار موضوعه تقسيمات منها: التأمين الاجتماعي، وهو التأمين الإجباري الذي تقوم به الدول وتشرف عليه ضد أخطار معينة يتعرض لها أصحاب الحرف والمهن، والتأمين الخاص، وهو التأمين الخاص بفرد معين أو مؤسسة معينة، وإلى: تأمين الأضرار وتأمين الأشخاص[2].

والجامع بين أنواع التأمين المختلفة أن أهم خصائص وأركان عقد التأمين متوفرة في جميعها[3].

وللفقهاء حول التأمين آراء: حيث ذهب فريق إلى المنع مطلقًا، وذهب ثانٍ إلى الجواز بشرط خلوه من الربا؛ اعتمادًا على قيامه على أساس من التعاون، وذهب ثالثٌ إلى التردد بين الجواز والمنع، وذهب رابع إلى التفصيل والتمييز بين التعاوني والتجاري منه، وبين تأمين الأضرار والأشخاص[4].

وقد أشار عدد من الفقهاء والباحثين إلى أن النوع الشائع المعروف من عقود التأمين غير جائز؛ لكونه مبنيًّا على الاحتمال، بمعنى احتمال وقوع الخسارة في الوسائل أو الأدوات، وبهذا يتضمن معنى المخاطرة، كم أن فيه غررًا وجهالة، لأنه مستور العاقبة، مجهول الأجل، على الرغم من كونه ملزمًا لطرفيه، ويعتبر من عقود المعاوضات، وأدنى ما يقال فيه: إنه عقد تدور حوله الشبهات[5].

كما أشار بعضهم إلى أن نظام التكافل الاجتماعي الإسلامي يغني عن أفضل أنواع التأمين- من وجهة نظر المجيزين-، وهو التعاوني والاجتماعي، حيث لا يشترط في نظام التكافل الإسلامي اشتراك، ولا يفرق

(١) انظر: موسوعة القضايا الفقهية المعاصرة والاقتصاد الإسلامي، علي السالوس ص ٣٦٥، المعاملات المالية المعاصرة في ضوء الإسلام، سعد الدين الكبي ص ٢٠٦.

(٢) انظر: التأمين بين الحل والتحريم، عيسى عبده ص٢٧، التأمين وأحكامه، سليمان الثنيان ص ٧٠.

(٣) انظر: التأمين وأحكامه، سليمان الثنيان ص ٨٧.

(٤) انظر: نظام التأمين حقيقته والرأي الشرعي فيه، مصطفى الزرقا ص ٢٥، المعاملات المالية المعاصرة في ضوء الإسلام، سعد الدين الكبي ص ٢١١.

(٥) انظر: بحوث فقهية في قضايا اقتصادية معاصرة، محمد الأشقر وآخرون ص ١٢، ١٣)، التأمين بين الحل والتحريم، عيسى عبده ص ٣٠، التأمين وأحكامه، سليمان الثنيان ص ٦٣.

فيه بين صاحب حرفة ومهنة وبين عاطل عن العمل أو عاجز[1].

والخلاصة: إن عقود التأمين بنظامها الغربي الشائع تتضمن صورة من صور الميسر، حيث تبنى على الخطر، وتعليق المعاملات على الغيبيات.

٢. أوراق اليانصيب.

ويقوم هذا النظام على شراء شخص كوبونًا (ورقة يانصيب) بمبلغ من المال، بغرض أن يشارك في السحب على الجائزة أيا كانت، مالًا نقديًا، أو سيارة، أو غير ذلك، ثم يجرى السحب لاختيار أرقام معينة وهذا خاضع كلية للحظ، ويترتب على ذلك أن مشتركًا يكسب بدون جهد، ومشتركًا آخر يخسر بسبب الحظ، وهذا هو عين القمار الذى كان فى الجاهلية ونهى الله عز وجل عنه وحرمه[2].

وعمليات اليانصيب من الميسر- حتى ولوكان قسم منه يذهب للفقراء-؛ لأنه مخاطرة، ولأن تمييز المستحق له من بين المشاركين بواسطة القرعة أو أي طريقة أخرى تعتمد على الحظ والمصادفة، فكل مشارك فيه مخاطر بشيء من ماله بغية تحصيل ما هو أكثر منه، فهو بين أن يفقد ما خاطر به أو أن يربح ما خاطر من أجله، وقد علق ذلك على حصول أمر لم يجعله الشارع سببًا في انتقال الأملاك؛ لأنه لم يكن من الرابح عمل يستحق عليه الأجر، ولا عوض يستحق عليه البدل[3].

قال صاحب المنار: « وأما كون هذا النوع لا يظهر فيه ما في سائر الأنواع من ضرر العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة؛ فلأن دافعي المال فيه لا يجتمعون عند السحب، وقد يكونون في بلاد أو أقطار بعيدة عن موضعه، ولا يعملون له عملا آخر فيشغلهم عن الصلاة أو ذكر الله تعالى، كقمار الموائد المشهورة، ولا يعرف الخاسر منهم فردا أو أفرادا أكلوا ماله فيبغضهم ويعاديهم كميسر العرب وقمار الموائد ونحوه.

وكثيرًا ما يجعل (اليانصيب) لمصلحة عامة؛ كإنشاء المستشفيات والمدارس الخيرية وإعانة الفقراء، أو مصلحة دولية ولا سيما الإعانات الحربية، والحكومات التي تحرم القمار تبيح (اليانصيب) الخاص بالأعمال الخيرية العامة أو الدولية.

ولكن فيه مضار القمار الأخرى، وأظهرها أنه طريق لأكل أموال الناس

(١) انظر: التأمين الاجتماعي في ضوء الشريعة الإسلامية، عبد اللطيف آل محمود ص ٤١٧.

(٢) انظر: التحليل الاقتصادي الإسلامي لصور القمار والميسر المعاصرة، حسين شحاتة ص٢.

(٣) انظر: القمار حقيقته وأحكامه ص٥٣٨، الأساس في التفسير، سعيد حوى ١/ ٥٠٩.

بالباطل، أي: بغير عوض حقيقي من عين أو منفعة، هذا محرم بنص القرآن كما تقدم في محله.

وقد يقال: إن المال الذي يبنى به مستشفى لمعالجة المرضى، أو مدرسة لتعليم أولاد الفقراء، أو ملجأ لتربية اللقطاء لا يظهر فيه معنى أكل أموال الناس بالباطل إلا في آخذي ربح النمر الرابحة دون آخذي بقية المال من جمعية أو حكومة، وهو على كل حال ليس فيه عداوة ولا بغضاء لأحد معين، كالذي كان يغرم ثمن الجزور عند العرب، وليس فيه صد عن ذكر الله وعن الصلاة»[1].

ولقد أجمع فقهاء المسلمين على تحريم أوراق اليانصيب حتى ولو كان جزء من ثمنها يستخدم أو يوجه إلى أغراض خيرية[2].

٣. المضاربة في سوق الأسهم.

وله صور متنوعة أشهرها عمليات بيع وشراء صوريان غرضها الاستفادة من فروق الأسعار والتغيرات في القيمة السوقية في أقصر أجل[3].

وفي الغالب تعتمد اعتمادًا أساسيًّا على معاملات وهمية ورقية شكلية تقوم على الاحتمالات، ولا يترتب عليها أي مبادلات فعلية للسلع والخدمات، فهي عينها المقامرات والمراهنات التي تقوم على الحظ والقدر[4].

وقد ذهب أهل الاختصاص إلى أن حرمة المضاربة المذكورة وسائر العقود المستقبلية لتضمنها معنى الميسر، حيث إن المضاربة هي مراهنة على سعر السهم، وتنطبق عليها شروط الغرر المحرم، وبها أضرار مشابهة لأضرار الميسر والقمار، كما ثبت ضررها على المؤسسات المالية والعاملين بها والمتعاملين معها وعلى اقتصاد الدول، واعتبرها المختصون في الغرب قمارًا، وعليه فإنها صورة من صور الميسر المحرم[5].

٤. جوائز السحب المرصودة للمشتركين.

وصورته أن تقوم بعض الشركات

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٢٦٢.

(٢) انظر: التحليل الاقتصادي الإسلامي لصور القمار والميسر المعاصرة، حسين شحاتة ص٢.

(٣) انظر: المضاربة والقمار في الأسواق المالية المعاصرة تحليل اقتصادي وشرعي، عبدالرحيم الساعاتي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، م٢٠، ع١، ص٦.

(٤) انظر: أزمة النظام المالي العالمي في ميزان الاقتصاد الإسلامي، حسين شحاتة ص٧، تحريم القمار في الشريعة الإسلامية وأثره في علاج الأزمة الاقتصادية المعاصرة، أحمد الرفاعي الجهني ص٨٦.

(٥) انظر: أحكام التعامل في الأسواق المالية المعاصرة، مبارك آل سليمان ص ١١٤٧، المضاربة والقمار في الأسواق المالية المعاصرة تحليل اقتصادي وشرعي، عبدالرحيم الساعاتي ص ٢٦.

والمحلات والأفراد برصد جوائز ضخمة تغري جمهور المستهلكين بالشراء، أو الإكثار من الشراء بدون ضرورة معتبرة شرعًا؛ لتزداد فرصته في الحصول على المال النقدي، أو السيارة، أو المنزل، أو الرحلة السياحية ونحو ذلك، وكلما كان الشراء أكثر كانت فرصة الفوز أكبر، ثم يعطى المشتري بكل مبلغ يشترى به كوبونًا....، وفي ميعاد وتاريخ معين يعلن بطريق القرعة عن الفائز أو الفائزين.... فالقصد من الشراء أن يغنم بالجائزة.

ولقد اختلف الفقهاء بين مجيز وغير مجيز، فإذا لم تضيف الشركة تكلفة الجائزة ومصروفاتها إلى ثمن السلعة فهذا جائز، أما إذا حملت الشركة المستهلك بتلك التكلفة فهذا غير جائز، وهذا ما يحدث فعلًا[1].

٥. التسويق الشبكي القائم على المكافآت والجوائز.

وملخصه أن يقوم الشخص بشراء خدمة موقع على الإنترنت ويدفع مبلغًا من المال، ويغري آخرين بعملية الشراء، فإذا بلغ من أغراهم تسعة يستحق له جائزة مبلغًا من المال وهكذا، وكل فرد يحاول بكافة السبل المشروعة وغير المشروعة أن يغري الآخرين على الشراء ملوحًا لهم بالجائزة[2].

وتعرف هذه العملية بلعبة النصب الهرمية، ولها أسماء منها: هانك، الدولار، البنتاجونو، ومقر شركاتها في بلاد الغرب، ولا يستفيد من التعامل فيها سوى أصحاب الشركات، وتشترك هذه المعاملة مع الميسر المحرم في أمور منها: أنها تقوم على الحظ، ما تتضمنه من التحريض على شراء خدمة ليس المشتري في حاجة إليها، ولكن لغاية أخرى هي المكافأة، انتهاؤها بفريق رابح وفريق خاسر.[3]

٦. البيع عن طريق سحب الأرقام.

بأن تكون البضاعة مرقمة، فيدفع المشتري مبلغًا محددًا، أو يأخذ رقمًا يستلم به بضاعة أعلى مما دفع أو أقل مما دفع، كأن يدفع عشرة، ويأخذ سلعة بمائة، أو بريال، ولها أحوال تفصيلية، غالبها يدور في فلك الميسر والقمار[4].

٧. مسابقات الصحف والفضائيات.

وصورتها: أن تعلن إحدى الصحف أو القنوات عن مسابقة عن طريق الاتصال برقم معين وللفائز جائزة كبيرة.

وغالبًا ما تنطوي هذه المعاملة على تحريض وخطر وجهالة بينة، وشبهها بالميسر واضح، حيث يدور المشترك فيها

(١) انظر: التحليل الاقتصادي الإسلامي لصور القمار والميسر المعاصرة، حسين شحاتة ص٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٤.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: القمار حقيقته وأحكامه ص ٥٥٣.

الباذل للمال باتصال ونحوه بين الغنم والغرم والسلامة.

وقد عرف القمار كما مر بأنه: «المخاطرة الدائرة بين أن يغنم باذل المال أو يغرم أو يسلم».[1]

٨. بيع الغرر[2].

وهو البيع المجهول العاقبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والغرر هو المجهول العاقبة، فإن بيعه من الميسر الذي هو القمار»[3].

والجهل المقصود في بيوع الغرر يكون من جهة: الجهل بتعيين المعقود عليه أو تعيين العقد، أو الجهل بوصف الثمن والمثمون المبيع، أو بقدره، أو بأجله إن كان هناك أجل، أو من جهة الجهل بوجوده، أو تعذر القدرة عليه، أو من جهة الجهل بسلامته وبقائه[4].

ويوجد في مجتمعاتنا المعاصرة في صور مختلفة ومتعددة، ووسائله كذلك وفيرة، خاصة مع تقدم التقنيات ووسائل الاتصال.

وقد اشترط الفقهاء لتأثير الغرر في بطلان البيوع أن يكون كثيرًا مؤثرًا.

قال القرافي: « الغرر والجهالة - أي: في البيع - ثلاثة أقسام: كثيرٌ ممتنعٌ إجماعًا، كالطير في الهواء، وقليلٌ جائزٌ إجماعًا، كأساس الدار وقطن الجبة، ومتوسطٌ اختلف فيه، هل يلحق بالأول أم بالثاني ؟»[5].

وقال ابن رشدٍ: «الفقهاء متفقون على أن الغرر الكثير في المبيعات لا يجوز، وأن القليل يجوز، ويختلفون في أشياء من أنواع الغرر، فبعضهم يلحقها بالغرر الكثير، وبعضهم يلحقها بالغرر القليل المباح؛ لترددها بين القليل والكثير»[6].

٩. الشطرنج والنرد.

والشطرنج لعبة ذهنية تلعب على لوحة (رقعة) مقسمة إلى أربعة وستين مربعًا، (ثمانية مربعات × ثمانية مربعات) من لونين، بحيث يكون كل مربع من لون، وبجانبه مربع من اللون الثاني (غالبًا الأبيض أو الأسود) يملك كل لاعب ستة عشرة حجرًا (قطعة) تتحرك كل منها باتجاهات محددة، والأحجار مقسمة كالتالي: ثمانية جنود أو بيادق، وقلعتين(أو رخ)، وحصانين، وفيلين، ووزير (أو ملكة) وملك (أو شاه) يتحكم أحد اللاعبين بالأحجار من اللون الأول (الأبيض عادة) ويتحكم اللاعب الآخر بالأحجار المماثلة من اللون الآخر

(١) انظر: مختصر الفتاوى المصرية، البعلي ص ٥٢٩.
(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣١/ ١٥٥.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٣/ ٤١٥.
(٤) انظر: بداية المجتهد، ابن رشد ٢/ ١٧٨.
(٥) الفروق، القرافي ٣/ ٢٦٥- ٢٦٦، الموسوعة الفقهية الكويتية ٣١/ ١٥١.
(٦) بداية المجتهد ٢/ ١٨٧.

(الأسود عادة) والهدف من اللعبة هو الوصول إلى حصر الملك (أو الشاه)، بحيث لا يستطيع الهروب، وتنتهي اللعبة عند تلك النقطة.

والنرد: وهو ما يعرف في الوقت الحاضر بالطاولة، هي لعبة مشهورة جدًا في الشرق الأوسط والبلاد الفارسية، تتكون من رقعة خشبية، أو صندوق خشبي، يمكن أن يكون مزخرفًا ومطعمًا بالصدف أو بقطع خشبية ثمينة من الأبنوس، وعدد من الأقراص العاجية أو البلاستيكية أو الخشبية بلونين مختلفين عددها خمسة عشر من كل لون ونردين سداسيين.

وقد أجمع الفقهاء على حرمة لعب الشطرنج والنرد واعتبارهما من الميسر المحرم، إذا كانا على مال أو شغلا عن واجب أو اشتملا على محرم، واختلفوا فيما إذا وقع اللعب بهما مجانًا، ولم يغلب على الظن إفضاؤه إلى محرم، أو تفويته لواجب، ويمكن حصر آرائهم في ثلاثة:

الأول: أنه محرم، وهو مذهب جمهور العلماء من سلف الأمة وخلفها.

الثاني: أنه مكروه كراهة تنزيه، وهو المشهور عند الشافعية.

الثالث: أنه مباح، وهذا القول وإن نسب إلى قليلين من العلماء، إلا أنه شاذ لا يلتفت إليه.

الآثار السيئة للميسر

للميسر آثاره السيئة على الفرد والمجتمع ومنظومة القيم والحضارة الإنسانية، ولا تنحصر آثار الميسر السيئة في جانب دون آخر، أو تختص بفئة دون أخرى، بل تشمل كافة الجوانب والميادين، وكافة الفئات.

وفي حديث القرآن عن الميسر إشارةٌ وافية بهذه الآثار، رغم وجازة العبارة، في تجانس عجيب بين إعجاز التعبير والتشريع كما سيتضح إن شاء الله تعالى.

غير أنه ينبغي الإشارة إلى منافع الميسر، اتباعًا لمنهج القرآن الكريم في حديثه الميسر، فقد نصت آية سورة البقرة على أن في الميسر منافع للناس: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

رغم اشتمالها ذاتها على أن في اقترافه إثمًا.

وفي تعرضنا لبيان منافع الميسر رغبة في بيان دقة التعبير القرآني في عرضه الواقع والحقيقة، بنصه على اشتمال الميسر على منافع، على الرغم من حكمه بتحريمه، وهذا ينطوي على دلالات متنوعة وبراهين ساطعة لمن تدبر وتأمل، كما لا يخفى ما فيه

من إعجاز التشريع كما مر.

و«الفائدة في ذكر المنافع هي بيان حكمة التشريع ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، لأن الله جعل هذا الدين دينًا دائمًا، وأودعه أمة أراد أن يكون منها مشرعون لمختلف ومتجدد الحوادث، فلذلك أشار لعلل الأحكام في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[الحجرات: ١٢].

ونحو ذلك، وتخصيص التنصيص على العلل ببعض الأحكام في بعض الآيات إنما هو في مواضع خفاء العلل، فإن الخمر قد اشتهر بينهم نفعها، والميسر قد اتخذوه ذريعة لنفع الفقراء، فوجب بيان ما فيهما من المفاسد إنباء بحكمة التحريم، وفائدة أخرى وهي تأنيس المكلفين فطامهم عن أكبر لذائذهم؛ تذكيرًا لهم بأن ربهم لا يريد إلا صلاحهم دون نكايتهم كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦].

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة: ١٨٣].

وهنالك أيضًا فائدة أخرى وهي عذرهم عما سلف منهم، حتى لا يستكينوا لهذا التحريم، والتنديد على المفاسد كقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[البقرة: ١٨٧]»[(١)].

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٠.

ويلاحظ أن منافع الميسر كانت مادية عارضة، وخاصة وعامة، إلا أنه لا يمكن تجاهلها بحال، فلعلها كانت سببًا في مقارفته من بعض الناس، وفي بعض الأزمنة.

وقد أشار المفسرون إلى المراد بمنافع الميسر في الآية الكريمة إشارات متنوعة بين الاختصار[(٢)]، والشرح[(٣)]، ويمكن إجمال تلك المنافع من كلامهم في:

١. انتفاع الفقراء به.

وذلك أمر معلوم، حيث كان من عادة الأيسار أن يوزعوا ما يصيبون من أجزاء الجزور بين الفقراء، بل ويعاب من يطعم مثل هذا اللحم منهم، وقد أشار إلى هذه المنفعة جماعة من المفسرين[(٤)].

يقول العلامة عبد السلام هارون: « ولا ريب أن الميسر كان نافعًا للعرب، كان نافعًا لذوي الحاجة منهم، لأن العرب في أكثر ما يقامرون إنما يبغون بذلك نفع الفقراء، والترفيه عن المحتاجين المعوزين، وقل أن يطعم الأيسار من لحم اليسر، وإنما كانوا

(٢) انظر: تفسير مجاهد ١/ ١٠٦، تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ١١٦، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٣.

(٣) انظر: تفسير مجاهد ١/ ١٠٦.

(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٥٢، التفسير الوجيز، الواحدي ١/ ١٦٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٩٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٥٧.

يفرقونه في البائسين»[1].

٢. اكتساب المال وإصابته من غير كد ولا تعب.

وقد أشار إلى هذه المنفعة جماعة من المفسرين[2].

٣. ما يصيبون من أنصبة الجزور، فينتفعون به ويتفاخرون[3].

فلا تتوقف الإصابة هنا على مجرد اللحم، بل تتعداه إلى ما يكتسبه من المدح والثناء من الفقراء، وما يتفاخرون به على الأبرام - من لا يقامرون- ويترفعون[4].

« قيل: ربما أن الواحد منهم كان يقمر في المجلس الواحد مائة بعير، فيحصل له المال الكثير، وربما كان يصرفه إلى المحتاجين فيكسب بذلك الثناء والمدح، وهو المنفعة»[5].

٤. اللهو والسرور.

ويقصد به السمر والاستمتاع بمجالس الميسر ومخالطة الناس، وكذلك ما يدخله من السرور حال الفوز[6].

قال ابن عاشور: « وأصل المقصد من الميسر هو المقصد من القمار كله، وهو الربح واللهو، يدل لذلك تمدحهم وتفاخرهم بإعطاء ربح الميسر للفقراء؛ لأنه لو كان هذا الإعطاء مطردًا لكل من يلعب الميسر لما كان تمدح به»[7].

٥. حدوث رواج في سوق الإبل وبيعها وشرائها[8].

وذلك بين، فهي محل الميسر ومحوره الأساس.

ويتعلق بالحديث عن منافع الميسر مسألة هامة، وهي هل منافع الميسر دائمة مستمرة، أو هي محدودة بزمان حله؟

وهذه المسألة متصلة برأيهم في دلالة آية سورة البقرة على تحريم الخمر والميسر، أو على ذمهما، فمن ذهب إلى دلالتها على التحريم رأى أن منافع الخمر المذكورة محدودة بزمن ما بعد التحريم، ومن ذهب إلى دلالتها على الذم رأى أن منافع الخمر عامة دائمة؛ لأنها منافع ذاتية غير عارضة.

قال ابن الجوزي: « اختلف العلماء في هذه الآية، فقال قوم: إنها تضمنت ذم الخمر لا تحريمها، وهو مذهب ابن عباس وسعيد

(١) الميسر والأزلام ص ٤٧.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٧٨، تفسير السمعاني ١/ ٢١٩، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٣، زاد المسير ١/ ٢٤١، تفسير العز بن عبد السلام ١/ ٢١١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٦٠، التفسير الوجيز، الواحدي ١/ ١٦٥.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤١، نظم الدرر، البقاعي ١/ ٤٠٩.
(٥) لباب التأويل، الخازن ١/ ٢١٢.
(٦) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٨٩، نظم الدرر، البقاعي ١/ ٤٠٩.
(٧) التحرير والتنوير ٢/ ٣٤٩.
(٨) انظر: الميسر والأزلام ص ٤٨.

بن جبير ومجاهد وقتادة، وقال آخرون: بل تضمنت تحريمها، وهو مذهب الحسن وعطاء، فأما قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

فيتجاذبه أرباب القولين، فأما أصحاب القول الأول، فإنهم قالوا: إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبله، وقال أصحاب القول الثاني: إثمهما قبل التحريم أكبر من نفعهما حينئذ أيضا؛ لأن الإثم الحادث عن شربها من ترك الصلاة والإفساد الواقع عن السكر لا يوازي منفعتها الحاصلة من لذة أو بيع»[(١)].

ويمكن تلخيص وجمع كلام المفسرين في رأيين:

الأول: وذهب أصحابه إلى أن منافع الخمر والميسر محدودة بزمان حله دون زمن تحريمه، فهي منافع مؤقتة، فيصير المعنى: وإثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبله. ونسب هذا القول إلى ابن عباس ومقاتل والضحاك والربيع وسعيد بن جبير ومقاتل، وحكاه جماعة من المفسرين، ورجحه بعضهم.[(٢)]

قال مقاتل: « يعني بالمنافع اللذة والتجارة في ركوبهما قبل التحريم، فلما حرمهما الله عز وجل، قال:) ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾ (بعد التحريم،) ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ قبل التحريم »[(٣)].

الثاني: وذهب أصحابه إلى أن منافع الخمر والميسر عامة دائمة، ليست محدودة بزمان دون آخر، لأنها منافع ذاتية، والمعنى: أن إثمهما قبل التحريم أكبر من نفعهما حينئذ أيضا، لأن الإثم الحادث عن شربها من ترك الصلاة والإفساد الواقع عن السكر لا يوازي منفعتها الحاصلة من لذة أو بيع، ونسب إلى سعيد ابن جبير واختاره جماعة من المفسرين[(٤)].

قال الطبري: « وإنما اخترنا ما قلنا في ذلك من التأويل، لتواتر الأخبار وتظاهرها بأن هذه نزلت قبل تحريم الخمر والميسر، فكان معلومًا بذلك أن الإثم الذي ذكر الله في هذه الآية، فأضافه إليهما إنما عنى به الإثم الذي يحدث عن أسبابهما»[(٥)].

والراجح هو الرأي الثاني القائل بعموم منافع الخمر والميسر ودوامهما في كل

(١) نواسخ القرآن، ابن الجوزي ص ٨٢.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٥٢، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٣، مفاتيح الغيب ٦/ ٣٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٦٠، البحر المحيط ٢/ ١٦٨.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٦١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٧٨، نواسخ القرآن، ابن الجوزي ص ٨٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٥٠٥.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٦١.

زمن؛ لاتفاقه مع ظاهر القرآن الكريم، وعدم الحاجة فيه إلى تأويل.

قال ابن العربي: « المسألة السادسة: ما هذا الإثم؟ فيه قولان: أحدهما: أن الإثم ما بعد التحريم، والمنفعة قبل التحريم، الثاني: أن إثمها كانوا إذا شربوا سكروا، فسبوا وجرحوا وقتلوا، والصحيح أنها إثم في الوجهين»[1].

ويقول العلامة أبو زهرة: «ويلاحظ في الكلمات السامية: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

أنه أطلق الإثم ولم يضفه، فلم يقل: إثم على الناس، أو للناس، وقيد المنافع بأنها للناس، وهذا يدل على أن الإثم في الخمر والميسر ذاتي، فهما في ذاتهما رجس كبير، وخطر وبيل، وأن ما فيهما من منافع فهي ضئيلة وهي بالنسبة لبعض الناس، فهي منافع إضافية، لا منافع ذاتية، فجوهر الخمر والميسر شر لا خير فيه، وما يكون من نفع فيهما في بعض الملابسات، كما يلاحظ في بيع الأوراق لتمويل بعض جماعات البر، فليس ذلك لأن في الميسر خيرا أو نفعا، بل لأن النفوس فسدت، وشحت بالخير، فلا تجود إلا من هذا الطريق الفاسد، فما فيه من نفع إضافي سببه فساد الناس، وهو نفع ضئيل للناس ومشتق من أحوالهم»[2].

وعلى كلا الرأيين فإن في الميسر منافع ولو محدودة، بقي بيان آثاره السيئة على الفرد والجماعة واقتصاد الأمة، وهذا ما سيتضح بتوفيق الله في النقاط الآتية.

أولًا: آثار الميسر النفسية على الفرد:

بين القرآن الكريم آثار الميسر النفسية على الفرد في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وبيان ذلك تفصيلًا يقتضي تقسيم الآثار النفسية للميسر على الفرد إلى قسمين:

القسم الأول: الآثار المتعلقة بالدين: ويقصد بها تلك المضار التي تؤثر بالسلب على ضرورة من الضرورات أو كلية من الكليات الخمس المأمور بحفظها، وهي

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢١٠.

(٢) زهرة التفاسير ٢/ ٧٠٨.

الدين والنفس والعقل والمال والعرض.

ويمكن إجمال الآثار السيئة للميسر على هذا الجانب فيما يلي:

أولًا: الصد عن ذكر الله وعن الصلاة: وقد نصت على هذا الأثر السيئ آية سورة المائدة؛ تعليلًا للأمر بالاجتناب والتحريم، وذلك بسبب اللهو بالميسر عن ذكر الله والانشغال به عن الصلاة وإضاعتها، وهذا أمر ظاهر، فمتى اشتغل بمخاطرة يتوقع فيها فوزًا أو خسارة أو سلامة، فلا بد أن ينشغل ذهنه وفكره بذلك، أو على الأقل يشوش[1].

قال الفخر الرازي: «وأما أن الميسر مانع عن ذكر الله وعن الصلاة فكذلك؛ لأنه إن كان غالبًا صار استغراقه في لذة الغلبة مانعا من أن يخطر بباله شيء سواه، ولا شك أن هذه الحالة مما تصد عن ذكر الله وعن الصلاة»[2].

والصد عن ذكر الله وعن الصلاة داخل في مفهوم الإثم في الميسر في قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩][3]، والمراد بالصد عن ذكر الله: الصد عن كل طاعة لله تعالى، وخص الصلاة من سائر الطاعات بإعادة ذكرها خاصة بعد العموم الشامل لها؛ لأهميتها ومكانتها.[4]

ثانيًا: ما فيه من الإثم: وذلك يتمثل في ارتكاب المحرمات من السرقة والتحايل وأكل أموال الناس بالباطل، وقول الفحش والحلف الكاذب ونحوها.[5]، وقد نصت على هذا الأثر آية سورة البقرة.

ثالثًا: متابعة الشيطان: ففي اقتراف الميسر عصيان لله وطاعة للشيطان- والعياذ بالله من ذلك- وهذا بين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

فقد نص على كون اقتراف الميسر رجسًا من عمل الشيطان[6]، وكذلك ما يفهم من الربط بين الآيتين وبين الآية التالية لهما: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

يقول الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٦٢.
(٢) مفاتيح الغيب ١٢/ ٦٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٥٩، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٧٧.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٣٨، الكشاف ١/ ٧٠٨.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٦، بلوغ الأرب ٣/ ٦٩، التفسير الوجيز، الواحدي ص١٦٥.
(٦) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٦٥.

رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول في اجتنابكم ذلك واتباعكم أمره فيما أمركم به من الانزجار عما زجركم عنه من هذه المعاني التي بينها لكم في هذه الآية وغيرها، وخالفوا الشيطان في أمره إياكم بمعصية الله في ذلك وفي غيره، فإنه إنما يبغي لكم العداوة والبغضاء بينكم بالخمر والميسر»[١].

وجميع المعاصي يجتمع فيها هذان الوصفان: العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة[٢].

رابعًا: إفساد التربية السليمة والفطرة المستقيمة، القائمة على السعي في طلب الرزق الحلال والكسب المشروع، وذلك عن طريق تعويد النفس الكسل وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، أو اللجوء إلى السرقة ونحوها من المحرمات[٣].

خامسًا: إضعاف القوة العقلية للمرء، بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية، وإهمال الياسرين (المقامرين) للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران[٤].

القسم الثاني: الآثار المتعلقة بالحالة النفسية للفرد: ويقصد بها تلك المضار التي تؤثر بالسلب على الحالة النفسية للفرد جراء ممارسته للميسر والقمار بصوره المختلفة.

وبدايةً أشير إلى أن علماء النفس والاجتماع يعتبرون لعب اليسر من الأمراض النفسية والاجتماعية الخطيرة، وأن له تأثيرًا على الأفراد بصورة قد تؤدي إلى تدميرهم نفسيًا، خاصة الفقراء منهم، ويعتبر علماء النفس المقامرة لونًا من الإدمان، ومرضًا نفسيًا خطيرًا[٥].

ويسبب الميسر عددًا من التأثيرات السلبية على نفسية المقامر، أهمها:

أولًا: يسبب تشوهًا معرفيًا، وفقدان التحكم، ونقصًا في تقدير الذات، وشعورًا باليأس.

ثانيًا: يؤدي بالمقامر إلى التفكير غير العقلاني، والشعور بالذنب، والرغبة في المخاطرة.

ثالثًا: يؤدي إلى عزلة المقامر عن المجتمع، حال اضطراره إلى التوقف عن المقامرة والمراهنة.

رابعًا: التوتر العصبي، وهو تطور نفسي في الجسم يسبب الإثارة والاندفاع واضطراب الجهاز العصبي[٦].

ويظهر أثر هذه التأثيرات النفسانية على

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٥.
(٢) الضوء المنير، ابن القيم ٢/ ٤٥١.
(٣) انظر: تفسير المنار ٢/ ٢٦٣.
(٤) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٦٣.
(٥) انظر: القمار نظرة سيكولوجية اجتماعية، مجلة الفكر العربي، المجلد ١٨ ص ١٦٣-١٦٦، سيكولوجية المقامر ص ٤.
(٦) انظر: سيكولوجية المقامر ص ١٥.

سلوك المقامر، فيحرص على المخاطرة والمغامرة، حتى يفنى ماله ويهلك عقله.

جاء في تفسير المنار [1]: « وأما كون إثم الميسر أكبر من نفعه فهو أظهر مما تقدم في الخمر ولا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه أنواع القمار وعم ضررها، حتى إن الحكومات الحرة التي تبيح تجارة الخمر تمنع أكثر أنواع القمار وتعاقب عليها، على احترامها للحرية الشخصية في جميع ضروب التصرف التي لا تضر بغير العامل، فمنفعة القمار وهمية ومضراته حقيقية، فإن المقامر يبذل ماله المملوك له حقيقة على وجه اليقين لأجل ربح موهوم ليس عنده وزن ذرة لترجيحه على خطر الخسران والضياع، والمسترسل في إضاعة المحقق طلبا للمتوهم يفسد فكره ويضعف عقله، ولذلك ينتهي الأمر بكثير من المقامرين إلى بخع أنفسهم - قتلها غما - أو الرضى بعيشة الذل والمهانة.

قال الأستاذ الإمام: إنني أعرف رجلا كانت ثروته لا تقل عن ثلاثة آلاف ألف جنيه (ثلاثة ملايين)، فما زال شيطان القمار يغريه باللعب فيه حتى فقد ثروته كلها، وعاش بقية حياته فقيرا معدما حتى مات جائعا، وذكر أنه ربح في ليلة تسعمائة ألف فرنك، فقال: لا أبرح حتى أتمها مليونا، فلم يبرح حتى خسرها إلى مليون آخر، وهكذا شأن أكثر المقامرين يغترون بالربح الذي يكون لهم أو لغيرهم أحيانا فيسترسلون في المقامرة حتى لا يبقى لهم شيء».

وجاء فيه أيضًا: « ويشترك الميسر مع الخمر في أن متعاطيهما قلما يقدر على تركهما والسلامة من بلائهما؛ لأن للخمر تأثيرا في العصب يدعو إلى العود إلى شربها والإكثار منها، فإن ما تحدثه من التنبيه يعقبه خمود وفتور بمقتضى سنة رد الفعل، فيشعر السكران بعد الصحو أنه مضطر إلى معاودة السكر، ليزول عنه ما حل به، فإذا هو عاد قويت الداعية، وأما الميسر فإن صاحبه كلما ربح طمع في الزيادة، وكلما خسر طمع في تعويض الخسارة، ويضعف الإدراك حتى تعز مقاومة هذا الطمع الوهمي، وهذا شر ما في هاتين الجريمتين»[2].

ثانيًا: آثار الميسر على العلاقات الاجتماعية:

أشار القرآن الكريم إلى آثار الميسر على العلاقات الاجتماعية في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ

(١) تفسير المنار ٢/ ٢٦٦.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٦٧.

﴿تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩].

فالإثم المذكور في الآية يشمل كل سيء من الأفعال، ومن ضمنها ما يكون بين الناس من سوء في العلاقات الاجتماعية.

ونص عليها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

ويمكن استخلاص آثار الميسر السيئة على العلاقات الاجتماعية، وإجمالها في:

أولًا: وقوع العداوة والبغضاء والحسد بين المتقامرين: فالقمار يورث العداوة، لأن مال الإنسان يصير إلى غيره بغير جزاء يأخذه عليه، فيبقى مسلوبًا، مغتاظًا على قرنائه[1].

وقد حذر القرآن الكريم من هذا الحال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

فقد «أعلم تعالى عباده أن الشيطان إنما يريد أن تقع العداوة بسبب الخمر، وما كان يغري عليها بين المؤمنين، وبسبب الميسر، إذ كانوا يتقامرون على الأموال والأهل، حتى ربما بقي المقمور حزينا فقيرًا، فتحدث من ذلك ضغائن وعداوة، فإن لم يصل الأمر إلى حد العداوة كانت بغضاء، ولا تحسن عاقبة قوم متباغضين، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا)[2].

وباجتماع النفوس والكلمة يحمى الدين ويجاهد العدو، والبغضاء تنقض عرى الدين، وتهدم عماد الحماية»[3].

ثانيًا: ضعف جماعة الأمة ووحدتها بين الناس: وذلك أثر من آثار وقوع العداوة والبغضاء بين أفراد الأمة، ومن خلال غياب المقامرين عن الصلاة ومجالس الذكر، أو انزوائهم وهروبهم من رحابة المجتمع إلى ضيق الأفق والحال.

يقول الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: إنما يريد لكم الشيطان شرب الخمر، والمياسرة بالقداح، ويحسن ذلك لكم؛ إرادة منه أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في شربكم الخمر ومياسرتكم بالقداح؛ ليعادي بعضكم بعضا، ويبغض بعضكم إلى بعض؛ فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ١/ ١٧٤، التفسير الوجيز، الواحدي ١/ ٣٣٤، تفسير السمعاني ٢/ ٦٢، الهداية، مكي بن أبي طالب ٣/ ١٨٦٤.

(٢) أخرجه: البخاري في صحيحه ٥/ ٢٢٥٣، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم ٥٧١٧، ومسلم في صحيحه ٤/ ١٩٨٥، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، رقم ٢٥٦٣.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٢٣٤.

بالإيمان وجمعه بينكم بأخوة الإسلام»[1].

ثالثًا: انهيار بناء الأسر وتفككها: وله -في نظري- شقان: اقتصادي، ويكون بسبب ما يصيبهم من كساد وإفلاس، و اجتماعي، ويكون بسبب انشغال الراعي وغفلته، وهذا مفهوم من عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[المائدة: ٩١].

قال صاحب المنار: « ومنها - وهو أشهرها - تخريب البيوت فجأة، بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت في الغنى والعز، وانحصرت ثروتها في رجل أضاعها عليها في ليلة واحدة فأصبحت غنية وأمست فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش على ما تعودت من السعة ولا ما دون ذلك»[2].

رابعًا: فساد الحياة واختلال منظومة القيم والأخلاق في المجتمع وانهيارها: وذلك ناتج عن تفشي سوء الأخلاق والفعال بين المتقامرين ومن يتعاملون معهم، لأنهم جزء من مكونات المجتمع، ومعلوم أن المقامر يبذل الكذب والتحايل والسرقة أحيانًا وكل وسيلة لإرضاء شهوته وكسب ربح سرابه، وهذا بلا شك يؤثر على منظومة القيم والأخلاق المجتمعية، ويفهم هذا الأثر أيضًا من عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[المائدة: ٩١][3].

كما نص القرآن الكريم على تضمن الميسر معنى الإثم بمفهومه الشامل لكافة المساوئ المنابذة للشرع من الكذب والشتم وزوال العقل واستحلال مال الغير[4].

والميسر بكونه سببًا في الصد عن ذكر الله وعن الصلاة يفسد الدنيا بأسرها؛ حيث صلاح الدنيا والدين في ذكر الله وفي الصلاة، كما أنهما ينفيان الفحشاء والمنكر﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت: ٤٥].

يقول الإمام الطبري: « ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يقول: ويصرفكم بغلبة هذه الخمر بسكرها إياكم عليكم وباشتغالكم بهذا الميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصلاة التي فرضها عليكم ربكم »[5].

ثالثًا: آثار الميسر على اقتصاد الأمة:

أشار القرآن الكريم إلى الآثار الاقتصادية للميسر ضمن وصفه له بالاشتمال على الإثم الكبير في قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٢.
(٢) تفسير المنار ٢/ ٢٦٣.
(٣) انظر: سيكولوجية المقامر ص ١٤.
(٤) انظر: نظم الدرر ١/ ٤٠٨-٤٠٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٢.

﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

فالإثم المذكور في الآية شامل لكافة ألوان المساوئ المنابذة لمحاسن الشرع، ومن ضروريات مقاصد الشريعة حفظ المال من جانب الحفاظ على وجوده ونمائه، ومن جانب منع ما يضره أو يؤدي إلى كساده، فكل ما أضر بالمال فيه إثم.

قال البرهان البقاعي: « وإن كان تعالى اقتصر هنا على ضرر الدين وهو الإثم لأنه أس يتبعه كل ضرر»[(١)].

وقال ابن القيم: « وإذا تأملت أحوال هذه المغالبات رأيتها في ذلك كالخمر، قليلها يدعو إلى كثيرها، وكثيرها يصد عما يحبه الله ورسوله، ويوقع فيما يبغضه الله ورسوله، فلو لم يكن في تحريمها نص لكانت أصول الشريعة، وقواعدها، وما اشتملت عليه من الحكم والمصالح، وعدم الفرق بين المتماثلين، توجب تحريم ذلك، والنهي عنه»[(٢)].

وقد أشار المفسرون إلى المعنى ذاته ضمن تفسيرهم لسبب وقوع العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، وهو ضياع الأموال، وإن كان هذا أثرًا اجتماعيًا إلا أن أثره يمتد ليشمل الجانب الاقتصادي، والعلاقة بين الجانبين أساسية.

قال صاحب المنار: « ومنها - وهو أشهرها - تخريب البيوت فجأة، بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت في الغنى والعز، وانحصرت ثروتها في رجل أضاعها عليها في ليلة واحدة فأصبحت غنية وأمست فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش على ما تعودت من السعة ولا ما دون ذلك»[(٣)].

وآثار الميسر السيئة على الحالة الاقتصادية درجات، منها الخاص بالأفراد، ومنها العام الشامل الأمة بأسرها، والتلازم بين الجانبين ظاهر.

ويمكن إجمال الآثار السيئة للميسر على اقتصاد الأمة بمعنييه الخاص والعام في:

أولًا: رفع نسبة الفقر بين أفراد الأمة: حيث يكون المقامر في الغالب من أصحاب رؤوس الأموال، فينجرف إلى الميسر والقمار، فيكسب ثم يخسر، فيستمر في المخاطرة رغبة الفوز، وتتكرر خسارته، فيتحول إلى الفقر المدقع.

يقول الفخر الرازي: « وأما الميسر ففيه بإزاء التوسعة على المحتاجين الإجحاف بأرباب الأموال، لأن من صار مغلوبا في القمار مرة دعاه ذلك إلى اللجاج فيه عن رجاء أنه ربما صار غالبا فيه، وقد يتفق أن

(١) نظم الدرر ١/ ٤٠٨.
(٢) الفروسية ص ١٧٥-١٧٦.
(٣) تفسير المنار ٢/ ٢٦٣.

لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال، وإلى أن يقامر على لحيته وأهله وولده، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيرا مسكينا ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا غالبين له. فظهر من هذا الوجه أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم[1].

ثانيًا: التسبب في حدوث الأزمات الاقتصادية وارتباك الأسواق دون مبرر: والأزمة الاقتصادية هي: التدهور الحاد في الأسواق المالية لدولة ما أو مجموعة من الدول؛ والتي من أبرز سماتها فشل النظام المصرفي المحلي في أداء مهامه الرئيسية، والذي ينعكس سلبا في تدهور كبير في قيمة العملة و أسعار الأسهم، مما ينجم عنه آثار سلبية في قطاع الإنتاج والعمالة؛ وما ينجم عنها من إعادة توزيع الدخول والثروات فيما بين الأسواق المالية الدولية[2].

وخير شاهد على هذا الأثر ما يعرف بالأزمة الاقتصادية العالمية في أكتوبر ١٩٩٨م، وما حدث في دول شرق آسيا سنة ١٩٩٩م، وما زالت آثارها باقية.

وقد بدأت جذور هذه الأزمات في القطاع المالي، وتضخمت من خلاله، فالبداية كانت من التخفيض المصطنع لمعدلات الفائدة في مطلع القرن، الذي شجع على التوسع في الاقتراض دون وجود قيمة مضافة أو نمو في الإنتاجية، وكانت النتيجة فقاعة في سوق العقار، ورافق ذلك مبتكرات المشتقات المالية التي حيدت مخاطر الإقراض، فلم يعد المقرض يستشعر مسؤولية القرض، ويهتم بقدرة المدين على السداد، فنشأ عن ذلك الممارسات المستنكرة في استدراج العملاء وإغراقهم بالديون، أي إن الأزمة ابتدأت بالربا، وتطورت إلى الميسر، وأصبح أحدهما يغذي الآخر، لتنتهي بالكارثة.

والمقامرة، مثلها مثل نظام الفائدة الربوية، تزيد الفجوة بين الالتزامات المالية والثروة الحقيقية، وكلما ازدادت أعداد المراهنين ازداد مجموع خسائر الخاسرين من جراء هبوط في السوق، وهذا ما حصل في الأزمة المالية الراهنة، فقد اكتظت الأسواق المالية بتجارة المخاطر المبنية على الميسر والقمار، فأصبح لا يمكن التفريق بين المعاملات الحقيقية وبين المقامرة التي تتسم اقتصاديًا بأنها مباراة نتيجتها صفر،

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٦٧.
(٢) انظر: فصول الأزمة المالية العالمية: أسبابها، جذورها وتبعاتها الاقتصادية، محمد أحمد زيدان ص ٤، أسباب الأزمة المالية وجذورها، جميلة الجوزي ص١، الأزمة المالية العالمية انعكساتها وحلولها، الداوي الشيخ ص ٣.

لأنها على المستوى الجزئي لطرفيها لا تولد قيمة، إذ إن ما يربحه طرف يساوي تماما ما يخسره الآخر، أما على مستوى الاقتصاد كله فإنها مباراة نتيجتها سالبة، بسبب ما تولده من حوافز ضارة اقتصاديا ذات مخاطر أخلاقية.

فإذا بترنا الارتباط بين المخاطر وملكية الأصول، مالية كانت أو حقيقية، فقد المالكون الحافز للحفاظ على جودة أصولهم، وتصرفوا بما يحقق لهم أعلى عائد، وفي الأزمة الحالية حيث أمكن للمؤسسات المالية التخلص من مخاطر أصولها بفصل المخاطر عن الملكية فقد جمحت إلى تحقيق أهداف أخرى دون مراعاة للتدهور في نوعية الأصول ؛ طمعًا في زيادة العائدات، وتحولت السوق إلى ساحة للرهان، فلم يكن هناك ما يحد من نموها وتضخمها سوى استعداد الأطراف للمجازفة، وكما هو الشأن في الربا، فإن المراهنة لا تتطلب أكثر من اتفاق الطرفين على أن يدفع أحدهما للآخر مبلغا من المال حين وقوع الخطر مقابل رسوم محددة، فالتكلفة الابتدائية للرهان محدودة، ولذلك لا يوجد ما يعوق توسعه وتضاعفه.

والنتيجة من الميسر هي تضاعف الالتزامات والمديونيات بعيدًا عن الثروة الحقيقية، لينشأ عن ذلك ما يسمى الهرم المقلوب، حيث ترتكز جبال شاهقة من الديون على قاعدة ضئيلة من الثروة، ومع تزايد عبء هذه الديون ستعجز قاعدة الثروة عن احتمالها، لتكون الخسارة حين وقوع الخطر أضعافًا مضاعفة[1].

موضوعات ذات صلة:

الخمر، الذنب، الزور، اللعب، اللهو

(١) انظر: أسلحة الدمار المالي الشامل، سامي بن إبراهيم السويلم، منشور ضمن بحوث كتاب الأزمة المالية العالمية أسباب وحلول من منظور إسلامي ص ٤٦- ٤٧، حلول اقتصادية من التمويل الإسلامي، بيان الجمعية الدولية للاقتصاد الإسلامي، منشور ضمن بحوث كتاب الأزمة المالية العالمية أسباب وحلول من منظور إسلامي ص ٣٥٨، المنهج الإسلامي لتشخيص ومعالجة الأزمات في سوق الأوراق المالية، حسين شحاتة ص ١٤، الجرائم الاقتصادية: عقوبتها ومكافحتها في ضوء الشريعة الإسلامية، حسين شحاتة ص ١٧.

النار

عناصر الموضوع

مفهوم النار	١٦٨
النار في الاستعمال القرآني	١٦٩
الألفاظ ذات الصلة	١٧٠
أسماء النار وصفاتها	١٧٢
ألوان العذاب في النار	١٨٩
سبل الوقاية من النار	١٩٧
أسباب دخول النار	٢٠٥

مفهوم النار

أولًا: المعنى اللغوي:

النار: «النون والواو والراء، أصلٌ صحيحٌ يدل على إضاءةٍ واضطرابٍ وقلة ثباتٍ، ومنه النور والنار، سميا بذلك من طريقة الإضاءة؛ ولأن ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة»[(١)].

ونار نورًا وأنار واستنار ونور، بمعنًى واحدٍ، أي: أضاء، والتنوير: الإنارة، يقال: نورت الشجرة تنويرًا، وأنارت: أي: أخرجت نورها. والنار مؤنثةٌ وهي من الواو؛ لأن تصغيرها نويرةٌ، وجمع النار على(أنيارٍ)، وأصلها(أنوارٌ)؛ لأنها من الواو، و(نورٌ) و(نيرانٌ) انقلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها، و(نيرةٌ)، و(نيارٌ)، وبينهم(نائرةٌ) أي: عداوةٌ وشحناء، وتنور النار من بعيدٍ: تبصرها[(٢)]. ونار الحرب ونائرتها: شرها وهيجها. ونرته وأنرته: نفرته، وامرأة نوار: نافرة عن الشر والقبيح[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قيل: «الدار التي أعدها الله للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب به أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين، وهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم الذي لا خزي فوقه، ولا خسران أعظم منه»[(٤)].

وقيل: «هي دار العذاب والإهانة، أعدها الله لأعدائه الكافرين الذين كفروا به وعصوا رسله»[(٥)].

وهذه أقوال وتعاريف متقاربة، وبينهما نوع اشتراك في بعض، وعلاقة المعنى الاصطلاحي بالمعنى اللغوي ظاهر في الإضاءة.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٦٨.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٢١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٢٩، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٤٠- ٢٤٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٤٨٨.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ١٢٦.
(٤) الجنة والنار، عمر الأشقر ص١١.
(٥) رسالة في أسس العقيدة، محمد السعوي ص٧٤.

النار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نور) في القرآن الكريم(١٩٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٤٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	١٤٥	﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[البقرة:٢٤]

وجاءت النار في الاستعمال القرآني على ستة أوجه[٢]:

الأول: العداوة: ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[المائدة: ٦٤] يعني: عداوة.

الثاني: الحرام: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[النساء: ١٠] يعني: حرامًا.

الثالث: جهنم: ومنه قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[البقرة: ٢٤].

الرابع: الكفر: ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[البقرة: ٢٢١] أي: إلى الكفر بالله.

الخامس: النار التي لا دخان لها تنزل من السماء فتأكل القربان: ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾[آل عمران: ١٨٣] يعني: بنار تأكل القربان.

السادس: النار المعروفة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾[الواقعة: ٧١] يعني: النار التي تقدحون من الزند.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب النون، ص١٣٥٢-١٣٥٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٣٩-٤٤٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ جهنم:

جهنم لغةً:

اسم من أسماء النار التي يعذب بها الله عز وجل عباده، وهو ملحق بالخماسي بتشديد الحرف الثالث منه، ولا يجرى للمعرفة والتأنيث، ويقال: هو فارسي معرب[١].

وجهنم: من الجهنام، بئرٌ جهنمٌ وجهنامٌ، بكسر الجيم والهاء: أي: بعيدة القعر، وبه سميت جهنم لبعد قعرها، ولم يقولوا: جهنام فيها[٢].

جهنم اصطلاحًا:

جهنم: «اسم النار الآخرة، من الجهامة، وهي كراهة المنظر»[٣].

الصلة بين النار وجهنم:

النار: هي الملتهبة الحراقة، وأما جهنم: اسم من أسماء النار فيفيد من قولك: بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر[٤].

٢ اللهب:

اللهب لغةً:

اللام والهاء والباء أصل صحيح، وهو ارتفاع لسان النار، ثم يقاس عليه ما يقاربه، من ذلك اللهب: لهب النار، تقول: التهبت التهابا، وكل شيء ارتفع ضوؤه ولمع لمعانًا شديدًا فإنه يقال فيه ذلك، واللهب واللهاب: اشتعال النار[٥].

اللهب اصطلاحًا:

«اشتعال النار إذا خلص من الدخان»[٦].

الصلة بين النار واللهب:

النار: هي المشتعلة بحد ذاتها، واللهب: ما يظهر ويمكن رؤيته بوضوح عند اشتعال النار.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٨٩٢، شمس العلوم، نشوان الحميري ٢/ ١٢٠١، مختار الصحاح، الرازي ص ٦٣.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١١٢.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٢٣.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٣١١.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢١٣.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٤٣.

٣ الإضاءة:

الإضاءة لغةً:

ضوء: الضاد والواو والهمزة أصل صحيح يدل على نور، من ذلك: الضوء، وهو بمعنى: الضياء والنور، قيل: أضاءت النار وأضاءت غيرها[١].

الإضاءة اصطلاحًا:

«فرط الإنارة، من الضوء الذي هو النور البالغ القوي»[٢].

الصلة بين النار والضوء:

النار: لابد من اشتعالها حتى تنتج عنها الإضاءة، أما الضوء فهو فرع النور، وهو الشعاع المنتشر.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٧٥.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٥٤.
وانظر: الكليات، الكفوي ص١٣٧.

أسماء النار وصفاتها

تحدث القرآن الكريم عن أسماء النار وصفاتها، وهذا ما سنبينه في النقاط الآتية.

أولًا: أسماء النار:

تعددت أسماء النار في القرآن الكريم تعددًا يؤذن بعظم شأنها، وأهمية أمرها، وكثرة أسماء النار توجب على العبد الأخذ بأسباب النجاة منها، وشدة الاحتياط والحذر؛ رغبة في توقي شرها.

وفيما يأتي عرض لما ورد في القرآن من أسماء للنار:

١. لظى.

قال عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥-١٦].

وهذا الاسم لم يرد إلا في هذه الآية وسميت به لتلظيها وتلهبها[١] وللزوقها بالجلد، فـ «التلظلظ واللظلظة من قولك: حيةٌ تتلظلظ، وهو تحريك رأسها من شدة اغتياظها، وحيةٌ تتلظى من خبثها وتوقدها، والحر يتلظى كأنه يلتهب مثل النار»[٢].

وهي تسمية تشعر بعظم ما عليه النار من الاشتعال والتوهج والتغيظ، وشدة الإحراق والتلهب.

٢. الحطمة.

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٤-٦].

وهذا الاسم لم يرد إلا في هاتين الآيتين.

وسميت النار بالحطمة؛ لأنها تحطم كل ما ألقي فيها[٣].

وفي هذه التسمية إشعار بشدة هذه النار وقوتها، وأنه لا يستعصي عليها أحد ولا شيء، فهي كفيلة بتحطيم كل ما يلقى فيها.

٣. السعير.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وهذا الاسم ورد في القرآن معرفًا ثمان مرات، ومنكرًا سبع مرات.

وسميت بذلك؛ لأنها توقد وتهيج، فهي (فعيل) بمعنى (مفعول)[٤].

وهذا الاسم يدل على شدة اشتعال النار واتقادها وارتفاع ألسنة لهبها، فـ «السين والعين والراء أصلٌ واحدٌ، يدل على اشتعال الشيء واتقاده وارتفاعه»[٥].

وفي اللفظة إيماء أيضًا لشدة هيجان النار على أهلها، حيث يقال: ناقة مسعورة، نحو

(١) انظر: المفردات، الراغب ص٧٤٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٤٢، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٥/ ١١٧٢.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ١٥١.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٠١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٤١١، وإرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٤٨.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٧٥.

موقدة ومهيجة[1]. والسعير: اسم لأشد النار اشتعالًا، يقال: سعر فلان النار: إذا أوقدها بشدة[2].

٤. سقر.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

ورد هذا الاسم في القرآن أربع مرات.

وسميت بذلك؛ لأنها تذيب الأجسام من قولهم: سقرته الشمس إذا أذابته[3].

وهذه التسمية توحي بشدة إحراق النار، فـ «السين والقاف والراء، أصل يدل على إحراقٍ أو تلويح بنار»[4].

وفي هذا ما يشعر بهول العذاب، وبسخونة هذه النار، واشتداد حرها الذي لا يحرق فحسب، بل يبلغ من درجة قوته أن يذيب الأجساد، وتتلاشى فيه اللحوم والأبدان.

٥. الجحيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٥].

ورد هذا الاسم في القرآن ثلاثًا وعشرين مرة.

وسميت النار بذلك؛ لشدة تأجج نارها[5].

وفي تسمية النار بالجحيم إشارة إلى عظمتها، وشدة توقدها وحرها، وأنها نار جمع بعضها فوق بعض حتى اشتد حرها، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم[6].

٦. الهاوية.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨-١١].

وهذا الاسم ورد في القرآن مرة واحدة في سورة القارعة.

وسميت بهذا الاسم؛ لأن المعذب يهوى فيها مع بعد قعرها[7]؛ أو لأنه يهوى فيها من علوٍ إلى سفل[8].

وهي تسمية تشي بحال المعذبين، وتصور حجم الإذلال والهوان الذي يعانونه ويكابدونه، فهي هاوية، يلقى الناس فيها مهانين، فيهوون فيها كما تهوي الحجارة.

٧. جهنم.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

(١) الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٨/ ٢٦١.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ١٤.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٠٣.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٨٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٨٧، وإرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٥٢.
(٦) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٠٥، تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨٤، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٥٧٠.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٦٧.
(٨) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٤٩.

﴿لَلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

وهذا الاسم ورد في القرآن في اثنين وسبعين موضعًا، وجاء مضافًا إلى النار في تسعة مواضع، وسميت نار الآخرة بجهنم؛ لبعد قعرها[(١)].

وفي هذه التسمية إشعار بعظم هذه النار، وبعد قعرها، ومدى عمقها، وهي تسمية تملأ القلب رعبًا والنفس فزعًا، وتستحث العبد نحو فعل ما ينجيه منها.

فائدة المغايرة بين أسماء النار وأوصافها:

بالتأمل في أسماء النار وصفاتها ومغايرة القرآن في التعبير عنها بأسماء مختلفة وصفات متنوعة يظهر لنا أن من أسباب تلك المغايرة، وفوائدها:

- التأكيد على أهمية الإيمان بها؛ فكثرة ذكرها توجه إلى أهمية الإيمان بها، وأهمية الحذر من عذابها، والاستعداد للنجاة من حرها.
- لشدة هولها وفظاعتها؛ إذ المغايرة في أوصافها وأسمائها تعطيها الكثير من المعاني والدلالات التي توحي بشدة هولها، وتظهر مدى فظاعتها.
- للإشعار بعظمتها وأهميتها؛ إذ الشيء كلما تعددت أسماؤه وأوصافه دلت على شدة عظمته، وأنه يستعصي على الحصر والإحاطة بمدلوله؛ ولذا يحتاج لعدد من الأسماء والأوصاف، وفي هذا ما يملأ النفس رهبة منها، وفيه مدعاة لحسن الاستعداد لها على الوجه الأكمل والنحو الأمثل.

الصلة بين هذه الأسماء المتعددة:

للنار عدد من الأسماء، ولكل منها مدلول خاص يظهره، وجانب من جوانب العظمة يبرزه، ووجه من وجوه الشدة يصوره، وهذا لا شك يدل على عظمة النار، وكأن عظمتها مما يعجز الاسم الواحد عن تصويره، والصفة الواحدة عن الإحاطة به -كما مر، فيتحصل من مجموع تلك الأسماء تصور كثير من جوانب عظمتها وهولها.

فاسم (السعير) يصور شدة التوقد، واسم (الحطمة) يبين القوة التي تمكنها من حطم كل ما يلقى فيها، واسم (الهاوية) يرسم صورة لعمقها وبعد قعرها، وهكذا في بقية الأسماء.

ومجموع هذه الأسماء يوقع في حس المتلقي شدة هولها، ويظهر له عظيم خطرها، كما تتكامل أمامه مختلف ألوان عذابها، وترتسم في مخيلته صور المعذبين فيها، وصنوف آلامهم.

وبالتأمل في أسماء النار نجد أن ثمة روابط وقواسم مشتركة، وهي كالآتي:

- **عظم اشتعالها والتهابها:** فهي نار لا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٤٩.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ١٢٢.

تنطفئ لها جذوة، ولا تخبو لها شعلة، ولا يهدأ لها توقد، ولا يبرد لها جمر، فاشتعالها دائم، وتلهبها في تعاظم.

- شدة حرها: فحرارتها بلغت الغاية والنهاية حتى بلغ من شدتها أن تذيب اللحوم مهما غلظت، والأبدان مهما قويت واشتدت.
- بعد قعرها: فهو قعر شديد البعد لا يعرف له قرار ولا نهاية.
- شدة عذابها: فهو عذاب يجمع شتى صور الإيلام، وتتكامل فيه مختلف صنوف الهوان، مما يجعل عذابها لا نظير له ولا مثيل، مهما عظم واشتد.

ثانيًا: فناء النار:

تمثل مسألة (فناء النار وبقائها) أهمية خاصة؛ لما لها من أهميةٍ في تكوين معتقد المسلم؛ ولما لها من تعلقٍ بإيمان المسلم بالآخرة. وذكر الآخرة من الأمور المركزية في القرآن الكريم، وحق لما كان من أمورها أن يدرس ويبحث، ويظهر فيه الحق من الباطل؛ ليكون المسلم في ذلك على بينة من أمره.

وسنتناول مسألة (فناء النار) من خلال الاختلاف الواقع فيها، وبيان أدلة المختلفين، ومناقشتها، وذكر الراجح من الأقوال في ذلك.

اختلف الناس حول بقاء النار في الآخرة وفنائها على أقوال كثيرة، أهمها ثلاثة:

الأول: القول ببقائها، وهو ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة، ونقل بعضهم الإجماع عليه.

الثاني: القول بفنائها، وهو محكي عن الجهم بن صفوان وأتباعه وغيرهم، ونسب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية[1].

الثالث: الإمساك عن ذلك[2].

وسنعرض أدلة القائلين ببقاء النار، وأدلة القائلين بفنائها، دون الفريق الثالث؛ لأنهم أمسكوا عن الخوض في المسألة.

أدلة القائلين ببقاء النار في الآخرة:

استدل القائلون ببقاء النار بأدلة كثيرة نذكر بعضها بحسب طبيعة البحث، فمنها:

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

(١) والراجح أن نسبته له غير صحيحة، والصحيح عنه القول بأبديتها.
انظر: كشف الأستار لإبطال ادعاء فناء النار المنسوب لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، علي الحربي ص٥٨.

(٢) انظر في الأقوال الثلاثة: الرد على من قال بفناء الجنة والنار، ابن تيمية ص٤٢، حادي الأرواح، ابن القيم ص٣٢٩-٣٣٢، شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٦٢٤، فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٤٢١-٤٢٢، كشف الأستار في إبطال قول من قال بفناء النار، الشوكاني ٢/ ٧٨٩.

قال الطبري: «وإنما هذه الآية إخبار من الله عباده عن بقاء النار، وبقاء أهلها فيها»[1].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

فقد صرحت الآية بكون الكافرين غير خارجين من النار، وأن لهم فيها عذابًا مقيمًا لا يخرجون منه، قال القرطبي مبينًا معنى العذاب المقيم: «و﴿مُّقِيمٌ﴾ معناه دائم ثابت، لا يزول ولا يحول»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦][3].

فالآية مصرحة بكون العذاب لا يخفف عن الكفار، وفي هذا دليل على بقاء النار، وعدم فنائها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم)[4].

أدلة من قال بفنائها:

استدل بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧].

ووجه الاستدلال من الآية: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧].

فالله جعل خلودهم في النار موقوفًا على مشيئته، فهذا يدل على أن عذاب الكفار منقطع، وله نهاية.

الرد على هذا الاستدلال:

أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، كما رجحه بعض المفسرين[5].

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣].

ووجه الدلالة من الآية: أن أهل النار يمكثون فيها أحقابًا، والحقب لها نهاية،

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٨٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٥٩.
(٣) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٦٢٩، رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، الصنعاني ١/ ١١٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ٨/ ١١٣، رقم ٦٥٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٨٩، رقم ٢٨٥٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٨١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥١-٣٥٢، شرح الطحاوية، ابن أبي العز ص٤٢٠.

فهذا يدل على أن النار تفنى، ولا بقاء لها[1].

الرد على هذا الاستدلال:

أن الذي حدد بالأحقاب ليس هو العذاب، بل هو نوع من العذاب، وهو ما جاء بعد هذه الآية من قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤-٢٥][2].

روى الطبري بسنده عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

أنه كان يتأول في هذا الاستثناء: «أن الله عز وجل جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابه إياهم إلى مشيئته»، وقال: «إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارًا»[3].

وروى عبد بن حميد في تفسيره بسنده عن الحسن البصري عند قوله تعالى: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣].

قال: قال عمر رضي الله عنه: «لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج[4] لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه»[5].

قال الطبري: قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد؛ وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابًا»[6].

الرد على استدلالهم بهذه الآثار:

الآثار السابقة التي استدل بها القائلون بفناء النار ضعيفة لا تقوم بها حجة، كما بينا ذلك في الحاشية.

ومما استدلوا به قولهم: إن معصية الظلم متناهية، فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم[7].

---

(١) انظر: شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٦٢٦، رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، الصنعاني ص٨٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٦٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٠٦.

(٣) قال الألباني في تعليقه على رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار ص٧١: «قلت: هذا أثر منقطع، لأن علي بن أبي طلحة لم يسمع عن ابن عباس، وإن كان معناه صحيحًا، على ما سيبينه المؤلف رحمه الله تعالى، ثم أن في الطريق إليه عبد الله بن صالح، وفيه ضعف، رواه عنه ابن جرير ١٣٨٩٢، وابن أبي حاتم أيضًا كما في تفسير ابن كثير، والأثر في الحادي ٢/ ١٧٣ غير معزو لابن تيمية صراحة، ولم يذكره الناقل عن ابن تيمية في مخطوطة المكتب».

(٤) عالج: رمال معروفة بالبادية، وتطلق على ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٣٢٦، معجم البلدان، ياقوت الحموي ٤/ ٧٠.

(٥) ضعيف: للانقطاع بين الحسن البصري وبين عمر رضي الله عنه.
وانظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، الألباني ٢/ ٧٣، رفع الأستار، الصنعاني ص٦٥ مع تعليق الألباني عليه.

(٦) جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٨.
وانظر: الرد على من قال بفناء الجنة والنار ص٦٩.

(٧) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين،

الرد على هذا الاستدلال:

أن الله علم في سابق علمه أن الخبث قد تأصل في هؤلاء الخبثاء، بحيث إنهم لو عذبوا القدر من الزمن الذي عصوا الله فيه، ثم عادوا إلى الدنيا لعادوا لما يستوجبون به العذاب، لا يستطيعون غير ذلك، قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨][1].

الرأي الراجح:

الذي يترجح مما سبق من الأقوال هو القول ببقاء النار في الآخرة، وهو قول جمهور أهل السنة والجماعة؛ لصراحة الأدلة من الآيات والأحاديث، وعدم قوة الأدلة التي استدل بها المعارضون.

ومن قرأ ما كتبه ابن القيم رحمه الله تعالى يظن أنه يرجح أن النار تفنى، وأن أهلها يخرجون منها، لكن في الحقيقة أن ابن القيم رحمه الله تعالى يكاد يميل إلى التوقف؛ لأنه بعد أن ذكر الخلاف الطويل، وذكر الأقوال في ذلك والأدلة، قال: «فهذا نهاية أقدام الفريقين في هذه المسألة؛ ولعلك لا تظفر به في غير هذا الكتاب؛ فإن قيل: فإلى أين أنتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة؟ قيل: إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وإلى هنا انتهى قدم أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه فيها، حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء، وقال: ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء، بل وإلى ها هنا انتهت أقدام الخلائق»[2].

ثالثًا: عظم النار وشدة حرها:

١. عظم النار.

النار مخلوق من مخلوقات الله عز وجل العظيمة، التي يذهب العقل في تصور عظمتها وسعتها كل مذهب، وينتاب القلب الحي خوفٌ ووجلٌ مما يرد عليه من وصفها في القرآن والسنة، وقد أفصحت الآيات والأحاديث عن ذلك إفصاحًا يزجر كل من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، ويمكن أن نستلمح شيئًا من عظمتها من خلال ما يأتي:

١. عظمة خالقها.

الحديث عن عظم النار له أصل يقوم عليه، وهو أن الذي خلقها هو الله، وهذا هو الأصل الذي من عقله وانتفع به انتفع بوصف الله للنار، وذكره لأهوالها وحرها

الألوسي ص٤٧٩.

(١) رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، الصنعاني ص١٢٦.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٣٨٧.

وعذابها، ومن غفل عنه فلن يقوم في قلبه خوفٌ ولا فزعٌ من النار وأهوالها وعذابها، فالخوف من النار في حقيقته خوفٌ من خالقها، وتعظيم له وتقديس؛ وذلك هو أعظم ما يطبع النفس بطابع الفزع من النار، ويلقي في أعماقها الخوف الرهيب من النار، والفرار الجاد عن مسالكها.

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن مؤكدة لتلك الحقيقة الكبرى، حقيقة أن الذي خلق النار وأعدها للظالمين هو الله، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا﴾ [النساء: ٥٦].

وغير ذلك من الآيات.

٢. سعتها.

الحديث عن سعة النار في القرآن حديث يطول، ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الآيات والأحاديث التي تبين عظمتها وعمقها واتساعها بما يتناسب مع البحث، من خلال عدة عناصر على النحو الآتي:

جهنم تطلب المزيد:

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيدٍ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعضٍ وتقول: قط قط، بعزتك وكرمك)[١].

قال ابن كثير معلقًا على هذه الآية: «يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يَأْمُرُ بمن يُأْمَرُ به إليها، ويلقى وهي تقول: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أي: هل بقي شيء تزيدوني؟»[٢].

سعة قعرها وشدة عمقها:

مما يدل على عظم جهنم وسعتها ما أخبر به رب العالمين بقوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ [القارعة: ٩].

وسميت النار هاوية؛ لأن أهلها يهوون فيها مع بعد قعرها[٣]، وهذا الوصف لجهنم يبين لنا أن هذه النار عميقة القعر لا يعرف لها قرار ولا نهاية، يهوي أهل النار فيها مهوى بعيدًا.

وقعر هذه النار يتبين لنا إذا علمنا أن الحجر إذا ألقي فيها احتاج إلى فترة زمنية طويلة حتى يصل إلى قعرها، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٤/ ٢١٨٨، رقم ٢٨٤٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٠٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٦٧.

وسلم، إذ سمع وجبةً[1]، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (تدرون ما هذا؟) قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (هذا حجرٌ رمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها)[2].

فما أعظم هذه النار التي احتاج حجر سبعين خريفًا حتى انتهى إلى قعرها!.

جهنم تجر ولا تحمل:

جهنم لعظمتها وشدة اتساعها تجر ولا تحمل، فقد بين الله عز وجل أن جهنم يؤتى بها يوم القيامة إلى أرض المحشر، فقال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾[الفجر: ٢٣].

وهذا المجيء بين لنا النبي صلى الله عليه وسلم كيفيته، فقال: (يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمامٍ سبعون ألف ملكٍ يجرونها)[3]. ثم قرأ الآية.

وإيثار (يجرونها) دون (يحملونها) أو غيره من الألفاظ، ليدل على عظم جهنم ومدى اتساعها؛ إذ من المعلوم أن الشيء كلما عظم واتسع صعب حمله فيجر.

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن للزمام الواحد سبعين ألف ملك، وهو دليل على أن الزمام الواحد متعلق بشيء عظيم يحتاج إلى آلاف من الملائكة حتى يجروه.

وإضافة إلى ما ذكر فإن من يتأمل هذه الآية يجد أنها جاءت في سياق التهويل لموقف القيامة، وتوضيح مشاهد الرعب والفزع فيه، حيث: دك الأرض، ومجيء الرب، واصطفاف الملائكة، ثم مجيء جهنم.

وهذا يوحي لنا أن مجرد حضور النار ورؤيتها لهو هولٌ من أهوال هذا الموقف، فكيف بهول السوق إليها ودخولها؟!

٣. جسر جهنم.

عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧].

قالت: قلت: فأين الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: (على جسر جهنم)[4].

فسبحان الله العظيم! إذا كان جسر جهنم

(١) الوجبة: صوت سقوط الشيء.
انظر: النهاية، ابن الأثير ٥/ ١٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم ٤/ ٢١٨٤، رقم ٢٨٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، ٤/ ٢١٨٤، رقم ٢٨٤٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤١/ ٣٤٩، رقم ٢٤٨٥٦، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الزمر، ٥/ ٣٧٢، رقم ٣٢٤١.
قال الترمذي: «هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه».
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ١٠٤.

قد اتسع لحمل الناس جميعًا، فكيف بجهنم نفسها؟!

٤. سرادقها.

وصف الله تعالى جهنم بأن لها سرادقًا، قال الله عز وجل: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

والسرادق «هو كل ما أحاط بشيء من حائطٍ، أو مضرب، أو خباء»[(١)].

وقد بين الله تعالى عظم هذا السرادق، فوصفه بأنه يحيط بأهل النار على كثرة عددهم، وضخامة حجمهم، فلا يستطيعون خروجًا ولا فرارًا.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

٥. خزنتها.

أخبر الله تعالى أن النار لعظمها تقوم عليها ملائكة وصفهم الله عز وجل بالغلظة والشدة.

قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ﴾ [التحريم: ٦].

هؤلاء الخزنة من شدتهم وغلظتهم أن قلوبهم لا تلين لكافرٍ ولا ظالم، فحين يشتد العذاب بالمجرمين في النار، ويضجون منه ينادون: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فيجيبهم مالك مقنطًا: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ ويكفي للدلالة على أن غلظتهم وشدتهم بلغت الغاية في الغلظة والشدة أن الله هو الذي وصفهم بذلك الوصف، وأنهم لا يخرجون عن طاعة الله، بل يبادرون إلى مرضاته، وامتثال أمره، فغلظتهم وشدتهم على العصاة هي في حقيقتها تنفيذ وامتثال وإذعان لله.

٦. وقودها.

إن هذه النار ليس وقودها الحطب والخشب كحال وقود نار الدنيا، وإنما وقودها الناس والحجارة، قال عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

«إنها نار فظيعة متسعرة، وقودها الناس والحجارة، الناس فيها كالحجارة سواء في مهانة الحجارة، وفي رخص الحجارة، وفي قذف الحجارة، دون اعتبارٍ ولا عناية، وما أفظعها نارًا هذه التي توقد بالحجارة! وما أشده عذابًا هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة!»[(٢)].

وهذه الحجارة التي تكون في جهنم ليست كأي حجارة، فقد ورد عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما أن المراد بالحجارة حجارة الكبريت توقد بها النار، ويقال: «إن فيها خمسة أنواع من العذاب ليس في غيرها من الحجارة: سرعة الإيقاد، ونتن الرائحة،

(١) النهاية، ابن الأثير ٢/ ٣٥٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦١٨.

وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا أحميت»[1].

وصدق النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول: (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزءٌ من سبعين جزءًا من حر جهنم) قالوا: (والله إن كانت لكافيةً يا رسول الله)، قال: (فإنها فضلت عليها بتسعةٍ وستين جزءًا، كلها مثل حرها)[2].

٧. شررها.

من أعجب ما يمكن الاستدلال به على عظم النار ما جاء وصفًا لأدق ما فيها وهو الشرر، يقول تعالى عن جهنم: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢-٣٣].

فهذا وصف الشرر الذي هو أدق النار وأصغرها، يوضح لنا ربنا صفته فيبين أنه في عظمته كالقصر، أي: «كالبناء المشيد في العظم والارتفاع»[3] وأنه في هيئته ولونه وتتابعه كـ ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ أي: «إبل سود يميل لونها إلى الصفرة»[4]، فهو إذًا ليس الشرر المتبادر ذكره، أو المستحضرة صورته في الذهن، إنه شرر عظيم، غير مألوف لنا نحن البشر، شررٌ عظيم بقدر عظمة جهنم.

٢. شدة حرها.

جاء الإخبار عن حر النار وشدته وأثره الشديد في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، فمن ذلك:

- أنها حامية: قال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤]. وفي هذا مزيد تخويف وترهيب؛ يقول ابن عاشور رحمه الله: «وصف النار بـ ﴿حَامِيَةً﴾ لإفادة تجاوز حرها المقدار المعروف؛ لأن الحمي من لوازم ماهية النار، فلما وصفت بـ ﴿حَامِيَةً﴾ كان دالًا على شدة الحمي. قال تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٦]»[5].
- أنها تلظى: قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]. أي: «تتوهج وتتوقد»[6]. فلا يخمد لهيبها، ولا تهدأ نارها.
- أنها نزاعة للشوى: قال تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٦]. وفيه تفظيع لشدة حرها، فهي «تنزع بشدة حرها جلدة الرأس وسائر أطراف البدن»[7]. قال مقاتلٌ: «تنزع النار الهامة»[8]

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٣٨١-٣٨٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٠١-٢٠٢، التخويف من النار، ابن رجب ص١٣٦.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، ٤/ ٢١٨٤، رقم ٢٨٤٣.
(٣) التفسير الميسر ص٥٨١.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٩٦.
(٦) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٣٦.
(٧) التفسير الميسر ص٥٦٩.
(٨) الهامة: أعلى الرأس، وفيه الناصية.

والأطراف، فلا تترك لحمًا ولا جلدًا إلا أحرقته»[1]. وقال الفراهي في مفرداته: «﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ واختلفوا في معناه، ولكن المعنى الكثير الوقوع في كلام العرب هو لحم الساق»[2].

- أنها: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٨]. أي: «لا تبقي لحمًا، ولا تترك عظمًا، ولا عصبًا إلا أحرقته»[3]، ثم يعود كما كان ويستأنف أهل النار العذاب.
- أنها موقدة: قال تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٦]. وهو وصف يشي بأنها نار «لا تزال تلتهب ولا يزول لهيبها»[4]. وهو وصف فيه تيئيس من فرج، أو خلاصٍ، أو راحة من العذاب.
- أنها تحرق الجسد كله حتى تصل إلى فؤاد الإنسان فتحرقه. قال تعالى: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٧]. والفؤاد أرق شيء في الإنسان وألطفه، فحين تصله النار فتحرقه يتضاعف العذاب، ويشتد الألم.
- أنها تتغيظ وتزفر حنقًا على الكافرين والمجرمين. قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].
- أنها تشهق فتزعج أهل النار وترعبهم. قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك: ٧]. وشهيقها مزعج منكر مؤذنٌ بغضبٍ شديدٍ، وعذابٍ أليم.
- أنها تغلي من شدة الحر غيظًا على الكافرين. قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٧-٨].
- النار لواحة للبشر: تحرق الجلود وتغيرها من شدة حرها. قال تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٩]. أي: «مغيرة للبشرة، مسودة للجلود، محرقة لها»[5].
- جهنم هواؤها سموم، وظلها يحموم، وماؤها حميم[6]. قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]. «فهواؤهم الذي يهب عليهم سموم، وماؤهم الذي

انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ٢٤٧.
(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٤٣.
(٢) مفردات القرآن، الفراهي ص٢٠٠.
(٣) التفسير الميسر ص ٥٧٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٤٠.
(٥) التفسير الميسر ص٥٧٦.
(٦) السموم: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن، واليحموم: دخانٌ أسود شديد السواد، والحميم: ماء متناهي الحرارة.
انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢١٣، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٢٤.

يستغيثون به حميم، مع أن الهواء والماء أبرد الأشياء، وهما -أي: السموم والحميم- من أضر الأشياء، بخلاف الهواء والماء في الدنيا، فإنهما من أنفع الأشياء، فما ظنك بنارهم التي هي عندنا أيضًا أحر؟ ولو قال: هم في نار، كنا نظن أن نارهم كنارنا؛ لأنا ما رأينا شيئًا أحر من التي رأيناها، ولا أحر من السموم، ولا أبرد من الزلال، فقال: أبرد الأشياء لهم أحرها، فكيف حالهم مع أحرها؟!»[1].

- جهنم تصهر البطون وما فيها من أحشاء وأمعاء من شدة حرها. قال عز وجل: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩-٢٠].

- جهنم تلفح الوجوه بلهيبها فتتركها عظامًا لا لحم فيها. قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٠٩ بتصرف يسير.

رابعًا: دركات النار:

١. دركات النار.

بين الله عز وجل في كتابه أن أهل النار متفاوتون في عذابهم، وأنهم ليسوا على منزلة واحدة؛ لأن النار ليست على دركة واحدة، بل هي على دركات، ويتبين هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

إذ بين الله أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، مما يعني أنها «أدراك بعضها فوق بعض، طبقة على طبقة»[2].

قال ابن فارس: «درك: الدال والراء والكاف أصل واحد، وهو لحوق الشيء بالشيء ووصوله إليه، ومن ذلك: الدرك، وهي منازل أهل النار»[3].

فدركات النار هي: منازل النار وطبقاتها التي ينزل فيها أهلها، ويلحقون بها، ولم تخرج آراء المفسرين واللغويين عن هذا المضمون[4].

وقد بين العلماء الفرق بين الدركات والدرجات:

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٢٨.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥١.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٦٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٣٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٤٤، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٢٢.

قال الضحاك: الدرج إذا كان بعضها فوق بعض، والدرك إذا كان بعضها أسفل من بعض[1].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «درجات الجنة تذهب علوًا، ودرجات النار تذهب سفلًا»[2].

وقال الراغب الأصفهاني: «الدرك كالدرج، لكن الدرج يقال اعتبارًا بالصعود، والدرك اعتبارًا بالحدور؛ ولهذا قيل: درجات الجنة، ودركات النار»[3].

وعلى ذلك: فدرجات الجنة: منازل ومراقٍ بعضها فوق بعض.

ودركات النار: منازل بعضها تحت بعض.

ويرجع هذا إلى أن الدرج في اللغة: مراتب بعضها فوق بعضٍ[4]؛ فالشيء الذي يقصد أعلاه تكون منازل الرقي إليه درجات[5].

وقد ورد في السنة الصحيحة أن درجات الجنة مائة درجة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (في الجنة مائة درجةٍ، ما بين كل درجتين مائة عام)[6].

والدرك في اللغة: أقصى قعر الشيء[7].

فالدركة: المنزلة في الهبوط، فالشيء الذي يقصد أسفله تكون منازل التدلي إليه دركات[8].

فلذلك الدركات لأسفل.

فنخلص من ذلك أن الدركات والدرجات يتفقان في أنهما منازل وطبقات.

ويختلفان في أن الدركات لأسفل، والدرجات لأعلى.

فائدة مهمة:

ورد في الاستعمال القرآني إطلاق لفظ الدرجات على منازل الجنة والنار، وذلك في ثلاث آيات من كتاب الله، في قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٦٢-١٦٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أهل الخير وأهل الشر درجات، يعني: متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة، ودركاتهم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥١.
(٢) التخويف من النار، ابن رجب ص٦٩.
(٣) المفردات، الراغب ١/ ٣١١.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٦٦.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٤٤.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، ٤/ ٦٧٤، رقم ٢٥٢٩.
قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٨١، رقم ٤٢٤٥.
(٧) لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٢٢.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٤٤.

في النار»[1].

وفي قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر»[2].

وفي قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: «أي: لكل فريقٍ من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم»[3].

وعلى ذلك فيكون المقصود بالدرجات في الآيات الثلاث: هي المنازل دون اعتبارٍ لما توصف به من ارتقاءٍ أو هبوط، فإذا أضيفت إلى أصحابها صارت درجات الجنة، ودركات النار.

أسماء الدركات وعددها وسكانها بين القرآن والسنة الصحيحة:

لم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة تسمية دركات النار ولا عددها، ولا تحديد أصناف أهل النار الذين يسكنون هذه الدركات إلا فيما ذكره القرآن عن الدرك الأسفل من النار، وبيان أن هذا الدرك منزل المنافقين، وهذا في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

ولكن ورد في السنة ما يدل على أن الدرك الأسفل فيه أشد العذاب.

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: (ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك، ويغضب لك؟ قال: (هو في ضحضاحٍ من نارٍ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)[4].

ففي هذا الحديث ما يدل على أن الدرك الأسفل فيه أشد العذاب؛ لجعله صلى الله عليه وسلم إياه ضدًا للضحضاح أو كالضد له «والضحضاح أريد به القليل من العذاب، مثل الماء الضحضاح»[5].

وقد ورد عن الضحاك بيان عدد دركات النار وأسمائها والأصناف التي تسكن هذه الدركات.

قال الضحاك: للنار سبعة أبواب، وهي سبعة أدرك بعضها على بعض، فأعلاها فيه أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم وأعمارهم في الدنيا، ثم يخرجون منها،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٢٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، ٥/ ٥٢، رقم ٣٨٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي، ١/ ١٩٤، رقم ٢٠٩.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٢٢.

وفي الثانية اليهود، وفي الثالثة النصارى، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، والسادسة فيه مشركو العرب، وفي السابعة المنافقون، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥][(١)].

وهذا التقسيم المروي عن الضحاك لم يصح عنه، كما لم يصح تسمية دركات النار على النحو الذي ذكر، والصحيح أن كل واحد من هذه الأسماء التي ذكرت: جهنم، لظى، الحطمة... إلخ، اسم علمٍ للنار كلها، وليس لجزءٍ من النار دون جزء، وصح أن الناس متفاوتون على قدر كفرهم وذنوبهم.

وهذا الترتيب الذي ذكره الضحاك وغيره يحتاج إلى إعادة نظر، فالمجوس عباد النيران ليسوا بأقل جرمًا من مشركي العرب، ومع ذلك فالمجوس في طبقةٍ أقل من العذاب، والأولى أن نسكت فيما سكتت عنه النصوص[(٢)].

وبهذا يتبين أنه لم يرد في القرآن ولا في السنة ما يبين لنا عدد دركات النار، ولا سكان هذه الدركات.

علة تخصيص الدرك الأسفل بالمنافقين:

أخبرنا القرآن أن مصير المنافقين في الدرك الأسفل من النار، أي: في أذل منازل العذاب وأسفلها؛ وذلك يرجع لأسباب:

الأول: لأن كفرهم أسوأ الكفر؛ لما حف به من الرذائل[(٣)].

الثاني: أنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وبأهله[(٤)].

الثالث: أنهم كانوا يطلعون على بعض أسرار المسلمين بما كانوا يظهرونه من الإسلام، وكانوا يخبرون الكفار بهذه الأسرار، فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين؛ فلهذه الأسباب جعل الله عذابهم أزيد من عذاب الكفار[(٥)].

خامسًا: أبواب النار:

أخبر الله عز وجل أن للنار أبوابًا سبعة.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣-٤٤].

قال ابن كثير: «أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه -أجارنا الله منها- وكلٌّ يدخل من بابٍ بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر فعله»[(٦)].

---

(١) هذا الأثر ضعيف، لأنه من طريق سلام المدائني، وهو ضعيف الحديث، كما في ميزان الاعتدال ٢/ ١٧٥.
انظر: التخويف من النار، ابن رجب ص٧٤.

(٢) الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر ص١٢٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٤٤.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥١ بتصرف.

(٥) المصدر السابق بتصرف.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٦.

وهذه الأبواب تفتح عندما يرد الكفار النار ليدخلوها.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

فإذا فتحت أبوابها ورأوا أنهم داخلوها قال لهم خزنتها موبخين: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الزمر: ٧١].

فيقرون مذعنين: ﴿بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١].

فيقال لهم بعد هذا الإقرار: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

فإذا دخلوها وقضي الأمر بأنهم ماكثون فيها تغلق هذه الأبواب عليهم، فلا مطمع لهم في الخروج منها بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ [البلد: ١٩-٢٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مؤصدة: مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب -بلغة قريش- أي: أغلقه[(١)(٢)].

هل أبواب النار تغلق في الدنيا؟

أخبرنا القرآن أن أبواب جهنم تغلق على أصحابها يوم القيامة، وأخبرتنا السنة الصحيحة أن هذه الأبواب تغلق في الدنيا عند قدوم شهر رمضان.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين)[(٣)].

أسماء أبواب النار:

أخبر القرآن أن أبواب النار سبعة، لكن القرآن لم يعين لنا أسماء هذه الأبواب، ولا بينتها السنة الصحيحة.

وقد ورد في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه أسماء هذه الأبواب السبعة، لكنه ضعيف لا يثبت[(٤)].

وقد وردت بعض الآثار عن السلف فيها تسمية هذه الأبواب السبعة، وعينت الأصناف التي تدخل من هذه الأبواب[(٥)].

(١) المصدر السابق ٨/ ٤٠٩.
(٢) الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر ص١٢٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، ٢ / ٧٥٨، رقم ١٠٧٩.
(٤) عن الخليل بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ تبارك وحم السجدة، وقال: [الحواميم سبعٌ، وأبواب جهنم سبعٌ: جهنم، والحطمة، ولظى، وسعيرٌ، وسقر، والهاوية، والجحيم، قال: تجيء كل حم منها يوم القيامة، أحسبه قال: تقف على باب من هذه الأبواب، فتقول: اللهم لا يدخل هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني].
أخرجه البيهقي في البعث والنشور ١/ ٢٦٨-٤٦١، وقال: «هذا منقطعٌ، والخليل بن مرة فيه نظرٌ»، وأخرجه البيهقي في الشعب ٤/ ١٠٥-٢٢٥٠ بدون تسمية هذه الأبواب، وقال: هكذا بلغنا بهذا الإسناد المنقطع.
(٥) ورد عن ابن عباس أنه قال: ﴿سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾

صفة أبواب النار:

لم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة ما يصف لنا أبواب النار السبعة، ولكن ورد في الآثار الواردة عن بعض الصحابة وصف هذه الأبواب:

فقد ورد عن علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه أنه قال: إن أبواب جهنم أطباق بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تملأ كلها[1].

أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٦، والدر المنثور ٥/ ٨٠. والأثر لا يصح عن ابن عباس؛ لأنه من رواية الضحاك، ورواية الضحاك عن ابن عباس منقطعة كما في الميزان ٢/ ٣٢٥، ووردت تسمية الأبواب أيضًا عن ابن جريج والأعمش، كما في الدر المنثور ٥/ ٨١-٨٢ وقولهما يحتاج إلى دليل.
وعن الضحاك في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا -وهم كفار العرب- وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى للآخرين أبدًا.
انظر: الدر المنثور ٥/ ٨٢، والأثر لا تصح نسبته إلى الضحاك؛ لأنه من رواية جويبر، وجويبر متروك الحديث كما في ميزان الاعتدال ١/ ٤٢٧.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٧.

(١) الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٨١.

ألوان العذاب في النار

أخبر القرآن الكريم عن ألوان العذاب في النار منها الطعام والشراب واللباس والسكن، وسوف نبين ذلك فيما يأتي:

أولًا: الطعام:

ذكر الله تعالى أن أهل النار يطعمون فيها طعامًا لا يشبه الطعام إلا في اسمه، ثم يفارقه بعد هذا في كل شيء، فهو لا يسمن ولا يغني من جوع، لا يزيدهم إلا ضعفًا، ولا يزدادون به إلا عذابًا وألمًا، قد خبث مذاقه، وأنتن ريحه، ولا فائدة منه.

وقد بين الله في كتابه صنوفًا من طعام أهل النار، نذكر منها:

١. الزقوم.

وهو شجرة تنبت في النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤].

قال الطبري: «وثمرتها كالرصاص أو الفضة، أو ما يذاب في النار إذا أذيب بها، فتناهت حرارته، وشدة حميته في شدة السواد»[2].

وهذه الشجرة ثمرتها قبيحٌ منظرها، كأنها في قبحها رؤوس الشياطين، قال الله عنها: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات:

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٣ باختصار وتصرف.

٦٥].

وشجرة الزقوم هي الشجرة الملعونة التي ذكرها الله بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

فالحاصل أن شجرة الزقوم لها من الصفات أقبحها وأبشعها: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

يقول الرازي: «ومآل الأقوال في الزقوم كونه في الطعم مرًا، وفي اللمس حارًا، وفي الرائحة منتنًا، وفي المنظر أسود، لا يكاد آكله يسيغه فيكره على ابتلاعه»[(١)].

وقد توعد الله بالزقوم أصحاب النار، وبين أنهم يطعمون منه حتى تمتلئ به بطونهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٣].

٢. الغسلين.

قال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٥-٣٦].

والغسلين: هو ما يسيل من صديد أهل النار، وما يخرج من لحومهم[(٢)].

«فساكن النار لا يجد له طعامًا فيها إلا ما يخرج من جلود أهل النار من الدم والصديد، وهو شيءٌ كريه المذاق كريه الرائحة، لا فائدة فيه، ولا يرجى منه إشباعًا»[(٣)].

قال قتادة عن الغسلين: هو شر طعام أهل النار[(٤)].

فطعام أهل النار طعام منتنٌ ريحه، مقززٌ تناوله، يشي بسوء الحال، وقبح المآل.

٣. الضريع.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦-٧].

والضريع: نوعٌ من الشوك لا تأكله الدواب لخبثه، وهو من شر الطعام، وأبشعه وأخبثه[(٥)].

فأهل النار إذا طلبوا الطعام جيء لهم بالضريع، وهو كالشوك، مرٌّ منتن، لا خير فيه، ولا فائدة منه، فلا يقوي بدنًا، ولا يسد رمقًا، ولا يدفع جوعًا.

قال تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤١٤ بتصرف.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٩١.

(٣) نعيم الجنة وعذاب النار، علي بن نايف الشحود ١/ ٧٣ بتصرف.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢١٧.

(٥) نعيم الجنة وعذاب النار ١/ ٧٣.

[الغاشية: ٧][1]. قال أبو الجوزاء: وكيف يسمن من كان يأكل الشوك؟![2].

ومما ذكر عن طعام أهل النار في القرآن ما ورد في قول الله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢-١٣].

أي: «طعام لا يستساغ أكله، ينشب في الحلق، فلا يدخل ولا يخرج»[3].

«والغصة عارضٌ في الحلق سببه الطعام أو الشرب الذي لا يستساغ؛ لبشاعةٍ أو يبوسةٍ»[4]. فطعام الدنيا قد يحدث غصة -أحيانًا- فيؤذي، لكن هذا الطعام تلازمه الغصة دائمًا وأبدًا، غصة تمزق حلوقهم كلما طعموه.

فهذه الآية نفت عن طعام النار كل نفع يرجى من ورائه؛ لأن «المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه، ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة»[5].

ولهذه الأنواع أوصاف، هي:

- شدة الحرارة وقبح المنظر، كما في الزقوم.
- سوء المذاق ونتن الرائحة، كما في الغسلين.
- النشوب والغصة وانعدام الفائدة، كما في الضريع.

ثانيًا: شراب أهل النار:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أربعة أنواعٍ من شراب أهل النار، وكل نوع من هذه الأنواع شديدٌ ألمه، عظيمٌ أثره، عديمٌ نفعه، طويلٌ أمده، وهذه الأنواع هي:

١. الحميم.

قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

والحميم: الماء الشديد الحرارة[6]، الذي بلغ من حرارته أنه يقطع الأمعاء ويمزقها، يشربه أهل النار رغمًا وقهرًا، لا يملكون عنه امتناعًا ولا ابتعادًا، بل يشربون منه كما تشرب الإبل العطاش التي تشرب ولا ترتوي لداءٍ أصابها.

يقول تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٥].

يقول الرازي معلقًا: «فيه بيان لزيادة العذاب، ومعناه: أي: لا يكون أمركم أمر من شرب ماءً حارًا منتنًا فيمسك عنه، بل يلزمكم أن تشربوا منه مثل ما تشرب الهيم،

(١) صفة النار في القرآن والسنة ١/ ١٣٩ بتصرف.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٤٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٦.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٧١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٢١.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٤.

وهي الجمال التي أصابها العطش فتشرب ولا ترتوي»[1].

وهذا الحميم من شدته وعظمته أفرد كأنه عذاب وحده، يرد عليه أهل النار بعد تعذيبهم في جهنم.

يقول تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤].

والمعنى: «يمشون بين مكان النار وبين الحميم، فإذا أصابهم حر النار طلبوا التبرد، فلاح لهم الماء فذهبوا إليه، فأصابهم حره فانصرفوا إلى النار، وهكذا يكون عذابهم بهذه الصورة الفظيعة»[2].

وتتأكد شدة هذا الحميم وعظم ما فيه من العذاب حين نعلم أنه ينبع من عينٍ شديدة الحرارة والغليان، قال تعالى في سورة الغاشية عن الوجوه الخاشعة: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥].

أي: «قد انتهى حرها وغليانها»[3].

وكل هذا يدلنا على قبح هذا النوع من الشراب وشدة عذابه وألمه عافانا الله منه.

٢. الغساق.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

والغساق: هو ما يسيل من جلد الكافر ولحمه، وقيل: الزمهرير البارد لا يستطيعون أن يذوقوه من شدة برده[4].

وقد جمع الحافظ ابن كثير بين المعنيين بقوله: «الغساق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه»[5].

وقد بين الله عز وجل في كتابه أن أهل النار يستبدلون بالشراب الطيب والنسيم البارد حميمًا وغساقًا؛ جزاء لهم على أعمالهم.

قال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤-٢٥].

وعلى ما ذكر من أن الغساق بارد لا يستطاع من برده نجد أن الله قد جمع عليهم عذاب الحر الشديد بالحميم، وعذاب البرد الشديد بالغساق، «فالحميم يحرق بحره، والغساق يحرق ببرده»[6].

٣. الصديد.

قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧].

والصديد: «هو ما يسيل من الدمل

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤١٥ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٦٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٨٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٢٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٠٧.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٠١.

والجروح من القيح»[1]. وهذا الماء يكون في نفسه صديدًا؛ لأن كراهته تصد عن تناوله[2].

وقد اشتملت هذه الآية على بيان قبح هذا الشراب وشدة إيذائه بوجوه بليغة، منها[3]:

- أنه جعل الصديد ماء على التشبيه البليغ في الإسقاء؛ لأن شأن الماء أن يسقى، والمعنى: ويسقى صديدًا عوض الماء إن طلب الإسقاء.
- أنه عطف جملة ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ على جملة ﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ لأن السقي من الصديد شيء زائد على نار جهنم، فإسقاؤه من ماء الصديد عذاب فوق دخوله النار.
- أن هذا الصديد يسقاه بعنف فيتجرعه غصبًا وكرهًا، وأنه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يقارب أن يسيغه فضلًا عن أن يسيغه بالفعل لقذارته ومرارته، والتقزز والتكره باديان، نكاد نلمحهما من خلال الكلمات.

٤. ماء كالمهل.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩].

والمهل هو عكر الزيت المغلي شديد الحرارة، وتشبيه هذا الماء بالمهل في سواد اللون وشدة الحرارة، فلا يزيدهم إلا حرارة[4]. فهو كالمهل في سواده ونتنه وغلظته وحرارته[5].

وقد بينت الآية من آثار هذا الشراب أنه يشوي الوجوه شيًا والتعبير بالوجه؛ لأنه «أشد الأعضاء تألمًا من حر النار.

قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]»[6].

وإذا كان يشوي الوجوه عند الاقتراب منه «فكيف بالحلوق والبطون التي تتجرعه؟!»[7].

ومما يجلي لنا أثر هذا الماء في أهل النار ما ذكره سعيد بن جبير قال: «إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن مارًا مر بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود»[8].

(١) المفردات، الراغب ص٤٧٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٧٩-٨٠ بتصرف.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢١١، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٩٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٦٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٥.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٩.
(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٦٩.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٥.

كما حكم الله على هذا الشراب بأنه ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩].

فيا لله ما أقبح هذا الشراب! وما أقبح وصفه ونعته! وهل هناك شراب أقبح من شرابٍ وصفه الله بالقبح والسوء؟!

وذكر لهذه الأنواع من الشراب أوصافًا، وهي:

- شدة الحرارة.
- نتن الرائحة وشدة البرودة.
- سواد اللون.

ثالثًا: اللباس:

مما ذكره الله تعالى في القرآن من ألوان العذاب للكفار والمجرمين في النار اللباس، حيث بين تعالى أنه أعد للمعذبين في النار لباسًا، هذا اللباس لا يقيهم بردًا ولا حرًا، وإنما لباسٌ يحرق أبدانهم، ويأكل جلودهم، ويذيب لحومهم.

وقد جاء الإخبار عن هذا اللباس في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: فصلت لهم مقطعات من نار، قال سعيد بن جبير: من نحاس، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي»[1].

وكان إبراهيم التيمي يقول: «﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ سبحان من قطع من النيران ثيابًا»[2].

وقد جاء في الحديث أن أول من يكسى من حلل النار إبليس، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أول من يكسى حلةً من النار إبليس فيضعها على حاجبه، ويسحبها وهو يقول: يا ثبوراه، وذريته خلفه، وهم يقولون: يا ثبورهم، حتى يقف على النار، ويقول: يا ثبوراه، ويقولون: يا ثبورهم، فيقال: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤])[3].

وجاء بيان مادة هذا اللباس في قوله تعالى: «﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران[4]، وهو الذي تطلى به الإبل، وهو ألصق شيء بالنار...»[5].

وقد جعل ثيابهم من قطران؛ لأنه «شديد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٠٦.

(٢) البعث والنشور، البيهقي ص٢٩٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢١/ ٢١٩، رقم ١٣٦٠٣.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٣/ ٢٨٠، رقم ١١٤٣.

(٤) القطران: مادة سائلة تطلى بها الإبل الجرباء، وهو ألصق شيء بالنار.
انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٥٦، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٠٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢٢.

الحرارة يؤلم الجلد الواقع عليه»[1]؛ ولأن «النار إذا لفحته قوي اشتعالها»[2].

والقطران تجتمع فيه صفات أربع: أنه يحرق الجلد؛ ولذا تطلى به الإبل الجرب، وأنه يسرع فيه اشتعال النار، وأنه أسود اللون، منتن الريح، فإذا طليت به جلود أهل النار عاد طلاؤه لهم كالسرابيل -وهي القمص-؛ لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح[3].

«فمشهد المجرمين اثنين اثنين مقرونين في الوثاق، يمرون صفًا وراء صف، مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار، ويضاف إلى قرنهم في الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادةٍ شديدة القابلية للالتهاب، وهي في ذات الوقت قذرة سوداء من قطران، ففيها الذل والتحقير، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار»[4].

رابعًا: سكن أهل النار:

النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين والمجرمين، فهي سكنهم ومستقرهم، وهي مأواهم الذي لا مأوى لهم سواها، ولا مولى لهم إياها، جعلها الله سجنًا لهم، لا يجدون لهم منه مفرًا ولا مخرجًا.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٨].

وقال: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وقال أيضًا: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

وقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

وإذا كان السكن غايته تحصيل معاني الطمأنينة والسكينة والراحة، فإن سكن أهل النار ليس فيه شيء من ذلك ألبتة، ففيه يعذبون أشد العذاب، ويلاقون من أنواع المهانة والصغار ما تعجز عن وصفه أكثر أقلام الكاتبين تشاؤمًا، فهو سكنٌ لا راحة فيه، ولا نوم فيه، طعامهم فيه عذاب، وشرابهم فيه عذاب، وثيابهم فيه عذاب، وفرشهم فيه عذاب. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٦].

ويمكننا أن نستخرج من آيات القرآن أهم صفات هذا المسكن من خلال ما يأتي:

١. محيطة بساكنيها.

لما كانت جهنم سجنًا لساكنيها فقد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٥٣ بتصرف.
(٢) غريب الحديث، ابن الجوزي ٢/ ٢٥٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٦٧.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢١١٣.

جعلها الله محيطة بهم إحاطة السوار بالمعصم.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

والمراد من ضرب هذا السرادق «ألا يكون لهم مخلص منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر إلى ما وراءها من غير النار، بل هي محيطةٌ بهم من كل الجوانب»[(١)].

فلا فرجة لهم ينظرون منها إلى ما وراءها من غير النار، ولا هي تطال أحدًا غيرهم، فقد اجتمع عذابها بكامل لهبها ودخانها وشررها عليهم، لا يضيع منه شيء في هواء أو فضاء؛ لأنها محيطة بهم، مغلقة عليهم.

٢. ضيقة على سكانها.

جهنم مسكن لمن قدر الله عليه أن يكون من أهلها، وهذا المسكن على سعته واتساعه إلا أنهم فيها في ضيق، ضيقٌ يحيط بأبدانهم زيادة على الضيق الذي يملأ صدورهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

وقد ذكر بعض العلماء في قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهمزة: ٨-٩].

أن العمد بمعنى القصبة المجوفة تضيق عليهم[(٢)].

وإذا كان من «جمع في مكانٍ يجمع بين ضيق المكان وتزاحم السكان، وتقرينهم بالسلاسل والأغلال»[(٣)]، فهل بعد هذا عذاب؟!

٣. مغلقة على سكانها.

أهل النار مقيمون فيها إقامة جبرية لا خيار لهم في الخروج منها إلى غيرها؛ لأنها مغلقة عليهم، فلا يجدون سبيلًا للخروج، ولا طريقًا للخلاص.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾ [الهمزة: ٨]. ومعناه: مطبقة أو مغلقة[(٤)].

و«معنى إيصادها عليهم: ملازمة العذاب واليأس من الإفلات منه، كحال المساجين الذين أغلق عليهم باب السجن»[(٥)].

وبهذا يسد عليهم كل طريقٍ للفرار إلا طريقًا واحدًا وهو الفرار إلى وادٍ من الحميم.

قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٤].

يقول ابن عاشور رحمه الله: «يمشون بين مكان النار وبين الحميم، فإذا أصابهم حر النار طلبوا التبرد، فلاح لهم الماء، فذهبوا إليه فأصابهم حره، فانصرفوا إلى النار دواليك»[(٦)]. ففرارهم من عذابٍ إلى عذاب.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٥٩.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٠٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٩.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٥٢٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٤١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٦٤.

سبل الوقاية من النار

بين القرآن الكريم سبل الوقاية من النار حتى يسلكها العبد للنجاة من النار وعذابها، وسوف نتناولها بالبيان فيم يأتي:

أولًا: توحيد الله:

التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وتنزيهه عن كل ند وشريك ومثيل، وهو أشرف المقامات وأعلاها على الإطلاق، وهو رأس الأمر، وأصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينًا غيره، ولأجله أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهو أعظم حقٍ لله تعالى على عبيده، ففي الصحيحين من حديث معاذٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا)[(١)].

ولما كان توحيد الرب جل جلاله بهذه القيمة وذاك الشرف كان -لا شك- أعظم أسباب النجاة من النار، ويتبين ذلك من خلال ما يأتي:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك، ٨/ ٦٠، رقم ٦٢٦٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان، ١/ ٥٨، رقم ٣٠.

١. التوحيد مفتاح المغفرة.

باب مغفرة الذنوب والطمع في تجاوز الله عنها مفتاحه واحد هو توحيد الله، ولا يغلق هذا الباب إلا بقفل واحد هو بالموت على الشرك، وقد جاء بيان هذه الحقيقة في القرآن في كثير من الآيات، أظهرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

«فالمشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وفي الحديث القدسي قال رب العزة: (ومن لقيني بقراب الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرةً)»[(٢)].

٢. التوحيد مفتاح دخول الجنة.

إذا كان التوحيد مفتاح المغفرة فلازم ذلك أنه مفتاح الجنة، فالجنة مفتوحة أبوابها للموحدين مهما كثرت ذنوبهم، مغلقة

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب فضل الذكر والدعاء والتوبة، ٤/ ٢٠٦٨، رقم ٢٦٨٧.

أبوابها أمام المشركين مهما كثرت فضائلهم، فالجنة محرمة عليهم؛ لأنهم اخترقوا حرمة التوحيد، وتنكروا لنعم الله وأفضاله عليهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: (من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار)[١].

فالتوحيد من أعظم الأمور التي تكفل له النجاة يوم أن يلقى خالقه، ويقبل على ربه ومولاه، وقد أمر الله كل من يرجو لقاءه ويخاف عقابه بالتخلص من الشرك قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

يقول ابن عاشور: «المعنى: يوحي الله إلي توحيد الإله، وانحصار وصفه في صفة الوحدانية دون المشاركة، وتفريع ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠].

هو من جملة الموحى به إليه، أي يوحى إلي بوحدانية الإله، وبإثبات البعث، وبالأعمال الصالحة، فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة؛ إذ جعل التوحيد أصلًا لها، وفرع عليه الأصلان الآخران، وأكد الإخبار بالوحدانية بالنهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى»[٢].

وهكذا يظهر ما للتوحيد من أثرٍ عظيم في نجاة العبد يوم القيامة، ووقايته من الجحيم.

٣. التوحيد سبب الأمن في الدنيا والآخرة.

الآخرة فيها أهوال جسام وشدائد عظام يشيب من هولها الولدان، والناس فيها سيكونون في فزع عظيم، ورعب شديد.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

وتوحيد الرب جل وعلا ونفي الشريك عنه من أعظم ما ينجي العبد ويؤمنه في الدنيا قبل الآخرة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، أي: «لم يخلطوا إيمانهم بشرك»[٣].

﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾، أي: «الأمن من عذاب الدنيا بالاستئصال ونحوه، ومن عذاب الآخرة»[٤].

فلا أمن ولا أمان من النار إلا لمن وحد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات مشركًا دخل النار، ١/ ٩٤، رقم ١٥٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٩.

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٨٣.

(٤) التحرير والتنوير ٧/ ٣٣٣.

ربه وأفرده وأخلص له عمله، وكلما كان العبد أكثر تحققًا بمقام التوحيد كان أكثر أمانًا يوم القيامة ولا شك.

ولما كان التوحيد هو سبب الأمن كان الشرك على نقيضه، يقول جل جلاله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

«هذه هي صورة من تزل قدماه عن أفق التوحيد، فيهوي إلى درك الشرك، فإذا هو ضائع ذاهب بددًا، كأن لم يكن من قبل أبدًا، إنه الهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء؛ إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح، وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه»[1].

وهكذا يظهر أن التوحيد هو أعظم أسباب الوقاية من النيران، جعلنا الله من أهل توحيده وطاعته.

ثانيًا: اتباع الرسل:

اتباع الرسل وطاعتهم من أعظم أسباب نجاة العبد من النيران وإسكانه الجنان؛ ولذا حض الله في القرآن على لزوم طاعة الأنبياء والرسل، وبين أنه من أعظم أسباب النجاة في الآخرة.

قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢].

فالإيمان بالله تعالى وبرسله واتباعهم، وعدم التفريق بين أحد منهم في أصل الإيمان بهم، يوجب أجرًا عظيمًا بقدر عظمة الواعد سبحانه.

ولاشك أن الإيمان بالرسل عامة واجب لا ينجو الإنسان يوم القيامة إلا بتحقيقه، وقد دلت الآيات الكثيرة على ذلك -كما سبق بيانه- غير أنه من الضروري أن ننبه على أهمية الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم خاصة؛ لأنه خاتم الأنبياء، وتكذيبه يعني: تكذيب كل الأنبياء والمرسلين، ومن كفر به وبما جاء به فقد بين الله تعالى في غير آية أنه من أهل النار، كما بين سبحانه أن طاعته تورث صاحبها جنات النعيم.

وقد اتخذت صور الإثابة المترتبة على طاعة النبي صلى الله عليه وسلم صورًا عدة، منها:

١. الوعد بالخلود في الجنة.

الخلود في الجنة لاشك من أرفع ما تشرئب إليه الأعناق، ومنتهى ما تصل إليه

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٢١-٢٤٢٢ بتصرف.

الهمم، وقد وعدها الله من اتبع الرسول وأطاعه.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

«فهذا الجزاء الحسن قد أعده الله تعالى لمن أطاعه وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم الذي حمل إليه ما أمر الله به وما نهى عنه، إنه جنات تجرى من تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإنه الخلود في هذه الجنات والعيش الدائم في نعيمها»[1].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

فهذه الجنة العظيمة، الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض، أعدها الله لمن آمن واتبع الرسل ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وتأمل كيف أنه خص جل جلاله العرض بالذكر؛ «ليكون أبلغ في الدلالة على فرط اتساع طول الجنة؛ لأنه إذا كان عرضها كعرض السماء والأرض فإن العقل يذهب كل مذهب في تصور طولها، فقد جرت العادة أن يكون الطول أكبر من العرض»[2].

فالإيمان بالرسل واتباعهم وطاعتهم إذًا من أعظم ما ينجي العبد يوم القيامة من النار، ويجعله من سكان جنة الأبرار.

٢. صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

صحبة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين من أعظم الأمور التي قد يتطلع إليها الإنسان، فهي صحبة لأعظم ركب ميمون، ولأجل موكب ظهر في هذا الوجود، وهذه الصحبة الكريمة جعلها الله لمن أطاع النبي صلى الله عليه وسلم، وتقفى خطاه.

يقول تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فأنعم به من جزاء! فهل هناك صحبة أعظم من هذه الصحبة؟ بل إن صحبة الفريق الواحد من أعظم ما يبهج النفوس، ويشرح الصدور، فكيف بالمجموع؟!

٣. غفران الذنوب والوقاية من العذاب.

وهذا من الخير العظيم والبركة الكبيرة لطاعة النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه.

يقول تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/ ٧١٥.

(٢) المصدر السابق ٢٩/ ٢٠٥.

﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

فقد بينت هذه الآية الكريمة أن إجابة النبي صلى الله عليه وسلم وطاعة أمره، وتلبية دعوته، مما تغفر به الذنوب، ومما يجير العبد من عذاب الله، وهذا من الخير العظيم، فإنه متى «أجارهم من العذاب الأليم، فما ثم بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله»[(١)].

فطاعة الرسول إذًا سبيل الوقاية من النيران، ونيل السعادة في الدنيا والآخرة.

وكما أن طاعة الرسول خلفها خير عظيم فإن عصيانه والكفر به يهلك العبد، ويجعله من أهل النار، وقد جاءت العديد من الآيات التي تحذر من مغبة الكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم، أو تكذيبه وعدم اتباعه.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وهذه الآية تبين مغبة عصيان النبي صلى الله عليه وسلم، وأنها مع عصيان الله تدخل صاحبها النار، وتورثه العذاب الأليم فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨].

فهذه الآية تبين حسرة من أعرض وخسرانه عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم لما عاين أهوال القيامة، وأنه يتمنى ساعتها أن لو عاد إلى الدنيا؛ ليتخذ مع الرسول سبيلًا «فهي حالة تكشف عن سبب الحسرة التي تملأ قلب الظالم في هذا اليوم، وهو أنه قد كان على طريق مخالف لطريق النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه دعي إلى الإيمان فأبى، ولم يتخذ مع الرسول سبيلًا، بل اتخذ سبيله مع الضالين والظالمين من أمثاله الذين أغووه وأغواهم، فكانوا حزبًا على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وهذا ما يشير إليه قوله جل جلاله على لسان هذا الظالم: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾»[(٢)].

وقال سبحانه أيضًا مبينًا ما يتمناه أهل النار وهم يعذبون فيها: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦].

«إنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول لكنها أمنية ضائعة، لا موضع لها ولا استجابة، فقد فات الأوان، وإنما هي الحسرة على ما كان»[(٣)].

فهذه الآيات وغيرها تبين جميعًا سوء عاقبة من كذب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يؤمن به، ولم يتبعه فيما أمر به ونهى

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٨٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ١٠/ ١١ بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٨٣ بتصرف.

عنه، فكان مرده إلى خسران مبين كما أوضحت الآيات الكريمات.

ولما كانت طاعة الرسل وحسن اتباعهم سبيل عظيم للوقاية من النيران، كان تكذيبهم من أكثر ما يورد الإنسان النار، ولقد توعد الله المكذبين للرسل بعقوبات أخروية.

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٠-٧٤].

ففي هذه الآيات بين سبحانه العاقبة الوخيمة لمن كذب بالكتاب وكذب الرسل، وتأمل كيف أن الله قال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ففي «هذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ من الرب -جل جلاله- لهؤلاء»[1].

والمعنى: أنهم سوف يعلمون «سوء عاقبة تكذيبهم لأنبياء الله تعالى، ولكتبه التي أنزلها عليهم»[2].

وشرعت الآيات بعد ذلك في بيان عاقبتهم وكيف أنها إلى جهنم، حيث تجعل السلاسل في أعناقهم وأرجلهم، ويسحبون في الحميم، أي: «الماء الذي اشتد غليانه وحره»[3]. ومما يظهر شدة إهانتهم وإذلالهم ذكر الآيات أنهم يسجرون في النار، أي: «يوقد عليهم اللهب العظيم، فيصلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم، ويقال لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [غافر: ٧٣]»[4] إنها -كما يقول صاحب الظلال-: «الإهانة والتحقير في العذاب، لا مجرد العذاب»[5].

وهكذا تظهر شؤم عاقبة التكذيب بالرسل، وأنها سبب العذاب والخزي في الدنيا والآخرة.

٤. فعل الخيرات وترك المنكرات.

فعل الخيرات والإكثار من الصالحات من أكثر الأمور التي تقي العبد من النيران، وأما اقتراف المنكرات والسيئات فمن أكثر ما يزج به في السعير.

قال تعالى مرغبًا في فعل الخير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وقال جل جلاله آمرًا بالاحتراز من بعض المنكرات: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقد ذكر عز وجل في كتابه الكثير من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٥٧.
(٢) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٢/ ٣١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٢.
(٤) المصدر السابق.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٩٦.

الخيرات، ورغب في فعلها؛ لتقود العبد إلى جنة ربه، كما ذكر العديد من المنكرات وحذر منها؛ لأنها تقود العبد إلى النار.

وفيما يلي إشارة إلى بعض هذه المنكرات وتلك الخيرات دون استقصاء لها؛ لأن استقصاءها يطول، ويخرجنا عن المقصود، وإنما هي شارات على منارات.

٥. خيرات وصالحات ينبغي الإكثار منها.

إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل ونصرتهم، والتصدق.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ «وعد عظيم، فمن كان الله معه فلا شيء إذن ضده، ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود -في الحقيقة- له ولا أثر، ومن كان الله معه فلن يضل طريقه، فإن معية الله جل جلاله تهديه كما أنها تكفيه، وعلى الجملة فمن كان الله معه فقد ضمن وقد وصل، وما له زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم.

ولكن الله جل جلاله لم يجعل معيته جزافًا ولا محاباة ولا كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها عنده، إنما هو عقد، فيه شرط وجزاء، شرطه: إقامة الصلاة، لا مجرد أداء الصلاة، إقامتها على أصولها التي تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب، وعنصرًا تهذيبيًا وتربويًا وفق المنهج الرباني القويم، وناهيًا عن الفحشاء والمنكر، حياء من الوقوف بين يدي الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر.

وإيتاء الزكاة اعترافًا بنعمة الله في الرزق وملكيته ابتداء للمال، وطاعة له في التصرف في هذا المال وفق شرطه، وهو المالك والناس في المال وكلاء.

والإيمان برسل الله كلهم دون تفرقة بينهم، فكلهم جاء من عند الله، وكلهم جاء بدين الله، وعدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعًا، وكفر بالله الذي بعث بهم جميعًا.

وليس هو مجرد الإيمان السلبي إنما هو العمل الإيجابي في نصرة هؤلاء الرسل، وشد أزرهم فيما ندبهم الله له، وفيما وقفوا حياتهم كلها لأدائه، فالإيمان بدين الله من مقتضاه أن ينهض المؤمن لينصر ما آمن به، وليقيمه في الأرض، وليحققه في حياة الناس.

وبعد الزكاة إنفاق عام يقول عنه الله

تعالى إنه قرض لله، والله هو المالك وهو الواهب، ولكنه فضلًا منه ومنة يسمي ما ينفقه الموهوب له -متى أنفقه لله- قرضًا لله.

ذلك كان الشرط، فأما الجزاء: تكفير السيئات، والإنسان الذي لا يني[1] يخطئ، تكفير السيئات بالنسبة إليه جزاء ضخم، ورحمة من الله واسعة، وتدارك لضعفه وعجزه وتقصيره.

وجنة تجري من تحتها الأنهار، وهي فضل خالص من الله، لا يبلغه الإنسان بعمله، إنما يبلغه بفضل من الله، حين يبذل الجهد، فيما يملك وفيما يطيق»[2].

٦. تحقيق الولاء والبراء.

الولاء والبراء من أعظم الأعمال وأجلها، وهو الرابطة التي يجتمع عليها المسلمون في شتى البقاع والأنحاء، وهو من لوازم الإيمان بالله ورسوله، بل ما يكون العبد خالص الإيمان بالله ورسوله حتى يوالي في الله، ويعادي في الله، ويحب في الله، ويبغض في الله، ويعطي لله، ويمنع لله.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة إلا كان عاملًا على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، أي: رسمه وثبته وغرسه غرسًا لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي: بوحيه ومعونته ومدده الإلهي، وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار التي فيها من كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين

(١) الونى: الفترة في الأعمال والأمور والتواني، تقول: فلانٌ لا يني في أمره، أي: لا يفتر ولا يعجز.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٣٩٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٨٥٧-٨٥٨ باختصار.

وتختار[1].

«وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو مع ذلك موادٌ لأعداء الله، محبٌ لمن ترك الإيمان وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئًا، ولا يصدق صاحبها»[2].

فتأمل -رحمك الله- كيف جمع لهم هذا العمل هذه الجزاءات العظيمة: كتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروحٍ منه، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، فما أعظمه من عمل وما أجله!

أسباب دخول النار

من خلال النظر في مواضع ورود النار في القرآن، وتتبع أسمائها وأوصافها تبين أن هناك العديد من المعاصي التي تكون سببًا في دخولها، منها:

أولًا: الكفر والشرك:

الكفر والشرك أعظم الأسباب التي تورد الإنسان الخلود في الجحيم، وقد جاءت العديد من الآيات في القرآن التي تحدثت عن سوء عاقبة الكفر، وشناعة مصير المشركين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٦].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وتأمل كيف «وقع الإخبار عن نار جهنم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٨.
(٢) المصدر السابق.

بأنها ﴿لَهُمْ﴾ بلام الاستحقاق؛ للدلالة على أنها أعدت لجزاء أعمالهم»[1]. جهنم بما فيها أعدت لتكون جزاء لكفرهم، فما أخبثها من عاقبة! وما أبشعها من نهاية!

وبين سبحانه أن الكفار والمشركين في نار جهنم خالدين، وأنهم شر البرية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

كما أخبر سبحانه أن المشرك يحرم الجنة، وأن مأواه النار، وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

فالمشرك بالله شركًا أكبر مقطوع بحرمانه من الجنة، وخلوده في النار أبدًا؛ إذ قضى الله عز وجل بجواز غفرانه كل الذنوب إلا الشرك، فإنه لا يغفره أبدًا، قال جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٨].

ثانيًا: النفاق:

من أكثر أسباب الهلاك التي تورد صاحبها النار؛ ليذوق فيها أشد ألوان الهوان وأخبثها -النفاق.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

هذا هو الجزاء الذي أعده الله لأهل النفاق والكفر، نار جهنم خالدين فيها، لا يتحولون عنها أبدًا، هي حسبهم، أي: هي كل ما لهم عند الله، لا شيء لهم غيرها، ثم من وراء جهنم وعذابها، لعنة الله القائمة عليهم، وعذاب مقيم لا يفتر عنهم، وهم فيه مبلسون[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

«إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب، فلا ينطلقون ولا يرتفعون، ثقلة المطامع والرغائب، والحرص والحذر، والضعف والخور. الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين، ومداراة المؤمنين، والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهين، مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين، في الدرك الأسفل من النار»[3]. «وتأكيد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ لإفادة أنه لا محيص لهم عنه، وإنما كان المنافقون في

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣١٧.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٨٣٨-٨٣٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٨٥.

الدرك الأسفل، أي: في أذل منازل العذاب؛ لأن كفرهم أسوأ الكفر لما حف به من الرذائل»[1].

ثالثًا: أكل الربا:

أكل الربا من أعظم الذنوب التي توبق صاحبها وترديه، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فمع محق أموال المرابين وسحقها توعدهم ربهم يوم القيامة بهذه الحال العجيبة.

قال تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ﴾ التي هي أشبه ما يكون بحال المجانين، ثم هم من الخالدين في جهنم، عياذًا بالله.

رابعًا: أكل أموال اليتامى:

من الأسباب التي تجعل المرء وقودًا لجهنم أكل أموال اليتامى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ الْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

«وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر»[2].

إن مال اليتيم هو نارٌ تحرق كل من يمد إليه يدًا خائنة، أو يدسه في بطنٍ شرهةٍ، فمن أكل منه احترق به في الدنيا، وصلى به عذاب جهنم في الآخرة[3].

خامسًا: أكل أموال الناس بالباطل:

أكل أموال الناس بالباطل من أعظم الذنوب وأخطرها، وهو ذنب يأخذ بناصية صاحبه إلى النار وبئس القرار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩ - ٣٠].

قال ابن كثير: «أي: ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعديًا فيه ظالمًا في تعاطيه، أي: عالمًا بتحريمه، متجاسرًا على انتهاكه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٤٤ بتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٦٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٧٠٨.

فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد»[1].

سادسًا: قتل المؤمن عمدًا:

قتل المؤمن بغير حق من أقبح الجرائم وأفحشها؛ لأنها ليست مجرد جريمة قتل لنفس بغير حق «ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم، إنها تنكر للإيمان ذاته، وللعقيدة نفسها»[2].

ولذا توعد الله مرتكبها بعقاب أليم، قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ولجرم هذه الفعلة وشناعتها رتب الله عليها جزاءات قلما جمعها في فعلة غيرها في آية واحدة، فقد توعد الله قاتل المؤمن بالخلود في جهنم، وبالغضب عليه، وباللعن له، وبالعذاب العظيم.

«وعلى قدر ما كانت رحمة الله وعفوه عن القاتل خطأ، بقدر ما كانت نقمة الله وغضبه ولعنته على القاتل عمدًا؛ ولهذا كان إهلاك هذه النفس المجرمة والقصاص منها في الدنيا هو الحكم الذي يؤخذ به قاتل النفس المؤمنة عمدًا، وإنه لا وجه لاستبقائه في هذه الحياة، ولا داعية لاستصلاحه، فقد وقع عليه غضب الله ولعنته، منذ أول قطرة دم سفكها من دم هذا المؤمن البريء ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢]»[3].

سابعًا: التولي يوم الزحف:

والتولي يوم الزحف من أكبر الكبائر التي تزج بصاحبها في جهنم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

والتولي يوم الزحف يستحق هذا التشديد؛ «لضخامة آثاره الحركية من ناحية، ولمساسه بأصل الاعتقاد من ناحية، إن قلب المؤمن ينبغي أن يكون راسخًا ثابتًا لا تهزمه في الأرض قوة، وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة -وهو يواجه الخطر- فإن هذه الهزة لا يجوز أن تبلغ أن تكون هزيمة وفرارًا، والآجال بيد الله، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفًا على الحياة»[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٠-٢٧١.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٣٦.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٨٦٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٨٩-١٤٩٠.

و«في التعبير عن الصد عن العدو والفرار منه بتولية الدبر، تشنيعٌ على من يأتي هذا الفعل وفضحٌ له؛ إذ كان كأنما يكشف سوأته لعدوه أو يعطيه دبره»[(١)].

ثامنًا: الركون إلى الظالمين:

حذر الله جل جلاله من موالاة الظالمين أو الركون إليهم، وبين سبحانه أن من فعل هذا يعرض نفسه لمس النار، قال عز وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وذلك لأن الركون إليهم يعني: إقرارهم على ما هم عليه من الباطل والمنكر، وهذا مما يعرض العبد للفحات جهنم، كما بينت الآية الكريمة، «وأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون»[(٢)].

تاسعًا: عدم النهوض بالتكاليف الشرعية:

وهذا ما بينه تعالى في حوار بين أهل الجنة وأهل النار، حين يسأل أهل الجنة أهل النار عن أسباب صليهم الجحيم.

قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٧].

وهذا الحوار يبين «أن الذي سلكهم في سقر هو أنهم لم يكونوا من المصلين، أي: لم يكونوا مؤمنين؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين لكانوا من المصلين، وأنهم لم يكونوا يؤدون حق عباد الله فيما خولهم الله من نعم، فلم يطعموا المساكين، ولم يخرجوا زكاة أموالهم التي منها يطعم المسكين، وأنهم يخوضون مع الخائضين، فلم يتأثموا من منكر، ولم يتحرجوا من فاحشة، بل كانوا مع كل جماعة ضالة، وعلى كل مورد آثم، وأنهم كانوا يكذبون بيوم الدين، أي: يوم القيامة، فلم يؤمنوا بالبعث والحساب والجزاء»[(٣)].

هذه جملة من الأسباب التي تورد الإنسان الهاوية، وتنتهي بصاحبها في السعير، وبئس المصير، وبما أنها كذلك فإن الحذر منها والبعد عنها يحفظ الإنسان من النيران، ويقيه شرها، فالله توعد الكفرة والمشركين بالجحيم -كما سبق- ولكنه أيضًا وعد المؤمنين بالجنان، والخير العظيم، قال عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

(١) التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٥٨١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٠٧.
(٣) التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١٣٠٤.

[التوبة: ٧٢].

وتوعد المكدسين للأموال والمانعين حق الله فيها بالسعير، ولكنه وعد المنفقين المتصدقين بالخير العميم: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وهكذا.. فكل ما هو سبب لدخول الجحيم فالبعد عنه يقرب من الجنان والنعيم.

موضوعات ذات صلة:

الثواب، الجزاء، الجنة، الحساب، القبر

النَّاسُ

عناصر الموضوع

مفهوم الناس	٢١٢
الناس في الاستعمال القرآني	٢١٣
الألفاظ ذات الصلة	٢١٤
تسمية سورة من القرآن باسم الناس	٢١٧
الغاية من خلق الناس	٢١٩
فضل الله تعالى على الناس	٢٢٢
أصناف الناس	٢٢٨
صفات الناس	٢٣٢
حال أكثر الناس	٢٣٦
اتباع الناس	٢٤١
نداءات الله تعالى للناس	٢٤٤
الناس والجن	٢٤٩

المجلد الثاني والثلاثون

مفهوم الناس

أولًا: المعنى اللغوي

الناس من نوس، النون والواو والسين أصلٌ يدل على اضطرابٍ وتذبذب، وناسَ الشيءَ: تذبذب، ينوس، ويقولون: نُسْتُ الإبلَ: سُقْتُها[1]، النوس والنوسان: التذبذب، والناس يكون من الإنس ومن الجن، جمع إنسٍ، أصله أناسٌ جمعٌ عزيزٌ أُدْخِل عليه أل. وناسَ الإبلَ: ساقها، وأناسَه: حَرَّكه، ونَوَّسَ بالمكان تنويسًا: أقام، والـمنوس من التمر: ما اسود طرفه[2].

ومما سبق يتبين أن كلمة الناس يدور معناها على الاضطراب، والحركة والتذبذب والإقامة، والسوق.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

قال الراغب: «والناس قد يُذَكَّرُ ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم الناس تجوزا »، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية وهو وجود الفضل والذكر وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصة به[3].

وقال أبو هلال العسكري: «هم الإنس خاصة وهم جماعة لا واحد لها من لفظها »[4].

وقال الطاهر بن عاشور: «الناس اسم جمع للبشر»[5].

قال الشيخ الشعراوي: «هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة»[6].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٦٩، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٤٥.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٧٤٧.
(٣) المفردات ١/ ٤٢٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ١٥٢٣.
(٤) الفروق اللغوية ص٥٢٧.
(٥) التحرير والتنوير ١١/ ١٢٧.
(٦) تفسير الشعراوي ١/ ٣٨١٦.

الناس في الاستعمال القرآني

وردت كلمة (ناس) في القرآن الكريم (٢٤١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم جمع	٢٤١	﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣﴾ [الناس:١-٣]

وجاءت كلمة (الناس) في القرآن على وجهين[(٢)]:

الأول: جميع الناس: ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[الحجرات: ١٣].

الثاني: فئة معينة من الناس أو أحد الناس بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[آل عمران: ١٧٣]. أُرِيْدَ بالأولى: نعيم بن مسعود الأشجعي، وبالثانية: أبو سفيان وأصحابه من قريش وأهل مكة.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٢٦-٧٢٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب النون ص١٣٥٥-١٣٦٠.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ٤٤١-٤٤٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ١٣٩-١٤٠، نزهة الأعين النواظر، ص٦٠١-٦٠٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٢٣٢-٢٣٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ العالمين

العالمين لغةً

(علم) العين واللام والميم أصلٌ صحيح واحد، يدل على أثرٍ بالشيء يتميز به عن غيره، ومن الباب العالمون، وذلك أن كل جنسٍ من الخلق فهو في نفسه معلم وعلم، وقال قوم: العالم سمي لاجتماعه، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢].

قالوا: الخلائق أجمعون[١].

العالمين اصطلاحًا

أصناف الخلائق من الملائكة والجن والإنس دون غيرها، وقيل: عني به الناس وجعل كل واحد منهم عالما[٢]، وقال ابن كثير: و(العالَمين) جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله عز وجل[٣].

الصلة بين الناس والعالمين

بعد التأمل في التعاريف السابقة تبين أن لفظة العالمين تشمل الناس وغيرهم، باعتبار الناس جزءا من هذا العالم، والناس من الموجودات والمخلوقات التي أوجدها الله تعالى وكلفها بالعبادة والطاعة، لكن لفظة العالمين أعم، والناس أخص.

٢ البشر

البشر لغة

(بشر) الباء والشين والراء أصلٌ واحد يقصد به ظهور الشيء مع حسنٍ وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، والبشر: الإنسان.

البشر اصطلاحًا

والبشر هم الخلق يقع على الأنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع[٤].

وإطلاق البشر على الإنسان اعتبارًا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوان الذي عليه

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٠٩.
(٢) انظر: المفردات، الأصفهاني ص٣٤٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٣١.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٩.

نحو صوف أو شعر[١].

الصلة بين الناس والبشر:

سمي الناس بشرًا؛ لأنهم أحسن الحيوان هيئة، ويجوز أن يقال: إن قولنا بشر يقتضي الظهور، وسموا بشرًا لظهور شأنهم، وقولنا: الناس يقتضي النوس وهو الحركة، والناس جمع والبشر واحد[٢].

٣ بنو آدم

بنو آدم لغةً

هذا مصطلح مركب من لفظة (بنو)، ولفظة (آدم) نعرف كلًّا منهما بما يأتي:

بنو لغةً

قالوا: إنه جمع بنوة أو بنوة، والابن الولد، والجمع أبناء[٣].

آدم لغةً

آدم: الأدم: الاتفاق، وأدم الله بينهما يأدم أدمًا، وآدم بينهما إيدامًا، فهو مؤدمٌ بينهما، ويقال: بينهما أدمةٌ وملحة، أي: خلطة.

وأديم كل شيء: ظاهر جلده، وأدمة الأرض: وجهها، وقيل: سمي آدم عليه السلام؛ لأنه خلق من أدمة الأرض، وقيل: بل من أدمةٍ جعلت فيه[٤].

بنو آدم اصطلاحًا

هم الناس[٥]، وبنو أبي البشر[٦].

الصلة بين الناس وبني آدم

مما سبق تبين أن هناك صلة بين الناس وبين بني آدم، وهي علاقة توضيح المعنى، فبنو آدم هم الناس والبشر، والناس ينسبون إلى أبيهم آدم عليه السلام، ولهذا يقال: الناس بنو آدم لأنهم منسوبون إليه[٧].

---

(١) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٣٢.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٠١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٨٩.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٨٨.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٣.
(٦) انظر: المفردات، الأصفهاني ص١٤.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٣.

٤ الثقلان

الثقلان لغةً

(ثقل)الثاء والقاف واللام أصلٌ واحدٌ يتفرع منه كلماتٌ متقاربة، وهو ضد الخفة، ولذلك سمي الجن والإنس بالثقلين، لكثرة العدد، وأثقال الأرض كنوزها.

قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[الزلزلة: ٢]. ويقال هي أجساد بني آدم[(١)].

الثقلان اصطلاحًا:

هم « الإنس والجن »[(٢)].

الصلة بين الناس والثقلين

الثقلان أعم من الناس، والناس أخص، فالثقلان يعني الإنس والجن، والإنس تعني بني آدم دون الجن.

٥ الأنعام:

الأنام لغةً

والأنام هم ما على ظهر الأرض من جميع الخلق، ويجوز في الشعر: الأنيم[(٣)].

الأنام اصطلاحًا

هم الجن والإنس[(٤)].

الصلة بين الناس والأنام

هناك علاقة واضحة بين اللفظتين فالأنام تفسير وبيان لمعنى لفظة الناس، فالأنام يقتضي تعظيم شأن المسمى من الناس[(٥)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٨٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٣.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٣٨٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٧.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٧٥.

تسمية سورة من القرآن باسم الناس

سورة الناس سورة مكية [(١)]، عدد آياتها ست آيات.

وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه من طريق عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم: (كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلةٍ جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ق﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مراتٍ)[(٢)].

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنزل أو أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط المعوذتين)[(٣)].

حكمة تسمية السورة بهذا الاسم

إن تسمية سورة من سور القرآن باسم سورة الناس، واستقلالها بهذا الاسم لم يأت اعتباطًا بل جاء لحكمة نسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب باستخراج هذه الحكم نقول وبالله التوفيق:

أولًا: « إنه تعالى رب جميع المحدثات، ولكنه ههنا ذكر أنه رب الناس على التخصيص وذلك لوجوه:

- أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إِلَهُهُمْ ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ووالي أمرهم.
- أن أشرف المخلوقات في العالم هم الناس.
- أن المأمور بالاستعاذة هو الإنسان، فإذا قرأ الإنسان هذه صار كأنه يقول: يا رب يا ملكي يا إلهي»[(٤)].

ثانيًا: بيان أن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، وأن الوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[الناس: ٦][(٥)].

ثالثًا: بيان المعاني المختلفة لكلمة الناس خاصة في سورة الناس، وفي ذلك رد على المستشرقين الذين قالوا: إن في القرآن الكريم تكرار خاصة أنه كرر لفظة الناس

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، ٦/ ١٩٠، رقم ٥٠١٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم ٨١٤.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٤٩٠.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٣٧.

أكثر من مرة في سورة الناس.

يقول الشعراوي: وقد وقف بعض المستشرقين عند كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وأرادوا أن يدخلونا من خلالها إلى متاهات التشكيك في القرآن، وقالوا: إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له.

وأهم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هي سورة (الناس) حيث يقول الحق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة (الناس) في كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد، ولكنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة؛ ولم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة (الناس) في كل موقع هو معنى مختلف وضروري؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة في القرآن أن تكون جاذبة لمعناها، وأن يكون كل معنىً جاذبًا للكلمة المناسبة له.

وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

وأن يقول: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢].

و (الناس) في الآية الأولى هم المُرَبُّون، والناس في الآية الثانية هم المَمْلوكون لله فلا أحد يخرج عن قدرة الله في الأمور القهرية، وتأتي ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في الآية الثالثة: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٣].

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق، وهو الذي يقيك مما ستأتي به الآية الرابعة: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤].

والآية الخامسة: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥][1].

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٥/ ٣٨١٦.

الغاية من خلق الناس

إن الله تعالى خالق الخلق، مدبر الأمر، ذي الطول الشديد، بيده مقاليد السماوات والأرض ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، خلق الناس لِحِكَمٍ عديدة، أهمها:

أولًا: الاستخلاف في الأرض

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

قال الإمام الطبري في تفسير الآية الأولى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: والصواب في تأويل قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: أي مَسْتَخْلِفٌ في الأرض خليفةً، ومُصَيِّرٌ، فيها خلفًا، أي: خلفًا يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا، وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم، ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله[1].

والاستخلاف في الأرض له ثمرات عديدة، منها: تنفيذ أحكام الله تعالى في الأرض، وهذا ما وضحه قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[ص: ٢٦].

قال الرازي: جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله تعالى، وفي سياسة الناس؛ لأن خليفة الرجل من يخلفه، وذلك إنما يعقل في حق من يصح عليه الغيبة، وذلك على الله محال.

والقول الثاني: إنا جعلناك مالكًا للناس ونافذ الحكم فيهم، فبهذا التأويل يسمى خليفة، ومنه يقال: خلفاء الله في أرضه، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته، وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم في تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم[2].

وبعد التأمل ودراسة الآيتين السابقتين يتبين أن هناك غايات عديدة من خلق الناس، وأهمها الاستخلاف على هذه الأرض، وغاية الاستخلاف هو تنفيذ حكم الله، وإقامة شرعه على الأرض والحكم ﴿بَيْنَ﴾ الناس بالعدل، ومن خلال استقراء لفظة الناس في القرآن تبين أن لفظة الناس

(١) انظر: جامع البيان ١/ ٤٥١.

(٢) مفاتيح الغيب ١/ ٣٨٦.

المسبوقة بـ(بين) وردت في سياق الحكم والإصلاح.

ثانيًا: عبادة الله تعالى

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

ومعنى العبادة هي إظهار الخضوع للمعبود واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضره ملكًا ذاتيًا مستمرًا، فالمعبود إله للعابد، فالحصر المستفاد من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قصر الله علة خلق الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه، أي إلا ليعبدوني وحدي، أي لا ليشركوا غيري في العبادة، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرًا حقيقيًا.

وما ذكر الله الجن هنا إلا لتنبيه المشركين بأن الجنَّ غيرُ خارجين عن العبودية لله تعالى، وتقديم الجن في الذكر في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن، ليعلموا أن الجن عباد الله تعالى[1].

وبعد بيانِ وتوضيح هذه الغاية المهمة، وهي عبادة الله تعالى يأتي النداء الرباني في كثير من الآيات القرآنية مؤكدًا على هذه الغاية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٢١].

واختُلِفَ من المراد بالناس هنا على قولين: أحدهما: الكفار الذين لم يعبدوه والقول الثاني: أنه عَامٌّ في جميع الناس، فيكون خطابه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها[2].

ثالثًا: التعارف

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

يخبر تعالى أنه خلق بني آدم، من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالًا كثيرًا ونساء، وفرقهم وجعلهم شعوبًا وقبائل أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا؛ فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف على التعارف، ومعرفة الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى؛ فأكرمهم عند الله

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٢٥.

أتقاهم...وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة؛ لأن الله جعلهم شعوبًا وقبائل، لأجل ذلك.

رابعًا: أداء الفرائض وحمل الأمانة:

يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢].

وقال ابن كثير: عن ابن عباس: الأمانة: الفرائضُ عَرَضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عَذَّبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها[1].

ومن أهم هذه الفرائض على سبيل المثال لا الحصر:

١. حج بيت الله.

يقول تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٧].

٢. أداء الأمانة و الحكم بالعدل والحق.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ٥٨].

٣. إقام الصلاة.

يقول تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

٤. الصيام.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٨.

فضل الله تعالى على الناس

إن نعم الله على الناس لا تعد ولا تحصى، فإنه تعالى أسبغ عليهم نعمه ظاهرةً وباطنة، وأرسل للناس خير رسله. وشرع لهم أفضل شرائعه، خلق آدم بيديه وأسجد له الملائكة، ما أعظمه من تكريم ! وفَضْلُ الله على الناس كثير.

وسنقف على بعض وجوه هذا الفضل فيما يأتي.

أولًا: التكريم الإلهي

وقد ظهر ذلك في عدة صور، منها:

١. خلق آدم بيديه ونفخ الروح فيه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر: ٢٩].

٢. سجود الملائكة لآدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤].

وآدم عليه السلام هو أبو البشر، وتكريم آدم بالسجود له تكريم لذريته.

٣. القول الصريح بتكريم بني آدم والتفضل على الناس.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء: ٧٠].

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[النمل: ٧٣].

«كرمهم تعالى بأن خلق أباهم آدم على صورة الرحمن، وجعل لهم ذلك بحكم الوراثة، وأن الولد سر أبيه، وفضلهم على الكثير، بأن جعل لهم من النعم ما يستغرق العد»[(١)]، والمقصود من ذلك بيان هذا التكريم لصورة آدم وجماله والحفاظ عليه، وعدم الاعتداء عليه.

٤. الخيرية ووصف الناس بها.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١].

«والمعنى أنكم كنتم في اللوح المحفوظ خير الأمم وأفضلهم، فاللائق بهذا أن لا تبطلوا على أنفسكم هذه الفضيلة، وأن لا تزيلوا عن أنفسكم هذه الخصلة المحمودة، وأن تكونوا منقادين مطيعين في كل ما يتوجه عليكم من التكاليف»[(٢)].

٥. اصطفاء الله الرسل من الناس.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ

(١) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ١٢٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٢٤.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[الحج: ٧٥].

تبين الآيات في ختام السورة بأن الله اصطفى محمدًا صلى الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة؛ أي: ليس بعثه محمدا أمرا بدعيا[(١)].

ثانيًا: الإنعام والتسخير

إن العلاقة القائمة بين الإنسان والكون علاقة قائمة على المصاحبة، وهذه العلاقة قائمة على أساس تسخير الله تعالى هذا الكون للإنسان، واستغلاله خير استغلال، والاستفادة منه وإعانته على نشر دعوة الله تعالى، وقد أسبغ الله على الناس نعمه ظاهرة، وباطنة، ونعمه كثيرة لا تعد ولا تحصى، ولعل هذا المطلب يبين بعضًا من نعم الله تعالى على الناس.

١. نعمة الخلق والرزق.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

ومعنى هذا الذكر الشكر[(٢)]، والخطاب عامٌّ للجميع؛ لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله[(٣)].

٢. نعمة الأكل.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ١٦٨].

يقول ابن كثير: يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر ذلك في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من الله طيبًا، أي: مستطابًا في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما زينه لهم في جاهليتهم[(٤)].

٣. نعمة التسخير.

لقد خلق الله الإنسان وجعله خليفةً على الأرض ليقوم على تنفيذ أحكام الله تعالى، وإنه سيعمر هذه الأرض بالتكاثر، واستغلال مواردها، وكان من نعم الله الكبرى عليه تسخير الكون للناس جميعًا لقضاء وأداء هذه المهمة العظيمة، وهي الاستخلاف على الأرض.

ومن أهم الأشياء التي تم تسخيرها للناس:

- تسخير الشمس والقمر.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٩٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٤/ ٣٢٢.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦٠٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٨.

[إبراهيم: ٣٣].

واعلم أن الانتفاع بالشمس والقمر عظيم، وقد ذكره الله تعالى في آيات منها قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦].

ومنها قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

وقوله: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معنى الدؤب في اللغة مرور الشيء في العمل على عادة مطردة، يقال: دأب يدأب دأبًا ودؤبًا، وقال المفسرون: قوله: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معناه يدأبان في سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وفي إصلاح النبات والحيوان، فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل، ولولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية[(١)].

❁ تسخير الليل والنهار.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

يتعاقبان خلفة لمنامكم واستراحتكم وسعيكم في مصالحكم من الإسامة، وتعهد حال الزرع ونحو ذلك، والشمس والقمر يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة، وأدائهما ما نيط بهما من تربية الأشجار والزروع، وإنضاج الثمرات وتلوينها، وغير ذلك من التأثيرات المترتبة عليهما بإذن الله تعالى[(٢)].

❁ تسخير البحر لسير الفلك.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

يقول القرطبي: «يعني أن ذلك فعله وخلقه وإحسان منه وإنعام»[(٣)].

❁ تسخير البحر لنأكل منه لحمًا طريًا.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤].

ومعنى قوله تعالى ذكره: والذي فعل هذه الأفعال بكم، وأنعم عليكم أيها الناس هذه النعم، الذي سخر لكم البحر، وهو كل نهر ملحًا ماؤه أو عذبا﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا﴾وهو السمك الذي يصطاد منه، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهو اللؤلؤ والمرجان[(٤)].

❁ تسخير الأنهار.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٢٦٤.

(٢) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ١٠٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١٦٠.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٨٠.

بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾[إبراهيم: ٣٢].

وسخر لكم الأنهار، أي: ذَلّلها، تجري حيث تريدون، وتركبون فيها حيث تشاؤون[(١)].

- تسخير ما في الأرض.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[الحج: ٦٥].

- تسخير ما في السموات وما في الأرض.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾[لقمان: ٢٠].

يقول القرطبي: «ذكر نعمه على بني آدم، وأنه سخر لهم ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجر إليهم منافعهم. ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عام في الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى. ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أكملها وأتمها»[(٢)].

مما سبق يتبين أن نعمة التسخير هي من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الناس.

ثالثًا: الإرشاد والتبيين

إن الله تعالى قد أخذ العهد من الخلق وهم في عالم الذر أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا.

يقول تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ١٧٢].

تجلت رحمة الله وعظمته، وفضله على الناس بتذكيرهم، بعهدهم الأول مع الله، بالإرشاد، وتبينهم لهذا العهد من خلال إرسال الرسل.

فضل الله على الناس بالإرشاد

١. الإرشاد بإرسال الرسل.

ويقول تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾[النساء: ٧٩].

يبين الله تعالى في الآية السابقة أنه أرسل الرسل للناس، وذلك لأن مهمة الرسل إرشاد الناس إلى الصراط المستقيم، ويعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗا﴾، إنما جعلناك يا محمد رسولًا بيننا وبين الخلق، تبلغهم ما أرسلناك به من رسالة، وليس عليك غير البلاغ وأداء الرسالة إلى من أرسلت، فإن قبلوا ما أرسلت به فلأنفسهم، وإن ردوا فعليها، وهو مجازيك ببلاغك

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٦٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٧٢.

ما وعدك، ومجازيهم ما عملوا من خير وشر، جزاء المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته[1]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨].

٢. الإرشاد بإنزال الكتب والحكم بما فيها.

يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[النساء: ١٠٥].

يقول الطبري: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ إنا أنزلنا إليك يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: القرآن ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، لتقضي بين الناس فتفصل بينهم ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[2].

٣. الإرشاد ببيان الحق.

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[يونس: ١٠٨].

يقول تعالى آمرًا لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه، فإنما يرجع وبال ذلك عليه[3].

٤. الإرشاد بالموعظة الحسنة.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٥٧].

في هذه الآية يذكر القرطبي رحمه الله أن الموعظة هنا بمعنى الوعظ وهذه المواعظ والحكم جاءت من القرآن الكريم[4].

فضل الله على الناس بالتبيين

إن رحمة الله بعباده تظهر بإرسال الرسل، وإنزال الكتب ليبين للناس طريق الهدى، وإن التبيين جاء في كتاب الله تعالى لغرس التقوى، وتذكير الناس بواجباتهم وعهودهم مع الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٧].

وطرق التبيين في كتاب الله عديدة منها:

١. التبيين بإنزال الكتب.

يقول تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤].

يقول الشعراوي: ومن هنا سمينا الكتب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٦١.
(٢) جامع البيان ٩/ ١٧٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٠، ٣٠١.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٥٣.

المنزلة ذكرًا، لكن الذكر يأتي تدريجيًّا وعلى مراحل، كل رسول يأتي ليذكر قومه على حسب ما لديهم من غفلة، وإذا أطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه الكتاب الجامع لكل ما نزل على الرسل السابقين، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أن تقوم الساعة.

كما أن كلمة كتاب تطلق على أي كتاب، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم، وهذا ما نسميه (علم بالغلبة) فجاء القرآن بالأصول الثابتة، وترك للرسول صلى الله عليه وسلم مهمة أن يبينه للناس، ويشرحه ويوضح ما فيه[1].

٢. التبيين بالإنذار والبلاغ.

يقول تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[إبراهيم: ٤٤].

ويقول تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[إبراهيم: ٥٢].

تُبَيِّنُ لنا الآيات السابقة أن الإنذار والبلاغ من الأشياء المبينة لمنهج الله ودعوته، فقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾.

يقول الطبري رحمه الله: هذا القرآن بلاغ للناس، أبلغ الله به إليهم في الحجة عليهم، وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ يقول: وليُنذروا عقاب الله، ويحذروا به نقماته، أنزله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم[2].

وهذا القرآن بلاغ للناس، أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان[3].

٣. التبيين بضرب الأمثلة.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[الحج: ٧٣].

وضرب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان والتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام، ففي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾[الحج: ٧٣].

فهذا كثير في كتاب الله، والمثل يضرب ليُجَلِّي حقيقة، والضرب هنا لا يعني إحداث أثر ضار بالمضروب، إنما إحداث أثر نافع إيجابي[4].

وتبين الآية السابقة هذا المثل الذي

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٩/ ٤٩١٢-٤٩١٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢٣.

(٤) انظر: تفسير الشعراوي ١٢/ ٧١٣٧.

ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار: المؤمنون يزدادون علمًا وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة.

﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي: ألقوا إليه أسماعكم، وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوبًا لاهية، وأسماعًا معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع.

وهو هذا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ شمل كل ما يدعى من دون الله، ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى.

﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ بل أبلغ من ذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ الذي هو المعبود دون الله ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما من يتعلق بهذا الضعيف وينزله منزلة رب العالمين[1].

أصناف الناس

إن الله خالق الخلق، فكان منهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

والناس أصناف ثلاثة، منهم: المؤمنون وهم أحباب الله تعالى، ومنهم الكافرون، ومنهم المنافقون.

أولًا: المؤمنون:

وردت لفظة الناس في كتاب الله تعالى مرات عديدة، ولها وجوه ومعاني مختلفة، فقد جاءت بمعنى المؤمنين على النحو الآتي:

١. المؤمنون من الصحابة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

يعني: وإذا قيل لهؤلاء الذين وصفهم الله ونعتهم بأنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

صدقوا بمحمد وبما جاء به من عند الله، كما صدق به الناس. ويعني بالناس المؤمنين الذين آمنوا بمحمد ونبوته وما جاء به من عند الله[2].

٢. المؤمنون في أول الخلق.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٥٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٩٢.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[يونس: ١٩].

٣. المؤمنون المؤيدون بالملائكة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الأنفال: ٤٨].

ونظر عدو الله إلى جنود الله من الملائكة قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين على عدوهم[(١)].

٤. المؤمنون المجاهدون.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[البقرة: ٢٠٧].

والمعنى ومن الناس من يبذل نفسه للهلاك ابتغاء مرضاة الله، أي: هلاكًا في نصر الدين وهذا أعلى درجات الإيمان؛ لأن النفس أغلى ما عند الإنسان[(٢)].

٥. المؤمنون المكلفون.

قال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٧].

وهذه آية وجوب الحج عند الجمهور[(٣)]، فحج المسلمون وقعد الكفار، ثم تمم الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ بمفهوم المخالفة أن من آمن هو الذي يحج بيت الله.

٦. المؤمنون أتباع محمد و إبراهيم عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٦٨].

وهم المؤمنون[(٥)]، ويخبر الله تعالى أن أولى الناس به، محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه، وأتباع الخليل قبل محمد صلى الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٧٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٨١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٧٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٩٩.

عليه وسلم[1].

ثانيًا: المنافقون

وهذا صنف أشد خطرًا على الأمة الإسلامية من الكفار، فهو صنف يظهر الإسلام، ويبطن الكفر ويصعب على المسلمين تمييزه، وقد وردت كلمة الناس في هذا المعنى في كتاب الله تعالى، ومنها:

١. المنافقون المظهرون إيمانهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨].

قال الطبري: وأجمع جميع أهل التأويل على أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق، وأن هذه الصفة صفتهم[2].

٢. المنافقون المشككون للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ١٤٢].

سيقول الجهال من الناس، وهم اليهود وأهل النفاق، وإنما سماهم الله عز وجل سفهاء؛ لأنهم سفهوا الحق، فتجاهلت أحبار اليهود، وتعاظمت جهالتهم وأهل الغباء منهم، عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، وتحير المنافقون فتبلدوا[3].

٣. المنافقون المخاصمون.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾[البقرة: ٢٠٤].

نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب، وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم[4].

ثالثًا: الكافرون

وهذا صنف من الناس قد أعلن عداوته للمسلمين وجاهر بها، وإن كان خطيرًا فهو أقل خطرًا من المنافقين لمعرفة المسلمين به، وقد وردت لفظة الناس بهذا المعنى في عدة مواطن من كتاب الله تعالى منها:

١. الكافرون باتخاذ الأنداد.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[البقرة:١٦].

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادًا، أي: أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٦٨.
(٢) انظر: جامع البيان ١/ ٢٦٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٢٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٢٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٢.

ضد له ولا ند له، ولا شريك معه[1]، تبين هذه الآية أن سبب الكفر هو اتخاذ الأنداد من دون الله تعالى، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله ندًا وهو خَلَقَكَ)[2].

٢. الكافرون بالآخرة.

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة: ٢٠٠].

يعني بذلك جل ثناؤه: فإذا قضيتم مناسككم أيها المؤمنون فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا، وارغبوا إليه فيما لديه من خير الدنيا والآخرة بابتهال وتمسكن، واجعلوا أعمالكم لوجهه خالصًا ولطلب مرضاته، وقولوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[البقرة: ٢٠١].

تبين لنا الآيات صنفين من الناس في الدعاء فيحذرنا الله تعالى أن نكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، فكانت أعمالهم للدنيا وزينتها، فلا يسألون ربهم إلا متاعها، ولا حظ لهم في ثواب الله، ولا نصيب لهم في جناته وكريم ما أعد لأوليائه[3]، وتوضح الآيات أن المقسم إلى الفريقين جميع الناس من المسلمين والمشركين؛ لأن الآية نزلت قبل تحجير الحج على المشركين بآية براءة، فيتعين أن المراد بمن ليس له في الآخرة من خلاق هم المشركون؛ لأن المسلمين لا يهملون الدعاء لخير الآخرة ما بلغت بهم الغفلة، فالمقصود من الآية التعريض بذم حالة المشركين، فإنهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة[4].

٣. الكافرون يوم القيامة المتبرئون من الأصنام.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف: ٦].

وإذا جمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب، كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء، لأنهم يتبرؤون منهم ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ومعنى قوله تعالى ذكره: وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرأنا إليك منهم يا ربنا[5].

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ٤٧٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (فلا تجعلوا لله أندادًا)، ٦/ ١٨، رقم ٤٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، ١/ ١٤١، رقم ٥٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٠١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٤٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٩٦.

٤. الكافرون المجادلون بغير علم من الناس.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [الحج:٣].

يقول تعالى ذامًّا لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، مُعْرِضًا عما أنزل الله على أنبيائه، متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع المعرضين عن الحق المتبعين للباطل؛ يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء[١]، والآية نزلت في النضر بن الحارث الذي قال: إن الله عز وجل غير قادر على إحياء من قد بلي وعاد ترابا[٢].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٩٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٥.

صفات الناس

إن من رحمة الله تعالى بخلقه أنه جعل لكل مخلوق من مخلوقاته صفات يتميز بها عن غيره، فصفات الإنسان تختلف عن صفات الحيوان، والنبات والجن وغيره من المخلوقات، والناس رغم اتفاقهم في كثير من الصفات إلا أنهم مختلفون في بعض منها، وللناس صفات فطرية، وأخرى مكتسبة، وهي على النحو الآتي:

أولًا: الصفات الفطرية

١. هداية الفطرة.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

صنعة الله التي خلق الناس عليها، أي: فطر الله الناس على ذلك فطرةً، والمقصود بالفطرة هو الإسلام مذ خلقهم الله من آدم جميعا[٣].

وقد أخرج الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٩٧.

تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟)[1].

٢. النسيان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[طه: ١١٥].

ولقد وصينا آدم وأمرناه، وعهدنا إليه عهدا ليقوم به فالتزمه وأذعن له وانقاد وعزم على القيام به، ومع ذلك نسي ما أمر به وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدمُ فنسيت ذُرِّيَّتُه، وخَطِئَ فَخَطِئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغُفِرَتْ له[2]، ومن المعلوم أن آدم عليه السلام هو أبو الناس والبشر جميعًا.

٣. الآدمية والمساواة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١].

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام، وأنه خلق منه زوجه حواء، ثم انتشر الناس منهما[3]، والخبر في قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ مستعمل كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني ليتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض[4].

٤. اختلاف اللون واللسان.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[الروم: ٢٢].

الألسنة: اللغات، أو أجناس النطق وأشكاله، خالف عز وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حِدَّةٍ، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لَكْنَةٍ، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، وكذلك الصور وتخطيطها، والألوان وتنويعها، ولاختلاف ذلك وقع التعارف، وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربًا واحدًا لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت مصالح كثيرة، وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما،

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، ٢/ ١٠٠، رقم ١٣٨٣ صحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم ٢٦٥٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٢٤.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٦١.

وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحلي، وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد، وفرعوا من أصل فذ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون[1].

٥. حب الشهوات.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران: ١٤].

وصياغة الفعل للمجهول هنا تشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل؛ فهو محبب ومزين، وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه، ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه الشهوات، وهو جزء من تكوينه الأصيل، لا حاجة إلى إنكاره، ولا إلى استنكاره في ذاته، فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد كما أسلفنا.

ولكن الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان جانبًا آخر يوازن ذلك الميل، ويحرس الإنسان أن يستغرق في ذلك الجانب وحده؛ وأن يفقد قوة النفخة العلوية أو مدلولها وإيحاءها، هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه الشهوات ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾، فهي شهوات مستحبة مستلذة؛ وليست مستقذرة ولا كريهة، والتعبير لا يدعو إلى استقذارها وكراهيتها؛ إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووضعها في مكانها لا تتعداه، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى. والتطلع إلى آفاق أخرى بعد أخذ الضروري من تلك الشهوات في غير استغراق ولا إغراق!

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها، لا كَبْتِها وقمعها[2].

ويدخل ضمن هذه الشهوات حُبُّ الآباء والزوجة والأولاد.

٦. الهلع والجزع والمنع.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي: إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: إذا حصلت

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٧٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٧٤-٣٧٣.

له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها[1].

٧. الأكل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ١٦٨].

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في ترتيب الأحكام بعضها على بعض، فالإنسان المخلوق لله في الأرض المسخرة له بكل ما فيها، له حياة يجب أن يحافظ عليها، وتبقى الحياة ببقاء الرزق في الاقتيات من مأكل ومشرب، وكذلك يبقى النوع الإنساني بالتزاوج، وتكلم الله في رزق الاقتيات، فجعله للناس جميعًا عندما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: ١٦٨][2].

فالأمر هنا بالأكل لم يكن غاية في حد ذاته بل هو وسيلة للحفاظ على النوع، وأداء الواجبات المنوط بهم، وكذلك فيه إرشاد باختيار نوع الأكل ومجانبة الشيطان في تحريم وتحليل الطعام والشراب.

ثانيًا: الصفات المكتسبة:

١. العلم والتعلم.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[الرحمن: ٤].

والحق جل جلاله لم يكن يترك آدم في حياته على الأرض دون أن يعلمه ما يضمن استمرار حياته وحياة أولاده، يعلمه على الأقل بدايات، ثم بعد ذلك تتطور هذه البدايات بما يكشفه الله من علمه لخلقه[3]، إن آدم عليه السلام لم يكن بطبعه عالمًا، بل اكتسب هذا العلم من الله تعالى الذي علمه الأسماء كلها، وبهذا العلم كان التكريم والتشريف لآدم عليه السلام.

٢. التزاوج.

قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم: ٢١].

أي: خلق لكم من جنسكم إناثا يكن لكم أزواجا[4].

هذه آية تدل على أن الزواج آية من آيات الله تعالى، وهو آية لقوم يتفكرون فإن المعنى في هذه الآية أناس يتفكرون ويتدبرون الآيات، وحقيقة الأمر أن نظرة الزواج تختلف من إنسان لإنسان آخر فبعض الناس يقدم على الزواج والبعض

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٦.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٤٨٥.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٥٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٩.

الآخر يعرض ويحجم، وعليه فالزواج صفة تكتسب اكتسابًا.

حال أكثر الناس

إن المتأمل في كتاب الله تعالى يجد أن القرآن الكريم ذكر أحوال الناس في صور متعددة، ولعل هذا يتطابق مع تنوع الناس واختلافهم، فناسب أن تتعدد أحوالهم، وهي في القرآن على النحو الآتي:

أولًا: الكفر:

وكفر الناس في القرآن الكريم جاء على عدة أنواع منها:

١. كفر الجحود والإنكار للقرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[الإسراء: ٨٩].

يقول ذكره: ولقد بينا للناس في هذا القرآن من كل مثل، احتجاجًا بذلك كله عليهم، وتذكيرا لهم، وتنبيها على الحق ليتبعوه ويعملوا به، ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، فأبى أكثر الناس إلا جحودًا للحق، وإنكارا لحجج الله وأدلته[(١)].

٢. كفر النفاق.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨].

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٤٨.

الذنوب، والمنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه، ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار، أن يظن بأهل الفجور خير[1].

٣. الكفر بلقاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[الروم: ٨].

اللام للتوكيد، والتقدير: لكافرون بلقاء ربهم، على التقديم والتأخير؛ أي: لكافرون بالبعث بعد الموت[2]، ولقاء الله تعالى يكون بالبعث بعد الموت، فالكفر بلقاء الله تعالى إنكارًا للبعث.

ثانيًا: الفسق:

قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٩].

يقول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾، وإن كثيرًا من اليهود لتاركو العمل بكتاب الله، ولخارجون عن طاعته إلى معصيته[3].

والفاسقون أي: المتمردون في الكفر المصرون عليه الخارجون عن الحدود المعهودة[4].

ولا تعارض هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ وبين تفسير الإمام الطبري بأن الناس هنا اليهود، وذلك لأن اليهود صنف كبير من الناس، ذكر مرارًا وتكرارًا في القرآن الكريم، ليؤكد على حقيقتهم وطبعهم، وهو الفسق.

ثالثًا: الغفلة:

قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[يونس: ٩٢].

إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه... وقوله تعالى: ﴿لَغَافِلُونَ﴾ أي: لا يتعظون بها،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٧٦-١٧٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي ١٤/ ٩.
(٣) انظر: جامع البيان/ ٣٩٣.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٧.

ولا يعتبرون[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات، وهناك من لا يغفل عنها، وينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها، ويتساءل عن جدوى كل شيء، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان، أذن بميلادها عند البحث عنها؛ لتستبين عظمة الله في خلقه[2].

رابعًا: لا يعلمون:

إن المتدبر في كتاب الله يجد أن الله تعالى وصف الناس في بعض الآيات بعدم العلم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن هذه المواضع ما يلي:

١. لا يعلمون وقت الساعة.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٨٧].

ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه[3].

٢. لا يعلمون حكمة الله من الأشياء.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٢١].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: «لا يدرون حكمته في خلقه، وتلطفه لما يريد»[4].

٣. لا يعلمون حقيقة جهلهم بالبعث.

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٣٨].

يقول تعالى مخبرا عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذبًا لهم وردًا عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لا بد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٤.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٠٦٩.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٨.

﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر[1].

٤. لا يعلمون إرسال محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ: ٢٨].

يقول تعالى ذكره: وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة، ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيرًا لمن أطاعك، ونذيرًا لمن كذبك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر[2].

٥. لا يعلمون حقيقة التفاضل.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[سبأ: ٣٤].

وقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥].

أي: فضلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضيًا بما نحن عليه من الدين والفضل لم يخولنا ذلك؛ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه.

فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾أي: يوسعه لمن يشاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: إن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحانًا لهم، فلا يدل شيء من ذلك على ما في العواقب، فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغني عنكم غدًا شيئًا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون هذا لأنهم لا يتأملون[3].

٦. لا يعلمون حقيقة خلق السماوات والأرض.

يقول تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[غافر: ٥٧].

يقول تعالى ذكره: لابتداع السموات والأرض، وإنشاؤها من غير شيء، أعظم أيها الناس عندكم إن كنتم مستعظمي خلق الناس وإنشائهم من غير شيء من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن خلق جميع ذلك هين على الله[4].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٧١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٠٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣٠٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٠٥.

خامسًا: لا يشكرون:

إن الله تعالى أسبغ علينا نعمه ظاهرة، وباطنة، وحري بنا معشر الناس أن نقابل النعم بالشكر، ولقد بين القرآن أن أكثر الناس لا يشكرون في مواطن عديدة من كتاب الله تعالى منها:

١. لا يشكرون فضل الله ونعمته بتأخير العذاب.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[النمل: ٧٣].

أي: لذو أفضال وإنعام على كافة الناس، ومن جملة نعمه تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصي التي من جملتها استعجال العذاب، ولكن أكثرهم لا يشكرون لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه، بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء[(١)].

وينبه عباده على سعة جوده وكثرة أفضاله ويحثهم على شكرها، ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر واشتغلوا بالنعم عن المنعم[(٢)].

٢. لا يشكرون الهداية للتوحيد و ملة الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[يوسف: ٣٨].

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إذ جعلنا أنبياء ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا الرسل إليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ على نعمة التوحيد والإيمان[(٣)].

٣. لا يشكرون نعمة تسخير بعض المخلوقات للناس.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[غافر: ٦١].

يقول تعالى ممتنًا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصرًا، أي: مضيئًا؛ ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم[(٤)].

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٩٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي ٩/ ١٩١.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٥٥.

اتباع الناس

إن المتأمل في كتاب الله عز وجل يجد أن الناس والأقوام في اتباعهم على حالتين:

الأولى: الاتباع المحمود، وذلك باتباع الحق وأهله من الرسل والأنبياء، كذلك اتباع أوامر الله تعالى، فجميع الأنبياء والرسل أرسلوا لقومهم، وأرشدوهم لعبادة الله تعالى.

الثانية: الاتباع المذموم، وذلك باتباع الباطل وأهله من الشيطان وأعداء الإسلام، فنهج أعداء الله تعالى الصد عن دين الله ومحاربته، وسنلقي إن شاء الله الضوء على هذا المحور في هذا المبحث، وذلك على النحو الآتي:

أولًا: اتباع الناس المحمود:

١. اتباع إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٦٨] يخبر الله تعالى أن أولى الناس بإبراهيم محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه، وأتباع الخليل، قبل محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما اليهود والنصارى، والمشركون فإبراهيم بريء منهم ومن ولايتهم؛ لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين[(١)].

٢. اتباع الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام: ١٥٣] هذه آية عظيمة فإنه لـما نهى وأمر حذر هنا عن اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه[(٢)].

٣. اتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل، يا محمد للناس كلهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرسل، مرسلًا إلى بعض الناس دون بعض، فمن كان منهم أرسل كذلك فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم. وأما قوله: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فاهتدوا به أيها

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٦٨.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٧.

الناس، واعملوا بما أمركم أن تعملوا به من طاعة الله؛ لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحق في اتباعكم إياه[1].

٤. اتباع الحق.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[محمد:٣]

وأما ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما أنزل الله على رسله عمومًا، وعلى محمد صلى الله عليه وسلم خصوصًا كفرالله عنهم صغار الذنوب، وكبارها، وإذا كفرت سيئاتهم،نجوا من عذاب الدنيا والآخرة، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم الصادر ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم[2].

٥. اتباع القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام: ١٥٥]

فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة[3].

ثانيًا: اتباع الناس المذموم:

١. اتباع الشيطان.

لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

يريد شياطين الإنس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر وقد يكون المراد بذلك إبليس وجنوده... كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه إلى النار، وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال: كتب على من هذا حاله أنه يصير أهلًا لهذا الوعيد[4].

٢. اتباع الهوى.

لقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

ولا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه، فتجور عن الحق ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول: فيميل بك اتباعك هواك في قضائك على العدل والعمل بالحق عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٧٠-١٧٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٤.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٦٩.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٣١٤.

الله[1]، وهذا الخطاب ليس لنبي الله داود وحده؛ بل هو لكل من وجد في مكانه فعليه بالعدل لا الجور.

٣. اتباع وطاعة السادات والكبراء.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[الأحزاب: ٦٧].

أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئًا، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء[2].

٤. اتباع السحرة.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾[الشعراء: ٤٠].

ورجوا اتباع السحرة، أي: اتباع ما يؤيده سحر السحرة وهو إبطال دين ما جاء به موسى... كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتبعونه[3]، واتباع السحرة ليس معناه نتبعهم في السحر إنما أراد نتبعهم في نصرة ديننا وملتنا والإبطال على معارضتنا[4]، فإن اتباع السحرة فيه إعلان الحرب على الله ورسله وأوليائه، فاتباعهم فيه الهلاك والخسران.

٥. اتباع الشعراء.

قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

ومعنى ﴿الْغَاوُونَ﴾ جمع غاوٍ، وهو الضال، وهؤلاء يتبعون الشعراء؛ لأنهم يؤيدون مذهبهم في الحياة بما يقولون من أشعار؛ ولأنهم لا يحكم منطقهم مبدأ ولا خلق، بل هواهم هو الذي يحكم المبدأ والخلق، فإن أحبوا مدحوا، وإن كرهوا ذموا[5].

٦. اتباع الآباء والأجداد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١] وإذا قيل لهؤلاء الذين يجادلون في توحيد الله جهلًا منهم بعظمة الله: اتبعوا أيها القوم ما أنزل الله على رسوله، وصدقوا به، فإنه يفرق بين المحق منا والمبطل، ويفصل بين الضال والمهتدي، فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من الأديان، فإنهم كانوا أهل حق[6].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٤.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٢٦.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٧٧.
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١٠/ ٦٦٩٣.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٤٩.

نداءات الله تعالى للناس

النداء من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم ليوصل للناس ما يريد وذلك باستخدامه حرف النداء يا، وقد استفتح القرآن الكريم بعض سوره بالنداء، وذلك في عشر سور، منها سورتين افتتحت بالنداء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وذلك في سورة النساء يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١].

وفي سورة الحج يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج: ١][1].

أولًا: تكرار النداءات:

لقد تكرر النداء في سور متعددة من القرآن الكريم نحو عشرين مرة، منها ما تكرر في السور المكية، ومنها ما تكرر في السور المدنية، وقد جاءت على النحو الآتي:

تكرار النداء في السور المكية:

تكرر النداء بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في السور المكية عشر مرات في خمس سور مكية و هي:

- الأعراف مرة واحدة.
- سورة يونس تكرر النداء بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فيها أربع مرات.
- سورة النمل مرة واحدة.
- سورة لقمان مرة واحدة.
- سورة فاطر ثلاث مرات.

تكرار النداء في السور المدنية:

تكرر النداء بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في السور المدنية عشر مرات في أربع سور مدنية وهي:

- سورة البقرة تكرر النداء بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مرتين.
- سورة النساء تكرر النداء بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ثلاث مرات.
- سورة الحج أربع مرات.
- سورة الحجرات مرة واحدة.

حكم النداءات:

إن تعدد النداء للناس، أو كثرة النداء للناس في القرآن الكريم، لم يرد إلا لحكم عظيمة، لما للنداء من أهمية في الأسلوب القرآني و صيغة النداء للناس الواردة في القرآن هي ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ويا حرف نداء والمنادى أي وهو اسم مفرد مبني على الضم، وها حرف تنبيه مقحم بين المنادى وصفته[2].

وحرفا النداء والتنبيه جاءا ليلفتا الانتباه لما سيأتي بعدهما من أوامر ونواهٍ، ومن

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١ / ١٧٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٤.

خلالها تظهر بعض الحكم، وبعد الغوص في معاني وسياقات القرآن الجليلة نقف على بعض الحكم التي تم التوصل إليها خلال هذا البحث ومنها:

حكم النداءات في السور المكية:

١. الأمر بالإيمان.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨] يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة.

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به[(١)].

جاء النداء ليشمل جميع الناس كما بينت الآيات السابقة؛ ليدعوهم ويأمرهم بالإيمان بالله تعالى، وهذا يتفق مع خصائص السور المكية التي تدعو إلى غرس الإيمان والتوحيد والعقيدة.

٢. التذكير بالتقوى و اليوم الآخر.

لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[لقمان: ٣٣].

يقول تعالى ذكره: أيها المشركون من قريش، اتقوا الله، وخافوا أن يحل بكم سخطه... لأن الأمر يصير هنالك بيد من لا يغالب، ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا. وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يقول: اعلموا أن مجيء هذا اليوم حق، وذلك أن الله قد وعد عباده ولا خلف لوعده[(٢)].

٣. ترسيخ مفهوم التوحيد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٨٩-٤٩١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠ / ١٥٩.

﴿هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تؤفكون (تصرفون) بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟![1].

والمتأمل في هذه الآية يجد أنها اشتملت على أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الألوهية المتمثل في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ وتوحيد الربوبية المتمثل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقضية الخلق والرزق من قضايا توحيد الربوبية، أما توحيد الأسماء والصفات فمتمثل في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾.

٤. إظهار الإعجاز والمعجزة.

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[النمل: ١٦]، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾أي: قال سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض، في أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها[2]، وإن علم منطق الطير من المعجزات التي أكرم الله نبيه سليمان بها.

٥. بيان حاجة الناس لخالقهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥].

ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه ومزيد حاجتهم إلى فضله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه في جميع أمور الدين والدنيا فهم الفقراء إليه على الإطلاق ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾على الإطلاق ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم[3].

٦. بيان الجزاء و العاقبة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ٢٣].

أي: غاية ما تؤملون ببغيكم، وشرودكم عن الإخلاص لله، أن تنالوا شيئًا من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعًا، ويمضي جميعًا، ثم تنتقلون عنه بالرغم.﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾في يوم القيامة[4].

ولما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون في الأرض بغير الحق ذكر

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٣٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٦٤.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٢٦.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦١.

عاقبة البغي وسوء مغبته[1].

حكم تكرار النداءات في السور المدنية:

١. بيان أصل الخلقة والنشأة والغاية منها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس إنا أنشأنا خلقكم من ماء ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء[2].

ويخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالًا كثيرًا ونساء، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم[3].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٤٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٠٩.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٠٢.

٢. الأمر بالعبادة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وهذا أمر عام لكل الناس بأمر عام وهو العبادة الجامعة؛ لامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له[4].

٣. الأمر بأكل الطيبات و النهي عن اتباع الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من الله طيبًا، أي: مستطابًا في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما زينه لهم في جاهليتهم[5].

٤. التذكير بالتقوى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ

(٤) انظر: المصدر السابق ص٤٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٨.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج: ١]، أمر جل وعلا في أول هذه السورة الكريمة الناس بتقواه: بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وبين لهم أن زلزلة الساعة شيء عظيم[(١)].

٥. التذكير بالبعث.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[الحج: ٥].

يا أيها الناس إن كنتم في شك من الإعادة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ أي: خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر، يعني: آدم عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ ثم خلقنا ذريته[(٢)]، ووضح من تقلبكم من حالة إلى حالة في الأرحام، وبعد خروجكم إلى الدنيا، وأنتم تعلمون ذلك من أنفسكم، وتشاهدون الأرض على صفة من الهمود والموت إلى حين نزول الماء فنحيي ونخرج أنواع النبات وضروب الثمرات كل ذلك يسقى بماء واحد ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى، وكما أحياكم أولًا وأخرجكم من العدم إلى الوجود وأحيا الأرض بعد موتها وهمودها، كذلك تأتي الساعة من غير ريب ولا شك، ويبعثكم لما وعدكم من حسابكم وجزائكم[(٣)].

٦. ضرب الأمثال في عجز الأصنام.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[الحج: ٧٣].

قال ابن كثير: (يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك)[(٤)].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢٣/ ٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٦.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٥/ ١٣٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٦٠، ٤٥٣.

الناس والجن

إن الناس والجن من مخلوقات الله تعالى الذين ورد ذكرهم في كتابه الكريم.

وقد بين سبحانه العلاقة بين الناس والجن من أول لحظة وجد فيها أبو الناس جميعًا، وهو آدم عليه السلام، والناس والجن المخلوقان الوحيدان المكلفان في الأرض، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وسنلقي من خلال هذا المبحث الضوء على الناس والجن في عدة محاور ومنها:

أولًا: مادة الخلق:

إن طبيعة خلق الناس تختلف عن طبيعة خلق الجن، فالناس خلقوا من الطين والجن خلقوا من النار.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[الرحمن: ١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢].

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم من طريق عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[(١)].

ثانيًا: العداء بين الناس والجن:

إن علاقة الناس بالجن منذ لحظتها الأولى قائمة على العداء حتى قيام الساعة، وذلك لقوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[الأعراف: ٢٤].

والمراد بالخطاب في ﴿اهْبِطُوا﴾ آدم، وحواء، وإبليس، والعمدة في العداوة آدم وإبليس[(٢)].

ثالثًا: تكبر الجن على الناس:

قال تعالى ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤].

في الآيتين السابقتين يبين الله تعالى أن تكبر إبليس واستعلاءه منعه من السجود وإطاعة أمر الله تبارك وتعالى، والذي منع إبليس من الاستجابة لأمر الله تعالى،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم ٢٩٩٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٩٩.

والسجود هو ظنه الخاطئ بأنه خير من آدم وذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢].

رابعًا: تكريم وتشريف الناس على الجن:

الناس أشرف وأكرم من الجن، وذلك بتشريف الله لأبي البشر آدم وأمر الملائكة وإبليس بالسجود لآدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[الكهف: ٥٠].

يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم؛ إكراما وتعظيمًا؛ وامتثالًا لأمر الله[١]، فإن تشريف وتكريم الآباء تشريف وتكريم للأبناء.

خامسًا: زمن الخلق:

إن المتأمل في كتاب الله تعالى يتبين له أن زمن خلق الجن متقدم على خلق الناس، وهذا يفهم من سياق الآيات المتعددة في كتاب الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

فأول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضًا[٢].

سادسًا: الاشتراك في العبادة والتكليف:

بينت الآيات أن الجن والناس المخلوقات المكلفة بالعبادات في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها. فإن قلت: لو كان مريدًا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادًا. قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه[٣].

سابعًا: التقديم والتأخير:

إن المتدبر في كتاب الله تعالى يجد أن هناك آيات قدم فيها الجن على الإنس أو الناس، وبعض آيات تقدم فيها الإنس على الجن مثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٠/ ٤٥٥.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٠٨.

﴿صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

في الآية الأولى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قدم الجن للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن؛ ليعلموا أن الجن عباد لله تعالى[1].

أما تقديم الإنسان على الجان فهو لبيان التشريف، وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم من آثار قدرته وبديع صنعته، أنه خلق أبا الإنس وهو آدم عليه السلام ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار[2].

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان.

وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجان وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٨.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٤٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢٩.

ثامنًا: العلاقة بين الناس والجن:

١. استعاذة الناس واستجارتهم من الجن برب الناس.

قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد أستجير ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٢]، وهو ملك جميع الخلق: إنسهم وجنهم.

وقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ يعني: من شر الشيطان ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس مرة ويوسوس أخرى، وإنما يخنس فيما ذكر عند ذكر العبد ربه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني بذلك: الشيطان الوسواس، الذي يوسوس في صدور الناس: جنهم وإنسهم[4]، هذا قمة الإيمان أن يستعيذ الناس بخالقهم من شر الشيطان والجن.

٢. استعاذة واستجارة الناس بالجن.

لا ينبغي أن يكون هناك تواصل، وتعامل بين الناس والجن، وذلك لاختلاف الخلقة والطبائع، ولقد ذم الله تعالى رجالًا من الناس كانت تستعيذ بالجن فزادتهم رهقًا.

يقول تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٧٠٩-٧١١.

أي: كنا نرى أن لنا فضلًا على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها - كما كان عادة العرب في جاهليتها - يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: خوفًا وإرهابًا وذعرًا، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم، كما قال قتادة: أي: إثما، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة[1].

وهذا درب من دروب الشرك بالله تعالى أعاذنا الله جميعًا من الوقوع به.

٣. الاشتراك في العذاب في حال الكفر.

يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[هود: ١١٩] أخبر أنه يملأ ناره و جنته كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام البخاري من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة: يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟! وقالت النار: يعني: أوثرت بالمتكبرين فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء ولكل واحدةٍ منكما ملؤها. قال: فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدًا، وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول: هل من مزيدٍ؟ ثلاثًا حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعضٍ وتقول: قط قط قط)[2].

نستوضح من الآيات السابقة: .

- اختلاف أصل الخلقة يؤدي إلى اختلاف الطبائع والصفات عند الناس والجن.
- المتدبر للآيات القرآنية يتبين له أن هناك عداوة أزلية بين أبي البشر آدم، وبين أبي الجن إبليس.
- اشتراك الناس والجن في العبادة والتكاليف، ميزتهما عن سائر المخلوقات، فمن أدى وأطاع له الجنة، ومن عصى وامتنع فله النار.
- الجن مخلوق قبل الإنس، وسكن الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فاستحقوا عقاب الله تعالى، وكذلك سنة الله في الناس إذا فسدت استحقت العقاب والعذاب.
- الناس أكرم وأشرف خلقًا من الجن.
- الاستعاذة بالله وحده من الجن، ولا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب باب ما جاء في قول الله تعالى: (إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين)، ٩/ ١٣٤، رقم ٧٤٤٩.

يجوز للناس الاستعانة بالجن.

- دخول الناس والجن للجنة والنار رغم أن الجن خلقوا من النار

موضوعات ذات صلة:

آدم، الإنسان، الجن، الخلق، السياسة

النبات

عناصر الموضوع

مفهوم النبات	٢٥٦
النبات في الاستعمال القرآني	٢٥٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٥٨
النبات ومظاهر القدرة الإلهية	٢٦٠
النبات ومظاهر النعمة على البشر	٢٧٤
نبات الدنيا والآخرة	٢٨٣
النباتات والأمثال	٢٩٢
لمسات إعجازية في النبات	٢٩٩

مفهوم النبات

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «النون والباء والتاء أصلٌ واحدٌ يدل على نماء في مزروع، ثم يستعار، فالنبت معروف، يقال: نبت، وأنبتت الأرض، ونبت الشجر: غرسته، ويقال: إن في بني فلان لنابتة شر، ونبتت لبني فلان نابتة، إذا نشأ لهم نشء صغار من الولد»[(١)].

وقال ابن منظور: «النبت والنبات كل ما أنبت الله في الأرض فهو نبتٌ، والنبات فعله، ويجري مجرى اسمه، يقال: أنبت الله النبات إنباتًا، ونحو ذلك قال الفراء: إن النبات اسم يقوم مقام المصدر»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للنبات عن معناه اللغوي؛ إذ النبات في الاصطلاح يطلق على ما يخرج من الأرض على صفة النمو، وهو ذات المعنى اللغوي الذي سبق ذكره.

يقول الراغب الاصفهاني: «والنبات: ما يخرج من الأرض من الناميات؛ سواء كان له ساق كالشجر، أو لم يكن له ساق كالنجم، لكن اختص في التعارف بما لا ساق له؛ بل قد اختص عند العامة بما يأكله الحيوان، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ [النبأ: ١٥]»[(٣)].

وقيل: «الحي النامي لا يملك فراق منشئه ويعيش بجذور ممتدة في الأرض أو في الماء وما أخرجته الأرض من شجر ونحوه، وأنبتت الأرض، أي: أخرجت النبات، والبقل نشأ وربا، ويقال: أنبت الله البقل، أخرجه من الأرض فهو منبوت»[(٤)].

وهكذا يتبين لنا مما تقدم أن النبات هو: كل نامٍ وكل ما نبت من الأرض، كما يتبين لنا أنه لا فرق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للنبات.

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٣٧٨.
(٢) لسان العرب ٦/ ٤٣١٧.
(٣) المفردات في غريب القران ص٧٨٧.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٩٢.

النبات في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نبت) في القرآن الكريم (٢٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
فعل ماضي	١٢	﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧]
فعل مضارع	٥	﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنۢبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠]
اسم مصدر	٩	﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه:٥٣]

وجاء النبات في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

أحدها: النبات بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [يونس: ٢٤].

الثاني: الإخراج: ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١]. أي: أخرجت.

الثالث: الخلق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]. أي: خلقكم خلقًا.

الرابع: التربية: ومنه قوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. قال قتادة: لا تصيب الذنوب.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٩٢.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٥٨١-٥٨٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزرع:

الزرع لغةً:

من الفعل زرع، بمعنى: طرح البذر في الأرض، يقال: يزرعه زرعًا وزراعةً: بذره، والاسم الزرع، وجمعه زروع، والزرع: الإنبات، يقال: زرعه الله أي: أنبته[(١)].

الزرع اصطلاحًا:

نفس المعنى اللغوي؛ إذ الزرع في الاصطلاح يعني: الإنبات، قال الراغب: «الزرع الإنبات، وحقيقة ذلك تكون بالأمور الإلهية دون البشرية، قال: عز وجل ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤].

فنسب الحرث إليهم، ونفى عنهم الزرع، ونسبه إلى نفسه، وإذا نسب إلى العبد فلكونه فاعلا للأسباب التي هي سبب الزرع، كما تقول أنبت كذا إذا كنت من أسباب نباته، والزرع في الأصل مصدر، وعبر به عن المزروع، ويقال: زرع الله ولدك، تشبيهًا، كما تقول: أنبته الله»[(٢)].

الصلة بين الزرع والنبات:

من خلال التأمل في المعاني السابقة يظهر أن النبات عام يشمل ما له ساق وما ليس له ساق، ويشمل ما يأكله الإنسان، وما يأكله الحيوان، أما الزرع فهو خلاف الأشجار، وهو أيضا موسمي فله مواسم يزرع فيها، وأخرى يحصد فيها.

٢ الحرث:

الحرث لغةً:

مصدر حرث، بمعنى: عمل في الأرض، وشقها، وأثارها، وأعدها للزراعة[(٣)]، قال ابن منظور: «العمل في الأرض زرعًا كان أو غرسًا، وقد يكون الحرث نفس الزرع»[(٤)].

الحرث اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي؛ إذ هو: «إلقاء البذر في الأرض، وتهيؤها للزرع، ويسمى

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٨٢٦.
(٢) المفردات ص٢١٢.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٦٤.
(٤) لسان العرب ٢/ ٨١٩.

المحروث حرثًا »[1].

الصلة بين الحرث والنبات:

من خلال ما سبق يتبين أن الحرث هو ما يقوم به الزارع في الأرض من عملٍ لإنبات النبات والحبوب والأشجار، ويطلق على ما يخرج من تلك الأرض التي حرثت، فالحرث عمل المزارع، أما الإنبات فهو بأمر الله عز وجل، فقد يحرث المزارع أرضه ولا تنب، والحرث بذلك أخص من النبات، ولفظ النبات أعم منه، إذ النبات يشمل الحرث، ويشمل غيره مم ينبته الله عز وجل.

٣ الشجر:

الشجر لغة:

جمع شجرة، وهي في اللغة ما كان على ساق من نبات الأرض، قال ابن فارس: «الشين والجيم والراء أصلان متداخلان، يقرب بعضهما من بعض، ولا يخلو معناهما من تداخل الشيء بعضه في بعض، ومن علوٍ في شيءٍ وارتفاع؛ فالشجر معروفٌ، الواحدة شجرة، وهي لا تخلو من ارتفاعٍ وتداخل أغصان، ووادٍ شجر: كثير الشجر، ويقال: هذه الأرض أشجر من غيرها، أي: أكثر شجرًا. والشجر: كل نبتٍ له ساقٌ»[2].

الشجر اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي؛ «الشجر من النبات ما له ساق»[3].

وذكر الرازي رحمه الله أن: «الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرقٌ راسخٌ، وأصلٌ قائمٌ، وأغصانٌ عاليةٌ»[4].

الصلة بين الشجر والنبات:

يظهر من التعريفات السابقة لكلٍ من الشجر والنبات أن الشجر ما هو إلا نوعٌ من أنواع النبات، يتميز بأن له ساقا؛ وبذلك فالنبات أعم من الشجر، فهو يشمله ويشمل غيره من النباتات التي لا سيقان لها.

(١) المفردات في غريب القران، الراغب الأصفهاني ص١١٢.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٢٤٦.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٦.
(٤) مفاتيح الغيب ١/ ٩٣.

النبات ومظاهر القدرة الإلهية

إن لله عز وجل في خلقه آياتٍ بيناتٍ تدل على وجوده، وتشهد بربوبيته، وتنطق بوحدانيته، وتقر بصمديته؛ فمن تأمل في الكون من حوله، وأدار بصره في خلق ربه عز وجل، وأطلق فكره في كل ما رأت عيناه من صنع الله تعالى علم علم اليقين أن لهذا الكون موجدًا، وأن لهذا الخلق صانعًا حكيمًا؛ فهذه السموات المرفوعة، وهذه الأرض الممدودة، وتلك الجبال الرواسي، وتلك الأنهار الجواري، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، ونزول الماء من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، واختلاف الأشجار والزروع والثمار، ونبات كل شيء، وفي كل ما خلق الله عز وجل دلالات بينة، وبراهين واضحة على أنه سبحانه الخالق الحكيم، والمدبر الخبير؛ ففي كل شيء له آية تدل على أنه الخالق الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يلد، ولم يكن له كفوًا أحد.

وكثيرًا ما يلفت الخالق الحكيم سبحانه أنظار عباده للتفكر في خلقه، ويدعوهم للتأمل في بديع صنعه، وكتاب الله عز وجل زاخر بالآيات التي تدعو العباد لذلك.

فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٥].

وكم من آيةٍ في كتاب الله عز وجل ذكر فيها الخالق سبحانه عباده بما يستوجب عليهم شكره وعبادته، وحثهم على التفكر في أنفسهم، والتأمل في الكون من حولهم، وأمرهم بما يجب عليهم لربهم العظيم من العبادة والطاعة؛ فهو سبحانه الذي خلقهم، وخلق من قبلهم، وخلق الكون وجعل فيه الآيات والعبر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

ويجد المتأمل في كتاب الله عز وجل أن الله سبحانه قد أنكر على الكافرين تغافلهم عن آيات الله عز وجل فيما حولهم من الكون، وأنكر عليهم عدم انتفاعهم بما

فيها من دلائل وبراهين، قال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وإن من عظيم آيات الله عز وجل في خلقه ذلك النبات العظيم الأصناف، الجميل البهيج؛ يخرجه الله عز وجل من الأرض الميتة بعد إنزال الماء عليها؛ فتصبح الأرض به مخضرة، ذات حسن وجمال، هذا النبات الذي جعل الله عز وجل فيه طعامًا للإنسان والحيوان، فيه الغذاء والدواء، وفيه منافع شتى للعباد، لا ينظر إليه عاقلٌ إلا ويجذب نظره، ويشد وعيه، ويأسر عقله، ويملأ حسه وشعوره، فينطق القلب قبل اللسان: سبحان من أخرجه فسواه، وسبحان من أنبته ونماه، وسبحان من جعله ألوانًا لا تعد، وأصنافًا لا تحصى، وسبحان من جعل فيه آيات لمن اعتبر، وذكرى لمن كان له بصر.

وفي المطالب الآتية -بإذن الله تعالى- بعض الوقفات مع النبات، وما فيه من دلالات القدرة، وبراهين العظمة، وعظيم الصنعة، التي تدل على عظيم الخالق المبدع المصور.

أولًا: الماء والإنبات:

إن من عظيم آيات الله عز وجل فيما خلق من النبات أنه سبحانه ينبت ذلك النبات من أرضٍ هامدةٍ ميتةٍ، لا حياة فيها، ينزل عليها الماء من السماء؛ فتهتز وتربوا، ويخرج سبحانه منها أصناف النبات وأنواع الأشجار، قال الله عز وجل منبهًا العباد لتلك الآية من آياته: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٥-٦].

فليتأمل العباد، وليتفكر العقلاء في تلك الآية العظيمة من آيات الله عز وجل؛ الأرض اليابسة القاحلة التي لا نبات فيها نزل عليها الماء بأمر الله سبحانه فتحركت واهتزت، وانتفخت وارتفعت، وأنبتت من أصناف الزروع والثمار، مختلفة الأشكال والألوان، متعددة الطعوم والروائح، حسنة المنظر، طيبة الريح، عظيمة النفع للعباد[1].

ونظير هذه الآية من كتاب الله عز وجل قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ الْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

فإنبات النبات آية من آيات الله العديدة، الدالة على وجوده وقدرته، الشاهدة على علمه وحكمته، والموجبة للإيمان به وتوحيده وعبادته، تنطق بأن خالقها عليمٌ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ١٧.

حكيمٌ، وأنه لا يعجزه شيء، وهو على كل شيء قدير[1].

إنها لآيات عظيمة باهرة، لا يقدر عليها إلا الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

إنه سبحانه ينزل الماء من السماء، فيخرج به من الأرض الميتة أصناف الزروع والثمار، معاشًا للخلق، ينبت سبحانه الزرع فيخرج الحب بعضه راكبًا فوق بعض، ويخرج سبحانه النخل ذات العذوق والثمار الدانية المتدلية، ويخرج سبحانه جنات الأعناب والزيتون والرمان، كلها متشابهة في الأوراق وفي منظر الثمر، وغير متشابهة في الطعم والرائحة، فانظروا أيها العباد في ذلك الثمر حين يثمر، وانظروا وتفكروا فيه حين يطيب وينضج، لتعلموا أن له خالقًا قديرًا، وصانعًا حكيمًا[2].

قال الرازي رحمه الله: «واعلم أنه تعالى لما ذكر الأرض والسماء، بين ما بينهما من شبه عقد النكاح؛ بإنزال الماء من السماء على الأرض، والإخراج به من بطنها أشباه النسل الحاصل من الحيوان، ومن أنواع الثمار، رزقًا لبني آدم؛ ليتفكروا في أنفسهم، وفي أحوال ما فوقهم وما تحتهم، ويعرفوا أن شيئًا من هذه الأشياء لا يقدر على تكوينها وتخليقها إلا من كان مخالفًا لها في الذات والصفات، وذلك هو الصانع الحكيم تعالى»[3].

إن الله تعالى وحده من خلق السماوات والأرض، وهو سبحانه وحده من ينزل الغيث للعباد، وينبت النبات والشجر، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

وإن هذه لحقيقة لا يمكن للعباد إنكارها، وإنها لآيات لا يمكن لعاقل أن يغفل عنها، يراها العباد مرارًا وتكرارًا، لا تغيب عن أعينهم، ولا تبعد عن نواظرهم، يقر بها الكبير والصغير، والعالم والجاهل، ولا يجرؤ أحد على نسبة تلك الآيات لنفسه، فالجميع يقر بأنه لا ينزل الغيث إلا الله، ولا يحيي الأرض سواه، ولو أنه سبحانه أمسك المطر عن العباد فمن ينزله؟ ولو أنه سبحانه لم يحيي الأرض فمن غيره يحييها؟ ولو أن سبحانه لم ينبت النبات فمن ينبته؟ قال

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٨٠.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٨٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٤٠٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٣/ ٣١٩.

الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٠].

وفي ذات السياق يقول الله عز وجل لافتًا أنظار العباد إلى عظيم صنعه وبديع خلقه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

فالماء ينزله الله من السماء، فإذا به ينابيع وعيون وأنهار تسير هنا وهناك، وتسيل في مسالكها متنقلة من مكان إلى مكان، ثم إذا بهذا الماء تحيى به الأرض بعد همودها، وإذا بها تهتز بالنبات الناضر البهيج المختلف الألوان والأصناف والأشكال، ثم إذا بهذا الزرع يبلغ غايته المقدرة له، فينضج للحصاد، ثم يتم جفافه فيصفر، فيغدو بعد ذلك حطامًا كأنه لم يكن زينة بالأمس؛ ولا بد أن لذلك كله صانع حكيم، ومدبر عليم[1].

إن النبات تبدأ حياته في الغالب بذرة أو نواة؛ توضع في الأرض، وتسقى بالماء؛ فتنفلق وتنبت، فمن الذي يفلقها ويشقها؟ ومن الذي يخرجها وينبتها؟ ومن الذي يرعاها ويحفظها؟

يجيب القرآن الكريم عن ذلك بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

إنه الله اللطيف الخبير، يشق الحبة اليابسة، ويخرج منها النبتة الرطبة الخضراء اليانعة، ويخرج من النبتة الخضراء اليانعة الحبة اليابسة، والنواة الميتة، وهذا من عجيب صنعه، وبديع خلقه تعالى[2].

إن العبد إذا أطلق نظره، وأرسل فكره في ذلك النبات العجيب ازداد إيمانه، وعظمت معرفته بربه، وشعر عظم فضل الله عز وجل على خلقه؛ إذ الخالق الحكيم الرحيم لم ينبت للخلائق صنفًا واحدًا من النبات، ولم يجعل الخارج من الأرض منه على صورة واحدة، ولا على لون أو طعم واحد؛ بل جعل سبحانه النبات أصنافًا، وجعل البساتين والجنات، وأنواع الزروع والأشجار والثمار.

قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٥/ ٢٩٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٤٤.

﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

والمراد بالجنات المعروشات في الآية: ما انبسط من النبات على وجه الأرض وانتشر مما يعرش؛ كالعنب والقرع والبطيخ، وغير المعروشات: ما قام على ساق كالنخل والزرع وسائر الأشجار، وقيل: إن المعروشات ما أنبته الناس، وغير المعروشات ما خرج في البراري والجبال من الثمار[1].

قال القرطبي: «وفي هذه إشارة إلى الآية السابقة الذكر أدلة ثلاثة؛ أحدها: قيام الدليل على أن المتغيرات لا بد لها من مغير، والثاني: التنبيه على المنة منه سبحانه علينا؛ فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاءً، وإذ خلقه ألا يكون جميل المنظر، طيب الطعم، وإذ خلقه كذلك ألا يكون سهل الجني؛ فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداءً؛ لأنه سبحانه لا يجب عليه شيء، والثالث: التنبيه على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراق ليست من جنسها، وثمر خارج من صفته الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجني الجديد، والطعم اللذيذ؛ فأين الطبائع وأجناسها؟ وأين الفلاسفة وأناسها؟ هل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان؟ أو ترتب هذا الترتيب العجيب؟! كلا! لا يتم ذلك في العقول إلا لحيٍ عالمٍ قديرٍ مريدٍ، فسبحان من له في كل شيءٍ آيةٌ ونهاية»[2].

فما أعظم الخالق الحكيم، خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى، فمن يخلق كخلقه؟! ومن يقدر على فعله؟! ومن له ملك كملكه؟! ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

ثانيًا: سقي النبات والزرع بماء واحد:

إنه من عجيب قدرة الله عز وجل في النبات والأشجار وما يخرج منها من الثمار أن الله تعالى يخرج من الأرض الواحدة، والتربة الواحدة، والتي تسقى بماء واحد، يخرج منها سبحانه أصناف الزروع والثمار، وألوان الفاكهة والطعام، فلينظر الإنسان وليتأمل فيما يخرج من قطع الأرض المتجاورة، ليرى زروعًا مختلفةً، وزهورًا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٥٣، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٣٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٩٩.

يانعةً، وفاكهةً كثيرةً متنوعةً، وثمارًا عديدة، ولكل صنف منها طعمٌ مختلفٌ، ولونٌ متباينٌ، وحجمٌ متفاوتٌ، ولكل صنف منها خصائصه ومنافعه وفوائده، فسبحان من أبدعها، وسبحان من يرعاها، وسبحان من نوعها.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤][1].

إن هذه الآية الكريمة تلفت أنظار العباد إلى الأرض التي يعيشون عليها؛ فإن فيها ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: أراضٍ يجاور بعضها بعضًا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس، وهذه سبخة مالحة، لا تنبت شيئًا، ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض؛ فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، وتقارب بعضها بعضًا، وهذا كله مما يدل على الفاعل الحكيم، لا إله إلا هو سبحانه.

ومع هذا الاختلاف في قطع الأرض هناك اختلاف عجيب آخر أشارت إليه الآية: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾.

فهذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها؛ فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وكذلك الأزهار، والأرض الواحدة يكون فيها الخوخ، والكمثرى، والعنب الأبيض والأسود، وبعضها أكثر حملًا من بعض، وبعضه حلو، وبعضه حامض، وبعضه أفضل من بعض، مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذلك آيات لمن كان واعيًا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل الحكيم الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد[2].

قال القرطبي: «وفي هذا أدل دليل على وحدانيته، وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضل عن معرفته؛ فإنه سبحانه نبه بقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته، وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب، والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف»[3].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٣٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٤٨.

إن في ذلك كله آيات وعبر ودلائل لمن نظر وتدبر باستبصار واعتبار، ولا ينتفع بكل تلك الآيات إلا العقلاء، ومن لم ينتفع بها فهو منزل منزلة من لا يعقل، وهذا ما يستفاد من وصف الآيات بأنها من اختصاص الذين يعقلون في قوله سبحانه في ختام الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

ثالثًا: النبات من مظاهر النعيم:

إن من عجيب آيات الله عز وجل في خلق النبات أنه تعالى جعل في ذلك النبات ما لا يعد ولا يحصى من الفوائد والمنافع؛ فما أكثر منافعه، وما أعظم فوائده؛ فقد جعل الله عز وجل فيه حياة للإنسان والحيوان، وبه تستقيم الحياة على وجه الأرض، وفيه الغذاء لجميع الحيوانات والأنعام والإنسان.

والنبات ضروري جدًا للتوازن الحراري على الأرض؛ إذ النبات يحفظ للأرض حرارتها المعتدلة، ويمنع الزيادة الضارة لحرارة الأرض، كما أنه يقوم بتنقية الجو من غاز ثاني أكسيد الكربون، وإخراج الأكسجين، من خلال ما يعرف بعملية البناء الضوئي.

ويستفيد الإنسان من أخشاب النبات وأوراقه في بناء البيوت والمساكن، وصنع الأثاث والآلات والمعدات، كما أن النبات مصدر رئيسي من مصادر الطاقة للإنسان.

وللنبات فوائد نفسية للإنسان؛ فمنظره البهيج، وصورته الجميلة تبعث في النفس الطمأنينة والسرور، وأزهاره وثماره بأشكالها وألوانه الجذابة، وروائحها العطرة الفواحة تشرح الصدر، وتريح النفس، وتملأ القلب راحةً وسعادةً، وكل هذا معروف ومجرب لا يحتاج إلى دليل أو برهان.

وكثيرًا ما يذكر الله عز وجل عباده بما جعل لهم من منافع ونعم لا تحصى فيما خلقه سبحانه من نبات وزرع وجنات؛ فهو سبحانه الذي ساق الماء، وأنزله على الأرض الميتة، وأخرج به سبحانه طعامًا ورزقًا يأكل منه العباد، وتتغذى عليه الخلائق.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

والأرض الجرز هي: الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، وأصل الجرز من قولهم: ناقة جرز، وذلك إذا كانت تأكل كل شيء، وكذلك الأرض الجروز، أي: التي لا يبقى على ظهرها شيء إلا أفسدته[2].

تلك الأرض الجرز الميتة أصبحت حية خضراء منبتةً، فيها أنواع الزروع، وأصناف الثمر، ليأكل العباد ويرعوا أنعامهم، وليشكروا ربهم الذي أسبغ عليهم نعمه

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٨٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٩٦.

وعطاياه.

قال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٤].

قال السعدي: «وخص الله عز وجل أولي النهى بذلك، لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبارٍ، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم؛ يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة»[1].

إن ذلك لمن عظيم آيات الله عز وجل وبديع صنعه، وإن ذلك لمن عظيم نعمه سبحانه على خلقه، تستوجب على العباد الشكر للمنعم، وإخلاص الطاعة للمتفضل، قال الله عز وجل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

إن الإنسان يعتمد في غذائه اعتمادًا كليًا على النبات؛ سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر؛ فالإنسان يعيش على النبات وما يخرجه من ثمار، أو على لحوم الأنعام والطيور التي تتغذى على النبات؛ فالنبات أساس الغذاء للإنسان والحيوان[2].

وقد ذكر الله سبحانه العباد بأنه هو من يخرج الزرع من الأرض الميتة، فتكون المراعي الخضراء والكلأ تتغذى الدواب والبهائم، وتأكل الوحوش والضواري، ويرعى العباد أنعامهم، ويتنعمون بما لذ وطاب من أصناف الفاكهة والثمار، قال عز وجل ممتنًا على عباده: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١١].

إنه الله الكريم الرحمن الذي أخرج الحب والزرع والجنات، ورزق العباد من ثمار النخل والأعناب، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

لقد دعا الله عز وجل عباده للتفكر فيما أخرج لهم من الزروع والثمار، وفيما رزقهم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥٠٧.

(٢) انظر: النبات في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، جواهر محمد باسلوم ص١٥٤.

ربهم من أصناف الطعام وألوان الغذاء؛ ليعلموا عظمة الخالق المنعم الرزاق ذي القوة المتين، ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وعلى العباد أن يعلموا أن من أنعم عليهم بكل تلك النعم، وتفضل عليهم بأنواع الفضائل والنعم، قادر سبحانه على منعها عنهم، وحرمانهم منها؛ فلو شاء سبحانه ما أنزل على العباد الغيث، ولو شاء سبحانه لأذهب الماء غورًا في الأرض، ولو شاء سبحانه لما أنبت نباتًا ولا أخرج حبًا، ولا خلق ثمرًا، ومن غيره سبحانه ينزل المطر إن منعه عن العباد؟! ومن غيره يرزق العباد إن حبس عنهم الرزق؟!

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٨-٢٠].

إنه يجب على العباد أن يقابلوا نعمة الله عز وجل عليهم بإنبات النبات والشجر والثمر بالشكر الجميل، وبالثناء الحسن لمن أنعم عليهم وتفضل؛ فما أعظم نعم الخالق على خلقه، وما أشد تقصير العباد في شكر ربهم عز وجل على آلائه ونعمه، يقول ابن القيم: «فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلاء، ويكرر ذكرها؛ لعله يوقفه على المراد منها؛ ما هو؟ ولأي شيءٍ خلق؟ ولماذا هيئ، وأي أمر طلب منه على هذه النعم؟ كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة؛ لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله، وحمدًا وشكرًا وطاعةً، وشهود تقصيره بل تفريطه في القليل مما يجب لله عليه»[1].

رابعًا: النبات والسجود:

النبات خلق من خلق الله عز وجل، وكل الخلائق تسجد لخالقها وتسبح بحمده، ولا يستنكف مخلوق من مخلوقات الله عز وجل عن الانقياد لأمره، والخضوع لسلطانه؛ فالكل يخر لعظمة الجبار سبحانه، والكل طوع أمره، وما ينبغي لمخلوق أن يعصي ربه.

ولقد أخبر الله عز وجل عن سجود المخلوقات جميعًا له سبحانه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٣٨.

﴿الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

ففي هاتين الآيتين يخبر الله تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل مخلوق؛ ولهذا يسجد له سبحانه ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة، الكل يسجد لربه سجود الذل والقهر والخضوع؛ فكل أحد من مخلوقاته سبحانه خاضعٌ لربوبيته، ذليلٌ لعزته، مقهورٌ تحت سلطانه عز وجل.

ولكل مخلوقٍ سجودٌ جعله الله عز وجل خاصًا به، كما أنه سبحانه جعل لكل مخلوقٍ من مخلوقاته تسبيحًا خاصًا، وصلاةً خاصةً.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

فقد علم كل مصلٍ وكل مسبحٍ من مخلوقات الله عز وجل ما كلفه الله سبحانه به من صلاةٍ وتسبيحٍ [(١)]، والناس لا يعلمون حقيقة سجود الخلائق وتسبيحها لله عز وجل، ولا يفقهون كيفيته.

قال الله عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد أخبر الله عز وجل أن من الخلائق من تسجد لربها طوعًا، ومنها من يسجد له سبحانه كرها.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وفي معنى سجود الساجدين لله عز وجل كرهًا أقوالًا ذكرها المفسرون؛ أشهرها: أنه سجود ظل الكافر، أو أنه سجود الكاره بتذلله لله عز وجل، وانقياده لما يريده سبحانه منه؛ من عافيةٍ ومرضٍ، وغنى وفقر، وغير ذلك من أقدار الله عز وجل [(٢)].

ولعل الراجح -والله أعلم- أن من يسجد لله كرهًا هو الكافر فقط؛ إذ جميع الخلائق تسجد لربها وتطيعه طوعًا لا كرهًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والمخلوق الوحيد الذي يتصور أنه

(١) والآية تحتمل وجهًا آخر، وهو: أن الله عز وجل قد علم صلاة كل مصلٍ، وعلم تسبيح كل مسبح، وهو سبحانه عليم بما يفعلون. انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٨٧.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣١٨، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٠٦.

يسجد كرهًا هو الكافر من الإنس والجن، وكيفية سجوده كرهًا إما بسجود ظله -كما ذكر بعض المفسرين-، وإما أن يكون بتذلله لله عز وجل، وانقياده لما يريده سبحانه منه؛ من عافيةٍ ومرضٍ، وغنى وفقر، وغير ذلك من أقدار الله عز وجل.

وإذا كانت الخلائق كلها تسجد لله عز وجل فإن النبات من جملة ما خلق الله سبحانه، وهي تسجد ككل المخلوقات لله سبحانه، تسجد سجودًا جعله الله عز وجل لها، لا نعلمه، ولا نفقهه، وقد صرح الله عز وجل بسجود الشجر مع سجود غيرها من المخلوقات؛ كالشمس والقمر، والنجوم، والجبال، وغيرها من مخلوقات، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

والمقصود بالرؤية في الآية: العلم، أي: ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض؛ إذ إنما عرف ذلك وعلم بخبر الله عز وجل لا أنه يرى بالعين الباصرة[(١)].

وقد ورد أيضًا الإخبار الصريح عن سجود النبات لله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

فقد رجح أكثر المفسرين أن المقصود بالنجم هنا: ما نجم (أي: خرج) من الأرض، مما ينبسط عليها، ولم يكن على ساق مثل: البقل ونحوه، فهو كل نبات لا ساق له، وأما الشجر فهو النبات الذي له ساق[(٢)].

ولا شك أن سجود النبات ليس كسجود الإنسان بوضع الرأس على التراب؛ بل هو سجود يتضمن معنى التسليم و الخضوع لله المتعال، ويتضمن سجودًا حقيقيًا لله عز وجل لا نعرفه نحن البشر، ولا نفقهه؛ ولكننا نؤمن به، ونصدق خبر ربنا تعالى عنه.

وقد ظن بعض الناس أن تسبيح الخلائق لله عز وجل، وسجودها له سبحانه هو دلالتها على خالقها، وذلك بما فيها من آيات وعبر، وهذا كلام مردود غير مقبول؛ فسجود المخلوقات لربها سجود حقيقي، طاعة لبارئها تعالى؛ ولكن نحن البشر لا نعلم كيفيته، ولا نفقه حقيقته.

وقد رد ابن القيم على من قال مثل هذا الكلام بقوله: «ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط، فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا.. وفي

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢١٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١١، زاد المسير، الجوزي ٨/ ١٠٧.

أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحًا وسجودًا وصلاةً وتأويبًا وهبوطًا من خشيته؟ كما ذكر تعالى ذلك في كتابه؛ فتارةً يخبر عنها بالتسبيح، وتارةً بالسجود، وتارةً بالصلاة؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية: قد علم الله دلالته عليه؟ وسمى تلك الدلالة صلاةً وتسبيحًا؟ وفرق بينهما، وعطف إحداهما على الآخر، وتارةً يخبر عنها بالتأويب، وتارةً يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت؛ كالعشي والإشراق؛ أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين؟ وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلًا على بطلانه، والحمد لله»[1].

والخلاصة أن الله عز وجل قد أخبر بأن النباتات والأشجار تسجد لربها عز وجل كغيرها من المخلوقات، والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليهم، ولا نفقه كيفية ذلك السجود ولا هيأته، ولا شك بأن سجود النبات له عز وجل آية من آيات الله التي لا تحصى ولا تنتهي، ولا شك بأن علمنا بسجود النبات لله عز وجل يزيد من حبنا للنبات، ويضفي عليها جمالًا فوق جمالها، وبهجة فوق بهجتها؛ فسبحان من خلق النبات، وسبحان من يسجد له النبات وكل المخلوقات.

خامسًا: الدورة النباتية والبعث بعد الموت:

إن من تأمل في آيات القرآن الكريم التي ذكر فيها النبات يجد أن كثيرًا من تلك الآيات قد ساقها الله عز وجل للدلالة على حقيقة البعث بعد الموت، تلك الحقيقة العظيمة التي يؤمن بها المؤمنون، وقد أنكرها الكفار والمشركون، وزعموا أن الله عز وجل لا يعيد الأموات إلى الحياة مرة أخرى، ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقد ساق الله عز وجل في كتابه العزيز الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة الدالة على حقيقة البعث بعد الموت.

وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في إثبات حقيقة البعث؛ فتارة يستدل بالنشأة الأولى للخلق؛ وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

فالذي خلق الخلق أول مرة قادر سبحانه على إعادة الخلق مرة أخرى، ﴿وَهُوَ الَّذِي

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٣٥.

﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وتارة يستدل القرآن الكريم على حقيقة البعث بخلق ما هو أعظم من بعث الناس، وهو خلق السماوات والأرض، والآيات في ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فخلقه تعالى للسماوات والأرض من أعظم البراهين على بعث الناس بعد الموت؛ «لأن من خلق الأعظم الأكبر لا شك في قدرته على خلق الأضعف الأصغر»[(١)].

وتارة يستدل القرآن الكريم على حقيقة البعث بإحياء الأرض الميتة؛ فكما أن الله عز وجل يحي الأرض بعد موتها فهو سبحانه قادرٌ على إحياء الناس بعد أن تبلى أجسادهم، وتفنى عظامهم، وقد ذكرت آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل هذه الحقيقة العظيمة؛ من ذلك قوله سبحانه: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

أي: انظروا نظر استبصار واستدلال، واستدلوا بذلك على أن من قدر على إحياء الأرض قادرٌ على إحياء الموتى، وهذا من قبيل الاستدلال بالشاهد على الغائب[(٢)].

ومن آيات الاستدلال على حقيقة البعث بإحياء الأرض الميتة قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

فتلك الأرض الخاشعة الميتة، التي لا نبات فيها ولا حياة أحياها الله عز وجل بما أنزل عليها من ماء من السماء، ولا ريب بأن من كانت هذه قدرته فهو قادرٌ على إحياء الناس بعد الموت والفناء، قال الشنقيطي: «وما أشار إليه جل وعلا في هذه الآية الكريمة: من أن إحياء الأرض بعد موتها برهانٌ قاطعٌ على قدرة من فعل ذلك على إحياء الناس بعد موتهم؛ لأن الجميع إحياءٌ بعد موتٍ، وإيجادٌ بعد عدم»[(٣)].

ومن تلك الآيات أيضًا قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فكما أنه سبحانه أحيا الأرض بعد موتها بالنبات، فكذلك يخرج الموتى من قبورهم،

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٨٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٤٥.

(٣) أضواء البيان ٤/ ٢٧٩.

بعد ما كانوا رفاتًا متمزقين، وهذا استدلال واضحٌ بينٌ لكل ذي عقلٍ؛ فإنه لا فرق بين الأمرين[(١)].

قال ابن كثير: « أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة؛ ينزل الله تعالى ماءً من السماء؛ فتمطر الأرض أربعين يومًا؛ فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب»[(٢)].

وهناك آياتٌ كثيرةٌ في كتاب الله عز وجل غير ما تلك الآيات السابقة فيها استدلال على قدرة الله عز وجل على بعث الناس بعد موتهم بقدرته سبحانه على إحياء الأرض الموات، والعبرة في ذلك أن العبد عليه أن يتبصر ويتفكر في مخلوقات الله عز وجل من حوله، ويتأمل في آياته سبحانه في خلق النبات والشجر من الأرض الميتة؛ ليعلم علم اليقين أن من قدر على ذلك قادرٌ سبحانه على إحياء الموتى من قبورهم، وما يعجزه ذلك؛ فهو سبحانه على كل شيء قدير.

وبعد هذه الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة، التي لا تخفى إلا على من عمي بصره، ولا ينكرها إلا من عطل فكره، نعلم أنه من أعجب العجب قول منكري البعث سائلين منكرين: أإنا لفي خلق جديد؟! وكأنه لم تكن لهم أعين يبصرون بها قدرة الله عز وجل على الإحياء من حولهم، وكأنه لمن تكن لهم قلوبٌ تعي آيات الله عز وجل من حولهم ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾[الرعد: ٥].

والعجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة، والخطاب في هذه الآية للرسول صلى الله عليه وسلم، ومعناه: إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة، وتكذيبهم للبعث مع إقرارهم بابتداء الخلق فإن ذلك حقًا من العجائب؛ فإن الذي توضح له الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم ينكر ذلك فإن قوله غاية العجب، وقيل: معنى الآية: وإن تعجب من تكذيبهم إياك بعدما كانوا حكموا عليك بأنك من الصادقين، فإن تكذيبهم بالبعث والنشور أعجب[(٣)].

قال الزمخشري في معنى الآية: «وإن تعجب يا محمد من قولهم في إنكار البعث فقولهم عجيبٌ، حقيقٌ بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة، ولم يعي بخلقهن، كانت الإعادة أهون شيءٍ عليه وأيسره؛ فكان إنكارهم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٢٥.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٩٥، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٥٨.

أعجوبةٌ من الأعاجيب»[1].

وفي ختام هذا المبحث يتبين أن آيات الله عز وجل في النبات -كغيرها من آيات الله في جميع المخلوقات- تدل بوضوح، وتشهد بجلاء على أن لها خالقًا عظيمًا، مدبرًا حكيمًا، لا يعجزه شيء، ولا تخفى عليه خافية، وإن تلك الآيات لا يغفل عنها إلا من صرف بصره، وعطل عقله، وطمس فطرته، وأعرض عن آيات ربه عز وجل وبراهينه متعاليًا مستكبرًا؛ فأعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ والمتدبر في تلك الآيات لا يجد مفرًا من الإقرار الجازم والاعتراف الصريح الحازم بوجود الله عز وجل ووحدانيته، واتصافه بكل صفات الجمال والكمال والجلال، وأنه سبحانه قادر على إحياء الموتى، ومحاسبهم على أعمالهم، تعالى ما أعظم ملكه، وما أعز سلطانه.

النبات ومظاهر النعمة على البشر

إن نعم الله عز وجل على عباده لا تعد ولا تحصى؛ فلقد أسبغ الله سبحانه على عباده نعمه الظاهرة والباطنة، وكلما تأمل العبد وتفكر في نعم المولى سبحانه زاد معرفة بعظمة تلك النعم، وزاد إيمانه بقول ربه جل وعلا: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[إبراهيم: ٣٤].

وأنى للعباد أن يحصوا تلك النعم، وفي كل قطرة ماء يشربونها نعمة، وفي كل نسمة هواء يستنشقونها نعمة، وفي أنفسهم وما حولهم من الكون نعمٌ ظاهرة وباطنة، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

نعمٌ لا يعدها عادٌ، ولا يطيق إحصاؤها العباد، وقد امتن الرب سبحانه -في كثير من آيات الكتاب العزيز- على عباده بوفير نعمه عليهم، وذكرهم سبحانه بفضله، وحثهم على شكر تلك النعم، والقيام بحقها.

ولا شك أن النبات الذي يخرجه الله عز وجل من الأرض الميتة، ويجعله رزقًا للعباد من النعم العظمى، والعطايا الكبرى من المولى تعالى، فكم فيه من المنافع العظيمة، وكم فيه من الفوائد الجليلة، وكم فيه من الخيرات والبركات التي تعود على الخلق والعباد؛ لذا فقد كثرت في كتاب

(١) الكشاف ٣/ ٣٣٣.

الله عز وجل الآيات التي تذكر العباد بنعمة النبات، وبما جعل الله عز وجل فيه للعباد من نعم ومنافع وخيرات، ومن تلك الآيات قوله تعالى في سياق تعداد نعمه على عباده: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

ولا شك بأن مظاهر نعم الله عز وجل في النبات كثيرة لا تحصى؛ فهي عديدة ومتنوعة، منها ما تم اكتشافه والتعرف عليه، ومنها ما هو غائب عن العباد لم يعرفوه بعد، و لذا لا يمكن أن يستوفى الحديث عن تلك النعم في وريقات قليلة، أو مطالب قصيرة؛ بل الأمر يحتاج إلى بحوث مطولة، ومؤلفات مطنبة، إلا أن الباحثين أشاروا في المطالب الآتية إلى بعض مظاهر النعيم في النبات، وذلك من خلال الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم، وبعض أقوال أهل التفسير.

أولًا: النبات مصدر أساسي لغذاء الإنسان ورزقه:

إن من أعظم النعيم الذي جعله الله عز وجل في النبات أن الله عز وجل جعله المصدر الأساسي لطعام الإنسان وغذائه على هذه الأرض؛ إذا النبات هو الأساس في غذاء الإنسان، ومعظم ما يتغذى عليه البشر إنما هو من النباتات التي ينبتها الله سبحانه لعباده؛ فالحبوب بشتى أنواعها، والبقول بشتى أصنافها، والخضار بجميع أشكاله وألوانه، والفواكه كلها، كل ذلك من النبات، ومعلوم أن تلك الأغذية هي أساس طعام الإنسان، وعليها يعتمد في غذائه.

وكم لفت الخالق سبحانه أنظار عباده إلى نعمة الغذاء في النبات الذي أخرجه لهم، وبين لهم أنه قد جعل لهم في هذا النبات ما يأكلون.

ومن الآيات التي ذكرت ذلك قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

إن ذلك لمن آيات الله الباهرات، والتي فيها دلالة واضحة، وبرهانٌ بين ساطع على قدرة الخالق سبحانه، وعلى عظيم عطاياه لعباده؛ فهو سبحانه الذي أخرج الزرع

والحب، وهو سبحانه الذي جعل الجنات وأصناف الفاكهة والثمار، وما ذاك كله إلا من رحمته تعالى بعباده، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم[1].

والملاحظ أن القرآن الكريم لم يقتصر على ذكر الفاكهة والثمار على وجه العموم والإجمال؛ بل ذكر أصنافًا وأنواعًا خاصة منها؛ فذكر الزيتون، والرمان، والنخيل، والعنب، والتين.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

وفي قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ولا شك بأن تخصيص بعض النباتات والأشجار والثمار بالذكر دون غيرها فيه تنبيه على فضلها وعظيم نفعها.

لقد أخبر الله سبحانه في كتابه العزيز أنه جعل من النبات جنات النخيل والأعناب، وبساتين الفاكهة والثمار، ومزارع الحبوب والخضار، وفي ذلك كله غذاء وطعام يتغذى عليه الإنسان ويتنعم به، ويطلب رزقه من خلاله.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٨-٢٠].

يخبر سبحانه في هذه الآيات بأنه أنزل الماء من السماء، وأنشأ به جنات النخيل والأعناب، التي يتغذى عليها العباد، ويتفكهون بها، وقد خصت الآية ذكر الأعناب والنخيل دون غيرهما من الثمار لبيان فضل هاتين الشجرتين، قال الشوكاني: «واقتصر سبحانه على النخيل والأعناب لأنها الموجودة بالطائف والمدينة وما يتصل بذلك، وقيل: لأنها أشرف الأشجار ثمرةً، وأطيبها منفعةً وطعمًا ولذةً»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي: تتغذون، أو المعنى: منها ترزقون، وتحصلون معاشكم، وذلك من خلال الفلاحة والزراعة، والتي هي من أبواب الرزق الوفير الذي جعله الله عز وجل لعباده[3].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٣٦٠.

(٢) فتح القدير ٣/ ٦٨٤.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٢٨.

وفي قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ إخبار عن شجرة الزيتون المباركة، والتي تنبت في أرض مباركة، وتنبت للعباد الصبغ والدهن، ومعنى ذلك أن من فوائد هذه الشجرة المباركة أنها تنبت ثمرة فيها الزيت الذي هو صبغ وطعام وإدام يأتدمون به، ويأكلون منه، ويدهنون ويصطبغون به [(١)].

ومن رحمة الله عز وجل وفضله على عباده أن جعل النباتات مختلفة متنوعة؛ منها الخضار، ومنها الحبوب، ومنها الفاكهة والثمار، منها ما يؤكل مباشرة دون طهي، ومنها ما يحتاج لطهي، منا الحلو، ومنها المالح والحامض، منها الرطب اللين، ومنها الجاف واليابس، منها ما يؤكل كطعام أساسي، ومنها ما يؤكل للتفكه، وإن من النبات أصنافًا لم يتعرف عليها الإنسان بعد، ولم يدرك قدر نفعها وقيمة التغذي عليها؛ فأصناف النبات عظيمة، ومنافعها جليلة، وقد أخبر الله سبحانه بأنه أخرج للعباد نبات كل شيء، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فهذه الآية شملت جميع ما أخرجه الله عز وجل من نباتات متنوعة.

والإنسان يحتاج في غذائه إلى التنوع، ولا يمكن أن يقتصر في غذائه على صنف واحدٍ من الطعام، أو على نوع واحدٍ من النبات أو الثمار؛ بل يحتاج لأنواع الخضار، والفاكهة، والنباتات، فجسم الإنسان يحتاج إلى البروتين اللازم لبناء الأنسجة، وتعويض التالف منها، ويحتاج للكربوهيدرات والدهون اللازمة لتوليد الطاقة الحرارية للحركة والنشاط، ويحتاج للفيتامينات الضرورية لنمو العضلات، وقوة الإبصار، وقوة الغضاريف والأربطة ومرونتها، ويحتاج إلى الأملاح المعدنية، اللازمة لتكوين العظام والأسنان، وكل تلك المغذيات متوفرة في أصناف النباتات، وأنواع الزروع والثمار.

وفضلًا عن ذلك فإن الفواكه والخضروات تمتاز بنكهتها اللطيفة، وألوانها الجذابة، وتحوي الفواكه على نسب متفاوتة من السكر، كما تحوي على نسب عالية من الماء، وتمتاز الفواكه بأنها مصدر مهم للألياف غير القابلة للهضم، والتي تساعد على تنظيم سير الكتلة الغذائية المتبقية بعد الهضم في الأمعاء الغليظة، وطرحها إلى الخارج [(٢)]، فسبحان من جعل في تركيب النبات عناصر تتوافق مع حاجات جسم الإنسان، بنسب معينة، ومقادير محددة،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤.

(٢) انظر: تغذية الإنسان، فاروق فاضل ولامعة جمال ص٣٥٦.

وسبحان من جعل في النبات الغذاء الكامل للإنسان [(١)].

وقد أباح الله عز وجل لعباده أن يأكلوا مما أنبت لهم من النبات، ومما أخرج لهم من الأرض من أصناف الفاكهة والحبوب والثمار؛ بل إنه سبحانه أمرهم بذلك أمر إباحة وتحليل.

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وأمرهم بأن يأكلوا مما رزقهم حلالًا طيبًا فقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۖ وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

فهذا أمرٌ من الله عز وجل لعباده بأن يأكلوا من رزقه، وبأن يشكروا نعمه التي أنعم عليهم، قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك؛ فإنه المنعم المتفضل به ابتداءً، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له» [(٢)].

وكما أن النبات غذاء للإنسان فهو أيضًا غذاء للحيوانات والطيور؛ فالحيوان يأكل النبات ويتغذى عليه، وكذلك أمم من الطيور لا يحصيها إلا خالقها لا تتغذى إلا على النبات، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، قال الله سبحانه ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

ولا شك بأن تغذي الحيوانات والأنعام على النبات يعود بالنفع على الإنسان؛ إذ إن الإنسان يتغذى على تلك الأنعام، وينتفع من لبنها، وأصوافها، وأشعارها، وجلودها، ولذا فقد امتن الله سبحانه على عباده بأن جعل لهم من النبات ما يسيمون أنعامهم فيه، ويرعون.

قال الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

وبهذا فإن من مظاهر النعم في النبات أن جعله الله عز وجل غذاءً للحيوان والأنعام، ثم يعود نفعها على الإنسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه، فلله الحمد والشكر.

وفضلًا على أن النبات مصدر غذاء الإنسان فهو أيضًا مصدر للصحة والدواء والعلاج؛ فكم من دواء جعله الله عز وجل في أصناف النبات، وكم من علاج وشفاء وضعه الله عز وجل في النبات، ولقد اكتشف علماء الطب والتغذية الكثير من الأدوية والعلاجات الموجودة في النبات والثمار، ويكفي الإشارة هنا إلى أن العسل الذي ينتجه النحل إنما أصله من النبات

(١) انظر: النبات في ضوء القرآن الكريم والسنة، جواهر محمد باسلوم ص١٦١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٦٣.

والثمار؛ حيث إن النحل يتغذى على النبات فقط، كما ألهما ربها عز وجل [1]؛ فلقد أوحى الله سبحانه إلى النحل أن تتخذ من الجبال والأشجار بيوتًا، وأن تأكل من كل الثمرات؛ ليخرج من بطونها ذلك الشراب المبارك، الذي فيه غذاءٌ، وشفاءٌ، ودواءٌ للعالمين.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

والنباتات التي تدخل في علاج الإنسان وغذائه كثيرة لا تعد ولا تحصى، وعلى العباد أن يجتهدوا في معرفة الفوائد والمنافع التي أودعها الخالق سبحانه فيما خلق من نبات وزروع وثمار.

ومما لا ينبغي أن يغفل عنه أن النفع المادي للنبات لا يقتصر على كون النبات مصدر للطعام والغذاء والدواء فقط؛ بل يجب أن ينظر إلى النبات على أنه رزق [2] من الله عز وجل لخلقه وعباده، بكل ما تحمله كلمة رزق من دلالات، وقد أخبر الله عز وجل بذلك في غير آية من الكتاب العزيز.

من ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقوله عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

فلقد وصف الله عز وجل ما يخرجه للعباد من ثمرات بأنه رزق لهم، وفي آيات عدة استعمل القرآن الكريم لفظ الرزق للدلالة على الغيث الذي ينزله الله عز وجل من السماء، وينبت به الزرع والثمار للعباد [3].

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

فقد سمى الله عز وجل ما ينزله من السماء

(١) انظر: الطب النبوي، ابن القيم ص٢٧.
(٢) الرزق كلمة شاملة لعطاء الله عز وجل. انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/٣٨٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٩٤.
(٣) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٣٢٥.

من غيث رزقًا للعباد؛ وذلك لأنه بهذا الغيث تحيى الأرض، وينبت النبات والشجر، وتخرج الحبوب والثمار، ويحصل الرزق للعباد.

ويفهم من هذه الآيات أن النبات هو المصدر الأول لرزق الإنسان على الأرض، وهو مورد النعم المباشرة وغير المباشرة، وهو من أعظم طرق الكسب المشروع، وعلى العباد أن يشكروا من خلق لهم النبات، وجعل فيه الغذاء والدواء، وجعله رزقًا وافرًا للعباد، فسبحان الخالق، وتبارك المنعم[1].

ثانيًا: النبات من مصادر الإبهاج والإسعاد:

إن مظاهر النعم التي أودعها الله عز وجل في النبات لا تقتصر على كون النبات مصدر أساسي لرزق الإنسان وغذائه ودوائه؛ بل إن تلك المظاهر أجل من ذلك وأعظم، فهناك وجوه أخرى للنعيم جعلها الخالق المصور سبحانه في النباتات؛ فمن ذلك مظهرها الجميل، وشكلها البهيج، وصورتها البديعة، تنشرح لرؤيتها الصدور، وتدخل على النفس السرور؛ تتمتع بها الأعين، وتسر بها النفوس، وتسعد بها القلوب، تعجب المتأملين، وتسر الناظرين، فيها الخضرة المبهجة، وفيها الأزهار الزاهية، وفيها الثمار اليانعة، ومنها الرياحين الفواحة، والورود الزاهية، ومنها جنات معروشات وغير معروشات، وحدائق ذات بهجة وسرور، وكل هذا من مظاهر النعيم في النبات، فسبحان من خلقها، وتبارك من زينها وصورها.

قال الله عز وجل ممتنًا على عباده، ومذكرًا لهم ببعض مظاهر النعيم فيما خلق لهم من النباتات: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

فالمولى سبحانه هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل الماء للعباد، فأنبت به الحدائق ذات الحسن والبهاء والجمال، والتي تبهج من رآها، وتدخل السرور إلى قلب من شاهدها، وهذا من فضله سبحانه على عباده[2].

وفي موضع آخر من الكتاب العزيز يلفت الخالق سبحانه أنظار عباده إلى ما ينبت لهم من نبات بهيج؛ ليتفكروا في آيات ربهم، وليعلموا عظيم نعمه، وجزيل فضله سبحانه عليهم.

(١) انظر: النبات في ضوء القرآن والسنة، جواهر محمد باسلوم ص١٩٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٢١.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧-٨].

والبهيج من النبات هو: الحسن الجميل، وهو الذي يسر به الناظرون، ويسعد به المشاهدون، ووصف النبات بهذا الوصف يفيد تقوية الاستدلال على دقة صنع الله تعالى، ويفيد أيضًا الامتنان عليهم بذلك؛ ليشكروا النعمة ولا يكفروها [(١)].

وبهذا فإن ما في النبات من بهجة وحسن يعد من مظاهر النعم التي أودعها الخالق سبحانه في النبات؛ فينعم العباد بالبهاء والجمال، وحسن المنظر، وطيب الرائحة، ويتفكروا في آيات ربهم، ويشكروا نعمه العظيمة عليهم.

ثالثًا: النبات ونعمة الإقامة والسكنى:

لا شك أن من حاجات الإنسان الضرورية في هذه الحياة الدنيا الحاجة إلى السكنى والقرار؛ إذ الإنسان محتاج إلى بيت يؤويه، وإلى مكان آمن مريح يحتمي فيه، ويقي به نفسه الحر والبرد، ويستر فيه عورته، ويضع فيه متاعه، ويتمتع فيه بالاستقرار، و لا يمكن أن تستقيم حياة الإنسان بدون ذلك، وقد ذكر القرآن الكريم هذه النعمة.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

حيث ذكرت هذه الآية أن من نعم الله عز وجل على عباده أن جعل لهم بيوتًا يسكنون فيها، ويحتمون بها، ويحفظون فيها أنفسهم وأهليهم وأمتعتهم، ويقضون حاجاتهم ومنافعهم فيها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل سبحانه لعباده أيضًا من جلود الأنعام بيوتًا خفيفة، يستخفون حملها في أسفارهم؛ يضربونها في إقامتهم وفي سفرهم وحضرهم، وكل ذلك من نعم الله عز وجل على عباده [(٢)].

وقد قرن الله عز وجل بين نعمة المقام الكريم ونعمة الجنات والعيون والزروع وذلك في قوله عز وجل في سياق الحديث عن إهلاك فرعون وجنده: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨].

وفي موضع آخر قال سبحانه في

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٨٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٥.

نفس السياق: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٧].

«والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة»[(١)].

وفي هذا دلالة واضحة على أن نعمة السكنى والمقام الكريم نعمة جليلة، قرنت بنعمة الجنات والعيون والزروع والفاكهة، ولا يحصل النعيم بالجنات والعيون إذا فقدت نعمة الإقامة بأمن واستقرار.

وللنبات الذي أنعم به الخالق سبحانه على عباده دور كبير في توفير نعمة الإقامة والسكن للإنسان؛ فلقد علم الله عز وجل الإنسان -من لحظة نزوله على الأرض- كيف يستفيد من الأشجار والنباتات في بناء بيوته، وإقامة مساكنه من جذوع النبات وأغصانها وأوراقها، ولا زال الناس إلى عصرنا هذا يستفيدون مما خلق الله عز وجل لهم من أشجار في بناء بيوتهم، وصنع أمتعتهم وأثاثهم، وحتى تلك البيوت العصرية لا تستغني عن أخشاب الأشجار في صنع أبوابها وأثاثها.

ولا يقتصر نفع النبات والأشجار على الإنسان في توفير نعمة السكن والإقامة في كونها أساسًا لبناء البيوت وأماكن السكنى؛ بل الأمر أعظم من ذلك بكثير، فالنبات كان منذ العصور الأولى لحياة الإنسان على الأرض سببًا لاستقراره وإقامته؛ وذلك أن الإنسان قد علمه الله عز وجل الزراعة، والزراعة تتطلب من الإنسان أن يستقر بجانبها؛ يبذر بذورها، ويرعاها ويعتني بها، ثم يحصد ويجني ثمارها، وبهذا تعلم الإنسان الاستقرار والسكنى في مكان واحد.

والإنسان المعاصر يعتمد كثيرًا في صناعاته على أخشاب النباتات والأشجار، وما أكثر الصناعات القائمة على النبات؛ كصناعة الأوراق، والأثاث، والأدوات، والمعدات، والفحم النباتي، والألياف، والنسيج، وصناعة الزهور والعطور، وكثيرًا من الصناعات المتنوعة، وهذا كله من الفوائد والمنافع التي أودعها الله عز وجل في النبات، ولم يذكر القرآن الكريم هذه الفوائد بالتفصيل؛ وإنما أشار إليها ضمنًا على أنها رزقًا للعباد، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

حتى يستخدم الإنسان عقله وتفكيره في البحث عن تلك المنافع والفوائد. ولا شك أن من الفوائد والنعم التي جعلها الله عز وجل في النبات -مما يتصل بنعمة الإقامة والسكنى- أن فيها نعمة الظل الظليل، والوقاية من حر الشمس؛ يستريح في ظلها

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٦٤.

العباد، وينعم تحت أغصانها الناس، وقد ذكر الخالق تعالى عباده بتلك النعم العظيمة.

قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

فالله سبحانه هو الذي جعل لعباده الظل في النبات والشجر وفي كل ما يستظل به؛ يستريحون فيه من حر الشمس، ويكنهم من الأمطار والرياح[(١)].

وهو سبحانه من ألهم عباده إلى الانتفاع بتلك المخلوقات، والتوقي بها من أضرار الحر والبرد؛ فخلق الظلال صالحة للتوقي من حر الشمس، وخلق الكهوف في الجبال ليمكن الالتجاء إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لاتخاذ الدروع للقتال[(٢)].

وبهذا فإن النبات فيه نعمة توفير الإقامة والسكنى للإنسان، وتلك نعمة عظيمة لا يستغني عنها الإنسان، ولا يعيش بدونها، وتلك النعم تستوجب على العباد شكر المنعم سبحانه، والإقرار بمنته وفضله على عباده، ولله الحمد والشكر.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٤٠.

نبات الدنيا والآخرة

إن المتأمل في آيات الكتاب العزيز التي ذكرت النبات يجد أن هذه الآيات قد ذكرت أنواعًا متعددة، وأصنافًا كثيرة من النبات والأشجار، وذكرت بعضًا مما تثمره من الفاكهة والثمار، والملاحظ أن آيات الذكر الحكيم فصلت الحديث عن بعض أصناف النبات، وأجملت الحديث عن بعضها الآخر، وبعض الآيات شملت جميع أصناف النبات، كما في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وفي قوله عز وجل: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد للعالمين، وليس كتابًا متخصصًا بالنباتات وأنواعها وخصائصها وفوائده؛ وما في القرآن الكريم من حديث عن النبات إنما هو في سياق الحديث عن آيات الله عز وجل، وبراهين وجوده، ودلائل عظمته، وبيان فضله ونعمه على عباده، إلا أنه لا يخلوا تخصيص هذه النباتات والثمار بالذكر دون غيرها من فوائد دنيوية تنفع الإنسان في معاشه، وهذا يحتاج إلى مزيد جهد وبحث من العلماء للوقوف

على ما في تلك النباتات والثمار من فوائد.

ويجد المتأمل لكتاب الله عز وجل أن الآيات التي ذكرت النبات منها ما تحدثت عما ينبته الله عز وجل من الأرض من نبات الدنيا، ومنها آيات تحدثت عن بعض ما في الآخرة من نبات وأشجار، وفي النقاط الآتية بيان ذلك.

أولًا: نبات الدنيا:

لقد ذكر القرآن الكريم أنواعًا عديدة من النباتات التي يخرجها الله عز وجل لعباده من الأرض؛ فذكر الحب المتراكب، وذكر أصنافًا من الخضار؛ كالبصل والقثاء والفوم، وذكر أصنافًا من الفاكهة؛ كالعنب والتين، والرمان وغير ذلك، والآيات في ذلك عديدة.

فبعض الآيات ذكرت ما يخرجه الله عز وجل من الأرض من ثمرات للعباد، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

فذكر الله عز وجل هنا ما يخرجه لعباده من الثمرات، وذلك في سياق الاستدلال على ربوبيته سبحانه، ووجوب عبادته وحده، وبيان فضله سبحانه ونعمه على عباده؛ فهو سبحانه من جعل الأرض فراشًا والسماء بناءً، وهو سبحانه من ينزل الماء من السماء، ويخرج به من الثمرات رزقًا للعباد، فوجب بذلك على العباد أن يفردوه وحده بالعبادة دون سواه؛ لذا سبقت هذه الآية بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ولفظ الثمرات في الآية لفظٌ عامٌ يشمل جميع ما يطعمه العباد وينتفعون به من النبات والشجر[(١)].

قال القرطبي في معنى الآية: «والمعنى في الآية أخرجنا لكم ألوانًا من الثمرات، وأنواعًا من النبات؛ طعامًا لكم، وعلفًا لدوابكم»[(٢)].

والملاحظ هنا أن القرآن الكريم استعمل جمع القلة (الثمرات)، ولم يستعمل جمع الكثرة (الثمر) أو (الثمار)، مع أن ما يخرجه الله عز وجل لعباده من الأرض كثيرٌ جمٌ، وأصنافه كثيرة عظيمة، وكذا أنواعه وأشكاله، وعلل بعض المفسرين ذلك بأنه قصد بالثمرات جماعة الثمرة، كما في قولهم: فلان أدرك ثمرة بستانه، يريدون ثماره كلها، أو أن الجموع يحل بعضها مكان بعض؛ لالتقائها في الجمعية[(٣)].

وذكر بعض المفسرين أن في ذلك

(١) انظر: المفردات، الأصفهاني ص٨١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٢٩.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢١٦.

تنبيهًا على قلة ثمار الدنيا، وإشعارًا بتعظيم أمر الآخرة وما فيها من ثمارٍ ونعيمٍ، والله أعلم[1].

وفي آية أخرى -وهي من أعظم الآيات التي تحدثت عن النبات- ذكر الله عز وجل ما يخرجه من نبات على وجه الإجمال، ثم فصل ذكر بعض أصنافها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فقوله تعالى في بداية الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يشمل جميع أصناف النبات، ويشمل كل ما أطلق عليه نبات؛ فيشمل ما كان له ساق قوية كالنخل والزيتون والرمان، ويشمل الزرع الذي له ساق لينة كالقصب وأصنافًا من الخضار، ويشمل الشجر المعروش كالعنب، ويشمل ما كان على وجه التربة بلا ساق، وهو النجم، مثل البطيخ واليقطين والقرع؛ فقوله تعالى: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يفيد العموم في الخبر، فيشمل النباتات مختلفة الأصناف والأنواع والثمرات والأشكال والخصائص والأطعمة والألوان.

ثم بعد هذا الإجمال أتت الآية بالتفصيل في أنواع بعض النبات؛ فقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾، والخضر هو أول ما يكون عليه النبات عند خروجه من الأرض؛ حيث يكون طريًا غضًا أخضر اللون، وقد خص بعض المفسرين المراد بالخضر بالزرع والحبوب؛ كالقمح والذرة والشعير وغيرها[2].

ولعل الأصوب أن لفظ: (خضرًا) يشمل جميع النبات؛ إذ إن لفظ: (خضرًا) نكرة، والنكرة تفيد العموم، والمراد به أول خروج النبات من التربة.

ثم فصلت الآية في ذكر بعض أنواع النبات فقال تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، فذكرت الآية الحب المتراكب؛ كالأرز والقمح والشعير، وذكرت بعض الأشجار التي تقوم على ساقٍ قويةٍ؛ كالنخيل والزيتون والرمان، وذكرت الآية أيضًا من النبات ما كان بحاجة إلى أن يعرش له كالعنب، ووصفت الآية ذلك النبات كله بأنه ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، إشارة إلى أن بعض النبات يشبه بعضه، وبعض الثمر يشبه بعضه في الشكل أو اللون أو المذاق، يقول

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٣١٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٨٨.

محمد رشيد رضا في تفسيره: «وصرحوا بأن المشتبه والمتشابه هنا بمعنى واحد، والحق أن في الصفتين فرقًا؛ فمعنى اشتبها: التبس أحدهما بالآخر من شدة الشبه بينهما، ومعنى تشابها: أشبه أحدهما الآخر ولو في بعض الوجوه والصفات، فهذا أعم مما قبله، ولا شك في أن بعض ما ذكر يتشابه ولا يشتبه، وبعضه يتشابه حتى يشتبه على البستاني الماهر»[1].

وفي آية أخرى يخبر الله سبحانه عن بعض أصناف النبات فيقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

فذكرت هذه الآية الجنات من النباتات المعروشات، وهي النباتات التي تحتاج لإسنادها على العرش؛ لصيانة ثمرها من الهلاك، وذكرت الجنات من النبات غير المعروش، وهي تشمل جميع النباتات التي تقوم على سيقان قوية، ولا تحتاج لعرش، كالنخيل والزيتون والرمان.

وقد وردت هذه الآية في سياق الحديث عن ضلالات المشركين في التحليل والتحريم بأهوائهم، وجعلهم لشركائهم نصيبًا مما رزقهم الله عز وجل، وتحريم بعض ما أحل الله سبحانه، فناسب أن يذكر الله عز وجل في هذه الآية أنه سبحانه هو الذي خلق تلك الأشجار والثمار، وهو الذي رزق العباد بأصناف الأطعمة، وألوان النعيم، وهو سبحانه من أحل ذلك لعباده، ولا ينبغي أن يحرم أحدٌ شيئًا مما أحله الله عز وجل؛ فالله هو وحده الخالق، وهو سبحانه وحده المحلل والمحرم، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وفي كتاب الله عز وجل آيات أخرى ذكرت أصنافًا معينة من النبات والثمار كما في قوله تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

وفي قوله عز وجل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وكذا في قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

(١) تفسير المنار ٧/ ٥٣٥.

والملاحظ في هذه الآيات ونظائرها في كتاب الله عز وجل أنها تذكر ما أخرج الله عز وجل لعباده من الأرض من نبات وثمار في سياق تعداد الله عز وجل لنعمه على عباده، وتذكيرهم بفضله عليهم، أو في سياق دعوة العباد للتفكر والنظر في آيات ربهم عز وجل؛ ليصلوا بهذه الآيات الباهرات إلى الإيمان بعظمة الخالق سبحانه، واستحقاقه للعبادة دون سواه، قال الشنقيطي -رحمه الله- في تفسير الآية الأول من هذه الآيات: «بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن إنباته بالماء ما يأكله الناس من الحبوب والثمار، وما تأكله المواشي من المرعى، من أعظم نعمه على بني آدم، ومن أوضح آياته الدالة على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، وأوضح سبحانه هذا المعنى في آيات كثيرة»[1].

وقد ختمت كثير من هذه الآيات بما يحث العباد على التفكر والتعقل والنظر فيما خلق الله عز وجل لهم، وفيما أخرجه لهم من الأرض، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

وفي ذلك تحفيز للعباد على التفكر فيما أخرج الله عز وجل لهم من نبات الأرض، للوصول إلى الإيمان بعظمة الخالق، وعظيم منته وفضله على خلقه.

وعند التأمل في الآيات التي تحدثت عن النبات وبعض أصنافها نجد أن هذه الآيات ذكرت بعض النباتات بأسماء ثمارها؛ كالعنب والتين والزيتون والرمان، وذكرت نباتات أخرى بأسماء أشجارها مثل النخيل والزرع، وذكرت بعضها باسم نوعه فقط كالفاكهة والحبوب، وفي ذلك إشارة إلى التفاضل بين النبات، واعتماد الإنسان في غذائه على أنواع أكثر من أنواع أخرى؛ فغذاء الإنسان يعتمد أكثر على الحبوب والزروع، وهي أقوات للإنسان، أما أنواع الفاكهة فهي للتفكه أكثر مما هي قوت، فلا يعتمد عليها الإنسان في قوته.

وقد خص القرآن الكريم بعض أصناف الفاكهة بالذكر دون بقية الأصناف، فخص العنب والتين والزيتون والرمان والنخيل، ولعل الحكمة من ذلك أن هذه الأنواع هي المعروفة والمشهورة أكثر لدى الناس في كل زمان ومكان، ثم إن هذه الأنواع هي التي كانت موجودة في أرض العرب وقت نزول القرآن، ثم إن هذه الأنواع فيها الكثير من الفوائد الغذائية والصحية -منها ما تم اكتشافه ومنها ما يحتاج إلى بحث-،

(١) أضواء البيان ٢/ ٣٣٧.

وهي ثمار تؤكل على مدار السنة؛ طازجة ومجففة.

أما الحبوب والخضار فلم يرد في القرآن الكريم تفصيل أنواعها؛ إلا ما ورد في سياق قصة موسى عليه السلام مع قومه لما طلبوا منه أن يسأل ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[البقرة: ٦١].

ولعل الحكمة من عدم التفصيل في ذكر أصناف الحبوب والخضار أنهما يعدان قوتًا أساسيًا للإنسان، فالإنسان يتغذى عليها كأقوات وليس للتفكه، وكأن حاجته إليها هي التي تدفعه إلى تناولها، وليس رغبة في التفكه كما الحال في أصناف الفاكهة والله أعلم[(١)].

وهكذا يجد المتأمل في كتاب ربه أن حديث القرآن عن النبات جاء في سياق أمرين؛ إما للدلالة على عظمة الخالق المصور، أو لبيان فضل الله وكرمه على عباده، وفي كلا الأمرين مصلحة كبرى للعباد؛ إذ بهما يتوصلون إلى الإيمان العميق بعظمة ربهم، واستشعار عظيم نعمه عليهم، فيزيدهم ذلك قربًا إلى ربهم عز وجل، ومزيدًا من شكره على فضله ونعمه.

ثانيًا: نبات الآخرة:

تحدث عن نبات الآخرة وأشجارها، وقد ذكرت آيات كثيرة ما يتعلق ببعض أشجار الجنة.

إنه من خلال استقراء آيات القرآن الكريم التي ذكرت النبات نجد أن جزءًا من هذه الآيات قد تحدث عن نبات الآخرة وأشجارها، وقد ذكرت آيات كثيرة بعض ما في الجنة من أشجار ظليلة مثمرة، وثمار دانية منضودة، وذكرت بعض الآيات شيئًا مما في نار جهنم من شجر الزقوم الذي فيه العذاب والغصة لأهل النار.

وبتأمل الآيات التي تحدثت عن أشجار الجنة نجد أن الله عز وجل قد أخبر عن أوصافها وثمارها بما يشوق المؤمنين لها، ويرغبهم بالعمل الجاد لتحصيلها؛ ومن ذلك أنه سبحانه أخبر عن أشجار الجنة بأنها أشجار كثيفة ملتفة الأغصان، متنوعة الثمار، وإنما سميت الجنة بذلك لكثرة شجرها، وتشابك أغصانها[(٢)].

(١) انظر: النبات في ضوء القرآن الكريم والسنة، جواهر محمد ص٤٧١.

(٢) قال الراغب: «أصل الجن ستر الشيء عن الحاسة، يقال: جنة الليل، وأجنه ستره.. والجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض.. وسميت الجنة إما تشبيها بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون، وإما لستره نعمها عنا» المفردات، الراغب الأصفهاني ص٩٨.

وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١-٥٢].

وقد أخبر الله عز وجل بأن أشجار الجنة شديدة الخضرة، كثيرة الري، فقال سبحانه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢-٦٤].

ومعنى مدهامتان: شديدتا الخضرة، فهما خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الري[1]، وإذا كان الشجر والنبات بهذه الصفة فهو في غاية الحسن والجمال.

ولقد أخبر الله عز وجل عن نبات وأشجار الجنة بأنه حدائق وبساتين، تحتوي على جميع الأشجار والفاكهة والثمار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٢].

قال ابن عاشور: «والحدائق: جمع حديقة، وهي الجنة من النخيل، والأشجار ذوات الساق، المحوطة بحائط أو جدار أو حضائر، والأعناب: جمع عنب وهو اسم يطلق على شجرة الكرم ويطلق على ثمرها»[2].

لقد أخبر الله عز وجل عباده بأنه قد أعد للمتقين منهم جنات فيها الظلال والعيون، وفيها أصناف الفاكهة مما يشتهون، وفيها النعيم المقيم.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

ومما أخبر الله عز وجل به أيضًا عن أشجار الجنة أن ظلها ممدودٌ عظيمٌ، لا ينحسر ولا ينقطع، ولا تنسخه الشمس[3]، قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٣].

ومعنى قوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾: الذي لا شوك فيه، الوافر الحمل الموقر[4].

ومعنى قوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾: الموز الذي نضد بعضه على بعض، وجمع بعضه إلى بعض، وهذا من خصائص ثمار أشجار الجنة كلها منضودة، بعضها فوق بعض، من أسفل الشجرة إلى أعلاها، لا يرى الساق من تراكب الثمر[5] في غاية الحسن والبهاء.

إن الثمار التي تنتجها أشجار الجنة ثمارٌ عظيمة، لا تنقطع، ولا تمنع، قال الله عز

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٦٧.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١١٤.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١٣٩.
(٥) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٠٦.

وجل: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣].

فثمار الجنة وفاكهتها دائمة؛ لا تنقطع في حين دون حين، ولا تمنع بالحيطان والنواطير، ولا تنقطع إذا جنيت ولا تمنع من أحد إذا أريدت؛ إنما هي مطلقة لمن أرادها، قريبة لمن اشتهاها [(١)].

قال ابن كثير: «أي: لا تنقطع شتاءً ولا صيفًا؛ بل أكلها دائمٌ مستمرٌ أبدًا، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء، وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بعدٌ» [(٢)].

ولقد ورد في السنة المطهرة أخبار كثيرة في وصف أشجار الجنة وثمارها وسيقانها، من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب) [(٣)].

ومن ذلك حديث عتبة بن عبد السلمي أن أعرابيًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم... وفي الحديث: (فقال الأعرابي: يا رسول الله فيها فاكهة؟ قال: (نعم؛ وفيها شجرةٌ تدعى طوبى، هي تطابق الفردوس)، فقال: أي شجر أرضنا تشبه؟ قال: (ليس تشبه شيئًا من شجر أرضك؛ ولكن أتيت الشام؟) قال: لا يا رسول الله، قال: (فإنها تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة، تنبت على ساق واحد، ثم ينتشر أعلاها)، قال: فما عظم أهلها؟ قال: (لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك لما قطعتها حتى تنكسر ترقوتها هرمًا)، قال: فيها عنب؟ قال: (نعم)، قال: فما عظم العنقود منها؟ قال: (مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يقع ولا ينثني ولا يفتر)، قال: فما عظم الحبة منه؟ قال: (هل ذبح أبوك تيسًا من غنمه عظيمًا فسلخ إهابه فأعطاه أمك فقال ادبغي هذا ثم افري لنا منه ذنوبا يروي ماشيتنا؟) قال: نعم، قال: فإن تلك الحبة تشبعني وأهل بيتي، فقال: النبي صلى الله عليه وسلم: (وعامة عشيرتك)[(٤)].

وفي السنة أخبار كثيرة عن أشجار الجنة لا مجال لحصرها هنا.

وفي القرآن الكريم ذكر شجرة من أشجار الجنة، وهي شجرة طوبى، ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد: ٢٩].

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١٤١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١٣/ ٣٧٠.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة شجر الجنة، رقم ٢٥٢٥، ٤/ ٢٩٢.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٣٧٣٢، ٣/ ٢٦٤.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٦٧٩، ٤/ ١٨٣.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٣٧٢٩، ٣/ ٢٦٣.

فقد ذكر المفسرون أن من معاني طوبى أنها شجرة في الجنة [(١)].

قال ابن عطية: «وقيل: طوبى اسم شجرة في الجنة، وبهذا تواترت الأحاديث، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طوبى شجرة في الجنة، يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾)» [(٢)].

ومن أشجار الجنة أيضًا سدرة المنتهى، والتي ورد ذكرها في كتاب الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٥].

وهي شجرة عظيمة، أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض أخبارها في حديث الإسراء فقال: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى؛ وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال) [(٣)].

قال ابن الجوزي: «قال المفسرون وإنما سميت سدرة المنتهى: لأنه إليها منتهى ما يصعد به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها وإليها ينتهي علم جميع الملائكة» [(٤)].

وكما أن القرآن الكريم ذكر بعض أشجار الجنة وثمارها، فقد ذكر أيضًا بعض أشجار النار، وهي شجرة الزقوم، والتي جعلها الله عز وجل لونًا من ألوان العذاب لأهل النار.

وقد أخبر الله عز وجل عن بعض أوصافها، فقال سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٨].

وفي موضع آخر من الكتاب العزيز قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

إنها لشجرة شنيعة المنظر، فظيعة المظهر، مرة المذاق، وهي شجرة خلقها الله في نار جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغلت في بطونهم كما يغلي المهل، وهو النحاس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٣٤-٤٤٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٢.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، ٤/ ٢١٧٥، رقم ٢٨٢٦، بلفظ: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات، رقم ٣٢٩، ١/ ٩٩.
(٤) زاد المسير ٨/ ٦٩.

المذاب[1].

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن شدة مرارة تلك الشجرة فقال: (ولو أن قطرةً من الزقوم قطرت؛ لأمرت على أهل الأرض عيشهم؛ فكيف من ليس لهم طعام إلا الزقوم؟!)[2].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٤٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٧٣٥، ١/ ٣٠٠.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ٦٧٨٢، ١٤/ ٦٣٣.

النباتات والأمثال

لقد استعمل القرآن الكريم أساليب عدة للتأثير على النفس البشرية؛ من أجل هدايتها وتزكيتها، ومن أعظم هذه الأساليب أسلوب ضرب المثل، وهذا الأسلوب كثيرٌ في القرآن الكريم، استعمله القرآن للكشف عن الحقائق، وإبراز المعاني في ثوب جميل، يجذب الأذهان، ويؤثر في السامع، فيحضه على الخير، وينفره من الإثم والشر، ويدفعه إلى فعل الفضائل.

وللمثل مدلولات كثيرة في اللغة العربية، وقد وضع العلماء له تعريفات عديدة؛ كتعريف الراغب إذ يقول: «والمثل عبارة عن قول في شيءٍ يشبه قولًا في شيءٍ آخر، بينهما مشابهة؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوره، نحو قولهم: الصيف ضيعت اللبن، فإن هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك، وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال»[3].

وقال ابن القيم: «وقع في القرآن أمثالٌ، وإن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون، وأنها شبيه شيءٍ بشيءٍ في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر»[4].

ويمكن تعريف المثل بأنه: أسلوب من

(٣) المفردات ص٤٦٢.

(٤) الأمثال في القرآن ص٩.

أساليب الخطاب، يقوم على إبراز المعنى المعقول في صورةٍ حسيةٍ تزيده وضوحًا وجمالًا.

وإذا ما تأمل المرء ما في القرآن الكريم من أمثال وجد أن النبات له نصيبٌ كبيرٌ من ضرب المثل به، فكثيرة هي الأمثال القرآنية التي يكون فيها الممثل به هو النبات أو الشجر؛ كضرب مثل كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة، وضرب مثل مضاعفة أجر الإنفاق في سبيل الله عز وجل بالسنبلة التي أنبتت سبع سنابل، وضرب مثل الحياة الدنيا بالزرع الهائج الذي سرعان ما يصير حطامًا، وغير ذلك من الأمثال التي كان فيها النبات هو المضروب به.

وفي النقاط الآتية بيان بعض الأمثال القرآنية التي كان النبات فيها هو الممثل به.

أولًا: كلمة التوحيد:

إن كلمة التوحيد هي أصل الإيمان، وبها يخرج العبد من الكفر إلى الإيمان، ولأجلها أرسل الله عز وجل الرسل والأنبياء، وهي مفتاح الجنة، والمنجية من النار، ولقد ضرب الله عز وجل مثلًا عظيمًا لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؛ وذلك لبيان أهميتها وفضلها وشرفها، ولبيان منافعها على الموحدين، ضرب سبحانه لها مثلًا بالشجرة الطيبة المباركة، التي جمعت أوصاف الحسن والكمال، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

لقد أخبر الله سبحانه أن مثل كلمة التوحيد كمثل تلك الشجرة الطيبة؛ في كمال صفاتها، وعظيم نفعها، وقد ذكر سبحانه لتلك الشجرة المضروب بها المثل صفات أربع، هن أعظم صفات يجتمعن في شجرة من الشجر:

فالصفة الأولى: كونها طيبة؛ طيبة المنظر والصورة، وطيبة الرائحة، وطيبة الثمرة، وطيبة المنفعة.

والصفة الثانية: أصلها ثابتٌ راسخٌ باقٍ، آمنٌ من الانقلاع والزوال.

والصفة الثالثة: أن فرعها في السماء، وهذا من كمال حالها؛ إذ إن ارتفاع الأغصان وقوتها يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق، وكلما كانت الفروع متصاعدةً مرتفعةً كانت بعيدة عن عفن الأرض، فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

والصفة الرابعة: أنها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فثمرها حاضرٌ دائمٌ في كل الأوقات، ليست كغيرها من الأشجار التي يكون ثمرها حاضرًا في بعض الأوقات،

مقطوعًا في بعضها الآخر[1].

هذه الشجرة الطيبة العظيمة هي التي ضرب الله عز وجل بها المثل لكلمة التوحيد، ووجه الشبه بين كلمة التوحيد وتلك الشجرة الطيبة إن كلمة التوحيد كلمة طيبة، أصلها ثابت في قلب المؤمن، لا تتزعزع، ولا يشوبها شكٌ ولا ريب، فهي كالشجرة ذات الأصول القوية الثابتة في الأرض، لا تزعزعها الرياح أو السيول، ثم كلمة التوحيد لها فروعها من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، تصعد إلى الله عز وجل في السماء دائمًا، كفروع الشجرة العظيمة الممتدة في السماء، وكلمة التوحيد تثمر دائمًا وبدون انقطاع الطيبات من الأقوال والأعمال الصالحات، كثمار الشجرة الطيبة التي لا تنقطع[2].

قال ابن القيم: «شبه سبحانه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة؛ الظاهرة والباطنة؛ فكل عمل صالح مرضي لله عز وجل فهو ثمرة هذا الكلمة»[3].

فهذه كلمة التوحيد والإيمان؛ من آمن بها كانت له كالشجرة الطيبة المثمرة، ومن حرم منها حرم الخير كله، وهذا المثل القرآني العظيم يبين أعظم بيان عظمة تلك الكلمة، ويصورها بأحسن صورة، وأجمل هيئة؛ ليقرب المعنى إلى الأذهان، وليغرس في القلوب الإيمان.

ثانيًا: الإنفاق في سبيل الله:

إن النفس البشرية مفطورةٌ على حب المال، وحب كنزه والاحتفاظ به؛ فهو عزيز عليها، لا تستطيع أن تتخلى عنه أو تنفقه بسهولة، لذا فقد جعل الله عز وجل إنفاق المال في سبيله من أعظم الطاعات، ومن أجل القربات، ينال به العبد ثواب الله عز وجل ورضوانه، ولبيان فضل إنفاق المال في سبيل الله عز وجل ولتوضيح عظم ربح المنفقين عند ربهم عز وجل، ضرب الله سبحانه لعباده مثلًا عظيمًا للمنفقين في سبيله، فقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

والمقصود بالإنفاق في سبيل الله عز وجل في الآية -حسب أقوال المفسرين-؛

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٩٣.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٥.
(٣) الأمثال في القرآن ص٣٥.

إما مطلق الإنفاق في وجوه البر والخيرات؛ واجبًا كان أو نفلًا [1]، وإما المراد الإنفاق في الجهاد في سبيل الله عز وجل [2].

والأظهر -والله أعلم- أن الإنفاق في سبيل الله عز وجل في الآية يعم جميع الإنفاق في وجوه البر، وأن أعظم هذه الوجوه هو إنفاق المال في الجهاد في سبيل الله عز وجل؛ لإعلاء كلمة الله سبحانه.

وهذا المثل الذي ضربه الله سبحانه للمنفقين في سبيله مثلٌ عظيم، يرغب العباد في الإنفاق، ويحثهم على البذل والعطاء؛ فلقد شبه الله سبحانه حال المنفق في سبيله بحال الزارع الحاذق الذي زرع في الأرض الخصبة العامرة حبةً جيدةً طيبةً؛ فأنبتت الحبة سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، فشبه سبحانه المتصدق بالزارع، وشبه الصدقة بالبذر الذي يبذره الزارع في الأرض، وشبه الأجر العظيم للإنفاق بالمحصول المضاعف الذي نتج عن تلك البذور التي زرعت، فالله عز وجل يعطي المنفق بكل صدقة له سبعمائة حسنة، ثم يضاعف سبحانه الأجر والعطاء لمن يشاء [3].

ولا شك بأن في هذا المثل ترغيب عظيم للمؤمنين في الإنفاق في سبيل الله، ولا تكاد هذه الآية المباركة التي اشتملت على هذا المثل تقرع قلوب المؤمنين إلا وتشتاق أنفسهم للإنفاق والعطاء، رغبة في الثواب العظيم، والأجر الوفير من أكرم الأكرمين.

قال ابن القيم: «شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله -سواء كان المراد به الجهاد، أو جميع سبل الخير من كل برٍ- بمن بذر بذرًا؛ فأنبتت كل حبة سبع سنابل، اشتملت كل سنبلةٍ على مائة حبة، والله يضاعف بحسب حال المنفق، وإيمانه، وإخلاصه، وإحسانه، ونفع نفقته، وقدرها، ووقوعها موقعها» [4].

ثالثًا: أعمال الكافر كالحرث الذي دمرته الريح:

إن من مات على الكفر لا يقبل الله عز وجل منه عملًا صالحًا؛ إذ الإيمان والإخلاص لله عز وجل شرط قبول الأعمال عند الله سبحانه، ومهما عمل الكافر من عملٍ فلا يقبل منه، ولا يثاب يوم القيامة عليه؛ لأنه ما عمل ذلك ابتغاء وجه الله سبحانه، ولم يكن يرجو لقاء ربه عز وجل.

ولقد ضرب الله عز وجل مثلًا عظيمًا لأعمال الكفار في عدم نفعها لأصحابها؛ إذ

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٥٧.
(٢) انظر: زاد المسير ١/ ٣١٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٠٣، تفسير السمرقندي ١/ ٢٠٠.
(٤) الأمثال في القرآن ص٥٠.

ضرب سبحانه لها مثلًا بالسراب، الذي يراه الظمآن المقطوع في أرض الفلاة الخالية فيظنه ماءً، فيسعد به، ويسرع إليه، حتى إذا جاءه صعق بحقيقة الأمر، إذا علم أن ما كان يرجوه ما هو إلا سراب لا حقيقة له ولا وجود.

قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

فكما أن السراب لا ينفع من أتاه وسعى إليه، فكذلك أعمال الكافر لا تنفع صاحبها، والكافر يحسب أن عمله سينفعه، ولكنه إذا أتاه الموت واحتاج إلى عمله، لم يجد عمله أغنى عنه شيئًا، ولا نفعه[(١)].

إن حاجة الظمآن إلى الماء شديدة، ورغبته فيه عظيمة، يتمنى أن يفقد كل ما له من الدنيا مقابل أن يظفر بشربة ماء، فإذا رأى السراب وظنه ماءً أخذته الفرحة، وغمره السرور، فأسرع لينال بغيته، فإذا به يصدم بما يراه، ويشعر بالخيبة والحسرة والألم عند اكتشافه حقيقة السراب، وهكذا الكافر يجد من الحسرة والخيبة والندامة ما لا يعلمه إلا الله حينما لا ينفعه عمله، ولا يغني عنه ما كسبه، قال الله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقد اشتملت الآية الثانية على مثل آخر لأعمال الكافرين؛ حيث شبه الله عز وجل أعمالهم بالظلمات الشديدة القاتمة، التي تكون في أعماق بحرٍ عميق، يغشاه موج، ومن فوق الموج موج، ومن فوق ذلك سحاب، ظلمات فوق ظلمات، وهذا مثل حال الكافرين الذين هم في ظلمات الجهل، وظلمات الاتباع للباطل، والجري وراء المضلين، من غير علمٍ أو تعقلٍ، فقلوبهم في ظلمات متراكبة، لا تعرف حقًا، ولا تنكر باطلًا[(٢)].

يقول ابن القيم في ذلك: «ذكر الله سبحانه للكافرين مثلين؛ مثلًا بالسراب، ومثلًا بالظلمات المتراكمة، وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان:

أحدهما: من يظن أنه على شيءٍ؛ فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل، وأهل البدع والأهواء، الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٥٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٢٥٦.

وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب يرى في أعين الناظرين ماءً، ولا حقيقة له...

والنوع الثاني: أصحاب مثل الظلمات المتراكمة، وهم الذين عرفوا الحق والهدى، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال؛ فتراكمت عليهم ظلمة الطبع، وظلمة النفوس، وظلمة الجهل، حيث لم يعلموا بعلمهم فصاروا جاهلين، وظلمة اتباع الغي والهوى؛ فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له، وقد غشيه موج، ومن فوق ذلك الموج موج، ومن فوقه سحابٌ مظلمٌ، فهو في ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان»[1].

ولا شك بأن في هذين المثلين تحذير للكفار من سوء عاقبة أعمالهم، ودعوة لهم للتخلص من ظلماتهم، والاستنارة بنور ربهم عز وجل، فإنه ليس للعبد غنىً عن نور ربه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

رابعًا: مثل الحياة الدنيا وزهرتها:

كثيرًا ما يغتر الناس بالحياة الدنيا وزينتها، ويشعرون بالاطمئنان لها، والسكون إليها، ويتناسون أن وراءهم دار الآخرة والخلود، والتي فيها النعيم المقيم، أو العذاب الأليم، ولأن الحياة الدنيا غرارة، يغتر بها العباد، تعددت أساليب القرآن الكريم في التحذير منها ومن الركون إليها، والاطمئنان لها، وذلك من خلال بيان حقيقتها، وكشف أمرها، وبيان زيف مظاهرها، وسرعة انقضائها، وقلة نعيمها.

ومن أعظم أساليب القرآن المجيد في بيان حقيقة الحياة الدنيا، وتحذير العباد من الاغترار بها أسلوب ضرب المثل لها؛ فلقد ضرب الله عز وجل للناس مثل الحياة الدنيا بأمر حسي يشاهدونه من حولهم، ويعلمون حقيقته بكل حواسهم، ضرب سبحانه مثل الحياة الدنيا بالنبات الذي يخرج عند نزول الماء من السماء، يخرج أخضرًا يانعًا، يسر من رآه، يبهج من نظر إليه، ثم ما يلبث إلا ويصير مصفرًا يابسًا، لا حياة فيه ولا خضرة، ثم يصير حطامًا تبعثره الرياح، وكذلك الحياة الدنيا في سرعة فنائها، واغترار الناس بزينتها.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:

(١) الأمثال في القرآن ص١٥-١٧.

٢٤].

إن أوجه التشابه كثيرة بين حال الحياة الدنيا وحال النبات؛ فالإنسان يخرج إلى الدنيا وينمو فيها كما ينمو النبات، ثم يمر الإنسان في دنياه بمراحل وأطوار كما في النبات من أطوار، والإنسان يعجب بالدنيا وزهرتها وبهجتها كما يعجب الزراع بالزرع إذا هاج وازدهر، ومتاع الدنيا فيه غرور للإنسان؛ يفرح به ثم يأتيه الموت فجأة فتنتهي حياته، وكذلك النبات والزرع عندما يراه الإنسان مزدهرًا يغتر به، ويظن أنه دائم، ثم يفاجأ بهلاكه بغتةً؛ فإذا هو مستأصل لا شيء فيه، وتصبح الأرض ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾، أي: لم تكن مخضرةً عامرةً؛ فكما يهلك الله عز وجل هذا الزرع بغتةً، فكذلك ذهاب الدنيا وفنائها [(١)].

قال ابن القيم: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر؛ فتروقه بزينتها، وتعجبه؛ فيميل إليها، ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالكٌ لها، قادرٌ عليها، سلبها بغتةً، أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها؛ فشبهها بالأرض الذي ينزل الغيث عليها؛ فتعشب، ويحسن نباتها، ويروق منظرها للناظر؛ فيغتر به، ويظن أنه قادرٌ عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله؛ فتدرك نباتها الآفة بغتةً، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرًا منها، فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس» [(٢)].

وفي آية أخرى ضرب الله عز وجل ذلك المثل للحياة الدنيا في سرعة انقضائها، وقرب زوالها، بسرعة انقضاء النبات، قال الله عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

إن في هذا المثل الذي ضربه الله عز وجل للحياة الدنيا لبيان حقارتها وسرعة انقضائها، ليعرفها العباد حق المعرفة، وتحذيرهم من الركون إليها، وحثهم للاستعداد للدار الآخرة، التي تكون فيها الحياة الحقيقية الأبدية ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وأن من تعلق بالدنيا وركن إليها مصيره إلى الندم والحسرة كمن ركن إلى الزرع الأخضر فصار حطامًا يابسًا [(٣)].

«فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغترن أهل

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/٣٢٨.

(٢) الأمثال في القرآن ص١٢.

(٣) انظر: تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٨.

الدنيا بدنياهم، فإنما مثلها مثل هذا النبات الذي حسن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا ريث أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابسًا تذروه الرياح، فاسدًا، تنبو عنه أعين الناظرين، ولكن ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبيد ولا يتغير»[1].

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٠.

لمسات إعجازية في النبات

لقد اعتنى العلماء بدراسة النبات عناية فائقة، وأصبح للنبات علمًا مستقلًا عن باقي العلوم؛ يدرس في المعاهد والجامعات، وتعطى فيه أعلى الدرجات العلمية، وتؤلف فيه الكتب والموسوعات، وتنفق الأموال الطائلة في إجراء البحوث والدراسات عليه، ولا زال العلماء يكتشفون من عجائبه وأسراره، وكلما تبحروا في دراسته أكثر، كلما عرفوا عنه المزيد.

ولقد وقف علماء النبات على حقائق في النبات قد سبق القرآن الكريم الإشارة إليها، وقد درج العلماء المعاصرون على تسمية ذلك بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفي ذلك دلالة واضحة لكل ذي لبٍ أن القرآن الكريم كلام العليم الخبير سبحانه، وما هو من عند بشر؛ بل أنزله اللطيف الخبير، وفي المطالب الآتية إشارة إلى بعض اللمسات الإعجازية المتعلقة بالنبات في كتاب الله عز وجل.

أولًا: الخضر والحب المتراكب:

إن الآيات التي أشارت إلى حقائق علمية عظيمة تتعلق بالنبات كثيرة في كتاب الله عز وجل، وقد وقف العلماء على بعضها، وكلما تقدم العلم زادت اكتشافات العلماء لتلك الحقائق، ومن الآيات التي أشارة

إلى حقائق علمية كبرى تخص النبات قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقد بسط العلماء المختصون تفصيل وجوه الإعجاز العلمي في هذه الآية، نقف على بعضها فيما يأتي:

أخبر الله سبحانه أنه ينزل الماء من السماء فيخرج به نبات كل شيء، ثم يخرج من النبات الخضر، أي: نباتًا أخضرًا غضًا ناضرًا طريًا [(١)]، ولقد اكتشف العلماء المعاصرون أن سبب الخضرة في النبات هي المادة الخضراء (اليخضور)، واكتشفوا أن هذه المادة الخضراء في النبات هي أكبر مصنع للطاقة على وجه الأرض؛ إذ بهذه المادة العظيمة، التي أودعها الله عز وجل في النبات يقوم النبات بامتصاص ضوء الشمس وثاني أكسيد الكربون من الجو، مع الماء الممتص من التربة، ثم يحول ذلك إلى مادة الجلوكوز أو السكر الأحادي، ثم تتحد وحدات الجلوكوز لتكون سلسلة طويلة من السكريات والتي نسميها بالنشا، والذي يخزن في النبات ويستعمله الإنسان والحيوان كمصدر أساسي للغذاء وللطاقة.

ثم أخبر سبحانه أنه يخرج من الخضر الحب المتراكب، فقال سبحانه: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾، وقوله ﴿مِنْهُ﴾ إذا عادت على النبات فهو الذي يصنع الحب -بإذن الله تعالى-، وإذا عادت على الخضر فهو الوسيلة الحيوية الرئيسية التي هيأها الله تعالى لصنع الغذاء، وإنتاج الحب المتراكب، وإذا عادت على بعض النباتات فهذا حقٌّ لأن بعض النباتات تخرج الحب المتراكب؛ مثل القمح والشعير، وبعضها لا يخرج الحب المتراكب بل يخرج ثمارًا وبذور غير متراكبة.

وهذه العمليات الحيوية العظيمة القدر والقيمة تتم بإذن الله تعالى في النبات الذي خلقه الله عز وجل، ولو اجتمع العلماء وأصحاب البحوث العلمية، ومختبرات الفضاء والذرة وأردوا صنع حبة قمح واحدة، وأقاموا لذلك مصنعًا بمساحة قارة لعجزوا عن صنع هذه الحبة من مكوناتها الأولية، فسبحان الخالق ما أعظمه [(٢)].

والعجيب أنه لولا وجود الخضر لما نبت البنات، ولولا الخضر ما تكونت أي

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٤٦، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ١٩٢.

(٢) انظر: مقال للدكتور نظمي خليل أبو العطا بعنوان: «فأخرجنا منه خضرًا»، في موقعه على الانترنت.

مادة غذائية على الأرض، ولولا الخضر ما كان على الأرض نارًا، ولا خشبًا، ولا فحمًا، ولا بترولًا، ولا كهرباء، ولا حياة، فالشمس هي أصل الطاقة على الأرض، واليخضور (الخضر) هو المثبت الأصلي للطاقة الشمسية، من يوم أن خلق الله تعالى النبات الأخضر، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه، وسبحان من فطر كل شيء ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

ثانيًا: السياج من النخل وأثره على ما بداخل الجنات:

لقد تحدث القرآن الكريم عن جنتين أعطاهما الله عز وجل لعبد من عباده، اختبارًا له وابتلاءً، وأخبرنا سبحانه عن قصة ذلك الرجل مع صاحبه، فقال سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٣].

ولا يعنينا في هذا المقام ما ورد في القصتين من أحداث؛ وإنما الشاهد من الآيتين هنا أنهم أشارتا إلى حقيقة هامة في علم الزراعة، وخاصة في زراعة الأعناب.

لقد أخبرت الآيتين عن بستانين من الأعناب يتصفان بأعلى صفات الجودة والحسن والجمال؛ إذ أشجار الأعناب محفوفة ومحاطة بأشجار النخيل، وبين أشجار الأعناب زرع من أنواع النباتات غير الطويلة، وتجري الأنهار بالماء العذب الوفير بين الأشجار، وهذا في غاية الحسن والبهاء، وأخبر سبحانه بأن كلا البستانين أثمر على أحسن ما يكون الثمر وأكثره[1].

والإعجاز العلمي النباتي في الآيتين أنهما وصفتا أحسن الأجواء، وأفضل الظروف لزراعة بساتين الأعناب، إذ من المعروف أن أكثر العوامل البيئية تأثيرًا على زراعة الفاكهة عمومًا والعنب خصوصًا هي التربة التي ينمو فيها النبات، ويعيش ويستمد منها كافة احتياجاته الغذائية، وكذلك المناخ بعناصره المختلفة؛ من حرارة ورطوبة ورياح وضوء، والتي تؤثر تأثيرًا مباشرًا على نمو النبات، وأن هذه العوامل تتداخل فيما بينها، وإن ارتباطها بشكل جيد يزيد من إنتاجية وجودة العنب، كما وأن التقلبات الجوية والسنوية تؤثر على نضج العناقيد، وبطريقة غير مباشرة، على تطور وانتشار الأمراض والآفات.

وقد أثبتت التجارب والأبحاث أن تعرض سطح التربة الزراعية للحرارة والرطوبة يؤثر على خواصها الطبيعية والكيميائية، كما يعرضها للتعرية، وقد وجد أنه من الأفضل زراعة محاصيل تغطية

(١) انظر: جامع البيان، الطري ١٨/ ١٩.

تحمي التربة، وجذور العنب من الجفاف والتعرض المباشر للضوء والحرارة، كما أن زراعة مصدات للرياح من شأنه حماية التربة والنباتات من العواصف الصحراوية الشديدة، وتمنع تساقط الأزهار والعقد، وتثبيت التربة وتحفظها من عوامل التعرية، وبشرط توفير الإضاءة اللازمة للنبات؛ لحاجته إليها؛ لأن التظليل يضرها كثيرًا؛ حيث لا يتحمل العنب سوى ظله فقط، وخير وسيلة لذلك زراعة أشجار النخيل حول بساتين الأعناب كما وصف الله عز وجل.

وأوصت هذه الأبحاث بضرورة زراعة محاصيل تغطية شتوية حينما تتساقط أوراق العنب لتزيد من خصوبة التربة وتساعد على دوران العناصر بها ونشاط الكائنات الدقيقة النافعة ومكافحة الآفات[1].

وكل هذه المواصفات قد اشتمل عليها قول الله عز وجل: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛ فسبحان من أنزل الكتاب، وجعل فيه الآيات والعبر.

ثالثًا: النار من الشجر الأخضر:

لقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز أن من دلائل قدرته سبحانه أنه يجعل لهم من الشجر الأخضر الرطب نارًا يستدفئون بها، ويطهون عليها، وينتفعون بها في منافع شتى، قال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

والمعنى الظاهر للآية: أن الله عز وجل قادرٌ على إخراج النار المحرقة من الشجر الأخضر الرطب، مع أن الخضرة والرطوبة ضد النار المحرقة، وهذا من آيات الله سبحانه؛ فهو سبحانه الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء، حتى صارت خضرًا نضرًا ذا ثمرٍ وينعٍ، ثم أعادها سبحانه إلى أن صارت حطبًا يابسًا، توقد به النار، فكذلك هو سبحانه فعالٌ لما يشاء، قادرٌ على ما يريد، لا يمنعه شيء[2].

إلا أنه في هذا العصر اكتشف العلماء أن مما يقوم به الشجر الأخضر من وظائف إنما هي في غاية الدقة والتعقيد، وفي منتهى الإبداع، ولا تستطيع جميع مصانع البشر حتى تقليدها إلى يومنا هذا؛ فإن عملية التركيب الضوئي التي تتم في الورقة الخضراء عملية في غاية الأهمية للنبات والإنسان والحيوان؛ فمن خلال هذه العملية يصنع النبات مادة الجلوكوز أو السكر

(١) انظر: الإعجاز العلمي في تصميم مزارع الأعناب، محمد طاهر موسى، وهو من أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة، دولة الإمارات، دبي ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٣٨٥.

الأحادي، ومن ثم النشا، والذي يخزن في النبات ويستعمله الإنسان والحيوان كمصدر أساسي للطاقة.

والنبات الأخضر هو الذي يمتص كميات ثاني أكسيد الكربون الزائدة في الجو، والتي لو زادت عن حدها لأدى ذلك إلى اختلال عظيم على الأرض؛ لكن الورقة الخضراء بأمر الله تنقذنا من هذه المادة الضارة لا بل تحولها إلى مادة هي مصدر طاقة أساسي لمعظم الكائنات الحية ألا وهو الجلوكوز الناتج من المعادلة

والأروع من هذا والأبدع هو الناتج الثاني وهو الأكسجين؛ فلا نار يمكن أن توقد من دون أوكسجين وكم من الكم الهائل من النيران توقد يوميا على هذه الأرض للطهي وفي الصناعات، وكلها لن توقد من دون أوكسجين فمن يعوض كل هذه الكميات المستهلكة من الأوكسجين؟ إنه الشجر الأخضر.

والأكسجين ضروري لكل خلية في كل كائن حي؛ وذلك لأنه بالأكسجين يتم تحويل الغذاء إلى طاقة لازمة لقيام كل خلية بنشاطها الحيوي، وأداء دورها الوظيفي.

وبهذا نرى بديع صنع الله سبحانه، وعظيم خلقه، ونعلم أن النار التي يجعلها الله سبحانه من الشجر الأخضر ليست فقط النار التي توقد من الخشب؛ بل هي أعم من ذلك وأعمق.

وهنا يسأل العاقل نفسه: هل كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من يعلم أن اللون الأخضر في النبات هو سبب وجود النار والطاقة على سطح الكرة الأرضية؟

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، البعث، الرياح، السحاب، السماء، الشجر، الماء

النبوة

عناصر الموضوع

مفهوم النبوة	٣٠٦
النبوة في الاستعمال القرآني:	٣٠٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٠٨
وجوب الإيمان بالأنبياء	٣١٠
شروط النبوة	٣٢٦
مهمات النبوة	٣٤٤
سنة الله في النبوة	٣٥٦

مفهوم النبوة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأصل في كلمة النبوة أنها مأخوذة من مادة (نبأ)، والنون والباء والهمزة قياسه الإتيان من مكان إلى مكان، يقال للذي ينبأ من أرض إلى أرض نابئ؛ لأنه يأتي من مكان إلى مكان، والفعل نبأته، وأنبأته، واستنبأته، والنبي: الذي يأتي بالأنباء عن الله عز وجل [(١)]، فأخباره هي ما أمره الله أن يخبرنا بها؛ فهي تأتينا من فوق العرش. والجمع: الأنبياء، والنبيون.

وقيل: إنها مشتقة من النبوة والنباوة، وهي الارتفاع، أي: إنه أشرف على سائر الخلق، وأنه مفضل على سائر الناس برفع منزلته [(٢)]، والنبيء: الطريق الواضح [(٣)].

وقيل: من النبأ: الخبر، والمنبئ: المخبر، ومنه قراءة نافع: (النبيئين) و(الأنبئاء) و(النبيئون) [(٤)]، ومفردها النبيء على وزن فعيل بمعنى فاعل للمبالغة؛ لأنه أنبأ عن الله تعالى، أي: أخبر، ويجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه، والاسم منها النبوءة، التي هي الإخبار عن الله جل جلاله [(٥)].

وهذه المعاني الثلاثة تجتمع في النبي، يقول الإمام الخطابي رحمه الله: «وإنما سمي الأنبياء؛ لأنهم قد ارتفعت منزلتهم، واستعلت درجتهم على سائر الخلق، والنبي: الطريق، وسمي رسل الله أنبياء لأنهم الطرق إلى الله» [(٦)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

النبي في الاصطلاح: «من أوحي إليه وحيًا خاصًّا من الله بتكليم الله جل جلاله له، أو بتوسط ملك، أو بإلهام في قلبه، أو بالرؤيا الصالحة، وقد ختمت النبوة، وانقطع الوحي بخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم» [(٧)].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٣٨٢.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٨٥، لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٦٣.
(٣) انظر: لسان العرب ١/ ١٦٤.
(٤) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص٨٥٣، معاني القراءات، الأزهري ١/ ١٥٣.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٣، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٣، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٣٤٥.
(٦) غريب الحديث، الخطابي ٣/ ١٩٣.
(٧) معجم لغة الفقهاء ص ٤٧٤.

النبوة في الاستعمال القرآني:

وردت مادة (نبأ) في القرآن الكريم (١٦٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (٨٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٥	﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧]
الأسماء	٧٥	﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]

وجاءت النبوة في القرآن بمعنى: السفارة بين الله والخلق؛ لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم، وهي إما من الفعل (نبا)، وهو: ما ارتفع من الأرض؛ لأن النبوة شرف على سائر الخلق، فهو على هذا المعنى فعيل بمعنى مفعول. أو من الفعل (نبأ) و (نبّأ) و (أنبأ) بالهمز، من الإخبار،؛لأنه مُنَبَّأٌ ومُخْبَرٌ من الله، فهو على هذا المعنى فعيل بمعنى مفعول أيضًا، أو لأنه منبئٌ ومخبر عن الله، فهو على هذا المعنى فعيل بمعنى فاعل[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٨٥-٦٨٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب النون ص١٣٠٣-١٣٠٦.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ١٣٤-١٣٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ١٤-١٥، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧٨٨-٧٨٩، مختار الصحاح، الرازي، ص٣٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوحي:

الوحي لغة:

إلقاء علم من طرف لآخر في خفاء[١].

الوحي اصطلاحًا:

المعنى المبثوث إلى من أريد به في خفاء، لتنفيذه بحسب ما يقتضيه المعنى.

الفرق بين النبوة والوحي:

النبوة هي درجة يكرم الله بها من شاء من عباده، ولا تكون إلا بالوحي بمعناه الأخص، وهي أن يرسل الله للنبي بالرسول الملكي، وهو جبريل عليه السلام، وقد ختمت النبوة بمبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إلا ما يكون من مبعث عيسى عليه السلام في آخر الزمان، أما الوحي فقد بقيت صورة من صوره وهي الرؤيا الصالحة.

٢ الرسالة:

الرسالة لغة:

العبارات المؤلفة، والمعاني المدونة، المبعوثة من شخص لآخر بواسطة ناقل[٢].

الرسالة اصطلاحًا:

هي الشريعة التي يبعث الله بها من شاء من عباده إلى قومه أو الناس كافة، وهي متضمنة لأحكام يكلف الله بها عباده، وأخبار وجب عليهم تصديقها.

الفرق بين النبوة والرسالة:

النبوة هي وحي من الله تبارك وتعالى لعبد من عباده في أمة كان الله قد بعث فيها رسولًا بشريعة، وبعث هذا النبي لتجديد هذه الشريعة، أما الرسالة فهي وحي من الله جل جلاله لعبد من عباده بشرع جديد، يتضمن أحكامًا مغايرة لمن سبقه من الرسل، وهذه الأحكام في باب الأوامر والنواهي، وليس في باب العقائد والأخبار، وبذلك تكون الرسالة رتبة أعلى من النبوة؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٩٣.
(٢) الكليات، الكفوي ص٤٧٦.

٣ الصديقية:

الصديقية لغة:

التصديق بكل أمر أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه، لا يتخالج قلب الصديق شكٌّ في شيء منه.

الصديقية اصطلاحًا:

وصف يطلق على من يأتي بعد الأنبياء في قوة الإيمان، وحسن الطاعة[١].

الفرق بين النبوة والصديقية:

النبوة هي أعلى درجات الكمال البشري، ويأتي بعدها في الرتبة درجة الصديقية؛ وهي درجة من أعلى درجات الولاية، وأدنى درجات النبوة[٢]، ولا واسطة بينها وبين النبوة، فمن جاوزها وقع في النبوة بفضل الله تعالى في الزمان الأول، وذلك أن الصديق يؤمن بما جاء به الرسول دون أن يطلب على ذلك برهان؛ بل يقبله بما أكرمه الله به من صحيح الفطرة وسلامتها من الانحراف، فيصدقه ويناصره، فيكون الواسطة في الأخبار بين الله وبين النبي الوحي، بينما الصديق واسطته في ذلك النبي، ويطلق على الصديق أيضًا الحواري.

٤ الولاية:

الولاية لغة:

النصرة والمحبة[٣].

الولاية اصطلاحًا:

درجة وكرامة من الله جل جلاله ينالها العبد بسبب إيمانه بالله، وتقربه له، وطاعته إياه.

الفرق بين النبوة والولاية:

الولاية صفة عامة لكل من آمن بالله وأطاعه واتقاه، وهي درجات أعلاها النبوة، ويأتي بعد النبوة في الرتبة الصديقية كما سبق بيانه، ولكن بينها جميعًا عموم وخصوص، وعلى ذلك تكون كالإسلام مع الإيمان؛ إذا اجتمعت اختلفت، وإذا افترقت اتفقت، وتكون الولاية بذلك رتبة ثالثة بعد الصديقية[٤].

(١) انظر: الكليات ص٥٥٧.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي ص٤٩٦.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص٥٥٧.

وجوب الإيمان بالأنبياء

الإيمان بالأنبياء أصل عظيم من أصول الإسلام، ولا يصح للعبد إيمان ولا تتحقق له نجاة حتى يؤمن بأنبياء الله ورسله جميعًا، ولا يفرق بين أحد منهم في أصل الإيمان بأنهم جميعًا من عند الله، وأنهم سفراء الله إلى خلقه، وحملة رسالاته إليهم، وأنهم جاؤوا بالهدى والحق المبين الذي من حاد عنه فقد ضل، ومن التزم به هدي إلى صراط مستقيم، وأنهم قد بلغوا هذا الحق إلى الناس على الوجه الأكمل كما أمرهم الله.

والواجب على العبد المسلم أن يؤمن بالأنبياء والمرسلين جملة وتفصيلًا، فيؤمن إجمالًا بكل نبي أو رسول من عند الله جل جلاله، وإن كان لا يعرف أسماء بعضهم أو صفاتهم، أو ما كان بينهم وبين أقوامهم.

ويؤمن تفصيلًا بمن سمى الله في كتابه منهم، على النحو الذي أخبر الله به عنهم.

أولًا: الأنبياء الذين ذكروا بأسمائهم:

والأنبياء الذين سمى الله لنا أسماءهم في كتابه خمسة وعشرون نبيًّا، وهم:

إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيي، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط، وآدم، وهود، وصالح، وشعيب، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد ذكر من هؤلاء الأنبياء ثمانية عشر نبيًّا في موضع واحد، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦].

وذكر السبعة الباقين وهم آدم، وهود، وصالح، وشعيب، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد عليهم صلوات الله أجمعين في مواضع متفرقة من كتابه:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [هود: ٦١].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤].

﴿وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾[الفتح: ٢٩].

وهؤلاء الأنبياء والمرسلون المذكورون بأسمائهم في كتاب الله «علينا أن نؤمن بهم تفصيلًا كما أخبرنا الله عنهم.

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والأنبياء فنؤمن بهم إجمالًا على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم، دون أن نكلف أنفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم، فإن ذلك مما اختص الله بعلمه؛ قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[النساء: ١٦٤]»[(١)].

ثانيًا: من اختلف في نبوتهم:

الأنبياء السالف ذكرهم أثبت الله عز وجل لهم النبوة في كتابه، وهناك من اختلف العلماء في نبوتهم، هل هم من الأنبياء أم من الصالحين؟ ومنهم:

١. الخضر.

اختلف العلماء في الخضر هل هو نبي، أم ولي، أم ملك؟

قال القرطبي رحمه الله: «الخضر نبي عند الجمهور. وقيل: هو عبد صالح غير نبي. وقيل: كان ملكًا أمر الله موسى أن يأخذ عنه»[(٢)].

ومَرَدُّ اختلاف العلماء إلى دلالات الآيات المذكورة في حديث موسى مع الخضر في سورة الكهف، كقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وكقوله تعالى في شأنه: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

وقوله تعالى حكاية عن الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[الكهف: ٨٢].

والراجح قول الجمهور: أنه كان نبيًّا، والدليل عليه ما يلي:

أولًا: أن الآيات في سورة الكهف تشهد بنبوته؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي من الله.

ثانيًا: أن موسى عليه السلام تبعه ليتعلم منه، والإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من فوقه، وليس ولا يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي.

ثالثًا: يفهم من قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوة، وأن هذا العلم اللدني علم وحي[(٣)].

٢. ذو القرنين.

(١) شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس ١/ ٦٣-٦٤ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٢٢.

اختلف العلماء في ذي القرنين: منهم من قال: كان عبدًا صالحًا. ومنهم من قال: كان نبيًّا. ومنهم من قال: كان ملكًا من الملائكة.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦].

«يستدل بهذا من يزعم أنه كان نبيًا، فإن الله خاطبه بالوحي، ومن قال: إنه لم يكن نبيًّا أوله بالإلهام، ويحتمل أن يكون الخطاب على لسان نبي غيره»[١].

وفي هذه الآية اختلف العلماء: هل هذا الخطاب كان خطابًا من الله له أم كان بواسطة نبي معه؟

فمن قال: كان خطابًا من الله له أثبت له النبوة، ومن قال: كان بواسطة نبي معه نفى عنه النبوة.

٣. تبع.

ورد ذكر تبع في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤].

فهل كان نبيًّا مرسلًا إلى قومه فكذبوه فأهلكهم الله؟ الله أعلم بذلك[٢].

٤. الأسباط.

فالأسباط: جمع سبط؛ قيل: إنهم أولاد يعقوب، ومنهم يوسف. وقيل: هم الأنبياء الذين بعثوا في أسباط بني إسرائيل الذين لم يذكروا بأسمائهم، وقيل غير ذلك.

قال ابن حجر: «اختلف في نبوتهم، فقيل: كانوا أنبياء. وقيل: لم يكن فيهم نبي، وإنما المراد بالأسباط قبائل من بني إسرائيل، فقد كان فيهم من الأنبياء عدد كثير»[٣].

وممن صرح بنفي نبوتهم القاضي عياض حيث قال: «وأما قصة يوسف وإخوته فليس على يوسف منها تعقب، وأما إخوته فلم تثبت نبوتهم، فيلزم الكلام على أفعالهم، وذكر الأسباط وعدهم في القرآن عند ذكر الأنبياء قال المفسرون: «يريد من نُبِّئَ من أبناء الأسباط»[٤].

وقد قال تعالى في شأنهم: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ثالثًا: عدد الأنبياء والمرسلين وحكم

(١) فتح البيان، القنوجي ٨/ ١٠٩.

(٢) العقيدة في ضوء الكتاب والسنة، الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص٢١-٢٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤١٩.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٣٧٣.

من فرق بينهم:

اقتضت حكمة الله تعالى ألا يعذب أمة إلا بعد إرسال الرسول لها مبلغًا ومنذرًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وهذا يدلنا على كثرة الأنبياء والمرسلين إلى الأمم، فكل أمة لها رسول من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

والله تعالى قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤].

١. عدد الأنبياء.

«عدد الأنبياء لا يحصى؛ إذ يزيد عددهم على ما جاء في بعض الآثار مائة وعشرين ألفًا، أما الرسل فهم قلة، والذين ذكروا في القرآن الكريم يجب الإيمان بهم تفصيلًا، وهم خمسة وعشرون، وهم من الرسل، وهم كالآتي:

آدم، نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيي، إدريس، يونس، هود، شعيب، صالح، لوط، إلياس، اليسع، ذو الكفل، عيسى، محمد -صلوات الله عليهم أجمعين-»[1].

فهؤلاء هم المذكورون في القرآن الكريم بأسمائهم.

وهناك أنبياء ومرسلون لا نعرف أسماءهم، ولم يقص الله علينا من أخبارهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

فليس في القرآن حصر لعدد الأنبياء والمرسلين، لكن الواضح من القرآن أنهم كانوا أعدادًا كبيرة، يدلنا على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقوله جل جلاله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

حيث تبين هاتان الآيتان أن كل الأمم وكل القرى التي أخذها الله تعالى كان لها منذرون من قبل الله جل جلاله، وهذا إن دل فإنما يدل على أن عدد الأنبياء والمرسلين كان غفيرًا.

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ١/ ١٣-١٤.

ويؤيد هذا بعض الآثار التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ففي المعجم الكبير أن أبا ذر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قلت: يا نبي الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: (مائة ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائةٍ وخمسة عشر جمًّا غفيرًا)[1].

وأيًا ما كان الأمر فإننا نقول: إن الواجب على المسلم -كما مر معنا- أن يؤمن إجمالًا بكل الأنبياء والمرسلين دون أن يفرق بين أحد منهم، وأن يؤمن تفصيلًا بمن ذكر الله منهم، ونص عليهم بأسمائهم في كتابه الكريم.

٢. حكم من فرق بينهم.

دين الله واحد وإن اختلفت أحكام الشرائع، وأنبياء الله إخوة، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والأنبياء إخوةٌ لعلاتٍ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحدٌ)[2].

فالواجب علينا أن نؤمن بجميع الأنبياء؛ لأن جميعهم جاء بالإيمان بالله، ولا نفرق بين أحد منهم، فلا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فهذه الآيات تدلنا على أن «من كفر بنبي واحد فقد كفر بالأنبياء كلهم، ولم ينفعه إيمانه به»[3].

«وأن الكفر برسل الله هو كفر بالله»[4].

وما ذلك إلا لأن الإيمان بالله «يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله، وصدق كل الرسل الذين يبعثهم الله، ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم، وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم»[5].

وقد أكد الله كفرهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١].

فتعريف جزأي الجملة، والإتيان بضمير الفصل يفيد «قصر صفة الكفر عليهم»[6].

وهذا يظهر شدة كفرهم؛ لئلا «يتوهم أن

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٨/ ٢١٧.
وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ٣/ ١٥٩٩، رقم ٥٧٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٣.

(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ٣٤٨.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣/ ٩٥٧.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٤٢.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١١.

مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر»[1].

ومما يؤكد كفر من فرق بين الرسل قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾[البقرة: ١٣٦].

فهاهنا تبين الآية أن المؤمنين ديدنهم هو عدم التفريق بين الرسل أبدًا، وبالتالي فهي تقطع بأن «من آمن برسول من رسل الله ولم يؤمن بجميع الرسل فليس من المؤمنين، ومن تمسَّكَ بكتاب وكفر بما سواه من كتب الله فهو من الكافرين»[2].

وكذا جاء نفس الأمر في قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥].

وهكذا يظهر لنا أن من فرق بين رسل الله عز وجل فآمن ببعضهم، وكفر بالبعض الآخر فهو كافر قطعًا «وهذا لا يمنع المفاضلة بينهم؛ إذ المقصود عدم التفرقة بين الأنبياء في الإيمان ببعضهم»[3]. أو إذا كان ذلك على سبيل العصبية والاستنقاص.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢١٢.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١/ ١٤٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧٣٩ بتصرف.

رابعًا: التفاضل بين الأنبياء:

لله تعالى أن يصطفي من يشاء من عباده، والرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام هم ممن اصطفاهم الله لحمل الرسالة، وإبلاغ الهداية إلى الناس، فجعلهم سفراءه إلى خلقه بالرحمة والهدى، وهؤلاء الرسل -على علو مقامهم وشريف منزلتهم- درجات عند الله في الفضل، بعضهم أفضل من بعض.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وكذا قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾[البقرة: ٢٥٣].

ففي هذه الآية يخبر المولى جل جلاله أنه «فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديدة، والنفع العام»[4].

خامسًا: أولو العزم من الرسل هم أفضل الرسل:

إذا كان الرب جل وعلا فضل بعض

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٩.

الرسل على بعض، فإن أفضل الرسل هم أولو العزم.

قال تعالى لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فـ«أولو العزم من المرسلين سادات الخلق أولو العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم»[(١)].

وقد اختلف العلماء في تعداد أولي العزم على أقوال «وأشهرها، أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد صلى الله عليه وسلم»[(٢)].

وقد ذكرهم الله في كتابه في أكثر من موضع، فقال جل جلاله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وتخصيص الخمسة المذكورين في الآية مع اندراجهم مع النبيين «للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع، وأساطين أولي العزم من الرسل»[(٣)].

أسباب التفضيل:

أسباب التفضيل بين الرسل وأسرار تفاوت الرتب بينهم لا يعلمها إلا الله عز وجل «غير أنها ترجع إلى ما جرى على أيديهم من الخيرات المصلحة للبشر، ومن نصر الحق، وما لقوه من الأذى في سبيل ذلك، وما أيدوا به من الشرائع العظيمة المتفاوتة في هدى البشر، وفي عموم ذلك الهدى ودوامه»[(٤)].

كذلك يتعلق التفضيل «بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما مَنَّ به عليهم من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الأتباع، ونزول الكتب على بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية»[(٥)].

وقد ذكر الله في كتابه مزايا كثيرة لبعض الأنبياء فيها إظهار لمزيد فضلهم، وعظيم شرفهم، وفيما يلي عرض لهذه المزايا:

١. آدم عليه السلام.

هو أبو البشرية، وقد ذكر القرآن له عددًا من الخصائص:

- **أن الله خلقه بيديه وسواه ونفخ فيه من روحه.**

وهذه من الفضائل العظيمة التي خصَّ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٠٥.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٩٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٠.

بها سيدنا آدم عليه السلام، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

وهنا يخبر المولى جل جلاله عن خلقه المباشر لسيدنا آدم عليه السلام، وهذه خصيصة عظيمة لآدم حيث خلقه الله بيديه مباشرة، فلم يكن له أب ولا أم، وفي هذا «إيماء إلى شرف آدم عليه السلام، وعظم مكانته»[(١)].

❁ تعليم الله له.

وهذه من الخصائص العالية القدر التي ذكرت لآدم عليه السلام، فهي تدل على عظيم رعاية الرب له، وشريف عنايته به.

قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

ففي هذه الآيات يظهر المولى جل وعلا فضل آدم عليه السلام من جهة أن علمه مستمد من تعليم الله له، فإن إمداد الله له بالعلم يدل على أنه محاط منه برعاية ضافية، ثم إن العلم الذي يحصل عن طريق النظر والفكر قد يعتريه الخلل، ويحوم حوله الخطأ، فيقع صاحبه في الإفساد من حيث إنه يريد الإصلاح، بخلاف العلم الذي يتلقاه الإنسان من تعليم الله، فإنه علم مطابق للواقع قطعًا، ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن سبيل الإصلاح[(٢)].

❁ سجود الملائكة له.

وهذا من المواقف العظيمة التي ذكرها القرآن في غير ما موضع والتي تشي بعظيم فضل آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وفي حديث الشفاعة الطويل: (فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك)[(٣)].

فأمْرُ الملائكة بالسجود لآدم -لاشك- يدل على مدى رفعة هذا النبي وعلو مقامه، وفي هذا «كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم عليه السلام»[(٤)].

(١) تفسير المراغي ١٤/ ٢١.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ٤/ ١٣٤، رقم ٣٣٤٠.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٢٨٩.

٢. نوح عليه عليه السلام.

هو من الرسل الكرام، بل هو من أولي العزم الذين فضلهم الله على بقية الأنبياء والرسل، وقد ورد ذكره في القرآن كثيرًا، ومن المزايا التي ذكرها القرآن له أنه:

❁ أول الرسل إلى أهل الأرض.

وهذا من المزايا الرفيعة التي اختص بها سيدنا نوح.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فإنه بدأ بذكر نوح عليه السلام «لأن نوحًا أول رسول أرسله الله إلى الناس»[(١)].

وفي حديث الشفاعة يأتي بعض الخلق (فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض)[(٢)].

فالرسل موكب كريم شريف القدر عالي المقام، وأن يكون نوح عليه السلام هو مفتتح هذا الركب الميمون، فهذا تشريف كبير له.

٣. إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم عليه السلام من الأنبياء الكبار أصحاب الفضل العظيم، والمقام الرفيع، وقد حفل القرآن بكثير من مزاياه وخصائصه، وفيما يلي عرض لأبرزها:

❁ النبي الإمام.

وهذه مرتبة رفيعة، ومزية جليلة اختص بها سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهاهنا يخبر الرب الجليل أنه ابتلى نبيه إبراهيم «ببعض الأوامر والنواهي، فأداها خير الأداء، وأتى بها على وجه الكمال»[(٣)].

فجعله الله إمامًا للناس «يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله، ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعًا، وتكون له فيهم قيادة»[(٤)].

وبذلك يحصل له الثناء الدائم، والتعظيم المستمر، والأجر الذي لا ينقطع.

❁ النبي الخليل.

وهذه من الدرجات الرفيعة، ومن المزايا الجليلة التي ذكرها القرآن لإبراهيم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٥١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ٤/ ١٣٥، رقم ٣٣٤٠.
(٣) تفسير المراغي ١/ ٢٠٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١١٢.

فالخلة «تتضمن كمال المحبة ونهايتها، بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما»[1].

ولشريف هذا المنصب فإنه لم يختص به إلا إبراهيم ومحمد -صلوات الله وسلامه عليهما-، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا)[2].

ومنزلة الخلة هذه تُظْهِرُ -ولا شك- ما لإبراهيم عند الله من مكانة، فهي «منزلة عليا من منازل القرب من الله، لا تكاد تدانيها منزلة»[3].

❁ جعل النبوة والكتاب في ذريته.

النبوة شرف ما بعده شرف، فالأنبياء والرسل هم منارات الهدى للبشر، وأدلاء الناس على طريق خالقهم، فأن يكونوا في ذرية إبراهيم فـ«هذه خلعة سنية عظيمة»[4]. تدل على علو قدره.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فهذه الآية تبين كيف أن شرف النبوة قد انحصر في سلالة إبراهيم عليه السلام «فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم»[5]. وأن تكون مواد الهداية والخير «والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون، فهذا من أعظم المناقب والمفاخر التي أكرم الله بها هذا النبي عليه الصلاة والسلام»[6].

٤. موسى عليه السلام.

هو من الأنبياء الذين توسع القرآن في ذكر خبرهم، وما كان من شأنهم مع أقوامهم، ومن مزاياه التي أشار إليها القرآن:

❁ تكليم الله له.

وهذه من المزايا العظيمة التي أكرم الله بها موسى عليه السلام، وقد ذكرها القرآن في أكثر من موضع.

قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

فتكليم الله لموسى «تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكليم»[7].

وهذه خصيصة انفرد بها موسى عليه

(١) الداء والدواء، ابن القيم ص١٩٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد، على القبور، ١/ ٣٧٧، رقم ٥٣٢.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٩١٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٧٥.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣٠.
(٦) المصدر السابق بتصرف.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧٣.

السلام دون غيره من الأنبياء والرسل وهي -حتمًا- تدل على مدى عظمة هذا النبي، وعلو قدره عند ربه؛ إذ «وقف في أكرم موقف يلقاه إنسان»[1].

٥. عيسى عليه السلام.

احتفى القرآن بذكر عيسى عليه السلام، وعدد له الكثير من المزايا والخصائص، وفيما يلي عرض لها:

❁ رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

الأنبياء جميعًا -عدا آدم عليه السلام - لهم آباء وأمهات، ولكن سيدنا عيسى اختص بميلاد عجيب، حيث إن ميلاده جعله الله آية، فقد ولد بغير أب.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

فقد سمي بكلمة الله «لأنه كان بالكلمة من الله؛ لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته، وعجائب مخلوقاته»[2]. وهذه مزية عظيمة لعيسى عليه السلام.

ومن الآيات التي ذكرت هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

وهاهنا يؤكد القرآن على كون عيسى خلق خلقًا مغايرًا لما تجري عليه الأسباب؛ فقد كان بكلمة الله التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

أي: «أوصلها إليها، وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة»[3].

❁ الكلام في المهد.

وهذه من الخصائص التي أكرم الله بها نبيه عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

أي: إن عيسى عليه السلام سيدعو إلى عبادة الله وحده «في حال صغره، معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه بذلك»[4].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثةٌ: عيسى...)[5]

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٩٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٣١.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٤٧٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث

الحديث.

وخص تكليمه في حال كونه في المهد وحال كونه كهلًا مع أنه يتكلم فيما بينهما «لأن لذينك الحالين مزيد اختصاص بتشريف الله إياه، فأما تكليمه الناس في المهد؛ فلأنه خارق عادة إرهاصًا لنبوءته، وأما تكليمهم كهلًا فمراد به دعوته الناس إلى الشريعة»[1].

❁ رفعه إلى السماء ونزوله في آخر الزمان.

وهذه من المزايا التي تفرد بها هذا النبي الكريم، قال جل جلاله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى أن عيسى عليه السلام رفع بجسده وروحه.

قال ابن تيمية: «عيسى عليه السلام حي، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (والذي نفسي بيده، ليوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عادلًا، وإمامًا مقسطًا، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ)[2].

وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدجال[3]. ومن فارقت روحه جسده لم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي فإنه يقوم من قبره.

وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت؛ إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين؛ فإن الله يقبض أرواحهم، ويعرج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولو كان قد فارقت روحه جسده لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء.

وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ

الأنبياء، باب قوله: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)، ٤/ ١٦٥، رقم ٣٤٣٦.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، ٣/ ٨٢، رقم ٢٢٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم، ١/ ١٣٥، رقم ١٥٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الدجال وصفته، ٤/ ٢٢٥٠، رقم ٢٩٣٧.

﴿إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

فقوله هنا: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه، كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه؛ إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات[(١)].

٦. محمد صلى الله عليه وسلم.

نبينا محمد صلى الله عليه وسلم له الكثير من الفضائل والمزايا التي ذكرها الله في كتابه، وفيما يلي عرض لها:

❁ خاتم النبيين.

وهذه من الفضائل العظيمة التي كانت من نصيب محمد صلى الله عليه وسلم، فالنبوة سلسلة رفيعة القدر، فأن يكون هو خاتمها وحلقتها الأخيرة فهذا يدل على عظيم قدره.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فكونه النبي الخاتم يدل على أنه صلى الله عليه وسلم «وارث النبيين جميعًا، والمهيمن برسالته على رسالات الرسل كلهم، فلا رسول بعده إلى يوم الدين؛ لقد ختمت به رسالات السماء، وأضيفت شعاعاتها كلها إلى شمس شريعته، فأصبحت تلك الشعاعات مضمونًا من مضامينها، وقبسًا من أقباسها، فلا هدى بعد هذا إلا من هداها، ولا نورًا إلا من نورها ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]»[(٢)(٣)].

❁ أرسل للناس عامة.

وهذه من المناقب العظيمة التي أكرم الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فرسالته هي «الرسالة الأخيرة، فهي الرسالة الشاملة التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل، ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية، محدودة بفترة من الزمان»[(٤)].

وكان النبي في السابق يرسل لقومه خاصة، ولكنه صلى الله عليه وسلم بعث للناس عامة، قال صلى الله عليه وسلم: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس عامةً)[(٥)].

فهو المبعوث للثقلين للإنس والجن،

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٧٢٦.

(٣) لا يقدح في كون النبي خاتم النبيين نزول عيسى بعده، لأن معنى ختمه للنبوة أن لا ينبأ أحد بعده، وعيسى ممن نبىء قبله، وحين ينزل إنما ينزل عاملًا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، مصليًا إلى قبلته، كأنه بعض أمته. انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٦ بتصرف.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٧٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، ١/ ٧٤، رقم ٣٣٥ ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢١.

قال عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

أي: إن النبي بعث «إلى كافة الإنس وكافة الجن»[(١)].

وأن يكون النبي رسولًا للعالمين، فهذا يدل على علو مقامه عند ربه «وهو مقام لا يطاول، ومنزلة لا تنال، قد انفرد بها صلى الله عليه وسلم من بين رسل الله وأنبيائه جميعًا، فهو رسول الإنسانية كلها، والشمس التي تملأ آفاقها، وتدخل كل مكان فيها»[(٢)].

❁ صاحب المقام المحمود.

وهذا مقام عظيم أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وكلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ في كلام العرب تفيد التوقع، أما في كلام الله فإنها تفيد الوجوب والقطع، قال الإمام الرازي: «اتفق المفسرون على أن كلمة (عسى) من الله واجبة؛ لأن لفظة (عسى) تفيد الإطماع، ومن أطمع إنسانًا في شيء ثم حرمه كان عارًا، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحدًا في شيء، ثم لا يعطيه ذلك»[(٣)].

فالله عز وجل يقول لنبيه: داوم على ما أمرت به من العبادة: «لنقيمك يوم القيامة مقامًا يحسدك فيه الخلائق كلهم»[(٤)].

قال ابن جرير: «أكثر أهل العلم على أن المقام المحمود هو ذلك المقام الذي يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم»[(٥)]. وهذا مقام عظيم يوم القيامة يشي بعظم شأن النبي صلى الله عليه وسلم عند خالقه.

❁ قسم الله به.

قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

ففي هذه الآية «شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى أقسم بحياته، ولم يفعل ذلك مع بشر سواه»[(٦)].

وقسم الله بحياة نبيه يدل على «تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض»[(٧)].

❁ لم يخاطبه الرب باسمه المجرد.

خاطب الله أنبياءه بأسمائهم المجردة، فقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٤].

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٦٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٨١٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٣٨٧ بحذف يسير.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٠٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٢٦ بتصرف.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٦٩.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٤٢.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

ولكن لم يناد الله عز وجل نبيه باسمه المجرد أبدًا، وما ناداه إلا بـ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الطلاق: ١].

فكون النبي لا يخاطب باسمه المجرد، فهذا -لا شك- يشير «إلى المحبة والقرب من ربه، الذي يخلع عليه ما يخلع من أوصاف التكريم، ويناديه بها، حتى لكأنها علم عليه وحده»[(١)].

❁ الثناء عليه بجميع خلقه.

إن الله عز وجل أثنى على أنبيائه كثيرًا، ولكنه كان يمدحهم ومدحهم ببعض أخلاقهم، فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٥٧].

ووصف موسى عليه السلام بأنه ﴿كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

وأثنى على إسماعيل بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

ولكنه لمَّا أثنى على محمد صلى الله عليه وسلم أثنى عليه بجميع خلقه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وتأمل كيف أنه عبر بـ(على) التي هي «للاستعلاء المجازي، المراد به التمكن»[(٢)].

وهذا يشعر بمدى تمكن النبي ورسوخه في كل خلق كريم، «وحسب رسول الله شرفًا وعزًّا بهذا الوصف الكريم من الله تعالى حسبه بهذا، حيث توجه ربه عز وجل بتاج الكمال كله؛ إذ ليس بعد حسن الخلق حلية تتحلى بها النفوس، أو تاج تتوج به الرؤوس»[(٣)].

❁ صلاة الله وملائكته عليه.

وهذه وحدها مزية عظيمة جليلة، تدل على قدر النبي عليه الصلاة السلام عند خالقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وصلاة الله على النبي تعني «ذكره بالثناء في الملأ الأعلى، وصلاة ملائكته دعاؤهم له عند الله تعالى»[(٤)].

وهذه الآية «شرف الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم حياته وموته، وذكر منزلته

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ١٠٠٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٦٣.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٥/ ١٠٨١-١٠٨٢.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٩.

منه»[1]. فيا لها من منزلة كريمة.

- اختصاصه بمعجزة القرآن.

الأنبياء السابقون آتاهم الله عز وجل عددًا من المعجزات، ولكنها كانت مخصوصة بزمنهم، وموقوتة بحياتهم، ولكن المولى تبارك وتعالى اختص حبيبه ومصطفاه بمعجزته الكبرى، والتي ستبقى خالدة على امتداد الزمان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وهنا يمتن الحق سبحانه على رسوله «بأنه يكفيه أن أنزل عليه القرآن الكتاب المعجزة، والمنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، فالقرآن يضم كمالات الحق التي لا تنتهي»[2].

إن معجزة القرآن معجزة لها خصوصيتها وتفردها عن كل ما تقدمها من معجزات، فهي معجزة «مفتوحة للأجيال، وليست كالخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل»[3]. فأن يختص بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم فهذه -لا شك- مزية عظيمة.

النصوص التي تنهى عن التفضيل بين الأنبياء:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهذه الآية تقطع بوجود التفاضل بين الأنبياء والرسل، ولكن هناك أحاديث ثابتة تنهى عن التفضيل، ومن ذلك قوله: (لا تخيروني على موسى)[4]، و(لا تفضلوا بين أنبياء الله)[5] أي: لا تقولوا: فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان؛ ولكن هذه الأحاديث لا تعارض بينها وبين الآية.

قال الإمام القرطبي: يمكن الجمع بين الآية والأحاديث من وجوه:

- أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل.
- أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع.
- أو أن المراد النهي عن الخوض في ذلك؛ لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال، والجدال قد يؤدي إلى أن يذكر بعضهم بما لا ينبغي أن يذكر به،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٣٢.
(٢) تفسير الشعراوي ١٣/ ٧٧٦١.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٧٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، ٣/ ١٢٠، رقم ٢٤١١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإن يونس لمن المرسلين)، ٤/ ١٥٩، رقم٣٤١٤.

وقد يؤدي إلى قلة احترامهم، والعصبية المقيتة لبعضهم.

ثم قال: وأحسن من هذا القول من قال: إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة، لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والمعجزات، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها؛ ولذلك فهم رسل وأولو عزم، ومنهم من كلمه الله، فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل، وأعطي من الوسائل؛ وبذلك نكون قد جمعنا بين الآية والأحاديث من غير نسخ[1].

شروط النبوة

لمرتبة النبوة شروط نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: الصدق:

لما كانت النبوة هي أداء رسالة، وتبليغ شريعة، وتوجيه للناس نحو الخير، كان من أهم شروط هذه الوظيفة العظيمة الصدق؛ لأن النبي مبلغ عن الله، أمين على وحيه، والكذب في حقه عظيم؛ لأنه كذبٌ على الله، وافتراء عليه، وتضليل للناس: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

ثم إن النبي قدوة للناس، وأنموذج حي لتعاليم الله في الأرض؛ لذا اشترط فيه أن يكون صادقًا فيما يقوله أو يبلغه حتى يهتدي الناس به.

لذا كان الصدق من أخص صفات الأنبياء، ومن أهم الشروط التي جعلها الله فيمن اصطفاه لهذا المقام الكريم، ومن جعل القرآن نصب عينيه بانت له أمارات صدقهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

فهذا موسى عليه السلام يبين التزامه بالصدق خلقًا ومقامًا وحالًا لا يتجاوزه، فيقول: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٦١-٢٦٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٧١، فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٤٦.

أي: «جدير بأن لا أقول على الله إلا الحق، وحريٌّ بي أن ألتزمه»[1].

والمعنى: «أن الرسول لا يقول إلا الحق، فصار نظم الكلام كأنه قال: أنا رسول الله، ورسول الله لا يقول إلا الحق»[2].

فرسول الله خليق بألا يقول على الله إلا الحق والصدق.

وأثنى الله على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤].

ففي هذه الآية «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر يا محمد في الكتاب إسماعيل بن إبراهيم، فاقصص خبره إنه كان لا يكذب وعده، ولا يخلف، ولكنه كان إذا وعد ربه أو عبدًا من عباده وعدًا وفَّى به»[3].

وبالصدق الكثير وصف الله نبيه إبراهيم عليه السلام فقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٤١].

«كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب»[4].

وصدِّيقٌ لفظ فيه «مبالغة في كونه صادقًا، وهو الذي يكون عادته الصدق؛ لأن هذا البناء ينبئ عن ذلك، يقال: رجل خمير وسكير للمولع بهذه الأفعال»[5]. فالصديق: كثير الصدق.

وبذات الوصف ذكر الله نبيه إدريس أيضًا، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٦].

وجاء في آخر سورة المائدة قول عيسى عليه السلام لربه: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ [المائدة: ١١٧].

وهو واضح جدًّا في التزام عيسى عليه السلام بما أمره الله به فقط، لم يزد عليه شيئًا، ولم ينقص منه شيئًا، وإنما هو الصدق في التبليغ، والامتثال في الأداء.

وكذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب -قبل إسلامه- عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فرد عليه: ما جربنا عليه كذبًا قط[6]. وهذه وهذا النص يظهر أنها صفة أصيلة في الرسل حتى قبل مبعثهم.

ولقد بين سبحانه وعيد من كذب على الله من أنبيائه أو تَقَوَّلَ عليه ما لم يأمر به،

(١) التفسير الميسر ص١٦٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٢٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢١١.
(٤) المصدر السابق ١٨/ ٢٠٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٤٢.
(٦) انظر: تفصيل القصة في صحيح البخاري في بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ١/ ٨، رقم ٧، وصحيح مسلم، كتاب المغازي، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، رقم ١٧٧٣.

فقال في وعيد شديد: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

والتَّقوُّل: «أن يقول الإنسان عن آخر أنه قال شيئًا لم يقله»[(١)].

و ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: «بالقوة والقدرة، أي: لأخذناه بالقوة»[(٢)].

والوتين: «نياط القلب، وهو حبل الوريد: إذا قطع مات صاحبه»[(٣)].

والمعنى: «ولو ادعى علينا شيئًا لم نقله لقتلناه صبرًا[(٤)]، كما يفعل الملوك بمن يكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول: وهو أن يؤخذ بيده، وتضرب رقبته»[(٥)].

وما دامت هذه العقوبة لم تقع بأحد منهم، فهذا يبين أنهم كانوا صادقين فيما بلغوه عن الله تعالى، وأن أحدًا منهم لم يفتر على الله كذبًا.

ثانيًا: الأمانة:

وهذه صفة قرينة لصفة الصدق التي سبقت، فلا يكون الكاذب أمينًا، كما أن الخائن يستحيل أن يكون صادقًا؛ لذا يلزم أن يكون الصادق أمينًا والأمين صادقًا، ومن ثم كانت هذه من الصفات الواجب توافرها في الأنبياء.

وأن يكون النبي أمينًا، فهذا يعني أنه «يبلغ أوامر ربه ونواهيه إلى العباد دون زيادة أو نقص، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]»[(٦)].

والأنبياء جميعًا مؤتمنون على الوحي، يبلغون أوامر الله كما أنزلها إليهم، ولا يمكن لهم أن تجري عليهم الخيانة أبدًا «فهل يليق بنبي أن يكتم أمانته، فلا ينصح الأمة، ولا يبلغ رسالة الله»[(٧)].

وهذا تجده واضحًا فيما جاء على لسان أغلب الرسل في القرآن الكريم، فكل واحد منهم قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧].

فها هو نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٧-١٠٨].

وتأمل كيف أنه استخدم حرف التوكيد ﴿إِنِّي﴾ مع أن أحدًا لم ينكر عليه أمانته «لأنه توقع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٦٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٧٥.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٠٧.
(٤) يقال للرجل يقدم فتضرب عنقه: قتل صبرًا، يعني أنه أمسك على الموت.
انظر: تهذيب اللغة ١٢/ ١٢١.
(٥) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٠٧.
(٦) النبوة والأنبياء، الصابوني ص٤٤-٤٥.
(٧) المصدر السابق.

بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة»[1]؛ لأنها دليل الصدق، فالأمانة «تقتضي ألا يكذب على الله، فيدعي عليه الرسالة وهو لم يرسله، وتقتضي الأمانة فيما يخبرهم، ومع الأمانة الرعاية والمحبة والإخلاص لهم، والبر بهم»[2].

وها هو صالح عليه السلام يقول لقومه أيضًا: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٣-١٤٤].

وكذا قالها لوط وهود وشعيب وغيرهم.

وأن تكون هذه مقالة الأنبياء لأقوامهم، فهذا يبين أن الله «لا يبعث الرسول إلا إذا كان معروفًا بالأمانة، وحسن الخلق قبل الرسالة»[3] إذ لو كان الرسول خائنًا «لغير في الشرائع الإلهية، ولأفسد في الأحكام التي يتلقاها عن الله تعالى، فيضيع بذلك الغرض من رسالته، وهو الصلاح والعمل بأوامر الله -تعالى وحده-، والله تعالى لا يحب المفسدين، ولا يؤيد الخائنين، فكيف يؤيد من خانه وينصره ويظهره؟! فلا بد إذًا أن رسل الله تعالى قد كانوا جميعًا أمناء في تبليغ ما حملوا، ومن كمال صفة الأنبياء تبليغهم كل ما أرسلهم الله تعالى به، وأداء رسالتهم ووظيفتهم المتمثلة في ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

نماذج عملية من أمانة النبي صلى الله عليه وسلم:

من صور الأمانة النبوية ما جاء ذكره في القرآن من عتابه تعالى لنبيه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (لو كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية)[4].

ولكتم أيضًا عتاب الله له في قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وفي قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ١-٢].

فعدم كتمانه لشيء يدل على شدة أمانته.

وهكذا يظهر لنا كيف أن الأمانة من الشروط التي يجب توافرها في الرسل والأنبياء «لتظل النفس مطمئنة إلى سلامة الوحي، وإلى كل ما جاء به النبي إنما هو أنه من عند الله، وصدق الله إذ يقول عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٥٨.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٣٧٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٦٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/ ١٦٠، رقم ١٧٧.

﴿عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]»[1].

ثالثًا: التبليغ عدم الكتمان:

وهذه صفة عظيمة من صفات الرسل الكرام ويقصد بها «أن يبلغ الرسل أحكام الله، ويبلغوا الوحي الذي نزل عليهم من السماء، فلا يكتموا شيئًا مما أوحاه الله إليهم، حتى ولو كان في تبليغه للناس إيذاء عظيم لهم، أو شر مستطير يلحقهم من الأشرار والفجار»[2].

وقد أخبرنا تعالى أن نوحًا عليه السلام قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٢].

فها هنا نلحظ كيف أن نوحًا عليه السلام بعد أن نفى عن نفسه الضلالة «وصف نفسه بأربع صفات كريمة»[3]، كانت الثانية بعد إخباره أنه رسول هي أنه مبلغ لرسالات ربه عز وجل.

وقد وردت هذه الصفة في أكثر من حوار للرسل مع أقوامهم.

فنبي الله صالح عليه السلام قال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وكذا شعيب عليه السلام قال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ومما يظهر شدة وضوح هذه الصفة عند الرسل هو ما نلحظه من بدء بعض السور بـ(قل) كسورة الجن والكافرون والفلق والناس، فهي «أمر موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ليبلغه لأمته»[4]، فأن يقول ذلك دونما زيادة أو نقص مما يدل على شدة الحرص على البلاغ وعدم الكتمان.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

لقد كان بوسع النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: «أعوذ برب الفلق، أعوذ برب الناس» دون اللفظة التي خوطب بها، ولكن تبليغه العبارات كما هي يظهر شدة الحرص على البلاغ.

(١) النبوة والأنبياء، الصابوني ص٤٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٢٩٨.
(٤) النبوة والأنبياء، الصابوني ص٤٥.

عن زر بن حبيشٍ قال: (سألت أبي بن كعب عن المعوذتين؟ فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (قيل لي فقلت) فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) »[1].

وقد مر بنا قول عائشة رضي الله عنها: (لو كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧])[2].

ومما يظهر أيضًا شدة الحرص على البلاغ، أن النبي برغم ما كان يخشى في بدايات الدعوة من المواجهات الشديدة مع أهل قريش إلا أنه ما أن أنزل الله عليه قوله: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

حتى (صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهرٍ، يا بني عدي -لبطون قريشٍ- حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟) قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: (فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٌ شديدٌ) فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد: ١-٢][3].

وهكذا يظهر لنا أن التبليغ وعدم الكتمان من صفات الرسل.

رابعًا: العصمة:

ومن الشروط التي ذكرها الله للأنبياء العصمة؛ ولهذه العصمة في حياة الأنبياء وجوه كثيرة، منها ما يلي:

١. العصمة في التبليغ.

الشرع والعقل يلزمان بعصمة الأنبياء في التبليغ؛ لأن القول بعدم عصمة الأنبياء يفضي إلى القدح في تبليغهم الرسالة، حيث يمكن نسبة الكذب أو الخطأ أو الزيادة أو النقص في التشريع، وهذا غير ممكن في حقهم؛ لأن الله قد عصمهم من ذلك.

فهم معصومون في تحمل الوحي، وفيما يخبرون عن الله تعالى، فقد اتفقت الأمة أن الرسل معصومون في تحمل الرسالة[4]، فلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (الله الصمد)، ٦/ ١٨١، رقم ٤٩٧٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/ ١٦٠، رقم ١٧٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (وأنذر عشيرتك الأقربين)، ٦/ ١١١، رقم ٤٧٧٠.

(٤) نقل الإجماع على العصمة في هذا أكثر من واحد.

ينسون شيئًا مما أوحاه الله إليهم إلا شيئًا قد نسخ، وقد تكفل الله لرسوله بأن يقرئه فلا ينسى شيئًا مما أوحاه الله إليه، إلا شيئًا أراد الله أن ينسيه إياه.

قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧].

وتكفل بأن يجمعه له في صدره فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٨].

وهم أيضًا معصومون في التبليغ، فالرسل لا يكتمون شيئًا مما أوحاه الله إليهم؛ وذلك لأن الكتمان خيانة، والرسل يستحيل أن يكونوا كذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

ولو حدث شيء من الكتمان أو التغيير فإن عقاب الله يحل بهذا الكاتم المغير، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

ومما يدل على العصمة في التبليغ، قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٩١، لوامع الأنوار البهية، السفاريني ٢/ ٣٠٤.

ومن عصمته عصمتهم في هذا الشأن فعصمته عصمتهم من الكذب مطلقًا في أي حال من الأحوال سواء في تبليغ الرسالة، أو في غيره من أخباره وأخبارهم وأحواله وأحوالهم الدنيوية قبل البعثة وبعدها.

ويدل على هذا مبادرة الصحابة إلى تصديق الرسول في جميع أقواله، والثقة بجميع أخباره دون تردد أو توقف، بل قد أقرت قريش بصدقه عندما دعاهم في الصفا، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف: (يا صباحاه). فقالوا من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: (أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟) قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)[1].

وقد قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (فسبح بحمد ربك واستغفره)، ٦/ ١٧٩، رقم ٤٩٧١، ومسلم في صحيحه، الإيمان، باب في قوله: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، ١/ ١٩٣، رقم ٢٠٨.

٣٣][1].

وكذلك حين سأل الأخنس بن شريق أبا جهل: «يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا! فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ »[2].

ومما يدل على ذلك قول أبي سفيان لهرقل عندما سأله عن النبي صلى الله عليه وسلم وكان مما سأل عنه: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، فقال هرقل: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله[3]. وقوله لخديجة بعد أن لقيه جبريل في حراء: (قد خشيت على نفسي). فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق في الحديث)[4].

ويكفيه في هذا الباب شهادة الله له بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فإنه متصف بكل خلق فاضل من الصدق والأمانة وصلة الرحم والجود وغيرها، فقد جمع الله له خصائل الخير كلها، فلم يدع إلا بالصادق الأمين.

قال القاضي عياض: «وأما أقواله الدنيوية من إخباره عن أحواله وأحوال غيره، وما يفعله أو فعله، فقد قدمنا أن الخلف فيها ممتنع عليه في كل حال وعلى أي وجه، من عمد أو سهو أو صحة أو مرض أو رضا أو غضب، وأنه معصوم منه صلى الله عليه وسلم »[5].

وهذا الحكم فيما طريقه الخبر المحض مما يدخله الصدق والكذب، فأما المعاريض الموهم ظاهرها خلاف باطنها فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية، لا سيما لقصد المصلحة كتوريته عن وجه مغازيه؛ لئلا يأخذ العدو حذره، وكممازحته ومداعبته لبعض أصحابه؛ لكي يطيب قلوبهم، ويدخل المحبة والمسرة إلى نفوسهم.

ومن هذا قوله لأحد أصحابه: (إني حاملك على ولد الناقة). فقال: يا رسول

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنعام، ٥/ ٢٦١، رقم ٣٠٦٤.
وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي ص٣٧٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٣٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي، ١/ ٨، رقم ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل، ٩/ ٢٣٥، رقم ٣٣٢٢.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ١٦٣، رقم ٤٨٣٠.

(٥) الشفا ٢/ ١٨٧.

الله، ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وهل تلد الإبل إلا النوق؟)[1].

أما النسيان في غير البلاغ وفي غير أمور التشريع فهي من الأغراض البشرية الجبلية التي تجوز على الأنبياء ولا تنافي العصمة في التحمل والتبليغ، ومن ذلك:

- نسيان آدم وجحوده، كما قال عليه الصلاة والسلام: (لما خلق الله آدم عليه السلام مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلًا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له: داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته)[2].

وكما وقع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حديث ذي اليدين الذي رواه البخاري ومسلم حيث سلم النبي صلى الله عليه وسلم من ركعتين في صلاة الظهر[3].

وقد صرح الرسول صلى الله عليه وسلم بطروء النسيان عليه كعادة البشر، ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني)[4]، قال هذا بعد نسيانه في إحدى الصلوات.

أما حديث: (إني لا أنسى، ولكن أُنَسَّى لأسن)[5] فلا يعارض به الحديث السابق؛

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، ٤/ ٣٥٧، رقم ١٩٩١.
قال الترمذي: حديث صحيح غريب.
وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة رقم ٤٨٨٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة الأعراف، ٥/ ٢٦٧، رقم ٣٠٧٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب إذا سلم في ركعتين، ٢/ ٦٨، رقم ١٢٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ١/ ٤٠٤، رقم ٥٧٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ١/ ٨٩، رقم ٤٠١، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ١/ ٤٠٤، رقم ٥٧٣.

(٥) موطأ مالك ١/ ٣٠٢.

لأن هذا الحديث كما يقول ابن حجر: «لا أصل له، فإنه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد»[1].

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن من الأمور الجائزة على الأنبياء السهو والنسيان فيما ليس طريقه البلاغ مطلقًا، وفيما طريقه البلاغ بشرطين:

الأول: أن ذلك يقع منه بعد تبليغه لا قبل التبليغ.

الثاني: أنه لا يستمر على نسيانه، بل يحصل له التذكر إما بنفسه وإما بغيره.

وفائدة جواز السهو والنسيان في حقه صلى الله عليه وسلم بيان الحكم الشرعي فيما وقع فيه النسيان إذا وقع مثله لغيره.

العصمة من تسلط الناس عليهم وتسلط السحرة:

وهذا النوع من العصمة قد وعد الله به أنبياءه ورسله.

٢. العصمة من تسلط الناس.

ونعني بهذا عصمتهم من تسلط الناس عليهم بالقتل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ففي هذه الآية يقول الله لنبيه: «بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك»[2].

يقول أبو بكر الجصاص: «قد دل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان من أخبار الغيوب التي وجد مخبرها على ما أخبر به؛ لأنه لم يصل إليه أحد بقتل ولا قهر ولا أسرٍ مع كثرة أعدائه»[3].

فالمراد إذًا عصمة النبي «من القتل أو الإهلاك»[4]؛ لأن ذلك هو الذي كان يهم النبي صلى الله عليه وسلم، «إذ لو حصل ذلك لتعطل الهدى الذي كان يحبه النبي للناس؛ إذ كان حريصًا على هدايتهم»[5].

وأما ما هو سوى ذلك من الإيذاء والضرر فذلك مما نال الرسول «ليكون ممن أوذي في الله، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى أدموه، وشج وجهه»[6].

ومما يؤيد ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه أن امرأةً يهوديةً أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاةٍ مسمومةٍ، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) فتح الباري ٤/ ٢٤٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥١.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٥٦٢.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٢٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٦٣.
(٦) المصدر السابق.

فسألها عن ذلك؟ فقالت: أردت لأقتلك، قال: (ما كان الله ليسلطك على ذاك) قالوا -أو قال عليٌّ-: ألا نقتلها؟ قال: (لا) قال: (فما زلت أعرفها في لهوات[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم)[2].

فهاهنا يظهر كيف أن الله عصم رسوله من تسلط هذه المرأة عليه بالقتل.

وكذلك تظهر عصمة الله لرسوله من القتل فيما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فهذه الآية تشير إلى ما كان من تشاور قريش بمكة في شأن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذلك بعد أن رأوا أمره قد اشتهر، وأن غيرهم قد آمن به، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال: بعضهم بل أخرجوه، وكيف أنهم في النهاية اتفقوا على قتله، ولكن الله نجاه وعصمه من تسلطهم عليه بالقتل[3].

وتظهر عصمة الله لرسله من تسلط الناس عليهم من تتبع ما جاء عن الرسل وأقوامهم في القرآن.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

«فها هنا يخبر الرب الجليل كيف أنه لما تمادت الأمم في الكفر، وتوعدوا الرسل بأخذهم بالشدة، والإيقاع بهم أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم، ووعدهم بالنصر والغلب على أعدائهم»[4].

وكذلك حدثنا القرآن عن عصمته لنبيه نوح عليه السلام من القتل لما توعده قومه ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٦-١١٩].

والأمر نفسه مع نبي الله صالح عليه السلام حين تآمر عليه تسعة من المفسدين ليقتلوه، فأهلكهم الله وقومهم أجمعين،

(١) اللهاة من كل ذي حلق: اللحمة المشرفة على الحلق، وقيل: هي ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم.
انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٤/ ٤٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين ٣/ ١٦٣-٢٦١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب السلام، ٤/ ١٧٢١، رقم ٢١٩٠.

(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٤٨٠.

(٤) تفسير المراغي ١٣/ ١٣٨.

كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٤٨-٥١].

وكذلك نجَّى الله عيسى عليه السلام من اليهود، ومنعهم من قتله، ورفعه تعالى إليه، كما قال عز وجل: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وهكذا يظهر لنا كيف أن الله يعصم رسله، ويمنعهم من تسلط الناس عليهم[١].

٣. العصمة من تسلط السحرة.

وقبل أن نوضح هذا نحب أن نوضح مذهب أهل السنة في مسألة السحر وحقيقته:

ذهب أهل السنة أن للسحر حقيقة وأثرًا ثابتًا بالكتاب والسنة، قال النووي: «مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة»[٢].

وقال القرطبي رحمه الله: «ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة»[٣].

وقال أيضًا: «وعندنا أنه حق، وله حقيقة يخلق الله عندها ما يشاء»[٤]. وقال الإمام ابن القيم: «وقد دل قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

وحديث عائشة رضي الله عنها[٥] على تأثير السحر، وأن له حقيقة»[٦].

٤. العصمة من تسلط السحرة عليهم.

وقد عصم الله رسله وأنبياءه من أن تتسلط عليهم السحرة فتتلاعب بهم، فيكون في ذلك ما يكون من إعراض الناس عنهم، وتشككهم في حقيقة وحيهم، وما يبلغونه عن رب العزة.

قال الليث: كتب إلي هشامٌ أنه سمعه ووعاه عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يومٍ دعا ودعا، ثم قال: (أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان: فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوبٌ، قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: في ماذا؟ قال: في مشطٍ ومشاقةٍ، وجف طلعةٍ ذكرٍ، قال فأين

(١) لا يعكر على هذا قتل بني إسرائيل لبعض الأنبياء، فالعبرة بالأغلب.
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/ ١٧٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٤.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٤٦.
(٥) سيأتي ذكر الحديث.
(٦) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٢٧.

هو؟ قال: في بئر ذروان) فخرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: (نخلها كأنه رؤوس الشياطين). فقلت: استخرجته؟ فقال: (لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًّا) ثم دفنت البئر)[1].

فها هنا يظهر كيف أن الله عصم نبيه من تسلط السحرة عليه، وكيف أن السحر الذي أصيب به صلى الله عليه وسلم إنما كان متسلطًا على جسده وظواهر جوارحه فقط، لا على عقله وقلبه واعتقاده، فمعاناته من آثاره كمعاناته من آثار أي مرض من الأمراض التي يتعرض لها الجسم البشري لأي سبب كان، وقد سبق أن عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تستلزم سلامته من الأمراض والأعراض البشرية المختلفة.

قال القاضي عياض: «وأما ما ورد من أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من تبليغه أو شريعته، أو يقدح في صدقه؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا[2].

وإنما هذا فيما يجوز طروؤه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث بسببها، ولا فضل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له، ثم ينجلي عنه كما كان»[3].

ووقوع السحر للأنبياء لا يتعارض أبدًا مع حماية الله لهم «فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا، وتأسوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل، والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة، والنعمة السابغة لا إله غيره، ولا رب سواه»[4].

وهكذا يظهر لنا عصمة الله لرسله وحمايته لهم من تسلط الناس والسحرة عليهم.

٥. العصمة من الذنوب.

الذنوب منها صغائر وكبائر، وفيما يلي عرض لعصمة الأنبياء في كل منهما:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ٤/ ١٢٢، رقم ٣٢٦٨.

(٢) أي: مما يدخل أي داخلة نقص في تبليغ الشريعة.

(٣) الشفا، القاضي عياض ٢/ ٤١٢.

(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٢٦.

أولًا: العصمة من الكبائر:

الرسل معصومون من الكبائر باتفاق[1].

ثانيًا: العصمة من الصغائر:

ذهب أكثر علماء الإسلام إلى أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر.

يقول ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»[2].

وللعلماء عدد كبير من الأدلة على ذلك منها ما يلي:

- معصية آدم بأكله من الشجرة التي نهي عنها.

وهذه معصية لآدم عليه السلام صرح بها القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١١٦-١٢١].

فقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ يوضح «تعمد آدم مخالفة نهي الله تعالى إياه عن الأكل من تلك الشجرة»[3].

- تسرع داود عليه السلام في الحكم.

أخبر القرآن عن أن داود عليه السلام أتاه خصمان، ولكنه تسرع في الحكم قبل سماع حجة الخصم الآخر، فسارع إلى التوبة والاستغفار ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص ٢٤-٢٥].

- خروج يونس عليه السلام من قومه بدون إذن ربه.

وهذا مما حدثنا القرآن عنه، فقال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

أي: أنه ظن «أن الله لن يضيق عليه ويؤاخذه بهذه المخالفة»[4].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٠٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣١٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٣٢٧.

(٤) التفسير الميسر ص٣٢٩.

وهذا يقتضي أنه «خرج خروجًا غير مأذون له فيه من الله»[1].

وكذلك ذكر القرآن عتاب الرب جل جلاله لمحمد عليه الصلاة السلام في أمور، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: ١].

وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ١-٣].

وهكذا يظهر لنا جواز وقوع الصغائر من الأنبياء والرسل، وهذا لا شك لا يزري أبدًا بمناصبهم، ولا يحط من أقدارهم، ولا يقدح في رتبتهم، فهم لا يصرون على معصية، ويبادرون إلى التوبة والاستغفار، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها.

٦. العصمة من الآفات والأمراض المنفرة.

وهذه من خصائص الرسل الكرام، فإنه لا يمكن أن تصيبهم الأمراض والآفات التي تجعل الناس ينفرون من مجالستهم والاجتماع بهم، فهم وإن كانوا بشرًا «تصيبهم العوارض التي تصيب البشر إلا أن الله عز وجل قد صانهم من العيوب المنفرة، وسلمهم من الأمراض الشائنة التي تجعل النفوس تنفر منهم»[2].

وذلك لأن وظيفة الرسل تقوم على الاختلاط بالناس وملاقاتهم؛ ولذا كانوا على أكمل الصور وأحسنها، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام بقوله: (ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجلٌ ضربٌ رجلٌ[3]، كأنه من رجال شنوءة)[4][5]، وكذلك وصف عيسى عليه السلام بأنه (رجلٌ ربعةٌ[6] أحمر، كأنما خرج من ديماسٍ)[7][8].

وقد جاء وصف الرسول صلى الله عليه وسلم في كتب السنة والسيرة فلم يرد فيها شيء مما ينفر، فقد كان سوي الخلقة، حسن الصورة، بأكمل ما يكون[9].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٣١.
(٢) النبوة والأنبياء، الصابوني ص٥٠.
(٣) أي: لم يكن شديد الجعودة ولا شديد السبوطة، بل بينهما.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٢٠٣.
(٤) قبيلةٌ من اليمن.
انظر: لسان العرب ابن منظور ١/ ١٠٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى)، ٤/ ١٥٢، رقم ٣٣٩٤ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، ١/ ١٥١، رقم ١٦٥.
(٦) بين الطويل والقصير.
انظر: النهاية، ابن الأثير ٢/ ١٩٠.
(٧) أي: كأنما خرج من حمام.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى)، ٤/ ١٥٢، رقم ٣٣٩٤.
(٩) انظر: وصف سيدنا أنس له في البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله

وقد أخبر القرآن أن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

ومن هذا يظهر أن ما يذكر عن الرسل عليهم السلام أو ما ينسب إليهم من عيوب إنما هو كذب مفترى؛ لذلك أنكر الله جل جلاله على الذين آذوا موسى عليه السلام، ونسبوا إليه بعض العيوب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وهذه الأذية المشار إليها «هي قول بني إسرائيل لموسى لما رأوا شدة حيائه، وتستره عنهم: إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر» أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يومًا، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمر به على مجالس بني إسرائيل، فرأوه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به»[(١)] [(٢)]. وبذلك يظهر كيف أن «الأنبياء في خلقهم وخلقهم على غاية الكمال»[(٣)].

وكون الأنبياء على غاية الكمال في خلقتهم فهذا لا يمنع أبدًا من أنهم يمرضون ويصحون، ويشعرون بما يشعر به البشر من أوجاع عارضة كالصداع والحمى.

فعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: (دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك! قال: (إنا كذلك يضعف لنا البلاء، ويضعف لنا الأجر) قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: (الأنبياء) قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال: (ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحوبها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء)[(٤)].

وهكذا يظهر لنا كيف أن الأنبياء مبرؤون ومعصومون من الأمراض المنفرة، وهذا لا يمنع تعرضهم للأمراض و«لكن بمرض غير منفر»[(٥)].

خامسًا: الذكورة:

الذكورة من شروط الأنبياء والمرسلين، فلا يكون النبي إلا رجلًا، وقد أشار القرآن

عليه وسلم، ٤/ ١٨٧، رقم ٣٥٤٧.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب من اغتسل عريانًا وحده في الخلوة، ومن تستر فالتستر أفضل، ١/ ٦٤، رقم ٢٧٨.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٣٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ٢/ ١٣٣٤، رقم ٤٠٢٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢٧٥.

(٥) تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٦١٦.

إلى هذا في غير ما موضع.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

ففي هذه الآية «يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع»[(١)].

وهذا يدل على أن الذكورة شرط للرسالة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

فقوله: ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ يقتضي «أن ليس في النساء رسلًا، وهذا مجمع عليه»[(٢)].

الحكمة من كون النبوة في الذكور:

أن يكون كون الرسل ذكورًا فهذا لأسباب له حكم كثيرة، منها:

١. الرسالة كثيرة الأعباء والمهمات، وتقتضي مقابلة الناس في مختلف الأوقات، والتنقل في أماكن عدة، ومجادلة أهل العناد والتكذيب، وكذا إعداد الجيوش وقيادة الجند، وكل هذا يناسب الرجال دون النساء.

٢. المرأة يطرأ عليها ما يقطعها، ويعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات، كالحيض والحمل والولادة والنفاس، وكل هذا لا شك يمنع من القيام بأعباء الرسالة على الوجه الأكمل، والنحو الأمثل.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة بعض النساء ومن هؤلاء أبو الحسن الأشعري، والقرطبي، وابن حزم[(٣)].

وقد رد جماهير العلماء هذه الأدلة بعدد من الوجوه، منها:

- القول بنبوة كل من خاطبته الملائكة غير مسلم، ففي الحديث أن الله أرسل ملكًا لرجل يزور أخًا له في الله في قرية أخرى، فسأله عن سبب زيارته له، فلما أخبره أنه يحبه في الله، أعلمه أن الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبه[(٤)]، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة[(٥)].
- الرسول صلى الله عليه وسلم توقف

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٢٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٨.
(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية، السفاريني ٢/ ٢٦٦، فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٤٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الحب في الله، ٤/ ١٩٨٨، رقم ٢٥٦٧.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤/ ١٧١، رقم ٣٤٦٤.

في نبوة ذي القرنين مع إخبار القرآن بأن الله أوحى إليه ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦][1].

- اصطفاء الله لمريم لا يقطع بنبوتها، فالله قد صرح بأنه اصطفى غير الأنبياء: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[فاطر: ٣٢] وكذلك اصطفى الله آل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] ومن آلهما من ليس بنبي جزمًا.
- الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به لا يلزم منه النبوة؛ لأنه يطلق لتمام الشيء، وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء، وعلى ذلك فالكمال هنا غير كمال الأنبياء وقد ورد في بعض الأحاديث النص على أن خديجة من الكاملات[2] وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة.
- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران)[3]، فكون السيدة فاطمة كذلك، يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية؛ لأن فاطمة ليست بنبية جزمًا، وقد نص الحديث على أنها أفضل من غيرها، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتين لكانتا أفضل من فاطمة.
- وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والإخبار بفضلها. قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. فلو كان هنا وصف أعلى من ذلك لوصفها به، ولم يأت في نص قرآني ولا في حديث نبوي صحيح فيه إخبار بنبوة واحدة من النساء[4].

وقد نقل عن جمهور الفقهاء أن مريم

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ١/ ٩٢، رقم ١٠٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، ٤/ ١٨٨٦، رقم ٢٤٣٠ ولفظه: (خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد). قال: أبو كريب، وأشار وكيع إلى السماء والأرض.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٨/ ٢٧٩، رقم ١١٧٥٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٧١، رقم ٤١٩٠.

(٤) انظر: الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص٨٧.

ليست بنبية، وذكر النووي في (الأذكار)[1] عن إمام الحرمين أنه نقل الإجماع على أن مريم ليست نبية، وجاء عن الحسن البصري: ليس في النساء نبية ولا في الجن[2].

وهكذا يظهر أن الذكورة شرط لتحمل الرسالة، وأن الرسل ما كانوا إلا ذكورًا.

(١) الأذكار، النووي ص ١١٩.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٧١.

مهمات النبوة

للنبوة مهمات عظيمة نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: الدعوة إلى التوحيد:

من أعظم مهمات الأنبياء التي كلفهم الله بها الدعوة إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

أي: فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة[3].

فهذه الآية دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به جميعًا، فهو مهمة جميع الرسل من نوح عليه السلام إلى رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكل واحد من الأنبياء والرسل عليهم السلام جاء يقول لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فهذه هي الغاية التي بعث الأنبياء والرسل من أجلها، والشرائع كلها تدعو إلى هذه الغاية العظيمة، وهي أعظم غاية من أجلها خلق الخلق، وأوجدت الكائنات؛

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٥٢١.

وقام عليها أمر السموات والأرض، وخلقت من أجلها الجنة والنار، وبعث لأجلها رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده كثيرة جدًا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

يقول سيد رحمه الله: «والواقع أن تلك القضية الكبرى هي قضية القرآن كله، وقضية القرآن المكي بصفة خاصة، فتعريف الألوهية الحقة، وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية، وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق، واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده، هذا هو الموضوع الرئيس للقرآن كله، وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها، وهذه الحقيقة الكبيرة تستحق -عند التأمل العميق- كل هذا البيان الذي هو موضوع هذا القرآن، تستحق أن يرسل الله من أجلها رسله جميعًا، وأن ينزل بها كتبه جميعًا»[(١)].

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٥٣.

ثانيًا: البشارة والنذارة:

من أشرف المهمات التي كلف بها الرسل هي البشارة والنذارة، وكثيرًا ما نلحظ في الآيات أن الله يجمع بين مهمة النذارة والبشارة، فيقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي هذا إشارة إلى أن الجمع بينهما هو خير أنواع الحث والحض؛ وما ذلك إلا لأن «النفس الإنسانية مطبوعة على طلب الخير لذاتها، ودفع الشر عنها، فإذا بصر الرسل النفوس بالخير العظيم الذي يحصلونه من وراء الإيمان والأعمال الصالحة؛ فإن النفوس تشتاق إلى تحصيل ذلك الخير، وعندما تبين لها الأضرار العظيمة التي تصيب الإنسان من وراء الكفر والضلال؛ فإن النفوس تهرب من هذه الأعمال»[(٢)].

فالرسل إذًا مبشرون برحمة الله، وبما أعده الله لأهل الإيمان من السعادة في الدنيا، وعند الموت، وفي القبر وفي أرض الحشر، وفي دار السعداء في جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

(٢) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ٤٨ بتصرف.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال أيضًا: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[الأنعام: ٤٨].

ففي هذه الآيات يظهر لنا كيف أن «المقصود من بعثة الأنبياء أن يبشروا الخلق على اشتغالهم بعبودية الله»[(١)] يبشروا «من أطاع الله بثمرات الطاعات من الرزق، والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك، الفوز برضوان الله والجنة»[(٢)].

والبشارة هي «الإخبار بما يسر قبل أن يقع»[(٣)]. ولما كان الأنبياء والرسل يأتون بما يخالف الأهواء وتأباه النفوس فلا غرو كان حاجتهم شديدة للبشارة، وما ذلك إلا لأنها تهيئ السامع بما تحويه من ترغيب، فيبادر إلى التنفيذ والامتثال بكل عزمه وطاقته.

وتأمل كيف أن الإنسان شديد الحرص على المال ولنفسه تعلق كبير به، ولكنه حينما تأتيه بشارة كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديث: ١١].

حينما يسمع مثل هذه البشارة العظيمة والتي تعده بمضاعفة الأجر وزيادته، فلاشك أن أصابعه ستنبسط للعطاء، وسيقبل عليه بنفس منشرحة[(٤)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [الحديد: ١١]. (قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: (نعم يا أبا الدحداح). قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل. وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، فقال صلى الله عليه وسلم: (كم من عذقٍ رداح في الجنة لأبي الدحداح). وفي لفظ: (رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة)[(٥)].

وهكذا تفعل البشارة في القلوب؛ ولذا كان النبي دومًا يوصي أصحابه بالتبشير؛ لأنه أعون على جذب القلوب فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٦٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٥.
(٣) تفسير الشعراوي ٦/ ٣٦٢٧.
(٤) انظر: بدائع التفسير ٣/ ١٢٨ فقد ذكر في الآية مرغبات عظيمة.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٠.

الله عليه وسلم إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره، قال: (بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا)[1].

والذي يتأمل في دعوات الرسل لأقوامهم يدرك حضور البشارة دومًا في ثنايا كلامهم.

فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

والنبي صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الثانية حيث بايع الأنصار على حرب الأحمر والأسود، نلحظ كيف أنه لما اشترط عليهم أن يمنعوه ويقاتلوا دونه، بشرهم بأن الجنة هي جزاء الوفاء[2].

وهكذا يظهر لنا كيف أن التبشير مهمة أصيلة من مهام الرسل.

وكذلك النذارة فهي من أعظم مهمات الأنبياء التي كلفهم الله بها، أن يقوموا بإنذار الناس ما أعده الله من العذاب لمن خالف أمره وعصاه.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

والإنذار: «هو الإعلام المقترن بتهديد وتخويف، وكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذارًا»[3].

والنذارة من أعظم وظائف الأنبياء، وهي من مظاهر رحمة الله بخلقه؛ إذ جعل أنبيائه منذرين عقوبته لمن عصاه؛ حتى يتلافى الإنسان أسباب الهلاك والخسارة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال تعالى عن نبيه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ونلحظ في هذه الآية أنه قال: ﴿تَبَارَكَ﴾ و«هو من البركة»[4].

ثم بين في ختام الآية أن عبده محمدًا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ٣/ ١٣٥٨، رقم ١٧٣٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٣/ ٢٢، رقم ١٤٦٥٣.
وانظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٤٥٤.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣ بتصرف.

(٤) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٦٢.

صلى الله عليه وسلم نذير، والإنذار -كما سبق- فيه تخويف، فكيف يجتمعان؟!

هذا ما أجاب عنه الرازي رحمه الله بقوله: «أن الإنذار يجري مجرى تأديب الولد، وكما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الإحسان إليه أكثر؛ لما أن ذاك يؤدي في المستقبل إلى المنافع العظيمة، فكذا هاهنا كلما كان الإنذار كثيرًا كان رجوع الخلق إلى الله أكثر، فكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر»[1].

فالمقصود أن هذا الإنذار المكلف به الرسل إنما هو من رحمة الله بخلقه وعنايته بهم.

ولما كان الرسل يأتون الناس بأوامر ونواهي تكبح جماح النفس، وتروضها كان لابد لهم في ذلك من البشارة -كما مر- ولكن أيضًا يحتاجون كذلك وبشدة إلى النذارة، فبعض الناس يكفيه التبشير، وبعضهم لا يستجيب إلا بالتخويف والترهيب، من أجل ذلك كانت النذارة من صلب مهمات الرسل، حتى نجد القرآن قصر في بعض آياته مهمتهم عليه.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقال الله لنبيه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞ﴾ [هود: ١٢].

وقال نوح عليه السلام: ﴿إِنۡ أَنَا إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤].

فاقتصر سبحانه على الإنذار «لأن أبرز جانب في حياة الرسل هو الجانب الإنذاري، حيث كانت حياتهم جهادًا متصلًا لأهل الكفر والضلال»[2].

والمقصود أن البشارة والنذارة من أعظم مهمات الأنبياء، وأبرز جوانب حياتهم.

ثالثًا: الحكم بما أنزل الله:

الحكم بما أنزل الله ليس بالأمر الهين فهو من المقاصد العظيمة، والغايات الكبيرة التي تحتاج في سبيلها بذل الغالي والثمين والنفس والنفيس؛ وذلك لأنها تلقى معارضة شديدة من «الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث؛ ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه، ويرد الألوهية لله خالصة، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله، وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٢٩.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٨٧٧ بتصرف.

الاستغلال والظلم والسحت؛ ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة، وستواجهه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال؛ ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها، وسيأخذهم بالعقوبة عليها، وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتيك وتلك ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض»[1] فهي إذًا مهمة لا يقوى عليها إلا النفوس الكبيرة، والقلوب العظيمة؛ ولذا جعلها الله من مهمات رسله وأنبيائه الكرام.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ففي هذه الآية يخبرنا المولى جل جلاله كيف أنه أنزل التوراة فيها هدى ونور، وكيف أنه قد «حكم بها النبيون -الذين انقادوا لحكم الله، وأقروا به- بين اليهود، ولم يخرجوا عن حكمها ولم يحرفوها»[2]. وهذا يبين شدة التزام الرسل والأنبياء، وفرط عنايتهم بهذا الأمر.

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وفي هذه الآية يظهر كيف أن الله جعل داود عليه السلام خليفة، وعرفه أن مهمته هي الحكم بما أنزل الله ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: «فاحكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التي أنزلها عليك»[3] وتفريع أمره بالحكم بين الناس بالحق على جعله خليفة «للدلالة على أن ذلك واجبه»[4]. وهذا يوضح أن قضية الحكم بما أنزل الله من المهمات التي حملها الله لرسله.

وقد جاءت آيات كثيرة تأمر النبي صلوات الله وسلامه عليه بالحكم بما أنزل، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

أي: فاحكم يا محمد «بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم»[5] ومهمة الرسول في الحكم بما أنزل الحكم بما

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٩٧.
(٢) التفسير الميسر ص١١٥.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٤٣.
(٥) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣١٩.

أنزل الله ليست لبعض الناس دون بعض، وإنما هي لعموم الناس، وتأمل كيف أنه قدم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم[(١)].

ومما يدل على شدة خطورة هذه المهمة إظهار لفظ الجلالة ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾[المائدة: ٤٨].

فهذا الإظهار «لتربية المهابة»[(٢)] و كذا تحذير النبي من اتباع أهواء من يتحاكمون إليه، وفي هذا لاشك دلالة على أهمية هذه المهمة، وأنها لا تقبل التفريط فيها بحال.

وبعد هذه الآية مباشرة جاء التأكيد على النبي في وجوب التزامه في أحكامه بما أنزل الله مرة أخرى ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[المائدة: ٤٩].

وذلك لتأكيد هذا الأمر «لأن اليهود كانوا لا يكفون عن محاولتهم فتنته صلى الله عليه وسلم»[(٣)].

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعضٍ: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه! فأتوه. فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك! فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله فيهم ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]. إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]»[(٤)].

يريد بذلك بيان أن الحكمة في إنزال هذه الآية «إقرار النبي على ما فعل، والأمر بالثبات على ما سار عليه من التزام حكم الله، وعدم الانخداع لليهود»[(٥)].

وهناك نماذج عملية كثيرة ذكرها القرآن لحكم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما أنزل الله تعالى، منها الآتي:

روى الإمام مسلم عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: (مر على النبي صلى الله عليه وسلم بيهوديٍ محممًا مجلودًا، فدعاهم صلى الله عليه وسلم، فقال: (هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟) قالوا: نعم، فدعا رجلًا من علمائهم، فقال: (أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟) قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على

(١) روح المعاني، الألوسي ٣/ ٣٢٠.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٥.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ١٨٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٣.
(٥) تفسير المراغي ٦/ ١٣٢.

شيءٍ نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه) فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١]. يقول: ائتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلها[1].

وروى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت: (في -والله- وفي أوس بن صامتٍ أنزل الله جل جلاله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل علي يومًا فراجعته بشيءٍ فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعةً، ثم دخل علي، فإذا هو يريدني على نفسي، قالت: فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يا خويلة ابن عمك شيخٌ كبيرٌ فاتقي الله فيه). قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه، ثم سري عنه، فقال لي: (يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك) ثم قرأ علي: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. إلى قوله: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤]. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مريه فليعتق رقبةً). قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: (فليصم شهرين متتابعين). قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخٌ كبيرٌ ما به من صيام، قال: (فليطعم ستين مسكينًا، وسقًا من تمرٍ). قالت: فقلت:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، ٣/ ١٣٢٧، ١٧٠٠.

والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإنا سنعينه بعرقٍ من تمرٍ). قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعينه بعرقٍ آخر، قال: (قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا). قالت: ففعلت)[1].

وبذلك يظهر كيف أن الحكم بما أنزل الله من مهمات الرسل العظيمة التي قام بها الرسل والتزموها، نسأل الله أن يوفقنا لحسن التزام أحكامه.

رابعًا: الشهادة على الأمة:

من مهمات الأنبياء الجليلة والخطيرة في آنٍ الشهادة على أممهم؛ وذلك يوم القيامة، يوم يجمع الله الأولين والآخرين في موقف عظيم مهيب، فيشهد الأنبياء والمرسلون بأنهم بلغوا أممهم رسالات الله، ويشهدوا بما كان من أممهم من إيمان وكفر، وتصديق وتكذيب.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

«وشاهد كل أمة نبيها، يشهد عليها بتصديقها وتكذيبها»[2].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩].

قال القرطبي: «هم الأنبياء شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة، ودعوهم إلى الإيمان»[3].

فإذا شهد الأنبياء بما بلغوا به أقوامهم، وبما كان من أقوامهم من تصديق وتكذيب؛ سقطت كل حجة للمكذبين، وبطل كل عذر، وفضحوا على رؤوس الأشهاد؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

فقوله: «﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار؛ لأن اعتذارهم بعدما علم يقينًا بطلان ما هم عليه اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئًا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وإن طلبوا أيضًا الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه»[4].

ويقول صاحب الظلال رحمه الله: «الذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع، ولا يطلب منهم أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ٣٠٠، رقم ٢٧٣١٩.
وحسنه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٧٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٦٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٦ بتصرف يسير.

يسترضوا ربهم بعمل أو قول، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء، وجاء وقت الحساب والعقاب»[1].

ولأجل هذا المعنى بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ علي) قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (نعم). فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قال: (حسبك الآن) فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان[2].

فالنبي -لما أودع الله في قلبه من الرحمة- يبكي؛ لأنه يعلم أن بشهادته وشهادة إخوانه من الأنبياء يهلك كل من كذب وكفر.

فكل نبي من الأنبياء شهيد على أمته، يشهد بين يدي ربه يوم القيامة بأنه بلغ قومه، وأدى رسالة ربه، فلا يجد المكذبون يومئذٍ مفرًا ولا مهربًا.

ومن خصائص الأمة المحمدية أن الله جعلها ونبيها صلى الله عليه وسلم شهداء على الناس يوم القيامة، وشهداء للرسل صلوات الله عليهم وتسليماته.

وبشهادتهم يضيق على المكذبين كل سبيل للإنكار، ويزدادون إحراجًا وتبكيتًا.

وقد جاء هذا في بعض آيات القرآن الحكيم، وفي بعض الآثار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣].

«فمعنى ذلك: وكذلك جعلناكم أمة وسطًا عدولًا؛ لتكونوا شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون رسولي محمد صلى الله عليه وسلم شهيدًا عليكم، بإيمانكم به، وبما جاءكم به من عندي»[3].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأمته، فيدعى وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٨٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، ٦/ ١٩٦، رقم ٥٠٥٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤٥-١٤٦.

نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: يقول: عدلًا ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣].)[(١)].

«فإذا قال قائل: كيف تشهد وهي لم تر؟ نقول: لكنها سمعت عمن خبره أصدق من المعاينة صلى الله عليه وسلم»[(٢)].

«فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة، كما في هذه الأمة فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها، فإن شك شاك في فضلها وطلب مزكيًا لها فهو أكمل الخلق نبيهم صلى الله عليه وسلم، فلهذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]»[(٣)].

وجاء في أكثر من آية -كما مر معنا- أن الأنبياء يشهدون يوم القيامة على أممهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

وكقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[النحل: ٨٩].

ولكن هناك آية قد توهم خلاف هذا، وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ففي قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ما يوهم التعارض بين هذه الآية وما ذكر قبلها من الآيات الدالة على إثبات الشهادة لهم.

وقد أجاب العلماء رحمهم الله عن هذا الاستشكال بأجوبة كثيرة، فقالوا:

أولًا: لم يكن ذلك من الرسل إنكارًا أن يكونوا عالمين بما عملت أممهم، ولكنهم ذهلوا عن الجواب من هول ذلك اليوم، ثم أجابوا بعد أن ثابت إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم، وهذا القول حكاه الطبري عن السدي والحسن ومجاهد[(٤)].

ثانيًا: «قيل: يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم، فيكلون الأمر إلى علمه

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٨/ ١١٢، رقم ١١٥٥٨.
وأصله في صحيحه، البخاري، كتاب تفسير القرآن، في باب قوله تعالى: (ويكون الرسول عليكم شهيدًا)، ٦/ ٢١، ٤٤٨٧.

(٢) تفسير القرآن الكريم، سورتي الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين ٢/ ١١٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠.

(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢١٠.

وإحاطته بما منوا به منهم، وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهارًا للتشكي واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم؛ وذلك أعظم على الكفرة، وأفت في أعضادهم، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله، وتشكي أنبيائه عليهم»[(١)].

ثالثًا: قيل: معنى قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ماذا عملوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ويشبه هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يرد علي أقوام الحوض فيختلجون، فأقول: أمتي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[(٢)(٣)].

رابعًا: قيل: معنى الآية: لا علم لنا إلا علمًا أنت أعلم به منا. وهو محكي عن ابن عباس[(٤)].

وقال الطبري معلقًا: «وقول ابن عباس أصوب هذه المناحي؛ لأنه يتخرج على التسليم لله تعالى، ورد الأمر إليه، إذ قوله: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ علم عندهم في جوابه إلا بما شوفهوا به مدة حياتهم، وينقصهم ما في قلوب المشافهين من نفاق ونحوه، وما ينقصهم ما كان بعدهم من أمتهم، والله تعالى يعلم جميع ذلك على التفصيل والكمال»[(٥)].

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٩٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته، ٤/ ١٧٩٤، رقم ٢٢٩٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٦١ بتصرف.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥٧ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٢٢.
(٥) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢١١.

سنة الله في النبوة

لله تعالى سنن في اصطفاء من يصلح لمقام النبوة نتناولها فيما يلي:

أولًا: أن يكونوا من البشر:

مما اقتضته سنة الله تعالى في أنبيائه المبعوثين إلى خلقه أن يكونوا بشرًا، قال جل جلاله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت: ٦].

فكل الظروف التي تحيط بنا تحيط بالرسل، وكل الضغوط يتحملونها، والبيئات يعيشونها، والملابسات يمرون بها، فلذلك حينما ينتصرون على أنفسهم يكون الأنبياء حجة علينا، ولا يقنع الإنسان أن يكون النبي ملكًا، فلا بد من أن يكون من بني البشر، يشتهي كما نشتهي، ويحب كما نحب، ويغضب كما نغضب، ولكنه انتصر على نفسه وسار على منهج الله، ودعا إلى الله. فالأنبياء ما هم إلا خلق من خلق الله، اصطفاهم الله لرسالاته، وأيدهم بوحيه، ورفعهم على خلقه بهذا الاصطفاء، لكنهم بشر يأكلون ويشربون وينكحون، ويصيبهم ما يصيب البشر من الأمراض، ويجري عليهم من أمر الموت ما يجري على البشر جميعًا.

ولما كان الأنبياء بشرًا كسائر البشر نجد أنهم كانت تعتريهم أمور من مقتضيات البشرية التي كتبها الله على بني البشر، ومن هذه الأمور:

١. أنهم يجوعون ويأكلون.

فالبشر جميعًا يجوعون ويأكلون فطرةً، وقد أخبر الله تعالى في أكثر من آية أن الأنبياء كانوا كذلك، يجوعون فيأكلون.

قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧-٨].

وقال: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ

﴿بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

٢. يتزوجون.

قال تعالى مبينًا أن الزواج سنة الأنبياء والمرسلين من قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

يقول الطبري في تفسير الآية: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى أمم قد خلت من قبل أمتك، فجعلناهم بشرًا مثلك، لهم أزواج ينكحون، وذرية أنسلوهم، ولم نجعلهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعل الرسول إلى قومك من الملائكة مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشرًا مثلهم، كما أرسلنا إلى من قبلهم من سائر الأمم بشرًا مثلهم»[1].

وقال تعالى عن زكريا: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عن أيوب: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣].

وقال الرجل الصالح لموسى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧].

وقال الله أيضًا عن موسى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ [القصص: ٢٩].

وقال عن نبيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

فهذه الآيات جميعًا تبين أن الأنبياء كانوا يتزوجون وينكحون النساء كسائر البشر.

٣. يقومون بأعمال بشرية.

الأنبياء بشر، كانوا يعملون كسائر البشر، ويزاولون ما كان البشر يزاولونه من أعمال.

فموسى عليه السلام يستأجره الرجل الصالح ليعمل معه فيما عنده من أعمال: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٦-٢٧].

وداود يصنع دروعًا لتحمي المحاربين في ساحات المعارك من وقع الأسلحة عليهم.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ونوح يصنع الفلك بنفسه، قال تعالى عنه: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧].

وبينت السنة أن ما من أحد من الأنبياء إلا ورعى الغنم، قال النبي صلى الله عليه

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٧٥-٤٧٦.

وسلم: (ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم) فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: (نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[1].

وهكذا كان الأنبياء يقومون بأعمال بشرية كسائر البشر.

٤. يتعرضون للبلاء.

فإن الأنبياء كسائر الخلق يتعرضون للبلاء، وينالهم الأذى أحيانًا، بل إن أكثر الناس بلاء هم الأنبياء، قال صلى الله عليه وسلم: (إن من أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[2].

وذكر القرآن الكثير من بلاءات الرسل، فيوسف عليه السلام سجن، قال تعالى عنه: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

ويعقوب عليه السلام ذهب بصره، قال تعالى عنه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

وبيع ولده يوسف بعد خطفه.

وإبراهيم عليه السلام ألقي في النار المؤججة.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

ويونس عليه السلام التقمه الحوت، فلبث في بطنه ما شاء الله له، قال تعالى عنه: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[الصافات: ١٤٢].

وأيوب عليه السلام ابتلي بالمرض.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣].

ومحمد عليه السلام أخرج من أحب البلاد إليه، قال تعالى عن نبيه محمد: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ٤٠].

إلى غير هذا مما هو معروف ومشهور في القرآن والسنة.

٥. يموتون.

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِى۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سبحانه لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال مخاطبًا نبيه أيضًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِى۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، ٣/ ٨٨، رقم ٢٢٦٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥/ ١٠، رقم ٢٧٠٧٨.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٢٢٦، رقم ١٤٥.

وقد مات كل الأنبياء عليهم صلوات الله وتسليماته غير أن أجسادهم لا تبلى كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1].

الحكمة من جعل الرسل من البشر:

ولقد اعترض أعداء الرسل وخصومهم على كون الرسل بشرًا، وكان هذا من أعظم ما صد الناس عن الإيمان واتباع هدى الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

بل إنهم جعلوا من بشرية الرسل سببًا لتقبيح السير وراءهم أو اتباع هديهم ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤].

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

وقد اقترح أعداء الرسل أن يكون الرسل الذين يبعثون إليهم من الملائكة يعاينونهم ويشاهدونهم، أو على الأقل يبعث مع الرسول البشري رسولًا من الملائكة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

لكن حكمة الله شاءت أن يكون أنبياؤه بشرًا، وليسوا ملائكة، وجعل لهذه الحكمة العديد من الفوائد لمن تأمل نصوص الكتاب العزيز، ومن هذه الفوائد ما يلي:

١. يسهل اتباعهم والأخذ عنهم.

فمن لطف الله ورحمته بعباده أن جعل الأنبياء المبعوثين إليهم رسلًا؛ لأنه لو جعل الأنبياء ملائكة مثلًا لما تيسر للبشر أن يأخذوا عنهم العلم والإيمان، ولما تمكنوا من فهمهم ومواجهتهم لاختلاف الجنس.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ [الإسراء: ٩٥]: «يقول تعالى منبهًا على لطفه ورحمته بعباده: إنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم؛ ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ [الإسراء: ٩٥].

أي: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ أي: من جنسهم،

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٦/ ٨٤، رقم ١٦١٦٢، ولفظه: (إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم).
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٤٠، رقم ٢٢١٢.

ولما كنتم أنتم بشرًا، بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة»[1].

«فمن رحمة الله عز وجل بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلًا منهم؛ ليدعو بعضهم بعضًا، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]»[2].

٢. قدرة البشر على القيادة والتوجيه.

فمن حكم جعل الأنبياء بشرًا وليس ملائكة أن البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الأصلح ليكونوا قدوة وأسوة.

يقول سيد قطب رحمه الله في هذا: «وإنها لحكمة تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر، واحد من البشر يحس بإحساسهم، ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم، ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم، ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسير بهم خطوة خطوة، وهو يفهم بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم؛ لأنه في النهاية واحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق.

وهم من جانبهم يجدون فيه القدرة الممكنة؛ لأنه بشر مثلهم، يتسامى بهم رويدًا رويدًا، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم، فيكون بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم، ينقلونها سطرًا سطرًا، ويحققونها معنى معنى، وهم يرونها بينهم، فتهفوا نفوسهم إلى تقليدها؛ لأنها ممثلة في إنسان»[3].

٣. صعوبة رؤية الملائكة.

لقد مر بنا كيف أن الكفار اقترحوا أن يكون الرسل إليهم ملائكة؛ وذلك لأنهم لا يدركون طبيعة الملائكة، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم من جراء ذلك.

فالاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس بسهل أبدًا، فالرسول صلى الله عليه وسلم مع كونه أفضل الخلق، وهو على جانب عظيم من القوة الجسمية والنفسية عندما رأى جبريل على صورته أصابه هول عظيم[4]،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٢١ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٤١-٢٤٢.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ١/ ٧، رقم ٤، ولفظه: (بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء،

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعاني من اتصال الوحي به شدة[1]، ولذلك قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

«ذلك أن الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول العذاب، فلو قدر أنهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم»[2].

٤. أقوى في إقامة الحجة.

إذ لو قدر أن كان الأنبياء ملائكة لأمكن للناس أن يحتجوا بعدم قدرتهم على اتباعهم، وتقليدهم لاختلاف جنسهم عن جنس الملائكة، ولقالوا هذا ملك له قدرات وطاقات تختلف عن طاقاتنا وقدراتنا، فالله عز وجل لو جعل أنبياءه ملائكة لسقطت الحجة، فلحكمة أرادها الله جعل أنبياءه ورسله من بني البشر، ولولا أن النبي بشرٌ يعاني ما يعانيه البشر، وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، ولما كان حجة أمامنا، لو أن النبي ملك لا يشتهي، لا يتألم، لا يخاف، كيف يكون قدوة لنا؟ فلا بد من أن يكون هذا الرسول أو ذاك النبي من بني البشر، يعاني ما يعانيه البشر.

٥. أبلغ في التحدي.

من حكمة جعل الله أنبياءه بشرًا أن يكون ذلك أكثر تحديًا للناس، فمن المعروف أن الأنبياء يأتون أقوامهم بآيات ومعجزات، وأنباء من الغيب يطلعهم الله عليها أحيانًا، فلو قدر أن كان الأنبياء ملائكة لكان ذلك أقل تحديًا للناس، لكن كونهم بشرًا لهم قدرات البشر وإمكاناتهم، ثم يأتون بما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، فهذا دليل، ولاشك على أنهم رسل الله الموحى إليهم من قبله.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]: «فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه»[3].

هذا على أنه يجدر بنا أن نبين ختامًا أن الأنبياء مع طبيعتهم البشرية الخالصة

فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى: (قم فأنذر)).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ١/ ٦، رقم ٢، ولفظه: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول).

(٢) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص٧٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٠٥.

إلا أنهم «يعدون إعدادًا خاصًا لتحمل النبوة والرسالة، ويصنعون صنعًا فريدًا ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

واعتبر في هذا بحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كيف رعاه الله وحاطه بعنايته على الرغم من يتمه وفقره ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]»[1].

ثانيًا: أن يكونوا بلسان قومهم:

جرت سنة الله تعالى في خلقه ألا يبعث نبيًا ولا رسولًا إلا بلسان قومه.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

بلسان قومه: أي: بلغتهم[2].

وهذا من تمام منة الله وفضله على عباده «أنه ما أرسل رسولًا ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ ممن لم ينقد للهدى ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ممن اختصه برحمته»[3].

فمن لوازم سنة الله في الأنبياء والمرسلين أن يكونوا بلسان قومهم؛ لأن المقصود من إرسالهم هداية الناس وإرشادهم إلى الحق والخير، وهذا لا يتأتى لهم على الوجه الأكمل والنحو الأفضل إلا إذا كانوا موافقين لأقوامهم في لغتهم.

«وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة، فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم؛ ليبين لهم وليفهموا عنه، فتتم الغاية من الرسالة»[4].

وهذا من تمام رحمة الله بخلقه -كما بينا- وهو كذلك من تمام الرسالة، وكمال حجة الله على خلقه، ومن تأمل كتاب الله يجد أن الأنبياء والمرسلين كثيرًا ما وصفوا أو وصفت معجزاتهم أو كتبهم بالبيان والوضوح والظهور، قال تعالى في حق الكتاب: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾

(١) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص٧٠ بتصرف يسير.
(٢) زاد المسير ٢/ ٥٠٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢١.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٨٧.

[المائدة: ١٥].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وقال عن نبيه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وقال في عصا موسى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧].

فقد جعل الله تعالى كتابه مبينًا، وآياته مبينة، ووصف نبيه بأنه مبين، ولاشك أن من أهم أدوات البيان اللغة، فهي أهم أدوات التواصل بين البشر؛ ولذا اقتضت سنة الله في رسله وأنبيائه أن يكونوا بلسان قومهم؛ ليكونوا في أعلى درجات البيان.

فـ«كل رسول لله جل ثناؤه أرسله إلى قوم فإنما أرسله بلسان من أرسله إليه، وكل كتاب أنزله على نبي، ورسالة أرسلها إلى أمة فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله إليه»[(١)].

وإرسال الرسل بلسان أقوامهم «أبلغ في الحجة وأقطع للعذر، فربما كانوا يقولون عند اختلاف الألسنة: لا نفهم عنهم؛ إذ قالوا ذلك مع اتفاق اللغات، فقد قال قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١].

هذا وهو يخاطبهم بلسانهم، فكيف لو كان على خلاف ذلك؟!»[(٢)].

يقول ابن القيم: فـ«لم يرسل الله رسولًا إلا بلسان قومه ليبين لهم، فتقوم عليهم الحجة بما فهموه من خطابه لهم»[(٣)].

كما أن إرسالهم بلسان قومهم أدعى للفهم وأعون عليه؛ لذا ما أرسل رسول «إلى أمة من الأمم إلا بلغة قومه الذين أرسل إليهم، ليفهمهم ما أرسل به بسهولة ويسر»[(٤)].

استشكال ودفعه:

من المعلوم أن الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد بعث إلى الخلق عامة، لكن رسالته جاءت بلسان قومه الذين بعث فيهم وهم العرب، فكان القرآن بلسان عربي مبين، وهنا قد يظن البعض أن لغير العرب حجة أو عذرًا في ترك الاهتداء بالقرآن لأنهم لا يفهمونه؟

وقد أجاب على هذه الشبهة القاسمي رحمه الله فقال: «لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك، وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ١١.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٠/ ٣٧٩.
(٣) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٢/ ٧٤٣.
(٤) تفسير المراغي ١٣/ ١٢٦.

عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكد القرائح فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب؛ ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف؛ ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلًا بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها، كما كلم أمته التي هو منها - يتلوه عليهم معجزًا- لكان ذلك أمرًا قريبًا من الإلجاء»[(١)(٢)].

ثالثًا: تزويدهم بالآيات:

لما كان الأنبياء سفراء الله إلى خلقه يدعون الناس إلى الإيمان بهم وتصديقهم فيما يخبرونهم عنه، ويسألونهم طاعتهم فيما يأمرون به وفيما ينهون عنه؛ ولما كان الأنبياء يأتون أقوامهم بما يخالف عادتهم، كان لزامًا أن يقيموا الأدلة والبراهين على صدق نبوتهم وبعثتهم من قبل الله تعالى؛ حتى يقطعوا عن الناس الشك والريب في أمرهم، وحتى تكون هذه الأدلة والبراهين دليلًا واضحًا على صدق نبوتهم، وأيضًا خطًا فاصلًا بين النبي حقًا ومن يدعي النبوة.

لهذه الأسباب وغيرها كان تأييد الله تعالى لأنبيائه بالآيات الواضحات التي تثبت لدى كل منصف صدقهم في دعوتهم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: «بالحجج والبراهين القاطعة على صحة ما يدعون إليه»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: «بالواضحات من الحجج على صدقهم، وأنهم لله رسل»[(٤)].

فالله تعالى قد جعل «دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة»[(٥)] وما ذلك إلا لأنه أبلغ في إقامة الحجة على الناس بأن هؤلاء الأنبياء هم

(١) الإلجاء: الإكراه والاضطرار، وقيل: إن الاضطرار أخص من الإلجاء، لاشتراط زوال الاختيار في الأول دون الثاني.
انظر: معجم لغة الفقهاء ص ٨٦، الفروق اللغوية ص ٦٧.
(٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٩٨-٢٩٩.
(٣) المصدر السابق ٩/ ١٥٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١١٣.
(٥) الجواب الصحيح، ابن تيمية ١/ ١٢٩.

رسل الله إلى خلقه وأنهم صادقون فيما يبلغون عنه، وفيما يظهرونه من أمر الوحي.

والآية في اللغة هي: «العلامة، والجمع: الآي»[1]. وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣].

قال الزجاج: «معناه: نريهم الأعلام التي تدل على التوحيد في الآفاق»[2].

وقد عرفت الآية في الاصطلاح بأنها: «أعلام ودلائل يؤيد بها الله -تبارك اسمه- عباده الأنبياء عليهم السلام؛ ليدل بها على صدقهم، ولا يمكن لأحد من المكلفين أن يعارضها معارضة حقيقية، أو أن يأتي بمثلها عن طريق التعلم والتدرب للوصول إلى ذلك؛ إذ هي أمور خارقة تفوق قدرة المكلفين»[3].

وكثيرًا ما كان يطلق بعض العلماء على الآية لفظ المعجزة فيستعملهما بمعنى واحد، أو يعبر عن آيات الأنبياء بالمعجزات، غير أن هذه الكلمة -المعجزة- لم يرد ذكرها لا في الكتاب ولا في السنة. يقول ابن تيمية عليه رحمة الله: «ليس في الكتاب والسنة لفظ المعجزة، وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف، وإنما فيه آيات وبراهين»[4].

١. آية كل رسول.

جعل الله تعالى لكل نبي من أنبيائه ما يدل على صدقه، ويرغم الناس على الاستسلام له ولما جاء به، وقد سمى الله ما آتاه أنبياءه مما يدل على صدقهم: آية، وفي بعض المواطن: بينة، وفي البعض الآخر: برهان.

فمما جاء بلفظ الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤].

أي: «دلالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الرب عز وجل، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها»[5].

وأما ما جاء بلفظ البينة فكثير، منه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ «يريد بالمعجزات، وهي بينة في أنفسها»[6].

ومما ورد بلفظ البرهان قوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

(١) العين، الفراهيدي ٨/ ٤٤١.
(٢) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/ ٥٩٤.
(٣) النبوة والأنبياء بين حقائق الدين وشبهات العلمانيين، محمد حبنكة ص ١٢٤.
(٤) النبوات، ابن تيمية ١/ ٢١٥ باختصار.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٤٠.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٨.

﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

ونلاحظ أن الله عز وجل أحيانًا يعين لنا آية النبي، وأحيانًا لا يعينها لنا.

وما عينه الله من ذلك فكثير مشهور كمعجزة نبي الله إبراهيم، ومعجزة نبيه صالح، ومعجزة نبيه موسى، ومعجزة نبيه عيسى، ومعجزة نبيه محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

فهؤلاء الأنبياء قد ذكر الله لنا بعض الآيات التي أجراها على أيديهم ونص لنا عليها.

ومن الأنبياء من لم يعين الله لنا آيته أو معجزته، كنبي الله هود، فإن الله ذكر أن له بينة، لكنه لم يذكر ماذا كانت؟ ولا كيف كانت؟ قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥٠-٥١].

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٧].

حتمًا أظهر الله لهود آية دالة على صدقه كحال غيره من الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [التوبة: ٧٠].

ففي هذه الآية ذكر الله قوم عاد -الذين هم قوم هود عليه السلام من جملة الأقوام الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فهذا يعني أن هودًا أتى قومه ببينة أو معجزة، لكن الله لم ينص عليها ولم يعينها.

وكذا الحال في شعيب عليه السلام وقومه منصوص عليهم في الآية السابقة أيضًا، وهم أصحاب مدين، لكن الله أيضًا لم يعين لنا البينة التي أتى بها قومه.

وقد قال الله عنه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

يقول الزمخشري: «فإن قلت: ما كانت معجزته؟ قلت: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة، لقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولأنه لابد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه، وكان متنبئًا لا نبيًا، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات

نبينا صلى الله عليه وسلم فيه»[1].

والمقصود أن من الأنبياء من عين الله لنا آيته التي جاء بها قومه، ونص عليها في القرآن، ومنهم لم يعين الله لنا آيته.

٢. أنواع الآيات.

«إذا استقرأنا الآيات والمعجزات التي أعطاها الله لرسله وأنبيائه نجدها تندرج تحت ثلاثة أمور: العلم والقدرة والغنى.

فالإخبار بالمغيبات الماضية والآتية كإخبار عيسى قومه بما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم، وإخبار رسولنا صلى الله عليه وسلم بأخبار الأمم السابقة، وإخباره بالفتن وأشراط الساعة التي ستأتي في المستقبل كل ذلك من باب العلم.

وتحويل العصا أفعى، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وشق القمر وما أشبه هذا من باب القدرة.

وعصمة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من الناس، وحمايته له ممن أراد به سوءًا، ومواصلته للصيام مع عدم تأثير ذلك على حيويته ونشاطه من باب الغنى.

وهذه الأمور الثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى، التي ترجع إليها المعجزات لا ينبغي أن تكون على وجه الكمال إلا لله تعالى، ولذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالبراءة من دعوى هذه الأمور ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]»[2].

وقد كان من سنة الله في رسله عادة أن يظهر على أيديهم آيات من جنس ما برع فيه أقوامهم؛ ليكون أقوى في التحدي، وأظهر في الحجة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[3].

يقول ابن حجر رحمه الله معلقًا: «كانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشيًا عند فرعون، فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا ولم يقع ذلك بعينه لغيره، وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه؛ ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧.

(٢) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ١٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ٦/ ١٨٢، رقم ٤٩٨١.

مثله، فلم يقدروا على ذلك»[1].

٣. نماذج من آيات الأنبياء.

في القرآن كثير من الآيات التي تبين تأييد الله تعالى لأنبيائه بالآيات والمعجزات، وفيما يلي عرض لبعضها:

١. آية إبراهيم عليه السلام.

أيد إبراهيم عليه السلام ببعض الآيات التي بينت صدق نبوته وصحة بعثته من قبل الله، وكان من أعظم آياته صلى الله عليه وسلم ما كان من إنجاء الله له من النار التي ألقاه قومه فيها؛ وذلك بعد أن حطم إبراهيم أصنامهم إلا كبيرًا لهم، فعزم قومه على إحراقه في النار العظيمة فنجاه الله منها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

٢. آية صالح عليه السلام.

لما دعا صالح عليه السلام ثمود إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما عداه كذبه قومه وقالوا له: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

فلما طلبوا منه آية تثبت صحة دعواه آتاه الله الناقة آية مبصرة بينة، شاهدة بصدق نبوته.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وذكر بعض المفسرين أن ثمود اجتمعوا يومًا في ناديهم، فلما جاءهم صالح عليه السلام يعظهم طلبوا منه آية على صدق نبوته، فدعا صالح ربه فأخرج لهم الناقة من الصخرة[2].

٣. آية موسى عليه السلام.

تعددت الآيات التي أرسل الله بها موسى إلى بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وهذه الآيات التسع هي:

العصا: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٧-٢٠].

تلألؤ يده إذا أدخلها في جيبه ثم نزعها: وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢].

إصابة بني إسرائيل بما يلي: السنين

(١) فتح الباري ابن حجر ٩/ ٦-٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٨٦، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٩.

ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

وقد ورد ذكر هذه الآيات في آيتين من سورة الأعراف، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

على أن أعظم الآيات التي آتاها الله موسى عليه السلام هي آية العصا التي انقلبت حية فآمن على إثرها السحرة.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣ - ٤٨].

وقد كانت هذه الآية على مرأى ومسمع من بني إسرائيل وفي مقام التحدي لفرعون وملئه، فأظهر الله بها موسى عليهم، وخر السحرة ساجدين.

٤. آية عيسى عليه السلام.

ورد في القرآن العديد من الآيات التي أيد الله بها نبيه عيسى عليه السلام على قومه؛ لتبرهن على صدق نبوته وصحة بعثته، ومن هذا ما يلي:

- يخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيجعله طيرًا بإذن الله.
- يبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله.
- يحيي الموتى بإذن الله.

وهذه الآيات كلها يجمعها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

- إنزال المائدة من السماء.

وذلك حين طلب منه بنو إسرائيل ذلك؛ إذ قالوا: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٣].

فدعا عيسى عليه السلام ربه فأجابه ربه، وأنزل عليهم مائدة من السماء ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٤ - ١١٥].

٥. آية نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد تعددت آيات نبوته بقدر قدره الكريم وقيمة الرسالة المبعوث بها.

❁ القرآن أعظم الآيات.

القرآن الكريم كتاب عظيم أوحي به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الكتاب العظيم يحمل بين دفتيه عددًا كبيرًا من التشريعات التي تكفل للإنسانية حياة طيبة رضية إن التزمها الناس وعملوا بها، وقد جعل الله تعالى هذا الكتاب وحيًا على الناس الإيمان به والعمل بما فيه، وفي الوقت نفسه جعله آية عظيمة، فلا يحتاج إلى آية من خارجه، فهو في نفسه آية، ولما طلب الكفار آية على صدق ما جاء به النبي بقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[العنكبوت: ٥٠].

كان الجواب: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

«وفي هذا الرد إنكار عليهم أن يطلبوا آيات مع هذه الآيات التي تتلى عليهم، إنها آيات لا تغرب شمسها، ولا يخبو ضوؤها أبد الدهر»[(١)].

«وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية؛ وذلك لأن القائل إذا قال: أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبئ عن أن ترك الضرب في حقه كثير، فكذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها»[(٢)].

فالقرآن أعظم الآيات وأظهر المعجزات لا يحتاج إلى آية، وإنما هو الآية التي عجز الفصحاء والبلغاء من أساطين البلاغة والبيان عن معارضته أو مشابهته حين تحداهم الله بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

ولما عجزوا عن هذا كان عجزهم دليلًا على صدقه، وبرهانًا على حقيقة نبوته.

و«شاء الله تعالى أن تكون معجزة محمد صلى الله عليه وسلم نمطًا مخالفًا لمعجزات الرسل، وكان الله قادرًا على أن ينزل معجزة حسية تذهل من يراها: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٤٥٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٦٥.

﴿ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

فلو شاء الله تعالى لأنزل من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالًا ولا انصرافًا عن الإيمان، ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسية: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ ملوية محنية، حتى لكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم، فهم عليها مقيمون، ولكنه تعالى شاء أن يجعل معجزة هذه الرسالة الأخيرة آية غير قاهرة، لقد جعل آيتها القرآن، منهاج حياة كاملة، معجزًا في كل ناحية، معجزًا في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني، معجزًا في بنائه الداخلي، وتناسق أجزائه وتكاملها، معجزًا في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها، واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة»[1].

أيضًا «فإن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه:

أحدها: أن تلك المعجزات وجدت وما دامت، فإن قلب العصا ثعبانًا مثلًا، وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب، وأما القرآن فهو باقٍ لو أنكره واحد فنقول له: فأت بآية من مثله.

الثاني: هو أن قلب العصا ثعبانًا كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد»[2].

❁ الإسراء والمعراج.

من الآيات الشاهدة على صدق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الوارد ذكرها في القرآن آية الإسراء والمعراج، وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وفي هذه الرحلة أسرى الله بنبيه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به منه إلى السموات العلا، حيث رأى من آيات ربه الكبرى وإلى ذلك الإشارة في الآيات: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى

(١) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ١٣٢-١٣٣ باختصار.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٦٥ بتصرف يسير.

﴿ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١١-١٨].

وأخبار الرحلة مشهورة في كتب الأحاديث.

- انشقاق القمر.

مما أظهره الله تعالى من الآيات العظيمة التي تبين صدق نبيه في دعواه آية «انشقاق القمر» وإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢].

وفي هذه الآية شق الله تعالى لنبيه القمر شقين حتى رأى بعض الصحابة جبل حراء بينهما، (فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آيةً، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراءً بينهما)[1].

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: (انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اشهدوا)[2].

وهكذا يتضح لنا كيف أن الله جل جلاله يؤيد رسله بالآيات الكثيرة التي تدلل على نبوتهم وصدقهم فيما يدعون الناس إليه.

موضوعات ذات صلة:

آدم عليه السلام، إبراهيم عليه السلام، بيت النبوة، الرؤيا، عيسى عليه السلام، محمد صلى الله عليه وسلم، موسى عليه السلام، الوحي، الوراثة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب انشقاق القمر، ٥/ ٤٩، رقم ٣٨٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية، فأراهم انشقاق القمر، ٤/ ٢٠٦، رقم ٣٦٣٦.

النَّجَاةُ

عناصر الموضوع

مفهوم النجاة	٣٧٤
النجاة في الاستعمال القرآني	٣٧٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٧٦
أسباب النجاة	٣٧٩
المنجى منه في الدنيا والآخرة	٣٩١
نماذج من الناجين في القرآن الكريم	٤١٩

مفهوم النجاة

أولًا: المعنى اللغوي:

جاء في كتاب العين: «نجا فلان من الشر ينجو نجاة، ونجا ينجو، في السرعة، نجاء فهو ناج وناقة ناجية: سريعة... والنجاة: النجوة من الأرض، أي:الارتفاع، لا يعلوه ماء»[(١)]، وزاد ابن دريد: «نجوت العود أنجو نجوًا، إذا اقتضبته من الشجرة... وقال بعض المفسرين[(٢)] في قوله عز وجل: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾[يونس:٩٢].

أي: نلقيك على نجوة... ونجوت الجلد عن الناقة، إذا قشطته»[(٣)]، وهو ما ذهب إليه ابن فارس في تفسير (نجو) بالكشط والكشف، قال: «ونجا الإنسان ينجو نجاة، ونجاء في السرعة وهو معنى الذهاب والانكشاف من المكان. وناقة ناجية ونجاة: سريعة. ومن الباب وهو محمول على ما ذكرناه من النجاء: النجاة والنجوة من الأرض، وهي التي لا يعلوها سيل»[(٤)].

وجاء في الفرق بين المعنيين اللغويين للفعلين الرباعيين (أنجى) و(نجى): «معنى أنجاه: أخلصه قبل وقوعه في المهلكة؛ ونجاه: أخلصه بعد الوقوع»[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها ابن الجوزي بأنها: «تخليص الواقع في الشيء»[(٦)]، ويؤكد ذلك في مصنف آخر بقوله: «يقال: نجيت فلانًا أنجيه: إذا خلصته من شر وقع فيه»[(٧)] وهو تعريف واسع وشامل لمعنى النجاة إذ لم يحدد ذلك الشيء بعذاب أو مخافة أو هلاك أو مكروه.

يلاحظ أن هناك اتفاقًا بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي في مسألة الخلاص التي يمكننا أن نفسرها بأنها حالة من التغيير تتم من خلال عملية إنقاذ أو انتشال من ظرف أو موقف أو واقع عصيب إلى آخر مطمئن.

(١) العين، الفراهيدي ٦/ ١٨٦.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٥١، الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ٢٦٥.
(٣) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٤٩٧.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٩٧.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٢٠١.
(٦) زاد المسير ٥/ ١٧٩.
(٧) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٨٢.

النجاة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نجو) في القرآن الكريم (٨٣) مرة، يخص موضوع البحث منها (٦٦) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤٥	﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]
الفعل المضارع	١١	﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس:١٠٣]
فعل الأمر (دعائي)	٦	﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء:١٦٩]
اسم فاعل	٣	﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت:٣٣]
المصدر	١	﴿۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ [غافر:٤١]

وجاءت النجاة في الاستعمال القرآني بمعناها في اللغة وهو: الخلاص والسلامة[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٣٠٧-١٣٠٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٤٣٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإفلات:

الإفلات لغة:

هو «التخلص من الشيء فجأة، من غير تمكث»[١].

الإفلات اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، جاء في معجم لغة الفقهاء أن الإفلات هو «النجاة والتخلص»[٢].

الصلة بين الإفلات والنجاة:

الجامع بينه وبين النجاة هو الخلاص غير أنهما يفترقان في أن النجاة لا تقتضي الفجأة في التخلص.

٢ الإنقاذ:

الإنقاذ لغة:

قيل في النقذ: هو «التخليص والتنجية، كالإنقاذ والتنقيذ والاستنقاذ والتنقذ وفي الصحاح: أنقذه من فلان واستنقذه منه وتنقذه بمعنى أي: نجاه وخلصه... والنقذ السلامة والنجاة»[٣]. قال ابن منظور: «نقذ نقذًا نجا»[٤].

الإنقاذ اصطلاحًا:

«التخليص من ورطة»[٥].

الصلة بين الإنقاذ والنجاة:

فكل من الإنقاذ والنجاة يؤدي معنى الخلاص من مأزق، غير أنهما يفترقان في أن الإنقاذ لا يكون إلا بفعل الآخر، في حين تكون النجاة بفعل الشخص نفسه أو الآخر.

٣ الخلاص والتخلص:

الخلاص لغة:

(١) لسان العرب، ٥/ ٣٤٥٤.
(٢) معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي ص٨١.
(٣) تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٤٩٠.
(٤) لسان العرب ٦/ ٤٥١٨.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٣.

قال الزبيدي: «وخلص الله (فلانًا: نجاه) بعد أن كان نشب»[1].

الخلاص اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الخلاص والنجاة:

غير أن الفرق بين التخلص والنجاة هو: «أن التخلص يكون من تعقيد وإن لم يكن أذى، والنجاة لا تكون إلا من أذى، ولا يقال لمن لا خوف عليه نجا، لأنه لا يكون ناجيا إلا مما يخاف»[2].

٤ السلامة:

السلامة لغة:

«السلام والسلامة البراءة... وسلم من الأمر سلامة: نجا»[3] قال ابن الجوزي: «النجاة والخلاص والسلامة متقارب»[4].

السلامة اصطلاحًا:

هي «التعري من الآفات الظاهرة والباطنة»[5].

الصلة بين السلامة والنجاة:

أن النجاة مأخوذة من النجوة كما تقدم وهي الارتفاع عن الهلاك، أما السلامة مأخوذة من إعطاء الشيء من غير نقيصة، وقيل: إن السلام «اسم مصدر من سلم يسلم تسليما كالكلام والطلاق، وهو بمعنى النجاة والتخلص مما لا يرغب فيه»[6].

(١) تاج العروس ١٧/ ٥٦٣.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٥٣٢.
(٣) لسان العرب ٣/ ٢٠٧٧.
(٤) نزهة الأعين النواظر ص ٥٨٢.
(٥) المفردات ص ٢٣٩.
(٦) السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية، خالد الشراري، مجلة البحوث الإسلامية: ع ٨٩، ١٤٣٤هـ ص٣١٤.

٥ الفوز:

الفوز لغةً:

الفاء والواو والزاي كلمتان متضادتان، فالأولى: النجاة، والأخرى: الهلكة.

فمن الأولى قولهم: فاز يفوز، إذا نجا، وهو فائز، وفاز بالأمر: إذا ذهب به وخلص، ويقال هذا لمن ظفر بخير وذهب به، والكلمة الأخرى قولهم: فوز الرجل، إذا مات وهلك[(١)].

الفوز اصطلاحًا:

«الظفر بالخير مع حصول السلامة»[(٢)].

الصلة بين الفوز والنجاة:

يفترق الفوز عن النجاة في أنه يقتضي السلامة مع النجاة، جاء في «الفرق بين النجاة والفوز: أن النجاة هي الخلاص من المكروه، والفوز هو الخلاص من المكروه مع الوصول إلى المحبوب، ولهذا سمى الله تعالى المؤمنين فائزين لنجاتهم من النار ونيلهم الجنة»[(٣)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٥٩.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٤٧.
(٣) الفروق اللغوية ص ٥٣٢.

أسباب النجاة

خلق الله تعالى الإنسان وأمره بالالتزام بطاعته والمواظبة على عبادته وترك ما يوجب غضبه وسخطه والاستعداد للتعاطي مع أحكامه والرضا بما قسم الله له من ابتلاء في سرائه وضرائه، فالله مبتليه على أية حال ليمحص عزمه وإيمانه، فإذا وافق أن يكون قلبه منقادًا لحكم الله وعامرًا بحبه، صبر على ابتلائه وفاز بمنجاته وإن وافق أن يكون قلبه ضالًا جاهلًا بمعرفة الله تعالى واتباع سبيله، فلن يجد من دون الله وليًا ولا نصيرًا. ويقينًا أن للنجاة أسبابها وسبلها التي تضمن لكل من ينهجها بإخلاص التوفيق للوصول إليها ويمكننا تحديد تلك الأسباب في النقاط الآتية:

أولًا: الإيمان:

الإيمان مبدأ شامل تنضوي تحته جملة من العقائد منها الإقرار والاعتراف بأسماء الله وصفاته الكاملة العليا، وما له على مخلوقاته من الحقوق: كالتأليه والعبادة في الظاهر والباطن، إلى جانب الاعتراف بملائكته وكتبه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وما جاء به كتابه الكريم من أخبار الأمم السابقة وقصصها، وأنباء ما يستقبل من الزمان، وما ساقه من وعد ووعيد بثواب يوم الآخر وعقابه[1].

والمتتبع لآيات الذكر الحكيم يجد صورة متكاملة لمفهوم الإيمان وأصوله وسبله، فلا تكاد سورة تخلو في ألفاظها أو مضمونها من التذكير بعقيدة الإيمان وما يتوجب على العبد التحلي به من استعدادات نفسية وصفات أخلاقية وممارسات فعلية لاكتساب صفة المؤمن.

وكثيرًا ما يسوق لنا القرآن الكريم قصصًا ومواقف عقائدية رافقت مسيرة أنبياء الله ومن آمن بهم وبرسالاتهم السماوية، ليعتبر بها أولو الألباب الذين ينشدون السبيل إلى الله ابتغاءً لمرضاته وسعيًا إلى النجاة من غضبه.

فالنجاة بالإيمان درس بليغ تزخر به آيات الكتاب المبين صراحة وضمنًا، وتدعونا إلى التفكر في أسباب بلوغ درجاته وكيفية الوصول إلى المستوى العقائدي المقبول الذي يحقق لنا مرضاة الله عز وجل التي هي الأساس في تقرير سعادة العبد أو شقائه، فشتان بين من حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ومن حقت عليهم كلمة الله بأنهم لا يؤمنون، فأنى لهم النجاة من عذاب الله ؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[يونس:٩٦-٩٧].

(١) انظر: المصدر السابق.

فليس هناك من يجير العبد من غضب الله إلا إيمانه، إذ لا أهمية لمال أو بنين في اتقائه، ولا ينفع العبد شيء مثل إيمانه في السعة من حياته وليس بنافعه أن يؤمن عند نزول العذاب أو حضره الموت، وقد أكد القرآن ذلك في أكثر من مناسبة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

فالإيمان لا يكون منجيًا إلا إذا صحت شروطه واعتنقته النفس بصدق وأقر بذلك القلب، أما من استحوذ عليه الشيطان فأعرض عن الإيمان فلا منجاة له حين يداهمه عذاب الله وأجله، وهذا ما وعد الله به موسى وهارون(عليهما السلام) حين دعواه وطلبا منه أن لا يجعل للإيمان سبيلًا إلى قلب فرعون وجنوده حتى يدركهم العذاب، إذ قالا: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨].

فاستجاب الله لهما دعوتهما بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٨].

فكان وعد الله حقًا حين أغرق فرعون وجنوده فأراد فرعون أن يخلص نفسه فادعى الإيمان قائلًا: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس:٩٠].

غير أنه إيمان فارغ من محتواه وخال من التسليم والانقياد إلى الله، أو هو إيمان صوري أراد فرعون من خلاله أن يتشبه -بمكر- بالمؤمنين من بني إسرائيل بهدف النجاة، فمكر له الله وحقق له نجاة تليق بمستوى إيمانه الزائف.

قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس:٩٢].

ولم يكن هذا الحكم الإلهي مقتصرًا على الأفراد من دون الجماعات، بل أكدت الآيات القرآنية الكريمة في أكثر من موضع أن الإيمان هو السبيل الأمثل لبلوغ النجاة.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

فاستثنى قوم يونس كونهم تداركوا أنفسهم بالإيمان والتوبة الحقة فكان ذلك سببًا في نجاتهم من عذاب الخزي[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٨٤.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس:١٠٣].

نص على أنه لا ينال الخلاص من غضب الله إلا رسله والذين آمنوا وأقروا بالوحدانية لله والتصديق لهم. وليس هذا الحكم بموقوف على من سبقوا إلى الإيمان في الأمم السابقة.

بل يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي أنه حق على الله أن ينجي المؤمنين بك من هذه الأمة، قال الشوكاني: «التعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلًا لأمرها، كذلك حقًا علينا أي: حق ذلك علينا حقًا أو إنجاء مثل ذلك الإنجاء حقًا ننج المؤمنين من عذابنا للكفار»[1].

بهذا نصل إلى أن الأساس في بلوغ رحمة الله والنجاة من ابتلائه وغضبه هو اتباع سبيله والإيمان بربوبيته والتصديق برسالاته، ولن ينفع نفسًا إيمانها وقد داهمها قدر الله وقارب أجلها، إذ لا منجاة لها وقد فرطت من قبل باتباع سبيل الهدى والإيمان، فحري بأمتنا الإسلامية أن تنتهج سبل الإيمان وتعمل على تنشئة الأجيال وتغذيتهم بالإيمان الصحيح الذي يديم صلتهم بالله تعالى وأن لا يلبسوا إيمانهم بظلم.

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٧٧.

ثانيًا: التقوى:

المتقي: «من يقي نفسه عن تعاطي ما يعاقب عليه من فعل أو ترك»[2].

أما مرتبة التقوى فتأتي ثالثة بعد الإسلام والإيمان، فبعد أن يكون العبد قد أسلم وجهه لله ووقر الإيمان في قلبه تأتي مرحلة التفكر في الوقاية من الأمور التي تنأى به عن الخالق عز وجل أو تتجاوز به حدوده وهي مرحلة اجتناب الشبهات والعمل على تهذيب النفس وتزكيتها بالعمل الصالح، فالتقوى كما الإيمان لها أسبابها وشروطها وطرائقها، لذا نجدها تسير جنبًا إلى جنب مع الإيمان في كثير من الآيات.

وقد وردت النجاة بتقوى المؤمنين صريحة في موضعين من القرآن الكريم تحدثا عن هلاك أقوام عاد وثمود بعذاب الله ونجاة المؤمنين منهما مع النبيين هود وصالح عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥١-٥٣].

وقال في موضع آخر: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ

(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٤٧.

﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۞ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[فصلت:١٧-١٨].

فأما الموضع الأول فجاء ضمن سياق الحديث عن قوم صالح عليه السلام الذين لم يكتفوا بإعراضهم عن الإيمان وصدهم عن سبيل الله، بل ذهبت بهم شقوتهم إلى عقر ناقة الله والسعي إلى قتل النبي صالح عليه السلام، فمكروا ومكر الله، فأذاقهم العذاب، وكان جزاء الذين آمنوا بالله وبرسالة نبيهم واتبعوا سبيله ووقوا أنفسهم من التعدي على حدود الله، أن الله (أنجاهم) من ذلك الهلاك السريع.

وأما الموضع الآخر فقد جاء ضمن سياق متصل بدأ بقوم هود عليه السلام الذين استكبروا، ثم انتهى بقوم صالح عليه السلام الذين يسر لهم الهدى، وأتاح لهم الأسباب للإيمان، ومكنهم منه، وقدرهم عليه.

قال تعالى:﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ «أي: بينا لهم سبيل النجاة ودللناهم على طريق الحق بإرسال الرسل إليهم ونصب الدلالات لهم من مخلوقات الله فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله ويصدق رسله، قال الفراء: معنى الآية: دللناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل»[1]، غير أنهم ضلوا فاستحبوا العمى على الهدى فاستحقوا العذاب فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بظلمهم إلا فئة منهم اهتدوا وآمنوا واتقوا فأنعم الله عليهم بالنجاة من العذاب، فحين جمع السياق القرآني بين هلاك عاد وثمود قال: (نجينا) ولم يقل: (أنجينا).

ويعود سبب اختلاف صيغة فعلي النجاة بمجيئه في الموضع الأول بالفعل الماضي المهموز (أنجى) وفي الموضع الآخر بالفعل الماضي المضعف (نجى) إلى اختلاف السياقين في الموضعين اللذين وردت فيهما (النجاة) فالسياق في الأولى خاص بثمود، والنجاة تتطلب السرعة[2].

فهناك من خطط وتقاسم وبيت لقتل صالح عليه السلام وأهله والإفلات من جزاء القتل، ومكر لتنفيذ المخطط، فجاء مكر الله أسرع فعجل لهم بهلاكهم وسارع بإنجاء من آمن واتقى من المكر ومن الدمار الذي حل بالقرية وبيوتها.

أما السياق الآخر فلا يتطلب السرعة؛ لأن الحديث يتضمن هلاك أمتي عاد وثمود ونجاة من آمن واتقى منهما ثم يجمعهما في مصير واحد على اختلاف البعد الزمني بينهما.

قال ابن عاشور: «إن المعنى إنجاء الذين

(١) فتح القدير ٤/ ٥١١.

(٢) انظر: برنامج لمسات بيانية، الحلقة ٢٢٧، د.فاضل السامرائي.

آمنوا من قوم عاد وقوم ثمود، فمضمون هذه الجملة فيه معنى استثناء من عموم أمتي عاد وثمود فيكون لها حكم الاستثناء الوارد بعد جمل متعاقبة أنه يعود إلى جميعها»[1].

لذا اقتضى السياق أن يأتي بصيغة الفعل المضعف (نجى) ليدلل به على حصول النجاة المتكررة مع وقوع العذاب مرة بعد أخرى للقريتين، وليشير به إلى أن حكم الله ثابت على مر الأزمان، وأن النجاة في كل مرة ستكون من نصيب الذين آمنوا وكانوا يتقون.

من جانب آخر لم يخل التعبير القرآني من الدقة في الجمع بين الفعلين الماضي (آمنوا) والمضارع (يتقون) للدلالة على أسبقية الإيمان ومضي حالته بالقياس إلى حالة التقوى التي تمثل المنهج التطبيقي لذلك الإيمان، وربما كان في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا يعملون الخير ويبتعدون عن الفساد من قبل أن يؤمنوا بدعوة صالح عليه السلام، أي: (وكانوا يتقون من قبل إيمانهم).

وعلى هذا يكون قوله: «يتقون»؛ «أي: كان سنتهم اتقاء الله والنظر فيما ينجي من غضبه وعقابه، وهو أبلغ في الوصف من أن يقال: والمتقين»[2].

ولا تخلوا الآيتان من تبشير من يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن هناك إمكانية لتحقيق النجاة من عذاب الله وذلك باتباع سبيل التقوى من سخطه وغضبه، ففي الآيتين «طمأنة لقلوب المؤمنين بأن الله ينجيهم مما توعد به المشركين كما نجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من ثمود، وهم صالح ومن آمن معه»[3].

وتجدر الإشارة إلى أن النجاة بالتقوى لم ترد صريحة في القرآن الكريم فحسب، بل وردت ضمنًا أيضًا، من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وبعد هذا نصل إلى حقيقة مفادها أن تقوى الله ومخافته ترفع من مكانة العبد كلما زادت نسبتها وواجب على الصلحاء من أبناء الأمة أن يوضحوا هذه الحقيقة لمن يغفل عنها، فليس في مخافة الله منقصة بل إن تقواه هي الضمانة الأكيدة للعيش في فسحة من نعمته ورضاه والنجاة من سخطه وغضبه سواء في الحياة أو ما بعد الممات، ويمكن للنفس أن تبلغ مستوى تقوى الله من خلال ترجمة إيمانها إلى أفعال وممارسات واقعية سعيًا لتحقيق الجزاء الأوفى في الآخرة وضمان النجاة من كربات يوم

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٦٣.
وانظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٧٩.
(٢) التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٦٤.
(٣) المصدر السابق ١٩/ ٢٨٧.

الحساب، فبلوغ العبد مرحلة التقوى أمر ضروري للنجاة مما أعده الله للكافرين من حساب، وللفوز بما بشر به المتقون من أجر عظيم.

ثالثًا: النهي عن الفساد:

قد اقترن ذكر الفساد بذكر الأرض في القرآن الكريم، فمذ خلق الله تعالى الأرض وقضى أن يجعل فيها خليفة وقف الملائكة مخاطبين ربهم عز وجل: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠].

فأنى للإنسان -الذي خلق هلوعًا ظلومًا لنفسه جهولًا بالذي فيه الحظ له[1]- النهوض بأمانة أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها ؟ وأنى له الإصلاح في الأرض وإعمارها واستغلال خيراتها في منفعة نفسه والآخرين ؟.

غير أن الله تعالى غالب على أمره وأعلم بقدرة الإنسان وإمكاناته حين وضعه أمام اختبار حياتي متواصل ليثبت لملائكته أن بإمكانه أن يكون جديرًا بحمل الأمانة وأن تصدق عليه صفة الخلافة، إذا ما ألزم نفسه السير على نهج من استخلفه في الأرض، ويقينًا أن النهج الإلهي واضح وصريح في القرآن الكريم وبالأخص في ما يتعلق بالفساد الذي ورد بصيغ مختلفة في تسعة وأربعين موضعًا من آياته تناولت مبدأ واحدًا هو أن الله تعالى لا يحب الفساد ولا المفسدين، وقد جاءت معظم أحكامه فيها لتشير صراحة وضمنا إلى هذا المبدأ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

لقد جاءت الرسالات السماوية كلها لتبصر العباد بسبل الإصلاح ولتنهاهم عن الفساد بمختلف أشكاله؛ ليكونوا ربانيين يأمرون بما أمر به الله وينهون عما نهى عنه، وليبلغوا رضاه ويضمنوا لأنفسهم النجاة من حسابه وعقابه، وقد حض الله تعالى على ذلك صراحة في قوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود:١١٦].

ففي الآية دعوة واضحة للتفكر في أحوال من سبق من الأمم الغابرة التي باءت بغضب من الله ونقمة فأهلكها بعذابه إلا قليلًا من أهلها الذين لم يكتفوا بالإصلاح بل كانوا يدعون إليه من خلال نهيهم الناس عن الفساد في الأرض، تلك القلة القليلة آلت أن لا تقرب الظلم أو الترف ولا ترتكب جرمًا، ففازت بمنجاة الله حين نزل بأقوامهم العذاب، قال الطبري: ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ أي:

(١) انظر: جامع البيان ٢٢/ ٦٦.

«ذو بقية من الفهم والعقل، ... ينهون أهل المعاصي عن معاصيهم وأهل الكفر بالله عن كفرهم به في أرضه... إلا يسيرًا، فإنهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، فنجاهم الله من عذابه، حين أخذ من كان مقيمًا على الكفر بالله عذابه، وهم أتباع الأنبياء والرسل»[1].

ثم تعود الآية في نهايتها لتؤكد للناس مبدأ وقاعدة إلهية لا تقبل التغيير هي (أن نجاتهم في الإصلاح والنهي عن الفساد)، وأن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بشرك أو بكفر ما داموا مصلحين «فيما بينهم في تعاطي الحقوق أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد»[2].

ولم يكن مبدأ الإصلاح ليتحقق من خلال النهي عن الفساد فحسب، بل بالنهي عن السوء أيضًا الذي لا يختلف جزاؤه عن جزاء النهي عن الفساد بشيء فكلاهما يورث النجاة.

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٥].

فأهل هذه القرية كانوا قد نهوا من قبل عن الصيد في يوم السبت، فابتلاهم الله بأن كانت حيتان البحر تأتي في ذلك اليوم ظاهرة على الماء كثيرة، ولا تأتي كذلك في ما عاده من الأيام، فلم يمتثلوا أمر الله بترك العمل في يوم السبت بل كانوا يسدون عليها في السبت ويصيدونها في الأحد، وكانت القرية منقسمة على ثلاث أمم: أمة دائبة على القيام بالنصح والموعظة والنهي عن إتيان المنكر، وأمة أخرى قامت بذلك من قبل ثم استيأست من اتعاظ المعتدين وأيقنت أن قد حقت عليهم كلمة العذاب، وأمة كانت سادرة في غلوائها لا ترعوي عن ضلالتها ولا ترقب الله في أعمالها.

ويتضح من ذلك «أن صلحاء القوم كانوا فريقين. فريق أيس من نجاح الموعظة وتحقق حلول الوعيد بالقوم. لتوغلهم في المعاصي. وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار»[3].

فواصل العمل على بذل النصيحة معذرة إلى الله الذي يأمر بالنهي عن السوء ما دام

(١) جامع البيان ١٢/ ١٨٠-١٨١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١١٤.
(٣) التحرير والتنوير ٩/ ١٥٢.

العبد قادرًا على إتيانه وأملًا منهم في إصلاح القوم ليتقوا الله في أفعالهم. في مقابل الفريقين كان فريق من المفسدين تمادى في إعراضه عن النصح حتى نسوا ما ذكروا به فحقت عليهم كلمة العذاب، فأهلكهم الله بذنوبهم وأنجى الآخرين بنهيهم عن السوء.

لقد جعل الله تعالى من الإصلاح مضمارًا يتنافس فيه الخلق في تحقيق المنافع الفردية والاجتماعية التي توجب عليهم رحمة الله ورضاه بما يقدمونه لأنفسهم ومجتمعاتهم من خير يسعون به إلى منع انتشار الفساد ووأد فتنته مبتغين من وراء ذلك الفوز بمنجاته من بلاء الدنيا وأهوال عذاب الآخرة. وخير ما يمكن السعي إليه من صلاح هو تعزيز المناهج التعليمية بقيم التسامح وإحياء السلام، والعمل على نشر مبادئ الإسلام بصورته الحقيقية التي تدعو إلى محاربة الفساد في الأرض والسعي لترسيخ قواعد العدل والصلاح.

رابعًا: الجهاد في سبيل الله:

لم يقف القرآن عند حد معين في تجسيد صورة النجاة من غضب الله وسخطه، بل توغل كثيرًا في استعراض قيم المنظومة الإيمانية ومقوماتها التي تبلغ بالعبد الدرجات العلا وتضمن له الفوز بالنجاة، وإذا كانت الآيات السابقة أظهرت لنا دعوة الله تعالى إلى النجاة بالإيمان عن طريق (الترهيب)، فإن هناك آيات أخرى عرضت إلى الدعوة نفسها عن طريق (الترغيب والتحبيب)، إذ قيل: إنه لما شرع الله الجهاد على المؤمنين كرهوه، فحين «قال نفر من الأنصار في مجلس لهم وفيهم عبد الله بن رواحة: لو نعلم أي العمل أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت»[1] نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الصف:١٠].

«فمكثوا زمانا يقولون: لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين»[2] فدلهم الله تعالى عليها بقوله: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف:١١].

فالله جلت قدرته يطرح فكرة التجارة بمفهوم مغاير لما هو متعارف عند الناس، إذ تقوم التجارة عنده على أساس من التعاقد بينه وبين العبد، ويكون رأس المال فيها عقائديًا مشروطًا بتحقق الإيمان والسعي إلى الجهاد في سبيل الله، وهي إلى جانب ذلك تختلف عن تجارة الناس في ما بينهم في أنها لا تفضي إلا إلى الربح، وأن ربحها ليس أقل من النجاة من عذاب الله، الفوز بجناته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٧١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٧٧.

﴿الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

وبالعودة إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ نلاحظ أن التجارة جاءت بصيغة النكرة التي توافقت مع سياق حال النص وما يحمله من دلالة على ذلك السبيل المبهم والمفهوم المطلق لمعنى الاتجار، ما وفر مناخًا من التشويق والتفخيم والتعظيم ولاسيما حين انتقل النص مباشرة إلى بيان ما تحققه تلك التجارة من مكسب عظيم وهو النجاة من العذاب الأليم، ثم لا تلبث دلالة النص أن تقيد ذلك المطلق وتحدده بهدف بيان السبيل المفضية إلى ممارسة تلك التجارة فتحصر الأمر بمحددين اثنين هما الإيمان والجهاد، فكأن «التجارة لم يدر ما هي، فبينت بالإيمان والجهاد، فهي هما في المعنى. فكأنه قال: هل تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم»[1]، وينجيكم من عذاب أليم ؟.

فذلكم الله رب السموات والأرض الذي لا ينأى ولا يستنكف عن الدنو من عباده، يدعوهم إليه برسالاته ويعرض عليهم تجارة لن تبور وربحًا ونجاة من الموت الذي يفرون منه، فبذل النفس والجهاد بها في سبيل الله نهج لا ينفك عنه الخير، فأوله خلود في الحياة الدنيا وآخره نجاة وعتق من النار، وجائزته عفو وفوز بفرحة لقاء الله، ورزق دائم، وحياة أبدية.

خامسًا: الدعاء والتسبيح:

لقد شرع الله تعالى الدعاء وجعله من أعظم الأسباب لاتقاء عذابه، ودلل في أكثر من آية على أنه السبيل إلى النجاة من البلاء، قال في ذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[الأعراف:٩٤].

فلطالما غفل الناس عن ذكر الله في سرائهم، فكان الله يبتليهم بالحروب والفتن والجدب والقحط وغيرها لعلهم ينقلبون إليه فيدعونه ويرغبون في عبادته وخلاصه.

غير أن كثيرًا منهم نسوا الله في الرخاء والشدة فلم يتخذوا من الدعاء مجنة يدرؤون بها عن أنفسهم سخطه وعقوبته، فحقت عليهم كلمة العذاب.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٤٣].

والقرآن الكريم حافل بموارد الدعاء سواء في اللفظ أو في المعنى.

(١) المصدر السابق.

قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يونس:٨٣-٨٦].

يلاحظ أن قوم موسى عليه السلام كان يتملكهم الخوف من فرعون وجنوده حين آمنوا، غير أن موسى عليه السلام أخبرهم أن التصديق بالله وحده لا يكفي ما لم يقترن بتفويض الأمر إليه فذلك من كمال الإيمان ففعلوا ووكلوا أمرهم إلى الله، وتوجهوا إليه بالدعاء وكان دعاؤهم مبنيًا على أمرين:

أحدهما: قولهم: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «أي: لا تنصرهم علينا، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، أو لا تمتحنا بأن تعذبنا على أيديهم. وقال مجاهد: المعنى لا تهلكنا بأيدي أعدائنا، ولا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول أعداؤنا: لو كانوا على حق لم نسلط عليهم، فيفتنوا. وقال أبو مجلز وأبو الضحا: يعني: لا تظهرهم علينا فيروا أنهم خير منا فيزدادوا طغيانًا»[1].

والآخر: قولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: خلصنا «من فرعون وقومه لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة»[2].

قال الشوكاني: «ولما قدموا التضرع إلى الله سبحانه في أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا ونجنا برحمتك من القوم الكافرين وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم»[3].

وتزخر آيات الله سبحانه بمواقف أخرى مختلفة تضمنت الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل بالخلاص والنجاة من أعدائه.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١].

فهذه صورة من صور العبودية الصادقة التي كانت تتصف بها امرأة فرعون التي آمنت بالله ووحدته، وصدقت بموسى عليه السلام وهي تحت عدو من أعداء الله كافر، فلم يضرها كفر زوجها[4]، إذ كانت مؤمنة بالله مخلصة له النية فاختارت جوار ربها وقربه على أن تكون أنيسة فرعون وآثرت أن يكون لها بيتًا عند ربها في جنانه على قصور فرعون وما ملكت يمينه، فعزفت عن ذلك كله وتعلقت بما عند الله كرامة وزلفى

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فتح القدير ٢/ ٤٦٦.

(٤) انظر: جامع البيان ٢٨/ ٢١٨.

متوجهة إليه بصفاء نيتها تدعوه مخلصة بأن يبني لها بيتا بميزتين هما: أن يكون البيت (عند الله) وأن يكون (في الجنة) أي: أنها اختارت لنفسها مكانًا لا يصل إليه إلا الصديقون والشهداء الذين أخبر عنهم الله عز وجل بأنهم ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩][1].

ثم أردفت دعاءها برغبتها بالتبرؤ من فرعون والخلاص منه ومن عمله ومن مجتمعه الظالم، فطلبت أولًا النجاة منه «أي: من ذاته وما يصدر عنه من أعمال الشر»[2].

ثم من عمله، ثم انتهت إلى طلب النجاة من القوم الظالمين يعني: أهل دينه المشركين، قال الكلبي: هم أهل مصر، وقال مقاتل: هم القبط[3].

ولا يختلف أمر النجاة بالدعاء عنه بالتسبيح، فالتسبيح هو«تنزيه الله تعالى، وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى... وجعل التسبيح عامًا في العبادات قولًا كان أو فعلًا أو نية»[4].

ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

فقد اقترن ذكر الله بفعل القيام والقعود والتفكر في خلقه واقترن ذلك كله بنية تنزيه الله وتسبيحه طمعًا في نيل رضاه ورغبة في النجاة من عذاب النار.

والتسبيح لون من ألوان العبادة وهو كفيل بعقد الصلة بين العبد وربه، وتبرز أهميته في أنه يحول بين المرء ومعاصيه وغروره، ويدرأ عنه العذاب والمهالك والنقم، وقد أكد القرآن الكريم ذلك في مناسبتين: ساق في الأولى منهما مثالًا على تاركي التسبيح، وذلك في سياق قصة أصحاب الجنة الذين ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:١٧-٢٨].

فقد وجدوا الله تعالى أسبق إليها منهم، إذ طاف عليها بطائف من عنده فأهلكها بظلمهم فأصبحت سوداء كالليل، فلما رأوها على هذه الحال أدركوا أنهم محرومون من رزقها بما فرطوا في جنب الله، فقام أوسطهم يذكرهم بما كان يأمرهم به من طاعة الله وتسبيحه وهم لا يسمعون،

(١) انظر: فتح القدير ٥/ ٢٥٦.
(٢) فتح القدير ٥/ ٢٥٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) المفردات ٢٩٢.

فلو أنهم أجابوه لأنجاهم الله بتسبيحهم من شرور أنفسهم ومن سوء نواياهم ولأبدل سعيهم هذا بخير منه.

وساق في المناسبة الأخرى مثالًا على من تمسك بالتسبيح، وذلك في سياق قصة نبي الله يونس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨].

فحين مضى يونس عليه السلام على وجهه مغاضبًا لربه ظانًا أنه في مأمن من بلائه والتضييق عليه حتى أتى البحر أبى الله أن يدعه إلى الشيطان، فأخذه فقذفه في بطن الحوت، فمكث في بطنها زمنًا، ثم راجع نفسه فتاب إلى ربه وناداه في الظلمات (أن لا إله إلا أنت سبحانك) معترفًا بذنبه، إني كنت من الظالمين في معصيتي إياك قال الواسطي في معناه: نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافًا واستحقاقًا، قيل: فسمعت الملائكة تسبيحه فشفعوا له عند الله فاستجاب له دعاءه فاستخرجه من بطن الحوت برحمته، فجعله من الصالحين[1].

الملاحظ أن هذه القصة بنيت أساسًا على مبدأ التسبيح وفلسفته وأهميته ودوره الأساس في نجاة المؤمن يدلنا على ذلك قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

فقد ابتلي يونس عليه السلام بما ابتلي به ليتفكر في قدرة الله وعظمته فيقر له بالطاعة والعبودية والتنزيه، فكان تسبيحه هو المستدعي لنجاته، وكان من صدق إنابته وضيق حاله أنه خص نفسه بنداء تفرد فيه عن غيره من أنبياء الله ورسله فلم يصدر نداءه بكلمة (رب) ولم يدع فيه لنفسه بل ابتدأ النداء بالتسبيح والاعتراف بالظلم. قيل: إن «في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه، وينجيه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم»[2].

يتبين من ذلك أن للدعاء والتسبيح شأنًا عظيمًا عند الله تعالى، فبهما يعترف الإنسان بضعفه وحاجته ونقصه بإزاء كمال الله تعالى وعظمته، وبهما تتجدد الصلة بالخالق وتنفتح أسارير النفس وتستمد العون والقوة منه إذ تستشعر قربه منها. لقد كان الدعاء والتسبيح وسيلة الأنبياء إلى النجاة من كربهم وغمهم وعظيم بلائهم فواجب أن

(١) انظر: جامع البيان ١٧/ ١٠٠-١٠٧، زاد المسير ٥/ ٢٦٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٣، الدر المنثور ٤/ ٣٣٤، فتح القدير ٣/ ٤٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٣.

نتعلم كيف ننقي أنفسنا من مساوئها، كي نجد الله تعالى بصيرًا بنا، يغيثنا وينجدنا وينجينا وأهلنا وأمتنا من نوائب الدهر وكيد الكائدين.

المنجى منه في الدنيا والآخرة

أولًا: المنجى منه في الدنيا:

الدنيا دار غرور لا ينبغي لعاقل أن يأمن مكرها، أو يخال أنه في مأمن من نوائبها وسطوة أقدارها، فمعلوم أنها كثيرًا ما تتزين للناس وتغريهم بملذاتها، فيسارع المغترون بها إلى الالتحاق بركبها واتباع سبيلها متناسين عرضها وزيف متاعها، وهي تستخف بلهاثهم إذ يعدون وراءها وقد بدا لهم منها ما يشتهون، وما ذاك إلا لغفلة أبصارهم وبصائرهم وصدهم عن أحكام دينهم الذي سوغ لهم تعدي حدود الله تعالى ونسيان لقائه وبينا هم على حالهم تلك إذ تحمل عليهم وتداهمهم بهمها وبغمها وتؤذنهم بحربها وكربها، فإذا بهم يضجون وقد ضلوا سواء السبيل وراحوا ينشدون النجاة مما أصابهم، وأنى لهم.

وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف:٥١].

لذا لم تكن دعوة الله تعالى عباده إلى الإيمان به وتصديق رسالاته واتباع دينه الحق إلا من أجل أن يقيهم فتنة الحياة الدنيا وينجيهم من مكرها الذي لا يورثهم

إلا الشقاء والهموم، فمن أخلص لله الدين فقد ضمن النجاة من مكر الدنيا وآفاتها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨].

وحسب عباد الله المؤمنين أن يكون الله تعالى مدافعًا عنهم ينجيهم بصدق إيمانهم من كل ما أهمهم من نوائب الدنيا وفتنها.

نقف في هذا المبحث لدراسة بعض آيات الكتاب التي تكشف عن الآثار المادية والمعنوية التي أصابت بعض العباد وتصيبهم من جراء غفلتهم أو ظلمهم أو كفرهم وصدهم عن سبيل الله، ثم نسلط الضوء على الأسباب المنجية والسبل المفضية إلى الفوز برحمة الله التي يصيب بها من يشاء من عباده المؤمنين فينجيهم من تلك الآثار.

١. الغم.

قد ذكرنا في ما مضى من القول قصة نبي الله يونس عليه السلام وكيف توسل إلى الله سبحانه بالتسبيح، فاستجاب الله تعالى من فوره لتسبيحه وصدق إنابته فنجاه إلى البر قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾[الأنبياء:٨٨].

فدلت الفاء على سرعة الاستجابة ودل الفعل (نجى) على تكرار فعل النجاة، وقد اختلف في المنجى منه؛ أي الغم فقيل: الظلمات[١] وقيل: بطن الحوت[٢] وقيل: من كليهما[٣] غير أن الثعالبي انفرد بتفسيره بأنه «ما كان ناله حين التقمه الحوت»[٤].

غير أننا نرى أن الغم الذي كان يهيمن على نبي الله يونس عليه السلام لم يكن بفعل الظلمات أو وجوده في جوف الحوت بل بفعل ما كان يمتلئ به صدره من إحساس بثقل ما يحمله من ظلم نفسه، وشعوره بالندم وظنه بأن لا سبيل لعفو الله عنه، واعتقاده بأنه فقد نعمة اصطفائه بالنبوة، كل ذلك مجتمعًا كان يبعث في نفس يونس عليه السلام الغيظ، حتى ضاق ذرعًا بحزنه فتوجه مكظومًا إلى ربه بالنداء لا بالدعاء، لأنه يريد النجاة من غضب الله لا من الضرر المادي الذي لحق به في الظلمات أو في بطن الحوت بدليل اعترافه بالظلم: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٨].

فحين استجاب الله لندائه أجاب بما هو أكرم وأجل، إذ جعل نجاته في ثلاث مراحل: أولاها: أنه أنجاه من الظلمات حين نبذه إلى العراء، وثانيها: أنه أنجاه من السقم حين أنبت عليه شجرة من يقطين، وثالثها: أنه أنجاه من غضبه وما ابتلي به حين أسبغ

(١) انظر: زاد المسير ٥/ ٢٦٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٤.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٠٢.
(٤) الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ٩٩.

عليه نعمته من جديد فأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون، فهذه الأمور الثلاثة مجتمعة كانت تؤلف حالة الغم التي رافقت يونس عليه السلام ، وكانت وراء مجيء اللفظة بصيغة نجيناه دون أنجيناه.

وترد النجاة من الغم في موضع آخر من القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى مخاطبًا موسى عليه السلام :﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه:٤٠].

فالمقصود بالنفس التي قتلها ذلك الرجل القبطي الذي وكزه فقضى عليه، وكان قتله له خطأ في ما تذكر الروايات[١].

وتكاد تتفق التفاسير على تأويل معنى قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ قال مجاهد: «من غم قتل النفس»[٢].

وقال ابن الجوزي: «كان مغمومًا مخافة أن يقتل به فنجاه الله بأن هرب إلى مدين»[٣].

وقال القرطبي: «أي: آمناك من الخوف والقتل والحبس»[٤].

فيما ذهب الشوكاني إلى أن معناه: نجيناك من «الغم الحاصل معك من قتله خوفًا من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعًا»[٥].

غير أننا نرى أن نجاة موسى عليه السلام من الغم هي غير نجاته من الخوف والقتل التي سنأتي على ذكرها، فحين وكز ذلك القبطي، فوجئ به وقد فاضت روحه بين يديه، فأدرك أن ما أقدم عليه كان من عمل الشيطان وأنه اتبع عدو الله حين أضله من حيث لا يقصد: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾[القصص:١٥].

فأحس بالندامة على فعلته وتملكه شعور بأنه ظلم نفسه وأنه كان ظهيرًا للمجرمين وأنه فقد نعمة الله عليه بذلك القتل وأنه معاقب عليه من الله لا محالة، فتوجه إلى ربه بالاعتراف بخطئه والدعاء بالمغفرة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[القصص:١٦].

فاستجاب الله له دعاءه من فوره فغفر له ورفع عنه الغم فحين ذكر الله سبحانه لموسى عليه السلام منته عليه كان من جملتها قوله: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾[طه:٤٠].

أي: من شعورك بالحزن والندامة وظلم النفس ومخافة عقوبة الله إذ غفرنا لك.

٢. الكرب.

الأصل في الكرب «الشدة والقوة.. ومن الباب الكرب وهو الغم الشديد»[٦]، وهو كذلك عند الراغب الأصفهاني[٧].

(١) انظر: جامع البيان ١٦/ ٢٠٥، فتح القدير ٣/ ٣٦٥.
(٢) تفسير مجاهد ١/ ٣٩٦.
(٣) زاد المسير ٥/ ١٩٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٩٨.
(٥) فتح القدير ٣/ ٣٦٥.
(٦) مقاييس اللغة ٥/ ١٦٤.
(٧) المفردات ص٥٥٣.

أما ابن حجر فيعرف الكرب بأنه: «ما يدهم المرء مما يأخذ بنفسه فيغمه ويحزنه»[1].

وقد وردت النجاة من الكرب في القرآن الكريم في أربعة مواضع، ثلاثة منها اختصت بأنبياء الله وجاء (الكرب) فيها بصيغة التعريف، وقد لازم الكرب صفة واحدة هي كونه عظيمًا، وجاء في الموضع الرابع في سياق عام بصيغة التنكير من غير تخصيص.

وقد ارتبطت مواقف النجاة من (الكرب) في القرآن الكريم بمواقف الخوف والشدة التي تعصف بالنفوس وتحملها على الاغتمام، فنوح عليه السلام كان يتملكه الخوف على قومه من عذاب الله، قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف:٥٩].

وقد لبث فيهم «ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل على خلافه»[2] ويمعنون في السخرية منه وتكذيبه واتهامه بالجنون.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ [القمر:٩].

فنادى نوح عليه السلام ربه بندائه الأول الذي جاء بسبب شعوره بالبؤس مما يفعله قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨].

فاستجاب الله تعالى لندائه إذ طلب (الفتح والنجاة) فأجابه أولًا بالفتح وذلك بقوله: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ [القمر:١١-١٣].

ثم أجابه ثانية بالنجاة مما كان يخيم عليه وأهله من حزن وكرب عظيم ومن الأذى والمكروه الذي كان يصيبهم من الكافرين والعذاب الذي أحل بالمكذبين من طوفان وغرق[3]، وذلك بقوله: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنبياء:٧٦].

حتى إذا جرت بهم الفلك في البحر تملكه وأهله الحزن والغم ثانية من أمر ابنه الذي لم يركب معهم وآوى إلى جبل يعصمه، وحال بينه وبين أبيه وأهله الموج، فجاء النداء الثاني: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ١٢٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩٤.
(٣) ينظر جامع البيان ١٧/ ٦٦، ٢٣/ ٧٩.

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٥-٤٦].

فرفع الله بجوابه هذا الغم والحزن الشديد عن نوح عليه السلام وأهله وخلصهم مما كان يعتصر قلوبهم من هم وكرب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات:٧٥-٧٦].

يلاحظ أن هناك اختلافًا واضحًا في صورتي النجاة الآنفتين من جهتين: أن النجاة في الأولى جاءت في شكل استجابة لنداء نوح عليه السلام وطلبه النجاة، فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾، وأنها جاءت متصلة بـ(الفتح) فقال «فنجيناه» بالفاء على الترتيب.

في حين جاءت النجاة في الثانية في شكل جواب على سؤال نوح عليه السلام في شأن ابنه وليست استجابة، فقال تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ فجاءت النجاة من الله متصلة بالنجاة الأولى فقال: «ونجيناه» بالواو، أي: مرة أخرى.

وقد وقع الخلط عند كثير من المفسرين بين نداءات نوح عليه السلام ودعائه ففسروا هذي بتلك، والفرق واضح بينهما في سياقات كل منهما وفي طبيعة الاستجابة الإلهية إلى كل منهما.

وترد النجاة من الكرب في موضع آخر من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات:١١٤-١١٥].

قيل في معنى ﴿ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾: من الغرق[1].

وقال ابن كثير: أي «من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النساء واستعمالهم في أخس الأشياء»[2].

غير أن المتتبع لقصة موسى عليه السلام يجد أن النجاة هنا توحي بالخلاص من مواقف شديدة وعصيبة، فحين أمر الله تعالى موسى وهارون(عليهما السلام) فقال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾[طه:٤٣-٤٥].

فقد كان الخوف يخيم عليهما وبالأخص موسى عليه السلام الذي تعددت أسباب الخوف عنده ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[الشعراء:١٢-١٤].

(١) انظر: جامع البيان ٢٣/ ١٠٧، زاد المسير ٦/ ٣٠٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢١.

ثم إذا انتهيا إلى فرعون وحدثاه بما أمرهما الله به أمعن فرعون في جدال موسى عليه السلام والسخرية منه وتهديده ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

فأنجاه الله من هذا الموقف بما أظهره لفرعون من معجزات، غير أن الموقف أفضى إلى اتساع رقعة التحدي فجمع السحرة فلما ألقوا حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٣].

فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه:٦٧].

فأنجاه الله ثانية من الخوف ومن هول ذلك الموقف، ثم توعد فرعون قوم موسى عليه السلام ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٠].

فبلغ ذلك الوعيد بني إسرائيل ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٨٣].

وكانوا في شدتهم تلك يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء بالنجاة: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس:٨٥-٨٦].

فاستجاب الله لهم وخلصهم من خوفهم وشدتهم وأنقذهم من فرعون وجنوده، فلما أراد الله تعالى أن يذكر منته على موسى وهارون جمع كل مواقف النجاة الآنفة في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات:١١٤-١١٥].

أي: أنجيناهما وقومهما المرة تلو الأخرى من لحظات الخوف والرعب التي كانت ترافقهم في تلك المواقف الشديدة.

ولم تكن النجاة من الكرب مختصة بالمواقف التي يواجهها الأنبياء ومن آمن معهم بالله، بل لقد جاء في كتاب الله تعالى ما يثبت أنها رحمة الله التي لا تستثني أحدًا من الناس يخلصهم بها من خوفهم وما يعتصر قلوبهم من حزن وغم.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٦٣-٦٤].

قيل: إن الله سبحانه خاطب بهذه الآية أهل الشرك[1] يسائلهم عن من يكون وراء نجاتهم إذ يدعونه في شدائدهم التي تصيبهم أو حين يحاطون بظلمات البر والبحر والليل والغيم فيخطئون الطريق ويخافون الهلاك[2]، ويعدونه بأن يشكروا نعمته إن

(١) انظر: جامع البيان ٧/ ٢٩٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨.

نجاهم من تلك الشدائد، ثم يجيبهم بأنه هو من ينجيهم من تلك الشدائد، ويذكرهم بأن نعمته عليهم بالنجاة لا تقف عند حدود المواقف العصيبة التي يدعونه بها، بل هي أوسع من ذلك بكثير.

حاصل ذلك أنه ما من كرب نمر به إلا وكان الله تعالى وراء خلاصنا ونجاتنا وفك أسرنا من ضيقه وشدته سواء دعوناه للنجاة منه أم لم ندعه، وعدناه بالشكر أم لم نعده، شكرناه بعد نجاتنا أم لم نشكره، فالله تعالى رحيم بالعباد، ذو مغفرة للناس على ظلمهم، فحري بنا أن ننقاد إليه في شدتنا ورخائنا.

٣. الفقر.

الفقر مشكلة إنسانية فردية كانت أم مجتمعية لها تبعاتها وتأثيراتها النفسية التي يمكن من خلالها أن يتولد الضعف في العقيدة والشك والارتياب في عدالة التوزيع الإلهي للرزق، ما قد يؤدي إلى الانحراف العقائدي[١]، أو الانجراف مع التيارات الفكرية الخطيرة التي تحيد بالمرء عن عقيدته من جراء ما يعانيه من ضنك الفقر ومرارته، وتدفع به إلى الكفر أحيانًا. ويقينًا أن للفقر تأثيرات عدة في تقويض شخصية الفرد وتشتيت أفكاره وتقييد إبداعه، فضلًا عن تأثيره البالغ في هشاشة العلاقات الأسرية وتفتيتها، فالفقر سبب رئيس في نشوء كثير من الخلافات الأسرية والمشاكل المؤدية إلى التفكك والتشرد وأحيانا إلى بيع الأبناء أو قتلهم.

ولم يغفل كتاب الله تعالى عن هذه المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة التي تسهم إلى حد كبير في تهديد الأفراد والمجتمعات وتقوض أمنها واستقرارها، فسعى في كثير من آياته إلى وضع حلول وسبل كفيلة بالنجاة من هيمنة الفقر وسطوته، ليؤكد بذلك أن الفقر ليس قدرًا محتومًا على الناس، وليس أمرًا مقسومًا «لا راد له ولا حيلة في دفعه، وأن غنى الغني بمشيئة الله وفقر الفقير بمشيئة الله، ومشيئته تعني رضاه، فليرضى كل واحد بوضعه لا يطلب له تبديلًا أو تغييرًا»[٢].

بل لقد وضع الله تعالى حلولًا ناجعة لكل مشكلة تهدد صلاح الإنسان وصلاح مجتمعه، فمن أراد الخلاص من الفقر سلك طريق الله الموصلة إلى النجاة منه، ومن رغب عن ذلك الطريق فقد رضي بالخضوع والاستسلام إلى هيمنة الفقر وتبعاته.

والجدير بالذكر أن لفظة النجاة لم ترد صريحة بأية صيغة من صيغها في الآيات التي تحدثت عن سبل الخلاص من الفقر، بل يمكننا أن نفهم من سياقات تلك الآيات

(١) انظر: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام يوسف القرضاوي ص ١٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٩.

ما ترمي إليه من غرض يقصد به موضوعه النجاة.

وأولى تلك السبل هي تقوى الله.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

فقد جعل التقوى شرطًا في تحقيق النجاة من الشدائد والفقر، والتقوى -كما مر بنا سابقًا- تتحقق بأمور عدة كالتورع عن المحارم واحترام حدود الله وشرائعه وعدم تجاوزها وكثرة الذكر والاستغفار أما المراد بالمخرج في الآية الكريمة: فالنجاة من كل كرب سواء في الدنيا أو الآخرة، وأما الرزق: فالخلاص من ضائقة الفقر وضنكه، فقد قيل: إن الآية «نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أسر العدو ابنًا له فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الفاقة، فقال اتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ففعل الرجل ذلك، فغفل العدو عن ابنه، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاة»[1].

فالملاحظ أن أول ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشجعي تقوى الله، ثم الصبر على البلاء، وقرن ذلك كله بالانقطاع إلى الله بالذكر والدعاء المستمر.

والسبيل الأخرى هي السعي إلى العمل وطلبه والهجرة إليه إن اقتضى الأمر قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥].

فالله تعالى وإن جعل الأرض ذلولًا لعباده إلا أن ذلك التذليل لا يمثل إلا جزءًا من مهمة تحصيل الرزق التي لا تتم إلا بتحقق الجزء الآخر وهو السعي والكد والعمل الدؤوب الذي أمر الله تعالى به، فالسعي هو الذي يفضي بنا إلى أن ننعم بخيرات الله ونأكل من رزقه، وعلى النقيض منه يكون القعود والاتكال الذي لا يفضي إلا إلى الفقر والذلة والمسكنة.

فإذا ضاقت سبل العيش في البلاد وشحت فرص العمل فلا سبيل للعبد إلى النجاة من الفقر غير الهجرة إلى مكان آخر طلبًا للرزق قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾ [النساء:١٠٠].

وقال أيضًا: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠].

فهذه النصوص وغيرها تقدم دروسًا بليغة للعباد في تحدي صعوبة الظروف وقساوتها، وإيجاد الحلول البديلة لمواجهة خطر الفقر، وتدعونا إلى عدم الاستسلام إلى تلك الظروف أو انتظار الفرج من غير سعي، فالسعي يمثل خطوة أساسية في

(١) زاد المسير ٨/ ٤٠.

طريق الخلاص من آفة الفقر.

والسبيل الثالثة للنجاة من الفقر هي الإنفاق وتحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، فقد أمر الله تعالى عباده بالإنفاق في كثير من آياته من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

ثم جعل لتلك النفقات أبوابًا كالزكاة والصدقات وغيرها، وشرع لها أحكامها، وحدد المكلفين بها والقائمين عليها وميز مستحقيها من الفقراء من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وغيرهم، وبين للناس أهمية الإنفاق في بناء المجتمعات وصلاح أمورها، وما ينتظر المنفقين من أجر عظيم في الدنيا والآخرة، وما يجازى به من تخلف عن أداء واجبه الشرعي من الإنفاق.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠].

والإنفاق بالنسبة إلى المؤمن يمثل سلاحًا ذا حدين، ففي الوقت الذي يسهم فيه بنجاة المجتمع وخلاص أفراده من الفقر، يعمل على وقاية النفس ونجاتها من كرب الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦].

في مقابل ذلك نرى من ينأون بأنفسهم عن مجتمعهم لا يهمهم شيء من إصلاح شأنه، ولا يفكرون في إنقاذ أفراده ونجاتهم من الفقر، وبسبب ضعف إيمانهم نجدهم لا يتصدقون ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

وبعد ذلك كله يحسبون أنهم بمفازة من عذاب الله، إن هم إلا يظنون قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤].

فالإنفاق في سبيل الله فريضة على المسلمين؛ لبناء مجتمع قائم على إشاعة المحبة والإخاء والمساواة والعمل على القضاء على الطبقية باتباع المنهج الإسلامي الداعي إلى تحقيق التكافل ووحدة الصف في مكافحة آفة الفقر.

٤. الظالم.

يزخر كتاب الله تعالى بمشاهد مختلفة تصور لنا مواقف الظلم في مختلف مراتبه وأحواله منذ بدء الخليقة وتعرض لنا أحداثًا وقصصًا شهدت صراعات مستمرة جسدت أدوار الظلم التي خاضها الإنسان بغروره وكبره ودور عدالة السماء في إيقاف تجاوزاته والحد من ظلمه ليعتبر بها المعتبرون.

في الوقت نفسه تطرح آيات الكتاب المبين حلولًا وسبلًا شتى لاجتناب الوقوع في الظلم بإتيانه أو الإعانة عليه أو السكوت عنه، أما وسائل النجاة من الظالمين فيمكن تلخيصها في ثلاثة أمور:

الأول: عدم الركون إلى من يظلم أو مجالستهم: قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[هود:١١٣].

فالنهي هنا يتناول كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الانحطاط «في هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم ومد العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم»[(١)]. من جانب آخر نهانا الله تعالى بما نهى عنه نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم عن القعود مع الذين يخوضون في آياته ووجوب الإعراض عنهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام/ ٦٨].

فالإعراض عن مجالس الظالمين هو إجراء وقائي يمثل وسيلة من وسائل النجاة من مظاهرتهم والاتصاف بصفتهم ورفضًا قاطعًا لما يصدر عنهم من ظلم، أما المكوث بينهم فلن يؤدي إلا إلى التفاعل مع ذلك الخوض واستطابته بمرور الزمن والانحدار بالنفس إلى القناعة بما يصدر عن أصحابه من ظلم.

الثاني: اجتناب إعانة الظالمين على ظلمهم: فالظالم لا يقوى إلا بأعوانه الذين يتنافسون في التودد إليه من خلال ما يزينونه له من الحق في تبرير ظلمه وجبروته، فمثل هؤلاء الأعوان لا يقلون شأنًا عند الله من الظالم نفسه لأن «الظالم والمعين على الظلم والمحب له سواء»[(٢)].

ولا أدل على ذلك من قصة فرعون والملأ من حوله الذين كانوا يحرضونه على موسى وقومه، الذين يذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[الأعراف:١٢٧].

فلما شاء الله أن ينزل عقابه بفرعون لم يخصه وحده به، بل بمن ناصره وأعانه على ظلمه قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٤٠].

لذا لا يتصور الخلاص من الظلم وفتنته ما لم يسع المرء إلى النجاة بنفسه من

(١) الكشاف ٣/ ٢٤١.

(٢) تهذيب الكمال، المزي ٢٩/ ٢٩١، والقول للإمام ميمون بن مهران.

مناصرته أو إتيانه.

الثالث: الدعاء إلى الله: وقد سبقت منا الإشارة إلى فضل الدعاء في النجاة عمومًا، ونقف هاهنا لنسلط الضوء على أهمية الدعاء في الخلاص من الظالمين وظلمهم، إذ لا شك أن الله سبحانه كرم بني آدم وخلقهم أحرارًا يحيون في ملكوته ويبتغون من فضله، وزرع فيهم بذرة الرفض لمظاهر الظلم، وقد لا يكون الرفض وحده كافيًا للنجاة من الظلم، فيحتاج إلى تدخل إرادة الله ونصره ولا يتم ذلك إلا بإخلاص النية والتوجه إليه بالدعاء إلى النجاة من الظالمين.

ويمكننا بالعودة إلى قصتي نبيي الله نوح وموسى(عليهما السلام) أن نرصد أهمية (دعائهما) في نجاتهما من القوم الظالمين بعد أن استعرضنا في ما مضى من الكلام أهمية (ندائهما) في النجاة من الكرب العظيم. فقد شكا نبي الله نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح:٢١].

ثم دعا ربه بدعاءين رغبة في الخلاص من ظلمهم كان أحدهما حين أحاط به قومه ليقتلوه إذ طلب النصرة لنفسه مستغيثًا ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[القمر:١٠].

فاستجاب له ربه، فأنجاه والنفر الذين آمنوا معه من القوم الكافرين قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[الأعراف:٧٢].

فقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ دال على أن الله تعالى هدى نوحًا عليه السلام والذين آمنوا معه إلى سرعة النجاة من العذاب استجابة لدعائه، ثم إذا استأصل شوكة الذين كذبوه فلم يصلوا إليه قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[المؤمنون:٢٨].

ثم إذا غمرهم الطوفان دعا نوح عليه السلام ربه بدعائه الآخر ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح:٢٦].

فاستجاب له ربه فأغرقهم ونجاه ومن معه (منهم ومن الطوفان).

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس:٧٣].

فدل بقوله: (نجيناه) على حصول النجاة أكثر من مرة ومن أكثر من شيء، ودل بالاسم الموصول (من) على الشمول، فالنجاة هنا لم تختص بنوح عليه السلام والذين معه من المؤمنين، بل به وبجميع من معه في السفينة من بشر ودابة.

فهذه المشاهد القرآنية البليغة تدعونا إلى التفكر في أهمية الدعاء في الانتصار من

الظالمين والنجاة منهم ومن ظلمهم وتؤكد لنا بالدليل القاطع أن الله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

أما نبي الله موسى عليه السلام فقد قيل إنه لما عرف ما هو عليه من الحق في دينه، عاب ما عليه قوم فرعون من عبادته وعبادة الأصنام، وفشا ذلك منه فأخافوه وخافهم، فكان لا يدخل المدينة إلا خائفًا مستخفيًا[1].

فدخلها يومًا على حين غفلة من أهلها وجرى ما جرى من أمر الإسرائيلي الذي استغاثه على القبطي الذي قتله، فأصبح في المدينة خائفًا يترقب، فجاءه رجل من شيعته، قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٠-٢١].

يلاحظ أن نبي الله موسى عليه السلام استعان بالدعاء للنجاة من قوم فرعون بعد أن تملكه الخوف من بطشهم به، وإنما وصفهم بالظالمين في ما يبدو لأحد أمرين: إما أنهم ظالمون لأنهم لم يهتدوا إلى الحق لما دعاهم إليه بادئ الأمر أو لأنهم أرادوا أن يقتلوه ظلمًا بفعلة لم يتعمد إتيانها، فلما كان قصاصهم غير مكافئ لفعلته وصفهم بالظالمين وفي ذلك يقول الرازي في قوله: ﴿نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «وهذا يدل على أن قتله لذلك القبطي لم يكن ذنبًا وإلا لكان هو الظالم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم إياه ليقتلوه قصاصًا»[2].

فلما بلغ أرض مدين ولقي النبي شعيب عليه السلام وقص عليه القصص، جاءه جواب الله على لسانه حين قال له: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٥].

وإنما كانت نجاة موسى عليه السلام بصدق دعائه وعظيم ثقته بالله.

الصدق إذن منجاة العباد، فمهما بلغت مستويات الظلم والتنكيل، تبقى إرادة الإنسان الصادقة أقوى في مواجهتها إذا استندت إلى قوة الله وعقدت الصلة بين القوتين بحبل من الإيمان والتقوى، فقوى الظلم التي تهدد العباد وتستبيح البلاد لم تسطع على مر العصور والأزمان أن تحافظ على أمنها ولم تتمكن من الاستمرار في نهجها الظالم، إذ لا زالت هنالك في كل مكان وزمان قوى إيمانية رافضة للاستبداد ترخص الأنفس في سبيل إعلاء كلمة الحق والدفاع عن كرامة الإسلام والمسلمين أينما خيم الظلم على الأمة.

٥. الضلال.

وقد ورد الضلال بصيغه المختلفة في القرآن الكريم بمعان عدة منها الغواية

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٢٣٧.

والاستنزال عن الشيء والخسران والشقاء والهلاك والإبطال والخطأ والنسيان والجهل فضلًا عن المعنى الرئيس الذي يدل عليه أي: نقيض الهدى[1]. ويفهم من ذلك أن الإنسان كلما نهج سبيل الحق والعدل والصواب كان على هدى، وكلما وقع في الخطأ عمدًا أو سهوًا أو جهلًا كان على ضلال، ولكن لكل ضلال رتبته ونسبته كما يصف لنا القرآن ذلك فالضلال بذاته منه المبين والبعيد والكبير، ويقينًا أن لكل واحد منها درجاته ونسبه، أما النجاة منه فتتحقق بأمور عدة يمكن إجمالها بما يأتي:

أولًا: الإيمان المطلق بوحدانية الله تعالى والتسليم له بالعبودية: فالشرك بالله لا يؤدي إلا إلى الضلال.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء:١١٦].

ثانيًا: إخلاص الدين والموالاة لله: فقد أمر الله الناس بعبادته وحده، فهو الخالق القاهر فوق عباده.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[الزمر:٣].

فهذا الجهل بمعرفة سبيل الله هو ما دفع نبي الله إبراهيم عليه السلام إلى إنكار إقدام أبيه آزر وقومه على تأليههم الأصنام، كونه باطلًا بينًا واضح البطلان لكل ذي لب قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٧٤].

ثالثًا: اجتناب الكفر بكل أشكاله وعناوينه: لأن الكفر يمثل صورة من صور حجب الحقيقة وسترها وتختلف مراتبه باختلاف مستويات المعرفة بتلك الحقيقة والاعتراف بها، ويشترط بمعرفة الله سبحانه الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا تقود المعرفة من دون إيمان إلا إلى الضلال.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦].

رابعًا: إلزام النفس بعدم العصيان: فمعلوم لنا أن معنى العصيان هو خلاف الطاعة، والعبد ملزم بحكم الشارع المقدس بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦].

خامسًا: الوقاية من الظلم والإجرام: فمن سعى بنفسه إلى اتباع هذه السبل فقد انتهى

(١) إصلاح الوجوه والنظائر ص ٢٩٢-٢٩٣. وانظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ٤٠٧-٤٠٩.

بها إلى الضلال، ومن وقاها منه فقد أدرك النجاة.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١].

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[القمر:٤٧].

سادسًا: الثقة بالله والاعتقاد بوجود رحمته وقربها: فمن أسلم نفسه إلى يأسه وضيق أفقه الفكري فقد أدخل نفسه في نفق الضلال ومتاهته.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[الحجر: ٥٦].

سابعًا: دوام الذكر: فقد أوصى الله عباده بإعمار القلوب بذكره.

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

فالاطمئنان يجعلها رقيقة رطبة مهتدية بنور ربها، وعلى النقيض من ذلك تكون القلوب القاسية قلقة ومتخبطة.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

ثامنًا: عدم الانقياد وراء الأهواء: لأن الأهواء تميل بالنفس إلى شهواتها وإلى الاعتقاد بما يخالف الحق ما يوهم المرء فيشط به عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

تاسعًا: رفض طاعة المضل: فمن صدق عليه الضلال وجب ترك طاعته.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾[الأحزاب:٦٧].

فطاعة الله وحده هي الهدى.

لقد جاء كتاب الله تعالى لإرشاد الناس إلى طريق الهدى وإيقاظهم من غفلتهم وإنقاذهم من ضلالتهم التي كانوا عليها قبل مجيء الإسلام، غير أن قوى الضلالة والذين في قلوبهم زيغ لا يزالون يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وشق الصفوف، وبدل أن يكون القرآن الكريم مصدر وحدتنا أصبحنا نجد الأصوات تتعالى من كل ناحية لتضل الناس وتحرضهم على الفتن والفرقة والاحتراب وتقول برأيها في آيات الله تعالى وتتخذ منها وسيلة لإقناع الناس بسلامة نهجها، وما ذاك من الكتاب في شيء وقد قال تعالى في محكمه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران:١٠٣].

فديننا يأمرنا بالهدى، وبالهدى وحده نبلغ النجاة، وننقذ أمتنا الإسلامية من المخاطر التي تحيط بها من كل جانب ونسهم في خلاصها من الأفكار الظلامية التي تنخر في جسدها وتغرر بالبسطاء من أبنائها لتضلهم عن سواء السبيل.

٦. المخاطر.

كثيرة هي المخاطر التي يتعرض لها الناس في مسيرة حياتهم سواء ما تهدد استقرارهم العقائدي أو الوجودي ولله تعالى حكمة بالغة في إحاطتهم بتلك المخاطر ليبلوهم أيهم يثوب إليه داعيًا ومنيبًا، ثم إذا كشف عنهم البلاء ونجاهم، ينظر من منهم سيعترف بفضله ويشكر آلاءه ومن سيجعل له شركاء في حكمه ؟.

فمن الناس من لا يعتبر بتلك الشدائد والمخاطر التي تصيبهم باستمرار، فما إن يخرجوا من شدتهم وينجوا من مخاطرها حتى يعودوا إلى شركهم أو كفرهم أو فسادهم في الأرض.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢-٢٣].

يلاحظ أن الإنسان في مثل هذه الحالة «لا يطمع إلا في فضل الله ورحمته، ويصير منقطع الطمع عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعًا إلى الله تعالى، ثم إذا نجاه الله تعالى من هذه البلية العظيمة، ونقله من هذه المضرة القوية إلى الخلاص والنجاة، ففي الحال ينسى تلك النعمة ويرجع إلى ما ألفه واعتاده من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة»[1].

ويعود كتاب الله العزيز ليسوق لنا هذا المثال في مناسبات أخرى ليدلل به على أنه ما من خطر يتهدد الإنسان في حياته إلا وكان الله وحده هو المنجي منه، ولكن الإنسان تجده بعد نجاته مرة يعرض عن ذكر الله أو أنه يقتصد في الذكر، جهلًا منه بأن المخاطر تلك تصيبه في ظرف دون آخر، وما علم أنه معرض لها في كل زمان ومكان ولا فرق في أن يكون في البحر أو في البر ليتهدده خطرها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ۞ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾[الإسراء:٦٧-٦٨].

فحري بالإنسان أن يخلص النية ويواصل الذكر ويشكر آلاء الله في الشدة والرخاء، ويجعل نعمة الله عليه بالنجاة من المخاطر سببًا في التعلق به أكثر، فلا تكون الحاجة إلى الله محصورة في لحظات نزول الشدائد ثم إذا انفرج الهم جعل له شركاء في قدرته قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٧٠.

﴿يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥].

قيل: «إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاح لغرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين خلقه»[(١)].

ومنهم المقتصدون في كفرهم أو إخلاصهم كما يقول تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[لقمان:٣٢].

فقد بقي لمشهد الموج العظيم أثر في نفوسهم «فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار أو مقتصد في الإخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص»[(٢)]، فإلى هؤلاء وغيرهم يوجه الله تعالى سؤاله منكرًا عليهم جحودهم قائلًا: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:٦٣-٦٤].

فقد جمع الله سبحانه المخاطر كلها في قوله ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ليشير بذلك إلى كل ما من شأنه أن يبعث الخوف في النفوس من أهوالهما، وهذه المخاوف هي التي تعود بالإنسان إلى فطرته السليمة فيتشبث بخالقه تلقائيًا، غير أنه وبعد الفوز بالنجاة والسلامة يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية. ومن يتدبر الآية الكريمة يجد أن لفظها يدل على أن الإنسان عمومًا يأتي بأمور أربعة عند نزول المخاطر هي: الدعاء والتضرع والإخلاص بالقلب والتزام الاشتغال بالشكر[(٣)].

فهذه العوامل المنجية يجب أن لا تنتهي بعد تحقق النجاة إلى تقديم الشرك عليها.

٧. العذاب الدنيوي.

يعرض لنا القرآن الكريم صور العذاب الدنيوي في نمطين: أحدهما عذاب صادر من الله تعالى والآخر عذاب صادر من الإنسان، فأما النمط الأول فغالبًا ما يقع بسبب ما يقدم عليه الناس من ارتكاب المعاصي وإتيان الظلم، وعلى الرغم من ذلك لا نجد الله تعالى يعاجلهم بالعذاب بل ينزل عليهم كتبه ويبعث فيهم رسله مبشرين ومنذرين رغبة منه في فوزهم بثوابه وخلاصهم من عذابه.

وتعرض لنا آيات الله البينات كثيرًا من المشاهد الممتزجة بألوان العذاب الذي حذر الله تعالى منه أو توعد به أهل القرى والظالمين من أعدائه والمتجاوزين على حدوده، وحري بنا أن نتعرف من خلالها

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٦٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٦٣.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٣/ ٢٣.

على السبل الناجعة المفضية إلى النجاة منه، فمن بين تلك السبل:

أولًا: تطهير النفس من الشرك: قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣].

فمن جعل لله شركاء فقد ظلم نفسه وساقها إلى عذابه.

ثانيًا: الإيمان بالله وشكر نعمته: قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾[النساء:١٤٧].

وقال تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[هود:٥٨].

فالاعتراف بربوبية الله تعالى توجب الرحمة والنجاة من عذابه.

ثالثًا: دوام الذكر: كتسبيحه أو الاستغفار قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:٣٣].

رابعًا: اجتناب الكفر: لأن الكفر يفتح الأبواب لكثير من المعاصي، لذا لا يكتفي الله سبحانه بعذاب الكافرين في الدنيا بل يذيقهم عذاب الآخرة حيث لا ناصر ينجيهم منه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[آل عمران:٥٦].

خامسًا: الابتعاد عن الاستنكاف والاستكبار: فالعزة والكبرياء لله وحده.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء:١٧٣].

سادسًا: الحذر من النفاق: فمن بين أكثر الصفات ذمًا عند الله صفة النفاق، وقد قرن الله تعالى المنافقين بالمشركين في أكثر من آية وساوى بينهم في الوعيد بعذابه.

قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾[الأحزاب/ ٧٣].

سابعًا: وقاية النفس من الصد عن سبيل الله: فمن يصد عباد الله عن عبادته لن يحول بينه وبين عذابه شيء قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾[الأنفال:٣٤].

ثامنًا: الانقياد إلى أوامر الله تعالى ورسله: فكتاب الله تعالى مليء بشاهد العذاب التي نزلت بالأمم الغابرة جزاء عصيانها وعدم امتثالها لأوامره.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾[الطلاق:٨].

تاسعًا: الحذر من إتيان المكر السيء: فقد أعد الله تعالى للماكرين عذابًا مفاجئًا غير محدد بشكل ولا مكان أو زمان.

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[النحل:٤٥].

عاشرًا: النأي بالنفس عن الظلم: فالسعي إلى تجاوز حدود الله ومخالفة ما شرعه من العدل يوجب العذاب الذي لا منجاة منه.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾[الأعراف:١٦٥].

وأما النمط الآخر من العذاب فهو الصادر عن الإنسان في حق الإنسان، ويكون على قسمين:

عذاب بهدف إقامة حدود الله: وهو ما يتم تنفيذه بالزناة مثلًا.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النور:٢].

وتكون النجاة من هذا العذاب بصون النفس عن ارتكاب الكبائر.

وعذاب بهدف التجبر والهيمنة: وهو ما يصدر عن الطغاة والجبابرة بحق المستضعفين من الناس، ولا منجاة منه إلا بالإيمان بالله تعالى والتوكل عليه والدعاء إليه بالخلاص، ولا أدل على هذا القسم من العذاب من قصة فرعون واضطهاده لبني إسرائيل وإنزال أنواع العذاب فيهم، فلم يكن الله لينجيهم من ظلمه وجبروته إلا بعد أن آمنوا لموسى وهارون(عليهما السلام).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[البقرة:٤٩].

أما وجوه العذاب فقد حدها بعض علماء التفسير في عشرة وجوه هي: الحد في الزنا، المسخ، هلاك المال الغرق، القذف والخسف، الجوع، القتل، الضرب المؤلم، نتف الريش، تعب الخدمة[1].

يتبين لنا من خلال ما تقدم أن نعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى توجب علينا شكرها، فما من منعم سواه إن أمسك علينا نعمه.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل:٥٣].

فبالشكر تدوم النعم ويدرأ العذاب، فالله تعالى ما كان ليجتبي نبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم ويهديه لولا أنه كان شاكرًا لأنعمه، أما من يكفر بها فليس له من الله من عاصم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[البقرة:٢١١].

فواجب إذن على كل مسلم ومسلمة أن يتذكر نعمة الله عليه، ولا يجحدها كما جحد بها بنو إسرائيل ويستحضر موارد النجاة التي

(١) انظر: إصلاح الوجوه والنظائر ص ٣١٩.

أنقذه منها، فيخشاه ويتقيه حق تقاته.

ثانيًا: المنجى منه في الآخرة:

الموت أول مراحل الآخرة والقبر أول منازلها، والموت هو المخلوق الذي قهر الله به عباده، والحقيقة الثابتة التي يقر بها الخلق جميعًا سواء من آمن منهم بالله واليوم الآخر أم غير المؤمنين، فهو أمر محسوس ومدرك لا يحتاج الاعتقاد بحقيقته إلى إثبات أو برهان يؤكد وجوده، وليس أمره بمقتصر على فئة من الخلق دون أخرى بل هو قضاء إلهي عادل يتساوى فيه الخلق جميعًا.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

فالإنسان إذا مات انقطع عمله وقامت قيامته وبدأت مسيرة حسابه ليوفى أجره بما عمل، فإما إلى سعادة أو إلى شقاء وعمله هو رفيقه الذي يسوقه إلى ما يستحقه من مثوى، وهو الشاهد على ما قدمته يداه، فإذا صلح كان طوق النجاة الذي يدرأ عنه العذاب ويزحزحه عن النار ويدخله الجنة، وأما إذا فسد فقد خسر خسرانًا مبينا فالمفسدون لن ينجوا بما فسد من أعمالهم وقد أحبطها الله وأخزاهم بها، بل سيدورون يبحثون عن ما ينجيهم من العذاب فمرة تتعلق آمالهم بالناجين من المؤمنين فيقولون لهم: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣].

ومرة يتعلقون برغباتهم اليائسة كتمني الافتداء: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج:١١-١٤].

ومرة يبحثون عن شفعاء أو يسألون العودة إلى الحياة ثانية للتزود بالعمل الصالح ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣].

وفي كل الأحوال تبقى هذه الآمال مستحيلة التحقق، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

فالإيمان بالله والعمل الصالح في الحياة الدنيا هما مفتاح النجاة من أهوال الآخرة التي سنقف عندها في هذا المبحث لنفصل القول في أحوالها وسبل النجاة منها كما هي واردة في آيات الذكر الحكيم.

١. عذاب القبر.

كثر الخلاف في مسألة عذاب القبر، ولا زال من الناس من تساورهم الشكوك في حقيقته أو الكيفية التي يكون عليها؛ لأن الله سبحانه قصر العلم بأمور الآخرة على نفسه، وحجبه عن إدراك المكلفين بأمور الدنيا،

وإذ لم يعد أحد من الموت ليخبر الأحياء بما نزل به من العذاب في قبره، فقد ظل هذا الأمر مثار جدل طويل حتى حسم بعضهم أمره بالقول: إن «عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال أو مضل»[(١)].

قيل: «ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أم لم يقبر»[(٢)].

وليس عذاب القبر بمقصور على «الكافرين ولا موقوفًا على المنافقين بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين، وكل على حاله من عمله، وما استوجبه بخطيئته وزلله»[(٣)].

أما الناجون من العذاب فقليل، فإذا تأملنا ظواهر القبور وجدناها ترابًا ولكن في بواطنها الدواهي والحسرات تغلي كما تغلي القدور بما فيها[(٤)].

ويذكر لنا ابن القيم جملة من الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور وقد حصرها في وجهين: «مجمل ومفصل: أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحًا عرفته وأحبته، وامتثلت أمره واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه»[(٥)].

وأما المفصل فالأخبار والأحاديث كثيرة في شأنه، ومن أسبابه: الزنا والكذب وأكل الربا والنوم عن الصلاة المكتوبة وهجر القرآن والدين وحبس الحيوان وتعذيبه واللواط والنياحة على الميت والغلول في الغنيمة والسرقة والإفطار المتعمد والنميمة والغيبة. وقد ركزت آيات الله البينات على أربعة أسباب موجبة لعذاب القبر إذا اجتنبها العبد فاز بالنجاة في حياته البرزخية، والأسباب هي:

أولًا: الظلم: وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام:٩٣].

وفي موضع آخر يذكر آل فرعون، وهم الذين وصفهم في أكثر من آية بالقوم الظالمين، فيصور ما هم عليه من عذاب القبر بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا

(١) الروح، ابن قيم الجوزية ص٨٠.
(٢) المصدر السابق ص ٨١.
(٣) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٤١٣.
(٤) الروح ص ١١٠.
(٥) المصدر السابق ١٠٧-١٠٨.

﴿وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦].

وفي موضع ثالث يشير إليه بأنه عذاب أدنى من عذاب الآخرة قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الطور:٤٧].

فقد «اختلف أهل التأويل في العذاب الذي توعد الله به هؤلاء الظلمة... فقال بعضهم: هو عذاب القبر»[(١)].

ثانيًا: النفاق: ليس على الإسلام من هو أخطر من المنافقين، لذا أعد الله تعالى لهم عذابين في الدنيا والآخرة مضافًا إليهما عذاب ثالث هو عذاب القبر المشار إليه في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة:١٠١].

ثالثًا: الفسق: وجعل من ذلك ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم في شأن عذابهم الأدنى من قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۞ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[السجدة:٢٠-٢١].

رابعًا: الإعراض عن ذكر الله تعالى: وقد جعل المفسرون من ذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه:١٢٤].

فعن أبي سعيد الخدري: «قال في قول الله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: عذاب القبر»[(٢)].

وتتحقق نجاة الإنسان من عذاب القبر باجتناب ما تم عرضه من الأسباب التي تقتضي عذاب القبر[(٣)] وبمواصلة الذكر والاستغفار والتوبة إلى الله تعالى، وبالمفصل يكون الخلاص من عذاب القبر بالالتزام بالآتي:

أولًا: التوحيد: فمن عرف الله حق معرفته في حياته، فسيثبته الله على ذلك النهج في آخرته، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[إبراهيم:٢٧].

قيل: إنها «نزلت في عذاب القبر، يقال: من ربك ؟ فيقول: ربي الله وديني دين محمد»[(٤)].

ثانيًا: الاستقامة على طاعة الله عز وجل: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت:٣٠].

(١) جامع البيان ٢٧/ ٤٩.
(٢) المصدر السابق ١٦/ ٢٨٢.
(٣) انظر: الروح، ابن القيم ص ١١١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٦٢.

ثالثًا: الشهادة في سبيل الله: فللشهيد منزلة عظمى عند الله تعالى، وقد كتب له الخلود واستمرار الحياة ولم يعده في الأموات.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠].

وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[البقرة:١٥٤].

فسبحان الذي ميز بينها وبين أرواح الموتى، فحري بأبدانهم إذن أن تتمايز هي أيضًا في قبورها، فيسأل من مات حتف أنفه ويعذب بذنوبه، أما من «أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للحرب والقتل، فلماذا يعاد عليه السؤال في القبر ؟»[1].

٢. الفزع الأكبر.

قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[الأنبياء:١٠٣].

وقد اختلف أهل التأويل فيه «فقال بعضهم: ذلك النار إذا أطبقت على أهلها... قال ابن جريج، قوله: لا يحزنهم الفزع الأكبر: قال: حين تطبق جهنم، وقال: حين ذبح الموت. وقال آخرون: بل ذلك النفخة الآخرة... وقال آخرون: بل ذلك حين يؤمر بالعبد إلى النار... وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك عند النفخة الآخرة، وذلك أن من لم يحزنه ذلك الفزع الأكبر وأمن منه، فهو مما بعده أحرى أن لا يفزع، وأن من أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده»[2].

وإلى هذا الأخير ذهب ابن الجوزي بقوله: «...وبهذه النفخة يقوم الناس من قبورهم ويدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾»[3].

واستدل عليه أيضًا[4] بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾[النمل/٨٧].

وقد جمع الثعالبي كل الآراء المتقدمة بقوله: «الفزع الأكبر عام في كل هول يكون يوم القيامة فكان يوم القيامة بجملته هو الفزع الأكبر»[5]، أي: البعث والحساب والعقاب[6].

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٤٢٤.

(٢) جامع البيان ١٧/ ١٣٠-١٣١.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٠٨، الدر المنثور ٤/ ٣٣٩.

(٣) زاد المسير ٥/ ٢٧٢.

(٤) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري ٥/ ٢٤٧.

(٥) الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ١٠٣.

(٦) انظر: فتح القدير ٣/ ٤٢٩.

قيل: إن «أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم»[(١)].

وتذكر لنا السنة النبوية جملة من الأسباب والوسائل المنجية من تلك الأهوال وما ينشأ عنها من فزع عظيم وجاء في الأثر في فضل البكاء من خشية الله أن نبي الله موسى عليه السلام سأل ربه: «قال إلهي فما جزاء من بكى من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجهه ؟ قال جزاؤه أن أحرم وجهه على النار وأن أؤمنه يوم الفزع الأكبر»[(٢)].

وبالجملة فإن أي عمل يقوم به الإنسان بنية الإحسان، يكون له جنة من فزع القيامة، ويقيه جانبًا من أهوالها ومشاهدها المذهلة، وقد وعد الله سبحانه عباده المحسنين بالنجاة من ذلك الفزع والأمن منه بقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩].

٣. الحساب.

قد ذكر أهل التفسير أن الحساب في القرآن الكريم يرد على وجوه خمسة هي: العدد والكثير والمحاسبة والتقتير والجزاء[(٣)].

(١) جامع البيان ١٦/ ٧٤.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٣٠٨.
(٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٥١٣.
وانظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٢٥٠.

وما يهمنا من هذه الوجوه في هذا المبحث هو الجزاء الذي يشير إليه الثعلبي بقوله: «الحساب تعريف الله عز وجل الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك»[(٤)]، فالحساب إذن «علة للوصول إلى الجزاء»[(٥)].

ويروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نوقش يوم الحساب عذب، قالت: قلت أليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٨]. قال: ذلك العرض)[(٦)].

وتختلف كيفيات الحساب وأحواله، فمنه العسير ومنه اليسير ومنه العدل والجهد ومنه التكريم ومنه التوبيخ والتبكيت ومنه الفضل والصفح والعفو والغفران[(٧)].

ويمكن الاهتداء إلى سبل النجاة من الحساب باتباع ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والتزام الآتي:

أولًا: التوحيد ونبذ الشرك: قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧].

(٤) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٧١.
(٥) فتح القدير ٤/ ٤٣٨.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، ٤/ ١٩٨، رقم ٦٥٣٦.
(٧) انظر: لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٧٢.

ثانيًا: اجتناب الكفر: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور:٣٩].

ثالثًا: طاعة الله واتباع سنته: قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد:١٨].

رابعًا: مواصلة الأرحام: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١].

قال القرطبي في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: «قيل: في قطع الأرحام»[(١)].

خامسًا: اتباع سبيل الله وعدم الانقياد إلى الهوى: قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

سادسًا: الصبر: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

سابعًا: العمل الصالح: قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠].

٤. الصراط.

الصراط: «جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار وخلق من حين خلقت جهنم»[(٢)].

وجاء فيه أنه (يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف فيلقى في جهنم، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم فمن مر على الصراط دخل الجنة)[(٣)].

ومن صفاته أنه أدق من الشعر وأحد من السيف، مدحضة، مزلة؛ أي: زلق لا تثبت عليه الأقدام ولا تستقر إلا ما شاء الله، وله جنبتان وحافتان، ويموج بالسائرين عليه إلا من ثبته الله تعالى.

يروى أن هذا الصراط يضرب بين ظهري جهنم بعد أن ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣١٠.

(٢) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة)، ٤/ ٣٩٢، رقم ٧٤٣٩.

يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم: (فأكون أنا وأمتي أول من يجيز)[1].

وربما كان «المرور على الصراط من أخطر كرب يوم القيامة إن لم يكن هو أخطرها، ففيه من الأهوال والفزع والخوف والرعب ما لا تتحمله عقول الخلق ولا نفوسهم»[2]، يدل على ذلك أربعة أمور هي: أنه لا يذكر الإنسان عنده إلا نفسه، وأن الملائكة تشفق من هوله على الرغم من أنهم غير محاسبين، وأنه واحد من ثلاثة مواطن يقف عندها النبي صلى الله عليه وسلم للشفاعة وأنه لا يتكلم عنده يومئذ إلا الرسل[3].

أما أحوال الناس على الصراط، فالله سبحانه يبعثهم في ظلمة شديدة إذا أخرج الإنسان يده لم يكد يراها فيجمع الله تعالى الناس فيعطون نورهم على قدر أعمالهم ليستجيزوا الصراط.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾[الحديد:١٢].

أما المنافقون فلا يسعفهم نورهم عند الصراط، إذ يسلبه الله منهم، فينادون على المؤمنين: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[الحديد:١٣].

في هذا الموضع يفترق المؤمنون الناجون من الصراط عن المنافقين المعذبين، وتتوقف نجاة المؤمنين على مقدار ما تبلغ بهم أعمالهم من الصراط المستقيم الذي لا يمكن بلوغه إلا بتوافر أسباب عدة يمكن التماسها في القرآن الكريم منها:

أولًا: الإيمان بالله تعالى والاعتصام به واجتناب الكفر: قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران:١٠١].

ثانيًا: الإيمان بالآخرة: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾[المؤمنون:٧٤].

ثالثًا: عبادة الله وحده: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[آل عمران:٥١].

رابعًا: الدعاء بالهداية: قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٧].

والهداية مرة تكون برحمة مباشرة من الله تعالى، كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة:٢١٣].

ومرة تكون بوساطة كتابه: قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤيا، رقم ٢٩٩.
(٢) كيف تنجو من كرب الصراط، محمد النعيم ص٤.
(٣) انظر: المصدر السابق.

﴿الْحَمِيدِ﴾[سبأ:٦].

ومرة بوساطة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، كما في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢].

خامسًا: اتباع مرضاة الله: قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٦].

سادسًا: التصديق بآيات الله: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام:٣٩].

سابعًا: الأمر بالعدل: قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النحل:٧٦].

ثامنًا: شكر النعم: قال تعالى في نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النحل:١٢١].

تاسعًا: اجتناب الشرك بالله والظلم: قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[الصافات:٢٢-٢٣].

عاشرًا: الاقتداء بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم: فقد خصه الله تعالى بالقول: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[يس:٣-٤].

٥. النار.

النار هي دار الكافرين أعدها الله لهم جزاء بما خالفوا عن أمره.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[آل عمران:١٣١].

فالنار «خلق من خلق الله تعالى خلقها وجعلها عذابًا للمجرمين الذين خرجوا على دينه وتمردوا على رسله، فهي عذاب حسي، تختلف في قوة عذابها الحراري والزمهريري. فلكل من يدخلها مكان يتلاءم مع جرمه، وعذاب على قدر ذلك، لأن الجزاء من جنس العمل»[(١)].

وقد نقلت لنا آيات القرآن الكريم صورًا مختلفة لعواقب أهلها وسوء أحوالهم وهم يصطرخون فيها، ويقابل ذكر النار ذكر الجنة وهي دار النعيم «فكل واحدة من الجنة والنار حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكل ما هو كذلك فالإيمان به واجب واعتقاد وجوده حق لازب، والمراد من الجنة دار الثواب ومن النار دار العقاب»[(٢)].

وتستدعي النجاة من النار التأمل في فلسفة

(١) يوم القيامة ومشاهده في الكتاب والسنة، دوخي الحارثي، ص ٣١١.
(٢) المصدر السابق ص٢١٩.

وجودها وهول أحوالها والأسباب الموجبة لورودها أو المعاقبة بها فمن المتعارف أن الله سبحانه خلق الخلق «ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه ويخافوه، ونصب لهم الأدلة الدالة على عظمته وكبريائه... ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدها لمن عصاه ليتقوه بصالح الأعمال، ولهذا كرر تعالى في كتابه ذكر النار وما أعده فيها لأعدائه من العذاب والنكال، وما احتوت عليه من الزقوم والضريع والحميم والسلاسل والأغلال... ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه، والمسارعة إلى امتثال ما يأمر به ويحبه ويرضاه، واجتناب ما ينهى عنه ويكرهه ويأباه»[1].

وفي الوقت الذي حدد الله تعالى فيه لعباده سبل نجاتهم من النار فقد بين لهم في مقابل ذلك ما ينتظرهم من نعيم جناته الذي أعده للناجين منهم والفائزين بمرضاته، فالمنجي من النار هو الله تعالى وحده، وذلك بقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[آل عمران:١٠٣].

أما الأنبياء عليهم السلام والصالحون فهم يدعون إلى النجاة قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾[غافر: ٤١].

وأما من حقت عليه كلمة العذاب فلا منجاة له من النار.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩].

ولن تشفع للكافر منزلته مهما عظمت.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم:١٠].

ولن ينجيه ماله ولا ولده.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:١١٦].

في مقابل ذلك تحفل آيات الله البينات بمواقف ومشاهد وإشارات تجسد دعوة الله عز وجل عباده إلى الخلاص من عذاب السعير والفوز بالجنة.

قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥].

وقد ذكر القرآن الكريم جملة من الوسائل الكفيلة بنجاة الإنسان من النار منها:

أولًا: نبذ الشرك والكفر بالله تعالى: قال تعالى في شأن المشركين: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، ابن رجب الحنبلي ص ٧- ٨.

فلا ناصر ينجيه من ذلك المأوى، وقال في شأن الكافرين: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾[الأنفال:١٤].

ثانيًا: الإيمان بالله ووقاية النفس: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[التحريم:٦].

فلم يكتف بالإيمان بل دعا إلى العمل على وقاية النفس والأهل من النار.

ثالثًا: تقوى الله: قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١-٧٢].

وتجدر الإشارة إلى أن المفسرين مختلفون في معنى الورود فمنهم من ذهب إلى أن الخلق جميعًا من بني آدم يمرون على النار، ومنهم من ذهب إلى أنهم يدخلونها، ومنهم من قال: يطلعون عليها[(١)]، قال الطبري: «ثم يصدر عنها المؤمنون فينجيهم الله ويهوي فيها الكفار»[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الزمر:٦١].

رابعًا: عبادة الله وحده: قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[العنكبوت:٢٥].

فهؤلاء الأنداد والأوثان لن يحولوا بينهم وبين النار ولن يخلصوهم من عذابها ما عكفوا عليها ساجدين.

خامسًا: التصديق بآيات الله: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٣٩].

فإنكار الآيات والصد عنها يقطع السبيل إلى النجاة من النار يوم القيامة.

سادسًا: الدعاء إلى الله: قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١].

وقد مضى الحديث عن فضل الدعاء في بلوغ رضا الله تعالى والظفر بنصره ونجاته

سابعًا: الثبات على الدين: قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة:٢١٧].

ثامنًا: ذكر الله والتفكر في خلقه: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

(١) انظر: التذكرة بأحوال الموتى والأمم الغابرة، ص ٧٦٠.
(٢) جامع البيان ١٦/ ١٤١.

تاسعًا: طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والتزام حدوده: قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الجن:٢٣].

عاشرًا: النأي بالنفس عن حمل الظلم: قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[الكهف:٢٩].

حادي عشر: الاحتراز من الجرم والفسق والإسراف: قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣].

وقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[غافر:٤٣].

ثاني عشر: الابتعاد عن النفاق: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

ثالث عشر: عدم التفكير في معاداة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة:٦٣].

وبالجملة فإن جميع الأعمال الصالحة التي يقدمها المرء بين يدي ربه سواء ما ينفع بها نفسه أو مجتمعه يمكن أن تحول بينه وبين النار إذا ما كان الله تعالى قد رضي بها وادخرها له ليقيه بشفاعتها من السعير.

نماذج من الناجين في القرآن الكريم

لم تكن مهمة أنبياء الله ورسله عليهم السلام باليسيرة في الدعوة إلى الله عز وجل وإخراج الناس من ظلمات معتقداتهم وضلالة أفكارهم، وقد توارثوها عن آبائهم وعهدوا بها إلى أجيالهم، حتى استقر عليها منهاج حياتهم واطمأنت بها نفوسهم التي لم يخطر ببالها أن تتأمل في حقيقتها، أو تطمح إلى تغييرها؛ لأنها جاءت موافقة لرغبات مجتمعاتهم أو طبقاتهم الحاكمة أو المتحكمة على مدى العصور.

فكانت دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام تحدث صدمة وزعزعة واضطرابًا في نفوس الأفراد أو الجماعات الذين يتلقونها؛ لأنها تخاطب عقولهم التي غيبت عن التفكر في حقيقة الوجود وصانعه، وتبصرهم بزيف معتقداتهم التي لا أساس لها من الصحة، غير أن النظام الفكري والعقائدي غالبًا ما يكون مبنيًا على أسس ومفاهيم ضيقة، ولا يمكن أن يستوعب ذلك الفضاء الرحب من الهدى، ولا طاقة له بالتخلص من ذلك الموروث المقدس المهيمن على وعيه الذاتي والاجتماعي، فينشأ الصراع الفكري بين الإرادات المختلفة وسرعان ما تندحر وتنحسر المناهج الضالة وتضعف دفاعاتها أمام حقيقة الرسالات السماوية وقوة حجتها

وعظيم برهانها وتحديات معاجزها، فيهرع إلى اعتناقها من شرح الله صدره للهدى، وينقم منها المعاندون الذين استحوذ عليهم الشيطان، لتتسع دائرة الصراع ويتجه باتجاه المواجهة المادية بعد أن هزمت الأفكار الضالة والمعتقدات الزائفة وتكشف بطلانها وأصبحت الرسالة السماوية تسفه الآراء وتهدد النفوذ وتقوض السلطان، فتتحد القوى الضالة والمضللة وتجتمع لمحاربة النبيين ووأد دعواتهم وطمس معالمها ومحو آثارها.

وفي خضم هذه المواجهات المستمرة يبتلي الله ما في صدور المؤمنين ليمحص قلوبهم، ويمهل الكافرين حتى تحق عليهم كلمة العذاب، ثم يهلكهم بذنوبهم وينجي رسله والذين آمنوا معهم.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

وتحمل لنا آيات الله البينات صورًا ومشاهد عدة لعباد الله تعالى الذين من عليهم بالنجاة من مواقف مختلفة.

وفيما يأتي نسلط الضوء على مواقف الناجين من الأفراد، ومواقف الناجين من الجماعات.

أولًا: الناجون من الأفراد:

١. النبيون.

أولًا: نجاة نبي الله إبراهيم عليه السلام:

لقد بعث الله نبيه إبراهيم عليه السلام في قومه، وكانوا يعبدون الكواكب والأصنام، وكان أول دعوته لأبيه آزر فلما استيأس من أن يستجيب لدعوته اعتزله وتوجه إلى قومه يدعوهم ويحاججهم فلم يؤثر فيهم نصحه فأقسم على أن يكيد أصنامهم، فلما خرجوا لأداء مراسم عيدهم لم يخرج معهم، وانطلق مسرعًا إلى آلهتهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٨٥].

ولما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم، جيء بإبراهيم عليه السلام، وقد دار بينه وبينهم ما دار من جدال ألزمهم فيه الحجة، فعدلوا عن الجدال والمناظرة إذ لم يبق لهم سبيل إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، وكان عليهم الإسراع في وأد الفتنة، غير أنهم اختلفوا بين مطالب بقتله وراغب بتعذيبه وهلاكه بالنار كما يخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت:٢٤].

ثم اختاروا الأخير، ربما ليشهد هلاكه الناس ويعتبروا به فلا يتجرأ أحد منهم على المساس بالأصنام ثانية. فحبس إبراهيم

عليه السلام وشرعوا يجمعون حطبًا من أماكن عدة، ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط، فانتشرت حرارتها في الفضاء بحيث لم يكن يحلق طائر في تلك الأجواء إلا سقط محترقًا، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا ثم ألقوه منه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال: ألك حاجة فقال: أما إليك فلا. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال: جعل ملك المطر يقول: متى أؤمر فأرسل المطر[1].

ولكن الله سبحانه خص نجاة إبراهيم عليه السلام بنفسه فقال: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

فكانت النجاة بأمره هو وبقوله هو لذا لم يتحدث النص القرآني عن الذات المقدسة (بالمضمر) بل جاء باسمه الأعظم (صريحًا) في قوله: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾[العنكبوت:٢٤].

ولما كان أمره سبحانه أسرع في الوصول إلى النار من وصول إبراهيم عليه السلام إليها جيء بالفعل (أنجى) الذي يدل على حدوث الفعل لمرة واحدة وبسرعة أكبر مما لو استعمل الفعل (نجى).

نستشف من هذه المواقف أن الله سبحانه قريب من عباده لا يبطئ في مساعدتهم وإنقاذهم من محنهم حين يجد فيهم ثباتًا وعزمًا وإيمانًا راسخًا، وأن على العبد أن يجعل كل ثقته بالله تعالى وبقدرته على أن يغير نواميس الكون لقاء خلاصه من شدته، وأن التوكل على الله وتسبيحه هو السبيل الأمثل لتحقيق النجاة من الشدائد.

ثانيًا: نجاة نبي الله يوسف عليه السلام:

وردت قصة نبي الله يوسف عليه السلام في القرآن الكريم كاملة في سورة واحدة من سوره المباركة لتعرض لنا صورة عن مسيرة حياته الحافلة بالشقاء والتعذيب، واللحظات الحياتية الحرجة التي لم يكن أحد ليستطيع إنقاذه منها لولا تدخل العناية الإلهية التي كانت سببًا رئيسًا في نجاته سبع مرات من مواقف مختلفة:

الموقف الأول: إجماع إخوته على إلقائه في قعر الجب، فلما ألقوه فيه أوحى الله تعالى إليه أنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ولتخبرن أخوتك بصنيعهم هذا، وكانت نجاته من البئر بمعجزة، إذ جاءت سيارة «يسيرون من

(١) انظر: انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧١، البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٦١ .

الشام فأخطؤوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبًا من الجب، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران، إنما هو للرعاة والمجتاز، وكان ماؤه ملحًا فعذب حين ألقي فيه يوسف»[1].

فأرسلوا واردهم فلما أدلى بدلوه في الجب تعلق فيه يوسف، فاستخرج من البئر ونجا من غياهبه بتوفيق من الله تعالى.

الموقف الثاني: مراودة امرأة العزيز له عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، فأعدت واستعدت وهيأت وتهيأت، فصرفها الله عنه وأنجاه برؤية برهانه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

واختلف في ذلك البرهان فقيل في تفسيره ستة أقوال[2] حاصل فكرتها جميعًا أن نجاته عليه السلام كانت بمعجزة إلهية خصه بها.

الموقف الثالث: مصادفة العزيز لدى الباب، حيث كادت امرأته بيوسف عليه السلام لتبرئ عرضها وتنزه ساحتها ولتنكل به جراء عدم امتثاله لإرادتها، فتبادلا التهمة عند سيدها: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف:٢٥-٢٦].

في هذه الأثناء تتدخل العناية الإلهية مرة أخرى لتخلص يوسف عليه السلام من مأزقه هذا بشهادة شاهد من أهلها قال ابن عباس كان صغيرًا في المهد[3] فهداهم إلى تحكيم العقل والمنطق في التحقق من مسألة قد قميصه، فأنجاه الله بأن تيقن العزيز أن أمرأته هي التي راودت يوسف عليه السلام بعد أن رأى أن قميصه قد من دبر.

الموقف الرابع: حين شاع خبر امرأة العزيز وافتضح أمرها فكثر اللغط والطعن بعفتها فأرسلت إلى نسوة المدينة وأعتدت لهن متكأ وأخرجته عليهن، فأعظمنه وأجللنه، ثم مدحته بالعصمة وتوعدته بالسجن إن لم يطع أمرها، فأخذن يحرضنه على السمع والطاعة لسيدته[4].

فخشي يوسف عليه السلام من أن تضعف نفسه أمام ما يتعرض له من تحريضهن فدعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

فكان له ما أراد إذ كتب الله له النجاة بدعائه الصادق قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٤].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٥٢.
وانظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٣٢.
(٢) انظر: زاد المسير ٤/ ١٥٩.
(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٣٢٠.
(٤) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٣٢.

المواقف الخامس والسادس والسابع:

أودع يوسف عليه السلام السجن وأنزل به العذاب وضيق عليه، وكان من شدة ما نزل به من الأمر أنه أوصى من نجا من صاحبي السجن أن يذكر أمره عند ربه ويخبره أنه سجن بغير جرم، فأنساه الشيطان، فمكث في سجنه بين ثلاث إلى تسع سنين حتى كان ما كان من أمر رؤيا الملك التي فسرها فكان ذلك التفسير سببًا في نجاته من السجن وشدته من التهمة التي سجن حين برئ بقولها: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[يوسف:٥١].

من الرق إلى السيادة حين أمر الملك فقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف: ٥٦].

ثالثًا: نجاة نبي الله عيسى عليه السلام :

بعث عيسى عليه السلام في زمن الطبائعية الحكماء، فأرسله الله تعالى بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها وعلى الرغم من أنه أقام عليهم الحجج، إلا أن أكثرهم استمسك بالضلالة والكفر، فانتدب الله تعالى من بينهم طائفة صالحة ينصرونه ويعينونه.

قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾[الصف:١٤].

فلما أعلن عن دعوته ورسالته مكروا به ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان وكان اسمه داود بن يورا، فقالوا: إن هناك رجلًا يضل الناس ويصدهم عن طاعتك، ويفسد رعاياك، ويفرق بين الأب وابنه، فأمر بقتله وصلبه، فحصروه في دار ببيت المقدس، فلما حان وقت دخولهم ألقى الله شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة من ذلك البيت إلى السماء، فلما دخلوا البيت وجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه، فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه[1].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[آل عمران:٥٥].

ولا يهمنا هنا أن نبحث في كيفية التوفي والرفع بقدر ما يهمنا أن نصل إلى أن الله تعالى تدارك نبيه عيسى عليه السلام ونجاه بقدرته وحده، حيث ألقى شبهه على شخص آخر، فلم يصل إليه شرهم، بل كان عاقبة أمرهم أن الله تعالى مكر بهم وتركهم في

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٠٨، قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٣٦٧.

ضلالهم يعمهون ظانين أنهم قتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٥٧-١٥٨].

٢. غير النبيين.

أولًا: نجاة مؤمن آل فرعون:

قيل: هو ابن عم فرعون كان يكتم إيمانه بالله من قومه خوفًا منهم على نفسه، ولكنه حين هم فرعون بقتل موسى عليه السلام وقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر:٢٦].

خاف، فتلطف في رد فرعون بكلمة حق جمع فيها الترغيب والترهيب وألقاها على مسامع ذلك السلطان الجائر، قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨].

ثم توجه إلى قومه مخاطبًا ومحذرًا أن يسلبوا ملكهم ويذلوا بتعرضهم لدين موسى عليه السلام ودعوته، مذكرًا بأحوال الأمم السالفة وما حل بأقوام نوح وعاد وثمود ومن بعدهم من هلاك بسبب عنادهم وكفرهم وصدهم عن سبيل الحق، وما ناله أولياء الله الذين صدقوا الرسل من رحمة ونجاة بسبب إخلاصهم الدين، فبالغ فرعون في الدفاع عن ألوهيته المزعومة وسخر من دعوة موسى عليه السلام وسعى إلى تكذيبه ليصد الناس عن الافتتان بدينه، ثم عاد مؤمن آل فرعون متوجهًا بالخطاب إلى قومه مطالبًا إياهم باتباع ما نهجه هو من سبيل الهدى مبينًا لهم فضل الدار الآخرة على الدنيا ومتاعها الذي يتمسكون به، ومبشرًا من يعمل صالحًا منهم بالجنة[(١)].

غير أن خطابه ودعوته الإيمانية هذه جوبهت بمحاولات قومه صده عن سبيل الهدى والعودة به إلى اتباع ربهم الأعلى والتسليم له بالربوبية، حرصًا على حياته من جهة، وذودًا عن سلطان فرعون الذي يخافون بطشه ويطمعون في جائزته من جهة أخرى، فكان مؤمن آل فرعون يشتد بأسه ويتصلب موقفه كلما احتدم الجدال ليعود فيخاطب عقولهم ويعقد مقارنة بين دعوته لهم التي يريد بها إخراجهم من الظلمات إلى النور، ودعوتهم له التي لن تودي به إلا إلى النار فيقول: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٣٠٢-٣٠٥، الدر المنثور، السيوطي ٥/ ١٢٣.

﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[غافر:٤١-٤٣].

فلما استيأسوا منه خافوا أن يتشجع العامة من الناس على أن يحذوا حذوه، فيرتدوا عن عبادة فرعون ويلتحقوا بدعوة موسى عليه السلام ، فمكروا به للخلاص منه، وكان مكر الله بهم أكبر ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٥].

وبنجاته من آل فرعون التحق بنبي الله موسى عليه السلام ليكون سببًا في خروجه من مصر ونجاته من القوم الظالمين، إذ أخبره بما يدبر له آل فرعون ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [لقصص:٢٠].

وبهذا يقدم لنا مؤمن آل فرعون صورة عظيمة للموقف الإيماني الراسخ المتسلح بالعقيدة الصادقة التي منحته القوة في مواجهة فرعون وملأه والتصريح بالدعوة إلى الله الواحد الأحد، فوهب الله له الخلاص وكتب له الخلود لشجاعة موقفه وصدق إيمانه.

ثانيًا: نجاة صاحب نبي الله يوسف عليه السلام :

وهو أحد الفتيين اللذين دخلا معه السجن، وكان الملك قد غضب منهما، لأنهما أغريا بتسميمه، فأمر بحبسهما، وكان يوسف عليه السلام معروفًا بإحسانه وتقواه، فقصده الفتيان ليعبر لهما رؤياهما، إذ ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ [يوسف:٣٦].

فعبرها لهما بقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾[يوسف:٤١].

وتفسير ذلك أنه قال للساقي: إنك ترد على عملك الذي كنت عليه من سقي الملك، وقال للخباز: وأما أنت فتصلب فتأكل الطير من رأسك[1]. وما هي إلا أيام حتى تحقق تعبير الرؤيتين، فصلب الخباز حتى هلك، ونجا الساقي بعفو الملك، وكما كانت نجاة مؤمن آل فرعون سببًا في خلاص موسى عليه السلام ، كانت نجاة الساقي سببًا في خلاص يوسف عليه السلام ولو بعد حين، فقد طلب من ذلك الناجي أن يذكره عند ربه بعد خروجه من السجن فأنساه الشيطان ذكر ربه، حتى كانت رؤيا الملك التي ذكرته بعهده ليوسف عليه السلام فكان ما كان من أمر تأويله لرؤيا الملك التي كتب الله بها له النجاة من السجن، ولمصر النجاة من الهلاك.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٣.

ثانيًا: الناجون من الجماعات:

أولًا: نجاة نبي الله هود عليه السلام والذين آمنوا معه:

كان من قبيلة يقال لهم: عاد، كانوا عربًا يسكنون الأحقاف، وهم عاد الأولى الذين كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وأصنامهم ثلاثة صدا وصمودا وهرا، فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عليه السلام ، قيل: إنه أول من تكلم بالعربية، وثاني الأنبياء - بعد نوح عليه السلام - الذين جابهوا فكرة الوثنية ودعوا إلى عبادة الله الواحد الأحد، فدعا قومه إلى تقوى الله تعالى وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٣١-١٣٥].

فكذبوه وخالفوه وتنقصوه وحاجوه أنك ما جئتنا بمعجزة تشهد لك بصدق دعوتك، وما نحن بتاركي عبادة أصنامنا، إن نظن إلا أصابك بعض آلهتنا بغضب فاعتراك جنون، فما كان منه إلا أن تبرأ من إشراكهم مفوضًا أمره إلى الله، أما قومه فقد ترقوا في عداوتهم له من رفضهم لنصائحه ودعواته واتهامهم له في عقله إلى تحديه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف:٧٠].

واستبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابًا وعظامًا وقالوا ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾؛ أي: بعيد بعيد هذا الوعد ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون:٣٧].

ثم عارضوا عبادة الله تعالى بعبادة أصنامهم التي نحتوها وسموها من تلقاء أنفسهم فتوعدهم بالعذاب بقوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:٧١].

فاستجار بربه منهم واستعان به عليهم ودعاه إلى أن ينصره وينجيه: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون:٣٩-٤٠].

يذكر أن عادًا كانوا ممحلين مستنين، وبسبب رفضهم دعوة هود عليه السلام أمسك الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك فطلبوا الفرج والسقيا ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأحقاف:٢٤].

فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متواصلة، فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ

﴿غَلِيظٍ﴾[هود:٥٨].

قيل: اعتزل هود عليه السلام في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود ويلتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة[1].

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٧٢].

فكانت نجاة هود عليه السلام ومن معه برحمة من الله تعالى خصهم بها.

ثانيًا: نجاة نبي الله صالح عليه السلام والذين آمنوا معه:

هو من قبيلة يقال: لها ثمود أو عاد الثانية، كانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر، وكانوا يعبدون الأصنام كأسلافهم من قوم عاد الأولى، فبعث الله فيهم صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام التي يعبدونها، قال لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف:٧٤].

فآمنت طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود:٦٢].

لأنهم يرون أنه أصبح مسحورًا لا يدري ما يقول، ثم طالبوه بأن يأتيهم بآية على صدقه فقالوا له هلا أخرجت لنا من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة هناك- ناقة ذكروا أوصافًا لها كثيرة، فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني ورسالتي؟ قالوا: نعم. فأخذ مواثيقهم على ذلك ثم قام فصلى لله تعالى ما قدر له ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله تعالى تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه الذي طلبوه، قال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ودليلًا قاطعًا، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم، فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يومًا بعد يوم، فلما طالت عليهم الحال هذه اجتمع ملؤهم واتفق تسعة رهط من المفسدين منهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٣٨-١٤٩، قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٢٠.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

فأوعدهم بالعذاب، قال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود:٦٥].

فلم يصدقوه في وعيده هذا، بل هموا بقتله وأرادوا فيما زعموا أن يلحقوه بالناقة ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[النمل:٤٩].

فأرسل الله تعالى على أولئك الرهط حجارة رضختهم سلفًا وتعجيلًا قبل قومهم، وبينا بقية القوم ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب ولا يدرون ما سيفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم جاءتهم مع شروق اليوم الرابع صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وخشعت الأصوات، فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثًا لا أرواح فيها ولا حراك بها[1]، إلا صالح عليه السلام ومن آمن معه قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[هود:٦٦].

قال الطبري قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: «بنعمة وفضل من الله، ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يقول: ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذلة ذلك العذاب»[2].

ثالثًا: نجاة نبي الله لوط عليه السلام وأهله:

هو ابن أخي نبي الله إبراهيم عليه السلام وكان لوط قد نزح عن محلة بأمر عمه وإذنه، فنزل بمدينة سدوم ولها أهل من أفجر الناس وأردأهم سريرة وسيرة، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويأتون في ناديهم المنكر، ثم إنهم ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، فدعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا في طغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فلم يستجيبوا له ولم يؤمن به رجل واحد منهم، وهموا بإخراجه من بين ظهرانيهم واستضعفوه وما كان حاصل جوابهم له إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النمل:٥٦].

فجعلوا غاية المدح ذمًا يقتضي الإخراج، فطلبوا من لوط عليه السلام وقوع ما حذرهم به من العذاب الأليم، فدعا عليهم سائلًا ربه أن ينصره على القوم المفسدين قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ فَنَجَّيْنَاهُ

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٥٠-١٦٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٠٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٨٤.

﴿وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:١٦٩-١٧٠].

إذ أرسل الله تعالى رسله فمروا بإبراهيم عليه السلام وبشروه بالغلام العليم وأخبروه أنهم مرسلون إلى قوم لوط عليه السلام فجادلهم في أمر عذابهم، فقالوا له: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[هود:٧٥].

فقال لهم: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[العنكبوت:٣٢].

وانطلق الملائكة إلى أرض سدوم في صورة شبان حسان اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط عليه السلام وإقامة الحجة عليهم، فاستضافوه فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره، وحسبهم بشرًا وسيء بهم وضاق ذرعًا بهم واشتد عليه بلاء يومه، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلًا، فجاء بضيوفه فلم يعلم بهم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن في بيت لوط رجالًا ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه. حاول أن يرشدهم إلى عدم تعاطي ما لا يليق من الفاحشة، فأبوا إلا أن يمضوا إلى ما يبتغون فقال لهم: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود:٨٠].

قالت الملائكة: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هود:٨١].

ثم بثوا في نفسه الطمأنينة ووعدوه بالنجاة قائلين: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٣].

وأخبروه بأن يسري هو وأهله من آخر الليل قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤].

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني: عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ فيحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها. ويحتمل أن يكون من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾[1]. فلما خرج لوط عليه السلام وخلصوا من بلادهم مع شروق الشمس ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢].

وهكذا كتب الله تعالى لنبيه لوط عليه السلام وأهله الخلاص وطهرهم منهم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[النمل:٥٧].

فأخرجهم منها أحسن إخراج وتركهم في محلتهم خالدين وخصهم في القرآن

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢٠٣-٢١٠.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٦٢.

الكريم بتكرار ذكر نجاتهم سبع مرات ليؤكد خلاصهم من تلك القرية وفواحشها وما ترتب عليها من عقوبة وهلاك خارق ليس له نظير منذ بدء الخليقة.

رابعًا: نجاة نبي الله شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه:

أرسل شعيب بن ميكيل في قبيلة مدين التي استوطنت مدينة مدين وهي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط عليه السلام ، كان أهلها قومًا عربًا سكنوا بعد قوم لوط عليه السلام بمدة قريبة. وعن وهب ابن منبه أنه قال: شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجرا معه إلى الشام فزوجهما بنتي لوط عليه السلام ، وكان بعض السلف يسمي شعيبًا خطيب الأنبياء يعني: لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته.

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة، وكانوا من أسوء الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيها، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم رجلًا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن إتيان كل ما هو قبيح من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[الأعراف:٨٥].

أي: دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلًا وان كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالًا ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٨٥].

فأمرهم بالعدل ونهاهم عن التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم وتوعدهم بالعذاب على خلاف ذلك فما كان جوابهم إلا أنهم استهزؤوا بصلاته فرد عنادهم ذاك بالدعوة إلى الإصلاح مرة وبالترهيب مرة أخرى والتذكير بمصير أسلافهم من الأقوام التي هلكت بصدها عن سبيل الله، فتجاهلوا دعوته واستضعفوه ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[هود:٩١].

وهذا من بليغ كفرهم أنهم لا يخافون الله بقدر ما يخافون قبيلته، فتوعدهم بعذاب الله وتوعدوه بأن يخرجوه والذين

آمنوا معه أو يعودون في ملتهم، فأجابهم شعيب عليه السلام بلسان حاله ومن آمن به: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

يذكر لهم فضل الله عليه في الإيمان والنجاة من فسادهم ونهجهم الظالم، والنجاة هنا كانت من الله لأنه هو من يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩].

فاستجاب له ربه وأنزل فيهم ألوان العذاب فقال تعالى في عذاب الرجفة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١].

أي: رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالًا شديدًا أزهقت أرواحهم من أجسادها وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها، وقال في عذاب الصيحة: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

وقال في عذاب يوم الظلة: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩].

ردًا على طلبهم أن يسقط شعيب عليهم كسفًا من السماء. فقد أصابهم حر شديد فهربوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بها فلما تكاملوا أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود:٩٤].

والنجاة هنا كانت بفعل رحمة الله تعالى التي حلت بهم في مقابل نقمته على القوم الظالمين.

وهكذا كانت سير الصالحين من عباد الله من أنبيائه ومن آمن معهم من أهلهم وأقوامهم الذين آلوا على أنفسهم أن لا يغادروا طاعة الله ولا يركنوا إلى الذين كفروا وصدوا عن سبيله مهما أوذوا في جنب الله ومهما استضعفتهم قوى الظلم والضلالة، فما كان الله تعالى ليضيع إيمانهم وهم يرجون رحمته ويرقبون نصره، بل خصهم بعنايته فكف أيديهم عنهم ووقاهم برحمته عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ذلك بأنهم آمنوا بربهم وصدقوه عهدهم واتقوه حق تقاته فلم يهنوا ولم يرتابوا فاستحقوا النجاة في الدنيا والآخرة.

لقد ساقت لنا آيات الله البينات تلك المواقف الخالدة في تاريخ البشرية لتتعرف على منهاج الصالحين الذين اختاروا طريق الله تعالى واستمسكوا بهديه فلم يرعبهم

ظلم العباد ولم تضلهم فتنة الظالمين، ولتقتدي سيرنا بسيرهم فينقطع رجاؤنا إلى الله وحده فنصدقه العهد ونرخص له الأرواح والمهج في سبيل إعلاء كلمته ونصرة دينه، فلعلنا نبلغ رضاه ونفوز برحمته التي نجى بها عباده الصالحين.

موضوعات ذات صلة:

الحذر، الخسران، العذاب، الفلاح، الهداية، النار، النصر

النجوم

عناصر الموضوع

مفهوم النجوم	٤٣٤
النجوم في الاستعمال القرآني	٤٣٥
الألفاظ ذات الصلة	٤٣٦
النجوم مسخرة بأمر الله	٤٣٨
أسماء وصفات في عالم النجوم	٤٥١

مفهوم النجوم

أولًا: المعنى اللغوي:

النون والجيم والميم أصل صحيح يدل على طلوع وظهور، ونجم السن والقرن: طلعا، والنجم: اسم يقع على الثريا، وكل منزل من منازل القمر سمي نجمًا، وكل كوكب من أعلام الكواكب يسمى نجمًا، والنجوم تجمع الكواكب كلها.

وأنجمت السماء: بدت نجومها، والنجم من النبات: ما لم يكن له ساق، من نجم إذا طلع[(١)].

نجم الشيء ينجم بالضم نجومًا: ظهر وطلع، وفلانٌ منجم الباطل والضلالة -بالفتح- أي: معدنه[(٢)].

أصل النجم: الكوكب الطالع، وجمعه: نجومٌ، ونجم: نجومًا ونجمًا، فصار النجم مرة اسما كالقلوب والجيوب، ومرة مصدرًا كالطلوع والغروب، واشتقوا منه فقالوا نجمت الدين بالتثقيل إذا جعلته نجومًا[(٣)] والنجمة: هي أخص من النجم، وكأنها واحدته، كنبتةٍ ونبت.

ونجمة الصبح: فرسٌ نجيبٌ، والنجم: نزول القرآن نجمًا نجمًا[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وبالنظر في الكتب والمراجع التي هي مظنة التعريف الاصطلاحي، والتي منها كتاب (الكليات) للكفوي، وكتاب (التعريفات) للجرجاني، وكتاب (المفردات في غريب القرآن) للأصفهاني، وغيرها، فلم نجد فيها تعريفًا اصطلاحيًا للنجوم، وعليه فإنه من خلال المعنى اللغوي السابق، ومعاني الآيات التي وردت فيها لفظة النجوم نورد ما يأتي:

النجم عرفًا: أحد الأجرام السماوية المضيئة بذاتها، ومواضعها النسبية في السماء ثابتة، ومنها الشمس[(٥)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٩٦، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٨٥٧، الكليات، الكفوي ١/ ٨٨٧، العين، الفراهيدي ٦/ ١٥٤.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٣٩.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٧٩١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٩٤.

(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٣/ ٤٨٠، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٦٨.

(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي، وحامد قنيبي ١/ ٤٧٥، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ١/ ٣٤٨.

النجوم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نجم) في القرآن الكريم (١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٤	﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم:١-٢]
الجمع	٩	﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٩٧]

وجاءت النجوم في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الكواكب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق: ١- ٣]. يعني: الكواكب.

الثاني: النبات: ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٦]. يعني بالنجم: كل شجرٍ مما لا ساق له من النبات، والشجر: ما له ساق.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٦٨٨-٦٨٩.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٨٠-٥٨١، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٤٤٤-٤٤٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكوكب:

الكوكب لغةً:

من كب: الكاف والباء أصل صحيح يدل على جمع وتجمع، لا يشذ منه شيء، والكوكب يسمى كوكبًا من هذا القياس[(١)].

والكوكب: واحد الكواكب، فالكوكب والكوكبة: النجم، وكوكب: اسم موضع[(٢)].

الكواكب اصطلاحًا:

«الكواكب: أجسام بسيطة مركوزة في الأفلاك، كالفص في الخاتم، مضيئة بذواتها، إلا القمر»[(٣)] أو: «جرم سماوي يدور حول الشمس ويستضيء بضوئها وأشهر الكواكب مرتبة على حسب قربها من الشمس عطارد الزهرة الأرض المريخ المشتري زحل يورانس نبتون بلوتون»[(٤)].

الصلة بين الكوكب والنجم:

إن الكوكب اسم للكبير من النجوم، وكوكب كل شيء معظمه، والنجم عام في صغيرها وكبيرها، ويجوز أن يقال: الكواكب هي الثوابت، ومنه يقال: فيه كوكب من ذهب أو فضة؛ لأنه ثابت لا يزول، والنجم الذي يطلع منها ويغرب[(٥)].

وقيل: النجم فيه مراعاة لمعنى من معاني النجوم والكواكب وهو الظهور والطلوع، أما الكوكب ففيه مراعاة لمعنى الإضاءة والبياض والعظمة[(٦)].

٢ الشمس:

الشمس لغةً:

الشين والميم والسين أصل يدل على تلون وقلة استقرار، فالشمس معروفة، وسميت

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٢٤، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٧٦٦.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٦٧٠، شمس العلوم، نشوان الحميري ٩/ ٥٨٧٣، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٢١، مختار الصحاح، الرازي ص٢٧١.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص ١٨٨.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩٣.
(٥) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ١/ ٤٥٩.
(٦) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٠.

بذلك؛ لأنها غير مستقرة، ويقال: شمس يومنا وأشمس، إذا اشتدت شمسه[1].

الشمس اصطلاحًا:

الشمس: هو كوكب مضيء نهاري[2]، يشع لنا حرارة وضياء.

الصلة بين الشمس والنجم:

الشمس: مضيئة في النهار، بينما النجم مضيء في الليل.

٣ القمر:

القمر لغةً:

القاف والميم والراء أصل صحيح يدل على بياض في شيء، ثم يفرع منه. من ذلك: القمر الذي في السماء، وضوؤه القمراء، وسمي قمرًا: لبياضه[3].

القمر اصطلاحًا:

هو كوكب في السماء معتم.

وقيل: جرم سماوي صغير معتم يدور حول كوكب أكبر منه ويكون تابعا له[4].

الصلة بين القمر والنجم:

القمر جسم معتم يستمد ضوءه من الشمس، بينما النجم مضيء.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢١٢، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٥١١.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٢٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٥.
(٤)- انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٧٥٨.

النجوم مسخرة بأمر الله

أولًا: صور من تسخير النجوم:

النجوم من المخلوقات التي لها جرم كبير، وسرعة عالية، وقد أشار القرآن إليها في غير ما موضع؛ لأنها من الآيات العجيبات، والدلائل الواضحات على قدرة الباري وعظمته وقهره، وقد تحدث القرآن عن كونها مسخرة بأمر الله وخاضعة لمولاها في موضعين من كتابه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وهذه الآية جاءت في سياق التدليل على ربوبية الله وألوهيته، وأنه لا معبود سواه فهي سياحة «في ملكوت الله، يرتادها السياق بعد قصة النشأة الإنسانية، وبعد تصوير طرفي الرحلة، وبعد الحديث عن اتباع الشيطان، والاستكبار عن اتباع رسل الله، وبعد عرض التصورات الجاهلية، والتقاليد التي يشرعها البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا شرع؛ ليرد البشر إلى ربهم الذي خلق هذا الوجود وسخره، والذي يحكمه بنواميسه ويصرفه بقدره، والذي له الخلق والأمر وحده»[(١)].

وجاء ذكر النجوم في الآية وكونها مسخرة بأمر خالقها كأحد الشواهد على ربوبية الله وألوهيته واستحقاقه العبادة «والتسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاق أو شاغل بقهر وتخويف، أو بتعليم وسياسة بدون عوض، فمنه تسخير العبيد والأسرى، ومنه تسخير الأفراس والرواحل، ويستعمل مجازًا في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم من شأنه أن يصعب استعماله فيه، بحيلة أو إلهام تصريفًا يصيره من خصائصه وشؤونه»[(٢)].

فالإشارة بأن النجوم مسخرة إذًا فيه ما يدل على ضخامة شأنها، وأنه ما كان لأحد أن يستطيع تسييرها في نظام منضبط محدد إلا الله، فهي آية عظيمة على ربوبية الله وألوهيته؛ وما ذلك إلا لأنها أجرام تسبح في الفضاء بسرعات عالية، كما أن لها كتلًا ضخمة قد يعجز الإنسان عن تصورها، فالشمس وهي «نجمٌ متوسط الحجم إذا قيست بالنجوم الأخرى، تكبر الأرض بمليونٍ وثلاثمائة ألف مرةٍ حجمًا، وتبعد عنها مائةً وستةً وخمسين مليون كيلو متر وسطيًا، ويقطع ضوء الشمس هذه المسافة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٩٥ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٨-١٦٩ بتصرف.

في ثماني دقائق.

وأما عن حرارتها فهي تصل إلى عشرين مليون درجة في مركزها، فلو ألقيت الأرض في جوف الشمس لتبخرت في وقتٍ قصيرٍ، ويزيد طول ألسنة اللهب المنطلقة من سطحها من نصف مليون كيلو مترٍ إلى مليون كيلو متر، وتنتج الشمس من الطاقة في كل ثانيةٍ ما يعادل إحراق ألفي مليار طنٍ من الفحم الحجري»[(١)].

فهذه الشمس بكتلتها الكبيرة تدور حول نفسها كل خمسة وعشرين يومًا دورة، وتجري بسرعة مائتي كيلو متر في الثانية الواحدة.

وإذا كان هذا شأن الشمس وهي نجم متوسط «فهنالك في هذا الفضاء الذي لا يعرف البشر له حدودًا ملايين الملايين من النجوم، منها الكثير أكبر من الشمس، وأشد حرارة وضوءًا، فالشعرى اليمانية أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس، والسماك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس، ونوره ثمانية آلاف ضعف، وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة»[(٢)].

إن هذا يكشف لنا عن مدى عظم النجوم، وعظم شأن تسخيرها، فهي برغم هذه السرعات العالية «تتبع نظامًا دقيقًا لا تحيد عنه قيد أنملة مهما مرت بها الليالي، وتعاقبت عليها الفصول والأعوام والقرون، وتدور في أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة»[(٣)]. فسبحان من هي مسخرة بأمره!

والآية الثانية التي ذكرت تسخير النجوم بأمره تعالى هي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل:١٢].

وهذه الآية أتت في سياق الاستدلال على وجود الباري، واستعراض عظمته، وإظهار قدرته، وما تفيض به على العالم من نعم فهو استدلال «بإتقان الصنع على وحدانية الصانع وعلمه، وإدماج بين الاستدلال والامتنان»[(٤)].

وفي هذه الآيات عدة أوجه للقراءات فقد «قرأ الجمهور جميع هذه الأسماء منصوبة على المفعولية لفعل ﴿وَسَخَّرَ﴾ وقرأ ابن عامر: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ بالرفع على الابتداء، ورفع: ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ على أنه خبر عنها، ونكتة اختلاف الإعراب

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لمحمد راتب النابلسي ٢/ ٣٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٤٧-٣٤٤٨.
(٣) الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين ص ١٤٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١١٦.

الإشارة إلى الفرق بين التسخيرين.

وقرأ حفص برفع: ﴿وَالنُّجُومُ﴾ و ﴿مُسَخَّرَاتٌ﴾، ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إن الأول واضح، والآخر خفي لقلة من يرقب حركات النجوم»[1].

فرفع النجوم إذًا يدل على أن «للنجوم شأنًا كشأن الشمس والقمر، وأنها مسخرة كالشمس والقمر، وإن كان الإنسان في غفلة عنها»[2].

ولذلك أتت الخاتمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ «لتلفت العقل إلى هذه الظاهرة، ظاهرة النجوم وحركاتها في السماء، وتسخيرها في مداراتها، وأن أصحاب العقول وحدهم هم الذين يرون هذه الظاهرة، ويتعرفون إلى آثار رحمة الله وقدرته، وأنه إذا التفت العقل إلى هذه النجوم التفاتًا جادًا متفحصًا وجد عالمًا رحيبًا لا حدود له، وأكوانًا عجيبة تذهل لجلالها العقول، وتخشع لروعتها القلوب؛ إذ ليست هذه النجوم التي تبدو وكأنها حبات من اللؤلؤ المنثور في السماء إلا أجرامًا أكبر من الشمس، وأن أصغر نجم فيها يعدل جرم الشمس آلاف المرات، وأن صغر حجمها، وقلة ضوئها بالنسبة للشمس إنما مرجعهما إلى بعدها البعيد عنا، حتى ليبلغ مدى هذا البعد مئات الألوف، وألوف الألوف من السنين الضوئية»[3].

١. النجوم ساجدة.

وهذا من صور تسخير النجوم التي أشار إليها القرآن.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وهذه الآية أتت في سياق ذكر اختلاف أهل الديانات وافتراقهم لتقرر بأنه «ما كان ينبغي لأهل الأديان المختلفة أن يختلفوا؛ لأن جميع العوالم خاضعة لسلطان الله وقدرته، وساجدة لعظمته طوعًا أو كرهًا»[4].

وخصت الآية ذكر ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾؛ «لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة»[5].

واختلف العلماء في المراد بالسجود على ضربين:

أحدهما: من يعقل، فسجوده عبادة.

(١) المصدر السابق ١٤/ ١١٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٢٧٥ بتصرف يسير.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٧/ ١٧٦ بتصرف يسير.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٠٣.

الثاني: من لا يعقل، واختلفوا فيه على رأيين:

- أن سجوده هو بيان أثر الصنعة فيه، والخضوع الذي يدل على أنه مخلوق.
- أن سجوده حقيقة[1].

وعلى كلا القولين وسواء كان السجود حقيقة أو مجازًا فإنه لا شك دال على الخضوع والتسخير.

وهناك موضع ذكر فيه سجود النجم، وهو قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦].

وفي المراد بالنجم هنا قولان:

أحدهما: أنه كل نبتٍ ليس له ساق، وهو مذهب ابن عباس والسدي ومقاتل واللغويين.

والثاني: أنه نجم السماء[2].

وكثير من المفسرين رجح الرأي الأول؛ ولذا أحجمت عن الكلام فيه[3].

وهكذا يظهر لنا كيف أن النجوم بأحجامها الضخمة وسرعاتها المذهلة مسخرة لربها، وخاضعة لخالقها، تنقاد لأمره، وتخضع لسلطانه ومشيئته، فسبحان من ألزمها مدارها، وقهرها في فلكها، وسيرها في نظام لا تشذ عنه ولا تحيد.

٢. النجوم علامات وإرشاد.

لخلق النجوم الكثير من المنافع التي أشار إليها القرآن، ومنها أنها علامات وإرشاد للناس في ظلمات البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وفي هذه الآية يذكرنا تعالى «ببعض فضله في تسخير هذه النيرات»[4]: وذلك بجعله لنا النجوم أدلة «ليهتدي بها مسافرونا في البر والبحر حتى لا يضلوا طريقهم فيهلكوا»[5].

قال قتادة: «إن الله تبارك وتعالى إنما خلق النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدي بها، وجعلها رجومًا للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد رأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به»[6][7].

«وفي إضافة الظلمات إلى البر والبحر

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٦٣-٥٦٤.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٠٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٧٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٧٧.
(٤) تفسير المنار ٧/ ٥٣٠.
(٥) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٩٦.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٨٥.
(٧) قال القاسمي: مراده اعتقاد مناف للعقد الصحيح، لا اعتقاد حكم وأسرار غير الثلاث فيها، إذ فوائد المكونات غير محصور. وذكر حكمة في مكون لا ينفي ما عداها. محاسن التأويل ٤/ ٤٤٢.

إشارة إلى أن الظلام هو الذي يلبسهما، ويستولي عليهما، فكأن السائر في الليل يقطع قطعًا من الظلام، سواء أكان في البر أو البحر»[1].

فأن تكون النجوم دليلًا للمرء في وسط هذه الظلمات فهذه لا شك منفعة كبيرة.

ومن الآيات التي أكدت على هذا قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

ففي هذه الآية يؤكد تعالى على كون النجوم تهدي «من ضلال الطريق في البر والبحر»[2].

وهذه «هداية عظيمة في وقت ارتباك الطريق على السائر؛ ولذلك قدم المتعلق في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾ تقديمًا يفيد الاهتمام، وكذلك بالمسند الفعلي في قوله تعالى: ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾»[3].

والاهتداء بالنجوم ليس مقصورًا على مكان دون مكان، ولا زمان دون زمان، وإنما «تختلف وسائل الاهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المنوعة»[4].

لماذا النجوم علامات وإرشاد؟

قد يقول قائل: لماذا النجوم علامات وإرشاد دون القمر أو غيره مع أن القمر أكثر ضياء وأقرب مسافة؟ ولكن من تأمل تخصيصه عز وجل النجوم بهذه الهداية دون القمر ظهرت له حكم بديعة، فالقمر سريع الحركة والتنقل في الليلة الواحدة، وخلال ليالي الشهر والعام بخلاف النجوم التي تبدو أكثر ثباتًا في السماء مما يجعل معرفة منازلها أيسر، والقمر يغيب من السماء ويفقد ضياؤه في عدد من ليالي الشهر بخلاف النجم الذي لا يذهب نوره إلا ضوء النهار ونور الشمس، والقمر ينكسف وأما النجم فلا ينكسف؛ بل إن لذكر النجم دون غيره من الوسائل والأدوات التي استخدمها الناس منذ القدم حكمة بالغة؛ إذ النجم متاح لكل إنسان في كل مكان وفي كل ساعة من ساعات الليل ولا يملك حجبه أحد، وتعلم الاهتداء به ميسر، بينما تلك الوسائل غير متاحة لكثيرين، وقد يصعب استخدامها على كثيرين.

وهكذا يظهر لنا كيف أن النجوم جعلها الله علامات وإرشاد للناس تهديهم في ظلمات البر والبحر حتى لا يضلوا طريقهم ويهلكوا.

ثانيًا: النجوم زينة:

«مشهد النجوم في السماء جميل -ما في هذا شك-، جميل جمالًا يأخذ بالقلوب،

(١) التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٢٤٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٦١.
(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ١٢٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٥٩.

وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته، ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء، ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب، بل إنه ليختلف من ساعة لساعة، ومن مرصد لمرصد، ومن زاوية لزاوية، وكله جمال، وكله يأخذ بالألباب.

فهذه النجمة الفريدة التي توصوص هناك، وكأنها عين جميلة، تلتمع بالمحبة والنداء! وهاتان النجمتان المنفردتان هناك، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان! وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء، وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان!»[1].

فالنجوم زينة السماء، وقد جاء وصف النجوم بأنها زينة في القرآن لعدة فوائد ومنافع:

١. الاستدلال بها على وحدانية الله.

فإن تزيين السماء بهذه النجوم فيه من بديع التكوين، وجميل التنسيق ما يستدل به على خالقه، ويرغم عقول العباد على التفكر في صانعه وموجده، فهذه النجوم المتناثرة في السماء، المتفرقة في جو الفضاء التي ترنو للناظرين، وتزدان للمعتبرين في حلة بهية، ولوحة نقية، لا بد لها من قائم بأمرها، مدبر لأحوالها وشئونها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦].

أي: «وزينا هذه السماء بالنجوم»[2].

وهذه الزينة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ «إلى حركاتها وأضوائها، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدها ووحدانيته»[3].

فإنه لولا النجوم «لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها، والاستدلال بها على باريها»[4].

فتزيين النجوم للسماء آية عظيمة من آيات القدرة الإلهية التي تشهد بوحدانية الله تعالى وعظمته وجلاله، وتلفت الأنظار إلى بديع صنعه في كونه، وعجيب فعله في خلقه.

وبالنظر في السياق الذي وردت فيه الآية يتأكد هذا المعنى، فقد جاءت هذه الآية بعد ذكر عتو الكافرين واستكبارهم، وعماهم عن آيات الله.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٣٣.

(٢) التفسير الميسر ص٢٦٣.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٣٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٣٠.

﴿جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٤-١٦].

فكأنه تعالى «لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته؛ ليستدل بها على وحدانيته، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾»[1].

وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن في السماء من العجائب ما لا يحتاج إلى صعود وارتقاء، بل يدركها الواقفون على الأرض من أهل الاعتبار، من هذه العجائب تزيين السماء بالكواكب.

وكذا يقال في قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦].

فإنه تعالى لما ذكر وحدانيته على خلقه، وأنه رب السموات والأرض ورب المشارق بقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات:٤-٥].

أردف ذلك بقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦].

وفي علاقة هذه الآية بما قبلها يقول ابن عاشور رحمه الله: «هذه الجملة تتنزل من جملة ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ منزلة الدليل على أنه رب السموات، واقتصر على ربوبية السموات؛ لأن ثبوتها يقتضي ربوبية الأرض بطريق الأولى»[2].

وهكذا يظهر أن جعل النجوم زينة فيه دلالة على خالقها وعلى وحدانيته وعلى جلاله وكماله؛ لأنها تحرك في الإنسان التساؤل: من الذي خلق هذا الخلق البديع المتقن الذي يخلب الأنظار ويجذب القلوب؟ لابد أن وراء الإبداع مبدع، وخلف كل جمال جميل!

٢. لفت الأنظار إلى جمالية هذا الكون.

زينة النجوم جمال، والله جميل يحب الجمال، خلق هذا الكون فأحسن خلقه وأتقنه وجمله.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «القرآن يوجه النفس إلى جمال السماء، وإلى جمال الكون كله؛ لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود، وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه؛ لأنه حينئذٍ يصل إلى النقطة التي يتهيأ فيها للحياة الخالدة، في عالم طليق جميل، بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية»[3].

من أجل هذا جعل الله في خلقه العديد من مشاهد الجمال والزينة، بل لا تجد خلقًا من خلق الله إلا وفيه جمال، ويدل على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٩ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٨٧.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٣٤ باختصار.

جمال!

ومن هذا الجمال الذي أبدعه الله جل جلاله؛ ليتأمله خلقه ويستروحون في ظلاله النجوم التي جعلها الله زينة للسماء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦].

وأن تكون النجوم زينة للسماء فهذا لا شك يشي «بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون، فليست الضخامة وحدها، وليست الدقة وحدها إنما هو الجمال الذي ينتظم المظاهر جميعًا، وينشأ من تناسقها جميعًا.

وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة وقد انتثرت فيها الكواكب والنجوم توصوص بنورها، ثم يبدو كأنما تخبو، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد، ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حالم، والكون من حوله مهوم كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد!

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكوني، وعمق هذا الجمال في تكوينه»[(١)].

وهذا لا شك يوجه المؤمنين بأن من واجبهم أن «يجعلوا حياتهم مبنية على الجمال في الظاهر وفي الباطن؛ تأسيًا بسنة الله تعالى في خلق هذا الكون»[(٢)].

وهكذا يظهر لنا كيف أن كون النجوم زينة يلفت الأنظار بشدة لجمالية هذا الكون.

٣. شهود منة الله على خلقه.

فمن منن الله على عباده ورحمته بهم وفضله عليهم أن جعل لهم المناظر البهية التي تروق لنفوسهم وتملؤها بهجة وسرورًا، يقول ابن عاشور رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦]: «فيها منة على الناس بأن جعل لهم في السماء زينة الكواكب تروق أنظارهم؛ فإن محاسن المناظر لذة للناظرين»[(٣)].

فتزيين السماء بالنجوم والكواكب نعمة من الله على خلقه ككثير من نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وحق على عباده الذين يستمتعون بالنظر إليها أن يعرفوا فضله فيها، ويشكروه عليها.

ثالثًا: النجوم رجوم للشياطين:

السماء عالم فسيح واسع ممتد، يستعصي على العقل حصره، وتعجز الفهوم عن الإحاطة به، والإلمام بجوانبه، وهو حافل بالأسرار، مليء بالعجائب التي يقف العقل البشري أمامها عاجزًا، لا يبدي جوابًا، ومن هذه العجائب النجوم وقد ذكر

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٣٣.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٧-٢٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٨٧.

الله للنجوم في كتابه عددًا من المنافع، ومن هذه المنافع ما ذكره الله عز وجل من أنها رجوم للشياطين ما أن يحاولوا التسمع للملأ الأعلى حتى تنقض عليهم فتحرقهم، وتقضي عليهم.

عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الملائكة تنزل في العنان -وهو السحاب- فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه، فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبةٍ من عند أنفسهم)[1].

فأن تكون النجوم رجومًا للشياطين أي: «شهبًا محرقة لمسترقي السمع من الشياطين»[2] فهذا له فوائد عدة، منها:

بيان مدى شدة حفظ السماء، فالسماء منها أتى الوحي، وتنزل الأوامر والمقادير التي تضبط شأن العالم، فأن تكون محفوظة، وعليها حراسة شديدة فهذا من المقاصد العظيمة؛ ولقد ذكر القرآن أن من منافع النجوم أن الله جعلها رجومًا للشياطين الذين يحاولون الوصول إليها، ومعرفة ما يجري فيها؛ ليصلوا به إلى الكهان؛ ليخدعوا الناس به، ويفسدوا عليهم أمر حياتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر:١٦-١٨].

وها هنا يخبرنا الرب جل جلاله أن السماء محفوظة من كل شيطان رجيم حتى لا يصل إليها فظاهرها «مجمل بالنجوم النيرات، وباطنها محروس ممنوع من الآفات»[3].

ومع هذا فإن بعض الشياطين في بعض الأوقات يسعى لاستراق السمع ومعرفة ما يدور في الملأ الأعلى، فآنئذٍ يتبعه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي: «بين منير يقتله أو يخبله»[4].

قال الإمام البخاري عند تفسيره لهذه الآية: حدثنا سفيان عن عمرٍو عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كالسلسلة على صفوانٍ -قال عليٌّ: وقال غيره: صفوانٍ ينفذهم ذلك- فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحدٌ فوق آخر -ووصف سفيان بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢١٠.

(٢) التفسير الميسر ص٥٦٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٣٠ بتصرف.

(٤) المصدر السابق.

فوق بعضٍ- فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض -وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض- فتلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبةٍ، فيصدق فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقًا؟ للكلمة التي سمعت من السماء»[1].

ومما يدل على شدة حراسة السماء وقوة حفظها تعبير القرآن بـ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾ «فهناك من سرق؛ وهناك من استرق؛ فالذي سرق هو من دخل بيتًا على سبيل المثال، وأخذ يعبئ ما فيه في حقائب، ونزل من المنزل على راحته لينقلها حيث يريد».

لكن إن كان هناك أحد في المنزل فاللص يتحرك في استخفاء خوفًا من أن يضبطه من يوجد في المنزل؛ وهكذا يكون معنى ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾: الحصول على السرقة مقرونة بالخوف[2]. فأن تكون النجوم رجومًا للشياطين بهذه القوة التي تجعلهم فقط يسترقون السمع بكل وجل وخوف فهذا يدل على شدة حفظ السماء.

الاستدلال على عظمة الخالق:

تنتصب شواهد عدة للتدليل على عظمة الخالق وشدة قدرته وقهره، واتساع سلطانه، ومن الأمور التي ذكرها القرآن في هذا السياق هو كون النجوم رجومًا للشياطين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٥].

فهذه الآية أتت في بدايات سورة الملك التي تعنى بتفصيل مظاهر قدرة الرب الجليل، يقول صاحب الظلال: «ومفتاح السورة كلها ومحورها الذي تشد إليه تلك الحركة فيها هو مطلعها الجامع الموحي: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١].

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التي عرضتها السورة، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التي نبهت القلوب إليها، فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة، وكان الابتلاء بهما، وكان خلق السموات وتزيينها بالمصابيح، وجعلها رجومًا للشياطين»[3].

وهذه الآية كما -يقول الإمام الرازي- دليل: «على كونه تعالى قادرًا عالمًا؛ وذلك لأن هذه الكواكب -نظرًا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص، وموضع معين،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين)، ٦/ ٨٠، رقم ٤٧٠١.
(٢) تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٦٦٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٣٠-٣٦٣١.

وسير معين- تدل على أن صانعها قادر -ونظرًا إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لأهل الدنيا، وسببًا لانتفاعهم بها- تدل على أن صانعها عالم»[1].

وكذلك من دلائل قدرته عز وجل «أن جعل جزءًا منها رجومًا للشياطين بانفصال بعض الشهب عنها لرمي شياطين الجن الذين كانوا يحاولون التسمع إلى الملأ الأعلى، وهي آيات دالة على عظيم قدرته جل جلاله بصون السماء وما فيها من أخبار»[2].

والرجوم: جمع رجم «وهو اسم لما يرجم به، أي: ما يرمي به الرامي من حجر ونحوه»[3].

والذي جعل رجومًا للشياطين هو النجوم فـ«ضمير الغائبة في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ المتبادر أنه عائد إلى المصابيح، أي: إن المصابيح رجوم للشياطين»[4].

«والمصابيح هي النجوم العظيمة المضيئة»[5].

وليس كل النجوم رجومًا للشياطين وإنما معنى جعلها رجومًا «جارٍ على طريقة إسناد عمل بعض الشيء إلى جميعه، مثل إسناد الأعمال إلى القبائل لأن العاملين من أفراد القبيلة»[6].

فكون النجوم بكتلها الضخمة وسرعاتها العالية رجومًا للشياطين فهذا لا شك من دلائل قدرة الله وشدة عظمته.

ومن الآيات التي أشارت لهذا قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت:١٢].

فهذه الآية تذكر عددًا من مظاهر قدرة الباري جل جلاله؛ ولذا ختمت بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ ومن بين تلك الدلائل المذكورة قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ أي: «من الشياطين الذين يسترقون السمع»[7].

والقرآن عالج الكثير من خرافات الجاهلية، وصور الشرك التي كانت منتشرة بينهم، وكشف زيفها، وفضح باطلها، وكان من بين هذه الأباطيل ما ادعاه أهل الجاهلية من أن الجن يعلمون الغيب، ويتصلون بالملأ الأعلى، وبينهم وبين الله نسبٌ، فرد القرآن على ذلك ببيان أن النجوم رجوم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٨٣.
(٢) التفسير الموضوعي للقرآن، مجموعة مؤلفين ٨/ ٢٧٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢١.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: التفسير الميسر ص٥٦٢.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢١.
(٧) التفسير الميسر ص٤٧٨.

للشياطين، وأنها تمنعهم من استراق السمع.

قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:٦-١٠].

فهذه الآيات أتت في سورة الصافات التي «تستهدف -كسائر السور المكية- بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله؛ ولكنها -بصفة خاصة- تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى»[(١)].

فهذه الآيات أتت «بعد ما عالج مطلع السورة شطر الأسطورة الخاص بالملائكة؛ ليعالج شطرها الثاني وهو الخاص بالشياطين، حيث أنهم كانوا يزعمون أن بين الله وبين الجنة نسبًا، وبعضهم كانوا يعبدون الشياطين على هذا الأساس، وعلى أساس أن الشياطين يعرفون الغيب لاتصالهم بالملأ الأعلى»[(٢)].

فبينت الآيات كيف أن السماء الدنيا مزينة ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦].

أي: «بزينة هي النجوم»[(٣)] وكيف أن هذه النجوم تحفظ السماء ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:٧].

يعني: «المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه»[(٤)] ولذلك قال بعدها: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ [الصافات:٨].

أي: «لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره»[(٥)].

وتأمل كيف أنه قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ فهذا الفعل أصله «يتسمعون» وقد ضمن معنى الفعل يصغون أو يدنون؛ ولهذا عدى بحرف الجر ﴿إِلَى﴾ أي: لا يستطيعون أن يتسمعوا إلى الملأ الأعلى، وهم في إصغاء شديد حالة التسمع[(٦)].

وهذا يدل على شدة حراسة السماء بالنجوم، فإنهم مع حرصهم على السماع لا يستطيعون؛ ولذا قال الله في خاتمة الآية: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات:٨].

ثم أوضحت الآيات أن بعض الشياطين قد يتلقف شيئًا على وجه الخفية والسرعة ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ [الصافات:١٠].

«والخطف: ابتدار تناول شيء بسرعة،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٨٠.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩٨٣ بتصرف.
(٣) التفسير الميسر ص٤٤٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ٩٦٦.

والخطفة المرة منه»[1].

فيكون جزاؤه الإحراق ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: «تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء»[2].

وهكذا ترد الآيات على المشركين معتقدهم الفاسد «في أن الشياطين يعلمون الغيب، وأنهم يتلقون ذلك باتصالهم بالملأ الأعلى، واستماعهم إلى ما يدور بين الملائكة هناك، مما يتصل بالعالم الأرضي»[3].

وكذلك ترد عليهم خرافة اتخاذهم آلهة، وأن بينهم وبين الله نسبًا فلو «كان شيء من هذا صحيحًا لتغير وجه المعاملة؛ ولما كان مصير الأنسباء والأصهار -بزعمهم- هو المطاردة والرجم والحرق أبدًا!»[4].

وهكذا يظهر كيف أن رجم النجوم للشياطين يكشف عن تهافت مزاعم المشركين وأباطيلهم.

قال تعالى حاكيًا قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٨-٩].

وفي هاتين الآيتين يخبر الجن أنهم حاولوا طلب أخبار السماء ولمسها وحقيقة المس: «الجس باليد، واستعير هنا؛ لطلب أخبار السماء؛ لأن الماس للشيء في العادة إنما يفعل ذلك طلبًا لاختباره ومعرفته»[5].

ولكنهم وجدوها ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن:٨].

أي: «ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي يرمى بها من يقترب منها»[6].

ثم كشفوا عن شدة استغرابهم لذلك قائلين: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩].

أي: «مرصدًا له، معدًا لإتلافه وإحراقه»[7].

وهذا لا شك يدل على «لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز؛ ذلك أن الله لما شاء بعث نبيه وإرساله وإنزال القرآن عليه ملئت السماء حرسًا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٩٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠١.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ٩٦٦.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٨٤.
(٥) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ١٣٥.
(٦) التفسير الميسر ص٥٧٢.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩١.

ويختلط، ولا يدرى من الصادق[1].

يقول الإمام الرازي: «هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث إلا أنها زيدت بعد المبعث، وجعلت أكمل وأقوى؛ لأنه قال: ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ﴾ [الجن:٨].

وهذا يدل على أن الحادث هو الملء والكثرة وكذلك قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ﴾ [الجن:٩].

أي: كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها، فكثرة الرجم، ومنع الاستراق بالكلية هي التي حملت الجن على الضرب في البلاد، وطلب السبب»[2]. فأن يزداد الرجم للشياطين، وأن تمنع من استراق السمع فهذا لا شك فيه بيان لمدى مكانة القرآن وشرفه ورفعته على سائر الكتب.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٤٠.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٧٠ بتصرف.

أسماء وصفات في عالم النجوم

أولًا: نجوم ذكرت بأسمائها:

ذكر الله تعالى النجوم في كتابه في مواضع متعددة، لكن النجم الوحيد الذي ذكر باسمه هو الشعرى.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ [النجم:٤٩].

فهذا هو الموضع الوحيد الذي ذكر فيه النجم بالاسم دون الوصف.

والشعرى: «كوكب وهاج مضيء يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر»[3] وقد يبدو من خلال النظر في الآية وسياقها أنه ذكر باسمه لتقرير التوحيد ونفي العقائد الشركية، فنجم الشعرى كان له مكانته الخاصة عند العرب، فهم كانوا في جاهليتهم يعبدونه من دون الله[4]. وكانوا ينسبون إليه الغنى والفقر، كما أشار إلى هذا الرازي[5].

واختلف فيمن كان يعبده، فقال السدي: كانت تعبده حمير وخزاعة، وقال غيره: أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته؛ ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبي صلى الله عليه وسلم ابن أبي كبشة حين دعا إلى الله،

(٣) انظر: تفسير القشيري ٣/ ٤٩١، تفسير المراغي ٢٧/ ٦٧ بتصرف.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٠.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٨٣.

وخالف أديانهم[1].

ولذا ذكره القرآن باسمه لـ«تقرير عقيدة التوحيد، ونفي عقيدة الشرك الواهية المتهافتة»[2] وذلك من خلال إعلامهم بأنه ربهم ورب هذا النجم الذي يعبدونه من دون الله ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم:٤٩].

وتأمل كيف أنه أتى بضمير الفصل الذي «يفيد قصر مربوبية الشعرى على الله تعالى؛ وذلك كناية عن كونه رب ما يعتقدون أنه من تصرفات الشعرى، أي هو رب تلك الآثار ومقدرها وليست الشعرى ربة تلك الآثار المسندة إليها في مزاعمهم»[3].

وذكر ربوبية الله لنجم الشعرى لا شك يشير لعظم قدرة الله، فنجم الشعرى «أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونوره خمسون ضعف نور الشمس، وهي أبعد من الشمس بمليون ضعف بعد الشمس عنا»[4] فأن يكون مربوبًا لله جل جلاله فهذا لا شك يدل على شدة قدرة الخالق عز وجل، وأن تذكر ربوبية الله لنجم الشعرى العملاق في سورة النجم التي «تتحدث عن الرحلة إلى الملأ الأعلى»[5].

تلك الرحلة التي قد تستبعدها بعض العقول وتستعظمها، فهذا لا شك له وزنه في بيان عظم قدرة الله في فعل ما يشاء.

ثانيًا: نجوم ذكرت بصفاتها:

وصف الله في كتابه النجوم بعدة أوصاف؛ لهذه الأوصاف دلالات متنوعة، وفيها إشارات، إما لبعض وظائف هذه النجوم أو لتوضيح ماهيتها وشكلها، فتارة يصفها بالثقوب، وتارة يصفها بالخنس والجريان والكنس، وتارة يصفها بالطروق.

وفيما يلي تفصيل هذا:

١. وصفها بالثقوب.

ورد هذا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠].

وهذا ورد في معرض الحديث عن حفظ الله للسماء من تسلط الشيطان، بأن جعل فيها الكواكب التي من وظائفها أنها تتبع من استرق السمع من الشياطين فتحرقه وتهلكه.

وجاء هذا الوصف أيضًا في سورة الطارق حين أقسم الله بالطارق -بعد القسم بالسماء-، ثم وصف هذا الطارق وعرفه بأنه: النجم الثاقب.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:١-٣].

والثاقب يعني: النافذ بضوئه وشعاعه المنير[6].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١١٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤١٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٥٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤١٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٦٧.

و«إنما وصف النجم بكونه ثاقبًا لوجوه:

أحدها: أنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه.

وثانيها: أنه يطلع من المشرق نافذًا في الهواء كالشيء الذي يثقب الشيء.

وثالثها: أنه الذي يرى به الشيطان فيثقبه، أي: ينفذ فيه ويحرقه.

ورابعها: النجم الثاقب هو النجم المرتفع على النجوم، والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعًا: قد ثقب»[1].

٢. وصفها بالخنس والجريان والكنس.

وقد وردت هذه الأوصاف مجتمعة في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦].

وتخنس أي: «ترجع، بينا يرى أحدها في آخر البروج كر راجعًا إلى أوله»[2].

والجوار: «جمع جارية: وهي التي تجري، أي: تسير سيرًا حثيثًا»[3].

وتكنس: «أي: تغيب في المواضع التي تغيب فيها»[4]. وقيل: «أي: تكنس بالنهار فلا ترى»[5].

وفي وصف النجوم بهذه الأوصاف إشارة إلى الأسرار العظيمة التي جعلها الله في أحوالها العجيبة، فسيرها وظهورها ثم اختفاؤها وغيابها لهو دليل على وجود مدبر قادر، يرعى أحوالها، ويقوم على أمرها.

والتعبير عن النجوم بهذه الأوصاف «يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء، وهي تجري وتختبئ في كناسها، وترجع من ناحية أخرى، فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب، وهناك إيحاء شعوري بالجمال في حركتها، في اختفائها وفي ظهورها، في تواريها وفي سفورها، في جريها وفي عودتها، يقابله إيحاء بالجمال في شكل اللفظ وجرسه»[6].

وما هذا العجب في أحوالها إلا مرتع خصب للتأمل والتفكر والاهتداء بها إلى خالقها وموجدها وراعي أمرها، وصدق ربنا حين أخبر عن أن زينة الكواكب آية للمعتبرين والمتفكرين: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦].

٣. وصفها بالطروق.

وقد جاء هذا الوصف في سورة الطارق؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق:١].

والطارق فسره الله تعالى بأنه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣].

والوصف بالثقوب سبق بيانه.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١١٧ بتصرف.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٠٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٥٢.
(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٩١.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٣٤٩.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٤١.

وأما وصفه بالطارق «فلأنه يبدو بالليل وكل ما أتاك ليلًا سواء كان كوكبًا أو غيره فهو طارق، فلا يكون الطارق نهارًا»[(١)]. والمراد ها هنا: «الكوكب البادي بالليل، إما على أنه اسم جنس أو كوكب معهود، وقيل: الطارق النجم الذي يقال له: كوكب الصبح»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ [الطارق:٢].

تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به، فالاستفهام مستعمل في تعظيم أمره[(٣)].

ووصف النجوم بالطروق يلفت الأنظار لعظيم أمرها حقًا؛ إذ النجوم بكتلها الثقيلة وسرعاتها العالية تتحرك في ظلام دامس حالك دون أن تتصادم أو ترتطم ببعضها البعض، وهذا لا شك يدل على عظمة خالقها، وعظيم تقديره وحفظه، وبهذا يظهر التناسب بين القسم بالطارق والمقسم عليه، وهو قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطارق:٤].

فالذي يهيمن على تلك النجوم العظيمة التي تسبح في الليل بسرعاتها العالية، ويضبط حركتها كذلك لا يخفى عليه العلم والإحاطة بما تضمره النفوس وتخفيه.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١١٧.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ١٤٠.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٣٥٢.

ثالثًا: القسم بالنجوم:

المتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله تعالى أقسم بأشياء عديدة في كتابه، والله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته؛ «لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره»[(٤)]. والنجوم من الأشياء التي أقسم بها القرآن كثيرًا في غير ما موضع؛ وذلك يدل على شدة دلالتها على عظمة خالقها، وقد تنوع الإقسام بالنجوم فتارة يكون بذواتها، وأخرى بأوصافها، وفيما يلي عرض لهذا:

١ . القسم بذات النجوم

أقسم الله جل جلاله بذات النجوم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق:١].

فها هنا يقسم القرآن بالنجم، فالألف واللام للجنس أي: لا يقصد بهذه الكلمة نجمًا معينًا إنما جنس النجوم، تقول مثلًا: التفاح ذو قيمة غذائية عالية، أي: جنس التفاح. والقسم بالنجم هنا له فائدة جليلة وهي إظهار مدى شدة قدرة الله.

يقول الطاهر ابن عاشور: «والقسم بالنجم لما في خلقه من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى، ألا ترى إلى قول الله حكاية عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا﴾

(٤) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٩٧.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[الأنعام:٧٦]»[١].

٢. القسم بوصف أحوال النجوم.

إذا كان الله تعالى أقسم بذات النجوم صراحة فإنه أقسم كذلك ببعض أحوال النجوم وأوصافها، ومن هذه الأوصاف ما يلي:

١. هوي النجوم.

وهذه من أوصاف النجوم التي أقسم الله تعالى بها.

قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١].

فها هنا يقسم الباري جل جلاله بالنجم عند هويه، أي: «سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار»[٢] ولهذا القسم دلالات عدة، منها:

الأول: التأكيد على تسخير الله: يقول الطاهر ابن عاشور عن سر تقييد القسم بحالة هوي النجم: «تقييد القسم بالنجم بوقت غروبه لإشعار غروب ذلك المخلوق العظيم بعد أوجه في شرف الارتفاع في الأفق على أنه تسخير لقدرة الله تعالى»[٣].

فالنجم بعدما كان في قمة الارتفاع وذروته يأفل ويغيب، وفي هذا ما يدل على أن خلف هذه الموجودات إله قوي قادر لا يغيب مسخر وقاهر لها تظهر متى شاء؛ وكذلك تأفل متى أراد.

وهكذا يظهر لنا أن القسم بالنجوم حال هويها من مقاصده الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى في خلقه، وعلى عظيم قدرته في تسخير خلقه.

الثاني: التأكيد على صحة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم:

ويظهر ذلك من معرفة المقسم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢].

فكأن الله أقسم بالنجم حال هويه؛ للتأكيد على «صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي الإلهي»[٤] وذلك لأن الله تعالى «لما جعل النجوم زينة للسماء كذلك جعل الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم»[٥].

ولا غرو فإن «ظهور النبي صلى الله عليه وسلم -في مكة- كان في ظلمة ليل بهيم، أطبق على العالم بأسره، فكان ظهور دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أشبه بالنجم الذي يرى منه المدلجون في الليل هاديًا، إذا هم رفعوا رؤوسهم إلى السماء، ومدوا أبصارهم إليه»[٦].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٩٠ بتصرف.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٨ بتصرف.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب

وهكذا يظهر لنا أن من دلالات القسم بالنجم حال هويه التأكيد على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومما يؤكد هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٧].

فها هنا يقسم تعالى بمواقع النجوم، أي: «مساقطها في مغاربها»[(١)].

والمقسم عليه «هو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم أي: كثير الخير، غزير العلم»[(٢)].

٢. الخنوس والكنس.

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦].

وفي القسم بخنس النجوم وكنسها دلالات عدة منها:

الأول: التأكيد على قدرة الله تعالى وربوبيته.

أقسم الله جل جلاله بخنس النجوم وكنسها «لينوه بشأنها من جهة ما في حركاتها من الدلائل على قدرة مصرفها ومقدرها، وإرشاد تلك الحركات إلى ما في كونها من بديع الصنع، وإحكام النظام»[(٣)].

فالنجوم «تزيد على عدة بلايين نجم، منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جدًا، إن لم يكن مستحيلًا»[(٤)]. فأن تكون النجوم بهذا الضبط وذاك النظام فهذا لا شك من أعظم دلائل قدرة الباري جل جلاله.

الثاني: من دلائل البعث والنشور.

ذكرت السورة في بدايتها انهدام الكون وخرابه، وعودة جميع الخلق إلى الرب تعالى للحساب والثواب والعقاب، وهذا يشير للبعث والنشور، فجاء القسم بخنس النجوم وكنسها؛ ليدل «على قدرة الله تعالى على بعث الموتى من القبور، وعلى إعادة هذه العظام البالية، وإلباسها لباس الحياة من جديد»[(٥)]؛ إذ تنقل النجوم الهائلة ذات الأحجام الكبيرة من حال إلى حال، ومن

١٤/ ٥٨٦.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الله والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل ص ٣٣.

(٥) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٧٣٤.

وجود وظهور إلى عدم وخفاء من أعظم براهين القدرة، فالذي يفعل هذا بالنجوم فيخفيها بعد ظهور ويظهرها بعد خفاء لا يعجزه فعل هذا بالإنسان الضعيف.

رابعًا: النجوم وقيام الساعة:

أخبر الله تعالى عن النجوم -كما سبق معنا- أنها زينة، وجعل زينتها آية من آيات قدرته، ودلائل عظمته، ثم أخبرنا تعالى أيضًا- أن هذه النجوم يأتي عليها وقت فينمحي ضوؤها، ويذهب نورها، وينقلب حالها، فتتبدد وتتفرق وتضطرب، فتصير مدعاة للخوف والرعب بعدما كانت في الدنيا مدعاة للفرح والسرور والابتهاج.

وهذا الانقلاب في أحوال النجوم جعله الله علامة من علامات يوم القيامة التي تكشف عن مشاهد الرعب والفزع في هذا اليوم العظيم، والتي تبين اختلال النظام الكوني كله آنئذٍ.

وقد جاء هذا المعنى في ثلاث آيات من كتاب الله:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات:٨].

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات:٧].

لينبه أن طمس النجوم من علامات هذا اليوم الذي يلاقون فيه ما يوعدون.

«وطمست أي: ذهب ضوؤها ومحي نورها كطمس الكتاب، يقال: طمس الشيء إذا درس»[(١)]. فيكون أول أحوال النجوم المؤذنة بقيام الساعة أن يطمس نورها وينمحي.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير:٢].

وفي معنى الانكدار قولان للعلماء:

أحدهما: السقوط والتناثر.

وثانيهما: التغير.

يقول الطبري رحمه الله: «قوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير:٢].

يقول: وإذا النجوم تناثرت من السماء فتساقطت، وأصل الانكدار: الانصباب، وقال آخرون: انكدرت: تغيرت»[(٢)].

«وهذان القولان ليس بينهما تضاد، بل الثاني من لوازم الأول، والمعنى أنها إذا تساقطت كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار:٢].

فإنها تتغير ويذهب ضوؤها»[(٣)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار:٢].

والانتثار أيضًا من الأحوال التي تحدث للنجوم يوم القيامة، ومعناه: سقوطها من

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٥٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٣٩.
(٣) تفسير جزء عم، مساعد الطيار ص ٦٤.

مواضعها متفرقة[1]. وأصل النثر: «رميك الشيء متفرقًا»[2]. يقال: «انتثر: تفرق»[3].

وليس بينهما تعارض فالتناثر توضيح لهيئة أو صفة تساقطها أو من لوازمه؛ إذ يلزم من تساقطها تناثرها وتفرقها.

وبعد هذا العرض لمعاني الطمس والانكدار والانتثار نقول:

قد تكون هذه مراحل مختلفة متلاحقة تمر بها النجوم يوم القيامة، تبدأ بطمس نورها، ثم تناثرها متفرقة، وسقوطها على الأرض، يقول الزمخشري: «ويجوز أن يمحق نورها، ثم تنتثر ممحوقة النور»[4].

ويكون الانكدار بيانًا للحال العامة للنجوم يومئذٍ، وهي تغير أحوالها من طمس نورها، وذهاب ضوئها، وتساقطها من جو السماء متناثرة.

وهكذا يظهر لنا كيف أن القرآن ذكر من أحوال النجوم ما هو علامات ودلائل على قيام الساعة، ونسأل الله النجاة من أهوال هذا اليوم.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، الجبال، السماء، الشمس، القمر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٧٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٩٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٤٦، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢١٩.

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/ ١٣٧.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٠٠.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٧٨.

النجوى

عناصر الموضوع

مفهوم النجوى	٤٦٠
النجوى في الاستعمال القرآني	٤٦١
الألفاظ ذات الصلة	٤٦٢
إحاطة علم الله بالنجوى	٤٦٥
أنواع النجوى	٤٧١
ضوابط النجوى	٤٧٩
أحكام النجوى	٤٨٠
آثار النجوى على المجتمع	٤٨٢

مفهوم النجوى

أولًا: المعنى اللغوي:

النجوى: اسم مصدر مأخوذ من مادة (ن ج و) قال ابن فارس: «النون والجيم والحرف المعتل أصلان، يدل أحدهما على كشط وكشف، والآخر على ستر وإخفاء»[(١)].

والنجوى: السر بين اثنين، يقال: (ناجيته)، و(تناجوا) و(انتجوا)، وهو(نجي) فلان والجمع (أنجيةٌ)[(٢)].

والنجي: هو المناجي المخاطب للإنسان والمحدث له دون من سواه، ومنه موسى نجي الله[(٣)].

وقد يطلق اسم (النجوى) ويراد به فعل المتناجي، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء:٤٧].

فجعلهم هم (النجوى)، وإنما (النجوى) فعلهم، كما تقول: قوم رضا، وإنما الرضا فعلهم.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني في تفسيره: «والنجوى تقال للحديث الذي تفرد به اثنان فصاعدًا أو للقوم المتناجين»[(٤)].

وباعتبار أن النجوى قد تكون في خير، وقد تكون في مقابل ذلك في شر، كما قررته آية النساء عند قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ [النساء:١١٤].

فإن التعريف الاصطلاحي لكلمة النجوى هو: المسارة بين اثنين فأكثر في خير أو في شر[(٥)].

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٣٩٧.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٩٨، تهذيب اللغة، الأزهري ١١/ ١٣٥، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٣٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب فضل النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٦١٦. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي، رقم ٤٨٣.

(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٤٨، التفسير الوسيط ٢/ ١١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٢.

(٥) انظر تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٥.

النجوى في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نجو) في القرآن الكريم (٨٣) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة:١٢]
الفعل المضارع	٢	﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة:٨]
فعل الأمر	١	﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة:٩]
المصدر	١١	﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ [طه:٦٢]
اسم	١	﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف:٨٠]

وجاءت النجوى في القرآن بمعناها في اللغة، وهو: السر بين اثنين[٢]. وناجيته أي: ساررته، وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٣٠٨-١٣٠٩.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٩٩.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٧٩٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخلوة:

الخلوة لغة:

«(الخلو):الانفراد، (خلا) به أي: انفرد»[١]، قال صاحب التهذيب: «ويقول الرجل للرجل: اخل معي حتى أكلمك، و(اخلني) حتى أكلمك أي: كن معي خاليًا»[٢].

و(خلا) الشيء من باب سما، و(خلوت) به (خلوةً) و (خلاءً) و (خلا) إليه اجتمع معه في (خلوةٍ)، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة:١٤][٣].

قال الزمخشري: «وخلوت بفلان وإليه، إذا انفردت معه»[٤].

و(خلا) الرجل بصاحبه وإليه ومعه، عن أبي إسحاق (خلوًا وخلاءً وخلوةً) الأخيرة عن اللحياني: اجتمع معه في (خلوة)[٥].

الخلوة اصطلاحًا:

المعنى الذي دل عليه لفظ خلا في بعض معانيه اللغوية، والسياق القرآني الذي جاء فيه، يدلان على أن خلوة أولئك المختلين كانت من أجل الإسرار بكلام لا يحبون أن يطلع عليه أحد من المؤمنين،[٦] فهي كقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾[طه:٦٢].

الصلة بين الخلوة والنجوى:

اتحدت كلمة خلا مع كلمة النجوى في بعض معانيها في اللغة، واتحدا أكثر حسب السياق القرآني الذي جاءت فيه هذه الكلمة بصيغتيها (خلو) و(خلا).

٢ السر:

السر لغة هو:

ما يكتم في النفس من الحديث، وهو خلاف الإعلان، والجمع الأسرار، يقال: سررته: كتمته[٧].

(١) البحر المحيط ص١٠٢.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٧/ ٢٣٢.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٠، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٢٩٨.
(٤) الكشاف ١/ ٦٥.
(٥) لسان العرب١٤/ ٢٣٨.
(٦) انظر جامع البيان، الطبري ٧/ ١٥١ـ١٥٢.
(٧) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦٣، المصباح المنير

السر اصطلاحًا هو:

اسم لما يكتم ويخفى في القلوب من العقائد والنيات والأقوال والأعمال وغيرها[١].

الصلة بين والسر والنجوى:

النجوى فيها إسرار، فهي صورة من صور السر، فالصلة بينهما صلة عموم وخصوص.

٣ الإخفاء:

الإخفاء لغة:

الستر والكتمان، يقال: خفيت الشيء أخفيه: كتمته، وأخفيت الشيء: سترته وكتمته، ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء: تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها، وهو من الأضداد[٢].

والإخفاء اصطلاحًا هو:

الستر ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها[٣].

الصلة بين الإخفاء والنجوى:

الإخفاء أعم، يشمل الحديث وغيره، تقول: أخفيت الدرهم في الثوب. ولا تقول: كتمت ذلك، والنجوى تقال للحديث الذي تفرد به اثنان فصاعدًا أو للقوم المتناجين.

٤ الجهر:

الجهر لغة:

جهرت الشيء إذا كشفته، وجهرته واجتهرته أي: رأيته بلا حجاب بيني وبينه، والجهر العلانية وفي الحديث (وكان عمر رجلًا مجهرًا)[٤] أي: صاحب جهرٍ ورفع لصوته، والجهر

في غريب الشرح الكبير للفيومي ١/ ٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٧.

(١) انظر: المفردات ص ٤٠٤، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٦.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٣٤، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٥٦٤، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢، الكليات، الكفوي ص ٥١٤.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، رقم ٤٦٦٢، وأحمد في مسنده، رقم ١٨٩٢٦، ٤/ ٣٢٢.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

هو ما ظهر وهو رفع الصوت يقال: جهر بالقراءة إذا رفع صوته بها[1].

الجهر اصطلاحًا:

هو «رفع الصوت بحيث يسمع نفسه ومن جاوره»[2].

الصلة بين الجهر والنجوى:

أن الجهر خلاف النجوى، وهو إظهار المعنى للنفس ورفع الصوت به.

(١) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٤٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٤٧١.
(٢) معجم لغة الفقهاء،قلعجي ص١٦٨.

إحاطة علم الله بالنجوى

أولًا: علم الله بأحوال المتناجين:

لا يخفى على القارئ للآيات المتعلقة بالنجوى ـ والتي عرضت في المبحث أعلاه ـ أن كلا من الأخبار والأحكام التي جاء لفظ النجوى في سياقها هي تعبير واضح عن علم الله الواسع.

فكل خبر أخبرنا الله تعالى من خلاله عن المتناجين ونجواهم، مع حرصهم الشديد على توخي السر والستر والكتمان؛ ليدل دلالة قاطعة أن من أخبر عن كل تلك الأحداث بتفاصيلها ليعلم كل شيء.

كما أن الحكم لا يمكن أن يكون له واقع إلا إذا علم بأصل القضية، وجوهر المسألة التي سيصدر من أجلها ذلكم الحكم، فكان العلم بكل ذلك شرط لصدور الأحكام المناسبة، والله تعالى قد شرع تلك ما يتعلق بالنجوى من أحكام وهو يعلم أحوال أصحابها، وملابساتهم، ومن ثم فإن كل الأحكام التي تضمنتها آيات النجوى أيضا تدل على واسع علم الله عز وجل.

وقد قرر الله تعالى أنه يعلم بكل المتناجين، وبكل ما يتناجون به فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة:٧].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك فترى ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من شيء، لا يخفى عليه صغير ذلك وكبيره، يقول جل ثناؤه: فكيف يخفى عليَّ من كانت هذه صفته؟! أعمال هؤلاء الكافرين وعصيانهم ربهم، ثم وصف جل ثناؤه قربه من عباده وسماعه نجواهم، وما يكتمونه الناس من أحاديثهم، فيتحدثونه سرًا بينهم، فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ من خلقه ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، يسمع سرهم ونجواهم، لا يخفى عليه شيء من أسرارهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ يقول: ولا يكون من نجوى خمسة إلا هو سادسهم كذلك ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ يقول: ولا أقل من ثلاثة ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ من خمسة، ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ إذا تناجوا ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ يقول: في أي موضع ومكان كانوا. وعني بقوله: ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ بمعنى: أنه مشاهدهم بعلمه، وهو على عرشه»[1].

وهذا ما أجمع عليه السلف من أئمة السنة، قال ابن كثير: «ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء»[1].

وهذه الآية قد جاءت في سياق آية ابتدأها الله تعالى بالعلم واختتمها بالعلم.

قال القرطبي: «﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعلم ويسمع نجواهم، يدل عليه افتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم»[2].

ليستدل بذلك كله على علمه تعالى بأي متناج وبأي نجوى، مهما أسرها أصحابها، ومهما أخفوها عن غيرهم، ومهما قل عددهم أو كثر، فهو معهم يعلم سرهم ونجواهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة:٧٨].

قال ابن جرير: « يقول تعالى ذكره: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يكفرون بالله ورسوله سرًا، ويظهرون الإيمان بهما لأهل الإيمان بهما جهرًا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ الذي يسرونه في أنفسهم، من الكفر به وبرسوله ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ يقول: ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ إذا تناجوا بينهم بالطعن في الإسلام وأهله، وذكرهم بغير ما ينبغي أن يذكروا به، فيحذروا من الله عقوبته أن يحلها بهم، وسطوته أن يوقعها بهم، على كفرهم بالله وبرسوله، وعيبهم للإسلام وأهله، فينزعوا عن ذلك ويتوبوا منه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يقول: ألم يعلموا أن الله علام ما غاب عن أسماع خلقه وأبصارهم وحواسهم، مما أكنته نفوسهم، فلم يظهر على جوارحهم الظاهرة، فينهاهم ذلك عن خداع أوليائه بالنفاق والكذب، ويزجرهم عن إضمار غير ما يبدونه، وإظهار خلاف ما يعتقدونه»[3].

بل إن الله سبحانه يعلم أكبر من ذلك، وعلى علم بما يخفى عن غيره، فهو تعالى يعلم ما في السماوات وكل ما في الأرض بأدق تفاصيله قال تعالى: ﴿۞ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرى، إلا الله يعلمها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يقول: ولا شيء أيضًا مما هو موجود، أو مما سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عدده ومبلغه، والوقت

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٨١.

الذي يوجد فيه، والحال التي يفنى فيها»[1].

ولعل الكفار الذين لا يؤمنون بالله عز وجل ولا بأسمائه ولا بصفاته قد ظنوا أن الله تعالى لا يعلم سرهم ونجواهم، فهم يخفون أسرارهم عن غيرهم من البشر، ويعتقدون أن لا أحد غيرهم يعلم بأمرهم وسرهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء:١٠٨].

فأبطل الله تعالى تصورهم وبين سوء ظنهم وقبح اعتقادهم فقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠].

قال ابن جرير:«﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ يقول: أم يظن هؤلاء المشركون بالله أنا لا نسمع ما أخفوا عن الناس من منطقهم، وتشاوروا بينهم وتناجوا به دون غيرهم، فلا نعاقبهم عليه لخفائه علينا.

وقوله: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: بل نحن نعلم ما تناجوا به بينهم، وأخفوه عن الناس من سر كلامهم، وحفظتنا لديهم، يعني: عندهم يكتبون ما نطقوا به من منطق، وتكلموا به من كلامهم»[2]

وجلى الله هذا العلم ـ علمه الواسع ـ حينما فضح من عادوا إلى التناجي بعد أن نهوا عنه وهم اليهود والمنافقون، وبين أنواع تناجيهم، فوبخهم على تعمد ذلك، وذمهم لرجوعهم إليه، مما يوضح شدة تمردهم وطغيانهم، وإلحاحهم على التناجي، رغم أن الله قد بين لهم أنه يعلم سرهم ونجواهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة:٨].

ثانيًا: علم الله بمقاصد الشيطان من النجوى:

لم يترك الله تعالى أمر النجوى يمر دون أن يذكر ما للشيطان من يد في واقع المتناجين، وما له من تأثير على مشاعر المؤمنين، موضحًا مقصده من أز المنافقين والكفار إلى التناجي، وإن كان المؤمنون وغيرهم لا يعلمون أن الشيطان بوسوسته كان وراء فعل الكافر، وأيضا كان وراء ما حدث للمؤمن من تأثر بفعل نجواهم، وهذا ما بينه الله عز وجل حينما قال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة:١٠].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٠٣.
(٢) المصدر السابق ٢١/ ٦٤٧.

قال ابن كثير: «أي: إنما النجوى-وهي المسارة-حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه»[1].

ولا شك أن النجوى التي يكون الشيطان سببا فيها، هي ما تكون بالإثم والعدوان، لا التي فيها البر والإحسان، فلا تعم جميع أنواع النجوى، كما قال الفخر الرازي: «الألف واللام في لفظ النجوى لا يمكن أن يكون للاستغراق؛ لأن في النجوى ما يكون من الله ولله، بل المراد منه المعهود السابق وهو النجوى بالإثم والعدوان، والمعنى أن الشيطان يحملهم على أن يقدموا على تلك النجوى التي هي سبب لحزن المؤمنين»[2].

وليس ما يشعر به المؤمن من الحزن قاصر على نجوى المنافقين واليهود، بل إن ما يلقيه الشيطان من الحزن في قلب المؤمن، هو ناتج عن كل نجوى حصلت في حضرة من انعزل الناس دونه يتناجون، بغض النظر عن دين من يتناجى، سواء كان كافرًا أو مؤمنًا؛ لذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تناجي اثنين دون الثالث فما رواه عبد الله بن مسعود حينما قال: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه)[3].

فالشيطان بوساوسه حاضر في كل نجوى، إذا كان سيحقق من خلالها ما به يدخل الحزن على المؤمن، فهو بتزيينه لأمر النجوى، وحمل الناس على فعلها يسهل وقوعها، فيجني ثمرة الإيقاع بالمؤمن في الغيظ والحزن؛ مما ينتج عنه التباغض والتنافر، وإن كان مقصد الشيطان من النجوى قد يتعدى ذلك الحزن إلى أغراض أخرى، ليست مقصورة على محاولة إيقاع الحزن في قلوب المؤمنين، يقول ابن عاشور: «لأن الأغراض التي يتناجون فيها من أكبر ما يوسوس الشيطان لأهل الضلالة بأن يفعلوه؛ ليحزن الذين آمنوا بما يتطرقهم من خواطر الشر بالنجوى، وهذه العلة ليست قيدًا في الحصر فإن للشيطان عللا أخرى مثل إلقاء المتناجين في الضلالة، والاستعانة بهم على إلقاء الفتنة، وغير ذلك من الأغراض الشيطانية»[4].

لذلك فإن إخبار الله تعالى بأحوال المتناجين، وبيانه لمقصد الشيطان من تناجي المتناجين، وما وقع في قلب المؤمنين من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٩٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث، رقم ٦٢٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، رقم ٢١٨٤.
(٤) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٤.

الحزن؛ ليعد دليلًا واضحًا على سعة علمه، وإحاطته بكل شيء ولو كان في كوامن القلوب.

ثالثًا: علم الله بما يشعر به المؤمنون عند تناجي المتناجين:

لقد أخبر الله عز وجل عن تسبب الشيطان في حصول النجوى بتزيين شأنها، وتهوين أمرها، ولم يكتف بذلك إنما تعداه بذكره تعالى لما تحدثه تلك النجوى في قلوب المؤمنين.

فشعور المؤمن بالحزن من تناجي المتناجين قد علمه الله، وإن حاول المؤمن إخفاءه، ولم يستطع أحد إدراكه والتحقق من وقوعه؛ لأنه يتعلق بالشعور الذي مكمنه في القلب، لكن الله علمه فبينه ووضحه وجلاه، وأعطى الاطمئنان لمن وقع في قلبه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

قال الشوكاني في تفسيره: «إنما النجوى -يعني: بالإثم والعدوان ومعصية الرسول- من الشيطان لا من غيره، أي: من تزيينه وتسويله؛ ليحزن الذين آمنوا أي: لأجل أن يوقعهم في الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنها في مكيدة يكادون بها، وليس بضارهم شيئا أو: وليس الشيطان أو التناجي الذي يزينه الشيطان بضار المؤمنين شيئًا من الضرر إلا بإذن الله أي: بمشيئته، وعلى الله فليتوكل المؤمنون أي: يكلون أمرهم إليه، ويفوضونه في جميع شؤونهم، ويستعيذون بالله من الشيطان، ولا يبالون بما يزينه من النجوى»[1].

فالله عز وجل برحمته بالمؤمنين وحبه لهم لم يشأ أن يقع ذلك كله بهم إلا اختبارًا وابتلاءًا لهم؛ حتى يصدقوا في توكلهم على الله، وفي ذلك يقول القرطبي: «﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يكلون أمرهم إليه، ويفوضون جميع شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر، فهو الذي سلط الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحانًا ولو شاء لصرفه عنه»[2].

فازداد المؤمن يقينًا ألا أحد يمكن أن يضرهم إلا بقدر الله ومشيئته، وليس ما يوسوس لهم به الشيطان وما يقذفه في قلوبهم من الحزن، قال السعدي: «يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين، بالمكر والخديعة، وطلب السوء من الشيطان، الذي كيده ضعيف ومكره غير مفيد ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده، ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على

(١) فتح القدير ٥/ ٢٢٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٥.

الأعداء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[فاطر:٤٣].

فأعداء الله ورسوله والمؤمنين، مهما تناجوا ومكروا فإن ضرر ذلك عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليعتمدوا عليه ويثقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه، وتولى أمر دينه ودنياه»[1].

فرفع الله بهذه الآية ما كان يقع في قلوب المؤمنين من الحزن، وبين لهم أن هذا من تزيين الشيطان ومكره السيئ بالكفار، فطمأنهم أن ضرر الشيطان غير لاحق بهم، ومكر الكفار لن يطولهم، وأمرهم بالتوكل عليه والاستعاذة به.

قال ابن عطية: «ثم أخبر تعالى أن الشيطان أو التناجي الذي هو منه ليس بضار أحدًا إلا أن يكون ضر بإذن الله، أي: بأمره وقدره. ثم أمر بتوكل المؤمنين عليه تبارك وتعالى، وهذا كله يقوي أن التناجي الذي من الشيطان إنما هو الذي وقع منه للمؤمنين خوف»[2].

وهكذا أسدلت هذه الآيات الستارة على ما كان يعانيه المؤمنون من الأحزان؛ بسبب ما كان يقذفه الشيطان في قلوبهم، نتيجة سعيه الحثيث بوساوسه المتواصلة أن يقع التناجي من أعداء هذا الدين ويكثر، ففضح الله أمر إبليس وبين مقصده وغايته، وحدد أعوانه، كما أنه جل وعلا وصف العلاج الناجع للقضاء على ظاهرة تناجي الكفار لإضعاف المسلمين، بإرشادهم إلى وجوب التوكل عليه سبحانه؛ لأنه هو العاصم من كل القواصم، وتنبيههم إلى أن الضرر لن يلحق بهم إلا بمشيئة الله وإذنه، فكبت بهذا البيان الواضح الكفار، وأكد ضعف كيد الشيطان، وطمأن المؤمنين لأنهم أولياء الرحمان.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٦.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٨.

أنواع النجوى

الكثير من النجوى كما بين ذلك الله تعالى في كتابه لا تكون إلا مذمومة، ولا تكون إلا في الشر وسوء الصنيع، لكنه تعالى استثنى من ذلك الكثير نجوى أخرى محمودة، رغب فيها الله عز وجل وأرشد إليها، وجعل الأجر الكبير في ابتغائها.

ففي سورة النساء قوله سبحانه: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[النساء:١١٤].

بين الله تعالى أن الكثير من النجوى لا تكون إلا في الشر، ومن ثم فإن كثيرًا من المتناجين يتناجون فيما بينهم بما فيه شر أو ما لا فائدة منه؛ لأن نفي الخير عن نجواهم لا يعني فقط أن تناجيهم لا يكون إلا شرًا، بل يشمل أيضًا ما لا نفع فيه ولا ضرر منه على غيرهم، وإن كان يلحق ضررًا بهم هم أنفسهم من جهة تضييعهم لأوقاتهم وأعمارهم فيما لا نفع فيه.

وقريبًا من هذا المعنى يقول السعدي في تفسيره: «أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه»[1].

فنفي الخيرية عن كثير من تناجي المتناجين يشمل ما فيه تدبير للشر، وكل ما لا منفعة شرعية ترجى منه، وإن لم يكن فيه ضرر يمكن أن يمس الغير، فإن فيه تفويتًا للخير، وهذا ضرر في حد ذاته يكون على العبد لا له.

قال ابن عاشور: «ومعنى لا خير أنه أشر، بناء على المتعارف في نفي الشيء أن يراد به إثبات نقيضه؛ لعدم الاعتداد بالواسطة، كقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢].

ولأن مقام التشريع إنما هو بيان الخير والشر.

وقد نفى الخير عن كثير من نجواهم أو متناجيهم، فعلم من مفهوم الصفة أن قليلًا من نجواهم فيه خير، إذ لا يخلو حديث الناس من تناج فيما فيه نفع»[2].

فعلم من هذا أن النجوى على نوعين: محمودة ومذمومة.

أولًا: النجوى المحمودة:

بين الله تعالى من خلال آيات سورة النساء وسورة المجادلة - التي لها علاقة بموضوعنا - أن النجوى لا تكون محمودة إلا إذا كانت في خمسة أمور:

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٢.
(٢) التحرير والتنوير ٥/ ١٩٩.

١. أن تكون في الأمر بالصدقة.
٢. أن تكون في معروف.
٣. أن تكون للإصلاح بين الناس.
٤. أن تكون بالبر.
٥. أن تكون بالتقوى.

قال الرازي عند تفسيره لآية النساء: «لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث إلا ما كان من أعمال الخير»[(١)].

فثبت أن مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية[(٢)].

وبتفصيل أكثر قال ابن العربي في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤].

هذه الآية آية بكر لم يبلغني عن أحد فيها ذكر، والذي عندي فيها أن الله تعالى أمر عباده بأمرين عظيمين: أحدهما: الإخلاص، وهو أن يستوي ظاهر المرء وباطنه. والثاني: النصيحة لكتاب الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين وعامتهم. فالنجوى خلاف هذين الأصلين، وبعد هذا فلم يكن بد للخلق من أمر يختصون به في أنفسهم، ويخص به بعضهم بعضًا، فرخص في ذلك بصفة الأمر بالمعروف، والحث على الصدقة، والسعي في إصلاح ذات البين»[(٣)].

والمقصود من الأمر في الآية هو الحث.

قال البغوي في تفسيره ومعنى الآية: «لا خير في كثير مما يدبرونه بينهم إلا من أمر بصدقة أي: حث عليها[(٤)].

أما المراد بالصدقة فقد تنوعت تفاسير المفسرين بين مضيق وموسع.

قال الشوكاني في تفسيره: « قوله: ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ الظاهر أنها صدقة التطوع، وقيل: إنها صدقة الفرض»[(٥)].

وجزم أبو حيان حينما قال: «والصدقة تشمل الفرض والتطوع»[(٦)].

وذهب السعدي إلى أن المراد بالصدقة أوسع من قصرها على مجرد الفرض أو التطوع، حيث جعلها شاملة لكل ما يسمى صدقة في عرف الشرع، فقال رحمه الله: «ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة كالتسبيح والتحميد ونحوه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١٧.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٢١٨.
(٣) أحكام القرآن ١/ ٦٢٦-٦٢٧.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٠٠.
(٥) فتح القدير ١/ ٥٩٤.
(٦) البحر المحيط ٤/ ٦٥.

ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة)[1].

وبين القاسمي في تفسيره السر في إباحة التناجي بالأمر بالصدقة فقال: «﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا في نجوى من أمر، بخفية عن الحاضرين، بصدقة ليعطيها سرًا، يستر به عار المتصدق عليه»[2].

وبالنسبة للمعروف فقد عرفه البغوي بقوله: «أو معروف أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع وأعمال البر كلها معروف؛ لأن العقول تعرفها»[3].

وصحح القرطبي قول البغوي فقال في تفسيره: «والمعروف لفظ يعم أعمال البر كلها. وقال مقاتل: المعروف هنا الفرض، والأول أصح. وقال صلى الله عليه وسلم: (كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق)[4].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٢.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم ١٠٠٦.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٣٢٧.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧٠٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٣.
والحديث أخرجه أحمد في مسنده، مسند جابر، رقم ١٤٧٠٩، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في طلاقة الوجه، رقم ١٩٧٠.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم ١٢٨.

ووسع العيني في عمدة القاري في تعريف المعروف فقال: «قوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله عز وجل، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه من المحسنات والمقبحات، وهو من الصفات الغالبة، أي: أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه»[5].

واشترط الماوردي ـ كما نقل عنه القرطبي في تفسيره ـ لفعل المعروف لمن يريد الامتثال لأمر الله شروطًا فقال: «فينبغي لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجله حذار فواته، ويبادر به خيفة عجزه، وليعلم أنه من فرص زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بالقدرة فاتت فأعقبت ندمًا، ومعولٍ على مكنةٍ زالت فأورثت خجلًا، كما قال الشاعر[6]:

ما زلت أسمع كم من واثق خجلٍ
حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ثم قال القرطبي: «ومن شرط المعروف ترك الامتنان به، وترك الإعجاب بفعله، لما فيهما من إسقاط الشكر وإحباط الأجر»[7].

ونبه السعدي إلى أن الأمر بالمعروف إذا أطلق دخل فيه النهي عن المنكر فقال:

(٥) عمدة القاري ١٣/ ٢٦٥.
(٦) انظر: نهاية الأرب ٣/ ١٠٧، التمثيل والمحاضرة ص٢٨.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٨٣.

«وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر. وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي»[(١)].

كما أوضح القاسمي في تفسيره العلة من الأمر بستر الأمر بالمعروف فقال: «وسر التناجي فيه أن لا يأنف المأمور عن قبوله لو جهر به»[(٢)].

أما الأمر بالإصلاح بين الناس فيعني به: الإصلاح بين المتخاصمين؛ ليتراجعا إلى ما كانا فيه من الألفة والاجتماع، على ما أذن الله فيه وأمر به[(٣)].

وهذا الإصلاح عام في الدماء والأعراض والأموال، وفي كل شيء يقع التداعي فيه[(٤)].

حتى في الأديان كما قال السعدي في تفسيره واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:٩].

ثم بين رحمه الله فضل من يمشي في الإصلاح بين الناس فقال: «قال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨].

والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله»

كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء[(٥)].

وحاول صاحب أضواء البيان أن يبين المراد بالناس في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فقال: «لم يبين هنا هل المراد بالناس المسلمون دون الكفار أو لا؟

ولكنه أشار في مواضع أخر أن المراد بالناس المرغب في الإصلاح بينهم هنا المسلمون خاصة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠].

وقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩].

فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر، وكقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٢.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٣٢٧.
(٣) المصدر السابق.
وانظر: الموسوعة الكويتية ٥/ ٦٢.
(٤) فتح القدير ١/ ٥٩٤.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٢.

﴿بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١]»[١].

وأما الثواب على تلك الخصال المستثناة من النجوى المنهي عنها، فخص بمن فعله تقربًا إلى الله.

يقول ابن رجب: «وأما الثواب عليه من الله، فخصه بمن فعله ابتغاء مرضاة الله، وإنما جعل الأمر بالمعروف من الصدقة والإصلاح بين الناس وغيرها خيرًا، وإن لم يبتغ به وجه الله؛ لما يترتب على ذلك من النفع المتعدي، فيحصل به للناس إحسان وخير، وأما بالنسبة إلى الأمر فإن قصد به وجه الله وابتغاء مرضاته كان خيرًا له، وأثيب عليه، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيرًا له، ولا ثواب له عليه، وهذا بخلاف من صام وصلى وذكر الله، يقصد بذلك عرض الدنيا، فإنه لا خير له فيه بالكلية؛ لأنه لا نفع في ذلك لصاحبه لما يترتب عليه من الإثم فيه، ولا لغيره لأنه لا يتعدى نفعه إلى أحد، اللهم إلا أن يحصل لأحد به اقتداء في ذلك»[٢].

وقال ابن عبد البر في التمهيد: «فإصلاحه فيما بينه وبين الناس أفضل إذا فعل ذلك لله، وكراهة أذى المسلمين، وهو أولى به من أن يتعرض لعداوة صاحبه وبغضته، فإن البغضة حالقة الدين»[٣].

(١) أضواء البيان ١/ ٣٠٦.
(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٦٧أ
(٣) التمهيد ١٦/ ٢٥١.

فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير؛ ليحصل له بذلك الأجر العظيم؛ وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين؛ وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا؛ لأن النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل[٤].

وأما الحكمة من وصف الأجر بالعظم فقال البيضاوي: «تنبيهًا على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا»[٥].

وخص الله تعالى بالذكر الصدقة والإصلاح من المعروف وإن كان المعروف لفظًا يعم الصدقة والإصلاح؛ اهتمامًا بهما؛ إذ هما عظيما الغناء في مصالح العباد[٦].

وهنا تساؤل طرحه الراغب الأصفهاني جدير بالذكر فقال: «فإن قيل: فهاهنا أفعال أخر تحسن فلم خص هذه الثلاثة؟

قيل: هذه الثلاثة متضمنة للأفعال الحسنة كلها؛ وذلك أنه نبه بالصدقة على الأفعال الواجبة، وخص الصدقة لكونها أكثر نفعًا في إيصال الخير إلى الغير، ونبه بالمعروف على النوافل التي هي الإحسان والتفضل، وبالإصلاح بين الناس على سياستهم، وما يؤدي إلى نظم كلهم وإيقاع الألفة بينهم، ذلك أفضل الأفعال؛ لقول النبي صلى الله

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٢.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٩٦.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ١١٢.

عليه وسلم: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة، قيل: بلى يا رسول الله، قال: صلاح ذات البين)»[1].

وإن كانت آية النساء هذه قد قيدت جواز النجوى بما يكون من الأمر بالصدقة، أو الأمر بالمعروف، أو الإصلاح بين الناس، إلا أن آية سورة المجادلة أطلقت ذلك، وجعلت النجوى المباح فعلها تشمل جميع أنواع البر، وكل ما فيه تقوى الله تعالى.

قال السعدي في تفسير هذه الآية: «فأمر الله تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة، وقيام بحق لله ولعباده، والتقوى، وهي هنا: اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم، فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجيًا ومتحدثًا إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه»[2].

وقد ذهب الماتريدي إلى أن البر والتقوى وإن اختلفا في العبارة فهما في الحقيقة يمثلان شيئًا واحدًا، قال في تفسيره: «وهما أي: البر والتقوى في العبارة مختلفان وفي الحقيقة واحد؛ لأنه إذا اتقى كل شر ومعصية عمل كل خير وبر، وإذا كسب كل خير وبر اتقى كل معصية وشر»[3].

وهذا استنباط جيد، وفهم رائق يدل على وجود علاقة تلازمية بين اللفظين، وإن كان كل لفظ له معنى خاص به وله أعمال تتحقق به.

وجعل الواحدي البر شاملًا لكل طاعة، والتقوى شاملة لترك كل معصية، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة:٩][4].

أما الرازي فقد جعل البر المأمور به في مقابل ما ذكره الله من العدوان المنهي عنه، والتقوى ما يقي من النار حينما قال: «وأمرهم أن يتناجوا بالبر الذي يضاد العدوان، وبالتقوى وهو ما يتقى به من النار من فعل الطاعات وترك المعاصي»[5].

وهكذا حددت كل من آية سورة النساء وآية سورة المجادلة أنواعًا من النجوى المحمودة، التي يستطيع من خلالها المتناجي المؤمن أن يتناجى، دون أن يرتكب محذورًا شرعيًا، إن هو تقيد بما شرعه الله تعالى له في هذين الآيتين.

ثانيًا: النجوى المذمومة:

عرفنا مما مضى أن الكثير من النجوى إنها محرمة؛ لما فيها من الشر الذي جبلت الأنفس على إخفائه والخوف من إظهاره، فكانت بذلك مذمومة غير محمودة.

قال الراغب الأصفهاني في تفسيره:

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٥٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٨٤٥.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ١٣٨.
(٤) التفسير الوسيط ٤/ ٢٦٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٩٢.

«ولما كان التناجي مكروهًا في الأصل حتى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة:١٠] صار ذلك من الأفعال التي تقبح ما لم يقصد به وجه محمود كالمكر والخديعة، فبين تعالى أن النجوى لا تحسن ما لم تخص بها هذه الوجوه المستثناه»[(١)].

وهي النجوى المحرمة من سوء أدب المجالسة التي نهى الله عنها وأدب عباده بها[(٢)].

قال صاحب التحرير والتنوير في معرض تفسيره لآية النجوى من سورة النساء: «وعلى هذا فالمقصود من الآية تربية اجتماعية دعت إليها المناسبة، فإن شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة؛ لأن الصراحة من أفضل الأخلاق لدلالتها على ثقة المتكلم برأيه، وعلى شجاعته في إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلا في أحوال شاذة يناسبها إخفاء الحديث، فمن يناجي في غير تلك الأحوال رمي بأن شأنه ذميم، وحديثه فيما يستحيي من إظهاره، كما قال صالح بن عبدالقدوس:

الستر دون الفاحشات ولا
يغشاك دون الخير من ستر

وقد نهى الله المسلمين عن النجوى غير مرة...» إلى أن قال: «فعلمنا من ذلك أنها لا تغلب إلا على أهل الريب والشبهات، بحيث لا تصير دأبا إلا لأولئك، فمن أجل ذلك نفى الله الخير عن أكثر النجوى..»[(٣)].

ونحن إذا ما تأملنا آية النساء وجدناها تثبت أصلًا وتستثني فرعًا، فالأصل الذي تثبته هو أن النجوى محرمة مذمومة باعتبار الأكثر الغالب، والفرع الذي تستثنيه ـ الأقل ـ هو النجوى المحمودة المرغوب فيها والتي تكون في مجال الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس والبر والتقوى.

ومن ثم فإن الأفعال المذمومة المتناجى بها في النجوى المحرمة كثيرة لا يمكن حصرها أو إحصاؤها.

والمهم في نظري هو ما احتوت عليه آية المجادلة، بحيث إنها جمعت وحصرت كل خلال الشر في النجوى غير المستثناة في آية النساء، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة:٩].

فالإثم والعدوان ومعصية الرسول مما حرم الله التناجي به.

وذكر ابن الجوزي في زاد المسير وجهين في معنى تناجيهم بالإثم والعدوان، أحدهما: «يتناجون بما يسوء المسلمين، فذلك الإثم

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٤٩.
(٢) بيان المعاني، العاني ٦/ ٢٠٦.
(٣) التحرير والتنوير ٥/ ١٩٨.

والعدوان، ويوصي بعضهم بعضًا بمعصية الرسول. والثاني: يتناجون بعد نهي الرسول لهم، ذلك هو الإثم والعدوان ومعصية الرسول»[1].

فالكذب والغيبة والنميمة والبهتان، وغيرها من الذنوب التي يمكن أن يقع التناجي بها تجمعه كلمة الإثم، وكل أنواع الظلم والاعتداء على الغير يدخل في كلمة العدوان، وكل مخالفة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ونهيه تحتويها كلمة معصية الرسول، فكانت بذلك هذه الآية جامعة لكل خلال الشر المتناجى به.

وإن كان العديد من المفسرين قد ذهب إلى أن المنافقين هم المرادون بهذه الآية[2]، إلا أن منهم من صرف النهي إلى المؤمنين مثل: الماتريدي في تفسيره حينما قال: «إن أهل التأويل صرفوا الآية إلى المنافقين، وعندنا يحتمل صرف النهي إلى المؤمنين عن التناجي بمثل ما تناج أولئك، أي: لا تتناجوا أنتم يا أهل الإيمان فيهم بالإثم والعدوان كما تناجوا فيكم، يقول: لا تجازوهم بالذي فعلوا هم بكم، ولكن تناجوا فيهم بالبر والتقوى، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة:٢].

نهى المؤمنين أن يجازوهم جزاء الاعتداء الذي كان منهم من صدهم عن المسجد الحرام؛ بل أمرهم بالتعاون على البر والتقوى، قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

فعلى ذلك يحتمل هذا، والله أعلم»[3]

كما ذكر رحمه الله معنى آخر محتملًا للآية فقال: «وجائز أن يكون في المؤمنين حقيقة على الابتداء؛ نهيا منه لهم، يقول: إذا تناجيتم فلا تتناجوا فيما يؤثمكم ويحملكم على العدوان: على المجاوزة عن الحد، ومعصية الرسول فيما يأمركم وينهاكم، ﴿وَتَنَاجَوْا بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ يحتمل كل أنواع الخير، وأما التقوى فهو كل ما يقون به أنفسهم عن النار، وقد تقدم ذكره»[4].

وفي الحكمة من ترتيب هذه الأمور التي نهى الله تعالى المؤمنين عنها.

يقول أبو حيان: « ثم نهى المؤمنين أن يكون تناجيهم مثل تناجي الكفار، وبدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس، إذ هي ظلامات العباد، ثم ترقى إلى ما هو أعظم، وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي هذا طعن على المنافقين، إذ كان تناجيهم في ذلك»[5].

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٤٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٦٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٤٢، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٩١، معاني القرآن، الزجاج ٥/ ١٣٧.

(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٥٦٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) البحر المحيط ١٠/ ١٢٦.

ضوابط النجوى

أشار القرآن الكريم إلى أن الكثير من النجوى لا خير فيها ممنوعة غير جائزة، ولجوازها ضوابط لم يغفلها الشرع الحكيم، بل ذكرها وجعلها مستثناة من النجوى الممنوعة.

قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤].

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة:٩-١٠].

ومن الضوابط التي أشارت إليها الآيات الكريمات:

- أن يعلم المؤمن ويعتقد جازمًا أن الكثير من النجوى ممنوع مرغوب عنه، فلا يلجأ إليها ويعمد إلى فعلها إلا إذا كانت هناك مصلحة شرعية.
- أن تكون النجوى في طاعة الله.
- أن يبتغي المسلم من وراء نجواه مرضاة ربه عز وجل، مبتعدًا بذلك عن الرياء والسمعة.
- أمر الله تعالى للمؤمن ألا يتناجى إلا إذا دعت الضرورة لذلك.
- ألا يتشبه المؤمن باليهود والمنافقين عند تناجيه. قال النسفي في تفسيره: «والظاهر أنه خطاب للمؤمنين ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: إذا تناجيتم فلا تشبهوا باليهود والمنافقين في تناجيهم بالشر»[1].
- ألا يتناجى المؤمن بما فيه إثم أو عدوان أو معصية الرسول.
- أن يتناجى المؤمن بالبر والتقوى.
- أن يتقي المؤمن ربه عز وجل ولا يفعل باليهود والمنافقين مثل ما فعلوا هم به أو بغيره من المؤمنين.
- أن يتوكل المؤمن على ربه ويكل أمره إليه، ولا يلتفت لما يتناجى به أعداء الإسلام.
- أن يوقن المؤمن أن كل ما يتناجى به المخالفون لأمر الله هو من وساوس الشيطان وتزيينه لهم.
- أن يعلم المؤمن أن مقصد الشيطان من وقوع التناجي بين الكفار هو إلقاء الحزن في قلوب المؤمنين.

(١) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٤٨.

- أن يتيقن المؤمن أن التوكل على الله يبطل مقصد الشيطان ويبطله.
- أن يتذكر المؤمن بأنه سيحشر بعد موته، ويقف أمام الله ليجازيه على إحسانه إحسانًا، إذا ما هو امتثل لأمر الله وتناجى بم هو خير. وأن اليهود والمنافقين المتناجين بالشر سيحشرون أيضا ليجزيهم الله أسوأ ما عملوا.
- أن يعلم المؤمن أن الضر المتوقع حصوله من تناجي أولئك القوم لن يلحقه منه شيء إلا بإذن الله، بقضائه وقدره سبحانه.

أحكام النجوى

إن المتأمل في الآيات التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم والمتعلقة بموضوع النجوى، يلاحظ أنها ركزت فقط على جانب الأحكام المتناجى فيها، دون أن تتحدث عن أحكام المتناجين.

وإذا ما بحثنا في السنة فإننا سنجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تولى بيان ذلك؛ امتثالا منه عليه الصلاة وأزكى التسليم لأمر الله حين خاطبه ربه قائلًا: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤].

لذلك ومن هذا المنطلق يمكن أن نقسم مبحث أحكام النجوى إلى قسمين: قسم يتعلق بأحكام الأمور المتناجى فيها، وآخر يتعلق بأحكام المتناجين، إلا أن القسم الأول هو من له علاقة بموضوع البحث لصلته الوثيقة بالقرآن؛ لذلك سنقتصر عليه دون الآخر.

والنجوى على نوعين محمودة ومذمومة تبعًا للأمور المتناجى فيها، والمحمود بالنسبة للأحكام الشرعية إما أن يكون واجبًا أو مستحبًا أو مباحًا، والمذموم منها إما أن يكون حرامًا أو مكروهًا؛ لذلك فإن النجوى في الحكم الشرعي الفقهي تعتريها الأحكام الشرعية الخمسة، وهي:

١. النجوى الواجبة.

تكون النجوى واجبة إذا علم أن في إفشاء الأمر المتناجى فيه مضرة تلحق الغير، أو علم أن في إظهارها تفويتًا لمنفعة عامة أو خاصة، وتيقن المتناجون ألا مناص لهم من النجوى لجلب المصالح ودرء المفاسد، أو علم أن أمرًا واجبًا من أمور الشرع لا سبيل إليه إلا بالنجوى؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٢. النجوى المستحبة أو المندوبة.

هي النجوى التي تكون وسيلة لتحقيق أعمال البر والإحسان المتطوع بها لوجه الله، وعلم أن في إظهارها تضييعًا لأعمال الخير، وهروبًا من الرياء والسمعة.

وكل من النجوى الواجبة والمستحبة وحتى المباحة يشترط لجوازها عدم دخول الحزن على الآخرين. قال القرطبي: «وظاهر حديث ابن مسعود (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه) يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور. وسواء أكان التناجي في مندوب أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به»[(١)].

٣. النجوى المحرمة.

هي النجوى التي تكون سببًا لإلحاق الأذى بالآخرين أو فتحًا لباب الفساد أو إشاعة للفواحش، كالتناجي بالنميمة أو الغيبة، أو الكذب أو البهتان، أو الاستهزاء أو السخرية من الآخرين، أو محاولة المكر والكيد بهم، أوفيها حكاية المعاصي.

قال الصنعاني: «واعلم أن فضول الكلام لا تنحصر، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤].

وآفاته لا تنحصر فعد منها الخوض في الباطل، وهو الحكاية للمعاصي من مخالطة النساء ومجالس الخمر ومواقف الفساد وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومواسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه، فهذا حرام. ومنها الغيبة والنميمة وكفى بها هلاكًا في الدين ومنها المراء، والمجادلة، والمزاح. ومنها الخصومة، والسب، والفحش، وبذاءة اللسان، والاستهزاء بالناس والسخرية، والكذب»[(٢)].

٤. النجوى المكروهة.

هي التي لا منفعة منها ولا ضرر فيها على الغير؛ وإنما تكون سببًا في إهدار الوقت وتضييع الأعمار فيما لا فائدة ترجى منه، كالقيل والقال وكثرة السؤال وغيرها كثير.

٥. النجوى المباحة.

هي ما لم يكن فيها أي شيء مما سبق في الأحكام الأخرى.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٥.

(٢) سبل السلام ٢/ ٦٥٤.

آثار النجوى على المجتمع

رأينا آنفا أن الله تعالى نهى عن التناجي؛ لما فيه من إلحاق الضرر بالغير والتسبب في إذايته، وجعل الله النجوى في الكثير منها شرا لا خير فيه؛ لما تحمله في حقيقة أمرها زيادة على ما ذكرنا من إهدار للوقت وتضييع للجهود فيما لا منفعة ترجى منه. إلا أن الله تعالى استثنى من تلك النجوى المنهي عنها نجوى أخرى تماثل في شكلها وتخالف في مضمونها تناجي المخالفين لأمر الله، فكانت بذلك نجوى محمودة، ولها منافع عند الحرص على تطبيقها، ومن ثم سوف يحصل من خلال الائتمار بها آثار محمودة يعود نفعها على الفرد والمجتمع.

أولًا: الآثار المحمودة:

ولنبدأ بآثار النجوى المحمودة على المجتمع ثم نثني بآثارها المذمومة.

لقد حدد الله عز وجل في كتابه العزيز الأمور التي يمكن للمسلم أن يتناجى فيها كما بين النبي صلى الله عليه وسلم كيفية وطريقة التناجي فيها.

قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء:١١٤].

فنحن نلاحظ من خلال الاستثناء الموجود في الآية عدة أمور:

أولًا: إن الحث على الصدقة والترغيب فيها سواء كانت بمعناها الخاص أو بمعناها العام، له آثار جليلة: فبها تسد حاجات المجتمع ويتقلص بها عدد الفقراء والمحتاجين، وتنمحي بها مظاهر التسول والتشرد التي إن عمت مجتمعًا حكمت عليه بالتفكك والانحلال، فكان الإنفاق على الغير بطريق النجوى حفاظًا على المروءات وقضاء للحاجات وستر للعورات وسد للثغرات، ورفع للمشقة عن اليتامى والأرامل والمرضى والضعفاء، في صور حضارية تدل على الوحدة، وتزكي أواصر المحبة والأخوة، وتظهر التماسك والتعاطف والتلاحم والتراحم، وتقضي على البطالة والتشرد، وتخفف على الدولة أعباء عظيمة وتقيها أخطارًا جسيمة.

وثانيها: إن الترغيب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، له آثار عظيمة: فبهما يصلح المجتمع، ويقوم الاعوجاج، ويسد الخلل، وتحفظ الأعراض، ويشاع الخير ويقضى على الفواحش، وتختفي مظاهر الفسوق والعصيان، وتظهر الفضائل وتقمع الرذائل، وتتحقق الولاية بين المؤمنين، ويقوى الإيمان وتتآلف القلوب، حتى تصبح على قلب رجل واحد، وتتلاشى مظاهر العصبية، وتضمحل أسباب الحمية، وتندثر الأهواء، ويحكم الشرع، ويسود

العدل، وتصفو الخواطر، وتطمئن النفوس وتحيى الضمائر، وتشتد العزائم، وترتفع الهمم، ويصبح المجتمع كله عبارة عن جسد واحد وكيان قائم له رادع ووازع؛ حتى يقوم الاعوجاج ويصلح الخلل بلطف وروية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [التوبة:٧١].

وهذا ما أرشد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما قال: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[1].

أما ثالثها: فهو فعل كل ما من شأنه أن يصلح ذات البين بين المتخاصمين والمتنازعين، ومن آثار ذلك: بقاء الود والمحبة والالتحام قائمًا بين أفراد المجتمع؛ لأن من عادة المنازعات والخصومات إحداث الشقاق والشحناء، وما يتبع ذلك من تفكك بين الأفراد، فكان في التناجي لإصلاح ذات البين بين المسلمين قطع للقيل والقال، وإيقاف لهوى النفوس في استطالتها للفوز بسمعة القوة، ومنع المتخاصمين من التمادي في الخلاف، وتقليل المراجعين للمحاكم؛ فتقل بذلك نفقة الدولة على قضايا المتنازعين، فتنشر المحبة ويرجع الوئام؛ لأنه وكما هو معلوم كلما طالت الخصومة بين المتخاصمين وما تحدثه من جروح نفسية غائرة في الصدور كلما كان تحقيق التآلف بينهم صعبًا إلى حد يمكن ألا يتصالح المتخاصمون، مما يكون سببًا في قطع الأرحام وتفكك الأسر وبروز ظواهر اجتماعية سلبية.

كما يجب ألا ننسى أن فيه أفراد من المجتمع يكون لديهم قوة اجتماعية تفوق بكثير قوة القضاء؛ إذ أنهم حينما يتوسطون في حل المنازعات بين المتخاصمين مع ما لديهم من سمعة ووجاهة ومحبة الناس لهم يفلحون في الغالب في حل المنازعات؛ بل الأهم من ذلك سعيهم الحثيث ألا يبقى هناك أي غل في قلوب المتخاصمين؛ فتندثر العداوات وتختفي وتحل محلها الأخوة بمعناها الشمولي؛ فتقل الجرائم التي تكون نسبة كبيرة منها بسبب انتقام بعض المتنازعين من بعض، فتسود الطمأنينة وتحل السعادة وينتشر الأمن وتتحقق الأخوة ويزداد ترابط المجتمع مما يزيد من هيبة الدولة وقوتها، ويعطي نظرة إيجابية على المجتمع المسلم، مما قد يكون سبيلًا وسببًا لدخول كثير من الناس في دين الإسلام.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رقم ٧٨.

ثانيًا: الآثار المذمومة:

بسبب إمكانية إلحاق الضرر بالغير الذي هو سعي من الشيطان ليوقعه بين أفراد المجتمع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة:١٠].

حرم الله الكثير من النجوى من خلال قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤].

ومن آثار ذلك وقوع الحزن في قلوب المؤمنين؛ مما يجعل باب سوء الظن بالغير يفتح على مصراعيه؛ لتتوالى بعد ذلك الأمراض الاجتماعية بالظهور: كالحقد والكراهية وانعدام الثقة وشيوع الغيبة والنميمة وغيرها، كل هذا بسبب رؤية فعل من يتناجى دون معرفة حقيقة ما يتناجى به، أما لو أردنا أن نذكر الأمور المتناجى بها وهي التي أطلق عليها الله عز وجل صفة الشر حينما قال: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ [النساء:١١٤] فسيكون الأمر أكثر سوءًا وأشد بلاء.

وما نهي الله عز وجل للمؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول إلا لعلمه جل وعلا بخطر ذلك على الأمة أجمع.

فالتناجي بالإثم يدخل فيه كما رأينا سابقًا كل ذنب جعل موضوعًا للنجوى؛ فيتجرأ الناس بعد اتفاقهم وتدبيرهم على فعل المخالفات وارتكاب المحرمات، مما سيؤدي إلى إشاعة الفواحش وانتشار الرذائل وتساهل الناس في ارتكاب المعاصي.

وما إن يقع ذلك حتى ترى قلة أو انعدام من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فيقمع الحق ويتقوى الباطل، ويتصدى أهل الزيغ والأهواء ليلبسوا على الناس أمور دينهم ودنياهم، بدعوتهم إلى التحرر زعموا، وما يريدون من وراء ذلك إلا أن ينفلت الناس من اتخاذ دين الإسلام منهجا لحياتهم.

أما التناجي بالعدوان الذي هو الظلم فسيجعل المجتمع يعيش في الفوضى والخوف؛ فينعدم الأمن وتكثر الجرائم، ويضيع العدل، ويشيع الزور، ويحكم الجور، وتتناول الرشوة، وتنعدم الثقة، ويتهم البريء، ويبرأ المجرم، ويتجرأ على محارم الله، وتغصب الحقوق، ويظهر التزوير، وتضيع الأمانة، ويكثر الفحش في الكلام؛ فيصبح السب والشتم شعارًا يرفع لواؤه عند كل خصومة أو خلاف؛ لأن كل هذه الجرائم الاجتماعية نواتها وأساسها قد وجد حينما تناجى المتناجون بإثم وشر، فهي في بدايتها لا تعدو أن تكون كلامًا في السر بين اثنين أو أكثر، إلا أنها سرعان ما

تصبح تطبيقًا على أرض واقع حياة الناس.

أما التناجي بمعصية الرسول، فهو وإن كان لا يتصور وقوعه من المؤمن؛ لأنه في الأصل هو من أفعال المنافقين، إلا أن ضعف الإيمان قد يدفع كثيرًا من الناس إلى الاتفاق على تعمد مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بشبه متعددة، فينتج عن ذلك ظهور مخالفات شرعية في المجتمع، لم يكن يتصور المسلم أن يراها على أرض واقع المسلمين، كحلق اللحى والتبرج والسفور، والتشبه الواضح بغير المسلمين في مأكلهم ومشربهم ومختلف شؤون حياتهم، وظهور بين الفينة والأخرى من يجتمعون في الساحات العامة؛ ليتعمدوا هتك حرمة شهر الصيام بالأكل في رابعة النهار من غير عذر شرعي، اللهم إلا دعوتهم أنهم أحرار في أن يصوموا أو لا يصوموا زعموا.

إن شيوع تعمد معصية الرسول صلى الله عليه وسلم جعل كل من يستقيم على هدي محمد عليه الصلاة والسلام في هذا الزمان غريبًا بين أهله وذويه، فانقسم المجتمع إلى قسمين: قسم متبع لهدي الحبيب وهم قلة، وقسم آخر يعصي محمدًا صلى الله عليه وسلم وهم الكثرة.

موضوعات ذات صلة:

الإصلاح، الحزن، السر، العلاقات الاجتماعية، العلن، الكتمان، المعروف

النساء

عناصر الموضوع

مفهوم النساء	٨
النساء في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
حكمة تسمية سورتين بهذا الاسم	١٣
خلق المرأة	١٤
تكريم المرأة	١٩
نماذج من قصص المرأة في القرآن	٢٨
أحكام المرأة في القرآن	٤٨
المرأة والفتنة	٦٤
شبهات حول المرأة	٦٩

المجلد الثالث والثلاثون

مفهوم النساء

أولًا: المعنى اللغوي:

الهمزة في (النساء) إما أصلية وإما منقلبة عن أصل، فإن كانت أصلية فهي من النسأ، ومادة النون والسين والهمزة تدور لغة حول معنى التأخير، فيقال: «نسئت المرأة تنسأ نسأً: تأخر حيضها عن وقته وبدأ حملها فهي نسءٌ ونسيءٌ، والجمع أنساءٌ ونسوءٌ... ونسأ الشيء ينسؤه نسأً وأنسأه: أخره، فعل وأفعل بمعنىً، والاسم النسيئة والنسيء، ونسأ الله في أجله وأنسأ أجله: أخره»[1].

أما إن كانت منقلبة فهي منقلبة عن واو، كما نص العكبري على ذلك، فقال: «الهمزة في نساء مبدلة من واو، لقولك -في معناه-: (نسوة)»[2]، أو لأنها جمع (نسوة) كما قال ابن سيده: «والنسون والنساء جمع نسوة، ولذلك قال سيبويه في الإضافة إلى النساء نسويٌّ ترده إلى واحده»[3]، و«النِسْوة والنُسْوة والنِسوان جمع المرأة على غير قياس»[4].

وهي وإن كانت منقلبة عن واو إلا أنها كما قال السمين الحلبي: «يحتمل أن تكون ياءً اشتقاقًا من النسيان»[5]. وعلى هذا فتكون مأخوذة من النسيان، و«نسيت» الشيء «أنساه» «نسيانًا» مشترك بين معنيين؛ أحدهما: ترك الشيء على ذهول وغفلة، وذلك خلاف الذكر له، والثاني: الترك على تعمد»[6].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

أما المعنى الاصطلاحي لـ(النساء) فهو غير بعيد عن المعنى اللغوي؛ إذ هو إما جمع (امرأة) أو جمع (نسوة) الذي هو جمع (امرأة) فهو جمع الجمع. وهو على أي حال: «اسم لجماعة إناث الأناسي»[7].

---

(١) لسان العرب، ١/ ١٦٦.
(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/ ١٥٤.
(٣) المخصص ١/ ٣٣٥.
(٤) المصدر السابق.
(٥) الدر المصون ١/ ٢٢٠.
(٦) المصباح المنير، الفيومي ص٣١١.
(٧) المصدر السابق.

النساء في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ن س و) في القرآن الكريم (٥٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
نساء	٥٧	﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء:١١]
نسوة	٢	﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف:٣٠]

وجاءت النساء والنسوة في القرآن بمعناها في اللغة وهو: جمع المرأة من غير لفظها[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٦٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٨٠٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ المرأة:

المرأة لغة:

ويقال: مرة -بلا ألف-: تأنيث المرء[١]؛ «والمرء: الرجل»[٢] فقد أنثوا فقالوا: مرأةٌ، وخففوا التخفيف القياسي فقالوا: مرةٌ -بترك الهمز وفتح الراء- وهذا مطرد، وقال سيبويه: وقد قالوا: مراةٌ .وذلك قليل... وللعرب في المرأة ثلاث لغات: يقال: هي امرأته، وهي مرأته، وهي مرته[٣].

المرأة اصطلاحًا:

«اسم للأنثى البالغة من أولاد آدم»[٤]، ولا يطلق عليها (امرأة) إلا بعد البلوغ، فـ«الصغيرة لا تسمى امرأة في عرف أهل اللسان»[٥]، وفي بعض الآثار في سبب تسميتها امرأة «أنها من المرء أخذت»[٦].

الصلة بين المرأة والنساء:

يتضح مما سبق إن المرأة مفرد (النساء) من غير لفظه، أو مفرد (نسوة) التي جمعها (نساء).

ويمكن القول: أن المرأة لا تطلق إلا على الأنثى البالغة من بني آدم، أما النساء فيشمل البالغة وغير البالغة، فإن كانت استعملت في مواضع بمعنى المرأة البالغة فقد استعملت في مواضع أخرى بمعنى الأنثى الصغيرة.

٢ الزوجة:

الزوجة لغة:

«الزاء والواو والجيم أصلٌ يدل على مقارنة شيءٍ لشيء، من ذلك الزوج: زوج المرأة. والمرأة زوج بعلها، وهو الفصيح. قال الله جل ثناؤه ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة ٣٥،

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ٢٩٩.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٤٩٦.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٥٤.
(٤) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٧١.
(٥) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، البيضاوي ٢/ ٣٤٤، الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي ٧/ ٢٢٨١.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٠١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٩٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٥٤٩.

الأعراف ١٩][1]. فالزوج «يطلق على كل واحدٍ من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة، ويقال لكل قرينين فيها وفي غيرها، كالخف والنعل»[2].

الزوجة اصطلاحًا:

هي المرأة التي يقترن بها الرجل بموجب عقدٍ له أركانه وشروطه. وفي التسمية بالزوج -الذي هو بمعنى الاقتران- دلالة على أن الزوجية ينبغي أن تبنى على تواؤم واتفاق تام بين الزوجين، ولا يكون بينهما نفورٌ أو شقاقٌ، لذلك كان غالب التعبير القرآني عن المرأة التي لا يكون بينها وبين زواجها اتفاق تام بالمرأة دون الزوجة ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأعراف:٨٣].

الصلة بين الزوجة والنساء:

أن النساء يطلق على جماعة إناث الإنسان بصرف النظر عما إذا كن متزوجات أم لا، أما الزوجة فلا تطلق إلا على المرأة المتزوجة.

٣ الأهل:

الأهل لغة:

«الهمزة والهاء واللام أصلان متباعدان: أحدهما الأهل، قال الخليل: أهل الرجل زوجه. والتأهل التزوج، وأهل الرجل أخص الناس به، وأهل البيت: سكانه، وأهل الإسلام: من يدين به. وجميع الأهل أهلون، والأهالي جماعة الجماعة»[3].

الأهل اصطلاحًا:

صرح بعضهم بأن أهل البيت عبارة عن النساء، الواحد والجمع فيه سواء، ولكن الضمير الذي يرجع إليه يكون جمعًا ومذكرًا اجتنابًا عن التصريح، لأجل حرمة النساء»[4].

وقيل: الأهل: من يجمع الفرد وإياهم نسب أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد[5].

الصلة بين الأهل والنساء:

أن لفظ (الأهل) في الأصل أعم من النساء، إذ يشمل عشيرة الرجل وأقاربه، رجالًا كانوا

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٤٢.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٥٢.
(٤) مفردات القرآن، الفراهي ص٢٥٩.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٩٦.

أو نساءً، فتكون (الأهل) أعم من (النساء) من هذه الجهة. وأما في العرف فتختص بالزوجة، فتكون أخص منها من هذه الجهة.

٤ الأنثى:

الأنثى لغة:

من أنث، فالألف والنون والثاء ما كان خلاف الذكر، والأنثيان أنثيا الإنسان[١].

الأنثى اصطلاحًا:

قال الراغب: «خلاف الذكر من كل شيء»[٢]، ويقالان في الأصل اعتبارًا بالفرجين، قال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [النساء:١٢٤].

ولما كان الأنثى في جميع الحيوان تضعف عن الذكر اعتبر فيها الضعف، فقيل لما يضعف عمله: أنثى»[٣].

الصلة بين الأنثى والنساء:

أن لفظ (الأنثى) أعم من (النساء) إذ إنه يشمل الإناث من جميع المخلوقات، أما (النساء) فيختص بالإناث من بني آدم.

٥ البنت:

البنت لغة:

«الأنثى من الأولاد، الجمع: بنات»[٤]، والبنت ولدٌ، فلفظ الولد «يقع على الذكر والأنثى»[٥].

البنت اصطلاحًا:

«كل أنثى رجع نسبها إليك بالولادة بدرجةٍ أو درجاتٍ بإناثٍ أو ذكورٍ»[٦].

الصلة بين البنت والنساء:

أن لفظ (النساء) أعم من (البنت)؛ إذ لفظ (النساء) يشمل كل إناث الإنسان، أما (البنت) فتختص بالنسبة للوالدين أو أحدهما، فتخرج السيدة حواء؛ لأنها ليست بنتًا لأحد.

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ١٠٤.
(٢) العين، الفراهيدي ٨/ ٢٤٤.
(٣) المفردات ص٥١.
(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٧٢.
(٥) الفروق اللغوية ص١٣.
(٦) الكليات ص٣٧٦.

حكمة تسمية سورتين بهذا الاسم

بالنظر في القرآن الكريم نجد سورتين تسميان (سورة النساء):

إحداهما: السورة المشهورة بهذا الاسم، وتسمى (سورة النساء الكبرى).

والثانية: سورة (الطلاق) تسمى (سورة النساء الصغرى) و(سورة النساء القصرى)[1].

وذلك أن السورتين اشتملتا على كثير من الأحكام التي تتعلق بالنساء، فقد بدئت الأولى ببدء خلق النساء ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١].

وختمت ببيان أحكام ميراثهن ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧٦].

وما بين هاتين الآيتين بيان أحكامهن بين النشأة والوفاة.

وأما الثانية فقد ذكرت بعض أحكام الطلاق وما يتعلق به من عدة وسكنى ونفقة.

وسميت الأولى بالكبرى مقارنة بسورة الطلاق.

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز ١/١٦٩. رويت هذه التسمية عن ابن مسعود، فقد روي عن مالك بن عامر قال: كنا عند عبد الله، فقال: أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة؟! لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤]. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الطلاق، ٤/١٨٦٤، رقم ٤٦٢٦.

خلق المرأة

تعددت نظرات الناس إلى المرأة وتناقضت، والسبب في خلقها، فنجد منهم -وهم كثرٌ في هذه الأيام- من ينظر إليها على أنها أداة للشهوة وإمتاع الرجل، حتى قال قائلهم: المرأة كالزهرة يشمها من يشاء.

وبالتالي فإنهم بعد أن يقضوا حاجتهم منها يرمونها كما يرمون الزهرة بعد ذبولها.

ومنهم من ينظر إليها على أنها مخلوقٌ حقيرٌ لا يستحق الحياة.

ومنهم من ينظر إليها على أنها خادمة للطهي والغسل والتنظيف وغير ذلك.

ومنهم من ينظر إليها على أنها لعوب غاوية في نفسها، لا هم لها إلا الشهوات.

ومنهم من ينظر إليها على أنها حبل الشيطان الذي يغوى به عباد الله، بل منهم من ينظر إليها على أنها هي الشيطان نفسه.

ومنهم من ينظر إليها على أنها السفيهة التي لا تقوم على شيء إلا أفسدته.

ومنهم من ينظر إليها على أنها تلك الكنود التي لا تكافئ المعروف إلا بالنكران والكفران.

ومنهم من ينظر إليها على أنها الخائنة التي تؤوى الخدين في دار السيد والأمير.

ومنهم من ينظر إليها على أنها العورة والفضيحة والبلوة التي يطلب الخلاص منها.

ومنهم من ينظر إليها على أنها إلهٌ يعبد من دون الله.

إلى غير ذلك من نظرات إما جائرةٌ هاضمةٌ حق المرأة وإما مفرطةٌ في تقديسها.

ولكنها في حقيقة الأمر ظلمت من الاتجاهين، اتجاه الإفراط والتفريط، والعدل في أمرها والوسط في شأنها والمكانة الحقيقية التي تستحقها هي المكانة التي جعلها الإسلام فيها، فلا هي ملاكٌ ولا هي شيطانٌ.

بل هي مخلوقٌ من جنس الرجل، ومن نفسه لتكون شريكًا له في حياته، وعونًا له وسندًا لمواجهة أعباء الحياة وثقلها، يأوي إليها إذا عاد كالًّا من تعب الحياة ولأوائها، كما قال سبحانه ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم:٢١].

وهي وسيلة لبقاء النوع الإنساني والحفاظ عليه، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل:٧٢].

وهي شريكٌ رئيسٌ في بناء المجتمع الإنساني، فهي شطر المجتمع، وهي شقيقة الرجال، كما قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: (إنما النساء شقائق الرجال)[1]

وتظهر الحكمة من خلق المرأة في النقاط الآتية:

أولًا: الحفاظ على النوع الإنساني:

بين سبحانه أنه خلقنا من واحد، ثم خلق من الواحد زوجة له، ليتم التناسل والتكاثر. إذ إن استمرار بقائنا خاضعٌ لأمرين:

الأمر الأول: استبقاء الحياة، وقد ضمنه سبحانه بما أنعم به علينا من الأرزاق، فنأكل ونشرب فنستبقي الحياة.

الأمر الثاني: وهو استبقاء الحياة ببقاء النوع، فقال سبحانه ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل:٧٢].

هذا الزوج اشترك معنا في أشياء واختلف عنا في شيء واحد، اتفقنا في أشياء: فالشكل واحد، والقالب واحد، والعقل واحد، والأجزاء واحدة: عينان وأذنان.. يدان ورجلان.. إلخ، وهذا الاشتراك يعين على الارتقاء والمودة والأنس والألفة.

واختلفا في شيء واحد هو النوع: فهذا ذكر، وهذه أنثى. إذن جمعنا جنس وفرقنا النوع ليتم بذلك التكامل الذي أراده سبحانه لعمارة الأرض[2].

فالله تعالى خلقنا جنسين، ذكرًا وأنثى، وخلق في كل جنس ميلًا فطريًا إلى الجنس الآخر، وذلك حتى تتم عملية التزاوج التي تؤدي إلى التناسل والتكاثر، وذلك حتى لا يعزف أحد الجنسين عن الزواج هروبًا من أعبائه وتكاليفه، يخبر تعالى عن ذلك بقوله ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤].

ومعنى ﴿زُيِّنَ﴾ خلق حب هذه الأشياء في الإنسان، «والمزين هو الله تعالى لأنه الخالق للأفعال والدواعي، ولعله زينه ابتلاءً، ولأنه يكون وسيلة إلى السعادة الأخروية إذا كان على وجه يرتضيه الله تعالى، ولأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع»[3].

هذا الميل الفطري وهذه الشهوة التي خلقت فيهما من أقوى الدوافع، لذلك كان إباحة قضائها بالطرق الشرعية من أعظم النعم، ومما زادها عظمًا أن جعل عملية التزاوج بين نوعين لجنس واحد؛ حتى يحصل المودة والرحمة بينهما.

«فالأزواج من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوعٍ آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٢٥٦، رقم ٢٦٢٣٨، وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في الرجل يجد البلل في منامه، ١/ ٩٥، رقم ٢٣٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٦١، رقم ٢٣٣٣.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٣/ ٨٠٧٦.

(٣) انظر: أنوار التنزيل ٢/ ١٤.

من بني آدم ذكورًا وإناثًا، وجعل الإناث أزواجًا للذكور، وهذا من أعظم المنن، كما أنه من أعظم الآيات الدالة على أنه جل وعلا هو المستحق أن يعبد وحده»[1].

«وهذه الحالة وإن كانت موجودة في أغلب أنواع الحيوان فهي نعمة يدركها الإنسان ولا يدركها غيره من الأنواع. وليس من قوام ماهية النعمة أن ينفرد بها المنعم عليه»[2].

«والحفدة: جمع حافد، والحافد أصله المسرع في الخدمة. وأطلق على ابن الابن لأنه يكثر أن يخدم جده لضعف الجد بسبب الكبر، فأنعم الله على الإنسان بحفظ سلسلة نسبه بسبب ضبط الحلقة الأولى منها، وهي كون أبنائه من زوجه ثم كون أبناء أبنائه من أزواجهم، فانضبطت سلسلة الأنساب بهذا النظام المحكم البديع. وغير الإنسان من الحيوان لا يشعر بحفدته أصلًا ولا يشعر بالبنوة إلا أنثى الحيوان مدة قليلة قريبة من الإرضاع. والحفدة للإنسان زيادة في مسرة العائلة.

قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود:٧١]»[3]

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١].

هذا، ومما يلفت الأنظار أن خلق المرأة للرجل وعدم استغناء كلٍّ منهما عن الآخر أمر ضروري للتكاثر وبقاء الجنس البشرى، ولكن التناسل البشرى ليس كالتناسل في بقية الأجناس الأخرى، يجتمع فيه الذكر مع الأنثى حيثما اتفق، وينتج عن ذلك نسل ضائع بينهما، بل إن الشرع الحنيف نظم هذا الأمر على أساس الزواج الشرعي الذي تحدد فيه الحقوق والواجبات بالنسبة لكل منهما وللنسل الذي ينتج عنهما.

خلاصة الأمر أن خلق النساء وسيلة لاستبقاء النوع الإنساني على هذه الحياة إلى أن تقوم الساعة.

ثانيًا: سكن للرجل:

لما كان الإنسان يختلف عن غيره من الأجناس فليس الغرض من الزواج عنده مجرد قضاء شهوة، ولا التكاثر فقط، بل هناك أمور أسمى من ذلك، لذا كانت هناك أغراض سامية من وجود زوجٍ للإنسان.

من هذه الأغراض السكن، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ

(١) أضواء البيان ٢/ ٤١٢.
(٢) التحرير والتنوير ١٣/ ١٧٥.
(٣) المصدر السابق.

﴿أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١].

فـ«الزوج: ما لا يكمل المقصود إلا معه على نحو من الاشتراك والتعاون، وكانت المرأة زوج الرجل لما كان لا يستقل أمره في النسل والسكن إلا بها»[١].

والسكن: «السين والكاف والنون أصلٌ واحد مطرد، يدل على خلاف الاضطراب والحركة»[٢].

فالسكن: «ثبوت الشيء بعد تحرك»[٣].

و«كل ما سكنت إليه»[٤].

والمعنى هنا «لتألفوها، وتميلوا إليها، وتطمئنوا بها، فإن المجانسة من دواعي التضام والتعارف، كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر»[٥].

والمراد بالسكن السكون القلبي لا الجسماني، فقد حكى الرازي أنه «يقال (سكن إليه) للسكون القلبي، ويقال (سكن عنده) للسكون الجسماني، لأن كلمة (عند) جاءت لظرف المكان، وذلك للأجسام، و(إلى) للغاية، وهي للقلوب»[٦].

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٩٠.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٨٨.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٨٦.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٤١٥، المخصص، ابن سيده ٣/ ٣١٩.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٥٦. وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٣٣١.
(٦) مفاتيح الغيب ٢٥/ ٩٧.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

«بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة، فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة»[٧].

قال الألوسي: «المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعًا، أي: جعل بينكم بالزواج الذي شرعه لكم توادًّا وتراحمًا من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة، ولا مرابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم»[٨].

الفرق بينهما: أن المودة: المحبة، والرحمة: الشفقة، أو المودة: حب الرجل امرأته، والرحمة: رحمته إياها أن يصيبها بسوء[٩]، إذ الود: «محبة الشيء وتمني كونه»، والرحمة: «رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم»[١٠].

يقول الشيخ الشعراوي: «ولو تأملنا هذه المراحل الثلاثة لوجدنا السكن بين الزوجين، حيث يرتاح كلٌّ منهما إلى الآخر، ويطمئن له ويسعد به، ويجد لديه حاجته.

(٧) تيسير الكريم الرحمن ص٦٣٩.
(٨) روح المعاني، الألوسي ٢١/ ٣١.
(٩) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١٧.
(١٠) انظر: المفردات ص ٣٩١، ٤٩٩.

فإذا ما اهتزت هذه الدرجة ونفر أحدهما من الآخر جاء دور المودة والمحبة التي تمسك بزمام الحياة الزوجية وتوفر لكليهما قدرًا كافيًا من القبول. فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة، فيرحم كل منهما صاحبه، يرحم ضعفه، يرحم مرضه.. وبذلك تستمر الحياة الزوجية، ولا تكون عرضة للعواصف في رحلة الحياة. فإذا ما استنفدنا هذه المراحل، فلم يعد بينهما سكن ولا مودة ولا حتى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالت بينهما العشرة، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر»[(١)].

وإذا نظرنا في حياة نبينا صلى الله عليه وسلم مع أزواجه نجدها حياة مملوءة بالسكن والمودة والرحمة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم، فيضع فاه على موضع في فيشرب، وأتعرق العرق وأنا حائض، ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم، فيضع فاه على موضع في)[(٢)].

وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفرٍ قالت: فسابقته، فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: (هذه بتلك السبقة)[(٣)].

فالغرض من خلق المرأة أن تكون شريكًا للرجل في إعمار هذه الأرض، ولتكون مع الرجل وسيلة للحفاظ على النوع الإنساني، ولتكون عونًا له في هذه الحياة، فيسكن إليها ويطمئن إليها من تعب الحياة وعنائها، وليحصل بينها وبين الرجل ألفة ومودة ومحبة، ويحصل بينهما تراحم.

(١) تفسير الشعراوي ١٣/ ٨٠٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب جواز غسل رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه، ١/ ٢٤٥، رقم ٣٠٠.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في السبق على الرجل، ٢/ ٣٣٤، رقم ٢٥٨٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٧٥، رقم ٧٠٠٧.

تكريم المرأة

كان العرب في الجاهلية يمتهنون المرأة ويحتقرونها، ولا يجعلون لها أي حقوق، بل كانوا يقتلونها، فجاء الإسلام الحنيف فأكرمها أيما تكريمٍ، فساوى بينها وبين الرجل، وجعل لها حقوقًا، وأمر بالإحسان إليها، وسوف نوجز الحديث عن هذه النقاط فيما يأتي:

أولًا: المساواة بينها وبين الرجل في الأعمال وثوابها:

ربنا سبحانه خلق نوعي الإنسان الذكر والأنثى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم:٤٥].

وهيأ كل واحدٍ منهما للقيام بدوره ومهامه في هذه الحياة ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠].

وجعل لكل واحدٍ منهما مهمة يقوم بها في هذه الحياة، وشرع لكل واحد منهما من التكاليف ما يتناسب مع ما خلق له، ولم يفرق بينهما في الثواب على الأعمال، فعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله، يذكر الرجال ولا يذكر النساء. فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] الآية، وأنزل ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران:١٩٥][1].

«فكلا الصنفين في الثواب على الطاعة سواء، لا فرق بينهم فيه إلا بقدر العمل وكيفيته، دون أن يكون للذكورة أو الأنوثة دخل فيه. وعلل هذه المساواة بقوله جل وعلا: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ فالذكر مفتقر في وجوده إلى الأنثى، والأنثى مفتقرة في وجودها إلى الرجل، فالأصل واحد»[2].

وأيضًا ساوى بينهما في الحقوق والواجبات، كما قال سبحانه ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [البقرة:٢٢٨].

«وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ إثبات لتفضيل الأزواج في حقوق كثيرة على نسائهم لكيلا يظن أن المساواة المشروعة بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ مطردة، ولزيادة بيان المراد من قوله: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وهذا التفضيل ثابت على الإجمال لكل رجلٍ، ويظهر أثر هذا التفضيل عند نزول المقتضيات الشرعية والعادية»[3].

«وليس معنى أن الواجبات على المرأة مساوية للحقوق التي لها على الرجل أن

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٤٥١، رقم ٣٥٦٠.
وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.
(٢) التفسير الوسيط ٢/ ٧٣٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٨١.

المرأة مساوية للرجل من كل الوجوه، فإن الإسلام قرر فقط تساوى الحقوق والواجبات بالنسبة لها، وليس لذلك علاقة بشأن المساواة بينها وبين الرجل في نوع الحقوق والواجبات.

ولكي لا يفهم أحد هذا المعنى قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فالرجل ليس مساويًا للمرأة، وليست المرأة مساوية الرجل؟

لأن قانون المساواة يوجب أولًا تحقق المماثلة، ومن البداهة أنه لا مماثلة بينهما، فهما وإن كانا من جنس واحد إلا أنهما نوعان متقابلان غير متماثلين، وإن كان كلاهما متممًا للآخر، ومن ازدواجهما يتكامل النوع الإنساني ويسير في مدارج الكمال. وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من ازدواج هذين العنصرين فلابد أن يشرف على تهذيب الأسرة ويقوم على تربية ناشئتها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين، وقد نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة، فوجد الرجل أملك لزمام نفسه، وأقدر على ضبط حسه، ووجده الذي أقام البيت بماله وأن انهياره خراب عليه، فجعل له الرياسة»[1].

أما المساواة المزعومة التي ينادي بها أعداء الإسلام فليست مساواة، بل هي الظلم كل الظلم للمرأة.

يقول الشيخ الشعراوي: «وعجيب أن يرى البعض أن الذكورة نقيض الأنوثة، ويثيرون بينهما الخلاف المفتعل الذي لا معنى له، فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعًا، هل نجري مقارنة بين الليل والنهار، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعًا؟ هل نجري مقارنة بين الليل والنهار أيهما أفضل؟ لذلك تأمل دقة الأداء القرآني حينما جمع بين الليل والنهار، وبين الذكر والأنثى، وتدبر هذا المعنى الدقيق: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل:١-٤].

أي: مختلف، فلكلٍّ منكما مهمته، كما أن الليل للراحة والسكون والنهار للسعي والعمل، ويتكامل سعيكما ينشأ التكامل الأعلى.

فلا داعي إذن لأن أطلب المساواة بالمرأة، ولا أن تطلب المرأة المساواة بالرجل، لقد صدعت رؤوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة، والتي لا معنى لها بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل:٤]، أي: مختلف، فلكلٍّ منكما مهمته، كما أن الليل للراحة والسكون والنهار للسعي والعمل، ويتكامل سعيكما

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ٧٦٨.

ينشأ التكامل الأعلى»[1].

خلاصة الأمر أن الإسلام الحنيف ساوى بين الرجل والمرأة مساواة حقيقة لا جور فيه لأحدهما على الآخر، هذه المساواة لها مظاهر متعددة، منها:

- ساوى بينهما في الثواب والعقاب، فلا يفرق بينهما في الثواب والعقاب بسبب ذكورة أو أنوثة. «وقد بين الله تعالى علة هذه المساواة بقوله ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ فالرجل مولودٌ من المرأة، والمرأة مولودةٌ من الرجل، فلا فرق في البشرية، ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال، أي: وما تترتب عليه الأعمال ويترتب هو عليها من العلوم والأخلاق»[2].
- ساوى بينهما في أصل الخلقة، فكلاهما مخلوق لله، وينتهي أصلهما لآدم عليه السلام وآدم مخلوق من تراب.
- ساوى بينهما بأن شرع لكل منهما ما يناسب طبيعته التي خلقه عليها، فلم يكلف واحدًا منهما ما يتناقض وطبيعته أو يعجز عن القيام به. «فكان التفاوت في التكاليف والأحكام أثر التفاوت في الفطرة والاستعداد»[3].
- ساوى بينهما في الحقوق والواجبات، فإذا نظرنا إلى حقوق كلٍ منهما نجدها مساوية للواجبات المفروضة عليه للطرف الآخر.

ثانيًا: حقوق المرأة:

ومن مظاهر تكريم الله تعالى للمرأة أن أوجب لها حقوقًا كثيرة لم يقررها لها أي تشريعٍ آخر، هذه الحقوق منها حقوق مادية ومنها حقوق معنوية، نذكر بعضها:

الحقوق المادية:

١. أن يدفع لها مهرًا للزواج بها.

وهذا المهر واجب، «وليس ينبغي لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذبًا بغير حق. ومضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتمًا، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيبًا بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيبًا بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالًا طيبًا»[4].

يقول تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء:٤].

هذا الصداق إنما هو ملك خالص لها لا يحل لأحد أن يأخذ منه شيئًا إلا بطيب نفسٍ منها.

(١) تفسير الشعراوي ١٨/ ١١٣٥٦.
(٢) تفسير المنار ٤/ ٢٥٠.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٥٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢١٣.

قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء:٤].

أو يكون عن طريق الخلع ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٢٩].

أما لو أراد الزوج من تلقاء نفسه أن يطلقها ليتزوج بغيرها فهذا لا يحل له أن يأخذ منها شيئًا ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء:٢٠-٢١].

هذا الصداق واجب حتى ولو كانت الزوجة كتابية ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥].

بل «قال المالكية: شروط صحة النكاح أن يكون بصداقٍ، ولو لم يذكر حال العقد فلا بد من ذكره عند الدخول، أو تقرر صداق المثل»[(١)].

٢. النفقة عليها في حدود المعروف.

ومن حقوقها أيضًا النفقة عليها، يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦].

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية ٤١/ ٣٠٤.

نفقة المرأة على زوجها واجبة، ولا تسقط لشيء غير النشوز[(٢)]، بل إنه إذا لم يعطها ما يكفيها وولدها فلها أن تأخذ من ماله بدون علمه بالمعروف، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني إلا ما أخذت من ماله بغير علمه، فهل علي في ذلك من جناح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك)[(٣)].

والنفقة لا تقتصر على الزوجة، بل يلزم الرجل أن ينفق على أمه وأخته وبنته، فـ«نفقة الأم تجب على ولدها في حالتين: الحالة الأولى: أن يكون والده عاجزًا عن الإنفاق عليها. الحالة الثانية: أن يكون والده متوفى، وهي خلية من الزوج[(٤)].

يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة والمكيال والوزن وسنتهم على نياتهم ومذاهبهم المشهورة، ٢/ ٧٦٩، رقم ٢٠٩٧، ومسلم في صحيحه، واللفظ له، كتاب الأقضية، باب قضية هند، ٣/ ١٣٣٨، رقم ١٧١٤.

(٤) الفقه المنهجي، مجموعة مؤلفين ٤/ ١٧٦.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥].

«استدل بهذه الآية على وجوب نفقة الوالدين والأقربين على الواجد، وحمل بعضهم الآية على أنها في الوالدين إذا كانا فقيرين وهو غني»[(١)].

أما نفقة البنت فهي واجبة مثلها مثل الابن في ذلك، ولا خلاف في ذلك.

٣. السكنى والكسوة والإطعام.

سكنى الزوجة واجبة على زوجها اتفاقًا؛ لأن الله تعالى جعل للمطلقة الرجعية السكنى على زوجها ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق:٦]؛ فوجوب السكنى لغير المطلقة أولى. ولأن الله تعالى أوجب المعاشرة بين الأزواج بالمعروف ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩]، ومن المعروف المأمور به أن يسكنها في مسكنٍ تأمن فيه على نفسها ومالها، كما أن الزوجة لا تستغني عن المسكن؛ للاستتار عن العيون والاستمتاع وحفظ المتاع. فلذلك كانت السكنى حقًا لها على زوجها، وهو حقٌّ ثابتٌ بإجماع أهل العلم[(٢)].

والكسوة واجبة أيضًا، قال الماوردي «أما كسوة الزوجة فمستحقةٌ على الزوج؛ لقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

ولأن اللباس مما لا تقوم الأبدان في دفع الحر والبرد إلا به، فجرى في استحقاقه على الزوج مجرى القوت»[(٣)].

عن معاوية القشيري قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: (أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت -أو اكتسبت- ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت)[(٤)].

وهناك اختلافات بين الفقهاء في بعض تفاصيل تطلب من مظانها في كتب الفروع.

الحقوق المعنوية:

١. القوامة.

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤].

قد يلفت الانتباه جعل القوامة حقًّا من حقوق المرأة مع أن المتبادر إلى أذهان كثير من الناس أن القوامة حق للرجل، ولكن يمكن القول: إن القوامة حق للمرأة، وذلك أن «القوام: المبالغ في القيام»[(٥)].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٥١.
(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٥/ ١٠٨.
(٣) الحاوي الكبير، الماوردي ١١/ ٩٧١.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٤٤٦، رقم ٢٠٠٢٥، وأبو داود في سننه، واللفظ له، كتاب النكاح، باب في حق المرأة على زوجها، ٢/ ٢١٠، رقم ٢١٤٤.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود الأم، ٦/ ٣٥٩، رقم ١٨٥٩.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ٦/ ٤٨٥.

فكأنه مأمور بالمبالغة في القيام على شؤون المرأة، لذلك كانت الآية الكريمة ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء:٣٤].

فالقوام: «الذي يقوم على شأن شيءٍ ويليه ويصلحه، لأن شأن الذي يهتم بالأمر ويعتني به أن يقف ليدير أمره، فأطلق على الاهتمام القيام بعلاقة اللزوم، أو شبه المهتم بالقائم للأمر على طريقة التمثيل... وقيام الرجال على النساء هو قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي»[1].

فـ«ليست القوامة مطلق الرياسة، بل إن الرياسة تسمى قوامة إذا كان الرئيس يقوم على رعاية المرؤوس والمحافظة على حقوقه وواجباته.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فإن المعنى: أن الرجال يقومون على شؤون النساء بالحفظ والرعاية والكلاءة والحماية، فيقوم الآباء على رعاية بناتهم والمحافظة على أنفسهن وأخلاقهن ودينهن، والأزواج يقومون على شؤون زوجاتهم بالحفظ والرعاية والحماية والصيانة، ومن هنا تجيء الرياسة، بل إن قيام الرجل على شؤون الزوجة ليس فيه رياسة، إنما فيه حماية ورعاية وهو من قبيل توزيع التكليفات، فإذا كان للرجل رياسة عامة فللمرأة أيضا رياسة نوعية، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها)»[2].

وهذا المعنى هو الذي يفهم من السياق، وذلك أن الآية قبلها تتحدث عن الميراث ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٣٣﴾ [النساء:٣٣].

فلما تكلم النساء «في تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث بين في هذه الآية أنه إنما فضل الرجال على النساء في الميراث؛ لأن الرجال قوامون على النساء، فهم وإن اشتركوا في استمتاع كل واحدٍ منهم بالآخر فالله أمر الرجال بالقيام عليهن والنفقة ودفع المهر إليهن»[3].

فكأنها مسوقة لبيان السبب في استحقاق الرجال أكثر من النساء من الميراث.

٢. المعاشرة بالمعروف.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١١٣.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٦٦٧.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ١/ ٣٠٤، رقم ٨٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، ٣/ ١٤٥٩، رقم ١٨٢٩.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ٦/ ٣٥٩.

التعامل بالمعروف مأمور به في حياة المسلم كلها وفي تعامله مع كل الناس، وأولى الناس بهذا المعروف أقرباؤه، وأولى الأقرباء النساء عامة، لضعفهن، والزوجات خاصة.

يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩].

«فأمر الله سبحانه الأزواج إذا عقدوا على النساء أن يكون أدمة ما بينهم وصحبتهم على التمام والكمال، فإنه أهدأ للنفس، وأقر للعين، وأهنأ للعيش، وهذا واجبٌ على الزوج»[(١)].

والمراد بالمعروف: «ما تألفه الطباع السليمة ولا يستنكره الشرع ولا العرف ولا المروءة»[(٢)].

بل حتى في حالة حدوث طلاق بين الزوجين يأمر الله تعالى الرجل أن يتعامل معها بالمعروف، سواء أراد أن يردها إلى عصمته أو أراد أن يفارقها، فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٣١].

وقال: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٢].

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمعاشرتهن بالمعروف، ففي حجة الوداع قال: (فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[(٣)].

وهناك أمور تتنافى مع المعاشرة بالمعروف، «فالتضييق في النفقة، والإيذاء بالقول، أو الفعل، وكثرة عبوس الوجه، وتقطيبه عند اللقاء، كل ذلك ينافي العشرة بالمعروف»[(٤)].

٣. الإحسان إلى المرأة.

من مظاهر تكريم الإسلام للمرأة أنه أمر بالرفق بها والإحسان إليها أمًّا وأختًا وبنتًا وزوجة، على ما يأتي بيانه.

أمر بالإحسان إلى الأم ضمن الأمر بالإحسان إلى الوالدين، بل جعل الإحسان إليهما حقًّا تاليًا لعبادة الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء:٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:١٥١].

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ١٩٦.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٢٩٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢/ ٨٨٦، رقم ١٢١٨.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٣٧٤.

وخصها النبي صلى الله عليه وسلم بمزيد فضل عندما سأله رجل قائلًا: (يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك)[1].

وأمر في الإعطاء أن يبدأ بها، فقال صلى الله عليه وسلم وهو يخطب الناس على المنبر: (يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك وأدناك)[2].

وصلتها حتى ولو كانت غير مسلمة، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: (نعم صلي أمك)[3].

ولكن لا يجوز طاعتهما في معصية الله تعالى لقوله سبحانه ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت:٨].

أمر بالإحسان إلى البنات، فقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم وكان العرب يقتلون البنات خشية العار وخشية الفقر، فنهى الله تعالى عن ذلك ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء:٣١].

والولد يشمل الذكر والأنثى، بدليل قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

وذم من قتلها أشد الذم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير:٨-٩].

وقد بَيَّنَ صلى الله عليه وسلم أن الإحسان إلى البنات من أسباب النجاة من النار، فعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني، فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها، فقسمتها بين ابنتيها، ثم قامت

(١) أخرجه البخاري، واللفظ له، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ٥/ ٢٢٢٧، رقم ٥٦٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين، ٤/ ١٩٧٤، رقم ٢٥٤٨.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٦٦٨، رقم ٤٢١٩.
وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري، واللفظ له، كتاب الهبة وفضلها، باب الهدية للمشركين، ٢/ ٩٢٤، رقم ٢٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، ٢/ ٦٩٦، رقم ١٠٠٣.

فخرجت، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته، فقال: (من يلي من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن كن له سترًا من النار)[1].

وأمر بالإحسان إلى الأخوات، فإنهن داخلات ضمن القرابة المأمور بالإحسان إليهم في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النساء:٣٦].

والإحسان إليهن يكون بصلتهن، ورعايتهن، والنفقة عليهن إن لم يكن متزوجات أو كان بهن فاقة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يكون لأحد ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة)[2].

وقد «كان طاووس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله»[3].

وأمر بالإحسان إلى الزوجات: وقد تقدم طرف من الحديث في هذا الأمر عند بيان حقوق النساء، وقد أوصى صلى الله عليه وسلم بالزوجات خيرًا، فقال: (ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا، ألا إن لكم على نسائكم حقًّا ولنسائكم عليكم حقًّا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن)[4].

ومن مظاهر إكرامهن والإحسان إليهن أنه جعل المهر حقًّا للمرأة على زوجها، ونهاه أن يأخذ منه شيئًا إلا بإذنها، فقال سبحانه: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء:٤].

والنحلة: العطية بلا قصد عوض، وسمي المهر نحلة إبعادًا له عن أنواع الأعواض،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب البر والصلة، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ٥/ ٢٢٣٤، رقم ٥٦٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات، ٤/ ٢٠٢٧، رقم ٢٦٢٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٤٢، رقم ١١٤٠٢، والبخاري واللفظ له في الأدب المفرد ص٤٢، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب النفقة على البنات والأخوات، ٤/ ٣١٨، رقم ١٩١٢.
وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص٥٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ١٦، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٢١٢.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الرضاع، باب حق المرأة على زوجها، ٣/ ٤٦٧، رقم ١١٦٣.
قال الترمذي: حسن صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٠٤، رقم ٧٨٨٠.

وتقريبًا به إلى الهدية، إذ ليس الصداق عوضًا عن منافع المرأة عند التحقيق، فإن النكاح عقد بين الرجل والمرأة قصد منه المعاشرة، وإيجاد آصرة عظيمة، وتبادل حقوق بين الزوجين، وتلك أغلى من أن يكون لها عوض مالي، ولو جعل لكان عوضها جزيلًا ومتجددًا بتجدد المنافع وامتداد أزمانها، شأن الأعواض كلها، ولكن الله جعله هدية واجبة على الأزواج إكرامًا لزوجاتهم[1].

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢٠-٢١]

(١) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ٢٢.

نماذج من قصص المرأة في القرآن

القرآن الكريم ذكر كثيرًا من القصص للعظة والعبرة، وعندما ذكر هذه القصص لم يتخير قصة لسبب أن أصحابها ذكور أو إناث، بل يذكر من القصص ما يؤدي الغرض منها، وبالتالي فإن من هذه القصص ما هو لرجال، ومنها ما هو لنساء، ومنها ما هو لمؤمن، ومنها ما هو لكافر، فلنذكر هنا بعض قصص ذكرت في القرآن الكريم لنساء مؤمنات، وأخرى لنساءٍ كوافر، ولم يصرح في القرآن الكريم باسم امرأة إلا السيدة مريم رضي الله عنها لقصد الستر على النساء، ولأن ذكر الاسم لا يتعلق به كبير فائدة. أما التصريح باسم السيدة مريم رضي الله عنها فلما سيأتي بعد.

أولًا: نساء آدم وإبراهيم عليهما السلام:

١. حواء رضي الله عنها.

الأم الأولى للبشرية، فهي المقدمة وجودًا على كل نساء العالمين، وسميت بهذا الاسم «لأنها خلقت من حي»[2] ولم تفرد لها قصة مستقلة، بل ذكرت تبعًا في قصة آدم عليه السلام، فبعد أن خلقه الله تعالى خلقها منه لتكون زوجًا له، كما قال سبحانه ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

(٢) لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٨.

وقد خلقها الله تعالى من ضلع آدم عليه السلام اليسرى، ففي الصحيح: (إن المرأة خلقت من ضلعٍ لن تستقيم لك على طريقةٍ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوجٌ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها)[1].

فلما خلقها وأصبحت زوجًا له جامعها فحملت، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف:١٨٩].

ثم إن الله تعالى رزقهما ذرية ذكورًا وإناثًا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١].

ثم إنه سبحانه أمرهما بسكنى الجنة ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥].

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:١٩].

ثم حذرهما من اللعين إبليس ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾﴾ [طه:١١٧].

فأمرهما الله أن يسكنا الجنة ويأكلا من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة نهاهما عنها ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة:٣٥].

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف:١٩].

وضمن لهما المولى عز وجل في هذه الجنة الشبع والري والكساء والظل، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:١١٨-١١٩].

ولكن اللعين ظل يوسوس لهما مستخدمًا حيله الخبيثة لإقناعهما، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه:١٢٠].

وحلف لهما كذبًا وفجورًا ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف:٢١].

فانطلت عليهما حيلته وانخدعا به ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة:٣٦].

لأنهما لم يخطر ببالهما أن أحدًا يمكن أن يحلف بالله كاذبًا، فأكلا من الشجرة وأخرجا من الجنة إلى الأرض ليعمراها، ثم إنه تعالى ذكر توبتهما بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣].

ثم إن الله تعالى حذر أولادهما من هذا العدو اللدود الذي يتربص بهم ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، ٢/ ١٠٩٠، رقم ١٤٦٨.

﴿مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف:٢٧].

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أن السيدة حواء ظلمت عندما نسب إليها بعض الناس أنها كانت السبب في إغواء آدم عليه السلام وإخراجه من الجنة، وهذا فيه تجنٍّ عليها، فالقرآن الكريم نسب الأكل من الشجرة إليهما ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[طه:١٢١].

ونسب العصيان لآدم عليه السلام ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١].

وإننا إذا نظرنا إلى قصة حواء رضي الله عنها ينبغي التأمل في طلاقة القدرة الإلهية في خلق السيدة حواء -رضي الله عنها- حيث خلقها الله من ذكر بلا أنثى، ويجب أن ندرك أن المرأة شريكة للرجل في هذه الحياة، وأنه لن يستطيع العيش وحده في هذه الحياة، فهي عون له على متاعبها.

٢. السيدة سارة امرأة إبراهيم عليه السلام.

وقد ذكرت منسوبة له عليه السلام ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود:٧١-٧٣].

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات:٢٨-٣٠].

والقصة من مجموع الآيات: أن الملائكة أتوا إبراهيم عليه السلام وبشروه بأنه سيولد له غلام ذو علمٍ، «والظاهر أن زوجه كانت تقف قريبًا من إبراهيم وضيفه بحيث تسمعهم ولا يرونها، فلما سمعت البشارة دهشت ونسيت ما ينبغي منها، فأقبلت عليهم في صيحة وضجة، وضربت جبهتها بأصابعها على عادة النساء إذا سمعن أمرا عجيبًا، وقالت: أنا عجوز عاقر، فكيف تتأتى هذه البشارة؟! وكيف ألد؟!»[1].

فبشروها بأنها ستلد إسحاق عليه السلام، وسوف ينجب يعقوب عليه السلام، فزاد تعجبها، إذ إنها عجوزٌ وصلت سن اليأس، وهي مع ذلك عقيمٌ لا تلد، وزوجها كبير في السن، فقالوا لها: إن هذا أمر الله وقضاؤه، فلا تتعجبي من ذلك، فهو الحكيم في أفعاله الواسع العلم.

ويستفاد من القصة: طلاقة القدرة الإلهية، فهو سبحانه يعطي من يشاء بغير

(١) التفسير الوسيط ٩/١٠٩٨.

حساب، ويهب الذرية لمن يشاء حسب ما يقتضيه علمه تعالى وقدرته.

ثانيًا: نساء النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

١. أمهات المؤمنين.

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم والحديث عنهن يطول، وقد أفردن في موضوع بيت النبوة، وسأكتفي بذكر الآيات التي ذكرتهن بلفظ الزوج أو الأزواج، فقوله: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب:٢٨].

وقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٧].

والمقصود السيدة زينب بنت جحش، وكانت وقتها زوجًا لزيد بن حارثة رضي الله عنه.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩].

وقوله: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم:١].

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ [التحريم:٣].

وفي قصص بيت النبوة عبر كثيرة وعظات وفيرة، أبرزها: مكانة أمهات المؤمنين، فإنه لا يجوز لأي إنسان أن ينتقص من قدرهن، فهن الطاهرات المطهرات، فلا يلتفت إلى كلام الروافض -قبحهم الله- في شأن أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها

٢. من وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم.

والتي ذكرها المولى عز وجل في قوله ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وهي لا يقصد بها امرأة واحدة، وإنما تصدق على كل امرأة وهبت نفسها للنبي، يدل على ذلك قول عائشة رضي الله عنها: (كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول: أتهب المرأة نفسها؟!)[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الأحزاب، ٤/١٧٩٧، رقم ٤٥١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب

ومن هؤلاء أم شريك غزيلة بنت جابر ابن حكيم الدوسية[1]، وخولة بنت حكيم ابن أمية[2]، وليلى بنت حكيم الأنصارية الأوسية[3]، ومنهن ميمونة بنت الحارث[4].

وينبغي التنبه إلى أن زواج الهبة من خصوصيات نبينا صلى الله عليه وسلم، كما قال سبحانه: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

ثالثًا: نساء بقية الأنبياء عليهم السلام:

١. امرأة عمران.

وقد ذكرت قصتها مرة واحدة في القرآن الكريم، وهو في سورة عرفت باسم هذا البيت الطاهر (آل عمران) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران ٣٥-٣٦].

ثم تخلص من ذكر قصتها إلى الحديث عن قصة ابنتها البتول السيدة مريم رضي الله عنها تخلصًا غاية في الحسن[5].

فها هي هذه المرأة الحامل تنذر حملها لعبادة الله تعالى ولكن المفاجأة أنها عندما وضعتها اتضح أنها أنثى، وهي لا تصلح لما يصلح له الذكر، وسمتها مريم، وأعاذتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم، ثم يستمر الحديث عن هذه المولودة، فكأن الحديث عن الأم بمثابة التمهيد للحديث عن البنت.

ويستفاد من القصة أنه ينبغي أن يتسابق الناس إلى الطاعات، وأن يربوا أبناءهم على طاعة الله تعالى، ويجب على كل إنسان أن يرضى بما أعطاه الله سبحانه سواء وافق رغبته أم خالفها.

٢. امرأة زكريا.

وهي أخت السيدة مريم، كما رواه الحاكم[6] عن ابن عباس وابن مسعود في

الرضاع، باب جواز هبة المرأة نوبتها لضرتها، ٢/ ١٠٨٥، رقم ١٤٦٤.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٤٦٢، رقم ٢٧٦٦٢، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب تأويل قول الله جل ثناؤه: (ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء)، ٥/ ٢٩٤، رقم ٨٩٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد، ٥/ ١٩٦٦، رقم ٤٨٢٣.

(٣) سبل الهدى والرشاد ١١/ ٢٠٧.

(٤) الخصائص الكبرى ٢/ ٣٦٩.

(٥) وهو ما يسمى حسن التخلص: وهو أن ينتقل الشاعر أو الناثر من فن من فنون الكلام إلى فنٍّ آخر، أو من موضوع إلى موضوع آخر بأسلوبٍ حسنٍ مستطاب غير مستنكر في النفوس ولا في الألباب، وأحسنه ما لا يشعر المتلقي معه بالانتقال، لما أحدثه التمهيد المتدرج من تلاؤم، أو لحسن اختيار المفصل الذي حصل عنده الانتقال، أو لغير ذلك.
انظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص٨٨٠.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ

حديث طويل وفيه (فأتتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها).

وقيل: أخت حنة امرأة عمران أم مريم[1].

أي: أنها خالة السيدة مريم.

وكانت عاقرًا، وعندما رأى زوجها زكريا عليه السلام بركة السيدة مريم رجا الولد، فدعا ربه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

وفي سورة مريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مريم:٥].

وعندما أخبره الله تعالى أنه سيرزقه الولد سأل ربه ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨].

أي: كيف يرزق الولد، أمن زوجه، أم سيتزوج بامرأة أخرى غير عقيم؟

إنها القدرة الإلهية التي رزقت إبراهيم عليه السلام الشيخ الكبير من زوجه العقيم الولد، هي القدرة التي وهبت زكريا عليه السلام ابنه يحيى بعدما تقدمت به العمر، وبلغت امرأته سن اليأس.

رابعًا: أمهات الأنبياء:

١. أم موسى عليه السلام.

ذكرت مضافة لابنها مرتين في سورة القصص.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص:٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص:١٠].

وإلى ضميره في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [طه:٣٨].

وقوله: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه:٤٠].

فذكرها بمثابة التمهيد لقصة موسى عليه السلام وبيان أن الله تعالى رعاه وتولى أمره منذ طفولته كما قال له: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

فها هي أمه تلده في العام الذي يقتل فيه

المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب ذكر نبي الله وروحه عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليهما، ٢/ ٦٤٨، رقم ٤١٥٦.
وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٥٤.

فرعون الأطفال، فألقي الله في نفسها أن ترمي به في اليم، وتأمر أخته بأن تتبعه لترى ماذا فعل، فيشاء الله أن يقع في يد عدوه فرعون، ويتربى في بيته، فقد منعه الله أن يلتقم ثدي المراضع، فتدلهم أخته على أمه، فتقر به عينًا وتطمئن قلبًا.

ويستفاد من القصة أن الله سبحانه إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه ووفر له وسائله، وإن كانت أسبابًا منافية لما يعرفه البشر، فقد جعل الإلقاء في اليم سببًا لنجاة موسى عليه السلام. ويجب أن نثق في وعد الله تعالى وإن كان ظاهر الأمور لا يؤدي النتائج المرجوة، فها هو فرعون يظفر بموسى عليه السلام ويربيه ليكون سببًا في هلاكه، ويتحقق وعد الله لأمه بأنه سيرده إليها وأنه سيكون أحد رسله سبحانه.

٢. مريم عليها السلام.

وهي المرأة الوحيدة التي صرح القرآن الكريم باسمها في أكثر من موطن، وهي أم سيدنا عيسى عليه السلام، وقد ذكر اسمها في القرآن الكريم أربعًا وثلاثين مرة، منها ثلاث وعشرون مرة ذكر الاسم لينسب المسيح عليه السلام إليها، منها: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٥٧].

وبقية المواطن للحديث عن السيدة مريم البتول رضي الله عنها، وبالنظر في القرآن الكريم نجد أنه ذكر مشاهد من حياتها رضي الله عنها، وهي كما يلي:

- مشهد الحمل بها وولادتها.
- مشهد كفالة زكريا عليه السلام لها.
- مشهد حملها وولادتها للسيد المسيح عليه السلام.
- مشهد اتهام اليهود لها.

وبالنظر في وصف القرآن الكريم لهذه المشاهد مع ذكر عيسى عليه السلام منسوبًا إليها (عيسى بن مريم) ندرك لأول وهلة أن الله سبحانه يرد على تهمتين شنيعتين اتهمت بهما السيدة العذراء رضي الله عنها: التهمة الأولى زمانًا تهمة الزنا التي رماها بها بعض اليهود قبحهم الله التهمة الثانية زمانًا الأولى -شناعة- تهمة ادعاء أن عيسى عليه السلام إلهٌ أو ابن للإله، التي رماهما بها غلاة النصارى، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ولنعد إلى الحديث عن هذه المشاهد، فالمشهد الأول والمشهد الثاني مشهد الحمل بها وولادتها، ومشهد كفالة زكريا عليه السلام لها قد ذكرا في سورة آل عمران، في ثنايا الحديث عن هذا البيت الطاهر ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

﴿وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٧].

فعندما حملت امرأة عمران نذرت ما في بطنها محررًا من كل القيود إلا قيد العبادة لله تعالى وابتغاء مرضاته، ولكنها عندما وضعت ما في بطنها فإذا هي أنثى، ولا تستوي هي والذكر، فقد كان النذر للمعابد خاصًّا بالذكور، وبناءً عليه فإن هذه المولودة لا تصلح للنذر، فتوجهت لربها قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ «أي أنها قدرت الحمل ذكرًا، وقدرت لذلك أن يكون في خدمة البيت، وأنها لذلك تتحسر، لأنه لا يستطيع المولود -بعد أن تبين أنه أنثى- الخدمة، فليس في هذه الخدمة المقدسة الذكر كالأنثى، فإن الأنثى لا تستطيع ذلك»[1].

«﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيمًا لموضوعها، وتجهيلًا لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئًا»[2].

«ولكنها هي تتجه إلى ربها بما وجدت، وكأنها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

وهي الكلمة الأخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدي ربها، وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به هي وذريتها من الشيطان الرجيم. وهذه كذلك كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص. فما تود لوليدتها أمرًا خيرًا من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم!

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ جزاء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم وهذا التجرد الكامل في النذر، وإعدادًا لها أن تستقبل نفخة الروح وكلمة الله، وأن تلد عيسى عليه السلام على غير مثال من ولادة البشر»[3].

ثم يخبر تعالى عن أنه لم يترك هذه الوليدة تنشأ كما نشأ غيرها من الأطفال، ولكنه: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١١٩٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٨٤.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٣.

﴿هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

فجعلها شكلًا مليحًا ومنظرًا بهيجًا، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين. فجعل زكريا عليه السلام -وهو نبيهم في ذلك الوقت- كافلًا لها[1].

وكان زكريا عليه السلام كلما دخل عليها مكان عبادتها وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وكلمة ﴿كُلَّمَا﴾ تقتضي التكرار، فيدل على كثرة تعهده وتفقده لأحوالها ودلت الآية على وجود الرزق عندها كل وقت يدخل عليها، فاستغرب زكريا وجود الرزق عندها وهو لم يكن أتى به، فسأل على سبيل التعجب من وصول الرزق إليها، كيف أتى هذا الرزق؟!

فأخبرته أنه من عند الله تعالى بدون سبب معهود، فالله تعالى يرزق من يشاء مع الأسباب وبدون أسباب[2].

فلما رأى زكريا عليه السلام هذه الكرامة توجه إلى ربه سائلًا إياه أن يهبه ذرية طيبة، ولم يكن رزق بالولد بعد، فاستجاب الله دعاءه.

ثم إن جبريل عليه السلام نزل إلى السيدة البتول رضي الله عنها يذكرها ببعض نعم الله تعالى عليها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ بما لطف لك حتى انقطعت إلى طاعته وصرت متوفرة على اتباع مرضاته ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ قال ابن عباس: أي: من ملامسة الرجال. وقيل: من الحيض والنفاس، كانت مريم لا تحيض.

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على عالمي زمانها؛ بأن فضلت عليهن. وجائز أن يكون على نساء العالمين كلهم؛ لأنه ليس في النساء امرأة ولدت من غير أبٍ غير مريم؛ ولأنها قبلت في التحرير للمسجد ولم يكن التحرير في الإناث، فهي مختارة على النسوان كلهن بما لها من الخصائص.

وكرر الاصطفاء لأن كلا الاصطفائين مختلفٌ معناهما: فالاصطفاء الأول: عمومٌ يدخل فيه صوالح النساء، والثاني: اصطفاء بما اختصت به من خصائصها[3].

ثم أمروها أن تديم العبادة لله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[آل عمران:٤٣].

و«القنوت: لزوم الطاعة والاستمرار عليها مع استشعار الخضوع التام المطلق والاستسلام لله وإسلام الوجه لله الكريم، فمعنى نداء الملائكة دعوتها إلى أن تستمر على ما هي عليه من خضوع لله وإسلام وجهها له سبحانه وتفويض أمورها له.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٦١.
(٣) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٢٤٥.

وتكرار النداء لإشعارها بقربهم منها وهم رسل ربهم إليها، وفي ذلك بيان قربها منه سبحانه وتعالى وفي تكرار النداء إشعار بأن طلبهم الاستمرار على القنوت هو من قبيل شكر الله على هذه النعمة؛ فهذا الاصطفاء يوجب الشكر بالاستمرار على القنوت.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ هذا الأمر هنا يفسر بملازمة الطاعة والعبادة؛ فالسجود الخضوع المطلق لله تعالى؛ لأن أظهر مظاهر الخضوع أن يتطامن الشخص فيضع جبهته على الأرض خضوعًا لله تعالى، وشعورًا بعظمته وجلالته وعلوه سبحانه وانخفاض العبد أمامه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ بمعنى: لتكن صلاتك مع المصلين، أي: في الجماعة، أو انظمي نفسك في جملة المصلين، وكوني معهم في عدادهم، ولا تكوني في عداد غيرهم[1].

ثم يأتي مشهد حملها وولادتها للسيد المسيح عليه السلام ومشهد اتهام اليهود لها وتبرئة الله تعالى لها.

وقد ذكر مشهد الحمل والولادة في سورة آل عمران: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۚ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران:٤٥-٤٧].

وفي سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٢١ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِۖ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ۝٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ۝٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ۝٢٦﴾ [مريم:١٦-٢٦].

وفي سورة المؤمنون: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ۝٥٠﴾ [المؤمنون:٥٠].

وفي سورة التحريم: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا

(١) زهرة التفاسير ٣/ ١٢١٤ بتصرف يسير.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم:١٢].

فها هي تبتعد عن قومها لتخلو لعبادة ربها، فاستترت عن الأعين، فيأتيها الملك جبريل عليه السلام في صورة بشر، فخافت منه، واستعاذت منه، وطلبت منه أن يبتعد عنها ولا يؤذيها إن كان عنده تقوى الله تعالى، فأخبرها بأنه مرسل من الله تعالى ليخبرها بأنها ستحمل بولد طاهر؛ فاستغربت وسألت عن طريق حملها بهذا الغلام، خصوصًا وأنها لم تتزوج، ولم تكن زانية، أهو عن طريق زواج أم أنها ستحمل به بقدرة الله تعالى بدون أن يقربها رجل؟

فأخبرها الملك أنها ستحمل به بكلمة الله تعالى، وهذا أمر يسير عليه سبحانه، ثم إن هذا الغلام سيكون آية للناس كلهم على قدرة الله التامة، حيث إنه تم الحمل به بدون ذكرٍ، فمثله كمثل آدم عليه السلام، «فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه»[1].

وقد تم حملها به، حيث نفخ جبريل عليه السلام في جيبها أو في فرجها، كما يفهم من آية التحريم، فأخذت مكانًا بعيدًا عن قومها، إلى أن ألجأها وجع الولادة إلى جذع نخلة، فتمنت الموت وقتها ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

وهذا ليس من المنهي عنه بقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنيًا للموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي)[2].

لأنها تمنت الموت لضرٍّ ديني لا لضر دنيوي، إذ إنها «خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك، وهذا مباح»[3].

عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما قالا: «خرجت مريم إلى جانب المحراب بحيض أصابها، فلما طهرت إذ هي برجل معها، وهو قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وهو جبريل عليه السلام، ففزعت منه، فقالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ الآية.

فخرجت وعليها جلبابها، فأخذ بكمها فنفخ في جيب درعها، وكان مشقوقًا من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء بالموت والحياة، ٥/ ٢٣٣٧، رقم ٥٩٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به، ٤/ ٢٠٦٤، رقم ٢٦٨٠.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٢.

قدامها، فدخلت النفخة صدرها، فحملت.

فأتتها أختها امرأة زكريا ليلةً تزورها، فلما فتحت لها الباب التزمتها، فقالت امرأة زكريا: يا مريم أشعرت أني حبلى؟ فقالت مريم، أيضًا: أشعرت أني حبلى؟ فقالت امرأة زكريا: فإني وجدت ما في بطني يسجد للذي في بطنك. فذلك قوله عز وجل: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٣٩].

فولدت امرأة زكريا يحيى، ولما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت استحياء من الناس: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا﴾ جبريل ﴿مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

فهزته، فأجرى لها في المحراب نهرًا، والسرى: النهر، فتساقطت النخلة رطبًا جنيًّا، فلما ولدته ذهب الشيطان فأخبر بني إسرائيل أن مريم ولدت، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى، فتكلم عيسى فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم:٣٠-٣١].

فلما ولد عيسى لم يبق في الأرض صنم يعبد من دون الله إلا وقع ساجدًا لوجهه»[1].

ولم تلبث مريم بعد ولادتها طويلًا إلا وجاءت قومها معها وليدها، فاتهمها اليهود على عادتهم وحماقتهم، وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم، فقال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء:١٥٦].

وقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم:٢٧-٣٠].

فما أن رأوها حتى انهالوا عليها بالاتهامات الباطلة والإفك الصريح والكلام اللاذع، لقد فعلت أمرًا عظيمًا وجرمًا جسيمًا، يا شبيهة هارون عليه السلام في العبادة، كان الأولى بك أن تتشبهي به في الابتعاد عن الزنا، ثم إنك من أسرة طاهرة معروفة بالطهر والعفاف، فلم يعرف عن أبيك السوء، ولم تزن أمك.

فالتزمت العفيفة الحصان الصمت بإذن ربها، وأشارت إلى وليدها لتؤذنه بالكلام، فاستغربوا من فعلها واستهزؤوا منها، كيف نتحدث إلى صبيٍّ في مهده؟! ولكن الله أنطقه، فكان أحد الثلاثة الذين تكلموا في المهد، فبرأها الله من إفكهم.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب ذكر نبي الله و روحه عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليهما، ٢/٦٤٨، رقم ٤١٥٦. وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

خلاصة الأمر أن ذكر اسمها الصريح لتبرئتها مما نسبه إليها اليهود، ولتبرئة ابنها مما نسبه إليه النصارى، لذلك كان التعقيب الإلهي ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۖ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم:٣٤-٣٦].

خامسًا: نساء صالحات:

١. امرأة فرعون.

وهي السيدة آسية بنت مزاحم[(١)].

وقد ظهرت شخصيتها في موطنين من القرآن الكريم، الأول: عندما كان موسى عليه السلام طفلًا رضيعًا، وألقته أمه في اليم بوحي من الله تعالى فالتقطه آل فرعون، وأرادوا قتله، ولكن هذه المرأة تقف متوسلة لهم ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص:٩].

والموطن الثاني: حينما ضربها الله مثلًا للمؤمنين ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم:١١].

ولم يصرح باسمها وإنما ذكرت منسوبة لزوجه لما تقدم، ولما في نسبتها لزوجها من الفوائد التي لا تتحقق لو ذكر اسمها، فهي زوجة طاغية من الطغاة، ومع ذلك يجعلها الله تعالى وسيلة لنجاة نبي من الأنبياء، ثم إن زواجها بهذا الطاغية لم يمنعها من الإيمان بالله تعالى حتى صارت مثلًا يضرب في التقوى والثبات على الحق وعدم الخوف من مخلوق مهما عظم؛ لذلك كانت من أكمل النساء كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[(٢)].

وقال: (حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون)[(٣)].

---

(١) ورد تسميتها بذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون).
أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون)، ٣/ ١٢٥٢، رقم ٣٢٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، ٤/ ١٨٨٦، رقم ٢٤٣١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها، ٣/ ١٣٧٤، رقم ٣٥٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل خديجة رضي الله عنها، ٤/ ١٨٨٦، رقم ٢٤٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب،

فينبغي التأسي بهذه السيدة الفاضلة في الإيمان والصبر، ولا نلتفت إلى تعنت المتعنتين، ولا تجبر المتجبرين، فإن هذه الحياة رخيصة بجانب ما أعده الله للمؤمنين يوم القيامة، فلكي نظفر بالثواب الجزيل يجب علينا أن نتمسك بديننا، وخصوصًا في هذا العصر الذي زادت فيه الفتن، ويحارب الإسلام بشتى السبل من أعدائه.

٢. أخت موسى عليه السلام.

وهي إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة[١] ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص:١١].

﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه:٤٠].

وبالنظر فيما فعلته أخت موسى عليه السلام قد يتخيل الإنسان أنه عمل صغير لا قيمة له، ولكنه كان سببًا لرد موسى عليه السلام لأمه، وهذا يجعل الإنسان لا يستصغر أي عملٍ من أعمال الخير، فإنه لا يدري ماذا يترتب على هذا العمل، فقد يترتب عليه نجاة إنسان أو نجاة أمة بأكملها.

ونلحظ ذكاء هذه الفتاة في حيلتها التي احتالت بها لإرجاع موسى لأمه.

٣. المرأتان اللتان لقيهما موسى عليه السلام وسقى غنمهما.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص:٢٣].

عن عمر بن الخطاب أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فأخبرتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم، ورجعت المرأتان إلى أبيهما فحدثتاه، وتولى موسى عليه السلام إلى الظل فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص:٢٥] واضعة ثوبها على وجهها[٢].

وقيل: «واضعة يدها على وجهها، فقام معها موسى وقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، وأنا أمشي أمامك، فإنا لا ننظر في أدبار النساء. ثم قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ

باب فضل خديجة رضي الله عنها، ٥/ ٧٠٣، رقم ٣٨٧٨.
قال الترمذي: حسن صحيح.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٨/ ٢٥٨، رقم ٨٠٠٦.
وفي سنده خالد بن يوسف السمتي، وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد ٩/ ١٥٧.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده، ٧/ ٤٥٤.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]، لما رأته من قوته، ولقوله لها ما قال، فزادها ذلك فيه رغبة، فقال: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص:٢٧]، أي: في حسن الصحبة والوفاء بما قلت.

قال موسى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ [القصص:٢٨].

قال: نعم. قال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فزوجه، وأقام معه يكفيه ويعمل له في رعاية غنمه وما يحتاج إليه منه، وزوجه صفورة، أو أختها شرقاء، وهما اللتان كانتا تذودان[1].

ما أروع هذا الحياء الذي تحلت به هاتان المرأتان! إنه الحياء الذي ينبغي أن تتزين به المرأة في كل زمان ومكان، الحياء الذي فقد في هذا العصر، هذا الحياء لا ينافي أبدًا الإعجاب بفضائل الأعمال وجميل الخصال ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

٤. ملكة سبأ[2].

وردت قصتها في القرآن، ولم يذكر اسمها، ولا حتى مضافة لهذا المكان، بل وردة الحديث عنها مبهمةً (امرأة) في قول الهدهد: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل:٢٣].

وذكر أنها وقومها كانوا يعبدون الشمس، وواضح من خلال القصة أنها كانت تتمتع بذكاء وقوة شخصية ودهاء سياسي منقطع النظير، وذلك أن سليمان عليه السلام عندما أرسل إليها كتابه لم تتخذ موقفًا سريعًا قد يؤدي لتفتيت مملكتها، وذلك كما فعل كسرى مع كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمزق الله ملكه، فلم يبق للأكاسرة ملك، فهي أمينة على هذا الملك، ويتضح ذكاؤها وقوة شخصيتها عندما استشارات رجالات دولتها في شأن الكتاب، أجابوها بقولهم: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل:٣٣].

فهي العقل المدبر لهم، فهم يثقون في تدبيرها وعقلها، فكان رأيها صائبًا، وعقلها راجحًا، فقد أرادت قبل أن تفعل أي شيء أن تختبر سليمان عليه السلام لتتأكد من شأنه وتعلم حقيقة أمره، هل هو ملك من ملوك الدنيا تغريه الأموال، أم أن أمره أعظم من

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده، ٧/ ٤٥٤.
(٢) سبأ: بفتح أوله وثانيه وهمز آخره وقصره أرض باليمن، سميت بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

انظر: معجم البلدان ٣/ ١٨١.

ذلك؟

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل:٣٤-٣٥].

فلما كان من سليمان ما كان من رفض الهدية والإخبار بأنه بإمكانه أن يرسل إليهم من الجنود ما لا يقدرون على مقابلته بحال، ثم طلبه من بعض رعيته أن يحضر إليه عرشها، فأحضره الذي عنده علم من الكتاب في أقل من طرفة عين، وطلب تنكير عرشها ليختبر ذكاءها، هل ستعرفه أم ماذا تفعل؟

فلما رأته وسألوها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل:٤٢].

إلا أن ترك العقيدة ليس بالأمر الهين، حتى ولو كانت عقيدة خاطئة، فأراد أن يريها بعض آثار الصناعة العجيبة حتى لا تغتر بملكها، فطلب منها أن تدخل القصر العالي المزخرف، فدخلت صحنه، وهو مملس ملمسه ناعم وله بريق بسبب تمريده وإزالة كل خشونة فيه حتى يحسبه الرائي لتنسيقه وكأنه لجة من الماء، فحسبته ماء في صحن الصرح وخشيت على ثيابها المزخرفة فرفعتها، وكشفت عن ساقيها، فنبهها سليمان إلى أنه ليس بماء وإنما هو صرح ممرد من زجاج يبدو بادي الرأي كأنه لجة ماء وما هو بماء، فأدركت وهي تروعها الزخارف كما تروع كل النساء، فكرت في ماضيها إذ كانت تعبد الشمس وسليمان يعبد الله تعالى وقد آتاه الله من النعم ما لا يمكن أن يكون لأحد غيره، فاهتزت وعلمت أنها كانت على باطل، وأنها ظلمت نفسها بما كانت عليه[1].

٥. المجادلة.

وهي خولة بنت ثعلبة، جاءت تشتكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجها وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع له ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. قالت عائشة رضي الله عنها: (فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة:١][2].

إن المتأمل في العبارة القرآنية وذكر القصة يدرك أن هناك أمرًا مهمًّا يريد المولى عز وجل أن يسوقه إلينا غير الحكم الشرعي، إذ كان من الممكن سوق الحكم

(١) انظر: زهرة التفاسير ١٠/ ٥٤٥٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب في الظهار، ٢/ ٢٣٤، رقم ٢٢١٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب في الظهار، ١/ ٦٦٦، رقم ٢٠٦٣.
وصححه الألباني في الإرواء، ٧/ ١٧٣، رقم ٢٠٨٧.

الشرعي دون ذكر القصة، هذا الأمر هو أنه لا يجوز أن يكون الحياء عند الإنسان عامة وعند المرأة خاصة حائلًا دون التفقه في أمور الدين، إذ إنه لو أصبح حائلًا فإنه يكون مذمومًا، والعجب من نساء عصرنا يستحيين أن يسألن عما يجهلنه من أمور الدين، مما أدى بهن إلى أمية دينية كبيرة، فأصبحت المرأة تجهل أبجديات هذا الدين.

سادسًا: المرأة الكافرة:

وهناك من النساء الكوافر ما في قصصهن عظة وعبرة، وقد ذكر في القرآن الكريم منهن امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة أبي لهب.

١. امرأة نوح وامرأة لوط.

وقد ذكرتا مقرونتين في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم:١٠].

والخيانة هنا ليست خيانة زوجية باتفاق، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون. وأما امرأة لوط فكانت تدل على الضيف، فذلك خيانتهما[1].

وقد ضربهما الله مثلًا للكافرين تنبيهًا على أنه لا يغني أحدٌ في الآخرة عن قريبٍ ولا نسيبٍ إذا فرق بينهما الدين، فهاتان المرأتان مع أنهما كانتا زوجتين لنبيين من الأنبياء لكن لن يستطيعا أن يدفعا عنهما من عذاب الله شيئًا.

وأما امرأة لوط عليه السلام فقد ذكرت في مواطن كثيرة، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف:٨٣].

﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود:٨١].

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر:٦٠].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [النمل:٥٧].

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت:٣٢].

وكلها تتحدث عن نجاة نبي الله لوط عليه السلام وجميع أهله باستثناء امرأته، فقد كانت ممن سبق عليه الكتاب، ولم تكن

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة التحريم، ٢/ ٥٣٨، رقم ٣٨٣٣.

وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

في عداد الناجين.

فلا ينبغي للإنسان أن يغتر بنسبه وقرابته لأحد الصالحين، فإن ذلك لن يغني عنه من الله شيئًا.

٢. أم جميل بنت حرب.

امرأة أبي لهب، وهي أخت أبي سفيان ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ ۝٥﴾ [المسد:٤- ٥].

ولما نزلت هذه السورة أقبلت ولها ولولة وفي يدها فهر، وهي تقول[١]:

مذممًا أبينا

ودينه قلينا

وأمره عصينا

والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنها لن تراني) وقرأ قرآنًا فاعتصم به، وقرأ ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ۝٤٥﴾ [الإسراء:٤٥].

فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت أن صاحبك هجاني. فقال: لا ورب هذا البيت، ما هجاك. فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها[٢].

ووصفت بـ (حمالة الحطب) قيل: لأنها كانت تحمل حزمة من الشوك فتنثرها بالليل في طريق النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: كانت تمشي بالنميمة، ويقال لمن يمشي بالنمائم ويفسد بين الناس: يحمل الحطب بينهم، أي: يوقد بينهم النار. أو المراد أنها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع. وقيل: إنها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل. ومعنى ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ﴾ في عنقها حبل مما مسد -فتل- من الحبل، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون، تخسيسًا بحالها وتصويرًا لها بصورة بعض الحطابات[٣].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٥١٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل، ٢/ ٣٩٣، رقم ٣٣٧٦.
وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم ٩/ ٢١١.

سابعًا: نساء أخريات:

١. امرأة العزيز.

وقصتها مع يوسف مشهورة مذكورة بالتفصيل في سورة يوسف عليه السلام، ولم أقف على ما يؤكد إسلامها من عدمه، إلا أنه حكي أن يوسف عليه السلام تزوجها لما مات زوجها فوجدها عذراء[1]. فالله أعلم بحقيقة الأمر.

وفي قصتها عبر كثيرة، منها: أن فتنة النساء بالرجال والرجال بالنساء من أخطر الأمور كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الرجوع إلى الحق أفضل من التمادي في الباطل ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدْتُهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ [يوسف:٥١-٥٢].

٢. نسوة المدينة.

وقصتهن مقترنة بقصة امرأة العزيز.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ [يوسف:٣٠].

فقد علمن بما فعلته امرأة العزيز، وخضن في حديثها، فلما علمت بأقوالهن دعتهن لبيتها، وجهزت لهن مكانًا للجلوس، وقدمت لهن ما يقدم للضيفان، وأعطت كل واحدة منهن سكينًا حادًا، وأمرت يوسف عليه السلام بالخروج عليهن، فلما رأينه عظم عندهن وفتن به، وقطعن أيديهن، فانتهزت الفرصة، أبدت عذرها فيما فعلت، إذ إن جماله -من وجهة نظرهن- لا يقاوم.

فينبغي الحذر من مكر النساء وكيدهن، فكيدهن عظيم.

ثامنًا: العبر المستفادة من ذكر المرأة في القصص القرآني:

إذا نظرنا فيما ذكر من قصص للنساء في القرآن الكريم نرى أن هناك دروسًا وعبرًا كثيرة يمكن أن تؤخذ منها:

- أن القرآن الكريم يعنى بذكر القصص التي فيها عبر والتي فيها فوائد دون نظر إلى ذكورة أو أنوثة.
- أن الإسلام الحنيف ساوى بين الرجل والمرأة مساواة حقيقة، وليست المساواة المزعومة التي ينادي بها أعداء الإسلام والمخدوعون بهم.
- أن القرآن الكريم حرص على الستر على المرأة، ليس إنقاصًا من شأنها، بل لأنها في نظر الإسلام جوهرة ثمينة يجب المحافظة عليه وسترها عن القاذورات والمدنسات، فلذلك لا يتعرض للحديث عنها كثيرًا، فما دام الحكم أو العبرة يمكن تأديتها بدون

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ١/ ٢٠٩، البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢١٠.

تعرض لها فهو أولى.

- أن الإسلام ينظر إلى المرأة على أنها شريك للرجل في إعمار الأرض، فقد خلقت لتكون زوجًا وشريكًا وعونًا له.
- أن المرأة ظلمت من كثيرٍ من الناس، فمنهم من ينظر إليها على أنها شيء حقير خلق لخدمة الرجل، ومنهم من ينظر إليها على أنها سبب شقاء الإنسان في هذه الحياة، وسبب عصيان آدم، وسبب إخراجه من الجنة، مع أن الأمر ليس كذلك.
- تجلت قدرة الله تعالى في بعض النساء، السيدة حواء حيث خلقت من ذكر فقط، والسيدة مريم حيث أنجبت بلا ذكر، والسيدة سارة حيث أنجبت وهي عقيم من زوجها الشيخ الكبير، وامرأة زكريا عليه السلام كذلك.
- أن النساء لهن أحكام خاصة في بعض الأمور الخاصة بهن، فينبغي أن يطلبن الحكم الشرعي فيها.
- المرأة الوحيدة التي ذكر اسمها في القرآن الكريم هي السيدة مريم رضي الله عنها، وذلك حتى ينسب إليها ابنها المسيح عليه السلام، إذ إنه آية من آيات الله حيث ولد من أنثى بلا ذكر، فذكر منسوبًا لأمه حتى يرد على النصارى في مغالاتهم فيه، وحتى يرد على اليهود في اتهامهم لأمه.
- أن المرأة ليست تابعة لزوجها، فها هي امرأة فرعون تخالف دينه وتتبع الدين الإلهي، وامرأة نوح وامرأة لوط تخالفانهما الدين وتتبعان دين قومهما.
- أن المرأة ينبغي أن تتزين بالحياء والذكاء كما فعلت ابنتا شعيب عليه السلام وكما ظهر من شخصية بلقيس.
- أن الاختيار عند إرادة الزواج ينبغي أن يكون على أساس الخلق والدين، كما كان من شعيب عليه السلام وابنته.
- في قصة أم جميل وزوجها أبي لهب «معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد:٣-٥] فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما لا ظاهرًا ولا باطنًا، لا مسرًّا ولا معلنًا، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة»[1].
- أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله، فلا يغني عنه قرابته لعابد من العباد بل ولا لنبيٍّ من الأنبياء.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٥١٧.

أحكام المرأة في القرآن

إذا كانت المرأة لها طبيعتها الخاصة التي تختلف عن طبيعة الرجل فمن البدهي أن يكون هناك أحكام عامة تشترك فيها هي والرجل، وأن يكون لها أحكام خاصة بها تتناسب مع طبيعتها، وهذا ما سنحاول إبرازه في النقاط الآتية:

أولًا: الأحكام المتعلقة بالحياة الأسرية:

وهو ما يسمى في الفقه الإسلامي بأحكام الزواج والطلاق، ويسمى في عصرنا بالأحوال الشخصية، ونتناول بعض هذه الأحكام:

١. النكاح.

فالله تعالى خلق الإنسان، وخلق فيه مقومات بقاء نفسه ومقومات بقاء النوع الإنساني كله، ومن مقومات بقاء النوع الإنساني أنه خلقه ذكرًا وأنثى، وخلق في كل واحد منهما ميلًا فطريًا للآخر، كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤].

والتزيين «تصيير الشيء زينًا، أي: حسنًا، فهو تحسين الشيء المحتاج إلى التحسين وإزالة ما يعتريه من القبح أو التشويه»[(١)].

قال الواحدي: « يقال: من الذي زين للناس ذلك؟ فيقال: الله تعالى زين للناس، بما جعل في الطباع من المنازعة إلى هذه الأشياء محنةً»[(٢)].

فمعنى التزيين: «خلقها وإنشاء الجبلة على الميل إليه»[(٣)].

وذلك حتى يبحث كل واحدٍ منهما عن الآخر، فلولا هذه الشهوة لعزف الناس كلهم رجالًا ونساءً عن الزواج، إذ ما الذي يجبر الرجل على أن يرتبط بعلاقة تجعله يتكلف بنفقةٍ وغير ذلك؟! وما الذي يدفع المرأة لارتباط يلزمها بأشياء قد تشق عليها، ويترتب عليها حمل وآلامه، ووضع ومتاعبه، وتربية أبناء تسهر عليهم الليالي؟! فخلق الله هذه الشهوة فيهما لتدفعهما دفعًا لهذا الارتباط.

ولكنه في الوقت ذاته لم يبح لهما قضاء هذه الشهوة حسبما اتفق كالبهائم، بل وضع التشريعات التي تضمن لهما ولأبنائهما حياة نظيفة، تليق بهذا الإنسان المكرم، وتضمن عيشة طيبة لكل أفراد الأسرة، فشرع الزواج، بل وحث عليه، حيث حث الإسلام الحنيف على تزويج الأيامى، وهو «جمع أيم، وهو من لا زوج له من الرجال والنساء»[(٤)].

وعندما حث على الزواج لم يجعل الهدف منه مجرد قضاء الشهوة، بل جعله

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٣٧.

(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٩٠.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤١٣.

(٤) بهجة الأريب ص٣٥٤.

سكنًا ومودة، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

ولن يتحقق السكن والمودة والرحمة إلا إذا كان هناك قواعد لاختيار الزوجين، بحيث يبنى البيت على قواعد متينة لا تزلزلها الرياح، وليس هناك أفضل من الدين ليكون أساسًا لهذا الاختيار، لذلك يقول رسولنا صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد. قالوا: يا رسول الله، وإن كان فيه؟ قال: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه. ثلاث مرات)[1].

فالدين أساس في اختيار كلٍّ من الزوجين للآخر، بل تحريه في الزوج أولى، وقد قال رجل للحسن: «إن لي بنتًا أحبها، وقد خطبها غير واحد فمن ترى أن أزوجها؟ قال: زوجها رجلًا يتقي الله، فإنه إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها»[2].

أما غير التقي فإن أبغضها أهانها وظلمها؛ إذ لا رادع عنده، ثم إن الضرر الواقع عليها إذا كان على درجة غير كافية من الدين يكون أكثر من الضرر الواقع عليه لو كانت هي كذلك، لذلك فإن الإسلام الحنيف لم يبح للمرأة أن تتزوج بغير المسلم، أيًا كانت ديانته، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢١].

وأباح للرجل أن يتزوج الكتابية، فقال سبحانه: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥].

وذلك أن تأثير الرجل على المرأة أشد من تأثيرها عليه.

ثم إن الإسلام راعى أمرًا آخر غاية في الأهمية، وذلك أن المرأة تتعامل بالعاطفة أكثر من الرجل، لذا فإنه قد تخدع برجل معينٍ، نظرًا لعدم درايتها بحقائق الأمور، لذا فقد جعل الإسلام عقد الزواج بيد وليها، وهو ركن عند جمهور العلماء، واستدلوا بالآية، حيث عبر في جانب الرجل بقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟﴾ بفعل متعدٍّ لمفعول واحد،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، ٣/ ٣٩٥، رقم ١٠٨٥.
قال الترمذي: حسن غريب.
وحسنه الألباني في الإرواء، ٦/ ٢٦٦، رقم ١٨٦٨.

(٢) انظر: إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، القسطلاني ٨/ ٢٢.

وفي جانب المرأة بقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا﴾ بفعل متعدٍّ لمفعولين، فدل على أن غيرها يزوجها ولا تزوج نفسها.

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له)[1].

كل هذا زيادة حرص وحفاظ على المرأة، لأن الضرر الواقع عليها في حال تزوجها بغير كفءٍ أو بغير تقيٍّ يكون شديدًا.

٢. المهر.

وهو مرتبط بالنكاح، حيث شرعه الدين الحنيف وجعله ملكًا خالصًا للمرأة، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء:٤].

وقد اختلفت مذاهب الفقهاء في هذا الصداق، ما بين قائل: إنه شرط من شروط صحة النكاح. وقائل: إنه ركن من أركانه. وقائلٍ إنه واجب للمرأة فقط. وعلى أية حال فهو من لوازم النكاح، وهو ملك للمرأة لا يجوز لوليها ولا لزوجها أخذ شيء منه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء:٢٠].

ثم إن هناك خلافًا بين العلماء في المهر: هل هو عوض عن منفعة البضع، أو إنه مجرد عطية تكرمة للمرأة؟

قال الطاهر ابن عاشور: «وسميت الصدقات نحلة إبعادًا للصدقات عن أنواع الأعواض، وتقريبًا بها إلى الهدية، إذ ليس الصداق عوضًا عن منافع المرأة عند التحقيق، فإن النكاح عقد بين الرجل والمرأة قصد منه المعاشرة، وإيجاد آصرة عظيمة، وتبادل حقوق بين الزوجين، وتلك أغلى من أن يكون لها عوض مالي، ولو جعل لكان عوضها جزيلًا ومتجددًا بتجدد المنافع، وامتداد أزمانها، شأن الأعواض كلها، ولكن الله جعله هدية واجبة على الأزواج إكرامًا لزوجاتهم، وإنما أوجبه الله لأنه تقرر أنه الفارق بين النكاح وبين المخادنة والسفاح، إذ كان أصل النكاح في البشر اختصاص الرجل بامرأة تكون له دون غيره، فكان هذا الاختصاص ينال بالقوة، ثم اعتاض الناس عن القوة بذل الأثمان لأولياء النساء لبيع بناتهم، ثم ارتقى التشريع وكمل عقد النكاح

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ٣/ ٤٠٧، رقم ١١٠٢، والحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ٢/ ١٨٢، رقم ٢٧٠٦.
قال الترمذي: حسن.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وصارت المرأة حليلة الرجل شريكته في شؤونه، وبقيت الصدقات أمارات على ذلك الاختصاص القديم تميز عقد النكاح عن بقية أنواع المعاشرة المذمومة شرعًا وعادة»[1].

٣. التعدد والعدل.

مما يقترن بقضية النكاح إباحة التعدد للرجل، فيباح له أن يجمع بين أربع نسوة في وقت واحد ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾ [النساء:٣].

فأباح التعدد بشرط العدل حسب قدرة الرجل، أما العدل التام فهو خارج عن مقدور الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:١٢٩].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل فيقول: (اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك و لا أملك)[2].

«يريد ميل النفس وزيادة المحبة لواحدة منهن، فإنه بحكم الطبع ومقتضى الشهوة لا باختياره وقصده»[3].

فالتعدد جائز بشرط أن لا يزيد عن أربع، وبشرط أن يعدل بينهن العدل المادي، وبشرط أن ينفق عليهن، فإذا توافرت الشروط فلا ضير إذن من التعدد، وذلك التعدد لحكم يعلمها الله تعالى، منها أن عدد النساء غالبًا يكون أكثر من عدد الرجال، بل قد يصل إلى أضعاف عدد الرجال، هذه المرأة التي تدخل ضمن العدد الزائد لها رغبات فطرية، في الشهوة والسكن والاطمئنان، فإذا لم يجز للرجل أن يزوج بغير واحدة ماذا تفعل هذا المرأة؟ هل تكبت رغباتها، أم تقضيها في الظلام؟ أم تتزوج برجل متزوج بغيرها زواجًا نظيفًا أمام أعين الناس في وضح النهار، تعيش عيشة نظيفة.

وهذه الزوجة التي تمنع زوجها من التعدد ألا تضع نفسها موضع هذه التي لا تجد زوجًا، ومن العجب أن كثيرًا من النساء قد يفضلن أن يخادن أزواجهن على أن يتزوج بغيرهن، وهذا ضد مبادئ الدين الحنيف، وضد ما تنادي به العقول السليمة والفطر المستقيمة. ومن العجيب أن هؤلاء الذين ينادون بمنع تعدد الزوجات ينادون في الوقت ذاته بإباحة الزنا والعهر، ألا ساء ما يصنعون!

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٢٢.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ٢/ ٢٠٤، رقم ٢٧٦١.
وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) التنوير شرح الجامع الصغير ٨/ ٦٠٩.

٤. يتامى النساء.

هؤلاء اليتامى اجتمع فيهن ضعفان، ضعف الأنوثة وضعف اليتم، فلذلك احتاج الأمر إلى زيادة تأكيد بالنسبة لهن، فاليتيم بوجه عام أمر الشرع الحنيف بالإحسان إليه، وإعطائه حقوقه أولا، بل وجعل له نصيبًا من الغنائم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١].

ومن الفيء ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر:٧].

وأمر بالإحسان إليهم وإعطائهم من أموالنا جبرًا لخاطرهم ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:١٧٧].

وأمر بأن نعمل في أموالهم بإصلاحها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠].

وخص يتامى النساء زيادة على ما تقدم بالإقساط إليهن ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء:١٢٧] لأنها لضعفها قد يطمع وليها في مالها وجمالها، قد يطمع فيها وليها فيتزوجها ولا يدفع إليها مهرها أو يستولي على أموالها، فأكد الله على حقوقها تأكيدًا شديدًا. و «لم يبين هنا هذا الذي يتلى عليهم في الكتاب ما هو، ولكنه بينه في أول السورة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣][1].

فالمراد بالآية «النهي عما كانت العرب تفعله من ضم اليتيمة الجميلة الغنية بدون ما تستحقه من المهر، ومن عضل الدميمة الفقيرة أبدًا، والدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل، ونحو هذا مما يقصد به الولي منفعة نفسه لا نفع اليتيمة»[2].

عن عروة بن الزبير (أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣١٣.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٣٨.

سواهن. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾[1].

٥. القوامة.

لما كانت الأسرة مكونةً من عدد من الأفراد، وهي كما يقول الشيخ الغزالي: «مملكة ذات حدود قائمة تشبه حدود الدول في عصرنا»[2] فلا بد إذن أن تنضبط أمور البيت بحيث يعرف كل فردٍ من أفرادها ما له وما عليه، ولا بد أن يكون هناك قائد لهذا البيت، فمن الذي يقوده، أهي المرأة التي تتحكم فيها عاطفتها في الأعم الأغلب؟ مما قد يؤدي إلى القضاء على هذا البيت لأقل الأسباب، ثم إنها لم تتكلف شيئًا في بناء هذا البيت، مما يجعلها غير مدركة لمدى التعب والمشقة التي تكلفها الزوج لبناء هذا البيت، فهي إذن لا تصلح لقيادة هذا البيت، لا يصلح له إلا هذا الرجل الذي تعب في تأسيسه، ويتصرف بناءً على تفكيرٍ عقلاني، فلا يتجه لهدم هذا البيت إلا بعد أن يفكر ألف مرة ومرة، فإذا اتخذ قرارًا ما فإنه في الأعم الأغلب يكون قرارًا مدروس العواقب.

لذا أسندت إليه مهمة قيادة هذا البيت والقيام بشؤونه ورعايته، وهو ما يسمى بالقوامة، وهو ما ذكره تعالى في قوله ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء:٣٤].

فالقوامة ليست تشريفًا للرجل، ولا تسلطًا منه على المرأة، وإنما هي تكليف له بالقيام على شؤونها ورعايتها. وقد تقدم الحديث عن القوامة في أثناء الحديث عن حقوق المرأة بما أغنى عن إعادته.

٦. النشوز والإعراض.

وقد عالج القرآن الكريم نشوز كل واحدٍ من الزوجين، ففي نشوز المرأة يقول تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء:٣٤].

قال جمهور الفقهاء: «النشوز عصيان المرأة زوجها والترفع عليه وإظهار كراهيته، أي: إظهار كراهية لم تكن معتادة منها، أي: بعد أن عاشرته، وجعلوا الإذن بالموعظة والهجر والضرب مرتبًا على هذا العصيان، واحتجوا بما ورد في بعض الآثار من الإذن للزوج في ضرب زوجته الناشز، وما ورد من الأخبار عن بعض الصحابة أنهم فعلوا ذلك في غير ظهور الفاحشة»[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة النساء، ٤/١٦٦٨، رقم ٤٢٩٨.
(٢) قضايا المرأة ص١٥٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/١١٦.

والمراد بقوله: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ «ذكروهن أمر الله واستدعوهن إلى ما يجب عليهن بكتاب الله وسنة نبيه. وقوله ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ تجنبوا جماعهن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يضاجعها ويوليها ظهره لا يجامعها. وقال سعيد بن جبير: هي هجرة الكلام، أي: لا تكلموهن وأعرضوا عنهن. وقوله ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ الضرب هو ضرب الأدب غير المبرح، وهو الذي لا يكسر عظمًا ولا يشين جارحة[1].

فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ «تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن»[2].

ثم إن الأهل إذا خافوا أن تتفاقم الأمور بين الزوجين، فليبعثوا حكمين، واحدًا من جهة الزوج وآخر من جهة الزوجة؛ للإصلاح بينهما.

وكما عالج نشوز المرأة عالج أيضًا نشوز الرجل وإعراضه عن زوجته بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨].

قال المفسرون: «هذا الصلح في القسمة والنفقة، وهو أن يقول الرجل لامرأته: إنك دميمة، أو قد دخلت في السن وأريد أن أتزوج عليك شابة جميلة، وأوثرها عليك في القسمة بالليل والنهار، فإن رضيت بهذا فأقيمي، وإن كرهت خليت سبيلك. فإن رضيت بذلك كان الواجب على الزوج أن يوفيها حقها من المقام عندها والنفقة، أو يسرحها بإحسان ولا يحبسها على الحيف، وليس يجبر الزوج على الوطء إذا عدل في المقام والنفقة، وكل ما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز، وهو أن تترك له من مهرها، أو بعض أيامها»[3].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حلٍّ، فنزلت هذه الآية في ذلك)[4].

فعند خوفها من نفرة زوجها فلها أن تسقط بعض حقوقها، وأن يتصالحا، فالصلح أفضل من الفراق، «وقد لوحظ في

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٦.
(٣) التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ١٢٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب إذا حلله من ظلمه فلا رجوع فيه، ٢/ ٨٦٥، رقم ٢٣١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، ٤/ ٢٣١٦، رقم ٣٠٢١.

التعبير أمور ثلاثة:

أولها: أنه عبر عن طلب الصلح بقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ وذلك ترفق في الإيجاب، فعبر عنه بنفي الإثم لكيلا يتوهم أحدهما أن في التساهل عن بعض حقه إثمًا. والصلح يقتضي أن يتسامح أحد الفريقين في جزء من حقه لينال خيرًا أكثر مما تسامح فيه، فإذا تركت المرأة بعض حقها لتدوم العشرة بالمعروف فذلك لا إثم فيه، بل فيه الخير.

ثانيها: أنه أكد الصلح بقوله ﴿صُلْحًا﴾ للإشارة إلى أن الصلح في هذا المقام لا يكون صلحًا ظاهرًا، بل يكون نفسيًا، بحيث تتلاقى القلوب وتصفو النفوس، ويحل الوئام محل الخصام، فليس الصلح في هذه الحال إنهاء لمشكلة فقط، بل هو تلاقي القلوب على المودة والرحمة.

ثالثها: أن الله تعالى أكد الصلح بقوله تعالى أولا ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي أنه في ذاته خير يعم الطرفين، من تسامح يناله من الخير بمقدار ما تسامح أو بأضعاف ما تسامح، فهو قد أعطى ليأخذ وتساهل لتلزم ولتدوم نعمة الزوجية.

وأكد سبحانه الصلح بدعوة الزوجين ألا يشح أحدهما بالعطاء لرفيقه، ولذا قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ والشح هو البخل، وهو هنا التشاح النفسي بأن يلتزم كل واحد من الزوجين موقفه متمسكًا بحقوقه الشكلية»[1].

٧. علاج الظهار.

وهو من المشاكل التي تقابل المرأة في الحياة الزوجية، و«أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها: أنت علي كظهر أمي. ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياسًا على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقًا، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم»[2].

فهذه مشكلة قائمة، فلما جاء حرمه ابتداءً، وعالجه لو حدث، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة:٢-٤].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٨٨٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٧.

كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي و نثرت له بطني حتى إذا كبرت سني و انقطع له ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. قالت عائشة: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١][1].

فعالج الإسلام هذه المشكلة علاجًا حكيمًا، وأدب من يقع في هذا الأمر أدبًا بالغًا.

٨. علاج الإيلاء.

وهو أمر تتضرر به المرأة، وهو أن يحلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة أربعة أشهر أو أكثر، ولرفع الضرر عن المرأة شرع الله تعالى هذا الحكم ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٢٦-٢٢٧].

على الناس وجه التأجيل بأربعة أشهر، وهو أجل حدده الله تعالى، وتلك المدة ثلث العام، فلعلها ترجع إلى أن مثلها يعتبر زمنًا طويلًا، فإن الثلث اعتبر معظم الشيء المقسوم، مثل ثلث المال في الوصية، وحاول بعض العلماء توجيهه بما وقع في قصة مأثورة عن عمر بن الخطاب، أنه خرج ليلة يطوف بالمدينة يتعرف أحوال الناس فمر بدار سمع امرأة بها تنشد[2]:

تطاول هذا الليل تسري كواكبه
وأرقني أن لا ضجيع ألاعبه
ألاعبه طورًا، وطورًا كأنما
بدا قمرًا في ظلمة الليل حاجبه
يسر به من كان يلهو بقربه
لطيف الحشا لا تحتويه أقاربه
فوالله، لولا الله لا شيء غيره
لنقض من هذا السرير جوانبه
ولكنني أخشى رقيبًا موكلًا
بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

فاستدعاها، من الغد، فأخبرته أن زوجها أرسل في بعث العراق، فاستدعي عمر نساءً فسألهن عن المدة التي تستطيع المرأة فيها الصبر على زوجها، قلن: شهران، ويقل صبرها في ثلاثة أشهر، وينفد في أربعة أشهر. وقيل: إنه سأل ابنته حفصة.

فأمر عمر قواد الأجناد ألا يمسكوا الرجل في الغزو أكثر من أربعة أشهر، فإذا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المجادلة، ٢/ ٥٢٣، رقم ٣٧٩١.
وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) انظر: مصارع العشاق ٢/ ١٦٠، المحاسن والأضداد ص ١٨٩، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ١٢/ ٦٤.

مضت استرد الغازين ووجه قوما آخرين[1].

٩. الطلاق.

إذا وقعت مشكلة بين الزوجين فإن القرآن الكريم عالجها حتى لا يتشتت البيت، وحتى لا تضار المرأة، كما رأينا في مشكلة النشوز ومشكلة الظهار، ولكن الأمر قد يتفاقم وتصبح الحياة مستحيلة بينها وبين زوجها، فهنا أباح الطلاق، وجعله أبغض الحلال، ولكنه عندما أباحه وضع له ضوابط، فلا بد أن يكون في طهر لم يجامعها فيه، وهو ما يعرف بالطلاق السني، وبعد الطلاق شرع العدة، وتمكث المرأة في بيت الزوجية مدة العدة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق:١].

وذلك حتى يراجع كل واحد من الزوجين نفسه بعدما ذاقا من آلام الفراق، فقد يعودا لبعضهما، وقد تغلبهما الشهوة فيكون هذا الأمر دافعًا لعودتهما لبعضهما مرة أخرى، فتعود المياه إلى مجاريها.

ثم إنها لو غادرت بيت الزوجية فإن شياطين الإنس لن يتركوهما في حالهما، وسوف نجد من يشعل النار بينهما، أو من ينفخ في هذه النار، ثم إن انقضت العدة فلا بد وأن تغادر بيت الزوجية، وهنا ما زالت الفرصة أمامهما للعودة إذا كانت الطلقة الأولى أو الثانية، ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:٢٢٩].

فإن طلق الثالثة فهذا يدل على واحد من أمرين: إما أنه متلاعب بأحكام الله، وإما أنه استحالت العشرة بينهما، فلا بد من تشريع آخر، وهو أنه لا تعود إليه إلا بعد أن تتزوج بزوجٍ غيره زواجًا شرعيًّا صحيحًا يجامعها فيه، فإن طلقها الزوج الثاني رغبة عنها أو مات عنها جاز أن تعود للزوج الأول بعقد ومهر جديدين.

١٠. الخلع.

قد تتضرر المرأة من العيش مع زوجها، وهو لا يريد طلاقها نظرًا لما تكلفه من أموال، وهي تريد أن تفتدي نفسها منه، فهنا أباح الإسلام الحنيف لهما أن تعطيه ما يتفقان عليه من أموال على أن يطلقها فتبين منه بينونة صغرى.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢٩].

لذا أجمع العلماء علي مشروعية الخلع وأنه جائز بالكتاب والسنة وواقع[2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٠٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٦٨.

(٢) انظر: بداية المجتهد، ابن رشد ٢/ ١٢٨،

وإن اختلفوا في المقدار الذي يجوز للرجل أن يأخذه، فذهب الجمهور إلى أنه يجوز أن تختلع المرأة بأكثر مما أعطاها الزوج من صداق،[1] وذهب أحمد إلى أنه لا يجوز له أن يأخذ أكثر مما أعطاها من صداق[2].

وإذا تأملنا في هذا الحكم ندرك حكمة التشريع، فالمرأة في قلبها بغض لهذا الزوج، أتعيش معه مبغضة له أم تتطلع لغيره، فتتعدى حدود الله؟

والرجل إذا طلقها بغير سبب منه يكون قد تكلف أعباء كثيرة لغير سبب منه، وهنا يأتي هذا الحل الإلهي بإباحة أخذ هذه الفدية لتريح الجانبين وترفع الضرر عن المتضرر، فها هي امرأة ثابت بن قيس تأتي النبي صلى الله عليه وسلم فتقول: (يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتردين عليه حديقته؟) قالت: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقبل الحديقة وطلقها تطليقة)[3].

فتح الباري، ابن حجر ٩/ ٣٠٧، المغني، ابن قدامة ٨/ ٢٢٧.

(١) انظر: الموطأ، الإمام مالك، ٢/ ٤٨٧، الأم، الشافعي ٥/ ١٨٣.

(٢) انظر: بداية المجتهد، ابن رشد ٢/ ١٢٩، فتح الباري، ابن حجر ٩/ ٣١٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيفية الطلاق، ٥/ ٢٠٢١، رقم ٤٩٧١.

١١. العدة.

المرأة قد تنتهي حياتها الزوجية بطلاق أو موت الزوج، ولكن بعد انتهاء الحياة الزوجة قد يكون هناك حملٌ نتيجة هذا النكاح، ثم إن كان انتهاء العلاقة بالطلاق فإنه قد يراودا أنفسهما بالرجوع لبعضهما، لذا شرعت العدة، وهي مدة تتربصها المرأة بنفسها لمعرفة براءة الرحم أو للتعبد أو لتفجعها على زوجها، وهذه المدة تختلف باختلاف حال المرأة:

فالمعتدة من وفاة عدتها أربعة أشهر وعشرة أيام ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤].

والحامل عدتها بوضع الحمل، سواء أكانت معتدة من وفاة أو من طلاق، كما قال سبحانه ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

والمعتدة من طلاق ممن يحضن عدتها ثلاثة قروء ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨].

أما إن كانت صغيرة أو آيسة فعدتها ثلاثة أشهر ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق:٤].

أما إن طلقت قبل الدخول بها فلا عدة عليها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب:٤٩].

والمطلقة البائنة بينونة كبرى لا تحل لزوجها إلا بعد أن تتزوج بزوج آخر ويدخل بها، كما قال تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾ [البقرة:٢٣٠].

ولها أحكام كثيرة مفصلة في كتب الفقه.

١٢. رعاية الزوج والأولاد.

خلق الله تعالى المرأة وجعل المهمة الأولى لها رعاية البيت، فقد خاطب الله نساء النبي صلى الله عليه وسلم قائلًا: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣].

فالمرأة مهمتها الأولى رعاية البيت والأولاد، وهي مهمة شاقة لا يستطيعها الرجل، وأمرها أن ترضع وليدها ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣٣].

١٣. الحيض.

وهو دم يعتري المرأة مرة في الشهر، تختلف مدة نزوله من امرأة لأخرى، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة:٢٢٢].

والمرأة أثناء نزوله يعتريها الضعف، ويتغير مزاجها، لذا فإن الشرع الحنيف راعى ذلك وخفف عنها من العبادات، فمنعها من الصلاة، ولم يلزمها قضاءها، ومنعها من الصوم، ولكنه لما كان لا يتكرر إلا مرة واحدة في العام ألزمها قضاءه، ولما كان هذا الدم مصدر أذى منع الزوج من جماعها أثناء نزوله، حتى لا تتأذى من ذلك، وحتى لا يتأذى زوجها. ثم إنه سبحانه ربط بهذا الدم أحكام الطلاق والعدة والرجعة، فمنع الزوج من أن يطلقها في أثناء حيضها لأنها يتغير مزاجها بسبب نزول هذا الدم، فربما يكون عدم ملاطفتها لزوجها ناتجًا عن هذا التغير الطارئ، ويعتدل مزاجها بانقطاع الدم، ومن جهة أخرى قد تكون نفرة الزوج عنها بسبب هذا الدم فيعزف عنها، وعندما ينقطع الدم يرغب فيها، فاستغل الإسلام هذا الأمر للحفاظ على الأسرة من التفكك.

ثانيًا: الأحكام المتعلقة بالحدود:

أحكام الحدود المتعلقة بالنساء كثيرة، وسوف أذكر أهم هذه الحدود، وهي:

١. القتل.

الإسلام الحنيف ساوى بين الرجل والمرأة في هذا الحد، ولم يفرق بينهما لذكورة أو أنوثة، فحرم القتل ابتداءً، فدم الذكر ودم الأنثى سواء ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:٣٣].

وأوجب القصاص بينهما ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة:١٧٨].

فإن قتل رجل امرأة فإنه يقتل بها ولا يأخذ أهل الرجل شيئًا من أهل المرأة، وهذا قول جمهور العلماء[(١)].

٢. السرقة.

وكما ساوى بين الرجل والمرأة في القصاص ساوى بينهما أيضًا في حد السرقة، فأوجب قطع اليد على من سرق، بغض النظر عن كونه ذكرًا أو أنثى، ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة:٣٨].

لأن السارق هنا خائن يستحق أن تقطع يده.

٣. الزنا.

وإذا زنت المرأة فإنه يلحقها العقوبة المقررة، فإن كانت بكرًا تجلد مائة جلدة، ويجب حضور جماعة من صلحاء المؤمنين إقامة هذا الحد ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور:٢].

وإن كانت ثيبًا فترجم حتى الموت، كما قال صلى الله عليه وسلم (والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[(٢)].

وقوله: (وأما أنت يا أنيس -لرجل- فاغد على امرأة هذا فارجمها) فغدا عليها أنيس فرجمها[(٣)].

وكان الحكم في بداية الأمر ما ذكره تعالى بقوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء:١٥].

---

(١) انظر: الأم، الشافعي ٦/ ١٨، أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٧٣، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ١١٨، المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٣٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنى، ٣/ ١٣١٦، رقم ١٦٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ٢/ ٩٥٩، رقم ٢٥٤٩.

وهو حكمٌ مغيًّا بغاية، وقد جعل الله لهن السبيل المذكور، وهو الجلد لغير المحصن والرجم للمحصن.

ثالثًا: أحكام اجتماعية:

١. الشهادة.

جعل الله تعالى الشهادة لتوثيق الحقوق حتى لا تضيع مع فساد الذمم، ولذلك فإنه شرط شروطًا لضمان وصول الحقوق أصحابها، ولما كانت المرأة معرضة للنسيان نتيجة لما يعتريها من نزول دم يؤدي إلى إضعافها، ونظرًا لأنها تزاول مهام البيت مما يجعل خبراتها في أمور الحياة ضعيفة، لذلك لا بد وأن تعاضد شهادتها شهادةٌ أخرى مثلها حتى تتقوى بها، لذلك جعل الله تعالى شهادتها على النصف من شهادة الرجل، فقال عز من قائل: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فجعل شهادة المرأتين تعدلان شهادة الرجل الواحد، وعلل ذلك باحتمال نسيان واحدة منهما فتذكرها الأخرى، وهذا الأمر في المعاملات المالية نظرًا لأنهن لا يزاولنها كثيرًا، فاحتمال تعرضهن للنسيان أكثر، أما في الأمور التي يباشرنهن كثيرًا ولا يطلع عليها الرجال فتقبل شهادتهن، و«كان شريح يجيز شهادة النسوة على الاستهلال وما لا ينظر إليه الرجال»[(١)] فالمرأة تتذكر هذه الأمور لأنها تزاولها.

٢. خروج المرأة.

يبين المولى عز وجل أن البيت هو المقر الرئيسي للمرأة، وذلك عندما خاطب سبحانه نساء النبي بقوله ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣].

قيل: هو أمر وجوب لهن «أمر خصصن به وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرًا لهن، وتقوية في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبي صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة... وهذا الحكم وجوب على أمهات المؤمنين وهو كمال لسائر النساء»[(٢)].

وكأني بالآية تشير إلى أمرين اثنين يجب أن تتحلى بهما المرأة المسلمة:

الأول: الوقار والاحترام، فلا تتميع ولا تتسكع كما تفعل المستهترة.

الثاني: أن المهمة الأساسية للمرأة المسلمة هي بيتها، فيلزمها الاعتناء به أولًا، وهي مهمة شاقة ليست بالهينة، فهو مصنع

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب شهادة النساء لا رجل معهن في الولادة وعيوب النساء، ١٠/ ١٥٠، رقم ٢٠٣٢٦.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٢.

الرجال.

يقول صاحب الظلال: «وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقًا، إنما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن، وهو المقر، وما عداه استثناء طارئًا لا يثقلن فيه ولا يستقررن، إنما هي الحاجة تقضى، وبقدرها. والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة»[1].

وإذا خرجت المرأة من بيتها لحاجة من حوائجها فيجب عليها أن لا تتلبس بما يدعو للفتنة، ولا تزاحم الرجال، كما فعلت ابنتا شعيب عليه السلام، وهذا يدفعنا إلى مسألة:

٣. الحجاب والزينة.

فإنه لما كان للمرأة أن تخرج بشرط أن تتلبس بما لا يدعو للفتنة، وكان من أعظم دواعي الفتنة إبداء المرأة لزينتها، لذا جاء الأمر الإلهي للمرأة المسلمة بالحجاب في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

ويأتي هذا التوجيه الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يأمر أزواجه وبناته وجميع المؤمنات بستر العورة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩].

ومن المعلوم أن ارتداء المرأة المسلمة للحجاب فريضة عليها لا تقل في وجوبها عن الصلاة والصيام، وإن كان هناك خلاف بين العلماء في القدر الواجب ستره من بدنها، والخلاف مشهور في عورة المرأة، ولسنا بصدد الحديث عنه، وإنما يعنينا القول بوجوب ستر العورة، وتحريم إبداء الزينة إلا لمن أباح الله تعالى إبداءها له، وهم المذكورون في آية سورة النور، على تفصيل عند العلماء في القدر الذي يجوز إظهاره أمام كل واحد منهم.

رابعًا: أحكام متعلقة بالجهاد:

الجهاد من أفضل الأعمال، وهو من الأعمال الشاقة، وقد طلب الصحابيات من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهن في الجهاد، وذلك حتى يحصلن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٥٩.

على الثواب الجزيل الذي أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله.

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: (يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل؛ أفلا نجاهد؟ قال: (لا، لكن أفضل الجهاد حجٌ مبرورٌ)[(١)].

وقد ضبطت في بعض النسخ (لكن) وهو أظهر في المقصود.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (يا رسول الله، هل على النساء جهادٌ؟ قال: (نعم، جهادٌ لا قتال فيه، الحج والعمرة جهادهن)[(٢)].

وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت: (بأبي أنت وأمي، إني وافدة النساء إليك، وأعلم نفسي لك الفداء، أما إنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا أو لم تسمع إلا و هي على مثل رأيي، أن الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء، فآمنا بك وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإن الرجل منكم إذا أخرج حاجًّا أو معتمرًا ومرابطًا حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابًا، وربينا لكم أولادكم، فما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال: (هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه)؟! فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن المرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها، ثم قال لها: (انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته تعدل ذلك كله). فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبر استبشارًا[(٣)].

خلاصة الأمر أن المرأة لا يجب عليها الجهاد، وإنما تحصل على ثواب الجهاد بحسن القيام على بيتها ورعايتها له، فهذه مهمتها الأولى، وأما الجهاد فطبيعته تنافي طبيعة المرأة، وهي لا تستطيعه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ٢/ ٥٥٣، رقم ١٤٤٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٧٥، رقم ٢٤٥٠٧، وابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء، ٢/ ٩٦٨، رقم ٢٩٠١.
وصححه الألباني الإرواء، ٤/ ١٥١، رقم ٩٨١.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب في حقوق الأولاد والأهلين، ٦/ ٤٢٠، رقم ٨٧٤٣.

المرأة والفتنة

تقدم القول بأن الله تعالى خلق في كل واحدٍ من الجنسين ميلًا فطريًّا للآخر لقصد الإبقاء على النوع الإنساني، وهذا الميل من أقوى شهوات الإنسان، مما قد يدفع البعض إلى قضاء هذه الشهوة دون نظرٍ لحل أو حرمة، لذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)[(١)].

وهن لسن فتنة بذاتهن، ولكن باعتبار ما قد يحدث بسببهن، لذا فإن الشرع الحنيف لكي يسد باب الفتنة بهن ويقصر قضاء الشهوة على الغرض المقصود شرعًا شرع أمورًا تمنع هذه الفتنة، ومن هذه الأمور ما يأتي:

أولًا: الزواج:

شرع الزواج، فحث عليه بقوله سبحانه ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:٣٢].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[(٢)].

وقال (تزوجوا النساء فإنهن يأتينكم بالمال)[(٣)].

فحب النساء والميل إليهن «ليس شرًا؛ لأن الله جعل المرأة رحمة للرجل، إنما يكون الشر في الإسراف في الطلب حتى يكون النساء خلب كبده[(٤)]، وفي طلب الحرام، وفي طلب الجمال من غير ملاحظة الدين»[(٥)].

ونهى عن منع المرأة من الزواج، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٢].

ونهى الرجل عن التبتل، فقد أراد عثمان بن مظعون أن يتبتل فنهاه رسول الله صلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، ٥/ ١٩٥٩، رقم ٤٨٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، ٤/ ٢٠٩٧، رقم ٢٧٤٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، ٢/ ١٠١٨، رقم ١٤٠٠.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ٢/ ١٧٤، رقم ٢٦٧٩.
وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) يقال: قد وصل حبه إلى خلب كبده، والخلب: لحمة لاصقة بالكبد.
انظر: المستقصى في أمثال العرب ٢/ ١٧.

(٥) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١١٣٥.

الله عليه وسلم[1].

ويسر في أمر الزواج، فلم يضع قيودًا وعراقيل أمامه، فيكفي أن يكون الرجل قادرًا على الإنفاق على البيت، وجعل الشرط الوحيد هو الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض و فساد عريض)[2].

ثانيًا: الحجاب:

أمر الله تعالى النساء بالحجاب بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الأحزاب:٥٩].

وبقوله: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ [النور:٣١].

ومن المعلوم أن ارتداء المرأة المسلمة للحجاب فريضة عليها، لا تقل في وجوبها عن الصلاة والصيام.

وفي آية سورة الأحزاب ينادي المولى عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم آمرًا إياه أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن «يرخين على وجوههن من جلابيبهن فيغطين بها وجوههن. والجلباب: كل ما يستر الكل، مثل الملحفة.

والمعنى: قل للحرائر يرخين أرديتهن وملاحفهن ويغطين بها وجوههن ورؤوسهن، ليعلم أنهن حرائر فلا يؤذين. ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ أي: أقرب وأجدر ﴿أَن يُعۡرَفۡنَ﴾ من الإماء ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر الله تعالى نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب، ويبدين عينًا واحدة»[3].

«وابتدئ بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبناته لأنهن أكمل النساء»[4].

وعندما نزلت الآية سارع النساء وقت نزولها إلى الامتثال، فعن أم سلمة قالت: لما نزلت ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية[5].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ شققن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، ٢/ ١٠١٨، رقم ١٤٠٢.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ٢/ ١٧٤، رقم ٢٦٧٩.
وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٥٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٢٨.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾، ٤/ ١٠٥، رقم ٤١٠٣.

مروطهن فاختمرن بها[1].

وفي آية سورة النور يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يأمر المؤمنات بغض البصر وحفظ الفرج، وأن يرخين خمرهن على الفتحة التي في أعلى الثوب عند الرقبة، وذلك لستر العورة.

ثالثًا: النهي عن التبرج:

نهاهن عن التبرج وعن كل ما يثير غرائز الرجال، والتبرج أصله التباعد والظهور، فـ«البرج: تباعد ما بين الحاجبين، وكل ظاهر مرتفع فقد برج... والتبرج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال. وتبرجت المرأة: أظهرت وجهها. وإذا أبدت المرأة محاسن جيدها ووجهها قيل: تبرجت، وترى مع ذلك في عينيها حسن نظرٍ»[2].

وقد نهى الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم وهن القدوة عن التبرج فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]، أي: لا تظهرن زينتكن. والجاهلية وصف لحالة معينة، وليست فترة زمنية بعينها، وإن كان الميل إلى أن هذا الوصف متحقق في الفترة التي سبقت الإسلام مباشرة.

ثم نهى المؤمنين عامة فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

فزاد في هذه الآية النهي عن إظهار زينتهن إلا لطائفة محدودة من الرجال، وهم المذكورون في الآية الكريمة، والنهي عن أن تضرب المرأة برجلها لتحدث صوتًا يسمعه الرجال فيعلموا زينتها الخفية.

يقول الشيخ الغزالي عند حديثه عن هذه الآية: «والواقع أن هذا تشريع تقرر في الأديان السابقة ولكن الإسلام فصله، وتحدث عن الزينات الظاهرة المعفو عنها كالكحل في العين والحمرة في الخد والخاتم في اليد، وعن الزينات الباطنة التي لابد من إخفائها.. والغرب الذي يدعي المسيحية يصدر للعالمين تقاليد العري والتبرج وانتهاك الحرمات، وما أظن تاريخ الدنيا شهد مثل هذا الدنس الذي ينشره هؤلاء الناس، لقد سميتها في بعض كتبي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة النور، ٤/ ١٧٨٢، رقم ٤٤٨٠.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٣٦.

حضارة البغي والبغاء!!. ووسائل الإعلام المختلفة تتسابق إلى بث الفتنة داخل البيوت، وتعرض صورًا للرقص الغربي المزدوج والرقص الشرقي المفرد، يفرح بها الشيطان، وتزلزل الطهر المنشود. إن الإسلام اعتبر الزواج عبادة، وألزم الطبيعة البشرية أن تكتفي بالحلال، وأن تبتعد عن الحرام»[(١)].

رحم الله شيخنا الغزالي، لم ير مما فعلته وسائل الإعلام غير ما ذكره، ولا أدري ما كان قوله لو رأى ما أحدثه شياطين الإنس في عصرنا، مما تعجز عن وصفه الكلمات، نسأل الله السلامة والحفظ لنا ولسائر المسلمين.

رابعًا: ملازمة المرأة لبيتها:

أمرهن بملازمة البيوت وعدم الخروج منها إلا لحاجة، ثم يأتي هذا الأمر الإلهي لهن بالقرار في البيوت ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقد قرئت بفتح القاف وكسرها «فمن كسر جعله من الوقار، ومن فتح جعله من الاستقرار»[(٢)].

فهو «من وقر يقر وقارًا في المكان: إذا ثبت فيه، وقيل: هو من قررت في المكان أقر، والأصل واقررن، حذفت الراء الأولى وألقيت حركتها على القاف فصار وقرن. قال النحاس: يجوز أن يكون ﴿وَقَرْنَ﴾ من قررت به عينًا أقر، فيكون المعنى: واقررن به عينًا في بيوتكن»[(٣)].

قال ابن فارس: «الواو والقاف والراء: أصلٌ يدل على ثقل في الشيء، منه الوقر: الثقل في الأذن، يقال منه: وقرت أذنه توقر وقرًا. والوقر: الحمل، ويقال: نخلةٌ موقرةٌ وموقرٌ، أي: ذات حملٍ كثير»[(٤)].

وأيًّا كان أصله فإن المقصود الأمر لهن بملازمة البيت إشارة إلى أن البيت هو المهمة الأولى للمرأة، وليس المراد نهيهن عن الخروج من البيوت على الإطلاق. فـ«البيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة»[(٥)].

خامسًا: الأمر بغض الأبصار:

أمر الله تعالى كل واحد من الجنسين بغض البصر، فقال للرجال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠].

وقال للنساء: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ

(١) نحو تفسير موضوعي، الغزالي ١/ ٢٦٥.
(٢) الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص ٢٩٠.
(٣) معاني القرآن، النحاس ٥/ ٣٤٦.
(٤) مقاييس اللغة ٦/ ١٣٢.
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٥٩.

﴿أَبْصَٰرِهِنَّ﴾[النور:٣١].

الغض: «النقصان من الطرف والصوت»[١].

والمراد: «ينقصوا أبصارهم عما حرم عليهم، فقد أطلق لهم سوى ذلك»[٢].

ودخلت (من) التبعيضية على غض البصر دون حفظ الفرج «لأن حكم النظر أخف من حكم الفرج، إذ يحل النظر إلى بعض أعضاء المحارم، ولا يحل شيء من فروجهن»[٣].

ثم إن الأصل في حكم النظر الإباحة إلا ما حرم، بخلاف الفروج فإن الأصل فيها الحظر إلا ما استثني، «وقدم غض البصر على حفظ الفرج لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، لا يكاد يقدر على الاحتراز منه، وهو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، ويكثر السقوط من جهته. وقال بعض الأدباء: وما الحب إلا نظرة إثر نظرة، تزيد نموًا إن تزده لجاجًا.. ثم ذكر تعالى حكم المؤمنات في تساويهن مع الرجال في الغض من الأبصار وفي الحفظ للفروج»[٤].

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على غض البصر، فجعله من حقوق الطريق، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والجلوس في الطرقات) فقالوا: ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: (فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها). قالوا: وما حق الطريق؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر)[٥].

وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة، قالت: (فبينا نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه -وذلك بعدما أمرنا بالحجاب- فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احتجبا منه). فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفعمياوان أنتما؟! ألستما تبصرانه؟!)[٦]

(١) المفردات ص١٥٣.
(٢) بهجة الأريب ص٢٥٣.
(٣) فتح الرحمن ص٣٥٣.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٤١٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات، ٢/ ٨٧٠، رقم ٢٣٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه، ٣/ ١٦٧٥، رقم ٢١٢١.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب احتجاب النساء من الرجال، ٥/ ١٠٢، رقم ٢٧٧٨، وقال: حسن صحيح.

شبهات حول المرأة

أعداء الإسلام لا يألون جهدًا للطعن في هذا الدين، وفي منهجه وتشريعاته، في كافة المجالات، ومن ذلك ما يصدعون به رؤوسنا ليلًا ونهارًا من حديث عن المرأة، وكيف أن الإسلام -من وجهة نظرهم- أضاع حقوقها، وحبسها،... وقد تقدم ذكر بعض هذه الشبهات بما أغنى عن إعادته هنا، فتقدم الحديث عن القوامة، وأنها حق للمرأة، وهي تكليف للرجل، وليست تسلطًا وتشريفًا، وتقدم الحديث عن المساواة، وبيان أن الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة، مساواة حقيقية، وليست مساواة مزعومة، فساوى بينهما في الثواب والعقاب، وساوى بينهما في الحقوق والواجبات، وساوى بينهما بأن شرع لكل واحد منهما ما يناسب طبيعته التي خلقه الله تعالى عليها. وتقدم القول بأن تعدد الزوجات إنما هو من باب تكريم المرأة، وذكرنا حكمة الشرع فيه، وهناك شبهات أخرى يبثونها حول المرأة نعرض منها:

أولًا: حرية المرأة:

فهم يدعون أن الإسلام سلب من المرأة حريتها، فأي حرية يريدون؟! إنها مسرحية هزلية مفادها خلع المرأة لحجابها، فهم يعنون بالحرية أن تنطلق المرأة تفعل ما تشاء دون رقيب عليها، فتصاحب من تشاء وتخادن من تشاء، وتعرض جسدها كيف تشاء.

إنهم بذلك لا يحررونها، بل يصيرونها أمة لشهواتها، ويجعلونها أداة لمتعة الرجل. يقول الشيخ الغزالي: «إن تعرية المرأة حينًا وحشرها في ملابس ضيقة حينًا آخر عمل لم يشرف عليه علماء الأخلاق، وإنما قام به تجار الرقيق، ولكي نوفر تربية شريفة للجنسين يجب أن نعترض هذا الموكب الساخر من الكاسيات العاريات، وقد قلنا: إن من حق المرأة أن تتجمل ولكن ليس من حقها أن تتبرج، ولا أن ترتدي ثوب سهرة، تختال فيه وتستلفت الأنظار، بل إن الإسلام رفض ذلك من الرجال والنساء جميعًا... وإنها لطفولة عقلية سخيفة أن يرى امرؤ مكانته في حذاء لامع أو رداء مطرز بالحرير أو الذهب إذا لم يتحصن المرء في نصاب كبير من العلم أو الخلق»[1].

إن التحرير الحقيقي للمرأة جاء به الإسلام الحنيف، فقد حررها من شهواتها، وحررها من بطش الباطشين وعبث العابثين ولهو اللاهين، جاء الإسلام والمرأة لا مكان لها ولا قول يطاع، فأعطاها مكانة لم ولن تجدها في غيره، فإذ بهذه المرأة تراجع نبي الإسلام وتشير عليه في الأمور العظام، كما

(١) قضايا المرأة، ص١٩٣.

فعلت السيدة أم سلمة رضي الله عنها في صلح الحديبية عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (قوموا فانحروا ثم احلقوا) فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيلحقك. فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل غمًّا[1].

بل كان نساؤه صلى الله عليه وسلم يراجعنه ويهجرنه الليالي، وذكر الله تعالى في القرآن الكريم قصة المرأة التي كانت تجادل النبي صلى الله عليه وسلم في زوجها.

إن العرب قبل الإسلام فهموا الحرية حق الفهم، وأدركوا أن العري والزنا والفجور يتناقض مع الحرية، لذلك فإن هند زوج أبي سفيان لما أتت لتبايع النبي صلى الله عليه وسلم فبايعها على ما ذكره الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة:١٢].

فعندما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم: (ولا تزنين). قالت: وهل تزني الحرة؟![2].

إن المرأة المؤمنة ملكة في بيتها، متربعة على عرش هذا البيت، تنأى بنفسها عن الأدناس، وتربأ أن تتلطخ بالأرجاس، ممتثلة أمر ربها ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٣].

وهذا تشريع عام لكل المؤمنات، ولكن الخطاب وجه لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لأنهن قدوة لغيرهن من النساء، عندما ننظر إلى اللفظ القرآني ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ نستشعر ما تحمله الكلمة من معان الوقار والحشمة والاحترام، وعندما نقرأ التعليل القرآني لهذا الأمر ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إنها أرجاس يريد المولى عز وجل أن يطهر المرأة المسلمة منها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الشروط في الجهاد، ٢/ ٩٧٤، رقم ٢٥٨١.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى، ٨/ ٩. وهو مرسل.

الإسلام يريد لها الطهارة والحرية والعفاف، وهم يريدون لها الرجس والأقذار، ويريدون أن ينزلوها عن عرش مملكتها لتهبط إلى مدارك الشهوات وأوحال القاذورات من المخادنة والعهر والعري والفجور. نسأل الله السلامة والعفة لنساء المؤمنين كلهن.

ثانيًا: دعوى أن الحجاب تشدد:

يدعي بعض دعاة التبرج والسفور بأن الحجاب تزمت في الدين، والدين يسر لا تزمت فيه ولا تشدد، وإباحة السفور مصلحةٌ تقتضيها مشقة التزام الحجاب في عصرنا.

ويرد عليهم بأن الدين الإسلامي دين يسر وسهولة، ولم يكلف المكلفين عنتًا، ولم يطلب منهم ما يشق عليهم، ونصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية متوافرة في الدلالة على هذا الأمر، ولكن ينبغي التنبه إلى أن يسر الدين لا يعني أبدًا التساهل في الالتزام بأوامره، أو التهاون في تطبيق شرائعه، وإنما يسر الدين يعني أنه بإمكان جميع الناس الالتزام بتعاليمه، فلا يدعي إنسان في أي زمان أو أي مكان وعلى أية حال أنه أراد أن يمتثل منهج الإسلام ولكنه شق عليه وعجز عنه، فدعوى أن الحجاب الشرعي يتنافى مع مقتضيات العصر دعوى باطلة لا تصدر من ذي عقل سليم أو فكر مستقيم، وأي عنتٍ وأي مشقة في أن تستر المرأة جسدها وتحافظ على نفسها؟! بل العنت الحقيقي والمشقة التامة في ترك الحجاب، فما آذى المرأة شيء في عصرنا هذا أكثر من إبدائها لعورتها وإظهارها لزينتها، فما أكثر حالات الاغتصاب والتحرش والزنا! ثم هم يصرخون، وبأعلى أصواتهم ينادون ويستغيثون، ولكن لا مغيث.

ولذلك عندما ذكر المولى عز وجل الحكمة من الحجاب قال ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩].

فلم يقع إيذاء على المرأة إلا بعد أن تخلت عن حجابها وأظهرت مفاتنها، فحركت مشاعر الشباب، فحاولوا الوصول إليها بكل الطرق، فظهرت حالات الاغتصاب، ثم ما ترتب عليه من قتل وغير ذلك.

ثم إنهم لم يكتفوا بذلك، ولكنهم في كل وادٍ يهيمون، فادعوا أن الحجاب عادة جاهلية وتخلف ورجعية، وكأنهم بذلك على الإسلام حريصون، وبتعاليمه مستمسكون، ولا أدري إن كانوا مقتنعين بهذا الكلام، فهم في جهل مركب، لأنهم بهذا القول يفصحون عن جهالتهم بتعاليم الدين، بل أبجدياته التي لا يجهلها أبو جهل، ألم يقرؤوا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩].

ولن نطيل في ذكر الأدلة على فرض الحجاب هنا، فقد تقدم الحديث عنه في المبحث السابق بما يغني عن إعادته هنا.

ثم هم يستمرون في ضلالهم وفي طغيانهم فيقولون: عفة المرأة في ذاتها لا في حجابها الذي يخفي شخصيتها، وهم بذلك بعيدون عن العقل بعيدون عن المنطق، فأي شخصية يخفيها الحجاب؟! وهل شخصيتها هي مفاتنها؟ بل على النقيض من قولهم، فالحجاب يبرز شخصيتها أي إبراز، فهي امرأة مسلمة، ملتزمة بكتاب ربها وسنة نبيها، أما المرأة الأخرى التي تظهر مفاتنها فهي امرأة مجهولة الهوية، لا يدرى لها انتماء، ولا يعرف لها اتجاه، فهي تسير خلف كل ناعق، وتمشي وراء كل سائر، فأضاعت دنياها وما ربحت أخراها.

وأما قولهم: عفة المرأة في ذاتها لا في حجابها فهذا صحيح، فما كان للثياب أن تنسج لصاحبها عفة مفقودة، ولا أن تمنحه استقامة معدومة، ورب فاجرة سترت فجورها بمظهر سترها، ولكنها كلمة حقٍّ أريد بها باطل، وروضة صدق ليس لهم منها أدنى حاصل، فهل هم يجهلون طبيعة النفس الإنسانية أم أنهم يعاندون؟ أم أنهم انتكست فطرهم وارتكست نفوسهم، فهم في أوحالهم ينعمون، وفي أرجاسهم ينغمسون؟ أم أن عداءهم للإسلام أعماهم عن رؤية الحق، فهم في غيهم يعمهون، فلا هدى يريدون، ولا استقامة يبغون؟ ألا ليت شعري، ليتهم يعودون لرشدهم، ويحكمون عقولهم، حتى لا يكونوا كالأنعام، بل هم أضل، فإن الأنعام قامت بالمهمة التي نيطت بها خير قيام، أما هم فميزهم الله بالعقل وحباهم بالفكر ولكنهم أبوا إلا الكفر والعناد والاستكبار.

ثالثًا: المساواة في الميراث:

فمما يثيرونه بين الحين والآخر أن الإسلام ظلم المرأة عندما جعل لها نصف نصيب الرجل من الميراث، ويطالبون بالمساواة بينهما في الميراث.

ويرد عليهم من جهات:

الأول: أن المرأة قبل الإسلام لم تكن ترث أصلًا، بل كانت تورث كالمتاع، فهي جزء من تركة الرجل، فجاء الإسلام الحنيف وحرم ما كانوا يفعلونه، نقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ [النساء:١٩].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك[1]

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة النساء، ٤/ ١٦٧٠، رقم ٤٣٠٣.

بل وجعل لها نصيبًا من الميراث.

الثاني: أن المرأة لا تأخذ نصف نصيب الذكر في جميع الأحوال، بل في حالات معينة، وهناك حالات تتساوى فيها المرأة مع الرجل، وذلك كالأبوين مع الولد ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء:١١].

وكالإخوة لأم، ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ [النساء:١٢].

وهناك حالات كثيرة تأخذ فيها المرأة أكثر مما لو كان مكانها رجل، وذلك أن غالب حالات المرأة تكون صاحبة فرض، وصاحب الفرض لا ينقص نصيبه بحال أما الرجل ففي معظم الحالات يكون عصبة، والعصبة يأخذ ما تبقى بعد أصحاب الفروض أيًا كان، وإذا لم يتبق شيء فلا يأخذ شيئًا.

ومثال ذلك ما لو ماتت امرأة وتركت زوجًا وأبًا وأمًا وبنتين، فإن الزوج يأخذ الربع، والأم تأخذ السدس، والأب يأخذ السدس، والبنتين تأخذان الثلثين فرضًا، وتعول المسألة، لزيادة الأنصباء عن واحد صحيح.

أما لو كان مكان البنتين ابنان فيكونان عصبة، ويأخذان الباقي بعد إخراج نصيب الزوج والأم والأب، وهو أقل من نصف التركة.

إن النصف ليس ظلمًا للمرأة، بل زيادة تكرمة لها، «والذين يقولون: هذا أول ظلم يصيب المرأة، نريد المساواة. نقول لهم: انظروا إلى العدالة هنا، فالذكر مطلوب له زوجة ينفق عليها، والأنثى مطلوب لها ذكر ينفق عليها، إذن فنصف حظ الذكر يكفيها إن عاشت دون زواج، وإن تزوجت فإن النصف الذي يخصها سيبقى لها، وسيكون لها زوج يعولها، إذن فأيهما أكثر حظا في القسمة؟ إنها الأنثى. ولذلك جعلها الله الأصل والمقياس حينما قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[النساء:١١].

فهل في هذا القول جور أو فيه محاباة للمرأة؟ إن في هذا القول محاباة للمرأة؛ لأنه أولًا جعل نصيبها المكيال الذي يرد إليه الأمر؛ لأن الرجل المطلوب منه أن ينفق على الأنثى، وهي مطلوب لها زوج ينفق عليها؛ إذن فما تأخذه من نصف الذكر يكون خالصا لها، وكان يجب أن تقولوا: لماذا حابى الله المرأة؟ لقد حابى الله المرأة لأنها عرضٌ، فصانها، فإن لم تتزوج تجد ما تنفقه، وإن تزوجت فهذا فضل من الله»[1].

فليس في الميراث «أي محاباة لأحد الجنسين على الآخر، وما هي إلا ملاحظة

(١) تفسير الشعراوي ٤/ ٢٠٢٥.

الحاجة، لا إقلالًا من قيمة المرأة، فالرجل هو المكلف بالإنفاق في الأسرة، مهما كانت المرأة غنية فعلى العائل الإنفاق عليها. فمراعاة التوازن بين أعباء الذكر والأنثى هي التي جعلت الذكر يأخذ ضعف نصيب الأنثى، فالمساواة العادلة يكون التوريث حسب مقدار الحاجة»[1].

موضوعات ذات صلة:

الأمومة، البنوة، بيت النبوة، حجاب المرأة، الرجولة

(١) بحث الجندر ص٣٣.

النسيان

عناصر الموضوع

مفهوم النسيان	٧٦
النسيان في الاستعمال القرآني	٧٧
الألفاظ ذات الصلة	٧٨
نسبة النسيان إلى الله عز وجل	٨١
الإنسان والنسيان	٨٥
أقسام النسيان	٩٤
ما يترتب على النسيان	١٠٧

مفهوم النسيان

أولًا: المعنى اللغوي:

النسيان: من نسي الشيء ينساه نسيًا ونسيانًا: ذهل عنه وغاب الشيء عن ذكره وحفظه من نسيت الشيء نسيانًا أو نسيًا ونسيًا، بكسر النون ضد الذكر والحفظ، بفتح النون رجل نسيان، أي: كثير النسيان للشيء، كما يقال: فلان نسي، أي: كثير النسيان، ويأتي النسيان بمعنى الترك.

والنسي: الشيء المنسي الذي لا يذكر، ويقال للشيء الحقير الذي أغفل، وفي قوله تعالى على لسان مريم ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣]. أي: شيئًا منسيًّا لا يعرف[١].

والنسي بالفتح يطلق على كثير النسيان أو على الذي لا يعد في القوم لأنه منسيٌّ.

والنسي: ما سقط من منازل المرتحلين، من رذال أمتعتهم، فيقولون: تتبعوا أنساءكم[٢].

من خلال أقوال علماء اللغة نستنتج أن النسيان في اللغة يدور على معنيين:

الأول: الترك.

الثاني: الغفلة عن الشيء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني النسيان: «هو ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه؛ وإما عن غفلة؛ وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره»[٣].

وقال الجرجاني: «الغفلة عن معلوم في غير حالة السنة»[٤].

يقول الطاهر بن عاشور: «النسيان هو ذهاب الأمر المعلوم من حافظة الإنسان لضعف الذهن أو الغفلة»[٥].

فتعريف الطاهر ابن عاشور هو أوضح التعريفات وأقربها للمقصود.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٢١، تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ٧٩، مختار الصحاح، الرازي، ص٢٣٧.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٢٥١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١٥٤.

(٣) المفردات، ص ٨٠٣.

(٤) التعريفات ص١٦٧.

(٥) التحرير والتنوير ١/ ٤٧٥.

النسيان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نسي) في القرآن الكريم (٤٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣١	﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١٩]
الفعل المضارع	١١	﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة:٢٣٧]
اسم المفعول	١	﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم:٢٣]
الصفة المشتبهة	١	﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم:٦٤]
الأسماء	١	﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم:٢٣]

وجاء النسيان في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الترك: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه:١١٥]. أي: ترك أمر الله.

الثاني: الذي لا يحفظ فذهب من ذكره: ومنه قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى:٦]. أي: تحفظ فلا تنساه أبدًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٠٠.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٥١-٤٥٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٥٧٩-٥٨٠، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٤٦٩- ٤٧٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الترك:

الترك لغة:

ودع الشيء وتخليته [(١)].

الترك اصطلاحًا:

« عدم فعل المقدور، سواء قصد التارك أو لم يقصد، كما في النوم، وسواء تعرض لضده أو لم يتعرض، وأما عدم ما لا يقدر عليه فلا يسمى تركًا » [(٢)].

الصلة بين النسيان والترك:

يأتي النسيان بمعنى الترك، يقول الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

أي: تركوا الله فتركهم، ولما كان النسيان ضربا من الترك وضعه موضعه [(٣)].

وقال الفيومي: «نسيت الشيء أنساه نسيانًا، مشترك بين معنيين، أحدهما ترك الشيء ذهولا وغفلة، وذلك خلاف الذكر له، تقول: تركت ركعة: أهملتها ذهولا، والثاني الترك مع التعمد، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].أي: لا تقصدوا الترك والإهمال»[(٤)].

يتضح مما سبق أنه لا فرق بين النسيان والترك، ولكن الترك أعم وأشمل، فالترك يشمل القصد وعدم القصد، ولكن النسيان لا يكون إلا عن عدم قصد.

٢ السهو:

السهو لغة:

نسيان الشيء والغفلة عنه وذهاب القلب عنه إلى غيره[(٥)].

السهو اصطلاحًا:

السهو في الشيء: تركه عن غير علم أو خطأ عن غفلة [(٦)].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور١٠/ ٤٠٥.
(٢) معجم مصطلحات أصول الفقه، قلعجي ص ١٣٢.
(٣) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٢/ ٣٩٣.
(٤) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٠٤.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٤٠٦.
(٦) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٤٣٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٣١.

الصلة بين السهو والنسيان:

الناسي إذا ذكرته تذكر، والساهي إذا ذكرته لا يتذكر، هذا الفرق فيما إذا كان السهو سهوًا عن الشيء، وأما السهو في الشيء فهو بمعنى النسيان، وفرق العلماء بين السهو في الشيء، والسهو عن الشيء، فالسهو في الشيء ليس بمذموم، بخلاف السهو عن الشيء فإنه مذموم، وذلك لأن السهو في الشيء (النسيان)ترك له من غير قصد، والسهو عن الشيء ترك له مع القصد[١].

٣ الغفلة:

الغفلة لغة:

مصدر غفل عن الشيء يغفل غفلةً وغفولًا وتدل على ترك الشيء سهوًا، وربما كان عن عمد، من ذلك غفلت عن الشيء غفلةً وغفولًا، وذلك إذا تركته ساهيًا، وأغفلته إذا تركته على ذكرٍ منك له[٢].

الغفلة اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني «هي سهوٌ يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ»[٣]، وقال البغوي: «هي معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور»[٤].

الصلة بين الغفلة والنسيان:

النسيان زوال الصورة عن القوة المدركة مع بقائها في الحافظة، والغفلة زوالها عنهما معًا.

والغفلة ترك باختيار الغافل، والنسيان ترك بغير اختياره[٥].

وقيل: أن «الغفلة والنسيان عبارات مختلفة لكن يقرب أن يكون معانيها متحدة، وكلها مضادة للعلم بمعنى أنه يستحيل اجتماعهما معًا»[٦].

وهذا هو الأقرب للصواب، فإن كانت المعاني متحدة؛ لكن الغفلة اسم عام؛ فكل نسيان غفلة وليس كل غفلة نسيان.

---

(١) انظر: التحقيق في كلمات القرآن، حسن مصطفوي ٥/ ٣٠٣، مجموع فتاوى ابن عثيمين ١٤/ ١٣.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٧٨٢، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨٦.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٠٩.
(٤) معالم التنزيل ٤/ ٣٥٨.
(٥) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ص٤٠٦.
(٦) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ٦/ ١٣٣٧.

٤ الخطأ:

الخطأ لغةً:

الخطأ والخطاء: ضد الصواب، وخطأه تخطئة وتخطيئًا: نسبه إلى الخطأ، وقال له: أخطأت، والخطأ ما لم يتعمد، والخطء: ما تعمد[١].

الخطأ اصطلاحًا:

قال الجرجاني: الخطأ: «هو ما ليس للإنسان فيه قصد، وهو عذر صالح لسقوط حق الله تعالى إذا حصل عن اجتهاد، ويصير شبهة في العقوبة حتى لا يؤثم الخاطئ ولا يؤاخذ بحد ولا قصاص، ولم يجعل عذرًا في حق العباد، حتى وجب عليه ضمان العدوان ووجب به الدية»[٢].

الصلة بين الخطأ والنسيان:

الخطأ: أن يقصد بفعله شيئًا فيصادف فعله غير ما قصده، كأن يقصد أن يقتل كافرًا فصادف قتله مسلمًا، والنسيان: أن يكون ذاكرًا الشيء فينساه عند الفعل[٣].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٥، مختار الصحاح، الرازي ص ٩٢.
(٢) التعريفات ص ١٣٤.
(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص٣٥٢.

نسبة النسيان إلى الله عز وجل

نفى الله تبارك وتعالى عن نفسه صفة النسيان فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤].

وسبب نزول هذه الآية ما جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (يا جبريل، ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا)، فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم:٦٤] إلى آخر الآية، قال: كان هذا الجواب لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم[(١)].

وجاء عن الضحاك في تفسير هذه الآية، قال: « احتبس عن نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى تكلم المشركون في ذلك، واشتد ذلك على نبي الله، فأتاه جبرائيل، فقال: اشتد عليك احتباسنا عنك، وتكلم في ذلك المشركون، وإنما أنا عبد الله ورسوله، إذا أمرني بأمر أطعته ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ يقول: بقول ربك»[(٢)].

يقول الطبري: وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: « ولم يكن ربك ذا نسيان، فيتأخر نزولي إليك بنسيانه إياك، بل هو الذي لا يعزب عنه شيء في السماء ولا في الأرض فتبارك وتعالى، ولكنه أعلم بما يدبر ويقضي في خلقه. جل ثناؤه»[(٣)].

وفي آية أخرى يجيب الله تبارك وتعالى على سؤال موسى، فقال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥١-٥٢]. أي: لا يخطئ ربي ولا ينسى.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: « لا يشذ عنه شيءٌ، ولا يفوته صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسى شيئًا. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيءٍ محيطٌ، وأنه لا ينسى شيئًا، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان، أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك»[(٤)].

ونفي صفة النسيان عن نفسه جل جلاله يستلزم إثبات ضد الصفة المنفية التي تثبت كمال علمه، وسعة اطلاعه، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال ابن تيمية: « والنفي كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمالٌ إلا إذا تضمن إثباتًا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمالٌ؛ لأن النفي المحض عدمٌ محضٌ؛

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين)، ٩/ ١٣٥، رقم ٧٤٥٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٢٣.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٢٢٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٩٨.

والعدم المحض ليس بشيء وما ليس بشيء فهو كما قيل: ليس بشيء؛ فضلًا عن أن يكون مدحًا أو كمالًا ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمالٍ؛ لهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنًا لإثبات مدح كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام؛ فهو مبينٌ لكمال أنه الحي القيوم»[(١)].

وأما ما ورد في نسبة النسيان مضافًا إلى الله تعالى فهو من باب المقابلة، وقد فسره علماء التفسير بالترك، ولكن ليس كترك المخلوق الناسي، بل جل جلاله منزه عن الأشباه والأنداد، ومن أمثلة هذه الآيات: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف:٥١].

ففي يوم القيامة ينساهم الله تعالى، أي: يتركهم في العذاب المبين جياعًا عطاشًا بغير طعام ولا شراب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ورفضوا الاستعداد له بإتعاب أبدانهم في طاعة الله.

قال ابن عباس: «﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾، قال: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا»[(٢)].

قال النيسابوري: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ أي: «نتركهم في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، أي: نعاملهم معاملة من نسي بتركهم في النار كما فعلوا هم في الإعراض عن آياتنا، فسمي جزاء النسيان نسيانًا كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾ [الشورى:٤٠].

والحاصل أنه لا يجيب دعاءهم ولا يرحم ضعفهم وذلهم»[(٣)].

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۗ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧﴾ [التوبة:٦٧].

قال الطبري: «﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ يكون بمعنى الترك، يعني به: تركوا الله فتركهم»[(٤)].

قال الشوكاني « النسيان: الترك، أي: تركوا ما أمرهم به، فتركهم من رحمته وفضله، لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٧٦.

(٣) غرائب القرآن ٣/ ٢٤٢.

(٤) جامع البيان ١٤/ ٢٤٦.

هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان»[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٥-١٢٦].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك نعاملك اليوم، معاملة من ينساك ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف:٥١]. فإن الجزاء من جنس العمل»[2].

قال ابن القيم: « ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: تترك في العذاب، كما تركت العمل بآياتنا»[3].

وكذلك الآيات في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة:١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الجاثية:٣٤].

فجاءت الآيات بمعنى نتركم، أي: لما أعرضتم عن آيات الله نعاملك اليوم، معاملة من ينساك[4].

قال الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: «﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾، وأمثالها من الآيات كقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾، وهذا لا يعارض قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾؛ لأن معنى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ ونحوه، أي: نتركهم في العذاب محرومين من كل خير»[5].

خلاصة القول في نسبة النسيان إلى الله تبارك وتعالى:

ينبغي تنزيه الله تعالى عن النسيان بمعنى الغفلة والذهول.

فالنسيان بهذا المعنى صفة نقص، والله تعالى منزه عن النقص، موصوف بصفات الكمال، فلا يجوز وصف الله تعالى بالنسيان بهذا المعنى على كل حال.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وقال سبحانه أيضًا: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل:١٧]؛ والعقل يقتضي أن الخالق غير المخلوق.

(١) فتح القدير ٢/ ٤٣٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٢٤.
(٣) التفسير القيم ص ٣٧٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٨٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٧٢.
(٥) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي ص ١٠٢

والله تعالى نزه نفسه عن النسيان، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤].

قال الطاهر بن عاشور: «والنسيان: عدم تذكر الأمر المعلوم في ذهن العالم»[(١)].

والله تعالى منزه عن كل نقص وعيب سبحانه وتعالى.

ورد النسيان مضافا إلى الله هو بمعنى الرفع.

قال تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة:١٠٦].

ينسب الإنساء إلى الله بمعنى التأخير أو في معنى النسيان هو الرفع والنسخ[(٢)].

قال السعدي: «أي: ننسها العباد، فنزيلها من قلوبهم، ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ وأنفع لكم ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾؛ فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول؛ لأن فضله تعالى يزداد خصوصًا على هذه الأمة، التي سهل عليها دينها غاية التسهيل. وأخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في ملكه وقدرته»[(٣)].

ورد النسيان مضافًا إلى الله عز وجل بمعنى الترك والإهمال عقوبة وجزاءً.

قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة:٦٧].

قال الطاهر بن عاشور: «فالمعنى: نسوا دين الله وميثاقه الذي واثقهم به، وقد أطلق نسيانهم على الترك والإعراض عن عمد، أي: فنسوا دلائل توحيد الله ودلائل صفاته ودلائل صدق رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم كتابه»[(٤)]. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩].

أي: أن الله لم يخلق في مداركهم التفطن لفهم الهدي الإسلامي فيعلموا بما ينجيهم من عذاب الآخرة، ولما فيه صلاحهم في الدنيا؛ إذ خذلهم بذبذبة آرائهم، وأشعرت فاء التسبب بأن إنساء الله إياهم أنفسهم مسبب على نسيانهم دين الله، أي: لما أعرضوا عن الهدى بكسبهم وإرادتهم عاقبهم الله بأن خلق فيهم نسيان أنفسهم.

وإطلاق النسيان على الله تعالى من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان، فالجزاء من جنس العمل[(٥)].

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣٥
(٢) التفسير الحديث، دروزة محمد عزت ٥/ ١٨١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٦١.
(٤) التحرير والتنوير ٢٨/ ١١٣.
(٥) انظر: المصدر السابق.

الإنسان والنسيان

النسيان من طبيعة الإنسان، وما سمي الإنسان إلا لنسيانه ولا القلب قلبًا إلا لتقلبه[1].

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من قول: (اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، اللهم مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك)[2].

وأول ما طرأ النسيان على أبي البشر آدم عليه السلام ونسي موسى عليه السلام عهده مع العبد الصالح، ونسي يوشع بن نون خادم موسى عليه السلام، ونسي كذلك خير الأنبياء والرسل والخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم، فقد صلى الظهر مرة بأصحابه خمسًا، ومرة قام من اثنتين في صلاة الظهر ونسي الجلوس للتشهد الأول[3].

والنسيان ضرورة بشرية؛ لأن الذاكرة لها درجة تشبع، ومن رحمة الله على الإنسان أن منحه النسيان ليهمل ما لا يهمه، ويختزنه في عقله الباطن، ويحتفظ في منطقة الشعور بكل ما يهمه من شؤون حياته[4].

لا بد للإنسان من النسيان والغفلة والذهول وإن أطال التدبر، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم)[5].

أولًا: النسيان طبيعة في الإنسان

النسيان الطبعي نعمة من نعم الله تعالى على العبد، ومن العوارض البشرية التي تطرأ على الإنسان فيغيب عن ذهنه بعض الحوادث والمعلومات دون فعل منه أو إرادة، وهذا من العلامات التي تؤكد الضعف البشري والعجز الإنساني.

وقد يكون النسيان في بعض الأحيان رحمة ونعمة؛ حيث ينسى الإنسان ما مر به من ذكريات أليمة وحوادث مؤسفة، لو ظلت حاضرة في ذهنه لأرقت ليله وأذابت بدنه وأذهبت عقله، فمن رحمة الله تعالى بنا أن جعل النسيان راحة لنا من هموم الذكريات المؤلمة. فينسى المرء إساءات الناس لكي

(١) فيض القدير، المناوي ٣/ ٢.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب حدثنا أبو موسى الأنصاري، رقم ٣٥٢٢، وأحمد في مسنده، ١٨/ ١٠٠، رقم ١٢١٠٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ١/ ٨٩، رقم ٤٠١.
(٤) النسيان والذكر في القرآن، السيد رزق الطويل، مجلة البحوث الإسلامية ص ١٣٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، ٤/ ٢١٠٦، رقم ٢٧٤٩.

يستطيع أن يسامح ويغفر ويصفح، ولكي لا يملك الغضب قلوبنا بسببها، وننساها لكي نهرب من الحقد والكراهية إذا ثبتت في أذهاننا، فالذي ينسى أخطاء الناس إليه، يمكنه أن يقابل الكل ببشاشة.

قال الخازن: « قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾[الحجر:٢٦].

، يعني: آدم عليه السلام في قول جميع المفسرين، وسمي إنسانًا لظهوره وإدراك البصر إياه، وقيل من النسيان؛ لأنه عهد إليه فنسي ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ [الحجر:٢٦] يعني: من اليابس، إذا نقرته سمعت له صلصلة، يعني: صوتًا، وقال ابن عباس: هو الطين الحر الطيب الذي إذا نضب عنه الماء تشقق، فإذا حرك تقعقع»[1].

وقد ورد النسيان منسوبًا إلى العبد في القرآن بصور متعددة منها:

١. الذهول والغفلة وعدم القصد.

وهذا له الاعتذار وطلب عدم المؤاخذة كما جاء في دعاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

قال السعدي: «والفرق بين النسيان والخطأ أن النسيان: ذهول القلب عما أمر به فيتركه نسيانا، والخطأ: أن يقصد شيئا يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله، فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحسانا»[2].

وقد اعتذر فتى موسى عليه السلام حين قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف:٦٣].

وفي اعتذار موسى عليه السلام للخضر عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف:٧٣].

وقد شرع الله تعالى لنا ما يمكن أن نستدرك به ما فاتنا بسبب النسيان.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

قال السعدي: « الأمر بذكر الله عند النسيان، فإنه يزيله، ويذكر العبد ما سها عنه، وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله، أن يذكر ربه، ولا يكونن من الغافلين »[3].

٢. المعونة من الله لنسيان المصائب التى تحل بالإنسان.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:١٥٥]

لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن

(١) لباب التأويل ٤/ ٦٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٢٠.

(٣) المصدر السابق ص ٤٧٤.

على قدر دينه، إن كان في دينه صلابة زيد في البلاء، يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسليًا لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وآمرًا لهم بالصبر والصفح والعفو حتى يفرج الله عليهم، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦][1].

فلو لم ينس الإنسان هذه المصائب لكانت الحياة مظلمة بكل أبعادها وتفاصيلها، وسيجد صعوبة بالغة في استمراريتها حياته بسبب عدم نسيانها.

٣. التنكر للجميل وترك الإحسان المطلوب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٧].

قال الطاهر بن عاشور: «قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ لزيادة الترغيب في العفو بما فيه من التفضل الدنيوي، وفي الطباع السليمة حب الفضل، فأمروا في هاته الآية بأن يتعاهدوا الفضل، ولا ينسوه؛ لأن نسيانه يباعد بينهم وبينه، فيضمحل منهم، وموشك أن يحتاج إلى عفو غيره عنه في واقعة أخرى، ففي تعاهده عون كبير على الإلف والتحابب، وذلك سبيل واضحة إلى الاتحاد والمؤاخاة والانتفاع بهذا الوصف عند حلول التجربة»[2].

وقرأ عليٌّ رضي الله عنه: (ولا تناسوا)، قال ابن عطية: «وهي قراءة متمكنةٌ في المعنى، لأنه موضع تناسٍ لا نسيانٍ، إلا على التشبيه»[3].

وقال أبو البقاء: على باب المفاعلة، وهي بمعنى المتاركة لا بمعنى السهو[4].

٤. النسيان المتعمد.

هو في موضع الذم والوعيد؛ لأن الإنسان إذا تركه متعمدًا كان عليه العقوبة واللعن، لذا يجب عليه الأخذ به والامتثال له، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة:١٣].

قال الطاهر بن عاشور: «والنسيان مراد به الإهمال المفضي إلى النسيان غالبًا، وقد جمعت الآية من الدلائل على قلة اكتراثهم بالدين ورقة اتباعهم»[5].

٥. الانشغال بالمحرمات والمباحات، حتى يهمل الإنسان الواجبات.

قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون:١١٠].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٤٦٥.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٢٢.
(٤) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٢٣٧.
(٥) التحرير والتنوير ٦/ ١٤٤.

قال السعدي: «وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة»[1].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان:١٧-١٨].

قال السعدي: «حتى نسوا الذكر اشتغالا بلذات الدنيا وإكبابا على شهواتها، فحافظوا على دنياهم وضيعوا دينهم، وكانوا قومًا بورًا، أي: بائرين لا خير فيهم ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى وهو التمتع في الدنيا الذي صرفهم عن الهدى، وعدم المقتضي للهدى»[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

قال الطاهر بن عاشور: « أي بسبب نسيانهم يوم الحساب، والنسيان: مستعار للإعراض الشديد؛ لأنه يشبه نسيان المعرض عنه... وفي جعل الضلال عن سبيل الله ونسيان يوم الحساب سببين لاستحقاق العذاب الشديد تنبيه على تلازمهما؛ فإن الضلال عن سبيل الله يفضي إلى الإعراض عن مراقبة الجزاء»[3].

ثانيًا: نسبة النسيان إلى الأنبياء عليهم السلام:

دَلَّ القرآن على نسيان الأنبياء في مواضع كثيرة من القرآن الكريم. يقول الله تبارك وتعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

وقال عز وجل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٤].

والأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى، وهذا لا ينافي نسيانهم في بعض الأمور الدنيوية أو الأمور التي فيها حكمة التشريع.

قال ابن تيمية: « فإنهم متفقون على أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى، وهذا هو مقصود الرسالة، فإن

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٠.
(٢) المصدر السابق ص ٥٨٠.
(٣) التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٤٦.

الرسول هو الذي يبلغ عن الله أمره ونهيه وخبره، وهم معصومون في تبليغ الرسالة باتفاق المسلمين، بحيث لا يجوز أن يستقر في ذلك شيء من الخطأ »[1].

وذكر القرآن الكريم مواقف نسيان لبعض الأنبياء، وهذا يدلل على بشريتهم، منهم:

١. نسيان النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

وقف كثير من المفسرين عند هذه الآية وتساءلوا عن جواز النسيان على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم جواز تأثره بالشيطان. والآية صريحة بجواز النسيان عليه، وعلى غيره من الأنبياء. وفي القرآن آيات عديدة أخرى تؤيد ذلك. مثل هذه الآية التي يخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٤].

وسبب نزول هذه الآية أن قريشًا أرسلت وفدًا إلى علماء أهل الكتاب (اليهود) في المدينة كي يطلبوا منهم بعض الأسئلة ليمتحنوا بها صدق محمد صلى الله عليه وسلم. فقال لهم اليهود اسألوه عن (أصحاب الكهف) وعن (ذي القرنين).

فعادوا بهذه الأسئلة إلى مكة وطرحوها على النبي صلى الله عليه وسلم فأجابهم قائلًا (سأخبركم عنها غدًا) ولم يستثن بقوله: (إن شاء الله) فلم ينزل الوحي في اليوم التالي، وتأخر نزول الوحي فترة من الزمن، وقد أصاب النبي صلى الله عليه وسلم الحزن لهذه الفترة في الوحي.

وبعد أن نزل الوحي وبَيَّنَ الإجابة عن أسئلتهم علم الله تعالى في بداية الآيات نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن لا يجزم بقول أو فعل شيء في المستقبل دون إيكال ذلك إلى مشيئة الله تعالى وإرادته.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

ذكر الله تعالى أن النسيان أمرًا طبيعيًّا بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لذا أمره أن يذكر ربه إذا نسي، وهو منبثق من طبيعة الأنبياء البشرية.

وهناك أحاديث عديدة عن نسيان النبي صلى الله عليه وسلم منها حديث عن عبدالله: (صلى النبي صلى الله عليه وسلم -قال إبراهيم: لا أدري زاد أو نقص- فلما سلم قيل له: يا رسول الله، أحدث في الصلاة شيءٌ؟ قال: (وما ذاك)، قالوا: صليت كذا وكذا، فثنى رجليه، واستقبل القبلة، وسجد سجدتين، ثم سلم، فلما أقبل علينا

(١) منهاج السنة النبوية ١/ ٤٧٠.

بوجهه، قال: (إنه لو حدث في الصلاة شيءٌ لنبأتكم به، ولكن إنما أنا بشرٌ مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني، وإذا شك أحدكم في صلاته، فليتحر الصواب فليتم عليه، ثم ليسلم، ثم يسجد سجدتين)[1].

قال ابن حجر: «قوله: قال: وما ذاك. فيه إشعار بأنه لم يكن عنده شعور مما وقع منه من الزيادة، وفيه دليل على جواز وقوع السهو من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأفعال، قال ابن دقيق العيد: وهو قول عامة العلماء والنظار، وشذت طائفة فقالوا: لا يجوز على النبي السهو، وهذا الحديث يرد عليهم لقوله صلى الله عليه وسلم فيه: (أنسى كما تنسون) ولقوله: (فإذا نسيت فذكروني)، أي: بالتسبيح[2].

وجواز السهو والنسيان على النبي صلى الله عليه وسلم إنما يحتمل في الشؤون البشرية والدنيوية. أما الشؤون الدينية والتبليغ عن الله تعالى فالمتفق عليه عند الجمهور أنه معصوم عنهما وهو الحق[3].

وأما قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى:٦].

أراد بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادره فيقرأ معه أن يفرغ جبريل مما يريده من التلاوة ومخافة الانفلات أو النسيان فنهاه الله تعالى عن ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه:١١٤].

أي: ولا تعجل بقراءته من قبل أن يقضى إليك وحيه، أي: من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ، وقيل: معناه لا تقرئه لأصحابك ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معناه[4].

٢. نسيان آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾ [طه:١١٥].

أي: أوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة، يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقدم الملك إلى فلان وأوصى إليه، وعزم عليه، وعهد إليه، واللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، والمعنى: وأقسم قسمًا لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة من قبل وجودهم، فخالف إلى ما نهى عنه فنسي العهد، أي: النهي، والأنبياء عليهم السلام يؤاخذون بالنسيان الذي لو تكلفوا لحفظوه.

وأما قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي: قصدًا على الخلاف لأمره، أو لم يكن آدم من أولي العزم من الرسل[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ١/ ٨٩، رقم ٤٠١.
(٢) فتح الباري ١/ ٥٠٤.
(٣) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت ٤/ ١١٢.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٨٢.
(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٧٦.

ونسي هنا من السهو والنسيان، وإنما أخذ الإنسان منه؛ لأنه عهد إليه فنسي، وقيل: نسي ما عهد الله إليه في ذلك، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس، وكان في ذلك الوقت مأخوذًا بالنسيان، وإن كان النسيان مرفوعًا عنا اليوم، وهذا القول لا يحتمل منه أن يكون آدم مرفوعًا عنه النسيان، ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل أن يأكل من الشجرة لأنه نهي عنها.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ فقال ابن عباس وقتادة: لم نجد له صبرًا عن أكل الشجرة ومواظبة على التزام الأمر[1].

٣. نسيان يوسف عليه السلام.

فنبي الله يوسف الذي أنساه الشيطان ذكر ربه حيث يقول سبحانه عنه ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف:٤٢].

فقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ وجملة ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ هي مقول القول، أمره بأن يذكره عند سيده، ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والاطلاع على شيءٍ من علم الغيب، وكانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرةً عن ذهولٍ ونسيانٍ عن ذكر الله بسبب الشيطان، فيكون ضمير المفعول في أنساه عائدًا إلى يوسف، هكذا قال بعض المفسرين، ويكون المراد بربه في قوله: ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ هو الله سبحانه، أي: إنساء الشيطان يوسف ذكر الله تعالى في تلك الحال ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ يذكره عند سيده ليكون ذلك سببًا لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البين عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته[2].

وذلك أن إلهام يوسف أن يسأل الله إلهام الملك تذكر شأنه كان من إلقاء الشيطان في على أمنيته، وكان ذلك سببًا إلهيًّا في نسيان الساقي تذكير الملك، وكان ذلك عتابًا إلهيًّا ليوسف على اشتغاله بعون العباد دون استعانة ربه على خلاصه[3].

وفي ذلك يقول الشوكاني: «وذهب كثير من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو الذي نجا من الغلامين وهو الشرابي... ويكون المعنى: فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن، ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي الملك، وقد رجح البعض على هذا كون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء:

ويجيب الشوكاني على من قال: إن الشيطان لا سبيل له على الأنبياء. وأجيب

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٦٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٧٩.

بأن النسيان وقع من يوسف، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني)[1].

ورجح أيضا بأن النسيان ليس بذنب، فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين. وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك، وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه في تفريج كربه[2].

٤. نسيان موسى عليه السلام.

ذكر الله لموسى أن عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه، فقال لفتاه ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ [الكهف:٦٠].

أي: لا أزال سائرًا هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، فلما بلغا مجمع البحرين ناما هنالك وكان فتاه يحمل حوتًا مملوحًا، فاستيقظ يوشع وقد أصاب الحوت رشاش الماء فاضطرب، وكان في مكتل مع يوشع بن نون، فسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾، أي: مثل السرب في الأرض. وقال العوفي عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئًا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة[3].

ويصور الله تبارك وتعالى هذه الحادثة بقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾ [الكهف:٦٠-٦٣].

وقد نسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه، ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ والمعنى: فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحله قال موسى ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾.

ولما قفز الحوت من المكتل رآه وكان موسى عليه السلام نائمًا فلما استيقظ نسي أن يخبره بما حدث من الحوت من شدة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ١/ ٨٩، رقم ٤٠١ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم ٥٧٢.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٩٢.

النصب، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما فلما أخبره فتاه بالحادثة قال: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾[الكهف:٦٤].

أي: رجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة التي كانا قد أويا إليها، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟! فقال: أنا موسى بن إسرائيل قد أتيتك لتعلمني مما علمت منه رشدا[(١)].

قال الطبري: الحوت كان مع يوشع، وهو الذي نسيه، فأضيف النسيان إليهما، وإنما جاز عندي أن يقال: (نسيا) لأنهما كانا جميعًا تزوداه لسفرهما، فكان حمل أحدهما ذلك مضافًا إلى أنه حمل منهما، كما يقال: خرج القوم من موضع كذا، وحملوا معهم كذا من الزاد، وإنما حمله أحدهما ولكنه لما كان ذلك عن رأيهم وأمرهم أضيف ذلك إلى جميعهم، فكذلك إذا نسيه حامله في موضع قيل: نسي القوم زادهم، فأضيف ذلك إلى الجميع بنسيان حامله ذلك، فيجرى الكلام على الجميع، والفعل من واحد، فكذلك ذلك في قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ لأن الله عز ذكره خاطب العرب بلغتها، وما يتعارفونه بينهم من الكلام»[(٢)].

قال القرطبي: «وقيل إن النسيان كان منهما لقوله تعالى: ﴿نَسِيَا﴾ فنسب النسيان إليهما وذلك أن بدو حمل الحوت كان من موسى؛ لأنه هو الذي أمر به، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل حتى أويا إلى الصخرة»[(٣)].

ثم قال تعالى حكاية عن الخضر عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧٢-٧٣].

فالنسيان الأول كان عقاب من الله تعالى على الهفوة التي وقع فيها موسى عليه السلام؛ لأن قصة الخروج في طلب علم الرجل الصالح كلها منطوية على ذلك، ومما يدل على ذلك قوله: (فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه)[(٤)].

والنسيان الثاني الذي وقع من موسى عليه السلام عندما صحب الخضر أنه حرم علمًا كثيرًا وحكمة؛ لأنه لو صبر مع الخضر لحصل له علم كثير، ويدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم (وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما)[(٥)(٦)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٩٢.
(٢) جامع البيان ٢٠/ ٤٤٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبًا)، ٦/ ٨٨، رقم ٤٧٢٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٧٥.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح

مما سبق يتضح أن النسيان الطبيعي هو صفة من صفات بني آدم لم يسلم منه حتى الأنبياء وهو دليل على بشريتهم إذ الكمال كله لله تعالى.

أقسام النسيان

للإنسان دور واضح في إيجاد النسيان من خلال عدم اهتمامه وسطحية تعامله مع مفردات الحياة وتفاصيلها، فالذين لم يستعدوا لليوم الآخر بالعمل الجاد الصالح، ونسوا ذلك اليوم وأغرتهم الدنيا بمتاعها وجمالها، فتركوا العمل والعدة، فسيتركون في النار وسيجزون من جنس عملهم.

وهناك نوع آخر من النسيان خارج عن إرادة الإنسان لأسباب وظروف موضوعية خاصة به، وهو مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى على الإنسان في حالة إصابته بالمصائب والأوجاع والشدائد.

أولًا: النسيان المؤاخذ عليه ودوافعه:

النسيان المتعمد من الصفات المذمومة، وجاء في آيات القرآن الكريم مقترنًا بصفات أخرى لها علاقة بهذا المرض ولها ارتباط وثيق به، ورد ذكرها في القرآن على سبيل الذم، فقد جاء مقترنًا: بالكفر، والتكذيب، وعدم الإيمان، والتكبر، والجحود، والإعراض، والضلال، والظلم، ونسيان ذكر الله تعالى، ونسيان اليوم الآخر وما يكون فيه من الحساب، واللهو، واللعب، والتفريط، وحب الحياة الدنيا، وغير ذلك من مهلكات الأمور.

وأغلب هذه المواطن التي ذم الله تعالى

حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبًا)، ٦/٨٨، رقم ٤٧٢٥.

فيها الناسين إنما وردت في سياق الحديث عن الكفار والمنافقين، ولم ترد في سياق وصف المؤمنين، مما يدل على أن المؤمن لا ينبغي له أن يتصف بصفات الكفار والمنافقين.

ومن النسيان المؤاخذ عليه:

١. نسيان الله تعالى.

نسيان المخلوق لخالقه من أقبح صور النسيان وأشنعها، حيث إنه يعد نسيانًا للمنعم وجحدًا للنعمة وتنكرًا من العبد لربه ومولاه الذي خلقه في أحسن تقويم، فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى، وبلا هدف يردعه عن السائمة التي ترعى، وفي هذا نسيان لإنسانيته.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة:٦٧].

فنسيان الله تعالى من صفات المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، فالمؤمن دائم الذكر لله والمنافق ينسى ذكر الله سبحانه[١].

قال القرطبي في تفسير هذا النسيان: «والنسيان الترك هنا، أي تركوا ما أمرهم الله به فتركهم في الشك، وقيل: إنهم تركوا أمره حتى صار كالمنسي فصيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه، وقال قتادة: نسيهم، أي: من الخير، فأما من الشر فلم ينسهم»[٢].

فالمنافقون الذين هذه صفتهم من طينة واحدة وطبيعة واحدة، المنافقون في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية ولؤم السريرة، والضعف عن المواجهة والجبن عن المصارحة؛ لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون، إنهم نسوا الله فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلونهم ويدارونهم[٣].

ونظرًا لشناعة هذه الصفة وقبحها يحذر الله المؤمنين من أن يقعوا فيما وقع فيه المنافقون فيخاطبهم سبحانه قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر:١٨-١٩].

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: تركوا أمره أو ما قدروه حق قدره

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٦٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٨٥.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٧٣.

أو لم يخافوه، أو جميع ذلك[1].

ويقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «بعد أن أمر المؤمنين بتقوى الله وإعداد العدة للآخرة أعقبه بهذا النهي؛ تحذيرًا عن الإعراض عن الدين والتغافل عن التقوى، وذلك يفضي إلى الفسوق، وجيء في النهي بنهيهم عن حالة قوم تحققت فيهم هذه الصلة؛ ليكون النهي عن إضاعة التقوى مصورًا في صورة محسوسة، هي صورة قوم تحققت فيهم تلك الصلة، وهم الذين أعرضوا عن التقوى، وهذا الإعراض مراتب قد تنتهي إلى الكفر الذي تلبس به اليهود، وإلى النفاق الذي تلبس به فريق ممن أظهروا الإسلام في أول سني الهجرة، وظاهر الموصول أنه لطائفة معهودة فيحتمل أن يراد بالذين نسوا الله المنافقين؛ لأنهم كانوا مشركين ولم يهتدوا للتوحيد بهدى الإسلام فعبر عن النفاق بنسيان الله؛ لأنه جهل بصفات الله من التوحيد والكمال؛ لذلك عبر عنهم بالفاسقين في قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩].

فتكون هذه الآية ناظرة إلى تلك، ويحتمل أن يكون المراد بهم اليهود؛ لأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأضاعوا دينهم، ولم يقبلوا رسالة عيسى، فالمعنى نسوا دين الله وميثاقه الذي واثقهم به... وقد أطلق نسيانهم على الترك والإعراض، فالكلام بتقدير عن عمد، أي: فنسوا دلائل توحيد الله ودلائل صفاته، ودلائل صدق رسوله وفهم كتابه، فالكلام بتقدير: حذف مضاف أو مضافين»[2].

فمن خلال استعراض أقوال المفسرين نجد أن معنى نسيان الله تعالى، هو ترك أوامره، ونسيان ذكره، وأصحاب هذه الصفة لا يحسبون حسابًا لله بل يحسبون حساب الناس وحساب المصلحة، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس، يذلون لهم ويدارونهم، فنسيهم الله، فلا وزن لهم ولا اعتبار.

والله تبارك وتعالى نسيهم من رحمته، فلا يوفقهم لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار خالدين فيها مخلدين.

٢. نسيان آيات الله.

فآيات الله تعالى ظاهرة للأعين البصيرة، واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لا تزيد صاحب الفطرة السليمة والعقل المجرد إلا يقينًا بالله تبارك وتعالى، واذعانًا لأوامره جل جلاله.

وجاء في القرآن العظيم آيات كثيرة منها الكونية، ومنها التشريعية، فمن القبح نسيان آيات الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر الله

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٠٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ١١٢.

تعالى هذا النوع من النسيان في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٦].

أي: أتتك آياتنا واضحة مستنيرة فلم تنظر إليها بعين المعتبر ولم تتبصر، وتركتها وعميت عنها، فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك[(١)].

يقول الخازن: «يعني: كما أتتك آياتنا فنسيتها فطردتها وأعرضت عنها كذلك اليوم تنسى يعني: تترك في النار، وقيل: نسوا من الخير والرحمة ولم ينسوا من العذاب»[(٢)].

فالله تعالى علل ذلك العمى بأن المكلف نسي آيات الله ودلائل وجوده في هذه الحياة الدنيا، فلو كان العمى الحاصل في الآخرة بين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر، كما أنه ما كان له في الدنيا بسبب ذلك ضرر، فالمراد من حشره أعمى أنه لا يهتدي يوم القيامة إلى طريق ينال منه خيرًا، بل يبقى واقفًا متحيرًا كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء، وقد أنزل الله به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهوى والإعراض عنه، فمقابل نسيانه لآيات الله في الدنيا ينسى في الآخرة ويعمى ولا يهتدي إلى خير[(٣)].

ويقول ابن عاشور: «كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وعميت عنها فكذلك اليوم تنسى وتحشر أعمى، والنسيان في الموضعين مستعمل كناية أو استعارة في الحرمان من حظوظ الرحمة»[(٤)].

من الملاحظ أن المفسرين اتفقوا على أن نسيان آيات الله بمعنى الإعراض عنها، وعدم اتباع الهدى الذي يترتب عليه نسيان صاحبه من الخير والرحمة وعدم هدايته إلى طرق الخير وأبوابه، بالإضافة إلى أنه لا ينسى من عقاب الآخرة فيحشر أعمى ويكون له من عذاب الله ما يستحق يوم القيامة.

٣. نسيان ذكر الله.

نسيان ذكر الله يؤدي إلى فتح أبواب الشر على مصراعيها على الإنسان الذي نسي، حيث تلتبس عليه مفاهيم الحق والباطل ليجد نفسه متلبسًا بالمنكر، وعندما يواجه لحظة الحسم بنزول عذاب الله عليه في الدنيا أو عندما يسلم الروح إلى بارئها يقف عاجزًا عن تبرير نسيانه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤].

فالله سبحانه طلب من عباده أن يكثروا من ذكره، حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٩٣.
(٢) لباب التأويل ٣/ ٢١٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٣٢.
(٤) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٣٣.

﴿وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

وعبادة الذكر من العبادات التي يحبها ربنا جل في علاه، وقد ذم الله الذين نسوا الذكر ووصفهم بالفساد حيث يقول: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان:١٨].

حيث جعل نسيانهم الذكر غاية للتمتيع؛ للإيماء إلى أن ذلك التمتيع أفضى إلى الكفران، والنسيان مستعمل في الإعراض عن عمد على وجه الاستعارة؛ لأنه إعراض يشبه النسيان في كونه عن غير تأمل ولا بصيرة[(١)].

ويقول سيد قطب: «فهذا المتاع الطويل الموروث على غير معرفة بواهب النعمة، ولا توجه، ولا شكر، قد ألهاهم وأنساهم ذكر المنعم، فانتهت قلوبهم إلى الجدب والبوار كالأرض البور لا حياة فيها ولا زرع ولا ثمار، والبوار الهلاك ولكن اللفظ يوحي كذلك بالجدب والخواء، جدب القلوب وخواء الحياة»[(٢)].

ومن الآيات التي ذمت نسيان ذكر الله تعالى قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون:١١٠].

أي: اتخذتموهم هزؤًا وتشاغلتم بهم ساخرين حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ذكري، فتركتم أن تذكروني فتخافوني في أوليائي[(٣)].

قال مقاتل: «إن رؤساء قريش مثل أبي جهل وعتبة وأبي بن خلف كانوا يستهزئون بأصحاب رسول الله ويضحكون بالفقراء منهم مثل: بلال وخباب وعمار وصهيب، والمعنى اتخذتموهم هزؤًا حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم ذكري»[(٤)].

ومن الآيات التي ذكرت هذا النوع من النسيان أيضًا قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة:١٩].

« أي: استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه »[(٥)].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ « أي: غلب واستعلى، أي: بوسوسته في الدنيا، وقيل: قوي عليهم أو أحاط بهم أو جمعهم وضمهم.

يقال: أحوذ الشيء، أي: جمعه وضم بعضه إلى بعض، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوي عليهم وأحاط بهم فأنساهم ذكر

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٤٠.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٥.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٠٠.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ١٢٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢٨.

الله»[1].

فمن خلال ما تقدم يتبين أن السبب الرئيس وراء نسيان ذكر الله تعالى هو الانهماك في المعاصي، واتباع خطوات الشيطان، مما يهيئ الأجواء للشيطان لأن يستحوذ على العصاة، ويستخدمهم لتنفيذ غواياته ويشغلهم بمعصية الله وإيذاء عباده من ذكره سبحانه.

إن الإنابة إلى الله تعالى بذكره واستغفاره كفيلة بأن تمحو عن المؤمن كل سيئة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

وفي الآية تسلية لمن فعل الفواحش أو صدر منه تقصير بحق الله تعالى عليه بأن يسارع إلى ذكره واستغفاره؛ ليجب عنه ما سبق من إثم أو تقصير.

٤. نسيان لقاء الله.

نسيان لقاء الخالق جل جلاله نوع من النسيان، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف:٥١].

بمعنى أن الله تعالى يتركهم يوم القيامة في العذاب المبين جياعًا عطاشًا بغير طعام ولا شراب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ورفضوا الاستعداد له بإتعاب أبدانهم في طاعة الله[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر، وقيل: معناه نعاملهم معاملة من نسي فنتركهم في النار كما تركوا العمل وأعرضوا عن الإيمان إعراض الناسي، سمي الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز؛ لأن الله لا ينسى، فيكون المراد من هذا النسيان أن الله تعالى لا يجيب دعاءهم، ولا يرحم ضعفهم وزلتهم، بل يتركهم في النار كما تركوا الإيمان والعمل[3].

«والنسيان في الموضعين مستعمل مجازًا في الإهمال والترك؛ لأنه من لوازم النسيان فإنهم لم يكونوا في الدنيا ناسين لقاء يوم القيامة، فقد كانوا يذكرونه ويتحدثون عنه حديث من لا يصدق بوقوعه وتعليق الظرف بفعل ننساهم؛ لإظهار أن حرمانهم من الرحمه كان في أشد أوقات احتياجهم إليها، فكان لذكر اليوم أثر في إثارة تحسرهم وندامتهم وذلك عذاب نفساني ودل معنى كاف التشبيه في قوله: ﴿كَمَا نَسُوا﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٩١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٠٢.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠٥.

على أن حرمانهم من رحمة الله كان مماثلًا لإهمالهم التصديق باللقاء وهي مماثلة جزاء العمل للعمل»[1].

ومن الآيات كذلك التي تصور نسيان لقاء الله قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة:١٤].

«فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم من نسيان العاقبة، وقلة الفكر فيها، وترك الاستعداد لها، والمراد بالنسيان خلاف التذكر، يعني: أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها، ثم قال: إنا نسيناكم على المقابلة، أي جازيناكم جزاء نسيانكم، وقيل: هو بمعنى الترك، أي: تركتم الفكر في العاقبة فتركناكم من الرحمة، وفي استئناف قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم، والمعنى فذوقوا هذا، أي: ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم؛ بسبب نسيان اللقاء وذوقوا العذاب المخلد في جهنم؛ بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة»[2].

من خلال ما تقدم يتبين أن نسيان لقاء الله من أقبح أنواع النسيان، وتركهم المذموم يقابله الله بالخزي والغم والهم في الدنيا من باب أن الجزاء من جنس العمل، وعقوبة هؤلاء الناسين بتركهم في نار جهنم خالدين فيها أبدا.

٥. نسيان النفس.

نسيان المرء لنفسه، يجعله يضيع نفسه في عاجلها وآجلها، يضيع الدنيا فتلفه المشكلات من كل صوب، ويضيع الآخرة بخسران النجاة والفوز بالجنة، وعلى مقدار النسيان والتضييع لأمر الله تعالى سيكون التضييع للنفس والدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر:١٩].

وأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها، ونسي مصالحها، ودواءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم[3].

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤].

وأشد ما قرع الله في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم، فاستنكر عليهم

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٥١.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥١٧.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٦٦.

أولا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع ونادوا به في المجالس؛ إيهامًا للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حججه، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه، وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه، ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم وكاشفة لعوارهم وهاتكة لأستارهم، وهي أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة والخصلة الفظيعة على علم منهم ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم وملازمة لتلاوته، ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع، ومن توبيخ إلى توبيخ فقال: إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدراسة لكتب الله، لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك، زاجرًا لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم؟!»[1].

قال الطبري: «أتأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه؟ فهلا تأمرونها بما تأمرون به الناس من طاعة ربكم؟ معيرهم بذلك، ومقبحًا إليهم ما أتوا به»[2].

وقال القرطبي: «اعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر، لا بسبب الأمر بالبر؛ ولهذا ذم تعالى في كتابه قومًا كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها، ووبخهم الله توبيخًا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة»[3].

وأما دوافع النسيان، فمنها:

١. الشيطان.

المنحرفين عن سنن الإسلام إما بفساد في العقيدة، أو انحراف في السلوك نجد تعليلًا لذلك، يتمثل في تسلط الشيطان عليهم، وسيطرته على نفوسهم، فأنساهم خالقهم وبذلك تم لهم الانغماس في ضلالهم، يقول تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة:١٩].

والشيطان لا يقصر جهده على الأشرار فهم جنوده، وقد فرغ منهم، ولكنه يبحث في السائرين على طريق الرشاد يحاول جذبهم إليه.

ذكر القرآن الكريم أن الشيطان يتسبب في النسيان في خمسة مواطن، وأغلب هذه المواطن خاصة ببعض الأنبياء، لذا يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم يذكره بمحاولات الشيطان جذبه إليه في مجالس هؤلاء الضالين، ويحذره من الجلوس معهم أكثر من فترة التذكير والتوجيه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٩٢.
(٢) جامع البيان ١/ ٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٦٦.

﴿ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعام:٦٨].

قال الطبري: « إن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا، ثم ذكرت ذلك، فقم عنهم، ولا تقعد بعد ذكرك ذلك مع القوم الظالمين الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوض فيه بما خاضوا به فيه. وذلك هو معنى «ظلمهم» في هذا الموضع »[1].

وعلى كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله، ويضعونها على غير موضعها؛ ويشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لـمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر الذي لا يقدر على إزالته[2].

وقد بسط الله سبحانه القول في الشيطان في آيات كثيرة، وأوضح طرائق إضلاله وإغوائه في بيان جلي أقام به الحجة على الخلق، وأزال به كل عذر لمعتذر.

٢. الغرور.

الغرور هو أن يسيء الإنسان فهم نفسه، بأن ينسى الأصل الذي منه نشأ، أو ينسى أن الأيام تدول، وأن النعم تزول، وأن النعمة قد تصير شقاء، والجاه قد يتحول إلى بلاء، وسوء الفهم الذي يوجد الغرور هو الذي ينسي الإنسان هذه الحقائق الثابتة من سنن الله في الحياة.

فأبي بن خلف عندما وقف موقف التحدي، منكرًا في تهكم عقيدة البعث، ويأتي بعظام بالية ويفتتها بيده ويقول: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعدما قد رم؟![3]، فأبي في موقفه تبدو منه حماقة البغي، وشراسة الجحود، والكبر والغرور، لم يدر بخلده الماء المهين الذي خلقه الله منه، ولو تذكره لرجع إلى نفسه قبل أن يقول ما قال: وهذه هي الحقيقة التي يسجلها القرآن الكريم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس:٧٨-٧٩].

فالغرور أنساه إحدى بديهيات الوجود حتى تورط فيما تورط فيه من كفران وجحود.

وقصة صاحب الجنتين نموذجًا للكبر والغرور، فالكافر الغني أخذ يتعالى على صاحبه الفقير: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف:٣٤].

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين،

(١) جامع البيان ١١/ ٤٣٦.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩٣.

وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا، أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلا بد أن يكون جنابه ملحوظًا في الآخرة! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف:٣٥-٣٦].

فالغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ! فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى، معتز بعقيدته وإيمانه، معتز بالله تعالى [(١)].

إن الإنسان المغرور يفزع إلى ربه في الضراء، وينسى ضراعته في السراء، ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾ [الزمر:٨].

فغرور الإنسان أنساه صاحب الحق، فضل السبيل إليه وأشرك، وعندما ينسى ما كان فيه من عسر وما صار إليه من يسر يؤدي غرور الإنعام بالإنسان إلى مهاوي الكفران.

٣. التسلط.

من دوافع النسيان شهوة التسلط عندما يشعلها إمعان الأتباع في الخضوع. فقد يجد المغرور من يستخزي لكبريائه، وينصاع لغلوائه، ويستذل لبغيه، فيغريه ذلك بمزيد من الطغيان، ويسمع كلمات الثناء وعبارات التمجيد من أفواه العبيد، فيتصور أنه كبير، وينسى أن فوقه الكبير المتعال. فعندما وجد فرعون من يستذلهم؛ أنساه ذل العبيد أنه عبد مثلهم، وصدق رب العالمين إذ يقول: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١﴾ [الفرقان:٢١].

المجتمع الإسلامي يجب أن يكون صلبًا في الحق، وحساسًا تجاه الاعتداء عليه وعلى القائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التي استحفظوا عليها، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء، ولا يخافوا لومة لائم، سواء جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم أو الأغنياء المتسلطين بالمال أو الأشرار المتسلطين بالأذى أو الجماهير المتسلطة بالهوى، فمنهج الله هو منهج الله، والخارجون عليه علوا أم سفلوا

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

سواء[1].

ثانيًا: النسيان المعفو عنه ودوافعه:

هناك نسيان من البشر محمود، وهو نسيان الرذائل، نسيان الصالحين والصالحات للمعاصي وما يوصل إليها، بمعنى تركهم لها وإعراضهم عنها، والتنزه عن مجالسها.

وهو في الحقيقة تناسي، فهم يتناسون المعاصي والمنهيات بمعنى يتركونها ويعرضون عنها مع ذكرهم لها، كي يحصل لهم عظيم الأجر بكمال الامتثال، فالترك للمنهي عنه مأجور عليه إذا ترك ابتغاء الأجر والثواب، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء:٣١].

في المسند من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليعجب من الشاب ليست له صبوة)[2].

قال المناوي: (ليست له صبوة) أي: ميل إلى الهوى بحسن اعتياده للخير، وقوة عزيمته في البعد عن الشر[3]، «يعيش فيها المسلم العفيف في صفاء ونقاء، وعفة وطهر، أخلاقه سامية، وأفعاله نبيلة.

ويشير القرآن ضمن حديثه عن المؤمنين المفلحين الذين نعتهم الله بالفلاح في ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون:١-٣].

ثم ذكر من صفاتهم فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: « أي: عن الباطل، وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم،والمعاصي كما قاله آخرون ،وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]»[4].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٥-٤٧].

أي: أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين فقوله تعالى: ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ إشارة إلى القوة العاملة، فأشرف ما يصدر عنها طاعة لله، وقوله: ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ إشارة إلى القوة العالمة، فأشرف ما يصدر عنها معرفة الله وما سوى هذين القسمين باطل.

وقرأ ابن كثير (عبدنا)[5] على التوحيد

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٨٢.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ١٥١، رقم ١٧٤٠٩.
وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣٧.
(٣) فيض القدير ٢/ ٢٦٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٤٦٢.
(٥) السبعة في القراءات، ابن مجاهد ص٥٤٤.

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: إنا جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة، وهي استغراقهم في ذكر الدار الآخرة حتى نسوا الدنيا، وقرأ نافع وهشام بإضافة خالصة، أي: إنا اختصصناهم بإخلاصهم ذكر الآخرة وتناسيهم عند ذكر الدنيا، وقد جاء المصدر على فاعلة كالعاقبة ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ أي: لمن المختارين من أبناء جنسهم المستعلين عليهم في الخير [(١)].

وهناك تناسي إيجابي مثل سلوك العالم مع الجاهل وسلوك الحليم مع الغاضب، حيث لا يلتفت لكلام وسلوك الجاهل معه ويتناسى الموضوع؛ ولهذا أشار القرآن الكريم ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان:٦٣].

من صفات عباد الرحمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلامًا.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾

قال ابن كثير: أي: «إذا سفه عليهم الجهال بالسيئ، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيرًا، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾ [القصص:٥٥]» [(٢)].

قال الحسن البصري: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ قال: حلماء لا يجهلون، وإن جهلوا عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل [(٣)].

سب رجل رجلًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما إن ملكا بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا قال له: بل أنت أحق به، وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا، بل عليك، وأنت أحق به)[(٤)].

أنعم على من به خلق كريم بأن يرد المسلم على الجاهل السفيه الذي لم يتأدب بأدب الإسلام بهذه اللفظة الجميلة، التي تحمل السلام والسلامة، وتحمل أدب الإسلام الراقي المنضبط إنها سلام إما بلفظها أو بكلام يدل على السلام والسلامة، ويدل على الصفح والهجر الجميل.

وعن أنس رضي الله عنه قال: (كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: مراح لبيد، الجاوي ٢/ ٣٢٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٢٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٩٥.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٥/ ٤٤٥.
وحسنه ابن كثير. انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٣٢.

وعليه بردٌ نجرانيٌ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌ، فجبذه بردائه جبذة شديدةً، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بعطاءٍ)[1]. فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يوبخه ولم يضربه ولم يعبس بل ضحك صلى الله عليه وسلم ومع هذا أمر له بعطاء.

«وسئل معاوية رضي الله عنه بم سست الناس؟ وذلك لأن معاوية معروف بالسياسة والحكمة، فقال: أجعل بيني وبين الناس شعرة، إن جذبوها تبعتهم، وإن جذبتها تبعوني لكن لا تنقطع»[2].

معنى كلامه أنه سهل الانقياد؛ لأن الشعرة إذا جعلتها بينك وبين صاحبك إذا جذبها أدنى جذب انقطعت، لكن من حسن سياسته رضي الله عنه أنه كان يسوس الناس بهذه السياسية؛ إذا رآهم مقبلين استقبلهم، وإذا رآهم مدبرين تبعهم حتى يتمكن منهم[3].

وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال الإمام القرطبي: هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل في قول: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار، وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة، الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة[4].

قال أيضًا: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم؛ صيانة له عليهم ورفعًا لقدره عن مجاوبتهم، وهذا وإن كان خطابًا لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه[5].

والإعراض عن الجاهلين ونسيانهم فيه خير كثير، فعن الإمام الشافعي قال: «اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل»[6].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، ٤/ ٩٤، رقم ٣١٤٩.
(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٣/ ٦٠٧.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٣٤٤.
(٥) انظر: المصدر السابق ٧/ ٣٤٦.
(٦) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٨/ ٢٧٥.

وعن محمد بن عبد الله الخزاعي قال سمعت عثمان بن زائدة يقول: (العافية عشرة أجزاء تسعة منها في التغافل قال: فحدثت به أحمد بن حنبل فقال العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل)[1].

والإعراض يكون بالترك والإهمال والنسيان، والتهوين من شأن ما يجهلون به من التصرفات والأقوال، والمرور بها مر الكرام، وعدم الدخول معهم في جدال لا ينتهي إلى شيء إلا الشد والجذب، وإضاعة الوقت والجهد وقد ينتهي السكوت عنهم، والإعراض عن جهالتهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها، بدلًا من الفحش في الرد واللجاج في العناد[2].

(١) انظر: شعب الإيمان، البيهقي ٦/ ٣٣٠ رقم ٨٣٨٤.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤١٩.

ما يترتب على النسيان

من الآثار المترتبة على النسيان في الدنيا والآخرة: المعيشة الشاقة والمعاناة والضيق والضنك، والعمى والصم والبكم، وفي الآخرة ينتظره العذاب الأليم، وكل هذه الآثار مذكورة في قول الله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٧].

أولًا: ما يترتب على النسيان في الدنيا:

١. قساوة القلوب وموتها.

يترتب على النسيان الطبع والختم على القلوب بالإضافة إلى جعل الأكنة، وقسوة القلب، وهو وصف من أخطر الأوصاف؛ لأن القلب القاسي هو الميت الذي ليس فيه حياة، وهو الجامد الذي ليس فيه خير البتة، وهذا الوصف في القرآن الكريم خاص بقلوب الكفار دون غيرهم، ولم يشترك المنافقون معهم فيه. قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ

﴿قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦۙ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة:١٣].

فبسبب أنهم نسوا ذكر الله تعالى فنقضوا عهده لهم وبدلوا كلام الله، وهذا من أعظم الخيانة، أصابهم الله تعالى بقسوة القلب وموته.

قال أبو حيان « من قسوة قلوبهم وسوء فعلهم بأنفسهم، حيث ذكروا بشيء فنسوه وتركوه، وهذا الحظ من الميثاق المأخوذ عليهم »[1].

والقلب الميت يكون صاحبه أحط من البهائم ويكون مآله إلى جهنم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف:١٧٩].

فيصبح هذا القلب مطموسًا منكوسًا مختومًا عليه لا ينتفع به صاحبه بسبب أنه أعرض عن الحق ورضي بالباطل فصار الباطل غذاءه، والضلال طريقه والجحيم مصيره.

٢. الوقوع في المعصية والحرمان من الخير.

ترتب على النسيان وعدم الصبر على العهد والمحافظة عليه والتمسك به الوقوع في المعصية.

قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ [طه:١٢١].

ثم إخراج آدم وحواء من الجنة واستخلافهما مع أبنائهما في الأرض وابتلائهم بالخير والشر.

قال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة:٣٦].

أي: قرار وأرزاق وآجال ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة[2].

٣. السجن.

يترتب على النسيان المكوث في السجن لبضع سنوات كما وقع مع نبي الله يوسف عليه السلام، وهو مكوث نبي الله يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين.

قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢].

٤. المشقة والتعب والحرمان من العلم.

يترتب على النسيان المشقة والتعب، فقد قطع موسى وفتاه مسافة ليست بالقصيرة، وكان بالإمكان أن يجدا الرجل الصالح قبل مجاوزة مجمع البحرين، ولكن نظرًا

(١) البحر المحيط ٣/ ٤٤٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٣٦.

لنسيان يوشع وعدم انتباهه سار موسى مسافة أخرى، أحس فيها بالتعب والنصب، ولما أراد أن يأخذ راحة ويأكل، تفاجأ بعملية النسيان التي ترتب عليها كل هذا النصب، وزاد الأمر مشقة وتعبًا أن عليهما أن يرجعا هذه المسافة ويقطعاها مرة أخرى ليجدا الرجل الصالح؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤].

ثم قال تعالى حكاية عن الخضر عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧٢-٧٣].

فالنسيان الأول كان عقاب من الله تعالى على النسيان الذي وقع فيه موسى عليه السلام؛ لأن قصة الخروج في طلب علم الرجل الصالح كلها منطوية على ذلك، ومما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه) والنسيان الثاني الذي وقع من موسى عليه السلام عندما صحب الخضر أنه حرم علمًا كثيرًا وحكمة؛ لأنه لو صبر مع الخضر لحصل له علم كثير، يدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث: (وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما)[1].

والناسي يعفى من العقوبة أو المسؤولية الجنائية، ولكن هذا لا يعفيه من الحقوق، الأموال والدماء المعصومة، ويرى بعض الفقهاء أن النسيان الغير مقصود يعذر صاحبة في الآخرة، وأما أحكام الدنيا فالأفعال المتعلقة بحق الله عز وجل يعفى منها، والأفعال المتعلقة بحقوق الأفراد فلا يعفى منها[2].

فالنسيان إن كان عذرًا في العبادات لكن في الجنايات لا يعذر، إذ أن المجرم لكي يعفى من العقاب عليه أن يثبت للقضاء أنه ارتكب الجريمة ناسيًا بالدليل والبرهان والحجة، وكيف لشخص ناسٍ أن يثبت للقضاء أنه ارتكب الجريمة ناسيًا، فمن المكن أن يتصور أن الإنسان نسي في العبادات فلا إثم عليه، ويقضيها متى تذكرها ولا تحتاج إلى إثبات، أما الجريمة فلا يمكن أن تثبت أمام القضاء ويدعي أنها ارتكبت عن طريق النسيان[3].

٥. ضياع النفس.

يترتب على النسيان نسيان هؤلاء لأنفسهم، وهي عقوبة دنيوية يعاقب بها الله الذين ينسون أوامره وذكره وينسون بأن لهذا الكون رقيبًا لا يغفل ولا ينام، ويحذر الله عباده المؤمنين من أن يقعوا فيما وقع فيه المنافقون فيقول لهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٧٥.

(٢) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي، عودة ١/ ٤٣٩.

(٣) انظر: المصدر السابق.

﴿كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر:١٩].

«أي: تركوا أمره، أو ما قدروه حق قدره، أولم يخافوه أو جميع ذلك، فأنساهم أنفسهم أي: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه، ففي الكلام مضاف محذوف أي: أنساهم حظوظ أنفسهم، وقيل: نسوا الله في الرخاء فأنساهم أنفسهم في الشدائد[(١)].

«فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة، فلا رابطة تشد إلى أفق أعلى، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى، وفي هذا نسيان لإنسانيته، وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى، وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادًا للحياة الطويلة الباقية، ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد»[(٢)].

فمن خلال ما تقدم يتبين أن النسيان عقوبة دنيوية يعاقب بها الله عباده الذين ينسوه، حيث ينسيهم ربهم حظوظهم من الإيمان والأعمال الصالحة، فتمضي بهم الحياة دون أن يأخذوا منها نصيبهم من زاد ينفعهم في آخرتهم، ويمنعهم النسيان من أن يفكروا في غدهم، كما ينسوا أنفسهم في الشدائد، كما نسوا ربهم في الرخاء، فيكونوا بذلك مخذولين لا معين لهم ولا نصير.

ثانيًا: ما يترتب على النسيان في الآخرة:

ذكر القرآن الكريم في بعض الآيات أن الكفار والمنافقين نسوا الله تعالى، ونسوا ذكر الله تعالى، وذكر الله تعالى عام شامل لكل أنواع العبادات، وذكر الله كتبه وعهوده التي أرسل بها رسله إلى الناس، وقد نجم عن ذلك النسيان والترك لذكر الله تعالى آثار خطيرة وعواقب وخيمة، تتمثل في ترك الله لهم من رحمته وحلول اللعنة بهم، وتركه لهم في العذاب المقيم، ومن ثم الخسران المبين.

بل ترتب على ذلك أن أنساهم الله أنفسهم من أن يعملوا لخلاصها من العذاب المقيم، وفي الدنيا أغرى بينهم العداوة والبغضاء وألبسهم شيعًا وأذاق بعضهم بأس بعض، وقد صورت الآيات القرآنية هذه الآثار والعواقب في مشاهد حية، وصور موحية، بأساليب متنوعة فيها تحذير ووعيد شديد، ومحتوية على ترغيب وترهيب.

قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٠٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٣١.

﴿وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٧-٦٨].

١. نسيان الله لهم في الآخرة.

نسيان الله تعالى لهم، والله تعالى لا ينسى، ولكنه سبحانه تركهم في العذاب عن عمد، والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة[(١)].

نسيان الله تعالى لهم عقوبة أخروية وردت في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف:٥١].

وقد ورد في تفسير هذا النسيان قولان:

القول الأول: أن معنى النسيان هو الترك، والمعنى نتركهم في عذابهم بما تركوا العمل بلقاء يومهم هذا، وهذا قول الحسن ومجاهد والسدي والأكثرين.

والقول الثاني: أن معنى ننساهم أي: يعاملهم معاملة من نسي، ونتركهم في النار في الآخرة ولا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم[(٢)].

ويقول الإمام النسفي: كما نسوا لقاء يومهم هذا، فاليوم ننساهم ونتركهم في العذاب، أي: كنسيانهم وجحودهم[(٣)].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٥-١٢٦]. أي: تترك في العذاب في جهنم.

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الجاثية:٣٤]. أي: نترككم في النار.

وقوله: ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مسكنكم ومستقركم، وتبقى جهنم دار خلد لهم فيها مسكنهم ومستقرهم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: تركتم العمل له[(٤)].

٢. العذاب الأليم.

حلول العذاب الأليم، والطرد من رحمة الله تعالى، وذلك في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٨].

أي: «على هذا الصنيع الذي ذكره عنهم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: كفايتهم في العذاب ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾»[(٥)].

فمن العذابات الأخروية التي يعاقب بها

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٨٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٩٩.

(٣) انظر: مدارك التنزيل ١/ ٤٥١.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٧٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٢.

الله أهل النسيان شدة العذاب الأخروي، وذلك بتركهم وبقائهم في النار والعذاب الشديد، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

قال الزمخشري: «ويوم الحساب متعلق بنسوا، أي: بنسيانهم يوم الحساب، أو بقوله ﴿لَهُمْ﴾ أي: لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله»[(١)].

ويقول سيد قطب أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله، وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب»[(٢)].

٣. أظلم الناس في الآخرة.

الإعراض عن ذكر الله تعالى مثل نسيانه، بل هو أسوأ منه؛ لأنه ينطوي -مع الترك المتعمد- على المحادة والمجادلة بغير الحق والتمادي في الظلم والإصرار عليه، وفيه كذلك الذهول والغفلة عن هذه الأفعال المنكرة وعدم المبالاة بالعواقب؛ ولذلك جاء وصف ظلمه بعبارة (ومن أظلم) وهو ما جعل الآثار المترتبة عليه أكثر وأخطر.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٧].

النسيان والترك مرحلة أولية، أما الإعراض ففيه معنى الترك على سبيل المحادة، وهو لم يكتف به بل تجاوزه إلى أنه: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ثم تأتي الآثار السلبية التي ترتبت على ذلك كله، وهي آثار بعضها في الدنيا وبعضها في الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ لأنه تعالى ذكرهم ورغبهم ورهبهم فلم ينفع ذلك، وتظهر المحادة والإصرار على الذنب في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا، ولا أكبر جرمًا، من عبد ذكر بآيات الله وبين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخوف ورهب ورغب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يداه من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلمًا من المعرض الذي لم تأته آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالما، فإنه أخف ظلمًا من هذا؛ لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه

(١) الكشاف ٤/ ٨٩.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠١٨.

لذنوبه، ورضاه لنفسه، حالة الشر مع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات، وإن سمعتها فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلى القلب»[1].

موضوعات ذات صلة:

التفكر، الذكر، الغفلة، المؤاخذة

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٨١.

النصارى

عناصر الموضوع

مفهوم النصارى	١١٦
النصارى في الاستعمال القرآني	١١٧
الألفاظ ذات الصلة	١١٨
اقتران النصارى باليهود في القرآن	١٢١
عقيدة النصارى	١٢٢
دعاوى النصارى وأقوالهم الباطلة	١٣١
النصارى قبل الإسلام	١٤٢
النصارى بعد الإسلام	١٤٦
سماحة الإسلام مع النصارى	١٦٤

مفهوم النصارى

أولًا: المعنى اللغوي:

مفردها نصراني، يقال: نصرته على عدوه ونصرته منه نصرًا:أعنته وقويته، والفاعل ناصر ونصير وجمعه أنصار، والنصرة بالضم اسم منه، وتناصر القوم مناصرة:نصر بعضهم بعضًا، وانتصرت من زيد انتقمت منه، واستنصرته طلبت نصرته، ونصارى:هم من يتبع دين المسيح، فيقال:رجلٌ نصراني، ثم أطلق النصراني على كل من تعبد بهذا الدين، وربما قيل:نصران ونصرانة، ونصرى وناصرة ونصورية:قرية بالشام، والنصارى منسوبون إليها، والتنصر:الدخول في النصرانية، ونصره:جعله نصرانيًا[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي، فالمقصود بالنصارى اصطلاحًا:هم أمة المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته عليه الصلاة والسلام[2].

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «والنصارى قيل: سموا بذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف:١٤]. وقيل: سموا بذلك انتسابًا إلى قرية يقال لها:نصرانة، فيقال:نصرانيٌّ، وجمعه نصارى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ﴾ [البقرة:١١٣]»[3].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢١١، المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٠٧، معجم اللغة العربية المعاصرة، الدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر، ٣/ ٢٢٢١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٢٥.

(٢) انظر: الملل والنحل، الشهرستاني، ١/ ٢٦٦.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٠٩.

النصارى في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نصر) في القرآن الكريم(١٥٨) مرة[١]، يخص موضوع البحث منها (١٥) مرة.

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
مفرد	١	﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران:٦٧]
جمع	١٤	﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[التوبة:٣٠]

النصارى هم أتباع عيسى عليه السلام، قيل: سموا بذلك لنصرتهم له وتناصرهم فيما بينهم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾[الصف:١٤].

وهذا يخص المؤمنين منهم في أول الأمر، ثم أطلق عليهم كلهم على وجه التغليب[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٠٢-٧٠٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب النون ص١٣٢٥-١٣٢٨.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٦٩-٧٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ١٨٣-١٨٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ أهل الكتاب:

أهل الكتاب لغة:

أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه، وأهل المذهب:من يدين به، وأهل الإسلام:من يدين به، وأهل الأمر:ولاته، وأهل البيت:سكانه، وأهل الرجل:زوجه وأخص الناس به، وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم: أزواجه وبناته وصهره[١].

والكتاب: كتبه كتبًا وكتابًا أي: خطه، وهو ما يكتب فيه، والدواة والتوراة والصحيفة والفرض والحكم والقدر[٢].

ويراد به أيضًا الكتب السماوية، وحيثما ذكر في القرآن الكريم التركيب الإضافي ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإنما أريد بالكتاب التوراة والإنجيل، وكذلك إذا ذكر التركيب الإسنادي ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أو (آتيناه الكتاب)[٣].

وأهل الكتاب:«من يجتمعون حوله، والمراد اليهود والنصارى»[٤].

أهل الكتاب اصطلاحًا:

هم اليهود والنصارى، ومن دان دينهم بفرقهم المختلفة، ومن عدا هؤلاء من الكفار فليس من أهل الكتاب؛ بدليل قول الله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾[الأنعام:١٥٦][٥].

قال الشهرستاني:«الخارجون عن الملة الحنيفية والشريعة الإسلامية، ممن يقول بشريعة وأحكام وحدود وأعلام، وهم قد انقسموا إلى من له كتاب محقق مثل التوراة والإنجيل، وعن هذا يخاطبهم التنزيل بأهل الكتاب، وإلى من له شبهة كتاب، مثل:المجوس»[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ١١/ ٢٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٦٣، مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ١٥٠.
(٢) القاموس المحيط، ص١٢٨.
(٣) انظر: المفردات، ١/ ٧٠١، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، ص٩٤٩-٩٥٠.
(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٩٧.
(٥) انظر: المغني، ابن قدامة، ٩/ ٣٢٩.
(٦) الملل والنحل، الشهرستاني، ص٢٤٧.

الصلة بين أهل الكتاب والنصارى:

ومن معاني اللغة والاصطلاح يمكن تعريف أهل الكتاب:بأنهم أهل الديانات التي لها كتاب سماوي من يهود وهم أهل التوراة، ونصارى وهم أهل الإنجيل، فإذًا النصارى بعض أهل الكتاب.

٢ الحواريون:

الحواريون لغة:

جمع حواري:أي صاحب وناصر ومؤيد، وحواري الرجل:خاصته، ومنه الزبير حواري النبي صلى الله عليه وسلم وقال الزجاج الحواريون:«خلصان الأنبياء-عليهم السلام-»[(١)]، أي:المخلصون، وشاع استعماله في المخلصين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام[(٢)].

وقيل:سمي الحواريون:«لبياض ثيابهم، ويطلق الحواري على الخالص، والخليل، والمخلص، والناصح، والخصيص والمجاهد، والمفضل، ومن يصحب الكبير، ومن يصلح لخلافة كبيرة»[(٣)].

الحواريون اصطلاحًا:

«هم صفوة الأنبياء الذي خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم»[(٤)].

قال الراغب الأصفهاني«الحواريون أنصار عيسى عليه السلام»[(٥)].

الصلة بين الحواريون والنصارى:

الحواريون هم أصحاب عيسى ابن مريم-عليهما السلام-وأنصاره، كما جاءت تسميتهم في قوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[الصف:١٤].

٣ بنو إسرائيل:

إسرائيل اصطلاحًا:

لقب أطلق على يعقوب بن إسحاق عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [آل عمران:٩٣].

(١) انظر: لسان العرب، ٤/ ٤٥٤، تاج العروس، الزبيدي، ١١/ ١٠٣.
(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٣٢٨.
(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١/ ١٠٩.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ٨/ ٢٣٣.
(٥) انظر: المفردات، ص٨٠٩.

وبنو إسرائيل: ذرية يعقوب عليه السلام وكانوا اثني عشر سبطًا.

قال تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾[البقرة:٢١١][1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في كلمة إسرائيل: معناه: (عبدالله)، لأن إسرا بمعنى: عبد، وإيل: اسم الله، أي: أنه مركب من كلمتين: إسرا، وإيل، كما يقولون: بيت إيل[2].

الصلة بين بني إسرائيل والنصارى:

أن النصارى هم من بني إسرائيل ذرية يعقوب عليه السلام.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٥١، معجم اللغة العربية المعاصرة، ١/ ٩١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٤٥٠.

اقتران النصارى باليهود في القرآن

تحدث القرآن الكريم عن اليهود والنصارى في آيات عديدة، ومعظمها يقرن فيها اليهود مع النصارى على سبيل الخبر أو الذم أو الثناء أو غير ذلك، ويبدو أن هذا الاقتران له حكمة أو أسباب كثيرة، منها:

١. أنهما أهل كتاب كما سماهم الله تعالى، وكتابهم الذي يجمعهم هو الكتاب المقدس التوراة الذي أنزل على موسى عليه السلام، وجميع بني إسرائيل مكلفون بأحكامه وشريعته، ثم الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام مكملًا للتوراة.

٢. أنهم من بني إسرائيل ذرية يعقوب عليه السلام وبنيه، ومن المعلوم أن موسى عليه السلام ومريم عليها السلام هما من أبناء إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام، وكانت رسالة موسى وعيسى عليهما السلام إلى بني إسرائيل خاصة. قال تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٢]. وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٤٩].

٣. اشتراكهم في بعض المعتقدات المنحرفة كنسبة الولد لله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]. واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

٤. اشتراك طائفة منهم في صفاتٍ ذكرها القرآن الكريم، منها:

- كتمانهم الحق مع العلم به، ومنه كتمان أوصاف النبي محمد صلى الله عليه وسلم واسمه في التوراة والإنجيل، مع علمهم التام بصحة ما جاء به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].
- كفرهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعدم اتباعهم الحق وقبوله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ

﴿ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والمتأمل في القرآن الكريم يجد كثيرًا من الصفات المشتركة بين اليهود والنصارى.

عقيدة النصارى

أولًا: إلوهية عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام:

لا شك أن وحدانية الله تعالى هي أصل ديانة أهل الكتاب، وما من نبي أو رسول إلا كانت دعوته الأولى لقومه هي وحدانية الله تعالى وإفراده بالعبادة، إلا أن النصارى زعموا مع الله تعالى الشريك، حيث جعلوا من المسيح وأمه عليهما السلام آلهة تعبد من دون الله تعالى، ورغم أن هذه العقيدة لا أصل لها إلا في الديانات الوثنية السابقة لدين النصارى إلا أنهم ساروا على ما سار عليه أصحاب تلك الأديان الوثنية من قبلهم حين حرفوا وبدلوا وضيعوا أصول دينهم الصحيح واعتقدوا بألوهية المسيح وأمه عليهما السلام الذي جاء يدعوهم إلى وحدانية الله تعالى شأنه شأن الأنبياء والرسل عليهم السلام الذين من قبله وبعده.

وكان منشأ هذه العقيدة في أول مجمع للنصارى سمي مجمع نيقية سنة ٣٢٥،[(١)] الذي أقر بألوهية المسيح عليه السلام وفرضت هذه العقيدة على الناس بقوة السيف والسلطان فأصبحت مسألة ألوهية المسيح عليه السلام بعد ذلك عقيدة

(١) انظر: كتاب محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص١٢٢.

مترسخة عند النصارى إلى وقتنا الحاضر، واحتجوا بشبهات ونصوص من كتبهم المحرفة مثل صفات المسيح عليه السلام ومعجزاته وغير ذلك.

إلا أن القرآن الكريم رد على كل دعوة باطلة ادعتها النصارى في ألوهية المسيح وأمه عليهما السلام في أكثر من آية.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة:١٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخبرًا وحاكمًا بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم، وهو عبدٌ من عباد الله، وخلق من خلقه أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، ثم قال مخبرًا عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: لو أراد ذلك فمن ذا الذي كان يمنعه؟ أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟، ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: جميع الموجودات ملكه وخلقه، وهو القادر على ما يشاء، لا يسأل عما يفعل، لقدرته وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة»[1].

فالآية الكريمة تدل على بشرية المسيح وأمه عليهما السلام وتبين عجز المسيح ابن مريم وعدم قدرته دفع الهلاك عن نفسه ولا عن أمه عليهما السلام، والعجز ضد القدرة وهو ليس من صفات الإله.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة:٧٢].

فهذا نص صريح يبين أن عيسى عليه السلام ما دعا إلا إلى الوحدانية ومبينًا لهم عاقبة الشرك بالله تعالى.

يقول ابن كثير رحمة الله: «يقول تعالى حاكما بتكفير فرق النصارى، من الملكية[2]

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٦٨.
(٢) هم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها، ومعظم الروم ملكانية حيث قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت بناسوته، ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح، كما يمازج الخمر أو الماء اللبن. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني، ٢/ ٢٧.

واليعقوبية [1] والنسطورية [2]، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوا كبيرا، هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم:٣٠].

ولم يقل: أنا الله، ولا ابن الله إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم:٣٦]»[3].

قال الزمخشري رحمه الله: لم يفرق عيسى عليه الصلاة والسلام بينه وبينهم في أنه عبد مربوب كمثلهم، وهو احتجاج على النصارى إنه من يشرك بالله في عبادته، أو فيما هو مختص به من صفاته أو أفعاله فقد حرم الله عليه الجنة التي هي دار الموحدين، أي حرمه دخولها ومنعه منه، كما يمنع المحرم من المحرم عليه، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ من كلام الله، على أنهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما يقولون على عيسى عليه السلام، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم هذا بل رده وأنكره، وإن كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره[4].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة:١١٦].

قال الإمام الرازي رحمه الله: «أن الله تعالى لما سأل عيسى: أنك هل قلت كذا؟ لم يقل عيسى بأني قلت أو ما قلت، بل قال: ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، وهذا ليس بحق ينتج أنه ما يكون لي أن أقول هذا الكلام، ولما بين أنه ليس له أن يقول هذا الكلام شرع في بيان أنه هل وقع هذا القول منه أم لا، فلم يقل بأني ما قلت هذا الكلام لأن هذا يجري مجرى دعوى الطهارة والنزاهة، والمقام مقام الخضوع والتواضع، ولم يقل بأني قلته بل، فوض ذلك إلى علمه

(١) هم أصحاب يعقوب: قالوا بالأقانيم الثلاثة أيضًا، إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحما ودما، فصار الإله هو المسيح. وهو الظاهر بجسده، بل هو هو. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني، ٢/ ٣٠.

(٢) هم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه حيث قال: إن الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو، واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية، ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني، ٢/ ٢٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٥٧.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٦٦٣.

المحيط بالكل، فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ وهذا مبالغة في الأدب وفي إظهار الذل والمسكنة في حضرة الجلال وتفويض الأمور بالكلية إلى الحق سبحانه»[1].

ويقول ابن كثير رحمه الله: «وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩]»[2].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، ليرى الكفار تبرئة عيسى مما نسبوه إليه، ويعلمون أنهم كانوا على باطل»[3].

قال القشيري رحمه الله: «المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشريف»[4].

ومن خلال الآيات السابقة وأقوال بعض أهل التفسير فيها يتبين أن القرآن الكريم أثبت كفر من اعتقد بألوهية المسيح وأمه عليهما السلام، وبين براءتهما مما نسب إليهما زورًا وكذبًا وافتراءً، وبين أن دعوة عيسى عليه السلام لقومه كانت دعوة خالصة إلى عبادة الله تعالى ونبذ الشركاء وأنه حذر قومه من الوقوع بالشرك مع تأكيد بشريته وبشرية أمه عليهما السلام في العجز عن دفع الهلاك عن أنفسهما.

ويذكر ابن هشام في سيرته عن وفد نجران الذين جاؤوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى عليه السلام ما خلاصته: (فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو حارثة بن علقمة أسقفهم، وعبد المسيح أميرهم، والسيد الأيهم عالمهم، وكانوا على دين ملك الروم مع اختلاف أمرهم، يقولون عن عيسى: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، فلما كلمه الحبران، قال لهما رسول الله: أسلما، قالا: قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكم من الإسلام ادعاؤكما لله ولدًا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير)[5].

وهذا يدل على أن هؤلاء النصارى من نجران كانوا يعتقدون بألوهية عيسى عليه السلام، وأن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام ونبذ تلك الضلالات التي يعتقدوها في عيسى عليه السلام، ومع ذلك فقد كذبوا وكفروا بما جاءهم من الحق.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤٦٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٣٢.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ٢٥١.
(٤) تفسير القشيري، ١/ ٤٥٦.
(٥) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٥٧٥.

ثانيًا: بنوة المسيح عليه السلام:

أشارت بعض الآيات الكريمة إلى دعوى القائلين من النصارى ببنوة عيسى عليه السلام.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

قال الإمام الرازي رحمه الله: «وأما حكاية الله عن النصارى أنهم يقولون: المسيح ابن الله، فهي ظاهرة لكن فيها إشكال قوي، وهي أنا نقطع أن المسيح صلوات الله عليه وأصحابه كانوا مبرئين من دعوة الناس إلى الأبوة والبنوة، فإن هذا أفحش أنواع الكفر، فكيف يليق بأكابر الأنبياء عليهم السلام؟!

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يعقل إطباق جملة محبي عيسى من النصارى على هذا الكفر، ومن الذي وضع هذا المذهب الفاسد، وكيف قدر على نسبته إلى المسيح عليه السلام؟ فقال المفسرون في الجواب على هذا السؤال: إن أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام كانوا على الحق بعد رفع عيسى حتى وقعت حرب بينهم وبين اليهود، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس قتل جمعا من أصحاب عيسى.

ثم قال لليهود: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، وإني أحتال فأضلهم، فعوقب فرسه وأظهر الندامة مما كان يصنع ووضع على رأسه التراب وقال: نوديت من السماء ليس لك توبة إلا أن تتنصر، وقد تبت فأدخله النصارى الكنيسة ومكث سنة لا يخرج وتعلم الإنجيل فصدقوه وأحبوه.

ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم رجلا اسمه نسطور، وعلمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة، وتوجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت، وقال: ما كان عيسى إنسانا ولا جسما ولكنه الله، وعلم رجلا آخر يقال له يعقوب ذلك، ثم دعا رجلا يقال له ملكا فقال له: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى.

ثم دعا لهؤلاء الثلاثة وقال لكل واحد منهم أنت خليفتي فادع الناس إلى إنجيلك، ولقد رأيت عيسى في المنام ورضي عني، وإني غدا أذبح نفسا لمرضاة عيسى، ثم دخل المذبح فذبح نفسه، ثم دعا كل واحد من هؤلاء الثلاثة الناس إلى قوله ومذهبه، فهذا هو السبب في وقوع هذا الكفر في طوائف النصارى[1].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٦/ ٢٩.

واختلف في سبب قولهم: (ابن الله) لذلك على قولين: أحدهما: أنه لما خلق من غير ذكر من البشر قالوا: إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك، الثاني: أنهم قالوا ذلك لأجل من أحياه من الموتى وأبرأه من المرضى[1].

قال السمرقندي: «لأن المسيح كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله تعالى، فقالوا: لم يكن يفعل هذا إلا وهو ابن الله»[2].

والمتأمل في هذه الدعوى الباطلة يرى بوضوح إن ادعاء بنوة عيسى عليه السلام بسبب طبيعة خلقه المخالفة للعادة من غير أب ليس بأعجب من خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وأما معجزات عيسى عليه السلام فهي من جنس المعجزات التي أجراها الله على أيدي الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من قبله، ولم تدل عند تلك الأمم على ألوهية أولئك الأنبياء والرسل الذين ظهرت على أيديهم المعجزات، فكذلك عيسى ابن مريم عليه السلام.

وعلى أية حال فإن الآية الكريمة أشارت إلى القائلين من النصارى بأن الله تعالى اتخذ عيسى عليه السلام ابنًا، إلا أن آياتٍ كثيرةً نقضت دعواهم وأبطلتها وردتها وبينت استحالة اتخاذ الله تعالى الولد سواء أكان عيسى عليه السلام أم غيره.

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام:١٠١].

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون:٩١].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم:٣٥].

ودلالة الآيات واضحة في استحالة أن يكون لله تعالى ولدٌ، فالكون كله خاضع إليه وعابد له جل وعلا.

قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٣].

وهو المنفرد بخلق السموات والأرض وما بينهما، إذا أراد أمرًا يقول له كن فيكون، فليس له حاجة إلى الولد.

لذلك ينذر الله تعالى الذين يدعون لله تعالى الولد بقوله: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ [الكهف:٤].

ووردت أيضًا عدة نصوص من السنة النبوية المطهرة تنفي دعوى النصارى في اتخاذ الله تعالى الولد، منها ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: (كذبني ابن

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٣٥٣، زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٢٥٢.
(٢) تفسير السمرقندي، ٢/ ٥٣.

آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا»[1]، وعلى هذا يتبين بطلان ادعائهم الولد لله تعالى.

ثالثًا: التثليث عند النصارى:

من المعلوم أن عقيدة التثليث هي أصل من أصول عقائد النصارى المنحرفة التي لا أصل لها إلا في الديانات الوثنية القديمة، ومع ذلك فالنصارى بفرقهم مجمعون على التثليث ويقولون: «إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم، فيجعلون كل أقنوم إلها ويعنون بالأقانيم الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح»[2].

ولا تختلف عقيدة النصارى في التثليث عن عقيدة ألوهية المسيح وأمه عليهما السلام فكلاهما عقيدتان باطلتان فالأدلة التي أبطلت ألوهية المسيح وأمه عليهما السلام في القرآن الكريم هي نفسها التي تبطل دعواهم في التثليث، لأنهما جوهران من الأقانيم الثلاثة كما يزعمون، ومع ذلك فقد وردت آيتان كريمتان تنصان على بطلان عقيدة التثليث عند النصارى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء:١٧١].

والخطاب في الآية الكريمة وإن كان يشمل أهل الكتاب جميعا من يهود ونصارى، إلا أن النصارى هم المقصودون هنا قصدا أوليا، بدليل سياق الآية الكريمة، فقد ذكرت حججا تبطل ما زعمه النصارى في شأن عيسى عليه السلام[3].

أي: ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى عليه السلام حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله تعالى إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، وهذا خطاب موجه إلى النصارى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه)، ٦/ ١٩، رقم ٤٤٨٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ٢٣.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ٤٠٠.

خاصة، وخوطبوا بعنوان أهل الكتاب تعريضا بأنهم خالفوا كتابهم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾: «يعني: ولا تقولوا الآلهة ثلاثة وذلك أن النصارى يقولون أب وابن وروح القدس، وقيل: إنهم يقولون إن الله بالجوهر ثلاثة أقانيم وذلك أنهم أثبتوا ذاتا موصوفة بصفات ثلاثة بدليل أنهم يجوزون على تلك الذات الحلول في عيسى وفي مريم فأثبتوا ذواتا متعددة ثلاثة، وهذا هو محض الكفر، فلهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾، يعني: يكون الانتهاء عن هذا القول خير لكم من القول بالتثليث»[2].

ولذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الوقوع في الغلو والإطراء كما حدث مع طائفة من النصارى، فقد صح عن ابن عباس أنه سمع عمر رضي الله عنه، يقول على المنبر: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله)[3].

أي: لا تجعلوني إلها من دون الله تعالى كما جعلت النصارى ابن مريم إلها من دون الله، وليس المقصود من الحديث تعظيمه وتوقيره، فهذا واجب على الأمة.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣].

ومعنى قولهم: «إن الله ثالث ثلاثة أن ما يعرفه الناس أنه الله هو مجموع ثلاثة أشياء، وأن المستحق للاسم هو أحد تلك الثلاثة الأشياء، وهذه الثلاثة قد عبروا عنها بالأقانيم وهي: أقنوم الوجود، وهو الذات المسمى الله، وسموه أيضا الأب وأقنوم العلم، وسموه أيضا الابن، وهو الذي اتحد بعيسى وصار بذلك عيسى إلها وأقنوم الحياة وسموه الروح القدس»[4].

ويبين الإمام الرازي معنى التثليث في الآية الكريمة بقوله: «فهذا التثليث إما أن يكون لاعتقادهم وجود صفات ثلاثة، أو لاعتقادهم وجود ذوات ثلاثة، والأول باطل، لأن المفهوم من كونه تعالى عالما غير المفهوم من كونه قادرا ومن كونه حيا، وإذا كانت هذه المفهومات الثلاثة لا بد من الاعتراف بها، كان القول بإثبات صفات ثلاثة من ضرورات دين الإسلام، فكيف يمكن تكفير النصارى بسبب ذلك، ولما بطل ذلك علمنا أنه تعالى إنما كفرهم؛ لأنهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٧٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٥٠.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٤٥٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها)، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٥.
(٤) التحرير والتنوير، ٦/ ٢٨٢.

أثبتوا ذواتا ثلاثة قديمة مستقلة، ولذلك فإنهم جوزوا في أقنوم الكلمة أن يحل في عيسى، وجوزوا في أقنوم الحياة أن يحل في مريم ولولا أن هذه الأشياء المسماة عندهم بالأقانيم ذوات قائمة بأنفسها، لما جوزوا عليها الانتقال من ذات إلى ذات، فثبت أنهم قائلون بإثبات ذوات قائمة بالنفس قديمة أزلية وهذا شرك، وقول بإثبات الآلهة، فكانوا مشركين»[1].

قال الشيخ رحمة الله الهندي في بيان عقيدة النصارى في التثليث: «عقيدة التثليث لم يأت بها نبي من الأنبياء، ولا نزلت في كتاب من الكتب السماوية، وعدم ورودها في التوراة غير محتاج إلى بيان؛ لأن من طالع التوراة الحالية لا يجد فيها ذكرًا صريحًا، ولا إشارةً أو تلميحًا لهذا الأمر.

وعلماء اليهود من عهد موسى عليه السلام إلى هذا الزمان لا يعترفون بعقيدة التثليث، ولا يرضون بنسبتها إلى كتبهم، فلو كانت عقيدة التثليث حقا لوجب على موسى وسائر أنبياء بني إسرائيل وآخرهم عيسى عليه السلام أن يبينوها حق التبيين، فقد كانوا مأمورين بالعمل بجميع أحكام التوراة في الشريعة والعقيدة.

وأهل التثليث يعتقدون أن عقيدتهم هذه هي مدار النجاة ولا يمكن نجاة أحد بدونها نبيا كان أو غير نبي، فكيف فارق أنبياء بني إسرائيل كلهم الدنيا دون أن يبينوا هذه العقيدة بيانا واضحا وصريحا؟!

وهم في نفس الوقت بينوا أمورا وأحكاما أقل أهمية من هذه العقيدة، وكرروا البيان لبعض الأحكام مرة بعد أخرى، وأكدوا على المحافظة عليها والعمل بها تأكيدا بليغا، وأوجبوا القتل على تارك بعضها.

فالعجب كل العجب أن عيسى عليه السلام الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل والذي هو أحد أركان الثالوث عند النصارى عرج إلى السماء دون أن يبين لأتباعه هذه العقيدة بكلام واضح غير محتاج إلى التأويل، كأن يقول مثلا: إن الله ثلاثة أقانيم: الآب والابن والروح القدس، وأن أقنوم الابن - الإله الثاني - متعلق بي بالعلاقة الفلانية، أو بعلاقة فهمها خارج عن إدراك عقولكم، أو أن يقول أي كلام آخر صريح في بيان هذه العقيدة»[2].

ويتضح مما تقدم من الآيات الكريمة وأقوال بعض المفسرين أن القرآن الكريم رد دعوى النصارى في التثليث حين جعلوا الله تعالى ثلاثة أقانيم كما يدعون، وأبطلها حين دعاهم إلى الحق والإيمان والتوحيد، ونهاهم عن الغلو في دينهم، وأن لا يقولوا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦/ ٤٠٩.

(٢) مختصر إظهار الحق، رحمت الله الهندي، ١/ ١٨٣.

على الله إلا الحق ولا يقولوا أنه واحد في ثلاثة أو ثلاثة في واحد أو الأقانيم الثلاثة، والإنتهاء عن هذه الدعوى التي تتنافى مع توحيد الله تعالى والمؤدية إلى الكفر الصريح، والتحذير من عدم الرجوع إليه لما ترتب عليه من التهديد والوعيد في الآيات الكريمة ففي هذا الإنتهاء الخير لهم، ثم بعد ذلك كله نزه الله تعالى نفسه عن قول النصارى بالتثليث فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ [النساء:١٧١].

دعاوى النصارى وأقوالهم الباطلة

تحدث القرآن الكريم عن عقائد النصارى وبين انحرافهم عن دين عيسى عليه السلام كما مر ذكره، إلا أن النصارى لم تكتف بتلك العقائد الباطلة بل زادوا على ذلك دعاوى وأقوالًا باطلة رد عليها القرآن الكريم وهذا ما سوف نبينه من خلال النقاط الآتية:

أولًا: دعوى نفي دخول غيرهم الجنة:

ادعت طائفة من النصارى أن الجنة لا يدخلها غيرهم، وهذه الدعوى الباطلة لا دليل لهم عليها سوى الإدعاء بأنهم هم أصحاب الجنة، وكذلك قال بعض اليهود.

وتحدث القرآن الكريم عن هذه الدعوى الكاذبة حين قال تعالى حاكيا عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة:١١١].

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي:قالت اليهود والنصارى[1].

ومعنى الآية: وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا يعني: يهوديا، أو نصارى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٠٧، تفسير السمرقندي، ١/ ٨٤، مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ١٢٠.

وذلك أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ولا دين إلا دين اليهودية، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ولا دين إلا دين النصرانية، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أمانٍ غير مقبولة، إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدعٍ عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان، علم كذبهم بتلك الدعوى[1].

قيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة: إنها نزلت في وفد نجران، وكانوا نصارى اجتمعوا مع اليهود في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذب بعضهم بعضا في دعواه[2].

ورد الله تعالى على أصحاب هذه الدعوى بأن هذا من أمانيهم حيث قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾: «أي: شهواتهم الباطلة التي تمنوها على الله بغير حق، قل: يعني: يا محمد ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم على دعواكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهوديًّا أو نصرانيًّا دون غيرهم، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني فيما تدعون.

ثم قال تعالى ردا عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فإنه الذي يدخل الجنة وينعم فيها، ومعنى أسلم وجهه لله أخلص في دينه لله، وقيل: أخلص عبادته لله، وقيل خضع وتواضع لله تعالى، لأن أصل الإسلام الاستسلام وهو الخضوع»[3].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «فإن قال قائل: وكيف جمع اليهود والنصارى في هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين؛ واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها في ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك؟

قيل: إن معنى ذلك بخلاف الذي ذهبت إليه، وإنما عنى به: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى، ولكن معنى الكلام لما كان مفهوما عند المخاطبين به معناه، جمع الفريقان في الخبر عنهما، فقيل: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، أي: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا»[4].

ورد القرآن على دعواهم الباطلة أيضا

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٧١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٧١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٠٧.

في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة:٩٤].

قال الإمام الرازي: إعلم أن هذا نوع آخر من قبائحهم وهو ادعاؤهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ويدل عليه وجوه منها: ما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة:١١١].

واعتقادهم في أنفسهم أنهم هم المحقون؛ لأن النسخ غير جائز في شرعهم وأن سائر الفرق مبطلون، واعتقادهم أن انتسابهم إلى أكابر الأنبياء عليهم السلام أعني يعقوب وإسحاق وإبراهيم يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم إلى ثوابه.

ثم إنهم لهذه الأشياء عظموا شأن أنفسهم فكانوا يفتخرون على العرب وربما جعلوه كالحجة في أن النبي المنتظر المبشر به في التوراة منهم لا من العرب وكانوا يصرفون الناس بسبب هذه الشبهة عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إن الله احتج على فساد قولهم بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ [البقرة:٩٤][1].

فإن قيل: «إنهم إذا نفوا دخول غيرهم فيها ادعوا لأنفسهم الدخول، فإنما طولبوا بالبرهان على ما ادعوا، ليس على ما نفوا، قيل: لا يحتمل ذا؛ لأنهم لم يذكروا دخول أنفسهم تصريحًا، إنما نفوا دخول غيرهم وهو كمن يقول: لا يدخل هذه الدار إلا فلان وفلان، ليس فيه أن فلانًا وفلانًا يدخلان ولكن فيه نفي دخول غيرهما، أو نقول: نفوا دخول غيرهم تصريحًا، وادعوا لأنفسهم الدخول مستدلا، وإنما يطلب الحجة على مصرح قولهم، لا على مستدلهم.

ألا ترى أن الجواب من الله عز وجل بالإكذاب والرد عليهم خرج على ما نفوا دخول غيرهم، وهو قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فعلى ذلك قوله: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ ليس فيه إثبات الدخول لهم تصريحًا، وفيه نفي دخول غيرهم تصريحًا، والله أعلم»[2].

ويتضح مما تقدم أن النصارى يزعمون أنهم أصحاب حق، وأنهم أولى بالجنة من غيرهم، وأن من عداهم فمن أهل النار، وهذه أماني كاذبة لم يقم عليها دليل ولا حجة ظاهرة، لذلك أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بأن يطالب أهل الكتاب بتقديم برهانهم على دعواهم الباطلة وإثبات عجزهم التام عن إحضار الدليل والبرهان.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ٥١٧.

(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١/ ٥٤١.

ولذلك قال الإمام الطبري: «وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهر دعاء القائلين: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ إلى إحضار حجة على دعواهم ما ادعوا من ذلك، فإنه بمعنى تكذيب من الله لهم في دعواهم وقيلهم؛ لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبدا»[1].

ثم جاءت الآية بعدها لتبين من الذين سوف يدخلون الجنة في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة:١١٢].

أي: «من أخلص عمله ونيته بالطاعة والإيمان، وخص الوجه بالذكر دون سائر الأعضاء؛ لأنه أشرف أعضاء بني آدم وأعظمها حرمة، فإذا خضع وجهه الذي هو أكرم الأعضاء كان ما سواه أحرى أن يخضع»[2].

لذا كذب الله تعالى دعواهم وبين أنها مجرد أماني لا يدركوها بالتمني، وأن الجنة متاحة لكل من يعمل لها ولا تقتصر على طائفة دون أخرى بل هي لكل من عمل صالحًا وأسلم وجهه لله تعالى وهو محسن.

(١) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥١٠.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ١/ ٤٠٣.

ثانيًا: دعوى أن الهدى في اتباع ملتهم:

تحدث القرآن الكريم عن هذه الدعوى الكاذبة حين قال تعالى حاكيا عن النصارى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة:١٣٥].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «احتج الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ حجة وأوجزها وأكملها وعلمها محمدا نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتباه وأمر به فإن دينه كان الحنيفية المسلمة، وندع سائر الملل التي نختلف فيها، فينكرها بعضنا، ويقر بها بعضنا، فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم»[3].

أما سبب نزول هذه الآية، فقد قال الواحدي: «قال ابن عباس: نزلت في رؤوس يهود المدينة: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وأبي ياسر ابن أخطب، وفي نصارى أهل نجران، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة

(٣) جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٠٢.

تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها، فقالت اليهود: نبينا أفضل الانبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بعيسى والإنجيل ومحمد والقرآن، وقالت النصارى: نبينا أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بمحمد والقرآن، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك ودعوهم إلى دينهم»[1].

وقد رد الله تعالى دعوى النصارى الباطلة في الآية نفسها حين خاطب النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ «أي: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا، قال ابن دريد: الحنيف: العادل عن دين إلى دين، وسمي الإسلام: الحنيفية؛ لأنها مالت عن اليهودية والنصرانية، وقال الأصمعي: ومن عدل عن دين اليهود والنصارى فهو حنيف عند العرب، وقال الأخفش: الحنيف: المسلم، وكان في الجاهلية يقال لمن اختتن وحج البيت: حنيف، وقال ابن عباس: الحنيف: المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وقال مجاهد: الحنيفية: اتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماما للناس»[2].

ثم خاطب الله تعالى المؤمنين وأمرهم أن يقولوا للقائلين بهذه الدعوى، فقال لهم: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة:١٣٦].

ويتضح مما تقدم بطلان دعوى النصارى في أن الهداية في اتباع ملتهم، وأن الهدى في ملة إبراهيم عليه السلام، مع علمهم وإقرارهم بنبوة إبراهيم عليه السلام، وأن القرآن الكريم نقض هذه الدعوى حيث بين لهم أن الهداية الحقة ليست مع اليهودية ولا مع النصرانية بل باتباع ملة إبراهيم عليه السلام حنيفا، ولا تحصل الهداية إلا بذلك، ولو كانوا حقا يريدون الهدى لآمنوا بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام لأنه على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام.

ثالثًا: دعوى أنهم أبناء الله وأحباؤه:

يزعم النصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، حيث قال الله تعالى عنهم وعن اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨].

يقول الطبري رحمه الله: «وهذا خبر من

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص٢٥، العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني، ١/ ٣٨٠.

(٢) تفسير الوسيط، الواحدي، ١/ ٢١٨.

الله جل وعز عن قوم من اليهود والنصارى أنهم قالوا هذا القول»[1].

«ومرادهم بالأبناء المقربون أي: نحن مقربون عند الله تعالى قرب الأولاد من والدهم، وبالأحباء: جمع حبيب بمعنى محب أو محبوب، ويجوز أن يكون أرادوا من الأبناء الخاصة كما يقال: أبناء الدنيا، وأبناء الآخرة، وأن يكون أرادوا أشياع من وصف بالبنوة أي قالت اليهود: نحن أشياع ابنه عزير، وقالت النصارى: نحن أشياع ابنه المسيح عليه السلام، وأطلق الأبناء على الأشياع مجازا إما تغليبا أو تشبيها لهم بالأبناء في قرب المنزلة»[2].

وأما النصارى ففي قولهم لذلك قولان: أحدهما: لتأويلهم ما في الإنجيل من قوله: «اذهب إلى أبي وأبيكم»، فقالوا لأجل ذلك: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، الثاني: لأجل قولهم في المسيح: ابن الله، وهم يرجعون إليه، فجعلوا نفوسهم أبناء الله وأحباءه[3].

وقد تقدم الكلام على قول النصارى في بنوة عيسى عليه السلام وأدلتهم الباطلة ورد القرآن عليها وإبطالها.

وأما سبب نزول هذه الآية: فقد قال ابن عباس: (خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما من اليهود العقاب فقالوا: لا نخاف فإنا أبناء الله وأحباؤه، فنزلت الآية، وقال ابن إسحاق: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمان بن أضا وبحري بن عمرو وشأس بن عدي فكلموه وكلمهم، ودعاهم إلى الله عز وجل وحذرهم نقمته فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟، نحن أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية)[4].

ثم إنه تعالى أبطل عليهم دعواهم، وقال وإن كنتم كما تدعون أبناءه: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة:١٨].

يقول الإمام الرازي: «وفيه سؤال وهو أن حاصل هذا الكلام أنهم لو كانوا أبناء الله وأحباءه لما عذبهم لكنه عذبهم، فهم ليسوا أبناء الله ولا أحباءه، والإشكال عليه أن يقال: إما أن تدعوا أن الله عذبهم في الدنيا، أو تدعوا أنه سيعذبهم في الآخرة.

فإن كان موضع الإلزام عذاب الدنيا فهذا لا يقدح في ادعائهم كونهم أحباء الله؛ لأن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يدعي أنه هو وأمته أحباء الله، ثم إنهم ما خلوا عن محن الدنيا، انظروا إلى وقعة أحد، وإلى قتل الحسن والحسين رضي الله عنهما.

وإن كان موضع الإلزام هو أنه تعالى

(١) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ١٥٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٣/ ٢٧٢.
(٣) النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٢٣.
(٤) انظر: دلائل النبوة، البيهقي، ٢/ ٥٣٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١٢٠، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٦٩.

سيعذبهم في الآخرة فالقوم ينكرون ذلك، ومجرد إخبار محمد صلى الله عليه وسلم ليس بكاف في هذا الباب، إذ لو كان كافيا لكان مجرد إخباره بأنهم كذبوا في ادعائهم أنهم أحباء الله كافيا، وحينئذ يصير هذا الاستدلال ضائعًا»[1].

ويجيب الإمام الرازي رحمه الله على ذلك السؤال من وجوه:

«الأول: إن موضع الإلزام هو عذاب الدنيا، والمعارضة بيوم أحد غير لازمة لأنه يقول: لو كانوا أبناء الله وأحباءه لما عذبهم الله في الدنيا، ومحمد عليه الصلاة والسلام ادعى أنه من أحباء الله ولم يدع أنه من أبناء الله فزال السؤال.

الثاني: إن موضع الإلزام هو عذاب الآخرة، واليهود والنصارى كانوا معترفين بعذاب الآخرة كما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠].

والثالث: المراد بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فلم مسخكم، فالمعذب في الحقيقة اليهود الذين كانوا قبل اليهود المخاطبين بهذا الخطاب في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام، إلا أنهم لما كانوا من جنس أولئك المتقدمين حسنت هذه الإضافة، وهذا الجواب أولى لأنه تعالى لم يكن ليأمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يحتج عليهم بشيء لم يدخل بعد في الوجود فإنهم يقولون: لا نسلم أنه تعالى يعذبنا، بل الأولى أن يحتج عليهم بشيء قد وجد وحصل حتى يكون الاستدلال به قويا متينا، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ يعني أنه ليس لأحد عليه حق يوجب عليه أن يغفر له، وليس لأحد عليه حق يمنعه من أن يعذبه، بل الملك له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد»[2].

وأن الاستفهام في الآية الكريمة مع دلالته على استنكار قولهم فيه دلالتان أخريان:

«إحداهما: إعلامهم بأنه سيعذبهم بذنوبهم، وأنهم مأخوذون بما يقترفون من سيئات، وما يجترحون من مآثم ومظالم.

الثانية: الدلالة على أن عمل الخير له ثوابه، وعمل السوء له عقابه، وأن من يقول غير ذلك فهو مبطل، وما كان لهم أن يدعوا محبة الله، وأنهم منه بمنزلة الأبناء من الآباء، ومع ذلك يعصونه، وينشرون في الأرض الفساد، فهذا استفهام مع ما فيه من إحكام واستنكار يتضمن معاني سامية، فيها التهديد لمن عصى، والتبشير لمن أطاع»[3].

ويتضح مما تقدم بطلان دعوى اليهود والنصارى وبطلان استدلالهم واعتقادهم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ٣٢٩.

(٢) المصدر السابق، ١١/ ٣٢٩.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص١٦١.

بالتمييز والأفضلية على غيرهم وأن الله تعالى قد كذبهم ونفاهم عنه في ادعائهم أنهم أبناؤه وأحباؤه، بل وبين عذابهم، فالله تعالى لا يحابي فريقًا من الناس دون الآخر، وكيف يحابي النصارى الذين يدعون إلوهية المسيح عليه السلام، وأن الله ثالث ثلاثة، وإن المسيح هو ابن الله، تعالى الله عما يقولون، ومع كل هذه الإدعاءات الباطلة، ثم بعد ذلك لا يعذبهم الله.

رابعًا: دعوى أن إبراهيم وبنيه كانوا هودًا أو نصارى:

ادعت النصارى أن إبراهيم عليه السلام كان منهم، وادعوا أن إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على ملتهم أيضًا، وكذلك قال اليهود.

وذكر القرآن الكريم هذه الدعوى في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

ومعنى الآية: «قالوا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم إثنا عشر سبطًا من ولد يعقوب، والسبط الجماعة الذين يرجعون إلى أب واحد، ﴿كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ يعني: اليهود تزعم أن هؤلاء كانوا هودًا، والنصارى تزعم أنهم كانوا نصارى، فرد الله عليهم بأن الله تعالى أعلم بهم منكم، يعني: بأنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى»[(١)].

قال الرازي: «إنما أنكر الله تعالى ذلك القول عليهم لوجوه، أحدها: لأن محمدا صلى الله عليه وسلم ثبتت نبوته بسائر المعجزات، وقد أخبر عن كذبهم في ذلك فثبت لا محالة كذبهم فيه، وثانيها: شهادة التوراة والإنجيل على أن الأنبياء كانوا على التوحيد والحنيفية، وثالثها: أن التوراة والإنجيل أنزلا بعدهم، ورابعها: أنهم ادعوا ذلك من غير برهان فوبخهم الله تعالى على الكلام في معرض الاستفهام على سبيل الإنكار والغرض منه الزجر والتوبيخ وأن يقرر الله في نفوسهم أنهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ أي: «تقرير وتوبيخ في ادعائهم بأنهم كانوا هودا أو نصارى، فرد الله عليهم بأنه أعلم بهم منكم، أي: لم يكونوا هودا ولا نصارى»[(٣)].

وهذا يقتضي الإيمان التام بأن الله تعالى هو الأعلم ولا ينبغي لأحد أن يصف نفسه بما وصف الله تعالى به نفسه.

(١) النكت والعيون، الماوردي، ١/ ١٩٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٤/ ٧٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ١٤٧.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية والبراءة عن اليهودية والنصرانية، والمعنى لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة، أو منا لو كتمنا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالنبوة في كتبهم وغيرها، وما الله بغافل عما تعملون وعيد لهم[1].

قال الحسن البصري: «كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين عند الله الإسلام، وإن محمدا رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك»[2].

وقد أخبر الله تعالى بأنهم لم يكونوا هودا ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:١٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران:٦٥].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران:٦٧].

وهذه الآيات الكريمة تنفي كون إبراهيم عليه السلام يهوديا أو نصرانيا، وتبطل قولهم: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة:١٣٥].

وتبطل زعمهم أن يعقوب كان على اليهودية وأنه أوصى بها بنيه فلزمت ذريته فلا يحولون عنها، لذلك جيء هنا بتفصيل وصية يعقوب إبطالا لدعاوي أهل الكتاب ونقضا لمعتقدهم الذي لا دليل عليه، وأن التوراة والأنجيل ما كانت إلا من بعد إبراهيم عليه السلام وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنيه، وإن كان عندهم من علم بغير ذلك أم هم أعلم بهذا من الله تعالى، وأن إبراهيم وبنيه كانوا على ملة الإسلام وقد أوصوا ذريتهم بالثبات والموت على الإسلام.

وكذلك بيان كذب أهل الكتاب في زعمهم أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًا أو نصرانيًا لأن التوراة والإنجيل ما وجدت إلا من بعده، ثم أن العبرة في الاتباع وحسن الاقتداء بإبراهيم عليه السلام، وليس بالنسب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران:٦٨].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١١٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٥١.

والنصارى مع إقرارهم بنبوة إبراهيم عليه السلام إلا أنهم لم يتبعوا دينه الذي جاء بالحنيفية القائمة على الوحدانية ونبذ الشركاء، وهم أشركوا بالله تعالى بادعائهم المسيح إله وابن الله وهذا ما يتناقض مع دعواهم الباطلة مع إبراهيم عليه السلام.

خامسًا: دعوى نفي الحق عمن سواهم:

تتمثل هذه الدعوى بادعاء كل فريق من أهل الكتاب أن صاحبه ليس على شيء.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣].

أي: «معناه: ادعى كل فريق منهم أن صاحبه ليس على شي، وأنه أحق برحمة الله منه»[(١)].

قال ابن كثير: «وهذا القول يقتضي أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عنادا وكفرا»[(٢)].

أما سبب نزول هذه الآية: «ذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل الكتابين تنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم لبعض، فأخبرنا الله أنه قد فعل هذا من كان قبلهم ممن لا يعلم، وأنهم فعلوا ذلك وهم يجدون في كتبهم كذبهم فيما يقولون لأن كتب الله تعالى يصدق بعضها بعضًا، فلذلك قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فهؤلاء قالوه وهم يعلمون أنهم كاذبون لأن في كتاب كل واحد منهم الأمر بالإيمان بالآخر وبمن جاء به، و ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أمم كانت قبلهم، وقيل: عني بذلك الجاهلية في العرب، قالوا: ليس محمد على شيء»[(٣)].

ويقول الواحدي: «نزلت في يهود أهل المدينة، ونصارى أهل نجران وذلك أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بموسى والتوراة، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[(٤)].

قال الماتريدي: «فإن قيل:كيف عاتبهم بهذا القول، وقد أمر نبيه عليه الصلاة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٧٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٨٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥١٣، الهداية إلى بلوغ النهاية، ١/ ٤٠٤.
(٤) أسباب النزول، الواحدي، ١/ ٣٩، العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني، ١/ ٣٥٨.

والسلام في آية أخرى أن يقول لهم ذلك: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ﴾[المائدة:٦٨]؟ قيل: إنما أمر نبيه: أن يقول لهم: إنهم ليسوا على شيء إذا لم يقيموا التوراة، فأما إذا أقاموا التوراة وفيها أمر لهم بالإسلام، واتباع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فهم على شيء»[(١)].

قال قتادة: «﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: بلى، قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: بلى قد كانت أوائل اليهود على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا»[(٢)].

وعلى هذا فإنهم يكونون على شيء حين يقيموا التوراة والإنجيل، ويطيعوا الله تعالى فيما أمرهم به في كتبهم وذلك باتباع النبي العربي صلى الله عليه وسلم، ومن لم يتبع منهم النبي صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من قرآن فهو ليس على شيء.

ثم رد الله تعالى على هؤلاء اليهود والنصارى في الآية نفسها في قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:١١٣].

أي: يريهم من يدخل الجنة عيانًا، ومن يدخل النار عيانًا[(٣)].

ورد الله تعالى أيضًا على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨].

أي: وما كان يمكنهم إقامتها إلا بإقامة القرآن الكريم، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم، لكنهم أبوا ذلك وكفروا فضربت عليهم الذلة كما قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران:١١٢].

ويتضح مما تقدم بطلان دعوى أهل الكتاب حيث ادعى كل فريق منهم أنه على شيء، مع أنهم على علم من دينهم وهم يتلون التوراة والإنجيل، لكنهم حرفوا وبدلوا أصول دينهم وأضاعوا ما جاء في التوراة والإنجيل فصاروا ليس على شيء، ولو أرادوا الحق لكانوا صادقين في قولهم، إذ كل فريق منهم قد جحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو يعلم أنه نبي ويجده في كتابه، وأما الذين من قبلهم من الأمم السالفة قالوه وهم غير عالمين بذلك.

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١/ ٥٤٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٨٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٤/ ١٠.

النصارى قبل الإسلام

لا شك أن المؤمنين الموحدين قبل الإسلام هم طائفة من الذين آمنوا بدين الله تعالى ورسله وأنبيائه جميعًا، وكتبه المنزلة عليهم سواءً أكانوا يهودا أم نصارى، والتزموا بشرائع أنبيائهم ورسلهم قولًا وعملًا، ثم آمنوا بما جاء ذكره في التوراة والإنجيل عن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وترقبوا قدومه ووجوب اتباعه بالإيمان به ونصرته، دون تكبر.

كما أخذ الميثاق بذلك على النبيين عليهم الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ الله عليه الميثاق: لئن بعث محمدًا وهو حي ليؤمنن به، ولينصرنه»[(١)].

وأول من رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة من النصارى الراهب بحيرا، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم مع ركب أبي طالب وهو في تجارته إلى الشام، فمر على راهب في صومعته في بصرى، وهو الراهب بحيرا الذي كان ينتهي إليه علم النصرانية، وقد نصح الراهب بحيرا أبا طالب بأن يرجع برسول الله صلى الله عليه وسلم خوفا عليه من اليهود[(٢)].

ومن أبرز من كان مؤمنا بدين المسيح الصحيح قبل الإسلام من النصارى هم: نسطورا، وصاحب بصرى، وأسقف الشام، والجارود العبدي، وسلمان الفارسي، ونصارى الحبشة، وأساقفة نجران، وعداس[(٣)].

لذلك نرى أن القرآن امتدح طائفة من المؤمنين من أهل الكتاب من النصارى وبين صفاتهم وأخلاقهم وعقيدتهم الصحيحة، وبالمقابل ذم الذين كفروا منهم في آيات عديدة، وهذا ما سوف نبينه في المطالب الآتية:

أولًا: النصارى المؤمنون الموحدون:

وردت في القرآن الكريم آيات عديدة ومتنوعة عن أهل الكتاب بصيغة (أهل الكتاب)، والأصل أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى كما بينا سابقا

(١) فتح الباري، ابن حجر، ٦/ ٤٣٤.

(٢) سيرة ابن إسحاق، ص٧٣.

(٣) انظر: منحة القريب المجيب، عبد العزيز آل معمر، ١/ ٢٨٦.

لذلك يدخل النصارى في كل آية ذكر فيها أهل الكتاب، وإن وردت بعضها في الأحبار من اليهود إلا أن أغلب الآيات قصد بها اليهود والنصارى معًا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١].

أي: «الذين آتيناهم الكتاب هم مؤمنون أهل الكتاب يتلونه حق تلاوته لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك يؤمنون بكتابهم دون المحرفين ومن يكفر به من المحرفين فأولئك هم الخاسرون حيث اشتروا الضلالة بالهدى»[1].

وقال تعالى: ﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾ [آل عمران:١١٣-١١٥].

أي: «لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه متبعة نبي الله، فهي مستقيمة، ﴿يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ أي: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم، ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

وفي الآية وجهان: «أحدهما: يعني الذين آتيناهم التوراة والإنجيل من قبل القرآن هم بالقرآن يؤمنون، قاله يحيى بن سلام، والثاني: الذي آتيناهم التوراة والإنجيل من قبل محمد هم بمحمد يؤمنون، قاله ابن شجرة»[3].

وفيمن نزلت هذه الآيات قولان:

«أحدهما: نزلت في عبد الله بن سلام، وتميم الداري، والجارود العبدي، وسلمان الفارسي، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية والتي بعدها، قاله قتادة.

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ١٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٠٥.

(٣) النكت والعيون، الماوردي، ٤/ ٢٥٧.

الثاني: أنها نزلت في أربعين رجلًا من أهل الإنجيل كانوا مؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، اثنان وثلاثون رجلًا من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه وثمانية قدموا من الشام، منهم بحيرا، وأبرهة، والأشراف، وعامر، وأيمن، وإدريس، ونافع، فأنزل الله فيهم هذه الآية والتي بعدها إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال قتادة: بإيمانهم بالكتاب الأول وإيمانهم بالكتاب الآخر»[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقوله: «﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل نزول القرآن وخروج النبي صلى الله عليه وسلم، وهم مؤمنو أهل الكتاب، في قول ابن جريج وغيره، قال ابن جريج: معنى ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ كتابهم، وقيل: القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ قيل: هم قوم من ولد إسماعيل تمسكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبي عليه السلام، منهم زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل»[2].

ويتضح من الآيات الكريمة أن القرآن الكريم أثنى على المؤمنين الموحدين من أهل الكتاب بما فيهم النصارى وهذا معناه أنهم ليسوا جميعا ضالين، بل منهم من يؤمن بالله تعالى وملائكته ورسله وكتبه.

ثانيًا: المبدلون لدينهم وعاقبتهم:

هم طائفة من بني إسرائيل سموا أنفسهم نصارى، أخذ الله تعالى الميثاق عليهم أن يؤمنوا بعيسى عليه السلام لأنه جاء مكملا ومتمما لرسالة موسى عليه السلام؛ فهم أبناء أمة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [الصف:٦].

إلا أنهم نقضوا الميثاق ونسوا ما جاءهم به رسولهم وأهملوه كما قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة:١٤].

أي: «ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ومناصرته

(١) المصدر السابق، ٤/ ٢٥٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ٣٤٠.

ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، أي: ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود.

ولهذا قال: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضا، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا؛ فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والأريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»[1].

قال قتادة رحمه الله: «نسوا كتاب الله بين أظهرهم، وعهد الله الذي عهده إليهم، وأمر الله الذي أمرهم به»[2].

والمتأمل في الآية الكريمة يرى أن الله تعالى تحدث عن النصارى بقولهم: إنا نصارى ولم يقل من النصارى.

قال الحسن البصري: «إنما قال: قالوا: إنا نصارى ولم يقل من النصارى ليدل على أنهم ابتدعوا النصرانية وتسموا بها وأنهم ليسوا على منهاج الذين اتبعوا المسيح في زمانه من الحواريين وهم الذين كانوا نصارى في الحقيقة»[3].

وإلى هذا المعنى أشار بعض المفسرين في تفسيرهم هذه الآية[4].

قال ابن عاشور: «وعبر عن النصارى بالذين قالوا إنا نصارى هنا وفي قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [المائدة:٨٢].

تسجيلا عليهم بأن اسم دينهم مشير إلى أصل من أصوله، وهو أن يكون أتباعه أنصارا لما يأمر به الله، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف:١٤].

ومن جملة ذلك أن ينصروا القائم بالدين بعد عيسى من أتباعه، مثل بولس وبطرس وغيرهما من دعاة الهدى وأعظم من ذلك كله أن ينصروا النبي المبشر به في التوراة والإنجيل الذي يجيء بعد عيسى قبل منتهى العالم ويخلص الناس من الضلال، فجميع أتباع الرسل قد لزمهم ما التزمه أنبياؤهم وبخاصة النصارى، فهذا اللقب وهو النصارى حجة عليهم قائمة بهم متلبسة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٦٧.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ١٣٥.
(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص، ٤/ ٤٢.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٦١٦، مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ٣٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١١٧، مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٤٣٥.

بجماعتهم كلها»[1].

ويتضح مما مضى أن طائفة من بني إسرائيل يدعون أنهم نصارى أخذوا العهد من الله تعالى أن يؤدوا ما كلفهم الله تعالى به من متابعة رسلهم، ومن ثم اتباع ما جاء في التوراة والإنجيل من بشارات بقدوم النبي صلى الله عليه وسلم ومناصرته، فنسوا ما أمرهم الله به ونقضوا الميثاق الذي أخذوه فكانت عاقبتهم أن ألقى الله تعالى عليهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة جزاء نقضهم ذلك الميثاق.

النصارى بعد الإسلام

الإسلام هو آخر الديانات السماوية الذي جاء مكملًا لما قبله من الديانة اليهودية والنصرانية، كما أن عيسى عليه السلام جاء ليكمل دين موسى عليه السلام فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم جاء ليتم الدين كله، فكلها دين واحد تدعو إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، إلا أن الفرق بينها أن الإسلام ناسخ لما قبله من الشرائع لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

لذلك فإن علماء أهل الكتاب من النصارى على علم بحقائق هذا الدين من خلال التوراة والإنجيل غير المحرفة التي جاء فيها ذكر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وبشارة قدومه واسمه وصفاته، بخلاف الذين لا يعلمون بذلك من الأمم السالفة، فمن أهل الكتاب من النصارى من صدق وآمن واتبع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ومدحهم الله تعالى في القرآن الكريم في آيات عديدة وبين ثواب أجر إيمانهم، ومنهم من ذمهم الله تعالى لأنهم كذبوا وحرفوا وبدلوا دينهم وبين عاقبتهم على ذلك وهذا ما سوف نبينه في النقاط الآتية:

(١) التحرير والتنوير، ٦/ ١٤٦.

أولًا: المؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم:

مدح الله تعالى المؤمنين بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب -ومنهم النصارى- وأثنى عليهم في آيات عديدة.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران:١٩٩].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا يكتمون بأيديهم من البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى»[(١)].

قال الشوكاني رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾: «هذه الجملة سيقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين، وليسوا كسائرهم في فضائحهم التي حكاها الله عنهم فيما سبق، فإن هذا البعض يجمعون بين الإيمان بالله وبما أنزل الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزله على أنبيائهم حال كونهم خاشعين لله لا يشترون أي: يستبدلون بآيات الله ثمنا قليلا بالتحريف والتبديل، كما يفعله سائرهم، بل يحكون كتب الله سبحانه كما هي، والإشارة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إلى هذه الطائفة الصالحة من أهل الكتاب، من حيث اتصافهم بهذه الصفات الحميدة لهم أجرهم الذي وعد الله سبحانه به بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص:٥٤][(٢)].

وأما سبب نزول هذه الآية فقد قال ابن عباس: (نزلت في النجاشي ملك الحبشة واسمه أصحمة، ومعناه بالعربية عطية، وذلك إنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم النجاشي، فخرج إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي فصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له)[(٣)].

(١) جامع البيان، الطبري، ٢/ ١٩٣.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٤٧٥.

(٣) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٣٥.

وقال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة:٨٢-٨٥].

وصف الله تعالى لين عريكة النصارى وسهولة ارعوائهم وميلهم إلى الإسلام، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا، وعلل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين بأن منهم قسيسين ورهبانا أي: علماء وعبادا وأنهم قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم، واليهود على خلاف ذلك[1].

وأما سبب نزول هذه الآيات الكريمة فقد قال الواحدي: «قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة هو وأصحابه، ومعهم سبعون رجلا، بعثهم النجاشي وفدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عليهم ثياب الصوف، اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وهم: بحيرا الراهب، وأبرهة، وإدريس، وأشرف، وتمام، وقيتم، ودريد، وأيمن، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة «يس» إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن، وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات)»[2].

ويحكى عن النجاشي رضي الله عنه أنه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون لعنوا وهم يغرونه عليهم ويتطلبون عنتهم عنده: هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر: فيه سورة تنسب إليها، فقرأها إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[مريم:٣٤].

وقرأ سورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾[طه:٩]. فبكى النجاشي[3].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ۖ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٦٦٨.

(٢) أسباب النزول لواحدي، ص٢٠٦.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٦٦٩.

﴿إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

ذكر الإمام فخر الدين الرازي في معنى هذه التبعية في الآية وجهين:

«أحدهما: أن المراد بذلك أن يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة إذ لا يجوز أن يتبعوه في شرائعه قبل أن يبعث إلى الخلق وفي قوله: ﴿وَالْإِنْجِيلِ﴾ أن المراد وسيجدونه مكتوبا في الإنجيل؛ لأن من المحال أن يجده فيه قبل ما أنزل الله الإنجيل.

الوجه الثاني: إن المراد من لحق من بني إسرائيل زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فبين تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم رحمة الآخرة إلا إذا اتبعوه، قال: وهذا القول أقرب لأن اتباعه قبل أن يبعث لا يمكن فبين بهذه الآية أن هذه الرحمة لا يفوز بها من بني إسرائيل إلا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بآيات الله في زمن موسى عليه الصلاة والسلام.

ومن كانت هذه صفته في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم في شرائعه فعلى هذين الوجهين يكون المراد بقوله الذين يتبعون الرسول من بني إسرائيل خاصة»[1].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٥/ ٣٨٠.

ويقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآيات السابقة: «والمشهور عن كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس، أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وغيرهم»[2].

وأما ما ورد في السنة النبوية المطهرة في شأن أولئك المؤمنين من أهل الكتاب ما صح بالحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: (رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران)[3].

وفي هذا الحديث حثٌ لأهل الكتاب على اتباع الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأن الإيمان لا يتنافى مع ما جاء به النبي عيسى عليه السلام، مع تضاعف مقدار الأجر والثواب لمن آمن من أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

ويتضح مما مضى في الآيات الكريمة مكانة المؤمنين من النصارى بالقرآن

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٠٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتاب، ٤/ ٦٠، رقم ٣٠١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٣٤، رقم ١٥٤.

الكريم، ومقدار أجرهم عند الله تعالى، وبينت الآيات الكريمة أن أهل الكتاب من النصارى ليسوا شرا كلهم، بل منهم من آمن بكتابه وبالقرآن ممن أدرك شريعة الإسلام، أو كان على استقامة فمات قبل أن يدركها، ومنهم قسيسون ورهبان فيهم تواضع لا يتكبرون على الحق، تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق.

ثانيًا: المحاربون للإسلام:

لا يخفى على أحد أن أعداء المسلمين من النصارى وغيرهم لا يفترون عن الكيد لدين الله تعالى بكل ما أوتوا من قوة وبكل ما لديهم من سبل ونراهم لا يتوانون عن الهجوم على دين الله كلما سنحت لهم الفرصة لذلك، وما ذلك إلا لصد المسلمين عن دينهم، ولعل ذلك واضح في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

فالغاية هي الصد عن دين الله تعالى.

ومن جملة المحاربين للإسلام هم النصارى الذين لم يؤمنوا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وناصبوها العداء علنًا أو سرًا وسيتبين هذا من خلال ما يأتي:

١. عدم حب الخير للمسلمين.

ذكر الله تعالى في محكم كتابه عدم محبة طائفة من أهل الكتاب من النصارى للمسلمين في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة:١٠٥].

أي: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران، ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: مشركي العرب ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: أن ينزل على رسولكم من الوحي وشرائع الإسلام لأنهم كانوا كفارا، فيحبون أن يكون الناس كلهم كفارا مثلهم، وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء:٨٩].

فأخبر الله تعالى أن الأمر ليس على مرادهم حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يختار للنبوة من يشاء، من كان أهلا لذلك ويكرم بدينه الإسلام من يشاء، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: ذو المن العظيم لمن اختصه بالنبوة والإسلام»[1].

وفي الآية الكريمة دلالة واضحة على وجوب الحذر من أهل الكتاب ومنهم النصارى؛ ما دام كثير منهم يكرهون أن ينزل الخير على المسلمين من ربهم، لذا يجب

(١) تفسير السمرقندي، ١/ ٨١.

على المسلمين الحذر منهم وعدم الاستماع لأقوالهم مما يأتونهم به على وجه النصيحة؛ لأن الله تعالى عالم بما أسروا وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ذلك، وينبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، حيث أن أعظم الخير من الله تعالى أنه أرسل النبي صلى الله عليه وسلم من ولد إسماعيل مبشرا ونذيرا وهاديا للعالمين.

وقد رد الله تعالى كراهيتهم باختيار نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام على مقتضى حكمته وإرادته فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة:١٠٥].

٢. تمنيهم ردة المسلمين.

يخبر الله تعالى في بعض آياته الكريمة أن طائفة من أهل الكتاب تسعى أن تصد المسلمين عن دينهم وتتمنى ذلك، رغم علمهم بالحق.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

قال الإمام الرازي: «فالمراد أنهم كانوا يريدون رجوع المؤمنين عن الإيمان من بعد ما تبين لهم أن الإيمان صواب وحق، والعالم بأن غيره على حق لا يجوز أن يريد رده عنه إلا بشبهة يلقيها إليه، لأن المحق لا يعدل عن الحق إلا بشبهة والشبهة ضربان، أحدهما: ما يتصل بالدنيا وهو أن يقال لهم: قد علمتم ما نزل بكم من إخراجكم من دياركم وضيق الأمر عليكم واستمرار المخافة بكم، فاتركوا الإيمان الذي ساقكم إلى هذه الأشياء، والثاني: في باب الدين: بطرح الشبه في المعجزات أو تحريف ما في التوراة»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: «من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئا، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة، وشرع لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم»[(٢)].

ومعلوم سبب حسد أهل الكتاب لأنهم كانوا من قبل يقرؤون في كتبهم مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وصفته وحال نبوته وكانوا يوعدون العرب بالقتل عند مبعثه لأنهم زعموا أنهم لا يتبعونه وكانوا يظنون أنه يكون من بني إسرائيل فلما بعثه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٦٥١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٨٣.

الله تعالى من ولد إسماعيل حسدوا العرب وأظهروا الكفر به وجحدوا ما عرفوه، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة:٨٩][(١)].

ويحذر الله تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح[(٢)].

وأما سبب نزول هذه الآية فقد قال الواحدي: «قال ابن عباس: نزلت في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟ لو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم»[(٣)].

وقيل أيضًا: أن نفرًا من أهل الكتاب قالوا لحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: لو كنتم على الحق ما هربتم فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم، فقال عمار بن ياسر: كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال: إني عاهدت أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ما عشت، قالت اليهود، أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا، ثم إنهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بذلك، فقال: أصبتما الخير وأفلحتما فأنزل الله تعالى هذه الآية»[(٤)].

ويتضح مما تقدم عداوة أهل الكتاب وحقدهم للمسلمين وتمنيهم رجوعهم عن الإسلام وذلك بسبب كراهيتهم أن يتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم لكونه من أبناء إسماعيل عليه السلام، وودوا أن يكون من بني إسرائيل لذلك قالوا للصحابة ارجعوا إلى ديننا فهو خير من دينكم وهذا دليل على تعصبهم وجهلهم بالدين.

٣. كتمانهم صفة الرسول.

يعلم كثير من علماء أهل الكتاب أن الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ومع ذلك فإنهم يكتمونه، وقد أخبر الله تعالى عن ذلك في آيات عديدة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة:١٤٦].

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص، ٣/ ١٧١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٨٢.
(٣) العجاب في بيان الأسباب، ١/ ٣٥٤.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٧٠.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، أي: «يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة جلية يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص كما يعرفون أبناءهم لا يشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم، وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنا أعلم به مني بابني، قال: ولم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي، فلعل والدته خانت، فقبل عمر رأسه»[1].

وقيل في معنى الآية أيضًا: يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة وهو قول قتادة وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهم[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران:٧١].

أي: «يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم تشهدون أنها آيات الله أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعته في الكتابين أو تعلمون بالمعجزات أنه حق»[3].

قال الطبري: «والحق الذي كتموه ما في كتبهم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه ونبوته»[4].

ثم فصل خلطهم الحق بالباطل فقال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران:٧٢].

أي: «كان ذلك أمرًا منهم إياهم بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم في نبوته وما جاء به من عند الله، وأنه حق في الظاهر من غير تصديقه في ذلك بالعزم واعتقاد القلوب على ذلك، وبالكفر به وجحود ذلك كله في آخره»[5].

ثم يتواصون فيما بينهم قائلين: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وهنا يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران:٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة:٨٩].

ومعنى الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن مصدق لما معهم يعني

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٢٠٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٨٧-١٨٨.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ٢٢.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٠٥.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٠٧.

التوراة وهذا التصديق في صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن نبوته وصفته ثابتة في التوراة وكانوا يعني: -اليهود- من قبل أي: من قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم يستفتحون أي: يستنصرون به على الذين كفروا يعني: مشركي العرب وذلك أنهم كانوا إذا أحزنهم أمرٌ ودهمهم عدوٌ يقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة فكانوا ينصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما جاءهم ما عرفوا أي: الذي عرفوه يعني: محمدا صلى الله عليه وسلم عرفوا نعته وصفته وأنه من غير بني إسرائيل كفروا به أي: جحدوه وأنكروه بغيا وحسدا فلعنة الله على الكافرين»[(١)].

قال ابن عباس: «يستنصرون بخروج محمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب - يعني: بذلك أهل الكتاب - فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ورأوه من غيرهم، كفروا به وحسدوه»[(٢)].

وقد وردت أحاديث في السنة النبوية المطهرة تبين معرفة أهل الكتاب ببعثة نبي آخر الزمان وصفاته وأتباعه، ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: (أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ [الأحزاب:٤٥].

قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا)[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب في الإنجيل: لا فظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزئ بالسيئة مثلها، بل يعفو ويصفح)[(٤)].

والمتأمل في كتب السير والتاريخ يجد الكثير من الشواهد والأدلة على ذلك[(٥)].

ويتضح مما تقدم أن نعت النبي صلى

(١) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٦٠.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٣٣٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا)، ٦/ ١٣٥، رقم ٤٨٣٨.
(٤) أخرجه البخاري بنفس المعنى في المصدر السابق.
وانظر: دلائل النبوة، البيهقي، ١/ ٣٧٨-٣٧٧.
(٥) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، ١/ ٣٦٣، البداية والنهاية، ابن كثير، ٦/ ٦١، تاريخ دمشق، ابن عساكر، ١/ ٣٣٧.

الله عليه وسلم موجود في الكتب السابقة، وأن طائفة من بني إسرائيل من النصارى قد جحدوا ما جاءهم به الرسول الذي انتظروه وبشروا به، ومع ذلك أخذهم الكبر رغم أنهم موقنون بمجيء الرسول الجديد وأوصافه موجودة عندهم في الإنجيل إلا أنهم رفضوا أن يؤمنوا فاستحقوا بذلك لعنة الله تعالى.

٤. سعيهم في إضلال المسلمين.

بعد أن بين الله تعالى في الآيات السابقة محاولة بعض أهل الكتاب رد المسلمين عن دينهم، أخبر في آيات أخرى عن محاولتهم إضلال المسلمين في دينهم.

قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٦٩﴾ [آل عمران:٦٩].

قال الطبري: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَدَّت﴾، أي: تمنت، ﴿طَّآئِفَةٌ﴾، يعني جماعة من ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهم أهل التوراة من اليهود، وأهل الإنجيل من النصارى لو ﴿يُضِلُّونَكُمْ﴾، يقولون: لو يصدونكم أيها المؤمنون عن الإسلام، ويردونكم عنه إلى ما هم عليه من الكفر، فيهلكونكم بذلك»[(١)].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، وهو يحتمل وجوها منها: إهلاكهم أنفسهم باستحقاق العقاب على قصدهم إضلال الغير وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧].

ومنها إخراجهم أنفسهم عن معرفة الهدى والحق لأن الذاهب عن الاهتداء يوصف بأنه ضال، ومنها أنهم لما اجتهدوا في إضلال المؤمنين ثم إن المؤمنين لم يلتفتوا إليهم فهم قد صاروا خائبين خاسرين، حيث اعتقدوا شيئا ولاح لهم أن الأمر بخلاف ما تصوروه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: ما يعلمون أن هذا يضرهم ولا يضر المؤمنين[(٢)].

وفي بيان بعض شبهات طائفة من أهل الكتاب في إضلال المسلمين يقول الإمام الرازي: يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول عليه السلام بإلقاء الشبهات كقولهم: إن محمدا عليه الصلاة والسلام مقر بموسى وعيسى ويدعي لنفسه النبوة، وأيضا إن موسى عليه السلام أخبر في التوراة بأن شرعه لا يزول، وأيضا القول بالنسخ يفضي إلى البداء، والغرض منه تنبيه المؤمنين على أن لا يغتروا بكلام اليهود، ونظير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

(١) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٠٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٨/ ٢٥٥.

وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء:٨٩][(١)].

ويتضح مما مضى تمني طائفة من أهل الكتاب إضلال المسلمين وردهم عند دينهم بشتى الأساليب الخبيثة والشبهات الضالة وذلك بإثارة الظنون والشكوك والأوهام حول الإسلام والتشكيك بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، والتشويش على عقيدة المسلمين إلا أن الله تعالى أكد وبين أنهم ما أضلوا إلا أنفسهم وما يشعرون.

٥. منعهم من يريد الإسلام.

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم عن أهل الكتاب بأنهم يصدون المؤمنين عن سبيل الله بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٩].

أي: «لم تصرفون عن دين الله من آمن وتصدونهم عن سبيل الله بإلقاء الشبهات والشكوك وذلك بإنكارهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم تبغونها عوجا، يعني: زيغا وميلا عن الحق بإلقاء الشبه في قلوب الضعفاء وأنتم شهداء أن نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته مكتوب في التوراة، وأن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام، وقيل معناه: وأنتم تشهدون المعجزات التي تظهر على يد محمد صلى الله عليه وسلم الدالة على نبوته، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فيه وعيد وتهديد لهم، وذلك أنهم كانوا يجتهدون ويحتالون بإلقاء الشبهة في قلوب الناس ليصدوهم عن سبيل الله والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾»[(٢)].

قال قتادة: «لم تصدون عن الإسلام وعن نبي الله من آمن بالله، وأنتم شهداء فيما تقرؤون من كتاب الله: أن محمدًا رسول الله وأن الإسلام دين الله الذي لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل»[(٣)].

يقول الزمخشري: «كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه، ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم، وقيل: أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تطلبون لها اعوجاجا وميلا عن القصد والاستقامة، فإن قلت: كيف تبغونها عوجا وهو محال؟ قلت: فيه معنيان: أحدهما أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجا بقولكم: إن شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم صفة

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٢٧٥.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٧.

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك، والثاني: أنكم تتبعون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم وأنتم شهداء أنها سبيل الله لا يصد عنها إلا ضال مضل، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم، عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظائم أمورهم، وهم الأحبار»[1].

ويتضح من الآية الكريمة أن من صفات بعض أهل الكتاب الذين كفروا بالإسلام محاولة صد المسلمين عن دينهم وإقناعهم بالرجوع والإرتداد عن الإيمان بشتى الطرق وذلك بإلقاء الشبهات والشكوك، وتكذيبهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وإنكارهم ثبوت صفته في كتبهم، وإثارة الفتن والعداوات وإشاعة الفرقة والإختلاف والحروب بين المسلمين حتى ينالوا من دين الإسلام، ويبغون الدين عوجا برغم أنهم شهداء على أن ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق، لذلك وبخ الله تعالى المعاندين منهم بسبب كفرهم وصدهم الناس عن سبيل الله وذكرهم بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

٦. التشكيك في قبلة المسلمين.

اقتضت حكمة الله تعالى تولية المسلمين وجوههم وتحويل قبلتهم من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، واستجاب المسلمون لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم فاتجهوا جميعا نحو قبلتهم الجديدة، إلا أن هذا الأمر لم يرض السفهاء من الناس ومنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البقرة:١٤٢].

قال ابن كثير: «ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾ أي: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾ أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله، وحيثما تولوا فثم وجه الله، و﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٧].

أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفي تصريفه وخدامه، حيثما وجهنا توجهنا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٣٩٢.

إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل، عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»[1].

ومع علم أهل الكتاب من النصارى أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة حق وأنها قبلة إبراهيم عليه السلام، لكنهم يعاندون ويتبعون هواهم ويطالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلامة على تصديق ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٤-١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: «يعني: أن القبلة إلى الكعبة هي الحق وهي قبلة إبراهيم عليه السلام، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، يعني: جحودهم القبلة إلى الكعبة فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ائتنا بعلامة على تصديق مقالتك وهم اليهود والنصارى، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنصارى بكل آية، أي: بكل علامة ما تبعوا قبلتك، أي: ما صلوا إلى قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم، أي بمصل إلى قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، يقال: معناه كيف ترجو أن يتبعوك ويصلوا إلى قبلتك وهم لا يتبعون بعضهم بعضًا»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾: أي: برهان وحجة على أن الكعبة قبلة، والمعنى ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها بالحجة، وإنما خالفوك مكابرة وعنادًا، ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، قطع لأطماعهم، فإنهم قالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره، تعزيرًا له وطمعًا في رجوعه.

وقبلتهم وإن تعددت لكنها متحدة بالبطلان ومخالفة الحق، ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، فإن اليهود تستقبل الصخرة، والنصارى مطلع الشمس لا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك، لتصلب كل حزب فيما هو فيه، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ على سبيل الفرض والتقدير، أي: ولئن اتبعتهم مثلا بعد ما بان لك الحق وجاءك فيه الوحي ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وأكد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٥٤.

(٢) تفسير السمرقندي، ١/ ١٠١.

تهديده ويالغ فيه[1].

ويتضح مما مضى عداوة وحقد بعض النصارى وغيرهم على الإسلام ومحاولتهم زعزعة عقيدتهم بالتشكيك في قبلة المسلمين ومطالبتهم النبي صلى الله عليه وسلم بعلامة على ذلك، فيبين الله تعالى لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام ولو جاءهم بكل علامة ما تبعوا قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض.

٧. الإيذاء والاستهزاء بالمؤمنين.

أخبر الله تعالى في آياته الكريمة عن إيذاء بعض أهل الكتاب للمسلمين وإستهزائهم بهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة:٥٧-٥٩].

أي: أن الله حذر المؤمنين ألا يتخذوا اليهود والنصارى أولياء، ووصفهم تعالى بأنهم اتخذوا الإسلام هزوًا ولعبًا، وهم قد أوتوا الكتاب من قبلنا، يعني: التوراة والإنجيل، ونهانا عن اتخاذهم أولياء، وأخبرنا أنهم اتخذوا ديننا هزوًا ولعبًا كما فعل أهل الكتاب، ومعنى اتخاذهم ديننا هزوًا ولعبًا: هو إيمانهم ثم كفرهم وإظهارهم خلاف ما يبطنون أخبر الله عنهم أنهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة:١٤].

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اتقوه في اتخاذهم أولياء، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدقين بالله»[2].

لما حكى في الآية الأولى عنهم أنهم اتخذوا دين المسلمين هزوا ولعبا ذكر ههنا بعض ما يتخذونه من هذا الدين هزوا ولعبا فقال: وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا قيل: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن بالمدينة يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله يقول: أحرق الكاذب. فدخلت خادمته بنار ذات ليلة فتطايرت منها شرارة في البيت، فاحترق البيت واحترق هو وأهله.

وقيل: كان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي للصلاة وقام المسلمون إليها، فقالت اليهود: قاموا لا قاموا، صلوا لا صلوا على طريق الاستهزاء، فنزلت الآية.

وقيل: كان المنافقون يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيرا للناس عنها.

وقيل: قالوا يا محمد لقد أبدعت شيئًا لم

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١١٢.

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، ٣/ ١٧٨٩.

يسمع فيما مضى، فإن كنت نبيا فقد خالفت فيما أحدثت جميع الأنبياء، فمن أين لك صياح كصياح العير، فأنزل الله هذه الآية[1].

ثم يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: «قل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: يا أهل الكتاب، هل تكرهون منا أو تجدون علينا في شيء إذ تستهزؤون بديننا، وإذ أنتم إذا نادينا إلى الصلاة اتخذتم نداءنا ذلك هزوًا ولعبا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ يقول: إلا أن صدقنا وأقررنا بالله فوحدناه، وبما أنزل إلينا من عند الله من الكتاب، وما أنزل إلى أنبياء الله من الكتب من قبل كتابنا، ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ يقول: وإلا أن أكثركم مخالفون أمر الله، خارجون عن طاعته، تكذبون عليه»[2].

ويتضح مما تقدم عداوة بعض أهل الكتاب من النصارى لدين الإسلام ومحاولتهم المستمرة في تمزيقه بشتى الأساليب والطرق للنيل منه ومن أتباعه قديمًا وحديثًا وذلك بالإيذاء والإستهزاء والكذب مع علمهم المسبق بما يجدونه في كتبهم بأن الإسلام هو دين الحق، ومع ذلك فهم مصرون على العند والكبر.

[انظر: أهل الكتاب: موقف أهل الكتاب من المسلمين]

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣٨٨.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٤٣٣.

ثالثًا: تحذير القرآن المسلمين من النصارى:

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة متنوعة في تحذير المسلمين وتنبيهم من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة من النصارى وغيرهم منها ما يأتي:

١. التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة:١٠٤].

وفي الآية دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد عن التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقرر عليها[3].

٢. يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة طائفة من الذين أوتوا الكتاب.

الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منحهم به من إرسال رسوله ويتمنوا أن يكونوا كافرين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران:١٠٠].

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٣٧٤.

أي: «حذر الله تعالى المؤمنين من إغواء الكفار وإضلالهم وناداهم بوصف الإيمان تنبيها على تباين ما بينهم وبين الكفار، ولم يأت بلفظ: «قل» ليكون ذلك خطابا منه تعالى لهم وتأنيسا لهم، وأبرز نهيه عن موافقتهم وطواعيتهم في صورة شرطية، لأنه لم تقع طاعتهم لهم»[(١)].

قال قتادة رحمه الله: «قد تقدم الله إليكم فيهم كما تسمعون وحذركم وأنبأكم بضلالتهم، فلا تأتمنوهم على دينكم، ولا تنصحوهم على أنفسكم، فإنهم الأعداء الحسدة الضلال، كيف تأتمنون قومًا كفروا بكتابهم، وقتلوا رسلهم، وتحيروا في دينهم، وعجزوا عن أنفسهم؟! أولئك والله هم أهل التهمة والعداوة»[(٢)].

٣. عدم الوقوع بما وقع فيه النصارى من الاختلاف والفرقة في دينهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥].

أي:ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم[(٣)].

والدعوة إلى الوحدة ونبذ الاختلاف والاعتصام بحبل الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران:١٠٣].

قال ابن عباس: «أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في الدين»[(٤)].

٤. التحذير من كتمان الحق مع العلم به وعدم تبينه للناس.

فإن هذا من صفات النصارى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧].

أي: أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب يعني: اليهود والنصارى، والمراد منهم: العلماء خاصة، وقيل المراد بالذين أوتوا الكتاب: العلماء والأحبار من اليهود خاصة وأخذ الميثاق هو التوكيد والإلزام لبيان ما أوتوه من الكتاب وهو قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾، يعني: لتبينن ما في الكتاب ولتظهرنه للناس حتى يعلموه وذلك أن الله أوجب

(١) انظر: البحر المحيط، ٣/ ٢٨١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٦٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٩١.
(٤) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٢٨٢.

على علماء التوراة والإنجيل أن يشرحوا للناس ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾، ولا تخفون ذلك عن الناس ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ يعني: الكتاب، وقيل: الميثاق ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: فطرحوه وضيعوه وتركوا العمل به ﴿وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾، ذمهم الله تعالى على فعلهم ذلك[1].

ولعنهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة:١٥٩].

وظاهر هذه الآيات وإن كان مخصوصا بعلماء أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فلا يبعد أن يدخل فيه علماء هذه الأمة الإسلامية لأنهم أهل كتاب وهو القرآن وهو أشرف الكتب[2].

٥. حذر القرآن الكريم في بعض آياته الكريمة المسلمين من موالاة أهل الكتاب من النصارى.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة:٥١].

أي: «لا تعتمدوا على الاستنصار بهم، ولا تتوددوا إليهم، ولا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصافونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين، ثم علل النهي بقوله ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: إنما يوالي بعضهم بعضا لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر، فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم ومن يتولهم منكم فإنه من جملتهم وحكمه حكمهم، وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله»[3].

وورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر رضي الله عنه، وقال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارئ لنا كتابا في المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع أن يدخل المسجد، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا بل نصراني، قال: فانتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة:٥١][4].

ومع أن الله تعالى ذكر في هذه الآية الكريمة: أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، ولكنه بين في موضع آخر ذكرناه

(١) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٣٠.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣٧٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٣٢.

فيما مضى في المبدلين دينهم وعاقبتهم من النصارى حيث أن ولاية بعضهم لبعض ليست خالصة لله تعالى، بل تقوم على أساس عداوتهم لدين الإسلام، لذلك بين أن العداوة والبغضاء بينهم باقية ومستمرة إلى يوم القيامة، بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة:١٤].

٦. التحذير من موالاتهم ومشابهتهم في الاستهزاء في الدين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة:٥٧].

أي: «أن أحدهم كان يظهر للمؤمنين الإيمان وهو على كفره مقيم، ثم يراجع الكفر بعد يسير من المدة بإظهار ذلك بلسانه قولا بعد أن كان يبدي بلسانه الإيمان قولا وهو للكفر مستبطن تلعبًا بالدين واستهزاءً به، كما أخبر تعالى ذكره عن فعل بعضهم ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٤- ١٥][1]».

٧. التحذير من مشابهتهم في فعل المنكرات.

حيث ذمهم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٩].

أي: «لا ينهى بعضهم بعضًا عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيؤوا له، أو لا ينتهون عنه من قولهم تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم»[2].

والدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإلتزام بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤].

ولا يتحقق هذا الأمر إلا بالعودة إلى الله تعالى والتزام شرعه وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه

(١) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٤٢٩.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٣٩.

إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[1].

وهناك كثير من الآيات الكريمة في القرآن الكريم غير التي ذكرت تحذر المسلمين من النصارى وغيرهم وتبين صفاتهم وأخلاقهم وعداوتهم وحقدهم على الإسلام وأهله.

سماحة الإسلام مع النصارى

بعد بيان عقائد النصارى ودعاواهم الباطلة ومحاولاتهم للنيل من دين الإسلام نتطرق في هذا المبحث إلى نماذج من سماحة الإسلام في التعامل معهم، حيث إن الإسلام دين السماحة والرحمة والعفو والإحسان والعدالة والإنصاف مع المسلمين وغير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم، والمتأمل في القرآن الكريم يرى بوضوح كيف تعامل الإسلام مع أهل الكتاب من النصارى، وكيف أنصفهم وبين المبادئ الصحيحة لدينهم وبين منزلة عيسى عليه السلام دون غلو، فدين الإسلام لا يتنافى مع ما جاء به عيسى عليه السلام، لذا نرى أنه أعطى حقوق أهل الكتاب من النصارى وأنصفهم، وهذا ما سوف نراه من خلال استقراء بعض الآيات القرآنية كما يأتي:

١. العفو والصفح عنهم والصبر على أذاهم.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة:١٠٩].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ٤/ ١٧٥، رقم ٣٤٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، ٣/ ١٣١٥، رقم ١٦٨٨.

أي: «فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ في رأي أشاروا به عليكم في دينكم، إرادة صدكم عنه، ومحاولة ارتدادكم بعد إيمانكم، وعما سلف منهم من قيلهم لنبيكم صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء:٤٦].

واصفحوا عما كان منهم من جهل في ذلك حتى يأتي الله بأمره، فيحدث لكم من أمره فيكم ما يشاء، ويقضي فيهم ما يريد، فقضى فيهم تعالى ذكره، وأتى بأمره، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين به: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:٢٩].

فنسخ الله جل ثناؤه العفو عنهم والصفح، بفرض قتالهم على المؤمنين، حتى تصير كلمتهم وكلمة المؤمنين واحدة، أو يؤدوا الجزية عن يد صغارا»[١].

وليس في قتالهم انتقام منهم، بل فيه ما يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله، واذا آمنوا بذلك نجوا من العقاب، وفازوا بعظيم الثواب؛ فيصير القتال رحمة لهم لا عقوبة[٢].

٢. عدم إكراههم على الدخول في الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦].

ومع ذلك فأن الله تعالى دعا أهل الكتاب للإيمان والإسلام في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠].

أي: «ولو صدق أهل التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من عند الله؛ لكان خيرًا لهم عند الله في عاجل دنياهم وآجل آخرتهم»[٣].

ولا شك أن الإيمان خير لهم من الكفر.

٣. إيمان كافة المسلمين بأن عيسى رسول ونبي بعثه الله تعالى لبني إسرائيل بعد موسى عليه السلام.

شأنه شأن الأنبياء والرسل الذين من قبله دون تفريق بين نبي ونبي، فكلهم أنبياء الله تعالى ورسله الكرام عليهم الصلاة والسلام، والإيمان بما أنزل معه من الإنجيل كما قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا

(١) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٠٤.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٢٨١.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٧/ ١٠٧.

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥].

أي: «يقولون آمنا بجميع الرسل ولا نكفر بأحد منهم ولا نفرق بينهم كما فرقت اليهود والنصارى»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: (أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات[(٢)]، ليس بيني وبينه نبي)[(٣)].

٤. دعوتهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤].

أي: «تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم لا يختلف فيها الرسل والكتب، ألا نعبد إلا الله أن نوحده بالعبادة ونخلص فيها، ولا نشرك به شيئًا ولا نجعل غيره شريكًا له في استحقاق العبادة ولا نراه أهلًا لأن يعبد»[(٤)].

٥. تكريمهم بمناداتهم (يا أهل الكتاب).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٨-٩٩].

٦. إباحة الأكل من طعامهم، والزواج من نسائهم.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة:٥].

٧. حذر القرآن الكريم النصارى ونبههم من الوقوع في الكفر، ليبين لهم أنهم ليسوا على الجادة الصحيحة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٤٢٥.
(٢) أولاد علات: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣/ ٢٩١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها)، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٢.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ٢١.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾
مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا
يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ
لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ
﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة:٧٢-٧٦].

٨. ثناء القرآن الكريم على طائفة من مؤمني النصارى بأنهم أقرب الناس مودة إلى المسلمين.

قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ
عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى
الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا
عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا
مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ
الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة:٨٢-٨٥].

والمراد به النصارى الذين أسلموا، وفي سياق الآية دليل عليه، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾[1].

٩. من سماحة الإسلام مع النصارى أنه رفع من شأن عيسى وأمه عليهما السلام.

حيث سمى في القرآن الكريم سورة باسم مريم عليها السلام، وذكر قصة عيسى عليه السلام كاملة دون تحريف من ولادته إلى أن رفعه الله تعالى إليه.

١٠. حسن الحوار معهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ
الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت:٤٦].

أي: ولا تجادلوا أيها المؤمنون بالله وبرسوله اليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن بالجميل من القول، وهو الدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه[2].

١١. مضاعفة الأجر لمن آمن منهم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن
قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا
بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

(١) تفسير السمرقندي، ١/ ٤١١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٤٦.

[القصص:٥٢-٥٤].

أي: «يؤتون أجرهم مرتين مرة على إيمانهم بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن، بما صبروا بصبرهم وثباتهم على الإيمانين، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى المشركين ومن هاجرهم من أهل دينهم، ويدرؤن بالحسنة السيئة ويدفعون بالطاعة المعصية»[(١)].

١٢. شهد القرآن الكريم بانتصار الروم على الفرس، وهو نصر لله تعالى باعتبار أن النصارى هم أهل كتاب خلافًا للمجوس الوثنيين.

قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم:٢-٥].

قال أبو حيان الأندلسي: «وحين غلب الروم فارس سر رسول الله صلى الله عليه وسلم لغلبة أهل الكتاب لأهل عبادة النار، ولإهلاك العدو الأكبر بالعدو الأصغر إذ كان مخوفا على أهل الإسلام»[(٢)].

١٣. حقن وصيانة دمائهم، وذلك بتخييرهم بين الإسلام أو الجزية.

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة:٢٩].

بخلاف الكافرين والمشركين حيث أبيحت دماؤهم.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد:٤].

أي: يعطوا الخراج عن رقابهم، الذي يبذلونه للمسلمين دفعًا عنها[(٣)]، وهذا في حالة عدم إسلامهم، أما إذا أسلموا فلا جزية عليهم فحالهم حال المسلمين.

١٤. وصف قلوب المؤمنين منهم بالرأفة والرحمة.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧].

أي: الحواريون الذين اتبعوا عيسى على منهاجه وشريعته فيهم مودة للإسلام وأهله، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، وهو أشد الرحمة فكان يواد بعضهم بعضا، وقيل: هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرفوا

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ١٨١.
(٢) البحر المحيط، ٤/ ٣٤٣.
(٣) جامع البيان، الطبري، ١٤/ ١٩٩.

الكلم عن مواضعه[1].

١٥. عدالته مع النصارى.

قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة:٨].

أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، كالنساء والضعفة منهم أن تبروهم وتحسنوا إليهم وتقسطوا إليهم، أي: تعدلوا إن الله يحب المقسطين[2].

قال الزمخشري: «لا ينهاكم عن مبره هؤلاء، وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء، وهذا أيضا رحمة لهم لتشددهم وجدهم في العداوة متقدمة لرحمته بتيسير إسلام قومهم، حيث رخص لهم في صلة من لم يجاهر منهم بقتال المؤمنين وإخراجهم من ديارهم»[3].

والمتأمل في القرآن الكريم يجد الآيات العديدة والمتنوعة في بيان سماحة الإسلام مع النصارى وغيرهم، وأن هذا التسامح هو جوهر تعاليم الإسلام التي جاءت لتحفظ كرامة الإنسان وحقوقه حتى وإن كان من غير المسلمين.

ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم على تلك السماحة حين تعامل مع النصارى بغاية التسامح عندما كتب لأهل نجران في عقد الصلح: (ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم، لا يغيروا أسقفا عن أسقفيته، ولا راهبا عن رهبانيته، ولا واقفا عن وقفانيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس ربا ولا دم جاهلية، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين لنجران، ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم آخر وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي أبدا حتى يأتي الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم)[4].

موضوعات ذات صلة:

الإنجيل، أهل الكتاب، عيسى عليه السلام، مريم، اليهود

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٢٠٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٢٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٦٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٩٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٥١٦.
(٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ١/ ٢٢٠.

النصر

عناصر الموضوع

مفهوم النصر	١٧٢
النصر في الاستعمال القرآني	١٧٣
الألفاظ ذات الصلة	١٧٥
الله سبحانه وتعالى خير الناصرين	١٧٧
أنواع النصر	١٧٩
سنن النصر وقواعده	١٨١
أسباب النصر	١٨٧
عوائق النصر	١٩٨
المعبودات من دون الله والنصر	٢٠٧
مبشرات النصر	٢٠٩
ثواب الناصرين	٢١٤

مفهوم النصر

أولًا: المعنى اللغوي:

النون والصاد والراء أصل صحيح يدل على إتيان خير وإيتائه، ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم، ينصرهم نَصْرًا، وانتصر: انتقم، وأما الإتيان فالعرب تقول: نَصَرْتُ بلد كذا: إذا أتيته، ويسمى المطر نَصْرًا، ونصرت الأرض، فهي منصورة، والنصر: العطاء، والنصر: العون[1].

نَصَرَهُ على عَدوِّه، يَنْصُرُه نَصْرًا، والاسم النُّصْرَةُ، والنَّصيرُ، والناصِرُ، وجمعه أنصارٌ كشريفٍ وأشرافٍ، وجمع الناصر: نصرٌ كصاحبٍ وصحبٍ، واستنصره على عدوه: سأله أن ينصره عليه، وتناصر القوم: نصر بعضهم بعضًا، والنصارى جمع نصرانٍ ونصرانةٍ[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف النصر في معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، فهو يتضمن عدة معانٍ، منها: العون، والتأييد، والعطاء، ودفع الضر، فنصر فردٍ أو جماعة يشمل إعانتهم بالقول أو الفعل، وتأييدهم بالقول أو الفعل، وإعطاءهم ما ينصرهم، ويدفع الضر عنهم، وإلى هذا أشار الشوكاني رحمه الله بقوله: «هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم»[3].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٥، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٨٧٠.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٠٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٠٩.

النصر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نصر) في القرآن الكريم (١٥٥) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٤٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٥	﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]
الفعل المضارع	٤٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد:٧]
فعل الأمر	٨	﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝٢٥٠﴾ [البقرة:٢٥٠]
المصدر	٢٢	﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة:٢١٤]
اسم الفاعل	١٥	﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق:١٠]
الجمع	١١	﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾ [البقرة:٢٧٠]
الصفة المشبهة	٢٤	﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٠٧﴾ [البقرة:١٠٧]
اسم المفعول	٢	﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾ [الإسراء:٣٣]

وجاء النصر في الاستعمال القرآني على أربعة أوجه[٢]:

الأول: المنع: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]. يعني: ولا هم يمنعون.

الثاني: العون: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب النون، ص١٣٢٥-١٣٢٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٥٣، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٥٨٦-٥٨٧.

الثالث: الظفر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ يعني: وما الظفر ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

الرابع: الانتقام: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ [الشورى: ٤١]. **يعني: انتقم.**

الألفاظ ذات الصلة

١ الفتح:

الفتح لغةً:

الفاء والتاء والحاء أصلٌ صحيح يدل على خلاف الإغلاق. يقال: فتحت الباب وغيره فتحًا. ثم يحمل على هذا سائر ما في هذا البناء. فالفتح والفتاحة: الحكم، والله تعالى الفاتح أي: الحاكم.

والفتح: الماء يخرج من عينٍ أو غيرها، والفتح: النصر والظفر، واستفتحت: استنصرت[١].

الفتح اصطلاحًا:

إزالة الإغلاق والإشكال؛ بصرًا وبصيرةً[٢].

الصلة بين النصر والفتح:

النصر: الإغاثة والإظهار على العدو، والفتح: إظهار على العدو بفتح البلاد دون إغاثة[٣].

٢ ظفر:

ظفر لغةً:

الظاء والفاء والراء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على القهر والفوز والغلبة، والآخر على قوةٍ في الشيء، ولعل الأصلين يتقاربان في القياس، والظفر: الفوز، وأصله من: ظفر عليه. أي: نشب ظفره فيه[٤].

ظفر اصطلاحًا:

غلبة وقهر الآخرين بالقوة والسيطرة عليهم.

الصلة بين النصر والظفر:

النصر: هو العلو على المنازع والخصم والمناوئ المشاغب ككل، الظفر: العلو على المنازع قد يكون واحدا أو أكثر[٥].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٦٩.
(٢) انظر: مفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص٦٢١.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٨١٠.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٦٦، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٥.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص١٨٩.

٣ الفوز:

الفوز لغةً:

الفاء والواو والزاي كلمتان متضادتان، فالأولى: النجاة، والأخرى: الهلكة.

فمن الأولى قولهم: فاز يفوز، إذا نجا، وهو فائز، وفاز بالأمر: إذا ذهب به وخلص، ويقال هذا لمن ظفر بخير وذهب به، والكلمة الأخرى قولهم: فوز الرجل، إذا مات وهلك[١].

الفوز اصطلاحًا:

«الظفر بالخير مع حصول السلامة»[٢].

الصلة بين النصر والفوز:

النصر: هو الخلاص من اضطهاد وسيطرة الآخرين مع إذلالهم، الفوز: هو الخلاص من المكروه مع الوصول الى المحبوب[٣].

٤ الظهور:

الظهور لغةً:

الظاء والهاء والراء أصل صحيح واحد يدل على قوة وبروز، من ذلك: ظهر الشيء يظهر ظهورا فهو ظاهر، إذا انكشف وبرز، والظهور: الغلبة[٤].

الظهور اصطلاحًا:

تكلف المظاهرة، وهو تسند القوة، كأنه استناد ظهر إلى ظهر[٥].

الصلة بين النصر والظهور:

النصر: يكون بقصد مخطط له، والظهور: يكون بقصد وبغير قصد[٦].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٥٩.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٤٧.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢١٠.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٧١.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ١/ ٩٩.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص٣٤٣.

الله سبحانه وتعالى خير الناصرين

ذكر سبحانه وتعالى أنه خير الناصرين لأوليائه، وأن الكافرين ليس لهم نصير يمنعهم من عذابه.

أولًا: الله سبحانه وتعالى نصير المؤمنين:

أخبر سبحانه وتعالى أنه المتولي للمؤمنين تولي عناية، والناصر لهم من أعدائهم.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

أي: «ونعم الناصر من الأعداء»[(١)]، فيدفع عن المؤمنين «كيد الفجار، وتكالب الأشرار»[(٢)]، وعطف على ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ قوله: ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾؛ لما في المولى من معنى النصر[(٣)].

ثانيًا: الكافرون لا نصير لهم:

أخبر سبحانه وتعالى أن الكافرين يحرمون النصير؛ بسبب كفرهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

أي: «والكافرون بالله ما لهم من ولي يتولاهم يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله حين يعاقبهم، فينقذهم من عذابه، ويقتص لهم ممن عاقبهم»[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٥٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢١.
(٣) التحرير والتنوير ٩/ ١٠٠.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٧٢.

وأخبر عز وجل أن المنافقين لا يجدون من يدفع عنهم عذاب الله.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

أي: ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من أليم العذاب[1].

وأخبر سبحانه وتعالى أن المستنكفين عن عبادته والمستكبرين عنها لا يجدون من دون الله من ينجيهم من عذابه إذا حل بهم.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣].

أي: «ولا يجد المستنكفون عن عبادته والمستكبرون عنها إذا عذبهم الله الأليم من عذابه سوى الله لأنفسهم وليا ينجيهم من عذابه وينقذهم منه، ولا ناصرا ينصرهم، فيستنقذهم من ربهم، ويدفع عنهم بقوته ما أحل بهم من نقمته، كالذي كانوا يفعلون بهم إذا أرادهم غيرهم من أهل الدنيا في الدنيا بسوء من نصرتهم والمدافعة عنهم»[2].

ويستفاد من الآيات: أنه من كان يعتمد عند الضيق في الدنيا على الأولياء والنصراء من دون الله؛ ليكفوا عنهم المصائب، يحرم النصير الذي يدفع عنه عذاب الله يوم القيامة.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٤٢.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٧١٠.

أنواع النصر

أشار القرآن الكريم إلى أن النصر منه المحمود ومنه المذموم، وسيتناول هذا المبحث هذه النوعين في النقاط الآتية:

أولًا: النصر المحمود:

وله صور، منها:

١. نصر الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أخذ الله الميثاق على كل نبي أنه إذا بُعِثَ محمد ليؤمنن به ولينصرنه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمدًا وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بُعِثَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه[(١)].

ويستفاد من الآية: علوُّ مرتبة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأنه أفضل الأنبياء -عليهم السلام- وسيدهم.

وأخبر الله سبحانه وتعالى أن المهاجرين هم الذين صدقوا قولهم بفعلهم عند خروجهم من ديارهم وأموالهم للجهاد في سبيل الله ونصرة رسول الله.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

أي: «وينصرون دين الله الذي بعث به رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم»[(٢)].

«وهي صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين، أخرجوا إخراجًا من ديارهم وأموالهم، أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم في مكة، لا لذنب ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾.

وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ اعتمادهم على الله في فضله ورضوانه. لا ملجأ لهم سواه، ولا جناب لهم إلا حماه، وهم مع أنهم مطاردون قليلون ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الساعات وأضيق الأوقات. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم، وصدقوها بعملهم، وكانوا صادقين مع الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٢٣.

في أنهم اختاروه، وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه، وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس!»[1].

وفي الآية: أن من دلائل الإخلاص ما يلحق العامل من مشاقٍّ وأذى وأضرار، فيحتمل ذلك ابتغاء مرضاة الله.

٢. نصر المظلومين والمستضعفين.

حَثَّ الله عز وجل عباده المؤمنين وهيجهم؛ لنصرة إخوانهم المستضعفين الذين وقع عليهم الظلم من الأعداء، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وهؤلاء المستضعفون يدعون الله أن يجعل لهم من ينصرهم على من ظلمهم، أي: «واجعل لنا من عندك من ينصرنا على من ظلمنا من أهل هذه القرية الظالم أهلها، بصدهم إيانا عن سبيلك حتى تظفرنا بهم ونعلي دينك»[2].

ويستفاد من الآية: أن الجهاد من أجل استنقاذ المستضعفين من أيدي أعدائهم أعظم أجرًا وأكبر فائدة من جهاد الطلب[3]؛ لأن هذا النوع من الجهاد من باب دفع الأعداء.

ثانيًا: النصر المذموم:

وله صور، منها:

١. نصر المعبودات من دون الله.

قال سبحانه وتعالى على لسان بعض قوم إبراهيم عليه السلام لبعض: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

«أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرًا مؤزرًا، فاختاروا له أفظع قتلة، وهي الإحراق بالنار، وإلا فقد فرطتم في نصرها»[4].

وأسند قول الأمر بإحراقه إلى جميعهم؛ لأنهم قبلوا هذا القول، والأمر في قولهم: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ مستعمل في المشاورة[5].

ومن هداية الآية: أن المبطل إذا أفحم بالحجة القاهرة لجأ إلى ما عنده من القوة؛ ليستعملها ضد أهل الحق، وهذه عادة الطغاة والمستبدين في كل وقت، يستشير بعضهم البعض ثم ينبعث أشقاهم بالفكرة المهلكة وينفذها.

وأن الحرق وسيلة من وسائل الطغاة في

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢٥.
(٣) جهاد الطلب: أن تطلب الكفار في عقر دارهم ودعوتهم إلى الإسلام وقتالهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام. انظر جهاد الطلب بين القدامى والمعاصرين، منير هاشم خضير العبيدي، مجلة البحوث والدراسات الاسلامية، السنة: ٢٠١٢، الاصدار: ٢٨، ص ٢٤٢.
(٤) أضواء البيان ٤/ ١٦٢.
(٥) التحرير والتنوير ١٧/ ٧٧.

محاربة أهل الحق؛ بقصد استئصالهم، وهذا ما حدث مع أصحاب الأخدود، وحدث مع ماشطة بنت فرعون وأبنائها، وحدث في العصر الحديث.

٢. نصر أعداء الأمة.

عادة أهل النفاق معاونة أعداء الأمة من اليهود والنصارى ونصرتهم على المسلمين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر:١١].

أي: وإن قاتلكم محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه لننصرنكم معشر بني النضير عليهم[(١)].

وهم -خذلهم الله- سبب كل بلية أصابت الأمة في ماضيها، وسبب كل بلية تصيب الأمة في حاضرها، وقد حصر الله العداوة فيهم؛ لأنهم في وسط المسلمين ويعرفون مواطن القوة والضعف، ويعرفون من أين يؤتى المسلمون؛ ثم يخبرون الأعداء بها، وخاصة إذا كانوا أهل قوة وسلطان.

قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

سنن النصر وقواعده

أولًا: سنن الله في نصر المؤمنين:

ومنها:

١. الابتلاء قبل النصر.

قرن سبحانه وتعالى في كتابه بين ابتلاء المؤمنين وتحقيق نصرهم على أعدائهم.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال الطبري رحمه الله في تفسير الآية: «أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتبتلوا بما ابتلوا واختبروا به من البأساء وهو شدة الحاجة، والفاقة، والضراء، وهي العلل، والأوصاب؛ ولم تزلزلوا زلزالهم، يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف، والرعب شدةٌ وجهدٌ حتى يستبطئ القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى الله ناصرنا. ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريبٌ، وأنه معليهم على عدوهم، ومظهرهم عليه، فنجز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نار

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٣٦.

حرب الذين كفروا»[1].

فهي سنته الجارية، التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه، لا بد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، فهو الصادق الذي تحققت فيه الأهلية؛ لينال نصر الله مؤتمنًا عليه، فمن حكمته تعالى أن يضع الأشياء في محلها اللائق بها. وفي الآية: بشارة من الله تعالى للمسلمين بقرب النصر إذا حصل لهم من الزلزلة ما يملأ القلوب رعبًا، والقصد منه إكرام هذه الأمة بأنها لا يبلغ ما يمسها مبلغ ما مس من قبلها من الأمم، وأن يجيء نصر الله لها قبل استبطائه.

لقد رسمت الآية طريق النصر: إنه طريق الإيمان والجهاد، ثم المحنة والابتلاء، ثم الصبر والثبات، ثم التوجه إلى الله وحده، ثم يجيء النصر.

وقد سئل أحد الصالحين: أيما أفضل للرجل، أن يمكن له أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن الرجل حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحًا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدًا عليهم السلام فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة[2].

٢. سنة التدافع.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] أي: «ولولا أن الله يدفع ببعض الناس -وهم أهل الطاعة له والإيمان به- بعضًا -وهم أهل المعصية لله والشرك به- كما دفع عن المتخلفين عن طالوت يوم جالوت من أهل الكفر بالله والمعصية له، وقد أعطاهم ما سألوا ربهم ابتداءً من بعثة ملكٍ عليهم؛ ليجاهدوا معه في سبيله بمن جاهد معه من أهل الإيمان بالله واليقين والصبر، جالوت وجنوده، ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ يعني: لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم، ففسدت بذلك الأرض، ولكن الله ذو مَنٍّ على خلقه، وتطوُّلٍ عليهم بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر»[3].

وعن علاقة التدافع بالنصر: قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ عطف على جملة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾، أي: أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم وضمن لهم النصر في ذلك الدفاع؛ لأنهم بدفاعهم ينصرون دين الله، فكأنهم نصروا الله[4].

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٦٣٦.
(٢) الفوائد، ابن القيم ص٢٦٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٤/ ٥١٤.
(٤) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٠٢.

«لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، ولولا أن طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها تعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة؛ لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، تنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء»[1].

٣. سنة التغيير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

تقرر هذه الآية سنة من سنن الله سبحانه وتعالى في التغيير في حياة الناس، وهي أن يكون التغيير مبنيًّا على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم.

«فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكلف مسؤول، سيد في الكون، عبد لله، قادر على تغيير ما حوله بقدر ما يغير ما بنفسه»[2].

لذلك لابد للمصلحين «أن يعتمدوا منهج التغيير النفسي على أنه وسيلتها في بناء مجتمع أفضل، تزدهر فيه قوى الخير، وتنتصر فيه إرادة الحق، والتغيير من قديمٍ سبيلُ إصلاح، وأسلوب بناء، وطريق بقاء»[3].

ثانيًا: قواعد النصر:

للنصر قواعد يقوم عليها منها:

١. النصر من عند الله سبحانه وتعالى.

إذا تتبعنا آيات النصر في القرآن نجد أنه قلما ذكر الله سبحانه وتعالى النصر من غير إضافته إليه، فالله سبحانه وتعالى هو النصير، وهو خير الناصرين، فهو سبحانه ينصر عباده المؤمنين على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم، ويعينهم عليهم. فالنصر حقُّ الله يمتن به على من يشاء من عباده؛ لحكم يعلمها ومنافع لعباده يقدرها.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال الشنقيطي رحمه الله: «ومعلوم أن هذه الإضافة هنا لها دلالة تمام وكمال، كما في بيت الله. مع أن المساجد كلها بيوت لله، فهو مشعر بالنصر كل النصر، أو بتمام النصر

(١) في ظلال القرآن، ١/ ٢٦٤- ٢٦٥.
(٢) الشباب و التغيير، ص ٢٨.
(٣) نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، ص ٣٦٤.

كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

وفي آيات أخر أخبر سبحانه وتعالى أنه واهب النصر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

والمعنى أن: «كل نصر هو من عند الله لا من الملائكة»[2].

والغرض منه: «أن يكون توكلهم على الله لا على الملائكة، وهذا تنبيه على أن إيمان العبد لا يكمل إلا عند الإعراض عن الأسباب والإقبال بالكلية على مسبب الأسباب»[3].

«وإجراء وصفي العزيز الحكيم هنا؛ لأنهما أولى بالذكر في هذا المقام؛ لأن العزيز ينصر من يريد نصره، والحكيم يعلم من يستحق نصره وكيف يعطاه»[4].

«وهكذا يحرص السياق القرآني على رد الأمر كله إلى الله، كي لا يعلق بتصور المسلم ما يشوب هذه القاعدة الأصيلة: قاعدة رد الأمر جملة إلى مشيئة الله الطليقة، وإرادته الفاعلة، وقدره المباشر، وتنحية الأسباب والوسائل عن أن تكون هي الفاعلة، وإنما هي أداة تحركها المشيئة، وتحقق بها ما تريده.

وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة في التصور الإسلامي، وعلى تنقيتها من كل شائبة، وعلى تنحية الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات عن أن تكون هي الفاعلة...؛ لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب، بين قلب المؤمن وقدر الله، بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط، كما هي في عالم الحقيقة»[5].

وفي موضع آخر أخبر سبحانه وتعالى أن النصر حق للمؤمنين أوجبه عز وجل على نفسه-ولم يوجبه عليه أحد- وجعله من جملة الحقوق المتعينة، ووعدهم به فلا بد من وقوعه.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الكافرين، ونحن ناصروك ومن آمن بك على من كفر بك، ومظفروك بهم[6].

«فسبحان الذي أوجب على نفسه نصر المؤمنين وجعله لهم حقًّا؛ فضلًا وكرمًا،

(١) أضواء البيان ٩/ ١٣٨.
(٢) التحرير والتنوير ٣/ ٢١٢.
(٣) مفاتيح الغيب ٨/ ٣٥٤.
(٤) التحرير والتنوير ٣/ ٢١٢.
(٥) في ظلال القرآن ١/ ٤٧٠.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥١٩.

وأكده لهم في هذه الصيغة الجازمة التي لا تحتمل شكًّا ولا ريبًا»[1].

وقد يتأخر هذا النصر أحيانًا -في تقدير البشر-؛ لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب الله، ويقدرون الأحوال لا كما يقدرها الله. والله هو الحكيم الخبير، يصدق وعده في الوقت الذي يريده ويعلمه، وفق مشيئته وسنته، وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر وقد لا تتكشف، ولكن إرادته هي الخير وتوقيته هو الصحيح، ووعده القاطع واقع عن يقين، يرتقبه الصابرون واثقين مطمئنين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا﴾ وجهان:

أحدهما: فانتقمنا، وكان الانتقام حقًّا، واستأنف فقال: ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وعلى هذا فيكون بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، أي: علينا نصركم أيها المؤمنون.

والوجه الثاني: كان ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: نصر المؤمنين كان حقًّا علينا.

وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى، أما على الأول فهو أنه لما قال ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ [الأعراف: ١٣٦].

بَيَّنَ أنه لم يكن ظلمًا وإنما كان عدلًا حقًّا، وذلك؛ لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الإثم وولادة الكافر الفاجر، وكان عدمهم خيرا من وجودهم الخبيث، وعلى الثاني تأكيد البشارة؛ لأن كلمة (على) تفيد معنى اللزوم، يقال: على فلان كذا: ينبئ عن اللزوم، فإذا قال: حقًّا أكد ذلك المعنى، فالنصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة، فإن إحدى الطائفتين إذا انهزمت أولاً، ثم عادت آخرًا لا يكون النصر إلا للمنهزم، وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم إلا نصرة، فالكافر إن هزم المسلم في بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة؛ إذ لا عاقبة له[2].

وأخبر سبحانه وتعالى أن النصر في الدنيا مما جبلت على محبته نفوس عباده.

قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

ففي الآية «إشارة إلى الامتنان عليهم بإعطائهم ما يحبون في الحياة الدنيا قبل إعطاء نعيم الآخرة»[3].

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].

قرن سبحانه وتعالى بين النصر والفتح، وقدم النصر على الفتح؛ لأن النصر سبب الفتح، ومفتاح له.

٢. مَنْ نصر الله عز وجل نصره الله.

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٧٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٠٨.

(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٧٥.

ذكر الله عز وجل في سورة الحج عن هذه القاعدة فقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

أي «وليعينن الله من يقاتل في سبيله؛ لتكون كلمته العليا على عدوه، فنصر الله عبده: معونته إياه، ونصر العبد ربه: جهاده في سبيله؛ لتكون كلمته العليا»[(١)].

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ عطف على جملة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾، أي: أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم. وضمن لهم النصر في ذلك الدفاع؛ لأنهم بدفاعهم ينصرون دين الله، فكأنهم نصروا الله[(٢)].

وأخبر عز وجل في سورة محمد أن المؤمنين إن نصروه نصرهم على أعدائهم، وعصمهم من الفرار والهزيمة

قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ومناسبة هذه الآية لما سبقها: أنه لمَّا ذكر أنه لو شاء الله لانتصر منهم علم منه أن ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنما أراد منه نصر الدين بخضد شوكة أعدائه الذين يصدون الناس عنه، أتبعه بالترغيب في نصر الله والوعد بتكفل الله لهم بالنصر إن نصروه، وبأنه خاذل الذين كفروا بسبب كراهيتهم ما شرعه من الدين[(٣)].

ونصر المؤمنين لله أن تتجرد نفوسهم له «وألا تشرك به شيئًا، شركًا ظاهرًا أو خفيًّا، وألا تستبقي فيها معه أحدًا ولا شيئًا، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها، وسرها وعلانيتها، ونشاطها كله وخلجاتها... فهذا نصر الله في ذوات النفوس.

وإن لله شريعة ومنهاجًا للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاصٍّ للوجود كله وللحياة. ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء، فهذا نصر الله في واقع الحياة»[(٤)].

٣. التأييد الإلهي والتأييد بالمؤمنين.

أخبر عز وجل أن من أسباب النصر تأييد المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وجعلت التقوية بالنصر؛ لأن النصر يقوي العزيمة، ويثبت رأي المنصور، وضده يشوش العقل، ويوهن العزم[(٥)].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه علق المسببات

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٨٧.
(٢) التحرير والتنوير١٧/ ٢٠٢.
(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٧١.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٨٨.
(٥) التحرير والتنوير ٩/ ١٥١.

بأسبابها المعتادة وهي أن يبلو بعض خلقه ببعض، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤].

يقول عز وجل: هذا الذي أمرتكم به أيها المؤمنون من قتل المشركين إذا لقيتموهم في حرب، وشدهم وثاقًا بعد قهرهم، وأسرهم، والمَنُّ والفداء ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[محمد:٤] هو الحق الذي ألزمكم ربكم، ولو يشاء ربكم ويريد لانتصر من هؤلاء المشركين الذين بين هذا الحكم فيهم بعقوبة منه لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه تعالى ذكره كره الانتصار منهم، وعقوبتهم عاجلا إلا بأيديكم أيها المؤمنون ﴿وَلِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[محمد: ٤].

يقول: ليختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق[(١)].

من هداية الآية: ضرورة بذل الجهد البشري؛ لتحقيق النصر.

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٩.

أسباب النصر

أولًا: الإيمان:

قرن سبحانه وتعالى في مواضع من القرآن بين الإيمان والنصر، وأخبر سبحانه وتعالى أن من أسباب النصر التي مضت بها سنته: الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤].

فالآية: «نص في تعليل النصر بالإيمان»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

فالإيمان سبب حقيقي من أسباب النصر المعنوية[(٣)].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه لا وعد منه بالنصر إلا لمن توافرت فيه صفات الإيمان ولوازمه من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن كان حظه من صفات الإيمان ولوازمه أكبر كان إلى نيل النصر أقرب.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

(٢) تفسير المنار ٧/ ٣١٧.
(٣) المصدر السابق.

ثانيًا: طاعة الله ورسوله:

أخبر سبحانه وتعالى أن من عوامل النصر طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم التي بها انتظام جيش المسلمين وجماعتهم.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وطاعة الله ورسوله تشمل اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين، مثل الغنائم. وكذلك ما يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من آراء الحرب[(١)].

ومن آراء الحرب ما قاله صلى الله عليه وسلم للرماة فيما روى البخاري في صحيحه: عن البراء رضي الله عنه قال: (لقينا المشركين يومئذٍ، وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشًا من الرماة وأمَّرَ عليهم عبد الله، وقال: (لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا). فلما لقينا (لقيناهم) هربوا حتى رأيت النساء يشتددن (يسندن) في الجبل رفعن (يرفعن) عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا. فأبوا. فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلًا)[(٢)].

وحدثت الهزيمة للمسلمين؛ لمخالفة الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتشمل طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة أمرائه في حياته، لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني)[(٣)].

وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لمساواتهم أمراءه الغائبين عنه في الغزوات والسرايا، في حكم الغيبة عن شخصه[(٤)].

ثالثًا: التأييد الإلهي:

أخبر عز وجل أنصاره بأنه مؤيدهم على عدوهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

عن مجاهد رحمه الله ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١٢٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحدٍ، رقم ٤٠٤٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، نحن الآخرون السابقون، رقم ٢٧٩٧.
(٤) التحرير والتنوير ٩/ ١٢٣.

﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ [الصف: ١٤] قال: قوينا[١].

وعلى قدر إيمان العبد يكون نصره وتأييده، «والنصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل، فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد»[٢].

والعبرة المستفادة من نداء المؤمنين في الآية: هي استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه، والاقتداء بمن قبلهم من الصالحين في نصرة الدين.

رابعًا: الصبر:

علق سبحانه وتعالى النصر بالصبر فقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٥-١٢٦].

وأخبر سبحانه وتعالى أن معيته مع الصابرين في جهادهم لعدوه وعدوهم فقال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

والمعنى: والله معين الصابرين على الجهاد في سبيله وغير ذلك من طاعته، وظهورهم ونصرهم على أعدائه الصادين عن سبيله، المخالفين منهاج دينه[٣].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن النصر مع الصبر فقال: (وأن النصر مع الصبر)[٤].

وهذا الحديث يشمل النصر في الجهادين: جهاد العدو الظاهر، وجهاد العدو الباطن، فمن صبر فيهما، نصر وظفر بعدوه، ومن لم يصبر فيهما وجزع، قُهِرَ وصار أسيرًا لعدوه أو قتيلًا له[٥].

فالصبر هو زاد الطريق للنصر «إنه طريق طويل شاقٌّ، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء، الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملالها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم،

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦٢٣.
(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٨٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٤/ ٤٩٦.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن عباس، رقم ٢٨٠٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٨٠٦.
(٥) جامع العلوم والحكم، ابن جب ١/ ٤٩٠.

وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء!

والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة من الألم والغيظ، والحنق والضيق، وضعف الثقة -أحيانًا- في الخير، وقلة الرجاء -أحيانا- في الفطرة البشرية، والملل والسأم واليأس -أحيانًا- والقنوط! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع»[1].

ومن هداية الآية: أن النصر محقق للمؤمن على قدر مشقته وصبره، بعد عون الله وتأييده له.

خامسًا: الدعاء:

أخبر سبحانه وتعالى في سياق الحديث عن قصة طالوت وجالوت، أنه لما واجه أهل الإيمان -وهم قليل من أصحاب طالوت- عدوهم أصحاب جالوت -وهم عدد كثير- دعوا الله أن يفرغ عليهم صبرًا، وأن يثبت أقدامهم في لقاء الأعداء، ويجنبهم الفرار، وأن ينصرهم على القوم الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

فاستجاب لهم ربهم، فأفرغ عليهم صبره، وثبت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين.

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١]

وأخبر سبحانه وتعالى عن الربنيين أنهم دعوه بغفران الذنوب وتكفير السيئات والثبات عند ملاقاة العدو، وأن ينصرهم على القوم الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨].

«فآتاهم الله ثواب الدنيا بالنصر والظفر بالعدو، والسيادة في الأرض، وما يتبع ذلك من الكرامة والعزة، وحسن السيرة وشرف

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٥٢.

الذكر وحسن ثواب الآخرة بنيل رضوان الله وقربه، والنعيم بدار كرامته»[1].

وفي الآية حثٌّ للمسلمين على الاقتداء بالمجاهدين من الأمم السابقة وفعل فعلهم.

وأثنى الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالتجائهم إليه وقت الكرب يوم بدر في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩ - ١٠].

روى مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدرٍ نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابه ثلاث مائةٍ وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكرٍ فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. فأمده الله بالملائكة)[2].

وأخبر عز وجل عن نوح عليه السلام أنه لما كذبه قومه وآذوه دعا ربه أن ينتصر لدينه منهم فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٩ - ١٦]

إلا أنه يجب التنبيه على أن اللجوء إلى الله يكون مع بذل ما في الطاقة والوسع؛ لأن الله لا ينزل نصره إلا على من يستحقونه، فهو الحكيم الذي يضع الأمور حسب ما تقتضيه الحكمة، «فالذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملًا، بكل ما في طاقتهم من جهد ثم يَدَعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة. وعندما يغلبون عليهم أن يلجؤوا إلى الناصر المعين، وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾.. ثم ينتظروا فرج الله القريب، وانتظار الفرج من الله

(١) تفسير المنار ٤/ ١٤٢. بتصرف يسير.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة، رقم ١٧٦٣.

عبادة، فهم على هذا الانتظار مأجورون»[1].

سادسًا: ذكر الله:

أمر الله عز وجل عباده المؤمنين عند ملاقاة عدوه وعدوهم بكثرة ذكره؛ لأنهم إن فعلوا ذلك تحقق لهم النصر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

عن قتادة رحمه الله قال: «افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون عند الضراب بالسيوف»[2].

«وذكر الله المأمور به هنا: هو ذكره باللسان؛ لأنه يتضمن ذكر القلب وزيادة، فإنه إذا ذكر بلسانه فقد ذكر بقلبه وبلسانه، وسمع الذكر بسمعه، وذكر من يليه بذلك الذكر، ففيه فوائد زائدة على ذكر القلب المجرد، وقرينة إرادة ذكر اللسان ظاهر وصفه بـ﴿كَثِيرًا﴾؛ لأن الذكر بالقلب يوصف بالقوة، والمقصود تذكر أنه الناصر»[3].

وذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى:

«إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب، والثقة بالله الذي ينصر أولياءه، وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها، فهي معركة لله؛ لتقرير ألوهيته في الأرض، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية، وإذن فهي معركة؛ لتكون كلمة الله هي العليا لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي، كما أنه توكيد لهذا الواجب -واجب ذكر الله- في أحرج الساعات وأشد المواقف»[4].

وفي الآية دليل على أن المسلم ينبغي له الإكثار من ذكر الله على كل حال، ألا ترى أنه أمر به في أصعب الأوقات وأشدها وهو وقت التحام القتال.

سابعًا: الثبات:

قرن سبحانه وتعالى بين الثبات والنصر في مواضع من كتابه، وهذا يدل على أنه سبب من أسباب النصر، ففي سياق الحديث عن قصة طالوت وجالوت، أثنى سبحانه وتعالى على دعاء أهل الإيمان الذين سألوه أن يثبت أقدامهم؛ حتى لا يفروا من مواقع القتال ويتحقق لهم الانتصار، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وأخبر سبحانه وتعالى عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من سؤالهم

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٩٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢١٣.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ١٢٢.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٢٨.

ربهم، أن يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

أي: «اجعلنا ممن يثبت لحرب عدوك وقتالهم، ولا تجعلنا ممن ينهزم فيفر منهم، ولا يثبت قدمه في مكان واحد لحربهم»[(١)].

وفي سياق الحديث عن غزوة بدر ذكر سبحانه وتعالى نعمته على المؤمنين المجاهدين من إنزال الماء؛ ليثبت به الأرض وتتماسك به الرمال، حتى لا تزل الأقدام في مواقع القتال.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

عن مجاهد: ﴿مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ أنزله عليهم قبل النعاس، طبق المطر الغبار، ولبد به الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به الأقدام[(٢)].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه أمر ملائكته بتثبيت المؤمنين المجاهدين في بدر، فقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

قيل في تفسيرها: «قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر، وقيل: احضروا معهم القتال، والقولان حق فإنهم حضروا معهم القتال وثبتوا قلوبهم»[(٣)].

فالثبات «هو بدء الطريق إلى النصر. فأثبت الفريقين أغلبهما، وما يدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون، وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون، فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار، وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا، وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها؟!»[(٤)].

وأخبر سبحانه وتعالى أن من نصر دينه ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم، يثبته على النصر وتكاليفه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ومن تكاليف النصر: «عدم الزهو به والبطر، وفي عدم التراخي بعده والتهاون. وكثير من النفوس يثبت على المحنة

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٢١.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٦٦.
(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٤٦.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٢٨.

والبلاء، ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء، وصلاح القلوب، وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر»[1].

ثامنًا: الأخذ بالحذر:

أمر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم؛ لاتقاء خدع الأعداء المتربصين بهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ٧١].

أي: «خذوا جُنَّتكم وأسلحتكم التي تتقون بها من عدوكم لغزوهم وحربهم»[2].

وقرن سبحانه وتعالى بين الحذر والسلاح؛ ليبين أن الحذر يكون بالعدة التي تناسب حالة العدو، وتمكن المؤمنين من اتقاء خدعهم وصد هجمتهم وإفشال رغبتهم في القضاء عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٠٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي: بما هداكم إليه من أسباب النصر، كإعداد كل ما يستطاع من القوة وأخذ الحذر، والظاهر أن العذاب ذا الإهانة هو عذاب الغلب وانتصار المسلمين عليهم، إذا قاموا بما أمرهم الله سبحانه وتعالى به من الأسباب النفسية والعملية.

ويؤيده قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٤][3].

والمتأمل في الآية يلحظ أنها جمعت في النظم بين إقامة الصلاة وهي الزاد الروحي، وبين السلاح وهو من العدة المادية؛ ليعلم المسلمون أن الاشتغال بأمور الدين -والصلاة عموده- لا يباعد بينهم وبين مصالح دنياهم وأعظمها الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، وليريهم أن صلاح الدين والدنيا صنوان.

«وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة في ساحة المعركة! ولكن هذا طبيعي بل بديهي في الاعتبار الإيماني، إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة، بل

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٢٨٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢١٧.
(٣) تفسير المنار ٥/ ٣٠٦.

إنها السلاح! فلابد من تنظيم استخدام هذا السلاح بما يتناسب مع طبيعة المعركة وجو المعركة!

ولقد كان أولئك الرجال -الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الرباني- يلقون عدوهم بهذا السلاح -الذي يتفوقون فيه- قبل أي سلاح، لقد كانوا متفوقين في إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة، ويشعرون أنه معهم في المعركة، متفوقين كذلك في إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله، ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعا، متفوقين أيضًا في تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم الإنساني، تفوقهم في تنظيمهم الاجتماعي الناشئ من تفوق منهجهم الرباني... وكانت الصلاة رمزًا لهذا كله، وتذكيرًا بهذا كله، ومن ثم كانت سلاحًا في المعركة، بل كانت هي السلاح!

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في هذا النصِّ هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو، وهذا الحذر الذي يوصى المؤمنون به تجاه عدوهم الذي يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم؛ ليميل عليهم ميلة واحدة!

ومع هذا التحذير والتخويف التطمين والتثبيت؛ إذ يخبرهم أنهم إنما يواجهون قومًا كتب الله عليهم الهوان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.. وهذا التقابل بين التحذير والتطمين، وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة هو طابع هذا المنهج في تربية النفس المؤمنة والصف المسلم، في مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم»[1].

وفي الآيات تعليم للمسلمين للأخذ بالأسباب، أي: إن أخذتم حذركم أمنتم من عدوكم بعد توكلكم على ربكم.

تاسعًا: إعداد القوة المادية:

أمر سبحانه وتعالى المؤمنين في سياق الحديث عن النصر بضرورة إعداد كل ما في الاستطاعة من قوة ولو بلغت القوة من التطور ما بلغت.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

إلى قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أعدوا لهم ما أطقتم أن تعدوه لهم من الآلات التي تكون قوة لكم عليهم من السلاح والخيل[2].

«فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٤٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٤٤.

تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شرُّ أعدائهم، وتعلم الرمي، والشجاعة والتدبير»[1].

وفي الآية دليل على ضرورة قيام أولى الأمر الذين هم وكلاء الأمة على مصالحها بإعداد جيوش المسلمين بكل أنواع الأسلحة التي تناسب كل عصر وتدخل في طاقتها، وتكون مرهبة للعدو، فالحق لا بد له من قوة تحميه.

ومن إعداد القوة المادية: عدد المقاتلين الصابرين، فإن للعدد تأثيرًا في النفوس للإقدام أو الإحجام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٥ - ٦٦].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنه: قال: «كان فرض على المؤمنين أن يقاتل الرجل منهم عشرةً من المشركين، قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾ فشق ذلك عليهم، فأنزل الله التخفيف، فجعل على الرجل أن يقاتل الرجلين»[2].

فالإسلام دين واقعي لا يغفل عما في العوامل المادية من قوة، وهو يقرر ما للإيمان من قوة، فالله أخبر المؤمنين أن عشرين صابرين يغلبون مائتين من الكافرين، وهذا قبل التخفيف، ولم يقل سبحانه وتعالى أن العشرين من المؤمنين الصابرين يغلبون ألفين؛ لأن المؤمنين الصابرين وإن كان لإيمانهم قوة إلا أن هذه القوة الإيمانية لها حد محدود في غلبة قوة الكفر والكافرين[3].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال:٤٣ - ٤٤].

عن عبد الله بن مسعود، قال: «لقد قللوا في أعيننا يوم بدرٍ حتى قلت لرجلٍ إلى

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦٧.

(٣) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، عبد الكريم زيدان، ص ٥٦.

جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائةً، قال: فأسرنا رجلًا منهم، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفًا»[1].

فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة، لتقدم كل منهما على الأخرى؛ ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ «ولقد كان في هذا التدبير الإلهي ما أغرى الفريقين بخوض المعركة، والمؤمنون يرون أعداءهم قليلًا؛ لأنهم يرونهم بعين الحقيقة!، والمشركون يرونهم قليلًا، وهم يرونهم بعين الظاهر، ومن وراء الحقيقتين اللتين رأى كل فريق منهما صاحبه بها تحققت غاية التدبير الإلهي، ووقع الأمر الذي جرى به قضاؤه ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، فهو أمر من الأمور التي مرجعها لله وحده، يصرفها بسلطانه، ويوقعها بإرادته»[2].

فعلى أولي الأمر مراعاة عدد المقاتلين الصابرين عند مواجهة الأعداء وحساب ذلك بدقة.

وبالرغم من ضرورة إعداد القوة المادية من آلات ومقاتلين إلا أنها لا تكفل وحدها النصر إلا بعد توفر الأسباب المعنوية التي هي العدة الحقيقية للنصر.

وبعد الانتهاء من أسباب النصر.

أقول قد تتوفر أسباب النصر السابقة لكن يؤخر الله النصر لحكم يعلمها، قد تتبين للمجاهدين، وقد لا تتبين، وقد ذكر سيد قطب رحمه الله بعض ما فتح الله عليه من أسباب بطء النصر فقال: قد يبطؤ النصر؛ حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليًا، لا تبذله هينًا رخيصًا في سبيل الله.

وقد يبطؤ النصر؛ حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر.

وقد يبطؤ النصر؛ لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته.

كما قد يبطؤ النصر؛ لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصًا، ويذهب وحده هالكًا.

وقد يبطؤ النصر؛ لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تمامًا، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريًا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطؤ النصر؛ لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة[3].

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٢٥١.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٢٧.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٤٢٧.

عوائق النصر

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه عوائق النصر؛ لتعليم المؤمنين التخلص والتطهر منها قبل مقابلتهم لعدوهم؛ حتى يكون النصر حليفهم، ومن هذه العوائق:

أولًا: التنازع والاختلاف:

نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن التنازع، مبينًا أنه سبب الفشل وذهاب النصر، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[الأنفال: ٤٦].

عن مجاهد رحمه الله قوله تعالى: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ قال: نصركم[(١)].

وبين سبحانه وتعالى أن نتيجة الفشل والتنازع هو ذهاب النصر والغنيمة، كما حدث للمسلمين في غزوة أحد، فإن النصر كان حليفهم لما التزموا أمر الرسول الكريم، ولما تنازعوا فيما بينهم وتركوا أمر الرسول أصابتهم الهزيمة، وذهب عنهم ما كانوا يحبون من النصر والغنيمة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢١٥.

عن البراء رضي الله عنه قال: (لقينا المشركين يومئذٍ، وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشًا من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله، وقال: (لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا) فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلًا، وأشرف أبو سفيان، فقال: أفي القوم محمدٌ؟ فقال: (لا تجيبوه) فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: (لا تجيبوه) فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أجيبوه) قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا: الله أعلى وأجل)، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أجيبوه) قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا الله مولانا، ولا مولى لكم) قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدرٍ، والحرب سجالٌ)[(٢)].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، رقم ٤٠٤٣.

«والنهي عن التنازع يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم، والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضًا، حتى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وقوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

والنهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور؛ لأنهم إذا نهوا عن التنازع بينهم فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي. ثم حذرهم أمرين معلومًا سوء مغبتهما وهما الفشل وذهاب الريح.

والفشل: انحطاط القوة، وهو هنا مراد به حقيقة الفشل في خصوص القتال ومدافعة العدو، ويصح أن يكون تمثيلا لحال المتقاعس عن القتال بحال من خارت قوته وفشلت أعضاؤه، في انعدام إقدامه على العمل. وإنما كان التنازع مفضيا إلى الفشل؛ لأنه يثير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعضٍ الدوائرَ، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضًا، وتوقع عدم إلقاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم فيتمكن منهم العدو، كما قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ [آل عمران: ١٥٢][(١)].

وما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار، فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم، مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة، فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها![(٢)].

«إن التنازع واختلاف الرأي حول أمر من الأمور قد يكون مطلوبا إذا صحبته نية حسنة، وكان الغرض منه إظهار الحق بالبرهان والحجة، وهو حينئذ أقرب إلى التشاور منه إلى الجدال والخصام.

إن اختلاف الأفهام واشتجار الآراء ليس بمستغرب في الحياة ولكن شريطة ألا يؤدي ذلك للتقاطع والشقاق، ولو تجردت النيات للبحث عن الحقيقة، وأقبل روادها وهم بعداء عن طلب الغلب والسمعة والرئاسة والثراء لصفيت المنازعات التي ملأت التاريخ بالأكدار والمآسي، إن الناس إذا لم يجمعهم الحق شَعَبَهُمُ الباطل، وإذا لم

(١) التحرير والتنوير ٩/ ١٢٣.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٢٩.

يستهوهم نعيم الآخرة تخاصموا على متاع الدنيا، ولهذا كان التنازع والتطاحن المر من خصائص الجاهلية المظلمة وديدن من لا إيمان لهم»[1].

فالنزاع جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم، فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها[2].

ثانيًا: الإعجاب بالكثرة:

هزم المؤمنون يوم حنين بقول أحدهم: «لن نغلب اليوم من قلةٍ»، وبإعجاب كثرتهم لمن أعجبته منهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وفي ذكر هذه الغزوة وما حدث فيها: قال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابرٍ عن أبيه جابر بن عبد الله قال: (خرج مالك بن عوفٍ بمن معه إلى حنينٍ فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، فأعدوا وتهيَّؤوا في مضايق الوادي وأحنائه، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحدٌ على أحدٍ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين يقول: (أيها الناس هلموا إلي أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله)، فلا شيء وركبت الإبل بعضها بعضًا، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس قال: (يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة) فأجابوه: لبيك لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائةٌ، فاستعرض الناس فاقتتلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار، ثم جعلت آخرًا بالخزرج وكانوا صبراء عند الحرب، وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركابه، فنظر إلى مجتلد القوم فقال: (الآن حمي الوطيس) قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقون، فقتل الله منهم من قتل وانهزم منهم ما انهزم، وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم)[3].

وروى البخاري بسنده عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنهما أن رجلا قال له:

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي ص ١٩٠، بتصرف واختصار.
(٢) الفروسية، ابن القيم ١/ ٥٠٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ١١٢.

(يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنينٍ؟ فقال: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، إن هوازن كانوا قومًا رماةً، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول: (أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب)[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه؛ ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلًا عليه، وعلمًا منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان»[2].

«وتخصيص يوم حنين بالذكر من بين أيام الحروب؛ لما فيه من العبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، وحصول الهزيمة عند إيثار الحظوظ العاجلة على الامتثال»[3].

ففي هذه الغزوة اجتمع فيها للمسلمين لأول مرة جيش عدته اثنا عشر ألفًا فأعجبتهم كثرتهم، وغفلوا بها عن سبب النصر الأول، فهزموا في أول المعركة، ثم نصرهم الله عز وجل بتأييده، ثم بالقلة المؤمنة التي ثبتت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والتصقت به؛ ليتعلم المؤمنون أن النصر من عند الله.

ثالثًا: المعاصي والذنوب:

بين سبحانه وتعالى السبب الخفي لامتناع النصر في غزوة أحد، وهو استزلال الشيطان للمؤمنين ببعض ذنوبهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾[آل عمران: ١٥٥].

أي: ببعض ذنوبهم السالفة[4].

فهؤلاء الذين هزموا وفروا «قد ضعفوا وتولوا بسبب معصية ارتكبوها، فظلت نفوسهم مزعزعة بسببها، فدخل عليهم الشيطان من ذلك المنفذ واستزلهم فزلوا وسقطوا، وفي هذا تصوير لحالة النفس البشرية حيث ترتكب الخطيئة فتفقد ثقتها في قوتها، ويضعف ارتباطها بالله، ويختل توازنها وتماسكها، وتصبح عرضة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم ٢٧٠٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١١٣.
(٣) التحرير والتنوير ١٠/ ٥٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٦.

للوساوس والهواجس»[1].

وأخبر سبحانه وتعالى أن ما يحصل من مصيبة انتصار العدو وغيرها إنما هو بسبب الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقال: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٤].

ولما علم المؤمنون آثار الذنوب في منع النصر لجؤوا إلى الله بالاستغفار؛ ليغفر لهم ذنوبهم قبل لقاء عدوهم، الاستغفار الذي يردهم إلى الله، ويقوي صلتهم به، قال تعالى مثنيًا على الربنيين في استعدادهم لملاقاة عدوهم: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

رابعًا: أهل النفاق:

قال تعالى مبينًا حكمة تثبيط المنافقين عن الخروج للقتال مع المؤمنين: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ [التوبة: ٤٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾: عجزًا و جبنًا، يعني: يجبنونهم عن لقاء العدو بتهويل أمرهم وتعظيمهم في صدورهم، ثم قال: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ أي: أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد، قال ابن عباس: يريد ضعفوا شجاعتكم، يعني: بالتفريق بينهم؛ لتفريق الكلمة، فيجبنون عن العدو[2].

«فالقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش، ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطرابًا وفوضى، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل، وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين»[3].

وقد بَيَّنَ الله عز وجل عدواتهم بقوله: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

«ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم، وأنهم لا عدو للمسلمين

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٩٧.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ١٧٦.

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٣.

سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعدواة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم -وهم في الباطن على خلاف دينهم- أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾، لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًّا من الكفار المجاهرين[1].

موقف أهل النفاق في أحد:

لما أذن مؤذن رسول الله بالخروج لأحد، خرج في ألف من أصحابه، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ثم عقد الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، وسار الجيش، وفي الطريق بصر النبي بكتيبة كبيرة فسأل عنها، فقيل له هؤلاء حلفاء ابن أبي من اليهود، فقال: (لا حاجة لنا فيهم، إنا لا نستعين بكافر على مشرك) ونعما فعل، فهم قوم مرنوا على الخيانة والنفاق فلا يؤمن جانبهم.

فلما وصلوا إلى الشوط[2] انخزل عبد الله بن أبي بثلاثمائة من أصحابه، وقال: «أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟»، فرجع من اتبعه من قومه من أهل النفاق والشك، فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر فقال: يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال، فلما استعصوا عليه، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه.

وفي هؤلاء المنخزلين نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧].

ولما رجع ابن أبي وأصحابه همت بنو

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ٤٠٢.

(٢) الشوط: مكان بين المدينة وأحد.

سلمة وبنو حارثة أن ترجعا، ولكن الله ثبتهما وعصمهما، وفي ذلك نزل قوله سبحانه: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢][(١)].

فأهل النفاق منخذلون في أنفسهم ومخذلون لغيرهم.

خامسًا: البطر والرياء:

نهى سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن التشبه بالمشركين في البطر والرياء في خروجهم للقتال، وفي استخدام نعمة القوة التي أعطاها الله لهم في غير ما أرادها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

أي: لا يكونن أمركم رياء ولا سمعة ولا التماس ما عند الناس، وأخلصوا لله النية والحسبة في نصر دينكم، ومؤازرة نبيكم[(٢)].

وقد كان من أعظم أنواع البطر والرياء ما قاله أبو جهل ومن معه حين قال: «لا نرجع حتى نأتي بدرًا فننحر بها الجزور[(٣)]، وتسقى بها الخمر، وتعزف علينا فيها القيان[(٤)]، وتسمع العرب»[(٥)].

ولما رأى رسول الله هذا الخروج من قريش قال: (اللهم هذه قريشٌ قد جاءت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني)[(٦)].

وقد جيء في الآيات في نهيهم عن البطر والرياء «بطريقة النهي عن التشبه بالمشركين؛ إدماجًا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم، وتكريها للمسلمين في تلك الأحوال؛ لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها، وتنكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند آخرين، وذلك أبلغ في النهي، وأكشف لقبح المنهي عنه»[(٧)].

إن خروج المؤمنين للجهاد في سبيل الله هو خروج «لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر، وتقرير عبودية العباد لله وحده، وخروج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله في تعبيد العباد له وحده، والتي تزاول الألوهية في الأرض بمزاولتها للحاكمية بغير إذن الله وشرعه، وخروج لإعلان تحرير الإنسان في الأرض من كل عبودية لغير الله، تستذل إنسانية الإنسان

(١) السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ٢/ ١٩٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢١٨.
(٣) الجزور: البعير ذكرًا كان أو أنثى.
انظر: النهاية في غريب الأثر: ١/ ٢٦٦.
(٤) القيان: الإماء والعبيد.
انظر: النهاية في غريب الأثر: ٤/ ١٣٥.
(٥) السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٦٧٤.
(٦) دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ١٠١.
(٧) التحرير والتنوير ٩/ ١٢٥.

وكرامته.

خروج لحماية حرمات الناس وكراماتهم وحرياتهم، لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر، وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد، وفي إقامة منهجه في الحياة، وفي إعلاء كلمته في الأرض، وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه»[1].

وفي الآيات: تعليم للمؤمنين في كل جيل ألا يستعملوا ما آتاهم الله من قوة في البطر والرياء، ولكن يستعملوها فيما أراده الله منهم من نصرة الحق وإبطال الباطل، وحماية الناس جميعًا من استبداد المستبدين وفساد المفسدين وطغيان الطاغين.

وقد ابتليت الأمة بحكام استخدموا القوة التي أنعم الله بها عليها في الاعتداء على الشعوب وقتلهم، لا لشيء إلا أنهم طالبوا بحقوقهم الضائعة وحريتهم المسلوبة من الاستبداد والطغيان. فنسأل الله أن يطهر الأرض من هؤلاء وأمثالهم.

سادسًا: الاستعجال:

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يصبر على تكذيب قومه كما صبر أولو العزم من الرسل على ما لاقوه من أقوامهم، وألا يستعجل النصر على مكذبيه وحلول العقوبة أو الهلاك بهم.

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

«لا تعجل بمسألتك ربك ذلك لهم، فإن ذلك نازل بهم لا محالة»[2].

من هداية الآية: أن الاستعجال ينافي العزم.

وأخبر سبحانه وتعالى المؤمنين المستعجلين النصر منه على مخالفيهم بسنته في النصر.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي: «يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة»[3].

ومن هداية الآية: أن النصر يتنزل على المؤمنين بقدر ما يتحملون من الشدة،

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٢٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٧٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٧.

وفيها: بشارة من الله تعالى للمسلمين بقرب النصر.

وأخبر سبحانه وتعالى أن سنته فيمن سبق من الرسل أن النصر ما كان يأتيهم عاجلًا لحكمة يعلمها.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

أي: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك[(١)].

ولما ذهب الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكون إليه من تأخر النصر ذكرهم بسنة الله في الأمم السابقة، فقد روى البخاري بسنده عن خباب بن الأرت قال: (شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا! فقال صلى الله عليه وسلم: (كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصبٍ وما يصده ذلك عن دينه، واللهِ ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[(٢)].

«والمعنى: لا تستعجلوا فإن من كان قبلكم قاسوا ما ذكرنا فصبروا، وأخبرهم الشارع بذلك؛ ليقوى صبرهم على الأذى»[(٣)].

فتلك سنة الله في النصر: «لابد من الشدائد، ولابد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس، يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون، ويحل بأس الله بالمجرمين، مدمرًا ماحقًا لا يقفون له، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير.

ذلك كي لا يكون النصر رخيصا فتكون الدعوات هزلا، فلو كان النصر رخيصًا لقام في كل يوم دعي بدعوة لا تكلفه شيئًا أو تكلفه القليل، ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثًا ولا لعبًا»[(٤)].

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦١٢.

(٣) عمدة القاري ١٦/ ١٤٥.

(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٣٦.

المعبودات من دون الله والنصر

أخبر سبحانه وتعالى أنه لما حل العذاب على الأمم السابقة لم تستطع الآلهة التي عبدوها من دون الله منعه عنهم في وقت هم أحوج ما يكون إلى نصرتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضًا.

وقوله عز وجل: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بيناها وأوضحناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وقوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ [الأحقاف: ٢٨]. أي: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها[1].

ولما أنزل عذابه على قوم عاد؛ ليذيقهم عذاب الإهانة في الدنيا لم يمنع عذابه عنهم ما عبدوا من دون الله، وسوف يحل عليهم عذاب الآخرة، ولن تستطيع المعبودات من دون الله منعه عنهم.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

والمعنى: «أن عادًا لا ينصرهم من الله يوم القيامة إذا عذبهم ناصر، فينقذهم منه، أو ينتصر لهم»[2].

وأخبر سبحانه وتعالى أن المعبودات من دون الله لا تستطيع منع العذاب عن نفسها يوم القيامة، وكذلك منعه عن عابديها وهم في العذاب محضرون.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٤﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٥﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩١ - ٩٤].

أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئًا، ولا تدفع عن أنفسها،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٦٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٠٢.

فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون[1].

وأخبر سبحانه وتعالى أن المعبودات من دون الله وعابديها في العذاب يتبرأ بعضهم من بعض.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥].

«في الماضي كانت الآلهة أصنامًا وأوثانًا، أو شجرًا أو نجومًا، أو ملائكة أو جِنًّا والوثنية ما تزال حتى اليوم في بعض بقاع الأرض، ولكن الذين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد، وقد يتمثل شركهم اليوم في الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله، وفي اعتمادهم على أسناد أخرى غير الله، والشرك ألوان، تختلف باختلاف الزمان والمكان.

ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة ابتغاء نيل النصر، بينما كانوا هم القائمون بحماية تلك الآلهة من أن يعتدي عليها معتدٍ أو يصيبها بسوء، فكانوا هم جنودها وحماتها المعدين لنصرتها ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ وكان هذا غاية في سخف التصور والتفكير، غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل، فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم، لا يبعدون كثيرا عن عباد تلك الأصنام والأوثان، فهم جند محضرون للطغاة، وهم الذين يدفعون عنهم ويحمون طغيانهم، ثم هم في الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين!»[2].

إن الإنسان في حياته المليئة بالابتلاءات يحتاج إلى من يدفع عنه البلاء، وإن وقع يحتاج من يفرغ عليه الصبر، والحق بذلك هو القوي العزيز سبحانه وتعالى، والمعبودات من دون الله لا تستطيع أن تدفع عن نفسها العذاب و لا عن عابديها، فكيف يعبد الضعيف الضعيف؟ ألا ما أسخف فَهْمَ هذه العقول!

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٣٥.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٦.

مبشرات النصر

بَشَّرَ الله في كتابه عباده المؤمنين المخلصين بجملة من البشارات والتي منها:

أولًا: الوعد الإلهي بالنصر:

وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بما وعد به المرسلين من النصر، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

قال ابن جرير رحمه الله «يقول القائل: وما معنى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه، ومثلوا به، كشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههما، ومنهم من هم بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيًا بنفسه، كإبراهيم عليه السلام الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقًا لقومه، وعيسى عليه السلام الذي رفع إلى السماء؛ إذ أراد قومه قتله، فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصره رسله والمؤمنين به في الحياة الدنيا، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومهم ما قد علمت، وما نصروا على من نالهم بما نالهم به؟

قيل: إن لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وجهين كلاهما صحيح معناه، أحدهما- أن يكون معناه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إما بإعلائهم على من كذبنا وإظفارهم بهم، حتى يقهروهم غلبة، ويذلوهم بالظفر ذلة، من ذلك ما فعله الله بداود وسليمان عليهما السلام فأعطاهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد صلى الله عليه وسلم بإظهاره على من كذبه من قومه، وإما بانتقامنا ممن حادهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل ممن كذبهم وعاداهم.

كالذي فعل تعالى ذكره بنوح عليه السلام وقومه، من تغريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى عليه السلام وفرعون وقومه؛ إذ أهلكهم غرقًا، ونجى موسى عليه السلام ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم، ونحو ذلك، أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء[1] بعد مهلكه، بتسليطنا على قتله من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلة يحيى عليه السلام، من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به وبجنده من قتلته له، وكانتصارنا لعيسى عليه السلام من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم بهم.

والوجه الآخر: أن يكون هذا الكلام

(١) نبي من أنبياء بني إسرائيل.

على وجه الخبر عن الجميع من الرسل والمؤمنين، والمعنى به خاص من الرسل والمؤمنين، فيكون تأويل الكلام حينئذ: إنا لننصر رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد[1].

وهذه سنة الله في خلقه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم، روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب)[2].

والنصر في الآخرة بالحكم لهم ولأتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة العقاب[3].

وقال سيد قطب رحمه الله: «وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها، وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها[4]! والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم، ولكن صور النصر شتى، وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة، إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها، أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟! ما من شك -في منطق العقيدة- أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار، كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار، هذه صورة وتلك صورة، وهما في الظاهر بعيد من بعيد، فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب! وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزًا محركًا للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزًا محركًا لخطى التاريخ كله مدى أجيال»[5].

وقد أخبر سبحانه وتعالى أن النصر قد سبقت به كلمة الله، وكلمات الله لا يمكن أن يبدلها مبدل، فنصر الرسل حتم لا بد منه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٤٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب إن حقا على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه، رقم ٦١٣٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٩.
(٤) كما فعل غلام الأخدود، نال الشهادة، فكانت سببًا في إيمان قومه، وكما حدث من مؤمن آل يس حيث قتله قومه وتمنى لهم الهداية لما رأى نعيم الجنة.
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٧.

فالآية الكريمة «تدل على أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأتباعهم منصورون دائما على الأعداء بالحجة والبيان، ومن أمر منهم بالجهاد منصور أيضًا بالسيف والسنان»[(١)].

هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية، سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء، ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء، لقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش، وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة، وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام، وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام، ولقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك، وتدور عليهم الدائرة، ويقسو عليهم الابتلاء؛ لأن الله يعدهم للنصر في معركة أكبر، ولأن الله يهيئ الظروف من حولهم؛ ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع، وفي خط أطول، وفي أثر أدوم[(٢)].

وأخبر سبحانه وتعالى أن نصر المؤمنين حق لهم، ألزم به نفسه الكريمة فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فهذه النصوص القرآنية بشارات للمؤمنين، وأدلة قاطعة لا مرية فيها أن نصر الله للمؤمنين واقع لا محالة في الوقت الذي يريد، وما على المؤمنين إلا أن يؤدوا واجبهم بأخذ الأسباب الموجبة للنصر، ولن يترهم الله ثواب أعمالهم.

ثانيًا: البشارة بظهور الدين:

أخبر سبحانه وتعالى أنه مظهر دينه على الأديان كلها.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

فيظهره ظهورين: ظهورًا بالحجة والبيان والدلالة، وظهورًا بالنصر والظفر والغلبة والتأييد؛ حتى يظهره على مخالفيه ويكون

(١) أضواء البيان ٦/ ٣٢١.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٠٢.

منصورًا[1].

«وظهور الإسلام على الدين كله حصل في العالم باتباع أهل الملل إياه في سائر الأقطار، بالرغم من كراهية أقوامهم وعظماء مللهم ذلك، ومقاومتهم إياه بكل حيلة، ومع ذلك فقد ظهر وعلا وبان فضله على الأديان التي جاورها، وسلامته من الخرافات والأوهام التي تعلقوا بها، وما صلحت بعض أمورهم إلا فيما حاكوه من أحوال المسلمين وأسباب نهوضهم، ولا يلزم من إظهاره على الأديان أن تنقرض تلك الأديان»[2].

وبعد هذا الظهور تخلى كثير من أصحاب دين الحق عنه خطوة فخطوة، بفعل عوامل داخلة في تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية، وبفعل الحرب الطويلة المدى، المنوعة الأساليب، التي أعلنها عليه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء.

لكن لم يخلو زمان من قائم لله بالحجة قاموا وحملوا على عاتقهم نصرة هذا الدين، وإن ذهبت أرواحهم وأموالهم فداءً له، وإن وعد الله قائم بنصرة هؤلاء إذا ساروا على نفس المنهج الذي سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم والأولون، وهذا ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم، عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[3].

قال النووي رحمه الله: «يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين؛ منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض»[4].

وهؤلاء موجودون ومنتشرون بفضل الله، ونراهم في الملمات التي تمر بها الأمة، ويلتف حولهم المسلمون من كل مكان نصرة للحق المبين، ووفاءً بعقد الإخوة في الدين.

ثالثًا: الوعد الإلهي بالاستخلاف:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ٣٠٧.
(٢) التحرير والتنوير ١٠/ ٧٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)، رقم ١٩٢٠.
(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣/ ٦٧.

«هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنًا وحكمًا فيهم»[(١)].

«وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها، فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض، ودينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض، ويأمر بعمارة هذه الأرض، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ومن رصيد ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله»[(٢)].

فهذا مقصد الاستخلاف في الأرض: الإصلاح والعدل والعمارة والانتفاع بكل نعم الله؛ ابتغاء مرضاة الله.

ولقد ابتليت الأمة بصنف من الحكام مكنوا في البلاد بغير رغبة من أهلها، فاستخدموا نعم الله على بلادهم في الاعتداء على أهلها وأذاقوهم سوء العذاب؛ حتى جعلت أهل البلد الواحد شيعًا يضرب بعضهم رقاب بعض، وصنف آخر استخدموا ما أنعم الله عليهم في تثبيت دعائم الظلمة والفجرة؛ حتى لا يستقر حكم الإسلام العادل في تلك البلاد.

وسنة الله جارية أن من استخدم نعمه في الظلم سلب منه هذه النعم، ونزع سلطانه، وجعل ما أنفقه على الظلمة والفجرة حسرة وندامة عليه، وأعطى هذا الملك من يقوم بين الناس بالعدل، فدولة العدل تدوم وإن كانت كافرة، ودولة الظلم تزول وإن كانت مسلمة.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧١.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٩.

ثواب الناصرين

أخبر سبحانه وتعالى في كتابه عن ثواب الناصرين لله ولرسوله؛ تحريضًا للمؤمنين بعدهم أن يسلكوا سبيلهم؛ ليحظوا بمثل ثوابهم.

أولًا: ثواب الناصرين في الدنيا:

الله سبحانه وتعالى يعتني بعباده المؤمنين المجاهدين في سبيله الناصرين لدينه المعينين لرسوله على الأعداء، ولذلك فقد جعل من المقاصد الشرعية للنصر تحقيق ما يحبون وما يكون سببًا في فرحهم:

١. الفرح بالنصر.

جبلت النفس على الفرح بما تحققه من نصر، فحقق الله للمؤمنين ما يفرحون به، وهذا يدل على مزيد عنايته بهم.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ قال: (غلبت وغلبت، قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثانٍ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتابٍ، فذكر ذلك لأبي بكرٍ، فذكره أبو بكرٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما إنهم سيغلبون)! فذكره أبو بكرٍ لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلًا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكرٍ للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (ألا جعلتها إلى دون-أراه قال:- العشر)! قال سعيد بن جبيرٍ: البضع ما دون العشر، ثم ظهرت الروم بعد قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ - ٥][1].

والنصر الذي يفرح به المؤمنون: «يحتمل أن يشار فيه إلى نصر الروم على فارس وهي نصرة الإسلام، ويحتمل أن يشار فيه إلى نصر يخص المؤمنين على عدوهم، وهذا أيضًا غيب أخبر به وأخرجه الوجود إما يوم بدر وإما يوم بيعة الرضوان، ويحتمل أن يشار به إلى فرح المسلمين بنصر الله إياهم في أن صدق ما قال نبيهم من أن الروم ستغلب فارس، فإن هذا ضرب من النصر عظيم»[2].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن العباس، ٤/ ٢٧٢.
وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٤١.

وأضيف النصر إلى اسم الجلالة؛ للتنويه بذلك النصر، وأنه عناية لأجل المسلمين[1].

فهذا النصر امتنان من الله؛ لإدخال الفرح على المؤمنين.

٢. شفاء صدور المؤمنين وإذهاب غيظ قلوبهم وتوبة الله على من يشاء.

من المقاصد الشرعية للنصر في مواضع القتال بين المؤمنين وأعدائهم، شفاء صدور المؤمنين وإذهاب غيظ قلوبهم، وتوبة الله على من يشاء.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٥].

«فإن في قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم؛ إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالا للغيظ الذي في قلوبهم، وهذا يدل على محبة الله لعباده المؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل -من جملة المقاصد الشرعية- شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم»[2]، بانتصار الحق كاملا، وهزيمة الباطل، وتشريد المبطلين، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين ينصرون، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم -وهذا ما كان فعلا-، وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم، وأجر هداية الضالين بأيديهم، وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين[3].

٣. تحقيق ما يحب المؤمنون.

أشار سبحانه وتعالى إلى امتنانه على عباده الناصرين لدينه بإعطائهم ما يحبون في الحياة الدنيا قبل إعطاء نعيم الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

«والمراد به النصر العظيم، وهو نصر فتح مكة، فإنه كان نصرا على أشد أعدائهم الذين فتنوهم وآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، وألبوا عليهم العرب والأحزاب، وراموا تشويه سمعتهم، وقد انضم إليه نصر الدين بإسلام أولئك الذين كانوا من قبل أئمة الكفر ومساعير الفتنة، فأصبحوا مؤمنين إخوانا وصدق الله وعده بقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾ [الممتحنة: ٧].

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٤٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٣١.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٦١٢.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]»[(١)]. وفي الآية: الإخبار بالغيب عن المستقبل، وهو من معجزات القرآن.

٤. الفلاح.

مَنَّ الله سبحانه وتعالى على عباده الذين أعانوا رسوله على أعداء الله وأعدائه بجهادهم بالفوز في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال مجاهد رحمه الله: «عزروه: سددوا أمره، وأعانوا رسوله، ونصروه على أعداء الله وأعدائه بجهادهم ونصب الحرب لهم»[(٢)]، أولئك هم الفائزون بالرحمة العظمى والرضوان، دون سواهم من أهل كل زمان ومكان، فمنهم الفائزون بدون ما يفوز به هؤلاء، كأتباع سائر الأنبياء، ومنهم الخائبون المخذولون؛ أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون[(٣)].

وفي الآية: تعظيم فضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنهم، ويلحق بهم من نصر دينه بعدهم إلى يوم القيامة.

٥. الثناء عليهم بالصدق.

أثنى الله على المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم ابتغاء مرضاته، ونصرة لله ورسوله بالصدق.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

أي: «هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين»[(٤)]. وفي الآية: الثناء على أهل الصدق ونشر محاسنهم؛ ليقتدي بهم المؤمنون.

ثانيًا: ثواب الناصرين في الآخرة:

١. المغفرة والرزق الكريم.

مدح الله سبحانه وتعالى المؤمنين من المهاجرين والأنصار الذين نصروا دينه وبشرهم بالمغفرة لذنوبهم وبالدرجات العلى من الجنة، ولهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

«آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٧٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ٤٩٧.
(٣) تفسير المنار ٩/ ١٩٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٦٨.

والمهاجرين معه، ونصروهم ونصروا دين الله، أولئك هم أهل الإيمان بالله ورسوله حقًّا -لا من آمن ولم يهاجر دار الشرك وأقام بين أظهر أهل الشرك ولم يغز مع المسلمين عدوهم- لهم ستر من الله على ذنوبهم بعفوه لهم عنها، ولهم في الجنة طعام ومشرب هنيءٌ كريم، لا يتغير في أجوافهم فيصير نجوًا، ولكنه يصير رشحًا كرشح المسك»[1].

وفي الآية: استواء المهاجرين والأنصار في النصرة للدين وفي الإيمان الصادق.

موضوعات ذات صلة:

التمكين، الثبات، الجهاد، القتال، المعية، الهزيمة

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٠٠.

النَّصِيحَة

عناصر الموضوع

مفهوم النصيحة	٢٢٠
النصيحة في الاستعمال القرآني	٢٢١
الألفاظ ذات الصلة	٢٢٢
أنواع النصيحة	٢٢٤
مجالات النصيحة	٢٢٧
لمن تكون النصيحة	٢٣٢
الانتفاع بالنصيحة	٢٤٠
نماذج من النصيحة في القرآن	٢٤٥
آثار النصيحة	٢٤٩

مفهوم النصيحة

أولًا: المعنى اللغوي:

(نصح) النون والصاد والحاء أصلٌ يدل على ملاءمةٍ بين شيئين وإصلاحٍ لهما، ونصح الشيء: خلص، والنصيحة: خلاف الغش، وهي كلمة جامعة مشتقة من مادة «ن ص ح» الموضوعة لمعنيين: أحدهما الخلوص والبقاء، والثاني: الالتئام والرفاء، وقومٌ نصح ونصاحٌ، والتنصح: كثرة النصيحة، نصحت له نصيحتي نصوحًا أي: أخلصت وصدقت، والاسم النصيحة، والنصيح: الناصح، وانتصحت فلانًا وهو ضد اغتششته، وانتصح فلانٌ أي: قبل النصيحة، والتوبة النصوح: أن لا يعود إلى ما تاب عنه[(١)].

ومن خلال ما سبق تبين أن النصيحة هي نقيض الغش، وهي تقديم النصح بإخلاص وإرادة الخير للمنصوحين، فهي تعني الخلوص والالتئام والرفاء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له، فليس يمكن أن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناها غيرها»[(٢)].

حقيقة النصح: إرادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك، أو النهاية في صدق العناية[(٣)].

قال الجرجاني: «النصيحة: هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد»[(٤)].

عرفها ابن الصلاح بقوله: «النصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلًا» [(٥)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٦١٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣٥، العين، الفراهيدي ٣/ ١١٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٦٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٦١٥.

(٣) انظر: النسفي، مدارك التنزيل ١/ ٥٧٦.

(٤) التعريفات ص ٢٤١.

(٥) انظر: اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص الحنبلي ١٠/ ١٧٠.

النصيحة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نصح) في القرآن الكريم (١٣) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٩١]
الفعل المضارع	٢	﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٢]
المصدر	١	﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ [هود:٣٤]
اسم الفاعل	٦	﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٨ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ۝١٩ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢٠﴾ [القصص:٢٠]
الصفة المشبهة	١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]

وجاءت النصيحة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: من الخلوص والبقاء؛ وذلك لأن الناصح يخلص للمنصوح له عن الغش، ومن الالتئام والرفاء؛ لأن الناصح يرفأ ويصلح حال المنصوح له كما يفعل الخياط بالثوب[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٠٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب النون ص١٣٢٥.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٦٣-٦٨، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ١٨٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوعظ:

الوعظ لغةً:

الواو والعين والظاء: كلمة واحدة، فالوعظ: التخويف، والعظة الاسم منه، والعظة والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب[(١)].

الوعظ اصطلاحًا:

قال ابن سيده: «هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثوابٍ وعقاب»[(٢)].

قال الجرجاني: «هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب»[(٣)].

الوعظ: «إهزاز النفس بموعود الجزاء ووعيده، وزجر مقترن بتخويف»[(٤)].

الصلة بين النصيحة والوعظ:

الوعظ هو تذكير الشخص بشيء قد يكون علمه ونسيه، أما النصيحة أعم قد تكون ابتداء لم يسبقه معرفة من المنصوح، وقد يكون تذكير كالوعظ، وكلاهما إرادة الخير للآخرين.

٢ الإرشاد:

الإرشاد لغةً:

(رشد) الراء والشين والدال أصل واحد يدل على استقامة الطريق، (الرشاد) ضد الغي، والمراشد: مقاصد الطرق، وهو نقيض الضلال، وأرشده الله: هداه، واسترشده: طلب منه الرشد، والإرشاد: الهداية والدلالة[(٥)].

الإرشاد اصطلاحًا:

هو الهداية إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا، والتنبيه إلى الرشد والفضيلة[(٦)].

الصلة بين النصيحة والإرشاد:

النصيحة هي إرادة الخير وتقديم النصح بإخلاص دون غش، والإرشاد هو تقديم النصح

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٢٦، مختار الصحاح، الرازي ص٣٤٢.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٦٥.
(٣) التعريفات ص٢٥٣.
(٤) المفردات، الراغب ص٥٢٧.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٩٨، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٧٥.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢٢١.

وتوجيه المنصوح إلى الوصول للهداية والصلاح.

٣ البلاغ:

البلاغ لغةً:

بلغ المكان بلوغًا: وصل إليه، أو شارف عليه، والاسم من الإبلاغ والتبليغ، وهما: الإيصال، والبلاغ: الإبلاغ وما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب[١]

البلاغ اصطلاحًا:

«الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، زمانًا أو مكانًا أو أمرًا من الأمور المقدرة»[٢].

وذلك يعني أن البلاغ هو إيصال الشيء على الوجه الصحيح ببلاغة وفصاحة لسان.

الصلة بين النصيحة والبلاغ:

البلاغ يعني بيان أمر ما وإيصاله للآخرين بطريقة تقوم به الحجة وتتضح به المحجة، ويشارك النصيحة في كون الغرض منه إرادة الخير.

٤ التعيير:

التعيير لغةً:

عير يعير، تعييرًا، فهو معير، والمفعول معير، عار الشخص: عابه، ذكر من صفاته أو أعماله ما يدعو إلى الخجل، عيره بذنبه: نسبه إلى العار، قبح عليه صفاته وفعله ومن ذلك عيره بجهله أو بهزيمته[٣].

التعيير اصطلاحًا:

إظهار السوء وإشاعته في قالب النصح، وزعم أنه إنما يحمله على ذلك العيوب إما عامًا أو خاصًا، وكان غرضه في الباطن التعيير والأذى[٤].

الصلة بين النصيحة والتعيير:

النصح يقترن به الستر، والتعيير يقترن به الإعلان، قال الفضيل: (المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير)، فالناصح غرضه بذلك إزالة عيب أخيه المؤمن واجتنابه له، والفاجر مقصودة تنقص أخيه المؤمن في إظهار عيوبه ومساويه للناس[٥].

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٧٨٠، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٤١٩.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٨٣.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٢٢٢، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٦٢٥.
(٤) انظر: الفرق بين النصيحة والتعيير، ابن رجب الحنبلي ص٢٢.
(٥) انظر: المصدر السابق، ص ١٧.

أنواع النصيحة

تنقسم النصيحة بطبيعة مقصودها والغرض منها إلى نوعين، النوع الأول النصيحة المحمودة، وهي التي دعانا لها الدين الإسلامي حيث تحمل في طياتها إرادة الخير للآخرين والحرص على مصالحهم وهدايتهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم، وتكون بأسلوب لين رقيق، والنوع الآخر هو النصيحة المذمومة التي تحمل اسم النصيحة قالبًا وشكلًا دون المضمون، فهي لا تخلو من الغش والخداع والمصالح الشخصية للناصح، وتعريض الأخرين للأذى والايقاع بهم في ما يضر بهم، وهذا النوع من النصيحة ليس من الدين بل هو مذموم ومنهي عنه، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: النصيحة المحمودة:

النصيحة المحمودة هي التي يراد بها الخير للآخرين، بحيث تكون سرًا لا علانية؛ لأن الغرض منها الإصلاح وليس الفضيحة أو التوبيخ، وتكون بلين ورفق وإخلاص نية من الناصح، والنصيحة المحمودة تحمل خيرًا بحيث تحمي الآخرين من العقاب والوقوع في الفساد وتسير بهم نحو الهداية والصلاح، فالنصيحة تحتاج إلى أمانة وصدق وإخلاص وصبر من الناصح، والأنبياء جميعهم كانت نصيحتهم محمودة صادقة تحمل الخير والشفقة فمضمونها الدعوة إلى توحيد الله وتصديق رسله وكتبه.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

برغم اسقاط الجهاد في حق أصحاب الأعذار من الضعفاء والمرضى الذين لا يقوون على الجهاد والذين لا يجدون ما ينفقون ولا قدرة لهم على تكاليف الجهاد، إلا أن هذه الآية بينت أنه لا حرج عليهم في تقديم النصح لله وللرسول، قال القرطبي في تفسيره: النصيحة لله إخلاص الاعتقاد في الوحدانية، ووصفه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وتعظيمه وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتخلق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم والنصح لأئمة المسلمين: ترك الخروج عليهم، إرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم والنصح للعامة: ترك معاداتهم، وإرشادهم، والدعاء لجميعهم وإرادة

الخير لكافتهم[1]، فهذه الآية الكريم بينت أن النصيحة المحمودة ينبغي أن تحمل الخير للآخرين بإرشادهم لما فيه صلاحهم وهدايتهم وذلك بدعوتهم إلى توحيد الله وطاعته، وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع كل ما جاء به من أوامر واجتناب نواهيه، وحث الآخرين على الجهاد وعدم تثبيطهم في حال عدم قدرتهم على الجهاد.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

ومن نماذج النصيحة المحمودة ما كان يقوم به الأنبياء من تبليغ رسالات ربهم لأقوامهم ونصحهم والاشفاق عليهم حرصًا على مصالح أقوامهم وخوفًا عليهم من التعرض لعقاب الله وعذابه، وهذه الآية تتحدث عن نبي الله صالح عليه السلام كيف أنه أبلغ قومه رسالات ربه ونصحهم ولم يتوقف عن نصحهم، بل حذرهم من عذاب الله واستمر في نصحهم دون جدوى، فقد كانوا قومًا لا يحبون النصيحة ولا يتقبلونها، وكان ما قاله صالح عليه السلام «على سبيل التفجع والتحسر عليهم: لقد بلغتكم الرسالة، وحذرتكم عذاب الله، وبذلت وسعي في نصيحتكم، ولكن شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم»[2].

فكانت نصيحته لقومه نصيحة محمودة تدعوهم لما فيه صلاح لهم وارشادهم إلى توحيد الله وعبادته خوفًا عليهم وحرصًا على مصلحتهم، ولكن قومه لم يستجيبوا له ولم ينتصحوا.

وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

هذه الآية تبين ما قام به شعيب عليه السلام من إبلاغ قومه رسالات ربه ونصحه لهم ولم يتوقف عن نصحهم خوفًا عليهم وحرصًا على هدايتهم، حيث قال لهم يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي التي أرسلني بها إليكم ونصحت لكم ببيان ما فيه سلامة دينكم ودنياكم فكيف أحزن على قوم كافرين بالله مصرين على كفرهم متمردين عن الإجابة، وقد قال شعيب هذه المقالة تحسرًا على عدم إيمان قومه، ثم سلا نفسه بأنه كيف يقع منه الأسى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم بالله وعدم قبولهم لما جاء به رسوله[3].

فهذا هو حال الأنبياء مع أقوامهم يحرصون على إبلاغ أقوامهم رسالات ربهم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٢٧.

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ص ٤٢٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٧.

ويخلصون في نصحهم ويخافون عليهم من عذاب الله، بل يتحسرون ويحزنون إن لم ينتصحوا، فهذه النصائح التي تصف حال الأنبياء عليهم السلام كلها نماذج للنصيحة المحمودة التي أمر الله بها والتي من شأنها إصلاح أحوال الآخرين والأخذ بأيديهم على طريق الهداية والنجاة.

ثانيًا: النصيحة المذمومة:

النصيحة المذمومة هي تلك النصيحة التي تكون في قالب النصح ولكن لا يكون مقصودها إرادة الخير للآخرين، وإنما غشهم وخداعهم والوصول إلى أغراض شخصية بعيدًا عن مصلحة المنصوح، وهذه النصيحة ليست من الدين، لما فيها من أذى للآخرين، ومن الآيات التي اشتملت على النصيحة المذمومة ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

هذه الآية تبين موقف الشيطان من آدم عليه السلام وحواء وذريته من بعده، وكيف أنه لبس ثوب الورع والنصح لهم والحرص على مصالحهم، فأخذ يوسوس لهم ويكيد لهم في صورة الناصح لهم، فقد كانت نصيحته مذمومة، فعندما نصحهم أراد الإيقاع بهم، والنيل منهم، حيث أغر بهم وقد بين حرصه على نصحهم ومصلحتهم بأن « أقسم لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: من جملة الناصحين حيث قلت لكما ما قلت، فاغترا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل»[1].

فكانت نصيحته مذمومة تحمل الشر والحقد لآدم عليه السلام بعد أن فضله الله عليه وأمره بالسجود له، فكيف يعقل أن يريد بهم خيرًا، وهو نفسه الذي رفض السجود لآدم عليه السلام، وتوعد بالنيل من ذريته وإضلالهم عن الحق والقعود لهم في كل مرصد لإغوائهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١].

هذه الآية تبين كيف أظهر إخوان يوسف عليهم السلام حرصهم على أخيهم يوسف، وخوفهم عليه، ونصحهم له وتعهدهم لأبيهم برعايته، ومع ما يحمله كلامهم من طابع النصح إلا أنه كان نصحًا غير محمود بل مذموم فقد أرادوا الخير في ظاهر كلامهم ولكن في باطنه أرادوا إيقاع السوء بيوسف عليه السلام فقد أضمروا بداخلهم التخلص منه، فقد جاؤوا أباهم يعقوب عليه السلام، فقالوا: ما بالك لا تأتمنا على يوسف، وتخافنا عليه، ونحن له ناصحون، أي: نحبه، ونشفق عليه، ونريد الخير له، ونخلص له النصح؟ وهم يريدون خلاف

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٥.

ذلك، لحسدهم له، بعد ما علموا من رؤيا يوسف، وأدركوا حب أبيه له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة.

ويمكن الاستفادة من الآيات بأن النصيحة المحمودة: هي التي حث عليها الشرع وتحمل بداخلها الخير للأخرين، وتكون بأسلوب لين ورقيق، ويؤديها الناصح بأمانة وإخلاص، ومن النماذج عليها ما كان يقوم به الأنبياء من نصح لأقوامهم خوفًا عليهم وحرصًا على هدايتهم.

ونستفيد كذلك بأن النصيحة المذمومة: هي تلك النصيحة التي نهى الشرع عنها، فغرضها خداع الآخرين وغشهم والنيل منهم وإلحاق الأذى بهم، ومن ذلك ما قام به الشيطان الرجيم مع آدم عليه السلام، وما قام به إخوان يوسف عليه السلام.

مجالات النصيحة

تعتبر النصيحة من الأمور الهامة التي دعا لها الدين الاسلامي، وقد أطلق عليها الدين كما ورد في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة)[1].

وذلك لأن النصيحة من أهم الدعائم التي تنشر الدين وتحث عليه، وتغير المعتقدات الخاطئة عند الناس، وتقوم من سلوكهم، وتزيل العادات السيئة والمخالفة للدين، وتحسن الطباع والأخلاق عند المسلمين، فهي أقرب الوسائل القادرة على استمالة القلوب وتهذيب النفوس، وتقويم العقيدة، فالإنسان بحاجة ماسة إلى وجود من ينصحه باستمرار ومن يستنصحه، فهو لا يعيش وحيدًا، بل في مجتمع يحمل الكثير من المعتقدات منها ما يوافق الشرع الإسلامي، ومنها ما يخالفه.

والحياة مليئة بالملهيات والمغريات المادية التي قد تجعل نفسه يتناسى ما عليه من واجبات ويتذكر ماله من حقوق، لذلك يحتاج الإنسان إلى من يقوم سلوكه ويصحح معتقداته، ويذكره بواجباته ويوقظه من غفلته وانشغاله بملذات الدنيا وتحذيره من زلاته وعواقبها، وترشده إلى طريق الهداية

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٤، رقم ٩٥.

المستقيم، ومن المجالات التي تتناولها النصيحة الأمور التي تتعلق بالجانب الديني، والأمور التي تتعلق بالجانب الدنيوي.

أولًا: أمور الدين:

كان النصح مهمة الأنبياء التي شرفهم الله بها، فقد حملوا هم الدعوة إلى الله عز وجل والنصح إلى توحيده وعبادته، فكانوا ينصحون الناس بالخير ويأمرونهم بالقيام به، وينهونهم عن كل ما هو منكر ومخالف لشرع الله، وأصبحت هذه مهمة الصالحين من بعدهم وأولي الأمر، ونجد القرآن الكريم قد اعتنى عناية فائقة لأهمية ذلك وعظم شأنه في الدين، فبه تتحقق غايات الشرع ومقاصده وبهم يصلح حال الفرد والمجتمع، وبالنظر في الآيات التي تحدثت عن نصح الأنبياء لأقوامهم والأحاديث النبوية التي كانت تحمل النصح للمسلمين، نجد أغلبها تتناول أمور الدين، لأن من صلحت أمور دينه صلحت أمور دنياه.

ومن أهم الأمور الدينية التي يجب النصح والتذكير بها كل ما يتعلق بالعقيدة السليمة من تذكير بالله وتوحيده لله وعدم الشرك به، واثبات أسمائه وصفاته، وتصديق أنبيائه وما جاؤوا به من كتب وشرع، وأوامر ونواهٍ، وكل ما يتعلق بالأمور التعبدية سواء كانت شعائر كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وكل ما فيها من أحكام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو عبادات تعاملية وذلك بالتحلي بالأخلاق الإسلامية وترك الأخلاق الذميمة التي نهى عنها الإسلام كالصدق، والأمانة، والإخلاص، وعدم الكذب، وعدم الغيبة، وعدم النميمة، وغض البصر، وعدم سماع الغناء، لذلك ينبغي على المسلم أن يسعى دوما لنصح إخوانه وأهل زمانه، وقد مدح الله تعالى في كتابه العزيز الأمة الإسلامية لأنها تحرص

وعلى تقديم النصيحة، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

وكان الأنبياء عليهم السلام شديدي الحرص في تقديم النصيحة لأقوامهم في أمور دينهم، ومن الآيات التي توضح ذلك: ما جاء على لسان صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وما جاء على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وما جاء على لسان هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

وما جاء على لسان نوح عليه السلام:

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

كما جاءت الآيات تبين أن النصح الواجب على المؤمنين وإن لم يستطيعوا الجهاد ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

فسماهم محسنين لنصيحتهم لله بقلوبهم لما منعوا من الجهاد بأنفسهم، وقد ترفع الأعمال كلها عن العبد في بعض الحالات، ولا يرفع عنه النصح لله، فلو كان مريضًا ولا يمكنه عملٌ بشيء من جوارحه بلسانٍ ولا غيره، غير أن عقله ثابتٌ، لم يسقط عنه النصح لله بقلبه وذلك بأن يندم على ذنوبه، وينوي إن صح أن يقوم بما افترض الله عليه، ويجتنب ما نهاه عنه، وإلا كان غير ناصح لله بقلبه[1].

ومن الآيات التي فيها نصح للمؤمنين ما ورد على لسان لقمان من نصائح ومواعظ لابنه في قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣ - ١٩].

ومن النصائح قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

فالمتمعن في كتاب الله يجد الكثير من الآيات التي تحمل الأمر والنهي والتي يمكن استخدامها في نصح الآخرين والأخذ بأيديهم نحو طريق الهداية والجنة والنجاة من النار.

ثانيًا: أمور الدنيا:

لا تتوقف النصيحة على أمور الدين، بل تتعداها إلى النصح في جميع الأمور الدنيوية، كأن يستنصحك أحدهم حول وظيفة، أو سيارة يريد شراءها، فعلى المسلم أن يشير عليه وينصحه بما فيه الخير والنفع له، فلا يغشه في النصيحة ولا يخدعه، وكذلك إذا أحس أن أخاه المسلم في خطر فعليه أن ينبهه وذلك كما ورد في قصة

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٢٥.

موسى في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص:٢٠].

أي: جاء من آخرها وأبعدها، يسعى على رجليه، ليخبر موسى عليه السلام أن أشراف قوم فرعون يؤامر بعضهم بعضًا بقتلك، فاخرج من القرية، إني لك من الناصحين في أمري إياك بالخروج[(١)].

فهذا الرجل لم يكتف بتحذير موسى عليه السلام ممن أرادوا قتله، بل ونصحه بالخروج من قريتهم حتى لا يمسكوا به فينالوا منه، هذا إلى جانب المجهود الذي بذله والسعي الذي سعاه ليسبق القوم إلى موسى عليه السلام ويحذره، فهكذا يجب أن يكون المسلم ناصحاً لغيره ومحذراً له من أي ضرر قد يلحق به أو أي خطر قد يهدد حياته، بل عليه أن يدله على طريق النجاة إن كان على علم بها، وكذلك الأمور الدنيوية الأخرى عليه أن يقدم النصح فيما فيه خير للمسلمين في أمور دنياهم.

والنصيحة للمسلمين: أن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويشفق عليهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم، وإن ضره ذلك في دنياه كرخص أسعارهم، وإن كان في ذلك فوات ربح ما يبيع من تجارته، وكذلك جميع ما يضرهم عامة، ويحب صلاحهم ودوام النعم عليهم، ونصرهم على عدوهم، ودفع كل أذى ومكروه عنهم، وإرشادهم إلى مصالحهم، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ونصرتهم على أعدائهم، والذب عنهم، ومجانبة الغش، والحسد لهم، وإيثار فقيرهم وتعليم جاهلهم، ورد من زاغ منهم عن الحق في قول أو عمل بالتلطف في ردهم إلى الحق، والرفق بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محبة لإزالة فسادهم ولو بحصول ضرر له في دنياه[(٢)].

ومن النصائح الدنيوية: لو أن إنسانًا قال لك: أنا لا أعرف انتق لي بنطالًا على ذوقك، وانتقيت له البنطال الكاسد ذي اللون غير المرغوب، من أجل أن تصرف هذا اللون الذي ربص أمامك، فأنت لست ناصحا أمينا، وإذا قال لك إنسان: أفتح محلا بهذه المصلحة، وأنت تعلم أن هذه المصلحة ذات أرباح طائلة، تقول: لا هذه مصلحة فاقورة، تريد أن تصرفه عن هذه المصلحة وأنت مسلم؟! فقد غششته، والمستشار مؤتمن.

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٧/ ٣٦٣.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٢٢.

وهناك أمثلة لا تعد ولا تحصى، أكثرها في العمل، قال لك فلان: هل أشتري هذا البيت؟ تبيع البيت أنت، وأنت تبيع هذا البيت لعلةٍ خطيرة شعرت أن فيه خطرًا، وزينت له هذا البيت حتى بعته له، أنت مسلم؟ لا والله.

عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (حق المسلم على المسلم ستٌ) قيل: ما هن يا رسول الله؟، قال: (إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فسمته، وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه)[1].

فحينما يأتيك إنسان، ويقول لك: انصحني ماذا أفعل؟ هل تعلم ماذا يعني ذلك؟ يعني ذلك: أنه واثقٌ من رجاحة عقلك، ومن إخلاصك له، إنسان وضع ثقته فيك، وضع ثقته برجاحة عقلك، وضع ثقته بإخلاصك له، أعطاك صفتين؛ صفة عقلية وهي الرجحان، وصفة نفسية وهي الإخلاص، لا يمكن أن تأتي إنسانًا وتستنصحه إلا إذا وثقت بعقله وأخلاقه، إلا إذا وثقت برجاحة عقله وصدق إخلاصه، إذًا حينما يأتيك إنسان وقد منحك الثقة، وقد منحك كل عوامل الرضا تخونه؟!

لذلك كبرت خيانةً عند الله: أن تحدث الناس بحديث هم لك مصدقون وأنت لهم به كاذب.

فإذا طرق بابك واستنصحت فانصح، فالإنسان يستشير بموضوع زواج، بموضوع تجارة، بموضوع فتح محل تجاري، بموضوع استثمار مال، بموضوع سفر، بموضوع شراء بيت، هذه أشياء تعارف الناس على أنها تنفع فيها المشورة، ويجب أن تنصح المسلمين من خلال عملك في الدرجة الأولى، كلٌ في عمله؛ الطبيب في عيادته، والمحامي في مكتبه، والبائع في دكانه، والموظف وراء طاولته، هذا الذي أمامك إن كان مخلوقًا فهو مخلوقٌ لله عليك أن تنصح له، وإن كان مسلمًا له عليك حقان؛ الحق الأول هو الأخوة في الإنسانية، والحق الثاني هو الأخوة في الدين، يجب أن تنصح له، والمؤمن ناصحٌ ونصوح، من صفات أهل الإيمان أنهم نصحةٌ متوادون، من صفات أهل النفاق أنهم غششةٌ متحاسدون.

فلذلك: حينما فهم المسلمون أن الدين عباداتٌ شعائرية تؤدى وتركوا جوانب الدين الأخرى كأمور العقيدة والمعاملات وغيرها، صاروا خلف الأمم، ولم تكن كلمتهم هي العليا، وحينما فهم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أن الدين نصحٌ لكل مسلم؛ الدين معاملة، الدين انضباط،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب حق المسلم على المسلم رد السلام، ٤/ ١٧٠٥، رقم ٢١٦٢.

فتحوا العالم، فإذا أردت أن تكون من المؤمنين الصادقين، فالدين النصيحة.

عن جرير بن عبد الله، قال: (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم)[1].

لمن تكون النصيحة

النصيحة من أهم الأساليب التي تعمل على نشر الدين الإسلامي، ونشر تعاليمه وشعائره الصحيحة، وقد عني القرآن الكريم بالنصيحة لأهميتها أشد العناية وأمر بها.

قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

وقال جل شأنه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥].

وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١].

ووضع لها أساليب وآدابًا وأخلاقًا حتى تؤتي ثمرها وتجدي نفعها.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[2].

فبدأ بالنصح لله ولكتابه، ثم لرسوله، ثم لأئمة المسلمين وعامتهم، وذلك حتى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة)، ١/ ٢١، رقم ٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٤، رقم ٩٥.

تتحقق الغاية من النصيحة، فيستقيم حال الفرد والمجتمع ويصلح، وقد ذكر الله في كتابه أن الأنبياء عليهم السلام نصحوا أممهم.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

وهذا يعني أن من تخلف عن الجهاد لعذر، فلا حرج عليه بشرط أن يكون ناصحًا لله ورسوله في تخلفه، فإن المنافقين كانوا يظهرون الأعذار كاذبين، ويتخلفون عن الجهاد من غير نصح لله ورسوله[١].

أولًا: النصيحة لله ولكتابه:

فالنصيحة لله تكون في «إخلاص الاعتقاد في الوحدانية، ووصفه بصفات الألوهية وتنزيهه عن النقائص، والرغبة في محابه، والبعد من مساخطه»[٢].

وباتباع أمره، ونصرة دينه، والتسليم له في حكمه، ومن أوامره تعالى الطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة[٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

كما أن معنى النصيحة لله تعالى منصرف إلى الإيمان به، ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، ووصفه بصفات الكمال والجلال، وتنزيهه من جميع النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، والحب فيه والبغض فيه، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، وجهاد من كفر به، والاعتراف بنعمته وشكره عليها، والإخلاص في جميع الأمور[٤].

فاحذروا المحرمات واجتنبوا المنكرات، وحذروا الناس منها بالنصيحة، فإن ديننا هو دين النصيحة، وما سمي دين النصيحة إلا لأننا كنا به إخوة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وكنا به كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر، وكنا به كالبنيان الذي يشد بعضه بعضًا، وبالنصيحة يتحقق الإيمان، وتسلم

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ١/ ٢١٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٢٧، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٧٠.
(٣) انظر: النصيحة الكافية، زروق ص١.
(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ص١٣١.

القلوب من أمراضها، وقد نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وبفعله وبتعامله وبأخلاقه، ونصح أصحابه من بعده، ولا تزال الأمة بخير ما دامت النصيحة[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ [البينة: ٥].

كما أنه يجب أن يكون الإنسان دائمًا ذاكرًا لربه بقلبه ولسانه وجوارحه، وأن تكون غيرته لله فيغار لله عز وجل إذا انتهكت محارمه، وأن يبطل كيد الكائدين، ويرد على الملحدين، وأن يكون باثًا دين الله في عباد الله؛ لأن هذا مقام الرسل كلهم، فهم دعاة إلى الله يدعون الناس إلى الله عز وجل، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم﴾ أي: من الأمة التي بعث فيها الرسول[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم أن الدين النصيحة يدل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان، وسمى ذلك كله دينًا، فإن النصح لله يقتضي القيام بأداء واجباته على أكمل وجوهها، وهو مقام الإحسان، فلا يكمل النصح لله بدون ذلك، ولا يتأتى ذلك بدون كمال المحبة الواجبة والمستحبة، ويستلزم ذلك الاجتهاد في التقرب إليه بنوافل الطاعات على هذا الوجه وترك المحرمات والمكروهات على هذا الوجه أيضًا[3].

كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن النصيحة أيضا تكون لكتاب الله تعالى، وذلك بأن «تؤمن به وتتلوه وتعمل بما فيه وتدعو الناس اليه»[4].

ومن ذلك أيضًا: «الاعتقاد بأنه كلام الله والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه»[5].

والنصح يشمل كتاب الله الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، بأن يدافع المسلم، يدافع من حرفه تحريفًا لفظيًا، أو تحريفًا معنويًا، أو من زعم أن فيه نقصًا، أو أن فيه زيادة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فالله عز وجل تكفل بحفظه، ومن ادعى أنه قد نقص حرفًا واحدًا اختزل منه؛ فقد

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سعد الحجري ص٥.
(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/ ٣٨٤.
(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ١/ ٢١٨.
(٤) روح البيان، الخلوتي ٢/ ٢٠٤.
(٥) المصدر السابق ٣/ ٤٨٤.

كذب الله عز وجل، فعليه أن يتوب ويرجع إلى الله من هذه الردة، ومن النصيحة لكتاب الله: الإيمان بأن الله تعالى تكلم بهذا القرآن حقيقة، وأنه كلامه عز وجل؛ الحرف والمعنى.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومن النصيحة لكتاب الله عز وجل أن يقوم الإنسان باحترام هذا القرآن العظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

فمن ذلك أن لا يمس القرآن إلا وهو طاهر، وأن لا يضعه في موضع يمتهن فيه[(١)]، ومن ذلك «قراءته والتفقه فيه، والذب عنه وتعليمه، وإكرامه والتخلق به»[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَٰرَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

كما أنه يجب الإيمان بأنه لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوة، والوقوف على أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

ثانيًا: النصيحة لرسول الله:

والنصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم تتضمن: «التصديق بنبوته، والتزام طاعته، في أمره ونهيه وحب من أحبه، وحب آل بيته ومن سار بسيرته وإحياء سنته بالمدارسة والنفقة والعمل بها والدفاع عنها»[(٣)]، والإيمان التام برسالته، وأن الله أرسله إلى جميع الخلق.

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/ ٣٨٦.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤١٠.

(٣) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي ١/ ٩٢٠.

[النساء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

فنؤمن بأن محمدًا رسول الله إلى جميع الخلق من جن وإنس، وأنه صادق مصدوق، صادق فيما يخبر به، مصدوق فيما أخبر به من الوحي[(١)].

ومن النصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم في حياته، بذل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٣-١٤].

وبذل المال إذا أراده والمسارعة إلى محبته، وأما بعد وفاته: فالعناية بطلب سنته، والبحث عن أخلاقه وآدابه، وتعظيم أمره، ولزوم القيام به، وشدة الغضب والإعراض عمن تدين بخلاف سنته، والغضب على من ضيعها لأثرة دنيا، وإن كان متدينًا بها، والتشبه به في زيه ولباسه[(٢)].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

والآيات التي دعت إلى ذلك كثيرة، ومن النصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم بث دعوته ونشر شريعته، ونفي التهمة عنها واستثارة علومها، والتفقه في معانيها، والدعاء إليها، والتلطف في تعلمها وتعليمها وإعظامها وإجلالها، والتأدب عند قراءتها، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه[(٣)]، وإكرام قرابته، فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/٣٨٩.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ١/٢٢١.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ص١٣١.

قال ابن عباس: يعني: لا تؤذوا قرابتي.

ومن النصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم الشفقة على أمته، وتكون بثلاثة أمور: القيام لهم بفروض الكفاية كالعلم، والجهاد، وصلاة الجنازة، ومنها القيام بالحرف المهمة، التي بها نظام العالم، وبالسنن المؤكدة على الكفاية، كالأذان، والإمامة، ونحو ذلك، فإن فعل ذلك بنية إعانة إخوانه المسلمين، أثيب عليه ثواب من رفع المشقة عن حاضري الموضوع الذي تعين ذلك فيه، والنية إكسير الأعمال، تقلب أعيانها وتحقق حقائقها[1].

ثالثًا: النصيحة للعلماء والأمراء:

العلماء: هم أئمة الدين الذين يقودون الناس لكتاب الله، ويهدونهم إليه، ويدلونهم على شريعته تعالى.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

والنصح لهم بأن يحرص الإنسان على تلقي ما عندهم من العلم.

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

فإنهم الواسطة بين الرسول - صلى الله عليه وسلم- وبين أمته، فيحرص على تلقي العلم منهم بكل وسيلة، وليكن تلقيه على وجه التأني لا على وجه التسرع؛ لأن الإنسان إذا تسرع في تلقي العلم فربما يتلقاه على غير ما ألقاه إليه شيخه وقد أدب الله النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأدب، فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦].

ومن النصح أيضًا: أن لا يتتبع الإنسان عوراتهم وزلاتهم وما يخطئون فيه؛ لأنهم غير معصومين، فكم من إنسان انتفع من تلاميذه، لذلك من نصيحتك لهم أن تدافع عن عوراتهم، وأن تسترها ما استطعت، وأن لا تسكت إذا سمعت شيئًا بل نبه العالم، فقوم أخاك ولا سيما أهل العلم؛ لأن العالم خطره عظيم، إن أصاب هدى الله على يده خلقًا كثيرًا، وإن أخطأ ضل على يده خلق كثير فزلة العالم من أعظم الزلات.

أما الأمراء: فهم أئمة السلطة وهم في الغالب أكثر خطأ من العلماء؛ لأنه لسلطته قد تأخذه العزة بالإثم فيريد أن يفرض سلطته على الصواب والخطأ، والنصيحة لهم بأن نكف عن مساوئهم، وأن لا ننشرها بين الناس، وأن نبذل لهم النصيحة ما استطعنا، لأن الأمة إذا امتلأت صدورها من الحقد على ولاة أمورها عصت الولاة، ونابذتهم، وحينئذ تحصل الفوضى، ويسود الخوف، ويزول الأمن، فإذا بقيت هيبة ولاة

(١) انظر: النصيحة الكافية، زروق ص١٢٨-١٢٥.

الأمور في الصدور صار لهم هيبة، وحميت أوامرهم ونظمهم التي لا تخالف الشريعة.

فالمهم أن أئمة المسلمين تشمل النوعين، أئمة الدين وهم العلماء، وأئمة السلطان وهم الأمراء، فيجب علينا أن نناصحهم، ونحرص على بذل النصيحة لهم، في الدفاع عنهم وستر معايبهم[1]، «ومعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وتذكيرهم به، وتنبيههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق وحث الأغيار على ذلك»[2].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

واختلف أهل التأويل في ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ الذين أمر الله عباده بطاعتهم في هذه الآية، فقال بعضهم: هم الأمراء، وقال آخرون: هم أهل العلم والفقه[3].

«قال الخطابي: ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح»[4].

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/ ٣٩٢.
(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٢٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٩٦.
(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ص١٣١.

رابعًا: النصيحة لعامة الناس:

والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ونصرتهم على أعدائهم، والذب عنهم، ومجانبة الغش، والحسد لهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه، ودفع الأذى والمكروه عنهم، وإيثار فقيرهم وتعليم جاهلهم، ورد من زاغ منهم عن الحق في قول أو عمل بالتلطف في ردهم إلى الحق، والرفق بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محبة لإزالة فسادهم ولو بحصول ضرر له في دنياه.

ومن أعظم أنواع النصح أن ينصح لمن استشاره في أمره، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إذا استنصح أحدكم أخاه، فلينصح له)[5].

وإذا ذكر في غيبه بالسوء أن ينصره، ويرد عنه، وإذا رأى من يريد أذاه في غيبه، كفه عن ذلك، فإن النصح في الغيب يدل على صدق النصح، فإنه قد يظهر النصح في حضوره تملقا، ويغشه في غيبه، قال الحسن: «إنك لن تبلغ حق نصيحتك لأخيك حتى تأمره بما تعجز عنه»، وقال الفضيل بن عياض: «ما

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب هل يبيع لبادٍ بغير أجر، وهل يعينه أو ينصحه، ٣/ ٧٢، رقم ٢١٥٠.

أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة»، «وسئل ابن المبارك: أي الأعمال أفضل؟ قال: النصح لله»، وقال معمر: «كان يقال: أنصح الناس لك من خاف الله فيك»[1].

ومن النصيحة أن ترشدهم إلى الخير، وأن تهديهم إلى الحق إذا ضلوا عنه، وأن تذكرهم به إذا نسوه، وأن تجعلهم لك بمنزلة الإخوة، وليعلم أن النصيحة هي مخاطبة الإنسان سرًا بينك وبينه؛ لأنك إذا نصحته سرًا بينك وبينه أثرت في نفسه، وعلم أنك ناصح، لكن إذا تكلمت أمام الناس عليه؛ فإنه قد تأخذه العزة بالإثم فلا يقبل النصيحة، وقد يظن أنك إنما تريد الانتقام منه وتوبيخه وحط منزلته بين الناس فلا يقبل، لكن إذا كانت النصيحة بينك وبينه صار لها ميزانٌ كبير عنده وقيمة، وقبل ذلك[2].

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

وهكذا تهدي الآيات بأن يكون المسلم ناصحًا لله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه، ولكتابه بحفظه والعمل بما فيه، وناصحًا للرسول صلى الله عليه وسلم بتصديقه والدفاع عنه والتزام سنته وطاعته فيما أمر به وترك ما نهى عنه، وناصحًا لعلماء الأمة بالتلقي عنهم العلوم، وتسديد أخطائهم والدفاع عنهم، وناصحًا للأمراء بترك الخروج عليهم أو محاربتهم، وتقديم النصح لهم وارشادهم إن أخطؤوا أو زلوا، وترك تتبع أخطائهم، وتذكيرهم يكون باللين والرفق، أما نصح عامة المسلمين يكون بدفع الأذى عنهم، وإرشادهم إلى مصالحهم، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وستر عوراتهم، وقضاء حاجاتهم.

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٢٣.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٢/ ٣٩٧.

الانتفاع بالنصيحة

إن التناصح بين المسلمين له فضل عظيم عند الله تعالى، وهو فرع عن الإيمان وشعبة من شعبه.

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣].

وللنصيحة أثر جليل في المجتمع الإسلامي، بل إن من حق المسلم على أخيه المسلم أن يقدم له النصح قال صلى الله عليه وسلم: (حق المؤمن على المؤمن ست، وذكر منها إذا استنصحك فانصح له)[1].

وقد حذرنا القرآن الكريم مما وقع للأمم قبلنا عندما تركوا التناصح بينهم.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

ولكن الانتفاع بالنصيحة بيد الله وحده وبمشيئته، فالناصح يبذل ما في وسعه من نصح للآخرين بإخلاص ولين، ويصبر ويتحمل العناء، ولكن الأمر كله بيد الله تعالى فهو الهادي.

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وقبول النصيحة إنما يدل على نظافة السريرة وطهارة القلب، وبحثه عن الدليل والحجة واستعداده للعودة إلى الحق، كما أنه يدل على التواضع، فالإنسان المتكبر والمغرور يطغى عليه غروره فيعميه عن الحق، فلا ينتفع بالنصح، كما أن هناك عوامل مؤثرة تجعل الانتفاع بالنصيحة أجدى وأقوى في القبول، فالنصيحة وحدها دون أسلوب صحيح ودون إخلاص لا تجد ثمارها.

أولًا: تعلق الانتفاع بالنصيحة بالمشيئة الإلهية:

الانتفاع بالنصيحة بأمر الله تعالى وحده، فهو القائل للشيء كن فيكون، فإن أراد الله النفع والهداية لشخص، يسر له سبل الهداية كأن يرسل من ينصحه فيستمع لنصحه وينتفع به، ولكن إن كانت مشيئة الله أن يبقى في الضلال لجحده وإصراره على الضلال، فلن ينفعه نصح الآخرين له، ومن ذلك ما ورد على لسان نوح عليه السلام عندما أصر

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٢٢، رقم ٨٢٧١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٠٢، رقم ٣١٥١.

قومه على الكفر، وطلبوا منه أن يأتيهم بما وعدهم من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

أخبرهم نوح عليه السلام بأن الله هو من سيأتيهم بالعذاب وأنهم لا يعجزون الله عن ذلك، فهو لم يتوقف عن نصحهم، ولكنهم أصروا على الكفر والجحد، وقال لهم: أنتم في قبضة القدرة الإلهية، وتحت سلطان الملك الإلهي، ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم، ولا ينفعكم إنذاري وتحذيري إياكم عقوبته ونزول العذاب بكم إن كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد، ويخذلكم عن طريق الحق ويهلككم، فهو سبحانه وتعالى خالقكم والمتصرف في أموركم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه وإليه ترجعون يعني: في الآخرة فيجازيكم بما كنتم تعملون في هذا العالم من خير أو شر[1]، «وقد مضت سنة الله في خلقه أن النصح إنما يتقبله المستعد للرشاد، ويرفضه من غلب عليه الغي والفساد»[2].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٨٢، التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٠٣٩، فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي ٦/ ١٧٣.
(٢) أيسر التفاسير، أسعد الحومد ١٢/ ٥٣٣.

ثانيًا: الوسائل المعينة على الانتفاع بالنصيحة:

لا بد أن نعلم بأن المقصود من النصيحة ليس تقديم النصيحة فحسب وإنما أن يحصل الانتفاع بها، لذا يتعين على الناصح القيام بعدة أمور حتى تجدي النصيحة نفعها، ويجد أثرها في قلوب الآخرين، ومن ذلك ما يأتي:

١. الإخلاص في النصيحة وابتغاء وجه الله بها.

إن النصيحة عبادة وتقرب إلى الله عز وجل، وقد قال النبي صلى الله عليه: (الدين النصيحة)[3]، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

فالمسلم الناصح لا بد أن تكون نيته خالصة لله تعالى، «قاصدا بذلك وجه الله عز جل، وإقامة دينه، ونصرة شرعه، وامتثال أمره، وإحياء سننه، بلا رياء ولا منافقة ولا مداهنة غير متنافس ولا متفاخر»[4].

يبتغي بنصيحته الرضا والأجر من الله سبحانه وتعالى، وإبراء ذمته، مخلصًا في أدائها، مشفقًا على الناس، لأنه محاسب

(٣) سبق تخريجه.
(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ١/ ١٩١.

على نيته ومثاب عليها، لقوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[1].

يقول ابن القيم: «النصيحة: إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه، فهو إحسانٌ محضٌ يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه، والإحسان إلى خلقه، فيتلطف في بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذى المنصوح، فهذا شأن الناصح»[2].

فإذا كانت النصيحة خالصة لوجه الله تعالى، لا يقصد بها أغراض دنيوية من رياء وسمعة وشهرة، أو إظهار لعيب المنصوح والتقليل من شأنه فإن الله يفتح لها القلوب وينفع الناس بها، ويجزى الناصح على إخلاصه، فكم من « آه للمرائي من يوم يحصل ما في الصدور، وهي النيات والعقائد، فالجزاء عليهما لا على الظواهر، فأفيقوا من سكرتكم، وتوبوا من زللكم واستقيموا على الجادة»[3].

٢. اختيار الوقت المناسب لتقديم النصيحة.

يجب على الناصح أن يتقن اختيار الوقت المناسب لتقديم النصيحة حتى تجدي نفعها وتؤتي ثمارها المرجوة منها، وأن يراعي أن المنصوح لا يكون مستعدًا لقبول النصح في كل وقت، فقد يمر بأوقات وظروف تجعله في حالة لا يتقبل النصح من أحد، وقد كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «إن للقلوب شهوة وإقبالًا، وفترة وإدبارًا، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها»[4].

فينبغي أن يتحلى الناصح بالبصيرة والفطنة ويعلم الوقت المناسب لتقديم النصيحة، حتى تلامس قلوب الآخرين فيجد القبول منهم.

٣. أن يكون الناصح على علم وبصيرة بما ينصح.

يجب أن يكون الناصح فقيهًا، عالمًا بالأمور الشرعية التي ينصح بها.

قال تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

فلا ينصح في أمور يجهلها، فيضل الناس بدلًا من أن ينفعهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأن يكون عاملًا بما يقول وليس ممن يخالف قوله فعله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ١/ ٦، رقم ١.
(٢) انظر: الروح، ابن القيم ص ٧١٦.
(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٢/ ١٤١.
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٠٠.

قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

فإخلاص النصيحة في تقديم النصيحة لا يفي بالغرض ولا يجد مقصده ونفعه إن كانت النصيحة عن جهل، بل إن نتيجتها تكون عكس المراد والمبتغى، لذا لا بد للناصح أن يكون ذا علم وحكمة وفقه بما ينصح به الآخرين، فكلما كانت النصيحة موثقة بالأدلة وصحيحة كان نفعها أكبر وأقوى.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالحكمة كلمة عظيمة تعني: الدعوة إلى الله بالعلم والبصيرة، والأدلة الواضحة المقنعة الكاشفة للحق، والمبينة له، وتطلق على العلم والفقه في الدين، وعلى العقل، وعلى الورع، وعلى أشياء أخرى، فالحكمة كلمة تمنع من سمعها من المضي في الباطل، وتدعوه إلى الأخذ بالحق والتأثر به، والوقوف عند الحد الذي حده الله عز وجل، فعلى الداعية إلى الله عز وجل أن يدعو بالحكمة، ويبدأ بها، ويعنى بها، فإذا كان المدعو عنده بعض الجفا والاعتراض دعوته بالموعظة الحسنة، بالآيات والأحاديث التي فيها الوعظ والترغيب، فإن كان عنده شبهة جادلته بالتي هي أحسن، ولا تغلظ عليه، بل تصبر عليه ولا تعجل ولا تعنف، بل تجتهد في كشف الشبهة، وإيضاح الأدلة بالأسلوب الحسن، لأن هذا أقرب إلى الانتفاع بالحق وقبوله وتأثر المدعو.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فلا بد من العلم، فالعلم فريضة، فإياك أن تدعو على جهالة، فالجاهل يهدم ولا يبني، ويفسد ولا يصلح، ولا تدع إلى شيء إلا بعد العلم به، والبصيرة بما قاله الله ورسوله، فعلى الداعية أن يتبصر فيما يدعو إليه، وأن ينظر فيما يدعو إليه ودليله، فإن ظهر له الحق وعرفه دعا إلى ذلك[1].

أما إذا كان الناصح ليس لديه علم بالأمر الذي يحتاج النصح فيه فعليه أن يترك المجال النصيحة للعلماء وأصحاب العلم، وأن يستزيد هو من العلم النافع.

قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

٤. أن يلتزم الناصح بآداب النصيحة.

لا بد أن يلتزم الناصح بآداب النصيحة ليجد ثمار نصيحته، ومن هذه الآداب:

(١) انظر: الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، ابن باز ١/ ٢٦، ٤٤.

- أن يكون متأدبًا في تقديم النصيحة، لينًا وعطوفًا في ألفاظه، لطيفًا في أسلوبه، رحيمًا بالمنصوحين، شفوقًا عليهم، وإلا ظهرت النصيحة في صورة غير مرجوة وكأنها أمر وتعنت، أو إحراج وتوبيخ، لذا لا بد أن ينتقي الناصح ألفاظه حتى تلامس القلوب وتلقى القبول. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[الإسراء: ٥٣]. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه)[(١)].
- أن يقدم النصيحة في السر بينه وبين المنصوح، وليس في العلن، فالغرض من النصح حصول النفع والخير للمنصوح وتركه للخطأ الواقع منه، وليس الفضيحة والتشهير به، أما النصح في العلن فقد يجعل النصيحة لا تلقى القبول، لأنه أضر بالمنصوح وأساء إليه وفضحه، فإذا أردت النصح عليك أن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبهه على عيوبه وتقبح القبيح في عينه وتحسن الحسن، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان، وقال الشافعي رضي الله عنه: من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه[(٢)]، «وأخرج ابن أبي الدنيا عن سليمان الخواص قال: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما فضحه»[(٣)]، «وقال ابن حزم: إذا نصحت فانصح سرًا لا جهرًا، أو بتعريض لا بتصريح، إلا لمن لا يفهم، فلا بد من التصريح له»[(٤)].
- أن يكون الناصح متواضعًا، فلا يكون متكبرًا، أو معجبًا بنفسه، وقال أبو حاتم رضي الله عنه: «التواضع يرفع المرء قدرًا ويعظم له خطرًا ويزيده نبلًا، ويكسب السلامة ويورث الألفة ويرفع الحقد ويذهب الصد»[(٥)]، فمن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم ٢٥٩٤، ٤/ ٢٠٠٤.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ١٨٢.
(٣) الأمر بالمعروف ص ٩٩.
(٤) رسائل ابن حزم ص ٣٦٤.
(٥) انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان ص٦٠.

كان متكبرًا، معجبًا في نفسه، فعليه ألا ينتظر قبولًا لنصحه، على العكس من المتواضع الملتمس لأخطاء الآخرين، فإنه يلقى قبولا عند الآخرين.

- أن لا تكون النصيحة على شرط القبول، لكن على سبيل استعمال الفضل وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف، وإلا فأنت ظالم لا ناصح وطالب طاعة وملك لا مؤدي حق أمانة وأخوة[1].

٥. الصبر على المنصوح وما قد يصيبه منه.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

فمن أهم الأخلاق ومن أعظمها في حق الداعية: أن يكون ذا خلق فاضل، وصبر ومصابرة، واجتهاد فيما يوصل الخير إلى الناس، وفيما يبعدهم من الباطل، ويدعو لهم بالهداية، ويقول للمدعو: هداك الله، وفقك الله لقبول الحق، أعانك الله على قبول الحق، تدعوه وتصبر على الأذى[2].

وكلما التزم الناصح بهذه الأمور وجد قبولًا من الآخرين وتسليمًا لنصحه، وكان النفع أثمر، فهذا ما ينبغي أن يكون عليه الناصح والداع إلى الله.

(١) انظر: الأخلاق والسير، ابن حزم ص ٤٢.
(٢) انظر: الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، ابن باز ص٤٧.

نماذج من النصيحة في القرآن

تنوعت نماذج النصيحة في القرآن الكريم، فمنها ما كان يحمل النصيحة المحمودة قالبًا ومضمونًا، وذلك كنصح الأنبياء لأقوامهم، ومنها النصيحة المذمومة إن جاز إطلاق النصيحة عليها، فمضمونها الغش والخداع للآخرين في قالب النصيحة، ومن ذلك نصح إبليس لآدم وزوجه.

أولًا: نماذج من النصيحة المحمودة:

من النماذج التي يظهر فيها بصورة النصيحة المحمودة قالبًا ومضمونًا، ما ورد حول نصح الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، فجميعهم كانت نصائحهم محمودة، امتثالًا لأمر الله وتبليغًا لرسالته، وحرصًا منهم على صلاح أقوامهم وخوفًا عليهم، لذا كان منهجهم في دعوة أقوامهم النصيحة المحمودة، ومن النماذج على النصيحة المحمودة ما يأتي:

١. ما جاء على لسان الأنبياء من نصح لأقوامهم.

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

أي: إنني رسول من رب العالمين، أرسلني إليكم، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم في تحذيري إياكم عقاب الله

على كفركم به، وتكذيبكم إياي، وردكم نصيحتي، وأعلم من الله ما لا تعلمون من صفاته ورحمته وعذابه، وشدة بطشه على أعدائه وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين[1].

وعلى لسان صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

أي: تولى عنهم صالح عند اليأس من إجابتهم، وهو مغتم متحسر على ما فاته من إيمانهم، حزنا عليهم، وقال: يا قوم لقد بذلت فيكم منتهى وسعي وجهدي في إبلاغكم النصيحة، ولكنكم لا تحبون الناصحين، فوجبت عليكم كلمة العذاب، وهذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وفي ذلك عبرة لمن يأتي من بعدهم فينزجر عن مثل تلك الطريقة التي كانوا عليها، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهدًا في إبلاغهم الرسالة ومحض النصح، ولكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه[2]، فكان نصح الأنبياء جميعًا محمودًا قائمًا على الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعدم الشرك به، وترغيبهم بجزاء توحيد الله وطاعة الأنبياء، وترهيبهم من عاقبة الشرك والتكذيب للأنبياء وما جاؤوا به، فكانت نصيحتهم تحمل الخير لأقوامهم والخوف عليهم.

وعلى لسان نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

أي: أدبر وخرج عنهم، وقال: لقد أبلغتكم رسالات ربي فلم تؤمنوا بها، ونصحت لكم، فلم تقبلوا، واشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال: فكيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم، لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بإصرارهم على الكفر[3].

وكذلك على لسان هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٨].

أي: معروف بالنصح والأمانة مشهور بين الناس بذلك، ناصح لكم فيما آمركم به من عبادته تعالى وحده، وأمين على تبليغ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٠، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٩٢، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٧٦.

(٢) انظر: فتح البيان، القنوجي ٤/ ٤٠٠، التفسير المنير، الزحيلي ٨/ ٢٧٦.

(٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٢٤٥٥، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٣١، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٣٠.

الرسالة، لا أكذب فيه، وإنما جيء بالجملة الإسمية دلالة على الثبات والاستمرار، وإيذانا بأن من هذا حاله لا تحوم حوله شائبة السفاهة والكذب[1].

٢. موقف مؤمن آل فرعون من موسى عليه السلام.

وكما كانت النصيحة منهج الأنبياء وخلقهم؛ كذلك هي منهج وخلق المؤمنين الصادقين أتباع الأنبياء ومن ذلك الموقف الذي كان عليه مؤمن آل فرعون وهو مستضعف يكتم إيمانه إذ قال لموسى عليه السلام: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى وهو مؤمن آل فرعون، وأقصا المدينة آخرها وأبعدها، قال يا موسى: إن الملأ يتشاورون في قتلك ويتآمرون بسببك، ولما علم هذا الرجل بذلك أسرع بالخبر لموسى؛ لأنه كان معجبًا بموسى واستقامته، فاخرج إني لك من الناصحين في الأمر بالخروج[2].

٣. نصح أخت موسى عليه السلام لآل فرعون.

ومن النصح المحمود الذي ورد في القرآن الكريم، نصح أخت موسى عليه السلام لآل فرعون في أمر إرضاع موسى عليه السلام عندما التقطه آل فرعون.

قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

والمراد من التحريم: منع الله موسى من قبول ثدي المراضع غير ثدي أمه، من قبل مجيء أم موسى، فلما رأت أخت موسى التي أرسلتها أمه في طلبه ذلك قالت هل أدلكم على أهل بيت يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه، وهم حافظون له، ناصحون للملك، بخدمته والمحافظة عليه لا يمنعونه ما ينفعه في تربيته وإغذائه، ولا يخونونكم فيه[3].

٤. نصح المؤمنين فيما بينهم.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

أي: إن هذه الأصناف الثلاثة لا حرج ولا إثم في قعودهم عن الجهاد الواجب على شرط أن ينصحوا لله ورسوله: أي

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٨، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١١٦.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٩٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٩٥.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٢٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٨٢، التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ١٩٠٥.

يخلصوا لله في الإيمان وللرسول في الطاعة بعمل كل ما فيه مصلحة للأمة الإسلامية ولا سيما المجاهدين منهم، إن استقامت قلوبهم وألسنتهم، وقاموا بحق الإرشاد والتنبيه، وإن كان لهم رأى في الجهاد وجهوه، من كتمان السر والحث على البر ومقاومة الخائنين في السر والجهر وكأنهم إذا سقط واجب الجهاد بالسيف، والاعتراك في المعركة، فإنهم يحملون واجبا آخر هو الإرشاد والتوجيه، والمعاونة بكل ما يستطيعون، وإنهم إذا كانوا كذلك فإن لهم فضل الجهاد[1].

ثانيًا: نماذج من النصيحة المذمومة:

من نماذج النصيحة المذمومة التي ذكرها القرآن الكريم:

١. نصيحة إبليس لآدم وزوجه.

قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

بعد أن وسوس الشيطان لآدم وحواء وقال لهما ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين الباقين الذين لا يموتون، ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما، ولما كان اللعين يعلم أن الله قد نهاهما عن هذه الشجرة وأن هذا النهي له ثقله في نفوسهما وقوته فقد استعان على زعزعته بتأمينهما من هذه الناحية فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح، وفي نصحه صادق، ونسي آدم وزوجه أنه عدوهما الذي لا يمكن أن يدلهما على خير، وأن الله أمرهما أمرًا عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفاها، وأنه لا يكون شيء إلا بقدر من الله[2].

٢. نصيحة إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١].

كان أبوهم قد علم منهم إرادتهم الخبيثة في جهة يوسف، وعلموا هم بعلمه ذلك، فقالوا له: لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه ونحوطه ونحفظه حتى نرده إليك، وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم[3].

(١) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٨٢، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤١٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٦٩، التفسير المظهري ٣/ ٣٣٦.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٢٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٢٠٠، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٣٨٢، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٩٨.

آثار النصيحة

حثت النصوص القرآنية على القيام بالنصيحة، وبينت أهميتها وعظيم شأنها وشأن القائمين عليها، حيث تكمن أهميتها من كونها أسلوبًا هامًا من أساليب الدعوة إلى الله، كما بينت أهمية وجود أفراد من الأمة يقومون بالنصيحة فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ووصفهم سبحانه وتعالى بأوصاف راقية، تتلاءم مع المهمة العظيمة الكبرى، وتتناسب معها.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وإن الله الذي وصفهم بهذه الأوصاف أمرهم أمر إيجاب، أمرهم بتأصيل هذه الأمور، وبترسيخها، وتقويتها في النفوس، وبالعمل على استمراريتها، وبقائها قائمة في واقع الأمة، بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

نداء الحق العالم بما يترتب على القيام بهذا الأمر من نجاة وعزة وكرامة وعلو في الدنيا والآخرة، وطيب محيا وطيب ممات[1]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

كما بينت مصير من ترك النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمم السابقة، الذي هو مصير كل من يتركها إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

(١) انظر: أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة، عبد الله آل قعود ص١٣.

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو أهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد[1].

أولًا: آثار النصيحة على الناصح:

١. يعد من عباد الله المؤمنين.

حيث ذكر سبحانه أوصاف هؤلاء السادة، ليبادر الفائزون إلى التحلي بها فينالوا مراده، وهو خير المحسنين.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

٢. الوعد بالتأييد والنصر.

حيث وعد الله عباده القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتأييدهم ونصرهم على أهل الفساد بعد تعظيم الأجور.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

٣. فيه استباق الخير والأجر الموفور.

حيث أمر سبحانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على لسان عبده لقمان الحكيم حين وصى لابنه دلالة على استباق الخيرات والأجر الموفور.

قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[لقمان: ١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢-٣][2].

٤. الناصح من خيرة الخلق.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فريضة عظيمة، لا يقوم بها على الوجه المشروع في سائر الأحوال إلا كمل الرجال، وخيرة خلق الله، وهو من الهدى الذي جاءت به الرسل، فأسعد الناس في الدنيا

(١) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ٣٠٦.

(٢) انظر: الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الرحمن الصالحي ص٢٩.

والآخرة أكملهم حظًا عنده، ولقد وصف الله محمد صلى الله عليه وسلم، بالقيام بهذا الأمر على أكمل الوجوه وأحسنها، فقال تعالى: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وبين أن أهدى الناس وأسعدهم في الدنيا والآخرة أكملهم قيامًا وعناية به.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ولا يكون الإنسان مهتديًا حقًا إلا إذا كان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

يعني: أمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر.

٥. من أهل الصلاح.

فالأمر والنهي آية صدق الإيمان وبشارة بحسن الخاتمة، حيث وصف الله أولياءه المؤمنين الصالحين السابقين واللاحقين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤][1].

٦. من أهل الفلاح.

سبب قوي من أسباب الفلاح، بل إن الفلاح محصور في أهله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤][2].

٧. تنوير القلب وهدايته، وجلاؤه من الفتن.

قال صلى الله عليه وسلم: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز، مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب

(١) انظر: تذكرة أولي الغير بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الله القصير ص٧٢.

(٢) انظر: نصيحة إلى كافة المسلمين والمسلمات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبدالله القرعاوي ص١٤.

من هواه)[1].

٨. الأمن من عذاب الله وعقابه.

حيث قال سبحانه منوها بنجاة الناهين عن المنكر هم ومن فيهم من العذاب[2]: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤ -١٦٥].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا)[3].

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لعقوبة الله وغضبه في الدنيا والآخرة، كما قال بعض السلف: وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله وأن لحمي قرض بالمقاريض.

وكان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز يقول لأبيه: وددت أني غلت بي وبك القدور في الله تعالى، ومن لاحظ هذا المقام والذي قبله هان عليه كل ما يلقى من الأذى في الله تعالى، وربما دعا لمن آذاه[4].

٩. الشهادة على الخلق وإقامة الحجة عليهم.

ينبغي للناس أن يأمروا بطاعة الله، فإن عصوا كانوا شهودا على من عصاه.

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

١٠. أداء بعض حق الله عليه من شكر النعم التي أسداها له من صحة البدن، وسلامة الأعضاء.

قال صلى الله عليه وسلم: (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، ١/١٢٨، رقم ١٤٤.

(٢) انظر: رسالة في الكلام على آية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نجم الدين الغزي ص٢١٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام، ٣/١٣٩، رقم ٢٤٩٣.

(٤) انظر: نصيحة إلى كافة المسلمين والمسلمات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبدالله القرعاوي ص١٣.

صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة)[1].

١١. تحصيل الثواب وتكفير السيئات كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

وجاء في حديث حذيفة لما سأله عمر رضي الله عنه عن الفتنة: (فتنة الرجل في أهله، وولده، وجاره، تكفرها الصلاة، والصدقة والمعروف)، قال سليمان: (قد كان يقول: الصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)[2].

١٢. التشبه بالرسل والقيام بدعوتهم والسير في طريقهم، وإلقاء الهيبة في قلوب الخلق[3].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى والحث على المحافظة عليها، ١/ ٤٩٨، رقم ٧٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة تكفر الخطيئة، ٢/ ١١٣، رقم ١٤٣٥.

(٣) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه، خالد بن عثمان السبت ص٧٥.

ثانيًا: آثار النصيحة على المنصوح:

الواجب على المنصوح أن يتقبل النصيحة ويعمل بها إن كان فيها خير له، لما لها من النفع العائد عليه من صلاح حاله، والنجاة بنفسه من عذاب الله تعالى وصولًا إلى بر الأمان الذي أراده الله له من توحيد واستجابة للأوامر واجتناب للنواهي، والنصيحة نوع من الهدية يقدمها الناصح، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (رحم الله من أهدى إلي عيوبي)[4].

ومن الآثار المترتبة على المنصوح ما يأتي:

١. رجاء الانتفاع والاستقامة.

قال الناصحون من بني إسرائيل لمن قال لهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩].

٢. تهيئة الأسباب لتحقيق النجاة الدنيوية والأخروية.

قال أبو هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]: (خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في

(٤) سنن الدارمي، الدارمي ص٢١٨.

الإسلام)[1]، فإن المأمور والمنهي إذا انتفع واهتدى كان ذلك سببًا في تحصيله السعادة الدنيوية والأخروية، فينجو من عقاب الله ويحصل له الثواب[2].

ثالثًا: آثار النصيحة على المجتمع:

إن في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من جليل الفوائد، وكريم العوائد وعظيم المصالح، ودرء المفاسد والشرور عن الأمة كافة، ما يدعو كل عاقل إلى الاهتمام به والحرص على أن يكون من أهله المتحلين به المسارعين إليه، لتحصيل ما وعد الله به القائمين بتلك الشعيرة الجليلة من الخير في العاجل والآجل ومن ذلك:

١. إقامة الملة والشريعة وحفظ العقيدة والدين لتكون كلمة الله العليا.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

فالإنسان لا بد له من أمر ونهي ودعوة، فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أمر بالشر، فمن لم يزحف بمبادئه زحف عليه بكل مبدأ وفكرة، والنفس تتلقى وتتشرب من الأخلاق والمبادئ، لذلك أمر الإسلام بمجالسة الصالحين وأهل البر والمعروف والخير، فإذا قام الناس بهذا المطلب تحققت حماية المجتمع المسلم من كل دخيل عليه، بالإضافة إلى أن الأمر بالمعروف يغذي الأمة أفرادًا وجماعات بالمثل والقيم والأخلاق والعقائد السليمة.

٢. رفع العقوبات العامة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

فإن الأمة التي يقع فيها الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعهما هي أمة ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر ذلك ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد فهي أمم مهددة بالدمار والهلاك، ولهذا فدعاة الإصلاح هم صمام الأمان للأمم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، تفسير القرآن، باب(كنتم خير أمة أخرجت للناس)، ٦/ ٣٧، رقم ٤٥٥٧.

(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه، خالد بن عثمان السبت ص٧٧.

والشعوب[1].

٣. استنزال الرحمة من الله؛ لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[الأعراف: ٩٦].

٤. شد ظهر المؤمن وتقويته، ورفع عزيمته، وإرغام أنف المنافق.

فالمؤمن يقوى ويعتز حينما ينتشر الخير والصلاح ويوحد الله لا يشرك به، وتضمحل المنكرات على إثر ذلك، بينما يخنس المنافق بذلك، ويكون ذلك سببًا لغمه وضيق صدره وحسرته؛ لأنه لا يحب ظهور هذا الأمر ولا ذيوعه بين الخلق، فإذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق.

٥. قيام المسلمين بها يحصل لهم الطموح والترفع عن الدنايا.

كما يحصل لهم شعور بأنهم ربانيون يصلحون الناس، فيكونون قدوة حسنة بصلاح أنفسهم وحسن استقامتهم.

٦. ابتلاء الخلق بعضهم ببعض؛ لأن هذا العمل بجميع مراتبه وأنواعه جهاد.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وبمثل هذه الابتلاءات يظهر إيمان المؤمن وصبره على مكاره النفس في سبيل رضى الله ونشر دينه وشريعته.

٧. سبب للتمكين والنصر على الأعداء.

فإن الأمة لا تنتصر بعدد ولا عدة، وإنما تنتصر بهذا الدين.

قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

٨. تحقيق وصف الخيرية في هذه الأمة.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠][2].

٩. يبعث الإحساس بمعنى الإخوة والتكامل بين المؤمنين.

فالقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشعر أبناء المجتمع الواحد بمعنى الإخوة؛ لأنه نوع من التناصح الذي يبعث الإحساس بالتكامل فيما بينهم، والتعاون على البر والتقوى واهتمام المسلمين بعضهم ببعض وقد أمرنا الله

(١) انظر: تذكرة أولي الغير بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الله القصير ص٧٥.

(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه، خالد بن عثمان السبت ص٧٨.

تعالى بذلك فقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

وإن القيام بذلك مما يوطد الأمن ويبعث الطمأنينة في نفوس المسلمين، ويؤكد الثقة والمحبة والاعتزاز بالجماعة في قلوب المؤمنين ويأمن الناس على الحقوق والحرمات.

موضوعات ذات صلة:

الإنذار، الحوار، الدعوة، النجوى

النعم

عناصر الموضوع

مفهوم النعم	٢٥٨
النعم في الاستعمال القرآني	٢٥٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٦٠
أنواع النعم	٢٦٢
أسباب تثبيت النعم أو زوالها	٢٧١
ثمرات شكر النعمة	٢٧٧
عواقب كفران النعمة	٢٨٢

المجلد الثالث والثلاثون

مفهوم النعم

أولًا: المعنى اللغوي:

النون والعين والميم فروعه كثيرةٌ، وعندنا أنها على كثرتها راجعةٌ إلى أصلٍ واحدٍ يدل على ترفهٍ وطيب عيشٍ وصلاحٍ، منه النعمة: ما ينعم الله تعالى على عبده به من مال وعيش، والنعمة: المنة، وكذا النعماء، والنعمة: التنعم وطيب العيش، والنعامى: الريح اللينة، والنعم: الإبل؛ لما فيه من الخير والنعمة، وقيل: النعم ذكر لا يؤنث، فيقولون: هذا نعم وارد، وتجمع أنعاما، والأنعام: البهائم، وهو ذلك القياس[(١)].

نعم: النعيم والنعمى والنعماء والنعمة، كله: الخفض والدعة والمال، وهو ضد البأساء والبؤسى وبالضم كذلك، والجمع أنعم، والنعمة بالفتح: التنعيم، والنعمة بالكسر: اليد البيضاء الصالحة والصنيعة والمنة وما أنعم به عليك[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تعددت تعريفات العلماء للفظة النعم، وهي على النحو الآتي:

النعمة: «هي في أصل وضعها الحالة التي يستلذها الإنسان».

وقيل: «النعمة هي الشيء المنعم به»[(٣)].

وقيل: «هي المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير»[(٤)].

وقيل: «هي ما قصد به الإحسان والنفع لا لغرض أو عوض»[(٥)].

فالمعنى الاصطلاحي قريب من المعنى اللغوي ولا يخرج عنه.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٤٦.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٤١، شمس العلوم، نشوان الحميرى ١٠/ ٦٦٦٢، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٨٠، مختار الصحاح، الرازي ص٣١٤.

(٣) الكليات، الكفوي ص ٩١٢.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٢٧.

(٥) التعريفات، الجرجاني ص ٢٤٢.

النعم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نعم) في القرآن الكريم (٨٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧]
اسم	٧٠	﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]

وجاءت النعم في القرآن على عشرة أوجه[٢].

أحدها: المنة، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١١]. أي: منته.

الثاني: الدين والكتاب، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم: ٢٨]. يعني: دين الله وكتابه.

الثالث: محمد صلى الله عليه وسلم، ومنه قوله تعالى في النحل: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]. يعني، محمدًا صلى الله عليه وسلم.

الرابع: الثواب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ [آل عمران: ١٧١]. يعني بثواب من الله تعالى وفضل.

الخامس: النبوة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: ١١].يعني: النبوة.

السادس: الرحمة، ومنه قوله: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ [الحجرات: ٨]. يعني: ورحمة.

السابع: الإحسان واليد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ [الليل: ١٩]. يعني: من إحسان يجازى عليه.

الثامن: سعة المعيشة، ومنه قوله: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥]. يعني: وسع معيشته.

التاسع: الإسلام، ومنه قوله: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. يعني: بالإسلام.

العاشر: المال، ومنه قوله: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ [المزمل: ١١]. يعني: المال.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٠٧-٧٠٨.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ١/ ٥٩٧-٥٩٩، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٤٤٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللذة:

اللذة لغةً:

اللام والذال أصل صحيح واحد، يدل على طيب طعم في الشيء. من ذلك اللذة واللذاذة: طيب طعم الشيء، واللذة: واحدة اللذات [(١)].

اللذة اصطلاحًا:

«إدراك الملائم من حيث إنه ملائم» [(٢)].

الصلة بين النعمة واللذة:

النعمة لا تشتهى كالتكليف، وإنما صار التكليف نعمة؛ لأنه يعود عليها بمنافع وملاذ، واللذة لا تكون إلا مشتهاة [(٣)].

٢ المنة:

المنة لغةً:

«الميم والنون أصلان. أحدهما يدل على قطع وانقطاع، والآخر على اصطناع خير» [(٤)].

المنة اصطلاحًا:

هو الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه [(٥)].

الصلة بين النعمة والمنة:

النعمة تتضمن المنة في جوانبها، والمنة هي النعمة المقطوعة من جوانبها كأنها قطعة، وسمي الاعتداد بالنعمة منة؛ لأنه يقطع الشكر عليها [(٦)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٠٤.
وانظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٦٩.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ١٩١.
وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٨٨، الكليات، الكفوي ص١٧٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص١٩٧.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٦٧.
(٥) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٦/ ١٩٤.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص١٩٧.

٣ الخير:

الخير لغة:

الخير ضد الشر [١].

الخير اصطلاحًا:

الخير ما يرغب فيه الكلُّ؛ كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع [٢].

الصلة بين النعمة والخير:

النعمة متضمنة للخير، فهي أعم، وهي من الله، أما الخير يكون من الله ومن الإنسان، أي: إن الإنسان يجوز أن يفعل بنفسه الخير، ولا يجوز أن ينعم عليها [٣].

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٢٣٨.
(٢) روح البيان، اسماعيل الخلواتي ٧/ ٣٤٨.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص١٩٧.

أنواع النعم

تتعدد نعم الله على عباده، منها النعم المادية الضرورية في الحياة مثل الرزق الطيب، والأزواج والأولاد والأحفاد، والسكن المريح، والملابس، وغيرها، ومنها النعم المعنوية والتي منها: إرسال الأنبياء لإرشاد العباد إلى خالقهم بما يحملون معهم من كتب ربهم، ثم التوفيق إلى الهداية إلى الطريق المستقيم، وهذه أجل النعم، وغيرها.

أولًا: النعم المادية:

١. الرزق الميسر من الطيبات.

قال تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

«أي: من الثمار والحبوب والحيوان»[(١)].

قال ابن عاشور رحمه الله: «الرزق يجوز أن يكون مرادًا منه المال، وهذا هو الظاهر، وهو الموافق لما في الآية، ويجوز أن يكون المراد منه إعطاء المأكولات الطيبة»[(٢)].

٢. الأزواج والبنون والحفدة.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

«يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجًا ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات من جميع المآكل والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها»[(٣)].

٣. السكن المريح والملابس الواقية.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠-٨١].

يذكر تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ في الدور والقصور ونحوها، تكنكم من الحر والبرد، وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٤٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٤٤.

لأموالكم وحرمكم وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر. ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: خفيفة الحمل، تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي: الأنعام ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها، ﴿ظِلَالًا﴾ وذلك كأظلة الأشجار والجبال والآكام ونحوها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ أي: ألبسة وثيابًا ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ ولم يذكر الله البرد؛ لأنه ذكر في أول هذه السورة أصول النعم وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ [النحل: ٥].

﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي: وثيابًا تقيكم وقت البأس والحرب من السلاح، وذلك كالدروع والزرد ونحوها، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿تُسْلِمُونَ﴾ لعظمته وتنقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة مولِّيها ومُسْديها، فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبى الظالمون إلا تمردًا وعنادًا[1].

قال ابن عاشور رحمه الله: «ونعمة الإلهام إلى اتخاذ المساكن أصل حفظ النوع من غوائل حوادث الجوِّ من شدة بردٍ أو حرٍّ، ومن غوائل السباع والهوام. وهي أيضًا أصل الحضارة والتمدن؛ لأن البلدان ومنازل القبائل تتقوم من اجتماع البيوت. وأيضًا تتقوم من مجتمع الحلل والخيام»[2].

٤. السكن والطمأنينة.

في البيوت نعمة لا يقدرها حقَّ قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة، وقد كثر المشردون الذين ينامون على الأرض، ويلتحفون السماء بكثرة الطغاة والمستبدين في كل عصر وحين، ولا

(١) المصدر السابق ص٤٤٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٧.

سبيل إلى القضاء على التشرد إلا بتحقيق حكم الإسلام في واقع الحياة، وسيادة العدل أركان المجتمعات والدول.

٥. تسخير المخلوقات، وتيسير اتباع السنن الكونية.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفا محفوظًا، والأرض فرشًا، وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجًا من نباتٍ شتى ما بين ثمارٍ وزروعٍ مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافيةً على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليمٍ إلى إقليمٍ آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ رزقًا للعباد من شربٍ وسقيٍ، وغير ذلك من أنواع المنافع.

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، أي يسيران لا يفتران ليلًا ولا نهارًا، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارةً يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣].

وهيأ لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلًا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيبٍ رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين[(١)].

وفي الشكر على النعم روى البخاري بسنده عن أبي أمامة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع مائدته قال: (الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مكفيٍّ ولا مودعٍ ولا مستغنًى عنه، ربنا)[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٤٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه، رقم ٥٤٥٨.

لَمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ
وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا
جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾
يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ
وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ
وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى
ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى
ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ
هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا
تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥ - ١٨].

«وهو سبحانه الذي ذلل لكم البحر، فمكنكم من ركوبه، واستخراج ما فيه لتأكلوا مما تصطادون من سمكه لحمًا غضًّا لينًا، وتستخرجوا منه زينة تلبسونها، وتلبسها نساؤكم مثل اللؤلؤ والمرجان.

وترى السفن تشق عباب البحر، وتركبون هذه السفن طلبًا لفضل الله الحاصل من ربح التجارة، ورجاء أن تشكروا الله على ما أنعم به عليكم، وتفردوه بالعبادة، وبث في الأرض جبالًا تثبتها حتى لا تضطرب بكم، وتميل، وأجرى فيها أنهارًا لتشربوا منها، وتسقوا أنعامكم وزروعكم، وشق فيها طرقًا تسلكونها، فتصلون إلى مقاصدكم دون أن تضلوا.

وجعل لكم في الأرض معالم ظاهرة تهتدون بها في السير نهارًا، وجعل لكم النجوم في السماء رجاء أن تهتدوا بها ليلا. أفمن يخلق هذه الأشياء وغيرها كمن لا يخلق شيئًا، أفلا تتذكرون عظمة الله الذي يخلق كل شيء، وتفردوه بالعبادة، ولا تشركوا به ما لا يخلق شيئًا.

وإن تحاولوا -أيها الناس- عد نعم الله الكثيرة التي أنعم بها عليكم، وحصرها لا تستطيعوا ذلك؛ لكثرتها وتنوعها، إن الله لغفور؛ حيث لم يؤاخذكم بالغفلة عن شكرها، رحيم حيث لم يقطعها عنكم بسبب المعاصي والتقصير في شكره»[1].

(١) المختصر في تفسير القرآن، مركز تفسير ص ٦٩.

ومما يؤخذ من الآيات:

- لله تعالى الحكمة البالغة في قسمة الأرزاق بين العباد، فجعل منهم الغني والفقير والمتوسط؛ ليتكامل الكون، ويتعايش الناس، ويخدم بعضهم بعضًا، فالآية دليل على أن التفاوت في الأرزاق كالتفاوت في الأعمار.
- قد تكون بسطة الرزق ابتلاء من الله، كما يكون التضييق فيه لحكمة يريدها ويحققها بالابتلاء.
- المقصود من قوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أن هذه النعم أو المتمتعون بها صائرون إلى زوالٍ يحول دون الانتفاع بها؛ ليكون الناس على أهبةٍ واستعدادٍ للآخرة، فيتبعوا ما يرضي الله تعالى.
- قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي: والبرد، حذف الثاني استغناء بالأول.
- من أعظم المنن التي امتن الله بها على عباده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوعٍ آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة.
- في الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره، وذكره ودعائه.

ثانيًا: النعم المعنوية:

١. إرسال الأنبياء.

من نعم الله على عباده إرسال الأنبياء؛ ليدعوهم إلى الطريق المستقيم الذي به سعادة الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ [المائدة: ٢٠].

«أي: كلما هلك نبيٌّ قام فيكم نبيٌّ، من لدن أبيكم إبراهيم وإلى من بعده. وكذلك كانوا، لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته، حتى ختموا بعيسى عليه السلام، ثم أوحى الله تعالى إلى خاتم الرسل والأنبياء على الإطلاق محمد بن عبد الله، المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم صلى الله عليه وسلم»[(١)].

والمقصود من إرسال الرسل طاعة المرسل.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

«فالله أرسل رسله؛ ليطاعوا- بإذنه وفي حدود شرعه- في تحقيق منهج الدين. منهج الله الذي أراده لتصريف هذه الحياة. وما من رسول إلا أرسله الله ليطاع بإذن الله. فتكون طاعته طاعة لله، ولم يرسل الرسل لمجرد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٢.

التأثر الوجداني، والشعائر التعبدية، فهذا وهمٌ في فهم الدين لا يستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسل، وهي إقامة منهج معين للحياة، في واقع الحياة»[1].

٢. إنزال الكتب.

أمر سبحانه عباده بذكر نعمته عليهم من إرساله الرسول بالهدى والبينات إليهم، ومعه القرآن والسنة؛ ليرشدهم بهما إلى الأحكام والحكم الشرعية التي تستقر بها الحياة، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

واذكروا ما أنزل الله عليكم في القرآن والسنة النبوية من أحكام وحكم تشريعية؛ لتوفير استقرار الحياة الزوجية، وتحقيق السعادة والهناءة وغير ذلك، مما فيه مصلحة ومنفعة؛ إذ أن الأحكام تضع أصول النظام، وأسرار الحكمة التشريعية تساعد على الامتثال والاتعاظ والاقتناع[2].

٣. التوفيق لاتباع شرائع الله.

قال تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

أي: «ولأتم بذلك من هدايتي لكم إلى قبلة خليلي إبراهيم عليه السلام الذي جعلته إمامًا للناس نعمتي، فأكمل لكم به فضلي عليكم، وأتمم به شرائع ملتكم الحنيفية المسلمة»[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

قوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ «أي: يكمل النعم الموجودة قبل الإسلام بنعمة الإسلام، أو ويكمل نعمة الإسلام بزيادة أحكامه الراجعة إلى التزكية والتطهير مع التيسير في أحوالٍ كثيرةٍ. فالإتمام إما بزيادة أنواعٍ من النعم لم تكن، وإما بتكثير فروع النوع من النعم»[4].

وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٦.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٣٥٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٦٩١.
(٤) التحرير والتنوير ٦/ ١٣٢.

تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

تأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيذانًا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل، ولا شيء خارجًا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذانا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم، إذ هم القائمون به المقيمون له. وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمة حقًّا، وهم قابلوها. وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خصوا به دون الأمم. وفي إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة فجاء ﴿وَأَتْمَمْتُ﴾ في مقابلة ﴿أَكْمَلْتُ﴾ و﴿عَلَيْكُمْ﴾ في مقابلة ﴿لَكُمْ﴾ و﴿نِعْمَتِي﴾ في مقابلة ﴿دِينَكُمْ﴾ وأكد ذلك، وزاده تقريرًا وكمالًا، وإتمامًا للنعمة بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾[1].

٤. تآلف القلوب وزوال العداوات بين الأفراد والجماعات.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال الشنقيطي رحمه الله: «لم يبين هنا ما بلغته معاداتهم من الشدة، ولكنه بين في موضعٍ آخر أن معاداتهم بلغت من الشدة أمرًا عظيمًا حتى لو أنفق ما في الأرض كله لإزالتها وللتأليف بين قلوبهم لم يفد ذلك شيئًا، وذلك في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣]».

وقال سيد قطب رحمه الله: «والنص القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط: «القلب» فلا يقول: (فألف بينكم). إنما ينفذ إلى المكمن العميق: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه»[2].

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٢٣٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٤٣.

٥. كف أذى الأعداء والنصر عليهم والتمكين في الأرض، والأمن في الأوطان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

«يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم -كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمةً - فليعدوا أيضًا إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة، فإنهم الأعداء، قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه.

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشرٍّ، من كافر ومنافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية»[1].

وفي حادث الأحزاب ذكر الله المؤمنين بنعمته عليهم أنْ ردَّ عنهم الجيش الذي هَمَّ أن يستأصلهم، لولا عون الله وتدبيره اللطيف.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

قال الشنقيطي رحمه الله: «أمر الله جل وعلا المؤمنين في هذه الآية الكريمة أن يذكروا نعمته عليهم حين جاءتهم جنودٌ وهم جيش الأحزاب، فأرسل جل وعلا عليهم ريحًا وجنودًا لم يرها المسلمون، وهذه الجنود التي لم يروها التي امتن عليهم بها في سورة «الأحزاب»، بين أنه من عليهم بها أيضًا في غزوة حنينٍ.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٦].

وهذه الجنود هي الملائكة، وقد بين جل وعلا ذلك في «الأنفال»، في الكلام على غزوة بدرٍ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وهذه الجنود التي لم يروها التي هي الملائكة، قد بين الله جل وعلا في «براءة»،

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٢٤.

أنه أيد بها نبيه صلى الله عليه وسلم وهو في الغار، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]»[1].

٦. حسن الثواب على الأعمال بعد قبولها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم، وما مَنَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله.

فلا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها، الذي يحذر من فواته، من جبن عن القتال، وزهد في الشهادة ﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم ﴿أَحْيَاءٌ﴾ في دار كرامته.

ولفظ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علوَّ درجتهم، وقربهم من ربهم، ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص.

فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم النعيم والسرور، وجعلوا ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: يهنئ بعضهم بعضًا، بأعظم مهنأ به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم. وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند

(١) أضواء البيان ٦/ ٢٣٤.

ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضا، وتبشير بعضهم بعضًا»[1].

والتأليف بين القلوب مقصد عظيم من المقاصد التي جاء بها القرآن الكريم، قال ابن عاشور رحمه الله معددًا المقاصد التي جاء بها القرآن والتي منها: «سياسة الأمة، وهو بابٌ عظيمٌ في القرآن، القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها، كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].»[2].

أسباب تثبيت النعم أو زوالها

بين القرآن أسباب تثبيت النعم أو زوالها، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يلي:

أولًا: أسباب التثبيت والزيادة:

١. الشكر لله سبحانه وتعالى، وأداء ما يترتب على النعمة من واجبات.

قرن الله عز وجل في كتابه النعم بالشكر في مواضع من كتابه منها:

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

أي: فاشكروا نعمة الله ولا تكفروها، فيحل بكم ما حل بأهل القرية المضروبة مثلًا[3].

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

أي: لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة، والتسهيل والسماحة[4].

وقوله تعالى في ثنائه على سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٥٦.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٣٩.
(٣) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٩.
(٤) جامع البيان، الطبري ٣/ ٦٠.

﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك[١]، فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته الدينية والدنيوية عليه وعلى والديه[٢].

وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها ومولِيها، ومقابلته منته بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم؛ لأنهم لابد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصًا نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم[٣].

وقوله تعالى في ثنائه على أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

قال علي رضي الله عنه: هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أسلم أبواه جميعًا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك من بعده[٤]، فطلب العون من الله على زيادة الإحسان إليهما بأن يلهمه الشكر على نعمه عليه وعلى والديه.

وقوله تعالى في معرض امتنانه على لوط عليه السلام ومن آمن معه بإنجائهم من قومهم الكفار: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٥].

وقوله تعالى في مدحه لإبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

أي: قائمًا بشكر نعم الله عليه.

ولفظ الأنعم في الآية جمع قلة، ونعم الله تعالى على إبراهيم عليه السلام كانت كثيرة، فلم قال: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾؟

قال الرازي رحمه الله: «المراد أنه كان شاكرًا لجميع نعم الله إن كانت قليلة فكيف الكثيرة؟»[٥].

فالشاكر على القليل يشكر إذا أتاه الكثير من باب الأولى، فاشكروا الله اقتداء به ليزيدكم.

ودلالة الاقتران بين النعم والشكر أن الشكر حافظ للنعم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٠٢.
(٣) المصدر السابق ص٧٨١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٩٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٨٤.

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

٢. الدعاء والتضرع إلى الله تعالى في الرخاء والشدة.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

أي: «ما يكن بكم في أبدانكم أيها الناس من عافية وصحة وسلامة، وفي أموالكم من نماء، فالله المنعم عليكم بذلك لا غيره؛ لأن ذلك إليه وبيده، فإذا أصابكم في أبدانكم سقم ومرض، وعلة عارضة، وشدة من عيش، فإلى الله تصرخون بالدعاء وتستغيثون به؛ ليكشف ذلك عنكم»[١].

قال السعدي رحمه الله: «أي: تضجون بالدعاء والتضرع؛ لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده»[٢].

٣. التحدث بالنعم.

أمر الله نبيه وورثته من بعده بالتحدث بنعم الله عليه، فالتحدث بالنعم شكر لها.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٢٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٤٢.

أي: «انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء، والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكرٌ»[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «في هذا التحديث قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها. وقول العبد: أنعم الله علي بكذا وكذا. أي: اذكر نعم الله عليك في هذه السورة من الإيواء مع اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد رحمه الله: هي النبوة.

وقال الزجاج رحمه الله: أي: بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله[٤]. والصواب: أنه يعم النوعين؛ إذ كلٌّ منهما نعمة مأمور بشكرها، والتحدث بها، وإظهارها من شكرها»[٥].

والتحدث بالنعمة له ضوابط:

- أن يكون التحدث للثقة من الإخوان:

عن بعض السلف قال: «إن التحدث بالنعمة تكون للثقة من الإخوان ممن يثق به»[٦].

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٠٢.
(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٤٠.
(٥) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٥٧٤.
(٦) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٠.

- تحري الإخلاص: «إن التحدث بالعمل يكون بإخلاصٍ من النية عند أهل الثقة، فإنه ربما خرج إلى الرياء وإساءة الظن بصاحبه»[(١)].
- التحدث ليقتدي به غيره: قال الفخر الرازي رحمه الله: «إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياءً، وظن أن غيره يقتدي به»[(٢)].
- الإقرار بالمنعم بها، ونفي الندِّ والشريك له.

٤. استخدام النعمة فيما وهبت من أجله.

قال العلماء: «شكر النعمة عبارةٌ عن صرفها إلى طلب مرضاة المنعم»[(٣)].

فالتصرف بالنعمة بلا بطر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد، مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها.

قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

أي: بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا﴾ أي: معينًا ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: الكافرين بك، المخالفين لأمرك[(٤)]. فهو عهد مطلق ألا يقف في صف المجرمين ظهيرًا ومعينًا.

قال في التفسير المنير: «أراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون، وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له قتله»[(٥)].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «أراد بالمجرمين من يتوسم منهم الإجرام، وأراد بهم الذين يستذلون الناس ويظلمونهم»[(٦)].

ومن صور استخدام النعمة فيما وهبت له: إظهار آثارها المقصودة منها: كإظهار النصر للحق بنعمة الشجاعة، وإغاثة الملهوفين بنعمة الكرم، وتثقيف الأذهان بنعمة العلم[(٧)].

فالشكر سلوك عملي، قال تعالى آمرًا داود بالشكر العملي: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وظاهر القرآن والسنة: أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان، فالشكر بالأفعال عمل الأركان، والشكر

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٤١١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٢٠١، بتصرف.
(٣) المصدر السابق ١٦/ ٧٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٠٣.
(٥) التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٧٥.
(٦) التحرير والتنوير ٢٠/ ٩٢.
(٧) المصدر السابق ١/ ٥٢٦.

بالأقوال عمل اللسان[1].

ثانيًا: أسباب زوال النعم:

وبدارسة أسباب دوام النعم وازدياها قد تكفي لمعرفة زوالها أو نقصانها؛ لأن فقدان أسباب الزيادة والدوام هي أسباب لذهابها ونقصانها، ولكن لمزيد التأكيد والإيضاح نذكر بما يلي:

١. كفران النعمة، ومنع حقوقها.

قال تعالى في وصف كفار قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

روى البخاري بسنده، عن عطاءٍ، سمع ابن عباسٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، قال: هم كفار أهل مكة[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «وإن كان المعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمةً للعالمين، ونعمةً للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار»[3].

وقال تعالى منكرًا على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

أي: يؤمنون «بالأصنام والأنداد، ويسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره»[4].

وفي هذا المعنى ورد في الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممتنًا عليه: (ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟)[5].

وقال تعالى في نكران الكافرين شكر نعمة الله عليهم: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

أي: ينكرون شكرها، فإن النعمة تقتضي أن يشكر المنعم عليه بها من أنعم عليه، فلما عبدوا ما لا ينعم عليهم فكأنهم أنكروها[6].

وقال تعالى موبخًا المشركين الذين يجازون النعمة بالشرك، بدل الشكر للمنعم المتفضل الوهاب: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١].

أي: «أفبنعمة الله التي أنعمها على هؤلاء المشركين من الرزق الذي رزقهم في الدنيا يجحدون بإشراكهم غير الله من خلقه في

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١٥٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، باب (ألم ترى إلى الذي بدلوا نعمة الله كفرًا)، رقم ٤٧٠٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٠٨.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٥٨٧.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، رقم ٢٩٦٨. عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٤٢.

سلطانه وملكه؟»[1].

٢. الغفلة عن الدعاء وقت الرخاء.

أخبر الله تعالى في كتابه عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسه ضُرٌّ، من مرض أو شدة أو كرب يدعوه ملحًّا في الدعاء؛ لتفريج ما نزل به، فلما كشف الله ضره وأزال مشقته نسي وعاد بربه كافرًا، ولمعروفه منكرًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الزمر: ٤٩]

والآيتان «تصوران أنموذجًا مكررًا للإنسان، ما لم تهتد فطرته إلى الحق، وترجع إلى ربها الواحد، وتعرف الطريق إليه، فلا تضل عنه في السراء والضراء. إن الضرَّ يسقط عن الفطرة ركام الأهواء والشهوات، ويعريها من العوامل المصطنعة التي تحجب عنها الحق الكامن فيها وفي ضمير هذا الوجود. فعندئذ ترى الله وتعرفه وتتجه إليه وحده، حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء، نسي هذا الإنسان ما قاله في الضراء، وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء، وقال عن النعمة والرزق والفضل: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ قالها قارون، وقالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان، غافلًا عن مصدر النعمة، وواهب العلم والقدرة، ومسبب الأسباب، ومقدر الأرزاق»[2].

٣. البطر واستخدام النعم المادية في ظلم العباد وقهرهم.

أخبر تعالى في كتابه عن طبيعة الإنسان أنه جاهل ظالم، حيث إذا أذاقه الله منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها، أو خيرًا منها عليه، وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر ويفخر بنعم الله على عباد الله، ويتكبر على الخلق، ويحتقرهم ويزدريهم، ويستثنى من ذلك المؤمنون بالله.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠ - ١١].

وقال سبحانه على لسان موسى عليه السلام لفرعون الذي استعمل نعم الله عليه

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٩٣.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٥٦.

من المال والسلطان في الإساءة لبني اسرائيل حيث جعلهم عبيدًا وخدمًا، يصرفهم في أعماله ومشاقّ رعيته، ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧ - ٢٢].

ثمرات شكر النعمة

أولًا: ثمرات شكر النعمة في الدنيا:

١. المزيد.

الشكر والمزيد مقترنان لا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أي: «من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه، والشكر عبارةٌ عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة»[(١)].

وفي معنى الشكر قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: « الشكر: تصور النعمة وإظهارها.. والشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب وهو تصور النعمة، وشكر اللسان وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها.

قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وذكر ﴿اعْمَلُوا﴾ ولم يقل: اشكروا؛ لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح»[(٢)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٦٦.
(٢) المفردات ص٢٦٥.

وقال ابن القيم رحمه الله: «ومعاني الشكر ثلاثة أشياء: معرفة النعمة، ثم قبول النعمة، ثم الثناء بها. أما معرفتها: فهو إحضارها في الذهن، ومشاهدتها وتمييزها. فمعرفتها: تحصيلها ذهنًا، كما حصلت له خارجًا؛ إذ كثيرٌ من الناس تحسن إليه وهو لا يدري، فلا يصح من هذا الشكر، ثم قبول النعمة. قبولها: هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها، وأن وصولها إليه بغير استحقاقٍ منه، ولا بذل ثمنٍ، بل يرى نفسه فيها كالطفيلي، فإن هذا شاهدٌ بقبولها حقيقةً، ثم الثناء بها. والثناء على المنعم، المتعلقُ بالنعمة نوعان: عامٌّ، وخاصٌّ. فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك. والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]»[(١)].

وقال أبو حيان رحمه الله: «لم يبين في الآية محلَّ الزيادة، فاحتمل أن يكون في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما، وجاء التركيب على ما عهد في القرآن من أنه إذا ذكر الخير أسند إليه تعالى. وإذ ذكر العذاب بعده عدل عن نسبته إليه فقال: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، فنسب الزيادة إليه، وقال: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، ولم يأت التركيب: لأعذبنكم»[(٢)].

ووعد الله بالمزيد حقيقة تطمئن إليها قلوب المؤمنين؛ لأنها وعد من الله صادق، فلابد أن يتحقق على أية حال.

«إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يشكر؛ لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة، هذه واحدة، والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة بلا بطر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد. وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها ويرضي الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عونًا ويصلح روابط المجتمع، فتنمو فيه الثروات في أمان، إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة، وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن، أدرك الأسباب أو لم يدركها، فهو حق واقع؛ لأنه وعد الله»[(٣)].

٢. تمام النعمة.

قال الراغب رحمه الله: «وإتمام نعمته هو أن نعم الله تعالى ضربان: أحدهما موهوب، والآخر مكتسب، فالموهوب: كجودة

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٢٣٨.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٤١١.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٨٩.

الحفظ والفهم وصحة البدن والجاه، وكل ذلك لا يستحق بحصوله الحمد، ولا بفواته الذم، والمكتسب كالعلم والعمل الصالح المتوصل بهما إلى الثواب وهو الإيمان، وبه يستحق المدح والذم»[1].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «إتمام النعمة: هو خلوصها مما يخالطها من الحرج، والتعب»[2].

قرن سبحانه النعمة بالتمام في مواضع من كتابه، مع اختلاف الإتمام حسب سياق الآيات كما يلي:

- الخروج من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].
- اختيار أكمل الشرائع لكم: قال سبحانه: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].
- ببيان شرائع الدين ومنه التيمم، قال سبحانه: ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦].
- بخلق ما تحتاجون إليه، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].
- بإظهار دينك ونصرك على أعدائك، قال: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

وأصل النعمة: «الهداية لدينه بإرسال رسوله، وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة، ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته، ما أتم به نعمته عليه وعليهم»[3].

وأعلى هذه النعم وأجلها الثبات على الإيمان والموت عليه، ثم دخول جنات النعيم.

قال سيد قطب رحمه الله: «ويقف المؤمن أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين، بإكمال هذا الدين وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة، النعمة التي تمثل مولد الإنسان في الحقيقة، كما تمثل نشأته واكتماله. فالإنسان لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له، وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين، وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه، كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه»[4].

ومن النعم المتممة لنعمة الدين شعيرة

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٤٣.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ١٠٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٣.
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٨٤٣.

التيمم.

قال تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

أي: «لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة، والرأفة والرحمة، والتسهيل، والسماحة»(١).

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ بالجمع بين طهارة الأرواح وتزكيتها، وطهارة الأجساد وصحتها، فإنما الإنسان روحٌ وجسدٌ، لا تكمل إنسانيته إلا بكمالهما معًا، فالصلاة تطهر الروح، وتزكي النفس؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربي في المصلي ملكة مراقبة الله تعالى وخشيته لدى الإساءة، وحبه والرجاء فيه عند الإحسان، وتذكره دائمًا بكماله المطلق، فتوجه همته دائمًا إلى طلب الكمال. والطهارة التي جعلها الله تعالى شرطًا للدخول في الصلاة ومقدمةً لها، تطهر البدن وتنشطه؛ فيسهل بذلك العمل على العامل من عبادةٍ وغير عبادةٍ، فما أعظم نعمة الله تعالى على الناس بهذا الدين القويم، وما أجدر من هداه الله إليه بدوام الشكر له عليه!»(٢).

ثانيًا: ثمرات شكر النعمة في الآخرة:

١. الجزاء العظيم والثواب الكبير.

أعد الله سبحانه للشاكرين لنعمه جزاء عظيمًا، وثوابًا كبيرًا في الآخرة، فعندما يقوم الإنسان بحقوق النعمة من الإقرار والاعتراف بالنعمة، ومن شكر المنعم جل شأنه فإنه يضع نفسه حينذاك في المكان الذي يرضى فيه عنه ربه ومولاه، وينتظر فيه حسن الجزاء والمكافأة، وقد ورد في القرآن الكريم آيتان متتاليتان أن الله سبحانه يجزي الشاكرين على شكرهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٣ - ١٤٥].

والحديث في هاتين الآيتين عن شكر نعمة الله في الدين والهداية، وذلك باتباع شرع الله تبارك وتعالى، وإيثار الآخرة على الدنيا. والملاحظ أن الله سبحانه لم يذكر ما هو جزاؤه في الآخرة، ويغني عن ذلك وعد الله بالجزاء، فإنه جزاء وعد به أكرم

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٠.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢١٤.

الأكرمين، وأرحم الراحمين.

والآية الثانية وإن نزلت في الجهاد، لكن حكمها عام في جميع الأعمال الحسنة، حيث قيل: إن الوعد بالجزاء الحسن المراد به المجاهدون من الشهداء وغيرهم، وقيل: جنس الشاكرين، وهم داخلون فيه دخولًا أوليًّا، وتصدير الجملة بالسين، وإبهام الجزاء للتأكيد، وللدلالة على فخامة الجزاء وعظمه[(١)].

وهذا الذي تضمنته الآيتان الكريمتان من الوعد الحسن للشاكرين بما يستحقون من الثواب، وإن كان المراد بهما الطائعين لله من المهاجرين والأنصار كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أن المراد كل الشاكرين، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[(٢)].

٢. رفع العذاب والنجاة.

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

قال قتادة رحمه الله: «إن الله جل ثناؤه لا يعذب شاكرًا ولا مؤمنًا»[(٣)].

قال سيد قطب رحمه الله: «نعم! ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾؟ إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان، إنها ليست شهوة التعذيب، ولا رغبة التنكيل ولا التذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان، تعالى الله عن ذلك كله علوًّا كبيرًا، فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان فهنالك الغفران والرضوان»[(٤)].

«فالحكيم يضع الأشياء مواضعها، فيجازي على الإحسان بالإحسان، وعلى الإساءة بالإساءة، فإذا أقلع المسيء عن الإساءة أبطل الله جزاءه بالسوء، إذ لا ينتفع بعذابٍ ولا بثوابٍ، ولكنها المسببات تجري على الأسباب. وإذا كان المؤمنون قد ثبتوا على إيمانهم وشكرهم، وتجنبوا موالاة المنافقين والكافرين، فالله لا يعذبهم؛ إذ لا موجب لعذابهم»[(٥)].

٣. رضا الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «يضاعف لكم، وكأنه يريد ثواب الشكر، وقيل: يقبله منكم»[(٦)].

«وإنما رضي لهم سبحانه الشكر؛ لأنه سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة»[(٧)].

(١) انظر: المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري ١/ ٣٧٦.
(٢) انظر: الوجيز، الواحدي ص٢٣٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٢٤.
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٦.
(٥) التحرير والتنوير ٥/ ٢٤٥.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ١٨٧.
(٧) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥١٨.

والمعنى: وإن تشكروا الله على نعمه وتؤمنوا به؛ لأن الشكر يقتضي الإيمان، فإن الله يرضى لكم ذلك السبيل ويثيبكم عليه؛ لأنه سبب لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به، فهو غني عن الشكر.

وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى في هالات ذلك الرضوان الكريم، فما أروع الشكر الذي يوصل إلى رضوان الله. وقد روى مسلم بسنده في باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، عن أبي سعيدٍ الخدري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى؟ يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)[1].

عواقب كفران النعمة

لكفران النعم عواقب، نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: المحن والزوال، التعاسة والشقاء:

إذا جحد المرء نعم ربه تبارك وتعالى، فإن الله يسلب منه هذه النعمة، وتحل مكانها النقمة، وليس بالضرورة أن تسلب النعمة، بل قد يزاد له فيها استدراجًا له حتى يزداد إثمًا؛ وذلك لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى.

وقد ذكر تعالى بعض الأمم الذين جحدوا نعمته فسلب منهم تلك النعمة، فقوم سبأ لما أعرضوا عن الشكر وجحدوا النعمة، أبدلهم الله مكانها شرًّا ونقمة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧].

وسبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها «مأرب». والآية هنا تبين: «ما أدَرَّ الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا، رقم ٢٨٢٩.

يعبدوا الله ويشكروه، ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدًا محكمًا، يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أَدَرَّها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة؛ لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم -إن شكروه- أن يغفر لهم ويرحمهم؛ ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة، -الظاهر أنها: (قرى صنعاء قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام)- هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة، بحمل الزاد والمزاد»[1].

فانظر كيف أبدلهم الله بالجنات والثمار ذلك الثمر البشع المر، وذلك النبات الذي لا فائدة منه ولا خير، وغيره من النبات الذي لا ثمر له. فهذا الجزاء من الواضح تمامًا أنه مترتب على كفر النعمة، والإعراض عن المنعم.

وكذلك فلقد ضرب القرآن لنا مثلًا تلك القرية التي كانت نعم الله تغمرها من كل مكان، وتحيط بها من كل اتجاه، ولكنها كفرت بتلك النعمة، وجحدت شكر موليها، فهل تبقى تلك النعم متصلةً بها، وهي على تلك الحال؟! القرآن يجيب عن ذلك.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، يعني: مكة[2].

وهذه القرية وإن كان المقصود بها مكة حيث كفر أهلها بنعمة الله، وقد كانوا آمنين مطمئنين يعيشون فكفروا به وجحدوا رسالته، «إلا أن الآية عامة لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا، فبدل الله نعمتهم بالنقمة، وإيثار جمع القلة » أنعم « للإيذان بأن كفران النعم القليلة

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٧٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٨٣.

أوجب العذاب، فكيف بكفران وجحود النعم الكبيرة؟»[1].

«ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسًا، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقًا؛ لأن الذوق أعمق أثرًا في الحس من مساس اللباس للجلد. وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس؛ لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون»[2].

ثانيًا: العذاب المهين:

قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١١ - ١٤].

أي: «اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أهملهم، هؤلاء أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسَّعَ الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله، ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال: إن عندنا عذابًا شديدًا، جعلناه تنكيلًا للذي لا يزال مستمرًا على الذنوب، و نارًا حامية ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، وعذابًا موجعًا مفظعًا، وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور»[3].

موضوعات ذات صلة:

الإنفاق، الشكر، الحمد، العطاء

(١) انظر: المقتطف من عيون التفاسير، المنصوري ٣/ ١٦٣.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٩٣.

النِّفَاق

عناصر الموضوع

مفهوم النفاق	٢٨٦
النفاق في الاستعمال القرآني	٢٨٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٨٨
أنواع النفاق	٢٩١
صفات المنافقين	٢٩٥
مظاهر النفاق	٣٠٤
طريقة التعامل مع المنافقين	٣١٠
خطر النفاق والمنافقين على الأمة	٣١٤
وعيد الله عز وجل للمنافقين	٣١٧

مفهوم النفاق

أولًا: المعنى اللغوي:

اختلف علماء اللغة في أصل النفاق، فقيل: إن ذلك نسبة إلى النفق وهو السرب في الأرض؛ لأن المنافق يستر كفره ويغيبه، فتشبه بالذي يدخل النفق يستتر فيه. وقيل: سمي به من نافقاء اليربوع، فإن اليربوع له جحر يقال له: النافقاء، وآخر يقال له: القاصعاء، فإذا طلب من القاصعاء قصع فخرج من النافقاء. كذا المنافق يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي يدخل فيه[1].

يقول ابن منظور رحمه الله: النفاق بالكسر فعل المنافق والنفاق الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر مشتق من نافقاء اليربوع. وقد نافق منافقةً ونفاقًا، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله في اللغة معروفًا يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقًا وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

النفاق في الاصطلاح الشرعي: هو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد[3].

يقول الجرجاني رحمه الله في تعريف النفاق: هو إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب[4].

إذن فالمنافق في الشرع هو الذي يظهر غير ما يبطن. فإن كان الذي يخفيه التكذيب بأصول الإيمان فهو المنافق الخالص، وإن كان الذي يخفيه غير الكفر بالله وكتابه ورسوله، وإنما هو شيء من المعصية لله، فهو الذي فيه شعبة أو أكثر من شعب النفاق.

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٢، النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٥/ ٩٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣/ ٢٨٦.
(٢) لسان العرب ١٠/ ٣٥٧.
(٣) انظر عارضة الأحوذي ١٠/ ٩٧.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص ٣١١.

النفاق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نفق) في القرآن الكريم (١١١) موضعًا، يخص موضوع البحث منها (٣٧) موضعًا[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران:١٦٧]
المصدر	٣	﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:٧٧]
اسم الفاعل	٣٢	﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ [الحديد:١٣]

وجاءت كلمة النفاق في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: إظهار الإيمان وإخفاء الكفر[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧١٦-٧١٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص١٧٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٣٠٨، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٢٧-٢٢٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكفر:

الكفر لغة:

الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، وهو ضد الإيمان، لأنه تغطية للحق[(١)].

الكفر اصطلاحًا:

«الجحود بالوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها»[(٢)].

الصلة بين الكفر والنفاق:

والكفر توأم النفاق، والكفر إذا ذكر مفردا في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

وأمثال هذه النصوص كثير في القرآن.

ثم قد يقترن « الكفر بالنفاق » في مواضع، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

والإيمان والنفاق ضدان لا يجتمعان، وليس بينهما نطاقٌ مشترك، بل يختلفان كل الاختلاف من حيث الأصل والطبيعة والأثر، فإن زادت مادة الإيمان في القلب قل معها أثر النفاق، كالكوب الفارغ يصب فيه الماء، فكلما زادت نسبته خرج الهواء الذي كان يملأ الكوب، حتى يمتلئ تمامًا. كذلك العلاقة بين الإيمان والنفاق، يتزود الإنسان بالعمل الصالح الذي يزكي نفسه، ويطهر روحه، فتخبو جمرة النفاق حتى تنطفئ وتتلاشى.

٢ الرياء:

الرياء لغةً:

يقال: فلانٌ (مراءٍ)، وقومٌ (مراؤون)، والاسم (الرياء) يقال: فعل ذلك رياءً وسمعةً،

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩١.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩١.

إظهار غير ما في الباطن [١].

الرياء اصطلاحًا:

العمل لرؤية الناس والسمعة لأجل سماعهم [٢].

وقيل الرياء: أن يعمل المرء العمل ظاهره أنه لله؛ ولكنه في الباطن يريد به مدح الناس له.

الصلة بين الرياء والنفاق:

أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر. والرياء إظهار الطاعة مع إبطان المعصية[٣].

والرياء مدخل من مداخل الشرك، كما جاء في الحديث القدسي: (قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[٤].

قال النووي: «ومعناه أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير. والمراد: أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه، ويأثم به »[٥].

٣ الإيمان:

الإيمان لغة:

الإيمان في اللغة يراد به معنيان، يظهر معناهما بحسب السياق وهما: الأمن وضده الخوف، والتصديق وضده التكذيب، والمعنيان متداخلان[٦].

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى معنًى لغويًا آخر للإيمان؛ وهو أن يكون الإيمان بمعنى الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد[٧].

الإيمان اصطلاحًا:

«التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أخبر الله ورسوله عنه في القرآن والسنة،

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١١٥، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٥٩.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله ص ٤٥٢.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك فى عمله غير الله. عن أبي هريرة رضي الله عنه،رقم ٢٩٨٥.
(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ٩/ ٣٧٠.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢١، المفردات، الأصفهاني ص ٩٠.
(٧) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٩١، الإيمان، حقيقته، خوارمه، نواقضه، عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد ص١٩-٢١.

وأمر بالإيمان به؛ والانقياد له ظاهرًا وباطنًا»[1].

فهو قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية[2]؛ «ويشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله»[3].

الصلة بين الإيمان والنفاق:

لوجود صلة قوية بين الكفر والنفاق والإيمان، من حيث التقارب والتضاد، ذكر الله تعالى في صدر سورة البقرة وصفا مفصلا للمؤمنين والكفار والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات. وفي الكفار آيتين. وفي المنافقين ثلاث عشرة آية. ولذلك أسبابه، فالمؤمن ظاهر الإيمان في نفسه وعمله، مخلص لله ورسوله لا يشك في أمره، والكافر قد جاهر بالعداء معلنا الحرب باليد واللسان من دون مواربة، أما المنافق فهو الذي يشكل أمره على الناس حين يظهر خلاف ما يبطن فتكاد صفاته تعمى على الناظر. فبين الإيمان والنفاق علاقة تضاد.

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي ص٤١.
(٢) انظر: العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص١٦١.
(٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي ص٤١.

أنواع النفاق

تتنوع شعب ودروب النفاق، وتكثر مسالك المنافقين، وتتعدد أحوالهم الخبيثة. ومع التحقيق والتدبر ندرك أن ذلك كله يرجع إلى نوعين أساسين، هما: النفاق العقدي، والنفاق العملي. وفيما يأتي نتناولهما بالتفصيل والبيان.

أولًا: النفاق العقدي:

وهو النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل القرآن بذم أهله وفضح كفرهم[1].

والمنافق: يظهر خلاف ما يبطنه، فظاهره مسلم، تجري عليه أحكام الإسلام الظاهرة في الدنيا، ويعامل معاملة المسلمين؛ لأننا لم نؤمر بالشق عما في القلوب، وهذا في الأصل خارج عن نطاق وقدرة ابن آدم. لأن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان الباطن الذي يكون صاحبه من المؤمنين حقًا[2].

ومن الآيات في نفي الإيمان عنهم وبيان مصيرهم في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨].

وقوله عز وجل ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء: ١٣٨].

وقوله سبحانه ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: ٧٣ - ٧٤].

فهذه الآيات الكريمة تؤكد على كفر المنافقين، كما تبين مصيرهم المحتوم في الآخرة، وهو: الدرك الأسفل من النار، لأنهم زادوا على كفرهم، الكذب والمراوغة والخداع للمؤمنين، ولذلك فصل القرآن الحديث حولهم وحول صفاتهم لكي لا يقع

(١) جامع العلوم والحكم ص٤٠٣.
(٢) أشار لذلك الشوكاني في فتح القدير ١/ ٦٥ تفسير الآية التاسعة من سورة البقرة.
وانظر: الإيمان الأوسط، ابن تيمية ص١٦٦.

المؤمنون في حبائلهم وخداعهم.

والنفاق إذا أطلق ذكره في القرآن فإن المراد به النفاق الأكبر المنافي للإيمان؛ بخلاف الكفر فإنه يأتي - أحيانًا - بمعنى الكفر الأصغر، وكذلك الظلم والفسق والشرك، أما في السنة النبوية فقد ورد النفاق الأصغر[1].

ثانيًا: النفاق العملي:

وهو النفاق الأصغر، واختلاف السر والعلانية في الواجبات، وذلك بعمل شيء من أعمال المنافقين؛ مع بقاء أصل الإيمان في القلب وصاحبه لا يخرج من الملة، ولا ينفي عنه مطلق الإيمان، ولا مسمى الإسلام، وهو معرض للعذاب كسائر المعاصي، دون الخلود في النار، وصاحبه ممن تناله شفاعة الشافعين بإذن الله.

وهذا النوع من النفاق مقدمة وطريق للنفاق الأكبر؛ لمن سلكه وكان ديدنه. وأمثلة ذلك: الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، وخيانة الأمانة، والفجور في الخصومة، والغدر بالعهود، وكالرياء الذي لا يكون في أصل العمل، وإظهار المودة للغير والقيام له بالخدمة مع إضمار عكسه في النفس[2].

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)[3].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[4].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (كان منافقًا خالصًا) معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، قال بعض العلماء هذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه، فأما من يندر ذلك منه فليس داخلًا فيه، فهذا هو المختار

(١) انظر: الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة ١/ ١٤١، إعداد عبدالله بن عبد الحميد الأثري، مراجعة وتقديم فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود.

(٢) انظر: الجواهر المضية، محمد بن عبد الوهاب، ص ١٣، الوجيز في عقيدة السلف الصالح، عبدالله بن عبدالحميد ص١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، ١/ ٧٨، رقم ٥٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب علامة المنافق، رقم ٣٤، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، ١/ ٧٨، رقم ٥٨.

في معنى الحديث[1].

ولما تقرر عند الصحابة رضي الله عنهم أن النفاق هو اختلاف السر والعلانية خشي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغير عليه حضور قلبه ورقته وخشوعه عند سماع الذكر برجوعه إلى الدنيا والاشتغال بالأهل والأولاد والأموال أن يكون ذلك منه نفاقًا، كما في صحيح مسلم عن حنظلة الأسدي أنه مر بأبي بكر وهو يبكي، فقال: (ما لك ؟ قال: نافق حنظلة يا أبا بكر، نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين، فإذا رجعنا، عافسنا الأزواج والضيعة فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فالله إنا لكذلك، فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: مالك يا حنظلة ؟ قال: نافق حنظلة يا رسول الله، وذكر له مثل ما قال لأبي بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي، لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة[2].

ومما ورد في هذا المعنى - أي خوف الصحابة من النفاق - ما قاله ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه. ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنهم[3].

وخلاصة القول في النفاق الأصغر: أنه نوع من الاختلاف بين السريرة والعلانية مما هو دون الكفر، وذلك كالرياء الذي لا يكون في أصل العمل وكإظهار مودة الغير والقيام بخدمته مع إضمار بغضه والإساءة إليه، كالخصال الواردة في حديث شعب النفاق ونحو ذلك؛ فعلى المسلم الحذر من الوقوع في شيء من ذلك.

وقد حذر الله تعالى عباده المؤمنين من الوقوع في بعض السلوكيات الداخلة في أفعال المنافقين، مثل مخالفة القول للفعل؛ فقال جل شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢ - ٣].

أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه ؟ وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به. فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة ؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟[4].

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ٤٧.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الأرض، رقم ٢٧٥٠.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١١١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٥٨.

قيل: إن سبب نزولها ما روي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: (قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف ١-٢].

قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام، قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة، قال ابن كثير: فقرأها علينا الأوزاعي، قال عبد الله: فقرأها علينا ابن كثير)[1].

وقال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعلمناه ولبذلنا فيها أموالنا وأنفسنا فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف:٤].

وأنزل الله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ [الصف:١٠] الآية. «فابتلوا بذلك يوم أحد، فولوا مدبرين، وكرهوا الموت وأحبوا الحياة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

وقيل: لما أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بثواب أهل بدر قالت الصحابة: لئن لقينا قتالًا لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد، فعيرهم الله بهذه الآية. وقيل: نزلت في شأن القتال، كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل وأطعمت ولم يطعم وضربت ولم يضرب. فنزلت هذه الآية.[2]

وهناك فروق بين النفاق الأكبر والنفاق الأصغر منها:

١. أن النفاق الأكبر يخرج من الملة، والنفاق الأصغر لا يخرج من الملة.
٢. أن النفاق الأكبر اختلاف السر والعلانية في الاعتقاد، والنفاق الأصغر اختلاف السر والعلانية في الأعمال دون الاعتقاد.
٣. أن النفاق الأكبر لا يصدر من مؤمن، وأما النفاق الأصغر فقد يصدر من المؤمن.

فالنفاق الأصغر هو المانع والمعوق للعمل الصالح الذي ينبغي على المسلم تجنبه ليقبل على الخيرات وفعل الصالحات وهو كما سبق النفاق العملي، فصاحبه يتصف ببعض صفات أهل النفاق الأكبر.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الصف، ٥/ ٤١٢، رقم ٣٣٠٩.
وصححه الألباني.

(٢) لباب التأويل، الخازن ٧/ ٨٣.

صفات المنافقين

التعرف على صفات المنافقين أمر في غاية الأهمية وذلك حتى ينكشف هذا الصنف الخبيث من البشر، وحتى يحذر المؤمنون من أحوالهم ومكرهم.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: (نبه الله سبحانه وتعالى على صفات المنافقين؛ لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خيرًا)[1].

وللمنافقين صفات كثيرة يمكن تقسيمها إلى صفات اعتقادية وصفات سلوكية على ما يأتي:

أولًا: صفات اعتقادية:

١. الكفر بالله.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ السُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٣].

يقول الله تعالى: وإذا قيل للمنافقين: ﴿ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ السُّفَهَآءُ﴾ يعنون -لعنهم الله- أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء!!

وقد تولى الله سبحانه، جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم. ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى[2].

٢. مرض القلب.

قال جل شأنه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠].

أي: في قلوبهم شك ونفاق. وأصل المرض الضعف. وسمي الشك في الدين مرضا لأنه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن. ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ لأن الآيات كانت تنزل تترى، آية بعد آية، كلما كفروا بآية ازدادوا كفرا ونفاقا[3].

٣. الظن السيئ بالله.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨١.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٦.

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح:٦].

فهم دائما يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله. فالقلب المؤمن حسن الظن بربه، يتوقع منه الخير دائمًا. يتوقع منه الخير في السراء والضراء. ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين. وسر ذلك أن قلبه موصول بالله. وفيض الخير من الله لا ينقطع أبدًا. فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة، وأحسها إحساس مباشرة وتذوق.

فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله. ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها، فيسوء ظنهم بالله؛ وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويبنون عليها أحكامهم. ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين، كلما كانت ظواهر الأمور توحي بهذا؛ على غير ثقة بقدر الله وقدرته، وتدبيره الخفي اللطيف[1].

ثانيًا: صفات سلوكية:

١. العداوة والحسد للمؤمنين.

كما قال سبحانه: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ [التوبة:٥٠]

وهذا نوع آخر من كيد المنافقين ومن خبث بواطنهم، والمعنى: إن تصبك في بعض الغزوات حسنة سواء كان ظفرًا، أو كان غنيمة، أو كان انقيادًا لبعض ملوك الأطراف، يسؤهم ذلك، وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ومصيبة ومكروه يفرحوا به، ويقولوا: قد أخذنا أمرنا الذي نحن مشهورون به، وهو الحذر والتيقظ والعمل بالحزم[2].

٢. الفساد في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

ومعنى الآيتين الكريمتين:

﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالنفاق وموالاة الكفرة، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما في الأرض بهلاك الأبدان وخراب الديار.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٤٧٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٣١.

ولما نهاهم الله عن الفساد الذي هو دأبهم أجابوا بهذه الدعوى العريضة، ونقلوا أنفسهم من الاتصاف بما هي عليه حقيقة وهو الفساد إلى الاتصاف بما هو ضد لذلك وهو الصلاح، ولم يقفوا عند هذا الكذب البحت والزور المحض حتى جعلوا صفة الصلاح مختصة بهم خالصة لهم، فرد الله عليهم ذلك أبلغ رد... وردهم إلى صفة الفساد التي هم متصفون بها في الحقيقة ردا مؤكدا مبالغا فيه بزيادة على ما تضمنته دعواهم الكاذبة[1].

٣. البهتان والكذب.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: ٥٦]

أي: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون كذبا وباطلا ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الدين والملة ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي: ليسوا من أهل دينكم وملتكم، بل هم أهل شك ونفاق ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يقول: ولكنهم قوم يخافونكم، فهم خوفا منكم يقولون بألسنتهم إنهم منكم؛ ليأمنوا فيكم فلا يقتلوا[2].

٤. الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والبخل بالمال.

كما أخبر الله عنهم بقوله ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

أي: هم على دين واحد. وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ بالشرك والمعصية، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي عن الإيمان والطاعة، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يمسكونها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطونها بخير، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ تركوا طاعة الله، فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا، ومن رحمته في الآخرة، وتركهم في عذابه[3].

٥. الكسل في العبادات.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

وهذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها.

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٧.
(٢) تفسير المنار ١٠/ ٤١٩.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٧١.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ هذه صفة ظواهرهم، كما قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة:٥٤].

ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية من الناس ومصانعة لهم؛ ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التي لا يرون غالبًا فيها كصلاة العشاء وقت العتمة، وصلاة الصبح في وقت الغلس، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلا فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال، معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار)[1].

ولذلك ورد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجي الله تعالى. وإن الله أمامه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾[2].

٦. الحذر من انكشاف ما هم عليه.

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤].

وهنا يخبر جل شأنه أن المنافقين يحذرون أن ينزل الله سورة تفضحهم وتبين ما تنطوي عليه ضمائرهم من الخبث، فهم يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا. وقال سبحانه في هذه الآية: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم[3].

٧. الطمع والجشع.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٨].

وهنا يصف الله قوما من المنافقين بأنهم عابوا النبي صلى الله عليه وسلم في تفريق الصدقات، وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم. قال أبو سعيد الخدري: (بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا إذ جاءه حرقوص بن زهير أصل الخوارج، ويقال له

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، ١/ ٢٣١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧١، أضواء البيان ١٠/ ٦٣.

ذو الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: (ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل) فنزلت الآية.. وعندها قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أقتل هذا المنافق. فقال: (معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية)[1].

٨. الاهتمام بالمظهر و فساد المخبر.

كما قال الله عنهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤].

والمعنى: وإذا رأيت هؤلاء المنافقين تعجبك صورهم، وإذا تكلموا تعجبك أقوالهم لأنهم ذوو صور متناسقة، وذوو لسن وفصاحة، ولكنهم في الحقيقة أشباح بلا أرواح، وقلوبهم فارغة من الإيمان فكأنهم خشب جوفاء قد نخر السوس داخلها، وهم في غاية الهلع والجزع، يحسبون كل صوت يقع أن البلاء قد جاءهم، وأن أمرهم قد افتضح، وأنهم هالكون لا محالة.

وهؤلاء هم الأعداء الحقيقيون للإسلام والمسلمين فلا تأمنهم على سر، لأن قلوبهم متحرقة حسدًا وبغضًا، لعنهم الله وطردهم من رحمته، فما أقبح حالهم، وما أشد غفلتهم، فكيف يصرفون عن الحق إلى الباطل، وعن الإيمان إلى الكفر ؟[2].

٩. التستر ببعض الأعمال المشروعة للإضرار بالمؤمنين.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: ١٠٧].

وقد نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين بنوا مسجدًا يضارون به مسجد قباء ضرارًا يعني: مضارة للمؤمنين ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله ورسوله ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا جميعا يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: انتظارًا وإعدادًا لمن حارب الله ورسوله. يقال: أرصدت له إذا أعددت له، وهو أبو عامر الفاسق أرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح،

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٦٦.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه، ٣/ ١٢٩٦، رقم ٦٥٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ٢/ ٧٤٠، رقم ١٠٦٣.

(٢) أيسر التفاسير، أسعد حومد ص ٥٠٧٠.

وابنوا لي مسجدًا فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآت بجند من الروم، فأخرج محمدًا وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ وهو أبو عامر الفاسق ليصلي فيه إذا رجع من الشام[1].

١٠. اللدد في الخصومة.

قال جل شأنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤].

والمقصود: أن هناك أناسا منافقين تعجب المرء حلاوة ألسنتهم، ويتظاهرون بالورع وطيب السريرة، ويشهدون الله على صدق طويتهم وقلوبهم، وقلوبهم في الحقيقة هي أمر من الصبر، فهم يقولون حسنا ويفعلون سيئا، وهم شديدو الجدل، لا يعجزهم أن يغشوا الناس بما يظهر عليهم من الميل إلى الإصلاح[2].

١١. موالاة الكافرين.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

وهنا يقول الله لنبيه: يا محمد، بشر المنافقين الذين يتخذون أهل الكفر بي والإلحاد في ديني ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: أنصارًا وأخلاء ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: من غير المؤمنين ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ يقول: أيطلبون عندهم المنعة والقوة، باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان بي؟ ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يقول: فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم، هم الأذلاء الأقلاء، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، فيعزهم ويمنعهم؟[3].

١٢. التربص بالمؤمنين.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

وهنا يخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفر عليهم، وذهاب ملتهم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿قَالُوا

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٣٣.
(٢) أيسر التفاسير، أسعد حومد ص ٢١١ بتصرف يسير جدا.
(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٣١٩ بتصرف يسير.

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي: إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان، كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ساعدناكم في الباطن، وما ألوناهم خبالا وتخذيلا حتى انتصرتم عليهم. وهذا أيضًا تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء؛ ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم، وقلة إيقانهم.

قال الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: بما يعلمه منكم -أيها المنافقون- من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهرًا في الحياة الدنيا، لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما في الصدور[1].

١٣. المخادعة.

قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة:٩].

والمراد من مخادعتهم لله أنهم صنعوا معه صنع المخادعين وإن كان العالم الذي لا يخفى عليه شيء لا يخدع وصيغة فاعل تفيد الاشتراك في أصل الفعل فكونهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أن الله سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم.

والمراد بالمخادعة من الله: أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام وإبطان الكفر، مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه والمراد بمخادعة المؤمنين لهم: هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله به من أحكام الإسلام ظاهرا وإن كانوا يعلمون فساد بواطنهم كما أن المنافقين خادعوهم بإظهار الإسلام وإبطان الكفر.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن، وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك[2].

١٤. الإفساد بين المؤمنين.

قال تعالى عن مجموعة من المنافقين أرادوا الخروج مع النبي في غزوة تبوك: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٤٧﴾ [التوبة: ٤٧].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٦.

(٢) فتح القدير ١/ ٦٥.

والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش؛ ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطرابًا وفوضى. ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل. وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين. ولكن الله الذي يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين، كفى المؤمنين الفتنة، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين[1].

١٥. الحلف الكاذب.

قال الله تعالى عنهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: ٥٦].

والمعنى: يتظاهر هؤلاء المنافقون بأنهم منكم، ليأمنوا بأسكم، ويحلفون بالله كذبا أنهم منكم في الدين والملة، وهم في الحقيقة ليسوا من أهل دينكم، بل هم أهل شك ونفاق، وإنهم إنما يفعلون ذلك، ويحلفون لكم، خوفا منكم وفرقا، فهم خوفًا منكم يقولون بألسنتهم: «إنا منكم»، ليأمنوا فيكم فلا يقتلوا[2].

١٦. الغدر وعدم الوفاء بالعهود مع الله.

كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا بِهِۦ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧].

وهذا صنف من المنافقين قد عاهد الله تعالى لئن أغناهم من فضله وأصبحوا ذوي ثروة ومال كثير ليصدقن منه ولينفقنه في طريق البر والخير، فلما أعطاهم الله ما سألوا وكثر مالهم شحوا به وبخلوا، وتولوا عما تعهدوا به وما كانوا عليه من تقوى وصلاح، وهم معرضون. فأورثهم هذا البخل وخلف الوعد والكذب ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يفارقهم حتى يلقوا ربهم[3].

١٧. الفرح بالتخلف عن الجهاد.

قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١].

والسياق هنا في الحديث عن المنافقين، فقال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: سر المتخلفون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: بقعودهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَٰهِدُوا

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٣٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٩٧، أيسر التفاسير، أسعد حومد ص ١٢٩٢.
(٣) أيسر التفاسير ٢/ ٤٠١ بتصرف يسير.

﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في سبيله، وكرههم هذا للجهاد هو ثمرة نفاقهم وكفرهم وقولهم: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ لأن غزوة تبوك كانت في شدة الحر، قالوا هذا لبعضهم بعضًا وهنا أمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم قولهم هذا فقال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ فلماذا لا يتقونها بالخروج في سبيل الله كما يتقون الحر بعدم الخروج.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لما تخلفوا عن الجهاد لأن نار جهنم أشد حرًا، ولكنهم لا يفقهون. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ أي: في هذه الحياة الدنيا بما يحصل لهم من المسرات ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أي يوم القيامة لما ينالهم من الحرمان والعذاب، وذلك كان ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الشر والفساد[1].

١٨. التخذيل والتثبيط و الإرجاف.

كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٣].

فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودة إلى بيوتهم، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا، لا موضع لها ولا محل، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم.. وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذراري.

والسياق هنا يرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض. صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة، وخور القلب، والاستعداد للانسلاخ من الصف غير مبقين على شيء، ولا متجملين لشيء[2].

١٩. عدم الانتفاع بالقرآن.

قال جل شأنه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالًا ونقصًا[3].

٢٠. الاستخفاء من الناس.

قال الله تعالى عنهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: ١٠٨].

وهنا يبين الله أحوال هؤلاء الخائنين،

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٠٥.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٥٧ بتصرف.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٣٩.

وينعي عليهم أفعالهم، فقال الله تعالى إن من شأن هؤلاء الخائنين أنهم يستترون من الناس عند اجتراح السيئات والآثام، إما حياء، وإما خوفا من العقاب، ولا يستخفون من الله، ولا يستترون منه بترك ارتكابها، لضعف إيمانهم، لأن الإيمان يمنع من الإصرار، ومن تكرار الذنب، فمن يعلم أن الله يراه في حالك الظلمة، لا بد له من أن يترك الذنب حياء من الله. ويقول تعالى: إنه مشاهدهم حين يتفقون ليلًا على ما لا يرضي الله من القول تبرئة لأنفسهم، ورميا لغيرهم بجريمتهم، والله حافظ لأعمالهم (محيطا) لا يعزب عن عمله مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، فلا سبيل إلى نجاتهم من عقابه[1].

وهكذا تتضح صفات المنافقين في كتاب الله تعالى وهي صفات لا تخطئها عين المؤمن ولا بصيرته.

مظاهر النفاق

أبرز القرآن الكريم مظاهر النفاق في عدد من آياته الكريمة، حتى يجلي للمؤمنين حال المنافقين، ويهتك سترهم. وليحدد - كذلك - المعالم الأساسية لهذه الظاهرة الخبيثة، حتى لا تتوه بين دروب المجتمع المسلم. والمتدبر في كتاب الله تعالى يجد أن أهم هذه المظاهر ما يأتي:

أولًا: التكذيب والتشكيك:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢].

ذكر الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة عن قتادة قال: ذلك أناس من المنافقين، قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا.

كما ذكر الطبري رواية أخرى في هذا السياق عن ابن زيد، قال: (قال رجل يوم الأحزاب لرجل من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم: يا فلان أرأيت إذ يقول رسول الله: (إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله) فأين هذا من هذا، وأحدنا لا يستطيع أن يخرج

(١) أيسر التفاسير، أسعد حومد ص ٦٠١.

يبول من الخوف (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) فقال له: كذبت، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرك، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره، فدعاه فقال: (ما قلت ؟) فقال: كذب علي يا رسول الله، ما قلت شيئًا، ما خرج هذا من فمي قط، قال الله في ذلك: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [التوبة: ٧٤] (١).

وفي ظلال هذه الآية الكريمة يقول سيد قطب رحمه الله: وجد هؤلاء المنافقون في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد؛ وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون. فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك. وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم؛ فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل، وروع نفوسهم ترويعًا لا يثبت له إيمانهم المهلهل. فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين! ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة؛ وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء. فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان (٢).

ثانيًا: إيذاء المؤمنين والاستهزاء بهم:

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال:٤٩].

أما المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج. وأما الذين في قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا.. ثم إن قريشًا لما خرجوا لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أولئك: نخرج مع قومنا فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه وإن كان في قلة أقمنا في قومنا قال محمد بن إسحق ثم قتل هؤلاء جميعًا مع المشركين يوم بدر.

وقوله: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ (٣).

قال ابن عباس: معناه أنه خرج بثلاثمائة

(١) جامع البيان ٢٠/ ٢٢٣.
وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أحلت لكم الغنائم)، رقم ٢٩٥٢، ونصه: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله).

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٥٦.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ١٤١.

وثلاثة عشر يقاتلون ألف رجل وما ذاك إلا أنهم اعتمدوا على دينهم. وقيل: المراد إن هؤلاء يسعون في قتل أنفسهم رجاء أن يجعلوا أحياء بعد الموت ويثابون على هذا القتل.

ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسان الله فإن الله حافظه وناصره؛ لأنه عزيز لا يغلبه شيء حكيم يوصل العذاب إلى أعدائه والرحمة والثواب إلى أوليائه[1].

ومن صور إيذائهم للمؤمنين: الانتقاص منهم والسخرية بهم، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

قال ابن كثير رحمه الله: (وهذه أيضًا من صفات المنافقين، ألا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء !! وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا)[2].

كما جاء في البخاري عن أبي مسعود قال: (لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عقيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا وما فعل هذا الآخر إلا رئاء فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴿٧٩﴾﴾ الآية[3].

ثالثًا: خذلان المؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٨].

وهذا دأب المنافقين في كل زمان ومكان وموقف: خذلان المؤمنين والتخلي عنهم في المحن والشدائد. وهذه الآيات الكريمة السابقة في شأن غزوة أحد حيث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد في ألف رجل من أصحابه وحتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة، انخذل عنهم عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس وقال: أطاعهم، أي: رسول الله صلى الله عليه

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٨٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة براءة، ٤/ ١٧١٤، رقم ٤٣٩١.

وسلم فخرج وعصاني. والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق والريب، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام - أخو بني سلمة - يقول لهم: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أن يكون قتالا.

فلما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف عن المؤمنين قال لهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغني الله رسوله عنكم، ثم مضى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

هذا هو موقف المنافقين في غزوة أحد، وهو موقف يدل على فساد قلوبهم، وخبث نفوسهم، وجبنهم عن لقاء الأعداء.

هذا وقد أصدر سبحانه حكمه العادل على أولئك المنافقين فقال: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

أي: هم يوم أن قالوا هذا القول الباطل قد بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مؤمنون، لأنهم قبل أن يقولوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ كانوا يتظاهرون بالإيمان، وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر.

أو المعنى: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان؛ لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانخذال فيه تقوية للمشركين[2].

رابعًا: النهي عن الإنفاق على المؤمنين:

قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقون: ٧].

جاء في صحيح البخاري عن زيد بن أرقم قال: (كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فذكرت ذلك لعمي أو لعمر، فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم فدعاني فحدثته فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا. فكذبني رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقه؛ فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: ١].

(١) انظر: تاريخ الأمم والرسل والملوك، الطبري ٢/ ٦٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٧٨.

فبعث إليَّ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إن الله قد صدقك يا زيد)[1].

وهكذا يفضح الله تعالى خطة المنافقين الدنيئة، كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه تحت وطأة الضيق والجوع ! وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين، ليموتوا جوعًا أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة ! وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق.

خامسًا: الإعراض عن التحاكم لله ورسوله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١].

وهنا يبين الله تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه فإنه في غاية البعد من الإيمان. وأن هناك فرقا واضحا وبونا شاسعا بين موقف المؤمنين وموقف المنافقين عند تحاكمهم إلى شرع رب العالمين، فموقف أهل الإيمان السمع والطاعة والإذعان، وموقف أهل النفاق الإعراض والنشوز والعصيان، ويتخذون من الأيمان الكاذبة الفاجرة وسيلة لخداع المؤمنين.

« إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به، وإلى من آمن به. فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه. ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه؛ كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية. فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية، ويكشف عن النفاق، وينبئ عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان!»[2].

سادسًا: التحالف مع الأعداء ضد المسلمين:

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: ١١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة المنافقين، ٤/ ١٨٥٩، رقم ٤٦١٧.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٦٧ بتصرف يسير.

المنافقون دائما يمدون أيديهم بالتحالف مع كل عدو للإسلام والمسلمين، وذلك منذ نشأتهم حتى آخر الزمان، لا يكفون عن ذلك ولا ينتهون.

ووصل تآمرهم - في عصر النبي صلى الله عليه وسلم- إلي حد الاتصال بأعداء المسلمين من المشركين واليهود، والتآمر على المسلمين، وقد فضح القرآن ذلك.

يقول تعالي عن اتصالهم بالمشركين وقت الحرب: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

وعن تحالفهم مع اليهود يقول تعالي: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥٢].

ويقول سبحانه عن تحالفهم مع يهود بني النضير: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: ١١].

قال الطبري في وقعة جلاء بني النضير:

«... فأرسل إليهم عبدالله بن أبي يقول لا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلي من قومي ألفين فأقيموا فهم يدخلون معكم وقريظة تدخل معكم فبلغ كعب بن أسد صاحب عهد بني قريظة فقال: لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي، فقال سلام بن مشكم لحيي بن أخطب: حيي أقبل هذا الذي قال محمد فإنما شرفنا على قومنا بأموالنا قبل أن تقبل ما هو شر منه. قال: وما هو شر منه. قال: أخذ الأموال وسبي الذرية وقتل المقاتلة فأبى حيي فأرسل جدي بن أخطب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم إنا لا نريم دارنا فاصنع ما بدا لك قال فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون معه وقال حاربت يهود»[1].

وهذا الدور الخبيث الذي لعبه المنافقون في عصر النبوة، هو نفس الدور الذي يلعبه المنافقون اليوم، فحيث وجدت الخيانة ففتش عن المنافقين، وحيث وجدت الهزيمة فتش عن المنافقين، وحيث وجدت الدعوة إلى خذلان المجاهدين، أو المستضعفين فتش عن المنافقين. نسأل الله تعالى أن يحبط كيدهم، ويكشف سترهم، ويحفظنا والمسلمين أجمعين من شرهم.

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٦٧ بتصرف يسير. وروى ابن أبي حاتم عن السدي نحو ذلك مختصرا يراجع الدر المنثور للسيوطي ١٤/ ٣٨٦ ومعالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥١.

طريقة التعامل مع المنافقين

حدد القرآن الكريم في عدد من آياته الكريمة طرقا واضحة للتعامل مع طائفة المنافقين، وهذه الطرق التي أرشد إليها القرآن الكريم هي - بلا شك - أنجع الطرق وأقواها، وأقربها وصولا إلى الهدف المنشود، وهو حصار طائفة المنافقين، وتحجيم خطرهم، وكسر شوكتهم. والمتدبر في كتاب الله تعالى يجد أن أهم هذه الطرق ما يأتي:

أولًا: النهي عن طاعتهم وموالاتهم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ۖ وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ۖ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۖ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

وهنا ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم، يظهرونهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الخاصة بأهل الإسلام، وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما يسمع منهم، فلهذا: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة، وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم. قال الله للمؤمنين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية: لعلكم تعقلون فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلي بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلعه من باطنه على شيء ولو تملق له وأقسم أنه من أوليائه[1].

كما جاء النهي عن موالاة المنافقين في قول الله جل شأنه: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٨٨ - ٨٩].

وذلك أن قومًا كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد عليه السلام فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٤ بتصرف يسير جدا.

أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله أو كما قالوا تقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا، ويتركوا ديارهم، تستحل دماؤهم وأموالهم لذلك، فكانوا كذلك فئتين... فنزلت الآية تقرر نفاقهم وكفرهم وأن الله تعالى أركسهم أي: ردهم إلى أحكام أهل الشرك في إباحة دمائهم وسبي ذراريهم[1].

ثانيًا: الحذر منهم:

قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤].

وقد أفاضت نصوص الوحي ـ كتابًا وسنة ـ في تحذير المؤمنين من النفاق وأهله، بعد إسهاب طويل في كشف خباياهم وفضح نواياهم وهتك أسرارهم وطواياهم، حتى إن آيات الكتاب قد صرحت بذكر النفاق والمنافقين في نحو سبع وثلاثين آية، وفصلت وفرعت في الكلام عنهم في أضعاف ذلك من الآيات موزعة على إحدى عشرة سورة، هذا في الحديث عن المنافقين باسمهم ووصفهم الصريح (النفاق).

يضاف إلى هذا حديث آخر مطول عمن وصفوا في القرآن بـ ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم الرديف والمدد، والمخزون الطويل الأمد لمعلومي المنافقين؛ فقد ذكر القرآن مرضى القلوب في اثنتي عشرة آية ضمن اثنتي عشرة سورة، وكل آية ذكر فيها ذلك تتعلق بها آيات أخر.

والمتأمل في حديث القرآن عن مرضى القلوب يمكنه أن يستنتج أن هؤلاء لديهم الاستعداد لأن يكونوا منافقين معلومي النفاق بما لديهم من أمراض الشهوة أو الشبهة؛ فهم قوم ضعاف الإيمان إلى أدنى حد، حتى إن أحوالهم تكاد تتقلب أو تنقلب إلى معسكر النفاق الصريح، لفرط قنوطهم وقلة يقينهم، ولشدة تعلقهم بالدنيا وحرصهم على الجاه، أو لمزيد شحهم الخالع وجبنهم الهالع الذي يجعلهم كلما خيروا بين الانتصار للدين والقيم أو الانتصار للناس أو النفس ما ترددوا في الانحياز إلى ما يخدم مصالحهم العجلى فقط؛ ولذلك قرن الله مرض القلوب بالمنافقين في أكثر مواضع القرآن.

يقول الفخر الرازي: أعلم الله تعالى رسوله بعداوتهم فقال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ أن تأمنهم على السر ولا تلتفت إلى ظاهرهم

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ١٠٢٣.

فإنهم الكاملون في العداوة بالنسبة إلى غيرهم[1].

وقال ابن عاشور رحمه الله في تفسير تلك الآية: والتعريف في ﴿ٱلْعَدُوِّ﴾ تعريف الجنس الدال على معين، لكمال حقيقة العدو فيهم، لأن أعدى الأعادي: العدو المتظاهر بالموالاة وهو مداح، وتحت ضلوعه الداء الدوي، وعلى هذا المعنى رتب عليه الأمر بالحذر منهم[2].

ولم يجاف ابن عاشور الحقيقة عندما أرجع وصف القرآن للمنافقين بـ ﴿ٱلْعَدُوِّ﴾ إلى « كمال حقيقة العدو فيهم »، وكيف لا تكمل حقيقة العداء في هؤلاء وهم كما قال ابن الجوزي رحمه الله: « عيون الأعداء على المسلمين »[3].

لا بل إن هؤلاء ليسوا فقط عيون الأعداء بل قلوبهم وألسنتهم، كما ذكر الإمام الطبري في تفسير ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ حيث قال: « هم العدو يا محمد فاحذرهم؛ فإن ألسنتهم إذا لقوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم أعين لأعدائكم عليكم»[4].

ثالثًا: النهي عن مجالستهم:

قال الله جل شأنه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

والمعنى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: يا معشر المسلمين بمكة ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: يعني: القرآن ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ أي: يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمد وأصحابه والقرآن. وذلك إن المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود فيستهزئون بالقرآن ويكذبون به ويحرفونه عن مواضعه فنهى الله تعالى المسلمين عن مجالستهم ومخالطتهم، والذي نزل في الكتاب قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام:٦٨][5].

وقد كان بعض المسلمين في المدينة يجلسون في مجالس كبار المنافقين - ذوي النفوذ - وكان ما يزال لهم ذلك النفوذ. وجاء المنهج القرآني ينبه في النفوس تلك الحقيقة.. حقيقة أن غشيان هذه المجالس والسكوت على ما يجري فيها، هو أولى مراحل الهزيمة. وأراد أن يجنبهم إياها.. ولكن الملابسات في ذلك الحين لم تكن تسمح بأن يأمرهم أمرًا بمقاطعة مجالس

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٤٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٤١.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٢٨٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٩٦.
(٥) الكشف والبيان ٣/ ٤٠٣.

القوم إطلاقًا. فبدأ يأمرهم بمقاطعتها حين يسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها.. وإلا فهو النفاق.. وهو المصير المفزع، مصير المنافقين والكافرين: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

والذي تحيل إليه الآية هنا مما سبق تنزيله في الكتاب، هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨][1].

رابعًا: جهادهم والغلظة عليهم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣].

وهنا يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة عليهم، ودعوتهم بالموعظة الحسنة، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال، لمن أبى أن يجيب دعوة الله، وينقاد لحكمه، فإن هذا، يجاهد ويغلظ عليه[2].

ونحن عندما نقرأ السيرة النبوية. نجد أنه صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة، ظل فترة طويلة يلاين المنافقين، ويغض الطرف عن رذائلهم، ويصفح عن مسيئهم.. إلا أن هذه المعاملة الحسنة لهم زادتهم رجسا إلى رجسهم.. لذا جاءت هذه السورة - وهي من أواخر ما نزل من القرآن - لتقول للنبي صلى الله عليه وسلم: لقد آن الأوان لإحلال الشدة والحزم، محل اللين والرفق، فإن للشدة مواضعها وللين مواضعه..

قال الإمام ابن كثير: أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين، كما أمره أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين.. وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف. سيف للمشركين ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[التوبة:٥].

وسيف للكفار أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة:٢٩].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٢٦٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧٤.

وسيف للمنافقين ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾[التوبة: ٧٣].

وسيف للبغاة ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[الحجرات:٩].

وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير[(١)].

وقال ابن مسعود في قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ قال: بيده، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه - أي: فليلق المنافق بوجه عابس لا طلاقة فيه ولا انبساط. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد المنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم.

وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا على حسب الأحوال[(٢)].

خطر النفاق والمنافقين على الأمة

حذر القرآن الكريم من النفاق وصفات المنافقين في آيات كثيرة، فكان الحديث عن النفاق والمنافقين في القرآن في سبع عشرة سورة مدنية من ثلاثين سورة، واستغرق ذلك قرابة ثلاثمائة وأربعين آية، وبشتى الصيغ والأساليب، وفي كل مواقفهم الصغيرة والكبيرة، وفي كل أحوالهم الظاهرة والباطنة. حتى قال ابن القيم رحمه الله: (كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم)[(٣)].

وقد تولى الله تعالى حماية المسلمين من هذا العدو الخفي المخادع؛ فأنزل في كتابه الكريم بيانًا شاملًا لأحوالهم وأوصافهم، وكشف أقوالهم وأفعالهم، وفضح مؤامراتهم، واستخرج مكنونات صدورهم التي تغلي بها نفوسهم.

وخطر المنافقين على الأمة في القديم والحديث كبير، وفتنتهم شديدة؛ فما تمكن الكفار من بلدان المسلمين سواءً من الناحية العسكرية أو الفكرية إلا عن طريقهم.

وخطر المنافقين ينطلق من الداخل بين صفوف المسلمين، بينما يجيء خطر الكفار الظاهرين من الخارج، وخطر الخارج لا يستفحل دائمًا إلا بمساندة من الداخل.

وبلية الإسلام بالمنافقين شديدة جدًا؛

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٨.
(٢) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٢٠٠٠.
(٣) مدارج السالكين، ١/ ٣٤٧.

لأنهم منسوبون إليه، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد. فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه، وكم من حصن له قد اقتلعوا أساسه وخربوه، وكم من علم له قد طمسوه، وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها، فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، يزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢][1].

وتصرفات المنافقين تدور مع مصالحهم فإذا لقوا المؤمنين أظهروا الإيمان والموالاة غرورًا منهم للمؤمنين، ومصانعة، وتقية، وطمعًا فيما عندهم من خير ومغانم.. وإذا لقوا سادتهم وكبراءهم قالوا: نحن معكم على ما أنتم عليه من الشرك، والكفر كما قال سبحانه عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

والمنافقون لفساد قلوبهم أشد الناس إعراضًا عن دين الله كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١].

وأعداء الأمة كثر، ولكن حصر العداوة في المنافقين يراد به إثبات الأولوية والأحقية للمنافقين في هذا الوصف، ولا يراد منه أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق أن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين بكفرهم، فإن الحرب مع هؤلاء ساعة أو أيامًا ثم تنقضي ويعقبها النصر أو الظفر، أما هؤلاء فهم معكم في الديار والمنازل صباحًا ومساءً، يدلون العدو على العورات، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر، ولا يمكن بل تصعب مناجزتهم[2].

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، والمراد: إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين، فإن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل، صباحًا ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم.

وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل من النار لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، ووصل إليهم من معرفة الإيمان ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم

(١) المصدر السابق.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٢٦.

كانوا أغلظ كفرًا، وأخبث قلوبًا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم.

قال تعالى عن المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ [المنافقون: ٣].

والسر في أن عداوة المنافقين أشد وأخطر من عداوة الكافرين: أن عداوة المنافقين شاملة لا تقتصر على جانب دون جانب، فهي تبدأ من الكلمة همزًا ولمزًا وسخرية وغمزًا، وتنتهي إلى الخيانة العظمى بالقتال في صف الكفار وتحت راياتهم والتآمر معهم على المسلمين وكشف أسرارهم.

وأن جهاد الكفار قد يكون عينيًا أو يكون كفائيًا، وقد يسقط بالأعذار أو الإعذار، أما جهاد المنافقين فهو غير قابل للسقوط إذا وجدت مسوغاته، فهو واجب على كل مكلف بحسبه، ففي الحديث عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسننه ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)[1].

لهذا فإن جهاد المنافقين المأمور به في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣﴾ [التوبة: ٧٣]. يبدأ بالقلب حتى ينتهي إلى السيف.

وفي هذا المنعطف الخطير من تاريخ الأمة الإسلامية وفي هذا الوقت العصيب الذي تداعت عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.. يدرك المتأمل في واقع المسلمين أن أعظم معوق لإحراز النصر لأمة الإسلام هم المنافقون.

والملاحظ لأحوال المنافقين يدرك كيف يتزلفون لأهل الكفر، ينفذون مخططاتهم ويقومون بما يعجز الأعداء عن القيام به بل ويكفونهم في كثير من الأحيان مئونة الاقتتال، يستجلبون عطفهم ورضاهم ويطلبون منهم العون لقتل ذويهم وبني قومهم، ويوالون ويعادون عليهم ويحبون ويكرهون لأجلهم، ولا نبالغ إذا قلنا: أنهم في سبيل جلب رضاهم يساهمون بشكل فعال في تخريب بلادهم وتدمير اقتصادهم وإهلاك حرثهم ونسلهم، ناهيك عن دورهم في حجب نور الله وإقامة دينه. والتمكين في مقابل ذلك لأعداء الإسلام[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان، ١/ ٥٠.

(٢) انظر: الغارة على العالم الإسلامي ص ١٢٥.

وعيد الله عز وجل للمنافقين

جاء وعيد الله تعالى للمنافقين في مواضع عديدة من كتاب الله، وبصور متنوعة ومعبرة.

من ذلك قول الله جل شأنه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء: ١٣٨].

وهنا يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر المنافقين بلفظ البشارة؛ لأن المخبر به يسوء وجوههم وهو العذاب الأليم، وقد يكون في الدنيا بالذل والمهانة والقتل، وأما في الآخرة فهو أسوأ العذاب وأشده، وهو لازم لهم لخبث نفوسهم وظلمة أرواحهم[(١)].

والغالب في استعمال البشارة أن تكون في الإخبار بما يسر، فهي إذا مأخوذة من انبساط بشرة الوجه، كما أن السرور مأخوذ من انبساط أساريره، وعلى هذا يقولون: إن استعمالها فيما يسوء - كما هنا - يكون من باب التهكم، وقيل: إن البشارة تستعمل فيما يسر وفيما يسوء استعمالا حقيقيا؛ لأن أصلها الإخبار بما يظهر أثره في بشرة الوجه في الانبساط والتمدد، أو الانقباض والتغضن، والأليم: الشديد الألم[(٢)].

وقد قضى الله أن مصير الكافرين والمنافقين إلى جهنم: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

لكن المنافقين لعظيم ضررهم في أسفل النار كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

وهنا يخبر جل شأنه، عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله، ومعاداة رسله. وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه. فبذلك ونحوه، استحقوا أشد العذاب. وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه. وهذا عام لكل منافق[(٣)].

ومعنى الدرك الأسفل: أي: البطن ﴿الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي: لأن ذلك أخفى ما في النار وأستره وأخبثه كما أن كفرهم

(١) أيسر التفاسير ١/ ٥٥٨.

(٢) تفسير المنار ٥/ ٣٧٦.

(٣) فيض الرحمن تفسير جواهر القرآن ٢/ ١١٦.

أخفى الكفر وأخبثه وأستره. وسميت طبقات النار دركات؛ لأنها متداركة متتابعة إلى أسفل كما إن الدرج متراقية إلى فوق[1].

إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب، فلا ينطلقون ولا يرتفعون، ثقلة المطامع والرغائب، والحرص والحذر، والضعف والخور! الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين ومداراة المؤمنين، والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[النساء:١٤٣].

فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين في ﴿ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بلا أعوان هنالك ولا أنصار وهم كانوا يوالون الكفار في الدنيا، فأنى ينصرهم الكفار؟[2].

نسأل الله العظيم أن يرزقنا الصدق والإخلاص، وأن يجنبنا الشرك والنفاق، وأن يختم لنا بالخير. وبالله التوفيق.

موضوعات ذات صلة:

الأمانة، الخيانة، الرياء، الشرك، الكذب

(١) السراج المنير ١/ ٢٧٢.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٢٦٩.

النَّفْسُ

عناصر الموضوع

مفهوم النفس	٣٢٠
النفس في الاستعمال القرآني	٣٢١
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٢
النفس في حق الله تعالى	٣٢٥
خلق النفس وهدايتها	٣٢٦
حالات النفس	٣٣٢
مسؤولية النفس	٣٣٤
من أمراض النفس الإنسانية	٣٣٧
حفظ النفس وبذلها	٣٤٩
النفس يوم القيامة	٣٥٧

مفهوم النفس

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «نفس، النون والفاء والسين أصل واحد يدل على خروج النسيم كيف كان، من ريح أو غيرها، وإليه يرجع فروعه»[(١)].

ولفظ (النفس) في اللغة يطلق ويراد به معان عديدة، منها:

(النفس) الروح، يقال: خرجت نفسه.

والنفس الجسد، ويقولون: ثلاثة أنفسٍ فيذكرونه؛ لأنهم يريدون به الإنسان.

و(نفس) الشيء عينه يؤكد به، يقال: رأيت فلانًا نفسه وجاءني بنفسه[(٢)].

ومن معاني (النفس) أيضًا: العظمة والكبر. و(النفس): العزة. و(النفس): الهمة. و(النفس): الأنفة. و(النفس): عين الشيء وكنهه وجوهره[(٣)].

والنفس: في كلام العرب يجري على ضربين: أحدهما: خرجت نفسه، أي: روحه. والثاني: معنى النفس فيه جملة الشيء وحقيقته[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

النفس في اصطلاح العلماء لها عدة معانٍ، منها:

ما ذكره الجرجاني: «هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية»[(٥)].

وعرفها الملا علي بأنها: «لطيفةٌ في الجسد تولدت من ازدواج الروح بالبدن واتصالهما معًا»[(٦)].

قال المناوي: «هي جوهر مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوؤه من ظاهر البدن وباطنه»[(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٤٦٠.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٣١٦.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٣/ ٨.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٦/ ٥٥٩.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ٢٤٢.
(٦) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٥/ ١٩٠١.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٢٧.

النفس في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نفس) في القرآن الكريم (٢٩٨) مرة، يخص موضوع البحث منها (٢٩٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	١٤٠	﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨]
الجمع	١٥٥	﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير:٧]

وجاءت النفس في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

أحدها: القلب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣] يعني: القلوب.

الثاني: الجنس والنوع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] يعني: من جنسكم.

الثالث: الإنسان، ومنه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] يعني: الإنسان بالإنسان.

الرابع: الروح: ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣] يعني: أرواحكم.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٣٣٥-١٣٤١.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٤٥٠-٤٤٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الروح:

الروح لغة:

قال ابن فارس: (روح) الراء والواو والحاء أصل كبير مطرد، يدل على سعة وفسحة واطراد. وأصل ذلك كله الريح. وأصل الياء في الريح الواو، وإنما قلبت ياء لكسرة ما قبلها. فالروح روح الإنسان، وإنما هو مشتق من الريح، وكذلك الباب كله. والروح: نسيم الريح. ويقال أراح الإنسان، إذا تنفس[(١)].

الروح اصطلاحًا:

قال السهيلي: «الروح مشتق من الريح وهو جسمٌ هوائي لطيفٌ به تكون حياة الجسد عادةً أجراها الله تعالى»[(٢)].

قال العلماء: لا نعلم حقيقتها وهو مما جهل العباد بعلمه مع التيقن بوجوده بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

ووجود الروح أمر متفق عليه في كل الأديان السماوية، كما قال اليهود لقريش: اسألوا محمدًا عن ثلاثة أشياء فإن أخبركم عن شيئين وأمسك عن الثالث فهو نبي، اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح[(٣)].

الصلة بين النفس والروح:

تعددت آراء العلماء في تحديد مفهوم النفس والروح، هل النفس هي الروح أو غيرها؟ فكثرت في ذلك الأقوال:

القول الأول: إن الروح هي النفس وأخذوا بظواهر من الأحاديث ألفاظها محتملةٌ للتأويل واتساعاتها في الكلام كثيرةٌ، فمما تعلقوا به في أن الروح هي النفس قول بلالٍ: (أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك)[(٤)]، مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله قبض أرواحنا)[(٥)]،

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٤٥٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١١٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القنوت، رقم ١٥٠٥، ٢/ ١٣٨.
(٥) أخرجه مالك في الموطأ، رقم ٢٦، ١/ ٤٦ قال الألباني: صحيح.

وقوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ [الزمر:٤٢].

القول الثاني: أن النفس غير الروح، وهؤلاء يحتجون بأن الله خلق آدم عليه السلام وجعل فيه نفسًا وروحًا، فمن الروح عفافه وفهمه وحلمه وسخاؤه ووفاؤه ومن النفس شهوته وطيشه وسفهه وغضبه ونحو هذا، وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦]. فلا يحسن ذكر أحدهما في محل الآخر.

القول الثالث: ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء هل الروح هي النفس أو غيرها، ثم جمع بين الأقوال وقرر أن الروح: ذاتٌ لطيفةٌ كالهواء، ساريةٌ في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر، وأن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدحٍ أو ذمٍ، فهي إما نفسٌ مطمئنةٌ أو أمارةٌ بالسوء، ثم نبه على التوسع حتى يطلق على الجسد والروح، وجملة ما قاله السهيلي: إن الروح لا يقال هي النفس مطلقًا، بل يفصل بينهما، فالروح أصل النفس ومادتها، والنفس مركبةٌ منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجهٍ لا من كل وجهٍ [(١)].

وقد أيد ابن كثير هذه المعاني - بتعقيبه على أقوال السهيلي - بقوله: «وهذا معنًى حسنٌ، والله أعلم» [(٢)].

٢ الجسد:

الجسد لغة:

قال ابن فارس: «(جسد) الجيم والسين والدال يدل على تجمع الشيء أيضا واشتداده. من ذلك جسد الإنسان» [(٣)]، والجسد: البدن. تقول منه: تجسد، كما تقول من الجسم: تجسم. والجسد أيضًا: الزعفران أو نحوه من الصبغ، وهو الدم أيضًا [(٤)].

الجسد اصطلاحًا:

الجسد: «جسم الإنسان، ولا يقال لغيره من الأجسام المغتذية» [(٥)]، حيث قال الفراهيدي: «الجسد للإنسان، ولا يقال لغير الإنسان جسدٌ من خلق الأرض» [(٦)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ١١٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مقاييس اللغة ١/ ٤٥٧.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٥٦.
(٥) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٢٦٠.
(٦) العين ٦/ ٤٧.

الصلة بين الجسد والنفس:

اعتبر صاحب تاج العروس أن النفس هي الجسد، حيث قال:« والنفس: الجسد، وهو مجازٌ »[(١)].

وفي هذا المجال يرى السهيلي أن الإنسان روحٌ وجسدٌ، حيث بين رأيه، ثم علله بقوله: «وقد يعبر بالنفس عن جملة الإنسان روحه وجسده، فتقول: عندي ثلاثة أنفسٍ، ولا تقول: عندي ثلاثة أرواحٍ »[(٢)].

قال ابن جبرين: «فما دامت الروح في الجسد فإنها تسمى نفسًا وتسمى روحًا، فإذا خرجت الروح من الجسد فإنها لا تسمى نفسًا غالبًا، وإن كانت قد تسمى بذلك في مثل قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣].

يعني: أخرجوا أرواحكم، فإذا خرجت فإنها تقبضها الملائكة وتكفنها، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢] فسماها هاهنا نفسًا، فما دامت في الجسد فإنها تسمى نفسًا، الله يتوفاها يعني: يقبضها، وبعد قبضها يغلب عليها اسم الروح، وكذلك في النوم نفس النائم تخرج، ولكنها لا تخرج خروجًا كليًا، بل يبقى أثرها على البدن »[(٣)].

(١) تاج العروس، الزبيدي ١٦/ ٥٦٠.
(٢) الروض الأنف، السهيلي، ٣/ ١٠٠.
(٣) شرح الطحاوية، ابن جبرين ٥٩/ ٧.

النفس في حق الله تعالى

جاء ذكر النفس في حق الله تعالى في مواضع عدة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه:٤١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦].

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

وجاء ذكرها كذلك في السنة في أحاديث كثيرة، منها:

حديث أبي ذرٍ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله عز وجل أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي)[(١)].

حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[(٢)].

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)[(٣)].

ونقل ابن بطال الإجماع على أن نفس الله ذاته، حيث قال: «وما ذكر في الأحاديث من ذكر النفس فالمراد به إثبات نفس لله، والنفس لفظة تحتمل معانٍ، والمراد بنفسه تعالى ذاته، فنفسه ليس بأمر يزيد عليه، فوجب أن تكون نفسه هي هو، وهذا إجماع»[(٤)].

أقوال العلماء في النفس: اختلف أهل العلم في النفس المثبتة لله تعالى:

أبو حنيفة النعمان بن ثابت الذي قال في الفقه الأكبر تحت عنوان: «القول في الصفات»:

«وله يد ووجه ونفس كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته أو نعمته؛ لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/ ٣٥٢، رقم ٤٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، ٩/ ١٢١، رقم ٧٤٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب الحث على ذكر الله، ٤/ ٢٠٦١، رقم ٢٦٧٥.

(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٠/ ٤٢٧.

وغضبه ورضاه صفتان من صفات الله تعالى بلا كيف »[1].

واستدل ابن عادل على جواز تسمية ذات الله بالنفس خلال تفسيره للآية: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ حيث قال:« دلت هذه الآية على جواز تسمية ذات الله سبحانه وتعالى بالنفس، أيضًا قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦] يدل عليه، والنفس هنا بمعنى الذات والحقيقة، لا بمعنى الجسم والدم؛ لأنه سبحانه وتعالى مقدسٌ عنه؛ لأنه لو كان جسمًا لكان مركبًا، والمركب ممكن، وذلك باطلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]»[2].

قال ابن عاشور: « وفي جواز إطلاق النفس على ذات الله تعالى بدون مشاكلةٍ خلافٌ»[3].

وما نرجحه هو أن النفس هي ذات الله سبحانه وتعالى المتصفة، دون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل.

خلق النفس وهدايتها

أولًا: الخلق من نفس واحدة:

جاء ذكر خلق الناس من نفس واحدة في أربع آيات، منها ثلاث بصيغة الخلق: (خلقكم) والرابعة بصيغة الإنشاء: (أنشأكم).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

والمعنى: احذروا أيها الناس ربكم في أن تخالفوا أمره ونهيه، فيحل بكم عقابه، ثم بين عز وجل أنه خلق جميع الناس من شخصٍ واحدٍ، يعني: من آدم، وخلق من النفس الواحدة زوجها؛ أي: امرأتها حواء، فنبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجلٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، وأن حق بعضهم على بعضٍ واجبٌ وجوب حق الأخ على أخيه؛ لاجتماعهم في النسب إلى أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، وأن بعد التلاقي في النسب إلى آدم مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى؛ ليتناصفوا، ولا يتظالموا؛ وليبذل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف، على شرع الله، ثم أسند الطبري هذا القول لعدد من التابعين هم:

(١) الفقه الأكبر، أبو حنيفة ص ٢٧.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ١٧٥.
(٣) التحرير والتنوير ٧/ ١١٥.

السدي، وقتادة، ومجاهد[1].

قال ابن كثير: « يقول تعالى آمرًا خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبهًا لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفسٍ واحدةٍ، وهي آدم عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائمٌ، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه»[2].

وبين القاسمي أن هذا الخلق يعد من قدرة الله الباهرة، وحقيق بالاعتبار، حيث قال عن ذلك: « ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ أي: اخشوه أن تخالفوه فيما أمركم به أو نهاكم عنه، ثم نبههم على اتصافه بكمال القدرة الباهرة؛ لتأييد الأمر بالتقوى وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريق الترغيب والترهيب، بقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: فرعكم من أصل واحد وهو نفس أبيكم آدم، وخلقه تعالى إياهم على هذا النمط البديع مما يدل على القدرة العظيمة»[3].

وقال تعالى: ﴿ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

وكذلك في هذه الآية المقصود بالنفس الواحدة هو آدم، وزوجها هي حواء، حيث أخرج الطبري عن قتادة « قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ من آدم » ويعني بقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وجعل من النفس الواحدة وهو آدم زوجها حواء»[4].

وقال البغوي:« قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني: من آدم، ﴿وَجَعَلَ﴾ وخلق منها زوجها، يعني: حواء، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليأنس بها ويأوي إليها، فلما تغشاها، أي: واقعها وجامعها حملت حملًا خفيفًا، وهو أن أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفًا عليها، فمرت به، أي: استمرت به وقامت وقعدت به ولم يثقلها»[5].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام:٩٨].

معنى الآية: الإنشاء: هو الإحداث والإيجاد، ولم يبين هنا كيفية إنشائهم من نفسٍ واحدةٍ، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر بأنه خلق من تلك النفس الواحدة التي هي آدم زوجها حواء، وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً[6].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٣٩ - ٣٤٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٠٦.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٦١٧.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٥٧.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٨٩.

ثانيًا: بيان طريق الهداية والضلال:

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:٧-١٠].

معنى قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: خلقها سويةً مستقيمةً على الفطرة القويمة.

وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، وبين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها، فبين لها الخير والشر[(١)].

وفي ذلك نقل القرطبي أقوالًا متقاربة لابن عباس وبعض التابعين، مفادها أن معنى قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ عرفها طريق الخير وطريق الشر، أي: عرفها الطاعة والمعصية، فإذا أراد الله عز وجل ألهم عبده المؤمن المتقي الخير فعمل به، وإذا أراد به السوء ألهم الفاجر فجوره والشر فعمل به، كما قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد:١٠][(٢)].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك لا ينافي وجود الأعمال التي بها تكون السعادة والشقاوة، وأن من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فإنه ييسر لعمل أهل الشقاوة.

ونهى صلى الله عليه وسلم أن يتكل الإنسان على القدر ويدع العمل، وكل من اتكل على القدر وترك ما أمر به من الأعمال الواجبة هو من الأخسرين أعمالًا، وكان من جملة أهل الشقاوة الميسرين لعمل أهل الشقاوة؛ لأن أهل السعادة هم الذين يفعلون المأمور ويتركون المحظورة.

ففي صحيح مسلم عن عمران بن الحصين رضي الله عنه، قال:(إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيءٌ قضي عليهم ومضى فيهم من قدرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال:) لا، بل شيءٌ قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل:﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾)[(٣)].

ومعنى سواها في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾: خلقها وأنشأها وسوى أعضاءها، والتنكير للتفخيم، و﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي: عرفها وأفهمها حالهما وما فيهما من الحسن والقبح، وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾: هو جواب القسم على الراجح، وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: خسر

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٧٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كل ميسر لما خلق له، ٤/ ٢٠٤١، رقم ٢٦٥٠.

من أضلها وأغواها، فأخفاها وأهملها ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح، والمراد هنا بالنفس إما: جميع ما خلق من الجن والإنس، وقيل: المراد نفس آدم [(١)].

معنى الإلهام في الآية: اختار الزجاج حمل الإلهام على التوفيق والخذلان، وذلك بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور، حيث قال: « علمها طريق الفجور وطريق الهدى، والكلام على أن ألهمها التقوى وفقها للتقوى، وألهمها فجورها خذلها » [(٢)].

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ [القيامة:١٤-١٥]

المعنى: بل للإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه بعمله، ويشهدون عليه به، يعني: ولو اعتذر بكل عذر وجادل عن نفسه، فإنه لا ينفعه؛ لأنه قد شهد عليه شاهد من نفسه، وقيل: معناه ولو اعتذر فعليه من نفسه ما يكذب عذره، وهذا للإخبار بأن الكافر يعلم ما فعله؛ لأنهم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، إذ هو قرأ كتاب أعماله، والمقصود بالبصيرة:

- إما جوارح الإنسان، كسمعه وبصره ويده ورجله وجوارحه.
- أو ﴿بَلِ﴾ الإنسان شاهدٌ على نفسه وحده.

وأدخلت الهاء في قوله: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ صفةً للذكر، وهي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة، كالهاء في قولهم: داهيةٌ وعلامةٌ وراويةٌ [(٣)].

والقرطبي أضاف معنىً ثالثًا نسبه إلى السدي والضحاك حين قال:« وقيل المراد بالبصيرة: الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خيرٍ أو شرٍ، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ في من جعل المعاذير الستور» [(٤)].

كما وأضاف ابن عاشور معنىً رابعًا، وهو قوله: «ويحتمل أن تكون بصيرةٌ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ، تقديره: حجةٌ بصيرةٌ، وتكون بصيرةٌ مجازًا في كونها بينةً كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:٥٩].

والتأنيث لتأنيث الموصوف، والمعاذير: اسم جمع معذرةٍ والمعنى: أن الكافر يعلم يومئذٍ أعماله التي استحق العقاب عليها، ويحاول أن يعتذر وهو يعلم أن لا عذر له، ولو أفصح عن جميع معاذيره » [(٥)].

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٥١، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٤٧.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٣٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٩١-٩٣. لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٧١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٠٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٤٨.

ثالثًا: إحاطة علم الله بما في النفس:

قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَٰعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة:٢٣٥].

معنى الآية: واعلموا أيها الناس أن الله يعلم ما في أنفسكم من هواهن، ونكاحهن، فاحذروا الله واتقوه في أنفسكم أن تأتوا شيئًا مما نهاكم عنه من عزم عقدة نكاحهن، واعلموا أن الله ذو سترٍ لذنوب عباده، وتغطيةٍ عليها فيما تكنه نفوس الرجال من خطبة المعتدات، وذكرهم إياهن في حال عددهن، أنه ذو أناةٍ لا يعجل على عباده بعقوبتهم على ذنوبهم [(١)].

والهاء في قوله (عليه):

- يحتمل أن تعود على الله تعالى، أي: فاحذروا عقابه.
- ويحتمل أن تعود على ما لا يجوز من العزم، أي: فاحذروا ما لا يجوز ولا تعزموا عليه.

فلما هددهم بأنه مطلعٌ على ما في أنفسهم، وحذرهم منه، أردف ذلك بالصفتين ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ليزيل عنهم بعض روع التهديد والوعيد، والتحذير من عقابه، ليعتدل قلب المؤمن في الرجاء والخوف [(٢)].

ويفيد قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ توعد المصرحين بخطبة النساء على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر [(٣)].

وقال أبو السعود: «﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من ذوات الصدور التي من جملتها العزم على ما نهيتم عنه» [(٤)].

وقال القاسمي: «واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم من الميل إليهن قبل الأجل فاحذروه، واعلموا أن الله غفورٌ يغفر ذلك الميل إذ لم يتعد العزم عقدة النكاح، حليمٌ لا يعاجل بالعقوبة» [(٥)].

قال تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

هذا إخبار من الله جل جلاله أن له ما في السماوات وما في الأرض، خلق الجميع ورزقهم ودبرهم لمصالحهم، فكانوا بأوامر في هذا الوجود إما ظاهرًا وإما على سبيل الخفية، فيغفر لمن يأتي بأسباب المغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يتب منه،

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٨٦.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٨٤، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٢٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٤١.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٣٣.

(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٦٠.

وسبحانه على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ شق ذلك على المسلمين، وظنوا دخول هذه الخواطر فيه، فنزلت الآية التي بعدها، وفيها قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦].

فبينت أن ما لا طاقة لهم به فهو غير مؤاخذٍ له، ولا مكلف به [(١)]، ومرادهم أن هذه الآية أزالت الإيهام الواقع في النفوس من الآية الأولى [(٢)]، وبينت أن المراد بالآية الأولى: العزائم المصمم عليها [(٣)].

ومعنى الآية: وإن تبدوا ما في أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم، يحاسبكم به الله ويخبركم به، أو يكون ذلك في كتمان الشهادة، فإن تعلنوا الشهادة أو تخفوها يجازيكم بها الله، ثم يغفر للمؤمنين إظهارًا لفضله، ويعذب الكافرين إظهارًا لعدله، يدل عليه أنه قال: يحاسبكم به الله، ولم يقل: يؤاخذكم به، والمحاسبة غير المؤاخذة [(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ جملة شرطية جوابها: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا﴾ أي: وإن تظهروا ما في قلوبكم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: تسروه، فلا يطلع عليه أحد، يطلعكم عليه الله على وجه المحاسبة، ولا يلزم من المحاسبة العقوبة؛ ولهذا قال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [(٥)].

(١) انظر: روائع التفسير، ابن رجب الحنبلي ١/ ١٩٩.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٨٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٠.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٨٨، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٠٠.
(٥) انظر: تفسير الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين ٣/ ٤٣٣.

حالات النفس

قسم العلماء النفس تقسيمات عديدة وفقًا لأحوالها المختلفة، ومن أهم هذه التقسيمات جعلوا النفوس ثلاثة أنواعٍ:

أولًا: النفس الأمارة بالسوء:

وهي التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي، أي: هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمر باللذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهي مأوى الشرور، ومنبع الأخلاق الذميمة، وهذه هي النفس هي التي توسوس لصاحبها وتحدثه بالآثام والتي يجب مجاهدتها.

قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف:٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ [ق:١٦].

ومقام الوسوسة من العبد مقام النفس الأمارة بالسوء، فوسوسة العدو في الصدور، وهو الشيطان المقصود في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥﴾ [الناس:٥].

ووسوسة النفس في القلب [(١)].

ثانيًا: النفس اللوامة:

وهي التي تذنب وتتوب فعندها خيرٌ وشرٌ، لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت فتسمى لوامةً؛ لأنها تلوم صاحبها على الذنوب؛ ولأنها تتلوم أي: تتردد بين الخير والشر [(٢)].

فهي تلك التي تنورت بنور القلب عن سنة الغفلة، وكلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها أخذت تلوم وتعنف نفسها وتتوب عنها، وحالت دون التمادي في العصيان، والتي تلومه كذلك على عدم الاستكثار في الخير [(٣)].

قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة:١-٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران:١٣٥].

ولا يمكن زكاة النفس وطهارتها إلا بعد محاسبتها، وقد ربط ابن القيم بين هذين المعنيين حيث قال: «فإن زكاتها وطهارتها موقوفٌ على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها، فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها، فيمكنه السعي

(١) انظر: تفسير السلمي ٢/ ٤٣٤، تفسير التستري ١/ ٢١١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ١٢٥.

(٣) التعريفات، الجرجاني، ص٢٤٣.

في إصلاحها »[1].

ووقت الليل هو أفضل الأوقات لمحاسبة الإنسان لنفسه، وأكد الماوردي هذا المفهوم وبين سببه وكيفيته، حيث قال: « ثم عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر، فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل »[2].

ثالثًا: النفس المطمئنة:

وهي التي تحب الخير والحسنات وتريده، وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك[3]، والتي تعتبر الحوادث الحياتية خيرها وشرها ابتلاء ومحنة، وهي تلك النموذج الذي يسعى إليه الإنسان المسلم، وهي التعبير الصادق عن تلك الحالة التي لا يعرف فيها الفرد أمراض الشبهة والشك والشهوة والبغي، وهي النموذج الأكمل للصحة النفسية التي تؤدي إلى الحياة الطيبة في الدنيا وإلى الفوز والنعيم المقيم في الآخرة[4].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

من العلماء من يرى أنها ليست ثلاثة أنفس، بل الصحيح عندهم أنها نفس واحدة، فتارة يغلب عليها الاطمئنان فتوصف بأنها نفس مطمئنة، فيقال: إن هذا الإنسان نفسه مطمئنة، وتارة يغلب عليها وصف اللوم، يفعل المرء الشيء ويلوم نفسه عليه، فيقال: هذا الإنسان نفسه لوامة، وتارة يغلب عليه السوء والأمر بالسوء، فهي نفس واحدة تتصف بهذه الصفة تارة، وبهذه تارة، وهذه تارة، ولا تكون ثلاثة أنفس، وهذا هو الصحيح من أقوال العلماء[5].

الخلاصة: إذا كانت النفس تحت أمر الله تعالى، وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت مطمئنة، وإذا لم يتم سكونها وصارت مدافعة لشهوات النفس أو معترضة عليها سميت لوامة؛ لأنها تلوم صاحبها على تقصيرها في عبادة مولاها، وإن تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت أمارة بالسوء.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٤٧٧.
(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٤٥٣.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٤٣.
(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٩٤.
(٥) انظر: المصدر السابق.

مسؤولية النفس

أولًا: تكليف النفس بقدر وسعها:

جاء هذا المعنى في كثير من الآيات، ويتضح ذلك مما يلي:

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

معنى الآية: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾: إلا طاقتها وقدرتها؛ لأن التكليف لا يرد إلا بفعلٍ يقدر عليه المكلف، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى غاية الطاقة والمجهود، فلا يكلفها ما لا قدرة لها عليه لاستحالته، ولا ما يثقل عليها أداؤه، وتحمل المكروه، ولها ما كسبت من طاعة وعليها ما اكتسبت من معصية [(١)].

والوسع هو الطاقة والاستطاعة، والمراد به هنا ما يطاق ويستطاع، والمستطاع هو ما اعتاد الناس قدرتهم على أن يفعلوه إن توجهت إرادتهم لفعله مع السلامة وانتفاء الموانع، وهذا دليلٌ على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في أديان الله تعالى؛ لعموم ﴿نَفْسًا﴾ في سياق النفي؛ لأن الله تعالى ما شرع التكليف إلا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله، وقد امتازت شريعة الإسلام باليسر والرفق ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

ومن قواعد الفقه العامة «المشقة تجلب التيسير» [(٢)].

ويتضح هذا المعنى أكثر من خلال معرفتنا لسبب نزول الآية، كما جاء في العديد من كتب الحديث:

« عن ابن عباسٍ قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

قال: دخل قلوبهم منها شيءٌ لم يدخل قلوبهم من شيءٍ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا) قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]) قال: قد فعلت (﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]) قال: قد فعلت (﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٦]) قال: قد فعلت)» [(٣)].

وقال تعالى: ﴿۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٥٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٣٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٣٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم)، رقم ١٢٦، ١/ ١١٦.

﴿أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

هذه الآية جاءت بصيغة: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾:قال المفسرون: وعلى المولود له، يعني: الأب، أي: على الزوج أجر الرضاع للمرأة المطلقة وطعامها وكسوتها إذا أرضعت الولد ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما يعرفون أنه عدلٌ على قدر الإمكان وهو معنى قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا تلزم نفسٌ إلا ما يسعها، يعني: لا يجب على الأب من النفقة والكسوة إلا مقدار طاقته، وعلى قدر الميسرة[(١)].

واعتبر الشوكاني قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هو تقييدٌ بالمتعارف عليه، حيث قال: « ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: هذه النفقة والكسوة الواجبتان على الأب بما يتعارفه الناس لا يكلف منها إلا ما يدخل تحت وسعه وطاقته، لا ما يشق عليه ويعجز عنه»[(٢)].

الخلاصة: لاحظنا أن تكليف النفس بوسعها وبما تطيقه جاء في شتى الجوانب الحياتية العملية، كما تبين من خلال تفسير الآيات السابقة، سواء أكان ذلك في المعاملات بين الناس أو النفقة أو العبادات أو الكيل والميزان أو غيرها، وهذا يدلل على يسر وسماحة شرع الإسلام، ومدى توافقه مع فطرة الإنسان؛ وبالتالي يدلل على رحمة الله تعالى بعباده ورأفته بهم، وهو ما أكدته الآيات السابقة، وهي نصٌّ على أنه تعالى لا يكلف العبد ما لا يطيقه، بل مع ما يتناسب ويتوافق مع قدرته وإمكانه.

ثانيًا: تحمل النفس لمسؤولية أعمالها خيرًا أو شرًا:

الآيات التي تحمل معنى هذا العنوان هي آيات مكية، وسبب ذلك أن القرآن المكي أصلًا جاء لغرس العقيدة الصحيحة في النفوس، وبيان أن عمل كل إنسان مرهون بذاته، فهو الذي يقرر ماذا يعمل؟ وبالتالي عليه تحمل نتيجة عمله سواء في الخير أو الشر.

قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

عن معنى الآية وما فيها من بلاغة، يقول القرطبي: « قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ شرطٌ، وجوابه: ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ والله عز وجل مستغنٍ عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له، ومن أساء فالعقاب عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نفى الظلم عن نفسه عز وجل قليله وكثيره،

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص ١٧٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٨١.

وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها، دليله قوله الحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:٤٤]»[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧].

يقول تعالى ذكره لبني إسرائيل فيما قضى إليهم في التوراة: إن أحسنتم يا بني إسرائيل، فأطعتم الله وأصلحتم أمركم ولزمتم أمره ونهيه أحسنتم وفعلتم ما فعلتم من ذلك لأنفسكم؛ لأنكم إنما تنفعون بفعلتكم ما تفعلون من ذلك أنفسكم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم من بغاكم سوءًا، وينمي لكم أموالكم، ويزيدكم إلى قوتكم قوةً، وأما في الآخرة فإن الله سبحانه وتعالى يثيبكم به جنانه، ومعنى ﴿فَلَهَا﴾ فإليها، والمعنى: وإن عصيتم الله وركبتم ما نهاكم عنه حينئذٍ، فإلى أنفسكم تسيئون، لأنكم تسخطون بذلك على أنفسكم ربكم، فيسلط عليكم في الدنيا عدوكم، ويمكن منكم من بغاكم سوءًا، ويخلدكم في الآخرة في العذاب المهين[(٢)].

وعن معنى ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، قال ابن عاشور: «أننا نرد لكم الكرة لأجل التوبة وتجدد الجيل وقد أصبحتم في حالة نعمةٍ، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسنًا وإن أسأتم أسأتم لأنفسكم، فكما أهلكنا من قبلكم بذنوبهم فقد أحسنا إليكم بتوبتكم، فاحذروا الإساءة كيلا تصيروا إلى مصير من قبلكم، وإعادة فعل أحسنتم تنويهٌ فلم يقل: إن أحسنتم فلأنفسكم، وأسلوب إعادة الفعل عند إرادة تعلق شيءٍ به أسلوبٌ عربيٌ فصيحٌ يقصد به الاهتمام بذلك الفعل»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس:١٠٨].

يقول تعالى آمرًا لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ويبين لكم الرسول صلى الله عليه وسلم أنه غير موكلٍ بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذيرٌ لكم، والهداية على الله تعالى[(٤)].

ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه القرآن، والثاني: محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يبق لكم عذر، فمن اهتدى بالإيمان

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٧٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٧٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٠.

والمتابعة فإنما يهتدي لنفسه؛ لأن نفعه لها، ومن ضل بالكفر بهما فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي: في منعكم من اعتقاد الباطل، ولست بحفيظ عليكم من الهلاك كما يحفظ الوكيل المتاع من الهلاك، ولست موكول إلى أمركم، وإنما أنا بشير ونذير [(١)].

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٥٤. أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٢٦.

من أمراض النفس الإنسانية

إن أمراض النفس الإنسانية متنوعة فمنها ما يتعلق بالجانب المادي، ومنها بالجانب المعنوي.

أولًا: الشح:

ومما جاء في الحديث عن ذم الشح والتحذير منه: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **(اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)** [(٢)].

وعن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهم قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **(إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا)** [(٣)].

وبين الفَخْرُ الرازي أن الشح من صفات النفس، حيث قال: «واعلم أن الفرق بين الشح والبخل هو أن البخل نفس المنع،

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٦، رقم ٢٥٧٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، بابٌ في الشح، ٢/ ١٣٣، رقم ١٦٩٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٢١، رقم ٢٦٧٨.

والشح هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المنع، فلما كان الشح من صفات النفس لا جرم قال تعالى: ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون الظافرون بما أرادوا »[1].

ذكر الشح:

جاء ذكر الشح في القرآن الكريم في العديد من الآيات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩].

أخرج البخاري في صحيحه:(عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يضم أو يضيف هذا) فقال رجلٌ من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (ضحك الله الليلة، أو عجب، من فعالكما) فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾)[2].

وشح النفس: هو كثرةُ طمعها، وضبطها على المال، والرغبة فيه، وامتداد الأمل هذا جماع شح النفس، وهو داعية كل خلق سوء، وشح النفس فقرٌ لا يذهبه غنى المال، بل يزيده[3].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن:١٦].

المعنى: أخبر الله سبحانه وتعالى بأن الأموال والأولاد فتنة، ثم أمرهم سبحانه وتعالى بالتقوى والطاعة فقال: فاتقوا الله ما أطقتم، وبلغ إليه جهدكم، واسمعوا ما تؤمرون به، وأطيعوا الأوامر، أي: اصغوا إلى ما ينزل عليكم وأطيعوا لرسوله فيما يأمركم وينهاكم.

وأنفقوا من أموالكم التي رزقكم الله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قول الله: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)، ٥/ ٣٤، رقم ٣٧٩٨.

(٣) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٤١٠.

إياها في وجوه الخير، ولا تبخلوا بها، أي: ائتوا في الإنفاق خيرًا لأنفسكم، أو قدموا خيرًا لها، والظاهر في الآية الإنفاق مطلقًا من غير تقييدٍ بالزكاة الواجبة، وقيل: المراد زكاة الفريضة، أو النافلة، أو النفقة في الجهاد، ومن يوق شح نفسه، فيفعل ما أمر به من الإنفاق، ولا يمنعه ذلك منه، فأولئك هم الظافرون بكل خيرٍ، الفائزون بكل مطلبٍ[1].

وعلى من تكون وجوه الإنفاق في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ قال ابن كثير: « وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرًا لكم في الدنيا والآخرة »[2].

ثانيًا: الوسوسة:

جاء ذكر الوسوسة في الحديث كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست، أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به أو تكلم)[3].

وجاء ذكر الوسوسة في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ والإنسان يعم جميع الناس ولكن المقصود منهم أولا المشركون؛ لأنهم المسوق إليهم هذا الخبر[4] ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي: ما يختلج في سره وقلبه وضميره، وفي هذا تعريضٌ بالإنذار وزجرٌ عن المعاصي التي يستخفي بها.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتدٌ من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمينٍ وشمالٍ، أو الوريد: الوتين وهو عرقٌ معلقٌ بالقلب، وهذا تمثيلٌ للقرب، أي: نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة، وقيل: أي ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه، وقيل: أي: ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه؛ لأنه عرقٌ يخالط القلب، فعلم الرب أقرب إليه من علم القلب.[5]

وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسانٍ: التنبيه على سعة علم

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٩٤، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٨٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٤١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، ٨/ ١٣٥، رقم ٦٦٦٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٩٩.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٨-٩.

الله عز وجل بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم، والإخبار عن فعل الخلق بصيغة الماضي ظاهرٌ، وأما الإخبار عن علم ما توسوس به النفس بصيغة المضارع فللدلالة على أن تعلق علمه سبحانه وتعالى بالوسوسة متجددٌ غير منقضٍ ولا محدودٍ؛ لإثبات عموم علم الله سبحانه وتعالى، والكناية عن التحذير من إضمار ما لا يرضي الله.

«ومعنى توسوس: تتكلم كلامًا خفيًا همسًا، ومصدره الوسواس، والوسوسة أطلقت هنا مجازًا على ما يجول في النفس من الخواطر والتقديرات والعزائم؛ لأن الوسوسة أقرب شيءٍ تشبه به تلك الخواطر وأحسن ما يستعار لها؛ لأنها تجمع مختلف أحوال ما يجول في العقل من التقادير وما عداها من نحو ألفاظ التوهم»[1].

وعن الآثار المترتبة على الإنسان من علم الله تعالى بوسوسة النفس، قال العثيمين: «وإذا كان الله يعلم ما توسوس به النفس فهذا العلم يوجب لنا مراقبة الله سبحانه وتعالى، وأن لا نحدث أنفسنا بما يغضبه وبما يكره، فعلينا أن يكون حديث نفوسنا كله بما يرضيه؛ لأنه يعلم ذلك، أفلا يليق بنا أن نستحي من ربنا عز وجل أن توسوس نفوسنا بما لا يرضاه؟!»[2].

ثالثًا: التسويل:

جاء ذكر التسويل في القرآن الكريم بصيغ عدة، كلها تدور حول المعنى السابق، ويتضح ذلك مما يلي:

كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف:١٨].

يقول تعالى مخبرًا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب: إنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: إنا ذهبنا نترامى، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأمتعتنا فأكله الذئب، وهو الذي كان قد حذر منه، ونحن نعلم أنك لا تصدقنا حتى لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؟! لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله.

وجاءوا على قميصه بدمٍ مكذوبٍ مفترى، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، ولكنهم

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) تفسير القرآن الكريم، الحجرات، الحديد، ابن عثيمين ص ٨٩.

نسوا أن يخرقوه؛ فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: بل سولت لكم أنفسكم أمرًا، فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه؛ حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، والله المستعان على ما تذكرون من الكذب والمحال [(١)].

ثم إن إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص المليء بالدم ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾، أي: زينت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ففعلتموه به [(٢)].

وقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف:٨٣].

هذه الآية كنظيرتها السابقة، فلما جاءوا يعقوب وأخبروه بما يجري اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف، أي: لما كان صنيعهم هذا مرتبًا على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [(٣)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٥.
(٢) انظر: السراج المنير، الشربيني ٢/ ٩٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٤.

رابعًا: الخيانة:

جاء ذكر الخيانة في القرآن الكريم بصيغ مختلفة، وفي عدة من الآيات.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:١٨٧].

وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ فيه دلالةٌ على أن هذا الذي أحله الله كان حرامًا عليهم، وهو ما يفيده سبب نزول الآية، وجعل النساء لباسًا للرجال، والرجال لباسًا لهن لامتزاج كل واحدٍ منهما بالآخر عند الجماع، كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولابسه، فيستره عن أعين الناس، أو لأن كلًا منهما يستر عيوب الآخر للألفة والطمأنينة التي بينهما، وهو الأرجح.

وقد كنتم تخونون أنفسكم بالمباشرة في ليالي الصوم، وأصل الخيانة: أن يؤتمن الرجل على شيءٍ فلا يؤدي الأمانة فيه، وسماهم خائنين لأنفسهم؛ لأن ضرر ذلك عائدٌ عليهم، ثم تاب الله عليكم

بقبول التوبة، أو بالتخفيف عنكم بالرخصة والإباحة، وعفا عنكم بالعفو من الذنب، وبالتوسعة والتسهيل.

ثم قال: ابتغوا بمباشرة نسائكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح وهو حصول النسل، أو ابتغوا مما كتب لكم من الإماء والزوجات، وكلوا واشربوا إلى سواد الليل، حتى يمتاز الليل عن النهار، وذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر، ثم أتموا الصيام إلى الليل، فعند إقبال الليل يفطر الصائم ويحل له الأكل والشرب وغيرهما، ولا تباشروا النساء وأنتم عاكفون في المساجد، وهذه الأحكام حدود الله، وأصل الحد: المنع، ومن ذلك سميت الحدود حدودًا؛ لأنها تمنع أصحابها من العود. ومعنى النهي عن قربانها: النهي عن تعديها بالمخالفة لها، والنهي الوارد ليس في ذات الحدود، بل عن اقترابها في قوله تعالى بعدها: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ والله تعالى كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم العلامات الهادية إلى الحق[1].

وأخرج البخاري عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: (كان أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائمًا، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائمًا، فلما حضر الإفطار أتى امرأته، فقال لها: أعندك طعامٌ؟ قالت: لا ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته، فلما رأته قالت: خيبةً لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ ففرحوا بها فرحًا شديدًا، ونزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾[2].

وأخرج أيضًا عنه رضي الله عنه: (لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجالٌ يخونون أنفسهم)، فأنزل الله ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[3].

وجاء العتاب في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

وفي ذلك يتساءل الطبري: وما هذه الخيانة التي كان القوم يختانونها أنفسهم، التي تاب الله عز وجل منها عليهم فعفا عنهم؟!

ثم يجيب بنفسه قائلًا: كانت خيانتهم

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢١٤-٢١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصيام، باب قول الله جل ذكره: (أحل لكم ليلة الصيام)، ٣/ ٢٨، رقم ١٩١٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قول الله جل ذكره: (أحل لكم ليلة الصيام)، ٦/ ٢٥، رقم ٤٥٠٨.

أنفسهم التي ذكرها الله في شيئين، أحدهما: جماع النساء، والآخر: المطعم والمشرب في الوقت الذي كان حرامًا ذلك عليهم[1].

ويدلل على إجابته بقول أسنده لكثيرين أن ناسًا من المسلمين أصابوا النساء والطعام في رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورجل من الأنصار، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[2].

ومعنى العتاب في قوله: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخونونها بالمباشرة في ليالي الصوم، فالاختيان هنا معبرٌ به عما وقعوا فيه من المعصية بالجماع، وبالأكل بعد النوم، وكان ذلك خيانةً لأنفسهم؛ لأن وبال المعصية عائدٌ على أنفسهم، فكأنه قيل: تظلمون أنفسكم وتنقصون حقها من الخير، فتستأثرون أنفسكم فيما نهيتم عنه،

بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم، فتجاوز عنكم وعفا عنكم ولم يعاقبكم بما فعلتم، والتخفيف عنهم بالرخصة والإباحة[3].

والعتاب أيضًا في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: إرادة اتقائهم الوقوع في المخالفة؛ لأنه لو لم يبين لهم الأحكام لما اهتدوا لطريق الصواب، أو لعلهم يلتبسون في الإتيان بالمأمورات على وجهها الصحيح، إذ لو لم يبين الله لهم؛ لأتوا بعباداتٍ غير مستكملةٍ، وهم وإن كانوا معذورين عند عدم البيان، وغير مؤاخذين بإثم التقصير إلا أنهم لا يبلغون صفة التقوى[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء:١٠٥-١٠٧].

المعنى: ولا تجادل يا محمد صلى الله عليه وسلم فتخاصم عن الذين يخونون أنفسهم، يجعلونها خونةً بخيانتهم ما خانوا من أموال من خانوه ماله وهم بنو أبيرقٍ، فلا تخاصم عنهم من يطالبهم بحقوقهم، وما خانوه فيه من أموالهم، فالله لا يحب من كان من صفته خيانة الناس في أموالهم، وركوب الإثم في ذلك وغيره مما حرمه الله عليه[5].

و﴿يَخْتَانُونَ﴾ بمعنى يخونون، وهو

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٩٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٤٩٦.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢١٣، تفسير السمرقندي ١/ ١٢٤، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢١٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٨٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٧٠.

افتعالٌ دالٌّ على التكلف والمحاولة لقصد المبالغة في الخيانة، ومعنى خيانتهم أنفسهم: أنهم بارتكابهم ما يضر بهم كانوا بمنزلة من يخون غيره كقوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧].

وكذلك أنفسهم هنا: بمعنى بني أنفسهم، أي: بني قومهم، كقوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة:٨٥].

أي: الذين يختانون ناسًا من أهلهم وقومهم[(١)].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ وهو طعمة، يعني: مخاصمًا عنهم، أي: لا تكن معينًا مدافعًا عنه، واستغفر الله مما هممت به من معاقبة اليهودي، وقال مقاتلٌ: واستغفر الله من جدالك عن طعمة، إن الله كان غفورًا رحيمًا[(٢)].

وفي هذه الآية تشريف للرسول صلى الله عليه وسلم، وتفويض الأمور إليه بقوله: لتحكم بين الناس بما أراك الله، وتقويم أيضًا على الجادة في الحكم، وتأنيب على قبول ما رفع إليه في أمر بني أبيرق بسرعة[(٣)].

وهذه الآيات وما بعدها نزلت في طعمة ابن أبيرقٍ، سرق درعًا في جراب فيه دقيقٌ لقتادة بن النعمان، وخبأها عند يهوديٍ، فحلف طعمة ما لي بها علمٌ، ورماه بالسرقة، فاتبعوا أثر الدقيق إلى دار اليهودي، فقال اليهودي: دفعها إلي طعمة، فسأل قوم طعمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجادل عن صاحبهم وأن يبريه[(٤)].

وعن قتادة: «ذكر لنا أن هؤلاء الآيات أنزلت في شأن طعمة بن أبيرق، وفيما هم به نبي الله صلى الله عليه وسلم من عذره، وبين الله شأن طعمة بن أبيرق، ووعظ نبيه وحذره أن يكون للخائنين خصيمًا»[(٥)].

وجاء العتاب في توجيه النهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يكون خصيمًا لأجل الخائنين، أي: مدافعًا عنهم، ويعد هذا عتاب؛ لأن أسلوبه شديد في موضعيه، وخرج مخرج التحذير مما يخشى وقوعه لاحقًا لو تكرر.

خامسًا: المخادعة:

قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة:٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

والمخادعة: إظهار غير ما في النفس.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٩٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٤٧٦، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٩٩.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٠٨.
(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ص٢٨٧، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٥.
(٥) جامع البيان، الطبري ٩/ ١٨٢.

وذلك أن المنافقين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، وإذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله، ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث أن معاملة الرسول كمعاملته، وذلك كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح:١٠].

وعلى هذا يوجه مفهوم المخادعة أن معناه أنهم يقدرون في أنفسهم أنهم يخادعون الله، والله هو الخادع لهم، أي المجازي لهم جزاء خداعهم، وهنا يجدر التنبيه على أمرين:

أحدهما: فظاعة فعلهم فيما تجرؤوه من الخديعة، وأنهم بمخادعتهم الرسول والمؤمنين يخادعون الله.

والثاني: التنبيه على عظم المقصود بالخداع، وتنبيهًا على عظم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن معاملته كمعاملة الله، وعظم أوليائه [(١)].

وقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ أي: يفعلون فعل المخادع، فالمخادعة تكون بين اثنين، فيظهرون خلاف ما يسرون، وكذلك معناه يخدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصورة صنيعهم مع الله سبحانه وتعالى من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصنع الله معهم بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار؛ استدراجًا لهم.

ومعنى ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾: أي: ما تحل عاقبة الخداع إلا بهم، فدائرة الخداع راجعة إليهم وضررها يحيق بهم ووبال فعلهم راجع عليهم، وأنهم في ذلك خدعوا أنفسهم لما غروها بذلك، فخدعتهم أنفسهم حيث حدثتهم بالأماني الفارغة وحملتهم على مخادعة من لا تخفى عليه خافية، والنفس ذات الشيء وحقيقته، فالمراد بالأنفس هاهنا ذواتهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: لا يحسون لذلك لتمادي غفلتهم، والشعور: الإحساس، أي: لا يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم [(٢)].

وعن اعتقاد المنافقين بأنهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وكيف رد الله عليهم، قال ابن كثير:

« ولهذا قابلهم على اعتقادهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]» [(٣)].

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٧١٢. تاج العروس، الزبيدي، ٢٠/ ٤٩١.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٤٤. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٧١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٧٧.

سادسًا: اتباع الهوى:

غالبًا ما يجيء ذكر الهوى في القرآن الكريم في مقام الذم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

يصف الله جل جلاله بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر أنه آتى موسى التوراة فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها.

وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليه السلام أسوأ المعاملة، ففريقًا يكذبونه، وفريقًا يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها؛ فلهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم[(١)].

وعن سبب التعبير بالهوى عن رفضهم للحق، قال أبو السعود: «والتعبير عنه بذلك؛ للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم: هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لا شيءٍ آخر»[(٢)].

والتعبير عن القتل بالمضارع مع كونه كالتكذيب وقع في الماضي فيه نكتة بلاغية وهي: تصوير جرم القتل الشنيع واستحضار هيئته المنكرة، كأنه وقع في الحال؛ للمبالغة في النعي عليهم وتوبيخهم، حيث أفادت الآية أنهم بلغوا من الفساد واتباع أهوائهم أعلى درجة بهم في الضلال، حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل وهديهم، بل صار يغريهم بزيادة الكفر والتكذيب وقتل أولئك الهداة الأخيار[(٣)].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة:٧٠].

عن مصير الرسل الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل، يتساءل ويجيب صاحب تفسير المنار: «ماذا كان حظ أولئك الرسل من بني إسرائيل؟ كان حظهم منهم ما أفاده الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فاتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات، وعصيتم الرسل واحتميتم عليهم أن أنذروكم ودعوكم إلى أحكام كتابكم»[(٤)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٢١.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٢٧.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٩٨.

(٤) المصدر السابق ١/ ٣١٢.

ويفيد قوله: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ الإشارة إلى زيادة تفظيع حالهم من أنهم يكذبون الرسل أو يقتلونهم، ولا يلتمسون لأنفسهم فيها عذرًا من تكليفٍ بمشقةٍ فادحةٍ، كما فعل المشركون من العرب في مجيء الإسلام، بل لمجرد مخالفة هوى أنفسهم بعد أن أخذ عليهم الميثاق فقبلوه، فتتعطل بتمردهم فائدة التشريع وفائدة طاعة الأمة لهداتها[1].

الفائدة: هذا تعليمٌ عظيمٌ للأمم أن تكون سائرةً في طريق إرشاد علمائها وهداتها، وأنها إذا أرادت حملهم على مسايرة أهوائها فقد حق عليهم الخسران كما حق على بني إسرائيل؛ لأن في ذلك قلبًا للحقائق ومحاولة انقلاب التابع متبوعًا والقائد مقودًا، وأن قادة الأمم وعلماءها إذا سايروا الأمم على هذا الخلق كانوا غاشين لهم، وزالت فائدة علمهم وحكمتهم واختلط الحابل بالنابل[2].

سابعًا: نسيان النفس من الأمر والنهي:

قال تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤].

تفسير الآية: هذا خطاب لبني إسرائيل في أمرٍ يفعله علماؤهم، ويرضى به سائرهم وأخلافهم، فيلامون جميعًا عليه، إذ هو عيب فيهم سلفًا وخلفًا، وهو عيب الناس إذا ضعف وازع الدين، وهو أن يأمروا الناس بالحقائق الدينية، ولا يأخذون بهديها، وتلك إحدى صفات النفاق، فيكون قولهم مخالفا لفعلهم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف:٣].

ولذا خاطبهم الله سبحانه وتعالى مستنكرًا تلك الحال فيهم، والاستفهام هنا إنكاري لإنكار واقع حالهم من أنهم يأمرون الناس بالخير، وينسون أنفسهم، أي: يتركونها من غير توجيه إليه، فيكونون بمنزلة من ينسونها، ولا يفكرون في أمرها، مع أن دواعي التذكير والتفكر في ذات أنفسهم قائمة؛ لأنهم يتلون الكتاب، فالاستنكار للحال التي يجتمع فيها الأمر بالخير والحث عليه مع ترك أنفسهم لا تفعلها، وكأنهم نسوها ولم يذكروها.

ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والاستفهام هنا للتنبيه إلى مناقضة حالهم للعقل المدرك، فمعنى الاستفهام: أن حالهم هي حال من لا عقل له ولا إدراك، و(ألا) هنا: للاستفهام والتنبيه إلى نفي ما وراءه، والفاء فاء السببية، أي بسبب هذه الحال يحكم عليهم بأنهم لا يعقلون[3].

وعن معنى نسيان النفس هنا، قال

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٧٤.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٢١٥.

الطبري: «ومعنى نسيانهم أنفسهم في هذا الموضع نظير النسيان الذي قال جل ثناؤه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

بمعنى: تركوا طاعة الله فتركهم الله من ثوابه»[١]. وأما الألف في ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ يرى الزجاج أنها ألف استفهام، ومعناه: التقرير والتوبيخ ههنا، ثم بين أن المقصود في (البر) هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه التمسك بكتابهم، فقد كانوا يأمرون أتباعهم بالتمسك بكتابهم ويتركون هم التمسك به.

والثاني: اتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن جحدهم النبي صلى الله عليه وسلم هو أصلًا تركهم التمسك بكتابهم.

والثالث: الصدقة، حيث كانوا يأمرون ببذلها وكانوا يضنون بها؛ لأنهم وصفوا بقساوة قلوبهم، وأكلوا الربا والسحت[٢].

وعن خطورة هذا الفعل - خاصة من العلماء - قال الشوكاني: «وأشد ما قرع الله في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم، فاستنكر عليهم أولًا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع، ونادوا به في المجالس إيهامًا للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حججه، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه، وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه»[٣].

وليس الأمر بالبر وفعله مقتصرًا على اليهود، بل على كل مسلم، حيث جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت ليلة أسري بي رجالًا تقرض شفاههم بمقارض من نارٍ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟)، فقال: (الخطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون)[٤].

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٦١٥.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٢٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٩٢.
(٤) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٢١٩٧، ٤/ ٧٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٥٨٥، رقم ٢٩١.

حفظ النفس وبذلها

أولًا: حفظ النفس:

١. النهي عن قتلها.

جاء النهي عن قتل النفس في عدة آيات.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء:٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني: إلا بإحدى ثلاث مواضع: إذا قتل أحدًا فيقتص به، أو زنى وهو محصن فيرجم، أو يرتد فيقتل، ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سبيلًا وحجة عليه، فإن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء أخذ الدية إذا اصطلحا، ولا يسرف في القتل، أي: لا يقتل غير القاتل حمية، ولا يقتل بعد ما عفا أو أخذ الدية، إنه كان معانًا من الله تعالى فقد جعل الأمر إليه في القود [(١)].

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾: «علة النهي على الاستئناف، والضمير إما للمقتول فإنه منصور في الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالثواب، وإما لوليه، فإن الله تعالى نصره حيث أوجب القصاص له وأمر الولاة بمعونته، وإما للذي يقتله الولي إسرافًا بإيجاب القصاص أو التعزير والوزر على المسرف»[(٢)].

واختلفوا في هذا الإسراف الذي منع منه ولي القتيل، فالذي عليه أكثر المفسرين:

- لا يقتل غير القاتل، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا قتل منهم قتيلٌ لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه.
- أو معناه: إذا كان القاتل واحدًا فلا يقتل جماعةً بدل واحدٍ، وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفًا لا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعةً من أقربائه.
- أو معناه: لا يمثل بالقاتل[(٣)].

والعتاب جاء هنا لإبطال عادة جاهلية، وهي قتل البريء بجريرة آخر.

وقد نقل الطبري عن ابن زيد: « إن العرب كانت إذا قتل منهم قتيل، لم يرضوا أن يقتلوا قاتل صاحبهم، حتى يقتلوا أشرف من الذي قتله، فقال الله جل ثناؤه: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ ينصره وينتصف من حقه ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ يقتل بريئًا[(٤)] ».

وذكر أيضًا قولًا آخر في هذا الشأن: «كان المشركون يغتالون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الله جل جلاله:

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣١٠.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣،/ ٢٥٤.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٣٢.

(٤) انظر: المصدر السابق ١٧/ ٤٣٠.

من قتلكم من المشركين، فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أبًا أو أخًا أو أحدًا من عشيرته، وإن كانوا مشركين، فلا تقتلوا إلا قاتلكم»[1].

وجاء العتاب أيضًا في قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ وحول هذا يقول أبو حيان: «إنما الظاهر والله أعلم النهي عما كانت الجاهلية تفعله من قتل الجماعة بالواحد، وقتل غير القاتل، والمثلة، ومكافأة الذي يقتل من قتله»[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:٢٩].

أجمل الطبري المعنى في هذه الآية بقوله: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: ولا يقتل بعضكم بعضًا، وأنتم أهل ملةٍ واحدةٍ ودعوةٍ واحدةٍ ودينٍ واحدٍ، فجعل جل ثناؤه أهل الإسلام كلهم بعضهم من بعضٍ، وجعل القاتل منهم قتيلًا في قتله إياه منهم بمنزلة قتله نفسه، إذ كان القاتل والمقتول أهل يدٍ واحدةٍ على من خالف ملتهما»[3].

٢. النهي عن ظلمها.

ظلم النفس أنواعٌ مختلفة ودرجات متفاوتة، فقد يكون ظلمها بالشرك الذي لا يغفره الله إذا مات العبد عليه قبل التوبة منه، وقد يكون ظلمها بالمعاصي التي يكون صاحبها تحت المشيئة إذا لم يتب منها، وكل أحدٍ ظلم نفسه على قدر درجته ومنزلته، وظلم النفس إذا أطلق تناول جميع الذنوب فإنها ظلم العبد نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:٥٤]، وقالت بلقيس: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤]، وقال آدم عليه السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣].

ثم قد يقرن ببعض الذنوب كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران:١٣٥][4].

و«ظلم النفس هو فعل ما نهى الله عنه وتوعد عليه، فإن فعله إلقاءٌ بالنفس إلى العذاب، فكان ظلمًا للنفس»[5].

وجاء النهي عن ظلم النفس في القرآن الكريم في العديد من الآيات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ

(١) انظر: المصدر السابق ١٧/ ٤٤٢.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٣٧.
(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٦٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٨٦.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة:٣٦].

وروى الطبري عن ابن عباس أنه فسر ضمير فيهن بالأشهر الاثني عشر فالمعنى عنده: فلا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في جميع السنة؛ يعني: أن حرمة الدين أعظم من حرمة الأشهر الأربعة في الجاهلية، ونسب لغيره أن معنى ذلك: فلا تظلموا في الأربعة الأشهر الحرم أنفسكم، والهاء والنون عائدةٌ على الأشهر الأربعة [(١)].

وهناك من يرى أن المراد كل السنة، فقد أخرج البيهقي عن ابن عباسٍ، قال: «لا تظلموا أنفسكم في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهرٍ فجعلهن حرمًا، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح بالأجر أعظم» [(٢)].

والأنفس تحتمل أنها أنفس الظالمين في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا﴾ أي: لا يظلم كل واحدٍ نفسه.

ووجه تخصيص المعاصي في هذه الأشهر بالنهي: أن الله جعلها مواقيت للعبادة، فإن لم يكن أحدٌ متلبسًا بالعبادة فيها فليكن غير متلبسٍ بالمعاصي، وليس النهي عن المعاصي فيها بمقتضٍ أن المعاصي في غير هذه الأشهر ليست منهيًا عنها، بل المراد أن المعصية فيها أعظم وأن العمل الصالح فيها أكثر أجرًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧].

فإن الفسوق منهيٌّ عنه في الحج وفي غيره.

وإضافة الأنفس إلى ضمير المخاطبين: للتنبيه على أن الأمة كالنفس من الجسد على حد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١].

أي: على الناس الذين فيها على أرجح التأويلين في تلك الآية، والمراد على هذا تأكيد حكم الأمن في هذه الأشهر، أي: لا يعتدي أحدٌ على آخر بالقتال [(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

البلاغة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ تم عطف ظلم النفس على فعل الفاحشة مع أن فعل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٤٤.
(٢) انظر: شعب الإيمان، البيهقي، ٥/ ٣٤٠، رقم ٣٥٢٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٨٦.

الفاحشة داخل في ظلم النفس، ذلك لأنه من أبلغ أنواع ظلم النفس، فالفاحشة نوع من أنواع ظلم النفس، وهو الزنا أو كل كبيرة، فخص بهذا الإثم تنبيهًا على زيادة قبحه، وأريد بظلم النفس ما وراء ذلك من الذنوب[1].

٣. حفظها من الشبهات والشهوات.

جاء الأمر من الله تعالى للإنسان باتباع دينه وحفظ النفس من الشبهات والشهوات في العديد من الآيات.

قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النجم:٢٣-٢٤].

لما ذكر تعالى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء لا حقيقة لها ولا أنزل الله تعالى بها برهانًا ولا حجة، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، وابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الناس، فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق العبادة، فكل أمر ما أنزل الله به من حجة وبرهان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ دينًا، وهم في أنفسهم ليسوا بمتبعين لبرهانٍ يتيقنون به، وإنما دلهم على قولهم الظن الفاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والظن: ميل النفس إلى أحد معتقدين متخالفين دون أن يكون ميلها بحجة ولا برهان.

وهوى الأنفس: هو إرادتها الملذات لها، فأينما تجد هوى النفس أبدًا تترك الأفضل؛ لأنها مجبولة بطبعها على حب الملذات، بينما العقل والشرع يردعها ويسوقها إلى حسن العاقبة، وقوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ فيه توبيخ وإنكار لحالهم ورأيهم، والهدى المشار إليه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه[2].

ثانيًا: بذل النفس:

١. بذلها ابتغاء مرضاة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ

(١) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي ص ٥٢.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٠١، ٢٠٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١٩.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة:١١١].

المعنى: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة وعدًا عليه حقًا، وعدهم الجنة جل جلاله، وحقًّا أن يوفي لهم به في كتبه المنزلة التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هم وفوا بما عاهدوا الله فقاتلوا في سبيله ونصرة دينه أعداءه فقتلوا وقتلوا، ومن أحسن وفاءً بما ضمن وشرط من الله؟! فاستبشروا أيها المؤمنون الذين صدقوا الله فيما عاهدتم ببيعكم أنفسكم وأموالكم بالذي بعتموها من ربكم، فإن ذلك هو الفوز العظيم، فما من مسلمٍ ولله في عنقه بيعةٌ وفى بها أو مات عليها في قول الله، إلا وله الجنة، بايعهم الله فأغلى لهم الثمن، فذلك هو الفوز العظيم [(١)].

وعن كيفية شراء الله المؤمنين أنفسهم وأموالهم قال صاحب زاد المسير: «فأما اشتراء النفس فبالجهاد، وفي اشتراء الأموال وجهان: أحدهما: بالإنفاق في الجهاد، والثاني: بالصدقات» [(٢)].

وعن سبب تسمية ذلك بيعًا، قال القرطبي: «سمى ذلك كله بيعًا وشراءً على وجه المجاز، تشبيهًا بعقود الأشرية والبياعات التي تحصل بها الأغراض» [(٣)].

ذكر في أسباب النزول أن الآية نزلت في بيعة العقبة لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا سبعين رجلًا، على أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا وأن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم، كما يلي:

أخرج الواحدي:(قال محمد بن كعبٍ القرظي: لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة، وهم سبعون نفسًا، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت هذه الآية) [(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة:٢٠٧].

قال الرازي: أكثر المفسرين على أن المراد بهذا الشراء: البيع، وتحقيقه أن المكلف باع نفسه بثواب الآخرة، وهذا البيع هو أنه بذلها في طاعة الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد، يبتغي بذلك ثواب الله، فكان ما يبذله من نفسه كالسلعة، وصار الباذل كالبائع، والله كالمشتري، وقد سمى الله تعالى ذلك تجارةً، حيث قال

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٠٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٥١.
(٤) أسباب النزول، الواحدي ص ٢٦٦، رقم ٥٢٩.

سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف:١٠-١١][1].

ويعتبر الأخفش أن معنى: ﴿يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ من الأضداد، فيقول: «يبيعها، كما تقول: شريت هذا المتاع أي: بعته، وشريته: اشتريته أيضًا، يجوز في المعنيين»[2].

أخرج الحاكم عن عكرمة قال: (لما خرج صهيبٌ مهاجرًا تبعه أهل مكة فنثل كنانته، فأخرج منها أربعين سهمًا، فقال: لا تصلون إلي حتى أضع في كل رجلٍ منكم سهمًا، ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجلٌ، وقد خلفت بمكة قينتين فهما لكم، وعن أنسٍ نحوه، ونزلت على النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: أبا يحيى ربح البيع قال: وتلا عليه الآية)[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح:١٠].

المعنى: إن الذين يبايعونك بيعة الرضوان بالحديبية تحت الشجرة على قتال قريشٍ وأن لا يفروا عند لقاء العدو، ولا يولوهم الأدبار، إنما يبايعون الله، فأخبر سبحانه وتعالى أن هذه البيعة لرسوله صلى الله عليه وسلم هي بيعةٌ له؛ فمن يطع الرسول فقد أطاع الله وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة؛ لأن عقد الميثاق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كعقده مع الله سبحانه وتعالى من غير تفاوتٍ، كأنهم يبايعون الله ببيعتهم نبيه، فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه؛ لأن ضرر ذلك راجعٌ إليه لا يجاوزه إلى غيره، ومن أوفى وثبت على الوفاء بما عاهد عليه في البيعة لرسوله فله الأجر العظيم وهو الجنة، وجاء عن مجاهد وغيره: يعني: أعراب غفارٍ ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة[4].

وعن شدة وقوة هذه البيعة قال السعدي: «حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ فلم يف بما عاهد الله

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٥٠.
(٢) معاني القرآن، الأخفش ١/ ١٧٨.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، باب ذكر مناقب صهيب بن سنانٍ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٣/ ٣٩٨، رقم ٥٧٠٠. وقال عنه: صحيحٌ على شرط مسلمٍ، ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في فقه السيرة ص١٥٧.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٦-٥٧، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٨٧.

عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصلة له »[1].

وكذلك عن أهمية هذه البيعة، قال ابن عاشور: « وفرع قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ على جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ فإنه لما كشف كنه هذه البيعة بأنها مبايعةٌ لله ضرورة أنها مبايعةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، باعتبار رسالته عن الله صار أمر هذه البيعة عظيمًا خطيرًا في الوفاء بما وقع عليه التبايع وفي نكث ذلك، والكلام تحذيرٌ من نكث هذه البيعة وتفظيعٌ له؛ لأن الشرط يتعلق بالمستقبل »[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

المعنى: في هذه الآية نهى الله جل جلاله نبيه صلى الله عليه وسلم عن طرد ضعفاء المسلمين وفقرائهم، وأمره أن يصبر نفسه معهم، وأن لا يعدو عيناه عنهم إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا، فنهاه عن إطاعة الكفرة في ذلك، وبين أن طرد ضعفاء المسلمين الذي طلبه كفار العرب من نبينا صلى الله عليه وسلم، طلبه أيضًا قوم نوحٍ من نوحٍ، فأبى[3].

ويأتي الزرقاني بنكتة مهمة تعبر عن دقة ملاحظته، فيقول: «ولعلك تلمح معي من وراء هذا العتاب رحمة الرسول بأعدائه، وإخلاصه لدعوته، وتفانيه في وظيفته، وحرصه على هداية الناس أجمعين»[4].

التوجيه: هو في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصبر مع المؤمنين، وعدم ترك عنايته بالفقراء منهم، والانتباه إلى غيرهم؛إرادةً لزينة الحياة الدنيا.

٢. إزهاق النفس في مساخط الله تعالى.

إزهاق النفس في مساخط الله تعالى جاء في عدة آيات:

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٥].

يعني بإزهاق النفس في قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾: تخرج أنفسهم، فيموتوا على كفرهم بالله وجحودهم نبوة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٥٩.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٧٨.
(٤) مناهل العرفان، الزرقاني ٢/ ٣٩٥.

نبي الله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، يقال منه: زَهَقَتْ نفس فلانٍ، وزَهِقَتْ، ويقال: زهق الباطل: إذا ذهب ودرس[1].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: ولا تعجبك يا محمد أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم، فتصلي على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره من أجل كثرة ماله وولده، فإني إنما أعطيته ما أعطيته من ذلك لأعذبه بها في الدنيا بالغموم والهموم، بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ يقول: وليموت فتخرج نفسه من جسده، فيفارق ما أعطيته من المال والولد، فيكون ذلك حسرةً عليه عند موته ووبالًا عليه حينئذٍ ووبالًا عليه في الآخرة بموته، جاحدًا توحيد الله ونبوة نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم[2].

فمعنى الآية: أي: لا تستحسن ما أعطيناهم ولا تمل إليه فإنه استدراجٌ، وإنما يريد الله ليعذبهم بها، وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، وقيل: المعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا؛ لأنهم منافقون فهم ينفقون كارهين فيعذبون بها بإخراج الزكاة وبما ينفقون في سبيل الله، وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾: نصٌّ في أن الله يريد أن يموتوا كافرين، سبق بذلك القضاء[3].

وعن علة إعطائهم ذلك المال وتكثيره لهم، قال الجزائري: «ووجه تعذيبهم بها في الحياة الدنيا أن ما ينفقونه من المال في الزكاة والجهاد، يشعرون معه بألم لا نظير له؛ لأنه إنفاق يعتبرونه ضدهم وليس في صالحهم، إذ لا يريدون نصر الإسلام ولا ظهوره، وزيادة على هذا يموتون وهم كافرون فينتقلون من عذاب إلى عذاب أشد»[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٠٢.
(٢) انظر: المصدر السابق ١١/ ٦١٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٦٤.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٨١.

النفس يوم القيامة

أولًا: المحاسبة والمجازاة على الأعمال:

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر:١٧].

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيله يوم القيامة حين يبعث خلقه من قبورهم لموقف الحساب: اليوم يثاب كل عاملٍ بعمله، فيوفى أجر عمله، فعامل الخير يجزى الخير، وعامل الشر يجزى جزاءه [(١)].

فلما قرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم، أخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرةٍ من خيرٍ ولا من شرٍ، فكل نفس تجزى بما عملت في الدنيا، وأن الظلم مأمون منه، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدةً؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يبطئ؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب فيحاسب الخلق كله في وقت واحد، أي: يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسًا واحدةً، وهو أسرع الحاسبين كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨] [(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران:٣٠].

عما تدل عليه فاصلة الآية.

قال الشوكاني:

« وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ دليلٌ على أن هذا التحذير الشديد مقترنٌ بالرأفة منه سبحانه بعباده لطفًا بهم » [(٣)].

والضمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُۥٓ﴾ على هذا يعود إلى ما عملت من سوءٍ، أو يكون عائدًا إلى يوم أي: تود أنه تأخر ولم يحضر [(٤)].

ثانيًا: الشهادة على النفس:

قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام:١٣٠].

المعنى: أي: يوم نحشر عالم الجن والإنس ثم نقول لهم: ألم يأتكم رسلٌ؟ فيعترفون بما فيه افتضاحهم، ومعنى ﴿مِّنكُمْ﴾ في الخلق والتكليف والمخاطبة، ولما كانت الجن ممن يخاطب ويعقل قال:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٩٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٣٦، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٠٤.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٨١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٢٣.

منكم، وإن كانت الرسل من الإنس وغلب الإنس في الخطاب كما يغلب المذكر على المؤنث، لكن ابن عباسٍ قال:« رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي، كما قال: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[الأحقاف:٢٩]» ويؤكد ذلك أنه كان قومٌ من الجن استمعوا إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، ثم عادوا إلى قومهم وأخبروهم، فيقال لهم: رسل الله، وإن لم ينص على إرسالهم، وقوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: إن هؤلاء قد غرتهم الحياة الدنيا، فخدعتهم وظنوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا [(١)].

معنى الشهادة على النفس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائنٌ لا محالة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة اعترفوا بكفرهم، ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي: في الدنيا، بما جاءتهم به الرسل، وهذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك وبما كانوا يعملون [(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق:٢١].

المعنى: وجاءت يوم ينفخ في الصور كل نفسٍ ربها، معها سائقٌ يسوقها إلى الله، وشهيدٌ يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خيرٍ أو شرٍ [(٣)].

لكن الطبري أخرج عن ابن عباسٍ، قوله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قال: « السائق من الملائكة، والشهيد: شاهدٌ عليه من نفسه » [(٤)].

ونرى أن القولين متقاربان و النص يحتملهما فالملائكة تسوق المذنبين الى العقاب، والجوارح تشهد على هؤلاء إذا انكروا تلك الذنوب و المعاصي.

ثالثًا: المجادلة عن النفس:

قال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل:١١١].

المعنى: يوم تأتي يوم القيامة كل نفسٍ تحاج عن نفسها بما أسلفت في الدنيا من خيرٍ أو شرٍ، أو إيمانٍ أو كفرٍ، وتسعى في خلاصها، لا يهمها إلا ذاتها وشأنها، ولا يغني عنها مال ولا أب ولا ابن ولا أخٌ ولا زوجةٌ ولا شيء ما، وتوفى كل نفسٍ ما عملت في الدنيا من طاعةٍ ومعصيةٍ، وهم لا يفعل بهم إلا ما يستحقونه ويستوجبونه بما

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨٥- ٨٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٤١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨٧.
(٣) انظر: مصنف ابن أبي شيبة، ٧/ ٢١١، رقم ٣٥٤٢١، الزهد، نعيم بن حماد ٢/ ١٠٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٣٠.

قدموه من خيرٍ أو شرٍ، فلا يجزى المحسن إلا بالإحسان، ولا المسيء إلا بالذي أسلف من الإساءة، لا يعاقب محسنٌ، ولا يبخس جزاء إحسانه، ولا يثاب مسيءٌ إلا ثواب عمله [(١)].

والنفس الأولى: بمعنى الذات والشخص كقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥].

والنفس الثانية: ما به الشخص شخصٌ، فالاختلاف بينهما بالاعتبار كقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤].

والمعنى: يأتي كل أحدٍ يدافع عن ذاته، أي: يدافع بأقواله ليدفع تبعات أعماله. وضميرا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: عائدان إلى كل نفسٍ بحسب المعنى؛ لأن كل نفسٍ يدل على جمعٍ من النفوس [(٢)].

رابعًا: التوفية بجزاء الأعمال:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١].

قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ تذييل للأحكام السابقة؛ لأنه صالحٌ للترهيب من ارتكاب ما نهي عنه والترغيب في فعل ما أمر به؛ لأن في ترك المنهيات السلامة من الآثام، وفي فعل المطلوبات الاستكثار من الثواب، والكل يريد اتقاء ذلك اليوم الذي تطلب فيه السلامة [(٣)]. ومعنى توفية الجزاء بالكسب، قال محمد بن إسحاق: « ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: قال: ثم يجزى بكسبه غير مظلومٍ ولا معتدًى عليه » [(٤)].

و تعد هذه الآية من آخر ما نزل من القران الكريم دليل واضح على المسئولية الكاملة للأعمال التي تقوم بها كل نفس خيرًا كانت أو شرًا.

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران:٢٥].

هذا خطابٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته على جهة التوقيف والتعجب، أي فكيف يكون حالهم أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة وتركوا كل الزخارف التي ادعوها في الدنيا، وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم واجترائهم وقبيح أعمالهم، واللام في قوله« ليومٍ» بمعنى« في»، أو بمعنى لحساب يومٍ، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا ينقص من ثواب حسناتهم، ولا يزاد على عقاب سيئاتهم [(٥)].

(١) انظر: المصدر السابق ١٤/ ٣٨١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٣٠٣.
(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ٩٧.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٠٥، تفسير القرآن، ابن المنذر ٢/ ٤٧٤.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٥١، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٧٧. اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ١٢١.

وعن هدف الاستفهام، قال أبو السعود: «﴿فَكَيْفَ﴾ ردٌّ لقولهم المذكور وإبطال لما غرهم باستعظام ما سيدهمهم وتهويل ما سيحيق بهم من الأهوال، أي: فكيف يكون حالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أي: لجزاء يوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في وقوعه ووقوع ما فيه؟!»[1].

وفي الآية الكريمة بعض القضايا البلاغية منها في قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ إسناد التوفية إلى ما كسبت وعدم ذكر الجزاء، فيه إشارة إلى عدل الله اللطيف الخبير، وهو مساواة الجزاء للعمل، وكأن المثاب يوفى عمله، لا جزاء عمله، وذلك لشدة المساواة بينهما، وأكد سبحانه وتعالى معنى العدالة بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: سيجزون بأعمالهم، وسينالون ما يستحقون، وكل ما ينالهم بسبب ما فعلوا هو العدل عينه، فإذا ألقوا في السعير فليس في ذلك ظلم بل هو العدل[2].

خامسًا: مصيرها:

مصير النفس وأين ستذهب بعد الموت، جاء ذكره كثيرًا في القرآن الكريم، وذلك حتى يعرف الإنسان أين يكون مصيره إن هو آمن والتزم بشرع الله تعالى، أو عصاه واتبع هواه، فإما إلى الجنة وإما إلى النار، ويتضح ذلك من خلال العديد من الآيات الآتية، منها:

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

المقصود من هذه الآية تأكيد تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمبالغة في إزالة الحزن من قلبه، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن عاقبة كل الناس الموت، وهذه الغموم والأحزان تذهب وتزول، وبالتالي لن يلتفت العاقل إليها.

والثاني: أن بعد هذه الدار دارٌ يتميز فيها المحسن عن المسيء، وتأخذ كل نفسٍ ما يليق بها من الجزاء؛ ولذلك فكل واحد من هذين الوجهين يعمل على إزالة الحزن والغم عن قلوب العقلاء المؤمنين[3].

معنى الآية: ومصير ومرجع جميع خلقه إليه تعالى؛ لأنه قد حتم الموت على جميعهم، فأوفي كل نفسٍ منهم جزاء عمله يوم القيامة، يعني: توفون أجور أعمالكم يوم القيامة إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًا فشرٌ؛ لأن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، فمن نحي عن النار وأبعد منها فقد نجا وظفر بحاجته، أي: أدخل الجنة، ولا غاية

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢١.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١١٦٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٥١.

للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد، وما لذات الدنيا وشهواتها، وما فيها من زينتها وزخارفها إلا متعةٌ يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل، فأنتم تتلذذون بما متعكم الغرور من دنياكم، فلا تركنوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها، فإنما أنتم منها في غرورٍ تمتعون، ثم أنتم عنها بعد قليلٍ راحلون[(١)].

وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير:١٤].

صيغة الماضي في الآية الواردة أن (إذا) مستعملةٌ في معنى الاستقبال تنبيهًا على تحقق وقوع الشرط، وجواب الشرط هو قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار:٥].

جملة: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ جوابٌ لما في إذا من معنى الشرط، وهذا العلم كنايةٌ عن الحساب على ما قدمت النفوس وأخرت. وإثبات العلم للناس بما قدموا وأخروا عند حصول تلك الشروط لعدم الاعتداد بعلمهم بذلك الذي كان في الحياة الدنيا، فنزل منزلة عدم العلم، كما في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ في سورة التكوير.

والعلم يتحقق بإدراك ما لم يكن معلومًا من قبل، وبتذكر ما نسي لطول المدة عليه، وهذا وعيدٌ بالحساب على جميع أعمال المشركين، ووعدٌ للمتقين، ومختلطٌ لمن عملوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الإنسان، الروح، العقل، القلب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٨٨، الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٤٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٧٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٤٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٧٠-١٧٢.

النِّكَاح

عناصر الموضوع

مفهوم النكاح	٣٦٤
النكاح في الاستعمال القرآني	٣٦٥
الألفاظ ذات الصلة	٣٦٦
الترغيب في النكاح	٣٦٨
صور من النكاح المحظور	٣٨٦
صور النكاح المرغب فيه	٤٠٨
خصوصيات النبي في النكاح	٤٢٢

مفهوم النكاح

أولًا: المعنى اللغوي:

النون والكاف والحاء أصل واحد، وهو البضاع، نكح ينكح، يقال نكحت: تزوجت، وأنكحت غيري[(١)].

النكاح -بالكسر-: الوطء في الأصل، وقيل: هو العقد له، وهو التزويج؛ لأنه سببٌ للوطء المباح، واستعماله في الوطء والعقد مما وقع فيه الخلاف، قالوا: لم يرد النكاح في القرآن إلا بمعنى العقد؛ لأنه في الوطء صريحٌ في الجماع، وفي العقد كنايةٌ عنه[(٢)].

نكحتها ونكحت هي، أي: تزوجت، وهي ناكحٌ في بني فلان، أي: هي ذات زوج منهم، ومعنى نكحها وأنكحها أي: زوجها، ورجلٌ نكحةٌ: كثير النكاح، والنكح والنكح لغتان، وهي كلمة كانت العرب تتزوج بها، والاسم النكح والنكح[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تعددت تعريفات العلماء للنكاح وهي على النحو التالي:

«عقد يرد على تمليك منفعة البضع قصدًا»[(٤)].

وقيل: «إيلاج ذكر في فرج؛ ليصير بذلك كالشيء الواحد»[(٥)].

وقيل: عقد يتضمن إباحة وطء بلفظ إنكاح أو تزويج أو ترجمة[(٦)].

وقيل: عقد ينشئ بين الرجل والمرأة حقوقًا شرعية تقوم على المودة والرحمة والمعروف والإحسان[(٧)].

ولعل التعريف الأخير تضمن إبرام عقد النكاح، وحدد طرفي العقد وبين الثمرة المرجوة والغاية، وهي المودة والرحمة والمعروف والاحسان والسكن بين المتعاقدين، فهو بذلك أكثر وضوحًا وشمولًا.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٧٥، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٨٨٤.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٧/ ١٩٥.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٤١٣، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٦٢٦.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص٢٤٦.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٢٠.
(٦) مغني المحتاج، الشربيني ٣/ ١٢٣.
(٧) من قضايا الأسرة في التشريع الإسلامي، محمد دسوقي ص ١٥.

النكاح في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نكح) في القرآن الكريم(٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢]
الفعل المضارع	١٣	﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣]
فعل الأمر	٣	﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣]
المصدر	٥	﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]

وجاء النكاح في القرآن على ستة أوجه[٢]:

الأول: العقد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١].يعني: لا تتزوجوهن.

الثاني: الجماع: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. يعني: حتى تجامع زوجًا غيره، ويجامعها زوجًا غيره.

الثالث: الحلم: ومنه قوله: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: ٦]. يعني الحلم.

الرابع: العقد والوطء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].

الخامس: المهر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧١٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٣٦، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٥٩١-٥٩٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزواج:

الزواج لغةً:

(زوج) الزاء والواو والجيم أصلٌ يدل على مقارنة شيءٍ لشيءٍ، من ذلك الزوج زوج المرأة، والمرأة زوج بعلها، وهو الفصيح، ويقال: لفلانٍ زوجان من الحمام، يعني: ذكرًا وأنثى[١].

الزواج اصطلاحًا:

هو عقد يقصد به حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر وائتناسه به طلبًا للنسل على الوجه المشروع، أو هو عقد يرد على ملك المتعة قصدًا[٢]، أو هو: عقد يفيد حل استمتاع كل من العاقدين بالآخر على الوجه المشروع[٣].

الصلة بين النكاح والزواج:

النكاح: اشتراك بين الرجل والمرأة في الوطء والجماع والمودة والمحبة، الزواج: اشتراك بين الرجل والمرأة قائم على المحبة والتعاون والرحمة، والظاهر أنهما مترادفتان في المعنى.

٢ الوطء:

الوطء لغةً:

الواو والطاء والهمزة، كلمة تدل على تمهيد شيء وتسهيله، والوطاء: ما توطأت به من فراش[٤]. والوطء: كناية عن الجماع، وطئ امرأته: إذا جامعها ووطئ الرجل امرأته، يطأ فيهما، وسقطت الواو من يطأ، كما سقطت من يسع؛ لتعديهما[٥].

الوطء اصطلاحًا:

هو جماع بين الرجل والمرأة بهدف المتعة، والانجاب؛ لتكثير النسل.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٥.
(٢) انظر: كنز الدقائق، النسفي ٢/ ١٧٤ مع شرحه النهر الفائق.
(٣) انظر: الأحوال الشخصية، أبو زهرة، ص١٧.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٢٢.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٨١، شمس العلوم، نشوان الحميرى ١١/ ٧٠٢٩.

الصلة بين النكاح والوطء:

النكاح: أعم في معناه ودلالته وآثاره، أما الوطء: فهو يختص بالجماع الحاصل بين الرجل والمرأة.

٣ العقد:

العقد لغةً:

العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها، والجمع أعقاد وعقود، وعقدة النكاح وكل شيء: وجوبه وإبرامه[١].

والعقدة -بالضم-: موضع العقد، وهو ما عقد عليه، والعقد -بالكسر-: القلادة[٢].

العقد اصطلاحًا:

«هو اسم لما يعقد من نكاح ويمين»[٣].

وقيل: «هو ربط أجزاء التصرف بالإيجاب والقبول شرعًا»[٤].

الصلة بين النكاح والعقد:

النكاح: أخص في معناه من العقد؛ لأنه يراد به الجمع بين الرجل والمرأة بكل ثمراتها، أما العقد: فهو في معناه أعم، فقد يراد به البيع والعهد والنكاح والحبل وغيرها.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٨٦.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٥١٠.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٤٤، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٧٧.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص١٥٣.

الترغيب في النكاح

رغب القرآن الكريم في النكاح، وحض عليه، وأخبر أنه آية من آيات الله تعالى، وأنه من سنن المرسلين، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أنه من سنن المرسلين:

الزواج آية من آيات الله، وسنة من سنن المرسلين، فقد كان لهم أزواج وذرية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[الرعد: ٣٨].

أي: كما أرسلناك يا محمد رسولًا بشريًا، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرًا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجًا وذرية[١].

أي: جعلناهم بشرًا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وجعلنا لهم النساء والبنين، وما جعلناهم ملائكة، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينكحون، وذكر هذا في سياق الامتنان.

وكان هذا كمالًا في حقهم، ولم يكن ذلك قادحًا في صحة رسالتهم، ولا تلك العلاقات كانت شاغلة لهم؛ لأن من اشتغل بالله فكثرة العيال، وتراكم الأشغال، لا تؤثر في حاله، ولا يضره ذلك.

فنجد أن الله تعالى جعل الميل إلى النساء فطري في طبع الذكور؛ لأن في الأنس بهن انتعاش للروح، وتناوله محمودٌ إذا وقع على الوجه المبرأ من الإيقاع في فساد، كما في تناول الطعام والشراب[٢].

وفي هذه الآية ردٌ على من عاب على الرسول صلى الله عليه وسلم كثرة النساء، وقال: لو كان مرسلًا حقًا لكان مشتغلًا بالزهد، وترك الدنيا والنساء، ولشغلته النبوة عن تزوج النساء، والتماس الولد، فرد الله مقالتهم، وبين أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس ببدعٍ في ذلك، بل هو كمن تقدم من الرسل[٣]. جعل الله لهم أزواجًا وذرية، فقد كان لأكثر الرسل أزواج، ولأكثرهم ذرية، وقد كان لسليمان بن داود عليه السلام مائة امرأة كما جاء في البخاري[٤]. ومثل نوح وإبراهيم ولوط وموسى وسليمان وغير هؤلاء عليهم السلام[٥].

وأصحاب الشبهة هؤلاء إما أن يكونوا هم اليهود أو المشركين[٦].

والصحيح أن القائلين هم المشركون؛ إذ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٦٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/ ٤٠٧.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٢٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، رقم ٢٨١٩.

(٥) انظر: التحرير والتنوير ١٣/ ١٦٢.

(٦) المصدر السابق ١/ ٢٥٤.

هذه السورة مكية، ولم يكن لليهود حديث مع أهل مكة، ولا كان منهم في مكة أحد، على أنه لا يلزم أن يكون هذا نازلًا على سبب. وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة ثم سودة رضي الله عنهما في مكة، فاحتمل أن المشركين قالوا قالة إنكار تعلقًا بأوهن أسباب الطعن في النبوءة، وهذه شبهة لا تعرض إلا للسذج، أو لأصحاب التمويه، وقد يموه بها المبشرون من النصارى على ضعفاء الإيمان، فيفضلون عيسى عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بأن عيسى لم يتزوج النساء وهذا لا يروج على العقلاء؛ لأن تلك بعض الحظوظ المباحة التي لا تقتضي تفضيلًا، وإنما التفاضل في كل عمل بمقادير الكمالات الداخلة في ذلك العمل، ولا يدري أحد الحكمة التي لأجلها لم يتزوج عيسى عليه السلام؛ فلعله لعارض آخر أمره الله به لأجله، وقد كان يحيى عليه السلام حصورًا، فلعل عيسى عليه السلام قد كان مثله[1].

وأيضًا قد قيل: إن عيسى عليه السلام سينكح إذا نزل الأرض، ويولد له[2].

وأما وصف الله تعالى يحيى عليه السلام بقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩].

فليس مقصودًا منه أنه فضيلة، ولكنه أعلم أباه زكريا عليه السلام بأنه لا يكون له نسل؛ ليعلم أن الله أجاب دعوته، فوهب له يحيى عليه السلام كرامة له، ثم قدر أنه لا يكون له نسل[3].

والتحقيق -كما قال الشنقيطي- أن معنى قوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ أنه الذي حصر نفسه عن النساء، مع القدرة على إتيانهن؛ تبتلًا منه، وانقطاعًا لعبادة الله، وكان ذلك جائزًا في شرعه، وأما سنة النبي صلى الله عليه وسلم فهي التزويج، وعدم التبتل[4].

وما قيل: من أن يحيى عليه السلام قد تزوج ولم يجامع، وإنما فعل ذلك؛ لنيل الفضل، وإقامة السنة، ولغض البصر[5]. فالظاهر أن هذا لا يصح.

وقوله في الآية: ﴿وَذُرِّيَّةً﴾ امتنان بالأولاد والذرية، وقد ترجم البخاري: «(باب طلب الولد)[6] فطلب الولد مطلوب لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد مماته، قال صلى الله عليه وسلم: (إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث) وذكر منها: (أو ولد صالح يدعو له)»[7].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٥٤.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٣٦.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٢٢٥.
(٤) أضواء البيان ٧/ ٥٠.
(٥) البحر المديد ٣/ ٣٦.
(٦) انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب طلب الولد ٥/ ٢٠٠.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم ٤٣١٠.

والمقصود أن هذه الآية تدل على أن النكاح سنة قديمة منذ خلق الله آدم، وبقيت في بنيه من الرسل والأنبياء، ومن دونهم، وتدل على الترغيب في النكاح، والحض عليه، وتنهى عن التبتل، وهو ترك النكاح، وقد جاءت السنة بمعناها، قال صلى الله عليه وسلم: (تزوجوا، فإني مكاثر بكم الأمم)[(١)].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج)[(٢)].

وقال: (وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[(٣)].

وفي الحديث: (أربع من سنن المرسلين: الحياء[(٤)] -ويروى الختان- والتعطر، والسواك، والنكاح)[(٥)].

وقوله: (من سنن المرسلين) أي: فعلًا وقولًا، يعني: التي فعلوها وحثوا عليها، وفيه تغليب؛ لأن بعضهم كعيسى ما ظهر منه الفعل في بعض الخصال وهو النكاح. قال المناوي: المراد أن الأربع من سنن غالب الرسل، فنوح لم يختتن، وعيسى لم يتزوج[(٦)].

ومما يدل على أهمية النكاح، وأنه من سنن الأنبياء ما ورد في سورة القصص من قصة موسى عليه السلام أنه بقي ثمان سنين أو عشر يعمل لأجل أن يحصل مهر النكاح.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

ومما يدل على أهميته أيضًا أن الله

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب ما جاء في فضل النكاح، رقم ١٨٤٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٨٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من استطاع منكم الباءة فليتزوج)، رقم ٤٧٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم ٣٤٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٥٠٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم ١٤٠١.

(٤) في رواية: الحناء بالحاء المهملة والنون المشددة وهذه الرواية غير صحيحة ولعلها تصحيف، لأنه يحرم على الرجال خضاب اليد والرجل تشبهًا بالنساء، وأما خضاب الشعر به فلم يكن قبل نبينا عليه الصلاة والسلام، فلا يصح إسناده إلى المرسلين. انتهى ما في المرقاة.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/ ٥٥٤، رقم ٢٣٥٨١، والترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب ما جاء في فضل التزويج، رقم ١٠٨٠. وحسنه الألباني في تعليقه مشكاة المصابيح، ١/ ١٢٢، رقم ٣٨٢.

(٦) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ١/ ٢٧٥.

تعالى مدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وما كان النكاح من سنن المرسلين إلا لمنفعته وآثاره سواء في الدنيا، أو في الآخرة، فله منافع دينية ومنافع دنيوية، ففيه تحصيلٌ لأفضل وخير متاع الدنيا ألا وهي المرأة الصالحة، وفيه إكمال لشطر الدين، وهو سبب لعون الله عز وجل وتوفيقه، وسبب لزيادة عدد الأمة، وله أثر صحي وبدني ونفسي.

ومن فوائده تحصين النفس وحمايتها من الوقوع في الفاحشة، وبه يتيسر للرجل والمرأة أنواع من العبادة والقرب لا تتيسر بغيره، من حسن العشرة، والصحبة بالمعروف، وقضاء حق العيال، والرحمة بهم، والانشغال بمصالحهم، كل ذلك قربة إلى الله عز وجل يحصل عليها المتزوج، ولا يحصل عليها الأيم.

والزواج مع أنه عبادة وقربة فإنه تحصل فيه راحة النفس ولذتها، وقضاء رغبتها، بل إن اللقاء بين الزوجين وتحصيل الشهوة أمر يثابان ويؤجران عليه، وفي الزواج أيضًا إتباع السنة، وابتغاء الولد الصالح، والمعونة على الطاعة، والمحافظة

عن المعصية، إضافة إلى ما يثمره الزواج من ترابط الأسرة، وتوطيد أواصر المحبة.

وفيه إشباع دافع الأمومة والأبوة لكلٍ من الزوجين، والشعور بالنوع، فالزواج يحقق إشباعًا اجتماعيًا يورث توازنًا في الشخصية، فالإنسان لا يستطيع أن يعيش في عزلة عن الآخرين.

والزواج يلائم الفطرة الإنسانية ويوافقها، وينسجم معها، ويحفظ المجتمع من الشرور، وتحلل الأخلاق، وانتشار الرذائل، وفيه بقاء النوع الإنساني على وجه سليم، وتدريب الذات على تحمل المسئولية، والقيام بشئون الطرف الآخر، وشئون الأولاد والرحم، كل هذه وغيرها من ثمار النكاح؛ ولهذا كان من سنن الأنبياء، رغبوا فيه، وحثوا عليه.

ثانيًا: الأمر بالنكاح:

أمر الله تعالى في القرآن الكريم بالنكاح في عدة آيات، فقال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

وقال: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وظاهر الأمر في قوله: ﴿فَانكِحُوا﴾ الوجوب على كل من قدر عليه؛ لخبر

الصحيحين عن ابن مسعود: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج)[1].

وعورض ظاهر الأمر بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

فالصواب: أنه ليس بواجب. حتى على التسليم بالوجوب، فالوجوب بحالة الخوف، فلا يلزم منه الوجوب على الإطلاق[2].

ولأن الله تعالى قال: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ثم قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فخير سبحانه وتعالى بين النكاح والتسري؛ ولو كان النكاح واجبًا لما خير بينه وبين التسري؛ لأنه لا يصح عند الأصوليين التخيير بين واجب وغيره؛ لأنه يؤدي إلى إبطال حقيقة الواجب، وأن تاركه لا يكون آثمًا، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)[3].

فمعناه: من رغب عنها إعراضًا عنها، غير معتقد لها على ما هي[4].

والذي يبدو أن الزواج يختلف حكمه باختلاف الأحوال، فمن كان-مثلًا- قادرًا على الزواج، ويخشى إذا ترك الزواج أن يقع في الفاحشة، فإن الزواج بالنسبة له يكون واجبًا، بخلاف من أمن الوقوع في الفاحشة، فإن الزواج بالنسبة له يكون مستحبًا.

فالأمر بالنكاح يختلف من شخص إلى شخص، ومن نازلة إلى أخرى، ففي نازلة: يتصور وجوبه، وفي نازلة قد يكون مندوبًا، وغير ذلك، حسبما هو مذكور في كتب الفقه.

ويختلف الحكم في ذلك أيضًا باختلاف حال المؤمن من خوف العنت، ومن عدم صبره، ومن قوته على الصبر، وزوال خشية العنت عنه، فإذا خاف الهلاك في الدين أو الدنيا أو فيهما، فالنكاح حتم، وإن لم يخش شيئًا وكانت الحال مطلقة، فالنكاح مستحب.

إلا أنه يبقى أن المبادرة بالزواج أمر مطلوب شرعًا لمن استطاع، ويتأكد هذا الأمر في حق الشباب؛ لقول-في الحديث السابق-: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج)[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من استطاع منكم الباءة فليتزوج) رقم ٤٧٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم ٣٤٦٤.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٣٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٥٠٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم ١٤٠١.

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ٩/ ١٧٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من

وعلى من عجز أن يستعفف، وأن يصون نفسه من الوقوع في الفاحشة، وأن يراقب الله -جل جلاله-، ويكبح نفسه الأمارة بالسوء ويمنعها من الطموح إلى كل شهوة، فلا يكون أسيرًا لشهوات نفسه ولذاتها، بل ينتظر الفرج إلى أن يرزقه الله جل جلاله.

وقوله في الآية: ﴿مَا طَابَ﴾ يعني: من النساء؛ وقرئ: (مَنْ طَابَ) على ذكر من يعقل[1]، و﴿مَا﴾ هنا موصولة، وحكى البعض أن ﴿مَا﴾ في هذه الآية ظرفية، أي: ما دمتم تستحسنون النكاح، وفي هذا المنزع ضعف[2].

وقال: ﴿مَا﴾ ولم يقل: مَن؛ لأنه لم يرد تعيين من يعقل، وإنما أراد الجنس الذي هو الطيب من جهة التحليل، فكأنه قال: (فانكحوا الطيب)[3]. مثلما تقول: ما عندك؟ فيقال: رجل أو امرأة، تريد ما ذلك الشيء الذي عندك، أو ما تلك الحقيقة؟

ولأن الإناث من العقلاء تنزل منزلة غير العقلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣].

ولأن (ما) و(من) يتعاقبان.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥].

وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥][4].

وقد يكون مرجع (ما) إلى النكاح نفسه لا إلى النساء، ومعناه: فانكحوا نكاحًا طيبًا، وقد يكون معنى قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ﴾ الفعل دون أعيان النساء وأشخاصهن، فلذلك قيل: ﴿مَا﴾ ولم يقل: مَن، كما يقال: «خذ من رقيقي مَا أردت» إذا عنيت: خذ منهم إرادتك، ولو أردت: خذ الذي تريد منهم، لقلت: خذ من رقيقي من أردت منهم[5]. أو أنه جاء بـ ﴿مَا﴾؛ لأنه نحا بها منحى الصفة، وهو الطيب بلا تعيين ذات، ولو قال: (من) لتبادر إلى إرادة نسوة طيبات معروفات بينهم[6].

ومعنى: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ أي: ما حل لكم من النساء؛ لأن فيهن من يحرم نكاحها، وما حرمه الله فليس بطيب، واعترض عليه بأن قوله: ﴿فَانكِحُوا﴾ أمر إباحة، فيئول المعنى إلى قوله: أبحت لكم نكاح من هي مباحة لكم، وهذا كلام مكرر، إلا إذا قلنا: إن الآية

استطاع منكم الباءة فليتزوج)، رقم ٤٧٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم ٣٤٦٤.

(١) هذه قراءة ابن أبي عبلة، انظر: المحرر الوجيز ٢/ ٧٠.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٧١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٣٤٥.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٤٢.

(٦) التحرير والتنوير ١/ ٨٨٦.

مجملة؛ لأن أسباب الحل والإباحة غير مذكورة في هذه الآية.

وعلى كلٍ فيدخل في الطيب: ما أباحه الشرع، وهو ما بقي بعد ما أخرجته آية: المحرمات من النساء، ويدخل في الطيب ما تستلذه الحواس، وما تستلذه النفوس، أو ما طاب حلًا وخلقًا وخلقًا.

وقال بعض المحققين: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ معناه: ما لا تحرج منه؛ لأنه في مقابل المتحرج منه من اليتامى، ولا يخلو عن حسن، وكيفما كان فالتعبير عن الأجنبيات بهذا العنوان فيه من المبالغة في الاستمالة إليهن، والترغيب فيهن ما لا يخفى، والسر في ذلك الاعتناء بصرف المخاطبين عن نكاح اليتامى عند خوف عدم العدل؛ رعاية ليتمهن، وجبرًا لانكسارهن؛ ولهذا الاعتناء أوثر الأمر بنكاح الأجنبيات على النهي عن نكاحهن، مع أنه المقصود بالذات، وذلك لما فيه من مزيد اللطف في استنزالهم، فإن النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه[1].

ومثنى وثلاث ورباع، أي: فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد، ثنتين ثنتين، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فالأمر كله يدور مع العدل، فأينما وجدتموه فعليكم به، ثم قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فسوى في السهولة بين الحرة الواحدة وبين ما شاء من الإماء؛ لأنهن أقل تبعة، وأخف مؤنة من الحرائر، لا على المرء أكثر منهن أو أقل، عدل بينهن في القسم أم لم يعدل، عزل عنهن أم لم يعزل[2].

ثالثًا: امتنان الله على خلقه به:

النكاح نعمة من الله امتن بها على عباده؛ إذ يحصل به مصالح دينية ودنيوية، فردية واجتماعية، مما يجعله من الأمور المطلوبة شرعًا، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي تلفت النظر إلى هذه النعمة.

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ٤١١.

(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٣٤٦.

فقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: من نعمه تبارك وتعالى التي تستحق الشكر، وتستحق المحافظة عليها ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ خلقنا من ذكر وأنثى، فخلق الذكر للأنثى؛ لأنها لا تستقر حياتها من دونه، وخلق الأنثى للذكر لأنه لا يستقر عيشه بدونها.

فهي آية ونعمة اختص بها الإنسان؛ إذ ألهمه الله جعل قرين له، وجبله على نظام محبة وغيرة، لا يسمحان له بإهمال زوجه، كما تهمل العجماوات إناثها، وتنصرف إناثها عن ذكورها، وجعل البنين للإنسان نعمة، وجعل كونهم من زوجة نعمة أخرى؛ لأن بها تحقق كونهم أبناءه بالنسبة للذكر، ودوام اتصالهم به بالنسب، ووجود المشارك له في القيام بتدبير أمرهم في حالة ضعفهم[(١)].

والخطاب بضمير الجماعة المخاطبين في قوله: (جعل لكم) موجه إلى الناس كلهم، وغلب ضمير التذكير[(٢)].

وفي النكاح نعمة أخرى؛ إذ جعل قرين الإنسان متكونًا من نوعه، فقال: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ولو لم يجعل له ذلك لاضطر الإنسان إلى طلب التأنس بنوع آخر، فلم يحصل التأنس بذلك للزوجين، وهذه الحالة وإن كانت موجودة في أغلب أنواع الحيوان، فهي نعمة يدركها الإنسان، ولا يدركها غيره من الأنواع، وليس من قوام ماهية النعمة أن ينفرد بها المنعم عليه[(٣)].

ومعنى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: جعل هذه الزوجة من نوعكم ومن جنسكم من بني آدم، فجميع الأزواج من نوع الناس، وأما قول تأبط شرًا[(٤)]:

وتزوجت في الشبيبة غولًا
بغزال وصدقتي زق خمر

فمن تكاذيبهم، وكذلك ما يزعمه المشعوذون من التزوج بالجنيات، وما يزعمه أهل الخرافات والروايات من وجود بنات في البحر، وأنها قد يتزوج بعض الإنس ببعضها[(٥)].

ويدل على أن ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم قوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١].

لأن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر، أي: لا يثبت نفسه معه، ولا يميل قلبه إليه[(٦)].

وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون، وما بين الجنسين

(١) نظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) البيت منسوبة للبهراني في شرح نهج البلاغة ١٩/ ٤١٦. وأثبتنا ما كتبه صاحب الأصل، قال الجاحظ: أصدقها الخمر لطيب ريحها، والغزال، لأنه من مراكب الجن.
(٥) التحرير والتنوير ٢١/ ٧٢.
(٦) اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٣٩٦.

المختلفين من التنافر[1]. ولو تصورنا أن الله تعالى جعل الزوجين من غير جنس واحد، فلن يشعرا بالسرور واللذة أبدًا، ولكن الله تبارك وتعالى خلقهما من جنس واحد، يميل أحدهما إلى الآخر، ويأنس به، فسبحان الله العليم الحكيم.

ومعنى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ أي: لتميلوا للأزواج، وتألفوهن، فإن الجنس إلى الجنس أسكن، والسكون هنا مستعار للتأنس، وفرح النفس؛ لأن في ذلك زوال اضطراب الوحشة والكمد بالسكون الذي هو زوال اضطراب الجسم، كما قالوا: اطمأن إلى كذا، وانقطع إلى كذا، وضمن ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ﴾ معنى: (لتميلوا) فعدي بحرف (إلى) وإن كان حقه أن يعلق بـ(عند) ونحوها من الظروف[2].

والسكن إلى المرأة يشمل سكن النفس وسكن الجسم، وهذه إحدى الحكم الإلهية من وراء الزواج.

وجعل الله بين الزوجين المودة والرحمة، فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١].

أي: جعل بين الزوجين المودة والرحمة، فهما يتوادان ويتراحمان من غير سابقة معرفة، ولا قرابة، ولا سبب يوجب التعاطف، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر، من غير تراحم بينهما، وهذا لا يحصل إلا للزوجين، فالمودة وحدها آصرة عظيمة، وهي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما، والرحمة وحدها آصرة منها الأبوة والبنوة، فما ظنكم بآصرة جمعت الأمرين! وكانت بجعل الله تعالى، وما هو بجعل الله فهو في أقصى درجات الإتقان[3].

والمودة والرحمة من أجمل المشاعر التي خلقها الله، فإذا وجد ذلك كله مع الشعور بالحل والهداية إلى الفطرة، ومرضاة الله سبحانه وتعالى كملت هذه المتعة، ولم ينقصها شيء، وقد ساعد على ذلك بالطبع الأصل الأول للخلق وغريزة الميل التي خلقها الله في كل من الذكر والأنثى للآخر.

فلا ألفة أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه، فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة: ١٠٢].

فلشدة ارتباط هذه العلاقة بين الزوجين فلا يستطيع أحد التفريق بينهما، إلا أن يكون هذا التفريق باستعمال مفسدات لعقل أحد الزوجين حتى يبغض زوجه، وإما بإلقاء الحيل والتمويهات والنميمة حتى يفرق بينهما؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ

(١) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٩٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٧٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ١/ ٦٤٤.

﴿مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولعل في قوله: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ إشارة إلى أن الزواج الناجح لا بد أن تسوده المودة والرحمة؛ ولهذا يجب المحافظة على هذه المودة حتى في حالة الغضب والصعوبات؛ لتستمر الحياة هادئة وسعيدة، فالمودة هي الأساس في بداية العلاقة الزوجية، فلا زواج ناجح من دون الحب بين الطرفين، ولعل الزوجة هي الأقدر في إظهار هذا الجانب وتفعيله مع الزوج.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [الروم: ٢١].

الذي ذكر من ﴿لَآيَٰتٍ﴾ جمع، مع أنها- في الحقيقة- آية واحدة، إلا أنها تنطوي على عدة آيات، منها: أن جعل للإنسان ناموس التناسل، وأن جعل تناسله بالتزاوج، ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه، ولم يجعلها من صنف آخر؛ لأن التآنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنسًا بين الزوجين، ولم يجعله تزاوجًا عنيفًا، أو مهلكًا كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين، فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما، فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما، فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة؛ ولأجل ما ينطوي عليه هذا الدليل، ويتبعه من النعم والدلائل جعلت هذه الآية آيات عدة، في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾

وجعلت الآيات لقوم يتفكرون؛ فقال: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأن التفكر والنظر في تلك الدلائل هو الذي يجلي كنهها، ويزيد الناظر بصارة بمنافع أخرى في ضمنها.

ويتفكرون أي: في عظمة الله وقدرته، فهو متعلق بـ﴿لَآيَٰتٍ﴾ والذين يتفكرون: المؤمنون، وأهل الرأي من المشركين الذين يؤمنون بعد نزول هذه الآية[1].

هكذا يصور القرآن العلاقة الزوجية تصويرًا رفافًا شفيفًا، يشع منه التعاطف، وترف فيه الظلال، ويشيع فيه الندى، ويفوح منه العبير: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٨٧].

فهي صلة النفس بالنفس، وهي صلة السكن والقرار، وهي صلة المودة والرحمة، وهي صلة الستر والتجمل.

إن الإنسان ليحس في الألفاظ ذاتها حنوًا ورفقًا، ويستروح من خلالها نداوة وظلًا،

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٧٢.

وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق؛ ذلك في الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها، بما فيها امتداد الحياة بالنسل، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة، ويعترف بطهارتها وجديتها، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها؛ ذلك حين يقول: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار[١].

وأخبر الله تعالى أيضًا في الآية الأخرى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم من أزواجهم أولادًا تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

والحفدة في كلام العرب: جمع حافد، كما أن الكذبة: جمع كاذب، والفسقة: جمع فاسق، والحافد في كلامهم؛ هو المتخفف في الخدمة والعمل، والحفد: خفة العمل، يقال: مر البعير يحفد حفدانًا: إذا مر يسرع في سيره، ومنه قولهم: (إليك نسعى ونحفد)[٢] أي: نسرع إلى العمل بطاعتك، يقال منه: حفد له يحفد حفدًا وحفودًا وحفدانًا[٣].

ومنه قول الراعي[٤]:

كلفت مجهولها نوقًا يمانيةً
إذا الحداة على أكسائها حفدوا

وعلى هذا فالمراد بالحفدة الأولاد، أو هم الأصهار أختان الرجل على بناته، ومنه قول الشاعر[٥]:

ولو أن نفسي طاوعتني لأصبحت
لها حفدٌ مما يعد كثير
ولكنها نفس علي أبية
عيوفٌ لأصهار اللئام قذور

وقد يكون المراد بهم أولاد الأولاد، أو بنو امرأة الرجل من غيره، أو يكون المراد بهم: الأعوان، أو: الخدم، ومنه قول جميل[٦]:

حفد الولائد حولهم وأسلمت
بأكفهن أزمة الأجمال

وذهب بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ إلى أن البنين الصغار، والحفدة الكبار[٧].

وإذا كان معنى الحفدة ما ذكرنا من أنهم

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٩٥.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٢/ ٦١، من دعاء عمر.
وصححه الألباني في إرواء الغليل ٢/ ١٧٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٥٨.
(٤) ديوان الراعي النميري ١/ ٥٢.
(٥) انظر: أخبار أبي القاسم الزجاجي ١/ ٣، نثر الدر ٣/ ٣٠.
(٦) انظر: أمالي المرزوقي ١/ ٦٥، الجليس الصالح والأنيس الناصح ١/ ٣٧١.
(٧) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٠٢.

المسرعون في خدمة الرجل، المتخففون فيها.

وكان الله تعالى أخبرنا أن مما أنعم به علينا أن جعل لنا حفدة تحفد لنا، وكان أولادنا وأزواجنا الذين يصلحون للخدمة منا ومن غيرنا وأختاننا الذين هم أزواج بناتنا من أزواجنا، وخدمنا من مماليكنا إذا كانوا يحفدوننا، فيستحقون اسم حفدة، ولم يكن الله تعالى دل بظاهر تنزيله، ولا على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم؛ ولا بحجة عقل على أنه عنى بذلك نوعًا من الحفدة دون نوع منهم، وكان قد أنعم بكل ذلك علينا، لم يكن لنا أن نوجه ذلك إلى خاص من الحفدة دون عام، إلا ما اجتمعت الأمة عليه أنه غير داخل فيهم. فكل الأقوال التي ذكرنا لها وجه في الصحة، ومخرج في التأويل[1].

وهي أقوال متقاربة؛ لأن اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك.

وبالجملة فإن الحفدة هم غير البنين؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ فجعل بينهما مغايرة[2].

قال الرازي: والأولى دخول الكل فيه؛ لأن اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك[3].

وأطلق الحافد على ابن الابن؛ لأنه يكثر أن يخدم جده؛ لضعف الجد بسبب الكبر، فأنعم الله على الإنسان بحفظ سلسلة نسبه بسبب ضبط الحلقة الأولى منها، وهي كون أبنائه من زوجه، ثم كون أبناء أبنائه من أزواجهم، فانضبطت سلسلة الأنساب بهذا النظام المحكم البديع.

وغير الإنسان من الحيوان لا يشعر بحفدته أصلًا، ولا يشعر بالبنوة إلا أنثى الحيوان مدة قليلة قريبة من الإرضاع، والحفدة للإنسان زيادة في مسرة العائلة.

قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١][4].

ثم قال تعالى في الآية الثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١].

يعني: آدم، وفي ذلك نعمة عليكم؛ لأنه أقرب إلى التعاطف بينكم، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء. وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ أي: من آدم، فالنفس الواحدة: هي آدم، والزوج: حواء، فإن حواء أخرجت من آدم، من ضلعه، كما يقتضيه ظاهر قوله: ﴿مِنْهَا﴾.

وقال بعضهم: معنى: ﴿مِنْهَا﴾ من جنسها، واللفظ يتناول المعنيين، أو يكون لحمها وجواهرها من ضلعه، ونفسها من جنس نفسه.

فإن قيل: إنه تعالى قادر على خلق حواء

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٥٨.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٨٩.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢٤٥.
(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٢١٨.

من التراب، فأي فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم؟ والجواب: أن الأمر لو كان كذلك لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة، وهو خلاف النص، وخلاف ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن ذهبت تقيمها كسرتها)[(١)(٢)].

و(من) في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ تبعيضية، ومعنى التبعيض أن حواء خلقت من جزء من آدم، قيل: من بقية الطينة التي خلق منها آدم، وقيل: فصلت قطعة من ضلعه، وهو ظاهر قوله في الحديث: (خلقت من ضلع). ومن قال: إن المعنى: وخلق زوجها من نوعها لم يأت بطائل؛ لأن ذلك لا يختص بنوع الإنسان، فإن أنثى كل نوع هي من نوعه[(٣)].

وقد شمل قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ العبرة بهذا الخلق العجيب الذي أصله واحد، ويخرج هو مختلف الشكل والخصائص، والمنة على الذكران بخلق النساء لهم، والمنة على النساء بخلق الرجال لهن، ثم من على النوع بنعمة النسل في قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ مع ما في ذلك من الاعتبار بهذا التكوين العجيب.

ومعنى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ البث: النشر والتفريق للأشياء الكثيرة، أي: نشر وأظهر، رجالًا كثيرًا ونساء، كقوله تعالى: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

أي: المنتشر، يعني: خلق منهما يعني من آدم وحواء، ونشر منهما رجالًا كثيرًا ونساء، وذكر هذا كله لبيان القدرة؛ وإظهار المنة.

وحصره ذريتها إلى نوعين الرجال والنساء في قوله: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ مقتضٍ أن الخنثى ليس بنوع مستقل، وأنه وإن فرضناه مشكل في الظاهر فله حقيقة ترده إلى أحد هذين النوعين[(٤)]. ووصف الرجال وهو جمع بـ(كثير) وهو مفرد؛ لأن كثير يستوي فيه المفرد والجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

واستغنى عن وصف النساء بكثير لدلالة وصف الرجل به ما يقتضيه فعل البث من الكثرة[(٥)].

وقد تعرف الله تعالى في هذه الآية إلى العقلاء على كمال القدرة بما ألاح من براهين الربوبية، ودلالات الحكمة حيث خلق جميع هذا الخلق من نسل شخص واحد، على اختلاف هيئتهم، وتفاوت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب خلق آدم، ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ٣٧١٩.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٣٤٠.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٢١٥.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤.
(٥) التحرير والتنوير ٤/ ٢١٧.

صورهم، وتباين أخلاقهم، وإن اثنين منهم لا يتشابهان، فلكل وجه في الصورة والخلق، والهمة والحالة، فسبحان من لا حد لمقدوراته، ولا غاية لمعلوماته[1].

وخلق أشخاص غير محصورة من إنسان واحد مع تغاير أشكالهم، وتباين أمزجتهم، واختلاف أخلاقهم دليل ظاهر، وبرهان باهر على وجود مدبر مختار وحكيم قدير..، فإذا عرفوا ذلك تركوا المفاخرة، وأظهروا التواضع، وحسن الخلق[2].

رابعًا: وصفه بالميثاق الغليظ:

وصف الله عقد النكاح بالميثاق الغليظ في سياق النهي عن الرجوع في شيء مما أعطى الأزواج زوجاتهم، ولو كان المعطى قنطارًا، وبين أن أخذه بهتانًا وإثمًا مبينًا، وبين أن السبب المانع من أخذ شيء منه هو أنه أفضى إليها بالجماع، فقال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠-٢١].

والمعنى: فمتى ﴿أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: تطليق زوجة وتزوج أخرى، أي: فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج. ولكن إذا ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ أي: المفارقة، أو التي تزوجها ﴿قِنطَارًا﴾ أو أقل أو أكثر، أي: من الذهب أو الفضة، مهرًا وصداقًا، والمقصود: مالًا كثيرًا، فلا تأخذوا منه شيئًا. والنهي بعده يدل على عموم ما آتاها، سواء كان مهرًا، أو غيره[3]. والسبب أنه قد صار بينهما من الاختلاط والامتزاج ما لا يناسب أن يأخذ شيئًا مما آتاها، سواء كان المهر أو غير المهر.

فلا يمتنع أن يكون أول الخطاب عمومًا في جميع ما تضمنه الاسم، ويكون المعطوف عليه بحكم خاص فيه، ولا يوجب ذلك خصوص اللفظ الأول. قال أبو بكر الرازي (الجصاص): ويحتج به -أي بهذه الآية- فيمن أسلف امرأته نفقتها لمدة، ثم ماتت قبل المدة أنه لا يرجع في ميراثها بشيء مما أعطاها لعموم اللفظ؛ لأنه جائز أن يريد أن يتزوج بأخرى بعد موتها مستبدلًا بها مكان الأولى، فظاهر اللفظ قد تناول هذه الحالة[4].

وفي الآية دليل على جواز الإصداق بالمال الكثير؛ لأن القنطار: المال الكثير الذي هو أقصى ما يتصور من مهور؛ ولأن الله تعالى لا يمثل إلا بمباح...، وقال قوم:

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٣١٢.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٣٣٩.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٧٧.
(٤) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٤٨.

لا تعطى الآية جواز المغالاة في المهور؛ لأن التمثيل بالقنطار إنما هو على جهة المبالغة كأنه قال: وآتيتم هذا القدر العظيم الذي لا يؤتيه أحد.

فالآية الكريمة وإن كانت تفيد جواز الإصداق بالمال الجزيل إلا أن الأفضل عدم المغالاة في ذلك، مع مراعاة أحوال الناس من حيث الغنى والفقر وغيرهما[1].

وقد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية، وعدم مصلحة تقاوم.

وضمير ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ راجع إلى النساء، وهي المرأة التي يراد طلاقها[2].

ثم قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بل أدوه أي: مباهتين وآثمين، أو بالبهتان والإثم الظاهر، والبهتان: الكذب الذي يبهت المكذوب عليه، فالبهتان كالشكران والغفران مصدر بهته كمنعه، إذا قال عليه ما لم يفعل[3].

والاستفهام في ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ إنكاري، وانتصب ﴿بُهْتَٰنًا﴾ على الحال من الفاعل في (تأخذونه) بتأويله باسم الفاعل، أي: مباهتين، وإنما جعل هذا الأخذ بهتانًا؛ لأنهم كان من عادتهم إذا كرهوا المرأة، وأرادوا طلاقها رموها بسوء المعاشرة، واختلفوا عليها ما ليس فيها؛ لكي تخشى سوء السمعة، فتبذل للزوج مالًا فداء ليطلقها. فصار أخذ المال من المرأة عند الطلاق مظنة بأنها أتت ما لا يرضي الزوج، فقد يصد ذلك الراغبين في التزوج عن خطبتها.

وأما وصفه الإثم بكونه ﴿مُّبِينًا﴾ لأنه قد صار معلومًا للمخاطبين من قوله: ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أو من آية البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أو مما تقرر عندهم من أن حكم الشريعة في الأموال أن لا تحل إلا عن طيب نفس[4].

ثم استعظم ذلك فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ استفهام تعجبي بعد الإنكار، أي: ليس من المروءة أن تطمعوا في أخذ عوض عن الفراق بعد معاشرة امتزاج، وعهد متين[5].

فالمقصود أنه علل النهي من الأخذ بعلتين:

الأولى: الإفضاء وخلوص كل زوج لنفس صاحبه، حتى صارا كأنهما نفس واحدة.

والثانية: الميثاق الغليظ الذي أخذ على الرجال بأن يعاملوا النساء معاملة كريمة.

فقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ

(١) الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٩٠٠.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٩١٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: المصدر السابق.

﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ الواو هنا: للحال، والجملة بعدها: في محل نصب، وأتى بـ(قد)؛ ليقرب الماضي من الحال[1].

وأصل أفضى: ذهب إلى فضاه أي: ناحية سعته، يقال: أفضى فلان إلى فلان أي: وصل إليه، وأصله أنه صار في فضائه وفرجته، وقيل: أصل الإفضاء الوصول إلى الشيء من غير واسطة، والمعنى: خلص الزوج إلى عورة زوجته، والزوجة كذلك.

وهذا الإفضاء يحتمل أنه: كناية عن الجماع، وعلى هذا فالزوج إذا طلق قبل المسيس فله أن يرجع في نصف المهر وإن خلا بها، أو يكون الإفضاء هو الخلوة وإن لم يجامعها، بأن يكون معها في لحاف واحد جامعها أو لم يجامعها؛ لأن الخلوة في الأنكحة الصحيحة تقرر المهر[2].

وقيل: إذا طال مكثه معها السنة ونحوها، واتفقا على ألا مسيس، وطلبت المهر كله كان لها، والظاهر أن المراد بالإفضاء الجماع لوجوه:

أحدها: ما تقدم من المعنى اللغوي للإفضاء: أنه يصير في فرجته وفضائه، وهذا المعنى إنما يحصل في الحقيقة عند الجماع، أما في غير وقت الجماع فهذا غير حاصل.

وثانيها: أنه تعالى ذكر في معرض التعجب، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ والتعجب إنما يتم إذا كان هذا الإفضاء سببًا قويًا في حصول الألفة والمحبة؛ وذلك لا يحصل بمجرد الخلوة، وإنما يحصل بالجماع، فيحمل عليه.

وثالثها: أن الإفضاء إليها لا بد وأن يكون مفسرًا بفعل منه ينتهي إليه؛ لأن كلمة (إلى) لانتهاء الغاية، ومجرد الخلوة ليس كذلك؛ لأن عند الخلوة المحضة لم يصل كل واحد منهما إلى الآخر، فامتنع تفسير قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ بمجرد الخلوة[3].

ورابعها: أن المهر قبل الخلوة ما كان متقررًا، وقد علق الشرع تقريره على إفضاء البعض إلى البعض، وقد اشتبه في المراد بهذا الإفضاء هل هو الخلوة أو الجماع؟ وإذا وقع الشك وجب بقاء ما كان على ما كان، والأصل براءة الذمة[4].

ومما يرجح أن الإفضاء هنا المراد به الجماع: أن الكلام كناية بلا شبهة، والعرب إنما تستعملها فيما يستحى من ذكره كالجماع، والخلوة لا يستحى من ذكرها فلا تحتاج إلى الكناية، و أيضًا في تعدية الإفضاء بـ(إلى) ما يدل على معنى الوصول

(١) اللباب في علوم الكتاب ٥/ ٩١.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣٧١.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٣/ ٤٨٦.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٩٢.

والاتصال، وذلك أنسب بالجماع، ومن ذهب إلى الثاني قال: إنما سميت الخلوة إفضاءً لوصول الرجل بها إلى مكان الوطء، ولا يسلم أن الخلوة لا يستحى من ذكرها[1].

والآية تنهى عن أخذ شيء من الزوجة بعد هذا الإفضاء، أي: على أي حال أو في أي حال تأخذونه، والحال أنه قد جرى بينكم وبينهن أحوال منافية له من الخلوة، وتقرر المهر، وثبوت حق خدمتهن لكم وغير ذلك[2].

والمقصود أن المراد بالميثاق الغليظ في قوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠-٢١].

هو عقد النكاح، وأطلق عليه ذلك لأنه عهد مؤكد، وقد سماه الله في آية أخرى بعقدة النكاح، في قوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَٰبُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

يعني: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة.

أو يكون الميثاق الغليظ هو كلمة النكاح التي يستحل بها الفروج، وهي قول الولي عند العقد: زوجتكها على ما أخذ للنساء على الرجال من إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان. مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وكان يقال للناكح في صدر الإسلام: عليكم لتمسكن بمعروف، أو لتسرحن بإحسان. وقد أشار إليه في حديث: (اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)[3] وقيل: كلمة الله هي التشهد في الخطبة[4].

أو يكون: المراد بالميثاق الغليظ هو: إفضاء بعضهم إلى بعض، وصفه بالغلظة لعظمة ما يحدث بين الزوجين من الاتحاد والألفة والامتزاج[5].

وقال قوم: الميثاق الولد؛ إذ به تتأكد أسباب الحرمة، وتقوى دواعي الألفة، أو هو: ما شرط في العقد من أن على كل واحد منهما تقوى الله، وحسن الصحبة، والمعاشرة بالمعروف، وما جرى مجرى ذلك[6].

ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه، فقد قالوا: صحبة عشرين يومًا قرابة، فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟![7].

والغليظ: صفة مشبهة من (غلظ) -بضم اللام- إذا صلب، والغلظة في الحقيقة

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ٤٨٦.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٥٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٠٠٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٤٥.
(٥) اللباب في علوم الكتاب ٥/ ٩٢.
(٦) البحر المحيط ٤/ ٧٨.
(٧) المصدر السابق.

صلابة الذوات، ثم استعيرت إلى صعوبة المعاني وشدتها في أنواعها.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة: ١٢٣][(١)].

والضمير في قوله: ﴿وَأَخَذۡنَ﴾ للنساء، والآخذ في الحقيقة إنما هو الله تعالى، إلا أنه سبحانه نسبه إليهن؛ للمبالغة في المحافظة على حقوقهن، حتى جعلن كأنهن الآخذات له، قال بعضهم: وهذا الإسناد مجاز عقلي؛ أي: وقد أخذ الله عليكم العهد لأجلهن وبسببهن، فهو مجاز عقلي من الإسناد إلى السبب[(٢)].

وفي هذه الآية فوائد، منها:

- تكريم الإسلام للمرأة، فقد كانت في الجاهلية مهضومة الحق، يعتدى عليها بأنواع من الاعتداء، فرفعها الله تعالى بما شرعه من تعاليم إسلامية من تلك الهوة التي كانت فيها، وقرر لها حقوقها، ونهى عن الاعتداء عليها. ومن مظاهر ذلك أنه حرم أن تكون موروثة كما يورث المال، وكذلك حرم عضلها، وأخذ شيء من صداقها، إلا إذا أتت بفاحشة مبينة، وأمر الرجال بأن يعاشروا النساء بالمعروف، وأن يصبروا على أخطائهن رحمة بهن.
- أن الرجل إذا أراد فراق امرأته فلا يحل له أن يأخذ منها شيئًا، ما دام الفراق بسببه ومن جانبه، كما أنه لا ينبغي له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاه إياها إذا كان الفراق بسببها ومن جانبها[(٣)]. وبيان ذلك: أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها، فإذا دخل بها، وأفضى إليها، وباشرها المباشرة التي كانت حرامًا قبل ذلك، والتي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض، فإنه قد استوفى المعوض فثبت عليه العوض تامًا، فكيف يستوفي المعوض ثم يرجع على العوض؟ لا ريب أن هذا من المنكرات القبيحة شرعًا وعقلًا وفطرةً، وهو من أعظم الظلم والجور؛ ولهذا أخذ الله على الأزواج ميثاقًا غليظًا بالعقد والقيام بحقوقه.

(١) التحرير والتنوير ١/ ٩١٩.
(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٨٩٩.
(٣) انظر: السابق ١/ ٩٠١.

صور من النكاح المحظور

بين القرآن الكريم صور من النكاح محظورة لحكم إلهية ومنافع إنسانية، وسوف نتناولها فيما يأتي:

أولًا: نكاح زوجة الأب:

حرم الله على الابن وإن نزل أن يتزوج زوجة أبيه أو جده وإن علا؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

فقد نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن نكاح المرأة التي نكحها الأب، ولم يبين ما المراد بنكاح الأب، هل هو العقد أو الوطء؟ ولكنه بين في موضع آخر أن اسم النكاح يطلق على العقد وحده، وإن لم يحصل مسيس؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فصرح بأنه نكاح، وأنه لا مسيس فيه.

وقد أجمع العلماء على أن من عقد عليها الأب حرمت على ابنه، وإن لم يمسها الأب، وكذلك عقد الابن محرم على الأب إجماعًا، وإن لم يمسها[1].

وإنما خص هذا النكاح بالنهي، ولم ينظم في سلك نكاح المحرمات الآتية بعدها في الآيات مبالغة في الزجر عنه، حيث كان ذلك ديدنًا لهم في الجاهلية.

وعدل عن أن يقال: لا تنكحوا نساء آبائكم؛ ليدل بلفظ: (نكح) على أن عقد الأب على المرأة كافٍ في حرمة تزوج ابنه إياها[2]. ولفظة: (آباؤكم) في الآية تعم كل من له أبوة، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، وسواء كانت من جهة الأب أو من جهة الأم.

فيحرم أصوله وفصوله، وزوجتهما، يعني: أنه يحرم على الشخص أن يتزوج امرأة تزوجها أحد من آبائه وإن علوا، أو بنيه وإن سفلوا. وإن لم يدخل بها الأب، فالتحريم بمجرد كتابة العقد.

والآية تسمي هذا النكاح: فاحشة ومقتًا وساء سبيلًا، وقد كان زواج الأبناء بزوجات الآباء بعد موتهم فاشيًا في الجاهلية، فانزل الله هذه الآية[3]. وصار نكاح المقت أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها.

والعلة في تحريم زوجات الآباء تكريمًا لهم واحترامًا، ووفاء بحقهم في البر، وعدم انتهاك حرمتهم، ومعنى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا

(١) أضواء البيان ٥/ ٢٠.
وانظر: الإجماع، ابن المنذر ص٢٢.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٩٢٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٠٣.

﴿نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: لكن ما سلف قبل التحريم، فلا جناح عليكم فيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء٢٣].

وقال في الصيد قبل التحريم: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٥٩] الآية[١].

وليس معنى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أنه وافقهم على ما تم قبل ذلك ولا زال ساريًا من نكاح الأبناء لزوجات الآباء، بل أمر الإسلام بفسخه، وإنما المعنى: أنه رفع الجناح عليهم، فلا إثم عليهم قبل التحريم، ولا يؤاخذون به.

قال في الفواكه الدواني: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: ما وقع قبل الإسلام، وفسخه الإسلام، فلا يؤاخذ فاعله به؛ لأنه يغفر بالإسلام؛ لأنه يجب ما قبله.

قال تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والاستثناء في الآية منقطع، والمعنى: لكن ما قد سلف لا إثم فيه[٢].

خاصة ما تعذر تداركه في عهد الجاهلية لموت الزوجين، من حيث إنه يترتب عليه ثبوت أنساب، وحقوق مهور ومواريث، و أيضًا بيان تصحيح أنساب الذين ولدوا من ذلك النكاح، وأن المسلمين انتدبوا للإقلاع عن ذلك اختيارًا منهم[٣].

فإن كان نكاح الأب نكاحًا فاسدًا حرم على الابن العقد عليها أيضًا، كما يحرم بالصحيح؛ فإن زنى رجل بامرأة فالراجح أنه يحرم تزوجها على أولاده لهذه الآية؛ لأن النكاح فيها محمول على الوطء، وقال من أجازه: إن الآية لا تتناوله؛ إذ النكاح فيها بمعنى العقد[٤]. قال ابن المنذر: وأجمعوا على أن الرجل إذا وطئ نكاحًا فاسدًا أنها تحرم على ابنه وأبيه وعلى أجداده، وولد ولده[٥]. يعني: إلى الأبد، ما تناسلوا؛ لهذه الآية الكريمة.

حكم من تزوج زوجة أبيه أو إحدى محارمه:

من تزوج بإحدى محارمه، إما أن يكون جاهلًا بالحرمة، كمن يكون حديث عهد بإسلام، فهذا لا إثم عليه ولا حد، وإما أن يقع على ذوات محارمه عالمًا بالتحريم لكنه غير مستحل، فلا يكفر مع أنه يقتل حدًا، وإما أن يكون مستحلًا له فيقتل ردة، ويخمس ماله لأجل الكفر؛ لحديث أبي بردة بن نيار لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى من تزوج امرأة أبيه، فأمره أن يضرب

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٨٣.
(٢) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ٥/ ١٠٦.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٩٢١.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٤٣.
(٥) الإجماع، ابن المنذر ص٢٢.

عنقه، ويخمس ماله[1]، فإن تخميس المال دال على أنه كان كافرًا لا فاسقًا، وكفره بأنه لم يحرم ما حرم الله ورسوله.

واعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية قرينة تخميس المال في الحديث دليلًا على أنه فعل ذلك مستحلًا، وأنه كان كافرًا[2].

فيحمل هذا الحديث على المستحل، والباقي يبقى على الأصل، وهو معاملته معاملة الزاني بكرًا كان أو ثيبًا، عقد عليها أو زنا بها بدون عقد.

ثانيًا: النكاح المحرم بسبب النسب:

بعد أن ذكر الله تعالى حرمة نكاح ما نكح الآباء بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ [النساء: ٢٢].

ذكر المحرمات بسبب النسب، وغير أسلوب النهي فيه؛ لأن (لا تفعل) نهي عن المضارع الدال على زمن الحال، فيؤذن بالتلبس به، بخلاف (حرمت) فيدل على أن تحريمه أمر مقرر؛ ولذلك قال ابن عباس: «كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم الإسلام إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين».

فمن أجل هذا أيضًا نجد حكم الجمع بين الأختين عبر فيه بلفظ الفعل المضارع، فقال: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣][3].

والمحرمات بسبب النسب: هن النساء اللاتي حرم نكاحهن من هذه الجهة.

والنسب: أن يجتمع إنسان مع آخر في أب أو أم، قرب ذلك أو بعد.

وقد ذكر الله المحرمات من النساء، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣].

فحرم الله تعالى في هذه الآية نكاح أربع عشرة امرأة: سبعًا بنسب، وسبعًا بسبب، فأما النسب: فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فبني الفعل للمجهول للعلم به؛ لأن المحرم والمحلل هو الله، فهو فاعل هذا التحريم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب فيمن تزوج امرأة أبيه، رقم ١٣٦٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الحدود، باب من تزوج امرأة أبيه من بعده، رقم ٢٦٠٧.
وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، رقم ٢٦٠٧، والإرواء، رقم ٢٣٥١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/ ٩٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٩٢١.

وحده.

ومعنى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ المراد: تحريم نكاحهن؛ لقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ [النساء: ٢٢].

ولأن تحريم نكاحهن هو الذي يفهم من تحريمهن، كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها، ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله[١]. ولأن من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن المراد منه تحريم نكاحهن، والأصل فيه أن الحرمة والإباحة إذا أضيفتا إلى الأعيان فالمراد تحريم الفعل المطلوب منها في العرف، فإذا قيل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ فهم كل أحد أن المراد تحريم نكاحهن[٢].

فليس المراد بقوله: ﴿حُرِّمَتْ﴾ تحريم ذاتهن؛ لأن الحرمة لا تتعلق بالذوات، وإنما تتعلق بأفعال المكلفين، فالكلام على حذف مضاف، أي: حرم عليكم نكاح أمهاتكم وبناتكم.

ويدخل في قوله: ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الجدات من جهة الأب أو الأم وإن سفلن. والأم هي: كل امرأةٍ يرجع نسبك إليها بالولادة من جهة أبيك، أو من جهة أمك بدرجة أو درجات، سواء رجعت إليها بذكور، أو بإناث فهي أمك[٣].

ولفظ الأم إن أريد به ههنا الأم الأصلية فتحريم نكاحها هنا مستفادٌ بالنص، وأما تحريم نكاح الجدات فمستفادٌ من الإجماع[٤].

وحرمة الأمهات والبنات كانت ثابتة من زمن آدم عليه السلام إلى زماننا، ولم يثبت حل نكاحهن في شيء من الشرائع الإلهة...، وأما نكاح الأخوات فقد نقل: إنه كان مباحًا في زمن آدم عليه السلام، وإنما أباحه الله للضرورة، وأنكر بعضهم ذلك، وقال: إنه تعالى كان يبعث الجواري من الجنة ليتزوج بهن أبناء آدم عليه السلام، ويبعث أيضًا لبنات آدم من يتزوج بهن من الحور، وهذا بعيد؛ لأنه إذا كان زوجات أبنائه، وأزواج بناته من الجنة فحينئذٍ لا يكون هذا النسل من أولاد آدم فقط، وذلك باطل بالإجماع[٥].

والمراد من (الأمهات) وما عطف عليها الدنيا وما فوقها، وهؤلاء هن المحرمات من النسب، وقد أثبت الله تعالى تحريم من ذكرهن، وقد كن محرمات عند العرب في جاهليتها تأكيدًا لذلك التحريم، وتغلظًا له؛ إذ قد استقر ذلك في الناس من قبل[٦] وقد روى ابن عطية في تفسيره عن ابن عباس: أن المحرمات المذكورات هنا كانت محرمة

(١) الكشاف ١/ ٣٩٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب ٥/ ١٠٣.
(٣) المصدر السابق ٥/ ١٠٤.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التحرير والتنوير ١/ ٩٢١.

في الجاهلية إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين[1].

وذكر العلماء أن سبب تحريم نكاح هؤلاء المذكورات أن الوطء إذلالٌ وإهانةٌ، فإن الإنسان يستحي من ذكره، ولا يقدم عليه إلا في الموضع الخالي، وأكثر أنواع الشتم لا يكون إلا بذكره، وإذا كان الأمر كذلك وجب صون الأمهات عنه؛ لأن إنعام الأم على الولد أعظم وجوه الإنعام؛ فوجب صونها عن هذا الإذلال، والبنت بمنزلة جزء من الإنسان وبعض منه، قال عليه السلام: (فاطمة بضعةٌ مني)[2] فيجب صونها عن هذا الإذلال، وكذا القول في البقية[3].

فشريعة الإسلام قد نوهت ببيان القرابة القريبة، فغرست لها في النفوس وقارًا، ينزه عن شوائب الاستعمال في اللهو والرفث؛ إذ الزواج وإن كان غرضًا صالحًا باعتبار غايته إلا أنه لا يفارق الخاطر الأول الباعث عليه، وهو خاطر اللهو والتلذذ، فوقار الولادة أصلًا وفرعًا مانع من محاولة اللهو بالوالدة أو المولودة؛ ولذلك اتفقت الشرائع على تحريمه، ثم تلاحق ذلك في بنات الأخوة، وبنات الأخوات، وكيف يسري الوقار إلى فروع الأخوات، ولا يثبت للأصل، وكذلك سرى وقار الآباء إلى أخوات الآباء وهن العمات، ووقار الأمهات إلى أخواتهن وهن الخالات، فمرجع تحريم هؤلاء المحرمات إلى قاعدة المروءة التابعة لكلية حفظ العرض من قسم المناسب الضروري، وذلك من أوائل مظاهر الرقي البشري[4].

والصنف الثاني: من المحرمات بسبب النسب البنات؛ قال تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ والبنات: جمع البنت؛ فلفظ البنات شامل للبنات، ولبنات البنات، وبنات بناتهن، وهذا لا نزاع فيه بين العلماء[5].

والبنت: هي كل امرأة لك عليها ولادة، سواء أكانت بنتًا مباشرة أم بواسطة، فتشمل حرمة النكاح البنات وبنات الأبناء وبنات البنات وإن نزلن، وقد انعقد الإجماع على تحريم الفروع من النساء مهما تكن طبقتهن[6].

قال العلماء: فلما حرم الله البنات فحرمت بذلك بنت البنت بإجماع، علم أنها بنت، ووجب أن تدخل في حبس أبيها إذا حبس على ولده، أو عقبه[7].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٩٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنقبة فاطمة عليها السلام، رقم ٣٥١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، رقم ٦٤٦١.
(٣) اللباب في علوم الكتاب ٥/ ١٠٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٩٢١.
(٥) انظر: المصدر السابق ١/ ٩٢٢.
(٦) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٩٠٤.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٧٨.

والمراد بهن: البنات للأصلاب ليس المراد بنات التبني، فإذا تبنيت طفلة وألحقتها بك يحل لك أن تتزوجها، فالتبني لا يحرم، إنما المحرم هنا البنت للصلب.

ويلحق بالبنت هنا مسألةٌ، وهي مسألة البنت المخلوقة من ماء الزاني، يعني رجلٌ زنى بامرأة فولدت له بنتًا، هذه بنت الزنا هل يحل للزاني أن يتزوجها؟ فالجمهور قالوا: بالمنع، فيحرم عليه أن يتزوجها، والإمام الشافعي رحمه الله يرى جواز ذلك[1].

وقد احتج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله للمنع بما حاصله: ليست كل من لا ترث يحل الزواج بها؛ فأمك من الرضاعة لا ترث، ولا يحل لك أن تتزوج بها، وابنتك من الرضاعة لا ترث ولا يحل لك الزواج بها، وأطال النفس في تعقباته على هذا الرأي[2].

وقد قال ابن كثير: «وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ فإنها بنت فتدخل في العموم، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها؛ لأنها ليست بنتًا شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ فإنها لا ترث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية، والله أعلم»[3].

والصنف الثالث: من المحرمات بسبب النسب الأخوات.

قال تعالى: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ يعني: من النسب، من الأوجه الثلاثة، وكذلك الباقيات، فيشمل: الشقيقات، أو لأب، أو لأم.

والأخت: هي عبارة عن كل امرأة شاركتك في أصلك، فتدخل فيه الأخوات من الأب والأم، والأخوات من الأب، والأخوات من الأم.

والرابع والخامس: من المحرمات بسبب النسب العمات والخالات.

قال تعالى: ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ فالعمات والخالات: جمع العمة والخالة، والعمة: كل أنثى وَلَدَها مَنْ وَلَدَ ذكرًا وَلَدَكَ.

ويمكن القول- أن العمة: هي كل امرأة شاركت أباك في أصله، وهن جميع أخوات الأب، وأخوات آبائه، وإن علون، وقد تكون العمة من جهة الأم أيضًا، وهي أخت أبي الأم[4].

والخالة: كل أنثى ولدها من ولد أنثى ولدتك قريبًا أو بعيدًا[5]. ويمكن القول- أن الخالة: هي كل امرأة شاركت الأم في أصلها، فيدخل فيه جميع أخوات الأم

(١) في المجموع ١٦/ ٢٢٢ أن مذهب الشافعي الكراهة.
(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٢/ ١٣٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٤٨.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٦٠.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٦٥.

وأخوات أمهاتها، وقد تكون الخالة من جهة الأب أيضًا، وهي أخت أم الأب[1]. فيكون معنى: ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ أي: أخوات آبائكم وأجدادكم ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ أي: أخوات أمهاتكم وجداتكم[2].

والصنف السادس والسابع: من المحرمات بسبب النسب بنات الأخ وبنات الأخت.

قال تعالى: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ بنات الأخ الشقيق أو للأب، وما تناسل منهم، و(بنات الأخت) فيدخل كل ما تناسل من الأخت الشقيقة، أو للأب، أو للأم.

وهي عبارة عن كل امرأة لأخيك أو لأختك، عليها ولادة يرجع نسبها إلى الأخ أو الأخت، فيدخل فيهن جميع بنات أولاد الأخ والأخت، وإن سفلن[3]. و(ال) في قوله: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ عوض عن المضاف إليه، أي: بنات أخيكم، وبنات أختكم.

فهؤلاء هن المحرمات من النسب، ثم ذكر بعدها المحرمات بسبب الرضاع، والمحرمات بالصهر، فقال تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣].

وسيأتي ذكرهن إن شاء الله.

ثالثًا: النكاح المحرم من الرضاع:

ذكر الله تعالى هنا ما يحرم بسبب الرضاع، فقال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: ٢٣].

فذكر القرآن صنفين، وحرمت السنة من الرضاع كل ما يحرم من النسب، قال صلى الله عليه وسلم: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)[4] فيدخل الأصناف السبعة، وهي الأم من الرضاع، والبنت، والأخت، والعمة، والخالة، وبنت الأخ، وبنت الأخت[5]. فكل أنثى انتسبت باللبن إليها فهي أمك، وبنتها أختك، وإنما نص الله على ذكر الأم والأخت ليدل بذلك

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٦٠.
(٢) تفسير الجلالين ١/ ١٠٢.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٦٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت القديم، رقم ٣١٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، رقم ١٤٤٤.
(٥) البحر المديد ١/ ٤١١.

على جميع الأصول والفروع، فنبه بذلك أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب[1].

وفي قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ سمى المراضع أمهات؛ جريًا على لغة العرب، وما هن بأمهات حقيقة، ولكنهن تنزلن منزلة الأمهات؛ لأن بلبانهن تغذت الأطفال؛ ولما في فطرة الأطفال من محبة لمرضعاتهم محبة أمهاتهم الوالدات؛ ولزيادة تقرير هذا الإطلاق الذي اعتبره العرب، ثم ألحق ذلك بقوله: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾؛ دفعًا لتوهم أن المراد أمهات النسب؛ إذ لولا قصد إرادة المرضعات لما كان لهذا الوصف جدوى.

وقد أجملت هنا صفة الإرضاع ومدته وعدده إيكالًا للناس إلى متعارفهم، وملاك القول في ذلك: أن الرضاع إنما اعتبرت له هذه الحرمة لمعنى فيه، وهو أنه الغذاء الذي لا غذاء للطفل يعيش به، فكان له من الأثر في دوام حياة الطفل ما يماثل أثر الأم في أصل حياة طفلها، فلا يعتبر الرضاع سببًا في حرمة المرضع على رضيعها إلا ما استوفى هذا المعنى من حصول تغذية الطفل، وهو ما كان في مدة عدم استغناء الطفل عنه؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إنما الرضاعة من المجاعة)**[2][3].

ولما حرم الله تعالى الأم من الرضاعة من غير تعرض لما به يحصل الرضاع من مقدار الرضاع ومدته، فيكون التعلق بهذه الآية في إثبات التحريم بالرضعة الواحدة تعلق بالعموم الذي سيق لغرض آخر غير غرض التعميم[4]. فالصحيح من أقوال أهل العلم أن عدد الرضعات المحرمة خمس رضعات؛ لما ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، قالت: **(كان فيما أنزل الله من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله صلى لله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن)**[5].

ولا يصح الاستدلال بعموم الآية على أنه يحرم مجرد الرضاع، كما ذهب إليه البعض.

فمن رضع من امرأة خمس رضعات، وهو في سن الحولين تحرم عليه، ويحرم عليه أمهاتها، وبناتها، وأخواتها، وكذا بنات زوجها، وأمهاته[6].

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت القديم، رقم ٢٥٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب إنما الرضاعة من المجاعة، رقم ١٤٥٥.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٩٢١.

(٤) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ٨٦.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، رقم ٣٦٧٠.

(٦) أيسر التفاسير ١/ ٤٥٦.

لأن الله أنزل المرضعة منزلة النسب، حتى سمى المرضعة أما، والمرضعة أختًا، وأمرها على قياس النسب، باعتبار المرضعة والدة الطفل الذي در عليه اللبن[1].

وقد قال بعض الفقهاء: كما يحرم بالنسب يحرم بالرضاع إلا في أربع صور، أو ست صور، مذكورة في كتب الفروع، والتحقيق أنه لا يستثنى شيء من ذلك؛ لأنه يوجد مثل بعضها في النسب، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر، فلا يرد على الحديث شيء أصلًا ألبتة.

ومما يلحق بهذه المسالة لبن الفحل، وهو أن يتزوج المرأة فتلد منه ولدًا، ويدر لها لبنًا بعد ولادتها منه، فترضع منه صبيًا، فأكثر العلماء على أن لبن هذا الفحل يحرم هذا الصبي على أولاد الرجل، وإن كانوا من غيرها، ومن لا يعتبر لا يوجب تحريمًا بينه وبين أولاده من غيرها. قال ابن كثير: واختلفوا؛ هل يحرم لبن الفحل كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو لبعض السلف؟ على قولين، تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير[2].

رابعًا: النكاح المحرم بسبب المصاهرة:

ثم ذكر الله تعالى بعد ذلك ما يحرم بالمصاهرة، فقال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّۖ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٣].

فهؤلاء المذكورات إلى قوله: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ هن المحرمات بسبب الصهر، ولم يكونوا أهل الجاهلية يحرمون شيئًا منها، كيف وقد أباحوا أزواج الآباء، وهن أعظم حرمة من جميع نساء الصهر، فكيف يظن أنهم يحرمون أمهات النساء والربائب؟!

وقد أشيع أن النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يتزوج درة بنت أبي سلمة وهي ربيبته؛ إذ هي بنت أم سلمة، فسألته إحدى أمهات المؤمنين، فقال: (لو لم تكن ربيبتي لما حلت لي إنها ابنة أخي من الرضاعة؛ أرضعتني وأبا سلمة ثويبة)[3] وكذلك

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٦٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٤٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب المراضع من المواليات وغيرهن، رقم ٥٠٥٧.

حلائل الأبناء؛ إذ هن أبعد من حلائل الآباء، فكأن هذا من تحريم الإسلام، وأن ما حكى ابن عطية عن ابن عباس من قوله: «كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم الإسلام إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين»[1] ليس على إطلاقه.

والحكمة من تحريم هؤلاء تسهيل الخلطة، وقطع الغيرة بين قريب القرابة، حتى لا تفضي إلى حزازات وعداوات، قال الفخر: «من تزوج بامرأة، فلو لم يدخل على المرأة أب الرجل وابنه، ولم تدخل على الرجل أم المرأة وبنتها لبقيت المرأة كالمحبوسة في البيت، ولتعطل على الزوج والزوجة أكثر المصالح، ولو أذنا في هذا الدخول ولم نحكم بالمحرمية فربما امتد عين البعض إلى البعض، وحصل الميل والرغبة، وعند حصول التزوج بأمها أو ابنتها تحصل النفرة الشديدة بينهن؛ لأن صدور الإيذاء عن الأقارب أقوى وقعًا وأشد إيلامًا وتأثيرًا، وعند حصول النفرة الشديدة يحصل التطليق والفراق، أما إذا حصلت المحرمية انقطعت الأطماع، وانحبست الشهوة، فلا يحصل ذلك الضرر، فبقي النكاح بين الزوجين سليمًا عن هذه المفسدة».[2] وعليه فيكون تحريم هؤلاء من قسم الحاجي.

وقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ أي: سواء دخلتم بنسائكم أم لم تدخلوا بهن، فأم امرأة الرجل محرمة عليه بمجرد أن يعقد على بنتها تصبح أمها حرامًا. ولهذا قال الفقهاء قاعدة ذهبية، وهي: العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات.

وسبب التفرقة أن الإنسان يحب ابنه أو بنته كنفسه بعكس حب الأصل، فلا تتألم الأم لو عقد على بنتها بعد العقد عليها[3].

والقيد في قوله: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ معتبر إجماعًا، فلو عقد على المرأة ولم يدخل بها فله طلاقها، ويأخذ ابنتها؛ ولذلك قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تنكحوهن.

وممن يحرم على الرجل بسبب المصاهرة الربيبة.

قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ والربائب: جمع ربيبة، وهي فعيلة بمعنى: مفعولة، من ربه إذا كفله ودبر شئونه، فزوج الأم راب، وابنتها مربوبة له؛ لذلك قيل لها: ربيبة.

والحجور: جمع حجر -بفتح الحاء وكسرها مع سكون الجيم-، وهو ما

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٩٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٢٩.
(٣) الفقه الإسلامي وأدلته ٩/ ١٢٣.

يحويه مجتمع الرجلين للجالس المتربع، والمراد به هنا معنى مجازي، وهو الحضانة والكفالة؛ لأن أول كفالة الطفل تكون بوضعه في الحجر، كما سميت حضانة؛ لأن أولها وضع الطفل في الحضن[1].

وظاهر الآية أن الربيبة لا تحرم على زوج أمها إلا إذا كانت في كفالته؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ وصف والأصل فيه إرادة التقييد، كما أريد من قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ فظاهر هذا أنها لو كانت بعيدة عن حضانته لم تحرم، إلا أن هذا الظاهر غير مراد، والقيد لا مفهوم له؛ لأنه جرى مجرى الغالب، فهي محرمة كانت في حجره أم لا، على قول الجمهور.

والذين أخذوا بظاهر الآية كالظاهرية كأنهم نظروا إلى أن علة تحريمها مركبة من كونها ربيبة، وما حدث من الوقار بينها وبين حاجزها إذا كانت في حجره.

وأما جمهور أهل العلم فجعلوا هذا الوصف بيانًا للواقع، خارجًا مخرج الغالب، وجعلوا الربيبة حرامًا على زوج أمها، ولو لم تكن هي في حجره، وكأن الذي دعاهم إلى ذلك هو النظر إلى علة تحريم المحرمات بالصهر[2].

وممن يحرم على الرجل بسبب المصاهرة حليلة الابن.

قال تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ وهي التي عقد عليها الابن فحلت له، فتحرم على الأب بمجرد العقد، والحاصل: أن زوجة الأب وزوجة الابن وأم الزوجة يحرمن بالعقد، وأما بنت المرأة فلا تحرم إلا بالدخول بأمها، فالعقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات كما سبق ذكره.

والعدول عن أن يقال: (وما نكح أبناؤكم) أو (ونساء أبنائكم) إلى قوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾ تفنن لتجنب تكرير أحد اللفظيين السابقين، وإلا فلا فرق في الإطلاق بين الألفاظ الثلاثة، وقد سمي الزوج أيضًا بالحليل، وهو يحتمل الوجهين كذلك، وتحريم حليلة الابن واضح العلة كتحريم حليلة الأب[3].

والقيد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣].

احترز به من زوجة المتبني فلا تحرم حليلته، كقضية زيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[4]. فيكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ تأكيد لمعنى الأبناء لدفع احتمال المجاز؛ إذ كانت العرب تسمي المتبني ابنًا، وتجعل له ما للابن حتى أبطل

(١) التحرير والتنوير ١/ ٩٢٤.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) البحر المديد ١/ ٤١١.

الإسلام ذلك، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

فما دعي أحد لمتبنيه بعد إلا المقداد بن الأسود وعدت خصوصية، وأكد الله ذلك بالتشريع الفعلي بالإذن لرسوله صلى الله عليه وسلم بتزوج زينب ابنة جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذي كان تبناه، وكان يدعى زيد بن محمد. وابن الابن وابن البنت وإن سفلا أبناء من الأصلاب؛ لأن للجد عليهم ولادة لا محالة[1].

وحرم الله كذلك الجمع في وقت واحد بين الأختين بنسب أو رضاع؛ لقوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣].

سواء كن شقيقتين، أو للأب، أو للأم.

والحكمة في تحريم الجمع بين الأختين دفع الغيرة عمن يريد الشرع بقاء تمام المودة بينهما، وقد علم أن المراد الجمع بينهما فيما فيه غيرة، وهو النكاح أصالة، ويلحق به الجمع بينهما في التسري بملك اليمين؛ إذ العلة واحدة. فإن تسرى بإحدى الأختين ثم أراد التسري بالأخرى وقف حتى يحرم الأولى بما تحرم به من بيع أو كتابة أو عتق، ولا يحد إذا جمع بينهما[2].

وقالت الظاهرية: يجوز الجمع بين الأختين في التسري؛ لأن الآية واردة في أحكام النكاح، أما الجمع بين الأختين في مجرد الملك فلا حظر فيه[3].

فيكون هذا الحكم عندهم في النكاح، وأما في الملك دون الوطء فلا بأس. وروي عن عثمان بن عفان: أنه سئل عن الجمع بين الأختين في التسري، فقال: «أحلتهما آية» يعني: قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

«وحرمتهما آية»، يعني: هذه الآية، أي: إنه متوقف، وروي مثله عن علي ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ رضي الله عنه.

وكما حرم الجمع بين الأختين كذلك حرم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، كما جاء في السنة[4]. وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: في الجاهلية، فقد عفا عنكم. انتهى ذكر أنواع المحرمات من النساء في هذه الآية.

واعلم أن الله تعالى وضع هذا التحريم على ترتيب عجيب، فحرم أولًا أصول الإنسان عليه وفصوله، وفصول أصوله الأولى بلا نهاية، وحرم فصول فصوله بلا نهاية، وحرم أول فصول كل أصل ليس

(١) التحرير والتنوير ١/ ٩٢٤.
(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ٩٢٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، رقم ٤٨٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح، رقم ١٤٠٨.

قبله أصل إلى غير نهاية، وهو أولاد الإخوة والأخوات، وحرم أول فصل من كل أصل قبله أصل آخر بينه وبين الناكح، وهو أولاد الجد وأبو الجد، فإن التحريم مقصور، وابنة الخال، على أول فصل، فابنة العم، وابنة العمة، وابنة الخالة حلال، ثم قال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣].

فحرم من الرضاع ما حرم من النسب، غير أن في الرضاع لم يذكر بنات الأخ والعمات والخالات من الرضاعة، ودل على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)[(١)(٢)].

خامسًا: نكاح الزاني أو الزانية:

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة، لا ترى حرمة ذلك، وكذلك: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾ [النور: ٣].

أي: عاصٍ بزناه، ﴿أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾ لا يعتقد تحريمه، فقال: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

وسبب نزول هذه الآية ما رواه أبو داود والترمذي وصححه: (أنه كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد الغنوي من المسلمين، كان يخرج من المدينة إلى مكة يحمل الأسرى، فيأتي بهم إلى المدينة، وكانت امرأة بغي بمكة، يقال لها: عناق، وكانت خليلة له، وأنه كان وعد رجلًا من أسارى مكة ليحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق، فقالت: مرثدا! قلت: مرثد، قالت: مرحبًا وأهلًا، هلم فبت عندنا الليلة، قال: فقلت: حرم الله الزنا، فقالت عناق: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، فتبعني ثمانية من المشركين، إلى أن قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته، ففككت كبله، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله، فقلت: يا رسول الله أنكح عناق؟ فأمسك رسول الله، فلم يرد علي شيئًا حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٣]. فقال رسول الله: (يا مرثد لا تنكحها)[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت القديم، رقم ٣١٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، رقم ١٤٤٤.

(٢) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٢/ ٨٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النور، ٥/ ٣٢٨، ٣١٧٧.
وصححه الألباني في غاية المرام في تخريج

وقوله في الآية: ﴿ٱلزَّانِي﴾ يقال: زاني بصيغة المفاعلة؛ لأن الفعل حاصل من فاعلين؛ ولذلك جاء مصدره الزناء بالمد أيضًا بوزن الفعال، ويخفف همزه فيصير اسمًا مقصورًا، وأكثر ما كان في الجاهلية أن يكون بداعي المحبة والموافقة بين الرجل والمرأة دون عوض، فإن كان بعوض فهو البغاء يكون في الحرائر ويغلب في الإماء، وكانوا يجهرون به، فكانت البغايا يجعلن رايات على بيوتهن مثل راية البيطار؛ ليعرفن بذلك، وكل ذلك يشمله اسم الزنا في اصطلاح القرآن، وفي الحكم الشرعي[1].

وهل المراد بالنكاح في قوله: ﴿لَا يَنكِحُ﴾ الوطء أو التزويج؟ الظاهر أن معنى (ينكح) هنا في الآية بمعنى: الوطء الذي هو الفعل لا العقد. ومع هذا قد نرى أن الزاني قد ينكح المؤمنة العفيفة، والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف[2].

وعليه فالمراد بالآية -والله أعلم-: أن الزاني لا يطاوعه على فعله ويشاركه في مراده إلا زانية مثله، أو مشركة لا ترى حرمة الزنا، فيكون المقصود منها تشنيع الزنا، وتشنيع أهله، وأنه محرم على المؤمنين، ويكون معنى ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ﴾ الوطء لا العقد أي: الزاني لا يزني إلا بزانية، والزانية لا تزني إلا بزانٍ، وزاد ذكر المشركة والمشرك؛ لكون الشرك أعم في المعاصي من الزنا.

وهذا الذي عليه الجمهور، وهو رأي الحافظ ابن كثير[3] وغيره من العلماء رحمهم الله تعالى؛ إذ الغالب أن المائل إلى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح، والمسافحة لا يرغب فيها الصلحاء، فإن المشاكلة علة للألفة والتضام، والمخالفة سبب للنفرة والافتراق، وكان من حق المقابلة أن يقال: والزانية لا تنكح إلا من هو زانٍ أو مشرك، لكن المراد بيان أحوال الرجال في الرغبة فيهن؛ لأن الآية نزلت في ضعفة المهاجرين لما هموا أن يتزوجوا بغايا يكرين أنفسهن؛ لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية؛ ولذلك قدم الزاني.

وقال: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنه تشبه بالفساق، وتعرض للتهمة، وتسبب لسوء القالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد؛ ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة[4].

ورد هذا الزجاج وقال: لا يعرف النكاح في كتاب الله إلا بمعنى: العقد، ويرد عليه: بأن النكاح بمعنى: الوطء ثابت في كتاب الله سبحانه أيضًا، ومنه قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ

أحاديث الحلال والحرام ٢٢٣.

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٨٦٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٤٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٩.

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٧٣.

﴿زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

فقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم بأن المراد به: الوطء[١].

ووافق الزجاج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث ذهب إلى أن النكاح هنا في هذه الآية المراد به: الزواج، وعلل ذلك بقوله: إن قول القائل: الزاني لا يطأ إلا زانية، أو الزانية لا يطؤها إلا زان، كقوله: الآكل لا يأكل إلا مأكولًا، والمأكول لا يأكله إلا آكل، والزوج لا يتزوج إلا بزوجة، والزوجة لا يتزوجها إلا زوج، وهذا كلام ينزه عنه كلام الله[٢].

ومما يدل على أن النكاح في هذه الآية بمعنى: الوطء أمور، منها:

- أن هذه تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، حيث قال: ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زان أو مشرك. وهذا إسناد صحيح عنه، ذكر ذلك ابن كثير[٣] وذكر صحته عن ابن عباس الذي دعا له النبي صلى الله عليه وسلم الله أن يعلمه تأويل القرآن، وعزاه لمن ذكر معه من أجلاء المفسرين، وابن عباس رضي الله عنهما من أعلم الصحابة بتفسير القرآن العظيم، ولا شك في علمه باللغة العربية.
- أن القول بأن النكاح في هذه الآية الكريمة هو الجماع لا العقد جارٍ على الأسلوب العربي الفصيح، فدعوى أن هذا التفسير لا يصح في العربية، وأنه قبيح، يرده قول البحر ابن عباس، كما ترى.
- أن إنكار الزجاج -ومن وافقه- لهذا القول في هذه الآية -أعني القول بأن النكاح فيها الجماع- وقوله: إن النكاح لا يعرف في القرآن إلا بمعنى: العقد مردود من وجهين:

الأول: أن القرآن جاء فيه النكاح بمعنى: الوطء، وذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[البقرة: ٢٣٠].

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ بأن معنى نكاحها له: مجامعته لها، حيث قال: (لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك)[٤] ومراده بذوق العسيلة: الجماع كما هو معلوم.

الوجه الثاني: أن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم يطلقون النكاح على الوطء، قال

(١) فتح القدير ٤/ ٨.
(٢) الفتاوى الكبرى ٣/ ١٧٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب إذا طلقها ثلاثًا ثم تزوجت بعد العدة زوجًا غيره فلم يمسها، رقم ٥٠١١، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثًا لمطلقها حتى تنكح زوجًا، رقم ٣٥٩٩.

الجوهري في صحاحه: النكاح الوطء، وقد يكون العقد[1].

وأما قول ابن القيم: «إن حمل الزنا في الآية على الوطء ينبغي أن يصان عن مثله كتاب الله»[2]. فيرده أن ابن عباس وهو في المعرفة باللغة العربية، وبمعاني القرآن صح عنه حمل الزنا في الآية على الوطء، ولو كان ذلك ينبغي أن يصان عن مثله كتاب الله لصانه عنه ابن عباس، ولم يقل به، ولم يخف عليه أنه ينبغي أن يصان عن مثله[3].

قال الشنقيطي بعد الكلام على هذه الآية: «وهذه الآية الكريمة من أصعب الآيات تحقيقًا؛ لأن حمل النكاح فيها على التزويج لا يلائم ذكر المشركة والمشرك، وحمل النكاح فيها على الوطء لا يلائم الأحاديث الواردة المتعلقة بالآية، فإنها تعين أن المراد بالنكاح في الآية: التزويج، ولا أعلم مخرجًا واضحًا من الإشكال في هذه الآية إلا مع بعض تعسف، وهو أن أصح الأقوال عند الأصوليين كما حرره أبو العباس بن تيمية في رسالته في علوم القرآن، وعزاه لأجلاء علماء المذاهب الأربعة هو جواز حمل المشترك على معنييه أو معانيه، فيجوز أن تقول: عدا اللصوص البارحة على عين زيد، وتعني بذلك أنهم عوروا عينه الباصرة، وغوروا عينه الجارية، وسرقوا عينه التي هي ذهبه أو فضته.

وإذا علمت ذلك، فاعلم أن النكاح مشترك بين الوطء والتزويج، خلافًا لمن زعم أنه حقيقة في أحدهما، مجاز في الآخر وإذا جاز حمل المشترك على معنييه فيحمل النكاح في الآية على الوطء، وعلى التزويج معًا، ويكون ذكر المشركة والمشرك على تفسير النكاح بالوطء دون العقد، وهذا هو نوع التعسف الذي أشرنا له، والعلم عند الله تعالى»[4].

سادسًا: نكاح المشرك والمشركة:

كان المسلمون ما يزالون مختلطين مع المشركين بالمدينة، وما هم ببعيد عن أقربائهم من أهل مكة، فربما رغب بعضهم في تزوج المشركات، أو رغب بعض المشركين في تزوج نساء مسلمات، فبين الله الحكم في هذه الأحوال، وقد أوقع هذا البيان بحكمته في أرشق موقع وأسعده به، وهو موقع تعقيب حكم مخالطة اليتامى، فإن للمسلمين يومئذٍ أقارب وموالي لم يزالوا مشركين، ومنهم يتامى فقدوا آباءهم في يوم بدر وما بعده، فلما ذكر الله بيان مخالطة اليتامى، وكانت المصاهرة من أعظم أحوال المخالطة تطلعت النفوس إلى حكم هذه

(١) الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٣٦.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٦٥.
(٣) انظر: أضواء البيان ٢/ ١١٨ بتصرف.
(٤) المصدر السابق.

المصاهرة بالنسبة للمشركات والمشركين، فعطف حكم ذلك على حكم اليتامى لهذه المناسبة[1].

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وسبب نزول هذه الآية قصة أبي مرثد الغنوي السابقة الذكر[2].

ففي هذه الآية حرم الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مرادًا وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥].

وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول[3].

ومعنى قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ لا تتزوجوا المشركات، وقرئ بضم التاء، أي: لا تتزوجوهن، أو لا تزوجوهن[4].

والمراد بالنكاح: التزويج، وهو حقيقة في اللغة، وإن كان مجازًا في الوطء[5].

واستعير للجماع بدلالة أن عامة أسماء الجماع كنايات، وأنهم يتحاشون النكاح من التصريح بذكر الجماع وآلاته، كما يتحاشون من إظهاره حتى سموا ذلك العضو: (السوءة).

و﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ جمع مشركة؛ والمشركة أو المشرك هو من جعل لله شريكًا فيما يختص به، سواء كان ذلك في الربوبية، أو في الألوهية، أو في الأسماء والصفات؛ فمن اتخذ إلهًا يعبده فهو مشرك -ولو آمن بأن الله خالق للكون-؛ ومن اعتقد أن مع الله خالقًا للكون، أو منفردًا بشيء في الكون، أو معينًا لله تعالى في خلق شيء من الكون فهو مشرك[6].

فالمشرك في لسان الشرع من يدين بتعدد آلهة مع الله سبحانه، والمراد به في مواضعه من القرآن مشركو العرب الذين عبدوا آلهة أخرى مع الله تعالى، ويقابلهم في تقسيم الكفار أهل الكتاب، وهم الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه، ولكنهم أنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم[7].

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٦١٨.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٥٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٨٢.
(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٦٤.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٨١.
(٦) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٥/ ٥٩.
(٧) التحرير والتنوير ١/ ٦١٩.

فإن قال قائل: من أين يقال لمن كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم مشرك وإن قال: إن الله عز وجل واحد؟ فالجواب: أنه إذا كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد زعم أن ما أتى به من القرآن من عند غير الله جل وعلا والقرآن إنما هو من عند الله عز وجل؛ لأنه يعجز المخلوقين أن يأتوا بمثله، فقد زعم أنه قد أتى غير الله بما لا يأتي به إلا الله عز وجل فقد أشرك به غيره[1].

وإن قال قائل: فكيف نجمع بين قوله هنا: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وبين قوله في الآية الأخرى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]؟

فالجواب: أن الآيتين لا تعارض بينهما، فإن ظاهر لفظ الشرك لا يتناول أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ففرق بينهم في اللفظ، وظاهر العطف يقتضي مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، و أيضًا فاسم الشرك عموم وليس بنص.

فالشرك المطلق في القرآن لا يدخل فيه أهل الكتاب؛ وإنما يدخلون في الشرك المقيد.

قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١].

فجعل المشركين قسمًا غير أهل الكتاب، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧].

فجعلهم قسمًا غيرهم.

فأما دخولهم في المقيد، ففي قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فوصفهم بأنهم مشركون.

وسبب هذا أن أصل دينهم الذي أنزل الله به الكتب، وأرسل به الرسل ليس فيه شرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولكنهم بدلوا وغيروا، فابتدعوا من الشرك ما لم ينزل الله به سلطانًا، فصار فيهم شرك باعتبار ما ابتدعوا؛ لا باعتبار أصل الدين.

فيكون في قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ تحريم لتزويج المسلمة من المشرك، فإن كان المشرك محمولًا على ظاهره في لسان الشرع، فالآية لم تتعرض

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٩٥.

لحكم تزويج المسلمة من الكافر الكتابي، فيكون دليل تحريم ذلك الإجماع، وهو إما مستند إلى دليل تلقاه الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم وتواتر بينهم، وإما مستند إلى تضافر الأدلة الشرعية، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فعلق النهي بالكفر، وهو أعم من الشرك، وإن كان المراد حينئذٍ المشركين[(١)].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ غاية للنهي، فإذا آمن زال النهي؛ ولذلك إذا أسلم المشرك ولم تسلم زوجته تبين منه، إلا إذا أسلمت عقب إسلامه بدون تأخير[(٢)].

والمعنى: أي: يدخلن في دين الله؛ ودخولهن في دين الله يلزم منه التوحيد.

فالحاصل أن التزويج بين الكفار والمسلمين ممنوع في جميع الصور إلا صورة واحدة، وهي تزوج الرجل المسلم بالمرأة المحصنة الكتابية، والنصوص الدالة على ذلك قرآنية كما رأيت.

والحكمة من تحريم نكاح كل كافرة تحقيق أمرين:

الأمر الأول: المفاصلة بين عباد الله المؤمنين، وأعدائهم الكافرين، في تكوين نواة الأمة، وهي الأسرة؛ لأن النواة الفاسدة تثمر نباتًا فاسدًا.

الأمر الثاني: تأكيد الولاء بين المسلمين، وتقويته في أساس الأمة، وهي الأسرة.

ولا يشكل على هذا جواز نكاح الكتابيات؛ لأنه لا ضرر على المسلم في نكاح الكتابية، فجانب الضرر على عقيدة المسلم مأمون، مع ما فيه من مصلحة للطرف الآخر، وذلك أن يبعد الكتابيات عن ملة الكفر، ويمنعهن من إظهار الكفر في بيوت أزواجهن، ويفرض عليهن إسلام الأبناء والبنات من الأزواج المسلمين، مع ما أوجبه الله على الأزواج المسلمين من إحسان عشرتهن، ومعاملتهن بالمعروف، فيكون هذا وسيلة لاستدراجهن وأقربائهن إلى الإسلام.

ومن الحكم أيضًا في تخصيص حل نكاح نساء أهل الكتاب دون غيرهم من الكفار إيجاد أرضية مشتركة بيننا وبينهم من الإيمان بالله وبرسله وكتبه على وجه الإجمال، فكان هذا عاملًا محفزًا لدعوتهم؛ ليبين لهم الهدى فيما ضلوا فيه.

ومع هذا فمنهم من فرق بين الزواج من الكتابية في دار الإسلام ودار الحرب، فأجازه في الأول، ولم يجزه في الثاني؛ لأن الزوجة الكتابية في بلاد الحرب تكون أكثر تمسكًا بدينها، وأخلاقها وعاداتها، وأقل ميلًا إلى دين زوجها، وأخلاقه، بل إنه ليخشى على

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٦٢٠.
(٢) المصدر السابق ١/ ٦١٩.

زوجها المسلم أن يتأثر بمحيط الكفر الذي يعيش فيه، ويخشى أكثر على ذريته من التدين بدين أمهم التي تربيهم عليه.

فقد ذكر القرطبي رحمه الله: أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن نكاح أهل الكتاب إذا كانوا حربًا؟ فقال: «لا يحل، وتلا قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

قال المتحدث: حدثت بذلك إبراهيم النخعي فأعجبه -يعني: أن إبراهيم يقول بالتحريم-، وكره مالك تزوج الحربيات، لعلة ترك الولد في دار الحرب؛ ولتصرفها في الخمر والخنزير»[(١)].

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والنكاح يجلب المودة؛ لقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١].

وقد نهانا عن مودتهم، فيجب ألا نواصلهم؟!

والجواب: قيل: المودة المنهي عنها هي الدينية لا المودة النفعية أو الشهوية، فإنا إذا أوددناهم لنفع ما، فإنما نود النفع كمودتنا لذمي يعيننا على مدافعة المشركين، فقوله: ﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ عنى بها المودة الدينية[(٢)].

وقد أشارت الآية إلى وجه الحكمة في تحريم زواج المسلمة من الكافر حتى يسلم؛ لأن في إنكاح المؤمنة الكافر خوف وقوع المؤمنة في الكفر؛ لأن الزوج يدعوها إلى دينه، والنساء في العادات يتبعن الرجال فيما يؤثرون من الأفعال، ويقلدونهم في الدين، وإليه وقعت الإشارة في آخر الآية بقوله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ لأنهم يدعون المؤمنات إلى الكفر، والدعاء إلى الكفر دعاء إلى النار؛ لأن الكفر يوجب النار، فكان نكاح الكافر المسلمة سببًا داعيًا إلى الحرام، فكان حرامًا.

وحرمة زواج المسلمة بغير المسلم -من كتابي أو مشرك- مبنية على أن الزوج له القوامة على المرأة، والتوجيه للحياة الأسرية، وأن أولاده منها ينسبون إليه، وينشئون على دينه، ويتبعونه في الأحكام قبل سن التكليف، وهذا إجحاف بالزوجة، والذرية، بخلاف زواج المسلم من كتابية؛ فالإسلام يضمن لها حرية البقاء على دينها، لكن أولاده منها يحكم لهم بالإسلام.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٦٩.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٥٤.

كما أن الكتابية حين تقترن بمسلم تقترن بزوج يؤمن بنبيها، وسائر أنبياء الله، ولا يفرق بين أحد منهم، في حين أن الكتابي من يهودي أو نصراني لا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه خاتم الأنبياء، فكيف يسوغ أن يجمعه عقد واحد، ويظله سقف واحد مع مسلمة؟!

وقوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ أي: امرأة مؤمنة حرة؛ لأن سبب نزولها العيب على من تزوج أمة، وترغيبه في نكاح حرة مشركة ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ هذه الجملة تعليل للنهي عن نكاح المشركات، مؤكدة بلام الابتداء؛ وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أطلق الخيرية؛ ليعم كل ما كان مطلوبًا في المرأة.

ووقع في الكشاف: حمل الأمة على مطلق المرأة؛ لأن الناس كلهم إماء الله وعبيده[1]، وهذا باطل من جهة المعنى، ومن جهة اللفظ، أما المعنى: فلأنه يصير تكرارًا مع قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾؛ إذ قد علم الناس أن المشركة دون المؤمنة، وبقيت المقصود من التنبيه على شرف أقل أفراد أحد الصنفين على أشرف أفراد الصنف الآخر.

وأما من جهة اللفظ: فلأنه لم يرد في كلام العرب إطلاق الأمة على مطلق المرأة، ولا إطلاق العبد على الرجل إلا مقيدين بالإضافة إلى اسم الجلالة في قولهم: يا عبد الله، ويا أمة الله، وكون الناس إماء الله وعبيده إنما هو نظر للحقائق، لا للاستعمال، فكيف يخرج القرآن عليه[2].

وجملة: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ تعليل لما سبق؛ والمشار إليه فيها أهل الشرك، أي: يدعون الناس إلى النار بأقوالهم وأفعالهم وأموالهم؛ حتى إنهم يبنون المدارس والمستشفيات، ويلاطفون الناس في معاملتهم خداعًا ومكرًا؛ ولكن قد بين الله نتيجة عملهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقيل: معناه يدعون إلى ترك المحاربة والقتال، وفي تركهما وجوب استحقاق النار.

وقيل: المعنى أن الولد الذي يحدث ربما دعاه الكافر إلى الكفر فيوافق، فيكون من أهل النار، والذي يدل عليه ظاهر الآية: أن الكفار يدعون إلى النار قطعًا، إما بالقول، وإما أن تؤدي إليه الخلطة والتآلف والتناكح، والمعنى: أن من كان داعيًا إلى النار يجب اجتنابه لئلا يستميل بدعائه معاشره فيجيبه إلى ما دعاه فيهلك.

وفي هذه الآية تنبيه على العلة المانعة

(١) الكشاف ١/ ١٩٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٦٢٠.

من المناكحة في الكفار، لما هم عليه من الالتباس بالمحرمات من: الخمر والخنزير، والانغماس في القاذورات، وتربية النسل، وسرقة الطباع من طباعهم، وغير ذلك مما لا تعادل فيه شهوة النكاح في بعض ما هم عليه، وإذا نظر إلى هذه العلة فهي موجودة في كل كافر وكافرة، فتقتضي المنع من المناكحة مطلقًا[1].

وفي الآية دلالة من باب أولى على النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع؛ لأنه إذا لم يجز التزوج مع أن فيه مصالح كثيرة، فالخلطة المجردة من باب أولى، وخصوصًا الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوه[2].

وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي: سرتكم، ونالت إعجابكم في جمالها، وخلقها ومالها وحسبها، وغير ذلك من دواعي الإعجاب. وفيه تنبيه على دناءة المشركات، وتحذير من تزوجهن، ومن الاغترار بما يكون للمشركة من حسب أو جمال أو مال.

وضمير: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ يعود إلى المشركة، ﴿وَلَوْ﴾ وصلية للتنبيه على أقصى الأحوال التي هي مظنة تفضيل المشركة، فالأمة المؤمنة أفضل منها حتى في تلك الحالة[3]. فإن قيل: كيف جاءت الآية بلفظ: ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ مع أن المشركة لا خير فيها؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أنه قد يرد اسم التفضيل بين شيئين، ويراد به التفضيل المطلق، أي: مجرد الوصف -وإن لم يكن في جانب المفضل عليه شيء منه-، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

الثاني: أن المشركة قد يكون فيها خير حسي من جمال ونحوه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ فبين سبحانه وتعالى أن ما قد يعتقده ناكح المشركة من خير فيها، فإن نكاح المؤمنة خير منه[4].

والمقصود أن من لم يستطع تزوج حرة مؤمنة فليتزوج أمة مؤمنة خير له من أن يتزوج حرة مشركة، فالأمة هنا هي المملوكة، والمشركة الحرة بقرينة المقابلة بقوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ فالكلام وارد مورد التناهي في تفضيل أقل أفراد هذا الصنف على أتم أفراد الصنف الآخر، فإذا كانت الأمة المؤمنة خيرًا من كل مشركة، فالحرة المؤمنة خير من المشركة بدلالة فحوى الخطاب التي يقتضيها السياق؛ ولظهور أنه لا معنى لتفضيل الأمة المؤمنة على الأمة المشركة، فإنه حاصلٌ بدلالة فحوى الخطاب لا يشك فيه المخاطبون المؤمنون؛ ولقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ فإن الإعجاب بالحرائر دون الإماء.

(١) البحر المحيط ٢/ ٤١٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٩٩.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٦٢٠.
(٤) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٥/ ٥٩.

صور النكاح المرغب فيه

رغب القرآن الكريم في صور من النكاح نوضحها فيما يأتي:

أولًا: نكاح العفيفات المؤمنات:

حث الإسلام على الزواج من الحرة المؤمنة في حالة الطول، أي: القدرة على نكاح الحرة.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

وذلك أن الحرة تحصنها الحرية؛ وتعلمها كيف تحفظ عرضها، وكيف تصون حرمة زوجها، فهن محصنات هنا لا بمعنى متزوجات؛ ولكن بمعنى حرائر، محصنات بالحرية وما تسبغه على الضمير من كرامة، وما توفره للحياة من ضمانات.

فالحرة ذات أسرة وبيت وسمعة ولها من يكفيها، وهي تخشى العار، وفي نفسها أنفة وفي ضميرها عزة، فهي تأبى السفاح والانحدار، ولا شيء من هذا كله لغير الحرة[1].

وحذر من التزوج من الإيماء، وفي التحذير من نكاح الإيماء وجوهٌ، منها:

- أن الولد يتبع الأم في الحرية والرق، فيصير الولد رقيقًا، وقد قيل: أي: حر تزوج بأمةٍ فقد رق نصفه، يعني: يصير ولده رقيقًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: عن نكاح الإماء.
- أن الأمة تكون قد تعودت الخروج والبروز والمخالطة للرجال، وصارت في غاية الوقاحة، وربما تعودت الفجور.
- أن حق المولى عليهم أعظم من حق الزوج، ولا تخلص للزوج كخلوص الحرة، وربما احتاج الزوج إليها جدًا، ولا يجد إليها سبيلًا لحبس السيد لها.
- أن المولى قد يبيعها من إنسان آخر، فعلى قول من يقول بيع الأمة يوجب طلاقها تصير مطلقة شاء الزوج أم أبى، وعلى قول من لا يرى ذلك فقد يسافر المولى بها وبولدها، وذلك من أعظم المضار.
- أن مهرها ملك لمولاها، فلا تقدر على هبته لزوجها، ولا إبرائه بخلاف الحرة، فلهذه الوجوه لم يؤذن في نكاح الأمة إلا على سبيل الرخصة[2]. ومن ثم فهي

(١) انظر: في ظلال القرآن ٢/ ٩١.

(٢) اللباب في علوم الكتاب ٥/ ١٢٩.

ليست محصنة، وحتى إذا تزوجت فإن رواسب من عهد الرق تبقى في نفسها، فلا يكون لها الصون والعفة والعزة التي للحرة، فضلًا على أنه ليس لها شرف عائلي تخشى تلويثه، مضافًا إلى هذا كله أن نسلها من زوجها كان المجتمع ينظر إليهم نظرة أدنى من أولاد الحرائر، فتعلق بهم هجنة الرق في صورة من الصور، وكل هذه الاعتبارات كانت قائمة في المجتمع الذي تشرع له هذه الآية.

فلهذه الاعتبارات كلها آثر الإسلام للمسلمين الأحرار ألا يتزوجوا من غير الحرائر، إذا هم استطاعوا الزواج من الحرائر، وجعل الزواج من غير الحرة رخصة في حالة عدم الطول، مع المشقة في الانتظار[1].

فقال الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ ﴿وَمَن﴾ هنا شرطية، وهو الظاهر، ويجوز أن تكون موصولة[2].

والطول: الغنى والسعة، ويطلق على العلو، مصدر طال طولًا، وهو مفعول ﴿يَسْتَطِعْ﴾ أو مصدر له؛ لتقارب معناهما، و﴿أَن يَنكِحَ﴾ بدل منه على الأول، أو مفعول به على الثاني، أي: لأن ينكح[3].

والطول يستلزم المقدرة على المناولة؛ فلذلك يقولون: تطاول لكذا أي: تمطى ليأخذه، ثم قالوا: تطاول بمعنى: تكلف المقدرة (وأين الثريا من يد المتطاول) فجعلوا لطال الحقيقي مصدرًا (بضم الطاء) وجعلوا لطال المجازي مصدرًا (بفتح الطاء) وهو مما فرقت فيه العرب بين المعنيين المشتركين[4].

فدل قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ على أن الحرائر كانت مهورهن أعلى من مهور الإماء، فيأخذ منه من طرف خفي مشروعية مهر المثل، فللحرائر سنة في الصداق، وللإماء سنة في الصداق، أي: قدر معين، وهذا القدر ليس بثابت، بل هو يختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان.

ودلت الآية على أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين؛ وهما:

- ألا يجد مهر حرة، ولا ثمن أمة.
- وأن يخاف العنت[5].

ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب، وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن وجب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩١.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ١٢٧.
(٣) البحر المديد ١/ ٤١٤.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ٩٢٩.
(٥) اللباب في علوم الكتاب ٥/ ١٢٨.

﴿لَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿الْمُحْصَنَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المراد بالمحصنات: الحرائر، بدليل مقابلتهن بالمملوكات، فإن حريتهن أحصنتهن عن ذل الرق والابتذال وغيرهما من صفات القصور والنقصان[1].

وقد وصف المحصنات هنا بالمؤمنات جريًا على الغالب، ومعظم علماء الإسلام على أن هذا الوصف خرج للغالب، ولعل الذي حملهم على ذلك أن استطاعة نكاح الحرائر الكتابيات طول إذ لم تكن إباحة نكاحهن مشروطة بالعجز عن الحرائر المسلمات، وكان نكاح الإماء المسلمات مشروطًا بالعجز عن الحرائر المسلمات، فحصل من ذلك أن يكون مشروطًا بالعجز عن الكتابيات أيضًا بقاعدة المساواة.

وعلة ذلك أن نكاح الأمة يعرض الأولاد للرق، فلذلك ألغوا الوصف هنا، وأعملوه في قوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وشذ البعض فاعتبروا رخصة نكاح الأمة المسلمة مشروطة بالعجز عن الحرة المسلمة، ولو مع القدرة على نكاح الكتابية، وكأن فائدة ذكر وصف المؤمنات هنا أن الشارع لم يكترث عند التشريع بذكر غير الغالب المعتبر عنده، فصار المؤمنات هنا كاللقب في نحو: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)[2][3].

والمعنى: ومن لم يجد طول حرة أي: ما يتزوج به الحرة المسلمة ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ فلينكح امرأة، أو أمة من النوع الذي ملكته أيمانكم ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حال من الضمير المقدر في ملكت الراجع إلى (ما) أي: من إمائكم المسلمات[4].

وظاهر هذه الآية الكريمة أن الأمة لا يجوز نكاحها ولو عند الضرورة إلا إذا كانت مؤمنة، بدليل قوله: ﴿فَتَيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فمفهوم مخالفته أن غير المؤمنات من الإماء لا يجوز نكاحهن على كل حال، وهذا المفهوم يفهم من مفهوم آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الْمُؤْمِنَٰتِ وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥].

فإن المراد بالمحصنات فيها: الحرائر على أحد الأقوال، ويفهم منه أن الإماء الكوافر لا يحل نكاحهن، ولو كن كتابيات[5].

(١) روح البيان، حقي ٢/ ٤٤١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، رقم ٥٧٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، رقم ٧٦٩٠.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٩٢٩.

(٤) روح البيان، حقي ٢/ ٤٤١.

(٥) أضواء البيان ٥/ ٣٥.

والذي يظهر من جهة الدليل -والله تعالى أعلم- جواز وطء الأمة بملك اليمين، وإن كانت عابدة وثن، أو مجوسية؛ لأن أكثر السبايا في عصره صلى الله عليه وسلم كفار العرب وهم عبدة أوثان، ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرم وطأهن بالملك لكفرهن، ولو كان حرامًا لبينه[1].

قال ابن القيم في (زاد المعاد) ما نصه: «ودل هذا القضاء النبوي على جواز وطء الإماء الوثنيات بملك اليمين، فإن سبايا أوطاس لم يكن كتابيات، ولم يشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم في وطئهن إسلامهن، ولم يجعل المانع منه إلا الاستبراء فقط، وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع، مع أنهم حديثو عهد بالإسلام، ويخفى عليهم حكم هذه المسألة وحصول الإسلام من جميع السبايا، وكن عدة آلاف بحيث لم يتخلف منهن عن الإسلام جارية واحدة، مما يعلم أنه في غاية البعد، فإنهن لم يكرهن على الإسلام، ولم يكن لهن من البصيرة والرغبة والمحبة في الإسلام ما يقتضي مبادرتهن إليه جميعًا، فمقتضى السنة، وعمل الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده جواز وطء المملوكات على أي دين كن، وهذا مذهب طاووس وغيره، وقواه صاحب (المغني) فيه ورجح أدلته»[2].

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ تأنيس بنكاح الإماء، وإزالة الاستنكاف منه، أي: أعلم بتفاضل ما بينكم، وبين أرقائكم في الإيمان، فربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرة، وإيمان المرأة من إيمان الرجل، فلا ينبغي للمؤمن أن يطلب الفضل والرجحان إلا باعتبار الإيمان والإسلام، لا بالأحساب والأنساب.

ولهذا قال: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ أي: أنتم وأرقاؤكم متناسبون، نسبكم من آدم، ودينكم الإسلام، كما قيل[3]:

الناس من جهة التمثال أكفاء
أبوهمُ آدم والأم حواء

فبينكم وبين أرقائكم المؤاخاة الإيمانية، والجنسية الدينية، لا يفضل حر عبدًا إلا برجحان في الإيمان، وقدم في الدين[4].

والخطاب في ﴿بِإِيمَٰنِكُم﴾ للمؤمنين ذكورهم وإناثهم، حرهم ورقهم، وانتظم الإيمان في هذا الخطاب، ولم يفردن بذلك، فلم يأت -والله أعلم-: ﴿بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾؛ لئلا يخرج غيرهن عن هذا الخطاب. والمقصود: عموم الخطاب؛ إذ كلهم محكوم عليه

(١) المصدر السابق.

(٢) زاد المعاد ٥/ ١١٨.

(٣) البيت في خريدة القصر وجريدة العصر ٣/ ٣٤ غير منسوبة لقائل.

(٤) روح البيان، حقي ٢/ ٤٤١.

بذلك[1].

والإضافة في قوله: ﴿أَيْمَٰنِكُم﴾ وقوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾؛ للتقريب، وإزالة ما بقي في نفوس العرب من احتقار العبيد والإماء، والترفع عن نكاحهم وإنكاحهم، وكذلك وصف المؤمنات، وإن كنا نراه للتقييد، فهو لا يخلو مع ذلك من فائدة التقريب؛ إذ الكفاءة تعتمد الدين أولًا[2].

والضمير في قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ أي: المملوكات. وذكر بعد الأمر بنكاحهن بيان كيفية ذلك، فقال: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ وشرط الإذن لئلا يكون سرًا وزنًا؛ ولأن نكاحهن دون ذلك اعتداء على حقوق أهل الإماء.

ومعنى: ﴿أَهْلِهِنَّ﴾ أي: سيدهن واحدًا أو متعددًا. وفي اشتراط إذن الموالي دون مباشرتهم للعقد إشعار بجواز مباشرتهن له.

والأهل هنا بمعنى: السادة المالكين، وهو إطلاق شائع على سادة العبيد في النصوص الشرعية، وهو من مصطلحات القرآن تلطفًا بالعبيد، كما وقع النهي أن يقال: أطعم ربك، وضئ ربك، اسق ربك، بل يقال: سيدي مولاي، ولا: يقال عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي[3]، ووقع في حديث بريرة: (فذهبت إلى أهلها)[4] وأبوا إلا أن يكون الولاء لهم.

والآية دليل على ولاية السيد لأمته، وأنه إذا نكحت الأمة بدون إذن السيد فالنكاح مفسوخ، ولو أجازه سيدها، واختلف في العبد: فقيل: هو كالأمة، وقيل: إذا أجازه السيد جاز، ويحتج بها لاشتراط أصل الولاية في المرأة احتجاجًا ضعيفًا، واحتج بها على عكس ذلك؛ إذ سمى الله ذلك إذنًا، ولم يسمه عقدًا، وهو احتجاج ضعيف؛ لأن الإذن يطلق على العقد، لا سيما بعد أن دخلت عليه باء السببية المتعلقة بـ(انكحوهن)[5].

فدل على أن السيد هو ولي أمته لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده، ليس لعبده أن يتزوج إلا بإذنه، كما جاء في الحديث: (أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر)[6] أي: زانٍ.

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٩٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٩٣٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، رقم ٢٤١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد، رقم ٦٠١٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب استعانة المكاتب وسؤاله الناس، رقم ٢٤٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، رقم ٣٨٥٢.
(٥) التحرير والتنوير ١/ ٩٣٠.
(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب تزويج العبد بغير إذن سيده، ١/ ٦٠٣، رقم ١٩٦٠.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٣٠، رقم ٢٧٣٤.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولو كن إماء، فإنه كما يجب المهر للحرة فكذلك يجب للأمة. وإضافة الأجور إليهن دليل على أن الأمة أحق بمهرها من سيدها؛ ولذلك قال مالك في كتاب الرهون من المدونة: إن على سيدها أن يجهزها بمهرها[1].

وليعلم أنه لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ أي: عفيفات عن الزنا ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ أي: زانيات علانية ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: أخلاء في السر. بهذه الشروط التي ذكرت في الآية.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي: خاف الزنا، وهو في الأصل انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر أعظم من موافقة الاسم بأفحش القبائح، وإنما سمى الزنا به؛ لأنه سبب المشقة بالحد في الدنيا، والعقوبة في العقبى.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: إذا استطعتم الصبر مع المشقة إلى أن يتيسر له نكاح الحرة؛ فذلك خير؛ لئلا يوقع أبناءه في ذل العبودية المكروهة للشارع لولا الضرورة؛ ولئلا يوقع نفسه في مذلة تصرف الناس في زوجه[2]. وختم هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بهذين الاسمين الكريمين (الغفور والرحيم) لكون هذه الأحكام رحمةً بالعباد، وكرمًا وإحسانًا إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة. ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث: (ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له)[3].

ثانيًا: إنكاح الأيامى والصالحين:

أمر الله تعالى بتزويج الأيامى والصالحين من العبيد، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

والمعنى: زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر، أي: من الرجال والنساء، والمراد بذلك مد يد المساعدة بكل الوسائل حتى يتسنى لهم ذلك، كإمدادهم بالمال، وتسهيل الوسائل التي بها يتم ذلك الزواج والمصاهرة.

والخطاب في قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ لكل من تصور أن ينكح في نازلة ما، فهم المأمورون بتزويج من لا زوج له. فهو

(١) المدونة ٥/ ٤٠٢.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٩٣١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، رقم ١٨، ومسلم في الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم ١٧٠٩.

خطاب للأولياء أن ينكحوا أيامهم من أكفائهن، إذا دعون إليه؛ لأنه خطاب خرج مخرج الأمر الحتم؛ فلذلك يوجه إلى الولي دون الزوج. وقد يكون خطاب للأزواج أن يتزوجوا الأيامى عند الحاجة[1].

وقرئ: ﴿من عبيدكم﴾ والجمهور على ﴿عِبَادِكُمْ﴾ والمعنى واحد، إلا أن قرينة الترفيع بالنكاح يؤيد قراءة الجمهور.

والأيم: يقال للرجل وللمرأة[2].

قال الشاعر[3]:

فإن تنكحي أنكح وإن تتأيمي
وإن كنت أفتى منكم أتأيم

ومعنى الأيامى: أي: الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، واحدهم أيم، فأيامى مقلوب أيايم، واتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل هي: المرأة التي لا زوج لها، بكرًا كانت أو ثيبًا، حكى ذلك أبو عمرو والكسائي وغيرهما. تقول العرب: تأيمت المرأة إذا أقامت لا تتزوج[4].

وصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ﴾ مجملة، فتحتمل الوجوب والندب، بحسب ما يعرض من حال المأمور بإنكاحهم: فإن كانوا مظنة الوقوع في مضار في الدين أو الدنيا، كان إنكاحهم واجبًا، وإن لم يكونوا كذلك فمندوب[5]. فيكون الأمر بالنكاح ندب لقوم، وإباحة لآخرين، بحسب قرائن المرء، والنكاح في الجملة والأغلب مندوب إليه.

ومن القرائن التي صرفت الأمر من الوجوب إلى الندب أنه لم يخل عصر من الأعصار من وجود الأيامى، ولم ينكر ذلك، ولا أمر الأولياء بالنكاح[6]. بل قد وجد أيامى على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم يزوجوا، ولو كان الأمر للوجوب لزوجهم.

ويدل على عدم وجوبه أيضًا أمور:

أحدها: أنه لو كان ذلك واجبًا لورد النقل بفعله من النبي صلى الله عليه وسلم، ومن السلف مستفيضًا شائعًا؛ لعموم الحاجة إليه، فلما وجدنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم، وسائر الأعصار بعده، قد كان في الناس أيامى من الرجال والنساء، فلم ينكروا عدم تزويجهن، ثبت أنه ما أريد به الإيجاب.

وثانيها: الإجماع على أن الأيم الثيب لو أبت التزوج لم يكن للولي إجبارها عليه.

وثالثها: اتفاق الكل على أنه لا يجبر على تزويج عبده وأمته، وهو معطوف على الأيامى، فدل على أنه غير واجب في

(١) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٩٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٨٠.
(٣) البيت في الجليس الصالح والأنيس الناصح ١/ ٤١٨ غير منسوب لقائل.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٣٩.
(٥) التحرير والتنوير ١٨/ ٢١٧.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٧.

الجميع، بل ندب في الجميع.

ورابعها: أن اسم الأيامى ينتظم فيه الرجال والنساء، وهو في الرجال ما أريد به الأولياء دون غيرهم، كذلك في النساء.

وقد قيل: يكون تزويج الأيامى واجبًا إذا التمست المرأة الأيم من الولي التزويج[1].

ومنهم من قال: أن الأمر للوجوب، لا بمعنى أن يجبر الإمام الأيامى على الزواج، ولكن بمعنى أنه يتعين إعانة الراغبين منهم في الزواج، وتمكينهم من الإحصان، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية، وتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة، وهو واجب، ووسيلة الواجب واجبة.

وينبغي أن نضع في حسابنا -مع هذا- أن الإسلام بوصفه نظامًا متكاملًا يعالج الأوضاع الاقتصادية علاجًا أساسيًا، فيجعل الأفراد الأسوياء قادرين على الكسب، وتحصيل الرزق، وعدم الحاجة إلى مساعدة بيت المال، ولكنه في الأحوال الاستثنائية يلزم بيت المال ببعض الإعانات، فالأصل في النظام الاقتصادي الإسلامي أن يستغني كل فرد بدخله، وهو يجعل تيسير العمل وكفاية الأجر حقًا على الدولة واجبًا للأفراد، أما الإعانة من بيت المال فهي حالة استثنائية لا يقوم عليها النظام الاقتصادي في الإسلام.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٣٦٨.

فإذا وجد في المجتمع الإسلامي- بعد ذلك- أيامى فقراء وفقيرات، تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج فعلى الجماعة أن تزوجهم، وكذلك العبيد والإماء، غير أن هؤلاء يلتزم أولياؤهم بأمرهم ما داموا قادرين، ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقًا عن التزويج متى كانوا صالحين للزواج، راغبين فيه، رجالًا ونساء، فالرزق بيد الله، وقد تكفل الله بإغنائهم، إن هم اختاروا طريق العفة النظيف: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[النور: ٣٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة حق على الله عونهم) ومنهم: (والناكح الذي يريد العفاف)[2].

وفي انتظار قيام الجماعة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[النور: ٣٣].

وفي هذه الآية قال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

أي: لا يضيق على من يبتغي العفة وهو يعلم نيته وصلاحه.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضل الجهاد، باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكتاب، ٤/ ١٨٤، رقم ١٦٥٥.
قال الترمذي: حديث حسن.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٨٥، رقم ٣٠٥٠.

هكذا يواجه الإسلام المشكلة مواجهة عملية، فيهيئ لكل فرد صالح للزواج أن يتزوج، ولو كان عاجزًا من ناحية المال؛ لأن المال هو العقبة الكئود غالبًا في طريق الإحصان[1].

واستدل بالأمر في قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ على اعتبار الولي؛ لأن الخطاب له، وعدم استقلال المرأة بالنكاح. واستدل بعموم الآية من أباح نكاح الإماء بلا شرط، ونكاح العبد الحرة، واستدل بها من قال: بإجبار السيد على نكاح عبده وأمته[2].

ومعنى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أي: والقادرين والقادرات على النكاح والقيام بحقوق الزوجية من الصحة والمال، ونحو ذلك.

وفي هذه الآية رد على من قال: إن القاضي يفرق بين الزوجين إذا كان الزوج فقيرًا، لا يقدر على النفقة؛ لأن الله قال: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ﴾ ولم يقل: يفرق بينهما، وهذا انتزاع ضعيف؛ لأن هذه الآية ليست حكمًا فيمن عجز عن النفقة، وإنما هي وعد بالإغناء، كما وعد به مع التفرق في قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠].

ونفحات رحمة الله مأمولة في كل حال موعود بها[3].

وجملة: إن يكونوا فقراء... إلخ استئناف بياني؛ لأن عموم الأيامى والعبيد والإماء في صيغة الأمر يثير سؤال الأولياء، والموالي أن يكون الراغب في تزوج المرأة الأيم فقيرًا فهل يرده الولي؟ وأن يكون سيد العبد فقيرًا لا يجد ما ينفقه على زوجه، وكذلك سيد الأمة يخطبها رجل فقير حر أو عبد، فجاء هذا لبيان إرادة العموم في الأحوال.

وهو كذلك وعد من الله للمتزوج من هؤلاء إن كان فقيرًا أن يغنيه الله، وإغناؤه تيسير الغنى إليه إن كان حرًا، وتوسعة المال على مولاه إن كان عبدًا، فلا عذر للولي، ولا للمولى أن يرد خطبته في هذه الأحوال[4].

وفي هذا ترغيب في الزواج بالفقير والفقيرة، وألا يكون عدم وجدان المال حائلًا عن إتمامه؛ ولهذا فقال: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم، أو فقر من تريدون زواجها، ففي فضل الله ما يغنيهم والمال غاد ورائح. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: والله ذو سعة وغنى، فلا انتهاء لفضله، ولا حد لقدرته[5].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥١٥.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٨١.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٨٠.
(٤) التحرير والتنوير ١٨/ ٢١٧.
(٥) تفسير المراغي ١٨/ ١٠٣.

ثالثًا: نكاح المهاجرات في سبيل الله:

أباح الله تعالى للمؤمنين نكاح المؤمنات المهاجرات بعد فراقهن لأزواجهن المشركين، وبعد استبرائهم لأرحامهن، ودفع مهورهن كاملة غير منقوصة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٖ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الممتحنة: ١٠].

والسبب في نزوله هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم هادن قريشًا عام الحديبية، فقالت قريش: على أن ترد علينا من جاءك منا، ونرد عليك من جاءنا منك، فوافق النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الشرط؛ لأنه لا حاجة له بمن اختار الكفر على الإيمان، ورجع إلى الكفار[(١)].

والآية بينت أن العهد الذي أعطى كان في الرجال دون النساء، ومن ثم لم يردهن حين جئن مؤمنات.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ سماهن مؤمنات لنطقهن بكلمة الشهادة؛ أو لظهور إيمانهن بالامتحان؛ ولا يعلم بالامتحان إلا ظاهر إيمانهن أما الباطن فالله يعلمه؛ فالحكم عليهن معتبرًا بالظاهر. ومعنى: ﴿مُهَٰجِرَٰتٖ﴾ أي: من الكفار.

ونص على امتحان المؤمنات المهاجرات فقال: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ وهو أمر بمعنى: الوجوب، أو بمعنى: الندب، والمعنى: فاختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن، وكان صلى الله عليه وسلم يستحلفهن: ما خرجن من بغض زوج، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقًا لرجل، بل حبًا لله ورسوله[(٢)].

وقيل: كان امتحانهن بالبيعة الآتية: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـٔٗا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ [الممتحنة: ١٢].

ومفهومه أن الرجال المهاجرين لا يمتحنون، وفعلًا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يمتحن من هاجر إليه، والسبب في امتحانهن دون الرجال هو ما أشارت إليه هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٖ﴾ كأن الهجرة وحدها لا تكفي في حقهن بخلاف الرجال، فقد شهد الله لهم بصدق إيمانهم بالهجرة في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥٢٠.

(٢) البحر المديد ٦/ ٣٠٥.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وذلك أن الرجل إذا خرج مهاجرًا يعلم أن عليه تبعة الجهاد والنصرة، فلا يهاجر إلا وهو صادق الإيمان فلا يحتاج إلى امتحان، ولا يرد عليه مهاجر أم قيس؛ لأنه أمر جانبي، ولا يمنع من المهمة الأساسية للهجرة المنوه عنه في أول هذه السورة: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي﴾ [الممتحنة: ١].

بخلاف النساء، فليس عليهن جهاد، ولا يلزمهن بالهجرة أية تبعية، فأي سبب يواجههن في حياتهن سواء كان بسبب الزوج أو غيره فإنهن يخرجن باسم الهجرة، فكان ذلك موجبًا للتوثق من هجرتهن بامتحانهن؛ ليعلم إيمانهن، ويرشح لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ وفي حق الرجال قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

وكذلك من جانب آخر وهو أن هجرة المؤمنات يتعلق عليها حق مع طرف آخر وهو الزوج فيفسخ نكاحها منه، ويعوض هو عما أنفق عليها، وإسقاط حقه في النكاح، وإيجاب حقه في العوض قضايا حقوقية، تتطلب إثباتًا بخلاف هجرة الرجال[(١)].

وقال بعد الأمر بامتحانهن: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي: الله أعلم بصدقهن في دعوى الإيمان؛ لأنه تعالى المطلع على قلوبهن، والجملة اعتراضية لبيان أن هذا الامتحان بالنسبة للمؤمنين، وإلا فالله عالمٌ بالسرائر لا تخفى عليه خافية؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ أي: فإن تحققتم من إيمانهن بعد امتحانهن فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار.

فإن قيل: كيف سمى الظن علمًا في قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾؟ نقول: إنه من باب أن الظن الغالب وما يفضي إليه الاجتهاد والقياس جارٍ مجرى العلم، وصاحبه غير داخل في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦][(٢)].

فإن قال قائل: كيف التوفيق بين قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ وبين قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾؟ والجواب عنه: أن معنى قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾، أي: إيمان الإقرار والامتحان، كأنهن أقررن بالإيمان، وحلفن عند الامتحان، وكأنه يشير في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ إلى أن: العلم الذي يمكنكم تحصيله هو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات، فهذا ظن غالب، وإنما سماه علمًا؛ إيذانًا بأنه كالعلم في وجوب العمل به[(٣)].

فإذا تحقق إيمانهن فلا يجوز ردهن إلى الكفار؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين.

(١) انظر: تتمة أضواء البيان، عطية محمد سالم ٨/ ١٣٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٢٣.

(٣) انظر: تفسير السمعاني ٥/ ٤١٨ بتصرف.

وموقع قوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ موقع البيان والتفصيل للنهي في قوله: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾؛ تحقيقًا لوجوب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر بخروجها مسلمة.

والتكرير في قوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ للتأكيد والمبالغة في الحرمة، وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرك[1].

فردهن إلى الكفار مفسدة كبيرة راعاها الشارع، وراعى أيضًا الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضًا عنهن.

وإذا كان المخاطب بذلك النهي جميع المؤمنين، كما هو مقتضى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾... إلى آخره، تعين أن يقوم بتنفيذه من إليه تنفيذ أمور المسلمين العامة في كل مكان وكل زمان، وهم ولاة الأمور من أمراء وقضاة؛ إذ لا يمكن أن يقوم المسلمون بما خوطبوا به من مثل هذه الأمور العامة إلا على هذا الوجه، ولكن على كل فرد من المسلمين التزام العمل به في خاصة نفسه، والتزام الامتثال لما يقرره ولاة الأمور[2].

وقد اختلف: هل كان النهي في شأن المؤمنات المهاجرات أن يرجعوهن إلى الكفار نسخًا لما تضمنته شرط الصلح الذي بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، أو كان الصلح غير مصرح فيه بإرجاع النساء؛ لأن الصيغة صيغة جمع المذكر فاعتبر مجملًا، وكان النهي الذي في هذه الآية بيانًا لذلك المجمل.

وقد قيل: إن الصلح صرح فيه بأن من جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم من غير إذن وليه من رجل أو امرأة يرد إلى وليه، فإذا صح ذلك كان صريحًا، وكانت الآية ناسخة لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم.

والذي في سيرة ابن إسحاق من رواية ابن هشام خليٌّ من هذا التصريح؛ ولذلك كان لفظ الصلح محتملًا لإرادة الرجال؛ لأن الضمائر التي اشتمل عليها ضمائر تذكير، فيكون الشرط في الرجال لا في النساء، فكانت هذه الآية تشريعًا للمسلمين فيما يفعلونه إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وإيذانًا للمشركين بأن شرطهم غير نص، وشأن شروط الصلح الصراحة لعظم أمر المصالحات والحقوق المترتبة عليها.

وقد أذهل الله المشركين عن الاحتياط في شرطهم؛ ليكون ذلك رحمة بالنساء المهاجرات؛ إذ جعل لهن مخرجًا وتأييدًا لرسول صلى الله عليه وسلم، كما في الآية التي بعدها لقصد أن يشترك من يمكنه الاطلاع من المؤمنين على صدق إيمان

(١) صفوة التفاسير ٣/ ٣٤٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٥٦.

المؤمنات المهاجرات، تعاونًا على إظهار الحق؛ ولأن ما فيها من التكليف يرجع كثير منه إلى أحوال المؤمنين مع نسائهم[1].

وأمر الله تعالى إذا أمسكت المرأة المسلمة أن يرد على زوجها ما أنفق، وذلك من الوفاء بالعهد؛ لأنه لما منع من أهله بحرمة الإسلام أمر برد المال حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين: الزوجة والمال[2]. فقال: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أي: وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور. والمراد بما أنفقوا ما أعطوه من المهور، والعدول عن إطلاق اسم المهور والأجور على ما دفعه المشركون لنسائهم اللائي أسلمن من لطائف القرآن؛ لأن أولئك النساء أصبحن غير زوجات، فألغي إطلاق اسم المهور على ما يدفع لهم.

وقد سمى الله بعد ذلك ما يعطيه المسلمون لهن أجورًا، بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ والمكلف بإرجاع مهور الأزواج المشركين إليهم هم ولاة أمور المسلمين، مما بين أيديهم من أموال المسلمين العامة[3].

ولا جناح حينئذٍ على المسلمين أن ينكحوهن، ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: ولا إثم عليكم، ولا حرج في نكاح هؤلاء المؤمنات المهاجرات، بشرط أن تتعهدوا بالمهور، وتلتزموا بأدائها، وإنما جاز هذا لأن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار، فكان من المصلحة أن يكون لهن عائل من المؤمنين يكفل أمر أرزاقهن[4].

ونص على دفع المهر لهن -مع أنه أمر معلوم- لكي لا يتوهم متوهم أن رد المهر إلى الزوج الكافر يغنى عن دفع مهر جديد لهن إذا تزوجن بعد ذلك بأزواج مسلمين؛ إذ المهر المردود للكفار لا يقوم مقام المهر الذي يجب على المسلم إذا ما تزوج بامرأة مسلمة فارقت زوجها الكافر.

والمراد بالإيتاء: ما يشمل الدفع العاجل، والتزام الدفع في المستقبل.

ويدل بمفهومه أن النكاح بدون الأجور فيه جناح، وقد جاء النص بهذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

فهبة المرأة نفسها بدون صداق خاص به صلى الله عليه وسلم، فقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يحله لغيره صلى الله عليه وسلم، وقوله:

(١) انظر: المصدر السابق ٢٨/ ١٥٥ بتصرف.
(٢) اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٢٣٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٥٨.
(٤) تفسير المراغي ٢٨/ ٧٣.

﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ظاهر في أن النكاح لا يصح إلا بإتيان الأجور.

وقد جاء ما يدل على صحة العقد بدون إتيان الصداق كما في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ الآية. [البقرة: ٢٣٦].

وقد ذكر الفقهاء حكم المفوضة أنه إن دخل بها فلها صداق المثل، ويدل لإطلاق الأجور على الصداق قوله تعالى في نكاح الإماء لمن لم يستطع طولًا للحرائر: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٥].

وفي نكاح أهل الكتاب: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]. الآية[1].

ونهى الله المسلمين عن إبقاء النساء الكوافر في عصمتهم، وهن النساء اللائي لم يخرجن مع أزواجهن لكفرهن، فقال: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ فلما نزلت هذه الآية طلق المسلمون من كان لهم من أزواج بمكة.

فطلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين له بقيتا بمكة مشركتين، وهما: قريبة بنت أبي أمية، وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية، وطلق طلحة بن عبيد الله إحدى زوجاته وكانت مشركة[2].

ثم قال: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ أيها المؤمنون حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم إلى الكفار، وهذا إنصاف بين الفريقين، والأمر للإباحة.

وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره كان عليه ضمان المهر، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ فيعلم تعالى ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة[3].

(١) أضواء البيان ٨/ ١٠١.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٣٤٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٥٧.

خصوصيات النبي في النكاح

أخبر القرآن الكريم عما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم من خصوصيات في النكاح نوضحها فيما يلي:

أولًا: نكاح الواهبة نفسها:

أخبر الله تعالى أنه أحل لنبيه صلى الله عليه وسلم المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها له أن يتزوجها بغير مهر إن شاء ذلك، فقال: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠].

ونصبت: ﴿وَامْرَأَةً﴾ بفعل يفسره ما قبله، أو عطف على ما سبق، والمعنى: أعلمناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها، ولا تطلب مهرًا[(١)].

أو أحللنا لك امرأة. والوصف بالمؤمنة قيد معتبر، فإن وهبت امرأة يهودية أو نصرانية أو مشركة نفسها، فإنه لا يحل للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها.

ومعنى: ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أنها ملكته نفسها بدون مهر تمليكًا شبيهًا بملك اليمين؛ ولهذا عطفت على ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم، فليس لغير النبي صلى الله عليه وسلم أن يستبيح وطء امرأة بلفظ الهبة من غير ولي ولا مهر ولا شاهد.

والمقصود بالإحلال في الآية الكريمة: الإذن العام، والتوسعة عليه صلى الله عليه وسلم في الزواج من هذه الأصناف، والإباحة له في أن يختار منهن من تقتضي الحكمة الزواج منها، واختصاصه صلى الله عليه وسلم بأمور كثيرة تتعلق بالنكاح، لا تحل لأحد سواه، وهذا منها[(٢)].

وفي قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ لأن مقتضى الظاهر أن يقال: إن وهبت نفسها لك، والغرض من هذا إظهار ما في لفظ: ﴿النَّبِيِّ﴾ من تزكية فعل المرأة التي تهب نفسها بأنها راغبة لكرامة النبوة[(٣)].

وقد ورد أن النسوة اللاتي وهبن أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم أربع، هن: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة الأنصارية الملقبة أم المساكين، وأم شريك بنت جابر الأسدية أو العامرية، وخولة بنت حكيم بنت الأوقص السلمية، فأما الأوليان فتزوجهما النبي صلى الله عليه وسلم، وهما

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٣٨٠.

(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٣٤٦ بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٣٧٨.

من أمهات المؤمنين[1].

وقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ [الأحزاب: ٥٠].

جملة معترضة بين جملة ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ وبين ﴿خَالِصَةً﴾ وليس مسوقًا للتقييد؛ إذ لا حاجة إلى ذكر إرادة نكاحها، فإن هذا معلوم من معنى الإباحة، وإنما جيء بهذا الشرط لدفع توهم أن يكون قبوله هبتها نفسها له واجبًا عليه كما كان عرف أهل الجاهلية[2].

ونلحظ في هذه الآية أنه توالى فيها شرطان: ﴿إِن وَهَبَتْ﴾، ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ وهذا كثير في القرآن، من ذلك قوله تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

وكقول موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤][3].

وفي كلتا حالتي الشرط الوارد على شرط يجعل جواب أحدهما محذوفًا، دل عليه المذكور، أو جواب أحدهما جوابًا للآخر على خلافٍ في ذلك[4].

والعدول عن الإضمار في قوله: ﴿أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ بأن يقال: إن أراد أن يستنكحها لما في إظهار لفظ: ﴿النَّبِيِّ﴾ من التفخيم والتكريم. والسين والتاء في ﴿يَسْتَنكِحَهَا﴾ ليستا للطلب، بل هما لتأكيد الفعل كقول النابغة[5]:

وهم قتلوا الطائي بالحجر عنوة
أبا جابر واستنكحوا أم جابر

أي: بنو حن قتلوا أبا جابر الطائي، فصارت أم جابر المزوجة بأبي جابر زوجة بني حن، أي زوجة رجل منهم، وهي مثل السين والتاء في قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥][6].

ودليل هذه الخصوصية قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير شهود، ولا ولي، ولا مهر إلا النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا من خصائصه في النكاح، كالتخيير والعدد في النساء.

ولو تزوجها غيره بلفظ الهبة لم ينعقد النكاح، وقيل: إذا وهبت نفسها منه وقبلها بشهود ومهر، فإن النكاح ينعقد، والمهر يلزم به، فأجازوا النكاح بلفظ الهبة، وقالوا: كان اختصاص النبي صلى الله عليه وسلم في ترك المهر، والله تعالى قد سمى النكاح باسمين التزويج والنكاح، فلا ينعقد بغيرهما[7].

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٤٢.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٤/ ٢٤١.
(٥) ديوان النابغة الذبياني ١/ ٤٥.
(٦) التحرير والتنوير ١/ ٣٧٨.
(٧) الكشف والبيان، الثعلبي ١١/ ١٥٩.

وقد جاء ما يدل على صحة العقد بدون إتيان الصداق، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وقد ذكر الفقهاء حكم المفوضة أنه إن دخل بها فلها صداق المثل.

وانتصب ﴿خَالِصَةً﴾ على الحال من ﴿وَامْرَأَةً﴾ أي: خالصة لك تلك المرأة، أي: هذا الصنف من النساء، والخلوص بمعنى: عدم المشاركة، أي: مشاركة بقية الأمة في هذا الحكم؛ إذ مادة الخلوص تجمع معاني التجرد من المخالطة[(١)].

أي: لا يحل لأحد أن يتزوج بطريق الهبة، وقيل: إن خالصة يرجع إلى كل ما تقدم من النساء المباحات له صلى الله عليه وسلم؛ لأن سائر المؤمنين قصروا على أربع نسوة، وأبيح له عليه الصلاة والسلام أكثر من ذلك[(٢)] فيكون قوله: ﴿خَالِصَةً﴾ يرجع إلى جميع ما في الآية، أي: هذا الإكثار من النكاح وهذه المرأة الواهبة خالصة لك، وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ وخاصة مصدران يستوي فيهما المذكر والمؤنث، كالخاطبة والكاذبة واللاغية[(٣)].

ويدل على خصوصيته بهذا النوع وهي الواهبة وجهان:

أحدهما: أنه لما أحل له الواهبة، قال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ليبين اختصاصه بذلك، فعلم أنه حيث سكت عن الاختصاص كان الاشتراك ثابتًا، وإلا فلا معنى لتخصيص هذا الموضع ببيان الاختصاص.

الثاني: أن ما أحله من الأزواج ومن المملوكات ومن الأقارب أطلقه، وفي الموهوبة قيدها بالخلوص له؛ فعلم أن سكوته عن التقييد في أولئك دليل الاشتراك[(٤)].

ثانيًا: تزويج الله لنبيه:

ومن خصوصياته صلى الله عليه وسلم في النكاح أن الله تعالى زوجه زينب بنت جحش من غير عقد ولا مهر ولا ولي.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فتكون هذه خصوصية للنبي صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر في الروايات أن النبي عليه الصلاة والسلام أصدقها، فعده بعض

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٣٧٨.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٣٧٢.
(٣) غرائب التفسير وعجائب التأويل ٢/ ٩٢٠.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ٣٣٧.

أهل السير من خصوصياته صلى الله عليه وسلم أيضًا، فيكون في تزوجها خصوصيتان نبويتان[1].

وكان سبب نزول هذه الآية: أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين: أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم في نكاحهن، وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولًا وفعلًا من رسوله، وإذا أراد الله أمرًا جعل له سببًا، وكان زيد بن حارثة يدعى: زيد بن محمد قد تبناه النبي صلى الله عليه وسلم، فصار يدعى إليه، حتى نزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

فقيل له: زيد بن حارثة وكانت تحته زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان قد وقع في قلب الرسول لو طلقها زيد لتزوجها، فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في فراقها[2].

فقص الله هذه القصة، فقال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ﴾ أي: بالإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالتبني والعتق، والمراد زيد رضي الله عنه، ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى تحث على الصبر، وتأمر به.

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ والذي أخفاه أنه لو طلقها زيد لتزوجها صلى الله عليه وسلم[3].

وذكر بعضهم أن إرادته صلى الله عليه وسلم طلاقها وحبه إياها كان مجرد خطوره بباله الشريف بعد العلم بأنه يريد مفارقتها، وليس هناك حسد منه -عليه الصلاة والسلام، وحاشاه- له عليها، فلا محذور، فلو كان المضمر محبتها وإرادة طلاقها ونحو ذلك لأظهره جل وعلا، وللقصاص في هذه القصة كلام لا ينبغي أن يجعل في حيز القبول[4].

ولم يقدر منافق ولا غيره على الخوض في ذلك ببنت شفة مما يوهنه ويؤثر فيه، فلو كان الذي أضمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك؛ لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره، فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله تعالى من أنها ستكون زوجة له، وإنما أخفاه استحياء أن

(١) المصدر السابق ١/ ٣٣٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ١٢٨.

يقول لزيد: إن التي تحتك وفي نكاحك ستكون امرأتي[1].

ولهذا قال الحسن: ما أنزل الله عز وجل على النبي صلى الله عليه وسلم آية أشد منها، ولو كان كاتمًا شيئًا من الوحي لكتمها[2].

قال صاحب الظلال: وهذا الذي أخفاه النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه وهو يعلم أن الله مبديه هو ما ألهمه الله أنه سيفعله، ولم يكن أمرًا صريحًا من الله، وإلا ما تردد فيه ولا أخره، ولا حاول تأجيله، والجهر به في حينه مهما كانت العواقب التي يتوقعها عن إعلانه، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان أمام إلهام يجده في نفسه، ويتوجس في الوقت ذاته من مواجهته ومواجهة الناس به حتى أذن الله بكونه، فطلق زيد زوجه في النهاية، وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد.

وهذه الأقوال جميعها تهدم هدمًا تامًا كل الروايات التي رويت عن هذا الحادث، والتي تشب بها أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات.

إنما كان الأمر كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حمل؛ وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية، حتى ليتردد في مواجهته بها وهو الذي لم يتردد في مواجهته بعقيدة التوحيد، وذم الآلهة والشركاء؛ وتخطئة الآباء والأجداد![3].

ومعنى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وأن لا تباليهم شيئًا ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ﴾ ومعنى: ﴿قَضَىٰ﴾ استوفى وأتم، واسم ﴿زَيْدٌ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ لأن مقتضى الظاهر أن يقال: فلما قضى منها وطرًا، أي: قضى الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه، فعدل عن مقتضى الظاهر للتنويه بشأن زيد.

لأنه كان يقال له: زيد بن محمد، فلما نزع عنه هذا الشرف حين نزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يخص بها أحدًا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وهي أن سماه في القرآن، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم نوه غاية التنويه[4].

ومعنى: ﴿وَطَرًا﴾ أي: حاجته من نكاحها. وقيل: أن الوطر هنا هو الطلاق، وروي عن زينب أنها قالت: «ما كنت أمتنع منه غير أن الله منعني منه»، وقيل: إنه مذ

(١) السراج المنير ١/ ٣٣٨٢.
(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٤١٠.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٨٨.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ٣٦٣.

تزوجها لم يتمكن من الاستمتاع بها، وروي أنه كان يتورم ذلك منه حين يريد أن يقربها، فيكون الوطر هنا: الطلاق[1]. وهذا ضعيف.

والمقصود أنه لما قضى زيد وطره منها، ولم يعد في قلبه ميل إليها، ولا وحشة من فراقها وطابت نفسه، ورغب عنها، طلقها، وفارقها بانقضاء عدتها منه؛ لأن به يعرف أنه لا حاجة له فيها، وأنه قد تقاصرت عنها همته وإلا لكان راجعها. فلما حصل هذا زوجها الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ أي: جعلناها زوجة لك، بلا واسطة عقد إصالة، أو وكالة. أي: لم نحوجك إلى ولي من الخلق يعقد لك عليها تشريفًا لك ولها، بما لنا من العظمة التي خرقنا بها عوائد الخلق حتى أذعن لذلك كل من علم به، وسرت به جميع النفوس.

فهي الوحيدة التي زوجه الله إياها من فوق سبع سموات، وأنزل عليه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فقام فدخل عليها بلا استئذان، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماواته، وهذا من خصائصها؛ لأن الله جل وعلا قد صرح بأنه هو الذي زوجه إياها. وما أولم على امرأة ما أولم عليها، فذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار.

وكانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن: جدي وجدك واحد، وأني أنكحنيك الله في السماء، وإن السفير لجبريل عليه السلام»[2].

وكانت تفتخر على نساء النبي عليه الصلاة والسلام فتقول: أنا أكرمكن وليًا، وأكرمكن سفيرًا -جبرائيل-، وزوجكن أقاربكن وزوجني الله عز وجل[3].

وأشار سبحانه وتعالى إلى حكمة هذا التزويج، فقال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ وهي إبطال الحرج الذي كان يتحرجه أهل الجاهلية من أن يتزوج الرجل زوجة دعيه، فلما أبطله الله بالقول؛ إذ قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

أكد إبطاله بالفعل حتى لا يبقى أدنى أثر من الحرج أن يقول قائل: إن ذاك وإن صار حلالًا فينبغي التنزه عنه لأهل الكمال، فاحتيط لانتفاء ذلك بإيقاع التزوج بامرأة الدعي من أفضل الناس وهو النبي صلى الله عليه وسلم[4]؛ ليكون قدوة في إبطال هذه العادة المرذولة، ولا يتحرج المسلمين بعد ذلك من التزوج بزوجات من كانوا يتبنونهم

(١) البحر المحيط ٩/ ١٥٦.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٥٦.

(٣) الكشف والبيان، الثعلبي ١١/ ١٥٠.

(٤) التحرير والتنوير ١/ ٣٣٦.

بعد طلاقهن.

وقد كانت العرب تظن أن حرمة المتبني مشتبكة كاشتباك الرحم، فبين الله تعالى الفرق بينهما، وأن حلائل الأدعياء غير محرمة، وليست كحلائل أبناء الصلب؛ لذلك قال: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣] فقيد.

وكون الله هو الذي زوجه إياها لهذه الحكمة العظيمة صريح في أن سبب زواجه إياها ليس هو محبته لها التي كانت سببًا في طلاق زيد لها كما زعموا، ويوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ الآية؛ لأنه يدل على أن زيدًا قضى وطره منها، ولم تبق له بها حاجة، فطلقها باختياره[1]. وما كان هذا إلا لبيان الشريعة بفعله، فإن الشرع يستفاد من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وقوله.

والجمع بين اللام وكي في قوله: ﴿لِكَيۡلَا﴾؛ لتوكيد التعليل، كأنه يقول: ليست العلة غير ذلك، ودلت الآية على أن الأصل في الأحكام التشريعية أن تكون سواء بين النبي صلى الله عليه وسلم والأمة، حتى يدل دليل على الخصوصية[2].

وجملة: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ تذييل لجملة ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ وأمر الله يجوز أن يراد به من إباحة تزوج من كن حلائل الأدعياء، فهو معنى الأمر التشريعي فيه[3]. ففي قوله تعالى أولًا: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾، وقوله ثانيًا: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ لطيفة وهي أنه تعالى لما قال: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ قال: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ أي: تزويجنا زينب إياك كان مقصودًا متبوعًا مقضيًا، مراعى[4].

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة، فوائد، منها:

- الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين:

١. أن المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته ومملوكته ومحارمه إذا لم يقترن بها محذور لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان؛ لأن الله أخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخفى ذلك في نفسه.

٢. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه، وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

(١) أضواء البيان ٣٦/ ١٠٧.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٣٣٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٥٥.

- وأن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.
- وأنه يتعين أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.
- وفيها فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين، حيث تولى الله تزويجها من رسوله صلى الله عليه وسلم، من دون خطبة ولا شهود.
- وأن المرأة إذا كانت ذات زوج لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره حتى تنقضي عدتها؛ لأنها قبل انقضاء عدتها هي في عصمته، أو في حقه الذي له وطر إليها، ولو من بعض الوجوه[1].

ثالثًا: إباحة الزواج له بأكثر من أربع:

من خصائصه صلى الله عليه وسلم إباحة الزواج بأكثر من أربع؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وكن أكثر من أربع، فهذا لا شركة لأحد معه فيه[2].

وهذا لا تناقض فيه ولا عيب، فالذي شرع للمسلمين أربع زوجات، شرع لنبيهم أكثر من أربع، فمنزل التشريع في الحالتين واحد، فلا انتهاك للشرع، ولا مخالفة بحمد الله، كما أن الذي شرع للأخت في الميراث نصيبًا هو نفسه الذي شرع لأخيها نصيبين، ولم ير أحدٌ أن الأخ قد انتهك شرع الله عندما أخذ ضعف نصيب أخته، فطالما صاحب التشريع واحد وهو الله تبارك وتعالى فلا إشكال ولا شبهة، ويبقى بعد هذا النظر في وجوه الحكمة من وراء هذه الخصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن الحكمة في ذلك: أنه معصوم من الجور الذي قد يقع فيه غيره في جانب النساء، إضافةً لما في ذلك من مصالح عامة دعت إليها الحاجة، واقتضتها ظروف الدعوة، وفي ظلها تحققت الكثير من الأهداف النبيلة، والتي كان منها:

نشر الدعوة الإسلامية، ونقل جوانب حياته الخاصة داخل إطار بيته إلى الأمة من بعده، وبيان بطلان الحقوق المقررة للتبني -من خلال زواجه بزينب بنت جحش رضي الله عنها، والارتباط بعدد من القبائل ورجالها بالمصاهرة، مما يعطي الدعوة قوة ومنعة. فما تزوج صلى الله عليه وسلم زوجةً إلا بأمر من الله، بل هو الذي زوجه زينب بنت جحش كما سبق.

وسببٌ آخر هامٌ جدًا: ألا وهو تربية

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٥.
(٢) أضواء البيان ٨/ ٣٩.

وتخريج مرشدات داعيات للنساء، فهو صلى الله عليه وسلم المدرسة التي خرجت المرشدين الداعين للإسلام بالطريق القويم الصحيح، وكذا المرشدات (زوجاته الطاهرات العليات) فعلى يديه صلى الله عليه وسلم تخرجت نساؤه المرشدات لنساء العالم، واللواتي بدورهن غدين مرشدات لتخريج النساء بكل الأصقاع والبقاع في العالم.

ولم يكن زواجه صلى الله عليه وسلم بأكثر من أربع لدافع الشهوة؛ بل كان للحكم السابق ذكرها؛ ولهذا لم يكن زواجه صلى الله عليه وسلم في مرحلة الشباب، بل في سن متأخر، فلو كان تعدد نسائه لشهوة كان أولى به أن يعدد في قوة شبابه، لو كان كما يزعمون، وإنما هو الدين والعبودية والنبوة.

ونعلم أن معظم زوجات النبي كن كبيرات في السن، وبعضهن كن لا إربة لهن في مسألة الرجل، لكنهن يحرصن على شرف الانتساب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى شرف كونهن أمهات المؤمنين؛ لذلك كانت الواحدة منهن تتنازل عن قسمها في البيتوتة لضرتها مكتفية بهذا الشرف.

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم بدعًا من الرسل في زواجه من النساء بأكثر من أربع، بل إن من الأنبياء من تزوج بأكثر من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ والسنة الطريقة المعتادة، أي: ليس على الأنبياء حرج فيما أحل الله لهم كما أحل لداود مثل هذا في نكاح من شاء[1].

ومما يدل على اختصاصه صلى الله عليه وسلم بالزواج بأكثر من أربع قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أن جميع الأحكام السابقة المذكورة في الآية، ومنها: الزيادة على الأربع مزية خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم دون غيره؛ لأن سائر المؤمنين قصروا على أربع نسوة، وأبيح له عليه الصلاة والسلام أكثر من ذلك[2]. وهذا إجماع أن أحدًا من الأمة لا يجوز له أن يزيد على أربع نسوة إلا النبي صلى الله عليه وسلم[3].

رابعًا: حرمة زواج نسائه من بعده:

وكان مما خص الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم حرمة زواج نسائه من بعده قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾[الأحزاب: ٥٣].

فحرم نكاح نسائه من بعده على العالمين،

(١) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٠٨.
(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٥٥.
(٣) مراتب الإجماع ص ٦٣.

ليس هكذا نساء أحد غيره صلى الله عليه وسلم[1].

والسبب أنهن أمهات المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب: ٦].

فقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: منزلات منازلهن في وجوب التعظيم والاحترام، وتحريم النكاح، كما قال تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وأما فيما عدا ذلك من النظر إليهن، والخلوة بهن، والمسافرة معهن، والميراث، فهن كالأجنبيات، فلا يحل رؤيتهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[2]؛ لأن الإنسان لا يسأل أمه الحقيقية من وراء حجاب، ومعلوم أنهن رضي الله عنهن لم يلدن جميع المؤمنين الذين هن أمهاتهم. ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: (لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم)[3] تعني: أنهن إنما كن أمهات الرجال، لكونهن محرمات عليهم كتحريم أمهاتهم، والدليل على ذلك: أن هذا التحريم لم يتعد إلى بناتهن.

ودلت جملة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. على الحظر المؤكد؛ لأن ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ نفي للاستحقاق الذي دلت عليه اللام، وإقحام فعل ﴿كَانَ﴾ لتأكيد انتفاء الإذن، وهذه الصيغة من صيغ شدة التحريم.

وذكر أن هذه الآية نزلت في رجل قال: لئن مات محمد لأتزوجن امرأة من نسائه سماها، فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

والمعنى: وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسول الله، وما يصلح ذلك لكم ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يقول: وما ينبغي لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا لأنهن أمهاتكم، ولا يحل للرجل أن يتزوج أمه، فإنهن محرمات على الرجال تحريم الأمهات تحريمًا مؤبدًا لا يحل بحال.

ويقال: إنما نهى عن ذلك لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة. وروي عن حذيفة أنه قال لامرأته: «إن أردت أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تتزوجي بعدي، فإن المرأة لآخر أزواجها؛ ولذلك حرم الله تعالى على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجن بعده»[4].

فتضمنت هذه الآية: تحريم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس بقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ

(١) تفسير الإمام الشافعي ٣/ ١٢١٤.
(٢) روح البيان ٧/ ١٣٩.
(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، رقم ١٣٢٠٠.
(٤) تفسير السمرقندي ٣/ ٧١.

﴿بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وهو تقرير لحكم أمومة أزواجه للمؤمنين السالف في قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب: ٦].

وإنما شرعت الآية أن حكم أمومة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين حكم دائم في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، أو من بعده؛ ولذلك اقتصر هنا على التصريح بأنه حكم ثابت من بعد؛ لأن ثبوت ذلك في حياته قد علم من قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦][1]. فأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتي مات عنهن لا يحل لأحدٍ نكاحهن، ومن استحل ذلك كان كافرًا.

ومعنى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ من بعد وفاته، أو فراقه[2].

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إلى ما ذكر من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، وتزوج أزواجه، أي: ذلكم المذكور. والعظم هنا في الإثم والجريمة بقرينة المقام. وتقييد العظيم بكونه عند الله للتهويل والتخويف؛ لأنه عظيم في الشناعة، وعلة كون تزوج أحد المسلمين إحدى نساء النبي صلى الله عليه وسلم إثمًا عظيمًا عند الله أن الله جعل نساء النبي عليه الصلاة والسلام أمهات للمؤمنين، فاقتضى ذلك أن تزوج أحد المسلمين إحداهن له حكم تزوج المرء أمه، وذلك إثم عظيم[3].

ومعنى: ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وقضائه وشرعه ذنبًا عظيمًا، لا يقادر قدره، ولا يعرف مدى جزائه وعقوبته إلا الله تعالى.

وفي الآية: تعظيم من الله لرسوله، وإيجاب لحرمته حيًا وميتًا؛ ولذلك بالغ في الوعيد عليه.

واعلم أنه لم يتبين هل التحريم الذي في الآية يختص بالنساء اللاتي بنى بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو هو يعم كل امرأة عقد عليها مثل الكندية التي استعاذت منه، فقال لها: (الحقي بأهلك)[4] فتزوجها الأشعث بن قيس في زمن عمر بن الخطاب، ومثل قتيلة بنت قيس الكلبية التي زوجها أخوها الأشعث بن قيس من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حملها معه إلى حضرموت، فتوفي رسول الله قبل قفولهما، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل، وأن أبا بكر هم بعقابه، فقال له عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدخل بها، على أنه يظهر أن الإضافة في قوله: ﴿أَزْوَٰجَهُۥ﴾ بمعنى: لام العهد، أي: الأزواج اللائي جاءت في شأنهن هذه الآيات من قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٩٥.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٣٧.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢/ ٩٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق، رقم ٤٩٥٥.

﴿ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

فهن اللائي ثبت لهن حكم الأمهات، والبحث في هذه المسألة مجرد تفقه، لا يبنى عليه عمل[(١)].

ومن طريف ما أفاده صاحب روح البيان عند الكلام على هذه الآية أنه قال: ثم إن حرمة نكاحهن من احترام النبي عليه السلام، واحترامه واجب، وكذا احترام ورثته الكمل؛ ولذا قال بعض الكبار: لا ينكح المريد امرأة شيخه إن طلقها، أو مات عنها، وقس عليه حال كل معلم مع تلميذه، وهذا لأنه ليس في هذا النكاح يمن أصلًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وان كان رخصة في الفتوى، ولكن التقوى فوق أمر الفتوى، فاعرف هذا[(٢)].

وهل نساء النبي صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنات كما أنهن أمهات للمؤمنين؟ قيل: هن أمهات المؤمنين والمؤمنات جميعًا، وقيل: هن أمهات المؤمنين دون النساء.

والذي يظهر أنهن أمهات الرجال والنساء تعظيمًا لحقهن على الرجال والنساء، ويدل عليه صدر الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة، فيكون قوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ عائدًا إلى الجميع، ثم إن في مصحف أبي بن كعب: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ وهو أب لهم فنبقي على الأصل الذي هو العموم الذي يسبق إلى الفهوم.

قال ابن العربي المالكي في تفسيره: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ اختلف الناس هل هن أمهات الرجال والنساء أم هن أمهات الرجال خاصة؟ على قولين، فقيل: ذلك عام في الرجال والنساء، وقيل: هو خاص للرجال؛ لأن المقصود بذلك إنزالهن منزلة أمهاتهم في الحرمة حيث يتوقع الحل والحل غير متوقع بين النساء، فلا يحجب بينهن بحرمة، وقد روي أن امرأة قالت لعائشة: يا أماه، فقالت: (لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم)[(٣)] قال ابن العربي «وهو الصحيح»[(٤)].

ومن وطئهن النبي صلى الله عليه وسلم بملك اليمين لسن من أمهات المؤمنين، حيث تذكر كتب السير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له جاريتان يتسرى بهن، أي: يطؤهن بملك اليمين، وهاتان الجاريتان هما مارية القبطية، وريحانة بنت شمعون، أما مارية فقد كانت مهداة من المقوقس صاحب الإسكندرية (عظيم مصر) إلى رسول الله فنكحها الرسول بملك اليمين، فولدت له إبراهيم، فأصبحت أم ولد، وكانت قد أسلمت رضي الله عنها، توفيت سنة ١٦

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٩٥.
(٢) روح البيان ٧/ ١٣٩.
(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، رقم ١٣٢٠٠.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٦/ ٣١١.

هـ أما ريحانة فقد كانت من بني قريظة، وقعت في السبي فأسلمت، وكانت من سراري النبي صلى الله عليه وسلم، وهاتان الجاريتان ليستا من أمهات المؤمنين، فأمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء لسن من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، بل من السراري، وهؤلاء وطئهن النبي صلى الله عليه وسلم بملك اليمين، وهؤلاء وطئهن النبي صلى الله عليه وسلم بعقد زواج.

فيكون تعريف أم المؤمنين: أنها كل امرأة عقد عليها النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل بها، وإن طلقها بعد ذلك على الراجح، فإن طلقت قبل الدخول لا يطلق عليها لقب أم المؤمنين كالكلبية التي قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: (لقد استعذت بمعاذ الحقي بأهلك)[1] فقيل: أنه تزوجها عكرمة بن أبي جهل في خلافة الصديق، أو خلافة عمر، فهم برجمها، فقيل له: أنه لم يدخل بها: فخلى عنها.

وهل من خصوصياته في النكاح الزواج بالصغيرة؟

حكى ابن حزم عن ابن شبرمة أن الأب لا يزوج ابنته الصغيرة حتى تبلغ وتأذن، وزعم أن تزوج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وهي بنت ست سنين كان من خصائصه[2] والأصل عدم الخصوصية، ومن أدعى الخصوصية، فعليه بالدليل.

موضوعات ذات صلة:

الإحصان، البنوة، الرجولة، الزنا، الفواحش، النساء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق، رقم ٤٩٥٥.

(٢) المحلى ٩/ ٤٥٩.

النهار

عناصر الموضوع

مفهوم النهار	٤٣٦
النهار في الاستعمال القرآني	٤٣٧
الألفاظ ذات الصلة	٤٣٨
حكمة اقتران النهار بالليل	٤٤٠
النهار آية كونية	٤٤٢
القسم بالنهار	٤٤٩
أجزاء النهار	٤٥٢
النهار والعبادة	٤٥٥
النهار والعذاب	٤٥٩
النهار والسعي للمعاش	٤٦٢
النهار والدعوة إلى الله تعالى	٤٦٥
لمسات إعجازية في النهار	٤٦٨

مفهوم النهار

أولًا: المعنى اللغوي

النهار مفرد، وجمعها أنهر ونُهْرٌ، ونهر والنهر هو الأخدود الواسع، وما يجري في الأخدود، ونهر أي زجر من الماء، وأنهر الدم: أي جعل الدم يجري جريان الماء في النهر، ومن المعاني أيضًا الضياء، والسعة في الرزق والمقام والمكان، والمقصود بالنهار الضياء الواسع ممتد ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والنهار ضد الليل، يقال: طرفي النهار: أي: أوله وآخره[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

ذكر العلماء عدة تعريفات اصطلاحية لا تخرج في مضامينها عن التعريفات اللغوية لكلمة النهار، ومن هذه التعريفات ما يأتي:

قال الألوسي: النهار هو «ما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس»[(٢)].

وقال ابن باديس: النهار «هو الوقت الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيؤه بنورها»[(٣)].

وبعد النظر في التعريفين السابقين، يمكن القول بأن التعريف الأدق للنهار بحسب الأصل هو الفترة الزمنية المبدوءة بطلوع الشمس، والمنتهية بغروبها، أما بحسب الشرع فهو: الفترة الممتدة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس[(٤)].

---

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ٣١٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢٢٩٢، معجم وتفسير لغوي لألفاظ القرآن، حسن الجمل ٥/ ١٢٢.

(٢) روح البيان، ٦/ ٢٢٢.

(٣) انظر: تفسير ابن باديس ص٤٥.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٢٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٢٨، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٥٨٩، الموسوعة القرآنية، الأبياري ٨/ ٥٧٤.

النهار في الاستعمال القرآني

وردت كلمة (النهار) في القرآن الكريم (٥٧) مرة [(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
التعريف	٥٤	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [لقمان:٢٩]
التنكير	٣	﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝﴾ [نوح:٥]

وجاء (النهار) في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: ضد الليل، وهو الوقت ما بين طلوع الفجر -أو الشمس- إلى غروب الشمس [(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٧٢٠-٧٢١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب النون ص١٣٤٨-١٣٤٩.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ١٢٨، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٢٢٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ اليوم

اليوم لغة

يوم مفرد، جمعها أيام، ويعني المدة من وقت طلوع الفجر إلى غروب الشمس[١].

اليوم اصطلاحًا

هو مدة زمانية يختلف مقدارها بحسب مراد المتكلم[٢].

الصلة بين النهار واليوم

أن اليوم يطلق على فترة النهار فقط، ويطلق على مجموع فترتي النهار والليل.

٢ الضياء

الضياء لغة

أصلها ضوء قلبت الواو إلى ياء لمناسبة الكسرة قبلها[٣]، والضوء هو الإنارة الناجمة عن مصدر ذاتي الإشعاع[٤].

الضياء اصطلاحًا

هو الإشعاع الشمسي الذي يؤثر في العين فيمكن المبصر من الرؤية[٥].

وقال الراغب: «الضوء ما انتشر من الأجسام النيرة»[٦].

الصلة بين النهار والضياء

أن الضياء يطلق على الأشعة المنبثقة من الشمس، فتسبب الرؤية، أما النهار فهو الفترة الزمنية التي تضيء خلالها أشعة الشمس القِسْمَ الذي يواجهها من الكرة الأرضية.

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢٥٢٢.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ١٠٧٨.
(٤) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي ٢/ ١١٠٩.
(٥) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٢/ ١٣٧٣، الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله الجربوع ٢/ ٧٤٧.
(٦) المفردات ص٥١٤.

٣ الصباح

الصباح لغة

هو أول النهار، والصباح مفرد، والجمع أصباحٌ، ويقابل الصباح في الأزمنة المساء[١].

الصباح اصطلاحًا

هو أول النهار، ويحدد بالفترة التي تسبق أو تَلِيَ شروق الشمس مباشرة[٢].

الصلة بين النهار والصباح

أن الصباح جزء من النهار، فهو أول النهار، بينما يمتد النهار لفترة أطول، فهو يبدأ بالصباح، ثم يمر بالظهيرة، ثم العصر، ثم يمتد إلى آخر النهار.

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ١٦٨.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٢/ ١٢٦٢.

حكمة اقتران النهار بالليل

من حكمة الله تعالى البالغة أن ساق لعباده الآيات الباهرة الدالة دلالة قطعية على وجود الخالق -جل وعلا- وعظمته، ومن هذه الآيات المتعددة والمتنوعة، آيتا الليل والنهار[1].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

ومما لا ينكره عاقل ما لليل والنهار من أهمية بالغة في حياة المخلوقات، فبالليل يكون السكون، وبالنهار يكون السعي، وبهما معًا يكون الحساب الدقيق للأوقات، ومعرفة الأيام والأشهر والسنين، ولولاهما لما ضبطت المواعيد، ولعمت الفوضى، ولاضطربت أحوال الخلق.

ونظرًا لما تقدم فقد جاءت العديد من آيات القرآن الكريم مقرنةً بين الليل والنهار، ولعل الحِكَمَ من ذلك ما يأتي:

١. الاستدلال على ربوبية الله تعالى، واستحقاقه الألوهية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

يذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة جملة من الأدلة المشاهدة المحسوسة، والتي بدورها تبرز وتثبت لكل عاقل يستعمل عقله في التفكر والتدبر والربط والاستنتاج؛ أن الربوبية له تعالى وحده دون سواه[2].

ومن خلال النظر في الآية السابقة يلاحظ ما يأتي:

- أن الله تعالى يرشد عباده إلى أحقيته بالألوهية وحده دون سواه، ويظهر ذلك من خلال عرضه جل وعلا لجملة من الآيات الكونية ذات الصلة الوثيقة بمعيشة الخلق، وقضاء حوائجهم، وكأنه سبحانه يقول لعباده إن أعظم ما ينفعكم لهو من صنعي، فلا تُعْرِضوا عن عبادتي، ومن المعلوم أنه لا غنى للعباد عن ليل ينامون فيه، ولا عن نهار يبصرون فيه دروبهم، ولا عن التنقل البحري بواسطة الفلك، ولا عن مياه الغيث الذي يجلب أنواع الرزق، ولا عن الرياح الطيبة النافعة.

(١) انظر: لباب التاويل، الخازن ٣/ ١٢٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٤.

- تأكيد الله تعالى على الأثر النافع لكل صاحب عقل متفكر بآلاء الله تعالى، وتمثل هذا الأثر بالإيمان بالله تعالى، وقد جاء هذا التوكيد من خلال مؤكدين، الأول: حرف التوكيد إن، الثاني: لام التوكيد في ﴿لَآيَٰتٍ﴾.
- استخدام الفعل المضارع ﴿يَعْقِلُونَ﴾، ومعلوم أن الفعل المضارع يدل على التجدد، فيكون المعنى أنه كلما فكر العقلاء في آيات الله تعالى أكثر، ازدادت قناعاتهم بوجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته أكثر.

٢. إظهار فضل الله تعالى على عباده.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۞ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٣ - ٣٤].

يبين الله تعالى لعباده أنه أنعم عليهم بأن وفر لهم كافة مستلزماتهم، والتي منها الشمس والقمر، والليل والنهار، ثم أكد سبحانه أنه على الرغم من كل ما أنعم به على عباده إلا أنهم يقابلون هذه النعم بالجحود والنكران[(١)].

٣. الحث على عمل الصالحات.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

يبين الله تعالى لعباده أنه سخر لهم نعمتي الليل والنهار، وجعلهما متعاقبين، بغية تيسير أداء العبادات الدورية، كالصلوات الخمس، والأذكار، وغيرها من العبادات المتنوعة ذات الصلة بالليل والنهار[(٢)].

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٣/ ٥٨-٦٠.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٢٨.

النهار آية كونية

مما لا شك فيه أن الله تعالى عندما خلق هذا الكون الفسيح أودع فيه من الآيات والأسرار ما يبهر العقول ويقودها إلى معرفة من أوجد تلك الآيات، وأودع تلك الأسرار، ومن هذه الآيات الكونية آية النهار التي قال الله تعالى في شأنها: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾[الإسراء: ١٢].

والآية تدل على أن النهار من أعظم ما أنعم الله تعالى به على عباده، كما تدعو إلى التفكر في هذه النعمة العظيمة، وتفصيل ذلك كما سيتم ذكره في النقاط الآتية:

أولًا: النهار نعمة إلهية:

مما لا شك فيه أن الله تعالى قد أغدق على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

ومن المعلوم أن من بين هذه النعم نعمة النهار، وتتجلى هذه النعمة من خلال آثارها الجليلة، والتي منها ما يأتي:

١. أن النهار آية من آيات الله تعالى التي تهدي إلى الإيمان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣ – ٥].

تشير هذه الآيات الكريمات إلى الدلالات الواضحة التي أودعها الله تعالى في هذا الكون الفسيح، والتي تقود أصحاب العقول النيرة إلى الإيمان بالله تعالى وحده[(١)]، ومن ضمن الدلالات الكونية التي ذكرتها الآيات الكريمات آية النهار.

٢. أن النهار يشتمل على مواقيت للعبادة.

قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بإقامة الصلوات ويخص بالذكر صلاة الفجر، ثم يعلل ذلك التخصيص بأن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار[(٢)].

وقال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين في هذه الآية بالمحافظة على الصلوات عمومًا، والصلاة الوسطى أي صلاة العصر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٩.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٩٧.

خصوصًا، وذلك لما لها من أهمية بالغة[1]، وقد علل الحق جل وعلا تشديده على المحافظة على الصلاة بأنها ماحية للذنوب والخطايا.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

٣. أن النهار هام للدعوة إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢].

يمن الله تعالى على عباده بأنه لم يجعل النهار أبديًا دائمًا، ولو كان ذلك لحدثت اضطرابات واختلالات في النظام الذي اعتاده البشر، حيث إن النهار الذي ينفعهم للحصول على أرزاقهم لابد وأن يعقبه ليل يسكنون فيه، ويستجمعون فيه طاقاتهم وقواهم[2]، ومما لاشك فيه أن هذه المنة الإلهية بالطريقة التي عرضها القرآن الكريم تشكل مادة دعوية تخدم الدعاة في دعوتهم إلى الله تعالى.

٤. أن النهار هام لقضيتي طلب الأرزاق، وحساب الأوقات.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أهمية الليل والنهار للاستدلال على وجود الله تعالى وعظمته[3]، وبتحليل الآية الكريمة يظهر أن جملتي ﴿لِّتَبْتَغُوا﴾، ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ في محل نصب مفعول لأجله، فيكون المعنى: أن الله تعالى قد جعل النهار مضيئًا لسببين، الأول: حتى يتمكن الناس من طلب الأرزاق، الثاني: حتى يعلم الناس الأوقات[4].

ثانيًا: التفكر في آية النهار:

حثَّ القرآن الكريم على إعمال العقول في كل أمر يحتاج إلى التفكير والتأمل والتدبر، وذلك يدل على أن القرآن الكريم يتفق مع العلم اتفاقًا كاملًا؛ وذلك لأن الذي نَزَّلَ القرآنَ والذي أَوْدَعَ في الكون أسرار العلوم والمعارف هو اللهُ تعالى، ولا يمكن أن تتعارض أمور مردها إلى الله تعالى.

ومن الآيات التي دعا القرآن الكريم إلى تدبرها آيات النهار.

(١) انظر: معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن الكريم، حسن الجمل ٥/ ٢٢٤.
(٢) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣/ ٣٨٢.
(٣) انظر: التفسير الوجيز، الواحدي ص٦٢٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٤٤-٤٥.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس:٦٧].

يبين الله تعالى لعباده أنه هو الذي جعل لهم الليل ليسكنوا فيه مما كانوا فيه في النهار من التعب والمشقة، وهو الذي جعل لهم النهار مبصرًا، ليسعوا إلى طلب أرزاقهم، ثم يدعوهم جل وعلا إلى التفكر في عظمة هاتين الآيتين العظيمتين لعلهم يهتدون إلى وجوب إفراده بكل صور العبادة[(١)].

ويلاحظ من الآية السابقة أن التفكر في آيتي الليل والنهار يقود أصحاب العقول السليمة إلى وجوب الاعتراف بوحدانية الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

يبين الله تعالى لعباده أنه أكرمهم بأن جعل لهم الأرض منبسطة ليسيروا فيها، وجعل لهم فيها جبالًا وأنهارًا، كما جعل فيها أصنافًا متعددة من الثمرات الطيبة، وسخر الليل في عقب النهار فتكون الراحة بعد المشقة، ثم يؤكد الله تعالى على أن علة ذلك الإكرام هو حث أصحاب العقول على التفكر في صاحب الجود والكرم الذي أكرمهم بكل ما يتنعمون به[(٢)].

ويتضح من الآية السابقة أن التفكر فيما أنعم به الله تعالى على عباده يقود الإنسان إلى معرفة الله تعالى حق المعرفة، وقد جاء عن أحد رعاة الإبل قوله: «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير»[(٣)].

ويستفاد من الآيتين السابقتين أنه ينبغي على الدعاة أن يوظفوا آيات الله تعالى الكونية في دعواتهم الناس إلى الهدى.

ثالثًا: علاقة النهار بالليل:

قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

يبرهن الله تعالى من خلال هذه الآية الكريمة على أحقيته وحده دون سواه بالعبادة، وذلك من خلال عرضه جل وعلا للآيات الكونية الباهرة المتمثلة في إدخال أجزاء من الليل في أجزاء من النهار والعكس، والمتمثلة كذلك في تسخير الشمس والقمر اللذين يدوران في مدارين

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٤٤.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٥.

(٣) العقيدة في الله، عمر الأشقر ص٧٣.

محددين لهما[1].

ويتبين من الآية السابقة أن علاقة الليل بالنهار هي علاقة ولوج حيث تتداخل أجزاء من النهار في أجزاء من الليل فجرًا، وتتداخل أجزاء من الليل في أجزاء من النهار عند أول الليل.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

يبرز الله تعالى لعباده في هذه الآية ما يدعوهم إلى التفكر والتدبر في عظيم الصنعة للاستدلال على عظم الصانع جل وعلا، فالله تعالى هو الذي بسط الأرض، وجعل فيها الجبال الرواسي، وأجرى فيها الأنهار الغنية بالخيرات النافعة للإنسان والحيوان، كما أنعم على عباده بالثمرات المغذية والمطيبة، كما ألبس الليل ضوء النهار، وألبس النهار ظلمة الليل[2].

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن علاقة الليل بالنهار هي علاقة استبدال، فضوء الشمس بالنهار يزيل ظلمة الليل، وعتمة الليل تغطي ضوء النهار[3].

وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن من العلامات الدالة على عظمته جل وعلا انسلاخ النهار من الليل حين يحل الظلام[4].

ويظهر من هذه الآية الكريمة أن علاقة الليل بالنهار علاقة انفصال وانتزاع، حيث ينتزع النهار من الليل حين تشرق الشمس[5].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

يذكر الله تعالى في هذه الاية الكريمة أنه خلق السماوات والأرض، وأنه الذي يلف عتمة الليل بضوء النهار، ويلف ضياء النهار بعتمة الليل، وأنه الذي سخر الشمس والقمر وجعلهما يدوران في مدارين خاصين بهما لا يزيغان عنه حتى يأذن الله تعالى، ثم يقرر سبحانه أنه العزيز القادر على كل شيء، وأنه الغفار الذي لم يعاجل العصاة من عباده بالعقوبة، وبانتزاع ما في بديع صنعه من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٤٧، كتاب التوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين، عبد الرحمن التميمي ص٨٨.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٥.
(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٣٠٦.
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ١٢٣.
(٥) انظر: معجم وتفسير لغوي لألفاظ القرآن الكريم، حسن الجمل ٢/ ٣٢٨.

الخيرات والرحمات[1].

ويلاحظ من الآية السابقة أن علاقة الليل بالنهار هي علاقة لف وإخفاء، فالليل وإن طالت مدته شتاءًا أو قصرت صيفًا فلا يبدده إلا ضوء النهار، والنهار مهما طال صيفًا، أو قصر شتاءً فلا يغطيه إلا عتمة الليل[2].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه جعل الليل والنهار آيتين دالتين على عظمته وقدرته، ثم حدد الله تعالى أثر النهار على الليل حيث بين أن ضوء النهار يمحو ويبدد عتمة الليل، فيرى الناس دروبهم، ويطلبون أرزاقهم، ويضبطون أوقاتهم، ثم يبين الله تعالى أنه قد وضح للناس كل ما يحتاجون إلى توضيحه[3].

ويتضح من الآية السابقة أن علاقة الليل بالنهار هي علا قة محو، حيث يمحو ضوء النهار عتمة الليل فيبصر الناس ما حولهم من الأشياء[4].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٣٧.
(٢) انظر: معجم وتفسير لغوي لألفاظ القرين الكريم، حسن الجمل ٤/ ١٠٥.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٢٤.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٣٢.

رابعًا: اختتام آيات النهار بصفات الله والدعوة للتفكر:

خلق الله تعالى الجن والإنس ليعبدوه.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

ولتحقيق هذه الغاية العظيمة، فقد أعان الله تعالى عباده على الوصول إليه بالمعرفة الحقة، وذلك من خلال آثاره التي تركها في كل ما يحيط بهم من الأشياء، ومن هذه الآثار خلق النهار الذي لا يغفل عن أهميته أحد من الخلق، ومع ذلك فإن القرآن الكريم لم يترك مقامًا ينبغي فيه التذكير بهذه النعمة العظيمة إلا ويذكر بها العباد ويرشدهم إلى ضرورة التفكر في هذه النعمة، وفي عظمة خالقها جل وعلا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

يؤكد الله تعالى على ربوبيته، من خلال بيانه أنه الذي خلق السماوات والأرض، وأنه الذي جعل الليل والنهار، وأنه الذي سخر الشمس والقمر والنجوم بأمره جل وعلا، ثم ختم الله تعالى الآية ببيان أنه المتفرد بالخلق، وأنه صاحب الأمر النافذ في جميع

خلقه، وأنه رب العالمين جميعًا[1].

ويلاحظ من الآية السابقة أن الله تعالى قد ختم الآية السابقة بذكر صفة من صفاته، وهي صفة الربوبية؛ وذلك لتقرير أنه سبحانه المتفضل بخلق كل ما ذكر من النعم في هذه الآية الكريمة بواسطة أمره الذي هو جزء من كلامه جل وعلا، وهذا من شأنه أن يقود الناس إلى طريق الهدى والرشاد المتمثل في الإيمان بالله تعالى وحده.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

يبين الله تعالى في هذه الآية أنه الذي بسط الأرض طولًا وعرضًا، وجعل فيها الجبال الرواسي للأرض، والأنهار الجارية، وأنه الذي جعل في الأرض من جميع صنوف الثمار الطيبة، وجعل فيها الأزواج المختلفة من المخلوقات، وجعل فيها كذلك الليل والنهار، ثم ختم الله تعالى هذه الآية بالتأكيد على فاعلية تلك الآلاء عند أصحاب الفكر السليم في التعريف بخالقها جل وعلا[2].

ويلاحظ من الآية السابقة أن دعوة الله تعالى عباده إلى التفكر في ما أنعم به عليهم، إنما يأتي في سياق هداية الله تعالى عباده إلى طريق الحق والإيمان.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يدخل الليل في النهار حتى تقل فترة النهار شتاءً، ويدخل النهار في الليل حتى تقل فترة الليل صيفًا، ثم يختم سبحانه الآية ببيان أنه متصف بكمال السمع والبصر، وبالتالي فهو سميع لكل ما يصدر عن عباده، وبصير بكافة أحوالهم[3].

ويلاحظ أن الله تعالى قد ختم الآية السابقة بإثبات صفتي السمع والبصر لنفسه جل وعلا، ولعل المناسبة في ذلك أنه تعالى لما ذكر وبين في الآية ما يوجب الإيمان به وحده دون سواه، ناسب أن يختم الآية بالتنبيه على أنه جل وعلا بعد ذلك البيان سميع لما يصدر عن عباده من إيمان أو كفر، بصير بأحوال المؤمنين والمكذبين منهم، وفي ذلك بشرى لمن آمن، ووعيد لمن كفر.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٥/ ٦٤-٦٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٢٨-٣٣٠.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ١٣٥.

ينبه الله تعالى عباده في هذه الآية الكريمة إلى واحدة من أعظم نعمه وهي نعمة تعاقب الليل والنهار التي توفر للناس الراحة بعد التعب والمشقة، ويأتي التنبيه من خلال توجيه السؤال للعباد عن حالهم، فيما لو أن الله تعالى قد جعل النهار أبديًّا لهم دون أن يكون هنالك ليل يسكنون فيه، فهل هنالك حينها من سيأتيهم بليل يرتاحون فيه سوى الله تعالى؟، ثم يختم الله تعالى الآية بالسؤال الإنكاري عن عدم إبصار الكافرين المنكرين لهذه الآية الكونية العظيمة التي جعلها الله تعالى هداية وإرشادًا لكل مبصرٍ محقٍّ يوظف بصره لخدمة ذاته، وإرشاد نفسه إلى طريق الحق الذي لا مرية فيه[1].

ويلاحظ أن الآية السابقة قد ختمت بالتنبيه على ضرورة توظيف العقل نعمة الإبصار للنظر الدقيق في عظيم صنع الله تعالى في الكون، وتكمن ضرورة ذلك التوظيف في أنه الطريق إلى الهدى والرشاد، وقد ذم الله تعالى أولئك الذين منحهم أعينًا، ومع ذلك لا يستخدمونها في النظر إلى ما في الكون الذي يعيشون فيه من بديع صنع الله تعالى؛ للاستدلال على وجود خالقهم وعظمته.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

يخبر الله تعالى عباده في هذه الآية أنه الذي أوجد السماوات والأرض، وجعل كلًّا من الليل والنهار يلف الآخر، فالليل يلف النهار بعتمته، والنهار يلف الليل بضوئه، وأنه سبحانه الذي سخر الشمس والقمر، وجعل كل واحدٍ منهما يسير في مدارٍ خاصٍّ به بلا توقفٍ حتى يأذن جل وعلا، ثم يختم الآية ببيان أنه العزيز القادر على الانتقام ممن عاين تلك الآلاء فلم يؤمن بها، الغفار لمن نظر في بديع وعظمة صنعه فآمن بعد ضلال وتيه[2].

والملاحظ في هذا المطلب أن الله تعالى قد ختم آيات النهار تارة بالدعوة إلى التفكر؛ لإظهار حرص الخالق جل وعلا على هداية عباده من خلال العقل الذي منحهم إياه، وتارةً أخرى بذكر صفات الله تعالى؛ وذلك لتعريف العباد بخالقهم جل وعلا، وحثهم على الإيمان به، وتخويفهم من إنكاره.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٧٠.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ١٧٧.

القسم بالنهار

لم يدع القرآن الكريم أسلوبًا من أساليب التوكيد إلا واستخدمها لإثبات الحقائق ودحض الأباطيل، ومن هذه الأساليب أسلوب القسم، والذي يعرف بأنه: الحلف، أو اليمين[1].

وهو من أقوى أساليب توكيد الخبر، ويكون استخدامه في الحالات التي يكون المخاطب منكرًا للخبر الذي أخبر به.

وجاء القسم في القرآن الكريم طمأنةً لأصحاب الأنفس السوية، وإقناعًا لأصحاب النفوس التي شابتها شوائب الباطل بحقائق هذا الدين الحنيف، وقد جاء المقسم به في القرآن على ضربين، الأول: القسم بذات الله وبصفاته، الثاني: القسم بالمخلوقات، وقد جاء النوع الثاني في القرآن الكريم لأغراض منها:

١. إثباتًا لحقيقة وجود المقسم به، إذا كان مما ينكره بعض الناس، مثل القسم بالملائكة.

قال تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥].

وقد أقسم الله تعالى في هذه الآيات الكريمات بخمسة أصناف من الملائكة.

٢. بيانًا لعظمة المقسم به.

وذلك كقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١].

٣. لفت الأنظار إلى الكون وما فيه من عجائب.

قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ١-٣].

٤. تأكيد الخبر وتقريره.

قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣].

٥. إبراز المعقول في صورة المحسوس.

قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧-١٨].

فالقسم في هاتين الآيتين يعطي كلًّا من الليل والنهار صفةً حسية، فأعطى الليل صفة العسعسة والتي تعني الإقبال والإدبار[2]، وأعطى النهار صفة التنفس.

٦. الإشارة إلى أحداث تاريخية هامة.

قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١ - ٣].

فالقسم بالتين والزيتون فيه إشارة إلى الحدث الهام الذي شهدته المنطقة المشهورة بزراعته وهو بعثة سيدنا عيسى عليه السلام في فلسطين، والقسم بطور سينين فيه إشارة إلى الحدث الهام الذي وقع على جبل الطور وهو بعثة سيدنا موسى عليه

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٨٦.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ١٣٩.

السلام، والقسم بالبلد الأمين مكة إشارة إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم[1].

وقد جاء القسم بالنهار في القرآن الكريم على ضربين، هما:

- القسم بالنهار كله، وقد تكرر القسم به في القرآن الكريم مرتين؛ في قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢].
- القسم بجزء من النهار، وقد تكرر القسم بجزء من النهار خمس مرات، في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر:١]. وفي قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١].

مما سبق يمكن القول: إن القسم بالنهار كله أو جزء منه قد تكرر في القرآن الكريم سبع مرات، وهذا إن دل فإنما يدل على أهمية النهار عند الخالق والمخلوق، فهو من أعظم الموجودات عند الخلق؛ لدوره في هدايتهم المتمثلة في تمكينهم من إبصار ما حولهم من خلال ضوء النهار، وهو كذلك من أعظم المخلوقات عند الخالق جل وعلا؛ لدوره في هداية الخلق المتمثل في إيصالهم إلى الحق من خلال تفكرهم فيمن خلق النهار.

وقد جاء القسم بالنهار وأجزائه لعدة أغراض هي:

١. الحث على تزكية النفس، والتحذير من الفجور.

يتضح ذلك من خلال قسمه جل وعلا في سورة الشمس بعدة أمور من ضمنها النهار الواضح المضيء على ضرورة تعويد النفس على فعل الخيرات واجتناب المنكرات[2]، قال تعالى في بيان جواب القسم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩ - ١٠].

٢. التاكيد على تباين أعمال العباد.

يظهر ذلك من خلال قسمه جل وعلا في سورة الليل بعدة أمور منها النهار المضيء على اختلاف أعمال العباد، فمن أعمالهم ما هو صالح، ومنها ما هو طالح، قال تعالى في جملة جواب القسم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤].

٣. وعد المؤمنين بالتمكين في الأرض، والغلبة على عدوهم الكافر.

يفهم ذلك من قسمه جل وعلا في سورة الفجر بالفجر الذي يرمز إلى زوال ظلمة البغي، وسطوع نور الحق، كما يجلي ضوء النهار ظلمة الليل، دل على ذلك

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٧٤٥.

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٧١١.

جواب القسم وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وإن قيل بأن جواب القسم مضمر فتقديره: لينصرن الله المؤمنين، وليقهرن الكافرين، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ٨ - ١٣].

وقد نزلت سورة الفجر إبان احتدام المعركة بين الحق المتمثل في الإيمان، والباطل المتمثل بالكفر[(١)].

٤. التخويف من عذاب الله تعالى.

يتضح ذلك من قسمه جل وعلا في سورة المدثر بعدة أمور من ضمنها الصبح إذا أضاء على أن سقر أي: جهنم، هي إحدى الكبر أي: الأمور العظيمة[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٥-٣٦].

وجاءت ﴿نَذِيرًا﴾ منصوبة على أنها حال متعلق بفاعل قم المضمر في أول السورة[(٣)] في قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢].

فيكون المعنى: قم يا محمد نذيرًا للناس من عذاب الله تعالى.

٥. إثبات أن القرآن حق من عند الله تعالى.

ويتجلى ذلك من خلال قسمه جل وعلا في سورة التكوير بعدة أمور منها الصبح إذا أشرق على أن القرآن منزلٌ بواسطة الوحي جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

٦. التأكيد على عدم انقطاع الوحي عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

يظهر ذلك من خلال قسم الله تعالى في سورة الضحى بالضحى، وبالليل إذا سكن[(٤)]، على أن الله تعالى لم يترك محمدًا صلى الله عليه وسلم، ولم يبغضه، ولم يقله من المهمة التي أسندها إليه، قال تعالى في ذكر جواب القسم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣].

٧. حث الناس على المسارعة إلى عمل الصالحات.

يتضح ذلك من القسم بالعصر في سورة العصر على أن الإنسان لفي خسارة، باستثناء المؤمنين المداومين على عمل الصالحات، ومن الملاحظ أن السورة الكريمة قد

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤٢٤.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥١٨.
(٣) انظر: مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب ٢/ ٧٧٤.
(٤) انظر: معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن الكريم، حسن الجمل ٢/ ٢٩١.

وظفت أساليب التوكيد الثلاثة القسم في ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، وحرف التوكيد إن في ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ولام التوكيد في ﴿لَفِى﴾ للتشديد على أهمية المسارعة إلى عمل الصالحات.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ - ٢].

كما جاء القسم بالعصر للحث على المسارعة إلى فعل الخيرات، فلا متسع في الوقت أمام الإنسان؛ فالزمن في آخره، كما أن العصر في آخر النهار.

أجزاء النهار

اقتضت حكمة الله تعالى أن يقسم الليل والنهار إلى أجزاء؛ وذلك حتى يعين عباده على ذكره وحسن العبادة له، فمع كل جزء هنالك ذكر أو عبادة ينبغي على المؤمن ألا يفوتها حتى ينال أجرها من الله تعالى، وبما أن هذا البحث خاص بالنهار فسيكون الحديث عن أجزاء النهار فقط وهي كما يأتي:

أولًا: أول النهار:

١. الفلق وهو مبدأ ظهور النور صباحًا[١].

وهو مفرد جمعه أفلاق وفُلْقان[٢]، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

٢. الصبح وهو أول النهار[٣].

وصبح مفرد جمعها أصباح[٤]، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم في عدة مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ٣].

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٦٢٥.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٣١١.
(٣) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٦٢٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٠٢.

٣. الفجر وهو ضياء الصباح[١].

وهو وقت انكشاف ضياء الصباح قبيل الشروق[٢]، والفجر فجران، الأول: المستطيل ويطلق عليه ذنب السرحان، والثاني: المستطير وهو الذي ينشر ضياؤه في الأفق[٣]، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

٤. الغدوة وهي الفترة المحصورة ما بين أول النهار إلى الزوال.

أو ما بين أول النهار إلى طلوع الشمس[٤]، وهي مفرد جمعها غدوات[٥]، وقد جاء ذكر الغدوة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

٥. البكرة وهي بمعنى الغدوة[٦].

وقيل: هي بمعنى التقدم في أي وقت[٧]، وهي مفرد جمعها البكر[٨]، وقد ورد ذكر هذا التوقيت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

٦. الضحى وهو «وقت ارتفاع النهار وامتداده، وهو قرب منتصف النهار»[٩].

وهي جمع مفردها ضحوة[١٠]، وقد ورد ذكر الضحى في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩].

وفي سورة الضحى.

قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١].

٧. الشروق وهو طلوع الشمس، واسم الموضع منها مشرق، والجمع مشارق[١١].

وقد جاء ذكر هذا التوقيت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

ثانيًا: وسط النهار:

١. الظهيرة وهي حد انتصاف النهار، والظهر ساعة الزوال[١٢].

وقد ورد ذكر هذا التوقيت في القرآن

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٦/ ١١١.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ١٦٧٤.
(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ٣٩٤.
(٤) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ١٢٩.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢٢٨.
(٦) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٧/ ١٧.
(٧) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٧٧.
(٨) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٣٦٥.
(٩) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٢/ ١٣٥٠.
(١٠) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٨٣.
(١١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ١٦٢.
(١٢) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٣٧.

الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨].

يقول الخازن في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: « أي: تدخلون في الظهيرة وهي صلاة الظهر»[(١)].

٢. القيلولة وهي النوم في منتصف النهار[(٢)].

وهو التوقيت الذي يرتاح فيه الناس خلال فترة النهار، وقد ورد ذكر هذا التوقيت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

توجه هذه الآية الكريمة التهديد للكفار المجرمين، وذلك من خلال إخبارها بأن عذاب الله تعالى قد حل بأقوام خلال استمتاعهم بأوقات الراحة حيث كانوا يشعرون بالسكون والراحة والأمن[(٣)].

ثالثًا: آخر النهار:

١. الرواح وهو الوقت الممتد من الزوال إلى الليل[(٤)].

وقد ورد في السنة المطهرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لغدوةٌ في سبيل الله أو روحةٌ، خيرٌ من الدنيا وما فيها)[(٥)].

٢. العصر وهو وقت آخر النهار ينتهي قبيل الغروب[(٦)].

وقد ورد ذكر هذا التوقيت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر: ١].

وقد أقسم الله تعالى بالعصر في هذه السورة؛ لأنه يشمل آخر النهار وأول الليل[(٧)].

٣. الأصيل وهو الوقت المحصور بين ما بعد العصر إلى الليل[(٨)].

وأصيل مفرد جمعها آصال[(٩)]، وقد ورد ذكر هذا التوقيت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

يوجه الله تعالى عباده في هذه الآية الكريمة إلى ضرورة المداومة على ذكره

(١) لباب التأويل، الخازن ٦/ ١٩٢.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٢٣٢.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٨١.
(٤) انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الأزدي ص٥٥١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله، وقاب قوس أحدكم من الجنة، ٤/ ١٦، رقم ٢٧٩٢.
(٦) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٢/ ١٥٠٧.
(٧) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٦١١.
(٨) انظر: تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان الأندلسي ص٤٧.
(٩) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ١٦٩.

طمعًا في رحمته، وخوفًا من عقابه[1]، كما أثنى الله تعالى على أصحاب الهمم العالية من الذين يداومون على ذكره وشكره في المساجد في أوقات الغدو والآصال.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

٤. العشي وهو آخر النهار، وعشية مفرد، جمعها عشايا وعشيات[2].

وقد ورد ذكر هذا التوقيت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة وقتي العشية والضحى؛ لبيان أن الفاجر عندما يبعث يوم القيامة لن يشعر أنه قضى في الدنيا والقبر إلا فترة قصيرة من الزمن كفترة العشي أو الضحى[3].

النهار والعبادة

ما خلق الله تعالى الجن والإنس إلا ليعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وليتمكن العباد من تحقيق هذه الغاية، والمداومة على أدائها، فقد جعل الله تعالى الليل والنهار، فيكون في النهار السعي والجد في الطاعة والعبادة، وفي الليل تكون الراحة والسكينة والتزود بالطاقة للعودة للطاعة في اليوم التالي من جديد، وبهذا تستمر عبادة العبد بلا انقطاع حتى يلقى ربه جل وعلا، وهو راضٍ عنه، والنظر في كتاب الله تعالى يجد العديد من الآيات التي دعت إلى استثمار أوقات النهار في الطاعة والعبادة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

يحثُّ الله تعالى عباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة على إقام الصلوات المكتوبة النهارية منها والليلية؛ فإن أجور الطاعات عمومًا، والصلوات خصوصًا، يذهبن بأوزار السيئات، ثم يبين الله تعالى في ختام الآية أن ذلك الحث منه جل وعلا، إنما يأتي في إطار

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٤.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد عمر ومعه فريق عمل ٢/ ١٥٠٤.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٨٥.

الوعظ للعباد[1].

ويلاحظ من الآية السابقة أن الله تعالى أشد حرصًا على العباد من أنفسهم، فقد أمر الله تعالى عباده بأعظم العبادات أجرًا ضمانًا لمحو جميع أو أغلب الأوزار التي تسببت بها الذنوب، يفهم ذلك من ورود الجملة التعليلية ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، عقب الأمر بإقام الصلاة.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

يحثُّ الله تعالى عباده المؤمنين على الإنفاق على ذوي الحاجات، في كل الأوقات وجميع الحالات[2].

ويلاحظ من الآية السابقة أن الله تعالى وعد المتصدقين بالأجر والمثوبة؛ وذلك لأنهم يسارعون في الخيرات، فهم لايتقيدون بوقت محدد، ولا يشترطون حالة بعينها كي يقدموا الصدقة لمستحقيها، وإنما يبادرون إلى تقديم العون للمحتاجين متى عاينوا حاجتهم.

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

يرشد الله تعالى عبده ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة لزوم الصبر على أذى المشركين، والمداومة على الطاعة والعبادة[3].

ويلاحظ في الآية السابقة أن الله تعالى قد قرن بين عبادتي الصبر والشكر معًا، ثم وعد بإرضاء الصابرين الشاكرين بالأجر والثواب العظيمين، كما يلاحظ حثُّ الآية الكريمة على استثمار أوقات الليل والنهار في الذكر والتسبيح، وخصوصًا أوقات اليقظة.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

يبين الله تعالى لعباده أنه جعل تعاقب الليل والنهار حتى يتمكنوا من مواصلة الذكر والشكر له سبحانه على الوجه الذي يلقيق بجلال وجهه وعظيم سلطانه[4].

وتظهر الآية السابقة مدى رحمة الله تعالى بعباده، فقد جعل الليل ليعوض العبد ما فاته في النهار، وجعل النهار ليعوض ما فاته في الليل من العبادة والطاعة.

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٥٩٢-٥٩٥.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٨٢.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٣٠٢.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣١٨.

يأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة بالصبر على أذى المشركين واستهزائهم؛ فإن الوعد بالتمكين للمؤمنين، ونصرهم على عدوهم حقٌّ لا مرية فيه ولا ريب، ثم يعقب الله تعالى بعد هذه البشرى بتوجيه الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بلزوم الاستغفار والتسبيح، وخصوصًا في آخر النهار وأوله[(١)].

ويلاحظ من الآية السابقة أن الله تعالى قد خص وقتي أول النهار وآخره بالذكر خلال حثه عباده على الذكر، وفي ذلك بيان لأهمية النهار بالنسبة للذاكرين.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

يحث الله تعالى عباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة على الذكر والخشوع، ويحذرهم من الغفلة عن الذكر والطاعة[(٢)].

ومن الملاحظ في الآية السابقة تخصيص أجزاء من النهار بالذكر، وتتمثل هذه الأجزاء ببداية النهار ونهايته، ولعل ذلك راجع إلى إبراز النهار لآيات الله تعالى الباهرة في هذا الكون، فأثناء سعي العباد في الأرض نهارًا يمرون على العديد من الآيات الكونية التي تستدعي منهم الذكر والتسبيح.

وقال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

يأمر الله تعالى عباده في هذه الآية الكريمة بالمحافظة على الصلوات المفروضة عمومًا، وصلاة الفجر خصوصًا، وذلك لأن لصلاة الفجر ميزة خاصة؛ فإن ملائكة الليل والنهار يشهدون تلك الصلاة[(٣)].

ويلاحظ في الآية السابقة التركيز في الأمر بالمحافظة على الصلوات وعلى صلاة الفجر التي تكون في أول النهار، يظهر هذا التركيز من خلال تخصيص صلاة الفجر بالذكر فقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾، ومن خلال إعادة ذكر هذه الصلاة في الجملة التعليلية في فاصلة الآية الكريمة، وفي ذلك دلالة على أهمية وقت الفجر وعظم ثواب العمل الصالح فيه.

وقال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

يأمر الله تعالى عباده في هذه الآية الكريمة بالمحافظة على جميع الصلوات

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٧١٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٥٣.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٧٢.

المفروضة خصوصًا صلاة العصر[1].

وقد خص الله تعالى في الآية السابقة صلاة العصر بالذكر؛ لمزيد فضلها وفضل الوقت الذي تؤدى فيه هذه الصلاة، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي: طائعين[2].

وقال تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ٣-٥].

أقسم الله تعالى بخيل المجاهدين في سبيله التي تغير على أعداء الإسلام، فيثرن الغبار الكثيف أثناء العَدْوِ، ثم يتوسطن جمع الفجرة حين يكون الالتحام[3].

وقد خَصَّ الله تعالى وقت الصبح بالذكر لما في هذا الوقت من البركة والخير، يؤيد ذلك ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:(اللهم بارك لأمتي في بكورها)، وكان إذا بعث سريةً، أو جيشًا بعثهم من أول النهار[4].

وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

يبيح الله تعالى لعباده في هذه الآية الكريمة أن يأكلوا ويشربوا خلال فترة الليل في شهر الصيام، ثم يأمرهم بصيام نهار رمضان كاملًا بدءًا من أذان الفجر وحتى أذان المغرب[5].

وتشريع عبادة الصيام التي تنقي العباد من ذنوبهم، وتزيل خطاياهم في فترة النهار دليل على مدى قدسية هذه الفترة عند الله تبارك وتعالى، وعلى أهميتها البالغة في تعويد الناس على مكارم الأخلاق.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٣٥.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣١٠.
(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٣/ ٤٥١.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر، ٤/ ٢٤٧، رقم ٢٦٠٦. وصححه الألباني.
(٥) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٢٥.

النهار والعذاب

اقتضت سنة الله تعالى ألا يعذب أحدًا بذنوبه حتى يعرفه بسوء عاقبة الذنوب التي يرتكبها؛ لذلك أرسل الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

فإن بقي مُصِرًّا على التمادي في الظلم والطغيان، فسيأخذه الله تعالى حينها أخذ عزيز مقتدر.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

ومع أن الله تعالى قد بين لعباده هذه السنة إلا أن من الناس من لا ينتفع بالمواعظ والهدى؛ فما كان من الله تعالى إلا أن عذبهم بذنوبهم وفسادهم، وقد حدثنا الله تعالى في القرآن الكريم في غير موضع عن هذه الشريحة المعاندة، وعن المواعظ التي وجهت لهم قبل نزول العذاب بهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤].

يضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة مثلًا للحياة الدنيا من خلال تشبيهها بالماء النازل من السماء على الأرض، فيختلط ببذور الأرض، فينبت النبات، فتتزين الأرض وتتجمل بصنوف النباتات والزروع، حتى يظنَّ الناس بأنهم قادرون على قطف ثمارها، فيأتيها أمر الله تعالى بالتدمير والقطع، فتصبح وقد تغير شكلها، واختلف حالها، وخاب ظنُّ الناس فيها[1].

ويلاحظ في الآية السابقة أن الله تعالى عندما تحدث عن العذاب لم يحدد في أيِّ وقت بالضبط سيكون أفي الليل أم في النهار، وفي ذلك إشعار بانعدام الأمن في أي وقت من الأوقات، وبالتالي فإنه من الواجب على العباد كافة أن يبادروا إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى، وأن يحسنوا الإعداد ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وألا يغتروا بما في هذه الحياة الدنيا من الملذات والمتع.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

يَمُنُّ الله تعالى على عباده بأحد أعظم نعمه التي أكرمهم بها، ألا وهي نعمة ليل

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٣.

السكون بعد نهار السعي، ويأتي هذا المنُّ الإلهيُّ من خلال تحريك العقول وتنشيطها بالتفكر في الحال التي سيكون عليها الناس، لو أن الله تعالى قد جعل النهار طالعًا عليهم بشكل مستمر دون أن يعقبه ليل يستريحون فيه يا ترى كيف سيكون حالهم، وبعد توجيه هذا السؤال للناس يُعَقِّبُ الله تعالى بقوله ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا ترون كم أن الله تعالى رحيم بكم؟![1].

ويلاحظ من الآية السابقة أن الله تعالى ينبه عباده إلى قدرته على أن يحوِّلَ النعمة إلى نقمة، فمن الحق أنَّ النهار نعمة، ولكن بقاء النهار طالعًا دون أن يعقبه ليل يخلد فيه الناس إلى النوم والراحة بعد المشقة والتعب أثناء النهار أمرٌ يحوِّلُ النعمة إلى نقمة، ويمثل هذا التنبيه الإلهي دعوة للناس إلى الهدى والرشاد من خلال التفكر في نعمة تعاقب الليل والنهار.

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

يبين الله تعالى لعباده في هذه الآية الكريمة كثرة من أهلك من القرى الظالمة، حيث أتاهم العذاب في أوقات الراحة والسكون من ليلٍ أو نهار[2].

ويلاحظ من الآية السابقة أن الله تبارك وتعالى يحذر الناس من سخطه وانتقامه، فإنهم إن عتو عن أمر ربهم فسيأتيهم العذاب من حيث لا يحتسبون، وفي الوقت الذي لا يتوقعون، فربما يأتيهم العذاب في وقت نومهم وراحتهم أثناء فترة الليل حيث ينام الناس، أو في فترة القيلولة التي تعد من أهم أوقات الراحة والاسترخاء أثناء النهار.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠].

يظهر الله تعالى في هذه الآية الكريمة مدى سفاهة وجهالة المجرمين الذين يستعجلون عذاب الله تعالى أملًا منهم في إمكانية وجود فرصة للإيمان والتوبة حين تحل بهم العقوبة الربانية، وظنًّا منهم ببساطة تلك العقوبة، وقدرتهم على تحملها[3].

ويلاحظ أن في الآية السابقة تحذيرًا وتخويفًا من عذاب الله تعالى، الذي من الممكن أن يأتي في أي وقتٍ وحين، ليلًا أو نهارًا، وعلى نحوٍ لا يملك أحدٌ من الخلق تحمله من شدة هوله، ولا يكون حين نزوله أيُّ مجال للتوبة والندم.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٨].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن العقاب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣١٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٨١.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١١٥.

الإلهي النازل في قوم لوط عليه السلام الذين أفسدوا في الأرض فسادًا عظيمًا، فأنزل الله تعالى عليهم العذاب فأهلكهم[1].

ويلاحظ في الآية السابقة أن الله تعالى قد أنزل العذاب بقوم لوط في الصباح الباكر، وهذا مما يزيد العذاب قسوة وضراوة، فالصباح هو الوقت الذي يبث في نفوس الناس التفاؤل، ويرفع معنوياتهم، ويحفز طاقاتهم للعمل والجد والاجتهاد، ونزول العذاب في هذا الوقت يشكل صدمة كبيرة في النفوس، وبالتالي فإن ما حدث مع قوم لوط عليه السلام يعد من أهم الدوافع التي تدفع العبد إلى ضرورة المصالحة مع الله تعالى قبل الخلود إلى النوم، ومن أهم الدوافع أيضًا إلى ضرورة أن يبدأ المؤمن يومه بما يرضي الله تبارك وتعالى.

وقد كان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إذا أتى قومًا بليل لم يغر عليهم حتى يطلع الصباح[2]، وذلك لما في الصباح من البركة التي لا يجنيها إلا المؤمن الصادق، وأما الكافر الفاجر فالصباح عليه وبالٌ وغمٌّ، خاصة إذا بلغ المبلغ الذي يستحق معه العقوبة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٧].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٢١.
(٢) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ٤/ ٢٠٣.

النهار والسعي للمعاش

أنعم الله تعالى عباده بنعم لا تعد ولا تحصى.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

والذي يتأمل فاصلة هذه الآية يستشعر مدى عظمة المنعم جل وعلا، فهو مع كل ما يقدمه لعباده من النعم يتبع ذلك بالمغفرة والرحمة، على الرغم من تنكر كثير من العباد لما أنعم به الله تعالى عليهم.

قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وظلم الإنسان وكفره لا ينبعان من مجرد إعراضه عن شكر النعمة التي يدرك عظمتها فحسب، بل ينبع أيضًا من كونه يعلم علمًا يقينًا أنه لو فقد إحدى هذه النعم فلن يستطيع إيجاد بديل مكافىء عنها، ولو حك بيافوخه السماء ومع ذلك يبقى مصرًّا على جحوده ونكرانه، ومن بين هذه النعم الجليلة نعمة النهار.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة بأنه قد جعل النهار؛ لينطلق الناس إلى شؤون معيشتهم، كالسعي على الأرزاق، وطلب العلم النافع، وصلة الأرحام، وغير ذلك من الشؤون المعيشية المختلفة، وهذا من عظيم ما أكرم الله تعالى به عباده[1].

والمتأمل في نعمة النهار يجد أن منافعه المعيشية كثيرة وجليلة، وهي تتجاوز مجرد الإنارة للخلق ليبصروا طرقهم، وينطلقوا إلى شؤونهم، فنعمة النهار سبب في توافر الأكسجين في الهواء من خلال عملية البناء الضوئي التي تحدثها أوراق النباتات الخضراء نهارًا، كما أنها سبب في توفير الدفء والطاقة للأرض، كما أنها سبب في نعم أخرى كثيرة جدًّا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة بالقيام بعبادة قيام الليل العظيمة في أجرها وأثرها، كما يدعوهم إلى قراءة ما تيسر لهم من القرآن العظيم، وقد راعى ربنا جل وعلا في هذه الآية الكريمة

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٨٧.

ظروف المرضى، والمسافرين للتجارة، والمجاهدين في سبيل الله تعالى، فرخص الله تعالى لهؤلاء الأصناف ترك صلاة القيام لما تسببه لهم من مزيد المشقة والإرهاق[(١)].

ومن الملاحظ أن هذه الآية الكريمة راعت أصنافًا من الذين يكدون ويتعبون، والذين من ضمنهم الذين يضربون في الأرض من وجوب قيام الليل، وذلك قبل أن ينسخ هذا الحكم بتشريع الصلوات المفروضة، وبما أن السعي على الرزق بالضرب في الأرض يكون في النهار، فهذا يعني أن العاملين نهارًا بكدٍّ ومشقة طلبًا للرزق الحلال الطيب قد حازوا من الله تعالى على شرفٍ عظيمٍ يكافئ الشرف الذي حازه قائمو الليل.

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

يسوق الله تعالى في هذه الآية الكريمة لعباده جملة من العلامات الدالة على ربوبيته سبحانه، فذكر الشمس والقمر المستمرين في الحركة والظهور، ثم ذكر الليل والنهار المتعاقبين[(٢)].

ويلاحظ في الآية الكريمة وجود كلمة سخر التي تدل على التذليل، وكأن الله تعالى جعل الشمس التي تشرق في النهار، والقمر الذي يطلع في الليل لخدمة العباد، وقضاء مصالحهم، ولا يخفى على أحد دور الشمس التي تزود الأرض بأشعتها المضيئة في خدمة البشرية في كافة المجالات الصحية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغير ذلك من المجالات، كما لا يخفى على أحد أيضًا أهمية القمر، فهو يؤمن للناس العديد من لوازمهم في المجالات المختلفة.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٧].

يَمُنُّ الله تعالى في هذه الآية الكريمة بأن جعل لعباده نعمتي الليل والنهار، فجعل الأولى للراحة والنوم، وجعل الثانية للانتشار في الأرض طلبًا للأرزاق وقضاءً للمصالح المختلفة[(٣)].

ويلاحظ من الآية السابقة أن الله تعالى قد ذكر نعمتين، وذكر مع كل نعمة من النعمتين نعمة مصاحبة لها، فذكر نعمة السبات مع نعمة الليل، وذكر نعمة النشور مع نعمة النهار، وفي ذلك إظهار لفضل الله تعالى على العباد، ولإرادته الخير لهم، وبتأمل نعمة السبات يمكن القول بأن الله تعالى كان قادرًا على أن يدب النشاط في أجساد العباد ليلًا، ويجعل عندهم الدافعية

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٩٩.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٤٠٧.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣١٥.

للعمل والكسب في ذلك التوقيت الذي تتضاءل فيه القدرة على الرؤية عند الناس، ولكن الله تعالى بفضله قَلَّصَ دافعية الناس للعمل في الليل، وعزز رغبتهم في الراحة والسكون، وهذا ما ينسجم مع الليل المعتم، وبتأمل نعمة النشور يمكن القول بأن الله تعالى كان قادرًا على أن يجعل رغبة الناس في السكون والنوم نهارًا حيث تكون الرؤية واضحة، ولكنَّ الله تعالى جعل الرغبة في الجدِّ والإجتهاد والعمل في هذا التوقيت الذي ينسجم معه السعي والنشاط.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل: ٧].

يؤكد الله تعالى في هذه الآية أن النهار للسعي والجد والاجتهاد في طلب الأرزاق الطيبة، والعلوم النافعة، والعلاقات الجيدة وغير ذلك من المنافع المتعددة[(١)].

ويلاحظ من الآية السابقة أن الله تعالى يحثُّ عباده على العمل بجد وإتقان، يفهم ذلك من لفظة ﴿سَبۡحٗا﴾، فكما أن جسد السابح ينغمر في الماء أثناء السباحة، فلا بد للعامل أن ينغمس في العمل نهارًا، يؤيد ذلك وجود قراءة تفسيرية جاءت فيها لفظة ﴿سَبۡحٗا﴾ بالخاء بدلًا عن الحاء أي: «سبخًا» والتسبيخ هو النفش والتوسيع[(٢)]، ومن قال بأن التسبيخ هو التخفيف، فإنما قصد بذلك التخفيف في التكاليف[(٣)]؛ وذلك لإتاحة الفرصة أمام الناس للعمل والكسب، ولكن ذلك لا يعني بحال من الأحوال ترك العبادات للانشغال بالأعمال، فهذا أمر مذموم كما هو معلوم، وإنما المقصود هو التركيز على الأعمال مع مراعاة العبادات.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١٠-١١].

فهاتان الآيتان تتحدثان عن صلاة الجمعة التي ربما ينشغل عن أدائها البعض بحجة الانشغال بالعمل، وهذا ليس بالأمر المحمود؛ فكما هو معلوم أن ترك الصلاة لغير ضرورة شرعية أمر مرفوض.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٥١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٨٧.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٥/ ٣٨٨.

النهار والدعوة إلى الله تعالى

الدعوة إلى الله تعالى هي أهم وأحب الأعمال إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليٍّ رضي الله عنه يوم خيبر:(فوالله لأن يهدي بك رجلٌ واحدٌ خيرٌ لك من حمر النعم)[١].

وقد بعث الله تعالى رسله لدعوة الناس إلى دين الله تعالى، فقاموا بدورهم في الدعوة إلى الحق المبين، وبذلوا في سبيل ذلك الغالي والنفيس، فهذا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يقول:(لقد أخفت في الله وما يخاف أحدٌ، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحدٌ، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلةٍ وما لي ولبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ إلاّ شيءٌ يواريه إبط بلالٍ)[٢].

ومع ذلك لم يتقاعس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تبليغ ما أمره الله تعالى بتبليغه للناس ليلًا أو نهارًا، سرًّا أو علانيةً، متبعًا بذلك هدي من سبقه من الأنبياء عليهم وعليه أفضل الصلاة والتسليم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك الكلام حكاية عن نبيِّ الله تعالى إبراهيم عليه السلام الذي سلك مع قومه مسلك التدرج في الدعوة إلى الله تعالى، فبدأ حديثه عن الكوكب الذي رآه ليلًا، فلما غاب عن الأنظار لجأ للحديث عن القمر المنير ليلًا، فلما غاب لجأ للحديث عما هو أكبر وأعظم منهما، وهو الشمس التي تبزغ نهارًا، فلما غابت لم يبق أمامه سوى إعلان براءته من كل سوى الله جل وعلا[٣].

ويلاحظ من الآية السابقة أن ابراهيم عليه السلام قد استثمر جميع الأوقات الليلية والنهارية لدعوة قومه إلى الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك الكلام في مقام الحديث عن دعوة سيدنا نوح عليه السلام على قومه؛ لأنهم لم يستجيبوا لدعوته على الرغم من استخدامه معهم كافة وسائل الدعوة التي من شأنها أن تقنع كلَّ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام والنبوة، وألا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، ٤/ ٤٧، رقم ٢٩٤٢.

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٢٢٦، رقم ٢٤٧٢.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٦٢.

ذي لبٍّ بالحقِّ الذي يدعو إليه، فقال: يا ربِّ إني لم أترك أيَّ وقت إلا ودعوت قومي فيه إلى الحقِّ، ومع ذلك لم يؤمنوا[1].

ويلاحظ من دعوة نوح عليه السلام أنه أقام الحجة على قومه بأنه دعاهم إلى الهدى ليلًا ونهارًا فلم يهتدوا، ومن المعلوم أنَّ الدعوة النهارية هي أهمُّ الدعوات، ففي النهار يتجمع الناس، وتتناقل الأخبار، وتناقش القضايا المختلفة، وبالتالي فإنَّ نطاق انتشار الدعوة النهارية أوسع من نطاق انتشار الدعوة الليلية، مع عدم إغفال الدور الهامَّ للدعوة الليلية، والذي يمثل أساسًا ومنطلقًا للدعوة النهارية، أما السبب الذي من أجله قدمت الدعوة الليلية على النهارية في الآية الكريمة، فهو أنه لنجاح الدعوة إلى الله تعالى لا بدَّ من البدء سرًّا، ثم تتدرج حتى تصبح جهرية، يؤيد ذلك ما جاء في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث بدأ دعوته سرًّا، ثم انتقل للدعوة الجهرية عندما أصبحت الظروف ملائمة لذلك[2].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٠ - ٢٥].

تتحدث الآيات الكريمات عن رجل مؤمن كان معتزلًا للكفر والفجور، ولما سمع بخبر الرسل جاء إلى قومه مسرعًا، وأعلن إيمانه، ودعا قومه إلى اتباع هؤلاء الرسل والإيمان بهم[3].

ويلاحظ من الآيات السابقات أن الرجل المؤمن قد جاء يدعو قومه نهارًا، ومما يؤيد ذلك أمران هما:

الأول: أنه جاء من أقصى المدينة يسعى، والسعي هو الجري من غير شدة[4]، وهذا يحتاج كما هو معلوم إلى رؤية واضحة، والرؤية الواضحة لا تكون إلا في النهار.

الثاني: أنه لما أعلن إيمانه قال: إني آمنت بربكم فاسمعون، وبما أن الإعلانات لا تكون في الليل عادة، حيث يخلد الناس إلى النوم، وكما هو معلوم فإن النائم لا يخاطب، كما أن سمعه يهدأ كثيرًا، فيكون الحق والعلم عند الله تعالى أن الرجل المؤمن اختار لدعوته وقت النهار.

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

يأمر الله تعالى عبده ونبيه محمدًا صلى

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٢/ ٧٧٣١.

(٢) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري ص٣٣.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٦.

(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٢٢١.

الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن ينذر أقاربه من العذاب الأليم إن لم يؤمنوا، ويتبعوا ما جاء به من الهدى[1].

ويلاحظ من خلال النظر في تفسير هذه الآية الكريمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد باشر تنفيذ ما أمره الله تعالى به في أول النهار، وبالتحديد في الصباح.

يدل على ذلك ما جاء في سبب نزول سورة المسد، وذلك أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا، فصعد عليه، ثم نادى: يا صباحاه! فاجتمع إليه الناس: من بين رجلٍ يجيء، ورجلٍ يبعث رسوله. فقال: يا بني عبد المطلب! يا بني فهرٍ! يا بني لؤيٍ! لو أخبرتكم: أن خيلًا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟! قالوا: نعم. قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ. فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم! ما دعوتنا إلا لهذا؟! فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2].

ويستنبط من سبب النزول مما يدلل على على أن الدعوة كانت نهارية أمران، الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما استدعى عشيرته نادى قائلًا: «يا صباحاه»، وهذا يعني أن وقت الدعوة كان صباحًا، الثاني: أن أبا لهب لما شتم النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «تبا لك سائر اليوم»، والعرب تطلق لفظة اليوم على النهار كما هو معلوم.

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ٥٠٨.
(٢) أسباب النزول، الواحدي ص٤٩٩.

لمسات إعجازية في النهار

ميز الله تعالى القرآن الكريم بعدة ميزات من ضمنها أنه الكتاب السماوي الخالد، وما كان لهذه الميزة أن تكون لولا أن الله تبارك وتعالى تعهد بحفظه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وتعتبر هذه الميزة للقرآن الكريم من أجل ما أكرم الله تعالى به أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهي السلاح الذي يدافعون به عن دينهم ضد كل من تسول له نفسه أن ينتقص من شأن هذا الدين العظيم، ومما يزيد هذا السلاح فعالية كون القرآن الكريم معجزًا، وبهذا يكون القرآن الكريم كتابًا سماويًا خالدًا معجزًا، ويتمثل إعجاز القرآن في أنه لم يتمكن أحد من الخلق على أن يأتي بمثله، ولا حتى بواحدة من أقصر سوره، ومن المعلوم أنه قد جرت سنة الله تعالى في المعجزات أن يتحدى كل قوم بأمر يكون من جنس ما برعوا به، فقوم موسى عليه السلام برعوا في السحر، فأيده الله تعالى بالعصا التي دحضت سحر قومه، وقوم عيسى عليه السلام برعوا في الطب، فأيده الله تعالى بإعطائه القدرة على إبراء الأكمه والأبرص، وقد برع قوم محمد صلى الله عليه وسلم بالفصاحة والبلاغة، فأيده الله تعالى بالقرآن العظيم الذي أبهر بفصاحته وبلاغته جموع من شهدت لهم الدنيا بالفصاحة والبلاغة.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

عَبَّرَ الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن الشمس بالسراج، وهذا يدلل على أن الشمس عبارة عن نجم، والنجم كما هو معلوم عبارة عن جرم سماوي ملتهب، وبالتالي فهو يشكل مصدرًا للضوء، بينما لم يعبر ربنا جل وعلا عن القمر بالسراج؛ لأن القمر عبارة عن جرم سماوي معتم، وبالتالي فلا يشكل مصدرًا للضوء، وإنما يشكل مجرد عاكس للضوء الذي يأتيه من الشمس، وهذا هو السر الكامن وراء وصف القمر بأنه منير[(١)].

وتعد هذه الآية من أقوى الأدلة العلمية على صدق الوحي والنبوة، إذ كيف لمحمد صلى الله عليه وسلم الذي كان أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، والذي لم يثبت عنه أنه درس علوم الفلك أن يعرف بأن الشمس عبارة عن نجم ذاتي الإضاءة، وأن القمر عبارة عن جرم سماوي يعمل على عكس أشعة الشمس إلى الأرض ليلًا، لولا أن الله تعالى أوحى له بذلك؟

(١) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص١٨١.

وقال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ١-٤].

أقسم الله تبارك وتعالى في سورة الفجر بعدة أمور من ضمنها الفجر الذي هو جزء من النهار، على أنه سينصر أهل الإيمان على أهل الكفر، وقد أضمر جواب القسم[١] لدلالة السياق، وجَوِّ النزول عليه، أما السياق فالحديث كان فيه عن إهلاك الأقوام الفاجرة كعاد، وثمود، وفرعون، وبالتالي فهو يتضمن التهديد والوعيد لكفار مكة، أما الجو الذي نزلت فيه سورة الفجر فقد كان عنوانه الاضطهاد والقهر للمؤمنين من قبل أعداء الله الكافرين[٢].

ومن المعلوم أن الحذف من الإيجاز، والإيجاز من البلاغة.

وقال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣].

أقسم الله تعالى في سورة الضحى بفترتين محددتين من الزمن، الأولى هي فترة الضحى، والثانية هي فترة الليل، على أنه لم يترك نبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما روج المشركون، وأن فترة انقطاع الوحي عن الرسول صلى الله عليه وسلم هي فترة زمنية محدودة كفترتي الضحى والليل[٣].

ومن المعلوم أن من بلاغة القسم تناسبه مع جوابه.

وقال تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

أعطى الله تعالى الصبح صفة من صفات الأحياء وهي صفة التنفس، وهذا يعد من قبيل إضفاء الحياة للجمادات، ولعل السبب الكامن وراء تشبيه طلوع الصباح بعملية التنفس هو القواسم المشتركة بينهما وهي الحياة والحركة والتدرج[٤].

وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

يبين الله تعالى لعباده في هذه الآية الكريمة أن السبب في ظلمة الليل هو عملية سلخ النهار عن وجه الأرض، وبمجرد أن تتم عملية السلخ يكون الظلام قد عم وساد[٥].

ومن الملاحظ أن كلمة نسلخ جاءت مناسبة للعملية التي تحدث أثناء حلول الظلام بشكل تام، بحيث أنه لو استبدلت هذه الكلمة بغيرها من الكلمات المرادفة لها لما سدت الكلمة البديلة مسد كلمة نسلخ؛

(١) هذا الكلام على مذهب من قال بإضمار جواب القسم في سورة الفجر.
(٢) انظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة الطالبي ٢/ ٦٢.
(٣) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي ص٣٤٦.
(٤) انظر: القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص٢٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥١٦.

فعملية السلخ في الأصل تعني كشط الجلد عن الدابة بعد تذكيتها، وأثناء عملية السلخ يظهر لحم الدابة رويدًا رويدًا حتى ينفصل الجلد عن اللحم بصورة تامة عندما ينتهي الجزار من عملية السلخ، وهذا ما يحصل مع الليل والنهار، فسطح الأرض معتم بالأساس، وعندما تطلع الشمس فإن أشعتها تضيء ذلك السطح المعتم، فإذا جاء الليل تبدأ أشعة الشمس بالتلاشي شيئًا فشيئًا حتى يتم انفصال النهار بشكل تام عن الليل فيحل الظلام الدامس[(١)].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].

والملاحظ أن الله تعالى ذكر المشرق والمغرب بالإفراد في سورة البقرة، وذكر المشرقين والمغربين بالتثنية في سورة الرحمن، وذكر المشارق والمغارب بالجمع في سورة المعارج، والسبب في ذلك هو أن الله تعالى لما أراد الحديث عن جهتي الشرق والغرب ذكر المشرق والمغرب بالإفراد كما في سورة البقرة، ولما أراد بيان اختلاف مشرق الشمس صيفًا عن مشرقها شتاءً، وكذلك اختلاف مغرب الشمس صيفًا عن مغربها شتاءً ذكر المشرقين والمغربين بالتثنية، ولما أراد بيان اختلاف مشرق الشمس في كل يوم عن باقي الأيام بسبب اختلاف موقع الشمس الناجم عن دورانها في الفلك الخاص بها، وكذا الأمر بالنسبة لمغربها ذكر المشارق والمغارب بالجمع[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، الشمس، القمر، الليل، النور

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ١٩٨.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٥.

نوح عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بنوح عليه السلام	٨
ذكر نوح عليه السلام في القرآن الكريم	١١
مكانة نوح عليه السلام	١٢
صفاته وأخلاقه عليه السلام	١٤
دعوة نوح عليه السلام	٢٨
موقف قوم نوح عليه السلام من دعوته	٣٥
نوح عليه السلام وابنه وزوجته	٤٨
نوح عليه السلام والسفينة	٥١
نوح عليه السلام والنبوة في ذريته	٥٥
الدروس المستفادة من قصة نوح	٥٦

التعريف بنوح عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

ذكر الإمام ابن كثير في نسب نوح عليه السلام أنه «نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ، وهو إدريس عليه السلام بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام»[(١)].

وقيل: إن اسم نوح من مادة النوح العربية، ولكن المشهور أنه اسمٌ أعجميٌ معرب، إنما صرف؛ لأنه على ثلاثة أحرف فهو من ناح ينوح، ومعناه بالعربية (الساكن)[(٢)] وكان اسم نوح عليه السلام السكن، وسمي به؛ لأن الناس بعده سكنوا إليه، فهو أبوهم، فكأنه صار آدم الثاني بعد حادثة الطوفان؛ وذلك لانحصار النوع الإنساني بعده في نسله. وقيل: اسمه شاكر[(٣)].

وفي سبب تسميته عليه السلام بهذا الاسم أورد العلماء خمسة أقوال:

الأول: أنه كان ينوح على نفسه.

الثاني: أنه كان ينوح لمعاصي أهله وقومه.

الثالث: أنه كان ينوح لمراجعته لله عز وجل في ولده الذي غرق بالطوفان.

الرابع: أنه كان ينوح لدعائه على قومه بالهلاك.

الخامس: أنه مر بكلب مجذوم فقال له: اخسأ يا قبيح. فأوحى الله تعالى إليه: أعبتني يا نوح أم عبت الكلب؟[(٤)].

ومن الملاحظ أن هذه الأقوال متكلفٌ فيها؛ لأن الأعلام لا تفيد صفة في المسمى.

ثانيًا: حكمة تسمية سورة باسمه:

لقد ورد ذكر نوح عليه السلام في القرآن الكريم في ثلاثة وأربعين موضعًا[(٥)]، في حين ذكرت قصة نوح عليه السلام مفصلةً في القرآن الكريم في ست سور، كما أن القصة ذاتها مختلفة اللفظ في كل موضع حسبما يقتضيه السياق أو المعنى أو المحور الرئيسي للسورة.

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ١/ ٧٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٦٢، تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٤٨٨.
(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ٦/ ٤٣٦، التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري، ٣/ ٣٦٧، فتح البيان، صديق خان، ٩/ ١١١.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٣٧٤، التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري، ٣/ ٣٦٧.
(٥) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٢٢ وما بعدها.

وسورة نوح عليه السلام كغيرها من السور التي سميت بأسماء أنبياء كسورة هود ويوسف وإبراهيم عليه السلام على سبيل المثال، إلا أنه يتضح في السور التي سميت بأسماء أنبياء أنها لم تقتصر على ذكر النبي الذي سميت باسمه السورة، فربما تذكر قصصًا أخرى غيره أو تتطرق إلى مواضيع أخرى باستثناء سورة نوح عليه السلام، فهي السورة الوحيدة التي لم يذكر الله عز وجل فيها سوى قصة نوح عليه السلام وحدها، وربما يرجع السبب في ذلك إلى ما يأتي:

١- ذكر نوح عليه السلام في مفتتح السورة ومختتمها[(١)]، فقد ورد في أول السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [نوح:١].

وفي نهايتها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح:٢٦].

٢- طول لبث نوح عليه السلام في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك[(٢)].

٣- إنها السورة الوحيدة التي ذكرت قصة نوح عليه السلام مع قومه من بداية دعوته إلى إهلاكهم بالطوفان، مع التركيز على موضوع تكذيب قومه وتفصيله تفصيلًا تامًا[(٣)].

ثالثًا: زمانه ومدة مكثه في قومه:

اختلف العلماء في زمان نوح عليه السلام وبعثته، فمنهم من قال إنه بعد آدم عليه السلام. ومنهم من قال: إنه بعد إدريس عليه السلام. وقيل غير ذلك، فذكر الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣] ما رواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة)[(٤)].

كما استدل بقراءته التي تعتبر قراءة تفسيرية وهي: (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)، وبين ابن كثير أن هذا القول هو أصح سندًا ومعنىً؛ وذلك أن الناس كانوا في البداية على ملة آدم عليه السلام، وبعد أن طال العهد به عبدوا الأصنام، فبعث الله تعالى إليهم نوحًا عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى الأرض.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ١٠/ ١٥٨٨.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، ١٢/ ٥، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ١٣٣.
(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين، كتاب التفسير، وقال: صحيح على شرط البخاري، ٢/ ٤٤٢.

[البقرة:٢١٣][1]، ويؤيد هذا أيضًا ما ذكره الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران:٣٣] فقال: «اصطفى نوحًا بأنه أول رسول بعث بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر ذوي الأرحام، وأنه أب الناس بعد آدم»[2].

وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في الكون، فبعد أن تتغير معالم الحق، ويضل الناس طريق العبادة الصحيحة، فإنه عز وجل لا يترك الناس يتخبطون في غياهب الباطل، وإنما يرسل إليهم الأنبياء والرسل، وينزل عليهم الكتب السماوية، وهكذا إلى أن ختمت الرسالات برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب المنزل عليه القرآن العظيم.

هذا عن زمان نوح عليه السلام. أما عن مدة مكثه في دعوته لقومه فإنها هي المدة المحققة التي صرح بها القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت:١٤].

ومع هذه المدة الطويلة في دعوته عليه السلام لقومه إلا أنه لم يستجب لدعوته إلا القليل كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

ولعل الحكمة من ذلك تبدو في أن قصص الأنبياء مع أقوامهم عمومًا وقصة نوح عليه السلام مع قومه خصوصًا فيها تسرية وتسلية لقلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم حين آذته قريش أشد الإيذاء وهو في مكة، ومن خلال قراءة السيرة النبوية فالذين استجابوا مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاث عشرة سنة أكثر بكثير من الذين استجابوا لنوح عليه السلام في هذه القرون الكثيرة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا يعلمنا درسًا مهمًّا، ألا وهو أن الهداية بيد الله عز وجل، فهو الذي يملكها وهو علام الغيوب، فهذه عقيدةٌ يجب أن تكون راسخةً في قلب كل مسلم، فسبحانه هو الذي يملك القلوب، فجميع قلوب عباده بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والآيات القرآنية في مثل هذا المعنى كثيرة، ومنها على سبيل المثال قوله عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٢٥.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٣/ ١٣٢.

ذكر نوح عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر نوح عليه السلام في القرآن الكريم (٤٣) مرة، في (٢٨) سورة.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٥٩-٦٤
يونس	٧١-٧٣
هود	٢٥-٤٨
الأنبياء	٧٦-٧٧
المؤمنون	٢٣-٣٠
الشعراء	١٠٥-١٢٠
العنكبوت	١٤-١٥
الصافات	٧٥-٨٢
القمر	٩-١٦
التحريم	١٠
نوح	١-٢٨

مكانة نوح عليه السلام

لقد كان لنوح عليه السلام مكانة عالية، يأتي بيانها في النقاط الآتية:

أولًا: ثناء الخلق عليه:

فقد أثنى الله عز وجل على نوح عليه السلام؛ لما كان له من طول لبثٍ في دعوة قومه، وصبر شديد على ما لقيه منهم من أذى، فجعل الله تعالى جميع الناس من بعده وكل الأمم من الإنس والجن يثني عليه عليه السلام ثناءً حسنًا، وتذكره الأجيال من بعده ذكرًا جميلًا، وهذه سنة الله تعالى في عباده المحسنين المؤمنين، وهي أن ينشر لهم من ثناء الخلق عليهم على حسب إحسانهم[1]، فقال الله سبحانه وتعالى في هذا السياق: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات:٧٨-٧٩].

ومعنى الترك في هذه الآية: الإبقاء. وفعل الترك هو فعلٌ متعدٍ، ولكن مفعوله محذوف، فجعل فعلًا لازمًا فصار معناه كما يقول الإمام البقاعي: «أوقعنا عليه الترك بشيءٍ هو من عظمته، وحسن ذكره بحيث يعز وصفه»[2].

ثانيًا: إجابة دعوته:

أيضًا لما طال مكث نوح عليه السلام في دعوة قومه وكانت ألف سنة إلا خمسين عامًا، وبلغ دعوة الله تعالى على أكمل وجه، وصبر على بلاء قومه وأذاهم له، ومع ذلك فلم يؤمن معه إلا القليل، ولما ضاق نوح عليه السلام بقومه ذرعًا دعا الله تعالى أن يهلك قومه الذين كفروا بالله تعالى، وبما توعدهم به من العذاب، وكفروا بالنبوة التي أكرم الله تعالى بها نوحًا عليه السلام، فكان من جملة ما دعا به نوح عليه السلام قوله تعالى على لسانه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح:٢٦].

وقوله أيضًا: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر:١٠].

فما كان من الله عز وجل إلا أن أجاب عبده نوحًا عليه السلام، وأغرق الكافرين وأهلكهم بالطوفان، ونجاه عليه السلام وأهل الإيمان من ولده وأزواجهم من هذا الهلاك المفزع[3]، وفي هذا المعنى يقول الله عز وجل: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء:٧٦].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٠٥، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٣/ ١٠٦، التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص٤٤٩، التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، ٤/ ٢١٨.

(٢) نظم الدرر، البقاعي، ١٦/ ٢٤٧.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ٥٥، التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٢٤.

فـ(إذ): ظرف لما مضى من الزمان مبني في محل نصب بفعل محذوف، تقديره: واذكر نبأ نوح الواقع وقت دعائه، والفاء في ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ حرف عطف يفيد الترتيب والتعقيب، فتدل على سرعة إجابة الله تعالى بمجرد دعاء نوح عليه السلام إياه[1]، وورد أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ٧٥﴾ [الصافات:٧٥].

وقد تضمن نداء نوح عليه السلام واستغاثته بالله عز وجل أشياء كثيرة، منها: الدعاء على قومه، وطلب النصرة، وفي جميعها كانت إجابة الله تعالى متحققة وواقعة على أكمل وجه، وهي متمثلة في الآتي:

١. نجاة نوح عليه السلام والمؤمنين معه من الغم الشديد الذي أصابهم، وكذلك من الغرق الذي أصاب الكفار.
٢. إهلاك الكافرين بدعاء نوح عليه السلام، وجعل ذريته وحدها هي الباقية على قيد الحياة، ما سيأتي تفصيله في النقطة الآتية.
٣. إبقاء الله تعالى الثناء الحسن لنوح عليه السلام والذكر الجميل من الأمم التي بعده إلى يوم الدين[2].

ثالثًا: الذرية الصالحة:

وكما امتن الله تعالى على نوح عليه السلام بثناء الخلق عليه، وإجابة دعوته، امتن عليه أيضًا بالذرية الصالحة. فلما نجى الله تعالى نوحًا عليه السلام والمؤمنين الذين كانوا معه على متن السفينة التي أمره الله تعالى بصنعها من الطوفان الذي عم وجه الأرض، وأغرق الكافرين من قومه، كان أهل الأرض بعد ذلك من ذرية نوح عليه السلام[3]، وفي هذا المعنى يقول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصافات:٧٧].

فـ ﴿هُمُ﴾ في الآية ضمير فصل يفيد الحصر والتخصيص، فقد امتن الله تعالى على نوح عليه السلام لما أغرق الكافرين بأن جعل ذريته وحدها هي الباقية إلى آخر الدهر، وقد قال بعض العلماء: «نسل أهل السفينة انقرضوا غير نسل ولده، فالناس كلهم من ولد نوح»[4].

هذا بالإضافة إلى ما جعله الله تعالى من أمر النبوة في ذرية نوح عليه السلام.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٧٨.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢١٧٦.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٢/ ١٩٣.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٥٤٤.

صفاته وأخلاقه عليه السلام

من خلال استعراض مواضع الآيات التي ذكر فيها نوح عليه السلام وفيما يخص صفاته وأخلاقه فقد اهتديت إلى أن هذه الصفات والأخلاق يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: صفات نوح عليه السلام وأخلاقه مع الله تعالى:

لقد اتصف نوح عليه السلام بصفات أخلاقية مع ربه عز وجل، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. الإخلاص.

لقد وصف الله تعالى نبيه نوحًا عليه السلام بخالص الإيمان، وكمال العبودية لله تعالى، وشدة خضوعه وانقياده وتسليمه لأوامر الله عز وجل، ووصفه تعالى بهذه الصفة في معرض الحديث عن إهلاك الأمم السابقة التي كذبت أنبياء الله تعالى ورسله، فاستثنى عباد الله الذين أخلصهم للإيمان برسله من المنذرين الذين وقع بهم عقاب الله تعالى[(١)].

فيقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات:٧١-٨١].

ومن جملة عباد الله تعالى نوح عليه السلام، فقد مدحه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: كان نوح مخلصًا لله تعالى في عبوديته، كامل الإيمان واليقين[(٢)].

وكلمة (المخلصين) فيها قراءتان:

الأولى: بكسر لام (المُخْلِصين)، والمعنى: من آمن بالرسل من الأمم، فأخلص العمل والإيمان لله تعالى.

الثانية: بفتح لام (المُخْلَصين)، والمعنى: من آمن بالرسل، وكان قد أخلصه الله تعالى بالإيمان والتصديق في سابق علمه، فوفقه له[(٣)].

ويتبين أيضًا أن نداء نوح عليه السلام لله عز وجل بإخلاص كان سببًا في إجابة الله تعالى لدعوته[(٤)].

وقال أبو زهرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣]:

«أنه كان عبدًا يحس بنعمة العبودية

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٥٨.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٣٤.

(٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٩/ ٦١١٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٣٩.

لله تعالى، فلم يكن ذا جبروت، بل كان خاضعًا لله سبحانه وتعالى. والخضوع لله تعالى وحده هو العزة التي لا ذل فيها ولا استكبار»[1].

٢. الإحسان.

وصف الله تعالى نوحًا عليه السلام بصفة الإحسان هذه بعد تعداده للنعم التي أنعمها الله تعالى عليه من جعل الدنيا مملوءةً من ذريته، ومن إبقاء الثناء الحسن له على جميع ألسنة الناس، ومن إجابة دعوته، فهذه التكرمة لنوح عليه السلام وهذه التشريفات الرفيعة له؛ لأنه كان محسنًا لله عز وجل في أقواله وأفعاله، ومعروفًا بهذه الصفة،[2] فقال جل جلاله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾.

فجملة ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لاستحقاق نوح عليه السلام تلك التشريفات الرفيعة بكونه عليه السلام من زمرة المعروفين بالإحسان، ثم علل الله عز وجل هذا الاستحقاق للإحسان بأنه كان عبدًا لله تعالى مؤمنًا.

فهذا الوصف هو أقصى صفات المدح والتعظيم[3]، ففيه بيان أن أعظم الدرجات وأرفعها إلى الله تعالى هو الإيمان بالله عز وجل والانقياد لطاعته الذي ينبثق عنه كل الصفات الجليلة والأخلاق الحميدة.

كما تمثل إحسان نوح عليه السلام في مجاهدته لأعداء الله تعالى بالدعوة إلى دينه، والصبر الطويل على أذى قومه، ومطاولته لهم في سبيل الله تعالى، وغير ذلك من ألوان عبادته عليه السلام وأفعاله وأقواله[4].

٣. التوكل والثقة.

اتصف نوح عليه السلام بهذه الصفة، وتخلق بهذا الخلق، حيث دعا قومه على هذا الأساس فلم ييأس، ولم يمل، فقد دعاهم إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عامًا، سالكًا وآخذًا جميع السبل في ذلك -كما سيأتي في أساليب دعوته- فقال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح:٥-١٠].

فلما أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا هذا العدد القليل، ورأى أنه لم

(١) زهرة التفاسير، ٨/ ٤٣٣١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٤٠، فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٤٥٩.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٤٨، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٤٠.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٤٧٧، التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٢١١.

تعد هناك من فائدة في دعوة قومه، وأنهم مصرون على كفرهم وجحودهم، فقد حان الآن وقت المفاصلة، فقال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس:٧١].

وبالرجوع إلى تفسير هذه الآية الذي مر معنا نجد أن نوحًا عليه السلام قد واجه قومه، ولم يمتلك سوى رصيد الاعتماد والتوكل على الله عز وجل الذي أرسله إلى هؤلاء القوم، فقد حاول هدايتهم كثيرًا، ولكنهم لم يستجيبوا[1]. فقول نوح عليه السلام: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ نجد أنه حصر من يتوكل عليه وما يعتمد عليه في دعوة قومه على الله عز وجل وحده، وهذا مستفادٌ من تقديم شبه الجملة (على الله) على الفعل (توكلت). وفي هذا الكلام منه عليه السلام ما يدل على مدى وثوقه بنصر ربه الذي أرسله، كما يدل على عدم مبالاته بما يتوعده به قومه[2].

ثم إن قوله عليه السلام: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يظهر التحدي الكبير، فهو يطلب منهم أن يجتمعوا وشركاءهم على أمر واحد، وألا يكون هذا الأمر فيه خفاء أو غموض، ثم ينفذوا ما اتفقوا عليه دون تهاون أو تردد أو تأجيل، فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من هذا؟![3].

وفي هذا المعنى يقول سيد قطب «إنه التحدي الصريح المثير، الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئٌ يديه من قوته، واثق كل الوثوق من عدته، حتى ليغري خصومه بنفسه، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه! فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعًا؟ كان معه الإيمان القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير، وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان! إنه الإيمان بالله وحده، ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه، فليس هذا التحدي غرورًا، وليس كذلك تهورًا، وليس انتحارًا، إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية، التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان»[4].

ويخلص من هذا إلى أن الدعاة إلى الله عز وجل يجب عليهم أن يتخذوا من التوكل زادًا لهم في سبيل تبليغ هذه الدعوة،

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٠/ ٦٠٩٤.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٥٢.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٠/ ٦١٠٠.
(٤) في ظلال القرآن، ٣/ ١٨١١.

ولهم في ذلك أسوة بجميع الأنبياء والرسل وخاصة نوح عليه السلام، الذي مكث طويلًا وهو يدعو قومه دون سأمٍ أو ملل، فيجب عليهم أن يقفوا في وجه الطغاة، ولن يضرهم هؤلاء الطغاة إلا أذىً من أجل الابتلاء الذي يمحص القلوب حتى تعود الكرة للمؤمنين ويحق وعد الله تعالى لهم بالنصر والتمكين[(١)].

وأخيرًا فقد أعجبني كلام محمد رشيد رضا الذي عقب به على تفسير هذه الآية فقال: «هذه الآية من أبلغ آيات القرآن عبارة، وأجمعها على إيجازها للمعاني الكثيرة من علم النفس، ودرجة إيمان الأنبياء المرسلين وثقتهم بالله عز وجل، وشجاعتهم واحتقارهم لكل ما في الحياة الدنيا من أسباب الخوف من غيره والرجاء فيما سواه، وبيان خاتمهم لسنته تعالى فيهم وفي أقوامهم، وحسن وعظه لهم بوحي ربه تعالى، فهو يضرب لحاله ومقامه معهم مثل نوح مع قومه في غرور كل منهم بكثرتهم وقوتهم وتكذيبهم واحتقارهم لرسوله ولمن آمن معه من الضعفاء والفقراء، ولما يعتز به كلٌّ من الرسولين من التوكل على الله والاعتماد عليه في النصر والعزة وحسن العاقبة، والجزم بإهلاك المصرين على تكذيبه، ونجاة المؤمنين المتبعين له بجعلهم خلائف الأرض وأصحاب السلطان فيها»[(٢)].

٤. الشكر.

أثنى الله تعالى على نوح عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء:٣].

وقد وصف الله تعالى نوحًا عليه السلام في الآية المذكورة بوصفين:

الأول: أنه عبدٌ لله تعالى، معترفٌ له بالعبودية، غير متكبر بالإشراك، فكان يحس بنعمة العبودية لله جل جلاله، فلم يكن ذا جبروت، بل كان خاضعًا لله تعالى وحده، وهذا الخضوع هو الذي يحمل معنى العزة لنوح عليه السلام.

الثاني: أنه شديد الشكر لله تعالى على ما أنعم به عليه في سرائه وضرائه[(٣)].

وكلمة (شكور) هي صيغة مبالغة على وزن (فعول) التي تفيد الكثرة. فنوح عليه السلام كان دائم الحمد لله تعالى في كل فعل يقوم به، فقد روي عنه أنه: (كان نوح إذا طعم طعامًا أو لبس ثوبًا حمد الله، فسمي عبدًا شكورًا)[(٤)].

(١) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٨١١.

(٢) تفسير المنار، ١١/ ٣٧٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥/ ٢٧، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٨/ ٤٣٣١.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ٢/ ٣٦٠.

وفي هذه الآية تذكير لبني إسرائيل بأن الله تعالى قد نجى نوحًا عليه السلام من الهلاك بسبب شكره هو وشكر الذين معه في السفينة، ففيها تحريضٌ وحثٌّ لذريته على التأسي والاقتداء بنوح عليه السلام في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم لما أبقاهم واستخلفهم في الأرض،وأغرق غيرهم[1].

٥. الاستغفار.

ورد طلب نوح عليه السلام المغفرة من الله عز وجل في قوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٨].

فنوح عليه السلام وإن كان من الأنبياء الذين هم معصومون من الخطأ والذنب والزلل فإنه لا يسعه إلا حلم الله تعالى وعفوه ورحمته[2]، فكأنه يقول: يا رب، أسألك أن تغفر لي ذنوبي. فكان عليه السلام دائم الاستغفار لله عز وجل، فإن الاستغفار دواء الذنوب، وشفاء القلوب، وبه النجاة والأمان من الهلاك، كما أنه نعمةٌ وسببٌ في التخلص من كل بلاء ومصيبة، وكذلك هو سبب لحصول الرزق، بالإضافة إلى أنه سبب لحصول رضا الله جل جلاله.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥/ ٢٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٥٣.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٠/ ٤٥٩.

وقد أمر نوح عليه السلام قومه بالاستغفار حين قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

ولا يعقل أن يأمر قومه بفعلٍ ولا يأتيه، فهو أكثر الناس في زمانه عبودية لله تعالى، ومن ضمن خضوعه لله عز وجل طلبه المغفرة منه سبحانه وتعالى.

٦. بر الوالدين.

لما طلب نوح عليه السلام المغفرة من الله عز وجل لنفسه لم يقتصر على ذلك، فطلبها أيضًا لمن كانا سببًا في وجوده، وهما والداه، فقال في دعائه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٨].

ويذكر المفسرون أنهما كانا مؤمنين[3].

وفي تخصيصهما بالذكر تأكيد حقهما، وتقديم برهما، فهما أحق بالدعاء من غيرهما، ثم بعد ذلك عمم بالدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات؛ ليكون ذلك أبلغ في الدعاء[4].

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٦١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٣١٣.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٦٢١، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٣٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٩.

ويؤكد هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[1].

فيعتبر دعاء نوح عليه السلام لوالديه بالمغفرة من باب البر لهما.

ثانيًا: صفات نوح عليه السلام وأخلاقه:

لقد اتصف نوح عليه السلام بصفات وأخلاق، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. الإيمان بالدعوة.

لقد أثنى الله تعالى على نوح عليه السلام لما قال فيه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات:٨١].

هذا الإيمان هو الدافع المحرك للقوى الكامنة في نفس المؤمن، فيجعله دائمًا في شوقٍ للعمل بما يرضي الله عز وجل، كما يدفع صاحبه إلى تحقيق هدفه وغايته التي آمن بها، وإلى إخلاص العمل ليتحقق له ما يسعى إليه، فهذا الإيمان لا يترك صاحبه يهدأ حتى يرى جميع الناس قد دخلوا في دين الله تعالى، ويرى راية الحق والإسلام عالية خفاقة في كل مكان وزمان[2].

وتظهر هذه الصفة جليةً في شخصية نوح عليه السلام في الآية التي فاصل فيها قومه، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس:٧١-٧٢].

وقد تقدم تفسير الآية سابقًا بالإضافة إلى إبراز صفة التوكل عند نوح عليه السلام، وبالرجوع إلى تفسير الآية مرة أخرى يتجلى لنا الفرق الجذري بين موقف نوح عليه السلام وموقف قومه.

أما نوح عليه السلام فقد كان يمثل موقف المؤمن الجريء الجسور الذي لا يخشى الصعاب، ولا يعرف التردد والتراجع، ولا يهاب الموت في سبيل دعوته، ويتحدى جميع الخلق فيما يريدون أن ينفذوه فيه، هذا كله؛ لأنه مؤمن بدعوته. أما موقف قومه فكان موقف الهياب الضعيف الجبان المتخاذل المتردد، الذي لم يكن باستطاعته أن يتخذ موقفًا أو قرارًا حاسمًا بشأن نوح عليه السلام، الذي كانت هيبة الإيمان تعصمه وتحميه من مكائدهم ومخططاتهم الشريرة[3].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، عن أبي هريرة، رقم ١٦٣١، ٣/ ١٢٥٥.

(٢) انظر: أسس الدعوة وآداب الدعاة، محمد السيد الوكيل، ص٩٣.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١١/ ٢٢٩.

٢. القدوة الحسنة.

إن الداعية يكسب لدعوته بسلوكه الحسن وأخلاقه الحسنة ما لا يكسبه بكلماته وخطبه ومواعظه العديدة، فالقدوة الحسنة تعتبر دعوةً صامتة، فالناس يتأثرون بسلوك الدعاة العملي أكثر من الخطب الرنانة، فكيف يطلب الدعاة من الناس تنفيذ أمر معين وهم لا يفعلونه، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤].

وتظهر هذه الصفة واضحة في شخصية نوح عليه السلام عندما قال لقومه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢].

فكأنه يقول لهم: أنا أول داخل في هذا الدين الذي أدعوكم إليه، وأول فاعل لما أمرتكم به[(١)]. فهو مستقيمٌ على شرع الله عز وجل.

٣. العمل والقدرة على الكسب.

إن من المروءة أن يكسب الإنسان رزقه من تعبه وجهده وعمل يده، وكان أنبياء الله تعالى ورسله يعملون، ولم يكن منهم أحدٌ عالة على أحد، وقد أرشدهم الله تعالى إلى الصناعات؛ لعظيم نفعها، فنوح عليه السلام قد أمره الله تعالى بصناعة السفينة التي سوف يسلك فيها طريق النجاة هو ومن آمن معه.

يقول الله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود:٣٧-٣٨].

هذا يعني أنه كان نجارًا، وإلا كيف يصنع السفينة وليس لديه علمٌ بهذه الصناعة؟! وقد روي من حديث ابن عباس أن داود كان زرادًا يصنع الزرد والدروع، وكان آدم حراثًا، وكان نوح نجارًا، وكان إدريس خياطًا، وكان موسى راعيًا[(٢)].

وفي ذلك إعلاءٌ لشأن العمل ودليلٌ على شرف العاملين، كما في الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[(٣)].

٤. علو الهمة.

ذكر الجرجاني في تعريف الهمة قوله: «توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٦٩.

(٢) ذكره الألباني في كتاب تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، رقم ٣٤، وقال: لم أره مرفوعًا. ١/ ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، عن المقدام، ٣/ ٥٧، رقم ٢٠٧٢.

إلى جانب الحق؛ لحصول الكمال له أو لغيره»[1]. هذا وقد أثنى الله عز وجل على أصحاب الهمم العالية وفي طليعتهم ومقدمتهم الأنبياء والرسل عمومًا، وأولو العزم خصوصًا، وعلى رأسهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم [2]، فقال عنهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ونوح عليه السلام هو أحد أولي العزم من الرسل، وتجلت همته العالية في مجاهدته في إعلاء كلمة الله عز وجل، والدعوة إلى الحق ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهرًا[3]. فهو عليه السلام لم يتوان لحظةً، ولم يقصر طرفة عين في دعوة قومه إلى توحيد الله تعالى، فطال مكثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفي هذا دعوة إلى الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى بعلو همتهم في هذا المجال.

٥. الثبات.

لما عجز قوم نوح عليه السلام عن جداله وانهزموا أمام دعوته وحجته ومنطقه القوي السليم لجأوا إلى التهديد الصريح للرسول الذي جاءهم من عند الله تعالى ليدعوهم إلى الخير وإلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وهذا التهديد منهم يدل على أنهم كانوا أقوياء، وأنهم أصحاب جاه وبطش، وأنهم قادرون على إنفاذ تهديدهم، وهذا التهديد هو سلاح الطغاة دائمًا عندما لا يجدون حجة قوية يواجهون بها صاحب الحق، فقالوا له: إذا لم تنته عن دعوتك هذه فسوف نرجمك بالحجارة حتى الموت. ولكن نوحًا عليه السلام لم يخفه هذا التهديد فظل ثابتًا على موقفه ومبدئه، وقابل هذا التهديد بكل أدب وثبات، فما كان منه إلا أن شكا قومه إل الله تعالى طالبًا منه أن يفصل بينه وبينهم[4]، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨].

٦. الولاء والبراء.

عندما رفض ابن نوح أن يؤمن ويستجيب لدعوة أبيه عليه السلام وهلك وكان من الغارقين، دفعت عاطفة نوح عليه السلام إلى معرفة مصير ابنه، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:٤٥].

فأجابه الله عز وجل بقوله: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود:٤٦] لأنه بكفر ابنه وجحوده انقطعت الولاية بينه وبين ابنه، فقد عمل أعمالًا ليست صالحة، وبذلك صار ليس من أهله، وأرشده الله تعالى إلى عدم

(١) التعريفات، ص٢٥٧.
(٢) انظر: علو الهمة، محمد المقدم، ١/ ١٢٨.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٢١٤.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي، ١٧/ ١٠٦٢٦، التفسير المنهجي، صلاح الخالدي، ٧/ ١٠٣.

السير والانقياد وراء عاطفته وشفقته عليه، فاستعلى نبي الله نوح عليه السلام على عاطفته، ورضي بحكم الله تعالى، فما كان منه إلا التسليم المطلق والاتباع لما يحبه الله تعالى ويرضاه، والولاء كذلك لمن يحبه الله، والبراء والعداء لمن حاد الله تعالى، ولو كان ابنه وزوجته التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم:١٠].

٧. الصدق.

وصف الله تعالى نوحًا عليه السلام بهذه الصفة في معرض الحديث عن أخذه الميثاق الغليظ من الأنبياء عمومًا، وخاصةً أولي العزم من الرسل، ونوح عليه السلام أحد أولي العزم الخمسة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب:٧-٨].

والمعنى: اذكر أيها الرسول الكريم وقت أن أخذنا العهد الوثيق من جميع الأنبياء السابقين على أن يبلغوا دين الله عز وجل، وأن يجاهدوا في سبيل تحقيق تلك الغاية بإخلاص العبادة لله جل جلاله، وعلى أن يصدق بعضهم بعضًا في أصول الشريعة ومكارم الأخلاق، وقد أخذ الله تعالى هذا العهد والميثاق منك أيها الرسول ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام الذين هم أولو العزم من الرسل، الذين تحملوا في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى أكثر مما تحمله غيرهم من الأنبياء، والسبب في أخذ الله عز وجل هذا الميثاق الغليظ ليسأل الأنبياء عن كلامهم الصادق الذي قالوه لأقوامهم، وماذا رد عليهم أقوامهم[(١)].

ولكن الله تعالى يعلم أن هؤلاء الأنبياء صادقون، فلماذا سوف يسألهم يوم القيامة عن صدقهم في تبليغ الرسالة؟ والجواب على هذا السؤال يكمن في حكمتين:

الأولى: أن في هذا السؤال تشريفًا لهؤلاء الرسل وتكريمًا لهم، فيثيبهم جنات النعيم[(٢)].

الثانية: فيه توبيخ للمكذبين لأنبيائهم فيما جاءهم به هؤلاء الأنبياء من كلام صادق وإرشاد حكيم، وفيه وعيد لهم؛ لأنه إذا كان الأنبياء سوف يسألون فكيف بغيرهم؟! فيعذبهم العذاب الأليم[(٣)].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٥٩، التفسير الوسيط، طنطاوي، ١١/ ١٧٨.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، ١١/ ١٧٨.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٠٤.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن يكون الداعية صادقًا في دعوته؛ لأن المقصد من هذه الدعوة هو هداية الناس إلى البر والتقوى، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فكيف يحقق الداعية هذا وهو غير صادق؟!. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب أن يكون صادقًا في قوله؛ لأنه يبلغ دعوة الله تعالى كما جاءت، فما يقوله ليس تعبيرًا عن رأيه الشخصي، فهذا يدفع المدعوين إلى تصديقه والاستجابة له.

٨. الأمانة.

أخبر الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام لما كان يدعو قومه إلى توحيد الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء:١٠٦-١٠٨].

وقول نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يخرج على قولين:

الأول: ذكر المفسرون أن نوحًا عليه السلام قد تخلق بهذا الخلق قبل بعثته، فإن قومه كانوا يعرفون صدقه وأمانته من قبل، كصدق محمد صلى الله عليه وسلم وأمانته في قريش قبل بعثته.

والمعنى: كنت أمينًا فيكم قبل دعوتي إياكم إلى الله تعالى، فتصدقونني في جميع ما أخبركم به، فما بالكم لا تصدقونني الآن لما أخبرتكم أني رسول الله إليكم؟![1]

الثاني: كأن نوحًا عليه السلام يقول: إني لكم رسول من الله تعالى، أمينٌ على وحيه إلي بإرساله إياي إليكم، جعلني الله تعالى أمينًا فيما بعثني به، أبلغكم رسالة ربي لا أزيد فيها، ولا أنقص منها شيئًا، وأؤدي الأمانة شئتم أم أبيتم، قبلتم الدعوة أم توليتم، فقد وضح لكم صدقي، وبانت أمانتي فيما بعثني الله به وائتمنني عليه، فأنا لا أخاف ما تتوعدونني به[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الداعية يجب عليه أن يكون مشهورًا بالأمانة بين الناس؛ حتى يصدقوا ما يدعو إليه ولا يتهموه بما قد كان منه إذا لم يكن كذلك.

٩. النصيحة.

هذا الخلق يتضمن الرحمة بالناس، والشفقة عليهم، والرأفة بهم، والحرص على إنقاذهم من الضلالة إلى الهداية؛ لئلا يتعرضوا لعذاب الله عز وجل وعقابه.

فهذا نوح عليه السلام يقول الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٧٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١١٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٣٦٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٥١، وتأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٧٠.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾ [الأعراف:٥٩-٦٢].

والمعنى: أن الله عز وجل بعث نوحًا عليه السلام إلى قومه؛ ليدعوهم إلى إفراد الله تعالى وحده بالعبودية؛ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه عز وجل مخلوقٌ مدبرٌ له، ليس له من الأمر شيء. وكأنه يقول لهم: يجب عليكم أن تخضعوا لله تعالى بالطاعة وإخلاص العبادة له، فليس لكم من إله يستحق العبادة غيره، فإن لم تفعلوا وبقيتم على ما أنتم عليه من الكفر والجحود فإني أخاف عليكم أن يحل عليكم يومٌ يعظم فيه بلاؤكم[1].

ويقصد بهذا اليوم يوم الطوفان الذي هلكوا فيه جميعًا في الدنيا، أو يوم القيامة الذي ينتظرهم فيه العذاب في الآخرة.

فقول نوح عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعد من «نصحه عليه السلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي والشقاء السرمدي، كإخوانه المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم»[2].

كما أن قوله عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أن وظيفتي هي أن أبلغكم ما أرسلني به الله عز وجل إليكم ببيان توحيده وأوامره ونواهيه؛ أني أقصد لكم الصلاح والخير والفلاح في الدنيا والآخرة[3]، وأعلم من الله تعالى ما لا تعلمونه.

فهو يعلم عن طريق الوحي من أمر الله وسنته في خلقه وما يتبع هذه الدنيا من أحوال الآخرة ما لا يعلمون، ويعلم أن الله ذو القوة المتين، وأنه يبطش بالمكذبين المعاندين، وقوم نوح لا يعلمون ذلك لأنهم أول أمة عذبها الله بكفرها، فأزالها من على وجه الأرض، ولم يبق إلا من آمن مع نوح. قال ابن كثير: «وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا فصيحًا، ناصحًا بالله، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات»[4].

وهكذا عندما يتحلى الداعية بهذا الخلق، فإنه يتبين لدى المدعوين مدى حرصه على هدايتهم؛ لئلا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا يكون على وجه النصيحة لهم والشفقة عليهم فيلتفوا حوله، ويسمعوا منه، ويستجيبوا له. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩٢، التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص١٥٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩٢.

(٣) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٤١٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٣٢.

في الحديث: (الدين النصيحة) قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1].

١٠. الزهد.

عند الاطلاع على قصة نوح عليه السلام في مخاطبته لقومه نجده يقول: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [يونس:٧٢].

وفي موضع آخر يقول: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود:٢٩].

فإنه يؤكد على أن عدم استجابتهم لدعوته لا يعود إلى سؤاله المال منهم، فيثقل عليهم مكافأته[2] عند استجابتهم، أو يثقل عليه عند إعراضهم وتوليهم[3].

وكذلك نجد في قصص الأنبياء مع أقوامهم أن جميع الأنبياء والرسل عندما كانوا يخاطبون أقوامهم يبينون لهم أنهم لم يطلبوا من وراء دعوتهم مالًا أو أجرًا على ذلك أو مقابل استجابتهم، فيقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا. فيمتنعون عن قبول الدعوة. فكأن الرسل عليهم السلام يقولون لأقوامهم: «لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة، لكنا لا نريد منكم أنتم أجرًا، إنما سنأخذ أجرنا من رب العالمين؛ لأن المنفعة التي نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقومها، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج سبحانه وتعالى ومنزله على رسله»[4].

وعليه، فإن هذه الصفة هي سنة مطردة عند جميع الأنبياء والمرسلين، فهم لا يطلبون لأنفسهم أجرًا مقابل دعوتهم، ولا يؤملون لأنفسهم عند أقوامهم قدرًا ومكانة، فعملهم -الذي هو تبليغ الدعوة لله عز وجل - لا يطلبون عليه شيئًا من غيره جل جلاله، فمن سلك من الدعاة والعلماء سبيلهم ومسلكهم واقتفى أثرهم فإنه سوف يحشر في زمرتهم، ومن أخذ على إصلاحه عوضًا من أحد، أو اكتسب بسداد رأيه جاهًا لم ير من الله تعالى إلا ذلًّا وهوانًا وصغارًا[5].

فهذه الصفة هي من أهم الصفات في نجاح الداعية في مهمته؛ لأنه إذا تعلق قلبه بالدنيا واشتغل بتحصيلها كان هذا حائلًا بين الداعية والناس، فلا يسمع أو يستجيب له أحد؛ لذلك يجب على الداعية أن يزهد عما في أيدي الناس فضلًا عن أن يكون كريمًا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، عن تميم الداري، ١/ ٧٤، رقم ٩٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٦٥.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٥٥.
(٤) تفسير الشعراوي، ١٠/ ٦١٠٦.
(٥) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٢/ ١٣٣.

حتى يجمع الناس حوله ولا ينفرهم.

١١. الصبر.

تخلق نوح عليه السلام بهذا الخلق الرفيع، فقد تحمل أذى قومه تسعمائة وخمسين عامًا وهي أطول فترة دعوة، واستخدم معهم جميع الأساليب والوسائل الدعوية إلا أنهم كانوا يكذبونه ويزجرونه، ويتهمونه بالجنون والسخرية والاستهزاء، فلما بلغ السيل الزبى دعا ربه فقال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر:١٠].

وقال في آية أخرى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

فأجاب الله تعالى سؤاله، وانتصر له من قومه، فقال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات:٧٥-٧٦].

وعليه، فإن الصبر على الأذى هو سلاحٌ قويٌّ يجب على الداعية التسلح به؛ ليصل إلى بغيته ويحقق به آماله وطموحاته.

١٢. الحلم.

كثيرًا ما أوذي نوح عليه السلام من قومه أشد الإيذاء، وبما أن دعوته فيهم طالت فلنا أن نتخيل حجم هذا الإيذاء طيلة هذه القرون، وعندما كان نوح عليه السلام يواجههم ويخاطبهم في أمر الدعوة كان لا يلقى منهم إلا الكذب والزجر والاتهام بالسخرية والاستهزاء، هذا بالإضافة إلى التهديد الصريح المباشر الذي كانوا يلجؤون إليه عندما لا يجدون منطقًا سليمًا وحجة قوية يردون بها على نوح عليه السلام، فقد هدد عليه السلام بأنواع كثيرة من التهديدات، وأقسى ما هدد به هو الرجم حيث قالوا: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء:١١٦].

ومع ذلك لم نجده عليه السلام قد ثأر لنفسه ولو مرة واحدة فقط، وإنما كل ما فعله أن توجه إلى الله عز وجل بالدعاء، وقال بكل بساطة: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨].

من أجل هذا يعد الحلم هو سيد الأخلاق التي يجب على الداعية أن يتحلى بها؛ لأنه يواجه أقوالًا وتصرفاتٍ كثيرةً من شأنها أن تثير غضبه، فإذا لم يتحل الداعية بهذا الخلق نفر عنه الناس ولم يجتمع عتيه أحد، ومن ثم لن يستطيع أن ينجح في مهمته.

١٣. التواضع.

تخلق نوح عليه السلام بهذا الخلق الرفيع أيضًا، فمن خلال الحوار الذي دار بينه وبين قومه لأجل الدعوة نجد أنهم اشترطوا على نوح عليه السلام أن يطرد الذين آمنوا معه من الضعفاء والفقراء، أو أن يخصص لهم

مجلسًا خاصًّا بهم لا يلتقون فيه مع هؤلاء الضعفاء والفقراء الذين سموهم أراذل القوم، وهذا من باب استكبارهم وأنفتهم وترفعهم، ولكن نوحًا عليه السلام رفض هذا الطلب، وبين لهم أنهم يجهلون الميزان الحقيقي الذي يوزن به الناس عند الله عز وجل، وهو الإيمان، فهؤلاء المؤمنون في رعاية الله تعالى وحمايته، وليس بالموازين الوضعية الحقيرة التي يزنون بها من الغنى والثراء[1]. فقال الله تعالى مصورًا هذا الموقف على لسان نوح عليه السلام:

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾

[هود:٢٩-٣٠].

فيظهر تواضع نوح عليه السلام في عدم طرده للمؤمنين معه الذين هم من طبقة الضعفاء والفقراء، بل تواضع لهم، وأجلسهم في مجلسه، يتدارس وإياهم سبل التقرب إلى الله عز وجل. وهكذا يكون نوح عليه السلام قد خفض جناحه وتودد لهؤلاء المؤمنين به وبدعوته.

ويتبين من هذا أن الداعية يجب عليه أن يتحلى بهذا الخلق؛ حتى يكون قادرًا على جمع الأنصار حوله، فبالتواضع يحبه الناس، ويلتفون حوله، ويستمعون إليه، ويتأثرون به؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف: (وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ)[2].

هذا على صعيد الناس، أما عند الله تعالى فإن صاحب هذا الخلق يزيده الله تعالى رفعةً وقدرًا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: (وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله)[3].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ١٨٧٤، التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار، عن قتادة، ٤/ ٢١٩٨، رقم ٦٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، عن أبي هريرة، ٤/ ٢٠٠١، رقم ٦٩.

دعوة نوح عليه السلام

أولًا: اصطفاؤه وتكليفه بالرسالة:

أخبر الله عز وجل في جملة من آياته أنه اختار مجموعة من الأنبياء الذين هم أولياؤه وأصفياؤه وأحباؤه، فأحاطهم الله تعالى برعايته وعنايته، ومن هؤلاء نوح عليه السلام، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران:٣٣].

ولم يقف الأمر عند حد الاصطفاء، بل جعله الله عز وجل أهلًا لحمل رسالته، فقال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء:١٦٣].

كما أنه عليه السلام من أولي العزم من الرسل، كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧]، فكان نوح عليه السلام أول رسول يذكر في موكب الأنبياء والرسل، فهو شيخ المرسلين.

هذا، وإن مسوغات وموجبات اصطفائه واجتبائه أمورٌ خمسة، وهي كما يأتي:

الأول: إن الله جل جلاله جعله أبا البشر فإن الله تعالى عندما عذب قومه بالطوفان كان الناس كلهم قد غرقوا وصارت ذريته هم الباقين؛ فيعتبر نوح عليه السلام هو أبو البشر الثاني بعد آدم عليه السلام.

الثاني: إن الله تعالى أطال عمره، فقد مكث في الدعوة فقط ألف سنة إلا خمسين عامًا، بالإضافة إلى عمره قبل تكليفه بالرسالة، وإلى عمره بعد نجاته والمؤمنين من الطوفان.

الثالث: إن الله عز وجل استجاب دعاءه لما دعا على الكافرين من قومه، فأهلك الله تعالى بدعائه أهل الأرض.

الرابع: إن الله سبحانه وتعالى حمله على السفينة التي أمره بصنعها؛ لينجيه والمؤمنين معه من الطوفان القادم لإهلاك الكافرين.

الخامس: هو أول رسول شرع الله تعالى على لسانه الشرائع وأحكام الحلال والحرام، ونسخ الشرائع التي كانت قبله من حل الزواج بالخالات والعمات[(١)].

هذا بالإضافة إلى ما وفقه الله تعالى من الصبر، والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله تعالى في جميع الأوقات والأحوال[(٢)].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٨٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٦٤، مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ٢٦٦، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١٤٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٥٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٢٨.

ثانيًا: معالم دعوته:

من خلال استعراض الآيات القرآنية التي ذكرت دعوة نوح عليه السلام لقومه نجد أن دعوته عليه السلام ارتكزت على ثلاثة معالم:

الأول: الاستناد إلى قوة الله القوي العزيز.

الثاني: الدعوة إلى الإيمان بالله عز وجل.

الثالث: الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر.

والآن إلى تفصيل هذه المعالم فيما يأتي:

١. الاستناد إلى قوة الله القوي العزيز.

إن التعبير بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[الأعراف:٥٩].

وهذا التعبير مؤكد بثلاثة مؤكدات، فالأسلوب أسلوب قسم دلت عليه اللام الموطئة له، هذا الأول، أما الثاني فهو حرف التحقيق (قد)الداخل على الفعل الماضي (أرسلنا)، فيدل على التوكيد، وعلى تحقق وقوع الفعل، والثالث هو صيغة الفعل الماضي (أرسلنا) الدالة على أن الفعل قد حصل وانتهى وتحقق، في حين كان التعبير في سورة نوح بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، فهو مؤكد أيضًا بـــــ(إن) والفعل الماضي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفعل (أرسلنا) مسندٌ إلى نون العظمة، فهذا الإرسال ليس من عند أحد، إنما هو من عند الله جل جلاله المتصف بجميع صفات الجلال والكمال، فكأن نوحًا عليه السلام يستند في دعوته إلى قوة القوي العزيز ويرتكن إليها، وهذا شأن جميع الأنبياء والمرسلين في دعوتهم لأقوامهم.

ويستفاد من هذا أن الدعاة إلى الله عز وجل يجب عليهم أن يستعلوا بالحق الذي معهم، فيركنوا إليه سبحانه وتعالى، فلا يذلوا، ولا يهنوا، ولا يشعروا بالدونية والانكسار، إنما يشعرون بالعزة المستمدة من عزة الله عز وجل [(١)]، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

٢. الدعوة إلى الإيمان بالله عز وجل.

أمر نوح عليه السلام قومه بعبادة الله تعالى، وبين لهم على سبيل الحصر أنه لا إله لهم سوى الله تعالى، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩].

وفي موضع آخر: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:٢٦].

ومعنى عبادة الله تعالى توحيده عز وجل، وسمي التوحيد عبادة؛ لأن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد فيها خالصًا[(٢)]. وقدم

(١) انظر: التفسير الموضوعي ٢، مناهج جامعة المدينة العالمية، ص٣٦٦.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٤٦٨.

نوح عليه السلام دعوته مشفوعةً بالدليل، وهو قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وكان قومه يصنعون أصنامًا بأيديهم، وزعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى، فهم يعترفون بالله عز وجل ربًّا، ولكنهم يشركون في العبادة معه هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى، فبين لهم نوح عليه السلام أنه ليس هناك إلهٌ يستحق العبادة إلا الله جل جلاله؛ لأنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع أمورهم، وما سواه مخلوقٌ مدبرٌ له ليس له من الأمر من شيء[1]. فهو الإله الذي يجدر أن تتعلق القلوب به، وتطمئن النفوس إليه، وتجأر بالدعاء له وحده.

وهذا المعلم الذي بدأ به نوح عليه السلام دعوته هو الأساس الذي يشاد عليه البنيان، كما أن هذا المعلم هو الذي أتى به كل الأنبياء والرسل يدعون إليه أقوامهم، ويرشدونهم إلى هذا الطريق المستقيم، ويدعونهم إلى عبادة الله تعالى وحده، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

فهذا يؤكد أن العقيدة والأصول العامة لهذا الدين هي واحدة عند جميع الأنبياء والرسل، ولكن الشرائع والأحكام الفقهية هي التي تختلف.

٣. الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر.

كما دعا نوح عليه السلام قومه إلى إفراد الله عز وجل بالألوهية والعبادة دعاهم أيضًا إلى الإيمان باليوم الآخر، يوم البعث والحساب، عندما خوفهم من عذاب الله تعالى في هذا اليوم، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩].

وفي موضع آخر قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:٢٦].

وذكر المفسرون أنه لا مانع من أن المقصود باليوم في الآيتين هو يوم القيامة، أو يوم نزول عذاب الطوفان عليهم[2]، والمعنيان يحملان الهلاك والعذاب سواء كان في الدنيا أم في الآخرة.

وعلى كلٍّ فإن نوحًا عليه السلام يخوفهم من يوم القيامة بدءًا من خروج الناس من قبورهم وما يكون في هذا اليوم من أهوال وأحداث حتى يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار ويستقر كلّ منهما فيما دخله.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ١١٣، فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٤٧.

وعند التأمل في وصف العذاب بأنه عظيم أو أليم فالوصفان على صيغة مبالغة على وزن (فعيل)، فهذا يدل على أن هذا العظم والإيلام لا يدرك من جهته، ولا تدرك المشاعر حقيقته في الدنيا، فيمكن تخيل مدى قوة هذا العذاب وهوله وعظمته وشدة إيلامه.

ثالثًا: أساليب دعوته:

تعددت أساليب دعوة نوح عليه السلام، ومن خلال استقراء الآيات نجد فيها عدة أساليب، نذكر منا ما يأتي:

١. أسلوب الحوار.

وهو أسلوبٌ استخدمه نوح عليه السلام مع قومه؛ لبيان الحق، وعرض العقيدة، وطلب الإيمان بالله تعالى، ومنها قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف:٦٣].

والمعنى: أعجبتم يا قوم أن جاءتكم رسالةٌ من ربكم تحمل لكم الموعظة والبيان على رجلٍ منكم تعرفون صدقه وأمانته من قبل دعوتكم؛ لينذركم عذاب الله تعالى إن لم تؤمنوا؛ لكي تتقوا الله، ولكي ترحموا[(١)].

كما حاول نوح عليه السلام أن يفتح عقولهم وأن يوجهها إلى ما في الكون من آيات يظهر فيها خلق الله عز وجل وبديع صنعه وتصريفه لأمور الكون، كما وجه أنظار المشركين إليه تعالى وحده؛ لأنه المستحق للعبادة دون سواه؛ ليفتح أبصار الجاحدين وبصائرهم، فذكر نوح عليه السلام قومه قائلًا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح:١٥-٢٠].

والمعنى: أن نوحًا عليه السلام نبههم إلى خلق السموات والأرض وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة، وأن خالقها وحده هو الذي يستحق صفات العلو والعزة، فقال لهم -من باب التقرير لهم؛ لأنهم يشاهدون مخلوقات الله تعالى ويعلمون أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لها-: لقد علمتم أن الله هو الذي خلق سبع سماوات متطابقة، بعضها فوق بعض، وجعل القمر في السماء الدنيا نورًا للأرض ومن فيها، وجعل الشمس كالسراج في إضاءتها وتوهجها،وإزالة ظلمة الليل، وهو الذي أوجد وأنشأ أباكم آدم من الأرض إنشاءً، وجعلكم فروعًا عنه، ثم يعيدكم إلى هذه الأرض بعد موتكم؛ لتكون قبورًا لكم، ثم يخرجكم منها يوم البعث للحساب والجزاء، كما جعل لكم

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢٤١.

بفضله ومنه الأرض مبسوطةً تتقلبون عليها كما تشاؤون؛ لتتخذوا منها لأنفسكم طرقًا واسعةً في إمكان الانتفاع بها والتقلب على أرجائها[1].

فكان استخدامه لهذا الأسلوب بهدف هدايتهم وتصحيح معتقداتهم الفاسدة.

٢. أسلوب الترغيب.

وهو ترغيبٌ بالوعد والإمداد بأنواع الخيرات، والزيادة مع الشكر[2].

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

فقد أطمع نوح عليه السلام قومه بالحصول على بركات السماء والأرض إن هم استجابوا لدعوته وآمنوا بالله جل جلاله الذي بيده مفاتيح الخزائن، فأتاهم من طريق القلب؛ ليحرك عواطفهم، فقال لهم: توبوا عن الكفر والمعاصي، فإن الله تعالى توابٌ رحيم، يغفر الذنب، ويقبل التوبة، وينزل عليكم المطر غزيرًا منسكبًا، ويكثر لكم الأموال والأولاد، ويجعل لكم الحدائق الفسيحة الغناء ذات الأشجار المثمرة، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها[3].

٣. أسلوب الترهيب.

استخدم نوح عليه السلام أسلوب الترهيب مع قومه[4]، فقال لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [نوح:٢].

والمعنى: أي: أنذركم وأحذركم عاقبة كفركم، ونهاية شرككم من قبل فوات الفرصة، ومن قبل أن يأتيكم عذابٌ أليم شديد الألم للغاية[5]. فأمري واضح، ودعوتي ظاهرة، فقابلوا هذا بالإيمان والتصديق. ثم وبخهم على عدم الاستجابة لدعوته فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح:١٣]، أي: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمةً وقدرةً على أخذكم بالعقوبة[6].

٤. أسلوب التودد.

استخدم نوح عليه السلام طريقة التودد إلى قومه، حيث استجاش مشاعرهم، وذكرهم بحق القرابة الذي من شأنه أن يستعين بهم ويكونوا عونًا له على تقلبات الزمن، فقال عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف:٥٩].

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١٥/ ١١٩، ١٢١.

(٢) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، سعيد القحطاني، ٢/ ٤٨٨.

(٣) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٤٢٨.

(٤) انظر: مفهوم الحكمة في الدعوة، صالح بن عبد الله بن حميد، ص٥٩.

(٥) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٧٥٣.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٣٠٣.

فمن الواجب عليهم أن ينصروه في دعوته ويستجيبوا له. هذا وقد تكررت كلمة (يا قوم) ثلاث مرات في قصة نوح عليه السلام مع قومه في موضع واحد، فقال الله عز وجل على لسانه عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾ [هود:٢٨-٣٠].

فتكرارها يفيد المبالغة في التودد إلى قومه.

٥. أسلوب الجدال المحمود.

الجدال المحمود هو نوعٌ من أنواع الجدال، وهو يقوم على تقرير الحق، وإظهاره بإقامة الحجج القوية والأدلة والبراهين على صدقه، فهذا النوع من الجدال له فائدة، ففيه خير ونفع للإسلام، كما فيه عزة للمسلمين؛ لأنه بدونه لا تتم الدعوة إلى الله تعالى والذب والدفاع عن دينه العظيم، وقد أمرت آياتٌ كثيرة من القرآن الكريم بهذا النوع من الجدال كما في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥].

وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت:٤٦].

وشأن هذه الآيات هو إظهار الحق، والدعوة إليه، وتدفع عن الإسلام والمسلمين كل ما يلصق بهم من اتهامات باطلة وزائفة[1].

ومارس نوح عليه السلام أسلوب الجدال المحمود هذا، القائم على المنطق القويم، والحجة القوية، والرأي السديد في دعوته لقومه إلى عبادة الله تعالى وحده وعدم الإشراك به، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن

(١) انظر: موسوعة الأخلاق الإسلامية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبدالقادر السقاف، ٢/ ٢٠٦.

يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ
أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ
أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ
لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا
لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا
فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ
أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ
أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ
قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا
تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود:٢٥-٣٥].

لذلك سئم منه قومه، واتهموه بإكثار الجدال فيهم، وطلبوا منه أن يأتيهم بما يتوعدهم به من العذاب.

وفيما فعله نوح عليه السلام تتجلى جوانب واضحة في منهجية الجدل، ومنها:

- العناية بإظهار الحق الذي يدعو إليه، حيث قال: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.
- إظهار الرحمة والشفقة بقومه، ويظهر هذا من تكرار كلمة ﴿يَٰقَوْمِ﴾.
- عدم إغلاق طريق الرجعة والتوبة، وهذا متمثلٌ في قوله: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾، فإذا كانت النبوة أو الرحمة التي أوتيها نوح عليه السلام قد عميت عليهم، فإنها الآن ظاهرة وواضحة، فليفتحوا لها أبصارهم ويرفعوا العماية عنها؛ ليروها.
- التهيؤ لاستقبال الاتهامات التي سوف توجه إليه بكل سماحة وسعة صدر وثقة بالحق، مع التحلي بالمناقشة الموضوعية، ونقض الاتهامات الباطلة بعيدًا عن السب والشتم والتجريح، وهذا ما فعله نوح عليه السلام، فلم يرد على ما نسبوه إليه من جنون أو كذب وغيره بل رد على الاتهامات التي هي بشأن الدعوة.
- الرد على ما يحتاج إلى رد ونقاش، فقد اتهم قوم نوح نبيهم بالجنون وغيره، فلم يرد عليهم، وإنما أفاض في الرد والنقاش على الأمور التي تخص الدعوة.
- الصراحة والوضوح، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾، فقد صرح لهم أن لا يمكن أن يتخلى عمن آمن برسالته، ولا أن يغلق الطريق أمام من انقاد لأمر ربه عز وجل، وهل يعقل أن يدعوهم إلى الإيمان بربهم وأن ينبذوا عبادة الأصنام والأوثان ثم يتنكر لهم ويطردهم من مجلسه؛ ليستقبل فيه الأشراف والسادة؟!
- عدم إشغال النفس كثيرًا بالردود؛ لأن

الجدال والرد على الخصوم ليس أساسًا في الدعوة، بل يستخدم إذا احتاج الأمر إليه.

موقف قوم نوح عليه السلام من دعوته

أولًا: تكذيب قوم نوح:

بعد أن عرض نوح عليه السلام دعوته ومعالمها على قومه، كيف كان استقبالهم للدعوة؟ وماذا كان ردهم عليها؟

ذكر الله تعالى تكذيب قوم نوح عليه السلام له ولدعوته بشكل عام في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ [ص:١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر:٩].

لكن أول من امتنع من قبول الدعوة ورفضها ووقف في طريقها وصد عنها،هم الملأ من قومه. والملأ هم: «جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواءً ومنظرًا، والنفوس بهاءً وجلالًا»[1].

فهم الرؤساء وعظماء القوم وسادتهم، وهم واجهة المجتمع، يقفون عقبةً أمام وجه الدعوة، ويظنون أنهم إن استجابوا للنبي الذي بعث فيهم أنه سيضيع ملكهم،وجاههم ومنصبهم ومكانتهم في المجتمع، فها هم يرفضون دعوة نبيهم، ويتهمونه بالضلال الذي هو العدول عن طريق الحق والذهاب

(١) المفردات، الأصفهاني، ص٧٧٦.

عنه[1]، فيقول الله عز وجل عنهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف:٦٠].

أي: إنا لنراك في دعوتنا إلى إله واحد في ضلال عن الحق. وتارة أخرى يطعنون في نبوته من ثلاث جهات، وهذا متمثل في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود:٢٧].

ووجوه الطعن الثلاثة هي:

الأول: قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، أي: نحن وأنت مشتركون في البشرية، فلم تكن لك مزيةٌ علينا تستحق بها النبوة التي تدعيها؟

الثاني: قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ﴾، أي: لم يتبعك فيما زعمت أحدٌ من الأشراف، فكلهم من أراذل القوم، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك في ظاهر الرأي بدون تروٍّ ولا تعمق ولا أدنى تفكير.

الثالث: قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾، أي: ما نرى لك ولمن اتبعك من هؤلاء الأراذل فضلًا علينا تتميزون به وتستحقون ما تدعونه.

ثم اتهموه بالكذب فقالوا: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في كل ما تدعونه وتزعمونه[2].

وتارةً ثالثةً صرحوا أن البشر لا يكونون رسلًا، فقال الله تعالى عنهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون:٢٤].

أي: قالوا: ما نوحٌ إلا رجل عادي منكم، ليس له مزية عليكم في فضل ولا خلق،فيكون أهلًا للنبوة دوننا؛ بل هو رجل أراد أن يسود عليكم، وتكون له الكلمة، وزعم الرسالة؛ ليحقق ما تصبو إليه نفسه، ثم ذكروا موانع ثلاثة تحول بينه وبين نبوته، وهي:

الأول: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، أي: لو شاء الله أن نعبده وحده لأرسل إلينا ملائكةً تؤدي الرسالة، وليس نوحًا.

الثاني: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، أي: ما سمعنا في عهود آبائنا وأجدادنا بمثل الذي يدعونا إليه نوح، وفيه إشارة إلى أنهم قومٌ يعولون على التقليد الأعمى، كما أنهم قد بلغوا الغاية في العناد والتكذيب.

الثالث: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٣٤.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٦٠.

[المؤمنون:٢٥].

أي: ما نوح إلا رجل به خبل في عقله، فالذي يدعيه ويزعمه لا يصدر عن رجل عاقل يزن قوله ويدعم رأيه بحجة قوية ناصعة. ثم قالوا في إبطال دعوته: ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون:٢٥].

أي: فتلبثوا وانتظروا لعله يعود إلى سيرته الأولى، إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم[(١)].

وهكذا يظهر تكذيب هؤلاء الملأ لنوح عليه السلام، وليس هذا فحسب، بل يتبين مدى مكابرتهم لفرط عنادهم، مع علمهم بأن نوحًا عليه السلام هو أرجح الناس عقلًا وأكثرهم رزانةً في كلامه.

ثانيًا: صفات قوم نوح:

تعددت صفات قوم نوح عليه السلام، ومن خلال استقراء الآيات الواردة فيها صفاتهم نجدها متمثلة في الآتي:

١. العمى.

وصفهم الله تعالى بهذا الوصف في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف:٦٤].

فبعدما دعا نوح عليه السلام قومه إلى توحيد الله عز وجل وأخبرهم أنه مرسلٌ من عنده كذبوه وخالفوا أمره، فما كان من الله تعالى إلا أن نجاه والذين آمنوا معه في الفلك، وأغرق الله عز وجل الذين كذبوا بآياته وحججه، ولم يتبعوا نبيهم، ولم يقبلوا نصحه وإرشاده لهم، فأغرقهم بالطوفان؛ لأنهم كانوا قومًا عمين عن الحق والإيمان[(٢)]، فقد أغلقوا بصائرهم عنهما.

٢. الجبن.

عندما حانت لحظة المفاصلة التامة بين الحق والباطل، هدد نوح عليه السلام قومه بأن يجتمعوا هم وشركاؤهم على أمر واحد، وينفذوه بدون تردد ولا تراجع، فقال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس:٧١].

ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفقوا، أو أن يأخذوا قرارًا حاسمًا بشأن نوح عليه السلام وبشأن دعوته القوية التي حماها الله عز وجل وحمى الداعي إليها.

وبذلك يظهر أن موقف قوم نوح عليه السلام كان موقف الجبان الضعيف الهياب المتخاذل المتردد.

٣. سوء الأدب.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٨/ ١٨.

(٢) انظر: معاني القرآن، الزجاج، ٢/ ٣٤٧، جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٥٠٢.

إن قوم نوح قد أساؤوا التعامل مع نبيهم الذي أرسل فيهم، فكذبوه، واتهموه بالجنون، وهددوه بالرجم، ولو أنهم أرادوا عدم التصديق بنبوته لاكتفوا بهذا، ولما فعلوا بنوح عليه السلام ما فعلوه، وفي المقابل رأينا كيف كان نوح عليه السلام يخاطبهم بلفظ الحريص عليهم والمشفق بهم والناصح لهم، فكان دائمًا يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ لذلك وصفهم الله تعالى بأنهم قوم سوء، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾ [الأنبياء:٧٧].

أي: إنهم كانوا قومًا يسيئون الأعمال، فيعصون الله تعالى، ويخالفون أوامره[(١)].

٤. السخرية.

دعوة نوح عليه السلام لما طالت في قومه أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن معه واتبعه، وستحين لحظة المفاصلة التامة بين الحق والباطل، فأوحى إليه أن يصنع السفينة؛ كي ينجو بها هو والمؤمنون معه من هلاك الطوفان الذي سوف يعم الكافرين، فامتثل نوح عليه السلام لأمر ربه وشرع يصنع السفينة، وأثناء صناعته لها كان كلما مر عليه جماعة من قومه سخروا منه وهزئوا وضحكوا، وقالوا: يا نوح، كنت بالأمس نبيًّا، وأصبحت اليوم نجارًا!، أو سخروا من صناعته للسفينة بعيدةً عن البحار والأنهار، فرد عليهم نوح عليه السلام بكل هدوء واطمئنان قائلًا: إن تهزؤوا منا اليوم فإنا سوف نسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون بالطوفان كما تسخرون منا الآن، فأنتم الأولى والأحق بهذه السخرية والاستهزاء، ثم توعدهم وهددهم بأنهم سوف يعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء هذا[(٢)]، فقال تعالى مصورًا هذا الأمر: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود:٣٨].

وعليه فإن السخرية خلق مذموم، ومن آثاره ومضاره أنها نذير شؤم للساخرين، فقد كان الغرق عاقبة قوم نوح، هؤلاء الذين كفروا بالله سبحانه وتعالى وسخروا من نبيهم النبي الذي بعثه الله تعالى إليهم.

٥. الفسق.

قال الله عز وجل: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾ [الذاريات:٤٦].

والمعنى: أن قوم نوح عليه السلام حين كذبوا نبيهم أغرقهم الله عز وجل؛ لأنهم كانوا قومًا فاسقين خارجين عن طاعة الله تعالى[(٣)]، وهذه سنة الله تعالى فيمن عصاه.

٦. الظلم والطغيان.

وصف الله تعالى قوم نوح بهذين

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤٧٤.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ١٢.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ١٠٩.

الوصفين الشنيعين، فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم:٥٢].

والمعنى: أن قوم نوح كانوا في الوجود قبل إهلاك عاد وثمود، وكانوا أكثر ظلمًا وطغيانًا منهما، فإنهم كانوا يؤذون نبي الله نوحًا عليه السلام، وينفرون الناس عنه، وكانوا يحذرون صبيانهم من السماع له، كما كانوا يضربونه حتى لا يكون قادرًا على الحركة، ما أثر فيهم دعاؤه قريبًا من ألف سنة[١]، وفي قول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح:٢٤] تسجيلٌ عليهم بالظلم[٢]. فقد ظلموا أنفسهم عندما حرموها من الهداية، وظلموا غيرهم سواء بالتعذيب لنوح عليه السلام، أو لغيرهم من الذين لم يؤمنوا عندما صدوهم عن الإيمان،وحذروهم من اتباع نوح عليه السلام.

٧. الكبر.

وصف الله تعالى قوم نوح بهذه الصفة، فقال عنهم: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح:٢٢].

أي: مكرًا بليغًا متناهيًا كبره في معاندة الحق[٣]. فكلمة (كبارا) صيغة مبالغة حملت هذا المعنى البليغ.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٥.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٦١.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٣٢٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٩.

واختلف العلماء في معنى مكر قوم نوح فيم كان؟ فقالوا:

- في تحريضهم السفلة من القوم على قتل نوح عليه السلام.
- في تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضعفاء منهم: لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم.
- فيما جعلوه لله تعالى من الصاحبة والولد.
- في كفرهم[٤].
- في قولهم: إن آلهتكم خيرٌ من إله نوح؛ لأن آلهتكم تعطيكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيكم شيئًا؛ لأنه فقير[٥].

٨. حب الرياسة والجاه.

هذه الصفة خاصة بالملأ، فالملأ دائمًا يحبون الرياسة والجاه، والتسلط على رقاب الضعفاء والفقراء؛ ولذلك فهم يعارضون دعوة النبي المبعوث فيهم، وهي دعوة الحق، ويظنون متوهمين أن قبولهم دعوة الحق سوف يسلب منهم رياستهم وجاههم ومناصبهم ومكانتهم وهيبتهم الطاغية المتجبرة أمام الناس؛ لذلك كان حبهم للرياسة والجاه والسلطان من أهم أسباب رفضهم دعوة نوح عليه السلام.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٦٠.
(٥) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ٥٦٧.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾ [الأعراف:٦٠].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [المؤمنون:٢٤].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود:٢٧].

ثالثًا: شكوى نوح لربه من قومه:

بعد إرسال الله عز وجل نوحًا عليه السلام إلى قومه داعيًا إياهم؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وتنفيذ نوح عليه السلام أمر ربه سبحانه وتعالى، فعرض معالم دعوته على قومه، واستخدم معهم جميع الأساليب الدعوية التي كانت باستطاعته؛ لتوصيل دعوة الحق إليهم، كفر قومه بالله عز وجل، وعاندوا الحق، ولم يستجيبوا لدعوته، وتجدر الإشارة هنا إلى أن دعوة نوح عليه السلام لقومه لم تكن مرة واحدة فقط، بل تكررت مرارًا بما يتناسب مع أطول مدة دعوية مكثها في قومه حيث شارفت على الألف سنة، فلنا أن نتخيل كم مرة دعا قومه، وصدوه عن ذلك، ويرجع نوح عليه السلام صفر اليدين منهم، لكن ذلك لم يفشل ولم يركن، بل كان دائمًا يعرض نفسه ودعوته على قومه؛ لعل الله سبحانه وتعالى يهديهم إلى الحق.

فلما وصل نوح عليه السلام إلى هذه المرحلة قال شاكيًا لربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح:٥-٢٠].

والمعنى: يقول نوح عليه السلام: يا رب، إني دعوت قومي في الليل والنهار، فلم يزدهم دعائي إلا نفورًا وإعراضًا عن الحق، وإني كلما دعوتهم لأجل أن يستجيبوا فتغفر لهم، أبوا إلا تماديًا في الباطل، وجعلوا أصابعهم في آذانهم؛ لئلا يسمعوا ما أقول لهم، وتغطوا بثيابهم من

شدة بغضهم للحق، وأصروا على كفرهم وشركهم، واستكبروا على الحق استكبارًا، وازداد شرهم وطغيانهم في الأرض، ثم إني دعوتهم جهارًا بحيث يسمعونني كلهم، وإني أسررت بالدعوة لكل واحد منهم على حدة، وقلت لهم: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب والمعاصي والشرك، واستغفروا منها، فإن الله تعالى كثير المغفرة لمن تاب واستغفر.

ثم قلت لهم موبخًا إياهم: ما بالكم لا تعظمون الله تعالى، ولا تجعلون له قدرًا في قلوبكم، والحال أنه قد خلقكم خلقًا من بعد خلق، على مراحل متعددة إلى أن أوصلكم إلى ما أنتم عليه؟! أليس من انفرد بهذا أحق أن يعبد ويوحد؟

كما دعوتهم يا رب إلى التفكر في آلائك ونعمائك، من سماوات وما فيها من قمر وشمس، وذكرتهم كيف خلقت أباهم آدم عليه السلام من تراب وكانوا في صلبه، ثم تعيدهم في الأرض بعد الموت، وتخرجهم للبعث والنشور، وكيف خلقت لهم الأرض مبسوطةً مهيأةً للانتفاع بها بالحراثة والغرس والزراعة والبناء والسكون والاستقرار عليها. فبعد كل هذا النصح والوعظ والتذكير والإرشاد لم يفد فيهم هذا الكلام شيئًا، ولم ينفع، ولم يثمر.

ثم استرسل نوح عليه السلام في مناجاته لله تعالى وشكواه إليه قائلًا: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح:٢١-٢٤].

أي: إنهم عصوني فيما أمرتهم به، وأنا أنصحهم وأدلهم على الخير، واتبعوا الملأ والأشراف الذين لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا هلاكًا وتفويتًا للأرباح، ومكروا مكرًا كبيرًا بالغًا في معاندة الحق، فدعوهم إلى التعصب إلى دين آبائهم وأجدادهم القائم على الشرك قائلين لهم: لا تتركوا ودًا، ولا سواعًا، ولا يغوث ويعوق ونسرًا. مع أن هذه الأسماء كانت لرجالٍ صالحين فيهم، فلما ماتوا زينها الشيطان لهم، وقد أضل هؤلاء الكبار والرؤساء بدعوتهم هذه كثيرًا من الخلق، فلا يزيدون بدعوة هؤلاء الرؤساء إلا ضلالًا، فيا رب، لم يبق هناك مجالٌ ولا محلٌّ لنجاحهم وصلاحهم[1].

كما قال في موضع آخر شاكيًا أيضًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [الشعراء:١١٧].

فلم يبق بيني وبينهم أي ائتلاف وارتباط، حيث كذبوني بجميع ما جئت به من عندك

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٨، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ٥٦٦.

تكذيبًا شديدًا، وسفهوني تسفيهًا بليغًا، فلم يكتفوا عند هذا الحد، بل عمدوا إلى قتلي بأشد العذاب وأقبح العقاب، فقد هددوني بالرجم[(١)].

ونحو هذا قال في موضع آخر: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر: ١٠].

أي: غلبني قومي تمردًا وعتوًّا، فلم يسمعوا مني، واستحكم اليأس منهم[(٢)].

ويلحظ من شكوى نوح عليه السلام ومناجاته لله عز وجل أن هذه الشكوى لم تكن بمجرد ملاقاة أول عقبة في طريق الدعوة، أو أول صد له عن دعوته، بل كما تم ذكره من أن الدعوة تمت مرارًا وتكرارًا حتى قاربت ألف سنة، وبعدها حصلت الشكوى عندما لم يعد هناك أمل في استجابة فردٍ واحد منهم، واستحكم اليأس منهم. كما أن هذا يدل على مدى صبر نوح عليه السلام على قومه، وشدة تحمل أذاهم واستكبارهم. فيجب على الداعية التأسي والاقتداء بنبي الله نوح عليه السلام.

ويلحظ من هذه الشكوى أنها تمهيدٌ من نوح عليه السلام وتوطئة منه؛ ليدعو على قومه بالهلاك، وإلهابًا إليه وتهييجًا، معرضًا عن تهديدهم له صبرًا واحتسابًا؛ لأن هذا من لوازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(٣)].

رابعًا: دعاء نوح على قومه:

لما أيس نوح عليه السلام من إقلاع قومه عن الكفر وأيس من إيمانهم دعا عليهم بالهلاك، وهذا الدعاء منه لم يكن إلا بعد أن وصل إلى مرحلة إيحاء الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، واستجاب للدعوة، فأذن الله تعالى له بالدعاء عليهم؛ لأن الأنبياء لا يدعون على أقوامهم بالهلاك إلا بإذن من الله عز وجل في ذلك. والدليل على ذلك أنه عاتب يونس عليه السلام لما خرج من ديار قومه بلا إذن من الله تعالى له، فإذا عوتب يونس عليه السلام بالخروج بلا إذن، فلا يحتمل أن يدعو عليهم بالهلاك إلا بإذن أيضًا[(٤)].

وكأن نوحًا عليه السلام يقول: يا رب لا أدعوك عليهم لأنهم آذوني وشتموني وحاولوا رجمي وقتلي، وإنما أدعوك لأجلك، ولأجل دينك، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك[(٥)]. وذكر بعض العلماء أن نوحًا عليه السلام دعا عليهم حين أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم، وأعقم أصلاب الرجال وأرحام

(١) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، نعمة الله بن محمود النخجواني، ٢/ ٤٧.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٩١.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٤/ ٦٦.
(٤) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٧٢.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ٥٢١.

النساء قبل العذاب بسبعين سنة؛ لذلك دعاهم نوح عليه السلام إلى استغفار ربهم؛ حتى ينزل عليهم المطر وكانت الأرض قد جدبت ويرزقهم بالبنين؛ لأنه أعقمهم. ونعود إلى دعوته عليه السلام على قومه، فقال في دعائه: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ [الشعراء:١١٨].

أي: احكم يارب بيننا بما يستحقه كل طرف منا، وافتح بابًا من أبواب عدلك على مستحقيه بأن تنزل العقوبة بهم، وافتح بابًا من أبواب فضلك ورحمتك يكون فيه الفرج والمخرج من الضيق لي وللمؤمنين معي، ونجنا مما تعذب به الكافرين[(١)].

كما قال أيضًا في دعائه: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر:١٠]، أي: إني مغلوبٌ من جهة قومي بتسليطهم علي، -وليست الغلبة بالحجة؛ لأن الحجة كانت له وليس لقومه- فانتقم منهم بعذابٍ تبعثه عليهم، وانتصر لي وللذين آمنوا بك معي[(٢)].

وفي موضع آخر قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

أي: يا رب، لا تدع منهم أحدًا يسكن الديار إلا أهلكته وأوقعت به العذاب، فإنك يا رب إن تتركهم على الأرض فإنهم يضلوا عبادك عن طريق الحق، ولا يلدوا إلا فاجرًا يترك طاعتك، وكفارًا لنعمتك.

ثم دعا عليهم مرة أخرى فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ [نوح:٢٨]، أي: لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكًا وخسرانًا ودمارًا. وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة[(٣)].

خامسًا: عاقبة قوم نوح:

أوضح الله عز وجل أنه بعدما أوحى إلى نوح عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلا القليل الذين استجابوا له، ولم تعد هناك فائدة من دعوة نوح عليه السلام قومه، فدعا عليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه، فنصره على قومه الذين كذبوا بحجج الله تعالى وأدلته، فأنجاه منهم، وأغرقهم أجمعين. وسجلت الآيات التي تتحدث عن هلاك قوم نوح أن تعذيبهم بالطوفان كان للأسباب الآتية:

السبب الأول: ما كان عليه قوم نوح من إساءة العمل، ومعصية الله جل جلاله، وفسقهم المتمثل في مخالفة أمره تعالى، والخروج عن طاعته[(٤)]، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٤/ ٦٦، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ١٥٤.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٥/ ٥٢٥.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٦١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤٧٤.

﴿٧٧﴾ [الأنبياء:٧٧].

السبب الثاني: ما اتصف به قوم نوح من الظلم ومجاوزة الحد، فذكر الله تعالى عنهم أنه عاقبهم وأخذهم بالطوفان عقب المدة الدعوية التي كانت ألف سنة إلا خمسين عامًا. وهذا الطوفان قد أحاط بهم من كل جانب، وحالهم أنهم كانوا مستمرين على الظلم، فلم ينجع فيهم وعظ نبيهم نوح عليه السلام [(١)]، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت:١٤].

السبب الثالث: ما كان عليه قوم نوح من خطايا عديدة وكثيرة، وأخطرها شركهم بالله جل جلاله، حيث اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، فهل هي قادرة اليوم -يوم الطوفان- أن تنصرهم من عذاب الله عز وجل ؟![(٢)]، فقال فيهم: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح:٢٥].

فعذاب الطوفان هذا كان في الدنيا، وقد رأوه بأم أعينهم، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم هذا العذاب الواقع بهم. أما العذاب الأشد إيلامًا فهو الذي قد أعده الله عز وجل وجهزه لهم في الآخرة، فإنه ينتظرهم لا محالة[(٣)]، فقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان:٣٧].

وبهذا الهلاك والاستئصال للكافرين يسدل الستار على قصة قوم نوح المكذبين، فلم يبق الله تعالى منهم أحدًا على وجه الأرض.

سادسًا: حكمة تذكير الرسل أقوامهم بعاقبة قوم نوح:

إن الله عز وجل قد جعل هلاك قوم نوح آيةً لجميع الناس، وقد ذكر ذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان:٣٧].

وكلمة (الناس) عامة تشمل المؤمن والكافر، فجعل الله تعالى إهلاك قوم نوح،واستئصالهم بالغرق آية وعبرة للمكذبين من الأقوام التي أتت بعدهم إلى يوم الدين، وكذلك جعل نجاة المؤمنين،وخلاصهم من الطوفان آية وعبرة للمؤمنين من الأقوام التي أتت بعدهم إلى يوم الدين. فجعل الآية والعبرة لما يؤول إليه عاقبة أمر كل مكذب ومصدق، فعاقبة المكذبين الهلاك، وعاقبة المؤمنين

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٢٧.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٩/ ٤١.
(٣) انظر: اللباب في تفسير الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ١٤/ ٥٣٢.

الصادقين النجاة[1].

فها هم الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى بعد نوح عليه السلام يذكرون أقوامهم الذين بعثوا فيهم وأرسلوا إليهم، بالاتعاظ والاعتبار من قوم نوح، فأولهم كان هودًا عليه السلام، فعندما عرض دعوته ونبوته على قومه رفضوا وكذبوا، فقال لهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف:٦٩].

والمعنى: كيف تعجبون من أمرٍ ليس فيه داعٍ للتعجب، وهو أن الله تعالى أرسل إليكم رجلًا منكم تعرفون صدقه وأمانته، يذكركم بما فيه مصلحة لكم، ويحثكم على ما فيه نفعكم، فتعجبتم منه؟! ثم عدد عليهم نعم الله عز وجل حيث مكن لهم في الأرض، وجعلهم يخلفون قوم نوح الذين كذبوا رسولهم، ثم ذكرهم بالنعمة التي خصها الله تعالى فيهم من قوة الأجساد، وشدة البطش، فهو يذكرهم بنعم الله الواسعة عليهم؛ لعلهم يؤدون حق الله جل جلاله فيها بالشكر، فيفوزوا بما وعدهم الله تعالى به، وينجون من عذاب الله تعالى[2].

وها هو شعيب عليه السلام، عندما عرض دعوته على قومه كذبوه، فقال لهم مذكرًا إياهم بما حل بالأقوام السابقة التي كذبت أنبياء الله ورسله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود:٨٩].

والمعنى: يا قوم -وناداهم بهذا اللفظ المشعر بحرصه عليه السلام على هداية قومه ونجاتهم من عذاب الله تعالى- لا تحملنكم معاداتكم للحق ومعاندتكم لي على استمراركم في العصيان، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق، وما أصاب قوم هود من ريح صرصر عاتية، وما أصاب قوم صالح من صيحة تبعتها رجفة، وما أصاب قوم لوط من جعل عالي القرية سافلها وإمطارهم بحجارة من سجيل[3].

وها هو موسى عليه السلام، يذكر قومه بني إسرائيل بما أنعم الله تعالى عليهم من نعمة الإنجاء من آل فرعون، لما كانوا يولونهم سوء العذاب، ويكلفونهم مشاق الأعمال، ويذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، وفي هذا امتحان وبلاء عظيم اختبرهم الله به؛ ليعظم شكرهم، ثم بين لهم موسى عليه السلام أنه إذا شكروا الله تعالى

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٢٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩٤.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٧/ ٣٧٤٢.

على نعمائه فإنه سوف يزيدهم من النعم والعطايا، أما إن قابلوا هذه النعم بالكفر والعصيان فإن عذاب الله تعالى شديد، ثم ذكرهم موسى عليه السلام بمن سلف قبلهم من الأقوام الذين عذبهم الله عز وجل بسبب كفرهم وعصيانهم، فقال الله تعالى على لسانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم:٩].

أي: ألم يأتكم خبر الأقوام السابقة ماذا فعل الله عز وجل بهم حين عصوا أنبياءهم، قوم نوح، وعاد، وثمود، والذين من بعدهم أمم كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى؛ لكثرة أعدادهم واندراس آثارهم، فوضعوا أيديهم على أفواههم من باب التعجب والاستهزاء بأنبيائهم، أو لإسكات أنبيائهم، فيمنعون أنبياءهم من الكلام، أو ردوا نعم الأنبياء عليهم، وهي متمثلة في مواعظهم وشرائعهم التي أتوا بها من عند الله عز وجل، فكذبوها، ولم يمتثلوا لأمر أنبيائهم، ولم يكتفوا بهذا فحسب بل صرحوا بالكفر، وقالوا: إن الذي تدعوننا إليه من التوحيد والإيمان يجعل النفس لا تطمئن إليه أبدًا[1].

واستتباعًا لتذكير موسى عليه السلام لبني إسرائيل بعاقبة الأقوام السابقة يظهر موقف الرجل المؤمن الذي هو من آل فرعون، ولكنه كان يكتم إيمانه عن فرعون؛ خشية قتله.

فعندما عزم فرعون وملؤه على قتل موسى عليه السلام أنكر الرجل المؤمن عليهم ذلك قائلًا: كيف تقتلون رجلًا يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالآيات الواضحات، والمعجزات الظاهرات، فإن فرضنا كذبه فيما يدعي فإن إثم كذبه يعود عليه وحده لا عليكم، أما إن كان صادقًا فسوف يصيبكم بعض الذي يتوعدكم من العذاب. ثم ذكر لهم أنهم لهم الملك اليوم، وهم ظاهرون وعالون في الأرض، فمن سوف ينصرهم من عذاب الله وبطشه؟ فرد عليه فرعون بأن ما يشيره على قومه -من قتل موسى- هو الرأي السديد. حينئذٍ رد الرجل المؤمن بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر:٣٠-٣١].

أي: أخاف عليكم مثل اليوم الذي أنزل الله تعالى فيه العذاب على الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم، مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، والذين من بعدهم ممن كذبوا أنبياءهم، فعذبهم الله عز وجل بسبب كفرهم

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٣/ ٤٤-٤٧.

وعنادهم عن قبول الحق والاستجابة له[1].

وأخيرًا هذا نبينا خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم، يذكر الكفار من قريش وغيرها بقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [التوبة:٧٠].

والمعنى: لقد أتاهم خبر الأقوام الماضية كيف أهلكهم الله عز وجل حين خالفوا أمره وعصوا رسله، أمثال قوم نوح، فقد أهلكهم بالطوفان، وعاد أهلكهم بالريح العقيم، وثمود أهلكهم بالرجفة، وقوم إبراهيم أهلكهم بسلب النعمة، وأهلك النمرود ببعوضة، وقوم شعيب بعذاب يوم الظلة، والمؤتفكات التي هي قرى قوم لوط أهلكها الله تعالى بالخسف.

وخص الله تعالى ذكر إهلاك هؤلاء الأقوام؛ لأن آثارهم باقية، وبلادهم الشام والعراق واليمن قريبة من بلادهم الحجازية، وكانوا يمرون عليها، ويعرفون أمرها، فإن هؤلاء الأقوام أتتها رسل الله عز وجل بالمعجزات الباهرات على صدقهم في دعوتهم، ولكنهم كذبوهم وخالفوا أمرهم، فاحذروا أيها الكفار أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فتعجل عليكم العقوبة كما عجلت عليهم، وليست هذه العقوبة إلا بسبب ظلمهم لأنفسهم[2].

وفي موضع آخر يسلي الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم -وهو أشرف الخلق- بالأنبياء والرسل السابقين الذين كذبهم أقوامهم ورفضوا الاستجابة لدعوتهم، فيقول جل جلاله: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٢-٤٦].

والمعنى: لا تحزن يا أكرم الرسل على تكذيب قومك لك، فلست وحدك الذي كذبه قومه، فإن الأمم السابقة جميعهم قد كذبوا أنبياءهم ورسلهم، فكذب نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى -عليهم السلام أجمعين- فأمهلت هؤلاء الأقوام حتى أخذتهم بعذاب الاستئصال،

(١) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ١/ ٥٧٤.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣٨٢.

فانظر يا سيد الرسل، كيف غيرت حياتهم من العمار إلى الخراب! والآن أغفل أهل مكة فلم يسافروا في تجاراتهم فتكون لهم قلوب يعقلون بها ويعتبرون بها سنة الله تعالى في الكون فيوحدوه؟! أو تكون لهم آذان يسمعون بها أخبار النبي محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ثم أكد الله تعالى على أن الأبصار لا تعمى، فليس الخلل في حواسهم، بل هو في عقولهم عندما اتبعوا أهواءهم، وانهمكوا في غفلتهم، واعتمدوا في ذلك على تقليدهم الأعمى لدين آبائهم وأجدادهم، وهي الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله عز وجل [1].

(١) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ٧٥.

نوح عليه السلام وابنه وزوجته

أولًا: نوح عليه السلام وابنه:

عندما أمر الله تعالى نوحًا عليه السلام بصناعة السفينة؛ لينجيه والذين آمنوا معه من العقاب الذي سوف يحل على المشركين من قومه، نفذ نوح عليه السلام أمر ربه عز وجل، وعندما انتهى من صناع أمره الله تعالى أن يحمل فيها ذكرًا وأنثى من كل نوع من الحيوانات والطيور، وكذلك يحمل فيها أهله المؤمنين معه، حينئذٍ نادى نوح عليه السلام ابنه وكان كافرًا؛ ليركب معه في السفينة، فلن ينجو اليوم أحدٌ من عذاب الله عز وجل إلا من هو داخل السفينة، فحملته الشفقة على مناداة ابنه؛ للركوب معه.

قال جل جلاله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود:٤٢-٤٣].

وكان هذا النداء قبل حدوث الغرق، ولكن ابنه أجاب على هذا النداء الذي يحمل معنى الرحمة والشفقة وعاطفة الأبوة، أجاب بكل عنادٍ وتكبرٍ وصلف، فقال: سأحتمي وأتحصن بجبل يمنعني ارتفاعه من وصول الماء إلي. فرد عليه أبوه نوح عليه السلام

بأن هذا اليوم ليس كأي يوم عادي، بل هو يوم قد حق فيه العذاب، وهو واقع لا محالة، فليس هناك عاصم أو مانع من نفاذ أمر الله جل جلاله إلا من قدر الله تعالى له الهداية من قبل فكان من المؤمنين، وفي أثناء هذا الحوار بين الأب وابنه بدأ الماء بالارتفاع حتى حال الموج بينهما، فتعذر على نوح عليه السلام إقناعه بالركوب معه؛ ليخلص وينجو من الغرق، فكان ابنه من ضمن من أصابه الطوفان فغرق[1].

ويلاحظ من هذا أن ابن نوح كان عنده عجبٌ وغرور كبير بنفسه، والعجب كما عرفه الجرجاني بقوله: «هو عبارة عن تصور استحقاق الشخص رتبةً لا يكون مستحقًا لها»[2]، كما عرفه الإمام الغزالي فقال: «هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم»[3].

فقد اغتر بنفسه، وأنه ابن نبي الله تعالى، ولكن هذا النسب لم ينفعه؛ لأنه خلا من الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، وفي المجتمع أناسٌ كثيرون يزعمون أنهم أفضل من العلماء والفقهاء، وهم جاهلون بكتاب ربهم جل وعلا.

وبعد انتهاء هذا الحدث الجسيم دفعت عاطفة الأبوة نبي الله نوحًا عليه السلام أن يسأل الله تعالى عن مصير ابنه الذي غرق، قال عز وجل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾ [هود:٤٥].

أي: يا رب إن ابني هذا من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم عندما أمرتني بحملهم في السفينة، وذلك عندما قال الله عز وجل: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [هود:٤٠].

فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود:٤٦].

أي: يا نوح، إنه ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم في السفينة؛ لإنجائهم، والسبب في ذلك أنه كان يعمل أعمالًا غير صالحة، فقد التزم الفساد منهجًا في حياته، وتنكب عن طريق الهداية والصلاح.

ثم نهاه الله تعالى عن سؤال ما ليس له به علم صحيح، فيكون من زمرة الجاهلين، فيسألون الله تعالى إبطال حكمته وتقديره في خلقه إجابةً لشهواتهم وأهوائهم.

وبعد هذا النهي الصريح طلب نوح عليه السلام المغفرة من ربه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾ [هود:٤٧].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٦٧.
(٢) التعريفات، ص١٤٧.
(٣) إحياء علوم الدين، ٣/ ٣٧١.

أي: يا رب، إني ألجأ إليك وأحتمي بك من أن أسألك في المستقبل سؤالًا ليس لي به علم، وإن لم تغفر لي ذنب هذا السؤال الذي كان من باب شفقتي على ابني ومن باب طمعي في رحمتك أكن من الخاسرين فيما كان مني من محاولة إنجاء أبنائي كلهم[1].

ويلاحظ من هذا أن نوحًا عليه السلام اجتهد فأخطأ؛ لذلك لم يقره الله تعالى على خطئه، بل عاتبه وأرشده إلى الاستغفار. وقد يستعظم البعض نسبة الخطأ إلى الأنبياء، متوهمين أن الخطأ هو الإثم، أو الانحراف الذي يتنافى مع عصمة الأنبياء الثابتة لهم، فليس المقصود بالخطأ هذا المعنى، بل المقصود به هو عدم مطابقة اجتهاد النبي لما هو الكمال الثابت في علم الله جل جلاله[2].

ثانيًا: نوح عليه السلام وزوجته:

تحدث القرآن الكريم عن امرأة نوح عليه السلام في سياق الذم والإنكار لما بدر منها، فقال الله عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم:١٠].

وحقيقة الخيانة هي: «عمل من اؤتمن على شيء بضد ما اؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة»[3].

وتفسير الآية ومعناها: أن الله عز وجل ضرب مثلًا للذين كفروا في مخالطتهم للمسلمين ومعاشرتهم، فإن هذه المخالطة والمعاشرة لا تجدي عن الكافرين شيئًا، ولن تنفعهم عند الله عز وجل إن لم تكن قلوبهم مليئة بالإيمان بالله جل جلاله، وذكر مثلًا على ذلك هما امرأتا نوح ولوط عليهما السلام فكانتا زوجتين لنبيين، يصاحبانهما في الليل والنهار، ويؤاكلانهما، ويعاشرانهما أشد المعاشرة والاختلاط، ولكنهما خانتا زوجيهما في الإيمان، حيث لم تؤمنا بنبوة ورسالة زوجيهما.

فهذه العشرة والصحبة للنبيين لم تجد عنهما شيئًا، ولم تدفع عنهما محذورًا؛ لأنهما كافرتان؛ لذلك قيل لهما: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾. فلا يراد بالخيانة: الخيانة الزوجية، فإن نساء الأنبياء جميعًا -وإن كن كافرات- معصومات عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة أزواجهن الأنبياء[4].

وذكر الرازي أن خيانة امرأة نوح ولوط -عليهما السلام- كانت في نفاقهما

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٢/ ٤٠.
(٢) انظر: فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ١٦٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١١٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٧١.

وإخفائهما الكفر، وكانتا تعينان قوميهما على زوجيهما الرسولين، فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون. وامرأة لوط كانت تدل قومها على ضيوف زوجها؛ لفعل الفاحشة بهم[1].

وأخيرًا يظهر من هذا المبحث أن عذاب الله عز وجل وعقابه لا يمكن أن يدفع بالوسيلة، لا بشفقة الأب على ابنه، ولا بكون المرأة زوجة لنبي، بل يدفع بطاعة الله جل جلاله وحده.

نوح عليه السلام والسفينة

إن دعوة نوح عليه السلام معرضةٌ الآن للخطر والتهديد من قومه؛ فلهذا السبب أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن واستجاب. فلجأ نوح عليه السلام متضرعًا إلى الله عز وجل شاكيًا إياه ما أصاب دعوته، مناجيًا إياه أن ينصر دعوة الحق، ويهلك الظالمين، فاستجاب الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام، وأمره بصناعة الفلك قائلًا: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون:٢٧].

أي: أوحى الله تعالى إليه صناعة السفينة، والله تعالى حافظٌ له؛ لئلا يفسدها عليه قومه. وأثناء صناعته لها كان نوح عليه السلام يلاقي من قومه السخرية والاستهزاء، فلم يبال بصنيعهم هذا ولم يكترث له، بل ذكر لهم أنهم سوف يعلمون من الأولى بهذه السخرية عندما يحل عليهم عذاب الله عز وجل بالطوفان فيهلكوا ويغرقوا جميعًا. وبهذا يعد نوح عليه السلام أول من صنع السفينة؛ لذلك سخر منه قومه، ولو كان

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٥٧٥.

يصنع شيئًا عاديًّا معروفًا لما سخروا منه[1].

وأعطاه الله تعالى علامةً يعرف بها إرادة الله عز وجل عند وقوع العذاب على قومه، وهي فوران التنورالذي هو موضع الناربالماء. حينئذٍ أمره الله تعالى إذا رأى هذه العلامة أن يدخل في السفينة من كل حيوان موجود في عصره فردين مزدوجين، ذكرًا وأنثى؛ حتى لا ينقطع نسل ذلك الحيوان. كما أمره أن يدخل في السفينة من أهل بيته المؤمنين فقط، أما الكافرون منهم فمحكومٌ عليهم بالغرق والهلاك لا محالة، ويدخل كذلك الذين آمنوا معه وصدقوه من قومه[2].

وذكر الله تعالى أن سفينة نوح عليه السلام كانت مملوءةً بالمؤمنين، والحيوانات التي أمره الله تعالى بحملها معه[3]، فقال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشعراء:١١٩].

وبعد أن تجهز نوح عليه السلام، واستعد لأمر الله تعالى عندها أمر الله عز وجل السماء أن تنزل المطر الكثير على غير العادة، والأرض أن تتفجر كلها حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه؛ لأنه موضع للنار وليس للماء، فالتقى ماء السماء مع ماء الأرض بأمر الله عز وجل بذلك، وكان قد كتب هذا الأمر منذ الأزل عقوبةً لهؤلاء الظالمين الطغاة[4]، فقال تعالى مصورًا هذا المعجزة: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر:١١-١٢].

أما نوح عليه السلام ومن معه فقد قال الله تعالى في نجاتهم: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر:١٣-١٤].

أي: حمله الله تعالى ومن معه على السفينة، ووصف الله تعالى طريقة صناعتها، فهي ذات ألواح خشبية، مثبتة بالدسر، وهي المسامير التي سمرت بها الألواح وشد بها أسرها، ولكن مهما أحكمت هذه الألواح بالمسامير، فإنه لا بد أن يظل بينها مسام، ويتسرب منها الماء، فيؤدي إلى الغرق، فكيف السبيل إلى تفادي ذلك خصوصًا في تلك العصور البدائية؟! فقالوا: لا بد لصانع الفلك أن يجفف الخشب جيدًا قبل تصنيعه، فإذا ما نزل الخشب الماء يتشرب منه، فيزيد حجمه ويسد هذه المسام تمامًا، هذا بالإضافة إلى ربطها بالحبال وضم بعضها إلى بعض.

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٣/ ٧٨٤٨.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٧/ ٤٦٥، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ٨٧.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٤/ ٩٥.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٢٥.

فمن علم نوحًا هذه الأمور الدقيقة؟ إنه الله جل جلاله، لم يترك نبيه يفعل ما يشاء في صناعتها، إنما تابعه ولاحظه، ووجهه إلى كيفية صناعتها، وحدد له المواد المستخدمة فيها[(١)].

وخلاصة القول: إن الله تعالى نجى نبيه نوحًا عليه السلام والمؤمنين معه بهذه السفينة التي صنعها بحفظ الله ورعايته، وكانت أيضًا تجري بأمره، وترسو كذلك بأمره، فلم يخافوا الغرق مع ما كان من أمواج هائلة، جزاءً من الله تعالى لنوح عليه السلام؛ لأنه هو المكفور به[(٢)].

وبعد هلاك الكافرين تمامًا أمر الله تعالى الأرض والسماء فقال لهما: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود:٤٤].

والمعنى: أمر الأرض أن تبلع الماء الذي عليها، وأمر السماء أن تقلع عن إنزال المطر، فنقص الماء حتى ذهبت زيادته عن الأرض، واستوت السفينة على جبل الجودي[(٣)].

ثم خاطب الله تعالى نوحًا عليه السلام بقوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون:٢٨].

أي: إذا استقر بك المقام وبمن معك من المؤمنين في السفينة فاحمد الله تعالى أنت وهم أن أنقذكم ونجاكم من هؤلاء الكافرين المشركين الظالمين[(٤)].

ثم أمره الله تعالى أن ينزل من السفينة ويدعو الله عز وجل دعاءً مقرونًا بالثناء، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَٰرَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون:٢٩].

أي: أنزلني مكانًا تبارك لي فيه، وتعطيني الزيادة فيه لخير الدارين، وأنت يا رب خير من ينزل عباده الطائعين له المنازل الطيبة؛ لأنك تحفظه في سائر أحواله، وتدفع عنه المكاره حسب ما تقتضيه حكمتك العلية[(٥)].

فنزل نوح عليه السلام بأمن وسلامة من الله تعالى وخيرات وبركات كثيرة عليه، فقال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾ [هود:٤٨].

ومن هذه الخيرات والبركات أن الله تعالى جعل ذريته هي الباقية إلى يوم القيامة، وهذه البركات أيضًا على ذرية أمم ممن كانوا معه في السفينة. أما الأمم الكافرة، فسوف

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٦/ ٩٩٩٦.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٦/ ١٣٣، أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ١/ ٦٥٣.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٤٧٤.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٨/ ٣٥.
(٥) انظر: المصدر السابق ١٨/ ٣٦.

يمتعها الله تعالى في الدنيا، ثم يجازيهم العذاب الأليم في الآخرة[1].

والحكمة من ذكر السفينة أن الله تعالى جعلها علامةً على قدرته ووحدانيته، فهو الأحق والأجدر بالعبودية، فقال جل جلاله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت:١٥].

أي: جعلها عبرة عظيمة لمن يعتبر. وفي كونها آية وجهان:

الأول: أنها باقية على جبل الجودي مدة طويلة.

الثاني: أن الله تعالى سلمها من الرياح المزعجة.

فالضمير في (وجعلناها) إما راجع إلى السفينة، أو إلى الواقعة أو الحادثة التي اشتملت على نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين بالغرق[2]. وقال الماتريدي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢].

«هذا يدل على أنها كانت آية؛ لأن الأمواج تمنع من جريان السفينة وسيرها، فإذا أخبر أنها لم تمنع هذه من جريانها دل أنه أراد أن تصير آية لهم»[3].

وأخيرًا فإن الله تعالى يذكر الكافرين في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بطغيان الماء وتجاوزه حده في زمن نوح عليه السلام حتى علا كل شيء وارتفع فوقه، فنجاهم وحملهم في السفينة؛ ليجعل هذه الحادثة عظةً للناس وعبرةً تدل على انتقام الله تعالى ممن كذب رسله، فتحفظها أذن واعية للمواعظ[4]، فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة:١١].

وإذا سأل سائلٌ: كيف يمتن الله عز وجل على كفار مكة بحملهم في سفينة نوح عليه السلام ؟ والجواب: أنه في نجاة الذين كانوا في السفينة من المحمولين نجاة لذريتهم. فكأن الله تعالى حمل المخاطبين من قريش بحمل أولئك الناجين من هلاك الطوفان[5].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ١٨١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٢٧.
(٣) تأويلات أهل السنة، ٦/ ١٣٣.
(٤) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٤١٢.
(٥) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ١٧١.

نوح عليه السلام والنبوة في ذريته

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤].

وتم الحديث عن معنى الاصطفاء ومسوغاته، وعن معنى قوله: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: كان الأنبياء والمرسلون من سلالة نوح عليه السلام، وتتابع المختارون بعده[1].

وفي سياق الثناء على إبراهيم عليه السلام من إعطائه الحجة الدامغة القوية التي أعطاها الله تعالى إياه؛ ليلزم بها قومه ويقنعهم به، فرفع بها درجته، حيث أعطاه النبوة التي هي أعلى الدرجات، فقال عز وجل معددًا نعمه على إبراهيم عليه السلام، حيث جعله أشرف الناس، و الأنبياء والرسل من ذريته، وأبقى له هذه الكرامة إلى يوم القيامة، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام:٨٣-٨٤].

فقد وهب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام إسحاق، وجعله نبيًا، وجعل يعقوب عليه السلام من ذرية إسحاق عليه السلام. وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: هدينا جد إبراهيم عليه السلام، وهو نوح عليه السلام، إلى مثل ما هدينا به إبراهيم عليه السلام وذريته، فقد آتاه الله تعالى النبوة والحكمة وهداية الخلق إلى الطريق المستقيم، وإذا كان الله تعالى قد امتن على إبراهيم عليه السلام بجعل النبوة في ذريته فقد امتن عليه من قبل إذ أخرجه من أصلاب آباء طاهرين كنوح عليه السلام وإدريس عليه السلام، فإبراهيم عليه السلام من ذرية نوح عليه السلام، فهو كريم الآباء شريف الأبناء[2]. فإذا علم هذا فإن النبوة كلها قد جعلت في ذرية نوح عليه السلام.

ويزيد هذا المعنى قوةً ما ورد في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد:٢٦].

أي: جعل الله تعالى النبوة والكتب السماوية في أولاد كلٍّ من نوح عليه السلام،وإبراهيم عليه السلام. فهودٌ وصالحٌ وشعيبٌ وإبراهيم ولوط من ذرية نوح عليه السلام، وإسماعيل وإسحاق، وباقي الأنبياء

(١) انظر: التفسير المنهجي، فضل عباس، ٢/ ٤٤.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٧/ ١٨١.

من ذرية إبراهيم عليه السلام [1].

وإذا كان إبراهيم عليه السلام من ذرية نوح عليه السلام فإبراهيم وذريته كلها من ذرية نوح عليه السلام.

الدروس المستفادة من قصة نوح

إن قصة نوح عليه السلام من القصص القرآني الحق الذي قصه الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حيث قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:٣].

وهي تحمل الكثير من الهدايات والعبر والمواعظ، ومنها:

١. نوح عليه السلام هو شيخ المرسلين، فهو أول رسول شرع الله تعالى على لسانه الشرائع وأحكام الحلال والحرام.

٢. دلت قصة نوح عليه السلام على أنه اعتنى في دعوة قومه بثلاثة عناصر:

الأول: الاستناد والركون إلى قوة الله القوي العزيز.

الثاني: أمر قومه بعبادة الله تعالى وحده.

الثالث: أمر قومه بالإيمان باليوم الآخر عندما خوفهم عذاب الله تعالى.

٣. إن الكفار دائمًا يرون المؤمنين في ضلال، وأنهم هم الذين على الهدى والصلاح. فقد نسبوا نوحًا عليه السلام حين عرض دعوته عليهم إلى الضلال، وكذبوه، وتمردوا عليه وعلى دعوته، وأمعنوا في إيذائه، وأصروا على ما هم

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٥/٢٧٨.

عليه من شرك.

٤. إن الغاية من بعثة نوح عليه السلام -وكذلك الأنبياء عمومًا- هي تبليغ رسالة الله عز وجل إلى القوم؛ ليخرجوهم من ظلمات الشرك إلى نور الهداية.

٥. إن معاندة الكفار بما هم عليه من باطل لنبيهم الذي هو على الحق والاستمرار على الكفر موجبٌ للعذاب العاجل والعذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة.

٦. إن إعراض القوم عن قبول دعوة الحق غالبًا هو ما كان عليه كبراؤهم من الأشراف والسادة من الاستكبار والاستعلاء على الضعفاء والفقراء الذين يتبعون الحق، فليس هناك ما يحجزهم أو يمنعهم عن اتباعه، بخلاف الأشراف الذين يمنعهم جاههم وسلطانهم وفقدان مناصبهم.

٧. إن الحق دائمًا أمره ظاهر وواضح وجلي، بحيث لا يبقى لمن يعرفه مجالٌ للرأي والتفكير في قبوله. وهذا ما اتهم أشراف القوم به ضعفاءهم.

٨. إن الهداية أمرٌ بيد الله عز وجل، لا يملكه حتى الأنبياء، فلا يستطيع واحد منهم إلزام قومه وإكراههم على قبول دعوته.

٩. ليس لأحدٍ أن يحدد إذا ما كان أي شخص يستحق الأجر والثواب من الله تعالى أم لا، فليس الضعف أو الفقر في المؤمن ينقص من ثوابه، فالميزان الحقيقي الذي يوزن به الناس عند الله عز وجل هو ميزان الإيمان والكفر.

١٠. إن ما اتصف به قوم نوح من العمى والفسق والظلم وغيرها هي التي أدت بهم إلى رفض دعوة نوح عليه السلام مهما آتاهم من الأدلة والبراهين على صدق دعوته مما أدى بهم إلى إهلاكهم واستئصالهم.

١١. الجدال نوعان: أحدهما محمود، وهو أسلوبٌ استخدمه نوح عليه السلام في عرض دعوته؛ لتقرير الأدلة، وإزالة الشبهات التي يلصقها الكفار بنبوته وبدعوته. أما الثاني فمذموم، وهو ما استخدمه قومه؛ ليزينوا الباطل ويصير حقًّا.

١٢. إن كل إنسان محاسب على نفسه، فإن افترى في زعمه النبوة أو الرسالة -كما يزعم الأعداء دائمًا- فإثمه يعود عليه، وإن كان محقًّا وصادقًا فعليهم عقاب تكذيبهم.

١٣. كانت سفينة نوح عليه السلام أول سفينة على الأرض صنعها نوح عليه السلام بحفظ الله تعالى ورعايته.

١٤. السخرية خلقٌ مذموم، ومن آثاره ومضاره أنها نذير شؤم للساخرين؛ لذلك كان الغرق عاقبة قوم نوح الذين سخروا بنبيهم.

١٥. من رحمة الله عز وجل بخلقه نجاة نوح عليه السلام والمؤمنين معه، ومن فضله وكرمه أن حافظ على أصل الثروة الحيوانية عندما أمره أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين، ذكرًا وأنثى.

١٦. لا يعتبر سؤال نوح عليه السلام عن مصير ابنه الهالك بالغرق معصية لله تعالى، وإنما هو من باب الخطأ في الاجتهاد، فعاتبه الله تعالى عليه وأمره بالاستغفار.

١٧. تعد رابطة الدين أقوى من رابطة النسب، وأن أمر الهداية والصلاح ليس له علاقة بالتفاخر بالنسب، ولا محاباة عند الله تعالى في هذا الأمر لنبي أو ولي، وإنما يجزيهم حسب أعمالهم التي كانت في الدنيا، وليس بأنسابهم وتفاخرهم بآبائهم وأجدادهم، فقد نجى الله تعالى نوحًا عليه السلام وأهلك ابنه الكافر، وكذلك زوجته الكافرة.

١٨. في قصة نوح عليه السلام مع ابنه تسلية للآباء الصالحين في فساد أبنائهم.

١٩. كان اعتذار نوح عليه السلام يمثل توبة كاملة، تضمنت أركان التوبة الثلاثة، وهي:

الركن الأول: الندم على ما فات، وهذا في قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:٤٧].

الركن الثاني: الإقلاع عن الذنب، وهذا مفهومٌ من قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فقد ندم على سؤاله، وأقلع عن ذنبه؛ ولذلك طلب المغفرة والرحمة من الله عز وجل.

الركن الثالث: العزم على الترك، وهذا في قوله: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود:٤٧].

فنوح عليه السلام يستعيذ بالله تعالى أن يسأله مرة أخرى شيئًا في المستقبل.

٢٠. إن نعم الله تعالى من الأمن والسلامة والبركات والخيرات هي لكل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. وفي المقابل فإن كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ليس له إلا الانتفاع بمتاع الدنيا والتعذيب في الآخرة.

٢١. تعد قصة نوح عليه السلام مع قومه من الأخبار الغيبية التي غابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الله تعالى أطلعه عليها، وهذا من الأدلة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم.

٢٢. لقد خاطب الله تعالى البشرية جمعاء

بأن تنضم تحت راية التوحيد والإيمان، وذكرهم أنهم من ذرية نوح عليه السلام، وقد كان عبدًا شكورًا لله تعالى على كل ما أنعم به عليه، فالأولى أن تقتدي به البشرية فتكون مثله، ولا تقتدي بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من الشرك والضلال.

٢٣. إن في قصة نوح عليه السلام مع قومه الهالكين وفي أمر السفينة أيضًا دلالات واضحة على كمال قدرة الله جل جلاله، وأنه لا يترك رسله وأنبياءه، بل ينصرهم على أعداء دعوتهم. كما أن الله تعالى يختبر الأقوام بإرسال الرسل إليهم؛ ليميز الطائع من العاصي.

٢٤. إن تعلم الصناعات مما رغب به الدين وحث عليه، وليست الحرفة عيبًا، إنما هي شرف وعزة لصاحبها يستغني بها عن ذل السؤال.

٢٥. شأن الظالمين الطغاة دائمًا اللجوء إلى التهديد بالقتل عند نفاذ ذخيرتهم من السب والشتم والاتهام بالباطل والجدال المذموم.

٢٦. رسالات الأنبياء في القواعد والأصول العامة للعقيدة والأخلاق واحدة، فهم متعاونون متناصرون فيما بينهم، وكل منهم يكمل رسالة الآخر في الدعوة إلى التوحيد.

٢٧. الله جل جلاله هو الصمد الذي يلجأ إليه عند الحاجة والضرورة، فلجأ إليه نوح عليه السلام واستجاب له.

٢٨. إن النعم التي أنعمها الله تعالى على نوح عليه السلام كانت؛ لأنه كان محسنًا، وعلة إحسانه أنه كان عبدًا لله تعالى مصدقًا به موحدًا إياه.

٢٩. لا عذر للناس في تكذيب الرسل والكفر بهم بعد أن أتوهم بالمعجزات الباهرات والأدلة الواضحات على صدقهم.

٣٠. إذا جاء الموت فلا يستطيع أحد تأخيره. فخوف نوح عليه السلام قومه؛ زجرًا لهم عن حب الدنيا، وترغيبًا لهم في توحيد الله تعالى والإيمان به.

٣١. استمر نوح عليه السلام في الدعوة إلى التوحيد ما يقرب من ألف سنة، لم يمل، ولم يكل، ولم يفتر عن الدعوة ليلًا ونهارًا، سرًا وجهرًا. كل هذا امتثالًا لأمر الله تعالى بالتبليغ بكل ما يملك من جهد وطاقة.

٣٢. سلك نوح عليه السلام في دعوة قومه ثلاث مراتب، حيث بدأ بمناصحتهم سرًا، ثم ثنى بالمجاهرة للجميع، ثم جمع بين الإسرار والإعلان، فهذه سياسة ناجحة استنفذ فيها نوح عليه السلام كل طاقاته، وهي تؤتي أكلها

إذا ما تم التفاعل والتجاوب مع هذه الدعوة من قبل المدعوين.

٣٣. إن الله تعالى وعد من يستغفره بخمسة أشياء: إنزال المطر، والإمداد بالأموال، وكذلك بالبنين، وجعل الجنات والحدائق، وكذلك الأنهار.

٣٤. لا تجوز الشكوى إلا لله تعالى وحده؛ لذلك شكا نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى عندما يئس من إيمانهم.

٣٥. دعا نوح عليه السلام لنفسه، ولوالديه، ولجميع المؤمنين والمؤمنات إلى يوم القيامة.

٣٦. ينبغي الاستعانة بالله عز وجل، وذكر اسمه عند الركوب والنزول، وفي جميع الحركات والتقلبات، والإكثار من حمد الله تعالى على نعمه، وخاصة عند نعمة النجاة من الكرب.

٣٧. وجوب الصبر على أداء التكاليف، والصبر على أذى السفهاء والجهلاء، والصبر في مواجهة الأعداء، والصبر على صعاب الحياة كافة.

٣٨. الشجاعة في إبداء الرأي، والغيرة على الحق، وأن الداعية يجب أن يكون ماضيًا في دعوته، لا يثنيه عنها وعيدٌ أو تهديد.

موضوعات ذات صلة:

آدم عليه السلام، إبراهيم عليه السلام، الدعوة، عيسى عليه السلام، محمد صلى الله عليه وسلم، موسى عليه السلام، النبوة

النُّور

عناصر الموضوع

مفهوم النور	٦٢
النور في الاستعمال القرآني	٦٣
الألفاظ ذات الصلة	٦٥
اقتران النور بالظلمات	٦٧
النور من صفات الله تعالى	٦٨
أنواع النور	٧١
نور الحق بين دعاته وأعدائه	٧٥
النور يوم القيامة	٧٧
النور في المثل القرآني	٨١

مفهوم النور

أولًا: المعنى اللغوي:

النورلغة: الضياء، والجمع أنوارٌ. و(أنار) الشيء و(استنار) بمعنى، أي: أضاء. و(التنوير) الإنارة. وهو أيضًا الإسفار. وهو أيضًا إزهار الشجرة. يقال: (نورت) الشجرة (تنويرًا) و(أنارت) أي أخرجت (نورها)[١].

والنور، بالضم: الضوء أيًّا كان، أو شعاعه، جمعه: أنوارٌ ونيرانٌ[٢].

والنون والواو والراء (نور) أصلٌ صحيح يدل على إضاءة واضطراب وقلة ثبات. ومنه النور والنار، سُمِّيا بذلك من طريقة الإضاءة، ولأن ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة. وتنورت النار: تبصرتها.

ومنه النور: نور الشجر ونواره. وأنارت الشجرة: أخرجت النور. والمنارة: مفعلةٌ من الاستنارة، والأصل منورةٌ. ومنه منار الأرض: حدودها وأعلامها، سميت لبيانها وظهورها[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة؛ وهو ما انتشر من الأمور الإلهية: كنور العقل، ونور القرآن. ومحسوس بعين البصر؛ وهو ما انتشر من الأجسام النيرة: كالقمرين، والنجوم، والنيرات[٤].

والنور: كيفية تدركها الباصرة أولًا، وبواسطتها سائر المبصرات[٥].

والنور: هو الجوهر المضيء، والنار كذلك، غير أن ضوء النار مكدر مغمور بدخان محذور عنه، بسبب ما يصحبه من فرط الحرارة والإحراق، وإذا صارت مهذبة مصفاة كانت محض نور، ومتى نكصت عادت الحالة الأولى جذوة، ولا تزال تتزايد حتى ينطفئ نورها، ويبقى الدخان الصرف[٦].

---

(١) مختار الصحاح، الرازي ص ٦٨٤.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٦٢٨.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٦٨.
(٤) المفردات، الأصفهاني ص ٥٢٧.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ٣١٦.
(٦) الكليات، الكفوي ص ٩٠٨.

النور في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نور) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت (١٩٤) مرة، منها (٤٩) مرة تخص موضوع البحث[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٤٣	﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥]
اسم الفاعل	٣	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج:٨]

وجاء النور في الاستعمال القرآني على سبعة أوجه[٢]:

الأول: الإسلام والإيمان: ومنه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف:٨]. أي: الإسلام، وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]. أي: إيمانًا.

الثاني: الهدى: ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]. أي: هادي من في السماوات والأرض.

الثالث: النبي صلى الله عليه وسلم: ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥]. أي: محمد صلى الله عليه وسلم.

الرابع: ضوء النهار: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١]. أي: ضوء النهار.

الخامس: ضوء القمر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان:٦١]. أي: مضيئًا لأهل الأرض.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٢٣-٧٢٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٤٥، ٤٤٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٥٩٩، ٦٠١، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٤٨٦، ٤٨٨، الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ١٣١-١٣٣.

السادس: ضوء المؤمنين على الصراط: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد:١٢]. أي: الضوء الذي يعطي الله المؤمنين على الصراط يوم القيامة.

السابع: القرآن: ومنه قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨]، أي: القرآن.

الألفاظ ذات الصلة

١ الضياء:

الضياء لغة:

أصلها ضوء، قلبت الواو إلى ياء لمناسبة الكسرة قبلها[١]، والضوء هو الإنارة الناجمة عن مصدر ذاتي الإشعاع[٢].

الضياء اصطلاحًا:

هو الإشعاع الشمسي الذي يؤثر في العين فيمكن المبصر من الرؤية[٣].

وقال الراغب: «الضوء: ما انتشر من الأجسام النيرة»[٤].

الصلة بين النور والضياء:

النور والضياء مترادفان لغة.

وقد يفرق بينهما؛ بأن الضوء: ما كان من ذات الشيء المضيء، والنور: ما كان مستفادًا من غيره. وعليه جرى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

٢ السنا:

السنا لغة:

الضوء الساطع، والسناء: الرفعة، والسانية التي يسقى بها، سميت لرفعتها[٥].

السنا اصطلاحًا:

ضوء البرق الذي في السحاب.

الصلة بين النور والسنا:

يتفق النور والسنا من حيث شدة ضياء البرق وصفائه ونور لمعانه، إضافة إلى العلو والمجد والشرف والحسب والارتفاع في السنا، والأصل في السنا الإلماع، وهو أصل في النور أيضًا.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ١٠٧٨.
(٢) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي ٢/ ١١٠٩.
(٣) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٢/ ١٣٧٣، الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله الجربوع ٢/ ٧٤٧.
(٤) المفردات، ص٥١٤.
(٥) المفردات، الأصفهاني ص ٢٦٢، الكليات، الكفوي ص ٥١٥.

٣ المشكاة:

المشكاة لغة:

كل كوةٍ ليست بنافذة، وهي أجمع للضوء، والمصباح فيها أكثر إنارةً في غيرها. وقال مجاهد: المشكاة: العمود الذي يكون المصباح على رأسه[(١)].

المشكاة اصطلاحًا:

لايخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النور والمشكاة:

الصلة بين المشكاة والنور واضحة فالمشكاة هي مكان الضوء وحابسته حتى يظهر، والصلة بينهما صلة مجاورة.

٤ السراج:

السراج لغة:

(سرج): أصل صحيح يدل على الحسن والزينة والجمال. ومن ذلك السراج؛ سمي لضيائه وحسنه. والجمع: سُرُجٌ. والمسرجة: التي فيها الفتيل. وأسرج السراج: أوقده. وجبين سارج، أي: واضح كالسراج. ويقال: سرج وجهه، أي: حسنه، كأنه جعله له كالسراج[(٢)].

السراج اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النور والسراج:

السراج مصدر من مصادر النور، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].
فالشمس ينتج عن نورها إضاءة كالسراج.

(١) تاج العروس، الزبيدي ٣٨/ ٣٩١، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٢٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ١٠/ ٥٠٩.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٥٦، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ١٦٣.

اقتران النور بالظلمات

من خلال تتبع الاقتران والمقابلة بين لفظي (النور) و(الظلمات) في آيات عدة من القرآن الكريم، نلحظ الأمور الآتية:

أولًا: تكرر تقابل لفظ النور بالظلمات في أحد عشر موضعًا مختلفًا في القرآن الكريم.

ثانيًا: كل ما ورد في القرآن من أمر الظلمات والنور فالمراد به الكفر مقابل الإيمان، إلا التي في أول سورة (الأنعام) في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

فإن المراد هناك ظلمة الليل ونور النهار[(١)].

ثالثًا: التآم سياق سائر الآيات الإحدى عشرة على إفراد النور وجمع الظلمات، لتعدد فنون الباطل، واتحاد الحق، فطرق الضلال والكفر المقصودة من الظلمات كثيرة ومتشعبة؛ فهناك ظلمة الجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد في الباطل، وظلمة الشرك والكفر، كما أن الظلمة متنوعة بتنوع أسبابها؛ فهناك ظلمة الليل، وظلمة المحابس، وظلمة القبور، وظلمة الغمام، وهي تتغير حقائقها بتغير أسبابها. كما أن الظلمات من أجرام متكاثفة، ولها أسباب كثيرة، أما النور فمن جنس متحد. ثم ثمة إشارة إلى أمر معنوي، وهي أن ظلمة الإدراك تتعدد حقائقها، فهناك ظلمة الانحراف، وظلمة الأهواء والشهوات، وظلمة طمس القلوب، أما النور فواحد، وهو الحق لا يتعدد، ومن نتائجه الكشف والظهور، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فطريق الحق واضحة المعالم لا لبس فيها، ولا تشعب في مسالكها، أما طريق الضلال فهي متعددة متشعبة ملتبسة على من يسلكها[(٢)].

رابعًا: تقديم الظلمات على النور. لأنها المخلوقة أولًا.

خامسًا: في جمع الظلمات وإفراد النور لونان من ألوان المحسنات المعنوية في علم البديع من فن البلاغة:

١. الطباق.

وهو الجمع بين الشيء وضده في الكلام، وهو نوعان: طباق الإيجاب، وهو ما لم يختلف فيه الضدان سلبًا أو إيجابًا،

(١) الكليات، الكفوي ص ٥٨٨.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٥٦، صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ١٤٨، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٤٣١، وإعراب القرآن وبيانه، درويش ٣/ ٦٢.

وطباق السلب، وهو ما اختلف فيه الضدان إيجابًا وسلبًا.

٢. استعارة تصريحية.

والاستعارة من المجاز اللغوي، وهي تشبيهٌ حذف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائمًا، وهي قسمان: تصريحية ومكنية، والتصريحية: هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به، كما في مثالنا هنا، حيث استعار الظلمات، ولا يقصد به إلا الضلال، واستعار النور، ولا يقصد به إلا الهدى والإيمان[١].

(١) البلاغة الواضحة، الجارم وأمين ص ٣٢٧.

النور من صفات الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مدبر أمرهما بحكمةٍ بالغةٍ وحجَّةٍ نيرة. ثم مَثَّلَ مَثَلَ نوره ذلك في القلوب بأبين النور الذي لم يدرك بالأبصار فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

فنوره يجوز أن يكون ما ذكرنا من تدبيره، وجائز أن يكون كتابه الذي بَيَّنَ به فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وجائز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو النور الذي قال ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، لأن النبي صلى الله عليه وسلم هو المرشد والمبين والناقل عن الله ما هو نيرٌ، بينٌ[٢].

قال ابن عطية في ثنايا تفسير هذه الآية ما نصُّهُ: (النور) في كلام العرب الأضواء المدركة بالبصر[٣].

(٢) تهذيب معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٥.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١٠/ ٥٠٤.

وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

قال الإمام الفخر الرازي في ثنايا تفسير هذه الآية ما نصه: قالت المجسمة: إن الله تعالى نورٌ محضٌ، فإذا حضر الله في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الأرض بنور الله، وأكدوا هذا بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: أنا بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنه لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نورًا، بمعنى كونه من جنس هذه الأنوار المشاهدة، وبينا أنه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة، وجب حمل لفظ النور ههنا على العدل، فنحتاج ههنا إلى بيان أن لفظ النور قد يستعمل في هذا المعنى، ثم إلى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس إلا هذا المعنى، أما بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك، كما يقولون: أظلمت البلاد بجورك، وقال صلى الله عليه وسلم: (الظلم ظلمات يوم القيامة)[1].

وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط أنه قال: ﴿وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

ومعلوم أن المجيء بالشهداء ليس إلا لإظهار العدل، وأيضًا قال في آخر الآية: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، فدل هذا على أن المراد من ذلك النور إزالة ذلك الظلم، فكأنه تعالى فتح هذه الآية بإثبات العدل، وختمها بنفي الظلم.

والوجه الثاني: في الجواب عن الشبهة المذكورة أن قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

يدل على أنه يحصل هناك نور مضاف إلى الله تعالى، ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى؛ لأنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب، فلما كان ذلك النور من خلق الله، وشَرَّفَهُ، بأن أضافه إلى نفسه، كان ذلك النور نور الله، كقوله: بيت الله، وناقة الله، وهذا الجواب أقوى من الأول، لأن في هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة، والذهاب إلى المجاز.

والوجه الثالث: أنه قد يقال: فلان رب هذه الأرض، ورب هذه الدار، ورب هذه الجارية، ولا يبعد أن يكون رب هذه الأرض

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٨.

ملكًا من الملوك، وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نورًا[1].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

علق الشيخ رشيد رضا في تفسيره المنار على لفظ (النور) ما نصه: ما ورد في (النور) من نصوص الكتاب والسنة فقد سمى الله تعالى نفسه نورًا، وورد النور في أسمائه الحسنى المأثورة، وأسند النور إلى اسم الذات في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وأسنده رسوله صلى الله عليه وسلم إلى وجهه تعالى بقوله: (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات)[2]، ومثله في آثار أخرى.

والجمهور يفسرون الوجه بالذات، وهذا نوع من استعمال النور، غير إضافته إليه تعالى في قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصف: ٨].

على أن نوره في الأخيرة كتابه ووحيه وكلامه الذي هو من صفاته، والمراد به في الأظهر ما فيه آيات الهداية، فهو كقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومثله إطلاق اسم النور على النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

على وجه. وورد مثل هذا في كتب العهد الجديد عند النصارى مرويًّا عن المسيح عليه السلام، كقول يوحنا في رسالته الأولى (١: ٥): وهذه هي البشرى التي سمعناها منه ونبشركم بها: أن الله نور، وليس فيه ظلمة ألبتة. وأطلق النور على المسيح نفسه في موضع من إنجيلي لوقا ويوحنا.

ومن المعلوم أن النور حسي ومعنوي، فالأول يرى بالبصر ويرى به البصر سائر المبصرات، والثاني يدرك بالبصيرة وتدرك به البصيرة الحق والخير والصلاح، كذلك نور الآخرة قسمان: حسي ومعنوي، وأما نور الله تعالى الذي هو صفة من صفاته فقد أضيف إلى وجهه، وأسند إلى ذاته، فهو فوق هذا وذاك، لا يعرف كنهه سواه عز وجل، وهو غير النور الذي هو حجابه المانع من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٠.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، كتاب الدعاء، رقم ١٠٣٦ بهذا الإسناد.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٦/ ٤٨٦، رقم ٢٩٣٣.

رؤية ذاته، وإدراك كنهه، ولا يكبرنَّ عليك أيها الإنسان المعجب بنفسك هذا العجز عن إدراك نور الله عز وجل، فإن هذا النور الحسي الذي تراه بعينك لا تدرك حقيقته، ولم يدركها أحد من أبناء جنسك إلى الآن، ولم يستطع أحد أن يضع له تعريفًا يحدد هذه الحقيقة، ولم يكن المتقدمون يعرفون منه إلا ما يرونه من نار الأرض ونيرات السماء، ثم عرف المتأخرون هذه الكهرباء والراديو، فدخل بذلك العلم والعمل في طور جديد، إذا قيل: إنه فوق طور العقل والفلسفة والعلم التي انتهى إليها البشر قبله، لم يكن هذا القول مبالغة، وقد كانت الصوفية تقول: إن وراء مدرك عقول البشر علومًا صحيحة منطبقة على حقائق خارجية، لا محض نظريات فكرية، فيقول مدعو الفلسفة والمنطق: إن هذه خرافات خيالية، قال ابن الفارض: فثم وراء العقل علمٌ يدق عن مدارك غايات العلوم الصحيحة.

فأي عقل كان يتصور أنه يمكن لشخص واحد أن يوقد ما لا يحصى من المصابيح في دار، أو مدينة كبيرة في طرفة عين، وأن يطفئها في طرفة عين؟ وأن هذه المصابيح توقد بلا زيت ولا نار، وإنما تشعل بتحريك هنة صغيرة بعيدة عنها، ولكنها متصلة بها بسلك دقيق[1].

(١) تفسير المنار، رضا ٩/ ١٥٠.

أنواع النور

أولًا: النور الحسي:

ويتجلى في نماذج المحسوسات الآتية:

١. القمر.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦].

وقال تعالى أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

قال الإمام البغوي في تفسيره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ بالنهار، ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ بالليل. وقيل: جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور، ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾، أي: قدر له، يعني هيأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقل: قدرهما. قيل: تقدير المنازل ينصرف إليهما، غير أنه اكتفى بذكر أحدهما، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقيل: هو ينصرف إلى القمر خاصة، لأن بالقمر يعرف انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلًا، وأسماؤها: الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنسر، والطرف، والجبهة،

والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرع الدلو المقدم، وفرع الدلو المؤخر، وبطن الحوت.

وهذه المنازل مقسومة على البروج، وهي اثنا عشر برجًا: الحمل والثور والجوزاء، والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس، والجدي والدلو والحوت، فلكل برج منزلان وثلث منزل، فينزل القمر كل ليلة منزلًا منها، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان الشهر تسعًا وعشرين فليلة واحدة، فيكون انقضاء الشهر بنزول تلك المنازل، ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يومًا وثلث يوم، فيكون انقضاء السنة من انقضائها.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾، أي: قدر المنازل لتعلموا عدد السنين دخولها وانقضاءها، ﴿وَالْحِسَابَ﴾، يعني: حساب الشهور والأيام والساعات. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾، رده إلى الخلق والتقدير، ولولا رده إلى الأعيان المذكورة لقال تلك، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: لم يخلقه باطلًا، بل إظهارًا لصنعه، ودلالة على قدرته. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤١٠.

٢. القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد ذهب المفسرون في تعيين النور في الآية بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾، أي: واتبعوا القرآن المنزل إليه، مع إتباعه بالعمل بسنته، مما يأمر به، وينهى عنه. أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه. وسمى القرآن نورًا، لأن به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم[2].

٣. الكتب المنزلة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

استئناف يتضمن تعظيم التوراة وتفخيم شأنها، وأنَّ فيها الهدى والنور، وهو بيان الشرائع والتبشير بمحمد صلى الله عليه

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٦، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٧٠.

وسلم وإيجاب اتباعه[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سؤالهم العام، بإثبات قضية جزئية موجبة، ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة التي قد علمتم، وكلُّ أحد قد علم أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران، ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات. وقوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، أي تجعلون جملتها قراطيس، أي: قطعًا تكتبونها من الكتاب الأصلي، الذي بأيديكم، وتحرفون منها ما تحرفون، وتبدلون وتتأولون، وتقولون هذا من عند الله، أي في كتابه المنزل، وما هو من عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٦٠.

ثانيًا: النور المعنوي:

ويتجلى في نماذج المعاني الثلاثة الآتية:

١. النبوة.

ومثله إطلاق اسم النور على النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

فالنور: هو محمد صلى الله عليه وسلم، والهدى، أو النور الذي يبين الأشياء، ويري الأبصار حقيقتها، فمثل ما أوتي به النبي صلى الله عليه وسلم في القلوب في بيانه، وكشفه الظلمات كمثل النور. وقيل: الإسلام، والكتاب المبين: القرآن، فإنه المبين[3].

٢. الإيمان.

ومثله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

قال ابن عباس: يعني الإيمان، وقال السدي: يعني القرآن[4].

ومثله أيضًا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن

(٣) تهذيب معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٢٣، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٤.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٥٣.

﴿يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

فقد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي لا تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتمم لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح[1].

٣. الهداية.

فقد أطلق القرآن الكريم لفظ النور على معنى الهداية واليقين، والعلم والإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الحديد: ٩].

أي: حججًا واضحات، ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به، وأنه حق اليقين، ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة، إلى نور الهدى واليقين، ومن ظلمات الجهل والكفر، إلى نور العلم والإيمان، وهذا من رحمته بكم ورأفته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها[2].

وذكر الشعراوي رحمه الله في خواطره عند قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

فقال: لم يتركنا الحق سبحانه وتعالى في النور الحسي فقط، إنما أرسل إلينا نورًا آخر على يد الرسل، هو نور المنهج الذي ينظم لنا حركة الحياة، كأنه تعالى يقول لنا: بعثت إليكم نورًا على نور، نور حسي، ونور قيمي معنوي، وإذا شهدتم أنتم بأنَّ نوري الحسي ينير لكم السموات والأرض، وإذا ظهر تلاشت أمامه كل أنواركم، فاعلموا أن نور منهجي كذلك يطغى على كل مناهجكم، وليس لكم أن تأخذوا بمناهج البشر في وجود منهج الله.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: لنوره المعنوي نور المنهج ونور التكاليف، والكفار لم يهتدوا إلى هذا النور، وإن اهتدوا إلى النور الحسي في الشمس والقمر وانتفعوا به، وأطفأوا له مصابيحهم، لكن لم يكن لهم حظ في النور المعنوي، حيث أغلقوا دونه عيونهم وقلوبهم وأسماعهم، فلم ينتفعوا به. وكان عليهم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٨، تيسير الكريم الرحمن ص ٨٣٨.

أن يفهموا أن نور الله المعنوي مثل نوره الحسي لا يمكن الاستغناء عنه، لذلك جاء في أثر علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهد في غيره أضله الله). والعجيب أن العبد كلما توغل في الهداية ازداد نورًا على نور، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧][1].

نور الحق بين دعاته وأعدائه

مهمة أنبياء الله ورسله، وورثتهم في الأمة من الأئمة والدعاة والعلماء، إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

قال سيد قطب رحمه الله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، لا إلى دنيا، ولا إلى مجد، ولا إلى عزة قومية، ولا إلى عصبية جاهلية، ولا إلى مغنم، ولا إلى سلطان أو جاه. ولكن داعيا إلى الله، في طريق واحد يصل إلى الله ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾، فما هو بمبتدع، ولا بمتطوع، ولا بقائل من عنده شيئًا. إنما هو إذن الله له، وأمره لا يتعداه. ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾، يجلو الظلمات، ويكشف الشبهات، وينير الطريق، نورًا هادئًا هاديًا كالسراج المنير في الظلمات. وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من النور. جاء بالتصور الواضح البين النير لهذا الوجود، ولعلاقة الوجود بالخالق، ولمكان الكائن الإنساني من هذا الوجود وخالقه، وللقيم التي يقوم عليها الوجود كله، ويقوم عليها وجود هذا الإنسان فيه؛ وللمنشأ والمصير، والهدف والغاية، والطريق والوسيلة. في قول فصل، لا شبهة فيه، ولا غموض. وفي أسلوب

(١) تفسير خواطر الشعراوي ١٧/ ١٠٢٧٥.

يخاطب الفطرة خطابًا مباشرًا، وينفذ إليها من أقرب السبل، وأوسع الأبواب، وأعمق المسالك والدروب[1].

وقد سعى الأعداء لإطفاء نور الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وقال أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

قال الرازي: اعلم أن المقصود منه بيان نوع ثالث من الأفعال القبيحة الصادرة عن رؤساء اليهود والنصارى، وهو سعيهم في إبطال أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وجدهم في إخفاء الدلائل الدالة على صحة شرعه وقوة دينه، والمراد من النور: الدلائل الدالة على صحة نبوته، وهي أمور كثيرة جدًّا.

أحدها: المعجزات القاهرة التي ظهرت على يده، فإنَّ المعجز إمَّا أن يكون دليلًا على الصدق أو لا يكون، فإن كان دليلًا على الصدق، فحيث ظهر المعجز لا بد من حصول الصدق، فوجب كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقًا، وإن لم يدلَّ على الصدق قدح ذلك في نبوة موسى وعيسى عليهما السلام.

وثانيها: القرآن العظيم الذي ظهر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مع أنه من أول عمره إلى آخره ما تعلم وما طالع، وما استفاد، وما نظر في كتاب، وذلك من أعظم المعجزات.

وثالثها: أن حاصل شريعته تعظيم الله والثناء عليه، والانقياد لطاعته، وصرف النفس عن حبِّ الدنيا، والترغيب في سعادات الآخرة. والعقل يدلُّ على أنه لا طريق إلى الله إلا من هذا الوجه.

ورابعها: أنَّ شرعه كان خاليًا عن جميع العيوب، فليس فيه إثبات ما لا يليق بالله، وليس فيه دعوة إلى غير الله، وقد ملك البلاد العظيمة، وما غير طريقته في استحقار الدنيا، وعدم الالتفات إليها، ولو كان مقصوده طلب الدنيا لما بقي الأمر كذلك.

فهذه الأحوال دلائل نيرة وبراهين قاهرة في صحة قوله، ثم إنهم بكلماتهم الركيكة وشبهاتهم السخيفة، وأنواع كيدهم ومكرهم، أرادوا إبطال هذه الدلائل، فكان هذا جاريًا مجرى من يريد إبطال نور الشمس بسبب أن ينفخ فيها، وكما أن ذلك باطل وعمل ضائع، فكذا ههنا، فهذا هو المراد من قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

ثم إنه تعالى وعد محمدًا صلى الله عليه وسلم مزيد النصرة والقوة وإعلاء الدرجة وكمال الرتبة فقال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٢.

﴿نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فإن قيل: كيف جاز أبى الله إلا كذا، ولا يقال كرهت أو أبغضت إلا زيدًا؟ قلنا: أجرى (أبى) مجرى لم يرد، والتقدير: ما أراد الله إلا ذلك، إلا أن الإباء يفيد زيادة عدم الإرادة وهي المنع والامتناع، والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: (وإن أرادوا ظلمنا أبينا) فامتدح بذلك، ولا يجوز أن يمتدح بأنه يكره الظلم، لأن ذلك يصح من القوي والضعيف، ويقال: فلان أبى الضيم، والمعنى ما ذكرناه، وإنما سمى الدلائل بالنور؛ لأن النور يهدي إلى الصواب. فكذلك الدلائل تهدي إلى الصواب في الأديان[1].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٤١.

النور يوم القيامة

أولًا: سعي نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

قال ابن عاشور: ضمير ﴿نُورُهُمْ﴾ عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه. وإضافة (نور) إلى ضمير (هم) مع أنه لم يسبق إخبار عنهم بنور لهم ليست إضافة تعريف، إذ ليس المقصود تعريف النور وتعيينه، ولكن الإضافة مستعملة هنا في لازم ضمير نورهم عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه. وإضافة (نور) إلى ضمير (هم) مع أنه لم يسبق إخبار عنهم بنور لهم ليست إضافة تعريف إذ ليس المقصود تعريف؛ النور وتعيينه ولكن الإضافة مستعملة هنا في لازم معناها وهو اختصاص النور بهم في ذلك اليوم، بحيث يميزه الناس من بين الأنوار يومئذ.

وسعي النور: امتداده وانتشاره. شبه ذلك باشتداد مشي الماشي وذلك أنه يحف

بهم حيثما انتقلوا تنويها بشأنهم، كما تنشر الأعلام بين يدي الأمير والقائد، وكما تساق الجياد بين يدي الخليفة. وإنما خُصَّ بالذكر من الجهات الأمام واليمين؛ لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته وشعروا بأنه كرامة لهم، ولأن الأيدي هي التي تمسك بها الأمور النفيسة وبها بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على الإيمان والنصر. وهذا النور نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين يوم القيامة. والباء للملابسة، ويجوز أن تكون بمعنى (عن).

وقد تقدم نظير هذا في سورة الحديد وما ذكرناه هنا أوسع. وجملة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ إلى آخرها حال من ضمير ﴿نُورُهُمْ﴾، وظاهره أن تكون حالًا مقارنة، أي: يقولون ذلك في ذلك اليوم، ودعاؤهم طلب للزيادة من ذلك النور، فيكون ضمير يقولون عائد إلى جميع الذين آمنوا مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ، أو يقول ذلك من كان نوره أقل من نور غيره ممن هو أفضل منه يومئذ، فيكون ضمير يقولون على إرادة التوزيع على طوائف الذين آمنوا في ذلك اليوم. وإتمام النور إدامته أو الزيادة منه على الوجهين المذكورين آنفا، وكذلك الدعاء بطلب المغفرة لهم هو لطلب دوام المغفرة، وذلك كله أدب مع الله وتواضع له، مثل ما قيل في استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم سبعين مرة. ويظهر بذلك وجه التذييل بقولهم: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المشعر بتعليل الدعاء كناية عن رجاء إجابته لهم[1].

ثانيًا: تمني المنافقين الاقتباس من نور المؤمنين:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٢-١٣].

قال الرازي: المراد من هذا اليوم هو يوم المحاسبة، واختلفوا في هذا النور على وجوه:

أحدها: قال قوم: المراد نفس النور على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن كل مثاب فإنه يحصل له النور على قدر عمله وثوابه في العظم والصغر. فعلى هذا مراتب الأنوار مختلفة؛ فمنهم من يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء، ومنهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من لا يضيء له نور إلا موضع قدميه، وأدناهم نورًا من يكون نوره على إبهامه ينطفئ مرة ويتقد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٠.

أخرى، وهذا القول منقول عن ابن مسعود، وقتادة وغيرهما، وقال مجاهد: ما من عبد إلا وينادي يوم القيامة: يا فلان ها نورك، ويا فلان لا نور لك، نعوذ بالله منه. واعلم أنا بينا في سورة النور، أن النور الحقيقي هو الله تعالى، وأن نور العلم الذي هو نور البصيرة أولى بكونه نورًا من نور البصر، وإذا كان كذلك ظهر أن معرفة الله هي النور في القيامة، فمقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف في الدنيا.

والمراد من النور ما يكون سببًا للنجاة. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾، لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم، ووراء ظهورهم. والمراد بهذا النور الهداية إلى الجنة، كما يقال ليس لهذا الأمر نور، إذا لم يكن المقصود حاصلًا، ويقال: هذا الأمر له نور ورونق، إذا كان المقصود حاصلًا[1].

وذكر ابن أبي حاتم روايات في تفسيره للآية: منها: عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم. يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نورًا من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويوقد أخرى).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى بين يدي، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك)، فقال الرجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: (هم غرٌّ محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم يسعى بين أيديهم ذريتهم)[2].

وعن سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق، ومعنا أبو أمامة الباهلي، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا يشير إلى القبر- بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس في أمر من الله، فتبيض وجوه، وتسود وجوه.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٢٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢١٧٣٧، وإسناده صحيح.

ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر تغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نورًا، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئًا وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه، قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير، و ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾، وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور. فلا يجدون شيئًا، فينصرفون إليهم وقد ضرب ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية.

يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغترًّا حتى يقسم النور، ويميز الله بين المؤمن والمنافق. وبسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (تبعث ظلمة يوم القيامة، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه، حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم، فيتبعهم المنافقون فيقولون: ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[1].

ثالثًا: مقام الشهداء عند ربهم بما يتمتعون به من أجر ونور:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩].

قال السعدي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾: الإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، وهو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ كما ورد في الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة مائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله)[2].

وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقربهم من الله تعالى.

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، رقم ٧٤٢٣.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق، المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين كان جُلُّ عملهم الإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم، خصوصا بالنفع بالمال في سبيل الله. والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تعالى، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله تعالى[1].

النور في المثل القرآني

يتنوع المثل في القرآن الكريم إلى أنواع ثلاثة مختلفة، ويمكننا أن نطبقها على لفظ (النور):

أولًا: المثل الظاهر:

وهو المصرح به بلفظ المثل أو التشبيه، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

فقد ضرب فيها للمنافقين مثلين: مثلًا بالنار، ومثلًا بالمطر.

أخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله العزَّ كما سلب صاحب النار ضوءه ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ يقول: في عذاب، ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ هو المطر، ضرب مثله في القرآن ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ يقول: ابتلاء ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ تخويف ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يقول: يكاد محكم القرآن يدلُّ على عورات المنافقين ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقون في الإسلام عزًّا اطمأنوا، فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٤٠.

ليرجعوا إلى الكفر، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج: ١١][1].

ومثله أيضًا: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥].

ثانيًا: المثل الكامن:

وهو الذي لا يذكر فيه لفظ المثل صراحة، وإنما يفهم من السياق، وتدل ألفاظه على معنى المثل، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فقد مثل المؤمن بالحيِّ مقابل الكافر بالميت، وبين أنَّ هدي هذا الدين كالنور يضيء للمارة في درب مظلم. فالمثل هنا مفهوم من دلالة النص ومكنونه.

ثالثًا: المثل المرسل:

وهو الذي لم يصرح فيه بلفظ التشبيه، بل هي ألفاظ من القرآن، جارية مجرى المثل، كما في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فقد شبه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ودعوته بالسراج المنير[2].

ونختم باستعراض ما استجمعه الإمام الفيروزآبادي في بصائره المميزة من خصائص مختلفة جامعة لمفردة (النور)، جاء فيها:

النور: الضياء والسناء الذى يعين على الإبصار، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي، فالدنيوي ضربان: معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأنوار الإلهية: كنور العقل، ونور القرآن، ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة: كالقمرين، والنجوم، والنيرات.

فمن النور الإلهي، قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ﴾ [المائدة: ١٥].

وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥].

ومن النور المحسوس الذى يرى بعين البصر نحو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥].

وتخصيص الشمس بالضوء، والقمر بالنور، من حيث إن الضوء أخص من النور، وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ [الفرقان: ٦١]. أي: ذا نور.

ومما هو عامٌّ فيهما قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١].

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٧٧٠.

(٢) مباحث في علوم القرآن، القطان ص ٢٩٠.

وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

ومن النور الأخروي قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

وسمى الله نفسه نورًا، من حيث إنه المنور، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وتسميته تعالى بذلك لمبالغة فعله، وقيل: النور هو الذي يبصر بنوره ذو العماية، ويرشد بهداه ذو الغواية، وقيل: هو الظاهر الذي به كل ظهور، فالظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورًا. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟ فقال: (نور أنى أراه!)[1]، أي: هو نور كيف أراه!. وسئل عنه الإمام أحمد فقال: ما زلت منكرًا له، وما أدري ما وجهه. وقال ابن خزيمة: في القلب من صحة هذا الحديث شيء.

وقال بعض أهل الحكمة: النور جسم وعرض، والله تعالى ليس بجسم ولا عرض، وإنما حجابه النور، وكذا روي في حديث أبي موسى، والمعنى: كيف أرى وحجابه النور! أي: النور يمنع من رؤيته. وفي الحديث: (اللهم اجعل في قلبي نورًا)[2]، وذكر سائر الأعضاء، والمعنى: استعمل هذه الأعضاء مني في الحق، واجعل تصرفي وتقلبي فيها على سبيل الصواب والخير.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥]. يعني سيد المرسلين محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: القرآن.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. قيل: أي: الليل والنهار.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف: ٨]. يعني به الإسلام.

وقوله: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

وقوله: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨]. المراد به نور العناية.

والنار تقال للهيب الذي يبدو للحاسة نحو قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١].

وللحرارة المجردة؛ ولنار جهنم المذكورة في قوله تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢].

وفي حديث شجر جهنم: (فتعلوهم نار الأنيار)[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (نور أنى أراه)، رقم ١٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل، رقم ٦٣١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٦٣.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٦٧٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٥٥، رقم ٢٤٩٢.

يحتمل أن يكون معناه نار النيران، فجمع النار على أنيار، وأصلها أنوار، كما جاء في ريح وعيد رياح وأعياد، وأصلهما واو. ولنار الحرب المذكورة في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال بعضهم: النار والنور من أصل واحد، وهما كثيرًا ما يتلازمان، لكن النار متاع للمقوين في الدنيا، والنور متاع للمتقين في الدنيا والآخرة، ولأجل ذلك استعمل في النور الاقتباس، فقال: ﴿نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣]. وتنورت نارًا: أبصرتها[1].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الشمس، الظلمات، القمر، الليل، النجوم، النهار

قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٣٥، رقم ٨٠٤٠.

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ١٠٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٣٣.

الهجرة

عناصر الموضوع

مفهوم الهجرة	٨٦
الهجرة في الاستعمال القرآني	٨٧
الألفاظ ذات الصلة	٨٨
هجرة المكان	٩٠
هجرة الأعمال	١٠٣
المهاجرون	١٠٨
آثار الهجرة في سبيل الله	١١٦

مفهوم الهجرة

أولًا: المعنى اللغوي:

الهاء والجيم والراء، أصلان: يدل أحدهما على قطيعة وقطع، والآخر على شد شيء وربطه.

فالأول الهجر: ضد الوصل، وكذلك الهجران، وهاجر القوم من دار إلى دار: تركوا الأولى للثانية[(١)].

هجره يهجره هجرًا وهجرانًا: صرمه، وهما يهتجران ويتهاجران، والاسم: الهجرة، وقيل: الهجران، ويذهب إلى أن الهواجر جمع هجر، ويرى أنه من الجموع الشاذة كأن واحدها هاجرةٌ، والصحيح في هواجر أنها جمع هاجرةٍ: بمعنى الهجر[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الهجرة شرعا: «ترك الوطن الذي بين الكفار، والانتقال إلى دار الإسلام»[(٣)].

وقيل: «الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام»[(٤)].

وقيل: إنما تنصرف إلى هجران بلد الشرك إلى دار الإسلام؛ رغبة في تعلم الإسلام والعمل به[(٥)].

فالهجرة، هي: «الخروج في سبيل الله من دار الكفر إلى دار الإسلام، ومن دارٍ شديد الفتنة إلى دارٍ أقل منه فتنة؛ طلبًا للسلامة في الدين والنفس»[(٦)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٣٤.
وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٢٤٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٥٠.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٣٣.
وانظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٥٦.
(٤) المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٩٣.
(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/ ٣٩.
(٦) الهجرة مسائل وأحكام، عبد المنعم مصطفى ص١١، المفصل في أحكام الهجرة، علي بن نايف الشحود ص٦.

الهجرة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هجر) في القرآن الكريم (٣١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ [النحل:١١٠]
الفعل المضارع	٦	﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٨٩]
فعل الأمر	٤	﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم:٤٦]
المصدر	١	﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل:١٠]
اسم الفاعل	٨	﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت:٢٦]
اسم المفعول	١	﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان:٣٠]

وجاءت الهجرة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الترك والمفارقة؛ إما بالبدن أو باللسان أو بالقلب[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٣٠، ٧٣١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهاء ص١٣٦٢-١٣٦٣.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٥٩، ٤٦٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٣٠٤، ٣٠٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٢٤٠- ٢٤٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الترك:

الترك لغةً:

التاء والراء والكاف: الترك: التخلية عن الشيء؛ ولذلك تسمى البيضة بالعراء تريكة.

تركت الشيء تركًا: خليته، وتاركته البيع متاركة، وتراك بمعنى: اترك، وهو اسمٌ لفعل الأمر[١].

الترك اصطلاحًا:

الترك عند العرب تخليف الشيء في المكان الذي هو فيه والانصراف عنه[٢].

الصلة بين المتاركة والهجرة:

المتاركة هي: ترك الأمر بالشيء والرغبة فيه، والنهي عن خلافه[٣]، أما الهجرة: فهي أعم من الترك، فهي ترك الأشياء مع الرغبة فيها، وتمني الرجوع إليها.

٢ القطيعة:

القطيعة لغةً:

«القاف والطاء والعين، أصل صحيح واحد، يدل على صرم وإبانة شيء من شيء، والقطيعة: الهجران، يقال: تقاطع الرجلان، إذا تصارما»، والاسم: القطيعة[٤]، وقطع رحمه قطيعةً: إذا لم يصلها، ويقال: رحم قطعاء بيني وبينك، إذا لم توصل[٥].

والقطيعة اصطلاحًا:

ترك البر والإحسان إلى الأهل والأقارب وهي ضد الصلة[٦].

الصلة بين القطيعة والهجرة:

قد يكون بينهما ارتباط في ترك المكان، فالمقاطع قد يترك مكان التواصل مع أقربائه،

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٤٥، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٧، الصحاح، الجوهري ٤/ ١٥٧٧.

(٢) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص١١٣.

(٣) المصدر السابق ص١٢٣.

(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ١٣٠.

(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٠١، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٧٥٧، الصحاح، الجوهري ٢/ ١٢٦٦.

(٦) انظر: موسوعة نضرة النعيم ١١/ ٥٣٢٩.

والمهاجر قد يترك موطنه الأصلي، إلا أنه لا يلزم في الهجرة المقاطعة؛ كما أن المقاطع الذي يهجر قراباته من الكفار لا يلزم من قطيعتهم الهجرة إلى موطن وبلد آخر ما دام قادرًا على تأدية فرائض الدين.

٣ الخروج:

الخروج لغةً:

الخاء والراء والجيم، أصلان، وقد يمكن الجمع بينهما، فالأول: النفاذ عن الشيء، والثاني: اختلاف لونين. والخروج: خروج السحابة، يقال ما أحسن خروجها، وفلان خريج فلان، إذا كان يتعلم منه، كأنه هو الذي أخرجه من حد الجهل[١].

الخروج اصطلاحًا:

«الانفصال من المحيط إلى الخارج ويلزمه الظهور والبروز»[٢]، وقيل: «هو عبارة عن الانفصال من مكانه الذي هو فيه إلى مكان قصده، وذلك المكان تارة يكون قريبا، وتارة يكون بعيدا»[٣].

الصلة بين الخروج والهجرة:

الخروج: هو الانتقال من مكان إلى مكان آخر، وقد يعد مذمومًا أو محمودًا، والهجرة: الرحيل من مكان لآخر، وتعد في الغالب محمودة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٧٥، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٢٨٦.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٥٤.
(٣) الكليات، الكفوي ص٤٥٢.

هجرة المكان

من أنواع الهجرة التي ذكرها القرآن الكريم هجرة المكان، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام:

دار الحرب: هي كل بقعة تكون فيها الحرب بين المؤمنين والكافرين.

فدار الحرب هي دار الكفار الذين بينهم وبين المسلمين حرب[(١)].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من الهجرة.

قال الله جل جلاله في سورة العنكبوت: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

فأرشد الله عباده المؤمنين للهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين وعبادة الله وحده.

وممن ذهب إلى أن المراد بهذه الآية الهجرة والانتقال ابن زيد ومقاتل والكلبي[(٢)].

وكلام ابن زيد أوضح في أن المراد بالآية هجرة المسلمين من مكة؛ فقد سأله ابن وهب عن هذه الآية: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]: «يريد بهذا من كان بمكة من المؤمنين؟ فقال: نعم»[(٣)].

وتذييل الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فيه بيان «أن علة الأمر لهم بالهجرة هي تمكينهم من إظهار التوحيد، وإقامة الدين»[(٤)].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون[(٥)] بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم بفعل بعض، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين

(١) الإعلام بوجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، عبد العزيز بن صالح الجربوع ص٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٥٧.

(٣) جامع البيان ٢٠/ ٥٦.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٢.

(٥) (يستخفون): يستترون، أي: يسرون بالإسلام. انظر: الكليات، الكفوي ص٩٩٣.

وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت الآية»[1].

فهذه الآية كما نرى شددت على أهمية الهجرة من أرض الكفر، وحذرت من البقاء بين أظهر المشركين، وبينت خطره، وتوعدت من فعل ذلك بعقاب الله له، ما لم يكن من أهل الأعذار.

والمقصود بالهجرة في الآية: الانتقال من مكة إلى المدينة، بعدما حاربت قريش النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين، وضيقت عليهم ومنعتهم من الدعوة إلى الله عز وجل وإقامة شعائره، فأذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة؛ لإقامة دولة الإسلام، وإرساء مبادئ الدين الجديد.

حكم الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام:

يستدل من الآية السابقة على بعض الأحكام المتعلقة بالهجرة على النحو الآتي:

١. وجوب الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام عند عدم العذر.

هذا حكمٌ باقٍ إلى يوم القيامة، ويستفاد هذا الوجوب في الآية من عدة أمور:

- وصف الذين لم يهاجروا بالظلم، في قوله جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].
- توبيخ الملائكة لهم بعد موتهم، في قوله عز وجل: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾ [النساء: ٩٧].
- توعدهم بالنار في الآخرة، وبئس المصير، في قوله عز وجل: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: «الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حرامًا بالإجماع، وبنص هذه الآية»[2].

قال ابن العربي رحمه الله: «النوع الثاني من الهجرة: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضًا في أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والهجرة التي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان، فمن أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام، فإن بقي فقد عصى»[3].

وقال الشيخ السعدي في تفسير الآية: «وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٣/ ١٠٤٥، رقم ٥٨٦٢، وأصله في صحيح البخاري ٦/ ٤٨، رقم ٤٥٩٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٨٩.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١١ بتصرف.

الكبائر»[1].

٢. أهل الأعذار معفو عنهم ولا يشملهم العقاب.

من رحمة الله عز وجل بعباده أنه لم يكلفهم فوق طاقتهم، ولم يأمرهم بما يعجزون عن تحقيقه، وهذا من محاسن الإسلام، ويسر شريعته؛ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد عفا عمن لم يقدر على الهجرة لسبب من الأسباب، ولم يتوعده بما توعد به تارك الهجرة لغير سبب، وهو ما يبينه قوله عز وجل: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨- ٩٩].

قال ابن عطية رحمه الله: «ثم استثنى منهم من كان استضعافه على حقيقة من زمنة[2] الرجال، وضعفة النساء والولدان. والحيلة: لفظ عام لأسباب أنواع التخلص، والسبيل: سبيل المدينة فيما ذكر مجاهد والسدي وغيرهما، والصواب أنه عام في جميع السبل، ثم رجى الله سبحانه وتعالى هؤلاء بالعفو عنهم»[3].

وقال ابن عاشور: «﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ استثناء من الوعيد، والمعنى: إلا المستضعفين حقًا، أي: العاجزين عن الخروج من مكة؛ لقلة جهد أو لإكراه المشركين إياهم على البقاء، والتبيين بقوله: ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٩٨]؛ لقصد التعميم، والمقصد التنبيه على أن من الرجال مستضعفين؛ فلذلك ابتدئ بذكرهم، ثم ألحق بذكرهم النساء والصبيان؛ لأن وجودهم في العائلة يكون عذرًا لوليهم إذا كان لا يجد حيلة.

وجملة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨].

حال من المستضعفين، موضحة للاستضعاف؛ ليظهر أنه غير الاستضعاف الذي يقوله الذين ظلموا أنفسهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

أي: لا يستطيعون حيلة في الخروج؛ إما لمنع أهل مكة إياهم، أو لفقرهم، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨].

أي: معرفة للطريق كالأعمى»[4].

فالهجرة واجبة في حق كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فإن لم يفعل فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا، وأما من كان مستضعفًا عاجزًا عن الهجرة لسبب من الأسباب فقد عفا الله عنه وعذره، والله

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١٩٥.
(٢) أزمن الله فلانًا: جعله زمنًا، أي: مقعدًا، أو ذا عاهةٍ. تاج العروس ٣٥/ ١٥٥.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٠٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٧٦، ١٧٧ بتصرف.

أعلم.

ثانيًا: الهجرة من أرض البدعة والمعصية إلى أرض السنة والطاعة:

من أنواع الهجرة التي أقرها الشرع الهجرة من أرض البدعة والمعصية إلى أرض السنة والطاعة.

والمقصود بأرض البدعة والمعصية التي استقر فيها الإسلام، ثم انتشرت فيها البدع والمخالفات.

وليس المقصود بالأرض البلد أو المدينة أو المنطقة، بل الأمر أوسع من هذا، فيشمل كل بقعة أو مجلس تحول عنه لنوع بدعة أو شيء محرم.

وقد جاءت الإشارة إلى هذا النوع من الهجرة في الكتاب والسنة.

فأرشد القرآن الكريم في بعض آياته إلى ضرورة الهجرة من أرض البدعة والمعصية إلى أرض السنة والطاعة، ومن هذه الآيات:

قال الله عز وجل في سورة العنكبوت: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وهذه الآية وإن كان قد سبق الاستدلال بها على وجوب الهجرة من دار الكفر إلا أن بعض السلف -ومنهم سعيد بن جبير وعطاء-[1] رأوا أن المقصود بالهجرة في الآية الهجرة من أرض المعاصي إلى أرض الطاعة؛ بناءً على عموم الآية.

قال الإمام القرطبي في بيان القول السابق عند تفسيره لهذه الآية: «وقال ابن جبير وعطاء: إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق»[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقد استنبط العلماء من هذه الآية وجوب الهجرة من أرض البدعة والمعصية إلى أرض السنة والطاعة.

وقد أشار ابن العربي المالكي رحمه الله إلى هذا النوع من أنواع الهجرة بقوله: «النوع الثاني من الهجرة: الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: «لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيها السلف». وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم يقدر على تغييره نزل عنه»[3].

قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٥٧، ٣٥٨.

(٣) كذا في أحكام القرآن، ولم يتبين لي وجهه في اللغة. ولعل صوابه: يزول عنه. أي: يتحول عنه ويبتعد.

﴿حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨][(١)].

ثم ذكر رحمه الله الهجرة من أرض المعصية إلى أرض الطاعة بقوله: «النوع الثالث من أنواع الهجرة: الخروج عن أرض غلب عليها الحرام؛ فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم»[(٢)].

وأغلب أهل العلم في تفسير هذه الآية على أن المقصود بها مجالس البدع والاستهزاء بالدين[(٣)].

والخطاب وإن كان للرسول صلى الله عليه وسلم في الآية مباشرةً، فإن حكم بقية المسلمين كحكمه. كما قال جل جلاله في ذكر المنافقين: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠].

قال الحافظ ابن كثير عن آية سورة الأنعام مبينًا عمومها لكل المسلمين: «والمراد بهذه الآية كل فرد من آحاد الأمة ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله، ويضعونها على غير مواضعها، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم في الذي هم فيه»[(٤)].

ووردت الهجرة كذلك في السنة النبوية كما وردت في القرآن.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: (كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهبٍ، فأتاه، فقال: إنه قتل تسعةً وتسعين نفسًا، فهل له من توبةٍ؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائةً، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجلٍ عالمٍ، فقال: إنه قتل مائة نفسٍ، فهل له من توبةٍ؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوءٍ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١١ بتصرف.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٢٢، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٩٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٧٨.

ملكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم[1]، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة)، قال قتادة: فقال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره[2][3].

قال النووي رحمه الله: «قوله: (انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن فيها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء) قال العلماء: في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، والأخدان المساعدين له على ذلك، ومقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبدين الورعين ومن يقتدي بهم وينتفع بصحبتهم، وتتأكد بذلك توبته»[4].

حكم هذه الهجرة:

سبق أن بينا أن الهجرة من أرض البدعة والمعصية إلى أرض السنة والطاعة ليس المقصود منها انتقال إلى بلد أو مدينة أو منطقة فحسب، بل الأمر أوسع من هذا، يشمل كل بقعة أو مجلس تحول عنه لنوع بدعة أو شيء محرم.

وبناءً على ذلك يكون لهذه الهجرة حكمان:

الأول: الوجوب إذا كان الجلوس في مثل هذه الأماكن سببًا في فقد المسلم القدرة على الالتزام بتعاليم دينه، وعدم قدرته على تغيير المنكرات، كما يفهم من نصوص القرآن وكلام العلماء.

ويفهم هذا الوجوب من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ومن دلالات الوجوب في الآية: صيغة الأمر بالإعراض في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وجعل غاية هذا الإعراض[5] أن يخوضوا في حديث غيره، وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وكذلك يستفاد من النهي في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]؛

---

(١) أي: حكمًا بينهم.

(٢) نأى: أي: نهض ومال، بصدره: أي: إلى ناحية القرية التي توجه إليها للتوبة والعبادة، أي ثم مات...، فالمعنى: فبعد بصدره عن الأرض التي خرج منها.
انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٨/ ٢١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ٤/ ٢١١٨، رقم ٢٧٦٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ٨٣.

(٥) أي: زمن الإعراض.

لأن الإقامة في هذه الأرض أيًا كان نوعها -كما بينا سابقًا- تعرض المسلم لسخط الله عز وجل وفقد القدرة على الالتزام بتعاليم دينه.

ويفهم الوجوب من كلام العلماء المذكورين سابقًا، كابن العربي وابن كثير، وغيرهما.

الثاني: جواز الهجرة وعدمه:

وهذا إذا كان المسلم قادرًا على إقامة أحكام دينه، وعلى إزالة هذه المنكرات، وعلى دعوة العصاة في مثل هذه الأماكن.

ويؤخذ هذا الحكم من قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩].

وقد صرح بعض العلماء بهذا الحكم، واتضح من كلام بعضٍ آخر بمفهوم المخالفة.

قال الرازي في تفسير هذه الآية: «قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال المسلمون: لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن وخاضوا فيه قمنا عنهم لما قدرنا على أن نجلس في المسجد الحرام، وأن نطوف بالبيت، فنزلت هذه الآية، وحصلت الرخصة فيها للمؤمنين بأن يقعدوا معهم ويذكرونهم ويفهمونهم»[1].

وقال الشيخ السعدي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]: «هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم ولم يستعمل تقوى الله بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى بأن كان يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه فهذا ليس عليه حرج ولا إثم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩]»[2].

وقال ابن القاسم: «سمعت مالكًا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيها السلف»[3].

وقد وافقه ابن العربي بقوله: «وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم يقدر على تغييره نزل عنه»[4].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٢٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٥.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١١.

(٤) كذا في أحكام القرآن ولم يتبين لي وجهه في اللغة. ولعل صوابه: يزول عنه. أي: يتحول عنه ويبتعد.

﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨][1].

فيفهم من قوله: «فإن المنكر إذا لم يقدر على تغييره نزل عنه»، جواز المكث والجلوس عند استطاعة تغيير المنكر.

وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]: «وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح[2] بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه، فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير»[3].

وبعد عرض كلام أهل العلم في هذا النوع من الهجرة يتبين أنها تدور بين الوجوب والجواز، على التفصيل الذي سبق بيانه، والله أعلم.

ثالثًا: الهجرة لطلب العلم والتجارة:

لما كان طلب العلم وتعلمه وتعليمه للناس من أجل الأعمال وأفضلها؛ عد السفر في سبيل تحصيله لونًا من ألوان الهجرة، ونوعًا من أنواعها؛ وذلك لما يترتب عليه من منافع للمسلمين؛ ولما يصاحبه من مشقة ترك الأوطان، ومفارقة الإخوان، ومكابدة مشاق السفر والغربة ومتاعبه.

وجاء الحث على هذا النوع في القرآن الكريم في أكثر من موضع، بين آيات تأمر بها، وأخرى تذكر قصصًا للمهاجرين في طلب العلم.

كما حثت السنة النبوية الشريفة أيضًا على هذا النوع وبينت فضائله.

يقول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وهنا نجد الإشارة إلى أهمية الخروج والهجرة لطلب العلم والتفقه في الدين، فقد بين سبحانه وتعالى فيها أن غاية هذا الخروج من البلدان هو التفقه في الدين، وإنذار العباد به.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

أي: «ليتعلموا العلم الشرعي ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم»[4].

ويقول السيوطي رحمه الله: «وفي الآية

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١١.
(٢) تسمح وأصله الاتساع، أي: تساهل. انظر: المصباح المنير ١/ ١٥٠.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٤٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٥.

إشارة إلى الرحلة في طلب العلم»[1].

واتخذ الطاهر ابن عاشور هذه الآية أصلًا في طلب العلم، فقال: «هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم، على طائفة عظيمة من المسلمين وجوبًا على الكفاية»[2].

وبالنظر في سياق الآية يتبين لنا أنها أتت في معرض الحديث عن الجهاد في سبيل الله، وكأن في هذا إشارة إلى أن الهجرة لطلب العلم لا تقل في المنزلة عن الهجرة للجهاد في سبيل الله.

«فهناك نفرٌ[3] كالنفر إلى الجهاد، وهو النفر إلى التفقه فى الدين، والتعرف على أحكام الشريعة، ففي النفر إلى الجهاد يقول الله عز وجل: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١].

وفي النفر إلى العلم يقول جل جلاله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فطلب العلم فريضة على كل مسلم كفريضة الجهاد سواء بسواء»[4].

تناسب لطيف:

نلحظ وجود تناسب رائق من حيث المعنى ومن حيث اللفظ بين هذه الآية وما قبلها، في قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ونجد الطاهر ابن عاشور رحمه الله يجلي لنا هذا الترابط فيقول: «وإذ قد كانت الآية السابقة قد حرضت فريقًا من المسلمين على الالتفاف حول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو لمصلحة نشر الإسلام، ناسب أن يذكر عقبها نفر فريق من المؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للتفقه في الدين؛ ليكونوا مرشدين لأقوامهم الذين دخلوا في الإسلام.

ومن محاسن هذا البيان أن قابل صيغة التحريض على الغزو بمثلها في التحريض على العلم؛ إذ افتتحت صيغة تحريض الغزو بلام الجحود، في قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وافتتحت صيغة التحريض على العلم والتفقه بمثل ذلك، إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢][5].

وهذا لا شك يبين فضل الهجرة في طلب العلم وتحصيله.

والهجرة لطلب العلم لكفاية حاجة

(١) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي ص١٤٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٦٠.
(٣) أي: التفرق، وهو مأخوذ من معنى الخروج. لسان العرب مادة نفر بتصرف يسير.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٦/ ٩١٧ بتصرف يسير.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٥٩ بتصرف يسير.

الأمة لا تقل في وجوبها عن وجوب الجهاد لتحقيق مصالح الأمة.

وقد استنبط الطاهر ابن عاشور رحمه الله هذا الحكم اللطيف من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فقال: «الإتيان بصيغة لام الجحود تأكيد للنفي، وهو خبر مستعمل في النهي، فتأكيده يفيد تأكيد النهي، أي: كونه نهيًا جازمًا يقتضي التحريم؛ وذلك أنه كما كان النفر للغزو واجبًا؛ لأن في تركه إضاعة مصلحة الأمة، كذلك كان تركه من طائفة من المسلمين واجبًا، لأن في تمحض جميع المسلمين للغزو إضاعة مصلحة للأمة أيضًا، فأفاد مجموع الكلامين أن النفر للغزو واجب على الكفاية، أي: على طائفة كافية لتحصيل المقصد الشرعي منه، وأن تركه متعين على طائفة كافية منهم، لتحصيل المقصد الشرعي مما أمروا بالاشتغال به من العلم في وقت اشتغال الطائفة الأخرى بالغزو»[1].

وإذا كان القرآن أشار إلى الهجرة لطلب العلم فقد أشارت السنة النبوية إليه أيضًا، وصرحت بأن هذه الهجرة جهاد، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع)[2].

وعن زر بن حبيشٍ قال: أتيت صفوان بن عسالٍ المرادي فقال: ما جاء بك؟ قلت: أنبط[3] العلم، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من خارجٍ خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا بما يصنع)[4].

ومما يبين لنا أيضًا فضل الهجرة في طلب العلم -زيادةً على ما سبق- ما قصه الله علينا من خبر الكليم موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام في سورة الكهف.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب فضل طلب العلم ٥/ ٢٩، ٢٦٤٧.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ٢٠٣٧.

(٣) نبط العلم والحكمة: استخرجهما.
انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٨٩٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ١/ ٨٢، رقم ٢٢٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٩٤، ٥٧٠٢.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٠-٦٦].

فهذه قصة ارتحال موسى عليه السلام إلى الخضر وهجرته إليه، وسبب هذه الهجرة يبينه لنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مكتلٍ، فحيثما فقدت الحوت فهو)[1].

إذن فموسى عليه السلام قد هاجر لطلب العلم من العبد الصالح.

يقول القرطبي رحمه الله: «في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، وكان ذلك دأب السلف الصالح»[2].

وبتتبع آيات القصة ومفرداتها يتبين لنا: الحرص الشديد من موسى عليه السلام على مواصلة الرحلة، مهما كلفه ذلك من مشقة وعناء؛ إذ يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

وهذا «يكشف عن حرصه الشديد على تحقيق هذه الرغبة حتى إنه إذا لم يبلغها في المدى الذي قدره فلن يكف عن السعي، بل يظل هكذا طوال حياته راصدًا لهذه الغاية، ساعيًا إليها، شأن من تتسلط عليه رغبة ويستولي عليه أمل فيعيش حياته كلها ساعيًا لهذه الرغبة، جاريًا وراء هذا الأمل إلى أن يتحقق أو يموت دونه»[3].

فالهجرة في طلب العلم من نفائس الأعمال وعظيمها، فلا غرو أن استحقت كل هذا الإصرار من نبي كريم.

قال الرازي: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

«هذا إخبار من موسى عليه السلام بأنه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر؛ لأجل طلب العلم، وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين)، ٦/ ٨٨، رقم ٤٧٢٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١١.

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٨/ ٦٤٧.

إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحق له ذلك»[1].

ولو لم يكن لهذا النوع من أنواع الهجرة ثمرة إلا تحصيل العلم النافع الذي يورث العبد خشية الله، مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨][2] لكفى، فكيف وقد أمر الله به، وجعله من سنة الأنبياء والصالحين، وجعل تعليمه للناس من خير الأعمال وأقومها!

ولله در القرطبي إذ يقول: «بسبب ذلك -أي: الهجرة لطلب العلم- وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام»[3].

ومن تمام نعمة الله على عباده أن ذلل لهم الأرض وسخرها كالدابة الذلول سهلة الانقياد، وأرشدهم إلى السير والسعي في جنباتها وفجاجها؛ لتحصيل الرزق والمعاش، فقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ومن رحمة الله بعباده أيضًا أن وازن لهم بين متطلبات أرواحهم، ومقتضيات الحياة في الأرض من عمل ونشاط وكسبٍ؛ فأباح لهم الانتشار في الأرض للتجارة والكسب بعد الفراغ من صلاة الجمعة، حيث قال جل جلاله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء، وأمرهم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض، والابتغاء من فضل الله»[4].

وابتغاء الفضل ورد في القرآن بمعنى التجارة[5].

كما أرشد الله عباده أن السفر للتجارة سبب للنيل من فضل الله الواسع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

والضرب في الأرض هو السفر للتجارة[6].

«وسمى الله السفر للتجارة ضربًا في الأرض؛ لأن الماشي بجدٍ واجتهاد يضرب

(١) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٧٩.
(٢) قال ابن كثير «أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر». تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٠٨٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤١٣.
(٦) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٥٠٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٨٥.

الأرض برجله»[1].

«وتأمل كيف أن الله قال: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فأشار إلى سعة ما عند الله بكونه فوق أمانيهم؛ وقال: ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، أي: بعض ما أوجده الملك الأعظم لعباده، ولا حاجة به إليه بوجهٍ من الربح في التجارة»[2].

ومما يبين فضيلة السفر للتجارة وتحصيل الرزق، بشرط توفر النية الطيبة، وعدم الانشغال به عن ذكر الله، أن الله عز وجل جعل الهجرة للسعي على الرزق والتجارة مقرونة بالجهاد في سبيله، فقال جل جلاله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فقد «جمع الله سبحانه وتعالى في الآية بين السعي في الأرض لطلب الرزق والجهاد في سبيله؛ للإشعار بأن الأول لا يقل في فضله عن الثاني متى توافرت فيه النية الطيبة، وعدم الانشغال به عن ذكر الله»[3].

قال الطاهر ابن عاشور: «وقد كان بعض الصحابة رضي الله عنهم يتأول من هذه الآية فضيلة السفر للتجارة؛ حيث سوى الله بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، بمعنى أن الله ما ذكر هذين السببين لنسخ تحديد القيام إلا تنويهًا بهما»[4].

فها هو عمر رضي الله عنه يبين فضيلة الهجرة للتجارة والسعي إلى الرزق، فيقول: «ما جاءني أجلي في مكانٍ، ما عدا في سبيل الله عز وجل أحب إلي من أن يأتيني وأنا بين شعبتي رحلي أطلب من فضل الله، ثم تلا: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠][5].

وهكذا فهم كثير من العلماء؛ فتواترت كلماتهم في بيان فضيلة السفر للتجارة من خلال آية المزمل[6].

وجاءت هذه الجملة من الآية في سورة المزمل في سياق بيان أعذار بني آدم التي تحول بينهم وبين قيام الليل، فذكر الله من هذه الأعذار سفر بعض المسلمين للتجارة يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم، وهذا يبين فضيلة الهجرة للتجارة، والسعي على الرزق؛ إذ جعلها الله عذرًا لمن لا يقوم الليل كله، ولا ينقطع لقراءة القرآن.

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ٣٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ١٦٩.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٨٥-٢٨٦ بتصرف.
(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب التوكل بالله ٢/ ٤٥٠، رقم ١١٩٨.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩١، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٩٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٥٥، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ١٢٦.

هجرة الأعمال

من أنواع الهجرة التي بينها القرآن الكريم هجرة بعض الأعمال، وسوف نتناولها بالشرح فيما يأتي:

أولًا: الهجرة من الآثام إلى التوحيد:

الذنوب والمعاصي من أكثر ما يهلك العبد ويخزيه في دنياه وأخراه، وقد حدثنا القرآن عن علة هلاك الأقوام السابقة والأمم المتقدمة، فقال جل جلاله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والإيمان بالله والاعتصام به من أكبر أسباب النجاة.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

فهجرة المعاصي والحذر منها والاعتصام بالتوحيد لا ريب أنه من أكثر أسباب النجاة؛ لذا جاء الأمر بها في القرآن: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

وقد ورد في بيان المراد بالرجز في الآية قولان:

الأول: الرجز هو الأصنام، وقد ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد.

الثاني: الرجز هو المعصية، وقد ورد عن إبراهيم والضحاك[(١)].

وتوجيه الأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم باجتناب الرجز لا يلزم منه تلبسه بشيء منه، قال ابن كثير رحمه الله: «وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢][(٢)]. والمعنى في الأمر: اثبت ودم على هجره؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان بريئًا منه»[(٣)].

وعلى كلا القولين في معنى الرجز فهناك أمر بهجر الإثم، سواء كان الشرك أو الذنوب التي يدخل فيها الشرك وسائر الشرور.

قال الشيخ السعدي: « ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها، ومما نسب إليها من قول أو عمل، ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٦٤.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٣٢٦.

كلها وأقواله، فيكون أمرًا له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه»[1].

ولعل القول بالعموم هو الأولى؛ لأن من معاني الرجز في اللغة العذاب، قال الله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

فتكون الآية دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصي؛ لأنها مسببة للعذاب، فكل ما يؤدي إلى الرجز فاهجره، كأنه قيل له: اهجر الجفاء والسفه وكل شيء قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز.

«وتظهر أهمية هجرة الآثام حينما نعلم أن هذا الأمر ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

أتى في سورة المدثر، وهي من أوائل ما نزل»[2].

ولخطورة الآثام ولأهمية هجرها، قدم المفعول ﴿وَالرُّجْزَ﴾ على عامله ﴿فَاهْجُرْ﴾.

قال ابن عاشور: «وتقديم (الرجز) على فعل (اهجر)؛ للاهتمام في مهيع[3] الأمر بتركه»[4].

وقد جاء هذا المعنى -هجرة الآثام- في الحديث الصحيح: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[5].

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: «الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة، فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن»[6].

والهجرة الظاهرة على المرء أن يقوم بها متى تحققت دواعيها، أما الهجرة الباطنة فلا ينبغي أن يتخلف الإنسان عنها.

وهذا لا ريب يدل على أهمية هجر الذنوب والبعد عنها «فإن النفس متى طهرت منها كانت مستعدة للإفاضة على غيرها، وأقبلت بإصغاء وشوق إلى سماع ما يقول الداعي»[7].

ثانيًا: هجرة القوم بالمشاعر:

من البلاءات العصيبة أن يكون الإنسان مؤمنًا يريد الله والدار الآخرة، ويحيا في بيئة لا تسيطر على أفرادها الغاية نفسها والهدف

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٩٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي ١/ ٧، رقم ٤.
(٣) التهيع: هو الانبساط، ومنه: طريق مهيع: واسع.
انظر: الفائق في غريب الحديث ٤/ ١٢٣، والمقصود به هنا: في طريق، أو في معرض.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٩٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ١/ ١١، رقم ١٠.
(٦) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٥٤.
(٧) نظم الدرر ٢٩/ ١٢٦.

ذاته، ثم تفرض عليه هذه الحياة أن يعامل أفراد هذه البيئة ويخالطهم، ويتواجد معهم بجسده لسببٍ ما، فحينئذٍ لا يجد إلا أن يهجرهم بمشاعره وقلبه.

وهي هجرة شرعية جعلها الله لمن عجز عن الهجرة ببدنه.

وقد جاء الأمر بهذه الهجرة في القرآن: قال عز وجل: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠].

قال الحافظ ابن كثير في بيان المراد بهذه الآية: «يقول تعالى آمرًا رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا؛ وهو الذي لا عتاب معه»[(١)].

وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان معنى الهجر الجميل:

فقال الزمخشري: «الهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم، مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء، وترك المكافأة»[(٢)].

وقال صاحب الإشارات: «الهجر الجميل: أن تعاشرهم بظاهرك، وتباينهم بسرك وقلبك»[(٣)].

وقال السعدي عن الهجر الجميل: «هو الهجر حيث اقتضت المصلحة، الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، مع جدالهم بالتي هي أحسن»[(٤)].

ومن تأمل كلمات المفسرين تتضح لنا صور للهجر الجميل:

- المجانبة القلبية والمخالفة في الأعمال.
- الهجر حيث اقتضت المصلحة مع عدم الإيذاء.
- الإعراض عن الأقوال التي تؤذي، مع الاستمرار في الدعوة والتبليغ.

فليس المقصود من هذا الهجر ترك الدعوة والتبليغ، وإنما هو هجر وإعراض جميل، مع مواصلة الدعوة، وهذا ما نبه إليه الطاهر ابن عاشور رحمه الله بقوله: «ولما كان الهجر ينشأ عن بغض المهجور، أو كراهية أعماله كان معرضًا لأن يعتلق به أذى من سب أو ضرب أو نحو ذلك؛ فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجرًا جميلًا، أي: أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سبًا أو انتقامًا، وهذا الهجر هو إمساك النبي صلى الله عليه وسلم عن مكافأتهم بمثل ما يقولونه، مما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠].

وليس منسحبًا على الدعوة للدين؛ فإنها مستمرة، ولكنها تبليغ عن الله سبحانه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٦.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٤٠.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٦٤٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٩٣ بتصرف.

وتعالى، فلا ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم»[1].

وقد انتزع الرازي رحمه الله من هذه الآية منزعًا أخلاقيًا نفيسًا في كيفية التعامل مع الخلق، فقال: «قد جمع سبحانه وتعالى كل ما يحتاج إليه في هذا الباب في هاتين الكلمتين؛ وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطًا للناس أو مجانبًا لهم، فإن كان مخالطًا لهم فعليه أن يصبر على إيذائهم، وإما أن يكون مجانبًا لهم فعليه أن يهجرهم هجرًا جميلًا، بأن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم في أفعالهم مع المداراة والإغضاء»[2].

ومما يستشهد به على هجرة القوم بالمشاعر ما ورد في قول الله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦].

فقد أمر الله رسوله بإعلان براءته وإنكاره، وإظهار عدم رضاه عن معصية قومه بعد دعوتهم، وسواء كان المقصود هم كفار قريش، أو من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، فسياق الآيات يحتمل القولين، وقد فسرها المفسرون على القولين:

الأول: كفار قريش.

قال الطبري رحمه الله: «فإن عصتك يا محمد عشيرتك الأقربون الذين أمرتك بإنذارهم، وأبوا إلا الإقامة على عبادة الأوثان والإشراك بالرحمن، فقل لهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦].

من عبادة الأصنام، ومعصية بارئ الأنام»[3].

الثاني: من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم.

قال السعدي رحمه الله: « ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ [الشعراء: ٢١٦].

في أمر من الأمور فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم بخفض الجناح ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظهم عليه وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه، وتوبتهم منه؛ وهذا لدفع احتراز وهم من يتوهم أن قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم ما داموا مؤمنين فدفع هذا بهذا»[4].

وعلى كلا القولين فالآية شاهد على هجرة القوم بالمشاعر عند ارتكاب المعاصي.

وقد ذكر لنا القرآن بعض المواقف العملية للهجرة بالمشاعر، نذكر منها موقفين:

١. موقف إبراهيم عليه السلام ومن معه.

لما نهى الله المؤمنين في سورة الممتحنة عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٦٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٨٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤١١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٩٨.

السلام، وأن من سيرته التبرؤ من الكفار، فأمر المؤمنين أن يقتدوا به في هذه الهجرة القلبية، فقال عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فنلحظ من هذا الموقف أن إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه أعلنوا البراءة والإنكار على قومهم؛ لكفرهم بالله وعبادتهم ما سواه، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء، جاعلين هذا شعارهم حتى ينتهي قومهم عن كفرهم ومعاصيهم.

قال الطاهر ابن عاشور: «﴿وَبَدَا﴾ معناه: ظهر ونشأ، أي: أحدثنا معكم العداوة ظاهرةً لا مواربة فيها، أي: ليست عداوة في القلب خاصة، بل هي عداوة واضحة علانيةً بالقول والقلب»[1].

ونلحظ في نظم الآية الجمع بين العداوة والبغضاء، وإن كانت إحداهما تكفي في التعبير عن هذه الهجرة القلبية، إلا أن القرآن لم يكتف بواحدة؛ بل جمع بينهما للتأكيد على هذه الهجرة القلبية التي وقعت من إبراهيم عليه السلام ومن معه.

قال ابن عاشور: «والعداوة: المعاملة بالسوء والاعتداء، والبغضاء: نفرة النفس والكراهية، وقد تطلق إحداهما في موضع الأخرى إذا افترقتا، فذكرهما معًا هنا مقصود به حصول الحالتين في أنفسهم حالة المعاملة بالعدوان وحالة النفرة والكراهية»[2].

٢. موقف لوط عليه السلام وهجرته لرذائل قومه.

من المواقف العملية التي ذكرها القرآن في هجرة القوم بالمشاعر، ما فعله لوط عليه السلام مع قومه، حين أعلن بغضه لما يفعله قومه من جريمة اللواط، حيث قال: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨].

أي: «إني لعملكم الذي تعملونه -من إتيان الذكور- لمن المبغضين له بغضًا شديدًا»[3].

ومن دلالات النظم على شدة كراهية لوط عليه السلام لهذا العمل، ومفارقته قومه في جريمتهم أمران:

أحدهما: إيثاره التعبير بقوله: ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ دون غيره، كالمبغضين مثلًا؛ لأنه بغضٌ شديد، كأنه يقلي الفؤاد والكبد لشدته[4].

الأمر الآخر: أراد لوط عليه السلام أن يبين لقومه أنه من زمرة الراسخين في بغض هذا العمل، المشهورين في قلاه، فلم

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٤٤.

(٢) المصدر السابق ٢٨/ ١٤٥.

(٣) التفسير الميسر، مجموعة علماء ص٣٧٤.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٦١ بتصرف.

يقل: «إني لعملكم قالٍ»، وإنما قال: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ وهو أبلغ؛ لدلالته على المعنى المراد.

المهاجرون

تحدث القرآن الكريم عن المهاجرين؛ ليقتدي بهم المؤمنون، وسوف نقوم بتناول منزلتهم ونماذج منهم فيما يأتي:

أولًا: منزلة المهاجرين:

إن للمهاجرين منزلة عالية في القرآن الكريم، فقد احتفى بهم احتفاءً كبيرًا، ويظهر ذلك ما يأتي:

١. تخليد ذكرهم.

ذكر الله سبحانه وتعالى المهاجرين السابقين في كتابه خير ذكر، وخلد ذكرهم أبد الدهر، وقد حدثنا القرآن في غير موضع عن هجرة نبي الله موسى، والخليل إبراهيم، وتهجيره لولده وزوجته: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وكيف أن هذه الهجرة الميمونة كانت هي البشائر لميلاد أمة جديدة صارت هي الأجدر بتلقي كلمات الله ورسالته الأخيرة، والانسياح بها في مختلف الأصقاع والبقاع، وإزالة الظلام الذي ران على العقول والأفئدة في ظل غيبة أنوار التوحيد.

فتخليد الله ذكر المهاجرين السابقين في القرآن تكريمٌ ما بعده تكريم.

٢. ضرب المثل بهم وجعلهم في مقام القدوة.

يستفاد من ذكر القرآن لقصص المهاجرين السابقين أنهم صاروا في موضع الأسوة والقدوة للجماعة المؤمنة على امتداد الزمان وتراخيه.

فذكر القرآن لهم يعني: أن سيرهم ومواقفهم وتضحياتهم وبطولاتهم ستبقى حية ومتداولة لا تنسى على مر العصور، وكر الدهور، تستخرج منها الدروس، وتستنبط من بين ثناياها العبر.

فجعل المهاجرين السابقين مضرب المثل، ومحل اعتبار جموع المؤمنين السائرين إلى ربهم لهو تشريف يعجز الجنان والبنان عن تخيله وتسطيره؛ لأنه مهما سطر فسيبقى خارج التصور.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم[١]، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه؛ فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم -عياذا بالله من ذلك-، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدئون؛ ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون[٢].

ثانيًا: المهاجرون من الأنبياء:

الهجرة أسلوب من أساليب نشر الدعوة، وطريقة للمحافظة عليها من بغي الباغين، وعدوان الجبابرة الظالمين؛ ولهذا كانت الهجرة سبيل الأنبياء السابقين والرسل المتقدمين قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يرتادون فيها الأرض الخصبة التي تحتضن الدعوة، ويبحثون أثناءها عن البذور الطيبة الصالحة للإخصاب.

وقد حدثنا القرآن عن عدد من الأنبياء الذين هاجروا وتركوا ديارهم، وسنفصل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٨.

القول في بعضهم:

١. إبراهيم عليه السلام.

هذا النبي المبارك الذي بدأ دعوته في بيئة كفر وشرك، فدعا قومه إلى التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة، ونبذ ما هم عليه من خرافات وأباطيل، دعاهم دعوة واضحة المعالم، ميسورة الفهم.

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦ – ١٧].

ولكنهم بدلًا من أن يمدوا البصر في دعوته، ويجيلوا النظر في محتوى رسالته، قاموا بإشعال النيران من أجل إحراقه، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

«إنه منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة منطقًا سواه، عندما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل، وحينما تحرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين»[(١)].

فلما يئس إبراهيم من هؤلاء القوم الغلاظ -الذين لم تلن قلوبهم لآية إنجائه من النار- قرر أن يهاجر ويتركهم؛ «لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة؛ لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالًا بما لا ينتفع به مع علمه، وإن سكت فالسكوت دليل الرضا، فيقال بأنه صار منا ورضي بأفعالنا، وإذا لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

«وهذه أول هجرةٍ لأجل الدين ولذلك جعلها هجرةً إلى ربه»[(٣)].

وقال الله عن هجرته أيضًا: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

«وإبراهيم عليه السلام لم يهاجر للنجاة، ولم يهاجر لأرض أو كسب أو تجارة، وإنما هاجر إلى ربه متقربًا له، ملتجئًا إلى حماه بقلبه وعقيدته، قبل أن يهاجر بلحمه ودمه، هاجر إليه ليخلص له عبادته، ويخلص له قلبه، بل وكيانه كله في مهجره، بعيدًا عن موطن الكفر والضلال، بعد أن لم يبق رجاء في أن يفيء القوم إلى الهدى والإيمان بحال»[(٤)].

وهجرة إبراهيم عليه السلام «هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية، هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته، يترك فيها أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه، وكل ما

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٩٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٤٧ بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٨.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٢.

يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس، ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل ويهاجر إلى ربه متخففًا من كل شيء، طارحًا وراءه كل شيء، مسلمًا نفسه لربه لا يستبقي منها شيئًا، موقنًا أن ربه سيهديه، ويرعى خطاه، وينقلها في الطريق المستقيم، إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها في النفس شيء، إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين»[1].

٢. موسى عليه السلام.

من نماذج هجرة الأنبياء في القرآن هجرة سيدنا موسى عليه السلام، ذلك النبي الكريم الذي تحمل الكثير والكثير من أجل إبلاغ الرسالة، وتبصير الناس بها، فقد قال الله له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

وتلك مهمة شاقة؛ لأن فرعون من الجبابرة الطغاة الذين لا يقيمون وزنًا للأرواح والأنفس، إنها مهمة غاية في الصعوبة والخطورة؛ لأنها مواجهة بالموعظة لأعظم ملوك الأرض يومئذٍ؛ ليكشف له فساد حاله، ويحذره من سوء مآله.

ومع كل هذه المصاعب والمخاطر ذهب موسى إلى فرعون، وعرض عليه رسالته، وقال له ولملئه: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٨-٢١].

لقد طلب منهم أن يسلموه بني إسرائيل، وألا يتكبروا على الله بتكذيب رسله، «فإن استعصوا على الإيمان فهو يفاصلهم ويعتزلهم، ويطلب إليهم أن يفاصلوه ويعتزلوه، وذلك منتهى النصفة[2] والعدل والمسالمة، ولكن الطغيان قلما يقبل النصفة؛ فهو يخشى الحق أن يظل طليقًا، ويصل إلى الناس في سلام وهدوء، ومن ثم يحاربه بالبطش، ولا يسالمه أبدًا.

وحين وصلت التجربة إلى نهايتها، وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له، ولن يستجيبوا لدعوته، ولن يسالموه أو يعتزلوه، وأنه لن يستطيع تبليغ الدعوة وأداء الرسالة، وبدا له إجرامهم أصيلًا عميقًا لا أمل في تخليهم عنه، عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢١][3]، فأتاه الأمر بالخروج: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٩٩٤.

(٢) أنصفت الرجل إنصافًا: عاملته بالعدل والقسط، والاسم: النصفة، بفتحتين، لأنك أعطيته من الحق ما تستحقه لنفسك.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٠٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢١٣ بتصرف.

﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٣-٢٤].

وهكذا خرج موسى بقومه، وأهلك الله فرعون وجنده، وهاجر موسى بقومه ليتوجه بهم إلى بلاد جديدة، يستطيع فيها أن يبلغهم الهدايات الإلهية، وتعاليم الرسالة الربانية، وأن ينشئ بهم مجتمعًا فاضلًا على وفق موازينها ومراداتها.

٣. محمد صلى الله عليه وسلم.

كانت مكة حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم قلعة الشرك والوثنية، ومقصدًا لعباد الأصنام من كل حدب وصوب، فبدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته فيها إلى التوحيد وعبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه، ولكن قريشًا لم تستقبل دعوته بالود والترحاب، وإنما واجهت رسالته بالتكذيب، وأصحابه بالتعذيب، وقرآنه باللغو: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولما بدأت دعوته تنتشر ويقبل عليها الناس «قرر المشركون ألا يألوا جهدًا في محاربة الإسلام، وإيذاء الداخلين فيه، والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام، وانفجرت مكة بمشاعر الغضب، وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاةً ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباحت في الحرم الآمن دماءهم، وأموالهم وأعراضهم، وجعلت مقامهم تحملًا للضيم، وتوقعًا للويل»[1].

ولما لم تنجح هذه المحاولات في قطع دابر الدعوة وثني الناس عنها حز ذلك في نفوس طواغيت الكفر والشرك، فاجتمعوا في دار الندوة؛ ليتخذوا قراراهم الحاسم بالخلاص من النبي صلى الله عليه وسلم، وآنئذٍ أمر الله نبيه بالهجرة؛ فانتقل النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة حيث البلد الجديد، والدولة التي سيجري العمل على بنائها ورفع عمادها، وقد أشار القرآن إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وعبر عنها بالإخراج، كما في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

والتعبير عن الهجرة بالإخراج فيه دلالة على حجم الإيذاء الذي تعرض له النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في مكة

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي ١/ ١١٠ بتصرف.

من قبل المشركين، وعلى شدة تضييق المشركين على الدعوة، ومنعها من الانتشار بين الناس.

ثالثًا: المهاجرون من الصحابة:

إن الهجرة كما مر معنا عمل عظيم، فيه من المشقة والتعب والتضحيات ما فيه، ولا يقوم به بشرطه -حقًا- إلا مؤمن تمكن الإيمان من قلبه، وملأ اليقين فؤاده.

ولولا أن القرآن حدثنا عن أناس ليسوا بأنبياء ولا مرسلين قاموا به لقلنا ما يقوم به إلا نبي أو رسول؛ لأجل هذا كان للمهاجرين من الصحابة رضي الله عنهم مكانة خاصة، ومنزلة سامية في القرآن والسنة.

وقد تحدث القرآن عن المهاجرين من الصحابة على صورتين:

الصورة الأولى: الحديث عنهم بوجهٍ عام.

وهذا يظهر من خلال ما يأتي:

١. ثناء الله عليهم وإظهار عظيم جزائهم.

قال تعالى: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وفي هذه الآية ثناء بليغ على المهاجرين، وإظهار لفضلهم، ويظهر هذا في الآية من وجوه:

- كلام الله عنهم، وهذه وحدها تكفي لإظهار فضلهم ورفعة درجاتهم؛ إذ الكلام من الرب الجليل مدبر الأفلاك، وفاطر الأرض والسماء، تنويهًا على عظيم صنعهم، وشريف فضلهم.
- تزكية من حذا حذوهم، واقتفى أثرهم، وسار على دربهم، تأمل قوله تعالى: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ تجد أنه «قيد مؤكد، يكشف عن الإحسان الذي يكون من متابعة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والتأسي بهم، فمتابعتهم هي إحسان. وقوله تعالى: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ هو توكيد لهذا الإحسان الذي تنطوي عليه المتابعة، وهذا يعني أن ما كان من السابقين من المهاجرين والأنصار هو إحسان كله، فمن تابعهم وتأسى بهم على ما كانوا عليه فهو محسن كل الإحسان»[(١)].
- رفعهم لمقام تبادل الرضا مع الخالق، تأمل قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. «ورضا الله عنهم هو الرضا الذي تتبعه المثوبة، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه سبحانه، والثقة

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٦/ ٨٨١- ٨٨٢ بحذف يسير.

بقدره، وحسن الظن بقضائه»[1].

* جزاؤهم أعده الله. قال تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٠]. فما ظنك بجزاء أعده الله الكريم الجليل؟! إن جزاءهم إذًا لعظيم، ونعيمهم لا يوصف، وسرورهم يوم يلقونه لا يقدر.

ومن الثناء عليهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

قال ابن عباس في رواية عطاء: كان عبد الرحمن بن عوف يخبر أهل مكة بما ينزل فيهم من القرآن، فكتب الآية التي نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].

فلما قرأها المسلمون قال حبيب بن ضمرة الليثي لبنيه -وكان شيخًا كبيرًا-: احملوني، فإني لست من المستضعفين، وإني لا أهتدي إلى الطريق، فحمله بنوه على سرير متوجهًا إلى المدينة، فلما بلغ (التنعيم) أشرف على الموت، فصفق يمينه على شماله، وقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعتك يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات حميدًا، فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم أجرًا، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية[2].

٢. شهادة الله لهم بالصدق.

قال تعالى عن المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

أي فضل وأي تكريم وأي شهادة أعظم؟! وأي تزكية أعظم لهم من تزكية رب العالمين؟!

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

إنه إذن الخلود في مقامات الشرف والرفعة، إنها الشهادة لهم بالصدق من خالق هذا الكون.

٣. دعوة القرآن لحسن معاملتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وهذه الآية لها علاقة بحادثة الإفك؛ حيث «إن أبا بكر رضي الله عنه كان ينفق على مسطح بن أثاثة، وكان مسطح ابن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٠٥-١٧٠٦ بتصرف.

(٢) أسباب النزول، الواحدي ص١٧٨.
وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ص٧٧.

خالة أبي بكر الصديق، وكان من فقراء المهاجرين، فلما علم أبو بكر بخوضه في قضية الإفك أقسم أن لا ينفق عليه، فلما تاب مسطح وتاب الله عليه لم يزل أبو بكر واجدًا في نفسه على مسطح فنزلت هذه الآية»[1].

ولقد ظهر هذا جليًا في تعامل الصحابة مع المهاجرين، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حضرته المنية قال: «أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيرًا، أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوؤوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم، ويعفى عن مسيئهم، وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم»[2].

وهذا الوصية العمرية تظهر عميق تقديره للمهاجرين واعترافه بمكانتهم وفضلهم عن غيرهم.

الصورة الثانية: الحديث عن بعضهم بوجه خاص:

وهذا يتجلى في قول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه أراد أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ويهاجر إلى المدينة، فمنعته قريش وحبسوه، فقال لهم: أعطيكم داري ومالي وما كان لي من شيء، فخلوا عني فألحق بهذا الرجل؟ فأبوا، ثم إن بعضهم قال لهم: خذوا منه ما كان له من شيء وخلوا عنه، ففعلوا، فأعطاهم داره وماله ثم خرج، فأنزل الله عز وجل على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

فلما دنا من المدينة تلقاه عمر في رجال، فقال له عمر: ربح البيع، قال: وبيعك فلا يخسر، قال: وما ذاك؟ قال: أنزل فيك كذا وكذا[3].

وهذه المنازل العظيمة والدرجات الرفيعة التي أعدها الله لهم تثبت فضل المهاجرين، وتوضح أن هؤلاء المهاجرين ما نالوا هذه الدرجات إلا عن تعب ومشقة وبذل وعطاء، وبذا قضى الله تعالى بين عباده أن الدرجات العلى لا تنال إلا بعد معاناة وصبر.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨٨. وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ٢/ ١٠٣، رقم ١٣٩٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٤٨، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ص٣٣.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

آثار الهجرة في سبيل الله

أولًا: الآثار الدنيوية:

١. الهجرة إلى الله سبب لسعة الرزق.

الهجرة أحد أسباب السعة في العيش والرزق، وبهذا وعد الله تعالى من خرج مهاجرًا في سبيله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

وفي هذا «بيان للحث على الهجرة والترغيب فيها، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته يجد مراغمًا في الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا»[(١)].

«فهم لما تركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، ذكر لهم ثوابًا عاجلًا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهانئ الذي رأوه عيانًا بعد ما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة»[(٢)].

ولما هاجر إبراهيم عليه السلام إلى الله عز وجل من دار قومه إلى الشام، رزقه الله

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٦ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ص٤٤١ بتصرف.

بالولد، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، وجعل له الثناء الحسن، والذكر الجميل، وآتاه من خيري الدنيا والآخرة.

قال جل جلاله مخبرًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦-٢٧].

وقال أيضًا: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

ولما هاجر موسى عليه السلام وفارق ديار مصر فرارًا من بطش فرعون وجنوده، وسع الله عليه فاستأجره الرجل الصالح، وزوجه إحدى ابنتيه، وآواه ونصره.

قال تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٤-٢٧].

ولما هاجر نبينا صلى الله عليه وسلم وصحابته من مكة إلى المدينة أخرجهم الله من الضيق إلى السعة، ومن الاضطهاد والإقصاء إلى العزة والتمكين، فجعل لهم دارًا، ووسع عليهم، ورزقهم من فضله.

٢. الهجرة إرغامٌ لأنوف الأعداء.

الهجرة ثورة على الخضوع للقوى الغاشمة الظالمة، ورفض لمظاهر الكفر والعصيان بمفارقة أرضه وسلطانه وأمره، إنها استعلاء وثبات، وتمسك بالحق، وإصرار عليه؛ ولذا وعد الله تعالى المهاجرين في سبيله بالسعة -كما مر في الآية السابقة- ليكون في ذلك إرغام للأعداء، وإغاظة لقوى الباطل، وشفاء لصدور قوم مؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾ [النساء: ١٠٠].

يقول الرازي مفسرًا الآية: «المعنى: ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر، يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سببًا لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصيلة؛ وذلك لأن من فارق وذهب إلى بلدة أجنبية، واستقر فيها أمره، وعلم أهله بذلك، خجلوا من سوء معاملتهم معه،

ورغمت أنوفهم بسبب ذلك»[1]. ويقول القرطبي رحمه الله: «فكأن كفار قريشٍ أرغموا أنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجرٌ لأرغم أنوف قريشٍ؛ لحصوله على منعةٍ منهم، فتلك المنعة هي موضع المراغمة»[2].

وعد الله للمهاجرين بالعاقبة الحسنة والنصر على الأعداء:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١].

فهذه الآية فيها وعد من الله للمهاجرين في سبيله بأن يجعل عاقبتهم حسنة، ومآلهم مرضيًا.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ جمعها ابن الجوزي رحمه الله في خمسة أقوال:

الأول: لننزلنهم المدينة.

والثاني: لنرزقنهم في الدنيا الرزق الحسن.

والثالث: النصر على العدو.

والرابع: أنه ما بقي بعدهم من الثناء الحسن، وصار لأولادهم من الشرف.

والخامس: أن المعنى: لنحسنن إليهم في الدنيا[3].

والمتأمل لهذه الأقوال جميعها يدرك أنها جميعًا مرادة، ومفادها أن الله تعالى سيجعل عاقبتهم حسنة، ومصيرهم ومآلهم مرضيًا، وهو ما يدل عليه لفظة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾.

«ولقد صدق الله وعده فأيد المؤمنين بنصره، ومكن لهم فى الأرض، وأذل الكافرين والمشركين والمنافقين، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا»[4].

وعاد المخرجون المهاجرون فاتحين منتصرين، وحقق الله وعده لنبيه حين قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥].

الآثار الأخروية:

١. الهجرة سبيل إلى رحمة الله.

الهجرة من أعظم أسباب النجاة، وأكثر الأعمال رجاءً في إدراك رحمة الله، يقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ روي أن عبد الله بن جحش وأصحابه حين

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١٩٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٤٨ بتصرف.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٦٠ باختصار.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٧/ ٢٩٩.

قتلوا الحضرمي في الشهر الحرام، ظن قوم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾[1].

قال الرازي: فإن قيل: لم جعل الوعد مطلقًا بالرجاء ولم يقطع به كما في سائر الآيات؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن مذهبنا أن الثواب على الإيمان والعمل غير واجب عقلًا، بل بحكم الوعد، فلذلك علقه بالرجاء.

وثانيها: هب أنه واجب عقلًا بحكم الوعد ولكنه تعلق بأن لا يكفر بعد ذلك، وهذا الشرط مشكوك فيه لا متيقن، فلا جرم كان الحاصل هو الرجاء لا القطع.

وثالثها: أن المذكور ها هنا هو الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله، ولا بد للإنسان مع ذلك من سائر الأعمال، وهو أن يرجو أن يوفقه الله لها، كما وفقه لهذه الثلاثة، فلا جرم علقه على الرجاء.

ورابعها: ليس المراد من الآية أن الله شكك العبد في هذه المغفرة، بل المراد وصفهم بأنهم يفارقون الدنيا مع الهجرة والجهاد مستقصرين أنفسهم في حق الله تعالى، يرون أنهم لم يعبدوه حق عبادته، ولم يقضوا ما يلزمهم في نصرة دينه، فيقدمون على الله مع الخوف والرجاء[2].

والمقصود أنه سبحانه وضع الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله موضع الرجاء من رحمة الله ولم يعطهم الثواب والمغفرة والرضوان على القطع والتحقيق؛ وذلك ليقيمهم من هذا الرجاء على عمل دائم، وجهاد متصل، وهذا على خلاف ما إذا سوى حسابهم بعد الهجرة وبعد كل موقف من مواقف الجهاد، فقد يقعد بهم هذا عن أن يضيفوا جديدًا، أو يخفوا للجهاد مرة بعد مرة.

ثم إنه من جهة أخرى يرى الذين آمنوا -مجرد إيمان- ولم يهاجروا ولم يجاهدوا يريهم شناعة موقفهم ومغبة تقصيرهم بتخلفهم عن ركب المهاجرين والمجاهدين، ويرفع لأعينهم بعد ما بينهم وبين مواقع رحمة الله ورضوانه؛ إذ يرون المهاجرين المجاهدين ولما يلمسوا بأيديهم مواقع الرحمة والرضوان، وأنهم ما زالوا على رجاء، فكيف بالذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا؟

إن المدى بعيد بينهم وبين أن يصلوا إلى جانب الأمن والسلامة، وإن عليهم أن يحثوا المطي إلى ميدان الهجرة والجهاد؛ ليلحقوا بركب المهاجرين المجاهدين، وليكونوا

(١) لباب النقول ص٣١.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٥٩، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٧٦.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٩٥.

بمعرض من رحمة الله ورضوانه[1].

ومما يدل على أن الهجرة من أهم أسباب الحصول على رحمة الله قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢١].

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

٢. الهجرة سبب لتكفير السيئات وغفران الذنوب.

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فهم لما هجروا الشرك وأرضه، وتركوا الأوطان التي تربوا فيها، وهانت عليهم أنفسهم وأموالهم؛ إعلاءً لكلمة الله ورغبةً فيما عنده، كافئهم الله بخير مما تركوا؛ «فطهرهم من الذنوب والآثام، ونقاهم منها، ثم أدخلهم بعد ذلك جنته، وأعطاهم فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[2].

«وقد ختم الله تعالى الآية التي بشر فيها المهاجرين بالسعة في الرزق وكيد الأعداء، بالتلويح بالمغفرة لهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

فمع ضمانة الأجر، التلويح بالمغفرة للذنوب والرحمة في الحساب، وهذا فوق الصفقة الأولى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إنها صفقة رابحة لا شك، يقبض فيها المهاجر الثمن كله منذ الخطوة الأولى، خطوة الخروج من البيت مهاجرًا إلى الله ورسوله»[3].

٣. الهجرة سبب لتحصيل رضوانه وجنته.

من أعظم ما للهجرة من فضل أن الله تعالى وعد المهاجرين وبشرهم بالرحمة الواسعة والرضوان الذي لا سخط بعده، والنعيم المقيم في جنات الخلد.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا

(١) التفسير القرآني للقرآن ١/ ٢٤٢.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن، طنطاوي ٢/ ٣٧٨ بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٤٦ بتصرف.

﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢١].

فقد وعدهم الله في هذه الآيات «بإدخال المسرة عليهم، وتحقيق فوزهم، وتعريفهم برضوانه عليهم، ورحمته بهم، وبما أعد لهم من النعيم الدائم، ومجموع هذه الأمور لم يمنحه غيرهم من أهل السقاية والعمارة الذين وإن صلحوا لأن ينالوا بعض هذه المزايا فهم لم ينالوا جميعها»[(١)].

٤. جزاء من أدركه الموت وهو مهاجر إلى الله.

قال الله تعالى مبينًا أجر من مات مهاجرًا في سبيله: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٠].

وأي أجر أتم، وأي أجر أعظم من أجرٍ تكفل به الله وضمنه؟! ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «أجره كله، أجر الهجرة والرحلة والوصول إلى دار الإسلام والحياة فيها، فماذا بعد ضمان الله من ضمان؟!»[(٢)].

﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «أجرٌ لا يفوته أبدًا ولا يخطئه؛ لأنه أجر مضاف إلى الله بالوعد الذي وعده سبحانه للمهاجرين، ولن يخلف الله وعده»[(٣)].

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ [الحج: ٥٨-٥٩].

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الأنصار، الإيمان، الشرك، الفتنة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٤٩.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٤٦.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٣/ ٨٨١ بتصرف.

الهداية

عناصر الموضوع

مفهوم الهداية	١٢٤
الهداية في الاستعمال القرآني	١٢٥
الألفاظ ذات الصلة	١٢٧
مقترنات الهداية	١٢٩
الهداية الفطرية	١٣٦
أنواع الهداية	١٣٨
أسباب الهداية	١٤٢
زيادة الهداية	١٥٣
أسباب الحرمان من الهداية	١٥٧
أثر الهداية في الدنيا والآخرة	١٦١

مفهوم الهداية

أولًا: المعنى اللغوي:

الهداية: من الفعل هدى، والهدى نقيض الضلالة[1]، وهي بمعنى الرشاد والدلالة[2]، و الهداية: دلالة بلطفٍ[3]، يقال: هديته الطريق هداية، أي: تقدمته لأرشده، وكل متقدم لذلك هادٍ، تقول: هديته هديًا، والهادية: العصا، لأنها تقول ممسكها كأنها ترشده، ومن الباب قولهم: نظر فلان هدي أمره، أي: جهته، وما أحسن هديته، أي: هديه، ويقولون: جاء فلان يهادى بين اثنين، إذا كان يمشي بينهما معتمدًا عليهما، والهدية ما أهديت من لطفٍ: أي: ذي مودة، ويقال: أهديت أهدي إهداءً، والهدي: ما يهدى من النعم إلى الحرم قربة إلى الله تعالى[4]، ويقال: هدي فاهتدى، ويقال: هديت إلى الحق، وهديت للحق بمعنى واحد؛ لأن هديت يتعدى للمهديين، والحق يتعدى بحرف جر، والمعنى: الله يهدي من يشاء إلى الحق.

والهدى: البيان، أو إخراج شيء إلى شيء، أو الطاعة والورع.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي كثيرًا، فقد قال الجرجاني: «الهداية في الاصطلاح: الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب»[5].

وقيل: إن الهداية عند أهل الحق هي الدلالة على طريق من شأنه الإيصال، سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء، أو لم يحصل[6].

ويلاحظ أن تعريف الجرجاني أدق، وأشمل؛ لأنه لا بد من حصول المطلوب سواء كانت الهداية طريقًا للدلالة إلى الخير، أو إلى غيره، كما أن الكافرين يهدون إلى سواء الجحيم.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٦/ ٣٧٨.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٣٤٥، مختار الصحاح، الرازي، ص٣١٢.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٥١٦.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٣٤٥، مختار الصحاح، الرازي، ص٣١٢.
(٥) التعريفات، ص٢١٥.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي، ص٩٥٢.

الهداية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هدي) في القرآن الكريم(٣١٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (٣٠٧) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥٥	﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾[البقرة:١٤٣]
الفعل المضارع	١٢٦	﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾[النساء:٨٨]
فعل الأمر	٣	﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[الفاتحة:٦]
اسم الفاعل	٣١	﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾[الرعد:٧]
المصدر	٨٥	﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[البقرة:٢]
أفعل التفضيل	٧	﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١﴾[النساء:٥١]

وجاءت الهداية في الاستعمال القرآني على أربعة عشر وجهًا[٢]:

الأول: البيان: ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[البقرة:٥]. أي: بيانٍ من ربهم.

الثاني: دين الإسلام: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]. يعني: على دين الإسلام.

الثالث: الإيمان والتوحيد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. يعني: يزيد الذين آمنوا إيمانًا، وقوله: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ [القصص: ٥٧]. يعني: التوحيد.

الرابع: الداعي: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]. يعني: داعٍ.

الخامس: المعرفة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾[النحل:١٦]. يعني: يعرفون السبيل.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الهاء، ص١٣٦٣، ١٣٦٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٥٥.

السادس: الرسل والكتب: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [طه: ١٢٣]. يعني: رسلًا وكتبًا.

السابع: الرشد: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]. يعني: أن يرشدني.

الثامن: القرآن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣]. يعني: القرآن.

التاسع: التوراة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ [غافر: ٥٣]. يعني: التوراة.

العاشر: لا يوفق إلى الحجة ولا يهدي من الضلال: ومنه قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. يعني: لا يهدي إلى الحجة.

الحادي عشر: السنة: ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]. يعني: مقتدون مستنون بسنتهم.

الثاني عشر: لا يهدي: لا يصلح: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]. يعني: لا يصلح عمل الزناة.

الثالث عشر: الإلهام: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. يعني: ثم ألهمه كيف يأتي معيشته ومرعاه.

الرابع عشر: هدنا يعني: تبنا: ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. يعني: تبنا إليك.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصلاح:

الصلاح لغة:

مأخوذ من الفعل (صلح)، والصلاح ضد الفساد[١].

الصلاح اصطلاحًا:

استقامة الحال وانعدالها، وهو مما يفعله العبد لنفسه[٢]. وهو معنى عام يشمل استواء الخلق والخلق والاستقامة على ما توجبه الشريعة، وحصوله على الحالة المستقيمة النافعة.

الصلة بين الصلاح والهداية:

الهداية: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب، والصلاح: سلوك طريق الهدى، والصلاح أيضًا: استقامة الحال وهو مما يفعله العبد لنفسه، ويكون بفعل الله له لطفًا وتوفيقًا[٣]، وبذلك يتبين أن الهداية والصلاح متلازمتان.

٢ الإرشاد:

الإرشاد لغة:

الرشد يستعمل استعمال الهداية، وهو خلاف الغي[٤]، والضلال. يقال: أرشده الله الأمر، أي: هداه، والرشد هو الصلاح[٥].

الإرشاد اصطلاحًا:

الإرشاد إلى الشيء هو التطريق إليه والتبيين له[٦].

الصلة بين الهداية والإرشاد:

أن الإرشاد إلى الشيء هو التطريق إليه والتبيين له، والهداية هي التمكن من الوصول إليه[٧].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٤٧٩.
(٢) انظر: الفروق اللغوية ص٣١٧.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٠٢.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢١٨.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٥٣٢.
(٧) انظر: المصدر السابق.

٣ السداد:

السداد لغة:

الاستقامة[١]، وقيل: هو الصواب والقصد في القول والعمل[٢]، والصواب حقُّ مَنْ يعمل عليه أن ينجو، وحق من يعمل على خلافه أن يهلك[٣].

السداد اصطلاحًا:

هو القصد في الأمر والعدل فيه[٤].

الصلة بين الهداية والسداد:

التسديد للحق لا يكون إلا مع طلب الحق، فأما مع الإعراض عنه والتشاغل بغيره فلا يصح[٥]، وهذا يعني أن التسديد للهداية لا يكون إلا بطلب الهداية، فالسداد طريق الهداية[٦].

٤ الضلال:

الضلال لغة:

مصدر (ضلَّ)، والذي يعني الضياع والذهاب والغياب، وكل من زاغ عن المطلوب والقصد يسمى (ضالًّا)، و(يضل ويضل) لغتان عند العرب[٧].

الضلال اصطلاحًا:

كل عدول عن المنهج عمدًا أو سهوًا، قليلًا كان أو كثيرًا، فهو ضلال[٨].

وقيل: هو العدول عن الصراط المستقيم، وهو ضد الهداية[٩].

الصلة بين الهداية والضلال:

الهداية نقيض الضلال، فالهداية: سلوك طريق يوصل إلى المطلوب[١٠].

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٣٣.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١٤٧.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٢.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٢١٢.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٢٤٨.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ١٤٥.
(٧) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٩٠، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٦٣.
(٨) انظر: الكليات، الكفوي، ص٥٦٧.
(٩) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٠٠.
(١٠) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٣٩١.

مقترنات الهداية

اقتران الهداية في القرآن الكريم بعدة أشياء، منها: الرحمة، والنور، والموعظة، والبشرى، والشفاء، والذكرى في القرآن.

١. اقتران الهداية بالرحمة.

لقد اقترنت الهداية بالرحمة لوحدها في اثني عشر موضعًا في القرآن الكريم، منها تسعة مواضع في وصف القرآن، وثلاثة في وصف التوراة.

أما المواضع التي فيها وصف القرآن:

الأول: قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

ومعنى بينة: القرآن، وما جاء به الرسول، فإن قيل: البينة والهدى واحد، فما الفائدة من التكرير؟، قلنا: القرآن بينة فيما يعلم سمعًا، وهو هدى فيما يعلم سمعًا وعقلًا، فلما اختلفت الفائدة صح هذا العطف، ومعنى رحمة: أي نعمة في الدين[١].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

يعني: أن القرآن جعل هدى لقوم مخصوصين، والمراد أنهم الذين اهتدوا بهدية[٢].

الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۖ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

في الآية السابقة ذكر الله سبحانه وتعالى في وصف القرآن ألفاظًا ثلاثة:

أولها: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، فأصل البصيرة الإبصار، ولما كان القرآن سببًا لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه لفظ البصيرة؛ تسمية للسبب باسم المسبب.

ثانيهما: قوله: ﴿وَهُدًى﴾، والفرق بين هذه المرتبة وما قبلها أن الناس في معارف التوحيد والنبوة قسمان:

أحدهما: الذين بلغوا في هذه المعارف إن شهدوها ولم يشاهدوها فهم أصحاب حق اليقين، وإن شهدوها وشاهدوها فهم أصحاب عين اليقين.

والثاني: الذين ما بلغوا إلى ذلك الحد إلا أنهم وصلوا إلى درجات المستدلين، وهم أصحاب علم اليقين، فالقرآن في حق الأولين، وهم السابقون بصائر، وفي حق القسم الثاني وهم المقتصدون هدى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة، ولما كانت الفرق الثلاث من المؤمنين قال تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٤/ ١٠١.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾[1].

الرابع: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

المعنى في قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: تحصل به الهداية، والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به، والمصدقين الموقنين بما فيه[2]، وهذا يعني أن قلوبهم تهتدي بالقرآن إلى الرشاد والسداد، والرحمة من رب العباد في هذه الحياة الدنيا، ويوم المعاد.

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

يبين الله تعالى معنى: ﴿وَهُدًى﴾، أي: أن القرآن الكريم بيان ورشاد لمن جهل سبيل الحق فعمي عنه إذا اتبعه فاهتدى به من ضلالته، ومعنى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، أي: لمن آمن به، وعمل بما فيه[3].

السادس: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

وصف الله تعالى القرآن بكونه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، لا ينفي كونه هدى للناس كذلك في حق الكل، وإنما خَصَّ المؤمنين بالذكر من حيث إنهم قبلوه فانتفعوا به[4].

السابع: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧].

أي: وإن القرآن لهدى، ورحمة لمن آمن به، وتابع رسوله، وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به، ومن جملتهم من آمن من بني إسرائيل[5].

الثامن: قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣].

لما ذكر الله سبحانه أن القرآن هدى ولم يذكر شيئًا آخر في سورة البقرة قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

أي: يهتدي به من ينفي الشرك والعناد والتعصب، وينظر فيه من غير عناد، ولما زاد في هذه الآية: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: المتقين الشرك والعناد ذكر الإحسان، فالمحسن هو الآتي بالإيمان، والمتقي هو التارك للكفر، فمن جانب الكفر كان متقيًا، وله الجنة، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسنًا، وله الزيادة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

(١) انظر: المصدر السابق ١٥/ ١٠٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٦١٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٤٦٦.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٦٤.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ١٨١.

[يونس: ٢٦]؛ ولأنه تعالى ذكر أنه رحمة قال: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لأن رحمة الله قريب من المحسنين[(١)].

التاسع: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

أي: هذا الكتاب الذي أنزل إليك يا محمد ﴿هُدًى﴾، يعني رشاد، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، بحقيقة صحة هذا القرآن، وأنه تنزيل من العزيز الحكيم، وخَصَّ جل ثناؤه الموقنين بأنه لهم بصائر، وهدى، ورحمة؛ لأنهم الذين انتفعوا به[(٢)].

وأما المواضع الثلاثة التي فيها وصف التوراة:

الأول: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

ومعنى الهدى: الدلالة، والرحمة: النعمة[(٣)]، وقال ابن جرير: « يقول تعالى ذكره: آتينا موسى الكتاب تمامًا وتفصيلًا لكل شيء ﴿وَهُدًى﴾: تقويمًا لهم على الصراط المستقيم، وبيانًا لهم سبل الرشاد لئلا يضلوا، ﴿وَرَحْمَةً﴾، يقول: ورحمة منا بهم ورأفة؛ لننجيهم من الضلالة وعمى البصيرة »[(٤)].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

فمعنى: ﴿هُدًى﴾، أي: ما يهتدون به من الأحكام، ومعنى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، أي: ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة[(٥)].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

قال الفخر الرازي: « الكتاب هو التوراة، ووصفه الله تعالى بأنه بصائر للناس من حيث يستبصر به في باب الدين، ﴿وَهُدًى﴾: من حيث يستدل به من إن المتمسك به يفوز بطلبته من الثواب، ووصفه بأنه ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ لأنه من نعم الله تعالى على من تعبد به »[(٦)].

٢. اقتران الهداية بالبشرى.

اقترنت الهداية بالبشرى لوحدها في ثلاثة مواضع، وكلها جاءت في وصف القرآن الكريم، على النحو الآتي:

الأول: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٤١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣١٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ٥.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٣٤٠٦.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣١٨.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٢٥٥.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

جاء لفظ الهدى في الآية السابقة وصفًا للقرآن بالمصدر لقصد المبالغة في حصول الهدى به، والبشرى: الإخبار بحصول أمر سار، أو يترقب على حصوله، فالقرآن بشر المؤمنين بأنهم على هدى، وكمال من الله تعالى، وبشرهم بأن الله تعالى سيؤتيهم خيري الدنيا والآخرة[(١)].

فالقرآن الكريم مشتمل على أمرين: أحدهما: بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وهو من هذا الوجه هدى، وثانيهما: بين ثواب الذي يأتي بهذه الأعمال، وهو من هذا الوجه بشرى، ولما كان الأول مقدمًا على الثاني في الوجود؛ لذلك قدم الله سبحانه الهدى على البشرى[(٢)].

الثاني: قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

أي: إن القرآن يهدي إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أنَّ لهم أجرًا حسنًا، ماكثين فيه أبدًا، وأنه كلما نزل منه شيئًا فشيئًا كان أعظم هداية، وبشارة لهم[(٣)].

الثالث: قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢].

هذه الآية تبين أن آيات الكتاب موصوفة بأنها هدى وبشرى، واختلفوا في وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين: أولهما: المراد أن يهديهم إلى الجنة وبشرى لهم؛ فلهذا اختصَّ به المؤمنون، وثانيهما: المراد بالهدى الدلالة، وفي تخصيصه بالمؤمنين وجوهًا:

أحدها: أنه خَصَّه بالمؤمنين؛ لأنه ذكر الهدى والبشرى، والبشرى إنما تكون للمؤمنين.

وثانيها: أن وجه الاختصاص أنهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

وثالثها: المراد من كونها هدى للمؤمنين أنها زائدة في هداهم.

قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦][(٤)].

ووردت الرحمة والبشرى بعد الهداية في موضع واحد وهو: قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فالكتاب هو القرآن تبيانًا لكل شيء،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٦٢٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٢١٣.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٠٤.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ١٧٨.

ودلالة إلى الحق ورحمة لهم وبشارة لهم بالجنة[1]، والمعنى: أن القرآن هدى من الضلالة، ورحمة لمن صدق به، وعمل بما فيه من أوامر ونواه، فأحل حلاله وحرم حرامه، وبشارة لمن أطاع الله وخضع له بالتوحيد، وأذعن له بالطاعة، وأن له جزيل الثواب والكرامة في الآخرة[2].

٣. اقتران الهداية بالموعظة.

وجاء اقتران الهداية بالموعظة في موضعين:

أولهما: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

أي: زيادة بصيرة، وموعظة لكم، ومدار كونه هدى، وموعظة للمتقين إنما هو تقواهم، ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين إلى التقوى[3].

ومعنى البيان: الأيضاح وكشف الحقائق الواقعة، والهدى: الإرشاد إلى ما فيه خير الناس في الحال أو الاستقبال، والموعظة: هي الكلام الذي يلين القلب، ويزجر عن فعل المنهيات، وفيها التحذير والتخويف، وتكون بالترغيب والترهيب[4].

والمعنى: أن القرآن بيان وتنبيه للمكذبين، وهو أيضًا تثبيت، وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين[5].

فالقرآن الكريم جعله الله تعالى بيانًا للناس عامة، وهدى وموعظة للمتقين خاصة[6].

والموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

أي: أن الله سبحانه وتعالى جعل الإنجيل هدى وموعظة، ولهذا أكثر فيه من المواعظ، والعبر، والقصص، أما الأحكام فغالبها مستمد من التوراة، والموعظة ما تتعظ به القلوب، وهي الأخبار المقرونة بالترغيب والترهيب، وفي الآية دلالة على أن في الإنجيل قبل تحريفه من العلم، والموعظة ما ينتفع به المتقون[7].

٤. اقتران الهداية بالنور.

اقترنت الهداية بالنور في موضعين:

الأول: في وصف التوراة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٢٢١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٠٣٨.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ٨٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٢١٩ بتصرف.
(٥) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٦٧ بتصرف.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٩٧٨.
(٧) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، تفسير سورة المائدة ١/ ٤٥٩-٤٦٢ بتصرف.

﴿وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

معنى الهدى: أي: العلم، والنور: أثر نافع يستنير به القلب[١]، وهذا يعني أن هناك فرقًا بين الهدى والنور، فالهدى محمول على بيان الأحكام والشرائع، والتكاليف، والنور بيان للتوحيد، والنبوة، والمعادن وقيل: إن التوراة فيها بيان الحكم الذي جاؤوا يستفتون فيه النبي صلى الله عليه وسلم، والنور بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم حق[٢].

الثاني: في وصف الإنجيل.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

أي: أن الإنجيل هدى، بمعنى أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد، والتنزيه، وبراءة الله تعالى من الصاحبة، والولد، والمثل، والضد، وعلى النبوة، وعلى المعاد، وأما كونه نورًا فالمراد به كونه بيانًا للأحكام الشرعية، ولتفاصيل التكاليف[٣].

وجاءت الذكرى بعد الهداية في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٤].

والمعنى: أن التوراة اشتملت على الهدى والعلم بالأحكام الشرعية، وغيرها، وتذكر بالخير، وترغب فيه، وتذكر أيضًا بالشر، وترهب عنه، وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو لأولي الألباب[٤].

٥. اقتران الهداية بالشفاء.

قرنت الهداية بالشفاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [غافر: ٥٤].

فالقرآن كتاب هداية؛ لأنه دليل على الخيرات، ويرشد إلى السعادات، وهو أيضًا شفاء؛ لأنه إذا اهتدى الإنسان فذلك شفاء له من مرض الكفر والجهل[٥].

٦. اقتران الهداية بالنور.

اقترنت الهداية بالنور في موضعين:

الأول: في وصف التوراة.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

والمعنى: أن الكتاب هو التوراة العظيمة جاءت نورًا في ظلمات الجهل، وهدى من الضلالة، وهاديًا إلى الصراط المستقيم علمًا وعملًا، وهو الكتاب الذي شاع وذاع، وملأ ذكره القلوب والأسماع[٦].

الثاني: في وصف القرآن.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ٤٥٨ بتصرف.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣.
(٣) انظر: المصدر السابق، ١٢/ ١٠- ١١.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٢٥ بتصرف.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ١٣٥.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٢٩.

﴿مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

أي: جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك يا محمد ضياءً ودليلًا على التوحيد والإيمان، نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا، ونرشده إلى الدين الحق[(١)].

٧. اقتران الهداية بالبركة.

جاءت الهداية مقترنة بالبركة في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

يخبر الله تعالى بعظمة بيته المحرم، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتنوع المصالح، والمنافع للعالمين، وأن فيه آيات بينات، وفيه الحرم الذي من دخله كان آمنا، فلما احتوى على هذه الأمور أوجب الله تعالى حجه، وهو من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان ومكان، ولا يمكن الصلاح بدونها، فمن أذعن لذلك، وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته إن كان مستطيعًا فهو خارج عن الدين، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين[(٢)].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٦٤٨.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٥٨.

وخلاصة القول أن الهداية، والألفاظ التي قرنت بها في القرآن الكريم جاءت أوصافًا للكتب السماوية، وقد حظي القرآن الكريم بها جميعًا، وبغيرها، حيث إنه شهد للكتب السابقة، ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، والقرآن مشتمل على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، فهو الكتاب الذي يتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ الأولين والآخرين، وأتم الله تعالى به الشرائع والدين، وفيه الحكم، والحكمة، والأحكام.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨][(٣)].

فالكتب السماوية جاءت للهداية، والإرشاد، والبيان، والموعظة، والذكرى، وفيها النور، والدلالة على الحق، والشفاء من كل شكٍّ وريب، والقرآن الكريم مصدق للكتب السابقة الموصوفة بالهدى، ومهيمنًا عليها، وشاهدًا لها، وأنَّ ذلك من تمام هدايته، اللهم اهدنا، وألهمنا رشدنا، واجعلنا هداة مهديين لا ضالين، ولا مضلين.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص٢٨٥.

الهداية الفطرية

الفطرة بكسر الفاء: الخلقة[1]، وقيل: معناها: الدين، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة)[2].

وقيل: إن معنى الفطرة: الجبلة المتهيئة لقبول الدين[3]، وقيل معناها: الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه.

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧].

أي: خلقني.

ويؤيد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة)[4].

يعني: الخلقة التي فطر عليها في الرحم من سعادة أو شقاوة[5]، وقيل: هي الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته[6].

وبالنظر في التعريفات السابقة يتبين أن التعريف الأخير للفطرة هو الراجح؛ لأنه شامل لجميع المخلوقات، وأما المعاني الأخرى التي وردت في معنى الآيتين والحديثين؛ فإنها تنطبق على الإنسان فقط، والصحيح أن الفطرة تشمل كل موجود، ومن ذلك: الإلهام الفطري للحيوان.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

أي: إن النحل بفطرته يتخذ من الجبال والشجر بيوتًا، وليس ذلك فحسب بل إنها تقوم بعمل خلية تتناسب مع الرحيق الذي تجمعه من الأزهار، كل ذلك بفطرتها، والنملة بفطرتها نصحت أخواتها لئلا يكون النمل عرضة للهلاك، والتحطيم عند مرور سليمان عليه السلام وجنوده، قال سبحانه تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

أي: إن الله تعالى لم يهمل أمر كل دابة في

(١) انظر: الكليات، الكفوي، ص٦٩٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، ١/ ٥٨، رقم ٢٤٧.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٢١٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٣/ ٣٢٦.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي، ص٥٦٠.

الأرض ولا طائر يطير بجناحيه بل، جعلها أممًا وهداها إلى غاياتها ومصالحها، فكيف لا يهدي البشر إلى كمالهم ومصالحهم؟ فهذه هي الهداية العامة[1].

يلاحظ مما سبق أن الهداية الفطرية العامة جبلة خلق الله سبحانه وتعالى المخلوقات عليها، وهداها إلى ما يصلحها، قال عز وجل: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

أي: كل مخلوق خلقه الله، وأحسن خلقه، وخلقه خلقًا يليق به، ويوافقه، فهذا عام[2]. أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، وهدى كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به على ذلك[3].

وقد ذكر ابن عطية معنى الهداية الفطرية في تفسيره، وأنها عامة في جميع الهدايات، فقال: «قال مقاتل والكلبي: هدى الحيوان إلى وطء الذكور الإناث، وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس للخير والشر، والبهائم للمراتع»، ثم قال ابن عطية: «وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير، وفي كل هداية»[4].

قال ابن القيم: «الهداية العامة، وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التي بها قام أمره، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى: ١ - ٣].

فذكر الله عز وجل أمورًا أربعة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية؛ فسوى خلقه، وأتقنه، وأحكمه ثم قدر له أسباب مصالحه في معاشه، وتقلباته، وتصرفاته، وهداه إليها، والهداية تعليم، فذكر أنه الذي خلق وعلم»[5].

وهذا يعني: أن الله تعالى قدر تقديرًا تتبعه جميع المقدرات فهدى إلى ذلك جميع المخلوقات، وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية[6].

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١/ ٢٧٦.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٠١.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص٦٨٤.
(٤) المحرر الوجيز، ٥/ ٤٦٩.
(٥) مفتاح دار السعادة، ١/ ١٠٥.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨٣.

وخلاصة القول أن الله سبحانه وتعالى قدر أجناس الأشياء، وأنواعها، وصفاتها، وأفعالها، وأقوالها، وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه، وينبغي له، ويسره لما خلق له، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها، وهدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيها.

وقيل: قدر أرزاقهم، وأقواتهم، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسًا، ولمراعيهم أن كانوا وحشًا، وجعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له.

وقيل: خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان إلى وجه استخراجها منها.

وقيل: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر، ثم هداه للخروج من الرحم.

فهذه أقوال ذكرها المفسرون في تفسير الآية، والأولى عدم تعيين أي هداية من هذه الهدايات التي ذكرت؛ لأنها تدخل في الهداية الفطرية العامة[1].

أنواع الهداية

إن للهداية أنواعًا متعددة، جاء بيانها في كتاب الله تعالى، منها هداية البيان والدلالة، ومنها هداية التوفيق والإلهام، وسنتعرف على هذه الأنواع فيما يأتي:

أولًا: هداية البيان والدلالة:

ومعناها: الدلالة، والإرشاد على الخير والحق، مع بيان ما يعقب ذلك من السعادة، والفوز، والفلاح، فهي مما تفضل الله بها على خلقه، ومن ثم أثبتها للنبي صلى الله عليه وسلم الذي قام بدعوة الناس، وإرشادهم، ودلالتهم إلى الطريق المستقيم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢][2].

يتبين في هذا النوع من أنواع الهداية الدلالة على الخير والشر، وطريقة النجاة والهلاك.

قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[البلد: ١٠].

وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٥٠٢ بتصرف.

(٢) انظر: نظم الدرر، ١/ ٣٦.

﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

أي: بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا، واختاروا العمى، وتركوا الهدى[(١)].

وهذه هي هداية الأديان، والشرائع، وهي هداية لابد منها لمن استرقت الأهواء عقله، وسخر نفسه للذاته وشهواته، وسلك مسالك الشرور والآثام، وعدا على بني جنسه، وحدث بينه وبينهم التجاذب والتدافع، فبها يحصل الرشاد إذا غلبت الأهواء العقول، وتتبين للناس الحدود والشرائع، ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها[(٢)].

والمعنى أن هداية الدين: هي الهداية التي لا تخطئ، والمصدر الذي لا يضل، فقد يخطئ العقل، وتنجرف النفس مع اللذات والشهوات، حتى توردها موارد الهلاك، فيحتاج الإنسان إلى مقوم مرشد هادٍ لا يتأثر بالأهواء، فتسعفه هداية الدين لإرشاده إلى الطريق الأقوم، إما بعد الوقوع في الخطأ، أو قبله، وتظل هذه الهداية هي الحارس الأمين الذي يفيء إليها الإنسان للتزود بمفاتيح الخير، والتسلح بمغلاق الشر، فيأمن العثور، ويضمن النجاة، وتعرفه بحدود ما يجب[(٣)].

من خلال ما تقدم يتضح أن هداية البيان والدلالة هي هداية الدين والشرائع، وتحتاج إلى العلم والإرشاد والبيان والدعوة، فالإنسان يحتاج إلى هداية الدين التي تفضل الله بها عليه، ووهبه إياها حتى يسلك طريق الخير، ويبتعد عن طريق الشر.

ثانيًا: هداية التوفيق والإلهام:

التوفيق: الفوز والفلاح في كل عمل صالح، وسعي حسن، وحصول ذلك يتوقف على كسب العامل، وطلبه من الطريق الموصل إليه، وتيسير الأسباب التي يسهل معها الحصول عليه، وذلك إنما يكون من الله وحده[(٤)].

إن هداية التوفيق هي التي أمرنا الله عز وجل بطلبها في قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ١٧].

وهي هداية تصحبها معونة للقدرة على طاعة الله، وامتثال أمره، والسير في طريق الخير، وترك الشر.

والمراد بطلب الهداية في الآية السابقة أن يدل الله سبحانه وتعالى عبده دلالة تصحبها من لدنه معونة غيبية تحفظه من الوقوع في الخطأ والضلال، وهذه الهداية خاصة بالله سبحانه وتعالى لم يمنحها أحدًا من خلقه[(٥)].

فالهداية نوعان: هداية البيان، وهداية

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١/ ٢٧٦، ٢٧٧ بتصرف.
(٢) انظر: نظم الدرر، ١/ ٣٥.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٥٩.
(٤) انظر: نظم الدرر، المراغي، ١٢/ ٧٤.
(٥) انظر: المصدر السابق ١/ ٣٦.

التوفيق، فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية تامة [(١)].

وهداية التوفيق والإلهام لا تكون إلا بعد هداية البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه [(٢)].

وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١٧].

وفي قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له) [(٣)].

والمتأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

يجد أن الله تعالى نفى عن النبي هداية التوفيق، وقال: إنك يا محمد لا تقدر على هداية من أحببت هدايته هداية توفيق، فليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، والله هو الذي يستطيع هداية من يشاء هداية توفيق وشرح صدر، بأن يقذف نورًا في قلبه، أي: فيحيى به، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] [(٤)].

والله سبحانه وتعالى أثبت للنبي هداية الدعوة والبيان في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] [(٥)].

ولا تناقض بين الآيتين؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقدر على أن يهدي أحدًا هداية توفيق، ولكنه يقدر على هداية الدعوة والبيان، والله سبحانه يهدي من يشاء بقدرته.

وقد منح الله سبحانه وتعالى للإنسان خمس هدايات يتوصل بها إلى سعادته، وهي [(٦)]:

١. **هداية الإلهام الفطري:** وتكون للطفل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩.
(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم ٨٦٨.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٠/ ١٢٢.
(٥) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١/ ٢٧٧ بتصرف.
(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٥٩.

منذ ولادته، فهو يحس بالحاجة إلى الطعام والشراب، فيصرخ طالبًا له إن غفل عنه والداه.

٢. هداية الحواس: وهي متممة للهداية الأولى، وهاتان الهدايتان يشترك فيهما الإنسان والحيوان، بل هما في البداية أكمل في الحيوان من الإنسان، إذ إلهام الحيوان يكمل بعد ولادته بقليل، ويكتمل في الإنسان تدريجيًّا.

٣. هداية العقل: وهي أسمى من الهدايتين السابقتين، فالإنسان خلق مدنيًّا بالطبع ليعيش مع غيره، ولا يكفي الحس الظاهر للحياة الاجتماعية، فلا بد له من العقل الذي يوجهه إلى مسالك الحياة، ويعصمه من الخطأ والانحراف، ويصحح له أغلاط الحواس، والانزلاق في تيارات الهوى.

٤. هداية الأديان والشرائع.

٥. هداية المعونة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة: وهي أخَصُّ من هداية الدين، وهذه الهداية خاصة به سبحانه وتعالى.

والملاحظ أن أنوع الهداية التي ذكرت لا تعدو نوعين فقط، فهداية الإلهام، والحواس، والعقل، والدين كلها هدايات تندرج تحت الهداية العامة، والهداية الخاصة هي هداية المعونة والتوفيق.

وقد جعل ابن القيم أنواع الهداية أربعة[1]:

النوع الأول: أحدها الهداية العامة، وهذه هي الهداية الفطرية المشتركة بين الخلق.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة.

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام.

النوع الرابع: غاية هذه الهداية، وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

وقال الله تعالى على لسان أهل الجنة فيها: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: ٢٣-٢٢].

وبالنظر إلى أنواع الهداية التي ذكرها ابن القيم يتبين أن النوع الأول منها هداية عامة فطرية، وأما النوع الثالث فإنه هداية خاصَّة، وتحتاج إلى التوفيق من الله عز وجل، ولا يكون ذلك إلا بالنوع الثاني، وهو هداية البيان والدلالة، وغاية الهدايات النوع الرابع؛ لأن المتقين هم الذين يوفقهم

(١) انظر: بدائع الفوائد، ١/ ٢٧٧ بتصرف.

الله تعالى إلى دخول الجنة بعد دلالتهم وإرشادهم، والآيات السابقة تدل على هداية التوفيق لدخول الجنة.

ويدل على ذلك أيضًا ما جاء في صحيح مسلم: (أن أعرابيًا عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته، أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله، أو: يا محمد أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: لقد وفق، أو لقد هدب، قال: كيف قلت؟ قال: فأعاد فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم، دع الناقة)[1].

والشاهد من الرواية السابقة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لقد وفق، أو لقد هدي)، وفي ذلك دليل على هداية التوفيق من الله عز وجل؛ لدخول الجنة، والله أعلم.

والخلاصة: الهداية نوعان: هداية عامة: وهي الدلالة إلى مصالح العبد في معاده، وهذه تشمل هداية الإلهام، والحواس، والعقل، والدين، وهداية خاصة: وهي الإعانة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة، وهذه تحتاج إلى البيان والدلالة[2].

أسباب الهداية

إن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد يوجه المؤمنين إلى الأسباب التي توصلهم إلى الطريق المستقيم الذي غايته التوفيق.

ومن تلك الأسباب:

أولًا: الاعتصام بالله تعالى:

لقد حثَّ القرآن الكريم المسلمين على الاعتصام بالله تعالى، ورغب في ذلك، وأن ذلك سبب في تحصيل الهداية، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

أي: إن المؤمنين جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، وقيل: إن المعنى: أن الذين آمنوا بالله، واعتصموا بالقرآن سيرحمهم الله عز وجل، ويدخلهم الجنة، ويزيدهم ثوابًا ومضاعفةً ورفعًا في درجاتهم من فضله عليهم، وإحسانه إليهم، ويهديهم طريقًا واضحًا قصدًا قوامًا لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل الجنة، وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة، رقم ١٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٦٠.

المفضي إلى روضات الجنات[1].

والله سبحانه وتعالى جعل الهداية للذي يعتصم به جل وعلا، فقال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران: ١٠١].

والمعنى: أن من اعتصم بالله، وتوكل عليه، وتمسك بدينه، وبالقرآن الكريم فقد هدي، ووفق إلى الطريق القويم الذي يوصله إلى المراد.

قال ابن كثير: « أي: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد»[2].

وقد أمر الله بالاعتصام بالقرآن، والتمسك بالدين، وعدم الفرقة في قوله سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والمتأمل في هذه الآية يجد أنها ختمت بقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وهذا يعني أن الله تعالى يوضح آياته، ويفسرها، ويبينها، ويعطي الهداية لمن تمسك بتوحيد الله، واهتدى بهدي القرآن الكريم.

قال الشيخ السعدي: « إن الله تعالى يبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال لعلكم تهتدون بمعرفة الحق، والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل على أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرًا له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها »[3].

وجاء هذا المعنى في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به) فحث على كتاب الله ورغب فيه[4].

يتبين مما سبق أن الاعتصام بالله والتمسك بالقرآن الكريم، وبهدي النبي صلى الله عليه وسلم طريق إلى الهداية، والله الموفق.

ثانيًا: تدبر القرآن، واتباعه:

إن التمسك بكتاب الله يكون بتلاوته، وتدبره، والعمل بما جاء فيه، والمتدبر لسورة البقرة يجد في أولها قول الله سبحانه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٨١ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٤١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان، رقم ٢٤٠٨.

وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وبعد ذلك ذكر صفات المتقين الذين يتدبرون القرآن، ويعملون بما جاء فيه أنهم على هدى من ربهم، ومما يدل على أن القرآن الكريم سبب من أسباب الهداية قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

قال الشنقيطي: « ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا يهدي للتي هي أقوم، أي: الطريقة التي هي أسدُّ، وأعدلُ، وأصوبُ، وقال الزجاج، والكلبي، والفراء: يهدي للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله، والإيمان برسله، وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق، وأعدلها، وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة »[1].

ولا تكون الهداية إلى خيري الدنيا والآخرة بدون تدبر آيات الله سبحانه وتعالى، والعمل بما جاء فيها، وفي ذلك طرق الاستقامة، والسلامة، والنجاة؛ لأن القرآن الكريم كتاب الهدى والنور، ويهدي إلى الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد ورد ما يدل على تدبر آيات الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ومعلوم أن في كتاب الله تعالى العقيدة الصافية، والتشريع، والأخلاق، والقيم، وهو كتاب الهداية والنور، من تمسك به، وبهدي النبي صلى الله عليه وسلم خرج من الظلمات إلى النور، وهُدِيَ إلى صراط مستقيم.

قال الله سبحانه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

يلاحظ مما تقدم أن من أسباب الهداية إلى الطريق المستقيم التمسك بالقرآن الكريم، وتدبر آياته، وإن الذي يوفق إلى الهداية من اهتدى بهدي القرآن في الدنيا

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٣٧٢.

حتى ينال السعادة في الآخرة، وبالله التوفيق.

ثالثًا: اتباع الرسول عليه السلام:

لقد أكرم الله سبحانه وتعالى هذه الأمة الإسلامية، وأرسل إليها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وأمر بطاعته، وجعل اتباعه سببًا من أسباب الهداية.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وليس ذلك فحسب بل إن الذي يطيع الرسول يطيع الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

والله عز وجل قرن طاعة الرسول بطاعته، وأن في ذلك الفوز العظيم، وهذا في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

حتى إن الله جعل القرآن هداية لمن يشاء من عباده، وأثبت الهداية للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

واتباعه صلى الله عليه وسلم علامة من علامات حب الله تعالى للعبد، ومغفرة الذنوب، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

والذي يطيع الله والرسول صلى الله عليه وسلم يكون من الذين أنعم الله عليهم ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

حتى إن أعمال العباد لا تقبل إلا باتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)[(١)].

وطاعته صلى الله عليه وسلم سبب في دخول الجنة، قال عليه الصلاة والسلام: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى، قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)[(٢)].

والحاصل أن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه من أسباب الهداية التي فيها محبة الله عز وجل للعبد، وفيها مغفرة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم ١٧١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٧٢٨٠.

الذنوب، وقبول الأعمال، والفوز والفلاح، ودخول الجنة.

رابعًا: الدعاء:

لقد أرشد الحق سبحانه وتعالى عباده إلى طلب الهداية والتوفيق منه جل وعلا وجاء ذلك في أول سورة من سور القرآن الكريم في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

قال السعدي: « أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط، واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علمًا وعملًا، فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك»[(١)].

والله سبحانه وتعالى أمرنا بطلب الهداية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: **(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم)**[(٢)].

وقد جاء في صحيح مسلم أن الذي يسأل الله عز وجل الهداية يستجيب له، ويعطيه مسألته، قال رسول الله، قال الله تعالى: **(فإذا قال العبد: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾** [الفاتحة: ٦-٧]. **قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)**[(٣)].

ولا بد من طلب الدعاء من الله سبحانه وتعالى من أجل تحقيق هداية التوفيق، والاهتداء والسير على منهج الحق والعدل، والالتزام بطريق الاستقامة، والنجاة في الدنيا والآخرة.

وسؤال الهداية فيه التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم، حيث إنه قال: **(اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)**[(٤)].

وقد أرشدنا الله تعالى إلى طلب الهداية منه؛ ليكون عونًا لنا، وينصرنا على أهوائنا، وشهواتنا بعد أن نبذل ما نستطيع من الجهد في معرفة أحكام الشريعة، ونكلف أنفسنا الجري على سننها؛ لنحصل على خيري الدنيا والآخرة[(٥)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨.
(٢) الجامع الصغير وزيادته، الألباني، ٢/ ٨٠٠، رقم ٤٣٤٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٣٩٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل،رقم ٢٧٢١.
(٥) انظر: نظم الدرر، المراغي ١/ ٣٦.

والمسلم عليه إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، والاستعانة، والدعاء، والإرشاد، وطلب العون للوصول إلى الهداية، وإلى الدين الحق، والصراط المستقيم[1].

والذين آمنوا يدعون الله عز وجل، ويسألونه الهداية، فإذا أعطوها دعوا ربهم عز وجل أن يثبتهم عليها، ويسلمهم من الزيغ والضلال، قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ويتبين من الأدلة السابقة أن الدعاء سبب من أسباب الهداية، فلا بد من طلبها، وسؤال الله تعالى الثبات على الهداية التي تنجي صاحبها من الزيغ والضلال، والسلامة لا يعدلها شيء.

خامسًا: الجهاد:

لقد شرع الجهاد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[2].

قال النووي في شرح هذا الحديث: «فيه بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختصُّ بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا»[3].

ومن فضائل الجهاد في سبيل الله أنه سبب في الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ابن عطية في تفسير الآية: « والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبوت على الإيمان،

والسبل هاهنا يحتمل أن تكون طرق الجنة ومسالكها، ويحتمل أن تكون سبل الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد النيرة»[4].

قيل: إن معنى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: أي: من جاهد في الطاعة هداه سبل الجنة. وقيل: نظروا في دلائلنا ليحصل فيهم العلم بنا[5]، والمعنى: نبصرهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة[6].

وقال الشوكاني « أي: جاهدوا في

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٥٣.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم ١٩٠٤.
(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٦/ ٥٣٠.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٣٢٦.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ٩٥.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٤٥.

شأن الله لطلب مرضاته، ورجاء ما عنده من الخير ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: أي: الطريق الموصل إلينا»[1].

وقيل: الذين جاهدوا فينا بالثبات على الإيمان لنهدينهم إلى ما لم يعلموا[2]، وقيل: لنهدينهم سبل السير إلينا، والوصول إلى جنابنا، أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير[3].

وقال ابن عطية: «وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته»[4]، وهذا يدل على أن الجهاد في الآية لا يقتصر على القتال.

وقال القرطبي: «قال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وعِظَمُهُ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر»[5].

وهذا يعني أن الذين جاهدوا وثبتوا على الإيمان سيهديهم الله تعالى سبل السير إليه، أي: إن المجاهد سيهتدي إلى سبيل كل خير، ومن ذلك الهداية ودخول الجنة، قال سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦].

وجاء في سورة الفتح ما يدل على أن الجهاد سبب من الأسباب المؤدية إلى الهداية.

وهذه الهداية للذين جاهدوا سواء قتلوا، أو لم يقتلوا، والدليل قراءة: (قاتلوا) بزيادة ألف بعد القاف، وتاء مفتوحة، وهي قراءة سبعية متواترة[6].

والفتح المبين لمكة المكرمة، ولغيرها من البلاد كان بالجهاد، وذكر الله تعالى من فضائله: أن فيه المغفرة، وإتمام النعمة، وأنه من أسباب الهداية، والنصر العزيز، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[الفتح: ١-٣].

أي: إن الله تعالى أتم النعمة بإعلاء الدين، وانتشار الإسلام، وفتوح البلاد شرقًا وغربًا، ورفع شأن النبي صلى الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٩٩.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٧/ ١٥٥.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٤٨.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٣٢٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٣٩٠.
(٦) انظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد، ص٦٠٠.

عليه وسلم في الدنيا والآخرة، وليرشده إلى الطريق القويم بما يشرعه له من الشرع العظيم، ويثبته على الهدى، ولينصره الله على أعدائه نصرًا غالبًا منيعًا، لا يتبعه ذلٌّ، أو هو عزيز المنال فريد المثال[1].

من خلال ما سبق يظهر أن الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا سبب من الأسباب المؤدية إلى سبل الخير، ومنها الهداية، ودخول الجنة.

سادسًا: الاقتداء بأهل الهدى:

لقد دعا الإسلام للاقتداء بأهل الإيمان والصلاح والتقوى، والله عز وجل أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بالأنبياء قبله، وجعل في ذلك الهداية.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[2] [الأنعام: ٩٠].

قال الثعالبي في تفسير هذه الآية: «الظاهر في الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المذكورين قبل من الأنبياء، ومن معهم من المؤمنين المهديين، ومعنى الاقتداء: اتباع الأثر في القول، والفعل، والسيرة، وإنما يصح اقتداؤه صلى الله عليه وسلم بجمعيهم في العقود والإيمان، والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف، وأما أعمال الشرائع فمختلفة، وقد قال عز و جل: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم هو وغيره مخاطب بشرع من قبله في العقود والإيمان والتوحيد، فإن آدم عليه السلام فمن بعده دعا إلى توحيد الله عز وجل دعاء عامًّا»[3].

وقد دل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ على إبطال الشرك، وإثبات التوحيد، كما دل قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ على وجوب اتباع هدي الأنبياء المشترك، وهو أصل التوحيد، وعبادة الله، والفضائل والأخلاق الشريفة، وجميع الصفات الحميدة، واحتج العلماء بهذه الآية على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الله أمره بأن يقتدي بهم بأسرهم[4].

والمعنى أن الله تعالى يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بالأنبياء، والسير على طريقتهم في الإيمان بالله، وتوحيده، والأخلاق الحميدة، والأفعال المرضية، والصفات الرفيعة[5].

وقال الشوكاني في معنى الآية: «إن الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين والأنصار؛ إذ لا يصح أن يؤمر

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٦/ ١٥١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٤٥٢.
(٣) الجواهر الحسان، الثعالبي، ١/ ٤٩٧.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٧/ ٢٨٥.
(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ٤٢٩.

النبي صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهداهم، وتقديم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاقتداء، والاقتداء طلب موافقة الغير في فعله، وقيل: المعنى: اصبر كما صبروا، وقيل: اقتد بهم في التوحيد، وإن كانت جزئيات الشرائع مختلفة، وفيها دلالة على أنه مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء»[1].

وقال الألوسي في معنى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾، أي: «هديناهم إلى الحق والصراط المستقيم والالتفات إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الهداية، وحفظ المهدي إليه اعتمادًا على غاية ظهوره ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، أي: اجعل هداهم منفردًا بالاقتداء، واجعل الاقتداء مقصورًا عليه، والمراد بهداهم عند جمع طريقهم في الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، وأصول الدين»[2].

ويتضح من ذلك أن الله تعالى ذكر الأنبياء، وأمر النبي أن يقتدي بهم، وأمره صلى الله عليه وسلم أمر لنا؛ لأنه قدوتنا؛ ولأن الله تعالى يقول: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١][3].

والله سبحانه وتعالى أمر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨].

هذا أمر من الله تعالى بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله، وصبره ومصابرته، ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل، والمعنى: لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة صالحة، ومثل أعلى يحتذى به، فهلا اقتديتم، وتأسيتم بشمائله صلى الله عليه وسلم، فهو مثل أعلى يقتدى به، إذا كنتم تريدون ثواب الله وفضله، وتخشون الله وحسابه فعليكم باتباعه صلى الله عليه وسلم؛ لأن في ذلك الهداية[4].

ومما سبق يتضح وجوب الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة الكرام، وأهل العلم، والصالحين من هذه الأمة، وأن ذلك من أسباب الهداية، وجاء في أبواب الحديث باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فوعظنا موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون،

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١٧٧.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٥/ ٣١٤.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ٨٠.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٧٣.

فقيل: يا رسول الله: وعظتنا موعظة مودع فاعهد إلينا بعهد، فقال: عليكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبدًا حبشيًّا، وسترون من بعدي اختلافًا شديدًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات فإن كل بدعة ضلالة)[1].

وخلاصة القول: إن الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، والاهتداء بهديهم سبب من الأسباب التي تحقق الهداية التي يسعى العبد للوصول إليها.

سابعًا: التفكر في الكون:

إن في خلق السموات والأرض، وما بث الله سبحانه وتعالى فيهما من الآيات الكونية، والمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار تدلّ على وجود الله تعالى، وتوحيده، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، ولم يخلق الله ذلك إلا لحكمة، ومصلحة للإنسان، وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات الكونية، مثل: رفع السماء بغير عمد، ومد الأرض، وجعل الجبال الرواسي فيها، وتسخير الشمس والقمر، وما فيهما من فوائد، وهذه الآيات، وغيرها فيها علامات قاطعة على أن الله تبارك وتعالى خالقها، وهو الرب المعبود وحده، وفي معرفة ذلك هداية الإنسان، وصلاح أموره في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٢-٣].

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين من الآيات الكونية ما يدعو الإنسان للتدبر، والتفكر، واليقين حتى يميز الحق من الباطل، وأن الذي يتفكر في هذه المخلوقات يعلم أن الله عز وجل خالقها، ولا يكون ذلك إلا من أصحاب العقول السليمة التي لا تحيد عن الحق، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وهذه الآيات الكونية، وغيرها فيها الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) أخرجه ابن ماجه، المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ١/ ٢٠، رقم ٤٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٠٥، رقم ٤٣٦٩.

﴿رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥-١٦].

والمعنى: أن ما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف، وهداية للإنسان، وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض، وموضوعة على ظاهر سطحها عبر عن خلقها، ووصفها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض، ولعل خلقها كان متأخرًا عن خلق الأرض، إذ لعل الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم، ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار، وأما السبل والعلامات فتأخر وجودها ظاهر، فصار خلق الأرض، والرواسي، والأنهار، والسبل شبيهًا بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه، والعلامات: الأمارات التي ألهم الله الناس أن يضعوها أو يتعارفوها لتكون دلالة على المسافات، والمسالك المأمونة في البر والبحر فتتبعها السابلة.

والله سبحانه وتعالى هدى الإنسان بالنجم، وهذه منة بالاهتداء في الليل؛ لأن السبيل والعلامات إنما تهدي في النهار، وقد يضطر السالك إلى السير ليلًا؛ فمواقع النجوم علامات لاهتداء الناس السائرين ليلًا تعرف بها السموات، وأخصُّ من يهتدي بها البحارة؛ لأنهم لا يستطيعون الإرساء في كل ليلة فهم مضطرون إلى السير ليلًا، وهي هداية عظيمة في وقت ارتباك الطريق على السائر، والمقصود بذلك النجوم التي تعارفها الناس للاهتداء كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧][1].

والله سبحانه وتعالى ألقى في الأرض الجبال العظام؛ لأجل عباده؛ لئلا تميد بهم، وتضطرب بالخلق فيتمكنون من حرث الأرض، والبناء، والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارًا على وجه الأرض يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها؛ لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، وجعل أيضًا أنهارًا في بطنها يستخرجون الماء منها بحفرها بما سخر الله لهم من الأدوات، والآلات، ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلًا، أي: طرقًا توصل إلى الديار المتنائية، حتى إنك تجد أرضًا مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين، وهذا كله من لطف الله، وهدايته[2].

والآيات الكونية في القرآن الكريم كثيرة، وإنَّ المتأمل في مخلوقات الله يجد أنها تدلُّ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ١٢١ بتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٧، بتصرف.

على الخالق جل وعلا، وأن هذه الآيات تقود أصحاب العقول السليمة إلى توحيد الله تبارك وتعالى.

زيادة الهداية

إن العبد إذا آمن بالقرآن الكريم، وأخذ حظوظه منه، واهتدى به مجملًا، وقبل أوامره، واجتنب نواهيه، وصدق بأخباره كان ذلك سببًا لحصول هداية أخرى له على التفصيل؛ لأن الهداية لا نهاية لها، فإذا زاد الإيمان، وزادت التقوى عند العبد زادت الهداية.

قال ابن القيم: «إن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملًا، وقبل أوامره، وصدق بأخباره كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل فإن الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى، وكلما فوَّت حظًّا من التقوى فاته حظٌّ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه.

قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

ونظير ذلك قوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]»[(١)].

يتبين من كلام ابن القيم أن الهداية تزيد بالرجوع إلى القرآن الكريم، والتقوى، والتوبة، والذكرى، والأعمال الصالحة، وفي المقابل فإنها تنقص مع نقص الإيمان والتقوى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

أي: إيمانًا، وإيقانًا على يقينهم[(٢)].

وقال السعدي في تفسير هذه الآية: « لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقًا في العلم، والإيمان، والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه، ويسره له، ووهب له أمورًا أخر لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

ويدل عليه أيضًا الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت»[(٣)].

والآيات السابقة تدل على أن الإيمان يزداد وينقص.

قال النووي: « مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. قال ابن بطال: فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص: قال: فإن قيل: الإيمان في اللغة: التصديق. فالجواب: أن التصديق يكمل بالطاعات كلها، فما ازداد المؤمن من أعمال البر كان إيمانه أكمل، وبهذه الجملة يزيد الإيمان، وبنقصانها ينقص، فمتى نقصت أعمال البر نقص كمال الإيمان، ومتى زادت زاد الايمان كمالًا، هذا توسط القول في الإيمان، وأما التصديق بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا ينقص»[(٤)].

يتبين مما تقدم أن الإيمان حينما يزيد تزيد الهداية، وإذا نقص الإيمان نقصت الهداية، وهذا ما أخبرنا عنه القرآن أيضًا في

(١) الفوائد، ابن القيم، ص١٦٠.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٠٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٧٣.
(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ٢/ ٧.

قصة أصحاب الكهف.

قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

قال ابن جرير الطبري في معنى هذه الآية: « نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف بالحق، يعني: بالصدق، واليقين الذي لا شك فيه ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، يقول: إن الفتية الذين أووا إلى الكهف الذين سألك عن نبئهم الملأ من مشركي قومك، فتية آمنوا بربهم، ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، يقول: وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيمانًا، وبصيرة بدينهم، حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه، إلى خشونة المكث في كهف الجبل »[1].

ويتبين من ذلك أن أصحب الكهف عندهم قيم صحيحة، ولديهم الصدق واليقين، وزيادة الإيمان، والصبر مما جعلهم يفرون بدينهم خوفًا من الطاغية صاحب القيم الزائفة، من أجل ذلك زادهم الله هدى بالتوفيق، والثبات والصبر.

وحول هذا المعنى، قال الزمخشري:« زادهم الله هدى بالتوفيق والتثبيت والربط على قلوبهم وتقويتها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وتجسيرهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام، إذ قاموا بين يدي الطاغية الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم: ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»[2].

وهذا يدل على إيمانهم بالله وحده فزادهم الله من الهدى، قال السعدي: « هؤلاء الفتية آمنوا بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان، زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦][3].

وجاء ما يوافق هذا المعنى كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

أي: من أجل الإيمان زادهم الله هدى، وقيل: زادهم النبي صلى الله عليه وسلم هدى، وقيل: زادهم ما يسمعونه من القرآن هدى، أي: يزيد يقينهم، وقيل: زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى، وقيل: زادهم نزول الناسخ هدى، وفي

(١) جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٢٠٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٤٧٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٣٤.

الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل: أحدها: زادهم علمًا، والثاني: أنهم علموا ما سمعوا، وعملوا بما علموا، والثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقًا لنبيهم صلى الله عليه وسلم، والرابع: شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان[1].

وعلى كل تقدير فالمراد أنه سبحانه وتعالى زادهم إيمانًا، وعلمًا، وبصيرة في الدين، وهذه الأشياء كلها فيها الهداية، وزيادتها[2].

وحول هذا المعنى، قال ابن كثير: « إن الذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها، وزادهم منها »[3].

وقد يكون معنى زيادة الهداية: بزيادة التفهيم والأدلة، أو بورود الشرائع، والنواهي، والأخبار.

قال ابن عطية: « قوله تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ يحتمل أن يكون الفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ : الله تعالى، والزيادة في هذا المعنى تكون إما بزيادة التفهيم والأدلة، وإما بورود الشرائع، والنواهي، والأخبار؛ فيزيد الاهتداء؛ لتزيد علم ذلك كله، والإيمان به، وذلك بفضل الله تعالى، ويحتمل أن يكون الفاعل في: ﴿زَادَهُمْ﴾ قول المنافقين واضطرابهم؛ لأن ذلك مما يتعجب المؤمن منه، ويحمد الله على إيمانه، ويزيد بصيرة في دينه، فكأنه قال: المهتدون والمؤمنون زادهم فعل هؤلاء المنافقين هدى، أي: كانت الزيادة بسببه، فأسند الفعل إليه، وقالت فرقة: إن هذه الآية نزلت في قوم من النصارى، آمنوا بمحمد، فالفاعل في: ﴿زَادَهُمْ﴾ محمد عليه السلام كان سبب الزيادة فأسند الفعل إليه، وقوله على هذا القول: ﴿ٱهْتَدَوْا﴾ يريد في إيمانهم بعيسى عليه السلام، ثم زادهم محمد هدىً حين آمنوا به، والفاعل في ﴿وَءَاتَىٰهُمْ﴾ يتصرف بحسب التأويلات المذكورة، وأقواها أن الفاعل الله تعالى، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ﴾، معناه: أعطاهم، أي: جعلهم متقين له»[4].

والراجح أن الفاعل في: ﴿زَادَهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى؛ لأن الهداية المذكورة هداية التوفيق التي نفاها الله عز وجل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يمتلك هداية التوفيق، وغيره لا يمتلكها من باب أولى.

والملاحظ مما سبق أن الهداية تزيد بزيادة الإيمان، والأعمال الصالحة، والثبات على الدين، وتجنب الفتن.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٩/ ٢٦٣، ٢٦٤، بتصرف يسير.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٤٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٠٢.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ١١٥.

أسباب الحرمان من الهداية

إن للهداية أسبابًا، والسعيد من التزمها، وثبت عليها، وعمل على زيادتها، والخاسر من حرم منها، فمن الناس من يطرق بابها ولكنه لا يوفق إليها؛ وذلك لوجود موانع تمنعه من تحصيلها.

فمن أسباب الحرمان من الهداية:

أولًا: الكفر:

لقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على أن الله عز وجل يحرم الكافرين، ويمنعهم من التوفيق للهداية.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

قال الشوكاني في معنى الآية: « إن المصرين على كفرهم المستمرين عليه لا يهديهم الله عز وجل إلى هداية توصلهم إلى المطلوب، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده »[(١)].

والمعنى: إن الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، وأصبحت قاسية، ومطبوع عليها يحرمون الهداية حتى لو جاءتهم كل آية، لم يهتدوا.

وقال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

قال السعدي في معنى الآية: « هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قومًا اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا، وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات »[(٢)].

فالذي يكفر الكفر الأكبر المخرج من الملة، ويصر عليه يحرم الهداية، ولكن لا يستهان بالكفر الأصغر؛ فقد يَجُرُّ صاحبه إلى الكفر الأكبر، والسلامة لا يعدلها شيء.

ثانيًا: الظلم:

إن الظلم مانع من موانع الهداية، وسبب من أسبابها، والظلم الذي يحرم صاحبه الهداية هو الظلم الأكبر المخرج من الملة.

ودليل ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

فهذه الآية تدل دلالة واضحة على تحريم موالاة اليهود والنصارى، ولفظ الظالمين يشمل كلَّ ظالم، والله تعالى لا يهدي الظالمين، والهداية المنفية في هذه الآية هي هداية التوفيق؛ فيحرم منها كل من

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٤٥٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣١٢.

والى اليهود والنصارى؛ لأنهم أعداء الله، ورسوله، والمؤمنين.

والمعنى: إن في الآية تعليل لكون الذين يتولون اليهود والنصارى لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم؛ فيقعون في الكفر والضلالة، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيهًا على أن توليهم ظلم لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد، ووضع للشيء في غير موضعه، وهذا سبب حرمانهم الهداية[1].

والذي يظلم نفسه ظلم الاعتقاد المخرج من الملة، ويوالي أعداء الله عز وجل يكون قد ارتكب محرمًا؛ فيحرم الهداية من الله تعالى، وقد فسر القرآن الكريم الظلم بالشرك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهذا يعني أن الشرك سبب من أسباب الحرمان من الهداية.

ثالثًا: الفسق:

الخروج عن طاعة الله تبارك وتعالى يؤدي إلى زيغ القلوب، وحرمان الهداية.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

أي: الذين لم يزل الفسق وصفًا لهم، ليس لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلمًا منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال، والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه، وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلًا منه بهم؛ فهؤلاء يحرمون الهداية[2].

والمعنى: إن بني إسرائيل لم يتبعوا نبيهم موسى عليه السلام، وتركوا الحق الذي جاءهم به، وآذوه، عند ذلك أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الحيرة والشك، وصرفها عن الحق، وكان ذلك سببًا في حرمانهم من الهداية، وكل من فعل فعلهم يحرمها؛ لأن الله تعالى لا يوفق للحق، ولا يرشد للهداية القوم الفاسقين الفسق الأكبر المخرج من ملة الإسلام.

والنفاق من الفسق، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

فالآية تدل على أن النفاق فسق؛ فيكون النفاق مانعًا من موانع الهداية، وسببًا من

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/٤٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٩٦.

أسبابها.

رابعًا: الكذب:

إن الله عز وجل لا يرشد، ولا يوفق للهداية كل من افترى عليه الكذب، وقال حسب زعمه: إن لله ولدًا، وإن الآلهة تشفع له، وتقربه إلى الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ [الزمر: ٣].

والمعنى: إن الله لا يوفق للدين الذي ارتضاه، وهو دين الإسلام، ولا يعطي هداية التوفيق من كذب على الله، وافترى عليه، وقلبه كافر بآياته، وحججه وبراهينه[(١)]، وليس ذلك فحسب بل إنه يمنع من هدايته.

وجاء هذا المعنى في آيات أخرى من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

خامسًا: الكبر:

إن المتكبر عرضة للطبع على قلبه؛ فيكون من المسرفين.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

فالآية تدل على أن هذا الطبع إنما حصل من الله؛ لأنه كان في نفسه متكبرًا جبارًا، والمعنى أن الله تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب؛ فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعون إلى الطاعة والانقياد لأمر الله[(٢)].

ومعنى ذلك أن الله تعالى يطبع على قلوب المسرفين والمتكبرين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، فيحرمون الهداية؛ لأن القلب المطبوع عليه لا يستقبل هدى بسبب الكبر.

سادسًا: الخيانة:

الخيانة خصلة ذميمة تحرم صاحبها الهداية، ودليل ذلك ما ورد في سورة يوسف، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

قال الألوسي في معنى الآية: « أي: لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه؛ فهداية الكيد مجاز عن تنفيذه، ويجوز أن يكون المراد لا يهدي الخائنين بسبب كيدهم؛ فأوقع الهداية المنفية على الكيد، وهي

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٣/ ٢٤٦ بتصرف.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ٦٤.

واقعة عليهم تجوزًا للمبالغة؛ لأنه إذا لم يهد السبب علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى»[1].

والآية تدل على أن الله تعالى نفى عن الخائنين الهداية؛ حيث إنهم يحرمون منها بسبب الكيد.

سابعًا: الضلال:

الضلال نقيض الهداية، ولا يمكن للضال أن يجمع بين الهداية والضلالة في آنٍ واحدٍ، فالجمع بين النقيضين مستحيل، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: «أي: من حَقَّ عليه القضاء بضلالة فما له من هاد يهديه إلى الرشد، ويخرجه من الضلالة»[2].

قال السعدي: «﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه، والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء»[3].

ويتضح من الآية أنَّ الضالَّ لا يوفق إلى المطلوب، ويكون محرومًا من الهداية، وليس له سبيل إلى الهدى.

ثامنًا: اتباع خطوات الشيطان:

إن الشيطان يزين للإنسان عمله حتى يرى السيِّئ حسنًا، وليس ذلك فحسب بل إنه يصده عن سبيل الهداية.

قال تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

والمعنى: أن الهدهد وجد ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله، والسبب في ذلك أنَّ الشيطان زين لهم سوء أعمالهم؛ ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾، أي: وجد هذه الملكة، وقومها يعبدون الشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم، فصاروا يرون السيِّئ حسنًا، ومنعهم الشيطان عن طريق الحقِّ، وعبادة الله الواحد الأحد، فأصبحوا لا يهتدون؛ وهذا يعني أنهم حرموا الهداية[4].

ويتبين من ذلك أنَّ الشيطان يغوي الإنسان، ويزين له سوء عمله، ويضله، حتى يحرمه الهداية، وخطوات الشيطان عامة في منع الهداية.

قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ٣٩٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٥٥٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٠٠.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٩/ ٢٨٥.

أثر الهداية في الدنيا والآخرة

إن للهداية أثرًا عظيمًا لمن التزمها؛ فالمهتدي يجد صلاح البال، والسعادة، والأمن في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

والمعنى: إنَّ الله سبحانه وتعالى أرسل إلى بني آدم رسلًا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه، وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدوِّ المبين، وأنهم، أي: وقت جاءهم ذلك الهدى الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهي عنه، فإنه لا يضل في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة، والأمن في الآخرة[(١)].

والله سبحانه وتعالى نفى الخوف والحزن عمن اتبع الهدى، فقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

قال السعدي: « نفى الله الخوف والحزن عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفى الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه حصل له الأمن والسعادة الدنيوية، والأخروية، والهدى »[(٢)].

والآية تدلُّ دلالة واضحة أنَّ الله تعالى نفى عن المهتدي الخوف والحزن، وأثبت له الأمن والهدى، والسعادة في الدنيا والآخرة.

والله تعالى يجعل من المهتدين أئمة من أجل هداية غيره، قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

أي: إنَّ الله تعالى جعل منهم أئمة يقتدى بهم، علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، ويهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وهم على الهدى، وأتباع مهتدون بهم[(٣)].

والله عز وجل جعل نصرته للمهتدين في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٢-٣].

والآية تعني أن النصر على الأعداء يكون لمن هداهم الله، وقال ابن عطية: « النصر العزيز: هو الذي معه غلبة العدو، والظهور عليه »[(٤)].

وأهل الجنة يدخلونها، ويسلم الله

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٢٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٠٥.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ١٢٦.

صدورهم من الغل، ويحمدون الله على ذلك، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ « أي: لهذا الجزاء العظيم، وهو الخلود في الجنة، ونزع الغل من صدورهم، والهداية هي الهداية لسببه من الإيمان، والعمل الصالح، وما كنا نطيق أن نهتدي لهذا الأمر لولا هداية الله لنا، أي: لولا هداية الله لنا ما كنا لنهتدي»[(١)].

وجاء في سورة محمد ما يدل على أن المهتدين يصلح الله بالهم، ويدخلهم الجنة.

قال تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٥-٦].

فجاءت الهداية قبل صلاح البال، ودخول الجنة، والمعنى كما قال الزحيلي « أي: سيوفقهم الله تعالى للعمل بما يحبه ويرضاه، ويرشدهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم، وأمرهم، وشأنهم في الآخرة، أي: تحفظ أعمالهم وتخلد لهم، ويدخلهم روضات الجنات يحبرون فيها، وقد عرفهم بها، وأعلمهم وبينها لهم من غير استدلال، حتى إن أهلها يهتدون إلى بيوتهم ومساكنهم من غير مرشد ولا دليل »[(٢)].

ومما سبق يتضح أن الهداية لها أثر على من اهتدى في الدنيا والآخرة، والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل.

موضوعات ذات صلة:

الإصلاح، الدعوة، الصلاح، الضلال، الفلاح، النجاة، النصيحة

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٦٢.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٦/ ٨٧.

الهزيمة

عناصر الموضوع

مفهوم الهزيمة	١٦٤
الهزيمة في الاستعمال القرآني	١٦٥
الألفاظ ذات الصلة	١٦٦
عوامل الهزيمة	١٦٨
أنواع الهزائم	١٨٤
آثار الهزيمة	١٩٣

مفهوم الهزيمة

أولًا: المعنى اللغوي:

مادة (هـ ز م) لها معانٍ كثيرة ومتنوعة، منها:

أولًا: (هزم) وهو الأشهر، بمعنى: كسر وشقق وحطم، وأصل (الهزم) كسر الشيء، وفي هزم العدو كسر له[1].

ثانيًا: الهزم بمعنى: الذبح، واهتزمه بمعنى: ذبحه، «والاهتزام: الذبح»[2].

ثالثًا: الهزم بمعنى النقر والحفر، هزم الشيء إذا غمزه بيده فصارت فيه حفرةٌ[3].

رابعًا: الهزم بمعنى الصوت، وهو خروج صوت للرعد أو الريح «وهزم القدر إذ يسمع لها صوت عند شدة الغليان[4].

خامسًا: الهزم بمعنى المنخفض من الأرض، وكل موضع منخسفٍ فهو هزمة[5].

وإذا تتبعنا هذه المعاني مجتمعة، ونظرنا فيها وجدناها كلها يصح إطلاقها على معنى الهزيمة الذي نحن بصدد دراسته.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

المعنى الاصطلاحي يدور حول المعنى اللغوي ولا يختلف عنه، فهي انكسار يعتري الخصم، سببه قتل أو أسر أو ضرر نفسي وقع من الطرف الآخر.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٥١، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٠٨.
(٢) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ١/ ٢٩٦، الصحاح، الجوهري ٥/ ٣٣٦.
(٣) انظر: شمس العلوم، نشوان الحميري ١٠/ ٦٩٢٧، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٥٠٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٤/ ٩٢.
(٤) المنجد في اللغة، علي بن الحسن الأزدي ص ٣٥٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٥٠٩.
(٥) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ١/ ٢٩٦.

الهزيمة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هزم) في القرآن الكريم (٣) مرات [١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة:٢٥١]
الفعل المضارع	١	﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر:٤٥]
اسم المفعول	١	﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾ [ص:١١]

وجاءت الهزيمة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الحطم والكسر، وصارت الهزيمة متعارفًا عليها في فرار الجيش من الغلبة[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٣٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهاء ص١٣٧٥.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٣٢٤، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٢٥١.

الألفاظ ذات الصلة

١ التولي:

التولي لغة

تولى عن الشيء، أي: أدبر عنه، و ولى عنه أي: أعرض عنه أو نأى[١].

فتَوَلَّى إذا عُدِّي بنفسه اقتضى معنى الولاية، وحصوله في أقرب المواضع منه، يقال: وَلَّيْتُ سمعي كذا: أقبلت به عليه، وإذا عدي ب (عن) لفظا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض[٢].

التولي اصطلاحًا

قال المناوي: التولي هو الإعراض المتكلف بما يفهمه التفعل[٣].

صيغة تفعل هنا تفيد التكلف كما في قولهم: تحلم، أي: تكلف الحلم[٤].

الصلة بين التولي والهزيمة

بالنظر لمعاني التولي اللغوية والمعنى الاصطلاحي تتضح لنا العلاقة الكبيرة بين الهزيمة وبين التولي الذي هو من مظاهر الهزيمة وعلاماتها؛ لأن المنهزم يحول ظهره ودبره إلى جهة الذي هزمه هربًا إلى ملجأٍ يلجأ إليه؛ ليدفع عن نفسه القتل أو الأسر[٥].

٢ الغلب

الغلب لغة

(غ ل ب) غلبه يغلبه غلبًا وغلبة بمعنى: قهره، والغلب بفتح فسكون: القهر، وتغلب على بلد كذا: استولى عليه قهرًا، وإذا قالت العرب: غلب فلان، فهو غالب[٦].

الغلب اصطلاحًا

هو القهر والاستيلاء على نفسٍ أو مال أو بلدٍ ما بشيءٍ.

الصلة بين الغلب والهزيمة

في معظم التفاسير نجد بكل صراحة تأويل الغلب في القرآن الكريم بالهزيمة، كما في

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٤٠٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٨٧.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٦.
(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم في الحاشية ١، ٩/ ٤٣٠٨.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ٣٥١، التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٢١٧.
(٦) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٨٣، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥/ ٥٣١، شمس العلوم، الحميري ٨/ ٤٩٩٢، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٥١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٥٠.

تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران:١٢].

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الروم:١-٣].

٣ الفرار

الفرار لغة

ورد في صحاح العربية[١]: (فرر) يفر فرارًا: هرب، وتفاروا: أي تهاربوا، وفرس مفر بكسر الميم: يصلح للفرار عليه، والمفر: الفرار، ومنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة:١٠].

وعند صاحب اللسان[٢]: الفرار: الروغان والهرب، فر يفر فرارًا: هرب، وفرار وصف بالمصدر فالواحد والجمع فيه سواء، يقال أفررت الرجل أفره إفرارًا: إذا عملت به عملًا يفر منه ويهرب، ويحمله على الفرار، والفرار يكون للجماعة والواحد.

وقد ربط ابن سيده الفرار بالهزيمة فقال: «الهزيمة الفرار عن القتال»[٣]، وفي موضع آخر يقول: «الفرار: الهرب، وفر: جد في الذهاب»[٤].

الفرار اصطلاحًا

لا يخرج عن معناه اللغوي، وهو الهروب والروغان.

الصلة بين الفرار والهزيمة

وقد عبر القرآن الكريم عن الفرار - في بعض الآيات - بالإدبار والهرب، وعبر بالفرار للدلالة على قوة الإعراض[٥].

قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح:٦].

(١) الصحاح، الجوهري ٢/ ٣٤٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٥٠.
(٣) المخصص، ابن سيده ٢/ ٥٠.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٣٥٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٩٤.

عوامل الهزيمة

إن لِكُلِّ أمرٍ عوامل وأسباب، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض عوامل الهزيمة، ومنها:

أولًا: الذنوب والمعاصي

المعاصي من عوامل الخذلان للمؤمنين والكفار على السواء وهزيمتهم في خارج المعركة أو داخلها، والطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والغلبة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام:٦].

في هذه الآية وعيد لأهل مكة، وتهديد لهم بإهلاكهم كما أهلك من قبلهم من القرون بسبب ذنوبهم التي كانوا يجترحونها، فلم تغن عنهم قوتهم وتمكينهم شيئًا، وفي هذه الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة والقرون الخالية: فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع؛ أهلكهم الله لما كفروا وطغوا وظلموا، فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عددًا، فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم[(١)].

والمصائب في الدنيا التي تنزل بالناس كالمرض والفقر والضيق وسائر النكبات، بسبب معاصيهم أيضًا، وهي عقوبة من الله لهم بما ارتكبوا من موبقات، واجترحوا من سيئات، وارتكبوا من الآثام فيما بينهم وبين ربهم[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠].

وإن التاريخ يشهد أن الأمم دأبها الكفر والتكذيب والظلم في الأرض، وعقاب الله إياها هو جار على سنته تعالى المطردة في الأمم، وذلك لكفرهم وفسادهم وظلمهم لأنفسهم.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٢، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١١٩، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١١٨، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ١٢٠٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٠٨.

فكل من سبق من المذكورين من الأمم الذين كذبوا رسلهم، عاقبهم الله بما اقترفوا من ظلم وفساد؛ وأخذ كل هؤلاء بذنبهم، لا بذنب غيرهم[1].

وإن اتباع الشيطان هو سبب الذنوب والمعاصي الذي به تنزل الهزائم ويستحق الخذلان، فإذا اتبعه الناس ورضوا وسوسته؛ أسلمهم لعدوهم، وتركهم يلاقون الموت والهزيمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال:٤٨].

ورد في السيرة النبوية لابن هشام أن «إبليس استدرج الكفار، وتشبه لهم بسراقة ابن مالك بن جعشم، حين ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب، فقال لهم: لا غالب لكم اليوم من المؤمنين، وحلف لهم بأنه مجير ومعين لهم، فلما تراءت الفئتان، نظر عدو الله إلى جنود الله من الملائكة الذين أيد الله بهم رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على عدوهم، فرأى ما لم يروا، وقال: إني أخاف الله، وكانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقة لا ينكرونه، حتى التقى الجمعان فنكص على عقبيه ورجع، فأوردهم ثم أسلمهم»[2].

ويتحدث القرآن عن أهم أسباب الهزيمة التي جرت يوم أحد، ألا وهو ما قد يكتسبه بعض المؤمنين من ذنوب قبل دخولهم في المعركة أو خلالها، وذاك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٥].

فجعل الله عقوبتهم بالهزيمة درسًا وتربية وتمحيصًا، والمعنى: إن المؤمنين الذين انهزموا وتركوا أماكنهم يوم التقاء الجمعين من المسلمين والمشركين في أحد؛ إنما أوقعهم الشيطان فريسة له في الزلل والخطأ، فبسبب ما كسبوا من ذنوبهم، انهزموا يوم أحد، وكان السبب في توليهم الأدبار أنهم أطاعوا الشيطان، حيث زين لهم أعمالهم بتركهم المراكز، واستجابوا لما وسوس إليهم من الهزيمة، فاقترفوا ذنوبًا أدت بهم إلى منع التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا، فالمصائب والعقوبات والهزائم آثار للأعمال السيئة[3].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما شعرت

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٦٣٣، تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٨١.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٣/ ٢١٥.

(٣) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ١/ ٢٧٧، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٣١.

أن أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى كان يوم أحد؛ فقد أرادوا النهب رغبةً في الدنيا، فوقعوا في الغنائم وعصوا، ونسوا عهده الذي عهده إليهم، وخالفوا إلى غير ما أمرهم به، وتركوا ما أمروا به من الطاعة التي عليها ثواب الآخرة[1]، وذلك قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

وإن تمام النصر هو في الثبات لا في الانهزام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢].

بعد أن أراهم الله الغلبة يوم أحد أول الأمر؛ ثم تركوا منازلهم التي عهد إليهم النبي صلى الله عليه وسلم ألا يتركوها، وتنازعوا وفشلوا، وعصوا الرسول؛ أوجفت الخيل فيهم قتلًا، ثم بين سبب التنازع، وهو الطمع في الغنيمة، فحين خالفوا أمر الرسول في الثبوت وعصوه انهزموا[2].

فالمعاصي تجلب الهزائم.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥].

فلا تعجبوا أيها المؤمنون مما حل بكم في أحد، فإن خذلانكم فيها لم يبلغ مبلغ ظفركم في بدر، فقد كان ظفركم في بدر ضعفي نصرهم في أحد، فقد قتل منكم سبعون رجلًا في أحد، وقتلتم من المشركين سبعين رجلًا في بدر وأسرتم سبعين رجلًا، وأنتم الآن تتساءلون: كيف حدث هذا؟ وأنتم تدافعون عن الإسلام، وهم يدافعون عن الشرك؟، جاء الجواب عن تساؤلهم، فأجابهم موبخًا ومقرعًا، ورادًّا عليهم بما من شأنه أن يعيد إليهم صوابهم، وبما يعرفهم السبب الحقيقي في هزيمتهم، وهو أن ما حدث كان من عند أنفسكم وبشؤم معصيتكم، إذ كان سببه فشلكم وتنازعكم في الأمر ومخالفتكم أمر رسولكم وعصيانكم[3].

ولقد كانت أوجه العصيان كثيرة منها:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٨٦، تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٨٨، الكشف والبيان الثعلبي ٥/ ٥٠١، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٧١.

(٢) انظر: تفسير القرآن، ابن المنذر النيسابوري ٢/ ٤٤٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٥٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣٦.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، أسعد حومد ص ٤٥٨.

١. رجوع ثلث الجيش الإسلامي مع عبد الله بن أبي ابن سلول.

أمر الرسول الرماة بلزوم أماكنهم، وبعدم تركها مهما كانت نتيجة المعركة؛ فتركوها حينما لاحت بشائر النصر للمسلمين، وتطلعت أنفسهم إلى الغنائم فاشتغلوا بها وتركوا النصيحة.

٢. تفرقوا عن رسول الله في ساعة الشدة والعسرة.

لهذه المخالفات التي نبعت من أنفسهم أصابهم ما أصابهم في أحد؛ فكان هجوم فرسان المشركين من الخلف؛ فتبدل نصر المسلمين إلى هزيمة، فكان سبب انهزام المؤمنين يوم أحد تأثير الشيطان وإغواءه ووسوسته، وما اقترفوه من ذنوب ومعاصٍ[١].

فما أحوج الناس في كل زمان ومكان إلى الأخذ بهذا الدرس، فإن كثيرًا منهم يُقَصِّرون في حق الله وفي حق أنفسهم، ولا يباشرون الأسباب التي شرعها الله للوصول إلى النصر، فإذا ما أصابتهم الهزيمة مسحوا عيوبهم في القضاء والقدر، ثم قالوا: أنى هذا؟ وما دروا لجهلهم أن الله قد جعل لكل شيء سببًا، فمن باشر أسباب النجاح وصل إليها بإذن الله، ومن أعرض عنها حرمه الله من عونه ورعايته[٢].

ونختم بقوله تعالى عن المجاهدين الربيين: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران:١٤٧].

في قولهم ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ هذا إيماء إلى أن الذنوب والإسراف في الأمور من عوامل الخذلان[٣].

ثانيًا: الاغترار بالكثرة

الكثرة في القرآن الكريم ترد أحيانًا في موضع المدح، وفي الأعم الأغلب فإنها ترد في موضع الذم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣].

يقرر القرآن الكريم أن هذه الظاهرة هي طبيعة معظم الناس لا أهل مكة وحدهم[٤]، وقد أخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال[٥].

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

(١) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٣٣.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ٧٩٢.

(٣) انظر: نظم الدرر ٤/ ٩٣.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٧٩، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٢٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٢٢.

[الأنعام:١١٦].

وانتقد القرآن طبيعة بني إسرائيل، حيث إن أكثرهم يتولون المشركين من عبدة الأوثان[١].

قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة:٨٠].

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن المؤمنين يصفهم دومًا بالقلة.

قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

وفي كل مرة، يهلك الله الضالين، وينجى النفر القليل من المؤمنين[٢]، وكثير هم الضالون من حيث العدد مقارنة بالمؤمنين[٣]، حيث قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤].

ولقد وبخ القرآن الكريم قارون على اغتراره بقوته وكثرة ماله وجمعه وأتباعه، فأهلكه ومن سبقه جميعًا ممن هم أكثر منه جمعًا وعددًا[٤].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص:٧٨].

وفي قصة طالوت وجنوده ما يؤكد أن الكثرة دومًا مغلوبة إذا اعتقدت أنها تنصر بالعدد دون المدد الإلهي والتوكل على الله.

قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

فلما رأوا كثرة العدو أيقنوا بهلاك أنفسهم، واستقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فكان رد العالمين منهم: كم من فئةٍ قليلةٍ وجند قليل يغلبون فئةً كثيرةً عدتهم بإذن الله ونصره وأمره[٥].

وشواهد التاريخ تثبت أن القلة غلبت الكثرة، مثل غزوة بدر والخندق ومؤتة، فعن البراء بن عازبٍ قال: (كنا نتحدث أن أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يوم بدرٍ ثلاثمائةٍ وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمنٌ)[٦].

ولو بحثنا عن كلمة (أكثر الناس) في

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٩٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٥٣٢.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٥٤.
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٧٦.
(٥) تفسير السمرقندي ١/ ١٦٤.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب عدة أصحاب بدر، ٤/ ١٤٥٧، رقم ٣٧٤٠.

القرآن لوجدنا بعدها: (لا يعلمون-لا يشكرون-لا يؤمنون).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود:١٧].

ولو بحثنا عن كلمة (أكثرهم) لوجدنا بعدها (فاسقون- يجهلون- معرضون- لا يعقلون- لا يسمعون- مشركون- لا يؤمنون- لا يعلمون- لا يشكرون).

قال تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١].

وقال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤].

وقال تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت:٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

وقال تعالى: ﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس:٦٠].

بعد هذا العرض الموجز لإطلاقات الكثرة في القرآن الكريم، وكلها كما لاحظنا وردت في موضع الذم، نأتي الآن لمناقشة الآيات التي تحدثت عن علاقة الاغترار بالكثرة والخذلان، وكيف تكون سببًا من أسباب الهزيمة.

فحلول الخذلان يكون بسبب العجب والاغترار بالكثرة.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة:٢٥].

والمعنى: لما توكلتم على أحوالكم وقوتكم وكثرتكم، وعاينتم القوة من أنفسكم دون الله؛ رماكم الله بالهزيمة وضيق الأرض عليكم[(١)].

وكان هذا في يوم حنين إذ كان المسلمون في عدد عديد، حتى لقد قال قائلهم: إننا لن نغلب اليوم من قلة، فقد كانوا في اثني عشر ألفًا، ومع هذا فإنه ما كاد المسلمون يلتقون

(١) حقائق التفسير، أبو عبد الرحمن السلمي ١/ ٢٧٢.

بهوازن في وادي حنين قرب مكة، حتى ولوا مدبرين، وانكشف رسول الله للعدو، ولم يثبت معه إلا قليل، فوقعت الدائرة على المسلمين، وتبدد جيشهم، وتناثرت جموعهم، وذهبت ريحهم، وما كان لقوة في الأرض أن تجمع هذا الكيان الممزق، وأن تبعث فيه الحياة والقوة من جديد، ولكن أمداد السماء، ونفحات الحق، جاءت في وقتها، فأحالت الهزيمة نصرًا حاسمًا، وفي هذا درس للمسلمين حتى يروا أن القوة لله، وأن النصر والعزة لا مبغى لهما إلا بالتوكل على الله، وطلب العون والمدد منه تعالى، فمن رغب عن ذلك، ونظر للعدد والقوة المادية، وآثر كثرته واغتر بها، فلن يلقى إلا الذلة والهوان[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران:١٤٧].

في هذا إيماء لطلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التي دل عليها قوله: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، فهم لا يعولون على كثرة العدد؛ بل يطلبون العون والمدد الروحاني من الله بثبات الأقدام[2].

وختامًا: فإن التجاء الإنسان إلى الله عند الشدائد سبب لنجاته، وإجابة دعوته لقوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالقلة المؤمنة هي التي غلبت، وأما اعتماد الإنسان على نفسه، واعتداده بها فسبب لخذلانه كما في حنين، فلقد نصرهم الله بعدما هزمهم العدو بإعجابهم بالكثرة، فالنصر والظفر بالله لا بكثرتهم وقوتهم، فالمؤمن يقبل على الأسباب ولا ينسى المسبب، فحينما نظر المسلمون إلى الأسباب فقط؛ ذاقوا طعم الهزيمة، وبعد أن أعطاهم الدرس التأديبي نصرهم[3].

ثالثًا: البطر والرياء:

البطر: هو الفخر والأشر والطغيان عند النعمة، وإن من سنة الله عز وجل إهلاك الأمم إذا بطرت وطغت.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص:٥٨].

فقد كفروا نعمة الله عليهم وعاشوا في البطر، حيث أكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام[4].

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٧٢٦.
(٢) تفسير الشيخ المراغي ٤/ ٩٣.
(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٣٢٣، تفسير الشعراوي ٣/ ١٧١٠.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٥٦، الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٠٤.

ونعود لقصة قارون الذي تبطر واختال على الناس في زينته وافتخر على قومه بالعزة والمال والملك، فاستحق الهزيمة وعوقب بالخسف والهلاك، وذلك تحقيقًا لسنة الله على المتجبرين وأهل البطر.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]، فالله لا يحب الفرحين الأشرين البطرين المتكبرين؛ الذين لا يشكرون الله سبحانه على ما أعطاهم، فلم يستجب للنصح، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص:٧٩]، فانتقم الله منه وجعله عبرة لغيره.

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١].

فكان جزاؤه الهلاك والخسف والهزيمة، وذلك جزاء المتكبرين الذين يريدون البطر والرئاء[(١)].

والنعم إذا كثرت من الله تعالى على العبد فصرفها في المفاخرة على الأقران، وكاثر بها أبناء الزمان، وأنفقها في غير طاعة الرحمن، فذلك هو البطر، والرياء: هو إظهار الجميل ليراه الناس، فكفار قريش حين خرجوا إلى بدر، كان لهم فخر وبغي[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال:٤٧].

وذلك أن أبا سفيان لما أحرز عيره بعث إلى قريش وقال: إن الله قد سلم عيركم فارجعوا، فأتى رأي الجماعة على ذلك، وخالف أبو جهل، وقال: والله لا نفعل حتى نأتي بدرًا؛ فننحر عليها الإبل، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، ويهابنا الناس، وذلك ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، فلما وصلوا بدرًا ما انتصروا وما نالوا مرادهم، بل سقوا كأس المنايا بدل الخمور، وناحت عليهم النوائح بدل القينات، وكانت أموالهم غنائم بدلًا من بذلها في الإسراف واللهو، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم في طلب الرياء والسمعة؛ ولكن أخلصوا لله النية، وقاتلوا احتسابًا في نصر دينكم، ولا تطلبوا غيره، وكونوا أهل تقوى وإخلاص[(٣)].

فسنة الله في الناس أن يقصم ظهور المتكبرين، ويذل المتجبرين المرائين المختالين المتكبرين على الناس بصلفهم وغرورهم، ويجعل الله نهايتهم الخذلان والموت والهزيمة عقابًا لهم على بطرهم وفخرهم ورئائهم.

رابعًا: النفاق و المنافقون:

لقد بين كتاب الله ما عليه المنافقون

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٦.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ١٠٢.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩، روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٠٣.

من صلف وكبر، وما يقومون به من تثبيط العزائم، وبث روح الهزيمة في نفوس المؤمنين، وإن كلمة النفاق لم تعرفها العرب من قبل، وأخذت الكلمة من نافقاء اليربوع؛ لأن جحره له بابان إذا طلب من أحدهما هرب من الآخر؛ فاستخدم في الإسلام علامة على تلك الطائفة التي تبطن الكفر وتظهر الإسلام، وتكمن الغيظ والبغض وتعلن الرضاء والمودة، وهي تضمر الحقد والحسد وتجهر بخلافهما[1].

وصفات المنافقين التي ذكرها القرآن الكريم كثيرة جدًا، وهي تفضحهم وتظهر عوارهم، وتحذر من وجودهم في الصف المسلم، وتدعو المسلمين إلى تنقية وتنظيف صفوفهم من هؤلاء الذين يؤخرون النصر ويستجلبون الهزيمة، ويفرحون بها.

فمن صفات المنافقين أنهم يكرهون القتال.

قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:١٦٧-١٦٨].

تهتم هذه الآيات الكريمة اهتماما خاصا بفريق من المنافقين الذين أدخلوا الفشل على المؤمنين من أول لحظة في يوم أحد، وهذا الفريق كان يتزعمه المنافق المدعو عبد الله بن أبي ابن سلول الذي فارق ركب رسول الله الذي كان يتألف من ألف رجل، وهو لا يزال في أثناء الطريق بين المدينة وأحد، وتابعه ورجع معه ثلث الركب ممن ينطوون على النفاق، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل ونيف، وكان فريق من المؤمنين لا يزالون يظنون خيرًا بزعيم المنافقين ومن معه من المتخلفين، إذ لم يكن قد انكشف نفاقهم بعد.

فتبعوهم من ورائهم يحرضونهم على العودة للقتال إعلاء لكلمة الله بجانبهم، أو على الأقل مساعدتهم فيما قد يحتاجون إليه، وتكثير سوادهم أمام العدو إن لم يقاتلوا، أو ليدفعوا الأعداء عن المجاهدين، أو ليدفعوا العدو عن أنفسهم وعن أموالهم وذراريهم، فما كان من المنافقين وزعيمهم إلا أن تعللوا بأنهم لا يتوقعون من المشركين في هذا اليوم أي قتال، إذن فلا موجب لمواصلة السير في ركاب رسول الله.

وتحدث زعيم النفاق ابن أبي ابن سلول حديثًا كشف به عن ذات نفسه فقال: والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٥٦، التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ٦/ ٢٣٦.

الناس، فجاءت هذه الآيات لتظهر نفاقهم للناس وتفضحهم؛ ليعلموهم علم عيان ورؤية وظهور، إذ أن نصر المسلمين فى بدر فتح الطريق أمام المنافقين للتظاهر باعتناق الإسلام، وعدم انتصارهم فى أحد كشف عن هؤلاء المنافقين وأظهرهم على حقيقتهم، فإن من شأن الشدائد أنها تكشف عن معادن النفوس، وحنايا القلوب[1].

موقف المنافقين في الماضي والحاضر هو اتهام المجاهدين بإهلاك أنفسهم، وهو ما تدل عليه هذه الآيات، حيث قال المنافقون للمسلمين: إنكم ما وصلتم لهذا إلا لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب، ولا يقال لمثله قتال، إنما هو إلقاء بالنفس إلى التهلكة، هذا هو موقف المنافقين فى غزوة أحد، وهو موقف يدل على فساد قلوبهم، وخبث نفوسهم، وجبنهم عن لقاء الأعداء.

وحالهم بعد انتهاء المعركة أشد شرًا، هؤلاء المنافقون لم يكتفوا بما ارتكبوه من جنايات قبيل غزوة أحد وخلالها، بل إنهم بعد انتهاء المعركة قالوا متحدثين عمن استشهدوا: لو أن هؤلاء الذين استشهدوا فى أحد أطاعونا وقعدوا معنا في المدينة لما أصابهم القتل، ولكنهم خالفونا فكان مصيرهم إلى القتل، فرد القرآن عليهم بما يبطل أقوالهم عن طريق الحس والمشاهدة، وذلك ببيان أن القعود عن الجهاد لا يطيل الحياة، كما أن الخروج إلى ساحات القتال لا ينقص شيئا من الآجال، فكم من مجاهد عاد من جهاده سالمًا، وكم من قاعد أتاه الموت وهو في عقر داره[2].

والمنافقون يسعون لنشر البلبلة في صفوف المسلمين ويشككون بنصر الله لأوليائه، فقد اتخذوا موقفهم بالانسحاب بثلث الجيش بعدما بيتوه فيما بينهم لبث البلبلة في صفوف المسلمين وإرباكهم، وإضعاف روحهم المعنوية أمام المشركين، وشككوا بنصر الله لأوليائه فقالوا: لو كان الأمر كما قال محمد إن أولياء الله هم الغالبون لما غلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة، ويربطون بين النبوة والنصر، وأنه لو كان محمد نبيا ما هزم، وفاتهم أن النصر من عند الله وبتوفيقه، وأن الهزيمة بسبب مخالفات المسلمين.

فرد الله عليهم بأن الآجال والأعمار بيد الله، وأن النصر من عند الله، وأن من كتب عليه القتل فلا بد أنه مقتول، فلو كان في بيته وانتهى أجله، لخرج إلى مكان مصرعه،

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٥٢٣، بيان المعاني، العاني ٥/ ٤٢٤، التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ١/ ٢٧٧.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٧٩٤.

والحذر لا يمنع القدر، والأمر كله بيد الله، وقد فعل الله ما فعل من إلحاق الهزيمة بالمسلمين في نهاية غزوة أحد، ليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص والثبات، وليميز ما في القلوب من أمراض ووساوس الشيطان[1].

فهؤلاء المنافقون إذا دعوا إلى القتال في سبيل الله، أو إلى الدفاع عن النفس والأهل والوطن، أجابوا: لو نعلم أنكم تلقون قتالًا في غزوتكم لاتبعناكم وسرنا معكم، ولكننا نعلم أنكم لا تقاتلون، وهذا يدل على تأصل النفاق في قلوبهم، وأن غايتهم التلبيس والتدليس والاستهزاء وتعمية الحقائق، مع أن جمع المشركين في أحد، وخروج المسلمين لمقابلتهم قرينة قاطعة على إرادة القتال[2].

ومن صفاتهم أيضًا: عدم التهيؤ والاستعداد للقتال، وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة:٤٦].

فلو أنهم أرادوا الجهاد لتأهبوا للسفر، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف، فحبسهم الله عنك وخذلهم؛ وقد أوقع الله في قلوبهم القعود، وهو عبارة عن الخذلان، وقد بين القرآن الكريم المفاسد التي تترتب على خروجهم، فهؤلاء خروجهم لن يزيدكم إلا فسادًا وشرًا؛ لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس والقعود عن الغزو أفسدنا الناس وحرضنا على المؤمنين، وفي ذلك تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم، ولأوضعوا فيكم الهزيمة والتخذيل والإفساد والتحريض والنميمة، وبغيتهم أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف والأراجيف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم؛ ويثبطون المؤمنين بقولهم: لقد جمعوا لكم كذا وكذا، ولا طاقة لكم بهم، وإنكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم، ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التي تورث الجبن والفشل.

قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٧].

وفي قوله: ﴿سَمَّاعُونَ﴾ تحذير من العيون والعملاء الذين ينقلون إليهم الأخبار منكم، ويحدثونهم بأحاديثكم وهم عيون لهم[3].

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ١/ ٢٧٧، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٣٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٥٦.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٩، فتح

والمنافقون يمتازون بالدهاء، ويتحججون بالعجز والأعذار، وهم صنف مبالغ في النفاق، استأذنوا دون اعتذار، وذلك أن بعضهم قال نستأذنه، فإن أذن في القعود قعدنا وإلا قعدنا دون إذن، فهم عزموا على العصيان أذنت لهم أو لم تأذن، فقد قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:٤٣].

ومن جملة حججهم وأعذارهم قوله تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ [التوبة: ٤٩].

نزلت في: (الجد بن قيس، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تجهز لغزوة تبوك قال له: يا أبا وهب، هل لك في جلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووصفاء؟ فقال: يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن؛ فلا تفتني بهن، وائذن لي في القعود عنك فأعينك بمالي، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: قد أذنت لك، فأنزل الله تعالى هذه الآية)[1].

وأشد صفة تكشف حقدهم: أنهم يستاؤون من نصر المسلمين ويفرحون لهزيمتهم.

قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٥٠].

فالحسنة هنا هي: الغنيمة والظفر، والمصيبة هي: الهزيمة والخيبة كهزيمة أحد، وذلك أنه إن تصبكم نعمة من الله بنصر وغنيمة تسؤهم وتحزنهم؛ لفرط حسدهم وكراهتهم لكم، وإن تصبكم مصيبة تؤلمكم كالذي أصابكم يوم أحد من الجراح والهزيمة، يقولوا مغتبطين لتخلفهم، وحامدين لرأيهم وسياستهم؛ قد احتطنا وأخذنا أمرنا من قبل المصيبة بتلافيها، حيث اعتزلنا المقاتلين، وقعدنا عن الحرب، ودارينا الكفرة وواليناهم، وسلمنا مما أصابهم من قتل وجرح، وينصرفوا وهم كثيرو الفرح بهزيمة المسلمين، ونجاة أنفسهم بأخذهم حذرهم واحتياطهم بالتخلف عنكم[2].

وهم يوالون الكفار ويدارونهم ويناصرونهم عليكم، قال الله فيهم: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢].

فالدائرة هي: الهزيمة، والمنافقون

البيان، صديق خان ٥/ ٣١٤.

(١) أسباب النزول، الواحدي ص٢٥٢.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ١٧١٤.

يسارعون بالاعتماد على الكفار دون الله، ويعللون اعتذارهم عن موالاتهم بأنهم يخافون خوفًا بالغًا أن تحل بهم المصائب والدوائر[1].

ويثبطون الناس ويوهنون من عزائمهم.

قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨].

وكان من جملة قولهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحمًا لالتهمهم أبو سفيان وحزبه، فخلوهم وتعالوا إلينا[2].

ويظنون بالله الظنون الباطلة ويستبطئون النصر ويكرهون الشهادة في سبيل الله ويعتبرونها قتلًا للنفس، فهم يظنون أن لا ينصر الله محمدًا، كما ظن الجاهلية حيث اعتقدوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل في المعركة أو أنه لا ينصره الله[3]، وذلك يوم الخندق حين قالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وذلك هو ظن الجاهلية الغبية، التي لا تفهم معنى النبوة، ومعنى التأييد الإلهي، قال تعالى عنهم: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقد قال بعضهم لبعض لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولم تقتل رؤساؤنا، أي: «لو كان الاختيار لنا لم نخرج، ولما قتل من قتل منا في هذه المعركة، وهذا كان رأي ابن أبي وغيره»[4].

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ومن صفاتهم أنهم مشككون ومترددون ومذبذبون، ففي غزوة الخندق شكت قلوبهم، وكان ديدنهم أنهم يتحيرون، إذ كانوا تخطر لهم صحة أمر النبي أحيانًا، وأنه غير صحيح أحيانًا فهم مذبذبون[5]، وقد قال الله فيهم: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

ويعرفون بوجوههم عند ذكر الموت والقتال، فهم لا يطيقون سماع ذكر القتال، وتتغير معالم وجوههم رعبًا وخوفًا، قال الله فيهم: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، وهم المنافقون الذين في قلوبهم مرض، وحالهم عند نزول سورة مشتملة على حكم القتال ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت؛ لشدة فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء[6].

وقال أيضًا: فحالهم عند حد الجد، وبدء

(١) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ١٨٨.
(٢) الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٦٣.
(٣) السراج المنير، الشربيني ١/ ٢٠٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٩.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٧.

المعركة والقتال، تراهم تدور أعينهم رعبًا وخوفًا لا يدرون ما يصنعون، فيصيرون كالذي يعاني سكرات الموت ويبحث عمن ينقذه، ولو أنهم استمسكوا بدينهم وكانوا مع أهله يدًا على من سواهم، لم يقدر عليهم عدو، ولم ينهزم جيش المسلمين لوجود منافقين في صفهم من أمثال هؤلاء[(١)].

وتتنوع أوصاف المنافقين في طبائعهم، فتارة تعرفنهم في لحن القول، وتارة في الأفعال كترك الطاعات، وتارة في فعل القبيح، وأكثر فسادهم في أحوال الجهاد كما تبين معنا، وكثيرة الآيات التي تتحدث عما يظهر منهم من آثار الكفر في الأقوال والأفعال مما جاء به القرآن، ولا مجال لحصرها في هذه الدراسة، لذلك سنكتفي بالقدر الذي أوردناه.

خامسًا: التنازع والفرقة:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

فالآية الكريمة ذكرت المؤمنين بأن الله قد حقق وعده معهم في أول المعركة بأن سلطهم على المشركين، يقتلونهم بتأييده ورعايته قتلًا ذريعًا، وأراهم من النصر والظفر بالمشركين ما وعدهم، حتى إذا تنازعوا واختلفوا في أمر الله، قذف عليهم عدوهم، وخرجت خيل المشركين عليهم من ورائهم، ولقد بين سبب التنازع وهو طلب الدنيا والغنيمة، فحصل بذلك الانهزام، وهو النتيجة الحتيمة للتنازع والتخاصم والتخالف، والتقدير: حتى إذا فشلتم وصرتم فريقين انهزمتم، والمعنى: حتى إذا عجزتم عن مقاومة أهوائكم وتنازعتم فيما بينكم، منع الله عنكم نصره، وتحول نصركم إلى هزيمة، وفقدتم أنفسكم وما جمعتموه من غنائم[(٢)].

وفيها تصوير بديع للمعركة، وعرض كامل لمشهدها، ولتداول النصر والهزيمة فيها، فبعد أن ولى المشركون الدبر، وامتلأ الوادي بما خلفوه من الغنائم، وحين رآها الرماة، ورأوا إخوانهم المسلمين ينتهبونها دونهم؛ عصفت بهم ريح الطمع، واختلفوا فيما بينهم، وخلا ظهر المسلمين، رجع المشركون إلى الميدان، وأحاطوا بهم من الخلف والأمام، وأكثروا فيهم القتل والجراح، ودارت الدائرة عليهم بعد أن

(١) نظم الدرر، البقاعي ١٨/ ٢٤٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٨٩، الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٤٩٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٢٨، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٢٩٨.

كانت لهم[1].

ثم أمرهم بالطاعة، ونهاهم عن التنازع الذي هو أكبر أسباب الفشل والهزيمة.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال:٤٦].

والتنازع غالبا يكون بسبب الأغراض الشخصية، وتقديم الأغراض والمصالح الدنيوية على المصالح العامة، وتلك أكبر أسباب النزاع، وهذه أكبر البلايا التي يأتي من قبلها الشر للمسلمين؛ لأنه قد يخالف بعض المسلمين فتكون العقوبة عامة للجميع، والفرقة من أكبر أسباب الضعف والخور وعدم انتظام الكلمة، وهذا النزاع والتفرق والاختلاف هو مشكلة عظمى في أقطار الأرض؛ لأن من يتسمون باسم المسلمين ينازع بعضهم بعضًا، ويعادي بعضهم بعضًا، فأنى ينصرهم الله؛ فمن تنازعوا فشلوا وذهبت قوتهم ودولتهم، ويصير الأمر إلى غيرهم؛ وهذه وصايا سماوية، وتعاليم من رب العالمين عظيمة، من أخذ بها ظفر، ومن تركها فشل وذهبت ريحه لا شك[2].

ونحن نرى اليوم في عالمنا الإسلامي ما يمكر به الأعداء لأمتنا الإسلامية من السير على قاعدة (فرق تسد)، وما يبثونه من نعرات تؤدي إلى النزاع والاختلاف والفرقة وشق الصف، وما وضعوه من حدود وهمية بين البلاد الإسلامية، واختلقوا حواليها المشكلات الدائمة، وشغلوهم بها في قضايا دولية، ومحاكم وهمية لا تقدم ولا تؤخر في قراراتها؛ حتى لا تجتمع كلمتهم على مقاتلة الأعداء والتجهز للتغيير.

سادسًا: مخالفة أوامر القيادة:

إن طاعة القائد شرط أساسي للنصر، وفي قصة طالوت عندما خرج بالجنود من بيت المقدس، قال لهم: إن الله مختبركم وممتحن مقدار صدقكم في لقاء عدوكم، واستجابتكم لأوامر قائدكم بنهرٍ يعترض طريقكم، فإياكم والشرب منه، فمن غلبته شهوته وشرب من مائه، فليس من أتباعي؛ لأنه إذا عصاني اليوم، فهو أحرى أن يعصي أمري وقت اشتداد الحرب فتحدث الهزيمة، ومن لم يذق ماءه استجابة لهذا الأمر وصبر، فإنه مني، وهو ضالع معي في لقاء العدو[3].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٩].

هذه الآية تشير إلى أن السر كامن في طاعة القيادة العليا، وامتثال أوامرها الرشيدة

(١) انظر: تيسير التفسير، إبراهيم القطان ١/ ٢٢٩.
(٢) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥/ ٨١.
(٣) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٤٢٣.

دون تردد ولا اعتراض، فهذا هو مفتاح النجاح والنصر في مختلف المعارك وفي مختلف العصور، فالمحارب الذي انكب على النهر يشرب من مائه حتى يمتلئ وهو في طريقه مباشرة إلى الميدان، محكوم عليه مسبقا بالهزيمة والخسران، إذ هو محارب فاقد للصبر، غير قادر على الاحتمال، قد أثقله العرق وأبطأ به اللهث، وقد أعطى الدليل قبل دخول المعركة وهو في طريقه إليها على أنه لا يعير لأوامر قائده الأعلى أدنى اهتمام، بل إنه يعصي هذه الأوامر دون تردد ولا إحجام، فهل يعتمد على مثل هذا في الحصول على النصر، أم أنه عامل أساسي من عوامل الهزيمة؟، وإن المحاربين المتحلين بروح الامتثال والطاعة لقيادتهم، هم الذين تحملوا عبء المعركة، وهو من الأسباب المباشرة في كل هزيمة لحقت المسلمين، مثل أحد والغزوات والمعارك التي بعدها[1].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥].

فعندما تقولون: من أين جاءنا هذا الخذلان والرسول معنا؟!؛ فالجواب قل لهم إن هذا الانكسار والهزيمة بسبب مخالفتكم، فأنتم الذين خالفتم أمر قائدكم حين أبيتم إلا الخروج من المدينة مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار عليكم بالبقاء فيها، وأنتم الذين خالفتم وصيته أيها الرماة بترككم أماكنكم التي حددها لكم وأمركم بالثبات فيها، وأنتم الذين تطلعت أنفسكم إلى الغنائم فاشتغلتم بها وتركتم النصيحة، وأنتم الذين تفرقتم عن رسول الله في ساعة الشدة والعسرة، فلهذه المخالفات التي نبعت من أنفسكم أصابكم ما أصابكم في أحد ولذلك خذلتم، وأصابتكم هذه المصيبة عقوبة لمعصيتكم لنبيكم[2].

إن الذين يظنون أن النصر دائمًا في جانب المسلمين مهما عصوا وخالفوا أوامر الله، يجيبهم الله عن تساؤلهم موبخًا ومقرعًا لهم بأن ما وقع حدث بشؤم معصيتكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم ألا تبرحوا مكانكم؛ فانهزمتم وأذاقكم الله الغم بفعلكم.

قال تعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٥٣].

فقد غممتم رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ١/ ١٦٢.

(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٣٣٠، بيان المعاني، العاني ٥/ ٤٢٣، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٣٢٨.

وسلم بمخالفة أمره، فجزاكم الله بذلك الغم القتل والهزيمة عقوبة لكم على مخالفته، ففاتتكم بذلك الغنيمة، فقد جعل الله المسببات نتائج للأسباب، فكل عسكر يعصي قائده ويكشف ظهره لعدوه يصاب بمثل ما أصبتم به[1].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٣٤، السراج المنير، الشربيني ١/ ٢٠٦، أيسر التفاسير، أسعد حومد ص٤٥٩.

أنواع الهزائم

الهزائم على نوعين:

أولًا: الهزيمة العسكرية:

وإن من سنن الله في خلقه أنه جعل الحياة صراعًا دائمًا بين الحق والباطل، ونزاعًا موصولًا بين الأخيار والأشرار، فالحرب سنة طبيعية في الخلق من يوم أن اقتتل ابنا آدم، وهي على ما فيها من ضرر وخطر لا تخلو من نفع وخير؛ إذ لولا أن الله يدفع الناس بعضهم ببعض، ويسلط جماعة على جماعة لفسدت الأرض وعمت الفوضى بغلبة الكفر، وتمكن الطغيان وأهل المعاصي، ولانتشر الظلم وهدمت أماكن العبادة التي يذكر فيها اسم الله، فلو ترك الفاسقون من غير أن يدافعوا ويقاوموا لنشروا فسوقهم وفجورهم وطغيانهم في الأرض، ولكن الله ذو فضل على الناس جميعا حيث يسلط على الظالم من يبيده ويهلكه، فإذا نبت ظالم آخر أرسل له من يفتك به، وهكذا ينصر الله رسله بالغيب، وفي قصة المؤمنين من بني إسرائيل مع طالوت ما يدل على تجلي عظمة الله وقدرته بأجلى مظهر، فقد هزمت الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله وإرادته هزيمة عسكرية بالقتال.

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة:٢٥١].

فانكسر عدوهم رغم كثرته، وقتل رأس الطغيان وقائد الجبابرة واندحر جيشه، فلم يبق منهم أثر ولا عين، وفي ذلك ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وتحذير من الضعف والفرار حذر الموت[1].

والهزيمة هنا تدل على فرار الجند والعسكر خوفًا من القتل، فقد كسروهم كسرةً انتهت بدفعهم من المعركة، وهروبهم منها مقهورين مغلوبين، وقد تكون الهزيمة بدون إبادة كل الجنود، بل بقتل أئمة الكفر فيهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ وهو زعيم جيش الكفار الذي هرب، فطارده داود وقتله[2].

وقال تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص:١١].

أي: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، أخبر الله نبيه وهو بمكة أنه سيهزم جند المشركين، واسم الإشارة يدل على مصارعهم في بدر فكفار مكة وأحزابهم سيهزمون، وقد تحقق وعد الله فقهروا وأهلكوا[3].

وقال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٥].

وكان ذلك يوم بدر والمعنى: هؤلاء الجمع المكذبون سيهزمون ويغلبون، ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل، فذاقوا الهزيمة وقهروا وغلبوا، وإنَّ أهل مكة الذين قالوا واثقين بشوكتهم: نحن جماعة أمرنا مجتمع، ونحن جماعة منصورون، سيهزمون ويتفرق شملهم، ويغلبون حين يلتقي جيشهم وجيش المؤمنين، وهذا من أخبار الغيب ودلائل النبوة، حيث هزمت جموعهم، وولوا الأدبار، وفروا من أمام جيش المسلمين، فالله توعدهم بقتل صناديدهم وبانصرافهم من الحرب منهزمين.

وفي الإفراد في قوله ﴿ٱلدُّبُرَ﴾ إشارة إلى أنهم في التولية والهزيمة كنفس واحدة، فلا يتخلف أحد عن الهزيمة، ولا يثبت أحد

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٩٤، التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ١/ ١٦٤، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٥٧٧.

(٢) انظر:المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣٨٩، تفسير الشعراوي ٢/ ١٠٥٧.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٨٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٨، التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ٣/ ٥٧٦.

للزحف، فهم في ذلك كرجل واحد، أو إنَّ كل واحد من الجيش منهم يولي دبره ويفر هاربًا[1].

والتعبير بالسين لتأكيد أمر هزيمتهم في المستقبل القريب، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران:١٢].

لقد قالها الرسول مبلغًا عن الله، والمسلمون في حالة من الضعف واضحة، فتساءل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أي جمع هذا الذي سيهزم؟، والمسلمون ضعاف لا يقدرون على ذلك، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وأسباب الانتصار غير موجودة، لكن الواقع جاء ليثبت صدق الحق في قوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾، فقد تم انتصار المسلمين بالفعل، فهزموا الكافرين وغلبوهم، وجعلوهم يولون الدبر[2].

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٤-١٥].

أي: قاتلوا هؤلاء الكفار، فإنهم إذا جاء الوغى يفرون ويولونكم الأدبار، بل وتنزلون فيهم الذل والخزي وتشفون صدوركم منهم قتلًا وأسرًا، والدليل هزيمتهم يوم بدر وتوليهم الأدبار يومئذ، حيث قتل رؤساء الشرك وأساطين الكفر، كذلك توليهم الأدبار في جمع آخر وهو جمع الأحزاب في غزوة الخندق؛ حيث فروا بالليل منهزمين مقهورين[3].

ومع قصة الخندق وغزوة الأحزاب لنا حديث في تحديد نوع الهزيمة، فلقد جمع الكفار جموعهم على إبادة المسلمين واستئصال شأفتهم، لكن الله هزمهم وردهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال، فالشاهد هنا هو أن الكفار هزموا واندحروا وولوا الأدبار من دون قتال، فالهزيمة العسكرية لها وجه آخر، وهو(عدم تحقيق الأهداف)، فإذا عجز الخصم عن تحقيق أهدافه ورجع من حيث أتى فقد هزم عسكريًّا، وكما يقولون: (إذا لم يستطع القوي أن ينتزع استسلامًا من الضعيف فقد هزم هزيمة نكراء).

بقي أن ننوه لموضوع مهم في هذا المطلب وهو: الإعداد الجيد لهزيمة الأعداء عسكريًّا، أمر الله المسلمين بإعداد القوة لكبح جماح أعداء الإسلام، بشكل

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٧٥، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٢١، نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٩٣، البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥٣٤.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢٧/ ٩٨، تفسير الشعراوي ٢/ ١٢٩٦، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٤/ ١١٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢١٣.

عام، وخصَّ كتاب الله بالذكر من بين أنواع القوة الخيل، وقد كانت الخيل في الحروب الماضية تحتل مكانًا بالغ الأهمية، وذكر (الخيل) هو إنما ورد على وجه التنبيه، نظرًا؛ لأن الخيل كانت في العهد الإسلامي الأول أهم شيء في الحرب[1]، وذلك حتى يقيس المسلمون عليها غيرها، ويهتموا في مستقبل الأيام بكل ما يستحدث ويجد من أدوات القوة ووسائلها الفعالة، فالعبرة أولًا وأخيرًا إنما هي بإعداد القوة التي لا تضام، والاستعداد التام للعدو على الدوام.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال:٦٠].

ثانيًا: الهزيمة النفسية:

كتاب الله عندما يتحدث عن القوة ويدعو المسلمين إلى إعدادها بكل الوسائل لا يقصد بلفظ القوة معناها المادي المجرد وحده، المتمثل في الآلات والأدوات الحربية، وإنما يقصد معناها المادي الروحي في آنٍ واحدٍ، بل إنَّ القوة الروحية عنده بالنسبة إلى القوة المادية تعتبر كالجوهر بالنسبة للعرض، والروح بالنسبة للجسد، فالقوة الروحية في نظر الدين والأخلاق، والروح المعنوية العالية، في نظر المختصين من رجال الدراسات النفسية والأبحاث العسكرية هي منبع كل قوة، وأساس كل نصر، وبدونها تضطرب القلوب وتنهار الأعصاب، وتصبح الهزيمة من كل جيشٍ قاب قوسين أو أدنى، لكن إذا كانت قوة الإيمان بالله وتقوى الله تقود جنود الإسلام، في خطواتهم إلى الأمام فبشرهم من عند الله بالفتح المبين والنصر والتمكين، ووقتئذ يتم وعد الله بالغلبة على الكافرين[2].

وإن الإيمان بالله واليوم الآخر يزيد الثقة بالنفس فلا تضعف ولا تخور أمام المنعطفات، بل تواجه المواقف بصلابة ورباطة جأش، تجعلهم يقبلون على القتال والموت دونما وَجَلٍ أو خوفٍ، ومثال ذلك ما ذكره القرآن الكريم في قصة طالوت، حيث عقد مقارنة بين الهزيمة النفسية والمعنوية العالية بين ضعاف الإيمان والمؤمنين الصابرين.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ٢/ ٣٤٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٣٤٥.

لما اجتاز طالوت النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب، ولما أصبحوا على مقربة من جيش العدو، و كانوا «قرابة مائة ألف»[(١)].

فلما رأوا عدوهم يقودهم قائدهم الجبار (جالوت)، ورأوا كثرة عددهم وتفوقهم، فزعوا واضطربوا واعتراهم الخوف، وقال الكافرون والمنافقون، والشك والنفاق منهم، من الذين شربوا وعصوا أمر قائدهم: لا قدرة لنا اليوم ولا طاقة لنا بمحاربة الأعداء ومناضلتهم فضلًا عن التغلب عليهم، فنحن قلة وهم كثرة كاثرة، فأعلنوا انهزامهم، وانصرفوا فارين عن طالوت، ولم يشهدوا القتال[(٢)].

لكن في المقابل، فإن المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو الله فمجازيهم على أعمالهم، وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت قالوا: لا تغرنكم أيها القوم كثرتهم، فكثيرا ما غلبت فئة قليلة العدد فئةً كثيرة العدد بقوة إيمانها وإرادة ربها[(٣)].

وهكذ نلحظ أن التعبئة الروحية الإيمانية تتمثل في تعميق الثقة بما أعده الله فى الآخرة لعباده المؤمنين، فيؤثرون الآخرة على الدنيا، ويزهدون فيها طمعًا بما عند الله، فلا يلتفتون إلى ما وراءهم من أهل وولد ومال، ولم يخفهم الموت الراصد لهم فى يد أعدائهم، ولم يهابوا العدو وكثرته وقوته، فرأوا أنهم فى قلتهم المؤمنة الصابرة أقوى من عدوهم الذي لا يؤمن بالله ولا يصبر على المكروه، ولا يقاتل إلا طمعًا فى مغانم الدنيا ومتاعها، وهذه المعنوية العالية تقابل الهزيمة النفسية والروحية التي تخوف أصحابها، فلا يقدرون على المواجهة، ويتجرؤون العيش في جو الهزائم[(٤)].

التوجيهات القرآنية لهزيمة الأعداء نفسيًا:

أولًا: لقد دعا القرآن إلى تطبيق أقصى درجات التخويف والتنكيل على المنافقين والكافرين وغيرهم، وذلك هدمًا لنفسيتهم وكسرًا لأنفتهم، وتأثيرًا على معنويات غيرهم، فلا يتجرءون على مقاتلة المسلمين خوفًا منهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال:٥٧].

أي: نَكِّلْ بهم، واجعلهم أداة لتشريد من خلفهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون به عبرة لمن بعدهم، وعليك أن

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٢٠٨.
(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ١/ ١٦٤.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢١٧، أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٢٣٨.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١/ ٣١٠.

تؤدبهم أدبًا يجعل الذين وراءهم يخافون منكم، ويبتعدون عنكم، وكلما رأوكم أصابهم الخوف والهلع، لعل الذين من خلفهم يحذرون أن يصيبهم ما أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجر لمن عملها أن لا يعاودها[(١)].

فالمطلوب أن نجاهدهم بقوة وبدون شفقة حتى لا يفكر في مساندتهم من جاؤوا خلفهم ممن هو على مثل رأيهم في المنافرة للإسلام أن ينصروهم أو يؤازروهم بالدخول معهم في القتال، ولا تحدثهم أنفسهم في أن يستمروا في المعركة، وذلك كي تكون هذه التجربة درسًا لهم؛ فلا يفكروا مرةً أخرى في حربٍ معك؛ لأنهم سوف يتذكرون ما حدث لهم ولغيرهم فيبتعدوا عن مواجهتك، ولا يجسر عليك بعدهم أحد، اعتبارًا بهم واتعاظًا بحالهم[(٢)]، وهذا الإرشاد الحربي في استعمال القسوة مع المحاربين، والناقضين لعهود السلم، متفق عليه بين قواد الحرب في هذا العصر.

أي: فرق بهذا الذي تأخذهم به من بلاء ونكال كل مجتمع للضلال، وكل من يبيت السوء للمسلمين، فكل من تحدثه نفسه بخيانة عهد المسلمين من بعد تلك الضربة التي نزلت بهؤلاء الخائنين، سيجد أمام ناظريه مثلًا حيًّا لما ينتظره من بلاء ونكال، وإن هذه الآية الكريمة لمن أحكم الآيات التي ترشد المؤمنين إلى وجوب أخذ المستمرين على كفرهم وعنادهم ونقضهم العهود أخذًا شديدًا رادعًا، حتى يبقى للمجتمع الإسلامي أمانه واستقراره وهيبته أمام أعدائه، فالآية الكريمة ترسم صورة بديعة للأخذ المفزع، والهول المرعب الذي يكفي السماع به للهرب والشرود، فما بال من يحل به هذا الأخذ الشديد؟، وبذلك تبقى لدين الله هيبته وسطوته[(٣)].

ثانيًا: أمر بإثخان المشركين قتلًا في ساحات المعركة من دون رأفة، وذلك ليكون صيت جيش المسلمين يسبق تحركه لأي بلد وأي حرب، والغرض هو التأثير على نفسيات الأعداء وروحهم المعنوية، وذلك يظهر من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٦٧].

فالإثخان شدة التقتيل، وذلك حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى، فلا تعود به

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢١٩، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤، تفسير الشعراوي ٦/ ٣٣١٣.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٦٤٦، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٦/ ١٣٥.

قدرة على هجوم أو دفاع، فتكون لهم الغلبة التامة، والسيطرة الكاملة، فتصير قوتهم في موضع التفوق المطلق على الأعداء، فلا يستطيع هؤلاء الأعداء الثأر والعودة إلى القتال إذا سنحت لهم الفرصة، لأن الملك والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتال والقتل، فكثرة القتل توجد الرعب وشدة المهابة، وذلك يمنع الأعداء من الجرأة والإقدام على حرب المسلمين، فالإثخان في الأرض يرهب الأعداء[1].

ثالثًا: وجه القرآن المؤمنين للسعي في إدخال الرعب لقلوب الأعداء؛ لأن ذلك سيهزمهم نفسيًّا وروحيًّا قبل الهزيمة العسكرية، فلا يصمدوا ولا تحدثهم نفسهم بالمواجهة.

قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:١٥١].

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: ذكر القرآن ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب، فلما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم؛ فألقى الله الرعب في قلوبهم؛ لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه خوف ورعب[2].

رابعًا: بَيَّنَ القرآن الكريم أن الهزيمة النفسية تورث أصحابها الذل والخنوع والقعود عن مواجهة الأعداء ومقاتلتهم، كما قال تعالى على لسان أصحاب موسى الذين أحجموا عن قتال الجبارين: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤].

فلا غرابة في إحجامهم عن قتالهم؛ لأن كُلَّ قوم تربوا في أحضان الذلِّ والاستعمار يألفون القعود ولا يألفون الحرية والكرامة[3].

وبهذا يظهر التفاوت بين سائر الأمم، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم التي تربت على النفسية الإسلامية، وارتوت من نبع القرآن الصافي، حيث قال الصحابة له حين شاورهم في القتال يوم بدر: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك وما تخلف عنك أحد، ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤].

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٠/ ٣٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٤٣٥.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٠٢.

(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ١/ ٥٠٢.

مقاتلون[1].

خامسًا: لقد تناول القرآن الكريم موضوع الإشاعة وحاربها.

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

والإرجاف هو من الرجفة بمعنى الزلزلة، وسميت بذلك لإحداثها الاضطراب والزلزلة في المجتمع وفي قلوب الناس، والمرجفون: هم الذين يثيرون الشائعات الكاذبة، ويطلقون الأراجيف المصطنعة، ليشغلوا الناس بها، ويفسدوا عليهم حياتهم، وذلك أن ناسًا منهم كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله يوقعون في الناس أنهم قتلوا وهزموا، ومن الكذب الذي كان يذيعه أهل النفاق أيضًا: قد أتاكم العدو بعدد وعدة، فيخوفون ويرهبون من الأعداء، ويحدثون بكثرتهم وقوتهم، وضعف المسلمين؛ فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين؛ لتضعف قلوبهم ويحزنوا، ويحبون أن يفشوا الأخبار[2].

وتمثل الإشاعة طريقًا مضمونًا لتحقيق الهزيمة النفسية؛ لأنها سريعة الانتشار، وتصادف أناسًا جهالًا، ونفوسًا مريضة يرددونها دون تفكير؛ فيذيعون كل ضار ومفسد، لذلك يستعملها الأعداء دومًا في توهين جانب المسلمين، وإظهار تفوق المشركين وغلبتهم عليهم، والإشاعة تنشر القلق والخوف والاضطراب، وتضعف من معنويات الجماعة مما يسهل هزيمتهم، وانتصار الأعداء عليهم، وتقتل فيهم روح الإقدام[3].

فكان جزاؤهم أينما ثقفوا ووجدوا أخذوا بالضرب والتنكيل والاحتقار، ولا غرابة في ذلك، فالأمم الحديثة الآن لا تعرف الرحمة مع الجواسيس والخارجين على الدولة الذين يطعنون من الخلف، ويتعاونون مع العدو مع تظاهرهم بالإخلاص، وتلك سنة الله مع المنافقين وأصحاب الإشاعات في كل زمن.[4]

سادسًا: ضرب القرآن المثل بأن نفاذ الصبر والشك واستبطاء وعد الله دليل على الهزيمة النفسية، وقد تحدث القرآن عن ذلك في قصة موسى وبني إسرائيل، حيث وصل قلقهم وخوفهم إلى حد لم يصبروا معه؛ فاشتكوا واستبطؤوا النصر، وكانت نفسيتهم منهزمة متأثرة بالريبة والشك.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٢٨.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٥٥، الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٦٤.

(٣) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٢٢/ ١١٢.

(٤) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ٣/ ١١٨.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ [الأعراف:١٢٩].

فكان استبطاؤهم للنصر بقولهم: متى يكون ما وعدتنا به يا موسى من زوال ما نحن فيه؛ فجزعوا ولم يصبروا على هذا البلاء الذي أخذهم فرعون به، وألقوا اللوم والسخط على موسى[(١)].

وتلك هي طبيعة الانهزاميين: فلقد كان ردهم يدلُّ على سفاهتهم، فقد قالوا له: نحن لم نستفد من رسالتك شيئا، فإلى متى نسمع منك تلك النصائح التي لا جدوى من ورائها؟[(٢)].

سابعًا: أعطى القرآن حلًّا واقعيًّا يعالج مشكلة الهزيمة النفسية، وهو الحث على التحلي بروح الثقة بالله والاستعانة به على ما يعتري الإنسان من خواطر نفسية، فدعا إلى التأسي بالعباد المؤمنين الذين ينظرون إلى ما عند الله، وإلى الدار الآخرة فلا تنكسر نفسياتهم، ولا تنال منهم الهزيمة.

قال تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه:٧٢].

قالوا لفرعون: إن ما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا الفانية، وكلُّ ما تصنعه أو تحكم به ينقضي ويزول ولا يضرنا، ولا رغبة لنا في البقاء فيها، بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره فإنه دائم عظيم، وإنَّ أمرك وسلطانك في هذه الحياة الدنيا سيزول عن قريب، ونحن نرغب في سكنى الدار الدائمة، بسبب موتنا على الإيمان، وذلك من ثباتهم على الإيمان، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده رغبة فيما عند الله[(٣)].

استخدام الدعاية والإشاعة في الحرب النفسية، كالتي يشنها الأعداء على الأمة اليوم، فهي لها أثر كبير في تحقيق الهزيمة بها، وبأقل الخسائر في الأرواح والمعدات، وهي تجرد الأمة من أثمن ما لديها وهي الإرادة القتالية، فهي تستهدف العقل والتفكير والقلب والعواطف؛ لكي تحطم الروح المعنوية لدى أبنائها، وقد بلغ من تأثير الحرب النفسية أنَّ كثيرًا من الأمم استسلمت لأعدائها قبل أن تطلق جيوشها طلقة واحدة، ومن أعظم الدروس التي تستخلص من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في صراعه مع الأعداء، هو استخدام العامل النفسي في الصراع لتحقيق الأهداف الإستراتيجية، فمن بين ثمانٍ وعشرين غزوة قادها بنفسه، نجد تسع عشرة غزوة حققت أهدافها بلا قتال، إذ فرَّ الأعداء تحسبًا لنتائج مواجهة قوة المسلمين.

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٥٠، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٧٤، نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٨٨.

(٢) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ٣٥٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٤٢، أضواء البيان، الشنقيطي ٢١/ ١٢٧.

آثار الهزيمة

الهزيمة إذا وقعت في قوم وحلت بهم، فإنَّ لها ما بعدها من الآثار المدمرة على حياتهم ومعيشتهم ومعنوياتهم ونفسياتهم، فالهزيمة العسكرية لا بد أن تكون درسًا تعليميًّا يتخذ منه العبر؛ لتلافي الأخطاء التي حصلت في المستقبل؛ فتصير هذه الهزيمة عبارة عن كرة من الكرات تؤدي مستقبلًا إلى النصر والظفر، أما إذا كانت هزيمة مكنت العدو من الأرض ومن نفسية الإنسان وعقله، فإن آثارها أكبر وأعظم، وتؤدي إلى النهاية والاستئصال، وتورث في عقليات أصحابها الذلة والخنوع والهوان، وعدم السعي للتغيير.

لكنَّ القرآن الكريم عندما نزلت الهزيمة بالمسلمين، أراد لهم التعلم والاستفادة من أخطائهم التي وقعوا فيها، وحذَّرهم من مغبة الركون إلى اليأس والقنوط من تحقيق وعد الله لهم، وهذا ما سيظهر لنا من خلال دراستنا لهذا المبحث الذي يبين آثار الهزيمة في القرآن، وما هي معالجات القرآن لها بشكل موجز، يتضمن العديد من الفوائد.

ومن تلك الآثار:

١. الشعور بالغمِّ خلال المعركة وبعدها.

قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٣].

الغمُّ الأول هو أنهم غموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره، فجزاهم الله بذلك الغمَّ الثاني وهو القتل والهزيمة عقوبةً لهم على مخالفتهم، فصاروا مغمومين بعد ذلك لِمَا أصابهم من القتل والهزيمة، ولفوت الغنيمة عنهم[(١)].

٢. الندم على التقصير في الإعداد لمتطلبات النصر قبل المعركة أو داخلها.

فالناس في كل زمان يعيشون في الأحلام والخيالات، فهم ينتظرون النصر منحة إلهية خالصة للمؤمنين، دون أن يقوموا بواجباتهم ويعملوا بما تقتضيه متطلبات الحروب مع العدو، فهم المكلفون من الخلق بالجهاد وحمل الأمانة، فإذا جاهدوا وصبروا وثبتوا أيدتهم العناية الإلهية، وتحقق لهم النصر والفوز، والله صادق الوعد بنصر المؤمنين ما داموا على الحق ثابتين، وفي ميدان المعارك مجاهدين صابرين مطيعين، متوحدين غير متفرقين، وأما الجبن والضعف والتفرق، والنزاع والأطماع الدنيوية فهي أسباب الخذلان والهزيمة المنكرة، وتورث بعد ذلك الندم على ما فات، ولقد صور القرآن الكريم ذلك في معركة أحد، ففي بداية المعركة صدق الله وعده للمؤمنين، وأراهم

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٣٤.

الفتح حين صرع صاحب لواء المشركين وقتل معه سبعة نفر، وولى المشركون الأدبار، وتركوا أموالهم وهربوا، فلما عصى المسلمون وخالفوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالثبات على الجبل، واشتغلوا بالغنيمة أعقبهم البلاء، وأدى بهم إلى الجراح والقتل والهزيمة والفرار، فتحصلوا على الندم بعد المعركة على تقصيرهم، ولكن هيهات أن يرجع الماضي[1].

٣. الخزي.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ [التوبة:١٤].

و«الإخزاء: الإذلال، ويكون بالقهر والأسر والفقر لمن لم يقتل منهم»[2]، فقوله تعالى ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ يعني: «يذلهم بالهزيمة؛ لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين على لسان النبي صلى الله عليه وسلم أن يعذب الكفار بأيديهم ويخزهم وينصرهم عليهم، فأنجز وعده ولم يظهر خلاف ما وعد لهم»[3].

وقال الإمام الرازي في تفسيره: «إنَّ الإخزاء واقعٌ بهم في الدنيا، ومعناه: ما ينزل بهم من الذل والهوان حيث شاهدوا أنفسهم مقهورين في أيدي المؤمنين ذليلين مهينين؛ فلما حصل الخزي لهم بسبب كونهم مقهورين فقد حصل النصر للمسلمين بسبب كونهم قاهرين»[4].

معالجة القرآن لآثار الهزيمة النفسية:

لكننا نجد أن القرآن قد عالج آثار الهزيمة التي حدثت فور وقوعها، حتى لا تتفشى في نفسيات الناس وعقولهم، وحافظ على رفع الروح المعنوية، وأعطى الدعم النفسي، وهيأ الناس لمواجهات قادمة، بتجديد الروح والعزيمة لديهم، وتعميق ثقتهم بدينهم ونبيهم، وبتحقيق وعد الله لهم بالنصر على أعدائهم فقال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤٠].

ومن تلك المعالجات:

١. النعاس.

من معالجات القرآن الكريم لآثار الهزيمة في معركة أحد، ما ألقاه عليهم من النعاس أو النوم بعد هذا الغم الذي أصابهم؛ ليشعرهم بالأمن، وليجددوا عزائمهم، وترتاح نفوسهم من بعد هذه الهزيمة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ [آل

(١) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٣١.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٠/ ٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٣٥.
(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٢.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦.

عمران:١٥٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢].

فيها إشعارٌ بالهدف الأسمى، وهو أخذ الدرس والعبرة، حتى وإن حصلت المخالفة والذنوب، فالهدف أننا نريد أناسًا عمليين، يخطئون فيتعلمون من أخطائهم، وليس كما يفعل اليوم بالإقصاء والتغيير، وإعفاء من المهمات، بل إن الأخطاء تعطي هذا الجندي أو القائد حنكة وتجربة يكتسبها ويتعلمها من أخطائه، فيجعل الله على يديه نصرًا في معارك أكبر وذات شأن، فالمصاعب والشدائد هي التي تصقل الرجال، وتخرج المقاتلين[(١)].

٢. إنزال السكينة.

من معالجات القرآن الكريم لآثار الهزيمة في غزوة حنين بعد الفرار والتولي، هو إنزال السكينة عليهم بعد الذي أصابهم، فقد أحاط بهم العدو، وأوقع في صفوفهم الفوضى والاضطراب، وهذا الأمر يسلم إلى الهزيمة التي لا مفر منها، فما كان للمسلمين أن يفروا بأي حال كانوا عليه، وعلى أي تقدير يقدرونه لنتائج المعركة، فلتكن الهزيمة واقعة بهم، ولكن الذي كان يجب ألا يكون منهم، هو الفرار، فهذا أمر لا يصح أن يقع من المسلمين في ميدان القتال،

(١) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٣١.

والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

فأي مسلم هذا الذي تحدثه نفسه بالفرار من المعركة، وهو يعلم حكم الله فيمن يفر ويولي العدو دبره، ولكن الذي حدث هو أن المسلمين فروا وولوا الأدبار، ومن هنا كان هذا الأمر منهم حدثًا غريبًا، ما كان ينبغي أن يكون في ميدان القتال، لكن معالجة القرآن الكريم لهذه الهزيمة، إذ أنزل الله سكينته عليهم، ونزع ما كان قد استولى على قلوبهم من خوف وهلع، وأمدهم بجنود من عنده كانوا ردءًا لهم، ويدًا قوية ضاربة معهم، فكان لهم النصر والظفر[(٢)].

٣. التحذير من الإشاعات والأراجيف.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران:١٤٩].

تصور الآية ما حدث بعد معركة أحد من بلبلة في الأفكار وإرجاف من المشركين، فلقد انتهز المنافقون والكفار واليهود جميعًا

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٧٣٠.

ما أصاب المسلمين من الهزيمة، وأخذوا يثبطون من عزائمهم، ويخوفونهم عاقبة السير مع محمد صلى الله عليه وسلم، ويصورون لهم مخاوف الحرب ضد مشركي قريش وحلفائهم، وإشاعة عدم الثقة في القيادة، وتزيين الانسحاب من المعركة، ولا شك أنَّ أصلح الأجواء لبلبلة النفوس هو جوُّ الهزيمة.

فانظر إلى هذه الحكمة البالغة في النهي عن الإنصات لهذه الفئات، بل وينهاهم عن متابعة الكفار والمنافقين في أمر ولو كان صغيرًا، والمعنى: إن تطيعوا أعداء الله الذين أرجفوا يوم أحد وقالوا: إنَّ محمدًا قد قتل، وإنه لو كان رسولًا حقًّا لما هزم، فإنهم سيطلبون إليكم أن ترجعوا إلى الدين الذي كنتم عليه، وبذلك تخسرون الدنيا والآخرة، وأيُّ خسارة أشد من الارتداد عن الإيمان إلى الكفر[1].

ولقد امتن الله على عباده المؤمنين بحفظهم من شَرِّ هذا السلوك الشائن من بعض المنافقين وضعفاء الإيمان، حيث رحمهم بالحفظ من تصديق ما يذيعه الأعداء وضعاف الإيمان وذوو الغفلة، فلولا هذا الفضل وتلك الرحمة مِنَ الله بهذه الأمة؛ لضل الكثير من أبنائها باتباع سبيل الشيطان، ولكان مصيرها الضياع والانهزام، وضعف الثقة في النفوس، لكن هناك قلة امتازوا من المسلمين بقوة العزيمة، وثبات الإيمان، فإنهم هم الذين يكونون بمنجاة من التأثر بهذه الأخبار، فلا يصدقونها ولا يذيعونها[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء:٨٣].

وقد أضافت هذه الآية معنىً جديدًا وهو: كتمان أخبار القتال، وصيانة أسراره، فطبيعة الجهاد تقتضي كتمان أخبار القتال وصيانة أسراره إذا ما أريد له النجاح، وبخاصة ما يستفيد منها الأعداء، ومن أخطر الأمور التي تضر بالمسلمين وبجيشهم المقاتل؛ إذاعة ما يسمعه المرء من أخبار النصر أو الهزيمة، قبل أن يعرضه على أولي الأمر، فإنهم أعلم بما إذا كان إفشاء هذه الأخبار مما يضرُّ الصالح العامَّ أم لا.

فيجب على الناس أن يسوسوا أنفسهم، ويروضوها على صيانة أخبار أمن الدولة، وكل ما يتعلق بالجانب العسكري من معلومات، ذلك لأن إفشاء أخبار الدولة، يسهل للعدوِ مهمة التجسس، ومعرفة مواطن

(١) انظر: تيسير التفسير، القطان ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٨٦٤.

الضعف والقوة لدى المسلمين، ويكشف عن عيوبهم، ويستوي في ذلك الأخبار المتعلقة بالنصر أو الهزيمة؛ لأن أخبار النصر قد تؤدي إلى التواكل والإهمال؛ فلا يأخذ المسلمون حذرهم، وبهذا يكونون فريسة سهلة لأعدائهم، وأخبار الهزيمة تلقي الرعب في قلوب ضعفاء الإيمان؛ فتنهار الروح المعنوية، ولا يستطيع الجيش ملاقاة الأعداء[1]، لذلك حذر القرآن منهم، وسماهم منافقين ومرجفين.

قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب:٦٠].

٤. تقوية الجبهة الداخلية.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾﴾ [الحشر:٣].

فلقد كانت لغزوة أحد التي هزم فيها جيش المسلمين، أثر عميق في نفوس المنافقين واليهود والكفار من قبائل العرب؛ مما كان سببًا في حوادث تتابعت كيوم الرجيع، (وفيه قتلت هذيل عاصمًا في سبعة نفر من خيار الصحابة وأسرت ثلاثة قتلت منهم واحدًا في الطريق، وباعت اثنين لقريش فقتلوهما)، وقد ذكر البخاري في صحيحه القصة كاملة[2]، وكيوم بئر معونة، (وفيه قتل من المسلمين أربعون غيلةً)، ووجد المنافقون واليهود فيما أصاب المسلمين في بئر معونة والرجيع وغزوة أحد ما شجعهم على الانتقاص من هيبة محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه، وفكر النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا في هذا الأمر، فذهب إلى يهود بني النضير وأجلاهم عن المدينة، فعمل بذلك على تقوية الجبهة الداخلية، حتى لا يكون هناك خلاف في وجهة النظر في المدينة وما حواليها[3].

ونهي عن التودد للكفار وموالاتهم حتى في حالات الضعف والانهزام، بل حرم ذلك أشد التحريم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١].

وقال في موضع آخر: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

حتى ولو كانت الموادة بحجة النفع

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٨٦٣.

(٢) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه، رقم ٣٨٥٨، ٤/ ١٤٩٩.

(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ٣/ ٦٤٢.

العام، أو تحقيق المصالح للمسلمين.

قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢].

فقال لهم: إذا ما حدثتكم أنفسكم بأنه قد يترتب على الميل إليهم قدرٌ من الحماية والنصر (وهذا ما يفعله بعض حكام المسلمين مع أميركا في الوقت الحاضر)؛ فاعلموا أن ذلك وهمٌ خادع، واعلموا أن الله مولاكم، وهو ناصركم ومعينكم وحاميكم، فلا تطلبوا منهم نصرة، بل لا تستسلموا لهم، ولا تعينوهم على إخوانكم[1].

بهذا السرد الموجز يظهر لنا أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتوجيه، فقد وضع معالجاتٍ قيمةً لآثار الهزيمة، تصحُّ أن يؤلف منها المصنفات في علم الحروب العسكرية والسياسية، وضوابط تُنَظِّمُ الدول وتسوس الجند، وترعى الناس في الأزمات والنكبات.

موضوعات ذات صلة:

الثبات، الجهاد، الدفع، القتال، النصر، الوهن

(١) انظر: تيسير التفسير، القطان ١/ ٢٢٨.

الهم بالشيء

عناصر الموضوع

مفهوم الهم بالشيء	٢٠٠
الهم بالشيء في الاستعمال القرآني	٢٠١
الألفاظ ذات الصلة	٢٠٢
مجالاته وميادينه	٢٠٣
توابع الهم بالشيء و آثاره	٢٢٢

مفهوم الهم بالشيء

أولًا: المعنى اللغوي:

الهاء والميم: أصل صحيح يدل على ذوب وجريان ودبيب وما أشبه ذلك، ثم يقاس عليه، همني الشيء: أذابني، والهاموم: الشحم الكثير الإهالة، والهموم: البئر الكثيرة الماء، وأما الهم الذي هو الحزن فعندنا من هذا القياس؛ لأنه كأنه لشدته يهم، أي: يذيب، والهم: ما هممت به، وكذلك الهمة، ومهم الأمر: شديده، وأهمني: أقلقني، والهمام: الملك العظيم الهمة، والهميمة: المطرة الضعيفة، والهميمة: الريح اللينة، وهمم في رأسه، إذا جعل أصابعه في خلال شعره يجيء بها ويذهب لينام، والهميم: الدبيب[1].

الهم: الحزن والجمع الهموم، وأهمني الأمر، إذا أقلقك وحزنك، ويقال: همك ما أهمك، والمهم: الأمر الشديد، والهمة: واحدة الهمم، يقال: فلانٌ بعيد الهمة أيضًا بالفتح، وهممت بالشيء أهم هما، إذا أردته، ويقال: لا مهمة لي بالفتح، ولا همام، أي أهم بذلك ولا أفعله[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الهم: «هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل، من خير أو شر»[3].

وقيل: «الهم دواعي الإنسان إلى الفعل من خير أو شر»[4].

ويظهر أن الهم متعلق بالنية والإرادة قبل وقوع الفعل، فإن فعله كان حقيقة واقعة، وإن لم يفعله يبقى في دائرة النية والرغبة والإرادة.

فالمعنى الاصطلاحي راجع إلى أحد المعاني اللغوية وهو الإرادة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٣، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٨٩٢.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠٦١، مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٨.
(٣) التعريفات، الجرجاني، ص٢٥٧.
(٤) الكليات، الكفوي، ص٩٥٢.

الهم بالشيء في الاستعمال القرآني

ورد (الهم بالشيء) في القرآن الكريم(٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤]

وجاء الهم بالشيء في القرآن بمعناه في اللغة وهو: الإرادة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]. أي: أرادوا قتل الرسول وإخراجه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٧٣٨.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٤٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ القدرة:

القدرة لغة:

الطاقة والقوة على الشيء والتمكن منه، والغنى والثراء، يقال: رجل ذو قدرة ذو يسار وغنى [١].

القدرة اصطلاحًا:

الصفة التي تمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة[٢]، والقدرة: صفة تؤثر على قوة الإرادة» [٣].

الصلة بين الهم بالشيء والقدرة:

الهم: إجماع النفس على الأمر والإزماع عليه، وتحقيقه يكون بالقدرة وهي القوة على فعل الشيء، فقد يحصل الهم بالشيء ويتخلف حصوله لعدم القدرة على تحقيقه.

٢ العزم:

العزم لغة:

«عزم على الشيء: عقد ضميره على فعله، وعزم عزيمة: اجتهد وجد في أمره»[٤].

العزم اصطلاحًا:

«العزم: عقد القلب على إمضاء الأمر»[٥].

الصلة بين الهم بالشيء والعزم:

الهم: إجماع النفس على الأمر والإزماع عليه، والعزم: عقد القلب على إمضاء الأمر[٦].

وقيل: الهم: أقل من التصميم على الفعل وإرادة وقوعه، والعزم: تصميمٌ وإرادةٌ قويةٌ للفعل.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٤٠، مختار الصحاح، الرازي ص ٢٤٨، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٩٢.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٧٣، الكليات، الكفوي ص ١٠٨.

(٣) التعريفات، الجرجاني ص١٧٣.

(٤) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٠٨.

(٥) المفردات، الراغب ص٥٦٥.

(٦) الكليات، الكفوي، ص١٥٣٩.

مجالاته وميادينه

بين القرآن الكريم مجالات للهم بالشيء، منها الهم في القتال، وفي الأخلاق، وفي مجابهة الدعوة، والهم بإيذاء الرسل والدعاة، وسوف نتناول ذلك بالتوضيح فيما يأتي:

أولًا: الهم في ميادين القتال:

إن ساحات القتال من أعظم المواطن التي يظهر فيها صدق الصادقين؛ حيث تذهل النفوس، وتتطاير الرءوس، ولايثبت إلا أناسٌ يحبون الموت كما يحبون الحياة، فيبذلون مهجهم في سبيل الله في هذا الموطن تصاب بعض النفوس بعوارض نفسيةٍ شديدةٍ؛ من الخوف، والقلق، والهم بالفرار، أما الكافر والمنافق فما ثم إلا الظنون السيئة، وأما المؤمن فعلى قدر استعانته بالله يثبته الله، وفي يوم أحدٍ كان لطائفةٍ من المؤمنين شأنٌ، فأحدٌ -كما قال صاحب الظلال- لم تكن معركةً في الميدان وحده، إنما كانت معركةً كذلك في الضمير[1].

قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

والطائفتان: بنو سلمة وبنو حارثة، حيان من الأنصار، هموا بأمر فعصمهم الله من ذلك، وكان همهما الذي هما به من الفشل: الانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين؛ حين انصرف عنهم عبد الله بن أبي بن سلول بمن معه[2]. فأدى هذا الإنصراف إلى ضعف قلوب البعض، فراودت النفس بالفشل.

والفشل في البدن: الاعياء، وفي الحر: الجبن، والخور، وفي الرأي: العجز والفساد[3].

وهذا الهم إنما هو حركة قلب عند من السر عنده علانية، وقد علم ذلك منهم. فهل كان همهم بالفشل عزمًا على الرجوع عن لقاء المشركين يوم أحدٍ، وترك النبي صلى الله عليه وسلم جبنًا منهم، ثم لم يفعلا. أو كان همهم بالفشل مجرد حديث نفس خطر على أذهانهم؟

ظاهر الآية يدل على أن همهم هنا كان عزمًا على الفشل والترك. ولعل الصواب: أن الهم هنا دون العزم، فهو خاطرٌ قلبي، وحديث تردد في النفس، ولم يترجح ليصبح عزمًا على الفعل؛ بدليل قوله بعدها: ﴿وَاللَّهُ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٥٧.

(٢) انظر: العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر ٢/ ٧٤٢، جامع البيان، الطبري ٧/ ١٦٥.
والمراد بهذه الوقعة يوم أحد عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. أما ما ورد أنه يوم الأحزاب. فغريب لا يعول عليه. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٠٩.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٢٤.

﴿وَلِيُّهُمَا﴾ فولاية الله لهما دلالة على عدم وقوع العزم على ترك النبي صلى الله عليه وسلم إذ هو معصية.

قال الرازي: «الهم قد يراد به العزم، وقد يراد به الفكر، وقد يراد به حديث النفس، وقد يراد به ما يظهر من القول الدال على قوة العدو وكثرة عدده؛ لأن أي شيء ظهر من هذا الجنس صح أن يوصف من ظهر ذلك منه بأنه هم بأن يفشل من حيث ظهر منه ما يوجب ضعف القلب»[1].

ونحوه ذكر الشيخ الشنقيطي، بأن جعله كهم يوسف عليه السلام الذي هو خاطرٌ قلبيٌ صرفه عنه وازع التقوى؛ لأن قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يدل على أن ذلك الهم ليس معصيةً؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله لذلك العاصي إغراءٌ على المعصية. والعرب تطلق الهم وتريد به المحبة والشهوة[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا». وهذا الهم غير مؤاخذٍ به؛ إذ ليس بعزيمة، إنما هو ترجيح من غير عزم. ولا شك أن النفس عندما تلاقي الحروب ومن يجالدها يزيد عليها مثلين وأكثر، يلحقها بعض الضعف عن الملاقاة، ثم يوطنها صاحبها على القتال فتثبت وتستقر[3].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: ناصرهما على ذلك الهم الشيطاني، الذي لو صار عزمًا لكان سبب شقائهما، فلعناية الله بهما برأهما الله من فعل ما همتا به[4].

فهمهما في الآية على ما ذكر مجرد حديث نفس وخاطر قلبي، بالتراجع عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ دعاهم إليه الضعف والوهن، ثم دفعه المولى سبحانه عنهما بفضله وعنايته. كما يدلل هذا على أن الهموم تتفاوت؛ فبعضها أعظم من بعض، وهم الجبن والانصراف عن المعركة ليس كالهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي موقفٍ عظيم مهيب للمسلمين في صلاتهم، هم المشركون بالإغارة عليهم؛ إذ أنهم في موقف حرب -والحرب خدعةٌ- فعن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: (لما أراد الله عز وجل ما أراد بي من الخير قذف في قلبي الإسلام وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمدٍ، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمدًا سيظهر، فلما خرج رسول الله إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين، فلقيت رسول الله في أصحابه بعسفان فقمت بإزائه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٤٧.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٧.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٢٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٧٠.

وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا، وكانت فيه خيرةٌ، فأطلع على ما في أنفسنا من الهموم فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف فوقع ذلك منا موقعا وقلت: الرجل ممنوعٌ)[1].

فانتهى همهم هنا في صدورهم؛ إذ لم يتحقق عزمهم على الأمر أول مرة، ثم حمى الله عباده، بما شرع في الصلاة التي تليها -فلله الحمد من قبل ومن بعد- ثم كان وقوع هذا الأمر على مرأى من خالد بن الوليد، داعيته إلى الإسلام والإقبال على الدين.

وهاتان الواقعتان تربيان في المسلم عظمة خالقه سبحانه المطلع على خلجات النفوس؛ فيرتجف قلبه رهبةً مما حاك في صدره مما لايرضي الله، فيسعى للخلاص منه.

ثانيًا: الهم في ميادين الأخلاق:

إن تربية المسلم نفسه على الفضائل من أوجب ما يجب عليه، وهو مطالبٌ بتهذيبها وتزكيتها، وأن يجنبها مداخل الشيطان التي يلج منها. والدنيا قد تتزين للعبد، ولكونه خلق ضعيفًا فقد ترديه نفسه الأمارة بالسوء والشيطان والهوى في شباك المعصية وفي ظل غياب الرقيب -في نفسه- فلم يغب الرقيب الأعلى سبحانه إنما غاب الإيمان في قلبه حين هم بمعصية الله، وفي قصر العزيز يقص الله علينا أحداث ذلك الهم وما آل إليه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

همت امرأة العزيز بالمعصية همًا مؤكدًا محققًا، أما هم يوسف عليه السلام فاختلف فيه المفسرون. ولئن عد البعض هذه المسألة شائكة واختلفت فيها الأقوال فإنه يتوقف ولا يخوض غمارها؛ لذا فإنني أفتتحها بذكر أقوال المفسرين حول هم يوسف عليه السلام؛ لتتبين المسألة بجلاء لمن لا يعرفها. وهذه الأقوال هي:

- أنه هم بها أن يضربها حين راودته عن نفسه ولم يهم بمواقعتها.
- أن قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ كلامٌ تامٌ قد انتهى، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف، فقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ومعنى الكلام: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها[2]. وحكم الطبري بفساده،

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ذكر إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه. ٢/ ٣٣. وانظر: أسباب النزول، الواحدي ص ١٢٠، المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ١/ ٤٣٧.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٤.

فقال: «يفسد هذا القول أن العرب لا تقدم جواب ﴿لَوْلَآ﴾ قبلها، لا تقول: (لقد قمت لولا زيد)، وهي تريد: (لولا زيد لقد قمت)، هذا مع خلافهما جميع أهل العلم بتأويل القرآن، الذين عنهم يؤخذ تأويله»[1].

- هم يوسف بالمرأة، ولكن همه بها لم يكن عزمًا وإرادةً، وإنما كان تمييلًا[2] بين الفعل والترك، ولا حرج في حديث النفس إذا لم يقترن به عزمٌ ولا فعلٌ، وأصل الهم: حديث النفس حتى يظهر، فيصير فعلًا[3].
- أنه هم بمواقعتها وعزم عليه[4]. وأن ابن عباس، سئل عن هم يوسف ما بلغ؟ فقال: «حل الهميان، وجلس منها مجلس الخائن»[5].
- أنه لم يقع منه همٌّ بها ألبتة[6].

وظاهر الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه السلام هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه. والقرآن العظيم بين براءته -عليه الصلاة والسلام- من الوقوع فيما لا ينبغي. وتأويل هم يوسف بأنه قارب الهم ولم يهم بالفعل؛ كقول العرب: قتلته لو لم أخف الله. أي: قاربت أن أقتله. وتأويل الهم بأنه هم بضربها، أو هم بدفعها عن نفسه؛ فكل ذلك غير ظاهرٍ، بل بعيدٌ من الظاهر ولا دليل عليه[7].

والقول الراجح في بيان همه عليه السلام على ما وجه أهل العلم؛ من وجهين:

الوجه الأول: إن المراد بهم يوسف بها خاطرٌ قلبي صرفه عنه وازع التقوى، وقال بعضهم: هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لامعصية فيه؛ لأنه أمرٌ جبلي لا يتعلق به التكليف؛ كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك)[8] يعني: ميل القلب الطبيعي.

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٩.
(٢) التمييل بين الشيئين: كالترجيح بينهما. وفي حديث أبي ذر: «دخل عليه رجل فقرب إليه طعامًا فيه قلة فميل فيه لقلته، فقال أبو ذر: إنما أخاف كثرته ولم أخف قلته». ميل أي: تردد هل يأكل أو يترك، تقول العرب: إني لأميل بين ذينك الأمرين، و أمايل بينهما أيهما آتي. انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٣٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٦٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٩.
(٦) البحر المحيط ٦/ ٢٥٧.
(٧) أضواء البيان ٢/ ٢٠٥.
(٨) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، رقم ١١٤٠، ٣/ ٤٤٦، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم ٢١٣٦، ٢/ ٢٠٨، والنسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، رقم ٣٩٤٣، ٧/ ٦٣، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، رقم ١٩٧١، ٣/ ١٤٤، وأحمد في مسنده رقم ٢٥١١١، ٤٢/ ٤٦.

ومثال هذا: ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة)[1]؛ لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفًا من الله، وامتثالًا لأمره؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١][2].

قال شيخ الإسلام: «وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فالهم: اسم جنس تحته نوعان، كما قال الإمام أحمد: الهم همان: هم خطراتٍ وهم إصرار. وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له سيئةٌ واحدةٌ، وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة. ويوسف صلى الله عليه وسلم هم همًا تركه لله؛ ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله، فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنةٌ يثاب عليها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]»[3].

الوجه الثاني: وهو اختيار أبي حيان: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ أصلًا، بل هو منفيٌّ عنه لوجود البرهان.

قال أبو حيان: «طول المفسرون في تفسير هذين الهمين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق. والذي أختاره: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ بها ألبتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا تقول: إن جواب (لولا) متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلفٌ في جواز تقديم أجوبتها عليها. وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو زيد الأنصاري، وأبو العباس المبرد. بل نقول: إن جواب (لولا) محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه؛ كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالمٌ إن فعلت. فيقدرونه: إن فعلت فأنت ظالم. ولا يدل قوله: أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير

والحديث معلول بالإرسال.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم ٦١٢٦، ٥/ ٢٣٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، رقم ١٨٧، ١/ ٣٢٣.

(٢) أضواء البيان ٢/ ٢٠٥.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٢٦٢.

وجود الفعل. وكذلك هنا التقدير: (لولا أن رأى برهان ربه لهم بها)، فوجود الهم معلقٌ على تقدير انتفاء رؤية البرهان، فلما وجد البرهان انتفى الهم -إلى أن قال ردًا على ابن عطية-: أما قوله: يرده لسان العرب. فليس كما ذكر. وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب، قال الله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

فقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ إما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل، وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به. وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحدٍ منهم شيء من ذلك؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضا، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين؛ فضلا عن المقطوع لهم بالعصمة»[(١)].

وذكر أهل العلم القائلين بذلك دلائل عدة تبين نفي الهم عن يوسف عليه السلام، منها:

١. أن يوسف لم يقع منه الذنب، وإلا لكان استغفر بعده وذكر في الآية.

فإن الله ذكر عن أنبيائه عليهم السلام استغفارهم ورجوعهم فور الذنب أو فعل خلاف الأولى، فلما لم يذكر دل على عدم وقوع مالا يليق منه ولو يسيرًا، بل إن ما حصل منه حسنة تئول إلى الثواب، وتوجب المدح؛ إذ كف نفسه ابتغاء وجه الله فتركها من خشيته.

قال شيخ الإسلام: «وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنبًا؛ فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار، بل قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوءٌ ولا فحشاء»[(٢)].

٢. أن الله عز وجل ذكر أنه صرف عنه السوء.

فقال في ختام الآية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ ذكر أنه من المخلصين، وهي إما بكسر اللام، أي: الذين أخلصوا طاعة الله. أو بفتح اللام، أي: الذين أخلصهم الله لرسالته، فكيف يكون موصوفا بهاتين الصفتين، وفيه همٌ أو ميلٌ للسوء؟!

قال الرازي: «فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئًا من السوء مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء. وأيضًا فالآية تدل على قولنا من

(١) انظر: البحر المحيط ٦/ ٢٥٧.

(٢) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٥/ ٢٦٢.

وجه آخر؛ وذلك لأنا نقول: هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه، إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم»[1].

٣. أن القرآن أكد همها.

فقد أكد الفعل بـ (قد، ولام القسم)؛ ليفيد أنها عزمت عزمًا محققًا، و كانت جادةً فيما راودته لا مختبرةً. والمقصود من ذكر همها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همه بها؛ لبيان الفرق بين حاليهما في الدين؛ فإنه معصوم[2]. فتأكيد همها وتقديمه دلالة على الفارق الكبير بينهما، فقد عزمت، وهو لم يهم أصلًا.

٤. أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

ومن له تعلقٌ بهذه الواقعة: يوسف عليه السلام وتلك المرأة وزوجها، والنسوة، والشهود، ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته أيضًا عن المعصية[3]. ولا شهادة بعد شهادة القرآن ببراءته عليه الصلاة والسلام.

(١) مفاتيح الغيب ١٨/ ٤٤٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٢.
(٣) مفاتيح الغيب ١٨/ ٤٤٠.

وبهذين الجوابين نعلم أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بريء من الوقوع فيما لا ينبغي، وأنه إما أن يكون لم يقع منه همٌّ أصلًا بناءً على أن الهم معلق بأداة الامتناع التي هي (لولا) على انتفاء رؤية البرهان، وقد رأى البرهان فانتفى المعلق عليه، وبانتفائه ينتفي المعلق الذي هو همه بها. كما تقدم إيضاحه في كلام أبي حيان.

وإما أن يكون همه خاطرًا قلبيًا صرفه عنه وازع التقوى، أو هو الشهوة والميل الغريزي المزموم بالتقوى. كما سبق[4].

أما توجيه الروايات الواردة في ذلك، فقد نقل الألوسي في تفسيره عن الطيبي قوله -بعد أن اختار أن الهم هنا-: «همٌّ عارض، وهو: الخطرة وحديث النفس من غير اختيارٍ ولا عزمٍ فقال: إن هذا التفسير هو الذي يجب أنْ نذهب إليه ونتخذه مذهبًا، وإن نقل المفسرون ما نقلوا؛ لأن متابعة النص القاطع، وبراءة المعصوم عن تلك الرذيلة، وإحالة التقصير على الرواة أولى بالمصير إليه، على أن أساطين النقل المتقنين لم يرووا في ذلك شيئًا مرفوعًا في كتبهم، وجل تلك الروايات -بل كلها- مأخوذٌ من مسألة أهل الكتاب».

نعم قد صحح الحاكم بعضًا من الروايات التي استند إليها من نسب تلك الشنيعة إليه

(٤) انظر: أضواء البيان ٢/ ٢١٤.

عليه السلام، لكن تصحيح الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار عند ذوي الاعتبار»[1].

والذي أميل إليه وأؤيده أنه عليه السلام لم يهم بها ألبتة؛ فرؤيته برهان ربه صرف عنه الهم بالسوء، وكيف لا يحفظ الله عبدًا خصه لرسالته من الهموم والخواطر الرديئة! وهو الولي الحفيظ، اللطيف الخبير سبحانه.

نلحظ أن الباعث لامرأة العزيز على الهم بهذه المعصية هو المحبة؛ فالشهوات مزلقٌ خطيرٌ ينبغي أن يزم بزمام التقوى، وإلا عاش المرء حياته كالمخمور بسكرة الهوى، لايرى إلا شهوته. ومايلبث أن يفيق حتى يرجع.

والهم في ميدان الأخلاق يشمل كذلك: الآداب والفضائل التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن ويكون عليها؛ ليرتقي بأخلاقه، فينمي في نفسه كل هم يدعوه إلى السمو للمعالي وإن لم يكن واجبًا، ويحاول التخلص من كل هم يسقط همته، ويزري بها، وإن لم يكن حرامًا. وذكر عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله: «والله لو علمت أن الماء البارد يثلم من مروءتي، ما شربته إلا حارًا»[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلةً، فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء. قلنا: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبي صلى الله عليه وسلم)[3].

فجعل رضي الله عنه همه للقعود وتحديث نفسه بذلك أمرًا سوءًا؛ لكونه مخالفًا للأدب معه صلى الله عليه وسلم.

مع كون ذلك جائز منه -كما اتفق العلماء- سواء في فريضة أو نافلة[4].

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٤٠٧.
وقال العلامة الشنقيطي «هذه الأقوال التي نسبت إلى العلماء منقسمة إلى قسمين:
١. قسمٌ لم يثبت نقله عمن نقله عنه بسند صحيح. وهذا لا إشكال في سقوطه.
٢. وقسم ثبت عن بعض من ذكر، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك. فالظاهر الغالب على الظن المزاحم لليقين: أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات، لأنه لا مجال للرأي فيه، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه صلى الله عليه وسلم.
وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف بأنه جلس بين رجلي كافرة أجنبية، يريد أن يزني بها، اعتمادًا على مثل هذه الروايات، مع أن في الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب، كقصة الكف التي خرجت له أربع مرات، وفي ثلاث منهن لا يبالي بها، لأن ذلك على فرض صحته فيه أكبر زاجر لعوام الفساق، فما ظنك بخيار الأنبياء؟! مع ما تقدم من دلالة القرآن على براءته من جهات متعددة».
انظر: أضواء البيان ٢/ ٢١٥.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي ٢/ ٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل، رقم ١٠٨٤، ١/ ٣٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم ١٨٥١، ٢/ ١٨٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ٣/ ١٢٤.

فمن أدبه لنفسه رضي الله عنه وسعيه للكمال لم يدع النبي صلى الله عليه وسلم ويجلس، رغم المشقة التي لحقته، وهكذا يأخذ المؤمن نفسه بكل مكرمة ترقيه عند الله عز وجل.

ثالثًا: الهم في مجابهة الدعوة:

اتخذ أعداء الله لمجابهة الدعوة طرقًا وأساليب يصدون بها عن سبيل الله، فتارةً يوجهون طعنهم لحامل الرسالة، وتارةً يطعنون فيما جاء به، وتارةً يقترحون الآيات، ويتعنتون في السؤالات، ويؤلبون الأعداء، ويحاولون ترويج الباطل على النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه ما اسطاعوا إلى ذلك سبيل، والله متفضل على رسوله من الوقوع في حبائلهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

فقد كشفت الآية لرسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر؛ ليقوم ميزان العدل. ويأبى الله إلا أن يحق الحق ويبطل الباطل، فهذه الآية نزلت في طعمة بن أبيرق[١]، واختلف في سبب نزولها فيه: فقال الحسن: إنه كان سرق درعًا وطعامًا فأنكره، واتهم غيره وألقاه في منزله، وأعانه قوم من الأنصار. وخاصم النبي صلى الله عليه وسلم عنه أو هم بذلك، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ [النساء: ١١٢].

يعني: الذي اتهمه السارق وألقى عليه السرقة[٢].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النساء: ١١٣]. أي: لولا أن الله تفضل عليك يا محمد، فعصمك بتوفيقه وتبيانه لك أمر هذا الخائن، فكففت لذلك عن الجدال عنه، ومدافعة أهل الحق عن حقهم قبله ﴿لَهَمَّت﴾ فرقة منهم، أن يزلوك عن طريق الحق؛ وذلك لتلبيسهم أمر الخائن عليه صلى الله عليه وسلم، وشهادتهم للخائن عنده

(١) طعمة بن أبيرق بن عمرو الأنصاري ذكره أبو إسحاق المستملي في الصحابة وقال: «شهد المشاهد كلها إلا بدرًا». وقد تكلم في إيمان طعمة.
انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ٣/ ٥١٨.

(٢) مع اختلاف المفسرين في سبب النزول إلا أنهم متفقون على أنها في سارق بني أبيرق، وأخرج الترمذي القصة مطولة في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، رقم ٣٠٣٦، ٥/ ٢٤٤.
وقال الدكتور خالد المزيني في المحرر في أسباب نزول القرآن ١/ ٤٤٤: وكونها سببا لنزول الآيات، فالسبب المذكور في نزولها معلول بالإرسال، ولعله يتأيد بموافقته للسياق القرآني، واعتماد المفسرين عليه في نزول الآيات والله أعلم.

بأنه بريء مما ادعي عليه، ومسألتهم إياه أن يعذره، وما يضل هؤلاء إلا أنفسهم[1].

وقيل: ﴿هَمَّت﴾ معناه: لجعلته همها وشغلها حتى تنفذه، والمعنى: ولولا عصمة الله لك لكان في الناس من يشتغل بإضلالك ويجعله هم نفسه، كما فعل هؤلاء، لكن العصمة تبطل كيدهم[2].

والظاهر أن الهم هنا بمعنى: العزم على إضلاله عن الحق في هذه الواقعة؛ لعلمهم أنه سارق، ثم هم يجادلون عنه، ويطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم ذلك. فقد قيل: إن قوم طعمة كانوا قد عرفوا أنه سارق، ثم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يدفع ويجادل عنه، وينسب السرقة إلى اليهودي، فتعاونوا على الإثم والعدوان[3].

وحتى على فرض أنهم لم يكونوا يعلمون، بل قالوا ذلك ظنًا منهم أنه لم يسرق[4] فحينها سيكون عزمهم أشد، وطلبهم من النبي صلى الله عليه وسلم المدافعة عنه أقوى وأكثر؛ جهلًا منهم بحقيقته.

فتبين أن همهم هنا عزمٌ مؤكد منهم، سواء من علم، أو من لم يعلم منهم أنه سرق، فكان كما قال ابن عطية: «معصيةٌ من مؤمنيهم، وخلقٌ مقصود من منافقيهم، عصم الله رسوله منه»[5].

رابعًا: الهم بإيذاء الرسل والدعاة:

من عناية الله بخلقه أن أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ لئلا يكون للناس حجةٌ؛ فسعوا في الأرض ينشرون دينه، لا يرجون أجرًا ولا يتطلعون لدنيا. ومع ذلك نجد من طبع الله على قلبه سخر وقته للنيل منهم، فآذوهم، وطردوهم، ونقضوا عهودهم، وأغروا بهم سفهاءهم، ومن لم يستطع منهم ذلك فإنه لم يأل جهده في العزم عليه، والسعي له، والفرح به إن تحقق، ومن منة الله على عباده: حفظهم من كيد أعدائهم وهمهم السيء بهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

اختلف المفسرون في سبب نزول الآية وأشهر ما ذكر: «أن رجلًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجلين من بني سلم وبين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قومهما موادعة، فجاء قومهما يطلبون الدية فأتى النبي صلى الله عليه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٩٩.
(٢) البحر المحيط ٤/ ٦١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ١١/ ٢١٦.
(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٦٦.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٩٣.

وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف -رضوان الله عليهم أجمعين-، فدخلوا على كعب بن الأشرف[١] وبني النضير يستعينهم في عقلهما، فقالوا: يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجةً، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس هو وأصحابه، فجاء بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لم تجدوا محمدًا أقرب منه الآن، فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرةً، فيريحنا منه؟ فقال عمر بن جحاش بن كعب[٢]: أنا، فجاء إلى رحًى عظيمة ليطرحها عليه، فأمسك الله تعالى يده، وجاء جبريل عليه السلام وأخبره بذلك، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله تعالى هذه الآية»[٣].

وورد أيضًا عن جابر رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل منزلًا وتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها، فعلق النبي صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذه فسله، ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: من يمنعك مني؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (الله)، فشام[٤] الأعرابي السيف، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالسٌ إلى جنبه لم يعاقبه)[٥].

وقصة هذا الأعرابي -وهو غورث بن الحارث- ثابتة في الصحيح[٦].

وجعل الطبري القول الأول أولى الأقوال

(١) كعب بن الأشرف الطائي، من بني نبهان: شاعر جاهلي. كانت أمه من بني النضير فدان باليهودية، وكان سيدًا في أخواله. أكثر من هجو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم. أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، فانطلق إليه خمسة من الأنصار فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه إلى المدينة.
انظر: الأعلام، الزركلي ٥/ ٢٢٥.

(٢) عمرو بن جحاش بن كعب بن بسيل النضري، أخو بني النضير.
انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ٥٧.

(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص١٢٩، جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠١.

(٤) الشين والياء والميم: أصلان متباينان، وكأنهما من باب الأضداد إذ أحدهما يدل على الإظهار، والآخر يدل على خلافه. تقول: شمت السيف، إذا سللته. وشمت السيف، إذا قربته.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٣٦.

(٥) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص١٢٩، جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠٦.

(٦) غورث بن الحارث الذي قال: من يمنعك مني؟ قال: الله. فوضع السيف من يده. ذكر بعضهم أنه أسلم، والصحيح أنه لم يسلم كما قال ابن حجر في الإصابة.
انظر: الإصابة، ابن حجر ٥/ ٣٢٨.
وقصته أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، رقم ٣٩٠٥، ٤/ ١٥١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له من الناس، رقم ٨٤٣، ٤/ ١٧٨٤.

بالصحة[1].

بينما رد ابن عاشور ذلك، وذكر أن المراد: «قومٌ يعرفهم المسلمون يومئذ؛ فيتعين أن تكون إشارة إلى واقعة مشهورة أو قريبة من تاريخ نزول هذه السورة»[2].

وأيًا كان سبب نزول الآية ومن المراد بها، ففيها تذكير بنعمته تعالى لما قصد قوم وهموا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم، أو قتل المسلمين، أو أن ينالوهم بشرٍ، فمنعهم الله، وحفظ عباده المؤمنين.

والهم هنا قيل إنه: حديث النفس بالفعل، ويقال: أهم بالشيء واهتم به، إذا عني به[3].

والذي يظهر لي أنهم قد حدثوا أنفسهم بالتخلص من النبي صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين، ولكن لم يقف همهم عند هذا الحد من إضمار الغدر بالنبي صلى الله عليه وسلم في أنفسهم، بل إنهم عزموا على التخلص منه والفتك به عزمًا جازمًا، في محاولة بيتوا فيها الغدر والخيانة؛ إذ لم يقدروا على ذلك علانية. فأظهر الله مكرهم وأبطل كيدهم وحمى أهل طاعته.

والتعبير ببسط اليد يوحي بذلك، فبسط اليد مجاز في البطش.

قال تعالى: ﴿وَبَسَطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢].

كما أن كف اليد مجاز عن الإعراض عن السوء خاصة.

قال تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ [الفتح: ٢٠][4].

فالهم هنا بمعنى العزم المؤكد على إيقاع السوء به صلى الله عليه وسلم. وظاهر الآية والسنة الصحيحة الصريحة يدلل على ذلك.

وهؤلاء قومٌ ديدنهم الخيانة والغدر والفتك بالداعين إلى الله، فأصبح لا يجدي معهم إلا أن تستأصل شأفتهم، ويقطع دابرهم. يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله، حاضًا لهم على جهاد أعدائهم من المشركين: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

ألا تقاتلون هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد الذي بينكم وبينهم، وطعنوا في دينكم، وظاهروا عليكم أعداءكم، وهموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم فأخرجوه[5].

ولقتالهم ثلاثة أسباب يوجبه كل واحد منها بانفراده فكيف بها مجموعة؟!

وهي:

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٦/ ١٣٧.
(٣) تفسير السمعاني ٢/ ١٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٦/ ١٣٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٥٨.

١. نكثهم العهد؛ حيث نكث كفار مكة أيمانهم بعد عهد الحديبية، وأعانوا بني بكر على خزاعة.

٢. همهم بإخراج الرسول؛ فإن هذا من آكد ما يجب القتال لأجله. سواءً إخراجه من مكة حين هاجر، أو من المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والاجتماع على قصده بالقتل. أو هموا بإخراجه من حيث أقدموا على ما يدعوه إلى الخروج وهو نقض العهد، وإعانة أعدائه، فأضيف الإخراج إليهم توسعًا لما وقع منهم من الأمور الداعية إليه. وقوله: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ إما بالفعل وإما بالعزم عليه، وإن لم يوجد ذلك الفعل بتمامه.

٣. قوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إما بالقتال يوم بدر؛ لأنهم حين سلم العير قالوا: لا ننصرف حتى نستأصل محمدًا ومن معه. أو أراد أنهم قاتلوا حلفاء خزاعة فبدءوا بنقض العهد -على قول الأكثرين- وإنما قال: ﴿بَدَءُوكُمْ﴾ تنبيهًا على أن البادئ أظلم[1].

والتحضيض معناه: الطلب بحثٍ وشدةٍ. والمعنى: إن الله هنا طلب منهم بحثٍ وشدة أن يقاتلوا هؤلاء الكفرة أئمة الكفر[2].

فجعل همهم بإيذاء الرسل والداعين إلى الله، من آكد الأسباب التي تستوجب قتالهم وقطع دابرهم، سواء وقع ذلك منهم بالفعل، أو لم يقع، وظاهره أن همهم هنا بمعنى العزم، فقد دلت آيات أخر على حرصهم على ذلك كل الحرص، وسعيهم إليه بكل سبيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال أيضًا: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

ثم إنه بعد هذا الحث أمر بقتالهم صراحة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

وفي الآية السابقة تهديد للكفار والمنافقين وإنذارٌ لهم، وفي الآية التالية يدعوهم إلى التوبة؛ فقد تردى حالهم من الاستهزاء بالله ورسوله، وإضمار النفاق، والأيمان الكاذبة، والهم بالسوء.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ

(١) مفاتيح الغيب ١٥/ ٥٣٥.

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥/ ٣٠٧.

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ۖ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

فقد كان المنافقون إذا خلا بعضهم إلى بعض سبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فنقل ذلك له، فلما كلمهم حلفوا ما قالوا شيئًا من ذلك، فأنزل الله الآية إكذابًا لهم.

وقيل في سبب نزولها أيضًا: «اقتتل رجلان؛ رجل من جهينة ورجل من غفار، فظهر الغفاري، فنادى ابن أبي: يا بني الأوس انصروا أخاكم، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، فوالله ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

فسمع بها رجل من المسلمين، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فأرسل إليه، فحلف بالله ما قال، وأنزل الله الآية»[(١)].

وقيل: «كان الجلاس بن سويد[(٢)] ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك وقال: لئن كان هذا الرجل صادقًا لنحن شر من الحمير، فرفع عمير بن سعيد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف ما قلت، فأنزل الله الآية»[(٣)].

والأقوال تدل على أن المنافقين حلفوا كذبًا على كلمة كفر تكلموا بها أنهم لم يقولوها أيًا كانت هذه الكلمة من إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين أو الطعن في دينهم وعن من صدرت من المنافقين.

ثم ترتب على ذلك أن هموا بأمر، وثم دسيسة سوء بيتوها، ففضحهم الله عز وجل. فقيل: هم المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم: لنحن شرٌّ من الحمير؛ لكي لا يفشيه.

وقيل: قالوا إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي تاجًا، فلم يصلوا إليه[(٤)].

وربما كان همهم بأمر آخر لاعلاقة له بما وقع عليه الحلف، وفيه إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث إن هذه الروايات كما قال صاحب الظلال: «لا تنسجم مع قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]»[(٥)].

وورد في سبب نزولها: هموا أن يدفعوا

(١) أسباب النزول، الواحدي ص ١٦٩.

(٢) الجلاس بن سويد بن الصامت من بني حبيب ابن عمرو بن عوف، كان متهما بالنفاق، وهو ربيب عمير بن سعد زوج أمه، وهو ممن تخلف من المنافقين في غزوة تبوك، وكان يثبط الناس عن الخروج. نزل فيه قرآن، وقيل: «إنه تاب بعد ذلك وحسنت توبته».

انظر: الإكمال، ابن ماكولا ٣/ ١٧٠، الوافي بالوفيات، الصفدي ١١/ ١٣٧.

(٣) لباب النقول، السيوطي ص ١١٥.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٧٥.

(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٧.

ليلة العقبة، وكانوا قومًا قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم معه يلتمسون غرته حتى أخذ في عقبة، فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم، وذلك كان ليلًا قالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي، وكان قائده في تلك الليلة عمار بن ياسر وسائقه حذيفة، فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل، فالتفت فإذا هو بقوم متلثمين، فقال: إليكم يا أعداء الله فأمسكوا، ومضى النبي عليه الصلاة والسلام حتى نزل منزله الذي أراد، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾[1]. فهذه الواقعة تصور ما بيتوه مستخفين فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأطلعه عليه من علم السرائر جل وعلا.

وهمهم لقتل النبي صلى الله عليه وسلم أو إخراجه من المدينة، أو قتل رجل من المسلمين، وإن لم ينالوه، فهو همٌّ محقق بمعنى العزم دل عليه ظاهر الآية.

والدلالة نفسها تحملها آية غافر في بيان حال أعداء الله مع رسل الله، وما هموا به من أمور تستوجب قتالهم وأخذ الله لهم بجريرة مافعلوا.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

فلم يكتفوا بالتكذيب والاستكبار والتجبر في الأرض بغير الحق، حتى وجهوا سهامهم ليبطشوا برسلهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾[غافر: ٥].

أي: ليحبسوه ويعذبوه، وقيل: ليقتلوه. والأخذ يرد بمعنى الإهلاك، كقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤][2].

واختير هذا الفعل (الأخذ) هنا ليشمل مختلف ما همت به كل أمةٍ برسولها من قتل أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والمعنى: إن الأمم السابقة من الكفرة لم يقتصروا على تكذيب الرسول، بل تجاوزوا ذلك إلى غاية الأذى من الهم بالقتل كما حكى الله عن ثمود: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

وقد تآمر كفار قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة دار الندوة ليقتلوه، بأن يتجمع نفر من جميع عشائرهم فيضربوه بالسيوف ضربة رجل واحد؛ كي لا يستطيع

(١) أسباب النزول، الواحدي ص ١٦٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٩٣.

أولياؤه من بني هاشم الأخذ بثأره[1]. وقد حرصوا على قتله بكل ممكن، ومن الأمم من قتل رسوله[2].

فأخذ الله الأمم عقوبة لهم على همهم برسلهم فأهلكهم واستأصلهم. وتفريع قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ على قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ إنذار المشركين أن همهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم هو منتهى أمد الإمهال لهم، فإذا صمموا العزم على ذلك أخذهم الله كما أخذ الأمم المكذبة قبلهم، حين همت كل أمة برسولهم ليأخذوه، فإن قريشًا لما هموا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم أنجاه الله منهم بالهجرة ثم أمكنه من نواصيهم يوم بدر[3].

فالهم الواقع من أعداء الله لأوليائه من الرسل والدعاة، لا ريب أنه عزمٌ منهم على الأخذ، تعذيبًا وقتلًا ونحوه.

خامسًا: الاشتغال والعناية بالنفس الداعية للهم:

المؤمن الحق يرخص روحه في سبيل نصرة دين الله وحماية رسوله، أما المنافق فهمه نفسه وحمايتها؛ سلم غيره أم لا فمن همه بنفسه اشتعل صدره خوفًا وقلقًا لتخليصها كيفما اتفق. وفي ميدان (أحد) حيث القتال والهزيمة والفرار، يمحص الله بابتلاءاته القلوب، فيطفو النفاق جليًا على بعض النفوس الظآنة ظن الجاهلية، ويحملها على لوم النفس -لما هي هاهنا- حتى حل الفزع منها محل النوم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

يقص الله عز وجل في الآية أحداث ماجرى، حيث أنزل على المؤمنين من بعد الغم الذي أصابهم أمنةً؛ وهي الأمان على أهل الإخلاص منهم واليقين، دون أهل النفاق والشك.

وهذه الأمنة التي أنزلها عليهم، هي النعاس وطائفة قد أهمتهم أنفسهم -وهم المنافقون- لا هم لهم غير أنفسهم، فهم من حذر القتل على أنفسهم، وخوف المنية عليها في شغل، قد طار عن أعينهم الكرى، يظنون بالله الظنون الكاذبة، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكًا في أمر الله،

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٨٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٢٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٤/ ٨٥.

وتكذيبًا لنبيه صلى الله عليه وسلم، ومحسبةً منهم أن الله خاذل نبيه[1].

ومعنى ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ حملتهم على الهم، يقال: أهمني الشيء أي: كان من همي، وأهمني الأمر: أقلقني[2]. فكان همهم خلاص أنفسهم، فهم أصلًا لم يحضروا إلا لطلب الغنيمة[3].

وقد حدثتهم أنفسهم بما أدخل عليهم الهم؛ وذلك لعدم رضاهم بقدر الله، وبشدة تلهفهم على ما أصابهم، وتحسرهم على ما فاتهم مما يظنونه منجيًا لهم لو عملوه: أي من الندم على ما فات، وإذ كانوا كذلك كانت نفوسهم في اضطراب وتحرق يمنعهم من الاطمئنان ومن المنام، وهذا كقوله الآتي: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦][4]. والإنسان إذا اشتد اشتغاله بالشيء واستغراقه فيه، صار غافلًا عما سواه، فلما كان أحب الأشياء إلى الإنسان نفسه، فعند الخوف على النفس يصير ذاهلًا عن كل ما سواها، فهذا هو المراد من قوله: ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[5].

وقيل معنى ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾: أدخلت عليهم الهم بالكفر والارتداد[6]. فهو من هم بالشيء أراد فعله. والمعنى: أهمتهم أنفسهم المكاشفة ونبذ الدين، وهذا على قول من قال: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول[7].

فالهم هنا إما أن يكون بمعنى اشتغال النفس بالشيء اشتغالًا يحملهم على الهم، وإما أن يكون أهمتهم بمعنى حملتهم ودعتهم للردة عن الدين. وكلا المعنيين وارد، ولا تعارض بينهما، فقد يكون وقع منهم هذا وذاك، وقد يكون همهم بالارتداد دعاهم إليه انشغالهم بأنفسهم وقلقهم على خلاصها، فتكون الردة سبيل خلاصهم على حسب ظنهم السيئ.

ولعل في معنى ما ورد بعده: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ ما يشير إلى القول الثاني، فإن كان معنى هذا القول -ما لنا من الأمر- استفهام إنكاري[8] أي: مالنا من النصر والظهور شيء، فيكونوا أساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وأن الله لا يتم أمر رسوله، وهذه الهزيمة هي القاضية على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣١٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٤١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٩/ ٣٩٣.
(٤) التحرير والتنوير ٤/ ١٣٤.
(٥) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٩٣.
(٦) التحرير والتنوير ٤/ ١٣٤.
(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٨، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٩٢.
(٨) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٣. وقيل: استفهامٌ معناه الجحد تقديره: ما لنا من الأمر من شيء. قال الحسن: «قالوا لو كان الأمر إلينا ما خرجنا، وإنما أخرجنا كرهًا». انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٨١.

دينه، فما من محيص سوى الردة عنه.

وقولهم هذا إنكار منهم، وتكذيبٌ بقدر الله، وتسفيهٌ منهم لرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم؛ فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ فالأسباب -وإن عظمت- إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا، بل لابد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة[1].

وإن كنت أميل كما أشرت آنفًا أن كلا المعنيين وارد، ولا تعارض بينهما.

وهذه العقيدة تعلم أصحابها -فيما تعلم- أن ليس لهم في أنفسهم شيء، فهم كلهم لله، وأنهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له، ويتحركون له، ويقاتلون له، بلا هدفٍ آخر لذواتهم في هذا الجهاد، وأنهم يسلمون أنفسهم لقدره، فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم، كائنًا هذا القدر ما يكون. فأما الذين تهمهم أنفسهم، وتصبح محور تفكيرهم وتقديرهم، ومحور اهتمامهم وانشغالهم فهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الإيمان[2].

وهم الاشتغال بالنفس، الداعي إلى الغم والحزن، الغالب فيه هو خوف الموت وانتهاء الحياة، أو يكون داعيه الخوف من المستقبل وماسيحصل له، وقد عالجت الآيات ذلك، فالموت لا مفر منه قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد حدد الله الآجل والأعمار، من لم يمت بالسيف مات بغيره. فلابد من تفويض الأمر لله سبحانه الذي بيده كل شيء.

أما ما يحصل للمؤمن في هذه الحياة من الهم والغم الذي هو سنة ربانية لاينفك عنها عبد، فليس المطلوب منه محاربة ذلك، وإنما تجنب أسباب الوقوع فيه، فإذا وقع داواه بكثرة ذكر الله، فبذكر الله تطمئن القلوب المضطربة، وتسكن النفوس القلقة قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وأعظم ذكر تنشرح به الصدور قراءة كلامه عز وجل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولما ضاق صدر النبي صلى الله عليه وسلم بما يقوله المشركون أمره الله بذكره.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٥٣.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٩٦.

صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

كذلك الدعاء بأن يجنبه الله أسباب الهموم، ففي الحديث: عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال)[1].

والتفطن لحال الدنيا، وأنها مهما عظمت لذتها فانية، وأن كدرها مهما طال فزائل، فليعلل نفسه من طال ليل همه، بأن الصبح قريب.

وفي ختام هذه السطور يتضح من خلال ما تقدم أن القرآن الكريم تفرد في استعمال الهم بالشيء في معرض الذم في المجالات جميعها؛ ولعل ذلك -والله أعلم- لأن الإنسان حريص كل الحرص على إخفاء النوايا والهموم والخواطر السيئة، أما نيته وهمه بالخير فلا يحرص على إخفائه -وإن كان يبطنه مرات- ولكن ليس بدافع الحرج منه، والخوف من إظهاره. فجاءت الآيات مبينةً لهذا الهم السيئ الخفي؛ فضحًا للكافرين، وليتداركه المؤمنون، مستشعرين فضل الله عليهم وولايته لهم في ذلك.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن والكسل، رقم ٦٠٠٨، ٥/ ٢٣٤٢.

وورد الهم في الحديث على حدٍ سواء في معرض المدح والذم كما هو في اللغة.

كذلك غلب استعمال الهم بالشيء في القرآن بمعنى العزم. فالسياقات الواردة غالبها دلالة الهم بالشيء فيه تتوجه إلى العزم على الفعل، دون حديث النفس أومجرد الفكر وخطورته في القلب، ودون اشتغال النفس بالشيء اشتغالًا يحملها على الهم والقلق؛ ولعل القصد -والعلم عند الله- لأنها جميعًا جاءت في معرض الذم، ثم إن العزم هو الذي ينبغي الحذر منه، فليس بعد العزم إلا صدور الفعل ووقوعه.

توابع الهم بالشيء و آثاره

تحدث القرآن الكريم عن توابع الهم بالشيء وآثاره، وسوف نتناولها بالتوضيح فيما يأتي:

أولًا: جزاء الكافرين على همهم السيء:

لأهل الهم السيئ من الكفار المكذبين لرسلهم، الساعين بكل سبيل للحط من شأنهم وماجاءوا به من الدين، جزاء وعقوبة استحقوها في الدنيا، سوى ماينتظرهم يوم القيامة من الخزي والنكال.

١. معاداة الكفار وقتالهم في الدنيا.

الهم في ميادين القتال، أو ضد ميادين الدعوة، وسواء كان همهم لإيذاء الرسل أو المؤمنين والدعاة، فإن لهمهم تبعةً وأثرًا في الدنيا، من عدم موالاتهم، ولا التسليم والأمن لهم، ووجوب قتالهم وأخذ الحيطة والحذر منهم.

توابعه وآثاره:

إذا ما ظهر من الكافرين همٌّ بغدرٍ أو خيانة، فقد أوجبوا لأنفسهم من المؤمنين الانتصار، ونصبوا أنفسهم لغيرهم محل اعتبار، ووجب معاداة ومواجهة أصحاب الهمم الفاسدة في همهم بإخراج الرسل، أو إضلالهم، وإيذاء المؤمنين بما يستحقون.

ففي قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣].

الآية فيها تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠][1].

فلما ظهر منهم الهم بإخراج الرسول استحقوا القتل في الدنيا. وانظر لجميل ما ختمت به الآية من بديع القول الداعي لمعاداة أولئك الناكثين، وقتالهم أشد القتال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

ففي هذا الكلام تقوية داعي القتال من وجوه:

الأول: أن تعديد الموجبات القوية وتفصيلها مما يقوي هذه الداعية.

الثاني: أنك إذا قلت للرجل: أتخشى خصمك؟! كان ذلك تحريكًا له فيستنكف أن ينسب إلى كونه خائفًا من خصمه.

الثالث: أن قوله: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ يفيد ذلك، كأنه قيل: إن كنت تخشى أحدًا فالله أحق أن تخشاه؛ لكونه في غاية القدرة والكبرياء والجلالة. والضرر المتوقع منهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١١٧.

غايته القتل، أما المتوقع من الله فالعقاب الشديد في القيامة، والذم اللازم في الدنيا.

الرابع: أن قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ معناه: إنكم إن كنتم مؤمنين بالإيمان وجب عليكم أن تقدموا على هذه المقاتلة، ومعناه إنكم إن لم تقدموا عليها وجب أن لا تكونوا مؤمنين، فثبت أن هذا كلام مشتمل على أنواع من الأمور التي تحملهم على مقاتلة أولئك الكفار الناقضين للعهد[1].

- حماية النبي صلى الله عليه وسلم من فتك الكافرين به وترصدهم لقتله، كما حصل من هم اليهود، وقبلهم كفار مكة ليلة الهجرة، وكما حصل من غورث بن الحارث، وكلهم يدفعهم حصن: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].
- حماية النبي صلى الله عليه وسلم من إضلال الكافرين له، وعصمته من الزلل. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣].
- تذكير المؤمنين بهم الكافرين بإيذائهم، وحفظ الله لهم، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١]. اذكروا نعمته تعالى عليكم عندما قصد ﴿قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك. وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلى بيان رجوع ضرر البسط وغائلته إليهم. والفاء في ﴿فَكَفَّ﴾ للتعقيب المفيد تمام النعمة وكمالها، وإظهار الأيدي لزيادة التقرير، وتقديم المفعول الصريح على الأصل أن منع أيديهم أن تمد إليكم عقيب همهم بذلك وعصمكم منهم، وليس المراد أنه سبحانه كفها عنكم بعد أن مدوها إليكم، وفي ذلك ما لا يخفى من إكمال النعمة ومزيد اللطف[2]. فأنعم عليهم بكف أيدي عدوهم، ورد كيدهم في نحورهم، وقد هموا بأمر، ظنوا أنهم قادرون عليه، فلم يدركوا مقصودهم، وكان نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروه عليه، وهو يشمل كل من هم وأراد المؤمنين بشر، من كافر ومنافق وباغٍ، كف الله شره عن المسلمين؛ فإنه داخل في هذه الآية[3].
- تأييد المؤمنين بإخوانهم والشد من عزمهم وتقويتهم بمعاونتهم لهم،

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٥/ ٥٣٦.

(٢) انظر: روح المعاني ٣/ ٢٥٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٢٤.

فهو سبحانه الذي يثبتهم ويربط على قلوبهم، ويتولى من توكل عليه، فلا يجبن ولاينكص، بل ينزل عليهم الملائكته تثبتهم، والنعاس يؤمنهم. أما المنافقون فلا هم لهم سوى أنفسهم وتخليصها من الموت؛ فدعتهم إلى التقاعس عن فعل الخير، فهم مشغولون بأنفسهم لا يفكرون في أي أمر آخر، سوى ظنونهم السيئة في الله ورسوله. ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وأما الكافرون فهم في وادٍ آخر من محاولة التنكيل بالمؤمنين والنيل منهم واستئصالهم، والله يتولى من آمن به، ويخزي الكافرين.

٢. العذاب الأليم لأهل الهم السيئ منهم يوم القيامة.

فأهل الهموم السيئة في الله ودينه ورسله، انطوت نفوسهم على دسائس عظيمة من الشبهات أوجبت جهادهم في الدنيا، وعقاب الله الشديد لهم يوم الخزي والندامة.

توابعه وآثاره:

استحقاق عذاب الله للمكذبين لرسلهم، ولأهل الهم السيئ بهم في الدنيا ويوم القيامة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

فالمقصود من تعداد جرائم الأمم السابقة من تكذيب الرسل، والهم بقتلهم، والجدال بالباطل: تنظير حال المشركين النازل فيهم قوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤].

بحال الأمم السابقين سواء؛ لينطبق الوعيد على حالهم أكمل انطباق في قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[(١)].

ومن هنا يكون السبب المسبب عنه الأخذ المذكور في قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ قيل: مجموع التكذيب، والهم بالأخذ، والجدال بالباطل، واختار الزمخشري كونه الهم بالأخذ فقط؛ وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا﴾ هو التكذيب بعينه، والأخذ يشاكل الأخذ، وإنما التكذيب موجب استحقاق العذاب الأخروي المشار إليه بعد، ولا ينكر أن كليهما يقتضي كليهما، لكن لما كان ملاءمة الأخذ للأخذ أتم، والتكذيب للعذاب الأخروي أظهر أنه متعلق بالأخذ؛ تنبيهًا على كمال الملاءمة[(٢)].

ولا ضير أن يكون مجموع ما صدر منهم من التكذيب، والهم بالرسل والجدال

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٨٥.
(٢) روح المعاني ١٢/ ٢٩٨.

بالباطل سببًا للأخذ، أو أن يكون أخذ الرسل وحده سببًا؛ لعظمته، وقد استوجبوا الأخذ والخزي والعذاب الشديد جزاء ما فعلوا.

ثانيًا: هم المؤمنين بالسوء:

أما المؤمنين فهمهم بالسوء -كما ظهر من الآيات- قد يكون باعثه الشهوات التي تستحكم أحيانًا، وقد يكون سببه ما جبل عليه البشر من حب الحياة، وهؤلاء لم ينسلخوا من بشريتهم بتلك الهموم، وإنما هي مشاعر إنسانية رافقت أحداثًا، يحسن التفطن لها، والاستعانة بالله في تهذيبها.

١. الربط على قلوب المؤمنين والتجاوز عن همهم.

فلجؤوهم إلى الله واعتصامهم به كان سببًا في ربط الله على قلوبهم، وتنجيتهم من الهم السيء، ومن ثم التجاوز عنهم.

توابعه وآثاره:

- تذكير المؤمنين بهمهم بالسوء، ثم ربطه على قلوبهم وتجاوزه عن همهم.

فيعرف عجزهم عن صرف ذلك عن أنفسهم، وفقرهم لعون مولاهم -جل وعلا- فإن توكلوا عليه تولاهم؛ فكفاهم شر أنفسهم وشر عدوهم. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

ففي قوله تعالى المتقدم: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

عبر بالطائفتين دون ذكرها إشارةً لطيفة إلى الكناية عن من يقع منه ما لا يناسب والستر عليه؛ إذ لم يعين بأنفسهما، ولا صرح بمن هما منه من القبائل سترًا عليهما[(١)]، وهو غاية في حفظه سبحانه لهم والعناية بهم؛ مما جعل همهم ذلك يئول إلى السرور.

فعن جابر رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بني سلمة وبني الحارثة، وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[(٢)].

ومعنى ذلك: فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية، وأن تلك الهمة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى[(٣)]، فصرف عنهم الهم السيء بتوليه لهما.

- حفظ عباده المؤمنين مما لا يليق من الهم.

فيوسف عليه السلام حفظه الله من الوقوع في براثن الرذيلة أو حتى الهم بها، ودلائل الآي تبين ذلك؛ فالمراودة تقتضي

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، رقم ٣٨٢٥، ٤/ ١٤٨٨، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم، رقم ٩٥٦٩، ٧/ ١٧٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٨/ ٣٤٧.

تكرير المحاولة منها، قيل: المفاعلة تقديرية بأن اعتبر العمل من جانب والممانعة من الجانب الآخر، فهي تحاول الإيقاع به، وامتنع واعتصم بالله الذي أحسن مثواه.

وفي هذا الكلام عبرة عظيمة من العفاف، والتقوى، وعصمة الأنبياء قبل النبوة من الكبائر.

وفي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤].

الصرف: نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هنا مجاز عن الحفظ من حلول الشيء بالمحل الذي من شأنه أن يحل فيه، عبر به عن العصمة من شيء، والتعبير عن العصمة بالصرف يشير إلى أن أسباب حصول السوء والفحشاء موجودة ولكن الله صرفهما عنه[1]. وهذا غاية الحفظ لعبده الذي لجأ إليه، فلم يضيعه.

وفي السيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله تعالى فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي؛ حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان. فقال: بلى. قال: فدخلت، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفًا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر، وضرب الله تعالى على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي. فقال: ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي؛ حتى أسمر بمكة. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فسألت. فقيل: فلانٌ نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي. فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء. ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته)[2].

❁ عظم الجزاء والأجر لمن هم بالخير وإن لم يعمله بعد ذلك.

وهذا من فضل الله وكرمه سبحانه حتى في مجرد الهم والخاطر القلبي، وإن لم تظهر صورة العمل على أرض الواقع، وهو أيضًا من أثر الهم بالخير وبركته. وربما يكون العمل القلبي أعظم من عمل الجوارح، وكم

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٠-٢٥٥.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٣، والبزار مختصرًا في مسنده، رقم ٦٤٠، ٢/ ٢٤٠.
وضعفه الألباني في تعليقه على فقه السيرة ص٦٧.

من عملٍ صغيرٍ عظمته النية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يروي عن ربه عز وجل قال: قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة)[1].

فمن قصد وحدث نفسه بفعل الخير، كتبت له حسنة وإن لم يعمل لعائق حال بينه وبين فعلها. وإن ترك السيئة خوفًا من الله عز وجل، لا عجزًا عنها، استحقها حسنة كاملة لم تنقص بسبب الهم والقصد إلى فعلها؛ لأنه إنما تركها أيضًا لأمر عظيم قام في قلبه. وليس بعد هذا الفضل فضل.

٢. معالجة هم المؤمن بالسوء.

الذي يقع في النفس من قصد المعصية على خمس مراتب: الأولى- الهاجس وهو ما يلقى فيها، ثم جريانه فيها وهو الخاطر، ثم حديث النفس وهو ما يقع فيها من التردد هل يفعل أو لا؟ ثم الهم وهو ترجيح قصد الفعل، ثم العزم وهو قوة ذلك القصد والجزم به[2].

والمراتب الثلاث الأولى لا يؤاخذ عليها العبد وهي ترد عليه، وباستطاعته دفعها والانصراف عنها، قبل أن تصبح همًا يتردد، أو عزمًا على المعصية وقصدًا يؤاخذ به.

وفي خضم الحياة، يواجه المؤمن سيلًا من الفتن، التي إن لم يتحصن منها بحصن قوي زلت به القدم. وهاهنا وقفة لمعالجة ذلك:

- تقوية الإيمان بالله.

فيوسف ذكر امرأة العزيز بالله رجاء أن تنتهي عن فعلها ومراودتها له، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

أي: أعتصم بالله من الذي تدعوني إليه، واستجير به منه.

وبعض هذه الهموم والخواطر لا يمكن دفعها وقطعها، فهي كما يقول ابن القيم: «تهجم عليه هجوم النفس»[3].

كيف وقد استحكمت في امرأة العزيز حتى دفعتها للمجاهرة بهذا الأمر من غير حياء ولا خجل. والسبيل لقبول أحسن هذه الخواطر والهموم ودفع سيئها، يكون بقوة الإيمان والعقل؛ فكلما قوي الإيمان دفع ماعداه، والعكس؛ فإنها تشوش الإيمان وتضعفه. لذا كان أول ماذكرها به يوسف

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الأشباه والنظائر، السيوطي ص ٧٦.

(٣) انظر: فوائد الفوائد، ابن القيم ص٢٦٩.

عليه السلام الله عز وجل.

❁ التذكير بالنعمة.

فذكرها يوسف عليه السلام بنعمة مولاه عليه، المستوجبة لحفظها ومراعاتها؛ سواء كان المراد بربه: الله عز وجل، أو ربه بمعنى سيده[1].

و﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: أحسن منزلتي، وأكرمني وائتمنني؛ فلا أخونه[2].

قال ابن عاشور: «وذكر وصف الرب على الاحتمالين؛ لما يؤذن به من وجوب طاعته وشكره على نعمة الإيجاد بالنسبة إلى الله، ونعمة التربية بالنسبة لمولاه العزيز»[3].

وهكذا ينبغي أن يؤدب العبد نفسه ويردعها بتذكيرها بفضل الله عليه، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

ما الذي جرأك عليه حتى عصيته؟!! ألأنه أكرمك ونعمك؟!!

وإيثار تعريف الله بوصف ﴿بِرَبِّكَ﴾ دون ذكر اسم الجلالة لما في معنى الرب من الملك والإنشاء والرفق؛ ففيه تذكير للإنسان بموجبات استحقاق الرب طاعة مربوبه؛ فهو تعريض بالتوبيخ.

وكذلك إجراء وصف ﴿الْكَرِيمِ﴾ دون غيره من صفات الله للتذكير بنعمته على الناس ولطفه بهم؛ فإن الكريم حقيق بالشكر والطاعة[4]. لا بالمعصية.

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧-٨].

لمسة عتاب مبطنة بالوعيد لهذا الإنسان الذي يتلقى من ربه فيوض النعمة في ذاته وخلقته، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة، فتذكيره بنعمة الله الأولى عليه من خلقه في هذه الصورة السوية، على حين يملك ربه أن يركبه في أي صورة تتجه إليها مشيئته، ولكنه اختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة تكرمًا عليه من ربه، راعيه ومربيه سبحانه[5].

❁ التخويف من العاقبة.

فقد قال يوسف في ذلك: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فإجابتها لمراودته ظلم؛ لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية مما اتفقت الأديان على أنها كبيرة، وظلم سيده الذي آمنه على بيته وآمنها على نفسها إذ اتخذها زوجًا وأحصنها[6].

فلابد من النظر للعاقبة، فكم أعقبت المعصية ألـمًا، وكم أورثت ندمًا، وكم منعت رزقًا، وحرمت توفيقًا، وكم أنست علمًا، وجلبت همًا وغمًا. ومن تعجل شيئًا

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٢.
(٢) المصدر السابق ١٦/ ٣٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٢.
(٤) المصدر السابق ٣٠/ ١٧٥.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٥- ٣٨٤٧.
(٦) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٢.

قبل أوانه، عوقب بحرمانه[1].

وليحذر من المعصية مهما صغرت، فليس بينك وبين الله نسب، وقد أخرج آدم عليه السلام من الجنة بلقمة، وإبليس بترك سجدة، ودخلت امرأة النار في هرة.

وما أحسن هذا التنصل من الوقوع في السوء. فيوسف عليه السلام استعاذ أولًا بالله الذي بيده العصمة وملكوت كل شيء، ثم نبه على أن إحسان الله أو إحسان العزيز الذي سبق منه، لا يناسب أن يجازى بالإساءة، ثم نفى الفلاح عن الظالمين وهو الظفر والفوز بالبغية، فلا يناسب أن أكون ظالمًا أضع الشيء غير موضعه، وأتعدى ما حده الله تعالى لي[2].

وقد أبدع ابن القيم في علاجه؛ حيث يذكر طرقًا في حراسة الخواطر وحفظها، إذ هي مبدأ الفعل بعدها، فلابد من حفظها والحذر من إهمالها والاسترسال معها، فإن أصل الفساد كله من قبلها، فهي بذر الشيطان والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها بسقيه حتى تصير إرادات، ثم يسقيها بسقيه حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم.

وطرق حفظ الخواطر -كما قال- عديدةٌ؛ أوجزها في الآتي:

١. العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك؛ فتستحيي منه.
٢. إجلاله لله أن يرى تلك الخواطر في بيته (القلب) الذي خلق لمعرفته ومحبته، والخوف من السقوط من عينه.
٣. إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.
٤. الخشية من أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شررها، فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله.
٥. العلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحب الذي يلقى للطائر ليصاد به.
٦. العلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة.
٧. العلم أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس، وعزلته عن سلطانها[3].

ولما كانت تلك الخواطر خفيةً، احتيج في التخلص منها إلى عبادات قلبية خفية، من إجلال الله، والحياء والخوف منه، وخشيته وإيثار محبته، ولا يتحقق ذلك إلا

(١) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ص٥٢.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٥٧.
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ٢٧٤.

بالإيمان والعلم؛ إذ يثمران له اليقين بوعد الله ورجاء ثوابه، فيحتقر كل لذة دونها.

وقبل الختام نقول لمن اعتلجت في صدره هموم سوء: النفس مثل الرحى تدور بما يرمى فيها، فإن كانت خواطرها وأفكارها وهمومها خيرًا أخرجت خيرًا والعكس[1].

فاحرص على تنقية فكرك مما يشوبه من الشبهات والشهوات تنج.

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الثبات، العزم، الغم

(١) انظر: فوائد الفوائد ص٢٦٩.

هود عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بهود عليه السلام	٢٣٢
ذكر هود عليه السلام في القرآن الكريم	٢٣٩
حديث القرآن عن قصة هود	٢٤٠
مظاهر انحراف قوم هود	٢٥٢
معالم دعوة هود عليه السلام	٢٥٦
موقف عاد من نبيهم ورده عليهم	٢٦٩
عاقبة القوم ومصيرهم	٢٨٣

التعريف بهود عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

يقول الإمام الطبري رحمه الله معرفا بنسب هود عليه السلام بأنه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح[(١)].

وقال ابن قتيبة عن وهب: «هو هود بن عبدالله بن رياح بن حارث بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح»[(٢)].

ثم قال الطبري: «ومن أهل الأنساب من يزعم أن هودا هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح»[(٣)]. وذكره ابن قتيبة على أنه هو المرجح عنده.

والقولان الأول والثاني أوجه من القول الثالث؛ لأن تسميته بما سماه به القرآن الكريم أولى، ولأن الثالث يدل على قرب عهد هود بنوح عليهما السلام، ومثل هذا الزمن القريب يستبعد فيه انتشار الوثنية وعودة الناس إلى الكفر إلى درجة أنهم نسوا ما كان عليه أسلافهم ولم يذكروا إلا أسلافا قد انغمسوا في الكفر، كما أن قبيلة عاد كانت على مستوى من التمكين الذي يقتضي كثرة العدد، ولا يظن أن تكون قد بلغت هذا المبلغ في هذه الفترة الزمنية القصيرة. كما أن هذا القول يخرج نسب هود عليه السلام من قوم عاد ويجعله لا يلتقي معهم إلا في سام بن نوح، والمعلوم أن أخا القوم منهم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود:٥٠].

أي: أخوهم في النسب لا في الدين، وأخو القوم واحد منهم، قال الرازي: «واعلم أنه تعالى وصف هودًا بأنه أخوهم ومعلومٌ أن تلك الأخوة ما كانت في الدين، وإنما كانت في النسب، لأن هودًا كان رجلًا من قبيلة عادٍ، وهذه القبيلة كانت قبيلةً من العرب ونظيره ما يقال للرجل: يا أخا تميمٍ ويا أخا سليمٍ، والمراد رجلٌ منهم»[(٤)].

لهذا فالأمر يدور بين القول الأول والثاني والاختلاف بينهما في اسم الجد الثاني هل اسمه الخلود أم الحارث، ولا يمكن الترجيح بينهما لعدم وثوق المصادر، ولكنهما يقتضيان رجوع نسب هود عليه السلام إلى عاد، وهذا النسب هو المشتهر عند المؤرخين والنسابين

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٢١٦.
(٢) المعارف، ابن قتيبة ص٢٨.
(٣) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٢١٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٦٢.

وليس عليه دليل قطعي، إلا أن المقطوع به أنه لا يخرج عن الانتساب إلى نوح عليه السلام الأب الثاني للبشرية لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٧].

وكان هود عليه السلام رجلا آدم كثير الشعر حسن الوجه[١].

وعاد قبيلة من قبائل العرب التي كانت معلومة للعرب قبل نزول القرآن، «وهي من العرب العاربة ومنهم عادٌ وثمود وطسمٌ وجديسٌ وأميمٌ وجرهمٌ والعماليق وأممٌ آخرون لا يعلمهم إلا الله كانوا قبل الخليل وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وفي زمانهم أيضًا»[٢].

وسميت عاد نسبة إلى جدها فهي تنتمي إلى عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح، وهي عاد الأولى[٣].وأما قبائل ثمود وطسمٌ وجديسٌ وأميمٌ وجرهمٌ والعماليق فتنتمي إلى لاوذ بن إرم بن سام بن نوح[٤]، ومع أن هذه القبائل أقرب إلى نوح عليه السلام في سلسلة النسب إلا إن الإخباريين يقدمون عادا في الذكر، يعلل ذلك الدكتور جواد علي فيقول:« ولكن الإخباريين يقدمون عادًا على غيرهم، ويبدؤون بهم، وهم عندهم أقدم هذه الأقوام، ويضربون بهم المثل في القدم. ومثلهم في ذلك مثل إخباريي العبرانيين الذين عدوا العمالقة أول الشعوب. ولعل هذه النظرية تكونت عند الجاهليين من قدم عاد وثمود وشهرتهما، وتعزز ذلك من كثرة ورود اسم عاد وثمود في القرآن الكريم واقترانهما في سور عديدة، ولهذا صاروا إذا ذكروا «عادا» ذكروا «ثمودا» بعدها في الترتيب. لذا قدما على بقية الأقوام[٥].

وقد لفت الطبري النظر إلى عدم ذكر عاد عند أهل الكتاب إذ قال: «فأما أهل التوراة، فإنهم يزعمون أن لا ذكر لعاد ولا ثمود ولا لهود وصالح في التوراة، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم»، ثم قال:« ولولا كراهة إطالة الكتاب بما ليس من جنسه، لذكرت من شعر شعراء الجاهلية الذي قيل في عادٍ وثمود ما يعلم به صحة ذلك»[٦].

وقد استدل الإمام الرازي على أن أخبار العرب البائدة والأمم القريبة من بلاد العرب كانت مشهورة متداولة عند العرب، بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر:٦]:أي:« ألم

(١) المعارف، ابن قتيبة ص٢٨.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٨٧.
(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك الطبري ١/ ٢١٦.
(٤) انظر: جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي ١/ ٤٦٢.
(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ١/ ٢٩٩. بتصرف.
(٦) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٢٣٢.

تعلم لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول وإنما أطلق لفظ الرؤية هاهنا على العلم لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر! أما عاد وثمود فقد كانا في بلاد العرب وأما فرعون فقد كانوا يسمعونه من أهل الكتاب، وبلاد فرعون أيضًا متصلة بأرض العرب وخبر التواتر يفيد العلم الضروري، الذي يجري مجرى الرؤية في القوة والجلاء والبعد عن الشبهة، فلذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى: ألم تعلم»[1].

ومما يؤكد عدم علم أهل الكتاب بأخبار العرب «أن المسلمين حينما راجعوا اليهود يسألونهم عن عاد وأمثالهم، أخبروهم بعدم وجود ذكرهم في التوراة. والواقع أن التوراة لا علاقة لها فيهم؛ فأحاديث عاد وثمود وهود وصالح إنما هي أحاديث عربية، توارثوها وتحدث بها الجاهليون، وليس لها ذكر في كتب يهود، ولكن أهل الأخبار ربطوا مع ذلك بينها وبين التوراة، وأوجدوا لها صلةً ونسبًا[2].«وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون الرمل، وبلادهم أخصب البلاد»[3].

ثانيًا: مكانه وزمانه:

المكان والزمان حيزان ضروريان من لوازم الأحداث التي تجري في عالم الإنسان، لأن حياة الإنسان محكومة بالزمان والمكان، ولكن إظهار ذلك وذكره في القصة القرآنية يدور مع الغرض منه. وقد يبينه القرآن بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ولا سبيل إلى تحديد القرن الذي بعث فيه هود عليه السلام ولا الزمن الذي كانت به عاد تعمر الأرض، بلغة الأرقام لعجز المصادر التاريخية عن ذلك، وتجدد التواريخ الرقمية بين الأمم ونسبيتها، فكل أمة تؤرخ بحدث بارز في تاريخها، وأما مصادر أهل الكتاب مع عدم الثقة بها لما لحقها من التحريف والتبديل فإنها لم تتعرض للحديث عن الأمم التي لا صلة لهم بها، والمصدر الوحيد الذي يركن إليه فيما غمض من تاريخ البشرية هو القرآن الكريم، مع أنه ليس كتاب تاريخ يقصد إلى تأريخ الأحداث بقصد التأريخ فهو كتاب هداية وإرشاد.

ولكن ذلك لا يمنع أن يذكر الأحداث التي تهدف إلى الهداية والعبرة مقترنة بأزمنتها محددا لأوقاتها فهو تنزيل ممن يعلم السر وأخفى، والقرآن الكريم لا يلتزم طريقة محددة

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٥٢.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ١/ ٢٩٩. بتصرف.
(٣) المعارف، ابن قتيبة ص٢٨.

في ربط الأحداث بأزمنتها فقد يكون ذلك تصريحا أو تلميحا[1]، كأن يربط الأحداث برباط نسبي كما أخبرنا عن زمن قوم عاد بقوله على لسان هود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وهذا التعبير يؤدي أغراضا منها؛ التذكير والعبرة[2] ومنها التحديد الزماني من حيث أنهم جاءوا بعد قوم نوح أي: «فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها»[3]، ومن الطبيعي أن يكون ذلك بعد أجيال مضى أولها على الإيمان والصلاح من ذرية نوح عليه السلام ومن نجا معه في السفينة، ومضت أجيال حتى ذهبت معالم رسالة نوح عليه السلام وخلفهم خلوف ظهر فيهم الكفر وعبادة الأصنام، وجاءت أجيال لم يعرفوا إلا هذه الأصنام حتى قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الشعراء:١٣٧].

فلما درست معالم رسالة نوح عليه السلام واحتاجت البشرية إلى من يردها عن الضلال ويهديها إلى الله. وكانت عاد هي القوة المتمكنة ذات النفوذ والسلطان، التي استخلفت في الأرض بعد قوم نوح عليه السلام، عندها أرسل الله تعالى هودا عليه السلام في وسط هذه البيئة التي تمثل في عصرها قمة الحضارة المادية في الأرض.

والمكان كذلك من لوازم الحدث ولكن لا يلتزم القرآن ذكره «إلا إذا كان للمكان وضع خاص يؤثر في سير الحدث أو يبرز ملامحه أو يقيم شواهد العبرة والعظة منه»[4].

أما مكان عاد فقد صرح القرآن به في قوله تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١].

والأحقاف على قول ابن كثير: «جبال الرمل، وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، بأرضٍ مطلةٍ على البحر يقال لها الشحر، واسم واديهم مغيثٌ»[5].

وقال الحموي: «الأحقاف: جمع حقف من الرمل. والعرب تسمي الرمل المعوج حقافا وأحقافا، واحقوقف الهلال والرمل: إذا اعوج، فهذا هو الظاهر في لغتهم[6] والأحقاف المذكور في الكتاب العزيز: واد بين عمان وأرض مهرة قال ابن إسحاق: الأحقاف رمل فيما

(١) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب ص٨٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه، عبدالكريم الخطيب ص٩٢.
(٥) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٢٠.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩ / ٥٢.

بين عمان إلى حضرموت، وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن، وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى»[1].أي: أنها تلتقي بمعنى الرمل المعوج وإن اختلفت الأماكن.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن ﴿إِرَمَ﴾ في قوله تعالى:﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر:٧]» اسم موضع، فقالوا: إرم مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن، وقال محمد بن كعب: هي الإسكندرية، وقال سعيد بن المسيب والمقري: هي دمشق، وكذا قال مالك بن أنس بلغني أنها دمشق رواه عنه ابن وهب. وهذان القولان ضعيفان. لدلالة المعنى اللغوي على أن الحقف: ما التوى من الرمل، وليس كذلك دمشق ولا الإسكندرية[2].وإنما يستند أصحاب هذا القول إلى قوله تعالى:﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ الدال على وجود أعمدة، وما في كل من المدينتين من أعمدة أثرية، ولا أرى هذا كافيا لتحديد المكان لكثرة المدن الأثرية التي تكثر فيها الأعمدة. هذا مع احتمال أن تكون ذات العماد صفة ل إرم نفسها والمراد: ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة[3]، وأما أن تكون مدينة عظيمة كانت في اليمن ولا تزال آثارها موجودة في هذا الوقت فقريب من حيث موافقتها لمعنى الأحقاف وهو ما التوى من الرمل، وقد يكون بين عمان وحضرموت على ما هو المشهور عند المفسرين، ويتعزز ذلك إذا كانت لهم بقايا آثار من المباني التي كانوا يشيدونها على ما شرف من الأرض تدل على أماكن سكناهم وتكون آية على ما حل بهم لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت:٣٨].

وعلى ما ذهب إليه أكثر المفسرين من أن ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيانٍ لعادٍ[4] فهو تسمية للقبيلة باسم جدها. ولا تعارض بين ذلك وبين أن تكون إرم اسما لمدينتهم على قول السدي: «إن إرم بيت مملكة عادٍ»[5]

فيكون التقدير:(أهل إرم)، أو أن تكون المدينة سميت باسم جدهم. أما المدينة التي يذكرها ابن الجوزي في زاد المسير[6] فلا يعول على خبرها، إذ لو كان لها وجود على

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي ١/ ١١٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٧٧، إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس ٥/ ١٣٧.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٣٣٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٥. وقال: وهذا قولٌ حسنٌ جيدٌ قويٌ.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٤١- ٤٤٢.
وقد أعرضت عن ذكرها لعدم ثبوتها فهي مروية عن عبد الله بن قلابة ولم أجد له ذكرا في كتب

تلك الصفة لاشتهر أمرها وما خفي حالها، ولكانت معلما سياحيا يؤمه الناس من كل مكان[1].

ولا بد أن تكون لهم بقايا من المعالم والآثار التي حل عليهم بها العذاب لتكون شاهدة على ما حل بهم كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت:٣٨].

قال المفسرون: «يعني ما وصفه من إهلاكهم من جهة مسكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها»[2]، وذلك لظهور آثار العذاب؛ «خرابها وخلاؤها منهم بوقائعنا بهم، وحلول سطوتنا بجميعهم»[3]، وكانت معلومة حيث «كان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها»[4]، أي: أن لهم آثارا من المساكن والمباني التي تعد اليوم من المواقع الأثرية.

وذكر المؤرخون «عن «بطلميوس» أن قوم «عاد»، كانوا يسكنون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب في منطقة «حسمي»، أي: في أعالي الحجاز، وعلى مقربة من مناطق ثمود[5]، وقالوا: إن المكان الذي ورد عند «بطلميوس»، وهو «إرم»، أو «إرم ذات العماد». ويقال له الآن «رم» وقد أظهرت الحفريات التي قام بها «المعهد الفرنسي» في القدس، تأييد هذا الرأي؛ إذ ورد في الكتابات «النبطية» التي عثر عليها في خرائب معبد اكتشف في «رم» أن اسم الموضع هو «إرم». فيتضح من ذلك أن هذا الموضع حافظ على اسمه القديم، غير أنه صار يعرف أخيرًا بـ«رم» بدلا من «إرم».

وفي سنة ١٩٣٢ قام هورسفيلد من دائرة الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية بحفريات في موضع جبل «رم»، ويقع على مسافة (٢٥) ميلا إلى الشرق من العقبة، ويقع المكان الذي بحث فيه عند وادٍ، وعلى مقربة منه «عين ماء»، ووجد في جانب الجبل آثارًا جاهلية قديمة. وقد حملت اكتشافاته هذه واكتشافات «سافينياك» واكتشافات كليدن على القول: إن هذا

التراجم والرجال، وابن منبه يكثر من الإسرائيليات، ويعزز ذلك قول ابن كثير: فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك» ثم قال بعد أن اشار إلى هذه القصة: فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يقطع بعدم صحته». تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٦.

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ص١٢٠.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٥٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠ / ٣٤.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٥٤.
(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ١/ ٣٠١- ٣٠٥.

المكان هو موضع «إرم» الوارد ذكره في القرآن، والذي كان قد حل به الخراب قبل الإسلام، فلم يبق منه عند ظهور الإسلام غير عين ماء كان ينزل عليها التجار وأصحاب القوافل الذين يمرون بطريق الشام-مصر-الحجاز»[1].

وهذا القول يتوافق مع ما نسبه بعض المفسرين إلى ابن عباسٍ والضحاك من القول بأن الأحقاف: جبلٌ بالشام[2].

ولعل هذا القول هو الأقرب للواقع لأسباب منها التوافق في المعنى اللغوي فالجبال المجاورة لجبل رم رملية يصدق عليها معنى الأحقاف، ولقربها من ديار ثمود الذين اقترن ذكرهم بعاد في كثير من الآيات، ولذكر ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وناهيك به مرجعا، وللتوافق في الاسم مع المذكور في القرآن الكريم. كما أن مخالفة من يعتد برأيهم للقول الأول كابن عباس والإمام مالك وابن وهب ومحمد بن كعب يدل على عدم القطع به وإن اشتهر بين المفسرين، فمرد شهرته روايته عن ابن اسحق واشتهار كتبه لكونها في بداية عصر التدوين وتعويل من بعده عليها.

(١) المصدر السابق ١/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان الطبري ٢٢/ ١٢٣، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٦، رقم ١٨٥٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٠٤.

ذكر هود عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر هود عليه السلام في القرآن الكريم (٧) مرة، في (٣) سور.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٦٥-٧٢
هود	٥٠-٥٨
الشعراء	١٢٤-١٤٠

حديث القرآن عن قصة هود

لم يرد ذكره عليه السلام منفصلًا، بل بسياقات متصلة مع ذكر قومه، كان بعضها بإشارات سريعة، وبعضها بتفصيلات متفاوتة تختلف من سورة إلى سورة، يكمل بعضها بعضا، وبعضها بتعقيبات خاطفة تشير إلى نتائج وخلاصات أو اعتبار، وكل نجم منها جاء متلائما مع سورته متسقا في سياقه، وإليك بيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الآيات التي تحمل الإشارات:

أما الإشارات السريعة؛ وهي التي تعطي ملامح موجزة عن القوم وتمهد وتشوق للتفصيل عن أخبارهم، فكانت في سور الفجر والنجم و(ق) والفرقان والعنكبوت، ففي سورة الفجر يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر:٦-٨].

وفي سورة النجم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم:٥٠-٥٢].

وفي سورة (ق) قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق:١٢-١٤].

وفي سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾ [الفرقان:٣٥-٣٩].

وفي سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت:٣٨].

ثانيًا: الآيات التي تحمل التفصيلات:

وهي الآيات التي حملت لنا زخما من أخبار القوم، وجاءت تحمل الكثير من التفاصيل لأحداث القصة، وقد وردت في سور عديدة تعطي بمجموعها الصورة المتكاملة لقصة القوم، مع ملاحظة أن كل نجم من هذه الآيات ورد في سورته متناسبا مع موضوعها متوافقا مع سياقه، وهذه السور هي الأعراف، وهود، والشعراء، وفصلت، والأحقاف، وفي سورة المؤمنون على اختلاف اقوال المفسرين فيمن تتحدث عنهم كما سيأتي بيانه، كما وردت آيات

تحمل التفصيل لنهاية القوم وصورة العذاب الذي حل بهم في سور الذاريات، والقمر والحاقة.

ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢].

هذه السورة تعالج موضوع «العقيدة من حيث مساره التاريخي في الحياة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها وفي هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان الكريم من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجه بها البشرية جيلا بعد جيل، وقبيلا بعد قبيل.

ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة»[1].

وجاءت قصة هود عليه السلام مع قومه بعد الفراغ من ذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه وما حل بهم من العذاب، ثم تبعتها قصة كل من صالح ولوط وشعيب عليهم السلام مع أقوامهم، مشكلة حلقة مهمة من الحلقات الكبرى في تاريخ البشرية مع أنبيائها كما وعد الله تعالى بإرسالهم آمرا بني آدم باتباعهم محذرا من مخالفتهم وعصيانهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٤٤، بتصرف.
وانظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٣/ ٣.

﴿٣٥ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦].

وقد جاءت كل قصة منها باختصار، ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى من القرآن في سياق يتطلب تلك التفصيلات، ذلك لأن الهدف هنا هو تصوير المعالم الأساسية لمسار العقيدة من حيث طريقة التبليغ، وطبيعة استقبال القوم لها، وموقفهم منها، وحقيقة مشاعر الرسول، وتحقق النذير وعاقبة كل فريق. وبهذا تكون القصة قد أدت غرضها ودورها في سورتها[1].

وفي سورة الشعراء قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ١٣٦ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٤٠﴾ [الشعراء:١٢٣-١٤٠].

موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعا؛ العقيدة ملخصة في عناصرها الأساسية: توحيد الله، والخوف من الآخرة، والنبوة، ثم التخويف من عاقبة التكذيب، إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين.

ولكنها جاء بأسلوب متميز يحمل من اسمها نصيب؛ يتحدى الشعر والشعراء وما يجيش في النفوس من المشاعر والأحاسيس التي تحمل على الزهو والخيلاء، فإذا كان الشعر خفقة قلب وهمسة خاطر فإن الذي يتأمل هذه السورة الكريمة يجد لها من الخصائص التي تذكي المشاعر وترهف الاحساس ما لا يجده لعيون الشعر[2].

وتهدف إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن، وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا في سبيلها من الظالمين كما ثبت من قبلهم من المؤمنين، ولكن بأسلوبها الذي يتجلى في نبراتها من أولها إلى آخرها في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٠٨.

(٢) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ص١٨٠.

مجابهة الزهو والخيلاء والكبر وأسبابه عند المكذبين وما تبثه في نفوس المؤمنين من مشاعر رحمة الله بهم وعزة النصر على الكافرين والاعتزاز بالله العزيز الرحيم.

«وجسم السورة هو القصص الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها. والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب. والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة، تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة، تلتقي عند هدف واحد ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض»[1].

وحين تحدثت عن قوم عاد أبرزت ما كان عندهم من الزهو والخيلاء ومظاهر القوة والجبروت مع الترف والتمكين الحامل على التكبر والغرور والإعراض واللامبالاة، وكيف آل أمرهم إلى الهوان والذلة والهلاك بقوة عاتية لا طاقة لهم بمقاومتها أو الصمود أمامها.

وفي سورة هود قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:٥٠-٦٠].

نزلت هذه السورة في مرحلة اشتدت بها المحن على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بعد وفاة أبي طالب فكانت من أحرج الفترات وأشقها في تاريخ الدعوة بمكة، حيث بلغت الذروة في تحدي قريش وتعديها فجاءت هذه السورة تعالج هذه الحال بتثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه على الحق وهذا ما صرحت به السورة في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٨٣.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠].

كما جاءت تسري عنه ما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي. وذلك من خلال الحقائق التالية[(١)]:

استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كله، من لدن نوح عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم وتقرير أنها قامت على حقائق أساسية واحدة: هي الدينونة لله وحده بلا شريك، والعبودية له وحده بلا منازع والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ. مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء وأن الجزاء إنما يكون في الآخرة وأن حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء، ولا شك أن دعوة هود عليه السلام تشكل حلقة هامة من حلقات هذا التاريخ البشري، وجولة من جولات الإيمان في أعنف صور صراعه مع الكفر.

عرض مواقف الرسل-صلوات الله وسلامه عليهم-ومن بينهم هود عليه السلام وهم يتلقون أشد ما بلغت إليه صور الإعراض والتكذيب، والسخرية والاستهزاء، والتهديد والإيذاء، بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق، وفي نصر الله نجاة المؤمنين، وقد عرضت هذه السورة لأشد ما لقيه هود عليه السلام من قومه حيث أنكروا البينات فقالوا: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وأعلنوا أشد صور الرفض والعناد والاصرار فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، بهذا الأسلوب القاطع، ولم يكتفوا باتهامه بالسفاهة كما في سورة الأعراف، بل زادوا فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ فأدخلوا الحوار إلى أعنف صور التحدي[(٢)].

توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالته إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به والتسرية عنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله، وبما أولاهم الله من رعايته ونصره وتوجيهه.

(١) حيث يفهم من زمن نزول هذه السورة التي نزلت في أواخر العهد المكي بعد سورة الإسراء ويونس أنها نزلت في الفترة التي اشتدت بها المحن على النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك بعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها.
انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/١٩٣، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/١٨٤١-١٨٤٣.

(٢) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ص٢١٧.

وفي سورة فصلت قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٣-١٦].

وفي سورة الأحقاف قال تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢١-٢٦].

هذه السورة تعالج قضية العقيدة قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه. والإيمان بالوحي والرسالة وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول سبقته الرسل.

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل، وتوقع فيها على كل وتر، وتعرضها في مجالات شتى، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية. كما أنها تجعلها قضية الوجود كله-لا قضية البشر وحدهم-فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف بعض بني إسرائيل منه. وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدا كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهدا سواء بسواء.

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السماوات والأرض، وفي مشاهد القيامة في الآخرة. كما تطوف بهم في مصرع قوم هود وفي مصارع القرى حول مكة. وتجعل من السماوات والأرض كتابا ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء.

ويمضي سياق السورة في أربعة أشواط مترابطة، كأنها شوط واحد ذو أربعة مقاطع»[1].

وتشكل قصة عاد الشوط الثالث من هذه السورة حيث يرجع مصرعهم عندما كذبوا بالنذير. ويعرض من القصة حلقة الريح

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٥٢.

العقيم، التي توقعوا فيها الري والحياة فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار، والعذاب الذي استعجلوا به وطلبوه.

«وهذا الشوط جولة في مجال آخر، يخدم القضية التي تعالجها السورة، وتأخذ القلب البشري من جانب غير الجوانب التي عالجها الشوطان الأولان جولة في مصرع عاد ومصارع غيرها وقد وقفوا من رسولهم وأخيهم هود عليه السلام موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمد صلى الله عليه وسلم واعترضوا اعتراضاتهم، وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة في حدود بشريته وحدود وظيفته. ثم أخذهم ما أخذهم من العذاب المدمر، حين لم يسمعوا النذير. فلم تغن عنهم قوتهم-وكانوا أقوى- ولم يغن عنهم ثراؤهم-وكانوا أغنى-ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم- وكانوا أذكياء-ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوها تقربا-بزعمهم-إلى الله»[1].

وبعض السور انفردت بالحديث عن صورة العذاب التي حلت بعاد كما في سور القمر والذاريات والحاقة:

ففي سورة القمر قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر:١٨-٢٢].

وفي سورة الذاريات قال سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

هذه السورة التي حملت صورة تبديد الباطل أمام صولة الحق مهما بدا منتفخا وظهر منتفشا وطغى زبده وطال أمده، فاختصت هذه السورة بذكر الريح العقيم التي حلت بقوم عاد فلا تذر شيئا تأتي عليه إلا بددته وجعلته كالرميم[2].

وفي سورة الحاقة: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:١-٨].

ومن الملاحظ أن بعض هذه السور تذكر عادا في أمر مشترك مع أمم وقبائل وأقوام، كما في سورة إبراهيم وغافر والحج وص والتوبة، وفي مواطن تذكر معها ثمود وحدها، كما في سورة فصلت والعنكبوت،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٥.

(٢) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ص٢٢١.

وفي الحاقة ذكرتا معا، ثم فصلت كل منهما بتفصيل يخصها، ويجمع عادا وثمود أنهم من العرب البائدة، وأن ثمود جاءت بعد عاد، فهم خلفاء قوم عاد كما دل على ذلك القرآن، بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف:٧٤].

وفي سور أفردت عاد بالذكر وحدها في حكم يخصها، كما في سور الفجر والذاريات والحاقة.

هل الآيات في سورة المؤمنون تتحدث عن هود عليه السلام مع قومه؟

بعد الفراغ من الحديث عن قوم نوح عليه السلام في سورة (المؤمنون) قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون:٣١-٤١].

لم تذكر هذه الآيات اسم النبي ولا القوم الذين أرسل فيهم، وهذا يحتمل ثلاثة أوجه؛

الأول: أنهم عاد ونبيهم هود عليه السلام وذلك لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وهؤلاء القوم جاءوا بعد قوم نوح عليه السلام، وفي مطلع هذه الآيات بعد الفراغ من الحديث عن قوم نوح يقول: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾،كما احتجوا بمجيء قصة هود على أثر قصة نوح في الاعراف وهود والشعراء، ونسبه الزمخشري والرازي لابن عباس وهو قول أكثر المفسرين[(١)].

الثاني: أنهم صالحٌ عليه السلام وثمود، لأن قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة، وأما عاد فأهلكوا بالريح، وهو قول الطبري، حيث يقول: «وعنى بالرسول في هذا الموضع: صالحًا، وبقومه: ثمود»[(٢)].

وبه قال ابن جزي[(٣)]، ورجحه ابن عاشور للأدلة المذكورة[(٤)] ولقوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون:٤٠].

مع قوله في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر:٨٣].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٧٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩ / ٢٨.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٤٩-٥٠.

فكان هلاكهم في الصباح وللإجابة عن سؤال متوقع لماذا خصهم بالذكر دون عاد وهم الذين جاءوا بعد قوم نوح فقال:« ولعل تخصيصهم بالذكر هنا دون عادٍ خلافًا لما تكرر في غير هذه الآية لأن العبرة بحالهم أظهر لبقاء آثار ديارهم بالحجر كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

كما رجحه الشيخ السعدي فقال: «الظاهر أنهم « ثمود » قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم»[(١)].

وفات هؤلاء العلماء عليهم رحمة الله ما وقع من التشابه في جزء من عقوبة كل من عاد وثمود وهي الصاعقة، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت:١٣]. مع انفراد كل بما اختصت به.

وذكر القرطبي القولين مع دليل كلٍ ثم قال: «وممن أخذ بالصيحة أيضًا أصحاب مدين قوم شعيبٍ، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم»[(٢)].وذكر فريق من المفسرين القولين من غير ترجيح[(٣)].

الثالث: جائز أن يكونوا قوما آخرين غير عاد وثمود وذلك لعدم وجود دليل قطعي يرجح أحدهما على الآخر، ولدلالة القرآن على وجود أمم كثيرة لم تذكر أسماؤها في القرآن منتشرين على مر الزمان من لدن نوح عليه السلام إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم:٩].

«قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ نفى العلم بهم، وذلك يقتضي نفي العلم بذواتهم»[(٤)].

وقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٧-٣٩].

«وفي قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ إضافة للكثير من الأقوام الضالين، الذين احتواهم الزمن بين قوم نوح، وبين عاد وثمود وأصحاب الرس فهناك كثيرون من الرسل، قد بعثهم الله سبحانه وتعالى إلى أقوام عديدين، في تلك الحقبة، بين

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٢١.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٦٨.

نوح، وبين عاد وثمود وأصحاب الرس وأن هؤلاء الأقوام لم يختلف موقفهم مع رسلهم، عن موقف عاد وثمود وأصحاب الرس، من رسلهم»[1].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

حيث ترك ذكر أمم كثيرة لم يقص خبرها، وأمم لم يتتبع تفاصيل أحداثها، اكتفاء بما ذكر لتشابه المضامين والمقاصد في دعوات الرسل وتشابه المواقف في ردود أقوامهم ونهاياتهم.

وتتبع هذه السورة بيان موقف الناس على مر الزمن من دعوة الرسل يقول سيد قطب رحمه الله: «ينتقل في هذا الدرس من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، إلى حقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعا ويبين كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التي لا تتبدل على مدار الزمان، وتعدد الرسالات، وتتابع الرسل، من لدن نوح عليه السلام فإذا نحن نشهد موكب الرسل، أو أمة الرسل، وهم يلقون إلى البشرية بالكلمة الواحدة، ذات المدلول الواحد، والاتجاه الواحد، حتى ليوحد ترجمتها في العربية-وقد قيلت بشتى اللغات التي أرسل بها الرسل إلى أقوامهم- فإذا الكلمة التي قالها نوح عليه السلام هي ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين، فتجيب البشرية جوابا واحدا، تكاد ألفاظه تتحد على مر القرون!»[2].

ثم يقول: «إن استعراض قصص الرسل في هذه السورة ليس للتقصي والتفصيل إنما هو لتقرير الكلمة الواحدة التي جاء بها الجميع، والاستقبال الواحد الذي لقوه من الجميع. ومن ثم بدأ بذكر نوح عليه السلام ليحدد نقطة البدء وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة. ولم يذكر الأسماء في وسط السلسلة الطويلة، كي يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية. إنما ذكر الكلمة الواحدة في كل حلقة والاستقبال الواحد، لأن هذا هو المقصود»[3].

ولشدة التشابه بين هذه الأمة وكل من عاد وثمود وقعت الحيرة عند المفسرين بأنها هذه أو هذه. ويميل الباحث إلى ترجيح القول الثالث؛ لأن القرآن لو أراد أن يحدد هذه الأمة على وجه التخصيص لنصب من العلامات ما يقطع ببيان هويتها لو كان الغرض من إيرادها لا يتحقق إلا بذلك، كما أن هذه القصة انفردت بالكشف عن منهج

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ١٠/ ٢٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٦٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٦٦.

المترفين من دعوة الإصلاح، الذين لم يرد التصريح به في قصة كل من عاد وثمود.

ثالثًا: الآيات التي تحمل التعقيبات:

أما التعقيبات ففي سور إبراهيم، وص، والحج، والتوبة.

ففي سورة إبراهيم قال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيّٞ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩ ﴾ [إبراهيم:٨-٩].

حيث يحذر موسى عليه السلام قومه من تكذيب الرسل وما يترتب عليه من عواقب وخيمة، جاعلا ما حل بهذه الأقوام عبرة ومثلا.

وفي سورة التوبة قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٧٠ ﴾ [التوبة:٧٠].

حيث تعقب هذه الآية من السورة على موقف المنافقين، وتحمل الظالمين مسؤولية ظلمهم في عدم انتفاعهم بالرسل وبيناتهم، وكانت هذه السورة من أواخر السور المدنية نزولا وهي تتحدث في مقطع منها عن المنافقين وتكشف عما تنطوي عليه نفوسهم من الفسق والحرص على الدنيا والغفلة عن الله تعالى، فيفتنون عن مصدر القوة والنعمة الحقيقية، ويحرمون من الانتفاع بسيد الرسل وما جاء به من البينات القاطعة، فيعقب القرآن على موقفهم جاعلًا لهم عبرة فيمن سبق من الأمم.

فإن «هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة، ليست جديدة، ففي تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال. ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز. ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة، بعد ما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم في هذه الأرض. وكانوا أشد قوة وأكثر أموالًا وأولادًا فلم يغن عنهم من ذلك كله شيء.

والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم، ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم. لعلهم يهتدون ويلتفت السياق من خطابهم إلى خطاب عام، كأنما يعجب من هؤلاء الذين يسيرون في طريق الهالكين ولا يعتبرون»[1].

وفي سورة الحج: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٧٣-١٦٧٤.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج:٤٢-٤٤].

حيث ذكرت مع مجموعة من الأمم التي كذبت الرسل في سياق التعقيب على موقف قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب ومقاتلة وإخراج للمؤمنين من ديارهم فلم تفلح ووعده بالنصر والغلبة عليهم مسليا له ومعلما بسنة الله في المكذبين في إملائهم ثم أخذهم.

قال الإمام الرازي:« اعلم أنه تعالى لما بين فيما تقدم إخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق، وأذن في مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين أن لله عاقبة الأمور، أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره، فقال: وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الأمم أنبياءهم، وذكر الله سبعة منهم»[1].

وفي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص:١٢-١٤].

مبينا التلازم المطرد بين تكذيب الرسل وتحقق العقاب من الله.

هذه هي السور التي تحدثت عن هود عليه السلام أو عنه وعن قومه، وكلها كما ترى سور مكية، وهو الغالب على قصص الأنبياء عليهم السلام باستثناء تعقيبين في سورة الحج التي جمعت بين المكي والمدني، والتوبة المدنية.

ولا يفوتنا أن نذكر ورود ذكر عاد في سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون محذرا قومه من عاقبة تكذيب المرسلين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر:٣٠-٣١].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٣١.

مظاهر انحراف قوم هود

تحدث القرآن الكريم عن مجموعة من مظاهر الانحراف في قوم هود عليه السلام، والتي منها:

أولًا: تقليد الآباء في عبادة الأصنام:

قال محمد بن إسحاق: «وكان من حديث عادٍ فيما بلغني والله أعلم أنهم كانوا قومًا عربًا، وكانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله؛ صنمٌ يقال له: صداءٌ، وآخر يقال له: صمودٌ، وصنمٌ يقال له: الهباء، فبعث الله عز وجل لهم هودًا فأمرهم أن يوحدوا الله، ولا يجعلوا معه إلهًا غيره، وأن يكفوا، عن ظلم الناس»[1].

وقال ابن كثير: «كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: صدا، وصمودا، وهرا»[2].

فلما دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده أنكروا عليه أن يدعوهم إلى ما يخالف ما كان عليه آباؤهم وقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حبًا لما نشؤوا عليه، وإلفًا لما صادفوا آباءهم يتدينون به»[3]. ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف:٧٠].

«والمعنى: أجئتنا لأجل أن نعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا معه من الأولياء والشفعاء فنحقرهم ونمتهنهم برميهم بالكفر، ونحقر أولياءنا شفعاءنا عند الله بترك التوجه إليهم عند التوجه إليه وهم الوسيلة، وهو المقصود بالدعاء والاستغاثة بهم التعظيم لصورهم وتماثيلهم وقبورهم والنذر لهم وذبح القرابين عندهم؟ وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم؟ استنكروا التوحيد، واحتجوا عليه بما أبطله الشرع والعقل من التقليد»[4].

ومما يؤكد اتباعهم للآباء في عقيدتهم قول هود عليه السلام: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف:٧١].

حيث نسب تسمية الآلهة التي يعبدونها لهم ولآبائهم. وهم من الأمم التي كذبت رسلها جمودا على تقليد الآباء، فلا يقبلون جديدا ولو كان أهدى مما كان عليه آباؤهم، معرضين عن كل حجة ولو كانت مثل وضح

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٠٨، رقم ٨٦٤٦.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ص١٢١.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١٧.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٤٣.

الشمس.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾ [الزخرف:٢٣-٢٥].

ثانيًا: الاغترار بالقوة والمال:

قال تعالى مخبرًا عن قول هود عليه السلام لقومه: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١].

في هذه الآيات يكشف هودٌ عليه السلام عن الأحوال التي كان عليها قومه، منكرا عليهم صنيعهم لما فيها من مظاهر الفساد والعلو والإمعان في الغفلة، وهذه الأعمال وإن كانت في أصلها مشاريع نافعة، ولكن المنكر في تحويلها عن مسارها واستعمالها في غير غايتها وهي ثلاثةٌ:

فأولها قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ الريع: وهو المكان المرتفع، ومنه قوله كم ريع أرضك وهو ارتفاعها[1].

«قال النحاس: ومعروف في اللغة أن يقال لما ارتفع من الأرض ريع وللطريق ريع»[2].أو الفج بين جبلين. والآية: العلم، أو العلامة «وتطلق الآية على المصنوع المعجب لأنه يكون علامةً على إتقان صانعه أو عظمة صاحبه»[3].

والمعنى يحتمل أربعة وجوه:

أحدها: الريع هو المكان المرتفع: عن ابن عباسٍ أنهم كانوا يبنون بكل ريع علما، أي: أنهم يبنون في كل مكان مرتفع مشرف بناء شامخا كالقصر ونحوه فيكون بارزا ظاهرا للسائرين أو للناظرين، ولما كانوا مبالغين في هذا الفعل لكثرته وفشوه فيهم كما يدل على ذلك لفظ: (كل)، وكانوا غير محتاجين إليه كان فعلهم عبثا لا طائل منه لا ينتفع به، فلا يقصد به إلا التفاخر والتعالي.

الثاني: الريع: الطريق، لذا ذهب فريق إلى أنهم كانون يبنون على كل الطرق الواقعة تحت سلطانهم بناء يتخذونه مرصدا للمارة يعبثون فيه بمن يمر في الطريق إلى هودٍ عليه السلام، أو يعبثون بمن يمر في الطريق عموما-وهو الأولى:فيسخرون منهم.

والثالث: أخذ من تغليب معنى: ﴿ءَايَةٗ﴾ وهي العلامة وحملوها على المعالم التي يهتدي بها السائرون فقالوا: إنهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٦٧.

طريقهم أعلامًا طوالًا فكان ذلك عبثًا لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم[1].

ذهب ابن عاشور أن هذه المعالم كانت في الأصل لغرض صحيح ثم تحولت عنه إلى العبث فقال: «فمن سابق أعمال عاد أنهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل السائرون في تلك الرمال المتنقلة التي لا تبقى فيها آثار السائرين واحتفروا وشيدوا مصانع للمياه وهي الصهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونا وقصورا على أشراف من الأرض، وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها لأن فيها حفظ الناس من الهلاك في الفيافي بضلال الطرق، ومن الهلكة عطشا إذا فقدوا الماء وقت الحاجة إليه، فمتى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبيده كانت جديرة بالثناء عاجلا والثواب آجلا»[2].

ثم قال: «فأما إذا أهمل إرضاء الله تعالى بها واتخذت للرياء والغرور بالعظمة وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله انقلبت عظمة دنيوية محضة لا ينظر فيها إلى جانب النفع ولا تحث الناس على الاقتداء في تأسيس أمثالها وقصاراها التمدح بما وجدوه منها. فصار وجودها شبيها بالعبث لأنها خلت عن روح المقاصد الحسنة فلا عبرة عند الله بها لأن الله خلق هذا العالم ليكون مظهر عبادته وطاعته»[3].

الرابع: بنوا بكل ريع: بروج الحمام دليله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: تلعبون، أي تبنون بكل مكانٍ مرتفعٍ آيةً علمًا تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها[4].

وإنما صار فعلهم هذا مذمومًا لدلالته إما على السرف، أو على الخيلاء. أقول: وتخصيص البناء ببروج الحمام أخذا من لفظ تعبثون تخصيص بلا مخصص فإن العبث لا يقتصر على اللعب بالحمام.

وثانيها: قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. «والمصانع: جمع مصنع وأصله مفعلٌ مشتقٌ من صنع فهو مصدرٌ ميميٌ وصف به للمبالغة، و«الصنع: إجادة الفعل ويعبر عن الأمكنة الشريفة بالمصانع»[5].

والمصنع ما يصنع لجمع الماء نحو البركة والصهريج والمصنعة بالهاء لغةٌ والجمع مصانع[6]. فقيل: «هو الجابية المحفورة في الأرض»[7]،وقيل «المصانع مآخذ الماء،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٢٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٣.
(٥) المفردات، الراغب ص ٤٩٣.
(٦) المصباح المنير، الفيومي ٣/ ٣٤٨.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٦٧.

وقيل: مآخذ للماء ومجاري تحت الأرض أو برك الماء، وهذه المعاني كلها تتعلق بالماء جمعا وتخزينا وتوزيعا. وقيل القصور المشيدة والحصون المحكمة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد»[1].

ويبدو كذلك من قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ إذا حملنا معنى مصانع على مدلولها اللغوي دون تخصيصها بما يتعلق بالمياه فإن عادا كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا يستحق أن يذكر حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور، وتشييد العلامات على المرتفعات وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت، ووقايتهم من مؤثرات الجور ومن غارات الأعداء[2].

وإنما صار هذا الفعل مذمومًا لدلالته على الأمل الطويل والغفلة التامة عن الآخرة مع الإقبال على الدنيا ونسيان أنها دار ممرٍ لا دار مقرٍ.

وثالثها: قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، «البطش: التناول عند الصولة. والأخذ الشديد في كل شيء: بطش به»[3].

و«أصل الجبر: إصلاح الشيء بضرب من القهر، يقال: جبرته فانجبر واجتبر والإجبار في الأصل: حمل الغير على أن يجبر الآخر لكن تعورف في الإكراه المجرد والجبار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم، كقوله عز وجل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم:٣٢].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢].

وقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

أي: متعال عن قبول الحق والإيمان له»[4].

فهود عليه السلام يخاطب قومه في هذه الآية زاجرا لهم عن فعل مذموم في طريقة استعمال القوة التي تميزوا بها، قال الرازي: «بين أنهم مع ذلك السرف والحرص فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، وهذا الوصف في العباد ذم وإن كان في وصف الله تعالى مدحا فكأن من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بأن بطشه بطش جبار[5]. والمعنى: أنكم إذا بطشتم بآلة من آلات

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٠٩.
(٣) العين، الفراهيدي ٦/ ٢٤٠.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٨٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣.

الضرب كسوط أو سيف كان ذلك ظلما وعلوا لا رحمة فيه، استجابة لأتفه دواعي الغضب. مع المبادرة والتعجيل دون إنظار ولا إمهال ولا تثبت في استحقاق المبطوش به، ولا تفكر في العواقب[1]. وذلك لفرط قوتهم واستهانتهم بالضعفاء من الخلق.

«وحاصل الأمر في هذه الأمور الثلاثة أن اتخاذ الأبنية العالية، يدل على حب العلو، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو، فيرجع الحاصل إلى أنهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الإلهية، وهي ممتنعة الحصول للعبد، فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية»[2].

وهكذا يضع هود عليه السلام يده على العلل الجوهرية لفساد القوم وضرورة معالجتها.

معالم دعوة هود عليه السلام

جاءت دعوة هود عليه السلام واضحة المعالم، مكتملة الأصول والفروع، متناسبة مع حال قومه، تعالج واقعهم، وتحمل الدواء الكافي والملائم لعللهم ومظاهر فسادهم، كما كان هود عليه السلام متصفا بصفات تؤهله لمواجهة ما بلغه قومه من العتو والتكبر، وما هم عليه من قدرات عقلية جعلتهم على مستوى عال من القدرة على المناظرة والمحاجة، ولا شك أن الله تعالى أعده وأهله لهذه المهمة الخطيرة؛ فإن النبوة اصطفاء وإعداد رباني، من لوازمها الفطنة والذكاء، ولا يكلف الله تعالى إلا من اصطفاه وأعده ليكون على قدر الموقع الذي وضعه الله تعالى فيه.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

ويمكن أن نبين معالم دعوة هود عليه السلام وأصولها وفروعها وأسلوبه في الدعوة، وقدرته على أداء رسالته من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الدعوة إلى الإيمان بالله وحده:

أرسل الله تعالى إلى عاد أخاهم هودا فهو واحد من أنفسهم! مطلع على واقعهم بصير بأعمالهم وابن بيئتهم ليفهموه، ويفهم منهم، فيكون أقدر على معالجة أحوالهم.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣.

فهم يعرفونه ويعرفون شمائله وأخلاقه، فيكون ذلك أدعى إلى تصديقه[1].

وقد بنيت دعوته عليه السلام على أسس عقائدية ثلاثة هي التي قامت عليها جميع رسالات الأنبياء وهي:

١. الدعوة إلى الإيمان بالله وعبادته وحده وترك كل ما ابتدعه الناس من آلهة باطلة.

حمل هود عليه السلام لواء الدعوة إلى الله تعالى في زمانه، متوافقا مع الأساس الذي قامت عليه دعوة الأنبياء من قبله ومن بعده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولقد كان هود عليه السلام علما من سلسلة الأنبياء الذين تعاقبوا في تاريخ البشرية داعين إلى الله، سبقه فريق منهم واستمرت قافلة الإيمان من بعده.

قال تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف:٢١].

قال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية: «قد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده بإنذار أممها ألا تعبدوا إلا الله والمعنى: لم يبعث رسولٌ قبل هود ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده»[2].

وعلى هذه الحقيقة قامت دعوة هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف:٦٥] وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠﴾ [هود:٥٠].

وقال: ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾ [الأحقاف:٢١].

وهي دعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له مصحوبة بدليلها وبرهانها، فقوله ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ جوهر الحقيقة التي هي مفتاح صلاح حالهم واستقامة أمرهم، ووقوفهم على الحق الذي ما سواه باطل وضلال، فإن العبادة لا تنبغي إلا له وحده، والبرهان على هذه الدعوى قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ فهي الحقيقة الواضحة التي لا ينكرها عاقل، ولا تخفى على ذي لب؛ فهل في الوجود إله تفرد بكل خصائص الألوهية من خلق وإيجاد ورعاية وإمداد وتدبير للكون كله سمائه وأرضه غير الله؟ وهل من معبود يصلح أن يعبد سواه؟

وهذه الدعوة مع برهانها تتضمن ترك كل ما يعبدون من آلهة مفتراة لا تحمل من مقومات الألوهية ومعانيها شيئا، وهي آلهة

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي ١/ ٧٢٩.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٠.

ظاهرة البطلان مخلوقة عاجزة، عابدها في ضلال مبين، متذلل لما لا يستحق التعظيم غافل عمن يستحقه. «﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم شيئا دونه، وهو الإله الذي لا إله لكم سواه»[1].

قال الإمام الرازي: «اعلم أن هودا عليه السلام دعا قومه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالدليل القاطع وذلك لأنه بين أن نعم الله عليهم كثيرة عظيمة وصريح العقل يدل على أنه ليس للأصنام شيء من النعم على الخلق لأنها جمادات والجماد لا قدرة له على شيء أصلا وظاهر أن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله وأن لا يعبدوا شيئا من الأصنام. ومقصود الله تعالى من ذكر أقسام إنعامه على العبيد هذه الحجة التي ذكرها ثم إن هودا عليه السلام لما ذكر هذه الحجة اليقينية لم يكن من القوم جواب عن هذه الحجة التي ذكرها إلا التمسك بطريقة التقليد فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠]»[2].

وقد تولى هود عليه السلام كشف ضلالهم وضلال آبائهم وفرط جهالتهم في اتخاذ آلهة ظاهرة البطلان، وأنها مجرد أسماء فارغة مجردة من أي من صفات الألوهية وخصائصها حين قال: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف:٧١].

حيث أنكر عليهم مجادلتهم في آلهة ظاهرة البطلان تحمل أسماء اختلقوها هم وآباؤهم؛ «وذلك لأنهم كانوا يسمون الأصنام بالآلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدومٌ، وهذا صنيع الكافرين حيث سموا واحدًا منها بالعزى مشتقًا من العز والله ما أعطاه عزًا أصلًا، وسموا آخر منها باللات وليس له من الإلهية شيءٌ»[3].

وقال ابن جزي: «أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها يعني الأصنام: أي تجادلونني في عبادة مسميات أسماء، ففي الكلام حذف، وأراد بقوله: سميتموها أنتم وآباؤكم جعلتم لها أسماء، فدل ذلك على أنها محدثة، فلا يصح أن تكون آلهة، أو سميتموها آلهة من غير دليل على أنها آلهة، فقولكم باطل. فالجدال على القول الأول في عبادتها، وعلى القول الثاني في تسميتها آلهة»[4].

«وقوله: ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ عبارةٌ عن خلو مذاهبهم عن الحجة والبينة»[5].

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٢.
(٣) المصدر السابق ١٤/ ٣٠٣. بتصرف.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٩٣.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٣.

وقد جعل هود عليه السلام الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده منطلقا إلى عناصر العقيدة، وركيزة إلى منهج الحياة.

فمرة ربط الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده بالتقوى التي يراد بها الاستقامة على أمر الله بطاعته وطلب رضوانه، والحذر من معصيته المفضية إلى التعرض لغضبه وعقابه، فقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف:٦٥].

وقال: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٣٢].

ومرة أخرى قرنها بالتحذير من الكذب وجعلها مدخلا للزجر عن الافتراء الذي تقوم عليه حياتهم ومعتقدهم، وهو ادعاء ما لا علم لهم به، ولا دليل عليه مما هو ظاهر بطلانه ومخالفته للحق فقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود:٥٠].

قال الرازي في تفسير هذه الآية: «يعني: أنكم كاذبون في قولكم: إن هذه الأصنام تحسن عبادتها، أو في قولكم: إنها تستحق العبادة، وكيف لا يكون هذا كذبا وافتراء وهي جمادات لا حس لها ولا إدراك، والإنسان هو الذي ركبها وصورها فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيما لها»[1].

ومرة أخرى جعله مدخلا للدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر والتحذير من عواقبه، فقال: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحقاف:٢١].

وجعلها كذلك المستند لإدراك مفهوم النبوة وقيمتها وفضلها وأهميتها في اعتمادها الطريق الوحيد للفوز برضوان الله فلا سبيل للنجاة إلا بطاعة نبيهم، فهو دليلهم الهادي إلى ما ينجيهم من سخط الله ويوصلهم إلى أبواب رضوانه ورحمته وهي الأساس الثاني من الأسس العقدية لدعوة هود عليه السلام، حيث قال: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٥-١٢٦].

وهكذا يبرز هود عليه السلام أن عقيدة التوحيد هي الأساس الذي يبنى عليه كل صلاح.

٢. الإيمان بالنبوة ولوازمها.

لقد أرسل الله تعالى هودا رسولا إلى قومه كما أخبر عن ذلك في آيات عديدة منها تصريحا باسمه كما في سورتي الأعراف وهود، حيث قال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف:٦٥].

(١) المصدر السابق ١٨/ ٣٦٣.

عطفا على قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٩].

أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود:٥٠]عطفا على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [هود:٢٥].

ومنها بصفته من حيث صلته مع قومه كما في الأحقاف حيث قال: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف:٢١].

وذكره في عداد الرسل كما في سورة فصلت، حيث قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [فصلت:١٣-١٤].

وجعل هود عليه السلام الدعوة إلى النبوة والرسالة ومقتضياتها من العناصر الأساسية في دعوته لقومه كما هي في دعوة كل نبي إعلانا للحقيقة التي اختاره الله تعالى لها، ولا بد من إعلامهم بهذه الحقيقة بصراحة ووضوح مع إقامة الحجة وإظهار البينة حتى يقع الإلزام بالاستجابة إليه وطاعته فيما يأمر وينهى، فما هو إلا مبلغ عن الله تعالى. وقد جاءت هذه الحقيقة واضحة في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الشعراء:١٢٤-١٢٧].

وفي موضع الرد على تسفيههم له يقول: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٧-٦٩].

وقد تضمنت هذه الآيات عدة أمور تتعلق بالرسالة والرسول؛ من حيث حقيقتها ودليلها وصفات الرسول والرد على شبهات القوم حولها.

فحقيقتها أنه رسول من رب العالمين، أي: الله أرسلني فأتلقى الوحي والعلم منه، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤديها إليكم كما أمرني أن أؤديها. وجاءت في سياق الرد على وصفهم له بالسفه فقال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استدراكٌ مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في الغاية القصوى من الرشد والأناة والصدق والأمانة، فإن الرسالة من جهة رب العالمين موجبةٌ لذلك حتمًا؛ كأنه قيل ليس بي شيء مما نسبتموني إليه ولكني في غاية ما يكون من الرشد والصدق[1] ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ وما علي إلا أن أبلغكم على أتم وجه رسالات ربي التي أوحاها إلي لما فيها من سوق الخير إليكم ودفع الشر عنكم.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٨.

«وتخصيص ربوبيته تعالى له عليه السلام بعد بيان عمومها للعالمين للإشعار بعلة الحكم الذي هو تبليغ رسالته تعالى إليهم فإن ربوبيته تعالى له من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته»[1].

«وجمع الرسالات مع أن رسالة الأنبياء واحدة رعاية لاختلاف أوقاتها، أو تنوع المعاني التي فيها، أو باعتبار حاملها، أي: أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس وشيث عليهما السلام»[2].

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ «قال الأصمعي: الناصح: الخالص من العسل وغيره، وكل شيء خلص فقد نصح»[3].

فمعنى: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ أي: أخلص النية لكم عن شوائب الفساد. وذلك أني أتحرى ما فيه صلاحكم بناء على أن النصح تحري ذلك قولا أو فعلا، وقيل: هو تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه، والمعنى هنا: أبلغكم أوامر الله تعالى ونواهيه بصدق وأمانة لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبدل، بل أبلغ ما أمرت كما أمرت»[4]. وأرغبكم في قبولها وأحذركم عقابه إن عصيتموه[5].

وعبر عنها بصيغة اسم الفاعل وذلك؛ «أن القوم رموه بالسفاهة وهي من صفات النفس وصفات النفس ثابتة، يتولد عنها الخفة، والعجلة المذمومتين، وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت، يتولد عنه الأناة المحمودة، فأجابهم بصيغة الاسم الدال على ثبات النصح والاستمرار فيه»[6].

وجيء باللام هنا في: ﴿لَكُمْ﴾ لإفادة أنهم مخصوصون بالنصيحة، فالنصح لهم وليس لغيرهم؛ بمعنى: أن نفعه يعود عليهم لا عليه عليه السلام وهذا مبني على أن اللام للاختصاص لا زائدة[7].

واحتج على صدقه في رسالته بتجرده وقطع طمعه عن مكاسب الدنيا أو منازعتهم ومنافستهم على ما في أيديهم من متاعها، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود:٥١].

ما من رسول إلا كانت غايته نزيهة سامية نبيلة، وكثير منهم واجه قومه بهذا القول، لأن شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع، كما أن الدعوة إلى الله تعالى إذا كانت مطهرةً عن دنس الطمع، قوي تأثيرها في القلب.

(١) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٩٠- ٣٩١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٤٧. بتصرف.
(٣) الصحاح، الجوهري ١/ ٤١١.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٤.
(٥) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٩٠-٣٩١.
(٦) درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي ٢/ ٦٠٥. بتصرف.
(٧) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٩١.

ثم وجه إليهم سؤالا إنكاريا بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾،داعيا إياهم إلى استعمال عقولهم لمعرفة المحق من المبطل والمصيب من المخطئ[1]. محذرًا من رد نصيحة من لا يطلب عليها أجرًا إلا من الله، وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك[2].

ثم دخل إلى إعماق نفوسهم ببراعة فائقة ليطارد فيها أسباب التكذيب والإعراض عن دعوته، كاشفا أن ذلك لا يقوم على مستند أو دليل تقوم به الحجة وإنما هو مجرد الاستبعاد والاستغراب الذي سرعان ما يتبدد أمام الفكر الحر والتدبر السليم لمن كان عاقلا فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٩].

أي: « استبعدتم وعجبتم أو أكذبتم وعجبتم أو أنكرتم وعجبتم ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: وحي وموعظة على رجل منكم أي: على لسان رجل منكم تعرفونه، ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه أو لا تعرفون لغته، وقيل: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى: مع، أي: مع رجل منكم لأجل أن ينذركم به ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ ما يخالفه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسبب ما يفيده الإنذار لكم والتقوى منكم من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم»[3].أو على رجلٍ منكم أي: من جملتكم، أو من جنسكم وكانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤]»[4].

وهكذا جعل هود عليه السلام الدعوة إلى النبوة وإقامة البرهان على ثبوتها هي الخطوة الثانية للإصلاح.

٣. الإيمان باليوم الآخر.

الإيمان باليوم الآخر وما يترتب على ذلك من حسن الاستعداد له بالعمل الصالح واستثمار الحياة الدنيا فيما يحقق حسن الاستخلاف الذي ابتلي به الإنسان في دار البلاء وأنه سيحاسب على أعماله فيها، وأن الآخرة هي دار الجزاء هو الأساس الثالث لدعوة هود عليه السلام. وقد حذر هود عليه السلام قومه من عاقبة هذا اليوم واصفا إياه بأنه يوم عظيم.

قال تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف:٢١].

وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء:١٣٥].

فما كان منهم إلا التكذيب بهذا اليوم

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٣٨.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٠٢.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٤٧.
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٢٢٩.

الذي وصفه الله تعالى بالقارعة فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ [الحاقة:٤].

ثم ذكر تكذيبهم الإجمالي المتضمن للتكذيب بكل ما جاء به هود عليه السلام من الإيمان بالله تعالى، وبنبوة هود عليه السلام المتضمنة للتكذيب بالرسل جميعا، ثم التكذيب باليوم الآخر. ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨﴾ [القمر:١٨].

وكيف جعلهم الله عبرة لكل مكذب بالرسل[1].

ومما يدل على تبليغ هود عليه السلام قومه حقيقة اليوم الآخر والتحذير من عواقبه ما جاء في سورة المؤمنون - عند من يرجح أنها في قوم هود-من تكذيبهم بلقاء الله وعرض شبههم التي تشبثوا بها في تبرير تكذيبهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٨].

فالقوم مكذبون بالآخرة مكذبون بالبعث بعد الموت مستبعدون أن يعودوا للحياة بعد أن يصيروا ترابا وعظاما. وقد تولى الإجابة المترفون من قومه كما هي سنتهم يحملون كبر تكذيب الرسل وتنفير العامة منهم؛ قائلين على سبيل الاستفهام الإنكاري التكذيبي:«أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابًا في قبوركم، وعظاما قد ذهبت لحوم أجسادكم، وبقيت عظامها أنكم مخرجون من قبوركم أحياء، كما كنتم قبل مماتكم؟»[2].

وكل ذلك يدل على أن دعوة هود عليه السلام إلى الإيمان باليوم الآخر وما يجري فيه من حساب كانت واضحة بينة، كذب بها القوم وجحدوها كما فعل من قبلهم ومن بعدهم من الكافرين.

ومع الجهود المضنية المتواصلة التي بذلها هود عليه السلام واستفرغ لها حياته كلها بما أوتي من فصاحة وحجة لم يؤمن به إلا قليل، وقد استدل الزمخشري على أنه استجاب له بعض أشرافهم من نظم الآية في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٦٦].

فقال: «فإن قلت: لم وصف الملأ الذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٨٥.

(٢) المصدر السابق ١٩/ ٢٩.

سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن»[1].

وهكذا كان الإيمان باليوم الآخر وتهيئة النفوس لتحمل مسؤولية إعمالها وما يترتب على ذلك من الثواب والعقاب هي الركيزة الثالثة للإصلاح.

ثانيًا: الدعوة إلى الإصلاح:

تقدم الحديث عن مظاهر الفساد عند عاد من خلال قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١].

وهذه الآيات مع ما تحمله من الدلالة على ما بلغته عاد من الحضارة المادية، فإنها تكشف عن مظاهر الفساد وصورة الانحراف عن المنهج السليم في استثمار المنجزات الحضارية والقوة المادية التي يحققها الإنسان إذا هيأ الله تعالى له أسباب التمكين في الأرض.

كما تحمل لنا بيان منهج هود عليه السلام في الإصلاح، حيث لم تقتصر دعوته عليه السلام على القضايا الدينية العقدية، وإنما وجه نظره إلى تصويب قومه وتصحيح مسارهم في سائر مرافق الحياة، حيث لا فصل للدين عن الحياة في رسالات الأنبياء عليهم صلاة الله وسلامه.

«فينكر عليهم الترف في البنيان لمجرد التباهي بالمقدرة، والإعلان عن الثراء، والتكاثر والاستطالة في البناء من غير حاجة إليه، كما ينكر غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا، وما يسخرونه فيها من القوى، كل ذلك مع غفلتهم عن تقوى الله ورقابته، والاستعداد للقائه، حيث قال منكرا عليهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾؟، وكان القصد من ذلك هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثم سماه عبثا. ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: «تعبثون» فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة»[2].

كما ينكر عليهم اتخاذ المصانع وهي صهاريج المياه مع وسائل جمعها وتصريفها وما تحققه من الرفاهية والنعيم والمتعة بما يجعل همهم منصرف إلى الدنيا مقبلين عليها بكل طاقاتهم مع كمال الغفلة عن الآخرة حيث تنصرف النفوس عن أي عمل خير مجرد عن مطامع الدنيا، أو التقصير فيه، أو محاسبة النفس على فعل الشر، حتى

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٠٩.

غلب عليهم الوهم بأنهم مخلدون.

كما أنكر عليهم طريقة استعمالهم لما تميزوا به من قوة فإذا بطشوا بطشوا بطشة الجبارين من غير رحمة ولا حق.

فهود عليه السلام لم ينكر على قومه المباني التي تكون مظنة النفع في الإيواء وعلامات لهداية المارة في مجاهيل الصحراء لإرشادهم. ولا اتخاذ المصانع التي تحقق جمع الماء عند نزول الأمطار وتخزينه واستثماره وقت الحاجة، فهو سر الحياة وحفظ الأنفس ووسيلة الخصب والنماء.

ولم ينكر عليهم امتلاك القوة الذي قد يكون أحيانا في موضعه مع من يستحقه، ولكنه ينكر عليهم تحويل مسار هذه المنافع في غير وجهها فلا تكون المباني والإكثار منها لغير حاجة إلا للعبث والإمعان في الغفلة والتفاخر والتباهي، كما ينكر اتخاذ المصانع التي تهيء لهم أسباب الترف والانغماس في التنعم، غافلين عن شكر الله على هذه النعم، ممعنين في الاغترار بالدنيا غافلين عن الآخرة، ليس لهم هدف ولا مطلب شريف، وكذلك استعمال القوة في غير موضعها دون رحمة أو حكمة.

بهذا يضع يده على العلة الحقيقية التي يعاني منها قومه من انطواء نفوسهم على السوء لا يعرفون إلا التفاخر لا يدركون للحياة هدفا ولا غاية، مع قسوة القلب في التعامل مع من هو أضعف منهم، فلا خيرهم مأمول ولا شرهم مأمون.

ثالثًا: التذكير بنعم الله:

لما ذكر هودٌ عليه السلام ما كان عليه قومه من مظاهر الفساد كاشفا لهم عن عللهم وأسقامهم واستخدامهم لنعم الله في غير موضعها قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: احذروا غضب الله في جحود نعمته وعدم شكره، وأطيعون لأبين لكم طريق مرضاته وسبيل زيادة نعمته وذلك توجيها لهم إلى الآخرة؛ وزجرا لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر، ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول؛ وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالإجمال أولًا ثم التفصيل ثانيًا، فأيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:١٣٢].

ثم فصلها من بعد بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء:١٣٣-١٣٤].

ثم حذر من عقاب الله في حال التقصير والإعراض فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء:١٣٥].

فبلغ في دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية. فكان جوابهم

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء:١٣٦].

حيث أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده. وعبروا عن قلة مبالاتهم بقولهم: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ولم يكتفوا بالقول أوعظت أم لم تعظ مع أنه أخصر وظاهر المعنى واحدٌ، وذلك لما في تعبيرهم من زيادة إظهار اللامبالاة مع الاستخفاف بوعظه، فالمعنى ليس واحدًا، وبينهما فرق؛ «لأن المراد سواءٌ علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلًا من أهله، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أوعظت أم لم تعظ»[1].

والتذكير بالنعم من المداخل المهمة التي يقيم بها الأنبياء الحجة على الخلق في وجوب الشكر، وقد مضت سنة الله تعالى في الخلق أن يزيدهم بالشكر ويعاقبهم على الكفران بالنعم.

رابعًا: أخذ العبرة من مصير الأقوام المتقدمين:

مما يعطي الموعظة بلاغة في القول وتأثيرا في النفس تعزيزها بالأمثلة والنظائر، فلم تخل دعوة نبي من ضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٨-٣٩].

والمعنى: «وكلًا ضربنا له الأمثال بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين؛ إنذارًا وإعذارًا، فلما أصروا أهلكوا كما قال: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فتتناه تفتيتًا»[2]، وذلك لما فيه من الكشف عن سنن الله تعالى في الأمم؛ حيث جرت سنة الله تعالى بإرسال الرسل لإصلاح ما فسد من أحوال الأمم، وأيدهم بالآيات القاطعة بصدقهم، الكافية لإقامة الحجة على من عاندهم، فإن استجابوا اهتدوا وصلح حالهم، وإن كذبوا حل بهم ما حل بغيرهم من المكذبين مهما بلغت قوتهم أو طال أمدهم.

ولما كانت عاد من أوائل الأمم، ولم يذكر القرآن تصريحا قبلهم غير قوم نوح، كانت العبرة من قوم نوح أبلغ العبر؛ حيث حل بهم الطوفان الذي لم ينج منه إلا المؤمنون بنبيهم -أصحاب السفينة- فقال هود عليه السلام مذكرا بما حل بهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

ولا شك أنه يخاطبهم بما لهم به علم، ولا يخفى عليهم خبر قوم نوح.

وهذا التعبير يؤدي أغراضًا، منها تذكيرهم بما حل بقوم نوح من العذاب؛ إذ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٢٥.

عصوا رسولهم، وكفروا بربهم، فليتقوا الله أن يحل بهم نظير ما حل بهم من العقوبة، فيهلكهم ويبدل منهم غيرهم، سنته في قوم نوح قبلهم، على معصيتهم إياه وكفركم به»[1].

ومنها: التحديد الزماني من حيث إنهم جاءوا بعد قوم نوح أي: «فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم؛ لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها»[2]. ولا ينفك عن التحذير أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

خامسًا: الأمر بالاستغفار والتوبة:

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود:٥٢].

ثم قصد استمالتهم وترغيبهم في الإيمان من باب الإصلاح الجذري لما هم عليه من الفساد، وذلك بالإقلاع عن الباطل والالتزام بالحق الذي عبر عنه بقوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ آمنوا به ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ لما يترتب عليه من كثرة المطر وزيادة القوة، فقدم إليهم في باب الدعوة إلى الدين والترغيب فيه من خلال ما تصبوا إليه نفوسهم، وما كانت همتهم معقودة به؛ ليحصل في ضمنه الغرض الكلي والمقصود الأصلي وهو الفوز بالسعادات الأخروية[3].

وذلك من خلال التوجه إلى الله تعالى الذي بيده خزائن كل شيء بالاستغفار؛ وذلك بطلب المغفرة لما مضى من عبادة غيره، والتوبة إليه وذلك بالإقلاع عن ذلك فيما يستقبل، وذلك أن الدين يحقق لهم من المطالب أعز وأنفس مما يطلبونه بغير الدين، حيث يحقق لهم الكثرة والزيادة في الدنيا ويضمن لهم الفوز بالآخرة حين يقبل توبتهم ويغفر لهم.

وقد بين الإمام الرازي ما بين الاستغفار والتوبة من فروق فقال: «الوجه الأول: أن معنى قوله: وأن استغفروا اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم، ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة، فقال: ثم توبوا إليه لأن الداعي إلى التوبة والمحرض عليها هو طلب المغفرة، وهذا يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا بإظهار التوبة، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن المذنب معرضٌ عن طريق الحق، والمعرض والمتمادي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات، الذي هو محو الأوزار السالفة إلا بالإقلاع عن الأوزار المستقبلة فثبت أن الاستغفار مطلوبٌ بالذات، وأن التوبة مطلوبةٌ لكونها من متممات الاستغفار، وما

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥. بتصرف
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٣١.

كان آخرًا في الحصول كان أولًا في الطلب؛ فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة.

الوجه الثاني: في فائدة هذا الترتيب أن المراد: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه في المستأنف.

الوجه الثالث: وأن استغفروا من الشرك والمعاصي، ثم توبوا من الأعمال الباطلة.

الوجه الرابع: الاستغفار طلبٌ من الله؛ لإزالة ما لا ينبغي، والتوبة سعيٌ من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة؛ لأنها عملٌ يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه، والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمةٌ على الاستعانة بسعي النفس»[1].

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ وكأنه إنما خصص هذين النوعين من السعادات الدنيوية من كثرة المطر وزيادة القوة؛ لأن القوم كانوا حراصًا على جميع الأموال من وجوه العمارة والزراعة، فقد كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حراصًا عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء. وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة، مفتخرين بها ومستحرزين بها من العدو، مهيبين في كل ناحية»[2].

وقدم الأول؛ لأنه أصل جميع النعم، والثاني أصل في الانتفاع بتلك النعم»[3].

وفي هذا الأسلوب يسلك هود عليه السلام مع قومه سبيلًا رشدًا؛ حيث يتجنب محاربة مشاعرهم ومهاجمة عواطفهم، فهو يعلم مدى حرصهم على المال واعتزازهم بقوتهم، كما أن هذه الغرائز ليست مذمومة لذاتها وإنما الخلل في طريقة تعاملهم معها، فلو واجههم بطريق الذم والإنكار؛ لأحدث ردة فعل تزيدهم نفورًا، ولكنه سلك سبيلًا يوجههم فيه إلى حسن استخدام هذه المطالب فيما يحقق منافعها ويجنب مفاسدها؛ ترغيبا بزيادتها والمحافظة عليها، بدلًا من سلبها والحرمان منها. وذلك من خلال الإصلاح الذي عبر عنه بالاستغفار والتوبة[4].

وخلاصة هذا المنهج النبوي لهود عليه السلام أنه يسير بخطوات واضحة على بصيرة؛ حيث يحدد أسس البناء السليم الذي يريد إعلاءه، وعلل الفساد التي يريد اجتثاثها، ويدخل إلى النفوس من جميع المداخل المؤثرة بقوة وأسلوب حكيم غير

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٣١٥.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٠٢.

(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٣١، بتصرف.

(٤) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ٢٢٤- ٢٢٥.

منفر، واضعًا البدائل وما يترتب عليها من الثمرات.

موقف عاد من نبيهم ورده عليهم

أولًا: التكذيب والإنكار:

لم تختلف عاد عن الأمم الذين كذبوا الرسل، حيث ذكرهم القرآن في عداد أمثالهم من المكذبين في مواطن عديدة، منها قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق:١٢-١٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان:٣٧-٣٩].

وفي سورة إبراهيم قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم:٩].

كما قرن القرآن ذكر عاد مع ثمود في مواطن عديدة مع ما تشابهتا به في جرم التكذيب فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ [الحاقة:٤].

وفي مواطن خص عادا بالذكر مبرزًا موقفها من نبيها هود عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾ [القمر:١٨].

وأن تكذيبها به تكذيب بالأنبياء جميعًا فقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٥].

ووصفها هنا بتكذيب المرسلين؛ لأن دعوى المرسلين واحدة وموقفهم منهم جميعًا لا يتغير. وأما صيغة التكذيب كما جاء في السورة نفسها: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء:١٣٦-١٤٠].

وفي سورة المؤمنون-عند من يرجح أنها في قوم هود- أنكروا النبوة بحجة البشرية والمثلية قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٨].

أي: يقول الملأ للعامة تنفيرًا من اتباع رسولهم بحجة أنه بشر يماثلهم في البشرية ولوازمها مما يستبعد أن يكون مرسلًا من الله: كيف يبعث الله إلينا رسولًا من جنسنا، ويخصه بالرسالة دوننا، وهو إنسان مثلنا، يأكل مما نأكل منه من الطعام، ويشرب مما نشرب، فليس له فضلٌ ولا مزية علينا؛ لأنه محتاجٌ إلى الطعام والشراب مثلنا؟! وكيف لم يرسل الله ملكا من عنده يبلغنا رسالته؟! وذلك إمعانا منهم في تكذيبه في دعوى الرسالة؛ لتوهمهم أن البشرية تنافي أن يكون صاحبها رسولًا من الله.

ثم يزيدون في تحذيرهم من اتباع الرسول البشر من عواقب لا تحمد، إذ يعدونهم بأمور مستبعد حصولها فيقولون: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾، أي: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فاتبعتموه، وقبلتم ما يقول وصدقتموه ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها القوم ﴿إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أي: إنكم إذن لمغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة في الدنياباتباعكم إياه[1] بالعمل ليوم مستبعد الوقوع تاركين العمل لنيل نصيبكم من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٩٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٥٢.

حاضر دنياكم.

ويظهر كذلك اقتراحهم نزول الملائكة من خلال قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت:١٤].

والمعنى: «لو شاء ربنا أن نوحده، ولا نعبد من دونه شيئًا غيره؛ لأنزل إلينا ملائكة من السماء رسلًا بما تدعوننا أنتم إليه، ولم يرسلكم وأنتم بشر مثلنا، ولكنه رضي عبادتنا وما نعبد؛ فلذلك لم يرسل إلينا بالنهي عن ذلك ملائكة. ثم عقبوا على ذلك بإعلانهم الكفر الصريح قائلين: ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: قالوا لرسلهم: فإنا بالذي أرسلكم به ربكم إلينا جاحدون غير مصدقين به»[1].

وترتب على دعوى المنافاة بين البشرية والرسالة أن قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣].

أي: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لا يصدق مثلنا مثلك أبدا، فليس قولك حجة تحملنا على طاعتك.

فأجابهم هود عليه السلام بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٩].

أي: أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكرٌ أي: تذكير ووعظ من ربكم على لسان رجلٍ منكم أي: من جملتكم، أو من جنسكم[2]. مبينًا أنهم لا يملكون حجة على التكذيب ولا دليلًا معتبرًا على الإنكار إلا التعجب والاستبعاد.

وإنكار بشرية الرسول، وطلب نزول الملائكة أمور تتكرر عند المكذبين، وقد وقع الجواب عليه في مواطن كثيرة من القرآن منها قول الأنبياء: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١].

والمعنى: «أن الأنبياء سلموا أن الأمر كذلك، لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا المنصب منصبٌ يمن الله به على من يشاء من عباده، فإذا كان الأمر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة»[3].

كما جاء على لسان نوح عليه السلام قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود:٢٨].

ردًّا على قول الملأ من قومه: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود:٢٧].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٣.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٢٢٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٧٤.

أي: إن خفاء الأمر عليكم لا ينفيه ولا يبطله فلا يصلح حجة لرفضه.

وفي الرد على طلب نزول الملائكة يكشف القرآن عن أن هذا الطلب لا يعدو أن يكون مغالطة منهم لأنفسهم؛ حيث أورد شبهتهم وأجاب عنها بوجهين فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام:٨-٩].

أما الوجه الأول: ﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: اي :بهلاكهم بعذاب الاستئصال إن كذبوا بعد ظهور آية باهرة. أما الثاني: فإذا نزل الملك فإما أن يظهر بصورته الملائكية وعندها ستزهق أرواحهم؛ لعدم تحمل حواسهم رؤية الملك، وإما أن يظهر بصورة بشر وعندها سيقع الالتباس فيقولوا: إن أنت إلا بشر[1].

ثانيًا: إنكار البينة:

لم يدخر هود عليه السلام جهدًا في دعوة قومه، سواء في محاورتهم العقلية من طرح الحجج والأدلة التي تهدف إلى الإقناع، وإزالة الشبهات التي يثيرونها أو الإتيان بالمعجزات التي تقطع دابر الشبهة وتقطع اللجاجة، إلا أن القوم أنكروا ظهور البينات وذلك مبالغة منهم في إنكار دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ حيث قابلوها بالجحود والاستكبار، وإنما يأتي الجحود من شدة الغفلة، ويكون الإصرار بعد معرفة الحقيقة ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾ [هود:٥٩].

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾ [هود:٥٣] فجحدوا هودًا ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم[: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد:٢٧].

«ولم يشتهر منه معجزة ولكن العلماء قالوا: إظهار الدعوة مع أولئك الأقوام من غير مبالاة وتوان آية من الآيات»[2].

وكان ذلك الإنكار مكابرة منهم وجحودًا لنزول البينات، فقد جاءتهم البينات الظاهرة والمعجزات الباهرة، وإن لم يعين لنا بعضها[3] كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦٧، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٨٦.

(٢) غرائب القرآن،النيسابوري ٤/ ٣٢.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢٧٩.

﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٧٠﴾ [التوبة:٧٠].

وفي سورة إبراهيم ذكر عادًا مع أقوام آخرين فقال: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:٩].

«بالبينات: يعني بحججٍ ودلالاتٍ على حقيقة ما دعوهم إليه من معجزاتٍ»[1].

كل ذلك يؤكد تأييد الله تعالى لهود عليه السلام بالبينات، ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[2].

ومعنى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: «ردوا عليهم قولهم وكذبوهم»[3].

ثالثًا: الغفلة والغرور:

في كثير من المواضع التي فصل القرآن فيها الحديث عن قوم هود كشف عما كانوا عليه من الإيغال في الغفلة، والبعد عن الانتفاع بتحذيرات نبيهم عليه السلام، وقد جاءت هذه الآيات كاشفة عن صورة الغفلة ومظاهرها، مبينة أسبابها ودوافعها: أما أسبابها فيمكن أن نبينها بالنقاط الآتية:

١. الإعجاب والغرور بما هم عليه من القوة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ١٥﴾ [فصلت:١٥].

أي: فأما عادٌ فمنعهم من قبول الهدى استكبارهم. والاستكبار: المبالغة في الكبر، أي التعاظم واحتقار الناس وكان الحامل لهم على هذا الكبر قوتهم، التي عبروا عنها بقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾«فتعظموا فيها على أهلها من غير استحقاق، وغلب عليهم الشعور بأنه لا قوة تقف أمام قوتهم، وقد اعتادوا أن يستهينوا بالآخرين، ولا يبالوا بحقوقهم مما حملهم على البطش بلا رحمة.

فلما جاءهم هودٌ بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك؛ لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم. وبلغ بهم التمادي أنهم غفلوا عن قوة الله التي لا تقهر، والتي جاء نبيهم يذكرهم بها.

وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ استفهام إنكاري أي: إنه ينكر عليهم عدم علمهم بأن الله أشد منهم

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٣٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان بما نزل على نبينا، رقم ٢٣٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٣٤.

قوةً؛ حتى أعرضوا عن رسالة رسول ربهم، وعن إنذاره إياهم إعراض من لا يكترث بعظمة الله تعالى؛ حتى بلغ بهم الغرور أنهم اعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله! لأنهم لو حسبوا لعجزهم عن ذلك حسابه؛ لتوقعوا عذابه فلأقبلوا على النظر في دلائل صدق رسولهم[(١)].

٢. الإيغال في الترف والتنعم.

حيث كان حاملًا على التكذيب والانصراف عن سماع دعوة الأنبياء، أو التفكر فيها والانهماك في محاربتها وصرف الناس عنها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون:٣٣].

«فالترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب ومثل هؤلاء لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة. هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض. فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الحياة الدنيا مثل هؤلاء لا يدركون هذه المعاني ولا يستدلون من أطوار الحياة الأولى على أطوارها الأخيرة ولا يتنبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار التي لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبلى كما يظنون»[(٢)].

لقد كان هذا الحال شاغلًا لهم عن التفكير الجاد مستغرقًا منهم كامل جهدهم واهتماماتهم، حملهم على التباهي والتفاخر في البناء، والتوسع في المعايش، كما سبق بيانه من خلال الحديث عن مظاهر الانحراف والفساد من خلال قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء:١٢٨-١٢٩].

٣. التقليد الأعمى.

حيث هو من أكبر الصوارف عن قبول دعوة الإصلاح والتجديد حيث قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٧].

أي: «ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، كانوا يدينونه ويعتقدونه، ونحن بهم مقتدون»[(٣)].

٤. تزيين الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٥٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٩، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١١٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٦٧.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٧.

﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨].

أي: حسن بوسوسته وإغوائه، فأراهم أعمالهم القبيحة حسنة فغرر بهم. فصدهم عن السبيل وهي طريق الإيمان بالله ورسله. وذلك أن الشيطان أتاهم من هذه الثغرة المكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع[(١)].

﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: « معدودين بين الناس من البصراء العقلاء جدًا؛ لما فاقوهم به مما يعلمون من ظاهر الحياة الدنيا»[(٢)].

أما مظاهر هذه الغفلة وصورها فتظهر في كثير من أقوالهم وأعمالهم فمن الأقوال:

- ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الشعراء:١٣٦]
- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف:٢٢]. وقد سبق بيان معاني هذه الآيات.
- ومنها ما جاء في سورة المؤمنون على لسان الملأ بعد أن بثوا ما في جعبتهم من الشبهات، عقبوا عليها بما يدل على غاية التكذيب والاستبعاد، الدال على انطماس القلوب، وشدة الإمعان في الغفلة والإعراض فقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون:٣٦-٣٨].

«عن ابن عباس في قوله: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ يقول: بعيد بعيد»[(٣)].

«استبعد القوم بعثهم بعد الموت؛ إغفالًا منهم للتفكر في بدو أمرهم، وقدرة الله على إيجادهم، وأرادوا بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبدًا، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يعنون: ما الحياة إلا ما نحن فيه، وليس بعد الموت حياة»[(٤)].

أما الأفعال التي تدل على الإمعان في الغفلة فهي:

١. الجحود وإنكار الآيات.

الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

وقوله: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود:٥٩].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٥.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٤٣٧-٤٣٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٠.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٦٢.

٢. التكذيب.

الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الشعراء:١٣٧-١٣٩].

٣. عدم الانتفاع بأدوات الفهم والعلم.

الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦].

٤. البقاء في حمأة الجهل.

كما وصفهم نبيهم عليه السلام بعد أن بذل أقصى ما في وسعه من التبليغ والبيان قال تعالى: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف:٢٣].

٥. الاستمرار على ما هم عليه.

وعدم الاكتراث بكل ما جاء به هود عليه السلام: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٥٣].

فأكدوا عدم إيمانهم بالجملة الاسمية مع زيادة الباء، وتقديم المسند إليه المفيد لتقوية جوابهم، دلالة على أنهم لا يرجى منهم ذلك بوجه من الوجوه[١].

وقال: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٧٢].

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢٨٠.

رابعًا: الاتهام بالجنون والسفه والكذب:

وجهت عاد إلى نبيها هود عليه السلام عدة اتهامات أظهرها الاتهام بالسفه والجنون والكذب، وإليك بيان ذلك من خلال الآيات التي دلت عليه:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف:٦٦-٦٨].

بينت هذه الآيات الاتهام الأول وهو السفه بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾. والسفاهة: مصدر يعبر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التي لا ثبات لها ولا جودة، والسفه في الثوب خفة نسجه[٢]، أي: «متمكنا في خفة عقل راسخًا فيها؛ حيث فارقت دين آبائك»[٣]. حيث «جعلوا قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٦٥] كلامًا لا يصدر إلا عن مختل العقل؛ لأنه من قول المحال عندهم»[٤].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعوى الرسالة، وظن

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٧.
(٣) روح البيان ٣/ ١٨٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٠٢.

على بابه؛ لأنهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرص[1].

«وفي تعبيرهم ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ جعلوا السفاهة ظرفا على طريق المجاز، أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها[2].

وفي أسلوب الإجابة الذي واجههم به، بطريق الحلم والإغضاء مع رميهم له بالسفاهة، وترك المقابلة بما قالوه مع علمه بما هم عليه من السفاهة أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويحلمون عليهم»[3].

واكتفى بنفي السفاهة عن نفسه بإثبات ما يضادها فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حيث يستحيل أن يرسل الله سفيهًا.

وفي مضمون الإجابة بقوله: ﴿وَأَنَا لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾« أي: عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة، فما حقي أن أتهم. أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه»[4].

ولما كانت السفاهة من صفات النفس وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت يولد الخفة والعجلة المذمومتين، والحلم معنى ثابت يولد الأناة المحمودة، فقد أجابهم هود عليه السلام بما يتناسب مع قولهم وينفي عن نفسة ما رموه به بإثبات صفة ثابتة في النفس تبطلها[5].

فوصف نفسه بأن ناصح بصيغة اسم الفاعل الدال على الثبوت، ولم يقل أنصح بصيغة الفعل الدال على الحدوث. وفي هذه الإجابة ما يدل على بطلان قولهم من المقال، ومن واقع الحال، فإن الناصح الأمين لا يكون سفيهًا أبدًا وفي طريقة إجابته لهم بنفي السفه عن نفسه دون أن ينسبهم إلى السفاهة ولو كان حقًا، فلو قال: بل أنتم السفهاء لكان صادقًا ولكنه أعرض عن مواجهة السفهاء بأسلوبهم، وكان في غاية الرزانة حيث لم يستثيروه ولم يستفزوه؛ ليخرج عن حدود الحلم والحكمة والأدب، وهذا من أبلغ الأحوال الدالة على نزاهته من السفاهة.

وفي جوابه ترفق بهم وتجرد عن حظ نفسه لا يخفى، فلم يستثرهم بما يحملهم على النفور ولم يذمهم بوصفهم بالسفه انتصارًا لنفسه؛ كي لا يتحول الحوار إلى مساجلات شخصية.

أما الاتهام الثاني وهو الجنون فقد ورد في قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٧.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١٧.
(٣) المصدر السابق بتصرف.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي ٢/ ٦٠٥-٦٠٦.

﴿ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود:٥٤].

أي: لا نجد قولًا نقوله فيك إلا أن بعض آلهتنا أصابك بمس من جنون أو خبل؛ لإنكارك لها؛ وصدك إيانا عن عبادتها، والمراد أن أصنامهم كافأته على سوء فعله بسوء الجزاء أي: إن ما تقوله لا يصدر إلا عمن أصيب بشيء اقتضى خروجه عن قانون العقل، فلا يعتد به؛ لأنه من قبيل الخرافات والهذيانات التي لا تصدر إلا عن المجانين فكيف نؤمن بك؟![1].

وأوردوا تعبيرهم بصيغة الحصر الموهم أنهم قد سبروا غور كل الاحتمالات المتوقعة التي تناسب حاله فما وجدوا أصوب ولا أمثل ولا أجدر في إصابة الحق من هذا القول.

الاتهام الثالث: الكذب حيث ادَّعوا أنه يفتري عليهم الكذب فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف:٢٢].

« الإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾، استعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف من الحق إلى الباطل فاستعمل ذلك في الكذب»[2].

أي: أنهم أتهموا نبيهم بأنه يريد إزالتهم عن عبادة آلهتهم بالإفك. ولما عقبوا عليه بقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٢٢].

أضمروا الإصرار، أي: لن ننصرف عن آلهتنا، فأتنا بالعذاب الذي تتوعد به، ونزلوا الوعيد منزلة الوعد استهزاء وإمعانا في التكذيب. فقال لهم هود عليه السلام ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٣].

أي: لا علم لي بالوقت الذي عيَّنه الله لتعذيبكم، فلا معنى لاستعجالكم ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ [الأحقاف:٢٣].

وما علي إلا أن أبلغ رسالة ربي، فالأمر كله بيده وحده وما على الرسول إلا البلاغ، ثم استدرك عليه السلام فأعلن ما استقر في إدراكه من حالهم قائلا: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف:٢٣].

أي: أعلمكم علمًا هو كالرؤية ﴿قَوْمًا﴾ ليعم الحكم جميعهم ﴿تَجْهَلُونَ﴾ جهلًا متجددًا، لم يحدد مفعوله ليشمل كل ما يستدعي الأمر علمه من استبانة ضلالهم من إصرار على آلهة باطلة، وتكذيب لنبي صادق، واستعجال بعذاب مستحق دون الاحتراز منه، وجهل في ادعاء قدرة النبي على العذاب ونحوه، ولا تعلمون أن الرسل بعثوا مبلغين منذرين لا معذبين مقترحين[3].

(١) نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٤٩.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٩.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٠٥/ ١١٥، نظم الدرر، البقاعي ١٨/ ١٦٧.

وأي جهل أعظم من الشرك بالله ونسبة نبي الله إلى الكذب. ومن ترك طريقة الاحتياط واستعجال ما فيه الهلاك[1].

ومن علائم جهلهم إصرارهم على طلب العذاب ولم تظهر لهم بينة على كونه كاذبًا، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم[2].

خامسًا: التعجيز والتحدي:

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٣-٥٤].

جمعت هذه الآيات خلاصة موقف عاد من نبيهم هود عليه السلام وأجوبتهم له« ودلت على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت، ولا يلتفتون إلى النصح. ولا تلين شكيمتهم للرشد. وهذا يدل على جهل مفرط وبله متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب»[3]، واشتملت إجابتهم على أربعة أمور:

الأول: الإنكار والجحود للبينات.

الثاني: الإصرار على ما هم عليه بالتمسك بآلهتهم.

الثالث: عدم الاكتراث بقوله حيث لا تقوم به الحجة عليهم وهو إنكار للنبوة.

الرابع: ادعوا أن لآلهتهم تأثيرا عليه، وأنه قد أصابه بعضها بسوء بلغ به حد الجنون. وهذا القول يتضمن التهديد والتخويف، فهذا فعل بعضها فكيف لو اجتمعت إذا لدكته دكا[4].

فكل ما بذله من جهد وبيان لا يبلغ حد الاعتبار في نظرهم، مع التهديد والتخويف من آلهتهم، وهذا يستدعي تصعيد المواجهة بما تقوم به الحجة وهي المعجزة التي تظهر بالتحدي وإثبات تفاهة آلهتهم وعجزها الذي دلت عليه الآيات الآتية: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٤-٥٧].

ففي هذه الآيات أجاب هود عليه السلام إجابة جامعة ترد على الأمور الأربعة التي أعلنوها، وتبدد كل أباطيلهم حيث أعلن نبي الله براءته من آلهتهم مشهدا لله تعالى،

(١) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٢٤.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٧/ ٤٠٥.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٠٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٩٨.

معلنا عن ذلك بصيغة الجملة الخبرية وهي في المعنى إنشائية بمعنى(اللهم اشهد) «لأن كل إنشاءٍ لا يظهر أثره في الخلق من شأنه أن يقع بصيغة الخبر، لما في الخبر من قصد إعلام السامع بما يضمره المتكلم»[1].

ومشهدا لهم على هذه البراءة استخفافا بهم وبآلهتهم، وإعلاما لهم بعجزها، مؤيدا ذلك بالتحدي الذي يقيم البرهان على إثبات عجزها وقصورها فضلا عن أن تعتريه بسوء، وذلك بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي: «كيدوا لي، وخذوني بما تستطيعون من كيد، والكيد: إعمال الحيلة، وإحكام التدبير، لما يراد من الأمور ويستعمل الكيد غالبا في الشر، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: أي: لا تتوانوا في إعمال كيدكم لي، والمبادرة به»[2].

وفي قوله: ﴿جَمِيعًا﴾رد على قولهم: ﴿بَعْضُ﴾أي: أنه أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعًا دون بعضٍ منها مبالغة في التحدي[3].

وجعل هذا التحدي ردًا عمليًا على قولهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وعلى قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ «ووجه الخطاب لقومه لئلا يكون خطابه لما لا يعقل ولا يسمع، فأمر قومه بأن يكيدوه. وأدخل في ضمير الكائدين أصنامهم مجاراةً لاعتقادهم واستقصاءً لتعجيزهم، أي: أنتم وأصنامكم، كما دل عليه التفريع على البراءة من أصنامهم»[4].

والنتيجة الحتمية لهذا التحدي الذي أثبت جدواه بعجزهم وعجز آلهتهم عن إيذائه بأي شيء دليل على صدقه وحجية قوله وأنه نبي مرسل يلزمهم ترك آلهتهم طاعة له، وهي دليل على عظمة إلهه الذي حماه وأيده ورد الكيد عنه في مثل هذا الوسط مع كثرتهم وقوتهم وشدة بأسهم، وحرصهم على تكذيبه وهو فرد ليس له نصير إلا مولاه الذي يدعو إليه.

سادسًا: استعجال العذاب:

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف:٧٠].

وقال: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف:٢٢].

وذلك أنهم طلبوا الإتيان بالعذاب إمعانا في التكذيب وتماديا في الضلال، واستهانة بوعد نبيهم عليه السلام، ويدل على أنهم

(١) المصدر السابق ١٢/ ٩٩.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٦/ ١١٥٦.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢١٨.
(٤) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٢/ ١٠٠.

كانوا يستبعدون العذاب ويكذبون بكل ما جاءهم به نبيهم قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء:١٣٨].

وبينما هم غارقون في غفلتم متمادون في تكذيبهم إذ جاءتهم بوادر العذاب بصورة يتوهمون فيها البشارة بالغيث بعد سنين من القحط ليكون وقع العذاب أنكى وأشد. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف:٢٤].

قال ابن كثير: «كان أول ما ابتدأهم العذاب، أنهم كانوا ممحلين مسنتين[1]، فطلبوا السقيا فرأوا عارضًا في السماء وظنوه سقيا رحمةٍ، فإذا هو سقيا عذابٍ[2].

أي: فلما رأوا العذاب في صورة سحاب يوهم بالغيث، حسبوه سحابًا يمطرهم، وكان المطر قد أبطأ عنهم، فلما رأوه عارضًا ظاهرا في عرض السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ فرحوا واستبشروا. وكان قد جاءهم من وادٍ جرت العادة أن يأتي منه الغيث[3].

قيل لهم ردًّا على توهمهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ يعني: من العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وذلك استبعادًا منهم لوقوعه، ثم بين ماهيته فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم وصف تلك الريح بأوصاف مفزعة كما سيأتي بيانه.

أخرج الإمام أحمد عن الحارث بن يزيد البكري، قال: (خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمررت بالربذة، فإذا عجوزٌ من بني تميم منقطعٌ بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجةً، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها، فأتيت المدينة فإذا المسجد غاصٌّ بأهله، وإذا رايةٌ سوداء تخفق، وبلالٌ متقلدٌ السيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا، قال: فجلست، قال: فدخل منزله-أو قال: رحله-فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت، فسلمت فقال: (هل كان بينكم وبين بني تميم شيءٌ؟) قال: فقلت: نعم، قال: وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوزٍ من بني تميم منقطعٌ بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزًا، فاجعل الدهناء، فحميت العجوز،

(١) ممحلين: أصابهم المحل وهو الشدة وانقطاع المطر.
انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٨١٧.
ومسنتين من السنة، أي: أسنتت أرضهم: لم يصبها مطر فلم تنبت.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٦٧.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٠٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٦.

واستوفزت، قالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مضرك؟ قال: قلت: إنما مثلي، ما قال الأول: معزاةٌ حملت حتفها، حملت هذه، ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا أعوذ بالله، ورسوله أن أكون كوافد عادٍ قال: (هيه، وما وافد عادٍ؟) وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه، قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم، يقال له: قيلٌ، فمر بمعاوية بن بكرٍ، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج جبال تهامة، فنادى: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريضٍ فأداويه، ولا إلى أسيرٍ فأفاديه، اللهم اسق عادًا ما كنت مسقيه، فمرت به سحاباتٌ سودٌ فنودي منها: اختر، فأومأ إلى سحابةٍ منها سوداء، فنودي منها: خذها رمادًا رمددًا ولا تبق من عادٍ أحدًا، قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح، إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا، قال أبو وائلٍ: وصدق قال: (فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم، قالوا: لا تكن كوافد عادٍ)[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: (اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به) قالت: (وإذا غيبت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر. فإذا أمطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عادٍ: (فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا)[2].

فكان صلى الله عليه وسلم أشد الناس خشية لله ويعلم من حاله ومقاله كيف يحذر المرء من غضبه ليكون حذرا من الخروج عن طاعته، غير آمن من مكره أمنا يدفع إلى الاستهانة بحق الله قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩].

[انظر: عاد: موقفهم من رسولهم ومعجزاته]

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٥٩٥٣.
قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٨٦: وهو غريبٌ جدًا من غرائب الحديث وأفراده.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، رقم ٨٩٩.

عاقبة القوم ومصيرهم

أولًا: المقدمات التي سبقت العذاب:

جاءت المقدمات التي سبقت العذاب بصور من التحذير والوعيد والإمهال ثم حلول الرجس والغضب؛ ففي مشهد من المشاهد الأخيرة من الحوار بين هود عليه السلام وقومه يقول: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٧].

محذرًا لهم من النهاية التي لا تدع منهم أحدا لهوانهم على الله واقتداره عليهم. أي: إن تتولوا أهلككم الله، ويستبدل قومًا غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ بتوليكم وإعراضكم، إنما تضرون أنفسكم، وذلك أن إهلاككم لا ينقص من ملكه شيئًا؛ لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء[1].

ثم إنه عليه السلام ذكر لهم وعيدًا مجددًا فقال: ﴿فَانتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف:٧١].

أي: فانتظروا ما يحصل لكم من عبادة هذه الأصنام إني معكم من المنتظرين.

وهو أمر يتضمن الوعيد والإمهال[2]، وقال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج:٤٤].

«أي: أمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندي ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم»[3]، وهذه سنة إلهية ماضية في المكذبين يمهلهم إلى آجالهم، ثم يأخذهم بجميع ما صدر منهم.

وذكر استحقاقهم للعذاب وحلول النقمة من الله عليهم بجحودهم لوحدانية الله ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف:٧٠].

استبعدوا توحيد الله مع اعترافهم بربوبيته، ولذلك قال لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:٧١].

أي: حق عليكم ووجب عذاب من ربكم وغضب.

أي: «أنه تعالى أخبره في ذلك الوقت بنزول العذاب عليهم فلما حدث الإعلام في ذلك الوقت لا جرم قال هودٌ في ذلك الوقت: وقع عليكم من ربكم رجسٌ وغضبٌ، أو أنه جعل التوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع. ونظيره قولك لمن طلب منك شيئًا قد كان ذلك بمعنى أنه سيكون ونظيره قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١].

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٥٠٩٩، بتصرف.

(٢) انظر: المصدر السابق ٩/ ١٩٠.

(٣) المصدر السابق ١٤/ ١٠٧.

بمعنى: سيأتي أمر الله»[1].

«الرجس لا يمكن أن يكون المراد منه العذاب؛ لأن المراد من الغضب العذاب فلو حملنا الرجس عليه لزم التكرير وأيضًا الرجس ضد التزكية والتطهير. قال تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

وقال في صفة أهل البيت: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

والمراد التطهر من العقائد الباطلة والأفعال المذمومة وإذا كان كذلك وجب أن يكون الرجس عبارةً عن العقائد الباطلة والأفعال المذمومة»[2]. ويدخل فيه: الرين على القلب بزيادة الكفر[3].

«وحاصل الكلام في الآية: أن القوم لما أصروا على التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفرًا وهو المراد من قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ ثم خصهم بمزيد الغضب وهو قوله: ﴿وَغَضَبٌ﴾»[4] وهو ما يوجب العذاب.

ثانيًا: صورة العذاب:

تحدثت الآيات القرآنية عن العذاب الذي حل بقوم عاد بأساليب متنوعة وصيغ متعددة، تعرض لحقيقته وصورته من عدة وجوه لا تعارض بينها؛ فأحيانا يذكر العذاب بإجمال كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الشعراء:١٣٩].

فرتب على التكذيب إهلاكهم دون أن يفصل في بيان طريقة الإهلاك الذي تولت بيانه سور أخرى.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص:١٤] «فوجب أو لزم وثبت أن أعاقبهم»[5].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر:٦].

إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾[الفجر:١٣].

أي: أفرغ عليهم أشد أنواع العذاب. فالصب يعبر به عن الكثرة، والسوط يعبر به عن الشدة.

وقال كذلك على سبيل الإجمال: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم:٥٠].

وقال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج:٤٤].

وأحيانًا يذكر ما حل بهم على جهة التفصيل كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٦٠.

﴿نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر:١٨-٢٠].

وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:٦-٨].

فبين في هذه الآيات أن العذاب الذي حل بهم كان بالريح الشديدة المهلكة التي وصفها بأوصاف عديدة تدل على ما جمعت من خصائص العنف والنكال.

فمرة وصفها بالعقيم «وأصل العقم: اليبس المانع من قبول الأثر، والريح العقيم: وهي التي لا تلقح سحابا ولا شجرا وهي التي لا تقبل أثر الخير، وإذا لم تقبل ولم تتأثر لم تعط ولم تؤثر»[(١)]. وهي التي لا رأفة فيها ولا رحمة[(٢)].

كما وصفها بصرصر وهذا اللفظ يجمع ثلاثة معاني هي الصوت والبرد[(٣)] والعزم[(٤)].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٧٩.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ١٣٤.
(٣) العين، الفراهيدي ٧/ ٨٢.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٧٦.

فيكون وصفها أنها «الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يسمع لهبوبها صوتٌ شديدٌ، وعلى هذا، فالصرصر من الصرة التي هي الصيحة المزعجة. ولا يمنع أن يكون بردها واصلا درجة الإحراق مأخوذ من قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران:١١٧]. أي: فيها بردٌ شديدٌ محرقٌ»[(٥)].

ووصفها كذلك بالعاتية، وأصلها من «عتا يعتو عتوًا وعتيًا: استكبر وجاوز الحد»[(٦)] الريح العاتية: «أي: مبالغة في الشدة»[(٧)] أو «شديدة الهبوب»[(٨)].

أما دوامها على هذه الحال بما جمعت من أوصاف الشدة فقد استمرت طيلة أيام وصفت في سورة فصلت بأنها ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ دون ذكر عددها، وقال المفسرون في معنى ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ قولين أحدهما: الشديدة البرد والآخر: أنها المشؤومة[(٩)].

ولا تعارض بين المعنيين، فإن شدة البرد سبب من أسباب الشؤم. وفي سورة القمر وصف النحس بأنه مستمر للدلالة على تواصله بلا توقف ولا فتور طوال هذه المدة، مما يزيد الأمر شؤما، وفي سورة الحاقة ذكر عددها ووصفها بالحسوم فقال: ﴿سَخَّرَهَا

(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٦.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٧.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٠.
(٨) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٩.
(٩) المخصص، ابن سيده ٢/ ٣٩٨.

﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ قال الفراء: «الحسوم: التباع إذا تتابع الشيء فلم ينقطع أوله عن آخره»[1].

وقال الزجاج: «حسوما أي: تحسمهم حسوما أي: تذهبهم وتفنيهم»[2].

وقال ابن كثير: «كوامل متتابعاتٍ»[3].

أما عن فعل هذه الريح وآثارها فقال عن فعلها بالأشياء عموما: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف:٢٥].

أي: تهلك كل شيء من الحيوان والناس، أي: تخرب كل شيءٍ مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها. أو من بلادهم، مما من شأنه الخراب قال ابن عباسٍ: أي كل شيءٍ بعثت إليه. والتدمير: الهلاك. وكذلك الدمار ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ومعناه أن هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب والقرانات[4] بل هو أمر حدث ابتداءً بقدرة الله تعالى لأجل تعذيبكم[5].

أما عما فعلته هذه الريح بالناس على وجه الخصوص فقال: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر:٢٠].

أي: كأنهم «أصول نخل منقلع عن مغارسه»[6].

وتنزعهم نزعا حيث كانت «تقلعهم عن أماكنهم وكانوا يصطفون آخذًا بعضهم بأيدي بعض ويتداخلون في الشعاب ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم»[7].

فتصرعهم وتسقطهم على الأرض فأصبحوا مع طول قاماتهم وضخامة أجسامهم كأنهم أسافل نخل منقلع من أصله، قد سقط على الأرض. قال ابن كثير: «فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه حتى تبينه من بين جثته»[8].

فهذا صنيعها بأجساد القوم المسلطة عليهم في بداية هبوبها.

ومع هبوب الريح بصفاتها العاتية من برد شديد وجفاف ودوام لهذه المدة الطويلة جديرة بأن تفعل بأجسادهم فعلها حتى تركتهم في نهاية أمرهم كأعجاز نخل خاوية، أي: بالية نخرة[9].

قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ

(١) انظر: معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٨٠، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٩٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢١٤.
(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٩.
(٤) أي: اقتران الثريا بالبروج السماوية وما كان يعتقده الجاهليون من تأثير ذلك على الأحداث.
انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٩-٢٣٠.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٧/ ٤٠٧.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٠٣.
(٧) المصدر السابق.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٣٥.
(٩) غريب القرآن، ابن قتيبة ص٤١٢.

﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة:٧].

فتشبيههم بأعجاز نخل منقعر تصف حالهم عند بداية العذاب وهبوب الريح، وتشبيههم بأعجاز نخل خاوية عند نهاية الأمر وانتهاء المدة حيث بليت أجسادهم ونخرت.

وهكذا جاءت هذه الريح بهذه الأوصاف على القوم وهم غارقون في غفلتهم يعرضون عضلاتهم ويتباهون بقوتهم. فأتاهم المصرع المناسب لهذا العجب المرذول الغافل عن قوة الله وقدرته ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت:١٦].

إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحس عليهم. وإنه الخزي في الحياة الدنيا. الخزي اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد ذلك في الدنيا وليسوا بمتروكين في الآخرة: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٦][1].

وفي وسط تلك الرياح العاتية المدمرة كان هود عليه السلام ومن معه في رعاية الله بأمن وسلام ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود:٥٨].

قال ابن إسحاق: «واعتزل هودٌ عليه السلام-فيما ذكر لي-في حظيرةٍ هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود، وتلذ الأنفس، وإنها لتمر على عادٍ بالظعن فيما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة»[2].

وقال تعالى في وصف العذاب الذي حل بعاد وثمود ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت:١٣].

قال ابن قتيبة: الصعق: الموت.

قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]. أي: ميتا[3].

وقال الراغب: «الصاعقة والصاقعة يتقاربان، وهما الهدة الكبيرة، إلا أن الصقع يقال في الأجسام الأرضية، والصعق في الأجسام العلوية. قال بعض أهل اللغة: الصاعقة على ثلاثة أوجه:

- الموت، كقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨]. وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النساء:١٥٣].
- العذاب، كقوله: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣].
- النار، كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١١٨. بتصرف.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٦-١٣٧.

(٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص٢٧١.

﴿بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣]»[١].

ثم قال «وما ذكروه فهو أشياء حاصلة من الصاعقة، فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منها نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها»[٢].

وما ذهب إليه يتفق مع قول المبرد بأن الصاعقة «الثائرة المهلكة لأي شيءٍ كان»[٣].

وفي خصوص قوم عاد فإن الصاعقة التي حلت هي الثائرة المهلكة ذات الصوت الشديد كما قال الشنقيطي: «وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عادٍ»[٤].

ثالثًا: آثار العذاب:

وعقب القرآن الكريم على ما حل بعاد من العذاب بعبارات متنوعة تحمل الكثير من العبر والدلالات فمنها قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٥].

أي: «تدمر ما من شأنه أن تدمره الريح من الإنسان والحيوان والديار»[٥]. فأصبحوا «لا ترى من بقايا عادٍ أشياء إلا مساكنهم»[٦].

وهذا لأن السكان هلكوا، وهلك كل شيء يملكونه فقيل: أصبحوا وقد غطتهم الريح بالرمل فلا يرون[٧].

ولم يبق ظاهرًا على وجه الأرض إلا مساكنهم أطلالا خربة تدل على من كان فيها، وتحمل في مظهرها ما يدل على ما حل بالقوم من العذاب. ليكونوا عبرة لكل معتبر. وتعقب الآيات على مشهد الدمار والخراب الذي حل بهذه الأمة التي بلغت من القوة والتمكين ووسائل الإدراك ما لم ينفعها أو يدفع عنها العذاب إذ كانت تجحد بآيات الله ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٧٢].

وهنا بين أن العذاب الذي حل بهم كان شاملا لهم جميعا لم يبق لهم بقية ولا عقب حيث استؤصلوا عن آخرهم والدابر: الآخر. والمعنى هنا قطع خلفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقيةٌ. والمراد به الاستئصال، «قال قطربٌ: يعني أنهم استؤصلوا وأهلكوا»[٨].

(١) المفردات، الراغب ص٤٨٤- ٤٨٥.
(٢) المفردات، الراغب ص ٤٨٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٥١.
(٤) أضواء البيان ٧/ ١٧.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٥٠.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٥.
(٧) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١١.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٢٧.

وقوله سبحانه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:٦٠].

فلما قضى الأمر أتبعوا باللعنة «أي: أردفوا لعنة تلحقهم، وتصاحبهم في الدنيا وفي الآخرة. واللعنة: هي الإبعاد، والطرد عن الرحمة»[(١)].

«قال السدي: ما بعث نبيٌّ بعد عادٍ إلا لعنوا على لسانه»[(٢)].

وخذلتهم آلهتهم التي كانوا يدعون لها التأثير فلم تغن عنهم شيئا، بل حل بهم ونزل الذي كانوا منه يسخرون وبه يستهزئون، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وهكذا حل العذاب بعاد على وفق سنة الله تعالى في المكذبين بعد استيفاء البيان والحجة والإمهال، فأتاهم على أشد الصور حيث بدأ على صورة غمام يوهم بنزول الغيث وكانوا مستبشرين فاستبشروا، ولكن يا لهول المفاجأة فإذا هي ريح ذات صوت مرعب وهبوب شديد مع برد وجفاف محرق تدمر كل شيء، تتبعتهم في منازلهم وأماكن احتمائهم فنزعتهم نزعا وصرعتهم صرعا كأنهم أصول نخل قلع من مغرسه وألقتهم جثثا بلا رؤوس، ودامت عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة بلا فتور حتى نخرت أجسادهم وبليت فأصبحت كأعجاز نخل خاوية، ولم تدع منهم أحدا فقد استأصلتهم عن آخرهم.

وجعل الله في إهلاكهم آية فقابلهم بجنس ما كان سبب طغيانهم، حيث جاءهم بقوة عاتية لا طاقة لهم بمقاومتها أو الوقوف في وجهها، وهم الذين كانوا يتبجحون بقوتهم ويقولون من أشد منا قوة؟!

موضوعات ذات صلة:

ثمود، شعيب عليه السلام، صالح عليه السلام، عاد، النبوة، نوح عليه السلام

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٥١١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣١.

الهوى

عناصر الموضوع

مفهوم الهوى	٢٩٢
الهوى في الاستعمال القرآني	٢٩٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٤
النهي عن اتباع الهوى	٢٩٦
مجالات اتباع الهوى	٣١٣
وسائل مقاومة الهوى	٣٢٣
آثار اتباع الهوى	٣٣٢

مفهوم الهوى

أولًا: المعنى اللغوي:

(هوي) «الهاء والواو والياء: أصل صحيح يدل على خلو وسقوط. أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمي لخلوه. قالوا: وكل خال هواء، ويقال: هوى الشيء يهوي: سقط. وهاوية: جهنم؛ لأن الكافر يهوي فيها»[(١)].

والهوى مقصورٌ، هوى النفس والضمير: أي: إرادتها، والجمع الأهواء، و الهوى: محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه، تقول: هوي بالكسر يهوى هوًى أي: أحب. ورجلٌ هوٍ: ذو هوًى، وامرأة هويةٌ: لا تزال تهوى[(٢)]. «وهوى الشيء يهوي هويًا إذا سقط من علو إلى سفلٍ، وذلك لأن الإنسان إذا اتبع هواه؛ فقد هوى وسقط»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر العلماء عدة تعريفات للهوى، منها:

- الهوى: ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع[(٤)].
- الهوى ميل النفس في الاعتقاد وغيره إلى ما يجانب الحق[(٥)].
- الهوى ميل القلب إلى ما يستلذ به[(٦)].
- الهوى كل ما خالف الحق، وللنفس فيه حظ ورغبة من الأقوال والأفعال والمقاصد[(٧)].
- وقيل: هو ميل النفس إلى ما لا ينبغي[(٨)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٥.
وانظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٩.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٣٧٢، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٣٢٦.
(٣) مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٢٧٣.
وانظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٩٩٨.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٢٥٧، الكليات، الكفوي ص٩٦٢، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٣٤٤.
(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ٣/ ٢٣٧٩.
(٦) انظر: الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا الأنصاري، ١/ ٦٨، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٤٩.
(٧) انظر: الهوى وأثره في الخلاف، عبد الله الغنيمان، ص١٢.
(٨) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ٣٦٣.

الهوى في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هوي) في القرآن الكريم (٣٨) مرة، يخص موضوع البحث منها (٣٢) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٤	﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم:٢٣]
المصدر	٢٨	﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]

وجاء الهوى في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو ما تميل إليه النفس وتشتهيه[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٣٩٥.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٥٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشهوات:

الشهوات لغةً:

«الشين والهاء والحرف المعتل كلمة واحدة، وهي الشهوة. يقال: رجل شهوان، وشيء شهي»[١].

والشهوة اشتياق النفس إلى الشيء، والجمع شهواتٌ[٢].

الشهوات اصطلاحًا:

«كل شيءٍ من المعاصي يضمره صاحبه ويصر عليه وإن لم يعمل»[٣].

الصلة بين الهوى والشهوة:

الفرق بينهما بأن الهوى يختص بالأداء والاعتقادات، والشهوة تختص بنيل المستلذات[٤].

٢ المحبة:

المحبة لغةً:

الحاء والباء أصول ثلاثة، أحدها: اللزوم والثبات، والآخر: الحبة من الشيء ذي الحب، والثالث: وصف القصر[٥]. وهو عبارة عن ميل الطبع في الشيء الملذ، فإن تأكد الميل، وكان قويًا يسمى عشقا، وأول مراتب الحب: الهوى، وهو ميل النفس، وقد يطلق ويراد به: نفس المحبوب[٦].

قال الفيروزآبادي: «ولا يحد المحبة بحد أوضح منها، والحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة»[٧].

المحبة اصطلاحًا:

قال ابن القيم: حقيقة المحبة هي موافقة المحبوب فى محابه، فيحب ما يحبه محبوبه[٨].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٢٢٠.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٣٢٦.
(٣) تاج العروس، محمد الزبيدي، ٣٨/ ٤٠٢.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ص٥٦٢.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٦.
(٦) الكليات، الكفوي، ص٣٩٨.
(٧) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤١٦.
(٨) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٢٦١.

وقيل: «هو محبة الإنسان للشيء وغلبته على قلبه»[1].

الصلة بين الهوى والمحبة:

سئل بعض الصوفية عن الهوى والمحبة فقال: الهوى يحل في القلب، والمحبة يحل فيها القلب[2].

٣ الشبهات:

الشبهات لغةً:

«الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونا ووصفا »[3]، والمشتبهات من الأمور: المشكلات. والمتشابهات: المتماثلات[4].

الشبهات اصطلاحًا:

«الالتباس، وفي الشرع: ما التبس أمره، فلا يدري أحلال هو أم حرام، وحق هو أم باطل»[5].

وقيل: هي ما بين الحلال والحرام، والخطأ والصواب[6].

الصلة بين الهوى والشبهة:

الهوى هو ما يؤدي إلى تعتيم الحقائق، وعدم التفرقة بينها وبين غيرها، أما الشبهة فألبس في الأمور والحقائق.

(١) تاج العروس، محمد الزبيدي، ٢/ ٢١٤.
(٢) نهاية الأرب، النويري ٢/ ١٢٨.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٤٣.
(٤) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٣٦.
(٥) القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب، ١/ ١٨٩.
(٦) انظر: تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دوزي، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد النعيمي، جمال الخياط، ٦/ ٢٤٤.

النهي عن اتباع الهوى

تنوعت أساليب القرآن في النهي عن اتباع الهوى وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي.

أولًا: أسلوب الطلب:

وهذا الأسلوب استخدمه القرآن كثيرًا في التحذير من اتباع الهوى، ومن خلال النظر في آيات التحذير من اتباع الهوى في القرآن نجد أنه لم يأت إلا بأسلوب النهي، وهذا النهي جاء على نوعين: نهي معلل، ونهي غير معلل.

النوع الأول: النهي المعلل.

وذلك بأن ينهى عن اتباع الهوى مع بيان علة ذلك النهي، والسبب الداعي إليه.

وقد جاء النهي عن اتباع الهوى معللًا في مواضع من القرآن بأكثر من علة، ومن ذلك:

١. عدم العدل.

وهذه من العلل التي ذكرها القرآن في التحذير من اتباع الهوى، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فهذه الآية أتت «بعد أن أمر سبحانه وتعالى بالقسط في اليتامى والنساء في سياق الاستفتاء فيهن؛ لأن حقهن آكد، وضعفهن معهود؛ لتعمم الأمر بالقسط بين الناس؛ لأن قوام أمور الاجتماع لا يكون إلا بالعدل، وحفظ النظام لا يتم إلا به»[(١)].

والقيام بالقسط من أعظم الأمور التي تدل على حسن ديانة القائم به، فحري بطالب النجاة أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يبعد عن نفسه كل من شأنه تعويقها عن القيام بالقسط والعمل به.

«وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى؛ ولهذا نبه سبحانه وتعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء: ١٣٥][(٢)].

أي: «لإقامة العدل لا تتبعوا الهوى»[(٣)].

فإنكم إن اتبعتموه وسرتم خلفه «عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلًا، والباطل حقًا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم»[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٣٧١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٨.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٩٢٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٨.

٢. الضلال عن سبيل الله.

الإنسان ما جاء في هذه الحياة إلا ليعبد الله، ويحسن السير إليه، فإن ضل الإنسان غايته، وابتعد عن سبيل ربه فقد خسر دنياه وأخراه؛ ولذا ذكر القرآن الضلال عن سبيله كعلة للتحذير من اتباع الأهواء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وهكذا تتجلى الخاتمة المؤسفة، ويظهر المصير السيئ الذي يؤدي إليه اتباع الهوى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

أي: «فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم»[(١)].

ومتابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله؛ لأن «الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات؛ لأنهما حالتان متضادتان، فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر»[(٢)].

النوع الثاني: النهي غير المعلل.

وذلك بأن ينهى عن اتباع الهوى دون بيان علة ذلك النهي أو سببه.

ويظهر ذلك في أكثر من آية من الآيات التي حذرت من اتباع الهوى.

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١٤٨-١٥٠].

ففي هذه الآيات «تثبيت للنبي الكريم على طريقه المستقيم الذي أقامه الله عليه، وألا يأخذ بشهادة من يشهدون على هذا الزور»[(٣)]، وكذلك نهى عن موافقة «الذين حكموا أهواءهم فكذبوا بآيات الله فيما ذهبوا إليه من تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله»[(٤)].

وها هنا نلحظ أن النهي عن اتباع الهوى جاء مجردًا من العلة الكامنة وراءه، وكذا نلحظ هذا أيضًا في قوله سبحانه وتعالى:

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٠.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٣٨٦
(٣) التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٣٣٨.
(٤) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص١٤٨.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ففي هذه الآية «يأمر سبحانه وتعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه السلام أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين»[(١)] ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

وكذا تحذره من الابتعاد عنهم، واتباع من غفل عن ذكر الله فأغفله الله عن ذكره، ومن اتبع هواه «أي: صار تبعًا لهواه، حيث ما اشتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه؛ فهو قد اتخذ إلهه هواه»[(٢)]. وها هنا نلحظ التحذير والنهي عن اتباع الهوى خاليًا من ذكر العلة.

ثانيًا: وصف متبعي الهوى بأقبح الصفات:

المتأمل لآيات القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه وتعالى ذم اتباع الهوى، وبين خطورته بأكثر من سبيل، ومن هذا وصف متبع الهوى بصفات عديدة، تدل على عظم جرمه، وشنيع فعله، وفيما يلي عرض لهذه الأوصاف:

١. الضلال.

أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه أن من صفات متبع الهوى: الضلال وعدم الهداية، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

يقول الطبري: «﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ عن طريق الرشاد وسبيل السداد ﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ﴾ هوى نفسه ﴿بِغَيْرِ﴾ بيان من عند الله؛ فإن الله لا يوفق لإصابة الحق وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر الله، واتبعوا أهواء أنفسهم»[(٣)].

ففي هذه الآية إشارة إلى أن المتبع لهواه من أضل الناس؛ لأنه «عرض عليه الهدى، والصراط المستقيم الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته فلم يلتفت إليه، ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟!»[(٤)].

والسر في ضلال متبع الهوى وكونه لا أضل منه «أن الضلال في الأصل خطأ الطريق، وأنه يقع في أحوال متفاوتة في عواقب المشقة، أو الخطر، أو الهلاك

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٥ بتصرف.
(٢) المصدر السابق.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٩٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٧ بتصرف.

بالكلية على حسب تفاوت شدة الضلال، واتباع الهوى مع إلغاء إعمال النظر، ومراجعته في النجاة يلقي بصاحبه إلى كثير من أحوال الضر بدون تحديد ولا انحصار فلا جرم يكون هذا الاتباع المفارق لجنس الهدى أشد الضلال، فصاحبه أشد الضالين ضلالًا»[(١)].

ومما يدل على شدة ضلال متبع الهوى: «تقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله»[(٢)].

فالإنسان -من حيث هو إنسان- لا يخلو حتمًا من الهوى «فإذا كان مع الهوى هدى من الله غلب الإنسان هواه وقهره، وإذا لم يكن معه من هدى الله شيء يمسك زمام هواه كان على طريق الهوى أبدًا، لا يعدل عنه إلى طريق الحق والهدى أبدًا؛ ولهذا جاء الوصف لأصحاب الهوى الذين لا يلقاهم هدى الله مقررًا أنهم أضل الضالين كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

فقد يضل الإنسان وينحرف متبعًا هواه، ولكن حين يلقاه هدى الله على طريق غوايته يستقيم ويهتدي، أما إذا لم يلقه هدى الله فلن يهتدي أبدًا»[(٣)].

ومن الآيات التي وصفت متبع الهوى بالضلال قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فمن تأمل في الآية وجد أن الله تعالى وصف المتبع لهواه بثلاث صفات: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

والسبب في كل هذا الضلال هو اتباع الهوى ومخالفة الشرع، فمتبع الهوى ضال بنفسه مضل لغيره.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: (ليضلون) بفتح الياء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ونافع بضم الياء، فمن قرأ بالفتح أشار إلى كونه ضالًا، ومن قرأ بالضم أشار إلى كونه مضلًا[(٤)].

وفائدة القراءتين بيان وقوع الأمرين بالإيجاز العجيب، والمعنى أن من الثابت أن كثيرًا من الناس يضلون غيرهم كما ضلوا، كما أن كثيرًا منهم يضل في ذلك من تلقاء نفسه، وكلٌّ من ذلك الضلال

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٤١.
(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٤١٢.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٠/ ٣٦٠.
(٤) انظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد ص٢٦٧، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٦٢.

والإضلال واقعٌ بأهواء أهله لا بعلمٍ مقتبسٍ من الوحي[1].

وأيضًا من الآيات الواصفة لمتبعي الهوى بالضلال قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

يعني: فصار من الضالين الكافرين[2].

٢. التشبيه بالكلب.

من الأوصاف البغيضة التي وصف الله سبحانه وتعالى بها المتبع لهواه والمخالف للشرع التشبيه بالكلب.

قال جل جلاله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦].

هذا مثل ضربه الله تعالى تشبيهًا لمتبع الهوى، الذي يقدم هواه على الشرع والحق، وهو تشبيه دقيق، وصورة حية لهذا الإنسان المهين الذي قدم هواه على الدين القويم، وهكذا المتبع هواه في كل حالٍ، فـ«من خرج عن حيز الهدى والعلم، وأقبل على هواه صار شبيهًا بالكلب، وبئس المثل مثله»[3].

فالكلب «من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح؛ حرصًا وشرهًا، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه؛ ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا إلا هر عليه وقهره؛ لحرصه وبخله وشرهه، ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة، وثياب دنية، وحال زرية نبحه، وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قولته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة، وثياب جميلة، ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه»[4].

٣. الظلم.

من الأوصاف التي وصف الله بها متبع الهوى أنه ظالم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ففي هذه الآية تحذير شديد اللهجة من

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٧.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦١٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٧٨.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٢٣.
(٤) بدائع التفسير، ابن القيم ١/ ٤٢٦.

الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه السلام بعدم اتباع الهوى وإلا صار في عداد الظالمين؛ لأن «اتباع الهوى بعد التحقيق بالعلم يدخل متحريه في جملة الظلمة»[(١)].

وأي ظلم أشد وأعظم «من ظلم من علم الحق والباطل فآثر الباطل على الحق»[(٢)]؟!.

والناظر يجد أن الذي أوجب لهم الظلم وأوقعهم فيه وسجله عليهم هو اتباعهم الهوى.

قال الله جل جلاله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الروم: ٢٩].

ووصف اتباع الهوى بالظلم؛ لأن «الأمر ليس قصورًا في الأدلة، ولا عدم وضوح في الحجج، وإنما الظالمون اتبعوا أهواءهم، أي: ما يهوونه ويشتهونه بغير علمٍ من نفعه وجدواه لهم فضلوا لذلك»[(٣)].

وكذا لأنهم تركوا شرع الله الواضح وهديه القيم، و«أخذوا أهواءً شتى تعارضت وتضاربت فلم يصلوا منها إلى نتيجة، وكذلك لأنهم أعطوا أنفسهم شهوة عاجلة، ولذة فانية، وغفلوا عن عاقبة ذلك، فهم إما كارهون لأنفسهم، أو يحبونها حبًا أحمق، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكم فيه»[(٤)].

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٢٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢.
(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ١٧٥.
(٤) تفسير الشعراوي ١٨/ ١١٤١٠ بتصرف.

٤. الاستكبار.

وهذه من الأوصاف التي وصف الله بها متبع الهوى، قال عز وجل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فهذه الآية تصف اليهود -الذين اتبعوا أهواءهم، فقتلوا فريقًا من الأنبياء، وكذبوا فريقًا- بالاستكبار، والاستكبار هو الاتصاف بالكبر، والمراد به هنا: «الترفع عن اتباع الرسل وإعجاب المتكبرين بأنفسهم، واعتقاد أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل، ويكونوا أتباعًا لهم»[(٥)].

وكان من الممكن أن يكونوا هداة، وأن يحسنوا السير وراء أنبيائهم، ولكنهم «أصغوا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى، فما استلذته النفوس؛ قبلوه، وما استثقلته أهواؤهم جحدوه»[(٦)].

فأعرضوا عن الحق مع ظهوره، والمتأمل يدرك أن سبب استكبارهم هذا إنما جلبه عليهم سيرهم وراء الهوى، فأن يكون دأبهم الإعراض والإيذاء مع رسل الله جميعًا فـ«تلك أمارة على أنهم إنما يعرضون عن الحق؛ لأجل مخالفة الحق أهواءهم، وإلا فكيف لم يجدوا في خلال هذه العصور، ومن بين تلك المشارب ما يوافق الحق

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٩٨.
(٦) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٠٤.

ويتمحض للنصح»؟![1].

فدلائل الحق كانت واضحة ولكنهم ساروا وراء الهوى فاستكبروا، نعوذ بالله عز وجل من هذا الوصف المشين.

٥. التكذيب بالحق.

من الصفات التي وصف الله بها متبع الهوى التكذيب بالحق، قال عز وجل: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣].

فهؤلاء المشركون بعد ما أتتهم آيات الله، وعاينوا الدلالة على صحتها آثروا اتباع ما دعتهم إليه أهواء أنفسهم من تكذيب ذلك على التصديق[2].

فالآية تثبت بوضوح أن التكذيب صفة من صفات متبعي الهوى، وأنه «لا دافع لهم إليه إلا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه»[3].

فبين التكذيب والهوى إذًا صلة كبيرة «فإذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب؛ لأن الله يلبس على قلب صاحبه؛ حتى لا يستبصر الرشد»[4].

ومن الآيات التي أكدت على أن متبع الهوى مكذب بالحق قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فتأمل كيف وضع سبحانه وتعالى الظاهر موضع الضمير؛ إذ لم يقل: ولا تتبع أهواءهم «للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره أي: سوى به الأصنام فهو متبع للهوى لا غير؛ لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقًا بالآيات، موحدًا لله عز وجل»[5] بل قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾

ومن التكذيب بالحق التكذيب باليوم الآخر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

فمن الأوصاف التي ذكرتها الآية لأهل الأهواء أنهم «على جهلهم واتباع أهوائهم لا يؤمنون بالآخرة، فيحملهم الإيمان على سماع الحجة إذا ذكروا بها»[6].

وما ذلك إلا لأن الهوى يعلق صاحبه بالدنيا وزخرفها ومتاعها الزائل «ويطمس بصيرته فيدفعه للكفر بساعة القيامة والبعث ليوم الجزاء»[7].

فهناك إذًا تلازم ظاهر وارتباط واضح بين الكفر بالآخرة واتباع الهوى.

قال جل جلاله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٩٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٧١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٧٢.
(٤) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٤٩٤.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٥٣٥.
(٦) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٦٠.
(٧) انظر: معارج التفكر، حبنكة الميداني ٨/ ٥٧.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ففي هذه الآية يظهر أثر الهوى، وكيف أنه يمنع الإيمان باليوم الآخر.

يقول صاحب معارج التفكر: «يلاحظ في هذه الآية ترتيب حلقات سلسلة الأسباب بعضها على بعض، فاتباع الهوى ينسي العمل للنجاة والظفر يوم الدين الذي يكون فيه الحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، وهذا يؤدي للضلال عن سبيل الله، والسقوط في المعاصي وكبائر الذنوب تنازلًا حتى دركة الكفر بالله، وجحود يوم الدين، وهذا يؤدي إلى استحقاق العقاب والعذاب الشديد بقدر تنازل الدركات، ويكون لكل مذنب استحقاق من العذاب بما يناسب الدركات»[1].

وهكذا يتضح أن التكذيب باليوم الآخر من خصائص من اتبع هواه.

ومن الآيات التي أكدت على هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥ - ١٦].

فتأمل كيف أنه قرن اتباع الهوى بعدم الإيمان باليوم الآخر؛ ليدل على أنه لا داعي لهم للصد عن الإيمان بالساعة إلا اتباع الهوى، دون دليل ولا شبهة، بل الدليل يقتضي الإيمان بالساعة، كما أشار إليه قوله عز وجل: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وبهذا يظهر أن التكذيب بالآخرة من خصائص متبع الهوى، وليس ذلك لغموض في دلائلها، ولكن الهوى يعمي صاحبه فلا يرى الحق مع فرط ظهوره.

٦. الجهل وعدم العلم.

شرع الله ظاهر وواضح لا لبس فيه، ولا غموض، ومن ابتعد وانحرف عنه، فهو لا شك ينطوي على جهل كبير؛ ولذا كانت من الصفات التي وصف الله بها متبع الهوى في القرآن أنه جاهل عديم العلم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

فها هنا ينهى الله نبيه صلى الله عليه السلام عن اتباع من «استولى عليهم الجهل، واستبد بهم العمى، فانقادوا لأهوائهم، ولم يلتفتوا إلى هذا الهدى الذي يدعون إليه»[2].

وهدى الله سبحانه وتعالى هو «النقطة الثابتة التي يقف عليها من يؤمن به فلا تتزعزع قدماه، ولا تضطرب خطاه؛ لأن الأرض ثابتة تحت قدميه لا تتزلزل ولا

(١) المصدر السابق ٣/ ٥٤٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٤٠.

تخسف ولا تغوص، وكل ما حوله -عدا الحق الثابت- مضطرب مائج مزعزع مريج، لا ثبات له ولا استقرار، ولا صلابة له ولا احتمال.

فمن تجاوزه فقد الثبات والاستقرار والطمأنينة والقرار، فهو أبدًا في أمر مريج لا يستقر على حال، ومن يفارق الحق تتقاذفه الأهواء، وتتناوحه الهواجس، وتتخاطفه الهواتف، وتمزقه الحيرة، وتقلقه الشكوك، ويضطرب سعيه هنا وهناك، وتتأرجح مواقفه إلى اليمين وإلى الشمال، وهو لا يلوذ من حيرته بركن ركين، ولا بملجأ أمين»[1].

فأي علم عند متبع الهوى جعله يبتعد عن الحق الثابت، ويعرض عن الهدى الواضح الأصيل والمنهاج السليم المبرأ من الخلل؛ لتتناوحه الشكوك وتتقاذفه الأهواء إنه لا شك جاهل، بل هو أجهل الجهلاء.

وهكذا يظهر من خلال تتبع أوصاف متبع الهوى في القرآن شدة تنفيره منه، وبغضه له، وصد الناس عنه، فنسأل الله أن يعيننا على مجانبة الأهواء، والتزام الصراط المستقيم.

ثالثًا: الوعد بالجنة لمن نهى النفس عن الهوى:

استحضار الأجر والثواب من أكثر ما يعين الإنسان على الفعل، ويدفعه للصبر على لأوائه ومتاعبه، وتحمل مشاقه ومصاعبه؛ ولذا فمن الأساليب التي اتبعها القرآن في النهي عن الهوى الوعد بالجنة لمن نهى النفس عن الهوى.

قال جل جلاله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

إشارة إلى أن الإنسان «إذا لم يقم على نفسه ناهيًا ينهاها، وزاجرًا يزجرها عن اتباع هواها كلما دعتها دواعيه انقاد لهذا الهوى الذي يغلبه على أمره، ويطرحه في مطارح الضلال والهلاك»[2].

وما ذلك إلا لأن «الهوى هو الدافع القوي لكل طغيان وكل تجاوز، وكل معصية، وهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى»[3].

فالهوى إذا بلاء عظيم، وجهاده يحتاج لصبر وتحمل، فمقاومة النفس وصرفها عن هواها جهاد و«الله يعلم ضخامة هذا الجهاد وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها، ورفعها إلى المقام الأسنى»[4].

ونهي النفس عن الهوى مكابدة وحرمان

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٥٩ بتصرف.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٦/ ١٤٤٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٩.

(٤) المصدر السابق.

من لذائذ وشهوات الدنيا؛ لذا كان المقابل أن تجازى بالجنة التي حكى القرآن عنها كثيرًا، وفصل في نعيمها طويلًا، وأتى بكل ما تحبه النفس، بل ما لم يمكن تصوره من حور عين لا يحيط الخيال بحسن جمالهن، وخمر لذة للشاربين، وفواكه لا نعرف عنها إلا اسمها، لكن حقيقتها لا يتصوره عقل، ولحم طير مما تشتهيه النفس، وقصور لم ولن ترى الدنيا مثلها، وغير ذلك مما وصف الله في كتابه وبين نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته؛ ليشجع المجاهدين على الصبر في مقاومة إغراءات الهوى، ويحث الممتنعين عن الانغماس في الشهوات المحرمة على ثباتهم في مقاومة الهوى.

فمن «نهى نفسه عن هواها الذي يقيدها عن طاعة الله، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]»[١].

وأنعم به من مأوى حيث «العيون الجارية، والسرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنمارق المصفوفة[٢] والزرابي المبثوثة[٣] والكواعب[٤] العرب الأتراب، ولقاء الأحباب»[٥].

فلا شك أن استحضار هذا الجزاء العظيم، والخير العميم من أشد ما يعين العبد على مجانبة الهوى، ونهي النفس عنه كما أنه يقطع حجته في الميل للهوى بحجة أنه مركب في طبيعته «فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه، ونهي النفس عنه، ورفعها عن جاذبيته، وجعل له الجنة جزاءً ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى»[٦].

رابعًا: النهي عن طاعة أصحاب الهوى ومجالستهم:

ذكرنا فيما سبق أن القرآن الكريم تنوعت أساليبه في النهي عن اتباع الهوى، وكل ذلك لبيان خطره، والتنفير منه بشتى الصور التي تعين المرء على إدراك مدى بشاعته.

ومن هذه الأساليب الربانية الحكيمة: النهي عن طاعة أصحاب الهوى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩١٠ بتصرف.

(٢) وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها. تيسير الكريم الرحمن ص٩٢٢.

(٣) الزرابي أي: البسط الحسان، مبثوثة أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب. تيسير الكريم الرحمن ص٩٢٢.

(٤) الكواعب وهي: النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهن من شبابهن، وقوتهن ونضارتهن. تيسير الكريم الرحمن ص٩٠٧.

(٥) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٥١٥.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٩.

﴿ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

تتحدث الآية عن تبرؤ المحبين بعضهم لبعض، وتبرؤ التابع من المتبوع بعد تقطع أسباب المودة والحب، فقد جاءت بعد بيان الله لفئة تتخذ أندادًا ونظراءً؛ حبًا ومودة من دون الله، وهذا الحب غالبًا ما يكون منشأه الهوى، وميل النفس، ويعقبه تعظيم وطاعة، وهي مضمون العبادة التي وقع فيها هؤلاء فلو أنهم تبرءوا منهم وممن يعبدونهم ما تأثروا كما تأثر أترابهم وأصدقائهم.

وكذا النهي عن مجالستهم، حيث إنها طريقة من طرق محاربة هذا الصفة الذميمة، فالأفكار تنتشر عن طريق التواصل مع الآخرين، لاسيما المصاحبة والملازمة، فالصاحب -كما هو معلوم- ساحب، وقد قال صلى الله عليه السلام: (الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)[(١)].

والمقصود أن الإنسان يحاكي صاحبه في خلقه وسلوكه، فإن كان الصاحب متبعًا للهوى حتمًا سيؤثر في نفسه وسلوكه، وقد ذكر الله مآل أصدقاء السوء للحذر والتنفير من هذه الصداقة والمشابهة في السلوك، وبين أن مآلهم إلى الجحيم، قال سبحانه وتعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

والمعنى: احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين، فهم أزواج متشاكلون[(٢)].

وعن النعمان قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: أشباههم قال: يجيء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب الزنا مع أصحاب الزنا، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر[(٣)].

وأخبر جل جلاله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٣-٣٤].

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ [الصافات: ٣٨].

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، ٤/ ٢٥٩، رقم ٤٨٣٣، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، ٤/ ٥٨٩، رقم ٢٣٧٨.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٥٩٧، رقم ٩٢٧.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩.

[الكهف: ٢٨].

جاءت هذه الآية بعد ذكر قصة أهل الكهف، وما كان من شأن صحبتهم الطيبة، وتعانق قلوبهم، واجتماع كلمتهم على حب الله؛ لتوجه النبي صلى الله عليه السلام إلى أهمية مصاحبة أهل التقى، وتحذره من مصاحبة أهل الأهواء الذين اقترحوا عليه طرد الفقراء والضعفاء ليجالسوه.

يقول ابن عاشور: هذه الآية جاءت ردًا على سادة المشركين، حيث إنهم زعموا أنه لولا أن من المؤمنين ناسًا أهل خصاصة في الدنيا، وأرقاء لا يدانوهم، ولا يستأهلون الجلوس معهم؛ لأتوا إلى مجالسة النبي صلى الله عليه السلام واستمعوا القرآن، فاقترحوا عليه أن يطردهم من حوله إذا غشيه سادة قريش، فرد الله عليهم بهذه الآية[(١)].

وفي هذه الآية أمره «بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم -وإن كانوا فقراء- فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى»[(٢)].

وتأمل كيف أن الله عبر عنهم بالموصول، فقال: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف: ٢٨].

وذلك «للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي: لأنهم أحرياء بذلك؛ لأجل إقبالهم على الله، فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة»[(٣)].

ثم قال بعدها: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

وفي ذلك تأكيد «الأمر بمواصلتهم بالنهي عن أقل إعراض عنهم»[(٤)].

ثم راحت الآية بعد ذلك تحذر من مخالطة صاحب الهوى ومصاحبته وطاعته ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

وما ذلك إلا لأن «طاعته تدعو إلى الاقتداء به؛ ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به»[(٥)].

وفي التعبير عن المنهي عن الصبر معهم ومصاحبتهم بالموصول «للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للنهي عن الإطاعة»[(٦)].

فمن غفل قلبه عن الذكر، وامتلأ بالهوى، وصار أمره في جميع أعماله وأحواله ضياعًا وهلاكًا، فماذا ينتظر من صحبته إلا الفساد؟!

ومما يدل على شدة التنفير من مصاحبة صاحب الهوى زيادة فعل الكون في ذيل الآية التي تدل على «تمكن الخبر من الاسم»[(٧)].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥.
(٤) المصدر السابق.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٥.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢١٩.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٦.

أي: شدة تمكن الضياع والهلاك، فهل يرجى خير من مصاحبته بعد هذا؟!

وقد جاء في الحديث أنه صلى الله عليه السلام قال: (إنه سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكلب[1] بصاحبه، فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله)[2].

ولهذا الحديث وجه في الاستدلال على وجوب الحذر من مجالسة ومخالطة أهل البدع، وبيان ذلك أن داء الكلب فيه ما يشبه العدوى، فإن أصل الكلب واقع بالكلب، ثم إذا عض ذلك الكلب أحدًا صار مثله، ولم يقدر على الانفصال منه في الغالب إلا بالهلكة، فكذلك المبتدع إذا أورد على أحد رأيه وإشكاله فقلما يسلم من غائلته، بل غالبًا ما يقع معه في مذهبه، ويصير من شيعته، أو يثبت في قلبه شكًا يطمع في الانفصال عنه فلا يقدر.

وقد فهم هذا المعنى الدقيق ابن طاووس حين دخل عليه وعلى ابنه أحد المبتدعة فجعل يتكلم في القدر، فأدخل ابن طاووس أصبعه في أذنيه وقال لابنه: «أدخل أصابعك في أذنيك واشدد، فلا تسمع من قوله شيئًا؛ فإن القلب ضعيف»[3].

وهكذا الأهواء إذا أشربها قلب صاحبها صارت كالداء المهلك الذي لا ينجو منه إلا القليل، ومن كانت هذه حاله فقل أن ينزع أو يتوب؛ ولهذا قال سفيان الثوري: «إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها»[4].

قال المباركفوري: (تتجارى) بالتاءين، أي: تدخل وتجري وتسري (بهم) أي: في مفاصلهم وعروقهم تلك (الأهواء) جمع هوى، وهي البدع التي كانت السبب في الافتراق، وضعت موضعها وضعًا للسبب موضع المسبب؛ لأن هوى الرجل هو الذي يحمله على الابتداع في العقيدة والقول والعمل، (كما يتجارى الكلب) بفتحتين داء يعرض للإنسان من عض الكلب (الكلب) أي: المكلوب، وهو داء يصيب الكلب فيصيبه شبه الجنون فلا يعض أحدًا إلا كلب، ويعرض له أعراض رديئة ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشًا، كذا في النهاية[5].

(بصاحبه) أي: مع صاحبه إلى جميع أعضائه، أي: مثل جري الكلب في العروق، شبه حال الزاغين من أهل البدع في استيلاء

(١) الكلب: بفتح اللام، قال الخطابي: هو داء يعرض للإنسان من عضة.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة، ٤/ ١٩٧، رقم ٤٥٩٦، وأحمد في مسنده، ٢٨/ ١٣٤، رقم ١٦٩٣٧.
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٦١، رقم ١٧٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق عن معمر في المصنف ١١/ ١٢٥، رقم ٢٠٠٩٩.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٩.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ١٩٥.

تلك الأهواء عليهم، وفي سراية تلك الضلالة منهم إلى الغير بدعوتهم إليها، ثم تنفرهم من العلم وامتناعهم من قبوله؛ حتى يهلكوا جهلًا، بحال صاحب الكلب، وسريان تلك العلة في عروقه ومفاصله شبه الجنون، ثم تعديته إلى الغير، فلا يعض المجنون أحدًا إلا كلب أي: جن، ويعرض له أعراض رديئة -تشبه الماليخوليا مهلكة غالبًا- ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشًا.

وفي هذا التشبيه فوائد: منها التحذير من مقاربة تلك الأهواء ومقاربة أصحابها، هذا بخلاف سائر المعاصي فإن صاحبها لا يضاره، ولا يدخله فيها غالبًا إلا مع طول الصحبة والأنس به، والاعتياد لحضور معصيته، وقد أتى في الآثار ما يدل على هذا المعنى، فإن السلف الصالح نهوا عن مجالستهم ومكالمتهم، وأغلظوا في ذلك[1].

خامسًا: من خلال الاعتبار بقصص السابقين:

كثيرًا ما يستعمل القرآن في التعبير عن مراداته وأغراضه عنصر القصة؛ وذلك« لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس»[2].

ولأن القصة أيضًا من أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان، ومن أكثر العوامل النفسية تأثيرًا فيه، فالمرء يرتاح كثيرًا لسماعها، ويصغى بشوق ولهفة لتفاصيلها، ولا يمل من الصبر حتى يعرف خواتيمها، وتظهر أهمية القصة في القرآن من المساحة الواسعة التي أخذتها من القرآن الكريم.

ولقد كانت القصة أحد أهم الأساليب التي استعملها القرآن الكريم للتنفير عن اتباع الهوى، ومن ذلك:

١. قصة من أوتي العلم فانسلخ منه.

إن القرآن يحكي لنا قصة هذا الذي آتاه الله علمًا[3]، لكنه لم ينتفع، وآتاه بينات فما اتبع، بل انسلخ وجحد، وهذه قصة متكررة بين البشر تبين أثر اتباع الهوى في الانحراف عن الحق، كما تبين قبح ما يصير إليه أمثال هؤلاء من شره لا يشبع، وعطش لا يروي، ولهفة لا تنقطع فحالهم كحال الكلب دائم اللهث في العطش والري، والراحة والتعب، فما أقبحه من مآل ومصير!

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/ ٢٧٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٩.

(٣) قيل هو: بلعم بن باعر، وقيل: بلعم بن أبر، وقيل: بلعام، وقيل: أمية بن أبي الصلت، أما مكان القصة، فقيل: حدثت في بيت المقدس، وقيل: في اليمن، وقيل: في الطائف، وقيل غير هذا.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٠٧.

﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

إنه إذًا أنموذج لمن أوتي الهدى والآيات ولكنه لم ينتفع بها، بل انسلخ منها «والانسلاخ حقيقته: خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه جلده، والسلخ: إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده، واستعير في الآية للانفصال المعنوي، وهو ترك التلبس بالشيء أو عدم العمل به»[(١)].

والتعبير بالانسلاخ الذي يستعمل عند العرب في خروج الحيات من جلودها «يدل على أنه كان متمكنًا منها، ظاهرًا لا باطنًا»[(٢)].

وبذلك يظهر أن الآيات لم تصل لشغاف قلبه، وإنما كانت أثرًا لا صلة له بفؤاده، ولا علاقة له بقلبه؛ ولذلك انسلخ منها انسلاخ الثعابين من جلودها، وكان هذا بسبب اتباعه الهوى.

وتأمل كيف أنه قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] ولم يقل: فسلخناه منها؟ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباعه هواه»[(٣)].

«ومن المعلوم أن الثعابين لا تنسلخ عن جلدها القديم إلا إذا نضج الجلد الجديد، وصلح لتحمل الطقس والجو»[(٤)].

فاستخدام هذا التعبير في تصوير فراقه للآيات، يدل على أن الهوى قد عظم وتمدد حتى امتلأ به صدره، فصار هو الثوب والجلد اللائق به، فكان من أمره ما كان.

فهذا الرجل بعدما انسلخ من الآيات تسلط عليه الشيطان، وتمكن من الوسوسة له، والتلاعب به كما يريد «لأنه ترك رحمة الرحمن بترك آياته، ومن ترك رحمة الله أدخله الله تعالى حظيرة الشيطان، وصار من أتباعه»[(٥)].

وتظهر خطورة اتباع الهوى وتتجلى أشد ما يكون في خاتمة قصة هذا الرجل، وما آل إليه حيث شبهه الله بالكلب ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦].

«قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلًا لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٦.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٣٤٠.
(٣) بدائع التفسير، ابن القيم ١/ ٤٢٧-٤٢٨.
(٤) تفسير الشعراوي ٧/ ٤٤٥٥.
(٥) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٠٠٧.

تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث»[1].

وهكذا يتضح من هذا المثل المضروب خطورة السير وراء الهوى، والإخلاد إلى الأرض، والبعد عن الآيات والهدى، وفي هذا « عبرة وموعظة للمؤمنين، وتحذير لهم من اتباع أهوائهم، حتى لا ينزلقوا في مثل تلك الهوة التي انزلق إليها صاحب المثل بحبه للدنيا، وركونه إلى شهواتها ولذاتها»[2].

«وهل أسوأ من هذا المثل مثلٌ؟! وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟! وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟! وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟! من يعريها من الغطاء الواقي، والدرع الحامي، ويدعها غرضًا للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهاث الكلب أبدًا»[3].

وصدق صاحب الإشارات فـ«موافقة الهوى تنزل صاحبها من سماء العز إلى تراب الذل، وتلقيه في وهدة الهوان، ومن لم يصدق علمًا فعن قريب يقاسيه وجودًا»[4].

فما أعظمه من مثل! وما أكثر ما فيه من عبر لمن تأمله ووعاه!

٢. قصص بني إسرائيل.

ومن القصص التي ذكرها القرآن للتنفير من أهل الأهواء قصص بني إسرائيل، وما كان منهم من تقتيل، وتكذيب لرسل الله وأنبيائه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

وهذا أنموذج يقصه القرآن علينا لبني إسرائيل، ويذكر كيف «أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه»[5].

وهذا من أكثر الأمور التي تعطل فوائد التشريع، وتضيع ثمرته؛ إذ الغرض من الرسالات والشرائع هو كبح النفس عن هواها الذي يوجب لها الخسران في الدنيا والآخرة، فإذا صار الهوى قائدًا، وكذب حملة الخير والهدى واضطهدوا، تعطلت آنئذٍ فائدة التشريع، وفاتت فائدة طاعة الأمة لهداتها، ونتج عن ذلك فساد عريض.

وما صنع بنو إسرائيل تلك الشنائع التي

(١) الفوائد، ابن القيم ١/ ١٠٢.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٩/ ١٠٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٩٧.
(٤) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٥٨٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٦.

ذكرتها الآية إلا لغلبة الهوى عليهم، وتمكنه من أنفسهم، فصور لهم أنهم الشعب المختار، وأنهم بمأمن من عقوبة الله وفتنته، فهم كما يقول صاحب الإشارات: «داروا مع الهوى؛ فوقعوا في البلاء، ومن أمارات الشقاء الإصرار على متابعة الهوى»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ٧١].

«أي: وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا، فلا يسمعون حقًا، ولا يهتدون إليه[(٢)].

وتأمل كيف أن قوله: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [المائدة: ٧١] معطوف على ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ [المائدة: ٧١].

بفاء السببية التي تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إن عماهم عن الطريق القويم، وصممهم عن سماع الحق كان سببه ظنهم الفاسد الذي سوله لهم الهوى، واعتقادهم الباطل أن ما ارتكبوه من قبائح لن يعاقبوا عليه في الدنيا[(٣)].

وهكذا أومأ القرآن إلى عدم اكتراثهم بالآخرة، وما يكون لهم فيها من شأن «ببيان أن ظنهم: لن تنزل بهم مصائب في الدنيا بسبب مفاسدهم، هذا الظن هو الذي جعلهم يرتكبون ما يرتكبون من قبائح، وهذا شأن الأمم إذا ما استحوذ عليها الشيطان، وتغلب عليها حب الشهوات، وضعف الوازع الديني في نفوس أفرادها، إنهم في هذه الحالة يصير همهم مقصورًا على تدبير شؤون دنياهم، فإذا ما وجدوا فيها مأكلهم وشربهم وملذاتهم أغمضوا أعينهم عن آخرتهم، بل وربما استهانوا وتهكموا بمن يذكرهم بها، فتكون نتيجة إيثارهم الدنيا على الآخرة الشقاء والتعاسة»[(٤)].

وهكذا يظهر لنا من قصص السابقين مدى خطورة اتباع الهوى، وكيف أنه يورث الإنسان الشقاء، ويهبط بالأمم إلى القاع، ويحرمها من الانتفاع بهدايات السماء، وكفى بذلك معتبرًا وزاجرًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧].

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٤٣٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٦.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٢٣٤.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤ بتصرف.

مجالات اتباع الهوى

لاتباع الهوى مجالات متعددة نوضحها فيما يأتي:

أولًا: العقائد:

للهوى آثار جسيمة، ومخاطر كبيرة؛ لأنه يدخل في مجالات كثيرة، وأبواب عديدة، ولكن أثر الهوى على العقائد من أعظمها وأخطرها؛ لأنها هي التي يترتب عليها دخول المرء في حظيرة الإيمان أو خروجه منها، ولقد تحدث القرآن عن ذلك في أمرين: توحيد الله، الإيمان باليوم الآخر، وفيما يلي عرض لذلك:

١. توحيد الله.

لقد عبر القرآن الكريم عن متبع الهوى في العقائد أن الهوى إله يعبد من دون الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الهوى إله يعبد من دون الله»[(١)].

وقال ابن كثير رحمه الله «أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسنا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه»[(٢)].

وقد تحدث القرآن عن أثر اتباع الهوى في العقائد في غير ما موضع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

فهذه الآيات جاءت في معرض التنديد بالمشركين، وبيان أن أوثانهم التي يعظمونها ليس لها حظ من الشرف، وإنما هي محض أسماء ليس لها من الألوهية التي أثبتوها لها سوى اسمها، وأما معناها وحقيقتها فهي أبعد ما تكون عما وصفوها به، وما ذلك إلا «لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله، ولا عن رسول الله أخبرهم به»[(٣)]. فلعبت بهم الظنون، وحركتهم الأهواء.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وأصل الضلال اتباع الظن والهوى، كما قال الله سبحانه وتعالى في حق من ذمهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]»[(٤)].

ومما يوحي بشدة خطر الهوى وكيف أنه كان السبب وراء هذه الظنون التي ظنوها، والاعتقادات الفاسدة التي اعتقدوها هو «عطف ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ على

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٢٨.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٨٤.

﴿الظَّنَّ﴾ عطف العلة على المعلول، أي: الظن الذي يبعثهم على اتباعه أنه موافق لهواهم وإلفهم»[1].

ومع كل هذا فقد جاءهم من ربهم الهدى والخير، وتأمل التعريف في كلمة ﴿الْهُدَىٰ﴾ فإنه يدل «على معنى الكمال، أي: الهدى الواضح»[2].

فالهدى الذي أتاهم كان ظاهرًا شديد الظهور، ومع ذلك لم ينتفعوا به، وما ذلك إلا لشدة الهوى الذي كان في نفوسهم، ومتى «انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر، ولن يجدي هدى؛ لأن العلة هنا ليست خفاء الحق، ولا ضعف الدليل، إنما هي الهوى الجامح الذي يريد، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد! وهي شر حالة تصاب بها النفس، فلا ينفعها الهدى، ولا يقنعها الدليل»[3].

ومما يزيد أمر اتباع الهوى وضوحًا في توحيد الله قوله سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٨-٢٩].

فهذا مثل ضربه الله للمشركين ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم: ٢٨].

«أي: لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكًا له في ماله، فهو وهو فيه على السواء»[4].

والمراد أن الإنسان العادي يأنف من هذا، فكيف يرضونه إذًا لرب العالمين؟!

وهذا مثل واضح وظاهر وحاسم لا مجال للجدل فيه، فكان المتوقع أن تكون الإجابة إجابتهم عقلية مساوية للحجة العقلية التي أوردتها الآية، وذلك بالإقلاع عن الشرك، وقبول الإيمان، ولكن هذا لم يصدر منهم؛ ولذلك جاء الإضراب الإبطالي؛ ليكشف عن حقيقة القوم، وعن العلة الأصيلة في هذا التناقض المريب ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩].

«إنه الهوى الذي لا يستند على عقل أو تفكير، والهوى لا ضابط له ولا مقياس، إنما هو شهوة النفس المتقلبة، ونزوتها المضطربة، ورغباتها ومخاوفها، وآمالها ومطامعها التي لا تستند إلى حق، ولا تقف عند حد، ولا تزن بميزان، وهو الضلال الذي لا يرجى معه هدى، والشرود الذي لا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١١٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٠٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣١٢.

ترجى معه أوبة»[1].

ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

فمن ذا الذي يمكن أن يرد بمن أضله الله موارد الهدى؟! ومن ذا الذي يفض هذا الختم الذي ختم الله به عليه؟! ومن ذا الذي يمكنه نصرته إذ الله أراد به الهلاك؟!

٢. اليوم الآخر.

اليوم الآخر من المحاور الكبرى للعقيدة الإسلامية، وهو من المجالات التي ظهر فيها اتباع الأهواء بشكل كبير، ومما حدثنا القرآن فيه عن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥-١٦].

وهذا كلام أتى في مقام تكليف موسى بالرسالة، يؤكد فيه الرب سبحانه وتعالى على أمر الساعة، وأنها آتية لا محالة، وواقعة لا ريب فيها.

والإيمان بقدوم الآخرة منطقي ظاهر، وشواهده غاية في الوضوح، فالمجهول «عنصر أساسي في حياة البشر، وفي تكوينهم النفسي، فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه، ولو كان كل شيء مكشوفًا لهم وهم بهذه الفطرة لوقف نشاطهم وأسنت[2] حياتهم، وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد، يحفظهم من الشرود، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة، فهم من موعدها على حذر دائم، وعلى استعداد دائم»[3].

ولكن ذلك كله لمن صحت فطرته واستقام على الجادة، أما من فسدت فطرته، واتبع هواه، فيقع في الإنكار والتكذيب، ويبقى في جهله وغيه حتى يكون من الهالكين ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦].

وتأمل كيف أنه زاد ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ «للإيماء بالصلة إلى تعليل الصد، أي: لا داعي لهم للصد عن الإيمان بالساعة إلا اتباع الهوى دون دليل ولا شبهة»[4].

ومن الآيات التي كشفت عن مجال الهوى في الآخرة أيضًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٦٧.

(٢) أي: فسدت، وتغيرت. انظر: تاج العروس ٣٤/ ١٧٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣١.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٠٣.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٣-٢٥].

وهذه الآيات تكشف بوضوح وجلاء عن شأن الهوى في التصديق باليوم الآخر، وكيف أنه يصرف الإنسان عنه، ويعلقه فقط باليوم الحاضر والشهوة العاجلة، فيكذب ويعاند ويوغل في اللجج والخصومة، مع أن الأمر أظهر ما يكون، ولكن هكذا شأن الهوى في النفوس.

يقول صاحب الظلال: «اتباع الهوى هو الذي ينشىء التكذيب بالساعة، فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها، ولا يتم فيها العدل تمامه، وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال»(١).

ثانيًا: الاتباع:

العبد في هذه الحياة مأمور بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ففي هذه الآية دعوة «قائمة على الناس جميعًا بأن يطيعوا الله ورسوله، وأن يستجيبوا لما يدعون إليه من الإيمان بالله ورسوله، ومن العمل الصالح الذي يدعو إليه الله ورسوله»(٢).

ولكن هذه الطاعة لله والرسول والاستجابة لأمرهما التي يجب على العبد النهوض بها من المجالات التي تتدخل فيها الأهواء بشكل كبير.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٣٩-٤٠].

فهذه الآيات جاءت بعدما بين سبحانه وتعالى أنه إنما أرسل رسوله قطعًا لمعذرة الكفار حتى لا يقولوا حين نزول البأس بهم: هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبعه؟! وكيف أنهم لما جاءهم النذير جحدوا وأنكروا وراوغوا وطلبوا المعجزات الحسية، فجاءت هذه الآيات؛ لتفضح سر عدم استجابتهم ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٩-٥٠].

جاءت هذه الآية لتبين» أن الحق في هذا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣٢.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٩٨٦.

القرآن بين، وأن حجة هذا الدين واضحة، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصده»[1].

يقول ابن جرير: «فإن لم يجبك هؤلاء فاعلم أنما يتبعون أهواءهم»[2].

فهما طريقان إذًا ولا ثالث لهما: «إما إخلاص للحق، وخلوص من الهوى، وعندئذٍ لا بد من الإيمان والتسليم، وإما مماراة في الحق، واتباع للهوى، فهو التكذيب والشقاق، ولا حجة من غموض في العقيدة، أو ضعف في الحجة، أو نقص في الدليل كما يدعي أصحاب الهوى المغرضون»[3].

ففي هذه الآية دليل إذًا على أن « كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول؛ فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى»[4].

ولقد ذكر القرآن نماذج عدة لأثر الهوى في الاستجابة لله ورسوله، ومن أبرزها ما كان من أمر كفار قريش مع آية انشقاق القمر.

وروى الإمام البخاري عن قتادة عن أنسٍ رضي الله عنه قال: (سأل أهل مكة أن يريهم آيةً فأراهم انشقاق القمر)[5].

وتلك آية عظيمة كان المفترض أن يتحولوا عن كفرهم بعدها، ويحسنوا الاستجابة والسير في طريق الهدى، ولكنهم كما قال القرآن: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

وما ذلك إلا لأن قصدهم ليس اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى»[6] ولهذا قال بعدها: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣].

إذ لو «كان قصدهم اتباع الهدى؛ لآمنوا قطعًا، واتبعوا محمدًا صلى الله عليه السلام؛ لأنه أراهم الله على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية»[7]، ولكن هكذا الهوى يطمس القلوب؛ فلا تنتفع برؤية آيات، ولا تستجيب للنذر، مهما كانت واضحة شديدة الظهور ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤-٥].

وإذا كان الله عاب على كفار قريش تركهم الاستجابة واتباع الهوى؛ فإننا نجد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٩٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٩٢ باختصار.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٩٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا)، ٦/ ١٤٢، ٤٨٦٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، ٤/ ٢١٥٩، رقم ٢٨٠٢.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢٤.
(٧) المصدر السابق.

أننا بحاجة ماسة إلى فهم مثل هذا الأمر، وخصوصًا في هذا الزمان «الذي كثرت فيه الأهواء، وتنوعت فيه المشارب في التعامل مع النصوص الشرعية، بدعاوى كثيرة، فهذا ينصر بدعته، وهذا يروج لمنهجه في تناول النصوص، وثالث يتتبع الرخص التي توافق مراد نفسه، لا مراد الله ورسوله»[(١)].

وهذا ما أشار إليه الإمام ابن تيمية بقوله: «فكل من اتبع ذوقًا أو وجدًا، ومن اتبع ما يهواه حبًا وبغضًا بغير الشريعة فقد اتبع هواه بغير هدى من الله»[(٢)].

فالواجب على العبد أن يتعلم التسليم والطاعة والاستجابة، وأن لا يُقَدِّم على كلام الله ولا كلام رسوله أي كلام؛ فإن عدم الاستجابة إنما هي اتباع للهوى، فكل من علم من هدي النبي صلى الله عليه السلام وسنته أمرًا ثم تركه بعد معرفته به فهو متبع للهوى، كما يقول الإمام ابن القيم: «من ترك الاستجابة إذا ظهرت له سنة، وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه»[(٣)].

ولا شك أن المؤمن كامل الإيمان لا يكون هواه إلا تبعًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه السلام، وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه السلام قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[(٤)].

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم أفضل الخلق؛ لما خصوا بالمزايا والصفات الكاملة، أعلاها: الميل إلى ما جاءت به الشريعة السمحة التي ليلها كنهارها في الإضاءة والوضوح، كان أحدهم يقاتل أباه وابنه، وهو في صف المؤمنين، وهما في حيز الكافرين المشركين، بذلوا رضي الله عنهم في طريقه مهجهم، وأنفقوا أموالهم، فطوبى لهم! فمن كان الهوى -وهو الباطل- المطاع المحبوب الاتباع تابعًا لطرق الهدى من الملة البيضاء والسنة الزهراء؛ حتى تصير همومه المختلفة، وخواطره المتفرقة التي تنبعث من هوى النفس، وميل الطبع همًا واحدًا، يتعلق بأمر ربه، واتباع شرعه؛ تعظيمًا لحقه، وشفقة على خلقه[(٥)].

قال المباركفوري: قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه» أي: ميل نفسه «تبعًا لما جئت به» هذا محمول على نفي أصل الإيمان، أي: حتى يكون تابعًا مقتديًا لما جئت به من الدين والشرع عن الاعتقاد،

(١) قواعد قرآنية، القاعدة الرابعة عشر، عمر المقبل ص ٩١.
(٢) الاستقامة، ابن تيمية ١/ ٢٥٣.
(٣) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٤/ ١٥٢٦.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في كتابه السنة ١/ ١٢، ١٥، وابن بطة في الإبانة الكبرى ١/ ٣٨٧، ٢٧٩.
وضعفه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٥٩، رقم ١٦٧.
(٥) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، المناوي ص٦٧.

لا عن الإكراه وخوف السيف كالمنافقين.

وقيل: المراد نفي الكمال، أي: لا يكمل إيمان أحدكم حتى يكون في متابعة الشرع، وموافقته له كموافقته لمألوفاته، فيستمر على الطاعة من غير كلفة وكراهية، وذلك عند ذهاب كدر النفس وبقاء صفوتها، وهذه حالة نادرة إلا في المحفوظين من أوليائه، وقيل في معناه: حتى يحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه، أي: يقدم الشرع على هواه[1].

فلا يميل إلا بأمر الشرع، ولا يهوى إلا حكم الشرع، فمن كان هذا حاله؛ فهو المؤمن الكامل التوحيد، ومن أعرض عنه متبعًا لهواه، مبتغيًا لرضاه؛ فهو الخاسر في دنياه وعقباه.

قال الحافظ ابن رجب: «فجميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع؛ ولهذا يسمى أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ورسوله، ومحبة ما يحبه، كذلك حب الأشخاص الواجب فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه السلام، فيجب على المؤمن محبة الله، ومحبة من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عمومًا؛ ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وتحريم موالاة أعداء الله، وما يكره الله عمومًا[2].

ثالثًا: الحكم والقضاء:

القضاء والحكم بين الناس من المجالات التي يظهر فيها اتباع الهوى بشكل كبير، ويترتب عليها آثار خطيرة في الدماء أو الأموال أو الأعراض؛ ولذا أكد القرآن على خطر هذا الأمر في غير ما موضع.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/ ٢٦٦.

(٢) جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٩٨.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨-٥٠].

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال كعب بن أسد وابن صوريا وشأس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد؛ لعلنا نفتنه عن دينه! فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا يهودٌ، ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك! فأبى رسول الله صلى الله عليه السلام، فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠][1].

ويظهر خطر الأهواء في مجال القضاء من خلال توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه السلام، ففي هذه الآية تحذير للنبي صلى الله عليه السلام من اتباع أهوائهم «بالاستماع لهم وقبول كلامهم ولو لمصلحة في ذلك كتأليف قلوبهم، وجذبهم إلى الإسلام، فالحق لا يوصل إليه بطريق الباطل»[2].

فأن يكون الخطاب موجهًا للنبي صلى الله عليه السلام -وهو من هو- فهذا لا شك يوحي بخطورة الهوى في هذا المجال وبشدته فيه.

والذي يتأمل الآيات يلحظ أن الله سبحانه وتعالى كرر النهي عن اتباع أهوائهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]وما ذلك إلا« لشدة التحذير منها؛ ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق»[3].

وتكرار التحذير من اتباع الهوى في هذا المجال أيضًا؛ لأنه شديد التسرب فيه دون أن يلحظه الإنسان، وهكذا يظهر خطر اتباع الهوى في مجال القضاء والحكم بين الناس.

ومن الآيات التي أشارت لخطر الهوى في هذا المجال أيضًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فهذا أمر رباني من الله لنبيه داود عليه السلام بأن يحكم بين الناس بالحق ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٣.

(٢) نظم الدرر ٦/ ١٣٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٤.

وبعد هذا الأمر ذكر له الآفة التي من شأنها أن تقطعه عن العدل، ولا تمكنه من التزام الحق عند الحكم فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

فـ«اتباع الهوى يبعد الحاكم عن الحكم بالحق، فالهوى في النفس له ميولات وانحرافات لا تحصر، واتباع الهوى يوصل إلى اعتناق الباطل، والاستمساك بالأفكار والمفهومات الفاسدات، ويوصل إلى الظلم والعدوان والبغي والفساد العريض في الأرض»[(١)].

وهكذا يظهر مدى خطورة أمر اتباع الهوى في مجال الحكم والقضاء، وكيف أنه ينحرف بالإنسان؛ ليبعده عن العدل، ويوقعه في الجور، نسأل الله سبحانه وتعالى الثبات على الحكم بما أنزل، والقضاء بما شرع.

رابعًا: العلم:

العلم من النعم الكبرى التي يعطيها الله للعبد ويمنحها إياه، كيف لا! وهو الذي ينير للمرء الدروب الحالكة، ويعصمه من ظلمات الشهوات والشبهات، ويمنحه القدرة على حسن الإبصار ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

ولذا طلب الله سبحانه وتعالى منا الاستزادة من العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قال القرطبي: «فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه السلام أن يسأله المزيد منه، كما أمر أن يستزيده من العلم»[(٢)].

ولكن من أخطر الآفات التي تصد المرء عن حسن الانتفاع بالعلم وحقائقه: الهوى؛وذلك حينما يتسلط على القلب فيفسده ويصرفه عن حقيقته وحقائقه، وهذا ما يظهره ويجليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وسنقف مع هذا المثل وقفات تجلي أثر اتباع الهوى في عدم التمسك بحقائق العلم:

الوقفة الأولى: هذه القصة أتت بعد حديث القرآن عن عهد الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

أي: إن الله أودع فطر الخلق ما يدلهم عليه، ويقودهم إلى بابه، ويبصرهم بالحق

(١) معارج التفكر، حبنكة الميداني ٣/ ٥٤٣ باختصار.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٤١.

الذي أتت به الرسل، ولكن الإنسان قد يميل به الهوى والتقليد؛ فيعرض عن حقيقة العلم الكامن في الفطرة «وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبيناته وآياته الأفقية والنفسية، فإعراضه عن ذلك ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق»[(١)].

وهذا الأنموذج هو الذي حدثتنا عنه الآيات في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

فمجيء قصة هذا الرجل بعد آية الميثاق السابقة فيه «إشارة للعبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد والامتثال لأمر الله، وأمده الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة، ثم لم ينفعه ذلك كله»[(٢)].

وما ذلك إلا لأنه اختار الأسفل على الأشرف، ورغب عن الهدى واتبع الهوى ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

«أي: ركن إلى الدنيا وسكن»[(٣)].

والتعبير بالإخلاد يوحي بأن «اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض»[(٤)].

ثم ذكرت الآية آفة الآفات التي كانت سببًا في فساده هذا، فقالت: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

«معناه: أنه أعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات واتبع الهوى، فلا جرم وقع في هاوية الردى»[(٥)].

وهكذا حرم من الانتفاع بحقائق العلم الذي كان معه وبين يديه، وانطمست بصيرته، فلم يبصر من أنواره شيئًا.

الوقفة الثانية: مما يظهر أيضًا شدة تأثير الهوى على التمسك بحقائق العلم في الآيات قوله سبحانه وتعالى: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].

فاستخدام ضمير العظمة هنا يوحي بعظمة ما آتاه الله، وأنه قد آتاه شيئًا عظيمًا كان من شأنه أن يرفعه، وأن يجعله من الخواص، ولكنه لما أصابته آفة الهوى حرم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٠٨ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٣.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٠.
(٤) بدائع التفسير، ابن القيم ١/ ٤٣٠.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٠٥.

بركة الآيات ونفعها على اشتداد عظمتها، وهذا يدل على شدة خطر الهوى في صرف الإنسان عن التمسك بحقائق العلم مهما كان عظيمًا.

الوقفة الثالثة: ومما يكشف لك أيضًا عن خطر الهوى في حرمان الإنسان من هدى العلم وحقائقه أن هذا المثل أتى بعد حديث القرآن عن اليهود، ومن المعلوم أن اليهود كان فيهم عدد كبير من الأنبياء، ولكن كانت آفتهم الكبرى هي اتباعهم الهوى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فكأنما أتت هذه القصة بعد سرد قصصهم؛ لتؤكد على مدى تأثير الهوى في التمسك بحقائق العلم.

وهكذا يظهر أثر الهوى في صده المرء عن التمسك بحقائق العلم الظاهرة، وبيناته القاطعة، وحججه الواضحة، نعوذ بالله من هذه الآفة وسبيلها.

وسائل مقاومة الهوى

تعددت وسائل مقاومة الهوى التي ذكرها القرآن الكريم، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: تذكر العاقبة السيئة لاتباع الهوى:

من أعظم الأمور وأكثرها تأثيرًا في انصراف الإنسان عن أي خطأ معرفة الإنسان بعاقبة الخطأ الذي يفعله، وقد ذكر القرآن أمورًا كثيرة توضح شناعة عاقبة اتباع الهوى، ولا شك أن استحضارها وتأملها من أكثر ما يعين العبد على مقاومة الهوى ومدافعته، ومن عواقب اتباع الهوى ما يلي:

١. **الحرمان من ولاية الله ونصره.**

من أعظم الأمور في حياة العبد هي ولاية الله له، فمن تولاه الله أسعده ونصره، ومن عاداه خذله وأخزاه، كيف لا والله سبحانه وتعالى يقول: (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب)[(١)].

ولذا كان حرمان العبد من ولاية ربه من أبشع العواقب لاتباع الهوى، وكفى بها، فحرمان العبد من ولاية الله يعني أنه هالك حتمًا، ومخذول لا محالة، وإلا فمن يملك إفلاته من قبضة الله، وإنجائه من بأس الله؟!

ومن الآيات التي تحدثت عن هذه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢.

العاقبة السيئة لاتباع الهوى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

كذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

ففي هاتين الآيتين يظهر حرمان العبد من ولاية ربه إذا أعرض عن هديه واتبع هواه، وتأمل كيف أن الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه السلام، فهذا «أبلغ في تقرير هذه الحقيقة التي لا تسامح في الانحراف عنها، حتى ولو كان من الرسول صلى الله عليه وسلم وحاشاه»[(١)].

ويا لها من عاقبة شنيعة لمن تأملها «فأي فلاح، وأي رجاء، وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى عنه طرفة عين، ولا بدل له منه، ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له، فتولاه عدوه وتخلى عنه وليه! فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام، وأنواع العذاب»[(٢)].

فحري بالعاقل أن يتأمل في هذه العاقبة السيئة لاتباع الهوى، ولا شك أن ذلك من أعظم ما يعينه على مقاومة الهوى.

٢. الوقوع في الظلم.

من العواقب السيئة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى لاتباع الهوى الوقوع في الظلم، فإن المنصرف عن الحق، المتبع لهواه يكون بهذا من الظالمين، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وكذا قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

وجعل الظلم عاقبة لاتباع الهوى؛ لأنه أعظم الظلم فـ«أي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق؟! »[(٣)]، ورأى النور وأبصره ثم حاد عنه وتركه، إنه -لا شك- ظلم عظيم.

وأن يؤول اتباع الهوى بصاحبه إلى الظلم فهي عاقبة موحشة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وهو ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٦٤.
(٢) الداء والدواء، ابن القيم ص٨٢- ٨٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢.

٥١].

بل إن ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وأي خير يرتجى لمن أبغضه رب العالمين، وصرفه عن موارد الهدى، وحلت عليه لعنته، إنه لا شك خاسر في دنياه وأخراه كيف لا؟! والله يقول: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

٣. الوقوع في الضلال.

من العواقب التي ذكرها الله سبحانه وتعالى لاتباع الهوى الوقوع في الضلال والغواية، كما قال الله سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيه داود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ففي هذه الآية بيان واضح أن «متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله»[١].

وهذه عاقبة غاية في السوء؛ فالإنسان ما يضل عن هدى الله «إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف، لا يستقر ولا يتوازن في خطاه، والشقاء قرين التخبط، ولو كان في المرتع الممرع! ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء»[٢].

وهذا يعني أنه سيحيا حياة نكدة «حياة تعسة ضالة، يضرب فيها في ظلام، لا يرى فيه بصيصًا من الأمل والرجاء»[٣]. نعوذ بالله من هذا المصير.

٤. عداوة الله لمن اتبع هواه.

من العواقب السيئة لاتباع الهوى أن المتبع لهواه يصير بذلك عدوًا لله، ومن عاداه الله أكبه وأخزاه مهما اتسع سلطانه، وعظم جاهه وماله «ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء؛ فهو في النهاية مضيع عاجز، ولو تجمعت له كل أسباب الحماية، وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس»[٤].

فمعاداة الله للإنسان إذًا تعني خسرانه الدنيا والآخرة، وكيف يرجى فلاح لمن ناصبه العداء مدبر الأفلاك، وفاطر الأرض والسماء؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٨٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٥٥.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨/ ٨٣٦.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٩٠.

﴿عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٦-١٩].

فها هنا يخبر المولى سبحانه وتعالى كيف أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم كثيرة فآتاهم الحكم والنبوة، ورزقهم خيرًا وفيرًا، وآتاهم ﴿بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ [الجاثية: ١٧].

أي: «دلالات تبين الحق من الباطل»[١].

ولكنهم ما ارتفعوا وارتقوا بهذا، بل اختلفوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧].

أي: «سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم»[٢] ولهذا قالت الآيات بعدها: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

والآية الثانية كأنها التعليل للنهي عن اتباع الهوى في التي قبلها أي: « إنك أيها الرسول الكريم إن اتبعت أهواء هؤلاء الضالين؛ صرت مستحقًا لمؤاخذتنا، ولن يستطيع هؤلاء أو غيرهم أن يدفع عنك شيئًا مما أراده الله سبحانه وتعالى بك»[٣].

وتظهر شدة عداوة الله لمتبع الهوى

في الآيات من خلال أن يكون المخاطب بهذا التهديد وذاك الوعيد هو النبي صلى الله عليه السلام، والخطاب لا شك لأمته أيضًا، ولكن توجيه الخطاب إليه يوحي بشدة عداوة الله لمتبع الهوى -مهما كان- حتى أن النبي صلى الله عليه السلام نفسه مع أنه يأتيه الوحي، ويحوطه ربه بالرعاية إلا أنه «إن اتبع أهواء هؤلاء القوم؛ تعرض لنقمة الله، ولم يكن له من ولي يدفع عنه بلاء الله، أو يقيه بأسه إن جاءه! فكيف بغير النبي صلى الله عليه السلام من عباد الله؟! إن الخطر شديد، وإن البلاء داهم، وإنه لا عاصم من أمر الله لمن ألقى نفسه في لجج هذا الطوفان»[٤].

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

هذا تعليل آخر لترك اتباع أهواء السابقين، وفيه بيان بأن الذين يحيدون عن شرائع الله، ويتبعون الأهواء هم الظلمة «فلا يواليهم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالمًا مثلهم»[٥]. وقد جعلهم الله أولياء لبعضهم البعض بينما خصص ولايته للمتقين، وفي هذا تأكيد لعداوته لهؤلاء الظلمة متبعي الأهواء،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٦٧.
(٣) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/ ١٥٧.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ١٤٠.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٧١ بتصرف يسير.

وتحقير لشأنهم ووجهه «أنه قال: هؤلاء يتولى بعضهم بعضًا، والمتقون يتولاهم الله، فخرجوا عن ولاية الله وتبرأت منهم، ووكلهم الله بعضهم إلى بعض»[1].

ومن وكله الله إلى غيره يعني أنه سخط عليه وعاداه، وأنه لا شك خسر دنياه وأخراه.

وبذلك يظهر مدى عداوة الله لمن اتبع هواه فعلى المرء أن يحذر وأن يتدبر، وأن يسأل نفسه: أي الولايتين يريد؟

فهذه بعض عواقب متابعة الهوى وهي عواقب مؤلمة، وما في الآخرة أشد وأنكى، ولا شك أن كثرة تأملها يعين العبد بقوة على مدافعة هواه، واتباع هدى مولاه.

ثانيًا: الاستعانة بالله:

الاستعانة بالله من أعظم الأسباب التي تعين العبد على تجنب الهوى والامتناع عن اتباعه كيف لا؟! وهي لجوء إلى خالق الأكوان ومدبرها سبحانه وتعالى؛ ولهذا لما توعد فرعون بني إسرائيل بالتقتيل والتعذيب ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وجههم موسى عليه السلام إلى الاستعانة بخالقهم، واللجوء لربهم ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

«إنها رؤية النبي لحقيقة الألوهية وإشراقها في قلبه، ولحقيقة الواقع الكوني والقوي التي تعمل فيه، ولحقيقة السنة الإلهية وما يرجوه منها الصابرون، إنه ليس لأصحاب الدعوة إلا رب العالمين، إلا ملاذ واحد، وهو الملاذ الحصين الأمين، وإلا ولي واحد وهو الولي القوي المتين»[2].

ولما جاء إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم؛ ليخبروه بأكل الذئب لولده وحبيبه وقرة عينه يوسف عليه السلام لم يزد أن قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ولا غرو، فنحن نقف بين يدي الله في اليوم الواحد مرات ومرات لنقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وتأمل كيف أنه ذكر الاستعانة بعد العبادة مع أنها داخلة فيها «لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله سبحانه وتعالى؛ فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي»[3].

يقول ابن رجب: «وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق؛ فلأن العبد

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٨٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٥٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٩.

عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله سبحانه وتعالى، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول»[1].

والاستعانة بالله من أقوى الأمور التي تحفظ العبد لاسيما في أمر الهوى الذي يعسر على النفس مخالفته، ويشق عليها تركه، وتقوى عليها مدافعته، ولا عاصم منه إلا القوي المتين سبحانه وتعالى.

يقول ابن تيمية: «يجب على المؤمن أن يستعين بالله، ويتوكل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه، ويثبته على الهدى والتقوى، ولا يتبع الهوى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]»[2].

فالمرء إن أراد أن يحفظ من الهوى وأخطاره عليه أن يكثر من اللجوء لله، وتأمل خاتمة قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

إنها كما يقول صاحب التفسير القرآني: «دعوة إلى الوقوف عند هذا المشهد الذي يرى فيه هذا الإنسان الذي اتخذ إلهه هواه، وأضله الله بعد أن جاء العلم، وختم الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة؛ فليأخذ كل إنسان لنفسه عظة من هذا المشهد، ولينظر إلى نفسه، فإن كان بالمكان الذي فيه هذا الضال، فليحاول أن ينخلع عن هذا المكان، وليمد يده إلى الله طالبًا العون منه، فإنه لا يطلب العون إلا منه، ولا يرجى الخلاص إلا على يده سبحانه وتعالى»[3].

وقد كان النبي صلى الله عليه السلام من أكثر الناس لجوءًا لربه، واستعانة بمولاه في هذا الأمر، فعن عبد الرحمن بن عوفٍ رضي الله عنه قال: (سألت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بأي شيءٍ كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ١/ ٤٨١-٤٨٢.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ١/ ٣٢.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٤٧-٢٤٨.

مستقيمٍ)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه السلام يقول: (اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا، والحمد لله على كل حالٍ)[2].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ما خرج النبي صلى الله عليه السلام من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: (اللهم أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي)[3].

والذي يتأمل في أقوال النبي صلى الله عليه وسلم: (اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك) (انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني) (أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل) يدرك مدى حاجة العبد للجوء لربه، والانكسار والذلة لمولاه؛ حتى يصفو له حسن الاتباع، وينجو من شر الهوى، وما ذلك إلا لأن الهداية والتوفيق بيده سبحانه وتعالى.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل، ١/ ٥٣٤، رقم ٧٧٠.
(٢) أخرجه ابن ماجه في صحيحه، كتاب الدعاء، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، ١/ ٩٢، رقم ٣٨٣٣.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب في النوم، باب ما يقول إذا خرج من بيته، ٤/ ٣٢٥، رقم ٥٠٦١.

ثالثًا: الخوف من الله:

لكي يستيقظ القلب الراقد من غفلته، ويصحو من سكرة هواه، لا بد له من مؤثر ضخم يهزه وينبهه، ولا شيء أفضل في هذا من الخوف من الله، فهو من أعظم الأمور التي تهز الأفئدة، وتحرك القلوب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝١٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

فـ«الخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة، وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى»[4].

وتأمل كيف أن الله سبحانه وتعالى قدم الخوف على نهي النفس عن الهوى، وما ذلك إلا لأن «الخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى»[5]. فهذا يظهر قيمة الخوف من الله في مدافعة الهوى.

يقول إبراهيم بن شيبان: «الخوف إذا سكن القلب أحرق موضع الشهوات منه، وطرد رغبة الدنيا عنه، وأسكت اللسان عن ذكر الدنيا»[6] وقال ذو النون: «الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف؛ ضلوا الطريق»[7].

حين نتأمل كتاب الله نجد هذه الحقائق

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٩.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٥٠.
(٦) شعب الإيمان، البيهقي ٢/ ٢٦٨.
(٧) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٠٩.

المهمة من كتاب الله جل جلاله:

أولًا: الملائكة المعصومة تخاف ربها ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

ثانيًا: أن أولياء الله يتعبدون الله بالخوف منه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

﴿رِّجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

ثالثًا: أن الله أمر البشرية بالخوف منه ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

رابعًا: من أسباب الكفر والعصيان عدم الخوف، قال جل جلاله: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ [المدثر: ٥٣].

خامسًا: الخوف من الله عز وجل سبب من أسباب التمكين، قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

وبين الله -في جلاء تام- العلاقة بين الخوف ومقاومة الهوى بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

وبين ربنا أيضًا أن الخائفين منه هم الذين ينتفعون بالقرآن والآيات، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

سادسًا: أن جميع الأنبياء والمرسلين بدءوا دعوتهم بتحذير أقوامهم من المآل الذي ينتظرهم؛ ليحذروا غضب الله، ويخافوا عذابه؛ فيسهل عليهم مجانبة الهوى.

نماذج من تحذير الأنبياء لأقوامهم في بداية دعوتهم:

فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢].

وهذا إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

وتأمل ما قاله هود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وكذلك روى الإمام البخاري عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما نزلت:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

صعد النبي صلى الله عليه السلام على الصفا فجعل ينادي: (يا بني فهرٍ، يا بني عديٍ) لبطون قريشٍ، حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟) قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: (فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ)[1].

فأن يكون الخوف هو مبدأ دعوات الرسل فهذا لا شك يدل على أهميته في دفع القلب نحو مراضي الله، وأنه الدواء الناجع لمن أسره شيطانه، وغلبه هواه.

رابعًا: استحضار حساب الآخرة:

لا شك أن من أعظم أسباب مقاومة الهوى استحضار العبد لليوم الآخر، فاستحضار الآخرة في النفس يعطي الإنسان القوة في مواجهة اتباع الهوى، وبالضد فإن نسيان الآخرة عامل كبير في اتباع الإنسان لهواه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن «السبب الأول لحصول ذلك الضلال -الناتج عن اتباع الهوى- هو نسيان يوم الحساب؛ لأنه لو كان متذكرًا ليوم الحساب؛ لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد، ولما صار مستغرقًا في هذه اللذات الفاسدة»[2].

فاتباع الإنسان لهواه إنما هو نتاج لنسيان الآخرة، ولو ذكر الآخرة في حياته؛ لما خالف الشرع واتبع الهوى، فإن تذكر اليوم الآخر «يقتضي ملازمة الحق، ومخالفة الهوى»[3].

ومن الآيات التي أكدت على هذا قوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فهذا تأكيد على أن عدم الإيمان بالآخرة هو الذي قادهم إلى اتباع أهوائهم؛ لأنهم «لو كانوا يؤمنون بالآخرة؛ لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم، ولو أنهم قدروا هذه المسألة؛ لامتنعوا عن اتباع أهوائهم»[4].

وهكذا يظهر لنا أن استحضار اليوم الآخر عاصم كبير من اتباع الهوى -ولا غرو- فقد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (وأنذر عشيرتك الأقربين)، ٦/ ١١١، رقم ٤٧٧٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٨٧ بتصرف.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢٥٣.

(٤) تفسير الشعراوي ٧/ ٣٩٨٢.

لفتنا الله إليه في سورة الفاتحة التي نرددها كثيرًا في قوله جل جلاله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

آثار اتباع الهوى

لاتباع الهوى آثار وخيمة نتناولها بالتوضيح فيما يأتي:

أولًا: الضلال:

وهذا من الآثار الوخيمة لاتباع الهوى، قال الله عز وجل: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۗ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

ففي هذه الآية يأمر الرب الجليل نبيه صلى الله عليه السلام أن يواجه المشركين، ويخبرهم أنه منهي عن اتباع أهوائهم «لأن من يتبع أصحاب الهوى يضل، ولا يهتدي أبدًا»[(١)].

ومما يؤكد على هذا عطف ﴿وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ على ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ﴾ ففيه دلالة «على أنه جزاء آخر للشرط المقدر، فيدل على أنه إن فعل ذلك؛ يخرج عن حاله التي هو عليها الآن، من كونه في عداد المهتدين إلى الكون في حالة الضلال، وأفاد مع ذلك تأكيد مضمون جملة ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ﴾ لأنه نفى عن نفسه ضد الضلال؛ فتقررت حقيقة الضلال على الفرض

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ١٩٨.

والتقدير»[1].

والذي يتأمل يجد أن الله عز وجل عبر بقوله: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ دون التعبير بـ(لا أتبعكم) «للإشارة إلى أنهم في عبادتهم لغير الله تابعون للأهواء الباطلة، نابذون للأدلة العقلية، وفي هذا أكبر برهان على انطماس بصيرتهم، وبنائهم لدينهم على الأوهام والأباطيل»[2].

فكان ضلال هؤلاء الكفار أثرًا من آثار اتباعهم للهوى؛ لأن سبيل الهداية إنما يستنير بالعلم، والضلال إنما يكون باتباع الإنسان لهواه، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وتأمل كيف أن الله عبر بالباء في قوله: ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأن «الباء في ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ للسببية، والباء في ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ للملابسة، أي: يضلون منقادين للهوى، ملابسين لعدم العلم»[3].

وهذا كله لأن متبع الهوى بعبوديته لشهواته وميوله قد أعرض عن مصدر الهداية والتوفيق؛ فكان هذا الهوى سببًا في ضلاله، وابتعاده عن الهداية والتوفيق.

ومن هنا كان تحذير السلف من اتباع الهوى، أو مجالسة متبع الهوى كما قال أبو قلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[4].

وإذا كان الضلال أثرًا من آثار اتباع الهوى؛ فإن الهوى قد يقود العبد إلى ما هو أعظم من ذلك، كأن يقوده إلى القتل، أو الكفر.

ثانيًا: الكفر:

المتأمل لنصوص القرآن الكريم يجد أن اتباع الهوى هو الباعث على كُفْرِ مَنْ كَفَرَ، وعدم إيمانهم برسلهم؛ فالله عز وجل يقول عن بني إسرائيل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

فهذه الآية تذكر لنا كيف أن الله أخذ العهد على بني إسرائيل في التوراة «بتوحيده واتباع الأحكام التي شرعها لهدى خلقه، وتحليهم بحلي الفضائل ومكارم الأخلاق»[5].

ولكنهم غلبتهم أهواؤهم فتمردوا وكفروا، وكلما «أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه»[6].

وما ذلك إلا بسبب اتباعهم لأهوائهم،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٦٣.
(٢) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ٨٣- ٨٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٦.
(٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٧/ ١٣٧.
(٥) نظم الدرر ٦/ ١٦٣.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٩٦.

وأنه أتاهم بما يخالف هواهم.

وإذا كان اليهود من بني إسرائيل ساروا على هذا الدرب -باتباع الهوى- في الكفر برسلهم، فإن غيرهم من الأمم والأقوام السابقة ساروا على نفس النهج، فكفروا برسلهم وكذبوهم لا لشيء إلا لأجل اتباع الهوى.

كما قال الله جل جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٤].

فالباعث لكل هؤلاء الأقوام على الكفر هو اتباع الهوى، والتقليد للآباء والأجداد، حتى وإن كان الذي جاء به الرسول أفضل وأهدى مما هم عليه.

ثالثًا: القتل:

من الآثار المهلكة التي ينتجها اتباع الهوى القتل، فإن متبع الهوى قد يصل بهواه إلى حد الوقوع في القتل، كما حكى الله عز وجل عن بني إسرائيل بقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فالله عز وجل يخبر عن حال بني إسرائيل في مقابلتهم لدعوة الرسل والأنبياء الذين أرسلوا إليهم، فيقول لهم: «أنتم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم فكذبتم بعضًا منهم، وقتلتم بعضًا، فهذا فعلكم أبدًا برسلي»[1].

والله تعالى يشنع عليهم هذه الفعلة القبيحة العظيمة أن يصل بهم الهوى إلى قتل دعاة الهدى، وتأمل كيف عبر عن القتل بصيغة المضارع، مع كونه كالتكذيب وقع في الماضي! وهذا لـ« تصوير جرم القتل الشنيع، واستحضار هيئته المنكرة، كأنه واقع في الحال للمبالغة في النعي عليهم، والتوبيخ لهم»[2].

وأن يصل بهم اتباع الهوى إلى هذا الحد فهذا -لا شك- يدل على أنهم «بلغوا من الفساد، واتباع أهوائهم أخشن مركب، وأشده تقحمًا بهم في الضلال حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل وهديهم، بل صار يغريهم بزيادة الكفر والتكذيب، وقتل أولئك الهداة الأخيار»[3].

وتلحظ هنا أن الله عز وجل يخاطب اليهود على عهد النبي صلى الله عليه السلام مع أنهم لم يقتلوا من الأنبياء أحدًا، ومع ذلك يقول لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٢٤.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٩٨.
(٣) المصدر السابق.

والسر في هذا «أنهم راضون بفعلهم، والراضي كالفاعل، وقد كذبوا رسول الله صلى الله عليه السلام فيما جاء به، وسقوه السم؛ ليقتلوه[1]، وسحروه»[2] [3]. فلما رضوا بفعل أسلافهم؛ كانوا كالمشاركين لهم في نفس الفعل.

رابعًا: الطبع على القلب وانتكاس الفطرة:

وهذا من الآثار الخبيثة التي تصيب متبع الهوى، قال عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

فهذه الآية تتحدث عن المنافقين، الذين كانوا يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه السلام؛ ليستمعوا دون فهم ولا استحضارٍ؛ استخفافًا حتى إذا خرجوا قالوا لأهل العلم: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ وليس مقصدهم بذلك «إلا السخرية والاستهزاء بما يقول، وأنه مما لا ينبغي أن يؤبه به، أو يلقى لمثله سمع»[4].

(١) اليهودية التي سمت الشاة لرسول الله كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين، ٣/ ١٦٣، رقم ٢٦١٧.
(٢) سحر اليهود رسول الله كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب السحر ٧/ ١٦٣، رقم ٥٧٦٣.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ١/ ٤٨٢.
(٤) نظم الدرر ٢٦/ ٦١.

فـ«طبع الله على قلوبهم وختم عليها، فلا تقبل خيرًا، ولا تأذن بخير يدخل إليها، ومن أجل هذا فقد أخلوا مع أهوائهم، تقودهم إلى حيث مواقع الضلال والهلاك، دون أن تمتد إليهم يد منقذة، إنهم قطعوا كل سبب يصل بينهم وبين أية وسيلة من وسائل الإنقاذ»[5].

ومما يظهر لك أن هذا الطبع أثر من اتباع الهوى حديث القرآن بعد ذلك عن فريق آخر رغب في الهدى، وأقبل عليه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

فـ«ترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر، فالذين اهتدوا بدءوا هم بالاهتداء فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾»[6].

أما متبعو الهوى فكان الهوى مانعًا لهم من اتباع الحق، وسببًا في الطبع على قلوبهم، وانتكاس فطرتهم، كيف لا ومتبع الهوى غارق في المعاصي والسيئات، وهذه لها آثار خطيرة على القلب؛ إذ إنها تنتهي به إلى المرض، ثم القسوة أو الموت، كما أخبر النبي صلى الله عليه السلام في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه السلام قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئةً؛ نكتت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب؛ سقل

(٥) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٣٣٦.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٩٤.

قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله)، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤][(١)].

ومن الآيات التي أكدت على هذا قوله جل جلاله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالله جل جلاله يخبر في الآية أن من لم يسر على طريق الاتباع، ويترك طريق الهوى يكون الجزاء على اتباعه لهواه الطبع والختم على قلبه «فتنطمس فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى، وتتعطل فيه أدوات الإدراك، وما ذلك إلا بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم»[(٢)].

وهكذا يظهر أن «من سننه سبحانه وتعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله، ويستمر على ذلك ويدمنه الزمن الطويل، تضعف إرادته في هواه حتى تذوب وتفنى فيه، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية، ولا العبر المبصرة، ولا المعقولة، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين، والطبع على القلب، والصمم والعمى والبكم»[(٣)]. نعوذ بالله من هذا الحال.

خامسًا: اتباع الشهوات:

من الآثار التي تصيب متبع الهوى الانحطاط الخلقي واتباع الشهوات؛ فصاحب الهوى عبد لشهواته وميوله، لا يتحرك إلا بأمر منها فيصيبه هذا بالانحطاط الخلقي، كما ضرب الله لنا مثلًا على هذا بحال الرجل الذي قال عنه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

فهذا مثل يجلي بكل وضوح مدى أثر الهوى في الانحطاط الخلقي واللهث وراء الشهوات.

وتأمل كيف أنه عز وجل قال عن هذا المذكور في المثل: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فهذا «تمثيل لحال المتلبس بالنقائص والكفر بعد الإيمان، والتقوى بحال من كان مرتفعًا عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل» وذكر الأرض يشير إلى أن «الإخلاد هنا ركون إلى السفل، أي: تلبس بالنقائص

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين، ٥/ ٤٣٤، رقم ٣٣٣٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي ٧/ ٣٣٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٣٠ بتصرف.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٥٢٩.

والمفاسد»[1].

وهذا لا شك يدل على شدة الانحطاط الخلقي والركض الدائم خلف النزوات، -ولا غرو- فالإنسان حين يرضى لنفسه الإعراض عن اتباع الشرع «والتمسك بما آتاه الله من الآيات، ويأبى إلا متابعة الهوى، فلا جرم أنه واقع في هاوية الردى»[2].

قال ابن رجب رحمه الله: «إن جميع المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة رسوله»[3].

ومن الآيات التي أكدت على هذا المعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

«فشبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلًا من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها؛ فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل؛ فلا يستجيبون، ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم»[4].

ولا شك أن الذي أوصل هؤلاء إلى هذه المرحلة المتدنية من الانحطاط حتى وصلوا درجة البهيمية، هو اتباع الهوى؛ فكان هذا التدني أثرًا من آثار متابعته.

وهكذا نرى كيف يهبط الهوى بالمرء إلى أسفل الدرجات، ويورثه انحطاطًا ينحط به عن درجته الآدمية، ورتبته الإنسانية؛ ليصبح دون البهائم؟! نسأل الله السلامة من متابعة الأهواء.

سادسًا: الظلم:

من آثار اتباع الهوى أيضًا الجور في الحكم بين الناس، وما يترتب على ذلك من ظلمهم، وعدم إيصال الحقوق إليهم، ولا شك في أن ذلك من أسباب انتشار الفساد في الأرض، فإن المظلوم قد لا يصبر على ظلمه، وأخذ غيره حقه منه بغير حق؛ فيطلب الوصول إليه من طريق لا يحبه الله ورسوله، إن افتقده في موضعه الذي وجهه الله إليه، ومن ثم وجب على الحكام وغيرهم ممن مكنهم الله من القضاء والحكم بين الناس أن يحكموا بينهم بالعدل الذي جاء به الإسلام، وألا يتبعوا أهواءهم فيجوروا.

فعن الحسن رحمه الله قال: «إن الله أخذ على الحكام ثلاثًا: ألا يتبعوا الهوى،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٧.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٠٥.
(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٩٨.
(٤) التفسير القيم، ابن القيم ص٤٠٩.

وأن يخشوه ولا يخشوا الناس، وألا يشتروا بآياته ثمنًا قليلًا، ثم قرأ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

وقرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤][(١)].

وقد سبق بيان تحذير الله جل جلاله لعبده ونبيه داود عليه السلام بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

سابعًا: فساد السموات والأرض:

من الآثار المترتبة على مخالفة هذا الطريق واتباع الهوى فساد السموات والأرض ومن فيهن، كما قال جل جلاله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فهذه الآية توضح أن الله عز وجل «لو أجرى حكمه على وفق مراد الناس وأهوائهم؛ لاختل أمر السماوات والأرض، ولخرج عن حد الإحكام والإتقان»[(٢)]، وما ذلك إلا لأن خلق السموات والأرض ومن فيهن «قام بالحق»[(٣)]، والحق واحد ثابت لا يتبدل ولا يتغير، أما الأهواء فهي كثيرة ومتقلبة، تختلف باختلاف أصحابها؛ فلذلك «لو خضع الكون للأهواء العارضة، والرغبات الطارئة؛ لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضا، والكره والبغض، والرغبة والرهبة، والنشاط والخمول، وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات»[(٤)].

فلو أن الله عز وجل «أباح الظلم وترك العدل؛ لوقع الناس في هرج ومرج، ولوقع أمر الجماعات في اضطراب وفساد، ولو أباح العدوان، واغتصاب الأموال، وأن يكون الضعيف فريسة للقوى؛ لما استتب أمن، ولا ساد نظام، وحال العرب قبل

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١١٠.

(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٥٨٢ بتصرف.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٧.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٧٥.

الإسلام شاهد صدقٍ على ذلك، ولو أباح الزنا؛ لفسدت الأنساب، وما عرف والدٌ ولده، فلا تتكون الأسر، ولا يكون من يعول الأبناء، ولا يبحث لهم عن رزق، فيكونوا شردًا في الطرقات لا مأوى لهم، ولا عائل يقوم بشئونهم»[(١)].

وفي النهاية نستطيع أن نقول: من الآثار المترتبة على اتباع الهوى فساد الكون واختلال نظامه «لأن هوى إنسان ما قد يناقض هوى إنسان آخر، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء»[(٢)]. وبذلك يقع اضطراب عظيم.

ثامنًا: حرمان الولي والنصير:

أخبر تعالى في كتابه أن الرسول عليه السلام إذا اتبع أهواء اليهود والنصارى حرم من ولاية الله ونصرته.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قال الطبري: يقول جل ثناؤه: لئن اتبعت يا محمد هوى هؤلاء اليهود والنصارى، فيما يرضيهم عنك من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم، وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبئهم في هذه السورة، ليس لك من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به، ولا نصير ينصرك من الله؛ فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك أن أحل بك ذلك ربك[(٣)]. فهذا شرط خوطب به النبي صلى الله عليه السلام وأمته معه داخلة فيه[(٤)].

وقوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قطع لأطماعهم أن تتبع أهواؤهم؛ لأن من علم أنه لا ولي له ولا نصير ينفعه إذا ارتكب شيئًا كان أبعد في أن لا يرتكبه، وذلك إياس لهم في أن يتبع أهواءهم أحد[(٥)].

وفي الآية تحذير لكل من تلقى الإسلام أن لا يتبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى.

وقد نزه الله عز وجل رسوله عن اتباع الهوى، وأثنى عليه بالاستقامة والاعتدال والسداد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣].

أي: ليس نطقه صادرًا عن هوى نفسه، بل لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره[(٦)].

(١) نظم الدرر ١٨/ ٤١.
(٢) تفسير الشعراوي ٢/ ١٢٨٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٨٥.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٢٠٤.
(٥) البحر المحيط ١/ ٥٩١.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص٨١٨.

تاسعًا: النار وبئس المصير في الآخرة:

ذكر الله في كتابه الكريم أن من الآثار المترتبة على اتباع العبد للهوى النار في الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

وهنا يرشدنا الله عز وجل إلى أن «الذين يميلون عن سبيل الله، وذلك الحق الذي شرعه لعباده، وأمرهم بالعمل به، فيجورون عنه في الدنيا لهم في الآخرة يوم الحساب عذاب شديد، على ضلالهم عن سبيل الله بما نسوا أمر الله»[(١)].

قال الشعبي: «إنما سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار»[(٢)].

فاتباع الهوى يقود صاحبه إلى النار، والعياذ بالله سبحانه وتعالى، وفي مخالفة الهوى نجاة من النار، والفوز بالجنة، فقد ذكر نبينا صلى الله عليه السلام أن الجنة حفت بالمكاره، فلا بد من مجاهدة النفس، ومخالفة الهوى التي تميل إليه النفس؛ حتى نكون من أهل الجنة، وذكر أن النار حفت بالشهوات التي لا بد للإنسان من مجاهدة نفسه، والبعد عن اتباع الهوى والشهوة؛ حتى لا يتردى الإنسان في نار جهنم.

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه السلام: (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات)[(٣)].

فكل الشهوات التي تشتهيها النفس الأمارة بالسوء، ويدفعها إليها هوى النفس هي قائدة إلى النار -والعياذ بالله- واتباع الهوى من المهلكات التي حذر منها الشرع، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال: (ثلاثٌ منجياتٌ، وثلاثٌ مهلكاتٌ، فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوًى متبعٌ، وشحٌ مطاعٌ، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن)[(٤)].

وهكذا يتجلى لنا كيف أن متابعة الهوى توجب لصاحبها النار وبئس القرار.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، التقليد، الضلال، الطبع، القلب، النفس

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٦٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ٤/ ٢١٧٤، رقم ٢٨٢٢.
(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في الطبع على القلب أو الرين، ٩/ ٣٩٧، ٦٨٦٥. وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح.

الوجه

عناصر الموضوع

مفهوم الوجه	٣٤٢
الوجه في الاستعمال القرآني	٣٤٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٤
إثبات الوجه لله تعالى	٣٤٦
أنواع الوجوه وصفاتها	٣٥٠
أسباب بياض الوجوه وسوادها	٣٥٤
أحكام تتعلق بالوجه	٣٥٩
ابتغاء وجه الله بالأعمال الصالحة	٣٦٤
الوجه في المثل القرآني	٣٦٧
نعيم الوجوه وعذابها في الآخرة	٣٦٨

مفهوم الوجه

أولًا: المعنى اللغوي:

الواو والجيم والهاء: أصل واحد يدل على مقابلة لشيء، والوجه مستقبل لكل شيء، وربما عبر عن الذات بالوجه؛ والجمع الوجوه [(١)]،ويقال: هذا وجه الرأي أي: هو الرأي نفسه؛ مبالغة، أشار إليه الراغب، وقد تكون مجازًا: كوجيه ووجهاء بمعنى: سيد القوم، يقال: هؤلاء وجوه البلد ووجهاؤه، أي: أشرافه» [(٢)]، وفي مختار الصحاح: «الوجه والجهة بمعنى» [(٣)]، ووجه: أي صار وجيهًا: أي شريفًا ذا جاه [(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه الشافعية والحنابلة بأنه: «ما بين منابت شعر الرأس إلى الذقن ومنتهى اللحيين طولًا، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا» [(٥)].

وعرفه الحنفية بأن حد الوجه: «من قصاص الشعر إلى أسفل الذقن، وإلى شحمتي الأذنين» [(٦)].

وعرفه المالكية: « من قصاص شعر الرأس إلى آخر الذقن طولًا، ومن الصدغ [(٧)] إلى الصدغ عرضا» [(٨)].

وبالنظر إلى تعريفات اللفظ في اللغة وتعريفاتها في الاصطلاح تظهر العلاقة جلية؛ إذ الوجه في الإنسان ما يحصل به المواجهة والاستقبال.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٥٥٥.
(٢) تاج العروس، الزبيدي ٣٦/ ٥٣٥.
(٣) مختار الصحاح، الرازي ص٢٩٦.
(٤) انظر: شمس العلوم، الحميري ١١/ ٧٠٨١.
(٥) المجموع شرح المهذب، النووي ١/ ١٠٦، كشاف القناع، البهوتي ١/ ٩٥.
(٦) بدائع الصنائع، الكاساني ١/ ٣.
(٧) وهو (ما بين العين والأذن)، مختار الصحاح، ص١٥١.
(٨) مواهب الجليل، الحطاب الرعيني، ٣/ ١٤٠.

الوجه في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وجه) في القرآن الكريم (٧٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام:٧٩]
الفعل المضارع	١	﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ [النحل:٧٦]
الأسماء	٧٢	﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥]

وجاء الوجه في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: الدين: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥]. يعني: أخلص دينه لله.

الثاني: الوجه بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]. يعني: الوجه بعينه.

الثالث: أول: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾[آل عمران:٧٢]. يعني: أول النهار.

الرابع: الحقيقة: ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾[المائدة:١٠٨]. أي: على حقيقتها.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٤٣، ٧٤٤.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٥٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٦١٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الذات:

الذات لغةً:

ما يصلح لأن يعلم ويخبر عنه، وذات الشيء نفسه، عينه، جوهره، واسم الذات عند النحاة: ما علق على ذات كالرجل، الأسد[١].

الذات اصطلاحًا:

ما يصلح أن يحكم عليه بالوجود أو بالعدم أو بغير ذلك، وذات الشيء ما يخصه ويميزه عن جميع ما عداه، وقد يراد بذات الشيء ذلك الشيء مجردًا عما سواه[٢].

الصلة بين الوجه والذات:

مما سبق يتضح لنا الفرق جليًا بين الوجه والذات؛ وأن الوجه جزء من الذات، أو هو الذات.

٢ الظهر:

الظهر لغةً:

(ظهر) الظاء والهاء والراء أصل صحيح واحد يدل على قوة وبروز، من ذلك: ظهر الشيء يظهر ظهورا فهو ظاهر، إذا انكشف وبرز، ولذلك سمي وقت الظهر والظهيرة، وهو أظهر أوقات النهار وأضوؤها، والأصل فيه كله ظهر الإنسان، وهو خلاف بطنه، وهو يجمع البروز والقوة[٣].

الظهر اصطلاحًا:

قال اللحياني: «والظهر من الإنسان: من لدن مؤخر الكاهل إلى أدنى العجز عند آخره»[٤].

الصلة بين الوجه والظهر:

الوجه هو مستقبل كل شيء، أما الظهر فهو الجهة المعاكسة للوجه لنفس الجسم.

---

(١) انظر: المنجد، علي بن الحسن الهنائي ص٢٤٠.
(٢) انظر: دستور العلماء، القاضي نكري ٢/ ٨٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٧١.
(٤) تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٤٧٩.

٣ الدبر:

الدبر لغةً:

(دبر) الدال والباء والراء. أصل هذا الباب أن جله في قياس واحد، وهو آخر الشيء وخلفه خلاف قبله، وفي الحديث: (لا تدابروا)[١]، وذلك أن يترك كل واحد منهما الإقبال على صاحبه بوجهه[٢].

الدبر اصطلاحًا:

لا يختلف التعريف الاصطلاحي للدبر عن التعريف اللغوي تقريبًا فهو مشتق من اللغة أيضًا وتأتي بمعنى: الظهر، قال الجوهري: «والدبر: الظهر».

الصلة بين الوجه والدبر:

الوجه هو مستقبل كل شيء، أما الدبر فهو الجهة المعاكسة للوجه وليس بالضرورة أن تكون لنفس الجسم أو الشخص.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٠٠٦٢، ١٦/ ٩٢.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٢٤.

إثبات الوجه لله تعالى

أولًا: صفة الوجه بين المثبتين والنافين:

صفة الوجه لله تبارك وتعالى من الصفات الخبرية الذاتية التي جاء بها الكتاب والسنة، وقال بها سلف الأمة فما على المسلم إلا التسليم لقول الله تبارك وتعالى وقول رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم سلف هذه الأمة لنصوص الصفات، وقد كان سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم يدعو ربه ويلح في الدعاء طالبا النظر إلى وجهه تعالى، فلا يعقل أن يسأل الرسول ربه ما لا يجوز[1].

وقد أشكلت على الخلف على الرغم من ثبوتها بصريح القرآن وصحيح السنة، والعقل تابع ومصدق وغير رافض، ولذا أطبق السلف وأتباعهم على الإيمان بهذه الصفة كغيرها من صفات الله تعالى وإثباتها على ما يليق به لا يفسرونها بالذات، ولا يطلقون عليها شيئًا من الألقاب التي يرددها النفاة مثل العضو أو الجزء، وغير ذلك من الألقاب التي يطلقونها ليتذرعوا بها إلى نفيها بدعوى أن إثبات هذه الصفة يعني التركيب المستلزم للحاجة والافتقار[2].

وقد كان إثبات الإمام البيهقي لهذه الصفة إثباتًا حقيقيًا، على وجه يليق بجلال الله وعظمته، وكانت أدلته لإثبات هذه الصفة شرعية بحتة، نظرًا لكونها من الصفات التي لا تثبت إلا بالسمع، فأورد كثيرًا من الآيات والأحاديث الناطقة صراحة بإثباتها[3].

قال الحافظ ابن منده: «ومن صفات الله عز وجل التي وصف بها نفسه قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

وقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بوجه الله من النار والفتن كلها، ويسأل به، ثم سرد أحاديث بسنده، ثم قال: بيان آخر يدل على أن العباد ينظرون إلى وجه ربهم عز وجل، وسرد بسنده ما يدل على ذلك»[4].

وقال الأصبهاني: «ذكر إثبات وجه الله عز وجل الذي وصفه بالجلال والإكرام والبقاء في قوله عز وجل: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧]»[5].

الأدلة من القرآن والسنة على إثبات صفة الوجه

(١) انظر: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة، حياة جبريل ١/ ٣١٥.

(٢) انظر: الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، أبو أحمد بن علي، ص٣٠٢-٣٠٣.

(٣) انظر: البيهقي وموقفه من الإلهيات، أحمد الغامدي ص٢٨٤.

(٤) كتاب التوحيد ٣/ ٣٦.

(٥) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، ١/ ٢١٥.

ولقد أثبت الله لذاته المقدسة صفة الوجه في أربع عشرة آية من آي الذكر الحكيم[1]، منها:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٢].
- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢].
- وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧].
- فما تضمنته هذه الآية الكريمة من فناء كل من على الأرض وبقاء وجهه جل وعلا المتصف بالجلال والإكرام، جاء موضحًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].
- وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].
- وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت:٥٧].

إلى غير ذلك من الآيات.

ومن السنة أيضًا:

- حديث ابن مسعود رضي الله عنه: (لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين، وقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله)[2].
- حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الثلاثة الذين حبسوا في الغار، فقال كل واحد منهم: (اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ ففرج عنا ما نحن فيه)[3].
- حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (إنك لن تخلف فتعمل عملًا تبتغي به وجه الله؛ إلا ازددت به درجة ورفعة).[4]

فهذه صفة ثابتة بنص الكتاب وخبر الصادق الأمين، فيجب الإقرار بها، والتسليم كسائر الصفات الثابتة بواضح الدلالات[5].

وقال ابن عبد البر: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا المجاز إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك ولا يحدون فيه صفة مخصوصة، وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئا

(١) انظر: اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، حمد بن عبد الرحمن الخميس، ص ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم ٢/ ٧٣٩، رقم ١٠٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي ٣/ ٨٠، رقم ٢٢١٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء برفع الوباء والوجع ٨/ ٨٠، رقم ٦٣٧٣.

(٥) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد، عبد الغني المقدسي، ٩٦- ٩٨.

منها على الحقيقة ويزعمون أن من أقر بها مشبه وهم عند من أقر بها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة انتهى كلام الحافظ ابن عبد البر إمام أهل المغرب في عصره[1].

ولقد ضل في توحيد الأسماء والصفات طائفتان من الناس:

الطائفة الأولى: المعطلة: الذين أنكروا الأسماء، والصفات، أو بعضها، زاعمين أن إثباتها يستلزم التشبيه، أي: تشبيه الله تعالى بخلقه، وهذا الزعم باطل.

الطائفة الثانية: المشبهة: الذين أثبتوا الأسماء والصفات مع تشبيه الله تعالى بخلقه زاعمين أن هذا مقتضى دلالة النصوص، لأن الله تعالى يخاطب العباد بما يفهمون وهذا الزعم باطل أيضًا.

فإذا أثبت الله لنفسه أنه سميع، فإن السمع معلوم من حيث أصل المعنى «وهو إدراك الأصوات» لكن حقيقة ذلك بالنسبة إلى سمع الله تعالى غير معلومة، لأن حقيقة السمع تتباين حتى في المخلوقات، فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق، أبين وأعظم[2].

ومن أبرز المعطلين: الجهمية الذين عطلوا جميع الاسماء والصفات حيث عطلوا الله من صفاته، ومن معاني أسمائه وحقائقها، فالله تعالى أثبت لنفسه السمع والبصر والوجه واليدين والاستواء على العرش والمجيء والقدرة والمشيئة وغير ذلك من صفات الله، والمعتزلة والجهمية تنكر ذلك[3].

ومما خالفت به القدرية والمعتزلة الكتاب والسنة وأهل الحديث وركبت العناد فيه أن قالوا: ليس لله حياة ولا إرادة ولا قوة ولا سمع ولا بصر ولا كلام وردوا ما جاء به القرآن من إثبات الوجه واليدين لله[4].

أما الأشاعرة قدماؤهم ومعاصروهم، فالتوحيد عندهم هو نفي التثنية أو التعدد ونفي التبعيض والتركيب والتجزئة أي حسب تعبيرهم «نفي الكمية المتصلة والكمية المنفصلة»، ومن هذا المعنى فسروا الإله بأنه: الخالق أو القادر على الاختراع، وأنكروا بعض الصفات كالوجه واليد والعين؛ لأنها تدل على التركيب والأجزاء عندهم[5].

(١) انظر: أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، مرعي الكرمي ص١٣٩.

(٢) انظر: شرح ثلاثة الأصول، ابن عثيمين ص ٨٨-٨٩.

(٣) انظر: موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، أبو سهل المغراوي ١٠/ ١٨٢.

(٤) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، أبو الحسين العمراني ١/ ١٣٤.

(٥) انظر: منهج الأشاعرة في العقيدة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي ص٨٠.

ثانيًا: رؤية المؤمنين لوجه الله تعالى:

أجمع أهل الحق واتفق أهل التوحيد أن الله تعالى يرى في الآخرة، كما جاء في كتابه، وصح عن رسوله صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣][1].

فالمؤمنون يرون ربهم في الآخرة ويزورونه، ويكلمهم ويكلمونه، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين:١٥].

فلما حجب أولئك في حال السخط دل على أن المؤمنين يرونه في حال الرضى، وإلا لم يكن بينهما فرق، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته)[2]، «وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية، لا للمرئي بالمرئي، فإن الله تعالى لا شبيه له ولا نظير»[3].

أما رؤيته في الآخرة فهو قول السلف والأئمة وتواترت به الأحاديث، ثم جمهور القائلين بالرؤية يقولون يرى عيانًا مواجهة كما هو المعروف بالعقل[4].

(١) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد، المقدسي ص١٢٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر ١/ ٤٣٩، رقم ٦٣٣.
(٣) لمعة الاعتقاد، ابن قدامة المقدسي ص٢٢.
(٤) انظر: المنتقى من منهاج الاعتدال، الذهبي ص١٥١.

يقول الطحاوي: «والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه»[5].

وأحاديث الرؤية متواترة في هذا المعنى عند أهل العلم بالحديث، لا ينكرها إلا ملحد زنديق[6].

وإذا لقيه المؤمنون رأوه، أما الكفار فمحجوبون عن رؤيته، لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين:١٥].

فحجبهم عن رؤيته، ولا يحجب عنها المؤمنين[7].

فإذا كان الكافر يحجب عن الله، والمؤمن يحجب عن الله، فما فضل المؤمن

(٥) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ١/ ٢٠٧.
(٦) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص١٥٧.
(٧) انظر: الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري ص٤٦.

على الكافر في الإيمان بالنظر إلى الله عز وجل[1].

ومن قول أهل السنة: «إن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنه يحتجب عن الكفار والمشركين فلا يرونه، وقال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فسبحان من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير»[2].

(١) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة، صبري شاهين ص ١٣٣-١٣٤.

(٢) أصول السنة، ومعه رياض الجنة بتخريج أصول السنة، ابن أبي زمنين المالكي ص١٢٠.

أنواع الوجوه وصفاتها

لقد وصف الله في كتابه العزيز وجوه أهل السعادة ووجوه أهل الشقاء بأوصاف بليغة تتحدث عن نفسها راسمةً أبلغ الصور في إيصال المعنى المقصود.

أولًا: وجوه أهل السعادة:

إن الوجه هو المرآة التي تعكس ما يختلج في النفس البشرية من أفكار وما يعتري الإنسان من عواطف، فتنعكس ابيضاضًا أو اسودادًا على صفحة الوجه.

١. الوجوه المستبشرة.

يقول الله جل جلاله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ [عبس:٣٨-٣٩].

أي: «مضيئة مشرقة منورة بنور الإيمان»[3].

قال الألوسي: «مضيئة متهللة»[4]، وقال سيد قطب «فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة، راجية في ربها، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها»[5].

فهذه الوجوه تنطق بلسان حالها بشرًا وإشراقًا، بلغة واضحة جلية.

٢. الوجوه المبيضة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾

(٣) الفواتح الإلهية، النخجواني، ٢/ ٤٨٦.

(٤) روح المعاني، ١٥/ ٢٥٢.

(٥) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٨٣٤.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧]

إن ابيضاض الوجوه مفردة من مفردات لغة الجسد، وهي تدل بوضوح على الوضاءة والسرور، قال الثعلبي: «ابيضاض الوجوه: إشراقها واستبشارها وسرورها بعملها»[١]، وقال الراغب: «ابيضاض الوجه عبارة عن المسرة»[٢].

٣. الوجوه النضرة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة:٢٢].

وقال أيضًا: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين:٢٤].

قال الطبري: «نضرة الوجوه: حسنها»[٣]، وقال الواحدي: «مضيئةٌ حسنةٌ»[٤].

فقد كان النعيم والبهجة واللذة أحاسيس ومشاعر كامنة ترجمها الوجه بلسان حاله، وبلغته الخاصة؛ قال السعدي: « أي: حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح»[٥]؛ فالنضارة ترجمةٌ للسرور قال البقاعي: «النضرة في الوجه والسرور في القلب»[٦].

٤. الوجوه الناعمة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الغاشية:٨].

إن مفردة (النعومة) في لغة الوجه تعني: السرور الشديد؛ قال السعدي: «قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور»[٧].

ويؤكد هذا المعنى سيد قطب فيقول: «فهنا وجوه يبدو فيها النعيم، ويفيض منها الرضى، وجوه تنعم بما تجد، وتحمد ما عملت، فوجدت عقباه خيرًا، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع، شعور الرضى عن عملها»[٨].

٥. الوجوه المتشوقة.

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤].

إن مفردة (تقلب الوجه) تعني: الطلب بمنتهى الأدب؛ وقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم ربه بهذه اللغة؛ يقول الشعراوي: « إن الله سبحانه يحيط رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقلب وجه رسوله

(١) الكشف والبيان، ٣/ ١٢٥.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٧٨١.
(٣) جامع البيان ٢٤/ ٧١.
(٤) الوجيز ص١١٥٥.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٨٩٩.
(٦) نظم الدرر ٢١/ ٣٢٨.
(٧) تيسير الكريم الرحمن ص٩٢٢.
(٨) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٧.

الكريم في السماء وأجابه ليتجه إلى القبلة التي يرضاها»[1].

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى ربه بدعاء صامتٍ - إن صح التعبير -، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل بصره في السماء متشوقًا لتحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة، قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، فهي حالة جسدية يظهر فيها أيضًا الأدب مع الله عز وجل في الدعاء فحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يستخدم الكلام في الدعاء، ولكنه قلب وجهه في السماء دلالة على هذا الدعاء[2].

ثانيًا: وجوه أهل الشقاء:

١. الوجوه المسودة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦].

وقال أيضًا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠].

إن اسوداد الوجوه ترجمةٌ للخزي والهوان كما يقول السعدي: «هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة»[3]، وقال ابن عاشور: «وقد جعل الله اسوداد الوجوه يوم القيامة علامة على سوء المصير»[4].

وقد عد الزجاج الاسوداد عنوانًا عريضًا لأهل النار فقال: «ويعرفون أصحاب النار بسيماهم وسيماهم اسوداد الوجوه»[5].

٢. الوجوه الباسرة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة:٢٤].

إن هذه الوجوه الباسرة وجوه شقية، تترجم القنوط واليأس والإحباط بلسان حالها فهي كالحةٌ سوداء، يقول البغوي: «عابسة كالحة مغبرة مسودة»[6].

وقال البيضاوي: «شديدة العبوس»[7].

ويترجم البقاعي هذه المفردة فيقول: «أي شديدة العبوس والكلوح والتكره لما هي فيه من الغم كأنها قد غرقت فيه فرسبت بعد أن سبرت أحوالها، فلم يظهر لها وجه خلاص»[8].

٣. الوجوه الخاشعة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الغاشية:٢-٣].

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٦١.
(٢) انظر: لغة الجسد في القرآن الكريم، أسامة جميل عبد الغني ربايعة ص٦١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص١٤٢.
(٤) التحرير والتنوير ٢٤/ ٤٩.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٣٤٣.
(٦) معالم التنزيل ٨/ ٢٨٥.
(٧) أنوار التنزيل ٥/ ٢٦٧.
(٨) نظم الدرر ٢١/ ١٠٦.

إن هذا الخشوع لهذه الوجوه ليس خشوع عبادة، بل خشوع ذلة ومهانة؛ فكأن الخشوع بلغة لسان الحال له أصلان: أصل يدل على العبادة، والأصل الثاني يدل على الذلة والمهانة، وفي هذه الآية فإنه يدل على الأصل الثاني، يقول الرازي: «خاشعة أي: ذليلة قد عراهم الخزي والهوان»[(١)].

يقول سيد قطب مترجمًا هذه المعاني: «فهناك: يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة، ولم تجد إلا الوبال والخسارة، فزادت مضضًا وإرهاقًا وتعبًا، فهي: «عاملةٌ ناصبةٌ» عملت لغير الله، ونصبت في غير سبيله»[(٢)].

٤. الوجوه المنكرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج:٧٢].

إن الإنكار الذي يظهر على هذه الوجوه إنما هو ترجمة لكره الحق واتباعه؛ فإذا تليت على هؤلاء الآيات، فإنك تستطيع قراءة الكره على صفحات وجوههم المعاندة، قال البيضاوي: « الإنكار لفرط نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليدًا »[(٣)].

يقول الشعراوي مفسرًا ذلك المنكر الذي بدا على تلك الوجوه، قارنًا معناه بوضوح: « أي: الكراهية تراها وتقرؤها في وجوههم عبوسًا وتقطيبًا وغضبًا وانفعالًا، ينكر ما يسمعون، ويكاد أن يتحول الانفعال إلى نزوع غضبي يفتك بمن يقرأ القرآن لما بداخلهم من شر وكراهية لما يتلى عليهم»[(٤)].

(١) مفاتح الغيب ٣١/ ١٣٨.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٦.
(٣) أنوار التنزيل ٤/ ٧٩.
(٤) تفسير الشعراوي ٦/ ٩٩٢٨.

أسباب بياض الوجوه وسوادها

الوجه صفحة يقرأ عنها ما استقر في قلب الإنسان، ويظهر ذلك على شكل بياضٍ معنويٍ للوجه أو سواد، ويرجع ابيضاض الوجوه أو اسوادها المعنويين في الدنيا لأسباب عدة سنتعرض لها فيما بعد، أما البياض والسواد الحقيقيين فهما في الآخرة، حيث يكون السواد مذمة والبياض نعمة.

أولًا: أسباب بياض الوجوه:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦].

فهذه الآية تتحدث عن البياض والسواد الحقيقيين في الآخرة وليس في الدنيا، قال أبو جعفر: «يعني بذلك جل ثناؤه: أولئك لهم عذاب عظيم في يوم تبيض وجوه وتسود وجوه»[(١)].

قال الشوكاني «يوم تبيض وجوه، أي: يوم القيامة»[(٢)].

وجاءت تفسيرات كثيرة تصف من تبيض وجوههم يوم القيامة ومن تسود، وحاصلها أن البياض يخص المتقين والسواد يخص اليهود والكافرين، عن عطاء «تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسود وجوه بني قريظة والنضير»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٧].

فمن أسباب بياض الوجوه في الآخرة رؤية المؤمن كتابه كما قال الشوكاني: «إذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسناته فاستبشر وابيض وجهه»[(٤)].

أما ابيضاض الوجوه في الدنيا فمعنوي - كما تقدم - ويظهر على شكل بشرٍ في الوجوه وقبولٍ، حتى وان كانت البشرة سوداء فالسواد في الدنيا ليس مذمة بل يكون أحيانًا نعمة ينعمها الله على الإنسان، حيث يحميه من قسوة البيئة وحرارة الشمس.

يقول الشعراوي: «وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات في الدنيا، فالشخص الأسود يزيد الله في تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة، لأن المادة الملونة للبشرة في جسده موجودة بقوة، لتعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف البيئة، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافي من المادة الملونة، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة»[(٥)].

(١) جامع البيان ٧/ ٩٣.
(٢) فتح القدير ١/ ٤٢٣.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٦٩.
(٤) فتح القدير ١/ ٤٢٤.
(٥) تفسير الشعراوي ٣/ ١٦٦٧.

ومن أسباب البياض المعنوي في الدنيا الأعمال الصالحة المقرونة بالقلوب النقية المتصفة بالصفات الحميدة، وبنظرة متعمقة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم نجد أن بعض الصفات تكرر بصورة أكبر من غيرها، وقد تكون هي الأسباب الرئيسة لذلك البياض المعنوي وهي كالآتي:

١. التقوى.

من أهم أسباب ابيضاض الوجوه تحقق التقوى في القلب، ولقد ورد ذكر التقوى في القرآن في مائة وخمسين وثماني آيات، وسبعة وأربعين حديثًا؛ فالتقوى نتيجة حتمية، وثمرة طبيعية للشعور الإيماني العميق الذي يتصل بمراقبة الله تعالى، والخشية من جبروته، والخوف من غضبه وعقابه، والطمع بعفوه وثوابه، وقد اهتم القرآن الكريم بفضيلة التقوى اهتمامًا كبيرًا؛ بل أمر بها وحض عليها في كثيرٍ من الآيات، حيث لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من حقيقة التقوى[1].

وإن من أسمى ثمرات التقوى الوصول إلى محبة الله؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾[التوبة:٤]، وقال أيضًا: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾[التوبة:٧].

وقال أيضًا: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾[آل عمران:٧٦].

٢. الصدق.

وقد حث الله عليه في كتابه الكريم، وحض عليه رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم في غير موضع من سنته المطهرة، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم في اثنتين وتسعين آية، وفي السنة المطهرة في أربعةٍ وأربعين حديثًا.

لقد جاء الدين مهذبًا للنفوس ومكملًا لمكارم الأخلاق وحاملًا للإنسان على استخدام العقل وتحري الصدق والأمانة من أجل رضى الله وخير الناس جميعًا، ولقد حض الله المؤمنين على الصدق حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩].

لذا وجب الاتصاف بالصدق الذي هو كما قال ابن القيم: «سيف الله في أرضه، والذي ما وضع على شيء إلا بتره، ولا واجه باطلًا إلا أرداه وصرعه»[2].

وقال الفضيل بن عياض: «لم يتزين

(١) انظر: سلسلة مدرسة الدعاة، عبد الله ناصح علوان، ص١٧٨.

(٢) مدارج السالكين، ٢/ ٢٥٧.

العباد بشيء أفضل من الصدق، والله سائل الصادقين عن صدقهم، فكيف بالكذابين المساكين»[1].

ومن عظم أهمية الصدق فقد «ورد لفظه بصيغه المختلفة مائة وسبعًا وعشرين مرة في مائة وعشرين آية»[2]، وقد اتصف به الأنبياء جميعًا قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٤١﴾[مريم:٤١].

وقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾[مريم:٥٦]، وأثنى الله على إسماعيل عليه السلام، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾[مريم:٥٤].

٣. الأمانة.

لقد ورد ذكرها في القرآن في ست عشرة آية، وثلاثين حديثًا، ولقد تحدث القرآن الكريم عن فضيلة الأمانة في أكثر من موطن، منوها بشأنها، حاثًا على رعايتها وصيانتها، وتبدو أهميتها من خلال اتصاف الأنبياء جميعًا بها فهي من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب في سورة الشعراء يخبرنا الله عز وجل أن كل رسول من هؤلاء قد قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾، وقد وصف جبريل عليه السلام بالأمانة فقد قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾[الشعراء:١٩٣].

وقال فيه أيضًا: ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾[التكوير:٢١].

وهؤلاء جميعًا اتصفوا ببياض الوجوه.

٤. حسن الخلق.

إن حسن الخلق هو الحلة الجميلة التي يتحلى ويزدان بها المسلم، وهو من صفات الأنبياء والمرسلين، وبعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[3].

وقد عده النبي صلى الله عليه وسلم من أحسن خصال الإيمان فقال: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)[4].

بل هو أعظم العبادات عند الله عز وجل، ولذلك وصف الله تعالى به خير المرسلين فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾[القلم:٤].

وقد ورد ذكره في ثماني آيات، وستة وخمسين حديثًا.

ولقد جمع قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ

(١) الترغيب والترهيب، الأصبهاني، ٢/ ٢٩٨.
(٢) الموسوعة الجامعة في الأخلاق والآداب، سعود الحزيمي ص١٠٣١.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٥١٢، رقم ٨٩٥٢، والبخاري في الأدب المفرد، رقم ٢٧٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٦٤، رقم ٢٣٤٩.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٢/ ٣٦٤، رقم ٧٤٠٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٦٦، رقم ١٢٣٠.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩].

مكارم الأخلاق جميعًا.

فمن تحلى بهذه الأخلاق القرآنية انعكس على وجهه بياضًا وبشرًا.

ثانيًا: أسباب سواد الوجوه:

السواد الحقيقي كما تقدم يكون يوم القيامة عند رؤية الكافر لكتابه، قال الشوكاني: «وإذا قرأ الكافر كتابه رأى سيئاته فحزن واسود وجهه»[(١)].

ومن أسباب السواد المعنوي في الدنيا: الأعمال السيئة المقرونة بالقلوب الخبيثة المتصفة بالصفات الذميمة، قال بعض السلف: لو ادهن صاحب البدعة كل يوم بدهان فإن سواد البدعة لفي وجهه[(٢)].

وبنظرة متعمقة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم نجد أن بعض الصفات تكرر بصورة أكبر من غيرها، وقد تكون هي الأسباب الرئيسة لذلك السواد المعنوي وهي كالآتي:

١. الكِبْر.

الكبر من أهم اسباب اسوداد الوجوه، حيث يجعل في القلب نكتة سوداء يظهر أثرها واضحا جليًا على وجوه المتكبرين، وقد ورد في ذم الكبر سبعٌ وأربعون آية، وستةٌ وثلاثون حديثًا.

وأفحش الكبر التكبر على الله مثل تكبر فرعون والنمرود على أن يكونا عبدين لله عز وجل، بل ادعيا الربوبية؛ فقد قال فرعون: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[القصص:٣٨]، وقال: « ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

وقال النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وكانت النتيجة من الله عز وجل، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

وقد تكبر قارون على قومه حيث قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾[القصص:٧٦].

قال الواحدي: «﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالكبر والتجبر والبذخ وكثرة المال»[(٣)].

وكان عقاب الله تعالى له: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١].

٢. النفاق.

إن من أكبر المصائب، وأعظم مسببات اسوداد الوجوه، استيلاء النفاق على القلب، أو مخالطته للأعمال، كيف لا وقد كان

(١) فتح القدير ١/ ٤٢٤.
(٢) انظر: الجواب الصحيح، ابن تيمية ٦/ ٤٨٩.
(٣) الواحدي، الوجيز، ص٨٢٥.

السلف الصالح يخافون من النفاق أشد الخوف، لما يعلمون من خطره، ولما تبين لهم من ضرره، فقد أخرج البخاري في صحيحه أن ابن أبي مليكة قال: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كلهم يخاف النفاق على نفسه»[1]، وقد ورد ذكر النفاق والمنافقين في أربعٍ وعشرين آية، وواحدٍ وخمسين حديثًا.

إن أكبر خطر يهدد الدعوة؛ بل الأمة الإسلامية على مر العصور هو النفاق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤].

والحصر في الآية لبيان أولويتهم في العداوة، ولهذا كان مصيرهم يوم القيامة أسوأ مصير في الدرك الأسفل من النار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

٣. الرياء.

الرياء داءٌ خطير، ووباءٌ وبيل، خافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته، وما ذاك إلا لشدة خفائه، ولعظيم خطره، فهو سببٌ لعدم قبول الأعمال، وقد أضحى مزلةً لأقدام كثيرٍ من العلماء والدعاة ومعوقًا كبيرًا على طريق الدعوة إلى الله، وقد ذمه الله عز وجل في اثنتي عشرة آية، وذمه النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين حديثًا.

إن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا صوابًا، والخالص هو: ما ابتغي به وجه الله، والصواب هو: ما كان موافقًا لهدي نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:٢٦٤].

قال ابن كثير: أي: «لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه»[2].

٤. الأثرة.

إن الأثرة معولٌ هدام وشرٌ مستطير، وبها تحل النقم، وتذهب النعم، وهي دليلٌ على دناءة النفس وخستها، تؤذي وتضر، وتجلب الخصام والنفور، وبها يضيع العدل، وينتفي الخلق، وهي ظلمٌ اجتماعي يدمر المجتمع، وظلام في الوجه يدمر القلب، فقد ذمها الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ١/ ١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩٤.

في آيتين عظيمتين، وذمها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في تسعةٍ وعشرين حديثًا.

وقد حذر الله منها أشد تحذير فقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[النازعات ٣٧-٣٩].

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[التوبة:٢٤].

أحكام تتعلق بالوجه

لقد تعلق بالوجه أحكامٌ كثيرة كاستقبال القبلة والوضوء والتيمم والسجود وغير ذلك، فالوجه نعمة إلهية من الله علينا بها.

أولًا: الوجه نعمة إلهية:

إن الوجه هو المرآة التي تعكس ما يختلج في النفس البشرية من أفكار وما يعتري الإنسان من عواطف، فتترجم بلسان الحال إلى لغة خاصة، يستطيع قراءتها وفهمها من له دراية بلغة الجسد، فعند التأمل في وجه إنسان تقرأ ما يفكر فيه، وقد قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أسر أحدٌ سريرةً إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه»[1].

والوجه في مجموعه يكون نظامًا متكاملًا، فالجبهة والعينان والأنف والأذنان والشفتان والذقن والفم، توجد بينها علاقة متبادلة، بحيث تؤدي جميعًا أعمالًا وظيفية، لا يمكن لأي منها أن يؤديها وحده أبدًا، بالإضافة إلى ما يسهم به كل منها في تكوين المظهر الكلي للوجه، والذي تؤدي تعابيره دورًا مهمًا بوصفها مصدرًا للبيانات المتعلقة بالحالات الانفعالية للإنسان، كحالات الفرح والحزن والخوف والدهشة والغضب

(١) الآداب الشرعية، ابن مفلح ١/ ١٣٦.

والاشمئزاز والازدراء[1].

ويظهر ذلك من خلال اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بلغة الوجه وحرصه عليها كثيرًا، ومن الأمثلة على ذلك، قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (تبسمك في وجه أخيك لك صدقة)[3].

ومن عظيم خلق الله أن من علينا بنعمة الوجه الحسن قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين:٤].

وقال أيضًا: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٧-٨].

قال السمعاني: «جعلك قائما معتدلا حسن الصورة»[4].

«قال أبو علي الفارسي: «عدلك»: خلقك، فأخرجك في أحسن تقويم، مستويًا على جميع الحيوان والنبات، وواصلًا في الكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم»[5].

ثانيًا: إخلاص العبادة لله تعالى:

إن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من الأمور العظيمة والجليلة، كيف لا وهي وظيفة الرسل والأنبياء.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولذلك كان حريًا بكل مسلم أن يكون داعيًا إلى الله عز وجل، ولا شك أن الداعية إلى الله عز وجل لا يكون داعيًا ناجحًا موفقًا في دعوته إلا بإخلاص عمله كله لله، ومتابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أموره، والداعية الناجح من يعتبر أن الإخلاص من أهم الأركان التي يقوم عليها نجاح أي فكرة من الأفكار أو إنجاز أي عمل من الأعمال، فبه تقوى الفكرة وترتفع الراية، وبه ينجح العمل وتحصل الغاية، وقد ورد ذكره في ثلاثٍ وعشرين آية، وأربعة وثلاثين حديثًا.

الإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب فإذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره

(١) انظر: أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، عبد الله عودة ص٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، ح٢٦٢٦، ٤/ ٢٠٢٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف، ٤/ ٣٣٩، رقم ١٩٥٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٦١، رقم ٢٩٠٨.

(٤) تفسير القرآن ٦/ ١٧٤.

(٥) اللباب في علوم الكتاب ٢٠/ ١٩٨.

من حظوظ النفس فقد خرج عن الإخلاص ومن كلام الفضيل بن عياض ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما[1].

وجاء في تزكية النفوس «هو إفراد الله عز وجل بالقصد في الطاعات»[2].

ولقد تضافرت النصوص في الكتاب والسنة مبينة فضل الإخلاص وأهميته وضرورته في قيام دولة الإسلام في نفس الداعية أولًا، ثم على أرض الواقع ثانيًا، «وقد ذكرت مادة الإخلاص - بصيغها المختلفة- إحدى وثلاثين مرة في ثلاثين آية»[3].

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

قال السمعاني: « أي: أخلص دينك لله، وإقامة الوجه هو إقامة الدين»[4]، وخوطب الإنسان بإقامة الوجه لشرفه وارتباطه بكل ما هو حسن.

قال ابن عطية: «وإقامة الوجه هي تقويم المقصد والقوة على الجد في أعمال الدين، وذكر الوجه لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه»[5].

ويؤكد هذا المعنى السعدي حيث قال: «يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامة دينه فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة بأن تعبد الله فيها كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وخص الله إقامة الوجه لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب ويترتب على الأمرين سعي البدن»[6].

ثالثًا: الوضوء والتيمم:

لقد ارتبط الوضوء والتيمم كشرطيين أساسيين للدخول في أجل عبادة؛ ألا وهي الصلاة، وقد اشترط الشارع الحكيم، وجعل غسل الوجه في الوضوء - أو مسحه في التيمم - ركنًا من أركان الطهارة، وذلك يوحي بشرف الوجه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ

(١) البيان في مداخل الشيطان، عبد الحميد البلالي ص١٧٧.
(٢) تزكية النفوس، أحمد فريد ص٧.
(٣) الموسوعة الجامعة في الأخلاق والآداب، سعود الحزيمي ص٥٣.
(٤) تفسير القرآن ٤/ ٢٠٩.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٦.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص٦٤١.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦].

قال القرطبي: ذكر تعالى أربعة أعضاء: الوجه وفرضه الغسل واليدين كذلك والرأس وفرضه المسح اتفاقا ولا بد في غسل الوجه من نقل الماء إليه، وإمرار اليد عليه، وهذه حقيقة الغسل عندنا، ومسح الوجه في التيمم بدل من غسله، فلا بد أن يأتي بالمسح على جميع موضع الغسل منه[1].

وقد اختلف الفقهاء هل باطن الأنف والفم من الوجه أم لا؟.

قال القرطبي: «اختلفوا هل يتناول الأمر بغسل الوجه باطن الأنف والفم أم لا؟

فذهب أحمد بن حنبل وإسحاق وغيرهما إلى وجوب ذلك في الوضوء والغسل، إلا أن أحمد قال: يعيد من ترك الاستنشاق في وضوئه ولا يعيد من ترك المضمضة. وقال عامة الفقهاء: هما سنتان في الوضوء والغسل، لأن الأمر إنما يتناول الظاهر دون الباطن، والعرب لا تسمي وجها إلا ما وقعت به المواجهة»[2].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٨٣-٨٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٨٤.

قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩].

قال الواحدي: « علامتهم في وجوههم من أثر السجود يعني: نورًا وبياضًا في وجوههم يوم القيامة يعرفون بذلك النور أنهم سجدوا في دار الدنيا لله تعالى»[3].

رابعًا: استقبال القبلة:

إن من شروط الصلاة استقبال القبلة، وقد ارتبط هذا الشرط ارتباطًا مباشرًا بالوجه، الذي عبر به عن الذات.

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤].

وتقلب الوجه، المقصود به تقلب النظر، قال ابن عطية: «المقصد تقلب البصر، وذكر الوجه لأنه أعم وأشرف، وهو المستعمل في طلب الرغائب، تقول: بذلت وجهي في كذا، وفعلت لوجه فلان»[4]، إلا أن الرازي قال: «إن تقلب وجهه في السماء هو الدعاء»[5].

ويقصد بالوجه في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ الذات، قال الزحيلي: «فول

(٣) الوجيز ص١٠١٤.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٢٢١.

(٥) مفاتيح الغيب ٤/ ٩٥.

وجهك أطلق الوجه، وأريد به الذات، من قبيل المجاز المرسل، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل»[1].

خامسًا: السجود:

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩].

أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد؛ ذلك أنه يضع أشرف شيءٍ عنده على الأرض تواضعًا وذلًا وخضوعًا وخشوعًا لله، وفي المقابل ينعكس ذلك نورًا وضياءً وسمتًا حسنًا على ذلك الوجه الساجد لله، قال الطبري: «وقال آخرون: بل ذلك سيما الإسلام وسمته وخشوعه، وعنى بذلك أنه يرى من ذلك عليهم في الدنيا»[2].

«وعن ابن عباس في قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ قال: السمت الحسن»[3].

«وقال الحسن: هو السمت الحسن»[4].

وقال العز بن عبد السلام: «﴿سِيمَاهُمْ﴾: ثرى الأرض وندى الطهور، أو السمت الحسن»[5].

فهذا السمت الحسن قد من الله عز وجل به على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وجعله ظاهرًا جليًا في وجوههم، كان سببه المباشر لسان حالهم المخبت الداعي إلى الله عز وجل بكثرة السجود.

(١) التفسير المنير ٢/ ١٨.
(٢) الطبري، جامع البيان، ٢٢/ ٢٦٤.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٠١.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٠٩.
(٥) تفسير العز بن عبدالسلام ٣/ ٢١٠.

ابتغاء وجه الله بالأعمال الصالحة

لقد خلق الله الثقلين للعبادة، فالغاية من الخلق عبادة الله وحده ومرضاته.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

وكل الأعمال الصالحة يبتغى بها وجه الله، وهناك من الأعمال الصالحة ما تكرر كثيرًا، ومنها:

١. الصبر.

إن المسلم في تعامله ترفرف على محياه سمة الصبر والحلم وعدم الغضب وكظم الغيظ إذا وقع منه زلةٌ ولا يرى في الصفح عن أخيه ذلًا يحيق به، بل يرى فيه إحسانًا يقربه إلى الله زلفى كما قال الله جل جلاله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤].

يقول ابن أبي حاتم: «يغضبون في الأمر لو وقعوا فيه فيغفرون ويعفون، يلتمسون بذلك وجه الله»[(١)].

ويقول الخازن: «وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم»[(٢)].

٢. إيتاء حق ذي القربى والمساكين وابن السبيل.

قال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم:٣٨].

يقول الشعراوي: حينما نتأمل النسق القرآني هنا نجد أن الله تعالى ذكر أولًا البسط في الرزق، ثم التقتير فيه، ثم أكد بعده مباشرة على حق ذي القربى والمسكين وابن السبيل، وكأنه يلفت أنظارنا أن هذه الحقوق لا تقتصر على من بسط له الرزق، إنما هي على الجميع حتى من كان في خصاصه، وضيق عليه رزقه، فلا ينسى هؤلاء.

لذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، والجميع: من بسط له، ومن قتر عليه يريدون وجه الله[(٣)].

٣. إيتاء الزكاة.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩].

وقال أيضًا: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة:٢٦٥].

وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٧٦٣.
(٢) لباب التأويل ١/ ٢٩٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١٨/ ١١٤٤٩.

﴿إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤].

أن أجر الزكاة والصدقات أجرٌ عظيم كما وصفه الله في كتابه العزيز: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وجعل للقائمين بهما المضاعفة في الأجور والثواب، بل وشبه هذا الأجر العظيم بالجنة المثمرة التي تؤتي ثمارًا مضاعفة.

٤. إطعام المسكين واليتيم والأسير.

لقد وصف الله الأبرار بصفات عديدة حميدة وكان منها إطعام المساكين والأيتام والأسرى.

قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان:٨].

قال النسفي: « أي حب الطعام مع الاشتهاء والحاجة إليه أو على حب الله مسكينا فقيرًا عاجزًا من الاكتساب ويتيمًا صغيرًا لا أب له وأسيرًا مأسورًا مملوكًا أو غيره ثم عللوا إطعامهم فقالوا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان:٩]، أي: لطلب ثوابه»[1].

٥. الإقبال بالوجه.

الإقبال بالوجه الحسن، وإدخال السرور على الأسرة بما فيها الزوجة والأولاد واجبٌ شرعي لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

يقول البقاعي: «ولما كان الإنسان راعيًا لأهل بيته مسئولًا عن رعيته قال تعالى: ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ من النساء والأولاد»[2].

كما أنها واجبٌ عرفي؛ وقد جاء في المادة (٩٣) من ميثاق الأسرة في الإسلام «الأسرة محضن الطفل وبيئته الطبيعية اللازمة لرعايته وتربيته، وهي المدرسة الأولى التي ينشأ الطفل فيها على القيم الإنسانية، والأخلاقية، والروحية، والدينية»[3].

واجب المسلم تجاه من يريدون وجه الله تعالى:

لقد أمرنا الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، وأن نكون عباد الله إخوانًا؛ لذا وجب على كل داعية مسلم، بل وكل فردٍ مسلم أن يشد على يدي كل من أراد وجه الله؛ وذلك من عدة وجوه نذكر منها:

١. مجالستهم والتعاون معهم على ما يرضي الله تعالى.

فهؤلاء قد ابتغوا وجه الله بتجرد ومحبة وأدب لذا حثنا الله على مجالستهم وعدم طردهم لما فيه من تفويت المصلحة

(١) مدارك التنزيل ٣/ ٥٧٨.

(٢) نظم الدرر، ٢٠/ ١٩٧.

(٣) ميثاق الأسرة في الإسلام، إعداد اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل، عمان، جمعية العفاف الخيرية، ص٦٢.

للإسلام والمسلمين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:٥٢].

يقول سيد قطب: لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم لله فاتجهوا لعبادته ودعائه في الصباح والمساء يريدون وجهه سبحانه، ولا يبتغون إلا وجهه ورضاه، وهي صورة للتجرد، والحب، والأدب؛ فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى الله وحده بالعبادة والدعاء، وهو لا يبغي وجه الله، إلا إذا تجرد، وهو لا يبغي وجه الله وحده حتى يكون قلبه قد أحب، وهو لا يفرد الله سبحانه بالدعاء والعبادة ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب، وصار ربانيًا يعيش لله وبالله[(١)].

٢. الصبر معهم على طاعة الله تعالى.

لقد أمر الله تعالى بعدم طرد من يبتغون وجهه، بل وأكد على مجالستهم والصبر عليهم.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨].

قال الرازي: «بين الله أنه لا يجوز طردهم بل تجالسهم وتوافقهم وتعظم شأنهم ولا تلتفت إلى أقوال أولئك الكفار ولا تقيم لهم في نظرك وزنا سواء غابوا أو حضروا ونظير هذه الآية قد سبق في سورة الأنعام وهو قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾؛ ففي تلك الآية نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفي هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم»[(٢)].

ويقول السعدي: «يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى»[(٣)].

(١) انظر: في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٥٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٤٧٥.

الوجه في المثل القرآني

أن الأمثال التي يضربها الله للناس هي من تمام حجة الله على خلقه، حيث ضرب الله الأمثال لجميع الأمم السابقة، وفصلها في خاتم كتبه القرآن الكريم، وضربها النبي صلى الله عليه وسلم لأمته، فكمل بذلك البيان، واستنار الطريق، وتمت حجة الله على عباده[(١)].

وحقيقة المثل: إخراج الغامض إلى الظاهر، وللأمثال فوائد امتن الله بها علينا لقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣].

وسمي المثل مثلا لأنه ماثل بخاطر الإنسان أبدا أي: شاخص فيتأسى به ويتعظ[(٢)].

ومن الأمثال التي ضربها الله لنا مستخدمًا الوجه كأداة رئيسة لإظهار المعنى وتبيينه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك:٢٢].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه، كمثل من يمشي مكبا على وجهه، أي: يمشي منحنيا لا مستويا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، بل هو تائه حائر ضال، أهذا أهدى أمن يمشي سويًا أي: منتصب القامة على صراطٍ مستقيمٍ أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة.

هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سويا على صراط مستقيم وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى النار»[(٣)].

وقال الشوكاني « ضرب سبحانه مثلا للمشرك والموحد لأيضاح حالهما وبيان مآلهما»[(٤)].

(١) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله ٣/ ١٠٩٤.
(٢) انظر: المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة ص ١٩٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢٠٨.
(٤) فتح القدير ٥/ ٣١٤.

نعيم الوجوه وعذابها في الآخرة

أولًا: نعيم الوجوه في الآخرة:

١. إشراقها واستبشارها.

يقول الله جل جلاله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ [عبس:٣٨-٣٩].

أي: «مضيئة مشرقة منورة بنور الإيمان»[(١)].

قال الألوسي: «مضيئة متهللة»[(٢)].

٢. وضاءتها وبياضها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٠٧﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧].

قال الثعلبي: «ابيضاض الوجوه: إشراقها واستبشارها وسرورها بعملها»[(٣)].

وقال الراغب: «ابيضاض الوجه عبارة عن المسرة»[(٤)].

٣. نضارتها.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ [القيامة:٢٢].

وقال أيضًا: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤﴾ [المطففين:٢٤].

قال الطبري: «نضرة الوجوه: حسنها»[(٥)]، وقال الواحدي: «مضيئةٌ حسنةٌ»[(٦)].

٤. نعومتها.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ [الغاشية:٨].

قال السعدي: «قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور»[(٧)].

ويؤكد هذا المعنى سيد قطب فيقول: «فهنا وجوه يبدو فيها النعيم. ويفيض منها الرضى. وجوه تنعم بما تجد، وتحمد ما عملت. فوجدت عقباه خيرا، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع. شعور الرضى عن عملها»[(٨)].

ثانيًا: عذاب الوجوه في الآخرة:

١. اسوادها.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ [الزمر:٦٠].

قال السعدي: «هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة»[(٩)].

وقال ابن عاشور: «وقد جعل الله

(١) الفواتح الإلهية، النخجواني ٢/ ٤٨٦.
(٢) روح المعاني، ١٥/ ٢٥٢.
(٣) الكشف والبيان، ٣/ ١٢٥.
(٤) تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٧٨١.
(٥) جامع البيان ٢٤/ ٧١.
(٦) الوجيز ص١١٥٥.
(٧) تيسير الكريم الرحمن ص٩٢٢.
(٨) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٧.
(٩) تيسير الكريم الرحمن ص١٤٢.

اسوداد الوجوه يوم القيامة علامة على سوء المصير»[1].

وقد عد الزجاج الاسوداد عنوانًا عريضًا لأهل النار فقال: «ويعرفون أصحاب النار بسيماهم وسيماهم اسوداد الوجوه»[2].

٢. بسورها وشقاؤها.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة:٢٤].

إن هذه الوجوه الباسرة وجوه شقية، كالحةٌ سوداء، يقول البغوي: «عابسة كالحة مغبرة مسودة»[3].

وقال البيضاوي: «شديدة العبوس»[4].

ويقول البقاعي: « أي: شديدة العبوس والكلوح والتكره لما هي فيه من الغم كأنها قد غرقت فيه فرسبت بعد أن سبرت أحوالها، فلم يظهر لها وجه خلاص»[5].

٣. خشوعها ونصبها.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الغاشية:٢-٣].

إن هذا الخشوع لهذه الوجوه ليس خشوع عبادة، بل خشوع ذلة ومهانة.

يقول الرازي: «خاشعة أي: ذليلة قد عراهم الخزي والهوان»[6].

يقول سيد قطب مترجمًا هذه المعاني: «فهناك: يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة، ولم تجد إلا الوبال والخسارة، فزادت مضضًا وإرهاقًا وتعبًا، فهي: «عاملةٌ ناصبةٌ» عملت لغير الله، ونصبت في غير سبيله»[7].

٤. تغبيرها ورهقها.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس:٤٠-٤١].

يعذب الله تلك الوجوه يوم القيامة بالدخان الأسود والهلاك، قال الرازي: «الرهق عجلة الهلاك، والقترة سواد كالدخان، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى وجوه الزنوج إذا اغبرت، وكأن الله تعالى جمع في وجوههم بين السواد والغبرة، كما جمعوا بين الكفر والفجور»[8].

موضوعات ذات صلة:

البصر، السجود، السمع، العين، اللسان

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٤٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٣٤٣.
(٣) معالم التنزيل ٨/ ٢٨٥.
(٤) أنوار التنزيل ٥/ ٢٦٧.
(٥) نظم الدرر ٢١/ ١٠٦.
(٦) مفاتح الغيب ٣١/ ١٣٨.
(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٦.
(٨) مفاتيح الغيب ٣١/ ٦٢.

الوحدة

عناصر الموضوع

مفهوم الوحدة	٣٧٢
الوحدة في الاستعمال القرآني	٣٧٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٧٤
أنواع الوحدة في القرآن	٣٧٦
الحث على الوحدة	٣٨٠
الوحدة والعبادات	٣٩٣
أسباب الوحدة	٤٠١
عوائق الوحدة	٤٠٩
ثمار الوحدة	٤١٧

مفهوم الوحدة

أولًا: المعنى اللغوي:

ترجع لفظة (الوحدة) في معاجم العربية إلى الجذر الثلاثي (وحد)، والناظر في تلك المعاجم يجد أن مادة (و ح د) لها عدة معانٍ؛ قال ابن فارس: « الواو والحاء والدال أصلٌ واحد يدل على الانفراد، ومن ذلك الوحدة، وهو واحد قبيلته، إذا لم يكن فيهم مثله، والواحد: المنفرد »[(١)].

وفي لسان العرب: الواحد بني على انقطاع النظير وعوز المثل، والوحيد بني على الوحدة والانفراد عن الأصحاب من طريق بينونته عنهم، والعرب تقول: أنتم حي واحدٌ، والوحدة: الانفراد؛ يقال: رأيته وحده، وجلس وحده، وقيل: الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل، ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله عز وجل[(٢)].

«الوحدة الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الوحدة: هي اتحاد الدول أو البلاد والأفراد والجماعات في سائر أمور حياتهم ومعاشهم وسيرتهم وغايتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع شيئًا واحدًا، أو أمةً واحدةً، يقال: اتحد البلدان، أي: صارا بلدًا واحدًا[(٤)].

ووحدة الأمة الإسلامية هي: توحد المسلمين جميعًا، واجتماعهم على أساس الدين الإسلامي الذي أنزله الله عز وجل، بحيث تلغى بينهم جميع الروابط الأخرى، كالروابط العرقية والقومية وروابط اللغة، ويصبح القاسم المشترك بين أفراد هذه الجماعة هو الدخول في دين الإسلام؛ عقيدة وعبادة ونظام حياة.

(١) مقاييس اللغة ٦/ ٩٠.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٧٨٠، مختار الصحاح، الرازي ص٧٤٠.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٩٤، التوقيف على مهامات التعاريف، المناوي ص٧٢٠.
(٤) انظر: وحدة الأمة الإسلامية في السنة النبوية، أحمد عمر هاشم ص ٧.

الوحدة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وحد) في القرآن الكريم (٩) مرات [١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم الفاعل مؤنثا	٩	﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس:١٩]

الوحدة في أصلها بمعنى الانفراد، وتستعمل في معنى الاتحاد والتوحد، أو صيرورة الاثنين فما فوقها واحدا[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٤٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص١٤٠٤.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ٩٠، تاج العروس، مرتضى الزبيدي، ٩/ ٢٧٤، مقاصد القرآن في السبع المثاني، أم سلمى محمد صالح، ص٣٠٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاجتماع:

الاجتماع لغة:

التئام الشيء، وضم بعضه إلى بعض، وهو خلاف التفريق[١].

الاجتماع اصطلاحًا:

هو اجتماع الناس، وعدم تفرقهم، واجتماع القلوب بائتلافها، وعدم تفرقها.

الصلة بين الاجتماع والوحدة:

الاجتماع من صور وحدة الأمة الإسلامية، وهو مطلب عزيز، يتجلى مظاهره في أعظم الشعائر التعبدية؛ كالصلاة مع الجماعة، ومناسك الحج.

٢ الاعتصام:

الاعتصام لغة:

العصم: الإمساك، والاعتصام: الاستمساك.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران:١٠٣].

أي: تمسكوا بعهد الله[٢]. والاعتصام بحبل الله: هو ترك الفرقة، واتباع القرآن[٣].

الاعتصام اصطلاحًا:

ولا يختلف معنى الاعتصام في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

الصلة بين الاعتصام والوحدة:

الاعتصام: الاستمساك بالشيء، افتعالٌ منه، والمقصود الاستمساك بحبل الله، وهو بهذا الاعتبار وسيلة لوحدة الأمة، وطريق إليها؛ ولهذا يقال: الاستمساك بحبل الله سبب للاجتماع ووحدة الصف، وعصمة من الخلاف والتفرق.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٧٩، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٥٣.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٢٠٥، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٤١٨.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٦٩.

٣ التفرق:

التفرق لغةً:

خلاف التجمع، تفرق القوم وتفارقوا، والاسم الفرقة[١].

والتفريق: خلاف التجميع، يقال: فرق الشيء تفريقًا وتفرقة: بدده، وهو متعدٍ، أما التفرق فلازم. والتفريق أبلغ من الفرق؛ لما فيه من معنى التكثير[٢].

التفرق اصطلاحًا:

لا يخرج معناه عن المعنى اللغوي.

الصلة بين التفرق والوحدة:

التفرق ضد الوحدة، ويعد من أهم أسباب ضعف الأمة، وثمرة من ثمار الاختلاف المذموم بين المسلمين؛ لأن من الاختلاف ما لا يصل إلى حد الافتراق، وهو أكثر أنواع الخلاف بين الأمة.

(١) المخصص، ابن سيده ٣/ ٣٦٠.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩١٨.

أنواع الوحدة في القرآن

أولًا: وحدة الخلق:

لقد بين القرآن الكريم أن الناس جميعًا يربطهم رباط واحد، ويشتركون جميعًا بأمر وثيق، يجمعهم كلهم دون استثناء، إنهم جميعًا مخلوقون لخالق واحد، وأصلهم جميعًا أب واحد، قال تعالى مخاطبًا الناس جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

فهذا خطاب من رب الناس للناس جميعًا، مهما تباعدت أزمانهم وأمصارهم، ومهما اختلفت لغاتهم وألوانهم، يذكرهم ربهم بأنه المتوحد المتفرد بخلقهم جميعًا، معرفًا إياهم كيف كان مبتدأ إنشائهم، ومنبهًا لهم على أن جميعهم بنو رجلٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجبٌ، وجوب حق الأخ على أخيه، لاجتماعهم في النسب إلى أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، وعاطفًا بذلك بعضهم على بعض؛ ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف[(١)].

إن هذه الآية العظيمة التي افتتح الله بها سورة النساء، توحي بأن هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة، تتصل في رحم واحدة، وتنبثق من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد؛ ولو تذكر الناس هذه الحقيقة، لتضاءلت في حسهم كل الفروق التي نشأت في حياتهم متأخرة؛ ففرقت بين أبناء النفس الواحدة، ومزقت وشائج الرحم الواحدة، وكلها ملابسات ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية، وصلة النفس وحقها في المودة، وصلة الربوبية وحقها في التقوى[(٢)].

إن الناس جميعًا تجمعهم وحدة عقدية ووحدة الجنس؛ أما الوحدة العقدية فإن ربهم جميعًا واحد لا شريك له، هو الذي خلقهم، وهو الذي رزقهم، وهو الذي يميتهم، وهو الذي يحييهم، وهو الذي أوجد أبيضهم وأسودهم، وعربيهم وأعجميهم، وأما الوحدة الجنسية فالناس جميعًا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم قد انحدروا عن أصل واحد وهو آدم عليه السلام[(٣)].

يقول سيد قطب: «إن استقرار هذه الحقيقة كان كفيلًا باستبعاد الصراع العنصري، الذي ذاقت منه البشرية ما ذاقت، وما تزال تتجرع منه حتى اللحظة الحاضرة؛ في الجاهلية الحديثة، التي تفرق بين

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥١٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٧٤.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ٢٠.

الألوان، وتفرق بين العناصر، وتقيم كيانها على أساس هذه التفرقة، وتذكر النسبة إلى الجنس والقوم، وتنسى النسبة إلى الإنسانية الواحدة والربوبية الواحدة »[1].

وهناك آيات أخر في القرآن الكريم تؤكد على وحدة الناس جميعًا؛ وحدة الخالق الواحد، ووحدة التناسل من رجل واحد.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[الأنعام: ٩٨].

وقال في موضع ثانٍ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وفي موضع ثالث قال سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

يمتن سبحانه في هذه الآيات على عباده بنعمة الخلق، ويذكرهم بأنهم جميعًا خلقوا من نفس واحدة.

لقد خلق الله عز وجل الناس من نفس واحدة، ثم جعل من نسلها الشعوب والقبائل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وإن هذا التمايز بين الناس وتشعبهم إلى شعوب وقبائل مختلفة، لا ينبغي أن يكون مدعاة للتفاخر وتعالي بعض الناس على بعض، فلقد بين الله عز وجل الغاية من ذلك التمايز بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ فالغاية هي التعارف لا التفاخر؛ التعارف الذي يؤدي إلى تأكيد معاني الوحدة والأخوة الجنسية، لا التفاخر الذي يؤدي إلى الفرقة والتشتت[2].

هذه المعاني العظيمة قد أكد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع إذ قال: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى)[3].

ثانيًا: وحدة الملة والدين:

لقد أخبرنا الله عز وجل في كتابه العزيز أن الناس مجتمعون على ملة واحدة ودين واحد.

قال سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٣].

واختلف المفسرون في معنى تلك الملة

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٧٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٦١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٣٤٨٩. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ١٩٩، رقم ٢٧٠٠.

التي كان الناس عليها؛ فذهب بعضهم إلى القول بأن الناس كلهم كانوا على الدين الحق، كانوا على الهدى مجتمعين، وقال بعضهم: كانوا مجتمعين على الكفر والباطل[1].

ورجح شيخ المفسرين - الطبري - القول الأول، فقال: « إن دليل القرآن واضحٌ على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به؛ وذلك إن الله عز وجل قال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، ولو كان ذلك كذلك لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحالٌ أن يتوعد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك »[2].

ولقد بين لنا ربنا عز وجل في كتابه أيضًا أنه سبحانه قادر على جعل الناس متوحدين على ملة الإسلام، وشريعة الحق الواحدة؛ ولكنه سبحانه يريد أن يبتلى عباده، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومعنى الآية: لو شاء الله عز وجل أن يجعل الأمم جميعا أمة واحدة، تدين بدين واحد، وبشريعة واحدة لفعل؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك؛ وإنما شاء أن يجعلكم أمما متعددة ليختبركم فيما آتاكم من شرائع مختلفة في بعض فروعها، ولكنها متحدة في جوهرها وأصولها؛ فيجازي من أطاعة بما يستحقه من ثواب، ويجازي من خالف أمره بما يستحقه من عذاب[3].

وفي ذات المعنى يقول جل وعلا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

« أي: ولو شاء الله عز وجل لوفقكم كلكم، فجعلكم على ملة واحدة، وهي الإسلام والإيمان، وألزمكم به، ولكنه سبحانه يضل من يشاء ممن علم منه إيثار الضلال، فلا يهديه عدلا منه، ويهدي من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٥، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٠٠.
(٢) جامع البيان ٤/ ٢٨٠.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ١٨٤.

يشاء ممن علم منه إيثار الحق، فيوفقه فضلا منه، وليسألنكم الله جميعًا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وسيجازيكم على ذلك»[1].

وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

يخبر سبحانه في هذه الآية أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته، أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، إلا من رحم ربك فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه، فهؤلاء سبقت لهم، سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي[2].

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته، أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون؛ ليتبين للعباد، عدله وحكمته.

قال القرطبي: « وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب: سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير؛ أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة. وروي عن ابن عباس أيضًا قال: خلقهم فريقين، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه »[3].

ومثل هذه الآية قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

ولما بين الله عز وجل أن الناس كانوا على ملة واحدة ودين واحد، وبين أيضًا أنه سبحانه قادر على جمع الناس كلهم على ملة الإسلام، مدح أمة التوحيد المجتمعة على الإيمان، المتوحدة على أساس العقيدة ودين ربها عز وجل، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وفي سورة المؤمنين: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

فهذه أمة الإسلام ملة واحدة، من عهد آدم عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ دين الأنبياء واحد، وأتباع الرسل ملة واحدة، ومن سار على نهجهم

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٢٧٧.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ١١٥.

إلى قيام الساعة فهو من أمتهم [1].

والملاحظ: أن كلمة الوحدة مضافة إلى الأمة أي وحدة الأمة لم ترد في القرآن الكريم، ولكن ورد وصف الأمة بأنها أمة واحدة، فالتركيز في القرآن قد جاء على مفهوم الأمة التي توصف بأنها أمة واحدة، وليس على مفهوم الوحدة التي تضاف إلى الأمة، وهذا يعني أن الأمة الواحدة هي الأصل، أما مسألة توحيد الأمة ووحدتها فهي طارئة بعدما حل بالأمة ما حل [2].

الحث على الوحدة

أولًا: الأمر بالوحدة:

الآيات التي تأمر بالوحدة وتحث عليها كثيرة في كتاب الله عز وجل، لا تحتاج إلى بذل جهد وإعمال فكر من أجل الوقوف عليها؛ فالقرآن الكريم قد جعل وحدة المسلمين وتآلفهم واجتماع كلمتهم من أصول الدين، وقواعده العظيمة، ولقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في الدلالة على وجوب الوحدة؛ وذلك كما يلي:

١. الأمر الصريح بالوحدة.

لقد ورد الأمر بالوحدة صريحًا في كتاب الله عز وجل، كما في قول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فهذه الآية الكريمة تأمر المسلمين بأن يكونوا جميعًا مستمسكين بكتاب الله وبدينه وبعهوده، ولا يتفرقوا، كما كان شأنهم في الجاهلية، بضرب بعضهم رقاب بعض.

قال الطبري: « يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٣/ ٤٤٠.

(٢) انظر: هموم الأمة الإسلامية، محمود حمدي زقزوق ص ٧١.

الله »[1].

وفي الآية استعارة تمثيلية حيث شبه الله عز وجل الحالة الحاصلة من تمسك المؤمنين بدينه وبكتابه وبعهوده وبوحدة كلمتهم، بالحالة الحاصلة من تمسك جماعة بحبل وثيق مأمون الانقطاع، ألقى إليهم من منقذ لهم من غرق أو سقوط أو نحوهما[2].

وقد روى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة؛ فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة، هو خير مما تستحبون في الفرقة»[3].

وقد تعددت آراء المفسرين في معنى ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ الذي أمر الله المؤمنين بالاعتصام به، فقال بعضهم: كتاب الله، وقال بعضهم: دين الله، وقال بعضهم: أمر الله وطاعته، وقال بعضهم: الجماعة[4].

قال القرطبي: « والمعنى كله متقارب متداخل؛ فإن الله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفرقة؛ فإن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة»[5].

(١) جامع البيان ٧/ ٧٠.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ١٩٩.
(٣) جامع البيان ٧/ ٧٥.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٣٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٥٩.

ومن الآيات التي تأمر المسلمين بالوحدة والاعتصام والتكافل قول الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢].

فهذه الآية تأمر المسلمين بالتعاون على كل ما هو خير وبر وطاعة لله عز وجل، وتنهاهم عن التعاون على ارتكاب الآثام، والاعتداء على حدوده؛ فإن التعاون على الطاعات والخيرات يؤدي إلى السعادة، أما التعاون على ما يغضب الله عز وجل فيؤدي إلى الشقاء[6].

وبتعاون المسلمين معًا، ومساعدة بعضهم لبعض، يصبح المجتمع المسلم جسدًا واحدًا، متماسكًا مترابطًا، قال القرطبي: « وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى؛ أي ليعن بعضكم بعضًا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه»[7].

يقول السعدي: « يرشد القرآن الكريم المسلمين إلى إقامة جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقدر على القيام بها، وليوفر وقته عليها لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعًا واحدة، وهذه من القواعد الجليلة ومن السياسة

(٦) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٣٢.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٦.

الشرعية الحكيمة، فإن كثيرًا من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها، فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالى في الجهاد والعلم اللذين هما من أعظم مصالح الدين: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية وبالعلم طائفة أخرى، وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت [(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

إلى غير ذلك من الآيات الدالات على هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها، لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، ويكون سائرًا في جميع أعماله إليها، فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم وصلحت أمورهم وانجابت عنهم شرور كثيرة، فالله المستعان» [(٢)].

لقد أمر القرآن العظيم بأمور عظيمة، من شأنها أن توحد الأمة، وتزيدها ترابطًا وتماسكًا؛ بل ألفة ومحبة؛ لقد أمر ببر الوالدين، وأمر بصلة الأرحام، وأمر بالإحسان إلى أولي القربى واليتامى والمساكين، لقد أمر بحسن معاشرة الزوجة، وأمر بالإحسان إلى الجار والآيات في ذلك معلومة كثيرة، منها تلك الآية الجامعة من سورة النساء، إذ يقول ربنا عز وجل: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

يأمر الله عز وجل في هذه الآية بعبادته وحده لا شريك له، ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين - وكثيرا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين - ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، ثم أوصى باليتامى؛

(١) والآية تحتمل معنى آخر: وهو أن الطائفة التي قد خرجت مع الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين شهدوا الوحي الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في مدة الغزو، وعليهم أن يبلغوا ذلك إلى قومهم الذين لم يخرجوا للغزو إذا رجعوا إليهم.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٨.

(٢) القواعد الحسان، السعدي ص ١٢٩.

وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم، ثم أوصى بالمساكين من ذوي الحاجات، الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم، ثم أوصى بالجار ذي القربى والجار الجنب، يعني: الجار الذي بينك وبينه قرابة، والجار الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقيل: الجار الجنب يعني الرفيق في السفر، ثم أوصى بالصاحب بالجنب، قيل: يعني المرأة، وقيل: يعني: الضعيف، وقيل: هو جليسك في الحضر ورفيقك في السفر، ثم أوصى بابن السبيل، وهو الضيف، وقيل: هو الذي يمر عليك مجتازًا في السفر، وختم عز وجل تلك الوصايا العظيمة بالوصية بما ملكت اليمين، وهم الأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس[1]، ويأخذ حكمهم في زماننا العمال والخدم ونحوهم.

وقد جاءت السنة مؤكدة على أمر القرآن بالوحدة والاعتصام، وذلك في أحاديث كثيرة، يضيق المقام هنا بذكرها، من ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال: **(إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا: فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)**[2].

٢. تقرير الأخوة بين المؤمنين جميعًا.

لقد وصف القرآن الكريم المؤمنين بأعظم وصف يدل على وحدتهم واجتماعهم، لقد وصفهم بأنهم إخوة؛ فكما أن الإخوة في النسب تربطهم روابط قوية من المحبة والألفة وحرص كل منهم على مصلحة أخيه، فكذلك حال الأخوة بين المؤمنين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

إن هذه الأخوة هي بمثابة عقد عقده الله بين المؤمنين؛ فأينما وجد المؤمن -في مشارق الأرض أو في مغاربها- فإنه أخ للمؤمنين، أخوةٌ توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم[3].

قال ابن عاشور: «وجيء في الآية بصيغة القصر، المفيدة لحصر حالهم في حال

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات، ٣/ ١٣٤٠، رقم ١٧١٥٠.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠٠.

الإخوة؛ مبالغةً في تقرير هذا الحكم بين المسلمين، وأخبر عنهم بأنهم إخوة مجازًا على وجه التشبيه البليغ، زيادة في تقرير معنى الأخوة بينهم، حتى لا يحق أن يقرن بحرف التشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأخوة، وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين؛ لأن شأن (إنما) أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما ينزل منزلة ذلك؛ فلذلك كان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مفيد أن معنى الأخوة بينهم معلوم مقرر»[1].

إن في تقرير القرآن الكريم للأخوة بين المؤمنين أعظم دليل على حثه واهتمامه بوحدتهم وتماسكهم؛ حتى يكونوا جميعًا إخوانًا، وإن هذه الأخوة التي قررها القرآن الكريم هي أخوة مبنيةٌ على أساس متين؛ فالذي يربط المؤمنين ببعض هو رباط العقيدة والدين، وهذا أقوى من كل رباط يجمع الناس، حتى ولو كان رباط نسب أو رحم، فالمؤمنون بهذا الرباط كالجسد الواحد، كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[2].

ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ؛ تنبيهًا على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه، كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

أي: بإخوانهم على أصح التفسيرين[3]، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

أي: لا يعب بعضكم بعضًا، وعبر بالنفس لأن المؤمنين جميعًا كنفس واحدة[4].

وقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

أي: لا يأكل أحدكم مال أخيه، إلى غير ذلك من الآيات. ولذلك ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٨/ ٢٠، رقم ٦٧٥١.

(٣) نقل الشوكاني عن الحسن رضي الله عنه: معنى بأنفسهم بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة، وقال النحاس: بأنفسهم أي بإخوانهم.
انظر: فتح القدير ٤/ ١٩.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٣٢٧.

لنفسه)[1][2].

ومن الآيات الدالة على أن الدين والإيمان والعقيدة الخالصة هي الرابطة الحقيقية التي توحد المسلمين جميعًا، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصبية والقبلية: قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢].

فأخوة العقيدة والدين هي الكفيلة بتوحيد أمة الإسلام قاطبة، ولا يجوز لمسلم أن يقدم كافرًا ولو كان ذا قرابة ونسب على مسلم ولو كان الأخير أعجميًا بعيدًا.

فالمؤمنون إخوة متحابون، وإن مناط هذه الأخوة وأساسها إنما هو رابط الإسلام وعقيدته الصحيحة وهي من أهم أسباب وحدة الصف وقوة البنيان بين أفراد الأمة المسلمة وإن التحابب بين المسلمين والحرص على روابط الأخوة المستمدة من الإيمان والعقيدة سر قوة الأمة ومفتاح نجاحها[3].

وسنة النبي صلى الله عليه وسلم عامرةٌ بالأحاديث المؤكدة على ما أقره القرآن الكريم؛ من وجوب الأخوة بين المسلمين عامة، وبيان ما على المسلمين من حقوق لإخوانهم، مما يضمن الحفاظ على تلك الأخوة وتلك المودة، وصيانتها من كل ما يخالف معانيها العظيمة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا) ويشير إلى صدره ثلاث مرات (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه)[4].

وقد قال صلى الله عليه وسلم ممثلًا حال الإخوة من المؤمنين بأعظم مثال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا)[5].

وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه، وليس المقام هنا مقام سرد لتلك الأحاديث

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣، ١/ ١٢.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٣.
(٣) انظر: تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي الصلابي، ص ٣١٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، ح٦٧٠٦، ٨/ ١٠.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح٦٧٥٠، ٨/ ٢٠.

العظيمة فنكتفي بما أشرنا إليه.

ولا يخفى على كل مطلع على سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ما قام به صلى الله عليه وسلم من المؤاخاة بين أصحابه الكرام؛ حيث آخى بين المهاجرين أنفسهم، وآخى بين الأنصار أنفسهم، وآخى بين المهاجرين والأنصار جميعًا، وكانت أروع صور المؤاخاة التي عرفها تاريخ البشرية، هذا الإخاء الذي ذابت فيه عصبيات الجاهلية، وسقطت فوارق النسب واللون والوطن، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلا الإسلام، وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير في هذه الأخوة، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال [(١)]، حتى قال الواحد منهم لأخيه: إني أكثر الأنصار مالًا؛ فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها [(٢)].

٣. الأمر بالإصلاح بين المؤمنين عند حدوث الخلاف بينهم.

ومن أساليب القرآن الكريم في الحث على وحدة المسلمين وتجمعهم، أنه أمر بالمبادرة إلى الإصلاح بين المؤمنين إذا ما نزغ الشيطان بين طائفتين منهم فحصل بينهم نزاع أو اقتتال.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ففي هذه الآية نهيٌ من الله عز وجل للمؤمنين عن أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضًا، فإن اقتتلت طائفتان منهم، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن حدث الصلح فبها ونعمت، وإن ﴿بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال، وقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ

(١) انظر: الروض الأنف، السهيلي ٢/ ٣٥٠.

(٢) الحديث: عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، رقم ٣٧٨٠، ٥/ ٣١.

ولا يخفى ما في مثل هذه المواقف العظيمة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بيان لأهمية الإيثار والعفة في تحقيق معاني الوحدة الحقيقية.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به [1].

وفي الآية لطائف عظيمة تدل على أن الاقتتال بين المؤمنين شاذ عن الأصل المأمور به من الوحدة والأخوة والتآلف؛ حيث عبرت الآية عن حدوث ذلك الاقتتال بأداة الشرط (إن) التي تفيد ندرة الوقوع وقلته، وفي ذلك إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع الاقتتال إلا نادرًا، ثم إن الآية الكريمة استعملت لفظة: ﴿طَائِفَتَانِ﴾ ولم تستعمل لفظة: (فرقتان) وذلك للدلالة أيضًا على التقليل؛ لأن الطائفة دون الفرقة، ثم إن الآية قالت: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم تقل: (منكم) مع أن الخطاب للمؤمنين تنبيهًا على قبح ذلك، وزجرًا لهم عنه، كما يقول السيد لعبده: إن رأيت أحدًا من غلماني يفعل كذا فامنعه، فيصير بذلك مانعًا للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن، كأنه يقول أنت حاشاك أن تفعل ذلك فإن فعل غيرك فامنعه.

ولا يخفى أيضًا تعبير الآية بالفعل الماضي ﴿اقْتَتَلُوا﴾ بدل الفعل المضارع (يقتتلوا) حتى لا يدل دوام ذلك الاقتتال وكثرته، وكذلك التعبير بقوله: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ في غاية الحسن لأنه يفيد الندرة وقلة الوقوع [2].

ومن اللطائف في الآية أيضًا أن الله تعالى خاطب المؤمنين فيها بقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فلا ينبغي لهم أن يسمحوا لغيرهم من الكفار والمنافقين أن يتدخلوا في شؤونهم؛ فإنهم أي الكفار والمنافقين لا يزيدونهم إلا خبالًا وشقاقًا كما نرى في واقع المسلمين اليوم!!

ومن الآيات الكريمات التي تأمر بإصلاح ذات البين [3]: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

حيث نزلت هذه الآية عندما وقع خلاف بين المسلمين في غنائم بدر، وفي قسمتها، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها؟ للمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعًا؟

فكان الجواب من الله عز وجل: قل لهم هي لرسول الله، وهو الحاكم فيها خاصة، يحكم ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠٠.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٩.

(٣) ذات البين: ما بين القوم من القرابة و الصلة والمودة، أو ما بينهم من العداوة والبغضاء. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٨٠.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متآخين في الله، ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ يعني: ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، والبين الوصل أي: فاتقوا الله، وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم[1].

قال ابن كثير: «اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا، ولا تخاصموا، ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في قسمه بينكم على ما أراده الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم، وكذا قال مجاهد»[2].

ولقد رغب القرآن الكريم في الإصلاح بين المسلمين، فقد قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

يقول أبو بكر الجزائري مفسرًا لهذه الآية: «يخبر تعالى أنه لا خير في كثير من أولئك المتناجين، ولا في نجواهم؛ لنفاقهم وسوء طواياهم، اللهم إلا في نجوى أمر أصحابها بصدقة تعطى لمحتاج إليها من المسلمين، أو معروف استحبه الشارع أو أوجبه من البر والإحسان، أو إصلاح بين الناس للإبقاء على الألفة والمودة بين المسلمين، ثم أخبر تعالى أن من يفعل ذلك المذكور من الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس طلبًا لمرضاة الله تعالى فسوف يثيبه بأحسن الثواب؛ ألا وهو الجنة، دار السلام؛ إذ لا أجر أعظم من أجر يكون الجنة»[3].

وقد أكدت السنة المشرفة هذا المعنى العظيم، من الحث على إصلاح ذات البين، والترغيب فيه، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة)، قالوا: بلى. قال: (إصلاح ذات البين وفساد ذات البين الحالقة)[4]، وغير ذلك من الأحاديث.

إن هذه الآيات الكريمات التي تأمر وتحث على الإصلاح بين المسلمين، لهي آيات تدل على حرص هذا الكتاب العزيز على وحدة صف المؤمنين، وعدم السماح

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٣.
(٣) أيسر التفاسير ١/ ٥٤١.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٧٥٤٨، ٦/ ٤٤٤وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، رقم ٤٩٢١، ٤/ ٤٣٢.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٨١٤.

لأي أمر - مهما كان - أن يفرق كلمتهم، أو يشتت شملهم، فالمؤمنون إخوة، وأمة الإسلام أمة واحدة، لها دين واحد، وتعبد ربًا واحدًا.

ثانيًا: النهي عن الفرقة والاختلاف:

كما أن القرآن الكريم أمر بالوحدة وحث عليها، فإنه في مقابلة ذلك نهى عن الفرقة والاختلاف، وحذر منهما تحذيرًا عظيمًا، وذلك في آيات عدة من الكتاب العزيز، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

حيث « أمر الله عز وجل عباده المؤمنين في هذه الآية بما يعينهم على التقوى، وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة، مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم، وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام وفي هذه الآية ما يدل على أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم؛ ليزدادوا شكرا له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها»[(١)].

ولقد قال الله عز وجل بعد هذه الآية بآية واحدة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

« نهى الله سبحانه في هذه الآية عباده المؤمنين أن يكونوا كأهل الكتاب الذين وقعت بينهم العداوة والبغضاء؛ فتفرقوا شيعًا وأحزابًا، واختلفوا في أصول دينهم، من بعد أن اتضح لهم الحق، وأولئك مستحقون لعذاب عظيم موجع »[(٢)].

وأخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية قال: « في هذا ونحوه من القرآن أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة؛ فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله »[(٣)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤١.
(٢) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٠٤.
(٣) جامع البيان ٧/ ٩٣.

يقول الدكتور وهبة الزحيلي معلقًا على الآية السابقة: «إن التفرق في الدين أمر حرام ومنكر عظيم، مؤذن بتدمير المصلحة العامة، والقضاء على وجود الدولة المسلمة والأمة المؤمنة، وقد عد القرآن الكريم المتفرقين في الدين من الكفار والمشركين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ومن ترك الاعتصام بالقرآن والإسلام، ورد الأمر المتنازع فيه إلى غير الكتاب والسنة كان أيضًا من الكافرين»[(١)].

ونظير هذه الآيات التي تنهى عن الفرقة والاختلاف قول الله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ففي هذه الآية أمر من الله عز وجل لعباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، ونهي عن التنازع الذي يؤدي إلى الافتراق واختلاف القلوب، ومن ثم الضعف والجبن والفشل وذهاب الريح والقوة[(٢)].

يقول ابن عاشور: «والنهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور؛ لأنهم إذا نهوا عن التنازع بينهم، فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي؛ ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء - وهو أمر مرتكز في الفطرة - بسط القرآن القول فيه ببيان سيىء آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله: ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فحذرهم أمرين معلومًا سوء مغبتهما: وهما الفشل وذهاب الريح وإنما كان التنازع مفضيا إلى الفشل؛ لأنه يثير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضًا، فيصرف الأمة عن التوجه إلى ما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكن منهم العدو؛ وذلك لأن التنازع يفضي إلى التفرق، وهو يوهن أمر الأمة»[(٣)].

ومن الآيات التي تحث على الاجتماع، وتذم الفرقة قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قال ابن كثير: «أوصى الله تعالى

(١) التفسير المنير ٤/ ٣٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥٧٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٠/ ٣٠.

جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة ونهاهم عن الافتراق والاختلاف»[1].

لقد أخبرنا القرآن الكريم عن جماعة من المنافقين أرادوا تمزيق وحدة المسلمين، وتفريق صفهم، وبنوا لذلك مسجدًا ضرارًا؛ ففضحهم الله عز وجل، وأبدى عورهم للمسلمين، وقال فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

إن الإسلام يحارب كل طريق تؤدي إلى تمزيق وحدة المسلمين، وإن كانت بناء مسجدٍ، وهذا المسجد لم يرد ببنائه الخير؛ وإنما أريد به أن يكون مقرًا للمنافقين؛ يدبرون فيه مؤامراتهم ضد الإسلام والمسلمين، ويشقون به عصا الجماعة، فنهى الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقوم في هذا المسجد أبدًا، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[التوبة: ١٠٨].

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدمه وتحريقه[2].

وللتنفير من التنازع والافتراق واقتتال المسلمين بعضهم مع بعض سمى الله عز وجل تشاجر المسلمين وقتال بعضهم بعضًا كفرًا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

لقد ذكر المفسرون أن الآية الكريمة نزلت حينما حاول أحد اليهود الخبثاء الإيقاع بين المسلمين - بتذكيرهم بحروبهم أيام الجاهلية - حتى كادوا أن يقتتلوا[3]؛ فنزلت هذه الآية تحذر المسلمين من طاعة المفسدين من أهل الكتاب الذين هدفهم إيقاع العداوة بين صفوف المسلمين.

والسنة النبوية المشرفة مؤازرة للقرآن الكريم في التحذير من الفرقة والشذوذ عن الجماعة، والأحاديث في هذا الباب أكثر من

(١) تفسير القرآن العظيم ١٢/ ٢٦٢.
(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٥٢٩.
(٣) روى الطبري بسنده عن مجاهد في هذه الآية، قال: كان جماع قبائل الأنصار بطنين: الأوس والخزرج، وكان بينهما في الجاهلية حربٌ ودماء وشنآنٌ، حتى من الله عليهم بالإسلام وبالنبي صلى الله عليه وسلم، فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم، وألف بينهم بالإسلام. قال: فبينا رجل من الأوس ورجلٌ من الخزرج قاعدان يتحدثان، ومعهما يهودي جالسٌ، فلم يزل يذكرهما أيامهما والعداوة التي كانت بينهم، حتى استبا ثم اقتتلا. قال: فنادى هذا قومه وهذا قومه، فخرجوا بالسلاح، وصف بعضهم لبعض. قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهدٌ يومئذ بالمدينة، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يزل يمشي بينهم، حتى رجعوا ووضعوا السلاح، فأنزل الله عز وجل الآية »جامع البيان ٦/ ٥٩.

أن يحصيها بحثنا هذا.

ولكن نشير إلى بعضها: فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا، فقال: (أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن)[1].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية)[2].

ولقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم اقتتال المسلمين كفرًا، حيث قال في حجة الوداع: (لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)[3].

وقال: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)[4].

إن الناظر في أحكام الإسلام وتشريعاته يجدها حاثة على الوحدة، محذرة للفرقة، وذامة لها، فالإسلام حرم أن يهجر المسلم أخاه المسلم، وأمر بإفشاء السلام من أجل إشاعة المحبة، وأمر بصلاة الجماعة، ونهى أن يسافر الرجل وحده، وأن يبيت وحده، ولو ذهبنا نستقصي شواهد الشريعة التي تفيد وجوب اجتماع كلمة المسلمين، وحرمة الفرقة بينهم لطال بنا المقام.

والخلاصة: أن العمل على تحقيق وحدة المسلمين مما عظمت وصية الله به في كتابه، ووصية النبي صلى الله عليه وسلم في سنته، ومما عظم ذم تركه، ومما عظمت حاجة المسلمين اليوم إليه، في وقت قد تمزقت فيه دولة الإسلام، وطغت الحزبية والطائفية والمذهبية والوطنية

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم ٢١٦٥، ٤/ ٣٨.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٩، رقم ٢٥٤٦.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، رقم ٥٤٧، ١/ ٢١٤.
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ١٠٦٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، رقم ٢٣٤، ١/ ٥٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، رقم ٢٣٠، ١/ ٥٧.

الضيقة على بلاد المسلمين، فما أشد حاجة المسلمين إلى العمل بما فرض الله عليهم، وما أشد حاجة المسلمين إلى وحدة أمتهم، واجتماعهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

الوحدة والعبادات

العبادات في الإسلام تمثل جزءًا عظيمًا من الدين؛ بل هي أساس الدين وجوهره، وهي ظاهر الدين وباطنه، وهي الصلة بين العبد وربه، وإن الأصل في العبادات أنها تؤدى امتثالًا لأمر الله عز وجل، وأداءً لحقه سبحانه على عباده، وشكرًا على نعمائه، وليس من اللازم أن يكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع في حياة الإنسان المادية، وليس من الضروري أن يكون لها حكمة يدركها عقله المحدود؛ إذ الأصل فيها أنها ابتلاء لعبودية الإنسان لربه، فلا معنى لأن يدرك السر في كل تفصيلاتها؛ فالعبد عبد والرب رب [٢].

ومن تأمل في العبادات التي شرعها الإسلام يجد أن كثيرًا من الحكم تظهر في أدائها، وكثيرًا من الثمرات تبرز حينما يقيمها المسلمون على مراد ربهم عز وجل، ومن عظيم هذه الثمرات المترتبة على العبادات توحيد أمة الإسلام، وبناء مجتمع مسلم

(١) العبادات جمع عبادة وهي لغة من الخضوع والذل.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٣٨.
واصطلاحًا: اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.
انظر: العبودية، ابن تيمية، ص٤٤.

(٢) انظر: العبادة في الإسلام، القرضاوي ص ٢١٧.

مترابط متماسك؛ فإن العبادات إذا فهمت فهمًا صحيحًا، وطبقت تطبيقًا دقيقًا، أعطت مجتمعًا قويًا متينًا كالبنيان المرصوص، يسعى بذمته أدناه، ويكون يدًا على من سواه، يسوده العدل والمساواة والإحسان والبر والرحمة والتعاون والإيثار.

وهذه الثمرات نلمسها في جميع العبادات التي شرعها الإسلام، فأصل العبادات توحيد الله عز وجل، والأمة الموحدة لربها لا بد أن تكون أمة واحدة؛ فهي تعبد ربًا واحدًا، ولها شرعة واحدة، وأركان دينها واحدة.

ثم إن جميع العبادات تثمر وحدة المسلمين، من صلاة وزكاة وصيام وحج ودعاء، فليس من الإسلام أن يترهب المسلم وينقطع عن مجتمعه وأمته بحجة العبادة؛ ومن فهم أن العبادة في الإسلام تعني عزلة وانقطاعًا ففهمه خاطئ، صحيح أن في الإسلام بعض العبادات تحتاج إلى اعتزال؛ ولكن ليس كل العبادات كذلك، فغالب العبادات في الإسلام يؤديها المسلم مع إخوانه المسلمين، ويظهر من خلالها وحدة الأمة واجتماعها، وسنعرض في هذا المبحث - بإذن الله - لبعض هذه العبادات وأثرها على وحدة المسلمين.

أولًا: الصلاة وأثرها على وحدة المسلمين:

الصلاة هي الفريضة الأولى بعد الإيمان بالله ورسوله، وهي عماد الدين، وهي ثاني أركان الإسلام، ولقد ورد الأمر من الله عز وجل لعباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وذلك في آيات كثيرة من الكتاب العزيز، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

وأثنى سبحانه على الذين يقيمون الصلاة في غير موضع: ﴿لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١٦٢].

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[الأعراف: ١٧٠].

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ

﴿بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

ولقد أمر الله المؤمنين بالمحافظة على الصلوات فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وغير ذلك كثير من الآيات التي تأمر بالصلاة، وتحث عليها، وفي ذلك بيان لعظيم منزلة الصلاة في الإسلام.

والصلاة لا يقتصر دورها على أجر يثاب عليه المؤمن، وعذاب ينجو منه، وإنما هي أيضًا تجميع رباني جميل للمسلمين جميعًا، على درجة واحدة من المساواة؛ فالحاكم والمحكوم، والرئيس والمرؤوس، وأصحاب الثروة والقوة، والنفوذ والسلطان، والذين ليس لهم من ذلك شيء، كل هؤلاء متساوون في الوقوف بين يدي الله والإقبال عليه، لا فضل لأحد منهم على أحد، إلا بمقدار ما في قلبه من تقوى، وما تثمره هذه التقوى من خيرات، وما تحجز عنه من موبقات [(١)].

إن الإسلام لم يكتف من المسلم أن يؤدي الصلاة وحده في عزلة عن المجتمع الذي يحيا فيه؛ ولكنه دعاه دعوة قوية إلى أدائها في جماعة وبخاصة في المسجد، ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

والمسجد مكان مشاع عام يتساوى فيه الناس جميعًا؛ الحر منهم والعبد، والحاكم والمحكوم، والغني والفقير، في صورة عظيمة من صور وحدة المسلمين وتآلفهم.

وإذا حضر المؤمن الجماعة، عرف إخوانه وعرفوه، فلو غاب عنهم سألوا عنه؛ فإن كان غائبًا دعوا له، وإن كان مريضًا عادوه؛ فأثيبوا وأجروا، وجبروا خاطره، وأدخلوا السرور عليه، وإن كان حاضرًا زاروه، فتوطدت أواصر الأخوة، وتأكدت أسباب التضامن والمحبة [(٢)].

يتوجه المسلمون في صلاة الجماعة إلى قبلة واحدة، يقصدون ربًا واحدًا، يقتدون بإمام واحد، يكبرون معًا، ويتلون كتابًا واحدًا، ويدعون بدعاء واحد بصيغة الجمع قائلين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

ويركعون ويسجدون معًا، ويسلمون منتهين من صلاتهم معًا، ولقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم أمته على المحافظة على الجماعة في الصلوات، وجعل الإسلام أجر الصلاة في الجماعة أضعاف صلاة

(١) انظر: العبادات في الإسلام وأثرها في تضامن المسلمين، علي منصور ص١١٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ص١٢٤.

المنفرد؛ بل إن الخطوات إلى الجماعات مأجورة مباركة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعًا وعشرين درجة؛ وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة، لا يريد إلا الصلاة، فلم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه)[1].

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الاهتمام - في صلاة الجماعة - بتسوية الصفوف، كثير الترغيب في إقامتها ووصلها، وسد خللها، شديد الإنكار على الإخلال بها والتفريط فيها، ذلك لأن فوائد الجماعة لا تتحقق ولا تكتمل إلا بالمحافظة عليها، وقيام المسلمين فيها كالبنيان المرصوص، وفي ذلك تهيئة لهم لفريضة الجهاد وبيان لأهمية رص الصف المسلم وعدم تشرذمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤][2].

لقد كانت هذه الجماعة عاملًا كبيرًا من عوامل وحدة المسلمين في العبادات، كما كانت سببًا عظيمًا في تضامنهم، وجمع كلمتهم، وبلغ من اهتمام الإسلام بالجماعة أنه رغب في إقامتها، والحرص عليها حتى في أوقات المحن والشدائد، حين يلقى المسلمون عدوهم، ويواجهون خصومهم، لأن الصلاة في ذاتها سبب المعونة الإلهية، ولأن في إقامتها مع الجماعة مزيدا من العون والعطاء، تتضاعف بركاتها، وتكثر خيراتها[3].

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡ﴾ [النساء: ١٠٢].

وهذه الصلاة هي التي تسمى صلاة الخوف.

لقد شرع الله عز وجل صلاة الجمعة، واختصها بشروط وآداب تزيد في جلالها، وترفع من شأنها، وتورث مزيدًا من الاهتمام بها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، رقم ١٥٣٨، ٢/ ١٢٨.

(٢) انظر: العبادة في الإسلام، القرضاوي ص ٢٣٦.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٥٩١.

﴿لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

فصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة، التي لا تصح إلا جماعة، وهي صلاة أسبوعية، يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون، يلتقي المسلم فيها مع إخوانه، يستمع إلى أخبارهم، ويتفقد أحوالهم، ويستمع معهم إلى خطبة - من إمامهم -تذكرهم بالله عز وجل، وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام[(١)].

ثم هناك أيضًا صلاة فيها اجتماع أكبر للمسلمين يتكرر في العام مرتين، إنها صلاة العيد، تلك الصلاة العظيمة التي يخرج إليها أهل البلد جميعًا في أبهى مظاهر الوحدة، وفي أجمل صور الأخوة، جاء في الحديث عن أم عطية قالت: (أمرنا أن نخرج الحيض يوم العيدين، وذوات الخدور؛ فيشهدن جماعة المسلمين ودعوتهم، ويعتزل الحيض عن مصلاهن، قالت امرأة: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جلباب، قال: (لتلبسها صاحبتها من جلبابها)[(٢)].

من خلال ذلك نعم أهمية إقامة الصلوات في توحيد المسلمين، وتنمية الألفة والمحبة في قلوبهم، فالمصلي يلتقي بإخوانه كل يوم خمس مرات، يدخل معهم المسجد، ويضع كتفه بجنب كتف أخيه، ويلصق قدمه بقدمه، بين يدي ربهم عز وجل، في أروع صور اللحمة والمحبة.

ثانيًا: الزكاة وأثرها على وحدة المسلمين:

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وقد أمر الله عز وجل بها في كتابه في مواضع كثيرة، وقرن سبحانه الأمر بإيتائها مع الأمر بإقامة الصلاة في آيات كثيرة من الذكر الحكيم، من ذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

ولقد مدح الله سبحانه مؤدي الزكاة: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٢-٣].

وذم مانعيها: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٦ ٱلَّذِينَ

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٦٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب الصلاة في الثياب، رقم ٣٥١، ١/ ٨٠.

﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧].

وليس المجال هنا للحديث عن تفاصيل تلك العبادة المالية العظيمة؛ ولكن الذي يعنينا هنا بيان ما للزكاة من أثر عظيم على وحدة المسلمين وتكافلهم ونشر المودة والمحبة بينهم.

إن للزكاة أثرها العظيم في تحقيق وحدة المسلمين وتكافلهم، إذ إن الزكاة مالٌ يخرجه المسلم الغني من ماله، ويعود به على إخوانه الفقراء، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أرسله إلى اليمن: (**فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة؛ تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم**)[1].

ويظهر أثر الزكاة في تحقيق وحدة المسلمين وتآلفهم وتكافلهم - سواء كان ذلك من الناحية المعنوية أم من الناحية المادية - من عدة وجوه:

١. إن دفع الزكاة لمستحقيها، سبب لتأليف القلوب، وتأنيس النفوس، وإشاعة جوٍ من التراحم والتواصل بين المؤمنين، وتأكيد الأخوة والمحبة بينهم.

وليس شيء أجلب لمحبة الناس، وكسب مودتهم من الإحسان إليهم، ومد يد العون لهم، والسعي في مصالحهم، والتخفيف من آلامهم.

٢. إن الزكاة سبب لتنمية الروح الاجتماعية بين أفراد المجتمع. حيث يشعر دافع الزكاة بعضويته الكاملة في الجماعة، وتفاعله معها، ومشاركته في تحقيق مصالحها، وحل مشاكلها، والنهوض بها.

فتنمو شخصيته، وتزكو نفسه، وينشرح صدره، ويرتفع كيانه المعنوي، ويشعر بسعادة غامرة وهو يواسي إخوانه، ويقوم بواجبه تجاه مجتمعه.

كما يشعر آخذ الزكاة، بقيمته وقدره، وأنه ليس شيئًا ضائعًا، ولا كمًا مهملًا، وإنما هو في مجتمع كريم يعنى به ويرعاه، ويأخذ بيده، ويعينه على نوائب الدهر؛ فيحمله ذلك على محبة مجتمعه، والتفاعل معه، ويبقى قلبه سليمًا، خاليًا من الحقد والحسد، مقدرًا لإخوانه الأغنياء، معترفًا بفضلهم وبذلهم، داعيًا لهم بالبركة والتوفيق وسعة الرزق.

فالزكاة تستل سخائم الفقراء، وتزكي نفوسهم من الضغينة والبغضاء، والحسد لأهل المال والثراء؛ بل تجعل الفقير يدعو لهم بالبركة والزيادة والنماء، وبهذا يتحول المجتمع إلى أسرة واحدة، تجللها المحبة والوفاء، ويسودها التعاون والإخاء.

٣. إن الزكاة سبب لإشاعة الأمن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم ١٣٠، ١/ ٣٧.

والطمأنينة؛ فهي أمان للآخذ، والمعطي، والمجتمع بعامة.

أما الآخذ، فإن له في أموال الزكاة مايغنيه، ويجعله آمنًا مطمئنًا، شجاعًا عزيزًا، يواجه المستقبل بنفس راضية، وعزيمة ثابتة، وأما المعطي فإنه مطمئن إلى مستقبله، واثق من عون الله له، وحفظه لماله، ووقايته من الآفات، وأنه إن قدر الله غير ذلك، وتغيرت عليه الأحوال، وأصبح فقيرًا بعد الغنى، فإن له في مال إخوانه ما هو كفيل بجبر كسره، وسد حاجته، فيشعر أن قوة إخوانه قوة له إذا ضعف، وغناهم مددٌ له إذا أعسر.

وأما المجتمع، فإن الزكاة سبب لتماسكه وتآلفه، وتضامنه وتكافله، ووقايته من رياح التفكك والتشرذم، وأعاصير الجريمة والظلم.

٤. وأما تحقيق الزكاة للتكافل المادي، فهو أظهر من أن يذكر، وهو المقصود الأصلي من شرعيتها، فإن الله عز وجل إنما شرع الزكاة مواساةً للفقراء والمحتاجين، وقيامًا بمصالح المسلمين [(١)].

وبهذا تكون الزكاة أول تشريع منظم لتحقيق التكافل المادي، أو ما يسمى بالضمان الاجتماعي، الذي لا يعتمد على التبرعات الفردية الوقتية؛ بل يقوم على مساعدات حكومية دورية منتظمة، غايتها تحقيق الكفاية لكل محتاج: الكفاية في المطعم والملبس والمسكن، وسائر الحاجات، بما يكفل له ولعائلته مستوى معيشيًا ملائمًا من غير إسراف ولا تقتير [(٢)].

ولو أن أهل الأموال جميعهم أخرجوا زكاة أموالهم، وصرفوها لمستحقيها، لما بقي في المسلمين فقير. وما حاجة الفقراء إلا بسبب منع الأغنياء، فما احتاج فقير إلا بما منع غني، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « إن الله عز وجل فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا وعروا وجهدوا، فبمنع الأغنياء، وحقٌ على الله عز وجل أن يحاسبهم يوم القيامة، ويعذبهم عليه » [(٣)].

ويقول محمد رشيد رضا: «ولو أقام المسلمون هذا الركن من دينهم لما وجد فيهم - بعد أن كثرهم الله عز وجل، ووسع عليهم في الرزق - فقير مدقع، ولا ذو غرم مفجع؛ ولكن أكثرهم تركوا هذه الفريضة، فجنوا على دينهم وأمتهم، فصاروا أسوأ من جميع الأمم حالًا في مصالحهم المالية والسياسية» [(٤)].

(١) ذكر الدكتور وهبة الزحيلي ما يقارب عشرين فائدة من فوائد الزكاة على المعطي والآخذ، انظر: التفسير المنير ١٠/ ٢٧٨-٢٨٠.

(٢) انظر: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، يوسف القرضاوي ص١٠٥.

(٣) انظر: السنن الكبرى، البيهقي ٧/ ٢٣.

(٤) تفسير المنار ١٠/ ٤٤٣.

ثالثًا: الحج وأثره على وحدة المسلمين:

الحج فريضة فرضها الله عز وجل على عباده ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وهو خامس أركان الإسلام، والحج فيه توحيد الله عز وجل ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٧].

وفيه أيضًا توحيد لأمة الإسلام.

إن وحدة المسلمين تتجلى في أبهى صورها ومعانيها في شعيرة الحج، هذا الركن العظيم الذي يتكرر كل عام، ويجتمع له كثير من المسلمين من شتى بقاع المعمورة، ويمثلون فيه أمة الإسلام على اختلاف أجناسها، وبلدانها، وألوانها، ولغاتها؛ يجتمعون في مكان واحد، وفي زمان واحد، وفي لباس واحد، ويؤدون نسكًا واحدًا، ويقفون في المشاعر موقفًا واحدًا، يعلنون فيه توحيدهم لرب العالمين، وخضوعهم لشريعته، وتوحدهم تحت لوائه ورايته.

لقد بين الله عز وجل لعباده المؤمنين أن في الحج منافع لهم، فقال سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٧ - ٢٨].

ولقد ذكر المفسرون أن هذه المنافع منها منافع دينية من مغفرة للذنوب، ورفعة للأجور، ومنافع دنيوية من تحصيل التجارة والمكاسب [(١)].

قال ابن عاشور: «وتنكير ﴿مَنَافِعَ﴾ للتعظيم المراد منه الكثرة، وهي المصالح الدينية والدنيوية؛ لأن في مجمع الحج فوائد جمة للناس: لأفرادهم ولمجتمعهم» [(٢)].

ومن أعظم المنافع التي ينالها المسلمون من أداء فريضة الحج اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد؛ يتعرف بعضهم على بعض، ويحدث بعضهم بعضًا عن أخبارهم وأخبار المسلمين في بلادهم، ويتبادلون الآراء والمنافع، ويتناصحون فيما بينهم، ويتناقشون مشكلاتهم، ويتعاونون على البر والتقوى، ويظهرون قوتهم، ويعلنون وحدتهم، ويغيظون أعداءهم، وفي ذلك كله من مصلحة لأمة الإسلام ما لا يخفى [(٣)].

إن توحيد الأمة الإسلامية من خلال العبادات لا يظهر من خلال الصلاة والزكاة والحج فقط؛ ولكنه يظهر من خلال العبادات

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٤٤.
(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٥.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٩/ ٣٠٣، التفسير المنير، الزحيلي ١٧/ ١٩٥.

كلها؛ ففي الصيام توحيد للأمة، حيث يصوم المسلمون في شهر واحد، يمسكون عن الطعام معًا، ويفطرون معًا، ويشعر غنيهم بفقيرهم، ويخرجون صدقة فطرهم معًا، وبعد تمام الصيام يجتمعون في مصلى العيد يهنئ بعضهم بعضًا.

ومن العبادات دعاء المسلم لإخوانه المسلمين، ومن العبادات بر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران وتفقد المساكين والأرامل والأيتام، ولا يخفى ما في هذه العبادات من عوامل الوحدة والألفة بين أبناء الإسلام جميعًا.

أسباب الوحدة

إن وحدة أمة من الأمم لا بد أن يكون لها أسباب، ولا بد أن يكون لها أسس وأصول تعتمد عليها؛ فإن الذي يوحد الناس أمر مشترك بينهم؛ يجمعهم ويوحدهم، ويجعل هدفهم واحدًا، وغايتهم واحدة، وهمهم واحدًا، وهكذا تتوحد الشعوب والأمم.

وإن أمة الإسلام عندها من أسباب الوحدة ومقوماتها ما هو أكثر وأعظم من غيرها من الأمم؛ فأمة الإسلام تجمعها عقيدة واحدة، وتربطها شريعة واحدة، لها ربٌّ واحد، ولها كتاب واحد، ونبي واحد صلى الله عليه وسلم، وقبلة واحدة، وغاية واحدة، وكل ذلك من أسباب وحدتها، ومقومات قوتها.

وسنعرض في النقاط الآتية مجمل أسباب وحدة الأمة الإسلامية:

أولًا: طاعة الله وطاعة رسوله:

إن أمة الإسلام أمةٌ ربانيةٌ، تؤمن بالله عز وجل ربًا، وتؤمن بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا، وتتعبد ربها وتتقرب إليه بطاعته وبطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا الأمر هو أعظم ما يجمع هذه الأمة؛ فليس بين أفرادها من يعبد إلاهًا آخر، أو يتبع نبيًا غير محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وليس بين أفرادها من يقدم طاعة مخلوق

مهما عظم على طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن أصل كلمة الإسلام مأخوذ من الاستسلام لله عز وجل، والانقياد له سبحانه، وهذا أصل الدين؛ بل هذا هو الدين كله، وهذا هو الذي يميز المسلم عن غيره؛ فالمسلم من استسلم لله وانقاد له، فأطاعه وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

وغير المسلم لم يستسلم لله، ولم يطعه سبحانه، ولم يتبع نبيه صلى الله عليه وسلم.

إن الله عز وجل أمر عباده المؤمنين بالاعتصام بحبله سبحانه فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فلم يأمر سبحانه بمجرد الاعتصام؛ وإنما بين بماذا يكون الاعتصام، أمرهم أن يعتصموا بحبله؛ وحبل الله هو دينه، أو هو كتابه، أمر الله عز وجل المؤمنين أن يعتصموا ويستمسكوا به، ويعتمدوا عليه؛ لأنه حبل النجاة، وسبب السلامة، أمرهم ربهم أن يفعلوا ذلك جميعًا، كلهم مجتمعين[(١)].

ولقد جاء في الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه قال: (كنا جلوسًا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخط خطًا هكذا أمامه، فقال: (هذا سبيل الله عز وجل)، وخطين عن يمينه، وخطين عن شماله، قال: (هذه سبيل الشيطان)، ثم وضع يده في الخط الأسود، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(٢)].

لقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله في كثير من آيات الذكر الحكيم: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وبين لهم أن في تلك الطاعة الفلاح والفوز العظيم، قال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

إن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم المتمثلة باتباع الوحي الذي أنزله سبحانه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لهي العاصمة الواقية من كل ضلال، ولم يضمن الله عز وجل لأحد ألا يكون

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٧٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٥٣١٢، ٣/ ٣٩٧.
وصححه الألباني في ظلال الجنة ١/ ٨.

ضالًا في الدنيا، ولا شقيًا في الآخرة إلا لمتبعي الوحي وحده.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وقد دلت هذه الآية على انتفاء الضلال والشقاوة عن متبعي الوحي، ودلت آية البقرة على انتفاء الخوف والحزن عنهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨][1].

إن الأمة إذا تمسكت بوحي ربها، واستنارت بالهدى الذي أنزله الله لها، توحدت على ذلك، وأي شيء يوحد الأمة أعظم من ذلك؟!

ثانيًا: التحاكم إلى القرآن والسنة:

إذا كانت أمة الإسلام أمةً متبعةً للوحي الرباني، ومطيعةً لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فلا بد لها أن ترجع دائمًا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهما مصدرا التشريع بالنسبة لها، وهما المرجع في كل ما يطرأ عليها من أحداث، وبهما تستنير وتسترشد، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وبذلك تتوحد الأمة أعظم توحد؛ حينما يكون لها مرجع واحد ترجع جميعها إليه؛ ترضى بحكمه، ولا تختلف عليه.

لذا فقد أمر الله عز وجل هذه الأمة إن تنازعت في شيء أن ترده إلى القرآن والسنة؛ حتى يزول التنازع، ويظهر الحق من الباطل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن كثير: « وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه؛ من أصول الدين وفروعه، أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

فما حكم به الكتاب والسنة، وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟! ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ردوا الخصومات والنزاعات إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: التحاكم إلى كتاب

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٣٠٢.

الله وسنة رسوله والرجوع إليهما في فصل النزاع خير وأحسن تأويلًا، أي: وأحسن عاقبةً ومآلًا»[1].

وقال أبو بكر الجزائري: « الآية خطاب عام للولاة والرعية، فمتى حصل خلاف في أمر من أمور الدين والدنيا، وجب رد ذلك إلى كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فما حكما فيه وجب قبوله حلوًا كان أو مرًا، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيه أن الإيمان يستلزم الإذعان لقضاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهو يفيد أن رد الأمور المتنازع فيها إلى غير الشرع قادح في إيمان المؤمن.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يريد ذلك الرد والرجوع بالمسائل والقضايا المختلف فيها إلى الكتاب والسنة هو خير حالًا ومآلًا، لما فيه من قطع النزاع والسير بالأمة متحدة متحابة متعاونة »[2].

ولقد أنكر الله عز وجل على عباده المؤمنين أن يقع بينهم الخلاف والاقتتال، وآيات الله تتلى عليهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝١٠٠ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠ - ١٠١].

ففي الآية الثانية تعجب وإنكار على المؤمنين أن يقعوا في الكفر، أو أن يتفرقوا بعد وحدتهم، مع أنه قد اجتمع لهم كل الأسباب الداعية إلى الإيمان، الصارفة عن الكفر؛ فآيات الله تتلى عليهم ليل نهار، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم؛ يبين لهم الحق، ويبصرهم الهدى والرشاد، وينهاهم عن الغي والضلال، فليس لهم عذر إن ارتدوا على أعقابهم، أو رجعوا إلى أمر جاهليتهم[3].

قال القرطبي: « ويدخل في هذه الآية من لم ير النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن ما فيهم من سنته يقوم مقام رؤيته، قال الزجاج: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم خاصة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيهم، وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة؛ لأن آثاره وعلاماته صلى الله عليه وسلم والقرآن الذي أوتي باقٍ فينا مكان النبي صلى الله عليه وسلم فينا، وإن لم نشاهده »[4].

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٣٧.
(٢) أيسر التفاسير ١/ ٤٩٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٦١، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٧٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٥٦.

إنه لا ينبغي لأمة الإسلام أن تختلف أو تتنازع في حكم أمر من الأمور ما دام بينها كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، تتحاكم إليهما، وترضى بما فيهما، وتذعن وتسلم لحكم ربها عز وجل، فهل يبقى خلاف حينئذ؟!

وبهذا فإن التحاكم إلى القرآن والسنة هو أعظم ما تتوحد عله أمة الإسلام اليوم؛ لأن ذلك هو الذي وحد العرب والناس الذين دخلوا في الإسلام بعد أن كانوا مشتتين ممزقين متناحرين.

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن التحاكم إلى القرآن والسنة ليس مجرد شعار يرفع، أو كلام يدعيه الجميع؛ بل لا بد أن يكون هذا التحاكم أمرًا حقيقيًا واقعيًا، ولا بد أن يكون هذا التحاكم مبنيًا على فهم صحيح للقرآن والسنة، وليس فهمًا حسب الأهواء، ولتجتمع الأمة على الفهم الذي فهمه القرن الأول من الصحابة الأخيار الأطهار، فهذا هو الفهم الصحيح الذي نجتمع عليه ولا نفترق.

ثالثًا: الخلق الحسن:

إن من أعظم أسباب الوحدة - بعد الاعتصام بالقرآن والسنة- حسن الخلق؛ إذ الأخلاق الحسنة تجمع ولا تفرق، تنشر الألفة والمحبة وتزيل الضغينة والشحناء، وبالأخلاق الحسنة الكريمة يتحابب المسلمون، ويعفو بعضهم عن بعض؛ فتبقى أمتهم أمة واحدة، ويبقى بينهم الود والوصال.

ولقد أكرم الله عز وجل هذه الأمة بنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم؛ أكرم الناس خلقا، وأعظمهم أدبًا، قال الله عز وجل في شأنه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

«أي برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك بأن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك، ولو كنت فظًا سيئ الخلق قاسي القلب لانفضوا من حولك؛ فالأخلاق الحسنة تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبها من المدح والثواب، والأخلاق السيئة تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب»[(١)].

«إن الناس في حاجة إلى كنفِ رحيمٍ، وإلى بشاشةِ سمحةٍ، وإلى ودٍ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم، في حاجة إلى قلبٍ كبيرٍ يعطيهم ويحمل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٤.

همومهم، يجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود، وهكذا كان قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما غضب لنفسه قط، ولا احتجز لنفسه شيئًا من أعراض هذه الحياة الدنيا؛ بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحدٍ منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه؛ نتيجة لما أفاض عليه صلى الله عليه وسلم من نفسه الكبيرة الرحيبة»[1].

لقد بين الله تعالى أن ثمرة اللين والخلق الحسن هي المحبة والاجتماع عليه صلى الله عليه وسلم، وأن خلافها من الجفوة والخشونة مؤدٍ إلى التفرق والنفور[2]؛ لذا أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بأن يعامل بعضهم بعضًا باللين والعفو والمسامحة، وألا يردوا السيئة بمثلها؛ ولكن يدفعوها بالتي هي أحسن، ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

فهذا أمر من الله عز وجل لعباه المؤمنين بأن يقولوا ويعملوا التي هي أحسن، أمرهم بحسن الأدب، وإلانة القول، وخفض الجناح، وعدم مجاراة نزغات الشيطان؛ فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة القاسية تفلت، وبالرد السيئ يتبعها، وحينها ينقلب جو الود والمحبة والوفاق إلى جوٍ مشوبٍ بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء[3].

إن الشيطان يتربص بالمؤمنين، ويتلمس منهم السقطات التي تقع من أفواههم، والعثرات التي تنطق بها ألسنتهم، لكي يشيع الشر بينهم، ويبذر بذور الخصومة والبغضاء في صفوفهم، ويهيج أعداءهم عليهم، وهذا أمر متوقع من الشيطان؛ لأنه ﴿كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ حريص على الإفساد بين الناس، ظاهر العداوة لهم منذ القدم[4].

ولقد رغب الله عز وجل عباده المؤمنين في معاملة إخوانهم بالتي هي أحسن فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها، ثم أمر سبحانه بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٠١.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ١٠٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٧٧، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٣٤.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٨/ ٣٧٣.

فقال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك، كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك، فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا، فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك، وترك خطابك، فطيب له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ أي: كأنه قريب شفيق [(١)].

إن هذه الآية الكريمة تأمر بأعلى الأخلاق وأكرمها، لا تأمر بالعفو عن المسيء فقط؛ بل تأمر بمقابلة الإساءة بالتي هي أحسن، كما لو أساء إليك رجل إساءة فالحسنة أن تعفو عنه، والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحه، أو يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه، وثمرة ذلك الخلق الكريم الرفيع ثمرة عظيمة، إذ إن ثمرة ذلك أن تنقلب العداوة إلى محبة، والشقاق إلى وفاق، ويصير العدو الخصم كأنه وليٌّ حميمٌ [(٢)].

ونظير هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

« أي إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة - مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته - ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، وأدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، وليتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب عز وجل.

قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]» [(٣)]

رابعًا: الإصلاح بين المتنازعين:

أمر الله عز وجل بالإصلاح بين المتنازعين من المؤمنين، حيث قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩ - ١٠].

فهذه الآية توجب على المؤمنين الإصلاح بين إخوانهم إن حدث نزاع أو

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٩.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٤/ ١٣٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥٨.

قتال بين طائفتين منهم، ولا يخفى ما في الإصلاح بين المتنازعين من ترسيخ لوحدة الأمة المسلمة، وصيانة لها من تشقق بنيانها، وتفكك وحدتها.

إن التنازع بين المؤمنين يمزق صفهم، ويوقع العداوة بينهم، فيوهن قوتهم، ويغري أعداءهم بهم، وهذا كله شرٌّ يأباه الإسلام؛ لذا كان الأمر بالمبادرة إلى الإصلاح بين المتنازعين قبل أن يكبر الخلاف، ويعظم النزاع؛ فأمة الإسلام لا يليق بها تنازع أفرادها، وإنما اللائق بها الإخوة والمحبة والألفة بين أفرادها جميعًا.

وقد سبق في المطلب الأول من المبحث الثالث بيان حث القرآن الكريم على الإصلاح بين المتنازعين من المؤمنين فلا داعي لتكرار ذلك هنا.

خامسًا: الإعراض عن الجاهلين:

لا شك أن مجاراة الجاهلين، ومقابلة جهلهم بالمثل من الأمور التي تطعن في خاصرة الأخوة الإيمانية، وتزعزع الوحدة والألفة بينهم، إذ إن مجاراة هؤلاء الجاهلين يزيدهم جهلًا، وينشئ التنازع والخلاف بين صفوف المسلمين، فيشتت شملهم، ويمزق كلمتهم، ولا يخفى ما في الإعراض عن أولئك الجاهلين من مصلحة للمسلمين، بصيانة وحدتهم وإدامة اجتماعهم وتآلفهم.

ولقد أمر الله عز وجل بالإعراض عن الجاهلين فقال سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ففي الإعراض عنهم مصلحة خاصة للمعرض، حيث يسلم من أذيتهم، وفيه مصلحة عامة للمجتمع، حيث يسلم المجتمع المسلم من حدوث النزاعات والخلافات التي لا تحمد عقباها.

والآية السابقة جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم؛ فالذي ينبغي أن يعامل به الناس أن يأخذ منهم العفو، وهو ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفون ما لا تسمح به طبائعهم؛ بل يشكر من كل أحد ما قدمه، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض الطرف عن نقصهم، وليأمروا بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق حسن؛ من صلة رحم، أو بر والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، أما الجاهلون منهم فقد أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك

فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه [1].

قال القرطبي: « هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات؛ فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار، وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة » [2]

عوائق الوحدة

إذا كان لوحدة الأمة الإسلامية أسبابٌ ومقوماتٌ عظيمةٌ من شأنها أن تجعل أمة الإسلام أعظم الأمم توحدًا واتحادًا واجتماعًا، فإن هناك عوائق قد تقف حائلًا دون تحقيق تلك الوحدة، فالوحدة إذا وجدت فلا بد من صيانتها من العوامل التي تؤدي إلى تحللها وتفككها، وفي المطالب الآتية بيان لأهم تلك العوائق التي تحول دون وحدة المسلمين.

أولًا: اتباع نزغات الشيطان:

لقد حذرنا ربنا عز وجل من الشيطان تحذيرًا عظيمًا، وبين أنه عدوٌ لنا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

فلا ينبغي للمؤمنين أن يتبعوا خطواته؛ لأنه لا يأمر إلا بالشر والفحشاء والمنكر، ولا يريد لحزبه إلا أن يكونوا معه من أصحاب السعير.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وقد بين لنا ربنا عز وجل أن عداوة الشيطان لنا قديمة منذ خلق آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٣٤٤.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والآيات القرآنية التي تحذرنا من الشيطان الرجيم وتبين لنا أساليبه الخبيثة في إضلال من يتبعه كثيرة ليس المجال هنا لحصرهـا.

وإن من أخبث غايات الشيطان وأهدافه أن يوقع الشر والخصومة بين المؤمنين، وأن يبدل محبتهم لبعضهم بغضًا، وأن يقلب أخوتهم عداوة، وإن أسعد لحظات الشيطان الرجيم يوم يرى المؤمن قد رفع سلاحه على أخيه المؤمن، ويرى الخصومات والنزاعات قد اشتعلت نيرانها، وبرز شرها بين أمة الإسلام، حتى إن الشيطان ليفرح بالخصومة التي تقع بين الرجل وزوجه.

ففي الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه؛ فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة؛ يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت)، قال الأعمش: أراه قال: (فيلتزمه)[1].

وعنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم)[2].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أصبح إبليس بث جنوده، فيقول: من أضل اليوم مسلما ألبسته التاج، فيجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى عق والده، فقال: يوشك أن يبره، ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته، فيقول: يوشك أن يتزوج، ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى أشرك فيقول: أنت أنت، ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول: أنت أنت ويلبسه التاج)[3].

إن المسلم إذا اتبع خطوات الشيطان وقع في تلك المهلكات الموبقات، وإن المجتمع المسلم متى اتبع نزغات الشيطان تشققت وحدته، وتصدع صفه، وخارت قوته، واشتغل أفراده بخصومات أشعلها الشيطان الرجيم بينهم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه السرايا لفتنة الناس، رقم ٧٢٨٤، ٨/ ١٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه السرايا لفتنة الناس، رقم ٧٢٨١، ٨/ ١٣٨.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الحدود، رقم ٨١٤١، ٤/ ٣٥١.
وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٤٤٩.

لذا فإن من أخطر العوائق في طريق تحقيق وحدة الأمة الإسلامية السماح للشيطان أن يوقع بيننا، وأن يشعل فتيل الفتنة المهلكة بين أفراد أمتنا، ومتى أرادت الأمة العودة إلى وحدتها التي كانت عليها في عصورها الأولى فعليها أن تغلق الباب في وجه الشيطان، وأن تفوت عليه الفرصة في التحريش بين المؤمنين، ولو عقل المؤمنون ذلك لزالت كثير من الخصومات والنزاعات التي بينهم.

لقد أرشدنا الله عز وجل إلى كيفية تفويت الفرص على الشيطان الذي يبغي الفساد بيننا، وذلك بالالتجاء إلى الله عز وجل، والاستعاذة به سبحانه من ذلك الرجيم.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

فمتى تعرض للعبد من الشيطان وسوسة تثير غضبه، وتحمله على خلاف ما أمره الله؛ فليستعذ بالله، وليلتجئ إلى حماه؛ فإنه سبحانه هو السميع لدعائه، العليم بكل أحواله، القادر على دفع كيد الشيطان عنه، فالآية الكريمة ترشد المؤمن إلى العلاج الذي يحميهم من وسوسة الشيطان وكيده، ألا وهو الاستعاذة بالله السميع لكل شيء، العليم بكل شيء، القادر على كل شيء[١].

وبين لنا ربنا سبحانه أمرًا آخر علينا العمل به لتفويت الفرصة على الشيطان الرجيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

حيث أمرنا سبحانه بأن نتأدب في قولنا وفعلنا، وأن نلين في مخاطبتنا، ولا يخرج منا إلا الكلام الحسن، ففي ذلك حفاظ على المودة بين المؤمنين، وتفويت لغاية الشيطان الرجيم[٢].

قال ابن عاشور: «جملة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ تعليل للأمر بقول التي هي أحسن، والمقصود من التعليل أن لا يستخفوا بفاسد الأقوال؛ فإنها تثير مفاسد من عمل الشيطان، ولما كان ضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائدا إلى عبادي كان المعنى التحذير من إلقاء الشيطان العداوة بين المؤمنين، تحقيقًا لمقصد الشريعة من بث الأخوة الإسلامية»[٣].

ثانيًا: التنازع والاختلاف:

لا شك أن التنازع والاختلاف من أهم

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٢/ ٣٥٣.
(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٧.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ١٣٢.

عوائق وحدة الأمة الإسلامية، إذ كيف تتوحد الأمة وأفرادها متنازعون مختلفون؟! وكيف يكون لهم كيان موحد متماسك إذا كانت قلوبهم مختلفة؟! وهذا أمر بدهي لا يحتاج إلى دليل ولا برهان.

إن الرعيل الأول من هذه الأمة كانوا على المنهج الذي جعله الله عز وجل لهم، كانوا متحدين على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ كانت لهم قلوب متآلفة، ولم يكن بينهم نزاع ولا شقاق، فأقاموا أمةً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، ومسلمو اليوم ابتعدوا عن كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وتنافرت قلوبهم، ودب الخلاف بينهم، وتشتتوا إلى دويلات وأحزاب وجماعات، لا تكاد جماعة منهم تتفق مع أختها، وانشغل كل حزب بنفسه، وأصبحت وحدة الأمة الإسلامية حلمًا يتمناه كل مسلم؛ لكنه يراه بعيد المنال، بعد أن كان أمرًا واقعًا.

إن الله عز وجل قد حذر هذه الأمة من الاختلاف والنزاع، وبين لها العواقب الوخيمة المترتبة على ذلك؛ كي تحذر الأمة وتتجنب كل ما يؤدي إلى الاختلاف بين أفرادها.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فأمر سبحانه في هذه الآية بطاعته وبطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تجنب للنزاع والخلاف، ثم نهى سبحانه عن التنازع تأكيدًا على بيان خطره وشره، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ نهاهم سبحانه أن يتنازعوا فيما بينهم فيختلفوا فيكون ذلك سببًا لتخاذلهم وفشلهم وذهاب قوتهم ووحدتهم، وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والبربر وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة[1].

ولقد سبق الحديث عن نهي القرآن الكريم عن الاختلاف والفرقة والتنازع، وإنما أشرنا إليه هنا لبيان أن التنازع والاختلاف هو أخطر ما يهدد وحدة المسلمين واجتماعهم.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩٨.

ثالثًا: اتباع الهوى:

إن الخلاف والتنازع إذا وقع بين المسلمين فليس شرطًا أن يكون عائقًا أمام وحدتهم، لأنهم إن ردوا ما اختلفوا فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لم يبق خلاف ولا نزاع؛ ولكن المشكلة تكبر وتعظم إذا كان هذا الاختلاف ناتج عن اتباع الهوى، وصاحب الهوى يرفض الحق، ولا يتحاكم إلى كتاب أو سنة؛ « فإن الهوى يعمى ويصم، وصاحب الهوى يقبل ما وافق هواه بلا حجة توجب صدقه، ويرد ما خالف هواه بلا حجة توجب رده»[(١)].

لذلك حذرنا القرآن الكريم من اتباع الهوى تحذيرًا شديدًا، وبين لنا أن اتباع الهوى يبعد الإنسان عن العدل؛ فالعدل والهوى لا يجتمعان أبدًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط والعدل، فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأمرهم سبحانه أن يؤدوا الشهادة ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقًا، خالية من التحريف والتبديل والكتمان، وأمرهم أن يؤدوها ولو عاد ضررها على الشاهد أو على والديه أو على قرابته؛ فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه، وإن الحق حاكم على كل أحد[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ أي: « فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل؛ فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلًا والباطل حقًا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم»[(٣)].

إن اتباع الهوى مهلك ومضل، يحمل صاحبه على الشهادة بغير الحق، وعلى الجور في الحكم، وعلى غير ذلك من الظلم وتجاوز الحدود.

قال الله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص: ٢٦][(٤)].

لقد بين ربنا سبحانه أن من عدل عن

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية ٦/ ١٩٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٨.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤١٣.

الحق واتبع هواه فهو أضل الناس، وفي ذلك تحذير شديد من اتباع الهوى بغير علم.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٥٠].

يخبر سبحانه في الآية عمن ترك اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وما معه من الحق، وأصر على اتباع هواه من غير علم ولا هدى، «فهذا من أضل الناس؛ حيث عرض عليه الهدى، والصراط المستقيم، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟»[(١)].

قال الألوسي: « ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهام إنكاري للنفي، أي لا أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؛ لأن من فعل ذلك فهو أضل من كل ضال»[(٢)].

إن صاحب الهوى لا حاكم له ولا زمام، ولا قائد له ولا إمام، إلهه هواه، حيثما تولت مراكبه تولى، وأينما سارت ركائبه سار، فلا يسمع لكلام داعية ولا قائد ولا عالم إلا ما وافق هواه، تراه معتزلًا كل من يخالف هواه، وإن كان أهدى منه سبيلًا، مقربًا لكل من هو على شاكلته وإن كان للشيطان قبيلًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما وافق هواه، وهذا الصنف من الناس لا يبقي للمسلمين وحدة، ولا يترك لهم اجتماعًا.

لقد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم من طائفة من الناس قد اتبعوا أهواءهم، فمزقوا وحدة الأمة، واستباحوا دماء إخوانهم وأموالهم، إنهم الخوارج، الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، فعن عبيد الله بن أبي رافع رضي الله عنه أن الحرورية (أهل بلد قرب الكوفة تسمى حروراء) لما خرجت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه قالوا: لا حكم إلا لله، قال علي رضي الله عنه: كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف ناسًا إني لأعرف صفتهم في هؤلاء (يقولون الحق بألسنتهم، لا يجوز هذا منهم - وأشار إلى حلقه - من أبغض خلق الله عز وجل إليه)[(٣)].

إن هؤلاء الخارجين عن طاعة الإمام يرون خروجهم على إمام المسلمين علي رضي الله عنه بتأويل فاسد لآيات ثابتة وصريحة في كتاب الله، إنهم يزعمون بإعلانهم (لا حكم إلا لله) أنهم المنحازون

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٧.
(٢) روح المعاني ٢٠/ ٩٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، رقم ٢٥١٧، ٣/ ١١٦.

لحكم الله، والإمام خارج عليه؛ قلبًا للحقيقة وتبريرًا لخروجهم، وهذا كله بسبب اتباعهم لهواهم، ورفضهم للحق.

إن من اتبع هواه - من فرق أو أحزاب أو جماعات أو أفراد - يشق عصا المسلمين، ويكون عائقًا أمام وحدتهم؛ لأنه لا ينقاد إلى ما توحد المسلمون عليه من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذه هي الخطورة، وأصحاب الأهواء يعملون على إحداث الفتن داخل الأمة، وإثارة الشبهات، وكثرة المنازعات، مما يؤدي إلى تبديد القوى، وإنهاك الطاقات، وتشتيت الجهود، وذلك طريق الفشل الذي منيت به الأمة الإسلامية، ولا يمكن أن تتوحد أمة المسلمين اليوم إذا ما تمسك كل فريق بهواه، وأبى أن ينزل على حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا بد من تحاكم الجميع إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم إذا ما أردنا أن تعود للأمة وحدتها المباركة.

وهذا لن يكون إلا بجهود العلماء والعقلاء من كل فرقة من فرق المسلمين، يجتمع هؤلاء العلماء القادة لفرقهم وطوائفهم يتحاورون ويتناصحون ويتباحثون في نقاط الخلاف التي بينهم، ويجتهدوا في الوصول إلى الحق الذي ينصاع إليه الجميع، ولو أخلصوا في عملهم هذا وقصدوا به وجه الله عز وجل لوفقهم الله عز وجل، وجمع كلمتهم على الحق المبين، ومن أصر بعد ذلك على هواه فعلى المسلمين أن يأخذوا على يديه، ولا يتركوه ليهلك ويهلك المسلمين معه.

رابعًا: الإعجاب بالرأي:

بالإضافة إلى العوائق السابقة في طريق وحدة الأمة الإسلامية، هناك عائق آخر لا ينبغي أن يغفل عنه؛ فهو خطير أيضًا، وبوجوده يصعب حصول الوحدة المنشودة، إنه الإعجاب بالرأي، وذلك بأن تأخذ كل فرقة أو جماعة من المسلمين برأي معين تستحسنه وتتمسك به، تظن أنه الحق، وأن الحق معها دون غيرها، ومن خالفها فهو على خطأ؛ بل ربما يصل الأمر عند بعضهم لأن يتجرأ ويخرج غيره ممن لم يوافق رأيه من دائرة الإسلام.

إن الإعجاب بالرأي مثله مثل اتباع الهوى؛ كلاهما يحجب صاحبه عن قبول الحق، وكلاهما يسهم في شق الصف، وإحداث الفرقة، وإعاقة الوحدة، فأنى لمن أعجب برأيه وتعصب له أن يستمع لغيره؟ فضلًا عن أن يتنازل له.

لقد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم من الإعجاب بالرأي والنفس، فعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال: (ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ فأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية، وأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)[1].

إن أمة الإسلام إن أرادت أن تحقق ما أراد لها ربها عز وجل من توحدٍ واجتماعٍ واعتصامٍ، إن أرادت أن تعيد وحدتها المباركة، فلا بد لها من تجاوز كل هذه العقبات والمعوقات، وهذا أمر واجب على جميع أفراد الأمة، على الجميع أن يبذلوا الجهود، ويضحوا بالمصالح الخاصة من أجل المصلحة العامة.

فعلى العلماء والدعاة أن يوعوا المسلمين بأهمية وحدة أمتهم، وأن يرشدوهم إلى دورهم في تحقيق هذه الوحدة، وعليهم أن يتحاوروا فيما بينهم، وينصح بعضهم بعضًا، ويكون الحكم بينهم إذا ما اختلفوا في شيء إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وعلى أولي الأمر أن يتحاوروا معًا، وأن يتصفوا بالشجاعة والقوة، فيمد أحدهم يده إلى إخوانه، ويبادر إلى إزالة ما بينه وبين جيرانه المسلمين من حدود وجدر وضعها الأعداء بيننا، ولتتلاقى الشعوب المسلمة، ولتتقاسم لقمة العيش فيما بينها، ولتستغن عن عدوها، والله معها، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

إن وحدة الأمة ليست حلمًا بعيد المنال، وليست مجرد أمنية يتمناها المسلمون ولا يجدون لها أثرًا على أرض الواقع؛ بل هي فريضة شرعية، المسلمون قادرون على تحقيقها، عندما تصدق نيتهم، وتكتمل صحوتهم، وسيحدث ذلك بإذن الله، وما ذلك على الله بعزيز.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم ٥٤٥٢، ٥/٣٢٨، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٧٣١، ٢/٢٠٣.
قال الألباني: رواه البزار واللفظ له والبيهقي وغيرهما، وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى. صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٤٢٣، ١/١٠٨.

ثمار الوحدة

إن لوحدة المسلمين ثمارًا عظيمة، ومنافع جسيمة؛ بل إن وحدتهم كلها منافع وثمار، كلها خير وفائدة، ولا يمكن أن تحصر ثمار الوحدة في وريقات قليلة أو صفحات معدودة؛ لأن من ثمار الوحدة ما لا يمكن أن يعبر عنه بالكلمات؛ ولكنه يلمس في الطيبات التي يجنيها المسلمون في ظل وحدتهم.

وقبل أن نقف على أهم ثمار الوحدة علينا أن نسأل أنفسنا: ما هي الأضرار التي أصابت المسلمين بسبب فرقتهم وتنازعهم؟ فعندما نقف على عظيم تلك الأضرار نعلم علم اليقين ما في الوحدة والاجتماع من ثمار وفوائد.

أليس المسلمون اليوم - بسبب فرقتهم - في غاية الضعف والهوان؟ أليست دماؤهم مستباحة؟ أليست أعراضهم منتهكة؟ أليست ثرواتهم مسلوبة؟ أليست مقدساتهم أسيرة مدنسة؟ هل يحسب للمسلمين حساب؟ هل يقام لهم وزن أم يجعل لهم اعتبار؟ هل يستطيع المسلمون أن ينشروا دين الله أو أن يبلغوا رسالة الأنبياء؟

هذا حال المسلمين عند فرقتهم، وهذا كله يزول عند وحدتهم واجتماعهم.

وإن من أعظم ثمار الوحدة ما يأتي:

١. الفوز برضوان الله عز وجل ونيل ثوابه بالتزام طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. فالله سبحانه هو الذي أمرنا بالوحدة ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣]. وهو سبحانه الذي وصف أمتنا بالأمة الواحدة ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. ورسوله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نكون جسدًا واحدًا (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [(١)].

٢. حصول القوة والهيبة والمنعة لأمة الإسلام، فبالوحدة تقوى شوكة المسلمين نفسيًا وماليًا وعسكريًا وسياسيًا، وإذا قويت الأمة بتوحدها هابها أعداؤها، وحسبوا لها ألف حساب، وبدلًا من أن تكون بلاد المسلمين قصعة تنالها الأيدي من كل حدب وصوب، تصبح كلمتها مسموعة، ومواقفها مهابة، يبادر الجميع لكسب ودها، وتسارع الأمم لنيل رضاها، وبذلك تستعيد الأمة كيانها المسلوب، وتأخذ حقوقها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين، رقم ٦٧٥١، ٨/ ٢٠.

المنهوبة. إن العقلاء من كل ملة وأمة في القديم والحديث اتفقوا على أن الوحدة سبيل العزة والنصرة، وإن التاريخ يشهد أن من أهم أسباب سقوط الدول على اختلاف عقائدها ومللها التفرق والاختلاف، فالخلافة العباسية - مثلًا - سقطت بعد أن تفرقت الدول الإسلامية في ذلك الوقت، فنشأت دويلات الشام، والمماليك، ولم يبق للخلافة العباسية إلا دويلات متفرقة متناثرة من العالم الإسلامي، فلما زحف المغول إلى بغداد لم يقف في وجه زحفهم غير أهل بغداد فقط، فأعمل المغول فيهم القتل. وسقطت الدولة الإسلامية في الأندلس بعد أن أصبحت دويلات متفرقة متناحرة، ولم تسقط الدولة العثمانية إلا بعد أن تمزق جسدها إلى أشلاء متناثرة، وبعد أن أغرى الصليبيون الجدد بعض زعماء المسلمين بالانفصال عنها، وأحسنوا إتقان العمل بقاعدة: فرق تسد، وهاهو العالم الإسلامي اليوم منقسم إلى دويلات متناحرة، تعيش على هامش التاريخ، وتتجرع ألوان الهوان.

٣. بالوحدة يقام شرع الله، وتقام حدوده، ويعلن الجهاد، وتجمع الزكوات، ويكون للمسلمين خليفة واحد هو أميرهم وإمامهم وقائدهم إلى العزة في الدنيا، والفوز يوم القيامة.

٤. بالوحدة يرفع الظلم عن المظلومين، ويؤخذ على أيدي الظالمين، وتصان الحقوق، وينتشر العدل، ويحارب من يحاول العبث بأمن المسلمين.

٥. المسلمون بوحدتهم يغيظون أعداءهم، ويرهبونهم، وقد قال الله عز وجل ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. روى الطبري بسنده عن قتادة: «إذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة وظهورًا على عدوهم، غاظهم ذلك وساءهم، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافًا، أو أصيب طرف من أطراف المسلمين، سرهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا به»[(١)].

٦. وحدة المسلمين فيها نفع ورحمة للعالمين جميعًا؛ إذ بوحدة المسلمين يرى الناس جمال الدين، ورفعة أخلاقه، وصورته المشرقة؛ فيرغبون في الدخول فيه أفواجًا.

موضوعات ذات صلة:

الاجتماع، الاختلاف، الأمة، السياسة، الضعف، العنصرية، الوهن

(١) جامع البيان، ٧/ ١٥٥.

الوحي

عناصر الموضوع

مفهوم الوحي	٨
الوحي في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
الموحى به في القرآن	١١
مقامات الوحي	١٨
الموحى إليهم في القرآن	٢١
التعامل مع الوحي	٢٨
موقف المعرضين من الوحي	٣٦

مفهوم الوحي

أولًا: المعنى اللغوي:

ورد في كتب اللغة أن الواو والحاء والياء: أصل يدل على إلقاء علم من طرف لآخر في خفاء[1]، فالإشارة، والكتابة، والإيماء، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك من علم[2].

ويأتي الوحي بمعنى السريع، ويأتي بمعنى الصوت، وحاة الرعد: هو صوته الممدود الخفي، واستوحيناهم: استصرخناهم. والوحى: السرعة، يمد ويقصر. ويقال: الوحى الوحى: يعني البدار البدار، وتوح يا هذا: أسرع، ووحاه توحيةً: عجله. والوحي على فعيل: السريع[3].

وقد ذكر الشيخ مناع القطان في تعريفه لغة أنه:«الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره»[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وذكر السمين الحلبي تعريفًا آخر له: «إلقاء معنى الكلام إلى من يريد إعلامه، والوحي يكون بالرمز والإشارة»[5].

وقال الشيخ مناع القطان: «ووحي الله إلى أنبيائه قد عرَّفوه شرعًا بأنه: كلام الله تعالى المُنَزَّلُ على نبي من أنبيائه. وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الموحى.

والوحي بالمعنى المصدري اصطلاحًا: هو إعلام الله تعالى مَن يصطفيه من عباده ما أراد من هداية بطريقة خفية سريعة»[6].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ٩٣.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٥١٩، لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٣٧٩، الكليات، الكفوي، ص٩١٨.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٥٢٠، المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٥٢، لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٣٨٢.
(٤) مباحث في علوم القرآن، ص٢٨.
(٥) الدر المصون ٣/ ١٧٣.
(٦) مباحث في علوم القرآن، ص٢٩.

الوحي في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وحي) في القرآن الكريم (٧٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤٤	﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم:١٠]
الفعل المضارع	٢٨	﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل:٤٣]
المصدر	٦	﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۖ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥﴾ [الأنبياء:٤٥]

وجاء الوحي في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: الإرسال: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]. يعني: أرسلنا.

الثاني: الإشارة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم:١١]. يعني: أشار إليهم.

الثالث: الإلهام: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]. يعني: ألهمها.

الرابع: الأمر: ومنه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]. يعني: أمرها أي: الأرض.

الخامس: الوسوسة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]. يعني: يوسوسون لهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٤٦-٧٤٧.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦٢١-٦٢٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ السنة:

السنة لغةً:

الطريقة، والسيرة المعتادة للإنسان، سواء كانت حسنة أو قبيحة[١].

السنة اصطلاحًا:

كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خلقية أو خلقية، أو سيرة[٢]، قبل البعثة أو بعدها.

الصلة بين السنة والوحي:

الوحي أعم وأوسع من السنة، فالسنة هي الفرع الثاني للوحي، حيث إن الوحي فرعان: الأول كلام الله المنزل على رسله، والثاني السنة وهو ما لم يكن من كلام الله، بل من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ومعناه من عند الله، ومن السنة ما لا يكون وحيًا، باعتبار ما كان صفة خلقية، أو ما كان قبل البعثة.

٢ الرسالة:

الرسالة لغةً:

العبارات المؤلفة والمعاني المدونة المبعوثة من شخص لآخر بواسطة ناقل[٣].

الرسالة اصطلاحًا:

هي ما يبعث الله به من شاء من عباده من أحكام تكليفية وأخبار يلزمهم تصديقها.

الصلة بين الوحي والرسالة:

الوحي هو المصدر الذي تستمد منه الأحكام والأخبار، موجه للنبي أو الرسول، ويكون في الوحي أيضًا ما ليس تشريعًا، بينما الرسالة فهي شريعة موجهة للناس بواسطة الرسول.

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٨/ ٤١٧، تاج العروس، الزبيدي، ٣٥/ ٢٣٠، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢٢٥.
(٢) انظر: السنة قبل التدوين، محمد عجاج ص١٦.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص ٤٧٦.

الموحى به في القرآن

خلق الله عباده عالمًا بما طبعهم عليه من صفات، وما ركبه فيهم من غرائز، وما توعدهم به عدوهم الألد إبليس من الإضلال والإغواء، وتزيين الانحراف عن الحق، وما يترتب على ذلك من تضاؤل شعورهم بالحقائق التي جعل علمها والعمل بمقتضاها واجبًا عليهم، وهي الحقائق التي جعلها سببًا للثواب والعقاب، إنها الحقائق التي ما خلقهم إلا لأجلها، ولعلاج هذا التضاؤل والوقاية مما يترتب عليه من الإعراض عن المقصد الذي خلقوا من أجله وتركه تكفل الله لهم بأن يبعث لهم من يذكرهم بهذه الحقائق، وما يسعى فيه عدوهم من الكيد لهم، وقد كانت وسيلة ذلك هي الوحي الذي أنزله الله على رسله وأنبيائه[1].

وقد نزل القرآن منبهًا على هذه الحقائق، وهي العقائد، والتشريع، وأخبار الأنبياء، والسنن الربانية، وبيانها فيما يلي:

أولًا: العقائد:

لما كانت العقيدة هي المحور الأساس، والمحرك الأقوي للتأثير في السلوك والاتباع، ولما كان المعول في النجاة على استقامتها، والمودي إلى الهلاك فسادها وانحرافها، جعل الله عز وجل لها الحظ الأوفر من القرآن الكريم، وبين أن هذه سنته في الرسالات كلها، يقول الله جل جلاله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

والدين الذي شرعه الله لنا وكان وصيته لنوح ولإبراهيم وموسى وعيسى هو عبادة الله وحده، وفيه قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وعبادة الله مبناها الإيمان بكل ما جاء به الرسل من أخبار وعقائد، وهي دين الإسلام الذي ارتضاه تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ولايصح إسلام العبد إلا أن يؤمن بأصول الدين والإيمان، وهي كما أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم في إجابته على سؤال جبريل: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[2]، فهذا هو الدين الذي أمر

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٥/ ٢٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧١٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ٢٩، رقم ١.

الله رسله وأنبياءه، وأمرنا أن نقيمه، ونهانا عن التفرق فيه[1]، لايتم لنا إقامة الدين إلا بالإيمان بهذه الأصول على النحو الآتي:

١. أن الله واحد لا شريك له[2].

وذلك في:

- ألوهيته: قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].
- ربوبيته: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].
- أسمائه وصفاته: قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وقد جمع هذه الأمور الثلاثة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

٢. الإيمان بالملائكة.

وقد أمر الله عز وجل بالإيمان بهم في غير موضع من كتابه.

يقول تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والإيمان بهم يستدعي الإيمان بأنهم عباد لله تعالى، وأن لهم وظائفهم التي كلفهم الله بها، كما بين ذلك في مواضع كثيرة من كتابه، وأنهم لايعصونه في أمر مهما كان، وأنه خلقهم على هيئات تليق بما كلفوا به من وظائف، فالرسل منهم ليسوا كصاحبي القبر، والذين يتوفون المؤمنين ليسوا كمن يتوفون الكافرين، وخزنة الجنة ليسوا كخزنة النار، وغير ذلك مما جاء في بيان أوصافهم في الكتاب والسنة[3].

٣. الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله.

وأنها كلامه الذي أوحى به لرسله لهداية عباده وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

٤. الإيمان بالأنبياء والرسل.

يقول الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

(١) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٢/ ٩٧٦.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ١٧.
(٣) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ٢٧٥.

وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولايجوز التفريق بينهم فيما جاءوا للدعوة إليه من توحيد الله جل جلاله [(١)]، وإن كان الله تعالى قد جعل لكل واحد منهم شريعته الخاصة به وبأمته.

يقول تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

والإيمان بأن الله أرسلهم ليطاعوا فيما جاءوا به.

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤][(٢)].

٥. الإيمان بالله واليوم الآخر.

وكثيرًا ما قرن الله بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر في كتابه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١/ ٦٥٩.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ٢٥/ ٢٤.

وأن الله جامع الناس في ذلك اليوم؛ لتجزى كل نفس ما كسبت[(٣)].

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

٦. الإيمان بقضاء الله وقدره.

وذلك بأن يؤمن أن الله تعالى [(٤)]:

- علم الأشياء قبل حدوثها، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].
- وأنه كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]
- وأنه أراد إيجاد مخلوقاته من العدم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].
- وأنه هو الخالق البارئ لكل شيء، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٦.

(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية، سعيد القحطاني، ص ٤٧.

ثانيًا: التشريع:

والتشريع هو البناء الذي أقيم على أصول الإيمان، من العبادات، والمعاملات، والأقضية، والحدود، والسياسات، والأخلاق، والأحوال الشخصية، والحقوق وفق ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله بفهم الصحابة رضي الله عنهم.

والقرآن هو المصدر الأول في التشريع، والسنة هي المصدر الثاني للتشريع، ولم تستقل السنة بتقرير التشريع بمعزل عن القرآن؛ وذلك أن الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هو مما أوحي به إلينا في القرآن.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

كما أن القرآن لم يستقل عن السنة ببيان التشريع.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وقال أيضًا: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وحتى لا تشتط الأهواء بالناس؛ جعل الله جل جلاله لفهم ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والسنة من تشرعات منضبطة بفهم الصحابة رضي الله عنهم، ومن سار على نهجهم وأصولهم وقواعدهم المستقرأة في تطبيقاتهم للدين في عهد النبي وبعد وفاته[1].

يقول جل جلاله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والتشريع بذلك ينظم علاقة الإنسان مع غيره من خلال الآتي:

١. العبادات.

وهي عبارة عن علاقة الإنسان بربه، كالصلاة والزكاة والصوم والحج[2].

عن ابن عمر، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: صلى الله عليه وسلم (بني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان)[3].

وقد جاء القرآن آمرًا بهذه الأركان.

٢. المعاملات.

التي اشتملت التعاقدات على جميع صور التعاقدات بين الناس، وبينت أحكامها، وأجازت ما كان قائمًا على العدل،

(١) انظر: السنة ومكانتها، السباعي، ١/ ٣٧٩.
(٢) انظر: زاد المسير ابن الجوزي، ٢/ ١١٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمسٍ، ١/ ١١، رقم ٨.

ومنعت وجرمت ما يفضي إلى الخصومات والشقاق.

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٣. الأخلاق النفسية.

بتنظيم سلوكه في الأطعمة والأشربة واللباس والزينة ونحوها[١].

قال الله جل جلاله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٤. الأحوال الشخصية.

ببيان الحقوق على كل فرد تجاه أفراد أسرته، من خلال الأمر بقوامة الآباء، ورعايتهم للزوجة والأبناء، والأم من حيث بيان حق الزوج، وبيان دورها في رعاية الأبناء، والأبناء بالأمر بالبر بالوالدين، والأرحام من جهة وجوب صلتهم[٢].

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

٥. الأخلاق الاجتماعية.

باحترام حقوق الآخرين، والحث على التراحم والتعاون، ودفع الأذى، والإحسان[٣].

قال الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

٦. القضاء.

من خلال فض النزاعات والخصومات التي تحدث بين المواطنين، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، على حد سواء في إعطاء كل ذي حق حقه، أو دفع العدوان، أو رفع الظلم[٤].

قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]

٧. السياسات.

ببيان وجوب السمع والطاعة للحاكم، والنصح والإعانة له على الخير، وعدم الخروج عليه، والأمر للحاكم بالعدل والرأفة، وعلاقة المسلمين بغير المسلمين، سواء أكانوا داخل حدود دولة المسلمين، كالمعاهد والمستأمن والمستجير، أو خارجها، سواء أكانوا مسالمين أو محاربين[٥].

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ

(١) انظر: زاد المسير ٢/ ١١٢.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٢٣.
(٣) انظر: المصدر السابق، ٣/ ٣٠.
(٤) انظر: المصدر السابق، ٣/ ٣٢.
(٥) انظر: المصدر السابق، ٣/ ٤٢.

﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ثالثًا: أخبار الأنبياء والأمم السابقة:

لم يكن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بدعًا من الرسل، وكذلك لم تكن أمتنا أيضًا بدعًا من الأمم، بل سبقه رسل وأنبياء كثر، وكذلك سبقت هذه الأمة سابقات من الأمم، ولم تكن سيرة هذه الأمة مع نبيها صلى الله عليه وسلم بمنأى عن سير الأمم السالفة مع أنبيائها؛ لذلك كان في قصصهم عبر، وفي أخبارهم خطر، لا يستغني عن معرفتة ذوو البصائر والنظر، لذلك أورد الله تعالى من أخبارهم في كتابه ما فيه مواعظ ونذر، وقد كان منهج القرآن في إيراد القصص منهجًا ربانيًّا، ليس الغرض فيه من إيرادها التفكه بالحديث أو التلذذ والمسامرة[1]، بل كان مراده من عرضها:

- التثبيت لقلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، يقول الله جل جلاله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].
- إيقاظ وتنبيه من الغفلة، يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].
- إنذار بما حدث لمن لم يستجيبوا لرسلهم أن يصيب هذه الأمة ما أصابهم، يقول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].
- الاعتبار بأحوال من سبقها من الأمم، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

كما لم يكن أسلوب القرآن في إيراد قصص الأنبياء مع أممهم أسلوبًا سرديًا تفصيليًا يحوى التفاصيل الدقيقة للأحداث؛ مما يجعله مملًا، ومفضيًا إلى ضياع المعاني، كما في الكتب المحرفة، وإنما كان عرضه لها بذكر مواطن التفكر والاعتبار والانتفاع، وذلك على سبيل الإجمال- وهذا ما يغلب عليه- لا على سبيل التفصيل، إلا فيما دعت الحاجة إلى التفصيل فيه، ويحصل بدونه فوات معرفة أو ذهاب منفعة بالذكرى والعبرة.

(١) انظر: منهجيات التغيير والإصلاح في سور يس، الصافات، إياد أبو سعدة، ص٢٤٦.

رابعًا: السنن الربانية:

ربط الله جل جلاله بين سننه القدرية واستجابة العباد لأوامره الشرعية، يقول الله تعالى فيمن أنزل الله عليهم التوراة الإنجيل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وقد ذكر الله عز وجل من هذه السنن في كتابه على وفق هذا الناموس الرباني مع سابق الأمم ما كان فيه النذير والتذكير، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وهذا ما تمت الإشارة إليه في السابق، ومن أمثلة ذلك:

- ما كان من شأن قوم نوح عليه السلام، يقول الله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٩ - ١٤].

- ما حدث لقوم عاد وثمود، يقول الله تعالى في نبئهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤ - ٦].

- حديث قوم لوط عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٣- ٣٤].

- ما كان من فرعون، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١- ٤٢].

- ما ذكره الله من شأن بني إسرائيل مطلع سورة الإسراء، يقول الله جل جلاله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ - ٧].

وعلى العكس من ذلك، نجد أن الله تعالى يؤيد رسله وأتباعهم، ويغير لهم نواميس الكون، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ومن أمثلة ذلك:

- نوح عليه السلام، يقول الله عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].
- إبراهيم عليه السلام، يقول الله جل جلاله: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

والقرآن مليء بمثل هذا، من بيان السنن الربانية القدرية المعلقة على استجابة العباد الشرعية وعدمها.

مقامات الوحي

عز الله سبحانه أن يراه أحد في الدنيا، وهذا ما قضاه تعالى، وكان لابد لعباده من معرفته ومعرفة ما يريده منهم، وما من طريقة تصلح لوصول مراده إليهم إلا منه، فقدر أن يكون ذلك بالوحي، وهذا الوحي له صور متعددة، بحسب الحكمة الإلهية، وقد كانت كما أخبر ربنا بواحدة من ثلاث حالات، بينها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

ولها مقامات، فتكليم الله لعبده هو مقام أشرف من الوحي بواسطة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: التكليم من وراء حجاب:

إن تكليم الله جل جلاله أحدًا من عباده لهو مقام شريف، ومنزلة عظيمة، يختص الله بها بعض رسله، يقول المولى عز وجل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهي صفة لله على الحقيقة من غير تعرض لكيفيتها، أثبتها لنفسه مؤكدًا لذلك بالمصدر؛ حتى يدمغ قول من قال: إن الكلام هنا مجازي وليس على الحقيقة[1]،

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١/ ١٥٤.

فقال جل جلاله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وفي إتيان الوحي بهذه الصورة ما يزيد من يقينهم، ويقوي من عزمهم، ويرفع من معنوياتهم، لذلك نجد أن ممن اختصهم الله تعالى بهذه المنزلة من كانت له مواقف شاقة ومتعبة مع أقوامهم، وذلك على سبيل المثال لا الحصر، كما كان الحال مع موسى عليه السلام، فإن بني إسرائيل قد خالفوه كثيرًا، واختلفوا على ما جاءهم به، وتعنتوا معه في كثير من المسائل، من أمثلة ذلك قصة البقرة، واتخاذهم العجل من بعده، وملالهم من المن والسلوى، وطلب جعل الآلهة، وغير ذلك كثير.

وقد أكرم الله عز وجل نبينا محمدًا بهذه المنزلة في مواطن نذكر منها حينما عرج به إلى السماء وفرض الله تعالى عليه عبادة الصلاة، وهذا فيما يكون في الحياة الدنيا قبل الموت، أما بعد الموت، فإن المؤمنين يتنعمون بتكليم الله لهم ورؤيتهم له، كما حدث مع الصحابي الشهيد عبد الله بن حرام رضي الله عنه.

فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: **(لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: (يا جابر، ما لي أراك منكسرًا؟) قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالًا ودينًا. قال: (أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟) قال: بلى يا رسول الله. قال: (ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجابٍ، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا. فقال: يا عبدي، تمن علي أعطك. قال: يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانيةً. قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون) قال: وأنزلت هذه الآية:** ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩][1].

ثانيًا: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري:

والغالب من أحوال الوحي أن يأتي الرسول الملكي وهو جبريل إلى النبي، وهذا الذي ذكره الله جل جلاله في قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١].

وفي قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٥].

والدليل على أنه أكثر الوحي هو إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، حينما سئل عن الوحي كيف يأتيه، فقال صلى الله عليه وسلم: **(أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد**

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمرن، ٥/ ٢٣٠، رقم ٣٠١٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٩٠٥.

وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول)[1].

فإجابة النبي صلى الله عليه وسلم على السؤال بهاتين الصورتين هو من باب التغليب لا من باب الحصر[2].

وهو بهذا يصف الطريقة التي يأتيه جبريل عليه السلام بها في الغالب، وإلا فإنه قد رآه على صورته الحقيقية، وأحيانًا كان يأتيه الوحي منامًا، وغيرها من الصور التي لم يذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث.

ثالثًا: القذف في روع الرسول:

والمقام الثالث من مقامات الوحي الذي كان يأتي الوحي فيه للنبي صلى الله عليه وسلم هو ما جاء ذكره في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

وهو إما أن يكون إلهامًا أو منامًا أو قذفًا في القلب[3].

وقد جاء عن أبي أمامة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن روح القدس نفث في روعي: أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصيةٍ فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته)[4].

والشاهد هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن روح القدس نفث في روعي)، وهو مقام قد يشارك فيه بعض الناس الأنبياء، ولايصح التعبير عنه بالوحي، ولا يجب العمل أو التشريع بمقتضاه إلا إن كان لنبي، أما إن كان لغير نبي؛ فإنه يستأنس به ولايستدل به.

فمثاله من الرؤيا المنامية للأنبياء رؤيا إبراهيم عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فعبر عنها ولده إسماعيل عليه السلام بأنها أمر إلهي، ومثاله من رؤيا غيرهم من الناس رؤيا صاحبي يوسف عليه السلام في السجن في قول الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

ومنها أيضًا ما يراه الناس، ويبحثون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ١/ ٦، رقم ٢.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١/ ٢٠.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٤٣.
(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ١٠/ ٢٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤١٩، رقم ٢٠٨٥.

عمن يعبره لهم، ولا يصح أن يتخذ من رؤيا الصالحين أو الشيوخ دليلًا على أمر شرعي أو حدث غيبي، كما يفعله كثير من الصوفية، ويزعمون أنه من جنس الكرامات.

الموحى إليهم في القرآن

تبين فيما سبق أن الوحي يتفاضل بين ثلاث مقامات، وهذا باعتبار الوحي إلى الأنبياء، أما إذا تغاير الوحي باعتبار الموحى إليهم؛ فإن جنسه يختلف باختلافهم، فلا يصح أن يذكر فيه تفاضل، فوحي الله إلى الأنبياء والرسل يختلف عن وحيه للملائكة، كما يختلف عن وحيه لأهل الإيمان، أيضًا يختلف عن وحيه لغير الأحياء، فكل وحي يختلف في حقيقته عن الآخر، وإن كان ثمة تداخل بين بعضها من حيث المراد. وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الرسل والأنبياء:

الوحي إلى الأنبياء والرسل هو الوحي الذي قال الله جل جلاله فيه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

وهو المتضمن لبيان العقائد، والتشريع، وأخبار الغيب، والسنن الربانية.

كما أن له مقامات ثلاث متفاضلة باعتبار تفاضل الرسل والأنبياء الذين أوحي إليهم به، أو الأحوال والتشريعات، وقد كان فيه الرسل والأنبياء واسطة في البيان والتبليغ بين الله وعباده بهذا الوحي، ومنه ما يكون قاصرًا علمه على الأنبياء فقط، فلم يكلفوا

بتبليغه للناس، كالوحي المنزل على الخضر عليه السلام، وبعض ما لا تطيقه عقول الناس مما أوحي به إلى الرسل والأنبياء، فلقد أرى الله أنبياءه ورسله من الآيات ما يجعل اليقين عندهم كافيًا لأن يؤمنوا بما لا يستطيعه غيرهم، وهم بينهم في ذلك اختلاف، كالذي كان بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام، ومن التفاوت في قوة اليقين، فمنهم أولو العزم ومنهم من ليس كذلك، وإنما كان لهم هذا العزم بما قد خصهم الله به من العلم والإطلاع على الآيات ما لم يطلع عليه غيرهم.

يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[البقرة: ٢٥٣].

ثانيًا: الملائكة:

وهو وحي ليس على سبيل التشريع والإخبار، وإنما على سبيل التكليف، فالملائكة مسخرون لطاعة أوامر الله تعالى، وليس لديهم خيار بين الاستجابة والرفض، فقد سخرهم الله جل جلاله لتلقي ما أمرهم بالقبول والانقياد من غير تردد، فمنه أمر الله لهم بالسجود لآدم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

فذكر الله تعالى بعد عدم استجابة إبليس للأمر الإلهي أنه من الجن؛ ليكون كالتعليل لعدم استجابته لما أمر به، وأنه ليس كالملائكة في ذلك، حيث إن الله عز وجل وصف الملائكة بأنهم لا يعصونه في أمر.

يقول تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وهو لا يأمرهم إلا بالوحي أو من وراء حجاب، على سبيل التكليف لا على سبيل التشريع.

أما ما جاء من عرض الله عليهم إرادته لخلق آدم وما كان منهم من استفهام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فلم يكن هذا الاستفهام على سبيل الاعتراض[1]، وإنما كان من باب عدم رغبتهم في وجود من يعصي الله في الوجود، وقد ظهر هذا في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

فهو من باب غيرتهم على مقام وحدانية الله تبارك وتعالى، ولذلك لم يوبخهم الله تعالى على ذلك، بل عرض آدم عليهم؛ ليبين لهم الحكمة من خلقه، لذلك لما تبين لهم

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١/ ٩٣.

هذا الأمر؛ اعترفوا لله بجهلهم، ومجدوه بالعلم والحكمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢].

فأكد لهم ما ظهر لهم من علمه وحكمته، وبين لهم أن هناك من العلم والحكمة أيضًا ما لم يظهر لهم، فقال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

ومما أوحى الله به إلى الملائكة أمرهم بنصر المؤمنين وتثبيتهم، فقال جل جلاله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنه الأمر بحفظ بني آدم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١].

ومنه الأمر بقبض الأرواح، قال جل جلاله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ولهم الكثير من الوظائف التي أوحى الله لهم بها، ليس المقام هنا مقام الوقوف عليها وحصرها، إنما هذه أمثلة عليها.

ثالثًا: أهل الإيمان:

إن الله تعالى كريم رحيم رؤوف بعباده لطيف بهم، ومن كمال لطفه جل جلاله أن يعلمهم بأمور قد يكون لها وقع خطير في حياتهم، ولكن كيف يكون هذا والواسطة بين الله وعباده منقطعة؟!

إنه وحي من الله لهم ولكن من نوع آخر غير وحي النبوة، ومن هذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة بقوله: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) قالوا: وما المبشرات؟ قال: (الرؤيا الصالحة)[(١)].

وليس معنى هذا أن الوحي قد انقطع بجميع صوره التي ورد ذكرها في القرآن، وإنما خص الرؤيا بالذكر؛ لأنها تكون لآحاد المسلمين بكثرة، وإلا فإن الإلهام يرد عليه، ويكون بعد النبوة، لكنه بحسبه منه ما يكون لخواص المسلمين[(٢)].

وهو كالذي روى أبو هريرة رضي الله عنه فيه حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحدٌ فإنه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المبشرات، ٩/ ٣١، رقم ٦٩٩٠.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٢/ ٣٧٦.

عمر)[1].

فكان عمر رضي الله عنه ممن اختصهم الله تعالى بذلك، ومنه ما يكون عامًّا للمسلمين جميعًا، وذلك بإلهام الله لهم الإيمان برسله وأنبيائه وما جاؤوا به من الأخبار الغيبية والتكاليف الشرعية.

وكان الإلهام الذي ذكر في الحديث فيما كان قبلنا من الأمم، ومنهم من ورد ذكره في القرآن، وهم ثلاثة:

١. أم موسى عليه السلام: أوحى الله إليها بوحي من قبيل الإلهام، يقول الله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. يقول السمعاني: والوحي: هو الإعلام في خفية، فأكثر المفسرين على أن معنى قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ هو إلهامها[2]، وكان ذلك وحيًا جاءها من الله؛ فقذف في قلبها، وليس بوحي نبوة[3].

٢. مريم رضي الله عنها: فقد اصطفاها الله لأمر عظيم، واختصها به، وهو أن تحمل وتلد من غير بعل، معجزة منه تعالى لعبده ورسوله عيسى عليه السلام، وهذا أمر يصاحبه من الابتلاء بوقوع التهمة والفرية ما يترتب عليه هم وغم عظيمان، فأعلم الله جل جلاله مريم رضي الله عنها به وحيًا من غير نبوة، بأن أرسل لها جبريل عليه السلام، الذي ينزله الله عز وجل بالشرائع على الرسل والأنبياء؛ ليبلغوها للناس، وقد جاءها؛ ليخبرها هذا الخبر فحسب، ولينفذ المهمة التي كلف بها من نفخ الروح في درعها؛ لتدخل في جوفها وتستقر في رحمها؛ ويخلق الله جل جلاله منها عيسى عليه السلام[4]، وليس على سبيل التكليف بالنبوة والرسالة، يقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦ - ١٩].

٣. الحواريين رضي الله عنهم: إنهم الذين كانوا مع نبي الله عيسى عليه السلام، فقد كانوا في شدة وبلاء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب عمر ابن الخطاب، ٥/ ١٢، رقم ٣٦٨٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ٤/ ١٢٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٥١٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ١٦٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٦١.

وكرب من بني إسرائيل، كما هو حال أتباع الأنبياء، فقد كان بنو إسرائيل يفتنونهم فتنًا تزلزل الجبال الرواسي، كيف لا وهم أعداء الأنبياء وقتلتهم؟! يقول الله جل جلاله في سياق عد مننه ونعمه وآلائه على عبده عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]. يقول السعدي: «واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعا وأعوانًا، فأوحيت إلى الحواريين، أي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي»[(١)]، وهذا هو الراجح من أقوال أهل العلم، فقد قال بعضهم: إن المراد هنا أن الله عز وجل أوحى إليهم على لسان عيسى عليه السلام، أي: «أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا»[(٢)]، فالوحي من هذا القبيل على ألسنة الأنبياء والرسل إنما هو لعموم الناس، وليس للمتبعين فقط، ثم إن المنة بذلك تكون ضعيفة حين يتبعه اثنا عشر رجلًا وتخالفه الأمة بأسرها، لكن المنة تكمن في أن الأمة كلها مخالفة له، فألهم الله جل جلاله الحواريين أن يؤمنوا به؛ ففعلوا وانقادوا، فقرت بهم عين نبيه عليه السلام واستكانت لذلك نفسه.

رابعًا: السموات والأرض:

يوحي الله تعالى إلى مخلوقاته من ألوان الوحي بحسب ما يليق به من حيث: الطاقة، أو الكيفية، أو الوظيفة المناطة به، والمهام التي كلف بها، فوحيه للرسل يختلف عن وحيه للملائكة، وعن وحيه للمؤمنين، ومن باب أولى أن يختلف عن ذلك وحيه لغيرها من الكائنات غير الحية، كوحيه إلى السماوات، فإنه وحي يتناسب مع هذه المخلوقات.

فوحيه للرسل يتضمن رسالة محتواها الأخبار الغيبية والتكاليف الشرعية التي لا صلاح للبشر إلا بها، وكان وحيه للملائكة متضمنًا أخبارًا وأوامر، لايستقيم لهم أن يقوموا بما خلقوا له من التكاليف إلا به، حيث إنهم كما قالوا عن أنفسهم فيما ذكره الله عز وجل عنهم: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وكيف يتسنى لهم أن يعرفوا أوامر الله لهم من غير وحي يوحي الله جل جلاله لهم به؟!

وكذلك الحال مع بني الإنسان، فإن الهداية لم تكن طوع أيديهم، وليس لهم أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٤٨.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/١١٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٤٨.

يتناولوها بعقولهم، أو يكتسبوها بالتأمل؛ إن لم يكن ذلك مؤيدًا بتوفيق الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى في كتابه: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وكما قال عز وجل في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم: (يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم)[(١)].

وكذلك كان وحيه للسماوات يتناسب مع الطبيعة التي طبعت عليها والهيئة التي خلقت بها، فكان وحي الله -تبارك وتعالى- لها بأن تكون مسخرة، وذلك بقوانين ونواميس خاصة لا تصلح الحياة الدنيا إلا بها.

يقول عز وجل: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

فإذا أراد الله تعالى لها الخراب أوحى إليها وحيًا تتغير فيه تلك القوانين، وتتبدل النواميس حتى إن الإنسان الذي ألفها على تلك الحال التي كانت مستقيمة بقوانينها ونواميسها ليتساءل عما اعتراها من خلل، فيقول فيما أخبرنا الله عز وجل: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ١ - ٥].

فهي مسخرة لطاعة الله جل جلاله طوعًا، ولو لم يكن كذلك لسخرها كرهًا، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فأطاعته ولانت وخضعت وأذعنت على عظمتها؛ لعلمها بأن الذي أمرها لا يتعاظمه شيء، جل جلاله وعز شأنه، غلب بسلطانه وقهر بجبروته، وأذهل بقدرته تعالى.

خامسًا: النحل:

إن المتأمل في حياة النحل وطريقة معيشتها ورحلاتها وصناعتها ليعلم أن ما تقوم به هذه المخلوقات ليست بالاكتساب ولا بالتعلم، وإنما هي الغريزة التي غرزها الله تعالى فيها، والإلهام الذي جعل من هذا الكائن الصغير ذلك الصانع القدير، فقد هيأ الله عز وجل فيها ولها من الأسباب والقوانين الطبيعية والكيميائية التي صارت صناعتها كالسجية، والمطلع على آليات العمل في خلية النحل ليبهره ما سيراه من نظام، ويسحره ما يشاهده من تعاون، ويأخذ لبه مايراه من التزام كل عامل بعمله الخاص به دون أدنى تدخل أو تطفل.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الظلم، ٨/ ١٦، رقم ٦٦٦٤.

ثم هي بعد شعوب وقبائل، فمنها شعوب قد سخرها الله للمعيشة في بيئة الجبال؛ فتتخذ من كهوفها وشقوقها البيوت، ومنها قبائل هيأها الله ليكون بيتها في الشجر، وطائفة أخيرة جعلها الله تأنس بما يصنعه الإنسان لها من بيوت، ويسر لها الأرزاق من كل الثمرات وأزهارها، حلوها ومرها؛ لتصنع بعد ذلك شرابًا شهيًا فيه شفاء للناس[1].

وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٨- ٦٩].

ليكتمل بذلك للإنسان أنواع الأشربة التي يأخذها الناس، فمنه ما كان أصله المطر، وهو الماء، ومنها ما أصله الشجر وهو العصائر والخمور، ومنها ما أصله بطون الضأن والجمال والبقر، وكان العسل رابعها، الذي يأتي به من الكائنات الصغيرة، التي جعلت مثلًا للرأي الصحيح، في قول الشاعر[2]:

لا تحقر الرأي يأتيك الحقير به
فالنحل وهو ذبابٌ طائر العسل

جعل الله جل جلاله العسل رزقًا لعباده في الدنيا الذي سيشربون منه في الآخرة، وقد جمع بين هذه الأشربة في كتابه في موضعين:

الأول: في سورة النحل على أنها شراب لهم في الدنيا، فقال جل جلاله: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٥ - ٦٩].

والثاني: في سورة محمد صلى الله عليه وسلم على أنها شراب لهم في الجنة، بقوله عز وجل: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

والأشربة الثلاثة الأولى يستخرجها

(١) انظر: التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، سامي القدومي، ص١٣٧.
(٢) انظر: جواهر الأدب، الهاشمي، ٢/ ٤٣٢، من قصيدة لابن أبي بكر المقري المتوفى سنة ١٠٠١ هـ.

الناس، ولهم في ذلك وسائل هيأها الله تعالى، أما الرابع فلا حيلة لهم يستخرجونه بها، إلا بأن يكون ذلك بالوحي الغريزي لهذا المخلوق الصغير الشرس، وهذا ما أوحى الله به للنحل، فكانت مسخرة له بأمره تعالى، وليس هذا المقام مقام التفصيل في التفريق بين هذه الأشربة وطرق استخراجها.

التعامل مع الوحي

إن ذكر الله تعالى لوحيه لهذه المخلوقات في كتابه الكريم جاء لأمر حكيم، ألا وهو بيان كيفية استجابة هذه المخلوقات التي أوحى الله عز وجل، من أنبياء ورسل كرام عليهم الصلاة والسلام، وملائكة عظام عليهم السلام، وسماوات وأراضٍ، وما فيهما من خطير الأجرام، وحتى الصغير الحقير من الهوام، كلها كان شأنها الامتثال لما أمرها الله جل جلاله به في وحيه إليها، شرعيًّا كان الوحي أو كونيًا، كلها خضعت وأذعنت واستجاب ولانت لأمر ربها.

فحري بهذا المخلوق الذي سخر الله له هذه الكائنات أن يكون على سنتها وناموسها، مستجيبًا خاضعًا مذعنًا مستسلمًا منقادًا معظمًا لما جاءه من وحي ربه تبارك وتعالى، متدبرًا متعقلًا متفهمًا لما يتلوه منه، خائفًا مما فيه من تهديد ووعيد، راجيًا لما فيه من وعدٍ بالثواب والمزيد، سائرًا على هديه الرشيد، وذلك ينتظم أمورًا ثلاثة تمت الإشارة لها، وفيما يلي -بإذن الله تعالى- تفصيلها:

أولًا: تلاوة الوحي:

إن تعظيم ما جاء من عند الله جل جلاله آمرًا بتعميمه لهو من تمام عبادة العبد لربه تبارك وتعالى، وإن الله ما أمر بتعظيم شيء

مثل ما أمر بتعظيم كلامه، الذي ما شرف شريف ولا عظم عظيم إلا به، وهو ما أوحى الله به؛ لتستقيم أمورهم، هذا لا يتيسر لهم إذا كانوا يقرءونه طربًا، أويثرونه هذرًا، أو يهذونه شعرًا، بل كان لابد لهم من تلاوته وتدبره وتفهمه وتعقله، ولكي يتسنى لهم ذلك؛ كان لابد من مراعاة أمور قبل قراءته وأثناءها وبعدها، باستحضار ما يأتي:

١. إن الله تعالى هو من تكلم بهذا القرآن، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

٢. إن القرآن هو خطاب من الله لمن يقرؤه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٣. إن الله جل جلاله أخبرنا فيه بأمور:

- ماضية للاعتبار، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].
- معاصرة للاستحضار، يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].
- مستقبلة للتبشير والإنذار، يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٧ - ٥٢].

٤. إن الله عز وجل أمرنا فيه بأوامر لامتثالها، ونهانا فيه عن نواهٍ لاجتنابها، يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

٥. جمع القلب، واستحضار الذهن، والتدبر لما يقرؤه جيدًا، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٦. إن صلاحنا وفلاحنا في الدنيا والآخرة إنما بالقرآن والقيام بحقه، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

٧. أن نبتغي بقراءته الأجر والثواب من الله تبارك وتعالى، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩- ٣٠].

٨. توطين النفس والعزم على تصديق أخبار القرآن، والاستجابة لما فيه من الأوامر والنواهي، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٣ - ٨٥].

وقد أفاض كثير من أهل العلم في كتابة ما ينبغي أن يكون عليه قارئ القرآن، مثل: التبيان في الأداب في حملة القرآن للنووي، فضائل القرآن للمقدسي، وغيرها.

ثانيًا: التخويف بالوحي:

النفس البشرية تركيب من مزيج من الشهوات الداعية إلى الجموح والعصيان والطغيان، فهي ترغب في فعل مايحلو لها من غير قيد أو ضابط، حتى وإن كان ذلك القيد أو الضابط ما وضع إلا لمصلحتها، وقالوا قديمًا: من أمن العقوبة أساء الأدب. لذلك كان من مقاصد الوحي الذي أنزله الله تعالى من أجلها التخويف بالوعيد والنذر، يقول الله عز وجل في كتابه عن هذا المقصد: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد جاء التخويف بالوحي على صور مختلفة، منها:

١. ذكر قصص الأمم التي عصت رسلها، وهذا قد كثر ذكره في القرآن الكريم حتى إن سورًا كاملة جاءت على هذا المنوال، أو كان أغلب السورة عليه، مثل سورة هود، الشعراء، القمر، الفجر، نوح، وغيرها.

٢. بيان أحوال العصاة والكفار في النار، يقول تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

٣. ذكر العقوبات على المعاصي، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

٤. التهديد على المعصية بانتقام الله من فاعلها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

٥. بيان أن في المعصية تعدِّيًا لحدود الله، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [النساء: ١٤].

٦. بيان أن فاعل المعصية مستحق لغضب الله، يقول تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ١٠٦].

٧. الجمع بين أكثر من عقوبة لفاعل المعصية، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٩٣].

٨. وصف فعل المعصية أو فاعلها بالخسران، أو الفسق، أو الفجور، أو الكبر، أو الظلم، أو الكفر، وغيرها مما يعاب به العاصي في القرآن، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

٩. بيان أن فعل المعصية اتباع للشيطان، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨- ١٦٩].

١٠. بيان أن فعل المعصية عداوة لله وأولياء الرحمن، يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

١١. إعلان الحرب على فاعل المعصية من الله، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨- ٢٧٩].

١٢. بيان أن المؤمنين يجتنبون المعاصي ولا يقتربون منها، يقول

تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٢-٧٣].

ثالثًا: اتباع الوحي والاستمساك به:

إن موقف الناس من الوحي بين أمرين: إما الاتباع، وإما الإعراض، أما أهل الإعراض فيحتاجون إلى وقفة معهم -وستأتي إن شاء الله عز وجل - ذلك أن أسباب الإعراض وسبله متعددة، وليس هو من باب التعامل المطلوب بيانه والدعوة إليه، بل المطلوب هو بيانه والتحذير منه، وأما الاتباع فهو مندرج تحت عنوان هذا القسم، وإن كان كلٌّ من الأمرين يحتاج إلى إفراده في بحث خاص كامل، فالناس جميعًا بين مستمسك بالوحي، أو معرض عنه، أو متمسك ببعضه ومعرض عن بعضه الآخر، والمستمسك به بين مجتهد في ذلك، وبين مقصر فيه، والذي أراده الله تعالى من عباده تجاه الوحي هو الاتباع والاستمساك به، ويظهر هذا من خلال كثير من الآيات التي دعا الله عز وجل العباد فيها إلى التمسك بما أنزله إليهم، وثناؤه على ما أنزله إليهم، وثناؤه على المستمسكين به، ووصفه لما أنزله عليهم بأفضل ما يوصف به منهج، وبيان فضله عليهم فيه، وبيان أثره في حياتهم وآخرتهم، وتفصيل ذلك كما يأتي:

١. دعوة الله جل جلاله العباد للتمسك بالوحي.

ومثال ذلك في الآتي:

- إن أول ما يطالعنا في كتاب الله -تبارك وتعالى- سورة الفاتحة، التي قسمها الله تعالى بينه وبين عبده، فكان القسم الأول هو الثناء على الله بما هو أهله، والقسم الثاني هو الذي قال عز وجل فيه هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل، كما ثبت ذلك عن رب العزة في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال: مجدني عبدي، وقال

مرةً: فوض إلي عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[1]، فهذا فيه دعوة للتمسك بالوحي، من خلال بيان أن ذلك هو نصيب العبد في أعظم سورة، والتي من أسمائها التوقيفية السبع المثاني، ومن أسمائها الاجتهادية الثناء، حيث إن فيها ثناء على الله جل جلاله بما هو أهله في أولها، بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤].

- وثناء على العبد المتمسك بكتاب الله في آخرها، بقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].
- فكون العبد متمسكًا بصراط الله؛ يجعله من الذين أنعم الله عليهم، ونفى الضلال عنهم، وإخراجهم من طائفة المغضوب عليهم، فهو ثناء عليهم من الله تبارك وتعالى[2].
- يأمر الله عز وجل عبده ونبيه صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣].
- وهذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه كذلك، وثناء عليه وعلى من اتبعه بكونهم على صراط مستقيم، ويؤكد ذلك عليهم بتوجيه الخطاب لهم مباشرة بقوله جل جلاله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

٢. ثناء الله تعالى على ما أنزله إليهم.

ومن أمثلة ذلك:

- السورة الثانية بعد سورة الفاتحة جاء مطلعها بالثناء على كتاب الله تبارك وتعالى، يقول الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. حيث يثني الله جل جلاله على كتابه بأن فيه الهدى لمن أراد أن يتقي غضب الله وعقابه.
- أثنى الله عز وجل على كتابه ببيان أنه يهدي لأعدل منهج في الحياة وأقوم الطرق في التعامل مع كل شيء، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، ٢/ ٩، رقم ٨٠٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين، ١/ ١٧.

﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

٣. بيان فضل الوحي عليهم.

ومن أمثلة ذلك:

- يمن الله عز وجل على المؤمنين بما أنعم عليهم به من الألفة والمحبة بعد العداوة والشقاق، يقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].
- فما هي النعمة التي أصبح بها المؤمنون عباد الله إخوانًا؟ إنها نعمة إنزال القرآن، وإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم بهديه النبوي في التعامل مع القرآن.
- يقول الله جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].
- يقول أهل البلاغة: إن أقوى مصراع من مصاريع الشعر بلاغة هو قول امرئ القيس[(١)]:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

وهو مصراع[(٢)] قصيدته المعلقة، ذلك أنه مكون من ست كلمات، تضمنت ستة أمور، فقد وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب، وذكر المنزل، وجاءت هذه الآية -ومثلها كثير- لتثبت تهاوي كلام العرب أمام إعجاز القرآن البياني، فهي أيضًا من ست كلمات لكنها تضمنت أمورًا عديدة تفوقت بها على المصراع المذكور، وقد وقف المفسرون والبلاغيون منها على الآتي[(٣)]:

- المصراع جملة فعلية، والآية جملة اسمية؛ فهي أثبت وأدوم.
- المصراع جملة طلبية، والآية جملة خبرية، فالأولى يحتمل وقوعها وعدمه، أما الآية فهي صادقة متحققة الوقوع؛ حيث إنها تحتمل الصدق والكذب، والثبوت والانتفاء، وهي من كلام الله جل جلاله فهي حتمًا صادقة.
- ليس في المصراع ما يؤكده من الكلام، والآية مؤكدة بتأكيدات عديدة، فهي اسمية، وهو تأكيد لها، مبدوءة بالقسم المضمر، الممهد له بالواو، مؤكدة بإن، ومؤكدة باللام المزحلقة.
- جاء بكلمة ذكر نكرة؛ ليتسع لجميع أنواع الذكر، ذكر القرب من الله، وذكر

(١) وشطره الثاني يقول فيه: بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

(٢) انظر: المصراع في الشعر هو أحد شقي البيت الذي يكون في أول القصيدة، بحيث يكون الشطر الثاني منه على قافية الشطر الأول فيه، ويكونا متماثلين، كمصراعي الباب الذي له ضلفتان متساويتان.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥/ ٢٢٠.

العقل بالرشاد، وذكر الشرف بين العباد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ﴾.

- فصل بين الذكر المتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم وبين الذكر المتعلق بقومه، وذلك أن الذكر له صلى الله عليه وسلم ثابت بهذا القرآن، بينما الذكر لقومه معلق على مدى استجابتهم له بقوله تعالى: ﴿لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾.
- وفيها تعريض بالمعرضين عنه، إذ حين يثني على المستجيب؛ يفهم من ذلك أن المعرض مذموم بعدم استحقاقه لهذا الثناء.
- أشار إلى عاقبتهم على حسب استجابتهم لهذا الذكر، بقوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾، فهي إشارة إلى إثبات اليوم الآخر، وبيان أن السؤال كائن للجميع، يسأل الرسول عن استجابة قومه له، ويسأل المرسل إليهم عن مدى استجابتهم له، والعمل به، وهو سؤال تقرير، ويسأل المعرضون سؤال توبيخ وتهديد وتقريع.

٤. بيان أثره في حياتهم وآخرتهم.

وصف الله تعالى ما أوحاه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بالروح.

يقول المولى جل جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢].

وهو كذلك لمن اهتدى به، فقد كانوا قبل أن يوحي به الله عز وجل إليهم أموات القلوب، عمي الأبصار، صم الآذان عن الحق الذي خلقوا من أجله؛ فبعث الله به إليهم؛ فأحيا به قلوبًا ميتة، وفتح به أعينًا عميًا، وأسمع به آذانًا صمًا، ثم دعاهم تبارك وتعالى أن يثبتوا على الاستجابة له؛ لأنه به تكمل وتجمل حياتهم الإيمانية[1].

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وإن في هذه الآية تحذيرًا لهم من عقاب الله لهم إذا لم يستجيبوا، أن يعيد الموت إلى قلوبهم، فهم يعتقدون أنهم بما عرفوه من حقائق الإيمان فقط ودراستهم لها دراسة نظرية أنهم أحياء، ظانين أن العلم فقط، أو التحلي ببعض مظاهر الدين ينفعهم ولا يضرهم معه مخالفة ما دعاهم الله جل جلاله إليه من الاستقامة على الإسلام كله.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٦٢٤.

فإنها تبدأ بخطوات ثم تنتهي بالمهلكات الموبقات المبعدات عن رحمة الله عز وجل.

موقف المعرضين من الوحي

إن الإعراض عن وحي الله تبارك وتعالى هو حال أغلب الناس، ذلك لما يغلب عليهم من الأهواء والشهوات ودواعي الإعراض عن الوحي، وقد كانت صور إعراضهم عن الوحي ومظاهره مختلفة، بحسب اختلاف الدواعي لذلك؛ فكانت عاقبة إعراضهم عليهم وخيمة، ونتائجه أليمة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: دواعي الإعراض:

إن دواعي الإعراض عن الوحي متعددة ومتنوعة، فهي ما يأتي الشيطان للعبد من خلالها فيدعوه لأن يعرض عما أنزله الله إليه، وهي صفات شارك إبليس كثير من الناس فيها، فهو إمامهم وقائدهم؛ وهم إضافة إلى ذلك عمي الأبصار، لا يرون أين يصار بهم، ومن هذه حاله فهو لا يرى السلامة إلا في كمال الانقياد والتسليم لمن أمسك بزمام الغل الذي في رقبته.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨].

فلا يقاوم خشية الاختناق، ولا يترك؛ فينتهي به مصيره إلى الضياع، وما هي إلا أوهام وخيالات، سببها الاستكبار الذي فيه اغترارهم وحرمانهم، والإعراض الذي أنساهم أنفسهم،

والريبة التي في قلوبهم؛ فكانت سببًا لشقائهم وعنادهم الذي أورثهم الخسران المبين، وحب الرياسة الذي أطغاهم[1]؛ فعادوا بعده في الذل المهين؛ فهل أمثال هؤلاء سيعبؤون بالإنذار؟ فهي الموانع والقواطع التي منعتهم الهداية؛ لأنها أغلال وضعت في أعناقهم، وبيان هذه الدواعي فيما يأتي:

١. الحسد.

فهذا شقيهم أبو جهل، وما جاء من خبره فيما رواه الإمام البيهقي: «أن أبا جهل -عليه لعنة ربه- وأبا سفيان رضي الله عنه والأخنس بن شريق رضي الله عنه خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالليل في بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسًا؛ ليستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق؛ فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم؛ لأوقعتم في نفسه شيئًا.

ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا.

فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه؛ فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها. فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه. فقام عنه الأخنس بن شريق»[2].

فما منع أبا جهل من الاهتداء بهدى النبي صلى الله عليه وسلم وتصديقه بالقول والعمل بعد أن صدقه بالقلب إلا الحسد، فقد شهد بنبوته، لكنه رفض كل الرفض اتباعه، والداعي لذلك التنافس في العلو في

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٦٠، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٢/ ٢٩٢.

(٢) دلائل النبوة، البيهقي، جماع أبواب المبعث، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، ٢/ ٢٠٦.

الدنيا، والعصبية العمياء، ووراء ذلك كله الحسد.

٢. اتباع دين الآباء والأجداد.

ومشهد آخر مع من كان مدافعًا عنه صلى الله عليه وسلم، مع عمه أبي طالب لما حضرته الوفاة، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب: (يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أشهد لك بها عند الله). فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣] الآية[١].

والداعي الذي منع أبا طالب من الاستجابة لما دعاه إليه النبي صلى الله عليه وسلم رغم حبه الشديد لابن أخيه ومبادلة النبي صلى الله عليه وسلم له هذا الحب وهو يعلم اتباع دين الآباء والأجداد وتقديس عوائدهم، والهيبة من ذم الناس يعتبر من الدواعي المعيقة والمغلقة عليه طريق الهداية.

٣. العنصرية.

مثال آخر وهو ما رواه أبو نعيم عن صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها أنها قالت: «كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل فناء بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين، كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله، ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الهم، قالت: فسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي -حيي بن أخطب-: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت أبدًا»[٢].

وهذا هو عين ما وصف الله تعالى به اليهود في قوله عز وجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك لا إله إلا الله، ٢/ ٩٥، رقم ١٣٦٠.

(٢) دلائل النبوة، أبو نعيم الأصبهاني، ص٧٧.

﴿النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ﴾ [المائدة: ٨٢].

فكانت القومية والعرقية والعنصرية مانعة من الاتباع، فهم يرون أنهم أحق الناس بالنبوة، ولكنها فضل الله يؤتيه من يشاء سبحانه، وخسئوا هم وما منوا به أنفسهم.

٤. حب الرياسة.

حادثة أخرى مع رأس النفاق، من حديث أسامة: ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة يعوده من شكوٍ[١] أصابه على حمار عليه ألحاف[٢] فوقه قطيفة، فركبه فخطمه[٣] بحبل من ليف، وأردفني خلفه، فمر بعبد الله بن أبي وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تذمم أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم ثم جلس فتلا القرآن، ودعا إلى الله وذكر به وحذر وبشر وأنذر، وعبد الله زام لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقًا، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغشه به ولا تأته في مجلسه بما يكره.

(١) مرض، انظر: العين، الفراهيدي، ٥/ ٣٨٨.
(٢) غطاء، انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ٣١٤.
(٣) جعل على أنفه خطامًا، وهو حبل يربط على مقدم وجه الدابة وفكيها، ليمنعها من العض. انظر:المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٤٥.

قال: وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عبادة وفي وجهه ما قال عدو الله بن أبي، فقال: والله يا رسول الله، إني لأرى في وجهك شيئًا، لكأنك سمعت شيئًا تكرهه؟ قال: (أجل). ثم أخبره بما قال ابن أبي، فقال سعد: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكًا[٤]!!

ومنها يظهر المانع والقاطع الذي حال دون إعلان صدق النبي من عبد الله بن أبي مع استعذابه لكلامه؛ إنه الرياسة وحب المنصب، أغلال بيد إبليس يقود بها أتباعه وأولياءه، ومن زاوية ما أثرت هذه الأغلال، فهي جعلت رقابهم مقمحة؛ ليبرز ما فيهم من الكبر الناتج عن وجود هذه الأغلال في أعناقهم، ومن زاوية حالهم في الآخرة، فهي صورة لحالهم وهم يسحبون بها في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١- ٧٢].

فتقمح جراء ذلك الأغلال بأعناقهم ورؤوسهم من شدة السحب، فما أعظمه من أسلوب، وما أحكمه من منهاج في التنفير من تكذيب الرسل، لكن الحق أعقب ذكر حالهم في هذه الآيات بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾

(٤) انظر: الاكتفاء، الكلاعي الحميري، ١/ ٣٠٩.

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:١١][1].

ثانيًا: عاقبة الإعراض:

إن الإعراض عن الاهتداء بوحي الله جل جلاله هو أمر في حد ذاته غاية في الخسران وإن لم يترتب عليه العذاب الذي توعد الله عز وجل المعرضين به، فكيف إذا ترتب عليه العذاب الأليم الشديد المهين في الآخرة؟!

ما هو حال المعرضين؟ إجابة هذا السؤال تظهر من خلال آيات ذكرها الله تعالى في كتابه، نستعرض بعضًا منها فيما يأتي:

١. المعيشة الضنك في الحياة الدنيا.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

ما هي المعيشة الضنك؟!

قال الثعلبي: «كل مال أعطيته عبدًا من عبادي قل أو كثر لا يتقيني فيه فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة، وإن قومًا ضلالًا أعرضوا عن الحق، وكانوا أولي سعة من الدنيا مكثرين؛ فكانت معيشتهم ضنكًا، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس بمخلف لهم معائشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب به، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به اشتدت عليه معيشته، فذلك الضنك»[2].

٢. حياة اليأس.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

والمعنى: «﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾، بأن وصل إلى مطلوبه ﴿أَعْرَضَ﴾ أي: اغتر وصار غافلًا عن طاعة الله، ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي: تباعد من أهل الحق ولم يقتد بهم؛ تعظمًا لنفسه كديدن المستكبرين، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: أصابه بلاء؛ ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ أي: قنوطًا من رحمة الله حزينًا، ولم يتفرغ لذكر الله تعالى»[3].

٣. التعرض لانتقام الله عز وجل بسبب ما اقترفوا من الظلم.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

جاء الخبر على صورة الاستفهام؛ لتأكيد الكلام، وهكذا أخرج الحق سبحانه الخبر إلى الاستفهام وترك لنا الجواب؛ لنقول نحن: لا أحد أظلم ممن فعل ذلك،والإقرار سيد الأدلة، فالإعراض عن هدي الله تعالى،ليس هناك ما هو أشد ظلمًا منه، أي: ممن ذكره الله بآياته القرآنية ومعجزات

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٨٤٣.

(٢) الكشف والبيان، ٦/ ٢٦٥.

(٣) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ١/ ٦٣٥.

رسله ثم أدبر عنها وهجرها وجحدها، كأنه لا يعرفها، لذا فإن الله سبحانه ينتقم أشد الانتقام من هؤلاء الكفار الذين كفروا بالله واقترفوا المنكرات والموبقات.

إن القرآن الكريم هدى ورحمة، لما فيه من بيان سابق قبل المفاجأة بألوان العقاب أو العذاب في الآخرة، كما أوضحت هذه الآيات[1].

٤. يأتي يوم القيامة أعمى يحمل ثقل ذنب الإعراض.

يقول الله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ١٠٠].

ويقول جل جلاله أيضًا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وآتيناك من لدنا قرآنا فيه ذكر للرحمن، وذكرى وموعظة للإنسان، ومن أعرض عن القرآن وذكره وما فيه فإنه يحمل يوم القيامة حملا ثقيلا من الآثام والأوزار خالدين في عذابه، وبئس الحمل حملهم يوم القيامة، وهم فوق ذلك عمي الأبصار كما كانوا في الدنيا عمي البصائر[2].

إذن هي ألوان مركبة من الشقاء في الدنيا والآخرة جراء إعراضهم عما أوحى ربهم جل جلاله به إليهم، نعوذ بالله من حالهم، ونسأله أن يحفظ علينا إقبالنا على كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، القرآن، محمد صلى الله عليه وسلم، الملائكة، النبوة

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٤/ ٨٩٤٣، التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢٠٤٨.

(٢) انظر: التفسير الواضح، الحجازي، ٢/ ٥٠٥.

الوراثة

عناصر الموضوع

مفهوم الوراثة	٤٤
الوراثة في الاستعمال القرآني	٤٥
الألفاظ ذات الصلة	٤٦
الوراثة في حق الله تعالى	٤٧
أنواع الوراثة	٥١
أسباب الوراثة	٧٦
مقاصد الوراثة	٧٩

مفهوم الوراثة

أولا: المعنى اللغوي:

الوراثة أصلها: ورث، والواو والراء والثاء: كلمةٌ واحدةٌ، هي الورث، وهو أن يكون الشيء لقومٍ ثم يصير إلى آخرين بنسبٍ أو سببٍ[(١)].

قال في الصحاح: الميراث أصله موراثٌ، انقلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها[(٢)].

وقال أبو عبيد: الإرث أصله من (الميراث) إنما هو (ورثٌ) فقلبت الواو ألفا مكسورة لكسرة الواو كما قالوا للوسادة: إسادة وللوكاف: إكاف.

ويقال: ورثت فلانا من فلان: أي جعلت ميراثه له، وأورث الميت وارثه ماله، أي تركه له[(٣)].

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

الوراثة في الاصطلاح: هو حوز الإنسان ما كان يملكه آخر بعد موت هذا الآخر[(٤)].

وإذا أطلق في اصطلاح الفقهاء فيراد به: أنه حق قابل للتجزئة، ثبت لمستحقه بعد موت من كان له ذلك، لقرابة بينهما، أو نحوها[(٥)]. والمعنى بينهما قريب.

بهذا يظهر أن المعنى الاصطلاحي توضيح للمعنى اللغوي وتفصيل له.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٠٥.
(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ٢٩٥.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٨٥.
(٤) المعجم الاشتقاقي المؤصل، محمد حسن جبل، ص ٧٥٤.
(٥) القاموس الفقهي ص ٣٧٧.

الوراثة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ورث) في القرآن الكريم (٣٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٣	﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء:١١]
الفعل المضارع	١٢	﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧٦]
اسم الفاعل	٦	﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون:١٠]
الاسم	٤	﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:١٠]

وجاءت الوراثة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو أن يكون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين، والوراثة الحقيقية هي أن يحصل للإنسان شيء لا يكون عليه فيه تبعة، ولا عليه محاسبة[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٤٨.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٠٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٩٤، ١٩٥، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٦٣-٨٦٤، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٤/ ٢٩٨-٣٠٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوصية:

الوصية لغةً:

الإيصال، مأخوذة من وصيت الشيء أصيه إذا وصلته، وسميت الوصية وصية؛ لأن الميت لما أوصى بها وصل ما كان فيه من أمر حياته بما بعده من أمر مماته[١].

الوصية اصطلاحًا:

هي تمليك مضاف إلى ما بعد الموت، وسميت وصية لاتصالها بأمر الميت[٢]، والمراد بها ما جاء في مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٨٠].

الصلة بين الوصية والميراث:

أن الوصية قد تكون حقًا واجبًا مثل الدين، وقد تكون تبرعًا بإرادة الموصي، والميراث حق واجب في مال الموروث وبغير إرادته، والوصية عطية من المالك، والميراث عطية من الله تعالى[٣].

٢ التركة:

التركة لغةً:

بفتح التاء وكسر الراء، وفي اللغة: هي ما يتركه الشخص ويبقيه[٤].

التركة اصطلاحًا:

هو ما يتركه الميت من ممتلكاته بعد موته، وتخفف بكسر التاء وسكون الراء[٥].

الصلة بين التركة والميراث:

لما كان الميراث مما يتركه الميت سمي تركة، وقد ورد اللفظ بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١].

وفي الآية التي تليها، وفي آخر سورة النساء.

---

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٦٢، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٢٠٧.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٢، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٢٠٩.
(٣) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٦٥، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣٣٢.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٥٦.
(٥) انظر: المصباح المنير ١/ ٧٤.

الوراثة في حق الله تعالى

أخبر الباري جل جلاله أنه الوارث، وهو اسم من أسمائه الحسنى جل وعلا.

قال الزجاجي: « الله وراث الخلق أجمعين لأنه الباقي بعدهم وهم الفانون، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم: ٤٠]»[(١)].

قال الخطابي: الوارث هو الباقي بعد فناء الخلق، والمسترد أملاكهم ومواريثهم بعد موتهم، ولم يزل الله باقيا مالكا لأصول الأشياء[(٢)].

وقد ورد الاسم في القرآن في مواضع متعددة وصيغ شتى:

فجاء الإخبار عن ذلك بصيغة الجمع فقال جل جلاله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝٢٣﴾ [الحجر: ٢٣].

قال الطبري: « ونحن نرث الأرض ومن عليها بأن نميت جميعهم فلا يبقى حي سوانا إذا جاء ذلك الأجل»[(٣)].

وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨﴾ [القصص: ٥٨].

وجاء في دعاء زكريا: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وجاء بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم: ٤٠].

وجاء التعبير بصيغة المصدر في قوله جل وعلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٨٠﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وفي قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾ [الحديد: ١٠].

قال الطبري: « فإن قال قائل: فما معنى قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والميراث المعروف هو ما انتقل من ملك مالك إلى وارثه بموته ولله الدنيا قبل فناء خلقه وبعده؟

قيل: إن معنى ذلك ما وصفنا من وصفه نفسه بالبقاء، وإعلام خلقه أنه كتب عليهم الفناء وذلك أن ملك المالك إنما يصير ميراثا بعد وفاته، فإنما قال جل ثناؤه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إعلاما بذلك منه عباده أن أملاك جميع خلقه منتقلة عنهم بموتهم، وأنه لا أحد إلا وهو فان سواء، فإنه الذي إذا

(١) اشتقاق الأسماء ص ١٧٣.
(٢) شأن الدعاء ص٩٦.
(٣) جامع البيان ١٤/ ٤٧.

هلك جميع خلقه فزالت أملاكهم عنهم لم يبق أحد يكون له ما كانوا يملكونه غيره»[1].

والمتأمل في سياق الآيات التي وردت في لفظ الوراثة في حق الله يتلمس ما يورثه هذا الاسم من آثارٍ ومعانٍ تزيد في إيمان العبد، ومن ذلك:

١. الملك الحقيقي لله الواحد القهار.

الذي ما من ملك ملكٍ طال ملكه أم قصر إلا وهو راجع إليه سبحانه، وهذا المعنى يورث في النفس تعظيم الله وتقديره حق قدره، وما أعظم هذا الموقف يوم يرث الله الأرض ومن عليها ويجمع الملوك والمملوكين في موقف واحد ثم ينادي فيهم: (لمن الملك اليوم) كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٦ - ١٧].

ويبين هذا المعنى ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)[2].

٢. السعي في الدنيا للتقرب إلى الله تعالى بما يرضيه ويقرب إليه.

فإن كان ملوك الدنيا يملكون ملكًا نسبيًّا في الدنيا، فيوم القيامة ملك الله الذي اختص به لنفسه فقال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤].

وهو سبحانه يورث جنته في ذلك اليوم المتقين من عباده كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣].

٣. تهيئة النفس وتربيتها أن تكون من الذين يورثهم الله الأرض فيعملون فيها بتحقيق العبودية.

فما من جيل يقدم إلا وقد أورثه الله ديار وتراث من سبقه، فهل سيعمل فيها بما يرضي الله تبارك وتعالى.

وقد حذر الله عباده من ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

ولا شك أن هذا الإبدال نوع من أنواع

(١) المصدر السابق ٦/ ٢٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قول الله تعالى: (لما خلقت بيدي)، رقم ٧٤١٢، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم ٢٧٨٨.

الوراثة التي يورثها الله تعالى لعباده. ومن التهيئة كذلك التهيئة لخلافة الأرض وعمارتها وسياستها كما يريد الله تعالى، ومن تأمل ما قصه الله تعالى بين موسى وقومه يجد هذا المعنى واضحًا جليا، كما سيأتي بيانه، فالإيمان بأن الله هو الوارث وهو الذي يورث من يشاء من عباده تجعل العبد بل الأمة جمعاء على قدر من التأهيل الإيماني والاستعداد العملي لحمل هذه الأمانة إذا ورثوها.

٤. عدم الاغترار بقوة الباطل وانتفاشه.

فإن الله تعالى له بالمرصاد، وسيأتي الوقت الذي يزهقه الله فيه ويورث عباده المؤمنين ديار الكافرين ويمكنهم فيها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

فقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة، وقد يغلب عليها همج وغزاة، وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق، فلا يغتر العبد بهذه القوة، فالوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح. فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم[(١)].

ويقول تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

٥. عدم الاغترار بالدنيا والحذر من الركون إليها.

لأن مآلها إلى فناء ولا يبقى إلا ما قدمه العبد لنفسه يوم القيامة[(٢)]، وما أشد ارتباط هذا المعنى بقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]!

٦. الحث على الإنفاق في سبيل الله.

فقد جاء الإخبار عن وراثة الله للسماوات والأرض في موطنين، الأول: في ذم الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله وحبسه وعدم الإنفاق منه، وبيان مالهم في الآخرة من العقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وفي ذلك يقول الراغب: «ونبه بقوله:

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٠.

(٢) انظر: ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل ص١٨٤.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على انتقال ما في أيديهم إليه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ونبه أن ما خولهم لو أنفقوا على ما يجب وكما يجب لاستحقوا ثوابًا، فلما لم يفعلوا ذلك؛ انتقل عنهم، وصار عقوبة لهم، وكأنه إلى مقتضى معناه أشار من أوصى فقال: اكتبوا: هذا ما خلف فلانٌ، يسوؤه وبنوه، انتقل عنه نفعه، وخفي عليه وزره، وبين أنه عالم ببخلهم، وما يؤول إليه حالهم»[1].

والموطن الثاني: في الحث على الإنفاق والدعوة إليه وأنه المال الذي أورثه الله إياه إن لم يدخره المؤمن لنفسه بالإنفاق، فإنه صائر إليه سبحانه، وذلك في قوله: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧].

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

٧. التوجه إلى الله بسؤال الذرية الصالحة[2].

فكان من دعاء زكريا عليه السلام ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩].

فاستجاب الله دعاءه فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال القاسمي: وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ثناء مناسب للمسألة[3].

ومن أوجه المناسبة:

- الثناء على الله بما يقتضي المقام، فهو سبحانه خير الباقين، وخير من يخلف بخير، وهو أرحم بعباده من أنفسهم.
- النية الصالحة في طلب الذرية، وأنه كما يسأل الله الذرية فيسأله أن يورثه من يخلفه بخير، ولذا جاء في سورة مريم: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٦].
- الرضا بالله وبما قسم، وفإنه قال: إن لم ترزقني ولدًا يرثني فأنت خير الوارثين فحسبي أنت.

٨. الإيمان بهذا الاسم فيه الرد على المشركين في إنكارهم البعث والجزاء.

ففي قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

قال ابن عاشور: «وتأكيد جملة إنا نحن نرث الأرض بحرف التوكيد لدفع الشك؛ لأن المشركين ينكرون الجزاء، فهم ينكرون أن الله يرث الأرض ومن عليها بهذا المعنى»[4].

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١٠١٣.
(٢) انظر: النهج الأسمى ٢/ ٢٩١.
(٣) محاسن التأويل ٧/ ٢١٩.
(٤) التحرير والتنوير ١٦/ ١١٠.

أنواع الوراثة

أولًا: الوراثة الدنيوية:

١. وراثة الدين.

من الحقائق القرآنية المسلمة حقيقة الاصطفاء، فالله تبارك وتعالى يصطفي من خلقه من يشاء ويصطفي لدينه من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

أي: إن الله اختار لكم هذا الدين الذي عهد إليكم فيه واجتباه لكم، فاتقوا الله ولا تفارقوا الإسلام فتأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم فتموتوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا[(١)].

ومن الوراثة الدينية التي أخبر عنها القرآن الكريم:

١. وراثة النبوة.

من المقرر أن الله تبارك وتعالى يختار من صفوة خلقه من يشاء فيجعلهم رسلًا كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩].

وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: ٧٥].

فالله تبارك وتعالى يختار من رسله من أزكى الخلق وأجمع لصفات الخير وأحق بالاصطفاء، فهو تعالى سميع بأقوال عباده بصير بمن هو أحق بالاصطفاء.

وكما اصطفى تعالى من رسله من يشاء فقد فضل الله تعالى بحكمته وفضله بعض النبيين على بعض فقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومن هذا الاصطفاء أن يصطفى تعالى رسلًا فيجعل في ذريتهم النبوة والكتاب ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

وإنما خص الله تعالى هؤلاء الأنبياء الكرام بالذكر لأن الأنبياء والرسل من نسلهم[(٢)].

وكما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

فجعل الله تعالى من ذرية آدم نوحًا

(١) جامع البيان ٢/ ٥٨٤.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٩.

وإدريس، وجعل من ذرية نوح إبراهيم، و وجعل من ذرية إبراهيم إسماعيل وإسحاق، وجعل من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وقال تعالى عن نوح وإبراهيم عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وقال عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وكون النبوة في ذرية هؤلاء الأنبياء عليهم السلام فهو نوع من أنواع الوراثة في الدين، وليس المراد بالإرث هنا إرث الاستحقاق، وإنا هو إرث خاص بالنبوة يهبه الله تعالى لمن يشاء من عباده من ذريته من اصطفاهم جل وعلا.

ولذا فإن زكريا عليه السلام حين خشي ألا يكون من عصبته من يكون صالحًا لوراثة العلم والنبوة، وكان يرجو أن يكون من ذريته من يخلفه في ذلك دعا ربه فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٥ - ٦].

والوراثة التي كان يرجوها عليه السلام هي وراثة النبوة والدين [(١)].

قال البغوي: «والمعنى: أنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه على ما كان شاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه وليا صالحا يأمنه على أمته ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع الدين» [(٢)].

وكما أجاب الله دعاء زكريا عليه السلام فقد أنعم الله على سليمان بأن ورث النبوة من أبيه دون سائر ولده، فقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝١٦﴾ [النمل: ١٦].

مما يبين أن وراثة النبوة فضلٌ يهبه الله لمن يشاء، فقد خصه الله بها دون سائر ولد

(١) جماهير المفسرين على أن الوراثة هنا وراثة النبوة والدين، واختلفوا هل يدخل في ذلك وراثة المال كذلك أم لا، وقد لخص ابن الجوزي هذه الأقوال فقال: وفي المراد بهذا الميراث أربعة أقوال: أحدها: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، أخرجه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال أبو صالح. والثاني: يرثني العلم، ويرث من آل يعقوب الملك، فأجابه الله تعالى إلى وراثة العلم دون الملك، وهذا مروي عن ابن عباس أيضًا. والثالث: يرثني نبوتي وعلمي، ويرث من آل يعقوب النبوة أيضًا، قاله الحسن. والرابع: يرثني النبوة، ويرث من آل يعقوب الأخلاق.
انظر: زاد المسير ٣/ ١١٨.
ويرجح البغوي ٥/ ٢١٩ وابن كثير ٥/ ٢١٢ والشنقيطي أن وراثة المال غير داخلة في مفهوم الآية، وعلى فرض دخولها فلا تنافي بينها وبين حديث: (لا نورث ما تركناه صدقة) فيكون ذلك من خصائصه التي أكرمه بها.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٩.

(٢) معالم التنزيل ٥/ ٢١٩.

أبيه، ولذا قال بعدها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ وقال قبلها: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

٢. وراثة الكتاب والعلم.

لما كان الدين قائمًا على الرسل وعلى أتباع الرسل وكانت النبوة فيمن اجتبى الله واختار من عباده، فكانت وراثة الكتاب لأتباع الرسل ومن يخلفهم دون وراثة النبوة.

ولما كانت وراثة النبوة اصطفاء واختيارًا من الله تبارك وتعالى، فقد جعل وراثة العلم والكتاب اختبارًا وابتلاء، ليعلم الله تبارك وتعالى، من يأخذ عن الأنبياء حمل هذا الدين بقوة وحق ومن يفرط فيه ويضيعه، فإن ضيعوه كانوا أبعد الناس عنه، وإن حفظوه وقاموا به كان أحق الناس به وشملهم الاصطفاء الذي جاء في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

إذ إن «الآل: في ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾ تشمل من اتبع هؤلاء الأنبياء بإحسان فيكون من ورث الكتاب بحق من المصطفين من أتباع الأنبياء.

والآيات التي جاء الحديث فيها عن وراثة الكتاب تدل على هذا المعنى، فقد قال تعالى عن بني إسرائيل بعد ذكر خبر نبي الله موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فيخبر الله تعالى عن قومٍ خلفوا من قبلهم ورثوا الكتاب، أي: انتقل إليهم انتقال الميراث، من سلفٍ إلى خلف[(١)].

فعهد الله إليهم بهذا الكتاب عملًا وتطبيقًا، ولكنهم خالفوا ذلك واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير فكانوا خلف سوء، كما قال قتادة: « والله لخلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم، ورثهم الله وعهد إليهم، فتمنوا على الله أماني وغرة يغترون بها، لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من أمر الدنيا أكلوه، ولا يبالون حلالا كان أو حراما»[(٢)].

وهذا هو معنى قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾.

وقال ابن زيد: « ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ قال: الكتاب الذي كتبوه، وإن يأتهم المحق برشوة، فيخرجوا له كتاب الله ثم يحكموا له بالرشوة. وكان الظالم إذا جاءهم

(١) انظر: معالم التنزيل ٣/ ٢٩٦، زاد المسير ٢/ ١٦٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٩٨.

برشوة أخرجوا له المثناة، وهو الكتاب الذي كتبوه، فحكموا له بما في المثناة بالرشوة، فهو فيها محق، وهو في التوراة ظالم، فقال الله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾»[1].

فهذا صنف من الأصناف الذين ورثوا الكتاب فضلوا وحادوا ولم ينفعهم ذلك الميراث شيئًا مع شرفه وفضله، والسياق في هذه الآيات يتحدث عن بني إسرائيل، ولشناعة هذا الأمر وقبحه أمر الله نبيه أن يقص قصة رجل ورث الكتاب وآتاه الله آياته فانسلخ من هذا الميراث عياذا بالله، فقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وهذا بلا شك أنموذج في غاية السوء فبعد أن علمه الله الكتاب فصار العالم الكبير والحبر النحرير انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله الذي يصير صاحبه متصفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال،، فترك كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزه إلى المعاصي أزًّا بعد أن كان من الراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، ولكنه فعل ما يقتضي الخذلان، فأخلد إلى الأرض، أي: إلى الشهوات السفليةوالمقاصد الدنيوية. واتبع هواه بترك طاعة مولاه[2].

والآية وإن كان الحديث فيها عمن جاء من بني إسرائيل ممن أوتوا التوراة إلا أن حكمها عامٌّ فيمن ورث كتاب الله فضيعه.

ولذا حكى ابن الجوزي في قوله: (ورثوا الكتاب) ثلاثة أقوال:

الأول: أنه التوراة.

والثاني: الإنجيل.

والثالث: القرآن[3].

وقال ابن كثير بعد أن ذكر أن المراد بالكتاب أنه التوراة: «وقد يكون اللفظ أعم من ذلك»[4].

ولذا قال الله تعالى عن اليهود والنصارى محذرًا أتباع النبي صلى الله عليه وسلم من

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٣٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن بتصرف ص ٣٠٩.

(٣) زاد المسير ٢/ ١٦٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٩٨.

الوقوع فيما وقعوا فيه: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: ١٤].

أما الصنف الآخر من الذين يرثون الكتاب فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

وهذا الصنف من الذين ورثوا الكتاب فعملوا بما ورثوا وما أوتوا - على تفاوتٍ بينهم - فأخبر الله تعالى أنهم من أهل الاصطفاء.

وفي ذلك يقول السعدي: «فكلهم اصطفاه الله تعالى لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان وعلوم الإيمان وأعمال الإيمان من وراثة الكتاب، لأن المراد بوراثة الكتاب وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه»[(١)].

وقد جاءت الوراثة في سياق التكريم بأن نسب الله الإيراث لنفسه جل وعلا، فهو الذي أورث، بخلاف السياق في سورة الأعراف والشورى، وفي هذا تكريم لأمة محمد وبيان للصورة التي ينبغي أن يكونوا عليها، ومع التفاوت الموجود بينهم، شريطة أن لا يرتكسوا في الهاوية ويستبدلوا عرض الدنيا بكتاب الله وينسلخون مما آتاهم الله، وفي ذلك يقول سيد قطب « وهي كلمات جديرة بأن توحي لهذه الأمة بكرامتها على الله كما توحي إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة. وهي تبعة ضخمة ذات تكاليف، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب؟! »[(٢)].

وقد عد الشنقيطي هذه الآية من أرجى الآيات في القرآن الكريم حيث قال: «ثم إنه تعالى بين أن إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير منه عليهم، ثم وعد الجميع بجنات عدن وهو لا يخلف الميعاد في قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ والواو في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ شاملة للظالم والمقتصد والسابق على التحقيق، ولذا قال بعض أهل العلم: حق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين، فوعده الصادق بجنات عدن لجميع أقسام هذه الأمة، وأولهم الظالم لنفسه، يدل على أن هذه الآية من أرجى آيات القرآن»[(٣)].

وهكذا كل من ورث الكتاب فقام به حق قيام كان له الفضل الكبير والأجر من الله، ولقد أثنى الله على من ورث الكتاب من بني

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٨٩.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٤.

(٣) أضواء البيان ٥/ ٤٨٩.

إسرائيل فحفظ هذا الميراث فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠].

وبهذا يتبين أن وراثة الكتاب لغير الأنبياء إنما هي وراثة اختبار وابتلاء، فمن ضيعها ضيعه الله، ومن حفظها وعمل بما ورث من هذا العلم فهو من المصطفين من عباده.

وفي ختام هذا النوع نلحظ أن الآيات التي جاء الحديث فيها عن وراثة الدين تدعو إلى مايلي:

- أن الله تعالى سمى أخذ الكتاب والعلم ميراثًا، وهذا الاسم يستدعي المحافظة على هذا العلم وعدم التفريط فيه بلا شك.
- اتباع سنن الأنبياء وهديهم الذين اجتباهم الله واصطفاهم لحمل رسالته، ولما ذكر الله في سورة الأنعام الأنبياء وذريتهم ممن أورثهم النبوة والكتاب قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠].
- أن العبد كما يحرص أن يترك ورثته أغنياء فليحرص أن يترك ورثته على دين وصلاح فيرثون الخير والصلاح والعبادة وهكذا تكون ذريته أهل دين وصلاح، فهذا نبي الله زكريا يقول: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٥-٦]، فكان حرصه عليه السلام أن يكون من ورثته ذرية صالحة طيبة.

والذي يتأمل آيات القرآن يرى أن الدعاء للذرية حاضر في القرآن، كما جاء من دعاء الأنبياء والصالحين في القرآن الكريم، والملاحظ في هذه الآيات أن الدعاء للذرية شمل الذرية القريبة ومن يأتي بعدهم، وهذا تأكيد على أن العبد يرجو من ربه أن تستمر ذريته في وراثة الصلاح والتقوى وعمارة الأرض بما يحبه الله ويرضاه.

- أن وراثة الدين بعد النبوة ليست تشريفًا محضًا، وإنما هو ابتلاء واختبار، فليست القضية بالتمني، فالدعاوى ما لم يصدقها العمل تغدو هباءً، ولذا قال تعالى مخاطبًا عامة الناس: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٣ - ١٢٥].

وهذه الآية قاطعة أن المعيار الحقيقي هو اتباع ملة إبراهيم حنيفًا، وهذا هو معنى وراثة الدين على الحقيقة، لا المحاجة في دين إبراهيم وأن يدعي كل فريق أن إبراهيم عليه السلام كان منهم.

ومن الادعاء في وراثة الدين والكتاب دراسة مسائله دراسة ظاهر دون العمل به والتمسك بما فيه، ولذا بين الله أن حقيقة الوراثة هو الاستمساك بالكتاب لا دراسته فقط فقال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

«فهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه! بلى! ولكن الدراسة لا تجدي ما لم تخالط القلوب. وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد. إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا، وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة ولا يأخذونه عقيدة ولا يتقون الله ولا يرهبونه؟!»[1].

أما التشريف الحقيقي: أن تكون وراثة الدين وراثة حقيقية بالاستمساك به والعمل، وهذا ظاهر من اللفظ القرآني حيث حذف الفاعل حين جاء الحديث في سياق الذم لمن ورث الكتب ولم يعمل به كما في سورة الأعراف: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وفي سورة الشورى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الشورى: ١٤].

ولما جاء الحديث في سياق المدح جاء ذكر الفاعل كما في آية سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [فاطر: ٣٢][2]

تذكر الدار الآخرة من أعظم ما يعين على وراثة الدين، وقد ختم الله جل وعلا الآية السابقة بقوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وكما ذكر ابن القيم في معرض حديثه على الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها: «إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة»[3].

ويقول سيد: « لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى إلا اليقين في الآخرة، وإنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويترفعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يتلفتون مطمئنين واثقين، ملء قلوبهم اليقين»[4].

٢. وراثة الأرض.

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٨٧.

(٢) انظر: التفسير القيم ص ٦٢٠.

(٣) التفسير القيم ص ٢٩٠.

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٨٨.

سبق الحديث عن الوراثة في حقِّ الله تعالى، وأنَّ لله تعالى ميراث السماوات والأرض كما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[آل عمران: ١٨٠].

وإذا كان الله جلَّ وعلا هو وارث أملاك الخلائق بعد فنائهم، وكلُّ ما في الأرض صائر إليه، فالله تعالى هو مالكها من حيث الابتداء، وهو يورثها من يشاء من عباده، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[الأعراف: ١٢٨].

ومن ثَمَّ يمكن تقسيم وراثة الأرض كما وردت في القرآن إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تملك الكافرين والظالمين واستخلافهم.

وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف: ١٠٠ - ١٠١].

والآية وإن كانت عامة فالسياق يدل على أنهم خلف سوء، ولذا ختمت الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ وقال السدي: أولم يتبين للذين يرثون الأرض من بعد أهلها هم المشركون [(١)]، وكما قال تعالى في حديثه عن الظالمين: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤٥].

وقد تضمنت الآية معنى الوراثة بلا شك، فدلت الآيات على ما يحصل من تسلط الكافرين والظالمين في هذه الأرض، وقد قصَّ الله تعالى علينا من قصصهم في القرآن ما فيه عبرة وتذكرة للمعتبرين.

ومن الأمثلة التي ضربها الله وقصها وصرفها في القرآن علو فرعون وتكبره، فقد أخبر الله تعالى عن شدة عتوه أن قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١].

ولذا قال تعالى مبينا شدة ظلمه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

لقد بلغ من عتوِّ فرعون وعلوه في الأرض من درجات الإفساد أشدها وأعظمها ومن تلك المفاسد:

أولًا: التكبر والتجبر؛ فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء

(١) جامع البيان ١٠/ ٣٣٥.

معاشرتهم وبث عداوته فيهم.

ثانيًا: أنه جعل شعبه شيعًا، فقرب بعضهم وأبعد بعضهم، وتولدت بينهم مفاسد عظيمة من الحقد والحسد والوشاية والنميمة.

ثالثًا: أنه جعل طائفة من أهل مملكته في ذلٍّ وصغار واحتقار، عذبهم ونكل بهم ومنعهم من حقوقهم وجعلهم عبيدًا للطائفة المقربة لديه.

رابعًا: اجتهد في قتل أطفال الطائفة المعذبة من الذكور حتى لا يكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم وحتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

خامسًا: كان يستحيي النساء، أي: يستبقى على حياة الإناث من الأطفال حتى يصبحن بغايا إذ ليس لهن أزواج، وكان قوم فرعون يحتقرونهن ويأنفون أن يتزوجوا بهن، ولم يبق لهن حظٌّ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة، فانقلب استحياء البنات إلى مفسدة عظيمة تصل إلى منزلة تذبيح الأبناء[1].

إن هذا مثال صارخ لنوع من وراثة الأرض، ولكنها وراثة بالظلم والقهر والإفساد في الأرض والقتل والبغي بغير الحق و وبما لا يرضي الله تعالى فكان جزاؤهم كما أخبر الله: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ضربة واحدة، فإذا هم هالكون، ومن التعالي والتطاول والاستكبار، إلى الهوي في الأعماق والأغوار، جزاء وفاقًا بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين»[2] وهذا جزاء كل وارث يبدل دين الله، ويظلم الناس ويقتلهم.

القسم الثاني: توريث المستضعفين وتمليكهم.

وهذه من سنن الله في وراثة الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

فلا يمكن للظلم أن يستمر، ومهما طال الظلم وانتفش، فقد اقتضت سنة الله أن يورث الأرض من بعده من وقع عليهم الظلم وذاقوا ويلاته.

وقد أخبر الله تعالى عن إرادته التي لا راد لها أنه سيورث الأرض من بعد فرعون لبني إسرائيل فقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٥ - ٦].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٦٨.

(٢) في ظلال القرآن، بتصرف ٣/ ١٣٦٠.

لقد كان بنو إسرائيل ينتظرون هذه الوراثة ويترقبونها، فمما كانوا يتدارسونه في قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك مصر على يديه ومع هذا الوعد الذي كانوا يتناقلونه ومع خروج نبي الله موسى بينهم كان العذاب والاضطهاد والإيذاء الذي يجدونه من فرعون يكاد ينسيهم هذا الوعد، حتى قال لهم موسى عليه السلام مذكرًا ومصبرًا: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فما كان منهم إلا أن قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وتأمل قوة يقين موسى عليه السلام وفقهه السنني، فهو لا يحمل هم وراثة الأرض والاستخلاف، فهو وعد الله جل وعلا، إنه يحمل هم العمل بعد وراثة الأرض، إنه يحمل هم التمكين بعد التوريث، ولذا قال لهم: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

ويستمر الاضطهاد والتعذيب حتى يأتي وعد الله ويتحقق ما أراد الله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل فرعون، يسومونهم سوء العذاب[1]، وكما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩].

وقد جاء الحديث عن بعض مظاهر هذه الوراثة في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۚ كُلُوا۟ مِن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٣٠١.

﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: ١٦٠].

والذي يظهر من هذه الوراثة أنها وراثة تمليك وتقلب، جزاء صبرهم وما لاقوه من الأذى والاضطهاد، وهي كذلك وراثة تمحيص وابتلاء كما هو ظاهر من تذييل الآيات السابقة، وقد روى الطبري في ذلك: « أن الله جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر، وإنما ابتلاهم بالتيه بامتناعهم على موسى في حرب الجبابرة إذ قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: ٢١].

إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

فحرم الله جل وعز على قائل ذلك فيما ذكر لنا دخولها حتى هلكوا في التيه وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة، ثم أهبط ذريتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع يوشع بن نون بعد وفاة موسى بن عمران. فرأينا الله جل وعز قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة ولم يخبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها»[1].

من خلال ما سبق يتبين أن هذه الوراثة وراثة تمليك وتقلب في البلاد لجيلٍ ذاق الظلم والاضطهاد والاستضعاف، حتى خرج من بوتقة العبودية وظلام الاستعباد إلى رحابة الحرية ونور الاستخلاف، وهذه نعمة وأي نعمة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

ولكن هذه الوراثة لا تؤهله بعد لوراثة التمكين، لقد خرج من الاستعباد نعم ولكنه خرج مثقلًا بآثار الاضطهاد والاستضعاف، وليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلًا، ومن الحياة في ظل الإرهاب والخوف والتخفي والالتواء لتفادي الأخطار والعذاب والحركة في الظلام، مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء!

ولقد عاش بنو إسرائيل في هذا العذاب طويلًا، فأورثهم الله الأرض ليمحصهم ويهذبهم ويستصلح نفوسهم من هذه الآثار حتى يكون فيهم أو منهم جيل الوراثة التي يريدها الله، وهو النوع الثالث من أنواع وراثة الأرض.

(١) جامع البيان ٢/ ٢٣.

القسم الثالث: وراثة التمكين في الأرض.

وهذه الوراثة تفهم من عمومات الآيات التي تحدث عن وراثة الأرض كقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فالوراثة عامة تشمل النوع الثاني وهذا النوع.

كما دل على هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

أي: أرض العدو، يورثها الله المؤمنين في الدنيا[1]، كما قال تعالى في مبينا نعمته على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومبشرًا لهم بقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ومن الآيات الدالة على ذلك كذلك قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور: ٥٥].

وحقيقة هذه الوراثة يبينها سيد قطب بقوله: «لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله.

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل[2] كفة وترجح كفة، وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة، وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة، وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا، ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق، والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح، فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم.

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ، ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح، وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح

(١) انظر: أضواء البيان ٤/ ٢٥٠.
وفي الآية قول آخر تحتمله الآية: أن الوراثة هي وراثة الجنة.

(٢) أي: تخف كفة، تقول العرب: شال الميزان، إذا ارتفعت إحدى كفتيه لخفتها.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١١/ ٢٨٢.

الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان.

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم، وهو العمل الصالح، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله، وتجري سنته: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون»[1].

وقد ضرب الله لنا في القرآن أنموذجًا لهذه الوراثة في قصة ذي القرنين، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٣ – ٨٤].

وتأمل قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بتذليل الطرق وتسهيل السير فيها، وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ أي: أعطيناه من كل شيء يحتاج إليه الخلق، وفيهما من الدلالة على قوة التمكين والتسخير بلوغه غاية عظيمة في ذلك حتى قال بعض المفسرين: معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني: تعليم الألسنة كان لا يغزو قوما إلا حدثهم بلغتهم.

وقص الله لنا كيف سخر هذه الإمكانات التي آتاه الله إياها في عمارة الأرض حتى بلغ من الأرض ما انتهى إليه ولا يمكن لأحد أن يتجاوزه، فلما بلغ تلك الجهة ورأى مغرب الشمس، ذكر تعالى أنه حكم في تلك الناحية: ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف: ٨٦-٨٧].

فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة، ويبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٨].

فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة وعطف عليه الإحسان منه إليه وهذا هو العدل والعلم والإيمان، ثم انتقل بعد ذلك راجعًا إلى المشرق فرأى في تلك الجهة قومًا ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون بها من حر الشمس حتى قيل: إنهم كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور.

ولما كان سيره ووراثته للأرض وراثة إعمار وطاعة، كان محفوظًا بحفظ الله وستره وعنايته في مسيره كله، وذلك قول الله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ [الكهف: ٩١].

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، فذكروا له أن يأجوج ومأجوج قد تعدوا عليهم، وأفسدوا

(١) في ظلال القرآن، بتصرف ٤/ ٢٤٠٠.

في بلادهم، وقطعوا السبل عليهم.

وبذلوا له خراجًا على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزا يمنعهم من الوصول إليهم، فامتنع من أخذ الخراج اكتفاءً بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥].

ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالًا وآلات ليبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج ردمًا، وهو الحاجز الحصين الموثق بعضه فوق بعض، مع التلاصق المتلاحم الموجب لأن لا يميز بعضه من بعض، وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما، وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة، فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب، فجعل بدل اللبن حديدا وبدل الطين نحاسا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٧].

أي: يعلو عليه بسلالم ولا غيرها وما استطاعوا أن ينقبوه بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها.

وبعد هذا قال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

أي: قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم في تلك المحلة[1].

ولما وصف الله ورثة هذا النوع بأنهم الصالحون، وضرب الله لنا أنموذجًا واقعيا من هؤلاء الصالحين، فيمكن لنا أن نتلمس أبرز سمات هؤلاء الوارثين:

أولًا: الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا ظاهر في طريقة حكمه، حيث جعل الميزان هو ميزان الحق تبارك وتعالى، وأن حكمه الدنيوي لا يساوي شيئًا أمام حكم ملك الملوك جل وعلا في الإساءة والإحسان على السواء، ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨].

وهذا يدل على مدى إيمانه بالله وتذكره الدار الآخرة، ولم ينسه ما هو فيه من الملك والتمكين هذه الحقيقة.

ثانيًا: الجد والاجتهاد والسعي قدر الطاقة، فقد جد ذو القرنين حتى بلغ ما انتهى إليه علمه من جهة المغرب، ثم سار إلى الجهة المقابلة حتى بلغ منتهاها ولا يقدر على مثل ذلك إلا من اجتهد وجد بكل ما آتاه الله من قوة، دون تضييع لها أو تفريط.

ثالثًا: بذل الخدمة وتقديم النصح والمساعدة، وهكذا هم الوارثون يبذلون الخدمة والمساعدة لمن يحتاج، وخصوصًا إذا بلغت الحاجة حد الضعف الذي يجرؤ الأعداء عليهم، وحد الجهل الذي يورثهم

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٢٦.

العجز وسوء التدبير، وهذا كان واقع الذين طلبوا من ذي القرنين بناء السد، فقد تسلط عليهم يأجوج ومأجوج ظلمًا وبغيا، ومع ذلك فهم لا يكادون يفقهون قولا.

رابعًا: استغلال الثروات والموارد البشرية: فالوارثون هم من يستثمرون الثروات في تنمية الأوطان وازدهارها، فحين طلب القوم من ذي القرنين بناء السد، لم يكن منه إلا أن أحسن إدارة الثروات والاستفادة منها، فقد كان الحديد والنحاس بين أيديهم، وهم الذين بنوا وشاركوا وعاونوا كما دل على ذلك واو الجماعة في: ﴿فَأَعِينُونِي﴾ ﴿مَا ءَاتَوْنِي﴾ ﴿انفُخُوا﴾ ﴿قَالَ مَا ءَاتَوْنِّي﴾، فالوارث على الحقيقة هو من يستطيع أن يسخر الناس في خدمة أوطانهم وبلدانهم، وأن يستثمر ثرواتهم في تنميتها، أما الظالم فهو الذي يجعل من الثروات طريقًا للجشع ونهب ثروات البلاد بغير حق، ويستغل جهل الناس وضعفهم في إذلالهم واستعبادهم.

خامسًا: تذكر نعمة الله ونسبة الفضل له، وهذا ظاهر من قول ذي القرنين بعد اكتمال السد: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[الكهف: ٩٨].

وفي ختام هذا المبحث نلحظ أن الآيات التي جاء الحديث فيها عن وراثة الأرض تضمنت ما يلي:

١. أن الظلم والفساد والعمل بمعصية الله في المجتمعات سبب في نزع هذه الوراثة.

وقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وهذا الآية عامة، وقد أخبرنا الله بما حصل لبني إسرائيل بسبب ذنوبهم وكيف نزعت منهم الوراثة أبد الآبدين فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ومن ذلك ما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: ٤ – ٥].

وذلك أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء[1].

والعموم في الآية الأولى هو تحذير لكل من دخل في هذا العموم، وقد جاء التحذير

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثر ٥/ ٤٨.

باستبدال الوراثة صريحًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨ - ٣٩].

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته، بأن ضياع الدين وترك شرائعه سبب في الذب وتسلط الأعداء، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[1].

قال سيد قطب: «وليس العذاب الذي يتهددهم هو عذاب الآخرة فقط، بل عذاب الدنيا والآخرة، عذاب الذل الذي يصيب القاعدين عن الجهاد، عذاب الحرمان من الخيرات التي يستفيد منها العدو الكافر ويحرمها أهلها، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الجهاد، ويقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء، وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل فدفعت مرغمة صاغرة أضعاف ما كان يتطلبه منها جهاد الأعداء»[2].

٢. تسليط الظالمين وعلوهم في الأرض

بين الله تعالى بعض أسبابه ومقاصده.

منها: الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾﴾ [محمد: ٤].

فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبدا، حتى يبيد المسلمون خضراءهم، ولكن الله سبحانه له الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ فيعلم المجاهدين منكم والصابرين فيثيبهم، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق[3].

ومنها: الرجوع إلى الله تعالى والتوبة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، رقم ٣٤٦٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٣٦، رقم ٤٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٥٥.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٦٩، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٦٨.

عمران: ١٦٥].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ دعوة للمحاسبة والمراجعة في تخلف أسباب النصر من النزاع أو مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك.

ومنها: تمييز الخبيث من الطيب، ومعرفة من يتبع الدين رضًا وقناعة ممن يتبعه حال الرخاء، فإذا حصلت الشدائد انقلب على عقبيه، نسأل الله العافية.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

٣. أن توريث الله تعالى لعباده المستضعفين والمسلمين بعد تسلط الظالمين، منة ونعمة منه سبحانه كما في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥].

ثم تأتي مرحلة الاختبار والابتلاء ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فإن قاموا بما أمر الله من العمل والعبادة والصلاح حصل لهم التمكين والوراثة التامة التي أخبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

٤. أهمية النظر في القصص التي قصها الله تعالى من قصص الوارثين على تنوعها والاعتبار بها.

تمثل قصة ذي القرنين نموذجًا مشرقًا من وراثة الأرض كما يحب الله ويرضى حيث جمع بين أداء حق الله في الأرض بالإيمان والعمل الصالح، والقيام بحقوق المخلوقين، واستثمار الموارد والثروات في تكثير الخير وتقليل الشر.

٣. وراثة الميت.

جاء الحديث عن وراثة الميت في سورة النساء، وكان أول ما نزل في المورايث قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النساء: ٧].

وكانت هذه الآية ممهدة وموطئة لما يليها من الأحكام، فقد أصبح من المسلمات لدى العرب في الجاهلية أن المرأة لا حق لها من الميراث وقضوا على ذلك العقود بعد العقود، فإذا جاء تشريع المواريث مبينا الأحكام التفصيلية ومقدار ما يستحقه كل من الذكر والأنثى، سيشق ذلك على الناس وقد لا تقبله النفوس مباشرة.

فكان من الحكمة أن تأتي آية تشريع المواريث ممهدة لبيان الأحكام التفصيلية، لتهيئ النفوس لقبول حكم الله والإذعان له[(١)].

فقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النساء: ٧].

إجمال لما سيتبع من البيان، وإبطال لما قد كان.

وكان التمهيد في هذه الآية بما يلي:

أولًا: أن تقدير المواريث حق لله تبارك وتعالى، وفريضة من الفرائض التي يجب الالتزام فيها بأحكام الله، وإبطال أحكام الجاهلية وإلغائها، وقد ختمت الآية بقوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ تقريرًا لهذا المعنى.

ثانيًا: إثبات حق المرأة في الميراث، لا كما يفعله أهل الجاهلية، وحماية حقها وتفصيل هذا في الحكمة الثالثة من حكم المواريث كما سيأتي بيانه.

ثالثًا: بيان علة الميراث وهي: القرابة، كيفما تصرفت من قريب أو بعيد.

رابعًا: أن نصيب كل من الرجل أو المرأة محدد معين لامجال فيه للآراء أو العادات[(٢)].

وفي هذه التوطئة من تثبيت القلب وتخفيف التكليف الذي يخالف عادة الجاهلية ما يرفع الحرج ويزيل المشقة، وهذا من رحمة الله وإرادته الخير لعباده حتى يذعنوا ويطيعوا، فهو سبحانه لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين، وما هذا التيسير إلا من اصطفاء الله واختياره لهذه الأمة.

ثم جاء الحديث عن المواريث ومقاديرها مفصلة في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٣٢٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٤٩.

كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ [النساء: ١١-١٢].

ثم جاء بيان بعض أحكامها في آخر سورة النساء بقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٦].

كما جاء في آخر سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٧٥].

وقد تضمنت هذه الآيات جملة من مسائل المواريث موضعها في كتب الفقه، وأحكام القرآن[1].

وقد تضمنت الآيات من الحكم العظيمة والغايات الجليلة ما يدعو إلى الامتثال والتطبيق وربطها بمقاصد الشريعة وغاياتها ومن ذلك:

١. تقوى الله تعالى.

ورد النص القرآني صريحا مبينا أن امتثال التقوى يقود إلى الصواب والرشاد، فقال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: ٩].

فجاء الأمر بالتقوى الذي في امتثاله صلاح العبد وتوفيقه إلى القول السديد، سواء في ذلك المورث حال وصيته أو من حضره حال الوصية.

فإن كان يخشى إن هو أوصى بماله للفقراء والمساكين أن يضر بورثته وأولاده، فعليه أن يتقي الله في هؤلاء الورثة وألا

(١) انظر: الفقه الميسر من الكتاب والسنة، مجموعة مؤلفين ١/ ٣٢٨.

يدعهم فقراء[1]، وهذا من السداد.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: (الثلث والثلث كثيرٌ، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس في أيديهم وإنك مهما أنفقت من نفقةٍ فإنها صدقةٌ حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناسٌ ويضر بك آخرون) ولم يكن له يومئذٍ إلا ابنةٌ[2].

وكذلك فإن من حضر الميت أثناء وصيته ورأى في وصية الميت ما يضر بورثته، فعليه أن يتقي الله ويجعل ورثة الميت مكان أولاده، فهل يرضى لهم ما يرضى لأولاده، فإذا رآه أوصى بما يضر بورثته فعليه نصحه وتوجيهه إلى الهدي النبوي والشرع الإلهي.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة[3].

أما إن غلب على ظنه أنه لو أوصى للفقراء والمساكين ألا يضر بورثته، فإن ذلك من التقوى، فكما أنه يحب أن يحسن إلى ذريته فعليه أن يتقي الله في الفقراء والمساكين.

٢. بيان عدل الله تعالى.

فإن الله - جلت حكمته- فرض عند اجتماع الذكور والإناث في الميراث أن للذكر مثل حظ الأنثيين سواء كانوا أولادا أو إخوة فقال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ الآية [النساء: ١١].

وقال: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٦].

وفي هاتين الآيتين تتجلى مظاهر العدل للقارئ المتبصر في أمرين:

الأول: التسوية بين الذكور فيما بينهم من الميراث، وبين الإناث كذلك.

فلقد كان أهل الجاهلية يورثون من الذكور الأكبر فالأكبر ولا يعطون الصغير شيئا، معللين ذلك بأن الكبير أنفع لهم من الصغير، فأبطل الله هذا الحكم وأمر بالتسوية بين الذكور فيما بينهم ملغيا في ذلك أي علة يراد منها تغيير فرض الله الذي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٢٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، رقم ٢٥٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم ١٦٢٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٩.

فرضه [1] فقال: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١].

ولذلك فقد جاء التعبير بلفظ: (الذكر والأنثى) دون ذكر (الرجال والنساء) في هذه الآية للتنصيص على استواء الصغار والكبار من الفريقين في الميراث دون البلوغ [2].

وهذا عدل منه جل وعلا، فلئن كان الكبار أحوج إلى المال لحملهم السلاح في نظر قوم فإن الصغار الذين لا يستطيعون التكسب والحصول على المال هم أحوج في نظر آخرين فكان العدل في ذلك هو ما حكم به أحكم الحاكمين.

الثاني: تفضيل الذكر على الأنثى في هذه الحالة.

فإن من عدل الله تبارك وتعالى عدم التسوية بين الرجال والنساء في الميراث، وكيف يسوى بمن فرق الله بينهما وفضل بعضهما على بعض فقال: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وقد بين الله تبارك وتعالى أن هذه القسمة أعدل قسمة وأقومها، وأن من رام غيرها فهو في ضلال كما ذكر في آخر سورة النساء.

وإذا وجد من يعترض على توريث النساء لضعفهن وعدم قيامهن بما يقوم به الرجل ووجد من يعترضون على عدم التسوية بين الرجل والمرأة فقد رد الله جل جلاله عليهم جميعا بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢].

فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (يا رسول الله: تغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث! فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ﴾ [3].

فالله تبارك وتعالى هو العدل ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وتتجلى مظاهر العدل لنا في هذه القسمة الربانية بما أخبر الله تعالى عن الرجال والنساء في قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ﴾ [النساء: ٣٤]

(١) انظر: جامع البيان ٧/ ٣٢، تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٢٦، روح المعاني ٤/ ٢٢٨.

(٢) انظر: روح المعاني ٤/ ٢١٧.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/ ٢٦١، وابن أبي حاتم في التفسير ٤/ ١٣٢، والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة النساء رقم ٣٠٢٢، والإمام أحمد في المسند رقم ٢٦٧٧٩، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النساء برقم ٣١٩٥، كلهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.
قال الترمذي: هذا حديث مرسل.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، إن كان سمع مجاهد من أم سلمة.

فإن الله تبارك وتعالى جعل الرجال أكمل من النساء، ولما كان ضعف النساء ونقصهن جبلة وطبيعة خلقهن الله عليها، فقد كلف الرجال بما لم يكلف به النساء، وجعل المرأة الضعيفة تحت نظر الرجل، ولذلك فإن الرجل مكلف بالإنفاق عليها والقيام على حوائجها دون أن يطلب منها ذلك، فالرجل أحوج منها للمال لما يجب عليه من النفقة وتكلف معاناة التكسب والتجارة، ولذلك كان من العدل أن يكون ميراثه ضعفي ميراث الأنثى.

ثم إن هذا المال الذي ورثاه لم يتعبا في جمعه، وليس هو حق من أحدهما أعطي للآخر، بل هو فضل من الله وتمليك منه سبحانه ملكهما إياه تمليكا جبريا، فاقتضت حكمته سبحانه أن يضاعف للرجل لأنه مترقب النقص بالنفقة ودفع المهور، والبذل على نوائب الدهر.

بينما المرأة مترقبة للزيادة بدفع المهر والميراث لها، والنفقة عليها، وإيثار مترقب النقص دائمًا على مترقب الزيادة دائمًا لجبر بعض نقصه المترقب، حكمة ظاهرة واضحة لا ينكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي[1].

ومن كمال عدل الله أنه لم يطرد في الميراث تفضيل الذكر على الأنثى، بل هناك من الأحوال ما يتساوى فيه الذكر والأنثى، كما في قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١].

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ [النساء: ١٢].

كما ذكر العلماء حالة اختلف فيها العلماء، وظاهر النص يقتضي تفضيل الأنثى على الذكر في الميراث، في حال ماتت امرأة وتركت زوجًا وأبوين وبنتًا أو بنتين.

والعجب ممن يتهم الإسلام بظلم المرأة، وهو الذي أنقذها من أن تورث كما يورث المال، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩].

«وإذا نظرنا إلى النظام الشائع خارج العالم الإسلامي نرى أنه يعطي المورث الحق في توزيع تركته بين من يخلفه من أولاده وغيرهم وفق رأيه ورغبته، وفي الغالب أن المورث يفضل إيثار الذكور من أولاده بالميراث، أما بقصد عدم خروج المال عن العائلة أو بقصد آخر، وهذا أمر يظهره الواقع.

فالإرث في الإسلام يحمي المساواة بين الذكر والأنثى بأن يكون لكل منهما نصيب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٢٥، روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢١٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٢٢.

من الإرث يقدره العليم الحكيم لعوامل مختلفة ويحصنها من أهواء أو رغبات المورثين ويستجيب بذلك لمقتضيات المنطق والعدل، فالنظام الإسلامي كما هو ظاهر يحمي المساواة بين الذكر والأنثى ولا ينتهكها»[1].

ومن كمال عدل الله تعالى في المواريث: أن رفع مكانة المرأة بأن جعل لها نصيبًا مقدرًا، وقد كانت لا ترث، بل إن سبب نزول آيات المواريث هي في حماية حقوق المرأة حين اشتكت امرأة سعد بن الربيع في أخذ مال ابنتيها.

ومن كمال حفظ حقها: أن الله تعالى بين مقادير الإرث في القرآن فذكر النصف والربع والثلثين والثلث والسدس ونحو ذلك، ولم يذكر عدد ركعات الصلوات، ولا مقادير الزكاة ولا أنصبتها في القرآن، مع أن الصلاة في الإسلام هي أعلى شأنًا من المواريث، وهذا فيه بيان لشأن الميراث، وأن الظلم فيه إثم عظيم وخطر كبير، فكيف يقال إن المرأة في الإسلام ظلمت في ميراثها؟!

بل جعل نصيب المرأة في الميراث هو الأصل، فقال جل وعلا: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

ولم يقل للأنثى نصف حظ الذكر، وهذا يبين أن المرأة أخذت حقها تمامًا غير منقوص.

٣. النهي عن الضرر.

وقد ورد في آيات المواريث النهي عن الضرر في الوصية، فإن الله تعالى لما بين ما للورثة من حق وما للموصى لهم من حق ختم الآية بالنهي عن الضرر فقال: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢].

أي: لا يدخل الضرر على الورثة بالوصية التي يوصي بها الميت، وذلك أنه لما كان الموصى لهم والورثة شركاء فيما بقي من التركة بعد أداء الدين نهى الله عما يضر الورثة في مال مورثهم لما يلحقهم من المشقة والحرج.

ثانيًا: الوراثة الأخروية:

تبين في المباحث السابقة سنة الله في وراثة الحياة الدنيا، قرون تليها قرون، وأجيال ترثها أجيال، وأحياء يرثون أمواتًا، وهكذا تمضي الحياة منذ خلق الله آدم حتى يأتي اليوم الذي أخبر الله عنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

فلا بقاء في الدنيا ولا خلود، وهذه الحقيقة التي حاول الكفار التشكيك فيها،

(١) انظر: مقالات وأبحاث، صالح الحصين ص ١١١.

فكان هذا الرد قاطعًا للأطماع مؤيسًا للآمال.

هذا هو الجزء الأول من الحقيقة، أما الشطر الثاني وهو الأعظم ألا وهو: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

وهذه هي الحقيقة التي تمايز فيها أهل الكفر وأهل الإيمان، إنها حقيقة اليوم الآخر.

فأما الكافرون والمعاندون فكان حالهم التشكيك والتكذيب والاستهزاء كما جاء خبرهم في غير آية، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصافات: ١٥-١٧].

وكقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧].

وكقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٣-٤].

والآيات كثيرة في بيان حال الكافرين في استهزائهم وتكذيبهم باليوم الآخر.

وأما الصالحون الأبرار فكان إيمانهم باليوم الآخر من أعظم الدوافع للسعي إلى ما يرضي الله، وتحمل المشاق والأذى في سبيل مرضاته، كقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ٨-١٠].

كما جاء الحديث عن اليوم الآخر في القرآن متكاثرًا متنوعًا، فتارة يرد في وصف المتقين، وتارة يأتي في سياق الشرط المقتضي للقيام بأمر من أوامر الله، وتارة يأتي في سياق النفي في ذم الأعمال التي تغضب الله تعالى، لما للإيمان بهذا اليوم العظيم من الأثر البالغ في التقرب إلى الله، وقد جاء تصوير حال أهل الكفر وأهل الإيمان في الدنيا ثم حالهم في الآخرة وأثر الإيمان بهذا اليوم من عدمه على الفريقين، وهو تصوير بليغ يبين عظم منزلة هذا اليوم، وأن الفوز الحقيقي هو الفوز به.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦].

والمعنى: هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم، كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة؟ فيكون هذا القول زائدا في سرورهم، لأنه يقتضي زيادة في تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم،[1]، وما أعظم هذه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٩٥.

الكلمة وأشدها على الكفار، فجمع لهم بين العذاب الحسي والعذاب النفسي، حين يتذكرون صنيعهم وتكذيبهم، فإذا هم قد عاينوا العذاب ووقع بهم.

وقد جاءت الآيات متكاثرة في وصف ما أعد الله للمتقين وما أعد للكافرين في الآخرة، والملاحظ في التعبير القرآني أن هناك بعض الألفاظ التي جاءت مشتركة في بيان ما أعد الله لأهل الجنة وأهل النار، وهناك ألفاظ اختصت بما أعد الله لأوليائه في الجنة، ومن هذه الألفاظ: لفظ الوراثة، فقد اختص بما أعد الله لأهل الإيمان كما في قوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣].

وكقوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾ [الزخرف: ٧٢].

وقوله: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم: ٦٣].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

وسر اختصاص هذا اللفظ بأهل الجنة والله أعلم أن لفظ الوراثة يفيد استحقاق أهل التوحيد للجنة بأكمل أنواع الاستحقاق، فالوراثة أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل برد ولا إسقاط[(١)].

قال الزمخشري: الجامعون لهذه الأوصاف هم الوارثون الأحقاء بأن يسموا وراثا دون من عداهم[(٢)].

وقال ابن الجوزي: « قال بعضهم: لما سمي الكفار أمواتًا بقوله: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ وسمى المؤمنين أحياء بقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ أورث الأحياء الموتى»[(٣)].

يتضح مما سبق أن الوراثة الأخروية هي وراثة تكريم ورفعة اختص الله بها أهل الجنة نسأل الله أن نكون من أهلها، وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما منكم من أحدٍ إلا له منزلان: منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا مات، فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾)[(٤)].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٥.
(٢) الكشاف ٣/ ١٧٧
(٣) زاد المسير ٢/ ١٢٢
(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٧/ ١٥ وابن ماجه في سننه، باب صفة الجنة، رقم ٤٣٤١ ٢/ ١٤٥٣.
قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٤/ ٢٦٦: صحيح على شرط الشيخين.

أسباب الوراثة

أولًا: أسباب الوراثة الدنيوية:

من أسباب الوراثة الدنيوية:

أولًا: تعاقب الأجيال، ومن خلال التأمل في آيات الورثة يظهر لنا أن تعاقب الأجيال سبب في وراثة الكتاب، ووراثة الأرض، ووراثة الميت.

فأما وراثة الكتاب فقد قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «الخلف من بعد ستين سنة»، وعن قتادة قال: «ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم، أورثهم»[(١)].

وأما ورثة الأرض، ففي قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

قال البغوي: «من بعد هلاك أهلها الذين كانوا فيها قبلهم»[(٢)].

وأما ورثة الميت، فقد أخبر الله الإرث لمن يخلفه الميت بعد وفاته من أولاده وقرابته، وقد قسم العلماء أسباب الإرث من خلال آيات المواريث إلى أقسام وهي:

١. النكاح، وهو عقد الزوجية الصحيح بشاهدين وولي، ولو لم يحصل به وطء ولا خلوة، لعموم قوله تعالى ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ [النساء: ١٢].

٢. النسب، أي القرابة من الميت، وهي: الاتصال العضوي بين إنسان وآخرين بولادة قريبة أو بعيدة، وتشمل الأصول، والفروع، والحواشي. فالأصول: هم الآباء والأجداد وإن علوا بمحض الذكور، والفروع: هم الأولاد وأولاد البنين وإن نزلوا، والحواشي: هم الإخوة وبنوهم وإن نزلوا، والأعمام وإن علوا، وبنوهم وإن نزلوا.

٣. الولاء، وهو رابطة سببها نعمة المعتق على رقيقه بالعتق، ولا يرث العتيق معتقه بالإجماع، فانحصرت أسباب الإرث في اثنين: النسب، والزواج الصحيح.

ثانيًا: العمل الصالح، فالصلاح من أسباب وراثة الأرض كما ذكر تعالى في قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وهذه الوراثة هي: وراثة التمكين، وما مكن الله لهم إلا بسبب صلاحهم وتقواهم كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٠٧.
(٢) معالم التنزيل ٣/ ٢٦١.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ثانيًا: أسباب الوراثة الأخروية:

جاء الحديث عن أسباب الوراثة الأخروية في القرآن الكريم على ضربين: حيث جاء الحديث عنها إجمالًا في عامة الآيات التي تحدثت عن وراثة الآخرة فأجملت الآيات أن سبب هذه الوراثة هي الأعمال المتعلقة بوصف الإيمان والتقوى، وهذا معنى رحب وواسع في الدلالة على تعدد الطرق الموصلة إلى هذه الوراثة وتنوع أسبابها.

قال ابن كثير: « أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحدا عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته. وإنما الدرجات تفاوتها بحسب عمل الصالحات»[(١)].

كما أن التعبير بالمضارع « تعملون» فيه الدلالة على الاستمرار والتجدد اللذان يفيدان أن العمل الصالح كائن منهم ومستمرون عليه إلى وفاتهم[(٢)].

وجاء الحديث عن هذه الأسباب مفصلًا في سورة المؤمنون، فقد فصلت الآيات في ذكر بعض الأسباب وذلك في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١-١١].

وهذه الصفات هي كما يلي:

١. الخشوع في الصلاة بحضور القلب مع الاستحضار لما يقوله العبد في صلاته من أولها إلى آخرها.
٢. الإعراض عن اللغو، وهو الكلام الذي لا فائدة فيه، ولا خير يرجى منه، وهذا فيه دلالة على إعراضهم عما هو أشد منه من سائر المحرمات التي رتب عليها العذاب.
٣. أداء الزكاة، طهرة لأموالهم وتزكية لأنفسهم، وقد جمعوا في ذلك بين عدم إيذاء الناس بالإعراض عن اللغو، والإحسان إليهم.
٤. حفظ الفرج عما لا يحل له، كالزنا ومقدماته من النظر واللمس ونحوهما، وتحصين أنفسهم بما يحول دون وقوع ذلك بابتغاء الحلال من النكاح، والإماء المملوكات.
٥. رعاية الأمانة والعهد، بحفظهما

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٣٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٥٦.

والحرص على أدائها، وهو لفظ عام يشمل العهد الذي بينهم وبين الله و والعهد الذي بينهم وبين الناس.

٦. المداومة على الصلاة في أوقاتها حفظًا لها، مما يدل على أنها حاضرة نصب أعينهم لا يتطرق لغليها السهو أو النسيان.

وإيثار هذه الصفات دون غيرها فيها دلالة على ما يلي:

- أهمية هذه الصفات وعظم منزلتها.
- أنها صفات متضمنة لغيرها من الصفات أو مستلزمة لصفات معها، فالخشوع في الصلاة يتضمن الانتهاء عن الفحشاء والمنكر كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].
- ، والإعراض عن اللغو، يلزم من الإعراض عن غيره من باب أولى كالغيبة والنميمة والسخرية والاستهزاء وغيرها من المحرمات أو الكبائر.
- أنها صفات جامعة، كصفة الإيمان الجامع لأعمال البر القولي والعملي والقلبي، وصفة رعاية العهد الجامع للعهد بين العبد وبين ربه والعهد بين العبد وبين غيره.

وهذه الأسباب مما ذكر مجملًا أو مفصلًا، ترجع إلى سبب واحد وتتفرع عنه ألا وهو فضل الله ورحمته، وهو السبب الأعظم، والمتأمل للآيات يلاحظ أن الآيات التي أرجعت السبب فيها إلى العمل جاء السياق فيها خبرًا عن الله جل جلاله، أو وصفًا منه تعالى لعباده المؤمنين.

وهذا تفضل منه جل وعلا، ولذا لما جاء الحديث على لسان أهل الجنة أرجعوا السبب إلى الله تعالى مسبب الأسباب وإلى فضله ورحمته فقالوا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥].

وهذا دليل على كمال إيمانهم، وتعظيمهم لله ومعرفتهم بقدر أعمالهم التي لولا فضل الله ورحمته لما اغنت عنهم شيئًا.

وفي ذلك يقول الشنقيطي: «إن العمل لا يكون سببا لدخول الجنة إلا إذا تقبله الله تعالى، وتقبله له فضل منه»[(١)].

ويقول الخازن: «إن دخول الجنة بسبب الأعمال والتوفيق للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل»[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود قال: (تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقتسمون المنازل بأعمالكم)[(٣)].

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٤.
(٢) لباب التأويل ٣/ ٧٥.
(٣) انظر: الدر المنثور ٧/ ٣٩٤.

مقاصد الوراثة

تتعدد مقاصد الوراثة وتختلف باختلاف أنواعها:

فوراثة النبوة والكتاب هي اصطفاء من الله لعباده، كما قال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: ٧٥].

وكان من دعاء داود وسليمان عليهما السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

وما هذا إلا استشعار هذا الاصطفاء من بين عباد الله المؤمنين.

وأما وراثة العلم، فقد جعلها الله اختبارًا وابتلاء، ليعلم الله تبارك وتعالى من يستحق هذا الإرث بحقه فيكرمه به في الدنيا ويجازيه عليه في الآخرة أو من يفرط فيه ويضيعه، فيكون وبالًا عليه نسأل الله السلامة والعافية.

وكذلك الأمر في وراثة الأرض، فقد جعلها الله تبارك وتعالى اختبارًا لينظر من يعمرها بالطاعة أو من يفسدها بالمعصية، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ومن مقاصد وراثة الأرض كذلك الاعتبار بتقلب الأحوال، وتمكين المستضعفين وإهلاك الجبابرة المكذبين كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥].

أما وراثة الميت فمن مقاصدها: الرضا بحكم الله وامتثال أمره: ويتضح ذاك في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: ١١].

وهذه الآية هي آية المواريث التي بين الله فيها ميراث الأولاد والوالدين وقدر نصيبهم من تركة الميت، وقد ختمها الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾.

وحكمة ختم الآية بهذين الاسمين المشتملين على صفتي: العلم والحكمة لله تعالى، لما في ذلك من إرشاد الخلق

إلى امتثال أمر الله جل وعلا في تقديره للمواريث وفرضها على عباد الله لكونها تشريع من هو أعلم بعباده إذ هو خالقهم، وهو الحكيم الذي أحكم هذه القسمة، وله الحكمة البالغة في تقدير ما يصلح العباد وما ينفعهم، فلا مجال لمن آمن بذلك إلا التسليم والرضى.

ولربما خطرت للنفس خاطرة بأن التركة لو قسمت على غير هذا الوجه لكانت أنفع وأولى، كما كان أهل الجاهلية يورثون الرجال دون النساء، أو يورثون من الرجال من يحمل السلاح أو نحو هذا، فبين الله -جلت حكمته- شيئًا من هذه الحكم حتى تطمئن النفس وتسلم لأمر الله فقال: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

فأنكر عز وجل علمهم بما هو أنفع لهم وبين أنهم لا علم لهم بحقيقة النفع، فبعضهم قد يرى النفع كما كان يراه أهل الجاهلية، وبعضهم قد يغلب جانب الأبوة أو جانب البنوة، واعتمدوا في ذلك على أسباب غير منضبطة فرد الله عليهم أنهم لا يدرون من هو أنفع لهم[1].

وهذه حكمة واحدة من حكم العليم الحكيم تعالى، ولذلك فقد تكفل الله فرض هذه الفرائض بنفسه تعالى وكفانا مؤونة الاجتهاد وأمرنا بما يصلحنا وهو الانقياد له سبحانه[2].

ومن مقاصد وراثة الميت كذلك: تقوية وشائج الرحمن والقرابة: وقد نص الله على ذكر الوالدين والأقربين في بداية ذكر الميراث فقال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

ولما كانت جهة القرابة متفاوتة، فمنهم القريب ومنهم البعيد، قسم الله تبارك وتعالى المواريث حسب الأقرب فالأقرب كما هو بين في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر)[3].

والمعنى أن الرجال من العصبة بعد أهل الفروض إذا كان فيهم من هو أقرب إلى الميت استحق دون من هو أبعد فإن استووا اشتركوا[4].

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٩/ ٢٢٥، روح المعاني ٤/ ٢٢٨، التحرير والتنوير ٤/ ٢٦٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس، كتاب الفرائض، باب ميراث الولد من أبيه وأمه، رقم ٦٣٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر، رقم ١٦١٥.

(٤) فتح الباري ١٢/ ١٦.
وانظر شرح صحيح مسلم، النووي ١١/ ٥٣.

وبهذا يتبين ما للتوريث من تقوية لأواصر القرابة والرحم، وما يحصل بسببها من النفع في الدنيا والآخرة.

فإن الله تعالى قال: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

فإن صاحب الميراث قد يعطي أحد أبنائه زيادة على الآخر ظنا منه أنه أنفع له، فنفى الله الدراية عنهم بمن هو أنفع من الآخر وجعل النفع عامًّا في الدنيا والآخرة(١).

ومن أعظم النفع ما يحصل بسبب تقسيم التركة على الجميع من صلة للرحم بين الأولاد فيما بينهم وبين الأولاد والآباء أو الآباء والأولاد بعد وفاة أحدهم، كما أن في ذلك قطعا للنزاع والخلاف بين الأقرباء(٢).

أما الوراثة الأخروية، فلما كان الإيمان والعمل الصالح بجميع شعبه من أسباب وراثة الآخرة بعد رحمة الله وفضله، فلا شك أن من مقاصد هذه الوراثة التمايز بين المؤمنين والكافرين، والأبرار والفجار.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ١٨-٢٠].

نسأل الله تعالى أن يورثنا جنته.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأمومة، المال، الملك

(١) انظر: جامع البيان ٧/٤٨، الجامع لأحكام القرآن ٦/١٢٥، تفسير القرآن العظيم ٢/٢٢٩.

(٢) انظر: محاسن الإسلام، البخاري ص ٣٩.

الوسطية

عناصر الموضوع

مفهوم الوسطية	٨٤
الوسطية في الاستعمال القرآني	٨٥
الألفاظ ذات الصلة	٨٦
ملامح الوسطية	٨٨
مجالات الوسطية	٩٧
أثر الوسطية على الفرد والمجتمع	١٠٨
الأمة الوسط	١١١

مفهوم الوسطية

أولًا: المعنى اللغوي:

(وسط) الواو والسين والطاء: بناء صحيح يدل على العدل والنصف، وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه، وسطت القوم أسطهم وسطًا وسطة، أي: توسطتهم وفلان وسيط في قومه إذا كان أوسطهم نسبًا، والأصبع الوسطى، والتوسيط: أن تجعل الشيء في الوسط، والتوسيط: قطع الشيء نصفين، والتوسط بين الناس من الوساطة، والوسط من كل شيء: أعدله، ويقال أيضًا: شيء وسط، أي: بين الجيد والرديء، وعبد وسط وأمة وسط وشيء أوسط، وللمؤنث وسطى بمعناه، وواسطة القلادة: الجوهر الذي في وسطها، وهو أجودها، ووسوط الشمس توسطها السماء، وجلست وسط القوم بالسكون وسطًا، فهو واسط، والمفعول موسوط.

يقال: شيء وسط، أي: بين الجيد والرديء، واليوم الأوسط والليلة الوسطى، ويجمع الأوسط على الأواسط مثل الأفضل والأفاضل، ويجمع الوسطى على الوسط مثل: الفضلى والفضل[(١)].

ويلاحظ مما سبق أن لفظة (وسط) تأتي على عدة معان منها: اسمًا لما بين طرفي الشيء، وبمعنى خيار، وأفضل، وأجود، فأوسط الشيء أفضله، وتأتي بمعنى: عدل كما تقدم أن أعدل الشيء أوسطه، وتأتي بمعنى الشيء بين الجيد والرديء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الوسطية تعني: الاعتدال والتوازن، ويعنى بها: التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بدون إفراط أو تفريط، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه، وهذه الوسطية هي العدل والطريق الأوسط الذي تجتمع عنده الفضيلة[(٢)].

وأهل السنة يتميزون بالوسطية بين الفرق الأخرى التي تقف على طرفي نقيض.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٦٧، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢٤٣٦، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٥٨، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٢٦، المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي، ص٤٨٤، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٣٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٠٨، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٥٩٤، شمس العلوم، نشوان الحميري ١١/ ٧١٥٦، مجمل اللغة، ابن فارس، ص ٩٢٤.

(٢) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية، ص ١٥٦.

الوسطية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وسط) في القرآن الكريم (٥) مرات[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ [العاديات:٥]
الاسم	١	﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]
اسم التفضيل	٣	﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾ [القلم:٢٨]

وجاء الوسط الميثاق في القرآن بمعناها اللغوي: المعتدل من كل شيء، ويلزم منه التوسط في منتصفٍ أو بين طرفين، ويلزم أيضًا على هذا المعنى أن يكون الوسط هو الأعدل والأفضل والأخير[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٥٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص١٤١١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٦٤، ٤٦٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٠٩ عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣٠٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الغلو:

الغلو لغةً:

أصل الغلو تجاوز الحد، وغلا الرجل في الأمر، أي: تشدد فيه حتى جاوز الحد وأفرط كغلو اليهود في دينها[١].

الغلو اصطلاحًا:

«الغلو في الدين البحث عن بواطن الأشياء، والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها»[٢].

الصلة بين الوسطية والغلو:

بالنظر إلى معنى مادة (غلو) والمعنى الاصطلاحي لها، نجد أنها ضد الوسطية، حيث إن الوسطية تعني الاعتدال بين الغلو والتساهل.

٢ الإفراط:

الإفراط لغةً:

فرط في الأمر يفرط فرطًا، وفرط عليه، أي: عجل، والإفراط: تجاوز الحد في الأمر[٣].

الإفراط اصطلاحًا:

«الإفراط يستعمل في تجاوز الحد من جانب الزيادة والكمال»[٤].

الصلة بين الوسطية والإفراط:

بين الوسطية والإفراط تضاد، حيث إن الإفراط هو تجاوز الحد، والوسطية تعني الاعتدال.

٣ التفريط:

التفريط لغةً:

يعني: التقصير في الشيء حتى يضيع ويفوت، وقصر فيه وضيعه حتى فات؛ لأنه إذا قصر فيه فقد قعد به عن رتبته التي هي له[٥].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٤٤٦، جمهرة اللغة، الأزدي ٢/ ٩٦١، مجمل اللغة، ابن فارس، ص٦٨٣.
(٢) تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ١٧٨.
(٣) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس، ص ٧١٦، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٦٩، شمس العلوم، الحميري ٨/ ٥١٦٨، مختار الصحاح، الرازي، ص ٢٣٧.
(٤) التعريفات، الجرجاني، ص ٣٢.
(٥) انظر: أساس البلاغة، الزمخشري ٢/ ١٨، مقاييس اللغة، ابن فارس٤/ ٤٩٠، شمس العلوم، الحميري

التفريط اصطلاحًا:

«والتفريط يستعمل في تجاوز الحد من جانب النقصان والتقصير»[1].

الصلة بين الوسطية والتفريط:

بين الوسطية والتفريط تضاد فهما على طرفي نقيض، حيث إن التفريط هو القصور والنقصان، أما الوسطية فهي الاعتدال.

٤ الصراط المستقيم:

الصراط المستقيم لغةً:

الصراط و السراط والزراط: الطريق، وصراط مفرد: جمعه صُرُط[2].

والمستقيم لغة: من استقام يستقيم، استقم استقامة فهو مستقيم، واستقام العود: استوى، واستقام ميزان النهار: انتصف، واستقام على الطريق: اهتدى، والدين المستقيم: الدين الحقيقي أو الصحيح، والصراط المستقيم: الطريق المستقيم، طريق الهدى وسواء السبيل[3].

الصراط المستقيم اصطلاحًا:

الصراط المستقيم: طريق الهدى وسواء السبيل[4].

الصلة بين الوسطية والصراط المستقيم:

فالصراط المستقيم يمثل الوسطية ويحقق معناها، فهو وسط بين الغلو والجفاء، وهو كذلك وسط بين الإفراط والتفريط، فهما مترادفان.

٨/ ٥١٧١، المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي، ص ١٧٩.

(١) التعريفات، الجرجاني، ص٣٢.

(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٢/ ١٢٨٨، مختار الصحاح، الرازي ص١٧٥.

(٣) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٣/ ١٨٧٥.

(٤) انظر: المصدر السابق٣/ ١٨٧٨.

ملامح الوسطية

إن الوسطية منهج رباني حميد يمنع العبد من الحيف والجور، وإن من خصائص الإسلام أنه دين وسط، فهو وسط بين اليهودية والنصرانية، وهناك ملامح لهذه الوسطية في القرآن والسنة تبين عظمة الإسلام في طرحه عدة قضايا تنظم حياة المرء المسلم من أهمها: العدل، والحكمة، والاستقامة، والتيسير، ورفع الحرج.

أولًا: العدل:

العدل: هو ضد الظلم، وإحقاق الحق، وإخراج الحق عن الباطل، وهو الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط[1].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

وفي قول للطبري أن التأويل جاء بأن الوسط العدل، وذلك معنى الخيار؛ لأن الخيار من الناس عدولهم، ووصف الله عز وجل الإسلام بالوسط لتوسطهم بالدين، وقول الطبري هنا لدليل كبير على أن العدل من ملامح الوسطية[2].

ومن هنا فقد جاءت آيات كثيرة تبين وجوب العدل في الشهادة وفي الحكم، والشهادة هي إحدى مقدمات الحكم في كثير من الأحكام، بل وفي حكم المرء على نفسه قبل غيره من الأهل والأقارب.

وبما أن الوسط يعني: العدل كما تقرر سابقًا، فقد جاءت الكثير من الآيات القرآنية التي تبين وجوب العدل في جميع الأمور، فأمر الله عز وجل بالعدل في الشهادة والحكم هو إقرار لمنهج الوسطية.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

ففي هذه الآية دلالة بينة على منهج العدل والوسط، والتحذير من الجور واتباع الهوى، حيث أمرنا الله عز وجل بالعدل في الشهادة ولو كانت الشهادة بحق أنفسنا أو والدينا أو أقاربنا، لا نفرق بين غني فننحاز لغناه، ولا فقير فنجور عليه، وعلينا التزام العدل في أحكامنا على الدوام، فهذه مصلحة أرادها الله جل جلاله[3].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ

(١) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٢٣٧، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، النكري ٢/ ٢٢٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤٢.

(٣) انظر: المصدر السابق ٧/ ٥٨٤.

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة:٨].

دلت هذه الآية على العدل، الذي هو ملمح أساس من ملامح الوسطية، ليس مع النفس والأقارب فحسب، بل مع الاعداء حيث حثنا على عدم ترك العدل وإيثار العدوان على الحق، فلقد أمر بالعدل مع العدو وإن أبغضناه، وألا نتجاوز بالعدوان، فاستعمال العدل مع كل أحد صديقًا كان أو عدوًا[١].

والحكم بين الناس بالعدل أمر قد انعقد عليه الإجماع، وتكرر ذكره في القرآن الكريم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام:١٥٢]. أمرٌ بالتزام العدل فيما نقول، بدون محاباة لأحد، ولو كان أقرب الناس إلينا.

كذلك أداء الأمانات والحقوق المالية إلى أصحابها، وإصدار الحكم بالعدل والحق، وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨].

وفيما يتعلق بسلوك المؤمنين بعضهم مع بعض في حالة الخلافات أوصى كتاب الله عز وجل بفض كل نزاع قد يقع بينهم، على أساس العدل المطلق دون محاباة لطرف، وفي إطار الأخوة الإسلامية بالإنصاف بينهما، وهذا حكم الله في كتابه الذي جعله عدلًا بين خلقه[٣].

قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

ويخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل والقسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١١٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٨٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري٢٢/ ٢٩٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٣٥.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[النحل:١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الشورى:٤٠].

وغيرها من الآيات الدالة على العدل؛ لتنظم حياة المرء على أساس من المحبة وعدم التنافر.

ثانيًا: الاستقامة:

إن رأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيمًا في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، فتكون الاستقامة في أمر الدين والتوحيد وفي جميع الأمور الحياتية[(١)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت:٣٠].

البشرى بالجنة والأمان لمن استقام على الطريقة وداوم السير على الصراط المستقيم، فلم تزل قدمه عن طريق العبودية، واعتدل على منهج الطاعة ومنهج العبادة قولًا وعملًا، دون إفراط أو تفريط.

فالذين استقاموا على شريعته فامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، ولزموا محجته، فلا يلحقهم ما يخافونه ويكرهونه في الآخرة، ولا يروعون؛ لأنهم خافوه تعالى في الدنيا فأمنهم في الآخرة، [(٢)] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الأحقاف:١٣].

قال عمر رضي الله عنه: «الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب»[(٣)].

قال ابن القيم: «فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله»[(٤)].

والحديث في هذه الآية عن الاستقامة، وما يترتب عليها من الآثار الطيبة في الدنيا والآخرة، فهذه الاستقامة هي السحابة الممطرة التي يحيي الله بها النفوس.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[الجن:١٦][(٥)].

والاستقامة هي اتباع صراط الله المستقيم، وعدم الالتفات إلى غيره من

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٨٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٣.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٦٣.
(٤) مدارج السالكين ٢/ ١٠٦.
(٥) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، المكي ٦/ ٣٢٦.

بنيات الطريق، فهو الطريق الواضح الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين، مبتعدين عن الطرق المختلفة والأهواء المضلة والبدع الرديئة[1].

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رفعه قال: (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)[2].

ولما كانت الاستقامة جامعة لكثير من الأمور التي أمرنا بها الله عز وجل، فقد ورد الحث عليها في القرآن كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[فصلت:٦].

فالتزام الاستقامة في طريقنا إلى الله جل جلاله بالإيمان به وطاعته، والإخلاص في عبادته هو المقصود الأسمى[3].

وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[الشورى:١٥].

وذكر القشيري وغيره عن بعضهم أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال له: يا رسول الله قلت: (شيبتني هود وأخواتها) فما شيبك منها؟ قال: (قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾)[4].

أي: دم يا محمد على ما أمرت به من عبادة الله عز وجل، وطاعته فيما أمر، وتبليغ رسالته، ولا تتبع أهواء الكفار والمضلين مما يحبون من الكفر والباطل كله[5].

وكقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[هود:١١٢].

فالاستقامة تقتضي طاعة الله تعالى، والوقوف عند حدوده التي أذن فيها من واجب، ومستحب، ومباح، وتجنب الحدود التي نهى الله عنها، وفي حديث النفر الثلاث الذين استقلوا عبادة النبي صلى الله عليه وسلم لخير مثال على الاستقامة الحقة في عبادته عز وجل دون إفراط أو تفريط، فهذا هو العمل الذي يمثل الوسطية.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول: (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٧١.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حفظ اللسان، ٤/ ٦٠٥، رقم ٢٤٠٧. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٢٤، رقم ٣٥١.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٦١.
(٤) تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/ ٢٦٢.
(٥) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٤٦.

الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟! قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[1].

إذن فالاستقامة هي بأن يصوم ويفطر، وينام ويرقد، ويتزوج النساء، والخروج عنها انحراف عن الاستقامة، فما الاستقامة إلا الالتزام بسنته صلى الله عليه وسلم والأخذ بها.

وهذه الآية دعوة للاستقامة والسير على المنهج الحق.

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير:٢٧-٢٨].

فهذا القرآن موعظة وزجر لمن أراد أن يتبع الحق ويقيم عليه[2].

واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الصراط المستقيم الذي ندعو الله تعالى في كل ركعة من فريضة أو نافلة أن يثبتنا عليه.

قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة:٦-٧].

ومما سبق يتضح لنا أن سورة الفاتحة وضعت القاعدة، ورسمت المنهج الوسطي، وحددت معالمه، حيث بين الله لنا أن الصراط المستقيم هو منهج الوسط، حيث قال واصفًا الصراط المستقيم الذي فيه ضمان السعادة في الدنيا والآخرة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ومنهج المغضوب عليهم يمثل التفريط، بينما يمثل منهج الضالين الإفراط، فهما منهجان دائران بين الغلو والجفاء، فهو طريق الذين قسم لهم نعمته، لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه، أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلًا إليه، إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين[3].

قال ابن كثير: غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ٧/ ٢، رقم ٥٠٦٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢٤٣.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٦.

الضلالة، لا يهتدون إلى الحق[1].

ونحن مأمورون بالالتزام بسبيل الذين أنعم الله عليهم؛ لأنه هو الصراط المستقيم، وهو المنهج الوسط بين طريقين منحرفين فاسدين، وهما طريقا اليهود والنصارى.

ثالثًا: الحكمة:

الحكمة: هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام[2].

وذكر سيد قطب أن الحكمة القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، والبصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال[3].

وهي فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي[4].

الحكمة: أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه[5].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٤٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٢.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣١٢.
(٤) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٤٧٩.
(٥) انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٧٨.

وهذه الآراء كلها فيها دلالات واضحة على الوسطية وصلتها بالحكمة، ونخلص مما سبق أن الحكمة لا بد من اعتبارها عند تحديد معنى الوسطية، حيث إننا عرفنا سابقًا أن الوسطية هي السير على الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله لنا، وعدم الجنوح إلى الإفراط أو التفريط، وهو عين الحكمة وجوهرها؛ وذلك أن الخروج عن الوسطية سواء كان بإفراط أو تفريط له آثاره السلبية وعواقبه الوخيمة، وهذا يخالف الحكمة التي علينا التحلي بها وينافيها.

وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

والله عز وجل عندما أنزل الشريعة السمحة كان عليمًا حكيمًا بأحوال العباد، فلم ينه عن فعل إلا لحكمة سواء أدركناها أم لا، ولم يأمر بفعل إلا لحكمة أيضًا، فقد نزل تعالى الأمور منازلها، ووضع الأشياء مواضعها.

وسنورد بعض الأمثلة على ذلك حيث قال تعالى في قضية السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨].

ولا شك أن قطع يد السارق فيه تحذير للسارق نفسه من العودة إلى السرقة، وتحذير لغيره من أن يفعل مثل ما فعل؛ حتى

لا يجزى مثل جزائه، وكان العقاب بقطع اليد لحكمة عظيمة فإذا قطعت يد السارق كف عن العودة إلى هذه الجريمة غالبًا، وسلم الناس من آثارها، وارتدع بها من يفكر في السرقة، فكان حكم الله هنا حكيمًا وسطيًا بعيدًا عن الإفراط والغلو بالعقاب، وبعيدًا عن التفريط واللامبالاة، كما بين الشرع لنا مكان القطع والمقدار الذي تقطع به اليد، ولم يجعل الأمور خاضعة للاجتهاد[1].

وعن حكم الزانية والزاني بين الله عز وجل فيهما القول الفصل، فقالجل جلاله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

وقد فرقت الشريعة السمحة الحكيمة بين الثيب والمحصن في العقاب، ولم يجعلهم سواء، وهذا جوهر العدالة والوسطية في الأحكام.

وفي الحديث عن عدة المطلقة والأرملة فرق الله عز وجل في مدة كل منهما، حيث قال عز وجل في حق المطلقات: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[البقرة:٢٢٨].

و قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[البقرة:٢٣٤].

حيث أكدت الآيتان أن عدة المطلقة ثلاث حيضات، أما في حق المتوفى عنها زوجها فهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وزيادة على المطلقة يجب على من توفي عنها زوجها الإحداد، وهو ترك الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٤].

فلا بد من عدة تنتظر المرأة فيها، فلا تتزوج زوجًا آخر؛ استبراء لرحمها من مظنة الحمل؛ وإحدادًا على الزوج السابق؛ وليتمكن الرجل فيها من مراجعة نفسه إذا كان الطلاق رجعيًا، وهذا من تمام حكمة الله عز وجل، حيث لم يسو بينهما لاختلاف طبيعة ظروف كل منهما، فعدة المتوفى عنها زوجها أكبر بسبب الحزن الذي تلاقيه بسبب فراقه أما المطلقات فيكون الحزن أقل[2].

رابعًا: اليسر ورفع الحرج:

اليسر ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية راجع إلى الوسطية والاعتدال في الدين الإسلامي.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٥١١.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص ٣٢٥.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

فالتوسط هو منبع الكمالات، والتخفيف والسماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل، فالشارع الحكيم يبغي لنا اليسر ورفع الحرج ودفع المشقة، ويتدرج بنا صاعدًا في مدارج الرقي شيئًا فشيئًا، ويسير بنا من السهل إلى الأسهل، ومن الصعب إلى الأصعب أحيانًا تدريبًا لنا على احتمال صنوف الحياة في شتى صورها، أو يسير بنا من تكليف إلى تكليف آخر مساو له؛ لابتلائنا وامتحان قلوبنا، فتظهر طاعة المطيع وعصيان العاصي[(١)].

وكلما كان العمل بعيدًا عن الإفراط والتفريط وافق أحكام الشرع التي تدعو إلى اليسر ورفع الحرج «وإن رفع الحرج والسماحة والسهولة راجع إلى الاعتدال والوسط، فلا إفراط ولا تفريط، فالتنطع والتشدد حرج من جانب عسر التكليف، والإفراط والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطيل المصالح، وعدم تحقيق مصالح الشرع»[(٢)].

فالوسطية في اليسر ورفع الحرج، وليس في التكليف والمشقة والعنت، وهذا هو ديدن رسول صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله فعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: (ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه)[(٣)].

وهذا هو منطق الإسلام في التعامل مع الواقع، فإننا لا نجد في الشريعة أمرًا إلا وهو رحمة وتيسير وتسهيل، ولا نهيًا إلا وهو عن عنت وضنك وحرج.

ومن أدلة القرآن الكريم على اليسر ورفع الحرج والسماحة السماح لمن أصابه مرض، أو لحقه أذى أثناء حجه بفعل ما كان ممنوعًا عليه في حالة الصحة، والفدية عنه مقابل الرخصة التي رخص بها الحق تعالى تيسيرًا وتخفيفًا، وتعرف هذه الفدية بفدية الأذى.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

(١) انظر: الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة مؤلفين ١/ ٦٤٩، بتصرف.

(٢) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، صالح بن حميد، ص ١٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، ٤/ ١٣١٨، رقم ٢٣٢٧.

﴿ٱلْعِقَابِ﴾[البقرة:١٩٦][1].

وعلى أساس قاعدة اليسر ورفع الحرج التي تميز بها الإسلام، نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة:١٩٨].

قال السعدي: «لما أمر تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالًا منسوبًا إلى فضل الله، لا منسوبا إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب، ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه»[2].

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:١٧٣].

وهذه القاعدة ليست مقصورة على محرمات المطاعم، بل عامة لكل ما يتحقق الاضطرار إليه لأجل الحياة واتقاء الهلاك، ولم يعارضه مثله أو ما هو أقوى منه[3].

لقد بنى الدين الاسلامي عباداته وغيرها على أساس اليسر، ورفع الحرج والعسر كما علل تعالى به رخصة الفطر في رمضان بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة:٩١ - ٩٢].

فهؤلاء أصحاب أعذار ظاهرة، ينطق بها لسان الحال قبل أن ينطق بها لسان المقال؛ ولأن الشريعة الإسلامية قائمة على اليسر، ورفع الحرج عن المؤمنين، بدون تعنت ولا مشقة أو عسر في تكاليفها، فهؤلاء جميعًا ومن في حكمهم لا حرج عليهم في أن يتخلفوا عن ركب المجاهدين والجهاد في سبيل الله، الذي هو ذروة سنام الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦][4].

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦].

أي: في حدود ما تحتمل، ففي هذه الآية تخفيف وعافية ويسر[5].

وبين تعالى جانبًا آخر من مظاهر اليسر ورفع الحرج في تشريعاته، فقال تعالى:

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، المكي ١/ ١٢٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٩٢.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٩٦.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٨٦٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٨.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب:٥].

فمن رحمة الله أنه لم يجعل أي حرج أو إثم فيما قمتم به من خطأ غير مقصود بنسبتكم بعض الأبناء الأدعياء إلى غير آبائهم، ولكننا نؤاخذكم ونعاقبكم فيما تعمدته قلوبكم من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم الشرعيين[(١)].

وإذا عدم المسلم الماء أو تضرر باستعماله، فإن الله قد أباح له التطهر بما ينوب عنه، وهو التراب، وذلك للتيسير ورفع الحرج.

قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

وأخيرًا ومن الأدلة على أن الإسلام دين اليسر قول الرسول صلى الله عليه وسلم صراحة: (إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)[(٢)].

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ١٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ١/ ١٦، رقم ٣٩.

مجالات الوسطية

للوسطية في القرآن مجالات عدة، فلقد ظهرت وتجلت عظمة الإسلام العظيم، والقرآن القويم في التوازن المستقيم في جميع مجالات الدين، حيث العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات وحتى في التشريعات، فلا إفراطٌ ولا تفريط، وفيما يلي عرض لوسطية القرآن في تلك المجالات.

أولًا: الوسطية في العقيدة:

تظهر الوسطية في العقيدة أشد الوضوح، وهي من أبرز خصائص العقيدة الإسلامية، والتي يعبر عنها بالتوازن، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾[الرحمن:٧-٩].

وفيما يلي بعض مظاهر الوسطية في العقيدة.

أولًا: وسط بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد، فيصدقون بكل شيء، ويؤمنون بغير دليل ولا برهان، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس، ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا نداء العقل، فالإسلام يدعو للاعتقاد والإيمان مقرونًا بالدليل القطعي والبرهان اليقيني، ويرفض كل ما خلا الدليل والبرهان مصداقًا لقوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة:١١١].

قال الزمخشري: «هاتوا برهانكم هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كنتم صادقين في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين. وأن كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت»[1].

ثانيًا: وسط بين الذين يؤلهون الإنسان ويعتبرونه ربًا يفعل ما يشاء، وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية، فهو كالريشة في مهب الريح، أو دمية يحرك خيوطها المجتمع، أو الاقتصاد أو القدر، فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكلف مسؤول، سيد في الكون، عبد لله، قادر على تغيير ما حوله بقدر ما يغير ما بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

ثالثًا: وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط، كاتمين لصوت الفطرة في صدورهم، متحدين منطق العقل في رؤوسهم، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والأبقار، وألهوا الأوثان والأحجار، فلإسلام يدعو إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وكل ما عداه مخلوقات لا تملك ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فتأليهها شرك وظلم وضلال مبين.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف:٥].

قال الرازي: «إن القول بعبادة الأصنام قول باطل، من حيث إنها لا قدرة لها البتة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام والنفع والضر، فأردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب، وهي أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين، ولا تعم حاجات المحتاجين، وبالجملة فالدليل الأول كان إشارة إلى نفي العلم من كل الوجوه، وإذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل، فقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، والمعنى أنه لا امرًا أبعد عن الحق، وأقرب إلى الجهل ممن يدعو من دون الله الأصنام»[2].

رابعًا: وسط في أمر النبوة، لم ترفع الأنبياء إلى مقام الألوهية فيتجه الناس بالعبادة إليهم، كما اعتقد النصارى وغيرهم، ولم تنزل بهم إلى مستوى السفلة من الناس؛ فتنسب إليهم ارتكاب الموبقات، وفعل المنكرات كما افترى اليهود في

(١) الكشاف ١/ ١٧٨.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٧.

توراتهم المحرفة، وإنما الأنبياء في العقيدة الإسلامية المتزنة هم خيرة خلقه وخصهم بوحيه وكلفهم تبليغ رسالته إلى الناس، وجعلهم قدوة وأسوة لأتباعهم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١][1].

قال ابن عاشور: «في الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبيء صلى الله عليه وسلم وأنه الإسوة الحسنة لا محالة»[2].

ثانيًا: الوسطية في العبادة:

إن الناظر نظرة تمعن في العبادات الإسلامية الواجبة والمستحبة على المسلم يجد أنها تتسم بالوسطية والاعتدال، وأنها بعيدة كل البعد عن الغلو، فلا إفراط فيها ولا تفريط.

وقد جاء التوسط في العبادات الإسلامية منسجمًا مع نعمة الله تعالى على هذه الأمة المحمدية بأن جعلها أمة وسطًا، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

فبما أنها أمة وسطًا، فكذلك العبادات المفروضة عليها تتسم بالوسطية والاعتدال، فلا إفراط فيها كالنصارى، ولا تفريط كاليهود.

ويمثل النصارى منهج الإفراط؛ حيث ابتدعوا عبادات قاسية على النفس، تحرم الزواج، وتكبت الغرائز، وترفض كل أشكال الزينة، وطيبات الحياة، وبالغوا في ذلك حتى أصبحت العبادة في نظرهم لا تخرج عن تعذيب البدن.

وقد ذمهم الله تعالى حيث قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

قال المراغي: «فقد انقطعوا عن الناس في الفلوات والصوامع معتزلين الخلق، وحرموا على أنفسهم النساء، ولبسوا الملابس الخشنة؛ تبتلًا إلى الله وإخباتًا له، وما فرضناها عليهم ولكنهم استحدثوها»[3].

ويمثل اليهود منهج التفريط، ووصف القرآن بعدهم عن العبادة في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم:٥٩].

قال الزمخشري: «هم اليهود، تركوا الصلاة المفروضة، وشربوا الخمر، واستحلوا نكاح الأخت من الأب»[4].

(١) انظر: دراسات في العقيدة، سعد عاشور، ص ٤٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٣٠٣.
(٣) نظم الدرر ٢٧/ ١٨٥.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٦.

وقال ابن كثير: «وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها؛ فهؤلاء سيلقون غيًا أي: خسارة يوم القيامة»[1].

وقد جاء الإسلام وسطًا إزاء المنهجين، منهج التفريط في العبادة، ومنهج الإغراق في العبادة ونسيان حق البدن؛ ليعطي كل ذي حق حقه.

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٧].

«أي: اطلب الآخرة فيما آتاك الله من الثروة والغنى بأن تتصدق، وتصل الرحم، ولا تنس أن تبقي لنفسك شيئًا يقيك العوز، ويمنعك من إراقة ماء وجهك»[2].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن:١٦].

قال ابن كثير: « أي: جهدكم وطاقتكم، وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

وقال: لما نـزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم، وتقرحت جباههم فأنـزل الله هذه الآية؛ تخفيفًا على المسلمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت الآية الأولى»[3].

ثالثًا: الوسطية في الأخلاق:

جاء الإسلام وسطا في أخلاقياته، فلم ينظر إلى الإنسان باعتباره خيرًا محضًا أو شرًا محضًا، أي: لم يكن تعامله مع الإنسان على أنه ملك أو شيطان، وإنما تعامل معه بما يتوافق مع أصل فطرته وطبيعة تكوينه، فهو مخلوق مكلف مختار، صالح للطاعة أو المعصية، فيه الجانب المادي والجانب الروحي.

فلقد أمرنا الله برد الاعتداء الظالم علينا في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة:١٩٤].

وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

قال النسفي: «والحرمات قصاصٌ أي: وكل حرمة يجري فيها القصاص، من هتك حرمة أي حرمة كان اقتص منه بأن تهتك له

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٤٣.
(٢) أوضح التفاسير، محمد الخطيب ١/ ٤٧٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٤٠.

حرمه، فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا»[1].

قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء:١٤٨].

قال السمعاني: « يجوز له أن يشتم، ولكن بمثل ما شتم، لا يزيد عليه، بما لم يكن قذفًا»[2].

فالإسلام يبيح لك رد الاعتداء، بينما النصارى بالغوا في العفو والتسامح، جاء في إنجيلهم: «وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم»[3].

ولا شك أنها نظرة مثالية محمودة، ولكنها ليست متوازنة؛ لأن الإنسان بطبيعته وفطرته يميل إلى الدفاع عن نفسه، ورد الاعتداء الواقع عليه، والانتقام ممن أهانه أو غض من كرامته، فإذا وقع الاعتداء، وطلب منه إلزامًا أن يعفو ويصفح، فلا شك أنه سيكبت غضبه وغيظه على كره ومضض، وسيحاول التنفيس عن غضبه وغيظه حينما تسنح الفرصة المناسبة، بينما الإسلام رغم أنه لم يذكر السف في القرآن إلا أنه لا يقبل التهاون الذي يصل إلى حد المذلة، والتفريط المهين.

والقرآن أظهر الوسطية في الأخلاق في كثير من الآيات، وقد ظهر ذلك واضحًا جليًا في ذمه للكبر، وذمه للذلة والمهانة، وكان وسطًا في ذلك.

قال تعالى في ذم الكبر: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٧].

قال الطبري: «إني استجرت أيها القوم بربي وربكم، من كل متكبر عليه، تكبر عن توحيده، والإقرار بألوهيته وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه»[4].

قال تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل:٢٩].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧].

يقول السمعاني: «وفي المعنى وجهان: أحدهما: أن الإنسان إذا مشى مختالًا، فمرة يمشي على عقبيه، ومرة يمشي على صدور قدميه. فقال: لن تثقب الأرض إن مشيت على عقبيك، ولن تبلغ الجبال طولًا إن

(١) مدارك التنزيل ١/ ١٦٦.
(٢) تفسير السمعاني ١/ ٤٩٦.
(٣) إنجيل متى ٥: ٤٤.
(٤) جامع البيان ٢١/ ٣٧٥.

مشيت على صدور قدميك»[1].

وفي مقابل الكبر نجد الذل والضعف والخور، وبخاصة أمام أعداء الله، فإنه خلق لا يرضاه الله تعالى؛ فلذلك قال واصفًا المؤمنين بما هم عليه من خلق رفيع: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

وفي هذا دلالة على أن الذل مسبة وعار، وليس خلقًا رفيعًا وسيرة محمودة؛ ولذلك فقد جعله الله عقوبة لمن عصاه، وتكبر على رسله وهداه، فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة:٦١][2].

قال سيد قطب مبينًا أثر الذل على هؤلاء اليهود: «إن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادًا عميقًا، وليس أشد إفسادًا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد، استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمردًا حين يرفع عنها السوط، وتبطرًا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة»[3].

لقد اتصف اليهود بالكبر والتعالي والغطرسة حتى على أنبيائهم ورسلهم عليهم السلام، بل على ربهم حيث قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣].

وقوله: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤].

على الرغم من أن الله قد وصفهم في مواضع أخرى بالذل والجبن، لكنهم يتجبرون ويتغطرسون إن سنحت لهم الفرصة، بينما اتصف النصارى بالذل والجبن.

وخلاصة الأمر: أن هذه الآيات تدل على أن تلك الأخلاق مما لا يقره الشرع لمخالفتها للمنهج الحق والطريق السوي؛ ولذلك جاءت الآيات تبين ما يجب أن يكون عليه المسلم من خلق صادق، بعيدًا عن الخلق الذميم سواء كان إفراطًا أو تفريطًا، وهذه الآيات هي التي ترسم المنهج الوسط في الأخلاق والمعاملة.

رابعًا: الوسطية في المعاملات:

لقد تجلت وسطية القرآن في المعاملات، حيث البعد عن التشدد والغلو من جهة، والتسيب والتميع من جهة أخرى، فللقرآن منهج وسطي يضبط جميع المعاملات من طعام وشراب، وبيع وشراء، وطلاق وزواج، حتى في معاملاتنا مع غير المسلمين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا

(١) تفسير القرآن ٣/ ٢٤٢.
(٢) انظر: الوسطية في ضوء القرآن الكريم، ناصر العمر، ص٢٨٣.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٧٢.

﴿يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة:٨].

قال الطبري: «يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي، واعملوا فيه بأمري»[(١)].

فقد نهي الله سبحانه عن ترك الطيبات تنسكًا وعبادة، وطلب عدم تجاوز الحد إلى الإسراف الضار بالجسد، والإسراف الضار بالمال، وطلب عدم الاسترسال في الشهوات من مطعم ومشرب وغيرهما، حتى لا تكون اللذات هي السهم الأكبر في الحياة، فإن للمؤمن في الحياة قصدًا أسمى هو العلم والمعرفة والعبادة، والإحسان إلى الناس، والنفع العام للجماعة، وإذا كانت اللذات مشغولًا بها إلى حد البحث والطلب والانتظار والألم عند فقدها كان ذلك صارفًا عن المقاصد السامية للمؤمن.

وقد بين الله تعالى ذلك فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة:٨٧].

قال الزمخشري: «لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم، أو لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا، مبالغة منكم في العزم على تركها تزهدًا منكم وتقشفًا»[(٢)].

وفي هذه الآية ردٌّ على من حرم زينة الله التي أخرجها لعباده، فإن التحريم والتحليل حق الله لا يشاركه أحد فيه، قال المراغي: «بعد أن مدح سبحانه النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين، وذكر من أسباب ذلك أن منهم قسيسين ورهبانًا، ظن المؤمنون أن في هذا ترغيبًا في الرهبانية، وظن الميالون للتقشف والزهد أنها منزلة تقربهم إلى الله، ولن تتحقق إلا بترك التمتع بالطيبات من الطعام واللباس والنساء، إما دائما كامتناع الرهبان من الزواج، وإما في أوقات معينة كأنواع الصيام التي ابتدعوها، فأزال الله هذا الظن وقطع عرق هذا الوهم بذلك النهى الصريح»[(٣)].

كما أمر الله عز وجل بالتوسط حتى في المأكل والمشرب وعدم المغالاة في ذلك فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

(١) جامع البيان ١٠/ ٩٥.

(٢) الكشاف ١/ ٦٧٠.

(٣) نظم الدرر ٧/ ٩.

﴿الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف:٣١].

قال ابن عاشور: «والإسراف تجاوز الحد المتعارف في الشيء أي: ولا تسرفوا في الأكل بكثرة أكل اللحوم والدسم؛ لأن ذلك يعود بأضرار على البدن وتنشأ منه أمراض معضلة»[(١)].

كما أظهر القرآن منهج الوسطية وعد المغالاة في المعاملات المالية أمرًا مذمومًا.

قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَانَ الشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧].

قال السعدي: «﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَانَ الشَّيَٰطِينِ﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه دعاه إلى الإسراف والتبذير، والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها، ويمدح عليه»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء:٢٩].

قال الزمخشري: «هذا تمثيلٌ لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصير ملومًا عند الله؛ لأن المسرف غير مرضي عنده وعند الناس، يقول المحتاج: أعطى فلانًا وحرمني، ويقول المستغني: ما يحسن تدبير أمر المعيشة»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان:٦٧].

يقول سيد قطب: «وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات، ويتجه إليها في التربية والتشريع، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال، والمسلم مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة ليس حرًا في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء كما هو الحال في النظام الرأسمالي، وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الإلهي حياتها في كل ميدان، إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير، فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله، فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالًا في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب، ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق»[(٤)].

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٩٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٥٦.
(٣) الكشاف ٢/ ٦٦٢.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٩.

وأما في معاملات الزواج والطلاق فكان المنهج الوسطي بارزًا بروز الشمس في رابعة النهار، فلقد حث الإسلام على الزواج ورغب فيه، وذلك حفاظًا على النوع البشري، وقد ذكر القرآن الكريم أسس هذا الاختيار.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

فأسس هذه العلاقة قائمة على السكن والمودة والرحمة.

كذلك وضع لنا الشرع الحكيم صفات الزوجة الصالحة، فقال صلى الله عليه وسلم: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[1].

عند غير المسلمين منهم من لا يتزوج كالنصارى الذين ابتدعوا الرهبانية، ومنهم من يتجاوز حدود شرع الله، فيقع بالإباحية بانتهاك الحرمات وضياع الأنساب.

يقول تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

كذلك وضع الشرع الحكيم صفات الزوج الصالح، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)[2].

هذه الأسس في اختيار الزوج الصالح غير متوفرة في الأمم غير الإسلامية، فاختيار الزوج يكون فقط للمتعة الجنسية، دون مراعاة تلك الضوابط والأسس التي وضعها الشرع الحكيم.

خامسًا: الوسطية في التشريع:

جاء الإسلام وسطًا في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم، وكثرت فيها المحرمات مما حرمه إسرائيل على نفسه، ومما حرمه الله على اليهود جزاء بغيهم وظلمهم قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء:١٦٠].

وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة.

فالإسلام قد أحل وحرم، ولكنه لم يجعل التحليل والتحريم من حق بشر، بل هو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ٥/ ١٩٨٥، رقم ٥٠٩٠.

(٢) أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، ٣/ ٣٩٥، رقم ١٠٨٤.

من حق الله وحده، ولم يحرم إلا الخبيث الضار، كما لم يحل إلا الطيب النافع.

وفي التشريع الإسلامي موازنة دقيقة بين التكليف وبين الاستطاعة، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، والمشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات.

ولقد وردت آيات كثيرة تبين أن الله لا يكلف نفسًا فوق طاقتها، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها وقدرتها، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧].

وقال أيضًا: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف:٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ [المؤمنون:٦٢].

قال الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: لا يكلف الله نفسًا فيتعبدها إلا بما يسعها، فلا يضيق عليها ولا يجهدها»[(١)] فهناك تكليف وأمر بالتعبد، لكن في حدود الوسع والطاقة، قال الزمخشري: «أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود، وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة»[(٢)].

وخلاصة القول: إن هذه الآيات تقرر منهج الوسطية في التكليف، فهناك أوامر ونواه، ولكنها في حدود الوسع، وعدم المشقة، وليس فيها تضييق وعسر وإحراج.

ولقد ظلمت بنو إسرائيل نفسها وبغت، فشدد الله عليهم.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام:١٤٦].

قال المراغي: «أي: إنما حرم الله ذلك عليهم عقوبة بغيهم فشدد عليهم بذلك»[(٣)].

وقال ابن عاشور: «والمقصود من ذكر هذا الأخير: أن يظهر للمشركين أن ما حرموه ليس من تشريع الله في الحال، ولا

(١) جامع البيان ٦/ ١٢٩.

(٢) الكشاف ١/ ٣٣٢.

(٣) نظم الدرر ٨/ ٥٩.

فيما مضى، فهو ضلال بحت»[1].

ولقد امتن الله على هذه الأمة في الكتاب العزيز بأن وضع عنها الإصر والأغلال التي كانت على من قبلها، ولم يحملها ما حمل من قبلها، فكان ذلك مظهرًا من مظاهر وسطية هذا الدين.

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

قال الطبري: ويضع النبي الأمي العهد الذي كان قد أخذه الله على بني إسرائيل، من إقامة التوراة والعمل بما فيها من الأعمال الشديدة، كقطع الجلد من البول، وتحريم الغنائم، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم مفروضةً، فنسخها حكم القرآن[2].

وتظهر وسطية التشريع في بيان كفارة اليمين.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة:٨٩].

والوسطية في هذه الآية من ثلاثة وجوه:

١. إن إطعام المساكين يراعى منه نوعية الطعام أو الكسوة الوسط، وجعل المقياس الذي يرجع إليه في اختيار هذا الوسط إطعام الرجل لأهله أو كسوتهم، فينظر في ذلك ويخرج الوسط منه.

٢. إنه جعل الكفارة تدور على أحد ثلاثة أمور: إما الإطعام، أو الكسوة، أو الإعتاق، والحالف مخير بينها دون إلزام بواحد منها، وهذا فيه من التوسعة والتيسير ما لا يخفى.

٣. إذا لم يجد الحالف أو لم يستطع على أي نوع من هذه الثلاثة انتقل إلى الصيام، وهذه رحمة من الله وتوسعة على عباده.

وبهذا اجتمعت أطراف الوسطية في هذه القضية، وهي قضية جزئية يسيرة، فلا شك أن ما كان أعلى منها وأشد كلفة تكون مراعاة الوسطية فيه من باب أولى؛ لأن الله غني عنا وعن أعمالنا، ولكن التشريع ميدان للامتحان والابتلاء، والله بنا رؤوف رحيم[3].

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٤٢.
(٢) جامع البيان ١٣/ ١٦٨ بتصرف.
(٣) انظر: الوسطية في ضوء القرآن الكريم، ناصر العمر، ص ١٩٧.

أثر الوسطية على الفرد والمجتمع

إن المجتمع الصالح يتكون من الأفراد الصالحين، وبصلاح الفرد صلاح للأمة والدولة والمجتمع، فإذا ما صلح المجتمع سادت السكينة والمودة والمحبة وشعر الناس بنعمة الإخاء الإيماني، وانطلقوا يبحثون عن موارد الرزق، وترقي الأحوال، وتجنب المفاسد والمضار.

وإذا كان هناك شيء من التكاليف الشاقة للأفراد، واختل ميزان الحق والعدل والتوسط في الأمور، وانعدمت الحريات التي هي تعبير عن الوسطية، وقع المجتمع فريسة الأمراض الفتاكة، والانحرافات القاتلة، فتأتي الوسطية بآفاقها البعيدة، فهي إيجابية النفع، فتكاد السلبيات أو الأخطاء تنعدم، أو تكون في طريقها إلى الذوبان والنسيان.

وذلك لما تفرزه من آثار اجتماعية ملموسة من إشاعة المحبة، وتنامي المودة، والابتعاد عن التعصب، والأحقاد، وتوافر الثقة للآخرين وإحسان التعامل معهم، وصارت أحوال الأسرة والمجتمع في طمأنينة وشعور بالاستقرار، وتفرغ للإنجاز والعطاء، والتزام الحق والعدل، والبعد عن الشر والفتنة والفساد في الأرض؛ فما من مشكلة اجتماعية تثور إلا وكان سببها شذوذًا في التخطيط والعمل، أو انحرافًا عن المقصد الشريف.

أما حال الوسطية فتكون من أهم الأسباب الداعية إلى الاستقرار والوئام، وإسعاد الفرد والجماعة، وتقدم المدنية وازدهار الحضارة[1].

ويظهر أثر الوسطية في الخطاب الديني على الفرد والمجتمع فيما يأتي:

١. انتشار التقارب والتعايش بين الناس: فالوسطية مطلوبة في الخطاب الديني بعيدًا عن التشدد والغلو وتحريض الناس، فالرسول صلى الله عليه وسلم خاطب جميع الفئات وعاش معها، فعاش في مكة مع الكفار، وكذلك في المدينة أبرم عهدًا مع اليهود، وتعايش معهم تحت سقف دولة واحدة.

٢. نبذ العصبية والدعوة إلى الحوار وتقبل الآخر: فهذا الأمر مطلوب بين التيارات والجماعات والفئات الإسلامية لجمع كلمتهم وتوحيد صفهم، وقد نبذ الرسول العصبية القبلية الضيقة حيث قال لأبي ذر رضي الله عنه: (إنك امرؤ فيك جاهلية)[2] ولقد دعا الرسول صلى

(١) انظر: مجلة الوعي الكويتية، مقال لوهبة الزحيلي ٥٣٢/ ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، ١/ ١٥، رقم

الله عليه وسلم إلى الحوار كما حصل مع اليهود، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤]. قال الرازي: «واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أورد على نصارى نجران أنواع الدلائل وانقطعوا، ثم دعاهم إلى المباهلة فخافوا وما شرعوا فيها وقبلوا الصغار بأداء الجزية، وقد كان عليه السلام حريصًا على إيمانهم، فكأنه تعالى قال: يا محمد اترك ذلك المنهج من الكلام واعدل إلى منهج آخر يشهد كل عقل سليم وطبع مستقيم أنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجدال»[(١)]، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستخدم الحجة والبرهان في الخطاب، وكذلك اللين والرحمة شعاره: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا)[(٢)].

٣. التعايش السلمي داخل المجتمع المسلم: فالوسطية في الخطاب الديني تنشر المحبة بين المجتمع والطوائف المختلفة تحت شعار: (لا يؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[(٣)]، ولكن النجاح في ذلك لا يكون إلا بالرجوع إلى مرجعٍ أصيل ألا وهو الكتاب والسنة، تحت هذا الدستور الواضح البين الصالح إلى قيام الساعة القائم على منهج الوسطية.

٤. ترشيد الخطاب الديني: وهو المبتغى تحقيقًا لشعار يسروا ولا تعسروا و بشروا ولا تنفروا، ومن ثم يتم قبول الخطاب من الناس، ويترجم إلى عمل بعيدًا عن المناكفات المذهبية والطائفية، ويبدأ الناس بداية جادة بالبحث عن الخير للبشرية جمعاء.

٥. انتشار القيم والمبادئ العظيمة الداعية إلى التسامح، وحب الخير للآخرين، ونشر ثقافة التسامح ونبذ الأحقاد والغل فيما بيننا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

٦. انتشار الأمن والأمان بين المجتمع، إذ إن محاربة الأفكار الهدامة الداعية إلى الإخلال بالأمن والسلم المجتمعي

٣٠.

(١) مفاتيح الغيب ٨/ ٢٥١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب لعن الله من ذبح لغير الله، ٦/ ٨٥، رقم ٥١٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ١/ ١٢، رقم ١٣.

مطلب لبقاء البشرية، ومطلب للبناء والتعمير للأرض، ونشر الدين وتعليم البشرية دين ربها تعالى، حيث شدد الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم إيواء المحدث فقال: (من أحدث فيها حدثًا، أو آوى محدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[1]، وكذلك جعل في الإسلام حد الحرابة للمفسدين في الأرض قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة:٣٣].

٧. التكافل الاجتماعي والتراحم بين المجتمعات على اختلاف مذاهبها ومشاربها الفقهية والطائفية؛ فبالخطاب الديني المعتدل الوسطي المنهج ينتشر التعايش بين الناس والتراحم والتعاطف، فكل واحد يسعى إلى الأجر والمثوبة من الله، وتقديم يد المساعدة للآخرين اقتداء بنبينا صلى الله عليه وسلم؛ فإذا التزم الناس والدعاة وأصحاب الخطاب الديني بما سبق كان أدعى للناس إلى التطبيق والتنفيذ ونشر الخير بين الناس.[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم المدينة وفضلها، ٤/ ١١٦، رقم ٣٣٠٩.

(٢) انظر: الوسطية في الخطاب الديني وأثره على المجتمع، عبدالسلام حمود غالب، ص ٧.

الأمة الوسط

لقد امتن الله على أمة الإسلام بجعلها أمة وسطًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

ولقد اختلف مفهوم الوسط عند أهل اللغة والمفسرين اختلاف تنوعٍ وليس تضاد، ونعرض مفهوم الأمة الوسط، وبيان أثرها بين الأمم، وذلك فيما يأتي.

أولًا: مفهوم الأمة الوسط:

تميزت الأمة الإسلامية بخاصية منفردة لم تكن لأمة من الأمم السابقة، وهي ميزة الوسطية التي جعلها الله خصيصة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

فأمة الوسط هي المقياس الشرعي الدقيق، والصفة القرآنية الجليلة، والمصطلح القرآني الهام، والذي لم يعد في هذا الزمان يحظى بتلك الأهمية في حياة الناس، إذ اختلط أمره على الكثيرين، بل وأفسد معناه الكثيرون، فأخرج البعض مضامينه الحقيقية منه، وأدخلوا إليه مضامين جديدة لا تخضع للشرع، وإنما تخضع لحكم العقل ومقاييس الهوى.

لقد فسره البعض تفسيرات حديثة مسايرة للواقع، ونابعة من فقه الهزيمة وثقافة الاستسلام، فقالوا بأن الوسط هو ما بين التطرف والاعتدال، وأقام البعض الآخر حزبًا متوسطًا أسموه بحزب الوسط، بحيث يتوسط بين العلمانية والتدين، وهكذا اختلط أمر هذا المصطلح على الناس، واختلط فيه الحابل بالنابل، فأصبح أمره بحاجة إلى إعادة توضيح وبلورة، وتسليط الضوء عليه؛ لمعرفة واقعه معرفةً واضحةً، ولإدراك معناه إدراكًا صحيحًا بحيث تتضح صورته في الذهن فتكون دقيقة ومبلورة وقاطعة تزيل كل التباس.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

في هذه الآية الكريمة يقترن معنى الوسط الذي وصفت به أمة الإسلام بمعنيين إضافيين هما: شهادة الأمة على الأمم الأخرى، وشهادة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأمة الإسلامية.

والوسط من ناحية لغوية يتضمن ثلاثة معانٍ:

١. العدالة.

فعن أبي سعيدٍ الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (قال في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال:

عدلًا)[1].

٢. الخيار والأجود.

قال ابن كثير: «والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها»[2].

٣. الاعتدال والتوسط.

قال الطبري: «وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوٍ فيه، غلو النصارى الذين غالوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»[3].

ولا تعارض بين هذه المعاني الثلاثة، فكلها صحيحة، والآية صالحة، وهي متلازمة مترابطة.

فالآية تعني أن الله جعلهم خيارًا عدولًا؛ ليشهدوا على الأمم أن رسلهم بلغتهم، ولا يشهد إلا العدل من الناس[4].

وقال الرازي: «إن الوسط هو العدل والدليل عليه الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى»[5].

وقال المراغي: «والوسط العدل والخيار، والزيادة على ذلك إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكلاهما مذموم، والفضيلة في الوسط»[6].

ويقول السعدي: «يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة، والفتيا، ونحو ذلك»[7].

ولتطبيق هذا المعنى على أرض الواقع فإنه يتطلب من الأمة الإسلامية إذا ما أرادت الالتزام بمعنى الوسط أن تتصدر العالم، وأن تكون في مركز الصدارة والقيادة فيه؛ لكي تقيم الحجة على الناس.

فمعنى الوسط إذًا ليس له أي علاقة بالتطرف أو بالتنازل، أو بالحل الوسط، فالوسط كما ورد في الآية هو ذلك العدل والخير الذي على الأمة الإسلامية أن تقترن به، فلا دخل له بالتطرف أو بالتنازل، أو بالتسوية بين المتناقضات، وإنما علاقته واضحة بالعدل الذي يستلزم الشهادة على

(١) أخرجه ابن حبان، في الإحسان، كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة، باب فضل الأمة، ١٦/ ١٩٩، رقم ٧٢١٦، وصححه الألباني.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٤.
(٣) جامع البيان ٣/ ١٤٢.
(٤) انظر: الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، عبد الله التركي ص٣٠.
(٥) مفاتيح الغيب ٤/ ٨٤.
(٦) نظم الدرر ٢/ ٤.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، ص٧١.

الناس، وبالخير الذي يتطلبه حمل الهداية إلى العالم، فالخيرية هي صنو العدل، وهما معًا صفتان مطلوبتان للتبليغ، وللأمر بالمعروف وللنهي عن المنكر. ويعضد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤].

فهذه الأمور تتناسب مع معنى الوسط الشرعي، وتتناسب مع معنى الشهادة على الناس الوارد في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فتبين جوهر علاقة الشهادة مع الوسط بمعنى العدل.

ومن هنا كانت محاولة تلبيس معنى الوسط الوارد في الآية الكريمة بمصطلحات غربية وضعية هي محاولة مرفوضة؛ لأنها تفضي إلى تقسيم الأمة إلى تيارات متنازعة، وتؤدي إلى اقتتال هذه التيارات، ووقوع الفتنة ونشوب الحرب الأهلية. فمعنى الوسط الوارد في الآية يخص كل المسلمين بكل تياراتهم، ولا يجوز أن ينفرد به أي تيار أو حزب أو مذهب، فهو ثابت من الثوابت الإسلامية، ويجب أن يعمل ليكون وصفًا للأمة بكليتها، وأما إلصاق هذا الوصف بمجموعة، ونزعه عن مجموعة أخرى، فهذا معناه ضرب الأمة ببعضها، وخضوعها لأعدائها؛ ولذلك كان الواجب على فئات الأمة وعلمائها ومذاهبها أن يقتصر في تعريف الوسط على العدل فقط كما فسره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكما فسره كبار المفسرين، وأن لا ينجر البعض بحسن نيةٍ أو بسوئها إلى منزلق اقتباس المعاني الغربية وتنزيلها على المصطلحات الإسلامية بلي أعناقها والتأول المصطنع في تفسيرها[1].

ثانيًا: أثر الأمة الوسط بين الأمم:

إن الأمة الإسلامية كونها أمة وسطًا لها مسؤولية ربانية، فهي مكلفة بأن تحمل أكمل منهج وأقومه في العقيدة والأخلاق والتشريع إلى بقية المجتمعات الإنسانية، مكلفة بدعوة الأمم الأخرى إلى الصراط المستقيم، منهج الإسلام الذي يضمن للإنسان والمجتمع الحق والخير ويحقق له السعادة، حتى تتحقق الخيرية لها؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران:١١٠].

(١) انظر: مجلة الوعي، أحمد الخطيب ٢٢٨/ ٤٣.

ومنهج الإسلام هو منهج الوسط والاعتدال، وتقدير الأحوال والظروف والنتائج، ومراعاة الاستطاعة والقدرة.

لقد قامت الدعوة إلى الله على منهاج الوسطية، وكانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم مثلًا أعلى في تطبيق هذا المنهج، الذي سار على هديه الخلفاء الراشدون والتابعون لهم بإحسان.

وفي هذه الفترة القليلة من الزمن في حياة الأمم دخل الناس في دين الله أفواجًا، وتكون المجتمع المسلم الواحد في عقيدته وشريعته وسلوكه الاجتماعي، على الرغم من امتداد الإسلام إلى أقاليم خارج شبه الجزيرة العربية، مثل: مصر والعراق والشام، وكانت الدعوة إلى الله وفق منهج الوسطية القرآنية، وكانت السبيل الأول لانتشار الإسلام ودعوته، وذلك بالأساليب والطرق الحكيمة الرشيدة التي أرشدها الله تعالى في قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥].

وكذلك بالقدوة ليصبح المجتمع الإسلامي مجتمعًا سليمًا يحقق لأهله وللبشر جميعًا الحق والخير والسعادة والاستقرار، لاسيما في الأوقات والظروف التي يزداد فيها الانحراف والبعد عن المنهج الرباني، ويكثر فيها العنف والتطرف وتشويه صورة الإسلام الحقيقية والنيل منه[1].

لقد دخل الإسلام وانتشر في بلاد الكفر عن طريق أحد أمرين هامين: إما عن طريق الجهاد، فيتعرف أهل تلك البلاد على سماحة الإسلام وسماحة أهله وكمال شرائعه، وإما عن طريق تجار المسلمين الذين كانوا ينشرون وسطية الإسلام في تلك البلاد ويتخلقون بخلق الإسلام الوسطي، مما أثر في أهلها، فدخلوا في دين الله أفواجًا.

وبالنظر إلى عدد المسلمين في أندونيسيا ألا وهو ٢٠٢،٨٦٧،٠٠٠ مسلم، أي ٨٨,٢٪ من عدد سكان أندونيسيا و ١٢,٩٪ من نسبة المسلمين في العالم[2] لم يسجل لنا التاريخ أن هناك غزوة اسمها غزوة أندونيسيا، فهذه الدولة فتحها المسلمون عن طريق التجار المسلمين الدعاة بمنهجهم الوسطي، ومنذ أن دخلها الإسلام وهي من أكبر البلاد والممالك الإسلامية وانتشر الإسلام منها ليصل إلى الفلبين وماليزيا وجميع دول جنوب شرق آسيا، هذا الأمر يقودنا إلى أهمية نشر هذا الدين الوسط لما له من أثر في انتشار الإسلام.

وخلاصة القول أن لأمة الوسط أثرًا كبيرًا في نشر دين الله، ودخول الناس فيه أفواجًا،

(١) انظر: الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، عبد الله التركي ص٩٠.

(٢) انظر:، التاريخ المعاصر الأقليات الإسلامية، محمود شاكر ٢٢/ ١٢.

حيث إن خيرتها وعدلها منة من الله وليس من البشر، وهي بالتالي لا تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها، وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم، وبينما هي تشهد على الناس فإن الرسول هو الذي يشهد عليها ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيها الكلمة الأخيرة، ولكي تضطلع الأمة بهذا الدور فإنها لا تغلو في التجرد الروحي ولا الارتكاس المادي، بل تتبع الفطرة، وهي كذلك في التوازن بين التفكير والشعور، والفرد والجماعة.

موضوعات ذات صلة:

الاستقامة، التربية، العدل، الغلو

الوصية

عناصر الموضوع

مفهوم الوصية	١١٨
الوصية في الاستعمال القرآني	١١٩
الألفاظ ذات الصلة	١٢٠
حكم الوصية	١٢٢
الموصي	١٢٢
الموصى به	١٢٧
الموصى	١٤١
صيغ عرض الوصية	١٤٧
ثمرات الوصية الدنيوية والأخروية	١٤٩

مفهوم الوصية

أولًا: المعنى اللغوي:

الوصية لغةً: الإيصال، مأخوذة من وصيت الشيء أصيه إذا وصلته، وسميت الوصية وصية؛ لأن الميت لما أوصى بها وصل ما كان فيه من أمر حياته بما بعده من أمر مماته[1].

قال ابن فارس:«(وصى) الواو والصاد والحرف المعتل: أصل يدل على وصل شيء بشيء، ووصيت الشيء: وصلته، ويقال: وطئنا أرضا واصية، أي: إن نبتها متصل قد امتلأت منه، ووصيت الليلة باليوم: وصلتها، وذلك في عمل تعمله، والوصية من هذا القياس، كأنه كلام يوصى أي: يوصل، يقال: وصيته توصية، وأوصيته إيصاء»[2].

والخلاصة: أن الوصية في اللغة، طلب فعل الشيء بعد موت الموصي، أو هي العهد بفعل الشيء بعد الموت، وهي مشتقة من الوصل وهي إيصال خير الدنيا بخير الآخرة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

أن الوصية لها معنيان:

الأول: عهد خاص مضاف إلى ما بعد الموت، وقد يصحبه التبرع.

والثاني: ما يقع به الزجر عن المنهيات والحث على المأمورات، وهو ما يعهد إلى الإنسان أن يعمله من خير أو ترك شر بما يرجى تأثيره.

قال الراغب: الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ[3].

والمتدبر في المعنيين يجد اتصالًا بينهما، حيث إن المعنى الاصطلاحي يعني: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ، وهذا مرتبط بمعنى الوصية في اللغة، فيعطي معنى قوة الارتباط والاتصال لخير الدنيا بالآخرة.

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٦٢، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٢٠٧.
(٢) مقاييس اللغة ٦/ ١١٦.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٩، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٧٣.

الوصية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وصي) في القرآن الكريم (٣٢) مرة، يخص موضوع الميثاق منها (٢٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٢	﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢]
الفعل المضارع	٥	﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء:١٢]
اسم الفاعل	١	﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة:١٨٢]
المصدر	٨	﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٨٠]

وجاءت الوصية في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الواو، ص١٤١٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٧٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ النذر:

النذر لغةً:

ما يقدمه المرء لربه، أو يوجبه على نفسه من صدقة أو عبادة أو نحوهما، وما كان وعدًا على شرط، فعلي إن شفى الله مريضي كذا نذر[١].

النذر اصطلاحًا:

أن توجب على نفسك ما ليس بواجب[٢].

الصلة بين الوصية والنذر:

أن كليهما قربة، لكن الوصية يجوز الرجوع عنها والنذر لا يجوز الرجوع عنه.

٢ الهبة:

الهبة لغةً:

العطية الخالية عن الأعواض والأغراض[٣].

الهبة اصطلاحًا:

تمليك المال بغير عوض[٤].

الصلة بين الوصية والهبة:

أن كلا من الوصية والهبة تمليك، لكن الوصية بعد الموت والهبة حال الحياة[٥].

٣ الوقف:

الوقف لغةً:

الحبس، قال ابن فارس: «وقف: الواو والقاف والفاء: أصل واحد يدل على تمكث في شيء ثم يقاس عليه»[٦].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٠٠، القاموس الفقهي، سعدي أب جيب ص ٣٥٠، المعجم الوسيط لعدد من المحققين ٢/ ٩١٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٩٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٨٠٣، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٧٣، تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٣٦٤.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٨٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٨٥.
(٥) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٤٣/ ٢٢٢.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣٥، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٣٥٩، الكليات، الكفوي ص

الوقف اصطلاحًا:

حبس العين على ملك الواقف أو على ملك الله تعالى[١].

الصلة بين الوصية والوقف:

أن كليهما تبرع، لكنهما يفترقان في أن الوصية تكون بعد الموت وقد تكون بالعين، وقد تكون بالمنفعة، أما الوقف فهو تبرع في حال الحياة وبالمنفعة فقط[٢].

٤ المواريث:

المواريث لغةً:

جمع ميراث، وهو المال المخلف عن الميت، ولفظ ميراث يطلق في اللغة العربية على معنيين: أحدهما: البقاء، وثانيهما: انتقال الشيء من قوم إلى آخرين[٣].

الميراث اصطلاحًا:

عند الجمهور: ما تركه الميت من أموال وحقوق، وعند الحنفية: هي ما تركه الميت من الأموال صافيا عن تعلق حق الغير بعين من الأموال، فالأصل عند الحنفية: أن الحقوق لا يورث منها إلا ما كان تابعًا للمال أو في معنى المال، كحق التعلي وحقوق الارتفاق، أما حق الخيار وحق الشفعة وحق الانتفاع بالعين الموصى بها فلا تورث عند الحنفية، ويدخل في التركة اتفاقا الدية الواجبة بالقتل الخطأ أو بالصلح عن العمد أو بانقلاب القصاص مالا بعفو بعض الأولياء فتقضى منه ديون الميت وتنفذ وصاياه[٤].

الصلة بين الوصية والميراث:

أن الوصية قد تكون حقًا واجبًا مثل الدين، وقد تكون تبرعًا بإرادة الموصي، والميراث حق واجب في مال الموروث وبغير إرادته، والوصية عطية من المالك، والميراث عطية من الله تعالى[٥].

٩٤٠.

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٣، أنيس الفقهاء، القنوي ص ٧٠، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٤٠.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٤٤/ ١١٠.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٩٥، المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي ص ٣٦٢، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٠٠، الكليات، الكفوي ص ٧٨.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣/ ١٩.

(٥) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٦٥، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣٣٢.

حكم الوصية

أجمع العلماء على أنها واجبة على من عنده ودائع وعليه ديون أو نحوها، وأكثر العلماء على أن الوصية غير واجبة على من ليس عليه شيء من ذلك، موسرًا كان الموصي أو فقيرًا، وقالت طائفة: الوصية واجبة على ظاهر القرآن[1].

الموصي

لقد ذكر القرآن الكريم وصايا ربنا جل وعلا، ووصايا الأنبياء والرسل، ووصية المؤمن لوالده ولولده، ووصيته في ماله، وسنتناول ذلك فيما يأتي:

أولًا: الله جل جلاله:

الوصية من الله عز وجل: هي ما عهد إلى العباد أن يعملوه، من فعل خير، أو ترك شر، وكلمة وصية تشعر المتلقي لها بحب الموصي للموصى.

فالله جل جلاله يحب عباده، ويحب لهم الخير، ويكره لهم الشر، ولذلك وصاهم بهذه الوصايا الجليلة العظيمة، وما دام الله تعالى هو الموصي فمعنى ذلك أنها افتراض، والوصية من الله تعالى لا تكون إلا للأمور المهمة التي لا تستقيم الحياة إلا بالقيام بها، وهي في أمهات المسائل التي لا يصح أن نغفلها، والتوصية تخصيص للتشريع؛ لأن التشريع يعم أحكامًا كثيرة جدا، ولكن الوصية التي يوصي الله بها تكون هي عيون التشريع، ولقد وصى الله تعالى عباده بوصايا جليلة تشمل خير الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ

(١) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٥٧٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥٩، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٥.

إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا
الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ
وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ
الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا
فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن
سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
﴿١٥٣﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣].

إن الله تعالى رحيم بنا يوصينا بأحسن الوصايا التي تنفعنا في الدنيا والآخرة، وأول وصية وصانا الله تعالى بها هي ألا نشرك به شيئا، ثم وصى بواجب الإنسان تجاه والديه وأقاربه والمساكين وأبناء السبيل والأيتام من بر وقول معروف وحفظ حق، ثم واجب الاعتدال والقصد في حالة اليسر وعدم التبرم بأحداث الحياة وضيق المعيشة وكثرة الولد في حالة الفقر والعسر.

ثم واجب احترام أعراض الناس ودمائهم وعهودهم وأسرارهم واجتناب الإثم والفحش والبغي والكبر والخيلاء والتصدي للأمور بدون علم وبينة وفائدة بأسلوب قوي محكم الحلقات، وجاءت هذه الوصايا بصيغة الأوامر والنواهي والوصايا والإلزام والتنبيه، وهي من هذه الناحية أجمع وأقوى جوامع القرآن في صدد الأخلاق الدينية والاجتماعية والشخصية التي من شأنها أن تكفل رضاء الله وعنايته، وأن تحفظ الناس من الشرور والمهالك، وأن تضمن لهم السعادة والطمأنينة، وأن تبث فيهم روح التعاون والتراحم والإخاء، وأن تجنبهم ما لا يليق بالكرامة الإنسانية والشعور الإنساني من مواقف وحركات، وهذه هي الوصايا العشر التي أجمعت عليها جميع الشرائع ولم تنسخ قط في ملة.

قال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآيات: « إنها محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب».

وقيل: «إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار»، ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا.

ولذلك يقول كعب الأحبار رضي الله عنه: «والذي نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]»[1].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٨، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ١٨٦، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٧٩، التفسير الحديث، محمد عزت ٣/ ٣٧٥، تفسير الشعراوي ٤/ ٢٠٣٤.

ثانيًا: الأنبياء والرسل والحكماء:

إن الأنبياء عليهم السلام هم القدوة الحسنة التي يجب أن نقتدي بهم في أقوالهم وأفعالهم، ولذلك جعل الله تعالى الوصية في القرآن على ألسنتهم، وإن وصايا الأنبياء عليهم السلام هي دين وتشريع من الله تعالى يجب اتباعها والعمل بها، وفيها سعادة الدنيا والآخرة، ولقد كانت وصية الأنبياء إلى أممهم هي إقامة الدين.

فقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة ما كان عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الدعاء إلى الله تعالى، حتى جعلوا ذلك وصية يوصون بها واحدا بعد واحد، وبينت الآية الكريم أن إبراهيم عليه السلام أوصى بملته الحنيفية بنيه، وأن يعقوب أوصى بذلك، وقدم بين يدي وصيته اختيار الله لهم هذا الدين، ليسهل عليهم اتباع ما اختاره الله لهم، ويحضهم على ذلك، وأمرهم أنهم لا يموتون إلا عليه، لأن الأعمال بخواتيمها، ثم ذكر سؤال يعقوب لبنيه عما يعبدون بعد موته، فأجابوه بما قرت به عينه من موافقته وموافقة آبائه الأنبياء من عبادة الله تعالى وحده، والانقياد لأحكامه.

وحكمة هذا السؤال أنه لما وصاهم بالحنيفية، استفسرهم عما تكن صدورهم، وهل يقبلون الوصية؟ فأجابوه بقبولها وبموافقة ما أحبه منهم، ليسكن بذلك جأشه، ويعلم أنه قد خلف من يقوم مقامه في الدعاء إلى الله تعالى.

وصدر سؤال يعقوب بتقريع اليهود والنصارى بأنهم ما كانوا شهدوا وصية يعقوب، إذ فاجأه مقدمات الموت، فدعواهم اليهودية والنصرانية على إبراهيم ويعقوب وبنيهم باطلة، إذ لم يحضروا وقت الوصية، ولم تنبئهم بذلك توراتهم ولا إنجيلهم، فبطل قولهم، إذ لم يتحصل لا عن عيان ولا عن نقل، ولا ذلك من الأشياء التي يستدل عليها بالعقل، ولم يقل: ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما، لئلا يتوهم أن الوصية كانت منهما في وقت واحد أو أنها خاصة بأبنائهما معا، وهم أولاد يعقوب[1].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦٦٣، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٩١.

وقد ذكر القرآن الكريم لقمان الحكيم عليه السلام وهو يوصي ابنه بالتوحيد والنهي عن الشرك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٣-١٩].

شملت هذه الوصية قضية التوحيد وإخلاص العقيدة لله وحده لا شريك له؛ فالشرك بالله ظلم عظيم وجرم كبير، وكون الشرك ظلما؛ لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وكونه عظيما؛ لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لا نعمة له، كما شملت الحرص على طاعة الوالدين والبر بهما، ومراقبة الله له في كل حين، وإحاطته بكل شيء؛ وأداء الصلاة، ومواصلة الصبر في المعاملة مهما كانت الشدائد والعقبات، والحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ والنهي عن الكبر والخيلاء والإعجاب بالنفس وهتك الحرمات، والخوض في أعراض الناس وتلويث البيئة بالأفعال القبيحة والصور المنفرة والأصوات المزعجة، وذلك في صور يهتز لها الوجدان، وينخلع منها القلب، وتتفق مع الفطرة والعقل جميعًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان:١٨][1].

ثالثًا: عموم الناس:

ذكر القرآن الكريم وصية المؤمن لوالده وولده ووصيته في ماله.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة:١٨٠].

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة وصية المؤمن لوالده وولده ووصيته في ماله وكانت هذه الآية أول ما نزل في الأموال،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٨٤، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ١٩٧.

وهذه الوصية تتوقف على نظر الموصي وأمانته وعدله فقد يجور فيها ويظلم، وقد يعدل فيها ويحسن، والمطلوب العدل من الموصي فيما أوصى به.

وقد بين الله تعالى قدر هذه الوصية في قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ والمعروف الفعل الذي تألفه العقول ولا تنكره النفوس، فهو الشيء المحبوب المرضي، سمي معروفا؛ لأنه لكثرة تداوله والتأنس به صار معروفا بين الناس، وضده يسمى المنكر، والمراد بالمعروف هنا العدل الذي لا مضارة فيه ولا يحدث منه تحاسد بين الأقارب؛ بأن ينظر الموصي في ترجيح من هو الأولى بأن يوصي إليه لقوة قرابة أو شدة حاجة، فإنه إن توخى ذلك استحسن فعله الناس ولم يلوموه.

ومن المعروف في الوصية ألا تكون للإضرار بوارث أو زوج أو قريب، ووكل ذلك إلى نظر الموصي فهو مؤتمن على ترجيح من هو أهل للترجيح في العطاء كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وخص هذا الحق بالمتقين ترغيبا في الرضى به؛ لأن ما كان من شأن المتقي فهو أمر نفيس فليس في الآية دليل على أن هذا الوجوب على المتقين دون غيرهم من العصاة، بل معناه أن هذا الحكم هو من التقوى وأن غيره معصية، وخص المتقون بالذكر تشريفا للرتبة ليتبارى الناس إليها، وخص الوالدين والأقربين لأنهم مظنة النسيان من الموصي، لأنهم كانوا يورثون الأولاد أو يوصون لسادة القبيلة.

وقدم الوالدين للدلالة على أنهما أرجح في التبدية بالوصية، وكانوا قد يوصون بإيثار بعض أولادهم على بعض أو يوصون بكيفية توزيع أموالهم على أولادهم، وخوفًا من الحيف أو الجنف تولى الشرع الحنيف تعيين المقدار الموصى به من المال وهو الثلث، والثلث كثير.

فقد ثبت في الحديث أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: (جاء النبي صلى الله عليه وسلم يعودني وأنا بمكة، وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها، قال: (يرحم الله ابن عفراء)، قلت: يا رسول الله، أوصي بمالي كله؟ قال: (لا)، قلت: فالشطر، قال: (لا)، قلت: الثلث، قال: (فالثلث، والثلث كثير)[(١)(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٧٤٢، ٤/ ٣، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٢٨، ٣/ ١٢٥٢، كتاب الهبة، باب الوصية بالثلث.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٤٦، في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٨٩، روح المعاني، الألوسي ١/ ٤٥١.

الموصى به

مما جاء من الوصايا في القرآن الكريم ما يأتي:

أولًا: أمور العقائد:

ذكرت العقيدة في القرآن الكريم في عدة آيات، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

إن هذه الآية تتكلم عن العقيدة التي يجب أن يتمسك بها الناس، والحاكمة في عبادتهم وجميع أعمالهم وأخلاقهم وسلوكهم، عقيدة واحدة وطريق واحد هي الطريق الموصلة إلى الله تعالى، وهو التوحيد وإخلاص العبادة، وأصول الشرائع والأحكام مما لا يختلف باختلاف الأعصار كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة واكتساب مكارم الأخلاق وفاضل الصفات، وهي العقيدة التي جاء بها جميع الأنبياء والرسل، فالعقيدة هي أول دعوة الرسل ومعركتهم مع العقائد الأخرى التي كانت سائدة في مجتمعاتهم والتي وقفت أمام كل الأنبياء، وعن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

قال: «البدع والشبهات، وهذه السبل تعم اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وعباد القبور، وسائر أهل الملل والأوثان، والبدع والضلالات من أهل الشذوذ والأهواء، والتعمق في الجدل، والخوض في الكلام، فاتباع هذه من اتباع السبل التي تذهب بالإنسان عن الصراط المستقيم إلى موافقة أصحاب الجحيم»، وذكر الصراط المستقيم منفردًا، معرفًا تعريفين: تعريفا باللام، وتعريفا بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها[1].

وهذه العقيدة هي التي أخبر عنها القرآن في قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى:١٣].

بينت هذه الآية الكريمة أن من وصية الله تعالى لجميع الأمم والرسل إقامة الدين بكليته، وقد كانت هذه الوصية عمل الرسل لأممهم ومن بعدهم، فنفذها إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٨، تفسير المراغي ٢٥/ ٢٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢١٧.

﴿تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢].

ومن بعد إبراهيم يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:١٣٣].

فهذا تواصي الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة، وقوله تعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى:١٣].

مقدر فيه مضاف، أي: مثل ما وصى به نوحا، أو هو بتقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ مبالغة في شدة المماثلة حتى صار المثل كأنه عين مثله، والمراد: المماثلة في أصول الدين مما يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع، وأعظمها توحيد الله، ثم ما بعده من الكليات الخمس الضروريات، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها، فإن كل ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أودع مثله في دين الإسلام.

فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث والحياة الآخرة، وتقوى الله بامتثال أمره واجتناب منهيه على العموم، وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف، وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريعه، ودين الإسلام لم يخل عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقا وتوسيعا، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام وسد الذرائع والأمر بالنظر في الأدلة وبرفع الحرج وبالسماحة وبشدة الاتصال بالفطرة، ثم بين الله تعالى وصيته لجميع أنبيائه، فقال سبحانه: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

والمراد: إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه، وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما، ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة.

قال جل وعلا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٩٢][1].

وفي هذه الآيات: أن جميع الأديان وصايا الله إلى خلقه، وأن دين الإسلام هو دين جميع الأنبياء السابقين بلا استثناء، وأنه لا يخالف هذه الشرائع المسماة، وأن اتباعه

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١٢٤٥، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢١٥، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٩٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ٩٤.

يأتي بما أتت به من خير الدنيا والآخرة، وفيه إشارة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى باتباعه، والتعريض بالكفار الذين أعرضوا عنه.

فهذه هي أصول الدين التي بينتها الآيات والتي هي عقيدة كل الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهذه العقيدة هي التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: (خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا، ثم قال: (هذا سبيل الله)، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: (هذه سبل) - قال يزيد: متفرقة - على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه)، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣])[(١)(٢)].

قال سيد قطب: «لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام ليقرر وجوده هي معركة الحاكمية وتقرير لمن تكون، لذلك خاضها وهو في مكة، خاضها وهو ينشئ العقيدة، ولا يتعرض للنظام والشريعة، خاضها ليثبت في الضمير أن الحاكمية لله وحده لا يدعيها لنفسه مسلم ولا يقر مدعيها على دعواه مسلم.

فلما أن رسخت هذه العقيدة في نفوس العصبة المسلمة في مكة، يسر الله لهم مزاولتها الواقعية في المدينة، فلينظر المتحمسون لهذا الدين ما هم فيه وما يجب أن يكون، بعد أن يدركوا المفهوم الحقيقي لهذا الدين، إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله، فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين.

وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم، لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله، وتغتصب سلطانه، وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع في الأنفس والأموال والأولاد، وهي هي المشكلة التي كان يواجهها القرآن الكريم بهذا الحشد من المؤثرات والمقررات والبيانات، ويربطها بقضية الألوهية والعبودية، ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر، وميزان الجاهلية أو الإسلام»[(٣)].

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، رقم ٢٤١، ١/ ١٩٧، وأحمد في مسنده، رقم ٤١٤٢، ٧/ ٢٠٧، والدارمي في سننه، رقم ٢٠٨، ١/ ٢٨٥ كتاب العلم، باب في كراهية أخذ الرأي، والنسائي السنن الكبرى رقم ١١١٠٩، ١٠/ ٩٥ كتاب التفسير فاتحة الكتاب، قوله تعالى: (وأن هذا صراطي مستقيمًا).
وحسنه التبريزي في مشكاة المصابيح ١/ ٥٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢١٧.

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٧.

ثانيًا: أمور العبادات:

ولقد وصى القرآن الكريم بإقامة العبادات.

قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى:١٣].

بينت هذه الآية الكريمة أن من وصية الله تعالى لجميع الأمم والرسل إقامة الدين بكليته، والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وغيرها هي من الدين الذي وصى الله تعالى عباده بإقامتها والمواظبة عليها، فمن ترك هذه العبادات من صلاة وصيام وزكاة وغيرها من العبادات فهو من الذين تركوا وصية الله تعالى بإقامة الدين، بل إن هذه العبادات تعد من أصول الدين وتاركها متعمدا كافر بهذا الدين الذي أمر الله تعالى بإقامته.

قال ابن عباس ومجاهد: «لم يبعث الله نبيا قط إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم».

ووصى الله تعالى إبراهيم وإسماعيل بإقامة العبادات، قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

العهد أصله الوعد المؤكد، فإذا عدي بإلى كان بمعنى الوصية المؤكد على الموصى العمل بها فعهد هنا بمعنى أرسل عهدا إليه أي أرسل إليه يأخذ منهم عهدا، فالمعنى وأوصينا إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من كل رجس معنوي كالشرك بالله وعبادة الأصنام، أو رجس حسي كاللغو والرفث والتنازع فيه، حين أداء العبادات كالطواف به والسعي بين الصفا والمروة والعكوف فيه والركوع والسجود، وسماه الله بيته لأنه جعله معبدا للعبادة الصحيحة، وأمر المصلين بأن يتوجهوا في عبادتهم إليه[1].

والصلاة والزكاة، أول ما نطق به عيسى عليه السلام في المهد إذ قال: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَٰرَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم:٣١].

يعني: أمرني بالمحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها علي، فإن قيل: كيف يؤمر بالصلاة والزكاة، في حال طفوليته وقد جاء من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن ثلاث الصبي حتى يبلغ)[2].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦١٠، الوجيز، الواحدي ص ١٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧١١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٤٣٩٨،

والجواب: إن قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال، بل المراد أوصاه بأدائهما في الوقت المعين لهما وهو البلوغ، وقيل: إن الله تعالى صيره حين انفصل عن أمه بالغا عاقلا، وهذا القول أظهر في سياق قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:٣١].

فإنه يفيد أن هذا التكليف متوجه إليه في زمان جميع حياته حين كان في الأرض، وحين رفع إلى السماء وحين ينزل الأرض بعد رفعه، وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أن يؤديها، والآخر: تطهير الجسد من دنس الذنوب، فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي[1].

ثالثًا: أمور التشريع:

جعل الله تعالى لكل أهل ملة شريعة ومنهاجا، فلأهل التوراة شريعة، ولأهل الإنجيل شريعة، ولأهل القرآن شريعة، يحل فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء، والدين واحد والشرائع مختلفة.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨][2].

ومن التشريعات الدينية التي وصى الله تعالى بها: قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١].

بينت هذه الآية الكريمة أن من وصية الله تعالى لجميع الأمم التوحيد والإخلاص في العبادة وطاعة الوالدين واجتناب الفواحش، والاهتمام بحقوق اليتيم، والعدل في القول مع القريب والبعيد، والعدل في البيع، وجاءت الوصية الرابعة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأنعام:١٥١].

نهي عن كل الأخلاق القبيحة والقذرة التي تدمر الروابط والعلاقات الأسرية والاجتماعية، والفواحش: جمع فاحشة، وهي: ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال، يقال: فحش فلان، أي: صار فاحشًا مرتكبًا للقبائح، والمتفحش هو الذي يأتي بالفحش

٤/ ١٤٠، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا، والترمذي في سننه، رقم ١٤٢٣، ٤/ ٣٢، أبواب الحدود، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، والنسائي في سننه، رقم ٣٢٣٤، ٦/ ١٥٦، كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه من الأزواج، وابن ماجه في سننه، رقم ٢٠٤١، ١/ ٦٥٨، كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم. وصححه الألباني في الإرواء ٥/ ٢٧٤.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٩١، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٨٧.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٧٤.

من القول أو الفعل، كالسرقة والزنا والنميمة وشهادة الزور، وقد تعلق التحريم والنهى بهذا الوصف الذي يشعر بالعلة- كما يقول علماء الأصول- فكأنه قال: إن كل قول أو فعل تستقبحه العقول فهو فاحشة يجب البعد عنها، وحمل لفظ الفواحش على العموم في جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره؛ لأن المعنى الموجب لهذا النهي هو كونه فاحشة.

فحمل اللفظ على العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش، وأيضًا فإن السبب إذا كان خاصًّا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم.

وفي قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقة، وهي أن الإنسان إذا احترز عن المعاصي في الظاهر ولم يحترز منها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته فيما أمر به أو نهى عنه، ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم، ومن كان كذلك استحق العقاب.

ومن ترك المعصية ظاهرًا وباطنًا؛ لأجل خوف الله وتعظيمًا لأمره، استوجب رضوان الله وثوابه، وقد نهى عن القرب منها، وهو أبلغ في التحذير من النهي عن ملابستها: لأن القرب من الشيء مظنة الوقوع فيه، ولما لم يكن للإثم قرب وبعد كان القرب مرادا به الكناية عن ملابسة الإثم أقل ملابسة، لأنه من المتعارف أن يقال ذلك في الأمور المستقرة في الأمكنة إذا قيل لا تقرب منها فهم النهي عن القرب منها ليكون النهي عن ملابستها بالأحرى، فلما تعذر المعنى المطابقي هنا تعينت إرادة المعنى الالتزامي بأبلغ وجه[1].

وفي الآية: إن القاعدة التي يقوم عليها المجتمع قاعدة النظافة والطهارة والعفة والأخلاق، فنهاهم الله تعالى عن الفواحش ظاهرها وخافيها؛ لأنه لا يمكن قيام أمة، ولا استقامة مجتمع، ولا أسرة في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع.

والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع، والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار، والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية، شواهد من التاريخ، ومقدمات الدمار والانهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد، والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار، ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨، أ/ ١٥٩، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ٢١٧.

هذه الجرائم هي أقسى العقوبات، لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار[1].

ومن التشريعات الدينية الإحسان للوالدين، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:١٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت:٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

وقال عز من قائل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:١٥].

وصى الله تعالى الإنسان بالإحسان إلى والديه والحنو عليهما، والبر بهما في حياتهما وبعد مماتهما، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام، وإذا لم يحسن الإنسان حرمة من هو من جنسه فهو عن حسن مراعاة سيده أبعد، ورعاية حق الوالد من حيث الاحترام، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام.

وذكره جل وعلا بر الوالدين مقرونا بتوحيده جل وعلا في عبادته، يدل على شدة تأكد وجوب بر الوالدين، والحسن: مصدر حسن، أي: وصيناه بحسن المعاملة، والكره: أي كان حمله مكروها لها، أي حالة حمله وولادته لذلك، وانتصب كرها على الحال، أي كارهة أو ذات كره.

والمعنى: أنها حملته في بطنها متعبة من حمله تعبا يجعلها كارهة لأحوال ذلك الحمل، ووضعته بأوجاع وآلام جعلتها كارهة لوضعه، وفي ذلك الحمل والوضع فائدة له هي فائدة وجوده الذي هو كمال حال الممكن وما ترتب على وجوده من الإيمان والعمل الصالح الذي به حصول النعم الخالدة، والفصال: الفطام.

وذكر الفصال لأنه انتهاء مدة الرضاع، فذكر مبدأ مدة الحمل بقوله: ﴿وَحَمْلُهُ﴾ وانتهاء الرضاع بقوله: ﴿وَفِصَالُهُ﴾.

والمعنى: وحمله وفصاله بينهما ثلاثون شهرًا، ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهرا لتطابق مختلف مدد الحمل، إذ قد يكون الحمل ستة أشهر وسبعة أشهر وثمانية أشهر وتسعة وهو الغالب، قيل: كانوا إذا كان حمل المرأة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٣٠.

تسعة أشهر وهو الغالب أرضعت المولود أحد وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل ثمانية أشهر أرضعت اثنين وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل سبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا، وذلك أقصى أمد الإرضاع فعوضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهرا زائدا في الإرضاع؛ لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزالا.

ومن بديع هذا الطي في الآية أنها صالحة للدلالة على أن مدة الحمل قد تكون دون تسعة أشهر ولولا أنها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر؛ لأن الغرض إظهار حق الأم في البر بما تحملته من مشقة الحمل، فإن مشقة مدة الحمل أشد من مشقة الإرضاع، فلولا قصد الإيماء إلى هذه الدلالة لكان التحديد بتسعة أشهر أجدر بالمقام.

وقد جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣]. دليلًا على أن الوضع قد يكون لستة أشهر، ورووا عن معمر بن عبد الله الجهني قال: (تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فذكر له فبعث إليها عثمان، فلما أتي بها أمر برجمها، فبلغ ذلك عليا فأتاه، فقال: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، فرجع عثمان إلى ذلك)[1].

وهو استدلال بني على اعتبار أن شمول الصور النادرة التي يحتملها لفظ القرآن هو اللائق بكلام علام الغيوب الذي أنزله تبيانا لكل شيء من مثل هذا، ووعد الله على بر الوالدين قبول الطاعة بقوله جل ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف:١٦].

فقبول الطاعة وغفران الزلة مشروطان ببر الوالدين، وسبيل العبد في رعاية حق الوالدين أن يصلح ما بينه وبين الله، فحينئذ يصلح ما بينه وبين غيره على العموم، وأهله على الخصوص، وشر خصال الولد في رعاية حق والديه أن يتبرم بطول حياتهما، ويتأذى بما يحفظ من حقهما، فبر الوالدين أعظم ما يتقرب به إلى الله جل ذكره، وعقوقهما من أعظم الكبائر المهلكات، وبينه الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣].

فنهى الله عز وجل الولد أن يقول أف إذا شم منهما رائحة يكرهها، فالنهي لما فوق

(١) أخرجه مالك في الموطأ رقم ١١، ٢/ ٨٢٥، كتاب المدبر، باب ما جاء في الرجم.

ذلك أعظم، وهذا باب مختصر في الحض على بر الوالدين[1].

ومن التشريعات الدينية إعطاء الوالدين والأقربين حقهم من المال، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة:١٨٠].

بينت هذه الآية حكم المال بعد موت صاحبه، وكان هذا أول تشريع في المال، وكانت عادة العرب في الجاهلية أن الميت إذا كان له ولد أو أولاد ذكور استأثروا بماله كله، وإن لم يكن له ولد ذكر استأثر بماله أقرب الذكور له من أب أو عم أو ابن عم الأدنين فالأدنين، وكان صاحب المال ربما أوصى ببعض ماله أو بجميعه لبعض أولاده أو قرابته أو أصدقائه، فلما استقر المسلمون بدار الهجرة واختصوا بجماعتهم شرع الله لهم تشريك بعض القرابة في أموالهم ممن كانوا قد يهملون توريثه من البنات والأخوات والوالدين في حال وجود البنين ولذلك لم يذكر الأبناء في هذه الآية، ولم يفتتح بـ(يا أيها الذين آمنوا) لأن الوصية كانت معروفة قبل الإسلام، فلم يكن شرعها إحداث شيء غير معروف، لذلك لا يحتاج فيها إلى مزيد تنبيه لتلقي الحكم.

وكان السبب في نزول هذه الآية: أن أهل الجاهلية كانوا يوصون بما لهم للبعداء رياءً وسمعةً، فصرف الله تعالى بهذه الآية ما كان يصرف إلى البعداء إلى الأهل والأقرباء، والخير ههنا المال قليلًا كان أو كثيرًا، وقال بعض الناس: الخير لا يتناول إلا الكثير، والخير قد ورد في القرآن بمعنى المال، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات:٨].

وقيل: إن المال كما يكون خيرا قد يكون شرًا، لكن جعل الله تعالى ههنا خيرًا تنبيهًا على أن الوصية يستحب في المال الطيب دون الخبيث والمغصوب، فإن ذلك يجب رده إلي أربابه ومما تم بالوصية فقط، ثم بين الله تعالى قدر هذه الوصية في قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

والمعروف الفعل الذي تألفه العقول ولا تنكره النفوس، فهو الشيء المحبوب المرضي، سمي معروفا؛ لأنه لكثرة تداوله والتأنس به صار معروفا بين الناس، وضده يسمى المنكر، والمراد بالمعروف هنا العدل الذي لا مضارة فيه ولا يحدث منه تحاسد بين الأقارب؛ بأن ينظر الموصي في ترجيح

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٦٨٣٠، لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٣٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٩.

من هو الأولى بأن يوصي إليه لقوة قرابة أو شدة حاجة، فإنه إن توخى ذلك استحسن فعله الناس ولم يلوموه، ومن المعروف في الوصية ألا تكون للإضرار بوارث أو زوج أو قريب، ووكل ذلك إلى نظر الموصي فهو مؤتمن على ترجيح من هو أهل للترجيح في العطاء كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠].

وخص هذا الحق بالمتقين ترغيبا في الرضى به؛ لأن ما كان من شأن المتقي فهو أمر نفيس فليس في الآية دليل على أن هذا الوجوب على المتقين دون غيرهم من العصاة، بل معناه أن هذا الحكم هو من التقوى وأن غيره معصية، وخص المتقون بالذكر تشريفا للرتبة ليتبارى الناس إليها، وخص الوالدين والأقربين لأنهم مظنة النسيان من الموصي، لأنهم كانوا يورثون الأولاد أو يوصون لسادة القبيلة، وقدم الوالدين للدلالة على أنهما أرجح في التبدية بالوصية، وكانوا قد يوصون بإيثار بعض أولادهم على بعض أو يوصون بكيفية توزيع أموالهم على أولادهم.

ثم لما كان الموصي قد لا يحسن التدبير في مقدار ما يوصي لكل واحد منهم وربما كان يقصد المضارة تولى بنفسه بيان ذلك الحق على وجه تيقن به أنه الصواب وأن فيه الحكمة البالغة، وقصره على حدود لازمة من السدس والثلث والنصف والثمن لا يمكن تغيرها فتحول من جهة الإيصاء إلى الميراث.

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء:١١].

وصى الله تعالى في هذه الآية في الأولاد، ثم بين ما هي هذه الوصية، فقال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ بيان لنصيب كل من الولد والبنت في تركة والدهما المتوفى، فللذكر ضعف الأنثى، أو مثل نصيب الأنثيين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: إن كان المتوفى لم يعقب ذكرا، وكانت ذريته إناثا، فإن كن اثنتين فأكثر، فلهما أو لهن الثلثان، ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ويوصيكم الله أن تفرضوا لأبوي المتوفى،

لكل واحد منهما السدس من التركة، وذلك ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ ذكرا كان أو أنثى، ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي: إن لم يكن للمتوفى فرع كابن أو بنت، أو ابن ابن، ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ أي: انحصر الميراث فيهما ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ وللأب الباقي وهو الثلثان، ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ اثنان فأكثر أشقاء، أو لأب ذكورا أو إناثا، ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ أي: أن نصيبها مع وجود الإخوة ينتقل من الثلث إلى السدس.

وهذا الانتقال لصالح الأب؛ لأن الأخوة لا يأخذون مع وجود الأب شيئا، وإنما هم يؤثرون على نصيب الأم فقط، ويحجبونها حجب نقصان، والسر في تساوي الوالدين في الميراث مع وجود الأولاد، الإشارة إلى وجوب احترامهما على السواء، وفي أن حظ الوالدين من الإرث أقل من حظ الأولاد مع عظم حقهما على الولد، أنهما يكونان في الغالب أقل حاجة إلى المال من الأولاد، إما لكبرهما وإما لتمولهما، وإما لوجود من تجب عليه نفقتهما من أولادهما الأحياء.

وأما الأولاد، فإما أن يكونوا صغارًا لا يقدرون على الكسب، وإما أن يكونوا على كبرهم محتاجين إلى نفقات كثيرة في الحياة كالزواج وتربية الأطفال ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ فقدم الدين والوصية على الميراث، لأن الدين حق على الميت، والوصية حق له، وهما مقدمان على حق ورثته، وقد قدم سبحانه الوصية على الدين في اللفظ مع أنها مؤخرة عن الدين في السداد، وذلك للتشديد في تنفيذها، إذ هي مظنة الإهمال، أو مظنة الإخفاء، ولأنها مال يعطى بغير عوض فكان إخراجها شاقا على النفس، فكان من الأسلوب البليغ الحكيم العناية بتنفيذها.

وكان من مظاهر هذه العناية تقديمها في الذكر، قال علي رضي الله عنه: إنكم تقرؤون الوصية قبل الدين، (وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدين قبل الوصية)[1].

وهذا إجماع على أن الدين مقدم على الوصية والإرث مؤخر عنهما؛ لأن الدين حق على الميت والوصية حق له وهما يتقدمان على حق الورثة.

وقوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي: إنكم لا تدرون أي الفريقين أقرب لكم نفعا آباؤكم أو أبناؤكم، فلا تتبعوا في قسمة التركات ما كان يتعارفه أهل الجاهلية من إعطائها

(١) أخرجه البخاري تعليقًا، ٤/ ٥، كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: (من بعد وصيةٍ يوصي بها أو دينٍ)، ووصله الترمذي في سننه، رقم ٢٠٩٤، ٤/ ٤١٦، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الإخوة من الأب والأم، وابن ماجه في سننه، رقم ٢٧١٥، ٢/ ٩٠٦، كتاب الوصايا، باب الدين قبل الوصية. وحسنه الألباني في الإرواء ٦/ ١٣١.

للأقوياء الذين يحاربون الأعداء، وحرمان الأطفال والنساء لأنهم من الضعفاء، بل اتبعوا ما أمركم الله به، فهو أعلم منكم بما هو أقرب نفعا لكم مما تقوم به في الدنيا مصالحكم وتعظم به في الآخرة أجوركم، ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: فرض الله ما ذكر من الأحكام فريضة لا هوادة في وجوب العمل بها، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: إنه تعالى لعلمه بشؤونكم ولحكمته العظيمة لا يشرع لكم إلا ما فيه المنفعة لكم، إذ لا تخفى عليه خافية من وجوه المصالح والمنافع، إلا أنه منزه عن الغرض والهوى اللذين من شأنهما أن يمنعا من وضع الشيء في غير موضعه، ومن إعطاء الحق لمن يستحقه، وروي أن هذه الآية نزلت لما استشهد سعد بن الربيع يوم أحد، وترك بنتين وامرأة، وأباه الربيع، فأخذ أبوه جميع ما ترك على ما كانوا عليه في الجاهلية، فأتت امرأة سعد النبي صلى الله عليه وسلم فشكت ذلك إليه مرتين وهي تبكي، وتذكر فقر بنيها، وأنه لا أحد يرغب فيهما لفقرهما، فنزلت آية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء:١١][(١)(٢)].

ومن التشريعات الدينية التي وصى الله تعالى بها، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ [البقرة:٢٤٠].

قال المفسرون: «كان في ابتداء الإسلام إذا مات الرجل لم يكن لامرأته في الميراث شيء إلا السكنى والنفقة سنة ما لم تخرج من بيت زوجها، وكان المتوفى يوصي بذلك لها، فإن خرجت من بيت زوجها لم يكن لها نفقة، وكان الحول واجبا عليها في الصبر عن التزوج، ثم نسخت هذه الآية بالربع والثمن، وتقدير لمدة الوفاة بأربعة

(١) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٢٨٩١، ٣/ ١٢١، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الصلب، والترمذي في سننه، رقم ٢٠٩٢، ٤/ ٤١٤، أبواب الفرائض، باب ما جاء في ميراث البنات، وابن ماجه في سننه، رقم ٢٧٢٠، ٢/ ٩٠٨، كتاب الفرائض، باب فرائض الصلب.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه ابن الملقن في البدر المنير ٧/ ٢١٣.

(٢) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ١٢٣٨، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٦٨، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٨٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٢، غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٤٨٧، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٢/ ٧٠٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٤٦، في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٨٩، روح المعاني، الألوسي ١/ ٤٥١.

أشهر وعشر»[1].

ومن التشريعات الدينية التي وصى الله تعالى بها، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾

[المائدة:١٠٦-١٠٨].

أخبر الله تعالى المؤمنين أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضره الموت أن تكون شهادة عدلين، فإن كان في سفر وهو الضرب في الأرض ولم يكن معه من المؤمنين أحد فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدلا وأن ما شهدا به حق ما كتما فيه شهادة الله، وحكم بشهادتهما، فإن عثر بعد ذلك على أنهما كذبا أو خانا ونحو هذا مما هو إثم، حلف رجلان من أولياء الموصي في السفر وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما[2].

رابعًا: أمور الأخلاق:

ذكر القرآن الكريم أن من مكارم الأخلاق التواصي بالحق والتواصي بالصبر، فقال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾

[العصر:١-٣].

أقسم الله تعالى في هذه الآية الكريمة، أنَّ كلَّ إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الأوصاف الأربعة: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر على الحقِّ، فهذه السورة ميزان للأعمال يزين المؤمن بها نفسه، فيبين له بها ربحه من خسرانه، ولهذا قال الشافعي رضي الله عنه: «لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾

[العصر:٣].

والحقُّ: الأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وهو الخير كله: من توحيد الله وطاعته، واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، وقيل: الحق: هو القرآن؛ لشموله كلَّ أمر وكلَّ نهي، وكل خير،

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٥٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥١.

(٣) انظر: تفسير الإمام الشافعي ٣/ ١٤٦١.

ويشهد لذلك قوله تعالى في حقِّ القرآن: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر:٢].

وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحقِّ، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر، والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها، فإنَّ الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة.

ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها، وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر أن يكون شأن حياة المؤمنين قائمًا على شيوع التآمر بهما ديدنًا لهم، وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحقِّ وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمته؛ لما يقتضيه عرف الناس من أنَّ أحدًا لا يوصي غيره بملازمة أمر إلا وهو يرى ذلك الأمر خليقًا بالملازمة، إذ قلَّ أن يقدم أحد على أمر بحقٍّ و لا يفعله أو أمر بصبر وهو ذو جزع.

وقد قال الله تعالى توبيخًا لبني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة:٤٤][1].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٩٤، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٨٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٣٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ٩٤.

الموصى

تظهر وصية الله تعالى للأنبياء والمؤمنين وأهل الكتاب والإنسان عامة وذلك من خلال ما يلي:

أولًا: الأنبياء:

وصى الله تعالى الأنبياء والمرسلين بالتشريعات الدينية، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى:١٣].

إن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بتبليغ وصية الله تعالى، وقد بينت هذه الآية الكريمة أن من وصية الله تعالى لجميع الرسل إقامة الدين بكليته، ومن إقامة الدين الذي أمر الله تعالى بإقامته اتباع جميع التشريعات التي أمر الله تعالى بها، وقد كانت هذه الوصية عمل الرسل لأممهم ومن بعدهم، فنفذها إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة:١٣٢].

ومن بعد إبراهيم يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة:١٣٣].

فهذا تواصي الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة، وقوله تعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى:١٣].

مقدر فيه مضاف، أي مثل ما وصى به نوحا، أو هو بتقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ مبالغة في شدة المماثلة حتى صار المثل كأنه عين مثله، والمراد: المماثلة في أصول الدين مما يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع، وأعظمها توحيد الله، ثم ما بعده من الكليات الخمس الضروريات، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها.

فإن كل ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أودع مثله في دين الإسلام، فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث والحياة الآخرة، وتقوى الله بامتثال أمره واجتناب نهيه على العموم، وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف، وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريعه.

ودين الإسلام لم يخل عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقا وتوسيعا، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام

وسد الذرائع والأمر بالنظر في الأدلة وبرفع الحرج وبالسماحة وبشدة الاتصال بالفطرة، وكما وصى الله تعالى أنبياءه ورسله بأصل الإيمان وعموم الشريعة، كذلك وصى الله تعالى الأنبياء بالعبادة من صلاة وزكاة، كما في قوله تعالى عن نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم:٣١][1].

ثانيًا: المؤمنون:

المؤمنون مأمورون بالتواصي بالحق، وهو الخير كله: من توحيد الله وطاعته، واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، لذلك قرن الأمر بالتواصي بالحق بالأمر بالتواصي بالصبر في سورة العصر، والحق هو المقصود الأول من الدين، وهو لا يقوم إلا بالصبر، فكانت سورة العصر مشتملة على التواصي بالاستقامة على صراط الله المستقيم واتباعه، ويأتي عقبها قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

بمثابة التثبيت على هذا الصراط المستقيم إذ الصبر لازم على عمل الطاعات، كما هو لازم لترك المنكرات، وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحق، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر، والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها، وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر أن يكون شأن حياة المؤمنين قائما على شيوع التآمر بهما ديدنًا لهم.

وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحق وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمته، لما يقتضيه عرف الناس من أن أحدًا لا يوصي غيره بملازمة أمر إلا وهو يرى ذلك الأمر خليقا بالملازمة إذ قل أن يقدم أحد على أمر بحق هو لا يفعله أو أمر بصبر وهو ذو جزع.

وقد قال الله تعالى توبيخا لبني إسرائيل: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤][2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٩١، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٨٧.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٩٤، مدارك

والمؤمنون مأمورون أن لا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢].

نهى الله تعالى ولي اليتيم أو وصية عن قربان مال اليتيم إلا بالوجه الذي هو أنفع، فلا بد لكافل اليتيم من النظر والتحري عند التصرف في ماله، حتى يعرف ما هو ضار وما هو نافع، فلا يتصرف إلا بما هو نافع، ويحرم أخذ مال اليتيم بالباطل، والتعدي عليه ظلمًا، ومثل اليتيم في النهي غيره؛ فكل ذي ولاية أو أمانة على مال غيره يجب عليه أن يتحرى التحري المذكور، كما يحرم على كل أحد أن يتعدى على مال غيره، ووجه تخصيص حق اليتيم في ماله بالحفظ: أن ذلك الحق مظنة الاعتداء عليه من الولي، وهو مظنة انعدام المدافع عنه، لأنه ما من ضعيف عندهم إلا وله من الأقارب والموالي من يدفع عنه إذا استجاره أو استنجده.

فأما اليتيم فإن الاعتداء عليه إنما يكون من أقرب الناس إليه وهو وليه؛ لأنه لم يكن يلي اليتيم عندهم إلا أقرب الناس إليه، وكان الأولياء يتوسعون في أموال أيتامهم، ويعتدون عليها، ويضيعون الأيتام لكيلا ينشؤوا نشأة يعرفون بها حقوقهم، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الضحى:٦].

فلذلك لم يوص الله تعالى بمال غير اليتيم؛ لأن صاحبه يدفع عن نفسه، أو يستدفع بأوليائه ومنجديه، لأنه ضعيف لا ناصر له، والنفوس أشد طمعًا في مال الضعيف؛ فالعناية به أوكد، والعقوبة عليه أشد، ومن بليغ إيجاز القرآن في بيانه أنه يذكر الشيء ليدل به على تأثيره، أو الذي هو أحرى بالحكم منه، أو لكون امتثال الحكم الشرعي فيه داعيا إلى امتثاله في غيره بالمساواة.

وفي قوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢] أربعة تأويلات:

أحدها: حفظ ماله عليه إلى أن يكبر ليتسلمه.

والثاني: أن ذلك هو التجارة به.

والثالث: هو ألا يأخذ من الربح إذا اتجر له بالمال شيئًا.

والرابع: هو أن يأكل الولي بالمعروف من ماله إن افتقر، ويترك إن استغنى، ولا يتعدى من الأكل إلى اللباس ولا غيره.

التنزيل، النسفي ٣/ ٦٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٨٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٣٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ٩٤.

ويحتمل خامسًا: أن التي هي أحسن: حفظ أصوله وتثمير فروعه.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢].

أي: الرشد وزوال السفه مع البلوغ، وفي حدها ثلاثة أقاويل: قال مقاتل: «يعني ثماني عشرة سنة»، وقال الكلبي: «الأشد ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة»، ويقال: «حتى يبلغ مبلغ الرجل»، ويقال: «بلوغ الأشد ما بين ثماني عشرة إلى أربعين سنة».

وقد نص الفقهاء على أن من ولي مال اليتيم واستحق أجرًا، فله الأقل من أحد أمرين: إما نفقته في نفسه، وإما أجرته على عمله، أي: إن كان العمل يستحق أجرة ألف ريال، ونفقته يكفي لها خمسمائة أخذ نفقته فقط، وإن كان العمل يكفيه أجرة مائة ريال، ونفقته خمسمائة أخذ أجرته مائة فقط حفظًا لماله[1].

قال المفسرون: لما نزلت سورة بني إسرائيل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وفي سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠].

تحرج المسلمون أن يخلطوا طعامهم بطعام من يكون عندهم من الأيتام، وكانوا يعزلون طعامهم عن طعامهم، وشرابهم عن شرابهم، حتى ربما فسد طعامهم، فشق ذلك عليهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠].

يعني في الطعام، والشراب، والمساكنة، وركوب الدابة، واستخدام العبد، قال الشعبي: فمن خالط يتيمًا، فليوسع عليه، ومن خالط بأكل فلا يفعل، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠].

قال ابن زيد: الله يعلم حين تخلط مالك بماله، أتريد أن تصلح ماله أو تفسد ماله بغير حق، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠].

فيه تأويلان:

أحدهما: لشدد عليكم.

والثاني: لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٠].

يعني: عزيز في سلطانه وقدرته على الإعنات، حكيم فيما صنع من تدبيره وتركه الإعنات[2].

ثالثًا: أهل الكتاب:

ومن الوصايا التي وصى الله تعالى بها أهل الكتاب وصية التقوى.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٩٤، تفسير ابن باديس ص ٩٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨ أ/ ١٦٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٦٤.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٨٠.

﴿فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء:١٣١].

وصى الله تعالى الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى، من الأمم السالفة، ووصيناكم أنتم يا أمة محمد كذلك بأن اتقوا الله جميعا، وفي هذا إشارة إلى أن الأديان جميعها متفقة على مبدأ التوحيد وتقوى الله ومختلفة في الفروع تبعا للزمان والمكان، وإن تكفروا بالله فاعلموا أن له ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا عن عبادتكم.

والإخبار بأن الله أوصى الذين أوتوا الكتاب من قبل بالتقوى مقصود منه إلهاب همم المسلمين للتهمم بتقوى الله لئلا تفضلهم الأمم الذين من قبلهم من أهل الكتاب، فإن للائتساء أثرا بالغا في النفوس، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣].

والمراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى، فالتعريف في الكتاب تعريف الجنس فيصدق بالمتعدد، وبين بها عدم حاجته تعالى إلى تقوى الناس، ولكنها لصلاح أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧][1].

رابعًا: عامة الناس:

لقد وجه الله تعالى الوصية بالإحسان إلى الناس عامة.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف:١٥-١٦].

بينت الآية أن الوصية بالإحسان للوالدين: هي وصية لجنس الإنسان كله، فهذه الوصاة بالإحسان إلى الوالدين موجهة إلى كل إنسان أي: وصينا الناس وهو مراد به خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بوصايا الله والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك هو المناسب لقوله في آخرها، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف:١٦].

وهي قائمة على أساس إنسانيته، بدون

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٧٤، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٩٠، تفسير المنار، محمد رشيد ٥/ ٣٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٢٠.

حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنسانا، وهي وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد، فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك، وهي وصية صادرة من خالق الإنسان، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضًا[1].

قال سيد قطب: «ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالات معينة، ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير، وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيرا ما تصل إلى حد الموت- فضلا على الألم- بدون تردد، ودون انتظار عوض، ودون مَنٍّ ولا رغبة حتى في الشكران! أما الجيل الناشئ فقلما يتلفت إلى الخلف، قلما يتلفت إلى الجيل المضحي الواهب الفاني، لأنه بدوره مندفع إلى الأمام، يطلب جيلا ناشئا منه يضحي له بدوره ويرعاه! وهكذا تمضي الحياة!

والإسلام يجعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بنائه والمحضن الذي تدرج فيه الفراخ الخضر وتكبر وتتلقى رصيدها من الحب والتعاون والتكافل والبناء، والطفل الذي يحرم من محضن الأسرة ينشأ شاذا غير طبيعي في كثير من جوانب حياته- مهما توافرت له وسائل الراحة والتربية في غير محيط الأسرة- وأول ما يفقده في أي محضن آخر غير محضن الأسرة، هو شعور الحب.

فقد ثبت أن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته، ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد، وفي المحاضن الصناعية لا يمكن أن يتوفر هذا، إذ تقوم الحاضنة بحضانة عدة أطفال، يتحاقدون فيما بينهم، على الأم الصناعية المشتركة، وتبذر في قلوبهم بذرة الحقد فلا تنمو بذرة الحب أبدا، كذلك يحتاج الطفل إلى سلطة واحدة ثابتة تشرف عليه فترة من حياته كي يتحقق له ثبات الشخصية، وهذا ما لا يتيسر إلا في محضن الأسرة الطبيعي.

فأما في المحاضن الصناعية فلا تتوفر السلطة الشخصية الثابتة لتغير الحاضنات بالمناوبة على الأطفال، فتنشأ شخصياتهم مخلخلة، ويحرمون ثبات الشخصية والتجارب في المحاضن تكشف في كل يوم عن حكمة أصيلة في جعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع السليم، الذي يستهدف الإسلام إنشاءه على أساس الفطرة السليمة[2].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦١، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ١٣/ ٢٧٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٩.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٦١- ٣٢٦٢.

صيغ عرض الوصية

تظهر صيغ الوصية من خلال ما يلي:

أولًا: الصيغة الفعلية:

وردت الوصية في القرآن الكريم بعدة صيغ فعلية، منها:

١. صيغة الفعل الماضي وصى وأوصى، اثنتي عشرة مرة.

فيما أوصى به سبحانه رسله وعباده، وغلب مجيء الوصية بمعناها المعروف فيما يوصي به الراحلون عن الدنيا، مع حرمة دينية يسبغها القرآن على الوصية بالحق في حدود ما أمر به الله، أما التواصي فجاء في القرآن خمس مرات، كلها بصيغة الفعل الماضي، وإحداها في سياق الاستفهام الإنكاري لموقف أمم خلت من رسل الله إليهم، وكأنهم تواصوا بالتكذيب: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

والأربع الباقيات في مسئولية الإنسان عن الجماعة، بآية العصر: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:٣][(١)].

والحكمة في مجيء هذه الصيغة بالماضي: يعني أنها وصايا قديمة ما زال يوصي الله تعالى بها عباده، وجيء بها بصيغة الماضي الذي يفيد الثبات والاستمرار، وكان ورود أكثرها على التعبير بالماضي لأنه أوضح في استحكام الثبات وامتداده، فورد هذا كله على أنسب وجه، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

يعني: أنها وصية قديمة ما زال يوصي الله بها عباده، لستم بها مخصوصين[(٢)].

وكذلك وصية الله جاءت بصيغة الماضي: قال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الأحقاف:١٥].

لتشمل خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بالإحسان إلى الوالدين موجهة إلى كل إنسان، أي وصينا الناس وهو مراد به خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بوصايا الله، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك هو المناسب لقوله في آخرها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف:١٦][(٣)].

وجاء التعبير بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:٣].

إنما قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ ولم يقل:

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٢/ ٨٩.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٣٠٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٩.

ويتواصون؛ لئلا يقع أمرًا بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل[1].

٢. جاءت الوصية بلفظ المضارع.

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ﴾ [النساء:١١].

اهتماما بشأنها، وإيذانا بوجوب سرعة الامتثال لمضمونها، إذ الوصية من الله تعالى إيجاب مؤكد، وجاءت أيضًا بلفظ المضارع تنبيها على نسخ ما مضى والشروع في حكم آخر[2].

وردت الوصية في القرآن الكريم بصيغة المضارع في عدة مواطن، وذلك أن الفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار.

وأطلق الإيصاء على ما أمر الله به؛ لأن الناس لم يشاهدوا الله حين فعلهم ما يأمرهم به، فكان أمر الله مؤكدًا فعبر عنه بالإيصاء تنبيها لهم على الاحتراز من التفويت في أوامر الله، ولذلك أطلق على أمر الله الإيصاء في مواضع كثيرة من القرآن، كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ﴾ [النساء:١١][3].

ثانيًا: الصيغة الإسمية:

سبيل الواجبات الإتيان بالمصدر مرفوعًا، وسبيل المندوبات الإتيان به منصوبًا، ولهذا اختلفوا: هل كانت الوصية للزوجات واجبة لاختلاف القراءة في قوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم﴾ [البقرة:٢٤٠].

بالرفع والنصب، فإن الأول مندوب، والثاني واجب، والحكمة في ذلك أن الجملة الإسمية أوكد وأثبت من الفعلية[4].

ثالثًا: بلاغة فواصل آيات الوصية:

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٨٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٨٢، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١٨٠، البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٤٧١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨أ/ ١٣٤.
(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/ ٣٧٩، معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي ٣/ ٤٩٧.

﴿١٥٣﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣].

ختمت الأولى بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والثانية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والثالثة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لأن ترك الوصايا في الآية الأولى دال على عدم التعقل؛ لأن الشرك والعقوق وقتل الأولاد لأجل الفقر وارتكاب الفواحش وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، كلها عظام جسام، وكانت الوصية بها من أبلغ الوصايا، فختم الآية بما في الإنسان من أشرف السجايا وهو العقل الذى امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان وفي الآية الثانية حقوق قولية ومالية، وكل إنسان يحرص عليهما لنفسه، وترك ذلك بالنسبة للغير غفلة يناسبه الدعوة إلى التذكر.

وفي الآية الثالثة دعوة إلى شرع الله والبعد عن سبل الشيطان، والمخالفة تعرض إلى سخط الله؛ فناسبه الدعوة إلى التقوى[1].

(١) انظر: الأصلان في علوم القرآن، محمد القيعي ص ٧٢، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، أحمد بن إبراهيم الثقفي ١/ ١٧٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ١٩٩.

ثمرات الوصية الدنيوية والأخروية

تظهر نتائج الوصية وثمرتها من خلال ما يلي:

أولًا: ثمرات الوصية الدنيوية:

الثمرات الخيرة الدنيوية للوصية بالخير:

١. أن وصايا القرآن من شأنها أن تكفل رضاء الله وعنايته، وأن تحفظ الناس من الشرور والمهالك وأن تضمن لهم السعادة والطمأنينة، وأن تبث فيهم روح التعاون والتراحم والإخاء، وأن تجنبهم ما لا يليق بالكرامة الإنسانية والشعور الإنساني من مواقف وحركات[2].

٢. ومن ثمراتها الحفاظ على النفس وصيانتها من الاعتداء عليها. وشملت الوصية ما كان يعمله أهل الجاهلية فكانت الجاهلية تقتل أولادها خشية كثرة العيلة، ودخول الفقر عليهم إذا كثروا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام:١٥١]. وشملت الوصية حفظ النفس الإنسانية، ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١]. أي: حرم

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٧٩، التفسير الحديث، محمد عزت ٣/ ٣٧٥، تفسير الشعراوي ٤/ ٢٠٣٤.

قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد فيخرج الحربي ويدخل الذمي، فما روي عن ابن جبير من كون المراد بالنفس المذكورة النفس المؤمنة ليس في محله ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق الذي هو أمر الشرع بقتلها، وذلك كما جاء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق الجماعة)[1].

أو من أعم الأسباب أي: لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق وهو ما في الخبر، أو من أعم المصادر أي: لا تقتلوها قتلا إلا قتلا كائنا وهو القتل بأحد المذكورات، والحفاظ على النفس يشيع في المجتمع الأمن والسلام ويقضي على كل مظاهر العنف، ويحفظ التعايش مع جميع المجتمعات والأمم والشعوب، فالإسلام دين السلام والتعايش والقبول بالآخر، ويرفض كل أشكال العنف والتطرف بجميع أشكاله وأنواعه وصوره[2].

٣. الحفاظ على العقيدة الصحيحة، والتي هي سبب الفوز والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وهي السبب في الحفاظ على الفرد والأسرة والمجتمع وهي التي تحفظ الفرد من البدع والضلالات والشبهات، والسبل المؤدية إلى الضلال من اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وعباد القبور، وسائر أهل الملل والأوثان، والشذوذ والأهواء والطوائف، وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣][3].

٤. الحفاظ على الفرد والأسرة والمجتمع. فالوصية بالأخلاق الكريمة هي القاعدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٨٧٨، ٩/ ٥ كتاب الحدود، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس والعين بالعين)، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٧٦، ٣/ ١٣٠٢، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٩٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢١٧.

والأخلاق، فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها؛ لأنه لا يمكن قيام أمة، ولا استقامة مجتمع، ولا أسرة في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع، والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع، والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار، والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية، شواهد من التاريخ. ومقدمات الدمار والانهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد، والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار، ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هي أقسى العقوبات؛ لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١][1].

٥. الحفاظ على وحدة الأمة وكيانها وقوتها. فاتباع صراط الله المستقيم الواحد هو سبب وحدة الأمة، وحدتها في الألوهية ووحدتها في الربوبية ووحدتها من الشتات والتمزق التي تسببه الأهواء والبدع والطوائف والأحزاب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]. فهذه الآية تحذر من التفرق وتدعو إلى الوحدة وجمع كلمة المسلمين، والسير في طريق واحد، فإذا تفرق المسلمون بعد ذلك فهم خارجون عن السير فيه، وحينما تفرق المسلمون أحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون، زعمت كل فرقة أنها هي الناجية، وما عداها هالك، حتى التبس الأمر على كثير من المسلمين فلم يهتد إلى الفرقة الناجية بسبب تلك المزاعم، ولا ينبغي أن نأبه لتلك المزاعم. بل نعرض كل ما نسمع على كتاب الله وسنة نبيه، فما وافقهما فهو الحق، وما خالفهما عرفنا أنه باطل وهذا هو الميزان الذي

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٣٠.

ينبغي أن نزن به كل قول ومعتقد مهما كان مصدره كما هو حال أهل السنة في عرضهم للأقوال والمعتقدات على كتاب الله وسنة رسوله، وهو توفيق من الله لهم، وهم الفرقة الناجية، وهم أهل الحق إلى أن تقوم القيامة[1].

٦. الحفاظ على الأموال، فحفظت وصايا القرآن أموال اليتامى من الضياع، وحذرت أصحاب النفوس الضعيفة من المساس بها، وحفظت الموازين في التجارة لتستقيم المعاملات، وأعطت للأولاد والآباء حقهم من المال، ونهت عن المضارة في الوصية في المال، وذلك يعمل على حفظ مال الفرد والجماعة والأمة، وأشير لذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام:١٥٢].

٧. رجاء أن يتكلف ذكر هذه الوصايا وما فيها من المصالح والمنافع من كان كثير النسيان والغفلة أو كثير الشواغل الدنيوية، أو رجاء أن يتذكرها المرة بعد المرة من أراد الانتفاع بها بتلاوة آياتها في الصلاة وغيرها وبغير ذلك، أو رجاء أن يتعظ بها من سمعها وقرأها أو ذكرها أو ذكَّر بها، وبعض هذه الوجوه عام يطلب من كل مسلم، وبعضها خاص، وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢][2].

٨. الإمامة في الدين والدنيا، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]. إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:٢٤]. فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين[3].

٩. أنهم ثنية الله سبحانه من الخاسرين، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣]. فأقسم سبحانه على خسران نوع الإنسان إلا من كمل نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وكمل غيره بوصيته له بهما، ولهذا قال الشافعي رحمه الله: «لو

(١) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، غالب عواجي ١/ ٤٠.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٧١.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/ ١٦٧، التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص ٨٧.

فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم»[1].

والخلاصة: أن وصايا القرآن الكريم تحافظ على الكليات الضرورية للفرد والمجتمع وهي العقيدة والنفس والعرض والمال والعقل وكل ما فيه صلاح المجتمع وسلامته والحفاظ على أمنه ووحدته واستقراره بما يكفل له سبل الحياة الكريمة، فإذا هم فعلوا بهذه الوصايا كثر في الأمة الخير، وندر فيها وقوع الشر، وائتلفت قلوب أهليها، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، وسعدوا في دنياهم وآخرتهم[2].

النتائج الشريرة للتواصي بالشر:

والتواصي بالشر بعكس التواصي بالخير فهو سبب الشرك والكفر وفساد الأخلاق وأكل مال اليتيم وقتل النفس التي حرم الله تعالى وقتل الأولاد خوف الفقر ووأد البنات وحرمان خير الدنيا والآخرة، وسبب الشقاء والانحراف والطغيان.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤﴾ [الذاريات:٥٢-٥٤].

يخبر تعالى عن سبب شقاء قريش وحرمانها خير الدنيا والآخرة وهو اتباعها وصية الأمم السالفة المكذبة رسلها، فكما كذبت قريش نبيها محمدًا صلى الله عليه وسلم، وقالت: هو شاعر، أو ساحر أو مجنون، كذلك فعلت الأمم المكذبة رسلها، الذين أحل الله بهم نقمته، كقوم نوح وعاد وثمود، وفرعون وقومه، وقوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات:٥٣].

يقول تعالى ذكره: أأوصى هؤلاء المكذبين من قريش محمدًا عليه السلام على ما جاءهم به من الحق أوائلهم وآباؤهم الماضون من قبلهم، بتكذيب محمد عليه السلام، فقبلوا ذلك عنهم[3].

ثانيًا: ثمرات الوصية الأخروية:

الثمرات الأخروية للوصية بالخير ما يأتي:

من ثمرات الوصايا بالحق والوصايا بالصبر والوصايا بالمرحمة ووصايا القرآن بشكل عام، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨﴾ [البلد:١٧-١٨].

أي: أن هؤلاء الذين آمنوا، وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالمرحمة، وتخطوا هذه العقبة، ففكوا الرقاب، وأطعموا الجياع من الأيتام والمساكين هؤلاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ

(١) انظر: رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص ٢١.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٢٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٤١، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٥٣٦.

﴿١٨﴾ [البلد:١٨].

على جهة التفخيم لشأنهم والتعظيم لقدرهم، وهم أصحاب اليمن والبركة والثواب، والفوز، والفلاح، وأنهم من أهل اليمين، الذين وعدهم الله جنات النعيم، الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، وقال يحيى بن سلام: «لأنهم ميامين على أنفسهم»، وقال ابن زيد: «لأنهم أخذوا من شق آدم الأيمن»، وقيل: «لأن منزلتهم عن اليمين»[1].

ووصف تعالى ما أعد لأصحاب اليمين في آيات أخر، قال تعال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة:٢٧-٤٠].

النتائج الأخروية للتواصي بالشر:

ثم ذكر تعالى مقابل أصحاب اليمين وهم الذين صدوا عن سبيل الله، وتواصوا بالإثم وتواصوا بالعدوان ومعصية الرسول فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البلد:١٩-٢٠].

أي: والذين جحدوا آياتنا الكونية وآياتنا السمعية التي جاءت على ألسنة الرسل، هم أصحاب المشأمة، أي أهل الشمال الذين وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة:٤١-٤٧].

وقوله تعالى: ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾ [البلد:١٩]. على جهة التعظيم والمبالغة في ذمهم، وهي منزلة الإهانة والغضب والخسران، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم، ويقال: أصحاب المشأمة: هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى، وللجانب الأيسر الأشام، ومنه الشؤم، وقيل: إنما سموا بذلك لأنهم أعطوا كتبهم بشمائلهم، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البلد:٢٠]. أي: عليهم نار تطبق عليهم فلا يستطيعون الفكاك منها ولا الخلاص من عذابها، نجانا الله منها بمنه وكرمه، وجعلنا من أصحاب الميمنة[2].

موضوعات ذات صلة:

الشهادة، العدل، المال، الوراثة

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٨٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٧١.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٢٥٧، نظم الدرر ٣٠/ ١٦٣.

الوفاء

عناصر الموضوع

مفهوم الوفاء	١٥٦
الوفاء في الاستعمال القرآني	١٥٧
الألفاظ ذات الصلة	١٥٨
مجالات الوفاء	١٦٠
أثر الوفاء على الفرد والمجتمع	١٧٨

مفهوم الوفاء

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: (وفي) «الواو والفاء والحرف المعتل: كلمةٌ تدل على إكمالٍ وإتمام. منه الوفاء: إتمام العهد وإكمال الشرط. ووفى: أوفى، فهو وفيٌّ. ويقولون: أوفيتك الشيء، إذا قضيته إياه وافيًا. وتوفيت الشيء واستوفيته؛ إذا أخذته كله حتى لم تترك منه شيئًا»[(١)].

وقال ابن منظور: «معنى الوفاء في اللغة الخلق الشريف العالي الرفيع»[(٢)].

«يقال: وفى بعهده وأوفى، ووفيت بالعهد وأوفيت به سواء، فمن قال وفى فإنه يقول تم كقولك وفى لنا فلانٌ أي: تم لنا قوله ولم يغدر، ومن قال أوفى فمعناه أوفاني حقه أي: أتمه ولم ينقص منه شيئًا، وكذلك أوفى الكيل أي: أتمه ولم ينقص منه شيئًا»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: الوفاء بالعهد: إتمامه وعدم نقض حفظه[(٤)].

وقال أيضًا: الوفاء صدق اللسان والفعل معًا[(٥)].

وقال الجرجاني: الوفاء: هو ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء[(٦)].

وقيل: الوفاء: المحافظة على العهد والالتزام به، ومنه الوفاء بالالتزام، ووفاء الدين، والوفاء بالعهد[(٧)].

فالوفاء يدور حول الالتزام والإكمال والتمام والمحافظة على ما ألزم الإنسان به نفسه من عهود أو مواثيق أو وعود أو أمانات أو غير ذلك مما يضاف إلى كلمة الوفاء.

(١) مقاييس اللغة، ٦/ ١٢٩.
(٢) لسان العرب، ١٥/ ٣٩٨.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٣٩٨.
(٤) المفردات، ص٥٢٨.
(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص ٢٩٢.
(٦) التعريفات، الجرجاني، ص ٢٧٤.
(٧) معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي، ١/ ٥٠٧.

الوفاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وفي) في القرآن الكريم (٦٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (٤١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر:٧٠]
الفعل المضارع	٢٠	﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان:٧]
فعل الأمر	١١	﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:٣٤]
اسم الفاعل	٢	﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود:١٠٩]
اسم تفضيل	٢	﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]

وجاء الوفاء في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: التمام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]. يعني: أنه بذل المجهود في جميع ما طولب به وأداه تامًا كاملًا[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٥٦، ٧٥٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص١٤١٧.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٤٤، ٢٤٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣٢٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصدق:

الصدق لغةً:

نقيض الكذب، صدق، يصدق، صدقًا، وصدقًا، وتصادقًا، قيل: صدقه الحديث: أنبأه بالصدق، ويقال: صدقت القوم، أي: قلت لهم صدقًا وتصادقًا في الحديث وفي المودة[١].

الصدق اصطلاحًا:

مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم[٢].

وقال الراغب: الصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقا تاما[٣].

الصلة بين الصدق والوفاء:

قال الماوردي: «الصدق والوفاء توأمان، والصبر والحلم توأمان فيهن تمام كل دين، وصلاح كل دنيا، وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد[٤].

وقيل: بين الوفاء والصدق عموم وخصوص «فكل وفاء صدق، وليس كل صدق وفاء. فإن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول، ولا يكون الصدق إلا في القول، لأنه نوع من أنواع الخبر، والخبر قول»[٥].

٢ الأمانة:

الأمانة لغةً:

لها أصلان متقاربان: أولهما: الأمانة التي ضد الخيانة، ومعناه سكون القلب. والآخر: التصديق[٦].

الأمانة اصطلاحًا:

قال الكفوي: الأمانة: كل ما افترض الله على العباد فهو أمانة كالصلاة والزكاة والصيام

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٩٣.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥١١.
(٣) المفردات، الراغب، ص٢٧٧.
(٤) أدب الدنيا والدين، ص٣٢٥.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٥٧٥.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ١/ ١٣٣.

وأداء الدين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار، وقال في موضع آخر: كل ما يؤتمن عليه من أموال وحرم وأسرار فهو أمانة[1].

الصلة بين الأمانة والوفاء:

معنى الأمانة قريب من معنى الوفاء؛ فإذا كانت الأمانة بمعنى الفرائض فمن الوفاء إتمامها كاملة غير منقوصة، وكذا إذا كانت بمعنى الوديعة.

قال النسفي: ومعنى الخون النقص كما أن معنى الإيفاء التمام، ومنه تخونه إذا انتقصه، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه[2].

٣ الخيانة:

الخيانة لغةً:

الاحتيال والخداع. فالخيانة خلاف الأمانة[3].

الخيانة اصطلاحًا:

«مخالفة الحق بنقض العهد في السر»[4].

الصلة بين الخيانة والوفاء:

من خلال معرفة معنى الخيانة يلاحظ أنها تأتي في مقابل الوفاء خاصة، وأن الوفاء يقوم على الإتمام والإكمال والالتزام بالعهود والمواثيق، والخيانة تنصرف إلى نقضها وعدم الوفاء بها، ومن استعمال القرآن للخيانة بمعنى نقض العهود والمواثيق وعدم الوفاء بها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨].

(١) الكليات، ص١٧٦، ١٨٦ بتصرف يسير.
(٢) مدارك التنزيل، ١/ ٤١٧.
(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي، ص ١٥٦.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٠٥.

مجالات الوفاء

والوفاء له مجالات كثيرة يجب على المسلم أن يقوم بها على وجه الإكمال والإتمام، حتى يكون قد حقق الوفاء المأمور به في الشريعة، ومن أبرز هذه المجالات:

أولًا: الوفاء بالعهود والمواثيق:

والوفاء بالعهود والمواثيق من الأمور المهمة في حياة المسلم، والتي جاءت الكثير من النصوص الشرعية تأمر بالوفاء بها على وجه التمام والكمال.

ويشمل ذلك الوفاء بالعهد والميثاق مع الله سبحانه، أو مع الناس، وقد جاء الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠].

وقد بين الشيخ ابن عثيمين أهمية الوفاء بالعهد مع الله فقال: «ومن فوائد هذه الآية أن من وفى لله بعهده وفى الله له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بل إن الله أكرم من عبده، حيث يجزيه الحسنة بعشر أمثالها؛ وأن من نكث بعهد الله فإنه يعاقب بحرمانه ما رتب الله تعالى على الوفاء بالعهد؛ وذلك لأن المنطوق في الآية أن من وفى لله وفى الله له؛ فيكون المفهوم أن من لم يف فإنه يعاقب، ولا يعطى ما وعد به؛ وهذا مقتضى عدل الله عز وجل»[1].

ومن الآيات التي تحث على الوفاء بالعهود والمواثيق قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والآية تجعل الوفاء بعهد الله من وصية الله لعباده كما قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا وصاكم به، وأمركم به، وأكد عليكم فيه»[2].

وقد جاء الأمر أيضًا بالوفاء بالعهود والمواثيق في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

قال القرطبي: «﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع الإنسان من بيع أو صلة أو موافقة للديانة»[3].

وعن سر إيثار التعبير بـ﴿وَأَوْفُوا﴾ فلأن فيه دلالة على التمسك بالعهد تمسكًا تامًّا، وأداءً وافيًا لا نقيصة فيه، وهذا ما يناسب الحديث عن العهد مع الله تعالى، لذا أضيف العهد الى الله في قوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾

(١) تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة، ٣/ ٩٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٦٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٦٩.

لإبراز عظمة هذا العهد وفخامته، وللحث على الالتزام به وعدم نقضه، هذا ما أوحى به لفظ الجلالة بما فيه من معاني الجلالة والعزة، لأنه اسم الله الأعظم. والإتيان بـ(إذا) الظرفية لتأكيد الوفاء بالعهد[1].

وبين القرآن أن الإنسان سيسأل عن عهده الذي أعطاه لغيره وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

قال ابن كثير: «أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه»[2].

وقال الطبري: «يقول: وأوفوا بالعقد الذي تعاقدون الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام، وفيما بينكم أيضًا، والبيوع والأشربة والإجارات، وغير ذلك من العقود؛ لأن الله جل ثناؤه سائل ناقض العهد عن نقضه إياه، يقول: فلا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموه أيها الناس فتخفروه، وتغدروا بمن أعطيتموه ذلك. وإنما عنى بذلك أن العهد كان مطلوبًا، يقال في الكلام: ليسئلن فلان عهد فلان»[3].

وقد مدح الله الذين يفون بعهودهم ومواثيقهم، وأنهم من الذين صدقوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأنهم من المتقين قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

وانهم من أولي الألباب قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد: ١٩-٢٠].

وأن له الأجر العظيم من الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

وقد ورد في السنة النبوية أيضًا ما يأمر بالوفاء بالعهود والمواثيق والإنكار على من خالف ذلك، وأنه مما أمر به الإسلام، فعن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما قال: (أخبرني أبو سفيان أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم فزعمت أنه أمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة نبيٍ)[4].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفي بالعهود حتى في أشد الظروف، فعن الحسن بن على بن أبى رافعٍ رضي الله عنه أن أبا رافعٍ أخبره قال: (بعثتني قريشٌ إلى رسول

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٢/ ١٥٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٧٤.
(٣) جامع البيان، ١٧/ ٤٤٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٥٣٥، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد.

الله صلى الله عليه وسلم فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألقي في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله إني والله لا أرجع إليهم أبدًا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد، ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع). قال: فذهبت ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت)[1].

قال ابن الأثير: «(إني لا أخيس بالعهد) أي: لا أنقضه. يقال: خاس بعهده يخيس، وخاس بوعده إذا أخلفه»[2].

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم أن من لا يوفون بعهودهم إنما يفضحون يوم القيامة ويكون لهم علامة جزاء على غدرهم، وهذا وإنْ دلَّ فإنما يدلُّ على عظم هذا الأمر في الإسلام، فعن عبد الله رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة يقال هذه غدرة فلانٍ)[3].

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء)[4].

بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه أصحابه رضي الله عنهم إلى الوفاء بعهودهم، ولا يطلب منهم نقضها مهما كان الأمر، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيلٌ قال فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم)[5].

ولقد استنبط أهل العلم من هذه النصوص وغيرها أن الوفاء بالعهود والمواثيق من الأمور اللازمة والمهمة، كما قال ابن تيمية: «جاء الكتاب والسنة بالأمر بالوفاء بالعهود والشروط والمواثيق والعقود وبأداء الأمانة، ورعاية ذلك، والنهي عن الغدر ونقض العهود والخيانة، والتشديد على من يفعل

(١) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الجهاد، باب الإمام يستجن به في العهود، ٢٧٦٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٥١٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/ ١٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٠١٥، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبر والفاجر، ومسلم في صحيحه، رقم ١٧٣٦، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر. واللفظ له.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الغدر، رقم ١٥٨٠.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ٢٤٦٨.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٨٧، كتاب الجهاد والسير، باب الوفاء بالعهد.

ذلك»[1].

وقال الشيخ صالح الفوزان: «من الوصايا العظمية: الوفاء بعهد الله عز وجل بأن تعبده ولا تشرك به شيئًا؛ والوفاء بالمواثيق التي تكون بين الناس بعضهم مع بعض، فإذا عاهدت سلطانًا، أو أميرًا، أو عاهدت أحدًا من الناس فلا تغدر العهد»[2].

وبعض العلماء قد عد النقض للعهود والمواثيق من الكبائر والموبقات، كما ذكر الذهبي فقال: «الكبيرة الخامسة و الأربعون: الغدر و عدم الوفاء بالعهد»[3].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أهمية ووجوب الوفاء بالعهود والمواثيق وإتمامها والقيام بها على وجه الكمال، ويشمل ذلك كل العهود والمواثيق سواء مع الله سبحانه أم مع الناس على اختلاف أنواعهم، مسلمين أم غير مسلمين، طالما أعطيناهم عهودًا ومواثيق.

ثانيًا: الوفاء بالوعود:

ومن المجالات المهمة من مجالات الوفاء، الوفاء بالوعود، لأنه دليل على صدق المسلم، وتمام إيمانه، وكمال إسلامه.

والوفاء بالوعد: هو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ويرهنه به لسانه. والخروج مما يضمنه (بمقتضى العهد الذي قطعه على نفسه) وإن كان مجحفا به، فليس يعد وفيا من لم تلحقه بوفائه أذية وإن قلت، وكلما أضر به الدخول تحت ما حكم به على نفسه كان ذلك أبلغ في الوفاء[4].

والوعد: «هو الإخبار بإيصال الخير في المستقبل، والإخلاف: جعل الوعد خلافا، وقيل: هو عدم الوفاء به»[5].

قال ابن حجر العسقلاني: «المراد بالوعد، الوعد بالخير، أما الوعد بالشر فيستحب إخلافه، وقد يجب ما لم يترتب على ترك إنفاذه مفسدة»[6].

فالوعد لا بد أن يكون بمعروف، فحين يكون الوعد بشر، لا يجب الوفاء به. وإن زمن الوفاء بالوعد هو المستقبل، وليس الآن (حين الوعد). «وينبغي أن يفرق بين الوعد والنذر؛ لكون الوفاء بهما في المستقبل فيتشابهان من هذا الوجه، لكن هذا التشابه لا يمنع وجود الفرق بينهما، فالنذر وإن كان فيه معنى الوعد، إلا أن فيه معنى القربة إلى الله تعالى، وأن في عدم الوفاء به الكفارة، وليس كذلك الوعد»[7].

وهناك فرق بين الوعد والعهد، إذ العهد، يراد به الأمان واليمين والموثق والذمة

(١) القواعد النورانية الفقهية، ص ١٩٦.
(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، ص٣٩.
(٣) الكبائر، ص ١٦٨.
(٤) تهذيب الأخلاق، الجاحظ، ص ٢٤.
(٥) عمدة القاري، بدر الدين العيني، ١/ ٢٢٠.
(٦) انظر: فتح الباري، ١/ ٩٠.
(٧) الوفاء بالوعد، د. إبراهيم فاضل الدبو، ص ٥.

والحفاظ والوصية، فتقول: عهد الله علي لأفعلن كذا[1] والعهد يراد به ما تعبد الله به من أمور الدين، أو ما يكون بين العباد مما يكون بخلفه إتلاف مال أو نفس، أو إدخال ضرر كثير.

أما الوعد ففيما لا يتعلق ذلك به حق لمخلوق. أو ما لا يؤدي إلى إخلافه كثير ضرر، فمن نقض عهده فذلك من كبائر الذنوب ويبلغ به الهلاك، ومن أخلف وعده كان إثما ولا يبلغ فاعلوه إلى الكفر والهلاك[2].

وقيل: العهد ما يكون من الجانبين، وأما ما يكون من جانب فوعد، ونقضه خلف وعد[3].

وقيل: العهد ما كان من الوعد مقرونا بشرط، نحو قولك: إن فعلت كذا فعلت كذا وما دمت على ذلك فأنا عليه، والعهد يقتضي الوفاء والوعد يقتضي الإيجاز، ويقال: نقض العهد وأخلف الوعد[4].

ومع ما نقلناه من خلاف بين العهد والوعد، فإن العسقلاني ذكر أنه قد يتحد معناهما[5].

ولعل ما يؤيد هذا الرأي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[التوبة: ٧٥-٧٧].

إذ بدأ الذكر الحكيم بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ فلما أخلفوا رتب عليهم ما رتب، ثم علله بقوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾[6].

والوعد مباح[7]. فلكل شخص أن يعد بالمعروف والخير من يشاء من الناس، لكن الذي ينبغي الإشارة إليه هو أن يتحفظ الشخص في إطلاق الوعود للناس؛ لأن الوفاء بالوعد أمر مستقبل، والشخص لا يملك معرفة أحواله المستقبلية؛ إذ قد يكون الواعد عاجزًا عن الوفاء فيكون مخلفًا للوعد، فيوصم بخصلة من خصال النفاق؛ لذلك فإن الإمام الغزالي رحمه الله قد اعتبر وعد الكاذب آفة، إذ يقول: «إن اللسان سباق إلى الوعد، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفًا، وذلك من أمارات النفاق»[8].

وقد جعل الله تعالى الوفاء بالوعود من

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ٤٦٠.
(٢) انظر: المصنف، ابن أبي شيبة، ٢/ ٢٠٠.
(٣) بريقة محمودية، أبو سعيد الخادمي، ٢/ ٢٨١.
(٤) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٣٧٩.
(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١/ ٩٠.
(٦) الوفاء بالوعد، إبراهيم فاضل الدبو، ص ٥.
(٧) أحكام القرآن، الجصاص، ٣/ ٤٤٢.
(٨) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٣/ ١٣٢.

صفات الأنبياء، فقال سبحانه عن نبي الله إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ [مريم: ٥٤].

قال القرطبي: «وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجودا في غيره من الأنبياء تشريفًا له وإكرامًا، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصديق، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله. وصدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين، وضده وهو الخلف مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدم بيانه في براءة. وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل فوصفه بصدق الوعد»[(١)].

وقال القاسمي: «وفيه تنبيه بعظم هذه الخلة. ولذا كان ضدها نفاقًا، كما صرحت به الأخبار»[(٢)].

وبين الرازي أنواع الوعد التي صدق فيها إسماعيل عليه السلام فقال: «وهذا الوعد يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس.

أما الأول: فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيئًا مما يؤمر به من طاعة ربه، وذلك لأن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمرهم بتأدية الشرع فلا بد من ظهور وعد منهم يقتضي القيام بذلك ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة. وأما الثاني: فهو أنه عليه السلام كان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده، فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف[(٣)].

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم عدم الوفاء بالوعود من صفات المنافق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان وإذا وعد أخلف)[(٤)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا أو كانت فيه خصلة من أربعة كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها:إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[(٥)].

ومخلف الوعد يكون فاسد النية عديم الوفاء، قال العيني: «ونبه بقوله: (إذا وعد أخلف) على فساد النية؛ لأن خلف الوعد لا يقدح إلا إذا عزم عليه مقارنًا بوعده، أما إذا كان عازما ثم عرض له مانع أو بدا له رأي،

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ١١٤.
(٢) محاسن التأويل، ٧/ ١٠٤.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢١/ ٥٤٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٥٣٦، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٣٢٧، كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر.

فهذا لم توجد فيه صفة النفاق»[1].

قال النووي: «أجمعوا على أنَّ من وعد إنسانًا شيئًا ليس بمنهيٍّ عنه فينبغي أن يفي بوعده، وهل ذلك واجب أو مستحب فيه خلاف، ذهب الشافعي وأبو حنيفة والجمهور إلى أنه مستحبٌّ، فلو تركه فاته الفضل وارتكب المكروه كراهة شديدة ولا يأثم يعني: من حيث هو خلف. وإن كان يأثم، إن قصد به الأذى. قال: وذهب جماعة إلى أنه واجب، منهم عمر بن عبد العزيز وبعضهم إلى التفصيل، ويؤيد الوجه الأول ما أورده في الإحياء حيث قال: وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعدًا قال: « عسى »، وكان ابن مسعود لا يعد وعدًا إلا ويقول: إن شاء الله تعالى، وهو الأولى، ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازمًا على أن لا يفي به فهذا هو النفاق انتهى»[2].

ويظهر بذلك أهمية الوفاء بالوعود وعدم إخلافها لما فيه من التشبه بصفات المنافقين.

ثالثًا: الوفاء بالعقود:

ومن الأمور المهمة في حياة المسلم الحرص على الوفاء بالعقود، وقد جاء النصُّ على ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١]

قال ابن عاشور: «فالتعريف في العقود تعريف الجنس للاستغراق، فشمل العقود التي عاقد المسلمون عليها ربهم، وهو الامتثال لشريعته، وشمل العقود التي عاقد المسلمون عليها المشركين، ويشمل العقود التي يتعاقدها المسلمون بينهم»[3].

وما ذكره ابن عاشور هو الراجح في نظري؛ لدلالة العقود عليها.

قال الثعالبي: (فالآية عامة في الوفاء بالعقود، وهي الربوط في القول، كلُّ ذلك في تعاهد على بِرٍّ أو في عقدة نكاح، أو بيع، أو غيره، فمعنى الآية: أمر الله جميع المؤمنين بالوفاء على عقدٍ جارٍ على رسم الشريعة، وفسر بعض الناس لفظ العقود بالعهود. وأصوب ما يقال في هذه الآية: أن تعمم ألفاظها بغاية ما تتناول، فيعمم لفظ المؤمنين في مؤمني أهل الكتاب، وفي كلِّ مظهر للإيمان، وإن لم يبطنه، وفي المؤمنين حقيقة، ويعمم لفظ العقود في كل ربط بقول موافق للحقِّ والشرع»[4].

وقال القرطبي: « فأمر الله سبحانه بالوفاء بالعقود؛ قال الحسن: يعني بذلك عقود الدين، وهي ما عقده المرء على نفسه؛ من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق

(١) عمدة القاري، ٢/ ٩٣.
(٢) تحفة الأحوذي، ٥/ ٢٤٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ٩.
(٤) الجواهر الحسان، ١/ ٤٣٦.

وتدبير، وغير ذلك من الأمور، ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة؛ وكذلك ما عقده على نفسه لله من الطاعات، كالحج والصيام والاعتكاف والقيام والنذر، وما أشبه ذلك من طاعات ملة الإسلام»[1].

وما من شك أنه من الأهمية بمكان أن يحرص المسلم على الوفاء بالعقود التي أبرمها «فالأمر بالإيفاء بالعقود يدلُّ على وجوب ذلك،فتعين أنَّ إيفاء العاقد بعقده حقٌّ عليه،فلذلك يقضى به عليه،لأن العقود شرعت لسد حاجات الأمة، فهي من قسم المناسب الحاجي،فيكون إتمامها حاجيًّا؛ لأنَّ مكمل كلِّ قسم من أقسام المناسب الثلاثة يلحق بمكمله:إن ضروريًّا،أو حاجيًّا،أو تحسينًا»[2].

قال ابن تيمية: «وأما سورة المائدة فإنها سورة العقود، وهي العهود والمواثيق التي يعقدها بنو آدم بينهم وبين ربهم، ويعقدها بعضهم لبعضٍ، مثل عقد الإيمان وعقد الأيمان، فأمر الله بالوفاء بالعهود، والوفاء بالعهود من صفات الصادقين دون الكاذبين، وختم السورة بما يناسب ما فيها فقال: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩] فالموفون بالعقود صادقون، فنفعهم الصدق بالوفاء يوم القيامة بما وعدهم من الكرامة»[3].

الوفاء بالعهود والعقود من أَجَلِّ مراتب السعادة[4]. قال صلى الله عليه وسلم: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)[5].

وكما قال ابن رجب: «وأما عهود المسلمين فيما بينهم، فالوفاء بها أشد، ونقضها أعظم إثمًا، ويدخل في العهود التي يجب الوفاء بها، ويحرم الغدر فيها: جميع عقود المسلمين فيما بينهم، إذا تراضوا عليها من المبايعات والمناكحات وغيرها من العقود اللازمة التي يجب الوفاء بها. والمقصود بالمبايعات والمناكحات والعقود التي توجب الوفاء هي التي على شرعة الله ومنهاجه، لا التي على خلاف ذلك، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله فليس له، وإن شرطه مائة مرةٍ،

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٣٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ١٠.
(٣) المسائل والأجوبة، ص٢٠٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩/ ٣٢.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤/ ٤٨١، رقم ١١٩٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧١٧٩.

شرط الله أحق وأوثق)[1]»[2].

وما من شك أن حرص المسلم على الوفاء بالعقود التي أبرمها يدلُّ على الاستجابة لتوجيهات الشرع الحنيف، ويعطي صورة طيبة عن المسلمين أن عندهم الوفاء دينًا يتعبدون الله به.

رابعًا: الوفاء بالأيمان والنذور والكفارات:

١. الوفاء بالأيمان.

وما ينبغي الوفاء به في حياة المسلم الوفاء بالأيمان، ذلك لأن الإنسان قد يحلف بالله وهو أمر عظيم؛ فالواجب أن يفي بيمينه التي أقسمها ويبر بها.

وأما الأيمان فهي جمع يمين (واليمين أصله الجارحة، واليمين في الحلف مستعار من اليد؛ اعتبارًا بما يفعله المعاهد والمحالف وغيره[3].

قال ابن حجر: «وأصل اليمين في اللغة اليد وأطلقت على الحلف لأنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كلٌّ بيمين صاحبه، وقيل: لأن اليد اليمنى من شأنها حفظ الشيء، فمسمى الحلف بذلك لحفظ المحلوف عليه، وسمي المحلوف عليه يمينًا لتلبسه بها، واليمين هي توكيد الشيء بذكر اسم أو صفة لله»[4].

وشأن اليمين عند الله عظيم، وخطر التساهل بها جسيم، فليست اليمين مجرد كلمة تمر على اللسان، ولكنها عهد وميثاق ينتهي عندها حده، ويجب أن يوافي حقه، ومن ثم فلا ينبغي للإنسان التسرع إلى اليمين إلا عند الحاجة، وكثرة الحلف تدلُّ على الاستخفاف بالمحلوف به، وعدم تعظيمه، وكثرة الحلف بالباطل من صفات المنافقين، قال الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: ١٤]

قال ابن عاشور: «والتوجيهات القرآنية بشأن اليمين قبل صدوره تضيق الحالات التي يشرع فيها، ومرد ذلك إلى أمرين:

أولهما: ارتباط اليمين بتعظيم الله تعالى، وبالتالي فإنَّ من تعظيمه جلَّ وعلا أن يصان اسمه من الابتذال بكثرة الحلف بغير حاجة إلى ضرورة أو مصلحة راجحة.

الثاني: مقصود الحالف إشهاد الله على صدقه فيما قاله، ومن أجل ذلك تضمن اليمين معنى قويًّا في الصدق، وحينئذٍ فالواجب على المسلم التحرز من إشهاد الله على أمر قد يكون واقع الحال أو المآل بخلافه، لئلا يكون مستخفًّا بمن أشهده

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٤٢٢، كتاب العتق، باب ما يجوز من شروط المكاتب ومن اشترط شرطا ليس في كتاب الله، ومسلم في صحيحه، رقم ١٥٠٤، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق.
(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٥٠.
(٣) المفردات، الراغب، ص ٥٢٢.
(٤) فتح الباري، ١١/ ٥٢٥.

والتحرز لا يكون إلا بالإقلال من اليمين وحصرها في أضيق الحدود»[1].

وقد حذر القرآن الكريم من نقض الأيمان وعدم الوفاء بها فقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾[النحل: ٩١- ٩٢]

قال البغوي: «قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ والعهد هاهنا هو: اليمين. قال الشعبي: العهد يمين وكفارته كفارة يمين، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تشديدها، فتحنثوا فيها، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شهيدًا بالوفاء. ثم ضرب الله مثلا لنقض العهد فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: من بعد غزله وإحكامه. قال الكلبي، ومقاتل: هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش، كانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر، وتأمر جواريها بذلك، فكُنَّ يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن، فهذا كان دأبها، ومعناه: أنها لم تكف عن العمل، ولا حين عملت كفت عن النقض، فكذلك أنتم إذا نقضتم العهد، لا كففتم عن العهد، ولا حين عاهدتم وفيتم به. ﴿أَنكَاثًا﴾ يعني: أنقاضًا واحدتها »نكث« وهو ما نقض بعد الفتل، غزلًا كان أو حبلًا. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: دخلًا وخيانة وخديعة، و «الدخل» ما يدخل في الشيء للفساد. قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قومًا أكثر منهم وأعزَّ نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر، فمعناه: طلبتم العزَّ بنقض العهد، بأن كانت أمة أكثر من أمة. فنهاهم الله عن ذلك. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بالعهد»[2].

وهذه الآية يظهر فيها التحذير من عدم الوفاء ومن نكث العهد، ومن التلاعب باسم الحق جلَّ وعلا فهو سبحانه يعلم من يفي بعهده، ويعرف لاسمه الكريم جلاله، ومن لا يوقر الله، ولا يحفل بالعهد الذي قطعه، وأشهد الله عليه، والله سبحانه غيور على حماه أن يستباح، فمن استباحه فقد أورد نفسه موارد الهالكين[3].

ولا يوجد ثمة تعارض بين هذه الآية وبين الآيات الأخرى التي توجه المسلم إلى

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٣٧٨.

(٢) معالم التنزيل، ٥/ ٣٩.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٧/ ٣٥٣.

كفارة اليمين عند الحنث في يمينه حيث قال ابن كثير بعد أن تحدث وبين خطورة نقض الأيمان والرجوع فيها بعد توكيدها:

«ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وبين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله، عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين: (إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها). وفي رواية: (وكفرت عن يميني)[1].

لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة هاهنا وهي قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[النحل: ٩١].

لأن هذه الأيمان، المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع»[2].

٢. الوفاء بالنذور.

وما ينبغي الوفاء به في حياة المسلم الوفاء بالنذور، حيث إنها قربة أوجبها المسلم على نفسه فيما بينه وبين الله، فمن الوفاء أن يقوم بما أوجبه على نفسه على وجه الكمال والتمام.

وقد مدح الله عباده الأبرار، وبين أن من أعمالهم الجليلة في الدنيا أنهم كانوا يوفون بنذرهم كما قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾[الإنسان: ٧].

قال ابن كثير: «أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر»[3].

فالمراد بالنذر هنا: أي بكل ما نذروه وأعطوا به عهدًا[4].

والمعنى: يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات.

«قال قتادة، ومجاهد: يوفون بطاعة الله من الصلاة والحج ونحوهما. وقال عكرمة: يوفون إذا نذروا في حق الله سبحانه، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه، فالمعنى: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم. وقال الكلبي: يوفون بالعهد، أي: يتممون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٩٦٤، كتاب الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٤٩، كتاب الإيمان، باب ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٩٨.

(٣) المصدر السابق، ٨/ ٢٨٧.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٦/ ٤٦٣.

العهد. والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ذكر سبحانه من أعمال الأبرار ما ينبه سامعه على جمعهم لأعمال البر كلها فذكر سبحانه وفاءهم بالنذر وخوفهم من ربهم، وإطعامهم الطعام على محبتهم له وإخلاصهم لربهم في طاعتهم،وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات، فإن العبد هو الذي أوجبه على نفسه بالتزامه فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه، فإذا وفى لله بأضعف الواجبين الذي التزمه هو فهو بأن يوفى بالواجب الأعظم الذي أوجبه الله عليه أولى وأحرى»[2].

وقد جاء في السنة النبوية ما يدلُّ على ضرورة الوفاء بالنذر، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه)[3].

قال ابن قدامة: (وأجمع المسلمون على صحة النذر في الجملة، ولزوم الوفاء به، وما ورد من النهي عنه فهو نهي كراهة، لا نهي تحريم؛ لأنه لو كان حرامًا لما مدح الموفين به؛ لأن ذنبهم في ارتكاب المحرم أشد من طاعتهم في وفائه؛ ولأن النذر لو كان مستحبًا، لفعله النبي صلى الله عليه وسلم وأفاضل أصحابه»[4].

قال ابن حجر: «النهى عن النذر والتشديد فيه ليس هو أن يكون مأثمًا،ولو كان كذلك ما أمر الله أن يوفى به، ولا حمد فاعله، ولكن وجهه عندي تعظيم شأن النذر وتغليظ أمره؛ لئلا يستهان بشأنه، فيفرط في الوفاء به،ويترك القيام به»[5].

وبين الله سبحانه أن من جملة الأعمال التي يقوم بها الحاج ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٩].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: نحر ما نذر من أمر البدن.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ كلُّ نذر إلى أجل.

وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: حجهم»[6].

وقال النسفي: «قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ مواجب حجهم، والعرب تقول

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٧/ ٣٧٥.
(٢) جامع الرسائل،١/ ٧١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٣١٨، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة.
(٤) المغني، ٢٢/ ٣٧٦.
(٥) فتح الباري، ١١/ ٥٧٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٤١٧.

لكلِّ من خرج عما وجب عليه: وفَّى بنذره وإن لم ينذر، أو ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم»[1].

٣. الوفاء بالكفارات.

وما ينبغي الوفاء به في حياة المسلم الوفاء بالكفارات، حيث يجب على المسلم الذي وجبت عليه الكفارة أن يقوم بالوفاء بما عليه كاملًا غير منقوص.

ومن الكفارات: كفارة اليمين، وفيها جاء قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾[المائدة: ٨٩].

فالمراد «أنه لا يؤاخذكم الله - أيها المؤمنون - بما جرى على ألسنتكم من لغو اليمين، الذي لم تتقصدوا فيه الكذب، أو لم تتعمد قلوبكم العزم على الحلف به، ولكن يؤاخذكم بما وثقتموه من الأيمان، فكفارة هذا النوع من الأيمان أن تطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تطعمون منه أهليكم، أو تكسوهم بكسوة وسط، أو تعتقوا عبدًا مملوكًا أو أمة لوجه الله، فإذا لم يقدر الشخص على الإطعام أو الكسوة أو الإعتاق، فليصم ثلاثة أيام متتابعة، ذلك كفارة أيمانكم أيها المؤمنون فاحفظوا أيمانكم عن الابتذال وأقلوا من الحلف لغير الضرورة»[2].

ومن الكفارات: كفارة الظهار، وقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾[المجادلة: ٢-٣].

وعن الحكمة منها قال أبو السعود: «وهذه الكفارات تزجرون بها عن ارتكاب المنكر المذكور، فإن الغرامات مزاجرُ عن تعاطي الجنايات، والمراد بذكره بيان أن المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذي هو علمٌ في استتباع الثواب العظيم، بل هو ردعكم وزجركم عن مباشرة ما يوجبه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال التي من جملتها التكفير وما يوجبه من جناية الظهار ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: عالمٌ بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها، فحافظوا على حدود ما شرع لكم ولا تخلوا بشيءٍ منها»[3].

(١) مدارك التنزيل، ٢/ ٣٥٥.

(٢) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني، ١/ ٢٦٠.

(٣) إرشاد العقل السليم، ٦/ ٢٨٦.

ومن الكفارات: كفارة القتل الخطأ وجاء فيها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢].

فكلُّ هذه الكفارات يجب الوفاء بها رعاية لحق الله تعالى، ودليل على وفاء المسلم بعهده فيما بينه وبين الله تعالى.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن الكفارات خمسة: كفارة اليمين، وكفارة الحلق، وكفارة القتل، وكفارة الظهار، وكفارة الإفطار. والأربعة التي عرف وجوبها بالكتاب العزيز، فكفارة اليمين وكفارة الحلق وكفارة القتل وكفارة الظهار. وكفارة الإفطار عرفت بالسنة النبوية[1].

خامسًا: الوفاء بالأمانات:

ومن أعظم مجالات الوفاء: الوفاء بالأمانات، ومعناها واسع يدخل فيها الكثير من أمور الدين والدنيا، وهي من أعظم ما يجب على المسلم الوفاء به.

ولقد دلت الكثير من النصوص الشرعية على أهمية الوفاء بالأمانات استجابة لأمر الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

قال الرازي: «أمر المؤمنين في هذه الآية بأداء الأمانات في جميع الأمور، سواء كانت تلك الأمور من باب المذاهب والديانات، أو من باب الدنيا والمعاملات، وأيضًا لما ذكر في الآية السابقة الثواب العظيم للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكان من أجل الأعمال الصالحة الأمانة، لا جرم أمر بها في هذه الآية»[2].

وبين الألوسي أن الأمانة هنا تشمل جميع ما يؤتمن عليه الإنسان فقال: «والآية عند أكثر المفسرين عامة في كل ما اؤتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الناس، كالتكاليف الشرعية، والأموال المودعة، والإيمان، والنذور، والعقود ونحوها، وجمعت الأمانة دون العهد، قيل: لأنها متنوعة متعددة جدًّا بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى، ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك ولا كذلك العهد»[3].

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ٣٥/ ٥٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٥/ ٢٤٣.

(٣) روح المعاني، ١٣/ ١٧٠.

وفي مدح الذين يراعون العهد ويؤدون أمانة الوفاء بالعهد، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

قال ابن عاشور: «هذه صفة أخرى من جلائل صفات المؤمنين، تنحل إلى فضيلتين هما؛ فضيلة أداء الأمانة التي يؤتمنون عليها، وفضيلة الوفاء بالعهد. فالأمانة تكون غالبًا من النفائس التي يخشى صاحبها عليها التلف، فيجعلها عند من يظن فيه حفظها، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمن والأمين، فهي لنفاستها قد تغري الأمين عليها بأن لا يردها، وبأن يجحدها ربها، ولكون دفعها في الغالب عريًا عن الإشهاد، تبعث محبتها الأمين على التمسك بها وعدم ردها؛ فلذلك جعل الله ردها من شعب الإيمان»[(١)].

وجاء التحذير من خيانة الأمانة في كثير من المواضع منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧]

وجميع الآيات التي تأمر بالوفاء بعهد الله يدخل فيها الوفاء بالأمانات على تعدد أنواعها ومجالاتها.

وفي السنة الكثير من الأحاديث التي توصي بأهمية الوفاء بالأمانات فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: ما خطبنا نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)[(٢)].

والأمانة تفرق بين المؤمن والمنافق، والخيانة علامة من علامات النفاق، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاثٌ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[(٣)].

سادسًا: الوفاء في الكيل والميزان:

ومن أبرز مجالات الوفاء: الوفاء في الكيل والميزان، وقد جاءت الدعوة إلى ذلك في أكثر من موضع من القرآن خاصة في دعوة الأنبياء لأقوامهم وتقويم هذا الانحراف لدى أتباعهم، لما يترتب على وجوده من مفاسد خطيرة على الفرد والمجتمع.

ومما جاء في ذلك: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قال البغوي: « قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها في إيفاء

(١) التحرير والتنوير، ٩/ ٣٣٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٤/ ٤٨١، رقم ١١٩٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٠٥، رقم ٧١٧٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٥٣٦، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد.

الكيل والميزان، أي: لم يكلف المعطي أكثر مما وجب عليه، ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه، حتى لا تضيق نفسه عنه، بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه»[1].

وجاء في توجيه الأنبياء لأقوامهم وصيتهم بإيفاء الكيل والميزان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الشعراء: ١٨١].

وجاء التحذير من عدم الوفاء في الكيل والميزان، والوعيد على ذلك بالويل في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: ١-٣].

قال الطبري: «والويل هو: الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم في أسفلها للذين يطففون، يعني: للذين ينقصون الناس، ويبخسونهم حقوقهم في مكاييلهم إذا كالوهم، أو موازينهم إذا وزنوا لهم عن الواجب لهم من الوفاء، وأصل ذلك من الشيء الطفيف، وهو القليل النزر، والمطفف: المقلل حق صاحب الحق عما له من الوفاء والتمام في كيل أو وزن؛ ومنه قيل للقوم الذي يكونون سواء في حسبة أو عدد: هم سواء كطف الصاع، يعني بذلك: كقرب الممتلئ منه ناقص عن الملء»[2].

وقال السعدي: «وفسر الله المطففين بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أخذوا منهم وفاء عما ثبت لهم قبلهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ يستوفونه كاملا من غير نقص. ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي: إذا أعطوا الناس حقهم، الذي للناس عليهم بكيل أو وزن، ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو نحو ذلك. فهذا سرقة لأموال الناس، وعدم إنصاف لهم منهم»[3].

ويستنبط مما جاء به القرآن الكريم أن التطفيف: «هو الاستيفاء من الناس عند الكيل أو الوزن، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو الوزن لهم. ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير التي يتعامل بها الناس»[4].

قال الإمام النيسابوري رحمه الله: اعلم أن أمر المكيال والميزان عظيم؛ لأن مدار معاملات الخلق عليهما ولهذا جرى على

(١) معالم التنزيل، ٣/ ٢٠٤.
(٢) جامع البيان، ٢٤/ ٢٧٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٩١٥.
(٤) انظر: المفردات، الراغب، ص٣٨، ٣١٤.

قوم شعيب بسببه ما جرى[1].

وقد عد ابن حجر الهيثمي التطفيف من الكبائر وجعله شاملا لبخس نحو الكيل أو الوزن أو الذرع، وذلك لأنه من أكل أموال الناس بالباطل؛ ولهذا اشتد الوعيد عليه كما علمته من الآية والأحاديث، وأيضًا فإنما سمي مطففا لأنه لا يكاد يأخذ إلا الشيء الطفيف وذلك ضرب من السرقة والخيانة مع ما فيه من الإنباء عن عدم الأنفة والمروءة بالكلية، ومن ثم عوقب بالويل الذي هو شدة العذاب، أو الوادي في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره، نعوذ بالله منه، وأيضًا فقد شدد الله تعالى عقوبة قوم شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام على بخسهم المكيال والميزان[2].

ومما سبق يظهر دعوة القرآن الكريم إلى الوفاء بالكيل والميزان، وعدم تطفيفه للوفاء بحقوق الناس، وعدم أكلها بالباطل.

سابعًا: الوفاء بالبيعة:

ومن أبرز مجالات الوفاء: الوفاء بالبيعة.

ومن الآيات التي تشير إلى الوفاء بالبيعة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[التوبة:١١١].

قال ابن عاشور: « قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: وعدا حقا عليه ولا أحد أوفى بعهده منه، فالاستفهام إنكاري بتنزيل السامع منزلة من يجعل هذا الوعد محتملا للوفاء وعدمه كغالب الوعود فيقال: ومن أوفى بعهده من الله إنكارا عليه. و ﴿أَوْفَىٰ﴾ اسم تفضيل من وفى بالعهد إذا فعل ما عاهد على فعله. و ﴿مِنَ﴾ تفضيلية، وذكر اسم الجلالة عوضا عن ضميره لإحضار المعنى الجامع لصفات الكمال. والعهد: الوعد بحلف والوعد الموكد، والبيعة عهد، والوصية عهد. وتفرع على كون الوعد حقا على الله، وعلى أن الله أوفى بعهده من كل واعد، أن يستبشر المؤمنون ببيعهم هذا، فالخطاب للمؤمنين من هذه الأمة»[3].

ومدح الله الذين أوفوا ببيعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠]

قال النسفي: «ومعنى الآية: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير

(١) غرائب القرآن، ٣٠/ ٤٤.
(٢) انظر، الزواجر، ص٣٣٤.
(٣) التحرير والتنوير، ١٠/ ٢١٠.

تفاوت بينهما كقوله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقض العهد ولم يف بالبيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه[١].

والبيعة عقد يقوم به «أهل الحل والعقد»وهم الجماعة الذين تنعقد البيعة بمبايعتهم وهم « أولي الأمر» فهم أصحاب الأمر المطاع من كبار الأمراء وكبار العلماء قد أمر الله تعالى بطاعتهم في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]

والوفاء بالبيعة عهد؛ لأن البيعة معاهدة على السمع والطاعة في غير معصية الله قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[٢].

ونقض البيعة غدر: لقوله صلى الله عليه وسلم: (لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدرته، ألا و لا غادر أعظم غدرا من أمير عامة)[٣].

قال ابن رجب: «أما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معايشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم، وطاعة ربهم»[٤].

وقال ابن تيمية: «وقد استفاض وتقرر في غير هذا الموضع ما قد أمر به صلى الله عليه وسلم من طاعة الأمراء في غير معصية الله، ومناصحتهم والصبر عليهم في حكمهم وقسمهم، والغزو معهم والصلاة خلفهم، ونحو ذلك من متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلا هم؛ فإنه من باب التعاون على البر والتقوى، وما نهى عنه من تصديقهم بكذبهم، وإعانتهم على ظلمهم، وطاعتهم في معصية الله ونحو ذلك مما هو من باب التعاون على الإثم والعدوان»[٥].

فالوفاء بالبيعة من الأمور المهمة ومن صور الوفاء التي يجب التزامها والقيام بها على وجه الكمال والتمام لأنها بمثابة العقد والعهد الذي حذرنا القرآن من نقضه والإخلال به.

(١) مدارك التنزيل، ٣/ ٣٣٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٨٣٩، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٣٨، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر.
(٤) جامع العلوم والحكم، / ١١٧.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٣٥/ ٢١.

أثر الوفاء على الفرد والمجتمع

والوفاء له أثره الإيجابي الفاعل المحمود على الفرد والمجتمع، وسيكون الحديث عنه في النقاط الآتية:

أولًا: أثر الوفاء على الفرد:

١. تحقيق تقوى الله ومحبته.

فإن من يلتزم بالوفاء في سلوكه وتصرفاته يحقق التقوى المأمور بها شرعًا، وقد كان الوفاء سبيلًا لذلك.

قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾[آل عمران: ٧٦].

وربط القرآن بين تمام العهد ووفائه ومحبة الله، فقال سبحانه: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤].

قال الزمخشري: «كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه»[(١)].

وعدد الله من صفات المؤمنين الصادقين قيامهم بالوفاء بالعهد، فقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[البقرة: ١٧٧].

٢. نيل الأجر العظيم.

وقد ربط القرآن بين تحقيق الوفاء وحصول المسلم على الأجر العظيم من الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

قال السعدي: «قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أي: أتى به كاملا موفرا، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه»[(٢)].

وكذلك بين القرآن أن الوفاء بعهد الله فيه الفوز العظيم للمسلم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[التوبة: ١١١].

٣. نيل الفلاح.

ومن آثار الوفاء على الفرد نيل الفلاح حيث أخبر القرآن من صفات المؤمنين المفلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾[المؤمنون: ٨].

٤. وفاء الله بعهود عباده.

فمن آثار الوفاء أن الفرد الذي يفي بعهده مع الله يكون جزاؤه من جنس ما صنع، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾[البقرة: ٤٠].

قال الطبري: «وعهده إياهم أنهم إذا

(١) الكشاف، ١/ ٣٧٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٩٢.

فعلوا ذلك أدخلهم الجنة»[1].

وذكر عز وجل صفات أولي الألباب ذكر منها أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ثم بين عاقبة هؤلاء، فقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾[الرعد: ٢٠-٢٢].

ومما يبين أن الجزاء من جنس العمل فأصحاب الوفاء والصدق لهم جزاؤهم على صدقهم، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾[الأحزاب: ٢٣- ٢٤].

٥. تحمل المسؤولية والالتزام.

ومن آثار الوفاء على الفرد أنه يجعل المسلم متحملًا لمسؤولية قوله وفعله، وملتزمًا بعهوده ومواثيقه، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾[الإسراء: ٣٤].

قال ابن كثير: «أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي: عنه»[2].

وقال أبوالسعود: «وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ سواءٌ جرى بينكم وبين ربكم أو بينكم وبين غيركم من الناس، والإيفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ﴾ أظهر في مقام الإضمار إظهارًا لكم والعناية بشأنه، ﴿كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي: مسؤولًا عنه»[3].

٦. أداء حقوق العباد.

والمسلم عندما يلتزم بالوفاء في عهوده وعقوده وما لديه من أمانات وبالوفاء في الكيل والميزان يكون قد أدى ما عليه من حقوق العباد فلا يطالبه أحد بشيء يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الأنبياء: ٤٧].

٧. السلامة من النفاق.

ومن جملة آثار الوفاء على الفرد السلامة من النفاق حيث إن نقض العهود والمواثيق وإخلاف الوعود من أبرز صفات المنافقين؛ فالوفاء من خاصية أهل الإيمان، والخيانة والغدر من خاصية أهل النفاق، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟

(١) جامع البيان، ١/ ٢٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٧٤.

(٣) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٩٢.

﴿يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة: ٧٧].

قال ابن عاشور: «جعل فعلهم ذلك سببًا في بقاء النفاق في قلوبهم إلى موتهم، وذلك جزاء تمردهم على النفاق»[(١)].

ثانيًا: أثر الوفاء على المجتمع:

١. تحقيق الاستقرار داخل المجتمع.

إن وجود الوفاء من عوامل الاستقرار في المجتمعات؛ فاستشعار الجميع لأهمية الوفاء وتطبيقه بينهم يجعل المجتمع مستقرًا تسوده الطمأنينة لأفراده، خاصة عندما تتدرج دائرة الوفاء من محيط الأسرة إلى المسجد إلى المدرسة إلى الجامعة إلى الوظيفة، وكل جوانب المعاملات بين الناس.

إن الوفاء بالعهد «يثمر الكثير من خصال الخير فهو يثمر قوة الثقة، وإذا ما أنست من وفاء إنسان قويت ثقتك فيه وارتاحت نفسك إليه، إنه يثمر الاطمئنان والأمانة، يثمر النجدة والشهامة والمروءة، والمجتمع الذي يسوده الوفاء مجتمع متين البناء، تظلله روح المودة والصفاء ويشد أزره التعاون البناء»[(٢)].

وقد مدح الله الذين يفون بعهودهم ومواثيقهم، وأنهم من الذين صدقوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأن ذلك من أبرز صفات المجتمع المسلم وأنهم من أولي الألباب قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝١٩ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝٢٠﴾ [الرعد: ١٩-٢٠].

٢. حفظ الحقوق وصيانتها.

وجود الوفاء في داخل المجتمع يعمل على حفظ الحقوق وصيانتها وعدم تضييعها، ومن ثم تختفي الكثير من المنازعات والشكاوي حول ضياع الحقوق وصعوبة الحصول عليها؛ فالمسلم بالتزامه بالوفاء بعهوده ومواثيقه وأمانات الناس لديه يجنب المجتمع الكثير من المشكلات. ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝١٨١﴾ [الشعراء: ١٨١].

٣. صيانة الدماء والأنفس.

ومن آثار الوفاء أنه يصون المجتمع من إراقة الدماء بغير حق وقتل الأنفس من

(١) التحرير والتنوير، ٦/ ٢٧٢.
(٢) قيمة الوفاء في المنظور الإسلامي، طه خضير، ص ٤٠.

خلال التزام المسلم بالعهود والمواثيق مع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، والوفاء لهم بحقوقهم.

فمن يرتبط مع المسلمين بعهد أو ميثاق، فإنه يدرك أي أمن يعيش فيه، وأي حياة مستقرة يحياها، فلا خوف على نفسه أو أهله أو مجتمعه من الدولة المسلمة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

وتتحقق صيانة الدماء والأنفس من خلال الوفاء بالبيعة وعدم نقضها مما يجنب المجتمع الكثير من الفتن والاختلاف والتنازع الذي يفضي إلى سفك الدماء، وقتل الأبرياء. ويظهر هذا من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

٤. تحقيق التعاون ودفع التنازع.

والوفاء في داخل المجتمع يخلق روحًا من التعاون والتناصر والتواد بين أفراد المجتمع، ويقلل الشحناء والبغضاء والنفرة والكراهية والظلم. ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وبقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

«فالوفاء صفة أساسية في بنية المجتمع الإسلامي، حيث تشمل سائر المعاملات، إذ كل المعاملات والعلاقات الاجتماعية والوعود والعهود تتوقف على الوفاء، فإذا انعدم الوفاء انعدمت الثقة، وساء التعامل وساد التنافر[1].

٥. القدوة الحسنة.

إن المجتمع المسلم عندما يلتزم بقيمة الوفاء يكون قد قدم صورة طيبة عن الإسلام، مما يجعله قدوة للمجتمعات الأخرى، وصورة حقيقة معبرة عن توجيهات الإسلام في هذا الشأن، ولعل ذلك له أثر أيضًا في دخول غير المسلمين في الإسلام لما يرونه من واقع حي ملموس في الوفاء بالعهود والمواثيق والأيمان والأمانات والعقود. وقد جعل الله من صفات المجتمع المسلم ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأن ذلك من أبرز صفات المجتمع المسلم وأنهم من أولي الألباب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد: ١٩-٢٠].

٦. الرخاء والبركة.

ومن آثار الوفاء والقيام والالتزام به وجود

(١) موسوعة نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٣٦٦٨.

الرخاء والبركة، ويظهر ذلك في الوفاء بأموال وحقوق الناس وعدم تضييعها، والوفاء بالكيل والميزان مما يترتب عليه رضى الله تعالى عن هذا المجتمع «فحينما يلزم المجتمع بالوفاء بالكيل والميزان يتحقق الرخاء والاستقرار الاقتصادي، ويبارك الله تعالى في الأموال، وتصلح أحوال الناس، وتسود الثقة بين أفراد المجتمع، وتظهر عليهم علامات البر والصدق، ويعم الخير أرجاء المجتمع المسلم»[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

موضوعات ذات صلة:

البيعة، الثبات، الرجولة، العهد، الميثاق

(١) الوفاء في ضوء القرآن الكريم، وفاء حيدر شقورة، ص ١٧٠.

الوقت

عناصر الموضوع

مفهوم الوقت	١٨٤
الوقت في الاستعمال القرآني	١٨٥
الألفاظ ذات الصلة	١٨٦
الوقت نعمة إلهية	١٨٩
أهمية الوقت	١٩٣
استثمار الوقت	١٩٩
معوقات استثمار الوقت	٢٠٢
الوقت في الأحكام الشرعية	٢٠٩
أوقات فاضلة	٢٢٥

مفهوم الوقت

أولًا: المعنى اللغوي:

«الواو والقاف والتاء: أصلٌ يدل على حد شيءٍ وكنهه في زمان وغيره، منه الوقت: الزمان المعلوم، والموقوت: الشيء المحدود»[1]، ووقت الشيء بالتخفيف فهو موقوتٌ إذا بين له وقتا ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء:١٠٣].

أي: مفروضا في الأوقات، والتوقيت تحديد الأوقات، ويقال: وقته ليوم كذا توقيتًا مثل أجله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾ [المرسلات:١١][2]، وفي لسان العرب: «الوقت: مقدار من الزمان، وكل شيء قدرت له حينا، فهو مؤقت، وكذلك ما قدرت غايته، فهو مؤقت.»[3] وقال الكفوي: «الوقت، لغة: المقدار من الدهر، وأكثر ما يستعمل في الماضي كالميقات، ونهاية الزمان المفروض لعمل، ولهذا لا يكاد يقال إلا مقيدا.»[4]

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

بالنظر في أقوال العلماء في الدلالة اللغوية والاصطلاحية للوقت نجد أنه لا فرق بينهما، فالوقت هو الدهر، وهو حياة الإنسان التي ينبغي أن تعمر بالطاعات، وهو المقدار من الزمان، ولا يكاد يذكر إلا مقيدًا، مثل أوقات العبادات كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وآجال أداء الديون والحقوق، وعدد النساء.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣١.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٤٣.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٠٧.
(٤) الكليات، أبو البقاء الكفوي ص٩٤٥.

الوقت في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وقت) في القرآن الكريم (١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ [المرسلات:١١]
المصدر	٣	﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر:٣٨]
اسم	٨	﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الشعراء:٣٨]
اسم مفعول	١	﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣]

وجاء في القرآن بمعناه في اللغة وهو: الزمان المعلوم. والموقوت: الشيء المحدود[٢].

والميقات: الوقت المضروب للفعل[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٧٥٧.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٢٣.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٤٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأوان:

الأوان لغةً:

الحين والزمان، والجمع: آونة مثل: زمان وأزمنة، تقول: جاء أوان البرد[١]، و«آن الشيء أينًا حان»[٢].

الأوان اصطلاحًا:

«أوان الشيء: وقته الذي يوجد فيه وجمعه آونة»[٣]، و(الأوان) أعم من (الوقت).

الصلة بين الأوان والوقت:

أن (الوقت): مقدار من الزمان مفروض لأمر ما، و(الأوان): الحين، وهو الزمان قل أو كثر، وسواء كان مفروضا أم لا، فكل وقت أوان دون العكس[٤]، ولذلك يقال عن الأمر الذي يقع بشكل غير منتظم زمانيا: أحيانا يقع كذا، أما الأمر الذي يقع بانتظام زمانيا فيقال عنه: في وقت كذا يقع.

٢ الميقات:

الميقات لغةً:

«مصدر (الوقت)»[٥].

الميقات اصطلاحًا:

«الوقت المضروب للشيء، والوعد الذي جعل له وقت وقد يقال الميقات للمكان الذي يجعل وقتا للشيء، كميقات الحج»[٦].

الصلة بين الميقات والوقت:

أن الميقات: ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال، وأما الوقت فهو: وقت الشيء قدره مقدر، أو لم يقدره[٧].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٣٩٢، مختار الصحاح، الرازي ص٢٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٤٠.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٦٦.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٥٧٦.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٩٨.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٧٩.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٥٢٦.

٣ الدهر:

الدهر لغةً:

«الزمان»[١] قال ابن فارس: «الدال والهاء والراء أصل واحد، وهو الغلبة والقهر. وسمي الدهر دهرا؛ لأنه يأتي على كل شيء ويغلبه»[٢].

الدهر اصطلاحًا:

اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه وعليه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١].

ثم عبر به عن كل مدة كثيرة[٣].

الصلة بين الدهر والوقت:

أن الدهر يعبر به عن كل مدة كثيرة، بخلاف الوقت فإنه يقع على المدة القليلة والكثيرة، ويقال: دهر فلان: مدة حياته.[٤].

٤ الساعة:

الساعة لغةً:

قال ابن فارس: «السين والواو والعين يدل على استمرار الشيء ومضيه من ذلك الساعة سميت بذلك»[٥].

الساعة اصطلاحًا:

هي جزء من أجزاء الزمان، قال الراغب: «الساعة جزء من أجزاء الزمان، ويعبر به عن القيامة»[٦].

الصلة بين الساعة والوقت:

أن الساعة هي الوقت المنقطع من غيره، والوقت اسم الجنس ولهذا تقول إن الساعة عندي ولا تقول الوقت عندي»[٧].

(١) الصحاح، الجوهري ٢/ ٦٦١.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٠٥.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٦٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٩.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٠٥.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٣٤.
(٧) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٢٧٢.

٥ الحين:

الحين لغةً:

«الزمان قليله وكثيره»[١].

الحين اصطلاحًا:

«وقت بلوغ الشيء وحصوله، وهو مبهم المعنى ويتخصص بالمضاف إليه»[٢].

الصلة بين الحين والوقت:

الوقت قدر من الزمان مفروض مميز من جملته، مشار إليه بعينه، وكذلك الحين هو مدة أطول من الوقت وأفسح وأبعد، وإنما تقترن أبدا هاتان اللفظتان بما يميزهما ويفصلهما من جملة الزمان الذي هو كل لهما، فيقال: وقت كذا وحين كذا، فينسب إلى حال أو شخص أو ما أشبه ذلك.

فإذا أريد بهما الإبهام لا الإفهام قيل: كان كذا أو يكون كذا في حين أو وقت، فيعلم السامع أن المتكلم لم يؤثر تعيين الوقت والحين، وهما لا محالة معينان محصلان[٣].

٦ العصر:

العصر لغةً:

الدهر، وجمعه: عصور، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:١-٢][٤]، أي: الدهر.

العصر اصطلاحًا:

«العصر: الدهر واليوم والليلة والعشاء إلى احمرار الشمس»[٥].

الصلة بين العصر والوقت:

الوقت هو مقدار من الزمان مفروض لأمر ما، وأما العصر فهو الزمن والظرف الذي يملؤه الإنسان في حياته بعمله.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٦٧، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٥٠.
(٣) الهوامل والشوامل، ابن مسكويه ص٥٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٦٩.
(٥) الكليات، أبو البقاء الكفوي ص٦٥٢.

الوقت نعمة إلهية

أولًا: الوقت نعمة إلهية:

من أجل نعم الله تعالى على الإنسان في حياته نعمة الوقت، والتي لولاها لما تمكن من القيام بأي عمل ينتفع به في دنياه أو آخرته، فبالوقت واستغلاله يؤدي العبادة لخالقه ويتقرب إليه، بل إن في الوقت فرصة متاحة له إن كان معرضا عن عبادة الله وطاعته لكي يتوب ويؤوب إليه، وبالوقت أيضًا يتمكن من العمل والإنتاج، فالوقت ساحة العمل والانتفاع وميدان للجد والاجتهاد.

وقد أوضح الله تعالى في كتابه العزيز عظم نعمة الوقت وتنظيمه في عدة مواضع، وبين أن ذلك من آياته الباهرة لعباده، ورحمته الواسعة بهم.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٣-٣٤].

فامتن الله تعالى على عباده بتسخير الليل والنهار والشمس والقمر لتنتظم أمور حياتهم وأعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء:١٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، فإنه لو كان الزمان كله نسقا واحدا وأسلوبا متساويا لما عرف شيء من ذلك»[1].

فالليل والنهار نعمتان عظيمتان على الإنسان، ولا غنى له عن أحدهما، فتتعذر حياة الإنسان والحيوان والنبات لو كان الليل سرمدًا إلى يوم القيامة، وكذا تتعذر الحياة لو كان النهار سرمدًا إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٩.

﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص:٧١-٧٢].

والمعنى: «أخبروني من يقدر على هذا؟ والسرمد: الدائم المتصل، من السرد وهو المتابعة»[(١)].

وفي الآيتين السابقتين امتن الله تعالى على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قوام لهم بدونهما. وبين لهم أنه لو جعل الليل دائما عليهم سرمدا إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولسئمته النفوس، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه، ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمدا دائما مستمرا إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم[(٢)].

قال الزمخشري: «فإن قلت: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه، كما قيل: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؟

قلت: ذكر الضياء وهو ضوء الشمس: لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثمة قرن بالضياء ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره. وأنت من السكون ونحوه ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة: لتسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٣].

وقال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن:٥].

أي: بحساب دقيق، وتقدير حكيم بحيث لا يشوب جريهما اختلال أو اضطراب[(٤)]، «يجريان بحساب ومنازل لا يعدوانها، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين»[(٥)] والأيام، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب لأن الدهر يكون كله ليلا أو نهارا. فالشمس والقمر يجريان بحساب ومنازل محكمة ليعرف الإنسان بذلك شهر الصوم، وأشهر الحج، ويوم الجمعة، وعدد النساء اللاتي تعتد بالشهور، كاليائسة والصغيرة والمتوفى عنها

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٢٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٢٨-٤٢٩.
(٤) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٤/ ١٣٠.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٥٨.

زوجها[1]، ومدة الحمل، ومدة الرضاعة، ومدة الإجارة، وآجال الخلائق، وتاريخ الأمم والشعوب، وغير ذلك من الأمور المستفادة معرفتها من جريان الشمس والقمر، وهو من تيسير الله تعالى على خلقه في أمور حياتهم، ومن مظاهر رحمته تعالى بهم، كما يشهد له مطلع السورة: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١﴾ [الرحمن:١].

أي: الرحمن هو الذي أنعم بذلك، ولذلك يكثر في هذه السورة قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن:١٣].

حيث تكرر واحدًا وثلاثين مرة فيها.

وقد أنعم الله تعالى على خلقه بتنظيم أوقاتهم وجعلها أياما وشهورا وسنين، ليعلموا من ذلك ما مضى من أعمارهم وأوقاتهم، وليتنبهوا إلى اقتراب آجالهم، ودنو حسابهم، فيكون ذلك دافعا وحافزا لهم على العمل والجد والاستعداد ليوم الحساب.

ثانيًا: الوقت مسؤولية:

وهذه النعمة العظيمة على الإنسان في تنظيم وقته سيسأله الله تعالى عنها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر:٨].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٩١.

والنعيم لفظ عام، فهو يشمل كل ما يتنعم به الإنسان في الدنيا، سيسأل عنه يوم القيامة[2].

والوقت من أجل النعم، وقد أورد الإمام ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الإشارة إلى نعمة الوقت والحث على اغتنامها: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبونٌ[3] فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ)[4].

ثم قال ابن كثير: «ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون»[5].

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٨٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ٨٥، ٨٦.

(٣) الغبن: الخسارة، وهو بالسكون في البيع، وبالتحريك في الرأي، ويصح كل منهما في هذا الخبر فإن من لا يستعمل الصحة والفراغ فيما ينبغي فقد غبن لكونه باعهما ببخس ولم يحمد رأيه في ذلك، وقوله في الحديث: (مغبون فيهما كثير من الناس)، كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية.
انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/ ٢٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم ٦٤١٢، ٨/ ٨٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٧٨.

فالوقت نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على عباده، سيسألهم عنها وما عملوا فيها، ومن اللطائف أن السورة التي تلت هذه الآية من سورة التكاثر في المصحف، هي سورة العصر، وفي مطلعها قسمه تعالى بالعصر: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ [العصر:١].

وهو الوقت، وفي ذلك إشارة إلى نعمة الوقت ودخوله في النعيم المسؤول عنه يوم القيامة.

وفي الحديث عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[1].

فالواجب على العبد حتى ينجو بنفسه في ذلك اليوم العصيب، أن يحافظ على قضاء وقته في طاعة الله تعالى، ويقوم بشكر نعمة الله عليه في ذلك.

وقد أمر الله تعالى عباده بالحفاظ على نعمة الوقت وصيانته، ومن ذلك أنه تعالى حرم عليهم الانتحار وقتل النفس بغير الحق عمومًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:٣٣].

وفي ذلك حفظ لحياة الإنسان وعمره ووقته، ومن ذلك أيضًا تحريمه تعالى بعض الأشياء كالخمر والميسر وغيرهما مما فيه إضاعة للوقت ومشغلة عن طاعة الله والتفكر في خلقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة:٩١].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، رقم ٢٤١٧، ٤/ ٦١٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٣٠٠، ٢/ ١٢٢١.

أهمية الوقت

الوقت عمر الإنسان، ورأس ماله، ولولا الوقت لما تعلم متعلم ولا وصل سائر، ولولا الوقت لما بدا من اجتهاد نبي الله نوح عليه السلام في دعوته لقومه ما بدا، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت:١٤].

ولولا الوقت لما تعجب من قصة أصحاب الكهف من تعجب، ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف:٢٥].

ولما كان الوقت بتلك الأهمية والقيمة في حياة الإنسان، أشار القرآن الكريم إلى أهميته، لينبه على ضرورة اغتنامه وصرفه فيما ينبغي من العبادات وأعمال البر التي يهدي إليها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

ومن الإشارات القرآنية التي تدل على أهمية الوقت وفضله ما يلي:

أولًا: القسم بالوقت:

ولعظم مكانة الوقت أقسم الله تعالى به على مختلف أطواره (الليل، والنهار، والفجر، والصبح، والضحى، والعصر) في عدة مواضع من كتابه الكريم، ومما لا شك فيه أن الله تعالى إذا أقسم بأمر فإنما يدل هذا القسم على مكانة المقسم به العالية، وأهميته البالغة، ومنافعه الحسية والمعنوية التي يريد لفت أنظار الناس إليها.

فقد أقسم تعالى بالفجر، قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ [الفجر:١] كما أقسم بالصبح في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير:١٨].

أقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل وإقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها[(١)].

قال السعدي: «أقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة»[(٢)].

ومن ذلك قسمه تعالى بالضحى على إنعامه على رسوله صلى الله عليه وسلم وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٢٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٨٩٧.

﴿وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى:١-٥].

قال ابن القيم رحمه الله: «فتأمل مطابقة هذا القسم -وهو نور الضحى- الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه -وهو نور الوحي- الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودع محمدًا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه»[1].

ومن ذلك قسمه تعالى بالليل، وقد أقسم الله تعالى به في ثمانية مواضع، سبعة منها بإفراد الليل وهي:

﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر:٣٣].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧﴾ [التكوير:١٧].

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ [الانشقاق:١٧].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ [الفجر:٤].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ [الشمس:٤].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ [الليل:١].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى:٢].

وواحد بالجمع وهو قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر:٢].

«فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله إذ هو من آياته الدالة عليه»[2].

فالليل فيه السكن والمأوى والهدوء والراحة والستر.

ومن ذلك أيضًا قسمه تعالى بالنهار، فقد أقسم بالنهار في موضعين، قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾ [الشمس:٣].

وقال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:٢].

يعني:النهار إذا جلى الظلمة وأضاء الدنيا[3].

ومن ذلك أيضًا قسمه تعالى بالعصر، كما في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:١-٢].

والعصر: «الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر»[4]، «فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الانسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها»[5]، وفيه إشارة إلى ضرورة صرف هذا الوقت في طاعة الله، وإلا فإن ضيع وقته في معصية الله فقد خسر أوقاته، وخسر نفسه معها.

ثانيًا: الثناء على مستثمري الوقت:

ومما يبين اهتمام القرآن الكريم بالوقت وعنايته به: ثناؤه على مستثمريه من العباد والصالحين والدعاة وغيرهم من الطائعين لرب العالمين، والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

(١) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص٧٣.
(٢) المصدر السابق ص٥٥.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٨٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٤٣٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٨٠.
(٥) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص٨٤.

قال الله تعالى في وصفه المحسنين من عباده: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات:١٦-١٨].

كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر، ثم في السحر أخذوا في الاستغفار[1]، فمدح الله أفعالهم وانتفاعهم بوقتهم.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩].

وقوله في مدح صفوته وأحبائه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:٦٤].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

إنهم يستغلون أوقاتهم على جميع الهيئات قائمين وقاعدين وعلى جنوبهم، ولذلك كانوا أهلًا لاستجابة الله لهم، وإكرامه لهم، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥].

وأخبر تعالى عن نبيه زكريا عليه السلام: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

فمدحه تعالى في إسراعه بالخير ودعائه له، وذلك كله من زكريا من حسن تصرفه في وقته وعمارته له.

ثالثًا: توبيخ مضيعي الوقت:

ومما يبين اهتمام القرآن الكريم بالوقت وعنايته به: توبيخه لمضيعيه من الكفرة والعصاة والغافلين عن طاعة رب العالمين، ممن أضاعوا أوقاتهم في اللهو واللعب، والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

قال الله تعالى في وصف حال أهل النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر:٣٧].

فأخبر تعالى عن صراخهم واستغاثتهم وعويلهم[2]، يقولون: ربنا أخرجنا من هذه النار لكي نعمل صالحا غير ما كنا نعمل

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤١٧.

(٢) انظر: تفسير الجلالين ص ٥٧٦.

في دنيانا من قبل، فيقال لهم جوابا على ما طلبوه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ «والاستفهام تقريع للتوبيخ والتعمير: تطويل العمر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة:٩٦]»[(١)].

والغرض من الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ توبيخهم في إضاعة أعمارهم وأوقاتهم، وعدم الانتفاع بها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: أو ما عشتم في الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟»[(٢)].

ومن توبيخ القرآن الكريم على إضاعة الوقت، ما ذكره الله تعالى في كثير من الآيات من التعريض بالكفرة لإضاعتهم أوقاتهم في اللعب والخوض في الباطل، وتوعدهم بالعذاب.

قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف:٨٣].

والمعنى: «فذرهم يخوضوا ويلعبوا أي: اترك الكفار حيث لم يهتدوا بما هديتهم به ولا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا في أباطيلهم، ويلهوا في دنياهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون وهو يوم القيامة»[(٣)]

كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج:٤٢-٤٤].

قوله تعالى: «﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم الذي يوعدون، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، ﴿سِرَاعًا﴾ مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: كأنهم إلى علم يؤمون ويسرعون أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي، بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام بين يدي رب العالمين، ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣١٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٥٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤٩.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٢١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٠.

منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات، فهذه الحال والمآل، هو يومهم ﴿الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ولا بد من الوفاء بوعد الله»[1]

ثالثًا: المفاضلة بين الأعمال بسبب الوقت:

ومن اهتمام القرآن بالوقت واعتنائه به أنه فاضل بين بعض الأعمال بسبب الوقت والتبكير فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ١٠].

فجعل تعالى النفقة والقتال في سبيله قبل الفتح وهو فتح مكة -وعليه أكثر المفسرين- أو صلح الحديبية، أعظم من نظيريهما مما كان بعد الفتح المذكور[2]، وذلك لعظم موقع نصرة الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- بالنفس، وإنفاق المال في تلك الحال وذلك الوقت، وفي المسلمين قلة، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد، فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد، بخلاف ما بعد الفتح، فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قويا، والكفر ضعيفا[3].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ، ذهبًا ما بلغ مد أحدهم، ولا نصيفه)[4].

وفي رواية مسلم عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه: قال: كان بين خالد بن الوليد، وبين عبد الرحمن بن عوفٍ شيءٌ، فسبه خالدٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحدٍ ذهبًا، ما أدرك مد أحدهم، ولا نصيفه)[5].

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي: «فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لخالد رضي الله عنه ونحوه: (لا تسبوا أصحابي)، يعني عبد الرحمن رضي الله عنه وأمثاله، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٨٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٣٩.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٥٣، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٤٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذا خليلا)، رقم ٣٦٧٣، ٥/ ٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، رقم ٢٥٤١، ٤/ ١٩٦٧.

وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية، وبعد مصالحة النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة، وسموا الطلقاء، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية. والمقصود أنه نهى من له صحبة آخرًا أن يسب من له صحبة أولًا، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[(١)].

ومن تفضيل الأعمال بالوقت قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها) قال: ثم أيٌّ؟ قال: (بر الوالدين) قال: ثم أيٌّ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)[(٢)].

وكقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح، فكأنما قرب بدنةً[(٣)]، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرب بقرةً، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرب دجاجةً، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرب بيضةً، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر)[(٤)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: فكأنما «قرب بدنة» أي: تصدق بها متقربا إلى الله وقيل: المراد أن للمبادر في أول ساعة نظير ما لصاحب البدنة من الثواب ممن شرع له القربان؛ لأن القربان لم يشرع لهذه الأمة على الكيفية التي كانت للأمم السالفة»[(٥)].

وهكذا تظهر فضيلة الوقت في مضاعفة ثواب العمل، وفي ذلك حث للمسلم على حفظ الوقت والتبكير فيه.

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٦٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم ٥٢٧، ١/ ١١٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم ٨٥، ١/ ٩٠.

(٣) البدنة: البعير ذكرا كان أو أنثى.
انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/ ٣٦٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الجمعة، رقم ٨٨١، ٢/ ٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، رقم ٨٥٠، ٢/ ٥٨٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/ ٣٦٦.

استثمار الوقت

لقد حث القرآن الكريم على استثمار الوقت، واستغلاله الأمثل بالعمل الصالح النافع، وذلك لأن الإسلام دين العمل والجد والإنتاج، لا دين الكسل والنوم، وسنبين من خلال المطلبين التاليين مجالات استثمار الوقت، والتي تتمثل في: عبادة الخالق وعمارة الأرض.

أولًا: عبادة الخالق:

من أشرف الأمور التي يجب على المسلم أن يشغل بها أوقاته ويعمرها به هي عبادته لربه وخالقه الذي خلقه وملك أمره، وبيده رزقه وهدايته ومصيره، فبعبادة العبد لربه يحصل نجاته وفوزه وسعادته، وبدونها يكون من الآبقين الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وعمارة الوقت بالعبادة عند العبد اللبيب الذي فقه معنى العبادة تستغرق جميع الوقت، وذلك كما قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «وعمارة الوقت الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب، أو منكح، أو منام، أو راحة. فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه. كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة، فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات، فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبي في حال أكله وشربه، وجماع أهله وراحته، أقوى من سيره البدني في بعض الأحيان»[1].

والآيات في الأمر بعمارة الوقت في طاعة الله أكثر من أن تحصى، منها قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح:٧-٨].

وهو أمر من الله لنبيه أصلا وللمؤمنين تبعا[2] إذا فرغ من أمور الدنيا وأشغالها وقطع عنه علائقها، فلينصب في العبادة، ويقوم إليها نشيطا فارغ البال، وأن يخلص لربه النية والرغبة[3].

والنصب: التعب بعد الاجتهاد، والأمر بالنصب في الآية توجيه عام للأخذ بحظ الآخرة بعد الفراغ من عمل الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء:٧٩].

وقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل:٦].

أي: لأنها وقت الفراغ من عمل النهار وفي سكون الليل، وهكذا يكون وقته كله مشغولا، إما للدنيا وإما للدين، وفي ذلك حل لمشكلة الفراغ التي شغلت العالم حيث

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٢٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٣.

لم تترك للمسلم فراغا في وقته؛ لأنه إما في عمل للدنيا، وإما في عمل للآخرة[1].

ومن الآيات التي تحث على توظيف الوقت وإعماره في تحقيق العبودية لله، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

وهي في الإكثار من ذكر الله تعالى وتسبيحه وتعظيمه، وإعمار المؤمن وقته بذلك.

ثانيًا: إعمار الأرض:

من الأمور التي حض القرآن الكريم على استثمار الوقت فيها: عمارة الأرض وإصلاحها.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١﴾ [هود:٦١].

وقد نهى في المقابل عن الفساد في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

قال أبو بكر الجصاص رحمه الله: «وقوله: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ يعني: أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية»[2].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: «جعلكم فيها عمارا تعمرونها وتستغلونها»[3].

وقال السعدي: «﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خلقكم فيها ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته. ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم، من الكفر، والشرك، والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح، والإنابة، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها، أجل الثواب»[4].

وقد وجه النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى عمارة الأرض وإصلاحها في أكثر من حديث، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أعمر أرضًا ليست لأحدٍ فهو أحق)[5].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٧٨، ٥٧٩.

(٢) أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص ٣/ ٣١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «المراد من أعمر أرضا بالإحياء فهو أحق به من غيره وحذف متعلق أحق للعلم به»[(١)].

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أحيا أرضًا ميتةً فهي له)[(٢)].

والأرض الميتة أي: «التي لم تعمر شبهت العمارة بالحياة وتعطيلها بفقد الحياة وإحياء الموات أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد فيحييها بالسقي أو الزرع أو الغرس أو البناء فتصير بذلك ملكه سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن وهذا قول الجمهور»[(٣)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ، إلا كان له به صدقةٌ)[(٤)].

كما جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلةٌ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل)[(٥)].

يقول الدكتور وهبة الزحيلي «إن الله سبحانه استخلف البشر في الأرض بقصد عمارة الكون وإنمائه واستغلال كنوزه وثرواته، والناس في ذلك شركاء، والمسلمون ينفذون أمر الله ومقاصده، قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

والاستعمار: معناه التمكين والتسلط، كما هو واضح من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف:١٠].

وقوله عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

واللام في ﴿لَكُم﴾ تفيد الاختصاص على جهة الانتفاع للمخاطبين، أي: أن ذلك مختص بكم، مما يدل على أن الانتفاع بجميع مخلوقات الأرض، وما فيها من

المزارعة، باب من أحيا أرضا مواتا، رقم ٢٣٣٥، ٣/ ١٠٦.

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/ ٢٠.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، رقم ١٣٧٨، ٣/ ٦٥٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٩٧٦، ٢/ ١٠٣٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/ ١٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم ٢٣٢٠، ٣/ ١٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم ١٥٥٣، ٣/ ١١٨٩.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٢٩٨١، ٢٠/ ٢٩٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٠٠، رقم ١٤٢٤.

خيرات مأذون فيه، بل مطلوب شرعًا، واعتبر الفقهاء تعلم أصول الحراثة والزراعة ونحوها مما تتم به المعايش التي بها قوام الدين والدنيا من فروض الكفاية»[1].

معوقات استثمار الوقت

في هذا المبحث نذكر بعض المعوقات في استثمار الوقت مما أشار إليه القرآن الكريم، وذلك لخطورتها في إضاعة الوقت وإذهابه، وبالله التوفيق.

أولًا: طول الأمل:

وأول هذه المعوقات وأخطرها على الوقت والانتفاع به: هو طول الأمل، بمعنى «استشعار طول البقاء في الدنيا حتى يغلب على القلب فيأخذ في العمل بمقتضاه»[2].

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «طول الأمل، وما من آفة أعظم منه، فإنه لولا طول الأمل، ما وقع إهمال أصلًا، وإنما تقدم المعاصي، وتؤخر التوبة، لطول الأمل، وتبادر الشهوات، وتنسى الإنابة، لطول الأمل»[3].

وقد ذكره الله تعالى في صفات أهل الكفر والشرك، قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر:٣].

فبين تعالى حالهم في غفلتهم وإضاعتهم لأوقاتهم في الباطل والشهوات، وأن من أسباب ذلك طول أملهم في البقاء في الدنيا

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي ٨/ ٦٣٨٧.

(٢) منتهى السول على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، عبد الله اللحجي ٢/ ٣٧٩.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي ص٢٠٦.

وانشغالهم بها، فيلهيهم ذلك عن الآخرة[1]، ولا يزالون في الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة في عدم بعثهم وحسابهم حتى يأتيهم أجلهم ويروا من الله ما يوعدون.[2]

كما بين تعالى أن المشركين لطول أمل الواحد منهم يود لو عاش ألف سنة، وذلك من حرصه على الحياة الدنيا، وعدم إيمانه بغيرها، فيتمنى لو عاش هذا الوقت ليزداد من الدنيا نعيما، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة:٩٦].

والسبب في طول الأمل عند هؤلاء، واغترارهم به عدم رجائهم للقاء الله وحسابه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [يونس:٧].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ [النبأ:٢٧].

ولو علموا يقينا أنهم محاسبون، وبين يدي الله موقوفون، وأن أعمارهم بيد الله متى شاء أنهاها وقبض أرواحهم، وأن طول العمر -ولو بلغ ما بلغ- مع سوء العمل لا ينفعهم شيئا، لما اغتروا بذلك.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٢٩.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٤٦.

قال ابن قدامة: «واعلم: أن السبب في طول الأمل شيئان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل.

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من ذكره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قربه. فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، سوف بذلك ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب. وإذا كبر قال: إلى أن تصير شيخًا، وإن صار شيخًا، قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة.

فلا يزال يسوف ويؤخر، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم، ويشتغل بشغل بعد شغل، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

السبب الثاني: الجهل، وهو أن الإنسان

يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب وأصل هذه الأماني كلها، حب الدنيا والأنس بها، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مقيد بسن مخصوص، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لعظم ذلك عنده واستعد للموت»[1].

ثانيًا: الجهل بقيمة الوقت:

ومن أعظم أسباب إضاعة الوقت الجهل بقيمته، ولو فكر الإنسان في أن ما مضى من الوقت لن يعود ولا يعوض، لاغتنم كل لحظة من عمره فيما يعود عليه بالنفع عاجلا وآجلا، وقد قال الله تعالى في حق المال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء:٥].

وذلك لأن السفيه لا يعرف قيمة المال، ولا يحسن التصرف فيه فيضيعه، فمن لم يعرف قيمة الشيء تهاون فيه وضيعه، وأما الوقت فما أكثر السفهاء في حقه، من الذين يضيعون أعمارهم وأوقاتهم في الباطل واللهو واللعب وتفاهات الأمور، ومن هؤلاء الجاهلين لقيمة الوقت، المضيعين له، أهل الكفر والشرك.

قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أي: الحاسبين، ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته-كما فعل المؤمنون-لفزتم كما فازوا»[2].

إن من أسباب إهدار الكفار لأوقاتهم وعدم مبالاتهم بها هو جهلهم بقيمة هذه الحياة، وأنها دار ممر لا دار مقر، دار عمل وجدٍ ليوم الحساب لا دار لهو ولعب، ولذلك جاء بعد تلك الآيات قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

«أي: تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلى القدح في حكمته»[3].

ويوضح الفرق بين وعي أهل الإيمان والعلم حول خطورة الوقت، وبين غيرهم،

(١) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ص٣٨٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٥٠٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦٠.

هذا المشهد القرآني الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم:٥٥-٥٧].

فبين تعالى أن أهل الكفر والإجرام في حقه إذا حشروا يوم القيامة فإنهم يستقلون وقت مكثهم في الدنيا، حتى كأنه قدر ساعة عندهم[(١)].

وأما أهل الإيمان والعلم فيعلمون أنهم مكثوا في ذلك أعمارهم التي كتب الله لهم، إلى أن بعثهم الله ليوم الحساب، ولذلك ينكرون على أهل الكفر مقالتهم، ويبينون لهم أن سببها جهلهم بقيمة أعمارهم، وعدم إيمانهم بيوم الحساب.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يخبر الله تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأصنام، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضًا، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم»[(٢)].

وهكذا يظهر في هذا الموقف العصيب جهل أهل الكفر بحقائق الأمور، وهو جهل ناتج عن كفرهم بما جاءت به الرسل عليهم السلام من الإيمان بالبعث، حتى صار ذلك اعتقادًا راسخًا في قلوبهم، كما قال تعالى في الآية: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: «وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن»[(٣)]، فالاستدراك في الآية استدراك على ما تضمنته جملة ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾[(٤)].

وهكذا تظهر خطورة الجهل بقيمة الوقت في تضييعه وعدم الانتفاع به، فأهل الكفر والطغيان لم يعلموا قيمة حياتهم في هذه الدنيا فضيعوها هباءً منثورًا.

ثالثًا: ضعف الإرادة والعزيمة:

من أهم أسباب استغلال الوقت والانتفاع به وجود الإرادة القوية والعزيمة الصادقة، وبدونهما يضيع الوقت هباء منثورا، وكلما قويت إرادة العبد واشتدت عزيمته كلما استثمر أكبر قدر من الوقت، والعكس صحيح، فكلما ضعفت هذه الإرادة وقلت العزيمة كلما ضاعت الأوقات سدى.

وقد أشار الله تعالى إلى لزوم تحقق

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٥٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢٨.

(٣) تفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٨٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٣٢.

الإرادة في الانتفاع بالوقت.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦٢].

فأخبر تعالى أنه جعل الليل والنهار «متعاقبين يخلف أحدهما الآخر»[(١)]، لمن يريد أن يتذكر بهما ويعتبر، ولما يحدثه تعاقبهما من النشاط والذكر، وإذهاب الملالة التي قد تصاحب العبادة إذا لم يتغير الزمان، فكلما تكررت الأوقات واختلفت تجدد في النفس النشاط والقوة على العبادة من جديد[(٢)]، وقد خص الله الانتفاع بذلك لمن كانت لديه إرادة قوية، وعزيمة صادقة، أو رغبة في شكر الخالق تعالى.

كما ذكر تعالى مثالًا عمليًا في إضاعة الوقت بسبب ضعف الإرادة أو عدم وجودها بالكلية، قال تعالى عن المتخلفين من المنافقين عن الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة:٤٦].

أي: لو كانوا صادقين فيما يدعونه -ويخبرونك به- من أنهم يريدون الجهاد معك، لما تركوا إعداد العدة، وتحصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعد لذلك المؤمنون[(٣)].

ولكنهم لم يريدوا الخروج إلى الغزو، وهذا تكذيب لزعمهم أنهم تهيؤوا للغزو ثم عرضت لهم الأعذار فاستأذنوا في القعود؛ لأن عدم إعدادهم العدة للجهاد دل على انتفاء إرادتهم الخروج إلى الغزو[(٤)].

وهكذا أضاع هؤلاء المتخلفون فرصة الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقضاء الوقت في ذلك العمل العظيم، بسبب عدم تحقق إرادتهم في ذلك.

كما ذكر تعالى أيضًا مثالا آخر لاستثمار الوقت والانتفاع به بسبب صحة الإرادة وقوتها، قال تعالى مخاطبا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:٥٢].

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

فبين تعالى أنهم يريدون وجه الله ورضاه، فلذلك يدعونه ويستثمرون أوقاتهم صباحا ومساءً في الطاعات.

رابعًا: نسيان الآخرة:

من أهم معوقات استثمار الوقت نسيان

(١) تفسير المراغي ١٩/ ٣٣.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٨٦.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤١٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢١٤.

الآخرة وما أعده الله تعالى فيها من النعيم المقيم لمن أطاعه والتزم أوامره، وما توعد به من العذاب الأليم الدائم لمن عصاه وخالف أوامره، فيترك العبد العمل لها، ويضيع أوقاته في الشهوات والملهيات، كما قال تعالى في وصف حال الكفار: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف:٥١].

فوصف الله تعالى حالهم في اتخاذهم الدين لهوا ولعبا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة، ثم أخبر تعالى بأن عقابهم يكون من جنس عملهم، فكما نسوا الآخرة وغفلوا عنها، فسيعاملهم معاملة من ينساهم، ويتركهم في العذاب[1].

وكما وصف الله تعالى حال أهل الغفلة من خلقه فقال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣].

فبين تعالى حالهم في لهوهم ولعبهم وإضاعتهم أوقاتهم بسبب غفلتهم عن حسابهم ونسيان آخرتهم، قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم، وأجسامهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم، ومسألته إياهم ماذا عملوا فيها، وهل أطاعوه فيها، فانتهوا إلى أمره ونهيه في جميعها، أم عصوه فخالفوا أمره فيها؟

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يقول: وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة، وعن دنو محاسبته إياهم منهم، واقترابه لهم في سهو وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك، فتركوا الفكر فيه، والاستعداد له، والتأهب، جهلا منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء، وشديد الأهوال»[2].

وقال الحافظ ابن كثير: «هذا تنبيه من الله عز وجل، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها»[3].

وقد أخبرنا المولى تعالى عن قصة صاحب الجنتين، الذي حمله الغرور بالدنيا وانغماسه في متاعها على الغفلة عن البعث ونسيانه، وبذلك استحق سخط الله وأليم عقابه.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٠٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٣١.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف:٣٥-٣٦].

والمعنى: «هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ وهي بستانه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وظلمه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه، وقوله: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ أي: قال لما عاين جنته، ورآها وما فيها من الأشجار والثمار والزروع والأنهار المطردة شكًا في المعاد إلى الله: ما أظن أن تبيد هذه الجنة أبدا، ولا تفنى ولا تخرب، وما أظن الساعة التي وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم فتحدث، ثم تمنى أمنية أخرى على شك منه، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ فرجعت إليه، وهو غير موقن أنه راجع إليه ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ يقول: لأجدن خيرًا من جنتي هذه عند الله إن رددت إليه مرجعا ومردًا»[1].

وقد بين الله تعالى بعض الملهيات التي تنسي الدار الآخرة والاستعداد لها.

قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر:١-٢].

أي: «شغلتكم المباهاة والمفاخرة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم وما ينجيكم من سخطه»[2]، «وقيل ألهاكم: أنساكم»[3].

قال الإمام ابن قيم الجوزية: «ولم يعين سبحانه المتكاثر به بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به، كما يقال: شغلك اللعب واللهو. ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وإما إرادة الإطلاق وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغي به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة»[4].

وقال ابن كثير: يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها؟!»[5]، وكما في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر:٣].

وقد تقدم الكلام عليه، وكما حذر تعالى عباده المؤمنين من ذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

(١) جامع البيان، الطبري، بتصرف يسير ١٨/ ٢٢.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٥١٥

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٦٨..

(٤) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم ص١٨٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٧٢.

وهو في نهي المؤمنين عن التشبه بالمنافقين، أي: لا تشغلكم أموالكم التي تعتنون بجمعها وتحصيلها، ولا أولادكم الذين هم أشهى ثمرات حياتكم، لا يشغلكم ذلك عن أداء ما كلفكم سبحانه بأدائه من طاعات، وخص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بهما اشتغالًا يلهي عن ذكر الله، لأنهما أكثر الأشياء التي تلهي عن طاعة الله تعالى[1].

(١) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٤/ ٤١٣.

الوقت في الأحكام الشرعية

اعتنت الشريعة الإسلامية عناية كبيرة بالوقت، حيث ربطت بين العديد من التشريعات والوقت، كما حرصت على غرس مفهوم العناية بالوقت، وتثبيته في نفوس المؤمنين، وعلى تربيتهم على مراقبة الوقت وحفظه، وبذلك تثمر الشريعة الإسلامية والالتزام بها أجيالا صالحة على مر القرون حتى يرث الله الأرض ومن عليها، تتصف بأكبر قدر من المسؤولية والانضباط، ولا تعرف للكسل والبلادة والفوضى والعشوائية طريقا.

وفي النقاط الآتية سنذكر بعض الشواهد التي تدل على الارتباط الوثيق بين الوقت والكثير من التشريعات المختلفة في مجال العبادات، والكفارات، والمعاملات، وأحكام الأسرة، والآداب، والأذكار، والأدعية.

أولًا: العبادات:

ارتبطت العديد من العبادات بالوقت، وسيتحدث في هذا المطلب عن بعض العبادات التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالوقت.

١. الصلاة.

وهي من أعظم الأمور التي تضبط للمؤمن وقته وتنظمه، وقد افترض الله تعالى على المؤمن خمس صلوات في

اليوم والليلة، تبدأ بصلاة الفجر، وفيه تعويد للمؤمن على الجد والنشاط، والاهتمام بوقت الصباح، وهو وقت مبارك، كما جاء في الحديث، عن صخر الغامدي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم بارك لأمتي في بكورها)[1].

ثم تأتي صلاة الظهر ثم العصر في وسط اليوم ثم المغرب ثم العشاء في آخر اليوم.

قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم:١٧-١٨].

ذهب جماعة من المفسرين إلى أن «المراد بالتسبيح في هذه الآية الصلاة، وأشار بقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى صلاة المغرب والعشاء، وبقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى صلاة الصبح، وبقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ إلى صلاة العصر، وبقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إلى صلاة الظهر»[2].

وفي هذه الصلوات تنبيه للمؤمن في كل حين، وإيقاظ لحسه بالوقت وساعاته، ثم إن فيها تدريبًا له على الانضباط به، وذلك لأن هذه الصلوات لها أوقاتًا محددة مضبوطة لا يجوز تقديمها أو تأخيرها عنها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

أي: مفروضة في وقتها، لا تصح إلا به[3]، وقال سبحانه: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨].

وقال ناهيًا عن إضاعتها، ومتوعدًا من تهاون فيها: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم:٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون:٤-٥].

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها) قال: ثم أيٌّ؟ قال: (بر الوالدين) قال: ثم أيٌّ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة، رقم ١٢١٢، ٣/ ٥٠٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٢٩٦، ١/ ٢٧٨.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٨٠.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٣، معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٢٣، تفسير السمرقندي ٣/ ٨.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم ٥٢٧، ١/ ١١٢، ومسلم في صحيحه، كتاب

٢. الزكاة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة:٦٠].

وقد بينت السنة وجوب الزكاة في المال الذي بلغ النصاب، وحال عليه الحول، وأنه ليس في مالٍ زكاةٌ حتى يحول عليه الحول.

عن عليٍ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فإذا كانت لك مائتا درهمٍ، وحال عليها الحول، ففيها خمسة دراهم، وليس عليك شيءٌ - يعني - في الذهب حتى يكون لك عشرون دينارًا، فإذا كان لك عشرون دينارًا، وحال عليها الحول، ففيها نصف دينارٍ، فما زاد، فبحساب ذلك)[١].

أما الزروع فتخرج زكاتها وقت الحصاد قال تعالى: ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام:١٤١].

قال السعدي رحمه الله: «أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول، لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهرًا لمن أخرجها، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج»[٢].

وهكذا يراقب المؤمن الوقت في زكاته، فإذا حان وقت الحصاد أدى زكاة زروعه، وإذا حال الحول على أمواله إذا كانت من أصناف الزكاة، دفع زكاته منها.

أما زكاة الفطر فقد ورد ذكرها في حديث عبدالله بن عمر: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر من رمضان صاعًا من تمرٍ، أو صاعًا من شعيرٍ، على كل حرٍ أو عبدٍ ذكرٍ أو أنثى من المسلمين)[٣].

وبينت السنة وقت زكاة الفطر، وأنها تؤدى قبل صلاة العيد كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بزكاة الفطر قبل خروج الناس إلى الصلاة)[٤].

الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم ٨٥، ١/ ٩٠.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، رقم ١٥٧٣، ٢/ ١٠٠.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم، ٥/ ٢٩١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٩/ ٢٤٣.
وصححه الألباني في كتابه الإرواء ٣/ ٢١٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل العيد، رقم ١٥٠٩، ٢/ ١٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الأمر بإخراج زكاة الفطر قبل الصلاة، رقم ٩٨٦، ٢/ ٦٧٩.

٣. الصيام.

وقد بين الله تعالى وقته الواجب من كل عام وهو شهر رمضان، فقال عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

وبين النبي صلى الله عليه وسلم علامة بدء هذا الشهر المبارك بظهور الهلال، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غبي[١] عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين)[٢].

كما بين تعالى وقت الصيام المحدد من كل يوم من أيام الشهر فقال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧].

أي: أباح تعالى للمؤمنين الأكل والشرب، في أي وقت من الليل إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل[٣]، وهو وقت أذان الفجر، فيمسك الصائم من أذان الفجر إلى وقت أذان المغرب، عند غروب الشمس، وهكذا يظل الصائم يراقب الوقت في إمساكه وإفطاره، وأيضًا فقد بينت السنة الأوقات المستحبة في الصيام، كصيام ستة أيام من شوال، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويومي الإثنين والخميس، وغير ذلك مما يستدعي مراقبة الوقت والسؤال عنه.

٤. الحج.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩].

كما بين تعالى أن للحج أوقات معينة معلومة لا يؤدى الحج في غيرها، قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة:١٩٧].

«وهي شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة، وقيل: كله»[٤].

والاقتصار على الحج دون العمرة في الآيتين، لأن العمرة لا وقت لها في فعلها، فلهذا لم يذكرها في الآية[٥].

وهكذا يظل المؤمن في متابعة لأشهر العام، هذا شهر الصيام وذاك شهر الحج، وهكذا.

---

(١) قوله صلى الله عليه وسلم: (فإن غَبِي عليكم).أي: خفي. وأخرجه بعضهم (غُبِّي) بضم الغين وتشديد الباء المكسورة، لما لم يسم فاعله، من الغباء: شبه الغبرة في السماء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٣٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا)، رقم ١٩٠٩، ٣/ ٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، رقم ١٠٨١، ٢/ ٧٦٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥١٢.

(٤) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٤٢.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٩٦.

ثانيًا: الكفارات:

ارتبطت العديد من الكفارات بالوقت، ومن هذه الكفارات التي ارتبطت بالوقت:

١. كفارة اليمين.

ومن اعتبار الوقت في الكفارات ما جاء في كفارة اليمين في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة:٨٩].

فبين تعالى أن كفارة اليمين المنعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنث صاحبها فيها تكون بإحدى ثلاثة أمور على التخيير بينها، وهي إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم من أوسط ما يطعم الحانث في يمينه أهله، والمراد بالوسط هنا: المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير، أو أن يعتق رقبة، ثم بين تعالى ما ينبغي فعله على الحانث الذي لم يجد شيئا من الأمور المذكورة، وأنه يصوم ثلاثة أيام، فيكون صيامه كفارة لحنثه في اليمين، وقد اختلف العلماء في صيام هذه الثلاثة أيام في كفارة اليمين، هل يكون متتابعًا أم متفرقًا، على قولين في ذلك[1]، وكل ذلك مما يشهد لاعتبار الوقت في أمر الكفارات وانضباطها به.

٢. كفارة القتل.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء:٩٢].

وقوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ:

أحدهما: الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة.

وقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل، عوضا لهم عما فاتهم من قريبهم.

وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أي: فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب.

وقوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٨٢-٨٣.

أي: إذا كان القتيل مؤمنا، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمنا فدية كاملة، وكذا إن كان كافرًا أيضًا عند طائفة من العلماء. ويجب أيضًا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا إفطار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر، من مرض أو حيض أو نفاس، استأنف.

وقوله: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين[1].

٣. كفارة الظهار.

قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة:٤].

«عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة:٣].

فهو الرجل يقول لامرأته: أنت علي كظهر أمي، فإذا قال ذلك، فليس يحل له أن يقربها بنكاح ولا غيره حتى يكفر عن يمينه بعتق رقبة، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ والمس: النكاح، ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾»[2]

ثالثًا: المعاملات:

ارتبطت العديد من المعاملات بالوقت، وسوف نذكر نماذج من هذه المعاملات التي ارتبطت بالوقت.

١. الدين.

بين تعالى أحكام الدين في آية الدين، وهي أطول آية في القرآن، وبين فيها اعتبار الوقت في الدين وضبطه به، قال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فأمر الله تعالى المؤمنين إذا داين بعضهم بعضا إلى موعد «محدود بالأيام والشهور والسنة ونحوها مما يفيد العلم، لا بالحصاد وقدوم الحاج مما فيه جهالة»[3]، فأمرهم تعالى في هذه «الحقوق المؤجلة بالكتابة والإشهاد، حفظا منه للأموال»[4]، وحتى لا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٤- ٣٧٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٣١.

(٣) تفسير المراغي ٣/ ٧٠.

(٤) التفسير البسيط، الواحدي ٤/ ٤٨٥.

يقع فيه الشك والاختلاف والإنكار، كما بين تعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وفي كتابة الدين وتوقيته بأجل معين إلزام للمدين بأدائه، وهكذا يظل المؤمن في مراقبة للوقت، سواء أكان دائنا لاستيفاء حقه، أو مدينا لأداء ما عليه.

٢. الإجارات.

وهي من الأمور التي يعتبر فيها الوقت، بل هو من شروط صحتها عند الفقهاء، فالإجارة في الشرع هي: عقد على تمليك المنفعة بعوض[١]، يتفق عليه الطرفان في عقد الإجارة: المؤجر والمستأجر، وقد اشترط الفقهاء لصحة عقد الإجارة شروطا، منها أن يبين فيه مدة الإجارة كشهر أو سنة أو أكثر أو أقل[٢]، وذلك «لأن المعقود عليه لا يصير معلوم القدر بدونه، فترك بيانه يفضي إلى المنازعة»[٣].

ومما يدلل على ارتباط الإجارة بالوقت ما ذكره الله تعالى في كتابه في قصة موسى عليه السلام مع صاحب مدين[٤].

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص:٢٧].

أي: قال صاحب مدين وهو «أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى: إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتي الحاضرتين أمامك، فانظر من يقع اختيارك عليها منهما، على أن تكون أجيرًا لي ثماني سنوات ترعى لي فيها غنمي، فإن أتممت الثماني السنين التي شرطتها عليك فجعلتها عشرا فإحسان من عندك، وما أحب أن أشاقك بمناقشة أو مراعاة أوقات ولا إتمام عشر ولا غير ذلك، وإنك ستجدني إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ويوفون بما تريد من خير لك ولنا»[٥].

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٠، أنيس الفقهاء، القونوي ص٩٦.
(٢) انظر: فقه السنة، سيد سابق ٣/ ١٨١.
(٣) الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ٥/ ٣٨٠٩.

(٤) اختلف المفسرون فيه من هو؟ على أقوال، فمنهم من قال: إنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثيرين، وقيل: هو رجل مؤمن من قوم شعيب. قال الحافظ ابن كثير: من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا. وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، والله أعلم.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٨-٢٢٩.
(٥) تفسير المراغي ٢٠/ ٥٢.

٣. المواثيق والعهود.

أمر الله تعالى بالوفاء بالعهود والالتزام بها.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

«والعقود: العهود، وأصل العقود الربوط، واحدها عقد، يقال: عقدت الحبل والعهد، فهو يستعمل في الأجسام والمعاني، وإذا استعمل في المعاني كما هنا أفاد أنه شديد الإحكام، قوي التوثيق قيل: المراد بالعقود هي التي عقدها الله على عباده، وألزمهم بها من الأحكام وقيل: هي العقود التي يعقدونها بينهم من عقود المعاملات، والأولى شمول الآية للأمرين جميعا، ولا وجه لتخصيص بعضها دون بعض»[(١)].

قال أبو السعود: «والمراد بالعقود ما يعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية وما يعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به»[(٢)].

وقال السعدي: «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئا، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم. والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها.

بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠] بالتناصر على الحق، والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع. فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها»[(٣)].

ويكون الوقت ملزمًا في العهود التي يلزم المتعاهد نفسه بأدائها في وقت معين، كما جاء في قصة موسى مع صاحب مدين، فقد وفى موسى لصاحب مدين في ما عاهده به من الرعي طيلة المدة التي طلبها منه في ذلك، بل وزاد عليها، كما بين ذلك تعالى في قوله: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١٨.

﴿وَكِيلٌ ۝٢٨﴾ [القصص:٢٨].

وهو إخبار عن موسى، أنه قال لصهره صاحب مدين: الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثماني سنين، فإن أتممت عشرا فمن عندي، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد، وخرجت من الشرط؛ وقد فعل موسى أكمل الأجلين وأتمهما[1]، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص:٢٩].

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: «قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل»[2]، وهكذا نلحظ في وفاء موسى للعهد اعتبار الوقت، وهكذا يلاحظ المسلم الوقت ويراقبه في عهوده حتى لا يؤخر أدائها عن وقتها، أو يتخلف في ذلك.

إن الوفاء بالعهود والمواثيق إلى مدتها واجب حتي مع الكفار والأعداء.

قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة:٣-٤].

رابعًا: أحكام الأسرة:

١. العِدَد.

ومنها: عدة المطلقة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١].

قال السعدي رحمه الله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: «أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب تلك الحيضة، التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلقها في طهر وطئ فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين ولا يتضح بأي عدة تعتد، وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملا فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، وحقها في النفقة ونحوها، فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٣٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم ٢٦٨٤، ٣/ ١٨١.

عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه للزوج وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها»[1].

وقد بين الله تعالى العدد التي يجب على المرأة المطلقة أن تعتدها وأنوعها، فمنها عدة المطلقة المدخول بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨].

أي: لينتظرن عن النكاح ثلاثة قروء تمضي من حين الطلاق، والقروء: جمع قرء بفتح القاف وهو الطهر أو الحيض قولان للعلماء، وهذا في المدخول بهن أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب:٤٩].

أما الآيسة والصغيرة فعدتهن ثلاثة أشهر، وأما الحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن[2].

قال تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

ومنها: عدة المتوفى عنها زوجها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة:٢٣٤].

«أي: إذا توفي الزوج مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبًا، والحكمة من ذلك، ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ أي: من مراجعتها للزينة والطيب، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: على وجه غير محرم ولا مكروه. وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة، على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع عليه بين العلماء.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بأعمالكم، ظاهرها وباطنها، جليلها وخفيها، فمجازيكم عليها.

وفي خطابه للأولياء بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمنعها مما لا يجوز فعله ويجبرها على ما يجب، وأنه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٩.
(٢) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٤٩.

مخاطب بذلك، واجب عليه»[1].

٢. الإيلاء.

وهو «اليمين على ترك وطئ المنكوحة مدةً مثل: والله لا أجامعك أربعة أشهر»[2].

وقد بين الله حكمه في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٢٦].

قال الحافظ ابن كثير: «الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو: إما أن يكون أقل من أربعة أشهر، أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة، عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه شهرا، فنزل لتسع وعشرين، وقال: (الشهر تسع وعشرون)»[3].

فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر: إما أن يفيء -أي: يجامع - وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا أو هذا لئلا يضر بها، ولهذا قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أي: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق. ولهذا قال: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين»[4].

٣. الحمل والإرضاع.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

وقال أيضًا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

فبين تعالى أن مدة فصال المولود -أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه- في عامين، كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣].

ومن هاهنا استنبط ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن الله تعالى قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٤.
(٢) التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان ص٤٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب قول الله تعالى: (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر)، رقم ٥٢٨٩، ٧/ ٥٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، بتصرف واختصار ١/ ٦٠٤.

وذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلًا ونهارًا، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه. كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٤].

ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء[1].

[انظر: الأجل: الأجل في العبادات والمعاملات]

خامسًا: الآداب:

١. الزيارة.

جاء اعتبار الوقت في الزيارة في الشرع في عدة أمور، كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب:٥٣].

فأمر الله تعالى عباده المؤمنين، بالتأدب مع نبيه صلى الله عليه وسلم في دخولهم لبيوته، وذلك بألا يدخلوها إلا بعد استئذان وإذن، وإذا كان دخولهم استجابة لدعوة إلى طعام، فلا يتعجلوا في الحضور قبل أن ينضج الطعام، وذلك حتى لا يطول مكثهم في بيت النبي صلى الله عليه وسلم[2] ويكون ثقيلًا عليه.

كما قال تعالى: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ يعني: «غير منتظرين إدراكه وبلوغه»[3]، أي: أنهم مع كونهم مأذونًا لهم ومدعوين، فلا يدخلوا قبل الميعاد المضروب لهم حضورهم فيه، عجلة وانتظارًا منهم لنضج الطعام، فإن ذلك مما يؤذي قلب صاحب الدعوة، لشغل هذه الحصة معهم بلا فائدة، إلا ضيق صدر الداعي وأهله، وشغل وقته، وتوليد حديث، وتكلفا لكلام لا ضرورة له، وإطالة زمن الحجاب على نسائه[4].

وأيضًا فإن في هذا الوقت يكون أهل البيت في شغلهم في إعداد الطعام، وفي ثياب العمل فلا يحسن أن يروهن وهن على هذه الحال، وما ذلك كله إلا من شؤم التعجيل قبل الوقت[5].

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ﴾

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣٦.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٦/ ٣٣٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٥٧.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٩٩.

(٥) انظر: تفسير المراغي ٦/ ٣٣٦.

﴿فَٱدۡخُلُواْ﴾ «أي إذا دعيتم إلى الدخول في وقته، فادخلوا فيه لا قبله ولا بعده، فـ ﴿وَلَٰكِنۡ﴾ استدراك من النهي عن الدخول، مع الإذن المطلق الذي هو الدعوة بتعليم أدب آخر. وإفادة شرط مهم، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حينًا ووقتًا يجب أن يراعى زمنه، وهذا المنهي عنه لم يزل يرتكبه ثقلاء القرويين ومن شاكلهم من غلظاء المدنيين الذين لم يتأدبوا بآداب الكتاب الكريم»[1].

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾، أي: أن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، «فلا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعض، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك»[2].

ثم بين تعالى حكمة النهي وفائدته فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: إن انتظاركم الزائد على الحاجة كان يشق على النبي بحبسكم إياه عن شئون بيته، واشتغاله فيه، وهو يستحي منكم أن يقول لكم: اخرجوا، كما هو جاري العادة، أن الناس -وخصوصًا أهل الكرم منهم- يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم، ولكن الله تعالى لا يستحي أن يأمركم، بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنًا ما كان[3].

وفي هذه الآية يظهر اعتبار الوقت ومراعاته في آداب الزيارة في الشرع، من اختيار الوقت المناسب للزيارة، وأن يكون على قدر الحاجة، وأن لا يطول بحيث يثقل ذلك على المزور.

٢. الاستئذان.

من عظمة التشريع الإسلامي كماله وشموله لجميع مناحي الحياة، صغيرها وكبيرها، فما من أمر من أمور هذه الحياة وإلا نجد فيه تشريعا يضبطه ويبين الصواب فيه من الخطأ، ومن ذلك التشريعات في باب الاستئذان وأحكامه، وقد بين النبي الحكمة في الاستئذان وأهميته، كما في الحديث عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما جعل الاستئذان من أجل البصر)[4].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في معنى الحديث: «أي: شرع من أجله لأن المستأذن لو دخل بغير إذن لرأى بعض ما يكره من يدخل إليه أن يطلع عليه»[5].

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٩٩.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٣٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر، رقم ٦٢٤١، ٨/ ٥٤.
(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/ ٢٤.

ولذلك فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين عند دخولهم بيوتا غير بيوتهم بالاستئذان، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور:٢٧].

ومعنى الاستئناس في الآية أي :الاستئذان، سمي بذلك، «لأنه به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة»[(١)].

والأمر بالاستئذان في الآية عام في كل حين يراد فيه دخول بيوت الغير، وهذا في حق عموم المؤمنين، وقد ورد ما يخصص هذا الحكم في حق الإماء والعبيد والأطفال، فإنهم لا يجب عليهم الاستئذان كلما دخلوا إلى بيوت غيرهم، إلا في ثلاثة أوقات[(٢)] بينها الله تعالى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النور:٥٨].

فبين تعالى هذه الأوقات الثلاثة، من قبل صلاة الفجر وهو وقت الانتباه من النوم، ولبس ثياب النهار، ووقت القائلة وهي الظهيرة، لأن النهار يظهر فيها إذا علا شعاعه واشتد حره، ومن بعد صلاة العشاء وهو وقت التعري للنوم[(٣)].

«وإنما خص هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب، فربما يبدو من الإنسان ما لا يحب أن يراه أحد، فأمر الله العبيد والصبيان بالاستئذان في هذه الأوقات»[(٤)].

«وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائما، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم»[(٥)].

وهكذا ظهر اعتبار الوقت في آداب الاستئذان، وأن هذه الأوقات الثلاثة التي سماها الله تعالى (عورات) يجب مراعاتها وتوكيد الاستئذان عندها.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٣٠٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٣٠٤.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٦٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٣.

سادسًا: الأذكار والأدعية:

ذكر الله تعالى مستحب في جميع الأوقات، ولكن يزداد استحبابه في أوقات مخصوصة، كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء:٧٨].

فقراءة القرآن -كلام الله- عموما في أي وقت لها فضلها العظيم، ولكنها في ساعة الفجر اختصت مع ذلك بشهود الملائكة[1]، وكما قال تعالى لنبيه زكريا عليه السلام: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران:٤١].

وقال لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر:٥٥].

وقال لعموم المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

فأمر الله تعالى بذكره عموما في كل وقت، ثم خص فيه بعض الأوقات تنبيها على شرف العبادة فيها، فذكر تعالى من ذلك وقتين:

الأول: وهو وقت الغداة أو الإبكار، وهو أول النهار، وهو ما بين طلوع الفجر إلى الضحى[2].

والثاني: العشي أو الأصيل وهو آخر النهار، وهو «ما بين العصر إلى المغرب»[3].

وهما وقتان فاضلان ولذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما، فمن فضلهما أن الله أقسم بكل واحد منهما، فأقسم تعالى بالصبح كما في قوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر:٣٤].

وكما في قوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير:١٨].

وأقسم تعالى بالعصر، كما في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ [العصر:١] على أحد أوجه التفسير في الآية[4]، فوقتا الغدو والعشي وقتان مشهودان من الملائكة، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٠٧.

(٢) انظر: تفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٢٤٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢١٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٥٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٧٩.

وهم يصلون)[1].

ولأجل فضيلة هذين الوقتين خصهما الله تعالى بالأمر بالذكر فيهما، فإن لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثرًا في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات[2].

كما يضاعف الثواب في ليلة القدر لشرفها، وكما تضاعف الصلاة في المسجد الحرام لمكانته، ولذلك أيضًا فقد أوجب الله تعالى في هذين الوقتين -الغداة والعشي- صلاتين عظيمتين جليلتين، وهما صلاة الفجر وصلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى التي خصها الله بتوكيد المحافظة عليها.

قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨][3].

كما شرع تعالى فيهما أذكار الصباح والمساء.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق:٣٩].

«وهذا تفسير ما جاء في الأحاديث: من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسي، أن المراد به قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر»[4].

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال: حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده، مائة مرةٍ، لم يأت أحدٌ يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحدٌ قال مثل ما قال أو زاد عليه)[5].

وغير ذلك من الأحاديث، وهكذا يظل المؤمن مراقبًا لهذين الوقتين الفاضلين، ليذكر الله تعالى فيهما ويغتنمهما في ذلك.

وكما جعل الشارع للذكر أوقاتا مخصوصة يزداد فيها شرفه ويعظم أجره، جعل ذلك للدعاء أيضًا، فللدعاء أوقات

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلوات، باب فضل صلاة العصر، رقم ٥٥٥، ١/ ١١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما، رقم ٦٣٢، ١/ ٤٣٩.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٦٨، تفسير المراغي ٢٣/ ١٠٦.

(٣) اختلف في الصلاة الوسطى اختلافا كثيرا، وقد ذكر الحافظ ابن كثير الأقوال في ذلك، ثم قال: وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، وإنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر. وقد ثبتت السنة بأنها العصر، فتعين المصير إليها.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٥٤.

(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص٩٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٢٦٩٢، ٤/ ٢٠٧١.

مخصوصة يكون فيها أقرب للإجابة، من ذلك ساعة الاضطرار والتي يحصل فيها كمال التوجه إلى الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

وكما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له)[1].

ولا يخفى ما في هذا الحديث من الترغيب في الدعاء والحرص عليه في هذا الوقت.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم ٧٥٨، ١/ ٥٢١.

أوقات فاضلة

ورد في القرآن الكريم ذكر بعض الأوقات المخصوصة وبيان فضلها، وذلك تنبيها عليها وحضا على الانتفاع بها واغتنامها، وهو من طريقة القرآن في الهداية إلى خير الأمور وأقومها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وسنتحدث عن تلك الأوقات المخصوصة في النقاط الآتية:

أولًا: شهر رمضان:

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

فبين تعالى شرف هذا الشهر من بين سائر الشهور، باختياره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه[2].

وذهب الجمهور في معنى نزول القرآن إلى أنه: نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك مفرقا على النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة، وقيل: معنى إنزاله في شهر رمضان: ابتداء إنزاله فيه، وذلك لأن مبادئ الملل والدول هي التي يؤرخ بها

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠١.

لكونها أشرف الأوقات[1].

وبعد أن بين تعالى فضل هذا الشهر وما حصل فيه من الفضل العظيم بإنزال القرآن المشتمل على الهداية والبيان والفرقان بين الحق والباطل، نبه جل شأنه عباده إلى اغتنام هذا الشهر المبارك، وأن يشكروه تعالى فيما أنعم به عليهم فيه، فأمر بصيامه، فكأنه قال: حقيق بشهر، هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه، أن يكون موسما للعباد مفروضا فيه الصيام[2].

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه)[3].

ثانيًا: ليلة القدر:

وقد أنزل الله تعالى سورة كاملة في بيان فضلها، هي سورة القدر، ومما ذكره تعالى فيها من ذلك: أنها الليلة التي أنزل فيها القرآن.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر:١].

وأن العمل فيها أفضل من العمل في ألف شهر خالية منها[4]، كما في قوله تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ [القدر:٣].

وأن الملائكة يكثر نزولها فيها كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤﴾ [القدر:٤].

قال ابن كثير: «أي: يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له»[5].

وما ذكره الحافظ ابن كثير من كثرة بركة ليلة القدر جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان:٣].

فالليلة المباركة هي ليلة القدر، ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان[6].

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى اغتنام هذه الليلة المباركة ورغب في ذلك، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٥٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابا من الإيمان، رقم ٣٨، ١/ ١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان، وهو التراويح، رقم ٧٦٠، ١/ ٥٢٣.
(٤) انظر تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٨١٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٤٤.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٥.

الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه)[1].

ثالثًا: العشر الأوائل من ذي الحجة:

وقد أقسم الله تعالى بها في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر:٢][2].

وقسمه تعالى بها فيه إشعار بفضلها، وهي ليال عظيمة فيها تؤدى مناسك الحج، كالإحرام ودخول مكة وأعمال الطواف، وفي ثامنتها ليلة التروية، وتاسعتها ليلة عرفة وعاشرتها ليلة النحر[3].

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر، فقالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيءٍ)[4].

رابعًا: الأشهر الحرم:

وهي أربعة أشهر: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، كما بينها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

ففي الحديث عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعةٌ حرمٌ، ثلاثٌ متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، مضر الذي بين جمادى، وشعبان)[5].

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾ [التوبة:٣٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا ونية، رقم ١٩٠١، ٣/ ٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان، وهو التراويح، رقم ٧٦٠، ١/ ٥٢٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣١٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر، رقم ٧٥٧، ٣/ ١٢١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٥٤٨، ٢/ ٩٧٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم ٣١٩٧، ٤/ ١٠٧، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، وهو التراويح، رقم ١٦٧٩، ٣/ ١٣٠٥.

قال الإمام القرطبي: «هذه الآية تدل على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما يكون بالشهور والسنين التي تعرفها العرب، دون الشهور التي تعتبرها العجم والروم والقبط وإن لم تزد على اثني عشر شهرًا، لأنها مختلفة الأعداد، منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص، وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين وإن كان منها ما ينقص، والذي ينقص ليس يتعين له شهر، وإنما تفاوتها في النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر في البروج[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول أي: اللوح المحفوظ[(٢)].

وقد خص الله تعالى الأشهر الحرم من بين سائر الشهور بمزيد حرمتها.

قال العلامة السعدي رحمه الله: «سميت حرما لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهرًا، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمر بطاعته، ويشكر الله تعالى على منته بها، وتقييضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصا مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها»[(٣)].

وقال قتادة رحمه الله: «الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئةً ووزرًا، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، ولكن الله يعظم من أمره ما شاء»[(٤)].

وقد حذر القرآن الكريم من التلاعب بالأشهر الحرم كما كانت العرب تفعل، وعد ذلك من الكفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة:٣٧].

أي: «إنما التأخير الذي يؤخره أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرام منهن حلالا والحلال منهن حرامًا، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكام الله وآياته»[(٥)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٣٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٤٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٣٩.
(٥) المصدر السابق ١٤/ ٢٤٣.

خامسًا: يوم الجمعة:

وقد سمى الله تعالى سورة من كتابه باسمه (سورة الجمعة)، جاء فيها ذكر يوم الجمعة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة:٩].

وهو أفضل أيام الأسبوع[١]، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة)[٢].

وقد أقسم الله تعالى به كما في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ [البروج:٣].

أقسم بشاهد، وهو يوم الجمعة، ومشهود وهو يوم عرفة[٣].

قال ابن كثير: «﴿وَشَاهِدٖ﴾ يوم الجمعة. وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إياه، ولا يستعيذ فيها من شر إلا أعاذه، ﴿وَمَشۡهُودٖ﴾ يوم عرفة»[٤].

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ١/ ٦٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، رقم ٨٥٤، ٢/ ٥٨٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٣٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٦٤.

وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم في استغلال هذا اليوم الفضيل بالعمل الصالح، كما جاء في الحديث عن أوس بن أوس، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضةٌ علي، قال: فقالوا: يا رسول الله: وكيف تعرض صلاتنا عليك، وقد أرمت؟ - قال: يقولون: بليت - قال: إن الله تبارك وتعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء صلى الله عليهم)[٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين)[٦].

موضوعات ذات صلة:

الأجل، الذكر، العبادة، الليل، النهار

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب في الاستغفار، رقم ١٥٣١، ٢/ ٨٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٢١٢، ١/ ٤٤٠.
(٦) أخرجه الحاكم في مستدركه، رقم ٣٣٩٢، ٢/ ٣٩٩.
قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٤٧٠، ٢/ ١١٠٤.

الولاء

عناصر الموضوع

مفهوم الولاء	٢٣٢
الولاء في الاستعمال القرآني	٢٣٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٣٤
اقتران الولي بالنصير في القرآن	٢٣٦
ولاية الله تعالى لعباده	٢٣٧
ولاية الملائكة للمؤمنين	٢٥٢
ولاية المؤمنين	٢٥٦
ولاية الشيطان	٢٦٤
ولاية الكافرين والمنافقين والظالمين	٢٧٠
أساليب القرآن في الحديث عن الولاء	٢٧٧
الولاء في المثل القرآني	٢٨٠

مفهوم الولاء

أولًا: المعنى اللغوي:

أصله من مادة (ولي)، والوَلْيُ: القرب والدنو، يقال: تباعد بعد وَلْيٍ، أي: تباعد بعد قرب، وكل مما يليك: أي مما يقاربك، والولاء: الموالون، يقال: هؤلاء ولاء فلان، أي: موالوه، و(الولاء): ولاء المعتق، بمعنى: أن يكون ولاء المعتق لمعتقه بأن يكون هو الأولى في إرث معتقه إن لم يكن له وارثٌ من نسبه.

ويطلق (الولاء) أيضًا على التتابع، يقال: والى بينهما ولاءً: أي تتابع، وافعل هذه الأشياء على الولاء، أي: على التتابع، وتوالى عليه شهران: أي: تتابع، وتوالت عليه الأخبار: أي: تتابعت.

ومنه أيضًا: تولى العمل: إذا تقلده، وتولى عنه: إذا أعرض، وولى هاربًا: إذا أدبر، والولي ضد العدو، و(الولاية): السلطان والإمارة، ومنه وليت الأمر أليه ولاية، ووليت على الصبي والمرأة، والفاعل والٍ، والجمع ولاة، و(الولاية) بالفتح والكسر: النصرة، وبالفتح أكثر، يقال: هم على ولاية، أي: مجتمعون في النصرة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، الذي يدور حول الحب والنصرة، وعرفه أبو عاصم البركاتي، فقال: «هو حب الله تعالى ورسوله ودين الإسلام وأتباعه المسلمين، ونصرة الله تعالى ورسوله ودين الإسلام وأتباع المسلمين»[(١)].

وذكر محماس بن عبد الله الجلعود تعريفًا للموالاة، فقال: «هي التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا لمن يتخذه الإنسان وليًّا، فإن كان هذا التقرب والود مقصودًا به الله ورسوله والمؤمنون، فهي الموالاة الشرعية الواجبة على كل مسلم، وإن كان المقصود هم الكفار على اختلاف أجناسهم، فهي موالاة كفر وردة عن الإسلام»[(٢)].

فالولاء يتمثل في المحبة والمودة والاتباع والنصرة، وهذه معانٍ جليلة وقيمة أراد الإسلام ترسيخها في نفوس المسلمين.

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام، ص٤.
(٢) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، ١/ ٢٨.

الولاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ولي) في القرآن الكريم (٢٣٢) مرة، يخص موضوع البحث (١٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة:١٤]
الفعل المضارع	١١	﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦]
المصدر	٢	﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف:٤٤]
اسم الفاعل	١	﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١]
اسم المفعول	٢١	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١]
الصفة المشبهة	٨٦	﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٧٠]

وجاء الولاء في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: الرب: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤] يعني: ربًّا.

الثاني: الولد: ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥]. يعني: ولدًا.

الثالث: الناصر: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ [الدخان: ٤١].

الرابع: المولى الذي يعتق: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب:٥].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٤٦-٧٤٧.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦١٣، ٦١٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٨٠، ٢٨٤، الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص٢٠٠، ٢٠١، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، ص٤٩٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ النصرة:

النصرة لغةً:

مصدر من مادة (نصر)، والنصر هو إعانة المظلوم، يقال: نصره على عدوه، ينصره نصرًا، والاسم النصرة وهي العون[١].

النصرة اصطلاحًا:

قال المناوي: «النصر والنصرة: العون»[٢].

الصلة بين النصرة والولاء:

يتضح أن النصرة من مستلزمات الولاء؛ لأنه كما ذكر سابقًا أنَّ الولاء يتحدد معناه في الحب والنصرة، فمن والى شخصًا أحبه، ويقتضي هذا الرضا بأفعاله، ونصرته والدفاع عنه إذا تعرض لظلم، أو ما شابه.

٢ التعاون:

التعاون لغةً:

تعاونوا: أعان بعضهم بعضًا، وقالوا: عاونه معاونةً وعوانًا، أعانه، والمعوان: الحسن المعونة للناس[٣].

التعاون اصطلاحًا:

قال الراغب: «التعاون: التظاهر»[٤].

الصلة بين التعاون والولاء:

لاشك أن التعاون والمظاهرة من مستلزمات الولاء أيضًا، فمن والى شخصًا أعانه وظاهره على عدوه.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٤٤٣٩، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٠٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، ص ٣٢٥.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٣٥/ ٤٣١.
(٤) المفردات، ص ٥٩٨.

٣ البراء:

البراء لغةً:

مصدر من (برأ)، وهو التباعد عن الشيء، ومنه البرء وهو السلامة من المرض، والوصف منه براء، وبريء، وهما لغتان في القرآن، والبراءة تكون من العيوب والمكاره[١].

البراء اصطلاحًا:

البراءة «هي انقطاع العصمة»[٢]، وقال الألوسي: «هي عبارة عن إنهاء حكم الأمان، ورفع الخطر المترتب على العهد السابق»[٣]، وقال محمد بن سعيد القحطاني: «هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار»[٤].

الصلة بين البراء والولاء:

يتبين أن العلاقة بينهما متناقضة، فالبراء ضد الولاء، وهو متمثل في البغض والمعاداة، فالأمران لا يجتمعان.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٢٤٠.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٣٦٥.
(٣) روح المعاني، ١٠/ ٤٢.
(٤) الولاء والبراء في الإسلام، ص٩٠.

اقتران الولي بالنصير في القرآن

اقترن اسم الله تعالى (الولي أو المولى) باسمه تعالى النصير ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم، منها -على سبيل المثال- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء:٤٥].

وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:١٥٠].

وذكرنا في العلاقة بين الولاء والنصرة، أن النصرة من مقتضيات الولاء ومستلزماته، وعليه يكون اسم الله تعالى (النصير) هو مقتضى اسمه تعالى (الولي أو المولى). قال البقاعي في بيان حكمة اقتران الولي بالنصير عند تفسيره لآية النساء المذكورة: «﴿وَلِيًّا﴾ أي: قريبًا بعمل جميع ما يفعله القريب الشفيق.

ولما كان الولي قد تكون فيه قوة النصرة، والنصير قد لا يكون له شفقة الولي، وكانت النصرة أعظم ما يحتاج إلى الولي فيه، أفردها بالذكر إعلامًا باجتماع الوصفين مكررًا الفعل والاسم الأعظم اهتمامًا بأمرها فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: الذي له العظمة، ﴿نَصِيرًا﴾ أي: لمن والاه فلا يضره عداوة أحد، فثقوا بولايته ونصرته دونهم، ولا تبالوا بأحد منهم ولا من غيرهم، فهو يكفيكم الجميع»[1].

وقال الشعراوي في تفسيره لذات الآية: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ نعم كفى به وليًّا؛ لأن غيره من البشر إنما يملكون الأسباب، والحق تعالى هو الذي خلق الأسباب، فيملك ما هو فوق الأسباب، ولذلك يقول مطمئنًا لنا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

و(الولي) دائمًا هو من يليك مباشرة أي: أنه قريب منك. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ إذن فهناك قريب، وهناك أيضًا نصير، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا ينصرك، لكن الله ولي ونصير، فما دامت المسألة مسألة معركة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾، كأن الحق ينبهنا: إياكم أن تقولوا إننا نلتمس النصرة عند أحد، اصنعوا ما في استطاعتكم أن تصنعوه، ثم اتركوا ما فوق الاستطاعة إلى الله»[2].

(١) تفسير المراغي ٢/ ٢٦٢.
(٢) تفسير الشعراوي، ٤/ ٢٢٧٨.

ولاية الله تعالى لعباده

إن الكلام عن ولاية الله عز وجل لعباده تتطلب بيان أن الله جل جلاله هو وحده الولي، وأن ولايته تعالى تنقسم إلى قسمين: ولاية عامة لجميع خلقه، وولاية خاصة لأصفيائه المؤمنين مع شرح موجبات هذه الولاية لهم خاصة دون غيرهم، بالإضافة إلى شرح أسباب الحرمان من ولاية الله عز وجل، وتفصيل هذه الأمور فيما يأتي:

أولًا: الله تعالى هو الولي:

لقد سَمَّى الله عز وجل نفسه باسم (الولي)، فهو من أسمائه الحسنى، وعرف الزجاج هذا الاسم بقوله: «هو فعيل من الموالاة، والولي الناصر وهو تعالى وليهم أي: المؤمنين.

بأن يتولى نصرهم وإرشادهم، كما يتولى ذلك من الصبي وليه، وهو يتولى يوم الحساب ثوابهم وجزاءهم»[(١)].

وقيل: (الولي) هو المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، ومن أسماء الله عز وجل أيضًا: (الوالي)، وهو مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها، وكأن الولاية تحمل معنى التدبير والقدرة والفعل معًا، فأي عنصر فُقِدَ منها، فلا يطلق على صاحبها اسم الوالي[(٢)].

وهناك آيتان قرآنيتان فقط أثبتتا أن الله تعالى هو الولي، وهما: قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

فنلحظ من قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ في الآية الأولى أنَّ الضمير (هو) ضمير فصل يفيد التأكيد والحصر والقصر، ففي هذا التركيب قصر جنس الولي بهذا الوصف على الله تعالى وحده، وبما أن المشركين قد عبدوا غير الله عز وجل، فيكون المعنى المراد هو قصر الولاية الحقة على الله تعالى وحده. يقول ابن عاشور: «وأفاد ضمير الفصل في قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ تأكيد القصر وتحقيقه، وأنه لا مبالغة فيه تذكيرًا بأن الولاية الحق في هذا الشأن مختصة بالله تعالى»[(٣)].

ويظهر هذا المعنى جليًّا في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ حيث قصر صفة الولي والحمد على الله جل جلاله وحده دون غيره.

لأجل هذا يعترف المؤمنون دائمًا بأن

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، ص ٥٥.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٤٩٢٠.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٥/ ٤٠.

الله عز وجل هو وليهم ومولاهم. يقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

والمعنى أن الله تعالى لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من رحمة الله تعالى ولطفه بعباده، وللنفس الإنسانية ما كسبت من خير، فلها الثواب عليه، وعليها ما اكتسبت من الشر، فعليها العقاب عليه، ثم أرشد الله عز وجل المؤمنين إلى هذا الدعاء الذي تكفل لهم بإجابته، وهو: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: لا تعاقبنا على فرضٍ تركناه، أو على حرامٍ فعلناه نسيانًا، أو أخطأنا الصواب في العمل جهلًا منا بواجبه الشرعي، ويؤيد هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه)[1].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة -وإن كانت في طاقتنا- كما كلفت الأمم الماضية قبلنا كبني إسرائيل، أما رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فتحمل التيسير والتخفيف والسماحة، فهو نبي الرحمة المهداة للأمم جميعها.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من التكليف والمصائب والبلاء، فلا تبتلينا بما لا قدرة لنا عليه من الفتن.

﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ فيما بدر منا من معصية بيننا وبينك.

﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ فيما بدر منا من زلل بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على عيوبنا.

﴿وَارْحَمْنَا﴾ فيما يستقبل، فجنبنا وباعد بيننا وبين الوقوع في ذنوب أخرى.

﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾ أي: متولي أمورنا، ومالكنا، وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، وكذبوا رسالة نبيك، وعبدوا غيرك، فأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة[2].

ونخلص من هذا إلى أن الله تعالى هو ولي المؤمنين حيث يتولى نصرهم وإرشادهم، كما يتولى ثوابهم وجزاءهم يوم

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٢٠٤٣، عن أبي ذر الغفاري، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ٣/ ١٩٩.
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، ٣/ ١٧٧١، رقم ٦٢٩٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ١٣٥.

الحساب، وأيضًا هو المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، فهو مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها.

ثانيًا: ولاية عامة للخلق جميعًا:

عرفنا أن الله تعالى وحده هو المتصف بالولاية الحقة، فإذا كان كذلك فهو الأولى بالعبادة والأحق بها مما يعبد من دونه من الآلهة والأوثان؛ فلهذا السبب نعى الله عز وجل على المشركين وأنكر عليهم اتخاذهم آلهة يعبدونها من دونه جل جلاله، فقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٩].

كما أخبر فيها أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده عز وجل، فإنه وحده القادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير[(١)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

فالله تعالى هو الذي ينزل المطر الغزير الذي يغيث البلاد والعباد من بعد انقطاعه مدة يظن بها الناس أنه لن يأتيهم، فينشر الله عز وجل بالمطر رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيستبشرون بذلك ويفرحون، فالله جل جلاله هو الولي الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بما يصلح لهم دينهم ودنياهم، كما أنه الحميد في تدبيره على ما له من كمال مطلق، وما يوصله إلى خلقه من ألوان الإفضال وأنواعه[(٢)].

وفي هذا المعنى يأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المشركين قائلًا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤].

أي: قل لهم يا محمد: أغير الله تعالى أتخذ وليًّا معبودًا أواليه بالعبادة والمحبة، وأشركه مع الله الذي أبدع السماوات والأرض، وهو الغني عما سواه، الذي يطعم عباده ولا يطعم، ولا يحتاج إلى من يطعمه، فهو الذي يرزق ولا يرزق، كما أمرت أن أنقاد بكليتي إلى هذا الإله الحقيقي[(٣)].

ونخلص من هذا إلى أن الله تعالى هو وحده الولي، وولايته عز وجل ليست كأي ولاية، فهو تعالى الولي الذي يتولى أمور الخلائق، وهو مالك التدبير، وهو الولي الذي صرف لخلقه ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، كما أن هذه الولاية

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١٩٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٥٨.

(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ١٠٣.

للخلق جميعًا دون تمييز بين مؤمن، أو كافر، أو منافق، فهي ولاية عامة لجميع الناس.

ثالثًا: ولاية خاصة لأوليائه وأصفيائه وموجباتها:

إن الله تعالى اصطفى أهل الإيمان من خلقه، وحظاهم وأولاهم رعايته ونصرته، فقال جل جلاله فيهم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقيل في معنى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أقوال، منها: الحافظ، والناصر، فهو ناصر المؤمنين وحافظهم، وسمَّى الله تعالى نفسه وليًّا؛ لأنه يلي أمور الخلق من النصر والحفظ والرزق وغيره، ومنه سمي الولي وليًّا؛ لأنه يلي أمور الناس[1].

ومعنى الآية أنَّ الله تعالى وليُّ الذين آمنوا حيث يتولاهم بالنصرة والإرشاد، فهو وحده الذي يخرجهم من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، أو يخرجهم من ظلمات العذاب في النار إلى نور الثواب في الجنة، ولا يقدر على هذا إلا الله عز وجل[2].

وهذا يوسف عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

فنادى ربه: يا رب أعطيتني من نعمة الدنيا الجاه والسلطان، ومن نعمة العلم تفسير الرؤيا، فيا مبدع السماوات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق، أنت يا رب متولي أموري وشؤوني في الدنيا والآخرة، فاقبضني مسلمًا، واجعل لحاقي بالصالحين[3]، فلا بد لهذه الولاية كي تتحقق من موجبات؛ لأن هذه الولاية لا تعطى ولا تمنح لأي شخص، وهذه الموجبات متمثلة في ثلاث:

١. الإيمان.

يقول الله عز وجل في بيان ولايته لأهل الإيمان: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

والمعنى: إن أحق الناس بنصرة إبراهيم عليه السلام وولايته هم الذين سلكوا طريقه ومنهاجه، فوحدوا الله تعالى مخلصين له الدين غير مشركين به، ثم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام كذلك، فإن الله تعالى سوف ينصر المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم، المصدقين له في نبوته، وفيما جاءهم به من عند الله عز وجل،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٤١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ١/ ٣٢٨.
(٣) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ٦٣.

فسينصرهم على من خالفهم من أهل الملل الأخرى[1].

ويقول تعالى أيضًا في هذا الصدد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١].

والمعنى: أن الله جل جلاله هو ولي المؤمنين وناصرهم، وقد نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد عندما صاح المشركون: يوم بيوم -يقصدون عندما انتصر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم في بدر-، لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم[2].

وفي المقابل فالكافرون لا ينصرهم من الله تعالى أحد. قال السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]: «وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبغون عنه بدلًا ولا يشركون به أحدًا، قد اتخذوه حبيبًا ووليًا، ووالوا أولياءه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومن عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور»[3].

فالمؤمنون أمة واحدة يجمعها الإيمان بالله عز وجل، والتصديق بكل ما جاء به من غير تفريق بينهم بالأجناس والألوان والقوميات والأوطان، فصورة المؤمنين هذه من حيث تجمعهم هي أرقى صورة للتجمع البشري الذي يليق به.

٢. التقوى.

يقول الله عز وجل في بيان ولايته لأهل التقوى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤].

والمعنى: ما كان الله عز وجل ليعذب المشركين والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، لكنه سوف يعذبهم بعدما يفارقهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف لا يعذبون والحال أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عنه عام الحديبية، وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت الحرام، نصد من نشاء، وندخل من نشاء، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي لم يستحقوا أن يكونوا ولاة البيت الحرام وهم مشركون، فولاته الحقيقيون هم المسلمون، وقيل: إن الضميرين في (أولياءه، أولياؤه)

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٤٩٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٢٣٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص١١١.

يرجعان إلى الله عز وجل[1].

ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية:١٩-١٨].

فهذه الآية تتحدث عن بني إسرائيل الذين أنعم الله تعالى عليهم، وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، وفضلهم على عالمي زمانهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم، فاختلفوا واتبعوا أهواءهم، فبين الله تعالى أنهم لن يغنوا عن النبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى شيئًا، وأن المتصفين بالظلم لا ولاية بينهم وبين الله تعالى، والله جل جلاله المتصف بجميع صفات الكمال والجلال والجمال هو ولي المتقين الذين همهم الأعظم هو الاتصاف بالحكمة عن طريق اتخاذ الوقايات المنجية لهم من سخط الله تعالى وعذابه، ولا ولاية بينه وبين الظالمين[2].

٣. الصلاح.

يقول الله عز وجل على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب المشركين قائلًا: لا أبالي بكم وبشركائكم؛ لأن وليي هو الله عز وجل الذي أنزل القرآن العظيم الناطق بأنه وليي وناصري، وإن شركاءكم الذين تعبدونهم من دون الله تعالى لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلًا عن نصركم أنتم، فالله عز وجل من عادته أن يتولى الصالحين من عباده، وينصرهم ولا يخذلهم[3].

وهكذا تتضح ولاية الله تعالى الخاصة بأوليائه وأصفيائه المؤمنين المتقين الصالحين.

رابعًا: آثار ولاية الله للمؤمنين:

إن المؤمنين عندما يتخذون الله عز وجل حبيبًا ووليًّا فلا يتولون غيره، ولا يشركون به شيئًا، ويوالون أولياءه، ويتبرؤون من أعدائه، فإن الله تعالى سوف ينعم عليهم من مَنِّهِ وإحسانه الشيء الكثير، فتظهر عليهم آثار ولاية الله تعالى لهم.

ومن هذه الآثار: قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٦٤٣.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٨/ ٨٨.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٠٧.

والمعنى: إن أولياء الله تعالى الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده، ويتوكلون عليه، ولا يتخذون من دونه أندادًا، ولا أولياء، ولا شفعاء، فإنه لا خوفٌ عليهم يوم القيامة مما يخاف منه غيرهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة، كما أنهم لا يحزنون من لحوق مكروه بهم، أو ذهاب محبوب عنهم؛ لأنهم لا يقصدون بذلك إلا نيل رضا الله عز وجل، وكذلك لا خوف عليهم في الحياة الدنيا مما يخاف منه غيرهم من الكفار وضعاف الإيمان، فليس هذا الجزاء إلا لأولياء الله تعالى الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله جل جلاله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبين ملكة التقوى له عز وجل، فهؤلاء لهم البشرى في الحياة الدنيا بالنصر وحسن العاقبة، وباستخلافهم في الأرض ما أقاموا شرع الله تعالى، ونصروا دينه، وأعلوا كلمته[1].

ويقول الله عز وجل في موضع آخر: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٧-١٢٦].

والمعنى: أن هذا البيان الذي جاء به القرآن الكريم، أو طريق التوحيد، وإسلام الوجه إلى الله جل جلاله، هو الطريق الذي ارتضاه الله تعالى مستقيمًا لا ميل فيه إلى إفراط أو تفريط في الاعتقاد والأخلاق والأعمال، ولا اعوجاج فيه إلى النظر إلى الغير والشرك به، فقد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز فيه الخير من الشر، ولكن هذا التفصيل، وهذا البيان ليس لأي شخص، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يذكرون المعارف والحقائق التي هي مستقرة في استعدادهم فيهتدوا بها؛ لأنهم هم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم.

وأعد الله تعالى لهم الجزاء الجزيل، والأجر الأوفى، وهو الجنة التي سماها الله عز وجل دار السلام؛ وذلك لسلامتها من كل عيب ونقص وآفة وكدر، وهمٍّ وغمٍّ، إلى غير ذلك من المنغصات والمكدرات التي كانت في الدنيا، فيلزم من هذا أن يكون نعيم الجنة في غاية الكمال، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون من نعيم الروح والقلب والبدن.

كما أن الله تعالى هو الذي يتولى تدبيرهم وتربيتهم، حيث لطف بهم في جميع شؤون أمورهم، وأعانهم على طاعته في الدنيا، ويسر لهم كل طريق إلى محبته، كلُّ هذا بسبب أعمالهم الصالحة التي قدموها في دنياهم، وقصدوا بها رضا مولاهم جل جلاله[2].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١١/ ١٢٩.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ٤٨٨،

هذا وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)[1].

فبين النبي عز وجل أنه من عادى لله تعالى وليًّا فقد بارز الله تعالى بالمحاربة.

خامسًا: أسباب الحرمان من ولاية الله:

من خلال النظر في آيات الموضوع نجد أن أسباب الحرمان من ولاية الله عز وجل تتمثل في الآتي:

١. الكفر.

فالشخص الذي لا يؤمن بالله عز وجل كيف يكون الله تعالى وليه وناصره في الدنيا وفي الآخرة؟ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠-٢٣].

والمعنى: يأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المشركين الكافرين المنكرين قضية البعث بعد الممات أن يسيروا في الأرض، فينظروا كيف بدأ الله تعالى الأشياء وأوجدها من عدم، ولم يتعذر عليه شيء من ذلك، فكذلك لا يتعذر عليه إعادتها مرة أخرى بعد فنائها، فإن الله تعالى قادر على ذلك، ولا يعجزه شيء.

وبعد إعادتهم بعد فنائهم، يعذب الله تعالى منهم على ما أسلف من ذنوب في حياته، ويرحم منهم من تاب وآمن وعمل صالحًا، ثم يبين الله تعالى لهم أن رجوعهم ومآلهم هو إلى الله جل جلاله، ثم يتوعدهم ويتهددهم بأنهم لن يعجزوا الله تعالى في الأرض ولا في السماء، ولن يكون لهم من دون الله عز وجل من ولي يلي أمورهم، ولا نصير ينصرهم من دون الله تعالى إن أراد بهم سوءًا، كما لا يمنعهم منه أحد إن أراد أن يوقع عقوبته عليهم.

ثم يذكر الله تعالى أن الذين كفروا بحججه تعالى، وأنكروا أدلته، وجحدوا

تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٧٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٥٠٢، عن أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥.

لقاءه والرجوع إليه يوم القيامة، فهؤلاء يئسوا من رحمة الله تعالى في الآخرة عند معاينتهم ما أعد الله تعالى لهم من العذاب الموجع[1].

ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٥-٦٤].

أي: إن الله عز وجل لعن الكافرين فخذلهم وطردهم من رحمته، وأعد لهم في الآخرة جهنم ماكثين فيها أبدًا بلا انقطاع، فلا يجدون فيها وليًّا قريبًا ينفعهم، ولا نصيرًا مانعًا يمنعهم من عذاب الله عز وجل[2].

٢. النفاق.

إن الشخص المنافق هو الذي يظهر خلاف ما يبطن، حيث يظهر الإسلام، ويخفي الكفر، فخطره على الإسلام والمسلمين أشد من خطر الكفار؛ لأن عداءهم للمسلمين غير واضح ولا ظاهر، فمن اتصف بهذه الخصلة السيئة يحرم نفسه من ولاية الله عز وجل له في الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٣-١٧].

ففي هذه الآيات يبين الله عز وجل حال المنافقين في غزوة الأحزاب حيث تواصوا فيما بينهم بالفرار عندما ظنوا أن المسلمين سوف ينهزمون في المعركة، وعندها لا يكون لهم نصيبٌ من الغنائم، فتعللوا بانكشاف بيوتهم، وضياع ما فيها، مع علمهم أنهم يكذبون في عذرهم هذا، فهم جبناء لا يريدون إلا مجرد الفرار مع أنهم عاهدوا الله تعالى سابقًا أنهم لن يولوا الأدبار.

لكن لما ظهر الجد لم يساعدهم الصدق، ولم يتذكروا أن الله تعالى سوف يسألهم عن العهود التي قدموها، فيعاقبهم على ما أذنبوا. عندئذٍ يأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أن الفرار من المعركة خوف القتل أو الموت لن ينفعهم؛ لأن الآجال إذا حان وقتها فلا تأخير لها، ولا تقديم عليها، وإن بقوا أحياء فلن يكون متاعهم في الدنيا إلا قليلًا.

كما يخبرهم أيضًا أنه من الذي يمنعهم من الله عز وجل إن أراد أن يوقع بهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٠، ٢٣.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٧٤.

مكروهًا، أو يحقق لهم أمرًا مرجوًا، ومن الذي يصرف عنهم دونه عدوًا؟!(١).

٣. اتباع الهوى.

إن من لم يأتمر بأوامر الله تعالى، وينتهي عما نهى الله تعالى عنه، فإنه يعرض نفسه للحرمان من ولاية الله تعالى، وحفظه ورعايته ونصرته له.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرجو إيمان أهل الكتاب قبل غيرهم؛ لذلك كبر عليه إعراضهم عن إجابة دعوته، فأراد الله تعالى أن ييئسه من الطمع في إسلامهم، فعلق رضا أهل الكتاب عن النبي صلى الله عليه وسلم بما هو مستحيل أن يحدث، فليس غرض اليهود ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليه من الآيات، وما يوردونه من الأمور التي فيها تشدد وتعنت، فإنك يا محمد لو جئتهم بكل ما طلبوه تعنتًا لم يرضوا عنك، ثم أخبره الله تعالى بأنهم لن يرضوا عنك حتى يدخل في دينهم، ويتبع ملتهم.

ثم أمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٢٠].

أي: أن الهدى الحقيقي محصور فقط في اتباع ما أمر الله تعالى به، لا فيما أنتم عليه من الكتب المحرفة، والشرائع المنسوخة، ثم أتبع ذلك بوعيد شديد للنبي صلى الله عليه وسلم إن فكر في اتباع أهوائهم، وحاول إرضاءهم وتلبية طلباتهم، ولا يخفى ما في هذا من تعريض لأمة النبي صلى الله عليه وسلم، وتحذيرًا لهم من أن يقعوا في شيء من ذلك، فإن لم يمتثلوا لأمر الله عز وجل حينئذٍ لن يجدوا من يكون لهم وليًا وناصرًا من عذاب الله عز وجل؛ لأن الله تعالى أعلمهم حقيقة اليهود وما هم عليه(٢).

يقول سيد قطب رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

«فتلك هي العلة الأصيلة، ليس الذي ينقصهم هو البرهان، وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق، وأن الذي جاءك من ربك الحق، ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت، لن يرضيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق. إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان إنها هي العقيدة. هذه حقيقة المعركة التي يشنها

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ١٥٤.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٥٧.

اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة»[1].

ويقول الله جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد:٣٧-٣٦].

هناك قولان في المقصود بـ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهما:

الأول: هم أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذين آتاهم الله عز وجل القرآن، فهم يفرحون بهذا القرآن النازل على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم اليهود والنصارى ينكرون بعض القرآن.

الثاني: المسلمون من اليهود أمثال عبد الله بن سلام وأصحابه، فهؤلاء قد ساءهم ذكر اسم الله تعالى (الرحمن) في القرآن الكريم مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كثر ذكره في القرآن فرحوا به، فأنزل الله تعالى الآية.

ويقصد بـ﴿الْأَحْزَابِ﴾ مشركي مكة، فلما عقد النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينهم صلح الحديبية، كتب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، فاعترضوا قائلين: ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، يعنون به مسيلمة الكذاب، وكانوا لا ينكرون اسم الله تعالى.

فيأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ ثم يذكر الله عز وجل أنه كما أنزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم، فأنكره الأحزاب، كذلك أنزل الحكم والدين عربيًا، فنسب إلى العرب؛ لأنه نزل بلغتهم، فكذب به الأحزاب، ثم توعد الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم أنه إن اتبع أهواء أهل الكتاب في الملة بعد ما جاءه من العلم الصحيح من الله تعالى، فلن يجد منه عز وجل ناصرًا ولا حافظًا[2].

٤. الضلال.

وهو عكس الهداية والتوفيق، فمن كان على ضلالة فكيف يكون الله تعالى وليه وناصره؟!

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧].

(١) في ظلال القرآن، ١/ ١٠٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٣٢٢.

أي: من وفقه الله تعالى إلى الهداية فهو المهتدي، فهؤلاء سبق لهم حكم الله تعالى بالإيمان، فوجب أن يصيروا مؤمنين، ومن سبق عليهم حكم الله تعالى بالضلال، استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال، وأن يوجد من يصرفهم عنه حين يحشرهم الله عز وجل على وجوههم خزيًا عميًا وبكمًا، لا يبصرون ولا ينطقون، فمقرهم ودارهم هي جهنم، كلما تهيأت للانطفاء، سعرها الله تعالى بهم، فلا يفتر عنهم العذاب، ولا يخفف عنهم من عذابها، فلم يظلمهم الله تعالى؛ بل جازاهم بسبب كفرهم بآيات الله تعالى، وإنكارهم البعث وكمال قدرته تعالى[1].

ويقول الله عز وجل مخبرًا عن حال أصحاب الكهف عندما كانوا بداخله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧].

فأيها المخاطب إنك ترى الشمس إذا طلعت فإنها تميل عن كهفهم جهة اليمين، وإذا غربت تقطعهم وتبعد عنهم جهة الشمال، وحال الشمس هذه كرامة لهم من الله عز وجل؛ لئلا تؤذيهم بحرها، وقد كانوا في متسع من الكهف بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار ولا في آخره، وذلك الصنيع هو من دلائل قدرة الله تعالى الباهرة، فمن يوفقه الله تعالى للإيمان، ويرشده إلى طريق السعادة، فهو المهتدي حقًا، ومن يضلله الله تعالى بسوء عمله فلن تجد له من دون الله تعالى من يهديه ويرشده[2].

ونلمح من قصة أصحاب الكهف أن هؤلاء الفتية كانوا حريصين على الهداية واتباع دين الله عز وجل؛ لذلك كان الله تعالى لهم مؤيدًا وناصرًا، فلم يخذلهم، ولم يدع أيدي الشر تطالهم؛ بل أكرمهم الله جل جلاله بهذه الكرامة الباهرة، فمن يصدق الله يصدقه الله، وفي المقابل من لم يكن في داخله استعداد للهداية، فلن يجد له وليًا ومرشدًا إلى طريق الهداية والسعادة.

ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ

(١) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ١/ ٦٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٦٧.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ١٧٠.

﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤٤-٤٦].

حيث يخبر الله جل جلاله أنه وحده المنفرد بالهداية والإضلال، وأن من يضلله الله تعالى فبسبب ظلمه لنفسه بالمعاصي والذنوب والآثام، فما له من ولي يتولى أمره ويهديه[(١)]، فكان ضلاله وعدم هدايته إلى طريق الرشاد سببًا من أسباب الحرمان من ولاية الله تعالى له، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٣٢].

٥. الظلم.

يقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٧،٨].

والمعنى: أن الله تعالى أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم القرآن وهو كلام عربي، واقتضت الحكمة الإلهية اختيار الأمة العربية لتكون أول من يتلقى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبة بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل القرآن بلغات لا تحصى، لكن الله عز وجل اختار له أفضل اللغات، كما اختار إنزاله على أفضل البشر، وهذا الإنزال لأجل إنذار المشركين من أهل مكة ومن حولها ما ينذرونه من العذاب في الدنيا والآخرة، وتنذرهم أيضًا يوم القيامة وما يكون فيه من أهوال وشدائد، وسمي بالجمع؛ لأن الخلائق تجمع فيه للحساب، ففريق من هذه الخلائق سيكون في الجنة، وفريق آخر سيكون في النار.

وهذا أمرٌ شاء الله تعالى تقديره بأن أوجد من أسبابه بحكمته، فلو شاء لقدر أسباب اتحادهم على عقيدة واحدة من الهدى، فيكونون جميعًا في نفس المصير في الجنة، ولكن الله جل جلاله شاء مشيئة أخرى جرت وفق حكمته، وهي أنه تعالى خلقهم على قابلية واستعداد للهدى والضلال، كما مكنهم من كسب أفعالهم، ووضح لهم طريق الخير من الشر، فكان منهم المهتدون، وهم الذين شاء الله تعالى إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بحرمانها من الهداية، وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم فتجاوزوا الحد، فهؤلاء ليس لهم ولي يدفع عنهم ما حاق بهم، ولا نصير يثأر لهم[(٢)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٦١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥/ ٣٥.

٦. عمل السيئات.

يقول الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣].

أي: ليس أمر النجاة والتزكية بالأماني التي يمني بها أهل الكتاب أنفسهم، وهي عبارة عن أحاديث وتوهمات وتخيلات مجردة عن العمل الصالح، فقد أخبر الله تعالى عن هذه الأماني عندما قالوا: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة:١١١].

فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان لا يفيد صاحبه شيئًا إن لم يأت بعمل صالح يبرهن على صدق دعواه، لذلك يقول الله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

والسوء هي كلمة شاملة لأي ذنب كان صغيرًا أم كبيرًا، قليلًا أم كثيرًا، دنيويًا أم أخرويًا.

والناس في هذا الأمر درجات لا يعلمها إلا الله تعالى، فمنهم مقل ومنهم مكثر، ومن كان عمله كله سوءًا -وهذا لا ينطبق إلا على الكافر- فإذا مات دون توبة إلى الله عز وجل جوزي بالخلود في العذاب الأليم يوم القيامة.

وحينئذٍ ليس له ولي يحصل له المطلوب به، ولا نصير يدفع عنه المرهوب إلا الله تعالى. أما من كان مستقيمًا في أغلب أحواله، ويعمل الصالحات، ويصدر عنه من بعض الذنوب الصغيرة، فما يصيبه من هم أو غم، أو أذى في نفسه، أو ماله، أو أهله، فإنها مكفرات لهذه الذنوب التي قدرها الله تعالى لطفًا بعباده[1].

كما يحذر الله عز وجل عباده من اللهو واللعب، وإضاعة العمر فيما لا يفيد، فضلًا عن عمل السيئات والذنوب، فيأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٧٠].

أي: يا أيها الرسول دع الذين اتخذوا دينهم -الذي كان يجب أن يتبعوا تعاليمه، ويهتدوا به- اتخذوه لعبًا ولهوًا، فإنهم لما عملوا هذه الأعمال التي ختم الله تعالى بها على قلوبهم، ودس بها على نفوسهم، ولم يعملوا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

فأضاعوا أعمارهم فيما لا يفيد، وهو

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٠٥.

اللعب، وشغلوا أنفسهم عن الجد والعمل المفيد، وهو اللهو، وغرتهم الحياة الدنيا، وغرهم بالله الغرور، فيا أيها الرسول أعرض عن هؤلاء، ولا تبال بأمثالهم، ولكن ذكر بالقرآن من يخاف وعيدي؛ لأنهم هم المنتفعون بالامتثال لأوامري، والاجتناب لنواهي؛ لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي قبل اقتحام العبد للذنوب، وتجرئه على الله عز وجل.

فذكرها يا محمد وعظها؛ لترتدع وتنزجر عن فعل ما لا يليق بالمؤمنين، فلن يكون لهذه النفس ولي ولا شفيع إن أحاطت بها ذنوبها، ومن ثم فلا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولى أمرها أحد من دون الله تعالى، كما لا يشفع لها شافع، وإن افتدت نفسها بملء الأرض ذهبًا، فلا يقبل منها ولا يفيد، فأولئك الموصوفون بتلك الصفات هم الذين أهلكوا أنفسهم وحرموها من الخير، فجزاؤهم ماء حار يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، وعذاب أليم بسبب ما كانوا يكفرون به[1].

٧. الاستكبار.

الاستكبار حالة تمنع صاحبها من نيل ولاية الله تعالى له، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣].

والمعنى: لن يأنف ولن يترفع المسيح عليه السلام أن يكون عبدًا لله عز وجل، مستمرًا على عبادته وطاعته، حسب وظيفة العبودية التي شرف الله تعالى بها عباده، وكذلك الملائكة المقربون لن يأنفوا أن يكونوا عبيدًا لله عز وجل، ثم بين الله تعالى على سبيل التهديد أن من يستنكف عن طاعة الله تعالى، ويطلب الكبر لنفسه من غير استحقاق له، فسوف يحشر المستنكفين إليه جميعًا لمحاسبتهم.

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووصفوا بعدم الاستنكاف، فسيوفيهم الله تعالى أجورهم من غير أن ينقص منها شيئًا، ويزيدهم من فضلها بتضعيفها أضعافًا مضاعفة، وبإعطائهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأما الذين استنكفوا وترفعوا عن عبادة الله جل جلاله، واستكبروا، فسوف يعذبهم بسبب استنكافهم واستكبارهم عذابًا أليمًا

(١) انظر: أوضح التفاسير، محمود حجازي، ص٦٢٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٦١.

لا يحيط به وصف، كما لا يجدون لهم من دون الله تعالى وليًا يلي أمورهم، ويدبر مصالحهم، ولا نصيرًا ينصرهم من بأسه عز وجل، وينجيهم من عذابه[1].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٦٠.

ولاية الملائكة للمؤمنين

يتضمن الحديث في هذا المبحث عن أسباب ولاية الملائكة للمؤمنين وشرحها، وكذلك بيان الآثار المترتبة على ولاية الملائكة للمؤمنين، وتوضيح ذلك كما يأتي:

أولًا: أسباب ولاية الملائكة للمؤمنين:

من خلال النظر في آيات الموضوع نجد أن الأسباب التي ذكرها القرآن الكريم، وجعلها موجبة لولاية الملائكة للمؤمنين تتمثل في ثلاثة أسباب:

١. إنعام الله عز وجل على أنبيائه بالنبوة والوحي والرسالة.

وخصوصًا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما تحدث القرآن عن ولاية الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم، وخاصة أمين الوحي جبريل عليه السلام في معرض الحديث عن أمرٍ حدث بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض زوجاته.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤-٣].

والمعنى: واذكر وقت إذ أسر النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة حديثًا ما، فسره ابن عباس بأنه ذات يوم اطلعت حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مع مارية أم ولده إبراهيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة: لا تخبري عائشة، وذكر لها أن أباها عمر بن الخطاب، وأبا عائشة أبا بكر الصديق سيليان أمر الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لم تكتم حفصة سر رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، فانطلقت إلى عائشة وأخبرتها.

فأطلع الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم على ما حدث، فأظهر بعضه، وأعرض عن ذكر البعض الآخر، وجازى النبي صلى الله عليه وسلم حفصة على ما بدر منها بأن طلقها طلقة واحدة، فقال لها عمر: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأمره جبريل بمراجعتها، وشفع فيها، وهناك رواية أخرى تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد هم بطلاقها حتى قال له جبريل: لا تطلقها فإنها صوامة قوامة، وإنها من نسائك في الجنة، فلم يطلقها. فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بما أطلعه الله عز وجل عليه، قالت: من أنبأك بهذا يا رسول الله؟ -وكانت قد ظنت أن عائشة أخبرته- فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: نبأني العليم الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وبعد ذلك حث الله عز وجل كلًا من حفصة وعائشة على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد مالت قلوبهما وزاغت عن الحق حتى أحبتا ما كره النبي صلى الله عليه وسلم من اجتناب جاريته مارية.

ثم أخبرهما على سبيل التهديد لهما بأنهما إن تتظاهرا وتتعاونا على النبي صلى الله عليه وسلم بالمعصية والإيذاء، فإن الله جل جلاله هو وليه وناصره، وحينئذٍ لا يضره ذلك التظاهر منهما، وكذلك جبريل عليه السلام هو مولاه، بالإضافة إلى صالح المؤمنين وخيارهم أيضًا، وكذلك الملائكة كلهم هم ظهراء وولاة وأعوان للنبي صلى الله عليه وسلم [(١)].

٢. اعتراف المؤمنين الذين هم أولياء الله عز وجل بربوبيته، والتسليم لأوامره.

٣. استقامة المؤمنين على الصراط المستقيم علمًا وعملًا.

وهذان السببان قد وردا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/١٨٦.

﴿٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

فهذا حال المؤمنين دائمًا حيث يقولون: ربنا الله وحده لا شريك له، ثم استقاموا على هذا التوحيد، ولم يلتفتوا إلى إله غير الله عز وجل، وأورد المفسرون أقوالًا في معنى استقامتهم، منها: إخلاصهم العمل لله تعالى، حيث عملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته، ومنها: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا، ومنها: عملهم على وفق ما قالوا، ومنها: إعراضهم عما سوى الله تعالى، ومنها: زهدهم في الدنيا ورغبتهم في الاخرة[1].

ولا مانع من كون هذه المعاني جميعها تدخل في معنى الاستقامة.

ثانيًا: آثار ولاية الملائكة للمؤمنين:

تتمثل آثار ولاية الملائكة للمؤمنين في النقاط الآتية:

أولًا: ورد ذكر آثار ولاية الملائكة للمؤمنين في نفس الموضع الذي ذكرت فيه الأسباب والموجبات، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

فهؤلاء المؤمنون الذين أقروا بربوبية الله تعالى وتوحيده، وداموا على هذا التوحيد حتى ماتوا، فلم يلتفتوا إلى إله غيره عز وجل، واستقاموا وثبتوا على أمر الله تعالى فامتثلوا لأوامره، واجتنبوا نواهيه، فهؤلاء يستحقون ولاية الملائكة لهم، فقد ورد في الحديث عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: (قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به، فقال: (قل: ربي الله، ثم استقم) قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف علي؟ قال: فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: (هذا)[2].

ثانيًا: إن ولاية الملائكة لهؤلاء المؤمنين تكون بتنزل الملائكة عليهم بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم المخاوف والأحزان، كأن يبشروهم بنجاتهم عند الموت، وفي القبر وعند البعث، وكذلك إزالة الخوف من أهوال الآخرة، وإذهاب الحزن عما فاتهم من أمور الدنيا من أهل وما وولد، فإذا ذهبت أحزان الماضي،

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٥٩٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٥٤١٩، ٢٤/ ١٤٥.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٨٦٢، ٣/ ٥٦.

وأزيلت مخاوف المستقبل، حصلت الطمأنينة والسعادة وانشراح الصدر، كما إن الملائكة تقول لهم: أبشروا بدخول الجنة التي وعدكم الله تعالى بها على ألسنة أنبيائه ورسله، فإنكم ستستقرون بها، وتخلدون في نعيمها إلى الأبد.

ثم أخبر الله عز وجل عن قول الملائكة للمؤمنين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نحن نتولى أمور حفظكم ومعونتكم في الدنيا والآخرة، حيث ندفعكم إلى السداد والتوفيق والحفظ بأمر من الله تعالى، فنحثكم على فعل الخير، ونرهبكم من فعل الشر.

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإننا نكون معكم أيضًا حيث نؤنس وحشتكم في قبوركم، ونكون معكم عند النفخة في الصور، كم نؤمنكم من الفزع يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط، ونوصلكم إلى جنات النعيم، كما أن لكم في الجنة جميع ما تختارون وتطلبون وتشتهون، من أصناف اللذات وأنواع الطيبات مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فكل ما تتمنونه تحصلون عليه، فهو معدٌّ لكم سلفًا ضيافةً وعطاءً ومنًّا من الله جل جلاله الذي غفر لكم ذنوبكم، ووفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم، فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب[1].

ثالثًا: إن ولاية الملائكة لهؤلاء المؤمنين تكون بتثبيت المؤمنين في ساحات الجهاد كما قال الله عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

والمعنى: اذكروا أيها المؤمنون نعمة ربكم عليكم حين أوحى إلى الملائكة أن الله جل جلاله معكم بالعون والتأييد والنصر.

فأمر الملائكة أن تلقي في قلوب المؤمنين وتلهمهم الجرأة على عدوهم، وترغبهم في الجهاد وفضله، فإن الله تعالى سوف يلقي في قلوب الكافرين الرعب الذي هو أعظم جند للمؤمنين على الكافرين.

فإن الله عز وجل إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم ومكنهم الله تعالى منهم، حينئذٍ يأمر الله عز وجل المؤمنين أن يضربوا أعناقهم ومفاصلهم.

وهذا الخطاب إما أن يكون للملائكة الذين أوحى الله تعالى إليهم أن يثبتوا الذين

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٧/ ٢٢٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٤٨.

آمنوا فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو يكون الخطاب للمؤمنين بحيث يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم، وذلك لأنهم شاقوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة[1].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص٣١٦.

ولاية المؤمنين

يقتضي الحديث عن ولاية المؤمنين بيان موجبات هذه الولاية بين بعضهم البعض، بالإضافة إلى بيان آثار هذه الولاية على أصحابها، وكذلك بيان آثار ولاية المؤمنين للكافرين والظالمين وآثارها، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

أولًا: موجبات ولاية المؤمنين بعضهم البعض:

هناك أمورٌ أو صفات تجمع بين المؤمنين مما يؤهلهم أو يوجب عليهم أن تكون الولاية بين بعضهم البعض، وقد ذكرت بعض آيات القرآن الكريم هذه الموجبات.

ومنها قول الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

فهذه الآية إما أن تكون على سبيل الإخبار من الله تعالى أن الدين الذي اعتنقه هؤلاء المؤمنون، وتمسكوا به، يوجب لهم الولاية، فيصير بعضهم أولياء لبعض، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

وإما أن يكون على سبيل الأمر، أي يأمر

الله عز وجل المؤمنين أن يتخذوا بعضهم أولياء بعض، ولا يتخذوا غيرهم أولياء، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١][1].

وذكر الماتريدي في تفسيره نوعين للولاية بين المؤمنين: أحدهما: ولاية روحانية، والأخرى: ولاية نفسانية، فقال: «الأولى: ولاية روحانية، وهي ولاية في الدين توجب مراعاة حقوق تحدث بالدين الذي جمعهم وحفظها.

والثانية: ولاية نفسانية، وهي الولاية التي تكون في الأنفس والأموال، من نحو ولاية النكاح والميراث وغيره.

فهذه الولاية هي الولاية النفسانية التي كانت بالرحم والنسب، فإذا اجتمعوا في دين واحد وجبت تلك الولاية لهم، وهي الولاية نفسها، والولاية الروحانية هي المودة والمحبة، فيجب مراعاتها بالدين وتعاهدها، وهذا كما تقول: حياة روحانية وحياة جسدانية، والحياة الروحانية: هي العلم والآداب، يرى أشياء ويعرفها من بعد الحياة الجسدانية: وهي الروح الذي به يحيا الجسد، وبذهابه يموت الجسد، والله أعلم»[2].

فهؤلاء المؤمنون والمؤمنات المصدقون بالله عز وجل، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن العظيم، فإن صفتهم أن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم وقلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف.

وعليه تكون هذه الموجبات متمثلة في النقاط الآتية:

أولًا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فإن الدين الذي اعتنقه هؤلاء المؤمنون، وتمسكوا به، يوجب لهم الولاية، فيصير بعضهم أولياء لبعض.

ثانيًا: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي يأمرون الناس بالإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله تعالى، والمعروف هو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من بر وخير، من العقيدة الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول ما يأمرون به أنفسهم.

ثالثًا: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة المزيفة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، فهم أول ما ينهون أنفسهم عنه.

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٥/ ٤٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص٤٢٦.

رابعًا: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيؤدون الصلاة على أكمل وجه، ويخرجون زكاة أموالهم، ويعطونها لمستحقيها.

خامسًا: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم على الدوام[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: «إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة، طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر. ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون، ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفًا واحدًا.

لا تدخل بينها عوامل الفرقة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلة التي تربطهم بالله.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الفريضة التي تربط بين الجماعة المسلمة، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن.

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله، ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله، وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم»[2].

وفي موضع آخر بين الله تعالى من هو الولي الذي تجب موالاته، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥].

أي: إن الولي الذي يجب على المؤمنين اتخاذه هو الله جل جلاله، ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون الذين من صفاتهم أنهم يقيمون الصلاة في أوقاتها المفروضة، ويؤدونها على أكمل وجه بكل خشوع وخضوع، وكذلك فهم يؤتون الزكاة ويؤدونها لمستحقيها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم[3].

ويروى في سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إن قومًا من قريظة والنضير قد هاجرونا وفارقونا وأقسموا أن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٣٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٤٣.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٦٧٥.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٩.

لا يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل، وشكى ما يلقى من اليهود، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء[1].

ونلحظ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ أن هذا أسلوب حصر يفيد القصر، أي: حصر وقصر الولاية الحقة فقط في وجوب الولاية لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين فقط، وما عداها فالمؤمنون منهيون عن اتخاذهم أولياء بالمصادقة والمناصرة والمعاونة، ويجب التبرؤ منهم.

هذا وقد كانت الموالاة والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في بداية الدعوة الإسلامية في العهد المدني على أساس التوارث بينهم؛ لتعزيز هذا المفهوم وترسيخه بينهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٢].

والمعنى: إن الذين آمنوا وهاجروا من مكة حبًا لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى، وهم الذين سموا بالمهاجرين، وكذلك الأنصار الذين آووا أولئك المهاجرين، ونصروهم على أعدائهم، فإنه يتولى بعضهم بعضًا في الميراث، فكان كل من المهاجرين والأنصار يتوارثون بالهجرة دون القرابة من الرحم والنسب، حتى نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٦][2].

ثانيًا: آثار ولاية المؤمنين لبعضهم:

بعد أن ذكر الله عز وجل موجبات ولاية المؤمنين لبعضهم البعض، وصف آثار هذه الولاية الحقة للمؤمنين سواء كانت في الدنيا أم في الآخرة، وهي متمثلة في النقاط الآتية:

أولًا: رحمة الله عز وجل بهم: كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

فهؤلاء المؤمنون والمؤمنات المتصفون

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص١٩٩.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٦٥٨.

بتلك الصفات الموجبة لولاية بعضهم البعض سيفيض الله تعالى عليهم من آثار رحمته، ويشملهم بإحسانه، فأي شيء يبتغيه المؤمنون فوق رحمة الله عز وجل، وأي شيء يطلبون بعد فوزهم بجنته؟ فقد جعل الله تعالى سبب الوصول إلى رحمته يسيرًا سهلًا، وليس عسيرًا شاقًا؛ بل هو طلب كل إنسان عاقل يتصف بالصفات الواردة في الآية[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: « والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها، إنما تكون في هذه الأرض أولًا، ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح. رحمة الله في اطمئنان القلب، وفي الاتصال بالله، وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث، ورحمة الله في صلاح الجماعة، وتعاونها، وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة، واطمئنانه لرضاء الله»[2].

ثانيًا: الغلبة: كما في قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦].

قال الطبري: «وهذا إعلامٌ من الله -تعالى ذكره- عباده جميعًا الذين تبرؤوا من حلف اليهود وخلعوهم رضًا بولاية الله ورسوله والمؤمنين، والذين تمسكوا بحلفهم، وخافوا دوائر السوء تدور عليهم، فسارعوا إلى موالاتهم أن من وثق بالله وتولى الله ورسوله والمؤمنين، ومن كان على مثل حاله من أولياء الله من المؤمنين، لهم الغلبة والدوائر والدولة على من عاداهم وحادهم؛ لأنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، دون حزب الشيطان»[3].

ثالثًا: الفلاح في الدنيا والآخرة: كما في قوله عز وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

والمعنى: لا تجد قومًا يجمعون بين الإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر، وبين مودة أعداء الله تعالى ورسله، فلا يجتمع هذان ولا يتحققان.

وفي هذا التوصية بمجانبة أعداء الله عز وجل ومباعدتهم، والاحتراس من

(١) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ص٢٣٤.
(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٦٧٦.
(٣) جامع البيان، ١٠/ ٤٢٧.

مخالطتهم ومعاشرتهم حتى ولو كان آباء الموادين، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم، فإن قضية الإيمان تستلزم هجر المحادين حتى ولو كانوا أقرباءهم، فأولئك الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله، أثبت الله تعالى في قلوبهم الإيمان، وقواهم بنصرٍ منه على عدوهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحًا؛ لأن به يحيا أمرهم، وليس هذا فقط؛ بل يدخلهم يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها إلى الأبد.

فرضي الله تعالى عنهم، وقبل أعمالهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة، كما أنهم رضوا عن الله عز وجل، ففرحوا بما أعطاهم عاجلًا وآجلًا، فأولئك حزب الله تعالى وجنده الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أولياءه، ألا إن حزب الله تعالى هم الفائزون بسعادة الدارين الدنيا والآخرة، وهم الكاملون في الفلاح[1].

وهكذا تتجلى آثار ولاية المؤمنين لبعضهم البعض في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: ولاية المؤمنين للكافرين والظالمين:

لقد حذر الله تعالى المؤمنين وتوعدهم على سبيل التهديد من اتخاذهم الكافرين والظالمين أولياء من دون المؤمنين، وبينًا سابقًا أن الولاية الحقة قد حصرها الله تعالى في ولاية المؤمنين لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين أمثالهم، فتترتب على ولاية المؤمنين للكافرين والظالمين جملة من الآثار، ومنها:

أولًا: براءة الله تعالى منه: يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

والمعنى أنَّ الله تعالى ينهى المؤمنين أن يتخذوا الكفار أعوانًا وأنصارًا يوالونهم على دينهم، ويظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، ويدلونهم على عوراتهم وأسرارهم، وتوعد الله تعالى أن من يفعل ذلك فقد برئ من الله تعالى، وبرئ الله تعالى منه، حيث ارتد عن دينه، ودخل في الكفر.

ثم استثنى من هذا الأمر حالة واحدة، وهي إذا كان المؤمنون تحت سلطان الكافرين، وكانوا في حالة ضعف يخافونهم على أنفسهم، فحينئذٍ يظهرون لهم الولاية باللسان فقط، ويضمرون لهم العداوة، فلا يعينونهم على مسلم، ولا يشايعونهم على ما هم عليه من كفر[2].

(١) انظر: فتح البيان، محمد صديق القنوجي، ١٤/ ٣٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٣١٣.

ثانيًا: وقوعهم في دائرة الكفر: حيث يقول جلَّ جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

والمعنى أن الله تعالى ينهى المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، بحيث يعاملونهم معاملة الأولياء في المصادقة والمعاشرة والمناصرة، وعلل الله تعالى هذا النهي بأن هؤلاء اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، فكيف تتخذونهم أولياء؟

فبعض اليهود أولياء البعض الآخر منهم، وكذلك بعض النصارى أولياء البعض الآخر منهم، فهم يتعاضدون فيما بينهم، ويتناصرون على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وعداوة القرآن الذي جاء به من عند الله تعالى، ووجه تعليل هذا النهي أن هذه الموالاة هي شأن الكفار لا شأن المؤمنين، فلا يفعلوا ما هو من فعلهم، فيكونوا أمثالهم؛ لذلك عقب الله تعالى هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فتوعدهم وعيدًا شديدًا أن من يتولاهم منكم، فإنه من جملتهم وفي عدادهم.

ثم علل الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن وقوع المؤمنين في الكفر إذا والوا الكفار هو بسبب عدم هداية الله تعالى لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر[1].

يقول السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعضٍ يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدًا على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون بضركم؛ بل لا يدخرون من مجهودهم شيئًا على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم.

ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئا فشيئًا، حتى يكون العبد منهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين وَصْفُهُم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون، فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك»[2].

ثالثًا: الحكم عليهم بالضلال: كما في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٣٥.

أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:١-٢].

وكان سبب نزول هاتين الآيتين متمثلًا في قصة حاطب بن أبي بلتعة، وهو رجل من المهاجرين، وشهد غزوة بدر، وكان له في مكة مال وأولاد، ولم يكن حاطب من قريش نفسها؛ بل كان حليفًا لعثمان، فلمَّا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على فتح مكة بعدما نقضت قريش صلح الحديبية، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجهيز الغزو، واستعان على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم عم عليهم خبرنا).

فذهب حاطب وكتب كتابًا إلى قريش يعلمهم بما عزم عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة، وفعل ذلك؛ ليتخذ به عندهم يدًا، فأطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك، وهذا من باب استجابة الله تعالى لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم السابق.

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عليًّا ابن أبي طالب والزبير والمقداد في طلب المرأة وأخذ الكتاب منها، حتى وصلوا إلى روضة خاخ، فوجدوها وأمروها بإخراج الكتاب، فنفت وجوده معها، فهددوها إما أن تخرج الكتاب، وإما أن ينزعوا الثياب ليخرجوه بأنفسهم، فأخرجت الكتاب من عقاصها، وأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فكلم النبي صلى الله عليه وسلم حاطبًا وسأله عن سبب ما فعل، فأجاب: لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من ذلك النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنه صدقكم) واستأذن عمر بن الخطاب من النبي صلى الله عليه وسلم في ضرب عنقه، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال: (إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فأنزل الله تعالى الآيتين[1].

والمعنى أن الله تعالى ينهى المؤمنين عن اتخاذ المشركين والكفار الذين هم محاربون لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، فهم الذين شرع الله تعالى عداوتهم ومجانبتهم، ونهى أن يُتَّخَذُوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، فهم قد

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص٤٢١.

أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بين أظهرهم؛ لما كرهوا منهم ما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله عز وجل وحده، فلم يكن لكم ذنب عندهم إلا أنكم مؤمنون بالله رب العالمين، فإن كنتم خرجتم جهادًا في سبيل الله تعالى تبتغون مرضاتي، فلا توالوهم، فهم أعدائي وأعداؤكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم؛ حنقًا عليكم، وسخطًا لدينكم، فإن أسررتم لهم بالمودة، فأنا أعلم بالسرائر والضمائر والظواهر، ومن يفعل ذلك فقد ضل الطريق المستقيم.

ولو قدر عليكم هؤلاء الكفار المشركون لما اتقوا منكم أذى ينالونكم به من القول والفعل، كما أنهم يحرصون على ألا تنالوا خيرًا، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون أمثال هؤلاء، ولا يخفى ما في هذا من تهييج للمؤمنين على عداوة الكافرين[1].

وخلاصة القول: أن من يوالي الكفار من المؤمنين دون عذر فهو منهم، وقد ارتد عن دينه، ورضي بالكفر بعد الإسلام، وقد ضل سواء السبيل، وقد ظلم نفسه بفعله هذا مما يعرضها لعقاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/٨٥٨.

ولاية الشيطان

يتطلب الحديث عن ولاية الشيطان توضيح صفات أولياء الشيطان، ومن ثم توضيح آثار هذه الولاية على أصحابها، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: صفات أولياء الشيطان:

إن أولياء الشيطان قد اتصفوا بصفات سبغت عليهم نتيجة ولايتهم للشيطان، حيث أكسبهم الشيطان هذه الصفات كي يقوموا بمهمتهم في مساعدته في إغواء الخلق، وقد تحدث القرآن الكريم عن تلك الصفات، فهي متمثلة فيما يأتي:

١. الشرك وعدم الإيمان.

يقول الله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

ففي هذه الآية يحذر الله تعالى بني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم آدم عليه السلام، حين زين له المعصية، ودعاه إليها، ورغبه فيها، ومن ثم كانت النتيجة أن انقاد له، فأنزل آدم وحواء من مكانهما العالي المرموق، فكما فعل بأبيهم ما فعل، كذلك يريد أن يفعل ببنيه، وهو لا يألو جهدًا

عنهم حتى يفتنهم عن دينهم إن استطاع، فعلى جميع المؤمنين أخذ الحذر منه، ولا يغفلوا عن المداخل التي يدخل منها الشيطان إليهم، فإن الشيطان يراقبهم على الدوام، ويراهم هو وقبيله من شياطين الجن من حيث لا يرونهم، فالله عز وجل جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، فعدم الإيمان موجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان[1].

أما المؤمنون فقد أخبر الله تعالى أنه لم يجعل للشيطان عليهم سلطانًا ولا سبيلًا، حيث قال جل جلاله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

فالمشركون الذين يتصفون بالشرك وعدم الإيمان هم أولياء الشيطان.

٢. الاغترار بالباطل.

تعد هذه الصفة مهمة في طريق اتباع الشيطان، ويكسبها الشيطان لأوليائه حتى يغويهم به، فالشيطان لا يحارب أهل الحق وحده؛ بل يحتاج إلى أتباع ومعاونين ومناصرين، ولا بد أن يكون هؤلاء الأتباع بعيدين كل البعد عن الحق والإيمان، ولا يتأتى هذا البعد إلا بزيادة اغترارهم بالباطل الذي هم عليه، فلا يرون الحق إلا فيما هم عليه، وغيره لا يكون صوابًا، فيدخل الشيطان إلى نفوس أتباعه من مدخل يتميز بضعفهم فيه، ألا هو حب الذات والظهور، فيبدأ الشيطان بالوسوسة لأتباعه، ويوحي إليهم أنه على حق، وأنهم هم الأقوى، وأن عليهم الآن محاربة المؤمنين بكل ما يتصفون به من كبر وغرور[2].

ويؤكد هذا الأمر قول الله عز وجل: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

ولقد بين الله تعالى هذه الصفة للشيطان وأتباعه المتصفين بالغرور بما هم عليه من باطل، حيث قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

أي: يخوفهم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وشدة[3].

والمعنى: أيها المؤمنون، إنما الذي خوفكم بجموع عدوكم ومسيرهم إليكم هو الشيطان، فهو يخوفكم بأوليائه من المشركين؛ وذلك لترهبوهم، وتخافوهم، فنهاهم الله عز وجل عن خوف المشركين الذين هم أولياء الشيطان، وألا يعظم عليهم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨٦.

(٢) انظر: الشيطان خطواته وغاياته، وائل بشير، ص١٢٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٧٢.

أمرهم، ولا يرهبوا جمعهم مع طاعتهم لله تعالى، واتباعهم أمره، فإنه جل جلاله متكفل للمؤمنين بالنصر والظفر، ثم وجههم إلى أن يكون هذا الخوف من الله -تعالى وحده-، فلا يعصوه ويخالفوا أمره إن كانوا مصدقين للرسول صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من عند الله عز وجل [(١)].

وعليه فإن الشيطان يجعل أولياءه مغترين بالباطل الذي هم عليه، فيعظم صورة أوليائه في نظر المؤمنين، ويستعمل هؤلاء الأتباع والأولياء لتخويف المؤمنين.

٣. الخوف من الشيطان.

إذا كان الشيطان قد أغرى حب الذات والظهور في أوليائه، وهو من أشعل فيهم الكبر والغرور، وسخرهم الشيطان للحرب على الحق وأهله، فإن هؤلاء الأولياء يصبحون ضعفاء أمام سيدهم الشيطان فيخافون منه، وينفذون أوامره، ولا يعصون منها شيئًا.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

والمعنى: أن الله تعالى يخاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من بعده أنه إذا أراد الشروع في قراءة القرآن الكريم أن يستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ومن وساوسه، فإن الشيطان ليس له تسلط على إغواء المؤمنين المتوكلين على ربهم حيث يفوضون أمرهم إليه في كل قول وفعل.

وعليه فإن الإيمان بالله عز وجل والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم، وإن وسوس لأحد منهم، فإن وسوسته لا تؤثر فيهم، فهم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠].

وقال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

ثم حصر الله عز وجل تسلط الشيطان على الإغواء على الذين يتخذونه وليًّا حيث يطيعونه في وساوسه، كما أنهم مشركون بالله تعالى، أو أنهم مشركون بالله بسبب وسوسة الشيطان لهم [(٢)].

٤. الجدال بالباطل.

إن الحق والباطل في سجال شديد إلى يوم الدين، فكما أن الحق يحتاج إلى أعوان ليظهر وينتصر، فكذلك الباطل يحتاج إلى أعوان ونصراء ليواجه به الحق وأهله، فيواجهونهم به مرة، ويكيدون لهم مرة أخرى، فيزينون لهم الباطل، وهذا السجال من أهل الباطل الذين هم أولياء الشيطان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٤١٦.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٣١.

يحتاج إلى جدال، فيقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج:٣].

والمعنى: أنه يوجد من الناس من يخاصم ويجادل في دين الله تعالى بغير حجة ولا علم، ويتمرد على الله عز وجل. وقد بين الله تعالى أن ما يقوله هؤلاء الأولياء من جدال، وما يفعلونه من عداء للحق وأهله، إنما هو وحي من الشيطان إليهم، فيقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١].

روى أبو داود في سبب نزول هذه الآية أن اليهود جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية[(١)].

والمعنى: أن الأكل مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه فسق ومعصية، وإن الشياطين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوا أهل الحق بغير علم، ومعلومٌ أن المجادلة هي دف القول على طريق الحجة بالقوة.

وإن أطعتموهم أيها المؤمنون في تحليل ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه فإنكم مشركون بالله جل جلاله[(٢)].

يقول السعدي رحمه الله: « فإن المشركين -حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا معاندةً لله ورسوله، ومجادلةً بغير حجة ولا برهان: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟

يعنون بذلك: الميتة، وهذا رأي فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل؛ بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعًا لها لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهن.

فتبًّا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة، ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهها، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم، طريقهم»[(٣)].

(١) أخرجه أبو داود، رقم ٢٨٢١، كتاب الضحايا، باب ذبائح أهل الكتاب، عن ابن عباس، ٣/ ٥٩.
وصححه الألباني: صحيح.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٧٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٧١.

ثانيًا: آثار ولاية الشيطان:

بعد عرض صفات أولياء الشيطان التي ذكرها القرآن الكريم، بين الله تعالى ما يترتب على ولاية الشيطان من آثار، ومنها:

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ [النساء:١١٦-١٢١].

ومعنى هذه الآيات: أن فيها إخبارًا من الله عز وجل عن طعمة بن أبيرق الذي مات على الشرك بأنه تعالى لا يغفر له، أما غيره من الذين لم يموتوا مشركين، فإن أمرهم إلى الله تعالى إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذبهم، ومن يشرك بالله تعالى فقد ضل عن طريق الهداية والصواب، وذلك بسبب بعده عن الحق، وإشراكه بربه عز وجل.

ثم أخبر الله تعالى أن هؤلاء المشركين ما يعبدون إلا أوثانًا لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنطق، ولا تعقل، وفي حقيقة الأمر ما يعبدون إلا الشيطان الذي دعاهم إلى عبادة هذه الأوثان، فلعنه الله تعالى وطرده من رحمته بسبب إبائه لأمر الله عز وجل بالسجود لآدم، فقال الشيطان متوعدًا وحانقًا: لأتخذن من عبادك عددًا كبيرًا منهم يعبدونني، وهم معروفون بمعصيتهم لك، وطاعتهم لي.

ولم يقف هذا الشيطان عند هذا الحد؛ بل واصل قائلًا: ولأضلنهم عن طريق الهدى، ولأمنينهم بتعويقي إياهم عن طاعتك بالأماني الكاذبة المتمثلة في أنهم لا يلقون عذابًا، أو أن الله سوف يغفر لهم، ولآمرنهم فيطيعونني، فيجعلون لآلهتهم نصيبًا مما رزقهم الله، كما يعلمونها بقطع آذانها؛ لتعرف أنها للآلهة، ولآمرنهم أيضًا فيطيعونني في تغيير خلق الله بالبدع والمعاصي.

ثم قال الله جلَّ جلاله: إن من اتخذ الشيطان وليًّا من دونه تعالى، فقد عاداه، ومن عاداه، فقد تم له أعظم الخسران، فالشيطان لا يملك من الأمر شيئًا، فكيف يحقق لأوليائه النجاة والسعادة؟ وحينئذٍ يعلن الله عز وجل حكمه في قوة ووضوح أن أولئك الشياطين وأولياؤهم سوف يكون مصيرهم إلى النار، ومن ثم لا يجدون عنها

معدلًا أو مهربًا[1].

هذا وقد بين الله عز وجل أن من يتخذ الشيطان وليًّا من دون الله تعالى، فبئس ما اختار لنفسه من ولاية الشيطان الذي لا يأمره إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن الذي كل النجاة والسعادة والفلاح في ولايته[2].

يقول جلَّ جلاله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

ويقول جلَّ جلاله في موضع آخر: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:٣٠].

أي: من أقبل على الله تعالى بإيمان، هداه الله عز وجل، وخفف عنه مؤنة الطاعة، وبغضه في المعصية، أما الفريق الآخر الذي تأبَّى على الله تعالى، ولم يستجب لهدايته، فكيف يعينه الله تعالى؟

فإنه يتركه في غيه ويخلي بينه وبين الضلالة، فالذين حقت عليهم الضلالة، إنما كان ذلك بسبب اتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله عز وجل، ويحسبون أنهم على هداية في ارتكابهم للمعاصي، فهذا كفر وتبجح على الله تعالى[3].

وعليه فإن من ثبتت ولايته للشيطان، وامتاز بصفات أولياء الشيطان، فإن الله تعالى أمر أولياءه المؤمنين بقتال أولياء الشيطان؛ لأنه إما أن يكون القتال في سبيل الله عز وجل، أو في سبيل الطاغوت، فوجب أن يكون كلُّ ما سوى الله تعالى طاغوتًا، كما بين الله عز وجل أن كيد الشيطان ضعيف، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

فالله تعالى ينصر أولياءه، وكذلك الشيطان ينصر أولياءه، ولكنه بما أن كيد الشيطان ضعيف، فولايته ونصرته لأوليائه ضعيفة أيضًا، والله تعالى ناصرٌ أولياءه لا محالة[4].

وخلاصة القول: إن من آثار ولاية الشيطان، أن الضلالة قد حقت عليهم، فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من كل مكروه بخلاف دعوات الأنبياء والرسل، وزين لهم الشيطان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٩/ ٢٠٦، أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥٤٣.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٧٩.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٧/ ٤١١١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ١٤٢.

أعمالهم، وصار وليهم في الدنيا فأطاعوه واتبعوا أوامره، فعرضوا أنفسهم للقتال من قبل أولياء الرحمن، فلهم عذاب أليم موجع في الآخرة؛ لأنهم رضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا هذا العذاب، فيقول الله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣].

ولاية الكافرين والمنافقين والظالمين

إن الحديث عن هذا الأمر يقتضي الحديث عن ولاية الكافرين لبعضهم البعض وآثارها، وكذلك الحديث عن ولاية المنافقين للكافرين وآثارها، وأيضًا الحديث عن ولاية الظالمين لبعضهم البعض وآثارها، وتفصيل ذلك فيما يأتي:

أولًا: ولاية الكافرين بعضهم البعض وآثارها:

تحدث القرآن الكريم عن اتخاذ الكافرين بعضهم البعض أولياء، حيث يقول الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٧٨-٨١].

والمعنى: إن الذين كفروا من بني إسرائيل لعنهم الله تعالى في التوراة والإنجيل، وفي الزبور، وفي القرآن، وذلك بسبب عصيانهم لله عز وجل، واعتدائهم على خلقه، ثم بين

الله تعالى حالهم حين كان لا ينهى أحدٌ منهم الآخر عن فعله المعاصي وارتكابه الآثام، ثم ذمهم على ذلك؛ ليحذر ما كانوا يفعلونه ويرتكبونه، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، ومن أَجَلِّ الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركه شريكًا لفاعل المعصية، ومستحقًّا لغضب الله عز وجل، وانتقامه، كما وقع لأهل السبت منهم، فإن الله تعالى مسخ الفاعلين، وكذلك الذين لم يشاركوهم في هذا الفعل، فصاروا جميعًا قردة وخنازير.

ثم ذكر الله تعالى أن من اليهود أمثال كعب بن الأشرف وأصحابه يتولون الذين كفروا من المشركين الذين ليسوا على دينهم بالمحبة والموالاة والنصرة، ثم ذم الله تعالى ما زينته وسولته لهم أنفسهم، أو بئس ما قدموه لأنفسهم حتى يعاقبوا عليه يوم القيامة، ففعلهم هذا موجب لسخط الله تعالى عليهم، وهذا واضحٌ أنه من آثار ولايتهم للمشركين أمثالهم.

ثم ذكر الله تعالى أنه لو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله عز وجل، وبرسولهم الذي أرسله الله تعالى إليهم، وما أنزل عليهم من كتاب سماوي، ما اتخذوا المشركين أولياء؛ وذلك لأن الله تعالى ورسوله المرسل إليهم وكتابه المنزل عليهم قد نهوهم عن ذلك، ولكن أكثرهم خارجون عن ولاية الله تعالى، وعن الإيمان به وبرسوله وبكتابه[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطبق على حالهم اليوم وغدًا، وفي كل حين، كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب في معظم أرجاء الأرض اليوم، مما يدعو إلى التدبر العميق في أسرار هذا القرآن، وفي عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة في كل آنٍ.

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين ويؤلبونهم على المسلمين، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾، كما حكى عنهم القرآن الكريم، وقد تجلى هذا كله على أتمه في غزوة الأحزاب، ومن قبلها ومن بعدها كذلك إلى اللحظة الحاضرة، وما قامت إسرائيل في أرض فلسطين أخيرًا إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين!

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين! وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك، كلما كانت المعركة مع المسلمين! حتى و«المسلمون» لا يمثلون الإسلام في شيء. إلا في أنهم من ذراري

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٧٥.

قوم كانوا مسلمين!

ولكنها الإحنة التي لا تهدأ على هذا الدين ومن ينتمون إليه، ولو كانوا في انتمائهم مدعين! وصدق الله العظيم: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾»[1].

ويقول الله جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

والمعنى: إن الكفار بعضهم أولياء بعض في النصرة والتعاون على قتال المسلمين، فهم في جملتهم فريق واحد ضد الحق وأهله-وإن كان بعضهم يعادي بعضًا-، ولم يكن في الجزيرة العربية وقت نزول السورة إلا اليهود والمشركون، فكان اليهود يتولون المشركين، وينصرونهم على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه، كما أن هؤلاء اليهود قد نقضوا العهود التي كانت بينه وبينهم حتى قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأجلاهم عن خيبر.

ثم وجه الله تعالى خطابه إلى المؤمنين على سبيل التهديد والتوعد بأنهم إن لم يفعلوا ما شرع الله تعالى لهم من ولاية بعضهم البعض، ومن تعاونهم وتناصرهم تجاه ولاية الكفار لبعضهم البعض، فإن لم يفعلوا ذلك، فإنهم سوف يقعون في الفتنة والفساد في الأرض، وسيعود عليهم بالضرر بسبب تخاذلهم الذي يفضي إلى فشلهم وظفر الأعداء بهم، كما أنه يفضي إلى اضطهادهم في دينهم بصدهم عنه كما كان الحال مع ضعفاء المسلمين في بداية الدعوة الإسلامية في مكة قبل الهجرة[2].

ففي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ «فيه تعريضٌ للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار، ولا يتولونهم، وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والمؤازرة بينهم وبين المسلمين، وإيجاب المباعدة والمصارمة وإن كانوا أقارب»[3].

ثانيًا: ولاية المنافقين للكافرين وآثارها:

كما تحدث القرآن الكريم عن ولاية الكافرين لبعضهم البعض، فإنه تحدث عن ولاية المنافقين للكافرين، ووضح آثار هذه الولاية، فقال جلَّ جلاله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ٩٥٢.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٠/ ٤٣.

(٣) فتح البيان، صديق خان القنوجي، ٥/ ٢٢٠.

اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٨-١٤٥].

ومعنى هذه الآيات: أن الله تعالى يبشر المنافقين -على سبيل التهكم-، وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، يبشرهم بأقبح بشارة، وهي العذاب الأليم الموجع، وذلك بسبب اتخاذهم الكافرين أولياء عن طريق محبتهم ومعاونتهم ونصرتهم، في حين أنهم تركوا ولاية المؤمنين، فما الذي دفعهم إلى هذا؟ هل يبتغون العزة ويطلبونها عندهم؟ فإن العزة الحقيقية لله عز وجل، وفي موالاته وموالاة المؤمنين.

يقول السعدي رحمه الله: «وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعًا، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين، وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم»[1].

ثم يخاطب الله تعالى كلَّ من أظهر الإيمان سواء كان مؤمنًا حقيقيًّا أم منافقًا، أن الله تعالى نزل عليكم في القرآن العظيم أنه إذا سمعتم الكافرين يكفرون بآيات القرآن، ويستهزئون بها، فلا تجلسوا معهم حتى يتحدثوا بحديث آخر، ويتركوا الخوض في القرآن، فإنكم إن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكفر، ثم هددهم الله عز وجل بأنه سوف يجمع الفريقين: الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنم؛ وذلك لأن المرء يحشر مع من أحب، ولا يخفى ما في هذا من وعيد وتحذير من مخالطتهم ومجالستهم.

ثم ذكر الله تعالى تربص المنافقين

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٩.

بالمؤمنين، فهم ينتظرون بهم الدوائر، فإن كان للمؤمنين غلبة على الأعداء، وحازوا الغنائم، قال المنافقون للمؤمنين: أعطونا مما غنمتموه من الكافرين، وإن كان للكافرين غلبة على المؤمنين، قال المنافقون للكافرين: ألم نكن قادرين على قتلكم وأسركم لصالح المسلمين؟ فأبقينا عليكم، وثبطنا عزائم المسلمين حتى انتصرتم عليهم، فهاتوا نصيبنا مما أخذتم، فإننا نواليكم، ولا ندع أحدًا يصيبكم بأذى.

ثم بين الله تعالى مصير الفريقين: المنافقين والمؤمنين، وهو أنه سوف يحكم ويفصل بينهم بالحق، ولن يمكن الكفرة من رقاب المؤمنين، فيبيدوهم ويستأصلوهم، فإن العاقبة للمؤمنين في الدنيا والآخرة[1].

وبعد ذلك أخبر الله تعالى عن سلوك المنافقين الخاصّ، فهم يخادعون الله عز وجل إذ يظهرون الإيمان به، وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهم على خلاف ذلك، فالخداع هو أن تجعل من تخدعه يرى منك ما يحبه، وتستر عليه ما يكرهه، فعاملهم الله تعالى بالمثل، فأراهم ما يحبون، وستر عليهم ما يكرهونه منه وهو العذاب الذي أعده الله تعالى لهم في الدنيا والآخرة.

فإن الله جل جلاله لا يخادع، فهو العالم بالسرائر والضمائر، وبالإضافة إلى هذا أخبر الله تعالى أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا متباطئين متثاقلين؛ لأنهم لا يؤمنون بالثواب الأخروي، فهم يراءون المؤمنين بالأعمال الصالحة حتى لا يتهمونهم بالكفر، كما أنهم لا يذكرون الله تعالى إلا قليلًا؛ وذلك لعدم استقرار الإيمان في قلوبهم، وعدم حبهم لله عز وجل، فهم مذبذبون بين الإيمان والكفر، فهم فريق ليسوا بالمؤمنين الكاملين في إيمانهم، ولا بالكافرين الكاملين في كفرهم، فهم دائمًا في تردد وحيرة، وهذه هي حالة يجعل الله تعالى فيها من يضله الله عز وجل، فلا يوجد سبيل إلى اهتدائه[2].

حينئذٍ حذر الله تعالى المؤمنين أن يفعلوا فعل المنافقين، ويوالوا الكافرين، فأمرهم ألا يتخذوا الكافرين نصراء وأعوانًا يصاحبونهم ويصادقونهم ويناصحونهم، ويسرون إليهم بالمودة، ويفشون سرائر المؤمنين وأحوالهم الداخلية، فإن موالاة الكافرين دليل على النفاق، ولا يصدر هذا إلا عن منافق، فهل يريد المؤمنون أن يجعلوا لله عز وجل على أعمالهم حجة بينة يستحقون بها عقابه إذا اتخذوهم أولياء.

ثم أوضح الله تعالى عقوبة المنافقين على أعمالهم، والتي كان من ضمنها موالاتهم للكافرين، فجعل مكانهم في

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٢٨٧.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥٦٠.

الطبقة السفلى من النار، والنار سبع دركات، فهي متداركة بعضها فوق بعض، والسبب في هذه العقوبة دون غيرها وأنها أشد من عقوبة الكافر نفسه، هو أن المنافق مثل الكافر في الكفر، وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله، وهذا العذاب لهم لن يجدوا أحدًا ينقذهم منه، أو يخففه عنهم[1].

ثالثًا: ولاية الظالمين لبعض وآثارها:

تحدث القرآن الكريم أيضًا عن ولاية الظالمين لبعضهم البعض، والآثار المترتبة على هذه الولاية.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية:١٦-١٩].

والمعنى: أن الله عز وجل يبين في هذه الآيات مدى إنعامه على بني إسرائيل، فقد آتاهم التوراة، ومَنَّ عليهم بالحكم والنبوة في ذريتهم، ورزقهم الطيبات الحلالات، وفضلهم على عالمي زمانهم، فلم يكن أحد في زمانهم أكرم على الله تعالى منهم، كما أعلمهم وأخبرهم بمبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ووضح لهم صفاته وزمانه وأمره، ولكنهم اختلفوا، وسيحكم الله تعالى ويقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جعله الله عز وجل على سنة وطريقة من الدين بعد موسى عليه السلام، وأمره باتباعها وعدم الحيد عنها إلى أهواء الكافرين، وذلك أن الكافرين كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى دين آبائك، فإنهم كانوا أفضل منك، فذكر الله تعالى أنه إن اتبع النبي صلى الله عليه وسلم أهواءهم، فإن هؤلاء الكافرين لن يدفعوا عنك من عذاب الله تعالى شيئًا، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض في المحبة والنصرة والموالاة، أما الله جلَّ جلاله فهو ولي المتقين وناصرهم ومؤيدهم، وما أشد الفرق بين الولايتين![2].

هذا وقد بيَّنَ الله تعالى الآثار المترتبة على ولاية الظالمين لبعضهم البعض، وذلك في الحوار سيدور بين الله تعالى، وبين الجن والإنس يوم القيامة ساعة الحشر،

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٥/ ٣٢٩.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ٢٤٣، مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٣٠٢.

فيقول جلَّ جلاله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٨-١٢٩].

فيخاطب الله تعالى الجن أنكم أضللتم كثيرًا من الإنس، وجعلتموهم أتباعًا لكم في عبادة غير الله تعالى، ومخالفة أمره وتوحيده، فيقول أولياء الجن من الإنس: لقد تعاون بعضنا بعضًا في معصية الله عز وجل ومخالفة أمره، كما انتفع بعضهم ببعض بأنواع من المنافع، منها: أن الجني يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته وتعظيمه له، واستعانته به، والإنسي يستمتع بالجني أيضًا حين ينال أغراضه، ويبلغها بسبب خدمة الجني له بعض شهواته، فإن الإنسي يعبد الجني، فيخدمه الجني، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية.

وقول الإنسي: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ على معنى أنه قد حصل منا من الذنوب ما حصل، وبلغنا أجلنا الذي أجلته لنا من الموت والبعث، فافعل بنا الآن ما تشاء، فالأمر أمرك، والحكم حكمك، وكأنهم يتضرعون إلى الله عز وجل، ولكن ليس هذا وقته.

فيقول الله عز وجل: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: إن النار مقامكم خالدين فيها، فقد وسع علمه تعالى الأشياء كلها، وكذلك حكمته وسعت الأشياء كلها، ثم نسب الله تعالى الولاية إلى نفسه.

فدل هذا على أنها من الله تعالى حيث خلق سبب الولاية منهم، فكما ولى الجن المردة، وسلطهم على إضلال أوليائهم من الإنس، وعقد بينهم عقد الموالاة والموافقة بسبب كسبهم وسعيهم في ذلك، فهذه سنة الله تعالى حيث يولي كلَّ ظالم ظالمًا مثله، يحثه على فعل الشر، ويجيبه إليه، وينفره من فعل الخير، ويزهده فيه، فهذا يعد من عقوبات الله تعالى العظيمة التي لها أثر شنيع، وخطر بالغ؛ وذلك لأن العباد إذا كثر الظلم والفساد فيهم، ومنعوا الحقوق الواجبة بينهم، ولى الله تعالى عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم أضعاف ما منعوا من حقوق الله تعالى وحقوق عباده الواجبة فيهم، ويفهم من هذا بمفهوم المخالفة أنه إذا صلح أمر العباد، واستقاموا على دين الله عز وجل، أصلح الله تعالى لهم ولاة أمورهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف[1].

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي،

أساليب القرآن في الحديث عن الولاء

استخدم القرآن الكريم في حديثه عن الولاء مجموعة من الأساليب، و كان منها ما يأتي:

أولًا: النهي:

فقد استخدم القرآن الكريم (لا) الناهية للتعبير عن عدم اتخاذ الكافرين سواء كانوا مشركين أم يهودًا ونصارى، نهاهم أن يتخذوهم أولياء من دون المؤمنين، ومن الآيات القرآنية التي استخدمت هذا الأسلوب: قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

قال الزمخشري: «لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصافونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين، ثم علل النهى بقوله ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي إنما يوالي بعضهم بعضًا؛ لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر»[1].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة:١٣].

وسورة الممتحنة كما بدئت بالنهي عن موالاة الكفار عمومًا، وعن اليهود خصوصًا -كما مر سابقًا- كذلك ختمت السورة بالنهي الوارد في هذه الآية، وهذا للتأكيد على عدم موالاتهم، وتنفيرًا للمسلمين عن هذه الولاية، فينهى الله عز وجل المؤمنين عن تولي هؤلاء القوم المغضوب عليهم، والملعونين، فإنهم قد يئسوا من ثواب الآخرة؛ لأنهم عاندوا النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم بصدقه وصدق نبوته، فهؤلاء قد يئسوا كما يئس الكفار من رجوع أصحاب القبور الذين ماتوا على الشرك إلى الدنيا واللقاء بهم[2].

ثانيًا: الاستفهام:

كان لهذا الأسلوب النصيب الأكبر في الحديث عن الولاء، وهو أسلوب غرضه الإنكار؛ للتأكيد على نهي اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، والأمثلة عليه كثيرة، منها -على سبيل المثال لا الحصر-: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٤٤].

أي ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن

٤/ ٢٥٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٧٣.

(١) الكشاف، ١/ ٦٤٢.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٦٦٣.

مصاحبة الكافرين ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أسرار المؤمنين وأمورهم الداخلية، ولهذا قال: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي أتريدون أن تجعلوا لله تعالى حجة ليعاقبكم بموالاتكم الكافرين؟[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

وتقدم تفسيرهما، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الأنعام:١٤].

والمعنى: يأمر الله عز وجل النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: أيعقل أن أتخذ إلهًا يتولاني غير الله جل جلاله، وهو الذي خلق السماوات والأرض وابتدأهما، كما أنه هو الذي يرزق خلقه ولا يخلق، وقد أمرني الله تعالى أن أكون أول من يسلم من خلقه[2].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

والمعنى: لقد كرم الله عز وجل آدم عليه السلام عندما خلقه، فأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا كلهم إلا إبليس، فتكبر على أمر الله تعالى، ولم ينفذه، فينكر الله تعالى على خلقه الذين اتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دون المؤمنين، وكأنه يقول لهم: أفتطيعونه وتتركون أمر الله جلَّ جلاله وهم أعداء لكم؟! فبئس ما استبدلوا بولاية الله تعالى ولاية الشيطان[3].

وغير ذلك من الأمثلة القرآنية، فأسلوب الاستفهام كان واضحًا ومتمثلًا في همزة الاستفهام الذي كان غرضه إنكار اتخاذ الأولياء من الشياطين والكافرين والمنافقين واليهود والنصارى من دون المؤمنين.

ثالثًا: التحدي:

وهو أسلوبٌ يقصد من خلاله تعجيز الطرف الآخر، وإظهار كذبه فيما ادعاه، وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب في حديثه عن الولاء، حيث تحدى الله عز وجل فيه اليهود حيث قال جل جلاله: ﴿قُلْ

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ١/ ٤٥١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٩٨.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٣٥٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٦-٧].

فقد زعم اليهود أنهم أولياء لله تعالى من دون الناس جميعًا، فأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يطلب من اليهود أنهم إن كانوا صادقين في زعمهم هذا فليتمنوا الموت؛ وذلك ليستريحوا من كربات الدنيا وهمومها وغمومها، وينتقلوا بالموت إلى روح الجنان ونعيمها، فإن الله تعالى لا يعذب أولياءه، ولكن الله جلَّ جلاله يعلم أن اليهود لن يتمنوا الموت أبدًا بسبب ما اقترفوا في هذه الدنيا من آثام، وما اجترحوا من سيئات، وكذلك فالله أعلم بمن ظلم نفسه، وجعلها تكفر بالله عز وجل[1]، فأسلوب التحدي في هذه الآية واضح وبارز.

رابعًا: التهديد:

وهو أسلوب يحمل معنى التخويف والتوعد للمؤمنين إن والوا الكافرين وناصروهم وصادقوهم، ومن هذه الآيات التي استخدمت هذا الأسلوب، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

فبعد أن نهى الله عز وجل عن موالاة اليهود والنصارى؛ لأن بعضهم أولياء بعض، فكلهم يضمرون للمؤمنين البغضاء والشر، وهم وإن كانوا في الظاهر مختلفين إلا أنهم متفقون فيما بينهم على كراهية الإسلام والمسلمين والكيد لهم، ثم هدد المؤمنين أن من يوالي المشركين منهم، فإنه يعد من جملتهم، والحكم الذي يسري عليهم، يسري عليه كذلك، ولا يخفى أن في هذا تغليظًا من الله عز وجل، وتشديدًا في وجوب مجانبة المخالفين في الدين واعتزالهم[2].

ومن هذا الأسلوب أيضًا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال:٧٣].

فقد أخبر الله عز وجل أن الكفار بما أنهم متفقون على الكفر، فبعضهم أولياء بعض، فلا يوالي هؤلاء الكفار إلا كافر مثلهم، ثم هدد المؤمنين أنهم إن لم يوالوا المؤمنين أمثالهم ويعادوا الكافرين، فإنه سوف يحصل من الفساد والشرِّ ما لا ينحصر من اختلاط الحقِّ بالباطل، والمؤمن بالكافر، وإلغاء بعض العبادات الكبرى مثل: الجهاد، والهجرة وغير ذلك من مقاصد الشرع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٣٧٩.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٦٢.

والدين التي تفوت وتضيع إذا لم يتخذ المؤمنون بعضهم أولياء بعض[1].

ومن الآيات التي استخدمت هذا الأسلوب أيضًا قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقد تقدم تفسيرها، ومثله أيضًا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣].

الولاء في المثل القرآني

كان لموضوع الولاء نصيب في أمثال القرآن الكريم، ومعلومٌ أن من أغراض الأمثال القرآنية تقريب الصورة المعنوية إلى الذهن بتشبيهها بشيء مادي محسوس يدركه العقل البشري.

ومن الأمثلة على ذلك: قوله جل جلاله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١-٤٣].

فيعد هذا مثلًا ضربه الله تعالى لمن عبد غيره من الأصنام والأوثان من أجل التعزز والتقوي وحصول المنفعة، ولكن الأمر في حقيقته غير ذلك. فمثل هذا كمثل العنكبوت التي هي من الحشرات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت وأوهنها.

فهذه العنكبوت اتخذت لها بيتًا يقيها من الحر والبرد والآفات، ولكنها ما ازدادت باتخاذها هذا البيت إلا ضعفًا ووهنًا، فكذلك هؤلاء الذين يتخذون الأولياء من دون الله عز وجل، فهم فقراء ومحتاجون

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٧.

وعاجزون وضعفاء من جميع الجوانب، فحين اتخذوا الأولياء ما ازدادوا إلا ضعفًا إلى ضعفهم، وعجزًا إلى عجزهم، ووهنًا إلى وهنهم.

وذلك لأنهم اعتمدوا عليهم في كثير من المصالح والأمور من أجل أن يتعززوا بهم، ويستنصروهم، لكن هؤلاء الأولياء خذلوهم، ولم يحصلوا منهم على أدنى منفعة، فلم يغنوا عنهم من عذاب الله عز وجل شيئًا حين نزل بهم، ولم يدفعوا عنهم ما حل بهم عند سخط الله تعالى، ولو كانوا يعلمون حقيقة أمرهم ما اتخذوهم أولياء، وللجؤوا إلى الله جل جلاله الذي إذا تولاه عبدٌ وتوكل عليه، فإن الله عز وجل يكفيه مؤونة دينه ودنياه، ويزيده قوة في قلبه وبدنه وحاله وجميع أعماله.

فلما بين الله تعالى ضعف آلهة المشركين، وأنها ليست بشيء؛ بل هي أسماء سموها، وأوهام وتخيلات ظنوها واعتقدوها، فعبدوها من دون الله عز وجل، كما قال تعالى عنها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣].

وقال فيها أيضًا: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦].

وعند التحقق فيها يتبين للعاقل أنها ليست بآلهة، فالله تعالى هو الذي له القوة التي قهر بها جميع مخلوقاته، كما أنه هو الحكيم الذي يضع الشيء في محله، فهو الذي أحسن خلق كل شيء وأتقنه.

ثم بين الله عز وجل أنه لا يضرب هذه الأمثال إلا لأجل أن ينتفعوا ويتعلموا، فهي تقرب الأمر المعقول إلى الذهن بأمر محسوس، فيتضح المطلوب منها، ويقف العقل البشري أمامها عاجزًا عن الرد والجدال[1].

ويتجلى مثالٌ آخر على موضوع الولاء في المثل القرآني، فعندما قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

فقد أنكر الله عز وجل على المشركين في هذه الآية اتخاذهم الشياطين أولياء من دون المؤمنين، وبين في موضع آخر حال هذا الشيطان بعد أن يتخذه الإنسان وليًا، ويجعله يكفر بالله عز وجل، فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/٣٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٣١.

ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

فهذا مثلٌ ضربه الله تعالى؛ ليبين حال اليهود والمنافقين الذين لا يواجهون المسلمين بالمبارزة والمقابلة، وهذا لشدة جبنهم وهلعهم، فلا يقاتلونهم مجتمعين؛ بل يقاتلونهم من وراء الحصون والخنادق، ومن خلف الأسوار التي يستترون بها، وقد لمست الأمة الإسلامية والعربية هذا الأمر في حروب اليهود في فلسطين في عصرنا الحاضر، وقد عبر الله تعالى عن جبنهم هذا في قوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤].

فحروبهم وعداوتهم فيما بينهم شديدة وقوية وقاسية، والظاهر أنهم متوحدون ومتفقون، ولكنهم في حقيقة الأمر مختلفون ومتفرقون؛ لما بينهم من الأحقاد الشديدة والضغائن الكثيرة، فهم قوم لا يعقلون أمر الله عز وجل الذي فيه الحق، كما لا يدركون أن سر النجاح في هذه الحياة الدنيا هو الوحدة، ولو عقلوا هذا لعرفوا الحق واتبعوه، فتوحدوا ولم يختلفوا.

فحريٌّ بالمسلمين في هذا العصر، وجدير بهم أن يكونوا خلافهم، فيكونوا متوحدين متفقين، صفًا واحدًا على قلب رجل واحد كالبنيان المرصوص، وأن يعتمدوا في ذلك على أنفسهم، ولا يلتمسوا أية حلول واهية ضعيفة من هنا أو هناك، ثم ذكر الله تعالى أحوالًا مشابهة لهم، ومنها: أن هؤلاء المنافقين حين وعدوا اليهود بالمناصرة والمؤازرة في حرب المسلمين، كمثل الشيطان الذي سول للإنسان الشر، وأغراه بالكفر، وزينه له، وحمله عليه، فلما لبى الإنسان ما يريده الشيطان، وكفر بالله عز وجل، تبرأ الشيطان منه، وتنكر له يوم القيامة، وقال له على وجه التبري منه: إني أخاف عذاب الله رب العالمين إذا ناصرتك.

ولاشك أن هذا مثلًا في غاية السوء، وشديد الوقع على النفس؛ لذلك وضح الله تعالى بعد هذا المثل ما يوجبه من العقاب، وهو أن عاقبة الشيطان الآمر بالكفر، والإنسان الذي استجاب لطلب الشيطان وكفر، أنهما صائران معًا إلى نار جهنم خالدين فيها على الدوام، وهذا العقاب هو جزاء الكافرين جميعًا والذين منهم اليهود والمنافقين[1].

وبهذا يتبين أن ضرب الله عز وجل للأمثال في القرآن الكريم إنما هو للمسائل الجليلة، والمطالب العالية، والأمور العظيمة

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٨/ ٩٨.

مثل موضوع الولاء في القرآن، وأهل العلم أحق بها من غيرهم؛ لأنهم وحدهم هم المنتفعون بها بعد تعقلها وتدبرها.

موضوعات ذات صلة:

الأخوة، البراء، الحرب، السلم، السماحة، السياسة، العلاقات الدولية

الوهن

عناصر الموضوع

مفهوم الوهن	٢٨٦
الوهن في الاستعمال القرآني	٢٨٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٨٨
أنواع الوهن وأسبابه	٢٩٠
أثر الوهن في الأفراد والأمم	٣٠٦
علاج الوهن	٣١٢

مفهوم الوهن

أولًا: المعنى اللغوي

قال ابن فارس: «الواو والهاء والنون كلمتان تدل إحداهما على ضعف، والأخرى على زمان»[١]. فالضعف نحو: وهن الشيء يهن وهنا: ضعف، والزمان الوهن والموهن: ساعة تمضي من الليل، وأوهن الرجل: صار أو سار في تلك الساعة.

ويطلق الوهن على ثلاثة معانٍ، هي: الضعف، وساعة من الليل، والفتور[٢].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

قال الخليل: «الوهن: الضعف في العمل، وفي الأشياء، وكذلك في العظم ونحوه»[٣].

وقال الراغب الأصفهاني: «الوهن: ضعف من حيث الخلق، أو الخلق»[٤].

وقال الفيومي: «وهن: ضعف، فهو واهن في الأمر والعمل والبدن»[٥].

وقيل: «ضعف تماسك البدن أو الشيء من اشتماله على رخاوة، ولذهاب الصلابة منه»[٦].

وقيل: «انكسار حد الشيء، بعد قوة متحققة أو ممكنة، مما يؤدي إلى عجزه»[٧].

---

(١) مقاييس اللغة، ٦/ ١٤٩.
(٢) العين، الفراهيدي، ٤/ ٩٢، تهذيب اللغة، الأزهري، ٦/ ٢٣٤.
(٣) العين، الفراهيدي ٤/ ٩٢.
(٤) المفردات، ص٨٨٧.
وانظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٨٧.
(٥) المصباح المنير، ٢/ ٦٧٤.
وتابع المعاصرون الفيومي، انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ١٠٦٠، معجم الرائد، جبران مسعود، ص٨٧٤.
وقد غلب الاستخدام المصطلحي للفظ (الوهن) في الطب والتشريح، وأطلق الأطباء العرب قديما مصطلح «الوهن» على حالة هي أقل من خلع المفصل. انظر: القانون في الطب، لابن سينا، ٣/ ٢٤٥.
واليوم كثر استخدام اللفظ مصطلحًا، في علوم عديدة، ومن ذلك: وهن الرحم، ووهن الصوت، ووهن البصر، والوهن العضلي، والوهن العصبي، والوهن النفسي.
(٦) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل، ٤/ ٢٣٢٧.
(٧) من ألفاظ القوة ومقابلاتها في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ص١٥.

الوهن في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وهن) في القرآن الكريم (٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:٤]
الفعل المضارع	٣	﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران:١٣٩]
المصدر	٢	﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤]
اسم فاعل	١	﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال:١٨]
اسم تفضيل	١	﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت:٤١]

وجاء الوهن في القرآن على معناه اللغوي وهو: الضعف[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٤٣٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٤٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الضعف

الضعف لغةً

قال الجوهري: «الضعف خلاف القوة»[١].

الضعف اصطلاحًا

قال الراغب: «والضعف قد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال»[٢].

الصلة بين الوهن والضعف

قال أبو هلال العسكري: «الوهن هو أن يفعل الإنسان فعل الضعيف وهو قوي في نفسه، فهو من فعل الإنسان. أما الضعف فهو من فعل الله تعالى بالإنسان، كما أن القوة من فعله، تقول: خلقه الله ضعيفًا أو خلقه قويًا»[٣].

وفرق بعضهم بينهما، فبين أن بينهما عمومًا وخصوصًا وجهيًا، فيجتمعان في الضعف إذا كان طارئًا، وينفرد الضعف في إطلاقه على الضعف الأصلي، وينفرد الوهن في صفات أخرى؛ إذ قد يكون الوهن جبنًا بعد شجاعة، أو فتورًا بعد عزيمة، أو توانيًا بعد همة، أو اختلالًا بعد إحكام إلخ[٤].

٢ القوة

القوة لغة

«القوة تدل على الشدة، وهي خلاف الضعف»[٥].

القوة اصطلاحًا

تستعمل تارة في معنى القدرة، وتارة للتهيؤ الموجود في الشيء، قد يكون في البدن أو في القلب أو المعاون أو القدرة الإلهية[٦]. وأطلقت القوة في القرآن الكريم على خمسة معانٍ: الشدة والبطش، والأنصار والأعوان، والجد والاجتهاد، والسلاح، والقدرة والطاقة[٧].

(١) الصحاح، ٤/ ١٣٩٠.
(٢) المفردات، ص٥٠٧.
(٣) الفروق اللغوية، ص١١٥.
(٤) من ألفاظ القوة ومقابلاتها في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ص٢٢.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٣٦.
(٦) المفردات، الراغب ٦٩٤، بتصرف.
(٧) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ص٣٨٣.

الصلة بين الوهن والقوة

الوهن: هو ضعف بعد قوة، فالعلاقة بينه وبين القوة علاقة تضاد.

وقيل: إن لفظ (القوة) هو المقابل التام للفظ (الوهن)، فالقوة: شدة، وجد، وشجاعة، وإحكام، واستطاعة. والوهن: ضعف، وفتور، وجبن، وخلل، وعجز[١].

٣ الكسل

الكسل لغة

«الكسل أصلٌ يدل على التثاقل عن الشيء والقعود عن إتمامه»[٢].

الكسل اصطلاحًا

«الفتور في الأفعال لسآمة أو كراهية»[٣].

الصلة بين الوهن والكسل

الكسل هو فتور مع إمكان العزم والجد، وهو بهذا المعنى أخص من الوهن.

١ السنة

العزم لغة

«عزم على الشيء: عقد ضميره على فعله، وعزم عزيمة: اجتهد وجد في أمره»[٤].

العزم اصطلاحًا

«العزم: عقد القلب على إمضاء الأمر»[٥].

الصلة بين الوهن والعزم

العزم يقابل الفتور، والفتور هو أحد معاني الوهن، ومن ثم فالعلاقة بين الوهن والعزم التضاد في المعنى.

(١) من ألفاظ القوة ومقابلاتها في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ص٢١.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/١٧٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/٢٣٩.
(٤) المصباح المنير، الفيومي، ٢/٤٠٨.
(٥) المفردات، الراغب، ص٥٦٥.

أنواع الوهن وأسبابه

يصنف (الوهن) في القرآن الكريم من حيث الشيء الواهن إلى ثلاثة أنواع: وهن الجسم، ووهن القلب، ووهن العمل. وفيما يأتي توضيح لها.

أولًا: وهن الجسم وأسبابه

ورد لفظ (وهن) للدلالة على وهن الجسم، مرتين في القرآن الكريم: الأولى للدلالة على وهن العظم.

والأخرى للدلالة على وهن الحامل. وأما معنى الوهن وهو الدلالة على الضعف، فقد ورد في آيات عديدة كما في المرض أو مرحلة الشيخوخة.

تبين آيات الكتاب الكريم أن الجسم يصيبه الوهن إما بسبب الكبر، وإما بسبب العوارض الطارئة كالحمل والولادة.

١. الوهن بسبب الكبر.

يعرض للجسم الوهن بسبب الكبر، فيرق عظمه، ويشيب رأسه، ويرتعش صوته، وتزداد مخاوفه[١].

وقد اجتمعت هذه المظاهر في نداء زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٢-٥].

قال الرازي: «واعلم أن زكريا عليه السلام قدم على السؤال أمورًا ثلاثة: أحدها: كونه ضعيفًا. والثاني: أن الله تعالى ما رد دعاءه البتة. والثالث: كون المطلوب بالدعاء سببًا للمنفعة في الدين، ثم بعد تقرير هذه الأمور الثلاثة صرح بالسؤال»[٢].

فزكريا يشكو من وهن جسمه بسبب الكبر، فذكر وهن عظمه، وشيب رأسه، ووهن العظم كما قال المفسرون: ضعفه، قال الطبري: «ضعف ورق من الكبر»[٣].

وقال ابن كثير: «ضعفت وخارت القوى»[٤].

وقد بين الزمخشري وجه إسناد الوهن إلى العظم؛ «لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن»[٥].

---

(١) انظر: التناسق الهرموني في أوائل سورة مريم، مجلة الإعجاز العلمي.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٠٨.

(٣) جامع البيان ١٨/ ١٤٣.
وانظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٧٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٨٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢١١.

(٥) الكشاف ٣/ ٤.
وتابعه عامة المفسرين، انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٧٧، البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٣٩، نظم الدرر، البقاعي

فالمفسرون يرون أن وهن العظم يستلزم وهن الجسم، كما قال الشنقيطي: «فوهنه يستلزم وهن غيره من البدن»[(١)].

وقال ابن عاشور: «لأن العظم هو قوام البدن، وهو أصلب شيء فيه، فلا يبلغه الوهن إلا وقد بلغ ما فوقه»[(٢)].

كما ربط الرازي بين وصف النداء بـ(الخفي)، وبين مظاهر الوهن في جسم زكريا، فذكر من الأوجه: «خفي صوته؛ لضعفه وهرمه، كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات وسمعه تارات. فإن قيل: من شرط النداء الجهر، فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيًا؟ والجواب من وجهين، الأول: أنه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت إلا أن الصوت كان ضعيفًا؛ لنهاية الضعف بسبب الكبر، فكان ﴿نِدَآءً﴾ نظرًا إلى قصده، و﴿خَفِيًّا﴾ نظرًا إلى الواقع»[(٣)].

وبين الرازي أن ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ هو استيلاء الضعف على باطن الجسم؛ لتداعي قوته، ثم قال: «وأما أثر الضعف في الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس. فثبت أن هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر، وذلك مما يزيد الدعاء توكيدًا لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته، والتبري عن الأسباب الظاهرة»[(٤)].

وقال ابن كثير: «والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة»[(٥)].

وقال السعدي: «شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن»[(٦)].

كما ورد وهن الجسم من الكبر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[الروم: ٥٤].

فالآية تبين أن الإنسان بعد أن يبلغ قوته يعود إلى مرحلة الضعف بسبب الكبر.

قال السعدي: «يخبر تعالى عن سعة علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته، ابتدأ خلق الآدميين من ضعف وهو الأطوار الأول من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيوانًا في الأرحام إلى أن ولد، وهو في سن الطفولية وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئًا فشيئًا حتى بلغ سن الشباب واستوت قوته وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم»[(٧)].

١٢/ ١٦٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٥٣، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٧٩.

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٦٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٦٤.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٠٧.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٠٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢١٢.

(٦) تيسير الكريم الرحمن ص٤٨٩.

(٧) المصدر السابق ص٦٤٤.

ومن الآيات التي تصف وهن الإنسان في هذه المرحلة، قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

قال أبو السعود: «أي: نقلبه فيه، ونخلقه على عكس ما خلقناه أولًا، فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته، حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبي في ضعف الجسد وقلة العقل، والخلو عن الفهم والإدراك»[(١)].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠].

قال النيسابوري: «أرذل العمر أخسه وأحقره. وقال السدي: هو حالة الخرف فيصير إلى حالة شبيهة بحال الطفل في النسيان وعدم التذكر، واعلم أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان في أربع:

أولها: سن النشوء.

وثانيها: سن الوقوف وهو سن الشباب.

وثالثها: الانحطاط الخفي اليسير، وهو سن الكهولة.

ورابعها: سن الانحطاط الظاهر، وهو سن الشيخوخة»[(٢)].

«إن أول من تنبه لظاهرة الشيخوخة كعلم مستقل هو الطبيب الفرنسي شاركوت عام ١٨٨١م، ولم يتبعه أغلب الباحثين إلا في القرن العشرين، ولذا نعجب أن يولي القرآن الكريم موضوع الشيخوخة عنايته قبل ذلك بأكثر من عشرة قرون، ولا تجد لهذا نظيرًا في أي كتاب آخر ينسب اليوم للوحي غير القرآن الكريم، وإن إدراك خفايا الشيخوخة في عصرنا حيث توفرت التقنيات إنما هو شهادة للقرآن»[(٣)].

٢. الوهن بسبب العوارض الطارئة.

تحدث القرآن الكريم عن وهن الجسم بسبب العوارض الطارئة، ومنها حمل الأم وولادتها.

وقد جاءت الإشارة إلى وهن الحمل في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

فالآية تتحدث عن وصية الله للإنسان بوالديه، ثم تخص والدته بالذكر؛ حيث حملته وهنا على وهن، ثم وضعته، ثم كان فصاله في عامين.

وقد فسر الوهن في الآية بالضعف، وقيل: الجهد والمشقة التي تعانيها الأم[(٤)].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٧٧.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٢٨٢، بتصرف.
(٣) الشيخوخة تنكيس في الخلق، محمد دودح، مجلة الإعجاز العلمي.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٧، معاني القرآن، الزجاج ٤/ ١٩٦، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٩٤.

وعامة المفسرين على أن الوهن في الآية يعود إلى الأم، فقوله: ﴿وَهْنًا﴾ حال من الفاعل ﴿أُمُّهُۥ﴾، والمعنى: حملته أمه في حال كونها واهنة وهنا على وهن. وذكر بعضهم أنه يُحتمل أن يكون حالًا من المفعول في ﴿حَمَلَتْهُ﴾، أي: الولد، فالواهن هو الجنين في بطن أمه إلا أن سياق الآية يدل على أن الوهن للأم؛ إذ الآية توصي الإنسان بوالديه، وتبين معاناة الأم في حمله، ثم في فصاله[1].

كما ذكر المفسرون أقوالًا عديدة في المراد بالتركيب: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، فقيل :ضعفًا بعد ضعف، وقال ابن عطية: «وقيل: إشارة إلى مشقة الحمل ومشقة الولادة بعده، وقيل: إشارة إلى ضعف الولد وضعف الأم معه، ويحتمل أن أشار إلى تدرج حالها في زيادة الضعف، فكأنه لم يعين ضعفين بل كأنه قال: حملته أمه والضعف يتزيد بعد الضعف إلى أن ينقضي أمره»[2].

وزاد أبو حيان في البحر المحيط: «وقيل: وهنا على وهن: نطفة ثم علقة، إلى آخر النشأة، فعلى هذا يكون حالًا من الضمير المنصوب في ﴿حَمَلَتْهُ﴾، وهو الولد»[3].

وقال السعدي: «أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد»[4].

والآية تُذَكِّرُ الإنسان بحق والديه عليه، وخاصة الأم، التي حملته وهنا على وهن، ثم وضعته كرهًا، ثم أرضعته عامين، قال سيد قطب «وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما. وهذه الصورة الموحية: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ ترسم ظلال هذا البذل النبيل، والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر وتجود به في انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق»[5].

وقد علل الشعراوي تذكير الإنسان بدور الأم دون الأب، مع أن الله وصاه بوالديه، وذلك أن دور الأم كان والإنسان جنين ثم رضيع لا يدرك، فالأم كانت «تصنع لك وأنت صغير لا تدرك صنعها، فهو مستور عنك لا تعرفه، أما أفعال الأب وصنعه لك فجاء حال كبرك وإدراكك للأمور من حولك، فالابن يعرف ما قدم أبوه من أجله»[6].

ومن الوهن بسبب العوارض الطارئة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٨، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٣- ٤١٤.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٨.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٦٤٨.
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٨٨.
(٦) تفسير الشعراوي ١٩/ ١١٦٤١.

﴿إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال السعدي: «نبه على ذكر السبب الموجب لذلك فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع هذا هو الغالب»[(١)].

٣. من الإعجاز العلمي في آيات وهن الجسم.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤].

﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ يشير إلى مظهر من مظاهر الجسم نتيجة الكبر، وبلوغ مرحلة الشيخوخة، حيث تتناقص كثافة العظام، وتضعف قوتها، وتلين صلابتها، ويصاب النسيج العظمي بالهشاشة؛ مما يجعله عرضة سهلة للكسر[(٢)].

ويقرر الأطباء أن الجسم يبلغ قوته في الأربعين، حيث إن «الكتلة العظمية تبلغ ذروتها من حيث القوة والكثافة في سن الثلاثين إلى الأربعين، ثم تبدأ تتناقص كثافتها وتضعف قوتها بعد الأربعين، ويزداد التناقص كلما تقدم الإنسان في العمر»[(٣)].

وإلى بلوغ ذروة الأشد يشير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥].

ثم تبدأ مرحلة الضعف لقوى الجسم، وهي مرحلة مقترنة بالشيخوخة (الشيبة)، وجاء الحديث عنها في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وتتبين دلالة الإعجاز في استخدام لفظ (الوهن) دون غيره من ألفاظ الضعف، أو اللين، فلفظ «الوهن يوحي بالتراكمية والتدرج في المقدار، وهو يتناسب مع حالة الهشاشة؛ فليس لها مقدار ثابت معين بل إنها تتزايد شدتها، ويمكن أن تحدث منها مضاعفات»[(٤)].

ويشير العلماء إلى أن سبب وهن العظم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٨١.
(٢) لا للشيخوخة المبكرة، سامي محمود ص٦١.
(٣) التناسق الهرموني في أوائل سورة مريم، د. زهير رابح قرامي، موقع مجلة الإعجاز.
(٤) قراءة علمية وإعجازية في وهن العظام عند الرجال، د. محمد الديب، موقع هيئة الإعجاز العلمي.

عند الكبر يعود إلى نقص كفاءة خلايا البناء العظمي، مما يؤدي إلى نقص امتصاص الكالسيوم، ومن ثم زيادة هدم العظام؛ حيث تنفرد خلايا الهدم بالعمل على نخر العظام ولا تواجهها خلايا البناء بالتعويض[1].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

تشير الآية إلى معاناة الأم أثناء حملها بولدها، ويقرر الأطباء أن الحامل تمر بمظاهر كثيرة من الوهن، خلال أشهر الحمل، وتعاني من آلام شديدة، سواء في منطقة الرحم أو المنطقة المحيطة به، أو في منطقة الثديين، أو في مناطق أخرى من جسمها، كالظهر والبطن والفخذين، ومجرى البول، والتهابات في العظام والأسنان. ويسهم الجنين أيضًا في وهن الأم؛ حيث يسحب ما يحتاج إليه من غذاء ودم من جسم أمه، مما يضاعف من وهنها. وفي الأشهر الأخيرة من الحمل تظهر أنواع أخرى من المتاعب الناتجة عن ضغط الرحم على المعدة والكبد، وتشكو الأم من ضيق في التنفس؛ لأن الرحم ملأ تجويف البطن. ومع اقتراب الوضع يزداد تقلص الرحم، وتتكرر الانقباضات، وتشتد آلامها، حتى تضع الحامل جنينها كرهًا.

(١) التناسق الهرموني في أوائل سورة مريم، زهير رابح قرامي، موقع مجلة الإعجاز.

قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥][2].

ثالثًا: وهن القلب وأسبابه

وهن القلب هو الضعف الذي يصيب قوته فيضعف ويفتر ويجبن، وقد جاء النهي عنه في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾، وجاء منفيًّا في موضع رابع ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾، فهو وصف ذميم، ينزه الله عباده المؤمنين عن الاتصاف به.

ويتبين من خلال آيات القرآن الكريم، أنَّ لوهن القلب سببين، هما: حبُّ الدنيا، وكراهية الموت. وقد جاء التصريح بهما في الحديث: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: (حبُّ الدنيا، وكراهية الموت)[3].

(٢) انظر: حملته أمه وهنا على وهن، عبد المحسن صالح، ٨٨- ٩٥.

(٣) أخرجه أبو داوود في سننه، من حديث ثوبان، رقم ٤٢٩٧، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام. وأخرجه أحمد، رقم ٨٦٩٨، وحسنه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه لمسند أحمد ٨/ ٣٩٦، وحسنه الشيخ الأرناءوط في تحقيقه لسنن أبي داوود ٦/ ٣٥٥. وصححه الألباني، انظر: صحيح

قال البيضاوي: «وأراد بـ(الوهن): ما يوجبه، ولذلك فُسِّرَ بحب الدنيا وكراهة الموت»[1].

١. حب الدنيا.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٥ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥-٣٦].

قال البيضاوي: «﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ فلا تضعفوا، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ ولا تدعوا إلى الصلح خورًا وتذللًا»[2].

وقال الشوكاني: «فلا تضعفوا عن القتال، ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء منكم، فإنَّ ذلك لا يكون إلا عند الضعف»[3].

وقال سيد قطب «إنَّ هذا النهي يكشف عن وجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة، وتهن عزائمهم دونه ويرغبون في السلم والمهادنة؛ ليستريحوا من مشقة الحروب»[4].

فالوهن المنهي عنه في الآية هو فتور القلب عن العزم في الجهاد، ومِنْ ثَمَّ يميلُ إلى الراحة والمهادنة؛ تجنبًا للقتال، ورغبة في الدنيا.

قال الرازي في تفسير قوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: «يعني: كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد»[5].

وقال ابن عاشور: «هذه الآية تعليل لمضمون قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾»[6].

وهناك كثيرٌ من آيات القرآن الكريم تُبيِّنُ أن حبَّ الدنيا يوهن القلب، ويضعفه، ويملؤه بالجبن.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

قال الزمخشري: «أي: تباطأتم وتقاعستم، وضُمِّنَ معنى الميل والإخلاد فعدي بـ﴿إِلَى﴾، والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاقَّ السفر ومتاعبه، ونحوه: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]»[7].

وقال ابن كثير: «هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، حين طابت الثمار

الجامع الصغير، رقم ٨١٨٣، ٢/ ١٣٥٩.

(١) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ٣/ ٣١٣.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٢٥.

(٣) فتح القدير ٥/ ٤٩.

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٠٢.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٢.

(٦) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٣٢.

(٧) الكشاف ٢/ ٢٧١.

والظلال في شدة الحرِّ ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا، أرضًا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة؟!»[1].

كما أنَّ حبَّ الدنيا يؤدي إلى الفشل، وهو الجبن والتنازع، فتهن القلوب، وتنكسر الهمم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فقال لهم: منكم من يريد الدنيا، وهم الذين كانوا سببًا في هزيمة المسلمين في أحد، وهذه الهزيمة هي التي سببت وهنهم بعد ذلك، فنهاهم الله عنه، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].

٢. كراهية الموت.

وقد تحدثت سورة آل عمران عن الوهن الذي أصاب المؤمنين، بعد هزيمتهم في أحد، وَبَيَّنَ لهم أنَّ القعود عن الجهاد كراهيةً للقتال لا يؤدي إلا إلى مزيد من الوهن، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].

قال البغوي: «﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا ولا تجبنوا عن جهاد أعدائكم بما نالكم من القتل والجرح، وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم: حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وقتل من الأنصار سبعون رجلًا، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: على ما فاتكم»[2].

وكراهية القتال «تنشأ بسبب الهزائم والآلام والقروح التي تصيب المؤمنين، مما يؤدي إلى تسلل الوهن إلى قلوبهم، ويكون مظاهر هذا الوهن: ضعفًا بعد قوة، وجبنًا بعد شجاعة، وفتورًا بعد عزيمة، ويدفعهم ذلك إلى القعود عن الجهاد، وإلقاء السلاح، والتخلي عن نصرة الحق، والرضا بالذل والهوان»[3].

كما تحدث عن الربيين الذين قاتلوا مع النبيين، فلم يهنوا ولم يضعفوا، بل صبروا، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٥٣.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥١٣.

(٣) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ٤٥.

١٤٦].

أي: ما وهنوا لمصابهم، فاللام؛ للتعليل والسببية، وتفيد أن سبب الوهن هو ما أصابهم في سبيل الله. قال الطبري: «فما عجزوا لما نالهم من ألم الجراح الذي نالهم في سبيل الله، ولا لقتل من قتل منهم، عن حرب أعداء الله، ولا نكلوا عن جهادهم»(١).

وقال الماوردي: «فلم يهنوا بالخوف، ولا ضعفوا بنقصان القوة، ولا استكانوا بالخضوع». وقال ابن إسحاق: «فما وهنوا بقتل نبيهم، ولا ضعفوا عن عدوهم، ولا استكانوا لما أصابهم»(٢).

وقال الزمخشري: «وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾[النساء: ١٠٤].

فقال الواحدي في تفسيرها: «والمراد بالقوم ههنا: أبو سفيان وأصحابه، لمَّا انصرفوا عن أحد منهزمين، وقد قذف الله في قلوبهم الرعب، أمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يسير في آثارهم بعد الوقعة بأيام، فندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس لذلك، فاشتكوا ما بهم من الجراحات، فأنزل الله هذه الآية»(٤).

وبهذا يتبين أن وهن القلب في هذه المشاهد كلها سببه الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في أحد، وما خلفته فيهم من آلام وأسقام، وقروح وجروح، فوهنوا لذلك، وتجلى هذا الوهن في المشهد الأول: في تضعضع قلوبهم وحزنها، وفي المشهد الثاني: تجلى في جبنٍ وانصرافٍ عن القتال، وفي المشهد الثالث: تجلى في تثاقلٍ وفتورٍ. ومرد ذلك كله إلى كراهية القتال، سواء أكانت الكراهية عن حزن أو خوف أو إعياء. أما الوهن الوارد في سورة محمد فمرده إلى حبِّ الدنيا والتعلق بها(٥).

٣. وهن القلب معنىً.

تحدث القرآن الكريم كثيرًا عن وهن القلب، وبين مظاهره المختلفة:

- الحزن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].
- الغضب، كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].
- الضيق، كما في قوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٦٩.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٢٨.
(٣) الكشاف ١/ ٤٢٤.
(٤) التفسير البسيط ٧/ ٦٥.
(٥) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ٤٩.

تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

- التثاقل، كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].
- الفشل، كقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].
- الخوف، كما في قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٩]. قال ابن كثير: «﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، أي: فإذا كان الأمن، تكلموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك»[1].
- الحسرة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من مظاهر وهن القلب، كما في الحديث: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال)[2].

ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القويُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان)[3].

قال النووي: «والمراد بالقوة هنا: عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٩٠.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك، رقم ٦٣٦٣، كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الرجال. ومسلم، رقم ٢٧٠٦، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل. واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، رقم ٢٦٦٤، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز.

طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كلِّ ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها، ونحو ذلك»[1].

فالمؤمن الضعيف يراد به: من أصاب قلبه الوهن، كالفتور أو العجز أو الندم أو التحسر، ولذلك قابل بينه وبين المؤمن القوي الذي لا يعجز ولا يفتر، بل يستعين بالله ويرضى بقضائه. وصفات المؤمن الضعيف هي تلك الصفات التي استعاذ منها الرسول صلى الله عليه وسلم، من همٍّ وحزن، وعجز وكسل، وجبن وبخل.

ثالثًا: وهن العمل وأسبابه:

وهن العمل: هو ضعفه واختلاله وانعدام ثمرته، فلا يكون محكمًا، ولا مثمرًا، كبيت العنكبوت الذي لا يحمي من برد ولا حر. وقد تحدث القرآن الكريم كثيرًا عن وهن العمل، وفيما يأتي توضيح أمرين: صور وهن العمل، وتوهين الله كيد الكافرين.

١. صور وهن العمل.

من صور وهن العمل ما يلي:

- صرف العمل في غير محله.

كمن يدعو من لا يسمعه ولا يستجيب له، ويطلب ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٣].

قال الطبري: «مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها، كيما يكنها، فلم يغن عنها شيئًا عند حاجتها إليه.

فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم -حين نزل بهم أمر الله، وحَلَّ بهم سخطه- أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئًا، ولم يدفعوا عنهم ما أحلَّ الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم»، ونقل عن قتادة قوله: «هذا مثل ضربه الله للمشرك؛ مثل إلهه الذي يدعوه من دون الله كمثل بيت العنكبوت واهن ضعيف لا ينفعه»[2].

(١) شرح صحيح مسلم ١٦/ ٢١٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٨.

وقال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئًا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها؛ لقوتها وثباتها»[1].

فسبب وهن عمل المشرك أنه تعلق بغير الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

قال الزمخشري: «والمعنى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي الحقُّ الذي هو تقوى الله ورضوانه، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ﴾ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرفٍ هارٍ في قلة الثبات والاستمساك»[2].

قال ابن القيم: «أعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحرِّ والبرد ببيت العنكبوت، »[3].

❁ **الإتيان بالعمل بغير طريقته الصحيحة.**

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

قال الطبري: «﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ يعني: بالذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبتغون به ربحًا وفضلًا، فنالوا به عطبًا وهلاكًا ولم يدركوا طلبًا، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلًا وربحًا، فخاب رجاؤه. وخسر بيعه، ووكس في الذي رجا فضله»[4].

وقال تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣].

قال ابن عباس: «يعني: الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم لا يقبل الله منهم اجتهادًا في ضلالة، يدخلون النار يوم القيامة»[5].

وقد يكون الوهن بسبب أنَّ العامل لم يتجه بعمله الوجهة الصحيحة، فالمؤمنون عليهم أن يطلبوا النصر من ربهم، ويستمدوا العون منه، فإذا فعلوا ذلك نصرهم وقوي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٧٩.
(٢) الكشاف ٢/ ٣١٢.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٤٥٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٢٥.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٤٤.

أمرهم، وإن والوا غير ربهم خذلهم الله، فوهن عملهم، وتشتت أمرهم. فمن ضعفت صلته بربه خذله ووكله إلى نفسه؛ فقوة عمل العامل تأتي من قوة صلته بربه، فإذا ضعفت تلك الصلة وارتخت، فقد وهن عمله وضعف.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فالخذلان إنما يكون بسبب وهن عملهم؛ إذ ضعفت صلتهم بربهم، فوهنوا فخذلهم الله.

قال الخطيب: «الذين يفوضون أمرهم إلى الله، ويشدون عزائمهم إليه، ويعلقون آمالهم به، هم الذين يحبهم الله ويتولاهم؛ لأنهم أحبوا الله وانتظموا في مجتمع أوليائه وإنهم إذ يلوذون بَحِمَى الله فإنما يستمسكون بالعروة الوثقى، ويعتصمون بأقوى معتصم، وهم بهذا في ضمان النصر، وعلى طريقه، ولن يغلبهم أحد. فإن تخلوا عن الله، ووكلوا أمرهم إلى حولهم وحيلتهم، فقد آذنوا الله أن يتخلى عنهم، وأن يَدَعَهُم إلى أنفسهم، وهذا خذلان مبين، ومن خذله الله فلا ناصر له»[1].

ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو ربه حين يصبح وحين يمسي: (أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين)[2].

فكانت النتيجة ذلك أن الله كفاه وحماه ونصره، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

وتُبَيِّنُ آيات القرآن الكريم صورًا شتى لوهن عمل المؤمنين جراء ضعف صلتهم بالله.

منها: اتباع أهواء اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ومنها: الركون إلى الظالمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومنها: الوقوع في الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

- **الإتيان بما يبطل العمل.**

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/ ٦٢٩.

(٢) أخرجه أبو داوود عن أنس، رقم ٥٠٩٠، والنسائي، رقم ١٠٣٣٠، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٢٢٧، ١/ ٤٩٩.

ومن ذلك توهين الأمر بعد إبرامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢].

قال البيضاوي: «أي: نقضت غزلها من بعد إبرام وإحكام»[(١)].

وفي تفسير ابن كثير: «قال السدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئًا نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده. وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا»[(٢)].

وقال السعدي: «﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَالَّتِي﴾ تغزل غزلًا قويًا، فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته ﴿أَنكَاثًا﴾ فتعبت على الغزل ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة»[(٣)].

ومن ذلك الشرك، فالمشرك تنقطع صلته بالله انقطاعًا تامًا، ولذلك فالله يحبط عمله، ويرده عليه، كما قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ومن ذلك إبطال الصدقات بالمنِّ والأذى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قال الشوكاني «الإبطال للصدقات: إذهاب أثرها وإفساد منفعتها، أي: لا تبطلوها بالمنِّ والأذى أو بأحدهما»[(٤)].

كما جاء الحديث عن هذا الوهن في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

❁ حصول التنازع على العمل.

التنازع على العمل يوهنه، ويفرق أمر الجماعة، ويشتت شملها، ولذلك حذر الله المؤمنين من التفرق، كما حذرهم من التنازع.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣٨.
(٢) تفسير القرآن الكريم ابن كثير ٤/ ٥٩٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ٤٤٧.
(٤) فتح القدير ١/ ٣٢٧.

وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال السعدي: «أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة، مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كلِّ أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام»[1].

وقال ناهيًا المؤمنين عن التنازع: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال ابن القيم: «أمر الله المجاهدين بخمسة أشياء، وذكر منها: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن ،وهو جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم، فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كلٌّ منهم وحده كسرها، فإذا فرقها وصار كلٌّ منهم وحده كسرها كلها»[2].

٢. توهين الله كيد الكافرين.

قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٧-١٨].

قال الزمخشري: «﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، ومحله الرفع: أي: الغرض ذلكم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ﴾ معطوف على ذلك. يعني: إن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين ﴿كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾»[3].

ويبين القرآن الكريم أنَّ وهن كيد الكافرين سببه كفرهم بالله وآياته، ومحاربتهم لله ورسوله، ومشاقتهم، كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٤١.

(٢) الفروسية ٥٠٦.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٠٨، وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥١٢.

وقال: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢-١٣].

ومن صور كيد الكافرين بالمؤمنين: السعي في فتنتهم إما بقتل أو حرق أو قتل أبنائهم، أو اضطهادهم وصرفهم عن دينهم، وخديعتهم إما بالتظاهر أنهم يريدون لهم الخير، أو بغير ذلك من صور الخداع التي يهدفون من ورائها إلى إيقاع الضرر وإرادة السوء بالمؤمنين، وخيانتهم بأي صورة من صور الخيانة. وهكذا كلُّ تدبير يجتهدون فيه لإيقاع الضرر بالمؤمنين[(١)].

والله تعالى بين في كتابه أنه موهن كيد الكافرين، ومبطل عملهم فقال: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

وقال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف: ٧٩].

قال الزجاج «أي: أم أحكموا عند أنفسهم أمرًا من كيد أو شر ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون مجازاتهم»[(٢)].

ومن صور توهين الله كيد الكافرين ما ذكره الواحدي: «وتوهينه كيدهم يكون بأشياء: بإطلاع المؤمنين على عوراتهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وتفريق كلمتهم، ونقض ما أبرموا باختلاف عزائمهم»[(٣)].

ومنها أيضًا: «إغراء العداوة والبغضاء بينهم، وتفريق كلمتهم، وتسليط بعضهم على بعض، وكشف كيدهم للمؤمنين. وتوهين كيد الكائدين، يستلزم توهين قلوبهم، فيثبط عزائمهم، ويقذف الرعب في قلوبهم، ويضعف قوتهم، ومن إضعاف قوتهم: إلحاق الهزيمة بهم، وجعل الدائرة عليهم، وتمكين المؤمنين منهم»[(٤)].

ومن الصور التي بينتها سورة الأنفال في توهين الله كيد الكافرين[(٥)]:

دفع المشركين إلى المواجهة في بدر؛ لتحيق الهزيمة بهم، فيَهِنْ أمرهم، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ

(١) انظر: الكيد في القرآن الكريم، يحيى محمد يحيى، ١١.

(٢) معاني القرآن ٤/ ٤٢٠.

(٣) التفسير البسيط ١٠/ ٧٤.

(٤) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ص٦٥.

(٥) المصدر السابق ٦٣-٦٤.

﴿فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وإلقاء الرعب في قلوبهم، قال تعالى: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

وإعجازهم عن أن يستأصلوا شأفة المسلمين رغم قلة عددهم وضعفهم أيام كانوا في مكة، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وإعجازهم أن ينالوا من الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وتحسيرهم على ما ينفقونه من أموال في كيدهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

أثر الوهن في الأفراد والأمم

للوهن كثير من الآثار في الأفراد وفي الأمم، ومن ذلك:

أولًا: ترك الجهاد والرضا بالذلّ:

بينت الآيات التي نهى الله فيها المؤمنين عن الوقوع في الوهن، أنَّ أثر ذلك هو ترك الجهاد، والرضا بالقعود، والانقلاب على الأعقاب.

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٦].

قال السعدي: «﴿أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك»[1].

وفي التفسير القرآني للقرآن: «حين مال المشركون على المسلمين يوم أحد، وأخذوهم بسيوفهم وسهامهم، وسقط

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٥٠.

شهداؤهم الذين كانوا إلى جوار رسول الله تنادى المشركون أن محمدًا قتل!! كان لهذا الخبر الكاذب وقعه على المسلمين، فاضطربت لذلك صفوفهم، ووقع كثير منهم تحت وطأة الحزن والكمد، فهام على وجهه يطلب الفرار من وجه هذا الهول الصاعق؛ إذ كانوا -وهم يعلمون أن محمدًا ميت وأنهم ميتون- غير مستعدين، نفسيًّا، وهم في معمعة المعركة، ووجودهم كله مستغرق فيها- كانوا غير مستعدين أن يتلقوا هذه الصدمة المزلزلة، وأن يصدقوها، وإن كانت حقًّا، لا يمترون فيه ولا يشكون!»[1].

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يبين أن الربيين لم يصبهم الوهن بمصابهم في سبيل الله، بل صبروا وجاهدوا. قال الماوردي: «الوهن: الانكسار بالخوف، والضعف: نقصان القوة، والاستكانة: الخضوع، ومعناه: فلم يهنوا بالخوف، ولا ضعفوا بنقصان القوة، ولا استكانوا بالخضوع»[2].

وقال ابن كثير: «وقال ابن عباس ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ تخشعوا. وقال السدي وابن زيد: وما ذلوا لعدوهم»[3].

فهذا يبين أن أثر الوهن هو الاستكانة والخضوع والمذلة للأعداء، ولذلك نفت الآية عن الربيين هذا الأثر، وحذرت المؤمنين منه.

وجاء في الحديث بيان أن ترك الجهاد والتهاون في إقامة الدين يؤدي بالمسلمين إلى المذلة، وهي مظهر من مظاهر الغثائية: (لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، ليلزمنكم الله مذلةً في رقابكم، لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله، وترجعوا على ما كنتم عليه)[4].

قال الشوكاني: «وسبب هذا الذل -والله أعلم- أنهم لما تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الإسلام وإظهاره على كلِّ دين، عاملهم الله بنقيضه، وهو إنزال الذلة، فصاروا يمشون خلف أذناب البقر بعد أن كانوا يركبون على ظهور الخيل التي هي أعز مكان»[5].

وهناك العديد من الآيات الكريمة التي تبين هذا الأثر، ومن ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا

(١) عبد الكريم الخطيب ٢/ ٦٠٦.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٢٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣١.

(٤) أخرجه أبو داوود من حديث ابن عمر، رقم ٣٤٦٢، أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، وأخرجه أحمد واللفظ له، رقم ٥٠٠٧، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ١١، ١/ ٤٢.
(٥) نيل الأوطار ٥/ ٢٤٦.

﴿قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

قال ابن عاشور: «التثاقل: تكلف الثقل، أي: إظهار أنه ثقيل لا يستطيع النهوض. والثقل حالة في الجسم تقتضي شدة تطلبه؛ للنزول إلى أسفل، وعسر انتقاله، وهو مستعمل هنا في البطء مجازًا مرسلًا، وفيه تعريض بأن بطأهم ليس عن عجز، ولكنه عن تعلق بالإقامة في بلادهم وأموالهم»[1].

وقوله عن المنافقين: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧].

وقوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١].

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

فكلُّ هذه تبين أثر الوهن الذي تمكن من القلوب، فثبطها عن النهوض إلى الطاعة، وحال بينها وبين المسارعة في الخيرات.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

«فالفئة الواهنة ادعت أنها لا تطيق مواجهة جالوت، فردت عليها الفئة المؤمنة مبينة لها أن ذلك وهن، وعليهم أن يؤمنوا بالله ويصبروا، فهم يطيقون المواجهة ولكنهم وهنوا»[2].

ثانيًا: الشح بالمال:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٥-٣٨].

فالآيات تنهى المؤمنين عن الوهن ومسالمة الأعداء، فهم الأعلون والله معهم، وأجورهم غير منقوصة، فكيف يهنون؟! ثم بينت لهم أن الحياة الدنيا التي هي سبب وهن القلوب إنما هي لعب ولهو. ثم بينت لهم أن من يبخل بالنفقة في سبيل الله فإنما يبخل عن نفسه، فالبخل سببه حبُّ الدنيا والتعلق بها، وذلك يوهن القلب، ويجعله يشح بالإنفاق في سبيل الله.

وهذا ما بينته آيات التغابن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ١٩٧.

(٢) من ألفاظ القوة ومقابلاتها في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ٤٩.

عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤-١٧].

فبينت للمؤمنين أن الأموال والأولاد إذا أعاقوا الإنسان عن الإنفاق والطاعة، ففتر قلبه عن المسارعة في الخيرات، فإنما هم عدوٌّ له.

ثالثًا: الفتور عن الطاعة:

ومن آثار الوهن في الفرد هو فتوره عن الطاعة، وتأخره عنها، فالقرآن الكريم دعا المؤمنين إلى المسارعة في الخيرات، ومدحهم بذلك، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٩].

والواهن لا يسارع في الخيرات بل يتقاعس عنها، كما ورد في الحديث: (لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله)[١].

قال ابن عثيمين: «ولا شك أن التأخر عن الصلاة أشد من التأخر عن الصف الأول، وعلى هذا فيخشى على الإنسان إذا عوَّد نفسه التأخر في العبادة أن يبتلى بأن يؤخره الله عز وجل في جميع مواطن الخير»[٢].

فواهن القلب لا يزال يدفعه ما في قلبه من وهن وضعف وفتور إلى التأخر عن الطاعات والتثاقل عنها، حتى يغلب عليه الكسل عن العبادة، وقد ذمَّ الله المنافقين بالتكاسل عن الصلاة فقال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤].

قال الواحدي: «أي: متثاقلين متباطئين»[٣].

وقال الخليل: «الكسل: التثاقل عما لا ينبغي»[٤].

وقال ابن عاشور: «الكسل: الفتور في الأفعال لسآمة أو كراهية، والكسل في الصلاة مؤذن بقلة اكتراث المصلي بها وزهده في فعلها، فلذلك كان من شيم المنافقين»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري، رقم ٤٣٨، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين ١٣/ ٥٤.

(٣) التفسير البسيط ٧/ ١٦٠.

(٤) العين، مادة: ك س ل ٥/ ٣١٠. وتابعه جمهور اللغويين، ولفظه عند الأزهري في تهذيب اللغة، مادة: ك س ل ١٠/ ٣٧: «الكسل: التثاقل عما لا ينبغي التثاقل عنه»، وانظر: المفردات، الراغب، مادة: ك س ل ٧١١، وبصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي ٤/ ٣٥٢.

(٥) التحرير والتنوير ٥/ ٢٣٩.

ثالثًا: غثائية الأمة:

يبين الرسول صلى الله عليه وسلم أثر الوهن في الأمم، فيقول: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: (حبُّ الدنيا، وكراهية الموت)[1].

فذكر أهم آثار الوهن في الأمم، وهي: ضعف الأمة مما ينتج عنه تداعي الأمم عليها والغثائية التي تعيشها الأمة، ونزع مهابة الأمة من صدور أعدائها.

قال في عون المعبود: «غثاء السيل: ما يحمله السيل من زبد ووسخ، شبههم به؛ لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم»[2].

وقال البيضاوي: «والمعنى: ولكنكم تكونون متفرقين، ضعيفي الحال، خفيفي العقل، دنيئي القدر، كغثاء السيل»[3].

وقال الزجاج «الغثاء: الهالك البالي من ورق الشجر الذي إذا خرج السيل رأيته مخالطًا زبده»[4].

(١) سبق تخريجه.
(٢) محمد أشرف بن أمير ١١/ ٢٧٣.
(٣) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ٣/ ٣١٣.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، مادة: غ ث ا ١٥/ ١١٦.

وأبرز مظاهر غثائية الأمة: تفرقها وضعف أمرها، وهو ما جاء النهي عنه في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣].

«وعوامل القوة في الأمة تكمن في اجتماع كلمتها، ووحدة صفها، وإقامتها للدين، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، ونصرتها للحق، ودفاعها عن المظلوم، وأخذها على يد الظالم، واهتمامها بمعالي الأمور، ومسارعتها في الخيرات والطاعات، وشدة بأسها، وأخذهم بقوة لكل أسباب القوة.

وبهذه العوامل تكون الأمة قوية، مرفوعة الجبين، مرهوبة الجانب، يهابها أعداؤها، ويخضعون لها. فإذا دبَّ الوهن في أمة من الأمم، فإن الوهن ينخر في كل عوامل القوة، فيتبعثر الصف، وتتفرق الكلمة، وتتنافر القلوب، ويتثاقل الناس عن الجهاد، بل يعيبون المجاهدين فيهم، ويتخلون عن مقتضيات القيام بالدين، فيتقاعسون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويفترون عن نصرة الحق وأهله؛ فيعود الدين غريبًا.

فالصلوات تضيع، والشهوات تتبع، والمنكرات تبتدع، وينتشر الظلم، ويضعف أهل الحق، ويستشري اليأس في النفوس،

ويستعذب الناس حياض الذل، ويرتعون في مستنقعات الهوان، ويغلب عليهم الاهتمام بسفاسف الأمور، ويغطون في ظلمات الجهل، ويتخلون عن حمل الأمانة، وتتمزق الأواصر، وتهتري الأخلاق. وبذلك تصبح أمة (غثائية)»[1].

وقد سمى القرآن الكريم هذه الحالة (ذهاب الريح)، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال ابن كثير في تفسير: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: «أي: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال»[2].

وقال أبو السعود: «أي: تذهب دولتكم وشوكتكم، فإنها مستعارة للدولة من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه مشبهة بها في هبوبها وجريانها»[3].

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق تفسير لذهاب الريح، (ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم).

رابعًا: تداعي الأمم عليها:

جاء في عون المعبود: «التداعي: الاجتماع، ودعاء البعض بعضًا، والمراد من الأمم: فرق الكفر والضلالة (إلى قصعتها) الضمير للأكلة، أي: التي يتناولون منها بلا مانع ولا منازع، فيأكلونها عفوًا وصفوًا، كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم أو ضرر يلحقهم أو بأس يمنعهم، قاله القاري.

قال في المجمع: أي: يقرب أنَّ فرق الكفر وأمم الضلالة أن تداعى عليكم، أي: يدعو بعضهم بعضًا إلى الاجتماع؛ لقتالكم وكسر شوكتكم؛ ليغلبوا على ما ملكتموها من الديار، كما أن الفئة الآكلة يتداعى بعضهم بعضًا إلى قصعتهم التي يتناولونها من غير مانع، فيأكلونها صفوًا من غير تعب»[4].

ويبين الحديث أنَّ الأمم لا تتداعى على الأمة إلا بعد وهن قلوبها، كما قال: (وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن)، وسببه حبُّ الدنيا وكراهية الموت. وقد بَيَّنَ القرآن الكريم أنَّ الكافرين لا يتمكنون من المؤمنين إلا في حال غفلتهم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلخ، ودهم هذا معروف؛ إذ هو شأن كلِّ محارب، فليس ذلك المعنى

(١) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ٧٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٢.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٥.
(٤) محمد أشرف بن أمير ١١/ ٢٧٣.

المعروف هو المقصود من الآية، إنما المقصود أنهم ودوا ودًّا مستقربًا عندهم؛ لظنهم أنَّ اشتغال المسلمين بأمور دينهم يباعد بينهم وبين مصالح دنياهم؛ جهلًا من المشركين لحقيقة الدين، فطمعوا أن تلهيهم الصلاة عن الاستعداد لأعدائهم، فنبه الله المؤمنين إلى ذلك كيلا يكونوا عند ظنِّ المشركين، وليعودهم بالأخذ بالحزم في كل الأمور، وليريهم أنَّ صلاح الدين والدنيا صنوان»[1].

وهذا يوضحه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

أي: «قلتم: من أين لنا هذا الخذلان ونحن مسلمون ورسول الله فينا؟ ﴿قُلۡ﴾ لهم ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لأنكم تركتم المركز فخذلتم»[2].

وقال السعدي: «﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية»[3].

علاج الوهن

أرشد القرآن الكريم المؤمنين إلى العلاج الشافي من هذا الداء، وتبين الآيات الواردة في سورة آل عمران وغيرها من السور كثيرًا من مكونات هذا العلاج. ومن ذلك:

أولًا: الإيمان بالقدر:

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِي۪ن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٨].

قال الواحدي: «﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ﴾ أي: ما كانت نفسٌ لتموت ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ بقضائه وقدره، كتب الله ذلك ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾ إلى أجله الذي قدر له فلم

(١) التحرير والتنوير ٥/ ١٨٧.
(٢) تفسير الجلالين ٩٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ١٥٦.

انهزمتم؟ والهزيمة لا تزيد في الحياة»[1].

وجاء في التفسير البسيط[2]: «وقال ابن الأنباري: عاتب الله تعالى بهذا المنهزمين يوم أحد؛ رغبةً في الدنيا، وضنًّا بالحياة، وأخبرهم أن الحياة (لا تزيد) ولا تنقص، وأن الموت بأجلٍ عنده، لا يتقدم ولا يتأخر».

وقال ابن كثير[3]: «وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه».

وهذا المعنى أكدته سورة آل عمران في أكثر من موضع، كقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٦-١٥٨].

وفي سورة النساء: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨].

فالقتال لن يقدم في الأجل، وتركه لن يؤخر في الأجل، فالموت والحياة بإذن الله، ولن ينفع الفارَّ فراره، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: ١٦].

ثانيًا: فقه سنن الله:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤٢].

تبين هذه الآيات للمؤمنين أنَّ لله سننًا، كمداولة الأيام بين الناس، وابتلاء المؤمنين، وفتنة الكافرين، وعلى المسلمين السير في الأرض والتفقه في سنن الله، وعدم الاستسلام لعوامل الوهن، فإنَّ التبصر في سنن الله يساعدهم على تجاوز آثار الهزيمة، والتغلب على الحزن الذي استبد بهم، ويقوي عزائمهم، ويرفع من الهمم.

(١) التفسير الوجيز ٢٣٥.
(٢) الواحدي ٦/ ٤٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٢٩.

قال السعدي: «فما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك»[1].

قال ابن القيم مبينًا سنن الله وحكمته التي تتحدث عنها هذه الآيات:

«فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر، يقسمها دولًا بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة، فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا. ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحسِّ.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يحب الشهداء من عباده، وقد أعد لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، و أيضًا فإنه خلصهم، ومحَّصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرى وهي محق الكافرين بطغيانهم وبغيهم وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله والصبر على أذى أعدائه، وإنَّ هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

أي: ولما يقع ذلك منكم فيعلمه، فإنه

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٩٩.

لو وقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإنَّ الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه.

ثمَّ وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه. فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالًا يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد وسببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]»[1].

ثالثًا: الصبر:

تربط الآيات التي تحذر المؤمنين من الوهن بينه وبين الصبر، حيث تبين لهم أن الصبر سلاح قوي يتسلح به المؤمن، فيعصمه الله من الوهن، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

قال سيد قطب «إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة، ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه، إنَّ أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء، فإذا أصرَّ الكفار على المعركة، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارًا، وإذا احتمل الكفار آلامها، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام!! وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال، وتعقب آثارهم، حتى لا تبقى لهم قوة، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. وإنَّ هذا لهو فضل العقيدة في الله في كلِّ كفاح.

فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشقة على الطاقة، ويربو الألم على الاحتمال، ويحتاج القلب البشري إلى مدد فائض وإلى زاد»[2].

(١) زاد المعاد ٣/ ١٩٩، ٢٠١.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٠.

وفي سورة آل عمران يبين الحقُّ تعالى أنَّ صبر المؤمنين وتقواهم يحقق لهم أربعة أمور[1]:

الأول: إبطال كيد أعدائهم، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال القرطبي[2]: «﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ أي: على أذاهم وعلى الطاعة وموالاة المؤمنين ﴿وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى، فكان ذلك تسلية للمؤمنين وتقوية لنفوسهم».

الثاني: الفوز بنصر الله، فقال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

«قال الضحاك وعكرمة: كان هذا يوم أحد وعدهم الله المدد إن صبروا، فلم يصبروا فلم يمدوا»[3]. وقال السعدي: «وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الصبر والتقوى»[4].

الثالث: التغلب على آثار الهزيمة النفسية، فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فالتغلب على آثار البلاء، وعلى حرب المشركين الإعلامية، إنما يكون بالصبر والتقوى. قال ابن عثيمين: «أي: إن الذي يصبر على أذى الناس، ويحتملهم ويغفر لهم سيئاتهم التي يسيئون بها إليه؛ فإن ذلك ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. أي: من معزوماتها وشدائدها التي تحتاج إلى مقابلة ومصابرة. ولا سيما إذا كان الأذى الذي ينال الإنسان بسبب جهاده في الله عز وجل وبسبب طاعته؛ لأن أذية الناس لك لها أسباب متعددة متنوعة. فإذا كان سببها طاعة الله عز وجل، والجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن الإنسان يثاب على ذلك من وجهين: الوجه الأول: من الأذية التي تحصل له. والوجه الثاني: صبره على هذه الطاعة التي أوذي في الله من أجلها»[5].

الرابع: الفلاح في الدنيا والآخرة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال البقاعي: «أي: ليكون حالكم حال

(١) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ١١٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٨٣.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٠٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ١٤٦، بتصرف.
(٥) شرح رياض الصالحين ١/ ١٨٢.

من يرجى فلاحه وظفره بما يريد من النصر على الأعداء والفوز بعيش الشهداء»[1].

رابعًا: اجتناب الحزن والخوف:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

«ولم يأت الحزن في القرآن إلا منهيًّا عنه أو منفيًّا، وسر ذلك أن الحزن موقف غير مسر، ولا مصلحة فيه للقلب، وأحب شيء إلى الشيطان أن يحزن العبد؛ ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه، فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة، وقد استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن)[2].

فهو قرين الهمِّ، والفرق بينهما أنَّ المكروه الذي يرد على القلب، إن كان لما يستقبل أورثه الهمَّ، وإن كان لما مضى أورثه الحزن، وكلاهما مضعف للقلب عن السير، مفتر للعزم»[3].

و«الإيمان بالقدر فيه راحة النفس والقلب، وعدم الحزن على ما فات، وعدم الغمِّ والهمِّ لما يستقبل، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]. والذي لا يؤمن بالقدر لا شكَّ أنه سوف يتضجر عند المصائب ويندم، ويفتح الشيطان له كلَّ باب، وأنه سوف يفرح ويبطر ويغتر إذا أصابته السراء، لكن الإيمان بالقدر يمنع هذا كله»[4].

ويبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

أن طريق المؤمنين في اجتناب الحزن أن يحتسبوا تضحياتهم، ويثقوا أنها محفوظة لهم عند ربهم، ومن قتل منهم فلن يضيع عمله، وعليهم ألا يحسبوا أنَّ القتلى في سبيل الله أمواتًا، بل هم أحياء عند ربهم

(١) نظم الدرر ٥/ ١٦٩.
(٢) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك، رقم ٢٨٩٣، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٠١.
(٤) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين ٢/ ٨٦.

يرزقون، وأن يوقنوا أن ما عند الله خير لهم وأبقى[1].

ومن تدبير الإسلام في علاج الحزن والخوف:

«أولًا: هوَّنَ على المؤمنين خطب الموت، وذلك بإيمانهم بالحياة الآخرة إيمانًا يشعرون معه أنَّ الموت ليس إلا انتقالًا من عالم إلى عالم أرحب وأفسح، ومن هنا فلا ينظرون إلى الموت على أنه فناء أبدي للميت، وضياع لا نهائي لمن يموت، كما ينظر إلى ذلك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وثانيًا: أنه وعد المؤمنين المجاهدين في سبيل الله درجات عالية عند الله سبحانه، حيث ينزلون منازل الأنبياء والصديقين، وإنما تتجلى طاعة الله ورسوله على أتمِّ وجه وأكمله في ميدان الجهاد في سبيل الله.

وثالثًا: أنه توعد الذين ينتظمون في صفوف المجاهدين، ثمَّ إذا التحم القتال، وتساقطت الرؤوس، وتناثرت الأشلاء، وسالت الدماء ركبهم الفزع، واستبدَّ بهم الجزع، والتمسوا وجوه النجاة في الفرار من الميدان، أو النكوص على الأعقاب، أو الدعوة إلى السلم والاستسلام، توعد الإسلام من كان في المجاهدين المقاتلين، ثم أخذ هذا الموقف المتخاذل توعده بغضب من الله، وبعذاب أليم في نار جهنم»[2].

خامسًا: التوكل على الله:

قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢-١٢٣].

تبين الآيات أنَّ التوكل على الله، يحول بين المؤمنين وأن يقعوا في الوهن، فولاية هاتين الطائفتين لله وتوكلهما عليه، جَنَّبَتْهُمَا الفشل، وهو الجبن والخور والرعب. قال البيضاوي: «﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره؛ لينصرهم كما نصرهم ببدر»[3].

قال البغوي: «﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ أي: تجبنا وتضعفا وتتخلفا، والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد في ألف رجل، وقيل: في تسعمائة وخمسين رجلًا، فلمَّا بلغوا الشوط انسحب عبد الله بن أبي بثلث الناس ورجع في ثلاثمائة، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم أبو جابر

(١) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ١٠٨.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ١٣/ ٣٨١، وما بعدها، بتصرف.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٦.

السُّلَمي، فقال: أنشدكم الله في نبيكم وفي أنفسكم، فقال عبد الله بن أبي: لو نعلم قتالًا لاتبعناكم، وهمت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبد الله بن أبي، فعصمهم الله، فلم ينصرفوا فذكرهم الله عظيم نعمته، فقال عز وجل: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ناصرهما وحافظهما عن الانصراف من القتال، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾»[1].

وقال القرطبي: «والتوكل في اللغة: إظهار العجز والاعتماد على الغير. واختلف العلماء في حقيقة التوكُّلِ، فسئل عنه سهل بن عبد الله فقال: قالت فرقة: الرضا بالضمان، وقطع الطمع من المخلوقين. وقال قوم: التوكل ترك الأسباب والركون إلى مسبب الأسباب، فإذا شغله السبب عن المسبب زال عنه اسم التوكُّل. قال سهل: من قال: إن التوكل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]. فالغنيمة اكتساب. وقال تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فهذا عمل. وقال غيره: وهذا قول عامة الفقهاء، وأنَّ التوكُّلَ على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماضٍ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدوٍّ وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة. وإلى هذا ذهب محققو الصوفية، لكنه لا يستحق اسم التوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب، فإنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًّا، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكلُّ منه وبمشيئته، ومتى وقع من المتوكل ركون إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم»[2].

قال ابن رجب: «وتحقيق التوكُّلِ لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإنَّ الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]»[3].

وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٠٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٩٠.

(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ٤٩٨.

لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

قال أبو السعود: «تقديم الجار والمجرور على الفعل؛ لإفادة قصره عليه تعالى، والفاء؛ لترتيبه أو ترتيب الأمر به على ما مرَّ من غلبة المخاطبين على تقدير نصرته تعالى لهم، ومغلوبيتهم على تقدير خذلانه تعالى إياهم، فإنَّ العلم بذلك مما يقتضي قصر التوكل عليه تعالى لا محالة، والمراد بالمؤمنين إما الجنس، والمخاطبون داخلون فيه دخولًا أوليًّا، وإما هم خاصة بطريق الالتفات. وأيا ما كان ففيه تشريف لهم بعنوان الإيمان اشتراكًا أو استقلالًا، وفيه تعليل لتحتم التوكل عليه تعالى، فإن وصف الإيمان مما يوجبه قطعًا»[(١)].

سادسًا: الجهاد بالنفس والمال:

جاء في الحديث: (لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، ليلزمنكم الله مذلةً في رقابكم، لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا على ما كنتم عليه)[(٢)].

فيبين أن التوبة إلى الله بالرجوع إلى الجهاد، وإقامة الدين، وعدم مخالفة الله ورسوله، هو الطريق لنزع الذلِّ من الرقاب.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٠٥.
(٢) سبق تخريجه.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦-٢١٧].

جاء في فتاوى الشيخ ابن باز: «الواجب على المسلمين أن يطالبوا بالقدس، وأن يردوها إلى أهلها، وأن يجتهدوا في ذلك؛ لأن أهلها مظلومون، ونصر المظلوم لازم وواجب، ولأن القدس للمسلمين وليست للكفار، فيجب أن ترد إلى أهلها، فالرسول عليه السلام يقول: (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)[(٣)].

فهؤلاء مظلومون ونصرهم واجب، والظالم نصره منعه من الظلم، فالواجب

(٣) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك، رقم ٢٤٤٣، كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، ومسلم من حديث جابر بن عبد الله، رقم ٢٥٨٤، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا.

على الدول الإسلامية أن ينصروا المظلوم، وأن يستعيدوا هذه البلاد، وأن يفعلوا مع ذلك ما يلزمهم من طاعة الله ورسوله، والاستقامة على دين الله ورسوله، حتى يعانوا، وحتى يوفقوا لما أرادوا من الخير، وحتى تحصل لهم النصرة من ربهم عز وجل، وتسهيل أمورهم وإجلاء الأعداء، وتمكين المسلمين من استرداد حقهم السليب»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩-٦٠].

قال السعدي: «﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم. ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة، والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شرُّ أعدائهم، وتعلم الرمي، والشجاعة والتدبير.

ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال. وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته. فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابًا منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورًا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به، ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم. ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغبًا في ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلًا كان أو كثيرًا ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفًا أضعافًا كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله، تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، أي:

(١) فتاوى نور على الدرب ١٨/ ٢٥٢.

لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئًا»[1].

وقد جعل الله الإنفاق في سبيل الله من الجهاد، وفي القرآن الكريم غالبًا ما يقترن الجهاد بالنفس مع المال، قال ابن باز: «قدم الله سبحانه الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في غالب الآيات. فالمقصود أن الجهاد في سبيل الله له شأن عظيم، فهو بالمال أفضل في بعض الوجوه، وبالنفس أفضل في بعض الوجوه؛ فالنفس أغلى شيء عند الإنسان، فالجهاد بالنفس هذا أفضل الجهاد؛ لأنه مجاهد بنفسه، لكن قدم الله المال؛ لأن المال ينفع في جهات كثيرة، يستطاع أن يستأجر به المجاهد، ويستطاع أن يجهز به المجاهد، ويستطاع أن يشترى به السلاح، ويشترى به الطعام والشراب، وتشترى به الكسوة، وتشترى به المئونة والذخيرة، فنفع المال متنوع»[2].

ومن العلاج أيضًا: تعبئة الأمة بروح الجهاد، وبث حياة العزة والكرامة في أوصالها، حتى لا يدب إليها الوهن. وقد أمر الله رسوله بالتحريض على القتال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥-٦٦].

قال أبو السعود[3]: «أي: بالغ في حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ما أمكن من الأمور المرغبة، التي أعظمها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم».

«ولا بد من إذكاء الروح الجهادية في النفوس، وتبصير القاصي والداني من أبناء الأمة بأهمية الجهاد في سبيل الله، وبأنه طريق العزة، وطريق الأمة في تحرير نفسها وأرضها ومقدساتها»[4].

سابعًا: طاعة الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

فجعل طاعة الله ورسوله من العلاجات التي تقي المؤمنين من الانزلاق إلى الوهن، والتنازع، والفشل. قال السعدي: «﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في استعمال ما أمرا به، والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٤.
(٢) فتاوى نور على الدرب ١٨/ ٢٦٤.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٣٤.
(٤) الوهن كما حددته السنة وأثره في تخلف الأمة، د. هاني طعيمات ص٦٣٠.

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ تنازعًا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ أي: تجبنوا ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله»[1].

وفي التفسير الحديث: «في الآيات نداء موجه للمسلمين يؤمرون به بالثبات في القتال حينما يلتحمون مع فئة من أعدائهم ويلقونها، وبذكر الله كثيرًا آنذاك، حيث يضمن لهم ذلك الروحانية والتأييد والفلاح. ويحثون به على طاعة الله ورسوله في كل موقف ويحذرون به من التنازع والاختلاف؛ لأن فيهما فشلهم وإدبار أمرهم، ويؤمرون فيه بالصبر؛ لأن ذلك يضمن لهم نصر الله وتأييده، وينهون به عن أن يكونوا مثل الكفار الذين خرجوا من مكة يملؤهم الفخر والزهو والبطر وحبُّ التظاهر، وهم يصدون عن سبيل الله، والله محيط بهم ومحبط لأعمالهم»[2].

وطاعة الله ورسوله هي عاصم الأمة من التفرق، وطريقها إلى الوحدة القائمة على هوية دينها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال سيد قطب: «وأما طاعة الله ورسوله، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء، فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار.

فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم -مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة-، فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كلَّ صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع (الذات) في كفة، والحق في كفة وترجيح الذات على الحق ابتداء! ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة إنه من عمليات (الضبط) التي لا بد منها في المعركة، إنها طاعة القيادة العليا فيها، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها. وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٢.
(٢) التفسير الحديث، محمد عزت ٧/ ٦٦.

في الجيوش التي لا تجاهد لله، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلًا والمسافة كبيرة كبيرة»[1].

فلن يوحد أمة الإسلام إلا طاعة الله ورسوله، والاعتصام بحبل الله، فتربطهم رابطة الدين، وينتمون إليه، وليس إلى عصبيات أو لغات أو أعراق، ويوالون بعضهم بعضًا، كما أمرهم ربهم فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

ويجتنبون موالاة اليهود والنصارى، التي تمزقهم وتفرقهم وتوهنهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

موضوعات ذات صلة:

الحزن، الذل، الضعف، العزم، القوة

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٢٨.

اليأس

عناصر الموضوع

مفهوم اليأس	٣٢٦
اليأس في الاستعمال القرآني	٣٢٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٨
اليأس في النساء	٣٣١
صورٌ من اليأس	٣٣٤
أسباب اليأس	٣٥٢
وسائل الوقاية من اليأس وعلاجه	٣٥٧

مفهوم اليأس

أولًا: المعنى اللغوي

اليأس مصدر فعله يئس، قال ابن فارس: «الياء والهمزة والسين، كلمتان: إحداهما اليأس: قطع الرجاء، ويقال: إنه ليست ياء في صدر كلمة بعدها همزة إلا هذه، يقال منه: يئس ييأس وييئس، على يفعل ويفعل، والكلمة الأخرى: ألم تيأس، أي: ألم تعلم، أي: أفلم يعلم»[(١)].

واليأس: القنوط، وهو قطع الأمل عن الشيء، وقد يئس من الشيء ييأس من باب فهم، وفيه لغة أخرى: أيس يأيس، والتأييس: الاستقلال، يقال: ما أيسنا فلانا خيرًا، أي: ما استقللنا منه خيرا، أي: أردته لأستخرج منه شيئا فما قدرت عليه[(٢)].

وذكر ابن منظور في اللسان: أن مصدرها اليأس واليآسة واليأس، وقد استيأس وأيأسته، والجمع يؤوس، ويقال: يئست المرأة إذا عقمت فهي يائسٌ كما يقال: حائضٌ وطامثٌ فإن لم يذكر الموصوف قلت: يائسةٌ وأيئسها الله إياسًا[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

قال ابن الجوزي: هو «القطع على أن المطلوب لا يتحصل لتحقيق فواته»[(٤)]، وأيضًا من خلال المعنى اللغوي السابق، ومعاني الآيات التي وردت فيها لفظة اليأس يمكن الخروج بتعريف اصطلاحي لكلمة اليأس وهو: قنوطٌ وإحباط يصيب الإنسان، فيفقد الأمل في إمكان تغير ما حوله.

---

(١) مقاييس اللغة، ٦/ ١٥٤.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٣/ ٩٩٣، تهذيب اللغة، الأزهري، ١٣/ ٩٨، مختار الصحاح، الرازي، ١/ ٣٤٨.

(٣) لسان العرب، ٦/ ٢٦٠ بتصرف.
وانظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٨٣، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٨/ ٦٣٢.

(٤) نزهة الأعين النواظر، ١/ ٦٣٣.

اليأس في الاستعمال القرآني

وردت مادة (يأس) في القرآن الكريم (١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾ [الممتحنة:١٣]
الفعل المضارع	٣	﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧]
صيغة المبالغة	٣	﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾ [الإسراء:٨٣]

وجاء اليأس في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: القنوط، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧]. يعني: لا تقنطوا.

الثاني: العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [الرعد:٣١]. أي: أفلم يعلم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٦٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٨٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ القنوط:

القنوط لغةً:

«القاف والنون والطاء كلمة صحيحة تدل على اليأس من الشيء»[١].

وقيل: القنوط: الإياس من الخير، ويقال: شر الناس الذين يقنطون الناس من رحمة الله، أي: يؤيسونهم[٢].

القنوط اصطلاحًا:

«اليأس من الرحمة»[٣].

الصلة بين اليأس والقنوط:

اليأس: انقطاع الطمع من الشيء، والقنوط: أخص منه، فهو أشد اليأس[٤].

وقال الراغب الأصفهاني القنوط: اليأس، وقيل هو من الخير، فهو أخص من مطلق اليأس[٥].

٢ الخيبة:

الخيبة لغة:

الخاء والياء والباء أصل واحد يدل على عدم فائدة وحرمان، وقالوا: سعى في أمر فخاب، وذلك إذا حرم فلم يفد خيرًا[٦].

وقال ابن منظور: والخيبة بمعنى: الخسران والكفر، أي: خاب إذا خسر، وخاب إذا كفر[٧].

الخيبة اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني الخيبة معناها: «فوت الطلب»[٨].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٣٢.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٩/ ٢٥.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٢٧٥.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٣٦.
(٥) انظر: المفردات، ص٦٨٥.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٣٢، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٠٨.
(٧) انظر: لسان العرب، ١/ ٣٦٨، تاج العروس، محمد الزبيدي، ٢/ ٣٨٨.
(٨) المفردات، ص٣٠٠.

وقال أبو هلال العسكري إنها:«المنقطع عما أمل»[1].

الصلة بين اليأس و الخيبة:

اليأس: قد يكون قبل الأمل وقد يكون بعده، أما الخيبة: فلا تكون إلا بعد الأمل، لأنها امتناع نيل ما أمل[2].

٣ الحزن:

الحزن لغة:

بضم الحاء المهملة وسكون الزاي كما ذكر ابن فارس - الحاء والزاء والنون أصل واحد، وهو خشونة الشيء وشدةٌ فيه[3].

والحزن - بضم الحاء وسكون الزاء - والحزن - بفتح الحاء والزاء: خلاف السرور، الواحدة حزنة[4].

الحزن اصطلاحًا:

«عبارة عما يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي»[5].

وقيل: انكسار الفؤاد لفوات المراد، وقيل: زوال قوة القلب لدوام وارد الكرب[6].

الصلة بين اليأس والحزن:

اليأس: وجود الغم والهم بشكل كبير في اليائس، الحزن: وجود الغم والهم ليس بكثرة ما هو موجود في اليأس، وذهابه أسرع مما لو كان في اليأس.

٤ الأمل:

الأمل لغة:

الهمزة والميم واللام أصلان: الأول التثبت والانتظار، والثاني الحبل من الرمل، والأمل: الرجاء[7].

---

(١) الفروق اللغوية، ص٤٣٦.
وانظر: الكليات، الكفوي، ص٤٣٨.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٣٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ٢/ ٥٤.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠٩٨.
(٥) التعريفات، الجرجاني، ص٨١.
(٦) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٣٤.
(٧) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ١٤٠.

الأمل اصطلاحًا:

ذكر المناوي أنه: «توقع حصول الشيء، وأكثر ما يستعمل فيما يبعد حصوله» [1].

وقيل: «الأمل بفتح الميم هو ما يحدث به الإنسان نفسه مما يدركه من أمور الدنيا ويبلغه ويحرص عليه» [2].

الصلة بين اليأس والأمل:

اليأس: من كل شيء سواء أكان خيرًا أم شرًا، ويستبعد حصوله بالكلية، والأمل: ما يكون في الخير، وقد يحصل ما تأملناه، وقد لا يحصل.

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، ص٦٢.
(٢) مشارق الأنوار، القاضي عياض ١/ ٣٨.

اليأس في النساء

اليأس في النساء أمر قدره الله سبحانه وتعالى على بنات حواء، وذلك يحصل عندما تصل المرأة إلى مرحلة تنقطع فيها الدورة الشهرية عنها، وتلك ظاهرة طبيعية تحدث لدى كل النساء عندما تصل في الغالب إلى عمر يتجاوز الأربعين سنة، وهن القواعد اللاتي لا يرجى حيضهن، أي ييأسن من المحيض، ولا ينتظرونه بعد طول انقطاع، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه العزيز لما يترتب عليه من أحكام لا بد من معرفتها؛ لتجنب الوقوع في المحذور الذي نهى الله عنه.

قال تعالى: ﴿وَالَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق:٤].

قال مقاتلٌ: لما نزلت: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٢٨].

قال خلاد بن النعمان بن قيسٍ الأنصاري: يا رسول الله فما عدة التي لا تحيض، وعدة التي لم تحض، وعدة الحبلى؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وفي رواية أخرى أخبرنا أبو إسحاق المقرئ، عن أبي عثمان عمرو بن سالمٍ قال: (لما نزلت عدة النساء في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها، قال أبي بن كعبٍ: يا رسول الله، إن نساءً من أهل المدينة يقلن قد بقي من النساء من لم يذكر فيها شيءٌ، قال: (ما هو؟) قال: الصغار والكبار وذوات الحمل، فنزلت هذه الآية: ﴿وَالَّائِي يَئِسْنَ﴾ إلى آخرها[1].

والمعنى: ﴿وَالَّائِي يَئِسْنَ﴾ أي: بلغن سن اليأس وذلك بأن تبلغ المرأة ستين سنة، ويقال خمسين، وقد ثبت إياسها وتيقن ذلك منها من دون شكٍ في إياسها، وقوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: إن شككتم في عدتهن، ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾، فقام رجل وسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لو كانت صغيرة، كيف عدتها؟

وقام آخر وقال: لو كانت حاملًا، كيف عدتها؟ فنزل قوله: ﴿وَالَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يعني: المرأة التي لم تحض، فعدتها ثلاثة أشهر مثل عدة الآيسة، وقوله: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ يعني: عدتهن أن يضعن حملهن وقال عمر رضي الله عنه: لو وضعت ما في بطنها وزوجها على سريره، قبل أن يدفن في حفرته، لانقضت عدتها وحلت للأزواج، وروى الزهري، عن عبد الله، عن أبيه: (أن سبيعة بنت الحارث قد

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي ص٤٣٦.

وضعت بعد وفاة زوجها بعشرين يومًا، فمر بها السنابل بن بعكك، فقال لها: أتريدين أن نتزوج؟ فقالت: نعم، قال: لا حتى يأتي عليك أربعة أشهر وعشر، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: قد حللت للزواج يعني: انقضت عدتك)[1].

وذكر الجصاص في أحكام القرآن: أن معنى قوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ لا يخلو من أحد وجوهٍ ثلاثةٍ:

الوجه الأول: إما أن يكون المراد الارتياب في أنها آيسةٌ وليست بآيسةٍ.

الوجه الثاني: الارتياب في أنها حاملٌ أو غير حاملٍ.

الوجه الثالث: ارتياب المخاطبين في عدة الآيسة والصغيرة.

أما بالنسبة للوجه الأول فهو غير جائزٍ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أثبت من جعل الشهور عدتها أنها آيسةٌ، والمشكوك فيها لا تكون آيسةً لاستحالة مجامعة اليأس الرجاء إذ هما ضدان لا يجوز اجتماعهما[2].

وذكر في كتاب تأويلات أهل السنة: أنهم اختلفوا في قوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي أنه أريد به إن ارتبتم في حيضهن أو في عدتهن، والصحيح الارتياب في عدتهن؛ لأنه لو كان المراد منه الارتياب في حيضهن، لقال الله عز وجل: (إن ارتبتن) أو يقول: (واللائي ارتبن) ليكون منسق مع قوله: ﴿وَالَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ﴾ فلما قال: ﴿ارْتَبْتُمْ﴾ ثبت أن المراد: إن ارتبتم في عدة الآيسات والصغائر، فهي ثلاثة أشهر، والله أعلم، فيكون عدتهما بالأشهر[3].

وذكر الطبري في قوله: ﴿وَالَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ «اليائسة من المحيض هي التي لا ترجو محيضًا للكبر، ومحال أن يقال: واللائي يئسن، ثم يقال: ارتبتم بيأسهن، لأن اليأس: هو انقطاع الرجاء والمرتاب بيأسها مرجو لها، وغير جائز ارتفاع الرجاء ووجوده في وقت واحد، فإذا كان الصواب من القول في ذلك ما قلنا، فبين أن تأويل الآية: واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم بالحكم فيهن، وفي عددهن، فلم تدروا ما هن، فإن حكم عددهن إذا طلقن، وهن ممن دخل بهن أزواجهن، فعدتهن ثلاثة أشهر، ﴿وَالَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يقول: وكذلك عدد اللائي لم يحضن من الجواري لصغر إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول»[4].

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٦٢، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/ ٥٦٣، أحكام القرآن، الكيا الهراسي، ٤/ ٤٢١.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ٥/ ٣٥٣.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٦٠، إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، ٤/ ٢٩٨.

(٤) جامع البيان، ٢٣/ ٤٥٣.

﴿حَمْلَهُنَّ﴾ في انقضاء عدتهن أن يضعن حملهن، وذلك إجماع من جميع أهل العلم في المطلقة الحامل، فأما في المتوفى عنها ففيها اختلاف بين أهل العلم، وتم الإشارة إليه من قبل.

ذكر من قال: حكم قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ عام في المطلقات والمتوفى عنهن.

قال ابن مسعود: من شاء لاعنته، ما نزلت: ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، وإذا وضعت المتوفي عنها فقد حلت؛ يريد بآية المتوفى عنها ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤].

قال الشعبي: من شاء حالفته لأنزلت النساء القصرى بعد الأربعة الأشهر والعشر التي في سورة البقرة.

قال علي رضي الله عنه في قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ المطلقات، ثم قال الشعبي: إن عليًا وعبد الله رضي الله عنهما كانا يقولان في الطلاق بحلول أجلها إذا وضعت حملها.

وعن أبي بن كعب، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال: قلت: يا رسول الله، المتوفى عنها زوجها والمطلقة، قال: (نعم).

عن السدي، قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال: للمرأة الحبلى التي يطلقها زوجها وهي حامل، فعدتها أن تضع حملها.

وقال آخرون: ذلك خاص في المطلقات، وأما المتوفى عنها فإن عدتها آخر الأجلين، وذلك قول مروي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما.

والصواب من القول في ذلك: أنه عام في المطلقات والمتوفى عنهن؛ لأن الله عز وجل عم ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولم يخصص في هذه الآية مطلقةً ولا متوفى عنها بل شمل كل أولات الأحمال، فإن ظن ظان أن قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ في سياق الخبر عن أحكام المطلقات دون المتوفى عنهن، فالخبر عن حكم المطلقة أولى بالخبر عنهن، وعن المتوفى عنهن، فإن الأمر بخلاف ما ظن، وإن كان في سياق الخبر عن أحكام المطلقات، فإنه منقطع عن الخبر عنهن، بل هو خبر مبتدأ عن أحكام عدد جميع أولات الأحمال المطلقات منهن وغير المطلقات، ولا دلالة على أنه مراد به بعض الحوامل دون بعض، فهو على عمومه[1].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ يعني: يصبر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣ / ٤٥٣.

على طاعة الله تعالى، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ يعني: ييسر له أمره، ويوفقه لطاعته ويعصمه عن معاصيه، ثم قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: هذا الذي ذكر حكم الله وفريضته، ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: أنزله في القرآن على نبيكم، ومن يتق الله ويعمل بأحكامه وفريضته، يكفر عنه سيئاته في الدنيا، ويعظم له أجرًا يعني: ثوابًا في الجنة[1].

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٦٢.

صورٌ من اليأس

صور اليأس متعددة، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، للوقوف عليها لفهمها ومعرفتها، وبالتالي تجنب الوقوع فيها؛ لنهي الله عنها وتحريمها، وفي المقابل دعا إلى الأمل والتفاؤل والثقة بالله عز وجل.

أولًا: اليأس من نصر الله:

نجد في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد وعد عباده المؤمنين بالنصر والنجاة والدفاع والولاية على وجه العموم، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر:٥١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس:١٠٣].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج:٣٨].

عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزا يعز

الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر)[1]، والمسلمون مهما حل بهم من الضيق فإنهم يبقون المخاطبين بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

ولكن ما يراه المسلمون من انتشار الباطل والبطش بهم، وسيطرة وتحكم أعداء الدين في كثير من أمور الاسلام والمسلمين، قد توجد مكانًا لليأس والقنوط و الحزن في نفوسهم من نصر الله عز وجل لهم على أعدائهم، وبيان ذلك على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف:١١٠].

المعنى: «استيأس الرسل: أي: يئسوا من إيمان قومهم، وظنوا أنهم قد كذبوا أي: ظن الأمم المرسل إليهم أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من النصر، ولا يرد بأسنا أي: عذابنا الشديد، عن القوم المجرمين أي: الذين أجرموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي وأجرموا على غيرهم بصرفهم عن الإيمان»[2].

وقرئ: (فننجي)، بالتخفيف والتشديد، من أنجاه ونجاه، على لفظ الماضي المبنى للمفعول.

وقرأ ابن محيصن: فنجا، والمراد فننجي من نشاء أي: المؤمنون؛ لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم. وقد بين ذلك بقوله ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[3].

«يبشر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالنصر ويخبره بسنة إلهية دائمة: وهي مجيء النصر الإلهي للرسل عليهم السلام، عند اشتداد الأزمة وانتظار الفرج الرباني، وتيقن الرسل أن المشركين كذبوهم تكذيبًا لا إيمان بعده، وصمموا على ذلك، ولا انحراف عنه، وتكون العاقبة هي الإتيان بنصر الله فجأة، فينجي الله من يشاء، وهم النبي والمؤمنون معه، ويحل العقاب بالمكذبين الكافرين، ولا يرد بأس الله، أي: لا يمنع عقاب الله وبطشه عن القوم الذين أجرموا، فكفروا بالله، وكذبوا رسله.

وفي هذا تهديد ووعيد لكفار قريش وأمثالهم، لإعراضهم عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وبدعوته، وبما أنزل الله من القرآن المجيد لأن في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا وعيدًا بينا، وتهديدًا صريحًا لمعاصري محمد عليه

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٩٥٧، ٢٨/ ١٥٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٢، رقم ٣.

(٢) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٢/ ٦٥٥.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥١٠.

الصلاة والسلام»[1].

وذكر محمد حجازي أن معنى الآية هو: ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد، حتى إذا يئسوا وظنوا الظنون جاءهم نصرنا وأمرنا، ولا راد لقضاء الله ولا معقب لحكمه، فنجا المؤمنون الذين أراد الله لهم النجاة فآمنوا، أما الكافرون فحاق بهم البأس والعذاب من كل جانب، ولا يرد بأس الله عن القوم المجرمين[2].

ومنطلقًا من ذلك ينبغي أن لا نجعل اليأس يتغلغل في أنفسنا، وإنما علينا أن نتذكر أمرًا مهمًا وهو أنه بين لنا في كتابه العزيز أيضًا كيد أعداء الإسلام ومكرهم وعمق حقدهم وبطشهم بالمسلمين لأخذ الحيطة والحذر منهم، لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم:٤٦].

أي: «مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم وعند الله مكرهم لا يخلوا إما أن يكون مضافا إلى الفاعل على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافا إلى المفعول على معنى: وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلًا لتفاقمه وشدته»[3].

وأعقب ذلك مباشرةً بوعده لأوليائه المؤمنين، بالنصر والعلو والظهور عليهم: لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم:٤٧].

أي: «﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ ما وعدهم من الفتح والنصر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ منيع ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ من الكفار يجازيهم بما كان من سيئاتهم»[4].

فكيف إذًا نتذكر كيد العدو وبطشه فنخشاه، وننسى أو نهمل وعد الله لنا بالعز والنصر والتمكين؟

ويستفاد من ذلك: أن المؤمنين حقًا هم الذين لا يجعلون لليأس مكان في قلوبهم مهما حصل معهم في المعارك، وما رأوه على أرض الواقع، وإنما يستفيدون من ذلك، ويتخذون الأسباب المؤدية بهم إلى النصر والفتح والظهور على الدين كله، من تربيةٍ وإعدادٍ، وأخوةٍ إيمانيةٍ، وصفٍ موحدٍ

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١١٤٣.
(٢) انظر: التفسير الواضح، ٢/ ٢١١.
(٣) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥٦٥.
(٤) الوجيز، الواحدي، ص٤٨٦.

بينهم، مع الثقة الكبيرة بنصر الله سبحانه وتعالى لهم، وإلا فإن نصر الله للمسلمين وهم على ما هم عليه من الفرقة والشتات والرخاوة والضعف، لن يتحقق فيضيعون بذلك، ويضيعون معهم الأمة، ويقضى على الإسلام، والله المستعان.

ثانيًا: اليأس من رحمة الله:

قد يعتري الإنسان جهلٌ بربه سبحانه وتعالى وبحقيقة سننه في تعامله مع عباده، القائمة على أساس الرحمة والعفو والتسامح، وفتح باب التوبة والإنابة إليه، وجهله بذلك يجعله يسيء الظن بربه.

وقد ذكر الله ذلك في كتابه، في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

كيف وإن وجدت أسباب تدفعه للوصول إلى مرحلة اليأس من رحمة الله سبحانه وتعالى؟ وتلك الأسباب هي:

١. اقتراف الذنوب.

حينما يدرك الانسان أن ذنوبه كثيرة، كما يقال مثل زبد البحر، نتيجة فعله المعاصي والآثام والإكثار منها، فيصل إلى مرحلة يظن فيها أن الله سبحانه وتعالى لن يسامحه ولن يكفر عنه ذنوبه، وبالتالي لن يرحمه دنيا وآخرة، وهذا غير صحيح بدليل قوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣].

قال ابن عباسٍ: نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلهًا آخر وقتلنا النفس التي حرم الله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عمر: نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفرٍ من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا، فكنا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرفًا ولا عدلًا أبدًا، قومٌ أسلموا ثم تركوا دينهم بعذابٍ عذبوا به، فنزلت هذه الآيات، وكان عمر كاتبًا، فكتبها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وأولئك النفر فأسلموا وهاجروا.

وعن ابن جريجٍ قال: حدثني يعلى بن مسلمٍ أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباسٍ أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسنٌ لو تخبرنا أن لما عملناه كفارةً، فنزلت هذه الآية [(١)].

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي ص٣٧٠.

والمقصود من هذه الآية الكريمة:

دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه، ولا يقنطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة:١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:١١٠].

وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦][1].

فها هي رحمته الواسعة التي تسع كل معصية أيًا كانت، فتدعوا العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال، إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله، فإنه رحيم بعباده، يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد، ويأخذ عليهم كل طريق، فسرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده، فينحرف ويقع في المعاصي.

فالله سبحانه وتعالى يعلم كل هذا فيمد له في العون ويوسع له في الرحمة ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط، وبعد أن يلج في المعصية، ويسرف في الذنب، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره، ولم يعد يقبل ولا يستقبل، في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط، يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف، الذي يدعوه إلا التوبة وحدها، وهو الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان[2].

وذكر الخازن في تفسيره: «أن الآية فيها تنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا مخلص له من العذاب، فإن اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله إذ لا أحد من العصاة إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة، ومعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي: إذا تاب وصحت التوبة غفرت ذنوبه، ومن مات قبل أن يتوب فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى فإن شاء غفر له وعفا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/١٠٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/٣٠٥٨.

عنه وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم يدخله الجنة بفضله ورحمته، فالتوبة واجبة على كل أحد، وخوف العقاب مطلوب فلعل الله تعالى يغفر مطلقا ولعله يعذب ثم يعفو بعد ذلك والله أعلم»[1].

٢. وقوع الكرب.

الله سبحانه وتعالى يبتلي المؤمنين بالكرب ومختلف أنواع الابتلاءات؛ لاختبارهم واختبار قوة إيمانهم وثباتهم على منهجه ودينه وطريقه، فالدنيا دار ابتلاء وامتحان، وأشد الناس ابتلاءً الأنبياء، بدليل سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاء؟، قال: (الأنبياء فالأمثل ثم الأمثل، ثم يبتلى المؤمن على قدر إيمانه فإن كان إيمانه)[2].

ومن أمثلة ما تعرض له الأنبياء من البلاء الشديد ما حصل مع نبي الله إبراهيم مع ولده يؤكد ذلك حين خضع كلاهما لمحنة، حينما أمر الله -عز وجل- إبراهيم -عليه السلام- بذبح ابنه -عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات:١٠٢].

فكيف سيكون موقف كلًا منهما، فما كان إلا أن أطاعوا أمر الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات:١٠٣ - ١٠٧].

إذًا الله سبحانه وتعالى وحده الذي يفرج الكروب، وهو بذلك كريم مع عباده، رحيم بهم، وما حصل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تأخر الوحي، فقال المشركون: إن محمدًا ودعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى:١ - ٨].

أي: ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبك، وهذا ردٌ على المشركين حين قالوا: هجره ربه[3].

وأسباب ذلك عن جندبٍ قال: قالت امرأةٌ من قريشٍ للنبي صلى الله عليه وسلم

(١) لباب التأويل، ٤/ ٦١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٨، ٤/ ٦٠١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٣٠، رقم ٩٩٢.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٢٦٦، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٥٤٥.

ما أرى شيطانك إلا قد ودعك، فأنزل الله هذه الآية.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه قال: أبطأ جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فجزع جزعًا شديدًا، فقالت له خديجة: قد قلاك ربك لما يرى من جزعك، فأنزل الله هذه الآية[1].

فهل من المعقول أن يترك الله - سبحانه وتعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم في أوقات الشدة والكرب والمواجهة مع المشركين؟

وما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه السلام أيضًا عندما جاءته البشرى بالولد في سنٍ كبير أبدى تعجبه فقال: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر:٥٤].

فردت عليه الملائكة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الحجر:٥٥].

فرد عليهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥٦].

ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي: من الآيسين من ذلك، فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشرًا من غير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر، وكان استعجاب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة[2].

ومن فهم من الآية أو ظن أن نبيه إبراهيم عليه السلام يئس من رحمة ربه، فنرد على ذلك بما يأتي:

قولهم: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ لا يدل على أنه كان كذلك، واثبات ذلك يكون بالأدلة الآتية:

أولًا: بدليل أنه صرح في جوابهم بما يدل على أنه ليس كذلك فقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

ثانيًا: الإنسان إذا كان عظيم الرغبة في شيءٍ وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره ويصير ذلك الفرح القوي كالمدهش له والمزيل لقوة فهمه وذكائه فلعله يتكلم بكلماتٍ مضطربةٍ في ذلك الفرح في ذلك الوقت.

ثالثًا: إنه يستطيب تلك البشارة فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرةً أخرى ومرتين وأكثر طلبًا للالتذاذ بسماع تلك البشارة، وطلبًا لزيادة الطمأنينة والوثوق مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

رابعًا: استفهم أبأمر الله تبشرون أم من

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص٤٥٨.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٢١٣.

عند أنفسكم واجتهادكم؟ [1]

وما حصل مع نبي الله يعقوب عليه السلام من فقدان ابنه يوسف عليه السلام وما فعله إخواته به، فطلب منهم البحث عنه وخاصة عندما حدثوه عن سيرة الملك في مصر، ومن ثم تيقن منهم أنه حي، وأوصاهم بعدم اليأس من رحمة الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧].

والمعنى: أن يعقوب عليه السلام طمع في يوسف، فأمرهم بالرجوع إلى الموضع الذي أتوا منه يلتمسون يوسف، وأخاه: يعني: بنيامين شقيق يوسف، ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ أي: «لا تقنطوا من أن يروح الله عنا ما نحن فيه من الحزن، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾: أي: لا يقنط من فرجه، ولا يقطع رجاءه منه إلا الكافرون، وقيل: إنه أمرهم أن يرجعوا إلى الذي احتال عليهم في أخيهم، وأخذ منهم، فيسألوا عنه، وعن مذهبه» [2].

وذكر أن معنى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ «فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: من رحمة الله، قاله ابن عباس، والضحاك.

والثاني: من فرج الله، قاله ابن زيد.

والثالث: من توسعة الله، حكاه ابن القاسم.

قال الأصمعي: الروح: الاستراحة من غم القلب» [3].

وذكر الثعلبي في كتابه أن معناها: سيروا واطلبوا الخبر، من يوسف وأخيه: وهو تفعلوا من الحس يعني: تتبعوا، قال ابن عباس: التمسوا، ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ﴾ أي: لا تقنطوا، ﴿مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ أي: من فرج الله.

وذكر الحسن وقتادة: أن نبي الله يعقوب لم ينزل به بلاء قط إلا أتى حسن ظنه بالله من ورائه، وما ساء ظنه بالله ساعة قط من ليل أو نهار [4].

فالمؤمن بالله عز وجل يرجوه في الشدائد، ويشكره ويحمده في الرخاء، فما عليه إلا أن يتوجه بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى ومن رحمته يلبي لهم ما يرغبون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة:١٨٦].

والمعنى: «يقول الله جل جلاله: في جواب رجل سأل: هل قريب ربنا فنناجيه، أو بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩/ ١٥١ بتصرف.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٥/ ٣٦٢٢.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٦٦.
(٤) الكشف والبيان، ٥/ ٢٥١ باختصار.

﴿عَنِّي﴾ فقل لهم: فإني قريبٌ إليهم من أرواحهم لأشباحهم، ومن وسواس قلوبهم لقلوبهم، علمًا وقدرة وإحاطة، أجيب دعوة الداعي إذا دعان، سرًا أو جهرًا، ليلًا أو نهارًا، على ما يليق بحاله في الوقت الذي نريد، لا في الوقت الذي يريد، فليستجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، أسلك بهم طريق المعرفة، وليؤمنوا بي إني قريب منهم فيستحيوا مني، حياء من يرى أني معه حيث كان، لعلهم يرشدون إلى سلوك طريقتي ودوام محبتي»[1].

فالله رحيم بعباده ينشر رحمته عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

فعلى المؤمن أن يدرك ذلك ولا يجعل اليأس يتمكن من نفسه، فكيف يتطرق اليأس إلى النفس وهي تطالع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

أم كيف يتمكن منها الإحباط وهي تعلم أن كل شيء في هذا الكون إنما هو بقدر الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

ولذلك لابد أن يظن العبد بربه الظن الخير، ويثق برحمته الواسعة، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما يشاء)[2].

فإذا أيقن بهذا فكيف ييأس؟ إنه عندئذٍ يتلقى الأمور بإرادة قوية ورضىً تام، وعزم صادق على الأخذ بأسباب النجاح.

ويستفاد من ذلك: أن المؤمن حقًا هو من يثق بالله سبحانه وتعالى ثقة كبيرة بأنه لن يضيعه ولن يظلمه بما ابتلاه به، وإنما يمتحنه ويكتب له الخير في الدنيا والآخرة، ومن أدرك ذلك لن ييأس أبدًا من رحمة الله.

ثالثًا: اليأس من حصول النعم وزوال النقم:

الله سبحانه وتعالى يقدر أرزاق العباد، فكل دابة على الأرض فعلى الله رزقها، وهذا من لطف الله بعباده، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى:١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ

(١) البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، رقم ٧٤٠٥، ٩/ ١٢١.

﴿حِسَابٍ﴾ [البقرة:٢١٢].

وقوله أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم:٣٧].

وكل ذلك لحكمة يقضيها الله سبحانه وتعالى لاختبار من يصبر ويشكر، ولكن الجهل بهذا يدفع الناس إلى اليأس والقنوط من حصول النعم لهم، وإزالة النقم عنهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم:٣٦].

والمعنى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: الخصب وكثرة المطر فرحوا بها أي: فرحوا وبطروا، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: جدب وقلة مطر، وقيل: خوف وبلاء بما قدمت أيديهم من السيئات، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: ييأسون من رحمة الله [(١)].

وذكر الماوردي في كتابه أن قوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ فيها وجهان: أحدهما: أنها العافية والسعة، والثاني: النعمة والمطر، ويحتمل ثالثًا: أنها الأمن والدعة، ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ أي: بالرحمة، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ فيها وجهان: أحدهما: بلاء وعقوبة، والثاني: قحط المطر، ويحتمل ثالثًا: أنها الخوف والحذر، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بذنوبهم، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فيها وجهان: أحدهما: أن القنوط اليأس من الرحمة والفرج، قاله الجمهور، والثاني: أن القنوط ترك فرائض الله في اليسر، قاله الحسن، وهذا علامة غير المؤمنين، فأما علامة المؤمنين فهو شكر الله عند النعمة، ورجاء الكشف عند الشدة [(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس:٢١].

والمعنى: «أصبنا الناس رحمةً، يعني: المطر، ويقال: العافية من بعد ضراء مستهم من بعد القحط، ويقال: من بعد الشدة والبلاء أصابتهم، ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ يعني: تكذيبًا بالقرآن، ويقال: تكذيبًا بنعمة الله تعالى، ويقولون: سقينا بنوء كذا ولا يقولون: هذا من رزق الله تعالى، ويقال يعني: قولهم بالطعن والحيلة ليجعلوا لتلك الرحمة سببًا آخر، ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ يعني: أشد عذابًا وأشد أخذًا» [(٣)].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم:٣٣].

والمعنى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ سوء حال من الجوع والقحط واحتباس المطر

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٩٢، مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٧٠١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٤/ ٣١٥، تفسير القرآن، السمعاني، ٤/ ٢١٤.

(٣) تفسير السمرقندي، ٢/ ١١٠.

والمرض والفقر وغير ذلك من أنواع البلاء، ﴿دَعَوَا رَبَّهُم﴾ أي: حال كونهم منيبين إليه راجعين اليه من دعاء غيره لعلمهم أنه لا فرج عند الأصنام ولا يقدر على كشف ذلك عنهم غير الله، ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ﴾ من عنده ﴿رَحْمَةً﴾ خلاصًا وعافيةً من الضر النازل بهم؛ وذلك بالسعة والغنى والصحة ونحوها، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجأ فريق منهم بالعود الى الإشراك بربهم الذي عافاهم، وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما ان بعضهم ليسوا كذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان:٣٢] أي: مقيم على الطريق القصد أو متوسط في الكفر لانجراره في الجملة[(١)].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت:٥١].

وهذا كله خلاف وصف المؤمن فانه يشكر عند النعمة، ويرجو عند الشدة، لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود:١٠-١١].

ذكر الطبري في تفسيره: أن معناها ولئن نحن بسطنا للإنسان في دنياه، ورزقناه رخاءً في عيشه، ووسعنا عليه في رزقه، وذلك هي النعم التي ذكرها في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾، وقوله: ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾، يقول: بعد ضيق من العيش كان فيه، وعسرة كان يعالجها، ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ ليقولن عند ذلك: ذهب الضيق والعسرة عني، وزالت الشدائد والمكاره، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: إن الانسان لفرح بالنعم التي يعطاها مسرور بها، ﴿فَخُورٌ﴾ أي: ذو فخر بما نال من السعة في الدنيا، وما بسط له فيها من العيش، ويدع طلب النعيم الذي يبقى، والسرور الذي يدوم فلا يزول.

ثم استثنى الله جل ثناؤه من الإنسان الذي وصفه بهاتين الصفتين: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم إن تأتهم شدة من الدنيا وعسرة فيها، لم يثنهم ذلك عن طاعة الله، ولكنهم صبروا لأمره وقضائه، فإن نالوا فيها رخاء وسعةً، شكروه وأدوا حقوقه بما آتاهم منها، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ يغفرها لهم، ولا يفضحهم بها في معادهم، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ولهم من الله مع مغفرة ذنوبهم، ثوابٌ على أعمالهم الصالحة التي عملوها في دار الدنيا، جزيلٌ، وجزاءٌ عظيم[(٢)].

وذكر ابن عجيبة في كتابه أن معنى

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي، ٧/ ٣٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٦١.

(٢) جامع البيان، ١٥/ ٢٥٥-٢٥٨ باختصار.

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: على الضراء إيمانًا بالله، واستسلامًا لقضائه، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ شكرًا لآلائه، سابقها ولاحقها، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أقله الجنة، وغايته النظرة.

و يستفاد من ذلك: الإشارة إلى أنه ينبغي للعبد أن يكون شاكرًا للنعم، صابرًا عند النقم، واقفًا مع المنعم دون النعم، إن ذهبت من يده نعمة رجى رجوعها، وإن أصابته نقمة انتظر انصرافها، والحاصل أنه يكون عبد الله في جميع الحالات.

وروي عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: (ثلاث من رزقهن رزق خير الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على الأذى، والدعاء في الرخاء)[1].

رابعًا: اليأس من الهداية:

الله سبحانه وتعالى من رحمته بعباده أن أعطاهم العقل، وأرسل إليهم الرسل لهدايتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتعليمهم وإرشادهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى:٧].

فمن أطاع نفع نفسه ومن عصى ضر نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس:١٠٨].

وقال أيضًا: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

ودعاهم أيضًا إلى الحق وحذرهم من الباطل ثم تركهم يختارون ما يريدون، لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

والهداية بيد الله سبحانه وتعالى فضل من الله ومنة، والضلالة عدلًا منه، لم يظلم خلقه فيها، للأسباب التي ذكرت آنفًا، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام:١١٧].

وقال تعالى أيضًا: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران:٧٣-٧٤].

ولو شاء الله لهدى الناس جميعًا، فلا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء، لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ

(١) انظر: البحر المديد، ٢/ ٥١٥.

﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام:١٤٩].

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥].

ولكن جعلهم مختلفين لحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٨-١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل:٩٣].

والنبي صلى الله عليه وسلم كان حريصًا كل الحرص على هداية البشرية، ولكن الله سبحانه وتعالى بين له ولغيره من المسلمين أنهم ليس عليهم إلا البيان والبلاغ والدلالة على الهدي وعدم الإكراه عليه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤].

وما عداها كله بيد الله سبحانه وتعالى لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص:٥٦].

فيهدي من أطاعه، وأقبل عليه، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد:١٧].

ولا يهدي من عصاه، وأعرض عنه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

وقوله أيضًا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل:٩].

إذًا منح الانسان ما يعينه على الاختيار دون اجبار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣].

فيتحمل نتيجة ذلك، أما بالنسبة للموانع التي تمنع الناس من الدخول في الدين الاسلامي فهي كثيرة مثل الأنفة وحب الذات، التمسك بدين الآباء والأجداد، حب الأموال والشهوات، وحب الرئاسة والسيطرة كل ذلك أدى إلى عدم الوصول إلى طريق الهداية، وبالتالي فقدان الأمل لتحقيق ذلك، مما جعلهم يبقوا على ما هم عليه، رغم الجهود الحثيثة لهدايتهم وتنفيذ كل ما يطلبونه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَايْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد:٣١].

عن عبد الله بن عطاءٍ، عن جدته أم عطاءٍ مولاة الزبير قالت: سمعت الزبير بن العوام يقول: قالت قريشٌ للنبي صلى الله عليه وسلم تزعم أنك نبيٌّ يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى فادع الله تعالى أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهارًا فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله تعالى أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهبًا فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم، فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سري عنه قال: (والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا من باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة ولا يؤمن مؤمنكم فاخترت باب الرحمة وأن يؤمن مؤمنكم، وأخبرني إن أعطاكم ذلك، ثم كفرتم أنه معذبكم عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين)، فنزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩].

حتى قرأ ثلاث آياتٍ ونزلت: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ (١).

ونزل لما قالوا له إن كنت نبيًا فسير عنا جبال مكة واجعل لنا فيها أنهارًا وعيونًا لنغرس ونزرع، وابعث لنا آباءنا الموتى يكلمونا أنك نبي، ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ نقلت عن أماكنها ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ﴾ شققت ﴿بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ بأن يحيوا لما آمنوا ﴿بَلۡ لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾ لا لغيره فلا يؤمن إلا من شاء إيمانه دون غيره إن أوتوا ما اقترحوا (٢).

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا في أن يفعل الله ما سألوا فيؤمنوا فنزل: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني: الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين- من إيمان هؤلاء، أي: ألم ييأسوا علمًا وكل من علم شيئًا يئس من خلافه، يقول: ألم ييئسهم العلم، ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾، من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: نازلة وداهيةٌ تقرعهم من أنواع البلاء أحيانًا بالجدب، وأحيانًا بالسلب، وأحيانًا بالقتل والأسر.

وقال ابن عباسٍ: أراد بالقارعة: السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثهم إليهم، ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ يعني: السرية أو

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص٢٧٤.

(٢) انظر: تفسير الجلالين، المحلي و السيوطي، ١/ ٣٢٧.

القارعة، ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، وقيل: ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أي: تنزل أنت يا محمد بنفسك ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾، قيل: يوم القيامة. وقيل: الفتح والنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله تسليةً لنبيه صلى الله عليه وسلم [(١)].

وذكر في تفسير اللباب في علوم الكتاب أن معنى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: «ألم ييأس هؤلاء من إيمان الكفار من قريش، وذلك أنهم لما سألوا هذه الآيات طمعوا في إيمانهم وطلبوا نزول هذه الآيات ليؤمن الكفار، وعلم الله أنهم لا يؤمنون فقال: أفلم ييأس الذين آمنوا من آيات الكفار، أي: ييأسوا من إيمانهم» [(٢)].

وذكر في زاد المسير في علم التفسير أن معنى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: أفلم يتبين، وهذا قول مجاهد، وعكرمة، وغيرهم.

والثاني: أفلم يعلم، روي عن ابن عباس. وقال ابن قتيبة: هي لغة للنخع (ييأس) بمعنى (يعلم).

والثالث: أن المعنى: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا واحدًا، ولو شاء الله لهدى الناس جميعًا، قاله أبو العالية.

والرابع: أفلم ييأس الذين آمنوا أن يؤمن هؤلاء المشركون، قاله الكسائي، والمعنى: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون؛ لأنه لو شاء لهدى الناس جميعًا [(٣)].

فبعد كل ذلك يخاطب الله عز وجل نبيه في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام:٣٥].

والمعنى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عظم ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ تكذيبهم ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ قدرت ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾ أي: أن تطلب ﴿نَفَقًا﴾ سربًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فتدخل فيه ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أو سببا وطريقًا تصعد فيه إلى السماء ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ يقول تنزل بالآية التي طلبوها فلتفعل، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ على التوحيد ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بمقدوري عليهم بالكفر [(٤)].

ورغم ما طلبوه من المعجزات والأدلة والبراهين التي أظهرها الله عز وجل إلا أنهم

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١١/ ٣٠٦.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٩٦.
(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، الفيروزآبادي ص١٠٨.

بقوا على كفرهم ولم يهتدوا وإنما استمروا بالمماطلة والاستهزاء، لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد:٢٧].

والمعنى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ستروا ما دعتهم إليه عقولهم من الخير وما لله من الآيات عنادًا ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلا ولم لا.

ولما كان ما تحقق أنه من عند الملك لا يحتاج إلى السؤال عن الآتي به، بني للمفعول قوله: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ءَايَةٌ﴾ أي: علامة بينة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: المحسن إليه بالإجابة لما يسأله لنهتدي بها فنؤمن به، وأمره بالجواب عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المعاندين: ما أشد عنادكم حيث قلتم هذا القول الذي تضمن إنكاركم لأن يكون نزل إلي آية مع أنه لم يؤت أحد من الآيات مثل ما أوتيت، فعلم قطعًا أنه ليس إنزال الآيات سببًا للإيمان بل أمره إلى الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: الذي لا أمر لأحد معه ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله ممن لم يتب، بل أعرض عن دلالة العقل، ونقض ما أحكمه من ميثاق القاطعة بأحقية ما دعت إليه الرسل لما جبل عليه قلبه من الغلظة، فصار بحيث لا يؤمن ولو نزلت عليه كل آية؛ لأنها كلها متساوية الأقدام في الدعوة إلى ما دعا إليه العقل لمن له عقل، ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ عند دعاء الداعين ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: طاعته، ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أي: من كان قلبه ميالًا مع الأدلة راجعًا إليها[1].

وذكرت نعمة الله النخجواني أن الآية بينت خبث طينتهم ورداءة فطرتهم وذلك كالتالي: «يقول الذين كفروا بك وبكتابك ودينك لولا أنزل عليه آيةٌ ملتجئة لنا بالإيمان من ربه مع أنه يدعى التأييد من لدنه، ومع شدة شغفه وحرصه لأن نؤمن له، قل لهم يا أكمل الرسل ما علي إلا البلاغ، إن الله المطلع لضمائر عباده يضل من يشاء بمقتضى علمه وعدله لمن أراد إضلاله وانتقامه، ويهدي إليه على مقتضى جوده من أناب إليه عن ظهر القلب إذ كل ميسر لما خلق له»[2].

ويستفاد من ذلك: عدل الله سبحانه وتعالى ورحمته الواسعة بعباده، فقد أقام الحجة عليهم بتقديم كل ما يعينهم ويرشدهم إلى طريق الهداية والرشاد، وتحذيرهم من طريق الضلال والضياع، والخيار بأيديكم أيها العباد.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٠ / ٣٣٦.
(٢) الفواتح الإلهية، النخجواني ١/ ٣٩٥.

خامسًا: يأس الكافرين من ارتداد المسلمين عن دينهم:

الكافرين بالله سبحانه وتعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم بذلوا كل الجهود الجبارة، وأنفقوا كل غالٍ ورخيص، واستعملوا مختلف الوسائل والأساليب لصد الناس عن دين الله، بمنعهم من الدخول فيه، أو رجوعهم عن دينهم، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك لقوة إيمان المؤمنين، وتقواهم، وثقتهم الكبيرة بالله سبحانه وتعالى بحمايتهم ونصرهم على أعدائهم، مما وصل الحال بالكافرين إلى اليأس والقنوط من ارتدادهم عن دينهم.

قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة:٣].

والمعنى: كانت قريش تزعم أنها تملك من القوة ما تجعل دين الإسلام لا يظهر وأنها قادرة على أن ترد محمدا صلى الله عليه وسلم ومن آمن به عما هم عليه، ولهذا جلبوا الجيوش وجيشوا الأحزاب عبر سنين طويلة حتى قال أبو سفيان يوم أحد: «أعلو هبل لنا العزى ولا عزى لكم»، ولما سأله هرقل عن الحال قال: الحرب بيننا وبينه سجال، وما زالت قريش تجلب بخيلها ورجلها وخيلائها تريد أن توقف ظهور الإسلام، ولما كان فتح مكة أيقن القريشيون أن ما يبتغونه من عدم إظهار الدين قد انقطع بالكلية فيئسوا من أن يجعلوا الإسلام يتوقف عن الظهور، هذا هو معنى قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ أي: يئسوا أن يمنعوا دينكم من الظهور؛ لأن دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة كان شأنًا عظيمًا فقد خرج منها صلوات الله وسلامه عليه بعد أن ائتمروا عليه ثم بعد ثمانية أعوام من خروجه عاد عليه الصلاة والسلام.

فظاهر أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وظهور دينه يقتضي أن يأس الكفار عن الرجوع إلى دينهم قد كان وقع منذ زمان، وإنما هذا اليأس من اضمحلال أمر الإسلام وفساد جمعه لأن هذا أمر كان يترجاه من بقي من الكفار ألا ترى إلى قول أخي صفوان بن أمية في يوم هوازن حين انكشف المسلمون وظنها هزيمة ألا بطل السحر اليوم، إلى غير هذا من الأمثلة، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعم مشركي العرب وغيرهم من الروم والفرس وغير ذلك، وقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ فإنما نهى المؤمنين عن خشية جميع أنواع الكفار وأمر بخشيته تعالى التي هي رأس كل عبادة [1].

وقال الطبري أن معنى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ أي: الآن انقطع طمع الأحزاب وأهل الكفر والجحود، أيها المؤمنون، من دينكم أي: أن تتركوه فترتدوا

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ١٥٤.

عنه راجعين إلى الشرك [1].

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ يعني: فلا تخشوا الكفار في عبادتي واخشوني في اتباعهم، فقال: أعجز الناس من خشي من لا ينفعه ولا يضره، والذي بيده النفع والضر يخاطبه بهذه الآية [2].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة:١٣].

«نزلت في ناسٍ من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين ويواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم، فنهاهم الله تبارك وتعالى عن ذلك» [3].

والمعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تصادقوا يا معشر المؤمنين الكفرة أعداء الدين، ولا تتخذوهم أحباء وأصدقاء توالونهم وتأخذون بآرائهم، فإنهم قوم غضب الله عليهم ولعنهم، قال الحسن البصري: هم اليهود.

وقال ابن عباس: هم كفار قريش، والظاهر أن الآية عامة كما قال ابن كثير: يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه، ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: أولئك الفجار الذين يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها، كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور، من أمواتهم أن يعودوا إلى الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا، فقد كانوا يقولون إذا مات لهم قريب أو صديق: هذا آخر العهد به، ولن يبعث أبدًا [4].

وذكر الزحيلي في تفسيره أن معنى الآية هو: أي يا أيها المؤمنون برسالة الإسلام لا تتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم ولعنهم واستحقوا الطرد والإبعاد من رحمته، أولياء وأنصارا وأصدقاء، وقد يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل وأصبحوا لا يوقنون بالآخرة بسبب كفرهم وعنادهم، بالرغم من قيام الأدلة والبينات والمعجزات على الإيمان بالله واليوم الآخر، كيأسهم من بعث موتاهم، لاعتقادهم عدم البعث، وسبب يأسهم من الآخرة تكذيبهم بصحة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم [5].

ويستفاد من ذلك: أن المؤمن لا بد أن يكون قوي في إيمانه لا يسمح لأي ضغوطات سواء أكانت داخلية أم خارجية أن تؤثر به، وتزعزعه عن دينه، الذي هو بمثابة نجاة لهم في الدنيا والآخرة، وتفقده الثقة الكبيرة بالله - سبحانه وتعالى.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٥١٦، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٤٤٦.
(٢) انظر: تفسير التستري ١/ ٥٨.
(٣) أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص٤٢٥.
(٤) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٣٤٧، التفسير الواضح، محمد الحجازي، ٣/ ٦٦٣.
(٥) التفسير المنير، ٢٨ / ١٥٥ باختصار.

أسباب اليأس

اليأس صفة مذمومة، وأسبابها كثيرة، فلا بد من الإشارة إلى هذه الأسباب بالشرح والبيان والتفصيل، ليعي أصحاب الأفهام والعقول، لتجنب محصول اليأس المذموم، والنجاة من الوصول إليها بالمعقول سواء كانت أي سبب من الأسباب.

أولًا: الكفر والمعاصي:

نعم الله سبحانه وتعالى على العباد كثيرة وأعظم هذه النعم نعمة الاسلام، التي هي نجاة العبد في الدنيا والآخرة، وإذا أراد الله عز وجل بالإنسان خيرًا توفاه على الإسلام، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عندما يدعو يقول: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[1].

ولكن من العباد من أراد أن يختار طريقًا آخرًا غير طريق الاسلام، فضاعوا وخسروا في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

واختيارهم هذا الطريق أي- طريق الكفر والضلال- وانغماسهم فيه وعدم قيامهم بأي عمل يقربهم من الله عز وجل ويرجو رحمته؛ ولذلك كان سببًا من الأسباب الموصلة بهم إلى اليأس من رحمة الله عز وجل وقد وصفهم الله بذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥٦].

والمعنى: أي قال إبراهيم عليه السلام للضيف: لا ييأس من رحمة الله إلا من أخطأ سبيل الصواب، وغفل عن رجاء الله الذي لا يخيب من رجاه، فضل بذلك عن الرأي القيم، وهذا كقول يعقوب: ﴿لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وخلاصة مقاله: إنه نفى القنوط عن نفسه على أتم وجه، وتم الإشارة إلى ذلك سابقًا ، فكأنه قال: ليس بي قنوط من رحمته تعالى، لكن حالي تنافي فيض تلك النعم الجليلة التي غمرني بها، وتوالي المكرمات التي شملت آل هذا البيت[2].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت:٢٣].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/٥٣٨، رقم ٣٥٢٢.
قال الترمذي: حديث حسن.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/٨٧١، رقم ٤٨٠١.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٤/٣٤.

والمعنى: يخبر الله سبحانه وتعالى من هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، هم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاءوهم به، وكذبوا بلقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أي: فلذلك لم يعلموا سببًا واحدًا يحصلون به على الرحمة، وإلا لو طمعوا في رحمته، لعملوا لذلك أعمالًا، والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياس الكفار منها، وتركهم جميع سبب يقربهم منها، وإياس العصاة، بسبب كثرة جناياتهم، فملكت قلوبهم، فأحدث لها الإياس، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: مؤلم موجع [1].

وذكر محمد الشعراوي في تفسيره: أنه إن أصر الكافر على كفره وعبادته للأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولم تجد معه موعظة ولا تذكير فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله؛ لأنه عبد أولياء لا ينفعونه بشيء وكفر بي، فليس له من يحميه مني، ولا من ينصره من الأصنام التي عبدها، فليس له إلا اليأس.

واليأس: قطع الرجاء من الأمر، وقد قطع رجاء الكافرين؛ لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر، وكفروا بمن بيده النفع، وبيده الضر.

فكفروا بآيات القرآن الحاملة للأحكام، فلم يصدقوا منها شيئًا، وما داموا قد كفروا بهذه الآيات، وكفروا أيضًا بلقاء الله في الآخرة؛ فرحمة الله بعيدة عنهم، وهم يائسون منها، لذلك كانت عاقبتهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [2].

ويستفاد من ذلك: مجاهدة النفس للكفر والعصيان بالطاعة والذكر والعمل الصالح؛ لنيل رحمته ومغفرته، وإلا فاليأس والقنوط مسيطره.

ثانيًا: فقدان النعم ونزول البلاء:

كثير من الناس ينغمسون في النعم الكثيرة التي أنعماها الله سبحانه وتعالى عليهم، فينسون أنفسهم وآخرتهم، ويتمتعون بغير حساب لأي شيء يتوقعونه؛ لأن مع كثرت النعم اغتر الانسان، ونسي أن كل ذلك فضل من الله سبحانه وتعالى وبالتالي لم يشكره ويحمده على ذلك، وهذا يجلب سخط الله وغضبه عليهم، ونزع النعمة عنهم، وإنزال البلاء بهم، فما كان منهم إلا أن صدموا لفقدانها وزوالها؛ لاستبعادهم حصول ذلك، والحاصل بهم سببًا عندهم من الأسباب الموصلة بهم إلى اليأس والقنوط، ويتم بيان ذلك على النحو التالي:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٢٩ بتصرف.

(٢) تفسير الشعراوي، ١٨ / ١١١٢٤ باختصار.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود:٩].

في هذه الآية صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، ويطغى عليه ما يلابسه فلا يتذكر ما مضى ولا يفكر فيما يلي، فهو يؤوس وكفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه، مع أنها كانت هبة من الله له، فلا يحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه فعجبًا لهذا الانسان [(١)].

وقال أبو زهرة: في هذا النص بيان لطبيعة النفس التي تخضع للحس دون العقل المدرك الذي يوازن بين الماضي والحاضر ويضبط نفسه ووجدانه، بل يكون هلوعًا عندما يصيبه ما يسوؤه، وطموعًا أشرًا بطرًا عندما ينال خيرًا ويذهب عنه ما يسوؤه، فإذا أصابه خير بطر، وإذا أصابه سوء جزع، على غير المؤمن المدرك صبور لا تبطره النعمة، ولا توئسه النقمة، وهو يضبط نفسه، وضبط النفس والصبر متلازمان لا يفترقان.

ومعنى قوله: ﴿أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ أي: جعله يذوق ويحس متنعما، وأضاف سبحانه وتعالى ذلك إليه لبيان عظمها وأنها منحة جليلة، وسماها سبحانه: ﴿رَحْمَةً﴾ لوجوب شكرها وبيان أنه أعطاها لتكون مصدر خير للناس تعم ولا تخص، فهي ليست له خاصة ولكن ليكون شكرها نفعًا للناس.

وقوله: ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ يشير إلى التفاوت بين العطاء الكريم والنزع الحكيم، وفيه تفاوت بين العطاء والنزع، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم، وفيه بيان أن نعيم الدنيا ليس بدائم بل فيها العطاء والمنع، ونعيم الآخرة دائم غير مجذوذ.

ثم بعد ذلك الانتقال إلى حال شديدة مؤكدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ بصيغة المبالغة الدالة على الهلع والجزع واليأس من رحمة الله التي لا ييأس منها إلا القوم الكافرون، وكان القول: ﴿كَفُورٌ﴾؛ لأنه لا يرجو الله ولا يؤمن بما عنده.

وجواب القسم فيها تأكيد لعمق يأسه واستيلائه عليه وكفره؛ وكل ذلك لأنه مادي لا يؤمن إلا بالمادة ولا يرجو ما عند الله الذي يعطي ويمنع ويعز ويذل، وهذا حال الإنسان الذي لا يؤمن إلا بالدنيا، إذا كان المنع بعد العطاء [(٢)].

وقال الطبري في تفسيره أن معنى قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا﴾ أي: رخاء وسعةً في الرزق والعيش، فبسطنا عليه من الدنيا

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ١٨٦٠.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، ٧/ ٣٦٧٣ بتصرف.

وهي: (الرحمة) التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذا الموضع، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ أي: ثم سلبناه ذلك، فأصابته مصائب أجاحته فذهبت به، ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾، أي: يظل قنطًا من رحمة الله، آيسًا من الخير.

وقوله: ﴿لَيَـُٔوسٌ﴾، من قول القائل: «يئس فلان من كذا، فهو يئوس، إذا كان ذلك صفة له.

وقوله: ﴿كَفُورٌ﴾ يقول: هو كفور لمن أنعم عليه، قليل الشكر لربه المتفضل عليه، بما كان وهب له من نعمته [(١)].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت:٤٩].

والمعنى: «أي وإن مسه البلاء، والشدة، والفقر، والمرض فيؤوس من روح الله قنوطٌ من رحمته، وقيل: يؤوس من إجابة دعائه قنوطٌ بسوء الظن بربه، وقيل: يؤوس من زوال ما به من المكروه، قنوطٌ بما يحصل له من ظن دوامه، وهما صيغتا مبالغةٍ يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط» [(٢)].

ويستفاد من ذلك: شكر الله سبحانه وتعالى وحمده على نعمه الكثيرة، والاقتناع بحكمته وعدله في كل ما يقدره، وتحمل البلاء بالصبر والمثابرة وقهر اليأس بالإيمان.

(١) انظر: جامع البيان، ١٥/ ٢٥٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٥٩٨.

ثالثًا: الجهل بسنن الله:

إن الجهل بسنن الله آفة خطيرة، وداء عظيم، فهو يحجب الانسان عن إدراك الحق ومعرفته، ويبعده عن سنن الهدى، ويؤدي به إلى طريق الضلال والضياع، ويوقع في قلبه اليأس من رحمة الله سبحانه وتعالى مع البيان أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق هذا الكون، وضع فيه نواميس، وأوجد له عادات في خلقه، وسنن لا تتخلف، وكل هذه السنن تدلل على حكمة الله عز وجل وعلمه الواسع، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

وأيضًا دالة على قدرة الله عز وجل الجارية النافذة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

وسنن الله عز وجل كثيرة سواء أكانت سننٌ في الدنيا، أم سننٌ في الآخرة، أم سننٌ مشتركة في الدنيا والآخرة وهذه السنن تتصف بصفات تضبطها كالثبات، والشمول، وأنها متحققة، وإجبارية التنفيذ، قائمة على العدل والحكمة، ليس هنالك فوضى، ولا اضطراب في سننه سبحانه وتعالى والمسلم لا بد أن يتفطن لسنن الله حتى لا تكون مفاجئة له عند وقوعها، وعند

علمه بها تطمئن نفسه؛ لأنه يدرك بأن هناك لله قواعد يسير العالم وفقها، والخلق بناءً عليها.

فمثلًا من سنن الله تعالى في هذه الأرض الهداية بواسطة الأنبياء والأولياء، وعدم الوعي بها، يطلق لنفسه العنان لتفعل ما شاءت من الآثام والمعاصي والكفر بالله، ومع كثرة ذنوبه ييأس من تكفيرها وإزالتها، وقد أشرنا إلى ذلك آنفًا.

ومن سننه عز وجل في عباده سنة ابتلائهم، ويشترك في ذلك جميع الأمم والأفراد، على حد سواء، للامتحان والتمحيص، لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت:٢].

ومن سننه أيضًا سنة التدافع، والله تعالى لا يبقي الناس على ما هم عليه، ولا يبقي الدنيا على حال واحدة، وإنما يدفع بعض الناس ببعضهم الآخر، يعني: يدفع أهل الباطل بأهل الحق وهكذا، لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

ولله سنن في الظالمين والمظلومين، وسنن في الترف والمترفين، وسنن في الطغاة والطاغين، وسنن في الاستدراج، وسنن في المكر، وسنن في الرزق، وسنن في الاصلاح، وسنن التغير والتدافع، وغيرها الكثير.

والجاهل بهذا كله يسهل على الشيطان الطريق لقذف الشك في قلبه، والوسوسة إليه، وما دام وجد ذلك في نفسه يولد عنده اليأس من كل سنة من سنن الله سبحانه وتعالى وبالتالي القنوط من رحمة ربه.

وسائل الوقاية من اليأس وعلاجه

إن اليأس مرض من الأمراض التي تصيب النفوس فتقف عاجزة عن إدراك المعالي، وهي آفة الصبر الكبرى؛ لأنها تطفئ سراج الأمل لدى العبد، فيترك العمل، ويخلد إلى الكسل، فما من داءٍ إلا وله دواء، ولهذا حرص القرآن الكريم والسنة المطهرة على القضاء على هذا الداء المتفشي في نفس العبد والمسيطر عليه، ولهذا فهو بحاجة ماسة إلى مجموعة من الوسائل التي تقيه من ذلك والتي نرجو أن تكون نافعة في علاج هذه الآفة، وإلى جانب الوسائل نشير إلى العلاج للقضاء على الداء، ومنعًا لعودته مرة أخرى.

أولًا: وسائل الوقاية من اليأس

١. الإيمان بأسماء الله وصفاته.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:٢٤].

ومعنى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني: الرحمن الرحيم العزيز الجبار المتكبر ونحوها من الأسماء، وهذه الأسماء ذكرت في هذه السورة، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: يذكره ويوحده ما في السموات والأرض وما فيهما من الخلق وغيره، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره[1].

فالعبد الذي يؤمن بأسماء الله وصفاته، ويفهم ما تنطوي عليه هذه الأسماء والصفات فقلبه يدرك من معاني الأسماء والصفات ما يدل على عظمة الله وجبروته وسرعة عقابه وشدة انتقامه، وأما من حجب قلبه عن الأسماء الدالة على الرحمة واللطف والتوبة والمغفرة الخ، فيسيطر عليه الخوف ويسلمه إلى اليأس من روح الله والقنوط من رحمته، وهذه طامة كبرى وكبيرة من كبائر الذنوب، تخرج القلب عن سكينته وأنسه إلى انزعاجه وقلقه وهمه، فعليه أن يتجنب ذلك فمثلًا من أراد من الله عز وجل إجابته على دعوة ما عليه سؤال الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجيب الدعوة مع الإلحاح وتكرار الدعاء، فالإلحاح في ذلك وحسن الظن بالله وعدم اليأس من أعظم أسباب الإجابة، فعليه أن يعلم أنه حكيم عليم قد يعجل الإجابة لحكمة وقد يؤخرها

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٢٨٦.

لحكمة وقد يعطي السائل خيرًا مما سأل، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته في الدنيا، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها. قالوا: يا رسول الله إذا نكثر؟ قال: الله أكثر)[1].

وعليه أن يرجو من ربه الإجابة ويكثر من توسله بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى[2].

٢. حسن الظن بالله ورجاء رحمته.

العبد لابد أن يحسن الظن بالله عز وجل في كل شيء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم عد سوء الظن من الكبائر، وأن يرجو رحمته في كل الظروف والأحوال، فعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة)[3].

وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ [فصلت:٢٣].

هذه الآية تبين سوء ظن الكافرين بالله عز وجل أي: أنه لا يعلم بأفعالهم، ولكن الله عز وجل فضحهم، لقوله: ﴿ظَنَنتُم﴾ بسبب إنكاركم البعث جهلًا منكم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي له جميع الكمال ﴿لَا يَعْلَمُ﴾ أي: في وقت من الأوقات ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجددون عمله مستمرين عليه، وهو ما كنتم تعدونه خفيًا فهذا هو الذي جرأكم على ما فعلتم، فإن كان هذا ظنكم فهو كفر، والمؤمن حقًا من علم أن الله مطلع على سره وجهره، فلم يزل مراقبًا خائفًا هائبًا[4]، وهذا يعطيه دافعية ويزيد من إيمانه بالله عز وجل ولا يترك مجالًا لنفسه بأن تيأس وتقنط من رحمته.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧].

أي: قال زكريا عليه السلام: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ من أي وجه لك هذا الذي أرى

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٧/ ٢١٣، رقم ١١١٣٣.

(٢) انظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله الجربوع، ٢/ ٤٨٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٤٨، رقم ٣٥٤٠.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٩٩، رقم ٤٣٣٨.

(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ١٧٢.

عندك من الرزق؟ قالت مريم مجيبة له: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تعني: أن الله هو الذي رزقها ذلك فساقه إليها وأعطاها، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فخبرٌ من الله أنه يسوق إلى من يشاء من خلقه رزقه، بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده؛ لأنه جل ثناؤه لا ينقص سوقه ذلك إليه، ولا يزيد إعطاؤه إياه، ومحاسبته عليه في ملكه، وفيما لديه شيئًا، ولا يعزب عنه علم ما يرزقه، وإنما يحاسب من يعطي ما يعطيه، من يخشى النقصان من ملكه، ودخول النفاد عليه بخروج ما خرج من عنده بغير حساب معروف [(١)].

فهذه مريم العذراء تظن بالله الظن الحسن فهو لن يتركها دون رعاية واهتمام، وهذه الحالة التي يجب أن يكون عليها المؤمن.

٣. تعلق القلب بالله والثقة به.

يجب على المرء أن يعلق قلبه بالله، ويجعل الثقة به سبحانه وتعالى في كل أحواله، فمن غير اللائق بالمسلم أن ييأس من روح الله، لأنها صفة لا يتصف بها إلا الكفرة والفاسقين كما بينا آنفًا، وعليه أن يثق بأن الله سيجعل بعد العسر يسرًا، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح:٥-٦].

والمعنى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ يعني: «مع الشدة سعة، أي: بعد الشدة سعة في الدنيا، ويقال: بعد شدة الدنيا سعة في الآخرة، يعني: إذا احتمل المشقة في الدنيا، ينال الجنة في الآخرة، ثم قال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ على وجه التأكيد» [(٢)].

٤. أن يكون العبد بين الخوف والرجاء

يجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنبا ثم تاب منه إلى الله عز وجل فهو راج لمغفرته، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨﴾ [البقرة:٢١٨].

أما إذا كان الرجل متماديا في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب، وقد مدح الله عز وجل أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩].

وقال أيضًا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٣٥٩.

(٢) تفسير السمرقندي، ٣/ ٥٩٤.

[السجدة:١٦].

فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا، فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

والرجاء له أسباب أهمها:

- أن الله كتب على نفسه الرحمة.
- وأن رحمته سبقت غضبه.
- وأنه يقبل التوبة عن عباده.
- وأنه يكفر السيئات ويرفع الدرجات، ويجازي على الحسنة بعشر أمثالها، وعلى السيئة بمثلها، ويحب توبة التائبين.

والواجب على الإنسان أن يجمع بين الخوف والرجاء لأنه إذا غلب جانب الخوف وقع في اليأس والقنوط، وإذا غلب جانب الرجاء وقع في الأمن من مكر الله[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر، فقال: (الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله)[(٢)].

ومن هذين الحديثين يجب التنبيه على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس بل يرجو رحمة الله[(٣)].

٥. الإيمان بالقضاء والقدر.

على المسلم أن يعلم علم اليقين أن قدر الله نافذ لا محالة، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف، فلا يخاف مما سوى الله، ولا يرهب أعداءه، معتقدًا أنه بقدر الله يستعد لقدر الله أيضًا، لقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن:١١][(٤)].

إن الركون للصبر في مثل هذا المقام أمر محمود بل واجب لأن مقادير الله نافذة سواء رضي العبد أم سخط، صبر أم جزع، إن التسليم بالقدر هو مقتضى العقل والدين معًا، ولن يغير من الواقع شيئًا، ولن يبدل سنن الله في الكون[(٥)].

(١) انظر: فوائد من شرح كتاب التوحيد، عبدالعزيز السدحان، ص٩٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم ٥٩٧٧، ٨/ ٤.
(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ٢/ ٤٧٥، فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري، سعيد القحطاني، ١/ ٤٤٠.
(٤) انظر: الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة، عبدالرحمن الدوسري، ١/ ٣٧.
(٥) انظر: مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد القحطاني، ١/ ٢٥٧

٦. الإيمان بالغيب.

فالإيمان بالغيب دعامة كل دين، وأساس كل ملة وشريعة، وهو الفيصل بين المؤمن والكافر، والمتدين والملحد، وهو المميز للإنسان عن سائر المخلوقات التي تشاركه الحياة على ظهر هذه الأرض، فهو يسمو بالإنسان عن الحيوان، ويغرس في نفسه الأمل، فلا يتسرب اليأس إلى قلبه والقنوط في نفسه، إن أخفقت آماله في الدنيا، وتعثرت خطى أمانيه في الحياة؛ لاعتقاده الصادق ويقينه القاطع أن ما عند الله في الآخرة خير وأبقى، ويحثه على الصمود في مواجهة ما يعتريه خلال مسيرة حياته، من مصائب أو شدائد أو محن؛ لأنه موقنٌ ومعتقدٌ تمام الاعتقاد في الجزاء العادل والنعيم المقيم يوم القيامة [(١)].

لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

وقوله أيضًا: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف:١٨٨].

٧. الصبر عند حدوث البلاء.

الله تعالى ببديع حكمته، ولطيف رحمته، قضى أن يبتلي النوع الإنساني بالأوامر والنواهي والمصائب التي قدرها عليهم، وافترضها تسلية لهم وتقوية لعزائمهم، فأمرهم على ذلك بالصبر والثبات، ووعدهم الثواب الجزيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] [(٢)].

في المقابل الله سبحانه وتعالى ذم اليائسين من رحمته عند حصول البلاء، واستثنى من الذم الصابرين على البلاء، وجعل لهم الثواب العظيم لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود:١٠-١١].

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تمني الموت بسبب البلاء، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يتمنين أحدكم الموت لضرر أصابه، فإن كان لا بد فاعلًا، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي) [(٣)].

لابد أن يكون الانسان متيقنًا بفرج الله القريب، وهذا اليقين بالفرج جدير أن يبدد

باختصار.

(١) انظر: أصول الدعوة وطرقها ٢، مناهج جامعة المدينة العالمية، ١/ ٢٤٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله، ص٤٤٠ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب تمني المريض الموت، رقم ٥٦٧١، ٧/ ١٢١.

ظلمة القلق، ويقهر شبح اليأس، ويضيء نفس المؤمن بنور الصبر الذي لا يخبو.

ولذلك ورد الصبر في كتاب الله مقرونًا بأن وعد الله حق كما في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم:٦٠][1].

٨. الأخذ بالأسباب.

التوكل على الله لا ينافي السعي في الأسباب والأخذ بها فإن الله تعالى قدر مقدورات مربوطة بأسبابها وقد أمر الله بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالأخذ بالأسباب طاعة لله وهو من عمل الجوارح، والتوكل على الله طاعة له سبحانه وهو من عمل القلب وهو إيمان بالله، وعلى هذا فلا يضر مباشرة العبد للأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، والأسباب تذهب وتأتي، ومسبب الأسباب باقٍ موجود سبحانه وتعالى ويجب أن يكون الأخذ بالأسباب الجائزة شرعًا فإن من توكل على الله حق توكله لم يرتكب ما يخالف شرعه[2].

ومن يأخذ بالأسباب مع التوكل على الله المؤمنون حقًا فهي صفة من صفاتهم كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه العزيز: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢].

ويظهر لنا ذلك جليًا أيضًا في قصة يوسف عليه السلام بإبراز أهمية الأخذ بالأسباب، وترك الاستسلام لليأس، فقد قال نبي الله يعقوب عليه السلام لأولاده لما أبلغوه فقد ابنه الثاني: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧].

٩. الزهد في الدنيا.

الطريق المؤدي إلى اليأس والقنوط، تعلق القلب بالدنيا والفرح بأخذها، والحزن والتأسف على فواتها بكل ما فيها، من جاه، وسلطان، وزوجة، وأولاد، ومال، وعافية إلخ.

فإذا أكثر العبد ذكر الآخرة، وكانت منه دائمًا على بالٍ، فإن الزهد في الدنيا والحذر منها ومن فتنتها سيحلان في القلب، وحينئذٍ لا يكترث بزهرتها، ولا يحزن على فواتها، ولا يمدن عينيه إلى ما متع الله به بعض عباده من نعم ليفتنهم فيها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

وهذه الثمرة يتولد عنها بدورها ثمارٌ

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد القحطاني، ١/ ٢٥٦.

(٢) شفاء الضرر بفهم التوكل والقضاء والقدر، أبو فيصل البدراني، ١/ ٣٣.

أخرى مباركةٌ طيبةٌ منها: القناعة، وسلامة القلب من الحرص والحسد والغل والشحناء؛ لأن الذي يعيش بتفكيره في الآخرة وأنبائها العظيمة لا تهمه الدنيا الضيقة المحدودة، مع ملاحظة أن إيمان المسلم باليوم الآخر وزهده في الدنيا لا يعني انقطاعه عنها وعدم ابتغاء الرزق في أكنافها؛ لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٧].

كما يتولد أيضًا من هذا الشعور، الراحة النفسية والسعادة القلبية، وقوة الاحتمال والصبر على الشدائد والابتلاءات، لِمَا للرجاء فيما عند الله عز وجل من الأجر والثواب.

ثانيًا: علاج اليأس:

وكما ذكرنا آنفًا أن اليأس داء وكل داء لابد له من علاج، وسنشير إلى مجموعة من الخطوات التي تعالج الانسان من حالة اليأس التي يعيشها حتى لا تنتهي حياته بطريقة شنيعة، ويتم بيان ذلك على النحو التالي:

القرآن الكريم اهتم اهتمامًا كبيرًا بمعالجة اليأس وتم ذلك من خلال محورين رئيسين:

المحور الأول: الآيات التي تدعو إلى التوحيد مما يبعث الأمل والأمان في القلوب، ويقضي على اليأس والقنوط، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر:٦٢-٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٨].

المحور الثاني: استنهاض الهمة إلى أقصى مدى.

إن إحساس الإنسان باليأس ينتج من انحطاط الهمة، والانشغال بسفاسف الأمور، حيث يستغل الشيطان حب الراحة والدعة لدى الإنسان؛ فيصرفه عن الإيمان بدسائس ومكائد خبيثة، تصيبه بالغفلة وانحطاط الهمة، فيقعده عن معالي الأمور.

لذلك فقد جعل القرآن الكريم للعمل منزلة مقدسة سامية، وحث الانسان أن يسعى في الأرض لاستخراج خيراتها؛ لأن إعلاء كلمة الله في الأرض، يتوقف على الرقي المادي، فقال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم:٣٩].

ونضيف أيضًا مجموعة من الخطوات لمعالجة اليأس، منها:

- تعميق الإيمان بالقضاء والقدر وبمفهومهما الصحيح، وتربية النفس على التوكل على الله، وبذل الجهد الممكن للوصول إلى الأهداف، قال تعالى: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧].
- تنمية الثقة بالنفس، والاعتماد على الذات في القيام بالأعمال بعد الثقة بالله عز وجل والتوكل عليه، وتحمل المسؤولية عن نتائجها بغير تردد ولا وجل، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٩]. وقوله أيضًا: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود:٨٨].
- اليقين بالقدرة على التغيير إلى الأفضل في كل جوانب الحياة ومطالعة تجارب الناجحين في شتى الميادين.
- قراءة قصص الأنبياء والصالحين الذين غير الله بهم وجه الحياة والتعرف على الصعاب والمشاق التي واجهوها، حتى أدركوا مناهم، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف:٣]. وقوله أيضًا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].
- اليقين بأن الاستسلام لحالة اليأس لن يجني صاحبها من ورائها إلا مزيدًا من الفشل والتعب والمرض، وأن البديل هو السعي والجد وتلمح الأمل، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].
- التأسي بأهل الصبر والعزائم، والحث على لزوم الرضا بالشدائد والصبر عليها، لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد:٣١]. وقوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧].
- استمرار مقاومة المسلم للمنكرات، وعدم السماح لتسرب اليأس والقنوط في نفسه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩][1].

موضوعات ذات صلة:

التوكل، الحزن، الذل، الضعف، العزم، القوة، الوهن

(١) انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان ص١٥٧، الخطابة، مناهج جامعة المدينة العالمية، ص٨٣.

اليتيم

عناصر الموضوع

مفهوم اليتيم	٣٦٦
اليتيم في الاستعمال القرآني	٣٦٧
الألفاظ ذات الصلة	٣٦٨
اليتم والقدر	٣٦٩
يتم النبي صلى الله عليه وسلم	٣٧٨
الإحسان إلى اليتيم	٣٨١
مال اليتيم	٣٨٩
نكاح يتامى النساء	٣٩٩
حقوق اليتيم على المجتمع والدولة	٤٠٢
اليتامى بين القرآن والقوانين الدولية	٤٠٦

مفهوم اليتيم

أولًا: المعنى اللغوي:

اليتيم لغة هو: الذي مات أبوه حتى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتيم[1].

قال أبو السعادات ابن الأثير: «قد تكرر في الحديث ذكر (اليتم، واليتيم، واليتيمة، والأيتام، واليتامى) وما تصرف منه، واليتيم في الناس: فقد الصبي أباه قبل البلوغ، وفي الدواب: فقد الأم، وأصل اليتم بالضم والفتح: الانفراد، وقيل: الغفلة، وقد يتم الصبي، بالكسر، ييتم فهو يتيم، والأنثى يتيمة، وجمعها: أيتام، ويتامى، وقد يجمع اليتيم على يتامى، كأسير وأسارى، وإذا بلغا زال عنهما اسم اليتم حقيقة، وقد يطلق عليهما مجازًا بعد البلوغ، كما كانوا يسمون النبي صلى الله عليه وسلم وهو كبير: يتيم أبي طالب؛ لأنه رباه بعد موت أبيه»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

اليتيم اصطلاحًا: الصغير الذي فقد أباه وهو دون سن البلوغ حقيقة[3].

وهذا الاسم يزول عن اليتيم بمجرد البلوغ، ولا يطلق عليه بعد البلوغ إلا باعتبار ما كان[4].

ولم يعتبر الشرع من فقد أمه يتيمًا إنما قصر صفة اليتم على من فقد أباه؛ لأن الأب هو الذي يعول الصغير ويرعى شؤونه ويقوم بتأديبه وتعليمه[5].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢٤١، مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٥٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٥، تاج العروس، الزبيدي ٣٤/ ١٣٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٢٩١.

(٣) انظر: المفردات ص ٨٨٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٦٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٨٧، لباب التأويل، الخازن ١/ ٥٨، أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٨٥.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٨٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٤٦.

(٥) انظر: أحكام القرآن ٣/ ٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٨٧، لباب التأويل، الخازن ١/ ٥٨.

اليتيم في الاستعمال القرآني

وردت (اليتيم) في القرآن الكريم (٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الإفراد	٨	﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان:٨]
التثنية	١	﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف:٨٢]
الجمع	١٤	﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٢٢٠]

واليتم في أصله بمعنى الانفراد، وورد اليتيم في الاستعمال القرآني بمعناه الشرعي المعروف، وهو: من فقد أباه قبل بلوغ الحنث ذكرًا كان أو أنثى[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٧٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الياء ص ١٤٥٣.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣٥٠-٣٥١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٣٨٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللقيط:

اللقيط لغة وهو:

ما يلقط، أي: يرفع من الأرض، وقد غلب على الصبي المنبوذ وهو: الصبي الذي تلقيه أمه في الطريق[١].

اللقيط اصطلاحًا:

هو اسم لمولود طرحه أهله؛ خوفًا من الفقر أو احترازًا عن تهمة الزنا، وكذلك كل صبي، أو مجنون، ضائع، لا كافل له[٢].

الصلة بين اللقيط واليتيم:

اللقيط قد يكون يتيمًا حقيقةً وقد لا يكون، أما حكمًا فهو كذلك؛ لأنه فقد معيله وراعيه، ويمكن أن يقاس عليه الأطفال الذين لهم آباء أحياء ولكنهم في حكم الأموات، فهؤلاء يحتاجون للرعاية والعطف والحنان، ويكون لهم حكم الأيتام من حيث الكفالة والرعاية والحنان[٣].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٩٢.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٩٣، أنيس الفقهاء، القونوي ص ٦٧، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٩١، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص ٥٥.
(٣) انظر: حقوق اليتيم في الفقه الإسلامي، تسنيم استيتي ص١٥.

اليتم والقدر

إن من قدر الله تعالى على الصبي الصغير الذي يموت والده أن يعيش وحيدًا ضعيفًا، بغير أب يقوم بحفظه ورعايته والنفقة عليه، فيعيش الطفل اليتيم منكسر القلب، متألم الضمير، يخشى من الأيام، ومن عدم قدرته على مصارعة تقلبات الحياة.

كما أن من له أطفال صغار قد يخشى من القدر بأن يفاجئه الموت فيضيع أولاده الصغار، وربما يجد اليتيم من أقاربه من لا يقوم برعايته والإحسان إليه، بل ربما من يأكل ماله إن كان له مال.

وكذلك على المجتمع الذي فيه أيتام صغار أن يقدروا المصيبة والكارثة التي حلت بهذا الصغير، من فقده للكافل له، والقائم بشؤونه فيعملوا من أجل جبر مصاب هذا الصغير بكل الوسائل التي من شأنها التخفيف من مصابه والأخذ بيده؛ لأن يصبح فردًا فاعلًا في المجتمع، ويمكن الحديث في هذا المبحث عن اليتيم والقدر من ثلاث زوايا:

أولًا: اليتيم والقدر:

أن موت الأقارب أو أحد الوالدين وخاصة الأب له تأثيرات شديدة على الطفل، فيشعر الطفل المميز بالأسى والحزن العميق، ويصل به الأمر إلى الشعور باليأس والإحباط، أو قد يصل به الأمر إلى الرغبة في الانتقام ويكون حزنه بمستوى سنه واعتقاده، ومدى ارتباطه بوالديه، ويؤثر عليه الموت سلبًا، ويظهر ذلك جليًّا إما بشعور كبير بالنقص لضعف الموارد، وعدم تلبية الرغبات، وإما بالإفراط بالتدليل لتعويضه عمن فقد، وبالتالي تدمير حياة الطفل واضطراب وضعه بشكل عام.

ويعتبر موت الأب - خاصة- خسارة للطفل، ويختلف حجم هذه الخسارة باختلاف السن والإدراك والفهم والذكاء والجنس، مع العلم بأن المحيطين بالطفل قد يكون لهم أكبر الأثر في التخفيف من هذا الشعور[1]، وهناك بعض الأعراض التي تظهر على الطفل بسبب موت أحد أحبته منها:

الأعراض الحياتية: ومنها: فقدان الشهية والنشاط، سوء التغذية، ذبول الجسم، التوتر، اصفرار البشرة الكآبة، القلق وعدم النوم، التعرض للإصابة بالأمراض.

والأعراض الذهنية والنفسية: والموت له تأثير على ذهن الطفل وذكائه وإمكانية حدوث انخفاض مستوى الذكاء، وهبوط المستوى الدراسي، وتغير في الرؤية والأهداف، ويصاب الطفل بالسلوك

(١) انظر: دور الأب في التربية، علي القائمي ص ٣١١، حل مشكلة الأيتام ضمن تعاليم الإسلام، فايزة أحمد يوسف ص٣-٤.

غير المتزن، والاختلال النفسي، وظهور أعراض أخرى: كقضم الأظافر ومص الإبهام والتبول اللاإرادي والحسد والخوف والخجل والشعور بعقدة الحقارة والكذب والإحساس بالقلق إلى غير ذلك[1].

والأعراض العاطفية وأهمها: الاضطراب، والشعور بانعدام الأمن، الهيجان الشديد، والحساسية المفرطة، وسرعة الغضب، والانطواء على النفس والشعور بالكآبة، والعنف والعدوان.

والأعراض السلوكية: ويظهر ذلك من خلال: عدم الانسجام مع المحيطين به وأفراد أسرته، والعصيان والتمرد، والاضطراب في التعامل والعلاقات، والتكبر والرياء لكي يلفت أنظار الآخرين ويكسب دعمهم، وربما إهمال النظافة وعدم الاهتمام بالشكل والمظهر[2].

يقول عبد الله ناصح علوان: «ومن العوامل الأساسية في انحراف الولد: مصيبة اليتم التي تعتري الصغار وهم في زهرة العمر، ومقتبل الحياة، وهذا اليتيم الذي مات أبوه وهو صغير، إذا لم يجد اليد الحانية التي تحنو إليه، والقلب الرحيم الذي يعطف عليه، وإذا لم يجد من الأوصياء المعاملة الحسنة التي ترفق به، والرعاية الكاملة التي ترفع من مستواه، والمعونة التامة التي تسد جوعته، فلا شك أن هذا اليتيم سيدرج نحو الانحراف، ويخطو شيئًا فشيئًا نحو الإجرام، بل سيصبح في المستقبل أداة هدم وتخريب لكيان الأمة، وتمزيقًا لوحدتها وإشاعة الفوضى والانحلال بين أبنائها»[3].

ثانيًا: القدر والأب الذي يخشى الموت:

يجب على من له صغار وذرية ضعاف يخشى من ضياعهم بعد موته، أن يعمل على تأمين حياة هؤلاء الصغار بوسائل إلهية، تؤدي إلى حفظ حياة الصغار والضعفاء من الذرية، وهذه الوسائل هي:

١. تقوى الله تعالى والقول السديد.

إن تقوى الله تعالى والقول السديد من وسائل التأمين على حياة الصغار والضعفاء من الذرية بعد موت الأب، مما يؤدي إلى عدم الخوف من القدر عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء:٩].

فالخطاب في الآية جاء مُذكِّرًا الأحياء بالذي هم صائرون إليه هم وأموالهم، عارضًا عليهم في هذا الموقف ما يهز

(١) انظر: حل مشكلة الأيتام ضمن تعاليم الإسلام، فايزة أحمد يوسف ص٣-٤.

(٢) انظر: دور الأب في التربية، علي القائمي ص ٣١١.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ص١٣٦.

مشاعرهم، ويثير أشجانهم أنهم سيموتون، كما مات هذا الميت الذي تقاسموا تركته، أو تقاسمها ورثته، وهم يشهدون، وأنهم سيتركون من بعدهم أطفالهم، الذين سينضمون إلى موكب الأيتام، كما ترك هذا الميت أطفاله، فانضموا إلى جماعة الأيتام، ممن مات آباؤهم قبله، فهؤلاء عليهم أن يرعوا حق الله وليخشوه فى هؤلاء اليتامى الذين فى أيديهم، وليصونوهم ويصونوا أموالهم، وليعاملوهم كما يرجون أن يعامل أبناؤهم من بعدهم[(١)].

وقد ذكر المفسرون في معنى الآية أربعة أقوال:

أحدها: أن معناه: وليحذر الذين يحضرون ميتًا يوصي في ماله أن يأمروه بتفريق ماله وصية فيمن لا يرثه، ولكن ليأمروه أن يبقى ماله لولده، كما لو كان هو الموصي لآثر أن يبقي ماله لولده، وأن لا يدعهم عالة مع ضعفهم وعجزهم عن التصرف والاحتيال، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد، والسدي[(٢)].

والثاني: أن معناه: وليخش الذين يحضرون الموصي وهو يوصي أن ينهوه عن الوصية لأقربائه، وأن يأمروه بإمساك ماله والتحفظ به لولده، وهم لو كانوا من أقرباء الموصي لسرهم أن يوصي لهم، وهو قول مقسم مولى ابن عباس، وسليمان بن المعتمر، وسعيد بن جبير.

والثالث: أن ذلك أمر من الله تعالى لولاة الأيتام، أن يلوهم بالإحسان إليهم في أنفسهم وأموالهم، كما يحبون أن يكون ولاة أولادهم الصغار من بعدهم في الإحسان إليهم، لو ماتوا وتركوا أولادهم يتامى صغارًا، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنه[(٣)].

والرابع: أن من خشي على ذريته من بعده، وأحب أن يكف الله عنهم الأذى بعد موته، فليتق الله وليقل قولًا سديدًا، وهو قول أبي بشر بن الديلمي[(٤)].

وقال الإمام الرازي: «يحتمل أن تكون الآية خطابًا لمن قرب أجله، ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية؛ لئلا تبقى ورثته ضائعين جائعين بعد موته، ثم إن كانت هذه الآية إنما نزلت قبل تقدير الوصية بالثلث كان المراد منها أن لا يجعل التركة مستغرقة بالوصية، وإن كانت نزلت بعد تقدير الوصية بالثلث، كان المراد منها أن يوصي أيضًا بالثلث بل ينقص إذا خاف على

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٧٠٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٠٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٧، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٥٧.

ذريته، والمروي عن كثير من الصحابة أنهم وصوا بالقليل لأجل ذلك، وكانوا يقولون: الخمس أفضل من الربع، والربع أفضل من الثلث، وخبر سعد يدل عليه، وهو قوله صلى الله عليه وسلم عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: (عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع من وجع أشفيت منه على الموت، فقلت: يا رسول الله، بلغني ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: (لا)، قال: قلت: أفأتصدق بشطره؟ قال: (لا، الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس)»[(١)(٢)].

والقول السديد الذي تدعو إليه الآية هو: القول العدل والصواب الذي يحمل النصح والتوجيه والتسديد لليتامى، وإعدادهم إعدادا صالحًا للحياة تمامًا، كما يفعل الأب مع أبنائه، وإلا فهو قول غير سديد، وخيانة للأمانة التي اؤتمن الأوصياء عليها في حق اليتامى[(٣)].

ويحتمل أن الأمر بالتقوى والقول السديد يكون على عمومه في الوصية، وفي اليتامى، وفي جميع الأقوال، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

قال الإمام ابن عاشور: «والسديد: الذي يوافق السداد، والسداد: الصواب والحق، فشمل القول السديد: الأقوال الواجبة والأقوال الصالحة النافعة مثل: ابتداء السلام وقول المؤمن للمؤمن الذي يحبه: إني أحبك، ويشمل القول السديد: ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء، وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء، فقراءة القرآن على الناس من القول السديد، ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من القول السديد»[(٤)].

٢. العمل الصالح.

إن العمل الصالح من وسائل التأمين الإلهي على حياة الصغار والضعفاء التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗاۖ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٧٤٤، ٤/ ٣ كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٢٨، ٣/ ١٢٥٠ كتاب الهبات، باب الوصية بالثلث.

(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٥٠٥.

(٣) انظر: تفسير السمعاني ١/ ٤٠٠، تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١١١٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٩٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٥.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ١٢٢.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٨٢].

فقد بين القرآن الكريم أن الله تعالى يبعث من يقوم بحقوق اليتامى إن كان آباؤهم صالحين، كما بعث الرجل الصالح في استخراج كنز اليتيمين، فهذا قدر الله في ذلك، فينبغي على من يكون صالحًا أن لا يحزن بعد أن عرف قدر الله تعالى، وقد ذكر المفسرون في معنى الكنز المذكور في الآية أقوال هي:

أحدها: صحف علم وحكم، قال ابن عباس رضي الله عنه، وسعيد بن جبير، ومجاهد والحسن:«كان لوحًا من ذهب مكتوبًا فيه: عجبًا لمن أيقن بالموت كيف يفرح! عجبًا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب! عجبًا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب! عجبًا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل! عجبًا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! لا إله إلا الله محمد رسول الله»[(١)].

وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: «ما كان ذهبا ولا فضة، كان صحفًا علمًا»[(٢)].

وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قول الله عز وجل: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال:«كان لوح من ذهب مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، عجبا لمن يذكر أن الموت حق كيف يفرح! وعجبا لمن يذكر أن النار حق كيف يضحك! وعجبا لمن يذكر أن القدر حق كيف يحزن! وعجبا لمن يرى الدنيا وتصرفها بأهلها حالًا بعد حال كيف يطمئن إليها!»[(٣)].

وفي مجمع الزوائد عن أبي ذر رضي الله عنه رفعه قال: «الكنز الذي ذكر الله في كتابه لوح من ذهب مصمت، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب! وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك! وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل! لا إله إلا الله محمد رسول الله»[(٤)].

وهذا قول أكثر المفسرين في تفسير الآية بدليل أنه قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال؛ إذ أن كنز المال لا يليق بالصلاح بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٤.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٣٩٦، ٢/ ٤٠٠
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) شعب الإيمان، البيهقي رقم ٢٠٩، ١/ ٣٨٦.
(٤) مجمع الزوائد، الهيثمي، رقم ١١١٥١، ٧/ ٥٣.
قال الهيثمي: أخرجه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات.

﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤][1].

الثاني: أن الكنز مال مذخور من ذهب وفضة، قاله عكرمة وقتادة. وقال الزجاج: المعروف في اللغة أن الكنز إذا أفرد فمعناه المال المدفون[2].

ورجح هذا القول الإمام الرازي بقوله: «اختلفوا في هذا الكنز فقيل: إنه كان مالًا، وهذا هو الصحيح لوجهين، الأول: أن المفهوم من لفظ الكنز هو المال، والثاني: أن قوله: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ يدل على أن ذلك الكنز هو المال»[3].

قال الإمام ابن كثير معلقًا على هذين القولين المذكورين في تفسير الكنز المذكور في الآية: «وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدم وإن صح لا ينافي قول عكرمة أنه كان مالًا؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحًا من ذهب، وفيه مال جزيل أكثر ما زادوا أنه كان مودعًا فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم»[4].

وعلى كل حال فإن صلاح الآباء من وسائل تأمين حياة اليتامى، فلا يخش الرجل الصالح من قدر الله تعالى إذا ترك ذرية ضعافًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء[5].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «حفظا بصلاح أبيهما، وقيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء، قال محمد بن المنكدر: «إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم، وقال سعيد بن المسيب: إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي»[6].

وفي الآية دلالة على أن صلاح الآباء يفيد العناية بالأبناء، وأن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة[7].

٣. الدعاء بحفظ الذرية.

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٦٢، الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٨٨، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٤، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ٥٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٧.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٨٨، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٤، اللباب في علوم الكتاب ١٢/ ٥٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٧.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٩٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٨.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٩٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٩٠.

(٦) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٤.

(٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٣٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٤٢، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٣٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٨.

أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم:٣٧].

وهذا كقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران:٣٨].

وقد بين الله تعالى أن على الإنسان أن يدعو إذا بلغ أربعين سنة بأن يصلح الله له في ذريته.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:١٥].

والمعنى: أي اجعل الصلاح ساريًا في ذريتي راسخًا فيهم، وعبر بـ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ ليفيد سريان الصلاح فيهم وكونهم كالظرف له لتمكنه فيهم، وإلا فكان الظاهر وأصلح لي ذريتي[1].

وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد: (اللهم ألف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا)[2].

ويدل على أن الدعاء من وسائل تأمين حياة اليتامى ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم) وفي رواية: (ودعوة الوالد لولده)[3].

(١) روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٧٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٥٩، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٤٥، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٣/ ١٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٩٦٩، ١/ ٢٥٤، كتاب الصلاة، باب التشهد.
وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري رقم ٦٣٠، ص ٢٣٥.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ١٥٣٦، ٢/ ٨٩، كتاب الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب، وابن ماجه في سننه، رقم ٣٨٦٢، ٢/ ١٢٧٠، كتاب الدعاء، باب دعوة الوالد ودعوة المظلوم، والترمذي في سننه، رقم ١٩٠٥، ٤/ ٣١٤، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في دعوة الوالدين.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٠٣١، ١/ ٥٨٢.

ثالثًا: اليتيم والقدر والمجتمع:

إن المصيبة التي حلت بالصبي الصغير هي من قدر الله تعالى الذي لا مفر منه؛ ولهذا اهتمت الشرائع السماوية باليتيم، وبحسن رعايته والمحافظة عليه وعلى حقوقه، ورغبت في إحاطته بالرعاية النفسية والاجتماعية، والتلطف به، وإشعاره بالمودة والرحمة، وجاء في القرآن الكريم أن الله تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالإحسان إلى اليتيم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣].

وتوضح الآية أنه من جملة بنود الميثاق الإحسان باليتيم.

ومنطلق الشرائع السماوية في الاهتمام باليتيم: هو أن هؤلاء الصغار الأبرياء الذين شاءت الحكمة الإلهية أن يختطف الموت اليد الكفيلة والراعية لهم، فتعوضهم بأيد أخرى محسنة تحوطهم بكل معنى الرعاية والمحبة، فجعلت الرحمة والعناية من جملة القواعد التي يتركز عليها دين الله القويم.

والشريعة الإسلامية هي الأكثر رعاية وعناية باليتيم، والأكثر حرصًا على حماية حقوقه، بل لا يوجد كتاب سماوي اهتم باليتيم وحذر من المساس بحقوقه وتوعد على إيذائه كالقرآن الكريم.

والسبب في ذلك أن المجتمع الجاهلي كان مجتمعًا ظالمًا يهضم فيه حقوق الضعفاء والنساء والعجزة القاصرين؛ بسبب طبيعة المجتمع القائمة على الغزو والغصب، فقد كان الضعيف عرضة للعدوان واغتصاب الحقوق، فكيف باليتيم الذي لا حامي له؟! وهو غرض لكل طامع وخبيث.

ولأن الإنسان عندما يكون شابا فذاتيته تكون هي الموجودة، لكن كلما تقدم الإنسان في السن تقدمت ذاتية أولاده عنده، ويحرم نفسه ليعطي أولاده، وعندما يرى أن عياله ما زالوا ضعافًا، وجاءت له مقدمات الموت، فهو يحزن على مفارقة هؤلاء الضعاف، فيوضح الحق لكل عبد طريق الأمان: إنك تستطيع وأنت موجود أن تعطي للضعاف قوة، قوة مستمدة من الالتحام بمنهج الله وخاصة رعاية ما تحت يدك من يتامى، بذلك تؤمن حياة أولادك من بعدك وتموت وأنت مطمئن عليهم[1].

ولأن الله يريد من خلقه أن يستقبلوا قدر الله فيمن يحبون وفي من يحتاجون إليهم برضا، فإذا كان الطفل صغيرًا يرى أباه يسعى في شأنه ويقدم له كل جميل في الحياة وبعد ذلك يموت، فإن كان هذا الصغير قد رأى

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٤/ ٢٠٢١.

واحدًا مات أبوه، وكفله المجتمع الإيماني الذي يعيش في كفالة عوضته عن أب واحد بآباء إيمانيين متعددين، فإذا مات والد هذا الطفل فإنه يستقبل قدر الله وخَطْبِهِ بدون فزع.

فالذي يجعل الناس تستقبل الخطوب بالفزع والجزع والهلع أنهم يرون أن الطفل إذا ما مات أبوه وصار يتيمًا فإنه يضيع، ويقول الطفل لنفسه: إنَّ أبي عندما يموت سأصير مضيعًا، لكن لو أن المجتمع حمى حق اليتيم، وصار كلُّ مؤمن أبًا لليتيم، وكلُّ مؤمنة أمًّا لليتيم، لاختلف الأمر، فإذا ما نزل قضاء الله في أبيه، فإنه يستقبل القضاء برضا وتسليم[1].

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء:٩].

إنَّ عليهم بالإحسان إلى اليتيم، فلو رأى الواحد منا يتيمًا يكرم في بيئة إيوائية إيمانية لما شغل نفسه، ولما خاف أن يموت ويترك ولدًا صغيرًا، بل يقول الإنسان لنفسه: إنَّ المجتمع فيه خير كثير، وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفس راضية، ولا يؤرق نفسه؛ لأنك إن رأيت المجتمع الإيماني قد رعى أيتام غيرك، فستكون على ثقة من أنه يرعى أيتامك، فإن جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به، لكن إذا رأى الإنسان يتيمًا مضيعًا، فهو يعض على أسباب الحياة ويريد أن يأتي بالدنيا كلها لولده، ونقول لمثل هذا الأب: اعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له في يد الله؛ لأنَّ الذي خلق آمنُ مِنَ المخلوق[2].

وحقيقة التشريع الإلهي الحكيم منذ أربعة عشر قرنًا، تأتي فوق كلِّ ما تتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها، فاهتمام الشخص باليتامى الصغار الذين خاف عليهم من قبله من الضياع يؤدي إلى أن يأتي من يحفظ أولاده الصغار من بعده ،كذلك مما يحقق كمال التكامل الاجتماعي بأبهى معانيه، المنوه عنه في الآية الكريمة: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء:٩].

فجعل كافل اليتيم اليوم، إنما يعمل حتى يكفل أيتامه فيما بعد لو ترك ذرية ضعافًا، كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم[3].

وصارت قضية اليتم والضعف والفقر بهذا القدر قضية إسلامية عظيمة من حيث إنها أوسع أبواب رحمة الله تعالى وأعظم

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٠٢١.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٠٢١.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٦٩.

فضائل العبادة، وأرجاها ولا أعظمها من إعانة اليتيم والضعيف والأرملة والمسكين، والنبي صلى الله عليه وسلم جعل قضية اليتيم شريعة وبابًا واسعًا من أبواب العبادة في هذا الدين، من هنا نقول: النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بأن نتحمل البلاء، وأمرنا أن نشكر الله على النعم.

وبهذا القدر النصر والرزق، فقد روى مصعب بن سعد، قال: رأى سعد رضي الله عنه أنَّ له فضلًا على من دونه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم)[1].

وبهذا القدر لين للقلوب وإدراك للحاجات، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل يشكو قسوة قلبه قال: (أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٨٩٦، ٤/٣٦، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٩٠١٨، ١٤/٥٥٨.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٢٥٤٤، ٢/٣٤١.

يتم النبي صلى الله عليه وسلم

لقد شاء الله عز وجل أن ينشأ الرسول صلى الله عليه وسلم يتيمًا بعيدًا عن تربية أبيه وأمه وجده؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فقد أبويه، وهو صغير؛ لأن أباه توفي وهو حمل، وقيل: بعد ولادته بشهرين، وتوفيت أمه، وهو ابن ست سنين، وكفله جده عبد المطلب، ثم مات جده، وهو ابن ثمان سنين، ثم كفله عمه أبو طالب، وقضى معظم فترة طفولته الأولى ببادية بني سعد بعيدًا عن أسرته كلها[3].

ولقد مَنَّ الله تعالى على نبيه بنعمة الإيواء من اليتم، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى:٦].

أي: يتيمًا ليس له أبٌ يرحمه، ولا أمٌّ ترأمه، أي: تحبه وتحنو وتعطف عليه، فجعل لك مأوى، تأوي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك[4].

وبعبارة أخرى: ألم يجدك يتيمًا صغيرًا فقيرًا ضعيفًا حين مات أبواك، ولم يخلفا لك مالًا، ولا مأوى، فجعل لك مأوى تأوي إليه، ومنزلًا تنزله، وضمك إلى عمك أبي طالب

(٣) انظر: جوامع السيرة، ابن حزم ص ٦، الروض الأنف، السهيلي ٢/١١٨.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/٩٦، فتح القدير، الشوكاني ٥/٥٥٨.

حتى أحسن تربيتك، وكفاك المؤونة[1]، فهو لك مأوى لتربيتك، وقيِّمًا يحنو عليك ويكفلك، ثم جعلك مأوى الأيتام بعد أن كنت يتيمًا، وكفيل الأنام بعد أن كنت مكفولًا، تذكيرًا بنعمه عليه[2].

وعن مجاهد في معنى الآية: ألم يجدك واحدا في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك، فجعل يتيمًا من قولهم: درة يتيمة، وهو بعيد جدًّا[3].

قالت الدكتورة عائشة بنت الشاطىء: «وأمام هذا التتبع، لا نملك إلا أن نستبعد تفسير اليتم بغير ذاك الذي في القرآن، وقد ولد محمد يتيمًا، ثم تضاعف يتمه بموت أمه وجده، لكنه تعالى نجاه من آثار اليتم التي هي بشواهد من آيات الكتاب الكريم: الدع والقهر، والانكسار والجور، مما كان مظنة أنْ يكسر نفسه، فذلك هو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى:٦].

ترشيحا بهذا الإيواء الإلهي - غير المقيد بمتعلق - إلى ما بعده من نعمة الهداية بعد حيرة وضلال، وتهيئة لحمل الرسالة الكبرى»[4].

الحكمة من يتم النبي صلى الله عليه وسلم:

إن في يتمه صلى الله عليه وسلم حكمًا كبيرة وكثيرة، منها على سبيل المثال:

١. من أبرز الحكم أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في قلوب اليتامى، ولعل في يتمه صلى الله عليه وسلم أسوة للأيتام في كل زمان ومكان؛ ليعرفوا أن اليتم ليس نقمة، بل تكريمًا لليتامى فقد شاء الله تعالى أن يكون نبيه ومصطفاه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يتيمًا.

٢. تقوية عزيمته على فضيلة التوكل على مولاه سبحانه، فإذا حزبه أمر لا يقول: أبي ولا أمي ولكن يقول: ربي الله تعالى.

٣. أن يكرم اليتامى في شخصه، فإن الطفل من أطفال المسلمين إذا نشأ يتيمًا ورأى الأطفال ينعمون بآبائهم، فإن سلوته في أن الرسول صلى الله عليه وسلم نشأ يتيمًا، ومن هنا يهون عليه يتمه ما دام فيه شبه بالنبي صلى الله عليه وسلم[5].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٣٩، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ٢٢٥.
(٢) النكت والعيون الماوردي ٦/ ٢٩٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٣٩، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ٢٢٥، المفردات، الراغب ص ٨٨٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٨٠.
(٤) التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ٤٣.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٠١، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٥٩، التفسير

٤. حتى لا يكون لأحد كائن من كان فضل عليه فيما هو فيه من نعمة؛ لأن فضله مستمد من الله تعالى مباشرة، وليس من إنسان؛ ولذلك قيل لمحمد بن جعفر الصادق: لم أوتم النبي صلى الله عليه وسلم من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه حق.

٥. الوصية باليتامى؛ لأنه نشأ يتيمًا وقاسى آلام اليتم، والحكمة في يتم النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرف قدر الأيتام، فيقوم بأمرهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة) وأشار مالك بالسبابة والوسطى [(١)].

والناظر في ابتلاءاته صلى الله عليه وسلم باليتم بفقد أبويه، يجد أن فيه تعليمًا وتوجيهًا لأولئك الأيتام من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة؛ بأن يحتمل أولئك ابتلاء اليتم ويصبروا عليه، وأن يتذكروا أنهم ليسوا هم الأيتام فقط، فقد كان خير الناس وسيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم يتيمًا.

وفي تذكر هذا والنظر فيه ما يخفف الآلام الكثيرة التي يجدها اليتيم في حياته، وما تجده أم اليتامى التي تقوم عليهم في حياتها قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى:٦].

إن يتم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا اليتم الذي كان مركبًا ومتعددًا ومتواصلًا، وكان مقصودًا من رب العالمين، لأنه حلقة مهمة في سبيل إعداد النبي صلى الله عليه وسلم للرسالة، وكل الأحداث والحوادث التي مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو التي مرت به منذ ولادته إلى بعثته كانت جميعًا تصب في خانة إعداده لذلك النبأ العظيم.

هذا اليتم بعد أن رأى ألمه صلى الله عليه وسلم أصبحت له باليتم قاعدة أساسية فطرية جبلية في سجاياه، من حيث تعامله مع الضعفاء والمساكين والأيتام والأرامل والمذنبين وأهل الخطايا، وما من نبي عليه السلام تعامل مع الخطائين والضعفاء كما تعامل معهم صلى الله عليه وسلم بشهادة الله عز وجل في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران:١٥٩].

القرآني للقرآن، الخطيب ١٦/ ١٦٠٨.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٩٨٣، ٤/ ٢٢٨٧، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم.

الإحسان إلى اليتيم

في هذا العنوان سيتم الحديث عن الحث على الإحسان إلى اليتامى، وعن مخالطة اليتامى، والتحذير من الإساءة إليهم وذلك فيما يلي:

أولًا: الحث على الإحسان إلى اليتامى:

إن الله تعالى جعل الإحسان إلى اليتيم من بنود المواثيق والعهود التي أخذها الله تعالى على الأمم والشعوب، وألزمهم بها، وحرم عليهم نقضها، فقال في بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣].

والآية تشير إلى أن الإحسان حق لليتامى، وليس تفضلا من الناس لأمر الله تعالى بذلك، والإحسان هو فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير، والإحسان أعم من الإنعام، والإحسان فوق العدل وذاك أن العدل أن يعطي ما عليه ويأخذ ماله، أما الإحسان فإنه يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له.

فتحري العدل لليتيم واجب، وتحري الإحسان ثواب وتطوع، ولكن في هذه الآية الإحسان إلى اليتيم واجب كوجوب العدل معه كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:١٢٧].

والقسط أن يعطى كل ذي حق منهم حقه، ذكرًا كان أو أنثى، الصغير منهم بمنزلة الكبير، قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد بالعدل في مهورهن وفي مواريثهن[(١)].

قال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:١٢٧].

«القسط: العدل، ولم يبين هنا هذا القسط الذي أمر به لليتامى، ولكنه أشار له في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠].

وقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى:٩].

وقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة:١٧٧].

ونحو ذلك من الآيات، فكل ذلك فيه القيام بالقسط لليتامى»[(٢)].

والإحسان إلى اليتامى يعم كل إحسان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٦٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٢٤.
(٢) أضواء البيان ١/ ٣١٦.

قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إليهم، وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرمًا، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين[1].

والإحسان إلي اليتيم يكون كما يحسن الرجل لوالديه ولذي القربى منه، فقد أمر الله تعالى بذلك وقرنه مع الإحسان للوالدين ولذي القربى.

قال تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

وأمر تعالى كذلك بالإحسان إليهم كما يحسن الرجل لأخيه في حال المخالطة.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة:٢٢٠].

وأمر سبحانه تعالى أن ينزلهم الرجل منزلة أولاده في الخشية عليهم من الضياع والاحتياط لهم.

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء:٩][2].

فالإحسان إلى اليتيم بحسن تربيته وحفظ حقوقه من الضياع، والسر في هذا أن اليتيم لا يجد في الغالب من تبعثه العاطفة على تربيته والقيام بشئونه وحفظ أمواله، والأم وإن وجدت تكون في الغالب عاجزة عن تنشئته وتربيته التربية المثلى، إلى أن الأيتام أعضاء في جسم الأمة، فإذا فسددت أخلاقهم وساءت أحوالهم، تسرب الفساد إلى الأمة جمعاء؛ إذ يصبحون قدوة سيئة بين نشئها، فيدب فيها الفساد ويتطرق إليها الانحلال، وتأخذ في الفناء[3].

كما ربط الله تعالى بين الإحسان إلى اليتيم وبين الأمر بتوحيده.

قال تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

وفي هذا دليل على أن عقيدة الأمة لا تكون كاملة وتحت عيونهم يتيم قد أهملوه

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٨٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٦٧.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١/ ١٥٧، محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٣٤٢.

وحرموه العطف والحنان، وهذا التصرف لا يكون إلا حين نقص العقيدة وضعف الإيمان، وذلك يؤدي إلى نشر الأنانية في الأمة، ويجعل كل فرد يهتم بمصالحه الشخصية دون النظر إلى حقوق الآخرين، فلا يوجد دين عند أمة أساءت معاملة اليتيم وأخذت حقوقه وقهرت قلبه وفؤاده[1].

كما أمر الله بالإحسان إلى اليتيم في قربان ماله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:٣٤][2].

قال عن ابن عباس رضي الله عنه: «يريد: إن كنت وصيًّا فأصلحت ماله، وقمت لله في ضيعته أكلت بالمعروف إن احتجت إليه، وإن كنت غنيًّا عنه فَعُفَّ عن أكله. وقال الزجاج التي هي أحسن: هو حفظ ماله عليه، وتثميره بما يوجد السبيل إليه»[3].

وقال السمعاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ «معناه: إلا بالعفة التي هي أحسن، واختلفوا في معناه على أقاويل: أحدها: أن القربان بالأحسن هو حفظ الأصول، وتثمير الفروع، والآخر: أن القربان بالأحسن هو التجارة في ماله، وهذا قريب من الأول، والقول الثالث: أن القربان بالأحسن هو أن لا يخالط مال اليتيم بمال نفسه»[4].

ومن أفضل الإحسان إلى اليتيم إطعامه والإنفاق عليه.

قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان:٨].

فقد بين الله تعالى أن من صفات الأبرار إطعام اليتيم، كما تشير الآية إلى أن إطعام اليتيم من واجب المواساة، قال الإمام الرازي: «إنه تعالى ذكر أصناف من تجب مواساتهم، وهم ثلاثة أحدهم: المسكين وهو العاجز عن الاكتساب بنفسه، والثاني: اليتيم وهو الذي مات كاسبه فيبقى عاجزًا عن الكسب لصغره مع أنه مات كسبه، والثالث: الأسير وهو المأخوذ من قومه المملوكة رقبته الذي لا يملك لنفسه نصرًا ولا حيلة، وهؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى هاهنا هم

(١) آداب معاملة اليتيم، محمد مجاهد طبل، وإبراهيم بن محمد ص١٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٦١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٨.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٢٣٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٣٧.
(٤) تفسير السمعاني ٣/ ٢٣٩.

الذين ذكرهم في قوله: «﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد:١١-١٦] [(١)].

كما أن الإنفاق عليهم من خير ما ينفقه المنفق، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥] [(٢)].

قال الواحدي: «إن الإنفاق في هذه الآية لا يراد به الصدقة عند الموت، إنما يراد به النفع في الدنيا، والإيثار بما يتقرب به الإنسان إلى الله تعالى، فأخبر الله تعالى أن من قصد ذلك ينبغي له أن يبر بذلك المذكورين في هذه الآية» [(٣)].

وأن ذلك من البر قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

والمراد بالبر في اليتامى هو معاملتهم بالإحسان، وبفعل الواجبات والمندوبات وجميع الطاعات الظاهرة والباطنة، وكل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال؛ لأن اليتامى لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته تعالى بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فقد آباؤهم؛ ليصيروا كمن لم يفقد والديه؛ ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيره، رحم يتيمه [(٤)].

ثانيًا: مخالطة اليتامى:

بين الله تعالى حكم مخالطة اليتيم، بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة:٢٢٠].

وكان أهل الجاهلية قد اعتادوا الانتفاع بأموال اليتامى، وربما تزوجوا باليتيمة طمعًا في مالها، أو يزوجها من ابن له؛ لئلا يخرج مالها من يده، ثم إن الله تعالى أنزل قوله:

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٣٠/ ٧٤٧.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤١٦، أضواء البيان ٨/ ٥٦٧.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣١٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٧، نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٥٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٣.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠].

وأنزل في آيات أخرى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [النساء:٣].

وقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء:١٢٧].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

فعند ذلك ترك القوم مخالطة اليتامى، والمقاربة من أموالهم، والقيام بأمورهم، فعند ذلك اختلت مصالح اليتامى وساءت معيشتهم، فثقل ذلك على الناس، وبقوا متحيرين إن خالطوهم وتولوا أمر أموالهم استعدوا للوعيد الشديد، وإن تركوا وأعرضوا عنهم اختلت معيشة اليتامى، فتحير القوم عند ذلك فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة:٢٢٠].

فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

وهذا هو سبب نزول الآية كما رواه ابن عباس، قال: (لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:٣٤]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠].

انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة:٢٢٠]. فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم)[1].

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم ٢٨٧١، ٣/ ١١٤ كتاب الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، والنسائي في سننه رقم ٣٦٦٩، ٦/ ٢٥٦ كتاب الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه، والحاكم في المستدرك، رقم ٢٤٩٩، ٢/ ١١٣.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

وقد ذكر المفسرون في المراد بمخالطة اليتيم وجوه:

أحدها: المراد: وإن تخالطوهم في الطعام والشراب والمسكن والخدم فإخوانكم، والمعنى: أن القوم ميزوا طعامه عن طعام أنفسهم، وشرابه عن شراب أنفسهم ومسكنه عن مسكن أنفسهم، فالله تعالى أباح لهم خلط الطعامين والشرابين، والاجتماع في المسكن الواحد كما يفعله المرء بمال ولده، فإن هذا أدخل في حسن العشرة والمؤالفة، والمعنى وإن تخالطوهم بما لا يتضمن إفساد أموالهم فذلك جائز.

وثانيها: أن يكون المراد بهذه المخالطة أن ينتفعوا بأموالهم بقدر ما يكون أجره مثل ذلك العمل؛ والقائلون بهذا القول منهم من جوز ذلك سواء كان القيم غنيًّا أو فقيرًا، ومنهم من قال: إذا كان القيم غنيا لم يأكل من ماله لأن ذلك فرض عليه وطلب الأجرة على العمل الواجب لا يجوز، واحتجوا عليه بقوله تعالى: ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف، وأما إن كان القيم فقيرًا فقالوا: إنه يأكل بقدر الحاجة ويرده إذا أيسر، فإن لم يوسر تحلله من اليتيم[1].

القول الثالث: أن يكون معنى الآية أن يخلطوا أموال اليتامى بأموال أنفسهم على سبيل الشركة بشرط رعاية جهات المصلحة والغبطة للصبي.

والقول الرابع: أن المراد بالخلط المصاهرة في النكاح، على نحو قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا﴾ [النساء:٣] وقوله عز من قائل: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ [النساء:١٢٧].

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات، في المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى وإحسان، وتوسعة على المؤمنين[2].

ويمكن القول بأن الأقوال الأربعة مرادة من تفسير الآية، ولا مانع من العمل بها أو بأحدها بشرط نية الإصلاح والعمل بمقتضى الأخوة في النظر في مصالح اليتيم بالتقويم والتأديب وغيرهما؛ لكي ينشأ على علم وأدب وفضل؛ لأن هذا الصنع أعظم تأثيرًا فيه من إصلاح حاله بالتجارة، ويدخل فيه أيضًا إصلاح ماله كي لا تأكله النفقة من جهة التجارة، ويدخل فيه أيضًا معنى قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ

(١) انظر: تفسير السمعاني ١/ ٢٢١، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٨٣، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٦٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٠٤

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٠٥.

﴿بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء:٢].

ومعنى قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ يتناول حال المتكفل، أي: هذا العمل خير له من أن يكون مقصرًا في حق اليتيم، ويتناول حال اليتيم أيضًا، أي: هذا العمل خير لليتيم من حيث إنه يتضمن صلاح نفسه، وصلاح ماله، فهذه الكلمة جامعة لجميع مصالح اليتيم والولي[(١)].

ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي: يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم، ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجانا[(٢)].

ثالثًا: التحذير من الإساءة لليتامى:

نهى الله سبحانه وتعالى صراحة عن الإساءة إليهم كما في قوله جل شأنه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى:٩].

والمعنى: قال مجاهد: «لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيما. فلا تظلمه ولا تأخذ حقه وتتقوى به، وقال الفراء والزجاج: لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في أمر اليتامى: تأخذ أموالهم، وتظلمهم حقوقهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسن إلى اليتيم ويبره، ويوصي باليتامى[(٣)].

ودلت الآية على اللطف باليتيم، وبره والإحسان إليه، حتى قال قتادة: «كن لليتيم كالأب الرحيم[(٤)].

قالت عائشة بنت الشاطىء: «ونرى الإيحاء النفسي للكلمة القرآنية ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ أعمق وأدق من أن يضبط بهذه التفسيرات المحدودة، فلا الظالم، ولا التسلط بما يؤذى، ولا منع الحق، ببالغ في التأثير ما يبلغه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ إذ يجوز أن يقع القهر مع إنصاف اليتم، وإعطائه ماله، وعدم التسلط عليه بالأذى؛ لأن حساسية اليتم بحيث تتأثر بالكلمة العابرة، واللفتة الجارحة عن غير قصد، والنبرة المؤلمة بلا تنبه، وإن لم يصحبها تسلط بالأذى أو غلبة

(١) انظر: المصدر السابق ٦/ ٤٠٦.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٨٠، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٥١١.
(٤) انظر: تفسير السمعاني ٦/ ٢٤٦ مفاتيح الغيب الرازي ٣١/ ٢٠٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٠٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١٣.

على ماله وحقه»[1].

ويبين لنا الله سبحانه وتعالى حقيقة مزعجة للغاية تغيب عن بعض الناس، حيث أخبرنا بأن إذلال اليتيم والاشتداد عليه من الكفر والتكذيب بالدين؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون:١-٢]. يدفعه عن حقه دفعًا بعنف وجفوة[2].

أي: إن الذي يكذب بالدين هو الذي يدفع اليتيم دفعًا بعنف أي: الذي يهين اليتيم ويؤذيه. والذي لا يحض على طعام المسكين ولا يوصي برعايته. فلو صدق بالدين حقًا، ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدع اليتيم، وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين[3].

وقد أخبر تعالى أنه يهين من لم يكرم اليتيم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧﴾ [الفجر:١٥-١٧].

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسير الآية: «يقول تعالى ذكره: بل إنما أهنت من أهنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم، فأخرج الكلام على الخطاب، فقال: بل لستم تكرمون اليتيم، فلذلك أهنتكم»[4].

فأخبر أن الإكرام والإهانة لا تدور على المال وسعة الرزق، ولكن الفقر والغنى بتقديره فيوسع على الكافر لا لكرامته، ويقدر على المؤمن لا لهوانه، إنما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته، وأن سبب ذلك عدم إكرام اليتيم[5].

قال الإمام الرازي: «واعلم أن ترك إكرام اليتيم على وجوه أحدها: ترك بره، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ والثاني: دفعه عن حقه الثابت له في الميراث وأكل ماله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ والثالث: أخذ ماله منه وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: تأخذون أموال اليتامى وتضمونها إلى أموالكم»[6].

يمكن القول بأن النهي عن الإساءة إلى اليتامى يفهم بطريق غير مباشر من كل ما سبق ذكره بشأنهم: من الأمر برحمتهم والإحسان إليهم، وكفالتهم، وإعطائهم من الصدقة، وإصلاحهم ومخالطتهم، وكذلك صون أموالهم والاتجار فيها وتزكيتها.

(١) انظر: التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ٥٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٢٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٥٥٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٣٤١.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٨٥.
(٤) انظر: جامع البيان ٢٤/ ٤١٣.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٥١.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب ٣١/ ١٥٧.

مال اليتيم

سيتناول هذا العنوان أمورًا تتعلق بمال اليتيم وهي: حق اليتيم في التملك، ومصادر أموال اليتامى، وحفظ ماله، التحذير من أكل ماله، اختبار اليتامى في حسن التصرف وإيتاؤهم أموالهم، وذلك فيما يأتي:

أولًا: حق اليتيم في التملك:

قرر القرآن الكريم حق اليتيم في تملك المال، وبين وشدد في أحكام هذا المال في عدد من الآيات الكريمة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال عز وجل: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

وفي تفسير هذه الآيات تعرض المفسرون لمال اليتيم وأحكامه من وجوب حفظه وصونه، وتثميره ودفعه لليتيم عند بلوغه، وتحريم أكله، مما يدل على أن اليتيم له حق تملك مال[1].

ثانيًا: مصادر أموال اليتامى:

هناك مصادر متعددة لأموال اليتيم أهمها:

١. الميراث.

وهذا أكثر أسباب التملك للمال عند اليتيم، وأوسعها انتشارًا، وأساس ذلك قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء:٧].

وهذه الآيات تبين أن لليتيم نصيبه في ميراث من مات وخلف ورثة منهم اليتيم، وأخبر الله تعالى أن ما خلفه الميت بين ورثته، على حد سواء صغار ولد الميت وكبارهم وإناثهم، إذا لم يكن له وارث غيرهم، للذكر مثل حظ الأنثيين[2].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٢٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٢٣٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٣٧، تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١١٠٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣١، معاني

٢. الصدقات والتبرعات.

وتعتبر الصدقة على اليتيم من أفضل وجوه البر.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة:٢١٥][1].

وكذلك الهبات والوصايا والوقف تعتبر من مصادر اليتيم المالية، سواء أكان ذلك من الأفراد أو المؤسسات أو الجمعيات أو الدولة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [النساء:٨][2].

٣. الزكاة.

إن اليتامى يدخلون في الفقراء دخولا أوليا، بل هم الفقراء الصغار الذين يقدمون على الفقراء البالغين؛ لكونهم عاجزين عن التكسب والعمل، فيكون نصيب اليتامى داخلًا في سهم الفقراء والمساكين.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة:٦٠][3].

٤. الفيء والغنيمة.

فلليتامى نصيبهم من الفيء، وهو عند الفقهاء: هو ما يحل أخذه من أموال الكفار بلا قتال كالخراج والجزية وهو لكافة المسلمين ولا يخمس.

قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر:٧][4].

وكذلك نصيبهم من الغنيمة بعد تخميسها وهي المال الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي وإيجاف الخيل والركاب.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٥، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٥٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٠٨.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٩١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤١٦، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٥٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٨٨. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٧٤٧، تفسير السمعاني ٦/ ٢٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٥٥.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٨٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٣١.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٨٥.

﴿٤١﴾ [الأنفال:٤١].

أي: أن الخمس الذي للإمام يكون خمسه لليتامى بنص هذه الآية[١].

٥. الكفالة المالية لليتيم.

وذلك بأن ينفق قريب على اليتيم، أو شخص متبرع على اليتيم، ومن الصور المعاصرة كفالة اليتيم من الأشخاص أو المؤسسات، وتعتبر هذه الكفالة من مصادر اليتيم المالية.

وتعتبر كفالة اليتيم من مسؤوليات المجتمع المسلم كله في أي مكان وأي زمان، وهو فرض كفاية على الأمة فإن تركت الأمة كفالة اليتيم أثمت جميعها[٢].

وتعتبر كفالة اليتامى من المسلمين وغير المسلمين في البلاد الفقيرة نوعًا من التعاون على البر والتقوى، الذي أمر به الله تعالى في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢][٣].

[انظر: التبني: كفالة اليتامى]

ثالثًا: حفظ مال اليتيم:

أمر الله تعالى بحفظ مال اليتيم، وصيانته وتنميته وتكثيره، بكل الوسائل التي تؤدي إلى حفظ ماله وتمنع من هلاكه بمرور الزمن عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:٣٤].

فقد نهى الله سبحانه وتعالى عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وهي بالعفة، واختلفوا في معناه على أقاويل:

أحدها: أن القربان بالأحسن هو حفظ الأصول، وتثمير الفروع، قال القرطبي: «أي: بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه، وهذا أحسن الأقوال في هذا»[٤].

والثاني: أن التي هي أحسن التجارة له بماله، وهذا قريب من الأول.

والقول الثالث: أن القربان بالأحسن هو أن لا يخالط مال اليتيم بمال نفسه إلا على سبيل الإصلاح[٥].

وهذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة، ثم استثنى ما يحسن وهو التثمير والسعي في نمائه، بالتجارة فيه[٦].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١.
(٢) القواعد، ابن رجب الحنبلي ص٢٢٨.
(٣) انظر: حقوق اليتيم في الفقه الإسلامي، تسنيم جمال استيتي ص٦٥.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٤.
(٥) انظر: النكت والعيون الماوردي ٣/ ٢٤١.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٣٧،

رابعًا: التحذير من أكل مال اليتيم:

إن أكل مال اليتيم جريمة من أرذل الجرائم، لا يتجرأ عليها إلا الأنذال الذين قست قلوبهم، ونزعت منها عاطفة الرحمة والإنسانية؛ لما يترتب عليها من الأضرار البالغة بحق اليتيم الذي لا ناصر ولا كافي له؛ ولذلك حرم القرآن أكل مال اليتيم، وتوعد من يأكله بالعذاب الأليم، ليس في الآخرة فحسب، بل هم يتجرعون نارًا محرقة في بطونهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

أي: إن الذي أكلوه نارا تتأجج في أجوافهم، وهم الذين أدخلوها في بطونهم، ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: نارًا محرقة متوقدة، وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر[1].

والآية تشير إلى أن مال اليتيم نار تحرق كل من يمد إليه يدًا خائنة، أو يدسه في بطن شرهة، فمن أكل منه احترق به في الدنيا، وصَلَى به عذاب جهنم في الآخرة[2].

وأكل مال اليتيم كبيرة من الكبائر، وموبقة من الموبقات فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات) قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[3].

وقد اتفق العلماء أن الآية شملت في النهي عن أكل أموال اليتامى كل ما فيه إتلاف أو تفويت، سواء كان بأكل حقيقة، أو باختلاس، أو بإحراق، أو إغراق، إذ لا فرق في ضياع مال اليتيم عليه بين كونه بأكل أو إحراق بنار أو إغراق في ماء حتى الإهمال فيه، فهو تفويت عليه وكل ذلك حفظًا لماله[4].

وفي آية أخرى بين سبحانه أن أكل مال اليتيم إثم عظيم ووزر جسيم، وأن ذلك استبدال للطيب بالخبيث قال تعالى:

المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٢.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٦.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٧٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما، إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا)، رقم ٢٧٦٦، ٤/ ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ٨٩، ١/ ٩٢.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٠٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٦٥.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء:٢].

قال ابن عباس: «أي: إثمًا كبيرًا عظيمًا»[(١)].

قال الماوردي: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ «فيه أربعة تأويلات:

أحدها: الحرام بالحلال، وهو قول مجاهد.

والثاني: هو أن يجعل الزائف بدل الجيد، والمهزول بدل السمين وهو قول ابن المسيب والزهري والضحاك والسدي.

والثالث: هو استعجال أكل الحرام قبل إتيان الحلال، وهو معنى قول مجاهد.

والرابع: أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار والنساء ويأخذه الرجل»[(٢)].

وينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية إسرافًا وبدارًا، أي: مبادرة قبل بلوغهم.

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء:٦][(٣)].

وأصل الإسراف: تجاوز الحد المباح إلى ما ليس بمباح، وأما البدار فهو: أكل مال اليتيم قبل أن يكبر، فيحول بين الآكل وبين ماله[(٤)]، والمعنى: لا تأكلوا أموال اليتامى أكل إسراف وأكل مبادرة لكبرهم، أو: لا تأكلوا لأجل السرف، ولأجل المبادرة، أو: لا تأكلوها مسرفين ومبادرين لكبرهم، وتقولوا: ننفق أموال اليتامى فيما نشتهي قبل أن يبلغوا فينتزعوها من أيدينا[(٥)].

وفي الجملة ففي الآية نهي للأغنياء من الأولياء أن لا يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى شيئًا، وللفقراء منهم أن لا يأخذوا منها شيئًا بغير المعروف، كما أن قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ يدل على أنه نهي للفريقين عن أكلها إسرافًا ومبادرة لكبرهم.

وقد رخص القرآن الكريم للوصي أن يأكل من مال اليتيم من غير إسراف ولا تبذير، إن كان فقيرًا وقيد هذا الأكل بالمعروف، فيجوز في حال الحاجة والاعتدال بمثابة أجر له بقدر عمله وخدمته، فإن كان الوصي غنيًّا فلا يأكل منه، وعليه أن يتعفف، وإن كان فقيرًا محتاجًا فليأكل الوصي بالمعروف شرعًا وعرفًا بلا إسراف ولا تبذير، قال عمر

(١) انظر: تفسير السمعاني ١/ ٣٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٣.
(٢) النكت والعيون ١/ ٤٤٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٩.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٥٣.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٩١.

رضي الله عنه: «إني أنزلت نفسي من مال الله (أي: مال الأمة) منزلة والي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن احتجت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت»[1].

وهذا القول رجحه الإمام ابن جرير، حيث قال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: المعروف الذي عناه الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أكل مال اليتيم عند الضرورة والحاجة إليه، على وجه الاستقراض منه فأما على غير ذلك الوجه، فغير جائز له أكله»[2].

وقال الإمام الشوكاني: «واختلف أهل العلم في الأكل بالمعروف ما هو؟ فقال قوم: هو القرض إذا احتاج إليه ويقضي متى أيسر الله عليه، وبه قال عمر بن الخطاب، وابن عباس، وعبيدة السلماني، وابن جبير، والشعبي، ومجاهد، وأبو العالية، والأوزاعي، وقال النخعي وعطاء والحسن وقتادة: لا قضاء على الفقير فيما يأكل بالمعروف، وبه قال جمهور الفقهاء، وهذا بالنظم القرآني ألصق فإن إباحة الأكل للفقير مشعرة بجواز ذلك له من غير قرض.

والمراد بالمعروف: المتعارف به بين الناس، فلا يترفه بأموال اليتامى، ويبالغ في التنعم بالمأكول، والمشروب، والملبوس، ولا يدع نفسه عن سد الفاقة وستر العورة، والخطاب في هذه الآية لأولياء الأيتام القائمين بما يصلحهم، كالأب والجد ووصيهما. وقال بعض أهل العلم: المراد بالآية: اليتيم إن كان غنيًّا وَسِّعَ عليه وَعُفَّ من ماله، وإن كان فقيرًا كان الإنفاق عليه بقدر ما يحصل له»[3].

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: فليستعفف بماله عن مال اليتيم فإذا كان الولي فقيرًا يأكل من مال اليتيم بقدر الحاجة، وإلى هذا ذهب قوم من العلماء، أن له أن يأكل بقدر ما يسد به الخلة، وقال الشعبي وجماعة: يأكل من مال اليتيم على سبيل القرض، وقال مجاهد: لا يأكل أصلًا، لا قرضًا، ولا غير قرض[4].

والراجح: أن للولي أو الوصي إن كان فقيرا أن يأكل بالمعروف بحسب العرف والعادة في ذلك، أو على قدر نفعه ومثل أجرته[5].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، رقم ٣٢٩١٤، ٦/ ٤٦٠، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم ١١٠٠١، ٦/ ٧.
(٢) جامع البيان ٧/ ٥٩٣.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٩١.
(٤) انظر: تفسير السمعاني ١/ ٣٩٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٧، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٥٧.

خامسًا: اختبار اليتامى في حسن التصرف وإيتاؤهم أموالهم:

أمر الله تعالى الأولياء باختبار اليتامى في حسن التصرف وإيتاؤهم أموالهم.

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

والمعنى: أيها الأولياء ابتلوا اليتامى إلى ابتداء البلوغ وهو الحد الذي يبلغون فيه سن النكاح، فإن آنستم منهم بعد البلوغ رشدا فادفعوا إليهم أموالهم، وإلا فاستمروا على الابتلاء حتى تأنسوه منهم [(١)].

والابتلاء: هو الاختبار والامتحان، وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد، الممكن رشده شيئًا من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه، فإن استمر غير محسن للتصرف لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمرًا كثيرًا، فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كاملة موفرة وأشهدوا على ذلك أهل الثقة والأمانة.

وقوله: ﴿آنَسْتُم﴾ أي: تبينتم وشاهدتم وأحسستم ووجدتم بمعنى واحد.

وفي هذه الآية يدعو سبحانه القومة على اليتامى من أولياء وأوصياء أن يضعوهم دائمًا تحت التجربة والاختبار؛ لسياسة أموالهم، وتدبيرها بأنفسهم، وذلك بأن يشركوهم معهم في بعض التصرفات، ويطلعوهم على طرق الأخذ والعطاء بين الناس، وذلك بتتبع أحوالهم في الاهتداء إلى ضبط الأمور، وحسن التصرف في الأموال وبتمرينهم على ما يليق بأحوالهم حتى لا يجيء وقت بلوغهم إلا وقد صار في قدرتهم أن يصرفوا أموالهم تصريفًا حسنًا، فإن شاهدتم وأحسستم منهم رشدًا أي: صلاحًا في عقولهم، وحفظًا لأموالهم، فادفعوها إليهم من غير تأخير أو مماطلة[(٢)].

وفي آيات أخرى حتى يبلغ اليتيم الأشد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء:٣٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢].

(١) انظر: نظم الدرر ٤/ ١٨٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٤، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٧٠٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٤٣.

والمراد بالأشد في شأن اليتيم في هذه الآيات هو: بلوغ الحلم مع حسن التصرف، وهو المبين في قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء:٦].

وبلوغ الحلم هو بلوغ النكاح، لكنه مشروط بإيناس الرشد، فكم من كبير غير رشيد ولا يحسن التصرف.

وهذا ما رجحه الإمام الشوكاني حيث قال: «والأولى في تحقيق بلوغ الأشد أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالكًا مسلك العقلاء، لا مسلك أهل السفه والتبذير، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ فجعل بلوغ النكاح، وهو بلوغ سن التكليف مقيدا بإيناس الرشد»[1].

وقال الإمام ابن العربي في أحكام قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء:٣٤] «يعني: قوته، والأشد كما قلنا في القوة، وقد تكون في البدن، وقد تكون في المعرفة والتجربة، ولا بد من حصول الوجهين، فإن الأشد هاهنا وقعت مطلقة، وجاء بيان اليتيم في سورة النساء مقيدًا، قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

فجمع بين قوة البدن ببلوغ النكاح، وبين قوة المعرفة بإيناس الرشد، وعضد ذلك المعنى فإنه لو اقتضت الآية تمكين اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة له وبعد حصول قوة البدن لأذهبه في شهواته، وبقي صعلوكا لا مال له، وخص اليتيم بهذا الشرط في هذا الذكر لغفلة الناس عنه، وافتقاد الآباء لبنيهم، فكان الإهمال لفقيد الأب أولى»[2].

سادسًا: البلوغ في حق اليتيم:

البلوغ في حق اليتيم يكون بأحد الأمور الآتية:

١. بلوغ الاحتلام، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد، وهذا النوع من البلوغ متفق عليه بين العلماء ويشترك فيها الرجال والنساء، وبهذا الاحتلام وبلوغه يزول اسم اليتم عن اليتيم حقيقة، وذلك لما رواه علي رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يتم بعد احتلام ولا صمات يوم إلى

(١) فتح القدير ٢/ ٢٠٢.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٩٨- ١٩٩.

الليل)[1]. وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق)[2].

٢. الحيض والحبل ويختصان بالنساء، فلم يختلف العلماء في أنه بلوغ، وأن الفرائض والأحكام تجب بهما[3].

٣. السن الذي يعتبر في البلوغ: فهو أن يستكمل خمس عشرة سنة عند جمهور العلماء، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني، فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث: إن هذا الفرق بين الصغير والكبير[4]. وذهب الحنفية والمالكية إلى أنه السن المعتبر في البلوغ هو بلوغ ثماني عشر سنة للذكور وسبعة عشرة للإناث[5].

والراجح من هذه الأقوال هو: ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من أن البلوغ يكون بمضي خمس عشرة سنة، وهو الوقت الذي يجب فيه على الأولياء أن يدفعوا إلى اليتيم ماله، إلا أن يشعر الولي بأن اليتيم غير مؤهل لتسلم المال بعد مضي خمس عشرة سنة، فيمكن الانتظار به حتى يبلغ ثماني عشرة سنة؛ عملًا بقول الحنفية والمالكية.

وقد أمر الله تعالى بتوثيق دفع مال اليتيم إليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦][6].

أي: فإذا دفعتم أيها الأولياء والأوصياء إلى اليتامى أموالهم فأشهدوا عليهم بقبضها وبراءة ذممكم منها، كي لا يكون بينكم نزاع.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٢٨٧٣، ٣/ ١١٥، كتاب الوصايا، باب ما جاء متى ينقطع اليتم.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٦٠٩، ٢/ ١٢٦١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٤٣٩٨، ٤/ ١٣٩، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًا، والترمذي في سننه، ١٤٢٣، ٤/ ٣٢، أبواب الحدود، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد.
وصححه ابن الملقن في البدر المنير ٣/ ٢٢٦، والألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٥١٣، ١/ ٦٥٩.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٨.

(٥) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٩٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٥.
تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٩.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٩.

وهذا الإشهاد واجب عند الشافعية والمالكية، إذ أن تركه يؤدى إلى التخاصم والتقاضي كما هو مشاهد، وجعله الحنفية مندوبًا لا واجبًا[1].

والراجح من هذه الأقوال: إن الإشهاد عند دفع مال اليتيم إليه واجب، ويمكن كذلك توثيق هذا الدفع بكلِّ الوسائل الممكنة وخاصة بالكتابة من خلال تحرير اليتيم سندات استلام للمال وبحضور الشهود؛ لأن ذلك أدعى لقطع الخصومات والشكوك والدعاوى في المستقبل.

قال الإمام الرازي: «واعلم أنَّ الأمة مجمعة على أنَّ الوصي إذا دفع المال إلى اليتيم بعد صيرورته بالغًا، فإنَّ الأولى والأحوط أن يشهد عليه لوجوه:

أحدها: أن اليتيم إذا كان عليه بينة بقبض المال كان أبعد من أنْ يدعي ما ليس له.

وثانيها: أن اليتيم إذا أقدم على الدعوى الكاذبة أقام الوصي الشهادة على أنه دفع ماله إليه.

ثالثها: أن تظهر أمانة الوصي وبراءة ساحته، فأمره بالإشهاد لتظهر أمانته وتزول التهمة عنه، فثبت بما ذكرنا من الإجماع والمعقول أنَّ الأحوط هو الإشهاد»[2].

ثم ختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾: أي: وكفى الله رقيبًا وشهيدًا عليكم يحاسبكم على ما تسرون وما تعلنون، وقد جاء هذا بعد الأمر بالإشهاد ليرشد المسلمين إلى أنَّ الإشهاد وإنْ أسقط الدعوى بالمال عند القاضي فهو لا يسقط الحقَّ عند الله إذا كان الولي خائنًا، فإنَّ الله لا يخفى عليه ما يخفى على الشهود والحكام[3].

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٤، النكت والعيون الماوردي ١/ ٤٥٥، تفسير السمعاني ١/ ٣٩٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٧٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١١.

(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٥٠٠

(٣) انظر: نظم الدرر ٤/ ١٨٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٦٤.

نكاح يتامى النساء

بيَّنَ القرآن الكريم أحكام نكاح يتامى النساء في آيتين وهما:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء:١٢٧].

ومعنى الآية: وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن، بإساءة العشرة أو بنقص الصداق، فانكحوا غيرهن من الغريبات، فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليكم، فالآية للتحذير من التورط في الجور والأمر بالاحتياط، وإنَّ في غيرهن متسعًا إلى الأربع[(١)].

وقد ورد في تفسير هذه الآيات أحاديث صحيحة منها ما رواه الإمام البخاري بسنده عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾، قالت:(يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أنْ يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهنَّ إلَّا أنْ يقسطوا إليهن. ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: وإنَّ الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾، قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجماله من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهنَّ إذا كنَّ قليلات المال والجمال)[(٢)(٣)].

قال الإمام ابن كثير: «والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة بأمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسَّعَ الله عز وجل، وهذا المعنى في الآية

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٣١، محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٥٧٤، ٦/ ٤٣، كتاب تفسير القرآن، باب (وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى)، ومسلم في صحيحه، رقم ٣٠١٨، ٤/ ٢٣١٣، كتاب التفسير، باب (وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٣.

الأولى التي في أول السورة، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، وهي قوله: ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا فإن كانت جميلة وهويها، تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه»[1].

فبين الله تعالى في هذه الآية أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال أو مال، رغبوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها بإكمال الصداق، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء، قال: فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها، إلا أن يقسطوا لها الأوفى من الصداق ويعطوها حقها، فنهوا أنينكحوهنَّ إلا أنْ يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن[2].

قال الحسن البصري: «كان الرجل من أهل الجاهلية يكون عنده الأيتام وفيهن من يحل له نكاحها، فيتزوجها لأجل مالها وهي لا تعجبه كراهية أن يدخل غريب فيشاركه في مالها، ثم يسيء صحبتها ويتربص أن تموت ويرثها، فعاب الله تعالى ذلك، وأنزل الله هذه الآية»[3].

ومن خلال ما سبق من الآيات والأحاديث وأقوال المفسرين يمكن تلخيص أحكام نكاح يتامى النساء فيما يأتي:

١. لا يجوز نكاح اليتامى عند خوف عدم العدل، بإجماع الفقهاء والمفسرين.
٢. يجوز نكاح يتامى النساء من وليها بمهر مثلها وبأوفى صداقها مع العدل.
٣. لا يجوز عضل يتامى النساء من الزواج بغير وليها إن كانت دميمة من أجل ألا يخرج ميراثها لغير وليها.
٤. يعتبر في نكاح يتامى النساء ما يعتبر في ذوات الأب من البلوغ والرضا على الراجح من أقوال الفقهاء، ذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء إلى أن ذلك لا يجوز حتى تبلغ وتستأمر، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٣١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٦.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٧، تفسير السمعاني ١/ ٣٩٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٦٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٠٤، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٠٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢١٣، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٢١.

والنساء اسم ينطلق على الكبار كالرجال في الذكور، واسم الرجل لا يتناول الصغير، فكذلك اسم النساء والمرأة لا يتناول الصغيرة. وقد قال: ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ والمراد به هناك: اليتامى هنا، كما قالت عائشة رضي الله عنها، فقد دخلت اليتيمة الكبيرة في الآية، فلا تزوج إلا بإذنها، ولا تنكح الصغيرة إذ لا إذن لها، فإذا بلغت جاز نكاحها، لكن لا تزوج إلا بإذنها[1].

٥. وإذا جاز له أن يتزوجها، فإما أن يلي هو النكاح بنفسه، وإما أن يزوجه إياها أخوها مثلًا إذا بلغت اليتيمة وأقسط الولي في صداقها، جاز له أن يتزوجها، ويكون هو الناكح والمنكح، على ما فسرته عائشة، وبه قال أبو حنيفة، أي أنه يمكن انعقاد الزواج بعاقد واحد. وقال زفر من الحنفية والشافعي: لا يجوز له أن يتزوجها إلا بإذن السلطان، أو يزوجها منه ولي لها غيره؛ لأن الولاية شرط من شروط العقد، لقوله عليه صلى الله عليه وسلم فيما رواه البيهقي عن عمران وعن عائشة: «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل» فتعديد الناكح والمنكح والشهود واجب، أي: لا بد من تعدد العاقد[2]. ويكون الراجح من أقوال الفقهاء هو قول زفر من الحنفية والشافعي؛ لوجاهة أدلتهما ولمصلحة اليتيمة، فلا بد من تعدد العاقد في نكاح اليتيمة من أجل أن لا تقع في ظلم أو نقص في المهر.

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٧، تفسير السمعاني ١/ ٣٩٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٦٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢١٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٣١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٧، تفسير السمعاني ١/ ٣٩٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٦٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٠٤، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٠٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢١٣.

حقوق اليتيم على المجتمع والدولة

إنَّ الإسلام بمنهجه القويم وتشريعاته الغراء وتوجيهاته السديدة، اعتنى عناية فائقة باليتيم، فأمر بإكرامه ورعايته، وكفالته والقيام بشؤونه، فأعاد له إنسانيته وكرامته، وأمر بإيصال حقوقه من غير مَنٍّ ولا أذىً، كما أمر بالقسط معه وعدم ظلمه، فحفظ له حقوقه الشخصية مثل: حقوقه المتعلقة بالولادة، وحقه في الحياة، وحقه في النسب والرضاعة والوصاية، وحقه في الرحمة والحب والإشباع العاطفي، وحقه في التربية والتأديب والتعليم واللعب واللهو وغيرها من الحقوق [(١)].

وكذلك حقوقه المدنية والمالية، كحقه في النفقة والرعاية الصحية والعلاج، وحقه في الجنسية الوطنية، وحقه في حمايته في الحروب والكوارث وغيرها.

وقد اعتنى المسلمون أفرادًا وجماعات بالأيتام، وقامت في بلاد المسلمين مؤسسات ترعى شؤونهم عامة وتحضنهم، وأمر من يقوم عليه بتربيته وتعليمه وبإشباعه بالحب والعطف والحنان، كلُّ هذا أعاد لليتيم وضعه اللائق به إنسانيًّا[(٢)].

(١) انظر: حقوق اليتيم، تسنيم جمال استيتي ص١.

(٢) انظر: حقوق اليتيم، تسنيم جمال استيتي ص١.

وهذه الحقوق تتوزع بين المجتمع المسلم والدولة على التفصيل الآتي:

أولًا: حقوق اليتيم على المجتمع:

يعتبر القيام برعاية اليتيم والمحافظة على حقوقه وتوفيته إياها من مسؤوليات المجتمع المسلم كله في أي زمان وفي أي مكان، وهو فرض كفاية على الأمة، فإن تركت الأمة كفالة اليتامى أثمت جميعها.

ولقد جند الإسلام المسلمين جميعًا للقيام بحقوق اليتامى والتقرب إلى الله تعالى بالعطف عليهم.

قال تعالى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

[البقرة:١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥].

وقوله عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان:٨]وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء:٨].

ويلاحظ من خلال الآيات السابقات أن الخطاب للجماعة والمجتمع المسلم بلفظ الجمع بالقيام بحقوق اليتيم، مما يدلُّ على المسؤولية الجماعية في الإسلام، فالمجتمع كله مسؤول عن حقوق اليتامى والضعفاء[١].

والأساس الذي يقوم عليه وجوب حق الأيتام هو الإجماع، وقال إمام الحرمين:«وأجمع المسلمون أجمعون على أنه إذا اتفق في الزمان مضيعون فقراء مملقون تعين على الأغنياء أن يسعوا في كفايتهم»[٢].

وقال الإمام أحمد بن تيمية: «فعلى المسلمين جميعًا أن يطعموا الجائع ويكسوا العاري ولا يَدَعوا بينهم محتاجًا»[٣].

ثانيًا: حقوق اليتيم على الدولة:

إنَّ رعاية الدولة الإسلامية لليتامى من الواجبات الشرعية التي تقوم من أجلها الدول، فيجب على الدول القيام بحقوق اليتامى ورعايتهم والإحسان إليهم ودمجهم في المجتمع، وتوفير فرص العمل لهم بعد تأهيلهم في جميع جوانب الحياة، ويدلُّ على هذا أن المولى جلت قدرته جعل للأيتام نصيبًا في الخمس من الغنائم.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال:٤١].

أما حصتهم من الفيء فهو عام، فتؤخذ من مجمله لا من خمس الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر:٧].

والغنائم والفيء لا يحصلان إلا بوجود

(١) انظر: آداب معاملة اليتيم، محمد مجاهد طبل، ومحمد بن إبراهيم ص١٥.
(٢) غياث الأمم في التياث الظلم، الجويني ص٢٥٩.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٥٧٦.

دولة، ولهذا كان الواجب عليها القيام بحقوقهم ورعايتهم وتنشئتهم وإعدادهم إعدادًا جيدًا؛ ليخوضوا غمار الحياة بشجاعة وقوة، مثلهم مثل بقية المواطنين.

فإنَّ الدولة معنية بإقامة مؤسسات عامة لكفالة الأيتام، مزودة بأفضل وأحدث وسائل الرعاية والحضانة والتربية والتعليم، يشرف عليها مربون ومربيات متخصصون من الحائزين على المؤهلات التعليمية والتربوية العالية، وذلك لتهيئة وسط اجتماعي وتعليمي وتربوي مليء بالدفء والحنان في جوٍّ أسريٍّ تعويضيٍّ مناسب.

وينبغي على المجتمعات والدول الإسلامية أن لا تترك اليتامى حتى تأتي المؤسسات الأجنبية التي ترعى وتقدم الدعم لرعاية الأيتام؛ لأن تلك المؤسسات قد تحمل في طياتها غايات كثيرة قد تكون منها ما لا ينسجم مع أصولنا الإسلامية، واليتيم طفل من أبناء المسلمين يحتاج إلى من يتحدث إليه ويشكو إليه مشكلاته، وما يدور في مشاعره وآماله وآلامه، متأملًا أنْ يجد صدورًا رحيمة وقلوبًا عامرة برحمة الله والإيمان به؛ ولأن في ذلك ضررًا على هؤلاء اليتامى فيتربوا على المبادئ الغربية ويشعروا بأن الغرب يقدم لهم الرعاية أفضل من المسلمين، مما قد يؤدي بهم إلى اعتناق المبادئ والأفكار الغربية المتعارضة مع الدين الإسلاميِّ الحنيف.

إنَّ الأساس الذي قام عليه وجوب حقِّ اليتامى على الدولة الإسلامية هو ما رواه البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦]. فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك دينا أو ضياعا، فليأتني فأنا مولاه)[١].

وكذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفس محمد بيده، إنْ على الأرض من مؤمن إلا أنا أولى الناس به، فأيكم ما ترك دينا، أو ضياعا فأنا مولاه، وأيكم ترك مالا، فإلى العصبة من كان)[٢].

والمراد: بمن ترك(ضياعًا)، أي: عيالًا محتاجين يضيعون إن تركوا[٣].

قال الإمام النووي معناه: «أنا قائم بمصالحكم في حياة أحدكم وموته، وأنا وليه في الحالين، فإن كان عليه دين قضيته

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٣٩٩، ٣/ ١١٨، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصلاة على من ترك دينا.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٦١٩، ٣/ ١٢٣٧، كتاب المساقاة، باب من ترك مالا فلورثته.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٦١.

من عندي إن لم يخلف وفاء، وإن كان له مال فهو لورثته لا آخذ منه شيئًا، وإن خلف عيالا محتاجين ضائعين فعلي نفقتهم ومؤنتهم»[1].

والذي يقوم بمهام النبي في كل وقت وحين هو الحاكم المسلم والدولة المسلمة بمختلف مؤسساتها، فيجب عليها القيام بكفالة ورعاية اليتيم.

وأهم حقوق اليتيم التي يجب أن يقوم بها المجتمع والدولة لليتيم على حد سواء هي:

١. حفظ المال ودفعه لهم.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء:٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:٣٤].

٢. الإكرام.

قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر:١٧].

٣. الإطعام.

يقول تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان:٨].

وقال تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [البلد:١٥].

٤. الإيواء.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الضحى:٦].

٥. الإحسان.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣].

٦. العدل.

قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء:١٢٧].

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١١/ ٦١.

اليتامى بين القرآن والقوانين الدولية

تميزت الشريعة الإسلامية بإعطاء اليتامى عناية ورعاية خاصة، ورغبت القادرين من أهل الخير والبر والإصلاح في كفالة اليتامى والإحسان إليهم والعطف والحنان بهم، والعمل على إعدادهم جسميًّا ونفسيًّا وعقليًّا حتى يصيروا رجالًا صالحين يقدمون الخير والنفع لبلدهم وأمتهم.

ولقد اهتم القرآن الكريم مكيِّه ومدنيِّه باليتامى من حيث الإحسان إليهم ورعايتهم والقيام بحقوقهم والمحافظة على أموالهم، والأمر بإكرامهم ومراعاة نفسياتهم، والحث على إطعامهم والإنفاق عليهم، والتحذير من أكل أموالهم، وكذلك جاءت السنة النبوية مؤكدة ومفصلة لما جاء في القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية لم يتركا شيئًا يتعلق باليتيم في جميع الجوانب إلا وتعرضًا له بالبيان والتفصيل، حتى إنهما لم يتركا شيئا لمستدرك أو معقب.

ولقد سبق القرآن الكريم بذلك الاتفاقيات الدولية التي لم تأت إلا بقليل من كثير، وفيض من غيظ، وقاصر من عام وشامل، مما جاء به القرآن.

واليتيم في الإسلام يتمتع بكافة الحقوق الممنوحة للطفل العاديِّ من غير نقصان، بل إنَّ القرآن أولى اليتامى مزيدًا من الاهتمام في الرعاية والكفالة والإحسان.

ونصَّ القرآن الكريم على حقوق اليتيم في أربع وعشرين موضعًا منه بين فيها حقوق اليتيم وأوجب الإحسان إليه.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء:٣٦].

وأخذ بذلك العهود والمواثيق قبل أن تقرر في الاتفاقيات والمعاهدات الدولية بآلاف السنين.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة:٨٣].

وقد سبقت تلك الآيات المبينة حقوق اليتيم بما يغني عن إعادتها في هذا المقام

والاتفاقيات الدولية الخاصَّة بالطفل اقتصر النصُّ صراحة على حقوق اليتيم على إعلان جنيف لعام (١٩٢٤م)، وذلك في المادة الثانية منه، حيث نصَّ على وجوب إيواء وانقاذ اليتامى، أما إعلان حقوق الطفل

لعام (١٩٥٩م) فلم ينصَّ صراحة على حقوق اليتامى، واكتفى بنصوص مجملة يفهم منها أنها تشمل حقوق الأطفال اليتامى.

ولم تنصَّ اتفاقيات حقوق الطفل على حقوق اللقطاء واليتامى، كما نصت على ذلك الشريعة الإسلامية [١].

كما أن الاتفاقيات الدولية رغم أنها صدَّعَت الرؤوس بكثرة الإعلانات والمواثيق المتعلقة بحقوق الطفولة لم تول عناية كبيرة باليتيم، ولم يذكر حقه إلا في إعلان جنيف، حيث نصَّ في مادته الثانية على وجوب إيواء وإنقاذ اليتامى، وأما إعلانات حقوق الطفل فليس فيها شيء يختصُّ باليتامى، مع أن هذه الإعلانات والمواثيق عُدِّلَتْ وطُوِّرتْ وأقرت في أوج تطور الحضارة والمدنية واهتمامها بتدوين الحقوق، ووضع القوانين.

في مقابل ذلك؛ نجد عشرات النصوص من الكتاب والسنة تعرض لليتامى، وتبين حقوقهم، وتلزم المجتمع برعايتهم، وتأتي على الدقيق مما يجب لهم، وفي القرآن فقط ذكر اليتيم وحقه في أربعة وعشرين موضعًا، عدا ما في السنة من عشرات الأحاديث في ذلك.

ولقد كانت الأديان السماوية وبخاصة الإسلام سباقة إلى إقرار حقوق الأطفال، وتميزت الشريعة الإسلامية وبخاصة الإسلام سباقة إلى إقرار حقوق الطفل، وتميزت الشريعة الإسلامية بالاهتمام بحقوق الطفل من قبل أن يولد، وقبل أن يكون جنينًا في بطن أمه عندما أرشد الزوجين إلى إحسان الاختيار، كما تميزت بفكرة وجوبية هذه الحقوق على الوالدين ثم المجتمع ثم الدولة [٢].

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأسرة، الأمومة، البنوة، التبني، الحقوق، المال، النساء

(١) انظر: حقوق الطفل في الاسلام والاتفاقيات الدولية، سمير خليل محمود ص٢٠١.

(٢) انظر: حقوق اليتيم، تسنيم جمال استيتي ص٨.

اليُسْر

عناصر الموضوع

مفهوم اليسر	٤١٠
اليسر في الاستعمال القرآني	٤١١
الألفاظ ذات الصلة	٤١٢
اقتران العسر باليسر	٤١٤
اليسر في حق الله تعالى	٤١٥
أسباب جلب اليسر	٤٢٣
اليسر في التشريع	٤٢٦
اليسر في الجزاء	٤٤١

مفهوم اليسر

أولًا: المعنى اللغوي:

تدلُّ كلمة اليسر في اللغة على السهولة واللين والانقياد، والغنى.

ويدلُّ أيضًا على العضو، وهي اليد اليسرى أخت اليمين.

قال في المغرب:«(اليسر) خلاف العسر، (واليسار) اسم من أيسر إيسارًا إذا استغنى»[(١)].

قال في القاموس المحيط: «اليسر، بالفتح ويحرك: اللين، والانقياد، ويَسَرَ يَيْسَرُ، وياسَرَهُ: لاينه»[(٢)].

قال الجوهري: «يقال يَسَّرَهُ الله لليسرى: أي وفقه لها»[(٣)].

ويقال: قد أَيْسَرْتَ ويَسَرْتَ،ويسر الرجل تيسيرا: سهلت ولادة إبله وغنمه، وأيسر إيسارًا ويُسْرًا: صار ذا غنى، فهو موسر[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي ، الدال على لينٍ وسهولةٍ وانقيادٍ، أو هو رفع المشقة والحرج عن المكلف بأمر من الأمور لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم[(٥)].

(١) المغرب في ترتيب المعرب ٢/ ٣٦٩.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٤٩٩.
(٣) الصحاح ٢/ ٤٢٢.
(٤) المصدر السابق.
(٥) تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٤٨٤، محاسن التأويل ٣/ ٤٢٧.

اليسر في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ي س ر) في القرآن الكريم (٤٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (٤١) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر:١٧]
الفعل المضارع	٣	﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل:٧]
فعل الأمر	١	﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ [طه:٢٦]
المصدر	٧	﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]
مصدر ميمي	١	﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠]
الصفة المشبهة	١٥	﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج:٧٠]
اسم	٢	﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الأعلى:٨]
اسم المفعول	١	﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء:٢٨]

وجاء اليسر في القرآن على وجهين[(٢)]:

الأول: السهل: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧]. أي: سهلناه وهوناه.

الثاني: الرخاء: ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. أي: بعد الفقر غنىً.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٧٢.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٧٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ التخفيف:

التخفيف لغة:

وهو في اللغة ضد الثقل والرزانة. قال ابن منظور: «التخفيف ضد التثقيل، واستخفه خلاف استثقله»[(١)].

التخفيف اصطلاحًا:

رفع مشقة الحكم الشرعي بنسخ، أو تسهيل، أو إزالة بعضه أو نحو ذلك، أي: إن كان فيه في الأصل حرج أو مشقة. والتخفيف أخصُّ من التيسير إذ هو تيسير ما كان فيه عسر في الأصل، ولا يدخل فيه ما كان في الأصل ميسرًا[(٢)].

الصلة بين اليسر والتخفيف:

التخفيف في حقيقته صورة من صور اليسر في الشريعة، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[الأنفال:٦٦].

٢ الوسع:

الوسع لغةً:

و س ع: (وَسِعَهُ) الشيء بالكسر يَسَعُهُ (سِعَةً) بالفتح، و (الوسع) و(السعة) بالفتح: الجدة والطاقة، جدة الرجل، أي: على قدر سعته، لا يدخر وسعًا: يفعل أقصى ما يقدر عليه[(٣)].

الوسع اصطلاحًا:

الوسع وهو «قدر ما تسع له القوة، وهو بمنزلة الطاقة، وهو نهاية مقدور القادر، ولا يصحُّ ذلك إلا لله تعالى»[(٤)].

الصلة بين اليسر والوسع:

الوسع من صور اليسر، وقد ورد في القرآن الكريم بمعان عدة، منها: الرخاء والطاقة والاستطاعة، والغنى.

---

(١) لسان العرب ٩/ ٨١.
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية ١٤/ ٢١١.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٣٨، العين، الفراهيدي ٢/ ٢٠٣، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢٤٤٠.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٥٦٧.

٣ العسر:

العسر لغة:

وهو: ما دلَّ على صعوبة وشدة. فالعسر: نقيض اليسر، وأعسر الرجل، إذا صار من ميسرة إلى عسرة، وعسرته أنا أعسره، إذا طالبته بدينك وهو معسر، ولم تنظره إلى ميسرته[١].

العسر اصطلاحًا:

المعنى الاصطلاحي للعسر لا يخرج عن المعنى اللغوي له.

الصلة بين اليسر والعسر:

وقد جاء العسر في القرآن الكريم بمعنى: الشدة، والفقر وضيق الحال.

(١) مقاييس اللغة ٤/ ٣٢٠.

اقتران العسر باليسر

سبق القول بأن العسر كثيرًا ما يأتي مقترنا باليسر، وجاء اليسر أكثر منه، وجاء العسر منفردًا واليسر منفردًا.

وفي اقتران اليسر بالعسر في كثير من الآيات حكم بالغة ذكرها أهل العلم، وقد التمسوا ذلك فذكر كلٌّ منهم بما تيسر له.

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥].

وقال جل وعلا: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق:٧].

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[الشرح:٦].

ويوضح هذا الاقتران لبيان هذه الحكمة آيات أخر، منها:

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة:٢١٤].

وقال جل وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[يوسف:١١٠].

قال الزمخشري في تفسير سورة الشرح: «فإن قلت: كيف تعلق قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بما قبله؟ قلت: كان المشركون يعيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة، حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم، فذكَّرَهُ ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله، فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسرا. فإن قلت: إن (مع) للصحبة، فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ قلت: أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فَقَرَّبَ اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر، زيادة في التسلية وتقوية القلوب»[(١)].

قال القرطبي: «والذي في الخبر: (لن يغلب عسر يسرين)[(٢)] يعني: العسر الواحد لن يغلبهما، وإنما يغلب أحدهما إن غلب، وهو يسر الدنيا، فأما يسر الآخرة فكائن لا محالة، ولن يغلبه شيء. أو يقال: إن مع العسر وهو إخراج أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة يسرًا، وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل، مع عزٍّ

(١) الكشاف ٤/ ٧٧٢.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره، ٣/ ٤٣٨، رقم ٣٦٤٤ عن إبراهيم النخعي، يقول: قال ابن مسعود: «لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر، حتى يستخرجه، لن يغلب عسر يسرين، لن يغلب عسر يسرين. وهو موقوف على ابن مسعود.

وشرف»[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه بلغه أن أبا عبيدة حصر بالشام وقد تألب عليه القوم، فكتب إليه عمر: «سلام عليك، أما بعد، فإنه ما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة إلا يجعل الله له بعدها فرجًا ولن يغلب عسر يسرين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠]»[2].

وخلاصة ما تقدم: إن الحكمة من اقتران اليسر بالعسر هو لطف من الله تعالى بالمؤمن وإشعاره بقرب اليسر بعد وقوعه في العسر، وأنَّ اليسر لا بد له بعد العسر، وذلك بضمان الله ذلك بقوله: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ وجاءت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم تؤيد ذلك من واقع من سلف من المؤمنين. والله أعلم.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٨.
(٢) أخرجه مالك في الموطأ، ٢/٤٤٦، رقم ٦، كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد، والحاكم في المستدرك، ٢/٣٢٩، رقم ٣١٧٦.

اليسر في حق الله تعالى

أولًا: يسر القدرة:

إن الله تعالى بقدرته الظاهرة التي ليس بعدها شيء، ييسر كلَّ ما يراه العبد صعبًا مهما صعب، سواء كانت هذه الصعوبة في البعد فيوجده الله، أو في العدم فَيُنْشِئَهُ الله، أو في البعث بعد الموت أو الحشر، فهما يسران على الله، أو كان في حساب المخلوقات وجزائها فهين على الله تعالى، فهو لا يعزبه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى.

ومن هذه الهينات على الله مما هو في ركن المستحيل عند الخلق ما يلي:

١. أمره تعالى بين الكاف والنون، حين يقول للشيء كن فيكون.

إنَّ كلَّ شيء في هذا الكون يسير وهين على الله تعالى، وذلك أن قدرته تعالى الخارقة واضحة ثابتة بأدنى تأمل، في هذا الكون الذي كان يسيرًا على الله تعالى في إيجاده من العدم، وما من أمر من الأمور في السموات والأرض يقول الله له كن إلا ويكون، وقد دلَّ على ذلك آيات كثيرة، ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠].

وقول الله عز وجل ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ

﴿شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[القمر:٥٠].

الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، بل كلُّ شيء عليه هيِّنٌ ويسير، وإذ يقول للشيء: (كن)، فيكون بلا تأخير[١].

قال ابن كثير: «يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّرَ أمرًا وأراد كونه، فإنما يقول له: كن. أي: مرة واحدة، فيكون، أي: فيوجد على وفق ما أراد؛ ليسره عليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[القمر:٥٠]»[٢].

٢. بدء الخلق من عدم.

لقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم يذكر الله تعالى فيها بدء الخلق وإعادته، وكثيرًا ما تأتي هذه الآيات في معرض الردِّ على المنكرين لذلك وغالبًا ما تختم تلك الآيات بكون ذلك على الله يسرًا.

ومعنى بدء الخلق هو: إيجاده من العدم، وهو مصدر مفعول معناه مخلوق[٣].

ومن أمثلة ما ذكر الله تعالى فيه سهولة بدء الخلق وإعادته: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[مريم:٩].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره وليس خلق ما وعدتك أن أهبه لك من الغلام الذي ذكرت لك أمره منك مع كبر سنك، وعقم زوجتك بأعجب من خلقك، فإني قد خلقتك، فأنشأتك بشرًا سويًّا من قبل خلقي ما بشرتك بأني واهب لك من الولد، ولم تك شيئًا، فكذلك أخلق لك الولد الذي بشرتك به من زوجتك العاقر، مع عتيك ووهن عظامك، واشتعال شيب رأسك»[٤].

وقوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: سهل ويسير.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[العنكبوت:١٩].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: أولم يروا كيف يستأنف الله خلق الأشياء طفلًا صغيرًا، ثمَّ غلامًا يافعًا، ثمَّ رجلًا مجتمعًا، ثمَّ كهلًا يقال منه: أبدأ وأعاد وبدأ وعاد، لغتان بمعنى واحد. وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ يقول: ثم هو يعيده من بعد فنائه وبلاه، كما بدأه أول مرة خلقًا جديدًا، لا يتعذر عليه ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل كما كان يسيرًا عليه إبداؤه[٥].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ

(١) أضواء البيان ٢/ ٣٧٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٩٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٢٨.
(٤) جامع البيان ١٨/ ١٥١.
(٥) جامع البيان ٢٠/ ٢٠.

﴿مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[فاطر:١١].

قال السعدي: «أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه فيها، فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وتنقل الآدمي في تلك الأطوار، فالذي أوجده ونقله، طبقًا بعد طبق، وحالًا بعد حال، حتى بلغ ما قدر له، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، فإعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثر خيره، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم، في معاشهم ومعادهم»[(١)].

وبهذا ينتهي الكلام على بدء الخلق، ونبدأ في الكلام على البعث والنشور، وهو الإعادة الذي ذكر في أكثر آيات بدء الخلق حيث يقول الله تعالى: ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٣. البعث بعد الموت.

إن الله سبحانه وتعالى أخبر أن بعث الناس بعد الموت وإعادتهم أمر في غاية السهولة عليه، وكيف لا يكون عليه سهلًا هينًا، وهو بدأ خلقهم، والإعادة أهون من البدء. وقد ضرب الله على ذلك أمثلة عدة، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقسم على ذلك، فقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[التغابن:٧].

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿وَرَبِّى﴾ قسم بالرب على البعث الذي هو الإحياء بعد الموت، وقد أقسم به عليه في القرآن ثلاث مرات، الأول هذا.

والثاني قوله: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[يونس:٥٣].

الثالث قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[سبأ:٣].

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ اسم الإشارة راجع إلى البعث ويُسْرُهُ أمرٌ مُسَلَّمٌ؛ لأنَّ الإعادة أهون من البدء»[(٢)].

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الروم:٢٧].

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: أيسر.

وعن مجاهد قال: «الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هين»[(٣)].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٨٦.

(٢) أضواء البيان ٨/ ٢٠٠.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٣٥.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٤٩١.

أخرج البخاري عند تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ من حديث الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أراه قال: قال الله تعالى: (يشتمني ابن آدم، وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني وما ينبغي له، أمَّا شتمه فقوله: إنَّ لي ولدًا، وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدني كما بدأني)»[1].

وأخرج عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾[البقرة:١١٦].

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا)»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ كقوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[مريم:٩].

أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكنَّ قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها، فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل ولم يكن شيئًا[3].

وقال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[يس:٨١].

٤. الحشر.

الحشر هو: الجمع، وحشر الناس جمعهم؛ ومنه يوم المحشر[4].

والحشر: يقوم الناس من قبورهم على صفة بينها الرسول صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيحين عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا) أي غير مختونين، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء:١٠٤][5].

فحشر العباد ونشرهم في ذلك اليوم أمر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٤/ ١٠٦، رقم ٣١٩٣، كتاب بدء الخلق، باب قول الله تعالى: (وهو أهون عليه).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (وقالوا اتخذ الله ولدا)، ٦/ ١٩، رقم ٤٤٨٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٩٠.

(٤) لسان العرب ٤/ ١٩٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، ٤/ ١٣٩، رقم ٣٣٤٩، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واتخذ الله أبراهيم خليلا)، ومسلم في صحيحه، ٤/ ٢١٥٠، رقم ٢٧٩٠، كتاب صفة القيامة.

سهل على الله تعالى، بل إنه سبحانه كما خلقهم أول مرة فسهل أن يعيدهم، وقوله جلَّ وعلا: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[ق:٤٤].

قال ابن كثير: «أي تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا كما قال جلَّ جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[القمر:٥٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]»[(١)].

٥. العرض والحساب.

قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الكهف:٤٨].

قال ابن جرير: «يقول عزَّ ذِكْرُهُ: يقال لهم إذ عرضوا على الله: لقد جئتمونا أيها الناس أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة، وحذف يقال من الكلام لمعرفة السامعين بأنه مراد في الكلام»[(٢)].

وقال جلَّ وعلا: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[الحاقة:١٨].

وقد أخرج الإمام أحمد من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «(يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأمَّا عرضتان فجدال ومعاذير، وأمَّا الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بشماله)»[(٣)].

قال الدارقطني: «يرويه وكيع عن علي بن رفاعة عن الحسن، عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعًا، وغيره يرويه موقوفًا، والموقوف هو الصحيح»[(٤)].

والحساب: تعريف الله عز وجل الخلائق بأعمالهم خيرًا أو شرًّا، وتذكيرهم ما قد نسوه. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[المجادلة:٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[الغاشية:٢٦].

ودلت آيات أخرى بطريق الإشارة على يسر الحساب على الله تعالى يوم يعرض عليه الخلق، كقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:٢٠٢].

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

وقوله جلَّ وعز: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام:١٦٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٨٥.
(٢) جامع البيان ١٨/ ٣٧.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٢/ ٤٨٦، رقم ١٩٧١٥.
(٤) علل الدارقطني ٧/ ٢٥١.
قال محققو المسند: وتبقى علة الانقطاع بين الحسن وأبي موسى، وعلي بن علي بن رفاعة، قال أحمد: لا بأس به، إلا أنه رفع أحاديث.

وقول الله جل وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[غافر:١٧].

قال ابن عطية: «لأنه لا يحتاج إلى عقد ولا إلى إعمال فكر، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله الخلائق في يوم؟ فقال «كما يرزقهم في يوم»، وقيل: الحساب هنا المجازاة، كأن المجازي يعد أجزاء العمل ثم يجازي بمثلها، وقيل معنى الآية: سريع مجيء يوم الحساب، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة»[(١)].

وقال البغوي: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: «حسابه واقع لا محالة، وكل ما هو واقع لا محالة، فهو سريع، وقيل: سرعة حسابه أنه لا يشغله حساب واحد عن حساب الآخر، ولا يشغله سمع عن سمع، فهو أسرع الحاسبين»[(٢)].

ثانيًا: يسر العلم:

بعد أن ذكرنا في المطلب السابق، من يسر بعث الناس وحسابهم على الله عز وجل، فإن الحديث في هذا المطلب يكون عن يسر العلم في حق الله تعالى، وإحاطته بجميع المخلوقات، وذلك من خلال ما يأتي:

١. يسر علم ما في السموات وما في الأرض على الله عز وجل.

سهل على الله تعالى أن يعلم ما في السموات وما في الأرض؛ لأن العلم من صفاته تعالى الذاتية، فهي لا تنفك عنه جل وعلا.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج:٧٠].

دلت هذه الآية على أمرين:

الأول: كمال علم الله بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وقد علم الكائنات كلها قبل وجودها، وقد ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء)[(٣)].

فالله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية من ظواهر الأمور وبواطنها، خفيها وجليها، متقدمها أو متأخرها، وأنَّ علمه هذا سهلٌ عليه ويسيرٌ لديه، وإن رآه بعض العباد مستحيلًا أو مستبعدًا، أو كان تصور العباد أن ذلك لا يحاط به، فإنَّ ذلك لعجزهم ومحدودية قدراتهم[(٤)].

(١) المحرر الوجيز ١/ ٢٧٧.
(٢) شرح السنة ١٥/ ١٣١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٤٤، رقم ٢٦٥٣، كتاب القدر.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٣٣٥.

وقال تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن:٢٨].

وبهذا يعلم أنه حتى الأنبياء والرسل لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى وأطلعهم عليه من علم الغيب، وهذا يعم الرسول الملكي والرسول البشري[(١)].

ومن علم ما في السموات والأرض أنَّ الله يعلم السرَّ وأخفى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧].

والسرُّ ما تحدث به نفسك، وأخفى ما لم تحدث به نفسك، وقيل: السرُّ: ما تسره اليوم، وأما ما تُسِرُّ غدا فلا تعلمه، ولكن الله يعلم ما تُسِرُّ اليوم وما تُسِرُّ غدا[(٢)].

وهو سبحانه وتعالى يعلم المخبوء في السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل:٢٥].

ولديه سبحانه مفاتيح العلوم كلها، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

فقد أحاط علمه بجميع ما خلق في السموات العلا، وما في الأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، يعلم السِّرَّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم الخطرة والهمة، ويعلم جميع ما توسوس النفوس به، يسمع ويرى، وهو بالنظر الأعلى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرضين إلا وقد أحاط علمه به[(٣)].

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن شهاب الزهري، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤])[(٤)].

الأمر الثاني: أن ذلك العلم المحيط بما في السموات والأرض قد أثبته الله تعالى في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وقد جاء في الحديث: (إنَّ أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب فجرى بما هو كائن إلى

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٤٤.
(٣) الإبانة الكبرى، ابن بطة ٧/ ١٤١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٩/ ١١٦، رقم ٧٣٧٩، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا).

الأبد)[1].

فالله سبحانه وتعالى يسير عليه أنْ يحيط علمًا بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع[2].

وقال الله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧].

قال ابن كثير: أي: يطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله وسمعه لهم، كما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ولا شكَّ في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضًا مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو، سبحانه، مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء[3].

٢. علم الكائنات كلها قبل وجودها.

الله سبحانه وتعالى قد إحاط بالأشياء وعلمها قبل كونها، ثم كتبها في اللوح المحفوظ، فكلُّ ما يقع في هذا الكون فهو داخل في علم الله سبحانه وتعالى الأزليِّ وفيما كتبه في اللوح المحفوظ، كما قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد:٢٢].

فكلُّ شيء بقضاء الله وقدره ومشيئته وإرادته، لا يخرج عن ذلك شيء من الأشياء، وهو أيضًا مكتوب في اللوح المحفوظ[4].

قال الحافظ ابن كثير: «هذه الآية الكريمة من أدلِّ دليل على القدرية نفاة العلم السابق قبحهم الله»، وقال في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ «أي: إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون»[5].

وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[فاطر:١١].

وقال جل في علاه: «﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ٥/ ٣٩٤، رقم ٣٣١٩، كتاب التفسير، باب ومن سورة القلم..
وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٢٣، رقم ٢٦٤٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٢.
(٤) انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ٢/ ٢٤٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٥٩.

مِن أَنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت:٤٧].

قال ابن كثير: أي: لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد صلى الله عليه وسلم وهو سيد البشر لجبريل عليه الصلاة والسلام وهو من سادات الملائكة، حين سأله عن الساعة فقال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)[1]. وكما قال عز وجل: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[النازعات:٤٤][2]. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٦/ ١١٥، رقم ٤٧٧٧، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: (إن الله عنده علم الساعة)، ومسلم في صحيحه، ١/ ٣٦ رقم ٨، كتاب الإيمان.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٩.

أسباب جلب اليسر

أولًا: التقوى:

مما جاء من الآيات الدالة على أنَّ التقوى تجلب التيسير: قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق:٣].

وقول الله جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق:٤].

وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق:٧].

وكلُّ ما جاء في هذه الآيات أفاد التسهيل والتيسير ونفى الضيق والحرج لمن اتقاه، وأن عاقبتهم دائمًا للفرج والمخرج والخفة والتيسير.

قال ابن كثير: «أي: يسهل له أمره، وييسره عليه، ويجعل له فرجًا قريبًا ومخرجًا عاجلًا».

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق:٥].

أي: «حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي: يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير»[3].

وقال السعدي: «أي: من اتقى الله تعالى،

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٥٢.

يسر له الأمور، وسهل عليه كلَّ عسيرٍ»[1].

ثانيًا: البذل والعطاء:

البذل والعطاء سبب لجلب اليسر، ومن اليسر الخُلْفُ لما أنفق، وذلك بصريح القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[سبأ:٣٩].

ومن الآيات الدالة على تيسير أمور الباذل في سبيل الله تعالى: قوله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[الليل:٧].

قال ابن سعدي رحمه الله: «أي: نسهل عليه أمره، ونجعله ميسرًا له كل خير، ميسرًا له ترك كلِّ شرٍّ، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسرَّ الله له ذلك. ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحبَّ، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه»[2].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو، إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)[3].

وقد ذكر أهل العلم في معنى النقص والزيادة في الحديث على وجهين:

أحدهما: معناه أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية، وهذا مدرك بالحس والعادة.

والثاني: أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة[4].

ثالثًا: الدعاء:

الدعاء هو العبادة، وقد ندب الله تعالى عباده إلى الدعاء، وأخبر أنه قريب منهم يفرج كرباتهم وييسر أمورهم، ويجيب المضطر إذا دعاه.

ومن الآيات الدالة على ذلك قول الله تعالى عن دعاء موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ۝٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه:٣٦].

فموسى عليه السلام دعا بهذه الدعوات

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧١.
(٢) تيسر الكريم الرحمن ص ٩٢٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٠١، رقم ٢٥٨٨، كتاب البر والصلة، من حديث أبي هريرة.
(٤) انظر: دليل الفالحين ٤/ ٥٣٨.

الطيبات وكان مما دعا به تيسير أمره، وقد أجابه الله تعالى فيسر أمره بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ حيث أرسل معه أخاه هارون ليساعده في نشر الدعوة وتبليغ رسالة الله تعالى.

قال ابن سعدي: فقال الله ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: أعطيت جميع ما طلبت فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون، وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدلُّ على كمال معرفته بالله وكمال فطنته، ومعرفته للأمور وكمال نصحه، ويحتاج مع ذلك أيضًا أن يتيسر له أمره فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلًا بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه؛ لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر؛ فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطيها[1].

وبهذا يعلم أن الدعاء بالتيسير مما يجلبه، وسؤال الله ذلك قد يكون مباشرة أو غير مباشر فالمباشر مثل ما فعل موسى هنا في هذه الآية، وغير المباشر سؤاله ربه لما خرج إلى مدين وخدمته ابنتي الرجل الصالح ثم توليه إلى الظل. وهذا سيأتي في المبحث الذي يليه. والله أعلم.

رابعًا: مساعدة الخلق:

ورفع المشقة عن العباد، أي: مساعدتهم ومساندتهم والوقوف معهم وخدمتهم فيما يحتاجون إليه. وهذا مما يجلب التيسير لصاحبه، ذلك أن الجزاء من جنس العمل.

قال الله تعالى عن موسى عليه السلام حين خرج إلى مدين وخدم المرأتين ثم تولى إلى الظل، حيث قال: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

قال ابن سعدي: رحمه الله: «أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إلي وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعيًا ربه متملقًا. وأمَّا المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى. فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ وهذا يدلُّ على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء»[2].

فموسى عليه السلام لما قام بخدمة المرأتين ومساعدتهما، قيظ الله له ويسر له

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٠٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦١٤.

الأمن والمأوى والزواج، وهكذا وعد الله كلَّ من أعان أخاه أن الله تعالى ييسر أمره ويعينه.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يَسَّرَ على معسر، يَسَّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

اليسر في التشريع

أولًا: اليسر من مقاصد التشريع:

ما أنزله الله تعالى من الأحكام إلى عباده كله سهل ميسر، لا عسر فيه ولا شدة، ولا يمكننا حصر الآيات الدالة على ذلك لكثرتها، لكن نذكر بعضا منها:

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[البقرة:١٨٥].

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سياق قضية خاصة، وهي الرخصة في الصيام، إلا أنها عامة في الشريعة الإسلامية؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكلُّ الآيات التي وردت في شأن خاصٍّ فإنها تكون عامة، إلا إذا ورد ما يخصصها.

وقال جل وعلا: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى:٨].

قال ابن كثير: «أي: نسهل عليك يا محمد أعمال الخير، ونشرع لك شرعًا سهلًا سمحًا»[2].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء:٢٨].

قال القرطبي: «يريد الله أن ييسر عليكم بإذنه لكم في نكاح الفتيات المؤمنات إذا لم

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٣٨٠.

تستطيعوا طولًا لحرة». ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ يقول: «يَسَّرَ ذلك عليكم إذا كنتم غير مستطيعي الطول للحرائر، لأنكم خلقتم ضعفاء عجزة عن ترك جماع النساء، قليلي الصبر عنه، فأذن لكم في نكاح فتياتكم المؤمنات، عند خوفكم العنت على أنفسكم، ولم تجدوا طولًا لحرة؛ لئلا تزنوا، لقلة صبركم على ترك جماع النساء»[1].

وقال جل وعز: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨].

فقد أفادت هذه الآيات أن الله تعالى أراد بهذه الأمة اليسر والتخفيف، ونفي إرادة العسر والحرج.

ونفى سبحانه وتعالى أن يكون كلف عباده ما لا يطيقون، فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦].

وقال جل وعلا: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[الأنعام:١٥٢].

قال الزمخشري:الوُسْعُ هو ما يَسَعُ الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقها، ويتيسر عليها، دون مدى الطاقة والمجهود[2].

ومن هنا قرر الفقهاء أنَّ ما عجز عن أدائه سقط وجوبه، كما صرَّحَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في غير موضع من كتبه بأنَّ الواجبات كلَّها تسقط بالعجز عن أدائها[3].

وقد وردت أحاديث كثيرة لا يمكن حصرها في هذا المبحث تصرح بيسر الدين ورفع الحرج عن المسلمين، ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الدين يُسْرٌ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)[4].

والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز، وانقطع فيغلب، وقوله: فسددوا، أي: الزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، قال أهل اللغه: السداد التوسط في العمل[5].

وقال عليه الصلاة والسلام: (إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره)[6].

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (إنَّ الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا)[7].

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات ١/ ٣٤٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ١٧٢.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٦/ ٢٠٣-٢٠٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ١٦، رقم ٣٩، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٩٥.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٤٧٩، رقم ١٥٩٣٦، والبخاري في الأدب المفرد، ١/ ١٢٤، رقم ٣٤١.
وحسنه الألباني.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، ٢/ ١١٠٤، رقم

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: (أنَّ أعرابيًّا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوه، وأهريقوا على بوله ذنوبًا من ماء، أو سَجْلًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)[1].

فاليسر من سمات الشريعة الإسلامية، فإنَّ الله تعالى نفى عن هذه الأمة الحرج والعنت وما يشق عليها.

ثانيًا: اليسر في العبادات:

إنَّ هذا الدين يُسْرٌ، وليس فيه حرج ولا عسر، وذلك بإرادة الله له ذلك؛تخفيفا على عباد الله، وهناك آيات عدة، وأحاديث كثيرة تفيد بأنَّ هذا الدين مبنيٌّ على التيسير، وعدم التشديد والتعسير، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء:٢٨].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨].

وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة رضي الله تعالى عنهما أنه قال لها: (ياعائشة! إنَّ الله رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه)[2].

وعن عائشة أيضًا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع عن شيء إلا شانه)[3].

وقال عليه الصلاة والسلام: (يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشروا ولا تنفروا)[4].

ففي هذه الآيات والأحاديث يحثُّ الله سبحانه وتعالى عباده على الرفق، واللين، وأخبر أنه إنما يريد الله أن يخفف على عباده، وأنه لا يريد أن يجعل عليهم من حرج؛ لأن الله تعالى يعلم ضعفهم لذلك خفف عنهم.

والله سبحانه وتعالى يسر للناس عباداتهم، وقد سبق قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨].

وكل العبادات إنما هي مبنية على التيسير والتسهيل ورفع الحرج، ومن ذلك:

١. اليسر في الطهارة.

فإن الله سبحانه وتعالى قد وجَّهَ عباده إلى أنْ يطهروا قلوبهم وأبدانهم، وأوجب

١٤٧٨، كتاب الطلاق.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٦٥، رقم ٢٢٠، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٨/ ١٤، رقم ٦٠٢٤، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ومسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٠٣، رقم ٢٥٩٣، كتاب البر والصلة والأدب.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٠٤، رقم ٢٥٩٤، كتاب البر والصلة والأدب.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٢٧، رقم ٦٩، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ومسلم في صحيحه، ٣/ ١٣٥٨، رقم ١٧٣٢، كتاب الجهاد والسير.

على من أراد الصلاة أن يتطهر لها قبل الدخول فيها، ومع ذلك فإنَّ من يُسْرِ الإسلام أنه يسهل ويخفف أو يعفي من هذه الطهارة، فَشَرَعَ الله تعالى التيمم، وهو العدول عن الماء إلى ضربة أو ضربتين على تراب أو ما صعد على وجه الأرض، وذلك في عدة حالات، منها:

حالة العجز عن استعمال الماء لمرض وغيره، ومنها: حالة فقدان الماء. وقد رخَّصَ الله سبحانه وتعالى لمن لم يجد الماء أن يتيمم ولو لم يجد الماء عشرين سنة، فإذا وجد الماء فإنه يلزم أن يتوضأ بالماء.

قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة:٦].

وقد سبق أنَّ نفيَ الحرج من مرادفات اليسر، وهنا في آية التيمم ينفي الله تعالى أنْ يكون جعل في الدين أدنى حرج، ومن اليسر في الطهارة أنه أباح المسح على الخفين، والجوارب، وذلك بأنْ يتوضأ لليدين والوجه، ويمسح على الرأس، فإذا وصل إلى الرجلين فإنه يمسح عليهما إذا كان لابسًا خفين أو جوربين، وذلك للمشقة التي يجدها لابس الخفين والجوربين، وخفف الله سبحانه وتعالى على الناس كلٌّ بحسبه، فالذي يقيم في بلده رخَّصَ الله له أن يمسح على الخفين والجوربين أربعًا وعشرين ساعة(يوم وليلة) ولكن إذا كان مسافرًا فإنه رخَّص له أن يمسح اثنين وسبعين ساعة(ثلاثة أيام بلياليها).

أخرج البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه قال: **كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأهويت لأنزع خفيه فقال: (دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين، فمسح عليهما)**[1].

٢. اليسر في الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[الإسراء:٧٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[هود:١١٤].

فهذان آيتان ذكر الله تعالى أنه فرض على الناس الصلاة فقط في طرفي النهار وزلفًا من الليل، يعني: وباقي الأوقات لمعاشهم وراحتهم.

قال الشنقيطي رحمه الله: «فأشار بقوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ وهو زوالها عن كبد السماء على التحقيق إلى صلاة الظهر والعصر وأشار بقوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٦٢، رقم ٢٠٦، كتاب الوضوء، باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان، ومسلم في صحيحه، ١/ ٢٢٨، رقم ٢٧٤، كتاب الطهارة.

وهو ظلامه إلى صلاة المغرب والعشاء، وأشار بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ إلى صلاة الصبح، وعبر عنها بالقرآن بمعنى القراءة؛ لأنها ركن فيها، من التعبير عن الشيء باسم بعضه»[1].

وتظهر سماحة الإسلام ويسره في الصلاة من عدة أوجه، منها:

❁ أصل تشريعها.

حيث شُرِعَتْ خمسون صلاة في اليوم والليلة، ثم خففت حتى صارت خمسًا، ولكن أداؤها خمس وأجرها خمسون.

ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: (مررت[ليلة المعراج]على موسى فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق، فراجعت، فوضع شطرها، فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس، [يعني في الأداء]. وهي خمسون[يعني في الأجر]لا يبدل القول لديَّ[2].

❁ مشروعية الجمع والقصر فيها.

وذلك أثناء السفر أو المطر أو المرض، مراعاة للظروف التي يمر بها الإنسان في هذه الحالات من قلة في الماء أو البرد أو خوف من الطريق أو زيادة في المرض، لذلك جعل الإسلام فيه الصلاة بشكل آخر يتناسب مع هذه الظروف، فأجاز له الجمع والقصر، حيث قصرت الصلوات الرباعية إلى ركعتين فقط.

عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه قال: (سافر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة والمدينة لا يخاف إلا الله يقصر الصلاة)[3].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة)[4].

❁ في حال الخوف.

فإنَّ وضع الصلاة وكيفيتها يتغير في حالة الخوف في الحرب أو هجوم سبع أو سيل أو نحوه، ويسهل أمرها وتقصر، لما في ذلك من مصلحة على المسلمين وحماية لهم من عدوهم الذين قد يغدرون بهم أثناء الصلاة،

(١) أضواء البيان ١/ ٢٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٩٨، رقم ٣٤٩، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، ومسلم في صحيحه، ١/ ١٤، رقم ١٦٣، كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٣٥٥، رقم ٣٣٣٤.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٢٩٥، رقم ١٤١٧٢، وأبو داود في سننه، ٢/ ١١، رقم ١٢٣٥.
وصححه الألباني في الإرواء، ٣/ ٢٣، رقم ٥٧٤.

وتسمى هذه الصلاة بصلاة الخوف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء:١٠١]. ثم ذكرت في الآية الآتية كيفية أداء هذه الصلاة على دفعتين [(١)].

- إمكانية أدائها على كلِّ حال في كلِّ مكان وزمان بما يتناسب مع وضع المصلي.

إنَّ من يسر الإسلام أنه شرع للمصلي أنْ يصلي على أي بقعة طاهرة من الأرض، فقال عليه الصلاة والسلام: (وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل)[(٢)].

ويمكنه أن يصلي جالسًا أو مستلقيًا على ظهره أو جنبه، فإن استطاع أن يرفع بيديه وإلا يكفي أن يشير ويومئ برأسه، بل إذا لم يستطع الإيماء، فإنه يومئ بعينيه. قال عليه الصلاة والسلام: (صلِّ قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب)، [(٣)]

(١) انظر: اليسر والسماحة، فالح ص ٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٩٥، رقم ٤٣٨، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا)، ومسلم في صحيحه، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/ ٦٠، رقم ١١١٧، أبواب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب.

فالقيام في الصلاة والقعود فيها ركنان من أركان الصلاة أي من الأصول والواجبات، ولكن إذا لم تسمح ظروف المصلي لمرض أو نحوه من أنواع العجز، فإن الله تعالى خفف عنه بأن يصلي على الحال التي تناسبه.

- تخفيف الصلاة وعدم الإطالة فيها.

لأن صلاة الجماعة تجمع بين الصغير والكبير والمريض، وذي الحاجة، فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يحذر أصحابه من التطويل في الصلاة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (إذا أمَّ أحدكم الناس فليخفف؛ فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء)[(٤)]، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي، كراهية أن أشق على أمه)[(٥)].

- إسقاط الصلاة على الحائض والنفساء حال نفاسهما، دون أن تقضي بعد الطهر.

وهذا يسر ولطف على المرأة، حيث تعاني في فترة الحيض والنفاس آلامًا ودماء،

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، ١/ ٣٤١، رقم ٤٦٧، كتاب الصلاة.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ١٨١، رقم ٧٠٧، كتاب الصلاة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي.

يصعب معها أداء الصلاة، وقد تطول هذه المدة فيشق القضاء، فجاءت الرحمة الربانية على المرأة بهذا التيسير، ولم يطلب منها قضاء تلك الصلوات الفائتة عنها بعد ذلك.

- مشروعية سجود السهو لجبر الخلل الذي يحصل في الصلاة، ولم تطلب إعادتها.

كلُّ هذا اليسر وهذه السماحة جاءت في الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين وهي الصلاة التي هي أعظم الأعمال العملية، وفي هذا شاهد كبير ودليل ناصع على يسر هذا الدين وسماحته في العبادات[1]. والله تعالى أعلم.

٣. اليسر في الزكاة.

إنَّ الله سبحانه وتعالى لما طلب من الأغنياء جزءًا يسيرًا من أموالهم يعطونه للفقراء لم يكن ذلك على وجه يضر بالأغنياء ولا لتبديد أموالهم، ولا بالطريقة التي يفعلها أهل الضرائب، وإنما كان ذلك بطريقة سهلة وميسرة ومريحة للغني والفقير معًا.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٦١].

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[الحديد:١١].

قال ابن سعدي: «وتأمل هذا الحثَّ اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾».

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أنَّ الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخرًا، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم ما لا يمكن التعبير عنه[2].

ولا شكَّ أنَّ تضعيف المال والأجر للمتصدق أنه من تيسير الله تعالى له، وكذلك تطهيره وتنميته كما سبق، كما في قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة:١٠٣].

وقد سبق ذكر قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[الليل:٧].

قال ابن سعدي رحمه الله: أي: نسهل

(١) انظر: اليسر والسماحة، فالح ص ٣٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٥٢.

عليه أمره، ونجعله ميسرًا له كلَّ خير، ميسرًا له ترك كلِّ شرٍّ، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحبَّ، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه[1].

ومن أبرز مواضيع تيسير الزكاة:

أولًا: أنها لم تأت على جميع الممتلكات والعقارات والأموال، وإنما اقتصرت على بعض الأصناف مثل: بهيمة الأنعام، والأثمان، والزروع، وعروض التجارة.

ثانيًا: أنه يشترط في الأصناف التي تجب فيها الزكاة أن تبلغ النصاب، وهي في الفضة مائتي درهم، وفي الذهب عشرين مثقالا، وسائمة الإبل عن خمس، والبقر عن ثلاثين، والغنم عن أربعين، والحبوب والزروع والثمار عن خمسة أوسق.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ليس فيما دون خمس ذود صدقة من الإبل، وليس فيما دون خمس أواقٍ صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة)**[2].

ثالثًا: أنه لم يجعل الله تعالى دفع الزكاة إلا مرة واحدة في السنة، وذلك بعد أن يحول عليه الحول.

رابعًا: أنَّ مقدار المال الواجب دفعه للزكاة قليل جدًّا بالنسبة للمال الذي يوجب فيه الزكاة، بحيث لا يؤثر فيه كثيرًا، ولا يتأثر بذلك صاحبه. والله أعلم.

٤. يسر الصيام.

قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله تعالى: يعني تعالى ذكره بذلك: يريد الله بكم، أيها المؤمنون -بترخيصه لكم في حال مرضكم وسفركم في الإفطار، وقضاء عدة أيام أخر من الأيام التي أفطرتموها بعد إقامتكم وبعد برئكم من مرضكم- التخفيف عليكم، والتسهيل عليكم، لعلمه بمشقة ذلك عليكم في هذه الأحوال ولا يريد بكم العسر يقول: ولا يريد بكم الشدة والمشقة عليكم،

(١) المصدر السابق ص ٩٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ١٤٩، رقم ١٤٤٧، كتاب الزكاة، باب زكاة الورق، ومسلم في صحيحه، ٢/ ٦٧٤، رقم ٩٧٩، كتاب الزكاة.

فيكلفكم صوم الشهر في هذه الأحوال، مع علمه شدة ذلك عليكم، وثقل حمله عليكم لو حملكم صومه[1].

إنَّ الله سبحانه وتعالى أراد من تشريعاته التخفيف على للناس، وعدم إحراجهم، وأنه سبحانه وتعالى لم يشرع لهم إلا ما ينفعهم في الدنيا أو في الآخرة، وغالبًا ما يكون النفع فيهما، فكان مما شرعه الله تعالى لعباده فريضة الصوم، وهو الإمساك عن الأكل والشرب، وشهوة الفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مدة شهر كامل ثلاثين يومًا، أو تسعة وعشرين يومًا.

وذلك في كلِّ سنة في شهر رمضان، وهذه الفريضة الربانية التي طلبها الله من العباد ظهرت فيها سماحة الإسلام جلية في أحوال عدة، ومن ذلك:

- الصغير: فإن الله تعالى لم يوجب على الصغير الذي لم يبلغ أي شيء من العبادات، ومن ذلك فريضة الصيام، فإنه أسقط الصيام عن المريض حتى يبلغ.
- المسافر والمريض: رخص الله سبحانه وتعالى للمسافر والمريض أن يفطرا في نهار رمضان، ثم يقضيا ذلك اليوم إذا رجعا إلى بلديهما واستقر حالهما، وذلك مراعاة لذلك المسافر والمريض وتخفيفا عليهما.وقد سبق في الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.
- الحائض والنفساء: إن الله سبحانه وتعالى لما علم ضعف هاتين المرأتين أسقط عنهما الصوم حال الحيض وحال النفاس، وتظهر سماحة الإسلام في مراعاة حال هاتين المرأتين حين أظهر الطبُّ الحديث أنَّ المرأة حال الحيض تمر بحالة ضعف شديدة جسدية ونفسية، كما أنَّ حال النفساء لا يخفى على أحد أضف إلى مراعاة صغيرها الذي يحتاج إليها ولا تستطيع كفايته لو كانت صائمة. فالمشروع في حقهما أنهن يفطرن ويقضين من أيام أخر.
- الحامل والمرضع: فإنَّ الله تعالى أسقط عنهنَّ الصوم إذا خافتا على نفسيهما وعلى ولديهما أبيح لهما الفطر وعليهما القضاء. ويختلف الحكم هنا بأنهما إذا خافتا على ولديهما القضاء، والإطعام عن كلِّ يوم مسكينًا.
- العاجز عن الصوم: لكبر أو مرض لا يرجى برؤه، فإن الله تعالى رخص لهما أن يفطرا ويطعما عن كل يوم مسكينا، ولا يقضيان.

ويلاحظ أن الصيام المسقط عن

(١) جامع البيان ٣/ ٤٧٥.

الحائض والنفساء، والمريض يقضي حال زوال العذر بخلاف الصلاة فإنها لا تقضى بالنسبة للحائض والنفساء، وذلك رفعًا للحرج، فإن الصلاة تكرر خمس مرات في اليوم، فالحائض إذا اجتمع لها حوالي عشرة أيام تزيد أو تقل، فإنه يشق عليها القضاء، والنفساء يشق عليها أكثر بخلاف الصيام، فإنه بالنسبة للحائض يتراوح بين خمسة أيام وخمسة عشر يوما أو يوم أو يومين، فإنه يمكن قضاؤه دون مشقة، وأما بالنسبة للنفساء فأقصى ما يصل ثلاثون يوما وهذا أيضًا يمكن أداؤه؛ لأنه لا يزاحمه صيام آخر، بخلاف الصلاة فإنها في كلِّ يوم حتى في وقت قضاء الفائتة، يكون أداء الحاضرة.

٥. اليسر في الحج.

لما كان السفر إلى بيت الله الحرام لأجل الحج،يحتاج إلى قوة بدنية، وقوة مالية، فإنَّ الله تعالى علم ضعف كثير من عباده في هاتين القوتين أظهر الله يسره وسماحته فخفف عنهم في هذه الفريضة، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٧].

وقال جل وعلا: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[البقرة:١٩٦].

فقد ذكر في الآيتين الأولى التيسير في أصل الحج، والثانية التيسير في أعمال الحج، وتتمثل جوانب التيسير فيما يلي:

أولًا: أنَّ الحج، وهو قصد بيت الله الحرام، لا يجب إلا مرة في العمر، فيسر الإسلام في هذه الفريضة ظاهرة، كما أوضحته الآية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خطبنا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[(١)].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الرؤوف الرحيم بالأمة، خاف أن يفرض

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ٢/ ٩٧٥، رقم ١٣٣٧، كتاب الحج.

على أمته كل عام، فلا يستطيعوه.

ثانيًا: أنَّ الحجَّ يسقط عن من لم يستطيع، فمن فقد قوة البدن أو قوة المال فلا يجب عليه الحج بل يسقط عنه.

ثالثًا: التخيير بين المناسك الثلاثة: التمتع، والقران، والإفراد. فأيُّ نسك من هذه الأنساك أهلَّ بها الحاجُّ قبلها الله تعالى منه، وكذلك: التخيير في الترتيب بين الأعمال الثلاثة يوم العيد، الرمي والحلق والطواف، وهذا فيه تيسير على الحاج الذي يعاني من زحمة الناس والمواصلات والأسفار.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم زرت قبل أن أرمي، قال: لا حرج. قال آخر: حلقت قبل أن أذبح قال: لا حرج. قال آخر: ذبحت قبل أن أرمي، قال: لا حرج)[1].

وكلُّ خلل في واجبات الحجِّ من غير قصد يجبر بفدية، وحجه صحيح إذا كان القصور من هذا الوجه فقط، ولم يكن من الأركان الأربعة، وهي الإحرام، والطواف والسعي، والوقوف بعرفة.

رابعًا: من اليسر في هذا الركن المبارك، أنَّ الله تعالى جعله سببًا لمغفرة الذنوب والخطايا، وقد وعد الرسول صلى الله عليه وسلم الحاجَّ بالجنة وأنه يرجع من حجه كيوم ولدته أمه، خاليًا من الذنوب، صفحته بيضاء ناصعة خالية من السيئات والذنوب. قال عليه الصلاة والسلام: (من حجَّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[2].

وقد جعله الله تعالى من الأعمال الفاضلة التي تلي الإيمان بالله والجهاد في سبيله، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: (إيمان بالله ورسوله). قيل: ثم ماذا؟. قال: (ثم جهاد في سبيل الله). قيل: ثم ماذا؟ قال: (حجٌّ مبرور)[3][4].

ثالثًا: اليسر في المعاملات:

أمر الله تعالى عباده بالتعامل باليسر في عدة آيات، بعضها بلفظ اليسر أو ما تصرف منه، وبعضها بلفظ يرادف اليسر.

قال الله تعالى في اليسر في معاملة الوالدين وخفض الجناح عندهما: ﴿وَقَضَىٰ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/ ٢١٤، رقم ١٧٣٥، كتاب الحج، باب إذا رمى بعد ما أمسى أو حلق قبل أن يرمي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/ ١٦٤، رقم ١٥٢١، كتاب الحج، باب إذا رمى بعد ما أمسى أو حلق قبل أن يرمي، ومسلم في صحيحه، ٢/ ٩٨٣، رقم ١٣٥٠، كتاب الحج.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/ ١٦٤، رقم ١٥١٩، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ومسلم في صحيحه، ١/ ٨٨، رقم ٨٣، كتاب الإيمان.

(٤) انظر: كتاب اليسر والسماحة، فالح ص ٢٥-٢٦.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤].

في هذه الآية يأمر الله تعالى عباده بعبادته، ثم ثنى ببر الوالدين، ثم بين كيفية برهما، وبين أدنى ما يسيء إليهما تنبيهًا على الأعلى.

قال الله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٨].

قال ابن باديس رحمه الله تعالى: «إن أعرضت عنهم فلا تعطهم؛ لأنك لم تجد ما تعطيهم- وهي الحالة التي تكون فيها تطلب رحمة من ربك راجيًا رزقه- فقل لهم قولًا لينًا سهلًا، فتواسيهم بالقول عند عدم السؤال، ولا تتركهم في ساحة الإهمال، وتردهم الرد الجميل عند السؤال، فتقول لهم: يرزق الله، ونحوه من لين الكلام»[(١)].

وقد وردت أحاديث عدة في ذلك ومنها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، مَنْ أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أبوك)[(٢)].

ومعنى الحديث: من أولى الناس بمعروفي وبري ومصاحبتي المقرونة بلين الجانب وطيب الخلق وحسن المعاشرة.

قال النووي: «وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها ومعاناة المشاقّ في حمله، ثم وضعه، ثم إرضاعه، ثم تربيته وخدمته وتمريضه وغير ذلك ونقل الحارث المحاسبي إجماع العلماء على أنَّ الأمَّ تفضل في البرِّ على الأب. وحكى القاضي عياض خلافًا في ذلك فقال الجمهور بتفضيلها، وقال بعضهم: يكون برهما سواء»[(٣)].

ومن اليسر في المعاملة:

١. التعامل مع المدين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨٠].

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: «وإن كان» ممن تقبضون منه من غرمائكم رؤوس أموالكم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ يعني: معسرًا برؤوس

(١) تفسير ابن باديس ص ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٨/ ٢، رقم ٥٩٧١، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ومسلم في صحيحه، ٤/ ١٩٧٤، رقم٢٥٤٨، كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٦/ ١٠٢.

أموالكم التي كانت لكم عليهم قبل الإرباء، فأنظروهم إلى ميسرتهم[1]

٢. اليسر والتسامح مع المطلقة، والإحسان إليها.

قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق:٧].

٣. اليسر مع كلِّ المؤمنين وخفض الجناح لهم.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[المائدة:٥٤].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: «أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم فإنَّ الله يأتي عوضًا عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذلُّ للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين، وبهذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر:٨٨].

وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:٢١٥].

وأمره بالقسوة على غيرهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التحريم:٩].

وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾[آل عمران:١٥٩].

وصرَّحَ بأنَّ ذلك المذكور من اللين للمؤمنين، والشدة على الكافرين، من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح:٢٩]»[2].

وقد أجاد الشيخ رحمه الله تعالى حيث ساق بعض آيات اليسر في التعامل مع المؤمنين بلفظ مرادف لليسر، ثم ساق أضداد ذلك بأنَّ ذلك اليسر واللين لا يكون مع الكفار. والله أعلم.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم باليسر في المعاملة، وقد سبق بعضًا منها، من ذلك: قوله عليه الصلاة والسلام: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)[3].

(١) جامع البيان ٦/ ٢٨.

(٢) أضواء البيان ١/ ٤١٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٢٧، رقم ٦٩، كتاب العلم، باب ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من تخويلهم بالموعظة والعلم، ومسلم في صحيحه، ٣/ ١٣٥٨، رقم ١٧٣٢، كتاب الجهاد والسير.

وقوله: (رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى وإذا اقتضى)[1].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحثُّ الناس في البيع والشراء ورد الديون إلى استعمال اللين واليسر، ويكون رحيمًا بمن يعامله سمحًا معه، يرفق به إذا باع له، ويرفق به إذا اشترى منه.

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: قوله (رحم الله رجلًا) يحتمل الدعاء ويحتمل الخبر، قوله (سمحًا) أي: سهلًا، وهي صفة مشبهة تدلُّ على الثبوت، والسمح: الجَوَادُ، يقال: سمح بكذا إذا جاد، والمراد هنا المساهلة، قوله: (إذا اقتضى) أي: طلب قضاء حقه بسهولة وعدم إلحاف، وفيه الحضُّ على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم[2].

وهناك صور عدة في مجال التجارة يظهر فيها يسر الإسلام في مراعاة الناس في هذا المجال ومن ذلك:

- **الخيار في البيع:** وذلك أنَّ الشارع حثَّ الطرفين أن يتسامحا أثناء البيع، ومن هذا التسامح أنَّ البائع يقبل رجوع المشتري، وكذا البائع حال البيع قبل التفرق، حتى ولو اتفقا قبولًا وإيجابًا فما دام أنهما لم يفترقا فإنَّ الدين الإسلاميَّ أعطى لكلِّ واحد منهما الخيار في التراجع، فيقول البائع: لا أبيع، بعد أن قال: بعت، ويقول المشتري: لا أشتري، بعد أن يقول: اشتريت، ولكن قبل التفرق، فهذا حقٌّ لكلٍّ منهما. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، أو قال: حتى يتفرقا - فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما)[3].

وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أنَّ كلًّا من البائع والمشتري يبارك لهما إذا كانا صادقين ناصحين لم يغش أحدهما الآخر.

- **الإقالة في البيع:** الإقالة في البيع أن يقبل البائع من المشتري الرجوع في شرائه، وذلك بعد أن تفرقا وبطل الخيار، والعكس صحيح، وهو أن يقبل المشتري من البائع الرجوع في بيعه فيرد عليه سلعته، وذلك بعد التفرق وبطلان الخيار. قال رسول الله صلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٣/ ٧٥، رقم ٢٠٧٦، كتاب البيوع، باب السهولة والسماح في الشراء والبيع.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٤/ ٢٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ٣/ ٧٦، رقم ٢٠٧٩، كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما، ونصحا، ومسلم في صحيحه، ٣/ ١١٦٣، رقم ١٥٣١، كتاب البيوع، واللفظ للبخاري.

الله عليه وسلم: (مَنْ أقال مسلمًا أقال الله عثرته)[1].

رابعًا: اليسر في قراءة القرآن:

لا يخفى على كلِّ قارئ تيسير الله حفظ كتابه وتيسير تلاوته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قال ابن كثير: «أي: سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس، كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩]».

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [الدخان:٥٨]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني: هونا قراءته، وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن، وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل.

قال ابن كثير: «ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر)»[2][3].

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ١١/ ٤٠٤، رقم ٥٠٢٩، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٢، رقم ٢٢٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٣/ ١٢٢، رقم ٢٤١٩، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، ومسلم في صحيحه، ١/ ٥٦٠ رقم ٨١٨، كتاب صلاة المسافرين.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٢.

اليسر في الجزاء

أولًا: اليسر في الجزاء الدنيوي:

سبق في يسر المعاملة ذكر التيسير على عباد الله فيما أعوزوا فيه، وهنا يذكر التيسير بمعنى الجزاء الدنيوي، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[الإسراء:٢٨].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[الكهف:٨٨].

فقد أفادت هاتان الآيتان التيسير على عباد الله تعالى في الدنيا، وذلك بالقول والعمل.

قال ابن سعدي رحمه الله: «أي: وسنحسن إليه، ونلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة، وهذا يدلُّ على كونه من الملوك الصالحين الأولياء، العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كلِّ أحد، بما يليق بحاله»[(١)].

وهذا من اليسر في التعامل، وقد سبق. والله أعلم.

ثانيًا: اليسر في الآخرة:

الله سبحانه وتعالى كما أن الحساب يسير عليه، فهو ييسره أيضًا على المؤمنين ويجعله عسيرا على الكافرين، فقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٧].

وقال في شأن الكافر: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[المدثر:١٠].

أثبت الله تعالى في آية المدثر العسر للكفار ونفى عنهم اليسر، وأثبت اليسر للمؤمنين في آية الانشقاق.

وقد جاء في صحيح البخاري ومسلم ما يبين كيفية تيسير الحساب على المؤمن، وذلك من حديث ابن أبي مليكة، (أن عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم: كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من حوسب عذب) قالت عائشة: فقلت أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قالت: فقال: (إنما ذلك العرض، ولكن: من نوقش الحساب يهلك)[(٢)].

وأما قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[المدثر:١٠].

فقد قال القرطبي رحمه الله تعالى: «أي: فذلك اليوم يوم شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٣٢، رقم ١٠٣، كتاب فضل العلم، باب من سمع شيئا فلم يفهمه فراجع فيه، ومسلم في صحيحه، ٤/ ٢٢٠٤، رقم ٢٨٧٦، كتاب الجنة وصفاتها ونعيمها وأهلها.

على من كفر بالله وبأنبيائه صلى الله عليهم وسلم ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: غير سهل ولا هين، وذلك أن عقدهم لا تنحل إلا إلى عقدة أشد منها، بخلاف المؤمنين الموحدين المنيبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى»[1].

والحمد لله على تيسير الأمور وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

موضوعات ذات صلة:

السماحة، العبادة، الغلو، الفقه

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٠.

اليقين

عناصر الموضوع

مفهوم اليقين	٨
اليقين في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
مكانة اليقين	١٢
مقامات اليقين	١٤
أسباب حصول اليقين	١٩
ثمرات اليقين	٢٩

مفهوم اليقين

أولًا: المعنى اللغوي:

«الياء والقاف والنون: اليقن واليقين: زوال الشك. يقال يقنت، واستيقنت، وأيقنت»[(١)].

اليقين: العلم وزوال الشك. يقال منه: يقنت الأمر يقنًا، وأيقنت، واستيقنت، وتيقنت، كله بمعنًى، وأنا على يقين منه، وإنما صارت الياء واوًا في قولك: موقنٌ؛ للضمة قبلها، وقد أيقن يوقن إيقانًا، فهو موقنٌ، وإذا صغرته رددته إلى الأصل وقلت: مييقنٌ، وربما عبروا عن الظن باليقين، وباليقين عن الظن، فاليقين: نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل، تقول: علمته يقينًا، وأنا على يقين منه[(٢)]. واليقنة من الناس: يقال رجل يقنة، والهاء للمبالغة، ورجل ميقان: يصدق ما يقال له، وهي ميقانة[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تعددت تعريفات العلماء لليقين وهي على النحو التالي:

اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا، مطابقًا للواقع غير ممكن الزوال والقيد[(٤)].

وقيل: «هو إيقان العلم بنفي الشك والشبهة عنه بالاستدلال.

وقيل: هو سكون النفس مع إثبات الحكم.

وقيل: الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع.

وقيل: عبارة عن العلم المستقر في القلب؛ لثبوته من سبب متعين له بحيث لا يقبل الانهدام»[(٥)].

وقيل: العلم الحاصل عن نظرٍ واستدلالٍ[(٦)].

ولعل هذه التعريفات متقاربة في أداء المعنى المراد لليقين، وخلاصتها الاعتقاد الجازم والعلم الثابت في القلب، مع نفي الشك والشبهة عنه، وهذا معناه في اللغة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٥٧.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢١٩، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٤٥٧.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٦٦.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٢٥٩، تاج العروس، الزبيدي، ٣٦/ ٣٠٠.
(٥) الكليات، الكفوي، ١/ ٩٨٠.
(٦) المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٨١.

اليقين في الاستعمال القرآني

وردت مادة (يقن) في القرآن الكريم (٢٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]
الفعل المضارع	١٣	﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝﴾ [البقرة:٤]
اسم الفاعل	٦	﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام:٧٥]
الصفة المشبهة	٨	﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٩]

وجاءت كلمة اليقين في الاستعمال القرآني على خمسة أوجه[٢]:

الأول: التصديق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤]. أي: بالبعث يصدقون.

الثاني: الصدق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]. أي: بخبر صدق.

الثالث: المشاهدة والعيان: ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر:٥]. أي: علم العيان.

الرابع: الموت: ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٩]. يعني: الموت.

الخامس: العلم المتيقن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]. أي: وما قتلوه علمًا.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٤٨-٧٤٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدمغاني ص ٤٧٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٦٣٥، ٦٣٦، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٥١٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ العلم:

العلم لغةً:

العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثرٍ بالشيء يتميز به عن غيره، من ذلك العلامة، وهي معروفة، والعَلَمُ: الراية، والجمع: أعلام، والعِلْمُ: نقيض الجهل، وتعلمت الشيء: أخذته، وتعلمت، أي: علمت[١].

العلم اصطلاحًا:

الاعتقاد الراجح المانع من النقيض.

وقيل: إدراك الشيء بحقيقته[٢].

الصلة بين العلم واليقين:

إن العلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة، واليقين: هو سكون النفس وثلج الصدر بما علم، ولهذا لا يجوز أن يوصف الله تعالى باليقين[٣].

وقيل: اليقين: لا شك فيه، فهو استقرار العلم الذى لا يحول ولا ينقلب ولا يتغير فى القلب، والعلم يعارضه الشكوك، وهو على درجات، فمن أعلى درجات العلم، ومن أكملها، وأرفعها، وأقواها، وأثبتها درجة اليقين[٤].

٢ الظن:

الظَّنُّ لغةً:

الظاء والنون أصل صحيح يدل على معنيين مختلفين: يقين وشكٌّ، فأما اليقين فقول القائل: ظَنَنْتُ ظنًّا، أي: أيقنت، والأصل الآخر: الشكُّ، يقال: ظننت الشيء، إذا لم يتيقنه، ومن ذلك الظنة: التهمة. والجمع: الظنن[٥].

الظَّنُّ اصطلاحًا:

قال الأصفهاني: «اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت

(١) معجم مقاييس االلغة، ابن فارس، ٤/ ١٠٩، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٢٤.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ١/ ٥٠٨.
(٣) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ١/ ٨١.
(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٣٩٧ بتصرف.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٤٦٢، الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢١٦٠.

جدًّا لم يتجاوز حدَّ التوهم»[1]، وقال الجرجاني: «هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين والشكِّ، وقيل: الظنُّ: أحد طرفي الشكِّ بصفة الرجحان»[2].

الصلة بين اليقين والظنِّ:

اليقين: قطعيٌّ لا ظنَّ ولا شك فيه، لذلك لا يوجد طرفان ليتم الترجيح بينهما، الظنُّ: فيه شك، ويتطلب رجحان أحد طرفي التجوز.

٣ الشك:

الشكُّ لغةً:

الشين والكاف أصل واحد مشتق بعضه من بعض، وهو يدل على التداخل، والشكُّ الذي هو خلاف اليقين، إنما سمي بذلك؛ لأنَّ الشاكَّ كأنه شكَّ له الأمران في مشكٍّ واحد، وهو لا يتيقن واحدًا منهما، فمن ذلك اشتقاق الشكِّ[3].

الشكُّ اصطلاحًا:

هو اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما[4]. وقال الجرجاني رحمه الله: «الشكُّ هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاكِّ، وقيل: الشكُّ ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظنٌّ، فإذا طرحه فهو غالب الظن وهو بمنزلة اليقين»[5].

الصلة بين اليقين والشكِّ:

اليقين: مؤكد الاختيار فلا تردد ولا حيرة في أخذه، والشكُّ: فيه تردد بين الأشياء لا يعرف أيهما أصحّ من الآخر.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٣٩.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٤٤.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١٧٣.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٦٥.
(٥) التعريفات ص ١٦٨.

مكانة اليقين

يقول العلماء في بيان مكانة اليقين ومنزلته: اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وفيه تَفَاضَلَ العارفون وتنافس المتنافسون، وإليه شَمَّرَ العاملون، وعمل القوم إنما كان عليه، وإشارتهم كلها إليه.

ويقول سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه: «اليقين الإيمان كله»، ويقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»، وقال رحمه الله: «الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله»ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] منزلة اليقين»[(١)].

وخصَّ تعالى أهل اليقين بانتفاعهم بالآيات والبراهين، قال -وهو أصدق القائلين-: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخصَّ أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤ - ٥].

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية٣٢].

فاليقين روح أعمال القلوب التى هى أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وقطب رحى هذا الشأن الذى عليه مداره.

قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه عبد الله بن مسعودٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تُرْضِيَنَّ أحدًا بسخط الله. ولا تحمدنَّ أحدًا على فضل الله، ولا تذمنَّ أحدًا على ما لم يؤتك الله. فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريصٍ، ولا يرده عنك كراهية كارهٍ. وإن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهمَّ والحزن في الشكِّ والسخط)[(٢)].

واليقين قرين التوكل، ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين. والصواب أن التوكل ثمرة اليقين

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٩٥، مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣٧٤.

(٢) الحديث: أخرجه الطبراني في الكبير، ١٠/ ٢١٥.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٧١: أخرجه الطبراني في الكبير، وفيه خالد بن يزيد العمري، واتهم بالوضع.
وأخرجه، من طريق أخرى، أبو نعيم في الحلية، ٥/ ١٠٦، والبيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٢٢١.
وفيه: عطية العوفي وهو ضعيف، ومحمد بن مروان السدي وهو متروك الحديث.

ونتيجته، ولهذا حسن اقتران الهدى به، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

فالحقُّ هو اليقين.

وقالت رسل الله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾[إبراهيم: ١٢].

فمتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كلُّ ريبٍ وشكٌّ وسخط وغمٌّ وهمٌّ، وامتلأ محبة لله وخوفًا منه ورضًا به، وشكرًا له، وتوكلًا عليه، وإنابةً إليه، فهو مادة جميع المقامات، والحامل له. فاليقين لا يساكن قلبًا فيه سكونٌ إلى غير الله. وقال ذو النون: اليقين يدعو إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، وهى تورث النظر فى العواقب.

وثلاثةٌ من أعلام اليقين: قلة مخالطة الناس فى العشرة؛ وترك المدح لهم فى العطية؛ والتنزه عن ذمهم عند المنع.

وثلاثةٌ من أعلامه أيضًا: النظر إليه فى كلِ شيء؛ والرجوع إليه فى كلِّ أمر؛ والاستعانة به فى كلِّ حال.

وقال ابن عطاءٍ رحمه الله: «على قدر قربهم من التقوى أدركوا من اليقين. وأصل التقوى مباينة المنهى عنه، فعلى مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين».

ويقول الإمام علي: «أيها الناس، سلوا الله اليقين، وارغبوا إليه في العافية؛ فإنَّ أجل النعمة العافية، وخير مادام في القلب اليقين، والمغبون من غبن دينه، والمغبوط من غبط يقينه»[(١)].

ولهذا خطب أبو بكر رضي الله عنه قال: (قام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي هذا عام الأول، وبكى أبو بكر، فقال أبو بكر: سلوا الله المعافاة -أو قال: العافية-. فلم يؤت أحد قطُّ بعد اليقين أفضل من العافية أو المعافاة. عليكم بالصدق، فإنه مع البرِّ وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا، وكونوا كما أمركم الله تعالى)[(٢)].

ولذلك جعل اليقين معينًا على قبول الدعاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عزَّ وجلَّ أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل)[(٣)].

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٩٦، مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣٧٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١/ ١٨٤، رقم ٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٦٥٤. وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٠/ ١٤٨، والمنذري في الترغيب والترهيب، ٢/ ٤٩١، رقم ٤٩٢.

ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن نسأل المولى جلَّ وعلا اليقين، وأن يهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا) الحديث[1].

وقد حكى الإمام الحسن البصري رحمه الله عن لقمان في وصيته لابنه رضي الله عنهما: «يا بني العمل لا يستطاع إلا باليقين، ومن يضعف يقينه يضعف عمله»[2].

والخلاصة: أن لليقين مكانة كبيرة فاليقين هو لب الدين ومقصوده الأعظم. ويزيد العبد خضوعًا واستكانة لمولاه. كما يضع صاحبه دائمًا في موضع الإخلاص والصدق. ضابط قوي يرقب العلاقة بين المسلم وربه، ويجعلها تلتزم خط السلامة والأمان حتى يصل إلى دار الرضوان[3].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ٥/ ٥٢٨، رقم ٣٥٠٢.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢١٥، رقم ٢١٤٨.
(٢) انظر: اليقين، ابن أبي الدنيا ص٤٥.
(٣) موسوعة نضرة النعيم ٨/ ٣٧٣٠. باختصار.

مقامات اليقين

المتأمل في القرآن يجد أن لليقين ثلاثة مقامات تحدث عنها القرآن في موضعين، وقبل بيانها نوضح تلك المقامات بالمثال التالي:

إذا أخبرك شخص ما بأن عنده عسلًا وأنت لا تشكُّ فى صدقه، ثم أراك إياه فازددت يقينا، ثم ذقت منه، فالأول علم يقين، والثانى عين يقينٍ؛ والثالث حق يقين.

فعِلْمُنا الآن بالجنة والنار علم يقينٍ، فإذا أزلفت الجنة فى الموقف وشاهدها الخلائق، وبرزت الجحيم وعاينها الخلائق، فذلك عين اليقين، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فذلك هو حق اليقين[4].

وأسمى أنواع اليقين هو (حق اليقين)، وقبلها (عين اليقين)، وقبل (عين اليقين): (علم اليقين).

فاليقين علمٌ إذا جاء عن إخبار من تثق به، وعين يقين إذا كان الأمر قد شوهد مشاهدة العين، وحق يقين هو أن تدخل في حقيقة الشيء[5].

و هذه الدرجة لا ينالها فى هذا العالم إلا الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-، فإن نبينا صلى الله عليه وسلم رأى بعينه الجنة والنار، وموسى عليه السلام سمع كلام

(٤) مدارج السالكين ٢/ ٣٧٨.
(٥) تفسير الشعراوي ١/ ٥٥٦.

الله إليه بلا واسطة وكلمه تكليمًا، وتجلَّى للجبل وموسى ينظر فجعله دكًّا هشيمًا، فحصل لهما حق اليقين، وهو ذوق ما أخبر به الرسول من حقائق الإيمان المتعلقة بالقلوب، وأن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقه حق يقين.

وأما في أمور الآخرة والمعاد، ورؤية الله جهرةً عيانًا، وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة، فحظ المؤمن منه في هذه الدار الإيمان به. وعلم اليقين وحق اليقين يتأخر إلى وقت اللقاء بالنسبة لنا[1].

يوضح الحق سبحانه وتعالى تلكم المقامات فيقول جلَّ شأنه في سورة التكاثر مبينًا المقامين الأولين: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١-٨].

ينعي الحق سبحانه وتعالى على هؤلاء الذين شغلهم كثرة المال والعدد عن طاعة ربهم، وعما ينجيهم من سخطه عليهم.

فقد كان يقول هؤلاء: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان، وهم كلّ يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣٨٠.

فالمراد بالتكاثر: التبارى في الكثرة والتباهي بها، وأن يقول هؤلاء: نحن أكثر، وهؤلاء: نحن أكثر[2].

ثم حذرهم وتوعدهم أنهم لا ينبغي لهم أن يلهيم التكاثر بالأموال، وكثرة العدد عن طاعة ربهم؛ لأنهم سوف يعلمون إذا زاروا المقابر ما يلقون -إذا هم قاموا بزيارتها- من مكروه اشتغالهم عن طاعة ربهم بالتكاثر.

يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدفنتم فيها، وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر؛ لأن الله تعالى ذكره، قد أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيدًا منه لهم وتهددًا[3].

وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت؛ إيذانا بأنهم غير مستبقين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين، يحضرونها مرة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها، غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار[4].

(٢) الكشاف ٤/ ٧٩١.
(٣) جامع البيان ٢٤/ ٥٨٠ بتصرف.
(٤) التفسير القيم ١/ ٥٧٥.
ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء، لا المتكاثر به. كما يقال: شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وإما إرادة الإطلاق، وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا، من مال أو جاه أو عبيد. أو إماء أو بناء، أو غراس، أو علم لا يبتغى به

وكرر قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مرتين؛ لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف والتهديد كرروا الكلمة مرتين.

ولذلك كان النبي يقول: فيما يرويه عنه مطرفٍ، عن أبيه، قال: (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: (يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك، يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟)[1].

وعن أنس بن مالك، عن أبي بن كعب، قال: (كنا نرى أن هذا الحديث من القرآن: (لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب) حتى نزلت هذه السورة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها[2].

ثم يرشد هؤلاء إلى ما ينبغي التحلي به فقال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ يعني: فما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يلهيكم التكاثر أيها الناس، -لو تعلمون أيها الناس علما يقينا-، أن الله باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم ما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله ربكم، ولسارعتم إلى عبادته، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ورفض الدنيا إشفاقا على أنفسكم من عقوبته. وهذا هو المقام الأول مقام علم اليقين وذلك بإيقان أنَّ البعث والموت حق.

فعلم اليقين: هو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حدِّ الضروريات، التي لا يشك ولا يماري في صحتها وثبوتها. ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه شيء عن موجبه، ولترتب أثره عليه.

فإنَّ مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه. فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد. فإذا صار عين يقين، كجملة المشاهدات، كان تخلف موجبه عنه أندر شيء[3].

ثم يبين الحقُّ سبحانه وتعالى المقام الثاني وهو عين اليقين: والمقصود به يقين المشاهدة والرؤية، وهو ما استغنى به صاحبه عن الدليل؛ لأنه يراه رأي العين، ويشير إليه قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ فيبين الحق سبحانه وتعالى للمشركين في هاتين الآيتين ما أنذرهم منه وأوعدهم به من رؤية جنهم عيانًا يوم القيامة، أي: لترون أيها المشركون جهنم يوم

وجه الله، أو عمل لا يقربه إلى الله. فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة. ١/ ٥٧٦.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، رقم ٢٩٥٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا، رقم ١٠٤٨.

(٣) التفسير القيم ١/ ٥٧٧.

القيامة، ثم لترونها عيانًا لا تغيبون عنها[1].

قال صاحب زاد المسير: «لترونها عين اليقين، أي: مشاهدة، فكان المراد بـ (عين اليقين) نفسه؛ لأن عين الشيء: ذاته»[2].

فالمراد بالأولى المعرفة وبالثانية الإبصار، وإنما كرر الرؤية لتأكيد الوعيد، فالمراد بعين اليقين: الرؤية التي هي نفس اليقين، حيث إن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين[3].

فقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا مصدر مؤكد، كأنه قيل: رؤية اليقين نفيًا لتوهم المجاز في الرؤية الأول[4].

وفائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين؟ قلنا: لأنهم في المرة الأولى رأوا لهبًا لا غير، وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية، ولا شكَّ أن هذه الرؤية أجلى، والحكمة في النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى التقريع على ترك النظر؛ لأنهم كانوا يقتصرون على الظنِّ ولا يطلبون الزيادة[5].

أما المقام الثالث والأخير وهو مقام حقِّ اليقين: وهو مقام المباشرة والوجدان، هو مباشرة الشيء بذوقه والإحساس به، وقد جاء ذكره في سورة الواقعة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٢ - ٩٥].

فالحقُّ يقول لنا: إن هذا الذي أخبرتكم به أيها الناس من الخبر عن المقربين وأصحاب اليمين، وعن المكذبين الضالين، وما إليه صائرة أمورهم ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لهو الحق من الخبر اليقين لا شك فيه.

وعن قتادة إنَّ الله تعالى ليس تاركًا أحدًا من خلقه حتى يوقفه على اليقين من هذا القرآن. فأمَّا المؤمن فأيقن في الدنيا، فنفعه ذلك يوم القيامة. وأما الكافر، فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه[6].

يعني: وأمَّا إن كان - هذا المتوفى - ﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: بآيات الله ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: الجائرين عن سبيله. ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء انتهى حره. فهو شرابه يعني: من ماء قد بلغ أقصى درجات الحرارة.

وعبر عن المكان الذي ينزل فيه بالنزل، على سبيل التهكم؛ إذ النزل في الأصل يطلق على ما يقدم للضيف على سبيل التكريم.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: وجزاؤه أيضًا إحراق بالنار، يعني: إدخال في نار جهنم التي تشوى جسده وتحرقه.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٨١، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٩٢.
(٢) زاد المسير ٤/ ٤٨٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٤٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٣٣٤.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٤٨١.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٢٧٣.
(٦) جامع البيان ٢٣/ ١٦٣.

إن هذا -أي: المذكور الذي قصصناه عليك- أيها الرسول الكريم- من أحوال الفرق الثلاثة وعواقبهم لهو ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: حقيقة الأمر، وجلية الحال، لا لبس فيه ولا ارتياب[1].

فقوله: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: لهو اليقين الحق.. أو هو من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين، كما في قوله تعالى: ﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ إذ الحبل هو الوريد، والقصد من مثل هذا التركيب التأكيد[2].

وقد اشتمل هذا التذييل على أربعة مؤكدات وهي: (إن)، ولام الابتداء، وضمير الفصل، وإضافة شبه المترادفين[3].

خلاصة القول: إن في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ١ - ٦].

المرحلة الأولى: وهي أن يأتينا علم اليقين من الله سبحانه وتعالى، ثم تأتي المرحلة الثانية في قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧].

أي: أنتم ستشاهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة، هذا علم يقين وعين يقين، يأتي بعد ذلك حق اليقين في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٢ - ٩٥].

والمؤمن عافاه الله من أن يعاين النار كحق يقين، إنه سيراها وهو يمر على الصراط، ولكن الكافر هو الذي سيصلاها حقيقة يقين[4].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٣٥، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٤/ ١٩٠.
(٢) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٤/ ١٩٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٥٠
(٤) تفسير الشعراوي ١/ ٥٥٦.

أسباب حصول اليقين

المتدبر لآيات القرآن الكريم يتبين له أن القرآن قد بين ثلاثة أسباب تؤدي لحصول اليقين نوردها فيما يلي:

أولًا: الإيمان:

لا شك أن اليقين الحقيقي الثابت الذي لا يتزعزع بزمانٍ ولامكانٍ ولا حالٍ ينبع من معين الإيمان بالله ورسوله وبقضاءه وقدره واليوم الآخر، فهناك تلازم بين الإيمان واليقين، فالأول سبب في تحقق الثاني.

يقول تعالى في أول سورة البقرة في بيان مايتصف به المتقون من الإيمان وما أثمره عنه هذا الإيمان فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

فهم يؤمنون ويصدقون بما جاء به الرسول من الله عز وجل وما جاء به من قبله من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤوهم به من عند ربهم، فوصف الله جل ثناؤه المؤمنين بما أنزل إلى نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل إلى من قبله من المرسلين بإيقانهم من أمر الآخرة، فهو إيقان بما كان المشركون به جاحدين: من البعث والنشور والثواب والعقاب والحساب والميزان، وغير ذلك مما أعد الله لخلقه يوم القيامة.

وقدم الإيمان بما أنزل عليه على الإيمان بما أنزل على الذين من قبله مع أن الترتيب يقتضي العكس؛ لأن إيمانهم بمن قبله لا قيمة له إلا إذا آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم [(١)].

قال صاحب اللباب: «فصل فيما استحق به المؤمنون المدح: قال ابن الخطيب: إنه تعالى مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة، ومعلوم أنه لا يمدح المرء بتيقن وجود الآخرة فقط، بل لا يستحق المدح إلا إذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب والسؤال وإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار» [(٢)].

فأخبر عز وجل عن حال هؤلاء المؤمنين أنهم على يقين، ليسوا على الظن والشك كأولئك المشركين الذين قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

فهذا اليقين نابع من الإيمان الحقيقي.

فالتأكيد بكلمة (هم) هو تصوير لليقين بصورة الجملة الاسمية، والجملة الاسمية تدل على بقاء اليقين واستمراره بحيث لا يضطرب ولا يتزعزع ولا ينسى ذلك اليوم أبدًا [(٣)].

فاليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة (يعني

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٤٦.
(٢) اللباب في علوم الكتاب ١/ ٣٠٢.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ١١٢.

بدون الإيمان)، وبين من يعيش في الوجود المديد الرحيب. بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود، وبين من يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك، وراء هذا الحيز الصغير المحدود «وهذا لا ينتج إلا عن الإيمان وما يتبعه من يقين بوعد الله وحسابه»[1].

وهذا ما أكده القرآن مرة أخرى في بيان ما يتصف به المؤمنون وما أثمره عنه هذا الإيمان فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣].

فهولاء المؤمنون بالمعاد إلى الله بعد الممات يوقنون، فيذلون في طاعة الله، رجاء جزيل ثوابه، وخوف عظيم عقابه، وليسوا كالذين يكذبون بالبعث ولا يبالون،أحسنوا أم أساؤوا، أطاعوا أم عصوا؛ لأنهم إن أحسنوا لم يرجوا ثوابا، وإن أساؤوا لم يخافوا عقابا[2]، ولايتأتي ذلك كله إلا بالإيمان.

كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة، ويدل عليه أنه عقد جملة اسمية، وكرر فيها المبتدأ الذي هو (هم) حتى صار معناه: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق.

فلقوة هذه الخصلة الكريمة للمؤمنين وكونها لب الإيمان أكدها الله تعالى بعدة مؤكدات: أولها بتقديم الجار والمجرور، وثانيها بالجملة الإسمية، وذكر ضمير الفصل مرتين في صدر الجملة وآخرها[3].

وهذا ما أكده مرة أخرى بنفس الآية في سورة لقمان فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤].

ولذلك عندما حاول المشركون إظهار تحسرهم وندمهم - يوم لا ينفع الندم- لعدم يقينهم بوعد الله وحسابه الذي أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم فكذبوا وتكبروا -وذلك بعكس المؤمنين- وتمنوا الرجوع إلى الحياة الدنيا؛ ليكونوا من المؤمنين الذين يكونون من أصحاب اليقين، ولكن هيهات فقد فات الأوان، والقرآن الكريم يصور ذلك فيقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

فقوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤١. بتصرف.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٢٦.
(٣) زهرة التفاسير ١٠/ ٥٤٣٠. بتصرف.

﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ حكاية لما يقولونه في هذا الموقف العصيب. أي: يقولون بذلة وندم: يا ربنا، نحن الآن نبصر مصيرنا، ونسمع قولك ونندم على ما كنا فيه من كفر وضلال، فارجعنا إلى الدنيا لكي نعمل عملا صالحًا، إنا موقنون الآن بأن ما جاءنا به رسولك هو الحق، وأن البعث حق، وأن الجزاء حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق. ولكن هذا الإيقان والاعتراف منهم قد جاء في غير أوانه، ولذا لا يقبله سبحانه منهم، ولذا عقب سبحانه على ما قالوه بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي: ولو شئنا أن نؤتى كل نفس رشدها وهداها وتوفيقها إلى الإيمان لفعلنا؛ لأن إرادتنا نافذة، وقدرتنا لا يعجزها شيء[1]، فلأجل عدم اليقين يكون العقاب والجزاء من الله كما سبق.

وتشير الآية التالية إلى ما فعله الله بهؤلاء المشركين نتيجة لعدم إيقانهم فقال: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

يعني: فما دام هؤلاء المشركون لم يسمعوا للآيات ولم يقبلوها ولم يلتفتوا إلى منهج الله وصموا عنه آذانهم فلم يسمعوا كلام أمثالهم من البشر فسوف نخرج لهم دابة تكلمهم، وانظر إلى هذه الإهانة وهذا التوبيخ: أنتم لم تسمعوا كلام أمثالكم من البشر، ولم تفهموا من يخاطبكم بلغتكم، فاسمعوا الآن من الأدنى، وافهموا عنها، وفسروا قولها. لكن ماذا ستقول الدابة لهم؟ وما نوع كلامها؟[2].

وجملة: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تعليل لإظهار هذا الخارق للعادة، حيث لم يوقن المشركون بآيات القرآن، فجعل ذلك إلجاء لهم حين لا ينفعهم[3].

ثانيًا: التفكر:

إن التفكر والتأمل والتدبر في الكون وما أوجده الله فيه من مخلوقات وأشياء عديدة ومتنوعة بعقل مجرد يوصل لا محالة إلى اليقين بألوهية وربوبية الخالق الموجد الحق سبحانه وتعالى، ولقد كانت قضية إعمال العقل والتفكر من وسائل الأنبياء لدعوة أقوامهم إلى الإيمان وتحقيق اليقين، ونجد ذلك واضحًا في حديث موسى إلى فرعون، يسأل فرعون موسى عن هذا الإله الذي يدعو الناس إليه وهو منهم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣- ٢٤] إنه خالقهما.

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ١٤٩.

(٢) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٨٥١. بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير ٢٠/ ٣٩.

قال أهل المعاني: أي كما توقنون هذه الأشياء التي تعاينونها فأيقنوا أن إله الخلق هو الله عز وجل، لأن خالق هذه الأشياء لا يمكن أن يكون إنسانا أو جانًّا؛ بل خالقهما المدبر القادر المقتدر وهو الله[1].

وبتعبير آخر: إن كنتم موقنين بإسناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود،فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته؛ لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته ثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره، وثبت أن تلك الآثار لابد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء، وما ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما، فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال إلا هذا الجواب[2].

فخالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون. إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة[3].

معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدى إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب، وإلا لم ينفع. أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به؛ لظهوره وإنارة دليله[4].

وكأن القرآن يقول لنا: إذا نظرتم فيما حولكم واستخدمتم عقولكم ستصلون إلى النتيجة الحتمية وبأعلى الطمأنينة أن الخالق المدبر هو الله وهذا هو اليقين حقًّا ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٧].

ولقد استخدمت القوى العقلية وأساليب الفكر والمنطق لبناء اليقين وتدعيمه أيضًا من خلال الحديث عن السماوات والأرض مرة أخرى ولكن في مخاطبة مشركي قريش، ولكن حينما تنغلق العقول وتقفل القلوب لا يكون للكلام المنطقي أثر في تحقيق هذا اليقين.

يقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

قال ابن عباس: «من غير ربٍّ خالق».

والمعنى: أم خلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن

(١) معالم التنزيل ٦/ ١١١ بتصرف.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٤٩٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٣٨ بتصرف يسير.
(٤) الكشاف ٣/ ٣١٤.

يكون؛ لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: لأنفسهم، وذلك في البطلان أشد؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا، فليؤمنوا به وليوحدوه وليعبدوه. وقيل: في معنى الآية: أخلقوا باطلا فلا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون، أم هم الخالقون -أي: لأنفسهم- فلا يجب عليهم لله أمر؟

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٦] يعني: أخلقوا السماوات والأرض فيكونوا هم الخالقين، وليس الأمر كذلك.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦] أي: بالحق، وهو توحيد الله تعالى وقدرته على البعث وأن الله تعالى هو خالقهم وخالق السموات والأرض فليؤمنوا به وليوقنوا أنه ربهم وخالقهم[(١)].

وكأنه قيل لهم: ألا يتدبرون في الآيات فيعلموا خالقهم وخالق السموات والأرض ويصلوا بذلك إلى اليقين؟ ولو أيقنوا ذلك لما أعرضوا عن عبادته.

فهذا عرض عام للوجود كله، ففى كل نظرة ينظر بها المؤمن فى هذا الوجود يرى آيات دالة على قدرة الله وعلمه وحكمته.. فالكون كله فى نظر المؤمن بالله كتاب مفتوح، يقرأ فى صفحاته آيات تحدث عن جلال الله، وعظمته، وكماله.. وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.

أما غير المؤمن فلا يرى فيما يرى من هذا الوجود إلا أشباحا تتحرك، وكائنات تظهر وتختفى.. وقد ينبهر بما يرى، ويفتن بما يملأ عينيه من جمال، ولكنه يظل حيث هو فى تعامله مع كائنات الوجود وعوالمه، دون أن يصله شيء من هذا بخالق الكون ومبدعه![(٢)].

ولهذا يري الحق سبحانه وتعالى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض؛ ليصل إلى مرحلة تأكيد اليقين لديه، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

فلما اهتدى سيدنا إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين، فسيريه الله ملكوت السموات والأرض ما دام قد اهتدى إلى أن هناك إلهًا حقًّا، فالإله الحق يبين له أسرار الكون؛ ليتفكر فيها والتي تجعله يزداد يقينًا وإيمانًا[(٣)].

قال المهايمي في الآية: «﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ ليعلم أن شيئًا من روحانيات الأفلاك والكواكب والمشايخ والشياطين لا يصلح للإلهية،

(١) لباب التأويل ٤/ ٢٠١. بتصرف

(٢) التفسير القرآني للقرآن ١٣/ ٢٢١.

(٣) تفسير الشعراوي بتصرف ٦/ ٣٧٣٩.

وليكون من الموقنين بالتوحيد بالاستدلال بالأدلة الكثيرة.

وقيل: وليكون علة لمقدر هو عبارة عن المذكور. أي: وليكون من الموقنين بالتوحيد فعلنا ما فعلنا من الإراءة والتبصير بآيات السماوات والأرض»[1].

وإنما قال: ﴿نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بصيغة المضارع، مع أن الظاهر أن يقول: (أريناه)؛ لاستحضار صورة الحال الماضية التي كانت تتجدد وتتكرر بتجدد رؤية آياته تعالى في ذلك الملكوت العظيم[2].

وهاهنا دقيقة عقلية، وهي أن نور جلال الله تعالى لائح غير منقطع ولا زائلٌ البتة، والأرواح البشرية لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك فبقدر ما يزول ذلك الحجاب يحصل هذا التجلي[3].

ولئن كانت الآيتان السابقتان قد جعلتا التفكر في كل من السماوات والأرض وسيلة وسببًا من أسباب اليقين إلا أن القرآن في موضع آخر ذكر أن الأرض بما حوته وما أودعه الله فيها وحدها من أشياء وخيرات تكون من أسباب اليقين ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

(١) محاسن التأويل ٤/ ٤٠٠.
(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ١٠٩.
(٣) مفاتيح الغيب ١٣/ ٣٥.

ففي الأرض آياتٌ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره لمن يتدبر ويتفكر ويعقل، حيث هي مدحوة كالبساط لما فوقها كما قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣].

وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها والماشين في مناكبها، وهي مجزأة، فمن سهل وجبل وبر وبحر، وقطع متجاورات، من صلبة ورخوة وعذاة وسبخة، وهي كالطروقة تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح تسقى بماء واحد ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾[الرعد: ٤].

وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم، وما فيها من العيون المتفجرة والمعادن المفتنة والدواب المنبثة في برها وبحرها المختلفة الصور والأشكال والأفعال: من الوحشي والإنسي والهوام، وغير ذلك للموقنين الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها، فازدادوا إيمانا مع إيمانهم وإيقانا إلى إيقانهم[4].

وإذا خرجنا من دائرة السماوات والأرض ونظرنا إلى الإنسان خلقًا وإيجادًا

(٤) الكشاف ٤/ ٣٩٩. بتصرف يسير.

وما يبثه الحق من دابة تدب على الأرض من غير جنس البشر يصل بالإنسان إلى تحقيق اليقين.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤].

وفي خلقكم أي: من تراب ثم من نطفة إلى أن يتكامل خلق الإنسان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وقوله: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ أي: وما يفرق في الأرض من جميع ما خلق على اختلاف ذلك في الخلق والصور آياتٌ تدل على وحدانيته[١].

ووجه دلالتها على وجود الإله القادر المختار أن الأجسام متساوية، فاختصاص كل واحد من الأعضاء بكونه المعين وصفته المعينة وشكله المعين لا بد وأن يكون بتخصيص القادر المختار، ويدخل في هذا الباب انتقاله من سن إلى سن آخر ومن حال إلى حال[٢].

وإذا وسعنا الدائرة ونظرنا في قوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

لوجدنا أن التدبير والتفصيل متجدد متكرر بتجدد تعلق القدرة بالمقدورات. وهذا التدبير المحكم والتفصيل لكل الآيات يصل بالإنسان من خلال التفكير إلى اليقين والإيمان الحقيقي.

وتدبير الأمر: تصريفه على أحسن الوجوه وأحكمها وأكملها. والآيات: جمع آية. والمراد بها هنا: ما يشمل الآيات القرآنية، والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته سبحانه.

أي: إنه سبحانه يقضي ويقدر ويتصرف في أمر خلقه على أكمل الوجوه من تدبيره لأمور خلقه ومن تفصيله للآيات لعلكم عن طريق التأمل والتفكير فيما خلق توقنون بلقائه، وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظيمة لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة بعد موتكم لكي يحاسبكم على أعمالكم[٣].

فالنظر في تفصيله الآيات وتدبيره للأمور يوصل إلى اليقين، فقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ

(١) زاد المسير ٤/ ٩٦.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٧٠.

(٣) الوسيط، سيد طنطاوي باختصار ٧/ ٤٤٠.

﴿رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لكي تتفكروا فيها وتتحققوا كمال قدرته فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قدر على الإعادة والجزاء[1].

يعني أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته لكي توقنوا وتصدقوا بلقائه والمصير إليه بعد الموت؛ لأن من قدر على إيجاد الإنسان بعد عدمه قادر على إيجاده وإحيائه بعد موته، واليقين صفة من صفات العلم، وهو فوق المعرفة والدراية، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك[2].

جملة القول: إن القرآن ينبه ويوقظ العقل إلى التفكر والتدبر لكي يصل إلى اليقين والحقيقة عن اقتناع كامل، ولا أن يكون مجرد مقلد يتبع ما يقال له دون أن يصل إلى اليقين، وأن يلغي العقل والفكر ليكون حبيس التقليد والجمود كما فعل مشركو قريش أو قوم سيدنا إبراهيم وكل من على شاكلتهم. غير أن إعمال العقل والتفكير يكون بأصول الشرع وقواعده، وإلا يصل بالإنسان إلى الإلحاد كما راح إلى ذلك الفلاسفة الماديون.

ثالثًا: تدبر القرآن:

ويشير القرآن إلى ذلك من خلال سورة المدثر فيقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر: ٣١].

ففي هذه الآية الكريمة رد على المشركين الذين سخروا من النبي صلى الله عليه وسلم عندما عرفوا منه أن على سقر تسعة عشر ملكا يتولون أمرها[3].

قال الإمام ابن كثير: «يقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي: خزانها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي: غلاظا شدادا. وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟ فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي: شديدو الخلق لا يقاومون ولا يغالبون.

وقد قيل: إن أبا الأشد -واسمه: كلدة بن أسيد بن خلف- قال: يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر. إعجابا منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة- فيما يزعمون- أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة؛ لينتزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد، ولا يتزحزح عنه»[4].

(١) البيضاوي ٣/ ١٨٠.
(٢) لباب التأويل ٣/ ٤.
(٣) التفسير الوسيط ١٥/ ١٨٣.
(٤) ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٨٤. تفسير القرآن

وقال الجمل في حاشيته: «قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]، قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! محمد صلى الله عليه وسلم يخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الشجعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟! فقال أبو الأشد: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، عشرة على ظهري، وسبعة على بطني، واكفوني أنتم اثنين. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾»[1].

يعني: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي: خزنتها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ لأنهم أقوى الخلق بأسا، وأشدهم غضبا لله؛ ليباينوا جنس المعذبين، فلا يستروحون لهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من مشركي قريش. أي: إلا عدة من شأنها أن يفتتن بها الكافرون، فيجعلوها موضع البحث والهزء[2].

قال الكعبي: «المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعين إلى علم الخالق سبحانه. قال: وهذا من المتشابه الذي أمروا بالإيمان به».

وقال الإمام الرازي: «وإنما صار هذا العدد سببا لفتنة الكفار من وجهين:

الأول: أن الكفار كانوا يستهزئون، ويقولون: لم لا يكونون عشرينبدلًا من تسعة عشر؟! وما المقتضى لتخصيص هذا العدد؟

والثاني: أن الكفار كانوا يقولون: هذا العدد القليل كيف يكون وافيا بتعذيب أكثر العالم من الجن والإنس؟!

وأجيب عن الأول بأن هذا السؤال لازم على كل عدد يفرض، وأفعال الله تعالى لا تعلل، فلا يقال فيها: لم كان هذا العدد؟ فإن ذكره لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه.

وأجيب عن الثاني بأنه لا يبعد أن الله تعالى يعطى ذلك العدد القليل قوة تفي بذلك، فقد اقتلع جبريل وحده مدائن قوم لوط على أحد جناحيه، ورفعها إلى السماء ثم قلبها، فجعل عاليها سافلها.. وأيضًا فأحوال القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا، وليس للعقل فيها مجال».

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: رسالة النبي -صلوات الله عليه-؛ لإنبائه من وعيد الجاحدين المفسدين ما لديهم مصداقه[3].

أي: ليتيقن أهل الكتاب من صدق محمد، وأن هذا القرآن من عند الله؛ إذ يجدون هذا العدد في كتبهم المنزلة ﴿وَيَزْدَادَ

العظيم ٨/ ٢٩٤. بتلخيص، الدر المنثور ٨/ ٣٣٣.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٩/ ١٥٩، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٣٣٣، السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٣٣٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ١٨٤. ملخصًا.

(٣) محاسن التأويل ٩/ ٣٥٦. باختصار وتصرف.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ أي: ويزداد المؤمنون تصديقًا لله ورسوله بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم صلى الله عليه وسلم وتسليم أهل الكتاب لما جاء في القرآن موافقًا للتوراة والإنجيل[1].

والاستيقان: قوة اليقين، فالسين والتاء فيه للمبالغة. والمعنى: ليستيقنوا صدق القرآن حيث يجدون هذا العدد مصدقا لما في كتبهم.

والاستيقان من شأنه أن يعقبه الإيمان إذا صادف عقلًا بريئًا من عوارض الكفر كما وقع لعبد الله بن سلام، وقد لا يعقبه الإيمان لمكابرة أو حسد أو إشفاق من فوات جاه أو مال كما كان شأن كثير من اليهود الذي قال الله فيهم: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولذلك اقتصرت الآية على حصول الاستيقان لهم[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على قوله: ليستيقن.. وهو مؤكد لما قبله، من الاستيقان وازدياد الإيمان، ونفيٌ لما قد يعتري المستيقن من شبهة عارضة. أي: فعلنا ما فعلنا؛ ليكتسب أهل الكتاب اليقين من نبوته صلى الله عليه وسلم وصدق كتابه وهو القرآن، وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم. ولتزول كل ريبة أو شبهة قد تطرأ على قلوب الذين أوتوا الكتاب، وعلى قلوب المؤمنين[3].

وفي التعبير بالاستيقان في جانب أهل الكتاب وبازدياد الإيمان في جانب المؤمنين مراعاة لمقتضى الحال في كل من الفريقين فأهل الكتاب والمقصود به من أهل الكتاب هنا هم أولو العلم منهم الذين سلموا من الهوى المضل الذي أفسد على كثير من علمائهم دينهم- هؤلاء يبعث فيهم هذا الخبر الجديد الذي جاء به القرآن يقينا بأن ما يتلقاه محمد هو وحي من عند الله. هذا إلى ما كان عندهم من علم بهذا النبي المبشر به في كتبهم والمبينة صفاته فيها..

وأما المؤمنون فهم مؤمنون بصدق الرسول، من قبل نزول هذه الآيات ومن بعد نزولها.. ولكنهم يزدادون إيمانًا كلما تلقوا من آيات الله جديدًا، يثبت إيمانهم ويزيدهم قوة استبصار لمعالم الحق.. وهؤلاء المؤمنون هم الذين آمنوا إيمانا خالصا من شوائب الشك والارتياب[4].

وهكذا فإن قراءة القرآن وتدبره بعناية ترسخ اليقين وتقوي منه، وتؤكد صدق القرآن ونبوة المصطفى صلى الله عليه

(١) صفوة التفاسير ٣/ ٤٥٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣١٥. ملخصًا.
(٣) التفسير الوسيط ١٥/ ١٨٣. بتصرف.
(٤) التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١٢٩٧.

وسلم. فالإخبار عن المغيبات عن طريق القرآن الكريم من شأنه أن تجعل الإيمان في قلوب المؤمنين الصادقين يزداد رسوخا وثباتا، فمن تدبر القرآن طالبًا للهدى منه تبين له طريق الحق.

ولذا يقول النبي المصطفى فيما يرويه أبو هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل والنهار، يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل ورجلٌ آتاه الله مالًا ينفقه في حقه، فيقول: لو أوتيت مثل ما أوتي لفعلت كما يفعل)[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القرآن، باب تمني القرآن والعلم رقم ٧٢٣٢.

ثمرات اليقين

لليقين ثمرات بينها القرآن ومن أهمها ما يأتي:

أولًا: الرضا بحكم الله:

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

لقد أتت الآية تذم اليهود ومن يتبع أحوالهم بالطبع - لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما على ذلك جمهرة المفسرين- وتشنع عليهم في سعيهم نحو حكم الجاهلية والرفض والتكبر لحكم الله، وتبين لنا الآية أن اليقين والإيمان الحقيقي من علاماته الرضا بحكم الله في كل الأحوال وفي كل الأمور ونبذ كل حكم يخالف حكم الله ورسوله.

وقد قيل في سبب نزول الآية: إنه كانت بين بني النضير وقريظة -وهما حيان من اليهود- دماء وذلك قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، فلما بعث وهاجر إلى المدينة تحاكموا إليه فقالت بنو قريظة: بنو النضير إخواننا؛ أبونا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد، فإن قتل بنو النضير منا قتيلا أعطونا سبعين وسقا من تمر، وإن قتلنا منهم قتيلا أخذوا منا مائة وأربعين وسقا، وأرش جراحتنا على النصف من جراحتهم، فاقض بيننا وبينهم. فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم: (فإني أحكم أن دم القرظي وفاء من دم النضيري، ودم النضيري وفاء من دم القرظي، ليس لأحدهما فضل على الآخر في دم ولا عقل ولا جراحة). فغضبت بنو النضير، وقالوا: لا نرضى بحكمك فإنك لنا عدو، وإنك ما تألو في وضعنا وتصغيرنا. فأنزل الله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[1].

فيقول تعالى ذكره: أيبغي هؤلاء اليهود -الذين احتكموا إليك، فلم يرضوا بحكمك إذ حكمت فيهم بالقسط- (حكم الجاهلية)، -يعني: أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك- وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذي حكمت به فيهم، وأنه الحق الذي لا يجوز خلافه؟![2].

فحكم الجاهلية كما قال ابن عباس: «ما كانوا عليه من الضلال والجور في الأحكام، وتحريفهم إياها عما أمر الله به»[3].

فهذا استفهام معناه الإنكار على اليهود، حيث هم أهل كتاب وتحليل وتحريم من الله تعالى، ومع ذلك يعرضون عن حكم الله ويختارون عليه حكم الجاهلية، وهو مجرد الهوى من مراعاة الأشرف عندهم، وترجيح الفاضل عندهم في الدنيا على المفضول، وفي هذا أشد النعي عليهم حيث تركوا الحكم الإلهي بحكم الهوى والجهل[4].

ثم قال تعالى ذكره موبخا لهؤلاء الذين أبوا قبول حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ولهم من اليهود، ومستجهلا فعلهم ذلك منهم: ومن هذا الذي هو أحسن حكمًا، أيها اليهود، من الله -تعالى ذكره- عند من كان يوقن بوحدانية الله ويقر بربوبيته؟

وبتعبير آخر: أي حكم أحسن من حكم الله، إن كنتم موقنين أن لكم ربًّا وكنتم أهل توحيدٍ وإقرار به؟[5].

فاللام في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ للبيان، كاللام في: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنهم الذين يتيقنون أن لا أعدل من الله ولا أحسن حكما منه[6].

قال العلماء: فمن أيقن تبين عدل الله في حكمه[7].

فالقوم الموقنون هم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم فيعلمون أن لا أحسن حكمًا من الله سبحانه وتعالى، فيرضون به ويقومون بتنفيذه دون تردد أو تكاسل؛ لأن ذلك نابع من إيمان حقيقي لا تردد فيه.

(١) زاد المسير ١/ ٥٥٧. لباب التأويل ٢/ ٥٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٤.
(٣) لباب التأويل ٢/ ٥٢.
(٤) البحر المحيط ٤/ ٢٨٧
(٥) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٤.
(٦) الكشاف ١/ ٦٤٢.
(٧) زاد المسير ١/ ٥٥٧.

فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ هو تسفيه لأهل الكتاب، وفضح لجهلهم وضلالهم، إذ يعدلون عن شرع الله ويخرجون عن حكمه إلى شريعة الجاهلية وأحكام السفاهة والضلال. وذلك من حماقة عقولهم، وسفه أحلامهم؛ إذ إنه لا يعرف فرق ما بين أحكام الله وأحكام غير الله إلا من أخلى قلبه من نزعات الهوى، وصفى مشاعره من وساوس النفاق، ونظر إلى الله بقلب سليم، فعرفه حق معرفته، وقدره حق قدره، ورأى أن هدى الله هو الهدى، وأن من اتبع غير سبيله ضل وهلك، ومن سلك سبيله رشد وسعد[1].

ثانيًا: الثبات على الأعمال الصالحة:

يقول تعالى في آخر آية في سورة الحجر: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

فقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: الموت، قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور. وسمي يقينًا؛ لأنه موقن به، فمعنى الآية: اعبد ربك أبدًا، ولو قيل: اعبد ربك، بغير توقيت، لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعًا، فلما قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أمر بالإقامة على العبادة ما دام حيًّا[2].

وللإمام ابن عطية كلام وجيه في قول الجمهور السابق، فيقول: «وليس اليقين من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل، فسماه هنا يقينا تجوزا، أي: يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه وهذه الغاية معناها مدة حياتك»[3].

والتعبير بـ ﴿رَبَّكَ﴾ فيه إشارة إلى أن مقام الربوبية يقتضي العبادة الخالصة له، وقد حدد سبحانه وتعالى نهاية العبادة بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[4].

فليس المراد به ما زعمه بعض الملحدين مما يسمونه بالكشف والشهود، وقالوا: إن العبد متى حصل له ذلك سقط عنه التكليف بالعبادة، وهي ليست إلا للمحجوبين، ولقد مرقوا بذلك من الدين وخرجوا من ربقة الإسلام وجماعة المسلمين[5].

فالحق يشير إلى وجوب المداومة على العبادة وجميع أنواع الأعمال الصالحة وصنوف الطاعة والخير إلى أن يأتي أمر الله ووعده الذي لا شك فيه ولا ريب[6].

وهذا مثل قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

أي: أبدًا، ولو لم يقل: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾

(١) التفسير القرآني للقرآن ٣/ ١١١٣.
(٢) زاد المسير ٢/ ٥٤٧ بتصرف.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٦.
(٤) زهرة التفاسير ٨/ ٤١١٩.
(٥) فتح القدير ٧/ ٣٢٩.
(٦) وعن العلاقة بين العبودية واليقين ينقل القشيري عن شيخه الدقاق قوله: «العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين» الرسالة ص ٩٩.

لكان بصلاة واحدة وزكاة مرة يؤدي ما وصاه به[1].

فالمؤمن الحقيقي تكون عبادته لله ليست عبادة مؤقتة أو مرتبطة بزمان معين أو مكان معين أو عبادة ليسر أو عسر، بل عبادة الموقن الحقيقي عبادة دائمة وفي كل الأوقات والأزمان والأمكان. ففائدة قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ أنه إذا عبد مرة خرج عن موجب الأمر، فقال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾؛ ليدوم عليها إلى أن يموت[2].

وهذا الكلام يشير إلى حقيقتين ثابتتين:

الحقيقة الأولى: وجوب العبادة طوال الحياة حتى الممات.

والحقيقة الثانية: فيه إشارة إلى أن العبادة تزيد اليقين فيزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، ولله غيب السماوات والأرض وإليه مرجع الأمور[3].

ويستدل من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتا، فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب)[4].

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه. ولله الحمد والمنة والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على ذلك.

ثالثًا: الثقة في وعد الله ووعيده:

يقول تعالى في آخر سورة الروم ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[الروم: ٦٠].

يختم الله سبحانه سورة الروم، بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على هؤلاء الجاهلين من المشركين، أي: فاصبر على أذاهم وعلى جهالاتهم، فإن وعد الله تعالى بنصرك عليهم حق لا شك في ذلك.

(١) الهداية ٦/ ٣٩٤٢.
(٢) تفسير السمعاني ٣/ ١٥٦.
(٣) زهرة التفاسير ٨/ ٤١١٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب، إذا لم يطق قاعدًا صلى على جنبٍ رقم ١١١٧.

فجملة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ تعليل للأمر بالصبر وهو تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم بتحقيق وعد الله من الانتقام من المكذبين ومن نصر الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: ولا يزعجنك ويحملنك على عدم الصبر الذين لا يوقنون بصحة ما تتلو عليهم من آيات، ولا بما تدعوهم إليه من رشد وخير. فقد ختمت السورة الكريمة بالوعد بالنصر، كما افتتحت بالوعد به للمؤمنين الصادقين: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦][2].

وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف العقل خفيفه. فالأول بمنزلة اللب والآخر بمنزلة القشور، فالله المستعان[3].

بهذه الآية تختم السورة الكريمة، وهى تحمل إلى النبي الكريم دعوة من الله سبحانه وتعالى إلى الصبر على ما يلقى من قومه من مكاره، مستعينا على الصبر واحتمال المكروه، بما وعده ربه من نصر لدين الله الذي يدعو إليه، ومن تمكين له وللمؤمنين معه في هذه الدنيا، ومغفرة من الله ورضوان فى الآخرة، هذا إلى ما يلقى هؤلاء المشركون الضالون من خزي وخذلان فى الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة[4].

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ إشارة لافتة إلى ما قد يرد على النبي -صلوات الله وسلامه عليه- من تلك الخواطر التي تساور بعض النفوس من المؤمنين الذين اشتدت عليهم وطأة البلاء وطال بهم الانتظار لملاقاة ما وعدهم الله من نصر، ففى ساعات الضيق والعسرة قد يتسرب إلى بعض المؤمنين شيء من القلق، وربما شيء من الشك والريب، ذلك أن للنفس البشرية حدًّا من الاحتمال والصبر على المكاره إذا بلغته زايلتها القدرة على الاحتمال، وآذنها الصبر بالرحيل، وعندئذ تنحل العزيمة، ويضعف اليقين، وتبرد حرارة الإيمان.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ١٠٣، بتلخيص.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٦٤٥.
(٤) التفسير القرآني للقرآن ١١/ ٥٤٩.

[البقرة: ٢١٤].

فهذه حال تعرض المؤمنين، ولن يعصمهم منها إلا التحصن بالإيمان، واللياذ باليقين الذي يدفع كل شك في قدرة الله وفي تحقيق ما وعد المؤمنين به من نصر وعافية مما هم فيه من بلاء[(١)].

والآية إذ تدعو المؤمنين إلى أن يكونوا من الموقنين بالله والمستيقنين بنصره فإنها تدعو النبي إلى أن يثبت في موقفه من الإيمان بربه والثقة فيما وعده به، حتى ترتد عنه العوارض التي تعرض له داخل نفسه أو خارجها، حين تجده جبلا راسخا، لا تصادف أية خفة في أي جانب منه.. وقد كان صلوات الله وسلامه عليه على هذا اليقين الذي تزول الجبال ولا يزول.. حتى ليقول لعمه أبي طالب وقد جاء يدعوه إلى مهادنة قومه على أن يحتكم بما شاء فيهم من مال أو سلطان، فيقول: (والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه)[(٢)].

وإذا كان هذا الخطاب بالصبر موجها للنبي صلى الله عليه وسلم فإن المراد به أمته، فعلى الأمة أن تصبر في تبليغ الدعوة الإسلامية لكل أمم الأرض، وأن تثبت في بيان أصول الدعوة إلى الإيمان؛ لأن حبل الخير متصل دائم إلى يوم القيامة، وحبل الخير لا يكون إلا بجهود الدعاة إلى الله تعالى. ولا يضير الداعية إلى ربه أن يقف الكافر الجاحد موقف العناد والتكبر، أو السخرية والاستهزاء؛ لأن هذه هي مواقف الجهلة المستبدين، الذين لا يصغون لنداء العقل والوجدان والتأمل في مشاهدات الكون الدالة على وجود الله وسلطانه وقدرته وتوحيده وتفرده بالخلق والإيجاد[(٣)].

رابعًا: الإمامة في الأرض:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال الزمخشري: «وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام هدىً لقومه وجعلنا منهم أئمةً يهدون الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه لصبرهم وإيقانهم بالآيات.

وكذلك لنجعلن الكتاب المنزل إليك هدى ونورا، ولنجعلن من أمتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين وثبتوا عليه من اليقين»[(٤)].

فتشير الآية إلى ما من الله به على بني إسرائيل؛ إذ جعل منهم أئمة يهدون بأمر الله، والأمر يشمل الوحي بالشريعة؛ لأنه

(١) المصدر السابق ١١/ ٥٥٠.
(٢) المصدر السابق ١١/ ٥٥١.
(٣) التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٠١٥.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٠١٥.

أمر بها، ويشمل الانتصاب للإرشاد، فإن الله أمر العلماء أن يبينوا الكتاب ويرشدوا إليه فإذا هدوا فإنما هدوا بأمره وبالعلم الذي أتاهم به أنبياؤهم وأحبارهم، فأنعم الله عليهم بذلك لما صبروا وأيقنوا لما جاءهم من كتاب الله ومعجزات رسولهم[1].

وفي هذا تعريض بالبشارة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم يكونون أئمة لدين الإسلام وهداة للمسلمين إذا صبروا على ما لحقهم في ذات الله من أذى قومهم وصبروا على مشاق التكليف ومعاداة أهلهم وقومهم وظلمهم إياهم، وتقديم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على ﴿يُوقِنُونَ﴾ للاهتمام بالآيات[2].

وفي الآية، إشارة إلى ما ينبغي أن يكون المرشد عليه من الأوصاف، وهو الصبر على مشاق العبادات وأنواع البليات، وحبس النفس عن ملاذ الشهوات، والإيقان بالآيات، فمن يدعي الإرشاد وهو غير متصف بما ذكر فهو ضال مضل[3].

ويؤخذ من فحوى الآية أن بني إسرائيل لما نبذوا الاعتصام بالكتاب ونبذوا الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وفقدوا الاستيقان بحقية الإيمان فغيروا وبدلوا سلبوا ذلك المقام، وأديل عليهم انتقامًا منهم. وتلك سنته تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[الرعد: ١١].

ففي طي هذا الترغيب ترهيب وأي ترهيب[4]!

خامسًا: الانتفاع بهداية القرآن ورحمته:

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

يبين الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان واليقين بالقرآن وما فيه من شرع الله يجعل صاحبه يدرك الفلاح في الدنيا والآخرة.

يعني: هذا القرآن المشتمل على شرائع الله الخالدة إلى يوم القيامة هو دلائل وبراهين للناس جميعا فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين، وهاد إلى الجنة من عمل به، ورحمة من الله في الدنيا والآخرة لقوم من شأنهم الإيقان وعدم الشك بصحته وتعظيم ما فيه. وإنما خص الموقنين بذلك؛ لأنهم المنتفعون به[5].

فلا شك أن هذا القرآن واتباع الشريعة بصائر لقلوب الناس، كما جعل روحًا وحياة لها، فإن من تمسك بالكتاب والسنة وأمعن فيهما النظر وعمل بمقتضاهما فتحت بصيرته، وحيي قلبه، وهدى من الضلالة ورحم من العذاب. ولا يتحقق ذلك كله إلا

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٣٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) روح المعاني، ١١/ ١٣٩.
(٤) محاسن التأويل ٨/ ٤٣.
(٥) التفسير المنير، الزحيلي ٢٥/ ٢٦٩.

لأصحاب اليقين الثابت الذي لايتزعزع ولا يتزحزح[1].

وإنما كان هدي؛ لأنه طريق نفع لمن اتبع إرشاده، فاتباعه كالاهتداء للطريق الموصلة إلى المقصود. وإنما كان رحمة؛ لأن في اتباع هديه نجاح الناس أفرادا وجماعات في الدنيا؛ لأنه نظام مجتمعهم ومناط أمنهم، وفي الآخرة؛ لأنه سبب نوالهم درجات النعيم الأبدي. وكان بصائر؛ لأنه يبين للناس الخير والشر، ويحرضهم على الخير ويحذرهم من الشر، ويعدهم على فعل الخير ويوعدهم على فعل الشرور، فعمله عمل البصيرة[2].

وجعل الهدى والرحمة لقوم يوقنون؛ لأنه لا يهتدي ببيانه إلا الموقن بحقيقته ولا يرحم به إلا من اتبعه المؤمن بحقيته. وذكر لفظ (قوم)؛ للإيماء إلى أن الإيقان متمكن من نفوسهم، كأنه من مقومات قوميتهم التي تميزهم عن أقوام آخرين[3].

وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى ورحمة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه دون من كذب به من أهل الكفر فإنه عليهم عمى[4].

فقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن وما فيه من بصائر للناس جميعا وهدى ورحمة لهم لا يرد مورده ولا يرتوي من هذا المورد إلا من جاء إليه بقلب سليم، مهيأ لاستقبال الخير وتقبله[5].

سادسًا: الفلاح في الدنيا والآخرة:

خص سبحانه وتعالى أهل اليقين بالفلاح، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤ - ٥].

والفلاح: الظفر بالبغية وإدراك الأمل[6]، ويكون في أحوال الدنيا وأحوال الآخرة. والمفلحون هم: «الفائزون بالجنة والباقون فيها»[7].

يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق من الذي رزقهم الله والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والإيقان بالدار الآخرة، وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة»[8]. «وحصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى

(١) البحر المديد ٥/ ٣٠٩، بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٣٥٠.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المراغي ٢٥/ ١٥٢.
(٥) التفسير القرآني للقرآن ١٣/ ٢٤١.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٨٦.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٨٢.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٨٢.

الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك»[1].

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التقوى، الشك، الظن

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٠.

اليهود

عناصر الموضوع

التعريف باليهود	٤٠
اليهود في الاستعمال القرآني	٤٤
الألفاظ ذات الصلة	٤٥
نعم الله على بني إسرائيل	٤٧
انحرافات اليهود	٥٠
تحريفات اليهود	٦١
اليهود والعقوبات الإلهية	٦٨

التعريف باليهود

قبل أن نبدأ الحديث عن اليهود وعن انحرافاتهم وضلالاتهم وطباعهم القبيحة كان حريًا بنا أن نميز بين مصطلحي اليهود وبني إسرائيل، حيث إن كثيرًا من الباحثين والكتاب يختلط الأمر عليهم، فيتحدثون عن اليهود وكأنهم هم بنو إسرائيل، وعن بني إسرائيل كأنهم هم اليهود أنفسهم، وهذا الأمر يجب أن يوضح منذ البداية.

أولًا: التعريف باليهود:

اليهود: هم من ينتسبون إلى الديانة اليهودية.

واختلفت الأقوال في سبب تسميتهم بهذا الاسم، فمنها:

قيل: إنهم سموا يهودًا؛ «لأنهم يتهودون، أي: يتحركون عند قراءة التوراة»[1] بنو إسرائيل: هم ذرية سيدنا يعقوب عليه السلام، فإسرائيل هو اسم سيدنا يعقوب.

و«اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه: عبدالله؛ لأن (إسرا) في لغتهم هو العبد و(إيل) هو الله، وقيل: إن له اسمين. وقيل: إسرائيل لقب له. وهو اسم أعجمي غير منصرف»[2].

وقيل: إنهم سموا يهودًا نسبة إلى (يهوذا) الابن الرابع ليعقوب عليه السلام، قال البيروني: «وإنما سموا باليهود نسبة إلى يهوذا أحد الأسباط، فإن الملك استقر في ذريته، وأبدلت الذال المعجمة دالًا مهملة؛ لأن العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيروا بعض حروفها»[3].

وقيل: من التوبة والرجوع، ذكر ابن منظور في معجمه «الهود: التوبة، هاد يهود هودًا: تاب ورجع إلى الحق فهو هائد، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[الأعراف: ١٥٦]، أي: تبنا ورجعنا إليك، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم، ويهودا اسم للقبيلة وقالوا: (اليهود) فأدخلوا الألف واللام فيها على إرادة النسب يريدون اليهوديين، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، معناه: دخلوا اليهودية، وهود الرجل: حوله إلى اليهودية، وهاد ويهود إذا

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، محمد سيد طنطاوي ص١٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥١.
(٣) تاريخ الملل والنحل، أمين الخولي ٢/ ٤.

صار يهوديًا»[1].

ثانيًا: الفرق بين بني إسرائيل واليهود:

بنو إسرائيل: هم ذرية سيدنا يعقوب عليه السلام، فإسرائيل هو اسم سيدنا يعقوب.

«اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه: عبدالله؛ لأن (إسرا) في لغتهم هو العبد و(إيل) هو الله، وقيل: إن له اسمين. وقيل: إسرائيل لقب له. وهو اسم أعجمي غير منصرف»[2].

ولعل الفرق يتضح جليًّا بين مصطلحي اليهود وبني إسرائيل من خلال آيات القرآن الكريم:

فلقد ذكر مصطلح (بني إسرائيل) إحدى وأربعين مرةً في القرآن الكريم، والمتتبع للآيات التي ذكر فيها بنو إسرائيل في القرآن الكريم يجد أن ذكرهم قد قصد به أزمان وأوقات مختلفة:

- فآية واحدة فقط تحدثت عن بني إسرائيل قبل زمن سيدنا موسى عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].
- ونصف الآيات التي ذكر فيها مصطلح (بني إسرائيل) قصدت الذين عاصروا سيدنا موسى عليه السلام، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].
- وهناك بعض الآيات تحدثت عن بني إسرائيل بعد عهد سيدنا موسى عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. وقوله سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].
- كما أن هناك بعض الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل الذين عاصروا سيدنا عيسى

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٩٧.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥١.

عليه السلام، كقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

- ومن الآيات ما تحدثت عن بني إسرائيل الذين عاشوا زمن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

ولقد ذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان، أنه يقص على بني إسرائيل -وهم حملة التوراة والإنجيل- أكثر الذي هم فيه يختلفون، كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء إليهم القرآن بالقول الوسط الحق العدل، أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]»[(١)].

وعن اختلاف بني إسرائيل بشأن عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ولقد ذكر ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية «الإخبار بأن بني إسرائيل افترقوا طائفتين، طائفة آمنت بعيسى وما جاء به، وطائفة كفرت بذلك، وهذا التفريع يقتضي كلامًا مقدرًا وهو «فنصروا الله بالدعوة والمصابرة عليها» فاستجاب بعض بني إسرائيل وكفر بعض، وإنما استجاب لهم من بني إسرائيل عدد قليل، فقد جاء في إنجيل «لوقا» أن أتباع عيسى كانوا أكثر من سبعين، والمقصود من قوله: ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ التوطئة لقوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾، والتأييد النصر والتقوية، أيد الله أهل النصرانية بكثير ممن اتبع النصرانية بدعوة الحواريين وأتباعهم مثل بولس»[(٢)].

بناءً على ذلك، يتضح جليًا أن بني إسرائيل قد انقسموا إلى قسمين ظاهرين بديانتين مختلفتين، وهما اليهودية والنصرانية، فنبي الله عيسى عليه السلام هو من بني إسرائيل وأرسل إليهم رسولًا مصدقًا لما بين يديه من التوراة ومبشرًا بالنبي محمد صلى الله عليه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٠٢.

وسلم، كما أوتي الإنجيل فيه هدىً ونور.

فاختلف بنو إسرائيل بشأن سيدنا عيسى عليه السلام، فمنهم من آمن به وصدقه وناصره، ومنهم من لم يؤمن به وكذبه وحاول قتله: فالقسم الأول من بني إسرائيل هم النصارى الذين قاموا بعد ذلك بنشر دينهم للعالمين، وما زالت الحملات التنصيرية التي يقوم بها هؤلاء شاهدًا على حرصهم على نشر دين النصرانية أو المسيحية التي حرفت وحادت عن طريق الحنيفية السمحاء.

والقسم الآخر من بني إسرائيل «وهم الأغلب» كذبوا عيسى عليه السلام وحاربوه وحاولوا قتله، فرفعه الله إليه، وهؤلاء بدورهم لم يقوموا بنشر دينهم كما فعل النصارى، بل حرصوا أشد الحرص على ألا يدخل في دينهم أحد، إلا أنه وفي فترات من التاريخ دخل الدين اليهودي مجموعة من الناس كيهود الخزر وغيرهم.

لذلك نجد في وقتنا الحالي أن عدد النصارى أكثر بكثير من عدد اليهود، مع العلم أنهم مع بداية افتراقهم كان عدد بني إسرائيل الذين اتبعوا الديانة النصرانية أقل بكثير من عدد بني إسرائيل الذين اتبعوا الديانة اليهودية، لذا عندما يطلق الحديث عن بني إسرائيل يتبادر للذهن مباشرةً أنهم هم اليهود.

اليهود في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هود) في القرآن الكريم (٢١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]
الاسم (هود)	١	﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]
الاسم (اليهود)	٩	﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]

واليهود هم أتباع الديانة اليهودية، وهم من بني إسرائيل، وليس كل بني إسرائيل من اليهود.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٧٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ أهل الكتاب:

أهل الكتاب لغة:

أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه، وأهل المذهب:من يدين به، وأهل الإسلام:من يدين به، وأهل الأمر:ولاته، وأهل البيت:سكانه، وأهل الرجل:زوجه وأخص الناس به، وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم: أزواجه وبناته وصهره[١].

والكتاب: كتبه كتبًا وكتابًا أي: خطه، وهو ما يكتب فيه، والدواة والتوراة والصحيفة والفرض والحكم والقدر[٢].

ويراد به أيضًا الكتب السماوية، وحيثما ذكر في القرآن الكريم التركيب الإضافي ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإنما أريد بالكتاب التوراة والإنجيل، وكذلك إذا ذكر التركيب الإسنادي ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أو (آتيناه الكتاب)[٣].

وأهل الكتاب:«من يجتمعون حوله، والمراد اليهود والنصارى»[٤].

أهل الكتاب اصطلاحًا:

هم اليهود والنصارى،ومن دان دينهم بفرقهم المختلفة، ومن عدا هؤلاء من الكفار فليس من أهل الكتاب؛ بدليل قول الله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾[الأنعام:١٥٦][٥].

قال الشهرستاني:«الخارجون عن الملة الحنيفية والشريعة الإسلامية ممن يقول بشريعة وأحكام وحدود وأعلام، وهم قد انقسموا إلى من له كتاب محقق مثل التوراة والإنجيل، وعن هذا يخاطبهم التنزيل بأهل الكتاب، وإلى من له شبهة كتاب، مثل المجوس»[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ١١/ ٢٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٦٣، مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ١٥٠.
(٢) القاموس المحيط، ص١٢٨.
(٣) انظر: المفردات، ١/ ٧٠١، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، ص٩٤٩-٩٥٠.
(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٩٧.
(٥) انظر: المغني، ابن قدامة، ٩/ ٣٢٩.
(٦) الملل والنحل، الشهرستاني، ص٢٤٧.

الصلة بين أهل الكتاب واليهود:

أهل الكتاب: هم أهل الديانات التي لها كتاب سماوي من يهود وهم أهل التوراة، ونصارى وهم أهل الإنجيل، فإذًا اليهود بعض أهل الكتاب.

٢ بنو إسرائيل:

بنو إسرائيل اصطلاحًا:

إسرائيل لقب أطلق على يعقوب بن إسحاق عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ [آل عمران:٩٣].

وبنو إسرائيل:ذرية يعقوب عليه السلام، وكانوا اثني عشر سبطًا.

قال تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةٖ بَيِّنَةٖ﴾[البقرة:٢١١][1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في كلمة إسرائيل:معناه:(عبدالله)، لأن إسرا بمعنى:عبد، وإيل:اسم الله، أي: إنه مركب من كلمتين:إسرا، وإيل، كما يقولون:بيت إيل[2].

الصلة بين بني إسرائيل واليهود:

اليهود هم من بني إسرائيل ذرية يعقوب عليه السلام.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٥١، معجم اللغة العربية المعاصرة، ١/ ٩١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٤٥٠.

نعم الله على بني إسرائيل

أنعم الله الكريم المنان على بني إسرائيل بنعم خصهم بها دون العالمين، وقوبلت هذه النعم بالجحود والاستكبار والفساد في الأرض، وتنوعت هذه النعم وتعددت، وسنذكر منها أربعًا:

أولًا: التفضيل على عالمي زمانهم:

من النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل نعمة التفضيل على عالمي زمانهم، ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى في موضعين مختلفين من القرآن الكريم هذه النعمة، بقوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧].

والتفضيل على العالمين هنا تفضيل مرهون بزمان معين، وليس في كل الأزمنة والعصور، كما أن التفضيل هنا أيضًا جاء مذكرًا لبني إسرائيل بشكل عام واليهود في المدينة بشكل خاص بهذه النعمة التي أنعم الله بها على آبائهم من قبل، لكي يعودوا إلى الحق والصواب، ولاتباع ما أنزل إليهم من ربهم بقبول دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والتفضيل على العالمين انتهى بسبب جحودهم وكفرهم ونقضهم للعهود وقتلهم للأنبياء، فكان الجزاء الغضب واللعنة على من كفر منهم.

ولقد عبر الإمام البغوي عن هذا التفضيل المذكور في الآية بقوله: «أي: عالمي زمانكم، وذلك التفضيل وإن كان في حق الآباء، ولكن يحصل به الشرف للأبناء»[1].

ثانيًا: أنبياء بني إسرائيل وكتبهم:

أقام الله سبحانه وتعالى الحجة على الناس بأن أرسل الرسل؛ ليبلغوا رسالته، وأنزل معهم الكتب لتبين للناس طريق الهدى والصلاح في الدنيا والآخرة.

يقول سبحانه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٥].

فلقد أنعم الله على بني إسرائيل بأن بعث فيهم رسلًا من أنفسهم ومن أبناء جلدتهم، ابتداءً بيعقوب ويوسف ومن بعدهم موسى وهارون وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام جميعًا، فبلغوا رسالة ربهم لبني إسرائيل الذين بادروهم إما بالتكذيب وإما بالقتل.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

ولقد ذكر الخازن في تفسيره: «قوله عز

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٩٠.

وجل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني أخذنا العهود عليهم في التوراة بأن يعملوا بما فيها من التوحيد والعمل بما أمرناهم به والانتهاء عما نهيناهم عنه، ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يعني لبيان الشرائع والأحكام ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: بما يخالف أهواءهم ويضاد شهواتهم من ميثاق التكليف والعمل بالشرائع، ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ يعني: من الرسل الذين جاءتهم، ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ يعني: من الرسل، فكان فيمن كذبوا عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، وكان فيمن قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام، وإنما فعلوا ذلك نقضًا للميثاق وجراءة على الله عز وجل ومخالفة لأمره»[1].

أما الكتب التي أنزلت على بني إسرائيل فهي التوراة والزبور والإنجيل، ولقد قاموا بتحريف كتبهم وزوروها وكتموها.

يقول سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثالثًا: النجاة من بطش فرعون وإهلاك عدوهم:

من نعم الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل أن أنجاهم مع سيدنا موسى عليه السلام من بطش فرعون وجنوده، ففرق الله بهم البحر فنجاهم وأغرق الله فرعون وجنوده.

يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩-٥٠].

والمتأمل في هاتين الآيتين يجد الوصف الرباني لبلاء بني إسرائيل من رب العالمين، حيث وصفه سبحانه بأنه بلاء عظيم، عظيم لما فيه من زيادة في العذاب، وليس أي عذاب، بل سوء العذاب، وهذا البلاء عظيم لما فيه من قتل وذبح للأبناء فلذات الأكباد، وحتى أمر استحياء النساء فيه بلاء عظيم أيضًا، لما تتكبده المرأة في حياتها من كدر وهم لفقدها لابنها بالقتل والذبح.

وبعد أن وصف الله هذا البلاء بأنه عظيم بين سبحانه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، حين أنعم الله عليهم بمعجزة لم

(١) لباب التأويل ٢/ ٧٦.

تحدث إلا مرة واحدة في التاريخ، حيث فرق الله البحر وجعله فرقين كل فرق كالطود العظيم، وليس هذا فحسب بل أنعم الله عليهم بالنجاة، وبالسير بين الفرقين دون فرعون وقومه الذين طبق عليهم البحر فأغرقهم سبحانه وتعالى، كل ذلك وأنتم يا بني إسرائيل تشاهدون بأم أعينكم ما يحدث من نعم ومعجزات، ومع كل ذلك قابل كثير من بني إسرائيل هذه النعم بالجحود، فعبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري، وخالفوا أمر ربهم ونبيه موسى عليه السلام.

رابعًا: تفجير ينابيع المياه لهم، وإنزال المن والسلوى عليهم:

من النعم التي خص الله بها بني إسرائيل أن فجر لهم من الحجر ماءً نقيًا؛ ليشربوا منه من بعد الظمأ، وأن الله أنزل عليهم المن والسلوى بعد أن نجاهم من فرعون وجنوده.

يقول سبحانه: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

ويقول سبحانه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

ونلاحظ من الآيات التي يذكر الله فيها بني إسرائيل بالنعم التي أنعمها عليهم أنه سبحانه يحذرهم من الفساد أو الطغيان، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ فالنعم من الله تستوجب الحمد والشكر، ونعم الله على بني إسرائيل كانت لمساعدتهم على تحكيم شرع الله في أنفسهم وفي الأرض، ولإقامة الحجة عليهم بأن وفر لهم كل السبل التي تعينهم على ذلك.

رغم كل هذه النعم الواضحة البينة التي أنعم الله بها على بني إسرائيل وخصهم بها دون العالمين قابل كثير من بني إسرائيل تلك النعم بالجحود والإنكار والجدال والاستكبار، وانحرف كثير منهم انحرافات مقيتة في العقائد والسلوك والأخلاق.

[انظر: بنو إسرائيل: من نعم الله على بني إسرائيل]

انحرافات اليهود

بين الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الانحرافات والضلالات التي اتصف بها اليهود، سواءً كانوا من نسل بني إسرائيل أو ممن تهود معهم، كما أن هناك آيات أخرى تحدثت مباشرة عن انحرافات اليهود الذين عاصروا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

أولًا: انحرافات في العقيدة:

١. قولهم: إن الله فقير.

لم يكتف اليهود بالتجرؤ على أنبيائهم فحسب، بل بلغ الكبر والغرور فيهم أن قالوا في حق الله ما لا يليق به سبحانه وتعالى، ونعتوه بالفقر، سبحانه وتعالى عما يقولون، فهو الغني الكريم الجواد جل في علاه، ولقد أخبر الله سبحانه في كتابه عن سماعه لما افتراه اليهود بقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ذكر البيضاوي في تفسيره لهذه الآية: (قالته اليهود لما سمعوا ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[البقرة: ٢٤٥].

وروي «أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضًا حسنًا، فقال فنحاص بن عازوراء: إن الله فقير حتى سأل القرض. فلطمه أبو بكر رضي الله عنه على وجهه، وقال: لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك. فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله، فنزلت»[(١)(٢)].

٢. قولهم: يد الله مغلولة.

أي جرأة تجرأ بها هؤلاء؟! وأي وقاحة وصلوا إليها بتجرئهم على الله سبحانه وتعالى، وبأبشع الأوصاف وأقبحها؟! كل هذا من أجل المال والنفقة، لقد تسرب حب المال في عروقهم، وتشبعت نفوسهم بالبخل والشح، فأخذوا يلقون التهم على الله سبحانه وتعالى الكريم المنان.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

ذكر الإمام الطبري في تفسيره عن معنى الآية فقال: «عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٩٤.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٣١٧.

﴿أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، قالا: ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكنهم يقولون: إنه بخيل أمسك ما عنده، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا»[1].

يقول سيد قطب «وقد بلغ من غلظ حسهم وجلافة قلوبهم ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر، فاختاروا لفظًا أشد وقاحةً وتهجمًا وكفرًا، فقالوا: يد الله مغلولة! ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وكذلك كانوا، فهم أبخل خلق الله بمال»[2]. كما جاء الرد على بهتانهم وكفرهم سريعًا بقوله سبحانه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، فالله سبحانه وتعالى هو الكريم الجواد المنعم الوهاب، ينفق ما يشاء لمن يشاء وكيف يشاء.

كما بين الله سبحانه وتعالى أنه كلما أنزل على رسوله شيئًا من القرآن ازداد هؤلاء المفترون من اليهود طغيانًا وكفرًا، كما عاقبهم الله سبحانه بأن ألقى العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة.

كما تعهد الله تعالى بأنه سيطفئ كل نار للحرب أراد اليهود أن يوقدوها، وختم سبحانه الآية بأن بين طبيعة هؤلاء اليهود التي لا ينفكون عنها، وهي: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ فلذلك الله لا يحبهم؛ لأن الله لا يحب المفسدين.

٣. قولهم: عزير ابن الله.

استحق اليهود القتال من الله، وذلك بافترائهم على الله عز وجل الذي لم يلد ولم يولد، فافتروا عليه بأن عزيرًا ابن الله، وعزير هو حبر من أحبار بني إسرائيل أوتي حفظ التوراة وعلمها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

ذكر الطبري في تفسيره عن سبب نزول الآية: «واختلف أهل التأويل في القائل: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، فقال بعضهم: كان ذلك رجلا واحدًا، هو فنحاص، ذكر من قال ذلك: حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج قال: سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، قال: قالها رجل واحد، قالوا: إن اسمه فنحاص، وقالوا: هو الذي قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. وقال آخرون: بل كان ذلك قول جماعة منهم، ذكر من قال ذلك: حدثنا أبو

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٥٢.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٢٩.

كريب قال: حدثنا يونس بن بكير قال: حدثنا محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال، حدثني سعيد بن جبير، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشأس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله؟! فأنزل في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، إلى ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾»[1].

وهناك قول ثالث ذكره الرازي في تفسيره حيث قال: «والقول الثالث: لعل هذا المذهب كان فاشيًا فيهم ثم انقطع، فحكى الله ذلك عنهم، ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك، فإن حكاية الله عنهم أصدق»[2].

٤. إيمانهم بالجبت والطاغوت.

وهذا كفر بواح، ونفاق كبير، آمنوا بعبادة الأوثان والشيطان من دون الله، وفضلوا المشركين الكافرين على المؤمنين، وهم يعلمون علم اليقين بما آتاهم الله من الكتاب من هم الذين أهدى سبيلًا وطريقًا إلى الله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١-٥٢].

وعن سبب نزول هذه الآية يذكر الطبري في تفسيره: «عن قتادة قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الآية، قال: ذكر لنا أن هذه الآية أنزلت في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ورجلين من اليهود من بني النضير لقيا قريشًا بموسم[3]، فقال لهم المشركون: أنحن أهدى أم محمد وأصحابه فإنا أهل السدانة والسقاية، وأهل الحرم؟ فقالا: لا، بل أنتم أهدى من محمد وأصحابه! وهما يعلمان أنهما كاذبان، إنما حملهما على ذلك حسد محمد وأصحابه»[4].

فهكذا هم اليهود، من شدة كرههم وحقدهم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه آمن اليهود بالجبت والطاغوت وأقروا المشركين على شركهم نكايةً واستكبارًا، فاستحقوا بذلك لعنة الله عليهم وغضبه.

٥. عداوتهم لجبريل عليه السلام.

من فرط الحقد الذي يكنه اليهود للرسول صلى الله عليه وسلم والعداوة التي عادوها

(١) جامع البيان ١٤/ ٢٠١- ٢٠٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٢٧-٢٨.
(٣) الموسم: مجتمع الناس، في سوق أو في حج أو غيرهما.
(٤) جامع البيان ٨/ ٢٧٠.

له عليه الصلاة والسلام أن عادوا جبريل عليه السلام أيضًا الذي بدوره أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بإذن ربه.

يقول الله تعالى في حق اليهود: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨].

وهذه الآيات تخص اليهود، فلقد ذكر الطبري في تفسيره: «أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم»[(١)]، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لذا فمن كان من اليهود أو غير اليهود عدوًا لله أو أحد من ملائكته أو رسله فإن الله عدوٌّ له.

٦. إنكارهم لإنزال الكتب والكفر بها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وهذا تناقض عجيب من اليهود، إذ يقولون أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم من التوراة، ومع أن التوراة تأمرهم بأن يؤمنوا بما سيأتي من بعدهم من الكتب السماوية، إلا أنهم يخالفون هذا الأمر ويكفرون بتلك الكتب، ذكر الطبري معقبًا على الآية: «وإنما قال جل ثناؤه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ لأن كتب الله يصدق بعضها بعضًا، ففي الإنجيل والقرآن من الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به وبما جاء به مثل الذي من ذلك في توراة موسى عليه السلام»[(٢)].

ولقد جاء الاستفهام الاستنكاري من الله عز وجل، ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تدعون الإيمان وتدعون أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم من التوراة ومع ذلك تقومون بقتل أنبياء الله الذين أرسلوا إليكم مصدقين لما جاءكم في التوراة وعاملين بتعاليمها!

ثانيًا: انحرافات في الأخلاق والسلوك:

النوع الثاني من الانحرافات بعد تلك الانحرافات العقائدية هي الانحرافات الأخلاقية والسلوكية:

انحرافات اليهود الأخلاقية والسلوكية:

١. حسدهم للمسلمين.

النعمة التي تمنى اليهود زوالها من عند المسلمين هي نعمة الإسلام والهداية، فأكثر اليهود يعلمون علم اليقين أن هذا الدين دين

(١) جامع البيان ٢/ ٣٧٧.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٥٠.

حق، وأن هذا الرسول محمدًا صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين، ولكنهم لم يتوقعوا أن يكون من غير ملتهم أو طائفتهم.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وعن سبب نزول هذه الآية يذكر الإمام الطبري في تفسيره: «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسدًا، إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾»[1].

٢. حرصهم على إضلال المؤمنين.

لقد حرصت طائفة من أهل الكتاب على أن يردوا المسلمين عن دينهم وأن يخرجوهم عن ملة الإسلام، حتى لو كان هذا الخروج فيه شرك بالله، ولا زالت هذه الأمنية باقية إلى عصرنا هذا، فمكايد اليهود ومن دخل بدائرتهم من النصارى ترمي إلى إبعاد المسلمين عن دينهم، وإضلالهم، سواءً بالحملات التنصيرية أو بالإعلام الهابط الذي يبث سمومه وأفكاره الهدامة للفرد والمجتمع.

قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

ولقد أبدع سيد قطب في تعليقه على هذه الآية بقوله: «وهذه الرغبة القائمة على الهوى والحقد والشر ضلال لا شك فيه، فما تنبعث مثل هذه الرغبة الشريرة الآثمة عن خير ولا عن هدى، فهم يوقعون أنفسهم في الضلالة في اللحظة التي يودون فيها إضلال المسلمين، فمن يحب إضلال المهتدين إلا ضال يهيم في الضلال البهيم»[2].

٣. كتمانهم لما أنزل الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

توعد الله سبحانه وتعالى العلماء الذين يكتمون ما أنزل الله، ومع أن الآية نزلت في علماء اليهود والنصارى إلا أنها وبمفهومها الشامل تشمل كل عالم «ولو كان مسلمًا» يكتم ما وهبه الله من علم بكتابه.

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٩٩.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤١٤.

﴿اللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وإن من أعظم ما أخفاه وكتمه علماء اليهود والنصارى في كتبهم أمر التبشير برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا فعلٌ شنيع استوجب لعنة الله عليهم ولعنة اللاعنين.

يقول الإمام الطبري: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾، علماء اليهود وأحبارها وعلماء النصارى، لكتمانهم الناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم وتركهم اتباعه وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل»[1].

٤. أخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

في هاتين الآيتين الكريمتين عقابان للذين هادوا، أحدهما في الحياة الدنيا والآخر في الحياة الآخرة، ففي الدنيا شمل العقاب كل الذين هادوا بتحريم طيبات من الطعام كان لهم حلالًا، وفي الآخرة سيكون العقاب للكافرين من الذين هادوا بأن أعد الله لهم عذابًا أليمًا، وما هذان العقابان إلا لما اقترفوه من آثام وذنوب، فقد ظلموا أنفسهم بنقضهم للعهود والمواثيق مع الله، وظلموا أنبياءهم بالتكذيب والعصيان، كما صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله كثيرًا، واستحلوا الربا وهو عليهم محرم، وأكلوا أموال الناس، وتعبير الأكل دليل النهم والطمع المتأصل فيهم، فلقد استباحوا أموال الناس وممتلكاتهم بالباطل والعدوان.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٢-٦٣].

فكثير من أهل الكتاب وليس قليلهم يفعلون ذلك، وهم يسارعون ويتسابقون في الإثم والعدوان وأكل كل مال حرام، سواء بالسرقة أو الرشوة أو الربا، يقول الدكتور محمد سيد طنطاوي «والمعنى: إن هؤلاء اليهود دأبهم المسارعة إلى اقتراف الآثام وإلى أكل المال الحرام، فهلا ينهاهم علماؤهم عن هذه الأقوال الكاذبة الباطلة، وعن تلك المآكل الخبيثة التي أكلوها عن طريق السحت»[2].

ولقد طال التوبيخ من الله علماء النصارى واليهود؛ لامتناعهم عن الأمر بالمعروف

(١) جامع البيان ٣/ ٢٤٩.

(٢) التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي ٤/ ٢١٢.

والنهي عن المنكر، وعلمهم بأن ما يفعله هؤلاء لا يرضي الله سبحانه وتعالى.

والربا وأكل أموال الناس عقيدة راسخة عند اليهود بالذات، فلقد جاءت تعاليم التلمود بذلك، بالنص الآتي: «غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا»[(١)].

وأمر تعامل اليهود بالربا امتد إلى عصرنا الحاضر، متمثلًا بالبنوك الربوية التي يسيطر عليها اليهود في العالم، ويتحكمون من خلالها بالاقتصاد العالمي.

٥. حرصهم على الحياة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].

ذكر ابن الجوزي في تفسيره عن هذه الآيات: (قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ كانت اليهود تزعم أن الله تعالى لم يخلق الجنة إلا لإسرائيل وولده، فنزلت هذه الآية، ومن الدليل على علمهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم صادق أنهم ما تمنوا الموت، وأكبر الدليل على صدقه أنه أخبر أنهم لا يتمنونه بقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ فما تمناه أحد منهم، والذي قدمته أيديهم: قتل الأنبياء وتكذيبهم، وتبديل التوراة)[(٢)].

ومع أن المشركين لا يؤمنون بالآخرة، ويعتبرون حياتهم الدنيا هي الحياة، ولا حياة بعدها، ومع ذلك تجد هؤلاء اليهود هم أشد حرصًا منهم، بل هم أشد الناس حرصًا على حياة، وأي حياة تلك؟ لا يهم، المهم أنها حياة، بغض النظر عن كيفيتها أو صعوبتها، المهم أنها حياة، وهذا الحرص يفاجئك للوهلة الأولى، وخصوصًا أنهم يؤمنون بأن هنالك حياة أخرى، ولكن تلك المفاجأة تزول عند التأمل بما اقترفه هؤلاء من قتلهم للأنبياء وتكذيبهم لهم، ومن تجرئهم على الله، وغيرها من الأعمال المهينة التي ارتكبوها.

٦. جبنهم عند اللقاء في الحرب.

يقول الله سبحانه وتعالى في حق أهل الكتاب: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

ويوضح الدكتور محمد سيد طنطاوي معنى الآية بقوله: «والمعنى: إن أهل الكتاب لن يضروكم يا معشر المؤمنين إلا ضررًا يسيرًا لا يبقى أثره فيكم ما دمتم مستمسكين

(١) اليهودية، أحمد شلبي ص٢٦٩.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١١٦.

بدينكم، فإن قاتلوكم وأنتم على هذه الحال أمدكم الله بنصره، وألقي في قلوبهم الرعب فيولونكم الأدبار انهزاما منكم، ثم لا ينصرون عليكم بل تنصرون أنتم عليهم»[1].

فلقد عاش المسلمون ذلك في صراعهم مع أهل الكتاب، وخاصة ما تعلق الأمر منه بقتال اليهود، فيهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة قد ولوا الأدبار في المدينة في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك فعل يهود خيبر، وفي أيامنا هذه يتكرر الأمر عندما يكون هناك عقيدة راسخة مؤمنة بالله وبنصره في مواجهة اليهود[2].

٧. تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى.

قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوي: «والجدر» جمع جدار، وهو بناء مرتفع يحتمى به من يقاتل من خلفه، و ﴿جَمِيعًا﴾ بمعنى مجتمعين كلهم، أي أن هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين لا يقاتلونكم مجتمعين كلهم في موطن من المواطن إلا في قرى محصنة بالخنادق وغيرها، أو يقاتلونكم من وراء الجدران التي يتسترون

(١) التفسير الوسيط ٢/ ٢١٧-٢١٨.

(٢) فمع كل ما يمتلكه اليهود من معدات وتجهيزات تقنية وعسكرية لم يتمكن اليهود من الانتصار على أهل فلسطين في غزة وفي مرتين مختلفتين:
الأولى: ففي ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨م شن الاحتلال الصهيوني اليهودي حربه التي أسماها الرصاص المصبوب والتي استخدم فيها كل أنواع الأسلحة، بما فيها الأسلحة الفسفورية التي تصيب بحروق مؤلمة وقاتلة، ضد شعب أعزل وبحجة ضرب المجاهدين والقضاء عليهم، ولكن خيب الله ظنهم، وحربهم، فصمد المجاهدون الواثقون بنص الله، ومن ورائهم الشعب الصامد المتكل على الله، وأسموا هذه الحرب بحرب «الفرقان» أسوة بالغزوة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم «غزوة بدر» ١، وبعد ٢٢ يومًا من القصف والعدوان جر العدو ذيله خاسئًا منهزمًا بتوفيق من الله ثم بصمود المجاهدين الأبطال الذين أطلقوا قرابة الألف صاروخ وقذيفة ضد الأعداء، وقتلوا منهم قرابة الخمسين قتيلًا، مع الإشارة بأن الأذى الذي أصيب به الشعب الصامد كان ثقيلًا نوعًا ما، لكنه في سبيل الله يهون، فلقد سقط قرابة ١٥٠٠ شهيد، و قرابة ٥٥٠٠ مصاب، ومع هدم لعدد من البيوت والمساجد.
الثانية: فكانت في ١٤ نوفمبر ٢٠١٢ والتي أطلق عليها المجاهدون حرب «حجارة السجيل»، والتي سقط فيها قرابة ١٦٠ شهيدًا، وقرابة ١٢٠٠ مصاب خلال ثمانية أيام فقط، ولكن رد المجاهدين كان مزلزلًا، فلقد قصفت كتائب القسام لأول مرة في تاريخ الصراع مع المحتل مدينة «تل أبيب» وموقعًا صهيونيًا آخر في مدينة القدس المحتلة بصواريخ بعيدة المدى، كما قصف المجاهدون الأبطال مئات القذائف الصاروخية التي لم تتوقف منذ بدء العدوان، كما استهدفوا طائرات وبارجات حربية أيضًا.
المصدر: الموقع الإلكتروني للمركز الفلسطيني للإعلام.

بها؛ لأنهم يعجزون عن مبارزتكم، وعن مواجهتكم وجها لوجه، لفرط رهبتهم منكم، وقوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ جملة مستأنفة، كأن قائلًا قال: ولماذا لا يقاتلون المؤمنين إلا على هذه الصورة؟

فكان الجواب: بأسهم بينهم شديد، أي: عداوتهم فيما بينهم عداوة شديدة، بحيث لا يتفقون على رأي، وقوتهم يستعملونها فيما بينهم استعمالًا واسعًا، فإذا ما التقوا بكم تحولت هذه القوة إلى جبن وهلع[1].

أما أمر قتالهم في القرى المحصنة أو من وراء جدر فهو أمر واقع ومشهود في زماننا هذا، فاليهود في فلسطين قد أقاموا جدارًا عنصريًّا فاصلًا طويلًا، يبلغ طوله ٧٠٠ كيلومتر، يفصل بين الضفة الغربية وبين الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨، والحجة في بنائه هو حماية دولتهم المحتلة، وحماية مواطنيها المغتصبين من هجمات المجاهدين.

٨. يسعون في الأرض فسادًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وتعقيبًا على هذه الآية يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي عن اليهود: «ويكتشف الكون كل فترة من الزمن أن الفساد الذي فيه إنما هو بسبب هؤلاء الناس وبسبب مكائدهم، لذلك يصيبهم الحق بالكوارث كل فترة من الزمن؛ لأنهم يسعون في الأرض فسادًا، وهذا السعي في الأرض بالفساد إنما يأخذ صورًا متعددة، مرة يأخذ شكل النظريات العلمية، ومرة يأخذ شكل التطرف في الأنظمة السياسية من رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة، وكل ذلك تخريب لحياة الناس»[2].

من طباع اليهود الدنية إشعال الحروب بين الناس، فلا تهنأ لهم نفس أن يروا الناس متحابين ومتراحمين، ولا تقر لهم عين أن تكون الأرض مستقرة دون حروب وفتن، ولقد شهد التاريخ عليهم بذلك، فلقد أشعل اليهود الفتن والحروب بين الأوس والخزرج في المدينة قبل البعثة، كما أن التاريخ المعاصر يشهد عليهم أيضًا.

فهذا هتلر الزعيم الألماني في القرن الماضي يقول عنهم: «فلقد أثبتت لي الأيام أنه ما من عملٍ مخالفٍ للأخلاق وما من جريمة بحق المجتمع إلا ولليهود يد

(١) التفسير الوسيط ١٤/ ٣٠٤-٣٠٥.

(٢) تفسير الشعراوي ٦/ ٣٢٧٢.

فيها»[1].

٩. أشد الناس عداوةً للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

لكل نبي أعداء، ولكل دعوة حق أعداء، كما للذين آمنوا أعداء أيضًا، فهم على الحق، وعلى منهج الأنبياء والرسل عليهم السلام، وأعداء الذين آمنوا كثر، وأشد هؤلاء الأعداء عداءً للمؤمنين هم اليهود والذين أشركوا، فاليهود هم قتلة الأنبياء وأعداء الحق، وخاصة الحق الذي جاء مع نبي من غير بني إسرائيل، فهم له أشد عداوةً وبغضًا، ولما يمثله المؤمنون من قوة تحول دون أن يحقق هؤلاء اليهود مطامعهم التي لا تنتهي سياسيًا وجغرافيًا واقتصاديًا.

والتاريخ يشهد على مظاهر العداء التي يكنها اليهود للمسلمين، وسأذكر منها:

- إنكارهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومحاربتهم له، ومحاولتهم قتله أكثر من مرة.
- التعاون مع المنافقين في المدينة على حوك الخطط والمكائد ضد المسلمين.
- تظاهرهم بالدخول في الإسلام نفاقًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].
- نقضهم للعهود والمواثيق مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في المدينة ثلاث مرات.
- دور مدعي الإسلام اليهودي عبد الله ابن سبأ في إثارة الفتن والعداء بين المسلمين.
- محاولة تزييف التاريخ الإسلامي، ودس بعض الأساطير الإسرائيلية فيه.
- محاولة الاستيلاء على بيت المقدس في عصر الخلافة العباسية.
- المساهمة في الدعم المادي والمعنوي للصليبيين في أثناء الحروب الصليبية ضد المسلمين.
- تزويد التتار بالمعلومات والأسرار، ومساعدتهم في إسقاط الخلافة العباسية.
- تجرؤهم على الطعن في القرآن الكريم، كالوزير اليهودي في غرناطة «يوسف بن شموئيل».
- ادعاء الإسلام علنًا والكيد له بالخفاء، كيهود الدونمة الذين أسهموا في

(١) كفاحي، أودلف هتلر، المترجم: لويس الحاج ص٤١-٤٢.

سقوط الخلافة العثمانية.

- احتلال أراضي المسلمين والمسجد الأقصى المبارك.
- تشويه صورة الإسلام والمسلمين في العالم عبر وسائل الإعلام المختلفة.

١٠. قتل بعضهم بعضًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٥].

اليهود لا عهد عندهم ولا ميثاق، ولو كان ذلك مع الله سبحانه وتعالى، فهاهم اليهود في موضع جديد من نقض العهد والميثاق، ينقضون عهدهم الذي واثقوه وشهدوا عليه، بقتلهم أنفسهم، بعد أن أقروا بميثاق عدم سفك دماء بعضهم بعضًا، لكن بأسهم بينهم شديد.

يقول ابن كثير في تفسيره: «يقول -تبارك وتعالى- منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار- كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير: حلفاء الخزرج، وبنو قريظة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملًا بحكم التوراة.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه»[1].

رأينا إذًا كيف أن اليهود قد انحرفوا انحرافات كبيرة في العقائد والسلوك والأخلاق، وسنتطرق في المبحث الرابع لتلك التحريفات التي طالت كتاب الله الذي أنزل إليهم، سواء كانت تلك التحريفات

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢١٠-٢١١.

تحريفات كتابية، أو تحريفات شفوية منطوقةً باللسان.

تحريفات اليهود

لقد تمادى اليهود بالتحريف والتبديل والتزوير في كل شيء، ولم يسلم كتاب الله الذي أنزل عليهم من تحريفهم وتزويرهم، فغيروا من التوراة ما يناسب أهواءهم الفاسدة، فكان تحريفهم بطرق عدة، منها: كتمان ما لا يناسب أهواءهم، وكتابة ما يحلو لهم ونسبته إلى الله، وتقولهم على الله بهتانًا وزورًا، وتحريم ما لم يحرمه الله عليهم، ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن فريقًا منهم يقومون بتحريف كلام الله من بعد ما سمعوه وفهموه وعقلوه، ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

١. تحريف كلام الله عن مواضعه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم على وجه التسلية والإخبار عن المنافقين واليهود، اليهود الذين سبق وأن بينا ما ذكر عنهم في آية سابقة بأنهم يسارعون في الإثم والعدوان، وهاهم في هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى أنهم يسارعون في الكفر، وهكذا هم اليهود يسارعون في الأعمال القبيحة بخلاف المؤمنين الذين يسارعون في الخيرات دائمًا، ومن أعمال الكفر التي سارع بها اليهود تحريفهم للتوراة وتبديلهم لبعض الكلمات حتى يوافق النص هواهم.

ويقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٢ - ١٣].

أخذ الله العهد والميثاق من بني إسرائيل لئن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمنوا برسل الله ونصروهم وأنفقوا في سبيل الله ليجزينهم الله بذلك جنات تجري من تحتها الأنهار بعد أن يكفر الله عنهم ذنوبهم، ولكن كثيرًا من بني إسرائيل نقض العهد والميثاق مع الله، فحرفوا كتاب الله التوراة، وبدلوا بعض كلماته، تزويرًا وبهتانًا، ونسوا أو تناسوا جزءًا من عهد الله معهم، فلم يؤمن اليهود سواء الذين عاصروا البعثة أو من جاء بعدهم برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعنى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: فيقدمون ويؤخرون ويحذفون بعض الكلام، ويؤولون معانيه لتوافق أهواءهم، ومن ذلك تأويلهم الآيات الدالة على نبوة كل من عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم في التوراة.

٢. كتابة كتب من عند أنفسهم ثم نسبتها إلى الله.

من تحريفهم لكتاب الله أن يكتبوا كتبًا من عند أنفسهم تتناسب مع أهوائهم، ويجنون من ورائها أثمانًا وأموالًا، والأخطر من ذلك كله هو نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى، فيقولون للناس: هو من عند الله.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا

﴿كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

ذكر الله الويل ثلاث مرات في هذه الآية، والويل: واد في جهنم[١]، أو العذاب والهلاك كما في لغة العرب.

فلقد توعد الله علماء ورؤساء اليهود الذين يكتبون التوراة بأيديهم ويدعون بعد ذلك أنها من عند الله وما هي من عند الله، ويقولون على الله الكذب، قال الخازن: «والمراد بالذين يكتبون الكتاب «اليهود»، وذلك أن رؤساء اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، فاحتالوا في تعويق سفلتهم عن الإيمان به، فعمدوا إلى صفته في التوراة فغيروها، وكانت صفته فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة، فغيروا وكتبوا مكانه طوال أزرق العينين سبط الشعر، فكانوا إذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرءوا عليهم ما كتبوا ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[٢].

وكان اليهود يبيعون هذا الكلام الذي كتبوه بأيديهم لغيرهم، وخاصة للمشركين من العرب، فلقد ذكر الطبري في تفسيره: «كان ناس من اليهود كتبوا كتابًا من عندهم، يبيعون من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله؛ ليأخذوا به ثمنًا قليلًا»[٣].

٣. قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا.

من الغرور الذي وصل إليه اليهود أن تمنوا على الله الأماني، وجعلوا تلك الأماني حقائق لا بد أن تقع، فكان من أمنياتهم ما ذكره الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

تحدى الله كلًّا من اليهود والنصارى بأن يأتوا بحججهم وإثباتاتهم التي تثبت كلامهم هذا، حيث ادعى اليهود بأنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا، وادعى النصارى أيضًا أنه لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا، وما كان هذا إلا أماني وأوهامًا يعيشونها، فلا برهان لديهم ولا دليل، فالله سبحانه وتعالى قد وعد كل من أسلم وجهه لله وأذعن وانصاع لأمر الله بأن له الأجر والثواب من الله، فالجنة لا يستحقها الناس بانتماءاتهم فقط، فالتسليم لله والإحسان والعمل الصالح هي سبيل الجنة، بعد رحمة رب العالمين.

٤. قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

(١) روح المعاني، الألوسي ١/ ٣٥٩.
(٢) لباب التأويل ١/ ٧٧.
(٣) جامع البيان ٢/ ٢٧٠.

﴿بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وهذا من غرور اليهود والنصارى أيضًا، فبعد أن بينا ادعاء كل منهما بأنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا أو نصرانيًّا هاهم يدعون أيضًا بأنهم أبناء الله وأحباؤه.

يقول ابن عادل في تفسيره: «واعلم أن اليهود والنصارى لا يقولون ذلك، فلهذا ذكر المفسرون وجوهًا:

أحدها: أن هذا من باب حذف المضاف، أي: نحن أبناء رسل الله، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

الثاني: أن لفظ الابن كما يطلق على ابن الصلب قد يطلق أيضًا على من يتخذ أبناء، بمعنى تخصيصه بمزيد الشفقة والمحبة، فالقوم لما ادعوا عناية الله بهم ادعوا «أنهم أبناء لله».

الثالث: أن اليهود زعموا أن العزير (ابن الله)، والنصارى زعموا أن المسيح ابن الله، ثم زعموا أن العزير والمسيح كانا منهم كأنهم، قالوا: نحن أبناء الله. ألا ترى أن أقارب الملك إذا فاخروا أحدًا يقولون: نحن ملوك الدنيا. والمراد كونهم مختصين بالشخص الذي هو الملك، فكذا ها هنا.

الرابع: قال ابن عباسٍ: إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا جماعةً من اليهود إلى دين الإسلام، وخوفهم بعقاب الله تعالى، فقالوا: كيف تخوفنا بعقاب الله ونحن أبناء الله وأحباؤه؟! فهذه الرواية[1] إنما وقعت عن تلك الطائفة.

وأما النصارى فإنهم يتلون في الإنجيل أن المسيح قال لهم: أذهب إلى أبي وأبيكم. وقيل: أرادوا أن الله تعالى كالأب لنا في الحنو والعطف، ونحن كالأبناء له في القرب والمنزلة»[2].

وجاء الرد على ذلك الادعاء بأن يسألهم النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾؟، سواءً العذاب الذي ذاقه آباؤكم من قبل في الدنيا، أو الذي تذوقونه أنتم من نفيٍ وقتلٍ وأسرٍ، أو الذي سينالكم يوم القيامة، كما أنكم بشرٌ كباقي البشر، والله وحده بيده الأمر يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء.

---

(١) عن ابن عباس قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمان بن أضاء وبحري بن عمرو وشأس بن عدي، فكلموه، فكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد!! نحن والله أبناء الله وأحباؤه!!، كقول النصارى، فأنزل الله جل وعز فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، إلى آخر الآية.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٥١.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٢٦٢-٢٦٣.

٥. قولهم: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة.

ظن اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، فأصابهم الغرور والكبر، فتوهموا بأنهم لن يدخلوا النار إلا أيامًا معدودة وسيحاسبون فيها حسابًا يسيرًا، فغرهم هذا الوهم إلى أن يكتبوا الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: إنه من عند الله كما غر الوهم فريقًا منهم حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم فأعرضوا عنه وتولوا.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى ادعاءهم هذا بأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة أو معدودات في موضعين مختلفين، ففي سورة البقرة آية رقم ٨٠ وفي سورة آل عمران آية رقم ٢٤.

واللافت للنظر أنه قد سبق كل آية من الآيتين السابقتين آية توضح إثمًا كبيرًا وفعلًا شنيعًا اقترفوه، فجاء التبرير لهذا الإثم والفعل بقولهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة أو معدودات.

ففي سورة البقرة قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٩-٨٠].

ذكر الواحدي في أسباب النزول: «عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، واليهود تقول: إنما هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يومًا واحدًا في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾»[1].

وفي سورة آل عمران قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤].

يبين الله سبحانه وتعالى موقف فريق من الذين أوتوا حظًّا وجزءًا من التوراة حين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولوا ويعرضوا عن ذلك، ولقد بين الإمام الطبري موقفهم حيث قال: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ بأن هؤلاء الذين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم بالحق فيما نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أبوا الإجابة إلى حكم التوراة وما فيها من الحق من أجل قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وهي أربعون يومًا،

(١) أسباب نزول القرآن، الواحدي ص٣٠.

وهن الأيام التي عبدوا فيها العجل، ثم يخرجنا منها ربنا، اغترارًا منهم، ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل في ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله قد وعد أباهم يعقوب أن لا يدخل أحدًا من ولده النار إلا تحلة القسم، فأكذبهم الله على ذلك كله من أقوالهم، وأخبر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنهم هم أهل النار، هم فيها خالدون، دون المؤمنين بالله ورسله وما جاءوا به من عنده»[1].

٦. البهتان العظيم على مريم.

لقد كذبوا وافتروا وظلموا بقولهم على مريم زورًا، فلقد اتهموها بالزنا لولادتها لعيسى عليه السلام من غير أب، وما أسهل أن يلقوا بالتهم بهتانًا وإفكًا! حتى لو كان الأمر يتعلق بشرفاء القوم وأطهرهم، فهم لا يتورعون عن فعل ذلك، بسبب الكفر الذي تشربته نفوسهم.

قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

يذكر السمرقندي في بحر العلوم: «وذلك أن مريم كانت متعبدة لله تعالى، ناسكة، اصطفاها الله تعالى بولد بغير أب فعيرها اليهود واتهموها، وقذفوها بيوسف بن ماثان، وكان يوسف خادم بيت المقدس، ويقال: كان ابن عمها. فأنزل الله تعالى إكذابًا لقولهم وبين بهتانهم، فقال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ يعني: لعنهم الله وخذلهم بذلك»[2].

ولقد برأ الله سبحانه وتعالى مريم عليها السلام بقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

كما وصفها الله سبحانه بأحسن الأوصاف، حيث صدقت وآمنت بكتب الله التوراة والإنجيل، وكانت من القانتات الطائعات العابدات، وأحصنت فرجها، وهي شهادة لها من رب العالمين.

٧. قولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم.

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

تأتي هذه الآية في سياق من الآيات في سورة النساء، من آية ١٥٣ والتي مطلعها قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، حيث طلب اليهود من الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل

(١) جامع البيان ٦/ ٢٩٢.

(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٤٠٢.

عليهم كتابًا من السماء، فواسى الله رسوله بذكره سبحانه لما فعله أجداد هؤلاء من بني إسرائيل من أفعال شنيعة، حيث طلبوا من موسى عليه السلام أكبر من ذلك، فقد طلبوا منه أن يريهم الله جهرة، كما عبدوا العجل من بعده، ورفع الله الطور فوقهم ونقضوا الميثاق، ولم يدخلوا الباب سجدًا، واعتدى فريق منهم يوم السبت الذي حرم عليهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه بغير حق، وقالوا قلوبنا غلف، وقالوا السوء على مريم عليها السلام.

ثم يأتي بعد ذلك تفاصيل هذه الآية، حين قالوا: إنا قتلنا رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام، كل هذه الأفعال والأقوال القبيحة المكفرة ذكرها الله؛ ليبين سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمة الإسلام من بعده حقيقة هؤلاء القوم.

ثم يبين سبحانه حقيقة القتل الذي تفاخروا به بأنه لم يكن عيسى ابن مريم عليه السلام هو المقتول والمصلوب، ولكن شبه لهم بشخص آخر هو الذي قتل وصلب مكانه.

وتفاصيل هذه القصة يذكرها ابن عطية في تفسيره بقوله: «واختلفت الرواة في هذه القصة وكيفيتها اختلافًا شديدًا، أنا أختصر عيونه، إذ ليس في جميعه شيء يقطع بصحته؛ لأنه لم يثبت عن النبي عليه السلام فيه شيء، وليس لنا متعلق في ترجيح شيء منه إلا ألفاظ كتاب الله، فالذي لا نشك فيه أن عيسى عليه السلام كان يسيح في الأرض ويدعو إلى الله، وكانت بنو إسرائيل تطلبه، وملكهم في ذلك الزمان يجعل عليه الجعائل، وكان عيسى قد انضوى إليه الحواريون يسيرون معه حيث سار، فلما كان في بعض الأوقات شعر بأمر عيسى، فروي أن أحد الحواريين رشي عليه فقبل الرشوة ودل على مكانه.

فلما أحس عيسى وأصحابه بتلاحق الطالبين بهم دخلوا بيتًا بمرأى من بني إسرائيل، فروي أنهم عدوهم ثلاثة عشر، وروي ثمانية عشر، وحصروا ليلًا، فروي أن عيسى فرق الحواريين عن نفسه تلك الليلة ووجههم إلى الآفاق، وبقي هو ورجل معه ،فرفع عيسى وألقي شبهه على الرجل فصلب ذلك الرجل، وروي أن الشبه ألقي على اليهودي الذي دل عليه فصلب.

وروي أن عيسى عليه السلام لما أحيط بهم قال لأصحابه: أيكم يلقى شبهي عليه فيقتل ويخلص هؤلاء وهو رفيقي في الجنة؟ فقال سرجس: أنا. وألقي عليه شبه عيسى، ويروى أن شبه عيسى عليه السلام ألقي على الجماعة كلها، فلما أخرجهم بنو إسرائيل نقص واحد من العدة، فأخذوا واحدًا ممن ألقي عليه الشبه حسب هذه الروايات التي ذكرتها، فصلب ذلك الشخص»[1].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٣٤.

اليهود والعقوبات الإلهية

ابتلى الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بالنعم والحسنات تارةً، وبالبلاء والسيئات تارةً أخرى، لعلهم يرجعون إلى الله ويتوبون إليه، ولعلهم يتبعون الطريق القويم طريق الهدى والنور، ولقد فرقهم الله في الأرض وشتتهم، فكان منهم الصالحون، وهم قليل، وكان أكثرهم فاسقين.

يقول سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

ولقد عاقبهم الله سبحانه على انحرافاتهم، ومن تلك العقوبات:

أولًا: عقوبات دنيوية حلت بهم:

١. أمرهم بقتل بعضهم بعضًا.

الشرك بالله هو أعظم الظلم، ولقد ارتكب كثيرٌ من بني إسرائيل أعظم الظلم عندما عبدوا العجل من دون الله، وهذا الظلم العظيم جاء عوضًا عن الشكر الواجب عليهم، وخاصةً بعد أن شاهدوا بأعينهم كيف فرق الله البحر فأنجاهم وأغرق فرعون وجنوده، لذا كان العقاب عظيمًا ويتناسب مع عظم الظلم الذي ارتكبوه، ومع شدة هذا العقاب صاحبه توبة من عند الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وعن اقتران التوبة بالعقاب وشدة هذا العقاب، يقول السيوطي: «أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: قالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضًا. فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه حتى قتل منهم سبعون ألفًا، فأوحى الله إلى موسى: مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل وتيب على من بقي»[(١)].

هكذا كان عقابهم من الله، ولأن الله تعالى هو التواب الغفار فلقد تاب الله على من بقي منهم على قيد الحياة وغفر لمن قتل في هذا العقاب.

٢. ضرب الذلة والمسكنة عليهم.

أراد الله لهم العزة وأبوا إلا الذلة والهوان، أراد الله لهم العزة بأن نجاهم من استعباد فرعون وقومه، كما أراد الله لهم العزة بأن يدخلوا الأرض المقدسة، وأراد الله لهم العزة بأن فجر لهم من الحجر ماءً، وأنزل لهم المن والسلوى من غير تعب وزرع، فأبى بنو إسرائيل إلا الذلة والهوان والفاقة، بأن استبدلوا الذي هو أدنى من الطعام بالذي هو خير، وذلك عندما تذمروا

(١) الدر المنثور، السيوطي ١/ ١٦٩.

من أكل طعام واحد، وطلبوا البقل والقثاء والثوم والعدس والبصل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

أما عن الذلة والهوان والمسكنة التي أصابت بني إسرائيل فيعقب الدكتور محمد سيد طنطاوي بقوله: «إنَّ الذلة هوان تجيء أسبابه من الخارج، كأن يغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو، أما المسكنة فهي هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق، واستيلاء المطامع والشهوات عليها، وتوارث الذلة قرونًا طويلة يورث هذه المسكنة، ويجعلها كالطبيعة الثابتة في الشخص المستذل، ولقد عاش اليهود قرونًا وأحقابًا مستعبدين لمختلف الأمم، فأكسبهم هذا الاستعباد ضعفًا نفسيًا جعلهم لا يفرقون بين الحياة الذليلة والكريمة، بل إنهم ليفضلون الأولى على الثانية ما دامت تجلب لهم غرضًا من أغراض الدنيا، ومهما كثر المال في أيديهم فإنهم لا يتحولون عن فقرهم النفسي وظهورهم أمام الناس بمظهر البائس الفقير»[1].

والآية الثانية في القرآن الكريم التي ذكر فيها لفظا ﴿الذِّلَّةُ﴾ و﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ هي قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

فاليهود على مر التاريخ وفي كل بقعة من بقاع الأرض هم قوم أذلاء مهانين من قبل الناس لسوء طبعهم وخلقهم، وهذا ما كتبه الله عليهم، إلا في حالتين، استثنى الله الذل عنهم بقوله ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾، أي: بعهد من الله وعهد من الناس، فإرادة الله وحكمته قد تقتضي أن يعيش اليهود في فترة من الفترات الزمنية أو في بقعة من البقاع بغير الذل والهوان الذي كتب عليهم، كما أن من طبيعة اليهود أنهم يسعون دائمًا إلى أخذ العهد والأمان والنصرة من الناس، ومثال على ذلك ما حدث في القرن الماضي، حيث سعى اليهود إلى توقيع اتفاقيات ووعود مع الدول العظمى في ذلك

(١) التفسير الوسيط ١/ ١٥٣.

الوقت كي تساعدهم على إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، فلقد وقع اليهود الاتفاقية الشهيرة المشئومة المسماة بوعد بلفور بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩١٧م، حيث أبرم وزير الخارجية البريطاني في ذلك الوقت (آرثر بلفور) اتفاقية مع اليهود تنص على منح اليهود وطنًا قوميًّا في فلسطين.

وهذا هو الحبل والعهد مع الناس الذي يسعى اليهود لتحقيقه، وبالإضافة إلى الذل الذي كتب عليهم فلقد باءوا بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة أيضًا، كل ذلك كان بسبب الأفعال الشنيعة التي ارتكبوها، من كفر بآيات الله، وقتل للأنبياء بغير حق.

٣. جعلهم قردة وخنازير.

هذا جزاء الكبر والغرور والتمرد على رسل الله، أرادوا الاستعلاء فأخزاهم الله، ومسخهم على هيئة حيوانات دنيئة، فلقد ذكر أمر جعلهم قردة ثلاث مرات في القرآن الكريم، وفي مرة واحدة من هذه المرات الثلاث ذكر أمر جعلهم خنازير أيضًا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وعن معنى خاسئين يقول السمرقندي: «يعني مبعدين من رحمة الله، وأصله في اللغة من البعد، يقال: خسأ الكلب إذا بعد، ويقال: «خاسئين» أي: صاغرين ذليلين»[(١)].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

لما أبوا وعصوا أمر الله حق عليهم العذاب، يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: «لأن «العتو» كبرياء وإباء، فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأخس الحيوانات فصيرهم أشباه القرود، كل منهم مفضوح السوءة، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

ذكر الخازن في تفسيره: «وقيل: إن مسخ القردة كان من أصحاب السبت من اليهود، ومسخ الخنازير كان في الذين كفروا بعد نزول المائدة في زمن عيسى عليه السلام، ولما نزلت هذه الآية عير المسلمون اليهود وقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير. وافتضحوا بذلك»[(٣)].

وهذا عقاب دنيوي استحقه كفار بني إسرائيل، فهم شُّ مكانًا يوم القيامة في نار جهنم، وأضل الناس عن سواء السبيل

(١) تفسير السمرقندي ١/ ١٢٦.
(٢) تفسير الشعراوي ٨/ ٤٤١٢.
(٣) لباب التأويل ٢/ ٦٩.

والصراط المستقيم.

٤. التيه في الأرض.

معنى التيه ورد في المعجم الوسيط أن (تاه تيهًا، وتيهًا، وتيهانًا: تكبر، فهو تائهٌ وتياهٌ، وتاه في الأرض ضل وذهب متحيرًا)[١].

يوضح العلامة المصطفوي معنى التيه في الأرض بقوله: «والتيه من الأرض ما يتحير فيه، وفي القرآن ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يتحيرون، أي: يمشون متحيرين لا يدرون أين يقيمون ولا أين يتوجهون»[٢].

وعن تيه بني إسرائيل قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

بعد الرد المخزي لبني إسرائيل على طلب سيدنا موسى عليه السلام عندما طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة جاء هذا العقاب القاسي، فلقد اشترطوا على سيدنا موسى عليه السلام أنه إذا خرج منها القوم الجبارون فإنهم سيدخلونها، بل إنهم قالوا قولتهم المخزية: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، فما كان من سيدنا موسى عليه السلام إلا أن دعا ربه بقوله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، فاستجاب الله دعاءه، فحرم عليهم الأرض المقدسة أربعين عامًا، وكتب عليهم التيه في الأرض.

يقول ابن جزي الغرناطي: «وحرم الله على جميع بني إسرائيل دخول تلك المدينة أربعين سنة، وتركهم في هذه المدة يتيهون في الأرض، أي: في أرض التيه، وهو ما بين مصر والشام، حتى مات كل من قال: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا﴾ ولم يدخلها أحد من ذلك الجيل إلا يوشع وكالب، ومات هارون في التيه، ومات موسى بعده في التيه أيضًا، وقيل: إن موسى وهارون لم يكونا في التيه، لقوله: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾»[٣].

٥. بعث من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

يقول سيد قطب «فهو إذن الأبد الذي تحقق منذ صدروه، فبعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب، والذي سيظل نافذًا في عمومه، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب، وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٩٢.
(٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي ١/ ٤٣٩.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٣٢.

الأرض وبغوا جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة، الناكثة العاصية، التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية، ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف»[١].

وبالفعل تعرض بنو إسرائيل ومن خلفهم اليهود لأشد أنواع العذاب والتنكيل عبر الزمان، وسأعرض هنا بعض حالات العذاب التي تعرضوا لها:

انقض «سرجون» ملك آشور على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ق. م. فقتل الآلاف من رجالها، وأسر البقية منهم فرحلهم إلى ما وراء نهر الفرات[٢].

- ٥٨٦ ق.م. حينما حاول الحاكم اليهودي أن ينقلب على البابليين هاجمه الملك البابلي الشهير (بختنصر) وهدم أسوار ومنازل أورشليم (القدس)، وأخذ من بقي من اليهود عبيدًا إلى بابل، وكانوا قرابة أربعين ألفًا، وهو ما يعرف عندهم «بالسبي البابلي» وهدم القدس وما فيها من معابد لهم، وسلب منهم التابوت مرة أخرى، ولاقى اليهود خلال وجودهم في بابل ألوان العذاب والهوان[٣].
- في سنة ٣٢٠ ق.م. سار إليهم (بطليموس) خليفة الإسكندر، فهدم القدس، ودك أسوارها، وأرسل منهم مائة ألف أسير إلى مصر؛ لأنهم ثاروا عليه[٤].
- استطاع القائد (تيتوس) الروماني سنة ٧٠م دخول القدس فدمرها بالكامل، وأخذ اليهود عبيدًا يباعون في روما[٥].
- في فرنسا أمر لويس التاسع بإلغاء ثلث ما كان لليهود على رعاياه المسيحيين من الدين، ثم أصدر إرادة ملكية بحرق جميع كتبهم المقدسة[٦].
- وفي سنة ١٣٢١م هاج عليهم الشعب في أواسط فرنسا، وذبحوا منهم عدادًا كبيرًا[٧].
- وفي سنة ١٣٢٨ م جأر الشعب البريطاني بالشكوى من اليهود، فأصدر الملك إدوارد الأول أمرا بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية في غضون ثلاثة أشهر، إلا أن الشعب البريطاني لم يصبر على اليهود حتى تنقضي تلك المدة، بل أخذ يقتل منهم العشرات والمئات، وفي قلعة (بورك) التي

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٨٦.
(٢) التفسير الوسيط ٥/ ٤١٥-٤١٦.
(٣) اليهود الموسوعة المصورة، طارق السويدان ص٥٣.
(٤) التفسير الوسيط ٥/ ٤١٦.
(٥) اليهود الموسوعة المصورة ص٥٧.
(٦) تاريخ الإسرائيليين، شاهين مكاريوس ص٨٢.
(٧) المصدر السابق ص٨٣.

احتمى بها عدد كبير من اليهود أحرق الإنجليز أكثر من خمسمائة يهودي، وقد اضطر الملك إلى ترحيلهم قبل انقضاء المدة لئلا يفتك الشعب بهم جميعا في كل مكان[١].

- في سنة ١٤٩٢م في عهد الملك (فرديناند) وزوجته (أيزابلا) وصلت موجة السخط على اليهود أقصاها لتغلغلهم في الحياة الأسبانية، واستيلائهم على اقتصادها وإشعالهم نار الخلافات الدينية بين الطوائف، فرأى الملك وزوجته أن خير وسيلة لوقاية البلاد من شرورهم هي طردهم من أسبانيا طردًا نهائيًّا[٢].
- وفي سنة ١٥٤٠م هاجمهم باباوات الكنيسة الكاثوليكية في إيطاليا هجومًا عنيفًا، ثم ثار عليهم الشعب وطردهم، كل ذلك لأذاهم وسوء جوارهم وطباعهم[٣].
- وفي أوائل القرن التاسع عشر حاول (نابليون) أن يستغلهم لبلوغ مطامعه، ولكنهم خانوه، فاحتقرهم وبطش بعدد منهم، وقال عنهم: «إنهم حثالات البشر وجراثيمه»[٤].
- قتل اليهود بالآلاف في روسيا لغدرهم وخيانتهم، وذلك في ظل الحكم القيصري النصراني سنة ١٨٨١م وبعدها[٥].
- وكان آخر ما لاقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد «هتلر» ابتداء من توليه الحكم في ألمانيا سنة ١٩٣٣ إلى أن سقط حكمه سنة «١٩٤٥»[٦].

هذا كله جزء من سوء العذاب الذي سلطه الله عليهم، عقاب سريع لهم في الدنيا، فالله سريع العقاب، وإنه لغفور رحيم لمن تاب منهم قبل يوم القيامة.

٦. تحريم أصناف من الطعام.

كان الطعام كله حلالًا لبني إسرائيل من بعد سيدنا يعقوب عليه السلام ومن قبله أيضًا، إلا ما حرمه سيدنا يعقوب على نفسه لمرضٍ أصابه، فاجتنب لحوم الإبل وألبانها، وقد يكون الأمر بأن اقتدى بنو إسرائيل بسيدنا يعقوب بتحريم بعض الطعام، وقد لا يكون، لكن من المؤكد أن بني إسرائيل قد عوقبوا بتحريم بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

(١) التفسير الوسيط ٥/ ٤١٧.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٤١٩.
(٣) اليهود الموسوعة المصورة ص٦٢.
(٤) التفسير الوسيط ٥/ ٤١٨.
(٥) اليهود الموسوعة المصورة ص٦٣.
(٦) التفسير الوسيط ٥/ ٤٢٠.

بسبب الظلم كان التحريم، بسبب ظلمهم لأنفسهم، وظلمهم لأنبيائهم، وظلمهم لغيرهم من الناس بأكل أموال الناس بالباطل، واستباحتهم لأنفسهم بأخذ الربا وهو محرم عليهم، وبصدهم عن سبيل الله، حرم الله عليهم من الطيبات ما كان حلالًا لهم، وما كان ذلك إلا عقابًا منه سبحانه وتأديبًا لهم.

وعن هذا التحريم يقول ابن كثير: «وهذا التحريم قد يكون قدريًّا، بمعنى أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالًا لهم فحرموها على أنفسهم؛ تشديدًا منهم على أنفسهم، وتضييقًا وتنطعًا، ويحتمل أن يكون شرعيًا، بمعنى أنه تعالى حرم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالًا لهم قبل ذلك»[1].

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

ذكر الواحدي في أسباب النزول: قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ﴾ قال أبو روق والكلبي: نزلت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا على ملة إبراهيم، فقالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كان ذلك حلالًا لإبراهيم، فنحن نحله، فقالت اليهود: كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه كان محرمًا على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فأنزل الله عز وجل تكذيبًا لهم ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[2].

وهكذا بهت اليهود حين طلب منهم أن يأتوا بالتوراة حتى يبينوا مدى صدقهم، وهذا ما لم يحدث، فتبين كذبهم وافتضح أمرهم.

ومما حرمه الله من الطيبات على بني إسرائيل كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

يقول صاحب صفوة التفاسير: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ أي: وعلى اليهود خاصةً حرمنا عليهم كل ذي ظفر، قال ابن عباس: هي ذوات الظلف كالإبل والنعام، وما ليس بذي أصابع منفرجة كالبط والأوز، ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: وحرمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم، ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾ أي:

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤١٥.

(٢) أسباب نزول القرآن ص١١٨.

إلا الشحم الذي علق بالظهر منهما، ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ أي: الأمعاء والمصارين، ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ كشحم الألية، والمعنى أن الشحم الذي تعلق بالظهور أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم كشحم الألية جائز لهم[1].

وما كان ذلك الجزاء والعقاب إلا لبغيهم وظلمهم وعدوانهم، والله صادق فيما يقول، فمن أصدق من الله قولًا؟!

ثانيًا: عقوبات دنيوية تنتظرهم:

١. بعث من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة.

تم ذكر «بعث من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة» في المطلب السابق المتعلق بالعقوبات الدنيوية التي حلت بهم، وتم تكراره في هذا المطلب أيضًا؛ لأن عقوبة بعث من يسومهم سوء العذاب هي من ضمن العقوبات التي تنتظرهم حتى يوم القيامة، حيث قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

٢. دخول عباد الله المؤمنين عليهم المسجد وإهلاكهم على أيديهم.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٨].

اختلفت أقوال المفسرين قديمًا وحديثًا بشأن تحديد مرتي الإفساد والعلو في الأرض اللتين ذكرهما الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة، ولقد أخبر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل في التوراة بأنهم سيفسدون في الأرض مرتين وسيعلون فيها علوًّا كبيرًا.

والاختلاف بين المفسرين متعلق بزمني حدوث مرتي الإفساد، ففريق كبير من المفسرين ذهب إلى أن مرتي الإفساد والعلو قد وقعتا قبل الإسلام، ومن هؤلاء المفسرين: الطبري والزمخشري والبيضاوي وسيد قطب ومحمد سيد طنطاوي، واختلف هذا الفريق أيضًا بتحديد هاتين المرتين:

فالمرة الأولى: قيل: هي تلك التي قتل

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٤٢٦.

فيها بنو إسرائيل زكريا عليه السلام. وقيل: مخالفتهم للتوراة وقتلهم لشعياء. وقيل: قتلهم للناس ظلمًا وتغلبهم على أموالهم. واتفق أغلب هذا الفريق على أن الذين سلطوا عليهم هم البابليون بقيادة نبوخذ نصر.

أما المرة الثانية: فأغلب هؤلاء المفسرين ذهب إلى أن الإفساد الثاني كان بقتل بني إسرائيل ليحيى عليه السلام، وأن الذين سلطوا عليهم هم الرومان.

كما ذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن إحدى مرتي الإفساد والعلو قد حدثت قبل الإسلام، وأن المرة الثانية ستحدث بعده في المستقبل، وأنها لم تحدث إلى الآن، وأصحاب هذا الرأي هم من المعاصرين كالأستاذ بسام جرار، وخالد عبد الواحد صاحب كتاب «نهاية إسرائيل»، فقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهب إليه الفريق الأول من المفسرين بشأن مرة الإفساد الأولى، وتسليط البابليين عليهم، ولكنهم اختلفوا معهم بشأن المرة الثانية، حيث اعتقدوا بأن المرة الثانية هي ما نعيشه الآن من فساد اليهود وإنشاء دولتهم الغاصبة «إسرائيل»، وأن الله سيبعث عليهم من يسوء وجوههم ويدخل المسجد الأقصى فاتحًا ومحررًا.

كما ذهب فريق ثالث بالقول إلى أن مرتي الإفساد والعلو ستكونان بعد مجيء الإسلام، فالأولى ما كان في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم من فسادٍ لأقوام اليهود الثلاثة في المدينة المنورة، وما اتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم في حقهم من جلاء أو قتل، أما المرة الثانية فلقد اتفق أصحاب هذا الفريق مع أصحاب الفريق الثاني بما ذهبوا إليه من قول من أن الفساد الثاني لبني إسرائيل هو ما نشهده في عصرنا هذا، وأصحاب هذا الرأي هم من المعاصرين، كالشيخ محمد متولي الشعراوي، والدكتور فضل حسن عباس، والدكتور صلاح الخالدي.

وهناك رأي مختلف للدكتور عمر سليمان الأشقر، حيث يرى أن الإفسادين سيقعان مرتين متتاليتين، وهما إفسادان يصحبهما علوٌّ عظيم.

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر: «إن الجوس يعني أن العباد أولي البأس الشديد يدخلون ديار اليهود، ويتوسطون فيها، ويترددون بين مدنها وقراها، وليس معناه احتلالها وإخراج اليهود منها، وقد وقع هذا الجوس اليوم، فجاس عباد الله أصحاب البأس الشديد خلال ديار اليهود، وآذوا اليهود أذىً شديدًا، وقاموا بعمليات موجعة لليهود، وقد احتاج اليهود بعد إحداها أن يؤتى بالزعماء والرؤساء من غير اليهود كي يشدوا من أزر اليهود، لقد جاس عباد الله

أولي البأس الشديد ديار اليهود، فقتلوا من اليهود ودمروا ونسفوا وأوقعوا باليهود رعبًا عظيمًا، فأقام اليهود حول أنفسهم سورًا عظيمًا ليحموا أنفسهم من ذلك الجوس، وهذا الجدار من الكرة التي حكى الله أنه سيردها على العباد الأقوياء.

ولكن أنى للجدار أن يقي اليهود من بأس الجائسين، لقد انطلقت الصواريخ لتقوم بمتابعة الدور الذي كانوا يقومون به خلال الجوس في الديار، ومع رد الكرة لليهود يأتيهم سيل عظيم من مال الدول الصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، كما أمدهم الله بالبنين يفدون عليهم من شتى أنحاء العالم، وخاصة من الدول التي كانت تعرف بالاتحاد السوفيتي، وأهمها روسيا»[1].

ومع وجود هذا الخلاف الواضح إلا أنه ما من شك بأن زوال هذا الكيان الغاصب وانهزامه أمرٌ مسلمٌ به، وهذا ما أكده حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله. إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)[2].

واتفق أغلب المفسرين المعاصرين -رغم خلافهم في تحديد مرة الإفساد الأولى- على أن وعد الآخرة لم يتحقق بعد، والمتمثل بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾[الإسراء:٧].

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: «وفي الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا، وستكون لنا يقظة وصحوة نعود بها إلى منهج الله، وإلى طريقه المستقيم، وعندها ستكون لنا الغلبة والقوة، وستعود لنا الكرة على اليهود»[3].

وعن معنى قوله سبحانه: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾، يقول الإمام الرازي: «ويقال: ساءه يسوءه إذا أحزنه، وإنما عزا سبحانه الإساءة إلى الوجوه؛ لأن آثار الأعراض النفسية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه، فإن حصل الفرح في القلب ظهر الإشراق في الوجه، وإن حصل الحزن والخوف في القلب ظهر الكلوح

(١) وليتبروا ما علوا تتبيرا، عمر الأشقر ص١٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، ٤/ ٢٢٣٩، رقم ٢٩٢٢.

(٣) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٣٦٣.

والغبرة والسواد في الوجه»[1].

وهذا من هول المفاجأة التي ستحدث لهم، حيث تكون لهم جولة الغلبة وكرة النصر، والمدد بالأموال والبنين، والنفير الكثير، والكيد والهيمنة، وبينما هم ينعمون بهذه الحال إذ يبعث الله عليهم من يسوء وجوههم ويذلهم ويهينهم، بسبب العدوان والظلم والقتل والاعتداء على الحقوق والممتلكات والبلاد والعباد، كما تظهر علامات الخزي والذل على وجوههم بسبب رجوع المسجد الأقصى لأحضان الأمة الإسلامية وفقدانهم الهيمنة والسيطرة عليه.

ومما يؤكد أن مرة الإفساد والعلو الثانية لم تحدث بعد قوله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

ومعنى اسكنوا الأرض أي: كل الأرض، فلقد انتشر بنو إسرائيل في كل بقاع الأرض وتشتتوا بها، وهاهم الآن يجتمعون لفيفًا في أرض فلسطين، مختلطين من قبائل شتى، ويأتون من كل حدب وصوب، ومن شتى بلاد المعمورة.

ثالثًا: عقوبات أخروية:

حيث الجزاء الأوفى، والحساب النهائي، والعذاب الأبدي.

فبعد كل تلك الانحرافات وما تبعها من عقوبات دنيوية حلت بهم أو ستحل بهم تأتي العقوبات الأخروية التي لا يقدرون عليها، ولا يطيقونها، وسنذكر منها:

١. لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

يقول الشوكاني «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ قيل: المراد بهذه الآية: علماء اليهود؛ لأنهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم»[2].

ويقول الإمام الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أحبار اليهود الذين كتموا الناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، برشىً كانوا أعطوها على ذلك»[3].

فلقد كتم بعض علماء اليهود والنصارى صفات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والتي قد رأوها متحققة فيه عليه الصلاة والسلام ومنها خاتم النبوة الذي كان

(١) مفاتيح الغيب ٢٠/ ١٦٠.

(٢) فتح القدير ١/ ١٧١.

(٣) جامع البيان ٣/ ٣٢٧.

على كتفه الشريف، وقصة إسلام سلمان الفارسي تبين أن علماء اليهود والنصارى يعرفون صفات النبي الذي سيبعث، ولكن كثيرًا منهم أخفى ذلك.

فسلمان رضي الله عنه كان باحثًا عن الحقيقة، فلقد تتلمذ على أيدي عدد من أساقفة النصارى، كما أورد الإمام أحمد في مسنده قصة إسلام سلمان رضي الله عنه، والتي رواها لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما، نذكر منها قوله: (لحقت بصاحب عمورية، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت مع رجلٍ على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقراتٌ وغنيمةٌ، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلانٍ، فأوصى بي فلانٌ إلى فلانٍ، وأوصى بي فلانٌ إلى فلانٍ، ثم أوصى بي فلانٌ إليك، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال أي: بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحدٌ من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبيٍ، هو مبعوثٌ بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلى أرضٍ بين حرتين بينهما نخلٌ، به علاماتٌ لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل)[1].

ولقد توعد الله سبحانه كل من يكتم شيئًا من الكتاب من أجل مال أو غرض من الدنيا توعده سبحانه بالعذاب الأليم، ولن يكلمه الله ولن يزكيه.

وعن حكمة ذكر بطونهم بالذات يقول الثعالبي: «وفي ذكر البطن تنبيهٌ على مذمتهم؛ بأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذي لا خطر له، وعلى هجنتهم بطاعة بطونهم، قال الربيع وغيره: سمىٰ مأكولهم نارًا؛ لأنه يؤول بهم إلى النار. وقيل: يأكلون النار في جهنم حقيقةً»[2].

٢. في نار جهنم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

توعد الله سبحانه الذين كفروا من اليهود والنصارى بنار جهنم خالدين فيها؛ لأنهم شر خلق الله، بكفرهم وعنادهم واستكبارهم، وعدم اتباعهم لما أنزل عليهم من الحق، فجحدوا وكفروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكتفوا بذلك، بل عادوه ومن اتبعه، وحاربوهم وألبوا عليهم الأعداء والمشركين.

رابعًا: عقوبات في الدارين:

وهناك أنواع من العقاب تلازمهم في

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٠/ ٥٦٦١، رقم ٢٤٢٣٤.

(٢) الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ١٣١.

الدارين، أي: في الدنيا والآخرة، وهي:

٣. غضبُ الله عليهم.

قال الحسن المصطفوي: «وأما الغضب من الله العزيز فهو أيضًا شدة وحدة بمراتبها في قبال قبائح الأعمال ومظالم العباد ومساوئ الأخلاق والمعاصي، وفي الذين بدلوا نعمة الله كفرًا، وأخلوا فيما خلق وقدر»[(١)].

وهذه آيات توضح غضب الله سبحانه وتعالى على كفار بني إسرائيل، وعلى اليهود من بعدهم.

قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

تكاثرت أعمال الكفر عند اليهود وتوالت وتتابعت، فاستوجبوا بذلك غضب الله ولعنته عليهم لعنة بعد لعنة، ولأن الكبر والغرور سبب كفرهم كان العقاب من الله الذل والإهانة في العذاب.

٤. لعنة الله عليهم.

ويحقق الحسن المصطفوي معنى اللعن بقوله: «هو الإبعاد عن الخير والعطوف بعنوان السخط عليه، وهذا من الله تعالى إبعادٌ عن رحمته ولطفه، ومن الناس إبعاد عن رحمة الله تعالى بالدعاء عليه والمسألة من الله بسخطه وغضبه عليه»[(٢)].

لقد استحق اليهود لعنة الله، فلقد لعنهم الله في أكثر من موضع في القرآن الكريم، لكفرهم بالقول والعمل.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

يقولون بحق أنفسهم سوءًا، فهم لا يريدون أن يسمعوا الحقيقة التي تخالف هواهم، فكان عذرهم أن قلوبهم مغطاة مغلفة وفي أكنة، وهذا عذر أقبح من ذنب، فلقد استحقوا اللعنة لكفرهم وكبرهم وضلالهم.

يقول الإمام الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾: بل أقصاهم الله وأبعدهم وطردهم وأخزاهم وأهلكهم بكفرهم وجحودهم آيات الله وبيناته وما ابتعث به رسله، وتكذيبهم أنبياءه، فأخبر تعالى ذكره أنه أبعدهم منه ومن رحمته بما كانوا يفعلون من ذلك، وأصل اللعن: الطرد

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٧/ ٢٨٣.

(٢) المصدر السابق ١٠/ ٢٢٣.

والإبعاد والإقصاء، يقال: لعن الله فلانًا يـلعنه لعنا وهو ملعون، ثم يصرف مفعول فـيقال: هو لعينٌ»[1]، واليهود ملعونون.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وهذا فعل آخر استوجب لعنة الله عليهم، ولعنة الملائكة والمؤمنين، فلقد كتم وأخفى علماء اليهود والنصارى ما أنزله الله سبحانه وتعالى في كتابه من إخبار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الآيات البينات، ومن سبل الحق والهدى؛ فاستحقوا بذلك اللعن والطرد من رحمة الله.

٥. سخط الله عليهم.

ويحقق الحسن المصطفوي معنى السخط بقوله: «هو ما يقابل الرضا، كما أن الغضب ما يقابل الرحمة، والكراهة ما يقابل الحب.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]»[2].

وقال المصطفوي أيضًا: «يمكن أن توجد الكراهة من دون أن يتحقق الغضب أو السخط، كما أن الغضب قد يوجد من دون تحقق السخط، فالسخط يلازم الكراهة والغضب مع فقدان الرضا، أي: هو ما يقابل الرضا»[3]، ولقد سخط الله على اليهود حين جيشوا أهل مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

موضوعات ذات صلة:

أهل الكتاب، بنو إسرائيل، الإنجيل، التوراة، غزوات الرسول مع اليهود، موسى عليه السلام، النصارى

(١) جامع البيان ٢/ ٣٢٨.
(٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٥/ ٩٤.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٩٤.

يوسف عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بيوسف عليه السلام	٨٤
ذكر يوسف عليه السلام في القرآن الكريم	٨٨
صفاته وأخلاقه عليه السلام	٨٩
يوسف عليه السلام وتعبير الرؤى	٩٥
يوسف عليه السلام مع والده	١٠٢
يوسف عليه السلام وإخوته	١٠٧
يوسف عليه السلام وامرأة العزيز	١١٧
يوسف عليه السلام في السجن	١٢٩
يوسف عليه السلام في الملك	١٣٥
الدروس المستفادة من قصة يوسف	١٤٦

التعريف بيوسف عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه عليه السلام:

هو نبي الله:يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم جميعًا الصلاة والسلام، قال النووي رحمه الله: وفي يوسف ست لغاتٍ ضم السين وكسرها وفتحها مع الهمز فيهن وتركه [(١)].

وهذا نسب معلوم مشهور وقد دل عليه القرآن والسنة وكفى بهما.

أما القرآن ففي قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:٦].

وقوله على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٣٨].

وأما في السنة: فحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام)[(٢)].

وهو أحد أولاد يعقوب عليه السلام الاثني عشر ذكرًا.

أما أبوه: فهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، ويعقوب عليه السلام: هو إسرائيل[(٣)] أبو بني إسرائيل الذي ينسبون إليه [(٤)].

وكان أبوه من أنبياء الله الصالحين الذين اصطفاهم الله واجتباهم وأثنى عليه مع جملة من إخوانه الأنبياء فقال: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٥-٤٧].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١/ ٩٤، ٢/ ١٨٦، ١٥/ ١٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٩٠، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين).

(٣) إسرائيل: اسمٌ عجميٌ ممنوع الصرف للعلمية والعجمة، وقد ذكروا أنه مركبٌ من إسرا: وهو العبد، وإيل: اسمٌ من أسماء الله تعالى، فكأنه عبد الله، وذلك باللسان العبراني، فيكون مثل: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: معنى إسرا: صفوةٌ، وإيل: الله تعالى، فمعناه: صفوة الله.
انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٢٧٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٣٠.

وقال عنه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام:٨٤].

وقال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم:٤٩-٥٠].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء:٧٢-٧٣].

وقد أعطاه الله علمًا وبصيرة في تعبير الرؤى، وقال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨].

وأما أمه: فلم يرد ذكر اسمها في الكتاب أو السنة، والصحيح أنها عاشت وحضرت أحداث قصته خلافا لمن قال بوفاتها قبل ذلك، وهذا هو الذي يدل عليه ظاهر القرآن حيث قال في رؤياه في بداية قصته: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [يوسف:٤].

وفسرت الشمس بأمه، وقال سبحانه في نهاية قصته: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

وإذا أطلق الأبوان فالمراد بهما الأب والأم حقيقة إلا إذا وجدت قرينة صارفة ولا قرينة ههنا.

قال أبو جعفر ابن جرير الطبري: وأولى القولين في ذلك بالصواب ما قاله ابن إسحاق بأن المراد بأبويه:أبوه وأمه؛ لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في«أبوين»، إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب التسليم لها، فيسلم حينئذ لها [(١)].

وقال الحافظ ابن كثير قال ابن جريرٍ: ولم يقم دليلٌ على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق [(٢)].

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

يوسف عليه السلام هو النبي الخامس المنحدر من سلالة الخليل إبراهيم عليه السلام، ويعتبر يوسف عليه السلام من أوائل أنبياء بني إسرائيل بل لعله أولهم بعد أبيه، لأن أباه يعقوب هو إسرائيل الذي تنسب إليه بني إسرائيل وأنبياؤهم من نسله، كموسى وهارون

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٦٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٢.

وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم، وقد جاؤوا بعد يوسف كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم حين قال في سياق قصة موسى عليه السلام مع فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر:٣٤].

وقد نشأ في حضن أبيه وعاصر إخواته وحصل منهم تجاهه ما قصه القرآن، وقد عاصر أيضًا أممًا أخرى، ودعاهم إلى الله تعالى، فقد نشأ في الشام، وانتقل إلى مصر حين بيع بها رقيقًا ظلما وعدوانًا، ثم استقر له بها المقام بعد أن من الله عليه بالبراءة والنجاة من تلك المحن، ورفع من قدره، وآلت إليه أمور الملك، وجاء بوالديه وإخوته فأقاموا معه بمصر، ولا زال بها حتى توفاه الله تعالى.

ثالثًا: مكانته عليه السلام:

يوسف عليه السلام نبي من أنبياء الله، اصطفاه الله واجتباه، ورفع مكانته، ومن ملامح ذلك:

١. أنه أنزلت في شأنه سورة كاملة سميت باسمه وهي سورة يوسف، وتكرر ذكر اسمه فيها أربعًا وعشرين مرة، ولم تذكر قصته في غيرها، ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر[(١)].

٢. أثنى الله تعالى عليه في هذه السورة ووصفه بالإخلاص وأضافه إليه في زمرة عباده فقال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

٣. أثنى عليه في جملة من الأنبياء والمرسلين وقال عنهم: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٣-٨٦]، فقوله: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يشمل جميع المذكورين من إسحاق إلى هنا[(٢)].

٤. لطف الله به وتولاه بعنايته في قصته والمحن التي مر بها؛ حيث حفظه في البئر وأمنه،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٩٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٤٣.

وهيأ له أن يكون في مصر في بيت العزيز مكرمًا، وعصمه من فتنة النساء، وصبره في السجن، وبرأه مما اتهم به، وأنجاه من السجن، وأعطاه الملك، وجمع شمله بأبيه بعد حين من الدهر، كما سيأتي تفصيل ذلك.

٥. قال النبي صلى الله عليه وسلم منوها بمكانته: (لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي)[(١)].

٦. قوله صلى الله عليه وسلم هذا فيه ثناء على يوسف عليه السلام وبيانٌ لصبره وتأنيه، والمراد بالداعي رسول الملك الذي أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:٥٠].

فلم يخرج يوسف صلى الله عليه وسلم مبادرًا إلى الراحة ومفارقة السجن الطويل؛ بل تثبت وراسل الملك في كشف أمره الذي سجن بسببه ولتظهر براءته، وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه ما قاله تواضعًا وإيثارًا للإبلاغ في بيان كمال فضيلة يوسف عليه السلام والله أعلم[(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٧٢، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عز وجل: (ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه)، ومسلم في صحيحه، رقم ١٥١، في الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب.

(٢) انظر شرح صحيح مسلم، النووي ٢/ ١٨٥.

ذكر يوسف عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر يوسف عليه السلام في القرآن الكريم (٢٧) مرة في سورتين[(١)].

وأما قصته عليه السلام فقد ذكرت في سورة واحدة حملت اسمه عليه الصلاة والسلام.

(١) المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، مركز تفسير، ٢/ ١٤٤٢.

صفاته وأخلاقه عليه السلام

أولًا: صفاته الخَلْقية:

يوسف عليه السلام ميزه الله وأكرمه بجملة من محاسن الصفات الخلقية، وأكتفي بأبرزها وهو: جمال خلقته.

فقد كان نبي الله يوسف عليه السلام من أجمل خلق الله ومن أحسنهم وجهًا، وصار جماله مضرب المثل [(١)]، وقد دل على جمال صورته القرآن والسنة.

أما القرآن: فقد ذكر في قصته ما حصل من افتتان امرأة العزيز به بسبب جماله حتى راودته عن نفسه واستعانت عليه بالنسوة فلما رأينه ذهلن من جماله وقطعن أيديهن وهن لا يشعرن، وعبرن عن دهشتهن من جماله وشبهنه بالملائكة كما حكى ذلك القرآن حيث قال: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

وأما السنة: فما أخرجه مسلم في صحيحه من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء، وفيه: (فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، إذا هو قد اعطي شطر الحسن) [(٢)].

وقوله: (قد أعطي شطر الحسن) في معناه أقوال للعلماء، منها: أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري [(٣)].

ومنها: أن المراد أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا صلى الله عليه وسلم [(٤)].

ومنها: أن المراد بـ (شطر الحسن): نصف جنس الحسن مطلقًا، أو نصف حسن جميع أهل زمانه [(٥)]. وأيا ما كان المعنى المراد بشطر الحسن فالمقصود أن الله أعطاه جمالًا في الصورة.

ثانيًا: صفاته الخُلُقية:

نبي الله يوسف عليه السلام كان متحليًا بمحاسن الأخلاق و جميل الصفات وكريم الخصال كحال إخوانه من الأنبياء والمرسلين، ومن خلال التأمل في سيرته يمكن استخلاص جملة من هذه الصفات، ومنها:

١. الإخلاص.

(١) وكان عمر رضي الله عنه يقول: جرير بن عبد الله يوسف هذه الأمة، يعني: في حسنه. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر ١/ ٢٣٨..

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٦٢، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات.

(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/ ٢١٠.

(٥) مرقاة المفاتيح ٩/ ٣٧٦٦.

وقد شهد له بذلك رب العالمين جل جلاله حين قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

وهو من أسباب عصمته من الفاحشة، «فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب السليم أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاص الدين له»[(١)].

٢. الكرم.

وقد دل على ذلك القرآن الكريم، ونصت عليه السنة النبوية، فقد تجلى كرمه في السجن في تعامله مع السجناء وإحسانه إليهم حتى وصفوه بالإحسان وقالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

وتجلى كرمه حين ولي الملك وصار يوزع القوت على الناس ويجود به عليهم وقال عن نفسه: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف:٥٩].

وحين عفا عن إخوته مع قدرته على الانتقام ولا يفعل ذلك إلا الكرام، وغير ذلك من صور كرمه.

وقد شهد له بهذا الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ثبت في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام)[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم) فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) وفي لفظ عند البخاري: قال: (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أكرم؟ قال: (أكرمهم عند الله أتقاهم) قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: (فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله)، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فعن معادن العرب تسألوني؟) قالوا: نعم. قال: (فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)[(٣)].

قال النووي: «قال العلماء وأصل الكرم كثرة الخير، وقد جمع يوسف صلى الله عليه وسلم مكارم الأخلاق مع شرف النبوة

(١) العبودية، ابن تيمية ص ١٢٣.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٥٣، في الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٣٧٨، باب من فضائل يوسف عليه السلام.

مع شرف النسب، وكونه نبيًا ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله صلى الله عليه وسلم، وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة، وحياطته للرعية، وعموم نفعه إياهم، وشفقته عليهم، وإنقاذه إياهم من تلك السنين، والله أعلم[1]».

وكرم يوسف عليه السلام كرم أصيل في النفس، موروث من أجداده، فجده الخليل عليه السلام هو مكرم الضيفان؛ وإذا كان الأصل طيبًا كان الفرع كذلك.

٣. الصدق.

حتى صار من معه في السجن يخاطبه بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦].

أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله[2].

«وإنما وصفه به عن خبرةٍ وتجربةٍ اكتسبها من مخالطة يوسف عليه السلام في السجن»[3].

وشهدت له بذلك امرأة العزيز أمام الملإ حين قالت: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

٤. الأمانة.

وأعظم ما تجلت في كفه عن الفاحشة، وعدم خيانته لله تعالى ولا لزوج المرأة، وقد قالت امرأة العزيز عند ساعة البراءة: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

ثم قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف:٥٢].

وكذلك أمانته في المال وقوله للملك ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف:٥٥].

٥. العفة.

في قصة يوسف عليه السلام يتجلى تمام عفته عليه السلام؛ حيث كف عن الشهوة المحرمة وعن جريمة الزنى مع توفر الأسباب والدواعي، بل بمجرد أن ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ﴾ ودون تردد ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣].

ولما أرادت أن تجبره على ذلك هرب منها ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف:٢٥].

بل إنه لما تمالأ عليه النسوة اختار السجن على فعل الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٣-٣٤].

قال الحافظ ابن كثير:«وهذا في غاية مقامات الكمالأنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرياسة

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/ ١٣٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٨٥.

ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك؛ خوفًا من الله ورجاء ثوابه»[1].

بل من عجيب أمره أنه يدعى إلى الخروج من السجن فيأبى ويرفض الخروج إلا بعد ثبوت براءته وتطهير سمعته ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف:٥٠].

فأي عفة هذه؟!

٦. العفو والصفح.

وهذا من أعظم ما تجلى من خلق يوسف عليه السلام في قصته مع إخوته، فبعد كل الأذى الذي لحق به منهم: كالهم بقتله وإلقائه في البئر والتفريق بينه وبين أبيه، والتسبب في تلك المحن المتتالية: محنة البئر ومحنة الرق ومحنة فتنة المرأة ومحنة السجن؛ لكنه مع كل ذلك عفا عنهم وسامحهم وهو في موقع قوة ولو شاء أن ينتقم لانتقم ولكنه لم يفعل، بل قال تلك الكلمة العظيمة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩٢].

فضرب أروع الأمثلة في العفو والصفح.

٧. الصبر.

تجلى ذلك في صبره على أذى إخوته وعفوه عنهم وقوله لهم مبينا فضل الصبر: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠].

وتجلى ذلك أيضًا في صبره عن المعصية وكف نفسه عن الشهوة مع توفر الأسباب والدواعي بل ووجود المغالبة، وفي صبره في السجن حتى عندما عفي عنه وطلب من الخروج من السجن لم يستعجل للخروج بل بقي حتى ثبتت براءته، وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على صبره وقال منوها بشأنه: (ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي)[2].

قال ابن الجوزي: قرأت سورة يوسف عليه السلام فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره، وشرح قصته للناس، ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملت خبيئة الأمر،فإذا هي مخالفة للهوى المكروه، فقلت: وا عجبًا! لو وافق هواه من كان يكون؟! ولما خالفه، لقد صار أمرًا عظيمًا، تضرب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة، فيا له عزًا وفخرًا، أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب[3].

٨. الشكر.

كان من صفاته عليه السلام شكر الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص ٢٢٨.

على نعمه ورد الفضل إليه، تجلى ذلك في قوله للسجينين: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٣٧].

وفي قوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف:٣٨].

وفي قوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١].

٩. التواضع.

وهذا واضح من خلال الآيات السابقة ورده الفضل دائمًا إلى الله تعالى لا إلى نفسه، ومن خلال تواضعه لوالديه، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠].

وعدم نسيانه للسجن حتى وهو في الملك حيث قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠].

١٠. العلم.

علم الوحي وعلم تعبير الرؤى وعلم سياسة الناس وغيره.

قال عنه الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف:٢١-٢٢].

وقال هو عن نفسه مخاطبًا الفتيين في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٣٧].

١١. الإحسان.

شهد له بذلك رب العزة جل وعلا حيث قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف:٢٢].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف:٥٦].

ووصفه بذلك أهل السجن حين قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

ووصفه بذلك إخوته حين قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨].

١٢. العدل.

تجلى ذلك من خلال سياسته في الملك وعدله في توزيع الطعام بين الناس في سني الجدب وإعطائه لكل واحد حمل بعير لا يزيد عليه، ومن خلال قوله لإخوته لما طلبوا منه أن يأخذ واحدًا منهم بدلًا من أخيه الذي وجد المتاع في رحله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف:٧٩].

١٣. حفظ الجميل.

حيث حفظ جميل العزيز وإحسانه إليه؛

فلم يخنه من ورائه، وذكر ذلك لامرأته لما راودته ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

فقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ قصده العزيز، «فذكر عنوان الربوبية هنا دون السيادة؛ لما فيه من الاعتراف بالمعروف والفضل، وهذا دليل على أن من المروءة ورفيع الأخلاق أن يحفظ الإنسان حق من أحسن إليه، فضلًا عن أن يخونه، والسياق دال على أن المراد هو من رباه وقال:أكرمي مثواه، لا خالقه؛ لأنه المتبادر إلى مفهوم المرأة المتلقية للخطابة»[1].

١٤. الغيرة على دين الله.

حتى إنه مارس الدعوة وهو داخل السجن، وقال منكرًا على من عبد غير الله ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف:٣٩].

١٥. الأناة.

وهذا واضح من خلال امتناعه عن الخروج من السجن- حين طلب منه ذلك- حتى تثبت براءته، وحين تأني في الإتيان بوالديه وضم الأسرة إليه؛ ليكون ذلك على أحسن حال وأنسب وقت، وغير ذلك.

هذا ما بدا لنا من صفات يوسف وأخلاقه من خلال التأمل في قصته والآيات والأحاديث الواردة في شأنه، وأسأل الله العفو والمغفرة عن أي خطإ أو زلل.

(١) ليدبروا آياته، ٢/ ٣١١.

يوسف عليه السلام وتعبير الرؤى

أولًا: تعليم الله إياه تعبير الرؤى:

برع يوسف عليه السلام في تعبير الرؤى وتفسير الأحلام[1]، فكان إذا عبر الرؤيا وقعت كما عبرها، وقد كان ذلك بتعليم الله تعالى له، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٢١].

وقال له والده: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦].

وقال هو عن نفسه: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١].

فقد بين الله جل وعلا أنه علم نبيه يوسف عليه السلام من تأويل الأحاديث، وتأويل الأحاديث هو: تعبير الرؤيا[2].

قال القرطبي: وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وقيل: أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد»[3].

ثانيًا: رؤيا يوسف عليه السلام:

تبدأ قصة يوسف عليه السلام ورحلته مع الرؤى من الرؤيا التي رآها في المنام وهو صغير؛ فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمرًا من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلًا لأمره، واستعدادًا لما يرد على العبد من المشاق؛ لطفًا بعبده؛ وإحسانا إليه[4].

قال الطاهر ابن عاشور: وابتداء قصة يوسف عليه السلام بذكر رؤياه إشارةٌ إلى أن الله هيأ نفسه للنبوءة فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها (أن أول ما بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[5].

وفي ذلك تمهيدٌ للمقصود من القصة وهو تقرير فضل يوسف عليه السلام من طهارةٍ وزكاء نفسٍ وصبرٍ؛ فذكر هذه الرؤيا

(١) قال القرطبي: وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، أي: الرؤى، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك، وكان الصديق رضي الله عنه من أعبر الناس لها، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم، والطبع والإحسان، ونحوه أو قريبٌ منه كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا.
انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٩٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٠، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي برسول الله صلى الله عليه وسلم.

في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة، وجعل الله تلك الرؤيا تنبيهًا ليوسف عليه السلام بعلو شأنه ليتذكرها كلما حلت به ضائقةٌ فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبةٌ[1].

ولما رأى يوسف عليه السلام تلك الرؤيا قصها على والده يعقوب عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف:٤].

ففهم أبوه تأويل هذه الرؤيا، وأولها بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعًا له فيها[2].

ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦]. أي: كما أراك ربك، هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدةً لك، فكذلك يختارك ويصطفيك لنبوته.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه أحاديث الأمم والكتب السماوية ونحوها.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: بالنبوة، وما انضاف إليها من سائر النعم.

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: يجعل فيهم النبوءة، إضافة إلى ماينالهم من النعم بسببك.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ حيث أنعم عليهما بإنعامات كبيرة أعظمها النبوة والرسالة، «وعبر عنهما بالأبوين مع كون أحدهما جدًا وهو إبراهيم؛ لأن الجد أبٌ»[3].

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ أي: بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في تدبيره فيضع كل شيء في موضعه فيكرم من هو أهل للإكرام، ويحرم من هو أهل للحرمان[4].

ولما بان تعبيرها ليوسف، نهاه أبوه أن يخبر بها إخوته؛ لئلا يحسدوه، وقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥]. أي: حسدًا من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:٥]. أي: بين العداوة، لا يفتر عنه ليلًا ولا نهارًا، ولا سرًا ولا جهارًا، فالبعد عن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٠٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٩٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٣، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٥٩٤.

الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى[1].

قال الشوكاني: «كأن يوسف عليه السلام قال: كيف يقع منهم؟! فنبهه بأن الشيطان يحملهم على ذلك؛ لأنه عدوٌّ للإنسان مظهرٌ للعداوة مجاهرٌ بها»[2].

وظاهر الآية أن يوسف عليه السلام لم يقص رؤياه على إخوته وهو المناسب لكماله الذي يبعثه على طاعة أمر أبيه[3]، قال السعدي: «فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم»[4].

قال القرطبي: «هذه الآية أصلٌ في ألا نقص الرؤيا على غير شفيقٍ ولا ناصحٍ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها»[5].

وقد وقع تفسير هذه الرؤيا كما رآها يوسف عليه السلام بعد فترة من الزمن- وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠].

وقد قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: رؤيا الأنبياء وحيٌ[6].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢١٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠.

ثالثًا: تعبيره لرؤيا صاحبي السجن:

من نماذج تعبير يوسف عليه السلام للرؤى وعلمها بها: ما كان من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن أثناء فترة وجوده في السجن؛ حيث إنهما رأيا منامًا فسألاه عن تعبيره لما رأيا عليه من سيما الصلاح، فكان من الأمر ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف:٣٦] أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها.

فـ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: أعصر عنبًا ليكون خمرًا.

﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتفسيره وما يؤول إليه أمرهما.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه[7].

قال ابن كثير: «والمشهور عند الأكثرين والذي يدل عليه ظاهر السياق: أنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره، خلافا لمن قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، إنما كانا تحالما ليجربا عليه»[8].

(٧) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦١١.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.

فأخبرهما بأنه عارف بتعبير الرؤى وأن ذلك بتعليم الله إياه ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال لأهل التفسير كلها تحتملها الآية:

القول الأول: أن يوسف عليه السلام قال للفتيين: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا﴾ أيها الفتيان في منامكما ﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ في يقظتكما ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ ويعني بقوله: ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾: ما يؤول إليه؛ فهو يخبرهما أنهما مهما رأيا في نومهما من حلمٍ، فإنه عارفٌ بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه[1].

والقول الثاني: أنه وعدهما بأنه يعبر لهما رؤياهما غير بعيدٍ، وجعل لذلك وقتًا معلومًا لهما، وهو وقت إحضار طعام المساجين، يقول: لا يأتيكما غداؤكما، أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبأتكما بتأويله -أي: بتأويل ما رأيتما في منامكما- قبل أن يأتيكما طعامكما، ووصف الطعام بجملة ﴿تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ تصريحٌ بالضبط بأنه طعامٌ معلوم الوقت[2].

القول الثالث في الآية معناه: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ في السجن إلا أخبرتكما بماهيته قبل مجيئه حلوًا وحامضًا وغيره كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩][3].

وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه، بل جعله عليه السلام مقدمةً قبل تعبيره لرؤياهما بيانًا لعلو مرتبته في العلم، وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظنٍ وتخمينٍ؛ وإنما قال يوسف عليه السلام لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر[4].

ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف:٣٧]. أي: هذا إنما هو من تعليم الله إياي[5].

والأقرب القول الثالث: وهو أنه يخبرهما بماهية طعامهما وحقيقته قبل مجيئه إليهما وذلك بتعليم الله إياه، كحال عيسى عليه السلام.

وقوله في الآية: ﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ يدل على أنه طعام حقيقة لا منامًا، والضمير في قوله: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ يرجع إلى أقرب مذكور وهو الطعام. والله أعلم.

ثم عبر لهما ما رأيا فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٠٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.
(٢) انظر التحرير والتنوير ١٢/ ٢٧١، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.
(٣) نظر قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩١.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.

﴿ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف:٤١].

وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، فإنه يخرج من السجن ويسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن، ولكنه لم يعينه لئلا يَحْزَنَ ذَاكَ؛ ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ [يوسف:٤١][(١)].

فإنه عبر عن الخبز الذي تأكله الطير، بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل تتمكن الطيور من أكله[(٢)].

ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقعٌ لا محالة ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١] لأن الرؤيا على رِجْلِ طائرٍ ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت، كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم: (الرؤيا على رجل طائرٍ ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت)[(٣)(٤)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦١٨٢، والترمذي في سننه، رقم ٢٢٧٨ و ٢٢٧٩، أبواب الرؤيا، باب ما جاء في تعبير الرؤيا، وأبو داود في سننه، رقم ٥٠٢٠، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢.

رابعًا: تعبيره لرؤيا الملك:

أيضًا من نماذج تعبير يوسف عليه السلام للرؤى وعلمه بها تعبيره لرؤيا الملك-ملك مصر- والتي كانت بتدبير الله تعالى؛ لتكون سببًا لرفعة شأنه وخروجه من السجن.

وكان من تفاصيلها ما حكاه الله بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف:٤٣]. جمع عجف، وهي المهازيل[(٥)].

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ وقد أهمه أمر هذه الرؤيا فقصها على علماء قومه وكبراء دولته، وسألهم عن تأويلها، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣].

فتحيروا ولم يعرفوا لها وجهًا ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:٤٤].

والأضغاث[(٦)]: الأخلاط، أي: أخلاط أحلامٍ من الليل لعلها لا تعبير لها،ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾[(٧)].

(٥) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٢٥.
(٦) الأضغاث:جمع ضغث، والضغث أصله الحزمة من الحشيش، يشبه بها الأحلام المختلطة التي لا تأويل لها.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١١٨.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٤، ٦٢٥، قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٣٣١.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، بما ليس بعذر، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس فإنا لا نعبرها.فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا[1].

ولما سمع الفتى - الساقي الذي نجا- هذه المقالة من الملك ومراجعة أصحابه، تذكر يوسف وعلمه بتأويل الرؤى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ [يوسف:٤٥].

أي: من الفتيين، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه فنسي ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

أي: تذكر يوسف عليه السلام بعد مدة من الزمن وهي بضع سنين، وتذكر ما جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا، فطلب منهم إرساله إليه ليأتيهم بتأويل هذا المنام، وقال لهم: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:٤٥].

فأرسل إليه فجاءه وخاطبه قائلًا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف:٤٦].

فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهمتهم، فأجابه يوسف عليه السلام لما طلب وعبرها له فـ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف:٤٧].

أي: متواليةً متتابعةً على عادتكم[2].

والمعنى: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:٤٧].

أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فاتركوه في سنبله؛ ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلًا قليلًا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف:٤٨].

أي: مجدبات صعاب وهن سنون

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

(٢) قال ابن عطية: والدأب، بسكون الهمزة وفتحها، مصدر دأب يدأب، إذا لازم فعل شيءٍ ودام عليه مجتهدًا فيه، ويقال للعادة: دأبٌ.
انظر: المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

المَحْلِ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف:٤٨].

أي: إلا يسيرًا مما تحرزونه وتدخرونه[١].

فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجدبات، قال السعدي:«ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجدب لما كان الحرث مبنيا عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك، وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجدب[٢].

ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩].

أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتكثر الغلات، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها[٣].

قال ابن جرير: وهذا خبرٌ من يوسف عليه السلام للقوم عما لم يكن في رؤيا ملكهم، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله دلالةً على نبوته وحجة على صدقة[٤].

وقال السعدي: «ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك؛ لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جدًا، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح»[٥]. وكان ذلك سببًا في خروجه من السجن.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٤، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٤٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٤، قصص الأنبياء، ص ٣٣٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٢٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

يوسف عليه السلام مع والده

أولًا: مكانة يوسف عليه السلام عند والده:

كان يوسف عليه السلام أحب إخوته إلى أبيه أثيرًا عنده مقربا لديه، فكان يعقوب عليه السلام يحبه حبًا شديدًا ولا يقوى على فراقه؛ «لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخُلُقِ والخَلْقِ، صلوات الله وسلامه عليه[1]».

وقد نشأ يوسف عليه السلام في كنف والده، يشاوره في أموره ويسر إليه بما يحدث له، ومن ذلك قصة الرؤيا التي رآها؛ إذ رأى وهو صغيرٌ كأن أحد عشر كوكبًا، وهم إشارةٌ إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارةٌ عن أبويه قد سجدوا له، فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلةً عاليةً ورفعةً عظيمةً في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته؛ كيلا يحسدوه، ففعل[2].

وقد كانت محبته ليوسف وأخيه«أمرًا لا يملك صرفه عن نفسه؛ لأنه وجدانٌ ولكنه لم يكن يؤثرهما عليهم في المعاملات والأمور الظاهرية»[3].

وهذا الحب من يعقوب عليه السلام لابنه يوسف دفع إخوته إلى حسده والتآمر عليه؛ حتى فرقوا بينه وبين أبيه.

ثانيًا: محنة الفراق:

من أصعب المحن التي مرت على يعقوب عليه السلام: محنة التفريق بينه وبين حبه وفلذة كبده يوسف عليه السلام، حين تآمر عليه إخوته، وتحايلوا على أبيهم، وزعموا أنهم يريدون اصطحابه معهم للعب، وتعهدوا بحفظه، والنصح له، ولكن كان التخطيط غير ذلك، فذهبوا به وألقوه في البئر ورجعوا بدونه، زاعمين أنه أكله الذئب وبدأت رحلة المعاناة للابن والأب:

أما الابن: فقد تعرض لأربع محن عظيمة، وهي محنة الإلقاء في البئر، ومحنة البيع رقيقًا ظلما وعدوانًا، ومحنة فتنة المرأة، ومحنة السجن؛ ولكن الله لطف به في هذه المحن كلها، ونجاه منها جميعها، وكانت عاقبته رفعة المنزلة في الدارين، وقد بين طريق الوصول إلى مثل ذلك حين قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠].

وأما الوالد: فقد كان ألم الفراق بالنسبة له عظيما وكان وقعه عليه شديدًا، فلم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٢.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٢١.

يصدق أبناءه حينما جاءوا عشاءً يبكون وزعموا أنه أكله الذئب، ولطخوا قميصه بالدم المكذوب، ولم يرج هذا الصنيع عليه، بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:١٨].

ثم لجأ إلى الله في كشف محنته وتحلي بالصبر الجميل وردد قائلًا: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

أي: فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه[(١)]، تمامًا كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

وقد اشتد حزنه العميق على فقد يوسف عليه السلام، ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، فجدد الحزن الجديد الحزن القديم، حتى ذهب بصره أو كاد؛ من الحزن وكثرة البكاء كما قال جل و علا: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤][(٢)].

ولكنه عليه السلام لم يفقد الأمل في اللقاء بيوسف مجددًا، بل كان عنده يقين بذلك؛ ولهذا لما جاءه أولاده بخبر فقد أخيهم الآخر -شقيق يوسف- خاطبهم قائلا: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:٨٣].

ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخوه الشقيق، وأخوهم الكبير الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يقدر الله له المجيء وحده، أو مع أخيه؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:٨٣].

أي: ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره[(٣)].

هكذا قالها يعقوب عليه السلام بكل يقين وحسن ظن بالله.

ثم أعرض عن بنيه كما قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وذلك لما جاؤوا من غير أخيهم وأخبروه الخبر، وقد ساء ظنه بهم ولم يصدق قولهم، وجعل يتفجع ويتأسف ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يا حزناه على يوسف، والأسف أشد الحزن ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤].

أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد[(٤)]،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٢.
(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١١، وفتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٣، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٣.
(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٥٠٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٧١.

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿قَالُوا﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مشرفًا على الهلاك لطول مرضك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥].

أي: الموتى، يقولون: لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك أو تهلك، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك [(١)].

فأجابهم يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف:٨٦].

يقول لهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ أي: ما أبث من الكلام ﴿وَحُزْنِي﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم، وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع، ولابد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى [(٢)].

ثم أمر أولاده بالذهاب للبحث والتفتيش عن يوسف عليه السلام وعدم اليأس والقنوط من ذلك؛ فإن اليأس ليس من صفة المؤمن ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: اطلبوا خبرهما، واستقصوا، ﴿وَلَا تَايْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أي: رحمته؛ فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه ﴿إِنَّهُ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين، ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله [(٣)]. فلم يخيب الله ظنه بل حقق له ما رجاه.

ثالثًا: اجتماع الشمل:

وبعد طول فراق -امتد لعدة سنين قيل: ثمانين سنة. وقيل: أربعين. وقيل غير ذلك، وهي لا تقصر [(٤)] عن خمسة عشر عامًا- يجتمع الشمل، ويحقق الله الرجاء، ويجمع الله بين يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام.

لما جاء إخوة يوسف في المرة الأخيرة لشراء الطعام من مصر وتعرف عليهم يوسف عليه السلام، أعطاهم قميصه وأمرهم أن يضعوه على عيني أبيه فإنه يرجع إليه بصره، بإذن الله، قال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٦، تفسير الجلالين، ص ٣١٦.
(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤، وتفسير الجلالين، ص ٣١٦.
(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١١.

﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٣].

قال السعدي: لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم أراد أن يشمه فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر [(١)].

قال ابن كثير: وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات [(٢)].

وأمرهم أيضًا أن يأتوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مص؛ ليجتمع الشمل بعد الفرقة، ويزول عنهم ضنك الرزق قال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف:٩٣].

وحصلت معجزة أخرى وهي إيصال الله تعالى ريح يوسف عليه السلام لأبيه من مكان بعيد، فما أن خرجت العير -القافلة- من أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين حتى شم يعقوب عليه السلام ريح القميص، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف:٩٤].

أي: تسخرون مني، وتقولون إنما قلت هذا من الفند، وهو الخرف وكبر السن، فوقع ما ظنه بهم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف:٩٥].

أي: في حبك القديم ليوسف[(٣)]، قال قتادة:«أي: من حب يوسف لا تنساه، قالوا لوالدهم كلمةً غليظةً لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله صلى الله عليه وسلم»[(٤)].

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو المبشر برسالة يوسف ﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي: بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرًا بعدما كان ضريرًا، فقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦].

أي: أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف؛ لأن رؤيا يوسف كانت صادقة، وكان الله قد قضى أن أَخِرَّ أنا وأنتم له سجودًا، فكنت موقنًا بقضائه، ولا تعلمون أنتم من ذلك ما أعلمه[(٥)].

هنا شعر الأبناء بالحرج من جراء ما اقترفوا ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف:٩٧].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٦، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٦.
(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٠، جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٥٨-٢٦٠.

فعفا عنهم و ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف:٩٨].

وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل؛ ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة [١].

فارتحل يعقوب عليه السلام ومن معه إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ وهما أبوه وأمه على الصحيح، أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام والتبجيل والإعظام شيئًا عظيمًا ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] من جميع المكاره والمخاوف [٢].

ومن أدبه مع والديه واحترامه لهما لم يجلسهما على الأرض ويجلس هو على سرير الملك بل أجلسهما معه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو سرير الملك ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي: أبوه، وأمه وإخوته، وقد كان ذلك جائزًا في شريعتهم لكنه منع في شريعتنا.

قال ابن عطية: «وأجمع المفسرون أن ذلك السجود- على أي هيئة كان- فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة» [٣] ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى سجودهم له: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ حين رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر لي ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام، بل تحققت ووقعت كما رأيتها [٤].

ثم رد الفضل في ذلك كله إلى الله وأنه هو الذي حفظه ونجاه وجمع شمله به بهم بعد طول فراق ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٨١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.

يوسف عليه السلام وإخوته

يقول الله تعالى عن يوسف وإخوته: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف:٧].

أي: عبر ومواعظ، لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا بالقصص والبينات[(١)].

وعن سبب نزولها قال أبو حيان الأندلسي: وسبب نزولها أن كفار مكة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر فنزلت. وقيل: سببه تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يفعل به قومه بما فعل إخوة يوسف به. وقيل: سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحدثهم أمر يعقوب وولده، وشأن يوسف. وقال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن فتلاه عليهم زمانًا فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت[(٢)]. ويمكن إجمال القول عن يوسف عليه السلام مع إخوته فيما يلي:

١. عددهم.

كان ليعقوب عليه السلام من البنين اثنا عشر ولدًا ذكرًا، وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم يوسف عليه السلام[(٣)]، وقد جاءت الإشارة إليهم في آية الرؤيا حين قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:٤].

وقد كان أحدهما شقيقا ليوسف والبقية إخوته لأبيه كما يشير إلى ذلك قولهم المذكور في الآية: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف:٨].

فقولهم ﴿وَأَخُوهُ﴾ أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة[(٤)].

٢. أسماؤهم.

لم يرد ذكر أسمائهم في شيء من القرآن أو صحيح السنة سوى يوسف عليه السلام، وقد اشتهر عند المؤرخين والمفسرين بأن أخاه الشقيق يقال له: (بنيامين) وقد جاء في حديث مرفوع ذكر أسمائهم لكنه لم يصح[(٥)].

٣. القول بنبوتهم.

اختلف العلماء في نبوة إخوة يوسف عليه السلام: فذهبت طائفة إلى أنهم كانوا أنبياء، وأنهم هم أسباط بني إسرائيل المذكورون في القرآن في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

(١) المصدر السابق ص ٣٩٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٣٤.
(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٣٠٩.
(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠، الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، الشوكاني ص٤٦٣.

﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦].

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء:١٦٣].

فقد عطفهم الله على يعقوب عليه السلام وأخبر أنه أوحى إليهم، وأما ما حصل منهم تجاه أخيهم فقد كان قبل نبوتهم، وقد تابوا منه فتاب الله عليهم وأوحى إليهم بعد ذلك[1].

وذهب فريق إلى أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء؛ لعدم ورود دليل صريح على ذلك؛ ولأن ما قاموا به نحو أخيهم لا يتناسب مع مقام النبوة.

قال الحافظ ابن كثير: «وقد ذهب طائفةٌ من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبيٌّ غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم، وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول، ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦] وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقويٍّ؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء، وما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه ما نص على واحدٍ من إخوته سواه، فدل على ما ذكرناه»[2].

قال القرطبي تعليقًا على تآمرهم عليه: وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولًا ولا آخرًا؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلمٍ، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصيةً ثم تابوا[3].

قال أبو محمد ابن حزم: «إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء، ولا جاء قط في أنهم أنبياء نص: لا من قرآن، ولا من سنة صحيحة، ولا من إجماع، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم، وأما يوسف صلى الله عليه وسلم فرسول الله بنص القرآن.

قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر:٣٤].

وأما إخوته فأفعالهم تشهد أنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم فكيف أن يكونوا أنبياء؟! ولكن الرسولين أباهم وأخاهم قد استغفرا لهم، وأسقطا التثريب

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٨، الرسل والرسالات، الأشقر، ص ١٩.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ٣٠٩.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٤٧، ٢/ ٦١١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٣٣.

عنهم؛ ولقول الله تعالى حاكيًا عن الرسول أخيهم عليه السلام أنه قال لهم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾[يوسف:٧٧].

ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء، نعم ولا لقوم صالحين، إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس؛ لأن الصالحين ليسوا شرا مكانا وقد عق ابن نوح أباه أكثر مما عق به أخوة يوسف أباهم إلا أن إخوة يوسف لم يكفروا، ولا يحل لمسلم أن يدخل في الأنبياء من لم يأت نص ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوته.

فإن ذكروا في ذلك ماروي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو زيد بن أرقم: إنما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد الأنبياء أنبياء، فهذه غفلة شديدة وزلة عالم من وجوه:

أولها: أنه دعوى لا دليل على صحتها.

وثانيها: أنه لو كان ما ذكر لأمكن أن ينبأ إبراهيم في المهد كما نبىء عيسى عليه السلام، وكما أوتي يحيي الحكم صبيًّا، فعلى هذا القول لعل إبراهيم كان نبيًّا، وقد عاش عامين غير شهرين، وحاشا لله من هذا.

وثالثها: أن ولد نوح كان كافرًا بنص القرآن، فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيًّا، وحاشا لله من هذا.

ورابعها: لو كان ذلك لوجب ولابد أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم، بل جميع أهل الأرض أنبياء؛ لأنه يلزم أن يكون الكل من ولد آدم لصلبه أنبياء؛ لأن أباهم نبي وأولاده أنبياء أيضًا؛ لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء، وهكذا أبدًا حتى يبلغ الأمر إلينا»[(١)].

٤. تآمرهم عليه.

لما رأى إخوة يوسف حب أبيه له وميله إليه وإلى أخيه-شقيقه- دب الحسد في قلوبهم، وزين لهم الشيطان الانتقام منه، فتآمروا عليه، وعزموا على التفريق بينه وبين أبيه، ونفذوا ما عزموا عليه، وأبعدوه عن والده، وجروا عليه وعلى والده محن عظيمة امتدت لسنوات طوال.

قال تعالى حاكيًا ما حصل منهم: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾[يوسف:٧-٨].

أي: جماعة، يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[يوسف:٨] أي: لفي خطأ بين؛ بتقديمه حبهما علينا[(٢)].

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ٤/ ٨.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٢، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.

وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين؛ إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا، وإنما مرادهم أن أباهم -في زعمهم- في ذهابٍ عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرةٍ مع استوائهم في الانتساب إليه؛ ولأن العشرة أكثر نفعًا له [(١)].

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرضٍ لا يرجع منها؛ ليخلو لهم وجه أبيهم أي: لتتمحض محبته لهم.

قالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف:٩].

أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم، فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلًا لفعله [(٢)].

فلما تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف:١٠].

أي: يقول أحد إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ فإن قتله أعظم إثمًا وأشنع، والمقصود يحصل بإبعاده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى إبعاده بأن تلقوه وأشار عليهم بأن يلقوه في ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وهو أسفله، والغيابة: كل ما غاب عنك، أو غيب شيئًا عنك، والجب: الركية التي لم تطو، فإذا طويت فهي بئر، وسميت جبًا؛ لأنها قطعت في الأرض قطعًا [(٣)] ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا بهذا، ولا حاجة إلى قتله ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون [(٤)].

قال السعدي: «وهذا القائل أحسنهم رأيًا في يوسف، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل [(٥)]».

قال ابن كثير: «ولم يكن لهم سبيلٌ إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لا بد من إمضائه وإتمامه: من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة أخيه فيه [(٦)]».

وقد صدق رحمه الله.

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار عليهم أخوهم، جاؤوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يرسله معهم، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليمٌ [(٧)]،

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٣١، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٣.
(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٢، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.
(٣) انظر زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤١٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٣٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١١.
(٧) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٣.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف:١١].

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:١٢].

أي: يتنزه في البرية ويستأنس.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:١٢]

أي: سنراعيه ونحفظه من أذى يريده.

فأجابهم والدهم ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف:١٣].

يقول لهم: إن مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي؛ لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله و مانع ثان وهو أني ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: في حال غفلتكم عنه وانشغالكم في لعبكم، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب [(١)].

«وإنما ذكر يعقوب عليه السلام أن ذهابهم به يحزنه؛ ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به؛ لأن شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه، فأبوا إلا المراجعة [(٢)].

قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف:١٤].

يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا وغلبنا عليه، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعةٌ إنا إذا لعاجزون هالكون، لا خير فينا ولا نفع يرجى منا [(٣)].

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم، فذهبوا به وبلغوا المكان الذي فيه الجب ونفذوا مهمتهم وألقوه في البئر، ولكن الله تعالى لطف به حيث حفظه من الضرر فلم يصطدم بجدرانها فيهلك أو يغرق في مائها فيموت، بل إن الله أمنه من الخوف حيث أوحى إليه في تلك الحال الحرجة تطييبًا لقلبه، وتثبيتًا له وبشره«أنه لابد لك من فرجٍ ومخرجٍ من هذه الشدة التي أنت فيها، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك،ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حالٍ أنت فيها عزيزٌ، وهم محتاجون إليك خائفون منك» [(٤)].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف:١٥].

أي: في قعره.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وفي المراد بالوحي

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٣٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٢.
(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٤، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٤.

قولان[1]:

أحدهما: أنه إلهام.

والثاني: أنه وحي حقيقة.

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: لتخبرن إخوتك بفعلهم هذا الذي فعلوه بك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وفي المراد بهذه الآية قولان:

أحدهما: وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليك.

والثاني: وهم لا يشعرون أنك يوسف وقت إخبارك لهم،، وذلك إخبارٌ بما وقع بعد سنين مما حكي في هذه السورة[2].

وهذا هو الراجح؛ لأن الله جل وعلا صرح في هذه السورة الكريمة بأنه أنجز ذلك الوعد في قوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ [يوسف:٨٩-٩٠].

وصرح بعدم شعورهم بأنه يوسف في قوله: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف:٥٨][3].

فلما ألقوه في البئر ورجعوا عنه، أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دمٍ، ورجعوا إلى أبيهم عشاءً وهم يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف:١٦].

أي: على أخيهم؛ ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالمٍ وهو باك! وذكر بكاء إخوة يوسف وقد ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾، أي: في ظلمة الليل؛ ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم[4].

قالوا: متعذرين بعذر كاذب ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف:١٧].

إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا.

﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ أي: في حال غيبتنا عنه في استباقنا، وهذا الذي كان قد خاف منه عليه، لكنهم أخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه.

﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي بمصدقٍ لنا.

﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا ولا تهمتنا في هذه القضية؛ لشدة محبتك في يوسف[5].

﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤١٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٧٥، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤١٩، التحرير والتنوير ١٢/ ٢٣٤.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٤.
(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٥.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٢.

[يوسف:١٨] أي: مكذوبٍ مفتعلٍ؛ ولهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب.

بل قال لهم معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:١٨].

أي: زينت لكم أنفسكم أمرًا قبيحا في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دله على ما قال.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: فسأصبر صبرًا جميلًا على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال [(١)].

قال ابن عاشور: وإنما فوض يعقوب عليه السلام الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف عليه السلام؛ لأنه علم تعذر ذلك عليه لكبر سنه؛ ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك. وقد صاروا هم الساعين في البعد بينه وبين يوسف عليه السلام، فأيس من استطاعة الكشف عن يوسف بدونهم، ألا ترى أنه لما وجد منهم فرصةً قال لهم: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧] [(٢)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٣، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٤٠.

لما ألقي يوسف عليه السلام في البئر وترك لمصيره، كان من لطف الله به أن جاء بالسيارة إليه كما قال: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف:١٩].

أي: مسافرون وهم قافلة تريد مصر.

﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ والوارد الذي يرد الماء يستقي للقوم.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ أرسل دلوه في البئر ليملأه، والدلو معروف: وهو ما يستخرج به الماء من البئر، فتعلق فيه يوسف فأخرجه واستبشر به.

وقال: ﴿يَا بُشْرَىٰ﴾ أي: يا بشراي.

﴿هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره [(٣)].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: هو عالمٌ بما يفعله إخوته ومشتروه، وهو قادرٌ على تغيير ذلك ودفعه ومع هذا لا يغيره تعالى؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر [(٤)].

وقال أيضًا: وفي هذا تعريضٌ لرسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وإعلامه له بأنني عالمٌ بأذى قومك، وأنا قادرٌ على

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٥٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٤.

(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٥.

الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته[1].

﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعه السيارة.

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: قليلٍ ناقص.

فسره بقوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف:٢٠] أي: ممن يرغب عما في يده فيبيعه بأقل ثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاونٌ به لا يبالي بما باعه؛ ولأنهم خافوا أن يظهر له مستحقٌّ فينزعه من يدهم؛ ولذلك باعوه بأوكس الأثمان[2].

هذا هو القول الأول في هذه الآية وأن الذين شروه -بمعنى باعوه- بمصر هم السيارة وأن إخوته ألقوه وانصرفوا، وهو اختيار أبي حيان والشوكاني وابن عاشور وغيرهم[3].

وهو الظاهر؛ لدلالة ظاهر السياق عليه؛ حيث إن الله ذكر ذلك بعد ذكره لرجوع إخوة يوسف إلى أبيهم، ثم ذكر بعدهم مجيئ السيارة، وبعده قال: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ ثم بين من اشتراه منهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف:٢١].

ولم يشر القرآن إلى رجوع إخوة يوسف مرة أخرى إلى البئر.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ وفي ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على إخوة يوسف، وأنهم لما استشعروا بأخذ السيارة له لحقوهم، وقالوا هذا غلامنا أبق منا ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني: أن إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: باعه إخوته للسيارة بثمنٍ دونٍ قليلٍ، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيءٍ لأجابوا؛ لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه. واختار هذا القول ابن كثير والطبري والسعدي وغيرهم[4].

وقد خاض بعض المفسرين في عدد هذه الدراهم، لكنه لا طائل من وراء ذلك، قال ابن جرير الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٤.
(٢) انر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٥٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٣٤.
(٣) انظر البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٥٣، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٦، التحرير والتنوير ١٢/ ٢٤٤.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٤، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٦، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٥.

كتاب ولا خبر من الرسول صلى الله عليه وسلم وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضر فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرضٌ، وما عداه فموضوعٌ عنا تكلف علمه [(١)].

٥. اتهامهم له بالسرقة.

ومما نال يوسف أيضًا من إخوته اتهامهم له بالسرقة زورًا وبهتانًا، حين قالوا لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع أخيهم: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريبا منه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٧٧]. يعنون: يوسف عليه السلام، وهذا مجرد اتهام، قال الحسن: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه[(٢)].

وقال الشوكاني: «فما هذه الكذبة بأول كذباتهم»[(٣)].

وفي هذا من الغض عليهما ما فيه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٧٧].

أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه.

و﴿قَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه.

وفي معناها قولان:

أحدهما: أنتم شرٌّ صنيعًا من يوسف لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم.

والثاني: شرٌّ منزلة عند الله [(٤)].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها[(٥)].

٦. عفوه عنهم.

ضرب يوسف عليه السلام أروع الأمثلة في العفو والصفح حتى صار مثالًا يحتذى به وذلك حين عفا عن إخوته وسامحهم، بالرغم من ما قاموا به تجاهه، وقد كان في موقف قوة وكان قادرًا على الانتقام لكنه لم يفعل.

لما صار يوسف عليه السلام في الملك وعلى خزائن الأرض، وجاء إخوته يطلبون الميرة وعرفهم بنفسه، قالوا مندهشين متعجبين - وقد ترددوا إليه مرارًا عديدةً وهم لا يعرفون أنه هو- ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠].

يعني: أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم.

وقوله: ﴿وَهَٰذَا أَخِي﴾ تأكيدٌ لما قال،

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٤٦٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٦٠.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٤.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٦٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢.

وتنبيهٌ على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد، وعملوا في أمرهما من الاحتيال.

ولهذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي: بإحسانه إلينا وجمعه بيننا بعد التفرقة وإيوائه لنا، وذلك بسبب الصبر والتقوى.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: يتقِ فعل ما حرم الله ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا[1].

لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، فلهذا شعروا بالحرج واللوم وقالوا معترفين له بالفضل: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف:٩١].

يقسمون له بأن الله فضلك علينا وأعطاك ما لم يعطنا، ونحن كنا خاطئين في إساءتنا إليك وما قمنا به تجاهك، فعفا عنهم وسامحهم ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢].

يقول: لا تأنيب عليكم اليوم ولا عتب عليكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا، ثم زادهم على ذلك بأن دعا لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢][2].

وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين[3].

ولم يكتف بذلك بل قام بإيوائهم هم وجميع أفراد الأسرة حيث أمرهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين، فلما دخلوا عليه وحيوه بالسجود خاطبهم بأسلوب تجنب فيه أي عبارة تجرح مشاعرهم؛ مما يدل على صدر كبير، وأن عفوه لم يكن باللسان فقط بل كان باللسان والجنان والفعال؛ حيث قال ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:١٠٠].

يقول السعدي رحمه الله: وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي، فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: «أحسن بكم» بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِيٓ﴾ جعل الإحسان عائدا إليه، ثم قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ فلم يقل: «نزغ الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين[4].

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٨، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٥.
(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٤.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٤٩.

يوسف عليه السلام وامرأة العزيز

أولًا: قصة مجيئه إلى مصر:

لما تآمر إخوة يوسف عليه وألقوه في البئر جاءت سيارة- أي: مسافرون- فأخرجوه منها وأخذوه معهم، فلما وصلوا بلاد مصر باعوه بثمن زهيد، كما قال تعالى ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف:٢٠].

وكان من لطف الله تعالى به أنه لم يقع في يد رجل من عامة الناس يهينه ويتعبه بالخدمة، بل هيأ الله له أن يشتريه عزيز مصر وأن ينشأ في قصره عزيزًا مكرمًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف:٢١].

أي: أحسني إليه، وأكرمي موضع إقامته[(١)].

﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ أي: يكفينا بعض المهمات إذا بلغ.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: نتبناه؛ ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد[(٢)].

«وإنما قال ذلك لحسن تفرسه في ملامح يوسف عليه السلام المؤذنة بالكمال[(٣)]».

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف:٢١].

يقول عز وجل: وكما أنقذنا يوسف من أيدي إخوته وقد هموا بقتله وأخرجناه من الجب بعد أن ألقي فيه كذلك مكنا له في الأرض، أي: عطفنا عليه قلب الملك الذي اشتراه حتى تمكن من الأمر والنهي في البلد وصار على خزائنها[(٤)].

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تأويل الرؤيا وغيره.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ يفعل ما يشاء لا يغلبه شيءٌ ولا يرد عليه حكمه رادٌّ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن الأمر كذلك، إذ لو علموا لفوضوا أمرهم إليه وتوكلوا عليه ولم يحاولوا معصيته بالخروج عن طاعته[(٥)].

وبقي يوسف عليه السلام هناك حتى بلغ أشده كما قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [يوسف:٢٢] أي: كمال قوته البدنية والعقلية[(٦)].

﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ قيل: النبوة، أو الحكم

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٨، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٠١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٦٠، جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٤٦.

(٤) انظر جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٠.

(٥) انظر معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٨٣، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣١٨، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٠٣.

(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٠١.

بين الناس، أوالإصابة في القول.

﴿وَعِلْمًا﴾ قيل: الفقه. وقيل: علم الرؤيا[1] وقد آتاه الله ذلك كله من النبوة والحكمة والعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكما جزيت يوسف فآتيته بطاعته إياي الحكم والعلم، ومكنته في الأرض، واستنقذته من أيدي إخوته الذين أرادوا قتله، كذلك نجزي من أحسن في عمله، فأطاعني في أمري، وانتهى عما نهيته عنه من معاصي[2].

ثانيًا: قصة المراودة:

من أعظم الفتن والمحن التي مر بها يوسف عليه السلام فتنة المرأة، وهي من الفتن التي لا يقوى على دفعها إلا الأقوياء من أهل الإيمان والمروءات.

قال السعدي: «هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرا؛ لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعا أو كارها»[3].

وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرمًا في بيت العزيز، حتى بلغ أشده، وقدكان في غاية الجمال ففتنت به امرأة العزيز فتنةً شديدة وهمت بفعل الفاحشة معه وروادته عن نفسه وأخذت بكل الأسباب ولكن الله عصمه.

يقول تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف:٢٣].

أي: حاولته على نفسه، ودعته إليها «وأصل المراودة الإرادة والطلب برفقٍ ولينٍ»[4]، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلم وأقبل وتعال، فامتنع من ذلك أشد الامتناع.

و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله وأستجير به من فعل هذا القبيح الذي دعوتني إليه؛ لأنه مما يسخط الله ويبعد منه؛ ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي.

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ يعني زوجها صاحب المنزل بمعنى سيدي، وكانوا يطلقون «الرب» على السيد والكبير، أي: إن بعلك أحسن إلي وأكرم مقامي عنده وائتمنني، فلا يليق بي أن أقابله بالفاحشة في أهله، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٢٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٦٢.

[يوسف:٢٣][(١)].

«أشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلمٌ؛ لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصيةٍ مما اتفقت الأديان على أنها كبيرةٌ، وظلم سيده الذي آمنه على بيته وآمنها على نفسها»[(٢)].

فمع أنه غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد ولا إحساس بشر، ومع أنها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وصار المحل خاليا، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، وقد دعته هي إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عزب، لكنه امتنع وصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه[(٣)].

وللحافظ ابن كثير كلام متين في التعليق على هذه الآية حيث يقول[(٤)]: «يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير، وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شابٌ بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبيٌّ من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: (سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم:(ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله)[(٥)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ [يوسف:٢٤] أي: عزمت عليه في أن يواقعها يوسف.

﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكن لأنه رأى برهان ربه فلم يقع منه هم أصلًا، أو أن المراد بهم يوسف بها خاطرٌ قلبيٌّ صرفه عنه وازع التقوى[(٦)].

والبرهان الذي رآه يوسف هو ما آتاه الله

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٦٣، ١٦٥، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٥٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.
(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٦٠، كتاب صلاة الجماعة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، ومسلم في صحيحه، رقم ١٠٣١، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.
(٦) انظر أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٧.

تعالى من العلم الدال على تحريم ما حرمه الله[1].

وقد قيلت في ذلك البرهان أقوال كثيرة «ولا حجة قاطعةٌ على تعيين شيءٍ من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى»[2].

والرؤية هنا علميةٌ؛ لأن البرهان من المعاني التي لا ترى بالبصر[3].

ولذلك أخبر الله تعالى عن عصمته له عن الفاحشة وأثنى عليه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

أي: كما أريناه برهانًا صرفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذي اصطفاهم الله واجتباهم[4].

وقد قرئت (المخلصين) بقراءتين متواترتين: فقرئت بكسر اللام، وتأويلها: الذين أخلصوا طاعة الله.

وقرئت بفتح اللام، وتأويلها: الذين أخلصهم الله لرسالته، وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين، لأنه كان مخلصًا في طاعة الله تعالى، مستخلصًا لرسالة الله تعالى[5].

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص من الفتنة، فبادرت إليه ولحقته في أثناء ذلك،، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه من دبر، يعني: شقته من خلف لا من قدام؛ لأن يوسف كان هو الهارب وكانت هي الطالبة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف:٢٥] أي: من ورائه.

فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي: وجدا زوجها لدى الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلةً وقاذفةً يوسف بدائها: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي: فاحشةً، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يحبس، أو يعذاب عذابًا مؤلما بالضرب ونحوه[6].

فدافع يوسف عليه السلام عن نفسه ونفى التهمة عنه وقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، فمن الله في تلك اللحظة تبرئة لنبيه

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٥٧، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٦، جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٥٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٨.
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٠.
(٦) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٨، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.

بشاهد من أهل بيتها يشهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق.

قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: من قرابتها، أو من من خاصة الملك، وسمي الحكم بينهما شهادةً لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل[1].

وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغيرٌ أو كبيرٌ، على قولين لعلماء السلف[2]:

القول الأول: أنه كان رجلًا لا صبيا في المهد: قال أبو جعفرٍ النحاس: «والأشبه بالمعنى- والله أعلم- أن يكون رجلًا عاقلًا حكيمًا شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة، ولو كان طفلًا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغني عن أن يأتي بدليلٍ من العادة، لأن كلام الطفل آيةٌ معجزةٌ، فكادت أوضح من الاستدلال بالعادة، وليس هذا بمخالفٍ للحديث (تكلم أربعةٌ وهم صغارٌ) منهم صاحب يوسف، يكون المعنى: صغيرًا ليس بشيخٍ»[3].

القول الثاني: أنه كان صبيًّا في المهد؛ لحديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (تكلم أربعةٌ وهم صغارٌ: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريجٍ، وعيسى ابن مريم)[4].

جاء الشاهد بقرينة من وجدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المراود لها، وأنها أرادت أن تدفعه عنها فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب، وكذلك كان.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف:٢٨].

عرف زوجها بذلك صدق يوسف وبراءته، وأنها هي الكاذبة فيما قذفته ورمته به.

فلما تحقق من ذلك ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: إن هذا البهت الذي رميت به هذا الشاب هو من جملة كيدكن، والكيد: المكر والحيلة[5].

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٣.

(٢) انظر زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٣٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢١٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٤.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٨٢١، والطبراني في المعجم الكبير، رقم ١٢٢٧٩، والطبري في تفسيره، ١٦/ ٥٤ وغيرهم من طريق عطاء بن السائب.
قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٤: إسنادٌ لا بأس به.
وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٣/ ٢٥٣.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾؛ لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن. وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام[1].

ثم إن سيدها لما تحقق الأمر قال ليوسف عليه السلام آمرًا له بكتمان ما وقع: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف:٢٩].

أي: اترك الكلام في هذا الأمر واضرب عنه صفحًا، فلا تذكره لأحدٍ؛ لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن.

ثم قال لامرأته ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ [يوسف:٢٩]. أي: من هذا الذي وقع منك، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ «ولم يقل من الخاطئات تغليبًا للمذكر، والمعنى: من القوم الخاطئين، مثل: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل:٤٣]. ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]»[2].

فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة، وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك كحال كثير من المشركين[3].

انتشر الخبر وشاع في المدينة، وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها على ما أقدمت عليه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف:٣٠].

أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها، هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغًا عظيمًا!!

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، أو هو غلافه فدخل تحته حتى غلب على قلبها، وهذا أعظم ما يكون من الحب.

ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: قلن: إنا لنرى امرأة العزيز في مراودتها فتاها عن نفسه وغلبة حبه عليها لفي خطأ من الفعل وجور عن قصد السبيل[4].

وقيل: كان هذا القول منهن مكرًا ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز، ولهذا سماه مكرًا، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ

٢/ ٦١٩، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢١.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٥، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٥.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٩.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٣، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.

﴿إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:٣١].

أي: لما سمعت بتشنيعهن عليها أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن، ولتوقعهن فيما وقعت فيه.

فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي: أعدت لهن مجلسًا للطعام، وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة طعام يحتاج أن يقطع بالسكاكين كالأترج ونحوه، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: وأمرته بالخروج عليهن في تلك الحال، فخرج وهو في غاية الجمال وقد أعطي شطر الحسن[(١)].

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي: فلما رأينه أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[(٢)].

فلما حصل من النسوة ما حصل من الإعجاب بيوسف والانبهار به تقوى موقف امراة العزيز فأقرت بمرادوته أمامهن، وازدادت إصرارًا على يوسف عليه السلام وهددته بالسجن والصغار إن لم يقبل، وتمالأ معها النسوة عليه وأشرن عليه بطاعتها ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢]. أي: امتنع، ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ تقول: لئن لم يطاوعني على ما أدعوه إليه ليحبسن وليكونًا من أهل الصغار والذلة[(٣)].

فعند ذلك أبى أشد الإباء، واستعاذ من شرهن وكيدهن، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣]. أي قال: يا رب، الحبس في السجن أحب إلي مما يدعونني إليه من معصيتك ويراودنني عليه من الفاحشة[(٤)].

«وهذا يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد»[(٥)].

قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي: تعصمني من المعصية ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي:

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/ ٦٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.
(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٤.
(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٤، جامع البيان، الطبري ١٦/ ٨٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٨٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.

أمل إليهن، ﴿وَأَكُن﴾ إن صبوت إليهن ﴿مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من الذين جهلوا حقك وخالفوا أمرك ونهيك[1].

فاستجاب له دعاءه ولطف به وعصمه عن الوقوع في الزنى، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٤].

أي: ﴿السَّمِيعُ﴾ لدعاء يوسف حين دعاه بصرف كيد النسوة عنه، ودعاء كل داع من خلقه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمطلبه وحاجته، وما يصلحه، وبحاجة جميع خلقه وما يصلحهم[2].

ثالثًا: براءته ونفي التهمة عنه:

لما تمالأ النسوة على يوسف عليه السلام وأمرنه بطاعة امرأة العزيز لجأ إلى الله في دفع السوء عنه وفضل السجن على المعصية في موقف يدل على عفة عظيمة ونفس كبيرة ومعدن أصيل: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف:٣٣].

قال ابن كثير: «وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفًا من الله ورجاء ثوابه»[3].

ولما اشتهر ال وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح قرر العزيز ومن معه سجنه عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ [يوسف:٣٥]. أي: ظهر لهم من الرأي ﴿مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ وهي الأدلة الدالة على براءته ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى مدةٍ؛ وذلك لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن؛ وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلمًا وعدوانًا، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم[4].

وبعد مدة قضاها في السجن بقدر الله تعالى رؤيا منامية يراها الملك ويعجز الجميع عن تعبيرها إلا يوسف عليه السلام، فلما عبرها أعجب به الملك وأمر بإخراجه من السجن، فامتنع يوسف عليه السلام عن الخروج حتى تتبين براءته التامة مما نسب إليه، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ [يوسف:٥٠]. أي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٨٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٠.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٧، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٦.

رسول الملك ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني الملك، ﴿فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: اسأله ما شأنهن وقصتهن، ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن الله تعالى ذكره ذو علم بكيدهن، لا يخفى عليه ذلك كله. وقيل: إن معنى ذلك: إن سيدي العزيز زوج المرأة التي راودتني عن نفسي ذو علم ببراءتي مما اقترفتني به من السوء[1].

فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن وامرأة العزيز فقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ [يوسف:٥١]. أي: ما شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ يعني: يوم الضيافة، فهل رأيتن منه ما يريب؟ فلما سئلن عن ذلك برأنه، و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ أي: لا قليل ولا كثير، يقلن: حاش لله أن يكون يوسف متهما، والله ما علمنا عليه من سوءٍ، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وتبين ووضح، والحق أحق أن يتبع ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المراودة إليها[2].

ثم قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف:٥٢].

تقول: إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، وإنما كان مراودةً لم يقع معها فعل فاحشةٍ[3].

قيل: ويحتمل أن مرادها بذلك يوسف عليه السلام، والمعنى: ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته بالكذب عليه[4].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ فإن كل خائن لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف:٥٣].

تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أمارةٌ بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: غفور لمن تاب وأناب، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول توبته وتوفيقه للأعمال الصالحة[5].

هذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر[6].

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٣٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٠.
(٢) انظر جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٣٨، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤١.
(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤.
(٤) زاد المسير ٢/ ٤٤٨.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٦.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٠.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام[1].

أما القول بأن هذا من كلام يوسف عليه السلام فإن السياق يأباه لعدة أمور:

أولها: أن الكلام لا يزال في سياق كلام امرأة العزيز.

وثانيها: أن يوسف عليه السلام لا يزال في السجن لم يخرج منه بعد كما يفيده السياق إذ قال بعد هذا ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٤].

وثالثها: أن المقام مقام براءة له وقد ظهرت براءته وحصل مطلوبه فليس مناسبا أن يقول ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ [يوسف:٥٣]، ولكل مقام مقال.

ويمكن إجمال بطلان ما يخالف براءته في ثلاثة محاور:

١. بطلان الإسرائيليات الواردة في ذلك.

لقد جاءت عدد من الروايات تصف يوسف عليه السلام بأنه عزم على فعل الفاحشة حتى جلس من المرأة مجلس الرجل من المرأة لولا أمور رآها صرفته عن ذلك، وهذه من الإسرائيليات لا يلتفت إليها؛ لأنها ليس فيها خبر واحد صحيح عن نبينا المعصوم صلى الله عليه وسلم، ولأنها لا تليق بمقام الأنبياء، ولأنه لو وصل إلى هذه الدرجه لما أثنى الله عليه كل هذا الثناء.

قال الحافظ ابن كثير: وأكثر أقوال المفسرين هاهنا متلقًّى من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنا، والذي يجب أن يعتقد: أن الله تعالى عصمه وبرأه، ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤][2].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: والآثار الواردة في ذلك على قسمين: قسمٌ لم يثبت نقله عمن نقل عنه بسندٍ صحيحٍ، وهذا لا إشكال في سقوطه. وقسمٌ ثبت عن بعض من ذكر ولكنه ملتقى عن الإسرائيليات،ولم يرفع منه قليلٌ ولا كثيرٌ إليه صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز التجرؤ على القول في نبي الله يوسف اعتمادًا على مثل هذه الروايات[3].

٢. دلائل وشواهد براءته.

منها:

- أن الله تعالى قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوءٌ ولا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٦.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢١.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢١٤، بإيجاز.

فحشاء[1].

❁ ما قاله الشنقيطي في أضواء البيان[2]:

«إن القرآن العظيم بين براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي حيث بين شهادة كل من له تعلقٌ بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به.أما الذين لهم تعلقٌ بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود. أما جزم يوسف بأنه بريءٌ من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ [يوسف:٢٦]. وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف:٣٣]. وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١]. وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۖ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ [يوسف:٢٨-٢٩]. وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف:٢٦]. وأما شهادة الله جل وعلا ببراءته ففي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص:٨٢-٨٣]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ولا شك أن يوسف من المخلصين كما صرح تعالى به في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. فظهرت دلالة القرآن من جهاتٍ متعددةٍ على براءته مما لا ينبغي».

٣. معنى الهم الوارد في الآية.

الآية هي قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤].

ولأهل العلم في المعنى المراد بالهم قولان معتبران:

الأول: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ أصلًا، بل هو منفيٌّ عنه لوجود البرهان. وهو اختيار أبي حيان[3].

قال الشنقيطي: هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٩٦.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٧.
(٣) انظر البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٥٨.

﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].

أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه.

وكقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٤].

أي: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم، وعلى هذا القول: فمعنى الآية: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠].

أي: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به»[(١)].

وهذا القول هو الذي يترجح عندي؛ لأن ظاهر السياق يؤيده، والثناء الوارد من الله في حق يوسف يؤكده.

القول الثاني:أن المراد بهمه بهاخطرات حديث النفس التي لا يؤاخذ العبد عليها، بل يؤجر العبد على تركها؛ لأنه تركها خوفا من الله تعالى،كما في الحديث: (ومن هم بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً)[(٢)].

وكما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

فكان يوسف عليه السلام ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى[(٣)].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٤٩١، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، ومسلم في صحيحه، رقم ١٣١، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما.

(٣) انظر:مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٧.

يوسف عليه السلام في السجن

أولًا: سبب دخوله السجن:

لم يقترف يوسف عليه السلام جرما يستحق أن يسجن بسببه بل سجن ظلما وعدوانًا؛ وذلك أن امرأة العزيز لما راودته عن نفسه فأبى هددته بالسجن إن لم يوافق عل طلبها ويرضى باقتراف الفاحشة، فاختار السجن على فعل الفاحشة؛ فقرروا سجنه عليه السلام، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف:٣٥].

أي: إلى مدةٍ؛ كتمانًا للقصة ألا تشيع في العامة، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلمًا وعدوانًا، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم[1].

وفي هذا دلالة على أنه ليس كل من سجن فهو متهم، بل قد يسجن البريء ظلمًا وعدوانًا كما حصل ليوسف عليه السلام.

ثانيًا: حاله في السجن:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف:٣٥]. أي: إلى مدةٍ.

وقال ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢].

والبضع: هو ما بين الثلاث إلى التسع[2]، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين[3]، والله أعلم.

المهم أن يوسف عليه السلام مكث في السجن عدة سنوات، والسجن ليوم واحد صعب فكيف بسنين!

ومع أنه سجن ظلمًا، ومكث في السجن عدة سنين لكنه ظلَّ صابرًا ثابتًا على مبدئه حتى عندما طلب منه الخروج من السجن من قبل الملك امتنع عن الخروج وتأنى حتى ثبتت براءته، وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وصبره، كما في الحديث: (لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي)[4].

وعرف يوسف عليه السلام بين السجناء بحسن التعامل حتى صاروا يقولون: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

ويخاطبونه بقولهم: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦].

قال الحافظ ابن كثير: «كان يوسف،

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٨٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٦٨.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

(٤) سبق تخريجه.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٥.

عليه السلام، قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم»[1].

ولما أوصى السجين أن يذكره عند الملك فنسي، ثم عاد ليسأله عن تعبير رؤيا الملك بعد بضع سنين عبرها له يوسف عليه السلام، من غير تعنيفٍ له في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراطٍ للخروج قبل ذلك[2].

وعرف يوسف عليه السلام في السجن، بتعبير الرؤى وجرى له في ذلك موقفان سجلهما القرآن:

الأول: تعبيره لرؤيا الفتيين الذين كانا معه في السجن.

والثاني: تعبيره لرؤيا الملك، وقد مضى تفصيل ما يتعلق بهاتين الحادثين في مبحث يوسف وتعبير الرؤى.

وقد مارس يوسف عليه السلام الدعوة إلى الله وهو داخل السجن وذلك أنه لما دخل السجن، دخل معه السجن فتيان «ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظنَّ الحسن وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

وأتياه ليعبر لهما رؤياهما؛ رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولًا أنَّ الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه»[3].

فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف:٣٧]. يقول لهما: إنَّ هذا من تعليم الله إياي، لأني مؤمنٌ به موحدٌ له.

﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يقول: إني برئت من ملة من لا يصدق بالله، ويقر بوحدانيته.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ يقول: وهم مع تركهم الإيمان بوحدانية الله، لا يقرون بالمعاد والبعث، ولا بثواب ولا عقاب.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يقول: هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين،وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢١.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٢٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.

إمامًا يقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد[1].

﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٣٨]. أي: بأن هدانا لهذا، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بأن أرسلنا إليهم دعاةً إلى توحيده وطاعته، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨][2].

ثم صرح لهما بالدعوة، فدعاهما إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عزوجل، وصغر أمر الاوثان وحقرها، وضعف أمرها فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف:٣٩]. أي: يا ساكني السجن، «وجعلهما صاحبيه لطول مقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار»[3].

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ الذي له صفات الكمال، ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها.

ولهذا قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف:٤٠].

بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهةً، إنما هو جهل منهم، وتسميةٌ من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستندٌ من عند الله.

ولهذا قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجةٍ ولا برهانٍ، بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها؛لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقد أمر عباده قاطبةً ألا يعبدوا إلا إياه، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: وحده لا شريك له، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم، يقول: هذا الذي أدعوكم إليه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٦، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٠١.
(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢. تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٢، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٠٤.

من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول: ولكن أهل الشرك بالله يجهلون ذلك، فلا يعلمون حقيقته؛ لذلك فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره؛ وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها؛ ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك[1].

وكانت دعوته لهما في هذا الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمةٌ له، منبعثةٌ على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه. ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه، عبر لهما ما رأيا[2].

قال السعدي: «فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما بذلك الحجة[3]».

ثالثًا: سبب خروجه من السجن:

لما ظن يوسف عليه السلام، نجاة أحد الفتيين الذين كانا معه في السجن -وهو الساقي- أوصاه بأن يذكر أمره للملك.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢].

يعني: اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرمٍ عند ربك -أي سيدك: وهو الملك-، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبي الله من السجن.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، أو المعنى: أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لربه، أي لسيده، وفيه حذفٌ، أي أنساه الشيطان ذكره لربه، ﴿فَلَبِثَ﴾ يوسف ﴿فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢][4].

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائدٌ

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٧، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٢، ٦٢٣، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٠٥.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٨.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١١٥.

على الناجي، وأما القول بأن الضمير عائدٌ على يوسف عليه السلام فقول ضعيف [1]؛ إذ لا سلطان للشيطان على أنبياء الله وعباده المخلصين كما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٨٣].

ويوسف عليه السلام من المخلصين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل:٩٩].

وأما ما جاء على لسان بعض الأنبياء من نسبة ما أصابهم إلى الشيطان كقول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١].

فإنما هو من باب الأدب مع الله تعالى في عدم نسبة الشر إليه، ثم إن ما ذكره أيوب عليه السلام حتى وإن حمل على ظاهره فهو حديث عن التسبب في الأذى البدني وهو يختلف عن التسلط على القلب واللسان [2].

والله أعلم.

لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف عليه السلام من السجن، قدر سببًا لإخراجه وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك، حيث «أرى الله الملك تلك الرؤيا العجيبة، التي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به» [3]، حيث قال: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف:٤٣].

ثم سأل قومه عنها فعجزوا جميعًا عن تعبيرها، فعند ذلك أرسل إلى يوسف عليه السلام وهو في السجن فعبرها كأحسن ما يكون التعبير.

هكذا عجزوا عن تعبيرها ليقع تعبيرها من يوسف عليه السلام بعد عجزهم عنها فتكون له المكانة بينهم.

قال الحافظ بن كثير: «هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام، من السجن معززًا مكرمًا، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءه وقصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ [يوسف:٤٤].

أي: أخلاطٌ اقتضت رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف:٤٤].

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.

أي: ولو كانت رؤيا صحيحةً من أخلاطٍ، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها»[1].

قال السعدي: وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عليه السلام؛ فإنه لو عبرها ابتداء -قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًّا لها غاية الاهتمام، فعبرها يوسف عليه السلام وقعت عندهم موقعًا عظيمًا، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كلِّ شيء، فحصل بذلك زيادة فضله.

وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد صلى الله عليه وسلم في القيامة؛ أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدًا صلى الله عليه وسلم فيقول: «أنا لها أنا لها» فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت ألطافه، ودقت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه[2].

لما رجعوا إلى الملك بتعبير رؤياه بما أعجبه عرف فضل يوسف عليه السلام، وكمال علمه، وتمام عقله، فأمر بإحضاره إليه؛ ليكون من جملة خاصته ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٠].

فلمَّا جاءه الرسول بذلك، امتنع من الخروج وأحبَّ أن لا يخرج حتى يتبين لكلِّ أحدٍ أنه حبس ظلمًا وعدوانًا، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه زورًا وبهتانًا[3].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني: الملك، ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، فجمع الملك النسوة وسألهن فاعترفن جميعًا ببراءته حتى امرأة العزيز.

فلما ظهرت للملك وللناس براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه، ازدادت مكانته في عين الملك فأرسل إليه وأخرجه من السجن، وعزم أن يجعله من خاصته ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف:٥٤].

أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي، فأتوه به مكرمًا محترمًا، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: فلما كلم يوسف الملك أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده، ورأى من حسن منطقه ما صدق به الخبر؛ إذ المرء مخبوءٌ تحت لسانه[4]، أو

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٩.
(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٥٥، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٢، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠١.

فلما كلم الملك يوسف عليه السلام وعرف براءته وعظم أمانته، قال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ [يوسف:٥٤]. أي: ذو مكانةٍ ومنزلةٍ ﴿أَمِينٌ﴾ أي: مؤتمنٌ على كلِّ شيءٍ[(١)].

هكذا خرج يوسف عليه السلام من السجن عزيزًا مكرمًا مبرءًا بل ممكنًا، وهكذا عاقبة الصبر على البلاء.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٤٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٦، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٩١.

يوسف عليه السلام في الملك

أولًا: توليه الملك:

لما عبر نبي الله يوسف عليه السلام رؤيا الملك عظمت مكانته عند الملك، ولما ظهرت براءة عرضه، ونزاهة ساحته مما نسبوه إليه، ازدادت مكانته عليه السلام في عين الملك أكثر، ولذلك قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف:٥٤].

أي: أجعله من خاصتي، ومن أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وسمع مقاله وتبين حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: ذو مكانةٍ وأمانةٍ[(٢)].

فَهِمَ يوسف عليه السلام من الملك أنه عزم على تصريفه والاستعانة بنظره في الملك، فبادر الملكَ فـ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف:٥٥].

أي: ولني عليها، وخزائن لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حفيظ لما استودعتني، عليم بما وليتني[(٣)].

وفي هذا دليلٌ على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة[(٤)].

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٤.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٥٦، جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٤٩.
(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٥.

فقد «طلب يوسف عليه السلام ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم، ودعوة أهل مصر إلى الإيمان»[1].

أما ما ورد من النهي عن طلب الولاية فيستثنى منه من حسن مقصده، وعلم من نفسه الأمانة والكفاءة، وعلم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح[2].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف:٥٦].

أي: بمثل هذه الأسباب والتدابير مكنا ليوسف في أرض مصر يتبوأ منها أي ينزل حيث يشاء يتقلب فيها أخذًا وعطاء وإنشاء وتعميرًا لأنه أصبح وزيرًا مطلق التصرف.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ أي: من نشاء رحمته من عبادنا، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا وعد من الله تعالى لأهل الإحسان بتوفيتهم أجورهم، ويوسف عليه السلام ممن شاء الله رحمتهم كما هو من أهل الإحسان الذين يوفيهم الله تعالى أجورهم في الدنيا والآخرة، وأخبر تعالى أن أجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون، ترغيبا في الإيمان والتقوى إذ بهما تنال ولاية الله تعالى عز وجل؛ إذ أولياؤه هم المؤمنون المتقون، ولذلك قال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:٥٧][3].

وهكذا صار يوسف عليه السلام ملكًا بعد أن كان سجينًا، وقد قال بعضهم[4]:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن
وأول مفروح به غاية الحزن
فلا تيأسن، فالله ملك يوسفًا
خزائنه بعد الخلاص من السجن

ثانيًا: مجيء إخوته إليه:

لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجدب، حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، أرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة-أي الطعام- إلى مصر.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف:٥٨].

أي: لما دخلوا عليه عرفهم؛ لأنه فارقهم وهم رجالٌ، ولم يعرفوه؛ لطول العهد، ومفارقته إياهم في سن الحداثة، أولاعتقادهم أنه قد هلك، ولأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة[5].

(١) فتح القدير ٣/ ٤٢-٤٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢١٥.
(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٢٤.
(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٧، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٢٠.
(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٧، والبحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٩٢، وتيسير

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف:٥٩].

أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيه، فـ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ أي: إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم، ثم رغبهم في الإتيان به فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام، وبعد أن رغبهم من أجل أن يأتوه به رهبهم إن لم يفعلوا ذلك فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف:٦٠].

أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرةٌ، ولا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف:٦١].

أي: سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن، دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعًا به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ لما أمرتنا به[1].

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم -وهي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام- في أمتعتهم من حيث لايشعرون بها، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ [يوسف:٦٢]. أي: غلمانه الذين في خدمته: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ثم علل فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فإنهم إذا عرفوا ذلك وعلموا أنهم أخذوا الطعام بلا ثمنٍ، وأن ما دفعوه عوضًا عنه قد رجع إليهم، وتفضل به من وصلوا إليه عليهم نشطوا إلى العود إليه، ولا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد والحاجة إلى الطعام، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم إلى الرجوع[2].

ثم يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم فيقول: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ [يوسف:٦٣]. أي: بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ وقرأ بعضهم (يكتل) بالياء[3]: أي يكتل أخونا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكره، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:١٢].

ولهذا قال لهم: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٦، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠١، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٩.

(٣) تحبير التيسير، ابن الجزري، ص ٤١٥.

الكريم الرحمن، ص ٤٠١.

﴿إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤].

أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ وقد تقدم منكم التزام، أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ وقرأ بعضهم: (حِفْظًا)[1]، أي: خيرٌ حفظًا منكم، فإن حفظه الله سلم وإن لم يحفظه لم يسلم.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم[2].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف:٦٥]. فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي: ماذا نريد؟وأي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نجلب لهم الطعام ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: سهلٌ على الملك إعطاؤه[3].

فـ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٦٦]. أي: تحلفون بالعهود والمواثيق، ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون على دفعه، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شهيد علي وعليكم[4].

ولما أرادوا السفر إلى مصر حملته العاطفة الأبوية والرحمة الإيمانية على أن أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من بابٍ واحدٍ، ولكن ليدخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ، ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧].

وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد؛ وهذا سبب، وإلا فالأمر كله بيده الله.

ولذلك قال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه؛ فإن الله إذا أراد شيئًا لا يخالف ولا

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٩، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠١.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٢٩٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٢٩، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٦٢٨.

يمانع.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإنه بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب[1].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [يوسف:٦٨].

قالوا: هي دفع إصابة العين لهم، وليس هذا قصورًا في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين.

ولهذا قال عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إياه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء[2].

ثم يذكر تعالى ما كان من أمر إخوة يوسف لما قدموا عليه ومعهم أخوه - شقيقه- وما كان من إيوائه إليه، وإخباره له سرًا عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم، وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه، فيقول: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:٦٩].

أي: لا تحزن على الأعمال الماضية التي عملوها، فإن العاقبة خير لنا[3].

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم، وذلك أنه لما جهزهم وكال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، أمر فتيانه بوضع سقايته، في متاع أخيه خفية - من حيث لا يشعر أحدٌ- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ [يوسف:٧٠]. وهي الإناء الذي كان يشرب فيه الملك ويكيل به الطعام ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾. ثم لما تحركت القافلة ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى منادٍ بينهم قائلًا: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ أي: يا أهل القافلة، ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.

قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يوسف:٧١].

ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٢].

أي: صاعه الذي يكيل به، ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: أجرة له على وجدانه وهذا من باب الجعالة، والبعير هو الجمل

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/٦٢٨، قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٠.

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٢، فتح القدير ٣/ ٥٠.

﴿وَأَنَا بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل، وهذا من باب الضمان والكفالة [1].

فأقبلوا على من اتهمهم بذلك ﴿قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف:٧٣]. بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة، فليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق».

﴿قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يوسف:٧٤]. أي: ما عقوبة السارق، إن كان فيكم ووجدناه بينكم.

﴿قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ [يوسف:٧٥]. أي: الموجود في رحله ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ بأن يتملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف:٧٥] [2].

وهذا هو الذي أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فتشها قبله، توريةً، كما قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف:٧٦].

ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزامًا لهم بما يعتقدونه.

ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر؛ لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فكان قولهم هذا: بمشيئة الله وتدبيره، وقد كان يوسف عليه السلام يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم النافع وغيره، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ فكل عالم، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة [3].

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٠، ٣٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٠.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣١،

قال ابن كثير: «وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحةٌ عظيمةٌ بعد ذلك: من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه»[1].

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل أخيهم ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ [يوسف:٧٧] هذا الأخ، فليس هذا غريبا منه، ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، وهذا مجرد اتهام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا، وفي هذا من الغض عليهما ما فيه.

ولهذا قال: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٧٧].

أجابهم سرًا لا جهرًا، حلمًا وصفحًا وعفوا، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ [يوسف:٧٨] أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أي: بدله، يكون عندك عوضًا عنه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف:٧٩] أي: إن أطلقنا المتهم وأخذنا البرئ، ولم يقل«من سرق» كل هذا تحرز من الكذب[2].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسف:٨٠]. أي: لما يئسوا من تخليص أخيهم، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، ﴿خَلَصُواْ﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿نَجِيّٗاۖ﴾ يتناجون فيما بينهم، فـ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتردنه إليه، ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾ [يوسف:٨٠].

يقول: لقد أخلفتم عهده، وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لي وجهٌ أقابله به ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: لا أزال مقيمًا هاهنا ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ في القدوم عليه راضيًا عني، ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ بأن يمكنني من أخذ أخي، ورده إلى أبي ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ لأن أحكامه لا تجري إلا على ما يوافق الحق، ويطابق الصواب.

ثم أمر إخوانه أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرًا لهم عنده، حيث قال: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف:٨١]. أي: أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾

قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٢.

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٣.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٢.

أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، ﴿وَسْئَلِ﴾ إن شككت في قولنا ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فقد اطلعوا على ما أخبرناك به، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف:٨٢] فيما أخبرناك به،لم نكذب ولم نغير ولم نبدل، بل هذا الواقع[(١)].

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه حتى ابيضت عيناه، واتهمهم أيضًا في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، وقال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:٨٣].

أي: ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا خلقه وإنما ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[(٢)].

ثم ترجى من الله أن يرد إليه أولاده الثلاثة، وأمرهم بالرجوع والبحث عن يوسف وأخيه وعدم اليأس من رحمة الله.

وامتثل الأبناء أمر الوالد ورجعوا إلى يوسف عليه السلام.

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٣، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٥.
(٢) المصادر السابقة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف:٨٨] أي: من الجدب وضيق الحال وقلة الطعام، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أي: رديئة مدفوعة، لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بقبولها على رداءتها، وقيل برد أخينا إلينا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: يثيبهم على إحسانهم ويجزيهم به خيرًا[(٣)].

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما أصابهم من الجهد والضيق، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، عند ذلك أخذته رقةٌ ورأفةٌ ورحمةٌ، فتعرف إليهم وخاطبهم قائلًا لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٩] إذ فرقتم بينهما وصنعتم ما صنعتم ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ يعني: في حال جهلكم بعاقبة ما تفعلون بيوسف، وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم[(٤)].

قال ابن كثير: والظاهر -والله أعلم- أن يوسف، عليه السلام، إنما تعرف إليهم

(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٨، أيسر التفاسير، الجزائري، ص ٢/ ٦٤١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٤٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٤.

بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح:٥-٦][1].

لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو فقالوا متعجبين مستغربين: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠] فاعترفوا بخطئهم وقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ فعفا عنهم وسامحهم، ثم أعطاهم قميصه فذهبوا به إلى أبيه فارتد إليه بصره وأمرهم أن يأتوا إليهم بأجمعهم.

لما أمرهم يوسف عليه السلام أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر، رحلوا إليه جميعًا ومعهم أبوهم فآواهم وأكرم مثواهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

أي: هذا تعبير ماكنت قصصته عليك، من رؤيتي الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر، حين رأيتهم لي ساجدين، وأمرتني بكتمانها، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠].

أي: بعد الهم والضيق، جعلني حاكمًا نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت، ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: فيما كان منهم إلي من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها[2].

ثالثًا: سؤاله حسن الخاتمة ووفاته:

لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فانٍ، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه أن يتوفاه، أي: حين يتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين، قال: ﴿۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٥.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٤٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٥.

﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف:١٠١].

أي: أدم علي الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت؛ بل كما يقال في الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين» أي: حين تتوفانا[(١)].

قال الحافظ ابن كثير: ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام، كما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين حيث قال:(في الرفيق الأعلى)[(٢)].

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجزًا في صحة بدنه وسلامته، وأن ذلك كان سائغًا في ملتهم وشرعتهم ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا، فقد نهي في شريعتنا عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن؛ فقد ثبت من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يتمنين أحدكم الموت من ضرٍ أصابه، فإن كان لا بد فاعلًا، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي)[(٣)].

أما عند خوف الفتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخبارًا عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦].

وقالت مريم لما أجاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣].

لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوجٍ وقد حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها هذا؟، وكما في حديث معاذٍ في قصة المنام والدعاء الذي فيه: (وإذا أردت بقومٍ فتنةً، فتوفني إليك غير مفتونٍ)[(٤)].

وتمنى الموت علي بن أبي طالبٍ، لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٦. تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٤٣٦، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلم في صحيحه، رقم ٢١٩١، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٥٦٧١، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٦٨٠، كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمني الموت.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٢١٠٩. وصححه الألباني في الإرواء ٣/ ١٤٧.

القتال، وكثر القيل والقال. وتمنى ذلك البخاري لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال. فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت [1].

ثم قال تعالى في ختام قصة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢].

يقول تعالى لعبده ورسوله محمدٍ، صلوات الله وسلامه عليه، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة.

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضرًا عندهم ولا مشاهدًا لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي: على إلقائه في الجب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحيًا إليك، وإنزالًا عليك يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرةٌ للناس ونجاةٌ لهم في دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس.

ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣] [2].

ولما حضرت يوسف عليه السلام الوفاة، أوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام، فدفنه عند آبائه [3].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن موسى حين أراد أن يسير ببني إسرائيل ضل عنه الطريق فقال لبني إسرائيل ما هذا؟ قال: فقال له علماء بني إسرائيل: إن يوسف عليه السلام حين حضره الموت أخذ علينا موثقًا من الله أن لا نخرج من مصر حتى تنقل عظامه معنا، فحفروا فاستخرجوا عظام يوسف) الحديث [4].

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٣٩، ٦٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٤١.

(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٥٩.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٩، وابن حبان في صحيحه، ٢/ ٥٠٠، وأبو يعلى في مسنده ١٣/ ٢٣٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٦٢٢.

الدروس المستفادة من قصة يوسف

لقد اشتملت قصة يوسف عليه السلام على الكثير من الدروس والعبر والفوائد والهدايات مما يصعب حصره.

وقد قال الله في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

وقال: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف:٧].

وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

وكلما تأمل الإنسان في قصته استبانت له فوائد جديدة، وهذه الفوائد تتداخل وتتشابك من حيث مضمونها ودلالتها ولكني حاولت تقسيمها إلى أربعة أقسام في أربعة مطالب:

أولًا: دروس عقدية:

- الاستعانة بالله واللجوء إليه عند المحن والمصائب كماقال يعقوب عليه السلام عند فقد ولده: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]. وكما قال يوسف عليه السلام عند خوف الفتنة ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣]. «فينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]»[(١)].
- أن من وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢][(٢)].
- وفيه أيضًا دليلٌ على جواز الأخذ بالأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله، وهذا واضح في عدة مواقف في هذه القصة كتخزين الأرزاق، والأخذ بالأسباب الدافعة للعين وغيرها[(٣)].
- عناية الله بأوليائه المؤمنين ولطفه بهم، وتأييدهم عند الضعف والتفريج عنهم عند الكرب: فقد لطف الله بيوسف عليه السلام في البئر حيث حفظه وأمنه ونجاه منها، وهيأ له من يكرمه بمصر، وحين عصمه من فتنة المرأة، وحين صبره في السجن وهيأ له

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٤١٠.
(٣) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٢٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٠.

الخروج منه، ويرأه مما رمي به، ومكن له في الأرض، إلى غير ذلك من مظاهر تأييد الله له وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧]. وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج:٣٨]. وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢]. وغيرها من الآيات.

- حسن الظن بالله وعدم اليأس من رحمة الله ومن تحقيق الآمال مهما كانت الأحوال؛ فيعقوب عليه السلام فقد ولده يوسف عليه السلام زمانا طويلًا ولكنه لم ييأس فحقق الله له ما رجا.
- أن الله على كل شيء قدير وأنه يكرم من يشاء من عباده بما شاء:فقد رد الله ليعقوب عليه السلام بصره بعد ذهابه، وأوصل إليه ريح يوسف من مكان بعيد، ومكن ليوسف عليه السلام على عكس ما كان يخطط إخوته! ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].
- أن العصمة من الزلل والثبات على الحق إنما هو بتوفيق الله و تسديده كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف:٢٤]. ولذلك ينبغي أن يطلب منه العون دائمًا وأن يتبرأ العبد من حوله وقوته كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]. قال تعالى ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٤].
- أن من اتهم بشيء و هو بريء فسيبرئه الله تعالى عاجلًا أم آجلًا؛كما برأ الله يوسف عليه السلام على رؤوس الأشهاد، وبرأ موسى عليه السلام لما اتهمه قومه، وبرأ مريم عليها السلام بأن أنطق عيسى عليه السلام في المهد، وبرأ الله عائشة رضي الله عنها بآيات تتلى إلى يوم القيامة في سورة النور، وقد قال لها النبي صلى الله عليه وسلم قبيل براءتها: (فإن كنت بريئةً، فسيبرئك الله) فنزلت براءتها [(١)].
- وفي قصة يوسف عليه السلام دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ما جاء به حق لا ريبة فيه؛ حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٦٦١، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٧٧٠، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف.

دارس أحدًا [1].

- أن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا؛ فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة [2].
- البدء في دعوة المشركين بتوحيد الله تعالى؛ كما فعل يوسف عليه السلام مع الفتيين في السجن.
- الإيمان بالمبدأ، وصلابة الاعتقاد سبيل لتخطي الصعاب، والترفع عن الدنايا، وذلك هو الذي جعل ليوسف نفسًا كريمةً، وروحًا طاهرة، وعزيمة صماء لا تلين أمام الشهوات والمغريات [3].
- أن الله عز وجل يؤيد المظلوم ولو بعد حين؛ كما حصل ليوسف حين برأه الله ورفعه على إخوته.

ثانيًا: دروس تربوية وسلوكية:

- الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، أخذ هذا من قول يعقوب عليه السلام لابنه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ [يوسف:٥] [4].
- أن من آداب الرؤيا: أن لا يخبر بها المرء إلا من يحب وذلك إذا رأى ما يسره، أما إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها أحدًا، قال يعقوب عليه السلام لابنه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ [يوسف:٥]. وفي الحديث (الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثًا، ولا يحدث بها أحدًا، فإنها لن تضره) [5].
- خطورة الحسد: وأنه يزرع العداوة والبغضاء، ويفسد العلاقات، ويحمل على الظلم والعدوان والكيد والتآمر وتمني زوال النعمة؛ غير أن صاحبه أول من ينال جزاءه: فيوسف عليه السلام حسده إخوته فرفعه الله عليهم.
- عداوة الشيطان للإنسان، وأن من أساليبه: الحسد والتحريش ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف:٥].
- تجنب إظهار الميل إلى بعض الأبناء دون بعض فقد يولد ذلك الحسد بينهم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٤١١.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ١٢/ ١٩٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦١٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٧٠٤٤، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٢٦٢، كتاب الرؤيا.

خاصة بين أبناء الضرائر [1].

- الحذر من شؤم الذنوب والمعاصي؛ لأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا متعددة؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، وغير ذلك وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة [2].
- ليس كل من بكى فهو مظلوم؛ فإخوة يوسف ألقوه في البئر ﴿وَجَاءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف:١٦].
- أنه ليس كل من سجن فهو متهم أو مجرم بل قد يسجن البريء ظلما وعدوانا كما حصل ليوسف عليه السلام.
- بركة الطاعة وحسن عاقبتها: و«أنها تثمر الرزق والأجر في الدنيا ولا ينقص ذلك من ثواب المؤمن عند الله شيئا، كما قال تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦]» [3].
- فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب، لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠] [4].
- أن الصبر من أعظم المسليات عند المصيبة؛ كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].
- وأن الشكوى إلى الله لاتنافي الصبر، وكذلك الشكوى للمخلوق على غير وجه التسخط؛ كما حصل من إخوة يوسف حين شكوا ما مسهم من الضر فلم ينكر عليهم.
- فضيلة الإخلاص وأنه سبب للوقاية من الفتن والعصمة من الشهوات و«أن من دخل الإيمان قلبه،وكان مخلصا لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه،وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]» [5].
- أنه ينبغي للعبد الفرار من أماكن الفتن والمعاصي؛ ليتمكن من التخلص

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) النكت الدالة على البيان، القصاب ١/ ٦١٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٩.

منها؛كما فعل يوسف عليه السلام حين راودته المرأة[1].

- أن المؤمن مبتلى وأن ذلك لحكم عظيمة؛ كما حصل ليوسف عليه السلام بعد الابتلاء من الرفعة وعلو المنزلة، وقد سئل الشافعي رحمه الله أيما أفضل للرجل، أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى[2]».
- البدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله؛كما فعل يوسف عليه السلام مع الفتيين حيث دعاهما إلى التوحيد قبل تعبير رؤياهما، وأنه ينبغي للمسئول أن يدل السائل على ما ينفعه مما يتعلق بسؤاله؛ فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وطرق تخزينها[3].
- أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن[4].
- أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولى، ليحدث لذلك شكرا كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠][5].
- فضيلة العفو والصفح وأنه من أخلاق الأنبياء والرسل كما تجلى ذلك في عفو يوسف عليه السلام عن إخوانه، وعفو أبيهم عنهم كذلك، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].
- الأدب مع الوالدين وتوقيرهما وعدم الترفع عليهما واستشارتهما، كما فعل يوسف عليه السلام مع والديه حين أجلسهما على العرش، وحين كان قبل ذلك يستشير والده حتى فيما يراه في المنام.
- الحرص على الدعاء بحسن الخاتمة والوفاة على الإسلام، كما فعل يوسف عليه السلام.

ثالثًا: دروس فقهية:

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

- أنه يجوز أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلًا في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب عليه السلام قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له [(١)].
- أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما؛ فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضا، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف:١٠]. كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير [(٢)].
- خطورة الخلوة بالنساء، وأنها مثار الفتنة؛ فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسف، ولذا حرمها الإسلام [(٣)].
- أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبها، قال الشنقيطي: «وهذه الآيات المذكورة أصلٌ في الحكم بالقرائن» [(٤)].
- جواز طلب الولاية لمن حسن مقصده وعلم من نفسه الأمانة والكفاءة، ولا يوجد من هو خيرٌ منه للقيام بها؛ كما فعل يوسف عليه السلام [(٥)].
- أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال، إذا جهل أمره، وكان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥] [(٦)].
- جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب أو فعل محرم، وجواز استعمال المعاريض القولية والفعلية وأنها مندوحة عن الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف:٧٩]. ولم يقل: (من سرق متاعنا) [(٧)].
- مشروعية الجعاله وهي: عقد على منفعة يظن حصولها، كمن يلتزم بجعل معين لمن يرد عليه متاعه الضائع، أو يحفر له هذه البئر، والأصل في

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٧.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٩.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢١٦.
(٥) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ص ٣٣٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٠.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.
(٧) المصدر السابق، ص ٤١١.

مشروعيتها قول الله سبحانه: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:٧٢][1].

- أن شرع من قبلنا ليس شرعًا لنا إذا جاء في شريعتنا ما ينسخه: «فالقطع في السرقة ناسخٌ لما تقدم من الشرائع؛ إذ كان في شرع يعقوب استرقاق السارق، وكان سلامهم بالانحناء، وقد نسخ الله في شرعنا ذلك»[2].

رابعًا: دروس عامة:

- فضيلة العلم وشرفه:، فإن يوسف عليه السلام بسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض[3].
- تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بما لقيه يعقوب ويوسف- عليهما السلام- من آلهم من الأذى، وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه[4].
- أن الرؤيا إذا عبرت وقعت، لقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١]. ولأن النبي صلى الله عليه وسلم: قال:(الرؤيا على رجل طائرٍ ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت)[5]. ولذلك ينبغي أن نعبرها بالخير والمعاني الطيبة.
- أن الرؤيا قد تتأخر فلا يظهر مصداقها إلا بعد السنين العديدة[6].
- وفيها: أصل لتعبير الرؤيا، وأن علم التعبير من العلوم المهمة، التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وأنه داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١]، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم، وأن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة[7].
- أنه قد تقع الرؤيا الصادقة من بعض الكفار -على سبيل الندرة- كرؤيا الملك والفتيين، ولا سيما إذا تعلقت بمؤمنٍ، أوكانت آيةً لنبيٍ[8].
- أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٦]. ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٦.
(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٦٩- ٧٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٩٩.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٥٩٥.
(٧) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٧.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٤.

والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف [1].

- أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين [2].
- استغلال أي فرصة للدعوة إلى الله تعالى حتى في السجن كما فعل يوسف عليه السلام.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأخوة، البنوة، التبني، التمكين، الحسد، الرؤيا، السياسة، النبوة

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٨.
(٢) المصدر السابق.

اليوم الآخر

عناصر الموضوع

مفهوم اليوم الآخر	١٥٦
اليوم الآخر في الاستعمال القرآني	١٥٧
أسماء اليوم الآخر	١٥٨
أوصاف اليوم الآخر	١٦٣
الأدلة القرآنية على البعث بعد الموت	١٧٠
أبرز أحداث اليوم الآخر	١٩٠
المآل والمصير	٢١٤

مفهوم اليوم الآخر

أولًا: المعنى اللغوي

بداية لا بد من إعطاء معنى لغوي للفظتي: (اليوم) و(الآخر)؛ لكون مصطلح الدراسة مركب منهما، وذلك بالرجوع إلى معجمات اللغة.

اليوم لغةً: تدور دلالة اليوم غالبًا في المعجمات اللغوية على الزمن المقيد أو المطلق، فالياء والواو والميم: كلمةٌ واحدةٌ، هي اليوم المعروف، وهو غالبًا عند العرب في كلامها يدل على النهار من طلوع الشمس إلى غروبها، وقد تطلقه على الليل والنهار كليهما. وقد يستعمل اليوم في اللغة للدلالة على مطلق من الزمان أي: الوقت الحاضر من الزمان[١]. وقد يراد به «الوقت مطلقًا، ومنه الحديث: (تلك أيام الهرج)[٢] أي: وقته»[٣]. ومن معاني اليوم لغة أيضًا: الدهر، ويستعمل أيضًا بمعنى: الدولة وزمن الولايات، وبمعنى: الوقائع. ويستعار عند العرب للشدة والأمر العظيم[٤].

الآخِر لغةً : خلاف الأول والمتقدم ونقيضهما، وهو من الفعل أخرته فتأخر،، يقال: جاء آخرًا، أي: أخيرًا، والجمع: أواخر، والآخر من أسماء الله تعالى قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

والآخِر: هو الباقي بعد فناء خلقه كله الذي ليس بعده شيءٌ[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

فقد تطور من معناه اللغوي وأخذ منه في معنى مناسب له في الكلام. ولليوم الآخر تعريفات عدة عند العلماء متقاربة.

ويمكن تعريفه بأنه اليوم الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء، وسمي بذلك؛ لأنه آخر انقراض الدنيا وآخر أيامها ولا يوم بعده، فهو آخر الأوقات المحدودة الذي لا حد للوقت بعده[٦].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٤٦٣، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٩.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة، رقم ٤٢٥٨، ٦/ ٣١٤.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٩.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٤/ ١٤٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٥٩.
(٥) انظر: تهذيب اللغة ٧/ ٢٢٧، تاج العروس ١٠/ ٣٤.
(٦) انظر: العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين، حسين بن غنام، ص ٥٧.

اليوم الآخر في الاستعمال القرآني

ورد (اليوم الآخر) في القرآن الكريم(٢٨) مرة [١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اليوم الآخر	٢٨	﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة:١٨]

اليوم: اسم لما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والآخر: خلاف الأول وبعده، و(اليوم الآخر) في الاستعمال القرآني: اسم يطلق على يوم القيامة، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى [٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢١، ص٧٧٥-٧٨٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهمزة ص٣٤-٣٥، باب الياء ص١٤٤٢-١٤٤٨.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٤١٣-٤٢١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦٣٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣٥٩-٣٦٠.

أسماء اليوم الآخر

للإحاطة بدلالة اليوم الآخر في التعبير القرآني لابد من دراسة الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم تدل على اليوم الآخر وتشير إليه من قريب أو بعيد، وإذا نظرنا في القرآن الكريم نرى كثرة في الألفاظ الدالة عليه وتعددها بشكل لافت، وكل ذلك تقرير لحقيقة هذا اليوم وبيان ماهيته، ومما يجليه أمام العيان عن طريق وحي الألفاظ الدالة عليه.

وتوارد هذه الألفاظ في القرآن الكريم التي هي بعضها أسماء له، وتنوعها وكثرتها يدل على عظيم قدره وهوله وشدته ويبين شدة أهوال ذلك اليوم وتأثيره في الناس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢].

بالإضافة إلى ذلك فإن كثرة أسمائه وأوصافه تدل على أهميته وشرفه؛ لأن كثرة الأسماء والأوصاف الدالة على الشيء الواحد تدل على شرف المسمى وكماله غالبًا، قال الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ): «اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء يوم القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي -عليه الصلاة والسلام- دلت على علو رتبته، وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه، وفضيلته؟!»[1].

والقرآن الكريم عندما يستعمل هذه الألفاظ للدلالة عن ذلك اليوم العظيم، فإن كل لفظ منها يجلي صفة من صفاته وأهواله، و«كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها»[2] من هذه الروابط والضوابط التي تضبطها بقدرة الله وإرادته. كما أن تعددها وتجمعها على صعيد واحد يقرب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد صورة ذلك اليوم على الكون والانسان وأهواله وشدته، فيحدث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن، والملاحظ أن هذه الألفاظ أغلبها قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ٨٨.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٧٩.

تأسيس أصول الدين والعقيدة السليمة في القلوب، وهي توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته للكون والخلائق جميعًا، وفي مقدمتها: الإنسان الذي كرمه الله أيما تكريم وفضله على كثير ممن خلق تفصيلًا، لذلك كان من «صفات السور المكية وبخاصة السور القصيرة منها أنها ذات أسلوب وإيقاع قويين شديدين في وقعهما يعملان على قرع القلوب بحقائقها التي تؤديها»[1]، ومنها هذه الألفاظ الدالة على اليوم الآخر التي ترد كثيرًا في مطالع هذه السور وفي آياتها فتلفت الانتباه لفتًا قويًا في تلقي المعاني والأصول الكبرى للدين الحنيف، وسنتناول في هذا الموضع بالتفصيل أسماء اليوم الآخر والألفاظ ذات الصلة به؛ لنحاول أن نجلي للمتلقي ونكشف له عن المعنى الذي ينطوي وراءها قدر الإمكان:

١. القيامة.

جاء هذا اللفظ للدلالة على اليوم الآخر في سبعين آية من آيات القرآن الكريم، وهو من أجلى الأسماء والصفات لذلك اليوم وأشهرها. ولم يرد هذا الاسم إلا مركبًا (يوم القيامة) من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وغيرها من الآيات الكريمة. والقيامة لغة: مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث؛ للمبالغة، وسمي بذلك؛ لما يقوم فيه من الأمور العظام التي بينتها النصوص. ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين[2].

٢. الساعة.

من الألفاظ الدالة على ذلك اليوم العظيم أيضًا: الساعة، وورد هذا اللفظ تسعًا وثلاثين مرة في خمس وثلاثين آية من آيات القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: ١].

وغيرها من الآيات. وأطلق لفظ الساعة على اليوم الآخر؛ إما لقربه، أو لأنه يأتي بغتة، أو في لحظة، أو في ساعة معينة وإذا باليوم الآخر قد قام، والناس غير منتبهين.

(١) انظر: التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ص ٢٥٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥١٨.

قال القرطبي رحمه الله: «والساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وسميت به القيامة إما لقربها، فإن كل آت قريب. وإما أن تكون سميت بها تنبيهًا على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود. وقيل: إنما سميت بالساعة؛ لأنها تأتي بغتة في ساعة»[1].

٣. الواقعة.

يأتي لفظ الواقعة للدلالة على اليوم الآخر في موطنين من القرآن الكريم فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ١-٧].

والموطن الثاني في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣-١٥].

وسمي بالواقعة؛ لتحقق كونه ووجوده؛ لأنه يقع لا محالة، أي: إذا وقعت التي لا بد من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله[2]. ولفظ (الواقعة) من الأسماء التي انتقلت من الوصفية إلى الاسمية؛ لأنها ختمت بالتاء، وأوثر التعبير بلفظ (الواقعة) على وزن (فاعلة)؛ ليدلَّ على العموم والشمول والشدة والمبالغة[3].

٤. الحاقة.

جاءت ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾؛ للدلالة على اليوم الآخر ثلاث مرات في موطن واحد عند قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ١-٤].

سمي بذلك؛ «لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد؛ ولهذا عظم تعالى أمرها فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾»[4]. أو أنها: «سميت بذلك لأن فيها الثواب والجزاء»[5].

إضافة إلى ذلك أن في إطلاق لفظ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ على اليوم الآخر دلالة على العموم والشمول والشدة والمبالغة في إثبات المعنى، وهو اسم على وجه التخصيص ليوم القيامة، أي: إنها تحق الحق في ذلك اليوم الذي لا يحيط به العلم والإدراك.

٥. الغاشية.

جاء لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ للدلالة على اليوم الآخر في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

وسمي بذلك؛ لأنه يغشى الناس بأفزاعه

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٥٤٦.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٥٥.
(٣) انظر: معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي ص١٢٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٠٨.
(٥) معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٧٩.

وأهواله وشدائده ويغمهم، ومن معانيه أنَّ الكفارَّ تغشاهم النار، وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

أو سمي بذلك؛ لأنه يغشى الناس من كلِّ جهة أو بسبب مشاهِدِهِ المفزعة تغشى الناس فجاءة، ولا يخفى ما لهذا اللفظ من تصوير للهول الذي يحلُّ بالخلق يوم القيامة، وفي ذلك تهويل له في القلوب، ففيه إثبات لشاهده ودليله فهو يغشى الناس بعذابه ويلبسهم أهواله، قال الزمخشري رحمه الله: «﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها»[1].

٦. القارعة.

ورد هذا اللفظ للدلالة على اليوم الآخر أربع مرات في موطنين الأول في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤].

والثاني تكرر اللفظ فيه ثلاث مرات في سورة القارعة وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣].

وسمي بالقارعة؛ لأنه يقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع لعظيم ما ينزل بهم من البلاء عندها، ويقرع الكون بالدمار والتحطيم وتتغير فيه معالم الكون كله، يقال: أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله وشدائده[2]، وأصل القرع: «الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة[3]: إذا وقع بهم أمر عظيم»[4]، ويعمق هذا الإيحاء الإيقاع المنبعث من حروف ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ (القاف والراء والعين) المعروفة بقوتها وشدتها.

٧. الآزفة.

ورد هذا اللفظ في موضعين الأول مضافًا إلى اليوم في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

والثاني مجردًا في قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧].

وسمي اليوم الآخر بـ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ لأزوفه، أي: لقرب وقوعه، وضيق وقته؛ لأن الأزف: ضيق الوقت[5].

واليوم الآخر قريب جدًّا، وكلُّ آت فهو قريب وإن بعد مداه. وهو بعد ظهور علاماته أكثر قربًا. ولا يخفى ما للفظ ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ من تعظيم لشأنه وتفخيمه فهي قد «اقتربت

(١) الكشاف ٤/ ٧٤١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٣٦.

(٣) فقرتهم الفاقرة: أصابتهم مصيبة أو داهية كسرت فقار ظهورهم.
انظر: لسان العرب ٥/ ٦٢، مادة فقر.

(٤) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٦٨.
وانظر: لسان العرب ٨/ ٢٦٥ مادة قرع.

(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٥.

كاسحة جارفة، وهي الطامة والقارعة التي جاء النذير يحذركم إياها، أو هو العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده، ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾»[1].

٨. الراجفة والرادفة.

ورد هذان اللفظان في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٦-٩].

وهما يصوران على نحو شديد ما يقع من الهول والاضطراب في الكون حينئذ، فسمي بالراجفة؛ لأن فيه تهتز السموات والأرض ويضطرب نظامهما ويدمر كلّ شيء فيهما، أما تسميته بالرادفة؛ لأنها تتبع الراجفة، وقيل: هما النفختان في الصور، قال الزمخشري رحمه الله: «﴿الرَّاجِفَةُ﴾ الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال، وهي النفخة الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها، ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي: الواقعة التي تردف الأولى، وهي النفخة الثانية. ويجوز أن تكون الرادفة من قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢].

أي: القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعادًا لها، وهي رادفة لهم؛ لاقترابها.

وقيل: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾: الأرض والجبال، من قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤].

و﴿الرَّادِفَةُ﴾: السماء والكواكب؛ لأنها تنشق وتنتشر كواكبها على أثر ذلك»[2].

٩. الصاخة.

ورد لفظ ﴿الصَّاخَّةُ﴾ في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

وسمي اليوم الآخر بالصاخة؛ «لشدة صوتها؛ لأنها تصخ الآذان، أي: تصمها فلا تسمع»[3]، فهذا اليوم العظيم يصخُّ الناس فيه صخًّا بأهواله الشديدة، ومما يعزز هذا المعنى ويعمقه جرس اللفظ، فهو جرس شديد «يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقًّا، حتى يصل إلى الأذن صاخًّا ملحًا»[4].

١٠. الطامة الكبرى.

جاء لفظ ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾؛ ليدل على اليوم الآخر في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤-٣٥].

وسمي بـ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾؛ لتفظيعه في

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٨.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٩٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٦٦.

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٣٤.

قلوب السامعين وتهويله في نفوسهم، فهو يَطُمُّ بأهواله ودواهيه الخلق لعظمه، قال البغوي رحمه الله: «وسميت القيامة طامةً؛ لأنها تطم على كلِّ هائلةٍ من الأمور، فتعلو فوقها وتغمر ما سواها، والطامة عند العرب: الداهية التي لا تستطاع»[1]. وبناء ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ وجرسها الإيقاعي يصوران هـذا المعنى ويقربانه، فهي تـدل على العموم والشدة والمبالغة؛ لأنها من الأسـماء التي ختمت بتـاء التأنيث، فانقلبت من الوصفية إلى الأسمية[2].

١١. الآخرة.

ورد لفظ الآخرة في القرآن الكريم مائة وخمس عشرة مرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١].

وغيرها من الآيات. و«سميت آخرة؛ لتقدم الدار الأولى أمامها، فصارت التالية لها آخرةً. وقد يجوز أن تكون سميت آخرة؛ لتأخرها عن الخلق، كما سميت الدنيا (دنيا)؛ لدنوها من الخلق»[3].

(١) فتح القدير ٥/ ٤٥٩.
(٢) معاني الأبنية في العربية، ص ١٢٢- ١٢٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٢٤٥.

أوصاف اليوم الآخر

تناولنا فيما سبق أسماء اليوم الآخر والألفاظ ذات الصلة به، والآن نتناول أوصاف هذ اليوم في التعبير القرآني؛ لتتضح ملامح هذا اليوم العظيم من خلال هذه الأوصاف.

والناظر في القرآن الكريم يجد أنَّ الله تعالى وصف اليوم الآخر بأوصاف كثيرة متنوعة، وهذه الأوصاف تبين حقيقته، فهي بمثابة التعريف به وبيان ماهيته، وسنحاول الوقوف على معنى الوصف ودلالته ومناسبته لليوم الآخر في القرآن الكريم ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا:

١. يوم الدين.

يعد هذا الوصف ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ من أشهر أوصاف اليوم الآخر، وقد ورد في ثلاثة عشر موضعًا من كتاب الله تعالى، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠].

وغيرها من الآيات الكريمات. وأصل الدين في لغة العرب: الجزاء والحساب، «يقال: كما تدين تدان، المعنى: كما تعمل تعطى وتجازى»[4].

ومن هنا كان المراد من يوم الدين: يوم

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٧.

الحساب والجزاء الذي يحاسب ويجازي الله فيه العباد على أعمالهم وأفعالهم في الدنيا.

٢. يوم الحساب.

وصف هذا اليوم بـ﴿يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ في القرآن الكريم في أربعة مواضع ثلاثة منها في سورة ص والآخر في سورة غافر، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[غافر: ٢٧].

ووصف هذا اليوم بيوم الحساب؛ لأن فيه يحاسب الله تعالى العباد على أعمالهم خيرها وشرها والنعم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم ومطاعمهم، وغير ذلك من النعم، قال القرطبي: «يوم الحساب معناه أنَّ الباري سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، ويعدد عليهم نعمه، ثم يقابل البعض بالبعض فما يشفُّ منها على الآخر حكم للمشفوق بحكمه الذي عينه للخير بالخير وللشر بالشرّ»[(١)].

٣. يوم الجمع.

جاء وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ في موضعين من كتاب الله تعالى، الأول: في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[التغابن: ٩].

ووصف الله تعالى هذا اليوم العظيم بيوم الجمع؛ لأنه تعالى في هذا اليوم يجمع الخلائق كلها أولها وآخرها للحساب، قال الرازي رحمه الله: «وفي تسميته بيوم الجمع وجوهٌ: الأول: أن الخلائق يجمعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩].

فيجتمع فيه أهل السموات مع أهل الأرض، الثاني: أنه يجمع بين الأرواح والأجساد، الثالث: يجمع بين كلِّ عاملٍ وعمله، الرابع: يجمع بين الظالم والمظلوم»[(٢)].

٤. يوم الفصل.

وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ في ستة مواضع من الكتاب الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[الصافات: ٢١].

وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

وغيرها من الآيات الكريمات. والفصل: البون ما بين الشيئين والجبلين وهو المفصل، ويطلق أيضًا ويراد به القضاء بين الحق والباطل، يقال: أمرٌ فيصلٌ وفاصلٌ،

(١) التذكرة بأحوال الموتى ص ٥٦٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٥٨٠.

أي: قاطعٌ[1].

ووصف اليوم الآخر بيوم الفصل؛ لأنه اليوم الذي يفصل فيه بين عباده الأولين والآخرين بأعمالهم فيما كانوا فيه يختلفون، وفيما كانوا فيه يختصمون، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

إضافة إلى ذلك أنه اليوم الفاصل الذي يبين الحق فيه من الباطل[2].

٥. يوم البعث.

ورد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ مرتين في موضع واحد من كتاب الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

وأصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف بحسب اختلاف ما علق به. ويوم البعث هو يوم الخروج من القبور[3].

قال ابن منظور: «والبعث أيضًا: الإحياء من الله للموتى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾: أي: أحييناكم. وبعث الموتى: نشرهم ليوم البعث. وبعث الله الخلق يبعثهم بعثًا: نشرهم»[4].

فهو يوم عظيم للخلق بعد الموت وانقضاء الدنيا يوم يبعثهم الله من قبورهم للحساب والجزاء، فينبئهم الله تعالى بما عملوه في الدنيا.

٦. يوم التلاق.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ إلا مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[غافر: ١٥].

ووصف اليوم الآخر به من عدة وجوه منها أنه يوم عظيم يلتقي به الخلق كلهم الأولون والآخرون، حتى يلتقي فيه آدم عليه السلام بآخر ولده، وفيه يلتقي الخالق بالمخلوق، ويلتقي فيه أهل السماء بالأرض، والظالم بالمظلوم، بالإضافة إلى أنه يوم تتلاقى فيه الأرواح بالأجساد، وأنَّ كلَّ عامل سيلقى ما عمله من خير وشر ويجازى عليه وغيرها[5].

٧. يوم التغابن.

جاء وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ مرة واحدة فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [التغابن: ٩].

و(التغابن) على وزن تفاعل من الغبن

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٢٤.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٩.
(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ١٣٢.
(٤) لسان العرب ٢/ ١١٧، مادة بعث.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٣٥- ١٣٦.

وهو: «أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضربٍ من الإخفاء»[1].

أما في سبب وصفه بيوم التغابن؛ لأنه في ذلك اليوم يظهر الغبن والتفاوت بين الخلق من أربعة وجوه:

أحدها: أنه ليس من كافر إلا وله منزل وأهل في الجنة، فيرث ذلك المؤمن، فيغبن حينئذ الكافر.

والثاني: غبن أهل الجنة أهل النار.

والثالث: أنه يوم غبن المظلوم الظالم؛ لأن المظلوم كان في الدنيا مغبونًا، فصار في الآخرة غابنًا.

والرابع: أنه يوم يظهر فيه غبن الكافر بتركه للإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان[2].

٨. يوم التناد.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢].

والتناد: مصدر تنادى القوم، أي: نادى بعضهم بعضًا، ويوم التناد وصف لليوم الآخر، وصف بذلك؛ لكثرة ما يحصل من نداء في ذلك اليوم، فالله تعالى ينادي المشركين؛ توبيخًا لهم في ذلك اليوم العظيم فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤].

والناس يومئذ ينادي بعضهم بعضًا في هذا اليوم، فينادي أصحاب الأعراف رجالًا يعرفون بسيماهم في النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، وينادي أهل النار بعضهم بعضًا؛ للاستغاثة، أو يتصايحون فيه بالويل والثبور. والملائكة تنادي الخلق ينادون إلى المحشر، وتنادي أصحاب الجنة إلى غير ذلك مما يقع في هذا اليوم من التنادي[3].

٩. يوم الخلود.

ورد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].

ووصف اليوم الآخر بيوم الخلود؛ لأن الناس يصيرون إلى دار الخلود، فالمؤمنون مخلدون في الجنان والكافرون مخلدون في النار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧][4].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٠٢.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٩٣.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٣٢٠.
(٤) انظر: القيامة الكبرى، عمر الأشقر ص ١٩.

١٠. يوم الحسرة.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[مريم: ٣٩].

ووصف هذا اليوم بيوم الحسرة؛ لشدة تحسر العباد فيه وندمهم على ما فرطوا فيه من الصالحات في الدنيا. والحسرة: الغمُّ على ما فات والندم عليه، قال تعالى عن حال المقصر في الاخرة: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦][(١)].

١١. يوم الخروج.

وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ مرة واحدة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢].

والخروج: مأخوذ من خرج يخرج خروجًا إذا برز من مقره أو حاله. ووصف هذا اليوم بيوم الخروج؛ لأنه يوم الخروج من القبور، فالخلق يخرجون من قبورهم للحساب؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣][(٢)].

١٢. يوم الوعيد.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾[ق: ٢٠].

ووصف هذا اليوم بيوم الوعيد؛ لأنه اليوم الذي يحصل فيه الوعيد للكافرين الذي توعدهم الله به في الدنيا، «وإضافة يوم إلى الوعيد من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه، أي: يوم حصول الوعيد الذي كانوا توعدوا به، والاقتصار على ذكر الوعيد؛ لما علمت من أنَّ المقصود الأول من هذه الآية هم المشركون»[(٣)].

١٣. اليوم الموعود.

وصف اليوم الآخر بـ(اليوم الموعود) مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢].

ووصف هذا اليوم بالموعود؛ لأنه تعالى وعد بوقوعه بعد زوال الدنيا، واجتماع الخلق فيه، ومحاسبتهم على أعمالهم كلها[(٤)].

١٤. يوم الوقت المعلوم.

وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ مرتين في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[الحجر: ٣٧-٣٨].

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[ص: ٨٠-٨١].

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٢٣٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٧٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٣٠٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، جزء عم، ابن عثيمين ص ١٢٥.

ووصف اليوم الآخر بيوم الوقت المعلوم؛ لأن الله تعالى عنده علمه وحده[1].

هذه أشهر أوصاف اليوم الآخر في القرآن الكريم، وقد وردت أوصاف أخرى كثيرة تدلُّ على أنَّ المراد منها هو اليوم الآخر، اشتقها العلماء من الآيات ومعانيها من ذلك:

- يوم عسير في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٩].
- ويوم عظيم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥].
- ويوم كبير في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].
- ويوم أليم في قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].
- ويوم عبوس قمطرير في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].
- ويوم مشهود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].
- ويوم عقيم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].
- ويوم يكشف عن ساق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].
- ويوم جعل الولدان شيبًا في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].
- ويوم لا بيع فيه ولا خلة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].
- ويوم لا ريب فيه في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].
- ويوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٩/ ١٤١.

- ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].
- ويوم يجمع الله الرسل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].
- ويوم ينفع الصادقين صدقهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].
- ويوم يقول نادوا شركائي في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].
- ويوم ينفخ في الصور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].
- ويومكم هذا في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].
- ويوم يأتي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].
- ويومهم الذي في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].
- ويوم يحمى عليها في نار جهنم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].
- ويوم يلقونه في قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].
- ويوم مجموع له الناس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

إلى غير ذلك من الأوصاف التي جلت معالم هذا اليوم المهول ورسمت معالمه.

واليوم الآخر لما عظم أمره وكثرت أهواله، سماه الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفه بأوصاف كثيرة، وهذا شائع في كلام العرب، فهم كلما عظم شأن الشيء عندهم تعددت أسماؤه وصفاته، فالشيء الحقير ما له إلا اسم واحد فقط، لكن الشيء العظيم

له أسماء كثيرة، فـ(السيف) لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم مثل المهند، والصارم، والمسلول، والبتار وغيرها، و(الأسد) كذلك جمعوا له أسماء كثيرة مثل: ليث، وغضنفر؛ لأنه أسد[1].

الأدلة القرآنية على البعث بعد الموت

البعث كما سبق ذكره هو إحياء الأجساد وعودة الأرواح إليها، بعد نفخة الصور الثانية، فيقوم الناس لرب العالمين، حفاةً عراةً غرلًا، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

والبعث ركن ثابت في الإيمان باليوم الآخر، وقد أثبته القرآن الكريم في كثير من المواضع، واستدل على وقوعه وتحققه وعالجه بشتى الطرق والأساليب، وأثبته بالأدلة النقلية عن طريق آياته التي توجب الإيمان به، والأدلة العقلية من خلال الاستدلال بآيات الله تعالى الكونية في الأرض على إثبات البعث بعد الموت، وجاء تركيز القرآن الكريم على هذه القضية؛ لأن كفار مكة كانوا ينكرونها، ويعتقدون أن لا حياة بعد الموت كما حكى عنهم القرآن: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

واستدلوا بعدم البعث بعد الموت واستبعدوه بعدم حدوث شيء لآبائهم كما حكى عنهم القرآن من ذلك في قوله تعالى:

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص٥٤٤.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٦-٦٨].

فرد عليهم القرآن الكريم ظنهم الفاسد وشكهم بالبعث والحساب بقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وتوعدهم بالعذاب الأليم مثل قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[الإسراء: ٩٧-٩٩].

وحاججهم في كثير من المواضع، وأثبت البعث والحساب بالأدلة العقلية -كما سيأتي بيانها بالتفصيل- كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وسنتناول فيما يأتي معالجات القرآن الكريم لشبهات منكري البعث، وإيراده الأدلة العقلية والنقلية على إثباته ووقعه لا محالة ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، وعلى النحو الآتي:

أولًا: الأدلة العقلية:

أورد القرآن الكريم أدلة عقلية كثيرة تثبت البعث والحساب، وسلك في ذلك لإثباتها مسالك مختلفة في طريقة العرض والاستدلال، ومن هذه الأدلة العقلية:

١. قدرة الله المحيطة بكلِّ شيء.

من الأدلة العقلية التي ساقها القرآن الكريم في آياته لإثبات عقيدة البعث بعد الموت هي قدرة الله المحيطة بكلِّ شيء، فالله تعالى خالق الكون كله ومنه الإنسان، وهو القادر على إحيائه بعد موته وهو أهون عليه، ولقد جاءت آيات كثيرة تدلُّ على ذلك يقترن فيها الرد على منكري البعث بالتذكير بقدرة الله تعالى على ذلك منها تعرضها لشكِّ الكافرين بالبعث والحساب، فترد عليهم، وتثبت من خلال الطبيعة كتاب الله المنظور تعالى صدق الوعد الذي يكذبونه، منوعة في عرض الأدلة تنويعًا عجيبًا وصولًا إلى إثبات البعث ودفع شبه منكريه.

والله تعالى له القدرة المطلقة، فهو سبحانه على كلِّ شيء قدير، وما دامت له القدرة المطلقة تعالى، فإن مقتضى ذلك أن يقدر على إحياء الموتى، فضرب لهم سبحانه الأمثلة بأمور مشاهدة من الحياة

هي نظير بعث الأجساد وحشرها، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

ففي الآية «دلالة واضحة على قدرة الله، فكيف يستبعد عليه إعادة تلك الأجسام الضعيفة بعد تفرقها، وهو القادر على خلق هذه الآيات العظيمة، من السماء والأرض، ذلك هو دليل البعث؛ لأنه يدلُّ على كمال القدرة، ومن المقدور عليه إعادة خلق الإنسان وإيجاده مرة أخرى، وقد قرن هذا الدليل بالتهديد حيث قال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

ثم بين تعالى أن المنتفع بتلك الآيات كلُّ من يرجع إلى ربه، ويتوب إليه، لا من يتمادى في عناده وتعصبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾»[1].

ومن الآيات التي دلت على قدرته تعالى في إحياء الموتى وبعثهم وحاججت منكري البعث قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٩-٧٤].

وقد تضمنت هذه الآيات أربعة أدلة حسية ومشاهدة من واقع الإنسان وحياته على جواز البعث وإمكانه: الأول: ماء الرجل (المني) في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، والثاني: إنبات النبات في

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الثالثة عشر، العدد ٥٠، ٥١ ربيع الآخر، رمضان ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٦٨.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، والثالث: إنزال المطر في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ وسيأتي بيان هذه الأدلة.

ومن أَجَلِّ الآيات التي بينت قدرة الله على البعث وحاججت منكريه قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١-١٥].

وبعد سوق كل هذه الأدلة التي يراها كلُّ الناس بأعينهم، والتي فيها دلالةٌ على البعث يأتي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾؛ ليوضح الصورة التي كانوا ينكرونها ويقربها إليهم عن طريق التشبيه، إذ شبه سبحانه إحياء الإنسان وبعثه بعد موته، بإحياء الأرض وإنباتها بالغيث بعد طول اليبس والجدب، وهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى [(١)].

وخروج الإنسان من قبره للبعث يكون بنزول الماء من السماء أيضًا، كما جاء في الحديث الصحيح: (ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة)[(٢)].

ومن الأدلة على إمكانية البعث بيان قدرة الله تعالى على إخراج الأشياء من أضدادها. فإذا كانت الحياة ضد الموت، والبعث ضد الفناء، فإن الله تعالى الذي يخرج الضد ممن ضده قادر على إحداثه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

فالله هو الذي يخرج الإنسان الحي من النطفة، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان

(١) انظر: الإبداع البياني، الصابوني ص٣١٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، البخاري، كتاب التفسير، باب (يوم ينفخ في الصور)، رقم ٤٩٣٥، ٦/ ١٦٥.

الحي، وكذلك الأنعام والبهائم، فالنطفة ميتة ثم ينشئ الله منها إنسانًا حيًّا، ومن الإنسان الحي تخرج النطفة الميتة، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[الأنعام: ٩٥-٩٦].

٢. القادر على الأكبر قادر على الأصغر.

من الأساليب القرآنية لإثبات البعث والحياة بعد الموت الاستدلال بأن من خلق الأعلى والأكبر والأعظم، فقدرته على خلق الأدنى والأصغر أولى، والله تعالى من جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس، ومن ذلك لفت النظر إلى خلق السموات وما فيهما من الشمس والقمر وسائر الكواكب والأرض وما فيها من جبال رواسي شامخات وأنهار وسهول وهضاب وغيرها، على ما اشتملت عليه من العظمة التي تعلو على خلق الإنسان أضعافًا مضاعفة.

فكيف يقال للذي خلق هذا الخلق العظيم بأنه لا يستطيع أن يخلق ما دونها ويعيده بعد موته؟

وهذا في حق الخلق، أما في حق الله الخالق فالكلُّ في قدرته، سواء كبر المخلوق أم صغر، فخلق السموات والأرض كخلق أصغر شيء، فالكلُّ سواء في ميزان القدرة الإلهية، ولكنه سبحانه يضرب الأمثال لنا بما نعقله وندركه، وقد ورد هذا الاستدلال في آيات كثيرة من القرآن الكريم تبين في مجملها أن خلقهما أعظم من خلق الإنسان.

ومن الآيات الدالة قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١-٨٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٦-٥٧].

فاستدلَّ ربنا تعالى باقتداره على خلق السموات على اقتداره على إعادة الأروح إلى الأجساد عند البعث بعد الموت؛ لأن خلق الإنسان أقلُّ شأنًا من خلق السموات والأرض، ومن ثَمَّ فإن الله تعالى القادر على خلق السموات والأرض لا يعجزه خلق الإنسان -الذي هو جزء من هذا الكون- وإعادته.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يدمج الله تعالى الاستدلال على البعث بالتحدي

وذلك في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢].

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن أورد عددًا من الآيات حول هذا الاستدلال: «فالله تعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا؛ إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعًا ولو لغيره، وإن لم يعلم الذهن امتناعه؛ بخلاف الإمكان الخارجي. فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعًا، والإنسان يعلم الإمكان الخارجي؛ تارةً بعلمه بوجود الشيء، وتارةً بعلمه بوجود نظيره وتارةً بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه، فإن وجود الشيء دليلٌ على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه.

ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكنًا فلا بد من بيان قدرة الربِّ عليه، وإلا فمجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك. فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم والقدرة عليه أبلغ، وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك»[1].

٣. القادر على البدء قادر على الإعادة.

من أدلة القرآن الكريم في الاستدلال على البعث بعد الموت استدلاله على وقوع وإمكان النشأة الثانية -البعث بعد الموت- بالنشأة الأولى -الخلق الأول.

وهذا استدلال جاء في كثير من آيات القرآن الكريم، استدلال يلزم منكر البعث الحجة بالدليل القاطع، فهو يغفل عن أن خلقه على هذا النحو أعظم دليل، فهو يرى بأم عينيه كل يوم النشأة الأولى للإنسان والحيوان، ومن كانت هذه حاله في الأولى لن يصعب إرجاعه في الثانية؛ لأن الذي خلق من العدم قادر غير عاجز تعالى على أن يعيده وهو أهون عليه، لكن فطرة هؤلاء المنكرين فسدت؛ لكفرهم وعنادهم، فغابت عنهم الحقائق الثوابت: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٢].

ومن الآيات الكريمات التي ذكرت الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وتذكير منكري البعث المستبعدين له بهذه الحقيقة الثابتة التي لا يستطيع أحد إنكارها قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٢٩٩.

﴿أَوَذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨-٥٢].

فالآيات تعرض لسؤال منكري البعث المتكرر دومًا (من يعيدنا؟)، (من يبعثنا؟) وهذا غاية الإنكار منهم، كما قال الألوسي رحمه الله: «فيه من الدلالة على غلوهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد عليه»[(١)].

فجاءت الآيات بالجواب البليغ المفحم بأن قل لهم يا محمد -تحقيقًا للحقِّ، وإزاحة للاستبعاد، وإرشادًا لهم إلى طريقة الاستدلال-: إن الذي يعيدكم ويبعثكم هو الله القادر العظيم الذي فطركم وأنشأكم في النشأة الأولى، من غير مثال سابق يحتذيه ولا أسلوبٍ ينتحيه، وكنتم ترابًا ما شم رائحة الحياة، أليس الذي يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية إلى حالتها المعهودة؟! بلى إنه على كلِ شيء قدير[(٢)].

قال الرازي رحمه الله: «فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية، وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءًا من بدن الحي، أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة، فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفةً بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت، فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حيًّا عاقلًا كما كان»[(٣)].

ولكن لا زال الجحود والشكُّ والريبة تجول في عقول المنكرين للبعث ومخيلتهم، كما ذكر الله عنهم بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

فالوجود دليل على العدم؛ إذ لولا ذلك لما كان للشيء وجود في الخارج.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم نجد تفصيلًا في الاستدلال على البعث بالخلق الأول للإنسان، فأبونا آدم خلقه الله من تراب، فالقادر على جعل التراب بشرًا سويًّا، لا يعجزه أن يعيده بشرًا سويًّا مرة أخرى بعد موته، ويذكر أيضًا بخلقنا نحن -ذرية آدم- فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين، تَحَوَّلَ هذا الماء فأصبح نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم تحولت إلى مضغة. إلى أن نفخ فيها الروح، وجعلها إنسانًا سويًّا.

فالقادر على هذا الخلق المشاهد

(١) روح المعاني ٨/ ٨٧.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٧٧.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٣٥٢.

المعلوم، قادر على إعادته، وإحياء الموتى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

وهذه الآيات تعطي تفصيلًا للمراحل التي يمر بها خلق الإنسان، فقد قابل الله هذه المراحل بعدة دلالات على قدرته سبحانه على البعث.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «أي إنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقًا جديدًا، ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد، وهو خلق الإنسان؛ فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد، وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها، وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات؟! كل ذلك من نطفة ماء! فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته»[1].

وهذه الآيات لها دلالة عقلية على البعث: فهي نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وأنَّ إنشاء الإنسان من التراب، وتطور الجنين في مراحل حياته، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود، كلُّ ذلك متعلق بأن الله هو الحقُّ، فهو من السنن المضطردة التي تنشأ من أن خالقها هو الحقُّ الذي لا تختل سننه ولا تتخلف، وأن اتجاه الحياة في هذه الأطوار؛ ليدل على الإرادة التي تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها.

فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحقُّ، وبين هذا الاضطراد والثبات، والاتجاه الذي لا يحيد، وأن إحياء الموتى هو إعادة للحياة، والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي ينشئها للمرة الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء، فهذا البعث تقتضيه حكمة الخلق والتدبير، وإنَّ هذه الأطوار التي يمرُّ بها الجنين، ثمَّ يمر بها الطفل بعد أن يرى النور؛ لتشير إلى أن الإرادة المدبرة لهذه الأطوار ستدفع

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٩.

بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال؛ إذ إن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض، فهو يقف ثم يتراجع ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

فلابد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان، فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة، فهي تدلُّ على البعث من ناحية أنَّ القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهي تدلُّ على البعث؛ لأن الإرادة المدبرة تكمِّلُ تطوير الإنسان في الدار الآخرة، وهكذا تلتقي نواميس الخلق والإعادة ونواميس الحياة والبعث، ونواميس الحساب والجزاء، تشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر، الذي ليس في وجوده جدال[1].

ومن الآيات أيضًا قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

فالله تعالى يعلم أين ذهبت العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها وتفرقها وتمزقها، ويعلم مم يعيد خلق الإنسان كما بدأه من أصغر جزء في الإنسان وهو: عجب الذنب. قال مجاهدٌ، وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسدي، وقتادة في سبب نزول هذه الآيات الكريمات: (جاء أبي بن خلفٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظمٌ رميمٌ، وهو يفتته ويذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: (نعم، يميتك الله تعالى ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار).

ونزلت هذه الآيات من آخر يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾، إلى آخرهن عن ابن عباس، (أن العاصي بن وائلٍ أخذ عظمًا من البطحاء ففته بيده، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أيحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، يميتك الله ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم). قال: ونزلت الآيات من آخر يس)[2].

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدء الخلق؛ ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٧-٢٨].

وهذه الآيات مثلٌ ضربه الله تعالى لعباده؛ ليدلَّ على «أن الإعادة أهون عليه

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٥٩٤.

من البداية، أي: أيسر، وإن كان جميعه على الله تعالى هينًا، وقاله ابن عباسٍ. ووجهه أن هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لعباده، يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم»[1].

يقول الفخر الرازي رحمه الله معلقًا على هذه الآيات نقلًا: «لو اجتمع كلُّ الخلائق على إيراد حجةٍ في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها؛ إذ لاشكَّ أنَّ الإعادة ثانيًا أهون من الإيجاد أولًا، ونظيره: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]»[2].

وبمجموع الآيات السابقة كلها نجد أن أسلوب الآيات يمزج الحجج والبراهين العقلية القاطعة بالكلمات البليغة المؤثرة، والمنطق الصحيح، وبهذا يرد القرآن الكريم على منكري البعث والحساب ويجادلهم ويبطل مزاعمهم، ويبدد شبههم الباطلة الواهية في أسلوب بليغ محكم يلزم الحجة في الاستدلال على البعث بعد الموت بالنشأة الأولى.

٤. القادر على الإماتة ثم الإحياء قادر على البعث.

إنَّ تقلب الخلق بين الموت (العدم) ثمَّ الحياة، ثم الموت، ثم الحياة الأبدية الخالدة أعظم دليل على قدرة الله التي تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه فـ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وفي كثير من المواضع من القرآن الكريم يبين ربنا الرحمن تعالى أن من تمام مستحقات ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذا فإنه يميت ويحيي، ويخلق ويفني، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ومن كانت هذه حاله فهو قادر على رد الأرواح إلى الأجساد وبعثها في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢١.
(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٥٦.

﴿الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤-٩٨].

وأبعد من ذلك فقد استدل القرآن الكريم في كثير من آياته بقصص وأحداث من أماتهم الله تعالى ثم أحياهم في الدنيا؛ ليثبت قضية البعث بعد الموت، ويدلل على صدق ما أخبر به الرسل من أمر المعاد. ومن هذا الاستدلال ما ورد في سورة البقرة، إذ وردت فيها أحداث متنوعة تدلل على ذلك:

منها حادثة بني إسرائيل مع نبيهم سيدنا موسى عليه السلام حين قالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل في معرض الامتنان عليهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٧].

وقريب من هذه الحادثة ما تحكيه لنا السورة المباركة أن أناسًا فروا خوفًا من قدر الله المتحقق في الموت، وهم ألوف، فوقعوا به فماتوا ثم أحياهم الله بعدها، يقول ربنا تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وفي هذه الآيات «يقص سبحانه وتعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن لا يغني حذر عن قدر، ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ﴾ إن الله تعالى ﴿أَحْيَاهُمْ﴾ إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفا وحلما، وبيانا لآياته لخلقه بإحياء الموتى، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم ﴿عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلا تزيدهم النعمة شكرًا، بل ربما استعانوا بنعم الله تعالى على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقر بها ويصرفها في طاعة المنعم»[1].

ومنها أيضًا في الاستدلال على البعث قصة العزير عليه السلام وهو أحد أنبياء بني إسرائيل الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالى، فأماته الله تعالى مائة سنة، ثم أحياه.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٦.

﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وهذه القرية هي: بيت المقدس، خربها الملك الجبار بختنصر وقتل أهلها، فمر عليها عزير، فإذا بالقرية خربة مدمرة، فوقف عزير متفكرًا فيما آلت إليه من الخراب، مستعظمًا قدرة الله ومعترفًا بالعجز عن معرفة طريق الإحياء فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟! فأراه الله ذلك في عالم الواقع؛ ليكون ذلك أبلغ في المعرفة؛ لأن أحاسيس الإنسان ومشاعره أحيانًا لا تقبل مجرد دليل، فأراه الله أبعد الأمرين في نفسه على أبلغ وجه، حيث أماته فاختلط لحمه وعظمه وشعره بالتراب ثم أحياه، ثم في غيره حيث أحيا له الحمار وحفظ طعامه من الفساد؛ ليكون ذلك آية على قدرة الله على البعث والإعادة ودرسًا لغيره[1].

ومن هذا الاستدلال في السورة المباركة نفسها سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى؛ فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير، ويفرقهن أجزاء على الجبال التي حوله، ثم يناديهن، فتلتئم الأجزاء بعضها إلى بعض، ويأتين إلى إبراهيم سعيًا.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهذه حادثة أخرى يستدل بها القرآن الكريم على البعث بعد الموت بطريقة عملية تطبيقية.

ومنها أيضًا في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها؛ ليخبرهم بمن قتله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة. لقد كانوا قد قتلوا نفسًا منهم ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه. ولم يكن هناك شاهد فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٨٩، تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٨٨.

وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة. وهكذا كان، فعادت إليه الحياة؛ ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الشكوك التي أحاطت بمقتله، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين. حادثة أمام العيان لم يكن الغرض منها إحياء هذا الميت؛ ليكشف لهم عن قاتله فحسب، بل ليكشف الله للقوم بأنه جعل ذبح البقرة وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله في إحياء الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، حتى يبلغوا من بعدهم قدرة الله تعالى على الإيجاد والمعاد[1].

ومن هذا الاستدلال أيضًا الذي دل على إمكان إحياء الموتى. ما جعله الله تعالى من آيات عيسى بن مريم في إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ومن ذلك أيضًا ما أخبر الله عن قصة أصحاب الكهف، إذ لبثوا وهم رقود في كهفهم مدة طويلة ثم بعثهم قال تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ [الكهف: ١٠-١٢].

قال الشوكاني رحمه الله: «فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث»[2]، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١].

إن هذه الحوادث والقصص كلها جاءت؛ لتدل على إحياء الموتى بعد مماتهم، وهذا برهان قطعي على قدرة الله تعالى على ذلك، وعبرة وعظة لمنكري البعث وتبصرة وذكرى لكل عبد منيب.

٥. العدل والحكمة يستلزمان وجود اليوم الآخر.

لم يخلق الله تعالى الخلق عبثًا ولن يتركهم سدى، بل خلقهم لغاية معلومة وهي العبادة؛ لتكون الدنيا دار عمل واختبار لهم، فانقسموا على قسمين: قسم آمن وعمل الصالحات، والقسم الآخر كفر وعصى وعمل السيئات، ومن هنا فإن من حكمة الله ومقتضى عدله وجود البعث ومن ثم الجزاء للخلق بعد الموت؛ ليجزي كل واحد منهم

(١) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٧٩-٨٠.

(٢) فتح القدير ٣/ ٣٢٨.

الجزاء الأوفى على ما قدم في الدنيا، فيثيب المحسن منهم ويعاقب المسيء، ولو لم يكن هناك بعث للخلق وحساب لهم على أعمالهم التي قدموها في الحياة الدنيا، لكان الخلق كله عبثًا باطلًا ولانتفت صفة العدالة في حقه تعالى، وهذا أمر لا يتفق مع حكمة الله تعالى وعدله وهو مناقض ومعارض للعدل الرباني الإلهي؛ لأن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل وأنزل عليهم الكتب؛ لبيان الطريق الموصلة إليه، وعليه فإن ذلك يستلزم الحساب والجزاء -كما سبق-.

وقد جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم تبين أن البعث ضرورة يقتضيها عدل الله وحكمته وتقرر ذلك، منها قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

آيات ابتدأت المحاججة بالاستفهام الإنكاري؛ لنفي التساوي بين المسلمين والكافرين في الجزاء، وإبطال زعم الكافرين بالتساوي حينها. أي: لا يكون المسلمون كالمجرمين الكافرين في سوء الحال والمآل.

ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

فهل يظن عاقل أن يترك الإنسان في هذه الدنيا لا يؤمر ولا ينهى ويترك في قبره سدى دون أن يبعث؟! إن ذلك لا يليق بحكمة الله، فكل شيء يصدر عنه سبحانه له حكمة تقتضيه[(١)].

وعدل الله لا يسوي بين من أحسن وأساء قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قال ابن القيم رحمه الله: «لهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه»[(٢)].

وحكمته تعالى تقتضي أن تكون هناك حياة ثانية بعد الحياة الدنيا، يقام فيها ميزان العدل الإلهي، وينال كل عامل جزاء عمله خيرًا كان أم شرًا، وهذا ما أكده القرآن وأشارت إليه آياته وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وغيرها من الآيات.

٦. القياس على المحسوسات كالنباتات.

ذكرنا -فيما سبق- أدلة على البعث وكانت أغلبها -إن لم تكن كلها- أدلة عقلية، وفي القادم نذكر بعض الأدلة الحسية من

(١) انظر: المصدر السابق ٣/ ٥٩٢.
(٢) الفوائد، ص ٧.

واقع الإنسان الذي يعايشه تدل على صدق البعث والنشور بعد الموت، أدلة حسية ملموسة في الأرض والسماء، كتاب الله المنظور، تأتي آيات القرآن الكريم -الكتاب المسطور- لتعبر عنها بأبلغ بيان وأحسنه وتقرها، أدلة جعلها الله لكل ناظر فيها الفوز والنجاة، ومن هذه الأدلة الحسية التي يشير إليها القران الكريم: الأرض اليابسة القاحلة الميتة، ومنها أيضًا: النبات وغيرها التي تأتي في مقام الاستدلال ومحاججة الكافرين ومنكري البعث على أن الله تعالى هو الخالق وحده لهذا الكون العظيم القادر على إفنائه، وهو وحده القادر على إعادة الخلق بعد مماتهم في اليوم الآخر بعد فناء الدنيا وزوالها، قال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام وهو يدعو قومه إلى معرفة أمر البعث فيقول: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧-١٨].

ومن آيات الاستدلال بالأدلة الحسية: الأرض الميتة اليابسة التي لا نبات فيها وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

فهذا مثل ضربه الله تعالى بإحياء الأرض بالنبات بعد إنزال المطر عليها كدليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، فكما يحيي سبحانه الأرض الميتة التي لا نبت فيها ولا ماء يحيي الله تعالى الموتى عند البعث، فجعل الله سبحانه وتعالى إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلًا على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحصي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة، وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض[1].

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن

قال ابن عاشور رحمه الله: «وهذا ارتقاءٌ في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل؛ لأنه استدلالٌ بحالةٍ مشاهدةٍ، فلذلك افتتح بفعل الرؤية، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان؛ فإن مبدأه غير مشاهدٍ، فقيل في شأنه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾. ومحل الاستدلال من قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾، فهو مناسبٌ لقوله في الاستدلال الأول: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت»[1].

ومن الآيات التي تبين قدرة الله تعالى على البعث وتدلل عليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

وفي هذه الآيات يربط القرآن الكريم حقيقة الحياة الدنيوية لبعض مخلوقات الله وبين النشأة الأخرى، موضحًا ذلك على طريقة الناس في معرفتهم لنشأة هذه الحياة، أي: كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء، كذلك يحيي الموتى من قبورهم تصوير لكيفية انبعاث الحياة في الأبدان المودعة في القبور، بحال انبعاث الحياة في النبات المودعة في الأرض، بما يطرأ عليهما من أحوال مختلفة من حياة وموت بطريقة متعاقبة.

ومن آيات الاستدلال أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

آية يؤثرها التعبير القرآني بأسلوب الخطاب، وهو خطاب عام، والمعنى: ومن العلامات الواضحة والدلالات القاطعة على وجوده، وعلى البعث وأنه يحيي الموتى هذه الصورة المحسوسة. وأدخل المخاطب في جو الآية؛ ليباشر رؤية هذا المشهد المليء بالحركة بعد السكون، فالإنسان المنكر للبعث يرى في كل زمان ومكان الأرض ﴿ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ هكذا على سبيل استعارة الخشوع -وهو (التذلل)- لحال الأرض إذ كانت مقحطة يابسة لا نبات عليها.

وقد أوثرت هذه الاستعارة في هذه الآية، في حين وصفت الأرض في سورة الحج بأنها هامدة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ

القيم، ٨/ ٣٠١.

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٠٣.

﴿وَرَبَتْ﴾، وهي صفات إنسانية أضفاها التعبير القرآني على الأرض، فأخرجها بهذه الصورة الموحية المؤثرة، والصفتان تعبران عن معنى واحد، وهو ما يظهر على الأرض من آثار الجدب وفقدان معالم الحياة.

ويتناسب اختيار الصفتين مع هدف الآيات في عرض قدرته تعالى على إحياء الأرض وهو إثبات البعث والنشور وإحياء الموتى، فكما أن الأرض ﴿خَٰشِعَةً﴾ و﴿هَامِدَةً﴾ لا حياة فيها ولا روح قبل نزول الماء عليها، كذلك ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هامدون، وكما تستجيب الأرض الميتة وتهتز وتربو وتدب الحياة فيها بسبب الماء النازل، كذلك فإن الله الذي أحياها لمحيي الموتى، فالآيتان ذات دلالة شاملة من خلال اقترانهما بالسماء والأرض، وبذلك تحقق شمول العبرة لكل كائن على الأرض، وتتحقق نعمة الهداية، فضلًا عن أن حيوية الصورة قائمة بتجددها واستمرارها؛ لأن إنزال الماء على الأرض عملية مكررة مع الزمان والمكان، فهي قائمة ما دامت السموات والأرض، شاهدة على قدرته تعالى، يعتبر بها جيل بعد جيل، ولابد من ملاحظة التناسب والانسجام بين الفكرة المراد إثباتها وبين الاستعارتين، فهو تناسب وتأليف محكم[1].

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وفي هذه الآيات السابقة استدلال بتبدل أحوال الأرض والنباتات من موت إلى حياة، وسلب خاصية النشوء والنماء في بعض النباتات فتهمد وتتفتت ثم تسقى بالماء فتعود إليها تلك الخاصية، فلو كان مستحيلًا إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى لما عادت الحياة إلى النباتات المختلفة بعد موتها؛ لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلهية في إعادة الحياتين سيرتهما الأولى.

ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكرين إلى التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج العظات والعبر منها؛ ليعود للنفس إيمانها فتسعد بالطمأنينة والاستقرار، وقد تقدمت المشابهة بين إعادة الحياة إلى النبات بالمطر وإعادة بناء الأجساد وإنباتها بالمطر الذي يجعله الله عند البعث وهو مطر كمني الرجال فتنبت منه الأجساد. ولهذا يقول تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥].

إشارة إلى أن العجب يكون من إنكارهم لا من البعث ومعناه: إن كان لك عجب

(١) انظر: الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، ص ١٤٢ و ٢٢٣-٢٢٤.

من شيء فمن إنكارهم البعث، فاعجب؛ لأن العجب ما ندر وجوده وخفي سببه، وليس البعث مما ندر، وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها، واكتساء الأشجار بعد عريها، وعود النهار بعد زواله، والليل بعد ذهابه، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى.

ومن طرق الاستدلال التي تبين قدرة الله تعالى على البعث وتدلل عليه بدليل واقعي حسي: (إخراج النار من الشجر الأخضر) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

فهذه الآيات تدلل على البعث عن طريق الشجر المقطوع لإيقاد النار، فالشجر إذا قطع وأصبح حطبًا يكون ميتًا وليس فيه أثر للحياة، فإذا أوقدت به النار دبت فيه الحركة واضطرب، وهذه آثار الحياة، فمن قدر على هذا قادر على إحياء الموتى، وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل في موضع آخر في معرض الاستدلال على ألوهية الله وربوبية، وإثبات البعث والحساب، ومحاججة منكريه، وإبطال اعتقادهم الفاسد في سورة الواقعة، فبعد أن أكد سبحانه البعث إجمالًا في معرض الرد على الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٧-٥٠].

يرجع السياق لإثبات البعث بمحاججتهم بما يرونه بأعينهم من أدلةٍ وبراهين ثابتةٍ فيبدأ سبحانه بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧].

وهذه الحقيقة لا ينكرها مشركو العرب، فهم كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو الخالق، فخاطبهم تقريعًا لهم بأن من خلقهم أول مرةٍ سيعيدهم إلى الحياة بعد الموت، وهذا ما يدل عليه حذف مفعول الفعل ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ أي: بالبعث والحساب. ثم تأتي الآيات لتعقد حوارًا مع الكافرين لمحاججتهم عن طريق الاستفهام؛ لبيان عظمة الله تعالى وقدرته في هذا الكون وصولًا إلى تقريعهم وإثبات البعث وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا

تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾
نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ
أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾
أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ
تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ
ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا
فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾
ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ
جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ
رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٧٤].

ويلاحظ على الآيات أنها أدرجت ضمن منظومةٍ قرآنيةٍ تميزت بوحدة الموضوع والسياق والأسلوب، حتى إنها تمخضت عن قاعدةٍ أسلوبيةٍ في أدب الحوار والاستدلال، الاستدلال على قدرة الله تعالى على الخلق، والتصديق بحقيقة البعث، ولقد أتى الاستدلال بالنعم وفق تسلسلٍ منطقي؛ إذ ابتدأ بذكر المتنعم بالنعم نفسه وهو الإنسان، فقدم بذكر خلقه، وأعطاه الأهمية والأولوية، ثم ذكر النعم المسخرة له[1].

ومن الأدلة على إمكانية البعث وطرق الاستدلال الواقعية الحسية عليه: (ظاهرة النوم واليقظة) باعتبارهما نموذجًا متكررًا للموت والحياة للإنسان؛ لأن النوم هو في الحقيقة موت أصغر؛ إذ إن كلًّا منهما عبارة عن انسحاب من الحياة وتوقف الأعضاء عن أداء مهامها، على درجات متفاوتة بينهما، واليقظة شبيهة بالبعث؛ إذ إن كلًّا منهما يعني عودة الأعضاء إلى أداء وظائفها مع اختلاف بينهما في الدرجة.

وجاء هذا الاستدلال في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠-٦٢].

آيات وإن كانت خبرًا من الله تعالى عن قدرته وعلمه، فإن فيها احتجاجًا على المشركين به الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم، وبعثهم بعد فنائهم[2]. فدلت بذلك على إمكان البعث والحشر؛

(١) انظر: آيات الأنواء الجوية في القرآن، أحمد عامر سلطان، ص ١٢١.

(٢) انظر: جامع البيان ١١/ ٤٠٦.

لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى، ولذلك ناسب تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

أي: في معرفة حقيقة ما بين الموت والحياة واليقظة والنوم من المناسبة، فإذا جهلنا حقيقة النوم وكيفية حصوله رغم بساطته ورغم تعاقبه والتصاقه بحالنا، فمن باب أولى ألا ندرك سر الإحياء وحقيقته، فكم في الكون أشياء لا يدرك العبد -على بساطتها- حقائقها لما أودع الله فيها من الأسرار والكوامن ما يقف الإنسان عندها مستسلمًا مستضعفًا نفسه مستصغرًا تفكيره مؤمنًا موقنًا، مع ما في ذلك من منافاة الإيمان بالغيب[(١)].

ومثل هذا الاستدلال جاءت آيات كريمات أخرى. والنبي صلى الله عليه وسلم حول بمنهجه الإصلاحي هذه الحقيقة إلى أمر واقعي يستشعره المرء المسلم كل يوم صباحًا ومساءً،- فيتذكر الموت والبعث ولا يغفل عنهما البتة، بقوله صلى الله عليه وسلم آمرًا صحابته رضي الله عنهم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: (إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)[(٢)].

وعن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه قال: (اللهم باسمك أحيا، وباسمك أموت) وإذا استيقظ قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور)[(٣)].

(١) انظر: منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت، منظور بن محمد رمضان ص٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٣٢٠، كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة قبل النوم، ٨/ ٧٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٧١١، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ٤/ ٢٠٨٣.

أبرز أحداث اليوم الآخر

أولًا: أحداث كونية:

١. تصدع الكون وتبديله.

فصل القرآن الكريم في مشاهد اضطراب النظام الكوني وتداعيه في اليوم الآخر، فعرض المشاهد الأولى له وشخصها بكل دقةٍ للسامع تشخيصًا بينًا دقيقًا، وصور حال الأرض والسموات حينها، وكيف تتبدل صورتهما وتتغير عما هي عليه في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وذكر ما يحل بالكون من خرابٍ ودمارٍ وتغيرٍ لمعالمه، وسنحاول جهد الإمكان عرض هذه المشاهد بحسب وقوعها وترتيبها الزمني، وإن كانت بعض هذه المشاهد متداخلةً فيما بينها، ومن أولى المشاهد التي تحصل ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ۝٦ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ١-٧].

فهذه آياتٌ تصور حال الكون، وما يجري فيه من تغيرٍ واضطرابٍ عند قيام الساعة، صورةٌ كلها تهويلٌ وتفخيمٌ لهذا اليوم، والتهويل يتجلى من المطلع، إذ يبدأ بـ﴿إِذَا﴾ الشرطية؛ لشد ذهن السامع إلى ما بعدها مع حذف جوابها، وفي هذا الحذف تحقيقٌ لدلالة التهويل والتفخيم؛ إذ يترك لخياله ونفسه أن يذهبا في تخيله وتصوره كل مذهبٍ، وكأن هذا الجواب لا تحيط بوصفه الألفاظ والعبارات. ويبين سبحانه ما يحل على الأرض من دمارٍ عند وقوعها، فيقول مكررًا: ﴿إِذَا﴾ لزيادة التهويل والتفخيم في: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾، فالأرض سترج حتى تتهدم الجبال الرواسي وتكون أثرًا بعد عينٍ، أي: أصبحت الجبال بعد هذا البس كالغبار المنثور المتطاير، تشبيهٌ زاد من تهويل هذا اليوم وفظاعته، وللدلالة على تحقق هذا الأمر بالرج والبس أكدت الأفعال بمصادرها في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾، و﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾[1].

وهذا التحريك والتسيير للجبال جاء مرافقًا لمشهد اضطراب السماء وتموجها في موضعٍ آخر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩-١٠].

مشهدٌ يصور السماء وهي تتموج وتضطرب، والجبال تتحرك من مكانها وتسير؛ لتئول إلى هباءٍ منبثٍ. وفي موضعٍ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٨٤.

آخر نجد تشبيه الجبال الرواسي بعد هذا الرج والبس بالصوف المنفوش في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

فالجبال تصبح كالصوف المتناثر هنا وهناك، صورةٌ تشبيهيةٌ تبين هشاشة الجبال وتفتتها يوم القيامة حتى تغدو كالصوف المتناثر المتطاير. ومشهد نسف الجبال وبيان حالها تكرر في القرآن الكريم في أكثر من موضع.

وفي موضعٍ آخر نقرأ آياتٍ كريماتٍ تصف ضعف وهوان الدنيا التي ما إن ينفخ في الصور حتى تذهب زينتها وتنتهي، وتهدم معالمها وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣-١٦].

آياتٌ كريماتٌ تنقل مشاهد اليوم الآخر وتركز على تصوير أحداثه لا ذكر محدثه، حتى ليخيل للمرء أن هذه الأشياء منقادة انقيادًا إلى سرعة الاستجابة للفعل، فتنخلع الأفئدة وترتعد الفرائص من هول ما يحدث آنذاك ترهيبًا وتخويفًا[1].

وتتنوع مشاهد الاضطراب الكوني في تصوير حال السماء والأرض، ويلاحظ أن أكثرها بدأ بـ ﴿إِذَا﴾ الشرطية مع حذف جوابها للاهتمام بما بعدها، وشد ذهن السامع إليها، مع تقديم المسند إليه بعدها، هذا التقديم الذي يحدث تهويلًا قد لا نجده في تأخيره، ويهز المتلقي ويلفته إلى أمرٍ غريبٍ لم يحصل مثله في الدنيا، فالسماء لم يسبق لها أن انفطرت أو انشقت، ولا الكواكب اندثرت أو انكدرت، ولا البحار سجرت أو فجرت، وغيرها من الأحداث الغريبة غير المألوفة[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٥].

وبالأسلوب نفسه نجد أن مشهد الخراب يأتي على الكواكب والبحار في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٣].

ويتوسع القرآن في بيان مشاهد التغير والخراب في الكون في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾

(١) انظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، أحمد محمد سعد، ص٢٦٥.

(٢) انظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حميد أحمد عيسى العامري، ص ٨٢.

﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١-١٤].

فهذه آياتٌ تصور ما يحل بالكون من اضطرابٍ وتحولٍ يمس كل أركانه، ذلك التغير العنيف المتمثل في طمس الأنوار، واندثار النجوم، وتسيير الجبال، وتفجير البحار وغيرها من صور الخراب الذي شمل كل شيءٍ في الأرض والسماء.

وتتغير الألفاظ ويبقى الأسلوب نفسه في عرض مشاهد الاضطراب في هذا النظام في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١-١٥].

فالآيات تصور مشهد الاضطراب في النظام الكوني، المتمثل في تلك الحركة العنيفة التي تجتاح كل شيءٍ، وتثير كل شيءٍ، فتطمس النجوم، وتنشق السماء، وتنسف الجبال، فتتلاشى الثوابت، ويحل الروع محل الأمن في الأرض، والصخب محل السكون.

٢. النفخ في الصور.

من مشاهد الأحداث الكونية النفخ بالصور فيكون البعث والنشور بعدها. والصور قرن كالبوق، يأمر الله تعالى إسرافيل عليه السلام أن ينفخ فيه النفخة الأولى وهي نفخة الصعق، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم يأمره أن ينفخ النفخة الثانية وهي نفخة البعث، فإذا الخلائق قيام ينظرون، ويمثل البعث والنشور أول مراحل اليوم الآخر.

وقد تنوعت مشاهد البعث في التعبير القرآني فبينت مشهد النفخ في الصور ومشهد بعث الناس من قبورهم استعدادًا لحسابهم، مع وصف حال الناس وهم يستقبلون النداء والتركيز على حال الكافرين حينئذٍ، والنفخ في الصور هو أول مراحل اليوم الآخر، والصور هو الناقور كما سماه الله تعالى في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨].

ومما جاء في بيانه قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

وهذه هي النفخة الأولى التي تقضي على الخلائق كلها إلا ما شاء الله تعالى فبعد أن

يأمر الله تعالى الملك إسرافيل عليه السلام بالنفخ الأول في الصور فينفخ فيه، فعندها يهلك جميع الناس والجن والحيوانات على وجه الأرض، وبذلك تجمع الأرض وتضم في طياتها وفي بطنها وعلى ظهرها جميع أحيائها أمواتًا لا حي فيهم.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه النفخة المهولة بأكثر من تعبير ووصف منها النفخة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣].

ومنها الصيحة في قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

ومنها الراجفة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧].

والزجرة في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣].

ثم تأتي بعدها النفخة الثانية بعدما يشاء الله بذلك بعد الأربعين، ويصف فيه الحق تعالى بعث الناس ونشورهم عند سماع النفخ في الصور في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥١-٥٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤].

وغيرها. فما هي إلا نفخة واحدة والكل واقف: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

فبعد النفخ الثاني في الصور تعود الأرواح إلى أجسادها، ويحيا الناس، ويخرجون من قبورهم ويقومون لله رب العالمين للحشر والحساب. هذه النفخة الشديدة على الكافرين -كما سيأتي بيانه- والذي عبر عنه القرآن بـ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨-١٠].

«والنقر في الناقور هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور، ولكن التعبير هنا أشد إيحاءً بشدة الصوت ورنينه؛ كأنه نقرٌ يصوت ويدوي، والصوت الذي ينقر الآذان أشد وقعًا من الصوت الذي تسمعه الآذان، ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين»[1].

٣. الإنبات من القبور.

بعد أن بينا فيما سبق المراحل التي تسبق الإنبات من القبور، والتي تتمثل في تداعي الكون والنفخ في الصور، تطالعنا آيات كريمات تبين الكيفية التي يخرج بها الناس من قبورهم لأرض المحشر؛ لاستقبال حسابهم بعد النفخة الثانية، وقد ذكر ذلك في عدد من الآيات المباركات متخذًا من

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٥٥.

التشبيه والاستعارة أدوات في التعبير عن ذلك، راسمًا لنا صورة مادية تتجسد فيها عناصر الدهشة والإسراع والذهول من هول ما يرون. والناظر في أغلب المواضع التي ذكرت فيها هذه الكيفية يجد أن التعبير القرآني يركز في أكثرها على الكافرين ومنكري البعث.

قال تعالى واصفًا هذا الخروج: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥١-٥٢].

فبعد النفخة الثانية يخرج الناس وينبتون من قبورهم كما ينبت البقل كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما بين النفختين أربعون) قال: أربعون يومًا؟ قال: (أبيت)، قال: أربعون شهرًا؟ قال: (أبيت)، قال: أربعون سنةً؟ قال: (أبيت)، قال: (ثم ينزل الله من السماء ماءً، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة)[1].

وينقسم الناس إلى صنفين: صنف يقول: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وصنف يقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ويخرجون حفاةً عراةً غرلًا خائفين ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣].

وهذا ينبئ أنهم يخرجون من القبور في كرب شديد وهول عظيم مفزع.

وقد تناولت آياتٌ عديدةٌ من القرآن الكريم أحوال الناس وطريقة بعثهم، وصورهم، حركاتهم وقسماتهم بكل دقةٍ تتناسب مع هول ذلك اليوم وشدته، تلك الحركات الدالة على الهول والفزع والاندهاش مما رأوه من اضطراباتٍ كونيةٍ، وأهوالٍ حلت بالأرض وبهم بعد البعث، راسمةً صورهم بدقةٍ مما يجعل المتلقي وكأنه يعيشها، مركزةً على مشاهد الكافرين من انكسار أبصارهم وخشوعها ذلًا وهوانًا، وحركاتهم التي تثير الفزع والتخوف، ومقابلتهم بأحوال المؤمنين آنذاك في بعض المواضع.

ومن آيات القرآن في بيان الخروج من القبور قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨].

فالآيات تصور مشهد بعث الكافرين المنكرين للآخرة من قبورهم وعليهم ثياب الذل والهوان، مسرعين إلى الداعي رغم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٩٣٥، كتاب التفسير، باب (يم ينفخ في الصور)، ٦/ ١٦٥.

أنوفهم. مشهدٌ مختصرٌ سريعٌ، لكنه شاخصٌ متحركٌ، مكتمل السمات والحركات، وهو متناسقٌ مع أول السورة: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

ومع الجو والإيقاع العام للسورة، مشهدٌ يصور هذه الجموع الخارجة من قبورها في لحظةٍ واحدةٍ كأنها جرادٌ منتشرٌ[١].

ومع أن المؤمنين والكافرين يتساوون في هذا الخروج من الأجداث، من تملك الهول منهم حينها حتى يؤمن الله تعالى من يشاء من المؤمنين في أرض المحشر، وهذا ما يدل عليه حذف مفعول الفعل ﴿يَدۡعُ﴾؛ لإفادة العموم. وخص الكافرون بهذا الخطاب؛ تهديدًا لهم وتوبيخًا. والداعي هو إسرافيل عليه السلام يدعو الناس ويناديهم للقيام إلى الحساب بعد النفخة الثانية، هذا المشهد المهول المفزع الذي يدل عليه التنكير في قوله تعالى: ﴿شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾، أي: شيء عظيم مهول[٢].

وقد تعاضدت الفنون البيانية من تشبيهٍ ومجازٍ وكنايةٍ في رسم صورة هؤلاء المجرمين وهم يقومون للحساب منخذلين مذعورين في ذلك اليوم العصيب؛ إذ يبعثون من قبورهم منكسي رءوسهم، أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها ذلًا وهوانًا، فالخشوع في الآية «كنايةٌ عن الذلة والانخزال؛ لأن ذلة الذليل، وعزة العزيز تظهران في عيونهما»[٣].

وهذا تصويرٌ لهم في غاية الذل والانكسار، صورةٌ تبين حالهم المهين في الآخرة بعد أن كانوا يرفعون رءوسهم تكبرًا على المؤمنين في الحياة الدنيا، وللاهتمام بإظهار هذه الصورة والتركيز عليها قدم الحال ﴿خُشَّعًا﴾ على عامله ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ تقديمٌ صور غاية ذل الأبصار وخشوعها، ولو تأخر الحال، لفات هذا التصوير الفني لهيئة الأبصار[٤].

وفي «الجراد مثلٌ في الكثرة والتموج، يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد منتشر في كل مكانٍ؛ لكثرته»[٥]، تشبيهٌ يصور حالهم على كثرتهم وتماوجهم وهم حيارى فزعين منتشرين هنا وهناك يستتر بعضهم ببعضٍ من شدة الخوف.

وهذا التشبيه يتناسب مع آخر السورة نفسها في قولهم في الدنيا: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾، وما أشبه الجيش الذليل المنهزم بالجراد المنتشر هنا وهناك بعضه فوق بعضٍ.

(١) انظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص٥٩.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٢٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٣٢.
(٤) انظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم ص ١٢٧.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٣٢.

وأوثر التعبير بالانتشار مع جعله اسم فاعل في قوله تعالى: ﴿مُنتَشِرٌ﴾؛ لإبراز صورة الجراد وشدة اندفاعه عند بداية انتشاره، وتلك صورة المجرمين عند خروجهم ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾. ومما عمق معنى الذل والهوان المضروب عليهم كونهم ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ فهم يمشون وجلين بسرعةٍ مشية الخائف المذعور إلى داعيهم، وهم يقولون: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

وبهذا تواشجت فنون البيان في تقريب صورة بعث الكافرين من قبورهم إلى الأذهان بتشبيههم بالجراد المنتشر وهم أذلاء منكسرين عليهم ثياب الفزع والخوف. وفي «إسناد القول ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ إلى الكفار تلويحٌ بأنه على المؤمنين ليس كذلك»[1].

فهم ليسوا في تلك المرتبة من الفزع والشدة، بل هو يسيرٌ عليهم بأمر الله تعالى. ومما يدل على عسر ذلك اليوم على الكافرين خاصةً دون المؤمنين الموحدين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[المدثر: ٨ - ١٠].

وإذا انتقلنا إلى موضع آخر نجد أن التعبير القرآني يصور الكافرين عند بعثهم من قبورهم للحساب بسخريةٍ وتهكم في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[المعارج: ٤٢-٤٤].

فهذه آياتٌ ترسم صورةً تهكميةً لهؤلاء الكافرين عند بعثهم للحساب، صورةٌ تتناسق مع ما كانوا عليه في الدنيا حين يسرعون إلى الأنصاب يعبدونها، فجاء التعبير بتصوير حالهم في الآخرة كذلك؛ ليكون التعبير أشد إيغالًا في السخرية والتهكم[2].

ومثل هذه الآيات أيضًا تطالعنا آياتٌ كريماتٌ في وصف البعث في معرض تسلية النبي صلى الله عليه وسلم من تكذيب الكافرين بدعوته صلى الله عليه وسلم؛ لتقرر حقيقة البعث، وتصور حال خروج منكريه حينها، في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤١-٤٤].

آيات تصف حال الناس يوم ينفخ في الصور وينادى فيخرج الناس من قبورهم، ولتهويل هذا اليوم وحال الناس فيه وتفظيعه حذف مفعول ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ إيجازًا، والتقدير: واستمع لأحوال الآخرة التي أخبرك بها[3].

(١) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٨٠.

(٢) انظر: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص١٨٧.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي

وقوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾، والمراد بالحق: الوعد الصادق وهو الحشر، وسمي حقًا؛ إبطالًا لمزاعم المشركين بأنه افتراءٌ واختلاقٌ، إذ كانوا يسمونه سحرًا، ويعدونه خيالًا، فيعلمون آنذاك أن الواقع قد يطابقه، فكان حقًا فإنه قد طابقه الواقع، فكان الإخبار به صدقًا.

إذا كانت المواضع السابقة جاءت ردًا على المشركين في إثبات البعث وكيفية قيامهم من القبور إلى الداعي، فإن هناك ثمة آياتٍ تصور الناس جميعًا عند بعثهم، وهي وإن كانت جوابًا عن سؤال الكافرين عن البعث، إلا أن الجواب كان عامًا في بيان بعث الناس كلهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٧-١٨].

وأتت هذه الآيات تفصيلًا للإجمال الوارد في أول السورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣].

فجاء التكرار ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾[النبأ: ٤-٥].

لردعهم وتهديدهم وبيان أنهم سيرونه حقيقة وسيعلمون حينها أنه حقٌّ، وأوثر التعبير في الآية بـ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ دون قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ للدلالة على أنه «كان في تقدير الله تعالى وحكمه حدًا توقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدًا للخلائق ينتهون إليه»[1].

فهو واقعٌ لامحالة ولكن شاءت حكمته تأخيره إلى وقتٍ معلوم.

ومن الآيات التي تصور حالهم وضعفهم وهوانهم بتشبيههم في أرض المحشر بالفراش المبثوث وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ١-٤].

فالناس حينئذ يكونون كالفراش المتفرق، المنتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعضٍ من شدة الاضطراب والفزع، فشبه الناس بالفراش المتطاير في كثرتهم، وانتشارهم، وذلتهم، وضعفهم، واضطرابهم[2].

وفي مواضع أخرى تأتي لمحاتٌ سريعةٌ لأحوال الناس في ذلك اليوم العصيب. وفي المعنى نفسه نجد آيات كريمات أخرى تصور حالهم.

ثانيًا: أحداث في الحشر:

من أحداث اليوم الآخر الحشر وأحوال الخلق فيه حينها، وقد تناولت آياتٌ عديدةٌ من القرآن الكريم طريقة الحشر، وصورهم

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٨٧.
(٢) انظر: الإبداع البياني ص٤٢٧.

٩/ ٥٤٢.

في أرض المحشر، بكل دقةٍ وبيان، تلك الطرق الدالة على مكانة كل صنف منهم حينئذٍ، ومن ذلك حشر المتقين والمجرمين في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

فالآيتان تصوران مشهد حشر المؤمنين والكافرين وحالهم، فالمؤمنون المتقون يحشرون ﴿وَفْدًا﴾ مكرمين إلى جنة ربهم بعزة وكرامة، أما الكافرون المجرمون فيساقون سوقًا شديدًا إلى جهنم، عطاشًا محرومين من الماء، كالبهائم العطاش[(١)].

وبهذا الأسلوب قابل بين مصير الفريقين بأبلغ بيان. إذ عدى ﴿نَحْشُرُ﴾ بـ﴿إِلَى﴾ تعظيمًا وتبجيلًا للمؤمنين، وذكر صفة الرحمة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ التي خص المؤمنين بها إكرامًا لهم؛ إذ إن لفظ الحشر يوحي بالجمع من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة على سبيل القهر، فجاء لفظ: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ مؤذن بأنهم يحشرون إلى من يرحمهم، كما أن لفظ الوفد مشعرٌ بالإكرام والتبجيل كما يفد الوفاد إلى الملوك منتظرين الكرامة عندهم، وفي جانب المجرمين استخدم لفظ السوق الذي فيه إزعاج، ومما زاده تفظيعًا هو تعديته بـ﴿إِلَى﴾ تبشيعًا لحالهم ومكانهم[(٢)].

فلا تخفى جمالية المقابلة في اختيار الألفاظ المناسبة لكلا الحالتين. وحشر المؤمنين والكافرين إلى مصيرهم تكرر في سورة مريم.

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم زرقًا) كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٣].

يصور المشهد المبارك المجرمين وهم يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم أو زرق العيون من شدة العطش أو من العمى، يتخافتون بالحديث لا يرفعون به صوتًا من الرعب والهول والرهبة المخيمة على ساحة الحشر، وفيم يتخافتون؟ إنهم يحاولون تقدير المدة التي قضوها في الدنيا أو في القبور، فيقولون لم نلبث إلا عشر ليال، ويقول أصوبهم رأيًا: ما لبثتم غير يوم، فيستوي في ذلك التخبط الناتج عن المفاجأة الجاهلون والعالمون[(٣)].

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم عميًا على وجوههم) لا كما كانوا يمشون في الدنيا على أرجلهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ

(١) انظر: الجامع لإحكام القرآن ١١/ ١٥٣.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٢، البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٩٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٣٠٤، ٣٠٦، مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص١٠٤.

﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٧-٩٨].

وغيرها من الآيات. آيات تصور الكافرين المجرمين وهم يحشرون بذلٍ وهوانٍ على وجوههم عميًا لا يرون، وبكمًا لا يتكلمون، وصمًا لا يسمعون، يحبس أولهم على آخرهم، فيساقون إلى النار مجتمعين. وحشر الكافر أعمى يمشي على وجهه جاء في حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: (أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟)[1].

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم مع أوثانهم وشياطينهم وهم جاثون على الركب) وذلك في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٨-٦٩].

وقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

فرب العزة سبحانه وتعالى أقسم بنفسه الكريمة أنه يحشر الكافرين منكري البعث، وأمثالهم مع الشياطين ومعبوداتهم الباطلة التي كانت تضلهم في الدنيا، وأنه يحضرهم حول جهنم جاثين على ركبهم ذلًا وهوانًا.

وقد رسم القرآن الكريم في مواضع أخرى متفرقة صفات الناس وقسماتهم في أرض المحشر، وجوههم، أبصارهم، لسانهم، وغيرها، ومما جاء في بيان وجوه الناس بشكل عام تصويرها وهي قد ذلت وخضعت لله تعالى قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

ومنها أنه حينئذ تبيض وجوه وتسود وجوه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

فالآيتان تصوران مشهدًا من مشاهد القيامة؛ إذ نرى فيه مظهرًا عجبًا، نرى وجوهًا مبيضة ووجوهًا مسودة وهذا مشهدٌ حسيٌّ، ولكنه منبعثٌ عن تأثر نفسي، ألقى ظله على هذه الوجوه فابيضت، وعلى تلك فاسودت، وهذا وذلك زيادة في العذاب والنعيم وفي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٥٢٣، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، ٨/ ١٠٩.

التحقير والتكريم[1]. وخص الوجه بالذكر دون سائر الجسد؛ لأنه أول ما يرى من الإنسان، ولأنه أشرف الأعضاء في الجسد.

ولهذا نرى التركيز عليه في وجوه الكافرين خاصة مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وفي سورة عبس نعاين صفاتٍ أخرى في الوجوه، وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين، زاد فيها على بياض الوجوه النور والإشراق والضحك والاستبشار مما دل على الأمن والطمأنينة ذلك في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

وأضاف إلى وجوه الكافرين المسودة غبارا دالًا على الكآبة واليأس والخوف في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠-٤٢].

وفي آيات أخرى نرى تقابلًا بين وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين من حيث النظر إليه سبحانه وتعالى وعدمه في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥].

هذه المقابلة بين الفريقين التي أظهرت البون الشاسع بينهما، فالمؤمنون وجوههم مشرقةٌ مبتسمةٌ، وهذا يدل على الأمن والطمأنينة، والكافرون وجوههم عابسةٌ مظلمةٌ، وهذا يدل على خوفهم وذعرهم ويأسهم، فهم فريقان مختلفان، وهذا ما يدلُّ عليه التنكير المستفاد منه التنويع في ﴿وُجُوهٌ﴾.

وفي الآية تكريم عظيم من الله لعباده المؤمنين في أرض المحشر يوم القيامة، فهو يزيد لهم الفضل والنعم بعد تبييض وجوههم في أرض المحشر بالنظر إلى وجهه الكريم عيانًا كما ترى الشمس في النهار إذا كان الجو صحوًا كما دلت على ذلك النصوص التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

وهكذا رسم القرآن الكريم في الآيات السابقة بمجموعها صورة تقابلية بين بياض ونضارة وجوه المؤمنين، وسواد وكلاحة وقتامة وجوه الكافرين، وفي الجمع والموازنة بينها يتجلى البون الشاسع بين منزلة المؤمنين والكافرين في أرض المحشر، ففريق المؤمنين يحشرون في أجمل صورة وأكرمها، وقد ملأت الطمأنينة والفرحة نفوسهم -فالبياض علامة لهم يوم القيامة- فوجوههم بيضاء مشرقة ضاحكة مستبشرة إلى ربها ناظرة.

(١) انظر: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص ٢٠٣.

بخلاف الكافرين الذين يحشرون سود الوجوه في أبشع صورة وأذلها، فوجوههم سوداء مظلمة عليها غبرة ترهقها قترة لا تنظر إليه سبحانه بل هم في النار خالدون.

ومما جاء في وصف الكافرين في أرض المحشر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

آية ترسم صورة المجرمين وهم منكسو الرءوس يوم القيامة، لا يرفعونها من عظيم الخزي والذل الذي يشعرون، ويحكي بعد ذلك قولهم الدال على إقرارهم بعد أن شاهدوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم بأن الآخرة حق وما جاء به رسل الله عليهم الصلاة والسلام حق، فيتمنون أن يعيدهم الله إلى الدنيا لتكون الفرصة الأخيرة لهم، ولكن بعد فوات الأوان.

وقد صور القرآن الكريم أبصار الكافرين في أرض المحشر، صورها وهي ذليلة مهانة، ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨].

وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢-٤٤].

وقد سبق بيان هذه الآيات.

وقد صور القرآن الكريم حالهم وملابسهم ووجوههم معًا، حالهم ذليل، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥١].

وصورهم وهم صامتون لا يتكلمون في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٩].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٣٧-٤٠].

مشهدٌ يصور حال الهلع والذعر مما يرى، والندم على ما قدم، عندما يرى قضاء الله تعالى في البهائم قبل حسابهم فيتمنى أن

يكون ترابًا كالبهائم لسوء ما قدمت يداه من خزيٍ ينتظره حسابًا وجزاءً.

وإذا انتقلنا إلى موطنٍ آخر نجد آياتٍ تصور الهول الذي يعم كل إنسانٍ في أرض المحشر حتى يفصله عن محيطه ويجعله يفر من كل قريبٍ وحبيبٍ له في الدنيا، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٣-٤٢].

مشهدٌ يصف أهوال القيامة التي تصل إلى مشاعر الإنسان الوجدانية المرتبطة بأقرب الناس إليه، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هول ذلك اليوم فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلًا) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعًا ينظر بعضهم إلى بعضٍ؟ قال صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعضٍ)[1]؛ لأن ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، فالكل مشغولٌ بأمره ولا يدري عن حال غيره شيئًا.

ويلاحظ أنه تدرج في ذكر من يفر منهم المرء يوم القيامة على طريقة الترقي في القرب والمحبة؛ مبالغةً في وصف الهول والفزع الذي يعيشه، فـ«ذكر فرار الإنسان من أحبابه، ورتبهم ترتيبًا في الحنو والشفقة، فبدأ بالأقل، وختم بالأكثر؛ لأن الإنسان أشد شفقةً على بنيه من كل ما تقدم ذكره، وإنما يفر منهم؛ لاشتغاله بنفسه»[2].

وقد اقتضى السياق هذا الترتيب، في حين نجد أنه في موضع آخر بدأ بما انتهى منه هنا وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠-١٤].

ومما لاشك فيه أن سبب تقديم الأخ على الأم والأب والصاحبة والابن في سورة عبس، وتقديم الابن على الصاحبة والأخ والفصيلة (الأم) في سورة المعارج، كان لأمرٍ خاصٍ يقتضيه السياق، جعل النظم في الترتيب مغايرًا في الموضعين، وهو يقوم على اختيارٍ معنويٍ جماليٍ خاصٍ، ويهيئ لتصورٍ معينٍ، ويحقق كل شروط الفن البلاغي.

وسبب ذلك أن المقام في سورة عبس مقام فرارٍ وهربٍ من الأحبة انشغالًا بالنفس

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٨٥٩، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر، ٤/ ٢١٩٤.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي ٢/ ٤٥٤.

يوم الفزع الأكبر، والإنسان يفر من الأباعد أولًا ثم ينتهي بألصق الناس به، فجاء الترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ لأنه يناسب فكرة الفرار والنكوص عن مساعدة أقرب الأقربين - انشغالًا بالنفس- من شدة الهول ولذلك تأخر ذكر البنين؛ لأنه لو بدأ بذكرهم، لما احتاج بعد ذلك إلى ذكر غيرهم، ولأن الوصف بالتخلي عن نجدة الأبناء، والانصراف عنهم هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه التعبير عن مدى انشغال الإنسان بهمومه الخاصة ومشكلاته الذاتية عن كل ما حوله، فهذا وصفٌ لما ينتاب المرء من الذاتية المطلقة والاستغراق المطلق بالقلق الشخصي على المصير في ذلك اليوم العصيب، في حين نرى أن السياق في سورة المعارج غيره في سورة عبس؛ إذ يؤتى بالمجرم؛ ليلقى جزاء عمله في النار.

فالمقام مقام البحث عن المنقذ والمعين والمفتدي، والمجرم يود النجاة بكل سبيلٍ ولو أدى ذلك إلى أن يبدأ بأقرب الناس إليه، فكان الترتيب على سبيل التدلي فبدأ بالأقرب كما تعول عليه النفس، فالابن فالزوجة، فالأخ فالعشيرة، ثم من في الأرض جميعًا.

وهذا الترتيب فضلًا عن أنه تعبيرٌ يناسب من حيث تدرجه حركة الكافر النفسية في ذلك اليوم، فإنه تعبيرٌ عن اشتعال الحيرة واتساعها في قلب الكافر، وتفاقم التشتت الذي يعتريه، وهذا ما يرمز إليه الانتقال من الأدنى إلى الأبعد عاطفيًا ومكانيًا، ويدل أيضًا على العجز عن طلب المعين، والاضطراب في التماسه اضطرابًا شديدًا باتساع دائرة البحث عنه درجةً بعد درجةٍ حتى تشمل كل الموجودات في ذلك اليوم العصيب[1].

وثمة أمورٌ أخرى اقتضت أن يكون الترتيب مغايرًا في سورة المعارج، منها أن المفتدي هو (مجرم) وليس إنسانًا اعتياديًا، والمجرم مستعدٌ لفعل أي شيءٍ؛ للنجاة بنفسه ولو كان الفداء بأحب وأقرب من لديه؛ ليضعه مكانه في النار، بل لا يهمه لو افتدى بالناس كلهم بذنبه، ومنها أن البدء بأقرب الناس يدل على هول العذاب فوق التصور مما يجعله يفتدي هكذا، ومنها أنه ذكر ما يناسب هذه القطيعة بالافتداء وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

والحميم: القريب، فبدأ بالأقرب فالأبعد[2].

(١) انظر: بلاغة العطف في القرآن الكريم، عفت الشرقاوي ص ١٠٥-١١٠.

(٢) انظر: الجملة العربية تأليفها وأقسامها، فاضل صالح السامرائي ص ٤٧-٤٨.

ثالثًا: أحداث عند الحساب:

عرض القرآن الكريم لمشاهد الحساب وأحداثه بدءًا من الميزان الذي توزن فيه أعمال المرء كلها، ومن ثم تطاير الصحف والعرض، انتهاءً بندم الكافرين والمنافقين وجدالهم بعد هذه الأحداث الفاصلة التي تنتهي بأمرهم إلى الخلود في نار جهنم.

١. الميزان.

ينصب يوم القيامة ميزانٌ حقيقيٌ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «له لسانٌ وكفتان لحساب الخلق على ما قدموه من أعمالٍ صالحةٍ وطالحةٍ، فيؤتى بالأعمال الصالحة على صورةٍ حسنةٍ جميلةٍ، وبالأعمال السيئة على صورةٍ قبيحةٍ، فتوضع كل واحدةٍ منهما في كفة الميزان، وعلى هذا تكون صحيفة المرء بعدها»(١).

ومن المواطن التي جاء فيها ذكر الميزان قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

تصف الآية الكريمة القضاء العادل في اليوم الآخر بأنه يوازن بين أعمال العباد موازنة دقيقة فيحاسب كلا على أعماله، والمعنى: أن الموازين يوم القيامة عدلٌ لا يظلم بها أحدٌ شيئًا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: و«الأكثر -يعني: من العلماء- على أنه إنما هو ميزانٌ واحدٌ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه»(٢).

ووصف الله تعالى الموازين بالقسط؛ لأن الميزان قد يكون مستقيمًا وقد يكون بخلافة، فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط، وأكد ذلك بقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن أعمال العباد توزن في اليوم الآخر من حسنات أو سيئات، فمن ثقلت موازينه بأن رجحت حسناته على سيئاته فاز ودخل الجنة برحمته تعالى، ومن رجحت سيئاته على حسناته هلك ودخل النار بعدله تعالى، وإن كان المؤمنون على تفاوت درجاتهم في الأعمال هم من أهل الجنة، وإن عذبوا على بعض ذنوبهم بمقدارها.

وفي وزن أعمال العباد جاءت آيات عدة، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٨٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٠٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٤٥.

١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[القارعة: ٦-١١].

فجاءت الآيات الكريمات؛ لتعرض وزن أعمال الناس في الميزان، وتفصل في حالهم إلى حالٍ حسنةٍ لأهل السعادة المعبر عنهم بـ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، وحال فظيعة لأهل الشقاء المعبر عنهم بـ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[1].

فكان في التفصيل مقابلةٌ بين الصنفين الشقي منهم والسعيد، وبيان منزل كل فريقٍ منهم، فالسعداء ترجح حسناتهم على سيئاتهم، وتثقل في الميزان وتكون خاتمتهم إلى الجنان، أما الأشقياء الذين لا تقوم بهم حسناتهم وترجح سيئاتهم فيكون مآلهم إلى النار.

وفي مواضع أخرى يصور القرآن الكريم دقة الميزان في وزنه حتى الذرة المتناهية في الصغر قسطًا وعدلًا من الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

فهذه آياتٌ تصف دقة الميزان الرباني في اليوم الآخر، الناس يمضون ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين بحسب أعمالهم ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ خيرًا كانت أم شرًا، يرونها مكتوبةً في صحائفهم، فيعطون كتبهم بحسب أعمالهم بيمينهم أو شمالهم، ويرونها وهي توزن في الميزان.

وهذا ما يدل عليه التفريع بعدها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ «انتقالًا للترغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء، والتفريع قاضٍ بأن هذا يكون عقب ما يصدر الناس أشتاتًا»[2].

وبعض الخلق لا يقيم لهم الرحمن وزنًا في اليوم الآخر، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٥١٣.

(٢) المصدر السابق ٣٠/ ٤٩٤.

وقد جاء بيان هذه الآيات الكريمات في السنة النبوية الشريفة فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضةٍ، وقال: اقرءوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾)[1].

٢. تطاير الصحف.

تطالعنا آياتٌ في التعبير القرآني تعرض لمشاهد من الحساب، وهي تطاير الصحف إلى أصحابها، تلك الصحف التي يكتب فيها ما قدم ابن آدم في حياته، وقد جاءت هذه المشاهد؛ لتقابل بين صنفين من الناس؛ صنفٌ يؤتى كتابه بيمينه، وآخر يؤتى كتابه بشماله، وحال كل واحدٍ منها بعدها.

ومن هذه المشاهد ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾[الحاقة: ١٨-٣٧].

فهذه آياتٌ تصف الحساب وموقف الناس عنده؛ إذ ينقسمون إلى قسمين، منهم من يؤتى كتابه بيمينه، فيسعد أيما سعادة، ويفرح فرحًا كبيرًا، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله، فيشقى أيما شقاوة، ويحزن حزنًا عميقًا، فريقان مختلفان في موقفٍ واحدٍ، يصورهما القرآن أدق تصويرٍ.

ومن مشاهد تطاير الصحف وإتيان الكتاب في اليمين أو الشمال أيضًا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾[الانشقاق: ٧-١٥].

جاءت هذه الآيات تفصيلًا للإجمال في قوله تعالى في أول السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾، وهي تقابل بين صنفي الناس آنذاك، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه وهو السعيد، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله وهو الشقي. والحساب اليسير في الآية كنايةٌ عن عدم المؤاخذة على سيئاته، بل هو عرضٌ فقط يذكر فيه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٧٢٩، كتاب التفسير، باب (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه)، ٦/ ٩٣.

تعالى المؤمن بما عمل في الدنيا[1]. ثم يتجاوز عنه، فهو حسابٌ قليلٌ يسيرٌ كما دل عليه التنكير في قوله تعالى: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾. ويدل عليه أيضًا ما روي عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من نوقش الحساب عذب) قالت: قلت: أليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قال صلى الله عليه وسلم: (ذلك العرض)[2]، وفي روايةٍ أخرى: (ليس ذاك الحساب! إنما ذاك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)[3].

وبعد هذا العرض ينصرف إلى بيته وأهله في الجنة مسرورًا فرحًا. أما الشقي فسيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره؛ لأن «أيمانهم تغل إلى أعناقهم، وتكون شمائلهم وراء ظهورهم»[4].

وما أن يقرأ كتابه حتى يدعو على نفسه بالهلاك لسوء مصيره؛ إذ سيدخل جهنم. ومما جاء في بيان الصحف وتطايرها أيضًا قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١-٧١].

٣. الشهادة على الخلق.

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين أن هناك الكثير من الشهود على الإنسان في اليوم الآخر لإقامة الحجة عليه ولتكون دليلًا وشاهدًا على ما فعله في الحياة الدنيا، وربنا الرحمن تعالى لا يحتاج إلى من يخبره عن عباده أو يشهد عليهم بما فعلوه، فهو العالم تعالى بهم وبأعمالهم كما حكى عن نفسه العلية في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾[يونس: ٤٦].

وشهادة الرب تعالى على الإنسان في الدنيا تكفي على ابن آدم فهو أعظم شهيد وأجل شهيد تعالى، إلا أنه سبحانه من كمال عدله وإعذارًا لهم أقام عليهم الشهود بعد شهادته عليهم، ونوعهم وكثرهم؛ لإلزامهم الحجة والبينة، وهؤلاء الشهود كثر كما

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٢٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم ٦١٧١، ٥/ ٢٣٩٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٨٧٦، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إثبات الحساب، ٤/ ٢٢٠٤.
(٤) معاني القرآن ٣/ ٢٥٠.

ذكرنا، أولهم ربنا الرحمن إذ يذكر الإنسان بما قدم في الدنيا ويقول له: ألم تفعل كذا وكذا؟ -كما جاء في الصحيح-. والآيات في شهادته تعالى على العباد كثيرة. ذكرنا بعضها في هذه الفقرة ومع هذا، فالإنسان بجحوده ينكر وينكر، فيزيد الله تعالى له الشهود من مخلوقاته عليه حكمًا وعدلًا -كما سيأتي-.

ومن الشهود على الخلق أيضًا بعد شهادة الله تعالى الملائكة بأصنافها كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[ق: ١٧-٢١].

أي: ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩-١٢].

أي: ملائكة يكتبون ما كنتم تعملون في الدنيا غير مضيعينه، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ومن هؤلاء الأشهاد الملائكة الذين شهدوهم وحفظوا عليهم ما كانوا يعملون في الدنيا صغيره وكبيره. ومنهم الكتاب الذي سجل كل صغيرة وكبيرة عليهم قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجاثية: ٢٨-٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩].

آيات تعرض لساحة العرض والحساب، وقد تجمعت فيها الخلائق كلها وتحشدت، وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة يرتقبون الحساب، ويجابهون بالجزاء وكل شيء قد كتب واستنسخ في كتاب دقيق ناطق الذي لم يترك عملًا صغيرًا أو كبيرًا إلا وأحاط به.

ومن الشهود على الخلق أيضًا الأنبياء والرسل كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ

﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝٤١ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾[النساء: ٤٠-٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[يونس: ٤٧].

يعني: إذا جاء الرسول في اليوم الآخر قضي بينهم وسماه الله تعالى شهيدًا كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[النحل: ٨٤].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: ٨٩].

وغيرها من الآيات. والآيات السابقات تدل بجموعها أنه تعالى في اليوم الآخر سيجمع الخلائق ويجيء بكل أمة ليشهد عليهم رسولها بما بلغ وبما أجابته به أمته حين دعاها إلى الله تعالى؛ لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل فيشهد عليها بالحق، فحينئذ يتمنون لو أنهم سووا بالأرض، وسويت بهم، فيكونون نسيًا منسيًا، حالهم كحال سائر البهائم، وذلك من عظيم ما يرون من الهول والشدة، وهيهات لهم ذلك.

ومن الشهود على الخلق أيضًا أمة محمد؛ إذ يجيء بها شاهدة على الأمم؛ لعدلها بعد أن تشهد الرسل على أقوالهم، لا تجد هذه الأمم حينئذ إلا تكذيب رسلها وإنكار تأديتهم للرسالة كما كانوا يكذبونهم في الدنيا، فتقوم الأمة الوسط أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

هذه الشهادة التي تأتي بعد تكذيب الأمم لرسلها كما سبق وقد جاء بيان ذلك صراحة في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن أبي سعيدٍ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجيء نوحٌ وأمته، فيقول الله تعالى هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ صلى الله عليه وسلم وأمته، فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله -جل ذكره-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ والوسط: العدل)[1].

ومن الشهود على الخلق أيضًا الأرض،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٣٩، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: (إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ٤/ ١٣٤.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٢-٥].

فالأرض تشهد على الإنسان بما عمل على ظهرها بعد إنكاره فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]. قال: (أتدرون ما أخبارها؟) قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ وأمةٍ بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل عمل كذا في يوم كذا، فهذه أخبارها)[1].

فإذا أنكر الخلق كل الشهود السابقين وكذبوهم ولجوا في الخصومة، أقام الله عليهم شاهدًا منهم، فتشهد عليهم جوارحهم (سمعهم وأبصارهم وجلودهم) بما قدموا من أعمال في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس: ٦٥].

«وهكذا يخذل بعضهم بعضًا وتشهد عليهم جوارحهم، وتتفكك شخصيتهم مزقًا وآحادًا يكذب بعضها بعضًا، وتعود كل جارحةٍ إلى ربها مفردة، ويثوب كل عضوٍ إلى بارئه مستسلمًا، إنه مشهدٌ عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب»[2].

ومن شهادة الجوارح أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٣].

فالآيات الكريمات تصف حال العباد المنكرين للمكتوب في صحفهم من السيئات المطالبين بأن لا يكون الشاهد عليهم إلا من أنفسهم، فيختم الله على أفواههم فلا تستطيع أن تنطق بشيء ثم يأمر أعضاءهم أن تشهد عليهم بما عملوا. والكافرون اعتادوا على الكذب في الدنيا، وظنوا أنهم يستطيعون أن يحققوا عن طريقه فوزًا ونفعًا، وهكذا جاءت الآية؛ لتسد

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٠١٢، كتاب التفسير، باب من كتاب قراءات النبي، ٢/ ٢٨١.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٧٣.

عليهم هذا الباب الذي اعتادوا أن يدخلوا ويخرجوا منه.

فيوم القيامة يختم تعالى على أفواههم ويعقد ألسنتهم، وتترك الشهادة إلى غير اللسان من أعضاء جسمه، بعد أن رفض هذا الإنسان شهادة الناس والملائكة عليه، فتشهد عليهم أعضاؤهم على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم، وعلى غير ما كانوا ينتظرون؛ لأنهم كانوا عنها يدافعون ويكذبون في الدنيا، وبعدها تنقلب عليهم في الآخرة.

والناظر في الآية يرى أنه تعالى أسند الختم إلى نفسه في حين أسند الكلام والشهادة إلى الجوارح؛ لأنه لو أسندها إليه لكان هناك احتمال في أن يكون ذلك جبرًا وقهرًا، والإقرار بالإجبار غير مقبول، فنسبها إليها، فتشهد باختيارها لخالقها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام؛ ليكون أدل على صدور الذنب منهم[1].

وثمة لطيفة في تقديم الاعتراف أو الكلام على الشهادة، وذلك لمناسبة الواقع فالعادة جرت بأن تسير الأمور في القضايا على وفق هذا النسق، الاعتراف أولًا، والشهود ثانيًا، وهذا ما بينته الآية الكريمة، وكذلك قدم؛ لأن دوره في هذه القضية أكثر فعالية وأبلغ دلالة من الشهادة، وبخاصةً عندما يكون هناك توافق بين ما يدلي به المعترف وما يدلي به الشاهد[2].

وقد جاء حديث في الصحيح يجمع أغلب هؤلاء الشهود على المخلوق عند إنكاره فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: (ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ أو تبسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا تسألوني من أي شيءٍ ضحكت؟) فقال: (عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب، أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: بلى، قال: فإني لا أقبل علي شهادة شاهدٍ إلا من نفسي، فيقول: أو ليس كفى بي شهيدًا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردد هذا الكلام مراتٍ، فيختم على فيه، وتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعدًا لكم وسحقًا، عنكم كنت أجادل)[3].

وبعد كل هؤلاء الشهود على الخلق في ساحة العرض والحساب، وبعد أن يرى المخلوق الحق، ويتبين له أن الله لا تخفى عليه خافية، ويرى كل ما عمله في الدنيا مكتوبًا في صحيفته، وقامت عليه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٥٥-٥٥٦.

(٢) انظر: تأملات في سورة يس، حسن محمد باجودة، ص٨٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٨٧٧٨، كتاب الأهوال، ٤/ ٦٤٤.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه»، ولم يتعقبه الذهبي.

الشهود ويرى أنه لا برهان له ولا حجة، يقر ويعترف بما جنى وأقترف كما حكى عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

٤. الخصوم بين يدي رب العالمين.

من مواقف الحشر والحساب تخاصم الكافرين مع شركائهم ومضليهم.

وقد جاءت آيات كريمات عديدة تبين هذا التخاصم منها ما جاء في تصوير التخاصم بين الأتباع مع قادتهم المضلين لهم في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ١٩-٣٥].

آيات كريمات تصور تخاصم الكافرين المجرمين مع أسيادهم وقادتهم المضلين لهم، فيقول الضعفاء التابعون للقادة المضلين لهم: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ لإضلالنا ومنعنا من سماع الحق واتباعه. فيرد المضلون على المستضعفين منكرين إضلالهم إياهم، ويقولون لهم: ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾، براءة منهم بعد ما رأوا الحق بأعينهم وعاينوا العذاب الواقع بهم جميعًا لا محالة. وقريب من هذه الآيات نقرأ قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وغيرها من الآيات الكريمات.

ومن التخاصم ما يحصل بين العابدين ومعبوداتهم عندما يجمعهم الله في مكان واحد، وقد جاء ذلك القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟﴾ [الفرقان: ١٧-١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٩].

ومن التخاصم ما يحصل بين الكافرين وقرنائهم، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٠-٢٩].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩].

ومن التخاصم ما يحصل في اليوم الآخر عندما تنقلب خلة الكافرين عداوة بينهم، أما المؤمنون فلا يصيبهم خوف ولا حزن حيث الجنة مأوى لهم ولأزواجهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦-٧٠].

المآل والمصير

جاءت مشاهد مآل ومصير الخلق في اليوم الآخر وجزائهم في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم، ولو أردنا ذكرها مع بيانها لاحتجنا إلى مئات الصفحات، والناظر إليها يجد أغلبها -إن لم تكن جميعها- جاءت على سبيل التقابل بين مآل ومصير المؤمنين ومآل ومصير الكافرين؛ ليصور ما للمؤمنين من نعيمٍ في الجنان، وما للمجرمين من عذابٍ في النيران، وقد جاءت هذه المشاهد ترغيبًا وترهيبًا، ترغيبًا في الإيمان والعمل الصالح الموصل إلى الجنان، وترهيبًا من الكفر والمعاصي الموصل إلى النيران، وهذا التقابل مقصودٌ؛ إذ بضدها تتميز الأشياء، ليتميز البون الشاسع بين منازل المجرمين، ومراتب المؤمنين، معتمدة في أغلبها على التصوير الذي يعد «الأداة المفضلة لأسلوب القرآن»[1].

ويلاحظ على هذه المشاهد أن التقابل لم يأت على نمطٍ واحدٍ، بل جاء متنوعًا، فأحيانًا يكون التقابل ثلاثيًا بين السابقين وأصحاب اليمين والمجرمين نحو ما جاء في سورة الرحمن والواقعة، وتارةً يكون التقابل ثنائيًا بين المؤمنين والكافرين، وهذا التقابل الثنائي أكثر ذكرًا من الثلاثي وسيأتي تفصيله.

ومن أمثلة التقابل الثلاثي بين المؤمنين السابقين والمؤمنين من أصحاب اليمين والكافرين المجرمين قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص٣٦.

تُكَذِّبَانِ ﴿٣٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ
حِسَانٍ ﴿٣٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ
رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٤١-٧٨].

وفي موضعٍ آخر يطالعنا تقابلٌ ثلاثيٌّ آخر، ولكنه يصرح فيه بذكر أسماء أصحاب الجزاء، وذلك في موضعين من سورة الواقعة، في أولها وفي آخرها؛ ليتناسق البدء مع الختام في ذكر جزاء الناس في الآخرة.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ
أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ
الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ
﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ
مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ
عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ
﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ
عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ
اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا
سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾
فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ
﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا
مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا
أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا
﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ
﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا
أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن
يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ
ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ
﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ
إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾
لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾
فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾
هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٧-٥٦].

وفي نهاية تحليل الشواهد الثلاثية التقابل نجد أنه في سورة الرحمن كان التقابل الأساس بين السابقين وأصحاب اليمين كما مر، أما في سورة الواقعة فالتقابل يقع بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. هذا التقابل الذي يعمد إليه دائمًا؛ ليرى البون بين المصيرين.

وإذا انتقلنا إلى النوع الثاني من التقابل، وهو التقابل الثنائي نجده أكثر ورودًا من النوع الأول، وهذا التقابل الثنائي يكون متساويًا تقريبًا في الآيات بين الصنفين، وأحيانًا يكون التركيز على صنفٍ أكثر من الآخر كما سيأتي.

ومن أمثلة النوع الأول التقابلُ بين حال المؤمنين في الجنة وحال الكافرين في النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا
﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا

يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢١-٣٦].

وفي موضعٍ آخر يطالعنا تقابلٌ بين وجوه الأشقياء ووجوه السعداء، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١-١٦].

آياتٌ تعرض مقابلةً كاملة المشاهد، متناسقة الأجزاء بين جزاء الفريقين؛ إذ تقابل بين وجوه المجرمين من أصحاب النار وهي خاشعةٌ ذليلةٌ مع ذكر صنوف عذابهم المعنوي والحسي، ووجوه المتقين من أصحاب الجنة وهي ناعمةٌ سعيدةٌ مع ذكر صنوف جزائهم المعنوي والحسي، عن طريق التصوير الذي يعد «الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة»[1].

وجريًا على سنن القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، يذكر سبحانه حال الأتقياء السعداء من أهل الجنة بعد ذكر حال الأشقياء من أهل النار فيقول سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

وفي مواضع أخرى نجد تقابلًا ثنائيًا بين جزاء المؤمنين والكافرين في الآخرة، ولكنه لا يأتي متساويًا في الطول بينهما، فأحيانًا يكون مشهد جزاء الكافرين قصيرًا في مقابل جزاء المؤمنين الذي يطول، أو يكون مشهد جزاء المؤمنين أقصر من مشهد جزاء الكافرين، وكلٌّ موافقٌ للسياق الذي جاء فيه.

فمن النوع الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا

(١) مشاهد القيامة في القرآن ٦.

وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً
وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾
فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾
وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى
الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً
عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم
بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ
قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا
﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ
رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ
وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ
شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم
مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٤-٢٢].

فهذه الآيات يلاحظ عليها قصر مشهد جزاء الكافرين الذي جاء في آيةٍ واحدةٍ في مقابل مشهد جزاء المؤمنين الذي جاء طويلًا، وهذا يرجع إلى طبيعة السورة التي تركز على فضل الله تعالى ونعمه على خلقه، بالخلق والإيجاد والعلم والمعرفة وغيرها، فناسب طول جزاء المؤمنين وذكر نعيمهم لهذه النعم.

وإذا أخذنا شاهدًا على طول جزاء الكافرين وقصر جزاء المؤمنين، نجده كذلك مناسبًا للسياق الذي هو فيه نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ
تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾
لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ
كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ
لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا
يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ
فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا
وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٩-٤٥].

فآيات جزاء الكافرين أكثر من آيات جزاء المؤمنين، وجاء النظم بهذه الصورة؛ لأن سياق السورة لتهديد الكافرين ووعيدهم، لذا نجد أنه حتى جزاء المؤمنين ختم بـ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. فالسياق سياق ترهيبٍ وتخويفٍ لذا ناسبه طول جزاء الكافرين.

موضوعات ذات صلة:

البعث، الثواب، الجزاء، الجنة، الحساب، القبر، النار

يونس عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بيونس عليه السلام	٢٢٠
ذكر يونس عليه السلام في القرآن الكريم	٢٢٤
دعوة يونس عليه السلام	٢٢٥
يونس عليه السلام وقومه	٢٢٦
يونس عليه السلام والحوت	٢٣٦
الدروس المستفادة من قصة يونس	٢٤١

التعريف بيونس عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه عليه السلام:

هو «يونس بن متى بن إيحان بن بانومر بن عوريا بن معققا بن أمصيا بن نواسر بن حزالي بن يهورم بن يوسقط بن أسا بن راخيعم بن سليمان بن داود بن أتسي بن عويد بن عمى ناذب بن رام بن حضرون بن قارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام»[(١)].

واسمه في العبرانية: (يونان بن أمتاي)، وهو من سبط (زبولون)، ويجوز في نونه في العربية الضم (يونس)، والفتح (يونس)، والكسر (يونس).

ولد في بلدة (غاث إيفر) من فلسطين. وهو أحد عباد بني إسرائيل وزهادهم[(٢)]. أرسله الله تعالى إلى أهل (نينوى) من بلاد آشور، وهي على شاطئ دجلة من أرض الموصل[(٣)]. وكان أهلها يومئذٍ خليطًا من الآشوريين واليهود الذين كانوا في أسر الآشوريين، ولما دعاهم إلى الإيمان أبوا، وتوعدهم بالعذاب، ولكنَّ تحقق العذاب تأخر عنهم، فخرج مغاضبًا، وذهب إلى (يافا)، فركب سفينة للفينيقيين؛ لتذهب به إلى (ترشيش)، وهي مدينة غرب فلسطين إلى غربي صور، وهي على البحر، وأقرب ما قيل فيها: إنها من مراسي برقة في تونس؛ لأنه قيل في تاريخ تونس: إن اسمها كان قبل الفتح الإسلامي لها ترشيش. وعندما كان يونس عليه السلام في السفينة هال البحر عليها، فثقلت، وخاف الناس غرقها، فاقترعوا، وكان يونس عليه السلام ممن خاب في القرعة، فرمي في البحر، والتقمه الحوت، فنادى يونس عليه السلام: ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فاستجاب الله تعالى له، وأرسله مرة أخرى إلى أهل نينوى، وآمنوا، وكان عددهم يزيد على مائة ألف[(٤)].

وذكره الله عز وجل في القرآن الكريم باسمه (يونس) في أربعة مواضع[(٥)]، وهي كالآتي: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا

(١) تفسير مقاتل بن سليمان، ٤/ ٣٨٠.
(٢) انظر: درج الدرر، عبد القاهر الجرجاني ١/ ٥٤٠.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ٦/ ١٩٨٧، النكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٦٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/ ٣٤٢.
(٥) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٧٥.

﴿دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩].

كما ذكره بلقبه (ذي النون) مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وذكره أيضًا بـ (صاحب الحوت) مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

وفي سبب تسمية يونس عليه السلام بلقب ذي النون قولان:

الأول: بمعنى صاحب الحوت؛ لابتلاعه له، فالنون من أسماء الحوت.

الثاني: إن يونس عليه السلام رأى صبيًّا مليحًا، فقال: دسموا نونته[1]؛ لئلا تصيبه العين، أي: سودوها[2].

ثانيًا: زمانه عليه السلام:

بعث الله تعالى يونس عليه السلام إلى أهل نينوى عاصمة الآشوريين بعد خراب بيت المقدس، وذلك في حدود القرن الحادي عشر قبل الهجرة[3]، فكانت مدته في أول القرن الثامن قبل الميلاد[4].

وورد في تحديد وترتيب نبوته بين الأنبياء والرسل قول هشام بن محمد بن السائب عن أبيه: «أول نبيٍ بعثه الله -تبارك وتعالى- في الأرض إدريس واسمه أخنوخ، ثم انقطعت الرسل حتى بعث الله نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، وقد كان سام بن نوحٍ نبيًّا، ثم انقطعت الرسل حتى بعث الله إبراهيم نبيًّا واتخذه خليلًا، وهو إبراهيم بن تارخ واسم تارخ

(١) النونة: هي حفرة الذقن.
انظر: فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، ص ٧٣.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٤٩٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ٣٤.
(٤) انظر: المصدر السابق، ٧/ ٣٤٢.

آزر، ثم بعث إسماعيل بن إبراهيم فمات بمكة، ثم إسحاق بن إبراهيم فمات بالشام، ثم لوطٌ وإبراهيم عمه، ثم يعقوب وهو إسرائيل بن إسحاق، ثم يوسف ابن يعقوب، ثم شعيب بن يوبب، ثم هود بن عبد الله، ثم صالح بن أسف، ثم موسى وهارون ابنا عمران، ثم أيوب ثم الخضر وهو خضرون، ثم داود بن إيشا، ثم سليمان بن داود، ثم يونس بن متى، ثم إلياس، ثم ذا الكفل واسمه عويدنا من سبط يهوذا ابن يعقوب، قال: وبين موسى بن عمران ومريم بنت عمران أم عيسى ألف سنةٍ وسبعمائة سنةٍ وليسا من سبطٍ، ثم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي صلى الله عليه وسلم»[1].

ثالثًا: مكانته عليه السلام:

إن ليونس عليه السلام مكانة رفيعة عند الله عز وجل، فقد ذكره الله تعالى في جملة الأنبياء الكرام، فقال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣].

والمعنى: أن الله عز وجل أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم من الحجج والآيات الدالة على صدق نبوته ورسالته، كما أوحى إلى النبيين المذكورين في الآية، ومن جملتهم نبي الله يونس عليه السلام، وخصه الله تعالى بالذكر مع دخوله في عموم لفظ (النبيين)؛ تشريفًا له، وإظهارًا لفضله، هو وسائر الأنبياء المسمون بأسمائهم[2]. ويذكر السعدي رحمه الله في سبب تخصيص هؤلاء الأنبياء -الذين منهم يونس- عليه السلام بالذكر، فقال: «وفي ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم في التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم مما يزداد به المؤمن إيمانًا بهم، ومحبة لهم، واقتداءً بهديهم، واستنانًا بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم فكلُّ محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل -وخصوصًا هؤلاء المسمون- في المرتبة العليا من الإحسان»[3].

كما أثنى الله عز وجل على يونس عليه السلام، ومدحه بتفضيله على عالم زمانه بالنبوة والرسالة[4]، فقال تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

(١) الدر المنثور، السيوطي، ٢/ ٧٤٨.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٦٢٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٥٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٢١٤.
(٤) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٥١٩، البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ١٤١.

[الأنعام: ٨٦].

كما أثنى جلَّ جلاله عليه في قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩].

فهو من جملة الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى لدعوة الناس إلى توحيده عز وجل، وإفراده وحده بالعبادة.

كما أثنى الله عز وجل عليه بقوله: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠].

أي: استخلصه واصطفاه لدعائه، واختاره لنبوته، فجعله من الكاملين في الصلاح، وعصمه من الذنب، وهذا الاجتباء كان بعد التقام الحوت له -كما سيأتي بيانه لاحقًا-، حيث رد إليه نبوته، وقبل توبته، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون[(١)].

هذا وقد مدح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يونس عليه السلام، فقال: (لا ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى)[(٢)]، وقال الإمام ابن حجر العسقلاني في شرحه للحديث: «خص يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيصٌ له، فبالغ في ذكر فضله؛ لسد هذه الذريعة»[(٣)].

وعليه فلا ينبغي لأحد من الناس أن يتصور نقصًا في شخصية يونس عليه السلام، فما تعرض له من عقوبة دنيوية متمثلة في التقام الحوت إياه، إنما كان لسببٍ وحكمةٍ ستظهر في ثنايا هذا البحث إن شاء الله تعالى.

(١) انظر: فتح البيان، صديق حسن القنوجي ١٤/ ٢٧٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٤١٦، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإن يونس لمن المرسلين)، ٤/ ١٥٩.
(٣) فتح الباري، ٦/ ٤٥٢.

ذكر يونس عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر يونس عليه السلام في القرآن الكريم (٤) مرات، في (٤) سور.

وقد سميت سورة من سور القرآن الكريم باسمه: سورة يونس.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
يونس	٩٨
الصافات	١٣٩-١٤٨

دعوة يونس عليه السلام

ذكرنا أنَّ الله تعالى فضَّلَ يونس عليه السلام على عالم زمانه، وكلفه بالنبوة، وخصه بالذكر مع جملة من الأنبياء الكرام سموا بأسمائهم من باب التشريف لهم، وبيان فضلهم.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

والمعنى: أنَّ الله تعالى قد أوحى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بتكليفه بالنبوة، ودعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة المتمثلة في توحيد الله عز وجل، وإفراده وحده بالعبادة دون غيره من الأصنام والأوثان، فهذه العقيدة نفسها هي التي أوحى الله تعالى بها إلى جميع الأنبياء السابقين من: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وعيسى، وأيوب، ويونس، وهارون، وسليمان، وداود، وموسى عليهم السلام أجمعين، كما أوحى بهذه العقيدة إلى غيرهم من الرسل الذين ذكر الله تعالى أخبارهم لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك أوحى إلى رسلٍ آخرين لم يخبره بأحوالهم.

ثمَّ بيَّنَ الله عز وجل مهمة هؤلاء الأنبياء والرسل، فهم يبشرون الطائعين بالجنة، وينذرون العاصين بالنار. ثم ذكر الله تعالى الحكمة التي من أجلها أرسل هؤلاء الأنبياء والرسل وبعثهم، وهي متمثلة في قطع الحجة على من يقول: لو أرسل إلي رسول لآمنت وأطعت. فقطع الله تعالى حجة البشر هذه بإرسال الرسل، وإنزال الكتب السماوية معهم؛ لتدلهم على المنهج السديد، والطريق المستقيم الذي يجب أن يسير عليه البشر؛ ليصلوا إلى الله جل جلاله، فيفوزوا برضوانه وجنانه، وكان الله تعالى ولا يزال عزيزًا في ملكه، وحكيمًا في صنعه[1].

ويتبين من هذا أن رسالات الأنبياء في القواعد والأصول العامة للعقيدة والأخلاق هي واحدة لا تتغير، ولا تتبدل، فالأنبياء جميعًا متعاونون متناصرون فيما بينهم، كلٌّ منهم يكمل رسالة أخيه النبي السابق في الدعوة إلى التوحيد.

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم لم يشر

(١) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ١/ ٢٤٢، صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٢٩٥.

إلى حوار دعوي دار بين يونس عليه السلام وقومه، بل اكتفى ببيان أن يونس عليه السلام من جملة الأنبياء والمرسلين، فقال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩].

ومعلومٌ أن مهمة المرسلين هي تبليغ دعوة الله تعالى إليهم، وأنهم يبشرون من أطاع الله تعالى، واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره، وكذب رسله بالعقاب والعذاب. فيونس عليه السلام عندما أرسله الله تعالى إلى قومه، دعاهم إلى توحيد الله جل جلاله، ونبذ ما كانوا عليه من شرك، وعبادة للأصنام. ففي دعوته حاول إخراجهم من ظلمات الشرك والمعصية إلى نور التوحيد والطاعة، وإنقاذهم من براثن الجهل والعمى إلى نور الهداية والإيمان.

يونس عليه السلام وقومه

بعث الله عز وجل يونس عليه السلام إلى الآشوريين الذين أسسوا حضارة عظيمة عرفت باسمهم، ونسبت إليهم، ويقع موطنهم حول نهر دجلة في العراق، ولهم مدن كثيرة ومشهورة، منها مدينة نينوى التي هي بلد نبي الله يونس عليه السلام، كما ورد في سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حين ذهب إلى الطائف يدعو أهلها قبيلة ثقيف إلى الإسلام، كما يلتمس النصرة منهم، لكن قبيلة ثقيف قابلوا النبي صلى الله عليه وسلم، وردوا عليه بكل غلظة وقسوة وجفاء.

حينئذٍ طلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتموا خبر مقدمه صلى الله عليه وسلم إليهم عن قريش، ولكنهم لم يجيبوه أيضًا إلى ذلك، فلم يكن منهم إلا أن طلبوا من سفهائهم، وعبيدهم، وصبيانهم أن يسبوا النبي صلى الله عليه وسلم، ويضربوه بالحجارة، حتى أدموا قدميه الشريفتين، وكان زيد رضي الله عنه يقيه ويحميه بنفسه حتى شج هو في رأسه عدة شجاج.

ولما بلغ التعب والنصب من النبي صلى الله عليه وسلم مبلغه، ذهب ليستظل تحت شجرة عنب، وكان ابنا ربيعة ينظران إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يشكو إلى

الله تعالى ما ألم به، فتحركت الشفقة في قلبي ابني ربيعة، فبعثا غلامًا نصرانيًّا لهما يدعى عداس؛ ليرسل إليه قطفًا من عنب.

فلما وضع عداس العنب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: بسم الله، ثم أكل، فتعجب عداس من النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم: من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ فأجاب عداس: أنا رجل نصراني من نينوى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فسأل عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك أخي، كان نبيًّا، وأنا نبيٌّ، فما كان من عداس إلا أن أكب على قدمي النبي صلى الله عليه وسلم الشريفتين اللتين تدميان مما فعله به صبيان بني ثقيف، وقبلهما، وقبل رأسه الشريفة، ويده الشريفة[1].

ونعود إلى نينوى التي هي مدينة آشورية، وتعتبر من قرى مدينة الموصل العراقية الحالية، وقامت حضارة الآشوريين على القسوة والظلم والحرب، فكانوا يأخذون الجزية من جيرانهم، ويبسطون نفوذهم على الشعوب المجاورة لهم. هذا عن الحالة السياسية والاجتماعية، أما عن حالتهم الدينية، فكانوا يعبدون الأصنام التي كانوا يصنعونها بأيديهم، وأطلقوا عليها أسماء مدنهم، فجعلوا الصنم الأكبر، الذي يدعونه إلههم، هو آشور، وبه يسمى مليكهم، وكانوا يتوجهون بالعبادة وألوانها إلى الملك آشور، كما كانوا يتقربون إليه بالعطايا الجزيلة؛ ليمنحهم رضا الرب، فيسيرون على ما يأمرهم به، وما ينهاهم عنه[2].

هذه طبيعة القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام، والذي من الطبيعي أن يدعوهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، ونبذ ما هم عليه من الشرك والظلم والعدوان. ولكن ذكرنا سابقًا أن موطن يونس عليه السلام كان في فلسطين، فمتى كلفه الله عز وجل بالنبوة إلى هؤلاء القوم؟ وهل كان هذا التكليف قبل ابتلاع الحوت إياه؟ أم بعده؟

فاختلف أهل التفسير في هذه المسألة المتمثلة في قوله: عز وجل ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

اختلفوا بناءً على معنى ﴿مُغَٰضِبًا﴾ على

(١) فقه السيرة النبوية، محمد سعيد رمضان البوطي، ص١٠٠، بتصرف.

(٢) دعوة الرسل عليهم السلام، أحمد غلوش، ص٢٥٥، بتصرف.
وانظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، ٢/ ٢٤٦-٢٧٧.

قولين:

القول الأول: إن يونس عليه السلام لما كان يسكن هو وقومه في فلسطين، غزاهم ملك، وسبى منهم تسعة أسباط ونصف، وبقي سبطان ونصف، ومعلومٌ أن بني إسرائيل كانوا اثني عشر سبطًا، وكان الله تعالى أوحى إليهم أنه إذا أسركم عدوكم، أو أصابتكم مصيبة، فادعوني أستجب لكم، ولكنهم نسوا هذا، فأسروا.

فأوحى الله تعالى إلى نبي من أنبيائهم أن يذهب إلى الملك حزقيل، ويطلب منه أن يوجه ويرسل نبيًّا قويًّا أمينًا إلى هؤلاء الغزاة الآشوريين -الذين تم الحديث عنهم قبل قليل-؛ ليخلص منهم بني إسرائيل، ويعود بهم.

فطلب الملك مشورة ذلك النبي في النبي الذي سوف يرسله، فأشار عليه بيونس عليه السلام، عندئذٍ أرسل الملك إلى يونس عليه السلام ليطلب منه الذهاب لتخليص بني إسرائيل من الأسر، فقال يونس عليه السلام: هل أمرك الله تعالى بإرسالي إليهم؟ قال الملك: لا، فقال يونس عليه السلام: فهل سماني لك؟ قال: لا، فرد يونس عليه السلام: فههنا أنبياء غيري، فألحوا عليه حتى خرج مغاضبًا للملك، فوصل بحر الروم، فوجد قومًا يهيئون أنفسهم للركوب في السفينة، فركب معهم.

وأثناء سير السفينة في البحر، فإذا بالرياح تهيج بالسفينة، فتتلجلج وتضطرب، وكادت السفينة تغرق، فقال رئيس القوم: إن في السفينة رجلًا عاصيًا، أو عبدًا آبقًا؛ لأننا لم نعهد على السفينة هذا الاضطراب إلا وفيها رجل عاصٍ، وإذا كان هذا فإننا نقترع، فمن تقع عليه القرعة، فإنه يلقى في البحر، فغرق رجل واحد خير من غرق السفينة بمن فيها.

فاقترعوا ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت القرعة تخرج على يونس عليه السلام، فقال يونس عليه السلام: أنا الرجل العاصي، والعبد الآبق، وألقى بنفسه في البحر فابتلعه الحوت.

وبعد نبذ الحوت له، أمره الله تعالى أن يذهب إلى هؤلاء القوم، فأتاهم، وأخبر ملكهم أن الله تعالى أرسله إليهم؛ ليرسل معه بني إسرائيل الذين سباهم، ووقعوا في أسره، فقال له: ما نعرف ما تقول، ولو علمنا أنك صادق لفعلنا، ولقد أتيناكم في دياركم، وسبيناكم، فلو كان كما تقول، لمنعنا الله عنكم.

فظل يونس عليه السلام ثلاثة أيام يدعوهم إلى أن يخلوا أسر بني إسرائيل، فرفضوا وأبوا، فأوحى الله تعالى إليه أن يبلغهم أنهم إذا لم يؤمنوا فسيوقع عليهم العذاب، فبلغهم، وأبوا مرة أخرى، فخرج يونس عليه السلام من عندهم.

فلما فقدوه ندموا على فعلتهم هذه، فانطلقوا يبحثون عنه فلم يجدوه، ولم يعثروا عليه، ثم ذكروا أمره لعلمائهم، فقال العلماء لهم: انظروا في طلبه، فإن كان في المدينة، فخبر إنزال العذاب عليكم ليس بصحيح، وإن كان خارج المدينة، فخبره إنزال العذاب عليكم صحيح.

فلما بحثوا عنه مرة أخرى، قيل لهم: إنه خرج من المدينة بالعشي. عندئذٍ آيس القوم من العثور عليه، فأغلقوا أبواب المدينة، وجلسوا ينتظرون الصبح، فلما انشق الصبح ورأوا العذاب ينزل عليهم من السماء، شقوا جيوبهم، ووضعت الحوامل ما في بطونها، وصاح الصبيان، وثغت الأغنام والأبقار، فرفع الله تعالى عنهم العذاب، فبعثوا إلى يونس عليه السلام، فآمنوا به، وبعثوا معه بني إسرائيل[1].

ويلاحظ من هذا القول أن يونس عليه السلام خرج من المدينة مغاضبًا مرتين:

الأولى: عندما غاضب الملك حزقيل.

والثانية: بعدما رفض قومه دعوة الله عز وجل، وخوفهم بعذاب الله تعالى، فيكون غضبه من أجل الله تعالى.

وبناءً على هذا القول، كان تكليف يونس عليه السلام بالرسالة إلى قومه بعد نبذ الحوت له.

القول الثاني: إن يونس عليه السلام عندما كلف بالرسالة إلى أهل نينوى، وبلغهم دعوة الله عز وجل، كذبوه، ورفضوا قبول دعوته، وهددهم يونس عليه السلام بعذاب الله تعالى إن لم يستجيبوا، فلما كشف عنهم العذاب، ورفع بعدما توعدهم به، خرج مغاضبًا.

وعلى هذا القول يكون معنى غضب يونس عليه السلام من أجل الله عز وجل[2].

ويكون المعنى المناسب لقوله تعالى في حقِّ الأنبياء المعصومين من الخطأ ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ -على اختلاف القولين- كما قال الزحيلي في تفسيره: «أي: ظنَّ أننا لن نلزمه بالذهاب إلى القوم الذين أرسل إليهم، ولا نلجئه إلى تبليغ رسالة الله تعالى إليهم، والمراد أنه تأول الأمر، وهو أمر الذهاب إلى قومه على أنه أمر إرشاد لا أمر وجوب، ولا إثم في مخالفته»[3].

وذكر العلماء ثلاثة أسباب في غضب يونس عليه السلام من قومه وخروجه من المدينة، وهي كالآتي:

الأول: أن يونس عليه السلام توعد قومه بالعذاب، ولكن الله تعالى رفعه عنهم. فكأن يونس عليه السلام قد أخبرهم خبرًا كاذبًا، فاستحى أن يكون بين قوم جربوا عليه كذبًا،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٢/ ١٧٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٤٩٦.

(٣) التفسير المنير، ١١/ ٢٧٠.

فخرج لهذا السبب.

الثاني: أنه كان من عادة القوم قتل الكاذب؛ ولذلك خرج[1].

الثالث: أن يونس عليه السلام عندما أخبرهم أن العذاب نازل عليهم بعد مدة، فلما أشرفت المدة على الانتهاء تابوا وآمنوا، فخرج غضبانًا من عدم تحقق ما أنذرهم به[2].

وبما أنَّ الله عز وجل لم يخبرنا عن السبب الحقيقي لغضب يونس عليه السلام، فهذا يعني أنه ليست هناك فائدة تعود علينا من ذكره لنا، ولكن المهمَّ أن يونس عليه السلام أحدث ذنبًا، فعاقبه الله تعالى عليه بالتقام الحوت إياه.

وبعد هذه الإطالة، فإن أكثر العلماء ذهبوا إلى أن غضب يونس عليه السلام كان بعد أن أرسله الله تعالى إليهم، فعاقبه الله عز وجل هذه العقوبة الدنيوية، وجعل الحوت يلتقمه[3].

وأشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

والمعنى: أنه لم تكن هناك قرية آمن أهلها عند معاينتهم العذاب، ورؤيتهم إياه بأم أعينهم، فينفعهم إيمانهم هذا إلا قوم يونس عليه السلام، فإنهم آمنوا عند رؤيتهم العذاب الذي توعدهم به نبيهم يونس عليه السلام، وأخبرهم أنه آتيهم بعد ثلاثة أيام، ومع ذلك لم يستجيبوا، فلما رأوا العذاب نازلًا عليهم، تابوا، وتضرعوا إلى الله تعالى، وآمنوا.

فكشف الله تعالى هذا العذاب عنهم في الدنيا، ونفعهم هذا الإيمان؛ لأنَّ الله عز وجل علم إخلاصهم وصدقهم في هذا الإيمان، وأنه لم يكن لمجرد رفع العذاب عنهم، والعودة إلى ما كانوا عليه من شرك وضلال، ثم متعهم الله تعالى بالحياة الدنيا مع إيمانهم إلى حين انقضاء آجالهم التي كتبها الله عز وجل عليهم[4].

واختلف العلماء في قوم يونس عليه السلام هل رأوا العذاب عيانًا أم لا؟ على رأيين:

الرأي الأول: ذكر الزجاج أن العذاب لم يقع بهم، إنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان[5].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٢/ ١٧٩، فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٤٩٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ١٣٠.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٢/ ١٧٩.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٦٥.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، ٣/ ٣٤.

وعقب القرطبي على كلام الزجاج قائلًا: «قلت: قول الزجاج حسنٌ، فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون؛ ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون؛ لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك. ويعضد هذا قوله عليه السلام: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[1]»[2].

الرأي الثاني: أن قوم يونس رأوا العذاب عيانًا، بدليل قوله تعالى في الآية: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾، وكشف العذاب لا يكون إلا بعد وقوعه، أو قرب وقوعه. وأكثر العلماء قالوا بهذا الرأي[3].

وروي عن بعض الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم-: «أن يونس بعثه الله تعالى إلى قومه، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى، وترك ما هم فيه من الكفر فأبوا، فدعا ربه فقال: يا رب قد دعوتهم فأبوا. فأوحى الله تعالى إليه: أن ادعهم، فإن أجابوك وإلا فأعلمهم أن العذاب يأتيهم إلى ثلاثة أيام. فدعاهم فلم يجيبوه، فأخبرهم بالعذاب، فقالوا: ما جربنا عليه كذبة مذ كان معنا، فإن لم يلبث معكم وخرج من عندكم، فاحتالوا لأنفسكم. فلمَا كان بعض الليل خرج يونس من بينهم، فلما كان اليوم الثالث رأوا حمرة وسوادًا في السماء كهيئة النار والدخان، فظنوا أنَّ العذاب نازل بهم، فجعلوا يطلبون يونس فلم يجدوه، فلما كان آخر النهار أيسوا من يونس، وجعل يهبط السواد والحمرة، فقال قائل منهم: إن لم تجدوا يونس عليه السلام فإنكم تجدون رب يونس، فادعوه، وتضرعوا إليه.

فخرجوا من القرية إلى الصحراء، وأخرجوا النساء والصبيان والبهائم، وفرقوا بين كل إنسان وولده، وبين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا[4] إلى الله تعالى مؤمنين به مصدقين. وارتفعت أصوات الرجال والنساء والصبيان، وخوار البهائم وأولادها، واختلطت الأصوات، وقربت منهم الحمرة والدخان، حتى غشي السواد سطوحهم، وبلغهم حر النار. فلما عرف الله تعالى منهم صدق التوبة، رفع عنهم العذاب بعدما كان غشيهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾»[5].

وأخيرًا، فإنه لا يخفى ما في هذه الآية من تخويف وتهديد ووعيد لكفار مكة خاصة، ولجميع الكفار إلى يوم القيامة، أنهم إن

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٤٢٥٣، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، عن عبد الله بن عمرو، ٥/ ٣٢٢.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٣١٤٣، ٣/ ١٢٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٨٤.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٦٥.
(٤) عجوا بالدعاء: إذا رفعوا أصواتهم.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٨.
(٥) تفسير السمرقندي، ٢/ ١٣٣.

لم يستجيبوا للهداية ونور الحق، فسيحيق بهم عذاب الله عزَّ وجلَّ، وحينئذٍ لا ينفعهم إيمانهم عند نزول العذاب، ويصدق هذا المعنى أيضًا قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

فالله تعالى يتوعد الكافرين به، والمخالفين رسله، والمكذبين بآياته وحججه الدالة على صدق الأنبياء والرسل الذين بعثوا فيهم، ويتوعد الصادين عن سبيل الله عز وجل، ماذا ينتظرون كي يستجيبوا ويؤمنوا؟ هل ينتظرون ملك الموت لما يأتي إليهم، ويقبض أرواحهم مثل فرعون الطاغية عندما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

أو تأتيهم ملائكة العذاب كما أتت الأقوام السابقة فأهلكتهم عن بكرة أبيهم، مع أن إيمانهم حينئذٍ لا ينفعهم، أم يطلبون إتيان الله عز وجل معاينةً كما طلبه بنو إسرائيل من نبيهم موسى عليه السلام عندما قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

أم ينتظرون أن تأتي أشراط الساعة الكبرى وعلاماتها -كطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك- حتى تلجئهم على الإيمان؟ فإنه إذا أتت علامات الساعة الكبرى، فلن ينفع إيمانٌ صاحبه لم يكن آمن قبل ظهور علامات الساعة الكبرى، أو كان صاحبه مؤمنًا قبل ذلك، ولكنه لم يكسب هذا الإيمان عملًا خيرًا صالحًا مقبولًا عند الله جل جلاله؛ وذلك لأن باب التوبة يغلق حينئذٍ[(١)].

ويؤكد هذا ما جاء عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم حين قال: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ولتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنَّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها)[(٢)].

ومعنى (وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه): أي: عرض البائع الثوب على المشتري ليشتريه، فلا يتم هذا

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ٢٨٢، الفواتح الإلهية، نعمة الله النخجواني، ١/ ٢٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٥٠٦، عن أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها، ٨/ ١٠٦.

البيع؛ لقيام الساعة، وتقوم أيضًا (وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه): أي انصرف الرجل بلبن ناقته، فلا يشربه، وتقوم أيضًا (وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه): أي: الرجل يصلح حوضه فلا يسقي منه، وتقوم أيضًا (وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها): أي: الرجل يرفع لقمته إلى فيه ليأكلها، فلا يكون له ذلك؛ لأن قيام الساعة قد حال بينه وبين أكلها فجأة، فهي أسرع من دفع اللقمة إلى الفم[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لا يجب انتظار وقوع علامات الساعة الكبرى، فلكل امرئٍ منا له ساعته التي سوف يحين فيها أجله، فينبغي على كل مرءٍ منا أن يجدد التوبة مع الله عز وجل دائمًا، ويكثر من الاستغفار، ويخلص في القول والعمل، ويكثر أيضًا من العمل الصالح؛ ليزيد من رصيده الإيماني، فينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله تعالى بقلب سليم.

ونعود إلى يونس عليه السلام، فإنه لم يصبر على قومه كما ينبغي، بل تعجل في الغضب منهم، وفارقهم دون أن يأمره الله تعالى بذلك. لأجل هذا الأمر نهى الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يكون مثل يونس عليه السلام في هذا الجانب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

وحكم الله تعالى في رسله يتمثل في ثلاثة أمور كما بينها الماتريدي، حيث قال: «أحدها: ألا يدعوا على قومهم بالهلاك، وإن اشتد أذاهم من ناحيتهم حتى يؤذن لهم. والثاني: ألا يفارقوا قومهم وإن اشتد بهم البلاء إلا بإذن الله تعالى، والثالث: ألا يقصروا في التبليغ وإن خافوا على أنفسهم. ثم من وراء هذا عليهم أمران: أحدهما: أنهم أمروا ألا يغضبوا إلا لله تعالى، والثاني: ألا يحزنوا لمكان أنفسهم إذا آذاهم قومهم، بل يحزنوا لمكان أولئك القوم؛ إشفاقًا عليهم منه ورحمة بما يحل عليهم من العذاب بتكذيبهم الرسل، فهذا هو حكم ربهم»[2].

فالله عز وجل نهى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يكون حاله مشابهًا لحال يونس عليه السلام في عدم صبره الصبر المطلوب، وذهابه مغاضبًا ربه حتى ركب البحر، فثقلت السفينة، واقترع أهلها، وألقي به في البحر، وابتلعه الحوت، فحاله هذه هي التي أوصلته وأدت به إلى حبسه في بطن الحوت[3].

وقال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية:

(١) انظر: شرح وتعليق الدكتور مصطفى البغا على الحديث في كتاب صحيح البخاري، ٨/ ١٠٦.

(٢) تأويلات أهل السنة، ١٠/ ١٥٧.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٨١.

«يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآن، وهذا الدين، وامض لما أمرك به ربك، ولا يثنك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم إياك وأذاهم لك. وقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ الذي حبسه في بطنه، وهو يونس بن متى صلى الله عليه وسلم فيعاقبك ربك على تركك تبليغ ذلك، كما عاقبه فحبسه في بطنه: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ يقول: إذ نادى وهو مغموم، قد أثقله الغمُّ وكظمه»[1].

شبهة:

وتتمةً لهذه السطور، فقد زعم بعض الحاقدين والطاعنين في القرآن الكريم أن القرآن أساء إلى أنبياء الله الكرام، وأنه انتقص من قدرهم وشأنهم، ومن ضمن هؤلاء الأنبياء يونس عليه السلام، فقالوا: كيف يعصي يونس أمر ربه؟ وكيف يظنُّ أنَّ الله القادر على كل شيء لن يقدر عليه؟ هل شكَّ يونس في قدرة الله؟

وعندما أرسله الله إلى أهل نينوى لم يذهب إليهم، بل ذهب إلى البحر، واستدلوا على زعمهم هذا بقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وأجاب السقار على هذه الشبهة، فقال: «والجواب: أن القارئ لن يجد كتابًا عند أمة من الأمم يعظم الأنبياء كما عظمهم القرآن الكريم، فهو الكتاب الوحيد الذي ينزه الأنبياء عن الكبائر والنقائص، فضلًا عن الكفر والشرك بالله تعالى. وقد فضل الله يونس مع إخوانه الأنبياء على العالمين: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وإنما أتي القائل لهذه الشبهة من سوء فهمه للآية، فليس مقصودها أن يونس ظن أنه معجز الله بهربه، بل المعنى أنه ظَنَّ أن الله لن يقدر عليه، أي: لن يضيق عليه ويلومه في ترك قومه حين لم يستجيبوا لدعوته، فهي كقول الله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

أي: ضيق عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

وهذا المعنى منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن غيره من التابعين. وحفاظًا على منزلة يونس بن متى في قلوب المؤمنين نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيل المرء نفسه على هذا النبي الكريم: (لا ينبغي لعبد أن يقول إنه خير من يونس بن متى)[2].

وفي رواية: (من قال: أنا خير من يونس

(١) جامع البيان، ٢٣/ ٥٦٢.

(٢) سبق تخريجه.

بن متى فقد كذب)[1].

فثبت بذلك براءة القرآن من فرية الإساءة إلى يونس عليه السلام»[2].

كما رد علي بن نايف الشحود على هذه الشبهة، فذكر رد الإمام ابن حزم إذ قال: «أما إخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضبًا فلم يغاضب ربه قط، ولا قال الله تعالى إنه غاضَبَ ربَّهُ، فمن زاد هذه الزيادة كان قائلًا على الله الكذب، وزائدًا في القرآن ما ليس فيه، هذا لا يحلُّ ولا يجوز أن يظنَّ بمن له أدنى مسكة من عقل أنه يغاضب ربه تعالى فكيف أن يفعل ذلك نبي من الأنبياء، فعلمنا يقينا أنه إنما غاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل فعوقب بذلك وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضا الله عز وجل»[3].

وذكر القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

حيث قال: «قيل: معناه استزله إبليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته. وهذا قولٌ مردودٌ مرغوبٌ عنه؛ لأنه كفرٌ. روي عن سعيد بن جبيرٍ حكاه عنه المهدوي، والثعلبي عن الحسن. وذكر الثعلبي وقال عطاءٌ وسعيد بن جبيرٍ وكثيرٌ من العلماء معناه: فظنَّ أَنْ لَنْ نُضيِّقَ عليه. قال الحسن: هو من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرعد: ٢٦]. أي: يضيق. وقوله ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧].

قلت: وهذا الأشبه بقول سعيدٍ والحسن. وقَدَرَ وقُدِرَ وقَتَرَ وقُتِرَ بمعنى، أي: ضيق. وهو قول ابن عباسٍ فيما ذكره الماوردي والمهدوي. وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم، أي: فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة، قاله قتادة ومجاهدٌ والفراء. مأخوذٌ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة»[4].

ثم عقب الشحود بقوله: «فكلمة ﴿نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ لا تشير ههنا إلى معنى الاستطاعة، فهذا ما لا يظنه آحاد الناس فضلًا عن نبيٍّ، وإنما تشير إلى معنى التضييق، فيونس عليه السلام لما دعا قومه للتوحيد، ونفروا منه آذوه، تركهم غضبانًا لله، ولم يظن أن الله يحاسبه ويضيق عليه لذلك، وإنما حاسبه الله؛ لأنه لم يصبر عليهم، وخرج منهم قبل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٦٠٤، عن أبي هريرة، كتاب تفسير القرآن، باب (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح)، ٦/ ٥٠.

(٢) تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، ص ١٤٨.

(٣) الفصل في الأهواء والملل والنحل، ٤/ ١٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٣٣١.

الإذن، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا الأمر، وحذر من أن يسيء إنسان الظن بنبي الله يونس فقال عليه الصلاة والسلام: (لا يقولنَّ أحدكم إني خير من يونس)[1].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال، يعني الله تبارك وتعالى: (لا ينبغي لعبدٍ لي، وقال ابن المثنى: لعبدي، أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى عليه السلام)[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: (ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب)[3].

وهذا من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم لشأن إخوانه الأنبياء ودفاعه عنهم عليهم صلوات الله أجمعين»[4].

يونس عليه السلام والحوت

يعد هذا المشهد هو الأطول ذكرًا في القرآن الكريم من مشاهد قصة يونس عليه السلام في القرآن.

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

ذكرنا فيما سبق أن يونس عليه السلام ارتكب ذنبًا كبيرًا على الأنبياء أمثاله، وهو خروجه وهروبه من المدينة التي بعثه الله تعالى إلى دعوة أهلها إلى الحق من غير إذنٍ من الله عز وجل، فقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والمعنى المناسب لهذه الآية في حقِّ الأنبياء المعصومين من الخطأ: «فظن أن لن نضيق عليه، أي: ظن أننا لن نلزمه بالذهاب إلى القوم الذين أرسل إليهم، ولا نلجئه إلى تبليغ رسالة الله تعالى إليهم، والمراد: أنه تأول الأمر، وهو أمر الذهاب إلى قومه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٤١٢، عن عبد الله، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإن يونس لمن المرسلين)، ٤/ ١٥٩.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٦٢٣٥، عن أبي هريرة، كتاب أحاديث الأنبياء، باب فضائل يونس عليه السلام، ٧/ ١٠٢.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، ٨/ ٦.

على أنه أمر إرشاد لا أمر وجوب، ولا إثم في مخالفته، كما تأول الفقهاء كتابة الدين المأمور به في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

على أنه أمر ندب وإرشاد، ففهم الأمر على هذا الوجه»[١].

ذكر الرازي اختلاف المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، وبين أن ما قالوه لا يجوز على الأنبياء، فقال بعضهم: إن يونس عليه السلام أبق وهرب من الله تعالى، وذكر الرازي بطلان هذا القول، فقال: «وهذا بعيد؛ لأن ذلك لا يقال إلا فيمن يتعمد مخالفة ربه، وذلك لا يجوز على الأنبياء.

واختلفوا فيما لأجله صار مخطئًا، فقيل: لأنه أمر بالخروج إلى بني إسرائيل، فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضبًا لربه، وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحي أو بلسان نبي آخر، وقيل: إن ذنبه أنه ترك دعاء قومه، ولم يصبر عليهم. وهذا أيضًا بعيد؛ لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه»[٢].

ثم ذكر أنَّ الأقرب في معنى الآية وجهان:

«الأول: أن ذنبه كان لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه فَظَنَّ أنه نازل لا محالة، فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم، فكان الواجب عليه أنْ يستمرَّ على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وإن أنزله، وهذا هو الأقرب؛ لأنه إقدام على أمر ظهرت أماراته، فلا يكون تعمدًا للمعصية، وإن كان الأولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظنِّ، ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ في ذلك الظنِّ؛ لأجل أنه ظهر الإيمان منهم، فذلك معنى قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾.

الثاني: أن يونس كان وعد قومه بالعذاب، فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة، فذلك هو قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾»[٣].

وبعد ذلك قصد يونس عليه السلام البحر، وركب السفينة المملوءة بالركبان والأمتعة، فثقلت السفينة واضطربت، فقال الملاحون: إن بيننا عبدًا آبقًا من سيده. فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركاب في البحر، وكأنهم لم يجدوا في هذا الأمر مزيةً لأحد، فالكلُّ سواء، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس عليه السلام ثلاث مرات، عندئذٍ قال يونس عليه السلام: أنا العبد الآبق، وزج بنفسه في الماء، ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ وابتلعه، وكان في وقت التقام الحوت إياه ملامًا على فعلته، وهي مغاضبته لربه عز وجل، فكان

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ١١/ ٢٧٠.
(٢) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٣٥٦.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٣٥٦.

مستحقًّا للوم من الله تعالى؛ لأنه غادر قومه وخرج من غير إذنه تعالى، أو غادر قبل أن يوجهه الله تعالى إلى قوم آخرين[1].

وهذا يرشدنا إلى عدم التصرف بأمرٍ قبل معرفة حكم الله تعالى فيه[2].

ثم ذكر الله عز وجل أنه لولا أنَّ يونس عليه السلام كان من المسبحين قبل حدوث هذه الحادثة له، أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لله تعالى، وتسبيحه، وتحميده، أو أنه كان من المسبحين في بطن الحوت كما أخبر الله عز وجل عنه حيث قال: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فبدأ يونس عليه السلام بالتوحيد: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ثم بالتنزيه والتسبيح: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، ثم بالاستغفار والإقرار بالذنب: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاجتمعت عليه ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، ونادى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: تنزهت يا رب عن النقص والظلم، وقد كنت من الظالمين لنفسي، وأنا الآن من التائبين النادمين، فاكشف عني هذه المحنة.

وفي الحديث: (دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلمٌ ربه في شيءٍ قط إلا استجاب له)[3].

فلولا تسبيح يونس لجعل بطن الحوت مقبرة له عليه السلام، وللبث في بطنه إلى يوم القيامة. ﴿لَوۡلَآ﴾ حرف امتناع لوجود، أي: امتنع جعل بطن الحوت قبرًا ليونس عليه السلام؛ لوجود كثرة تسبيحه؛ لأن العادة أن يهضم في بطن الحوت كسائر أنواع الطعام والغذاء، ويروى أن الله تعالى أوحى إلى الحوت أن لا يكسر له عظمًا، ولا يقطع منه وصلًا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لما أراد الله -تبارك وتعالى- حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت ألا تخدشن له لحمًا، ولا تكسرن له عظمًا، فأخذه، ثم أهوى به إلى مسكنه من البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا، فقال في نفسه: ما هذا فأوحى الله -تبارك وتعالى- إليه، وهو في بطن

(١) انظر: التفسير المنهجي، د. صلاح الخالدي، ٨/ ٤٦.

(٢) انظر: المصدر السابق، أ. د. أحمد شكري، ٦/ ٢٣٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٤٦٢، عن سعد بن أبي وقاص، ٣/ ٦٦، والترمذي في سننه، رقم ٣٥٠٥، أبواب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، عن سعد بن أبي وقاص، ٥/ ٥٢٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٣٧، رقم ٣٣٨٣.

الحوت أن هذا تسبيح دواب الأرض، فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غربة، فقال -تبارك وتعالى-: ذلك عبدي يونس عصاني، فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كلِّ يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[1].

فيرشدنا الله تعالى إلى أن كثرة التسبيح ليست مزيةً ليونس عليه السلام وحده، فنجاه الله تعالى من كربه، بل هو طريق لنجاة المؤمنين جميعًا عند حلول الشدائد بهم، ووقوعهم فيها، حيث قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وقد جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس رضي الله عنه: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)[2].

وبعد مكث يونس عليه السلام في بطن الحوت المدة التي حددها الله تعالى له، ولم يعلمنا بها، مما أدى إلى اختلاف المفسرين في تحديدها، فبعد ذلك أمر الله عز وجل الحوت ليقذف يونس عليه السلام من بطنه بالعراء، وهي منطقة خالية من كل شيء، من الإنس، والشجر والنبات، فكان عليه السلام وقت نبذه من بطن الحوت سقيمًا بسبب حبسه في بطن الحوت فترة من الزمن أدت إلى مرضه، وهَزْلِ جسمه ونحولِهِ، فقيل: كان قد بلي لحمه، ورق عظمه، ولم يبق له قوة.

فبعد الضرر الذي أصابه، كان من لطف الله عز وجل به أن أنبت له شجرة من يقطين، حيث إنها سريعة النمو، فأصبحت كالعريش فيستظل بورقها، فيمتنع عنه حَرُّ الصيف وبرد الشتاء، ويأكل من ثمارها حتى اشتد عوده عليه السلام، ورجع كما كان. واليقطين هو القرع أو الدباء، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الدباء[3].

ورجح المراغي أنه شجرة الموز؛ لأن أوراقها أعرض[4].

(١) أخرجه البزار في مسنده، رقم ٨٢٢٧، ١٥/ ٣٤.
قال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، رقم ٦٣٠٣، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر عبد الله بن عباس رضي الله عنه، ٣/ ٦٢٣، والطبراني في المعجم الكبير، رقم ١١٥٦٠، ١١/ ٢٢٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٩٦١، ١/ ٥٦٩.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٢٠٠، رقم ١٢٨١١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٨٤، رقم ٤٩٢٠.

(٤) انظر: نظم الدرر، ٢٣/ ٨٢.

وقد استشكل على بعض المفسرين الجمع بين آيتين في ظاهرهما التعارض، وهما: الآية في هذا الموضع ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥].

والآية الأخرى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩].

فالآية الأولى تثبت النبذ، والأخرى تدلُّ على أنه لم ينبذ. وجواب هذا الاستشكال: أن ﴿لَوْلَآ﴾ في الآية الثانية ترجع إلى الذم، فيصبح المعنى: لولا نعمة من ربه، ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، ولكن تداركته نعمة الله عز وجل فنبذ بالعراء وهو غير مذموم[(١)].

ثم امتن الله سبحانه وتعالى على يونس عليه السلام بعد شفائه منةً عظيمة أخرى، وهي إرساله إلى مائة ألف من الناس، أو يزيدون عنها، وهم القوم الذين غادرهم كفارًا، فلم يصبر على دعوتهم، وأخبره أنه سوف يجدهم مؤمنين.

ولما وصل إليهم، أحسنوا استقباله، وآمنوا به واتبعوه، فصار إيمانهم في ميزان حسناته عليه السلام؛ لأنه هو الذي دعاهم إلى توحيد الله جل جلاله، وبلغ دعوة الله تعالى فيهم، ومتعهم الله تعالى في الحياة الدنيا بألوان النعيم إلى أن انقضت آجالهم التي قدرها الله تعالى عليهم[(٢)].

وكان بين المفسرين اختلافٌ في القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام الوارد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

على ثلاثة أقوال:

الأول: أن إرسال يونس عليه السلام كان إلى أهل نينوى الذي كان قبل التقام الحوت له، وذكره في هذه الآيات بعد التقام الحوت له، فيراد به التقديم، ويكون معنى (الواو) الجمع من غير ترتيب.

الثاني: أن إرسال يونس عليه السلام كان بعد التقام الحوت له، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون يونس عليه السلام قد أرسل إلى قوم آخرين غير القوم الأول.

الثالث: يجوز أن يكون يونس عليه السلام قد أرسل إلى القوم الأولين مرة أخرى بشريعة فآمنوا بها[(٣)].

وحريٌّ بالذكر هنا أن نشير إلى أن امتناع هضم بطن الحوت ليونس عليه السلام هو أمرٌ خارقٌ للعادة، وهذا ما يعرف بإعجاز الصرفة، بمعنى: أن الله تعالى صرف بطن الحوت عن طبيعته، وهي الهضم ليونس عليه السلام، وهذا الإعجاز بالصرفة جائز في المعجزات المادية التي وقعت مع الأنبياء السابقين، كما حصل في صرف

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ٦١.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ٦٠، فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٤٧٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٢٠٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٠٧.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٥٨.

النار عن إحراق إبراهيم عليه السلام، وكذا صرف السكين عن ذبح إسماعيل عليه السلام، وصرف الماء عن خاصية السيولة لإنجاء موسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل، وكذا صرف زكريا عليه السلام عن الكلام بغير إرادته. أما القول بالصرفة كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، فهو قولٌ غير مقبول؛ لأن إعجازه متمثلٌ في بلاغته وبيانه، لا في صرف الناس عنه كما قال النظام والجاحظ وغيرهما من المعتزلة.

الدروس المستفادة من قصة يونس

إنَّ قصة يونس عليه السلام من القصص القرآني الحق الذي قصَّهُ الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حيث قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وهي تحمل الكثير من الهدايات والعبر والمواعظ، ومن ذلك ما يأتي:

١. إنَّ الوحي جنس واحد، فمن آمن بنبوة من النبوات، أو آمن بنبي من الأنبياء، فيجب عليه الإيمان بباقي النبوات والأنبياء.

٢. تتمثل مهمة الأنبياء جميعًا في التبشير والإنذار، وإنَّ الحكمة من إرسالهم هي هداية الناس إلى الحقِّ، والخير والطريق المستقيم.

٣. وجوب اتباع هدي الأنبياء المتفق عليه أو القدر المشترك فيما بينهم، وهو أصل التوحيد، ووجوب إفراد الله تعالى وحده بالعبادة، وكذلك الأخلاق والفضائل، وجميع الصفات الحميدة، والخصال النبيلة.

٤. إنَّ الله عز وجل لما خلق الخلق، جعل فيهم كوامن الخير والشرِّ، فهم مستعدون لنجدي: الإيمان والكفر،

فمشيئة الله تعالى وحكمته متعلقة بأفعال العباد، وتقع مشيئة الله سبحانه وتعالى وفق أفعال العباد التي علمها أزلًا.

٥. إنَّ الناس جميعهم فريقان: منهم من حكم الله تعالى له بخاتمة الإيمان، ومنهم من حكم عليه بخاتمة الكفر، فكلُّ ما قضاه الله عز وجل وقدره واقعٌ لا محالة.

٦. بين الله تعالى أنَّ تأخير الموعود به من العذاب، لا يقدح في صحة الوعيد به، بدليل أن الله عز وجل أخر العذاب عن قوم يونس، ولم يوقعه بهم؛ لأنهم تابوا وآمنوا.

٧. الحضُّ على الإيمان الصادق، والعمل الصالح، وفعل الخيرات في حال الرخاء والسعة قبل الإحاطة بالعذاب، فهذا وقتٌ لن يقبل فيه الإيمان ولو كان صادقًا. وقد جاء في الأثر: (من استطاع أن تكون له خبيئةٌ من عمل صالح فليفعل)[1]، فيجب على العبد المسلم أن يجتهد في العبادة ما أمكنه ذلك وقت الرخاء والصحة والعافية بصورةٍ مستورةٍ عن أعين الناس، ويدخر هذه الأعمال الصالحة لتنفعه في يوم كرب وفاقة.

٨. كُلِّفَ يونس عليه السلام بالرسالة قبل حادثة التقام الحوت إياه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٠]. أي: إنه كان من المرسلين حينما هرب إلى الفلك المشحون.

٩. لا يصح لنبيٍّ أنْ يترك البلد الذي أمره الله عز وجل بتبليغ الدعوة إلى أهله إلا بإذنٍ منه جل جلاله. قال العلماء: «إنما قيل ليونس: أبق عن العبودية؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل، مستترًا من الناس، وإنما العبودية: ترك الهوى، وبذل النفس عند أمور الله عز وجل، فلما آثر هواه، لزمه اسم الآبق»[2].

١٠. القرعة جائزة شرعًا، وملزمة الأثر كالقسمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]. «لكن المستقر في شريعتنا أنه لا يجوز الاقتراع على إلقاء آدمي في البحر، وإنما تطبق عليه الحدود والتعزيرات على مقدار جنايته، وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه،

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في الزهد، رقم ٧٨٢، ص ٢٦٩، وأبو داود في الزهد، رقم ١١٢، ١/١٢٢.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٣١٣، ٥/٣٩٨.

(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٢٣/ ١٤٢.

وزيادة في إيمانه»[1].

١١. دلَّ قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] على أن يونس عليه السلام أتى بما يلام عليه، وأنه كان يستحق اللوم من الله تعالى؛ لأنه غادر قومه بدون إذنه؛ لذلك أصابته القرعة ثلاث مرات، فألقوه في البحر؛ تخفيفًا لثقل السفينة من حمولتها.

١٢. وردت روايات كثيرة في كتب التفسير تحدد المدة الزمنية التي مكثها يونس عليه السلام في بطن الحوت، فلو كان في التحديد فائدة لأخبرنا الله عز وجل بها، ولكن الثابت الذي أخبرنا الله تعالى به هو إبقاء يونس عليه السلام في بطن الحوت حيًّا، ولم يهضمه الحوت كسائر الأطعمة، وهذه في حد ذاتها معجزة من الله تعالى.

١٣. ذكر الله سبحانه وتعالى لنا السبب الذي من أجله نجى يونس عليه السلام، وهو التسبيح، فإن يونس عليه السلام كان من قبل ملازمًا لذكر الله تعالى، وتسبيحه، وتحميده، وتمجيده. فالتسبيح سببٌ في رفع البلاء، كما أن يونس عليه السلام أعلن توبته الصادقة عندما قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٤. كان من لطف الله عز وجل وتمام نعمته تعالى على يونس عليه السلام بعد أن قذفه الحوت في العراء، وهو في حالة من الضعف والنحول، أن أنبت عليه شجرة اليقطين، يأكل من ثمارها، ويستظل بأوراقها.

١٥. وكان أيضًا من تمام نعمته عز وجل على يونس عليه السلام أن اجتباه مرة أخرى، واصطفاه وكلفه بالرسالة إلى أناس يزيد عددهم على مائة ألف، فيؤمنوا به، ويكون إيمانهم في ميزان حسنات يونس عليه السلام.

١٦. تبين قصة يونس عليه السلام مدى إنعام الله تعالى وفضله عليه، كما أنعم على إخوته من الأنبياء والرسل قبله وبعده، وأنه أجاب دعاءه بعد ما حلَّ به من كرب وشدة، وصبر على ما ابتلي به.

١٧. بدأ يونس عليه السلام بالتوحيد: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ثم بالتنزيه والتسبيح: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، ثم بالاستغفار والإقرار بالذنب: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا يعلمنا التأدب مع الله جل جلاله حتى في الدعاء، ولا يبدأ أحدٌ منا شكواه مباشرة قبل الثناء على الله تعالى، وتنزيهه من كل عيب ونقص، فهذا أدعى إلى قبول الدعاء وإجابته.

(١) المصدر السابق.

١٨. إنَّ استغاثة يونس عليه السلام بالله عز وجل، ولجوءه إليه وقت الشدة والكرب، وإنجاءه عز وجل من مصيبته ليس خاصًّا به وحده، وإنما يشمل كل مؤمن ومؤمنة إذا استغاثا بالله تعالى، وطلبا رحمته ومغفرته، فإنه يخلصهما مما ألمَّ بهما.

١٩. وجوب الصبر على أقدار الله عز وجل وأقضيته، فلا ينبغي للمؤمن التعجل والتضجر والغضب، كما فعل يونس عليه السلام، ثم تاب وندم على ما كان منه، فقبل الله تعالى توبته، بل واصطفاه وشرفه بالرسالة مرة أخرى.

٢٠. الصبر على البلاء وعدم الشكوى لغير الله تعالى من صفات المؤمنين الصادقين.

٢١. وجوب الإكثار من ذكر الله جل جلاله، وتعظيم شأنه، فمن أقبل على الله تعالى في السراء، أعانه وأخذ بيده في الضراء.

٢٢. إنَّ الله عز وجل يحفظ أولياءه من الخطر، ويهيئ لذلك الأسباب، كما فعل مع يونس عليه السلام عندما حفظه في بطن الحوت، وتحت شجرة اليقطين.

٢٣. إنَّ العبد إذا تاب توبةً صادقةً نصوحًا، وفي الوقت المسموح بها الذي تقبل فيه، قبلها الله تعالى، وفرج عنه كربه.

٢٤. لا ينبغي للداعية أن يتساهل في أمر الدعوة، فربما يوسوس له الشيطان، ويقول له: إنَّ مهمتك هي التبليغ فقط، وليست لك النتائج، فيضعف هذا الداعية شيئًا فشيئًا حتى يترك حقل الدعوة.

موضوعات ذات صلة:

الابتلاء، البحر، النبوة

قائمة المصادر والمراجع

عناصر الموضوع

أ	٢٤٦	ز	٣٩٨	ق	٤٦٧
ب	٢٩٦	س	٤٠١	ك	٤٧٧
ت	٣٠٧	ش	٤١٤	ل	٤٨٥
ث	٣٥٥	ص	٤٢٨	م	٤٨٩
ج	٣٥٥	ض	٤٣٣	ن	٥٥٦
ح	٣٦٣	ط	٤٣٥	هـ	٥٦٦
خ	٣٧٤	ظ	٤٣٧	و	٥٦٨
د	٣٧٧	ع	٤٣٧	ي	٥٧٣
ذ	٣٨٨	غ	٤٤٧		
ر	٣٩٠	ف	٤٥٠		

أ

١. **الإبانة الكبرى**، أبو عبد الله عبيدالله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤٢٦هـ.

٢. **الإبانة عن أصول الديانة**، أبو الحسن الأشعري، تحقيق: فوقية حسين محمود، دار الأنصار، ط١، مصر، القاهرة،١٣٩٧هـ.

٣. **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري، تحقيق : عثمان عبد الله آدم الأثيوبي، دار الراية للنشر، ط٢، السعودية، ١٤١٨هـ .

٤. **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري، تحقيق: سيد عمران، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ،٢٠٠٦م.

٥. **الابتلاء والمحن في الدعوات**، محمد عبد القادر أبو فارس، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٠م.

٦. **ابتلاءات الأمم**، سعيد أيوب، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، لبنان،١٤١٦هـ،١٩٩٥م.

٧. **أبجد العلوم**، محمد صدِّيق خان، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨م.

٨. **إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع**، أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، تحقيق: الشيخ محمود عبد الخالق جادو، الجامعة الإسلامية، ١٤١٣هـ.

٩. **الأبعاد التربوية للعبادة في الإسلام**، الدكتور أحمد أبو زيد، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط، ٢٠٠٠م.

١٠. **أبعاد حضارية وضرورات حاضرة في تعليم اللغة العربية لأبناء العالم الإسلامي**، إبراهيم أحمد الفارسي.

١١. **الإبهاج في شرح المنهاج (منهاج الوصول إلي علم الأصول للقاضي البيضاوي)**، تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن حامد بن يحيي السبكي وولده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥ م.

١٢. **اتباع الهوى (مظاهره، خطره، علاجه)**،

سليمان بن صالح الغصن، دار العاصمة.

١٣. **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

١٤. **الاتجاهات الحديثة في تخطيط المناهج الدراسية في ضوء التوجيهات الإسلامية**، محمود أحمد شوق، دار الفكر العربي، ١٤٢١هـ،٢٠٠١م.

١٥. **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن للنشر، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٦. **إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين**، محمد بن محمد الزبيدي، دار الفكر، بيروت.

١٧. **إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين**، مرتضى الزبيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٨. **إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام**، أحمد بن حجر الهيتمي، ت: مصطفى عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية ١٩٩٠م.

١٩. **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر**، أحمد بن عبد الغني الدمياطي، ت : د.شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، القاهرة، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م .

٢٠. **إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر**، أحمد بن عبد الغني الدمياطي، دار الكتب العلمية،ط١، لبنان، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.

٢١. **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر**، أحمد بن عبد الغني الدمياطي، دار الندوة، بيروت.

٢٢. **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر**، أحمد بن محمد الدمياطي، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، ط٣، لبنان، ٢٠٠٦م، ١٤٢٧هـ.

٢٣. **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر**، أحمد بن محمد الدمياطي، تحقيق : علي محمد الضباع، مصر، طبعة عبد الحليم حنفي.

٢٤. **اتفاق المباني وافتراق المعاني**، سليمان بن بنين بن خلف بن عوض، تقيّ الدين، الدقيقي المصري، تحقيق:

يحيى عبد الرؤوف جبر، دار عمار – الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٥. اتقاء المحرمات والشبهات في طلب الرزق، أحمد الطويل، موقع الكلم الطيب.

٢٦. إتقان البرهان في علوم القرآن، الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان.

٢٧. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، عالم الكتب، بيروت، بدون.

٢٨. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: هاني الحاج، دار التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٩. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير، ط٢، دمشق، بيروت، دار العلوم الإنسانية، دمشق، ١٤١٤هـ، ١٩٩٢م.

٣٠. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: سعيد المندوه، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٤١٦هـ.

٣١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

٣٢. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٣٣. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨.

٣٤. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مؤسسة الرسالة، لبنان، (د.ت)

٣٥. إتمام الدراية لقراء النقاية، جلال الدين السيوطي، المحقق: الشيخ إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٣٦. آثار ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، تحقيق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط١.

٣٧. الآثار الاقتصادية لتفعيل فريضة الزكاة على الفرد والمجتمع، علي بن سليمان بن محمد الجهضمي، جريدة الرؤية، ٣٠/ ٧/ ٢٠١٢م.

٣٨. الآثار الاقتصادية للزكاة، محمد علي سميران، محمد راكان الدغمي، جامعة آل البيت، الأردن.

٣٩. آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت.

٤٠. آثار الحرب في الفقه الإسلامي، د.

وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٣ هـ.

٤١. **الآثار المترتبة على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، رياض عيدروس عبد الله، من بحث بعنوان (حكمة الشارع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) قُدم لندوة تقوية الإيمان وزيادته،(الدورة السابعة) المنعقدة بجامعة الإيمان بتاريخ ٨،٦/ جماد أولى/ ١٤٣١هـ الموافق ٢٠،٢٢/ إبريل/ ٢٠١٠م.

٤٢. **آثار المدينة المنورة**، عبد القدوس الأنصاري، المكتبة العلمية،ط٤، المدينة المنورة، ١٤٠٦هـ.

٤٣. **آثار المعاهدات بالنسبة للدول غير الأطراف**، محمد مجدي مرجان، جامعة القاهرة، ٦١٩٨م.

٤٤. **الآثار الواردة عن السلف في اليهود في تفسير الطبري**، جمعاً ودراسة عقدية، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة، يوسف بن حمود الحوشان، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين، الرياض، ١٤٢٤هـ.

٤٥. **الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة**، حياة بن محمد بن جبريل، مادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط١، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م.

٤٦. **الآثار في شمال الجزيرة**، حمود بن ضاوي القثامي، مطابع الهيئة المصرية للكتاب، ١٣٩٦هـ.

٤٧. **الآثار**، أبو يوسف القاضي، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، دار الكتاب العربي، مصر، ١٣٥٥هـ.

٤٨. **الآثار**، محمد بن الحسن الشيباني، دار القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، ١٤٠٧ هـ.

٤٩. **إثبات توسط مكة المكرمة (دراسة باستخدام القياسات وصور الأقمار الصناعية)**، الدكتور المهندس يحي وزيري، بحث مقدم للمؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي، موقع الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

٥٠. **إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين**، أبو بكر البيهقي، تحقيق: د. شرف محمود القضاة، دار الفرقان، ط٢، عمان، الأردن، ١٤٠٥هـ.

٥١. **أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع**، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة،ط٢، مصر، ١٩٨٦م.

٥٢. **أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة**، عبد الله بن حسن بن محمد آل قعود، الكتيبات الإسلامية،

دار القاسم .

٥٣. **أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة**، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط١، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٣م.

٥٤. **أثر التربية القرآنية في أمن المجتمع**، د. عبد الله قادري الأهدل، بحث منشور على موقعه الشخصي على الإنترنت.

٥٥. **أثر العبادات في حياة المسلم**، عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر، دار المغني،ط١، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م .

٥٦. **أثر العقيدة في اختفاء الجريمة**، د. عثمان جمعة ضميرية، دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٤٢١هـ.

٥٧. **الإجارة المنتهية بالتمليك في الفقه الإسلامي**، فهد بن علي الحسون، خالد بن عبدالله بن براك الحافي، ط٢، ٢٠٠١م.

٥٨. **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ابن القيم، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت.١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.

٥٩. **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، مطابع الفرزدق التجارية، ط١، الرياض، ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.

٦٠. **الاجتهاد المقاصدي، حجيته ضوابطه مجالاته**، نورالدين بن مختار الخادمي، بحث منشور على شبكة (إسلام ويب).

٦١. **الإجماع**، محمد بن إبراهيم بن المنذر، تحقيق: د. صغير أحمد حنيف، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢ هـ.

٦٢. **الإجماع**، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تحقيق: أبو حماد صغير أحمد بن محمد حنيف، مكتبة الفرقان، مكتبة مكة الثقافية،ط٢، الإمارات:١٤٢٠هـ،١٩٩٩م.

٦٣. **الإجماع**، أبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري، تحقيق : فؤاد عبد المنعم أحمد، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٦٤. **الإجماع**، أبو بكر محمد بن المنذر، تحقيق: أبو حماد حنيف، مكتبة مكة، ط٢، الإمارات، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

٦٥. **الإجماع**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي، جمع وترتيب: فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب، وعبد الوهاب بن ظافر الشهري، دار

القلم، الرياض.

٦٦. **الإجماع**، محمد بن إبراهيم بن المنذر، تحقيق: د. صغير أحمد حنيف، دار عالم الكتب، ط٢، الرياض – السعودية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٦٧. **إجماعات ابن عبدالبر في العبادات جمعًا ودراسة**، عبد الله بن مبارك بن عبد الله البوصي، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٠م.

٦٨. **أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها**، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، دار القلم، ط٨، دمشق، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٦٩. **الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة**، عبدالرحمن الدوسري، مكتبة دار الأرقم، ط١، الكويت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٧٠. **الآحاد والمثاني**، أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني، ابن أبي عاصم، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية، ط١، الرياض، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٧١. **أحاديث القصاص**، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت.

٧٢. **الأحاديث المختارة**، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي المشهور بالضياء المقدسي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، ط١، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ.

٧٣. **الأحاديث المختارة**، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي المشهور بالضياء المقدسي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٧٤. **الأحاديث الواردة في وحدة الصف في الكتب الستة**، رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير في علوم الحديث، بختيار عبدالرحمن محمد روندي، جامعة السليمانية، قسم الدراسات الإسلامية، العراق، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

٧٥. **الاحتجاج بالقدر**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٤، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٧٦. **احذروا الحسد**، عيسى إبراهيم الدرويش، دار ابن خزيمة، ط١، الرياض، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٧٧. **الإحسان في القرآن الكريم**، عبد الله أحمد حسين الزيوت، دار ورد، ط١،

الأردن، ٢٠١١هـ.

٧٨. **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، أبو حاتم محمد بن حبان البُستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي ابن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م.

٧٩. **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، الإمام محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة،ط٢، بيروت، ١٤١٤هـ.

٨٠. **أحسن القصص بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة**، الدكتورة زاهية راغب الدجاني، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط٢، بيروت، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٨١. **أحكام الإزالة في الفقه الإسلامي**، فاطمة عبد الرزاق الفارس، بدون دار نشر، ط١، ١٤٣١هـ،٢٠١١م.

٨٢. **أحكام التعامل في الأسواق المالية المعاصرة**، د. مبارك بن سليمان بن محمد آل سليمان، دار كنوز إشبيليا، ط١، الرياض، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٨٣. **أحكام الجنائز**، مفهوم، واغتنام، ومواعظ، وآداب، وحقوق وصبر، واحتساب، وفضائل، وأحكام في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض.

٨٤. **أحكام الجهاد وفضائله**، عِزّ الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام السلمي، تحقيق د. نزيه كمال حماد، مكتبة دار الوفاء للنشر والتوزيع، ط١، جدة، ١٤٠٦م ،١٩٨٦هـ.

٨٥. **أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام**، إحسان الهندي، دار الخير للطباعة، ط١، دمشق، ١٩٩٣م.

٨٦. **أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام**، عبدالكريم زيدان، مكتبة القدس ومؤسسة الرسالة، ١٩٨٢، العراق.

٨٧. **أحكام الزينة**، عبير بنت علي المديفر، الجامعة الإسلامية، ط٢، السعودية.

٨٨. **الأحكام السلطانية**، أبو يعلى الفرَّاء، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء، صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠م.

٨٩. **الأحكام السلطانية**، أبو الحسن الماوردي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٩٣هـ.

٩٠. **الأحكام السلطانية**، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، دار الحديث، القاهرة.

٩١. **الأحكام السلطانية**، أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: د. أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، ط١، الكويت، ١٤٠٩هـ.

٩٢. **الأحكام السلطانية**، أبو يعلى الفرَّاء، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٧٥هـ.

٩٣. **الأحكام السلطانية**، أبو يعلى الفراء، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٥٦هـ.

٩٤. **الأحكام الشرعية الصغرى**، أبو محمد عبد الحق الأشبيلي، أشرف عليه وراجعه وقدم له: خالد بن علي بن محمد العنبري، تحقيق: أم محمد بنت أحمد الهليس، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ومكتبة العلم،ط١، جدة، ١٤١٣ه – ١٩٩٣م .

٩٥. **أحكام الشريعة الإسلامية في مسائل طبية**، الشيخ جاد الحق علي جاد الحق و د. جمال أبو السرور، ود. أحمد رجائي(طبيبين)، مركز البحوث والدراسات السكانية، جامعة الأزهر.

٩٦. **أحكام الشهيد في الفقه الإسلامي**، عبد الرحمن بن غرمان بن عبد الله، مكتبة دار البيان الحديثة، ط١، الطائف، السعودية، ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.

٩٧. **أحكام القانون الدولي في الإسلام**، رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير في الفقه المقارن، محمد سليمان نصرالله الفرا، الجامعة الإسلامية، قسم الفقه المقارن، غزة، ١٤٢٨هـ.٢٠٠٧م.

٩٨. **أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية**، د. حامد سلطان، دار النهضة، ١٩٨٦م.

٩٩. **أحكام القرآن**، إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي البغدادي المالكي الجهضمي، المحقق: عامر حسن صبري، دار ابن حزم، ط١، بيروت،١٤٢٦هـ. ٢٠٠٥م.

١٠٠. **أحكام القرآن الكريم**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، تحقيق: الدكتور سعد الدين أونال، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، ط١، استانبول.

١٠١. أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، دار الكتاب العربي، عن طبعة استانبول، ١٣٣٨هـ.
١٠٢. أحكام القرآن، أبو بكر الرازي الجصاص، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.
١٠٣. أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله،ابن العربي المغافري الأندلسي، تحقيق: علي البجاوي، مطبعة الحلبي، ١٩٥٨م .
١٠٤. أحكام القرآن، أبو الحسن الطبري، الشهير بالكيا الهراسي، المحقق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٤٠٥ هـ .
١٠٥. أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، مكتبة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨م.
١٠٦. أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ.
١٠٧. أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، تحقيق: علي البجاوي، مطبعة عيسى الحلبي، مصر، ١٣٩٤هـ.
١٠٨. أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، دار المعرفة، ط٣، بيروت، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.
١٠٩. أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣م.
١١٠. أحكام القرآن، أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم المعروف ابن الفرس الأندلسي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
١١١. أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، المحقق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ،١٩٩٤م .
١١٢. أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ.
١١٣. أحكام القرآن، أحمد بن علي أبي بكر الرازي الجصاص، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
١١٤. أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، تحقيق: محمد

الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي،ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١١٥.**أحكام القرآن**، أحمد بن علي الرازي الجصاص، ضبط: عبدالسلام محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.

١١٦.**أحكام القرآن**، الْقَاضِي أَبِي بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ : محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، ط دار الفكر .

١١٧.**أحكام القرآن**، للإمام الشافعي، جمعه البيهقي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، ١٣٧١هـ.

١١٨.**أحكام القرآن**، محمد بن عبدالله بن العربي، تحقيق: عبدالرزاق مهدي، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ،٢٠٠٠م.

١١٩.**أحكام المال الحرام وضوابط الانتفاع به في الفقه الإسلامي**، الدكتور عباس أحمد الباز، دار النفائس،ط١، الأردن، ١٤١٨هـ. ١٩٩٨م.

١٢٠.**الأحكام المترتبة على الفسق في الفقه الإسلامي**، فوفانا آدم، مكتبة دار المنهاج، ط١، الرياض، ١٤٢٥هـ.

١٢١.**أحكام المعاهدات في الشريعة الإسلامية**، د. محمد طلعت الغنيمي، الاسكندرية، ١٩٧٧م.

١٢٢.**أحكام أهل الذمة**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: يوسف بن أحمد البكري ، شاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر، ط١، الدمام، ١٤١٨هـ. ١٩٩٧م.

١٢٣.**أحكام أهل الذمة**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ١٤٠١هـ.

١٢٤.**أحكام تفسير الرؤى والأحلام في القرآن الكريم والسنة المطهرة**، أسامة محمد العوضي، مكتبة السنة الدار السلفية لنشر العلوم، ط١، القاهرة، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

١٢٥.**الإحكام في أصول الأحكام**، ابن حزم، تحقيق: زكريا علي يوسف، مطبعة العاصمة.

١٢٦.**الإحكام في أصول الأحكام**، أبو الحسن الآمدي، مؤسسة الحلبي، مصر، ١٣٧٨ هـ.

١٢٧.**الإحكام في أصول الأحكام**، ضبطه وكتب حواشيه: الشيخ إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية.

١٢٨.**الإحكام في أصول الأحكام**، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

١٢٩. **الإحكام في أصول الأحكام**، علي بن محمد الآمدي، تحقيق: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي،ط١،بيروت، ١٤٠٤هـ.

١٣٠. **الإحكام في أصول الأحكام**، علي بن محمد الآمدي، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

١٣١. **أحكام من القرآن الكريم**، محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، ط١، الرياض،١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

١٣٢. **الأحوال الشخصية**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي،ط٣، ١٣٧٧هـ.

١٣٣. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد الغزالي، دار الشعب، القاهرة، مصر.

١٣٤. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد الغزالي، دار الحديث، ط١، القاهرة، ١٤١٢هـ.١٩٩٢م .

١٣٥. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.

١٣٦. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار ابن حزم للنشر، بيروت.

١٣٧. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠١م.

١٣٨. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الفكر، ط٢، بيروت، لبنان،١٤٠٠هـ.١٩٨٠م.

١٣٩. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار القلم، بيروت .

١٤٠. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد الغزالي، ومعه المغني للعراقي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

١٤١. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٩هـ.

١٤٢. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤م.

١٤٣. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط٤، بيروت، ٢٠٠٥م،١٤٢٦هـ.

١٤٤. **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، مكتبة مصر، الفجالة، ١٩٩٨م.

١٤٥. **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران**، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

١٤٦. **أخبار القضاة**، أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفِ بْنِ حَيَّانَ بْنِ صَدَقَةَ الضَّبِّيّ البَغْدَادِيّ، المُلَقَّب بِـ«وَكِيع»، المحقق: صححه وعلق عليه وخرّج أحاديثه: عبد العزيز مصطفى المراغي، المكتبة التجارية الكبرى،ط١، مصر، ١٣٦٦هـ،١٩٤٧م.

١٤٧. **أخبار القضاة**، وكيع محمد بن خلف بن حيان، مراجعة: محمد اللحام، عالم الكتب.

١٤٨. **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي، دار خضر، ط١، بيروت، ١٤١٤هـ.

١٤٩. **اختصار النكت للماوردي** المعروف بتفسير العز بن عبد السلام، الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي، تحقيق: د.عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م.

١٥٠. **اختلاف الاجتهاد وتغيُّره وأثر ذلك في الفُتيا**، محمد المرعشلي، بيروت، ١٤٢٤هـ.

١٥١. **اختلاف الدارين وآثاره في أحكام الشريعة الإسلامية**، عبد العزيز بن مبروك الأحمدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، رسالة دكتوراه، ط١، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٤م.

١٥٢. **اختلاف الفقهاء**، الإمام الطبري، تحقيق: يوسف شاخت، ليدن، ١٩٣٣م.

١٥٣. **الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: عمر بن محمود أبو عمر، دار الراية، ١٤١٢ هـ، ١٩٩١ م.

١٥٤. **اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى**، البغدادي، ت: جسم الفهيد الدوسري، مكتبة دار الأقصى،ط١، الكويت، ١٤٠٦هـ.١٩٨٥م.

١٥٥. **الاختيار لتعليل المختار**، عبدالله بن محمود بن مودود الموصلي، حققه: علي عبدالحميد أبو الخير، محمد وهبي سليمان، دار الخير، ط١، دمشق، ١٤١٩هـ،١٩٨٨م.

١٥٦. **الاختيارات الفقهية**، تقي الدين بن تيمية، اختيار، علي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٨م.

١٥٧. **الأخطاء اللغوية الشائعة في الأوساط الثقافية**، محمود عبد الرازق جمعة، الهيئة المصرية العامة، مصر،

٢٠٠٩م.

١٥٨. **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط٥، دمشق، ١٤٢٠هـ.١٩٩٩م.

١٥٩. **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم،ط٨، دمشق، ٢٠١٠م.

١٦٠. **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط١، دمشق، ١٤٠٧هـ.

١٦١. **الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها**، عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير.

١٦٢. **أخلاق النبي وآدابه**، عبد الله المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: صالح بن محمد الونيان، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨م.

١٦٣. **أخلاق حملة القرآن**، أَبو بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الآجُرِّيِّ الْبَغْدَادِيِّ، دُارُ الصَّفَا والْمَرْوَةِ بِالإِسْكَنْدَرِيَّةِ، ط١، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥م .

١٦٤. **الأخلاق في الإسلام**، د. قرعوش وآخرون، دار المناهج، ط٤، عمان، الأردن، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

١٦٥. **الأخلاق في الإسلام**، د. قرعوش وآخرون، دار المناهج، ط٢، عمان، الأردن، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٦٦. **الأخلاق في القرآن**، د. محمد عبد الله دراز، ت: عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية،ط١٠، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م .

١٦٧. **الأخلاق والسير في مداواة النفوس**، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، دار الآفاق الجديدة، ط١، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

١٦٨. **الأخلاق والعرف**، هنية مفتاح القماطي، منشورات جامعة قار يونس، ط١، ليبيا، ١٩٩١م.

١٦٩. **آداب البحث والمناظرة**، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: سعود بن عبد العزيز العريفي، دار علم الفوائد.

١٧٠. **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي، عالم الكتب.

١٧١. **آداب المناظرة**، عمرو سليم، موقع الألوكة.

١٧٢. **الآداب للبيهقي**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي

الخراساني، أبو بكر البيهقي، اعتنى به وعلق عليه: أبو عبد الله السعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

١٧٣. **آداب معاملة اليتيم**، الشيخ محمد مجاهد طبل وإبراهيم بن محمد أبي حذيفة، دار الصحابة، ط١، طنطا، مصر، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

١٧٤. **الإدارة، الأصول والأسس العلمية**، سيد الهواري، مكتبة عين شمس، القاهرة، بدون.

١٧٥. **أدب الحوار في الإسلام**، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، ط١،مصر، ١٩٩٧م.

١٧٦. **أدب الحوار**، سعد بن ناصر الشثري، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٧هـ،٢٠٠٦م.

١٧٧. **أدب الخواص**، الحسن بن علي بن الحسين الوزير المغربي، دار اليمامة، ط١، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١٧٨. **أدب الدنيا والدين**، أبو الحسن الماوردي، تحقيق محمد فريد، المكتبة التوفيقية، بدون.

١٧٩. **أدب الدنيا والدين**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، دار اقرأ، ط٤، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ.١٩٨٥م

١٨٠. **أدب الدنيا والدين**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

١٨١. **أدب الدنيا والدين**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، تحقيق: د. حمزة النشرتي، المكتبة القيمة، القاهرة، بدون.

١٨٢. **أدب الدنيا والدين**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، حققه: مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ. ١٩٧٩م.

١٨٣. **أدب القاضي**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي، تحقيق: محي هلال السرحان، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٩١هـ. ١٩٧١م.

١٨٤. **أدب الكاتب**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري،تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، ١٩٦٣م.

١٨٥. **أدب الكاتب**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة.

١٨٦. **أدب المفتي والمستفتي**، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوي،

المعروف ابن الصلاح، تحقيق: د. موفق عبد الله عبد القادر، مكتبة العلوم والحكم، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ.

١٨٧. **الأدب المفرد بالتعليقات**، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري، مستفيدًا من تخريجات وتعليقات العلامة الشيخ المحدث: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م.

١٨٨. **الأدب المفرد**، الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م.

١٨٩. **الأدب المفرد**، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية، ط٣، بيروت، ١٤٠٩ه- ١٩٨٩م.

١٩٠. **الأدب المفرد**، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، القاهرة، ١٩٧٧م.

١٩١. **أدب الموعظة**، محمد بن إبراهيم الحمد، مؤسسة الحرمين الخيرية، ط١، السعودية، ١٤٢٤هـ.

١٩٢. **الأدب النبوي**، محمد عبد العزيز بن علي الشاذلي الخَوْلي، دار المعرفة،ط٤، بيروت، ١٤٢٣ هـ.

١٩٣. **الإدراك الحسي البصري والسمعي**، السيد علي سيد أحمد وفائقة محمد بدر، مكتبة النهضة المصرية، ط١، القاهرة، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٩٤. **أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي**، جرجس داود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، بيروت، ١٩٨٨م.

١٩٥. **الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة**، محمد صديق خان، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة، ١٤٠٢هـ.

١٩٦. **الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار** ﷺ، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتاب العربي، ط١٤، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ.

١٩٧. **الأذكار**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الجفان والجابي، دار ابن حزم للطباعة والنشر،ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

١٩٨.الأذكار، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ت: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.

١٩٩.الأذكار، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، مؤسسة الريان، بيروت، ١٤٠٩هـ.

٢٠٠.الأذكار، يحيى بن شرف النووي، تحقيق : بشير محمد عيون، مطبعة عيون، ط٢.

٢٠١.إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، مصر، ١٣٢٣هـ.

٢٠٢.إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم(تفسير أبي السعود)، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٩م.

٢٠٣.إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

٢٠٤.إرشاد العقل السليم إلى مزآيا القران الكريم، (تفسير أبي السعود)، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، بيروت ١٩٨٤م.

٢٠٥.إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (تفسير أبي السعود)، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي،ط٤، بيروت لبنان، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٢٠٦.إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم(تفسير أبي السعود)، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، تحقيق: خالد محفوظ، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت – لبنان، ٢٠١٠م.

٢٠٧.إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (تفسير أبي السعود)، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، ضبط نصه: الشيخ محمد صبحي حسن حلاق، دار الفكر، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٢٠٨.إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (تفسير أبي السعود)، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مطبعة السعادة، مصر، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض .

٢٠٩. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (تفسير أبي السعود)**، أبو السعود محمد بن محمد، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ،١٩٨١م.

٢١٠. **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق وتعليق أبو حفص سامي بن العربي الأثري، دار الفضيلة، ط١، الرياض، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.

٢١١. **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٩هـ.

٢١٢. **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مطبعة دار السلام، ١٤١٨ه – ١٩٩٨م.

٢١٣. **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢١٤. **الإرشاد إلى سبيل الرشاد**، محمد بن أحمد بن أبي موسى الشريف، أبو علي الهاشمي البغدادي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة.

٢١٥. **الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد**، صالح بن فوزان الفوزان، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢١٦. **الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد**، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار ابن الجوزي، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م.

٢١٧. **الإرشاد إلى قواطع الأدلة**، إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، طبعة الجزائر، ١٩٣٠م.

٢١٨. **أرشيف ملتقى أهل التفسير**، المحرم ١٤٣٢ هـ، ديسمبر ٢٠١٠ م، المكتبة الإلكترونية الشاملة.

٢١٩. **أرشيف ملتقى أهل الحديث**، مذكرات مؤتمر الخلافة الإسلامية، أبو سليمان العسيلي، ١٣٤٤هـ،١٩٢٦م.

٢٢٠. **أرض الميعاد**، الدكتور حسين فوزي التجار، دار المعرفة، القاهرة.

٢٢١. **الأرض في القرآن**، شاهر جمال، دار الكتاب الثقافي، ط١، الأردن، ٢٠٠٥م.

٢٢٢. **أركان الإيمان**، علي بن نايف الشحود، ط٤، ١٤٣١ هـ، ٢٠١٠ م.

٢٢٣. **أركان الإيمان**، وهبي سليمان غاوجي الألباني، مؤسسة الرسالة، بيروت،

١٤١٨هـ،١٩٩٧م.

٢٢٤.إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

٢٢٥.إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٨م.

٢٢٦.إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٢٧.أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، مكتبة المنار، ط٢، مصر، ١٩٩٢م.

٢٢٨.الأزمة المالية العالمية انعكاساتها وحلولها، د. الداوي الشيخ، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر: الأزمة المالية العالمية وكيفية علاجها من منظور النظام الاقتصادي الغربي والإسلامي، جامعة الجنان، لبنان، ١٣،١٤آذار ٢٠٠٩م.

٢٢٩.أزمة النظام المالي العالمي في ميزان الاقتصاد الإسلامي، د. حسين شحاتة، الموقع العالمي للاقتصاد الإسلامي على شبكة الإنترنت.

٢٣٠.أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، دار النفائس، ط١، ١٩٩٧م.

٢٣١.الأزمنة والأمكنة، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٧هـ.

٢٣٢.الأزهية في أحكام الأدعية، تحقيق : أم عبد الله محمد بنت محروس العسلي، دار الفرقان، ط١،مصر ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٣٣.أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٢٣٤.أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، مكتبة لبنان، ط١، لبنان ١٩٩٦م.

٢٣٥.أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتب المصرية.

٢٣٦.أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م.

٢٣٧.أساس البلاغة، أبو القاسم محمود

بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت،١٣٩٩هـ، ١٩٧٩ م.

٢٣٨.**الأساس في التفسير**، سَعيد حَوّى النعيمي، دار السلام، ط٣، مصر ١٩٩١م.

٢٣٩.**الأَسَاسُ في التَّفْسِير**، سَعيد حَوّى النعيمي، دار السَّلام، ط١، القاهرة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٤٠.**أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية**، بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير في البلاغة والنقد، يوسف عبدالله الأنصاري، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، فرع البلاغة والنقد، المملكة العربية السعودية، ١٤١٠هـ.١٩٩٠م.

٢٤١.**أساليب التربية في القرآن الكريم**، دراسة خاصة بأسلوب الترغيب والترهيب والحوار، الدكتور أحمد الريح يوسف أحمد أبو عاقلة، بحث للمؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الإنسانية، السودان، ٢٠١١م.

٢٤٢.**أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي**، علي محمد جريشه، محمد شريف الزيبق، دار الوفاء، ط٣،مصر، ١٣٩٩هـ،١٩٧٩م.

٢٤٣.**الأساليب والإطلاقات العربية**، أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي، بدون، مصر،ط١، ١٤٣٢هـ،٢٠١١م.

٢٤٤.**الأسامي والكنى، الحاكم النيسابوري**، دار الغرباء الأثرية، ط١، المدينة المنورة، ١٩٩٤ م.

٢٤٥.**أسباب النزول**، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، ت: السيد أحمد صفر، دار القبلة،ط٢، جدة، ١٤٠٤هـ.١٩٨٤م .

٢٤٦.**أسباب الأزمة المالية وجذورها**، د. جميلة الجوزي، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر: الأزمة المالية العالمية وكيفية علاجها من منظور النظام الاقتصادي الغربي والإسلامي، جامعة الجنان – لبنان: ١٤،١٣، ٢٠٠٩م.

٢٤٧.**الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة**، محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، دار ابن خزيمة، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٤٨.**أسباب النزول بهامش تفسير الجلالين**، جلال الدين السيوطي، دار الثقافة بالدوحة، قطر، ١٩٨٥م.

٢٤٩.**أسباب النزول**: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي

النيسابوري الشافعي، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، ط٢، الدمام، ١٤١٢هـ،١٩٩٢م.

٢٥٠.**أسباب النزول**، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري الواحدي، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، دار الباز للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨ م.

٢٥١.**أسباب النزول**، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري: تحقيق السيد أحمد صقر، دار القبلة، جدة، مؤسسة علوم القرآن، ط٣،بيروت، ١٤٠٧هـ.

٢٥٢.**أسباب النزول**، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٢٥٣.**أسباب النزول**، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ.

٢٥٤.**أسباب النزول**، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: أيمن صالح شعبان، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

٢٥٥.**أسباب النزول**، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

٢٥٦.**أسباب النزول**، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، دار القبلة للثقافة، جدة، ١٤٠٧ هـ.

٢٥٧.**أسباب هلاك الأمم السالفة**، سعيد محمد بابا سيلا: سلسة إصدرات الحكمة، بريطانيا، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

٢٥٨.**الأسباب والمسببات في القرآن الكريم**، د. صبري منصور صيام، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر، القاهرة.

٢٥٩.**الاستثمار الإسلامي هو سبيل لمواجهة البطالة**، حسين شحاته، مجلة الخيرية، العدد٦٩، شعبان ١٤١٦هـ السعودية.

٢٦٠.**استخراج الجدال من القرآن الكريم**، أبو الفرج ناصح الدين ابن الحنبلي، تحقيق: د. زاهر بن عواض الألمعي، مطابع الفرزدق التجارية، ط٢، ١٤٠١هـ.

٢٦١.**استخلاف الإنسان في الأرض**، نظرات في الأصول الاعتقادية للحضارة الإسلامية، الدكتور فاروق الدسوقي، المكتب الإسلامي،

بيروت، مكتبة فرقد الخاني، ط٢، الرياض، ١٤٠٦هـ-١٩٨٧م.

٢٦٢.**الاستذكار**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٦٣.**استراتيجية القرآن في مواجهة اليهودية العالمية**، د. إبراهيم يحيى الشهابي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٧م.

٢٦٤.**الاستشراق وموقفه من السنة النبوية**، فالح بن محمد بن فالح الصغير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.

٢٦٥.**الاستفتاء الشعبي بين الأنظمة الوضعية والشريعة الإسلامية**، ماجد الحلو، مكتبة المنار، الكويت، ١٤٠٠هـ.

٢٦٦.**الاستقامة**، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، المحقق: د. محمد رشاد سالم،جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٣هـ.

٢٦٧.**الاستقامة في التربية الإسلامية وأثرها في تحصين الشباب**، د. عيد بن حجيج الفايدي، منشور في مجلة البحوث الإسلامية العدد(٧١)، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

٢٦٨.**الاستقامة**، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، المحقق: د. محمد رشاد سالم، مكتبة السنة،ط١، القاهرة، ١٤٠٩هـ.

٢٦٩.**الاستهزاء بالدين أحكامه وآثاره**، أحمد بن محمد القرشي، رسالة ماجستير، قسم العقيدة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ.

٢٧٠.**الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري، تحقيق: على البجاوي، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢ م.

٢٧١.**أسد الغابة**، ابن الأثير، المحقق: عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م.

٢٧٢.**الإسراء والمعراج وذكر أحاديثهما وتخريجها وبيان صحيحها**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، المكتبة

الإسلامية، ١٤٢١هـ،٢٠٠٠م .

٢٧٣.أسرار البيان في التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر،ط٢، عمان، الأردن، ٢٠١٣م.

٢٧٤.أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة .

٢٧٥.أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، ملك حسن عبد الرزاق بخش، رسالة ماجستير، إشراف: عبد الفتاح لاشين، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤١٠،١٤٠٩هـ.

٢٧٦.أسرار الزكاة، حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، تحقيق: عبد العال أحمد محمد، المكتبة العصرية،ط١، صيدا، لبنان، ١٤٠٢هـ،١٩٨٢م.

٢٧٧.أسرار ترتيب القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة.

٢٧٨.إسرائيل عبر التاريخ في البدء، الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين علي، مطبعة الرسالة، مصر.

٢٧٩.الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، مكتبة السنة،ط٤، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

٢٨٠.أسس التعايش في الإسلام، نصار أسعد نصار، بحث منشور في مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، م٢٧، العدد الثاني، ٢٠١١م.

٢٨١.أسس الدعوة وآداب الدعاة، محمد السيد الوكيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، بدون.

٢٨٢.أسس الصحة النفسية، عبد العزيز القوصي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٢٨٣.أسس العلاقات الإنسانية في الإسلام، محمد نجيب نصرات، بحث منشور في المجلة الجامعة وهي حولية علمية محكمة تصدر عن جامعة الزاوية، الجمهورية الليبية، العدد١٢، ٢٠١٠م.

٢٨٤.أسس في الدعوة ووسائل نشرها، محمد عبدالقادر أبو فارس، دار الفرقان للطباعة و النشر، ط١، ١٩٩٨م.

٢٨٥.الإسلام، سعيد حوي، مكتبة وهبة،

القاهرة، ١٩٨٧م.

٢٨٦.**الإسلام عقيدة وشريعة**، الشيخ محمود شلتوت، دار الشروق، ط٤، القاهرة، بدون.

٢٨٧.**الإسلام عقيدة وشريعة**، محمود شلتوت، دار الشروق، ط١٧، مصر،١٩٩٧م.

٢٨٨.**الإسلام ملاذ كل المجتمعات**، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٨م.

٢٨٩.**الإسلام نظام إنساني**، مصطفى الرافعي، منشورات دار مكتبة الحياة، ط٣، بيروت.

٢٩٠.**الإسلام والاستبداد السياسي**، محمد الغزالي، دار الكتاب العربي.

٢٩١.**الإسلام والاستبداد السياسي**، محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، مصر.

٢٩٢.**الإسلام والاقتصاد**، عبد الهادي علي النجار، سلسلة عالم المعرفة، عدد٦٣.

٢٩٣.**الإسلام والتحدي الاقتصادي**، محمد عمر شابرا، ترجمة: زهير السمهوري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٦م.

٢٩٤.**الإسلام والذمة في الموجز في معاملة غير المسلم في الإسلام**، محمد الزحيلي، مؤسسة آل البيت، الأردن، ١٩٩٤م.

٢٩٥.**الإسلام والعلم**، توفيق الطيب، مجلة حضارة الإسلام، دمشق، شوال ١٣٨٥هـ.

٢٩٦.**الإسلام وانتزاع الملك للمصلحة العامة**، الشيخ محمد الحاج ناصر، مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، جدة.

٢٩٧.**الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية**، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٢٩٨.**الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية**، محمد الغزالي،، دار الصحوة للنشر، ط٧، القاهرة، ١٩٨٧م.

٢٩٩.**الإسلام وأوضاعنا السياسية**، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان، ١٤٠١هـ،١٩٨١م.

٣٠٠.**الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق**، د. محمد عمارة، دار السلام الدولية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.

٣٠١.**الإسلام وحقوق الإنسان، دراسة مقارنة**، د.القطب محمد طبلية، دار الفكر العربي، ط١، ١٤٠٤هـ.

٣٠٢.**الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى**، عثمان جمعة ضميرية، دار الفاروق، الطائف، ١٤١٠هـ.

٣٠٣.الإسلام يتحدى الغرب الملحد، د. محمد نبيل النشواتي، دار القلم، ط١، دمشق، ١٤٣١هـ،٢٠١٠م.

٣٠٤.الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ترجمة: عبد الصبور شاهين، مكتبة الرسالة.

٣٠٥.الإسلام يقود الحياة، محمد باقر الصدر، وزارة الإرشاد الإسلامي، دار التعارف، ط٢، إيران،١٤١٠هـ.١٩٩٠م.

٣٠٦.الإسلام، سعيد حوى، مراجعة: وهبي سليمان، مكتبة وهبة ط٣، القاهرة، ١٩٨٧م.

٣٠٧.أسلحة الدمار المالي الشامل، الدكتور سامي بن إبراهيم السويلم، منشور ضمن بحوث كتاب: الأزمة المالية العالمية أسباب وحلول من منظور إسلامي، مركز النشر العلمي،ط١، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة،،١٤٣٠هـ.

٣٠٨.أسلوب الأمر في سورة يوسف، دراسة بلاغية، أحمد فتحي رمضان وأحمد محمود عزو صالح، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العدد(٦٠)، العراق،١٤٣٢هـ.٢٠١٢م.

٣٠٩.أسلوب القسم بلاغته وأغراضه، د: سامي عطا طه، جامعة آل البيت، المفرق، المملكة الأردنية.

٣١٠.أسلوب القصة في القرآن الكريم، شيخ شاهد حسيب، رسالة دكتوراه من قسم الدراسات الإسلامية، جامعة اللغات القومية بإسلام آباد، باكستان، ٢٠٠٠م.

٣١١.أسلوب المجادلة بالحسنى، بحث مقدم للدكتور إبراهيم علي محمد أحمد، جامعة أم القرى.

٣١٢.أسماء الله الحسنى، ابن القيم، تحقيق وتخريج : يوسف علي بدوي، وأيمن عبد الرزاق الشوا، دار ابن كثير، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ.

٣١٣.أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها، ابن فارس، مركز المخطوطات و الوثائق، الكويت، ١٤٠٩هـ.

٣١٤.الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين البيهقي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي،ط١، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م .

٣١٥.الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عماد الدين حيدر، دار الكتاب العربي،ط٢، بيروت، ١٤١٥هـ.١٩٩٤م.

٣١٦.أسنى المطالب شرح روض الطالب،

زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري، تحقيق: د.محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠٠م.

٣١٧.**الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: د. محمد حسن جبل وآخرون، دار الصحابة للتراث، ط١، طنطا، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

٣١٨.**إشارات إعجازية في تكوين لبن الأنعام**، من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بتركيا ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.د/ حامد عطيه محمد، أستاذ بكلية الطب البيطري، جامعة الزقازيق، مصر.

٣١٩.**إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز**، بديع الزمان سعيد النورسي، المحقق: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٣٢٠.**الإشارات إلى معرفة الزيارات**، علي بن أبي بكر بن علي الهروي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

٣٢١.**الإشاعة وآثارها في المجتمع**، د.عبد الرحيم المغذوي، الجامعة الإسلامية، ط١، المدينة المنورة، ١٤٣١هـ.

٣٢٢.**الأشباه والنظائر في القرآن الكريم**، مقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق: د. عبد الله شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

٣٢٣.**الأشباه والنظائر في القرآن الكريم**، مقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق: د. عبد الله شحاته، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١م.

٣٢٤.**الأشباه والنظائر في النحو**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ.١٩٨٥ م.

٣٢٥.**الأشباه والنظائر**: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٣٢٦.**الأشباه والنظائر**: جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٣٢٧.**الأشباه والنظائر**، جلال الدين السيوطي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

٣٢٨.**الأشباه والنظائر**، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٣٢٩.**الأشباه والنظائر**، زين الدين بن

إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم، وضع حواشيه وخرج أحاديثه: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩م

٣٣٠.**الأشباه والنظائر**، جلال الدين السيوطي، تخريج: خالد عبدالفتاح، دار الفكر، ط١،بيروت، ١٩٩٦م.

٣٣١.**الأشباه والنظائر**، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم، مؤسسة الحلبي وشركاه، مصر، ١٣٧٨هـ.

٣٣٢.**الأشباه والنظائر**، عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق: محمد المصري، عالم الكتب، سوريا، ١٩٨٤م.

٣٣٣.**الاشتراك اللفظي في القرآن**، محمد المنجد، دار الفكر، بيروت، ١٤١٩هـ.

٣٣٤.**الاشتراك والتضاد في القرآن الكريم**، د. أحمد مختار، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٣٣٥.**اشتقاق الأسماء**، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، ت: عبد رب الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة.

٣٣٦.**الاشتقاق**، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق، أ. عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي،ط٣، القاهرة، مصر.

٣٣٧.**إشراقات الرقم سبعة**، عبد الدائم الكحيل، إصدار جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي، ٢٠٠٦، الإعجاز القصصي، دار الرضوان، حلب، ٢٠٠٥م.

٣٣٨.**الأشربة وذكر اختلاف الناس فيها**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت: ياسين محمد السواس، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٤٢٠هـ،١٩٩٩م.

٣٣٩.**أشعار الشعراء الستة الجاهليين**، أبو الحجاج يوسف الشنتمري الأندلسي المعروف بالأعلم، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الآفاق الجديدة.

٣٤٠.**أشعار النساء**، المرزباني، ت:الدكتور سامي مكي العاني، هلال ناجي، دار عالم الكتب، ط١، ١٩٩٥م.

٣٤١.**الإصابة بالعين**، دون مؤلف، وبدون تاريخ، الكويت.

٣٤٢.**الإصابة في الذب عن الصحابة** ، رضي الله عنهم ، الدكتور مازن بن محمد بن عيسى، المكتبة الشاملة.

٣٤٣.**الإصابة في تمييز الصحابة**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني

الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٤١٢ هـ.

٣٤٤.**الأصل المعروف بالمبسوط**، الإمام محمد بن الحسن الشيباني، دار القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي.

٣٤٥.**إصلاح الفكر الإسلامي مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر**، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة إسلامية المعرفة، القاهرة، ١٩٩٦م.

٣٤٦.**إصلاح المساجد من البدع والعوائد**، الشيخ محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تخريج وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٥، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

٣٤٧.**إصلاح المنطق**، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، المعروف بابن السكيت، ت: : أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ١٩٤٩م.

٣٤٨.**إصلاح المنطق**، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، المعروف بابن السكيت، ت: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي ط١، ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م.

٣٤٩.**إصلاح الوجوه والنظائر أو قاموس القرآن**، الحسن بن محمد الدامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، ١٩٨٥م.

٣٥٠.**إصلاح الوجوه والنظائر أو قاموس القرآن**، الحسن بن محمد الدامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٨٠م.

٣٥١.**الإصلاح في القرآن الكريم دراسة موضوعية**، مذكرة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية، فايزة عدلي، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، الجزائر، ١٤٣٢هـ.٢٠١١م.

٣٥٢.**الأصلان في علوم القرآن**، د. محمد عبد المنعم القيعي، (دون دار نشر)، ط٤، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٣٥٣.**الأصمعيات**، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك، المعروف بالأصمعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٧، مصر، ١٩٩٣م.

٣٥٤.**أصناف المغرورين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

٣٥٥.**الأصنام**، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، ت: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، ط٣، ١٩٩٥م.

٣٥٦.**أصول الأخلاق في ضوء القرآن الكريم**، عبدالستار محمد نوير المدرس بقسم التفسير والحديث، بحث منشور على موقع (رياض العلم).

٣٥٧.**أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة**، نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ.

٣٥٨.**أصول البزدوي**، مع شرحه كشف الأسرار، علاء الدين البخاري، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٥٩.**أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع**، عبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر، ط٢٥، ١٤٢٨هـ،٢٠٠٧م.

٣٦٠.**أصول التربية الإسلامية**، خالد بن حامد الحازمي، دار عالم الكتب، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.

٣٦١.**أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنَّة**، د.حمد بن إبراهيم العثمان، دار ابن حزم، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ.٢٠٠٤م.

٣٦٢.**أصول الدعوة وطرقها** ٢، مناهج جامعة المدينة العالمية.

٣٦٣.**أصول الدعوة**، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط٣،بيروت، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٩م.

٣٦٤.**أصول الدعوة**، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط٩، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٣٦٥.**أصول السرخسي**، ت: أبو الوفا الأفغاني، لجنة إحياء المعارف النعمانية، حيدر آباد، ١٣٧٢م.

٣٦٦.**أصول السنة، ومعه رياض الجنة بتخريج أصول السنة**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق وتخريج وتعليق: عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، مكتبة الغرباء الأثرية، ط١، المدينة النبوية، ١٤١٥ هـ.

٣٦٧.**الأصول العامة للاقتصاد الإسلامي**، الدكتور غازي عناية، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٤١١هـ.١٩٩١م.

٣٦٨.**الأصول العامة للعلاقات الدولية في الإسلام وقت السلم**، أحمد عبد الونيس شتا، مكتبة المعهد، ط١، القاهرة، ١٤١٧هـ.١٩٩٦م.

٣٦٩. أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني، د. عثمان ضميرية، دار المعالي ١٤١٩هـ.

٣٧٠. أصول الفقه الإسلامي، زكي شعبان، بيروت، ١٩٧٤م.

٣٧١. أُصُولُ الفِقهِ الذي لا يَسَعُ الفَقِيهِ جَهلُهُ، عياض بن نامي بن عوض السلمي، دار التدمرية، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

٣٧٢. أصول الفقه، أبو بكر الرازي الجصَّاص، تحقيق: عجيل النشمي، الكويت، ١٤٠٥هـ.

٣٧٣. أصول الفقه، الشيخ محمد أبو النور زهير، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة. بدون تاريخ.

٣٧٤. أصول الفقه، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٧٧هـ.

٣٧٥. أصول القانون الدولي العام، د. سامي عبدالحميد، بيروت،١٩٧٩ م.

٣٧٦. أصول المنهج العلمي في القرآن، محمد مجذوب محمد صالح، جامعة الجزيرة، معهد المعرفة، ط١، ٢٠٠٧م.

٣٧٧. أصول النصرانية في الميزان، محمد سيد أحمد المسير، الدار الطباعة المحمدية،القاهرة، ١٩٨٨م.

٣٧٨. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩م.

٣٧٩. أصول علم النفس، أحمد عزت راجح، المكتب المصري الحديث للنشر والتوزيع، ط١٠، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

٣٨٠. أصول مذهب الإمام أحمد، د.عبد الله بن عبدالمحسن التركي، مكتبة الرياض الحديثة،ط٣، الرياض، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٣٨١. أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة، سعود بن عبد العزيز الخلف، ١٤٢٠هـ،١٤٢١هـ.

٣٨٢. الأصول من علم الأصول، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار ابن الجوزي، ١٤٢٦هـ.

٣٨٣. الإضاءة في أهمية الكتاب والقراءة، خالد بن عبد العزيز النصار، دار العاصمة، ٢٠٠٩م.

٣٨٤. الإضاءة في بيان أصول القراءة، الشيخ على الضباع، المكتبة الأزهرية للتراث، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٨٥. الأضداد، محمد ابن القاسم الأنباري، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الكويت، ١٩٦٠م.

٣٨٦. الأضداد، محمد ابن القاسم الأنباري،

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية،ط١، بيروت، ١٤٢٧ هـ،٢٠٠٦م.

٣٨٧.أضواء إسلامية على بعض الأفكار الخاطئة، ربيع بن هادي بن محمد عمير المدخلي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الرابعة ، العدد الرابع ، ربيع الثاني ١٣٩٢هـ ، مايو١٩٧٢م.

٣٨٨.أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد، دار عالم الفوائد، ط١، مكة المكرمة، ١٤٢٦هـ.

٣٨٩.أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الكتب العلمية، ط٤، بيروت، لبنان، ٢٠١١م.

٣٩٠.أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار إحياء التراث العربي،ط١، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٣٩١.أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

٣٩٢.أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

٣٩٣.أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٣٩٤.أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥م .

٣٩٥.أضواء على التربية الإسلامية، على القاضي، دار الأنصار،ط١، القاهرة، ١٤٠٠هـ.

٣٩٦.أضواء قرآنية على دور الجدال والحوار في الدعوة للإسلام، الدكتور إحسان عبد المنعم سمارة، موقع الحوار اليوم: بإشراف فضيلة الدكتور خالد حسن هنداوي، الخميس١٤/ ٧/ ٢٠١١م.

٣٩٧.إطراف المُسْنِد المعتَلي بأطراف المسنَد الحنبلي، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، دار الكلم الطيب، بيروت. د. ت.

٣٩٨.**الأطعمة القرآنية غذاء ودواء**، محمد كمال عبد العزيز، مكتبة القرآن، القاهرة.

٣٩٩.**أطلس الأديان**، سامي بن عبد الله الغلوث، مكتبة العبيكان، ط٦، الرياض، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٤٠٠.**أطلس القرآن**، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.

٤٠١.**أطلس تاريخ الأنبياء والرسل**، سامي بن عبد الله الغلوث، مكتبة العبيكان، ط٦، الرياض، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٤٠٢.**أطلس تاريخ الأنبياء والرسل**، سامي بن عبد الله الغلوث، مكتبة العبيكان، ط١، الرياض، ١٤١٨هـ،١٩٩٨م.

٤٠٣.**إظهار الحق والصواب في حكم الحجاب والتبرج، والسفور، والخلوة بالمرأة الأجنبية، وسفرها بدون محرم، والاختلاط في ضوء الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح**، د. سعيد بن على بن وهف القحطاني. تقديم: الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان، مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

٤٠٤.**إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين**، أبو بكر بن محمد شطا الدمياطي، المشهور بالبكري، دار الفكر، للطباعة والنشر والتوريع ط١،بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٤٠٥.**إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين**، أبو بكر بن محمد شطا الدمياطي، المشهور بالبكري، المطبعة الميمنية، مصر، ١٣٠٠هـ.

٤٠٦.**إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد**، صالح بن فوزان بن الفوزان، مؤسسة الرسالة، ط٢،بيروت، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

٤٠٧.**الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار**، الحازمي، دار الوعي، حلب، ١٤٠٣ هـ.

٤٠٨.**الاعْتِصَام**: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق ودراسة: الجزء الأول: د. محمد بن عبد الرحمن الشقير، الجزء الثاني: د سعد بن عبد الله آل حميد، الجزء الثالث: د هشام بن إسماعيل الصيني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

٤٠٩.**الاعتصام**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، دار المعرفة، بيروت، بلا رقم أو تاريخ .

٤١٠.**الاعتصام**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي،المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٤١١.**الاعتصام**،إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، ط١، السعودية، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.

٤١٢.**الاعتصام**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، ضبطه وصححه: أحمد عبدالشافي، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت،١٤١١هـ.

٤١٣.**اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث**، محمد بن عبد الرحمن الخميس، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ.

٤١٤.**اعتقاد أئمة السلف أهل الحديث**، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار إيلاف الدولية، ط١، الكويت، ١٤٢٠هـ،١٩٩٩م.

٤١٥.**اعتقاد أئمة أهل الحديث**، أبو بكر الإسماعيلي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار العاصمة،ط١، الرياض، ١٤١٢هـ.

٤١٦.**الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث**، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة،ط١، بيروت، ١٤٠١هـ.

٤١٧.**اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**، محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢ هـ.

٤١٨.**الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، دار المعارف، ط٣.

٤١٩.**الإعجاز التشريعي في الكفارات**، مازن إسماعيل هنية، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإسلامية، المجلد السابع عشر، العدد الثاني، يونيو ٢٠٠٩م.

٤٢٠.**الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم**، عبد الحميد أحمد يوسف الهنداوي، الدار الثقافية للنشر، ط١، القاهرة ٢٠٠٤م.

٤٢١.**الإعجاز العلمي إلى أين؟** مقالات تقويمية للإعجاز العلمي: د. مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، ط٢،الرياض، ١٤٣٣ هـ.

٤٢٢.**الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**،

الدكتور عبد السلام حمدان اللوح، آفاق للطباعة والنشر،ط١، غزة، فلسطين، ١٤١٩هـ.١٩٩٩م.

٤٢٣.**الإعجاز العلمي في الإسلام**، محمد عبد الصمد، دار المصرية اللبنانية، ط٤، القاهرة، ١٩٩٧م .

٤٢٤.**الإعجاز العلمي في الإسلام**، محمد عبد الصمد، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠١م .

٤٢٥.**الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم**، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي، هيئة الإعجاز العلمي، ط٣، جدة ١٤٢٧هـ.٢٠٠٦م.

٤٢٦.**الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، مطبوعات الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٤٢٧.**الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، مناهج جامعة المدينة العالمية.

٤٢٨.**الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾** (الذاريات: ٤٧)، د. عادل الصعدي، مراجعة: علي عمر بلعجم، موقع جامعة الإيمان اليمنية، ٢٠٠٧م.

٤٢٩.**الإعجاز العلمي في قيمة اللبن الغذائية**، د. علي أحمد علي الشحات، موقع الهيئة العالمية للإعجاز.

٤٣٠.**الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في السمع والبصر والفؤاد**، صادق الهلالي، مجلة الإعجاز، العدد التاسع، صفر ١٤٢٢هـ.

٤٣١.**الإعجاز الفيزيائي في القرآن الكريم**، د. محمد دودح الباحث العلمي بالهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

٤٣٢.**إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني**، د. صلاح الخالدي، دار عمَّار،ط١، عمَّان، ١٤٢١هـ.

٤٣٣.**إعجاز القرآن الكريم في وصف أنواع الرياح والسحاب والمطر**، من بحوث المؤتمر العلمي في القرآن والسنة، مجموعة من الباحثين.

٤٣٤.**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، دار الكتاب العربي،ط٨، بيروت، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥ م.

٤٣٥.**إعجاز القرآن**، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط٥، مصر، ١٩٩٧م.

٤٣٦.**إعجاز القرآن**، أبو بكر محمد بن

الطيب الباقلاني، دراسة وتحقيق وتعليق: الدكتور محمود محمد مزروعة، دار كنوز المعرفة، ط١، جدة، السعودية، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦م.

٤٣٧. **الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم**، مناهج جامعة المدينة العالمية، جامعة المدينة العالمية.

٤٣٨. **الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم**، جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود، بدون دار نشر.

٤٣٩. **إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان**، د. محمد فياض، دار الشروق، ط١، القاهرة، ١٤٢٠هـ.

٤٤٠. **إعداد الإنسان الصالح في ضوء التربية القرآنية**، د. داود درويش حلّس، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي الأول القرآن الكريم ودوره في معالجة قضايا الأمة المنعقد في كلية أصول الدين، مركز القرآن الكريم والدعوة الإسلامية الجامعة الإسلامية، غزة في الفترة :٢٥،٢٦ ربيع أول ١٤٢٩هـ ١،٢ إبريل ٢٠٠٨م.

٤٤١. **إعراب القراءات السبع وعللها**، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه الهمذاني، تحقيق: د.عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٤٤٢. **إعراب القراءات الشواذّ**، أبو البقاء العُكبري، تحقيق: محمد السيد عزوز، عالم الكتب،ط١، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٤٤٣. **إعراب القرآن الكريم**، أحمد عبيد الدعاس، أحمد محمد حميدان، إسماعيل محمود القاسم، دار المنير، ودار الفارابي،ط١، دمشق ١٤٢٥ هـ.

٤٤٤. **إعراب القرآن المنسوب للزجاج**، علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن نور الدين جامع العلوم الأَصْفهاني الباقولي، تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتب اللبنانية، ط٤، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٤٤٥. **إعراب القرآن وبيانه**، محي الدين بن أحمد مصطفى درويش، دار ابن كثير، ط٥، دمشق، ١٩٩٦م.

٤٤٦. **إعراب القرآن وبيانه**، محي الدين بن أحمد مصطفى درويش، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، ط٢، حمص- سورية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٤٤٧. **إعراب القرآن وبيانه**، محي الدين بن أحمد مصطفى درويش، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، ط٤، حمص، سورية، ١٤١٥هـ.

٤٤٨. **إعراب القرآن**، أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٤٤٩. **إعراب القرآن**، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، موقع المكتبة الشاملة.

٤٥٠. **إعراب القرآن**، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ.

٤٥١. **الأعلام الأعجمية في القرآن**، د. صلاح الخالدي، دار القلم،ط١، دمشق، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

٤٥٢. **أعلام الحديث**، أبو سليمان الخطابي، تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، جامعة أم القرى، مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ط١، مكة المكرمة، ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٨م.

٤٥٣. **إعلام الساجد بأحكام المساجد**، محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: أبو الوفا مصطفى المراغي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،ط٥، بالقاهرة،١٤٢٠هـ،١٩٩٩م.

٤٥٤. **أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة**، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي،تحقيق: حازم القاضي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،ط٢، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ.

٤٥٥. **أعلام القرآن**، صالح المغامسي، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٤٥٦. **إعلام المسلمين بعصمة النبيين**، إسحاق بن عقيل المكيّ، دار ابن حزم،ط١، بيروت، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م.

٤٥٧. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الرياض.

٤٥٨. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة، المملكة العربية السعودية، بدون إشارة للطبعة، والتاريخ.

٤٥٩. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد،

مطبعة السعادة، ١٣٧٤ هـ.

٤٦٠.**إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٣٧٤هـ.

٤٦١.**إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق: عصام الصبايطيّ، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م.

٤٦٢.**إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩١م .

٤٦٣.**إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرؤوف، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

٤٦٤.**إعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة،١٣٨٨هـ ، ١٩٦٨م.

٤٦٥.**أعلام النبوة**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت،١٩٨٧م.

٤٦٦.**الأعلام**، خير الدين بن محمود الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

٤٦٧.**إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي**، د. زياد خليل الدغامين، جامعة آل البيت، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٤٦٨.**الأعمال التطوعية في الإسلام**، د. محمد بن صالح بن علي القاضي، مقال منشور بموقع صيد الفوائد نقلا عن : اللقاء السنوي الرابع للجهات الخيرية.

٤٦٩.**الأعمال الشعرية الكاملة**، أحمد شوقي، دار العودة، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٩٨٨م.

٤٧٠.**إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، بدون ذكر الطبعة والتاريخ، مكة المكرمة.

٤٧١.**إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق: مجدى فتحي السيد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٤٧٢.**إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**،

محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار المعرفة،ط٢، بيروت، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

٤٧٣. **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٤٧٤. **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد الله، دار ابن الهيثم، القاهرة، مصر، ٢٠٠٤م.

٤٧٥. **الأغاني**، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر،ط٢، بيروت.

٤٧٦. **الإغراء بالميسر**، د. علي السالوس، مجلة التوحيد، العدد الثاني، السنة الثانية والثلاثون، مصر.

٤٧٧. **آفات على الطريق**، د. السيد محمد نوح، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ١٤٢٠هـ ،١٩٩٩م.

٤٧٨. **الإفصاح عن معاني الصحاح**، أبو المظفر عون الدين يحيى بن هُبَيْرَة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيبانيّ، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، ١٤١٧هـ.

٤٧٩. **الأفعال في القرآن الكريم**، د. عبد الحميد مصطفى، دار البيان العربي، جدة، ١٩٨٦م.

٤٨٠. **الأفعال**، علي بن جعفر بن علي السعدي، أبو القاسم، المعروف بابن القَطَّاع الصقلي، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٣هـ،١٩٨٣م.

٤٨١. **أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات**، مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت، ١٤٠٦م.

٤٨٢. **اقتران الأموال والأولاد في القرآن حِكم وأسرار**، د. توفيق علي زبادي، مجلة البيان، موقع المجلة على الشبكة العنكبوتية.

٤٨٣. **الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ وأهداف**، د. عبد الله بن عبد المحسن الطريقي، توزيع مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، ط١١، الرياض، ٢٠٠٩م.

٤٨٤. **الاقتصاد الإسلامي**، د. محمود حسين الوادي وآخرون، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط١، عمان،

١٤٣١هـ.

٤٨٥.**الاقتصاد الإسلامي**، منذر قحف، دار القلم، ط١، الكويت، ١٣٩٩م.

٤٨٦.**الاقتصاد في الاعتقاد**، عبد الغني المقدسي، أبو محمد، تقي الدين، تحقيق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، السعودية، ١٤١٤هـ،١٩٩٣م.

٤٨٧.**الاقتصاد في الاعتقاد**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٤٨٨.**اقتصادنا**، السيد محمد باقر الصدر، تحقيق: مكتب الإعلام الإسلامي، فرع خراسان، ط٢، ١٤٢٥هـ.

٤٨٩.**اقتصادنا**، دراسة موضوعية تتناول بالنقد والبحث المذاهب الاقتصادية والماركسية والرأسمالية والإسلام في أسسها الفكرية وتفاصيلها، محمد باقر الصدر، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، ط١، ١٤٢٤هـ.

٤٩٠.**اقتصاديات العالم الإسلامي**، محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت، ١٤٠١هـ.١٩٨١م.

٤٩١.**اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: ناصر بن عبدالكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢.

٤٩٢.**اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، ط٧، بيروت، لبنان. ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٤٩٣.**اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، ت: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية،ط٢،مصر، ١٣٦٩هـ.

٤٩٤.**أقسام الناس في الإيمان بالقضاء والقدر**، عبدالله بن سليمان للغفيلي، مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، عدد٧٩/ ٩٠٣.

٤٩٥.**الإقناع في فقه الإمام أحمد**، شرف الدين موسى بن أحمد بن موسى أبي النجا الحجاوي ت: عبد اللطيف محمد موسى السبكي، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

٤٩٦.**الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم**، د. سليمان عمر قوش، دار الثقافة، ط٢، قطر، ١٩٩٥م.

٤٩٧.**الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والثلاثة الخلفاء**، سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٤٩٨.**الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري، تحقيق د. محمد كمال الدين، عالم الكتب،ط١، بيروت، ١٩٩٧م.

٤٩٩.**إكرام الضيف**، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير البغدادي الحَرْبي تحقيق: عبد الله عائض الغرازي، مكتبة الصحابة،ط١، طنطا، ١٤٠٧هـ.

٥٠٠.**إكليل الكرامة في تبيان مقاصد الإمامة**، صديق حسن خان بهادر القنوجي البخاري، المحقق والمترجم: مجموعة من الأساتذة، النسخة الأصلية مطبوعة بمطبع الصديق، بهوبال، ط١، ١٢٩٢هـ، ١٤١١هـ.

٥٠١.**الإكليل في استنباط التنزيل**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٥٠٢.**إكمال الأعلام بتثليث الكلام**، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي، جامعة أم القرى، ط١، مكة المكرمة، المملكة السعودية، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

٥٠٣.**إكمال المعلم بفوائد مسلم**، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، تحقيق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، مصر، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨م.

٥٠٤.**الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**، علي بن هبة الله بن أبي نصر بن ماكولا، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١١هـ.

٥٠٥.آل حميم، غافر وفصلت، دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة،ط١، مصر، ١٤٣١هـ. ٢٠١٠م.

٥٠٦.السرائر في ضوء القرآن الكريم، دراسة موضوعية،، زينب حسين موسى، أبو مور، رسالة ماجستير في التفسير وعلومه، جامعة غزة، ١٤٣٠م.

٥٠٧.ألف سؤال وجواب في القرآن، قاسم عاشور، دار ابن حزم،ط١، بيروت، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.

٥٠٨.الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى، أبو الحسن علي بن عيسى، الرماني، تحقيق ودراسة: فتح الله صالح علي المصري، دار الوفاء، ط٢، المنصورة، مصر، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨ م.

٥٠٩.الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين، المحقق: د. محمد حسن عواد، دار الجيل،ط١، بيروت، ١٤١١هـ.

٥١٠.الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٥هـ.

٥١١.ألفية السيرة النبوية، نظم الدرر السنية الزكية، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، دار المنهاج،ط١، بيروت، ١٤٢٦ هـ.

٥١٢.الإلمام بأحاديث الأحكام، تقي الدين أبي الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، تحقيق وتخريج: حسين إسماعيل الجمل، دار المعراج الدولية،ط٢، بيروت، دار ابن حزم، السعودية، ١٤٢٣هـ.٢٠٠٢م.

٥١٣.الألوان في القرآن رؤية فنية ومدلول، د. أشرف فتحي عبد العزيز، مقال منشور، على الشبكة العنكبوتية، بتاريخ١٨/ ٦/ ٢٠١٠م.

٥١٤.الأم، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء.

٥١٥.الأم، محمد بن إدريس الشافعي، دار ابن حزم،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ،٢٠٠٥م.

٥١٦.الأم، محمد بن إدريس الشافعي، دار الشعب.

٥١٧.الأم، محمد بن إدريس الشافعي، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٥١٨.الأم، محمد بن إدريس الشافعي،

دار المعرفة، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٥١٩. **الأم**، محمد بن إدريس الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣هـ.

٥٢٠. **الأم**، محمد بن إدريس الشافعي، طبعة الشعب، عن طبعة بولاق، ١٣٢١ هـ.

٥٢١. **الأماكن، أو (ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة)**، محمد بن موسى الحازمي، حمد الجاسر، ١٩٩٤م.

٥٢٢. **الأمالي في لغة العرب**، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

٥٢٣. **الأمالي**، السيد المرتضى، الشريف أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين، صححه وضبط ألفاظه وعلق حواشيه: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي، ط١، قم، إيران، ١٤٠٣هـ.

٥٢٤. **الإمام في بيان أدلة الأحكام**، العز بن عبد السلام، تحقيق: رضوان غربية، دار البشائر، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٥٢٥. **الأمانة في الإسلام وآثارها في المجتمع**، الدكتور عبداللطيف بن ابراهيم عبداللطيف الحسين، رسالة جامعية، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٦هـ.

٥٢٦. **الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله**، عبد الله بن عبد المحسن بن عبد الرحمن التركي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ.

٥٢٧. **الأمة ودلالتها العربية والقرآنية**، د. أحمد حسن فرحات، دار عمار للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، الأردن، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣م.

٥٢٨. **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية،ط١،بيروت،١٤٢٠ هـ ١٩٩٩م.

٥٢٩. **الأمثال السائرة من شعر المتنبي**، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة،ط١، بغداد، ١٣٨٥ هـ، ١٩٦٥ م

٥٣٠. **الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله**، عبد الله بن عبد الرحمن

الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية،ط١، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٥٣١. **الأمثال القرآنية دراسة تحليلية**، الدكتور محمد بكر إسماعيل، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٥٣٢. الأمثال المولدة، أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٢٤هـ.

٥٣٣. **الأمثال في القرآن الكريم خصائصها التربوية وسماتها التربوية**، سامي عطا حسن، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد ٣٨، العدد الأول، الجامعة الأردنية، ٢٠١١م.

٥٣٤. **الأمثال في القرآن الكريم**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: سعيد محمد الخطيب، دار المعرفة، ط ٢، بيروت،١٩٨٣م.

٥٣٥. **الأمثال في القرآن**، د. محمد فياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي،ط٢، الرياض، ١٩٩٥م.

٥٣٦. **الأمثال في القرآن**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: أبي حذيفة إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة، ط١، طنطا، مصر، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦م.

٥٣٧. **الأمثال**، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي، تحقيق: الدكتور عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠م.

٥٣٨. **الأمثال**، زيد بن عبد الله بن مسعود بن رفاعة، أبو الخير الهاشمي، دار سعد الدين، ط١، دمشق،١٤٢٣هـ.

٥٣٩. **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ط مؤسسة البعثة، بيروت ١٩٩٢م.

٥٤٠. **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**، ناصر مكارم الشيرازي، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب،ط١، ١٤٢٦هـ.

٥٤١. **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه**، خالد بن عثمان السبت، المنتدى الإسلامي، ط١، ١٤١٥هـ،١٩٩٥م.

٥٤٢. **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة**، سليمان الحقيل، ط٤، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٥٤٣. **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، ابن تيمية، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١،

المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ

٥٤٤.**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي، تحقيق: الدكتور يحيى مراد، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣م.

٥٤٥.**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، ت: صلاح بن عايض الشلاحي، مكتبة الغرباء الأثرية،ط١، السعودية، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٥٤٦.الأمر **بالمعروف والنهي عن المنكر**، سعد بن سعيد الحجري، الكتيبات الإسلامية، دار بلنسية.

٥٤٧.**الأمر والنهي في سورة الطلاق وتطبيقاتهما الفقهية من خلال التفسير الكبير للإمام الرازي**، عبد خلف حايف، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد(٢٠)، العراق، ٢٠٠٨م.

٥٤٨.**الأمراض الجنسية عقوبة إلهيه**، عبدالحميد القضاة، من دون ذكر الطبعة والدار، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

٥٤٩.**الأمراض الجنسية**، نبيل الطويل، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٥٥٠.**إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن**، أبو البقاء عبد الله العكبري، تصوير دار الشام للتراث، ط١، عن طبعة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، عام١٣٨٩هـ،١٩٧٠م.

٥٥١.**الأمن في الخطاب القرآني وفي شعر صدر الإسلام**، بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير في الأدب، فاطمة محمد بلو أحمد القاضي، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

٥٥٢.**الأمن في ضوء القصص القرآني دراسة موضوعية**، بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، سامي محمد بشير الجدبة، الجامعة الإسلامية، غزة، قسم التفسير وعلوم القرآن، فلسطين، ١٤٣٣هـ.٢٠١٢م.

٥٥٣.**الأمن والتنمية**، محسن بن العجمي عيسى، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ٢٠١١م، ط١، الرياض.

٥٥٤.**الأمنيَّة في إدراك النيَّة**، أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: د.مساعد بن قاسم الفالح، مكتبة

الحرمين، ط١الرياض، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٥٥٥.**أمهات بلا حدود**، أهمية الأسرة في الإسلام، عبد الله محمد سالم أبو زيد، على الشبكة العنكبوتية السبت، ٢٥ سبتمبر ٢٠١٠م.

٥٥٦.**الأموال في دولة الخلافة**، عبد القديم زلوم، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.

٥٥٧.**الأموال**، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق/ محمد هراس، الدوحة، قطر، ١٩٧٨م.

٥٥٨.**إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون**، د. زغلول النجار، صحيفة الأهرام (٢٠٠٣م)، متاح على موقع الصحيفة في الانترنت.

٥٥٩.**إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون**، د. صلاح رشيد، مجلة الإعجاز العلمي، ٢٠٠٤م.

٥٦٠.**إنباه الرواة على أنباه النحاة**، أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، المكتبة العصرية، ط١، بيروت، ١٤٢٤هـ.

٥٦١.**الإنباه على قبائل الرواة**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم النمري القرطبي ابن عبد البر، دار الكتاب العربي،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥م.

٥٦٢.**الأنبياء في القرآن والكتاب المقدس**، د. محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية،ط١، القاهرة،١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

٥٦٣.**الانتصار في الرد على القدرية والمعتزلة الأشرار**، أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، أضواء السلف،ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ،١٩٩٩م.

٥٦٤.**الانتصار للصحابة الأخيار في رد أباطيل حسن المالكي**، عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدري، دار ابن القيم، ط٢، الدمام، المملكة العربية السعودية، دار ابن عفان، القاهرة، مصر، ١٤٢٣هـ.

٥٦٥.**الانتصار للقرآن تهافت فرقان متنبئ الأمريكان أمام حقائق القرآن**، صلاح الخالدي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، ٢٠٠٥م.

٥٦٦.**الانتصار للقرآن**، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، دار الفتح، ط١، عَمَّان، دار ابن حزم، بيروت،

١٤٢٢هـ،٢٠٠١م.

٥٦٧.**الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال**، أحمد بن المنير الإسكندري، المطبوع بهامش الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥م.

٥٦٨.**إنجيل برنابا ودراسات حول وحدة الدين عند موسى و عيسى ومحمد عليهم السلام**، سيف الله أحمد فاضل، دار القلم،ط٢، الكويت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٥٦٩.**الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مجير الدين الحنبلي العليمي، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٥٧٠.**أنساب الأشراف**، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر،ط١، بيروت، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م.

٥٧١.**الأنساب**، أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني، تقديم: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان،ط١، بيروت، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م.

٥٧٢.**الأنساب**، أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني، تحقيق : عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية،ط١، حيدر آباد،١٣٨٢ هـ ، ١٩٦٢ م .

٥٧٣.**الإنسان الكامل في الفكر الصوفي**، د. لطف الله بن عبد العظيم خوجه، دار الفضيلة، ط١، ١٤٣٠هـ.

٥٧٤.**الإنسان بين العبودية لله والعبودية للعبيد**، على نايف الشحود، ط١، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

٥٧٥.**الإنسان دراسة قرآنية**، الدكتورة عائشة عبد الرحمن، دار المعارف،ط٢، القاهرة.

٥٧٦.**الإنسان ذلك المجهول**، ألكسيس كاريل، مكتبة المعارف، بيروت.

٥٧٧.**الإنسان كما تصوره العقيدة الإسلامية**، محمد محمد سلمان أبو جامع، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٣م.

٥٧٨.**الإنسان والكون في الإسلام**،أبو الوفا التفتازاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٥م .

٥٧٩.**الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم**: د.عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، مكتبة وهبة، ط١، مصر،١٩٩٠م.

٥٨٠.**الإنسان وحريته في الإسلام**، د. محمود محمد بابللي، دار الشبل للنشر والتوزيع، ط١، السعودية، ١٩٩٠م،١٤١٠هـ.

٥٨١.**أنشطة مقترحة لتوظيف التفكر كمدخل لتدريس العلوم في المرحلة الابتدائية بمحافظات غزة**، إحسان خليل الآغا، وجمال عبد ربه الزعانين، الجمعية المصرية للتربية العلمية، المؤتمر السابع، نحو تربية علمية أفضل، يوليو ٢٠٠٣م.

٥٨٢.**الإنصاف عند الاختلاف**، د. أحمد الريسوني، نشر في الفجر نيوز (٢٠٠٩،٠٤،١٤م).

٥٨٣.**الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف**، محمد بن إسماعيل الصنعاني اليماني، تحقيق: حسن بن علي بن حسين العواجي،ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٥٨٤.**الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف**، أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي، تحقيق: د. عبدالله بن محسن التركي، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٦هـ.

٥٨٥.**الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف**، أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي، دار إحياء التراث العربي،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ.

٥٨٦.**الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف**، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي، صححه وحققه: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط٢، بيروت – لبنان:

٥٨٧.**الإنفاق وأثره في بناء شخصية المسلم**، أحمد محمد عبد الخالق، بحث منشور في مجلة الخيرية، العدد٦٨، رجب، السعودية، ١٤١٦هـ.

٥٨٨.**انفعالات النفس**، رينيه ديكارت، ترجمة وتقويم وتعليق: جورج زيناتي، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع،ط١، بيروت، ١٤١٣هـ.

٥٨٩.**الانفعالات النفسية عند الأنبياء في القرآن الكريم** (رسالة ماجستير)، إبراهيم عبد الرحيم مصطفى، إشراف : د. عودة عبد الله، د. رسمية عبد القادر، جامعة النجاح الوطنية، نابلس ٢٠٠٩م.

٥٩٠.**أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل**، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: د. عبد

الرحمن بن إبراهيم المطرودى، دار عالم الكتب، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٣ هـ،١٩٩١م.

٥٩١.**أنوار البروق في أنواء الفروق**، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

٥٩٢.**أنوار البروق في أنواع الفروق**، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي، عالم الكتب، بدون طبعة، وبدون تاريخ.

٥٩٣.**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

٥٩٤.**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، دار الجيل، بيروت.

٥٩٥.**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي،ط١، بيروت، ١٤١٨هـ.

٥٩٦.**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٥٩٧.**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، تحقيق: الشيخ عبد القادر عرفات العشا حسونة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٥٩٨.**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، دار صادر، ط٢، بيروت، ٢٠٠٤م.

٥٩٩.**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، تحقيق: عبدالقادر العشاء، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.

٦٠٠.**الأنوار الساطعات لآيات جامعات**، عَبدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدٍ السّلمانِ،ط٤، الرياض، ١٤١١هـ.

٦٠١.**أنواع الجدال**، محمد فاضل، موقع الخيمة العربية، أرشيف حوار الخيمة.

٦٠٢.**أنواع الجدل المذموم**، أبو حزم فيصل بن المبارك، موقع الشبكة الفقهية (الملتقى الفقهي)، بتاريخ/ ٢٩/٧/٢٠٠٨م.

٦٠٣.**أنواع الجدل وأهمية التمسك بالسنة ونبذ التعصب للرجال**، موقع مركز الفتوى، رقم الفتوى: ١١٣٤٦٤.

٦٠٤.**أنواع السحب رؤية قرآنية**، عادل الصعدي، موقع جامعة الإيمان اليمنية الإلكتروني، صدر بتاريخ (٢٢/١/٢٠١٣م).

٦٠٥.أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، قاسم بن عبد الله بن أمير علي القونوي الرومي الحنفي، تحقيق : يحيى مراد، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م،١٤٢٤هـ.

٦٠٦.أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، قاسم بن عبد الله بن أمير علي القونوي، تحقيق: د. أحمد بن عبد الرزاق الكبيسي، ط١، دار الوفاء، ١٤٠٦هـ.

٦٠٧.أهداف التربية الإسلامية ومقاصدها، محمد بن سالم بن علي بن جابر، مقال منشور على شبكة الألوكة بتاريخ : ٧، ١٢، ٢٠٠٦م.

٦٠٨.أهداف التربية الإسلامية، د. ماجد عرسان الكيلاني، مؤسسة الريان، بيروت، ١٤١٩هـ.

٦٠٩.أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلامي، نمر محمد خليل النمر، المكتبة الإسلامية، ط١، عمان ١٤٠٩هـ.

٦١٠.أهمية الدعاء وكيفيته في السنة النبوية، د. محمد بن إبراهيم الحمد، موقع الإسلام اليوم، ٢٤رمضان، ١٤٣٤هـ.

٦١١.أهمية المال وفضله في الإسلام، أحمد الريسوني، موقع السراج الدعوي.

٦١٢.أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين، محمد بن محمد العواجي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، بدون.

٦١٣.أوضاع اليهود وموقفهم من الغزو الصليبي لبلاد الشام، رياض مصطفى أحمد شاهين، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، غزة، نوفمبر، ٢٠٠٥م.

٦١٤.أوضح التفاسير، محمد عبداللطيف الخطيب، المطبعة المصرية ومكتبتها ط٦،مصر، ١٣٨٣ هـ، ١٩٦٤ م.

٦١٥.أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٦١٦.آيات آل البيت في القرآن الكريم، الدلالات والهدايات، منصور بن حمد بن صالح العيدي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م.

٦١٧.آيات الله في الإنسان، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي،ط٢، دمشق، سوريا، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

٦١٨.آيات تعاقب اللَّيل والنَّهار في كتاب الله، أحمد مصلح، موقع الهيئة

العالميَّة للإعجاز العلمي.

٦١٩. **آية اختلاف اللَّيل والنَّهار في ضوء عِلم الفضاء**، د. نجاة محمد رشيد العبيدي، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة.

٦٢٠. **إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد**، ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين اليمني، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت، ١٩٨٧م.

٦٢١. **إيجاز البيان عن معاني القرآن(تفسير النيسابوري)**، محمود بن أبى الحسن بن الحسين، تحقيق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي الناشر: دار الغرب الإسلامي،ط١، بيروت، ١٤١٥هـ.

٦٢٢. **إيجاز البيان في إعجاز القرآن**، فؤاد البنا، المبدعون للإعلام التنموية والإنسانية،ط٣، تعز، اليمن، سنة ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٦٢٣. **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، أبو بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحِكم، ط٣، المدينة المنورة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٦٢٤. **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم،ط٥،المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٣م.

٦٢٥. **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، أبو بكر جابر الجزائري، المكتبة العصرية، ط٢، صيدا، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٦٢٦. **أيسر التفاسير**، أسعد محمود حومد، راجعه: الشيخ محمد متولي الشعراوي، الشيخ أحمد حسن مسلَّم، قدَّم له: الدكتور إبراهيم السلقيني، مجمع اللغة العربية، ط٤، دمشق، ١٤١٩هـ.٢٠٠٩م.

٦٢٧. **إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل**، أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين، المحقق: وهبي سليمان غاوجي الألباني، دار السلام للطباعة والنشر،ط١، مصر،١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م.

٦٢٨. **إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل**، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق محي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩١ هـ، ١٩٧١م.

٦٢٩. **إيضاح شواهد الإيضاح**، أبو

علي الحسن بن عبد الله القيسي، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد بن حمود الدعجاني، دار الغرب الإسلامي،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧م.

٦٣٠.**الإيضاح في علوم البلاغة**، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر الشهير بالخطيب القزويني، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٦٣١.**الإيضاح في علوم البلاغة**، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر الشهير بالخطيب القزويني، تحقيق: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب العربي اللبناني، بيروت.

٦٣٢.**الإيضاح في علوم البلاغة**، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر الشهير بالخطيب القزويني، دراسة وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت.

٦٣٣.**إيضاح ما يوهم ظاهره التعارض في بعض آي القرآن**، د. سليمان القرعاوي، بحث منشور بحولية كلية الدراسات للبنات، القاهرة، ١٩٩٧م.

٦٣٤.**الإيضاح**، عامر بن علي الشماخي، وزارة التراث، ط٢، مسقط، سلطنة عمان.

٦٣٥.**الإيمانُ بالجِنِّ بينَ الحقيقةِ والتَّهويلِ**، علي بن نايف الشحود، ماليزيا، بهانج دار المعمور، ط١، ١٤٣٢هـ،٢٠١٠م.

٦٣٦.**الإيمان بالحق وأثره في بناء شخصية المسلم**، زكريا عابدين، دار الكتاب، ط١، الرياض، ١٩٨٧م.

٦٣٧.**الإيمان بالقدر**، عَلي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط١.

٦٣٨.**الإيمان بالله جل جلاله**، علي محمد الصلابي، دار النوادر،ط١، سورية، لبنان، الكويت، ١٤٣١هـ.

٦٣٩.**الإيمان باليوم الآخر**، عَلي محمد الصَّلاَّبي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، دار ابن كثير،ط١.

٦٤٠.**الإيمان حقيقته خوارمه نواقضه عند أهل السنة والجماعة**، عبدالله بن عبدالحميد الأثري، مراجعة: الدكتور عبد الرحمن بن صالح، مدار الوطن للنشر،ط١، الرياض، ١٤٢٤ هـ،٢٠٠٣م.

٦٤١.**الإيمان والحياة**، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر.

٦٤٢.**الإيمان والحياة**، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة،ط٤، بيروت، ١٩٧٩م.

٦٤٣.**الإيمان ومعالمه، وسننه، واستكماله**،

ودرجاته، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،١٤٢١هـ.

٦٤٤.الإيمان، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي،ط٤، بيروت، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣م.

٦٤٥.الإيمان، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٥، عمان، الأردن، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

٦٤٦.أين الخلل ؟ د. يوسف القرضاوي، دار الصحوة للنشر.

ب

٦٤٧.البارع في اللغة، أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان المحقق: هشام الطعان، مكتبة النهضة بغداد، دار الحضارة العربية، ط١،بيروت، ١٩٧٥م.

٦٤٨.الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث، الحافظ ابن كثير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٦٤٩.باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن، أبو القاسم محمود بن علي بن الحسين النيسابوريّ، تحقيق: د. سعاد بابقي، جامعة أم القرى ١٩٩٨م .

٦٥٠.بحر الدموع، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي تحقيق: جمال محمود مصطفى، دار الفجر للتراث، ط١، ١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م.

٦٥١.البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ابن نُجَيم المصري الحنفي، دار المعرفة، بيروت،١٣١١ هـ.

٦٥٢.البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري، وفي آخره: تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري، وبالحاشية: منحة الخالق لابن عابدين، دار الكتاب الإسلامي، ط٢.

٦٥٣.البحر الزخار أو مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق

البصري العتيكي المعروف بالبزار، تحقيق: محفوظ عبد الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، مكتبة الحكم، المدينة المنورة، د.ت.

٦٥٤. **بحر العلوم**، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق: د.محمود مطرجي، دار الفكر، ط١، بيروت،١٩٩٧م .

٦٥٥. **بحر العلوم**، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق: محب الدين عمر العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م .

٦٥٦. **بحر العلوم**، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق وتعليق: الشيخ علي محمد معوّض وآخرَيْن، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت،١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٦٥٧. **بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار**، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م

٦٥٨. **البحر المحيط في التفسير**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، عناية الشيخ: زهير جعيد، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٦٥٩. **البحر المحيط في التفسير**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤١١ هـ .

٦٦٠. **البحر المحيط في أصول الفقه**، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، دار الكتبي،ط١،القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٦٦١. **البحر المحيط في التفسير**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوّض، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٦٦٢. **البحر المحيط في التفسير**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٦٦٣. **البحر المحيط في التفسير**، محمد بن يوسف أبى حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد ، علي معوض، دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ.

٦٦٤. **البحر المحيط في التفسير**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الفكر،ط٢، بيروت ١٤٠٣هـ.

٦٦٥. **البحر المحيط في التفسير**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق، عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.

٦٦٦. **البحر المحيط في التفسير**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، لبنان، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٦٦٧. **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت، ٢٠٠٢م، ١٤٢٣ هـ.

٦٦٨. **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩ هـ.

٦٦٩. **البحر في القرآن الكريم آيات ودلالات**، د.عبد الله بن عبد الرحمن الرومي، مجلة الدراسات القرآنية، العدد(٥)، ١٤٣٠هـ.

٦٧٠. **بحوث فقهية في قضايا اقتصادية معاصرة**، د. محمد سليمان الأشقر وآخرون، دار النفائس،ط١، عمّان، الأردن، ١٤١٨هـ،١٩٩٨م.

٦٧١. **بحوث في جريمة السرعة وعقوبتها في الفقه الإسلامي**، علي عبدالعال عبدالرحمن، دار الهوى للطباعة، القاهرة، ١٩٨٨م.

٦٧٢. **البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر الثالث للسيرة والسنة النبوية**، بدولة قطر، عام١٤٠٠هـ.

٦٧٣. **البخلاء**، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، بعناية: بسام عبد الوهاب الجابي، الجفان والجابي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م.

٦٧٤. **البدء والتاريخ**، المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.

٦٧٥. **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد، تنقيح وتصحيح خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥م.

٦٧٦. **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد، دار الحديث، بدون

طبعة، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤ م.

٦٧٧. **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد، دار إحياء الكتب العربية، مصطفى البابي الحلبي، ط٤، مصر، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

٦٧٨. **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد، ت: رضوان جامع رضوان، مكتبة الإيمان، ط١، المنصورة، مصر، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٦٧٩. **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٦٨٠. **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

٦٨١. **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٦ م.

٦٨٢. **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار المعارف، بيروت، ١٤٠١هـ.

٦٨٣. **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، مصر، ١٤٢٤ هـ.

٦٨٤. **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، مصر، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

٦٨٥. **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، مصر، ١٤١١ هـ ١٩٩٠م.

٦٨٦. **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق :د. احمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٦٨٧. **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٦٨٨. **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

٦٨٩. **بدائع التفسير**، ابن القيم الجوزية، جمعه وخرج أحاديثه: يسري السيد

محمد، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤٢٧هـ.

٦٩٠.**بدائع التفسير**، ابن قيم الجوزية، جمع : يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي،ط١، الدمام، ١٤١٤هـ.١٩٩٣م .

٦٩١.**بدائع السلك في طبائع الملك**، محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، أبوعبد الله، شمس الدين الغرناطي ابن الأزرق، تحقيق: د. علي سامي النشار، وزارة الإعلام، ط١، العراق

٦٩٢.**بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، أبو بكر بن مسعود الكاساني، مطبعة الإمام، مصر،١٣٩٤هـ.

٦٩٣.**بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، أبو بكر بن مسعود الكاساني، مطبعة الجمالية،ط١، ١٣٤٨هـ،١٩١٠م.

٦٩٤.**بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، أبو بكر بن مسعود الكاساني، دار الكتاب العربي، ط٢، بيروت، ١٤٠٢هـ. ١٩٨٢م.

٦٩٥.**بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، علاء الدين الكاساني الحنفي، دار الكتب العلمية،ط٢،بيروت، ١٤٠٦هـ،١٩٨٦م .

٦٩٦.**بدائع الفوائد**، أبو عبدالله محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، مجمع الفقه الاسلامي، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢١ هـ.

٦٩٧.**بدائع الفوائد**، أبو عبدالله محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد،ط١، الرياض، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٦٩٨.**بدائع الفوائد**، أبو عبدالله محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، تحقيق: سيد عمران و عامر صلاح، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٦٩٩.**بدائع الفوائد**، أبو عبدالله محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، تحقيق: علي الأثري، دار ابن الجوزي،ط٧، السعودية، ١٤٢٤هـ.

٧٠٠.**بدائع الفوائد**، أبو عبدالله محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، تحقيق : هشام عبدالعزيز عطا وآخرين، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

٧٠١.**بدائع الفوائد**، أبو عبدالله محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي

المعروف بابن القيم الجوزية، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: معروف مصطفى زريق وآخرون، دار النفائس للطباعة والنشر، ط١،، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ.

٧٠٢. **بدائع الفوائد**، أبو عبدالله محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٧٠٣. **بدائع الفوائد**، أبو عبدالله محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، تحقيق: خلدون واللحام، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٦هـ.

٧٠٤. **بدائع الفوائد**، شمس الدين ابن قيم الجوزية، رتبه وعلق عليه وخرج أحاديثه: علي بن حسن بن عبدالحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٧٠٥. **البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير**، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، المحقق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، السعودية، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٧٠٦. **البدع والنهي عنها**، ابن وضاح، ت: عمرو سليم، مكتبة ابن تيمية، ط١، القاهرة، مصر، مكتبة العلم، جدة السعودية، ١٤١٦هـ.

٧٠٧. **بدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب**، محمد بن أحمد إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي،ط١، القاهرة، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٧٠٨. **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة**، الشيخ عبد الفتاح القاضي، الإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية، بدون إشارة للطبعة والتاريخ.

٧٠٩. **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة**، الشيخ عبد الفتاح القاضي، دار الكتاب العربي، ١٤٢٦هـ.

٧١٠. **البديع في نقد الشعر**، أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، الإدارة العامة للثقافة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة.

٧١١.بذل المجهود في إفحام اليهود، السموأل بن يحيى بن عباس المغربي، تحقيق: د محمد عبد الله الشرقاوي: دار الجيل، ط٣، بيروت، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م.

٧١٢.بر الوالدين في القرآن الكريم، د. منظور بن محمد رمضان، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١٣٦.

٧١٣.البر والصلة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عادل عبد الموجود، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣م.

٧١٤.برد الأكباد عن فقد الأولاد، ابن ناصر الدمشقي، دار النصر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٨م.

٧١٥.برنامج لمسات بيانية، د. فاضل السامرائي، الحلقة ٢٢٧، الشبكة المعلوماتية، الإنترنت.

٧١٦.البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٠هـ،١٩٩٠م.

٧١٧.البرهان في توجيه متشابه القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني،تحقيق: أحمد عز الدين خلف الله، دار الوفاء، ط٢، المنصورة، مصر، ١٩٩٨م .

٧١٨.البرهان في توجيه متشابه القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام،ط٢، القاهرة، ١٣٩٦ هـ.

٧١٩.البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ت: د. يوسف المرعشلي وآخرون، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م.

٧٢٠.البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ ، ١٩٥٧م.

٧٢١.البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

٧٢٢.البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.

٧٢٣.بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة

أحمدية، محمد بن محمد بن مصطفى بن عثمان، أبو سعيد الخادمي الحنفي، مطبعة الحلبي، مصر، ١٣٤٨هـ.

٧٢٤. بسط القول والإسهاب في بيان حكم مودة المؤمن للكافر، أبو فيصل البدراني، المكتبة الشاملة.

٧٢٥. البسيط، علي بن أحمد، تحقيق، د.محمد المحيميد، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٤٣٠هـ.

٧٢٦. بصائر الحق في سورة الأنعام، الشيخ عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، ١٩٩٠م.

٧٢٧. بصائر المسلم المعاصر، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، ط٢، دمشق، ١٩٨٨م.

٧٢٨. بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦م.

٧٢٩. بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط٣، القاهرة، ١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م.

٧٣٠. بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، تحقيق: محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٧٣١. بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، المحقق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.

٧٣٢. بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، وعبدالعليم الطحاوي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

٧٣٣. البصائر والذخائر، علي بن محمد بن العباس، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٧٣٤. البصائر والذخائر، علي بن محمد بن العباس، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، ط٤، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٧٣٥.البغض يمرضك ويؤذيك قبل أن يؤذي غيرك، وليد فتيحي، مقال في صحيفة الوطن السعودية.

٧٣٦.بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١٧، ١٤٢٦هـ،٢٠٠٥م.

٧٣٧.بغية الطالبين من إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، الشيخ أحمد محمد عسّاف، دار إحياء العلوم، ط٤،بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م.

٧٣٨.بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بدون تاريخ.

٧٣٩.بلاغة الحال في النظم القرآني، د. حمود عويض العُطْوي، النادي الأدبي بمنطقة تبوك، السعودية، ١٤٢٧هـ.

٧٤٠.البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم،ط١، دمشق، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦ م.

٧٤١.البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، دار قباء الحديثة، القاهرة، ٢٠١٢م.

٧٤٢.البلد الحرام فضائل وأحكام، إعداد كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى.

٧٤٣.بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير، أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي المالكي، دار المعارف.

٧٤٤.البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، كمال الدين الأنباري، تحقيق د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط٢، القاهرة، ١٤١٧هـ.١٩٩٦م.

٧٤٥.بلوغ الأرب في أحوال العرب، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار السلام، بغداد، ١٣١٤هـ.

٧٤٦.بلوغ المرام، الحافظ ابن حجر العسقلاني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

٧٤٧. البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم،دراسة موضوعية، ميساء كمال قلجة، إشراف: زهدي محمد أبو نعمة، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٩م.

٧٤٨.البناء الكوني عبارة قرآنية يرددها علماء الغرب، عبد الدائم الكحيل، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، على الإنترنت.

٧٤٩.بناء آيات التحدي بين التحليل والدلالة على وجه الإعجاز القرآني، أ. د. عبد السلام حمدان اللوح، الندوة العالمية (الخطاب القرآني: البنية والفهم والاستنباط)، كلية الآداب، سايس فاس، المغرب، ١٤٣٤هـ. ٢٠١٣م.

٧٥٠.بنو إسرائيل التاريخ منذ عصر إبراهيم وحتى عصر موسى عليهما السلام، محمد بيومي مهران، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩٩م.

٧٥١.بنو إسرائيل في القرآن والسنة، د. محمد سيد طنطاوي، دار الشروق، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٧٥٢.بنو إسرائيل ووعد الآخرة، الشيخ فوزي محمد أبو زيد، دار الإيمان والحياة، ط١، ١٤٣٢ هـ، ٢٠١١ م.

٧٥٣.بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب، علي بن عثمان المارديني، دار الصحابة، ط١، طنطا، ١٤٢٨هـ. ٢٠٠٨م.

٧٥٤.بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب، علي بن عثمان المارديني، ت: ضاحي عبد الباقي، دار ابن قتيبة، الكويت.

٧٥٥.بهجة المجالس، أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت.

٧٥٦.بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى العامري، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

٧٥٧.بهجة النفوس(شرح مختصر البخاري)، ابن أبي جمرة الأندلسي، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٩م.

٧٥٨.بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، أبو عبدالله عبد الرحمن بن ناصر بن حمد آل سعدي، تحقيق: هشام برغش، مدار الوطن،ط٣، ١٤٣٣هـ،٢٠١٢م.

٧٥٩.بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، أبو عبدالله عبد الرحمن بن ناصر بن حمد آل سعدي، تحقيق: عبد الكريم بن رسمي آل دريني، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م.

٧٦٠.بؤس المسلمين المتنامي في عالم الجنوب، نبيل صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م.

٧٦١.**بيان التوحيد الذي بعث الله به الرسل جميعا وبعث به خاتمهم محمدا عليه السلام**، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد إدارة الطبع والترجمة، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٧٦٢.**بيان الشرع**، محمد بن إبراهيم الكندي، وزارة التراث، سلطنة عمان، ١٩٨٨م.

٧٦٣.**بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب**، محمود بن عبد الرحمن (أبي القاسم) ابن أحمد بن محمد، أبو الثناء، شمس الدين الأصفهاني، تحقيق: محمد مظهر بقا، دار المدني،ط١، السعودية، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م.

٧٦٤.**بيان المعاني «مرتب حسب ترتيب النزول»**، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني، مطبعة الترقي،ط١، دمشق، ١٣٨٢هـ ، ١٩٦٥م.

٧٦٥.**بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١، ١٤٢٦هـ.

٧٦٦.**بيان حقيقة التوحيد الذي جاءت به الرسل ودحض الشبهات التي انبرت حوله**، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

٧٦٧.**البيان في عد آي القرآن**، عثمان بن سعيد بن عثمان، أبو عمرو الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث، ط١، الكويت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٧٦٨.**البيان في مداخل الشيطان**، عبدالحميد البلالي، ط٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ.١٩٨٦م.

٧٦٩.**البيان والتبيين**، أبو عثمان الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ .

٧٧٠.**البيان والتبيين**، أبو عثمان الجاحظ، حققه: فوزي العطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٩٦٨م.

٧٧١.**البيان والتحصيل**، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الجد، عناية: الشيخ عبد الله الأنصاري، دولة قطر، ١٤٠٤هـ.

٧٧٢.**البيان والتحصيل**، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الجد،

تحقيق: د محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٧٧٣. **البيت في التذكرة الحمدونية**، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون بهاء الدين البغدادي، دار صادر، ط١، بيروت، ١٤١٧هـ.

٧٧٤. **البيهقي وموقفه من الإلهيات**، أحمد بن عطية بن علي الغامدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط٢، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٧٧٥. **البيوت في القرآن الكريم**، سعدون جمعة حمادي الحلبوسي، مكتبة دار الزمان، ط١،المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

ت

٧٧٦. **تاج العروس**، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: حسين نصار، مطبعة حكومة الكويت،١٣٨٥هـ،١٩٦٥م.

٧٧٧. **تاج العروس**، محمد مرتضى الزبيدي، دار الهداية،ط١، بيروت، ١٤٢١هـ.

٧٧٨. **تاج العروس**، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٨٩م،١٩٧٠م.

٧٧٩. **تاج العروس**، محمد مرتضى الزبيدي، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٧٨٠. **تاج العروس**، محمد مرتضى الزبيدي، المطبعة الخيرية بجمالة مصر، ١٣٠٦هـ.

٧٨١. **تاج العروس**، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: د. عبد المنعم خليل، وكريم سيد، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٧٨٢. **تاج العروس**، محمد مرتضى الزبيدي، دار التراث العربي، وزارة الإعلام الكويتية، ١٣٩٥هـ. ١٩٧٥م.

٧٨٣. **تاج العروس**، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٧٨٤. **تاج العروس**، محمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، ط١، بيروت، ١٣٠٦هـ.

٧٨٥. **تاج اللغة وصحاح العربية**، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: شهاب الدين أبي عمرو، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م.

٧٨٦. **تاج اللغة وصحاح العربية**، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، ط١،

بيروت، ١٩٥٦م.

٧٨٧.**تاج اللغة وصحاح العربية**، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين،ط٤، بيروت، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧م.

٧٨٨.**تاج اللغة وصحاح العربية**، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار الفكر ط١، بيروت، لبنان ١٤١٨هـ.

٧٨٩.**التاج والإكليل لمختصر خليل**، محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، أبو عبد الله المواق، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٧٩٠.**تاريخ ابن الوردي**، زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٧٩١.**تاريخ آداب العرب**، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة الإيمان، ط١، ١٩٩٧م.

٧٩٢.**تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده**، محمد رشيد رضا، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٧٩٣.**تاريخ الإسرائيليين**، شاهين مكاريوس، مطبعة المقتطف، القاهرة، ١٩٠٤م.

٧٩٤.**تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط٧،مصر، ١٩٦٤م.

٧٩٥.**تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: عمر التدمري، دار الكتاب العربي،ط٢، بيروت، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣م.

٧٩٦.**تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ه، ١٩٨٧م.

٧٩٧.**تاريخ الأمم والرسل والملوك**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٧هـ. ١٩٨٧م.

٧٩٨.**تاريخ الأمم والملوك**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، ط١،بيروت، ١٩٦٧م.

٧٩٩.**تاريخ الأمم والملوك**،أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار التراث،ط٢، بيروت، ١٣٨٧هـ.

٨٠٠.**تاريخ الأمم والملوك**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ١٤١١هـ.

٨٠١.تاريخ التشريع الإسلامي، محمد الخضري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٢٩هـ.

٨٠٢.تاريخ التشريع الإسلامي، مناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف،ط٢، الرياض، ١٤١٧هـ.

٨٠٣.تاريخ التشريع الإسلامي، مناع بن خليل القطان، مكتبة وهبة، ط٥، ١٤٢٢هـ،٢٠٠١م.

٨٠٤.تاريخ الخلفاء، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، ت :محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر.

٨٠٥.تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار بَكْري، دار صادر، بيروت.

٨٠٦.تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه، محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي، جدة، ١٣٦٥هـ.

٨٠٧.التاريخ الكبير، أبو عبدالله البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر.

٨٠٨.تاريخ المدينة، زيد بن عبيدة بن ريطة النميري البصري المعروف بعمر بن شبة، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد، جدة، ١٣٩٩هـ.

٨٠٩.تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

٨١٠.التاريخ المعاصر (الأقليات الإسلامية)، محمود شاكر، بيروت، ط٢، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

٨١١.تاريخ الملل والنحل، أمين الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٥م.

٨١٢.تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، دار صادر، بيروت.

٨١٣.تاريخ اليهود في بلاد العرب، د. إسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٣٤٥هـ، ١٩٣٧م.

٨١٤.التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية وطأة ثلاثة آلاف سنة، إسرائيل شاحاك، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، ط١، بيروت،١٩٩٥م.

٨١٥.تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ.

٨١٦.تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، محمد عزة دروزة، مطابع شركة الإعلانات الشرقية.

٨١٧.**تاريخ جرجان**، حمزة بن يوسف أبو القاسم الجرجاني، تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان، عالم الكتب، ط٣، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٨١٨.**تاريخ دمشق**، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة، دار الفكر، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ،١٩٩٦م.

٨١٩.**تاريخ دمشق**، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، ط١، بيروت، لبنان،١٤١٩هـ ،١٩٩٨م.

٨٢٠.**تاريخ دمشق**، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥م.

٨٢١.**تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة**، عبد العزيز بن صالح، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٨٢٢.**تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهله**، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، بيروت، لبنان،١٤١٩هـ.

٨٢٣.**تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف**، أبو البقاء محمد بن أحمد بن محمد بن الضياء المكي الحنفي، تحقيق: علاء الأزهري، وأيمن الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

٨٢٤.**تاريخ مكة**، أبو الوليد الأزرقي، تحقيق: هشام عطا وآخرين، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ١٩٩٥م.

٨٢٥.**تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، الشيخ عبد المجيد الزنداني وآخرين، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٨٢٦.**تأملات إسلامية في قضايا الإنسان والمجتمع**، د. رشدي فكار، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٠هـ. ١٩٨٠م.

٨٢٧.**تأملات في اسم الله تعالى الحكيم**، الشيخ منصور محمد الصقعوب، خطبة بموقع ملتقى الخطباء، خطبة رقم(٤٤١٩).

٨٢٨.**تأملات في سلوك الإنسان**، د. ألكسيس كاريل، ترجمة محمد القصاص، مكتبة مصر، القاهرة.

٨٢٩.**تأملات قرآنية**، أبو هاشم صالح بن عوّاد بن صالح المغامسي، دروس

صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٨٣٠.**التأمين الاجتماعي في ضوء الشريعة الإسلامية**، د. عبد اللطيف محمود آل محمود، دار النفائس،ط١، عمّان، الأردن، ١٤١٤هـ،١٩٩٤م.

٨٣١.**التأمين بين الحل والتحريم**، د. عيسى عبده، دار الاعتصام، ط١،القاهرة، ١٣٩٨هـ،١٩٧٨م.

٨٣٢.**التأمين وأحكامه**، د. سليمان بن إبراهيم بن ثنيان، دار العواصم المتحدة، ط١، قبرص، بيروت، ١٤١٤هـ،١٩٩٣م.

٨٣٣.**التأمين وبعض الشبهات**، د. جلال الصياد، ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الأول للاقتصاد الإسلامي، جامعة الملك عبدالعزيز، مكة المكرمة، السعودية، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م.

٨٣٤.**تأويل مختلف الحديث**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المكتب الاسلامي، مؤسسة الإشراق، ط٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٨٣٥.**تأويل مشكل القرآن**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، دار التراث، ط٢، القاهرة، ١٩٧٣م.

٨٣٦.**تأويل مشكل القرآن**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، المكتبة العلمية، ط٣، بيروت، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١م.

٨٣٧.**تأويل مشكل القرآن**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٨٣٨.**تأويلات أهل السنة**، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، تحقيق: فاطمة يوسف، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤م.

٨٣٩.**تأويلات أهل السنة**، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

٨٤٠.**التبر المسبوك في نصيحة الملوك**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ضبطه وصححه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ،١٩٨٨م.

٨٤١.**تبسيط العقائد الإسلامية**، الشيخ حسن أيوب، دار الاعتصام، ط٣، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨ م.

٨٤٢.**تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري، مكتبة الكليات الأزهرية،

ط١،القاهرة، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٨٤٣.**التبصرة في القراءات السبع**، مكي بن أبي طالب حوش بن محمد بن مختار القيسى القيرواني القرطبي أبو محمد، المحقق: محمد غوث الندوي، الدار السلفي، ط٢، الهند، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٨٤٤.**التبصرة**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.

٨٤٥.**تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم**، علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، مصر،الإسكندرية، بدون تاريخ.

٨٤٦.**تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم**، عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، مكتبة الصحابة، ط١، الشارقة، الإمارات، مكتبة التابعين، مصر، القاهرة، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م.

٨٤٧.**التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين**، طاهر بن محمد الإسفراييني، عالم الكتب، ط١، بيروت،١٩٨٣م.

٨٤٨.**التبيان في آداب حملة القرآن**،أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع،ط٣، بيروت، لبنان، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

٨٤٩.**التبيان في إعراب القرآن**،أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

٨٥٠.**التبيان في إعراب القرآن**،أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٧٦م.

٨٥١.**التبيان في أقسام القرآن**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، دار الفكر، ط١،بيروت.

٨٥٢.**التبيان في أقسام القرآن**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٨٥٣.**التبيان في أقسام القرآن**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، لبنان، ٢٠٠٤م.

٨٥٤.**التبيان في أقسام القرآن**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م، ١٤٠٢هـ.

٨٥٥.**التبيان في أيمان القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيِّم الجوزية، تحقيق: عبد الله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد، ط١، مكة الـمُكرَّمة، ١٤٢٩هـ.

٨٥٦.**التبيان في تفسير القرآن**، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨٥٧.**التبيان في تفسير غريب القرآن**، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، تحقيق : فتحي أنور الدابلوي، دار الصحابة للتراث بطنطا، القاهرة، ١٩٩٢م.

٨٥٨.**التبيان في تفسير غريب القرآن**، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، تحقيق: د.ضاحي عبد الباقي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٤٢٣هـ.

٨٥٩.**التبيّن وأهميته في حياة النبي صلى الله عليه وسلم دراسة استنباطية**، أحمد بن حمود حامد البلوي، جامعة المدينة العالمية، كلية العلوم الإسلامية، قسم الدعوة وأصول الدين، ١٤٣٦هـ ، ٢٠١٤م.

٨٦٠.**تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق**، فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي، ط٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٨٦١.**تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق**، فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي مع حاشية شهاب الدين أحمد بن محمد الشِّلْبِيُّ، المطبعة الكبرى الأميرية،ط١، بولاق، القاهرة، ط١، ١٣١٣هـ.

٨٦٢.**تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق**، فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي، ومعه حاشية الشلبي عليه، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية،ط١،مصر، ١٣١٥هـ.

٨٦٣.**التثبت في القرآن الكريم**، محمد محمد أحمد حسين، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.

٨٦٤. **التثبت والتبين في المنهج الإسلامي**، أحمد العليمي، دار ابن حزم،ط١، بيروت، ١٤٢١هـ.

٨٦٥.**التجارة في القرآن الكريم، دراسة موضوعية عن الآيات التجارية**، عبد الغني عبد العزيز عمر، رسالة ماجستير.

٨٦٦.**تحبير التيسير في القراءات العشر**، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، المحقق: د. أحمد محمد مفلح القضاة، دار الفرقان،ط١، الأردن، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.

٨٦٧.التحبير شرح التحرير، أبو الحسن على بن سليمان المرداوي، تحقيق: د. أحمد محمد السراج، وعبدالرحمن الجبرين، ود. عوض محمد القرني، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٨٦٨.التحجيل في تخريج ما لم يخرج من الأحاديث والآثار في إرواء الغليل، عبد العزيز بن مرزوق الطّريفي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م.

٨٦٩.التحديد في الإتقان والتجويد، عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني، ت: د. غانم قدوري الحمد، مكتبة دار الأنبار،ط١، بغداد، ١٤٠٧ هـ.

٨٧٠.تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين، قدم له: الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، تحقيق ودراسة وتعليق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الثقافة بتفويض من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر، ط٣، قطر، الدوحة، ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.

٨٧١.تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر العدواني المصري المعروف بابن أبى الأصبع، موقع المكتبة الشاملة.

٨٧٢.تحرير ألفاظ التنبيه، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد الغني الدقر، دار القلم ط١، دمشق، ١٤٠٨هـ.

٨٧٣.تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (التحرير والتنوير)، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ١٩٩٧م.

٨٧٤.تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد،(التحرير والتنوير)، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، دار سحنون للنشر والتوزيع،ط٣، دار الوفاء، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

٨٧٥.تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد(التحرير والتنوير)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ هـ.

٨٧٦.تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد(التحرير والتنوير)، محمد

الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٨٧٧.**تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد(التحرير والتنوير)**، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، ط١،بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ،٢٠٠٠م.

٨٧٨.**تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد(التحرير والتنوير)**، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٨٧٩.**تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد(التحرير والتنوير)**، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

٨٨٠.**تحريم آلات الطرب**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة الريان،ط٣، بيروت، لبنان، دار الصديق، الجبيل، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٦هـ،٢٠٠٥م.

٨٨١.**تحريم الإسلام للميسر من وجوه إعجاز التشريع الاقتصادي**، د. أمين عبد العزيز منتصر، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، جامعه أم القرى، ١٤١٤هـ. ١٩٩٣م.

٨٨٢.**تحريم القمار في الشريعة الإسلامية وأثره في علاج الأزمة الاقتصادية المعاصرة**، د. أحمد بن محمد بن عايد الرفاعي الجهني، مجلة البحوث والدراسات الشرعي، مصر، مج ٣، ع ١٧، ١٤٣٥هـ. ٢٠١٣م.

٨٨٣.**تحصيل السعادة**، للفارابي، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور معقبر آل ياسين، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٨٨٤.**تحصيل نظائر القرآن**، الحكيم الترمذي، تحقيق: حسني نصر زيدان، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٧٥م.

٨٨٥.**تحصيل نظائر القرآن**، الحكيم الترمذي، تحقيق: حسني نصر زيدان، مطبعة السعادة، ط١، القاهرة، ١٣٨٨هـ. ١٩٦٩م.

٨٨٦.**تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة**، القاضي ناصر الدين البيضاوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٤٣٣هـ،٢٠١٢م.

٨٨٧.**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ.

٨٨٨.**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**،

أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، ضبط ومراجعة : عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة .

٨٨٩. **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الفكر.

٨٩٠. **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الحديث ط١، القاهرة، ١٤٢١هـ.

٨٩١. **تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: سمير المجذوب، المكتب الإسلامي،ط١، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٨٩٢. **تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل**، أبو زرعة العراقي، تحقيق: رفعت فوزي، ونافذ حسين حماد، وعلي عبد الباسط مزيد، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤٣٣هـ ١٩٠٥م.

٨٩٣. **تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار القلم،ط١، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

٨٩٤. **تحفة الذاكرين**، شرحه وخرج أحاديثه: سعيد محمود عقيل، دار الجيل،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٨٩٥. **تحفة الراكع والساجد بأحكام المساجد**، أبو بكر زيد الجُراعي الصالحي الحنبلي، تحقيق: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت،ط١، ١٤٢٥هـ٢٠٠٤م.

٨٩٦. **التحفة العراقية في الأعمال القلبية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المطبعة السلفية، ط٢، القاهرة، ١٣٩٩هـ.

٨٩٧. **تحفة الفقهاء**، محمد بن أحمد بن أبي أحمد، أبو بكر علاء الدين السمرقندي، دار الكتب العلمية، ط٢،بيروت، لبنان، ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م.

٨٩٨. **تحفة المحتاج شرح المنهاج**، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي مع حواشيها، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

٨٩٩. **تحفة المحتاج في شرح المنهاج**، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي مع حاشية الإمام عبد الحميد

الشرواني، وحاشية الإمام أحمد بن قاسم العبادي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٧هـ، ١٩٨٣م.

٩٠٠. **التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية**، فالح بن مهدي بن سعد بن مبارك آل مهدي، الدوسري، مطابع الجامعة الإسلامية،ط٣، المدينة المنورة، ١٤١٣هـ.

٩٠١. **تحفة المودود بأحكام المولود**، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، تحقيق: عثمان ضميرية، مجمع الفقه الإسلامي، ١٤٣١هـ.

٩٠٢. **تحفة المودود بأحكام المولود**، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٩٠٣. تحفة **المودود بأحكام المولود**، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، ط١، ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م.

٩٠٤. **تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد**، عبد الهادي هادي بن محمد بن عبد الهادي هادي بن بكري بن محمد بن مهدي بن موسى بن جعثم بن عجيل (العجيلي)، تحقيق: حسن بن علي العواجي، دار أضواء السلف، الرياض، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

٩٠٥. **تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات**، فوز بنت عبد اللطيف بن كامل الكردي، دار طيبة، ط١، الرياض، ١٤٢١هـ.

٩٠٦. **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**، حسن المصطفوي، دار الكتب العلمية،ط٣، بيروت، ١٤٣٠هـ.

٩٠٧. **التحقيق في كلمات القرآن**، حسن المصطفوي، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي بطهران، بيروت ١٣٩٣هـ.

٩٠٨. **التحليل الاقتصادي الإسلامي لصور القمار والميسر المعاصرة**، د. حسين شحاتة، بحث منشور بالشبكة الدولية للمعلومات.

٩٠٩. **تحولات الأفعال في السياق القرآني وأثرها البلاغي**، د. عبد الله علي الهتاري، جامعة ذمار اليمن، بدون تاريخ، ولا رقم طبعة.

٩١٠. **تحولات النظم في سورتي الانفطار والانشقاق برواية حفص عن عاصم**، د . مازن موفق صديق الخيرو، ومها

محسن هزاع، مجلة جامعة كركوك، المجلد ٤، العدد ١، السنة ٢٠٠٩ م.

٩١١. **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي وابن السبكي والزبيدي**، محمود بن محمد الحداد أبو عبدالله، دار العاصمة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٩١٢. **تخريج أحاديث الكشاف**، الزيلعي، ت: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، ط١، الرياض، ١٤١٤هـ

٩١٣. **تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام**: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٤م.

٩١٤. **تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب**، علوي بن عبد القادر السَّقَّاف، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥ م.

٩١٥. **تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني**، عبد الله بن يحيى بن أبي بكر الغساني، تحقيق: أشرف عبد المقصود عبد الرحيم، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١١هـ.

٩١٦. **تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري**، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، ط١، الرياض، ١٤١٤هـ.

٩١٧. **تخريج قراءات فتح القدير**، إيهاب فكري، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ١٤٣٠هـ،٢٠٠٩م.

٩١٨. **تخريج مشكاة المصابيح (هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة)**، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: علي بن حسن عبدالحميد الحلبي، دار ابن القيم، دار ابن عفان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٩١٩. **التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار**، الحافظ أبي الفرج بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، الرياض.

٩٢٠. **التدابير الواقية من التشبه بالكفار**، عثمان أحمد دوكلي، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ١٤١٧هـ.

٩٢١. **التدابير الواقية من الزنا في الفقه الإسلامي**، فضل إلهي، مكتبة دار المعارف، الرياض.

٩٢٢. **التداوي بالصوم**، شيلتون، ترجمة ونشر دار الرشيد، ط٢، دمشق، بيروت.

٩٢٣. **تدبر القرآن**، سليمان بن عمر السندي، مكتبة الملك فهد، ط٢، الرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٩٢٤. **التدرج في التشريع والتطبيق في**

الشريعة الإسلامية، محمد مصطفى الزحيلي، كلية الشريعة جامعة الكويت إدارة البحوث والدراسات، ٢٠٠٠م.

٩٢٥. **التدرج في دعوة النبي**، إبراهيم بن عبد الله المطلق، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤١٧هـ.

٩٢٦. **التدمرية**، تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي،المحقق: د. محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان،ط٦، الرياض، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.

٩٢٧. **تدوين الدستور الإسلامي**، أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٩٢٨. **التدوين في أخبار قزوين**، عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، تحقيق: عزيز الله العطاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

٩٢٩. **التذكار في أفضل الأذكار من القرآن الكريم**، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٦ هـ.

٩٣٠. **تذكرة الأريب في تفسير الغريب**، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: طارق السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

٩٣١. **تذكرة الأريب في تفسير الغريب**، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢٥ هـ.

٩٣٢. **تذكرة الحفاظ**، الذهبي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٩٣٣. **التذكرة الحمدونية**، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي، دار صادر،ط١، بيروت، ١٤١٧هـ.

٩٣٤. **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، بدر الدين أبو عبد الله ابن جماعة الكناني، تحقيق: محمد بن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية،ط٣، ٢٠١٣م.

٩٣٥. **تذكرة الصوام بشيء من فضائل الصيام والقيام**، عبد بن صالح القصير، ط١، دار الفكر.

٩٣٦.تذكرة المؤنسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، غراس للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

٩٣٧.تذكرة أولي الغير بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الله بن صالح القصير، دار العاصمة، ط١، المملكة العربية السعودية،١٤١١هـ.

٩٣٨.التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي، تحقيق: الصادق بن محمد بن إبراهيم، دار المنهاج، ط١،، الرياض، السعودية، ٢٠٠٥م.

٩٣٩.التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي، خرج أحاديثه وعلق عليه: الداني بن مثير آل زهوي، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا،١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٩٤٠.تذكير المسلمين بحقوق الفقراء والأرامل والمساكين، الشيخ محمد عبد العزيز بن عبد الرحمن الشثري مقال بتاريخ: ٦/ ٥/ ٢٠١٠م.

٩٤١.التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة، محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير بن محمد الإدريسي المعروف بعبد الحي الكتاني، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، ط٢، بيروت.

٩٤٢.تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير، أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ الحَرَالِّيُّ، مستخرجة من: تفسير البقاعي «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، تصدير: محمد بن شريفة، عضو أكاديمية المملكة المغربية، تقديم وتحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ط١، الرباط، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

٩٤٣.تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري بن محمد زين الدين، بحث لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من جامعة المدينة العالمية،كلية العلوم الإسلامية قسم التفسير وعلوم القرآن، دولة ماليزيا، ٢٠١١م.

٩٤٤.التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، محمد منير مرسي، عالم الكتب، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

٩٤٥.التربية الإسلامية أصولها ومنهجها

ومعلمها، عاطف السيد، بلا معلومات نشر.

٩٤٦.التربية الإسلامية وأثرها في الفرد والمجتمع، محمد خلف عساف، رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم الثقافة الإسلامية ومقارنة الأديان بجامعة السند، باكستان، ١٩٩٧م.

٩٤٧.التربية الإسلامية ومدرسة الشهيد حسن البنا، الدكتور يوسف القرضاوي، الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية،ط٢،إيران، ١٩٨٣م.

٩٤٨.تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علون، دار السلام، ط١، مصر، ١٤١٢هـ،١٩٩٢م.

٩٤٩.تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع،ط٣، بيروت، ١٩٨١م.

٩٥٠.تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، دار السلام للطباعة والنشر،ط٣، مصر، ٢٠٠٨م.

٩٥١.تربية الأولاد في الإسلام، عطية صقر، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٩٥٢.تربية المسلم في عالم معاصر، د. يوسف عبدالمعطي، الصندوق الوقفي للثقافة والفكر، ط١،الكويت،١٩٩٨م.

٩٥٣.التربية على العمل التطوعي وعلاقته بالحاجات الإنسانية، دراسة تأصيلية، د. عبداللطيف بن عبدالعزيز الرباح، بحث منشور بمجلة دراسات تربوية اجتماعية، كلية التربية، جامعة حلوان، مصر، ٢٠٠٦م.

٩٥٤.التربية في عصور ما قبل الإسلام وبعده، عباس محجوب، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

٩٥٥.التربية من وجهة نظر الفلسفات الفكرية والتربية الإسلامية، د. المعتصم بالله سليمان الجوارنة، بحث منشور في موقع(تربيتنا) بتاريخ ١٤/١/١٤٣١هـ.

٩٥٦.التربية وأساليبها في التشريع الإسلامي، سناء هدلة، مجلة جامعة النجاح للأبحاث العلوم الإنسانية، مجلد ٢٥، ٨، ٢٠١١م.

٩٥٧.ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، ت: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.

٩٥٨.ترتيب القاموس المحيط، الطاهر أحمد الزاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٣٧٥هـ.

٩٥٩.ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، مجموعة محقِّقين، مطبعة فضالة، ط١، المغرب.

٩٦٠.ترجمة معاني القرآن لغير الناطقين واجب على المسلمين، محمود عشب، جريدة الأهرام، بتاريخ ٢٣ رمضان١٤٢١هـ، ١٩ ديسمبر٢٠٠٠م العدد ٤١٦٥١.

٩٦١.الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٧هـ.

٩٦٢.الترغيب والترهيب ودورهما في استقامة الإنسان، دراسة موضوعية، أحمد مصباح رزق، رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٩م.

٩٦٣.الترغيب والترهيب، إسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق: أيمن بن صالح بن شعبان، دار الحديث،ط١، القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣ م.

٩٦٤.الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي، نادر فرج زيادة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٢٠هـ.

٩٦٥.الترف وأثره في الدعاة والصالحين، محمد بن موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، المملكة العربية السعودية، جدة.

٩٦٦.الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم، ناصر بن عبد الله العمار، دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، السنة العاشرة،العدد١١٨، ١٤٢٠هـ.

٩٦٧.الترف وخطره على الدعوة والدعاة، فيصل البعداني، مجلة البيان، عدد ٨٥،٨٦.

٩٦٨.التزكية على منهج النبوة، معاذ سعيد حوى، دار النور المبين للدراسات والنشر، ط١، عمّان، الأردن، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٩٦٩.التسامح في القرآن الكريم، حسن عبدالجليل العبادلة، مجلة جهات الإسلام، المجلد:٥ العدد:٢، يونيو ٢٠١٢م، المملكة الأردنية.

٩٧٠.التسبيح القرآني، د. إبراهيم الحقيل، موقع شبكة الألوكة الإلكتروني.

٩٧١.التسبيح في الكتاب والسنة والرد على المفاهيم الخاطئة فيه، الدكتور محمد إسحاق كندو، مكتبة المنهاج،ط١، الرياض، ١٤٢٦هـ.

٩٧٢. تسلية أهل المصائب، محمد بن محمد بن محمد، شمس الدين المنبجي، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م

٩٧٣. تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، دار العصيمي للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٣٢هـ.

٩٧٤. تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول، خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط٢، ٢٠٠٠م.

٩٧٥. التسهيل لتأويل التنزيل، سورة النساء، أبو عبدالله مصطفى العدوي، مكتبة مكة، مصر، طنطا، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٩٧٦. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، بيروت، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م.

٩٧٧. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٥م.

٩٧٨. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، ت: محمد اليونسي وإبراهيم عطوة عوض، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٩٧٩. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي، ط٤، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٩٨٠. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت: ١٤٢٦هـ. ٢٠٠٥م.

٩٨١. التشريع الإسلامي صالح للتطبيق في كل زمان ومكان، محمد فهمي علي أبو الصفا، الجامعة الإسلامية.

٩٨٢. التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، دار التراث العربي، القاهرة، ١٩٧٧م.

٩٨٣. التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، دار الكتاب العربي، بيروت.

٩٨٤. تشنيف المسامع بجمع الجوامع، بدر الدين محمد بن جمال الزركشي، تحقيق: سيد عبد العزيز، عبد الله ربيع، مؤسسة قرطبة، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م.

٩٨٥. التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت

أسماؤه وتصرفت معانيه، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، قدمت له وحققته: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩ م.

٩٨٦. **تصحيح الدعاء**، بكر أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع،ط١، الرياض، ١٤١٩هـ.

٩٨٧. **تصنيف الناس بين الظن واليقين**، بكر أبو زيد، دار العاصمة، ط١، الرياض.

٩٨٨. **التصور الفني في القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، ط ١٧،

٩٨٩. **تصويبات في فهم بعض الآيات**، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم،ط١، دمشق، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧م.

٩٩٠. **التصوير البياني في آيات الأمن والخوف**، زينب عبد اللطيف الكردي، دار غراس للنشر، الكويت.

٩٩١. **التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية**، علي علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر.

٩٩٢. **التصوير القرآني للمجتمع**، صلاح فوال، دار الفكر العربي، القاهرة.

٩٩٣. **التضمين النحوي في القرآن الكريم**، محمد نديم فاضل، دار الزمان، ط١، المدينة المنورة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٩٩٤. **تطريز رياض الصالحين**، فيصل بن عبد العزيز بن فيصل بن حمد المبارك الحريملي النجدي، تحقيق: د. عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.

٩٩٥. **تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليه شرح الصدور في تحريم رفع القبور**، محمد بن إسماعيل الصنعاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر، مطبعة سفير،ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ.

٩٩٦. **تطهير الكسب الحرام في الأسهم والصناديق الاستثمارية**، الدكتور عطية فياض، بحث مقدم للندوة الفقهية الأولى في المعاملات المالية، موقع الفقه الإسلامي.

٩٩٧. **تطور البحث الدلالي (دراسة تطبيقية في القرآن الكريم)**، محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي،ط١، بيروت، ١٩٩٩م.

٩٩٨. **التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن**، عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥م.

٩٩٩. **التطوع**، الدكتور يوسف بن أحمد العثيمين، مقال منشور على موقع مركز أسبار للبحوث والدراسات

والإعلام.

١٠٠٠. **التعاريف**، محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر المعاصر، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ.

١٠٠١. **التعايش السلمي في إطار التعددية المذهبية داخل المجتمع المسلم وتطبيقاته التربوية في الأسرة والمدرسة**، مزنة بنت بريك بن مبارك المحلبدي، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٣٣هـ.

١٠٠٢. **تعبير الرؤيا**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق ابراهيم صالح، دار البشائر،ط١، دمشق، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٠٠٣. **التعبير القرآني**، فاضل صالح للسامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، ١٩٨٦م،١٩٨٧م.

١٠٠٤. **التعبير القرآني**، فاضل صالح للسامرائي، دار عمار للنشر، ط٤، الأردن، ١٤٢٧هـ،٢٠٠٦م.

١٠٠٥. **التعرف لمذهب أهل التصوف**، للكلاباذي الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٠٦. **التعريفات الفقهية**، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، دار الكتب العلمية،ط١،بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٠٠٧. **التعريفات الندية على المنظومة البيقونية**، جمع: حمد بن صالح القمرا النابت، تقريظ الشيخ حافظ عبد الرحمن، دار طيبة للنشر والتوزيع.

١٠٠٨. **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ،١٩٨٣م.

١٠٠٩. **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

١٠١٠. **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، دار الريان للتراث، مصر، ١٩٧٨م.

١٠١١. **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية،ط٣، بيروت، ١٤٠٨هـ.١٩٨٨م.

١٠١٢. **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٨م.

١٠١٣. **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م.

١٠١٤. **التعريفات**، علي بن محمد بن علي

الزين الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

١٠١٥. **التعريفات**، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ.١٩٨٥م.

١٠١٦. **التعريفات**، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، وكذلك تحقيق عبدالمنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة.

١٠١٧. **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة.

١٠١٨. **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق، إبراهيم الإبياري، مصطفى الحلبي، ١٣٧٥هـ،١٩٥٦م.

١٠١٩. **تعظيم قدر الصلاة**، أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، تحقيق: د. عبدالرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ١٤٠٦هـ.

١٠٢٠. **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان**، محمد ناصر الدين الألبان، دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية،٢٠٠٣ م.

١٠٢١. **التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية**، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار العاصمة للنشر والتوزيع.

١٠٢٢. **التعليقات على متن لمعة الاعتقاد**، عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، اعتنى به: أبو أنس علي بن حسين أبو لوز، دار الصميعي للنشر والتوزيع،ط١، الرياض، السعودية، ١٤١٦هـ،١٩٩٥م.

١٠٢٣. **تعليم التفكير**، فتحي عبد الرحمن جروان، دار الكتاب الجامعي، الإمارات، ١٩٩٩م.

١٠٢٤. **تعويض الضرر في المسئولية التقصيرية**، ابن سعدون العامري، منشورات مركز البحوث القانونية، بغداد، ١٩٨١م.

١٠٢٥. **التعويض بين المسئولية العقدية والتقصيرية**، محمد أحمد عابدين، منشأة المعارف الاسكندرية، ١٩٩٥م.

١٠٢٦. **التعويض عن الضرر المعنوي**، د. مقدم سعيد، دار الحداثة للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٧م.

١٠٢٧. **التغذية النبوية الغذاء بين الداء والدواء**، عبد الباسط السيد، الدار العلمية للنشر والتوزيع، ط٣، الجيزة، مصر، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.

١٠٢٨. تغليق التعليق على صحيح البخاري، أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، المكتب الإسلامي، دار عمار،ط١،بيروت، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

١٠٢٩. التغير الاجتماعي، أحمد زايد، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠١م.

١٠٣٠. تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله الشيرازي البيضاوي، تحقيق: عبد القادر حسونة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

١٠٣١. تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم)، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، بن أبي حاتم، تحقيق : أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.

١٠٣٢. تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم)، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، بن أبي حاتم، تحقيق :أحمد عبد الله الزهراني، مكتبة الدار، ط١، المدينة المنورة .

١٠٣٣. تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم)، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، بن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز،ط٣، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هـ.

١٠٣٤. تفسير ابن أبي زمنين (تفسير القرآن العزيز)، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة،ط١، مصر، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١٠٣٥. تفسير ابن أبي زمنين(تفسير القرآن العزيز)، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، تحقيق: حسين عكاشة، محمد مصطفى الكنز، دار الفاروق الحديثة، ط١، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١٠٣٦. تفسير ابن المنذر، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري قدم له الأستاذ الدكتور : عبد الله بن عبد المحسن التركي، حققه وعلق عليه الدكتور : سعد بن محمد السعد، دار المآثر،ط١، المدينة النبوية، ١٤٢٣ هـ.

١٠٣٧. تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي،جمع وترتيب، د. توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح

رمضان، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٣٨.تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، تحقيق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ،١٩٩٥م.

١٠٣٩.تفسير ابن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، بيروت، ١٤١٦ هـ.

١٠٤٠.تفسير ابن عرفة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

١٠٤١.تفسير ابن عرفة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي، تحقيق: د. حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية،ط١، تونس، ١٩٨٦م.

١٠٤٢.تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢٢هـ.

١٠٤٣.تفسير ابن فورك، أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، دراسة وتحقيق: علال عبد القادر بندويش (ماجستير)، جامعة أم القرى،ط١، السعودية، ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩م.

١٠٤٤.تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع،ط٢، مصر، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٠٤٥.تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٢هـ.

١٠٤٦.تفسير ابن كثير(تفسير القرآن العظيم)، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٢هـ. ٢٠٠٢م.

١٠٤٧.تفسير ابن كثير(تفسير القرآن العظيم)، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار الحديث،ط١، القاهرة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

١٠٤٨.تفسير ابن كثير(تفسير القرآن العظيم)، أبو الفداء إسماعيل بن كثير،

مكتبة الرياض، ١٤٠٠ هـ.

١٠٤٩. **تفسير ابن مسعود**، جمع وتحقيق: محمد عيسوي، طباعة مؤسسة الملك فيصل الخيرية، بالرياض، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

١٠٥٠. **تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)**، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي، ط٤، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م.

١٠٥١. **تفسير أبي السعود(إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)**، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى مكتبة الرياض الحديثة، بدون تاريخ وطبعة، بيروت.

١٠٥٢. **تفسير أبي حيان (البحر المحيط في التفسير)**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، دار الفكر،ط٢، ١٣٩٨هـ.

١٠٥٣. **تفسير أبي حيان (البحر المحيط في التفسير)**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر،ط١، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

١٠٥٤. **تفسير أبي حيان (البحر المحيط في التفسير)**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، دار الفكر، ط٣، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٠٥٥. **تفسير أبي حيان (البحر المحيط في التفسير)**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ود. زكريا عبد المجيد النوقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م.

١٠٥٦. **تفسير أبي حيان (البحر المحيط في التفسير)**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، الكتب العلمية، بيروت،١٤١٣هـ. ١٩٩٣م.

١٠٥٧. **تفسير أسماء الله الحسنى**، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، تحقيق: عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة: العدد ١١٢، السنة ٣٣، ١٤٢١هـ.

١٠٥٨. **تفسير أسماء الله الحسنى**، إبراهيم بن محمد بن سهل الزجاج، تحقيق : أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق، ١٩٧٤م.

١٠٥٩.تفسير الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٥هـ.

١٠٦٠.تفسير الإيجي (جامع البيان في تفسير القرآن)، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإِيجي الشافعيّ، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م.

١٠٦١.التفسير البسيط، أبو الحَسن عَلي بن أحمَد بن محمَّد الواحدي، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠ هـ.

١٠٦٢.تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٠٦٣.تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق : خالد عبد الرحمن العك، دار طيبة للنشر والتوزيع، دار المعرفة، بيروت..

١٠٦٤.تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق: مجموعة من الباحثين منهم: سليمان مسلم الحرش، دار طيبة بالرياض، ط١، ١٤٢٣هـ.

١٠٦٥.تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٣١هـ ، ٢٠١٠م.

١٠٦٦.تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م.

١٠٦٧.التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، دار المعارف،ط٧، القاهرة، بدون.

١٠٦٨.التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، سامي وديع عبد

الفتاح شحادة القدومي، دار الوضاح، عمان، الأردن.

١٠٦٩. **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ.

١٠٧٠. **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، حققه: الشيخ عبد القادر عرفات العشا حسونة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

١٠٧١. **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

١٠٧٢. **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٩٩٧م.

١٠٧٣. **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، مؤسسة شعبان، بيروت (بلا تاريخ).

١٠٧٤. **تفسير التستري**، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢٣ هـ.

١٠٧٥. **تفسير الثعلبي**، أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

١٠٧٦. **تفسير الثعلبي**، أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، تحقيق: د.عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ.

١٠٧٧. **تفسير الثوري**، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، رواية أبي جعفر محمد عن أبي حذيفة النهدي عن الثوري، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٠٣هـ.١٩٨٣م.

١٠٧٨. **تفسير الجلالين**، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين السيوطي، دار ابن كثير، القاهرة.

١٠٧٩. **تفسير الجلالين**، جلال الدين

محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين السيوطي، دار الحديث،ط١، القاهرة، ٢٠٠١م.

١٠٨٠.تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المطبعة الميمنية، مصر ١٣١٢هـ.

١٠٨١.تفسير الحجرات – الحديد، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الثريا للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.

١٠٨٢.التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

١٠٨٣.تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ.

١٠٨٤.تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، دار الفكر، بيروت،١٣٩٩هـ،١٩٧٩م.

١٠٨٥.تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، دار المعرفة، بيروت.

١٠٨٦.تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)، أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية ١٤٢٥هـ.

١٠٨٧.تفسير الرازي (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي،ط٣، بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٠٨٨.تفسير الرازي (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار الفكر،ط١،بيروت، ١٩٨١م.

١٠٨٩.تفسير الرازي (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد

بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي،ط١، بيروت، ١٩٨٨م.

١٠٩٠. **تفسير الرازي (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير)**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، المطبعة البهية المصرية، ١٣٥٧هـ ، ١٩٣٨م.

١٠٩١. **تفسير الراغب الأصفهاني**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب،ط١، جامعة طنطا، ١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩م.

١٠٩٢. **تفسير الراغب الأصفهاني**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني،جزء ٤،٥، (من الآية ١١٤ من سورة النساء ، وحتى آخر سورة المائدة)، تحقيق: هند بنت محمد بن زاهد سردار، كلية الدعوة وأصول الدين،ط١، جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ.

١٠٩٣. **تفسير الراغب الأصفهاني**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة د. عادل بن علي الشِّدِي، دار الوطن،ط١، الرياض، ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣م.

١٠٩٤. **تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي، ط٣، بيروت، ١٤٠٧هـ.

١٠٩٥. **تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق ودراسة: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، ط١، الرياض، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م.

١٠٩٦. **تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق: أبو عيذبد الله الداني بن منير آل زهوي، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٤٢٧هـ.

١٠٩٧. **تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، اعتنى به: خليل

مأمون شيحا، دار المعرفة، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

١٠٩٨. **تفسير السراج المنير**، محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٩٩. **تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)**، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١١٠٠. **تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)**، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١١٠١. **تفسير السلمي(حقائق التفسير)**، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

١١٠٢. **تفسير السمرقندي (بحر العلوم)**، أبو الليث نصر الدين بن محمد الموجود، تحقيق د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.

١١٠٣. **تفسير السمرقندي (بحر العلوم)**، أبو الليث نصر الدين بن محمد الموجود، تحقيق: علي معوض وآخرون، دار الكتب العلميَّة،ط١، بيروت، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ م.

١١٠٤. **تفسير السمرقندي (بحر العلوم)**، أبو الليث نصر الدين بن محمد الموجود، تحقيق: على محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٣هـ،١٩٩٣م.

١١٠٥. **تفسير السمعاني(تفسير القرآن)**، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، ط١، الرياض، السعودية، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

١١٠٦. **تفسير الشافعي**، محمد بن إدريس الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (رسالة دكتوراه)، دار التدمرية،ط١، السعودية، ١٤٢٧هـ. ٢٠٠٦م.

١١٠٧. **تفسير الشعراوي**، محمد متولي الشعراوي، دار الحديث، القاهرة.

١١٠٨. **تفسير الشعراوي**، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

١١٠٩. **تفسير الشعراوي**، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، مصر،

١٩٩١م.

١١١٠. **تفسير الشعراوي**، محمد متولي الشعراوي، تحقيق الأستاذ الدكتور: أحمد عمر هاشم، أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات.

١١١١. **تفسير الشيخ أحمد حطية**، الشيخ الطبيب أحمد حطية، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

١١١٢. **تفسير الصنعاني**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤١٠هـ.

١١١٣. **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق : أحمد محمد شاكر،مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م.

١١١٤. **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ.

١١١٥. **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.

١١١٦. **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٨٨م.

١١١٧. **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١١١٨. **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)**، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، ضبط وتوثيق وتخريج، صدقي جميل العطار، ط١، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

١١١٩. **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)**، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: د.عبد الله بن عبدالمحسن التركي، دار عالم الكتب، ط١، الرياض، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١١٢٠. **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)**، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

١١٢١. **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)**، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، دار الفكر، ط١،

بيروت، لبنان، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١١٢٢.تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: محمود شاكر، مصطفى الحلبي، ١٣٨٨هـ.

١١٢٣.تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

١١٢٤.تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ،١٩٧٨م.

١١٢٥.تفسير العثيمين (تفسير جزء عم)، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر والتوزيع،ط٢، الرياض، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢م.

١١٢٦.تفسير العز بن عبد السلام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

١١٢٧.التفسير العلمي للآيات الكونية تاريخه ومواقف العلماء منه، د. بكر زكي عوض(بدون معلومات نشر).

١١٢٨.تفسير الفاتحة والبقرة، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣ هـ.

١١٢٩.تفسير القاسمي(محاسن التأويل)، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تحقيق : محمد باسل عيوب السود، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤١٨ هـ.

١١٣٠.تفسير القاسمي(محاسن التأويل)، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة، ١٣٧٨هـ ١٩٥٧م.

١١٣١.تفسير القاسمي(محاسن التأويل)، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تحقيق: أحمد علي، وحمدي صبح، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م.

١١٣٢.تفسير القاسمي(محاسن التأويل)، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٣٩٨هـ،١٩٧٨م.

١١٣٣. تفسير القرآن (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٦هـ.

١١٣٤. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م

١١٣٥. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ١٤٢٧هـ ،٢٠٠٧م.

١١٣٦. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١١٣٧. تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط١، الدمام : ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١١٣٨. تفسير القرآن الكريم، محمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني، محاضرات ألقاها في المسجد الحرام، مكة المكرمة، ١٣٩٠ هـ.

١١٣٩. تفسير القرآن الكريم، ابن أبي الربيع عبيد الله الإشبيلي، تحقيق: د. صالحة آل غنيم، طباعة جامعة الإمام محمد بن سعود، عام ١٤٣٠هـ.

١١٤٠. تفسير القرآن الكريم، الدكتور عبد الله شحاته، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م.

١١٤١. تفسير القرآن الكريم، محمد أحمد إسماعيل المقدم، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

١١٤٢. تفسير القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال،ط١، بيروت،١٤١٠ هـ.

١١٤٣. تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، عبد الله بن وهب المصري، تحقيق: ميكلوش موراني، دار الغرب

الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣ م.

١١٤٤. **تفسير القرآن**، مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي، تحقيق أحمد فريد، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

١١٤٥. **تفسير القرآن**، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي البصري، تقديم وتحقيق: الدكتورة هند شلبي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

١١٤٦. **تفسير القرآن**، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تقديم: عبد الله بن عبد المحسن التركي، تحقيق: سعد بن محمد السعد، دار المآثر،ط١، المدينة النبوية، ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م.

١١٤٧. **تفسير القرآن**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مكتبة الرشد،ط١، الرياض، ١٤١٠هـ.

١١٤٨. **التفسير القرآني للقرآن**، الدكتور عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة.

١١٤٩. **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريةط٢، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

١١٥٠. **تفسير القشيري (لطائف الإشارات)**، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، مصر.

١١٥١. **تفسير القشيري (لطائف الإشارات)**، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ،٢٠٠٠م.

١١٥٢. **التفسير القيم**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، دار ومكتبة الهلال، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ.

١١٥٣. **التفسير القيم**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، جمع: محمد أويس الندوي، دار الهلال.

١١٥٤. **التفسير القيم**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، جمعه: محمد أويس الندوي، حققه: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ .

١١٥٥. **التفسير القيم**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، جمعه: محمد أويس الندوي، حققه: محمد حامد الفقي، لجنة التراث العربي،

بيروت.

١١٥٦. **التفسير الكامل**، الإمام تقي الدين العباسي أحمد بن عبد السلام الحراني الدمشقي المعروف بابن تيمية، تحقيق: أبي سعيد عمر بن علامة العمري، دار الفكر، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١١٥٧. **التفسير الكبير (مفاتح الغيب)**، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

١١٥٨. **التفسير الكبير (مفاتح الغيب)**، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الرازي، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١١٥٩. **التفسير الكبير (مفاتح الغيب)**، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الرازي، دار إحياء التراث العربي،ط٣، بيروت،١٤٢٠هـ.

١١٦٠. **التفسير الكبير (مفاتح الغيب)**، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١١٦١. **التفسير الكبير (مفاتح الغيب)**، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ.١٩٩٠م.

١١٦٢. **التفسير الكبير (مفاتح الغيب)**، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الرازي، قدم له: هاني الحاج، وحققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، د.ت، د.ط، القاهرة.

١١٦٣. **التفسير الكبير (مفاتح الغيب)**، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الرازي، تحقيق: الشيخ خليل الميس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

١١٦٤. **التفسير الكبير (مفاتح الغيب)**، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الرازي، تحقيق: الشيخ خليل الميس، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.١٩٨١م.

١١٦٥. **التفسير الكبير (مفاتح الغيب)**، فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

١١٦٦.تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، المحقق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

١١٦٧.تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١١٦٨.التفسير المبين، عبد الرحمن بن حسن النفيسة، دار التدمرية للنشر والتوزيع، السعودية، ١٤٢٩هـ.

١١٦٩.تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، البابي الحلبي،ط٥، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

١١٧٠.تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٧١.تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

١١٧٢.تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٣٢هـ ، ٢٠١٠م.

١١٧٣.تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر،ط١، ١٣٦٥ هـ، ١٩٤٦م .

١١٧٤.تفسير المشكل من غريب القرآن العظيم، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: هدى المرعشلي، دار النور الإسلامي، ط١،بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

١١٧٥.التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري، المحقق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، الباكستان ١٤١٢هـ.

١١٧٦.تفسير المعوذتين، ابن تيمية وابن القيم، الدار السلفية،ط٢، الهند، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

١١٧٧.التفسير المنهجي، (سلسلة تفسير القرآن الكريم)، مجموعة من المؤلفين، دار المنهل،ط١، عمّان، الأردن، ٢٠٠٦م.

١١٧٨.التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر،ط٢، بيروت،لبنان، ١٤١٨هـ.

١١٧٩.التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر،ط١،

بيروت،لبنان، ١٤١١هـ،١٩٩١م.

١١٨٠.**التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج**، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر،ط٩، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

١١٨١.**التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل**، الدكتور زيد عمر العيص، مكتبة الرشد،ط١، الرياض، ١٤٢٦هـ.

١١٨٢.**التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، إعداد: نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف أ.د مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ط١، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٣١هـ. ٢٠١٠م.

١١٨٣.**التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه**، أحمد بن عبد الله الزهراني، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١٣ هـ.

١١٨٤.**التفسير الموضوعي**، مناهج جامعة المدينة العالمية، جامعة المدينة العالمية، بدون.

١١٨٥.**التفسير الميسر**، إعداد نخبة من العلماء، دار الإسلام للنشر والتوزيع، القاهرة، المهندسين، بدون تاريخ.

١١٨٦.**التفسير الميسر**، إعداد نخبة من العلماء، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، ١٤٣٤هـ.

١١٨٧.**التفسير الميسر**، نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ط٢، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م

١١٨٨.**التفسير الميسر**، نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط٢، السعودية ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١١٨٩.**تفسير النسائي**، تحقيق: سيد الجليمي وصبري الشافعي، مكتبة السنة،ط١، القاهرة، ١٤١٠هـ،١٩٩٠م.

١١٩٠.**تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)**، أبو البركات عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب،ط١، بيروت، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨م.

١١٩١.**تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)**، أبو البركات عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي، دار الفكر، بيروت، د.ت.

١١٩٢.**تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)**، أبو البركات عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي،

دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢ هـ.

١١٩٣. **تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)**، أبو البركات عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي، تحقيق: مروان الشعار، دار النفائس، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.

١١٩٤. **تفسير النصوص في الفقه الإسلامي**، الدكتور محمد أديب صالح، المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

١١٩٥. **تفسير النيسابوري(غرائب القرآن ورغائب الفرقان)**، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٦هـ،١٩٩٦ م.

١١٩٦. **تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه**،أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي، المحقق : مجموعة رسائل جامعية، جامعة الشارقة، بإشراف أ.د : الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، ط١،كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

١١٩٧. **تفسير الواحدي(الوجيز)**، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، ط١، الدار الشامية، دمشق، ١٤١٥هـ.

١١٩٨. **التفسير الواضح الميسر**، للشيخ محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية،ط٨، بيروت، ١٤٢٨هـ.

١١٩٩. **التفسير الواضح**، الدكتور محمد محمود حجازي، دار الجيل الجديد،ط١٠، بيروت،١٤١٣هـ.

١٢٠٠. **التفسير الواضح**، الدكتور محمد محمود حجازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،٢٠٠٤م.

١٢٠١. **التفسير الواضح**، الدكتور محمد محمود حجازي، مطبعة الاستقلال الكبرى، ط٣، القاهرة، ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م.

١٢٠٢. **التفسير الواضح**، الدكتور محمد محمود حجازي، مطبعة الاستقلال الكبرى، ط٢، القاهرة، ١٣٨٨هـ ، ١٩٦٨م.

١٢٠٣. **التفسير الواضح**، د. محمد محمود حجازي، دار التفسير للطبع والنشر، ط١٠، الزقازيق، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

١٢٠٤. **التفسير الوجيز**، الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر،ط٢، دمشق،

١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

١٢٠٥.التفسير الوسيط (الوسيط في تفسير القرآن المجيد)، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م.

١٢٠٦.التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١، ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣م.

١٢٠٧.التفسير الوسيط، الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٤٢٢ هـ.

١٢٠٨.التفسير الوسيط، الدكتور وهبة مصطفى الزحيلي، دار الفكر،ط١، دمشق،١٤١٢ هـ.

١٢٠٩.التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار السعادة، القاهرة.

١٢١٠.التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، الفجالة، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٢١١.التفسير الوسيط، وهبة مصطفى الزحيلي، دار الفكر، ط٢، دمشق، سوريا، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

١٢١٢.تفسير آيات الأحكام، محمد بن علي السايس، المكتبة العصرية،ط١، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٢١٣.تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس، المحقق: ناجي سويدان، المكتبة العصرية، ٢٠٠٢م .

١٢١٤.تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٢١٥.تفسير جزء عم، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، ط١، الدمام، السعودية، ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م.

١٢١٦.تفسير جزء عم، مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي، ط٨، الدمام، السعودية، ١٤٣٠هـ.

١٢١٧.تفسير جزء عم، الشيخ محمد عبده، مطبعة مصر،ط٣،مصر، ١٣٤١هـ.

١٢١٨.تفسير جزء عم، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار الراية للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ،٢٠٠٨م.

١٢١٩.تفسير حقي (روح البيان في تفسير القرآن)، إسماعيل حقي البروسوي، دار الفكر، دون تاريخ.

١٢٢٠.تفسير حقي (روح البيان في تفسير

القرآن)، إسماعيل حقي البروسوي، دار إحياء التراث العربي.

١٢٢١. تفسير سفيان الثوري، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣م.

١٢٢٢. تفسير سورة إبراهيم، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر.

١٢٢٣. تفسير سورة النور، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، الدار السلفية، بومباي، ١٤٠٨هـ.

١٢٢٤. تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، جمعه وحققه: إياد القيسي، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤٣٢هـ.

١٢٢٥. تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٩هـ.

١٢٢٦. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، ت: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

١٢٢٧. تفسير غريب القرآن، ابن الملقن : تحقيق: د. سمير طه المجذوب، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٧م.

١٢٢٨. تفسير غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ،١٩٧٨م.

١٢٢٩. تفسير غريب القرآن، كاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري، دار بن حزم، ط١، ٢٠٠٨م.

١٢٣٠. تفسير غريب القرآن، محمد بن إسماعيل الصنعاني، ت: محمد صبحي حلاق دار ابن كثير، دمشق، د.ت.

١٢٣١. تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن يصل الأزدي الحميدي، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة، ط١، القاهرة، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م.

١٢٣٢. تفسير كتاب الله العزيز، هود بن محكم الهواري، تحقيق: بالحاج بن سعيد شريفي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٠م .

١٢٣٣. تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي

المخزومي، تحقيق: عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي، المنشورات العلمية، بيروت .

١٢٣٤. **تفسير مجاهد**، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، تحقيق: د. محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، ط١، مصر، ١٤١٠ هـ،١٩٨٩م.

١٢٣٥. **تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، سميح عاطف الزين، دار الكتاب، ط٢، بيروت، ١٤٠٤هـ،١٩٨٤م.

١٢٣٦. **تفسير مقاتل**، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٢٣٧. **تفسير مقاتل**، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث،ط١، بيروت، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١٢٣٨. **التفسير والمفسرون**، محمد السيد حسين الذهبي، دار الحديث،ط١، القاهرة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١٢٣٩. **تفسير يحي بن سلام**، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني، تحقيق د. هند شلبي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤م.

١٢٤٠. **تفعيل العمل التطوعي**، الدكتور صالح حمد التويجري، ورقة عمل مقدمه إلى المؤتمر الدولي السابع، إدارة المؤسسات الأهلية والتطوعية في المجتمعات المعاصرة.

١٢٤١. **تفعيل المقاصد الشرعية في المالية الإسلامية**، التأصيل والتطبيق، صالح محمد الفوزان، الندوة العالمية الخامسة عن الفقه الإسلامي في القرن الحادي والعشرين، ماليزيا، ٢٠١٤م.

١٢٤٢. **التفكُّر عبادة ربانية وضرورة دعوية**، محمد عادل، مقال من مجلة البيان على الانترنت، ١٤٣٠هـ.

١٢٤٣. **التفكر في خلق الله (الإنسان، الأرض، السموات)**، أبو حامد الغزالي، تحقيق: ماهر المنجد، دار الفكر المعاصر، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.

١٢٤٤. **التفكر من المشاهدة إلى الشهود**، مالك بدري، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٤، الرياض،١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

١٢٤٥. **التفكير**، تقي الدين النبهاني، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

١٢٤٦. **تقريب التدمرية**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين ، دار ابن الجوزي،ط١، الدمام، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ.

١٢٤٧. **تقريب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد،ط٣، سوريا، ١٤١١هـ.

١٢٤٨. **تقريب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م.

١٢٤٩. **تقريب المأمول في ترتيب النزول**، البرهان الجعبري، تحقيق وضبط: أحمد سالم الشنقيطي، مكتب الشنقيطي للخدمات العلمية، مكة المكرمة، ١٤٣٤هـ.

١٢٥٠. **التقرير والتحبير في علم الأصول**، محمد بن محمد بن حسن الحنفي بن أمير الحاج، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، ١٣١٧هـ.

١٢٥١. **التقرير والتحبير في علم الأصول**، محمد بن محمد بن حسن الحنفي بن أمير الحاج، دار الفكر،١٤١٧هـ ،١٩٩٦م.

١٢٥٢. **التقليد والتبعية وأثرهما في كيان الأمة الإسلامية**، ناصر عبد الكريم العقل، السعودية، ١٣٩٣هـ.

١٢٥٣. **تقويم أساليب تعليم القرآن الكريم وعلومه في وسائل الإعلام**، د. محمد حسن محمد سبتان، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

١٢٥٤. **تقويم الإنسان في القرآن**، د. عبدالمحسن قاسم الحاج حمو، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مجلد٧،العدد٢، جامعة الموصل، العراق، ٢٠٠٧م.

١٢٥٥. **التقية والمداهنة والمداراة في القرآن الكريم**، د. أبو عائش عبد المنعم إبراهيم، مكتبة أولاد الشيخ للتراث،ط٢، القاهرة، ٢٠١٠م ،١٤٣١هـ.

١٢٥٦. **تقييد العلم للخطيب البغدادي**، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، إحياء السنة النبوية، بيروت.

١٢٥٧. **التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد**، أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد البسيلي التونسي، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٢٥٨. **التكافل الاجتماعي في الإسلام**، عادل الصعدي، الأحد ٢٧ يناير ٢٠١٣م، موقع الإسلام اليوم.

١٢٥٩. **تكملة المجموع شرح المهذب**، محمد بخيت المطيعي، دار الفكر، بيروت.

١٢٦٠. **تكملة المعاجم العربية**، رينهارت بيتر آن دُوزِي، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي وآخرون، وزارة الثقافة والإعلام، ط١، الجمهورية العراقية، من ١٩٧٩ ، ٢٠٠٠ م.

١٢٦١. **تكملة منهاج الصالحين**، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، (د.ت).

١٢٦٢. **تلبيس إبليس**، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، المكتبة العصرية،ط١، بيروت، ١٤١٩هـ.

١٢٦٣. **تلبيس إبليس**، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، تحقيق د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي،ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

١٢٦٤. **تلبيس إبليس**، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

١٢٦٥. **تلبيس إبليس**، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، مكتبة المتنبي، القاهرة، ١٩٦٨م.

١٢٦٦. **التلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير**، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني، المدينة المنورة، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٤م.

١٢٦٧. **التلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير**، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ، ١٩٨٩م.

١٢٦٨. **التلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير**، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مؤسسة قرطبة،ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م .

١٢٦٩. **تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان**، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي، تحقيق: دكتور أبو العبد دودو، مطبعة الحجاز، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.

١٢٧٠. **التَّلخِيص في مَعرفَةِ أسمَاءِ الأشياء**، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، تَحقيق: د. عزة حسن، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،

ط٢، دمشق، ١٩٩٦ م.

١٢٧١. **تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير**، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم،ط١، بيروت، ١٩٩٧م.

١٢٧٢. **التلقين في الفقه المالكي**، أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي المالكي، تحقيق: أبو أويس محمد بو خبزة الحسني التطواني، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م.

١٢٧٣. **التلويح على التوضيح شرح التنقيح**، التفتازاني، مطبعة صبيح، القاهرة، ١٣٧٧هـ.

١٢٧٤. **التمثيل والمحاضرة**، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ،١٩٨١م.

١٢٧٥. **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي، مؤسسة الكتب الثقافية ط١، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

١٢٧٦. **التمهيد في تخريج الفروع على الأصول**، عبد الرحيم بن حسن الأسنوي، تحقيق: محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٠٠هـ.

١٢٧٧. **التمهيد في علم التجويد**، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد الجزري، تحقيق: د. غانم قدوري الحمد، مؤسسة الرسالة، ط٤، بيروت، ١٤١٨هـ.

١٢٧٨. **التمهيد لشرح كتاب التوحيد**، صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، دار التوحيد، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٢٧٩. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.

١٢٨٠. **التمهيد، شرح مختصر الأصول من علم الأصول**، أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي، ط١، مصر، ١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١م.

١٢٨١. **التناسق الهرموني في أوائل سورة مريم**، د. زهير رابح قرامي، مجلة الإعجاز العلمي، العدد

الثالث، ١/ ٤/ ١٤١٨ هـ الموافق: ٥/ ٨/ ١٩٩م.

١٢٨٢. **التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع**، محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، أبو الحسين المَلَطي العسقلاني، تحقيق : محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث.

١٢٨٣. **التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام**، عبد المجيد المشعبي، أضواء السلف، ١٤١٩هـ.

١٢٨٤. **تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين**، منقذ بن محمود السقار، رابطة العالم الإسلامي.

١٢٨٥. **التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل**، عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن محمد المعلمي العتمي اليماني،مع تخريجات وتعليقات: محمد ناصر الدين الألباني، زهير الشاويش، عبد الرزاق حمزة، المكتب الإسلامي،ط٢، ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م.

١٢٨٦. **تنوير الحوالك شرح موطأ مالك**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩ م.

١٢٨٧. **تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن**، د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، دار العاصمة، ط١، الرياض، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

١٢٨٨. **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**، عبد الله بن عباس، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، لبنان.

١٢٨٩. **التنوير شرح الجامع الصغير**، الأمير محمد بن إسماعيل بن صلاح الصنعاني، تحقيق: د.محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، ط١، الرياض، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

١٢٩٠. **تنويه القرآن بعلم داود وسليمان عليهما السلام**، إبراهيم الدوسري، منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، شعبان ١٤٢٠هـ.

١٢٩١. **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار**، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

١٢٩٢. **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، تحقيق: ابن الخطيب، دار صادر، ٢٠٠٦م.

١٢٩٣. **تهذيب الأخلاق**، عمرو بن بحر الجاحظ، تعليق: إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث، ط١، طنطا، مصر، ١٩٨٩م.

١٢٩٤. **تهذيب الأسماء واللغات**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار النفائس، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ.

١٢٩٥. **تهذيب الأسماء واللغات**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٩٦م.

١٢٩٦. **تهذيب الأسماء واللغات**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٢٩٧. **تهذيب التفسير، وتجريد التأويل مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل**، عبد القادر بن شيبة الحمد، مكتبة عارف للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٤هـ.

١٢٩٨. **تهذيب التهذيب**، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، ط١، الهند، ١٣٢٦هـ.

١٢٩٩. **تهذيب التهذيب**، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م.

١٣٠٠. **تهذيب الكمال**، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي، تحقيق : د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

١٣٠١. **تهذيب اللغة**، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق : محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي،ط١، بيروت، ٢٠٠١م.

١٣٠٢. **تهذيب اللغة**، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: د. رياض ذكي قاسم، دار المعرفة، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

١٣٠٣. **تهذيب اللغة**، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

١٣٠٤. **تهذيب اللغة**، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرون، الدار المصرية، مصر الجديدة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

١٣٠٥. **تهذيب تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل**، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار

طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٣٠هـ،٢٠٠٩م.

١٣٠٦. **تهذيب سنن أبي داود**، المنذري، مع معالم السنن للخطابي، مطبعة أنصار السنة، مصر، ١٣٩٨هـ.

١٣٠٧. **تهذيب سيرة ابن هشام**، تحقيق: عبد السلام هارون، المدني، ط٢، القاهرة، ١٩٦٤.

١٣٠٨. **تهذيب سيرة ابن هشام**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣٠٩. **تهذيب مدارج السالكين**، شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن القيم، هذبه: عبد المنعم صالح العلي، دار الدعوة، ط١، مصر، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٦م.

١٣١٠. **تهذيب مدارج السالكين**، شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن القيم، هذبه: عبد المنعم صالح العلي، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

١٣١١. **تهذيب معاني القرآن وإعرابه**، أبو إسحاق إبراهيم السري المعروف بالزجاج، هذَّبه وعلَّق عليه: عرفان بن سليم العشا حسونة، المكتبة العصرية،ط١، صيدا، بيروت، ١٤٢٧هـ.٢٠٠٦م.

١٣١٢. **التواضع والخمول**، ابن أبي الدنيا، ت: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٩٨٩م.

١٣١٣. **التوبة إلى الله، معناها، حقيقتها، فضلها، شروطها**، د. صالح بن غانم بن عبد الله بن سليمان بن علي السدلان، دار بلنسية، الرياض، السعودية.

١٣١٤. **التوبة**، محيي الدين عبد الحميد، مكتبة الحرمين،ط١، جدة، المملكة العربية السعودية،١٤١٤هـ.

١٣١٥. **التوثيق بالكتابة في الشريعة الإسلامية**، نظار عبد القادر محمود إسماعيل، رسالة ماجستير من كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية، غير منشورة، ١٩٩٣م.

١٣١٦. **التوجيه الإسلامي لأصول التربية**، عبدالرحمن بن سعيد بن حسين الحازمي، معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى، ط١،مكة المكرمة،١٤٣٤هـ.

١٣١٧. **التوجيه والإرشاد النفسي**، الدكتور حامد عبد السلام زهران، عالم الكتب، ط٣، بيروت.

١٣١٨. **التوحيد والتنزيه في سورة مريم**، عبد الحميد طهماز، دار القلم،ط١،

دمشق، ١٤١٠ هـ.

١٣١٩. **التوحيد**، محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد وغيره، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٣٢٠. **التوسل أنواعه وأحكامه**، محمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: محمد عيد العباسي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،ط١، الرياض، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م.

١٣٢١. **توضِيحُ الأحكَامِ مِن بُلُوغ المَرَام**، أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح بن حمد بن محمد بن حمد بن إبراهيم البسام التميمي، مكتَبة الأسدي، ط٥، مكّة المكرّمة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

١٣٢٢. **التوضيح الرشيد في شرح التوحيد المذيل بالتفنيد لشبهات العنيد**، أبو عبد الله خلدون بن محمود بن نغوي الحقوي.

١٣٢٣. **التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد**، عبد الله بن محمد بن أحمد الدرويش، دار العليان، ١٤١١هـ،١٩٩٠م.

١٣٢٤. **توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك**، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي، تحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، ط١، ١٤٢٨هـ.

١٣٢٥. **توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم**، أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٣، بيروت، ١٤٠٦هـ.

١٣٢٦. **التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، دار طيبة،ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

١٣٢٧. **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد، الشافعي المصري، ابن الملقن، دار النوادر، ط١، دمشق، سوريا، ١٤٢٩هـ. ٢٠٠٨م.

١٣٢٨. **التوضيح والبيان لشجرة الإيمان**، عبد الرحمن السعدي، أضواء السلف، الرياض، ١٩٩٨م.

١٣٢٩. **توفيق الرحمن في دروس القرآن**، فيصل بن عبد العزيز بن فيصل ابن

حمد المبارك الحريملي النجدي، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل محمد، دار العاصمة، ط١، الرياض، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

١٣٣٠. **التوقيف على مهمات التعاريف**، محمد عبد الرؤوف المناوي، ت: د. عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب،ط١، القاهرة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

١٣٣١. **التوقيف على مهمات التعاريف**، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق : د. محمد رضوان الداية، دار الفكر،ط١، بيروت، دمشق،١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

١٣٣٢. **تيسير التحرير**، محمد أمين المعروف بأمير بادشاه، دار الفكر، د.ت.

١٣٣٣. **تيسير التفسير**، إبراهيم القطان، راجعه عمران أبو حجلة، عمان، ط١، الأردن، ١٩٨٣م.

١٣٣٤. **تيسير التفسير**، إبراهيم القطان، مراجعة: عمران أحمد أبو حجلة، مطابع الجمعية العلمية الملكية، الأردن ١٩٨٢م.

١٣٣٥. **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق : زهير الشاويش، المكتب الاسلامي، ط١، بيروت، دمشق،١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م.

١٣٣٦. **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، سليمان بن عبد الله، المكتب الإسلامي، ١٣٩٦هـ.

١٣٣٧. **تيسير العلام في شرح عمدة الأحكام**، أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح بن حمد بن محمد بن حمد البسام، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وصنع فهارسه: محمد صبحي بن حسن حلاق، مكتبة التابعين، ط١٠، القاهرة، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٦ م.

١٣٣٨. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، جمعية إحياء التراث الإسلامي، ط١، الكويت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

١٣٣٩. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، دار العقيدة،ط٢، الإسكندرية، ٢٠٠٩م.

١٣٤٠. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١٣٤١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف، ط١، السعودية، ١٤٢٢هـ.

١٣٤٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

١٣٤٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

١٣٤٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مطبوعات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٣٩٨هـ.

١٣٤٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٤١٧هـ.

١٣٤٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الرياض.

١٣٤٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مركز صالح بن صالح الثقافي، بعنيزة.

١٣٤٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

١٣٤٩. تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ.

١٣٥٠. تيسير الوصول إلى جامع الوصول، المكتبة التجارية، مصر، ١٣٤٦هـ.

١٣٥١. التيسير بشرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، مكتبة الإمام الشافعي، ط٣، الرياض، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

١٣٥٢. التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصر، دار الغرب

الإسلامي،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥ م.

١٣٥٣. **التيسير في القراءات السبع**، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني، تحقيق: اوتو تريزل، دار الكتاب العربي، ط٢، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

ث

١٣٥٤. **الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية**، د. عابد محمد السفياني، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، ١٤٠٨هـ.

١٣٥٥. **ثلاثية البردة بردة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم**، حسن حسين، دار الكتب القطرية،ط١، الدوحة، ١٤٠٠هـ.

١٣٥٦. **الثمر المجتنى في مختصر شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسُّنَّة**، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

١٣٥٧. **الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب**، ناصر الدين الألباني أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، غراس للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٢ هـ.

١٣٥٨. **ثمرات الأوراق**، أبو بكر بن محمد بن حجة الحموي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م.

ج

١٣٥٩. **جالب السرور لربات الخدور**، أبو محمد عبد الكريم بن صالح بن عبد الكريم الحميد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ط٢، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م.

١٣٦٠. **جامع بيان العلم وفضله**، ابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣٦١. **جامع الأحاديث (الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير)**، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ،١٩٩٤م.

١٣٦٢. **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، ط١، دمشق، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.

١٣٦٣. **الجامع التاريخي لتفسير القرآن**

الكريم، إشراف الدكتور الشاهد البوشيخي، مؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) فاس، المغرب.

١٣٦٤. جامع الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ،١٩٨٩م.

١٣٦٥. جامع الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار السلام، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ،١٩٩٩م.

١٣٦٦. جامع الرسائل، أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، دار العطاء،ط١، الرياض، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.

١٣٦٧. جامع الرسائل، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٧٩هـ.١٩٦٩م.

١٣٦٨. الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥هـ.

١٣٦٩. جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم سَنَن، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله الدهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع،ط٢، بيروت، لبنان، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨م.

١٣٧٠. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر بن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٣٧١. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر بن عبد البر، صححه وراجع أصوله : عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية،ط٢، المدينة المنورة، ١٣٨٨هـ.١٩٦٨م.

١٣٧٢. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م.

١٣٧٣. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر بن عبد البر، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

١٣٧٤. الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره، محمد سليم الجندي، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٩٩٢م.

١٣٧٥. **الجامع في أمثال القرآن**، ابن القيم، جمع: أبي أويس الكردي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

١٣٧٦. **الجامع لابن وهب**، تحقيق: مصطفى أبو الخير، دار ابن الجوزي، ط١، الرياض، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥م.

١٣٧٧. **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، دار الكتب المصرية، ط٢، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤ م.

١٣٧٨. **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ.

١٣٧٩. **الجامع لشعب الإيمان**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي(ت٤٥٨هـ)، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

١٣٨٠. **الجامع(منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق)**، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، ط٢، ١٤٠٣ هـ.

١٣٨١. **الجامع**، أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي، تحقيق: د. رفعت فوزي عبد المطلب، د. علي عبد الباسط مزيد، دار الوفاء بالمنصورة،ط١، مصر، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥ م.

١٣٨٢. **الجامع**، عبدالله بن محمد بن بركة، تحقيق عيسى الباروني، وزارة التراث، سلطنة عمان.

١٣٨٣. **الجبال والأمكنة والمياه**، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، الزمخشري، تحقيق : د أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣١٩ هـ، ١٩٩٩ م.

١٣٨٤. **الجدل على طريقة الفقهاء**، شيخ الإسلام أبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي، مكتبة الثقافة الدينية، المركز الإسلامي للطباعة.

١٣٨٥. **الجدل في القرآن الكريم، خصائصه ودلالته (دراسة لغوية دلالية)**، يوسف عمر لعساكر، دراسة معدَّة لنيل درجة الماجستير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤،٢٠٠٥م.

١٣٨٦. **الجدول في إعراب القرآن الكريم**، محمود بن عبد الرحيم صافي، دار الرشيد، ط٤، دمشق،١٤١٨ هـ.

١٣٨٧. **الجديد في تفسير القرآن المجيد**، محمد السبزاوري، دار التعارف، ط١،بيروت، ١٩٨٢م.

١٣٨٨. **الجديد في شرح كتاب التوحيد**، محمد بن عبد العزيز السليمان القرعاوي، دارسة وتحقيق: محمد بن أحمد سيد أحمد، مكتبة السوادي، ط٥،جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

١٣٨٩. **الجراثيم**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، حققه: محمد جاسم الحميدي، قدم له: الدكتور مسعود بوبو، وزارة الثقافة، دمشق.

١٣٩٠. **جرائم الأسرة في الشريعة الإسلامية والقانون المصري والفرنسي**، عبدالرحيم صوفي، مكتبة نهضة بالشرق، القاهرة، ١٩٨٨م.

١٣٩١. **الجرائم الاقتصادية عقوبتها ومكافحتها في ضوء الشريعة الإسلامية**، د. حسين حسين شحاتة، منشور بالشبكة الدولية للمعلومات.

١٣٩٢. **الجرح والتعديل**، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.

١٣٩٣. **جريدة الرياض الإلكترونية**، العدد (١٣٨٣٦) بتاريخ الجمعة ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ ، ١٢ مايو ٢٠٠٦م)، التزوير مضاره، وآثاره السيئة، د. عقيل بن عبدالرحمن العقيل.

١٣٩٤. **الجريمة والمجتمع**، د. سامية حسن الساعاتي، مكتبة الانجلو، القاهرة،١٩٨٢م.

١٣٩٥. **جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على محمد خير الأنام**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق : مشهور بن حسن سلمان، دار ابن الجوزي، ط٣، الدمام، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٣٩٦. **جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على محمد خير الأنام**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة،ط٢، الكويت، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م.

١٣٩٧. **جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على محمد خير الأنام**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، حققه: محيي الدين مستو، مكتبة دار التراث، ط١، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ.

١٣٩٨. **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**، نعمان بن محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين، الآلوسي، قدم له: علي السيد صبح المدني، مطبعة المدني، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م.

١٣٩٩. **الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي**، أبو الفرج النهرواني، ت: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م.

١٤٠٠. **جماع العلم**، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي، دار الأثار، ط١، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م.

١٤٠١. **جمال القراء وكمال الإقراء**، علم الدين السخاوى، تحقيق: د. على حسين البواب، مطبعة المدني، القاهرة، ط١،مصر، ١٤٠٨هـ.

١٤٠٢. **جمال القراء وكمال الإقراء**، علم الدين السخاوى، تحقيق: د. مروان العطية، دار المأمون للتراث، ط١، بيروت، دمشق، ١٤١٨هـ.

١٤٠٣. **جمال القراء وكمال الإقراء**، علم الدين السخاوى، دراسة وتحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية،ط١، بيروت، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩ م.

١٤٠٤. **جماليات المفردة القرآنية**، أحمد ياسوف، دار المكتبي، ط٢، دمشق، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م.

١٤٠٥. **الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم**، محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق : د. علي حسين البواب، دار ابن حزم، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١٤٠٦. **الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون**، طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية، ط١، القاهرة، مصر، ٢٠٠٦م.

١٤٠٧. **الجُمَل في النحو**، عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، ت. الدكتور علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة،ط٥، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

١٤٠٨. **جمل من أنساب الأشراف**، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م.

١٤٠٩. **جمهرة أشعار العرب**، أبو زيد محمد بن أبي الحطاب القرشي، المطبعة الخيرية،١٣٣١هـ.

١٤١٠. **جمهرة أشعار العرب**، أبو زيد

محمد بن أبي الحطاب القرشي، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٤١١. **جمهرة الأمثال**، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، دار الفكر، بيروت، لبنان، د. ت

١٤١٢. **جمهرة اللغة**، أبو بكر الأزدي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ.

١٤١٣. **جمهرة اللغة**، أبو بكر الأزدي، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.

١٤١٤. **جمهرة اللغة**، أبو بكر الأزدي، مطبعة مجلس دار المعارف، ط١، حيدر آباد، ١٣٤٤هـ.

١٤١٥. **جمهرة أنساب العرب**، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٠٣هـ.١٩٨٣م.

١٤١٦. **جمهرة أنساب العرب**، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.

١٤١٧. **الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشّنقيطي في تفسيره أضواء البيان**، جمع: أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي، ط١، مكتبة ابن عباس، مصر، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م.

١٤١٨. **الجن ووجوب الإيمان بهم**، عبد القادر عيد الأوغندي، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى، غير منشورة، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ.

١٤١٩. **الجنايات في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون**، د. حسن علي الشاذلي، دار الكتاب الجامعي، مصر، د.ت.

١٤٢٠. **الجناية في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي**، سفر غرم الله الرميثي، دار طيبة، السعودية.

١٤٢١. **الجنَّة والنار**، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط٤، عمَّان، الأردن، ١٩٩١م.

١٤٢٢. **الجنة والنار**، عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، ط١، ١٤٢٩هـ.

١٤٢٣. **الجنس و أمراضه**، عبد الناصر نور

الله، دار الألباب،ط١، ١٤٠٩هـ.

١٤٢٤.الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد حسن بن قاسم المرادي المصري، تحقيق، د. فخر الدين قباوة وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ.

١٤٢٥.الجهاد في سبيل الله تعالى ، مفهومه، وحُكْمه، ومراتبه، وضوابطه، وأنواعه، وأهدافه، وفضله، وأسباب النصر على الأعداء في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض.

١٤٢٦.الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، عبد الله بن أحمد القادري، دار المنارة،ط٢، جدة، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

١٤٢٧.الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث، محمد عزة دروزة، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٨٨م.

١٤٢٨.الجهاد في سبيل الله، محمود شاكر، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٩هـ.

١٤٢٩.الجهاد والحقوق الدولية العامة، ظافر القاسمي، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٨٢م.

١٤٣٠.الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل، دار البيارق، بيروت١٤١٤هـ.

١٤٣١.جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، عبد العزيز بن صالح بن إبراهيم الطويان، مكتبة العبيكان، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ،١٩٩٩م.

١٤٣٢.جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، أبو عبد الله شمس الدين بن محمد بن أشرف بن قيصر الأفغاني، دار الصميعي، ط١، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م.

١٤٣٣.الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: علي بن حسن و عبد العزيز بن إبراهيم وحمدان بن محمد، دار العاصمة،ط٣، السعودية، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م.

١٤٣٤.الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: علي الألمعي وغيره، دار الفضيلة،

ط١، الرياض، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٤م.

١٤٣٥.الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: سفر بن عبد الرحمن الحوالي، ١٤٢٣ هـ.

١٤٣٦.الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٩٥هـ.

١٤٣٧.الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، دار القلم، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.

١٤٣٨.الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٣٩.الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م.

١٤٤٠.الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ط١، مكة المكرمة، ١٤٢٩هـ.

١٤٤١.الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، المطبعة السلفية.

١٤٤٢.الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٤٣.جوامع السيرة النبوية، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٤٤.جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، تحقيق: إحسان عباس، دار المعارف،ط١، مصر، ١٩٠٠م.

١٤٤٥.الجوانب المشرقة للابتلاء، حجازي إبراهيم، مجلة المجتمع، العدد ١٢١٩، الكويت،

١/ ١٠/ ١٩٩٦م.

١٤٤٦. **جواهر الأدب**، أحمد الهاشمي، أشرفت على تحقيقه: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت.

١٤٤٧. **جواهر الإكليل شرح مختصر العلامة الشيخ خليل في مذهب الإمام مالك إمام دار التنزيل**، الشيخ صالح عبد السميع الآبي الأزهري، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت.

١٤٤٨. **جواهر البلاغة**، أحمد بن إبراهيم الهاشمي، ت: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

١٤٤٩. **جواهر التفسير**، أحمد بن حمد الخليلي، مكتبة الاستقامة، مسقط .

١٤٥٠. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن(تفسير الثعـــالبي)**، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي،ط١، بيروت، ١٤١٨هـ،١٩٩٧م

١٤٥١. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن(تفسير الثعـــالبي)**، تحقيق: أبو محمد العماوي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

١٤٥٢. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن(تفسير الثعـــالبي)**، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت .

١٤٥٣. **الجواهر المضية**، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، دار العاصمة، ط٣،الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ.

١٤٥٤. **الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس (ديوان الإمام الشافعي)**، محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، القاهرة، مصر.

١٤٥٥. **الجوهرة النيرة**، أبو بكر الحدادي، المطبعة الخيرية،ط١، مصر، ١٣٢٢هـ.

١٤٥٦. **الجيم (معجم)**، أبو عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني بالولاء، ت: إبراهيم الإبياري وآخرين، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٩٥هـ،١٩٧٥م.

١٤٥٧. **الجيم (معجم)**، أبو عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م .

ح

١٤٥٨. **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية،

ت: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.

١٤٥٩. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٦٠. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، مطبعة المدني، القاهرة.

١٤٦١. حاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عمر المعروف بابن عابدين، المطبعة الأميرية، ط٣، بولاق، مصر.

١٤٦٢. حاشية ابن عابدين، محمد أمين بن عمر المعروف بابن عابدين، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٤٦٣. حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، أبو بكر ابن السيد محمد شطا الدمياطي، دار الفكر، بيروت.

١٤٦٤. حاشية البجيرمي على الخطيب، سليمان بن محمد البجيرمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٦٥. حاشية البجيرمي على شرح منهج الطلاب، سليمان بن عمر بن محمد البجيرمي، المكتبة الإسلامية، تركيا.

١٤٦٦. حاشية الترتيب، محمد بن عمر المحشي، وزارة الثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٣م.

١٤٦٧. «حاشية الجمل على الجلالين» الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية"، سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل، دار الفكر، بيروت، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١٤٦٨. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي، المطبعة الأزهرية، ١٩٣٤م

١٤٦٩. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي، دار الفكر، بيروت.

١٤٧٠. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

١٤٧١. حاشية الرملي على جامع الفصولين، خير الدين بن علي الرملي، المكتبة الشاملة.

١٤٧٢. حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي، ط١، ١٣٩٧هـ.

١٤٧٣. حاشية السندي على النسائي، أبو الحسن السندي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، حلب، سوريا، ١٤٠٦هـ.

١٤٧٤. حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)، محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي، دار الجيل، بيروت.

١٤٧٥. حاشية السندي على صحيح البخاري، محمد بن عبد الهادي السندي المدني، الحنفي، أبو الحسن، دار الفكر.

١٤٧٦. حاشية الشريف على الكشاف، دار الفكر، بيروت ـ د.ت.

١٤٧٧. حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي (عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي)، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٩٩٧م.

١٤٧٨. حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي (عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي)، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي، دار صادر، بيروت.

١٤٧٩. حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧م.

١٤٨٠. حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحاوي الحنفي، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، ١٣١٨هـ.

١٤٨١. حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني، علي العدوي الصعيدي المالكي، مطبعة المدني، ط١، القاهرة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

١٤٨٢. حاشية القليوبي على شرح جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين، شهاب الدين أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت.

١٤٨٣. حاشية القونوي (عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي) على تفسير الإمام البيضاوي (ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي) ومعه حاشية ابن التمجيد (مصلح الدين مصطفى ابن إبراهيم الرومي الحنفي)، ضبطه وصححه وخرَّج آياته: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٤٨٤. حاشية رد المحتار على الدر

المختار، ابن عابدين، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٣٨٦ هـ.

١٤٨٥. **حاشية رد المختار على الدر المختار**، ابن عابدين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٤٨٦. **حاشية زادة على البيضاوي**، المكتبة الإسلامية، تركيا.

١٤٨٧. **حاشية زادة على البيضاوي**، دار صادر، بيروت.

١٤٨٨. **حاشية زادة على البيضاوي**، محمد ابن مصلح الدين مصطفى القوجوي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٩هـ. ١٩٩٩م.

١٤٨٩. **حاشيتا قليوبي وعميرة على شرح العلامة جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين**، الشيخ محيي الدين النووي أحمد سلامة القليوبي، وأحمد البرلسي عميرة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ،١٩٩٥م.

١٤٩٠. **حاضر العالم الإسلامي**، على جريشه ومحمود محمد سالم، مطاب الدجوي، عابدين، القاهرة.

١٤٩١. **الحاكم وأصول الحكم**، صبحي عبد سعيد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥م.

١٤٩٢. **الحاوي الكبير في فقه الشافعي**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، دار الكتب العلمية، ط١،بيروت، ١٤١٤هـ. ١٩٩٤م.

١٤٩٣. **الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ت: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٩ هـ،١٩٩٩م.

١٤٩٤. **الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، دار الفكر، بيروت.

١٤٩٥. **الحَاوِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ**، عبد الرحمن بن محمد القماش، إمام وخطيب مسجد بورسلى، رأس الخيمة بدولة الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٩ م.

١٤٩٦. **الحاوي للفتاوي**، عبد الرحمن بن الكمال بن محمد الخضيري السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

١٤٩٧. **الحب والبغض في القرآن**، مها يوسف جار الله الجار الله، رسالة ماجستير، جامعة الكويت، ١٩٩٩م.

١٤٩٨. **الحب والكراهية من منظور ديني تربوي**، مصطفى الجلابنة، مؤتمر

فيلادلفيا الدولي الثالث عشر، ثقافة الحب والكراهية، ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٨م.

١٤٩٩. **حتى الملائكة تسأل**، د: جيفري لانغ، ترجمة د. منذر العبسي، دار الفكر، دمشق.

١٥٠٠. **حتى يغيروا ما بأنفسهم**، جودت سعيد، دمشق، ١٣٩٧هـ.

١٥٠١. **حجاب المرأة المسلمة**، الشيخ الألباني، دار السلام، القاهرة.

١٥٠٢. **الحجاب**، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر، دمشق.

١٥٠٣. **حجة القراءات**، أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٢٨هـ، ١٩٩٧م.

١٥٠٤. **حجة القراءات**، أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

١٥٠٥. **حجة الله البالغة**، أحمد بن عبد الرحيم بن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بـ «الشاه ولي الله الدهلوي»، تحقيق: السيد سابق، دار الجيل، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١٥٠٦. **حجة الله البالغة**، أحمد بن عبد الرحيم بن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بـ «الشاه ولي الله الدهلوي»، تحقيق: السيد سابق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ.

١٥٠٧. **حجة الله البالغة**، أحمد بن عبد الرحيم بن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بـ «الشاه ولي الله الدهلوي»، تحقيق: عثمان جمعة ضميرية، دار الكوثر، الرياض، ١٤٢١هـ.

١٥٠٨. **الحجة في القراءات السبع**، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط٤، بيروت، ١٤٠١ هـ.

١٥٠٩. **الحجة في القراءات السبع**، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط٢، بيروت، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

١٥١٠. **الحجة في القراءات السبعة**، أبو علي الفارسي، تحقيق : بدر الدين قهوجي، و بشير جويجاتي، دار المأمون للتراث، ط١، دمشق، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

١٥١١. **الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة**، إسماعيل ابن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، تحقيق

: د. محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، دار الراية، ط١، الرياض: ١٤١٩هـ،١٩٩٩م.

١٥١٢.**الحجة للقراء السبعة الحجة في القراءات السبعة**، أبو علي الفارسي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ٢٠٠١م.

١٥١٣.**الحجة للقراء السبعة**، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي، المحقق: بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، ط٢، بيروت، دمشق، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣م.

١٥١٤.**حجية التوراة**، أحمد الحوفي، مؤسسة الخليج العربي، ط١، القاهرة، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١٥١٥.**حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار**، محمد بن عمر بن مبارك الحميري الحضرمي الشافعي، دار المنهاج،ط١، جدة، ١٤١٩هـ.

١٥١٦.**حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، محمد الأمين بن عبد الله الأُرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة،ط١، بيروت،لبنان، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١م.

١٥١٧.**الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة**، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى، تحقيق : د. مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، ط١، بيروت،١٤١١هـ.

١٥١٨.**الحديث الموضوعي**، مناهج جامعة المدينة العالمية، جامعة المدينة العالمية.

١٥١٩.**حراسة الفضيلة**، بكر بن عبدالله أبو زيد، دار العاصمة، ط١١، المملكة العربية السعودية،١٤٢٦هـ،٢٠٠٥م.

١٥٢٠.**حرز الأماني ووجه التهاني**، أبو محمد القاسم بن فيره الشاطبي، تحقيق: محمد تميم الزعبي، مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني للدراسات القرآنية،ط٤، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

١٥٢١.**الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة بها**، د. عبد الملك بن دهيش، مكة المكرمة، بدون معلومات نشر.

١٥٢٢.**الحريات العامة في الدولة الإسلامية**، راشد الغنوشي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٣م.

١٥٢٣.**حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية**، عبدالله ناصح علوان، دار السلام، ط٤، ١٩٩٣م.

١٥٢٤. **الحرية الإعلامية في ضوء الإسلام**، د. سعيد علي ثابت، دار عالم الكتب، ط١، السعودية، ١٤١٢هـ،١٩٩١م.

١٥٢٥. **الحرية بين الحد والمطلق**، سري نسيبة، دار الساقي، ط١، بيروت، ١٩٩٥م.

١٥٢٦. **الحرية عند العرب**، إبراهيم حداد، دار الثقافة، بيروت.

١٥٢٧. **الحرية في القرآن الكريم**، د. راشد علي الحارثي، رسالة ماجستير نوقشت في جامعة آل البيت بالأردن، ١٩٩٩م.

١٥٢٨. **الحسد، أسبابه، الوقاية منه**، مجدي محمد الشهاوي، مكتبة الإيمان بالمنصورة،ط١،مصر، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م.

١٥٢٩. **الحسد، دراسة قرآنية**، طاهر عبدالرحيم محمد عزام، رسالة جامعية، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين،٢٠٠٩م

١٥٣٠. **الحسد، علاجه والوقاية منه**، طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن، مكتبة الصفا،ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٥٣١. **حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة**، السيد محمد صديق حسن خان الفتوحي، تحقيق: الدكتور مصطفى الخن ومحي الدين ستو، مؤسسة الرسالة،ط٥، بيروت، ١٤٠٦هـ،١٩٨٥م.

١٥٣٢. **حسن الظن بالله**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، المحقق: مخلص محمد، دار طيبة،ط١، الرياض، ١٤٠٨ هـ– ١٩٨٨م.

١٥٣٣. **حضارة العرب**، جوستاف لوبون، ترجمة: عادل محمد زعيتر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٨٨م.

١٥٣٤. **الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن القيم، ط٢، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

١٥٣٥. **حقائق التفسير**، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

١٥٣٦. **حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥٣٧. **حقائق قرآنية حول القضية**

الفلسطينية، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الفرقان، عمان الأردن، ١٩٥٩م.

١٥٣٨. حقوق الإنسان الثقافية بين الشريعة الإسلامية والمواثيق الدولية، داود درويش حلس، بحث مقدم لمؤتمر التحديات المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية في الفترة: ٢،٣/ ٤/ ٢٠٠٧م.

١٥٣٩. حقوق الانسان أمام القضاء، د. البشري الشوربجي، مجلة كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، ع٣، ١٩٨١م.

١٥٤٠. حقوق الإنسان في الاسلام، د. عبد الواحد وافي، دار النهضة المصرية ط٤، ١٣٨٧هـ.١٩٧٩م.

١٥٤١. حقوق الإنسان، محمد النجيمي، جريدة الرياض، بتاريخ:١٣/ ١٠/ ٢٠٠٣م.

١٥٤٢. حقوق الإنسان، مفهومه وتطبيقاته في القرآن الكريم، د. يحيى محمد حسن زمزمي، بحث مقدم إلى مؤتمر «حقوق الإنسان في السلم والحرب»، الذي عقدته جمعية الهلال الأحمر السعودي، ١٤٢٤هـ.

١٥٤٣. الحقوق الإنسانية، فعل التزام، ملحم قربان، المؤسسة الجامعية، ط١، ١٩٨٩م.

١٥٤٤. حقوق الأولاد قبل الوالدين، عبد الحميد الأنصاري، حولية كلية الشريعة، جامعة قطر، العدد الثاني عشر، ١٤١٥هـ.

١٥٤٥. حقوق الطفل في الاسلام والاتفاقيات الدولية، سمير خليل محمود، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٣م.

١٥٤٦. حقوق المرأة في الإسلام، حنان قرقوتي، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ.

١٥٤٧. حقوق اليتيم في الفقه الإسلامي، تسنيم جمال محمد حسن استيتي، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين ٢٠٠٧م.

١٥٤٨. حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة، محمد بن صالح العثيمين، طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط٩،المملكة العربية السعودية، ١٤٢١ هـ.

١٥٤٩. الحقوق والحريات في عالم متغير، أنور أحمد رسلان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣م.

١٥٥٠. الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الفقه الإسلامي، محمد

رأفت عثمان، دار الاتحاد العربي للطباعة، ١٩٨٣م.

١٥٥١. **حقيقة البدعة وأحكامها**، سعيد بن ناصر الغامدي، مكتبة الرشد، الرياض.

١٥٥٢. **حقيقة الشيعة**، عبد الله الموصلي، مكتبة الإمام البخاري، ٢٠٠٦م.

١٥٥٣. **حقيقة الغرر المحرم في الشريعة الإسلامية**، د. أحمد صفي الدين، مجلة أضواء الشريعة، كلية الشريعة بالرياض، السعودية، العدد الحادي عشر، ١٤٠٠هـ،١٩٨٠م.

١٥٥٤. **حقيقة عيسى المسيح**، د. محمد علي الخولي، ط١، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

١٥٥٥. **حكم ابن عطاء الله السكندري**، ت: د. عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي.

١٥٥٦. **حكم أحكام القرآن العبادات وأحكام الأسرة والمعاملات المالية**، الدكتور مصطفى إبراهيم الزلمي، نشر إحسان، ط١، إيران، ٢٠١٤م.

١٥٥٧. **الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي بعثت بالسيف بين يدي الساعة**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، المحقق: عبد القادر الأرناؤوط، دار المأمون، ط١، دمشق، ١٩٩٠م.

١٥٥٨. **حكم زواج المسلم المغترب من الكتابيات**، فضل الله ممتاز، مقال بالملتقى الفقهي ركن فقه الأقليات.

١٥٥٩. **حكم صحية في محرمات قرآنية**، تحريم تناول الدم المسفوح للدكتور، كارم السيد غنيم.

١٥٦٠. **الحكم والتحاكم في خطاب الوحي**، عبد العزيز مصطفى كامل، طيبة،ط١، الرياض، ١٤١٥هـ.

١٥٦١. **حكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق(بذيله: تتمة في نقد الآثار المرفوعة عن الخط والكتابة)**، المرتضى الزَّبيدي، عني بإخراجه: محمد طلحة بلال، مطبعة المدني ط١، القاهرة، ١٩٩٠م.

١٥٦٢. **الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى**، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ.

١٥٦٣. **الحكمة في الدعوة إلى الله**، د. سعيد بن وهف القحطاني، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٥٦٤. **الحكمة في مخلوقات الله**، أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد رشيد

قباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٣٩٨هـ.١٩٧٨م.

١٥٦٥.حل مشكلة الأيتام ضمن تعاليم الإسلام، فايزة أحمد يوسف بحث مقدم لجامعة القدس كلية الدراسات العليا دراسات إسلامية معاصرة، ١٤٢٧هـ،٢٠٠٦م.

١٥٦٦.الحلال والحرام في الإسلام، الشيخ أحمد عسّاف، دار إحياء العلوم، ط٧، بيروت، ١٩٨٨م.

١٥٦٧.الحلال والحرام في الإسلام، يوسف القرضاوي، منشورات المكتب الإسلامي، ط٥، ١٣٨٩هـ.

١٥٦٨.حلول اقتصادية من التمويل الإسلامي، بيان الجمعية الدولية للاقتصاد الإسلامي، منشور ضمن بحوث كتاب: الأزمة المالية العالمية أسباب وحلول من منظور إسلامي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة، ط١، ١٤٣٠هـ.

١٥٦٩.حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، ط٤، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٥٧٠.حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٥٧١.حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٠ هـ.

١٥٧٢.حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

١٥٧٣.حلية طالب العلم، الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ.٢٠٠٢م.

١٥٧٤.حماسة الخالديين، الخالديان أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي، وأبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي، ت: الدكتور محمد علي دقة، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية ١٩٩٥م.

١٥٧٥.الحماسة المغربية، مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، أبو العباس الجرّاوي التادلي، ت: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، ط١، بيروت، ١٩٩١م.

١٥٧٦.الحماية الجنائية للعرض في الشريعة، عبدالعزيز محمد محسن، دار النهضة العربية، مصر.

١٥٧٧.حماية الرسول صلى الله عليه

وسلم حمى التوحيد، محمد بن عبد الله زربان الغامدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣٢هـ،٢٠٠٣م.

١٥٧٨. حملته أمه وهنا على وهن، عبد المحسن صالح، مجلة الوعي الإسلامية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مج ٢١،ع ٢٤٤، الكويت، ١٤٠٥هـ،١٩٨٥م.

١٥٧٩. الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، أحمد بن عبد الرحمن الصويان،، دار الوطن،ط١، الرياض، ١٤١٣هـ.

١٥٨٠. الحوار الإسلامي المسيحي، بسام عجك، دار قتيبة، دمشق، ١٤١٨هـ.

١٥٨١. حوار الحضارات والتصادم الأممي، جعفر حسن عتريسي، دار الهادي، ط١، بيروت، ١٤٢٥هـ.

١٥٨٢. الحوار بين الأديان، حقيقته وأنواعه، الشيخ الدكتور عبد الرحيم بن صمايل السلمي.

١٥٨٣. الحوار في الإسلام، عبد الله الموجان، مركز الكون، مكة، ط١، ٢٠٠٦هـ.

١٥٨٤. الحوار في القرآن الكريم (قواعده،أساليبه،معطياته)، محمد حسين فضل الله، دار الملاك،ط٥، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ.١٩٩٦م.

١٥٨٥. الحوار في القرآن الكريم، معن محمود عثمان ضمرة، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة النجاح ٢٠٠٥م.

١٥٨٦. الحوار مع أهل الكتاب (أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة)، خالد بن عبد الله القاسم، دار المسلم للنشر والتوزيع،ط١، الرياض، ١٤١٤هـ.

١٥٨٧. الحوار، آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحي بن محمد زمزمي، دار المعالي، عمان، ط٢، ١٤٢٢هـ.

١٥٨٨. حواشي الشرواني والعبادي على تحفة المحتاج، ابن حجر الهيتمي، الشيخ عبد الحميد المكي الشرواني، والشيخ أحمد بن قاسم العبادي، دار الفكر، بيروت، د ت.

١٥٨٩. الحور العين، نشوان بن سعيد الحميري اليمني، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٨ م.

١٥٩٠. حول الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في العصر الحديث، محمد المهدي محمود علي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السنة الخامسة، العدد الأول، رجب

١٣٩٢هـ، أغسطس ١٩٧٢م.

١٥٩١. **حياة البرزخ في ضوء الكتاب والسنة**، شادي فوزي محمد بشكار، رسالة ماجستير، بدون دار نشر.

١٥٩٢. **حياة الحيوان الكبرى**، محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت، ١٤٢٤هـ.

١٥٩٣. **الحياة الدينية عند العرب بين الجاهلية والإسلام**، محمد الناصر، و خولة درويش، دار عالم الكتب، السعودية، ١٩٧٧م .

١٥٩٤. **حياة الصحابة**، الكاندهلوي، ت: بشار عوّاد، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت لبنان، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م.

١٥٩٥. **الحياة في القرآن الكريم (دراسة موضوعية)**، أحزمي سامعون جزولي، دار طويق، الرياض.

١٥٩٦. **حياة محمد**، محمد حسين هيكل، دار المعارف، ط١٤، القاهرة.

١٥٩٧. **الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن**، أبو الحسن عبد العزيز بن يحيى بن مسلم بن ميمون الكناني المكي، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر الفقهي، مكتبة العلوم والحكم،ط٢، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م.

١٥٩٨. **الحيوان في القرآن**، زغلول النجار، دار المعرفة، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

١٥٩٩. **الحيوان**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مؤسسة التاريخ العربي،ط٣، ودار إحياء التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ.١٩٦٩م

١٦٠٠. **الحيوان**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

١٦٠١. **الحيوان**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت، ١٤٢٤ هـ.

خ

١٦٠٢. **خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم**، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥ هـ.

١٦٠٣. **خذوا حذركم من الحرب النفسية**، محمد جمال الدين محفوظ، موقع منبر التوحيد والجهاد.

١٦٠٤. **الخراج**، أبو يوسف يعقوب بن

إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٩٢هـ.

١٦٠٥. **الخراج**، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث،ط١،مصر.

١٦٠٦. **الخرشي على مختصر خليل**، الشيخ محمد الخرشي، دار الفكر، د. ت.

١٦٠٧. **خزانة الأدب غاية الإرب**، أبو بكر علي بن عبدالله، المعروف بابن حجة الحموي، دراسة وتحقيق: كوكب دياب، دار صادر، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

١٦٠٨. **خزانة الأدب غاية الإرب**، أبو بكر علي بن عبدالله، المعروف بابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار البحار، بيروت، ٢٠٠٤م.

١٦٠٩. **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط٤، القاهرة، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م.

١٦١٠. **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٦١١. **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: محمد نبيل طريفي وإميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

١٦١٢. **الخشية في القرآن الكريم**، رسالة ماجستير، عبد الله هاشم الحسيني الشريف، إشراف د. أحمد نافع المورعي، جامعة أم القرى، ١٤٢٦ هـ، ١٤٢٧ هـ.

١٦١٣. **خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم**، فتحي الدريني، مؤسسة الرسالة، ط٢،بيروت، ١٩٨٧م.

١٦١٤. **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، سيد قطب، دار الشروق، ط٦، مصر.

١٦١٥. **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية** (رسالة دكتوراه)، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، ط١،مصر، ١٤١٣ هـ،١٩٩٢ م.

١٦١٦. **خصائص الحوار وأساليه في القرآن**، د. عثمان علي حسين، بحث للمؤتمر العالمي للقرآن الكريم

ودوره في بناء الحضارة الإنسانية، جامعة إفريقيا العالمية، السودان، ٢٠١١م.

١٦١٧. **الخصائص الكبرى**، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

١٦١٨. **خصائص المجتمع الإسلامي**، محمد عبد الله الخطيب دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.

١٦١٩. **الخطأ والدخيل في توراة بني إسرائيل**، إبراهيم ثروت حداد، مركز التنوير الإسلامي،ط١، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٦م.

١٦٢٠. **الخطابة**، مناهج جامعة المدينة العالمية، جامعة المدينة العالمية .

١٦٢١. **خطب العام من الكتاب والسنة**، مصطفى العدوي، مكتبة مكة، مصر، سنة ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١٦٢٢. **الخطر اليهودي على المسيحية والإسلام**، الدكتور عدنان حداد، دار البيروني للطباعة والنشر،ط١، بيروت، ١٩٩٧م.

١٦٢٣. **خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، حققه وخرج أحاديثه: حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

١٦٢٤. **خلاصة بحث التفسير العلمي للقرآن بين المجيزين والمانعين**، الشيخ محمد الأمين ولد الشيخ، تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

١٦٢٥. **الخلاصة في أصول التربية الإسلامية**، علي بن نايف الشحود، ط١، ماليزيا، ١٤٣٠هـ،٢٠٠٩م.

١٦٢٦. **الخلافة الإسلامية**، محيي الدين آزاد، مُؤَلِّفُهُ باللغة الأوردية، مولانا أبو الكلام محيي الدين آزاد صاحب مجلة الهلال الهندية، مُتَرْجِمُهُ بالعربية، الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي محرر جريدة (بيغام) الهندية.

١٦٢٧. **الخلافة والإمامة ديانة وسياسة**، عبد الكريم الخطيب، دار الكتاب العربي، ط١، مصر، ١٣٨٣هـ،١٩٦٣م.

١٦٢٨. **الخلافة**، محمد رشيد رضا، الزهراء للإعلام العربي، مصر، القاهرة.

١٦٢٩. **خلق أفعال العباد**، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: بدر البدر، الدار السلفية، ط١، الكويت.

١٦٣٠. **خلق الإنسان بين الطب والقرآن**، د. محمد علي البار، الدار

السعودية للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤٠٣هـ.

١٦٣١. خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البارّ، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط ٨، ١٤١٢ هـ، ١٩٩١ م.

١٦٣٢. خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالي، دار الدعوة،ط٦، ١٩٩٩م.

١٦٣٣. خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالي، دار العلم، ط١٠، دمشق، ١٤١٣هـ،١٩٩٣م.

١٦٣٤. خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط١،مصر.

١٦٣٥. خلق ودين (دراسات اجتماعية أخلاقية)، د. إبراهيم سلامة، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، مصر، ١٣٧٣هـ ، ١٩٥٤م.

١٦٣٦. الخليفة توليته وعزله..إسهام في النظرية الدستورية الإسلامية، د. صلاح الدين دبوس، مؤسسة الرسالة الجامعية، الإسكندرية.

١٦٣٧. خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن.

١٦٣٨. الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم، أحمد جودة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٦٣٩. خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

١٦٤٠. خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، ١٩٩١م.

١٦٤١. الخوف في القصص القرآني (رسالة ماجستير)، عبد القادر محمد فتحي المطري، إشراف : د. حاتم جلال التميمي، جامعة القدس، ٢٠١١م.

١٦٤٢. الخوف والرجاء في القرآن الكريم (رسالة ماجستير)، سهاد تحسين إلياس دولة، إشراف : د. حسين النقيب، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، ٢٠٠٧م.

١٦٤٣. خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام، علي بن لالي بالي بن محمد القسطنطيني الحنفي، ويعرف بمنق، المحقق: الدكتور حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

د

١٦٤٤. الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)، محمد بن

أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، حققه: مُحَمَّد أجمل الإصْلاَحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد،ط١، جدة، ١٤٢٩هـ.

١٦٤٥.**الدار المختار**، محمد بن علي بن محمد الحِصْني المعروف بعلاء الدين الحصكفي الحنفي، مع حاشية ابن عابدين، المطبعة الأميرية، ببولاق مصر، (د.ت).

١٦٤٦.**داود وسليمان عليهما السلام في الأسفار اليهودية عرض ونقد**، رسالة ماجستير، إعداد: مي حسن المدهون، قسم العقيدة، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ.

١٦٤٧.**داود وسليمان عليهما السلام في القرآن الكريم والسنة**، عويد المطرفي، رسالة دكتوراه، من قسم الكتاب والسنة، جامعة الملك عبد العزيز، ١٣٩٩هـ

١٦٤٨.**داود وسليمان في العهد القديم والقرآن الكريم دراسة لغوية تاريخية**، أحمد عيسى الأحمد، بدون دار نشر، ١٤١٠هـ.

١٦٤٩.**دائرة معارف القرن العشرين**، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، ط٣، لبنان، ١٩٧١م.

١٦٥٠.**الدر المصون في علم الكتاب المكنون**، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق :أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

١٦٥١.**الدر المختار شرح تنوير الأبصار**، علاء الدين الحصكفي، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٦هـ.

١٦٥٢.**الدر المصون في علم الكتاب المكنون**، شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، السمين الحلبي، تحقيق: علي معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٤هـ. ١٩٩٤م.

١٦٥٣.**الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

١٦٥٤.**الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م.

١٦٥٥.**الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط١، القاهرة، ١٤٣٤هـ.

١٦٥٦.**الدر المنثور في التفسير بالمأثور**،

جلال الدين السيوطي، الأنوار المحمدية، مصر.

١٦٥٧. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، دار الفتح، ط١، جدة، ١٣٦٥هـ.

١٦٥٨. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، دار هجر، مصر،١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٦٥٩. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار طيبة، ١٤٢٤هـ.

١٦٦٠. **درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول**، تقي الدين أحمد ابن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق : عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

١٦٦١. **درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول**، تقي الدين أحمد بن عبد السلام ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

١٦٦٢. **درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول**، تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق رشاد سالم، مطبعة جامعة الإمام، الرياض،١٤٠٣هـ.

١٦٦٣. **الدراري المضية شرح الدرر البهية**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار الكتب العلمية، ط١،بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

١٦٦٤. **الدراري المضية شرح الدرر البهية**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، تحقيق: محمد صبحي حلاق، مكتبة الإرشاد،ط١، صنعاء، ١٤١٤هـ. ١٩٩٣م.

١٦٦٥. **دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية**، دار القلم، ١٩٧٣م.

١٦٦٦. **دراسات إسلامية**، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، بالكويت، ١٩٨٤م.

١٦٦٧. **دراسات إسلامية**، مجموعة من المستشرقين، ترجمة د. أنيس فريحة، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٨م.

١٦٦٨. **دراسات حول الجماعة والجماعات**، مكتبة التابعين،ط٢، القاهرة، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

١٦٦٩. دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود بن عبد العزيز الخلف، مكتبة أضواء السلف، ط٤،الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م.

١٦٧٠. دراسات في الأديان، د. عماد الدين عبدالله الشنطي، مكتبة ومطبعة دار المنار، ط٢، غزة، ٢٠٠٨م.

١٦٧١. دراسات في السيرة، عدد من أساتذة الجامعة الإسلامية،ط١، غزة،١٤٢٢هـ.٢٠٠٢م.

١٦٧٢. دراسات في العقيدة الإسلامية، سعد عبد الله عاشور، جامعة الأمة،ط١، فلسطين، ١٤٣٤هـ ،٢٠١٣م.

١٦٧٣. دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية،ط٢، القاهرة.

١٦٧٤. دراسات في علوم القرآن الكريم، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط١٢، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٦٧٥. دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣م .

١٦٧٦. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، (د. ت).

١٦٧٧. دراسة أحاديث الرؤيا من أجزاء النبوة، د. حسن محمد عبه جي، نشر مركز بحوث كلية التربية بجامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م.

١٦٧٨. دراسة ترجيحات الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان، عبد الماجد بن محمد ولي بن محمد علي إبراهيم، رسالة علمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومهـ.

١٦٧٩. دراسة لاسمي الله الرازق والرزاق وما في معناهما من أسماء الله تعالى وأثر الإيمان بهما في ترسيخ العقيدة، أحمد بن عثمان المزيد، مدار الوطن،ط١، ١٤٣٣هـ،٢٠١٢م.

١٦٨٠. دراسة منهجية شاملة للغزو الفكري، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، دار القلم،ط٨، دمشق، ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م.

١٦٨١. الدراية في تخريج أحاديث الهداية، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: السيد عبد الله هاشم اليماني المدني، دار المعرفة، بيروت.

١٦٨٢. الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، عبد الرحمن بن

ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، أضواء السلف، ط١، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.

١٦٨٣. **درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، تحقيق وتعليق: د. محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها، معهد البحوث العلمية، ط١، مكة المكرمة، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.

١٦٨٤. **درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز**، محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي، دار الآفاق الجديدة، ط ٣، بيروت، ١٩٧٩م.

١٦٨٥. **الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء**، محمود بن إسماعيل بن إبراهيم بن ميكائيل الخَيْرِبَيْتي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض.

١٦٨٦. **درة الغواص في أوهام الخواص**، الحريري، ت: عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١،بيروت، ١٩٩٨م.

١٦٨٧. **درج الدرر في تفسير الآي والسور**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، تحقيق: (الفاتحة والبقرة) وَليد بِن أحمد بن صَالِح الحُسَيْن، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط١، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

١٦٨٨. **درج الدرر في تفسير الآي والسور**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، تحقيق: طلعت صلاح الفرحان و محمد أديب شكور أمرير، دار الفكر، ط١عمان، الأردن ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١٦٨٩. **درر السلوك في سياسة الملوك**، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض.

١٦٩٠. **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، مجموعة من علماء نجد، تحقيق: عبد الرحمن العاصمي، ١٣٩٢هـ.

١٦٩١. **الدرر السنية**، قاعدة بيانات الكترونية شاملة لميراث الرسول، مرجع علمي موثق على منهج أهل

السنة والجماعة، المشرف، علوي عبد القادر السقاف.

١٦٩٢. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المحقق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية،ط٢، الهند، ١٣٩٢هـ.

١٦٩٣. **الدرر في اختصار المغازي والسير**، أبو عمر يوسف ابن عبد البر، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٤٠٣ هـ.

١٦٩٤. **دروس الشيخ سعيد بن مسفر**، سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

١٦٩٥. **دروس في العقيدة**، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن الراجحي، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

١٦٩٦. **دروس للشيخ سلمان العودة**، سلمان بن فهد بن عبد الله العودة، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

١٦٩٧. **دروس للشيخ محمد ناصر الدين الألباني**، محمد ناصر الدين الألباني، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

١٦٩٨. **دستور الأخلاق في القرآن**، محمد بن عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

١٦٩٩. **دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)**، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م،١٤٢١هـ.

١٧٠٠. **دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)**، عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، مطبعة دائرة المعارف، حيدر آباد،١٣٢٩هـ.

١٧٠١. **الدعاء المأثور وآدابه**، تحقيق: الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

١٧٠٢. **الدعاء للإمام الطبراني**، دار البشائر الإسلامية، تحقيق: د. محمد سعيد بن محمد البخاري،١٤٠٧ هـ ١٩٨٧، م.

١٧٠٣. **الدُّعَاءُ من الكتابِ والسُّنة**، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط٢١، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م.

١٧٠٤. **الدعاء ومنزلته في العقيدة الإسلامية**،مكتبة الرشد،ط١، الرياض،١٤١٧هـ.

١٧٠٥. **الدعاء**، سليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٣هـ.

١٧٠٦. **دعائم الحكم في الشريعة الإسلامية (الحقوق والحريات)**، إسماعيل بدوي، دار النهضة العربية، ط١، القاهرة، ١٩٩٤م.

١٧٠٧. **الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها**، الدكتور رؤوف شلبي، دار القلم،ط٣، دمشق.

١٧٠٨. **دعوة التقريب بين الأديان (دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية)**، الدكتور أحمد عبد الرحمن ابن عثمان القاضي، دار ابن حزم.

١٧٠٩. **دعوة الرسل عليهم السلام**، أحمد أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م

١٧١٠. **دعوة إلى السنة في تطبيق السنة منهجاً وأسلوباً**، عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مكتبة الملك فهد الوطنية.

١٧١١. **الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة**، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، ط٤، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.

١٧١٢. **دعوة عيسى عليه السلام في الكتاب والسنة**، د. سليمان بن قاسم العيد.

١٧١٣. **الدعوة والداعية في ضوء سورة الفرقان**، محمد سعيد البارودي، دار الوفاء للنشر،ط١، جدة، السعودية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

١٧١٤. **دفاع عن الإسلام**، لورا فيشيا فاغليري.

١٧١٥. **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**، محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٦هـ.

١٧١٦. **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، توزيع: مكتبة الخراز،ط١، جدة،١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م.

١٧١٧. **دقائق التفسير**، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق د . محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ١٤٠٤هـ.

١٧١٨. **دقائق التفسير**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن

تيمية، تحقيق د . محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ١٤٠٠هـ.

١٧١٩. **دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات**، منصور بن يونس بن صلاح الدين البهوتى الحنبلي، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

١٧٢٠. **دلالات التقديم والتأخير في القرآن**، منير محمود المسيري، مكتبة وهبه، ط١، القاهرة، مصر، ٢٠٠٥م.

١٧٢١. **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، ت. محمود شاكر، هيئة الكتاب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٧٢٢. **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد رضوان الداية، وفايز الداية، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٨هـ. ٢٠٠٧م.

١٧٢٣. **دلائل الإعجاز في علم المعاني**،أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، ط١.

١٧٢٤. **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، ط٣، القاهرة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٧٢٥. **دلائل النبوة**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق : وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه : الدكتور: عبد المعطي قلعجى، دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨ هـ،١٩٨٨م.

١٧٢٦. **دلائل النبوة**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عامر حسن صبري، دار حراء، ط١، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ.

١٧٢٧. **دلائل النبوة**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت ١٤٠٥ هـ .

١٧٢٨. **دلائل النبوة**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٦ م .

١٧٢٩. **الدلائل في غريب الحديث**، أبو محمد قاسم بن ثابت بن حزم السرقسطي، تحقيق: د. محمد بن عبد الله القناص، مكتبة العبيكان،ط١، الرياض، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م .

١٧٣٠. **دليل الفالحين لطرق رياض**

الصالحين، دار الكتاب العربي، ط١٠، بيروت، لبنان.١٤٠٥هـ.

١٧٣١.دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤،بيروت، لبنان، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.

١٧٣٢.دليل المرأة المسلمة، د. علي بن سعيد الغامدي، مطابع أضواء المنتدى.

١٧٣٣.الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، حسين محمد فهمي الشافعي، دار السلام،ط٣، القاهرة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٨م.

١٧٣٤.دور الأب في التربية، علي القائمي، دار النبلاء، ط١، بيروت، ١٩٩٤م.

١٧٣٥.دور الصلح العشائري في تحقيق السلم الاجتماعي، الشيخ محمد سعيد صلاح، بحث إلى مؤتمر السلم الاجتماعي من منظور إسلامي، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ١٤٣٣هـ.٢٠١٢م.

١٧٣٦.دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، ط١، القاهرة، ١٩٩٥م.

١٧٣٧.دور النظام السوري في حرب ١٩٦٧م، خالد الأحمد، على الشبكة العنكبوتية.

١٧٣٨.دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، عبدالمجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا، أمريكا، ١٩٩٢م.

١٧٣٩.الدولة و السيادة في الفقه الإسلامي، د. فتحي عبد الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٤هـ.

١٧٤٠.الدولة ونظام الحكم في الإسلام، حسن السيد بسيوني، عالم الكتب، ط١، مصر، ١٩٨٥م.

١٧٤١.الديباج على صحيح مسلم، جلال الدين السيوطي، حققه: أبو إسحاق الحويني، دار ابن عفان للنشر،ط١، الخبر، السعودية، ١٤١٦م،١٩٩٦هـ.

١٧٤٢.دين الحق، عبد الرحمن بن حماد آل عمر، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط٦، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ.

١٧٤٣.الدين والدولة، من توجيه القرآن، محمد البهي، مكتبة وهبة، بالقاهرة، ١٤٠٠هـ.

١٧٤٤.الدين وحاجة الإنسانية إليه عبر الرسالات الإلهية، الدكتور محمود محمد مزروعة، دار كنوز

المعرفة،ط١، جدة، ١٤٣٥ هـ ، ٢٠١٤م.

١٧٤٥. الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د.محمد عبد الله دراز، دار القلم.

١٧٤٦. الدين، أسامة البيرقدار، دار الكتب العلمية، ط١، لبنان.

١٧٤٧. ديوان أبي الرومي، شرح: أحمد بسج، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

١٧٤٨. ديوان أبو ذؤيب الهزلي، شرحه وقدم له ووضع فهارسه: سوهام المصري، عني بمراجعته وقدم له: الدكتور ياسين الأيوبي، المكتب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٧٤٩. ديوان أبي الفتح البستي، مجمع اللغة العربية بدمشق، ت: درية الخطيب، ولطفي الصقال، ١٩٨٩م.

١٧٥٠. ديوان أبي الفتح البستي، مطبعة دار الفنون، بيروت، ١٣٩٤هـ.

١٧٥١. ديوان أحمد شوقي، الشوقيات، دار الشروق.

١٧٥٢. ديوان أحمد شوقي، دار العودة، بيروت،١٩٨٨م.

١٧٥٣. ديوان الأعشى، شرح وتحقيق: د. محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، بدون سنة النشر.

١٧٥٤. ديوان الأفوة الأودي، صلاءة بن عمرو بن مالك، اليماني الجاهلي.

١٧٥٥. ديوان الإنشاء أو أسلوب الحكيم في منهج الإنشاء القويم، السيد أحمد الهاشمي بك، دار الفكر، مصر.

١٧٥٦. ديوان الحطيئة، جرول بن أوس بن مالك العبسي، تحقيق: عيسى سابا، مكتبة صادر، بيروت، بدون.

١٧٥٧. ديوان الحماسة (حماسة البحتري)، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.

١٧٥٨. ديوان الخنساء، ت: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٧٥٩. ديوان الشافعي، الإمام الشافعي، تحقيق: محد ابراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، القاهرة، د،ت.

١٧٦٠. ديوان الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، اعتني به: عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة،ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ. ٢٠٠٥م.

١٧٦١. ديوان الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: يوسف البقاعي، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٨٦م.

١٧٦٢. ديوان الشنفرى، تحقيق د. أميل بديع يعقوب، دار الكتاب

العربي،ط٢، بيروت، ١٩٩٦م.
١٧٦٣. **ديوان الطفيل الغنوي**، شرح الأصمعي، ت: حسان فلاح أوعلي، دار صادر،ط١، بيروت، ١٩٩٧م.
١٧٦٤. **ديوان الفرزدق**، دار الكتب العلمية، عناية: علي فاعور، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.
١٧٦٥. **ديوان الكميت**، تحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، ط١، ٢٠٠٠م.
١٧٦٦. **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م.
١٧٦٧. **ديوان المعاني**، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، دار الجيل، بيروت.
١٧٦٨. **ديوان النابغة الجعدي**، ت: د. واضح الصمد، دار صادر، ط١، بيروت، ١٩٩٨م.
١٧٦٩. **ديوان النابغة الذبياني**، دار الهلال بالفجالة، مصر، ١٩١١م.
١٧٧٠. **ديوان امرؤ القيس**، امرؤ القيس، دار الكتب العلمية، ط٥، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
١٧٧١. **ديوان امرؤ القيس**، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٤٢٥هـ.
١٧٧٢. **ديوان أوس**، أبو شريح أوس بن حجر بن مالك، المحقق : محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠م.
١٧٧٣. **ديوان أوس**، أبو شريح أوس بن حجر بن مالك، المحقق : محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت ١٩٧٩ م.
١٧٧٤. **ديوان أوس**، أبو شريح أوس بن حجر بن مالك، دار بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
١٧٧٥. **ديوان حافظ إبراهيم**، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، محمد أمين دمج، بيروت، ١٩٦٩م.
١٧٧٦. **ديوان حسان بن ثابت**، تحقيق الدكتور وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦م.
١٧٧٧. **ديوان حسان بن ثابت**، مطبعة الدولة التونسية، ١٣٨١هـ.
١٧٧٨. **ديوان ذي الرمة**، غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، أبو الحارث ـ ذو الرمة، المحقق : أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، ١٤١٥، ١٩٩٥م.

١٧٧٩. **ديوان ذي الرمة**، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، لبنان، ٢٠٠٦م.

١٧٨٠. **ديوان زهير بن أبي سلمى**، دار صادر، بيروت.

١٧٨١. **ديوان طرفة بن العبد**، طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، ط٢، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

١٧٨٢. **ديوان طرفة بن العبد**، طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي، المحقق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.

١٧٨٣. **ديوان عبيد بن الأبرص**، تحقيق: دكتور حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، مصر، ١٩٥٧م.

١٧٨٤. **ديوان كثير**، جمعه وشرحه: الدكتور إحسان عباس نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، ١٣٩١هـ.

١٧٨٥. **ديوان كثير**، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٧٨٦. **ديوان كعب بن زهير**، كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني، أبو المضرَّب، المحقق : علي فاعور، دار الكتب العلمية، سنة النشر : ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

١٧٨٧. **ديوان محمد هانئ الأندلسي**، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥م.

ذ

١٧٨٨. **ذخيرة الحفاظ**، محمد بن طاهر المقدسي، تحقيق: د.عبد الرحمن الفريوائي، دار السلف، الرياض، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م.

١٧٨٩. **الذخيرة**، أبو العباس أحمد بن إدريس المالكي الشهير بالقرافي، تحقيق: محمد حجي، سعيد أعراب، محمد بو خبزة، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٤م.

١٧٩٠. **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠ م.

١٧٩١. **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧ م.

١٧٩٢. **الذكر الجماعي بين الاتباع والابتداع**، محمد الخميس، دار الهدي النبوي، المنصورة، مصر، ودار

الفضيلة، الرياض، ط١، ٢٠٠٤م.

١٧٩٣. **الذكر وأثره في دنيا المسلم وآخرته**، محمد صدقي البرنو، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٨٨م.

١٧٩٤. **ذم الحسد والحساد**، يوسف رشاد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٧٩٥. **ذم الدنيا**، ابن أبي الدنيا، مكتبة القرآن.

١٧٩٦. **ذم الرياء في الأعمال والشهرة في اللباس والأحوال وكراهية الصفق والزفن عند سماع الذكر**، أبو محمد الحسن بن إسماعيل بن محمد الضراب، تحقيق: د. محمد با كريم محمد با عبد الله، دار البخاري للنشر والتوزيع، ط١، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ.

١٧٩٧. **ذم الكلام وأهله**، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، تحقيق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، مكتبة العلوم والحكم،ط١، المدينة المنورة، ١٤١٨هـ،١٩٩٨م.

١٧٩٨. **ذم الهوى**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: أحمد عبد السلام عطا، دار الكتب العلمية.

١٧٩٩. **ذم الهوى**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: خالد عبد اللطيف السبع العَلمي، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

١٨٠٠. **ذم الهوى**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مراجعة: محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة.

١٨٠١. **الذم والمدح في القرآن الكريم**، معن توفيق دحام الحيالي، كلية الآداب، جامعة الموصل، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه فلسفة في اللغة العربية.

١٨٠٢. **ذو القرنين**، القائد الفاتح والحاكم الصالح، محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، ط٢، دمشق، ١٤١٥هـ،١٩٩٤م.

١٨٠٣. **ذو القرنين**، القائد الفاتح والحاكم الصالح، محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، ط٢، دمشق، ١٤٠٦هـ،١٩٨٦م.

١٨٠٤. **ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم**، مها محمد عرفة سكيك، رسالة ماجستير مقدمة

للجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

ر

١٨٠٥. **الرأي العام في الإسلام**، مجدي عبدالحليم، دار الفكر العربي، ط٢،بيروت، ١٩٩٠م.

١٨٠٦. **الرائد دروس في التربية والدعوة**، مازن الفريح، دار المنطلق، ط١، ١٤١٨هـ.

١٨٠٧. **الرائد معجم لغوي عصري**، جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م.

١٨٠٨. **الرائد معجم لغوي عصري**، جبران مسعود، دار العلم للملايين،ط٤،بيروت، ١٩٨١م.

١٨٠٩. **الرائد معجم لغوي عصري**، جبران مسعود، دار العلم للملايين،ط٧،بيروت، ١٩٩٢م.

١٨١٠. **الربا أضراره وآثاره في ضوء الكتاب والسنة**، سعيد القحطاني، موقع نداء الإيمان.

١٨١١. **الرجولة في القرآن الكريم**، الدكتور عصام العبد زهد، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسة الإسلامية، المجلد الثامن عشر، العدد الثاني، يونيو، ٢٠١٠م.

١٨١٢. **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ابن بطوطة، دار الشرق العربي، بيروت، بدون.

١٨١٣. **رحلة ابن جبير**، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، بدون

١٨١٤. **رحلة الإيمان في جسم الإنسان**، د. حامد محمد حامد، دار القلم، دمشق، ١٩٩١م.

١٨١٥. **رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج منها**، عطاس عبد الملك الخشبة، دار الهلال.

١٨١٦. **رحمة الله أسبابها وآثارها**، د. مفسر بن سعيد بن دماس الغامدي، مجلة البحوث الإسلامية، العدد (٤٥)، من إصدار الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بالأمانة العامة لهيئة كبار العلماء، ١٤١٦هـ.

١٨١٧. **الرحمة في القرآن الكريم**، موسى عبده عسيري، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٤١٢هـ،١٩٩١م.

١٨١٨. **الرحيق المختوم**، صفي الدين المباركفوري، دار الهلال،ط١، بيروت.

١٨١٩. **الرحيق المختوم**، صفي الرحمن المباركفوري، دار العصماء،ط١، دمشق، ١٤٢٧هـ.

١٨٢٠. **الرحيق المختوم**، صفي الرحمن المباركفوري، مكتبة الرشد،ط٣، الرياض، ١٤٢٧هـ،٢٠٠٦م.

١٨٢١. **رد المحتار على الدر المختار**، ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، دار الفكر،ط٢، بيروت، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.

١٨٢٢. **رد المحتار على الدر المختار**، ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ،٢٠٠٠م.

١٨٢٣. **الرد على الأخنائي واستحباب زيارة خير البرية**، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة.

١٨٢٤. **الرد على الجهمية**، أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني، المحقق: بدر بن عبد الله البدر، دار ابن الأثير،ط٢، الكويت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م

١٨٢٥. **الرد على الجهمية والزنادقة**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع،ط١.

١٨٢٦. **الرد على المنطقيين**، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار المعرفة، بيروت.

١٨٢٧. **الرزق: مصدره، أسباب حصوله وزيادته، حلاله وحرامه، شروطه**، مسفر بن سعيد الغامدي، مجلة البحوث الإسلامية،العدد الخامس والخمسون، عدد رجب إلى شوال، السعودية، ١٤١٩هـ.

١٨٢٨. **الرسالات والرسل**، د : عمر سليمان الأشقر، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية.

١٨٢٩. **رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله بن محمد المديفر، مطابع الشرق الأوسط، ط١، الرياض،١٤٢٠هـ.

١٨٣٠. **رسالة الاعتقاد**، الحافظ ابن كثير، مخطوطة.

١٨٣١. **الرسالة الأكملية في ما يجب على الله من صفات الكمال**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ١٤٠٣هـ،١٩٨٢م.

١٨٣٢. **الرسالة التبوكية(زاد المهاجر إلى**

ربه)، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: د. محمد جميل غازي، مكتبة المدني، جدة.

١٨٣٣. الرسالة التدمرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٠هـ.

١٨٣٤. رسالة الخط والقلم، ابن قتيبة، المكتبة الشاملة.

١٨٣٥. رسالة الشرك ومظاهره، مبارك بن محمد الميلي الجزائري، تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمن محمود، دار الراية للنشر والتوزيع،ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٨٣٦. رسالة الطيف، الصاحب بهاء الدين علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي، المكتبة الشاملة.

١٨٣٧. الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، ت: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة.

١٨٣٨. الرسالة المحمدية، السيد سليمان الندوي الحسيني، دار ابن كثير، ط١، دمشق، ١٤٢٣ هـ.

١٨٣٩. رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٣هـ.

١٨٤٠. رسالة إلى كلّ من يؤمن بعيسى عليه السّلام، وليد بن فهد الودعان، الانترنت.

١٨٤١. رسالة في القرآن وكلام الله، ابن قدامة المقدسي، تحقيق يوسف بن محمد السعيد، دار أطلس الخضراء، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٤م.

١٨٤٢. رسالة في الكلام على آية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نجم الدين الغزي، ت: نشأت بن كمال المصري، المكتبة الإسلامية، ط١، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

١٨٤٣. رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة، أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، قيدها واعتنى بأصلها: أبو الحارث نادر بن سعيد آل مبارك التعمري، راجعها وقدم لها: الشيخ

مشهور حسن آل سلمان، الشيخ سليم بن عيد الهلالي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م.

١٨٤٤. **الرسالة**، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، ط١، مصر، ١٣٥٨هـ،١٩٤٠م.

١٨٤٥. **رسائل ابن حزم الأندلسي**، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، ت: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

١٨٤٦. **رسائل الجاحظ**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

١٨٤٧. **رسائل الكندي الفلسفية**، الكندي، تحقيق، محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ١٩٥٠م.

١٨٤٨. **الرسل والرسالات**، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، ودار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

١٨٤٩. **الرسل والرسالات**، د. عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع،ط٤، الكويت، ١٤١٠ هـ، ١٩٨٩ م.

١٨٥٠. **الرسول القائد**، محمود شيت خطاب، دار الفكر،ط٦، بيروت، ١٤٢٢ هـ.

١٨٥١. **الرسول** صلى الله عليه وسلم، سعيد حوى، دار عمار، بيروت، ط٤، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

١٨٥٢. **الرضا عن الله بقضائه**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: ضياء الحسن السلفي، الدار السلفية، ط١،بومباي، ١٤١٠هـ.

١٨٥٣. **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**، مكي بن أبي طالب القيسي، مكتبة قرطبة، ط١، مصر، ٢٠٠٨م.

١٨٥٤. **رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب**، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، المحقق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، عالم الكتب،ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ١٤١٩هـ.

١٨٥٥. **رفع الحرج في الشريعة الإسلامية**، د. يعقوب عبد الوهاب الباحسين، مكتبة الرشد، ط٤، الرياض، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٨٥٦. **الرق في الإسلام**، محمود عبدالوهاب، دار الاعتصام، ط١،

مصر.

١٨٥٧. **الرق قضية إنسانية وعلاج قرآني**، الدكتور أحمد سليمان البشايرة، نسخة إلكترونية.

١٨٥٨. **رَكائزُ الإيمانِ**، محمد قطب، حققه وخرج أحاديثه ونسقه: علي بن نايف الشحود، دار المعمور، ط١، ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩م

١٨٥٩. **ركائز الإيمان**، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٨م.

١٨٦٠. **روائع الإعجاز العددي في القرآن الكريم**، المدونة الإلكترونية male،dr.Abdul

١٨٦١. **روائع البيان تفسير آيات الأحكام**، محمد علي الصابوني، طبع على نفقة: حسن عباس الشربتلي، دار القلم، دمشق، ١٤١١هـ.

١٨٦٢. **روائع البيان تفسير آيات الأحكام**، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، دمشق، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ط٣، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠م.

١٨٦٣. **روائع التفسير(الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله، دار العاصمة،ط١، السعودية، ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.

١٨٦٤. **روح البيان في تفسير القرآن**، إسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي الحنفي الخلوتي، صححه وخرج آياته: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٨٦٥. **روح البيان في تفسير القرآن**، إسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي الحنفي الخلوتي، دار إحياء التراث العربي،ط١.

١٨٦٦. **روح البيان في تفسير القرآن**، إسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء، دار الفكر، بيروت.

١٨٦٧. **روح البيان في تفسير القرآن**، إسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي الحنفي الخلوتي، استانبول، ١٩٢٨م.

١٨٦٨. **روح البيان في تفسير القرآن**، إسماعيل حقي بن مصطفى الاستانبولي الحنفي الخلوتي، دار سعادات، تركيا، ١٣٣٠هـ.

١٨٦٩. **روح الدين الإسلامي**، عفيف طبارة، دار العلم للملايين، الطبعة

السابعة والعشرون، بيروت، ١٩٨٨م.

١٨٧٠. روح الدين الإسلامي، عفيف طباره، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٥م.

١٨٧١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م.

١٨٧٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ.

١٨٧٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٨٧٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، ط٤، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

١٨٧٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م.

١٨٧٦. الروح، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

١٨٧٧. الروح، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عادل عبد المنعم، مكتبة القرآن، القاهرة.

١٨٧٨. الروح، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: أحمد أنيس عبادة، ومحمد فهمي السرحاني، مكتبة نصير.

١٨٧٩. الروح، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، حققه: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، خرج أحاديثه: كمال بن محمد قالمي، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع.

١٨٨٠. الروح، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. محمد محمد تامر، دار التقوى للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٣م.

١٨٨١. الروح، محمد بن أبي بكر ابن قيم

الجوزية، تحقيق: محمد إسكندر يلدا، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت،١٩٨٢م.

١٨٨٢. **الرّوض الأنف**، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلى، الطّباعة الفنّيّة المُتّحدة، القاهرة.

١٨٨٣. **الروض الأنف**، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلى، المحقق: عمر عبد السلام السلامى، دار إحياء التراث العربي،ط١، بيروت، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

١٨٨٤. **الروض الداني (المعجم الصغير)**، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي،ط١، دار عمار، عمان، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

١٨٨٥. **الروض المربع شرح زاد المستقنع**، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، د.ت.

١٨٨٦. **الروض المعطار في خبر الأقطار**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى، تحقيق : إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة،ط٢، بيروت، ١٩٨٠ م.

١٨٨٧. **روضة الطالبين وعمدة المفتين**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي،ط٣، بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

١٨٨٨. **روضة الطالبين وعمدة المفتين**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٥ هـ.

١٨٨٩. **روضة الطالبين وعمدة المفتين**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ،١٩٩٢م.

١٨٩٠. **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البُستي، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، بدون طبعة أو تاريخ نشر.

١٨٩١. **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البُستي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد وعبد الرزاق حمزة ومحمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: ١٣٧٩

هـ١٩٧٧م.

١٨٩٢. **الروضة الفيحاء في أعلام النساء**، ياسين بن خير الله بن محمود بن موسى الخطيب العمري.

١٨٩٣. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، محمد بن أبي بكر أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٨٩٤. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، محمد بن أبي بكر أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

١٨٩٥. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، محمد بن أبي بكر أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م،١٤٢٤هـ.

١٨٩٦. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، محمد بن أبي بكر أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد شمس، دار عالم الفوائد، ط١، مكَّة الـمُكرَّمة، ١٤٣١هـ.

١٨٩٧. **روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي، مكتبة الرشد ط١،الرياض، ١٤١٣هـ.

١٨٩٨. **روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي، مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م.

١٨٩٩. **الروعة في كل مكان**، هارون يحيى، موقعه على الشبكة.

١٩٠٠. **الرؤى الصادقة حجيتها وضوابطها**، د خالد بن بكر آل عابد، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج ١٩، ع ٤٢، رمضان ١٤٢٨هـ.

١٩٠١. **الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين**، د. سهل بن رفاع العتيبي، الكتيبات الإسلامية، الرياض.

١٩٠٢. **الرؤيا في القرآن الكريم**، فتحية إبراهيم صرصور، ملتقى الصداقة الثقافي، غزة، فلسطين، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

١٩٠٣. **رؤية إسلامية للديمقراطية الغربية**، د. عبدالمجيد حافظ، دار وحي القلم،

ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م.

١٩٠٤. **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية**، المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، أ.د. عبد الحميد أبو سليمان، الرياض، ٢٠٠٨م.

١٩٠٥. **رؤيةٌ شرعيةٌ في الجدال والحوار مع أهل الكتاب**، الشريف محمد بن حسين الصمداني، راجعه وقدَّم له: الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، موقع وزارة الأوقاف السعودية، بدون بيانات.

١٩٠٦. **رياض الصالحين**، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المحقق: د. ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع،ط١، دمشق، بيروت، ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧ م.

١٩٠٧. **رياض الصالحين**، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المحقق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.

١٩٠٨. **رياض الصالحين**، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المحقق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م .

ز

١٩٠٩. **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق د . محمد بن عبد الرحمن عبد الله، تخريج : أبو هاجر السعدي بن بسيوني زغلول، المكتب الإسلامي،ط٤، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

١٩١٠. **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٤٢٢هـ.

١٩١١. **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي،ط٣، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

١٩١٢. **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م.

١٩١٣. **زاد المسير في علم التفسير**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: أحمد

شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.

١٩١٤. **زاد المعاد في هدى خير العباد**، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، صححه وقدم له: إبراهيم محمد الجمل، دار القلم للتراث، القاهرة، د.ت.

١٩١٥. **زاد المعاد في هدى خير العباد**، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، ط٢٧، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

١٩١٦. **زاد المعاد في هدى خير العباد**، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة،ط١٤، بيروت،١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

١٩١٧. **زاد المعاد في هدى خير العباد**، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، دار ابن حزم، ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ.١٩٩٩م.

١٩١٨. **زاد المهاجر إلى ربه**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: د. محمد جميل غازي، مكتبة المدني، جدة.

١٩١٩. **الزاهر فى معانى كلمات الناس**، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت،١٤١٢هـ،١٩٩٢م.

١٩٢٠. **الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي**، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: مسعد عبد الحميد السعدني، دار الطلائع.

١٩٢١. **زبدة التفسير من فتح القدير**، محمد سليمان الأشقر، شركة ذات السلاسل، ط٢، الكويت، ١٩٨٨م.

١٩٢٢. **الزكاة الضمان الاجتماعي الإسلامي**، عبد الله عثمان حسين، دار الوفاء، ط١، المنصورة، مصر، ١٤٠٩هـ. ١٩٨٩م.

١٩٢٣. **الزندقة والزنادقة**، عاطف شكري أبو عوض، دار الفكر، عمان، بدون تاريخ.

١٩٢٤. **الزهد والرقائق**، عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، حققه وعلق عليه: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م.

١٩٢٥. **الزهد والورع والعبادة**، تقي الدين

أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: حماد سلامة، محمد عويضة، مكتبة المنار،ط١، الأردن، ١٤٠٧هـ.

١٩٢٦. **الزهد**: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: يحيى بن محمد سوس، دار ابن رجب،ط٢، ٢٠٠٣ م.

١٩٢٧. **الزهد**، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم بن محمد وأبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم، دار المشكاة للنشر والتوزيع، ط١، حلوان، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م.

١٩٢٨. **الزهد**، أحمد بن حنبل، ت: عبد العلي عبد الحميد حامد، دار الريان للتراث،ط٢، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

١٩٢٩. **الزهد**، أحمد بن حنبل، تحقيق: نور سعيد، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٢ م.

١٩٣٠. **الزهد**، أحمد بن حنبل، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٩٣١. **زهر الآداب وثمر الألباب**، إبراهيم بن تميم الأنصاري، أبي إسحاق الحُصري القيرواني، تحقيق: د. زكي مبارك، المكتبة العصرية، خزانة الكتب والأبحاث.

١٩٣٢. **زهر الآداب وثمر الألباب**، إبراهيم بن تميم الأنصاري، أبي إسحاق الحُصري القيرواني، دار الجيل، بيروت.

١٩٣٣. **زهر الأكم في الأمثال والحكم**، الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، تحقيق: محمد حجي، محمد الأخضر، الشركة الجديدة، دار الثقافة،ط١، الدار البيضاء، المغرب، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١م.

١٩٣٤. **زهرة التفاسير**، محمد أبو زهـرة، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٤هـ،١٩٧٤م.

١٩٣٥. **الزهرة**، أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني ثم البغدادي الظاهري، المكتبة الشاملة.

١٩٣٦. **الزواج في الشريعة الإسلامية**، علي حسب الله، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٩٣٧. **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، ابن حجر الهيتمي، المكتبة العصرية، ط٢، صيدا، بيروت، ١٤٢٠هـ

١٩٩٩م.

١٩٣٨. **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، ابن حجر الهيتمي، دار الفكر،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ. ١٩٨٧م.

١٩٣٩. **الزينة في الكلمات الإسلامية والعربية**، أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي، مركز الدراسات والبحوث.

س

١٩٤٠. **السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار**، عمر الديب، مجلة الأزهر، عدد فبراير (٢٠٠٧).

١٩٤١. **السباق إلى العقول**، الدكتور عبد الله قادري الأهدل، موقع وزارة الأوقاف السعودية.

١٩٤٢. **سبب وضع علم العربية**، عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: مروان العطية، دار الهجرة، ط١، بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٩٤٣. **السبعة في القراءات**، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، ابن مجاهد، تحقيق : د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٣، مصر.

١٩٤٤. **السبعة في القراءات**، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي، ابن مجاهد، تحقيق : د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٢، مصر، ١٤٠٠ هـ.

١٩٤٥. **سُبُل السلام شرح بلوغ المرام**، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي،ط٤، مصر، ١٣٧٩هـ ، ١٩٦٠م.

١٩٤٦. **سُبُل السلام شرح بلوغ المرام**، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني، تحقيق: عصام الصبابطيّ، وعماد السيد، دار الحديث، ط١، القاهرة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٩٤٧. **سُبُل السلام شرح بلوغ المرام**، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني، دار الكتاب العربي،ط٥، بيروت، ١٤١٠هـ.

١٩٤٨. **سُبُل السلام شرح بلوغ المرام**، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني، تحقيق: د. حسين بن قاسم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط٢، ١٤٠٠هـ.

١٩٤٩. **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي معوض، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت،

١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

١٩٥٠. **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية،ط١، مصر، ١٤١٨هـ،١٩٩٧م.

١٩٥١. **السحاب في القرآن**، د. حسني حمدان الدسوقي حمامة، موقع الألوكة الثقافية، تاريخ الإضافة (١٥/ ١٢/ ٢٠١٤م).

١٩٥٢. **السحر الحلال في الحكم والأمثال**، أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٥٣. **السحر والحسد**، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم.

١٩٥٤. **السحر والعين والرقية منهما**، فهد بن سليمان القاضي، دار شيخ الإسلام ابن تيمية، طنطا، مصر.

١٩٥٥. **السحر والكهانة والحسد**، أحمد بن علي العسقلاني، دار مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٩٠م.

١٩٥٦. **سد الذرائع في مسائل العقيدة على ضوء الكتاب والسنة الصحيحة**، السنة الرابعة والثلاثون، العدد (١١٤)، عبد الله بن شاكر الجنيدي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط٣٤، ١٤٢٢هـ،٢٠٠٢هـ.

١٩٥٧. **سر الفصاحة**، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

١٩٥٨. **سر صناعة الإعراب**: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٩٥٩. **سراج الملوك**، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي، مصر: ١٢٨٩هـ، ١٨٧٢م.

١٩٦٠. **السراج المنير**، محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت .

١٩٦١. **السراج المنير**، محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

١٩٦٢. **السراج المنير**، محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، مكتبة المسجد النبوي الشريف، د.ت.

١٩٦٣. **السراج في بيان غريب القرآن**، محمد بن عبد العزيز الخضيري، مجلة البيان، ط١، ١٤٢٩هـ،٢٠٠٨م.

١٩٦٤. **السعادة في الحياة**، فيصل بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن حسين بن فاعور الشقيرات التركماني، عمان،

ط١، ١٤٢٢هـ.٢٠٠١م.

١٩٦٥.السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية، أبو الحسن محمد بن يوسف العامري، دراسة وتحقيق: أحمد عبد الحليم عطية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

١٩٦٦.السعادة وتنمية الصحة النفسية، د. كمال إبراهيم موسى، دار النشر للجامعات،ط١، مصر، ١٤٢١هـ.٢٠٠٠م.

١٩٦٧.السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة، د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي، مقال منشور بشبكة المعلومات الدولية .

١٩٦٨.سفر الخروج، الإصحاح ٢٢، آية (٢٥)، دار الكتاب المُقَدَّسِ.

١٩٦٩.السكينة والطمأنينة في القرآن الكريم، دراسة دلالية، صلاح الدين سليم محمد، بحث منشور، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد(١٢) المجلد السادس، العراق، ٢٠١٢م.

١٩٧٠.السلام العالمي والإسلام، سيد قطب، دار الشروق، ط١٢، القاهرة، ١٤١٣هـ.١٩٩٣م.

١٩٧١.السلام في شريعة القرآن، مقال على موقع الدكتور يوسف القرضاوي.

١٩٧٢.السلام مع الأعداء في ضوء الشريعة الإسلامية، د. خالد بن سليم الشراري، مجلة البحوث الإسلامية، ع ٨٩، ١٤٣٤هـ .

١٩٧٣.سلسة الأحاديث الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف،ط١، الرياض،١٤١٧هـ.

١٩٧٤.سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١٢هـ.

١٩٧٥.سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي،ط٤، بيروت، ١٤٠٥هـ،١٩٨٥م.

١٩٧٦.سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف،ط١، الرياض، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م.

١٩٧٧.سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢،بيروت، ١٣٩٩هـ.

١٩٧٨.سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض،١٩٩٥م.

١٩٧٩.سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ٢٠٠٨م .

١٩٨٠.سلسلة الأحاديث الصحيحة،

محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف،ط١، الرياض ٢٠٠٢م.

١٩٨١.سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف،ط١، الرياض، ١٩٩٦م.

١٩٨٢.سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف،ط١، الرياض ١٩٩٢م، ١٤١٢هـ.

١٩٨٣.سلسلة التفسير، مصطفى العدوي، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

١٩٨٤.سلسلة شرح الرسائل، الإمام محمد بن عبدالوهاب، بشرح الشيخ صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان، دار الفرقان للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ.

١٩٨٥.سلسلة محاسن التأويل، صالح بن عواد المغامسي، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

١٩٨٦.سلسلة مدرسة الدعاة، عبد الله ناصح علوان، دار السلام،ط١، ١٩٩٧م-١٤١٨هـ.

١٩٨٧.سمات اليهود في القرآن الكريم، ترجمة: أحمد عودة، إحياء التراث في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، جمعية القرآن الكريم للتوجيه والإرشاد، ط١، بيروت، ٢٠١١م.

١٩٨٨.سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة - ط١، مصر، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م.

١٩٨٩.سن ابن ماجة، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر للنشر والتوزيع، « بلارقم أو تاريخ أو مكان».

١٩٩٠.السنة الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الشيخ صالح الخطيب، الدار العثمانية، ط١، ٢٠٠٤م.

١٩٩١.سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم، خالد بن موسى بن غرم الله الحسني الزهراني، ماجستير مخطوط بكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى.

١٩٩٢.سنة الله في تقدير الأرزاق، أسماء عبد الرحيم، جامعة النجاح الوطنية، رسالة ماجستير، فلسطين، ٢٠١٠م.

١٩٩٣.السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا.

١٩٩٤. السنة، عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني، تحقيق : محمد

ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي،ط١، بيروت، ١٤٠٠هـ.

١٩٩٥. السنة، أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي، تحقيق: د. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار ابن القيم، ط١،الدمام، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

١٩٩٦. السنة، أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال أبو بكر، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية،ط١، الرياض، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

١٩٩٧. السنة، تحقيق الدكتور: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، رمادي للنشر،ط٤، الدمام، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ.

١٩٩٨. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، دار الحديث، القاهرة.

١٩٩٩. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، كتب حواشيه: محمود خليل، مكتبة أبي المعاطي.

٢٠٠٠. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن ماجة، يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

٢٠٠١. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م.

٢٠٠٢. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، مذيلاً بأحكام الألباني عليها.

٢٠٠٣. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت .

٢٠٠٤. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الدعوة، ودار سحنون، موسوعة الكتب الستة وشروحها، استانبول، تركيا، ١٩٩٢م.

٢٠٠٥. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الجيل،ط١، بيروت،١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٢٠٠٦. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر، ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م.

٢٠٠٧. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض،

١٤١٩هـ،١٩٨٩م.
٢٠٠٨. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، بيروت.
٢٠٠٩. سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة عيسى الحلبي بمصر، ١٩٧٢م، ١٣٩١هـ.
٢٠١٠. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، إعداد وتعليق: عزت الدعاس وعادل السيد، دار ابن حزم،ط١، بيروت، ١٤١٨هـ. ١٩٩٧م.
٢٠١١. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، الدار المصرية والدار اللبنانية، القاهرة ١٩٨٨م.
٢٠١٢. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، المحقق: شعَيب الأرناؤوط، ومحَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
٢٠١٣. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
٢٠١٤. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ،١٩٨٩م.
٢٠١٥. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين،ط٤، ١٩٩٠م.
٢٠١٦. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٢٠١٧. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد عوامة، مؤسسة الريان،ط١، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٢٠١٨. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مع تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار الفكر،ط٣، بيروت، ١٩٩٩م.
٢٠١٩. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي، بيروت .
٢٠٢٠. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، عناية عزت عبيد الدعاس، عادل السيد، دار الحديث، ط١، بيروت، ١٣٨٨هـ.

٢٠٢١. **سنن أبي داود**، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، مع معالم السنن للخَطَّابي، مكتبة السنة المحمدية، ١٣٦٩هـ.

٢٠٢٢. **سنن أبي داود**، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، مؤسسة الكتب الثقافية،ط١، بيروت، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م.

٢٠٢٣. **سنن أبي داوود**، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

٢٠٢٤. **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد**، د. عبد الكريم زيدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.

٢٠٢٥. **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد**، د.عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م .

٢٠٢٦. **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد**، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م.

٢٠٢٧. **السنن الإلهية في تغيير المجتمعات في ضوء القرآن الكريم جمعاً ودراسة**، أيمن غنام المغربي، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٨ هـ.

٢٠٢٨. **سنن البيهقي الكبرى**، أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة،١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٢٠٢٩. **سنن الترمذي**، محمد عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٠٣٠. **سنن الترمذي**، محمد عيسى الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي،ط٢، مصر، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

٢٠٣١. **سنن الترمذي**، محمد عيسى الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره، وعلق عليه الشيخ الألباني، اعتنى به مشهور آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،ط١.

٢٠٣٢. **سنن الترمذي**، محمد عيسى الترمذي، دار الدعوة،ط١، حمص، سوريا، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.

٢٠٣٣. **سنن الترمذي**، محمد عيسى الترمذي، دار الفكر، ١٤٠٨هـ .

٢٠٣٤. **سنن الترمذي**، محمد عيسى الترمذي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٢٠٣٥. **سنن الترمذي**، محمد عيسى الترمذي، تحقيق : بشار عواد

معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٠٣٦. سنن الترمذي، محمد عيسى الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن عثمان، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠م.

٢٠٣٧. سنن الترمذي، محمد عيسى الترمذي، دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة الكتب الستة وشروحها، استانبول، تركيا، ١٩٨٠م.

٢٠٣٨. سنن الترمذي، محمد عيسى الترمذي، دار الفكر، ط٢، بيروت،١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٢٠٣٩. سنن الترمذي، محمد عيسى الترمذي، مصطفى الحلبي،ط١، القاهرة، ١٣٨٢هـ. ١٩٦٢م.

٢٠٤٠. سنن الترمذي، محمد عيسى الترمذي، مع تحفة الأحوذي للمباركفوري، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١٤٠٦هـ.

٢٠٤١. سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ. ١٩٦٦م.

٢٠٤٢. سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، المطبعة المصرية، القاهرة.

٢٠٤٣. سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٢٠٤٤. سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي، دار المحاسن، القاهرة، ١٣٨٦ هـ.

٢٠٤٥. سنن الدارمي، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي،ط١، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٢٠٤٦. سنن الدارمي، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني،دار المغني للنشر والتوزيع، ط١، المملكة العربية السعودية،٢٠٠٠م.

٢٠٤٧. سنن الدارمي، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة في بيروت، بدون تاريخ.

٢٠٤٨. سنن الدارمي، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار القلم، ط٢،

بيروت، ١٩٩٦م.

٢٠٤٩. **سنن الدارمي**، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني، حققه وخرج أحاديثه: سيد إبراهيم، علي محمد علي، ضبط أصوله وفهرسه الدكتور: مصطفى الذهبي، دار الحديث،ط١، القاهرة، ١٤٢١هـ،٢٠٠٠م.

٢٠٥٠. **سنن الدارمي**، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني، دار ابن حزم،ط١، الرياض، ٢٠٠٠م.

٢٠٥١. **سنن الدارمي**، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني، دار الدعوة، ودار سحنون، موسوعة الكتب الستة وشروحها، استانبول، تركيا، ١٩٩٢م.

٢٠٥٢. **سنن الدارمي**، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني، دار الريان للتراث،ط١، ١٤٠٧ هـ.

٢٠٥٣. **سنن الدارمي**، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني،تحقيق: نبيل هاشم الغمري، دار البشائر،ط١، بيروت، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

٢٠٥٤. **السنن الصغرى**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية،ط٢، حلب، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٢٠٥٥. **السنن الكبرى للبيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٧هـ.

٢٠٥٦. **السنن الكبرى للبيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، مع الجوهر النقي لابن التركماني، عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند، ١٣٤٨هـ.

٢٠٥٧. **السنن الكبرى للبيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٢٠٥٨. **السنن الكبرى للبيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار صادر، بيروت، (د. ت) .

٢٠٥٩. **السنن الكبرى للبيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة، ط١، الهند، ١٣٤٤هـ.

٢٠٦٠. **السنن الكبرى للبيهقي**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبي بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر

عطا، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

٢٠٦١. **السنن الكبرى للنسائي**، أحمد بن شعيب النسائي، دار الحديث،ط١، القاهرة، ١٩٩٩م.

٢٠٦٢. **السنن الكبرى للنسائي**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تحقيق : د.عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٢٠٦٣. **السنن الكبرى للنسائي**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، دار الرسالة، بيروت،١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م.

٢٠٦٤. **السنن الكبرى**، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.

٢٠٦٥. **السنن الكبرى**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبي بكر البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢٠٦٦. **السنن المأثورة**، إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني، تحقيق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٢٠٦٧. **السّنن النّفسيّة لتطور الأمم**، غوستاف لوبون نقله إلى العربية: عادل زعيتر، دار المعارف، ١٩٥٧م.

٢٠٦٨. **السنن بشرح الإمام أبي الحسن الحنيف السندي**، محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، ط٢،بيروت، ١٩٩٧م.

٢٠٦٩. **سنن سعيد بن منصور**، سعيد بن منصور الخراساني، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية،ط١، الهند، ١٤٠٣هـ ،١٩٨٢م.

٢٠٧٠. **سنن سعيد بن منصور**، سعيد بن منصور الخراساني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

٢٠٧١. **سنن سعيد بن منصور**، سعيد بن منصور الخراساني، تحقيق: د. سعد الحميد وآخرون، دار الألوكة للنشر،ط١، الرياض، ١٤٣٣هـ.

٢٠٧٢. السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، محمد بن أحمد عبد السلام خضر الشقيري الحوامدي المصحح: محمد خليل هراس، دار الفكر.

٢٠٧٣. السنن، محمد بن عيسى الترمذي، شرح المباركفوري، تحفة الأحوذي دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

٢٠٧٤. السؤال في ضوء القرآن الكريم، (دراسة موضوعية)، وردة مصطفى كحيل، رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، في الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين.

٢٠٧٥. سؤالات البرقاني للدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، تحقيق: د. عبد الرحيم محمد أحمد القشقري، كتب خانه جميلي، ط١، باكستان، ١٤٠٤هـ.

٢٠٧٦. سورة التكاثر، إبراهيم الحقيل، شبكة الألوكة.

٢٠٧٧. سورة القصص، دراسة تحليلية، الدكتور محمد المطني، بدون بيانات.

٢٠٧٨. سورة الواقعة ومنهجها في العقائد(دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)، محمود محمد غريب، دار التراث العربي، ط٣، القاهرة، ١٤١٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٠٧٩. سوق الأوراق المالية فى ميزان الفقه الإسلامي، د. عطية فياض، دار النشر للجامعات، مصر، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٢٠٨٠. السياسة الاقتصادية والنظم المالية في الفقه الإسلامي، د. أحمد الحصري، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٢٠٨١. السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية، عبد الوهاب خلاف، دار الأنصار، القاهرة، ١٣٩٧هـ.

٢٠٨٢. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ.

٢٠٨٣. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، دار الكتب العربية، بيروت ١٣٨٦هـ.

٢٠٨٤. السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية، عبد الوهاب خلاف، دار القلم، دمشق،

١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٠٨٥. **السياسة الشرعية**، مناهج جامعة المدينة العالمية، مرحلة: ماجستير، جامعة المدينة العالمية.

٢٠٨٦. **السياسة المالية في الإسلام وصلتها بالمعاملات المعاصرة**، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، ط٢، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢٠٨٧. **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٠٨٨. **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٨، بيروت، ١٤١٢هـ.

٢٠٨٩. **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١١، بيروت، ١٤١٧هـ. ١٩٩٦م.

٢٠٩٠. **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٩، بيروت، ١٤١٣هـ.

٢٠٩١. **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م.

٢٠٩٢. **سير السلف الصالحين**، أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، الملقب بقوام السنة، تحقيق: د. كرم حلمي فرحات، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

٢٠٩٣. **السير والمغازي**، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر،ط١، بيروت، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٢٠٩٤. **سيرة ابن هشام**، محمد بن عبدالملك ابن هشام، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الهداية، د.ت.

٢٠٩٥. **سيرة ابن هشام**، محمد بن عبدالملك ابن هشام، تحقيق: محمد خليل هراس، مكتبة الجمهورية، مصر،١٩٨٣م.

٢٠٩٦. **سيرة ابن هشام**، محمد بن عبدالملك ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٢، مصر، ١٣٧٥هـ ، ١٩٥٥م.

٢٠٩٧. **السيرة الحلبية**، أبو الفرج علي

بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٢٠٩٨. السيرة الحلبية، أبو الفرج علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت، ١٤٢٧هـ.

٢٠٩٩. السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٦ م .

٢١٠٠. السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم،ط١، المدينة المنورة، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٢١٠١. السِّيرةُ النّبوية عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، عَلي محمد محمد الصَّلَّابي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٧، بيروت، لبنان، ١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م.

٢١٠٢. السِّيرةُ النّبوية عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، عَلي محمد محمد الصَّلَّابي، دار التوزيع والنشر،ط٢، مصر، القاهرة،١٤٢٤هـ.٢٠٠٣م.

٢١٠٣. السِّيرةُ النّبوية عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، عَلي محمد محمد الصَّلَّابي، مكتبة الصحابة، ط١، الشارقة، ١٤٢٢هـ.٢٠٠١م.

٢١٠٤. السِّيرةُ النّبوية عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، عَلي محمد محمد الصَّلَّابي، دار الايمان للنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.

٢١٠٥. السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، دار القلم،ط٨، دمشق، ١٤٢٧ هـ .

٢١٠٦. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية،ط١، الرياض، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٢١٠٧. السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، أبو عمر، محمد بن حمد الصوياني، مكتبة العبيكان،ط١، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م.

٢١٠٨. السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محّمد سَعيد رَمضان البوط، دار الفكر،ط٢٥، دمشق، ١٤٢٦ هـ.

٢١٠٩. السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، أبو حاتم محمد بن حبان البُستي، صحّحه، وعلق عليه: الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، الكتب الثقافية،ط٣، بيروت، ١٤١٧ هـ .

٢١١٠. **السيرة النبوية**، أبو الحسن الندوي، دار ابن كثير،ط١٢، دمشق، ١٤٢٥ هـ.

٢١١١. **السيرة النبوية**، محمد بن عبد الملك ابن هشام، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ١٩٨٨م.

٢١١٢. **السيرة النبوية**، محمد بن عبدالملك ابن هشام، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت ١٤١١هـ.

٢١١٣. **السيرة النبوية**، محمد بن عبدالملك ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ودار القبلتين للثقافة الإسلامية، جدة.

٢١١٤. **سيرة عمر بن الخطاب**، ابن الجوزي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

٢١١٥. **سيرة مدينة القدس**، خالد محمد غازي، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط١، مصر، ١٩٩٨م.

٢١١٦. **سيكولوجية الدافعية والانفعالات**، د. محمد بني يونس، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط١، الأردن.

٢١١٧. **سيكولوجية المقامر، التشخيص والتنبؤ والعلاج**، د. أكرم زيدان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس ٢٠٠٥م.

٢١١٨. **السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار ابن حزم، ط١.

٢١١٩. **السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٠٥ هـ.

٢١٢٠. **سيول النفحات في تفسير سورة الحجرات**، أبو عرفات محمد بن نبيه علي ضيف الله، مكتبة عباد الرحمن، مصر، ومكتبة العلوم والحكم، مصر، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

ش

٢١٢١. **الشَّافِي فِيْ شَرْح مُسْنَد الشَّافِعِي**، أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: أحمد بن سليمان، أبي تميم يَاسر بن إبراهيم، مَكتَبَةَ الرُّشْدِ، ط١، الرياض، ١٤٢٦هـ. ٢٠٠٥م.

٢١٢٢. **شأن الدعاء**، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي،المحقق: أحمد يوسف الدّقاق، دار الثقافة العربية، ط١، دمشق، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

٢١٢٣. **شأن الدعاء**، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي،المحقق: أحمد يوسف الدّقاق، دار الثقافة العربية، دمشق، ط٣، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٢١٢٤. **الشباب المسلم في مواجهة التحديات**، عبد الله ناصح علوان، دار القلم،ط٣، بيروت، ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م.

٢١٢٥. **شبهات حول الإسلام**، محمد قطب، دار الشروق، مصر.

٢١٢٦. **شجرة المعارف والأحوال**، العز بن عبد السلام السلمي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ. ٢٠٠٣ م.

٢١٢٧. **شجرة المعارف والأحوال**، العز بن عبد السلام السلمي، تحقيق: إياد الطباع،دار الفكر المعاصر،ط٢،بيروت، ١٤١٦هـ ،١٩٩٦م.

٢١٢٨. **شجرة المعارف والأحوال**، العز بن عبد السلام السلمي، تحقيق: إياد خالد الطباع، دمشق، ١٩٨٩م.

٢١٢٩. **الشح والبخل معناه، مظاهره، أسبابه، آثاره، علاجه**، جماز بن عبد الرحمن الجماز، دار طيبة،ط١، الرياض، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م

٢١٣٠. **الشخصية الإسلامية**، الشيخ تقي الدين النبهاني، دار الأمة للطباعة والنشر، بيروت، ط٦،لبنان، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

٢١٣١. **الشخصية المصرية بين الماضي والحاضر**، طلعت رضوان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٢١٣٢. **الشخصية اليهودية من خلال القرآن**، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم،ط١، دمشق، ١٩٩٨م.

٢١٣٣. **شذا العرف في فن الصرف**، أحمد بن محمد الحملاوي، مراجعة وتحقيق: سعيد محمد اللحام، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م.

٢١٣٤. **شذا العرف في فن الصرف**، أحمد بن محمد الحملاوي، تحقيق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله، مكتبة الرشد، بدون طبعة، الرياض، بدون تاريخ.

٢١٣٥. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير،ط١، دمشق، ١٤٠٦ هـ

١٩٨٦م.

٢١٣٦. **شرح ابن القيم لأسماء الله الحسنى**، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، ط١، عمان، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٨م.

٢١٣٧. **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، ط٢٠، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠ م.

٢١٣٨. **شرح أبي داود**، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني، المحقق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م.

٢١٣٩. **شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسُّنَّة**، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، د.ت.

٢١٤٠. **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**، أبو القاسم، هبة الله الحسن بن منصور اللالكائي، تحقيق أحمد الغامدي دار طيبة، الرياض، ١٤١١ هـ.

٢١٤١. **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**، أبو القاسم، هبة الله الحسن بن منصور اللالكائي، تحقيق أحمد الغامدي دار طيبة، ط٨، الرياض، السعودية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٢١٤٢. **شرح الأحكام التشريعية في التوراة**، نادي فرج درويش العطار، مركز ابن العطار للتراث، ط١.

٢١٤٣. **شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية**، تقي الدين أبي الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، مؤسسة الريان، ط٦، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.

٢١٤٤. **شرح الأربعين النووية**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الثريا للنشر، ط١، الرياض، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٢١٤٥. **شرح الأشمونى لألفية ابن مالك**، علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأُشْمُوني الشافعي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٢١٤٦. **شرح الأصول الثلاثة**، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٢٧ هـ،

٢٠٠٦ م.

٢١٤٧. **شرح الإمام البغوي**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.

٢١٤٨. **شرح التدمرية**، ناصر البراك، دار كنوز إشبيليا، ط١، السعودية، ١٤٢٥هـ.

٢١٤٩. **شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه**، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الشافعي، سعد الدين التفتازاني، مطبعة صبيح، مصر، بدون بيانات.

٢١٥٠. **شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه**، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الشافعي، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦ م.

٢١٥١. **شرح الجامع الصحيح**، عبدالله بن حميد السالمي، تعليق: عز الدين التنوخي، مكتبة الاستقامة، مسقط، سلطنة عمان.

٢١٥٢. **شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى**، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، المحقق: جمال عزون، مكتبة العمرين العلمية،ط١، الشارقة، الإمارات، ١٤٢٠هـ،١٩٩٩م.

٢١٥٣. **شرح الخريدة البهية في علم التوحيد**، الشيخ أحمد بن محمد العدوي الشهير بالدردير، تحقيق: عبد السلام بن عبد الهادي شنار، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت.

٢١٥٤. **شرح الدعاء من الكتاب والسنة**: أبو عبد الرحمن ماهر بن عبد الحميد بن مقدم، شرحه: ماهر بن عبد الحميد بن مقدم، مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

٢١٥٥. **شرح الرحبية في علم الفرائض**، سبط المارديني، تعليق: مصطفى ديب البغا، دار القلم،ط٨، دمشق، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.

٢١٥٦. **شرح الرسالة التدمرية**، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار أطلس الخضراء، ١٤٢٥هـ،٢٠٠٤م.

٢١٥٧. **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٢١٥٨.شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية،ط١، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢١٥٩.شرح السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي،ط٢، دمشق، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٢١٦٠.شرح السِّير الكبير، السرخسي، تحقيق صلاح المنجد، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية، ١٩٧١ م.

٢١٦١.شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، الشيخ أحمد بن محمد المالكي الصاوي، دار ابن كثير،ط٢، بيروت.

٢١٦٢.شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، جلال الدين السيوطي، المحقق: عبد المجيد طعمة حلبي، دار المعرفة،ط١، لبنان، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م.

٢١٦٣.شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن، تحقيق: عبد الحميد هنداوي مكتبة الباز،ط١، مكة، ١٩٩٧م.

٢١٦٤.شرح العقيدة الأصفهانية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، المكتبة العصرية،ط١، بيروت، ١٤٢٥هـ.

٢١٦٥.شرح العقيدة السفارينية، الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، ط١، الرياض، ١٤٢٦ هـ.

٢١٦٦.شرح العقيدة الطحاوية،علي بن علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق : د. عبد الله التركي، وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٧،بيروت،١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٢١٦٧.شرح العقيدة الطحاوية، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: التركي والأرنؤوط، مؤسسة الرسالة،ط٢، بيروت، ١٤١٣هـ.

٢١٦٨.شرح العقيدة الطحاوية، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١٠، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٢١٦٩.شرح العقيدة الطحاوية، علي بن

علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٤١٤هـ.

٢١٧٠. **شرح العقيدة الطحاوية**، صالح آل الشيخ، موقع شبكة صيد الفوائد الإلكتروني.

٢١٧١. **شرح العقيدة الطحاوية**، عبد الرحمن بن ناصر بن براك بن إبراهيم البراك، عبد الرحمن بن صالح السديس، دار التدمرية، ط٢، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨م.

٢١٧٢. **شرح العقيدة الطحاوية**، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤١٨هـ.

٢١٧٣. **شرح العقيدة الطحاوية**، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط دار البيان،ط١، دمشق، ١٤٠١ هـ ١٩٨١م.

٢١٧٤. **شرح العقيدة الطحاوية**، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ.

٢١٧٥. **شرح العقيدة الطحاوية**، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٢١٧٦. **شرح العقيدة الطحاوية**، علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، ناصر بن عبد الكريم العلي العقل، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٢١٧٧. **شرح العقيدة الطحاوية**، علي بن علي بن محمد بن أبي العزّ، تحقيق: الدكتور عبدالله التركي، والشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٢١٧٨. **شرح العقيدة الواسطية**، شيخ الإسلام ابن تيمية، ضبط نصه وخرَّج أحاديثه ووضع الملحق: علوي بن عبد القادر السقاف، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤١٥ هـ.

٢١٧٩. **شرح العقيدة الواسطية**، شيخ الإسلام ابن تيمية في ضوء الكتاب والسُّنَّة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

٢١٨٠. **شرح العقيدة الواسطية**، شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد بن صالح العثيمين، خرج أحاديثه: أحمد بن علي، دار ابن الهيثم، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٢١٨١. **شرح العقيدة الواسطية**، شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد خليل هراس، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤١٣هـ،١٩٩٢م.

٢١٨٢. **شرح العقيدة الواسطية**، شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد خليل هراس، مكتبة التراث الإسلامي.

٢١٨٣. **شرح العقيدة الواسطية**، صالح بن فوزان الفوزان، مكتبة المعارف، ط٥، الرياض، ١٤١١هـ.

٢١٨٤. **شرح العقيدة الواسطية**، محمد بن صالح العثيمين، إعداد : فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا، ط١، الرياض، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.

٢١٨٥. **شرح القانون المدني في الالتزامات**،المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢١٨٦. **شرح القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، مصر، ١٣٢٣ هـ.

٢١٨٧. **شرح القواعد السبع من التدمرية**، يوسف بن محمد علي الغفيص، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٢١٨٨. **شرح الكافية الشافية**، جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك، المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية،ط١،مكة المكرمة.

٢١٨٩. **شرح الكافية الشافية**، جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك، تحقيق: د. عبد المنعم هريدي، دار المأمون للتراث، مكة المكرمة، ١٩٨٢م.

٢١٩٠. **الشرح الكبير على مختصر خليل**، الشيخ أحمد الدردير، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، مصر، د.ت.

٢١٩١. **الشرح الكبير**، عبدالرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي، تحقيق : د. عبدالمحسن التركي، دار عالم الكتب، ط٢، ١٤٢٦هـ.

٢١٩٢. **شرح الكوكب المنير**، تقي الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن

علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، ١٤٠٨ هـ.

٢١٩٣. **شرح الكوكب المنير**، تقي الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، ط٢، الرياض،١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٢١٩٤. **شرح المجلة (مجلة الأحكام العدلية)**، منير القاضي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٤٩م.

٢١٩٥. **شرح المعلقات السبع**، أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، دار إحياء التراث، بيروت،٢٠٠٢م.

٢١٩٦. **شرح المعلقات السبع**، أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، تقديم : عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

٢١٩٧. **شرح المفصل**، ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت.

٢١٩٨. **الشرح الممتع على زاد المستقنع**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢ ، ١٤٢٨ هـ.

٢١٩٩. **الشّرح الميسّر لكتاب التوحيد**، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، المكتبة الشاملة.

٢٢٠٠. **شرح النسفية في العقيدة الإسلامية**، الدكتور عبد الملك عبد الرحمن السعدي، مكتبة دار الأنبار، ط١، العراق، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٢٠١. **شرح النووي على صحيح مسلم**، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٢٢٠٢. **شرح النووي على مسلم**، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، حققه وفهرسه: عصام الصبابطي، وحازم محمد، وعماد عامر، دار أبي حيان، ط١، القاهرة،١٤١٥هـ ،١٩٩٥م.

٢٢٠٣. **شرح النووي على مسلم**، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار المعرفة، ط٥، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.

٢٢٠٤. **شرح جوهرة التوحيد في عقيدة أهل السنة والجماعة**، عبد الكريم تتان، ومحمد أديب الكيلاني، راجعه: عبد الكريم الرفاعي، ووهبي سليمان الألباني، دار البشائر، ط١،دمشق، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٢٢٠٥. **شرح حدود ابن عرفة (الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية)**، محمد بن قاسم

الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع التونسي المالكي، المكتبة العلمية، ط١، ١٣٥٠هـ.

٢٢٠٦. **شرح حدود ابن عرفة (الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية)**، محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع التونسي المالكي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، ليبيا،١٩٩٣م.

٢٢٠٧. **شرح حديث النزول، ابن تيمية**، تحقيق: محمد الخميس، دار العاصمة،ط١، السعودية، ١٤١٤هـ.

٢٢٠٨. شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، تحقيق: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ.

٢٢٠٩. **شرح ديوان الحماسة لأبي تمام**، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، ت: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م،

٢٢١٠. **شرح ديوان المتنبي للعكبري**، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت.

٢٢١١. **شرح ديوان المتنبي**، للواحدي، مكتبة المتنبي.

٢٢١٢. **شرح ديوان طرفة للأعلم الشنتمري**، تحقيق: رحاب خضر، دار الفكر، بيروت.

٢٢١٣. **شرح رياض الصالحين**، الشيخ الطبيب أحمد حطيبة، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٢٢١٤. **شرح رياض الصالحين**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦ هـ.

٢٢١٥. **شرح رياض الصالحين**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض سنة ١٤٢٧هـ.

٢٢١٦. **شرح زاد المستقنع للشنقيطي**، محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الحمد.

٢٢١٧. **شرح سنن النسائي المسمى(شروق أنوار المنن الكبرى الإلهية بكشف أسرار السنن الصغرى النسائية)**، محمد المختار بن محمد بن أحمد الجكني الشنقيطي، المؤسسة السعودية،ط١، مصر،١٤١٠هـ.

٢٢١٨. **شرح صحيح الأدب المفرد**، للإمام البخاري، بقلم: حسين بن عودة العوايشة، المكتبة الإسلامية، دار ابن حزم، سنة ١٤٢٣هـ،٢٠٠٣م.

٢٢١٩. **شرح صحيح البخاري لابن بطال**،

أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، ط٢، الرياض، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٢٢٢٠. **شَرْحُ صَحِيح مُسْلِم المُسَمَّى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم**، عياض اليحصبي، ت: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، مصر ١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م.

٢٢٢١. **شرح طلعة الشمس في أصول الفقه**، عبدالله بن حميد السالمي، وزارة التراث بسلطنة عمان، ط٢، مسقط، ١٩٨٥م.

٢٢٢٢. **شرح طيبة النشر في القراءات العشر**، شمس الدين محمد بن محمد ابن الجزري، تحقيق: الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٢٢٢٣. **شرح عقيدة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب**، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، المكتبة الشاملة.

٢٢٢٤. **شرح فتح القدير وبهامشه شرح العناية على الهداية**، كمال الدين محمد بن محمود النابرتي، المطبعة الكبرى، الأميرية، ط١، ببولاق، مصر، ١٣١٦هـ.

٢٢٢٥. **شرح فتح القدير وبهامشه شرح العناية على الهداية**، كمال الدين محمد بن محمود النابرتي، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٢٢٢٦. **شرح فتح المجيد**، عبد الله بن محمد الغنيمان، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٢٢٢٧. **شرح كتاب آداب المشي إلى الصلاة أو العبادات (الصلاة، الزكاة، الصيام)**، محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم،ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ.

٢٢٢٨. **شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري**، عبد الله بن محمد الغنيمان، مكتبة الدار، ط١، المدينة المنورة، ١٤٠٥ هـ.

٢٢٢٩. **شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري**، عبد الله بن محمد الغنيمان، دار لينة للنشر والتوزيع، ط٣، دمنهور، مصر، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.

٢٢٣٠. شرح كتاب التوحيد، الحازمي، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشيخ الحازمي.

٢٢٣١. **شرح كتاب الجامع لأحكام الصيام وأعمال رمضان**، الطبيب أحمد حطيبة، دروس صوتية قام بتفريغها

موقع الشبكة الإسلامية.

٢٢٣٢.**شرح كتاب الفوائد**، عمر عبد الكافي شحاته، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٢٢٣٣.**شرح كتاب النيل وشفاء العليل**، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف أطفيش، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٩م.

٢٢٣٤.**شرح كتاب مقدمة في أصول التفسير**، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، الشيخ: محمد بن عمر بن سالم بن بازمول، فرغ الأشرطة وضبط الآيات والأحاديث وخرجها، بعض طلبة العلم، ١٤٢٣هـ-١٤٢٤هـ.

٢٢٣٥.**شرح لمعة الاعتقاد**، خالد بن عبد الله بن محمد المصلح، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٢٢٣٦.**شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية**، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام، مكة، د،ت.

٢٢٣٧.**شرح مختصر روضة الناظر**، نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي، الدكتور سعد بن ناصر الشثري، دار التدمرية، ط ١، الرياض، ١٤٣١ هـ.

٢٢٣٨.**شرح مسائل الجاهلية**، محمد بن عبد الوهاب، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار العاصمة للنشر والتوزيع،ط١، الرياض، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٥م.

٢٢٣٩.**شرح مشكاة المصابيح**، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار الباز ط١، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م.

٢٢٤٠.**شرح مشكل الآثار**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٢٢٤١.**شرح مشكل الآثار**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧م.

٢٢٤٢.**شرح معاني الآثار**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٣٨٧ هـ.

٢٢٤٣.**شرح منتهى الإرادات (دقائق أولي النهى لشرح المنتهى)**،

منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، عالم الكتب،ط١، بيروت، ١٤١٤هـ،١٩٩٣م.

٢٢٤٤.شرح منتهى الإرادات (دقائق أولي النهى لشرح المنتهى)، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦م.

٢٢٤٥.شرح منتهى الإرادات (دقائق أولي النهى لشرح المنتهى)، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق، د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٢٢٤٦.شرح منح الجليل على مختصر خليل، الشيخ محمد عليش، دار الفكر، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٢٢٤٧.شرح نقائض جرير والفرزدق، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد إبراهيم حور، وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، ط٢، أبو ظبي،١٩٩٨م .

٢٢٤٨.شرح نهج البلاغة، أبو حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ. ١٩٩٨م.

٢٢٤٩.الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، أبو عبد الله عبيد الله بن بطة العكبري، تحقيق ودراسة: د. رضا بن نعسان معطي، مكتبة العلوم والحكم، ط١، المدينة المنورة، ١٤٢٣هـ ،٢٠٠٢م.

٢٢٥٠.الشرع الدولي في الإسلام، د. نجيب أرمنازي، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٣٤٩ هـ.

٢٢٥١.شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.

٢٢٥٢.شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، أبو الأعلى المودودي، دار الصحوة، ١٤٠٦ هـ.

٢٢٥٣.الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: الوليد بن محمد سيف النصر، مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤١٧هـ،١٩٩٦م.

٢٢٥٤.شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسيني البيهقي، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٢٢٥٥.شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسيني البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف

على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي مكتبة الرشد، الرياض بالتعاون مع الدار السلفية،ط١، بومباي، الهند، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٣ م.

٢٢٥٦. **شعر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت**، جمع وتحقيق : د. سامي مكي العاتي، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٧١م.

٢٢٥٧. **شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي**، جمع وتنسيق: مطابع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط٢، دمشق، ١٤٠٥هـ،١٩٨٥م.

٢٢٥٨. **الشعر والشعراء**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، ط٣، القاهرة ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

٢٢٥٩. **الشعر والشعراء**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة،١٤٢٣هـ.

٢٢٦٠. **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل، دار الفيحاء،ط٢، عمان، ١٤٠٧ هـ.

٢٢٦١. **شفاء الضرر بفهم التوكل والقضاء والقدر**، أبو فيصل البدراني، المكتبة الشاملة.

٢٢٦٢. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان. ١٣٩٨هـ،١٩٧٨م.

٢٢٦٣. **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ.٢٠٠٠م.

٢٢٦٤. **الشكر**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، المحقق: بدر البدر، المكتب الإسلامي، ط٣، الكويت، ١٤٠٠ هـ. ١٩٨٠م.

٢٢٦٥. **الشمائل المحمدية**، محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٢٦٦. **شمس العرب تسطع على الغرب**، زغريد هونكه، ترجمة وتحقيق: فاروق بيضوني وكمال الدسوقي، مكتبة الملل والنحل ومقارنة الأديان الأزهرية، سنة ١٩٨١م.

٢٢٦٧. **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني، تحقيق: د حسين بن عبد الله

العمري، مطهر بن علي الإرياني، د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، لبنان، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م.

٢٢٦٨. **الشمس النجم الذي يهبنا الحياة معلومات وحقائق عن الشمس بأسلوب مبسط يفهمه الجميع**، د.بول بركا، ترجمة: د. محيي الدين عبد الغني.

٢٢٦٩. **شوائب التفسير في القرن الرابع عشر الهجري**، عبد الرحيم فارس أبو علبة، رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) في الدراسات الإسلامية، من كلية الشريعة، جامعة بيروت الإسلامية.

٢٢٧٠. **الشورى بين الأصالة والمعاصرة**، عز الدين التميمي، دار البشير، عمان، الأردن، ١٤٠٥هـ.

٢٢٧١. **الشورى تنمية مؤسَّسِية ونهوض حضاري**، سامي محمد الصلاحات، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٢٨ه

٢٢٧٢. **الشورى في الإسلام**، مجموعة بحوث أصدرها المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، الأردن، ١٩٨٩م.

٢٢٧٣. **الشورى في الإسلام**، خالد أحمد أبو سمرة، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٢هـ.

٢٢٧٤. **الشورى في الإسلام**، محمد رمضان البوطي، مؤسسة آل البيت (خصائص الشورى ومقوماتها).

٢٢٧٥. **الشورى في العصر الأموي**، د. حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠هـ.

٢٢٧٦. **الشورى في القرآن والسنة**، حسن ضياء الدين عِتر، دار البحوث والدراسات الإسلامية، دُبي، ١٤٢٢هـ.

٢٢٧٧. **الشورى في الكتاب والسنة وعند علماء المسلمين**، محمد أحمد الصالح، بدون ناشر، ١٤٢٠هـ.

٢٢٧٨. **الشورى وأثرها في الديمقراطية**، عبد الحميد إسماعيل الأنصاري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٦هـ.

٢٢٧٩. **الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة**، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، مكتبة الرشد،ط١١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٢٢٨٠. **الشيخوخة تنكيس في الخلق**، د.محمد دودح، مجلة الإعجاز العلمي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٢٨١. **الشيطان خطواته وغاياته دراسة**

قرآنية موضوعية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٢٨٢.الشيطان خطواته وغاياته، وائل عمر علي بشير، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٢٢٨٣.الشيعة والتصحيح الصراع بين الشيعة والتشيع، موسى الموسوي، ١٤٠٨-١٩٨٨م.

٢٢٨٤.الشيعة والعقائد، عبدالمجيد حسن الحائري، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، بغداد، ١٩٦٧م.

ص

٢٢٨٥.الصاحبي في فقه اللغة العربية، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عمر فاروق الطباع، مكتبة دار المعارف، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

٢٢٨٦.الصاحبي في فقه اللغة العربية، أحمد بن فارس بن زكريا، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٧م.

٢٢٨٧.الصارم المسلول على شاتم الرسول، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية.

٢٢٨٨.صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: د. يوسف طويل، دار الفكر،ط١، دمشق، ١٩٨٧م.

٢٢٨٩.صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، ثم القاهري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢٩٠.الصبح المنير في شعر أبي بصير، ميمون بن قيس الأعشى والأعشيين الآخرين، مطبعة آدلعاهلز بيانه، ١٩٢٧م.

٢٢٩١.الصبر في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٤، بيروت، ١٩٨٥م.

٢٢٩٢.الصبر والثبات في مواجهة الحصار، د. نعيم الصفدي، بحث محكم في مؤتمر لكلية أصول الدين.

٢٢٩٣.صحابة رسول الله في الكتاب والسنة، د. عيادة أيوب الكبيسي، دار القلم، ط١،دمشق، ١٤٠٧هـ-١٩٩٦م.

٢٢٩٤.الصحاح(تاج اللغة وصحاح العربية)، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور

عطار، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.

٢٢٩٥.**الصحاح(تاج اللغة وصحاح العربية)**، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٢٢٩٦.**الصحاح(تاج اللغة وصحاح العربية)**، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، اعتنى به: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

٢٢٩٧.**صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، تحقيق شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة،ط٢، بيروت، ١٤١٤هـ،١٩٩٣م.

٢٢٩٨.**صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، محمد بن حبان البستي، بترتيب: علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

٢٢٩٩.**صحيح ابن خزيمة**، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق : د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت،١٣٩٠هـ– ١٩٧٠م.

٢٣٠٠.**صحيح ابن خزيمة**، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق : د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي،ط٣، بيروت ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م.

٢٣٠١.**صحيح الأدب المفرد**، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع،ط٤، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م.

٢٣٠٢.**صحيح الأدب المفرد**، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق ومراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي، وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، دار البشائر الإسلامية، ط٣، بيروت، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

٢٣٠٣.**صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة السلطانية،١٣١٣هـ.

٢٣٠٤.**صحيح السيرة النبوية**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية،ط١، عمان، الأردن.

٢٣٠٥.**الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور**، أ. د. حكمت بن بشير بن

ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة،ط١، المدينة النبوية، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م.

٢٣٠٦.**الصحيح المسند من أسباب النزول**، مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة ابن تيمية،ط١، القاهرة،١٤١٠هـ،١٩٩٠م.

٢٣٠٧.**الصحيح المسند من أسباب النزول**، مُقْبلُ بنُ هَادِي بنِ مُقْبِلِ بنِ قَائِدَةَ الهَمْدَاني الوادعِيُّ، مكتبة ابن تيمية،ط٤، القاهرة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

٢٣٠٨.**صحيح تفسير ابن كثير**، الشيخ مصطفى العدوي، دار الفوائد، ودار ابن رجب، مصر، المنصورة، ١٤٢٧هـ،٢٠٠٦م.

٢٣٠٩.**صحيح جامع الترمذي**، محمد ناصر الدين الألباني، تعليق وفهرسة زهير الشاويش، المكتب الإسلامي،ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.

٢٣١٠.**صحيح سنن ابن ماجة**، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية لدول الخليج العربي، ط١، الرياض، ١٤٠٧هـ. ١٩٨٦م.

٢٣١١.**صحيح سنن ابن ماجة**، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٢٣١٢.**صحيح سنن أبي داود**، تحقيق: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، ط١، الكويت، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.

٢٣١٣.**صحيح سنن أبي داود**، محمد ناصر الدين الألباني، تعليق وفهرسة زهير الشاويش، المكتب الإسلامي،ط١،بيروت، ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.

٢٣١٤.**صحيح سنن أبي داود**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،ط١، الرياض، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٢٣١٥.**صحيح سنن أبي داود**، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس، الكويت ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م

٢٣١٦.**صحيح فقه السنة وأدلته وتوضيح مذاهب الأئمة**، أبو مالك كمال بن السيد سالم، مع تعليقات فقهية معاصرة: فضيلة الشيخ ناصر الدين الألباني، فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز، فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، المكتبة التوفيقية، القاهرة،

مصر، ٢٠٠٣م.

٢٣١٧. الصد عن سبيل الله في ضوء القرآن الكريم، الدكتور عبد السلام اللوح والدكتور زكريا الزميلي، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، سلسلة الدراسات الإسلامية، المجلد الثاني عشر، العدد الثاني، ربيع آخر ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٣١٨. صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، دار القلم،ط٥، دمشق، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٢٣١٩. الصفات الإلهية تعريفها، أقسامها، محمد بن خليفة بن علي التميمي، أضواء السلف، ط١،الرياض، ١٤٢٢هـ،٢٠٠٢م.

٢٣٢٠. الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، أبو أحمد محمد أمان بن علي جامي علي، المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية،ط١، ١٤٠٨هـ.

٢٣٢١. صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، علوي بن عبد القادر السَّقَّاف، الدرر السنية، دار الهجرة،ط٣، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٦ م.

٢٣٢٢. صفات الله وآثارها في إيمان العبد، محمد حسن عبد الغفار، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٢٣٢٣. صفات المنافقين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات، ١٤١٠هـ.

٢٣٢٤. صفة الجنة في القرآن الكريم، عبد الحليم محمد السلفي، مكتبة دار العلوم والحكم، ط٣، المدينة المنورة، سنة ١٤٢٧هـ.

٢٣٢٥. صفة الجنة، أبو نعيم، تحقيق: علي رضا عبد الله، دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا.

٢٣٢٦. صفة الصفوة، عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: أحمد بن علي، دار الحديث القاهرة، ١٤٢١هـ،٢٠٠٠م.

٢٣٢٧. صفة الصفوة، عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري ومحمد رواس قلعه جي، دار الوعي، ط١، حلب، ١٣٨٩هـ.

٢٣٢٨. صفة الصفوة، عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، مكتبة الصفا،ط١، القاهرة، ١٤٢٤هـ.

٢٣٢٩. صفحات رمضانية، عبد الكريم بن صنيتان العمري، دار المآثر، المدينة المنورة، ط١، المملكة العربية

السعودية، ١٤٢١هـ،٢٠٠١م.

٢٣٣٠.صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، عبد الرحمن الدوسري، دار المغن،ط١، الرياض، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٢٣٣١.صفوة البيان لمعاني القرآن، الشيخ حسنين مخلوف، ط وزارة الأوقاف، الكويت، ١٩٨٧م.

٢٣٣٢.صفوة البيان لمعاني القرآن، الشيخ حسنين مخلوف، مطابع الشروق، ١٤٠٢هـ،١٩٨٢م.

٢٣٣٣.صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار السلام، ط١، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

٢٣٣٤.صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والتوزيع والنشر ط١، القاهرة، ١٤١٧هـ.

٢٣٣٥.صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٤٠١هـ.

٢٣٣٦.صفوة الصفوة، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جعفر بن الجوزي، تحقيق: طارق محمد عبد المنعم، دار ابن خلدون.

٢٣٣٧.صلاة المؤمن، مفهوم، وفضائل، وآداب، وأنواع، وأحكام، وكيفية في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مركز الدعوة والإرشاد، القصب، ط٤، ١٤٣١ هـ، ٢٠١٠ م.

٢٣٣٨.صلاح البيوت في جهد الرسول ﷺ، محمد علي محمد إمام، مطبعة السلام،ط١، مصر، ٢٠٠٩م.

٢٣٣٩.الصلة بين الحاكم والمحكوم، وحقوق المواطنة وواجباتها، أ. د. عبد الله بن إبراهيم بن علي الطريقي، تاريخ الإضافة: ٢٢/ ٥/ ٢٠١١ ميلادي ، ١٩/ ٦/ ١٤٣٢ هجري، زيارة: ٢٦٧٦٤.

٢٣٤٠.الصناعة في التاريخ الإسلامي، مجلة المنار، عدد فبراير، ٢٠١١م .

٢٣٤١.الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، المحقق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

٢٣٤٢.الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس، المحقق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي، كامل

محمد الخراط، مؤسسة الرسالة،ط١، لبنان، ١٤١٧هـ،١٩٩٧م.

٢٣٤٣. **الصواعق المرسلة الشهابية على الشبه الداحضة الشامية**، سليمان بن سحمان بن مصلح بن حمدان بن مصلح بن حمدان بن مسفر بن محمد بن مالك بن عامر الخثعمي التبالي العسيري النجدي، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٢٣٤٤. **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، ط٣،الرياض، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٢٣٤٥. **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٨هـ.

٢٣٤٦. **صور الأمر في العربية بين التنظير والاستعمال**، الدكتور سعود بن غازي أبو تاكي، دار غريب للطباعة والنشر، ط١، القاهرة، ١٤٢٦، ٢٠٠٥.

٢٣٤٧. **صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم**، محمود توفيق محمد سعد، مطبعة الإمانة، ط١، مصر، ١٤١٣هـ.١٩٩٣م،

٢٣٤٨. **الصوم والصحة**، نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت.

٢٣٤٩. **صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط**، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح، ت: موفق عبد الله عبد القادر، دار الغرب الإسلامي،ط٢، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٢٣٥٠. **صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال**، القاضي: حسين بن محمد المهدي، مكتبة المحامي: أحمد بن محمد المهدي، ٢٠٠٩م.

٢٣٥١. **صيد الخاطر**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، بعناية: حسن المساحي سويدان، دار القلم،ط١، دمشق، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٣٥٢. **صيد الخاطر**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار القلم،ط١، سوريا، ١٤٢١هـ.

ض

٢٣٥٣. **الضرر المعنوي في المسؤولية المدنية**، د. منذر الفضل، مجلة العلوم القانونية والسياسية، المجلد

السادس، العدد، ١، ٢، ١٩٨٧م.

٢٣٥٤. **الضعفاء الكبير**، أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٢٣٥٥. **ضعيف الترغيب والترهيب**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ط١، الرياض، ١٤٢١هـ.

٢٣٥٦. **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٣٥٧. **ضعيف سنن الترمذي**، محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طباعته والتعليق عليه: زهير الشاويش، المكتب الاسلامي،ط١، بيروت، ١٤١١هـ.

٢٣٥٨. **ضعيف سنن الترمذي**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٣٥٩. **ضعيف سنن ابن ماجه**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلام، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٢٣٦٠. **الضمان في الفقه الإسلامي**، الشيخ علي الخفيف، القسم الأول، محاضرات ألقيت على طلبة قسم البحوث والدراسات القانونية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧١م.

٢٣٦١. **ضمانات الحقوق والحريات في المجتمع الإسلامي**، ناظم عبد الله رشيد، رسالة ماجستير في الفكر الإسلامي من الجامعة الإسلامية، قسم العقيدة، العراق، ٢٠١٠م.

٢٣٦٢. **الضوء المنير على التفسير**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، جَمَعه علي الحمد الصالحي، مؤسسة النور، الرياض.

٢٣٦٣. **الضوء المنير على التفسير**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، جمع: علي الحمد المحمد الصالحي، مؤسسة النور للطباعة والتجليد، ومكتبة دار السلام، الرياض، د.ت.

٢٣٦٤. **الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن**، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ط٢، ١٤١٣هـ.

٢٣٦٥. **ضوابط تعبير الرؤيا**، أ. د. عبد الله بن محمد الطيار، موقع الشاملة.

٢٣٦٦. **الضياء اللامع من الخطب الجوامع**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد،

ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

ط

٢٣٦٧. **الطب الشرعي العملي والنظري**، د.عبد العزيز سيف النصر، طبعة الجامعة المصرية، د. ت.

٢٣٦٨. **الطب النبوي والعلم الحديث**، محمود ناظم النسيمي، الشركة المتحدة للتوزيع،ط١، دمشق، ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م.

٢٣٦٩. **الطب النبوي**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الهلال، بيروت.

٢٣٧٠. **الطب النبوي**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: السيد الجميلي، ار الكتاب العربي،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ. ١٩٩٠م.

٢٣٧١. **الطب الوقائي في الإسلام**، أحمد شوقي الفنجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط٢، ١٩٨٥م.

٢٣٧٢. **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكَوَاكِبي، وزارة الثقافة والفنون والتراث،ط١، الدوحة، قطر،٢٠١١م.

٢٣٧٣. **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكَوَاكِبي، دار النفائس، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٧هـ.٢٠٠٦م.

٢٣٧٤. **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكَوَاكِبي، دار النفائس، ط١، بيروت، لبنان،١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٢٣٧٥. **طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: د . محمود محمد الطناحي، ود .عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع،ط٢، ١٤١٣هـ.

٢٣٧٦. **طبقات الشافعية**، أبو بكر بن أحمد بن محمد ابن قاضي شهبة، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، دار عالم الكتب، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

٢٣٧٧. **الطبقات الكبرى**، أبو عبد الله محمد بن سعد البصري المعروف بابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠م.

٢٣٧٨. **الطبقات الكبرى**، أبو عبد الله محمد بن سعد البصري المعروف بابن سعد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ط١،بيروت، ١٩٦٨ م.

٢٣٧٩. **الطبقات الكبرى**، أبو عبد الله

محمد بن سعد البصري المعروف بابن سعد، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم،ط٢، المدينة المنورة، ١٤٠٨هـ.

٢٣٨٠.**الطبقات الكبرى**، أبو عبد الله محمد بن سعد البصري المعروف بابن سعد، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة،٢٠٠١م.

٢٣٨١.**الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللّه، المكتبة العنصرية،ط١، بيروت، ١٤٢٣ هـ.

٢٣٨٢.**طرح التثريب في شرح التقريب**، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي.

٢٣٨٣.**الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، محمد بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: نايف بن أحمد الحمد، مجمع الفقه الإسلامي، ط١،جدة، ١٤٢٨ه .

٢٣٨٤.**الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، محمد بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. محمد جميل غازي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٨١ هـ.

٢٣٨٥.**طرق تعليم التربية الإسلامية**، د.محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٩٦م.

٢٣٨٦.**طريق الهجرتين**، محمد بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق : عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط٢، الدمام، ١٤١٤ هـ-١٩٩٤م.

٢٣٨٧.**طريق الهجرتين**، محمد بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، دار السلفية، ط٢، القاهرة، مصر، ١٣٩٤هـ .

٢٣٨٨.**طريق الهجرتين**، محمد بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد محمد تامر، وعبدالعزيز مصطفى، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢٣٨٩.**طريق الهجرتين**، محمد بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، دار ابن حزم،ط١، بيروت، ١٤٢٤هـ. ٢٠٠٣م.

٢٣٩٠.**طريق الهجرتين**، محمد بن محمد

بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، بإشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الرياض

٢٣٩١. طريق الهداية، مبادئ ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة، محمد يسري، ط٢، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٢٣٩٢. الطريق إلى الإسلام، محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، دار بن خزيمة، ط٢، السعودية.

٢٣٩٣. طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، نجم الدين عمر بن محمد النسفي الحنفي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ.

٢٣٩٤. طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، نجم الدين عمر بن محمد النسفي الحنفي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، عمان، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٣٩٥. طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، نجم الدين عمر بن محمد النسفي الحنفي، المطبعة العامرة، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣١١هـ.

٢٣٩٦. طوق الحمامة في الألفة والألاف، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٨٧م.

٢٣٩٧. طوق النجاة، مجدي الهلالي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط٨، مصر، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٢م.

٢٣٩٨. الطيرة، محمد بن إبراهيم الحمد، بدون طبعة، وتاريخ.

ظ

٢٣٩٩. الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.

٢٤٠٠. ظاهرة ضعف الإيمان (الأعراض، الأسباب – العلاج)، محمد صالح المنجد، مطبعة سفير، ط١، الرياض، ١٤١٣ هـ.

٢٤٠١. ظلال الجنة في تخريج السنة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، بيروت، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

ع

٢٤٠٢. عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ابن العربي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٤٠٣. عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ابن العربي المالكي، دار أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة،

د.ت.

٢٤٠٤.عالم الجن والشياطين، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، ١٤٢٦هـ،٢٠٠٥م.

٢٤٠٥.عالم الجن والشياطين، عمر سليمان الأشقر، قصر الكتاب، الجزائر.

٢٤٠٦.عالم الجن والشياطين، عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح ط٤، الكويت، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

٢٤٠٧.عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي، عثمان جمعة ضميرية، مكتبة السوادي، جدة،١٤١٠هـ.

٢٤٠٨.عالم الملائكة الأبرار، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، ودار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م.

٢٤٠٩.عالم الملائكة الأبرار، د. عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، ط٣، الكويت،١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣م .

٢٤١٠.العامي الفصيح، معجم من إصدارات مجمع اللغة العربية، القاهرة، د.ت

٢٤١١.العباب الزاخر واللباب الفاخر، الحسن بن محمد الصغاني، تحقيق: د. فير محمد حسن،ط١، بغداد، ١٣٩٨ هـ.

٢٤١٢.العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، محمود السيد شيخون، الجامعة الإسلامية، السنة العاشرة، العدد الأول، جمادى الآخرة ١٣٩٧هـ مايو، يونيو ١٩٧٧ م.

٢٤١٣.العبادات في الإسلام وأثرها في تضامن المسلمين، علي عبد اللطيف منصور، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة السادسة عشرة، العدد الواحد والستون، محرم، صفر، ربيع الأول ١٤٠٤هـ .

٢٤١٤.العبادة(تعريفها، أركانها، شروطها، مبطلاتها)، سليمان محمد العثيم، دار القاسم.

٢٤١٥.العبادة أحكام وأسرار، عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة.

٢٤١٦.عبادة الأوثان، عكاشة عبد المنان الطيبي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م .

٢٤١٧.العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، ط٢٤، القاهرة، ١٩٩٥م.

٢٤١٨.العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة، أبراهام مالمات وحييم تدمور، ترجمة الدكتور رشاد عبدالله الشامي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ط١، القاهرة،

٢٠٠١م.

٢٤١٩. **عبقرية الإسلام في أصول الحكم**، منير العجلاني، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢٤٢٠. **العبودية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية، المحقق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي،ط٧، بيروت، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٢٤٢١. **العجاب في بيان الأسباب**، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي، الدمام.

٢٤٢٢. **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، سيد قطب، دار الشروق،بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.١٩٩٥م.

٢٤٢٣. **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

٢٤٢٤. **العدالة الاجتماعية في القرآن الكريم**، الشيخ عبد الله أحمد اليوسف، العدد (٤٤) السنة ٢٠ ، ١٤٣٠هـ. ٢٠٠٩م.

٢٤٢٥. **عداوة الشيطان لآدم**، الشعراوي.

٢٤٢٦. **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: إسماعيل بن غازي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.

٢٤٢٧. **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت .

٢٤٢٨. **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار ابن كثير، بيروت، ومكتبة دار التراث، ط٣، المدينة المنورة، ١٤٠٩هـ،١٩٨٩م.

٢٤٢٩. **العدة شرح العمدة**، عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد، أبو محمد بهاء الدين المقدسي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ. ٢٠٠٣ م.

٢٤٣٠. **العدة شرح العمدة**، عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد، أبو محمد بهاء الدين المقدسي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ.

٢٤٣١. **العدة شرح العمدة**، عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد، أبو محمد بهاء الدين المقدسي، تحقيق: صلاح بن محمد عويضة، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت، ١٤٢٦هـ.

٢٤٣٢. **العدة في أصول الفقه**، أبو يعلى

الفرَّاء المباركي، تحقيق أحمد سير المباركي، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ.

٢٤٣٣.العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط٢، مكة المكرمة، ١٤٢٦هـ.

٢٤٣٤.العرش، أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٤١٨هـ،١٩٩٨م.

٢٤٣٥.العرش، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

٢٤٣٦.العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسُّنَّة، المفهوم، والفضائل، والمقتضى، والأركان، والشروط، والنواقص، والنواقض، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

٢٤٣٧.عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠١م.

٢٤٣٨.العصبةُ المؤمنة بين عناية الرحمن ومكر الشيطان، علي بن نايف الشحود، ط١، ١٤٣١ هـ، ٢٠١٠م.

٢٤٣٩.العظمة، أبو الشيخ الأصبهاني: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨ هـ.

٢٤٤٠.العفاف أريد، قصص وأحداث العفيفين والعفيفات، أبو الحسن بن محمد الفقيه، دار ابن حزيمة.

٢٤٤١.العفة والاستعفاف في القرآن، د. فريدة زمرد،، موقع ميثاق الرابطة المحمدية للعلماء، العدد (١٨٩).

٢٤٤٢.العفة وسائلها ومعوقاتها وثمراتها، محمد بن عبد الله الهبدان، بدون ذكر الطبعة، وتاريخ النشر.

٢٤٤٣.العفة ومنهج الاستعفاف، يحيي سليمان العقيلي، دار الدعوة، الكويت.

٢٤٤٤.العقائد الإسلامية، السيد سابق،

الفتح للإعلام العربي، ط١،القاهرة.
٢٤٤٥.العقائد الإسلامية، سيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٤٤٦.العقائد، حسن البنا، تحقيق: رضوان محمد رضوان، القاهرة.
٢٤٤٧.العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٤ هـ١٩٨٣م.
٢٤٤٨.العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، شرح وضبط: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون رقم طبعة، وتاريخ.
٢٤٤٩.العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار إحياء التراث العربي،ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م.
٢٤٥٠.العقل والعلم في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبه، ط١،القاهرة، مصر، ١٩٩٦م.
٢٤٥١.عقوبة القتل في الشريعة الإسلامية، يوسف علي محمود غيطان، دار الفكر، ط١،الأردن، ١٩٩٥م.
٢٤٥٢.العقوبة، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
٢٤٥٣.العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم، المنهج والأسس والخصائص، عثمان ضميرية، رابطة العالم الإسلامي،١٤٣٢هـ.
٢٤٥٤.العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن بن حبنكة الميداني، دار القلم،ط٤، دمشق، ١٤٠٦هـ.
٢٤٥٥.العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط ٢، بيروت، ١٣٩٩ هـ١٩٧٩م.
٢٤٥٦.عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، مكتبة دار الزمان، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٢٤٥٧.عقيدة التوحيد وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، المكتبة الشاملة.
٢٤٥٨.عقيدة السلف أصحاب الحديث، أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، بدون.
٢٤٥٩.عقيدة السلف، مقدمة أبي زيد القيرواني لكتابه الرسالة، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن النفزي، القيرواني، المالكي، نظمها: أحمد بن علي بن حسين بن مشرّف الوهيبي التميمي المالكي الأحسائي، المحقق: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار

العاصمة.

٢٤٦٠. **العقيدة الصحيحة وما يضادها**، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط٧، السنة السابعة، العدد الثالث، المحرم ١٣٩٥هـ، يناير ١٩٧٥م.

٢٤٦١. **العقيدة الطحاوية**، أبو جعفر الطحاوي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

٢٤٦٢. **العقيدة الطحاوية**، أبو جعفر الطحاوي، شرح وتعليق: محمد ناصرالدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، الرياض،٢٠٠١م.

٢٤٦٣. **عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسُّنَّة**، سعيد بن على بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

٢٤٦٤. **عقيدة المسلم**، أبو بكر الجزائري، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.

٢٤٦٥. **عقيدة المسلم**، أبو بكر الجزائري، دار الفكر العربي.

٢٤٦٦. **عقيدة المسلم**، أبو بكر الجزائري، مكتبة الدعوة الإسلامية، مطبعة الحلبي، القاهرة.

٢٤٦٧. **العقيدة الواسطية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية، شرح: خالد المصلح، دار ابن الجوزي، ط١،السعودية، ١٤٢١هـ.

٢٤٦٨. **العقيدة الواسطية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية،المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، أضواء السلف،ط٢، الرياض، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م.

٢٤٦٩. **العقيدة في الله**، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط١٢، الأردن، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٢٤٧٠. **عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي**، صالح بن عبد الله العبود، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط٢، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٤م.

٢٤٧١. **العقيدة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة**، أبو الحسن الندوي، ندوة العلماء، الهند.

٢٤٧٢. **العقيدة والشريعة**، محمود شلتوت، دار القلم،ط٢، القاهرة، ١٩٨٨م.

٢٤٧٣.العلاقات الدولية في الإسلام، د. وهبة الزحيلي. دار الفكر، دمشق،١٤٠٣ هـ.

٢٤٧٤.العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، الدار القومية، القاهرة، ١٣٨٤ هـ.

٢٤٧٥.العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر، ١٤١٥هـ.١٩٩٥م.

٢٤٧٦.علاقة الإثبات والتفويض، معطي رضا نعسان، قدّم له: الشيخ عبدالعزيز بن باز، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط٦، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥م.

٢٤٧٧.العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، ابن الجوزي، المحقق: إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، ط٢،باكستان، ١٤٠١هـ،١٩٨١م.

٢٤٧٨.العلل، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف وعناية د. سعد بن عبد الله الحميد و د. خالد بن عبد الرحمن الجريسي، مطابع الحميضي،ط١، ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م.

٢٤٧٩.العلل، الدارقطني، تحقيق وتخريج: محفوظ الرحمن زين الله السلفي، دار طيبة،ط١، الرياض، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢٤٨٠.علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٤٠٦هـ.

٢٤٨١.علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، مكتبة الدعوة، ط٨، شباب الأزهر، مصر.

٢٤٨٢.علم الاجتماع،أنطوني جيدنز، ترجمة: فايز الصباغ، مركز دارسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥م.

٢٤٨٣.علم الاجتماع الإسلامي، التصوير القرآني للمجتمع، د. صلاح فوال، دار الفكر العربي.

٢٤٨٤.علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، الشيخ عبد المجيد وآخرين من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة إسلام آباد، باكستان في الفترة من ٢٥،٢٨ صفر سنة ١٤٠٨هـ الموافق ١٨،٢١ أكتوبر، طبعة خاصة بجامعة الإيمان، صنعاء، ١٩٨٧م.

٢٤٨٥.علم الأخلاق الإسلامية، مقداد يالجن، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، ط٢، الرياض، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

٢٤٨٦.العلم الأعجمي في القرآن مفسرًا بالقرآن وجه في إعجاز القرآن، محمود رؤوف أبو سعدة، دار الهلال.

٢٤٨٧.العلم الأعجمي في القرآن مفسرًا بالقرآن، محمود رؤوف أبو سعدة، مكتبة الميمان،ط١، الرياض، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٢٤٨٨.علم الجمال.. رؤية في التأسيس القرآني، عمر عبيد حسنة، على الشبكة العنكبوتية.

٢٤٨٩.علم السياسة ومقدماته اليونانية، د. خلف الجراد.

٢٤٩٠.علم المقاصد الشرعية، نور الدين بن مختار الخادمي، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٢٤٩١.علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية، عبد العزيز القوصي، مكتبة النهضة العصرية، ط٨، القاهرة.

٢٤٩٢.علم النفس في الإسلام، رمضان محمد القذافي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا.

٢٤٩٣.العلمانية وموقف الإسلام منها، حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١٥، السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ.

٢٤٩٤.علو الهمة، محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، دار العقيدة، ط٤، القاهرة، ١٩٩٩م.

٢٤٩٥.علو الهمة، محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

٢٤٩٦.علو الهمة، محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، دار القمة، ودار الإيمان، مصر، ٢٠٠٤م.

٢٤٩٧.علوم القرآن الكريم، نور الدين محمد عتر الحلبي، مطبعة الصباح،ط١، دمشق، ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٣م.

٢٤٩٨.علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، مؤسسة الهادي، قم، مجمع الفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٧هـ.

٢٤٩٩.العلوم للمرحلة الابتدائية، الصف الرابع، وزارة التربية والتعليم، جمهورية السودان .

٢٥٠٠.عمارة المساجد، د. إبراهيم بن عبد العزيز الغصن، العدد الرابع، مجلة العدل.

٢٥٠١.عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم السمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ،١٩٩٦م.

٢٥٠٢.عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف بن عبد

الدائم السمين الحلبي، تحقيق: محمد دغيم، دار السيد، ط١، مصر، ١٩٨٧م.

٢٥٠٣. **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم السمين الحلبي، تحقيق: د. محمد التونجي، دار عالم الكتب،ط١، ١٤١٤هـ.

٢٥٠٤. **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني، دار الفكر، بيروت.

٢٥٠٥. **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٥٠٦. **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م.

٢٥٠٧. **العمدة من الفوائد والأثار الصحاح والغرائب في مشيخة شهدة**، شُهْدة بِنْت أحمد بْن الفرج بْن عُمَر الإبري فخر النساء بِنْت أَبِي نصر الدينوري الأصل البغدادي الكاتبة، تحقيق: فوزي عبد المطلب، مكتبة الخانجي،ط١، القاهرة، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.

٢٥٠٨. **العمر والشيب**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد المعروف بابن أبي الدنيا، د. نجم عبد الله خلف، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٤١٢هـ.

٢٥٠٩. **العمل التطوعي أهميته، آثاره، عوامل نجاحه، معوقاته**، اللواء: مساعد بن منشط اللحياني، مدير الإدارة العامة للعلاقات والإعلام بالمديرية العامة للدفاع المدني بالرياض، موقع مركز أسبار.

٢٥١٠. **العمل التطوعي من منظور إنساني**، إبراهيم حسن، موقع معهد الأبحاث والتنمية الحضارية.

٢٥١١. **عمل اليوم والليلة للنسائي**، تحقيق فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٢٥١٢. **العمليات العقلية في القرآن الكريم ودلالاتها التربوية**، عبد الرحمن صالح عبد الله، مجلة جامعة الملك سعود، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية، السعودية، مج٧، ١٩٩٥م.

٢٥١٣. **العناصر المكونة لصفة المالية عند الفقهاء**، صالح اللحيدان، مجلة

البحوث الإسلامية.

٢٥١٤.عنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري، دار صادر، بيروت.

٢٥١٥.عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، محمد السيد جبريل، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.

٢٥١٦.العناية شرح الهداية، محمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين أبي عبد الله ابن الشيخ شمس الدين ابن الشيخ جمال الدين الرومي البابرتي، دار الفكر، د.ت.

٢٥١٧.العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، الدكتور أحمد الزغيبي، مكتبة العبيكان، ط١، السعودية، ١٤١٨هـ.

٢٥١٨.العنوان في القراءات السبع، المقرئ، تحقيق: د. زهير زاهد، د. خليل العطية، كلية الآداب، جامعة البصرة، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ

٢٥١٩.العواصم من الفتن في سورة الكهف، الشيخ عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، سوريا.

٢٥٢٠.العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي، المحقق: محب الدين الخطيب ومحمود مهدي الاستانبولي، دار الجيل،ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٢٥٢١.العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،ط٣، بيروت،١٤١٥ هـ ، ١٩٩٤ م.

٢٥٢٢.عودة الحجاب، الدكتور محمد إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي، ط١، القاهرة، ١٤٢٦هـ.

٢٥٢٣.عودة الحجاب، محمد أحمد إسماعيل المقدم، دار طيبة، ط١٠، توزيع دار الصفوة،، ١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧م.

٢٥٢٤.العودة لممارسة القانون الدولي الأوربي، د. عبدالعزيز محمد سرحان، دار نهضة مصر،١٤١٦هـ.

٢٥٢٥.عون الحنَّان في شرح الأمثال

في القرآن، على أحمد عبد العال الطهطاوي، دار الكتب العلمية،ط١ بيروت، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤م.

٢٥٢٦. عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو عبد الرحمن محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر العظيم آبادي، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت، ١٤١٥هـ،١٩٩٥م.

٢٥٢٧. عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد عبد الرحمن المباركفوري، المكتبة السلفية، المدينة، ١٣٨٨هـ.

٢٥٢٨. عيسى ابن مريم في ضوء الكتاب والسنة، منيرة الحبيب، رسالة ماجستير، كلية الآداب، عام ١٤٠٧هـ.

٢٥٢٩. عيسى المسيح والتّوحيد، عرض تاريخي للمسيحيّة والأناجيل، والموحّدين المسيحيين الأوائل والأواخر، تأليف: محمد عطا الرحيم، ترجمة: عاد محمد حامد، مركز الحضارة العربية.

٢٥٣٠. العين والأثر في عقائد أهل الأثر، تقيّ الدين، ابن فَقِيه فُصَّة، المحقق: عصام رواس قلعجي، دار المأمون للتراث.

٢٥٣١. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، دار الحديث، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢٥٣٢. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال للنشر، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٩٨م.

٢٥٣٣. عيون الأثر فى فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس، دار القلم،ط١، بيروت، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

٢٥٣٤. عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٢٥٣٥. عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

٢٥٣٦. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة، تحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.

غ

٢٥٣٧. الغارة على العالم الإسلامي: أ. ل، شاتليه، لخصه ونقله إلى اللغة العربية:

محب الدين الخطيب، مساعد اليافي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٠٨ هـ.

٢٥٣٨. **غاية الأماني في الرد على النبهاني**، أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله الألوسي، المحقق: أبو عبد الله الداني بن منير، مكتبة الرشد، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٢٥٣٩. **غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني**، أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، شهاب الدين الشافعيّ ثم الحنفي، من أول سورة النجم إلى آخر سورة الناس، دراسة وتحقيق: محمد مصطفي كوكصو، رسالة دكتوراه، جامعة صاقريا، كلية العلوم الاجتماعية، تركيا، ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧ م.

٢٥٤٠. **غاية السول في خصائص الرسول**ﷺ، أبو حفص عمر بن علي الأنصاري (ابن الملقن)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٤هـ. ١٩٩٣م.

٢٥٤١. **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢٥٤٢. **غاية المنتهى في جمع الإقناع والمنتهى**، مرعي بن يوسف بن الكرمي، المحقق: ياسر إبراهيم المزروعي، رائد يوسف الرومي، ١٤٢٨ – ٢٠٠٧م.

٢٥٤٣. **غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الأخوة**، حازم خنفر، قدم له: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩م.

٢٥٤٤. **الغاية في القراءات العشر**، الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري، مطابع العبيكان ط١، ١٤٠٥هـ.

٢٥٤٥. **غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب**، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، مؤسسة قرطبة، ط٢، مصر، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣م.

٢٥٤٦. **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، أبو القاسم محمود بن حمزة الكرماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت.

٢٥٤٧. **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦

هـ.١٩٩٦م.

٢٥٤٨.غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة، أبو إسحاق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط، ضبط وتصحيح :إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

٢٥٤٩.الغرور في القرآن الكريم، آمنة كاظم محمد شكري، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين،٢٠١٢م.

٢٥٥٠.غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق، المحقق: د. سليمان إبراهيم محمد العايد، جامعة أم القرى،ط١، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ.

٢٥٥١.غريب الحديث، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حمادي بن أحمد بن جعفر المعروف بـ(ابن الجوزي)، تحقيق : د .عبدالمعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٥م.

٢٥٥٢.غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، حيدر آباد، الدكن، ١٣٨٤هـ،١٩٦٤م.

٢٥٥٣.غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلَّام، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٣٩٦هـ.١٩٧٦م.

٢٥٥٤.غريب الحديث، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ،١٩٨٢م.

٢٥٥٥.غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، أبو بكر محمد بن عزير السجستاني، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، ط١، سوريا، ١٤١٦هـ.١٩٩٥م.

٢٥٥٦.غريب القرآن على حروف المعجم، محمد بن عزيز السجستاني، تحقيق صلاحية، دار طلاس، ط١، دمشق، ١٩٩٣م.

٢٥٥٧.غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار إحياء التراث العربي،ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢٥٥٨.غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية،

١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٢٥٥٩. **الغزو الفكري**، ممدوح فخري، الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، ط١، المدينة المنورة، ١٣٨٩هـ.

٢٥٦٠. **غزوات الرسول** صلى الله عليه وسلم، حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، ١٤٢٨هـ،٢٠٠٧م.

٢٥٦١. **غزوات النبي** صلى الله عليه وآله وسلم، السيد الجميلى، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤١٦ هـ.

٢٥٦٢. **الغضب (أسبابه، أضراره، الوقاية، العلاج)**، سناء محمد سليمان، عالم الكتب،ط١، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٢٥٦٣. **الغضب المردي وعلاجه**، الدكتورة سهام طه كيالي، دار المعرفة،ط١، دمشق، ١٩٩٨م.

٢٥٦٤. **غياث الأمم في التياث الظلم**، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، تحقيق: عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، ط٢، ١٤٠١هـ.

٢٥٦٥. **غياث الأمم في التياث الظلم**، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم و د. مصطفى حلمي، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٧٩م.

٢٥٦٦. **غيث النفع في القراءات السبع**، أبو الحسن علي بن محمد بن سالم، الصفاقسي المقرئ، تحقيق: أحمد الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥ هـ.

٢٥٦٧. **الغيث الهامع شرح جمع الجوامع**، أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي، تحقيق: محمد تامر حجازي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.

٢٥٦٨. **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٩٩٢م.

ف

٢٥٦٩. **الفائق في غريب الحديث والأثر**، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ.١٩٩٣م.

٢٥٧٠. **الفائق في غريب الحديث والأثر**، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط٢،

لبنان.

٢٥٧١. **فتاوى ابن تيمية**، أحمد عبد السلام، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد النجدي، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٢٥٧٢. **الفتاوى الإسلامية**، دار الإفتاء المصرية.

٢٥٧٣. **فتاوى الإمام عبدالحليم محمود**، د. عبدالحليم محمود، ط٥، دار المعارف.

٢٥٧٤. **الفتاوى البزازية**، الجامع الوجيز لابن البزاز الكردري، بهامش الفتاوى الهندية، بولاق ١٣١٠هـ.

٢٥٧٥. **الفتاوى الخانية**، قاضي خان الأوزجندي، مطبوع بهامش الفتاوى الهندية، طبعة بولاق، ١٣١٠هـ.

٢٥٧٦. **فتاوى السبكي**، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، دار المعارف.

٢٥٧٧. **الفتاوى الكبرى**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تقديم حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة،ط١،بيروت، ١٣٨٦م.

٢٥٧٨. **الفتاوى الكبرى**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق : محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

٢٥٧٩. **فتاوى اللجنة الدائمة**، المجموعة الأولى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الإدارة العامة للطبع، الرياض.

٢٥٨٠. **الفتاوى الهندية في مذهب الإمام أبي حنيفة**، بيروت، مصورة عن طبعة بولاق،١٣١٠هـ.

٢٥٨١. **الفتاوى الهندية في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان**، الشيخ نظام الدين البلخي، وجماعة من علماء الهند، العالمكيرية، دار الفكر، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٢٥٨٢. **فتاوى مهمة لعموم الأمة**، عبد العزيز بن باز، محمد بن صالح العثيمين، تحقيق، إبراهيم الفارس، دار العاصمة الرياض،ط١، ١٤١٣هـ.

٢٥٨٣. **فتاوى نور على الدرب**، عبد العزيز بن باز، إعداد: أ.د. عبد الله بن محمد الطيار ومحمد بن موسى الموسى، مؤسسة الشيخ عبد العزيز بن باز الخيرية، السعودية.

٢٥٨٤. **فتاوى نور على الدرب**، عبد العزيز

بن عبد الله بن باز، جمعها: الدكتور محمد بن سعد الشويعر، قدم لها: عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ.

٢٥٨٥. **فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي**، بدون طبعة.

٢٥٨٦. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار الكتب العلمية، ط٣،بيروت، ١٤٢١هـ.

٢٥٨٧. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، ط١، القاهرة، ١٤٠٧هـ،١٩٨٦م.

٢٥٨٨. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح وتحقيق: الشيخ عبد العزيز بن باز، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٩٩٨م.

٢٥٨٩. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، المكتبة السلفية،ط٣، القاهرة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

٢٥٩٠. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، تحقيق عبد العزيز ابن باز، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

٢٥٩١. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ،١٩٩٣م.

٢٥٩٢. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان،١٤١١هـ،١٩٩١م.

٢٥٩٣. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار السلام، الرياض.

٢٥٩٤. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٤، لبنان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٢٥٩٥. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار مصر للطباعة، ١٤٢١هـ،٢٠٠١م.

٢٥٩٦. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي مع تعليقات للعلامة الشيخ عبد العزيز بن باز، وللعلامة:

عبد الرحمن بن ناصر البراك مطبعة طيبة،ط١، الرياض،١٤٢٦هـ.

٢٥٩٧. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية،ط١،المدينة النبوية ١٤١٧ هـ. ١٩٩٦م.

٢٥٩٨. **فتح الباري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٢٥٩٩. **فتح الباري**، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن الجوزي، ط٢، الدمام، السعودية، ١٤٢٢هـ.

٢٦٠٠. **فتحُ البيان في مقاصد القرآن**، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا، بَيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٢٦٠١. **فتحُ البيان في مقاصد القرآن**، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، طبعه وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

٢٦٠٢. **الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، حققه ورتبه: أبو مصعب «محمد صبحي» بن حسن حلاق، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، اليمن.

٢٦٠٣. **الفتح الرباني والفيض الرحماني**، عبد القادر الجيلاني، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م.

٢٦٠٤. **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن**، زكريا الأنصاري، تحقيق: الصابوني، عالم الكتب، ١٩٨٥م.

٢٦٠٥. **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن الكريم(بهامش المصحف).**، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري، دار الصحابة.

٢٦٠٦. **فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق : عبد الرزاق

البدر، دار ابن الجوزي، ط١، الدمام، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٢٦٠٧. **الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي**، زين الدين محمد المناوي، تحقيق: أحمد مجتبى، دار العاصمة، الرياض.

٢٦٠٨. **فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب مالك**، الشيخ محمد عليش، جمع وترتيب علي بن نايف الشحود، موقع المكتبة الشاملة.

٢٦٠٩. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، مصر.

٢٦١٠. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تعليق: الشيخ هشام البخاري، والشيخ خُضرْ عكاري، المكتبة العصرية، ط١،بيروت، صيدا، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م.

٢٦١١. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تعليق: الشيخ هشام البخاري، والشيخ خُضرْ عكاري، المكتبة العصرية، ط١،بيروت، صيدا، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧م .

٢٦١٢. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط١، دمشق، بيروت، ١٤١٤ هـ.

٢٦١٣. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مكتبة المعارف، الرياض، « بلا رقم أو تاريخ ».

٢٦١٤. فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٢٦١٥. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الوفاء، ط٢، القاهرة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م .

٢٦١٦. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض.

٢٦١٧. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مؤسسة

الريان، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م.

٢٦١٨. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الرشد، الرياض، ١٤٢٨هـ.

٢٦١٩. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر،ط١، بيروت، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٢٦٢٠. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الخير، ط١، بيروت، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م.

٢٦٢١. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، ط٣، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢٦٢٢. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، مصر، ١٣٥٠هـ.

٢٦٢٣. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، اعتنى به: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت.

٢٦٢٤. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، مصر، ١٣٨٣هـ.

٢٦٢٥. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، بدون ذكر الطبعة، والتاريخ.

٢٦٢٦. **فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، اعتنى بتصحيحها الشيخ سمير خالد رجب، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ،١٩٩٨م.

٢٦٢٧. **فتح القدير شرح الهداية**، ابن الهُمَام، مطبعة بولاق، ط١، ١٣١٥هـ.

٢٦٢٨. **الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: يوسف النبهاني، دار الفكر، ط١، بيروت،،١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٣م.

٢٦٢٩. **فتح المبين لشرح الأربعين النووية**، ابن حجر الهيثمي، مطبعة العامرة

الشرقية،ط١، القاهرة، ١٣٢٢هـ.

٢٦٣٠. **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، دار إحياء الكتب العربية.

٢٦٣١. **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية،ط٧، القاهرة، مصر، ١٣٧٧هـ،١٩٥٧م.

٢٦٣٢. **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، مؤسسة قرطبة، .د.ت.

٢٦٣٣. **فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب**، الشيخ زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

٢٦٣٤. **فتح باب العناية بشرح النُّقاية**، علي بن سلطان الهروي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان.

٢٦٣٥. **فتح رب البرية بتلخيص الحموية**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض، (د . ط)، (د . ت) .

٢٦٣٦. **الفتنة وموقف المسلم منها**، عبد الحميد السحيباني، دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٦م.

٢٦٣٧. **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، سليمان بن عمر العجلي الشافعي الشهير بالجمل، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر.

٢٦٣٨. **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، سليمان بن عمر العجلي الشافعي الشهير بالجمل، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.

٢٦٣٩. **الفتوحات الربانية على الأذكار النووية**، المكتبة الإسلامية، ط(بدون)، تاريخ الطبعة (بدون)،

٢٦٤٠. **الفتوحات الربانية على الأذكار النووية**، محمد بن علان الصديقي الشافعي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٩٨٩م .

٢٦٤١. **فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل**، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل، دار الفكر، بدون طبعة، وبدون تاريخ.

٢٦٤٢. **الفتوى الحموية الكبرى**، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي

القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي،المحقق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، دار الصميعي،ط٢، الرياض، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م.

٢٦٤٣.**الفتوى الحموية الكبرى**، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، مكتبة دار المنهاج،ط١، السعودية، ١٤٣٠هـ.

٢٦٤٤.**الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، محمد بن علي بن طباطبا، المعروف بابن الطقطقي، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربيط١، بيروت، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧م.

٢٦٤٥.**الفرج بعد الشدة**، القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت.

٢٦٤٦.**الفرج**، نور الدين ابن برهان الدين، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٤٢٧هـ.

٢٦٤٧.**فرح المؤمن**، علوي السقاف، موقع الدرر السنية، نقل بتاريخ ١/ ٤/ ٢٠١٥م.

٢٦٤٨.**الفرح في الإسلام**، عيسى علي الأنصاري، تم النشر بتاريخ ٣٠/ ٨/ ٢٠١١م.

٢٦٤٩.**الفردوس بمأثور الخطاب**، شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو، أبو شجاع الديلميّ الهمذاني، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦م.

٢٦٥٠.**فرعون والطغيان السياسي**، أحمد بهجت، العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م

٢٦٥١.**الفرق بين الضاد والظاء في كتاب الله عز وجل وفي المشهور من الكلام**، عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني، تحقيق : حاتم صالح الضامن، دار البشائر، ط١، ٢٠٠٧م.

٢٦٥٢.**الفرق بين القلب والصدر**، الكليات الأزهرية، مصر.

٢٦٥٣.**الفرق بين النصيحة والتعيير**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَّلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، علق عليه وخرج أحاديثه: علي حسن علي عبد الحميد، دار عمار، ط١، عمان، ١٤٠٩هـ ،

١٩٨٨م.

٢٦٥٤.**فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام الكبرى**، د. غالب بن علي العواجي، دار لينة، ط٤، ١٤٢٠هـ.

٢٦٥٥.**فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها**، د. غالب بن علي العواجي، المكتبة العصرية الذهبية للطباعة والنشر والتسويق، ط٤، جدة، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م.

٢٦٥٦.**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: علي نايف الشحود، بدون طبع.

٢٦٥٧.**الفرقان في بيان إعجاز القرآن**، أبو محمد عبد الكريم بن صالح بن عبد الكريم الحميد، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م

٢٦٥٨.**الفروسية**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، مكتبة دار التراث، ط١، المدينة المنورة، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م،

٢٦٥٩.**الفروسية**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان، دار الأندلس، ط١، السعودية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٢٦٦٠.**الفروع ومعه تصحيح الفروع**، علاء الدين علي بن سليمان المرداوي، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.

٢٦٦١.**الفروق الشرعية واللغوية**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن إسماعيل القاضي، دار ابن القيم، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٢٦٦٢.**الفروق اللغوية**، أبو هلال العسكري، موقع يعسوب.

٢٦٦٣.**الفروق اللغوية**، أبو هلال العسكري، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الافاق الجديدة، ١٤٠٣هـ-١٩٩٩م.

٢٦٦٤.**الفروق اللغوية**، أبو هلال العسكري، تحقيق :محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م.

٢٦٦٥.**الفروق اللغوية**، أبو هلال العسكري، تحقيق مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، مؤسسة النشر

الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط١، ١٤١٢هـ.

٢٦٦٦. **الفروق اللغوية**، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر .

٢٦٦٧. **الفروق، المسمى (أنوار البروق في أنواء الفروق)**، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير للقرافي، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).

٢٦٦٨. **الفروق**، سعد بن محمد بن الحسين، أبي المظفر، جمال الإسلام الكرابيسي النيسابوري الحنفي، تحقيق: د. محمد طموم، مراجعة د.عبد الستار أبو غدة، وزارة الأوقاف الكويتية، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٢٦٦٩. **الفريد في إعراب القرآن المجيد**، حسين بن أبي العز الهمداني، تحقيق: د. فهمي النمر وآخرون، دار الثقافة، قطر، ١٩٩١م.

٢٦٧٠. **فريدة الدهر في تأصيل وجمع القراءات**، محمد إبراهيم محمد سالم، دار البيان العربي،ط١، القاهرة، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٢٦٧١. **فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب**، محمد نصر الدين محمد عويضة، (بدون طبعة).

٢٦٧٢. **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، أبو الوليد ابن رشد، تحقيق: مصطفى عبد الجواد، المكتبة المحمودية، ط٣، القاهرة، مصر، ١٩٦٨م.

٢٦٧٣. **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢٦٧٤. **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٢٦٧٥. **فصول الأزمة المالية العالمية، أسبابها، جذورها وتبعاتها الاقتصادية**، د. محمد أحمد زيدان، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر: الأزمة المالية العالمية وكيفية علاجها من منظور النظام الاقتصادي الغربي والإسلامي، جامعة الجنان – لبنان،١٤،١٣، آذار ٢٠٠٩م.

٢٦٧٦. **فصول البدائع في أصول الشرائع**، محمد بن حمزة بن محمد، شمس الدين الفناري (أو الفَنَري) الرومي، المحقق: محمد حسين محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط١،

بيروت، لبنان، ٢٠٠٦م، ١٤٢٧هـ.

٢٦٧٧. **فصول في تدريس التربية الإسلامية**، د. حسن جعفر الخليفة ود. كمال الدين محمد هاشم، مكتبة الرشد، الرياض السعودية، ٢٠٠٥م.

٢٦٧٨. **الفصول في سيرة الرسول**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق وتعليق: محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو، مؤسسة علوم القرآن، ط٣، ١٤٠٣ هـ.

٢٦٧٩. **الفصول والغايات**، أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان المعري، التنوخي، تحقيق: محمود حسن زناتي دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٢٦٨٠. **فضاءات الحرية**، د. سلطان عبدالرحمن العميري، المركز العربي للدراسات الإنسانية، ط١، ٢٠١٣م.

٢٦٨١. **فضائل الصحابة في القرآن الكريم**، سيد أحمد الهاشمي، مكتبة الصحابة، ط١، الشارقة، الإمارات، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧م.

٢٦٨٢. **فضائل الصحابة**، أحمد بن حنبل، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢٦٨٣. **فضائل الصحابة**، أحمد بن حنبل، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٢٦٨٤. **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: أحمد بن عبد الواحد الخيّاطي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٢٦٨٥. **فضائل القرآن**: أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُسْتَفاض الفِرْيابِي، تحقيق: يوسف عثمان فضل الله جبريل، مكتبة الرشد،ط١، الرياض، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٢٦٨٦. **فضائل القرآن**، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، دار القبلة، ط١، ١٤٠٨هـ.

٢٦٨٧. **فضائل القرآن**، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مكتبة ابن تيمية، الطبعة،ط١، ١٤١٦ هـ.

٢٦٨٨. **فضائل القرآن**، أبو عبيد القاسم بن سلَّام البغدادي، تحقيق: مروان العطية ومحسن خرابة ووفاء تقي الديندار، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٢٠هـ.

٢٦٨٩. **فضل علم السلف على علم الخلف**، ابن رجب، دار البشائر الإسلامية،١٤٠٣ هـ.

٢٦٩٠. **الفطرة عند أهل السنة والجماعة**، صابر السلفي، الموسوعة الإسلامية

الكبرى للكتاب الإلكتروني، ٢٠١٣م.

٢٦٩١. **فعالية استخدام بعض استراتيجيات ما وراء المعرفة في تحصيل الفيزياء وتنمية التفكير التأملي والاتجاه نحو استخدامها لدى طلاب الصف الثاني الثانوي الأزهري**، فاطمة محمد عبد الوهاب، مجلة التربية العلمية،القاهرة، مصر، المجلد الثامن، العدد ٤، ديسمبر ٢٠٠م.

٢٦٩٢. **ففروا إلى الله**، أبو ذر القلموني، عبد المنعم بن حسين بن حنفي بن حسن بن الشاهد، مكتبة الصفا، القاهرة، ط٥، ١٤٢٤ هـ.

٢٦٩٣. **الفقه الأبسط (مطبوع مع الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين لأبي حنيفة)**، محمد بن عبد الرحمن الخميس)، مكتبة الفرقان،ط١، الإمارات العربية،١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٢٦٩٤. **فقه الأدعية والأذكار**،، دار ابن عفان، ط١، القاهرة، مصر، ١٤٢٢هـ.

٢٦٩٥. **الفقه الإسلامي وأدلته**، د. وَهْبَة بن مصطفى الزُّحَيْلِيّ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر،ط١٢، دمشق.

٢٦٩٦. **الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ**، د. وَهْبَة بن مصطفى الزُّحَيْلِيّ، دار الفكر، ط٤، دمشق، سوريَّة.

٢٦٩٧. **الفقه الإسلامي وأدلته**، د. وَهْبَة بن مصطفى الزُّحَيْلِيّ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ط٢، دمشق، ١٤٠٥هـ.

٢٦٩٨. **فقه الأولويات دراسة في الضوابط**، محمد الوكيلي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م.

٢٦٩٩. **فقه التدرُّج في التشريع الإسلامي فهماً وتطبيقاً**، د. معاوية أحمد سيد أحمد، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد التاسع (عدد خاص)، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٧٠٠. **فقه التمكين عند دولة المرابطين**، عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط١، القاهرة، مصر، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ م.

٢٧٠١. **فقه الحسد**، أبو عبد الله مصطفى بن العدوي، مكتبة الإيمان، المنصورة، د،ت، وبدون رقم الطبعة.

٢٧٠٢. **فقه الدعوة الى الله وفقه النصح والإرشاد**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦ م

٢٧٠٣. **فقه الدعوة إلى الله**، الدكتور علي عبدالحليم محمود، دار الوفاء،ط١،

المنصورة، مصر، ٢٠٠٠م.

٢٧٠٤. **فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري**، سعيد بن علي بن وهب القحطاني، رسالة دكتوراه، من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد،ط١، ١٤٢١هـ.

٢٧٠٥. **فقه الزكاة في الإسلام دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة**، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٩٧٣م.

٢٧٠٦. **فقه السنة**، السيد سابق، دار الفكر، ط٥، بيروت، ١٩٧١،١٣٩١م.

٢٧٠٧. **فقه السنة**، السيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، لبنان، ١٣٩٧ هـ، ١٩٧٧م.

٢٧٠٨. **فقه السنة**، السيد سابق، شركة منار الدولية، القاهرة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

٢٧٠٩. **الفقه السياسي للوثائق النبوية**، د. خالد سليمان الفهداوي، دار عمار،ط١، الأردن، ١٩٩٨م.

٢٧١٠. **فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط٦، القاهرة،بالاتفاق مع دار الفكر، دمشق، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٢٧١١. **فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٩هـ،٢٠٠٨م.

٢٧١٢. **فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٩هـ،١٩٧٩م.

٢٧١٣. **فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**، محّمد سَعيد رَمضان البوطي،دار الفكر،ط٢٥، دمشق، ١٤٢٦ هـ.

٢٧١٤. **فقه السيرة النبوية**، منير محمد غضبان، مطابع جامعة أُم القرى، ط٢،، مكة ١٩٩٢م.

٢٧١٥. **فقه السيرة**، محمد الغزالي السقا، دار القلم، ط١، دمشق، ١٤٢٧هـ.

٢٧١٦. **فقه السيرة**، محمد الغزالي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني دار القلم، ط٧، دمشق،١٩٩٨م.

٢٧١٧. **فقه السيرة**، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط١،مصر.

٢٧١٨. **فقه الشورى والاستشارة**، توفيق الشاوي، دار الوفاء للنشر، المنصورة، مصر، ١٤١٣هـ.

٢٧١٩. فقه الشورى، دراسة تأصيلية نقديّة، علي بن سعيد الغامدي، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٢هـ.

٢٧٢٠. فقه الصيام (تيسير الفقه في ضوء القرآن والسنة)، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت،١٩٩٣م.

٢٧٢١. فقه الفتن، عبد الواحد الأدريسي، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ١٤٢٨هـ.

٢٧٢٢. فقه الفرح في الكتاب والسنة، أمين نعمان الصلاحي، مقال منشور بتاريخ ١٧/ ٨/ ٢٠١٣م.

٢٧٢٣. فقه القراءة من منظور قرآني، د. طه عابدين طه، نشر مجلة الدراسات الدعوية، جامعة أفريقيا العالمية بالسودان، العدد: العاشر ربيع الثاني ١٤٢٦هـ،يونيو ٢٠٠٥م.

٢٧٢٤. فقه اللغة وسر العربية، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

٢٧٢٥. فقه المسؤولية في الإسلام، علي عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥م.

٢٧٢٦. الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، د. مُصطفى الخِنْ، د. مُصطفى البُغا، علي الشّرْبجي، دار القلم،ط٤، دمشق، ١٤١٣هـ. ١٩٩٢م.

٢٧٢٧. الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة، مجموعة من المؤلفين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٤هـ.

٢٧٢٨. فقه النكاح والفرائض، محمد عبد اللطيف قنديل، المكتبة الشاملة.

٢٧٢٩. الفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري وآخرين، وزارة الأوقاف المصرية.

٢٧٣٠. الفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٢٧٣١. الفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

٢٧٣٢. الفكر الإسلامي تقويمه وتجديده، الدكتور محسن عبدالحميد، دار الأنبار، ط١، العراق، ١٩٨٧م.

٢٧٣٣. الفكر الإسلامي في مواجهة الحضارة، محمد تقي المدرس، دار التربية، بيروت.

٢٧٣٤. الفكر الإسلامي والمجتمع

المعاصر، محمد البهي، الدار القومية للطباعة والنشر.

٢٧٣٥. الفكر التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي، سعيد بن محمد بن مصلح القرني، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ.

٢٧٣٦. الفكر السياسي عند الماوردي، الدكتور صلاح الدين بسيوني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٣م.

٢٧٣٧. فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، د. صالح العبود، دار طيبة، ط١، الرياض، ١٤٠١هـ.

٢٧٣٨. فن الحوار (أصوله، آدابه، صفات المحاور)، عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي، تقديم: القاضي محمد بن إسماعيل العمراني، دار الإيمان، دار القمة، بدون طبعة.

٢٧٣٩. فنون الحوار والإقناع، محمد ديماس، دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٩م.

٢٧٤٠. فهرست مصنفات تفسير القرآن الكريم، مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ.

٢٧٤١. فهم القرآن ومعانيه، الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله، تحقيق: حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٢٧٤٢. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان، دار ركابي للنشر، ط١، مصر، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٢٧٤٣. فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت، عبد العلي ابن نظام الدين الأنصاري، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨هـ.

٢٧٤٤. الفواكه البدريَّة في الأقضية الحُكْمِيَّة، ابن الغَرْس الحنفي، مطبعة النيل، مصر، ١٣٢٦هـ.

٢٧٤٥. الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، شهاب الدين الأزهري، دار الفكر، ١٩٩٥م.

٢٧٤٦. فوائد البلوى، الفتن والبلايا، العز بن عبد السلام، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار الفكر المعاصر ط٢، د.ت.

٢٧٤٧. الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن بن

يحي المعلمي اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٧٤٨. فوائد مستنبطة من سورة يوسف، عبد الرحمن ناصر السعدي، أضواء السلف،ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م.

٢٧٤٩. فوائد من شرح كتاب التوحيد، عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السدحان، دار المسلم للنشر والتوزيع.

٢٧٥٠. الفوائد، أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد البجلي الرازي ثم الدمشقي، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٢هـ.

٢٧٥١. الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٢٧٥٢. الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد محمد تامر، طبعة دار التقوى، بدون تاريخ.

٢٧٥٣. الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

٢٧٥٤. الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، ط١، مكة المكرمة، ١٤٢٩هـ.

٢٧٥٥. الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، ط١، القاهرة، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

٢٧٥٦. الفوز الكبير في أصول التفسير، أحمد بن عبد الرحيم، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، دار الصحوة،ط١، القاهرة.

٢٧٥٧. في الفقه السياسي الإسلامي، مبادئ دستورية، فريد عبد الخالق، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٩هـ.

٢٧٥٨. في الفقه السياسي الإسلامي، محمد أمزيان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤٢١هـ.

٢٧٥٩. في النظام السياسي للدولة الإسلامية، محمد سليم العوا، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٠هـ.

٢٧٦٠. في النقد الأدبي، علي مصطفى صبح، المكتبة الشاملة.

٢٧٦١. في رحاب الإسلام، الدكتور محمد سالم محيسن، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٤٠٥هـ ،

١٩٨٥م.
٢٧٦٢. في رحاب التفسير، عبد الحميد كشك، المكتب المصري الحديث.
٢٧٦٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ،١٩٨٦م.
٢٧٦٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٣، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٦م.
٢٧٦٥. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١، بيروت، لبنان.
٢٧٦٦. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١١، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ،١٩٨٥م.
٢٧٦٧. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٤، بيروت، لبنان، ١٤٠٨، ١٩٨٧م.
٢٧٦٨. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٥، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
٢٧٦٩. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٦، ١٤١٠هـ.١٩٩٠م.
٢٧٧٠. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٧، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
٢٧٧١. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٣٢، بيروت، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٣م.
٢٧٧٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٣٥، بيروت، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
٢٧٧٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٣٨، بيروت، لبنان، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
٢٧٧٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٤، القاهرة، ١٣٨٧هـ ١٩٦٨م.
٢٧٧٥. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٦، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
٢٧٧٦. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٧، بيروت، لبنان، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.
٢٧٧٧. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٩، بيروت، لبنان ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
٢٧٧٨. في قفص الاتهام منهجية التعامل مع الشبهات وقواعد دحضها، علي الحمادي، دار ابن حزم،ط١.
٢٧٧٩. في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، المحقق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية

بيروت،ط١، لبنان، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م.

٢٧٨٠. فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي، المحقق: محمد بدر عالم الميرتهي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

٢٧٨١. فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد بن عبدالرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، ط١، مصر ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣ م.

٢٧٨٢. فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد بن عبدالرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، ط١، مصر، ١٣٥٦هـ.

٢٧٨٣. فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد بن عبدالرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤م.

٢٧٨٤. فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي، دار المعرفة،ط٢، بيروت،١٣٩١هـ،١٩٧٢م.

ق

٢٧٨٥. قاعدة الضرر يزال وشمولها للتعويض عن الضرر المعنوي، د. خالد عبد الله، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية.

٢٧٨٦. قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض ١٤٢٠هـ.١٩٩٩م.

٢٧٨٧. قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية، تحقيق أشرف عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، ٢٠٠٢م.

٢٧٨٨. قالوا في المثل «موسوعة في الأمثال والحكم السائرة نثرًا وشعرًا»، عيسى عطا الله، جمعية الدراسات العربية، القدس .

٢٧٨٩. القاموس الفقهي، الدكتور سعدي أبو حبيب، دار الفكر، ط٢، دمشق، سورية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٢٧٩٠. قاموس القرآن (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم)، الحسين بن محمد الدمغاني، تحقيق : عبدالعزيز سيد الأهل، دار العلم

للملايين، ط٤، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٧٩١. **قاموس القرآن (إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم)**، الحسين بن محمد الدمغاني، تحقيق : عبدالعزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٨٠م.

٢٧٩٢. **قاموس القرآن (إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم)**، الحسين بن محمد الدمغاني، حققه: عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م،١٤٢٤هـ.

٢٧٩٣. **قاموس القرآن (إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم)**، الحسين بن محمد الدمغاني، عبدالعزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين،ط٥، بيروت، ١٩٨٥م.

٢٧٩٤. **القاموس القويم للقرآن الكريم**، إبراهيم أحمد عبد الفتاح، مجمع البحوث، القاهرة، ١٩٨٣م.

٢٧٩٥. **القاموس المحيط**، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم الفيروزآبادي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٧٩٦. **القاموس المحيط**، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم الفيروزآبادي، مطبعة السعادة، مصر.

٢٧٩٧. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة،ط٦، ١٤١٩هـ.

٢٧٩٨. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٢٤ه – ٢٠٠٣م .

٢٧٩٩. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط٨، بيروت،١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

٢٨٠٠. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الجيل، د،ت.

٢٨٠١. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الحديث، القاهرة.

٢٨٠٢. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٢٨٠٣. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الفكر، بيروت،١٩٩٥م.

٢٨٠٤. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الفكر، بيروت، ١٤٣٢هـ، ٢٠١٠م.

٢٨٠٥. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد

بن يعقوب الفيروزآبادي، دار القلم، بيروت، لبنان.

٢٨٠٦. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٥هـ

٢٨٠٧. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤٠٧هـ. ١٩٨٧م.

٢٨٠٨. **قَانون التَّأويْل**، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي، دراسة وتحقيق: محمّد السّليماني، دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة، جَدّة، مؤسَسَة عُلوم القرآن،ط١، بيروت، ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م.

٢٨٠٩. **القانون الدولي العام**، د. حامد سلطان وآخرين، ١٩٧٧ م.

٢٨١٠. **القانون الدولي العام**، د. محمود سامي جنينة، دار التأليف، مصر، ١٩٣٨ م.

٢٨١١. **القانون الدولي العام**، علي ماهر، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٣٤٢ هـ.

٢٨١٢. **القانون الدولي**، حسني جابر، دار النهضة العربية، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٨١٣. **قانون السلام في الإسلام**، د. محمد طلعت الغنيمي. منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٨م.

٢٨١٤. **قانون العقوبات المصري**، إعداد ومراجعة فاطمة الزهراء عباس أحمد، وعادل نفي محمود، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية،ط٢،مصر، ١٩٨٥م.

٢٨١٥. **القانون في الطب**، أبو علي بن سينا، تحقيق: محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٤٢٠هـ،١٩٩٩م.

٢٨١٦. **القانون والحرية في حضارة الغرب**، إسماعيل بن مظهر، الرسالة الثانية من رسائل الفكر الحر، المقطف والمقطم، مصر، ١٩٤٧م.

٢٨١٧. **القانون والعلاقات الدولية في الإسلام**، د. صبحي محمصاني، دار العلم للملايين، ١٩٧٣م.

٢٨١٨. **قبسات من الرسول**، محمد قطب، دار الشروق، مصر.

٢٨١٩. **قبسات من هدي القرآن والسنة**، علي محمد حجازي، دار الثقافة، ط١،قطر،١٩٩٠م.

٢٨٢٠. القبيلة الثالثة عشر و يهود اليوم، آرثر كيستلر، ترجمة: أحمد نجيب هاشم، الهيئة العامة المصرية للغات،١٩٩١م.

٢٨٢١. **القتال في القرآن الكريم**، د.

حسن عبد المقصود، مكتبة الآداب، القاهرة،١٤٣٢هـ.

٢٨٢٢.القدس عبر التاريخ دراسة جغرافية تاريخية أثرية للمدينة المقدسة، ميخائيل مكسي اسكندر، بدون دار نشر، ١٩٩٧م.

٢٨٢٣.القدس عربية إسلامية، سيد فرج راشد، دار المريخ للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٠٦، ١٩٨٦م.

٢٨٢٤.القدس، هنري كتن، ترجمة إبراهيم الراهب، دار كنعان للترجمة والنشر،ط١، دمشق، ١٩٩٧م.

٢٨٢٥.القدوة الصالحة وأثرها على الفرد والمجتمع، د. عصام العبد زهد، الجامعة الإسلامية،كلية أصول الدين، غزة، فلسطين، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

٢٨٢٦.القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة، إشراف ومراجعة: الشيخ محمد كريم راجح والشيخ محمد فهد خاروف، دار المهاجر، جدة، ومكتبة كنوز المعرفة، السعودية.

٢٨٢٧.القراءة المثمرة، د. عبد الكريم بكار، دار القلم، ط٢، دمشق، ١٤٢٠هـ.

٢٨٢٨.القراءة أولاً، د. محمد سالم عدنان، دار الفكر المعاصر،ط١، بيروت ١٤١٤هـ.

٢٨٢٩.قراءة علمية وإعجازية في وهن العظام عند الرجال، د. محمد الديب، موقع هيئة الإعجاز العلمي.

٢٨٣٠.القرآن الأمريكي أضحوكة القرن الحادي والعشرين، محمد السيد عبده عبد الرازق، دار الكتب، ٢٠٠٤م.

٢٨٣١.القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٢٨٣٢.القرآن المعجزة الكبرى، نزوله-كتابته ،جمعه،إعجازه،جدله،علومه ،تفسيره،حكم الغناء به، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٢٨٣٣.قرآن كريم تفسير وبيان مع أسباب النزول للسيوطي مع فهارس كاملة للمواضيع والألفاظ، الدكتور محمد حسن الحمصي، دار الرشيد، دمشق.

٢٨٣٤.القرآن منهاج حياة، غازي صبحي آق بيق، قام بتنسيقه وفهرسته الباحث في القرآن والسنة: علي بن نايف الشحود، ٢٠٠٨م.

٢٨٣٥.القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي، ودار الثقافة العربية للطباعة.

٢٨٣٦.القرآن والسلوك الإنساني، محمد سليم، الهيئة العامة للكتاب،

مصر،١٩٧٨م.

٢٨٣٧. **القرآن والكتاب**، يوسف درة حداد، المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.

٢٨٣٨. **القرآن والمبشرون**، محمد عزة دروزة، المكتب الإسلامي.

٢٨٣٩. **القرآن وعلم النفس**، د. محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢م.

٢٨٤٠. **القرآن وعلم النفس**، د. محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط٦، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢٨٤١. **القرآن وعلم النفس**، د. محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط٧، القاهرة، ١٤٢١هـ،٢٠٠١م.

٢٨٤٢. **القرآن وعلوم الأرض**، محمد سميح عافية، الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤هـ.

٢٨٤٣. **القرآن وقضايا الإنسان**، د. عائشة عبدالله بنت الشاطئ، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٧٥م.

٢٨٤٤. **القرآن وقضايا الإنسان**، د. عائشة عبدالله بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة.

٢٨٤٥. **القرآن ومنهج التفكير**، محمد عبد الواحد حجازي، الزهراء للإعلام العربي، ط١،مصر، ١٩٩٣م.

٢٨٤٦. **القرآن ونقض مطاعن الرهبان**، د صلاح عبد الفتاح الخالدي،، دار القلم، ط١، دمشق، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م.

٢٨٤٧. **القرائن عند الأصوليين**، د.محمد بن عبدالعزيز المبارك، من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود ضمن سلسلة الرسائل الجامعية، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

٢٨٤٨. **قرة العين ببيان حقوق الزوجين**، أبو عبدالرحمن جميل بن عبده بن قايد الصلوي، مكتبة دار الحديث، دماج، اليمين، ٢٠١١،١٤٣٢م.

٢٨٤٩. **قرى الضيف**، أبو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس، ابن أبي الدنيا، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، دار أضواء السلف،ط١، الرياض، ١٩٩٧م.

٢٨٥٠. **القصاص دراسة في الفقه الجنائي المقارن**، د. هاني السباعي، موقع المكتبة الشاملة.

٢٨٥١. **قصائد من عيون الشعر**، نخبة من الشعراء، المكتبة الشاملة.

٢٨٥٢. **قصة الحضارة**، وِل ديورَانت، ويليام جيمس، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم، تونس، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م.

٢٨٥٣. **القصة في القرآن الكريم**، الخصائص والدلالات، د. إبراهيم الصعبي، المكتبة الشاملة.

٢٨٥٤. **قصص الأنبياء ومناقب القبائل من التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن**، دون اسم مؤلف، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة أم القرى، مكة المكرمة، مؤسسة الريان، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٢٨٥٥. **قصص الأنبياء**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التأليف،ط١، القاهرة، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨ م.

٢٨٥٦. **قصص الأنبياء**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: عبد الحي الفرماوي، دار الطباعة والنشر الإسلامية.

٢٨٥٧. **قصص الأنبياء**، عبد الوهاب النجار، دار البحار، بيروت، ٢٠٠٢م.

٢٨٥٨. **قصص الأنبياء**، عبدالوهاب النجار، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

٢٨٥٩. **قصص الأنبياء**، محمد جاد المولى وآخرون، دار الجيل، ومكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة بدون تاريخ.

٢٨٦٠. **قصص الأنبياء**، محمد جاد المولى، دار النصر، دمشق، ١٤٠٤ ه ، ١٩٨٤م.

٢٨٦١. **قصص القرآن الكريم في سيرة سيد المرسلين**، محمد منير الجنباز، ط١، ٢٠٠٨م.

٢٨٦٢. **قصص القرآن الكريم، صدق حدث وسمو هدف**، الدكتور فضل حسن عباس، دار النفائس،ط٢، الأردن، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧م.

٢٨٦٣. **قصص القرآن الكريم، صدق حدث وسمو هدف**، الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، الأردن.

٢٨٦٤. **قصص القرآن من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل**، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، ط٢، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢٨٦٥. **قصص القرآن**، سعد يوسف أبو عزيز، دار الفجر للتراث،ط١، القاهرة،١٤٢٠هـ.١٩٩٩م.

٢٨٦٦. **قصص القرآن**، فؤاد بن سراج عبد الغفار، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.

٢٨٦٧. **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، الدكتور فضل حسن عباس، دار

الفرقان، ط١، عمان، الأردن، ١٩٨٧م.

٢٨٦٨. **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، د. صلاح الخالدي، الدار الدمشقية، ط٢،بيروت، ١٤٢٨هـ،٢٠٠٧م.

٢٨٦٩. **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق.

٢٨٧٠. **القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه**، عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة،ط٢، ١٣٩٥هـ. ١٩٧٥م.

٢٨٧١. **القصص القرآني**، الدكتور أحمد عبيد الكبيسي، دار الكتاب الجامعي،ط١، العين، الإمارات، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٣م.

٢٨٧٢. **قصيدة عنوان الحكم**، علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البُسْتي، أبو الفَتح، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط١، حلب، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٢٨٧٣. **القضاء والقدر**، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، دار النفائس للنشر والتوزيع،ط١٣، الأردن، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥ م.

٢٨٧٤. **قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام**، أنور الجندي، مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤٠١هـ.

٢٨٧٥. **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة**، محمد الغزالي، دار الشروق، ١٩٩٩م.

٢٨٧٦. **قضايا طبية واجتماعية تهم الأسرة المسلمة دراسات من المنظور الشرعي والطبي**، د.محمد شافعي مفتاح، دار الصميعي،ط١، الرياض، ١٤٢٧هـ.٢٠٠٦م.

٢٨٧٧. **قضية فلسطين**، هنري كتن، ترجمة رشدي الأشهب،ط١، بيروت،١٩٩٩م.

٢٨٧٨. **القطع والظن عند الأصوليين**، سعد بن ناصر الشثري، دار الحبيب،ط١، الرياض،١٤١٨هـ.

٢٨٧٩. **قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر**، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ.

٢٨٨٠. **قطف الجني الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، عبد المحسن بن حمد العباد البدر، دار الفضيلة،ط١، الرياض، المملكة

العربية السعودية، ١٤٢٣هـ.٢٠٠٢م.

٢٨٨١. **قطوف دانية من الكتاب والسنة**، الدكتور محمود أحمد القيْسية، مؤسسة النداء، ط١، أبو ظبي، الإمارات، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٢٨٨٢. **القلوب وآفاتها**، صلاح الدين علي عبد الموجود، دار ابن الجوزي، ط٢، جدة، السعودية، ١٤٣١هـ.

٢٨٨٣. **القلوب**، البيانوني، دار السلام، دمشق.

٢٨٨٤. **القمار حقيقته وأحكامه**، سليمان بن أحمد الملحم، دار كنوز إشبيليا،ط١، الرياض، ١٤٢٩هـ،٢٠٠٨م.

٢٨٨٥. **القمار نظرة سيكولوجية اجتماعية**، محمد قاسم عبد الله، مجلة الفكر العربي، إصدار معهد الإنماء العربي، لبنان، المجلد ١٨، العدد ٨٧، ١٩٩٧م.

٢٨٨٦. **قمع الحرص بالزهد والقناعة**، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الله شمس الدين القرطبي، دار ابن حزم.

٢٨٨٧. **قواطع الأدلة في الأصول**، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، المحقق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ،١٩٩٩م.

٢٨٨٨. **قواعد الأحكام في إصلاح الأنام**، العز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلم، تحقيق: نزيه كمال حماد، وعثمان جمعة ضميرية، دار القلم، ط١، ١٤٢١ه – ٢٠٠٠م .

٢٨٨٩. **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزو جل**، عبد الرحمن حسن حبنكة للميداني، دار القلم،ط٤، دمشق، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

٢٨٩٠. **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزو جل**، عبد الرحمن حسن حبنكة للميداني، دار القلم،ط٢، دمشق،١٤٠٩هـ. ١٩٨٩م.

٢٨٩١. **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز جل**، عبد الرحمن حسن حبنكة للميداني، دار القلم،ط٥، دمشق، ٢٠١٢م.

٢٨٩٢. **قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية**،حسين بن علي بن حسين الحربي، دار القاسم ط١، الرياض، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٢٨٩٣. **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به : خالد بن عثمان السبت، دار

ابن الجوزي، ط٢، الدمام، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٢٨٩٤. **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مطبعة أنصار السنة المحمدية، ١٣٦٦هـ.

٢٨٩٥. **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة الرشد،ط١، الرياض ١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م.

٢٨٩٦. **قواعد العلاقات الدولية**، د. جعفر عبدالسلام، مكتبة السلام العالمية، ١٤٠١ هـ.

٢٨٩٧. **قواعد الفقه**، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الصدف ببلشرز،ط١، كراتشي، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

٢٨٩٨. **القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة**، د. محمد مصطفى الزحيلي، دار الفكر،ط١ دمشق، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦م.

٢٨٩٩. **القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، الجامعة الإسلامية، ط٣، المدينة المنورة، ١٤٢١هـ،٢٠٠١م.

٢٩٠٠. **القواعد النورانية الفقهية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية،ط١، القاهرة، ١٣٧٠هـ.

٢٩٠١. **القواعد لابن رجب**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون.

٢٩٠٢. **القواعد والضوابط الفقهية المتضمنة للتيسير**، عبد الرحمن بن صالح العبد اللطيف، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط١،المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٣م.

٢٩٠٣. **القواعد والفوائد الأصولية**، تحقيق وتصحيح: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان،١٤٠٣هـ.

٢٩٠٤. **قواعد وفوائد من الأربعين النووية**، ناظم محمد سلطان، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط٥، الرياض، ١٩٩٧م.

٢٩٠٥. **القواعد**، أبو عبدالله محمد بن المقري المالكي، مركز إحياء التراث الإسلامي.

٢٩٠٦. **القواعد**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، دار

الكتب العلمية، (بدون طبعة).

٢٩٠٧. **القوانين الفقهية**، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، المحقق: محمد بن محمد مولاي، المكتبة الشاملة.

٢٩٠٨. **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت ١٤٢٦ هـ ،٢٠٠٥ م.

٢٩٠٩. **قوت المغتذي على جامع الترمذي**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، رسالة الدكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، ١٤٢٤هـ.

٢٩١٠. **القول السديد شرح كتاب التوحيد**، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، الرياض.

٢٩١١. **القول السديد شرح كتاب التوحيد**، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: المرتضى الزين أحمد، مجموعة التحف النفائس الدولية، ط٣.

٢٩١٢. **القول السديد شرح كتاب التوحيد**، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط٣، المملكة العربية السعودية ١٤٢١هـ.

٢٩١٣. **القول السديد في مقاصد التوحيد**، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به د. المرتضى الزين أحمد، ط١، مجموع التحق النفائس الدولية، الرياض: ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

٢٩١٤. **القول المفيد على كتاب التوحيد**، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي،ط٣، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ،١٩٩٩م.

٢٩١٥. **القول المفيد على كتاب التوحيد**، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط٢، الدمام، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ.

٢٩١٦. **القول المفيد على كتاب التوحيد**، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي،، ط٤، الدمام، المملكة العربية السعودية،١٤٢١هـ.

٢٩١٧. **القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز للسمين الحلبي**، «سورة آل عمران»، رسالة علميَّة بالجامعة الإسلاميَّة في مرحلة الدكتوراه،

تحقيق: وائل محمد جابر، ١٤٣٥هـ.

٢٩١٨. القياس في الشرع الإسلامي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، المطبعة السلفية، مصر، ١٣٤٦هـ.

٢٩١٩. القيامة الصغرى، عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، ط٤، الكويت، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٢٩٢٠. القيامة الصغرى، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، ط ١٣، الأردن، ٢٠٠٤م.

٢٩٢١. القيامة الكبرى، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط٦، الأردن، ١٤١٥هـ،١٩٩٥م.

٢٩٢٢. قيم حضاريّة، د توفيق السبع، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٤ م.

٢٩٢٣. القيم والعادات الاجتماعية، فوزية دياب، بيروت، ١٩٨٠م.

٢٩٢٤. قيمة الزمن عند المسلمين، عبد الفتاح أبو غدة، دار القلم،ط٢، الكويت، ١٤٠٦هـ.

٢٩٢٥. قيمة الوفاء في المنظور الإسلامي، د. طه عبد السلام خضير، مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، رمضان، شوال ١٤٣٠ هـ، سبتمبر، العدد : ٩،١٠، السنة : ٣٣، أكتوبر ٢٠٠٩م.

ك

٢٩٢٦. الكاشف عن حقائق السنن (شرح الطيبي على مشكاة المصابيح)، شرف الدين الطيبي، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١،مكة المكرمة، ١٤١٧هـ. ١٩٩٧م.

٢٩٢٧. الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، ابن حجر العسقلاني، دار ابن خزيمة، الرياض.

٢٩٢٨. الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، ابن حجر العسقلاني، دار النفائس،ط١، الرياض ـ ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٢٩٢٩. الكافي في فقه الإمام أحمد، أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد الله بن المحسن التركي، دار هجر،ط١، مصر، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م.

٢٩٣٠. الكافي في فقه الإمام أحمد، أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٢٩٣١. الكافي في فقه أهل المدينة، أبو عمر، يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، دار

الكتب العلمية،ط٢، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ،١٩٩٢م.

٢٩٣٢.الكافي في فقه أهل المدينة، أبو عمر، يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق: محمد محمد أحيد ولد ماديك الموريتاني، مكتبة الرياض الحديثة، ط٢، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٠هـ،١٩٨٠م.

٢٩٣٣.الكافي في فقه أهل المدينة، أبو عمر، يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، مطبعة دار الهدى، ١٣٩٩ هـ.

٢٩٣٤.الكافية في الجدل، إمام الحرمين، ركن الدين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، تحقيق: فوقية حسين محمود، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٩٩ هـ.١٩٧٩ م.

٢٩٣٥.الكامل في الأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان.

٢٩٣٦.الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط١،بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ،١٩٩٧م.

٢٩٣٧.الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن الأثير، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت، ١٤١٥هـ.

٢٩٣٨.الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٢٩٣٩.الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس، ت: الدكتور محمد أحمد الدَّالي، مؤسسة الرسالة،ط٤، بيروت، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٢٩٤٠.الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط٣، القاهرة، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م .

٢٩٤١.الكامل في ضعفاء الرجال، عبد الله بن عدي بن عبدالله بن محمد أبي أحمد الجرجاني، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ،١٩٨٨م.

٢٩٤٢.الكبائر، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الندوة الجديدة، بيروت.

٢٩٤٣. الكبائر، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧م.

٢٩٤٤. كتاب التلخيص، عبدالملك الجويني، تحقيق: عبدالله جولم وشبير العمري، دار البشائر، ط١،بيروت ١٩٩٦م.

٢٩٤٥. كتاب التوحيد المسمى التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد، عمر العرباوي الحملاوي، مطبعة الوراقة العصرية، ١٤٠٤هـ،١٩٨٤م.

٢٩٤٦. كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، ابن خزيمة، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان،،مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م

٢٩٤٧. كتاب التوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، المحقق: بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، الطائف، المملكة العربية السعودية، و مكتبة دار البيان، دمشق، الجمهورية العربية السورية

٢٩٤٨. كتاب التوحيد، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣ هـ.

٢٩٤٩. كتاب السبعة في القراءات، أحمد بن موسى البغدادي، ت: شوقي ضيف، دار المعارف،ط٢، مصر، ١٤٠٠هـ.

٢٩٥٠. الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، الحافظ المنتجب الهمذاني، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيّح، مكتبة دار الزمان،ط١، بالرياض، ١٤٢٧هـ،٢٠٠٦م.

٢٩٥١. الكتاب المصنف في الآثار، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٢٩٥٢. الكتاب المصنف في الآثار، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد،ط١،الرياض، ١٤٠٩هـ.

٢٩٥٣. الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبي بشر، الملقب بسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي،ط٣، القاهرة، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م.

٢٩٥٤. كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد عبد الحليم ابن تيمية الحراني، أبو العباس تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي

النجدي، مكتبة ابن تيمية، ط٢.

٢٩٥٥. **كرامات أولياء الله عز وجل**، هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، تحقيق: د. أحمد سعد الحمان، دار طيبة،ط١، الرياض، ١٤١٢هـ.

٢٩٥٦. **كشاف اصطلاحات الفنون**، محمد علي التهانوي، تحقيق: على دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.

٢٩٥٧. **كشاف اصطلاحات الفنون**، محمد على التهانوي، تحقيق: لطفي عبد البديع، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٦م.

٢٩٥٨. **كشاف القناع عن متن الإقناع**، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق: محمد لأمين الضناوي، عالم الكتب،ط١، بيروت، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م.

٢٩٥٩. **كشاف القناع عن متن الإقناع**، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق هلال مصيلحي مصطفى هلال، دار الفكر، بيروت،١٤٠٢هـ.

٢٩٦٠. **كشاف القناع عن متن الإقناع**، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، دار الكتب العلمية، بيروت .

٢٩٦١. **كشاف القناع عن متن الإقناع**، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، ١٣٩٤هـ.

٢٩٦٢. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق وتعليق ودراسة: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، ط١، الرياض، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٢٩٦٣. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، ط٣، بيروت، ١٤٠٧ هـ.

٢٩٦٤. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.

٢٩٦٥. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار المعارف، بيروت.

٢٩٦٦. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق:

عبد الرزاق المهدي،دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩٦٧. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، صححه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٥ هـ،١٩٩٥م.

٢٩٦٨. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الريان للتراث،ط٣، القاهرة، ١٤٠٧ هـ.

٢٩٦٩. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٢٩٧٠. **كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، إسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة التراث الإسلامي، حلب، ١٩٩٤ م.

٢٩٧١. **كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٠هـ.٢٠٠٠م.

٢٩٧٢. **كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة**، علي بن أبي بكر الهيثمي نور الدين، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢٩٧٣. **كشف الأسرار شرح أصول البزدوي**، علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري، دار الكتاب الإسلامي.

٢٩٧٤. **كشف الأسرار شرح أصول البزدوي**، علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٤هـ،١٩٧٤م.

٢٩٧٥. **كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر**، محمد بن العماد المصري، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٢٩٧٦. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مصطفى بن عبد الله المشهور باسم حاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م.

٢٩٧٧. **كشف المشكل من حديث الصحيحين**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض،

١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٢٩٧٨. **كشف المعاني فى المتشابه من المثاني**، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الشافعي، دار الوفاء، ط١، المنصورة، ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م.

٢٩٧٩. **كشف المعاني فى المتشابه من المثاني**، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الشافعي، تحقيق: د. محمد داود، دار المنار، القاهرة، ١٩٩٨م.

٢٩٨٠. **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، مكي بن أبي طالب القيسي، ت. محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة،ط٥، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٢٩٨١. **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، مكي أبي طالب القيسي، تحقيق: د. محي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٩٤هـ.

٢٩٨٢. **كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأوهام**، سليمان بن سحمان بن مصلح بن حمدان بن مسفر بن محمد بن مالك بن عامر الخثعمي، أضواء السلف، ط١، ١٣٤٩هـ.

٢٩٨٣. **الكشف والبيان(تفسير الثعلبي)**، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي،ط١،بيروت، لبنان، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠٢ م.

٢٩٨٤. **الكعبة مركز العالم**، الدكتور سعد المرصفي، مكتبة المنار الإسلامية، ط١، ١٩١٨م.

٢٩٨٥. **كفاحي**، أودلف هتلر، ترجمة: لويس الحاج، دار الأنوار للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٠م.

٢٩٨٦. **كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار**، أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلى الحسيني الحصني، تقي الدين الشافعي، المحقق: علي عبد الحميد بلطجي ومحمد وهبي سليمان، دار الخير،ط١دمشق، ١٩٩٤م.

٢٩٨٧. **كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني**، علي بن خلف المنوفي المصري المالكي، أبي الحسن المالكي، مطبعة المدني، ط١، القاهرة، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.

٢٩٨٨. **كفاية النبيه في شرح التنبيه**، أحمد بن محمد بن علي الأنصاري، أبو العباس، نجم الدين، المعروف بابن الرفعة، تحقيق: مجدي محمد سرور باسلوم، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٩م.

٢٩٨٩. **الكفاية في علم الرواية**، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، المكتبة العلمية، بيروت.

٢٩٩٠. **الكفاية في علم الرواية**، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق وتعليق: إبراهيم بن مصطفى آل بحبح الدمياطي، دار الهدى، ط١، ميت غمر، مصر، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٢٩٩١. **كلمات القرآن تفسير وبيان**، حسنين محمد حسنين مخلوف العدوي، دار ابن حزم، ١٤١٨هـ.

٢٩٩٢. **كلمة الحق في القرآن الكريم موردها ودلالتها**، الشيخ محمد الراوي، العبيكان، الرياض.

٢٩٩٣. **الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)**، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة،ط٤، بيروت، ١٤١٢هـ.١٩٩٢م .

٢٩٩٤. **الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)**، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة،ط٢، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٢٩٩٥. **الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)**، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.

٢٩٩٦. **كمال الدين وتمام النعمة**، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٤٠٥هـ.

٢٩٩٧. **الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود الحنبلي الدمشقي الصالحي، ت: الأستاذ الدكتور مصطفى عثمان صميدة، دار الكتب العلمية،ط١،بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م.

٢٩٩٨. **كنز الدقائق**، أبو البركات عبد الله النسفي مع شرحه النهر الفائق، تحقيق: أحمد عناية، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ .

٢٩٩٩. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي، تحقيق: بكري حياني، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٣٠٠٠. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي، ت: محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٣٠٠١. **الكنى والأسماء**، أبو بِشْر محمد بن أحمد الأنصاري الدولابي الرازي، ت: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠م.

٣٠٠٢. **كواشف زيوف**، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، دار القلم، ط٢، دمشق، ١٤١٢ هـ، ١٩٩١م.

٣٠٠٣. **الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري**، محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٣٠٠٤. **الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية**، عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي أبو محمد، تحقيق: د. محمد حسن عواد، دار عمار، عمان، الأردن، ١٤٠٥هـ.

٣٠٠٥. **الكون من الذرة إلى المجرة**، د. حمادي العبيدي، دار وحي القلم، ط١، دمشق، ٢٠٠٢م.

٣٠٠٦. **كونوا على الخير أعوانا**، محمد صالح المنجد، موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.

٣٠٠٧. **كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر**، سعيد حوى، دار عمار، الأردن.

٣٠٠٨. **الكيد في القرآن الكريم**، د. يحيى محمد يحيى، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، مصر، عدد ١١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٣٠٠٩. **كيف ترقي نفسك**، شخبوط بن صالح، دار القبس، ط١، السعودية، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

٣٠١٠. **كيف تنجو من كرب الصراط**، محمد بن إبراهيم النعيم، الشبكة المعلوماتية.

٣٠١١. **كيف حث الإسلام على الزراعة والغراسة من خلال القرآن**، محمد الأمراني، مجلة دعوة الحق، العدد (٣٤٠)، رمضان ١٤١٩هـ.

٣٠١٢. **كيف نرسخ أدب الحوار والنقد ؟**، د. أحمد شحروري، مجلة المجتمع، الكويت، العدد ١٦٣٤.

٣٠١٣. **الكيمياء العامة**، تأليف فريدريك لونجو، ترجمة مروان كمال وآخرين، مجمع اللغة العربية، الأردن، ١٩٦٢م.

ل

٣٠١٤. **لا تفرح**، نرمين كحيلة، نقل بتاريخ ٣٠/ ٣/ ٢٠١٥م.

٣٠١٥. **لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**، محمد بن علي بن عثمان آل مجاهد، دار المشاعل، ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤م.

٣٠١٦. **لا للشيخوخة المبكرة**، د. سامي محمود، الدار المصرية للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ١٤١٤هـ،١٩٩٣م.

٣٠١٧. **اللآلئ والدرر السعدية**، جمعه ونسقه: محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري، مكتبة الرشد، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ.

٣٠١٨. **اللباب في علوم الكتاب**، عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠١٩. **لباب الآثار الواردة من الأولين والمتأخرين من الأخبار**، مهنا بن خلفان البوسعيدي، وزارة التراث، مسقط، سلطنة عمان.

٣٠٢٠. **لباب الآداب**،أسامة بن منقذ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٣٠٢١. **لباب التأويل في معاني التنزيل(تفسير الخازن)**، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، تحقيق وتصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١٥ هـ.

٣٠٢٢. **لباب التأويل في معاني التنزيل(تفسير الخازن)**، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩ هـ،١٩٧٩ م.

٣٠٢٣. **لباب التأويل في معاني التنزيل(تفسير الخازن)**، علاء الدين علي بن محمد الشيحي أبو الحسن الخازن (٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤م.

٣٠٢٤. **لباب النقول في أسباب النزول**، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، مطبوع بهامش تفسير الجلالين، مكتبة الصفا مطابع دار البيان الحديثة،١٤٢٢هـ.٢٠٠٢م.

٣٠٢٥. **لباب النقول في أسباب النزول**، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، مكتبة نزار، ط ٢، الرياض، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤ م.

٣٠٢٦. **لباب النقول في أسباب النزول**،

عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه: الأستاذ أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٠٢٧. **لباب النقول في أسباب النزول**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: حامد الطاهر، دار الفجر للتراث، ط١، القاهرة.

٣٠٢٨. **لباب النقول في أسباب النزول**، جلال الدين السيوطي، دار قتيبة، ط١، دمشق، ١٩٨٧م.

٣٠٢٩. **لباب النقول في أسباب النزول**، جلال الدين السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافي، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

٣٠٣٠. **لباب النقول في أسباب النزول**، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت.

٣٠٣١. **اللباب في الجمع بين السنة والكتاب**، جمال الدين أبي محمد علي بن أبي يحيى زكريا بن مسعود الأنصاري، تحقيق: د. محمد فضل عبد العزيز المراد، دار القلم،ط٢، الدار الشامية، دمشق، سوريا، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٣٠٣٢. **اللباب في شرح الكتاب**، عبد الغني بن طالب بن حمادة بن إبراهيم الغنيمي الدمشقي الميداني الحنفي، حققه وفصله وضبطه وعلق عليه: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

٣٠٣٣. **اللباب في علل البناء والإعراب**، أبو البقاء العكبري، تحقيق: غازي مختار طليمات، دار الفكر، ط١، دمشق، سوريا، ١٩٩٥م.

٣٠٣٤. **اللباب في علوم الكتاب**، أبو حفص عمر بن علي بن عادل النعماني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٩ هـ ١٩٩٨م.

٣٠٣٥. **اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل**، محمد علي السَّراج، مراجعة: خير الدين شمسي باشا، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٤٠٣ هـ،١٩٨٣م.

٣٠٣٦. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر،ط٣، بيروت، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م.

٣٠٣٧. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، اعتنى بتصحيحه : أمين محمد عبد الوهاب، و محمد الصادق العبيدي، دار إحياء

التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ط٣، بيروت، ودار صادر، بيروت، ١٩٥٥م.

٣٠٣٨. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، مصر.

٣٠٣٩. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ترتيب مجموعة من المحققين، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣، ١٤٢٣م.

٣٠٤٠. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار إحياء التراث الإسلامي، ط٢، بيروت، لبنان،، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣مـ.

٣٠٤١. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.

٣٠٤٢. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦م.

٣٠٤٣. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، قدم له العلامة الشيخ عبد الله العلايلي، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٣٠٤٤. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت (بلا تاريخ).

٣٠٤٥. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، المطبعة الأميرية، ط١، مصر، ١٣٠٠هـ.

٣٠٤٦. **لسان الميزان**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، بيروت، ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م.

٣٠٤٧. **لطائف الإشارات (تفسير القشيري)**، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، مصر.

٣٠٤٨. **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٣٠٤٩. **اللطائف في اللغة**، معجم أسماء الأشياء، أحمد بن مصطفى اللَّبَابِيدي الدمشقي، دار الفضيلة، القاهرة.

٣٠٥٠. **لطائف قرآنية**، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط٤، دمشق، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٣٠٥١. **لطائف قرآنية**، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط١، دمشق،

١٤١٢هـ.
٣٠٥٢.لطائف قرآنية، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم،ط٣، دمشق، ١٤٢٥هـ.
٣٠٥٣.لغة الجسد في القرآن الكريم، أسامة جميل عبد الغني ربايعة، رسالة ماجستير، إشراف: د. عودة عبد الله، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠١٠م.
٣٠٥٤.لغة الحوار وأثرها على السلم الاجتماعي، د. مي عمر نايف، بحث مقدم إلى مؤتمر السلم الاجتماعي من منظور إسلامي، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠١٢م.
٣٠٥٥.لفظتا (نفع) و (ضر) في القرآن الكريم ومشتقاتهما في القرآن الكريم دراسة دلالية، أيمن توفيق عبد الله، وزياد عبد الله عبد الصمد، مجلة التربية والتعليم، المجلد ١٨، العدد (١)، ٢٠١١م.
٣٠٥٦.لقاء المؤمنين، عدنان علي رضا النحوي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.
٣٠٥٧.لماذا أسلمت؟، للمفكر الفرنسي روجيه جارودي، مكتبة القرآن.
٣٠٥٨.لمسات بيانية في نصوص التنزيل، فاضل بن صالح بن مهدي السامرائي، دار عمار، ط٣، عمان، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٣م.
٣٠٥٩.لمعة الاعتقاد، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،ط٢، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
٣٠٦٠.الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، مكتبة العبيكان، الرياض.
٣٠٦١.الله والكون، الدكتور محمد جمال الدين الفندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.
٣٠٦٢.الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، حرره جون كلوفر مونسيما، ترجمة: عبد المجيد سرحان الدمرداش، دار
٣٠٦٣.الله، بن إبراهيم وآخرين، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط٢، قطر، ١٤٢٧هـ،٢٠٠٧م.
٣٠٦٤.لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن

سالم السفاريني الحنبلي، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ط٢، دمشق، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢م.

٣٠٦٥. **اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٣٠٦٦. **ليدبروا آياته**، حصاد عام من التدبر، إشراف: د. عمر بن عبدالله المقبل، مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، ط٥، الرياض، السعودية، ١٤٣٠هـ،٢٠٠٩م.

٣٠٦٧. **اللَّيل والنَّهار**، د. محمد راتب النابلسي، موقع النابلسي للعلوم الإسلامية، الأصل ندوة أُقيمت بتاريخ ٢٦/ ٨/ ٢٠٠٩م.

م

٣٠٦٨. **ما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد**، محمد بن يزيد، تحقيق :عبد العزيز الميمني، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٥٠هـ.

٣٠٦٩. **ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة بالبرهان**، أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، لبنان، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

٣٠٧٠. **ما معنى التقليد في المصطلح الديني؟**، صالح الكرباسي، موقع مركز الإشعاع الإسلامي للدراسات والبحوث الإسلامية.

٣٠٧١. **ما وقع في القرآن بغير لغة العرب**، أبو شكيب محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السنة الثالثة، العدد الثالث، ١٣٩٠هـ،١٩٧٠م.

٣٠٧٢. **الماء في القرآن : دراسة موضوعية**، فتحي عبد العزيز العبادسة، ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية، كلية أصول الدين، غزة.

٣٠٧٣. **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت،ط٢، الكويت، ١٩٨٥م.

٣٠٧٤. **المال في القرآن (المفهوم والوظيفة)**، منتديات الوطن الموريتانية.

٣٠٧٥. **المال في القرآن الكريم**، منيرة الحامد، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود.

٣٠٧٦. **مباحث العقيدة في سورة الزمر**، ناصر بن علي عايض حسن الشيخ، مكتبة الرشد،ط١، الرياض، المملكة

العربية السعودية، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٣٠٧٧. **مباحث في إعجاز القرآن**، مصطفى مسلم، دار القلم،ط٤، دمشق، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

٣٠٧٨. **مباحث في إعجاز القرآن**، مصطفى مسلم، دار المنارة،ط١، جده، ١٤٠٨هـ.

٣٠٧٩. **مباحث في الاقتصاد الإسلامي من أصوله الفقهية**، د. محمد رواس قلعجي، دار النفائس،ط٢، عمّان، ٢٠٠٧م.

٣٠٨٠. **مباحث في التفسير الموضوعي**، مصطفى مسلم، دار القلم،ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ،٢٠٠٠م.

٣٠٨١. **مباحث في التفسير الموضوعي**، مصطفى مسلم، دار القلم،ط٤، بيروت، لبنان،١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٣٠٨٢. **مباحث في التفسير الموضوعي**، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ١٤١٠هـ،١٩٨٩م.

٣٠٨٣. **مباحث في علوم القرآن**، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط٢٤، بيروت، ٢٠٠٠م.

٣٠٨٤. **مباحث في علوم القرآن**، صبحي الصالح، دار العلم للملايين،ط١٠، بيروت، ١٩٧٧م.

٣٠٨٥. **مباحث في علوم القرآن**، منّاع القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،ط٢، الرياض، ١٤١٧هـ.١٩٩٦م.

٣٠٨٦. **مباحث في علوم القرآن**، مناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،ط٣، الرياض، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٣٠٨٧. **المبادرة والمسابقة إلى الأعمال الصالحة، في ضوء الكتاب والسنة وأثره على الرعيل الأول من هذه الأمة**، الدكتور عبد الله مرحول السوالمة، كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض.

٣٠٨٨. **مبادئ الإسلام**، أبو الأعلى المودودي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٩٨٩م.

٣٠٨٩. **المبادئ التربوية في القرآن الكريم**، د. ئاراس محمد صالح، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، العراق، العدد(٥٧)، ٢٠١٠م.

٣٠٩٠. **المبادئ التربوية لطبيعة الإنسان في القرآن**، د. هشام بني خلف، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا.

٣٠٩١. **مبادئ القانون الدولي العام**، عبدالعزيز سرحان، دار النهضة، ١٩٨٠م.

٣٠٩٢. **مبادئ القانون الدولي العام**، محمد حافظ غانم،ط٤، ١٩٦٤م.

٣٠٩٣. **مبادئ تربية الأطفال في القرآن الكريم**، د. محي الدين عبدالله حسن إبراهيم، بحث للمؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الإنسانية الذي أقامه جامعة أفريقيا العالمية، السودان،٢٠١١م.

٣٠٩٤. **مبادئ نظام الحكم في الإسلام**، عبد الحميد متولي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٧م.

٣٠٩٥. **مبدأ التعويض عن الضرر في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة**، د. عبد الجبار شرارة.

٣٠٩٦. **مبدأ التقية بين أهل السنة والشيعة الإمامية**، د. أحمد عبد الرحيم قوشتي، مركز تأصيل للدراسات والبحوث،ط١، جدة، ٢٠١٤م.

٣٠٩٧. **مبدأ الشورى في الإسلام**، يعقوب محمد المليجي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.

٣٠٩٨. **مبدأ الشورى في الشريعة الإسلامية**، إسماعيل البدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٤١٤هـ.

٣٠٩٩. **المبدع شرح المقنع**، إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح، المكتب الإسلامي، بيروت،١٤٠٠هـ.

٣١٠٠. **المبدع شرح المقنع**، إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح، تحقيق: محمد حسن محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، لبنان: ١٤١٨هـ،١٩٩٧م.

٣١٠١. **المبدع شرح المقنع**، إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح، دار عالم الكتب بالرياض، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٣م.

٣١٠٢. **المبسوط في القراءات العشر**، أبو بكر أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨١م.

٣١٠٣. **المبسوط**، شمس الدين محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق: خليل محيي الدين الميس، دار الفكر،ط١، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٣١٠٤. **المبسوط**، شمس الدين محمد بن أحمد السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٩هـ،١٩٨٩م.

٣١٠٥. **المبسوط**، شمس الدين محمد بن أحمد السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٣١٠٦. **المبصر لنور القرآن**، نائلة هشام صبري، مطبعة الرسالة المقدسية، ط١، بيت حنينا، القدس، ١٤١٩هـ ،

١٩٩٩م.

٣١٠٧.**متاع الجبال**، دكتور أحمد مليجي، تاريخ المقال: ١٨/ ٦/ ٢٠١٠م.

٣١٠٨.**متخير الألفاظ**، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: هلال ناجي، مطبعة المعارف، ط١، بغداد، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.

٣١٠٩.**متن القصيدة النونية**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية،ط٢، القاهرة، ١٤١٧هـ.

٣١١٠.**المتواري علي تراجم أبواب البخاري**، أحمد بن محمد بن منصور بن القاسم بن مختار القاضي، أبو العباس ناصر الدين ابن المنير الجذامي الجروي الإسكندراني، تحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد، مكتبة المعلا، الكويت.

٣١١١.**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، بدون تاريخ.

٣١١٢.**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.

٣١١٣.**مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، دار الراية، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥ م.

٣١١٤.**مجاز القرآن**، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر،١٣٨١هـ. ١٩٦١م.

٣١١٥.**مجاز القرآن**، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري، تحقيق : د. محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٣١١٦.**مجالات التفكر وجوانبه في آيات القرآن الكريم**، محمد بن داود تمزغين، مجلة دراسات،العدد٩، جوان، ٢٠٠٨م.

٣١١٧.**مجالس التذكير من حديث البشير النذير**، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط١، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٣١١٨.**مجالس التذكير من حديث البشير النذير**، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، لبنان، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م.

٣١١٩. مجالس القرآن، د. فريد الأنصاري، دار السلام، مصر.

٣١٢٠. المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية صلى الله عليه وسلم من صحيح الإمام البخاري، شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفيري الشافعي، حققه وخرج أحاديثه: أحمد فتحي عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م

٣١٢١. المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية، البحرين، دار ابن حزم،بيروت – لبنان،١٤١٩هـ.

٣١٢٢. مجاني الأدب في حدائق العرب، رزق الله بن يوسف شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٣م.

٣١٢٣. المجتبى من السنن(السنن الصغرى للنسائي)، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، حلب، ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.

٣١٢٤. المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، محمد أبو زهرة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠١هـ.

٣١٢٥. المجتمع المتكافل في الإسلام، د. عبد العزيز الخياط، مكتبة الأقصى، مؤسسة الرسالة .

٣١٢٦. المجتمعات الدولية الإقليمية، محمد حافظ غانم، معهد البحوث والدراسات، ١٩٥٨م.

٣١٢٧. المجروحين، محمد بن أحمد بن حبان أبو حاتم، دار العربي، حلب، ١٣٩٦هـ.

٣١٢٨. مَجَلَّةُ الْأَحْكَامِ الْعَدْلِيَّةِ، لجنة من فقهاء الدولة العثمانية، نور محمد، كارخانه تجارتِ كتب، آرام باغ،كراتشي.

٣١٢٩. مجلة الأحمدية، مفهوم التزكية وتطبيقاتها في التربية الإسلامية، د.نايف الشريف، العدد الرابع.

٣١٣٠. مجلة الاقتصاد الإسلامي، دبي، العدد (٢٣٢).

٣١٣١. مجلة الأمان، عدد (٧٩)، السنة الثانية، في ٢٧/ ٩/ ١٤٠٠ هـ (١٧، ١٨).

٣١٣٢. مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوثِ العلمية وَالإِفتاء، المملكة العربية السعودية، العدد الخامس .

٣١٣٣. مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة

العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الإسقاط المكي للعالم د. حسين كمال الدين أحمد، العدد (٦) إصدار ربيع الثاني – جماد الثاني ١٤٠٢هـ.

٣١٣٤. **مجلة البحوث الإسلامية**، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، العدد الثالث والسبعون، ١٤٢٥هـ.

٣١٣٥. **مجلة البحوث الإسلامية**، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المؤلف، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الإصدار ربيع الأول،جمادي الثانية لسنة ١٤١٣هـ.

٣١٣٦. **مجلة البيان**، العدد (٢٠٦)، من شهر شوال، ١٤٢٥هـ.

٣١٣٧. **مجلة البيان**، العدد (٢٣٨)، تصدر عن المنتدى الإسلامي.

٣١٣٨. **مجلة البيان**، تصدر عن المنتدى الإسلامي، لندن، العدد (١٩٧) السنة (١٩) المحرم ،مارس ، ٢٠٠٤م.

٣١٣٩. **مجلة الجامعة الإسلامية**، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، العدد ٢٣ .

٣١٤٠. **مجلة الدراسات القرآنية**، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ١٤٣٠هـ.

٣١٤١. **مجلة الدراسات القرآنية**، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم (تبيان) العدد (١٠) جمادي الأولى ١٤٣٣هـ.

٣١٤٢. **مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية**، علمية محكمة، مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت، الحسد والعين في ضوء السنة النبوية، السيد محمد نوح، وليد محمد الكندري،، السنة الثالثة عشرة، العدد السابع والثلاثون ذو الحجة ١٤١٩هـ، إبريل ١٩٩٩م.

٣١٤٣. **المجلة المصرية للقانون الدولي**، تصدرها الجمعية المصرية للقانون الدولي، جامعة القاهرة.

٣١٤٤. **مجلة المنار**، محمد رشيد بن علي رضا وغيره، الأحكام الشرعية المتعلقة بالخلافة الإسلامية.

٣١٤٥. **مجلة جامعة الملك سعود**، المجلد السابع عشر، النشر العلمي والمطابع، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٣١٤٦. **مجلة جامعة دمشق**، مدى صحة القول بأن الإنسان خليفة الله في الأرض، د. يوسف محمد الزيوت،

المجلد السابع عشر، العدد الثاني، ٢٠٠١م

٣١٤٧. **مجلة حراء**، العدد(٣٥)، مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول، تركيا، السنة الثامنة، (مارس – أبريل) ٢٠١٣.

٣١٤٨. **مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي**، تصدر عن منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة.

٣١٤٩. **مجلة مجمع الفقه الإسلامي**، العدد٥، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.

٣١٥٠. **مجلة منار الإسلام**، عدد فبراير، سنة ١٩٨٥م.

٣١٥١. **المجلى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى**، محمد صالح العثيمين، كاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري، دار ابن حزم، ط١، الدمام، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠٢م.

٣١٥٢. **مجمع الأمثال**، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

٣١٥٣. **مجمع الأمثال**، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

٣١٥٤. **مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر**، عبد الرحمن بن محمد بن سليمان الكليبولي المعروف بشيخي زاده، تحقيق وتخريج: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٣١٥٥. **مجمع البيان**، الفضل الطبرسي، تحقيق السيد هاشم الرسولي وفضل الله الطبطبائي، دار المعرفة، ط١،بيروت، ١٩٨٦م.

٣١٥٦. **مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي**، أحمد قبش، دار الرشيد،ط٣، ١٩٨٥م.

٣١٥٧. **مجمع الزوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدس، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.

٣١٥٨. **مجمع الزوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٣هـ.

٣١٥٩. **مجمع الزوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، ودار الكتب العلمية، بيروت،١٤٠٧هـ.

٣١٦٠. **مجمع الزوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت،

١٤١٢هـ.

٣١٦١.مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، ط٣، بيروت، ١٩٨٢م.

٣١٦٢.مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢ هـ.

٣١٦٣.مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي،ط٢، بيروت، ١٩٦٧م.

٣١٦٤.مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، جمال الدين، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية،ط٣، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧م.

٣١٦٥.مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، محمد بن طاهر الفتّني، حيدر آباد، الدكن، الهند.

٣١٦٦.مجمل اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب، ت: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة،ط٢، بيروت، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦م.

٣١٦٧.مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ،١٩٩٥م.

٣١٦٨.مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م.

٣١٦٩.مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن محمد النجدي الحنبلي، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ،١٩٩٢م.

٣١٧٠.مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، اعتنى بها وخرج أحاديثها عامر الجزار، أنور الباز، مكتبة العبيكان،ط١، الرياض، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.

٣١٧١.مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، أشرف علي الطباعة والإخراج: المكتب التعليمي

السعودي في المغرب، بلا رقم أو تاريخ » .

٣١٧٢. **مجموع الفتاوى**، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن عبد الحليم بن تيمية الحراني، مكتبة التقوى، القاهرة، بدون إشارة للطبعة، والتاريخ.

٣١٧٣. **المجموع اللفيف**، أمين الدولة الطرابلسي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٤٢٥هـ.

٣١٧٤. **المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث**، أبو عيسى المديني الأصفهاني، جامعة أم القرى، ط١.

٣١٧٥. **مجموع رسائل ابن رجب الحنبليّ**، أبو الفرج عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، جمع وتحقيق: ناصر النجار، مكتبة أولاد الشيخ، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣١٧٦. **المجموع شرح التهذيب**، المكتبة السلفية، المدينة المنورة .

٣١٧٧. **المجموع شرح المهذب**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، مطبعة الإمام، ومطبعة العاصمة، القاهرة.

٣١٧٨. **المجموع شرح المهذب**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، دار الفكر، بيروت، بدون.

٣١٧٩. **المجموع شرح المهذب**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مطبعة ومكتبة الإرشاد، جدة.

٣١٨٠. **المجموع شرح المهذب**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، دار عالم الكتب، ط٢، الرياض، السعودية، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٣١٨١. **مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز**، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

٣١٨٢. **مجموع فتاوى فضيلة الشيخ صالح بن فوزان**، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، المكتبة الشاملة.

٣١٨٣. **مجموع فتاوى ومقالات متنوعة**، الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الرياض،١٤٢٢هـ.

٣١٨٤. **المجموع**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.

٣١٨٥. **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، محمد حميد الله، بيروت، ١٩٨٦م.

٣١٨٦. **مجموعة بحوث الكتاب والسنة**، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية،

جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ ، ٢٠٠٨م.

٣١٨٧.**المحاجَّة (طرق قياسها وأساليب تنميتها)**، الدكتور طريف شوقي محمد، مركز تطوير الدراسات العليا والبحوث في العلوم الهندسية، كلية الهندسة، ط١، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣١٨٨.**المحاجَّة**، الدكتور عويض بن حمود العطوي، موقع الدكتور عويض بن حمود العطوي، ١/ شوال/ ١٤٣٣هـ.

٣١٨٩.**محاسن الإسلام**، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري، دار الكتاب العربي،ط٣، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٣١٩٠.**محاسن التأويل**، محمد جمال الدين بن محمد الحلاق القاسمي، مؤسسة التاريخ العربي،ط١، بيروت، ١٤١٥هـ.

٣١٩١.**محاسن التأويل**، محمد جمال الدين بن محمد الحلاق القاسمي،دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٣١٩٢.**محاسن التأويل**، محمد جمال الدين بن محمد الحلاق القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ.

٣١٩٣.**محاسن التأويل**، محمد جمال الدين بن محمد الحلاق القاسمي، تحقيق: محمَّد فؤاد عَبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

٣١٩٤.**محاسن التأويل**، محمد جمال الدين بن محمد الحلاق القاسمي، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٦هـ.

٣١٩٥.**محاسن الشريعة في فروع الشافعية**، الإمام أبي بكر محمد بن علي بن إسماعيل بن الشاشي المعروف بالقفال الكبير، تحقيق: أبو عبد الله محمد علي سمك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م.

٣١٩٦.**المحاسن والأضداد**، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، مكتبة الخانجي،ط٢، القاهرة، ١٤١٥هـ. ١٩٩٤م.

٣١٩٧.**المحاسن والمساوئ**، إبراهيم بن محمد البيهقي، المكتبة الشاملة.

٣١٩٨.**محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم،ط١،بيروت، لبنان،١٤٢٠ هـ.

٣١٩٩. محاضرات في النصرانية، محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، دار الفكر العربي،ط٣، القاهرة، ١٣٨١هـ.١٩٦٦م.

٣٢٠٠. المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشروق، ط١، القاهرة، مصر، ٢٠٠٠م.

٣٢٠١. محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، عبد الرؤوف محمد عثمان، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد إدارة الطبع والترجمة،ط١، الرياض، ١٤١٤هـ.

٣٢٠٢. المحبر، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية البغدادي، ت: إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.

٣٢٠٣. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،مصر،١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٣٢٠٤. المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية،ط١، لبنان، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٣٢٠٥. المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، بعناية عبد الله الأنصاري، الدوحة، ١٣٩٨هـ.

٣٢٠٦. المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢٢ هـ. ٢٠٠١م.

٣٢٠٧. المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: الرحالة الفاروق وزملائه، طباعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر، ط٢، ١٤٢٨هـ،٢٠٠٧م.

٣٢٠٨. المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العالمي بفاس، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية المغرب، ١٣٩٥هـ. ١٩٧٥م.

٣٢٠٩. المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٣٢١٠. المحرر في أسباب النزول، الدكتور خالد المزيني، مؤسسة الرسالة،

بيروت.

٣٢١١. **المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة**، دراسة الأسباب رواية ودراية، خالد بن سليمان المزيني، ابن الجوزي، الدمام،ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م.

٣٢١٢. **المحرر في الحديث**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، دار المعرفة،ط٣، بيروت، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.

٣٢١٣. **المحصول في علم الأصول**، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، الرياض،١٤٠٠هـ.

٣٢١٤. **المحكم والمحيط الأعظم**، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م.

٣٢١٥. **المحكم والمحيط الأعظم**، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، ط١، مصر، ١٣٨٨هـ.

٣٢١٦. **المحكم والمحيط الأعظم**، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: د. مراد كامل، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٩٧٢م.

٣٢١٧. **المحلى بالآثار**، أبو محمد علي ابن حزم، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٣٢١٨. **المحلى بالآثار**، أبو محمد علي ابن حزم، تحقيق: عبد الغفار البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.

٣٢١٩. **المحلى بالآثار**، أبو محمد علي ابن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٣٢٢٠. **المحلى بالآثار**، أبو محمد علي ابن حزم، دار الفكر، بيروت.

٣٢٢١. **محمد في التوراة والإنجيل والقرآن**، إبراهيم خليل أحمد، دار المنار، ١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٩م .

٣٢٢٢. **المحيط البرهاني**، محمود بن أحمد بن الصدر الشهيد النجاري برهان الدين مازه المرغيناني الحنفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٢٢٣. **محيط المحيط**، بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م.

٣٢٢٤. **المحيط في اللغة**، الصاحب بن

عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، ط١، بيروت،،١٤١٤هـ،١٩٩٤م.

٣٢٢٥. مختار الصحاح،، محمد بن أبي بكر الرازي، فهرسة وتنسيق منتدى دار الإيمان.

٣٢٢٦. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، المحقق: يوسف الشيخ، المكتبة العصرية، والدار النموذجية، ط٥،بيروت، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م.

٣٢٢٧. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، دار الحديث،ط١، القاهرة، ١٤٢١هـ،٢٠٠٠م.

٣٢٢٨. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، دراسة وتقديم عبد الفتاح البركاوي، دار المنار.

٣٢٢٩. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م.

٣٢٣٠. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.

٣٢٣١. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٩٧٩م.

٣٢٣٢. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، دار المعرفة، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٣٢٣٣. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: حمزة فتح الله، مؤسسة الرسالة دار البصائر، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٣٢٣٤. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٨م.

٣٢٣٥. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ.١٩٨٢م.

٣٢٣٦. المختار للحديث في شهر رمضان، مجموعة من طلبة العلم في القصيم، مؤسسة الجريسي، ط٣، الرياض، ١٤١٤هـ،١٩٩٤م.

٣٢٣٧.المختار من شرح البيجوري على الجوهرة المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد، الشيخ إبراهيم البيجوري، المعاهد الأزهرية،١٤٠١ هـ سنة ١٩٨١ م.

٣٢٣٨.مختصر «قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر»، محمد بن نصر المَرْوَزِي، اختصار: أحمد بن علي المقريزي، ط١، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨ م.

٣٢٣٩.مختصر اختلاف العلماء للطحاوي، اختصار أبى بكر أحمد بن على الجصاص الرازي، دراسة وتحقيق : د. عبد الله نذير أحمد، دار البشائر الإسلامية ط١.

٣٢٤٠.مختصر اختلاف العلماء، للجصاص، تحقيق عبد الله نذير، دار البشائر، ١٤١٦هـ.

٣٢٤١.مختصر إظهار الحق، محمد رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي الحنفي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٥هـ.

٣٢٤٢.مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان، ط١٣، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٣٢٤٣.المختصر الجامع في بيان وجوه التفسير وأسباب النزول، أبو عبدالله عبدالسلام بن محمد بن علوش، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٣م.

٣٢٤٤.مختصر السعد (سعد الدين التفتازاني) على (تلخيص المفتاح في المعاني والبيان) للقزويني، ضمن شروح التلخيص، مطبعة عيسى الحلبي.

٣٢٤٥.مختصر السيرة، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي.

٣٢٤٦.مختصر الشمائل، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن.

٣٢٤٧.مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، اختصره: محمد بن محمد بن عبدالكريم بن رضوان تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، ط١،القاهرة، مصر، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.

٣٢٤٨.مختصر العلامة خليل، خليل بن إسحاق بن موسى المالكي، ت: أحمد جاد، دار الحديث،ط١، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣٢٤٩. مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي، حققه واختصره: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ط٢، ١٤١٢هـ،١٩٩١م.

٣٢٥٠. مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، بدر الدين البعليّ، ت: عبد المجيد سليم، محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية.

٣٢٥١. مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، بدر الدين البعليّ، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار ابن القيم، الدمام،ط٢، السعودية، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م.

٣٢٥٢. مختصر الفقه الإسلامي في ضوء القرآن والسنة، محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، دار أصداء المجتمع، ط١١، المملكة العربية السعودية، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

٣٢٥٣. مختصر المزني في فروع الشافعية، إسماعيل بن يحي بن إسماعيل المصري المزني، المحقق: محمد عبدالقادر شاهين، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٣٢٥٤. مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله بن عبد العزيز بن حمادة الجبرين، مكتبة الرشد، ط٢ ١٤٢٤هـ.

٣٢٥٥. مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، ط٧،بيروت، لبنان، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨١م.

٣٢٥٦. مختصر تفسير ابن كثير، عماد الدين، اختصره: أحمد بن شعبان ومحمد بن عبد الحليم، مكتبة الصفا، ط١٤٢٤،١هـ-٢٠٠٣م.

٣٢٥٧. مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، دار القلم، ط٥،، بيروت، ١٩٨٦م.

٣٢٥٨. مختصر تفسير البغوي، اختصار: د. عبد الله بن أحمد الزيد، مكتبة دار المعارف،ط١، بالرياض، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

٣٢٥٩. مختصر تفسير الخازن، علاء الدين بن علي البغدادي المعروف بالخازن، تحقيق: عبد الغني الدقر، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع،ط١، دمشق، بيروت، ١٤٢٤هـ.٢٠٠٣م.

٣٢٦٠. مختصر زاد المعاد، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي.

٣٢٦١. مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري، ومعالم السنن لأبي سليمان الخطابي، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد حامد الفقي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت:

١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٣٢٦٢.مختصر سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان النجدي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨ ه .

٣٢٦٣.مختصر صحيح البخاري للزبيدي، تحقيق: عماد عامر، طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

٣٢٦٤.مختصر صحيح مسلم، للإمام المنذري، تعليق: د. سليمان بن فهد العودة، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٣٢٦٥.المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، بدون.

٣٢٦٦.مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه، مكتبة المتنبي، القاهرة، د ت .

٣٢٦٧.مختصر في قواعد التفسير، خالد بن عثمان السبت، دار ابن القيم، دار ابن عفان، ط١، مصر، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٣٢٦٨.مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، اختصار: أحمد بن علي المقريزي، حديث أكادمي، ط١، فيصل أباد، باكستان، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م.

٣٢٦٩.مختصر معارج القبول، أبو عاصم هشام بن عبد القادر بن محمد آل عقدة، مكتبة الكوثر، ط٥، الرياض، ١٤١٨هـ.

٣٢٧٠.المختصر من شرح مختصر الأصول في علم الأصول، أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى ابن عبد اللطيف المنياوي، ط٢، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٣٢٧١.مختصر منهاج القاصدين، نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، دار الفيحاء، الأردن، ١٩٨٦م.

٣٢٧٢.مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ القَاصِدِينْ، نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، قدم له: الأستاذ: محمد أحمد دهمان، مكتبةُ دَارِ البَيَانْ، دمشق، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨ م.

٣٢٧٣.المخصص لابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي

اللغوي الأندلسي، دار إحياء التراث العربي،ط١، بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٣٢٧٤. **المخصص لابن سيده**، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٢٧٥. **المخصص لابن سيده**، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار الفكر.

٣٢٧٦. **المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية في غزو الفكر الإسلامي**، أنور الجندي، دار الاعتصام، ط٢، ١٩٧٧م.

٣٢٧٧. **مخطوطة الجمل**، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن،حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط١،مصر،، ٢٠٠٣، ٢٠٠٨ م

٣٢٧٨. **مداراة الناس**، أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا، تحقيق : محمد خير الدين رمضان، يوسف دار ابن حزم،ط١، بيروت، ، ١٩٩٨م.

٣٢٧٩. **المداراة في الاسلام**، د. وليد محمد السعد، الشبكة العنكبوتية.

٣٢٨٠. **المداراة وأثرها في العلاقات العامة بين الناس**، د. محمد سعد عبد الرحمن آل سعود نشر مجلة جامعة أم القرى للعلوم الشرعية، بمكة المكرمة، العدد ١١٤، ١٤٢٢ هـ.

٣٢٨١. **مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، ت: د. ناصر السعوي، د. علي القرعاوي، د. صالح التويجري، د. خالد الغنيم، د. محمد الخضيري، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض.

٣٢٨٢. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب أبن قيم الجوزية، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، ط٣، بيروت، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م.

٣٢٨٣. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب أبن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي،ط١،بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ.

٣٢٨٤. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب أبن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي،ط٢، بيروت، ١٣٩٣ه

- ١٩٧٣م.

٣٢٨٥. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: ناصر بن سليمان السعوي وآخرون، دار الصميعي، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٣٢٨٦. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب أبن قيم الجوزية، تحقيق: عبدالعزيز بن ناصر الجليل، دار طيبة، ١٤٢٩هـ،٢٠٠٨م.

٣٢٨٧. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٣٢٨٨. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب (بلا تاريخ).

٣٢٨٩. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل(تفسير النسفي)**، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تحقيق: مروان محمد الشعار، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٥هـ.

٣٢٩٠. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل(تفسير النسفي)**، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.

٣٢٩١. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل(تفسير النسفي)**، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تحقيق: محيى الدين مستو وزميله، دار الكلم الطيب، ط١، بيروت، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨م.

٣٢٩٢. **المدح والذم في القرآن الكريم**، رسالة دكتوراه في فلسفة اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الموصل، إعداد: معن توفيق دحام الحيالي، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.

٣٢٩٣. **المدخل الفقهي العام**، مصطفي الزرقا، دار الفكر،ط٩، د.ت.

٣٢٩٤. **المدخل الفقهي العام**، مصطفي الزرقا، دار القلم، دمشق، ١٤٢٥هـ.

٣٢٩٥. **المدخل الفقهي العام**، مصطفي الزرقا، مطابع ألف باء الأديب، ط٣، دمشق، ١٩٦٧م.

٣٢٩٦. **مدخل إلى أصول التربية الإسلامية**، محمد عبدالرحمن فهد الدخيل، دار الخليجي للنشر

والتوزيع، ط٢،المملكة العربية السعودية،٢٠٠٣م.

٣٢٩٧.مدخل إلى التربية الإسلامية، د. عبدالرحمن عبدالخالق بن حجر الغامدي، دار الخريجي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٨هـ.

٣٢٩٨.المدخل إلى التفسير الموضوعي، د. عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط٢،١٤١١هـ،١٩٩١م.

٣٢٩٩.المدخل إلى السياسة الشرعية، عبدالعال أحمد عطوة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إدارة الثقافة والنشر ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٣٣٠٠.المدخل إلى القانون الدولي وقت السلم، محمد عزيز شكري. دار الفكر، دمشق، ١٩٧٣م.

٣٣٠١.مدخل إلى تاريخ اللغة الآرامية، أحمد الجمل، جامعة الأزهر، ط١، ٢٠٠٥م.

٣٣٠٢.مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان محمد زرزور، دار القلم، دار الشامية، دمشق، بيروت، ط٢، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م.

٣٣٠٣.المدخل إلى عالم النفس الإسلامي، عدنان سبيعي، دار قتيبة،ط١، دمشق، ١٤١١هـ.

٣٣٠٤.المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، محمد محمود محمدين، وطه عثمان الفراء، دار المريخ، ط٤.

٣٣٠٥.المدخل إلى علم الدعوة، محمد أبو الفتح البيانوني، مؤسسة الرسالة العالمية،ط١، ٢٠١٠م.

٣٣٠٦. المدخل إلى علم العلاقات الدولية، طه بدوي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.

٣٣٠٧.مدخل إلى موقف القرآن من العلم، عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، ط١،بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

٣٣٠٨.المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة،ط١٤، ١٤١٧هـ.

٣٣٠٩.مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د .عثمان جمعة ضميرية، تقديم: الدكتور عبد الله بن عبد الكريم العبادي، مكتبة السوادي للتوزيع، ط٢، ١٤١٧هـ،١٩٩٦م .

٣٣١٠.المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية، مكتبة السوادي، جدة،١٤٢٣هـ.

٣٣١١.المدخل، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، دار التراث.

٣٣١٢.المدلولات التربوية للأمثال القرآنية، يزيد حمزاوي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علوم القرآن من قسم علم النفس بجامعة الجزائر، ٢٠٠٥،٢٠٠٦م.

٣٣١٣.المدهش، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: الدكتور مروان قباني، دار الكتب العلمية، ط٢،بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.

٣٣١٤.مدونة الفقه المالكي وأدلته، د. الصادق عبدالرحمن الغرياني، مؤسسة الريان،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م.

٣٣١٥.المدونة الكبرى، الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٣٣١٦.المدونة، الإمام مالك بن أنس، دار صادر، بيروت، مصورة عن مطبعة السعادة.

٣٣١٧.المدينة في العصر الجاهلي، محمد العيد الخطراوي، دار التراث المدينة المنورة، مؤسسة علوم القرآن،ط١، بيروت، دمشق، ١٤٠٣هـ.

٣٣١٨.المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، د. غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية،ط١، جدة، ١٤٢٧هـ،٢٠٠٦م.

٣٣١٩.مذكرة التوحيد، عبد الرزاق عفيفي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ.

٣٣٢٠.مذكرة على العقيدة الواسطية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، مدار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ.

٣٣٢١.مذكرة في أصول الفقه، مكتبة ابن تيمية، ط٤، القاهرة، مصر، ١٤١٨هـ.

٣٣٢٢.مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧ م.

٣٣٢٣.المرأة بين الفقه والقانون، الدكتور مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، ومكتبة الوراق، ١٤٢٠هـ.

٣٣٢٤.المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، الدكتور محمد أحمد إسماعيل المقدم، دار الإيمان، الاسكندرية، مصر، ١٤٢٦هـ،٢٠٠٥م.

٣٣٢٥. مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٣٢٦. مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني، التناري، المحقق: محمد أمين الصناوي، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت،١٤١٧ هـ.

٣٣٢٧. مراحل الحمل أسبوعياً، موسوعة الملك عبد الله بن عبد العزيز العربية للعلوم الصحية، ٢٠١٤م.

٣٣٢٨. مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ادعيس عبد الرازق، رسالة ماجستير بكلية أصول الدين.

٣٣٢٩. المراسيل، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي، أحمد عصام الكاتب، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٣٣٣٠. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق بن شمائل القطيعي، دار الجيل،ط١، بيروت، ١٤١٢ هـ.

٣٣٣١. مراعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية،ط٣، بنارس، الهند، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

٣٣٣٢. المرشد الوجيز لقراء كتاب الله العزيز، الميرزا محسن آل عصفور، المطبعة العلمية، ١٤١٠هـ.

٣٣٣٣. مرض القلق، دافيد شيهان، ترجمة: عزة شعلان، عالم المعرفة: ١٩٨٨م.

٣٣٣٤. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن علي بن سلطان محمد نور الدين الملا الهروي القاري، دار الفكر، بيروت،١٤٢٢هـ،٢٠٠٢م.

٣٣٣٥. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن علي بن سلطان محمد نور الدين الملا الهروي القاري، المكتبة الإمدادية، الباكستان، ١٤٠٨هـ.

٣٣٣٦. مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، المحقق: محمود محمد محمود حسن نصار، دار الجيل،ط١، لبنان، بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٣٣٣٧.**المروءة**، أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م.

٣٣٣٨.**مروج الذهب**، علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي، المكتبة الشاملة.

٣٣٣٩.**المرونة بين الثوابت والمتغيرات**، أنس سليم الأحمدي، مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠١٠م.

٣٣٤٠.**مرويات تاريخ يهود المدينة في عهد النبوة**، أكرم حسين علي السندي، رسالة ماجستير من قسم السنة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٣٩٩هـ، ١٤٠٠هـ.

٣٣٤١.**مرويات غزوة حنين وحصار الطائف**، إبراهيم بن إبراهيم قريبي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ.

٣٣٤٢.**المزهر في علوم اللغة**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ. ١٩٩٨م.

٣٣٤٣.**المسارعة والمسابقة إلى الخيرات في القرآن الكريم،دراسة موضوعية بيانية**، د. محمد الزغول، د. محمد سعيد حوى، بحث متاح على شبكة المعلومات الدولية، والمكتبة الشاملة.

٣٣٤٤.**المسالك في شرح موطأ مالك**، محمد بن عبد الله أبو بكر بن العرب، تعليق: محمد بن الحسين السُّليماني وعائشة بنت الحسين السُّليماني، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧م.

٣٣٤٥.**المسالك والممالك**، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة، دار صادر، بيروت، ١٨٨٩م .

٣٣٤٦.**مساوئ الأخلاق ومذمومها**، الخرائطي، ت: مصطفى الشلبي، مكتبة السوادي، ط١،جدة، ١٩٩٣م.

٣٣٤٧.**مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل**، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب، ط١، الرياض، السعودية، ١٩٩١م.

٣٣٤٨.**مسائل مختارة من فقه العبادات دراسة فقهية مقارنة**، محمد شافعي مفتاح، جامعة الإنسانية، قدح دار الأمان، ماليزيا، ط٣، ١٤٣٥هـ.٢٠١٤م.

٣٣٤٩.**مسائل نافع بن الأزرق عن ابن**

عباس، منير عرفه، تحقيق: د. محمد أحمد الدالي، دار النشر الجفان والجابي، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٣٣٥٠.المسائل والأجوبة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، الفاروق الحديثة،ط١، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٣٣٥١.مسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب، مرعي بن يوسف أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع،ط١، الرياض، السعودية، ١٤١١ هـ، ١٩٩٠م.

٣٣٥٢.مستخرج أبي عوانة، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، الطبعة: الأولى، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٣٣٥٣.المستخلص في تزكية الأنفس، الشيخ سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط١٤، ٢٠٠٨م.

٣٣٥٤.المستخلص في تزكية الأنفس، الشيخ سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط١١، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٥هـ.٢٠٠٥م.

٣٣٥٥.المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين، القاهرة، مصر، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٣٣٥٦.المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٤١١ - ١٩٩٠م.

٣٣٥٧.المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، « بلا رقم أو تاريخ» .

٣٣٥٨.المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، ومعه تلخيص الذهبي، عن طبعة الهند، ١٣٣٤هـ.

٣٣٥٩.المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، ١٤١٨ هـ-١٩٩٨م.

٣٣٦٠.المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، الإمام تقي الدين أبي العباس أحمد ابن عبد الحليم بن تيمية الحراني، جمعه ورتبه وطبعه

على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، ط١، ١٤١٨ هـ.

٣٣٦١. **المستصفى من علم الأصول**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق وتعليق د. محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤١٧هـ.١٩٩٧م.

٣٣٦٢. **المستصفى من علم الأصول**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: محمد عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٣هـ. ١٩٩٢م.

٣٣٦٣. **المستصفى من علم الأصول**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، مكتبة المثنى، بغداد، عن طبعة بولاق.

٣٣٦٤. **المستطرف في كل فن مستظرف**، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط٢،بيروت، ١٩٨٦م.

٣٣٦٥. **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة**، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ.١٩٩٧م.

٣٣٦٦. **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة**، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٦هـ،٢٠٠٥م.

٣٣٦٧. **المستقصى في أمثال العرب**، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

٣٣٦٨. **المسكرات والمخدرات**، أحمد حاج علي الأزرق، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١٤، العدد الرابع والخمسون.

٣٣٦٩. **مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث**، علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١٣، ، العدد (٥٠ ، ٥١) ربيع الآخر ، رمضان ١٤٠١هـ،١٩٨١م.

٣٣٧٠. **المسلم وحقوق الآخرين**، أبو فيصل البدراني، المكتبة الشاملة.

٣٣٧١. **مسند ابن أبي شيبة**، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، المحقق: عادل بن يوسف العزازي و أحمد بن فريد المزيدي، دار الوطن، ط١، الرياض، ١٩٩٧م.

٣٣٧٢. **مسند ابن أبي شيبة**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، ط١، الرياض١٤٠٩هـ.

٣٣٧٣. **مسند ابن الجعد**، علي بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهري البغدادي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر،ط١، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣٣٧٤. **مسند أبي داود الطيالسي**، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري، تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر ط١، مصر، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٣٣٧٥. **مسند أبي داود الطيالسي**، تأليف: سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي، دار المعرفة، بيروت .

٣٣٧٦. **مسند أبي يعلى**، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي، المحقق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث،ط١، دمشق، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٣٣٧٧. **مسند البزار (المطبوع باسم البحر الزخار)**، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم،ط١، المدينة المنورة، ٢٠٠٩م.

٣٣٧٨. **مسند الحميدي**، أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه، حسن سليم أسد الدَّارَانيّ، دار السقا، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٩٦م.

٣٣٧٩. **مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢ هـ، ٢٠٠٠ م.

٣٣٨٠. **مسند الشاميين**، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

٣٣٨١. **مسند الشهاب**، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة،ط٢، بيروت، ١٩٨٦م.

٣٣٨٢. **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله**، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري

النيسابوري، دار الجيل، بيروت، ١٣٣٤هـ.

٣٣٨٣.المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار المغني، ط١، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.

٣٣٨٤.المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٣٨٥.المسند، الإمام أحمد بن حنبل بن جلال بن أسد الشيباني مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٣٣٨٦.المسند، الإمام أحمد بن حنبل بن جلال بن أسد الشيباني، المحقق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث،ط١، القاهرة، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥م.

٣٣٨٧.المسند، الإمام أحمد بن حنبل بن جلال بن أسد الشيباني، المكتب الإسلامي،ط٤، بيروت لبنان، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.

٣٣٨٨.المسند، الإمام أحمد بن حنبل بن جلال بن أسد الشيباني، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف مصر، ١٣٩٢هـ.

٣٣٨٩.المسند، الإمام أحمد بن حنبل بن جلال بن أسد الشيباني، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤هـ،١٩٩٣م.

٣٣٩٠.المسند، الإمام أحمد بن حنبل بن جلال بن أسد الشيباني، دار الحديث، ط١، القاهرة، ١٤١٦هـ،١٩٩٥م.

٣٣٩١.المسند، الإمام أحمد بن حنبل بن جلال بن أسد الشيباني، مؤسسة الرسالة بإشراف د عبد الله التركي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، ط١، ١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م.

٣٣٩٢.المسند، الإمام أحمد بن حنبل بن جلال بن أسد الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، مذيل بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.

٣٣٩٣.المسند، الإمام أحمد بن حنبل بن جلال بن أسد الشيباني، وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأعمال، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دار صادر، بيروت، ١٩٧٦م .

٣٣٩٤.المسند، الإمام الشافعي، بترتيب محمد عابد السندي، صححه عزت العطار، ١٣٧٠هـ.

٣٣٩٥.المسودة في أصول الفقه لآل تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد

الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون.

٣٣٩٦. **المسيح عيسى ابن مريم مصدق لما بين يديه من التوراة**، إعداد: د. عبد الله بن عبد العزيز الشعيبي، أستاذ الشريعة المشارك، قسم العلوم الإنسانيّة، كلية الملك خالد العسكرية.

٣٣٩٧. **المسيحية نشأتها وتطورها**، دكتور شارل جينيبير، ترجمة: الدكتور عبد الحليم محمود، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٩م.

٣٣٩٨. **المسيحية**، أحمد شلبي، مكتبة نهضة مصر، ط١٠، القاهرة، ١٩٩٣م.

٣٣٩٩. **المسئولية المدنية في تقنيات البلاد العربية**، د. سليمان مرقص، دروس لقسم الدكتوراه، بجامعة بغداد، ١٩٥٥م.

٣٤٠٠. **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل، المكتبة العتيقة، ودار التراث.

٣٤٠١. **المشاكل النفسية في الجماعات ظواهر ومعالجات**، مرتضى معاش، مجلة النبأ، العدد:٢٥، رجب ١٤١٩ هـ.

٣٤٠٢. **مشاهد القيامة في القرآن**، سيد قطب دار المعارف،ط٥، القاهرة.

٣٤٠٣. **المشترك اللفظي في الحقل القرآني**، عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٤٠٤. **المشتقّات ودلالاتها في اللغة العربية**، مؤسسة حورس، ٢٠٠٩م.

٣٤٠٥. **المشروع والممنوع في المسجد**، فالح بن محمد بن فالح الصغير، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هـ.

٣٤٠٦. **المشروعية الإسلامية العليا**، د. علي محمد جريشة. مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٦هـ.

٣٤٠٧. **المشروعية في النظام الإسلامي**، د. مصطفى كمال وصفي، مطبعة الأمانة، بالقاهرة، ١٣٩٠هـ.

٣٤٠٨. **مشكاة المصابيح**، محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، بيروت،١٩٨٥م.

٣٤٠٩. **مشكاة المصابيح**، محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط١، دمشق، ١٣٨١هـ.١٩٦١م.

٣٤١٠.مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، دمشق، ١٩٧٩م.

٣٤١١.مشكل إعراب القرآن، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني القرطبي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٣٤١٢.مشكلة العمل التطوعي بين الانتهازية والوجاهة الاجتماعية، د. فايز بن عبد الله الشهري، مقال منشور على موقع مركز أسبار.

٣٤١٣.مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، ط٦، مصر.

٣٤١٤.مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٥م.

٣٤١٥.مشكلة الفقر وكيف علاجها الإسلام، د يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، ط٥، القاهرة، ١٩٨٦م.

٣٤١٦.مشيخة الآبنوسي، أبو الحسين محمد بن أحمد الآبنوسي، تحقيق: د. خليل حسن حمادة، جامعة الملك سعود، كلية التربية، قسم الدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٢١هـ.

٣٤١٧.المصاحف، أبو بكر بن أبي داود عبد الله بن سليمان بن الأشعث، تحقيق: مجدي فتحي السيد، جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة، طنطا ٢٠٠٧م.

٣٤١٨.مصادر الالتزام، د. عبد المجيد الحكيم، بغداد، ١٩٧٤م.

٣٤١٩.مصادر التشريع فيما لا نصّ فيه، عبد الوهاب خلاّف، دار القلم، الكويت، ١٣٩٤هـ.

٣٤٢٠.مصادر السيرة النبوية، ضيف الله بن يحي الزهراني، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

٣٤٢١.مصارع العشاق، جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبي محمد، دار صادر، بيروت.

٣٤٢٢.مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار المعارف،ط١، الرياض، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧ م.

٣٤٢٣.المصالحة وخطابها دراسة قرآنية موضوعية، عبد الرؤوف أحمد عبدالغفور، بحث لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية، غزة،

فلسطين،١٤٣٢ هـ.٢٠١١م.

٣٤٢٤.مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، أبو العباس شهاب الدين البوصيري، المحقق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، ط٢، بيروت، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م.

٣٤٢٥.المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٣٤٢٦.المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد المقري الفيومي، دار الحديث، ط١،القاهرة،١٤٢١هـ٢٠٠٠م.

٣٤٢٧.المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد المقري الفيومي، اعتنى به: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، ط٢، صيدا، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٣٤٢٨.المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد المقري الفيومي، دار المعارف،ط٢، القاهرة.

٣٤٢٩.المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد المقري الفيومي، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

٣٤٣٠.المصباح في تهذيب تفسير ابن كثير، صفي الرحمن المباركفوري، ٢٠٠٦م

٣٤٣١.المصطلاحات الوافدة وأثرها على الهوية الاسلامية، الهيثم زعفان، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة،١٤٣١هـ.٢٠٠٩ م.

٣٤٣٢.مصطلح الأسرة في المواثيق الدولية.. دراسة تحليلية،بحث مقدم من كاميليا حلمي في مؤتمر الخطاب الإسلامي المعاصر ٢٨،٢٩يوليو،٢٠١١م.

٣٤٣٣. مصطلح التفكر كما جاء في القرآن الكريم، محمد خازر المجالي، مجلة الشريعة والقانون، جامعة عمّان – الأردن، العدد ٢٣ مايو ٢٠٠٥م.

٣٤٣٤.المصطلحات الأربعة في القرآن، أبو الأعلى بن أحمد حسن المودودي، محمد عاصم الحداد، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الشاملة.

٣٤٣٥.مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان، تحقيق: كمال الحوت، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٤٠٩هـ.

٣٤٣٦.مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان، تحقيق: ختار أحمد الندوي، الدار السلفية، ط١،

بومباي، الهند، ١٤٠٣هـ.

٣٤٣٧.**مصنف ابن أبي شيبة**، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان، تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، ط١، دمشق، ١٤٢٧هـ. ٢٠٠٦م.

٣٤٣٨.**مصنف ابن أبي شيبة**، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان، تحقيق: حمد بن عبد الله الجمعة، محمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٣٤٣٩.**مصنف عبد الرزاق**، أبو بكر، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي،ط٢، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٣٤٤٠.**المصنف**، أحمد بن عبدالله الكندي، وزارة التراث بسلطنة عمان، مسقط.

٣٤٤١.**المصنَّف**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المجلس العلمي بالهند، ١٤٠٣ هـ.

٣٤٤٢.**مصنفة النظم الإسلامية**، د. مصطفى كمال وصفي، مكتبة وهبة، ١٣٩٧هـ.

٣٤٤٣.**المصون في علوم الكتاب المكنون**، أبو العباس، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، دار القلم، دمشق.

٣٤٤٤.**المضاربة والقمار في الأسواق المالية المعاصرة**، تحليل اقتصادي وشرعي، د. عبد الرحيم عبد الحميد الساعاتي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، م٢٠، ع١، ١٤٢٨هـ،٢٠٠٧م.

٣٤٤٥.**المضامين التربوية المستنبطة من أحاديث كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة في صحيح البخاري**، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى،قسم التربية الإسلامية والمقارنة، المملكة العربية السعودية، ١٤٣١هـ.

٣٤٤٦.**المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، رسالة علمية قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، دار العاصمة، دار الغيث،ط١، السعودية، ١٤١٩هـ.

٣٤٤٧.**مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى**، مصطفى بن سعد بن عبده

السيوطي شهرة، الرحيباني مولدا ثم الدمشقي الحنبلي، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٣٤٤٨. **المطلع على أبواب المقنع**، محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ١٤٠١هـ،١٩٨١م.

٣٤٤٩. **المطلع على أبواب المقنع**، محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب، مكتبة السوادي للتوزيع، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٣٤٥٠. **مظاهر انحراف الشباب وأسبابه وطرق الوقاية منه وعلاجه**، منتدى الحوار العام.

٣٤٥١. **مع الأنبياء في القرآن الكريم**، عفيف عبد الفتاح طباره، دار العلم للملايين،ط٢٢، بيروت،٢٠٠٣م.

٣٤٥٢. **مع قصص السابقين في القرآن**، صلاح الخالدي، دار القلم، ط٥، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م.

٣٤٥٣. **معاجم مفردات القرآن (موازنات ومقترحات)**، أ. د. أحمد حسن فرحات، منشورات مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

٣٤٥٤. **مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ**، عبد الرَّحمن حسن حبنّكة الميْداني، دار القلم، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٤٥٥. **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط١، الدمام، ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م.

٣٤٥٦. **المعارف**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٢ م.

٣٤٥٧. **معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة**، د. محمد حسن الجيزاني، دار ابن الجوزي،١٤٢٧هـ.

٣٤٥٨. **المعالم الأثيرة في السنة والسيرة**، محمد بن محمد حسن شُرَّاب، دار القلم، الدار الشامية، ط١، دمشق، ١٤١١ هـ.

٣٤٥٩. **معالم التنزيل(تفسير البغوي)**، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، ط١،بيروت، ١٤٢٠هـ.

٣٤٦٠. **معالم التنزيل(تفسير البغوي)**، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد بن عبد الرحمن العك،،دار المعرفة، ط٣، بيروت،

لبنان، ١٤١٣هـ.

٣٤٦١. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وآخرَيْن، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩هـ.

٣٤٦٢. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وآخرَيْن، دار طيبة، ط٤، الرياض، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٣٤٦٣. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ.

٣٤٦٤. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

٣٤٦٥. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار السلام، ط١، الرياض، ١٤١٦هـ.

٣٤٦٦. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة، الرياض، ١٤١٤ هـ.

٣٤٦٧. معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، عبد الوهاب بن لطف الديلمي، مكتبة الإرشاد، ط٢، صنعاء، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٣٤٦٨. معالم السنن شرح سنن أبي داود للخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم، مطبوع من سنن أبي داود، تحقيق: عزت عبيد الدعاس و عادل السبر، دار الحديث، حمص، سوريا .

٣٤٦٩. معالم السنن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المطبعة العلمية، ط١، حلب، ١٣٥١ هـ ١٩٣٢م.

٣٤٧٠. معالم السنن، للخَطَّابي، مطبوع مع تهذيب سنن أبي داود للمنذري، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٦٩هـ.

٣٤٧١. معالم بيانية في آيات قرآنية، أبو هاشم صالح بن عوّاد بن صالح المغامسي، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٣٤٧٢. معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، مصر.

٣٤٧٣. معالم في منهج الدعوة، صالح بن عبد الله بن حميد، دار الأندلس الخضراء، ١٩٩٩م.

٣٤٧٤. معالم مكة التاريخية والأثرية، عاتق بن غيث البلاذري، دار مكة للنشر والتوزيع، ط١، مكة، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م.

٣٤٧٥. المعاملات المالية المعاصرة في ضوء الإسلام، سعد الدين محمد الكبي، المكتب الإسلامي، ط١، بيروت، دمشق، عمّان، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م.

٣٤٧٦. معاني القرآن، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٣٤٧٧. معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، الشركة المتحدة للتوزيع، ط١، بيروت، ١٤٠١هـ،١٩٨١م.

٣٤٧٨. معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٨هـ.

٣٤٧٩. معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، عنى بتصحيحه: علي أكبر الغفاري، دار المعرفة.

٣٤٨٠. معاني الحروف، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق: د. عبد الفتاح شلبي، دار الشروق، ط٢، جدة، ١٩٨١م.

٣٤٨١. معاني القراءات، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، مركز البحوث في كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢ هـ، ١٩٩١م.

٣٤٨٢. معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٣٤٨٣. معاني القرآن، أبو الحسن سعيد الأخفش، دار المحقق،١٩٨١م.

٣٤٨٤. معاني القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحَّاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، مركز إحياء التراث الإسلامي، ط١، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨م.

٣٤٨٥. معاني القرآن، أبو جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، السعودية ١٤٠٩هـ.

٣٤٨٦. معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفراء، تحقيق: محمد علي النجار، أحمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية، ط٣، القاهرة، ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.

٣٤٨٧. معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفراء، تحقيق: محمد علي النجار، أحمد يوسف نجاتي، دار

الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م.

٣٤٨٨.معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفراء، تحقيق: محمد علي النجار، أحمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية، القاهرة،١٩٥٥م.

٣٤٨٩.معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفراء، عالم الكتب، ط٢، بيروت،١٩٨٠م.

٣٤٩٠.معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفراء، عالم الكتب، ط٣، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٣٤٩١.معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، ط١، مصر.

٣٤٩٢.معاني القُرآن، عليٌّ بن حمزة الكسائيٌّ، تحقيق: د. عيسى شحاته عيسى، دار قُبَاء، القاهرة، ١٩٩٨م.

٣٤٩٣.المعاني الكبير في أبيات المعاني، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٤٩٤.المعاني الكبير في أبيات المعاني، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار النهضة الحديثة، ت: سالم الكرنكوي.

٣٤٩٥.المعاني الكبير في أبيات المعاني، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م.

٣٤٩٦.المعاهدات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني دراسة فقهية مقارنة، عثمان بن جمعة ضميرية، سلسلة كتب دعوة الحق عن رابطة العالم الإسلامي، العدد(١٧٧)، رمضان ١٤١٧هـ.

٣٤٩٧.المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر، الإمام بدر الدين الزركشي، الكويت، ١٤٠٠هـ.

٣٤٩٨.معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٣٤٩٩.المعتصر من شرح مختصر الأصول من علم الأصول، أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي، المكتبة الشاملة، ١٤٣١ هـ، ٢٠١٠م.

٣٥٠٠.معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، د.محمد بن خليفة بن علي التميمي، أضواء السلف،

ط١، الرياض، ١٤١٩هـ،١٩٩٩م.

٣٥٠١. **معجزات القرآن العلمية**، حامد حسين قدير، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١٤، العددان الخامس والخمسون، والسادس والخمسون، رجب، ذو الحجة ١٤٠٢هـ.

٣٥٠٢. **معجزة الذرة**، هارون يحيى، ترجمة: أحمد ممتاز سلطان.

٣٥٠٣. **معجزة القرآن**، محمد متولي الشعراوي، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨ م.

٣٥٠٤. **المعجزة الكبرى القرآن**، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي، بيروت.

٣٥٠٥. **المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن بالرسم العثماني**، عبد الله إبراهيم جلغوم، مركز تفسير لتطوير الدراسات القرآنية، ط١، ١٤٣٥هـ.

٣٥٠٦. **معجم ابن الأعرابي**، أبو سعيد بن الأعرابي أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري الصوفي، تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، دار ابن الجوزي،ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

٣٥٠٧. **معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م.

٣٥٠٨. **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي، دار المأمون.

٣٥٠٩. **المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**، أ.د. محمد حسن جبل، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، ٢٠١٠م.

٣٥١٠. **المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**، أ.د. محمد حسن جبل، مكتبة الآداب، ط٢، القاهرة، ٢٠١٢م.

٣٥١١. **المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**، أ.د. محمد حسن جبل، مكتبة الآداب، ط٣، القاهرة،١٤٣٤هـ،٢٠١٤م.

٣٥١٢. **معجم الأعلام والموضوعات في القرآن**، د عبد الصبور مرزوق، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ،١٩٩٥م.

٣٥١٣. **المعجم الاقتصادي الإسلامي**، د. أحمد الشرباصي، دار الجيل، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٣٥١٤.المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، ط١، القاهرة ١٤١٥هـ.

٣٥١٥.معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٩٩٥ م.

٣٥١٦.معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، ط١،بيروت، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٣٥١٧.معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، ت: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة القاهرة.

٣٥١٨.معجم الحضارات، اهنري. س عبودي، جروس يرس، ط٢، لبنان، ١٤١١هـ-١٩٩٩م.

٣٥١٩.معجم الرائد،معجم لغوي عصري، مسعود جبران، دار العلم للملايين، ١٩٩٢م.

٣٥٢٠.معجم الشعراء، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المَرْزُبَاني، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٩هـ، ١٩٦٠م.

٣٥٢١.معجم الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار المعرفة، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٩هـ.٢٠٠٨م.

٣٥٢٢.المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، المكتب الإسلام، بيروت، دار عمار، عمان، ط١، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

٣٥٢٣.المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٣٥٢٤.معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط١،القاهرة، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

٣٥٢٥.المعجم العربي الأساسي، جماعة اللغويين العرب، عالم الكتاب، تونس، ١٤١٢ هـ.

٣٥٢٦.معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠م.

٣٥٢٧.معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨١م.

٣٥٢٨.معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية،ط٢، القاهرة، ١٤٠٩هـ،١٩٨٩م.

٣٥٢٩. معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، نوال كريم زرزور، مكتبة لبنان ناشرون،ط١، لبنان، ٢٠٠١م.

٣٥٣٠. معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، د. محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م.

٣٥٣١. معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكر، ت: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، مصر.

٣٥٣٢. معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط١، ١٤١٢هـ.

٣٥٣٣. معجم الفقهاء، محمد رواس، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٣٥٣٤. معجم القراءات القرآنية، د. عبداللطيف الخطيب، دار سعد الدين،ط١، دمشق، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م.

٣٥٣٥. المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني،تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف الدكتور سعد بن عبد الله الحميد، والدكتور خالد بن عبد الرحمن الجريسي، ط١، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

٣٥٣٦. المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، ط٢، القاهرة،١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.

٣٥٣٧. المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، ط٢، الموصل، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

٣٥٣٨. المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مطبعة الزهراء الحديثة،ط٢، الموصل، العراق.

٣٥٣٩. المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي دار إحياء التراث العربي،ط٢، بيروت، دون تاريخ.

٣٥٤٠. المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، وزارة الأوقاف، العراق، ١٣٩١ هـ.

٣٥٤١.معجم اللغة العربية المعاصر، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨ م.

٣٥٤٢.معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.

٣٥٤٣.معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، د .محمود عبد الرحمن عبد المنعم، دار الفضيلة.

٣٥٤٤.معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، د .محمود عبد الرحمن عبد المنعم، جامعة الأزهر، ٢٠١٠م.

٣٥٤٥.معجم المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م.

٣٥٤٦.معجم الْمَعَالِم الْجُغْرَافِيَّة فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، عاتق بن غيث بن زوير البلادي الحربي، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م.

٣٥٤٧.المعجم المفصل في تفسير غريب القرآن، الدكتور محمد التونجي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.

٣٥٤٨.المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم بالرسم العثماني، إعداد عبد إبراهيم جلعوم، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط١، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.

٣٥٤٩.المعجم المفهرس أو تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد شكور الميادينى، مؤسسة الرسالة،ط١، بيروت،١٤١٨هـ،١٩٩٨م.

٣٥٥٠.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.

٣٥٥١.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث،ط١، ١٩٨٧م.

٣٥٥٢.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ضبطها ورتبها: محمد سعيد اللحام، دار المعرفة،ط١، بيروت، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م

٣٥٥٣.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٣٦٤هـ.

٣٥٥٤.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٧ هـ.

٣٥٥٥.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، ط٢، القاهرة، ١٩٨٨م.

٣٥٥٦.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ ولا رقم طبعة.

٣٥٥٧.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م.

٣٥٥٨.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفيحاء، دمشق.

٣٥٥٩.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار جمال، بيروت.

٣٥٦٠.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٤هـ،١٩٤٥م.

٣٥٦١.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٣٥٦٢.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، مطابع الشعب، القاهرة، ١٣٧٨ هـ.

٣٥٦٣.المعجم المفهرس للتراكيب المتشابهة لفظًا في القرآن الكريم، الدكتور محمد زكي محمد خضر،ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١ م.

٣٥٦٤.المعجم المفهرس لمعاني القرآن الكريم، محمد الزين، دار الفكر المعاصر، ط٢، بيروت،١٤١٧هـ.

٣٥٦٥.معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ، بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ط٣، الرياض، ١٤١٧هـ،١٩٩٦م.

٣٥٦٦.المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، أحمد مختار عمر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.

٣٥٦٧.المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، أحمد مختار عمر، مؤسسة سطور المعرفة، ط١، الرياض، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م.

٣٥٦٨.المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، صبحي خضر، توزيع دار الفضيلة، دار النصر للطباعة

الإسلامية، القاهرة.

٣٥٦٩.معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربيّة، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت.

٣٥٧٠.المعجم الوجيز لألفاظ القرآن الكريم، نبيل عبد السلام هارون، دار النشر للجامعات، القاهرة،١٩٩٧م.

٣٥٧١.المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، مطابع الأهرام التجارية، مصر، ٢٠١١م.

٣٥٧٢.المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٣٥٧٣.المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة.

٣٥٧٤.المعجم الوسيط، إخراج جماعة من العلماء، دار الدعوة، استانبول .

٣٥٧٥.المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس، د.عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، طبع على نفقة إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، « بلا رقم أو تاريخ ».

٣٥٧٦.المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ.

٣٥٧٧.معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، سميح عاطف الزين، الدار الإفريقية العربية، ومجمع البيان الحديث.

٣٥٧٨.معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، سميح عاطف الزين، دار الكتاب المصري، القاهرة ٢٠٠٧م.

٣٥٧٩.معجم تقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة،٢٠٠٤م.

٣٥٨٠.معجم ديوان الأدب، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، تحقيق : دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م .

٣٥٨١.معجم علوم القرآن، إبراهيم محمد الجرحي، دار القلم، ط١، دمشق، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.

٣٥٨٢.معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، دار العلم للملايين ط٢، بيروت، ١٣٨٨ هـ،١٩٦٨م.

٣٥٨٣.معجم كلمات القرآن العظيم،

محمد عدنان سالم و محمد وهبي سليمان، ط١، دمشق، ١٩٩٨م.

٣٥٨٤. معجم كلمات القرآن الكريم، أ.د. محمد زكي محمد خضر، ط١، ١٤٢٦هـ.

٣٥٨٥. معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي، حامد صادق قنيبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع،ط٢، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م.

٣٥٨٦. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، عالم الكتب،ط٣، بيروت، ١٤٠٣ هـ .

٣٥٨٧. معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٨م.

٣٥٨٨. معجم مصطلح الأصول، هيثم هلال، تحقيق: د. محمد ألتونجي، دار الجيل، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م ، ١٤٢٤هـ.

٣٥٨٩. معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، ط ٣، بيروت، ٢٠١٠ م.

٣٥٩٠. معجم مصطلحات العلوم الإدارية، أحمد زكي بدوي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٤م،

٣٥٩١. معجم مصطلحات علم القراءات، عبد العلي المسؤول، دار السلام، ط٢، مصر، ١٤٣٢هـ.

٣٥٩٢. معجم مصطلحات علمي التجويد والقراءات، إبراهيم بن سعيد الدوسري، دار الحضارة للنشر، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩ هـ.

٣٥٩٣. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: د. محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٤م.

٣٥٩٤. معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، مصر، ٢٠٠٣، ٢٠٠٨ م.

٣٥٩٥. المعجم، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم بن زاذان الأصبهاني الخازن، المشهور بابن المقرئ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.

٣٥٩٦. المعجم، أبو يعلى الموصلي، ت: إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، ط١، ١٤٠٧هـ.

٣٥٩٧. المعرب للجواليقي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب، ط٢،

١٣٨٩هـ.

٣٥٩٨.**معرفة السنن والآثار**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق : عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية،ط١،كراتشي، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م .

٣٥٩٩.**معرفة الصحابة**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن، ط١، الرياض، ١٤١٩هـ. ١٩٩٨م.

٣٦٠٠.**معرفة علوم الحديث**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: السيد معظم حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

٣٦٠١.**المعلم بفوائد مسلم**، أبو عبد الله محمد بن علي المازري، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، ط٢، تونس، ١٩٨٨ م.

٣٦٠٢.**معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية**، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية، مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة التعاون الإسلامي، ١٤٣٤هـ.

٣٦٠٣.**معنى اسم: الحكيم وأثره على المسلم**، فتوى رقم(١٧١٨١٩) منشور بتاريخ الخميس ٢٤ صفر ١٤٣٣هـ، ١٩/ ١/ ٢٠١٢م في موقع إسلام ويب.

٣٦٠٤.**معنى الوجودية دراسة توضيحية مستقاة من أعلام الفلسفة الوجودية**، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.

٣٦٠٥.**مُعوقات الخلافة الإِسلامية وسُبل إِعادتها**، بحث مقدم إلى مؤتمر»الإسلام والتحديات المعاصرة، المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية، في الفترة: ٢-٣/ ٤/ ٢٠٠٧م، د.سعد عبدالله عاشور، الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين، قسم العقيدة، الجامعة الإسلامية، ٢٠٠٧م.

٣٦٠٦.**المعونة على مذهب عالم المدينة الإمام مالك بن أنس**، القاضي عبدالوهاب البغدادي، تحقيق ودراسة: حميش عبدالحق، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٤١٥هـ،١٩٩٥م.

٣٦٠٧.**معيار تحقق الوفاة وما يتعلق بها من قضايا حديثة في الفقه الإسلامي**، علي محمد علي، رسالة ماجستير، مكتبة كلية الشريعة والقانون، القاهرة.

٣٦٠٨.**معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام**، أبو الحسن، علاء الدين، علي بن خليل الطرابلسي

الحنفي، دار الفكر.

٣٦٠٩. **المغازي**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي، تحقيق مارسدن جونس، دار عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

٣٦١٠. **المغازي**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي، ط٣، بيروت، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٣٦١١. **المغرب في ترتيب المعرب**، أبو الفتح ناصر الدين المُطَرِّزي، دار الكتاب العربي.

٣٦١٢. **المغرب في ترتيب المعرب**، أبو الفتح ناصر الدين المُطَرِّزي، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، ط٢، حلب، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٣٦١٣. **المغنى في توجيه القراءات العشر المتواترة**، الدكتور محمد سالم محيسن، دار الجيل، بيروت، مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢، القاهرة، ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.

٣٦١٤. **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن هشام، تحقيق: د. مازن المبارك وآخر، دار الفكر دمشق، ١٩٨٥م.

٣٦١٥. **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٣٦١٦. **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، دار الفكر، بيروت.

٣٦١٧. **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، مطبعة مصطفى محمد، ١٩٥٨م.

٣٦١٨. **المغني شرح مختصر الخرقي**، موفق الدين أبي محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، ومعه الشرح الكبير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤ هـ.

٣٦١٩. **المغني شرح مختصر الخرقي**، موفق الدين أبي محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، دار الفكر، بيروت،١٤٠٥هـ.

٣٦٢٠. **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار**، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، مطبوع بهامش إحياء علوم الدين، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم العراقي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٣٦٢١. المغني، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، تحقيق د. عبد الله التركي، وعبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر، ط١، القاهرة، ١٤١٠هـ.

٣٦٢٢. المغني، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: د.عبد الله التركي، ود. عبد الفتاح الحلو، الرياض، دار عالم الكتب، ط٦، السعودية، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٣٦٢٣. المغني، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٣٦٢٤. المغني، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، مكتبة الرياض الحديثة .

٣٦٢٥. المغني، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

٣٦٢٦. المغني، المغني، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، دار الحديث، ط١، القاهرة،١٩٩٧م.

٣٦٢٧. المغني، ابن قدامه، تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي و د. عبدالفتاح محمد الحلو، هجر للنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٣٦٢٨. مفاتح الغيب(التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري، الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط٣، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٣٦٢٩. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري، الملقب بفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م.

٣٦٣٠. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري، الملقب بفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان،١٤١١هـ.

٣٦٣١. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري، الملقب بفخر الدين الرازي، دار الغد العربي، ط١، القاهرة، مصر.

٣٦٣٢. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري، الملقب بفخر الدين الرازي، مطبعه

علي بك، الأستانة، ١٢٩٤هـ.

٣٦٣٣. مفاتح الغيب(التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري، الملقب بفخر الدين الرازي، دار الفكر،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م.

٣٦٣٤. المفاخرة بين الماء والهواء، أحمد بن عبد اللطيف بن أحمد البَرْبِير الحسني، أبو الفيض، عُني بها: الدكتور محمَّد حسَّان الطَّيَّان، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع،ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠م.

٣٦٣٥. مفاهيم إسلامية، مجموعة من المؤلفين، موقع وزارة الأوقاف المصرية، المكتبة الشاملة.

٣٦٣٦. مفاهيم القرآن، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق،مطبعة اعتماد، ط٤، قم، ايران،١٤١٣هـ.

٣٦٣٧. المفاهيم المثلى في ظلال شرح أسماء الله الحسنى، أبو لؤي وليد بن محمود بن حسن، دار الرضا للنشر والتوزيع، مصر، بدون تاريخ.

٣٦٣٨. مفاهيم سياسية لحزب التحرير، من منشورات حزب التحرير،ط٤، ١٤٢٥هـ.

٣٦٣٩. مفتاح الإعراب، محمد مرجان، عناية: علي نجار، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢١هـ.

٣٦٤٠. مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طاش كبرى زاده، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

٣٦٤١. مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، ضبط: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية،ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.

٣٦٤٢. مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، تحقيق سيد إبراهيم، وعلي محمد، دار الحديث، ط٣، القاهرة، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٣٦٤٣. مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، دار ابن عفّان، ط١، المملكة السعودية، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

٣٦٤٤. مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٣٦٤٥. مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان،١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٣٦٤٦. مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، مكتبة الرياض، بدون تاريخ.

٣٦٤٧.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم،ط٤، دمشق، ١٤٣٠هـ،٢٠٠٩م.

٣٦٤٨.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، ط١، دمشق، ١٤١٢هـ.١٩٩٢م.

٣٦٤٩.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، دمشق، ١٤٠٨هـ.

٣٦٥٠.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣٦٥١.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم،ط٢، دمشق، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٣٦٥٢.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ١٤٣٣هـ،٢٠١١م.

٣٦٥٣.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر،١٩٨١م.

٣٦٥٤.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، ط١، لبنان، ١٤١٨هـ. ١٩٩٨م.

٣٦٥٥.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، ٢٠٠٨م.

٣٦٥٦.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان.

٣٦٥٧.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، راجعه وقدم له: وائل عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.

٣٦٥٨.مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨١هـ.

٣٦٥٩.مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي، تحقيق وشرح: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م.

٣٦٦٠.المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، علي بن نايف الشحود، المكتبة الشاملة.

٣٦٦١.المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، دار الساقي،ط٤، ١٤٢٢هـ،٢٠٠١م.

٣٦٦٢.المفصل في صنعة الإعراب،

الزمخشري، دار ومكتبة الهلال،ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

٣٦٦٣.المفضليات للضبي، ت: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف،ط٦، القاهرة.

٣٦٦٤.المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب،ط١، بيروت ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م.

٣٦٦٥.مفهوم الاختلاف في القرآن، رمضان بن رمضان، على الشبكة العنكبوتية.

٣٦٦٦.مفهوم الأسماء والصفات، سعد بن عبد الرحمن ندا، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد (٤٦) العام ١٤٠١،١٤٠٠هـ.

٣٦٦٧.مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر، د مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع،ط٢، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٧هـ.

٣٦٦٨.مفهوم التفكر في ضوء القرآن، محمد بن زيلعي هندي، مجلة الدراسات القرآنية، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، العدد٢، ماي ٢٠٠٨.

٣٦٦٩.مفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث، سليم بركات، دار دمشق، ط٢، بيروت، ١٩٨٤م.

٣٦٧٠.مفهوم الحرية، عبدالله العروي، المركز الثقافي العربي، ط٤،بيروت، ١٩٨٠م.

٣٦٧١.مفهوم الحكمة في الدعوة، د. صالح بن عبد الله بن حميد، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،ط١، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ.

٣٦٧٢.مفهوم الحياة في القرآن والحديث، د. محمد الأحمدي، دار السلام، مصر.

٣٦٧٣.مفهوم السلم في الفكر الاسلامي دراسة تحليلية مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون، محمد نوري البازياني، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، المملكة المتحدة، لندن، ١٤٢٧ هـ.٢٠٠٦م.

٣٦٧٤.مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، محمد علي الجوزو، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٠م.

٣٦٧٥.مفهوم الولاء والبراء في القرآن والسنة، علي بن نايف الشحود، ط١، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

٣٦٧٦.مفهوم قاعدة الاستخلاف في الاقتصاد الإسلامي، دراسة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم، إعداد: د. عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الناصر، كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٣٦٧٧.مفيد العلوم ومبيد الهموم، أبو بكر الخوارزمي محمد بن العباس، المكتبة العصرية، ط١،بيروت، ١٤١٨هـ.

٣٦٧٨.المفيد في مهمات التوحيد، الدكتور عبد القادر بن محمد عطا صوفي، دار الاعلام،ط١، ١٤٢٢هـ، ١٤٢٣هـ.

٣٦٧٩.مقاتل من الصحراء، خالد بن عبد العزيز آل سعود، دار الساقي، ط٧، ١٩٩٧م.

٣٦٨٠.مقارنة الأديان بحوث ودراسات، محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل،ط١، بيروت، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م.

٣٦٨١.مقاصد التشريع الإسلامي مفهومها، ضرورتها، ضوابطها، نور الدين مختار الخادمي، مجلة العدل، عدد (٦) ربيع الآخر ١٤٢١هـ.

٣٦٨٢.المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الهجرة، بيروت، ١٩٨٦م.

٣٦٨٣.المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المحقق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي،ط١، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥م.

٣٦٨٤.مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل، العز بن عبد السلام، المحقق: إياد خالد الطباع، دار الفكر،ط١، دمشق، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م .

٣٦٨٥.مقاصد الشرعية الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، الدكتور: محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط١،،الرياض، المملكة العربية السعودية،١٤١٨هـ،١٩٩٨م .

٣٦٨٦.المقاصد الشرعية وأثرها في فقه المعاملات المالية، رياض منصور الخليفي، بحث منشور في مجلة جامعة الملك عبد العزيز، م١٧ ع١، ١٤٣٥هـ.٢٠١٤م.

٣٦٨٧.مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال، يوسف القرضاوي، المجلس الأوربي للإفتاء، دبلن .

٣٦٨٨. **مقاصد الشريعة في المعاملات المالية عند ابن تيمية وأثرها في الأحكام الفقهية والنوازل المالية المعاصرة**، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في أصول الفقه، ماجد بن عبد الله بن محمد العسكر، جامعة الملك أم القرى، كلية الشريعة، السعودية، ١٤٣٤هـ.

٣٦٨٩. **مقاصد الشريعة**، محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، ط١، ٢٠١١م.

٣٦٩٠. **المقاصد العامة للشريعة**، يوسف العالم، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢، الرياض، ١٩٩٤م.

٣٦٩١. **المقاصد في المناسك**، الأستاذ الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٣٦٩٢. **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، أبو الحسن الأشعري، عنى بتصحيحه: هلموت ريتر، دار فرانز شتايز، ط٣، مدينة فيسبادن، ألمانيا، ١٤٠٠هـ،١٩٨٠م.

٣٦٩٣. **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، أبو الحسن الأشعري، المكتبة العصرية، ١٤١١هـ،١٩٩٠م.

٣٦٩٤. **مقامات الحريري**، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٣م.

٣٦٩٥. **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٣٦٩٦. **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط١، بيروت،١٤١١هـ ،١٩٩١م.

٣٦٩٧. **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكُتَّاب العرب، بدون طبعة، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢م.

٣٦٩٨. **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، دار الفكر،ط٢، بيروت ١٤١٨هـ.١٩٩٨م.

٣٦٩٩. **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،١٤٢٠هـ.١٩٩٩م.

٣٧٠٠. **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون،، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٣،

مصر، ١٤٠٥هـ،١٩٨٠م.

٣٧٠١.مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل،ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٣٧٠٢.مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، اعتنى به: د. محمد عوض مرعب وفاطمة أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، عام ١٤٢٩هـ.٢٠٠٨م.

٣٧٠٣.المقتطف من عيون التفاسير، مصطفى الخيري المنصوري، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار السلام،ط١، القاهرة، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٣٧٠٤.المقتطف من عيون التفاسير، مصطفى الخيري المنصوري، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القلم، ط٢.

٣٧٠٥.المقتفى من سيرة المصطفى ﷺ، أبو محمد بدر الدين الحسن بن عمر بن الحسن الحلبي، تحقيق : د مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث،ط١، القاهرة، مصر، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٣٧٠٦.المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب الجديع العنزي، مركز البحوث الإسلامية ليدز، ط١، بريطانيا، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.

٣٧٠٧.المقدمات الممهدات، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، دار الغرب الإسلامي،ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨ م

٣٧٠٨.مقدمات في علم مقالات الفرق، محمد بن خليفة بن علي التميمي، الكويت، ط١، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م.

٣٧٠٩.مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، دار القلم، ط٥، بيروت، ١٩٨٤م.

٣٧١٠.مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ الطبع.

٣٧١١.مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١ م.

٣٧١٢.مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت. ١٩٧٤م.

٣٧١٣.مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، دار الكتب العلمية،ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

٣٧١٤. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، دار الكتب العلمية، ط٤، بيروت، ١٣١٨هـ.

٣٧١٥. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: عبد السلام الشدادي، بيت الفنون و العلوم و الآداب، ط٥، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٥م.

٣٧١٦. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، دار الفكر، ط٦، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣٧١٧. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة.

٣٧١٨. مقدمة الدستور أو الأسباب الموجبة له، الشيخ تقي الدين النبهاني، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، لبنان، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٣٧١٩. مقدمة ديوان الأدب، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣م.

٣٧٢٠. مقدمة في التربية الإسلامية، الدكتور صالح بن علي أبو عراد، الدار الصولتية للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ١٤٢٤هـ.

٣٧٢١. مقرر منهج السنة الثالثة ثانوي، الدار السودانية للكتب، جمهورية السودان وزارة التربية، ١٩٨٢م.

٣٧٢٢. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، الجفان والجابي، ط١، قبرص، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.

٣٧٢٣. المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، تأليف: عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، توزيع دار الباز بمكة المكرمة.

٣٧٢٤. المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، تأليف: عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار عالم الكتب، ط٢، الرياض، ١٤٢٦هـ.

٣٧٢٥. مقومات الإنسانية في القرآن الكريم، د. أحمد إبراهيم مهنا، سلسلة البحوث الإسلامية، ١٤٢١هـ.

٣٧٢٦. مقومات التربية الجسمية في الإسلام، دراسة تحليلية ميدانية، صالح بن علي أبو عراد الشهري، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى قسم

التربية الإسلامية، جامعة أم القرى، ٢٠٠٠م.

٣٧٢٧. مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق،ط٥، مصر، ١٤١٨هـ.

٣٧٢٨. مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة، مفهوم، ونظر، وتطبيق، الدكتور سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، توزيع مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

٣٧٢٩. مكارم الأخلاق، أبو بكر محمد الخرائطي، تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، دار الآفاق العربية، ط١، القاهرة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩ م.

٣٧٣٠. مكارم الأخلاق، أبو بكر محمد الخرائطي، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٦ م

٣٧٣١. المكتفى في الوقف والابتدا في كتاب الله عز وجل، عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني، تحقيق: الدكتور يوسف المرعشلي، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م.

٣٧٣٢. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان،١٩٨٦م.

٣٧٣٣. ملامح المجتمع المسلم، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر.

٣٧٣٤. الملخص الفقهي، صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط١٤،الدمام،١٤٢١هـ.

٣٧٣٥. الملخص الفقهي، صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط١٠،الدمام ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٣٧٣٦. الملكية الفردية في النظام الاقتصادي الإسلامي، أ.د. محمد البلتاجي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ٢٠٠٧م.

٣٧٣٧. الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: عبد الأمير علي مهنا، علي حسن فاعور، دار المعرفة، ط٣،بيروت، لبنان، ١٩٩٣م،١٤١٤هـ.

٣٧٣٨. الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٣٧٣٩. الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد

الشهرستاني، مؤسسة الحلبي.

٣٧٤٠. **ممرات الحق**، رائد عبد الهادي، إصدار مركز التفكير الإبداعي.

٣٧٤١. **مملكة النبات كما يعرضها القرآن ويصفها**، حامد صادق قنيبي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الحادية عشر، العدد الثالث، ربيع الأول، ١٣٩٩هـ.

٣٧٤٢. **من أساليب التربية بالقرآن، التربية بالآيات**، عبد الرحمن النحلاوي، بحث في جامعة الإمام سعود، الرياض، السعودية.

٣٧٤٣. **من أساليب التربية في القرآن الكريم**، زينب بشارة يوسف، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير من قسم علوم القرآن، جامعة المدينة العالمية،١٤٣٢هـ.

٣٧٤٤. **من أسباب عذاب القبر**، سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٣٧٤٥. **من أصول الفقه على منهج أهل الحديث**، زكريا بن غلام قادر الباكستاني، دار الخراز، ط١، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٢م.

٣٧٤٦. **من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، مع آيات الله في السماء والأرض في ضوء الدراسات الجغرافية، حسن أبو العينين.

٣٧٤٧. **من الحريات إلى التحرر**، محمد عزيز الحياري، دار المعارف، مصر .

٣٧٤٨. **من ألفاظ القوة ومقابلاتها في القرآن الكريم(دراسة معجمية)**، عبد المجيد محمد علي الغيلي، طبعة إلكترونية، منشور على موقع المؤلف: رحى الحرف، ١٤٣٦هـ،٢٠١٤م.

٣٧٤٩. **من أوجه الإعجاز العلمي في الصيام**، موقع جامعة الإيمان بالجمهورية اليمنية.

٣٧٥٠. **من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم النبات**، د. قطب عامر فرغلي، د. السيد محمد زيدان، إصدارات الهيئة، ط١، ١٤١٧هـ.

٣٧٥١. **من آيات الإعجاز العلمي الحيوان في القرآن الكريم**، زغلول النجار، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، لبنان، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦مـ.

٣٧٥٢. **من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، جمع الشمس والقمر**، الدكتور: زغلول النجار، موقع الدكتور زغلول النجار.

٣٧٥٣. **من بلاغة القرآن فى التعبير بالغدو والأصال والعشى والإبكار**، د. محمد

دسوقي، ٢٠٠٣م.
٣٧٥٤. من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي، نهضه مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٣٧٥٥. من توجيهات الإسلام، الإمام الأكبر محمود شلتوت، دار الشروق، ط٦، ١٣٩٩هـ،١٩٧٩م.
٣٧٥٦. من توجيهات الإسلام، الإمام الأكبر محمود شلتوت، دار القلم العربي، بدون تاريخ.
٣٧٥٧. من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء، ناصر الجليل، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي،محرم،١٤١٨هـ.
٣٧٥٨. من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، محّمد سَعيد رَمضان البوطي، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٤٢٠ هـ
٣٧٥٩. من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، دار الوراق للنشر والتوزيع،ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٣٧٦٠. منْ عَجَائِبِ الدُّعاء، خالد بن سليمان بن علي الربعي، دار القاسم للنشر، ط١، الرياض، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢ م.
٣٧٦١. من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين، علي محمد المصراتي، دار البيارق،ط١، بيروت، ١٤١٨هـ.
٣٧٦٢. من علم الطب القرآني، د. عدنان الشريف، دار العلم للملايين، ط٥، ٢٠٠١م.
٣٧٦٣. من فقه الدولة في الإسلام، يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة،١٤٢٧هـ.
٣٧٦٤. من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، كمال الدين عبد الغني المرسي، دار المعرفة الجامعية،ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٣٧٦٥. من لطائف التفسير، أحمد فرح عقيلان، دار اليقين،ط١، مصر، ١٤١٩هـ.
٣٧٦٦. من وسائل الدعوة، د. محمد بن عبد العزيز الثويني، موقع وزارة الأوقاف السعودية .
٣٧٦٧. منار السبيل في شرح الدليل، الشيخ إبراهيم بن محمد بن سالم بن ضويان، الرياض،ط١، المملكة العربية السعودية،١٤٠٥هـ.١٩٨٥م.
٣٧٦٨. منار السبيل في شرح الدليل، الشيخ إبراهيم بن محمد بن سالم بن ضويان، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٧، دمشق، ١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٩م.
٣٧٦٩. منار القاري شرح صحيح البخاري، حمزة قاسم، مكتبة المؤيد،ط١،

المملكة العربية السعودية، ١٤١٠هـ. ١٩٩٠م.

٣٧٧٠. **المنار المنيف**، ابن القيم، ت: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط١، حلب ١٩٧٠م.

٣٧٧١. **مناظرات ابن تيمية لأهل الملل والنحل**، عبد العزيز بن محمد بن علي آل عبد اللطيف.

٣٧٧٢. **مناظرة بين الإسلام والنصرانية**، مناقشة العقيدة الدينية بين مجموعة من رجال الفكر من الديانتين الإسلامية والنصرانية، محمد جميل غازي والأستاذ إبراهيم خليل أحمد واللواء المهندس أحمد عبد الوهاب، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط٢، الرياض، ١٤١٣هـ.١٩٩٢م.

٣٧٧٣. **المنافقون في القرآن الكريم**، د. عبد الله الحميدي، دار المجتمع، ط١، جدة، ١٤٠٩هـ،١٩٨٩م.

٣٧٧٤. **مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها**، علي أحمد مدكور، دار الفكر العربي، ١٤٢١هـ.٢٠٠١م.

٣٧٧٥. **مناهج الدّعوة وأساليبها**، د. علي جريشهـ. دار الوفاء، ط١، المنصورة، مصر، ١٩٩٨م.

٣٧٧٦. **مناهج الشريعة الإسلامية**، محيي الدين العجوز، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤٠١هـ،١٩٨١م.

٣٧٧٧. **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر،ط١، بيروت، ١٩٩٦م

٣٧٧٨. **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط٣، مصر.

٣٧٧٩. **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط٢، مصر.

٣٧٨٠. **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني، المحقق : فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م.

٣٧٨١. **المناهي اللفظية**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، جمع وإعداد: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الثريا للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٥ هـ.

٣٧٨٢. **المنة الكبرى شرح وتخريج السنن الصغرى**، محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٣٧٨٣. **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**،

لجنة من علماء الأزهر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، طبع مؤسسة الأهرام، ط١٨، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥ م.

٣٧٨٤. **منتخب من صحاح الجوهري**، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي.

٣٧٨٥. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت،١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م.

٣٧٨٦. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

٣٧٨٧. **المنتقى شرح الموطأ**، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي، مطبعة السعادة، ط١، مصر، ١٣٣٢ هـ.

٣٧٨٨. **المنتقى من فرائد الفوائد**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٤ هـ.

٣٧٨٩. **المنتقى من منهاج الاعتدال**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة الشاملة.

٣٧٩٠. **منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول** صلى الله عليه وآله وسلم، عبد الله بن سعيد بن محمد عبادي اللّحجي الحضرميّ الشحاري، ثم المراوعي، ثم المكي، دار المنهاج،ط٣، جدة، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م.

٣٧٩١. **منتهى الطلب من أشعار العرب**، جمع: محمد بن المبارك، تحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، ط١، ١٩٩٩م.

٣٧٩٢. **المنثور في الفقه الشافعي**، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.

٣٧٩٣. **المنثور في الفقه الشافعي**، بدر الدين الزركشي، وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٣٧٩٤. **المُنَجَّد في اللغة**، علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، أبو الحسن الملقب بـ «كراع النمل»، تحقيق: دكتور

أحمد مختار عمر، دكتور ضاحي عبد الباقي، عالم الكتب، ط٢، القاهرة، ١٩٨٨م.

٣٧٩٥. **منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب**، عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن عثمان آل معمر، د.ن، د.ت، د.ط، د. م.

٣٧٩٦. **منزلة الصحابة في القرآن**، محمد صلاح محمد الصاوي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.

٣٧٩٧. **المنظومة السخاوية في متشابه الآيات القرآنية**، علم الدين أبو الحسن علي بن محمد السخاوي، القاهرة.

٣٧٩٨. **منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز**، محمد الأمين الشنقيطي، مجمع الفقه الإسلامي جدة، بإشراف الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

٣٧٩٩. **منهاج الإسلام في الحكم**، محمد أسد، ترجمة منصور ماضي، دار العلم للملايين، ط٦، بيروت، ١٩٨٣م.

٣٨٠٠. **منهاج التربية الإسلامية في بناء الشخصية**، أحمد سعيد علي الغامدي، رسالة دكتوراه مقدمة إلى شعبة الدعوة والتربية الإسلامية بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٩٨٨م.

٣٨٠١. **منهاج السنة النبوية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣٨٠٢. **منهاج السنة النبوية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٠٦هـ.

٣٨٠٣. **منهاج المسلم**، أبوبكر الجزائري، دار إحياء الكتب العربية.

٣٨٠٤. **المنهاج الواضح للبلاغة**، حامد عوني، مكتبة الجامعة الأزهرية، بلا رقم أو تاريخ ».

٣٨٠٥. **منهاج أهل السنة والجماعة في العقيدة والعمل**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الشريعة، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٣٨٠٦. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (شرح النووي على مسلم)**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٣٨٠٧. **المنهاج في شعب الإيمان**، أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي، تحقيق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٣٩٩هـ ،

١٩٧٩م.

٣٨٠٨. منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله تعالى، أحمد بن عبد العزيز الخلف، مطابع أضواء السلف، ط١، الرياض، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٣٨٠٩. المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم، د. يحيى بن محمد حسن زمزمي، موقع المكتبة الشاملة.

٣٨١٠. منهج الإسلام في الحرب والسلام، عثمان جمعة ضميرية، دار الأرقم، الكويت، ١٤٠٢ هـ.

٣٨١١. منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله. أنس أحمد كرزون، رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم العقيدة في جامعة أم القرى، مكة المكرمة،١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٣٨١٢. المنهج الإسلامي لتشخيص ومعالجة الأزمات فى سوق الأوراق المالية، د. حسين شحاتة، بحث منشور فى مجلة الاقتصاد الإسلامي، العدد ٢١٦، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٣٨١٣. منهج الأشاعرة في العقيدة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، السنة السادسة عشرة، العدد: الثاني والستون ربيع الآخر، جمادى الآخرة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية، ١٤٠٤هـ.١٩٨٤م

٣٨١٤. المنهج الاقتصادي في المكاييل والموازين لنبي الله شعيب عليه السلام، الدكتور نواف بن صالح الحليسي، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٢هـ. ١٩٩١م.

٣٨١٥. منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله. محمد سرور زين العابدين، دار الأرقم، ط٣، برمنجهام، ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.

٣٨١٦. منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، ط١٦، مصر.

٣٨١٧. منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الكتاب الإسلامي، إيران.

٣٨١٨. منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، الدكتور عثمان علي حسن، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ. ١٩٩٩م.

٣٨١٩. المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، ط٦، الأردن، ١٤١١هـ،١٩٩٠م.

٣٨٢٠. منهج الحضارة الإسلامية في القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، ط١١، دمشق.

٣٨٢١. منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين، عبد الرحمن بن

ناصر السعدي، دار الوطن، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٣٨٢٢. منهج السنة النبوية في تربية الإنسان، بدير محمد بدير، دار الجيل، بيروت.

٣٨٢٣. منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، تامر محمد محمود متولي، دار ماجد عسيري، ط١، ١٤٢٥،١هـ،٢٠٠٤م.

٣٨٢٤. منهج الطالبين، خميس بن سعد الشقصي، تحقيق: محمد عبد المنعم، وزارة التراث بسلطنة عمان، مسقط.

٣٨٢٥. منهج القرآن الكريم في إقامة الدليل والحجة، مجاهد محمود أحمد ناصر، ماجستير أصول الدين، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠٠٣م.

٣٨٢٦. منهج القرآن الكريم في تربية الإنسان، رؤية منظومية، مصطفى محمود حوامدة، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، الإمارات العربية المتحدة، المجلد ٣، العدد ٣، أكتوبر ٢٠٠٦م.

٣٨٢٧. منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، الدكتور: حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية،ط١، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٤م.

٣٨٢٨. منهج القرآن في التربية، محمد شديد، مكتبة الآداب، ط١، ١٩٩٨م.

٣٨٢٩. منهج القرآن في تحقيق الصحة النفسية للإنسان، فريد فرج سعيد زيارة، رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية، فلسطين، ١٤٣٠هـ. ٢٠٠٩م.

٣٨٣٠. منهج القرآن في تربية الرجال، عبد الرحمن عميرة، مكتبات عكاظ، ط١، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

٣٨٣١. منهج القرآن في تربية المجتمع، د. عبد الفتاح عاشور، مكتبة الخانجي، ط١، مصر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٣٨٣٢. منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان، زياد خليل الدغامين، مجلة دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلّد ٣٢، العدد ١،٢٠٠٥م.

٣٨٣٣. المنهج المسلوك في سياسة الملوك، عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري، تحقيق: علي عبد الله الموسى، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٣٨٣٤. منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة، محمد أمحزون، دار السلام، ط١، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٣٨٣٥.منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، الدار السلفية، ط٤، الكويت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٣٨٣٦.منهجيات الإصلاح والتغيير في سور(يس، الصافات، ص) دراسة موضوعية، إياد راضي أبو سعدة، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين،٢٠١٣ م.

٣٨٣٧.منهجية الحوار الجدلي في القرآن الكريم والسنة النبوية، أحمد إدريس الطعان، كلية الشريعة، جامعة دمشق.

٣٨٣٨.منهجية الحوار في القرآن الكريم، الدكتور محمد عبداللطيف رجب عبد العاطي، بحث منشور في مجلة الشريعة والقانون، العدد(٣٥)، يوليو ٢٠٠٨م.

٣٨٣٩.المنهزمون دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة، يوسف العظم، دار القلم، ط٢، بيروت، ١٣٧٩هـ. ١٩٧٧م.

٣٨٤٠.المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، المكتبة العلمية، بيروت، ودار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.

٣٨٤١.المهذب في علم أصول الفقه المقارن، عبد الكريم بن علي بن محمد النملة، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م.

٣٨٤٢.المهذب في فقه الإمام الشافعي، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي، ضبطه وصححه ووضع حواشيه: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ،١٩٩٥م.

٣٨٤٣.موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، دار الثقافة العربية، ط١، دمشق ١٤١٦ هـ.

٣٨٤٤.موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، القاهرة، ١٣٥١هـ.

٣٨٤٥.موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، المحقق: حسين سليم أسد الدّاراني، عبده علي الكوشك، دار الثقافة العربية، ط١، دمشق، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢ م.

٣٨٤٦.موارد الظمآن لدروس الزمان،

خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان، ط٣٠، ١٤٢٤ هـ.

٣٨٤٧. **المواريث في الشريعة الإسلامية على ضوء الكتاب والسنة**، محمد علي الصابوني، دار القلم، ط١، دمشق، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٣٨٤٨. **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ.

٣٨٤٩. **الموافقات**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: الشيخ عبد الله دراز، ومحمد عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت بدون تاريخ.

٣٨٥٠. **الموافقات**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، دار المعرفة، بيروت، ودار ابن عفان، السعودية، ١٣٩٥هـ.

٣٨٥١. **الموافقات**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، السعودية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٣٨٥٢. **الموافقات**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، خرج آياته إبراهيم رمضان، دار المعرفة، ط٣، بيروت ١٩٩٧م.

٣٨٥٣. **مواقف الأنبياء في القرآن تحليل وتوجيه**، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط١، دمشق، ٢٠٠٣م.

٣٨٥٤. **المواقف في علم الكلام**، عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، ط١، لبنان، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٣٨٥٥. **المواقف في علم الكلام**، عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، عالم الكتب، بيروت.

٣٨٥٦. **الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية**، محماس بن عبد الله بن محمد الجلعود، دار اليقين للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م.

٣٨٥٧. **مواهب الجليل في شرح مختصر خليل**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد المغربي المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي، دار الفكر، ط٣، بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٣٨٥٨. **مواهب الجليل في شرح مختصر خليل**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد المغربي المعروف

بالحطاب الرُّعيني المالكي، تحقيق: زكريا عميرات، دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٣٨٥٩.**المواهب الربانية من الآيات القرآنية**، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى بها : سمير الماضي، ط٢، رمادي للنشر والتوزيع، الدمام : ١٤١٧هـ،١٩٩٦م.

٣٨٦٠.**المواهب الربانية من الآيات القرآنية**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به : عمر بن عبد الله المقبل، الدار العالمية للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

٣٨٦١.**الموت في الفكر الغربي**، جاك شورون، ترجمة :كامل يوسف حسين، مجلة عالم المعرفة، العدد ٧٦.

٣٨٦٢.**موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة**، د. محمود بن عبد الرحمن قدح، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط٢٩، العدد (١٠٧)، ١٤١٨، ١٤١٩هـ.

٣٨٦٣.**الموجز في أصول الفقه**، عبد الجليل القرفشاوي، محمد فرج سليم، محمود شوكت العدوي، الحسيني يوسف الشيخ، فرج السيد فرج، ط١، ١٣٨٢هـ.١٩٦٣م.

٣٨٦٤.**الموجز في قواعد اللغة العربية**، سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م.

٣٨٦٥.**مؤسسة الزكاة في ولاية قدح دار الأمان ودورها في تحقيق مقاصد تشريع الزكاة**، سعد جمعة زغلول، دكتوراه بكلية الشريعة والقانون، جامعة الإنسانية، ماليزيا.

٣٨٦٦.**موسوعة أخلاق القرآن**، أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي،ط١، بيروت، ١٤٠١هـ.١٩٨١م .

٣٨٦٧.**موسوعة الأخلاق الإسلامية**، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية على الإنترنت،١٤٣٣ هـ.

٣٨٦٨.**موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (قصص تربوية من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين)**، ياسر عبد الرحمن، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط١، القاهرة، ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧ م.

٣٨٦٩.**موسوعة الأخلاق**، خالد بن جمعة بن عثمان الخراز، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، ط١، الكويت،

١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩ م.

٣٨٧٠. الموسوعة الإسلامية الميسَّرة، أشرف على تحريرها: هـ أ. جب، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥م.

٣٨٧١. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد، مكتبة ابن حجر، ط١٢، دمشق.

٣٨٧٢. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. ماهر أحمد الصوفي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٩هـ

٣٨٧٣. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، ط٢، دمشق، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥.

٣٨٧٤. موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، دوران الأرض حول الشمس وانطلاقها في الفضاء الكوني، أ. د. منصور محمد حسب النبي، منشور في موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة.

٣٨٧٥. موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً للدكتور زغلول النجار.

٣٨٧٦. موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، لقطات من رحلتي مع النحلة، طارق حسن السقا.

٣٨٧٧. موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، مع الطب في القرآن الكريم، الدكتور عبد الحميد دياب والدكتور أحمد قرقوز.

٣٨٧٨. موسوعة الألفاظ القرآنية، مختار فوزي النعّال، التراث، دمشق، ٢٠٠٣م.

٣٨٧٩. موسوعة البحوث والمقالات العلمية، جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود، المكتبة الشاملة.

٣٨٨٠. الموسوعة الجزائية، القاضي فريد الزغبي، دار صادر، ط٣، بيروت، ١٩٩٥م.

٣٨٨١. الموسوعة الجنائية الإسلامية المقارنة بالأنظمة المعمول بها في المملكة العربية السعودية، سعود بن عبد العالي البارودي العتيبي، ط٢، ١٤٢٧هـ.

٣٨٨٢. موسوعة الحديث الشريف، الكتب الستة، إشراف ومراجعة: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار الفيحاء بدمشق، سورية، ودار السلام بالرياض،ط٣، السعودية، ١٤٢١هـ.٢٠٠٠م.

٣٨٨٣. الموسوعة الحديثية الشاملة بين الواقع والمأمول، عبد الملك بن بكر قاضي، مجمع الملك فهد لطباعة

المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

٣٨٨٤.الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط وإخوانه، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٢١هـ.٢٠٠١م.

٣٨٨٥.موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ، علي بن نايف الشحود، المكتبة الشاملة.

٣٨٨٦.الموسوعة الذهبية، د. فاطمة محجوب، دار الغد العربي، القاهرة، ١٩٩٩م.

٣٨٨٧.الموسوعة الشاملة للشيعة، علي أحمد السالوس، دار الفضيلة، الرياض،٢٠٠٣م.

٣٨٨٨.الموسوعة الشعرية للكاتب والأديب والواعظ والخطيب، بدر بن عبد الله الناصر، دار العاصمة، ط٣، الرياض، ١٤٣٤هـ،٢٠١٠م.

٣٨٨٩.موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، د. حكمت بن بشير بن ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، ط١، المدينة النبوية، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٣٨٩٠.الموسوعة الطبية، نخبة من الأكاديمين، طبع ليدن، ط٤، ٢٠٠٠م.

٣٨٩١.موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور، دار القاهرة.

٣٨٩٢.الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للإنتاج الثقافي، الرياض، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٣٨٩٣.الموسوعة العربية الميسرة، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨م.

٣٨٩٤.الموسوعة العربية الميسرة، مجموعة من الباحثين، تحت إشراف: محمد شفيق غربال، دار نهضة لبنان للطبع والتوزيع، لبنان،١٤٠١هـ.

٣٨٩٥.الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني، سمير عبد الحليم، مكتبة الأحباب، ط١، دمشق ١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م.

٣٨٩٦.موسوعة الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٣٨٩٧.موسوعة الفقه الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٤٠٤، ١٤٢٧هـ.

٣٨٩٨.موسوعة الفقه والقضاء، المستشار محمد عزمي البكري، ودكتور عبدالعزيز عامر، دكتور علي حسب الله.

٣٨٩٩. الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة، حسين بن عودة العوايشة، المكتبة الإسلامية، دار ابن حزم، ط١، بيروت، لبنان، من ١٤٢٣، ١٤٢٩ هـ.

٣٩٠٠. الموسوعة الفقهية، وزارة الاوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، دار الصفوة، ط٤، مصر، ١٤١٤هـ.

٣٩٠١. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

٣٩٠٢. الموسوعة الفلسفية العربية، الاصطلاحات والمفاهيم، رئيس التحرير د. معن زيادة، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٦م.

٣٩٠٣. موسوعة القرآن العظيم، الدكتور عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٣٩٠٤. الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٣٩٠٥. الموسوعة القرآنية، إبراهيم الإبياري، مؤسسة سجل العرب، ١٤٠٥ – ١٩٨٤م.

٣٩٠٦. الموسوعة القرآنية، خصائص السور، جعفر شرف الدين، تحقيق: عبد العزيز بن عثمان التويجري، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط١، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٣٩٠٧. موسوعة القضايا الفقهية المعاصرة والاقتصاد الإسلامي، د. علي أحمد السالوس، مكتبة دار القرآن، مصر، دار الثقافة، ط٧، قطر، د.ت.

٣٩٠٨. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر.

٣٩٠٩. موسوعة المورد، دائرة المعارف، إنكليزية عربية مصورة، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١م.

٣٩١٠. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصر، إشراف د.مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٣٩١١. موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية، موقع الدكتور محمد النابلسي على الشبكة العنكبوتية.

٣٩١٢. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبدالوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م.

٣٩١٣. موسوعة شروح الموطأ، التمهيد،

والاستذكار، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز هجر للبحوث، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٣٩١٤.موسوعة فقه القلوب في ضوء القرآن والسنة، محمد بن ابراهيم بن عبد الله التويجري، بيت الأفكار الدولية.

٣٩١٥.موسوعة فقه القلوب، في ضوء القرآن والسنة، محمد بن ابراهيم بن عبد الله التويجري، مؤسسة الريان، ط٢، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٣٩١٦.موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦م.

٣٩١٧.موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت وباريس، ١٩٩٦م.

٣٩١٨.موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، ط١، مصر، والنبلاء للكتاب، مراكش، المغرب.

٣٩١٩.موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول، إعداد جمع من المختصين بإشراف: صالح بن عبد الله بن حميد، عبد الرحمن بن محمد بن ملوح، دار الوسيلة،ط١،جدة، ١٤١٨هـ،١٩٩٨م.

٣٩٢٠.موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول، إعداد جمع من المختصين بإشراف: صالح بن عبد الله بن حميد، عبد الرحمن بن محمد بن ملوح، دار الوسيلة،ط٦،جدة ١٤٣١هـ،٢٠١٠م.

٣٩٢١.موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول، إعداد جمع من المختصين بإشراف: صالح بن عبد الله بن حميد، عبد الرحمن بن محمد بن ملوح، دار الوسيلة، ط٥، جدة، ١٤٢٨هـ،٢٠٠٧م.

٣٩٢٢.موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول، إعداد جمع من المختصين بإشراف: صالح بن عبد الله بن حميد، عبد الرحمن بن محمد بن ملوح، دار الوسيلة، ط٤، جدة.

٣٩٢٣.المُوضَح في وجوه القراءات وعللها، نصر بن علي بن محمد الشيرازي المعروف بابن أبي مريم، ت: الدكتور عمر حمدان الكبيسي، بدون دار نشر، ط١، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

٣٩٢٤. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمود خليل، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢ هـ.

٣٩٢٥. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٩٢٦. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، دار النفائس، ط١٠، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٣٩٢٧. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، ت: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، ط١، أبو ظبي، الإمارات، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٣٩٢٨. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، ت: الدكتور بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٣٩٢٩. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، تحقيق: د. تقي الدين الندوي، دار القلم، ط١، دمشق، ١٤١٣هـ. ١٩٩١م.

٣٩٣٠. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، تصحيح وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٥ م.

٣٩٣١. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، شرح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣٩٣٢. موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، جمال الدين القاسمي، دار الحديث، د، ت.

٣٩٣٣. موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٩٩٥م.

٣٩٣٤. موقف الإسلام من التفرقة العنصرية، محمد الأنصاري، مقال منشور على موقع إسلام نت.

٣٩٣٥. موقف العقل و العلم و العالم من رب العالمين، مصطفى صبري، دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٨م.

٣٩٣٦. موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، شيخ الإسلام للدولة العثمانية مصطفى صبري، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ.

٣٩٣٧. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض

والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٩٩٥م.

٣٩٣٨.ميزان العمل، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، حققه وقدم له: الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، ط١، مصر، ١٩٦٤ هـ.

٣٩٣٩.الميزان في تفسير القرآن، موقع هدى القرآن.

٣٩٤٠.الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٣٩٤١.الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت،١٣٩٣هـ.

٣٩٤٢.الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، منشورات جامعة المدرسية سين بقم، ومؤسسة الأعلمي بيروت.

٣٩٤٣.الميسر عند العرب، أ.د محمود مصطفى، صحيفة دار العلوم، الإصدار الثاني، السنة الثانية، العدد الثاني.

٣٩٤٤.الميسر في القراءات الأربعة عشر، محمد فهد خاروف، مراجعة : محمد كريم راجح، دار القلم الطيب، ط٤، بيروت، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٣٩٤٥.الميسر والأزلام، عبد السلام هارون، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٥٣م.

٣٩٤٦.الميسر والأزلام، عبد السلام هارون، مكتبة السنة، ط٢، القاهرة، ١٩٨٧م.

٣٩٤٧.الميسر والقداح، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، د.ت.

ن

٣٩٤٨.الناسخ والمنسوخ في كتاب الله واختلاف العلماء في ذلك، أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: محمد عبدالسلام، مكتبة الفلاح، ط١،الكويت، ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م.

٣٩٤٩.النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥م.

٣٩٥٠.النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٤٢٩هـ،٢٠٠٨م.

٣٩٥١.النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

٣٩٥٢.النبات في ضوء القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة المطهَّرة، رسالة دكتوراهـ. جواهر محمد باسلوم، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٨هـ.

٣٩٥٣.النبوءة والسياسة، جريس هالسل، ترجمة محمد السماك، دار الشروق،ط٢، القاهرة،٢٠٠٣م.

٣٩٥٤.النبوات، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ،٢٠٠٠م .

٣٩٥٥.نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر، د. لخضر شايب، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢م.

٣٩٥٦.النبوة والأنبياء، الدكتور محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي ط٣، دمشق، ١٤٠٥هـ،١٩٨٥م.

٣٩٥٧.نتائج الأفكار في شرح سيد الاستغفار، دار العصيمي، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

٣٩٥٨.نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم السهيلي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٢هـ.١٩٩٢م.

٣٩٥٩.نثر الدر في المحاضرات، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، ت: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٣٩٦٠.نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، إبراهيم اليازجي، مطبعة المعارف، مصر، ١٩٠٥م.

٣٩٦١.النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، ط١٥، القاهرة.

٣٩٦٢.نحو إنسانية سعيدة، د. محمد المبارك، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٣٨٩ هـ.

٣٩٦٣.نحو تربية مؤمنة، محمد فاضل الحمالي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٧م.

٣٩٦٤.نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، محمد الغزالي، دار نهضة، ط١، مصر.

٣٩٦٥.نحو ثقافة إسلامية أصيلة، عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن.

٣٩٦٦.نحو مجتمع إسلامي، سيد قطب، دار الشروق، مصر .

٣٩٦٧.نحو منهج شرعي في تلقي الأخبار وروايتها، أحمد الصويان، دار السليم، ط١، الرياض، ١٤٢١هـ.

٣٩٦٨.ندوة «الحكمة في تجديد الخطاب الدعوي: الضوابط والمجالات والآثار»، نظمها كرسي سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، لدراسات الحكمة في الدعوة، التي عقدت في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٨، ٩/ ٤/ ١٤٣٥هـ.

٣٩٦٩.ندوة الويبو عن الملكية الفكرية للصحفيين، تنظيم المنظمة العالمية، حسام الصغير، مسقط، ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٤م.

٣٩٧٠.نزل الأبرار، صديق حسن خان، دار الباز للنشر والتوزيع.

٣٩٧١.نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم، دار العباد، بيروت.

٣٩٧٢.نزهة الأبصار في فضائل الأنصار، القاضي أبي بكر عتيق بن الفراء الغساني الأندلسي، دراسة وتحقيق: عبد الرزاق بن محمد مرزوق، مكتبة أضواء السلف، ط١، الرياض، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٣٩٧٣.نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبدالكريم الراضي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م.

٣٩٧٤.نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبدالكريم الراضي، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت،١٩٨٧م.

٣٩٧٥.نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، عبدالرحمن بن الجوزي، دار الكلم الطيب، ط٣، ٢٠٠١م.

٣٩٧٦.نزهة الطرف في علم الصرف، العلامة أحمد بن محمد الميداني، تحقيق ودراسة: د. أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الزهراء، القاهرة.

٣٩٧٧.نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، محمد بن عزيز السجستاني، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩١م.

٣٩٧٨.نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، محمد بن عزيز السجستاني، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٣٨٢هـ، ١٩٦٣م.

٣٩٧٩.نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر

في مصطلح أهل الأثر، الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، ط١، ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.

٣٩٨٠. نزول الرحمة في التحدث بالنعمة، الإمام السيوطي، دار الوفاء، جدة.

٣٩٨١. النسيان والذكر في القرآن، السيد رزق الطويل، مجلة البحوث الإسلامية، العدد١٣، شعبان، رمضان، شوال، ١٤٠٠هـ.

٣٩٨٢. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، المحقق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.

٣٩٨٣. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، تحقيق : علي محمد الضباع، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٩٨٤. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، تحقيق : علي محمد الضباع، تخريج: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٨م.

٣٩٨٥. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، دار الفكر، بدون تاريخ.

٣٩٨٦. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦.

٣٩٨٧. نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، تحقيق: محمد عوامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ط١، جدة، ١٤١٨هـ،١٩٩٧م.

٣٩٨٨. نصب الراية لأحاديث الهداية، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، المكتبة الإسلامية، بيروت، عن طبعة المجلس العلمي بالهند، ١٣٩٥هـ.

٣٩٨٩. النصرانية، محمد رجب الشتيوي، دار الطباعة المحمدية، ط١، القاهرة، ١٩٨٩م،١٤١٠هـ.

٣٩٩٠. النصيحة الكافية، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بالزروق، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، مكتبة الظلال، ط١، الاحساء،١٤١٤هـ. ١٩٩٣م.

٣٩٩١. نصيحة إلى كافة المسلمين والمسلمات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبدالله بن إبراهيم

القرعاوي، الكتيبات الإسلامية، دار العاصمة.

٣٩٩٢.نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، إعداد مجموعة من المتخصصين، مؤسسة الوسيلة للنشر والتوزيع، ط١، جدة، ١٤١٨هـ.

٣٩٩٣.نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، إعداد مجموعة من المتخصصين، مؤسسة الوسيلة للنشر والتوزيع، ط٤، جدة.

٣٩٩٤.نظام الإرث في الإسلام (المقاصد والأركان والشروط والموانع)، موقع الشاملة.

٣٩٩٥.نظام الأسرة في الإسلام، محمد عقلة، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ١٩٨٣م.

٣٩٩٦.نظام الإسلام، الحكم والدولة، محمد المبارك، بيروت، دار الفكر، ١٤٠١هـ.

٣٩٩٧.النظام الاقتصادي في الإسلام، تقي الدين النبهاني، دار الأمة، ط٦، بيروت، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.

٣٩٩٨.النظام الأوروبي لحماية حقوق الإنسان، محمد أمين الميداني، دار البشير، عمان، الأردن، ١٩٨٩م.

٣٩٩٩.نظام التأمين حقيقته والرأي الشرعي فيه، د. مصطفى أحمد الزرقا، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٠٤هـ،١٩٨٤م.

٤٠٠٠.نظام الحكم الإسلامي مقارناً بالنظم المعاصرة، محمود حلمي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٣م.

٤٠٠١.نظام الحكم في الإسلام، عارف أبو عبيد، دار النفائس، الأردن، ١٤١٦هـ،١٩٩٦م.

٤٠٠٢.نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ظافر القاسمي، دار النفائس للطباعة والنشر، ط١، ١٩٧٤م.

٤٠٠٣.نظام السلم والحرب في الإسلام، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠ هـ.

٤٠٠٤.النظام السياسي الإسلامي مقارناً بالدولة القانونية، منير حميد البياتي، دار البشير، ط٢، عمان، ١٩٩٤م.

٤٠٠٥.النظام السياسي في الإسلام، د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن،١٩٨٦م.

٤٠٠٦.النظام السياسي والدستوري في الإسلام، دراسة مقارنة، د. عثمان ضميرية، جامعة الشارقة، ٢٠٠٧م.

٤٠٠٧.نظام الشورى في الإسلام، محمود الخالدي، مكتبة الرسالة الحديثة، ط١، الأردن، ١٩٨٦م.

٤٠٠٨. **نظام الطلاق في الإسلام**، أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، ط٢، ١٩٩٨م.

٤٠٠٩. **النظر ونظائره في القرآن الكريم**، عائشة شامخ جراد، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة غزة، قسم التفسير وعلوم القرآن، ١٤٣٤هـ.٢٠١٣م.

٤٠١٠. **نظرات في التربية الإسلامية دراسات تربوية**، عزالدين وبدر إسماعيل سمرين، دار البشير، ط١،عمان، ١٩٨٥م.

٤٠١١. **نظرات في كتاب الله**، حسن أحمد عبد الرحمن محمد البنا الساعاتي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.

٤٠١٢. **النظريات السياسية الإسلامية**، محمد ضياء الدين الريّس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

٤٠١٣. **نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون**، أبو الأعلى المودودي، الدار السعودية، جدة، ١٩٨٥م.

٤٠١٤. **نظريّة الإغماء بين تناقضات ديدات وسرقات غلام قاديان**، فؤاد عطار، بتاريخ: ٢٥ شعبان ١٤٢٦هـ الموافق ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٥م..

٤٠١٥. **النظرية الإقتصادية في الإسلام**، فكري أحمد نعمان، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.

٤٠١٦. **نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء**، محمد الروكي، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، ط١، الرباط، ١٤١٤هـ.

٤٠١٧. **نظرية الخلافة**، محمد عمارة مصطفى عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٦م.

٤٠١٨. **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**، أحمد الريسوني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٤٠١٩. **نظم الإرث في التوراة والقرآن**، منصور العبادي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٤٠٢٠. **النظم الإسلامية**، حسين الحاج حسن، دار المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨٧م.

٤٠٢١. **نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية**، المستشار علي منصور، بيروت، ١٩٧١م.

٤٠٢٢. **نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور**، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، خرج آياته وأحاديثه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

٤٠٢٣.نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، القاهرة، ١٤١٣هـ.١٩٩٢م.

٤٠٢٤.النَّظْم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذّب، ابن بطّال، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ١٤٠٨هـ.

٤٠٢٥.نعمة الذريعة في نصرة الشريعة، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحَلَبي الحنفي، المحقق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، دار المسير، ط١، الرياض، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٤٠٢٦.نفح الأزهار في منتخبات الأشعار، شاكر بن مغامس البتلوني، المحقق: إبراهيم اليازجي، المطبعة الأدبية، ط٣، بيروت، ١٨٨٦م.

٤٠٢٧.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد بن المقري التلمساني، ت: إحسان عباس، دار صادر، ط٢، بيروت، لبنان،١٩٩٧هـ.

٤٠٢٨.نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد محمد معبد، دار السلام، ط٢، القاهرة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٤٠٢٩.نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز، المكتب الإسلامي، ط٦، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٤٠٣٠.نقض المنطق، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، حقق الأصل المخطوط وصححه: الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة، والشيخ سليمان ابن عبد الرحمن الصنيع، صححه: محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة.

٤٠٣١.النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، أحمد محمد بن علي بن محمد الكَرَجي القصَّاب، تحقيق: علي بن غازي التويجري، إبراهيم بن منصور الجنيدل، شايع بن عبده بن شايع الأسمري، دار القيم، دار ابن عفان، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٤٠٣٢.النكت على كتاب ابن الصلاح، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: ربيع بن هادي المدخلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط١، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م.

٤٠٣٣.النكت في القرآن الكريم(في معاني القرآن الكريم وإعرابه)، علي بن فَضَّال بن علي بن غالب المُجَاشِعِي القيرواني، أبي الحسن، دراسة

وتحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧م.

٤٠٣٤. **النكت والعيون (تفسير الماوردي)**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، راجعه وعلق عليه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٤٠٣٥. **النكت والعيون (تفسير الماوردي)**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، دار الصفوة، ط١، مصر، ١٤١٣ هـ.

٤٠٣٦. **نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد**، أبو العباس البسيلي التونسي، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، الدار البيضاء، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٤٠٣٧. **نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين**، آمال صادق وفؤاد أبو حطب، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، مصر.

٤٠٣٨. **نموذج التميز بين التربية الإسلامية والغربية**، د. ليلى البيومي، مقال منشور في موقع المسلم، بتأريخ: ٢٠/ ٧/ ١٤٢٧هـ.

٤٠٣٩. **نهاية الأرب في فنون الأدب**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٤٠٤٠. **نهاية الأرب في فنون الأدب**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: الباز العريني، الهيئة المصرية للكتاب مصر، ١٤١٢هـ.

٤٠٤١. **نهاية الأرب في فنون الأدب**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة، ط١، مصر، ١٤٢٣هـ.

٤٠٤٢. **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبنانين، ط٢ بيروت، ١٤٠٠ هـ

٤٠٤٣. **نهاية السول شرح منهاج الوصول**، أبو عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعيّ، أبي محمد جمال الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٤٠٤٤. **نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج**، شمس الدين، محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة ابن شهاب الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٤٠٤٥.نهاية المطلب في دراية المذهب، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، حققه وصنع فهارسه: د. عبد العظيم محمود الدّيب، دار المنهاج، ط١، جدة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٤٠٤٦.النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٤٠٤٧.النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ، محمود محمد الطناحي، دار الباز، مكة المكرمة.

٤٠٤٨.النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٠٤٩.النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، خرج أحاديثه وعلق عليه: أبو عبد الرحمن صلاح ابن محمد عويضة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ.

٤٠٥٠.النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، نشره أنصار السنة المحمدية، باكستان.

٤٠٥١.النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، ط١، الرياض، ١٤٢١هـ.

٤٠٥٢.النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، ط١، صيدا، بيروت، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

٤٠٥٣.النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، لبنان، بيروت، ١٤٢٢هـ ،٢٠٠٨م.

٤٠٥٤.النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م.

٤٠٥٥.النهاية في غريب الحديث، ابن

الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المطبعة العثمانية، مصر،١٣١١هـ.

٤٠٥٦. **النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى**، محمد الحمود النجدي، مكتبة الإمام الذهبي، ط٣، الكويت، ١٤٢١هـ.

٤٠٥٧. **النهر الماد من البحر**، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي، والمطبوع على هامش البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، بيروت، ١٩٩٠م.

٤٠٥٨. **نوادر الأصول في أحاديث الرسول** صلى الله عليه وسلم، محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي، المحقق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت،١٩٩٢م.

٤٠٥٩. **النوادر في اللغة**، أبو زيد الأنصاري، دار الشروق، ط١، القاهرة، ١٤٠١هـ. ١٩٨١م.

٤٠٦٠. **نواسخ القرآن**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: أبو عبد الله العاملي السّلفي الداني بن منير آل زهوي، شركه أبناء شريف الأنصاري، ط١، بيروت، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.

٤٠٦١. **نواسخ القرآن**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: محمد أشرف علي المليباري، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط٢، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ،٢٠٠٣م.

٤٠٦٢. **نواسخ القرآن**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٤٠٦٣. **نواهد الأبكار وشوارد الأفكار(حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٥ م.

٤٠٦٤. **نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عبّاس**، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الشهير بابن رجب الحنبلي، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، ط٦، بيروت، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٤٠٦٥. **نُورُ الإِيمان وظلمات النِّفَاق في ضوء الكتاب والسنة**، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير،

الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

٤٠٦٦. **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**، محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري، دار الفيحاء، ط٢، دمشق، ١٤٢٥ هـ.

٤٠٦٧. **النوع الاجتماعي الجندر**، إعداد: سيما عدنان أبو رموز، إشراف د: مصطفى أبو صوي، القدس، فلسطين، ١٤٢٦هـ. ٢٠٠٥م.

٤٠٦٨. **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار**، محمد بن علي الشوكاني، إدارة الطباعة المنيرية، د. ت.

٤٠٦٩. **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار**، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: رائد بن أبي علفة، بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٩م.

٤٠٧٠. **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار**، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، ط١، مصر، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٤٠٧١. **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار**، محمد بن علي الشوكاني، دار السلام، ط١، القاهرة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٤٠٧٢. **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار**، محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩١ هـ.

٤٠٧٣. **نيل المرام من تفسير آيات الأحكام**، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل ، أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.

هـ

٤٠٧٤. **الهادي إلى تفسير غريب القرآن**، محمد سالم محيسن، شعبان محمد إسماعيل، مكتبة جعفر الحديثة، القاهرة، د.ت.

٤٠٧٥. **الهجرة النبوية دراسة وتحليل**، محمد السيد الوكيل، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١٢، العدد الأول، ١٤٠٠هـ.

٤٠٧٦. **الهجرة في القرآن الكريم**، أحزمي سامعون جزولي، مكتبة الرشد، الرياض، سنة ١٤١٧هـ. ١٩٩٦م.

٤٠٧٧. **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار ابن زيدون، ط١، بيروت، لبنان ١٤١٠هـ. ١٩٩٠م.

٤٠٧٨. **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: محمد أحمد الحاج،

دار القلم، دار الشامية، ط١، جدة، السعودية، ١٩٩٦م.

٤٠٧٩. **هداية القاري إلى تجويد كلام الباري**، عبد الفتاح بن السيد عجمي بن السيد العسس المرصفي المصري الشافعي، مكتبة طيبة، ط٢، المدينة المنورة.

٤٠٨٠. **هداية القرآن للتي هي أقوم**، علي بن نايف الشحود، دار المعمور، ط٢، بهانج، ماليزيا، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

٤٠٨١. **الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية(شرح حدود ابن عرفة للرصاع)**، محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع التونسي المالكي، المكتبة العلمية، ط١،بيروت، ١٣٥٠هـ.

٤٠٨٢. **هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة**، الشيخ علي محفوظ، دار الاعتصام، ط٩، ١٣٩٩هـ. ١٩٧٩م.

٤٠٨٣. **الهداية إلى بلوغ النهاية**، مكي بن طالب، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ط١، جامعة الشارقة، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

٤٠٨٤. **الهداية بشرح بداية المبتدي**، علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المرغيناني أبو الحسن، تحقيق: طلال يوسف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٤٠٨٥. **الهداية بشرح بداية المبتدي**، علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المرغيناني أبو الحسن، المطبعة الأزهرية.

٤٠٨٦. **الهداية بشرح بداية المبتدي**، علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المرغيناني أبو الحسن، المكتبة الإسلامية، د. ت.

٤٠٨٧. **هدي النبي صلى الله عليه وسلم في إقامة الأمن والسلام**، محمد سجاد يونس، مقال منشور على شبكة الألوكة بتأريخ ١١/ ٢/ ٢١٠٢م.

٤٠٨٨. **هل الإسلام هو الحل، كيف ولماذا؟**، محمد عمارة، دار الثقافة، ط١، قطر، ١٩٩٠م.

٤٠٨٩. **هل العهد القديم كلمة الله**، منقذ بن محمود السقار، دار الإسلام، ط١، السعودية، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٤٠٩٠. **هَلْ تَخَلَّى اللهُ عَنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ؟**، إعداد: علي بن نايف الشحود، المكتبة الشاملة.

٤٠٩١. **الهم والحزن**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس

البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار السلام، ط١، القاهرة، ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

٤٠٩٢. **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر.

٤٠٩٣. **هيميان الزاد إلى دار المعاد**، محمد بن يوسف طفيش، وزارة التراث، سلطنة عمان، ١٩٨٣م.

و

٤٠٩٤. **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، شمس الدين محمد بن أبى بكر ابن قيم الجوزية، المطبعة السلفية ط٥، ١٤٠٠هـ.

٤٠٩٥. **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن، إشراف: بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد،ط١، مكة المكرمة، ١٤١٥هـ.

٤٠٩٦. **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، دار الجوزي، ط٦، الدمام، المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ.

٤٠٩٧. **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، ط٣، القاهرة، ١٩٩٩م.

٤٠٩٨. **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: إسماعيل الأنصاري، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، د.ت.

٤٠٩٩. **واجبات العمال وحقوقهم في الشريعة الإسلامية مقارنة مع قانون العمل الفلسطيني**، سمير محمد جمعة العواودة، جامعة القدس، ١٤٣١هـ،٢٠١٠م.

٤١٠٠. **الواضح في أصول الفقه**، أبو الوفاء، علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، المحقق: الدكتور عَبد الله بن عَبد المُحسن التركي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٤١٠١. **الواضح في علوم القرآن**، مصطفى البغا، محيى الدين مستو، دار الكلم الطيب، دار العلوم الإنسانية، ط٢،

دمشق، ١٤١٨هـ.

٤١٠٢. **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، اعتناء: هلموت ريتر، دار فراتز شتايز، فيسبادت، ط٢، ١٣٨١هـ، ١٩٦١م.

٤١٠٣. **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٤١٠٤. **الوافي في شرح الشاطبية**، عبد الفتاح عبد الغني القاضي، مكتبة السوادي، ط٥، جدة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٤١٠٥. **وأمرهم شورى بينهم**، عبدالعزيز الخياط، مؤسسة آل البيت المجمع الملكي، الأردن، ١٩٩٣م.

٤١٠٦. **وثيقة المدينة المضمون والدلالة**، أحمد قائد الشعيبي، كتاب الأمة، صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد (١١٠) السنة (٢٥) ذو القعدة، ١٤٢٦هـ.

٤١٠٧. **الوجود والقيمة**، سامي خرطبيل، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠م.

٤١٠٨. **الوجودية فلسفة الواقع الإنساني**، غازي الأحمدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٤م.

٤١٠٩. **وجوه القرآن الكريم**، إسماعيل بن أحمد الضرير الحيري، تحقيق: فاطمة يوسف الخيمي، دار السقاء، ط١، دمشق، ١٩٩٦م.

٤١١٠. **وجوه القرآن الكريم**، إسماعيل بن أحمد الضرير الحيري، تحقيق ودراسة: فضل الرحمن عبد العليم الأفغاني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٤١١١. **الوجوه و النظائر في القرآن الكريم**، مقاتل بن سيمان البلخي، ت : د. حاتم صالح الضامن، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط١، دبي، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٤١١٢. **الوجوه والأشباه والنظائر**، ابن العماد المصري، تحقيق: د. محمد داود وآخر، شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٧٧م.

٤١١٣. **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، تحقيق: د. حاتم بن صالح الضامن، وزارة الثقافة والإعلام، ط١، بغداد، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

٤١١٤. **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، دراسة وموازنة، سليمان بن سالم القرعاوي، مكتبة الرشد، ط١، الرياض، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠هـ.

٤١١٥. الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى محمد العوا، دار الشروق، ط١، مصر، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨م.

٤١١٦. الوجوه والنظائر، أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، القاهرة، ١٤١٢هـ.

٤١١٧. الوجوه والنظائر، أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٦م.

٤١١٨. الوجوه والنظائر، أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: فاطمة يوسف الخيمي، مكتبة الفارابي، ط١، دمشق، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٤١١٩. الوجوه والنظائر، أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٤١٢٠. الوجوه والنظائر، أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: محمد حسن أبو العزم الزفيتي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٤١٢١. الوجوه والنظائر، أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٤١٢٢. الوجيز في النظرية العامة للالتزام، د. عبد المجيد الحكيم، الكتاب الأول، مصادر الالتزام، بغداد، ١٩٧١م.

٤١٢٣. الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، الشيخ الدكتور محمد صدقي بن أحمد بن محمد آل بورنو أبو الحارث الغزي، مؤسسة الرسالة، ط٤، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٤١٢٤. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية، ط١، دمشق، بيروت، ١٤١٥هـ.

٤١٢٥. الوجيز في فقه الإمام الشافعي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: علي معوض، عادل عبد الموجود، شركة دار الأرقم، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٤١٢٦. الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز، عبد العظيم بن بدوي بن محمد، قدم له: فضيلة الشيخ محمد صفوت نور الدين، فضيلة الشيخ،

محمد صفوت الشوادفي، فضيلة الشيخ محمد إبراهيم شقرة، دار ابن رجب، ط٣، مصر، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م.

٤١٢٧. **وحدة الأمة الإسلامية في ضوء السنة النبوية**، دراسة موضوعية، بحث للحصول على درجة الماجستير في الحديث الشريف، أحمد منصور أبو عودة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٣١٠هـ.٢٠٠٩م.

٤١٢٨. **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، د. محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثة والمدني، القاهرة ١٩٧٠م .

٤١٢٩. **وحي القلم**، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية،٢٠٠٢م.

٤١٣٠. **وحي القلم**، مصطفى صادق الرافعي، دار البيان، ١٤١٤هـ .

٤١٣١. **وحي القلم**، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.

٤١٣٢. **وحي القلم**، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.

٤١٣٣. **الوحي المحمدي**، محمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي، دمشق وبيروت، ١٣٩٩هـ.

٤١٣٤. **الوحي والإنسان قراءة معرفية**، محمد السيد الجليند، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

٤١٣٥. **الورع**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد بن حمد الحمود، الدار السلفية، ط١، الكويت، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م.

٤١٣٦. **وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار**، د. عبد الرب نواب الدين آل نواب، موقع وزارة الأوقاف السعودية.

٤١٣٧. **الوسطية في التربية الإسلامية**، دراسة تحليلية ناقدة، الدكتور عبدالله بن محمد علي الزهراني، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، سنة ١٤٢٤هـ٢٠٠٣.

٤١٣٨. **الوسطية في القرآن الكريم**، د. علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٤١٣٩. **الوسطية في ضوء القرآن الكريم**، ناصر بن سليمان العمر، موقع وزارة الأوقاف السعودية، بدون بيانات.

٤١٤٠. **الوسيط في التفسير**، محمد سيد طنطاوي، مطبعة دار السعادة، القاهرة، مصر، ١٩٧٧ م.

٤١٤١. **الوسيط في القانون الدولي العام**، د. جعفر عبد السلام، دار الكتاب

الجامعي، القاهرة، ١٩٨٠م.

٤١٤٢. **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود وعلي معوض وغيرهم، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٤١٤٣. **الوسيط في شرح القانون المدني**، د. عبد الرزاق السنهوري، القاهرة، ١٩٥٠م.

٤١٤٤. **الوسيط في قانون السلام**، د. محمد طلعت الغنيمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٥م.

٤١٤٥. **الوصية**، أحمد الزومان، موقع الألوكة.

٤١٤٦. **وضع الربا في البناء الاقتصادي**، دار الاعتصام، ١٩٧٧م.

٤١٤٧. **وظيفة الصورة الفنية في القرآن**، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، ط١، حلب، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٤١٤٨. **الوعد الأخروي شروطه موانعه**، د عيسى بن عبد الله السعدي، عالم الفوائد، ط١، مكة المكرمة، ١٤٢٢هـ.

٤١٤٩. **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، أبو الحسن علي بن عبد الله نور الدين السمهودي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٩ هـ.

٤١٥٠. **الوفاء بالعهود والمواثيق في الشريعة الاسلامية**، عبدالله محمد الحجيلي، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، ط١، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٦م.

٤١٥١. **الوفاء بالوعد**، د. إبراهيم فاضل الدبو، جامعة بغداد، بدون ذكر بيانات النشر.

٤١٥٢. **الوفاء في ضوء القرآن الكريم – دراسة موضوعية**، وفاء حيدر شقورة، بحث تكميلي للماجستير في التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م

٤١٥٣. **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م.

٤١٥٤. **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.

٤١٥٥. **وقفات تربوية في ضوء الكتاب والسنة**، د. عبد العزيز بن ناصر الجليل، الشبكة المعلوماتية.

٤١٥٦. وقفة مع بعض الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم، الدكتور وجيه حمد عبد الرحمن.

٤١٥٧. ولا تقربوا الفواحش، جمال بن عبد الرحمن إسماعيل.

٤١٥٨. الولاء والبراء بين الغلو والجفاء في ضوء الكتاب والسنة، حاتم العوني، موقع وزارة الأوقاف السعودية، بدون بيانات.

٤١٥٩. الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، تقديم: الشيخ عبد الرزاق عفيفي، دار طيبة، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٤١٦٠. الولاء والبراء في الإسلام، أبو عاصم الشحات شعبان محمود عبد القادر البركاتي المصري، دار الدعوة الإسلامية، ط١، ١٤٣٣ هـ، ٢٠١٢ م.

٤١٦١. الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار الرشاد، ١٤٠٢ هـ.

٤١٦٢. ولاية الله والطريق إليها، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، المحقق: إبراهيم هلال، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر.

٤١٦٣. ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، عبد العزيز بن ناصر الجليّل، دار طيبة، ط٣، الرياض، ١٤٣٠هـ.

٤١٦٤. وليتبروا ما علوا تتبيرا، الدكتور عمر سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، ٢٠١٠م.

٤١٦٥. الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد محمد علي الغيلي، موقع رحى الحرف، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٤م.

٤١٦٦. الوهن كما حددته السنة وأثره في تخلف الأمة، هاني طعيمات، المؤتمر العلمي الخامس لكلية الشريعة بجامعة جرش، الأردن، ١٤٢٤هـ،٢٠٠٢م.

٤١٦٧. ويسألونك عن ذي القرنين، أبو الكلام أزاد، دار الشعب، القاهرة .

ي

٤١٦٨. ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزاهد المطرز البارودي، المعروف بغلام ثعلب، حققه وقدم له: محمد بن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، ط١، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٤١٦٩. يتيمة الدهر، الثعالبي، ت: د. مفيد

قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

٤١٧٠. **يسألونك في الدين والحياة**، د. أحمد الشرباصي، دار الجيل، ط ٤، بيروت، ١٩٨٠ م.

٤١٧١. **اليسر والسماحة في الإسلام**، د. فالح بن محمد الصغير، بحث مقدم لمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام عن الإرهاب، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٥هـ.

٤١٧٢. **يُغشي اللَّيل النَّهار**، د: نظمي خليل موسى، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة.

٤١٧٣. **اليقين**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: ياسين محمد السورس، دار البشائر الإسلامية، بيروت، د ت.

٤١٧٤. **اليهود انثروبولوجيا**، د. جمال حمدان، دار الهلال، ١٩٩٦م.

٤١٧٥. **اليهود في القرآن الكريم**، محمد عزة دروزة، المكتب الإسلامي، صيدا، ١٩٦٦م.

٤١٧٦. **اليهود في القرآن والسنة**، محمد أديب الصالح، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط١، الرياض،١٩٩٣م.

٤١٧٧. **اليهود في القرآن**، السيد سابق، الفتح للإعلام العربي، ط٤، القاهرة،١٩٩٤م.

٤١٧٨. **اليهود وجذور التسميات**، عيسى القدومي، على الشبكة العنكبوتية الانترنت.

٤١٧٩. **اليهود**، زهدي الفاتح، دار النفائس، ط١، بيروت،١٩٧٢م.

٤١٨٠. **اليهودية والماسونية**، عبدالرحمن الدوسري، دار السنة، ط١، الخبر، ١٩٩٤م.

٤١٨١. **اليهودية**، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط٨، القاهرة، ١٩٨٨م.

٤١٨٢. **يوم الفزع الأكبر**، الإمام القرطبي، محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٥م.

٤١٨٣. **يوم القيامة ومشاهده في الكتاب والسنة**، د. دوخي الحارثي، دار الطرفين، الطائف، ١٤٣٤هـ.